

تَفْسِيرٌ

الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ

لِلْحَافِظِ

أَبِي الْفِدَاءِ إِبْرَاهِيمَ بْنَ عُثْمَانَ بْنِ كَثِيرٍ الْقُرَشِيِّ الدَّمَشَقِيِّ

(٧٠١-٧٧٤ هـ)

طَبْعَةٌ جَدِيدَةٌ مُنْقَحَةٌ وَمُزَيَّنَةٌ

تَمَّ فِيهَا اسْتِدْرَاجُ السَّقَطِ الْهَاضِلِ فِي الطَّبَعَاتِ السَّابِقَةِ
وَمُتَّزِنُ الْآيَاتِ الَّتِي تَعْلَوُهَا بِالتَّفْسِيرِ بِمَوْتِ أَحْمَرَ
مُنْصَبَّةٌ بِرِسْمِ الصَّوْفِ الشَّرِيفِ



دَارُ ابْنِ حَزَمٍ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِلْحَافِظِ
أَبِي الْفِدَاءِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عُمَرَ بْنِ كَثِيرٍ الْقُرَشِيِّ الدَّمَشْقِيِّ
(٧٠١ - ٧٧٤ هـ)

طَبْعَةٌ عَرَبِيَّةٌ مُنْقَحَةٌ وَمُزَيَّنَةٌ
تَمَّ فِيهَا اسْتِدْرَاكُ السَّقَطِ الْخَاطِلِ فِي الطَّبَعَاتِ السَّابِقَةِ
وَمَيَّزْنَا الْآيَاتِ الَّتِي تَعْلَقُ بِالتَّفْسِيرِ بِلَوْنٍ أَحْمَرَ
مُنْضَبِطَةً بِرُشْمِ الصَّخْفِ الشَّرِيفِ

دار ابن حزم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٠م - ٢٠٠٠م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن خزيمة للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص ٦٣٦٦ / ١٤ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

أبو الفداء بن كثير^(١)

٧٠١ - ٧٧٤ هـ

١٣٠٢ - ١٣٧٣ م

حياته:

ولد الحافظ ابن كثير في مفتتح القرن الثامن الهجري، قال في البداية وهو يذكر أحداث سنة ٧٠١: «وفيها وُلِدَ كاتبه إسماعيل بن عَمَر بن كثير القُرَشِيُّ البُصْرِيُّ الشافعي، عفا الله عنه». وكان مولده في «مُجَيْدِلَ القرية» التابعة لِبُصْرَى الشام، وهي قرية والدته مَرْيَم بنتُ فَرْج بن علي، وكان والده قد أسند إليه الخطابة بها، «فأقام بها مُدَّةً طويلة في خَيْرٍ وكفاية وتلاوة كثيرة». وقد حدثنا ابن كثير عن نَسَبه وبعض أخباره وهو يذكر وفاة والده سنة ٧٠٣ فقال: «وفيها تُوفِّيَ الوالد وهو الخطيب شهاب الدين أبو حَفْص عَمَر بن كثير بن ضَوْ بن دُزَع القُرَشِيُّ، من بني حَصلة، وهم ينتسبون إلى الشرف، وبأيديهم نَسَبٌ، وقف على بعضها شيخنا المُرْزِي فأعجبه ذلك وابتهج به، فصار يكتب في نَسَبِي بِسَبَبِ ذلك: «القُرَشِيُّ». ثم يذكر أن الأسرة انتقلت بعد ذلك إلى دمشق صُحْبَةً شَقِيقِهِ عبد الوهاب سنة ٧٠٧ هـ، يقول ابن كثير: «وقد كان لنا شقيقاً، وبنا رفيقاً شفوفاً. وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمسين، فاشتغلت على يديه في العلم، فَيَسَّرَ الله تعالى منه ما يَسَّرَ، وسَهَّلَ منه ما تَعَسَّرَ».

وفي دمشق لَقِيَ ابنُ كَثِيرٍ عالماً من الشيوخ، وكانت دمشق آنذاك مركزاً أصيلاً من مراكز العلم في العالم الإسلامي، كانت تحفلُ بدور القرآن، ومعاهد العلم من المدارس والمساجد، ولقد أفاد ابن كثير من لقاء أعلام عصره، وكان أعظمُ شيوخه أثراً في حياته واتجاهه شيخه الحافظ أبا الحجاج المُرْزِي، الذي أضرَّه إليه، وتزوَّج ابنته زينب، وكان لصحبته له وقْرٌ به منه أثر واضح في مؤلفاته. هذا ولم يمض وقت حتى صار عالماً من أعلام دمشق، وأقبل عليه الطلبة، ثم تولى كما قال النُّعَيْمي مشيخة أم الصالح بعد موت شيخه الذهبي (٧٤٨ هـ)، ومشيخة دار الحديث الأشرفية بعد وفاة شيخها تقي الدين السبكي (٦٨٣ - ٧٥٦ هـ)، وكان ذلك لمدَّةٍ يسيرة، ثم أُخِذَتْ منه.

هذا ولابن كثير أربعة من الولد: عَمَر (ت ٧٨٣)، وأحمد (ت ٧٦٥ - ٨٠١)، ومحمد (٧٥٩ - ٨١٣ هـ)، وعبد الوهاب (ت ٧٦٧ - ٨٤٠)، ترجم للثلاثة الأول ابنُ حَجَرٍ في إنباء الغُمر ٧٥/٢، ٣٩٩/٤، ٣٢١ - ٣٢٢، وترجم السخاوي في الضوء اللامع للثلاثة الآخر في ٢٤٣/١، ١٣٨/٧، ٩٨/٥. ولم يكن لأحمد شأنٌ في العلم، فأما الآخرون فكانت لهم سماعات، ورُوي عنهم. وعلّق محمد تاريخاً للحوادث التي كانت في زمنه.

أما عن عقيدته فقد ذكروا أنه كان صحيح الدين، سلفي العقيدة، ولعل ذلك من آثار صحبته المتقدمة لشيخه أبي العباس أحمد بن تيمية، وملازمته لشيخه وصهره أبي الحجاج المُرْزِي، ولغير هذين الشيخين، حتى عُرِفَ بذلك. على أنه قد جَرَى بينه وبين برهان الدين ابن الشيخ شمس الدين المعروف بابن القيم (٧١٩ - ٧٦٧ هـ) ما حكاه النُّعَيْمي بقوله: «وكانت له أجوبة مسكتة، وقد وقع بينه وبين ابن كثير في بعض المحافل، فقال ابن كثير: أنت تكرهني لأنني أشعري. فقال له: لو كان في رأسك إلى قَدَمِكَ شعر ما صَدَلْتُك الناس أنك أشعري». (الدارس ٨٩/١). ويتبغي أن يُفْهَمَ كلام ابن كثير على أنه ليس اعترافاً منه بأنه أشعري، وإنما على معنى: أنني لا أجد سبباً يحملك على كراهيتي إلا أن تكون قد ظننتني أشعرياً! فقال له برهان الدين: ومن يظن ذلك بك؟!

وأما عن مذهبه في الفروع فكان شافعي المذهب، وسيتبين ذلك عند الحديث عن مصنفاته.

(١) مصادر ترجمته: البداية والنهاية لابن كثير، وشدرات الذهب لابن العماد ٢٣١/٦ - ٢٣٢، والدرر الكامنة لابن حجر ٣٧٣/١ - ٣٧٤، وإنباء الغُمرِ بأبناء الغُمرِ له ٤٥/١ - ٤٧، والبدر الطالع للشوكاني ١٥٣/١، وذيل تذكرة الحفاظ لأبي المحاسن الحسيني ٥٧ - ٥٨، وطبقات الحفاظ للسيوطي ٥٣٠، والدارس في تاريخ المدارس للنُّعَيْمي ٣٦/١ - ٣٧، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ١٢٣/١ - ١٢٤.

هذا وقد ذكروا أنه كان ينظم الشعر، وهو القائل:

تَمُرُّ بِنَا الأَيَّامُ تَبْثُرِي وَإِنَّمَا
فَلَا عَائِدُ ذَاكَ الشَّبَابُ الَّذِي مَضَى

وقد وافاه الأجل - رحمه الله - في شعبان سنة ٧٧٤هـ، ودُفِنَ بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية. ورثاه بعض طلبته بقوله:
لَقَفْتُكَ طَلَابُ الْمَعْلُومِ تَأَسَّفُوا
وَلَوْ مَرَجُّوا مَاءَ الْمَدَامِ بِالْمَدَامِ
رحمه الله رحمةً واسعة.

شيوخه:

غلب على ابن كثير علم الحديث، فقد لقي شيوخه، ودارت عليها مصنفاته فطُبِعَتْ بطابع المحدث وإن كانت في التفسير أو الفقه، كما سَنِيَتْهُ ونحن نعرض كتبه ورسائله، وقد وصفه ابن حجر تلميذه فقال: «كان أحفظ من أدرناه لمتون الأحاديث، وأعرفهم بتخريجها ورجالها، وصحيحها، وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك. وكان يستحضر شيئاً كثيراً من [التفسير] والتاريخ، قليل النسيان. وكان فقيهاً جيد الفهم، صحيح الدين، ويحيي الليل إلى آخر وقت، ويشارك في العربية مشاركة جيدة، ونظم الشعر، وما أعرف أنني اجتمعت به، على كثرة تَرَدُّدي إليه، إلا وأخذت منه».

وسوف نذكر هؤلاء الشيوخ مرتبتين حسب وفياتهم:

- ١ - أبو يحيى زكريا بن يوسف بن سليمان بن حماد البجلي الشافعي نائب الخطابة ومُدْرَس الطيبة والأسدية. قال ابن كثير: «بقيّة السلف، وله حَلْفَةٌ للاشتغال بالجامع الأموي يحضر بها عنده الطلبة. وكان يشتغل بالفرائض وغيرها». توفي في الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة ٧٢٢هـ.
- ٢ - أبو نصر محمد بن محمد بن ميميل (٦٢٩ - ٧٢٣)، قال ابن كثير: «سمع الكثير، وأسمع وأفاد».
- ٣ - أبو محمد القاسم بن عساكر (٦٢٩ - ٧٢٣هـ)، قال ابن كثير: «شيخنا الجليل المَعْمَرُ الرُّخْلَةُ». سمع منه بدمشق.
- ٤ - أبو زكريا يحيى بن الفاضل (٦٤٥ - ٧٢٤هـ)، قال ابن كثير: «سمع كثيراً وخَرَجَ له الذهبي شيئاً، وسمعنا عليه الدارقطني وغيره».
- ٥ - محمد بن عَمَر بن عثمان بن عُمَر الصُّقْلِي ثم الدمشقي (ت ٧٢٥هـ)، قال ابن كثير: آخر من حَدَّثَ عن ابن الصلاح ببعض سُنَنِ البَيْهَقِيِّ، سمعنا عليه شيئاً منها.
- ٦ - إسحق بن يحيى الآمدي (٦٤٠ - ٧٢٥هـ). قال ابن كثير كما في الدارس في تاريخ المدارس: «شيخنا المَعْمَرُ المسند الرُّخْلَةُ». سمع منه بدمشق.
- ٧ - أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي الهيجاء، المعروف بابن الزُّرَّاد سمع منه بدمشق.
- ٨ - أبو محمد عبدالوهاب بن دُوَيْب، ابن قاضي شَهْبَةَ (٦٥٣ - ٧٢٦)، قال التُّعَيْمِيُّ: «وتفقه على كمال الدين ابن قاضي شَهْبَةَ».
- ٩ - شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبدالحليم، ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨)، صَرَّحَ ابن كثير بأخذه عنه في البداية ١١٤/١٤، وقال ابن قاضي شَهْبَةَ في طبقاته: «كانت له خُصُوصِيَّةٌ بابن تيمية ومناضلة عنه، وأتباع له في آرائه».
- ١٠ - أبو إسحق إبراهيم بن عبدالرحمن الفَرَّازِي برهان الدين المعروف بالفركاح (٦٦٠ - ٧٢٩) قال ابن كثير: «سمعنا عليه صحيح مسلم وغيره»، وقال: «لم أَرِ شافعياً من مشايخنا مثله». وقال التُّعَيْمِيُّ: «وتفقه على الشيخ برهان الدين الفَرَّازِي».
- ١١ - أبو يعلى حمزة بن أبي المعالي أسعد بن المظفر القَلَّاسِي (٦٤٩ - ٧٢٩هـ)، قال ابن كثير: «وسمع الحديث من جماعة ورواه وسمعنا عليه».
- ١٢ - أبو عبدالله محمد بن أبي الحسن بن حُسَيْن بن غيلان البعلبكي (ت ٧٣٠)، قال ابن كثير: «شيخنا الصالح العابد الناسك الخاشع، سمع الحديث وأسمعه، وعليه ختمت القرآن في سنة إحدى عشرة وسبعائة».
- ١٣ - أبو العباس أحمد بن أبي طالب، الحجار، المعروف بابن الشحنة، قال ابن كثير: «سمعنا عليه بدار الحديث الأشرقيّة

نحواً من خمسمائة جزء بالإجازات والسماع».

١٤ - مؤرخ الشام أبو محمد بن محمد البرزالي (٦٦٥ - ٧٣٩هـ). ذكر ابن كثير في آخر حوادث ٧٢٨هـ مشيخته له، وأنه دُيِّل على تاريخه.

١٥ - الحافظ الكبير أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبدالرحمن بن يوسف الجوزي (٦٥٤ - ٧٤٢هـ). لازم ابن كثير الحافظ الجوزي، وسمع عليه أكثر تصانيفه، وبه انتفع وتخرَّج. وتزوج ابنته، وقد كان الجوزي حياً عندما أَلَّف ابن كثير تأليفه، قال عند تفسير الآية ١٠٤ من سورة الأنبياء تعقيباً على حديث: «وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه، منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج الجوزي، فسح الله في عمره، ونَسَأ في أجله، وحَتَم له بصالح عمله».

١٦ - الحافظ الكبير مؤرخ الإسلام أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٦٧٣ - ٧٤٨هـ)، قرأ عليه ابن كثير، وقال: «وقد ختم به شيخو الحديث وحُفَظَ». روى عنه في موضعين من تفسيره، عند آية النساء ١٦٥، وفي مقدمة سورة الصف.

١٧ - محمود بن عبدالرحمن الأصفهاني (٦٧٤ - ٧٤٩هـ)، قال التميمي: «وقرأ الأصول على الشيخ الأصفهاني». هؤلاء بعض شيوخه، وقد أجاز له بمصر أبو موسى القرافي، والحسيني، وأبو الفتح الدبوسي، وعلي بن عمر الواني، ويوسف الخثني.

تلاميذه:

أما تلاميذه فكثيرون، ويمكن لمن أراد أن يتعرفهم الرجوع إلى أنباء الغمر، والدُرر الكامنة لابن حجر، والضوء اللامع للسخاوي.

مؤلفاته:

١ - تفسير القرآن العظيم: وهو كتابنا هذا.

٢ - البداية والنهاية: وقد صدره ابن كثير بالحديث عن منهجه بقوله: «هذا كتاب أذكر فيه بعون الله وحُسن توفيقه ما يَسِّرُه الله تعالى بحوله وقُوته من ذكر مبدأ المخلوقات، من خَلَقَ العَرْشَ والكرسيَّ والسموات والأرضين، وما فيهنَّ من الملائكة والجانَّ والشياطين، وكيفية خلق آدم عليه السلام، وقصص النبيين، وما جرى مجرى ذلك إلى أيام بني إسرائيل، وأيام الجاهلية حتى تنتهي النبوة إلى أيام نبينا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - فنذكر سيرته كما ينبغي... ثم نذكر ما بعد ذلك إلى زماننا. ونذكر الفتن والملاحم وأشرار الساعة، ثم البيعت... ثم صفة النار، ثم صفة الجنان. وما وُرد في ذلك من الكتاب والسنة والآثار والأخبار المنقولة عن العلماء وورثة الأنبياء».

مضى ابن كثير على هذا النهج إلا ما كان من حديث الفتن والملاحم وأشرار الساعة والبعث الجنة والنار فقد طبع مستقلاً تحت عنوان: النهاية، وكان قد توقف عن سَرْد الأحداث عند سنة ٧٦٧هـ، أي قبل وفاته بسبع سنين. وقد نقل صاحب كشف الظنون عن ابن شهبة قوله عن هذا الكتاب: «وهو ممن جمع بين الحوادث والوفيات، وأجود ما فيه السيرة النبوية. وقد أُخِلَّ بذكر خلائق من العلماء والمشهور أن تاريخه انتهى إلى آخر سنة ٧٣٨هـ، وهو آخر ما لخصه من تاريخ البرزالي، وكتب حوادث إلى قبل وفاته بستين». كذا قال ابن شهبة، والذي بين أيدينا إلى ما قبل الوفاة بسبع سنين. وقد اعترف ابن كثير بإفادته من تاريخ البرزالي، ويقول في أواخر سنة ٧٣٨هـ: «وما آخر ما أرَّخه شيخنا الحافظ علم الدين البرزالي في كتابه الذي دُيِّل به على تاريخ الشيخ شهاب الدين أبي شامة المقدسي. وقد دُيِّل على تاريخه إلى زماننا هذا. وكان فراغي من الانتقاء من تاريخه في يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة، من سنة إحدى وخمسين وسبعمئة إلى زماننا هذا».

٣ - الكواكب الدراري: قال في كشف الظنون: «انتخبه من تاريخه الكبير» ولم نطلع عليه.

٤ - كتاب السيرة المطول: أحال عليه ابن كثير عند تفسير الآية العاشرة من سورة الجن، والآية ٧٩ من سورة الإسراء.

٥ - اختصار السيرة النبوية.

٦ - سيرة أبي بكر رضي الله عنه: قال في البداية ١٨/٧: «وقد ذكرنا ترجمة الصديق - رضي الله عنه - وسيرته وأيامه، وما رَوَى من الأحاديث، وما رَوَى عنه من الأحكام في مجلد، والله الحمد والمنة». ولم يُقَفَّ عليه.

٧ - سيرة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - المفردة: ذكرها ابن كثير في آخر تفسير الآية ٤٣ من سورة الحاقة.

- ٨ - مسند الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما: ذكره السيوطي في طبقات الحفاظ. وحققه الدكتور مطر أحمد ناصر الزهراني في رسالته التي نال بها درجة الدكتوراة من جامعة أم القرى، وبين أنه جزء من «جامع المسانيد» إلا أنه أفرد بالتصنيف، وعنوانه: مسند الفاروق عمر بن الخطاب.
- ٩ - طبقات الفقهاء الشافعيين: ذكره في البداية ٢٦٢/١٠، وهو يتحدث عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي.
- ١٠ - الواضح النفيس في مناقب ابن إدريس: ذكره في كشف الظنون. ولعله ما ذكره أول طبقات الفقهاء الشافعيين.
- ١١ - شرح التنبيه: التنبيه في فقه الشافعية لأبي إسحق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي (ت ٤٧٦هـ). وقد ذكره ابن كثير فقال في البداية ١٣٣/١٢: «وقد ذكرت ترجمته مستقصاة في أول شرح التنبيه».
- ١٢ - تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب: ذكره السيوطي في طبقات الحفاظ، وقال ابن كثير في البداية ١٨٨/١٣: «ومختصره في الفقه من أحسن المختصرات، انتظم فيه فوائد ابن شاش. ومختصره في أصول الفقه استوعب فيه عامة فوائد الأحكام لسيف الدين الأمدى. وقد من الله تعالى علي بحفظه، وجمعت كرايس في الكلام على ما أودعه فيه من الأحاديث النبوية والله الحمد».
- ١٣ - اختصار علوم الحديث: ذكره حاجي خليفة، وقال إن ابن كثير اختصر فيه علوم الحديث لابن الصلاح، وأضاف إلى ذلك الفوائد الملتقطة من المدخل إلى كتاب السنن، كلاهما للبيهقي وقد طبع غير مرة. وشرحه الأستاذ الشيخ أحمد شاكر، ونشره بعنوان: الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث.
- ١٤ - جامع المسانيد: قال حاجي خليفة: «وهو كتاب عظيم جمع فيه أحاديث الكتب العشرة في أصول الإسلام، أعني السنة والمسانيد الأربعة».
- هذا ومُعْجَمُ المسانيد مُرتَّب على مسانيد الصحابة وهؤلاء مُرتَّبون على حروف المعجم.
- ١٥ - التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل: كذا ذكره ابن كثير في جامع المسانيد ٦٠/١، وقال: «في عدة عشر مُجلَّدات هو كالمقدمة بين كتابي هذا». وقد ذكره في البداية ٧٠/١١.
- ١٦ - الأحكام الصغرى في الحديث: كذا ذكره حاجي خليفة.
- ١٧ - الأحكام الكبرى: ذكره ابن كثير مراراً، ومنها عند تفسير الآية الرابعة من سورة القتال، وفي مقدمة سورة تفسير سورة الملك، وأشار إليه في مقدمة جامع المسانيد.
- ١٨ - شرح صحيح البخاري: أحال عليه ابن كثير مراراً في تفسيره، انظر تفسير الآية ٢٢ من سورة الأحزاب، ٤٩ من سورة القمر، ٧ من سورة الحديد، ١١ من سورة المجادلة، والثانية من سورة الصف.
- ١٩ - المقدمات: ذكره ابن كثير عند تفسير الآية ٨٥ من سورة مريم وقال في الباعث الحثيث ٤٦ عن حديثه عن المرسل: «وقد أشبعنا الكلام في ذلك في كتابنا المقدمات».
- ٢٠ - الاجتهاد في طلب الجهاد: قال حاجي خليفة: «كتبها للأمير منجك لما حاصر الفرنج قلعة إياس». وقد طبع في سنة ١٣٤٧هـ، وصدر في نشرة محققة للدكتور عبدالله العسيلان.
- ٢١ - سيرة منكلي بغا: قال السخاوي في الإعلان بالتوبيخ ٥٤٤: «وللعمام ابن كثير سيرة منكلي بغا».
- ٢٢ - مسألة في السماع، سماع الغناء بالألحان: ذكرها حاجي خليفة ١٠٠٢/٢.
- ٢٣ - مولد رسول الله ﷺ: وهو رسالة صغيرة نشرها الدكتور صلاح الدين المنجد، عن مخطوطة ضمن مجموع في مكتبة برنستن بالولايات المتحدة الأمريكية.
- ٢٤ - أحاديث التوحيد والردة على الشرك: ذكره بروكلمان ٤٨/٢، وأنه طبع في دلهي سنة ١٢٩٧.
- ٢٥ - كتاب العقائد: وهو مخطوط بمكتبة جامعة الملك عبدالعزيز.
- ٢٦ - كتاب في الصيام: ذكره عند تفسير الآية ١٨٤، ١٨٧ من سورة البقرة.

فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم، وأسود وأحمر، وإنس وجان، فهو نذير له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ، مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلْثَمَ غَاسِقَهُ﴾ [معد: ١٧]. فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده، بنص الله تعالى، وكما قال تعالى: ﴿قَدْ زَيَّنَّ وَنَزَّ كَذِبٌ يَدُ الْيُودِيِّ سَتَجِدُهُمْ يَنْ حَيْثُ لَا يَحْكُمُونَ﴾ [النمل: ٤٤، ٤٥]. وقال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ». قال مجاهد: يعني: الإنس والجن. فهو، صلوات الله وسلامه عليه، رسول الله إلى جميع الثقيلين: الإنس والجن، مُبْلَغًا لهم عن الله ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه نذبههم إلى تفهمه، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ أَرْزَلُهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا يَنْزِيلًا يَنْتَظِرُونَ، وَلَيَذَّكَّرُنَّ أُولُوا الْأَلْبَانِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]. فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلم ذلك وتعليمه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُونُ بَشَرًا فَقَدُوا ذِكْرًا تُلَوِّحُوهُمْ بِهٖ فَتَسْمِعُونَ أَوْ لَعَنَ اللَّهُ مَنَّا قَلِيلًا فَنَسُوا مَا بَيَّنَّنَا﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ يَهْدِي اللَّهُ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَن تَزِيدَهُم مِّنَّا قَلِيلًا أُوتِيتُمُ اللَّحْمَ فِي الْأَخْيَرِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْفِتْنَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧]. فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله إليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله. فعلينا - أيها المسلمون - أن ننتهي عما ذمهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به، من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهمه وتفهميه، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَالرَّسُولَ لَا يُخْذَلُوا وَمَنْ يَتَوَلَّ يَأْخُذْ اللَّهُ بِغُلُوبِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْهَاسِلِينَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وَكَبِيرٌ مِنْهُمْ فَتُفَوَّتَ ﴿١٦﴾ أَتَلَمَوْا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ [الحديد: ١٦، ١٧]. ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها، كذلك يلين القلوب بالإيمان بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي، والله المؤمل المسؤول أن يفعل بنا ذلك، إنه جواد كريم.

فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يُفسَّر القرآن بالقرآن، فما أُجِبل في مكان فإنه قد فُسر في موضع آخر، فإن أعيانك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، رحمه الله: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِصَحِّحِ بَيِّنَاتٍ لِنَاسٍ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا يُبَيِّنَ لِقَوْمٍ أَهْلُوا بِهِ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ١٦٤]. ولهذا قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه» يعني: السنة. والسنة أيضاً تنزل عليه بالوحي، كما ينزل القرآن؛ إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن، وقد استدل الإمام الشافعي، رحمه الله، وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك.

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة، كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «بم تحكم؟». قال: بكتاب الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: بسنة رسول الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: أجتهد برأيي. قال: فضرب رسول الله ﷺ في صدره، وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله». وهذا الحديث في المساند والسنن بإسناد جيد، كما هو مقرر في موضعه. وحينئذ، إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدركوا بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبرائهم، كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبد الله بن مسعود، رضي الله عنه.

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا جابر بن نوح، حدثنا الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، قال: قال عبد الله - يعني ابن مسعود -: والذي لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت؟ وأين نزلت؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته. وقال الأعمش أيضاً، عن أبي وائل، عن ابن مسعود قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئونا أنهم كانوا يستقروثون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً. ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس، ابن عم رسول الله ﷺ، وترجمان القرآن وبركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل». وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن مسلم قال: قال عبد الله - يعني ابن مسعود -: نعم ترجمان القرآن ابن عباس. ثم رواه عن يحيى بن داود، عن إسحاق الأزرق، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم بن ضُبَيْح أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود أنه قال: نعم ترجمان للقرآن ابن عباس. ثم رواه عن بُنْدَار، عن جعفر بن عَوْز، عن الأعمش، به كذلك. فهذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود، أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة. وقد مات ابن مسعود، رضي الله عنه، في سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح، وعُمر بعده ابن عباس ستاً وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود؟ وقال الأعمش عن أبي وائل: استخلف علي بن عبد الله بن عباس على الموسم، فخطب الناس، فقرأ في خطبته سورة البقرة، وفي رواية: سورة النور، ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا. ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره، عن هذين الرجلين: عبد الله بن مسعود وابن عباس، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب، التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: «بلغوا عني ولو آية»، وحذّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» رواه البخاري عن عبد الله؛ ولهذا كان عبد الله بن عمرو يوم اليرموك قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك.

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجاوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني؛ ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيراً، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعذتهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت؟ وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم. ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِيَّتُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تَحَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظُهُورًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ٢٢﴾ [الكهف: ٢٢]، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث، فدل على صحته إذ لو كان باطلاً لردّه كما ردّه، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فقال في مثل هذا: ﴿قُلْ رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾، فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس، ممن أطلعه الله عليه؛ فلماذا قال: ﴿فَلَا تَحَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظُهُورًا﴾ أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب. فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام، وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم. فأما من حكى خلافاً في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه. أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضاً. فإن صحح غير الصحيح عامداً فقد تعمد الكذب، أو جاهلاً فقد أخطأ، وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالاً متعددة لفظاً ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معني، فقد ضيع الزمان، وتكثر بما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبي زور، والله الموفق للصواب. قال سفيان بن عيينة عن عبد الله بن أبي يزيد: كان ابن عباس إذا سئل عن الآية في القرآن قال به، فإن لم يكن وكان عن رسول الله ﷺ أخبر به، فإن لم يكن فعن أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، فإن لم يكن اجتهد برأيه.

فصل

إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر، فإنه كان آية في التفسير، كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح، عن مجاهد، قال: عَرَضْتُ المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا طَلْقُ بْنُ غَنَامٍ، عن عثمان المكي، عن ابن أبي مُثَيْبَةَ قال: رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواح، قال: فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سألته عن التفسير كله. ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. وكسعيد بن جُبَيْر، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في اللفاظ، يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً، وليس كذلك، فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن، فليتفظن اللبيب لذلك، والله الهادي.

وقال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني: أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك. فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام، لما رواه محمد بن جرير، رحمه الله، حيث قال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا سفيان، حدثني عبد الأعلى، هو ابن عامر الثعلبي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «من قال في القرآن برأيه، أو بما لا يعلم، فليتبوأ مقعده من النار». وهكذا أخرجه الترمذي والنسائي، من طرق، عن سفيان الثوري، به. ورواه أبو داود، عن مُسَدَّد، عن أبي عَوَّانة، عن عبد الأعلى، به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وهكذا رواه ابن جرير - أيضاً - عن يحيى بن طلحة اليربوعي، عن شريك، عن عبد الأعلى، به مرفوعاً. ولكن رواه محمد بن حميد، عن الحكم بن بشير، عن عمرو بن قيس الملائي، عن عبد الأعلى، عن سعيد، عن ابن عباس، فوقفه. وعن محمد بن حميد، عن جرير، عن ليث، عن بكر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس من قوله، فإله أعلم. وقال ابن جرير: حدثنا العباس بن عبد العظيم الغنوي، حدثنا حبان بن هلال، حدثنا سهيل أخو حزم، حدثنا أبو عمران الجوني، عن جندب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ». وقد روى هذا الحديث أبو داود، والترمذي، والنسائي من حديث سهيل بن أبي حزم القطعي، وقال الترمذي: غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم في سهيل. وفي لفظ لهم: «من قال في كتاب الله برأيه، فأصاب، فقد أخطأ» أي: لأنه قد تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه، كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر، لكن يكون أخف جزماً ممن أخطأ، والله أعلم، وهكذا سمي الله القذفة كاذبين، فقال: «فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ» [النور: ١٣]، فالقاذف كاذب، ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر؛ لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به، ولو كان أخبر بما يعلم؛ لأنه تكلف ما لا علم له به، والله أعلم. ولهذا تخرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، كما روى شعبة، عن سليمان، عن عبد الله بن مرة، عن أبي مَعْمَرٍ، قال: قال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه: أي أرض تقلني؟ وأي سماء تظلمي؟ إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا محمد بن يزيد، عن العوام بن حوشب، عن إبراهيم التيمي؛ أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله: ﴿وَلَكُمْ وَابَا﴾ [عبر: ٣١]، فقال: أي سماء تظلمي، وأي أرض تقلني؟ إذا أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم. منقطع. وقال أبو عبيد أيضاً: حدثنا يزيد، عن حميد، عن أنس؛ أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: ﴿وَلَكُمْ وَابَا﴾ [عبر: ٣١]، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر.

وقال عُبَيْدُ بْنُ حُمَيْدٍ: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس قال: كنا عند عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وفي ظهر قميصه أربع رقاع، فقرأ: ﴿وَلَكُمْ وَابَا﴾ [عبر: ٣١]، فقال: ما الأب؟ ثم قال: إن هذا لهو التكلف، فما عليك ألا تدريه. وهذا كله محمول على أنهما، رضي الله عنهما، إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب، وإلا فكونه نبياً من الأرض ظاهر لا يجهل، لقوله: ﴿فَأَبَاكُمْ أَيَا جَا﴾ [عبر: ٢٧، ٢٨]. وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُليَّة، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة: أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضهم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها. إسناده صحيح. وقال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة، قال: سألت رجل ابن عباس عن ﴿يَوْمَ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] فقال له ابن عباس: فما ﴿يَوْمَ كَانَ مِقْدَارُهُ حَمِيمِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]؟ فقال له الرجل: إنما سألتك لتحدثني. فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله تعالى في كتابه، الله أعلم بهما. ففكر أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم. وقال أيضاً - ابن جرير: حدثني يعقوب - يعني ابن إبراهيم - حدثنا ابن عُليَّة، عن مَهْدِي بن ميمون، عن الوليد بن مسلم، قال: جاء طَلْق بن حبيب إلى جُنْدُب بن عبد الله، فسأله عن آية من القرآن؟ فقال: أخرج عليك إن كنت مسلماً إلا ما قممت عني، أو قال: أن تجالسني. وقال مالك، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب: إنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن، قال: إنا لا نقول في القرآن شيئاً. وقال الليث، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب: إنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن. وقال شعبة، عن عمرو بن مَرْثُة، قال: سألت رجلاً سعيد بن المسيب عن آية من القرآن فقال: لا تسألني عن القرآن، وسل من يزعم أنه لا يخفي عليه منه شيء، يعني: عكرمة.

وقال ابن شَوْذَب: حدثني يزيد بن أبي يزيد، قال: كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام، وكان أعلم الناس، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت، كأن لم يسمع. وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن عبدة الضبي، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عبيد الله بن عمر، قال: لقد أدركتُ فقهاء المدينة، وإنهم ليعظمون القول في التفسير، منهم: سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع. وقال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح، عن الليث، عن هشام بن عروة، قال: ما سمعت أباي تأول آية من كتاب الله قط. وقال أيوب، وابن عَوْن، وهشام الدستواقي، عن محمد بن سيرين: سألت عبيدة السلماني، عن آية من القرآن فقال: ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن؟ فأتى الله، وعليك بالسداد. وقال أبو عبيد: حدثنا معاذ، عن ابن عون، عن عبد الله بن مسلم بن يسار، عن أبيه، قال: إذا حدثت عن الله فقف، حتى تنظر ما قبله وما بعده. حدثنا هُشَيْم، عن مغيرة، عن إبراهيم، قال: كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه. وقال شعبة عن عبد الله بن أبي

السُّفَر، قال: قال الشعبي: والله ما من آية إلا وقد سألت عنها، ولكنها الرواية عن الله ﷻ. وقال أبو عبيد: حدثنا هشيم، حدثنا عمر بن أبي زائدة، عن الشعبي، عن مسروق، قال: اتقوا التفسير، فإنما هو الرواية عن الله. فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تخرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به؛ فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً، فلا حرج عليه؛ ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد؛ فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿لَتَيَسَّنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُوهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ولما جاء في الحديث المروي من طرق: «من سئل عن علم فكتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار».

فأما الحديث الذي رواه أبو جعفر بن جرير: حدثنا عباس بن عبد العظيم، حدثنا محمد بن خالد بن عثمة، حدثنا جعفر بن محمد بن الزبير، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: ما كان النبي ﷺ يفسر شيئاً من القرآن إلا آتياً تُعد، علمهن إياه جبريل، عليه السلام. ثم رواه عن أبي بكر محمد بن يزيد الطرسوسي، عن مَعْن بن عيسى، عن جعفر بن خالد، عن هشام، به. فإنه حديث منكر غريب، وجعفر هذا هو ابن محمد بن خالد بن الزبير بن العوام القرشي الزبيري، قال البخاري: لا يتابع في حديثه، وقال الحافظ أبو الفتح الأزدی: منكر الحديث. وتكلم عليه الإمام أبو جعفر بما حاصله أن هذه الآيات مما لا يعلم إلا بالتوقيف عن الله تعالى، مما وقفه عليها جبريل. وهذا تأويل صحيح لو صح الحديث؛ فإن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها، ومنه ما لا يعذر أحد في جهله، كما صرح بذلك ابن عباس، فيما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مؤمِّل، حدثنا سفيان، عن أبي الزناد عن الأعرج، قال: قال ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله. قال ابن جرير: وقد روي نحوه في حديث في إسناده نظر: حدثني يونس بن عبد الأعلى الصدفي، أنبأنا ابن وهب قال: سمعت عمرو بن الحارث يحدث عن الكلبي، عن أبي صالح، مولى أم هانئ، عن عبد الله بن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على أربعة أحرف: حلال وحرام، لا يعذر أحد بالجهالة به. وتفسير تفسره العرب، وتفسير تفسره العلماء. ومتشابه لا يعلمه إلا الله ﷻ، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب». والنظر الذي أشار إليه في إسناده هو من جهة محمد بن السائب الكلبي؛ فإنه متروك الحديث؛ لكن قد يكون إنما وهم في رفعه. ولعله من كلام ابن عباس، كما تقدم، والله أعلم بالصواب.



كتاب فضائل القرآن

قال البخاري، رحمه الله:

كيف نزول الوحي وأول ما نزل:

قال ابن عباس: المهيمن الأمين، القرآن أمين على كل كتاب قبله. حدثنا عبيد الله بن موسى عن شيبان عن يحيى عن أبي سلمة قال: أخبرني عائشة وابن عباس قالا: لبث النبي ﷺ بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمدينة عشراً. ذكر البخاري، رحمه الله، كتاب «فضائل القرآن» بعد كتاب التفسير؛ لأن التفسير أهم ولهذا بدأ به، ونحن قدمنا الفضائل قبل التفسير وذكرنا فضل كل سورة قبل تفسيرها ليكون ذلك باعثاً على حفظ القرآن وفهمه والعمل بما فيه والله المستعان.

وقول ابن عباس في تفسير المهيمن إنما يريد به البخاري قوله تعالى في المائدة بعد ذكر التوراة والإنجيل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]. قال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: حدثنا المثنى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني معاوية عن علي - يعني ابن أبي طلحة - عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ﴾ قال: المهيمن: الأمين. قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله. وفي رواية: شهيداً عليه. وقال سفيان الثوري وغير واحد من الأئمة عن أبي إسحاق السبيعي، عن التميمي، عن ابن عباس: ﴿وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ﴾ قال: مؤتمناً. وبنحو ذلك قال مجاهد والسدي وقناة وابن جريج والحسن البصري وغير واحد من أئمة السلف. وأصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب، يقال إذا رَقَبَ الرجل الشيء وحفظه وشهده: قد هيمن فلان عليه، فهو يهيمن هيمنة وهو عليه مهيمن، وفي أسماء الله تعالى: المهيمن، وهو الشهيد على كل شيء، والرقب: الحفيظ بكل شيء.

وأما الحديث الذي أسنده البخاري: أنه، عليه السلام، أقام بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمدينة عشراً، فهو مما انفرد به البخاري دون مسلم، وإنما رواه النسائي من حديث شيبان وهو ابن عبد الرحمن، عن يحيى وهو ابن أبي كثير، عن أبي سلمة عنها. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا يزيد عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، ثم قرأ ﴿وَرَوَّاهَا فَوَقَّهَ لِقَارِئِهِ عَلَىٰ آتَائِهِ عَنَّا مَنَّكَ وَرَزَلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]. هذا إسناده صحيح. أما إقامته بالمدينة عشراً فهذا ما لا خلاف فيه، وأما إقامته بمكة بعد النبوة فالمشهور ثلاث عشرة سنة؛ لأنه، عليه الصلاة والسلام، أوحى إليه وهو ابن أربعين سنة، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة على الصحيح، ويحتمل أنه حذف ما زاد على العشرة اختصاراً في الكلام؛ لأن العرب كثيراً ما يحذفون الكسور في كلامهم؛ أو أنهما إنما اعتبرا قرن جبريل، عليه السلام، به عليه السلام. فإنه قد روى الإمام أحمد أنه قرن به، عليه السلام، ميكائيل في ابتداء الأمر، يلقي إليه الكلمة والشيء، ثم قرن به جبريل.

ووجه مناسبة هذا الحديث بفضائل القرآن: أنه ابتدئ بنزوله في مكان شريف، وهو البلد الحرام، كما أنه كان في زمن شريف وهو شهر رمضان، فاجتمع له شرف الزمان والمكان؛ ولهذا يستحب إكثار تلاوة القرآن في شهر رمضان؛ لأنه ابتدئ بنزوله فيه؛ ولهذا كان جبريل يعارض به رسول الله ﷺ في كل سنة في شهر رمضان، فلما كان في السنة التي توفي فيها عارضه به مرتين تأكيداً وتثبيتاً. وأيضاً في هذا الحديث بيان أنه من القرآن مكي ومنه مدني، فالمكي: ما نزل قبل الهجرة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة، سواء كان بالمدينة أو غيرها من أي البلاد كان، حتى ولو كان بمكة أو عرفة. وقد أجمعوا على سور أنها من المكي وآخر أنها من المدني، واختلفوا في آخر، وأراد بعضهم ضبط ذلك بضوابط في تقييدها عسر ونظر، ولكن قال بعضهم: كل سورة في أولها شيء من الحروف المقطعة فهي مكية إلا البقرة وآل عمران، كما أن كل سورة فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهي مدنية وما فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فيحتمل أن يكون من هذا ومن هذا، والغالب أنه مكي. وقد يكون مدنياً كما في البقرة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَغْبَدُوا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُفُّوا يَدَايَ فِي الْأَرْضِ حَلَكًا مَّبِينًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الْكَافِرِينَ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

قال أبو عبيد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا من سمع الأعمش يحدث عن إبراهيم بن علقمة: كل شيء في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه أنزل بالمدينة، وما كان ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فإنه أنزل بمكة. ثم قال: حدثنا علي بن معبد، عن أبي المليح، عن

ميمون بن مهران، قال: ما كان في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ و ﴿يَبْنَى مَادِمَ﴾ فإنه مكى، وما كان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه مدني. ومنهم من يقول: إن بعض السور نزل مرتين، مرة بالمدينة ومرة بمكة، والله أعلم. ومنهم من يستثنى من المكى آيات يدعي أنها من المدني، كما في سورة الحج وغيرها. والحق في ذلك ما دل عليه الدليل الصحيح، فالله أعلم. وقال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح بن علي بن أبي طلحة، قال: نزلت بالمدينة سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والحج، والنور، والأحزاب، والذين كفروا، والفتح، والحديد والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والحواريون، والتغابن، و ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِذَا طَلَعْتُمْ إِلَيْكُمْ﴾ و ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَحْزَنْ﴾ والفجر، و ﴿وَالَّذِينَ إِذَا يَتَفَتَحُونَ﴾ و ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ و ﴿لَا يَكْفِي الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ و ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ و ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ وسائر ذلك بمكة. وهذا إسناد صحيح عن ابن أبي طلحة مشهور، وهو أحد أصحاب ابن عباس الذين رواوا عنه التفسير، وقد ذكر في المدني سوراً في كونها مدنية نظر، وفاته الحجرات والمعوذات.

الحديث الثاني: وقال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا معتمر قال: سمعت أبي عن أبي عثمان قال: أنبئت أن جبريل، عليه السلام، أتى النبي ﷺ وعنده أم سلمة، فجعل يتحدث، فقال النبي ﷺ: «من هذا؟» أو كما قال، قالت: هذا دحية الكلبي، فلما قام قلت: والله ما حسبه إلا إياه، حتى سمعت خطبة النبي ﷺ يُخبر خبر جبريل. أو كما قال، قال أبي: فقلت لأبي عثمان: ممن سمعت هذا؟ فقال: من أسامة بن زيد. وهكذا رواه أيضاً في علامات النبوة عن عباس بن الوليد النرسي، ومسلم في فضائل أم سلمة عن عبد الأعلى بن حماد ومحمد بن عبد الأعلى كلهم عن معتمر بن سليمان به. والغرض من إيراد هذا الحديث هاهنا أن السفير بين الله وبين محمد ﷺ جبريل عليه السلام وهو ملك كريم ذو وجهة وجلالة ومكانة كما قال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ ﴿شَاقَّ نَمِيزِينَ﴾ ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [الأنبياء: ٢١-٢٢]. فمدح الرب تبارك وتعالى وعبيده ورسوله جبريل ومحمداً ﷺ وسنستقصي الكلام على تفسير هذا الكتاب في موضعه إذا وصلنا إليه إن شاء الله تعالى وبه الثقة. وفي الحديث فضيلة عظيمة لأم سلمة، رضي الله عنها - كما بينه مسلم رحمه الله - لرؤيتها لهذا الملك العظيم، وفضيلة أيضاً لدحية بن خليفة الكلبي، وذلك أن جبريل، عليه السلام، كان كثيراً ما يأتي رسول الله ﷺ على صورة دحية وكان جميل الصورة، رضي الله عنه، وكان من قبيلة أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي، كلهم ينسبون إلى كلب بن وبرة وهم قبيلة من قضاة، وقضاة قيل: إنهم من عدنان، وقيل: من قحطان، وقيل: بطن مستقل بنفسه، والله أعلم.

الحديث الثالث: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث بن سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». ورواه أيضاً في كتاب الاعتصام عن عبد العزيز بن عبد الله ومسلم والنسائي عن قتيبة جميعاً، عن الليث بن سعد، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبيه - واسمه كيسان المقبري - به. وفي هذا الحديث فضيلة عظيمة للقرآن المجيد على كل معجزة أعطيها نبي من الأنبياء، وعلى كل كتاب أنزله، وذلك أن معنى الحديث: ما من نبي إلا أعطي من المعجزات ما آمن عليه البشر، أي: ما كان دليلاً على تصديقه فيما جاءهم به واتبعه من أتباعه من البشر، ثم لما مات الأنبياء لم يبق لهم معجزة بعدهم إلا ما يحكيه أتباعهم عما شاهده في زمانه، فأما الرسول الخاتم للرسالة محمد ﷺ فإنما كان معظم ما آتاه الله وحياً منه إليه منقولاً إلى الناس بالتواتر، ففي كل حين هو كما أنزل، فلهذا قال: «فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً»، وكذلك وقع، فإن أتباعه أكثر من أتباع الأنبياء لعموم رسالته ودوامها إلى قيام الساعة، واستمرار معجزته؛ ولهذا قال الله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنْ أَجْمَعَتِ الْآلُوشُ وَالْإِنْسُ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِبَشْرٍ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الأنبياء: ٨٨]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورٍ مِثْلِهِ مَعْفُورِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ثم تحداهم إلى أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلْعَمْتَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقصر التحدي على هذا المقام في السور المكية كما ذكرنا وفي المدنية أيضاً كما في سورة البقرة، حيث يقول تعالى: ﴿وَلَئِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤] فأخبرهم بأنهم عاجزون عن معارضته بمثله، وأنهم لا يفعلون ذلك في المستقبل أيضاً، وهذا وهم أفصح الخلق وأعلمهم بالبالغة والشعر وقرض الكلام وضروبه، لكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد

من البشرية من الكلام الفصيح البليغ، الوجيز، المحتوي على العلوم الكثيرة الصحيحة النافعة، والأخبار الصادقة عن الغيوب الماضية والآنية، والأحكام العادلة والمحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]. وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي، حدثنا محمد بن إسحاق قال: ذكر محمد بن كعب القرظي عن الحارث بن عبد الله الأعور قال: قلت: لأتينا أمير المؤمنين، فلا سالته عما سمعت العشيبة قال: فجئته بعد العشاء، فدخلت عليه، فذكر الحديث. قال: ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أتاني جبريل فقال: يا محمد، أمتك مختلفة بعدك». قال: «فقلت له: فأين المخرج يا جبريل؟» قال: فقال: «كتاب الله به يقصم الله كل جبار، من اعتصم به نجا، ومن تركه هلك، مرتين، قول فصل وليس بالهزل، لا تخلقه الألسن، ولا تنفى عجائبه، فيه نبأ من كان قبلكم، وفصل ما بينكم، وخبر ما هو كائن بعدكم» هكذا رواه الإمام أحمد. وقال أبو عيسى الترمذي: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا حسين بن علي الجعفي، حدثنا حمزة الزيات، عن أبي المختار الطائي، عن ابن أخي الحارث الأعور، عن الحارث الأعور، قال: مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على علي فقلت: يا أمير المؤمنين، ألا ترى الناس قد خاضوا في الأحاديث؟ قال: أو قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنة» فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشيع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الْآرْثِ فَأَقَامُوا بِهِ﴾ [الجن: ١، ٢]، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم». خذها إليك يا أعور، ثم قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات، وإسناده مجهول وفي حديث الحارث مقال.

قلت: لم ينفرد بروايته حمزة بن حبيب الزيات، بل قد رواه محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي، عن الحارث الأعور، فبرئ حمزة من عهده، على أنه وإن كان ضعيف الحديث إلا أنه إمام في القراءة والحديث، مشهور من رواية الحارث الأعور وقد تكلموا فيه، بل قد كذب بعضهم من جهة رأيه واعتقاده، أما إنه تعدد الكذب في الحديث فلا، والله أعلم. وقصاري هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي، رضي الله عنه، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح على أنه قد روى له شاهد عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ. قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه فضائل القرآن: حدثنا أبو اليقظان، حدثنا عمار بن محمد الثوري أو غيره عن أبي إسحاق الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «إن هذا القرآن مآذبة الله تعالى فتعلموا من مآذبه ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله ﷻ، وهو النور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، لا يوجع فيقوم، لا يزيغ فيستعجب، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، فأتلوه، فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول لكم الم حرف، ولكن ألف عشر، ولام عشر، وميم عشر». وهذا غريب من هذا الوجه، وقد رواه محمد بن فضيل عن أبي إسحاق الهجري، واسمه إبراهيم بن مسلم، وهو أحد التابعين، ولكن تكلموا فيه كثيراً.

وقال أبو حاتم الرازي: لين ليس بالقوي. وقال أبو الفتح الأزدی: رُفِعَ كثير الوهم. قلت: فيحتمل، والله أعلم، أن يكون وهم في رفع هذا الحديث، وإنما هو من كلام ابن مسعود، ولكن له شاهد من وجه آخر، والله أعلم. وقال أبو عبيد أيضاً: حدثنا حجاج عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله بن مسعود قال: لا يسأل عبد عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فإنه يحب الله ورسوله.

الحديث الرابع: قال البخاري: حدثنا عمرو بن محمد، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب، قال: أخبرني أنس بن مالك أن الله تابع الوحي على رسول الله ﷺ قبل وفاته حتى توفاه أكثر ما كان الوحي، ثم توفي رسول الله ﷺ بعد. وهكذا رواه مسلم عن عمرو بن محمد هذا - وهو الناقد - وحسن الحلواني وعبد بن حميد والنسائي عن إسحاق بن منصور الكوسج، أربعتهم عن يعقوب بن إبراهيم بن سعد الزهري به. ومعناه: أن الله تعالى تابع نزول الوحي على رسول الله ﷺ شيئاً بعد شيء كل وقت بما يحتاج إليه، ولم تقع فترة بعد الفترة الأولى التي كانت بعد نزول الملك أول مرة بقوله: ﴿أَفْرَأَى بِأَسْمَاءَ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] فإنه استلثب الوحي بعدها حيناً يقال: قريباً من ستين أو أكثر، ثم حمى الوحي وتتابع، وكان أول شيء نزل بعد تلك الفترة ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢].

الحديث الخامس: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان عن الأسود بن قيس قال: سمعت جندباً يقول: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتته امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا تركك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝۱ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝۲ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝۳﴾ [الضحى: ١-٣]. وقد رواه البخاري في غير موضع أيضاً، ومسلم والترمذي والنسائي من طرق آخر، عن سفيان - وهو الثوري - وشعبة بن الحجاج كلاهما عن الأسود بن قيس العبدي، عن جندب بن عبد الله البجلي، به. وسأيتي الكلام على هذا الحديث في تفسير سورة الضحى إن شاء الله تعالى. والمناسبة في ذكر هذا الحديث والذي قبله في فضائل القرآن: أن الله تعالى له برسوله عناية عظيمة ومحبة شديدة، حيث جعل الوحي متابعاً عليه ولم يقطعه عنه؛ ولهذا إنما أنزل عليه القرآن مفزقاً ليكون ذلك في أبلغ العناية والإكرام.

قال البخاري، رحمه الله: نزل القرآن بلسان قريش والعرب، قرآناً عربياً، بلسان عربي مبين، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري: أخبرني أنس بن مالك قال: فأمر عثمان بن عفان زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوها في المصاحف، وقال لهم: إذا اختلفتم أنتم وزيد في عربية من عربية القرآن، فاكتبوها بلسان قريش، فإن القرآن نزل بلسانهم، ففعلوا. هذا الحديث قطعة من حديث سيأتي قريباً الكلام عليه ومقصود البخاري منه ظاهر، وهو أن القرآن نزل بلغة قريش، وقريش خلاصة العرب؛ ولهذا قال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا عبد الله بن محمد بن خالد، حدثنا يزيد، حدثنا شيبان، عن عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سمرة، قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: لا يملئ في مصاحفنا هذه إلا غلمان قريش أو غلمان ثقيف. وهذا إسناد صحيح. وقال أيضاً: حدثنا إسماعيل بن أسد، حدثنا هوزة، حدثنا عوف، عن عبد الله بن فضالة، قال: لما أراد عمر أن يكتب الإمام أقعد له نفرًا من أصحابه وقال: إذا اختلفتم في اللغة فاكتبوها بلغة مضر، فإن القرآن نزل بلغة رجل من مضر ﷺ، وقد قال الله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝۸﴾ [الزمر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُبِينَةِ ۝١٠٥﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ۝١٠٣﴾ [النحل: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَقَالُوا لَا بَلْ هُوَ آيَاتُ مَآفِئَتِهِ وَآفَئِهِ وَغَرِيبٌ ۝٤﴾ الآية [فصلت: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك. ثم ذكر البخاري، رحمه الله، حديث يعلى بن أمية أنه كان يقول: ليتني أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحي. فذكر الحديث الذي سأل عن أحرم بعمره وهو متمطخ بطيب وعليه جبة، وقال: فنظر رسول الله ﷺ ساعة ثم فجأه الوحي، فأشار عمر إلى يعلى أي: تعال، فجأه يعلى، فأدخل رأسه فإذا هو محمر الوجه يغط كذلك ساعة، ثم سري عنه، فقال: «أين الذي سألتني عن العمرة آنفاً؟» فذكر أمره بنزع الجبة وغسل الطيب. وهذا الحديث رواه جماعة من طرق عديدة، والكلام عليه في كتاب الحج، ولا تظهر مناسبة ما بينه وبين هذه الترجمة، ولا يكاد، ولو ذكر في الترجمة التي قبلها لكان أظهر وأبين، والله أعلم.



جمع القرآن

قال المؤلف، رحمه الله: فائدة جلية حسنة: ثبت في الصحيحين عن أنس قال: جمع القرآن على عهد النبي ﷺ أربعة: كلهم من الأنصار؛ أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. فقيل له: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومي. وفي لفظ للبخاري عن أنس قال: مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة؛ أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، ونحن ورثناه. قلت: أبو زيد هذا ليس بمشهور؛ لأنه مات قديماً، وقد ذكره في أهل بدر، وقال بعضهم: سعيد بن عبيد. ومعنى قول أنس: «ولم يجمع القرآن». يعني من الأنصار سوى هؤلاء، وإلا فمن المهاجرين جماعة كانوا يجمعون القرآن كالصديق، وابن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم. قال الشيخ أبو الحسن الأشعري، رحمه الله: قد علم بالاضطرار أن رسول الله ﷺ قدم أبا بكر في مرض الموت ليصلي بالناس، وقد ثبت في الخبر المتواتر أن رسول الله ﷺ قال: «ليوم القوم أقرؤهم»، فلو لم يكن الصديق أقرأ القوم لما قدمه عليهم. نقله أبو بكر بن زنجويه في كتاب فضائل الصديق عن الأشعري. وحكى القرطبي في أوائل تفسيره عن القاضي أبي بكر الباقلاني أنه قال: بعد ذكره حديث أنس بن مالك هذا: «فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان، وعلي، وتميم الداري، وعبادة بن الصامت، وعبد الله بن عمرو بن العاص. فقول أنس: «لم يجمعه غير أربعة» يحتمل لم يأخذه تلقياً من في رسول الله ﷺ غير هؤلاء الأربعة، وأن بعضهم تلقى بعضه عن بعض.

جمع القرآن

قال: وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ لأجل سبقهم إلى الإسلام، وإعظام الرسول لهم. قال القرطبي: لم يذكر القاضي ابن مسعود وسالماً مولى أبي حذيفة، وهما ممن جمع القرآن. نقلت هذه من على ظهر الجزء الأول من أجزاء المؤلف. ١. هـ.

حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثنا ابن شهاب، عن عبيد بن السباق، أن زيد بن ثابت قال: أرسل إلي أبو بكر - مقتل أهل اليمامة - فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر بن الخطاب أتاني، فقال: إن القتل قد استخّر بقرآن القرآن، وإنني أخشى أن يستحرق القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن، وإنني أرى أن تأمر بجمع القرآن. فقلت لعمر: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يرأجعي حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فأجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يرأجعي حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما. فتتبع القرآن أجمعه من العُصْب واللِّخَاف وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجداه مع غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر، رضي الله عنهم.

وقد روى البخاري هذا الحديث في غير موضع من كتابه، ورواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي من طرق عن الزهري به. وهذا من أحسن وأجل وأعظم ما فعله الصديق، رضي الله عنه، فإنه أقامه الله بعد النبي ﷺ مقاماً لا ينبغي لأحد بعده، قاتل الأعداء من مانعي الزكاة، والمرتدين، والفرس والروم، ونفذ الجيوش، وبعث البعث والسرايا، ورد الأمر إلى نصابه بعد الخوف من تفرقه وذهابه، وجمع القرآن العظيم من أماكنه المتفرقة حتى تمكن القاريء من حفظه كله، وكان هذا من سر قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ الرَّزَّاقُ ذِكْرٌ وَلَئِن لَّمْ نَحْفَظْهُ لَأَكِيدَنَّ الْأَزْنَارَ﴾ [الحجر: ٩] فجمع الصديق الخير وكف الشرور، رضي الله عنه وأرضاه. ولهذا روى غير واحد من الأئمة منهم وكيع وابن زيد وقبيصة عن سفيان الثوري عن إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير عن عبد خير، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه قال: أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر، إن أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين. إسناده صحيح.

وقال أبو بكر بن أبي داود في كتاب المصاحف: حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا عبدة، عن هشام، عن أبيه، أن أبا بكر هو الذي جمع القرآن بعد النبي ﷺ، يقول: ختمه. صحيح أيضاً. وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، هو الذي تنبه لذلك لما استحرق القتل بالقراء، أي اشتد القتل وكثر في قراء القرآن يوم اليمامة، يعني يوم قتال مسيلمة الكذاب وأصحابه ومن بني حنيفة بأرض اليمامة في حديقة الموت، وذلك أن مسيلمة التف معه من المرتدين قريب من مائة ألف، فجهز الصديق لقتاله خالد بن الوليد في قريب من ثلاثة عشر ألفاً، فالتقوا معهم، فانكشف الجيش الإسلامي لكثرة من فيه من الأعراب، فنادى القراء من كبار الصحابة: يا خالد، يقولون: ميزنا من هؤلاء الأعراب فتميزوا منهم، وانفردوا، فكانوا قريباً من ثلاثة آلاف، ثم صدقوا الحملة، وقاتلوا قتالاً شديداً، وجعلوا يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة، فلم يزل ذلك دأبهم حتى فتح الله عليهم ووَلَّى جيش الكفار فاراً، وأتبعهم السيوف المسلمة في أقتنتهم قتلاً وأسراً، وقتل الله مسيلمة، وفرق شمل أصحابه، ثم رجعوا إلى الإسلام، ولكن قتل من القراء يومئذ قريب من خمسمائة، رضي الله عنهم، فلهذا أشار عمر على الصديق بأن يجمع القرآن؛ لئلا يذهب منه شيء بسبب موت من يكون يحفظه من الصحابة بعد ذلك في مواطن القتال، فإذا كتب وحفظ صار ذلك محفوظاً فلا فرق بين حياة من بلغه أو موته، فراجع الصديق قليلاً ليثبت في الأمر، ثم وافقه، وكذلك راجعهما زيد بن ثابت في ذلك ثم صاروا إلى ما رأياه، رضي الله عنهم أجمعين، وهذا المقام من أعظم فضائل زيد بن ثابت الأنصاري؛ ولهذا قال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا عبد الله بن محمد بن خلاد، حدثنا يزيد، حدثنا مبارك بن فضالة، عن الحسن؛ أن عمر بن الخطاب سأل عن آية من كتاب الله فقيل: كانت مع فلان فقتل يوم اليمامة، فقال: إنا لله، فأمر بالقرآن فجمع فكان أول من جمعه في المصحف.

هذا منقطع، فإن الحسن لم يدرك عمر، ومعناه: أشار بجمعه فجمع؛ ولهذا كان مهيمناً على حفظه وجمعه كما رواه ابن أبي داود حيث قال: حدثنا أبو الطاهر، حدثنا ابن وهب، حدثنا عمر بن طلحة الليثي، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، أن عمر لما جمع القرآن كان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان. وذلك عن أمر الصديق له في ذلك، كما قال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا أبو الطاهر، حدثنا ابن وهب، أخبرني ابن أبي الزناد، عن هشام بن

عروة، عن أبيه قال: لما استحر القتل بالقراء يومئذ فرق أبو بكر، رضي الله عنه، أن يضيع، فقال لعمر بن الخطاب ولزيد بن ثابت: فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه. منقطع حسن. ولهذا قال زيد بن ثابت: وجدت آخر سورة التوبة، يعني قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر الآيتين [التوبة: ١٢٨، ١٢٩] مع أبي خزيمة الأنصاري، وفي رواية: مع خزيمة بن ثابت الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادتين لم أجدها مع غيره فكتبوها عنه لأنه جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادتين في قصة الفرس التي ابتاعها رسول الله ﷺ من الأعرابي، فأنكر الأعرابي البيع، فشهد خزيمة هذا بتصديق رسول الله ﷺ، فأمضى شهادته وقبض الفرس من الأعرابي. والحديث رواه أهل السنن وهو مشهور، وروى أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية أن أبي بن كعب أملاها عليهم مع خزيمة بن ثابت. وقد روى ابن وهب عن عمرو بن طلحة الليثي، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب؛ أن عثمان شهد بذلك أيضاً.

وأما قول زيد بن ثابت: «فتبعت القرآن أجمعه من العُسْب واللُّخاف وصدور الرجال» وفي رواية: «من العسب والرِّقاع والأضلاع»، وفي رواية: «من الأكتاف والأفتاب وصدور الرجال». أما العُسْب فجمع عسيب. قال أبو النصر إسماعيل بن حماد الجوهري: وهو من السعف فوق الكَرْب لم ينبت عليه الخوص، وما نبت عليه الخوص فهو السعف. واللُّخاف: جمع لُخْفَة وهي القطعة من الحجارة مستدقة، كانوا يكتبون عليها وعلى العسب وغير ذلك، مما يمكنهم الكتابة عليه مما يناسب ما يسمعون من القرآن من رسول الله ﷺ. ومنهم من لم يكن يحسن الكتابة أو يثق بحفظه، فكان يحفظه، فتلقيه زيد بن ثابت من هذا من عسيبه، ومن هذا من لخافه، ومن صدر هذا، أي من حفظه وكانوا أحرص شيء على أداء الأمانات وهذا من أعظم الأمانة؛ لأن رسول الله ﷺ أودعهم ذلك ليلغوه إلى من بعده كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [المائدة: ٦٧]، ففعل، صلوات الله وسلامه عليه، ما أمر به؛ ولهذا سألتهم في حجة الوداع يوم عرفة على رؤوس الأشهاد والصحابة أوفر ما كانوا مجتمعين، فقال: «إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟». فقالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يشير بأصبعه إلى السماء، وينكبها عليهم ويقول: «اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد». رواه مسلم عن جابر. وقد أمر أمته أن يبلغ الشاهد الغائب وقال: «بلغوا عني ولو آية» يعني: ولو لم يكن مع أحدكم سوى آية واحدة فليؤدها إلى من وراه، فبلغوا عنه ما أمرهم به، فادوا القرآن قرأتاً، والسنة سنة، لم يلبسوا هذا بهذا؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «من كتب عني سوى القرآن فليمحاه» أي: لثلا يختلط بالقرآن، وليس معناه: ألا يحفظوا السنة ويرووها، والله أعلم.

فلهذا نعلم بالضرورة أنه لم يبق من القرآن مما أده الرسول ﷺ إليهم إلا وقد بلغوه إلينا، والله الحمد والمنة، فكان الذي فعله الشيخان أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما، من أكبر المصالح الدينية وأعظمها، من حفظهما كتاب الله في الصحف؛ لثلا يذهب منه شيء بموت من تلقاه عن رسول الله ﷺ، ثم كانت تلك الصحف عند الصديق أيام حياته، ثم أخذها عمر بعده محروسة معظمة مكرمة، فلما مات كانت عند حفصة أم المؤمنين، رضي الله عنها، حتى أخذها منها أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

قال البخاري، رحمه الله: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم، حدثنا ابن شهاب، عن أنس بن مالك، حدثنا أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان بن عفان رضي الله عنهما وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفرغ حذيفة اختلافهم في القراءة. فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما أنزل بلسانهم. ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في محل صحيفة أو مصحف أن يحرق. قال ابن شهاب الزهري: فأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت: سمع زيد بن ثابت قال: فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، التمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] في المصحف فالحقناها في سورتها.

وهذا - أيضاً - من أكبر مناقب أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فإن الشيخين سبقاه إلى حفظ القرآن أن يذهب منه شيء وهو جمع الناس على قراءة واحدة؛ لثلا يختلفوا في القرآن ووافقه على ذلك جميع الصحابة، وإنما روي عن

جمع القرآن

عبد الله بن مسعود شيء من التفضيب بسبب أنه لم يكن ممن كتب المصاحف وأمر أصحابه بغل مصاحفهم لما أمر عثمان بحرقه ما عدا المصحف الإمام، ثم رجع ابن مسعود إلى الوفاق حتى قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: لو لم يفعل ذلك عثمان لفعلته أنا. فاتفق الأئمة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، رضي الله عنهم، على أن ذلك من مصالح الدين، وهم الخلفاء الذين قال رسول الله ﷺ: «عليكم بستي وستة الخلفاء الراشدين من بعدي». وكان السبب في هذا حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه لما كان غازياً في فتح أرمينية وأذربيجان، وكان قد اجتمع هناك أهل الشام والعراق وجعل حذيفة يسمع منهم قراءات على حروف شتى، ورأى منهم اختلافاً واقتراحاً، فلما رجع إلى عثمان أعلمه وقال لعثمان: أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. وذلك أن اليهود والنصارى مختلفون فيما بأيديهم من الكتب، فاليهود بأيديهم نسخة من التوراة، والسامرة يخالفونهم في ألفاظ كثيرة ومعان أيضاً، وليس في توراة السامرة حرف الهمزة ولا حرف الياء، والنصارى - أيضاً - بأيديهم توراة يسمونها العتيقة وهي مخالفة لنسختي اليهود والسامرة، وأما الأنجيل التي بأيدي النصارى فأربعة: إنجيل مرقس، وإنجيل لوقا وإنجيل متى، وإنجيل يوحنا، وهي مختلفة - أيضاً - اختلافاً كثيراً، وهذه الأنجيل الأربعة كل منها لطيف الحجم منها ما هو قريب من أربع عشرة ورقة بخط متوسط، ومنها ما هو أكثر من ذلك إما بالضعف أو بالضعف، ومضمونها سيرة عيسى وأيامه وأحكامه وكلامه وفيه شيء قليل مما يدعون أنه كلام الله، وهي مع هذا مختلفة، كما قلنا، وكذلك التوراة مع ما فيها من التبديل والتحريف، ثم هما منسوخان بعد ذلك بهذه الشريعة المحمدية المطهرة.

فلما قال حذيفة لعثمان ذلك أفرغه وأرسل إلى حفصة أم المؤمنين أن ترسل إليه بالمصحف التي عندها مما جمعه الشيخان ليكتب ذلك في مصحف واحد، وينفذه إلى الآفاق، ويجمع الناس على القراءة به وترك ما سواه، ففعلت حفصة وأمر عثمان هؤلاء الأربعة وهم زيد بن ثابت الأنصاري، أحد كتاب الوحي لرسول الله ﷺ، وعبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي، أحد فقهاء الصحابة ونجائهم علماً وعملاً وأصلاً وفضلاً، وسعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية القرشي الأموي، وكان كريماً جواداً ممدحاً، وكان أشبه الناس لهجة برسول الله ﷺ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي، فجلس هؤلاء نفر يكتبون القرآن نسخاً، وإذا اختلفوا في وضع الكتابة على أي لغة رجعوا إلى عثمان، كما اختلفوا في التابوت أكتبونه بالباء والهاء، فقال زيد بن ثابت: إنما هو التابوت. وقال الثلاثة القرشيون: إنما هو التابوت فتراجعوا إلى عثمان فقال: اكتبوه بلغة قريش، فإن القرآن نزل بلغتهم. وكان عثمان - والله أعلم - رتب السور في المصحف، وقدم السبع الطوال وثني بالمئين؛ ولهذا روى ابن جرير وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث غير واحد من الأئمة الكبار، عن عوف الأعرابي، عن يزيد الفارسي، عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينها ولم تكتبوا بينها سطر «بسم الله الرحمن الرحيم»، ووضعتوها في السبع الطوال؟ ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، فإذا أنزلت عليه الآية فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وحسبت أنها منها وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر «بسم الله الرحمن الرحيم» فوضعتها في السبع الطوال.

ففهم من هذا الحديث أن ترتيب الآيات والسور أمر توقيفي متلقى عن رسول الله ﷺ، وأما ترتيب السور فمن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه؛ ولهذا ليس لأحد أن يقرأ القرآن إلا مرتباً؛ فإن نكسه خطأ خطأ كبيراً. وأما ترتيب السور فمستحب اقتداء بعثمان، رضي الله عنه، والأولى إذا قرأ أن يقرأ متوالياً كما قرأ عليه الصلاة والسلام، في صلاة الجمعة بسورة «الجمعة» و«المنافقين» وتارة بـ «سبح» و«هل أتاك حديث الغاشية»، فإن فرق جاز، كما صح أن رسول الله ﷺ قرأ في العيد بـ «قاف» و«اقتربت الساعة»، رواه مسلم عن أبي واقد في الصحيحين عن أبي هريرة، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة: «الم السجدة»، و«هل أتى على الإنسان». وإن قدم بعض السور على بعض جاز أيضاً، فقد روى حذيفة أن رسول الله ﷺ قرأ البقرة ثم النساء ثم آل عمران. أخرجه مسلم. وقرأ عمر في الفجر بسورة النحل ثم يوسف.

ثم إن عثمان رد المصحف إلى حفصة، فلم تزل عندها حتى أرسل إليها مروان بن الحكم يطلبها فلم تعطه حتى ماتت، فأخذها من عبد الله بن عمر فحرقها لئلا يكون فيها شيء يخالف المصاحف التي نفذها عثمان إلى الآفاق، مصحفاً إلى أهل مكة، ومصحفاً إلى البصرة، وآخر إلى الكوفة، وآخر إلى الشام، وآخر إلى اليمن، وآخر إلى البحرين، وترك عند أهل المدينة

مصحفاً، رواه أبو بكر بن أبي داود عن أبي حاتم السجستاني، سمعه يقوله. وصحح القرطبي أنه إنما نفذ إلى الآفاق أربعة مصاحف. وهذا غريب، وأمر بما عدا ذلك من مصاحف الناس أن يحرق لئلا تختلف قراءات الناس في الآفاق، وقد وافقه الصحابة في عصره على ذلك ولم ينكره أحد منهم، وإنما نقم عليه ذلك أولئك الرهط الذين تمالؤوا عليه وقتلوه، قاتلهم الله، وفي ذلك جملة ما أنكره مما لا أصل له، وأما سادات المسلمين من الصحابة، ومن نشأ في عصرهم ذلك من التابعين، فكلهم وافقوه. قال أبو داود الطيالسي وابن مهدي وغندر عن شعبة، عن علقمة بن مرثد، عن رجل، عن سويد بن غفلة، قال علي حين حرق عثمان المصاحف: لو لم يصنعه هو لصنعتة. وقال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق، عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص، قال: أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك، أو قال: لم ينكر ذلك منهم أحد. وهذا إسناد صحيح. وقال أيضاً: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الصواف، حدثنا يحيى بن كثير، حدثنا ثابت بن عمارة الحنفي، قال: سمعت غنيم بن قيس المازني قال: قرأت القرآن على الحرفين جميعاً، والله ما يسرنى أن عثمان لم يكتب المصحف، وأنه ولد لكل مسلم كلما أصبح غلام، فأصبح له مثل ماله. قال: قلنا له: يا أبا العنبر، ولم؟ قال: لو لم يكتب عثمان المصحف لطفق الناس يقرؤون الشعر.

حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا محمد بن عبد الله، حدثني عمران بن حدير، عن أبي مجلز قال: لولا أن عثمان كتب القرآن لألغيت الناس يقرؤون الشعر. حدثنا أحمد بن سنان قال: سمعت ابن مهدي يقول: خصلتنا لعثمان بن عفان ليست لأبي بكر ولا لعمر: صبره نفسه حتى قتل مظلوماً، وجمعه الناس على المصحف. وأما عبد الله بن مسعود فقد قال إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن حميد بن مالك قال: لما أمر عثمان بالمصاحف - يعني بتحريقها - ساء ذلك عبد الله بن مسعود وقال: من استطاع منكم أن يغسل مصحفاً فليغسل، فإنه من غل شيئاً جاء بما غل يوم القيامة. ثم قال عبد الله: لقد قرأت القرآن من في رسول الله ﷺ سبعين سورة وزيد صبي، فأترك ما أخذت من في رسول الله ﷺ. وقال أبو بكر: حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا ابن شهاب، عن الأعمش، عن أبي وائل، قال: خطبنا ابن مسعود على المنبر فقال: «وَمَنْ يَغْلُ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ» (آل عمران: ١٦١)، غلوا مصاحفكم، وكيف تأمروني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت، وقد قرأت القرآن من في رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة، وإن زيد بن ثابت ليأتي مع الغلمان له ذوابتان، والله ما نزل من القرآن شيء إلا وأنا أعلم في أي شيء نزل، وما أحد أعلم بكتاب الله مني، وما أنا بخيركم، ولو أعلم مكاناً تبلغه الإبل أعلم بكتاب الله مني لأتيته. قال أبو وائل: فلما نزل عن المنبر جلست في الحلق، فما أحد ينكر ما قال. أصل هذا مخرج في الصحيحين وعندهما: ولقد علم أصحاب محمد أني أعلمهم بكتاب الله. وقول أبي وائل: «فما أحد ينكر ما قال»، يعني: من فضله وعلمه وحفظه، والله أعلم. وأما أمره بغسل المصاحف وكتمانها، فقد أنكره عليه غير واحد. قال الأعمش عن إبراهيم، عن علقمة، قال: قدمت الشام فلقيت أبا الدرداء، فقال: كنا نعد عبد الله جباناً، فما باله يواطئ الأمراء. وقال أبو بكر بن أبي داود: باب رضا عبد الله بن مسعود بجمع عثمان المصاحف بعد ذلك: حدثنا عبد الله بن سعيد ومحمد بن عثمان العجلي قالا: حدثنا أبو أسامة، حدثني الوليد بن قيس، عن عثمان بن حسان العامري، عن قُلُقُلة الجعفي قال: فرغت فيمن فرغ إلى عبد الله في المصاحف، فدخلنا عليه، فقال رجل من القوم: إنا لم نأتك زائرين، ولكننا جئنا حين راعنا هذا الخبر، فقال: إن القرآن أنزل على نبيكم من سبعة أبواب، على سبعة أحرف - أو حروف - وإن الكتاب قبلكم كان ينزل - أو نزل - من باب واحد على حرف واحد. وهذا الذي استدل به أبو بكر، رحمه الله، على رجوع ابن مسعود فيه نظر، من جهة أنه لا يظهر من هذا اللفظ رجوع عما كان يذهب إليه، والله أعلم.

وقال أبو بكر أيضاً: حدثنا عمي، حدثنا أبو رجاء، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن مصعب بن سعد قال: قام عثمان فخطب الناس فقال: يا أيها الناس عهدكم بنبيكم منذ ثلاث عشرة وأنتم تمترون في القرآن، وتقولون: قراءة أبي وقراءة عبد الله، يقول الرجل: والله ما تقيم قراءتك وأعزم على كل رجل منكم ما كان معه من كتاب الله لما جاء به، فكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة، ثم دخل عثمان فدعاهم رجلاً رجلاً فناشدهم: لسمعت رسول الله ﷺ أمله عليك؟ فيقول: نعم، فلما فرغ من ذلك عثمان قال: من أكتب الناس؟ قالوا: كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت. قال: فأني الناس أعرب؟ قالوا: سعيد بن العاص. قال عثمان: فليمل سعيد، وليكتب زيد. فكتب زيد مصاحف ففرقها في الناس، فسمعت بعض أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: قد أحسن. إسناده صحيح.

وقال أيضاً: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد، حدثنا أبو بكر، حدثنا هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن كثير بن

أفلح قال: لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلاً من قريش والأَنْصار، فيهم أبي بن كعب وزيد بن ثابت: قال: فبعثوا إلى الربرة التي في بيت عمر فجيء بها، قال: وكان عثمان يتعاهدهم، وكانوا إذا تدارؤوا في شيء أخره. قال محمد: فقلت لكثير - وكان فيهم فيمن يكتب -: هل تدرون لم كانوا يؤخرونه؟ قال: لا. قال محمد: فظننت ظناً إنما كانوا يؤخرونها لينظروا أحدهم عهداً بالعرضة الأخيرة فيكتبونها على قوله. صحيح أيضاً. قلت: الربرة هي الكتب المجتمعة، وكانت عند حفصة، رضي الله عنها، فلما جمعها عثمان، رضي الله عنه، في المصحف، ردها إليها، ولم يحرقها في جملة ما حرقه مما سواها، إلا أنها هي بعينها الذي كتبه، وإنما رتبته، ثم إنه كان قد عاهدها على أن يردها إليها، فما زالت عندها حتى ماتت، ثم أخذها مروان بن الحكم فحرقها وتناول في ذلك ما تناول عثمان، كما رواه أبو بكر بن أبي داود: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري، أخبرني سالم بن عبد الله: أن مروان كان يرسل إلى حفصة يسألها الصحف التي كتب منها القرآن، فتأبى حفصة أن تعطيه إياها. قال سالم: فلما توفيت حفصة ورجعنا من دفنها أرسل مروان بالعزيمة إلى عبد الله بن عمر ليرسلن إليه بتلك الصحف، فأرسلن بها إليه عبد الله بن عمر فأمر بها مروان فشقت، وقال مروان: إنما فعلت هذا لأن ما فيها قد كتب وحفظ بالمصحف، فخشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب أو يقول: إنه كان شيء منها لم يكتب. إسناده صحيح.

وأما رواه الزهري عن خارجه عن أبيه في شأن آية الأحزاب وإلحاقهم إياها في سورتها، فذكره لهذا بعد جمع عثمان فيه نظر، وإنما هذا كان حال جمع الصديق المصحف كما جاء مصرحاً به في غير هذه الرواية عن الزهري، عن عبيد بن السباق، عن زيد بن ثابت، والدليل على ذلك أنه قال: «فألحقناها في سورتها من المصحف» وليست هذه الآية ملحقة في الحاشية في المصاحف العثمانية. فهذه الأفعال من أكبر القربات التي يادر إليها الأئمة الراشدون أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما، حفظا على الناس القرآن، جمعا لئلا يذهب منه شيء. وعثمان، رضي الله عنه، جمع قراءات الناس على مصحف واحد ووضعه على العرضة الأخيرة التي عارض بها جبريل رسول الله ﷺ في آخر رمضان من عمره، عليه الصلاة والسلام، فإنه عارضه به عامئذ مرتين؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ لفاطمة ابنته لما مرض: «وما أرى ذلك إلا لاقتراب أجلي». أخرجه في الصحيحين.

وقد روي أن علياً، رضي الله عنه، أراد أن يجمع القرآن بعد رسول الله ﷺ مرتباً بحسب نزوله أولاً فأولاً، كما رواه ابن أبي داود حيث قال: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا ابن فضيل، عن أشعث، عن محمد بن سيرين قال: لما توفي النبي ﷺ أقسم على ألا يرتدي برداء إلا لجمعة حتى يجمع القرآن في مصحف ففعل، فأرسل إليه أبو بكر، رضي الله عنه، بعد أيام: أكرهت إمارتي يا أبا الحسن؟ فقال: لا والله إلا أنني أقسمت ألا أرتدي برداء إلا لجمعة. فباعه ثم رجع. هكذا رواه وفيه انقطاع، ثم قال: لم يذكر المصحف أحد إلا أشعث، وهو لين الحديث، وإنما رواوا: حتى أجمع القرآن، يعني أتم حفظه؛ فإنه يقال للذي يحفظ القرآن: قد جمع القرآن. قلت: وهذا الذي قاله أبو بكر أظهر، والله أعلم، فإن علياً لم ينقل عنه مصحف على ما قيل ولا غير ذلك، ولكن قد توجد مصاحف على الوضع العثماني، يقال: إنها بخط علي، رضي الله عنه، وفي ذلك نظر، فإنه في بعضها: كتبه علي بن أبي طالب، وهذا لحن من الكلام؛ وعلي، رضي الله عنه، من أبعد الناس عن ذلك فإنه كما هو المشهور عنه هو أول من وضع علم النحو، فيما رواه عنه أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلي، وأنه قسم الكلام إلى اسم وفعل وحرف، وذكر أشياء أخر تممها أبو الأسود بعده، ثم أخذه الناس عن أبي الأسود فوسعوه ووضحوه، وصار علماً مستقلاً.

وأما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق عند الركن شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله، وقد كانت قديماً بمدينة طبرية ثم نقل منها إلى دمشق في حدود ثمان عشرة وخمسمائة، وقد رأته كتاباً عزيزاً جليلاً عظيماً ضخماً بخط حسن مبين قوي بحبر محكم في رق أظنه من جلود الإبل، والله أعلم، زاده الله تشريقاً وتكريماً وتعظيماً.

فأما عثمان، رضي الله عنه، فما يعرف أنه كتب بخطه هذه المصاحف، وإنما كتبها زيد بن ثابت في أيامه، ربما وغيره، فنسبت إلى عثمان لأنها بأمره وإشارته، ثم قرئت على الصحابة بين يدي عثمان، ثم نفذت إلى الآفاق، رضي الله عنه، وقد قال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا علي بن حرب الطائي، حدثنا قريش بن أنس، حدثنا سليمان التيمي، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد مولى بني أسيد، قال: لما دخل المصريون على عثمان ضربه بالسيف على يده فوقعت على: ﴿سَبِّحْهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّابِّحُ الْمَكِينُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، فمد يده فوقعت، والله إنها لأول يد خطت المفصل. وقال أيضاً: حدثنا أبو طاهر، حدثنا ابن وهب قال: سألت مالكا عن مصحف عثمان، فقال لي: ذهب. يحتمل أنه سأل عن المصحف الذي كتبه بيده، ويحتمل أن يكون سأل عن المصحف الذي تركه في المدينة، والله أعلم.

قلت: وقد كانت الكتابة في العرب قليلة جداً، وإنما أول ما تعلموا ذلك ما ذكره هشام بن محمد بن السائب الكلبي وغيره: أن بشر بن عبد الملك أكيدر دومة تعلم الخط من الأنبار، ثم قدم مكة فتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية فعلمه حرب بن أمية وابنه سفيان، وتعلمه عمر بن الخطاب من حرب بن أمية، وتعلمه معاوية من عمه سفيان بن حرب وقيل: إن أول من تعلمه من الأنبار قوم من طيء من قرية هناك يقال لها: بقعة، ثم هذبوه ونشروه في جزيرة العرب فتعلمه الناس. ولهذا قال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا عبد الله بن محمد الزهري، حدثنا سفيان عن مجاهد عن الشعبي قال: سألنا المهاجرين من أين تعلمتم الكتابة؟ قالوا: من أهل الحيرة. وسألنا أهل الحيرة: من أين تعلمتم الكتابة؟ قالوا: من أهل الأنبار.

قلت: والذي كان يغلب على زمان السلف الكتابة المكتوفة ثم هذبها أبو علي مقلة الوزير، وصار له في ذلك منهج وأسلوب في الكتابة، ثم قربها علي بن هلال البغدادي المعروف بابن الباب وسلك الناس وراءه. وطريقته في ذلك واضحة جيدة. والغرض أن الكتابة لما كانت في ذلك الزمان لم تحكم جيداً، وقع في كتابة المصاحف اختلاف في وضع الكلمات من حيث صناعة الكتابة لا من حيث المعنى، وصنف الناس في ذلك، واعتنى بذلك الإمام الكبير أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله، في كتابه فضائل القرآن، والحافظ أبو بكر بن أبي داود، رحمه الله، فبويا على ذلك، وذكر قطعة صالحة هي من صناعة القرآن، ليست مقصدنا ههنا؛ ولهذا نص الإمام مالك، رحمه الله، على أنه لا توضع المصاحف إلا على وضع كتابة الإمام، ورخص في ذلك غيره، واختلفوا في الشكل والنقط فمن مرخص ومن مانع، فأما كتابة السور وآياتها والتعشير والأجزاء والأحزاب فكثير في مصاحف زماننا، والأولى اتباع السلف الصالح. ثم قال البخاري: ذكر كتاب النبي ﷺ. وأورد فيه من حديث الزهري، عن ابن السباق، عن زيد بن ثابت، أن أبا بكر الصديق قال له: وكنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ وذكر نحو ما تقدم في جمعه للقرآن، وقد تقدم، وأورد حديث زيد بن ثابت في نزول: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [النساء: ٩٥]، وسيأتي الكلام عليه في سورة النساء إن شاء الله تعالى، ولم يذكر البخاري أحداً من الكتاب في هذا الباب سوى زيد بن ثابت، وهذا عجب، وكأنه لم يقع له حديث يورده سوى هذا، والله أعلم. وموضع هذا في كتاب السيرة عند ذكر كتابه عليه السلام. ثم قال البخاري، رحمه الله:

أنزل القرآن على سبعة أحرف

حدثنا سعيد بن عفير، حدثنا الليث، حدثني عقيل عن ابن شهاب قال: حدثني عبيد الله بن عبد الله؛ أن عبد الله بن عباس حدثه: أن رسول الله ﷺ قال: «أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف». وقد رواه - أيضاً - في بدء الخلق، ومسلم من حديث يونس، ومسلم - أيضاً - من حديث معمر، كلاهما عن الزهري بنحوه، ورواه ابن جرير من حديث الزهري به، ثم قال الزهري: بلغني أن تلك السبعة الأحرف إنما هي في الأمر الذي يكون واحداً لا تختلف في حلال ولا في حرام. وهذا مبسوط في الحديث الذي رواه الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام حيث قال: حدثنا يزيد ويحيى بن سعيد كلاهما عن حميد الطويل، عن أنس بن مالك، عن أبي بن كعب قال: ما حاك في صدري شيء منذ أسلمت، إلا أنني قرأت آية وقرأها آخر غير قراءتي فقلت: أقرأنيها رسول الله ﷺ فقال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فأمن رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أقرأني آية كذا وكذا؟ قال: «نعم»، وقال الآخر: أليس تقرئني آية كذا وكذا؟ قال: «نعم». فقال: «إن جبريل وميكائيل أتاني فقع جبريل عن يميني وميكائيل عن يساري، فقال جبريل: أقرأ القرآن على حرف، فقال ميكائيل: استزده، حتى بلغ سبعة أحرف وكل حرف شاف كاف». وقد رواه النسائي من حديث يزيد - وهو ابن هارون - ويحيى بن سعيد القطان كلاهما عن حميد الطويل، عن أنس، عن أبي بن كعب بنحوه. وكذا رواه ابن أبي عدي ومحمود بن ميمون الزعفراني ويحيى بن أيوب كلهم عن حميد به. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا أبو الوليد، حدثنا حماد بن سلمة، عن حميد، عن أنس، عن عبادة بن الصامت، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» فأدخل بينهما عبادة بن الصامت.

وقال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا يحيى بن سعيد عن إسماعيل بن أبي خالد، حدثني عبد الله بن عيسى عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي بن كعب، قال: كنت في المسجد فدخل رجل فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فقمنا جميعاً، فدخلنا على رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم

تنزيل القرآن على سبعة أحرف

دخل هذا فقرأ قراءة غير قراءة صاحبه، فقال لهما النبي ﷺ: «اقرأ»، فقرأ، فقال: «أصبتما». فلما قال لهما النبي ﷺ الذي قال كبر علي ولا إذا كنت في الجاهلية، فلما رأى الذي غشيني ضرب في صدري ففضضت عرقاً، وكأنا أنظر إلى رسول الله ﷺ فرقاً فقال: «يا أبي، إن ربي أرسل إلي أن أقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه أن هوّن على أمتي، فأرسل إلي أن أقرأه على حرفين، فرددت إليه أن هوّن على أمتي، فأرسل إلي أن أقرأه على سبعة أحرف، ولك بكل ردة مسألة تسألنيها». قال: «قلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي فيه الخلق حتى إبراهيم عليه السلام». وهكذا رواه مسلم من حديث إسماعيل بن أبي خالد به. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا محمد بن فضيل، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبيه، عن جده، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أمرني أن أقرأ القرآن على حرف واحد، فقلت: خفف عن أمتي، فقال: أقرأه على حرفين، فقلت: اللهم رب خفف عن أمتي، فأمرني أن أقرأه على سبعة أحرف من سبعة أبواب الجنة كلها شاف كاف».

وقال ابن جرير: حدثنا يونس عن ابن وهب: أخبرني هشام بن سعد، عن عبيد الله بن عمر، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي بن كعب، أنه قال: سمعت رجلاً يقرأ في سورة النحل قراءة تخالف قراءتي، ثم سمعت آخر يقرأها بخلاف ذلك، فانطلقت بهما إلى رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذين يقرآن في سورة النحل فسألتهما: من أقرأكما؟ فقالا: رسول الله ﷺ. فقلت: لأذهبن بكما إلى رسول الله ﷺ. إذ خالفتما ما أقراني رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأحدهما: «اقرأ». فقرأ، فقال: «أحسنت» ثم قال للآخر: «اقرأ». فقرأ، فقال: «أحسنت». قال أبي: فوجدت في نفسي وسوسة الشيطان حتى احمر وجهي، فعرف ذلك رسول الله ﷺ في وجهي، فضرب يده في صدري ثم قال: «اللهم أخسئ الشيطان عنه، يا أبي، أتاني أت من ربي فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد، فقلت: رب، خفف عني ثم أتاني الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرفين فقلت: رب، خفف عن أمتي، ثم أتاني الثالثة، فقال مثل ذلك وقلت له مثل ذلك، ثم أتاني الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف، ولك بكل ردة مسألة، فقلت: يا رب، اللهم اغفر لأمتي، يا رب، اغفر لأمتي، واختابت الثالثة شفاعاً لأمتي يوم القيامة». إسناده صحيح.

قلت: وهذا الشك الذي حصل لأبي في تلك الساعة هو، والله أعلم، السبب الذي لأجله قرأ عليه رسول الله ﷺ قراءة إبلاغ وإعلام ودواء لما كان حصل له سورة ﴿لَا يَكْفُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخرها لاشتغالها على قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنْ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ [البينة: ٢، ٣]، وهذا نظير تلاوته سورة الفتح حين أنزلت مرجعه، عليه السلام، من الحديبية على عمر بن الخطاب، وذلك لما كان تقدم له من الأسئلة لرسول الله ﷺ ولأبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْآرْثِيَ بِالْحَقِّ لِتُخَلَّغَ الْأَسْجِدُ لِلْحَرَامِ إِنَّ شَكَاةَ اللَّهِ مَا يَبِينُ﴾ [الفتح: ٢٧].

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن أبي ليلى، عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ كان عند أخبائه بني غفار، فأثاء جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف، قال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، فإن أمتي لا تطيق ذلك». ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين. قال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، فإن أمتي لا تطيق ذلك». ثم جاءه الثالثة قال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف قال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك». ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأياما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا.

وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائي من رواية شعبة به، وفي لفظ لأبي داود عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبي، إني أقرئت القرآن فقبل لي: على حرف أو حرفين؟ فقال الملك الذي معي: قل على حرفين. قلت: على حرفين. فقبل لي: على حرفين أو ثلاثة؟ فقال: الملك الذي معي: قل على ثلاثة. قلت: على ثلاثة. حتى بلغ سبعة أحرف ثم قال: ليس منها إلا شاف كاف إن قلت: سمياً عليماً، عزيزاً حكيماً، ما لم تختم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب». وقد روى ثابت بن قاسم نحوه من هذا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ومن كلام ابن مسعود، رضي الله عنه، نحو ذلك. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن علي الجعفي، عن زائدة، عن عاصم، عن زر، عن أبي قال: لقي رسول الله ﷺ جبريل عند أحجار المراء، فقال رسول الله ﷺ لجبريل: «إني بعثت إلى أمة أميين فيهم الشيخ العاسي، والعجوز الكبيرة، والغلام، فقال: مرهم فليقرؤوا القرآن على سبعة أحرف». وأخرجه الترمذي من حديث عاصم بن أبي النجود، عن زر، عن أبي بن كعب، به، وقال: حسن صحيح. وقد رواه أبو عبيد عن أبي النضر، عن شيبان، عن عاصم بن أبي النجود، عن زر، عن حذيفة أن رسول الله ﷺ لقي

جبريل عند أحجار المراء، فذكر الحديث، والله أعلم. وهكذا رواه الإمام أحمد عن عفان، عن حماد، عن عاصم، عن زر، عن حذيفة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لقيت جبريل عند أحجار المراء، فقلت: يا جبريل، إني أرسلت إلى أمة أمية؛ الرجل، والمرأة، والغلام، والجارية، والشيخ الفاني، الذي لم يقرأ كتاباً قط فقال: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف». وقال أحمد أيضاً: حدثنا وكيع وعبد الرحمن، عن سفيان، عن إبراهيم بن مهاجر، عن ربيعة بن جراش: حدثني من لم يكذبني - يعني حذيفة - قال: لقي النبي ﷺ جبريل عند أحجار المراء فقال: إن أمتك يقرؤون القرآن على سبعة أحرف، فمن قرأ منهم على حرف فليقرأ كما علم، ولا يرجع عنه. وقال عبد الرحمن: إن في أمتك الضعيف، فمن قرأ على حرف فلا يتحول منه إلى غيره رغبة عنه. وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه.

حديث آخر في معناه عن سليمان بن صرد: قال ابن جرير: حدثنا إسماعيل بن موسى السدي، حدثنا شريك عن أبي إسحاق، عن سليمان بن صرد - يرفعه - قال: «أتاني ملكان، فقال أحدهما: اقرأ. قال: على كم؟ قال: على حرف. قال: زده، حتى انتهى إلى سبعة أحرف». ورواه النسائي في اليوم والليلة عن عبد الرحمن بن محمد بن سلام عن إسحاق الأزرق عن القوام بن حوشب، عن أبي إسحاق، عن سليمان بن صرد قال: أتى أبي بن كعب رسول الله ﷺ برجلين اختلفا في القراءة، فذكر الحديث. وهكذا رواه أحمد بن منيع عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب به، ورواه أبو عبيد عن يزيد بن هارون، عن العوام، عن أبي إسحاق، عن سليمان بن صرد، عن أبي أنه أتى النبي ﷺ برجلين، فذكره. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق، عن فلان العبدى - قال ابن جرير: ذهب عني اسمه - عن سليمان بن صرد، عن أبي بن كعب قال: رحت إلى المسجد، فسمعت رجلاً يقرأ فقلت: من أقرأك؟ قال: رسول الله ﷺ، فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ، فقلت: استقرئ هذا. قال: فقرأ، فقال: «أحسنت». قال: قلت: إنك أقرأني كذا وكذا! فقال: «وأنت قد أحسنت». فقلت: قد أحسنت قد أحسنت. قال: فضرب بيده على صدري ثم قال: «اللهم أذهب عن أبي الشك». قال: ففضت عرقاً، وامتلاً جوفى فرقاً. قال: ثم قال: «إن الملكين أتياي، فقال أحدهما: اقرأ القرآن على حرف، وقال الآخر: زده. قال: قلت: زدني. فقال: اقرأه على حرفين، حتى بلغ سبعة أحرف فقال: اقرأه على سبعة أحرف». وقد رواه أبو عبيد عن حجاج، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن شتير العبدى، عن سليمان بن صرد عن أبي، عن النبي ﷺ بنحو ذلك، ورواه أبو داود عن أبي داود الطيالسي، عن همام، عن قتادة، عن يحيى بن يَعمَر، عن سليمان بن صرد، عن أبي بن كعب بنحوه. فهذا الحديث محفوظ من حيث الجملة عن أبي بن كعب، والظاهر أن سليمان بن صرد الخزاعي شاهد على ذلك، والله أعلم.

حديث آخر عن أبي بكرة: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «أتاني جبريل وميكائيل، عليهما السلام، فقال جبريل: اقرأ القرآن على حرف واحد، فقال ميكائيل: استزده، فقال: اقرأ على سبعة أحرف، كلها شاف كاف، ما لم تختتم آية رحمة بآية عذاب أو آية عذاب برحمة». وهكذا رواه ابن جرير عن أبي كُرَيْب، عن زيد بن الحباب، عن حماد بن سلمة به، وزاد في آخره: كقولك: هلم وتعال.

حديث آخر عن سمرة: قال الإمام أحمد: حدثنا بهز وعفان كلاهما عن حماد بن سلمة، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سمرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف». إسناد صحيح، ولم يخرجوه.

حديث آخر عن أبي هريرة: قال الإمام أحمد: حدثنا أنس بن عياض، حدثني أبو حازم، عن أبي سلمة - لا أعلمه إلا عن أبي هريرة - أن رسول الله ﷺ قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف، مرأه في القرآن كفر - ثلاث مرات - فما علمتم منه فاعملوا وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه». ورواه النسائي عن قتبية عن أبي ضمرة أنس بن عياض به.

حديث آخر عن أم أيوب: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان عن عبيد الله - وهو ابن أبي يزيد - عن أبيه، عن أم أيوب - يعني امرأة أبي أيوب الأنصارية - أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف، أيها قرأت جزاك». وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه أحد من أصحاب الكتب الستة.

حديث آخر عن أبي جهيم: قال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن يزيد بن خصيفة، عن مسلم بن سعيد مولى الحضرمي، وقال غيره: عن بسر بن سعيد، عن أبي جهيم الأنصاري؛ أن رجلين اختلفا في آية من القرآن، كلاهما يزعم أنه

تنزيل القرآن على سبعة أحرف

تلقيها من رسول الله ﷺ، فمشيا جميعاً حتى أتيا رسول الله ﷺ، فذكر أبو جهيم أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف، فلا تماروا، فإن وراءه فيه كفر». هكذا رواه أبو عبيد على الشك، وقد رواه الإمام أحمد على الصواب، فقال: حدثنا أبو سلمة الخزازي، حدثنا سليمان بن بلال، حدثني يزيد بن خصيفة، أخبرني بسر بن سعيد، حدثني أبو جهيم؛ أن رجلين اختلفا في آية من القرآن فقال هذا: تلقيتها من رسول الله ﷺ وقال هذا: تلقيتها من رسول الله ﷺ فسألا النبي ﷺ فقال: «القرآن يقرأ على سبعة أحرف، فلا تماروا في القرآن، فإن وراءه في القرآن كفر». وهذا إسناد صحيح - أيضاً - ولم يخرجوه.

ثم قال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث، عن يزيد بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن بسر بن سعيد، عن أبي قيس - مولى عمرو بن العاص - أن رجلاً قرأ آية من القرآن، فقال له عمرو - يعني ابن العاص - : إنما هي كذا وكذا، بغير ما قرأ الرجل، فقال الرجل: هكذا أقرأنيها رسول الله ﷺ فخرجنا إلى رسول الله ﷺ حتى أتينا، فذكرنا ذلك له، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف، فإني ذلك قرأتكم أصبتم، فلا تماروا في القرآن، فإن وراءه فيه كفر». ورواه الإمام أحمد عن أبي سلمة الخزازي، عن عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد، عن بسر بن سعيد، عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص به نحوه، وفيه: «فإن المراء فيه كفر أو إنه الكفر به». وهذا - أيضاً - حديث جيد.

حديث آخر عن ابن مسعود: قال ابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني حيوة بن شريح، عن عقيل بن خالد، عن سلمة بن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبيه عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «كان الكتاب الأول نزل من باب واحد وعلى حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب وعلى سبعة أحرف: زاجر، وأمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به، وانتهوا عما نهيتهم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا: آمنا به كل من عند ربنا». ثم رواه عن أبي كُرَيْب عن المحاربي، عن ضمرة بن حبيب، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن ابن مسعود من كلامه وهو أشبه. والله أعلم.

فصل

قال أبو عبيد: قد تواترت هذه الأحاديث كلها عن الأحرف السبعة إلا ما حدثني عفان، عن حماد بن سلمة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة بن جندب، عن النبي ﷺ قال: «نزل القرآن على ثلاثة أحرف». قال أبو عبيد: ولا نرى المحفوظ إلا السبعة لأنها المشهورة، وليس معنى تلك السبعة أن يكون الحرف الواحد يقرأ على سبعة أوجه، وهذا شيء غير موجود، ولكنه عندنا أنه نزل سبع لغات متفرقة في جميع القرآن من لغات العرب، فيكون الحرف الواحد منها بلغة قبيلة والثاني بلغة أخرى سوى الأولى، والثالث بلغة أخرى سواهما، كذلك إلى السبعة، وبعض الأحياء أسعد بها وأكثر حظاً فيها من بعض، وذلك بين في أحاديث تترى، قال: وقد روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: نزل القرآن على سبع لغات، منها خمس بلغة العجز من هوازن. قال أبو عبيد: والعجز هم بنو أسعد بن بكر، وجشم بن بكر، ونصر بن معاوية، وثقيف هم عليا هوازن الذين قال أبو عمرو بن العلاء: أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم يعني دارم. ولهذا قال عمر: لا يملئ في مصاحفنا إلا غلمان قريش أو ثقيف. قال ابن جرير: واللغتان الأخريان: قريش وخزاعة رواه قتادة عن ابن عباس، ولكن لم يلقه. قال أبو عبيد: وحدثنا هُشَيْم عن حصين بن عبد الرحمن، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس؛ أنه كان يسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر. قال أبو عبيد: يعني: أنه كان يستشهد به على التفسير. حدثنا هُشَيْم عن أبي بشر، عن سعيد أو مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (١٧) [الأنشاق: ١٧]، قال: ما جمع وأنشد:

قَد اتَّسَقْنَ لَوْ يَجِدْنَ سَائِقَا

حدثنا هُشَيْم، أنبأنا حصين، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالْبَأْسَاءِ﴾ (١٤) [النازعات: ١٤]، قال: الأرض، قال: وقال ابن عباس: قال أمية بن أبي الصلت:

عِنْدَهُمْ لَحْمٌ بِحَرٍ وَلَحْمٌ سَاهِرَةٌ

حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: كنت لا أدري ما ﴿قَاطِرٌ أَسْكَوْتِ وَالْأَرْضِ﴾ [قاطر: ١]، حتى أتاني أعربيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها. يقول: أنا ابتدأتها. إسناد جيد أيضاً. وقال

الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري، رحمه الله، بعد ما أورد طرفاً مما تقدم: وصح وثبت أن الذي نزل به القرآن من ألسن العرب البعض منها دون الجمع، إذا كان معلوماً أن السنتها ولغاتها أكثر من سبع بما يعجز عن إحصائه ثم قال: وما برهانك على ما قلته دون أن يكون معناه ما قاله مخالفوك، من أنه نزل بأمر وزجر، وترغيب وترهيب، وقصص ومثل، ونحو ذلك من الأقوال فقد علمت قائل ذلك من سلف الأمة وخيار الأئمة؟ قيل له: إن الذين قالوا ذلك لم يدعوا أن تأويل الأخبار التي تقدم ذكرها، هو ما زعمت أنهم قالوه في الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن دون غيره فيكون ذلك لقولنا مخالفاً، وإنما أخبروا أن القرآن نزل على سبعة أحرف، يعنون بذلك أنه نزل على سبعة أوجه، والذي قالوا من ذلك كما قالوا، وقد روينا بمثل الذي قالوا من ذلك عن رسول الله ﷺ وعن جماعة من الصحابة، من أنه نزل من سبعة أبواب الجنة، كما تقدم. يعني كما تقدم في رواية عن أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود: أن القرآن نزل من سبعة أبواب الجنة. قال ابن جرير: والأبواب السبعة من الجنة هي المعاني التي فيها من الأمر والنهي، والترغيب والترهيب، والقصص والمثل، التي إذا عمل بها العامل وانتهى إلى حدودها المنتهي، استوجب بها الجنة.

ثم بسط القول في هذا بما حاصله: أن الشارع رخص للأمة التلاوة على سبعة أحرف، ثم لما رأى الإمام أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، اختلاف الناس في القراءة، وخاف من تفرق كلمتهم، جمعهم على حرف واحد، وهو هذا المصحف الإمام، قال: واستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة، ورأت أن فيما فعله من ذلك الرشد والهداية، وتركت القراءة الأحرف الستة التي عزم عليها إمامها العادل في تركها طاعة منها له، ونظر منها لأنفسها وعن بعدها من سائر أهل ملتها، حتى درست من الأمة معرفتها، وتعتف آثارها، فلا سبيل اليوم لأحد إلى القراءة بها لدثورها وغفو آثارها. إلى أن قال: فإن قال من ضعفت معرفته: وكيف جاز لهم ترك قراءة أقرأهموها رسول الله ﷺ وأمرهم بقراءتها؟ قيل: إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض، وإنما كان أمر إباحة ورخصة؛ لأن القراءة بها لو كانت فرضاً عليهم لوجب أن يكون العلم بكل حرف من تلك الأحرف السبعة عند من يقوم بنقله الحجة، ويقطع خبره العذر، ويزيل الشك من قراءة الأمة، وفي تركهم نقل ذلك كذلك أوضح الدليل على أنهم كانوا في القراءة بها مخيرين. إلى أن قال: فأما ما كان من اختلاف القراءة في رفع حرف ونصبه وجره وتسكين حرف وتحريكه، ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق الصورة في معنى قول النبي ﷺ: «أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف» يعزل؛ لأن المراء في مثل هذا ليس بكفر، في قول أحد من علماء الأمة، وقد أوجب ﷺ بالمراء في الأحرف السبعة الكفر، كما تقدم.

الحديث الثاني: قال البخاري، رحمه الله: حدثنا سعيد بن عفير، حدثنا الليث، حدثنا عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير: أن المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن عبد القاريء حدثاه أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئها رسول الله ﷺ، فكذت أسأوره في الصلاة، فتبصرت حتى سلم فليته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ. فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئها! فقال رسول الله ﷺ: «أرسله، أقرأ يا هشام»، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت»، ثم قال: «أقرأ يا عمر»، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت». إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فأقرؤوا ما تيسر منه». وقد رواه الإمام أحمد والبخاري - أيضاً - ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي من طرق عن الزهري، ورواه الإمام أحمد - أيضاً - عن ابن مهدي، عن مالك، عن الزهري، عن عروة، عن عبد الرحمن بن عبد، عن عمر، فذكرت الحديث بنحوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حرب بن ثابت، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن أبيه، عن جده قال: قرأ رجل عند عمر فغير عليه فقال: قرأت على رسول الله ﷺ فلم يغير عليّ قال: فاجتمعا عند النبي ﷺ، فقرأ الرجل على النبي ﷺ فقال له: «قد أحسنت». قال: فكان عمر وجد من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «يا عمر، إن القرآن كله صواب، ما لم يجعل عذاب مغفرة أو مغفرة عذاباً». وهذا إسناد حسن. وحرب بن ثابت هذا يكنى بأبي ثابت، لا نعرف أحداً جرحه.

وقد اختلف العلماء في معنى هذه السبعة الأحرف وما أريد منها على أقوال: قال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي المالكي في مقدمات تفسيره: وقد اختلف العلماء في المراء بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً، ذكرها أبو حاتم محمد بن حبان البستي، ونحن نذكر منها خمسة أقوال.

تنزيل القرآن على سبعة أحرف

قلت: ثم سردها القرطبي، وحاصلها ما أنا مورده ملخصاً: فالأول - وهو قول أكثر أهل العلم، منهم سفيان بن عيينة، وعبد الله بن وهب، وأبو جعفر بن جرير، والطحاوي -: أن المراد سبعة أوجه من المعاني المتقاربة بالفاظ مختلفة نحو: أقبل وتعال وهلم وقال الطحاوي: وأبين ما ذكر في ذلك حديث أبي بكره قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال: اقرأ على حرف، فقال ميكائيل: استزده فقال: اقرأ على حرفين، فقال ميكائيل: استزده، حتى بلغ سبعة أحرف، فقال: اقرأ فكل شاف كاف إلا أن تخلص آية رحمة بآية عذاب، أو آية عذاب بآية رحمة، على نحو هلم وتعال وأقبل واذهب واسرع وعجل. وروي عن ورقاء عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، أنه كان يقرأ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنِفِقُونَ وَالْمُنِفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا نَفَقًا فَرَسًا﴾ [البقرة: ٢٠]: «مروا فيه» «سعوا فيه». قال الطحاوي وغيره: وإنما كان ذلك رخصة أن يقرأ الناس القرآن على سبع لغات، وذلك لما كان يتعسر على كثير من الناس التلاوة على لغة قريش، وقرأه رسول الله ﷺ لعدم علمهم بالكتابة والضبط وإتقان الحفظ. وقد ادعى الطحاوي والقاضي الباقلاني والشيخ أبو عمرو بن عبد البر أن ذلك كان رخصة في أول الأمر، ثم نسخ بزوال العذر وتيسير الحفظ وكثرة الضبط وتعلم الكتابة. قلت: وقال بعضهم: إنما كان الذي جمعهم على قراءة واحدة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، أحد الخلفاء الراشدين المهديين المأمور باتباعهم، وإنما جمعهم عليها لما رأى من اختلافهم في القراءة المفضية إلى تفرق الأمة وتكفير بعضهم بعضاً، فرتب لهم المصاحف الأئمة على العرصة الأخيرة التي عارض بها جبريل رسول الله ﷺ في آخر رمضان من عمره، عليه الصلاة والسلام، وعزم عليهم ألا يقرؤوا بغيرها، وألا يتعاطا الرخصة التي كانت لهم فيها سعة، ولكنها أفضت إلى الفرقة والاختلاف، كما ألزم عمر بن الخطاب الناس بالطلاق الثلاثة المجموعة حين تنابعوا فيها وأكثرها منها، قال: فلو أنا أمضيها عليهم، فأمضاه عليهم. وكان كذلك ينهي عن المتعة في أشهر الحج لثلا ينقطع زيارة البيت في غير أشهر الحج. وقد كان أبو موسى يفتي بالتمتع فتياء اتباعاً لأمير المؤمنين وسمعا وطاعة لأئمة المهديين.

القول الثاني: أن القرآن نزل على سبعة أحرف، وليس المراد أن جميعه يقرأ على سبعة أحرف، ولكن بعضه على حرف وبعضه على حرف آخر. قال الخطابي: وقد يقرأ بعضه بالسبع لغات كما في قوله: ﴿وَعَبْدٌ أَلْفُتُونُ﴾ [المائدة: ٦٠] و ﴿يَرْتَعُ وَيَلْمُ﴾ [يوسف: ١٢]. قال القرطبي: ذهب إلى هذا القول أبو عبيد، واختاره ابن عطية. قال أبو عبيد: وبعض اللغات أسعد به من بعض، وقال القاضي الباقلاني: ومعنى قول عثمان: إنه نزل بلسان قريش، أي: معظمه، ولم يبق دليل على أن جميعه بلغة قريش كله، قال الله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، ولم يقل: قرشياً. قال: واسم العرب يتناول جميع القبائل تناولاً واحداً، يعني حجازها ويمناها، وكذلك قال الشيخ أبو عمرو بن عبد البر، قال: لأن غير لغة قريش موجودة في صحيح القراءات بتحقيق الهمزات، فإن قرشياً لا تهمز. وقال ابن عطية: قال ابن عباس: ما كنت أدري ما معنى: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]، حتى سمعت أعرابياً يقول لبشر ابتداً حفرها: أنا فطرتها.

القول الثالث: أن لغات القرآن السبع منحصرة في مضر على اختلاف قبائلها خاصة؛ لقول عثمان: إن القرآن نزل بلغة قريش، وقريش هم بنو النضر بن الحارث على الصحيح من أقوال أهل النسب، كما نطق به الحديث في سنن ابن ماجه وغيره.

القول الرابع - وحكاه الباقلاني عن بعض العلماء -: أن وجه القراءات ترجع إلى سبعة أشياء، منها ما تتغير حركته ولا تتغير صورته ولا معناه مثل: ﴿فَيُخَيِّطُ صَدْرِي﴾ [الشعراء: ١٣] و «يضيّق»، ومنها ما لا تتغير صورته ويختلف معناه مثل: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَيِّزْ أَسْفَارَنَا﴾ [سبا: ١٩] و «باعذب بين أسفارنا»، وقد يكون الاختلاف في الصورة والمعنى بالحرف مثل: ﴿تَنْشُرُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] و «تَنْشُرُهَا»، أو بالكلمة مع بقاء المعنى مثل: ﴿كَأَلَيْهِنَّ أَلَمْتُوْشُ﴾ [الفارقة: ٥]، أو كالصوف المنفوش أو باختلاف الكلمة بالتقدم والتأخر مثل: ﴿وَبَعَثَ سَكْرَةَ النَّوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩]، أو «سكرة الحق بالموت»، أو بالزيادة مثل «تسع وتسعون نعجة أنثى»، وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين. «فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور».

القول الخامس: أن المراد بالأحرف السبعة معاني القرآن وهي: أمر، ونهي، ووعد، ووعيد، وقصص، ومجادلة، وأمثال. قال ابن عطية: وهذا ضعيف؛ لأن هذه لا تسمى حروفاً، وأيضاً فالإجماع أن التوسعة لم تقع في تحليل حلال، ولا في تغيير شيء من المعاني، وقد أورد القاضي الباقلاني في هذا حديثاً، ثم قال: وليست هذه هي التي أجاز لهم القراء بها.

فصل

قال القرطبي: قال كثير من علمائنا كالدودي وابن أبي صفرة وغيرهما: هذه القراءات السبع التي تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي اتسعت الصحابة في القراءة بها، وإنما هي راجعة إلى حرف واحد من السبعة وهو الذي جمع عليه عثمان المصحف. ذكره ابن النحاس وغيره. قال القرطبي: وقد سوغ كل واحد من القراء السبعة قراءة الآخر وأجازها، وإنما اختار القراءة المنسوبة إليه لأنه رآها أحسن والأولى عنده. قال: وقد أجمع المسلمون في هذه الأمصار على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة فيما رووه ورأوه من القراءات، وكتبوا في ذلك مصنفات واستمر الإجماع على الصواب وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب.

قال البخاري، رحمه الله:

تأليف القرآن

حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف: أن ابن جريج أخبرهم قال: وأخبرني يوسف بن ماهك قال: إني لعند عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، إذ جاءها عراقي فقال: أي الكفن خير؟ قالت: ويحك! وما يضرك، قال: يا أم المؤمنين، أريني مصحفك، قالت: لم؟ قال: لعلني أولف القرآن عليه، فإنه يقرأ غير مؤلف، قالت: وما يضرك أيه قرأت قبل، إنما أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء: ولا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب: ﴿بِئْسَ الْكَاذِبُ مَوَدُّهُمْ وَالْكَافَّةُ أَخُوهُمْ وَأَمْرٌ﴾ [الفر: ٤٦]، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده، قال: فأخرجت له المصحف فأملت عليه أي السور. وهكذا رواه النسائي من حديث ابن جريج به، والمراد من التأليف ههنا ترتيب سورة. وهذا العراقي سأل أولاً عن أي الكفن خير، أي: أفضل، فأخبرته عائشة، رضي الله عنها، أن هذا لا ينبغي أن يعتنى بالسؤال عنه ولا القصد له ولا الاستعداد، فإن في هذا تكلفاً لا طائل تحته، وكانوا في ذلك الزمان يصفون أهل العراق بالتعنت في الأسئلة، كما سأل بعضهم عبد الله بن عمر عن دم البعوض يصيب الثوب فقال عبد الله بن عمر: انظروا أهل العراق، يسألون عن دم البعوضة، وقد قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ! ولهذا لم يتألف مع عائشة، رضي الله عنها، في الكلام لثلاثي يظن أن ذلك أمر مهم، وإلا فقد روى أحمد وأهل السنن من حديث سمرة وابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «البسوا من ثيابكم البياض، وكفتموا فيها موتاكم»، فإنها أظهر وأطيب وصححه الترمذي من الوجهين. وفي الصحيحين عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: كفن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب بيض سحولية، ليس فيها قميص ولا عمامة. وهذا محرر في باب الكفن من كتاب الجنائز. ثم سألها عن ترتيب القرآن فانتقل إلى سؤال كبير، وأخبرها أنه يقرأ غير مؤلف، أي: غير مرتب السور. وكان هذا قبل أن يبعث أمير المؤمنين عثمان، رضي الله عنه، إلى الأفاق بالمصاحف الأئمة المؤلفة على هذا الترتيب المشهور اليوم، وقبل الإلزام به، والله أعلم. ولهذا أخبرته: أنك لا يضرك بأي سورة بدأت، وأن أول سورة نزلت فيها ذكر الجنة والنار، وهذه إن لم تكن «اقرأ» فقد يحتمل أنها أرادت اسم جنس لسور المفصل التي فيها الوعد والوعيد، ثم لما انتقاد الناس إلى التصديق أمروا ونهوا بالتدريج أولاً فأولاً، وهذا من حكمة الله ورحمته، ومعنى هذا الكلام: أن هذه السورة أو السور التي فيها ذكر الجنة والنار ليس البداء بها في أوائل المصاحف، مع أنها من أول ما نزل، وهذه البقرة والنساء من أوائل ما في المصحف، وقد نزلت عليه في المدينة وأنا عنده.

فأما ترتيب الآيات في السور فليس في ذلك رخصة، بل هو أمر توقفي عن رسول الله ﷺ، كما تقدم تقرير ذلك؛ ولهذا لم ترخص له في ذلك، بل أخرجت له مصحفها، فأملت عليه أي السور، والله أعلم. وقول عائشة: لا يضرك بأي سورة بدأت، يدل على أنه لو قدم بعض السور أو آخر، كما دل عليه حديث حذيفة وابن مسعود، وهو في الصحيح أنه، عليه السلام، قرأ في قيام الليل بالبقرة ثم النساء ثم آل عمران. وقد حكى القرطبي عن أبي بكر بن الأنباري في كتاب الرد أنه قال: فمن آخر سورة مقدمة أو قدم أخرى مؤخرة كمن أفسد نظم الآيات وغير الحروف والآيات، وكان مستنده اتباع مصحف عثمان، رضي الله عنه، فإنه مرتب على هذا النحو المشهور، والظاهر أن ترتيب السور فيه منه ما هو راجع إلى رأي عثمان، وذلك ظاهر في سؤال ابن عباس له في ترك البسملة في أول براءة، وذكره الأنفال من الطول، والحديث في الترمذي وغيره بإسناد جيد وقوي. وقد ذكرنا عن

علي أنه كان عزم على ترتيب القرآن بحسب نزوله. ولقد حكى القاضي الباقلاني: أن أول مصحفه كان: «اقرأ باسم ربك الأكرم» وأول مصحف ابن مسعود: «مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ» ثم البقرة، ثم النساء على ترتيب مختلف، وأول مصحف أبي: «الْحَمْدُ لِلَّهِ»، ثم النساء، ثم آل عمران، ثم الأنعام، ثم المائدة، ثم كذا على اختلاف شديد، ثم قال القاضي: ويحتمل أن ترتيب السور في المصحف على ما هو عليه اليوم من اجتهاد الصحابة، رضي الله عنهم، وكذا ذكره مكي في تفسير سورة براءة قال: فأما ترتيب الآيات والبسملة في الأوائل فهو من النبي ﷺ.

وقال ابن وهب في جامعه: سمعت سليمان بن بلال يقول: سئل ربيعة: لم قدمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة؟ فقال: قدمت وألف القرآن على علم ممن ألفه، وقد أجمعوا على العلم بذلك، فهذا مما ينتهي إليه ولا يسأل عنه. قال ابن وهب: وسمعت مالكا يقول: إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي ﷺ. قال أبو الحسن بن بطال: إنا نجد تأليف سوره في الرسم والخط خاصة ولا يعلم أن أحدا منهم قال: إن ترتيب ذلك واجب في الصلاة وفي قراءة القرآن ودرسه، وأنه لا يحل لأحد أن يقرأ الكهف قبل البقرة، ولا الحج قبل الكهف، ألا ترى إلى قول عائشة: ولا يضرك أیه قرأت قبل. وقد كان النبي ﷺ يقرأ في الصلاة السورة في ركعة، ثم يقرأ في الركعة الأخرى بغير السورة التي تليها. وأما ما روي عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوساً. وقالوا: إنما ذلك منكوس القلب، فإنما عنيا بذلك من يقرأ السورة منكوسة فيبتدئ بآخرها إلى أولها، فإن ذلك حرام محذور.

ثم قال البخاري: حدثنا آدم، عن شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت عبد الرحمن بن يزيد قال: سمعت ابن مسعود يقول في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: إنهن من العتاق الأول، وهن من تلادي. انفرد البخاري بإخراجه والمراد منه ذكر ترتيب هذه السور في مصحف ابن مسعود كالمصاحف العثمانية، وقوله: «من العتاق الأول» أي: من قديم ما نزل، وقوله: «وهن من تلادي» أي: من قديم ما قنيت وحفظت. والتالذ في لغتهم: قديم المال والمتاع، والطارف: حديثه وجديده، والله أعلم. وحدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، حدثنا أبو إسحاق: سمع البراء بن عازب يقول: تعلمت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَكْبَرُ﴾ قبل أن يقدم النبي ﷺ. وهذا متفق عليه، وهو قطعة من حديث الهجرة، والمراد منه أن ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَكْبَرُ﴾ مكية نزلت قبل الهجرة، والله أعلم. ثم قال: حدثنا عبدان، عن أبي حمزة، عن الأعمش، عن شقيق قال: قال عبد الله: لقد علمت النظائر التي كان النبي ﷺ يقرأهن اثنين اثنين في كل ركعة، فقام عبد الله ودخل معه علقمة، وخرج علقمة فسألناه فقال: عشرون سورة من أول المفصل على تأليف ابن مسعود، آخرهن من الحواميم حم الدخان وعم يتساءلون. وهذا التأليف الذي عن ابن مسعود غريب مخالف لتأليف عثمان، رضي الله عنه، فإن المفصل في مصحف عثمان، رضي الله عنه، من سورة الحجرات إلى آخره وسورة الدخان، لا تدخل فيه بوجه، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن الطائفي، عن عثمان بن عبد الله بن أوس الثقفي عن جده أوس بن حذيفة قال: كنت في الوفد الذين أتوا النبي ﷺ فذكر حديثاً فيه: أن رسول الله ﷺ كان يسمر معهم بعد العشاء فمكث عنا ليلة لم يأتنا، حتى طال ذلك علينا بعد العشاء. قال: قلنا: ما أمكنك عنا يا رسول الله؟ قال: «طراً علي حزب من القرآن، فأردت ألا أخرج حتى أقضيه». قال: فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ حين أصبحنا، قال: قلنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة سورة، وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل من قاف حتى يختم. ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى الطائفي به، وهذا إسناده حسن.

فصل

فأما نقط المصحف وشكله، فيقال: إن أول من أمر به عبد الملك بن مروان، فتصدى لذلك الحجاج وهو بواسط، فأمر الحسن البصري ويحيى بن يعمر ففعلوا ذلك، ويقال: إن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلي، وذكروا أنه كان لمحمد بن سيرين مصحف قد نقطه له يحيى بن يعمر، والله أعلم. وأما كتابة الأعراس على الحواشي فينسب إلى الحجاج أيضاً، وقيل: بل أول من فعله المأمون، وحكى أبو عمرو الداني عن ابن مسعود أنه كره التعشير في المصحف، وكان يحكه، وكره مجاهد ذلك أيضاً. وقال مالك: لا بأس به بالحبر، فأما بالألوان المصبغة فلا. وأكره تعداد آي السور في أولها في المصاحف الأمهات، فأما ما يتعلم فيه الغلمان فلا أرى به بأساً.

وقال قتادة: بدؤوا فنقطوا، ثم خمسوا، ثم عشروا. وقال يحيى بن أبي كثير: أول ما أحدثوا النقط على الباء والتاء والثاء، وقالوا: لا بأس به، هو نور له، أحدثوا نقطاً عند آخر الآي، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم. ورأى إبراهيم النخعي فاتحة سورة كذا، فأمر بمحوها وقال: قال ابن مسعود: لا تخلطوا بكتاب الله ما ليس فيه. قال أبو عمرو الداني: ثم قد أطبق المسلمون في ذلك في سائر الآفاق على جواز ذلك في الأمهات وغيرها. ثم قال البخاري، رحمه الله:

كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ

قال مسروق عن عائشة، عن فاطمة، رضي الله عنها: أسر إلي رسول الله ﷺ: إن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة وأنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلي. هكذا ذكره معلقاً وقد أسنده في موضع آخر. ثم قال: حدثنا يحيى بن قزعة، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن الزهري، عن عبد الله بن عبيد الله عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان؛ لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة، وهذا الحديث متفق عليه، وقد تقدم الكلام عليه في أول الصحيح وما فيه من الحكم والفوائد، والله أعلم. ثم قال: حدثنا خالد بن يزيد، حدثنا أبو بكر، عن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: كان يعرض على النبي ﷺ القرآن كل عام مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه، وكان يعتكف كل عام عشراً فاعتكف عشرين في العام الذي قبض. ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من غير وجه عن أبي بكر - وهو ابن عياش - عن أبي حصين، واسمه عثمان بن عاصم، به. والمراد من معارضته له بالقرآن كل سنة: مقابلته على ما أوحاه إليه عن الله تعالى، ليبقى ما بقي، ويذهب ما نسخ توكيداً، أو استنباطاً وحفظاً؛ ولهذا عرضه في السنة الأخيرة من عمره، عليه السلام، على جبريل مرتين، وعارضه به جبريل كذلك؛ ولهذا فهم، عليه السلام، اقتراب أجله. وعثمان، رضي الله عنه، جمع المصحف الإمام على العرصة الأخيرة، وخص بذلك رمضان من بين الشهور؛ لأن ابتداء الإحياء كان فيه؛ ولهذا يستحب دراسة القرآن وتكراره فيه، ومن ثم اجتهاد الأئمة فيه في تلاوة القرآن، كما تقدم ذكرنا لذلك.

القراء من أصحاب النبي ﷺ

حدثنا حفص بن عمر، حدثنا شعبة، عن عمرو، عن إبراهيم، عن مسروق: ذكر عبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود، فقال: لا أزال أحبه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله، وسالم، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب»، رضي الله عنهم. وقد أخرجه البخاري في المناقب في غير موضع، ومسلم والنسائي من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة به. وأخرجاه والترمذي والنسائي - أيضاً - من حديث الأعمش عن أبي وائل، عن مسروق به. فهؤلاء الأربعة اثنان من المهاجرين الأولين عبد الله بن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة، وقد كان سالم هذا من سادات المسلمين وكان يؤم الناس قبل مقدم النبي ﷺ في المدينة، واثنان من الأنصار معاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وهما سيدان كبيران، رضي الله عنهم أجمعين. ثم قال: حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثنا شقيق بن سلمة قال: خطبنا عبد الله فقال: والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبي ﷺ أنني من أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم. قال شقيق: فجلست في الحلق أسمع ما يقولون، فما سمعت راداً يقول غير ذلك.

حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة قال: كنا بحمص، فقرأ ابن مسعود سورة يوسف فقال رجل: ما هكذا أنزلت، فقال: قرأت على رسول الله ﷺ فقال: «أحسنست» ووجد منه ريح الخمر، فقال: أتجترى أن تكذب بكتاب الله وتشرب الخمر؟! فجلده الحد. حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثنا مسلم، عن مسروق قال: قال عبد الله: والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، ولو أعلم أحدا أعلم مني ببلغه الإبل لركبت إليه. وهذا كله حق وصدق، وهو من إخبار الرجل بما يعلم عن نفسه ما قد يجهله غيره، فيجوز ذلك للحاجة، كما قال تعالى إخباراً عن يوسف لما قال لصاحب مصر: «أَتَمَنَّاكَ عَلَيَّ خَزَائِنَ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكَ» [يوسف: ٥٥]، ويكفيه مدحاً وثناء قول رسول الله ﷺ: «استقرئوا القرآن من أربعة»، فبدا به.

وقال أبو عبيد: حدثنا مصعب بن المقدام عن سفيان عن الأعمش عن إبراهيم، عن علقمة، عن عمر عن النبي ﷺ قال: «من أحب أن يقرأ القرآن غصاً كما أنزل فليقرأه على حرف ابن أم عبد». وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي معاوية، عن الأعمش به مطولاً، وفيه قصة، وأخرجه الترمذي والنسائي من حديث أبي معاوية وصححه الدارقطني، وقد ذكرته في مسند عمر، وفي

مسند الإمام أحمد - أيضاً - عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ومن أحب أن يقرأ القرآن غصاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»، وابن أم عبد هو عبد الله بن مسعود، وكان يعرف بذلك. ثم قال البخاري: حدثنا حفص بن عمر، حدثنا همام، حدثنا قتادة قال: سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ؟ قال: أربعة، كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. ورواه مسلم من حديث همام.

ثم قال البخاري: تابعه الفضل، عن حسين بن واقد، عن ثمامة، عن أنس. حدثنا معلى بن أسد، حدثنا عبد الله بن المثنى قال: حدثني ثابت البناني وثمامة عن أنس بن مالك قال: مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. قال: ونحن ورثناه. فهذا الحديث ظاهره أنه لم يجمع القرآن من الصحابة سوى هؤلاء الأربعة فقط، وليس هذا هكذا، بل الذي لا شك فيه أنه جمعه غير واحد من المهاجرين أيضاً، ولعل مراده: لم يجمع القرآن من الأنصار؛ ولهذا ذكر الأربعة من الأنصار، وهم أبي بن كعب في الرواية الأولى المتفق عليها وفي الثانية من أفراد البخاري: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، وكلهم مشهورون إلا أبا زيد هذا، فإنه غير معروف إلا في هذا الحديث، وقد اختلف في اسمه فقال الواقدي: اسمه قيس بن السكن بن قيس بن زعواء بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار. وقال ابن نمير: اسمه سعد بن عبيد بن النعمان بن قيس بن عمرو بن زيد بن أمية من الأوس. وقيل: هما اثنان جمعا القرآن، حكاه أبو عمر بن عبد البر، وهذا بعيد وقول الواقدي أصبح لأنه خزرجي؛ لأن أنساً قال: ونحن ورثناه، وهم من الخزرج، وفي بعض ألفاظه: وكان أحد عمومتي. وقال قتادة عن أنس: افتخر الحيان الأوس والخزرج، فقالت الأوس: منا غسيل الملائكة حفظة بن أبي عامر، ومنا الذي حمته الدبُرُ عاصم بن ثابت، ومنا الذي اهتز لموته العرش سعد بن معاذ، ومنا من أجزت شهادته بشهادة رجلين خزيمه بن ثابت. فقالت الخزرج: منا أربعة جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد.

فهذا كله يدل على صحة قول الواقدي، وقد شهد أبو زيد هذا بדרך، فيما ذكره غير واحد. وقال موسى بن عقبة عن الزهري: قتل أبو زيد قيس بن السكن يوم جسر أبي عبيدة على رأس خمس عشرة من الهجرة، والدليل على أن من المهاجرين من جمع القرآن أن الصديق، رضي الله عنه، قدّمه رسول الله ﷺ في مرضه إماماً على المهاجرين والأنصار، مع أنه ﷺ قال: «يوم القوم أقرأهم لكتاب الله»، فلو أنه كان أقرؤهم لكتاب الله لما قدّمه عليهم. هذا مضمون ما قرره الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، وهذا التقرير لا يُدفع ولا شك فيه، وقد جمع الحافظ ابن السمعاني في ذلك جزءاً، وقد بسطت تقرير ذلك في كتاب مسند الشيخين، رضي الله عنهما. ومنهم عثمان بن عفان وقد قرأه في ركعة - كما سنذكره - وعلي بن أبي طالب يقال: إنه جمعه على ترتيب ما أنزل، وقد قدّمنا هذا. ومنهم عبد الله بن مسعود، وقد تقدم عنه أنه قال: ما من آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت؟ وفيما نزلت؟ ولو علمت أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه المطي لذهبت إليه. ومنهم سالم مولى أبي حذيفة، كان من السادات النبلاء والأئمة الأتقياء وقد قتل يوم اليمامة شهيداً. ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ وترجمان القرآن، وقد تقدم عن مجاهد أنه قال: قرأت القرآن على ابن عباس مرتين، أفقه عند كل آية وأسأله عنها. ومنهم عبد الله بن عمرو، كما رواه النسائي وابن ماجة من حديث ابن جريج عن عبد الله بن أبي مليكة، عن يحيى بن حكيم بن صفوان، عن عبد الله بن عمرو قال: جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أقرأه في شهر». وذكر تمام الحديث. ثم قال البخاري: حدثنا صدقة بن الفضل، حدثنا يحيى، عن سفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال عمر: عليّ أقضانا، وأبيّ أقرؤنا، وإنا لنُدع من لحن أبيّ، وأبيّ يقول: أخذته من في رسول الله ﷺ، فلا أتركه لشيء قال الله تعالى: ﴿مَا تَنَسَّ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَذِيرٍ فَنتَاهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]. وهذا يدل على أن الرجل الكبير قد يقول الشيء يظنه صواباً وهو خطأ في نفس الأمر؛ ولهذا قال الإمام مالك: ما من أحد إلا يؤخذ من قوله ويرد إلا قول صاحب هذا القبر، أي: فكله مقبول، صلوات الله وسلامه عليه.

ثم ذكر البخاري فضل فاتحة الكتاب وغيرها، وسنذكر فضل كل سورة عندها ليكون ذلك أنسب. ثم قال:

نزول السكينة والملائكة عند القراءة

وقال الليث: حدثني يزيد بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن أسيد بن الحضير قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة،

وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها، فأشفق أن تصيبه، فلما اجتريه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال: «اقرأ يا بن حضير، اقرأ يا بن حضير». قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريباً، فرفعت رأسي وانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلّة، فيها أمثال المصاييح، فخرجت حتى لا أراها قال: «أوتدري ما ذاك؟». قال: لا، قال: «الملائكة ذنّت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم». قال ابن الهاد: وحديثي هذا الحديث عبد الله بن خباب عن أبي سعيد الخدري عن أسيد بن الحضير. هكذا أورد البخاري هذا الحديث معلّقاً، وفيه انقطاع في الرواية الأولى، فإن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي المدني تابعي صغير لم يدرك أسيداً لأنه مات سنة عشرين، وصلى عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنهما. ثم فيه غرابة من حيث إنه قال: وقال الليث: حدثني يزيد بن الهاد ولم أره بسند متصل عن الليث بذلك، إلا ما ذكره الحافظ أبو القاسم بن عساكر في الأطراف أن يحيى بن عبد الله بن بكير رواه عن الليث كذلك.

وقد رواه الإمام أبو عبيد في فضائل القرآن فقال: حدثنا عبد الله بن صالح ويحيى بن بُكير، عن الليث، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي، عن أسيد بن حضير، فذكر الحديث إلى آخره، ثم قال: قال ابن الهاد: وحديثي عبد الله بن خباب، عن أبي سعيد، عن أسيد بن حضير بهذا. وقد رواه النسائي في فضائل القرآن، عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم عن شعيب بن الليث، وعن علي بن محمد بن علي، عن داود بن منصور، كلاهما عن الليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن يزيد بن عبد الله، وهو ابن الهاد، عن عبد الله بن خباب، عن أبي سعيد، عن أسيد، به. ورواه يحيى بن بكير، عن الليث كذلك أيضاً، فجمع بين الإسنادين. ورواه في المناقب عن أحمد بن سعيد الرباطي، عن يعقوب بن إبراهيم، عن أبيه، عن يزيد بن الهاد، عن عبد الله بن خباب، عن أبي سعيد، أن أسيد بن حضير بينما هو ليلة يقرأ في مريده، الحديث. ولم يقل: عن أسيد، ولكن ظاهره أنه عنه، والله أعلم.

وقال أبو عبيد: حدثني عبد الله بن صالح، عن الليث، عن ابن شهاب، عن ابن كعب بن مالك، عن أسيد بن حضير: أنه كان على ظهر بيته يقرأ القرآن وهو حسن الصوت، ثم ذكر مثل هذا الحديث أو نحوه: حدثنا قبيصة، عن حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أسيد بن حضير قال: قلت: يا رسول الله، بينما أنا أقرأ الباردة بسورة، فلما انتهيت إلى آخرها سمعت وجبة من خلفي، حتى ظننت أن فرسي تطلق، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ أبا عتيك» مرتين قال: فالتفت إلى أمثال المصاييح ملء بين السماء والأرض، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ أبا عتيك». فقال: والله ما استطعت أن أمضي فقال: «تلك الملائكة نزلت لقراءة القرآن، أما إنك لو مضيت لرأيت الأعاجيب».

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق سمع البراء يقول: بينما رجل يقرأ سورة الكهف ليلة إذ رأى دابته تركض، أو قال: فرسه يركض، فنظر فإذا مثل الضباب أو مثل الغمامة، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «تلك السكينة نزلت للقرآن، أو تنزلت على القرآن». وقد أخرجه صاحبها الصحيح من حديث شعبة. والظاهر أن هذا هو أسيد بن الحضير، رضي الله عنه، فهذا ما يتعلق بصناعة الإسناد، وهذا من أغرب تعليقات البخاري، رحمه الله، ثم سياق ظاهر فيما ترجم عليه من نزول السكينة والملائكة عند القراءة.

وقد اتفق نحو هذا الذي وقع لأسيد بن الحضير لثابت بن قيس بن شماس كما قال أبو عبيد: حدثنا عباد بن عباد عن جرير بن حازم، عن عمه جرير بن زيد، أن أشياخ أهل المدينة حدثوه: أن رسول الله ﷺ قيل له: ألم تر ثابت بن قيس بن شماس لم تنزل داره البارحة تزهو مصاييح؟ قال: «فلعله قرأ سورة البقرة». قال: فسئل ثابت فقال: قرأت سورة البقرة. وفي الحديث المشهور الصحيح: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه فيما بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده» رواه مسلم عن أبي هريرة. ولهذا قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَرَأَ الْقُرْآنَ يُفْخِرُ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وجاء في بعض التفاسير: أن الملائكة تشهده. وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيعرج إليهم الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: اتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون».

من قال: لم يترك النبي ﷺ إلا ما بين الدفتين

حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا سفيان، عن عبد العزيز بن رفيع قال: دخلت أنا وشداد بن معقل على ابن عباس، فقال له شداد بن معقل: أترك النبي ﷺ من شيء؟ قال: ما ترك إلا ما بين الدفتين. قال: ودخلنا على محمد بن الحنفية فسألناه فقال: ما ترك إلا ما بين الدفتين. تفرد به البخاري، ومعناه: أنه، عليه السلام، ما ترك ما لا ولا شيئاً يورث عنه، كما قال عمرو بن الحارث أخو جويرية بنت الحارث: ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً. وفي حديث أبي الدرداء: «إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه فمغن أخذه يحظ وافر». ولهذا قال ابن عباس: وإنما ترك ما بين الدفتين يعني: القرآن، والسنة مفسرة له ومبينة وموضحة له، وهي تابعة له، والمقصود الأعظم كتاب الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية [فاطر: ٣٢]، فالأنبياء، عليهم السلام، لم يخلقوا للدنيا يجمعونها ويورثونها، إنما خلقوا للآخرة يدعون إليها ويرغبون فيها؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة»، وكان أول من أظهر هذه المحاسن من هذا الوجه أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، لما سئل عن ميراث النبي ﷺ، فأخبر عنه بذلك، ووافقه على نقله عنه، عليه السلام، غير واحد من الصحابة؛ منهم عمر وعثمان وعلي والعباس وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأبو هريرة وعائشة وغيرهم، وهذا ابن عباس يقول - أيضاً - عنه عليه السلام، رضي الله عنهم أجمعين.

فضل القرآن على سائر الكلام

حدثنا هذبة بن خالد أبو خالد، حدثنا همام، حدثنا قتادة، حدثنا أنس بن مالك، عن أبي موسى، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: «مثل الذي يقرأ القرآن كمثل الأثرجة، طعمها طيب وريحها طيب. والذي لا يقرأ القرآن كالتمر، طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها». وهكذا رواه في مواضع أخرى مع بقية الجماعة من طرق عن قتادة به. ووجه مناسبة الباب لهذا الحديث: أن طيب الرائحة دار مع القرآن وجوداً وعدماً، فدل على شرفه على ما سواه من الكلام الصادر من البر والفاجر. ثم قال: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا يحيى عن سفيان، حدثني عبد الله بن دينار، قال: سمعت ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم كما بين صلاة العصر ومغرب الشمس، ومثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً، فقال: من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط؟ فعملت اليهود فقال: من يعمل لي من نصف النهار إلى العصر؟ فعملت النصارى، ثم أنتم تعملون من العصر إلى المغرب بقيراطين قيراطين، قالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاءً! قال: هل ظلمتكم من حقكم؟ قالوا: لا. قال: فذلك فضلي أوتيته من شئت». تفرد به من هذا الوجه، ومناسبه للترجمة: أن هذه الأمة مع قصر مدتها فضلت الأمم الماضية مع طول مدتها، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وفي المسند والسنن عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله». وإنما فازوا بهذا ببركة الكتاب العظيم الذي شرفه الله تعالى على كل كتاب أنزله، جعله مهيمناً عليه، وناسخاً له، وخاتماً له؛ لأن كل الكتب المتقدمة نزلت إلى الأرض جملة واحدة، وهذا القرآن نزل منجماً بحسب الوقائع لشدة الاعتناء به وبمن أنزله عليه، فكل مرة كنزول كتاب من الكتب المتقدمة، وأعظم الأمم المتقدمة هم اليهود والنصارى، فاليهود استعملهم الله من لدن موسى إلى زمان عيسى، والنصارى من ثم إلى أن بعث محمد ﷺ، ثم استعمل أمته إلى قيام الساعة، وهو المشبه بآخر النهار، وأعطى الله المتقدمين قيراطاً قيراطاً، وأعطى هؤلاء قيراطين قيراطين، ضعفي ما أعطى أولئك، فقالوا: أي ربنا، ما لنا أكثر عملاً وأقل أجراً؟ فقال: هل ظلمتكم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلي أي: الزائد على ما أعطيتكم أوتيته من أشياء كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُخْلِلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَبْرِزْ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ [١٨] إِنَّكَ يَوْمَئِذٍ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ قَوْلٍ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَّا قُلٌّ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ يَوْمَئِذٍ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

[الحديد: ٢٨، ٢٩].

الوصايا بكتاب الله

حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا مالك بن مغول، حدثنا طلحة بن مُصَرِّف قال: سألت عبد الله ابن أبي أوفى: أوصى النبي ﷺ؟ قال: لا. فقلت: كيف كتب على الناس الوصية، أمروا بها ولم يوص؟ قال: أوصى بكتاب الله، ﷻ. وقد رواه في مواضع أخرى مع بقية الجماعة، إلا أبا داود من طرق عن مالك بن مغول به، وهذا نظير ما تقدم عن ابن عباس: «ما ترك إلا ما بين

الدفنتين»، وذلك أن الناس كتب عليهم الوصية في أموالهم كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْأُولَادَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]. وأما هو ﷺ فلم يترك شيئاً يورث عنه، وإنما ترك ماله صدقة جارية من بعده، فلم يحتج إلى وصية في ذلك ولم يوص إلى خليفة يكون بعده على التنصيب؛ لأن الأمر كان ظاهراً من إشارته وإيمانه إلى الصديق؛ ولهذا لما هم بالوصية إلى أبي بكر ثم عدل عن ذلك فقال: «يا أباي الله والمؤمنون إلا أبا بكر»، وكان كذلك، وإنما أوصى الناس باتباع كتاب الله تعالى.

من لم يتغن بالقرآن وقول الله تعالى ﴿أُولُو يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]
حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، حدثنا عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «لم يأذن الله لشيء، ما أذن لنبي أن يتغن بالقرآن»، وقال صاحب له: يريد يجهر به فرد من هذا الوجه. ثم رواه عن علي بن عبد الله بن المديني، عن سفيان بن عيينة، عن الزهري به. قال سفيان: تفسيره: يستغني به، وقد أخرجه مسلم والنسائي من حديث سفيان بن عيينة، ومعناه: أن الله ما استمع لشيء كاستماعه لقراءة نبي يجهر بقراءته ويحسنها، وذلك أنه يجتمع في قراءة الأنبياء طيب الصوت لكمال خلقهم وتعام الخشية، وذلك هو الغاية في ذلك. وهو، سبحانه وتعالى، يسمع أصوات العباد كلهم يرههم وفاجرهم، كما قالت عائشة، رضي الله عنها: سبحان الله الذي وسع سمعه الأصوات. ولكن استماعه لقراءة عباده المؤمنين أعظم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [الآية: يونس: ٦١]، ثم استماعه لقراءة أنبيائه أبلغ كما دل عليه هذا الحديث العظيم. ومنهم من فسر الأذن ههنا بالأمر، والأول أولى لقوله: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي أن يتغن بالقرآن» أي: يجهر به، والأذن: الاستماع؛ لدلالة السياق عليه، وكما قال تعالى: ﴿إِذَا التَّمَاءُ انشَقَّتْ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٢) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخُلِقَتْ (٣) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٤)] [الانشقاق: ١-٥] أي: وحق لها أن تستمع أمره وتطيعه، فالأذن هو الاستماع؛ ولهذا جاء في حديث رواه ابن ماجه بسند جيد عن فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الله أشد أذناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به من صاحب القينة إلى قينته». وقال سفيان بن عيينة: إن المراد بالتغني: يستغني به، فإن أراد: أنه يستغني عن الدنيا، وهو الظاهر من كلامه الذي تابعه عليه أبو عبيد القاسم بن سلام وغيره، فخلاص الظاهر من مراد الحديث؛ لأنه قد فسر بعض رواه بالجهر، وهو تحسين القراءة والتحزين بها.

قال حرمله: سمعت ابن عيينة يقول: معناه: يستغني به، فقال لي الشافعي: ليس هو هكذا، ولو كان هكذا لكان يتغناني به، وإنما هو يتحزن ويترنم به، ثم قال حرمله: وسمعت ابن وهب يقول: يترنم به، وهكذا نقل المزني والربيعي عن الشافعي، رحمه الله. وعلى هذا فتصدير البخاري الباب بقوله تعالى: ﴿أُولُو يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [ذلك لَرَحْمَةٍ وَكَرِّهٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١)] [العنكبوت: ٥١]، فيه نظر؛ لأن هذه الآية الكريمة ذكرت رداً على الذين سألوا عن آيات تدل على صدقه، حيث قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أُولُو يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [الآية: العنكبوت: ٥٠، ٥١]. ومعنى ذلك: أو لم يفهم آية دالة على صدقك إنزالنا القرآن عليك وأنت رجل أمي ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَقْلُوبُ يَمِينَيْكَ إِذَا لَازَمْتَكَ السُّبُطُلُونَ (٤٨)﴾ [العنكبوت: ٤٨] أي: وقد جئت فيه بخبر الأولين والآخرين فأين هذا من التغني بالقرآن وهو تحسين الصوت به أو الاستغناء به عما عداه من أمور الدنيا، فعلى كل تقدير تصدير الباب بهذه الآية الكريمة فيه نظر.

فصل

في إيراد أحاديث في معنى الباب وذكر أحكام التلاوة بالأصوات

قال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح، عن قباث بن رزين، عن علي بن رباح اللحمي، عن عن عقبة بن عامر قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً ونحن في المسجد نتدارس القرآن، فقال: «تعلموا كتاب الله واقتنوه». قال: وحسبت أنه قال: «وتغنوا به، فوالذي نفسي بيده، لهو أشد ثقلًا من المخاض من العقل». وحدثنا عبد الله بن صالح، عن موسى بن علي، عن أبيه، عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ مثل ذلك إلا أنه قال: «واقتنوه وتغنوا به» ولم يشك، وهكذا رواه أحمد والنسائي في فضائل القرآن، من حديث موسى بن علي، عن أبيه به، ومن حديث عبد الله بن المبارك، عن قباث بن رزين، عن علي بن رباح، عن عقبة، وفي بعض ألفاظه: خرج علينا ونحن نقرأ القرآن فسلم علينا، وذكر الحديث. ففيه دلالة على السلام على القاري.

ذكر أحاديث وأحكام التلاوة بالأصوات

ثم قال أبو عبيد: حدثنا أبو اليمان، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، عن المهاصر بن حبيب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أهل القرآن، لا توسدوا القرآن، واتلوه حتى تلاوته آتاء الليل والنهار، وتغنوه وواقنوه، واذكروا ما فيه لعلكم تفلحوا» وهذا مرسل. ثم قال أبو عبيد: قوله: «تغنوه»: يعني: اجعلوه غناءكم من الفقر، ولا تعدوا الإقلال منه فقراً. وقوله: «واقنوه»، يقول: اقنوه، كما تقتنون الأموال اجعلوه مالكم. وقال أبو عبيد: حدثني هشام بن عمار، عن يحيى بن حمزة، عن الأوزاعي، حدثني إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، عن فضالة بن عبيد، عن النبي ﷺ قال: «الله أشد أذناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته». قال أبو عبيد: هذا الحديث بعضهم يزيد في إسناده يقول: عن إسماعيل بن عبيد الله عن مولى فضالة عن فضالة، وهكذا رواه ابن ماجة، عن راشد بن سعيد بن أبي راشد، عن الوليد، عن الأوزاعي عن إسماعيل بن عبيد الله عن ميسرة مولى فضالة عن فضالة عن النبي ﷺ: «الله أشد أذناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به من صاحب القينة إلى قينته». قال أبو عبيد: يعني: الاستماع. وقوله في الحديث الآخر: «ما أذن الله لشيء» أي: ما استمع. وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا محمد بن حميد، حدثنا سلمة بن الفضل، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن، عن ابن أبي مليكة، حدثنا القاسم بن محمد، حدثنا السائب قال: قال لي سعد: يابن أخي، هل قرأت القرآن؟ قلت: نعم. قال: غن به، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «غنوا بالقرآن، ليس منا من لم يغن بالقرآن، وابتكوا، فإن لم تقدروا على البكاء فتباكوا». وقد روى أبو داود من حديث الليث وعمر بن دينار كلاهما عن عبد الله بن أبي مليكة، عن عبيد الله بن أبي نهيك، عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». ورواه ابن ماجة من حديث ابن أبي مليكة، عن عبد الرحمن بن السائب، عن سعد بن أبي وقاص قال: قال النبي ﷺ: «إن هذا القرآن نزل بحرف، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنوا به، فمن لم يتغن به فليس منا».

وقال أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سعيد بن حسان المخزومي، عن ابن أبي مليكة، عن عبد الله بن أبي نهيك، عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». قال وكيع: يعني: يستغني به. ورواه أيضاً عن الحجاج وأبي النضر، كلاهما عن الليث بن سعد، وعن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، كلاهما عن عبد الله بن أبي مليكة به. وفي هذا الحديث كلام طويل يتعلق بسنده ليس هذا موضعه، والله أعلم. وقال أبو داود: حدثنا عبد الأعلى بن حماد، حدثنا عبد الجبار بن الورد، سمعت ابن أبي مليكة، يقول عبيد الله بن أبي يزيد: مر بنا أبو لبابة فأتبعناه حتى دخل بيته فدخلنا عليه، فإذا رجل رثم البيت، رث الهيئة، فانتسبنا له، فقال: تجار كسبة، فسمعت يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». قال: فقلت لابن أبي مليكة: يا أبا محمد، رأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟! قال: يحسنه ما استطاع. تفرد به أبو داود.

فقد فهم من هذا أن السلف، رضي الله عنهم، إنما فهموا من التغني بالقرآن: إنما هو تحسين الصوت به، وتحزينه، كما قاله الأئمة، رحمهم الله، ويدل على ذلك - أيضاً - ما رواه أبو داود حيث قال: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن طلحة، عن عبد الرحمن بن عوسجة، عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم». وأخرجه النسائي وابن ماجة من حديث شعبة، عن طلحة وهو ابن مصرف به. وأخرجه النسائي من طرق آخر عن طلحة، وهذا إسناده جيد. وقد وثق النسائي، وابن حبان عبد الرحمن بن عوسجة هذا، ونقل الأزردي عن يحيى بن سعيد القطان أنه قال: سألت عنه بالمدينة، فلم أرهم يحمدونه.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة قال: نهاني أيوب أن أحدث بهذا الحديث: «زينوا القرآن بأصواتكم». قال أبو عبيد: وإنما كره أيوب فيما نرى، أن يتأول الناس بهذا الحديث الرخصة من رسول الله ﷺ في الألحان المبتدعة، فلماذا أنهاه أن يحدث به. قلت: ثم إن شعبة روى الحديث متوكلاً على الله، كما زوي له، ولو ترك كل حديث يتأول مبطل لترك من السنة شيء كثير، بل قد تطرقوا إلى تأويل آيات كثيرة وحملوها على غير محاملها الشرعية المرادة، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله. والمراد من تحسين الصوت بالقرآن: تطريبه وتحزينه والتخشع به، كما رواه الحافظ الكبير بقي بن مخلد، حيث قال: حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي، حدثنا طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو رأيته وأنا أستمع قراءتك البارحة». قلت: أما والله لو علمت أنك تستمع قراءتي لحبرت لك تحبيراً. ورواه مسلم من حديث طلحة به وزاد: «لقد أوتيت زمزماً من زمزير آل داود». وسيأتي هذا في بابيه حيث يذكره البخاري، والغرض أن أبا موسى قال: لو أعلم أنك تستمع لحبرته لك

تجبيراً، فدل على جواز تعاطي ذلك وتكلفه، وقد كان أبو موسى كما قال، عليه السلام، قد أعطي صوتاً حسناً كما سنده إن شاء الله، مع خشية تامة ورقة أهل اليمن الموصوفة، فدل على أن هذا من الأمور الشرعية.

قال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح، عن الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة قال: كان عمر إذا رأى أبا موسى قال: ذكراً ربنا يا أبا موسى، فيقرأ عنده. وقال أبو عبيد: وحدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا سليمان التيمي، أنبت عنه، حدثنا أبو عثمان النهدي قال: كان أبو موسى يصلي بنا، فلو قلت: إني لم أسمع صوت صنيح قط، ولا بربيط قط، ولا شيئاً قط أحسن من صوته. وقال ابن ماجة: حدثنا العباس بن عبد الرحمن الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثني حنظلة بن أبي سفيان أنه سمع عبد الرحمن بن سابط الجمحي يحدث عن عائشة قالت: أبطأت على رسول الله ﷺ ليلة بعد العشاء، ثم جئت فقال: «أين كنت؟». قلت: كنت أستمع قراءة رجل من أصحابك لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد، قالت: فقام فقامت معه حتى أستمع له، ثم التفت إلي فقال: «هذا سالم مولى أبي حذيفة، الحمد لله الذي جعل في أمي مثل هذا». إسناده جيد.

وفي الصحيحين عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قال: قراءة منه. وفي بعض ألفاظه: فلما سمعته قرأ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَلْقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، قلت أن فوادي قد انصدع. وكان جبير لما سمع هذا بعد مشركاً على دين قومه، وإنما قدم في فداء الأسارى بعد بدر، وناهيك بمن تؤثر قراءته في المشرك المصّر على الكفر! وكان هذا سبب هدايته ولهذا كان أحسن القراءة ما كان عن خشوع القلب، كما قال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن ليث، عن طاوس قال: أحسن الناس صوتاً بالقرآن أخشاهم لله.

حدثنا قبيصة، عن سفيان، عن ابن جريج، عن ابن طاوس، عن أبيه، وعن الحسن بن مسلم، عن طاوس قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أحسن صوتاً بالقرآن؟ فقال: «الذي إذا سمعته رأيته يخشى الله». وقد روي هذا متصلاً من وجه آخر، فقال ابن ماجة: حدثنا بشر بن معاذ الضرير، حدثنا عبد الله بن جعفر المدني، حدثنا إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذي إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله»، ولكن عبد الله بن جعفر هذا، وهو والد علي بن المدني، وشيخه ضعيفان، والله أعلم.

والغرض أن المطلوب شرعاً إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة، فأما الأصوات بالتغيمات المحدثة المركبة على الأوزان والأوضاع الملهمية والقانون الموسيقي، فالقرآن ينزه عن هذا ويجل ويعظم أن يسلك في أدائه هذا المذهب، وقد جاءت السنة بالزجر عن ذلك، كما قال الإمام العلم أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله: حدثنا نعيم بن حماد، عن بَقِيَّةِ بن الوليد، عن حصين بن مالك الفزاري: سمعت شيخاً يكنى أبا محمد يحدث عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكتابيين، ويجيء قوم من بعدي يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم». حدثنا يزيد، عن شريك، عن أبي اليقظان عثمان بن عمير، عن زاذان أبي عمر، عن عليم قال: كنا على سطح ومعنا رجل من أصحاب النبي ﷺ. قال يزيد: لا أعلمه إلا قال: عابس الغفاري، فرأى الناس يخرجون في الطاعون فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يفرون من الطاعون، فقال: يا طاعون خذني، فقالوا: تتمنى الموت وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يتمنين أحدكم الموت؟» فقال: إني أبادر خصلاً سمعت رسول الله ﷺ يتخوفهن على أمته: «بيع الحكم، والاستخفاف بالدم، وقطيعة الرحم، وقوم يتخذون القرآن مزامير يقدمون أحدهم ليس بأفقههم ولا أفضلهم إلا ليغيثهم به غناء» وذكر خصلتين آخرين.

وحدثنا إبراهيم بن يعقوب، عن ليث بن أبي سليم، عن عثمان بن عمير، عن زاذان، عن عابس الغفاري، عن النبي ﷺ مثل ذلك أو نحوه. وحدثنا يعقوب بن إبراهيم، عن الأعمش، عن رجل، عن أنس بن مالك: أنه سمع رجلاً يقرأ القرآن بهذه الألحان التي أحدث الناس، فأنكر ذلك ونهى عنه.

هذه طرق حسنة في باب الترهيب، وهذا يدل على أنه محذور كبير، وهو قراءة القرآن بالألحان التي يسلك بها مذاهب الغناء، وقد نص الأئمة، رحمهم الله، على النهي عنه، فأما إن خرج به إلى التمليط الفاحش الذي يزيد بسببه حرفاً أو ينقص حرفاً، فقد اتفق العلماء على تحريمه، والله أعلم. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا روح، حدثنا عبيد الله بن الأحنس، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن». ثم قال: وإنما ذكرناه لأنهم اختلفوا على ابن أبي مليكة فيه، فرواه ابن عبد الجبار بن الورد عنه عن أبي لبابة، ورواه عمرو بن دينار والليث عنه عن

أبي نُهيك عن سعد، ورواه عَسل بن سفيان عنه، عن عائشة، ورواه نافع مولى ابن عمر عنه، عن ابن الزبير.

اغتياب صاحب القرآن

حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، حدثني سالم بن عبد الله: أن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله الكتاب فقام به آناء الليل، ورجل أعطاه الله مالاً فهو يتصدق به آناء الليل والنهار». انفراد به البخاري من هذا الوجه، واتفقا على إخرجه من رواية سفيان عن الزهري، ثم قال البخاري: حدثنا علي بن إبراهيم، حدثنا روح، حدثنا شعبة، عن سليمان: سمعت دُكوان، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فسمعه جار له فقال: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالاً فهو يهلكه في الحق»، فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل.

ومضمون هذين الحديثين: أن صاحب القرآن في غبطة وهو حسن الحال، فينبغي أن يكون شديد الاغتياب بما هو فيه، ويستحب تغيبه بذلك، يقال: غبطه يغبطه غبطاً، إذا تمنى ما هو فيه من النعمة، وهذا بخلاف الحسد المذموم وهو تمنى زوال نعمة المحسود عنه، سواء حصلت لذلك الحاسد أو لا وهذا مذموم شرعاً، مهلك، وهو أول معاصي إبليس حين حسد آدم، عليه السلام، على ما منحه الله تعالى من الكرامة والاحترام والإعظام. والحسد الشرعي الممدوح هو تمنى مثل حال ذلك الذي هو على حالة سارة؛ ولهذا قال عليه السلام: «لا حسد إلا في اثنتين»، فذكر النعمة القاصرة وهي تلاوة القرآن آناء الليل والنهار، والنعمة المتعدية وهي إنفاق المال بالليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَتَقُوا بِمَالِهِمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ كَثُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩]، وقد روي نحو هذا من وجه آخر، فقال عبد الله بن الإمام أحمد: وجدت في كتاب أبي بخط يده: كتب إلي أبو توبة الربيع بن نافع، فكان في كتابه: حدثنا الهيثم بن حميد، عن زيد بن واقد، عن سليمان بن موسى، عن كثير بن مرة عن يزيد بن الأخنس، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنافس بينكم إلا في اثنتين: رجل أعطاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ويتبع ما فيه، فيقول رجل: لو أن الله أعطانني مثل ما أعطى فلاناً فأقوم كما يقوم به، ورجل أعطاه الله مالاً فهو يتنفقه ويتصدق، فيقول رجل: لو أن الله أعطانني مثل ما أعطى فلاناً فاتصدق به».

وقريب من هذا ما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عباد بن مسلم، حدثني يونس بن خباب، عن أبي سعيد البختري الطائي، عن أبي كبشة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث أقسم عليهن، وأحدثنكم حديثاً فاحفظوه، فأما الثلاث التي أقسم عليهن: فإنه ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله بها عزاً، ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله له باب فقر، وأما الذي أحدثنكم حديثاً فاحفظوه، فإنه قال: إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتي في ربه ويصل رحمه، ويعمل لله فيه حقه»، قال: «فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالا فهو يقول: لو كان لي مال عملت بعمل فلان»، قال: «فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علماً فهو يخطب في ماله بغير علم لا يتي في ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعمل لله فيه حقه، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علماً فهو يقول: لو كان لي مال لفعلت بعمل فلان»، قال: «هي نيته فوزرهما فيه سواء». وقال أيضاً: حدثنا الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد، عن أبي كبشة الأنماري قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالا وعلماً فهو يعمل به في ماله يتنفقه في حقه، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالا فهو يقول: لو كان لي مثل مال هذا عملت فيه مثل الذي يعمل». قال رسول الله ﷺ: «فهما في الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علماً فهو يخطب فيه يتنفقه في غير حقه، ورجل لم يؤته الله مالا ولا علماً فهو يقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل». قال رسول الله ﷺ: «فهما في الوزر سواء». إسناده صحيح.

خيركم من تعلم القرآن وعلمه

حدثنا حجاج بن مثقال، حدثنا شعبة، أخبرني علقمة بن مرثد، سمعت سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن، عن عثمان بن عفان، عن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». وأقرأ أبو عبد الرحمن في إمرة عثمان، رضي الله عنه، حتى كان الحجاج قال: وذلك الذي أقمعني مقعدي هذا. وقد أخرج الجماعة هذا الحديث سوى مسلم من رواية شعبة عن علقمة بن مرثد عن سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن وهو عبد الله بن حبيب السلمي - رحمه الله. وحدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن علقمة بن مرثد، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن عثمان بن عفان قال: قال النبي ﷺ: «إن أفضلكم من تعلم القرآن

وعلمه». وهكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة من طرق عن سفيان، عن علقمة، عن أبي عبد الرحمن، من غير ذكر سعد بن عبيدة، كما رواه شعبة ولم يختلف عليه فيه، وهذا المقام مما حكم لسفيان الثوري فيه على شعبة، وخطأ بُنْدَار يحيى بن سعيد في روايته ذلك عن سفيان، عن علقمة، عن سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن وقال: رواه الجماعة من أصحاب سفيان عنه، بإسقاط سعد بن عبيدة، ورواية سفيان أصح في هذا المقام المتعلق بصناعة الإسناد، وفي ذكره طول لولا الملامة لذكرناه، وفيما ذكر كفاية وإرشاد إلى ما ترك، والله أعلم.

والغرض أنه، عليه الصلاة والسلام، قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وهذه من صفات المؤمنين المتبعين للرسل، وهم الكُمل في أنفسهم، المكملون لغيرهم، وذلك جمع بين النفع القاصر والمتعدي، وهذا بخلاف صفة الكفار الجبارين الذين لا ينفعون، ولا يتركون أحدا ممن أمكنهم أن ينتفع، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يُدْعَوْنَ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، وكما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]، في أصح قولي المفسرين في هذا، وهو أنهم ينهاون الناس عن اتباع القرآن مع نأيهم وبعدهم عنه، فجمعوا بين التكذيب والصد، كما قال تعالى: ﴿فَقَدْ أَكَلَتْ مِنْ كَذَبٍ يَكَايْتِ اللَّهِ وَصَدَقَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٧]، فهذا شأن الكفار، كما أن شأن خيار الأبرار أن يكمل في نفسه وأن يسعى في تكميل غيره كما قال عليه السلام: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، وكما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَتَحَوَّلَ صَلِيحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [تصلت: ٢٣]، فجمع بين الدعوة إلى الله سواء كان بالأذان أو بغيره من أنواع الدعوة من تعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك، مما يُتغنى به وجه الله، وعمل هو في نفسه صالحاً، وقال قولاً صالحاً، فلا أحد أحسن حالاً من هذا. وقد كان أبو عبد الرحمن السلمي الكوفي - أحد أئمة الإسلام ومشايخهم - من رغب في هذا المقام، فقعده يعلم الناس في إمارة عثمان إلى أيام الحجاج قالوا: وكان مقدار ذلك الذي مكث فيه يعلم القرآن سبعين سنة، رحمه الله، وآتاه الله ما طلبه ودامه. آمين.

قال البخاري، رحمه الله: حدثنا عمرو بن عون، حدثنا حماد عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: أتت النبي ﷺ امرأة فقالت أنها قد وهبت نفسها لله ورسوله، فقال: «ما لي في النساء من حاجة». فقال رجل: زوّجنيها. قال: «أعطيها ثوباً»، قال: لا أجد، قال: «أعطيها ولو خاتماً من حديد»، فاعتل له، فقال: «ما معك من القرآن؟». قال: كذا وكذا. فقال: «قد زوّجتكها بما معك من القرآن». وهذا الحديث متفق على إخرجه من طرق عديدة، والغرض منه أن الذي قصده البخاري أن هذا الرجل تعلم الذي تعلمه من القرآن، وأمره النبي ﷺ أن يعلمه تلك المرأة، ويكون ذلك صداقاً لها على ذلك، وهذا فيه نزاع بين العلماء، وهل يجوز أن يجعل مثل هذا صداقاً؟ أو هل يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن؟ وهل هذا كان خاصاً بذلك الرجل؟ وما معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «زوّجتكها بما معك من القرآن؟» أبسب ما معك من القرآن؟ كما قاله أحمد بن حنبل: نكرمك بذلك. أو بعوض ما معك، وهذا أقوى، لقوله في صحيح مسلم: «فعلّمها»، وهذا هو الذي أراده البخاري هنا وتحرير باقي الخلاف المذكور في كتاب النكاح والإجارة، والله المستعان.

القراءة عن ظهر قلب

إنما أفرد البخاري في هذه الترجمة حديث أبي حازم عن سهل بن سعد، الحديث الذي تقدم الآن، وفيه أنه، عليه السلام، قال لرجل: «فما معك من القرآن؟». قال: معي سورة كذا وكذا، لسور عددها. قال: «أتقرؤهن عن ظهر قلبك؟». قال: نعم. قال: «أذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن». وهذه الترجمة من البخاري، رحمه الله، مشعرة بأن قراءة القرآن عن ظهر قلب أفضل، والله أعلم.

ولكن الذي صرح به كثيرون من العلماء أن قراءة القرآن من المصحف أفضل لأنه يشتمل على التلاوة والنظر في المصحف وهو عبادة، كما صرح به غير واحد من السلف، وكرهوا أن يمضي على الرجل يوم لا ينظر في مصحفه، واستدلوا على فضيلة التلاوة في المصحف بما رواه الإمام العلم أبو عبيد في كتاب فضائل القرآن حيث قال: حدثنا نعيم بن حماد، عن بقة بن الوليد، عن معاوية بن يحيى، عن سليم بن مسلم، عن عبد الله بن عبد الرحمن، عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «فضل قراءة القرآن نظراً على من يقرأه ظهراً، كفضل الفريضة على النافلة» وهذا الإسناد ضعيف، فإن معاوية بن يحيى هو الصدفي أو الأطرابلسي، وأيهما كان فهو ضعيف. وقال الثوري عن عاصم، عن زر، عن ابن مسعود قال: أديموا النظر في المصحف. وقال حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن ماهك، عن ابن عباس، عن عمر: أنه كان إذا دخل بيته

نشر المصحف فقرأ فيه . وقال حماد أيضاً : عن ثابت ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن ابن مسعود : أنه كان إذا اجتمع إليه إخوانه نشروا المصحف ، فقرأوا ، وفسر لهم . إسناده صحيح . وقال حماد بن سلمة : عن حجاج بن أرطاة ، عن ثوير بن أبي فاختة ، عن ابن عمر قال : إذا رجع أحدكم من سوقه فليشر المصحف وليقرأ . وقال الأعمش عن خيثمة : دخلت على ابن عمر وهو يقرأ في المصحف فقال : هذا جزئي الذي أقرأ به الليلة .

فهذه الآثار تدل على أن هذا أمر مطلوب لئلا يعطل المصحف فلا يقرأ منه ، ولعله قد يقع لبعض الحفظة نسيان فيتذكر منه ، أو تحريف كلمة أو آية أو تقديم أو تأخير ، فلا استتباب أولى ، والرجوع إلى المصحف أثبت من أفواه الرجال ، فأما تلقين القرآن فمن فم الملقن أحسن ؛ لأن الكتابة لا تدل على كمال الأداء ، كما أن المشاهد من كثير ممن يحفظ من الكتابة فقط يكثر تصحيفه وغلطه ، وإذا أدى الحال إلى هذا منع منه إذا وجد شيئاً يوقفه على لفظ القرآن ، فأما عند العجز عن يلقن فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، فيجوز عند الضرورة ما لا يجوز عند الرفاهية ، فإذا قرأ في المصحف - والحالة هذه - فلا حرج عليه ، ولو فرض أنه قد يحرف بعض الكلمات عن لفظها على لفته ولفظه ، فقد قال الإمام أبو عبيد : حدثني هشام بن إسماعيل الدمشقي ، عن محمد بن شعيب ، عن الأوزاعي ، أن رجلاً صحبهم في سفر قال : فحدثنا حديثاً ما أعلمه إلا رفعه إلى رسول الله ﷺ قال : «إن العبد إذا قرأ فحرف أو أخطأ كتبه الملك كما أنزل» . وحدثنا حفص بن غياث ، عن الشيباني ، عن بكير بن الأخنس قال : كان يقال : إذا قرأ الأعجمي والذي لا يقيم القرآن كتبه الملك كما أنزل . وقال بعض العلماء : المدار في هذه المسألة على الخشوع في القراءة ، فإن كان الخشوع عند القراءة على ظهر القلب فهو أفضل ، وإن كان عند النظر في المصحف فهو أفضل فإن استويا فالقراءة نظراً أولى ؛ لأنها أثبت وتمتاز بالنظر في المصحف . قال الشيخ أبو زكريا النووي ، رحمه الله ، في التبيان : والظاهر أن كلام السلف وفعلهم محمول على هذا التفصيل .

تنبيه:

إن كان البخاري ، رحمه الله ، أراد بذكر حديث سهل للدلالة على أن تلاوة القرآن عن ظهر قلب أفضل منها في المصحف ، ففيه نظر ؛ لأنها قضية عين ، فيحتمل أن ذلك الرجل كان لا يحسن الكتابة ويعلم ذلك رسول الله ﷺ منه ، فلا يدل على أن التلاوة عن ظهر قلب أفضل مطلقاً في حق من يحسن ومن لا يحسن ، إذ لو دل هذا لكان ذكر حال رسول الله ﷺ وتلاوته عن ظهر قلب - لأنه أُمي لا يدري الكتابة - أولى من ذكر هذا الحديث بمفرده . الثاني : أن سياق الحديث إنما هو لأجل استتبات أنه يحفظ تلك السور عن ظهر قلب ؛ ليتمكن تعليمها لزوجته ، وليس المراد ههنا : أن هذا أفضل من التلاوة نظراً ، ولا عدمه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

استذكار القرآن وتعاهده

حدثنا عبد الله بن يوسف ، أخبرنا مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة ، إن عاهد عليها أمسكها ، وإن أطلقها ذهبت» هكذا رواه مسلم والنسائي من حديث مالك به . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «مثل القرآن إذا عاهد عليه صاحبه فقرأه بالليل والنهار ، كمثل رجل له إبل ، فإن عقلها حفظها ، وإن أطلق عقلها ذهبت ، فكذلك صاحب القرآن» . أخرجه ، قاله ابن الجوزي في جامع المسانيد ، وإنما هو من أفراد مسلم من حديث عبد الرزاق به ، وحدثنا محمد بن عرعة ، حدثنا شعبة ، عن منصور ، عن أبي وائل ، عن عبد الله قال : قال النبي ﷺ : «بئس ما لأحدهم أن يقول : نسيت آية كيت وكيت ، بل نسي ، واستذكروا القرآن فإنه أشد تقصياً من صدور الرجال من التعم» .

تابعه بشر . هو ابن محمد السخيتاني ، عن ابن المبارك ، عن شعبة . وقد رواه الترمذي عن محمود بن غيلان ، عن أبي داود الطيالسي ، عن شعبة به ، وقال : حسن صحيح . وأخرجه النسائي من رواية شعبة . وحدثنا عثمان ، حدثنا جرير ، عن منصور مثله . وتابعه ابن جريج عن عبدة ، عن شقيق : سمعت عبد الله قال : سمعت النبي ﷺ ، وهكذا أسنده مسلم من حديث ابن جريج به ، ورواه النسائي في اليوم والليلة من حديث محمد بن جحادة ، عن عبدة وهو ابن أبي ثبابة به . وهكذا رواه مسلم عن عثمان وزهير بن حرب وإسحاق بن إبراهيم عن جرير به ، وستأتي رواية البخاري له عن أبي نعيم ، عن سفيان الثوري ، عن منصور به ، والنسائي من رواية ابن عيينة عن منصور به ، فقد رواه هؤلاء عن منصور به مرفوعاً في رواية هؤلاء كلهم ، وقد رواه النسائي عن قتيبة ، عن حماد بن زيد ، عن منصور ، عن أبي وائل ، عن عبد الله موقوفاً ، وهذا غريب وفي مسند أبي يعلى ، وإنما

هو نسي بالتخفيف. حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا أبو أسامة، عن يزيد بن أبي بردة، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «تعاهدوا القرآن، فوالذي نفسي بيده، لهو أشد تفصياً من الإبل في عقلها». وهكذا رواه مسلم عن أبي كريب محمد بن العلاء وعبد الله بن براء الأشعري، كلاهما عن أبي أسامة حماد بن أسامة به. وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا موسى بن علي: سمعت أبي يقول: سمعت عتبة بن عامر يقول: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا كتاب الله، وتعاهدوه، وتغنوا به، فوالذي نفسي بيده، لهو أشد تفلتاً من المخاض في العقل».

ومضمون هذه الأحاديث الترتيب في كثرة تلاوة القرآن واستذكاره وتعاهد؛ لتلا عرضه حافظه للنسيان، فإن ذلك خطر كبير، نسأل الله العافية منه، فإنه قال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا خالد، عن يزيد بن أبي زياد، عن عيسى بن فائد، عن رجل، عن سعد بن عباد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أمير عشرة إلا ويؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه عن ذلك الغل إلا العدل، وما من رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقي الله يوم القيامة يلقيه وهو أجذم». وهكذا رواه جرير بن عبد الحميد، ومحمد بن فضيل، عن يزيد بن أبي زياد، كما رواه خالد بن عبد الله. وقد أخرجه أبو داود عن محمد بن العلاء عن ابن إدريس، عن يزيد بن أبي زياد، عن عيسى بن فائد، عن سعد بن عباد عن النبي ﷺ بقصة نسيان القرآن، ولم يذكر الرجل المبهم. وكذا رواه أبو بكر بن عياش، عن يزيد بن أبي زياد، وقد رواه شعبة عن يزيد فوهم في إسناده، ورواه وكيع عن أصحابه، عن يزيد، عن عيسى بن فائد، عن النبي ﷺ مرسلًا.

وقد رواه الإمام أحمد في مسنده عن عباد بن الصامت فقال: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا يزيد بن أبي زياد، عن عيسى بن فائد، عن عباد بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه منها إلا عدله، وما من رجل تعلم القرآن ثم نسيه إلا لقي الله يوم القيامة أجذم». وكذا رواه أبو عوانة، عن يزيد بن أبي زياد، فقيه اختلاف، لكن هذا في باب الترهيب مقبول. والله أعلم - لا سيما إذا كان له شاهد من وجه آخر، كما قال أبو عبيد. حدثنا حجاج، عن ابن جريج قال: حدثت عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «عرضت علي أجور أمتي حتى القذاة والبرة يخرجها الرجل من المسجد، وعرضت علي ذنوب أممي فلم أر ذنباً أكبر من آية أو سورة من كتاب الله أوتيتها رجل فنسيها». قال ابن جريج: وحذت عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أكبر ذنب توافي به أممي يوم القيامة سورة من كتاب الله أوتيتها رجل فنسيها».

وقد روى أبو داود والترمذي وأبو يعلى والبخاري وغيرهم من حديث ابن أبي رواد، عن ابن جريج، عن المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «عرضت علي أجور أممي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد، وعرضت علي ذنوب أممي، فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيتها رجل ثم نسيها». قال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وذاكرت به البخاري فاستغربه، وحكى البخاري عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي أنه أنكر سماع المطلب من أنس بن مالك. قلت: وقد رواه محمد بن يزيد الآدمي، عن ابن أبي رواد، عن ابن جريج عن الزهري، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ به. والله أعلم.

وقد أدخل بعض المفسرين هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّي لِرَ حَتَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتَ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نَسِيَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَّهُمْ أَفْقَارًا (١٢٦) [طه: ١٢٤-١٢٦]، وهذا الذي قاله هذا. وإن لم يكن هو المراد جميعه - فهو بعضه، فإن الإعراض عن تلاوة القرآن وتعرضه للنسيان وعدم الاعتناء به فيه تهاون كثير وتفريط شديد، نعوذ بالله منه؛ ولهذا قال عليه السلام: «تعاهدوا القرآن»، وفي لفظ: «استذكروا القرآن، فإنه أشد تفصياً من صدور الرجال من النعم».

التَّفْصِي: التخلص، يقال: تَفَصَّى فلان من البلية: إذا تخلص منها، ومنه: تفصى النوى من التمرة: إذا تخلص منها، أي: إن القرآن أشد تفلتاً من الصدور من النعم إذا أرسلت من غير عقل. وقال أبو عبيد: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم قال: قال عبد الله - يعني ابن مسعود -: إني لأمقت القارئ أن أراه سميناً نسياً للقرآن. حدثنا عبد الله بن المبارك، عن عبد العزيز بن أبي رواد قال: سمعت الضحاک بن مزاحم يقول: ما من أحد تعلم القرآن ثم نسيه إلا بذنب يحدثه؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مَّصْبُوكٍ قِيمًا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٢٣٠]، وإن نسيان القرآن من أعظم المصائب. ولهذا قال إسحاق بن راهويه وغيره: يكره لرجل أن يمر عليه أربعون يوماً لا يقرأ فيها القرآن كما أنه يكره له أن يقرأ في أقل من ثلاثة أيام، كما سيأتي هذا، حيث يذكره البخاري بعد هذا، وكان الأليق أن يتبعه هذا الباب، ولكن ذكر بعد هذا قوله:

القراءة على الدابة

حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، أخبرني أبو إياس قال: سمعت عبد الله بن مغفل، رضي الله عنه، قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وهو يقرأ على راحلته سورة الفتح. وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة سوى ابن ماجة من طرق، عن شعبة، عن أبي إياس، وهو معاوية بن قره به، وهذا - أيضاً - له تعلق بما تقدم من تعاهد القرآن وتلاوته سفرأ وحضرأ، ولا يكره ذلك عند أكثر العلماء إذا لم يتله القارئ في الطريق، وقد نقله ابن أبي داود عن أبي الدرداء أنه كان يقرأ في الطريق، وقد روي عن عمر بن عبد العزيز أنه أذن في ذلك، وعن الإمام مالك أنه كره ذلك، كما قال ابن أبي داود: وحدثني أبو الربيع، أخبرنا ابن وهب قال: سألت مالكا عن الرجل يصلي في آخر الليل، فيخرج إلى المسجد، وقد بقي من السورة التي كان يقرأ فيها شيء، فقال: ما أعلم القراءة تكون في الطريق. وقال الشعبي: تكره قراءة القرآن في ثلاثة مواطن: في الحمام، وفي الحشوش، وفي الرحي وهي تدور. وخالفه في القراءة في الحمام كثير من السلف: أنها لا تكره، وهو مذهب مالك والشافعي وإبراهيم النخعي وغيرهم، وروى ابن أبي داود عن علي بن أبي طالب: أنه كره ذلك، ونقله ابن المنذر عن أبي وائل شقيق بن سلمة، والشعبي والحسن البصري ومكحول وقبيصة بن ذؤيب، وهو رواية عن إبراهيم النخعي، ومحكي عن أبي حنيفة، رحمهم الله، أن القراءة في الحمام تكره وأما القراءة في الحشوش فكراهتها ظاهرة، ولو قيل بتحريم ذلك صيانة لشرف القرآن لكان مذهباً، وأما القراءة في بيت الرحي وهي تدور فلتلا يعلو غير القرآن عليه، والحق يعلو ولا يعلو، والله أعلم.

تعليم الصبيان القرآن

حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير قال: إن الذي تدعونه المفصل هو المحكم، قال: وقال ابن عباس: توفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين وقد قرأت المحكم. حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشيم، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: جمعت المحكم في عهد النبي ﷺ فقلت له: وما المحكم؟ قال: «المفصل». انفرد بإخراجه البخاري، وفيه دلالة على جواز تعلم الصبيان القرآن؛ لأن ابن عباس أخبر عن سنه حين موت الرسول ﷺ، وقد كان جمع المفصل، وهو من الحجرات، كما تقدم ذلك، وعمره آنذاك عشر سنين. وقد روى البخاري أنه قال: توفي رسول الله ﷺ وأنا مختون. وكانوا لا يختنون الغلام حتى يحتلم، فيحتمل أنه تجوز في هذه الرواية بذكر العشر، وترك ما زاد عليها من الكسر، والله أعلم.

وعلى كل تقدير، ففيه دلالة على جواز تعليمهم القرآن في الصبا، وهو ظاهر، بل قد يكون مستحباً أو واجباً؛ لأن الصبي إذا تعلم القرآن بلغ وهو يعرف ما يصلي به، وحفظه في الصغر أولى من حفظه كبيراً، وأشدّ علوقاً بخاطره وأرسخ وأثبت، كما هو المعمود من حال الناس، وقد استحب بعض السلف أن يترك الصبي في ابتداء عمره قليلاً للعب، ثم توفر همة على القراءة، لئلا يلزم أولاً بالقراءة فيملها ويعدل عنها إلى اللعب، وكره بعضهم تعليمهم القرآن وهو لا يعقل ما يقال له، ولكن يترك حتى إذا عقل وميز علم قليلاً قليلاً، بحسب همة ونهمته وحفظه وجودة ذهنه، واستحب عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أن يلحق خمس آيات خمس آيات، رويناه عنه بسند جيد.

نسيان القرآن

وهل يقول: نسيت آية كذا وكذا، وقول الله تعالى ﴿سَتَرْتُكَ فَلَا تَنسَ﴾ (إلا ما شاء الله) [الأعلى: ٦، ٧]

حدثنا الربيع بن يحيى، حدثنا زائدة، حدثنا هشام، عن عروة، عن عائشة قالت: لقد سمع النبي ﷺ رجلاً يقرأ في المسجد فقال: «يرحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا من سورة كذا». وحدثني محمد بن عبيد بن ميمون، حدثنا عيسى بن يونس، عن هشام وقال: أسقطتهن من سورة كذا وكذا. انفرد به أيضاً. تابعه علي بن مسهر وعبدية عن هشام. وقد أسندهما البخاري في موضع آخر، ومسلم معه في عبدة. وحدثنا أحمد بن أبي رجاء، حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ في سورة بالليل فقال: «يرحمه الله، فقد أذكرني آية كذا وكذا كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا». ورواه مسلم من حديث أبي أسامة حماد بن أسامة.

الحديث الثاني: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بئس ما لأحدهم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل هو نسي» ورواه مسلم والنسائي، من حديث منصور به. وقد تقدم. وفي مسند أبي يعلى: «فإنما هو نسي»، بالتخفيف، هذا لفظه.

وفي هذا الحديث - والذي قبله - دليل على أن حصول النسيان للشخص ليس بنقص له إذا كان بعد الاجتهاد والحرص، وفي حديث ابن مسعود أدب في التعبير عن حصول ذلك، فلا يقول: نسيت آية كذا، فإن النسيان ليس من فعل العبد، وقد يصدر عنه أسبابه من التناسي والتغافل والتهاون المفضي إلى ذلك، فأما النسيان نفسه فليس بفعله؛ ولهذا قال: «بل هو نسيي»، مبني لما لم يسم فاعله، وأدب - أيضاً - في ترك إضافة ذلك إلى الله تعالى، وقد أسند النسيان إلى العبد في قوله: «وَأَذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتُ» [الكهف: ٢٤] وهو، والله أعلم، من باب المجاز السائغ بذكر المسبب وإرادة السبب؛ لأن النسيان إنما يكون عن سبب قد يكون ذنباً، كما تقدم عن الضحّاك بن مزاحم، فأمر الله تعالى بذكره ليذهب الشيطان عن القلب كما يذهب عند النداء بالأذان، والحسنة تذهب السيئة، فإذا زال السبب للنسيان انزاح، فحصل الذكر لشيء بسبب ذكر الله تعالى، والله أعلم.

من لم ير بأساً أن يقول: سورة البقرة، وسورة كذا وكذا

حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثني إبراهيم، عن علقمة وعبد الرحمن بن يزيد، عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقرة، من قرأ بهما في ليلة كفتاه». وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة من حديث عبد الرحمن بن يزيد وصاحبنا الصحيح والنسائي وابن ماجة من حديث علقمة، كلاهما عن أبي مسعود عقبة بن عامر الأنصاري البكري.

الحديث الثاني: ما رواه من حديث الزهري، عن عروة، عن المشور وعبد الرحمن بن عبد القاري، كلاهما عن عمر قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان.. وذكر الحديث بطوله، كما تقدم، وكما سيأتي.

الحديث الثالث: ما رواه من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: سمع رسول الله ﷺ قارئاً يقرأ من الليل في المسجد، فقال: «يرحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آية، كنت أسقطتهن من سورة كذا وكذا». وهكذا في الصحيحين عن ابن مسعود: أنه كان يرمي الجمرة من الوادي ويقول: هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة. وكره بعض السلف ذلك، ولم يروا إلا أن يقال: السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، كما تقدم من رواية يزيد الفارسي عن ابن عباس، عن عثمان أنه قال: إذا نزل شيء من القرآن يقول رسول الله ﷺ: «اجعلوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»، ولا شك أن هذا أحوط وأولى، ولكن قد صحت الأحاديث بالرخصة في الآخر، وعليه عمل الناس اليوم في ترجمة السور في مصاحفهم، وبالله التوفيق.

الترتيل في القراءة

وقول الله ﷻ: ﴿رَبِّكَ الْقُرْآنَ تَرْتِلاً﴾ [المزمل: ٤]، وقوله: ﴿وَقَرَأْهُ نَقَّافَةً لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْنٍ﴾ [الاسراء: ١٠٦]، يكره أن يهذ كهذ الشعر، يفرق: يفصل، قال ابن عباس: «فَرَّقْتَهُ»: فصلناه. حدثنا أبو النعمان، حدثنا مهدي بن ميمون، حدثنا واصل وهو ابن حيان الأحذب، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: غدونا على عبد الله، فقال رجل: قرأت المفصل البارحة، فقال: هذا كهذ الشعر، إنا قد سمعنا القراءة، وإنني لأحفظ القراءات التي كان يقرأ بهن النبي ﷺ ثمان عشرة سورة من المفصل، وسورتين من آل حم. ورواه مسلم عن شيبان بن فروخ، عن مهدي بن ميمون، عن واصل - وهو ابن حيان الأحذب - عن أبي وائل شقيق بن سلمة عن ابن مسعود به. وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد عن زياد بن نعيم، عن مسلم بن مخرق، عن عائشة أنه ذكر لها أن ناساً يقرؤون القرآن في الليل مرة أو مرتين، فقالت: أولئك قرؤوا ولم يقرؤوا، كنت أقوم مع النبي ﷺ ليلة التمام، فكان يقرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء، فلا يمر بآية فيها تخوف إلا دعا الله واستعاذ، ولا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا الله ورغب إليه.

الحديث الثاني: حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَمَنَّيَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٦]، قال رسول الله ﷺ: إذا نزل جبريل بالوحي، وكان مما يحرك به لسانه وشفته فيشتد عليه. وذكر تمام الحديث كما سيأتي، وهو متفق عليه، وفيه والذي قبله دليل على استحباب ترتيل القراءة والترسل فيها من غير هذمة ولا سرعة مفرطة، بل بتأمل وتفكير، قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن سفيان، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ واوق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها».

وقال أبو عبيد: حدثنا جرير، عن مغيرة، عن إبراهيم قال: قرأ علقمة على عبد الله، فكانه عجل، فقال عبد الله: فذاك أبي وأمي، رتل فإنه زين القرآن. قال: وكان علقمة حسن الصوت بالقرآن. وحدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن أبي جمره

من أحب أن يسمع القرآن من غيره

قال: قلت لابن عباس: إني سريع القراءة وإني أقرأ القرآن في ثلاث فقال: لأن أقرأ البقرة في ليلة فأدبرها وأرتلها أحب إلي من أن أقرأ كما تقول. وحدثنا حجاج، عن شعبة وحماد بن سلمة، عن أبي جمرة، عن ابن عباس نحو ذلك، إلا أن في حديث حماد: أحب إلي من أن أقرأ القرآن أجمع هزيمة.

ثم قال البخاري، رحمه الله:

مد القراءة

حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا جرير بن حازم الأزدي، حدثنا قتادة قال: سألت أنس بن مالك عن قراءة النبي ﷺ فقال: كان يمد مداً. وهكذا رواه أهل السنن، من حديث جرير بن حازم به، وحدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا همام، عن قتادة قال: سئل أنس بن مالك: كيف كانت قراءة النبي ﷺ؟ فقال: كانت مداً، ثم قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم. يمد بسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم. انفرد به البخاري من هذا الوجه، وفي معناه الحديث الذي رواه الإمام أبو عبيد: حدثنا أحمد بن عثمان، عن عبد الله بن المبارك، عن الليث بن سعد، عن ابن أبي مُلَيْكَةَ، عن يعلى بن مَمْلَك، عن أم سلمة: أنها نعتت قراءة رسول الله ﷺ قراءة مفسرة حرفاً حرفاً.

وهكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل، عن يحيى بن إسحاق، وأبو داود عن يزيد بن خالد الرملي، والترمذي والنسائي، كلاهما عن قتيبة، كلهم عن الليث بن سعد به. وقال الترمذي: حسن صحيح. ثم قال أبو عبيد: وحدثنا يحيى بن سعيد الأموي، عن ابن جريج، عن ابن أبي مُلَيْكَةَ، عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته؛ بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. وهكذا. رواه أبو داود والترمذي من حديث ابن جريج. وقال الترمذي: غريب وليس إسناده بمتصل، يعني: أن عبد الله بن عبيد الله بن أبي مُلَيْكَةَ لم يسمعه من أم سلمة، وإنما رواه عن يعلى بن مَمْلَك، كما تقدم، والله أعلم.

الترجيع

حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شعبة، حدثنا أبو إياس قال: سمعت عبد الله بن مغفل قال: رأيت النبي ﷺ وهو على ناقته - أو جملة - وهي تسيّره، وهو يقرأ سورة الفتح قراءة لينة وهو يرجع. وقد تقدم هذا الحديث في القراءة على الدابة وأنه من المتفق عليه، وفيه أن ذلك كان يوم الفتح، وأما الترجيع: فهو التردد في الصوت كما جاء - أيضاً - في البخاري أنه جعل يقول: (آآ)، وكان ذلك صدر من حركة الدابة تحته، فدل على جواز التلاوة عليها، وإن أفضى إلى ذلك ولا يكون ذلك من باب الزيادة في الحروف، بل ذلك مغتفر للحاجة، كما يصلي على الدابة حيث توجهت به، مع إمكان تأخير ذلك الصلاة إلى القبلة، والله أعلم.

حسن الصوت بالقراءة

حدثنا محمد بن خلف أبو بكر، حدثنا أبو يحيى الحماني، حدثنا بريد بن عبد الله بن أبي بردة، عن جده أبي بردة، عن أبي موسى الأشعري، عن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا موسى، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود»، وهذا رواه الترمذي عن موسى بن عبد الرحمن الكندي، عن أبي يحيى الحماني - واسمه عبد الحميد بن عبد الرحمن - وقال: حسن صحيح. وقد رواه مسلم من حديث طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبي بردة، عن أبي موسى، وفيه قصة، وقد تقدم الكلام على تحسين الصوت عند قول البخاري: من لم يتغن بالقرآن، وذكرنا هناك أحكاماً كافية عن إعادتها ههنا، والله أعلم.

من أحب أن يسمع القرآن من غيره

حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم بن عبيدة، عن عبد الله قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ عليّ القرآن». قلت: عليك أقرأ عليك أنزل؟! قال: «إني أحب أن أسمعه من غيري». وقد رواه الجماعة إلا ابن ماجه، من طرق عن الأعمش، وله طرق يطول ذكرها وبسطها، وقد تقدم فيما رواه مسلم من حديث طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبي بردة، عن أبي موسى، أن رسول الله ﷺ قال له: «يا أبا موسى، لو رأيته وأنا أستمع لقراءتك البارحة». فقال: أما والله لو أعلم أنك تستمع قراءتي لحبّرتها لك تحبيراً. وقال الزهري، عن أبي سلمة: كان عمر إذا رأى أبا موسى قال: ذكرنا ربنا يا أبا موسى. فيقرأ عنده. وقال أبو عثمان النهدي: كان أبو موسى يصلي بنا، فلو قلت: إني لم أسمع صوت صنع قط ولا بربط قط، ولا شيئاً قط أحسن من صوته.

قول المقرئ للقارئ: حسبك

حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ». فقلت: يا رسول الله، اقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: «نعم»، فقرأت عليه سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿كَفَيْتَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال: «حسبك الآن» فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان. أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه، من رواية الأعمش به، ووجه الدلالة ظاهر، وكذا الحديث الآخر: «اقرأوا القرآن ما اتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا».

في كم يقرأ القرآن وقول الله تعالى: ﴿فَأَقْرَأُوا مَا يَسَّرَ رَبُّهُ﴾ [المزمل: ٢٠]

حدثنا علي، حدثنا سفيان، قال: قال لي ابن شبرمة: نظرت كم يكفي الرجل من القرآن فلم أجد سورة أقل من ثلاث آيات، فقلت: لا ينبغي لأحد أن يقرأ أقل من ثلاث آيات. قال سفيان: أخبرنا منصور، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن يزيد، أخبره علقمة عن أبي مسعود، فلقيته وهو يطوف بالبيت، فذكر النبي ﷺ أن من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه. وقد تقدم أن هذا الحديث متفق عليه، وقد جمع البخاري فيما بين عبد الرحمن بن يزيد وعلقمة عن أبي مسعود وهو صحيح؛ لأن عبد الرحمن سمعه أولاً من علقمة، ثم لقي أبا مسعود وهو يطوف فسمعه منه، وعليّ هذا هو ابن المديني وشيخه هو سفيان بن عيينة، وما قاله عبد الله بن شبرمة - فقيه الكوفة في زمانه - استنباط حسن، وقد جاء في حديث في السنن: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب وثلاث آيات»، ولكن هذا الحديث - أعني حديث أبي مسعود - أصح وأشهر وأخص، ولكن وجه مناسبته للترجمة التي ذكرها البخاري فيه نظر، والله أعلم.

والحديث الثاني أظهر في المناسبة وهو قوله: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عروانة، عن مغيرة، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو قال: أنكحني أبي امرأة ذات حسب، فكان يتعاهد كثنه فيسألها عن بعلمها فتقول: نعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشاً، ولم يفتش لنا كنفاً منذ أتيتاه، فلما طال ذلك عليه ذكر للنبي ﷺ، فقال: «ألقني به»، فلقيته بعد، فقال: «كيف تصوم؟». قلت: كل يوم. قال: «وكيف تخدم؟». قال: كل ليلة. قال: «صم كل شهر ثلاثة، واقرأ القرآن في كل شهر». قال: قلت: إني أطيق أكثر من ذلك. قال: «صم ثلاثة أيام في الجمعة». قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: «أفطر يومين وصم يوماً». قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: «صم أفضل الصوم صوم داود، صيام يوم وإفطار يوم، واقرأ في كل سبع ليال مرة»، فليتنى قبلت رخصة رسول الله ﷺ! وذلك أني كبرت وضعت، فكان يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار والذي يقرأ يعرضه بالنهار ليكون أخف عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أياماً وأحصى وصام مثلهن، كراهية أن يترك شيئاً فارق عليه النبي ﷺ. وقال بعضهم: في ثلاث وفي خمس وأكثرهم على سبع. وقد رواه في الصوم، والنسائي - أيضاً - عن بُنْدَار عن عُثْدَر، عن شعبة، عن مغيرة، والنسائي من حديث حصين، كلاهما عن مجاهد به.

ثم روى البخاري ومسلم وأبو داود من حديث يحيى بن أبي كثير، عن محمد بن عبد الرحمن - مولى بني زهرة - عن أبي سلمة، قال: وأحسبني قال: سمعت أنا من أبي سلمة، عن عبد الله بن عمرو قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ القرآن في شهر». قلت: إني أجد قوة. قال: «فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك». فهذا السياق ظاهره يقتضي المنع من قراءة القرآن في أقل من سبع، وهكذا الحديث الذي رواه أبو عبيد: حدثنا حجاج وعمر بن طارق ويحيى بن بكير، كلهم عن ابن لهيعة، عن حبان بن واسع، عن أبيه، عن قيس بن أبي صعصعة؛ أنه قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، في كم أقرأ القرآن؟ فقال: «في كل خمس عشرة». قال: إني أجد في أقوى من ذلك، قال: «ففي كل جمعة». وحدثنا حجاج عن شعبة، عن محمد بن ذكوان - رجل من أهل الكوفة - قال: سمعت عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود يقول: كان عبد الله بن مسعود يقرأ القرآن في غير رمضان من الجمعة إلى الجمعة.

وعن حجاج، عن شعبة عن أيوب: سمعت أبا قلابة، عن أبي المهلب قال: كان أبي بن كعب يختم القرآن في كل ثمان. وحدثنا علي بن عاصم، عن خالد، عن أبي قلابة قال: كان أبي بن كعب يختم القرآن في كل ثمان. وكان تميم الداري يختمه في كل سبع، وحدثنا هشيم، عن الأعمش، عن إبراهيم: أنه كان يختم القرآن في كل سبع. وحدثنا جرير، عن منصور، عن إبراهيم قال: كان الأسود يختم القرآن في كل ست، وكان علقمة يختمه في كل خمس. فلو تركنا ومجرد هذا لكان الأمر في ذلك جلياً، ولكن دلت أحاديث أخرجوها على جواز قراءته فيما دون ذلك، كما رواه

في كم يقرأ القرآن

الإمام أحمد في مسنده: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا حبان بن واسع، عن أبيه، عن سعد بن المنذر الأنصاري؛ أنه قال: يا رسول الله، أقرأ القرآن في ثلاث؟ قال: «نعم». قال: فكان يقرؤه حتى توفي. وهذا إسناد جيد قوي حسن، فإن حسن بن موسى الأشيب ثقة متفق على جلالته روى له الجماعة، وابن لهيعة، إنما يخشى من تديسه وسوء حفظه، وقد صرح بهنا بالسماع، وهو من الأئمة العلماء بالديار المصرية في زمانه، وشيخه حبان بن واسع بن حبان وأبوه، كلاهما من رجال مسلم، والصحابي لم يخرج له أحد من أهل الكتب الستة، وهذا على شرط كثير منهم، والله أعلم. وقد رواه أبو عبيد، رحمه الله، عن ابن كثير، عن ابن لهيعة، عن حبان بن واسع، عن أبيه، عن سعد بن المنذر الأنصاري أنه قال: يا رسول الله، أقرأ القرآن في ثلاث؟ قال: «نعم، إن استطعت». قال: فكان يقرؤه كذلك حتى توفي.

حديث آخر: قال أبو عبيد: حدثنا يزيد، عن همام، عن قتادة، عن يزيد بن عبد الله بن الشخير، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يفقه من قرأه في أقل من ثلاث». وهكذا أخرجه أحمد وأصحاب السنن الأربعة من حديث قتادة به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

حديث آخر: قال أبو عبيد: حدثنا يوسف بن الغرق، عن الطيب بن سليمان، حدثنا عمرة بنت عبد الرحمن: أنها سمعت عائشة تقول: كان رسول الله ﷺ لا يختم القرآن في أقل من ثلاث. هذا حديث غريب وفيه ضعف، فإن الطيب بن سليمان هذا بصري، ضعفه الدارقطني، وليس هو بذلك المشهور، والله أعلم. وقد ذكره غير واحد من السلف قراءة القرآن في أقل من ثلاث، كما هو مذهب أبي عبيد وإسحاق وابن راهويه وغيرهما من الخلف - أيضاً - قال أبو عبيد: حدثنا يزيد، عن هشام بن حسان، عن حفصة، عن أبي العالية، عن معاذ بن جبل أنه كان يكره أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث. صحيح.

وحدثنا يزيد، عن سفيان، عن علي بن بزيمة، عن أبي عبيدة قال: قال عبد الله: من قرأ القرآن في أقل من ثلاث فهو راجز. وحدثنا حجاج، عن شعبة، عن علي بن بزيمة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله مثله سواء. وحدثنا حجاج، عن شعبة، عن محمد بن ذكوان، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه؛ أنه كان يقرأ القرآن في رمضان في ثلاث. إسناده صحيح. وفي المسند عن عبد الرحمن بن شبل مرفوعاً: «اقرأوا القرآن، ولا تغلوا فيه، ولا تجفوا عنه، ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به». فقلوه: «لا تغلوا فيه» أي: لا تبالغوا في تلاوته بسرعة في أقصر مدة، فإن ذلك ينافي التدبر غالباً؛ ولهذا قبله بقوله: «ولا تجفوا عنه» أي: لا تتركوا تلاوته.

فصل

وقد ترخص جماعة من السلف في تلاوة القرآن في أقل من ذلك؛ منهم أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه. قال أبو عبيد: حدثنا حجاج، عن ابن جريج، أخبرني ابن خصيفة، عن السائب بن يزيد: أن رجلاً سأل عبد الرحمن بن عثمان التيمي عن صلاة طلحة بن عبيد فقال: إن شئت أخبرتك عن صلاة عثمان، رضي الله عنه، فقال: نعم. قال: قلت: لأعطين الليلة على الحجر، فقممت، فلما قمت إذا أنا برجل مقنع يزحميني، فنظرت فإذا عثمان بن عفان، فتأخرت عنه، فصلى فإذا هو يسجد سجود القرآن، حتى إذا قلت: هذه هوادي الفجر، أوتر بركة لم يصل غيرها. وهذا إسناد صحيح.

قال: وحدثنا هُشَيْم، عن منصور، عن ابن سيرين قال: قالت نائلة بنت الفرافصة الكلبيّة حيث دخلوا على عثمان ليقتلوه: إن يقتلوه أو يدعوه، فقد كان يحيي الليل كله بركة يجمع فيها القرآن. وهذا حسن أيضاً. وقال - أيضاً -: حدثنا أبو معاوية، عن عاصم بن سليمان، عن ابن سيرين: إن تميم الداري قرأ القرآن في ركعة. حدثنا حجاج بن شعبة، عن حماد، عن سعيد بن جبير، أنه قال: قرأت القرآن في ركعة في البيت - يعني الكعبة. وحدثنا جرير، عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة أنه قرأ القرآن في ليلة، طاف بالبيت أسبوعاً، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بالطول، ثم طاف بالبيت أسبوعاً، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بالمئين، ثم طاف أسبوعاً، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بالالف، ثم طاف أسبوعاً، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بالالف. وهذا إسناد صحيح.

وهذه كلها أسانيد صحيحة، ومن أغرب ما ههنا، ما رواه أبو عبيد: حدثنا سعيد بن عُفَيْر، عن بكر بن مضر، أن سليم بن عتر التميمي كان يختم القرآن في ليلة ثلاث مرات، ويجمع ثلاث مرات. قال: فلما مات قالت امرأته: رحمك الله، إن كنت لترضي ربك وترضي أهلك، قالوا: وكيف ذلك؟ قالت: كان يقوم من الليل فيختم القرآن، ثم يلم بأهله ثم يغتسل، ويعود فيقرأ حتى يختم ثم يلم بأهله، ثم يغتسل، ويعود فيقرأ حتى يختم، ثم يلم بأهله ثم يغتسل، ويخرج إلى صلاة الصبح.

قلت: كان سليم بن عتر تابعياً جليلاً ثقة نبيلاً، وكان قاضياً بمصر أيام معاوية وقاضياً بها، ثم قال أبو حاتم: روى عن أبي الدرداء، وعنه ابن زحر، ثم قال: حدثني محمد بن عوف، عن أبي صالح كاتب الليث، حدثني حرمله بن عمران، عن كعب بن علقمة قال: كان سليم بن عتر من خير التابعين. وذكره ابن يونس في تاريخ مصر. وقد روى ابن أبي داود عن مجاهد أنه كان يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء. وعن منصور قال: كان علي الأزدي يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء كل ليلة من رمضان. وعن إبراهيم بن سعد قال: كان أبي يحتبي فما يحل حبوته حتى يختم القرآن. قلت: وروي عن منصور بن زاذان: أنه كان يختم فيما بين الظهر والعصر، ويختم أخرى فيما بين المغرب والعشاء، وكانوا يؤخرونها قليلاً.

وعن الإمام الشافعي، رحمه الله: أنه كان يختم في اليوم والليلة من شهر رمضان ختمتين، وفي غيره ختمة. وعن أبي عبد الله البخاري - صاحب الصحيح -: أنه كان يختم في الليلة ويومها من رمضان ختمة. ومن غريب هذا وبديعه ما ذكره الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي الصوفي قال: سمعت الشيخ أبا عثمان المغربي يقول: كان ابن الكاتب يختم بالنهار أربع ختمات، وبالليل أربع ختمات. وهذا نادر جداً. فهذا وأمثاله من الصحيح عن السلف محمول إما على أنه ما بلغهم في ذلك حديث مما تقدم، أو أنهم كانوا يفهمون ويفتكرون فيما يقرؤونه مع هذه السرعة، والله أعلم. قال الشيخ أبو زكريا النووي في كتابه التبيان بعد ذكر طرف مما تقدم: (والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر يحصل له كمال فهم ما يقرؤه، وكذا من كان مشغولاً بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل والهذمة).

ثم قال البخاري، رحمه الله:

البكاء عند القراءة

وأورد فيه من رواية الأعمش، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ». قلت: اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أشتي أن أسمعه من غيري». قال: فقرأت النساء، حتى إذا بلغت: ﴿كَفَّ أَوْ أَمْسَكَ﴾، فرأيت عيناه تذرفان. وهذا من المتفق عليه كما تقدم، وكما سيأتي إن شاء الله.

من رأى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فجر به

حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا سفيان، حدثنا الأعمش، عن خثيمة، عن سويد بن غفلة، قال علي، رضي الله عنه: سمعت النبي ﷺ يقول: «يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لغيتهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة».

وقد روي في موضعين آخرين، ومسلم وأبو داود والنسائي، من طرق عن الأعمش به: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا مالك، عن يحيى بن سعيد، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، ويقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر في النصل فلا يرى شيئاً، وينظر في القدح فلا يرى شيئاً، وينظر في الريش فلا يرى شيئاً، ويتمارى في الفوق». ورواه في موضع آخر، ومسلم أيضاً - والنسائي من طرق عن الزهري، عن أبي سلمة به. حدثنا مسدد بن مسرهد، حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن أبي موسى، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأثرجة طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمر طعمها طيب ولا ربح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مر أو خبيث وريحها مر». ورواه في موضع آخر مع بقية الجماعة من طرق، عن قتادة به.

ومضمون هذه الأحاديث التحذير من المرأة بتلاوة القرآن التي هي من أعظم القرب، كما جاء في الحديث: «واعلم أنك لن تتقرب إلى الله بأعظم مما خرج منه» يعني: القرآن. والمذكورون في حديث علي وأبي سعيد هم الخوارج، وهم الذين لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، وقد قال في الرواية الأخرى: «يحقر أحدكم قراءته مع قراءتهم، وصلاته مع صلاتهم، وصيامه مع

اقرأوا القرآن ما اختلفت عليه قلوبكم

صياهم». ومع هذا أمر بقتلهم لأنهم مراؤون في أعمالهم في نفس الأمر، وإن كان بعضهم قد لا يقصد ذلك، إلا أنهم أسسوا أعمالهم على اعتقاد غير صالح، فكانوا في ذلك كالمذمومين في قوله: ﴿أَقَمْنَا أَسْسًا بِئْسَ كُنْتُمْ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِن اللَّهِ وَرِضْوَانًا مِّنَ أَسْسٍ بِئْسَ كُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ فَاتَّهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩]، وقد اختلف العلماء في تكفير الخوارج وتفسيرهم ورد روايتهم، كما سيأتي تفصيله في موضعه إن شاء الله.

والمنافق المشبه بالريحانة التي لها الريح ظاهر وطعمها مر هو المراني بتلاوته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]. ثم قال البخاري:

اقرأوا القرآن ما اختلفت عليه قلوبكم

حدثنا أبو النعمان محمد بن الفضل عارم، حدثنا حماد بن زيد، عن أبي عمران الجوني، عن جندب بن عبد الله، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «اقرأوا القرآن ما اختلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه». حدثنا عمرو بن علي بن بحر الفلاس، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سلام بن أبي مطيع، عن أبي عمران الجوني، عن جُنْدُب قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا القرآن ما اختلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه». تابعه الحارث بن عُثَيْد وسعيد بن زيد، عن أبي عمران، ولم يرفعه حماد بن سلمة وأبان. وقال عُثَيْر: عن شعبة، عن أبي عمران قال: سمعت جُنْدُباً. قوله: وقال ابن عون، عن أبي عمران، عن عبد الله بن الصامت، عن عمر قوله. وجندب أصبح وأكثر. وقد رواه في موضع آخر، ومسلم كلاهما عن إسحاق بن منصور، عن عبد الصمد، عن همام، عن أبي عمران به، ومسلم - أيضاً - عن يحيى بن يحيى، عن الحارث بن عبيد أبي قدامة، عن أبي عمران به، ورواه مسلم - أيضاً - عن أحمد بن سعيد، عن حبان بن هلال، عن أبان العطار، عن أبي عمران به مرفوعاً. وقد حكى البخاري: أن أبان وحماد بن سلمة لم يرفعا، فإله أعلم. ورواه النسائي والطبراني من حديث مسلم بن إبراهيم، عن هارون بن موسى الأعمور النحوي، عن أبي عمران به.

ورواه النسائي - أيضاً - من طرق عن سفيان، عن حجاج بن فرافصة، عن أبي عمران به مرفوعاً، وفي رواية عن هارون بن زيد بن أبي الزرقاء، عن أبيه، عن سفيان عن حجاج، عن أبي عمران، عن جُنْدُب موقوفاً، ورواه محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، عن إسحاق الأزرق، عن عبد الله بن عون، عن أبي عمران، عن عبد الله بن الصامت، عن عمر قوله. قال أبو بكر بن أبي داود: لم يخطيء ابن عون في حديث قط إلا في هذا، والصواب عن جندب. ورواه الطبراني عن علي بن عبد العزيز عن مسلم بن إبراهيم وسعيد بن منصور قالوا: حدثنا الحارث بن عبيد، عن أبي عمران، عن جندب مرفوعاً. فهذا مما تيسر من ذكر طرق هذا الحديث على سبيل الاختصار، والصحيح منها ما أرشد إليه شيخ هذه الصناعة أبو عبد الله البخاري، رحمه الله، من أن الأكثر والأصح: أنه عن جندب بن عبد الله مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ.

ومعنى الحديث أنه، عليه السلام، أرشد وحض أمته على تلاوة القرآن إذا كانت القلوب مجتمعة على تلاوته، متفكرة فيه، متدبرة له، لا في حال شغلها وملالها، فإنه لا يحصل المقصود من التلاوة بذلك كما ثبت في الحديث أنه قال عليه الصلاة والسلام: «اكلفوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا»، وقال: «أحب الأعمال إلى الله ما داوم عليه صاحبه وإن قل»، وفي اللفظ الآخر: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل». ثم قال البخاري: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة، عن النزال بن سيرة، عن عبد الله - هو ابن مسعود - أنه سمع رجلاً يقرأ آية سمع النبي ﷺ خلفها، فأخذت بيده فانطلقت إلى النبي ﷺ فقال: «كلاكما محسن فاقرا» أكبر علمي قال: «فإن من كان قبلكم اختلفوا فأهلكهم الله ﷻ». وأخرجه النسائي من رواية شعبة به، وهذا في معنى الحديث الذي تقدمه، وأنه ينهى عن الاختلاف في القراءة والمنازعة في ذلك والمراء فيه كما تقدم النهي عن ذلك، والله أعلم.

وقريب من هذا ما رواه عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه: حدثنا أبو محمد سعيد بن محمد الجرمي، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي، عن الأعمش، عن عاصم، عن زر بن حبيش قال: قال عبد الله بن مسعود: تمارينا في سورة من القرآن فقلنا: خمس وثلاثون آية، ست وثلاثون آية، قال: فانطلقنا إلى رسول الله ﷺ فوجدنا علياً بناصية فقلنا له: اختلفنا في القراءة، فاحمر وجه رسول الله ﷺ، فقال علي: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تقرأوا كما قد علمتم.

وهذا آخر ما أورده البخاري، رحمه الله، في كتاب فضائل القرآن، جل منزله، وتعالى قائله، والله الحمد والمنة.



كتاب الجامع لأحاديث شتى تتعلق بتلاوة القرآن وفوائده وفضل أهله

فصل

قال أحمد: حدثنا معاوية بن هشام، حدثنا شيبان، عن فراس، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال نبي الله عليه الصلاة والسلام: «يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد، فيقرأ ويصعد بكل آية درجة، حتى يقرأ آخر شيء معه». وقال أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا خيثمة، حدثنا بشير بن أبي عمرو الخولاني؛ أن الوليد بن قيس التجيبي حدثه أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون خلف من بعد الستين سنة، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً، ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر». قال بشير: فقلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المنافق كافر به، والفاجر يتأكل به، والمؤمن يؤمن به. وقال أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا الليث، حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن أبي الخطاب، عن أبي سعيد أنه قال: إن رسول الله ﷺ عام تبوك خطب الناس وهو مسند ظهره إلى نخلة فقال: «ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس؛ إن من خير الناس رجلاً عمل في سبيل الله على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدميه حتى يأتيه الموت، وإن من شر الناس رجلاً فاجراً جريئاً يقرأ كتاب الله، لا يرعوي إلى شيء منه». قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عمر بن هياج الكوفي، حدثنا الحسين بن عبد الأول، حدثنا محمد بن الحسن الهمداني، عن عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: من شغله قراءة القرآن عن دعائي أعطيته أفضل ثواب السائلين».

وقال رسول الله ﷺ: «إن فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»، ثم قال: تفرد به محمد بن الحسن ولم يتابع عليه. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبيدة الحداد، حدثني عبد الرحمن بن بُذَيْل بن ميسرة، حدثني أبي، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أهلين من الناس». قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «أهل القرآن هم أهل الله وخاصته». وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن علي بن شعيب السمسار، حدثنا خالد بن خذاش، حدثنا جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه: كان إذا ختم القرآن جمع أهله وولده فدعا لهم. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا محمد بن عباد المكي، حدثنا حاتم بن إسماعيل عن شريك، عن الأعمش، عن يزيد بن أبان، عن الحسن، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه». وقال الحافظ أبو بكر البزار، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا عبد الله بن المحرر، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء حلية، وحلية القرآن الصوت الحسن». ابن المحرر ضعيف.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا بكر بن سودة، عن وفاء الخولاني، عن أنس بن مالك قال: بينما نحن نقرأ فينا العربي والعجمي والأسود والأبيض، إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «أنتم في خير تقرؤون كتاب الله وفيكم رسول الله - وسيأتي على الناس زمان يشقونه كما يشق القدح، يتعجلون أجورهم ولا يتأجلونها». وقد رواه الإمام أحمد - أيضاً - عن حسن، عن ابن لهيعة، عن بكر، عن وفاء، عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ فذكره. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا عبد الله بن الجهم، حدثنا عمرو بن أبي قيس، عن عبد ربه بن عبد الله، عن عمر بن نيهان، عن الحسن، عن أنس؛ أن النبي ﷺ قال: «إن البيت الذي يقرأ فيه القرآن يكثر خيره، والبيت الذي لا يقرأ فيه القرآن يقل خيره». وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا الفضل بن الصباح، حدثنا أبو عبيدة، عن محتسب، حدثني يزيد الرقاشي، عن أنس قال: قعد أبو موسى في بيت واجتمع إليه ناس، فأنشأ يقرأ عليهم القرآن، قال: فقال رسول الله ﷺ: «أفتستطيع أن تقعدني حيث لا يراني منهم أحد؟». قال: نعم. قال: فخرج رسول الله ﷺ فأقعده الرجل حيث لا يراه منهم أحد، فسمع قراءة أبي موسى فقال: «إنه ليقرأ على مزمار من مزامير داود، عليه السلام».

وقال الإمام أحمد: حدثنا مصعب بن سلام، حدثنا جعفر - هو ابن محمد بن علي بن الحسين - عن أبيه، عن جابر بن عبد الله قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: «أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وإن أفضل الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة» ثم يرفع صوته وتحمر وجنتاه، ويشد غضبه إذا ذكر الساعة، كأنه منذر جيش. قال: ثم يقول: «أتتكم الساعة هكذا - وأشار بأصبعه السبابة والوسطى - صبحتكم الساعة ومستكم، من ترك مالا فلاهله، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإلني وعلي». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب - يعني ابن عطاء - أنبأنا

ذكر الدعاء المأثور لحفظ القرآن

أسامة بن زيد الليثي، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد، فإذا قوم يقرءون القرآن فقال: «اقرأوا القرآن وابتغوا به وجه الله - ﷻ - من قبل أن يأتي يقوم يقيمونه إقامة القدح، يتعجلونه ولا يتأجلونه». قال أحمد - أيضاً -: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا خالد، حدثنا حميد الأعرج، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن، وفينا المعجمي والأعرابي قال: فاستمع فقال: «اقرأوا فكل حسن، وسيأتي قوم يقيمونه كما يقام القدح، يتعجلونه ولا يتأجلونه».

وقال أبو بكر البزار: حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء، حدثنا عبد الله بن الأجلح، عن الأعمش، عن المعلى الكندي، عن عبد الله بن مسعود قال: إن هذا القرآن شافع مشفع، من اتبعه قاده إلى الجنة، ومن تركه أو أعرض عنه - أو كلمة نحوها - زج في قفاه إلى النار. وحدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الله بن الأجلح، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي ﷺ بنحوه. قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أحمد بن عبد العزيز بن مروان أبو صخر، حدثني بكر بن يونس، عن موسى بن علي، عن أبيه، عن يحيى بن أبي كثير اليمامي، عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ألف آية كتب الله له قطاراً، والقطار مائة رطل، والرطل اثنتا عشرة أوقية والوقية ستة دنائير، والدينار أربعة وعشرون قيراطاً، والقيراط مثل أحد، ومن قرأ ثلاثمائة آية قال الله لملائكته: نصب عبيدي لي، أشهدكم يا ملائكتي أنني قد غفرت له، ومن بلغه عن الله فضيلة فعمل بها إيماناً به ورجاء ثوابه، أعطاه الله ذلك وإن لم يكن ذلك كذلك».

وقال أحمد: حدثنا جرير، عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب». قال البزار: لا نعلمه يروى عن ابن عباس إلا من هذا الوجه. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثني أبي قال: وجدت في كتاب أبي بخطه عن عمران بن أبي عمران، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: من اتبع كتاب الله هداية الله من الضلالة، ووقاه سوء الحساب يوم القيامة، وذلك أن الله ﷻ يقول: ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هَذَا فَلَا يَصِلْ وَلَا يَشَقَّ﴾ [طه: ١٢٣]. وقال الطبراني: حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح، حدثنا أبي، حدثنا ابن لهيعة، عن عمرو بن دينار، عن طاووس، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحسن الناس قراءة من قرأ القرآن يتحزن به». وقال - أيضاً -: حدثنا أبو يزيد القراطيسي، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا عبدة بن سليمان، عن سعيد أبي سعد البقال، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أحسنوا الأصوات بالقرآن». وروى - أيضاً - بسنده إلى الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً: «أشرف أمتي حملة القرآن». وقال الطبراني: حدثنا معاذ بن العثنى، حدثنا إبراهيم بن أبي سويد الذراع، حدثنا صالح المري، عن قتادة عن زرارة بن أوفى عن ابن عباس قال: سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: أي الأعمال أحب إلى الله؟ فقال: «الحال المرتحل». قال: يا رسول الله، ما الحال المرتحل؟ قال: «صاحب القرآن يضرب في أوله حتى يبلغ آخره، وفي آخره حتى يبلغ أوله».

ذكر الدعاء المأثور لحفظ القرآن وطرد النسيان

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا محمد بن إبراهيم القرشي، حدثني أبو صالح وعكرمة، عن ابن عباس قال: قال علي بن أبي طالب: يا رسول الله، القرآن يتفلت من صدري، فقال النبي ﷺ: «أعلمك كلمات يفعل الله بهن وينفع من علمته». قال: قال: نعم بأبي وأمي، قال: «صل ليلة الجمعة أربع ركعات تقرأ في الأولى بفاتحة الكتاب ويس، وفي الثانية بفاتحة الكتاب وحم الدخان، وفي الثالثة بفاتحة الكتاب والم تنزيل السجدة، وفي الرابعة بفاتحة الكتاب وتبارك المفصل، فإذا فرغت من التشهد فاحمد الله واثن عليه، وصل على النبيين، واستغفر للمؤمنين، ثم قل: اللهم ارحمني بترك المعاصي أبداً ما أبقيتني، وارحمني من أن أتكلف ما لا يعنيني، وارزقني حسن النظر فيما يرزقك عني، اللهم بديع السموات والأرض، ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام، أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبي حفظ كتابك كما علمتني، وارزقني أن أتلوه على النحو الذي يرزقك عني، وأسألك أن تنور بالكتاب بصري، وتطلق به لساني، وتفرج به عن قلبي، وتشرح به صدري، وتستعمل به بدني، وتقويني على ذلك وتعينني على ذلك، فإنه لا يعينني على الخير غيرك، ولا يوفق له إلا أنت، فافعل ذلك ثلاث جمع أو خمساً أو سبعا تحفظه بإذن الله وما أخطأ مؤمناً قط». فأتى النبي ﷺ بعد ذلك بسبع فأخبره بحفظ القرآن والحديث، فقال النبي ﷺ: «مؤمن ورب الكعبة، علم أبو الحسن، علم أبو الحسن» هذا سياق الطبراني.

وقال أبو عيسى الترمذي في كتاب الدعوات: حدثنا أحمد بن الحسن، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا ابن جريج، عن عطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس، عن ابن عباس أنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه علي بن أبي طالب فقال: بأبي أنت وأمي، تغفلت هذا القرآن من صدري فما أجدني أقدر عليه، فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا الحسن، أفلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن، وينفع بهن من علمته، وثبت ما تعلمت في صدرك؟» قال: أجل يا رسول الله، فعلمني، قال: «إذا كان ليلة الجمعة فإن استطعت أن تقوم في ثلث الليل الآخر فإنها ساعة مشهودة، والدعاء فيها مستجاب، وقد قال أخي يعقوب لبيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨]، يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة، فإن لم تستطع فقم في وسطها، فإن لم تستطع فقم في أولها فصل أربع ركعات، تقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وسورة يس، وفي الركعة الثانية بفاتحة الكتاب وحم الدخان، وفي الركعة الثالثة بفاتحة الكتاب والم تنزيل السجدة، وفي الركعة الرابعة بفاتحة الكتاب وتبارك المفصل، فإذا فرغت من التشهد، فاحمد الله وأحسن الثناء على الله، وصل علي وأحسن وعلى سائر النبيين، واستغفر للمؤمنين والمؤمنات، وإخوانك الذين سبقوك بالإيمان، ثم قل في آخر ذلك: اللهم ارحمني بترك المعاصي أبداً ما أبقيتني، وارحمني أن أتكلف ما لا يعنيني، وارزقني حسن النظر فيما يرضيك عني، اللهم بديع السموات والأرض، ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام، أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبي حفظ كتابك كما علمتني، وارزقني أن أتلوه على النحو الذي يرضيك عني، اللهم بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام، أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك، أن تنور بكتابك بصري، وأن تطلق به لساني، وأن تفرج به عن قلبي، وأن تشرح به صدري، وأن تغسل به بدني، فإنه لا يعنيني على الحق غيرك ولا يؤتيه إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، يا أبا الحسن، تفعل ذلك ثلاث جمع أو خمسا أو سبعا تجاب بإذن الله تعالى، والذي بعثني بالحق ما أخطأ مؤمناً قط». قال ابن عباس: فوالله ما لبث علي إلا خمسا أو سبعا حتى جاء علي رسول الله ﷺ في مثل ذلك المجلس، فقال: يا رسول الله، والله إنني كنت فيما خلا لا آخذ إلا أربع آيات أو نحوهن، فإذا قرأتهن على نفسي ثقلتُنَّ وأنا أعلم اليوم أربعين آية أو نحوها، فإذا قرأتها على نفسي فكأنما كتاب الله بين عيني، ولقد كنت أسمع الحديث، فإذا رددته ثقلتُنَّ، وأنا اليوم أسمع الأحاديث، فإذا تحدثت بها لم أخرم منها حرفاً، فقال له رسول الله ﷺ عند ذلك: «مؤمن ورب الكعبة يا أبا الحسن».

ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم. كذا قال، وقد تقدم من غير طريقه. ورواه الحاكم في مستدركه من طريق الوليد، ثم قال: على شرط الشيخين حيث صرح الوليد بالسماع من ابن جريج، فالله أعلم - فإنه في المتن غرابة بل نكارة، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا العمري، عن نافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل القرآن مثل الإبل المعلقة إن تعاهدها صاحبها أسكنها، وإن تركها ذهب». ورواه - أيضاً - عن محمد بن عبيد ويحيى بن سعيد، عن عبيد الله العمري به. ورواه - أيضاً - عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر مرفوعاً نحوه. وقال البزار: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا حميد بن حماد بن أبي الحوار، حدثنا مسعر، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أحسن قراءة؟ قال: «من إذا سمعته يقرأ رويت أنه يخشى الله، ﷺ».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها». وقال أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثني حبي بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنني أقرأ القرآن فلا أجد قلبي يعقل علي؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن قلبك خفي الإيمان، وإن العبد يعطى الإيمان قبل القرآن». وبهذا الإسناد: أن رجلاً جاء بآبَنَ له فقال: يا رسول الله، إن ابني هذا يقرأ المصحف بالنهار ويبيت بالليل، فقال رسول الله ﷺ: «ما تنعم أن ابنك يظل ذاكراً ويبيت سالماً». وقال أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن حبي، عن أبي عبد الرحمن، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي رب، منعتك الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعتك النوم بالليل فشفعني فيه»، قال: «فيشفعان». وقال أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن عبد الرحمن بن جبير، عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أكثر منافقي أمتي قراؤها». وقال أحمد: حدثنا وكيع، حدثني همام، عن قتادة، عن يزيد بن عبد الله بن الشخير، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يَفقه». ورواه

ذكر الدعاء المأثور لحفظ القرآن

- أيضاً - عن عُثْرٍ، عن شعبة، عن قتادة به . وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن إسحاق بن راهويه، حدثنا أبي، حدثنا عيسى بن يونس، ويحيى بن أبي الحجاج التميمي، عن إسماعيل بن رافع، عن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ قال : «من قرأ القرآن فكانما استدرجت النبوة بين جنبيه، غير أنه لا يؤخى إليه، ومن قرأ القرآن فرأى أن أحداً أُعطي أفضل مما أُعطي فقد عظم ما صغر الله، وصغر ما عظم الله، وليس ينبغي لحامل القرآن أن يسفه فيمن يسفه، أو يغضب فيمن يغضب، أو يخند فيمن يخند، ولكن يعفو ويصفح، لفضل القرآن» .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عباد بن مسيرة، عن الحسن، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال : «من استمع إلى آية من كتاب الله كُتِبَتْ له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة» . وقال البزار : حدثنا محمد بن حرب، حدثنا يحيى بن المتوكل، حدثنا عنبسة بن مهران عن الزهري، عن سعيد وأبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال : «مراء في القرآن كفر» . ثم قال عنبسة : هذا ليس بالقوي . وعنده فيه إسناد آخر . وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو بكر، حدثنا ابن إدريس، حدثنا المقبري، عن جده، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه» . وقال الطبراني : حدثنا موسى بن حازم الأصبهاني، حدثنا محمد بن بكر الحضرمي، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن الحارث الذماري، عن القاسم أبي عبد الرحمن، عن فضالة بن عبيد، وتميم الداري، عن النبي ﷺ قال : «من قرأ عشر آيات في ليلة كُتِبَ له قنطار، والقنطار خير من الدنيا وما فيها، فإذا كان يوم القيامة يقول ربك، ﷻ أقرأ وارق بكل آية درجة حتى ينتهي إلى آخر آية معه، يقول ربك : اقبط، فيقول العبد بيده : يا رب أنت أعلم . فيقول : بهذه الخلد وبهذه النعيم» . وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة معق من عمران بن حطان قال : قال : دخلت مع أبي علي أم الدرداء، رضي الله عنها، فسألها أبي : ما فضل من قرأ القرآن على من لم يقرأ؟ قالت : حدثني عائشة قالت : جعلت دَرَجُ الجنة على عدد آي القرآن، فمن قرأ ثلث القرآن ثم دخل الجنة كان على الثلث من درجها، ومن قرأ نصف القرآن كان على النصف من درجها، ومن قرأ كله كان في عليين، لم يكن فوقه إلا نبي أو صديق أو شهيد . وقال الطبراني : حدثنا مسعدة بن سعد العطار المكي، حدثنا إبراهيم بن المنذر الجزامي، حدثنا إسحاق بن إبراهيم مولى جميع بن حارثة الأنصاري، حدثنا عبد الله بن ماهان الأزدي، حدثني فائد مولى عبيد الله بن أبي رافع، حدثني سكين بنت الحسين بن علي، عن أبيها قال : قال رسول الله ﷺ : «حملة القرآن عرفاء أهل الجنة يوم القيامة» . وروى الطبراني من حديث بقر، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن المهاصر بن حبيب، عن عبيدة المليكي، عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول : «يا أهل القرآن، لا تؤسّدوا القرآن، واتلوه حق تلاوته من آتاء الليل والنهار، وتغنوه وتَقَوُّوه، واذكروا ما فيه لعلكم تفلحون، ولا تستعجلوا ثوابه، فإن له ثوابين» .

وفي حديث عقبة بن عامر نحوه، كما تقدم . وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد، حدثنا ابن لهيعة، عن مشرَح، عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : «لو أن القرآن جُعِلَ في إهاب ثم ألقي في النار ما احترق» . تفرد به . قيل : معناه : أن الجسد الذي يقرأ القرآن لا تمسه النار . وفي سنن ابن ماجه من طريق المغيرة بن نهيك، عن عقبة بن عامر مرفوعاً : «من تعلم القرآن ثم تركه فقد عصاني» . وفي حديث رواه أبو يعلى من طريق ليث، عن مجاهد، عن أبي سعيد مرفوعاً : «عليك بتقوى الله، فإنها رأس كل خير، وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بِذِكْرِ الله وتلاوة القرآن، فإنه نور لك في الأرض وذكر لك في السماء، واخزن لسانك إلا من خير، فأئك بذلك تغلب الشيطان» .

وهكذا أذكر آثاراً مروية عن ابن أم عبد أحد قراء القرآن من الصحابة المأمور بالتلاوة على نحوهم : روى الطبراني، عن الدَّبَرِيِّ، عن عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن أبي إسحاق، قال ابن مسعود : كل آية في كتاب الله خير مما في السماء والأرض . ومن طريق شعبة، عن أبي إسحاق، عن مرة قال ابن مسعود : من أراد العلم فليتبوأ من القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين . ومن طريق سُفيان وشعبة، عن ساعد بن كهيل، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال : إن هذا القرآن ليس فيه حرف إلا له حد، ولكل حد مَطْلَعٌ . ومن حديث الثوري، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن سيار أبي الحكم، عن ابن مسعود أنه قال : أعربوا هذا القرآن فإنه عربي، وسيجيء قوم يُشَفِّقُونَهُ وليسوا بخياركم . والثوري، عن عاصم، عن زُرٍّ، عن ابن مسعود قال : أديموا النظر في المصحف، وإذا اختلفتم في ياء أو تاء فاجعلوها ياء، ذكروا القرآن فإنه مذكّر .

وقال عبد الرزاق، عن إسرائيل، عن عبد العزيز بن رفيع، عن شَدَّاد بن مَعْقِل، سمعت ابن مسعود يقول : أول ما تفقدون دينكم الأمانة، وآخر ما يبقى من دينكم الصلاة، وليصلي قوم لا خلاق لهم، ولينزع قوم من بين أظهركم . قالوا : يا أبا عبد

الرحمن، ألسنا نقرأ القرآن وأثبتناه في مصاحفنا؟ قال: يُسْرَى على القرآن ليلاً فَيَذْهَبُ به من أجواف الرجال فلا يبقى في الأرض منه شيء - وفي رواية: لا يبقى في مصحف منه شيء - ويصبح الناس فَيَقْرَأُ كالبهائم. ثم قرأ عبد الله: ﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الاسراء: ٨٦]. وقال الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا أبو نعيم، حدثني شعبة، عن علي بن بزيمة، عن أبي عبيدة بن عبد الله، عن أبيه قال: من قرأ القرآن في أقل من ثلاث فهو راجز. قال هشام عن الحسن: إنه بلغه عن ابن مسعود مثل ذلك. ومن طريق الأعمش، عن أبي وائل قال: كان عبد الله يقل الصوم، فيقال له في ذلك، فيقول: إني إذا صُمْتُ ضَعُفْتُ عن القراءة والصلاة، والقراءة والصلاة أحب إلي.

مقدمة مفيدة

قال أبو بكر بن الأنباري: حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، عن حجاج بن منهال، عن همام، عن قتادة قال: نزل في المدينة من القرآن البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، وبراءة، والرعد، والنحل، والحج، والثور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات، والحديد، والرحمن، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والمنافقون، والتغابن، والطلاق، وبأيهما النبي لم تُحْرَمْ، وإلى رأس العشر، وإذا زلزلت، وإذا جاء نصر الله. هؤلاء السور نزلت بالمدينة، وسائر القرآن نزل بمكة. فأما عدد آيات القرآن فستة آلاف آية، ثم اختلف فيما زاد على ذلك على أقوال، فمنهم من لم يزد على ذلك، ومنهم من قال: ومائتا آية وأربع آيات، وقيل: وأربع عشرة آية، وقيل: ومائتان وتسع عشرة، وقيل: ومائتان وخمس وعشرون آية، وست وعشرون آية، وقيل: ومائتا آية، وست وثلاثون آية. حكى ذلك أبو عمرو الداني في كتاب البيان. وأما كلماته، فقال الفضل بن شاذان، عن عطية بن يسار: سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمئة وتسع وثلاثون كلمة.

وأما حروفه، فقال عبد الله بن كثير، عن مجاهد: هذا ما أحصينا من القرآن وهو ثلاثمائة ألف حرف وواحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفاً. وقال الفضل، عن عطية بن يسار: ثلاثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألفاً وخمسة عشر حرفاً. وقال سلام أبو محمد الحماني: إن الحجاج جمع القراء والحفاظ والكتاب فقال: أخبروني عن القرآن كله كم من حرف هو؟ قال: فحسبناه فأجمعوا أنه ثلاثمائة ألف حرف وأربعون ألفاً وسبعمئة وأربعون حرفاً. قال: فأخبروني عن نصفه. فإذا هو إلى الفاء من قوله في الكهف: ﴿وَلَيَسْأَلَنَّ﴾ [الكهف: ١٩]، وتلك الأول عند رأس مائة آية من براءة، والثاني على رأس مائة أو إحدى ومائة من الشعراء، والثالث إلى آخره. وسُبَّحَ الأول إلى الدال من قوله: ﴿فَيَنْهَوْنَ عَنْ مَّامَرٍ بِهِ وَيَمْنَعُونَ مَنَ صَدَّ عَنْهُ﴾ [النساء: ٥٥]. والسُّبُّع الثاني إلى الباء من قوله في الأعراف: ﴿حِطَّتْ﴾ [الأعراف: ١٤٧]، والثالث إلى الألف الثانية من ﴿أَكْثَلَهَا﴾ في الرعد [الرعد: ٣٥]، والرابع إلى الألف من قوله في الحج: ﴿جَعَلْنَا مَسْجِدَ﴾ [الحج: ٦٧]، والخامس إلى الهاء من قوله في الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، والسادس إلى الواو من قوله في الفتح: ﴿الْفَلَائِكَ بِأَنَّهُ ظَلَمَ كُتُوهُ﴾ [الفتح: ٦]، والسابع إلى آخر القرآن. قال سلام أبو محمد: عملنا ذلك في أربعة أشهر. قالوا: وكان الحجاج يقرأ في كل ليلة ربع القرآن، فالأول إلى آخر الأنعام، والثاني إلى ﴿وَلَيَسْأَلَنَّ﴾ [الكهف: ١٩]، والثالث إلى آخر الزمر، والرابع إلى آخر القرآن. وقد ذكر الشيخ أبو عمرو الداني في كتابه البيان خلافاً في هذا كله، والله أعلم.

وأما التحزيب والتجزئة فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما في الربعات في المدارس وغيرها، وقد ذكرنا فيما تقدم الحديث الوارد في تحزيب الصحابة للقرآن، والحديث في مسند أحمد وسُنَّ أبي داود وابن ماجه وغيرهما عن أوس بن حذيفة أنه سأل أصحاب رسول الله ﷺ في حياته: كيف يُحزَّبُ القرآن؟ قالوا: ثلاث وخمس وسبع وإحدى عشرة وثلاث عشرة، وحزب المُفَصَّل من قاف حتى يختم. قال القرطبي: أجمعوا أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية، وأجمعوا أن فيه أعلاماً من الأعجمية كإبراهيم ونوح، ولوط، واختلفوا: هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية؟ فأنكر ذلك الباقلاني والطبري وقالوا: ما وقع فيه ما يوافق الأعجمية، فهو من باب ما توافقت فيه اللغات.

فصل

واختلفوا في معنى السورة: مِمَّ هي مشتقة؟ فقيل: من الإبانة والارتفاع. قال النابغة:
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُوْرَةً تَرَى كُلَّ مَلَكٍ دُوْنَهَا يَتَذَبَذَّبُ
فكان القاري يتنقل بها من منزلة إلى منزلة. وقيل: لشرفها وارتفاعها كسور البلد. وقيل: سميت سورة لكونها قطعة من القرآن وجزءاً منه، مأخوذ من أسار الإناء وهو البقية، وعلى هذا فيكون أصلها مهموزاً، وإنما خفت فأبدلت الهمزة واواً لانضمام ما

قبلها. وقيل: لتماهما وكما لها لأن العرب يسمون الناقة التامة سورة. قلت: ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها كما سُمِّيَ سورُ البلد لإحاطته بمنازله ودوره، والله أعلم. وجمع السورة سورٌ بفتح الواو، وقد تُجمع على سورَاتٍ وسُورَاتٍ. وأما الآية فمن العلامة على انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصاله، أي: هي بآئنة من أختها. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، وقال النابغة:

تَوَهَّيْتُ آيَاتِ لَهَا فَعَرَفْتُهَا لِسِنَّةِ أَعْوَامٍ وَذَا الْعَمَامِ سَابِغٍ
وقيل: لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه، كما يقال: خرج القوم بآيتهم، أي: بجماعتهم. قال الشاعر:

خَرَجْنَا مِنَ الثَّقَبِينَ لَا حَيٍّ مِثْلُنَا بَأَيْتِنَا نُزْجِي اللَّقَاحَ الْمَطَافِلَا
وقيل: سُمِّيَتْ آيَةً لأنها عَجَبٌ يَعْجِزُ البشر عن التكلم بمثلها. قال سيبويه: وأصلها آيَةٌ مثل أَكْمَةٍ وَشَجَرَةٍ، تحرَّكت الياء وافتتح ما قبلها فقلبت ألفاً فصارت آية، بهمزة بعدها مدة. وقال الكسائي: آية على وزن أئمة، فقلبت ألفاً، ثم حُذِفَتْ لالتباسها. وقال الفراء: أصلها آيَةٌ - بتشديد الياء - فقلبت الأولى ألفاً، كراهية التشديد فصارت آية، وجمعها: آيٍ وآيَاتٍ وآيَاتٍ. وأما الكلمة فهي اللفظ الواحد، وقد تكون على حرفين مثل: ما ولا وله ولك، وقد يكون أكثر. وأكثر ما يكون عشرة أحرف ﴿يَسْتَغْفِرُ﴾ [النور: ٥٥]، و ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ [مروء: ٢٨]، ﴿فَلْيَنْتَكِبُوا﴾ [الحجر: ٢٢]، وقد تكون الكلمة آية، مثل: والفجر، والضحى، والمغرب، وكذلك: الم، وطه، ويس، وح-م. في قول الكوفيين - و ﴿حَمْدٌ ۝ عَسَى ۝﴾ عندهم كلمتان. وغيرهم لا يسمي هذه آيات بل يقول: هي فواتح السور. وقال أبو عمرو الداني: لا أعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله: ﴿مُذَاهِكَا ۝﴾ [الرحمن: ٦٤] في سورة الرحمن.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة الكتاب

يقال لها: الفاتحة، أي فاتحة الكتاب خطأ، وبها تفتح القراءة في الصلاة، ويقال لها أيضاً: أم الكتاب عند الجمهور، وكره أنس، والحسن وابن سيرين كرها تسميتها بذلك، قال الحسن وابن سيرين: إنما ذلك اللوح المحفوظ، وقال الحسن: الآيات المحكمات هن أم الكتاب، ولذا كرها - أيضاً - أن يقال لها أم القرآن، وقد ثبت في الحديث الصحيح عند الترمذي وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم»، ويقال لها: الحمد، ويقال لها: الصلاة؛ لقوله عليه السلام عن ربه: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله: حمدني عبدي» الحديث. فسميت الفاتحة: صلاة؛ لأنها شرط فيها. ويقال لها: الشفاء، لما رواه الدارمي عن أبي سعيد مرفوعاً: «فاتحة الكتاب شفاء من كل سم». ويقال لها: الرقية، لحديث أبي سعيد في الصحيح حين رقى بها الرجل السليم، فقال له رسول الله ﷺ: «وما يدريك أنها رقية؟». وروى الشعبي عن ابن عباس أنه سماها: أساس القرآن، قال: فأساسها بسم الله الرحمن الرحيم، وسماها سفيان بن عيينة: الواقعة. وسماها يحيى بن أبي كثير: الكافية؛ لأنها تكفي عما عداها ولا يكفي ما سواها عنها، كما جاء في بعض الأحاديث المرسلة: «أم القرآن عوض من غيرها، وليس غيرها عوضاً عنها». ويقال لها: سورة الصلاة والكنز، ذكرهما الزمخشري في كشافه.

وهي مكية، قاله ابن عباس وقتادة وأبو العالية، وقيل: مدنية، قاله أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري. ويقال: نزلت مرتين: مرة بمكة، ومرة بالمدينة، والأول أشبه لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَآيَنَّاكَ سَبَآ ۝ يٰنَ النَّبَاتِ﴾ [الحجر: ٨٧]، والله أعلم. وحكى أبو الليث السمرقندي أن نصفها نزل بمكة ونصفها الآخر نزل بالمدينة، وهو غريب جداً، نقله القرطبي عنه. وهي سبع آيات بلا خلاف، وقال عمرو بن عبيد: ثمان، وقال حسين الجعفي: ستة، وهذا شاذان. وإنما اختلفوا في البسملة: هل هي آية مستقلة من أولها كما هو عند جمهور قراء الكوفة وقول الجماعة من الصحابة والتابعين وخلق من الخلف، أو بعض آية أو لا تعد من أولها بالكلية، كما هو قول أهل المدينة من القراء والفقهاء؟ على ثلاثة أقوال، سيأتي تقريره في موضعه إن شاء الله تعالى، وبه الثقة.

قالوا: وكلماتها خمس وعشرون كلمة، وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفاً. قال البخاري في أول كتاب التفسير: وسميت أم الكتب: أنه يبدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة، وقيل: إنما سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله إلى ما



تضمنته . قال ابن جرير : والعرب تسمي كل جامع أمر أو مقدم لأمر - إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع - أمّا ، فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ : أم الرأس ، ويسمون لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها أمّا ، واستشهد بقول ذي الرمة : على رأسه أم لنا نقتدي بها جماع أمور ليس نعصي لها أمرا يعني : الرمح . قال : وسميت مكة : أم القرى لتقدمها أمام جميعها وجمعها ما سواها ، وقيل : لأن الأرض دحيت منها . ويقال لها أيضاً : الفاتحة ؛ لأنها تفتتح بها القراءة ، وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الإمام ، وصح تسميتها بالسبع المثاني ، قالوا : لأنها تنثني في الصلاة ، فتقرأ في كل ركعة ، وإن كان للمثاني معنى آخر غير هذا ، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أنا ابن أبي ذئب وهاشم بن هشام عن ابن أبي ذئب ، عن المقبري ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال لأم القرآن : «هي أم القرآن» ، وهي السبع المثاني ، وهي القرآن العظيم . ثم رواه عن إسماعيل بن عمر عن ابن أبي ذئب به ، وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : حدثني يونس بن عبد الأعلى ، أنا ابن وهب ، أخبرني ابن أبي ذئب ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : «هي أم القرآن» ، وهي فاتحة الكتاب ، وهي السبع المثاني . وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه في تفسيره : حدثنا أحمد بن محمد بن زيد ، ثنا محمد بن غالب بن حارث ، ثنا إسحاق بن عبد الواحد الموصلي ، ثنا المعافى بن عمران ، عن عبد الحميد بن جعفر ، عن نوح بن أبي بلال ، عن المقبري ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «الحمد لله رب العالمين سبع آيات : بسم الله الرحمن الرحيم إحداهن ، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم ، وهي أم الكتاب» .

وقد رواه الدارقطني - أيضاً - عن أبي هريرة مرفوعاً بنحوه أو مثله ، وقال : كلهم ثقات . وروى البيهقي عن علي وابن عباس وأبي هريرة أنهم فسروا قوله تعالى : ﴿سَمَاءٌ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الحجر : ٨٧] بالفاتحة ، وأن البسملة هي الآية السابعة منها ، وسيأتي تمام هذا عند البسملة . وقد روى الأعمش عن إبراهيم قال : قيل لابن مسعود : لم لم تكتب الفاتحة في مصحفك؟ قال : لو كتبتها لكتبتها في أول كل سورة . قال أبو بكر بن أبي داود : يعني حيث يقرأ في الصلاة ، قال : واكتفيت بحفظ المسلمين لها عن كتابتها .

وقد قيل : إن الفاتحة أول شيء نزل من القرآن ، كما ورد في حديث رواه البيهقي في دلائل النبوة ونقله الباقلاني أحد أقوال ثلاثة هذا أحدها وقيل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال : ٢٤] ، ثم قال : «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن» . قال : «نعم» ، الحمد لله رب العالمين هي : السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته . وهكذا رواه البخاري عن مسدد ، وعلي بن المديني ، كلاهما عن يحيى بن سعيد القطان ، به . ورواه في موضع آخر من التفسير ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجة من طرق عن شعبة ، به . ورواه الواقدي عن محمد بن معاذ الأنصاري ، عن خبيب بن عبد الرحمن ، عن حفص بن عاصم ، عن أبي سعيد بن المَعْلَى ، عن أبي بن كعب ، فذكر نحوه .

ذكر ما ورد في فضل الفاتحة

قال الإمام أحمد بن محمد بن حنبل ، رحمه الله ، في مسنده : حدثنا يحيى بن سعيد ، عن شعبة ، عن حديثي خبيب بن عبد الرحمن ، عن حفص بن عاصم ، عن أبي سعيد بن المَعْلَى ، رضي الله عنه ، قال : كنت أصلي فدعاني رسول الله ﷺ ، فلم أجه حتى صليت وأتيت ، فقال : «ما منعك أن تأتيني؟» . قال : قلت : يا رسول الله ، إني كنت أصلي . قال : «ألم يقل الله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال : ٢٤] ، ثم قال : «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد» . قال : فأخذ بيدي ، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت : يا رسول الله ، إنك قلت : «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن» . قال : «نعم» ، الحمد لله رب العالمين هي : السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته . وهكذا رواه البخاري عن مسدد ، وعلي بن المديني ، كلاهما عن يحيى بن سعيد القطان ، به . ورواه في موضع آخر من التفسير ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجة من طرق عن شعبة ، به . ورواه الواقدي عن محمد بن معاذ الأنصاري ، عن خبيب بن عبد الرحمن ، عن حفص بن عاصم ، عن أبي سعيد بن المَعْلَى ، عن أبي بن كعب ، فذكر نحوه .

وقد وقع في الموطأ للإمام مالك بن أنس ، ما ينبغي التنبيه عليه ، فإنه رواه مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب الحرقي : أن أبا سعيد مولى عامر بن كريز أخبرهم ، أن رسول الله ﷺ نادى أبي بن كعب ، وهو يصلي في المسجد ، فلما فرغ من صلاته لحقه ، قال : فوضع النبي ﷺ يده على يدي ، وهو يريد أن يخرج من باب المسجد ، ثم قال : «إني لأرجو ألا تخرج من باب المسجد حتى تعلم سورة ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثله» . قال أبي : فجعلت أبطئ في المشي رجاء ذلك ، ثم قلت : يا رسول الله ، ما السورة التي وعدتني؟ قال : «كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة؟» . قال : فقرأت عليه : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتى أتيت على آخرها ، فقال رسول الله ﷺ : «هي هذه السورة» ، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيت .

فأبو سعيد هذا ليس بأبي سعيد بن المُعلّى، كما اعتقده ابن الأثير في جامع الأصول ومن تبعه، فإن ابن المُعلّى صحابي أنصاري، وهذا تابعي من موالي خزاعة، وذاك الحديث متصل صحيح، وهذا ظاهره أنه منقطع، إن لم يكن سمعه أبو سعيد هذا من أبي بن كعب، فإن كان قد سمعه منه فهو على شرط مسلم، والله أعلم. على أنه قد روي عن أبي بن كعب من غير وجه كما قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، حدثنا العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ على أبي بن كعب، وهو يصلي، فقال: «يا أبي»، فالتفت ثم لم يجبه، ثم قال: «أبي، فخفف». ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ، فقال: السلام عليك أي رسول الله. قال: «وعليك السلام»، قال: «ما منعك أي أبي إذ دعوتك أن تجيبني؟». قال: «أي رسول الله، كنت في الصلاة، قال: «أو لست تجد فيما أوحى الله إلي: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾» [الأنفال: ٢٤]. قال: «بلى يا رسول الله، لا أعود. قال: «أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل لا في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلاً؟» قلت: نعم، أي رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو ألا أخرج من هذا الباب حتى تعلمها». قال: فأخذ رسول الله ﷺ بيدي يحدثني، وأنا أتبطأ، مخافة أن يبلغ قبل أن يقضي الحديث، فلما دنونا من الباب قلت: أي رسول الله، ما السورة التي وعدتني؟ قال: «ما تقرأ في الصلاة؟». قال: فقرأت عليه أم القرآن، قال: «والذي نفسي بيده، ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلاً؛ إنها السبع المثاني».

ورواه الترمذي، عن قتيبة، عن الدَّرَّازِي، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، فذكره، وعنده: إنها من السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح. وفي الباب، عن أنس بن مالك، ورواه عبد الله بن الإمام أحمد، عن إسماعيل بن أبي مَعْمَر، عن أبي أسامة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن أبي بن كعب، فذكره مطولاً بنحوه أو قريباً منه. وقد رواه الترمذي والنسائي جميعاً، عن أبي عمار حسين بن حريث، عن الفضل بن موسى، عن عبد الحميد بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن، وهي السبع المثاني، وهي مقسومة بيني وبين عبيدي»، هذا لفظ النسائي. وقال الترمذي: حسن غريب.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا هاشم، يعني ابن البريد، حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل، عن ابن جابر، قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد أهرق الماء، فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فلم يرد عليّ، قال: فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فلم يرد عليّ، قال: فأنطلق رسول الله ﷺ يمشي، وأنا خلفه حتى دخل رحله، ودخلت أنا المسجد، فجلست كثيراً حزناً، فخرج عليّ رسول الله ﷺ قد تطهر، فقال: «عليك السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله»، ثم قال: «ألا أخبرك يا عبد الله بن جابر بأخير سورة في القرآن؟». قلت: بلى، يا رسول الله. قال: «اقرأ: الحمد لله رب العالمين، حتى تختتمها». هذا إسناد جيد، وابن عقيل تحتج به الأئمة الكبار، وعبد الله بن جابر هذا هو الصحابي، ذكر ابن الجوزي أنه هو العبدى، والله أعلم. ويقال: إنه عبد الله بن جابر الأنصاري البياضي، فيما ذكره الحافظ ابن عساكر. واستدلوا بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الآيات والسور على بعض، كما هو المحكي عن كثير من العلماء، منهم: إسحاق بن راهويه، وأبو بكر بن العربي، وابن الحصار من المالكية. وذمبت طائفة أخرى إلى أنه لا تفاضل في ذلك؛ لأن الجميع كلام الله، ولثلا يومه التفضيل نقص المفضل عليه، وإن كان الجميع فاضلاً، نقله القُرطبي عن الأشعري، وأبي بكر الباقلاني، وأبي حاتم ابن حبان البستي، ويحيى بن يحيى، ورواية عن الإمام مالك أيضاً.

حديث آخر: قال البخاري في فضائل القرآن: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا وهب، حدثنا هشام، عن محمد، عن معبد، عن أبي سعيد الخدري، قال: كنا في مسير لنا، فنزلنا، فجاءت جارية فقالت: إن سيد الحي سليم، وإن نقرنا غُيب، فهل منكم راق؟ فقام معها رجل ما كنا نأبه بركة، فراه، فبرأ، فأمر له بثلاثين شاة، وسقانا لبناً، فلما رجع قلنا له: أكننت تحسن رقية، أو كنت ترقى؟ قال: لا، ما رقيت إلا بأم الكتاب. قلنا: لا تُحدثوا شيئاً حتى نأتي، أو نسأل رسول الله ﷺ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال: «وما كان يُدريه أنها رقية، اقسموها واضربوا لي بسهم». وقال أبو معمر: حدثنا عبد الوارث، حدثنا هشام، حدثنا محمد بن سيرين، حدثني معبد بن سيرين، عن أبي سعيد الخدري بهذا. وهكذا رواه مسلم، وأبو داود من رواية هشام، وهو ابن حسان، عن ابن سيرين، به. وفي بعض روايات مسلم لهذا الحديث: أن أبا سعيد هو الذي رقى ذلك السليم، يعني: اللدني يسمونه بذلك تفاؤلاً.

حديث آخر: روى مسلم في صحيحه، والنسائي في سننه، من حديث أبي الأحوص سلام بن سليم، عن عمار بن رُزَيْق، عن عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل، إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال: هذا باب قد فتح من السماء، ما فتح قط. قال: فنزل منه ملك، فأتى النبي ﷺ، فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يوتيهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، ولن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته. وهذا لفظ النسائي.

ولمسلم نحوه حديث آخر: قال مسلم: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي، هو ابن راهويه، حدثنا سفيان بن عيينة، عن العلاء، يعني ابن عبد الرحمن بن يعقوب الحُرَقِي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها أم القرآن فهي خداج - ثلاثاً - غير تمام». فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام، قال: اقرأ بها في نفسك؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله ﷻ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ، ولعبدِي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: ٢)، قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (الفاتحة: ٣)، قال الله: أثنى علي عبدي، فإذا قال: ﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة: ٤)، قال: حمدني عبدي» - وقال مرة: «فوض إلي عبدي - فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥)، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدِي ما سأل، فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦)، صرط الدين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين (الفاتحة: ٧، ٦، ٧)، قال: هذا لعبدِي ولعبدِي ما سأل».

وهكذا رواه النسائي، عن إسحاق بن راهويه. وقد رواه - أيضاً - عن قتيبة، عن مالك، عن العلاء، عن أبي السائب مولى هشام بن زهرة، عن أبي هريرة، به، وفي هذا السياق: «فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدِي ما سأل». وكذا رواه ابن إسحاق، عن العلاء، وقد رواه مسلم من حديث ابن جُرَيْج، عن العلاء، عن أبي السائب هكذا. ورواه - أيضاً - من حديث ابن أبي أويس، عن العلاء، عن أبيه وأبي السائب، كلاهما عن أبي هريرة. وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وسألت أبا رُزَعة عنه فقال: كلا الحديثين صحيح، من قال: عن العلاء، عن أبيه، وعن العلاء عن أبي السائب. وقد روى هذا الحديث عبد الله ابن الإمام أحمد، من حديث العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن أبي بن كعب مطولاً. قال ابن جرير: حدثنا صالح بن مسمار المروزي، حدثنا زيد بن الخباب، حدثنا عُبَيْسَةُ بن سعيد، عن مُطَرِّف بن طريف، عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عُجْزَةَ، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، وله ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: ٢)، قال: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (الفاتحة: ٣)، قال: أثنى علي عبدي. ثم قال: هذا لي وله ما بقي». وهذا غريب من هذا الوجه.

ثم الكلام على ما يتعلق بهذا الحديث مما يختص بالفاتحة من وجوه: أحدها: أنه قد أطلق فيه لفظ الصلاة، والمراد القراءة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ١١٠)، أي: بقراءتك، كما جاء مصرحاً به في الصحيح، عن ابن عباس، وهكذا قال في هذا الحديث: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدِي ما سأل»، ثم بين تفصيل هذه القسمة في قراءة الفاتحة فدل على عظم القراءة في الصلاة، وأنها من أكبر أركانها، إذا أطلقت العبادة وأريد بها جزء واحد منها وهو القراءة؛ كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة في قوله: ﴿وَقَرَأَ الْقَجْرَ إِذْ قَرَأَ الْقَجْرَ كَأَنَّهُ مَشْهُودٌ﴾ (الإسراء: ٧٨)، والمراد صلاة الفجر، كما جاء مصرحاً به في الصحيحين: من أنه يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، فدل هذا كله على أنه لا بد من القراءة في الصلاة، وهو اتفاق من العلماء. ولكن اختلفوا في مسألة نذكرها في الوجه الثاني، وذلك أنه هل يتعين للقراءة في الصلاة فاتحة الكتاب، أم تجزئ هي أو غيرها؟ على قولين مشهورين، فعند أبي حنيفة ومن وافقه من أصحابه وغيرهم أنها لا تتعين، بل مهما قرأ به من القرآن أجزأه في الصلاة، واحتجوا بعموم قوله تعالى: ﴿فَاقْرَأْ مَا يَنْزِلُ مِنْ رَبِّكَ﴾ (المزمل: ٢٠)، وبما ثبت في الصحيحين، من حديث أبي هريرة في قصة المسبي صلته: أن رسول الله ﷺ قال له: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن» قالوا: فأمره بقراءة ما تيسر، ولم يعين له الفاتحة ولا غيرها، فدل على ما قلناه.

والقول الثاني: أنه تتعين قراءة الفاتحة في الصلاة، ولا تجزئ الصلاة بدونها، وهو قول بقية الأئمة: مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم وجمهور العلماء؛ واحتجوا على ذلك بهذا الحديث المذكور، حيث قال صلوات الله وسلامه عليه: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج» والخداج هو: الناقص كما فسر به في الحديث: «غير تمام».

وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي: لا تتمعين قراءتها، بل لو قرأ بغيرها أجزاء لقوله: ﴿فَأَقْرئُوا مَا يَشَرُّ مِنْ﴾ [الزمل: ٢٠]، كما تقدم، والله أعلم. وقد روى ابن ماجة من حديث أبي سفيان السعدي، عن أبي نصره، عن أبي سعيد مرفوعاً: «لا صلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة بالحمد وسورة في فريضة أو غيرها». وفي صحة هذا نظر، وموضح تحرير هذا كله في كتاب الأحكام الكبير، والله أعلم.

أحدها: أنه تجب عليه قراءتها، كما تجب على إمامه؛ لعموم الأحاديث المتقدمة. والثاني: لا تجب على المأموم قراءة بالكلية لا الفاتحة ولا غيرها، لا في الصلاة الجهرية ولا السرية، لما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة» ولكن في إسناده ضعف. ورواه مالك، عن وهب بن كيسان، عن جابر بن كلامه. وقد روي هذا الحديث من طرق، ولا يصح شيء منها عن النبي ﷺ، والله أعلم. والقول الثالث: أنه تجب القراءة على المأموم في السرية، لما تقدم، ولا تجب في الجهرية لما ثبت في صحيح مسلم، عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به؛ فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا»، وذكر بقية الحديث. وكذا رواه أهل السنن؛ أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «وإذا قرأ فأنصتوا». وقد صححه مسلم بن الحجاج أيضاً، فدل هذان الحديثان على صحة هذا القول وهو قول قديم للشافعي، رحمه الله، ورواية عن الإمام أحمد بن حنبل.

والغرض من ذكر هذه المسائل هنا بيان اختصاص سورة الفاتحة بأحكام لا تتعلق بغيرها من السور، والله أعلم. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا غسان بن عبيد، عن أبي عمران الجوني، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وضعت جنبك على الفراش، وقرأت فاتحة الكتاب و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقد أمنت من كل شيء إلا الموت».

الكلام على تفسير الاستعانة

قال الله تعالى: ﴿خُذِ الزُّكْرَ وَالْمَرْءَ بِالْعَرَبِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [٢٥] وَإِنَّا يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [٢٦] [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِآلِي فِي أَحْسَنِ التَّسْنَةِ مَخَّنْ أَعْلَمْ بِمَا يَعْمُرُونَ﴾ [٢٧] وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هُمْزَاتِ الشَّيْطَانِ [٢٨] وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُوا [٢٩] [المؤمنون: ٩٦-٩٨] وقال تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِآلِي فِي أَحْسَنِ فَوَادٍ الَّتِي يَنْتَكِبْنَ وَيَنْتَكِبُونَ عَنْكَ كُلَّمَا رَأَى حَيِيَّةً [٣٠] وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا دُونُ حَقِطٍ عَظِيمٍ [٣١] وَإِنَّا يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْكَالِيمُ [٣٢]﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦]. فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها، وهوان الله يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه، ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى المودة والمصافة، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة؛ إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ولا يتبغى غير هلاك ابن آدم، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل؛ كما قال تعالى: ﴿يَتَّبِعْ آدَمَ لَا يَقْبَلْنَكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا تَفْرَجُ آبُوكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاعْبُدُوهُ إِنَّمَا يَدْعُوا حِرْبَهُ لِيَكُونُوا مِن أَصْحَابِ السَّعِيرِ [٣٣]﴾ [فاطر: ٦] وقال: ﴿أَفَسْتَعِذُّوهُ وَذَرَيْتُمُ أَوْلِيَائَكَ مِن دُونِ رُبِّكُمْ لَكُمْ عَذَابٌ يُقَالُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، وقد أقسم للوالد آدم إنه لمن الناصحين، فكيف معاملته لنا وقد قال: ﴿فِيَوْمِكَ لَا تُغْنِيهِمْ أَجْوِدٌ [٣٤] إِلَّا يَصَادُكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ [٣٥]﴾ [ص: ٨٢، ٨٣] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ [٣٦] إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّيهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [٣٧]﴾ [النحل: ٩٨، ٩٩]. قالت طائفة من القراء وغيرهم: نتعوذ بعد القراءة واعتمدوا على ظاهر سياق الآية، ولدفع الإعجاب بعد فراغ العبادة؛ ومن ذهب إلى ذلك حمزة فيما ذكره ابن قلوqa عنه، وأبو حامد

السجستاني، حكى ذلك أبو القاسم يوسف بن علي بن جُبارة الهذلي المغربي في كتابه «الكامل». وروى عن أبي هريرة - أيضاً - وهو غريب.

ونقله فخر الدين محمد بن عمر الرازي في تفسيره عن ابن سيرين في رواية عنه قال: وهو قول إبراهيم النخعي وداود بن علي الأصهباني الظاهري، وحكى القرطبي عن أبي بكر بن العربي عن المجموعة عن مالك، رحمه الله تعالى، أن القارئ يتعوذ بعد الفاتحة. واستغربه ابن العربي. وحكى قول ثالث وهو الاستعاذة أولاً وآخرأ جمعاً بين الدليلين نقله فخر الدين.

والمشهور الذي عليه الجمهور أن الاستعاذة لدفع الوسواس فيها، إنما تكون قبل التلاوة، ومعنى الآية عندهم: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] أي: إذا أردت القراءة كقوله: ﴿إِذَا قُتِلْتُمْ إِلَى الْكَفَّةِ فَأَقْبِلُوا وَجْهَكُمْ وَأُكُوفَكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٦١] أي: إذا أردتم القيام. والدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ بذلك، قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: حدثنا محمد بن الحسن بن آتش، حدثنا جعفر بن سليمان، عن علي بن علي الرفاعي الشكري، عن أبي المتوكل الناجي، عن أبي سعيد الخدري، قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك». ويقول: «لا إله إلا الله» ثلاثاً، ثم يقول: «أعوذ بالله السميع العليم، من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه». وقد رواه أهل السنن الأربعة من رواية جعفر بن سليمان، عن علي بن علي، وهو الرفاعي، وقال الترمذي: هو أشهر حديث في هذا الباب. وقد فسر الهمز بالموتة وهي الخنق، والثفخ بالكبر، والنفث بالشعر. كما رواه أبو داود وابن ماجة من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة، عن عاصم العنزّي، عن نافع بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ حين دخل في الصلاة، قال: «الله أكبر كبيراً، ثلاثاً، الحمد لله كثيراً، ثلاثاً، سبحان الله بكرة وأصيلاً، ثلاثاً؛ اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفخه ونفثه». قال عمرو: وهمزه الموتة، ونفخه الكبر، ونفثه الشعر. وقال ابن ماجة: حدثنا علي بن المنذر، حدثنا ابن فضيل، حدثنا عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، وهمزه ونفخه ونفثه». قال: همزه: الموتة، ونفثه: الشعر، ونفخه: الكبر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن يوسف، حدثنا شريك، عن يعلى بن عطاء، عن رجل حدث: أنه سمع أبا أمامة الباهلي يقول: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة كبر ثلاثاً، ثم قال: «لا إله إلا الله»، ثلاث مرات، «وسبحان الله وبحمده»، ثلاث مرات. ثم قال: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه». وقال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المشني الموصلي في مسنده: حدثنا عبد الله بن عمر بن أبان الكوفي، حدثنا علي بن هاشم بن البريد، عن يزيد بن زياد، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي بن كعب، قال: تلاحي رجلان عند النبي ﷺ، فتمزج أنف أحدهما غضباً، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم شيئاً لو قاله ذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة، عن يوسف بن عيسى المروزي، عن الفضل بن موسى، عن يزيد بن زياد بن أبي الجعد، به. وقد روى هذا الحديث أحمد بن حنبل، عن أبي سعيد، عن زائدة، وأبو داود عن يوسف بن موسى، عن جرير بن عبد الحميد، والترمذي، والنسائي في اليوم والليلة عن بُنْدَار، عن ابن مهدي، عن الثوري، والنسائي - أيضاً - من حديث زائدة بن قدامة، ثلاثهم عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن معاذ بن جبل، قال: استب رجلان عند النبي ﷺ، فغضب أحدهما غضباً شديداً حتى خيل إلي أن أحدهما يتمزج أنفه من شدة غضبه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب» قال: ما هي يا رسول الله؟ قال: «يقول: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم». قال: فجعل معاذ يأمره، فأبى ومحك، وجعل يزداد غضباً. وهذا لفظ أبي داود. وقال الترمذي: مرسل، يعني أن عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يلتق معاذ بن جبل، فإنه مات قبل سنة عشرين.

قلت: وقد يكون عبد الرحمن بن أبي ليلى سمعه من أبي بن كعب، كما تقدم وبلغه عن معاذ بن جبل، فإن هذه القصة شهدا غير واحد من الصحابة، رضي الله عنهم.

قال البخاري: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن عدي بن ثابت، قال: قال سليمان بن صرد: استب رجلان عند النبي ﷺ، ونحن عنده جلوس، فأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول رسول الله ﷺ؟ قال: إني لست بمجنون.

وقد رواه - أيضاً - مع مسلم، وأبي داود، والنسائي، من طرق متعددة، عن الأعمش، به. وقد جاء في الاستعاذة أحاديث كثيرة يطول ذكرها ههنا، وموطنها كتاب الأذكار وفضائل الأعمال، والله أعلم. وقد رُوِيَ أن جبريل، عليه السلام، أول ما نزل بالقرآن على رسول الله ﷺ أمره بالاستعاذة، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمار، حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: أول ما نزل جبريل على محمد ﷺ قال: يا محمد، استعذ. قال: «أستعذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم»، ثم قال: قل: بسم الله الرحمن الرحيم. ثم قال: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. قال عبد الله: وهي أول سورة أنزلها الله على محمد ﷺ، بلسان جبريل. وهذا الأثر غريب، وإنما ذكرناه ليعرف، فإن في إسناده ضعفاً وانقطاعاً، والله أعلم.

مسألة: وجمهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة ليست بمتحمة يَأْتُم تاركها، وحكى فخر الدين عن عطاء بن أبي رباح وجوبها في الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة قال: وقال ابن سيرين: إذا تعوذ مرة واحدة في عمره فقد كفى في إسقاط الوجوب، واحتج فخر الدين لعطاء بظاهر الآية: ﴿فَأَسْتَعِذْ﴾، وهو أمر ظاهره الوجوب وبمواظبة النبي ﷺ عليها، ولأنها تدرأ شر الشيطان وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولأن الاستعاذة أحوط وهو أحد مسالك الوجوب. وقال بعضهم: كانت واجبة على النبي ﷺ دون أمته، وحكى عن مالك أنه لا يتعوذ في المكتوبة ويتعوذ لقيام شهر رمضان في أول ليلة منه.

مسألة: وقال الشافعي في الإملاء: يجهز بالتعوذ، وإن أسر فلا يضرب، وقال في الأم بالتخير لأنه أسر ابن عمر وجهر أبو هريرة، واختلف قول الشافعي فيما عدا الركعة الأولى: هل يستحب التعوذ فيها؟ على قولين، ورجح عدم الاستحباب، والله أعلم. فإذا قال المستعذ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كفى ذلك عند الشافعي وأبي حنيفة وزاد بعضهم: أعوذ بالله السميع العليم، وقال آخرون: بل يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم، قاله الثوري والأوزاعي وحكى عن بعضهم أنه يقول: أستعذ بالله من الشيطان الرجيم لمطابقة أمر الآية ولحديث الضحاك عن ابن عباس المذكور والأحاديث الصحيحة، كما تقدم، أولى بالاتباع من هذا، والله أعلم.

مسألة: ثم الاستعاذة في الصلاة إنما هي للتلاوة وهو قول أبي حنيفة ومحمد. وقال أبو يوسف: بل للصلاة، فعلى هذا يتعوذ المأموم وإن كان لا يقرأ، ويتعوذ في العيد بعد الإحرام وقبل تكبيرات العيد، والجمهور بعدها قبل القراءة.

ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة للنفوس مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث، وتطيب له وتهيئ لتلاوة كلام الله وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدرة وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه، ولا يقبل مصانعة، ولا يدارى بالإحسان، بخلاف العدو من نوع الإنسان كما دلت على ذلك آيات القرآن في ثلاث من المثاني، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَشَرٌّ لَّكَ عَلَيْهِمْ سُلُطَنٌ مُّكْتَرِبٌ يَرِيكَ وَكَيْلًا﴾ [الإسراء: ٦٥]، وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشري يوم بدر، ومن قتله العدو البشري كان شهيداً، ومن قتله العدو الباطني كان طريداً، ومن غلبه العدو الظاهر كان مأجوراً، ومن قهره العدو الباطن كان مفتوناً أو موزوراً، ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان.

فصل: والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنته من شر كل ذي شر، والعيادة تكون لدفع الشر، واللياذ يكون لطلب جلب الخير كما قال المتنبي:

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُوْمِلُهُ وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أَحَاذِرُهُ
لَا يَجْبِرُ النَّاسَ عَظْماً أَنْتَ كَاسِرُهُ وَلَا يَهَيِّضُونَ عَظْماً أَنْتَ جَابِرُهُ

فصل

معنى الاستعاذة

ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أي: أستجير بجنتاب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنيائي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثي على فعل ما نهيت عنه؛ فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله؛ ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإساءة الجميل إليه، ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل؛ لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه، وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة، قوله في الأعراف: ﴿خُذْ أَلَمْتَ وَأَمْرٌ بِالْقُرْبِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْبَهْلِيَّةِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من

البشر، ثم قال: ﴿وَلَمَّا يَزْعُفَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَأَسْتَوِذُ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال تعالى في سورة «قد أفلح المؤمنون»: ﴿ادْفَعْ بِالَّذِي فِي أَحْسَنِ السَّيْتَةِ عَنْ أَعْلَمَ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [١] وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٢٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُوا بِكَ وَبَيْنَهُمْ عَادَةٌ كَأَنَّكَ وَبَيْنَ رُوحِكَ وَرُوحِ حَمِيمٍ ﴿٢٨﴾ وَمَا يَلْقَئُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يَلْقَئُهَا إِلَّا دُحُورٌ حَقْلٌ عَظِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا يَزْعُفَنَّكَ الشَّيْطَانُ نَزَعٌ فَأَسْتَوِذُ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦].

والشيطان في لغة العرب مشتق من شَطَنَ إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، ويعيد بفسقه عن كل خير، وقيل: مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار، ومنهم من يقول: كلاهما صحيح في المعنى، ولكن الأول أصح، وعليه يدل كلام العرب؛ قال أمية بن أبي الصلت في ذكر ما أوتي سليمان، عليه السلام:

أَيُّمَا شَاطِئِينَ عَصَاهُ عَكَاهُ ثُمَّ يُلْقَى فِي السُّجُنِ وَالْأَغْلَالِ
فَقَالَ: أَيُّمَا شَاطِنٍ، ولم يقل: أَيُّمَا شَائِطٍ. وقال النابغة الذبياني - وهو: زياد بن عمرو بن معاوية بن جابر بن ضباب بن يربوع بن مرة بن سعد بن دُيَّان -:

نَاتَ بِسَعَادٍ عَنْكَ نَوَى شَطُونٌ فَبَانَتْ وَالْفَوَاذُ بِهَا زَهِينٌ
يقول: بعدت بها طريق بعيدة. وقال سيبويه: العرب تقول: تشيطن فلان إذا فعلَ فعلَ الشيطان، ولو كان من شاط لقالوا: تشيط. والشيطان مشتق من البعد على الصحيح؛ ولهذا يسمون كل ما تمرد من جني وإنسي وحيوان شيطانا، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُوفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وفي مسند الإمام أحمد، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر، تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن»، فقلت: أو للإنس شياطين؟ قال: «نعم». وفي صحيح مسلم عن أبي ذر - أيضا - قال: قال رسول الله ﷺ: «يقطع الصلاة المرأة والحصار والكلب الأسود». فقلت: يا رسول الله، ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر؟ فقال: «الكلب الأسود شيطان». وقال ابن وهب: أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ركب بزدونا، فجعل يتختره، فجعل لا يضره فلا يزداد إلا تبخترأ، فنزل عنه، وقال: ما حملتموني إلا على شيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسي. إسناده صحيح.

والرجيم: فعيل بمعنى مفعول، أي: إنه مرجوم مطرود عن الخير كله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا أَذْيَاتِهَا بِمَصَاحِبٍ وَجَعَلْنَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ﴾ [الملك: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوْكَبِ﴾ [١] وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْآلِ الْأَعْلَى وَقَدْ فُتِنُوا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ تُحَرِّقُونَ بِهِمْ عَذَابَ رَجِيمٍ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ حَفِظَ الْقُطْبَةَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَابِتٌ ﴿١٠﴾ [الصافات: ٦-١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ [١١] وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٢﴾ إِلَّا مَنْ أَسْرَعَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَابِتٌ ﴿١٣﴾ [الحجر: ١٦-١٨]، إلى غير ذلك من الآيات. وقيل: رجيم بمعنى راجم؛ لأنه يرمي الناس بالوسواس والرباثة، والأول أشهر.

﴿يَسِّرْهُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

افتتح بها الصحابة كتاب الله، واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل، ثم اختلفوا: هل هي آية مستقلة في أول كل سورة، أو من أول كل سورة كتبت في أولها، أو أنها بعض آية من أول كل سورة، أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها، أو أنها إنما كتبت للفصل، لا أنها آية؟ على أقوال للعلماء سلفاً وخلفاً، وذلك مبسوط في غير هذا الموضع.

وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿يَسِّرْهُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وأخرجه الحاكم أبو عبد الله النيسابوري في مستدركه أيضاً، وروي مرسلاً عن سعيد بن جبيرة. وفي صحيح ابن خزيمة، عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ قرأ البسملة في أول الفاتحة في الصلاة وعذها آية، لكنه من رواية عمر بن هارون البلخي، وفيه ضعف، عن ابن جريج، عن ابن أبي مليكة، عنها. وروى له الدارقطني متابعا، عن أبي هريرة مرفوعاً. وروى مثله عن علي وابن عباس وغيرهما. ومن حكى عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة: ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو هريرة، وعلي. ومن التابعين: عطاء، وطاوس، وسعيد بن جبيرة، ومكحول، والزهري، وبه يقول عبد الله بن المبارك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، في رواية عنه، وإسحاق بن زَاهُوِي، وأبو عبيد القاسم بن سلام، رحمهم الله.

وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما: ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وقال الشافعي في قول، في بعض طرق مذهبه: هي آية من الفاتحة وليست من غيرها، وعنه أنها بعض آية من أول كل سورة، وهما غريبان. وقال داود: هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها، وهذه رواية عن الإمام أحمد بن حنبل. وحكاها أبو بكر الرازي، عن أبي الحسن الكرخي، وهما من أكابر أصحاب أبي حنيفة، رحمهم الله. هذا ما يتعلق بكونها من الفاتحة أم لا.

فأما ما يتعلق بالجهر بها، فمفترع على هذا؛ فمن رأى أنها ليست منها فلا يجهر بها، وكذا من قال: إنها آية من أولها، وأما من قال بأنها من أوائل السور فاختلغا؛ فذهب الشافعي، رحمه الله، إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفاً وخلفاً، فجهر بها من الصحابة أبو هريرة، وابن عمر، وابن عباس، ومعاوية، وحكاها ابن عبد البر، والبيهقي عن عمر وعلي، ونقله الخطيب عن الخلفاء الأربعة، وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وهو غريب. ومن التابعين عن سعيد بن جبير، وعكرمة، وأبي قلابة، والزهري، وعلي بن الحسين، وابنه محمد، وسعيد بن المسيب، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وسالم، ومحمد بن كعب القرظي، وأبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وأبي وائل، وابن سيرين، ومحمد بن المنكدر، وعلي بن عبد الله بن عباس، وابنه محمد، ونافع مولى ابن عمر، وزيد بن أسلم، وعمر بن عبد العزيز، والأزرق بن قيس، وحبيب بن أبي ثابت، وأبي الشعثاء، ومكحول، وعبد الله بن مغفل بن مقرن. زاد البيهقي: وعبد الله بن صفوان، ومحمد بن الحنفية. زاد ابن عبد البر: وعمرو بن دينار. والحجة في ذلك أنها بعض الفاتحة، فيجهر بها كسائر أبعاضها، وأيضاً فقد روى النسائي في سننه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما، والحاكم في مستدركه، عن أبي هريرة: أنه صلى فجهر في قراءته بالبسملة، وقال بعد أن فرغ: إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ. وصححه الدارقطني والخطيب والبيهقي وغيرهم. وروى أبو داود والترمذي، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يفتتح الصلاة بيسم الله الرحمن الرحيم. ثم قال الترمذي: وليس إسناده بذلك. وقد رواه الحاكم في مستدركه، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ يجهر بيسم الله الرحمن الرحيم، ثم قال: صحيح. وفي صحيح البخاري، عن أنس بن مالك أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت قراءته مدأ، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، يمد بسم الله، ويمد الرحمن ويمد الرحيم.

وفي مسند الإمام أحمد، وسنن أبي داود، وصحيح ابن خزيمة، ومستدرك الحاكم، عن أم سلمة، قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. وقال الدارقطني: إسناده صحيح. وروى الشافعي، رحمه الله، والحاكم في مستدركه، عن أنس: أن معاوية صلى بالمدينة، فترك البسملة، فأنكر عليه من حضر من المهاجرين ذلك، فلما صلى المرة الثانية بسمل. وفي هذه الأحاديث، والآثار التي أوردناها كفاية ومقتنع في الاحتجاج لهذا القول عما عداها، فأما المعارضات والروايات الغريبة، وتطريقها، وتعليلها وتضعيفها، وتقريرها، فله موضع آخر. وذهب آخرون إلى أنه لا يجهر بالبسملة في الصلاة، وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة وعبد الله بن مغفل، وطوائف من سلف التابعين والخلف، وهو مذهب أبي حنيفة، والثوري، وأحمد بن حنبل. وعند الإمام مالك: أنه لا يقرأ بالبسملة بالكلية، لا جهراً ولا سراً، واحتجوا بما في صحيح مسلم، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين. وبما في الصحيحين، عن أنس بن مالك، قال: صليت خلف النبي ﷺ، وأبي بكر وعمر وعثمان، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين. ولمسلم: لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها. ونحوه في السنن عن عبد الله بن مغفل، رضي الله عنه.

فهذه مأخذ الأئمة، رحمهم الله، في هذه المسألة وهي قريبة؛ لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر، والله الحمد والمنة.

فصل في فضلها

قال الإمام العالم الحبر العابد أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم، رحمه الله، في تفسيره: حدثنا أبي، حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا زيد بن المبارك الصنعاني، حدثنا سلام بن وهب الجندبي، حدثنا أبي، عن طاوس، عن ابن عباس؛ أن عثمان بن عفان سأل رسول الله ﷺ عن بسم الله الرحمن الرحيم، فقال: «هو اسم من أسماء الله، وما بينه وبين اسم الله الأكبر، إلا كما بين سواد العينين وبياضهما من القرب». وهكذا رواه أبو بكر بن مَرْزُويه، عن سليمان بن أحمد، عن علي بن المبارك، عن زيد بن المبارك، به. وقد روى الحافظ ابن مَرْزُويه من طريقين، عن إسماعيل بن عياش، عن

إسماعيل بن يحيى، عن مسعر، عن عطية، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن عيسى ابن مريم أسلمته أمه إلى الكتاب ليعلمه، فقال المعلم: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: بسم الله، قال له عيسى: وما باسم الله؟ قال المعلم: ما أدري. قال له عيسى: الباء بهاء الله، والسين سناؤه، والميم مملكته، والله إله الآلهة، والرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة». وقد رواه ابن جرير من حديث إبراهيم بن العلاء، الملقب: زُبَريق، عن إسماعيل بن عياش، عن إسماعيل بن يحيى، عن ابن أبي مليكة، عن حدثه، عن ابن مسعود، ومسعر، عن عطية، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ، فذكره، وهذا غريب جداً، وقد يكون صحيحاً إلى من دون رسول الله ﷺ، ويكون من الإسرائيليات لا من المرفوعات، والله أعلم. وقد روى جُوَيْر، عن الضحاك، نحوه من قبله. وقد روى ابن مَرْزُويه، من حديث يزيد بن خالد، عن سليمان بن بريدة، وفي رواية عن عبد الكريم أبي أمية، عن ابن بريدة، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت عليّ آية لم تنزل على نبي غير سليمان بن داود وغيري، وهي بسم الله الرحمن الرحيم». وروى بإسناده عن عبد الكبير بن المعافى بن عمران، عن أبيه، عن عمر بن دَر، عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر بن عبد الله، قال: لما نزل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿١﴾، هرب الغنم إلى المشرق، وسكنت الرياح، وهاج البحر، وأصغت البهائم بأذانها، ورجمت الشياطين من السماء، وحلف الله تعالى بعزته وجلاله ألا يسمى اسمه على شيء إلا بارك فيه.

وقال وكيع عن الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود قال: من أراد أن ينجيهِ الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، ليجعل الله له من كل حرف منها جنة من كل واحد، ذكره ابن عطية والقرطبي ووجهه ابن عطية ونظره بحديث: «فقد رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها» لقول الرجل: ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، من أجل أنها بضعة وثلاثون حرفاً وغير ذلك. وقال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عاصم، قال: سمعت أبا تيممة يحدث، عن رديف النبي ﷺ قال: عثر بالنبي ﷺ، فقلت: تعس الشيطان. فقال النبي ﷺ: «لا تقل تعس الشيطان. فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاضم، وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: باسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب». هكذا وقع في رواية الإمام أحمد، وقد روى النسائي في اليوم والليلة، وابن مَرْزُويه في تفسيره، من حديث خالد الحذاء، عن أبي تيممة وهو الهجيمي، عن أبي المليح بن أسامة بن عمير، عن أبيه، قال: كنت رديف النبي ﷺ، فذكره، وقال: «لا تقل هكذا، فإنه يتعاضم حتى يكون كالبيت، ولكن قل: بسم الله، فإنه يصغر حتى يكون كالذباب». فهذا من تأثير بركة باسم الله؛ ولهذا تستحب في أول كل عمل وقول. فتستحب في أول الخطبة لما جاء: «كل أمر لا يبدأ فيه بيسم الله الرحمن الرحيم، فهو أجذم»، وتستحب البسملة عند دخول الخلاء ولما ورد من الحديث في ذلك، وتستحب في أول الوضوء لما جاء في مسند الإمام أحمد والسنن، من رواية أبي هريرة، وسعيد بن زيد، وأبي سعيد مرفوعاً: «لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه»، وهو حديث حسن. ومن العلماء من أوجبها عند الذكر ههنا، ومنهم من قال بوجوبها مطلقاً، وكذا تستحب عند الذبيحة في مذهب الشافعي وجماعة، وأوجبها آخرون عند الذكر، ومطلقاً في قول بعضهم، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله، وقد ذكر الرازي في تفسيره في فضل البسملة أحاديث منها: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أتيت أهلك فسم الله؛ فإنه إن وجد لك ولد كتب لك بعدد أنفاسه وأنفاس ذريته حسنات». وهذا لا أصل له، ولا رأيته في شيء من الكتب المعتمدة عليها ولا غيرها.

وهكذا تستحب عند الأكل لما في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لربيبة عمر بن أبي سلمة: «قل: باسم الله، وكل يمينك، وكل مما يليك». ومن العلماء من أوجبها والحالة هذه، وكذلك تستحب عند الجماع لما في الصحيحين، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً». ومن ههنا ينكشف لك أن القولين عند النحاة في تقدير المتعلق بالباء في قولك: باسم الله، هل هو اسم أو فعل متقربان وكل قد ورد به القرآن؛ أما من قدره باسم، تقديره: باسم الله ابتدائي، فلقله تعالى: ﴿وَقَالَ أَتَذْكُرُونَ فِيهَا يَسْمُرُ اللَّهُ تَجَرُّدَهَا وَمَرْئَهَا إِنَّ رَبِّي لَقَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٤١﴾، ﴿هُود: ٤١﴾، ومن قدره بالفعل أمراً وخبراً نحو: ابدأ بيسم الله أو ابتدأت بيسم الله، فلقله: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿١﴾، ﴿العلق: ١﴾، وكلاهما صحيح، فإن الفعل لا بُدَّ له من مصدر، فلك أن تقدر الفعل ومصدره، وذلك بحسب الفعل الذي سميت قبله، إن كان قياماً أو تعوداً أو أكلاً أو شرباً أو قراءة أو وضوءاً أو صلاة، فالمشروع ذكر اسم الله في الشروع في ذلك كله، تبركاً وتيمناً واستعانة على الإتمام والتقبل، والله أعلم؛ ولهذا روى ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث بشر بن عُمارة، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: إن أول ما نزل به جبريل على محمد ﷺ قال: يا محمد قل: استعِذ بالسميع العلیم من الشيطان الرجیم، ثم قال: قل: ﴿يَسْمُرُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

قال: قال له جبريل: قل باسم الله يا محمد، يقول: اقرأ بذكر الله ربك، وقم، واقعد بذكر الله. هذا لفظ ابن جرير.
وأما مسألة الاسم: هل هو المسمى أو غيره؟ ففيها للناس ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الاسم هو المسمى، وهو قول أبي عبيدة وسيبويه، واختاره الباقلاني وابن فورك، وقال فخر الدين الرازي - وهو محمد بن عمر المعروف بابن خطيب الري - في مقدمات تفسيره: قالت الحشوية والكرامية والأشعرية: الاسم نفس المسمى وغير التسمية، وقالت المعتزلة: الاسم غير المسمى ونفس التسمية، والمختار عندنا: أن الاسم غير المسمى وغير التسمية، ثم نقول: إن كان المراد بالاسم هذا اللفظ الذي هو أصوات مقطعة وحروف مؤلفة، فالعلم الضروري حاصل أنه غير المسمى وإن كان المراد بالاسم ذات المسمى، فهذا يكون من باب إيضاح الواضحات وهو عبث، ثبت أن الخوض في هذا البحث على جميع التقديرات يجري مجرى العبث. ثم شرع يستدل على مغايرة الاسم للمسمى، بأنه قد يكون الاسم موجوداً والمسمى مفقوداً كلفظة المعلوم وبأنه قد يكون للشيء أسماء متعددة كالترادفة وقد يكون الاسم واحداً والمسميات متعددة كالمشترك، وذلك دال على تغاير الاسم والمسمى، وأيضاً فالاسم لفظ وهو عرض والمسمى قد يكون ذاتاً ممكنة أو واجبة بذاتها، وأيضاً فلفظ النار والثلج لو كان هو المسمى لوجد الالفاظ بذلك حر النار أو برد الثلج ونحو ذلك، ولا يقوله عاقل، وأيضاً فقد قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ لَمُسْتَقْنٍ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا، فِهَذِهِ أَسْمَاءُ كَثِيرَةٌ وَالْمَسْمِيُّ وَاحِدٌ وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَأَيْضاً فَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ لَمُسْتَقْنٍ﴾ أَضَافَهَا إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الرواقعة: ٧٤، ٩٦]، ونحو ذلك. والإضافة تقتضي المغايرة وقوله: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أي: فادعوا الله بأسمائه، وذلك دليل على أنها غيره، واحتج من قال: الاسم هو المسمى، بقوله تعالى: ﴿تَبَرَّكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٧٨] والمبارك هو الله. والجواب: أن الاسم معظم لتعظيم الذات المقدسة، وأيضاً فإذا قال الرجل: زينب طالق، يعني امرأته طالق، طلقت، ولو كان الاسم غير المسمى لما وقع الطلاق. والجواب: أن المراد أن الذات المسماة بهذا الاسم طالق. قال الرازي: وأما التسمية فإنها جعل الاسم معيناً لهذه الذات فهي غير الاسم أيضاً، والله أعلم.

﴿اللَّهُ﴾: عَلَّمَ عَلَى الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يُقَالُ: إِنَّهُ الْأَسْمُ الْأَعْظَمُ؛ لِأَنَّهُ يَوْصَفُ بِجَمِيعِ الصِّفَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيِّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١٢] هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٣-٢٤]، فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ لَمُسْتَقْنٍ فَادْعُوهُ بِهَا﴾، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وفي الصحيحين، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، وجاء تعداها في رواية الترمذي، وابن ماجة، وبين الروایتين اختلاف زيادات ونقصان، وقد ذكر فخر الدين الرازي في تفسيره عن بعضهم أن لله خمسة آلاف اسم: ألف في الكتاب والسنة الصحيحة، وألف في التوراة، وألف في الإنجيل، وألف في الزبور، وألف في اللوح المحفوظ. وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى؛ ولهذا لا يعرف في كلام العرب له اشتقاق من فعل ويفعل، فذهب من ذهب من النحاة إلى أنه اسم جامد لا اشتقاق له. وقد نقل القرطبي عن جماعة من العلماء منهم الشافعي والخطابي وإمام الحرمين والغزالي وغيرهم، وروي عن الخليل وسيبويه أن الألف واللام فيه لازمة. قال الخطابي: ألا ترى أنك تقول: يا الله، ولا تقول: يا الرحمن، فلو لا أنه من أصل الكلمة لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام. وقيل: إنه مشتق، واستدلوا عليه بقول رؤبة بن العجاج:

لله در الغنائيات المُمَدَّة سُبْحَنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأْلَهِي
فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر، وهو التأله، من أله ياله إلهة وتألهًا، كما روي أن ابن عباس قرأ: «ويزرك والإهتك» قال: عبادتك، أي: أنه كان يُعْبَدُ ولا يُعْبَدُ، وكذا قال مجاهد وغيره. وقد استدل بعضهم على كونه مشتقاً بقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] أي المعبود في السموات والأرض، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ [الزخرف: ٨٤]، ونقل سيبويه عن الخليل أن أصله: إلاه، مثل فعال، فأدخلت الألف واللام بدلاً من الهمزة. قال سيبويه: مثل الناس، أصله: أناس، وقيل: أصل الكلمة: لاه، فدخلت الألف واللام للتعظيم وهذا اختيار سيبويه. قال الشاعر:

لاه ابن عمك لا أفضلت في حسب عني ولا أنيت ديانتي فتخزوني
قال القرطبي: بالخاء المعجمة، أي: فتسوسني، وقال الكسائي والفراء: أصله: الإلاه حذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى في

الثانية، كما قال: ﴿لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ [الكهف: ٣٨] أي: لكن أنا، وقد قرأها كذلك الحسن، قال القرطبي: ثم قيل: هو مشتق من وله: إذا تحير، والوله ذهاب العقل؛ يقال: رجل وله، وامرأة ولهى، وماء موله: إذا أرسل في الصحارى، فالله تعالى تحير أولو الألباب والفكر في حقائق صفاته، فعلى هذا يكون أصله: ولاه، فأبدلت الواو همزة، كما قالوا في وشاح: أشاح، ووسادة: أسادة، وقال فخر الدين الرازي: وقيل: إنه مشتق من ألّهت إلى فلان، أي: سكنت إليه، فالعقول لا تسكن إلا إلى ذكره، والأرواح لا تفرح إلا بمعرفته؛ لأنه الكامل على الإطلاق دون غيره قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَنْصَرُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] قال: وقيل: من لاه يلوّه: إذا احتجب. وقيل: اشتقاقه من ألّه الفصيل: إذا فزع من أمر نزل به فألّهه، أي: أجاره، مولعون بالتضرع إليه في كل الأحوال، قال: وقيل: مشتق من ألّه الرجل يألّه: إذا فزع من أمر نزل به فألّهه، أي: أجاره، فالمجبر لجميع الخلائق من كل المضار هو الله سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وهو المنعم لقوله: ﴿وَمَا يَكُم مِّن يَّمَعُورٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وهو المطعم لقوله: ﴿وَهُوَ يَطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، وهو الموجد لقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

وقد اختار فخر الدين أنه اسم علم مشتق البتة، قال: وهو قول الخليل وسيبويه وأكثر الأصوليين والفقهاء، ثم أخذ يستدل على ذلك بوجوه: منها: أنه لو كان مشتقاً لاشتراك في معناه كثيرون، ومنها: أن بقية الأسماء تذكر صفات له، فتقول: الله الرحمن الرحيم الملك القدوس، فدل أنه ليس بمشتق، قال: فأما قوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ﴾ [إبراهيم: ١، ٢]، على قراءة الجبر فجعل ذلك من باب عطف البيان، ومنها قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لِمَ سَيِّئًا﴾ [تريم: ٦٥]، وفي الاستدلال بهذه على كون هذا الاسم جامداً غير مشتق نظر، والله أعلم.

وحكى فخر الدين عن بعضهم أنه ذهب إلى أن اسم الله تعالى عبراني لا عربي، ثم ضعفه، وهو حقيق بالتضعيف كما قال، وقد حكى فخر الدين هذا القول ثم قال: واعلم أن الخلق قسمان: واصلون إلى ساحل بحر المعرفة، ومحرومون قد بقوا في ظلمات الحيرة وتيه الجهالة؛ فكانهم قد فقدوا عقولهم وأرواحهم؛ وأما الواجدون فقد وصلوا إلى عرصة النور وفسحة الكبرياء والجلال، فتأهوا في ميادين الصمدية، وبادوا في عرصة الفردانية، فثبت أن الخلق كلهم واليهون في معرفته، وروى عن الخليل بن أحمد أنه قال: لأن الخلق يألّهون إليه بنصب اللام وجرها لغتان، وقيل: إنه مشتق من الارتفاع، فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع: لاهأ، وكانوا يقولون إذا طلعت الشمس: لاهت. وأصل ذلك الإله، فحذفت الهمزة التي هي فاء الكلمة، فالتقت اللام التي هي عينها مع اللام الزائدة في أولها للتعريف فأدغمت إحداهما في الأخرى، فصارتا في اللفظ لاهأ واحدة مشددة، وفخمت تعظيماً، فقيل: الله.

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾: اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم، وفي كلام ابن جرير ما يُفهّم حكاية الاتفاق على هذا، وفي تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك، كما تقدم في الأثر، عن عيسى، عليه السلام، أنه قال: والرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة. وقد زعم بعضهم أنه غير مشتق إذ لو كان كذلك لاتصل بذكر المرحوم وقد قال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وحكى ابن الأنباري في الزاهر عن المبرد: أن الرحمن اسم عبراني ليس بعربي، وقال أبو إسحاق الزجاج في معاني القرآن: وقال أحمد بن يحيى: الرحيم عربي، والرحمن عبراني، فلهذا جمع بينهما. قال أبو إسحاق: وهذا القول مرغوب عنه. وقال القرطبي: والدليل على أنه مشتق ما خرجه الترمذي وصححه عن عبد الرحمن بن عوف، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته». قال: وهذا نص في الاشتقاق فلا معنى للمخالفة والشقاق. قال: وإنكار العرب لاسم الرحمن لجهلهم بالله وبما وجب له، قال القرطبي: هما بمعنى واحد كندمان ونديم قاله أبو عبيد، وقيل: ليس بناء فعلان كفعل، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل نحو قولك: رجل غضبان، وفعل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول، قال أبو علي الفارسي: الرحمن: اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقال ابن عباس: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر، أي أكثر رحمة، ثم حكى عن الخطابي وغيره: أنهم استشكلوا هذه الصفة، وقالوا: لعله أرفق كما جاء في الحديث: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله وإنه يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف». وقال ابن المبارك: الرحمن إذا سئل أعطى، والرحيم إذا لم يسأل يغضب، وهذا كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجة من حديث أبي صالح الفارسي الخوزي عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه»، وقال بعض الشعراء:

لا تطلب بن بني آدم حاجة وسل الذي أبوابه لا تغلق
الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

قال ابن جرير: حدثنا السري بن يحيى التميمي، حدثنا عثمان بن زُفر، سمعت العزَزمي يقول: الرحمن الرحيم، قال: الرحمن لجميع الخلق، الرحيم، قال: بالمؤمنين. قالوا: ولهذا قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْفَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٥٩] وقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْفَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ ﴿٥﴾ [طه: ٥]. فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته، وقال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] فخصهم باسمه الرحيم، قالوا: فدل على أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه، والرحيم خاصة بالمؤمنين، لكن جاء في الدعاء المأثور: رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

واسمه تعالى الرحمن خاص به لم يُسم به غيره كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَثَلٌ مِّنْ أَوْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ ﴿١٥﴾. ولما تجهروا مسيلمة الكذاب وتسمى برحمن اليمامة كساه الله جلباب الكذب وشهر به؛ فلا يقال إلا مسيلمة الكذاب، فصار يضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضرة من أهل المدر، وأهل الوير من أهل البادية والأعراب.

وقد زعم بعضهم أن الرحيم أشد مبالغة من الرحمن؛ لأنه أكد به، والتأكيد لا يكون إلا أقوى من المؤكد، والجواب أن هذا ليس من باب التوكيد، وإنما هو من باب النعت بعد النعت، ولا يلزم فيه ما ذكره، وعلى هذا فيكون تقديم اسم الله الذي لم يسم به أحد غيره، ووصفه أولاً بالرحمن الذي منع من التسمية به لغيره، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]. وإنما تجهروا مسيلمة اليمامة في التسمي به ولم يتابعه على ذلك إلا من كان معه في الضلالة. وأما الرحيم فإنه تعالى وصف به غيره، حيث قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] كما وصف غيره بذلك من أسمائه في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَيِّئًا بَصِيرًا﴾ ﴿٢﴾ [الإنسان: ٢]. والحاصل: أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره، ومنها ما لا يسمى به غيره، كاسم الله والرحمن والخالق والرازق ونحو ذلك؛ فلهذا بدأ باسم الله، ووصفه بالرحمن؛ لأنه أخص وأعرف من الرحيم؛ لأن التسمية أولاً إنما تكون بأشرف الأسماء، فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص. فإن قيل: فإذا كان الرحمن أشد مبالغة؛ فهلا اكتفى به عن الرحيم؟ فقد روي عن عطاء الخراساني ما معناه: أنه لما تسمى غيره تعالى بالرحمن، جيء بلفظ الرحيم ليقطع التوهم بذلك، فإنه لا يوصف بالرحمن الرحيم إلا الله تعالى. كذا رواه ابن جرير عن عطاء. ووجهه بذلك، والله أعلم. وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن، حتى رد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله ﷺ لعلي: «اكتب» ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم. رواه البخاري، وفي بعض الروايات: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ ﴿٦٠﴾ [الفرقان: ٦٠]. والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنّت في كفرهم؛ فإنه قد وجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن، قال ابن جرير: وقد أنشد لبعض الجاهلية الجهال:

أَلَا ضَرَبْتَ تِلْكَ الْفِتَاءَ فَجِيئَهَا أَلَا قَضَبَ الرَّحْمَنُ رَيْبِي يَمِينَهَا
وقال سلامة بن جندل الطهوي:

عَجَلْتُمْ عَلَيْنَا عَجَلْتَيْنَا عَلَيْكُمْ وَمَا يَشَأُ الرَّحْمَنُ يَفْقِدُ وَيُطْلِقُ
وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمار، حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: الرحمن: الفعلان من الرحمة، وهو من كلام العرب، وقال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١﴾، الرقيق الرفيق بمن أحب أن يرحمه، والبعيد الشديد على من أحب أن يعنف عليه، وكذلك أسماءه كلها. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا حماد بن مسعدة، عن عوف، عن الحسن، قال: الرحمن اسم ممنوع. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا زيد بن الحباب، حدثني أبو الأشهب، عن الحسن، قال: الرحمن: اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه، تسمى به تبارك وتعالى. وقد جاء في حديث أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يقطع قرآنه حرفاً حرفاً ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٣﴾ مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾، فقرأ

بعضهم كذلك وهم طائفة من الكوفيين ومنهم من وصلها بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ❶ وكسر الميم لالتقاء الساكنين وهم الجمهور. وحكى الكسائي عن بعض العرب أنها تقرأ بفتح الميم وصلة الهمزة فيقولون: ﴿يُسَمِّى الْكَوْثَرُ الْيَمِينَ﴾ ❷ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ❸ فنقلوا حركة الهمزة إلى الميم بعد تسكينها كما قرئ قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال ابن عطية: ولم ترد بهذا قراءة عن أحد فيما علمت.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ❶

القراء السبعة على ضم الدال من قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهو مبتدأ وخبر. وروي عن سفيان بن عيينة ورؤية بن العجاج أنهما قالا: ﴿الحمد لله﴾ بالنصب وهو على إضمار فعل، وقرأ ابن أبي عبة: ﴿الحمد لله﴾ بضم الدال واللام اتباعاً للثاني الأول وله شواهد لكنه شاذ، وعن الحسن وزيد ابن علي: ﴿الحمد لله﴾ بكسر الدال اتباعاً للأول الثاني. قال أبو جعفر بن جرير: معنى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصوها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم، فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخرأ.

وقال ابن جرير: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: ثناء أثنى به على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يشنوا عليه فكأنه قال: قولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قال: وقد قيل: إن قول القائل: الحمد لله، ثناء عليه بأسمائه وصفاته الحسنى، وقوله: الشكر لله ثناء عليه بنعمه وإياديه، ثم شرع في رد ذلك بما حاصله أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلاً من الحمد والشكر مكان الآخر. وقد نقل السلمي هذا المذهب أنهما سواء عن جعفر الصادق وابن عطاء من الصوفية. وقال ابن عباس: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كلمة كل شاعر، وقد استدلل القرطبي لابن جرير بصحة قول القائل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ شكراً. وهذا الذي ادعاه ابن جرير فيه نظر؛ لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، ويكون بالجنان واللسان والأركان، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا
ولكنهم اختلفوا: أيهما أعم، الحمد أو الشكر؟ على قولين، والتحقيق أن بينهما عمومأ وخصوصأ، فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول: حمدته لفروسيته وحمدته لكرمه. وهو أخص لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون بالقول والعمل والنية، كما تقدم، وهو أخص لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية، لا يقال: شكرته لفروسيته، وتقول: شكرته على كرمه وإحسانه إليّ. هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين، والله أعلم. وقال أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري: الحمد نقيض الذم، تقول: حمدت الرجل أحمدته حمداً ومحمداً، فهو حميد ومحمود، والتحميد أبلغ من الحمد، والحمد أعم من الشكر. وقال في الشكر: هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف، يقال: شكرته، وشكرت له. وباللام أفصح. وأما المدح فهو أعم من الحمد؛ لأنه يكون للحي وللमित وللجماد. أيضاً - كما يمدح الطعام والمال ونحو ذلك، ويكون قبل الإحسان وبعده، وعلى الصفات المتعدية واللازمة أيضاً فهو أعم.

ذكر أقوال السلف في الحمد

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو معمر القطيعي، حدثنا حفص، عن حجاج، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال عمر: قد علمنا سبحانه الله، ولا إله إلا الله، فما الحمد لله؟ فقال علي: كلمة رضيها الله لنفسه. ورواه غير أبي معمر، عن حفص، فقال: قال عمر لعلي، وأصحابه عنده: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والله أكبر، قد عرفناها، فما الحمد لله؟ قال علي: كلمة أحبها الله لنفسه، ورضيها لنفسه، وأحب أن يقال. وقال علي بن زيد بن جُدعان، عن يوسف بن مهران، قال: قال ابن عباس: الحمد لله كلمة الشكر، وإذا قال العبد: الحمد لله، قال: شكرني عبيد. رواه ابن أبي حاتم. وروى - أيضاً - هو وابن جرير، من حديث بشر بن عمار، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، أنه قال: الحمد لله هو الشكر لله والاستخذاء له، والإقرار له بنعمه وهدايته وابتدائه وغير ذلك. وقال كعب الأحبار: الحمد لله ثناء الله. وقال الضحاك: الحمد لله رداء الرحمن. وقد ورد الحديث بنحو ذلك. قال ابن جرير: حدثني سعيد بن عمرو السكوني، حدثنا

بقية بن الوليد، حدثني عيسى بن إبراهيم، عن موسى بن أبي حبيب، عن الحكم بن عمير، وكانت له صحبة قال: قال النبي ﷺ: «إذا قلت: الحمد لله رب العالمين، فقد شكرت الله، فزادك».

وقد روى الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا روح، حدثنا عوف، عن الحسن، عن الأسود بن سريع، قال: قلت: يا رسول الله، ألا أنشدك محامد حمدت بها ربي، تبارك وتعالى؟ فقال: «أما إن ربك يحب الحمد». ورواه النسائي، عن علي بن حجر، عن ابن عليه، عن يونس بن عبيد، عن الحسن، عن الأسود بن سريع، به. وروى الترمذي، والنسائي وابن ماجه، من حديث موسى بن إبراهيم بن كثير، عن طلحة بن خراش، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله». وقال الترمذي: حسن غريب. وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله إلا كان الذي أعطي أفضل مما أخذ». قال القرطبي في تفسيره، وفي نوادر الأصول عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لو أن الدنيا كلها بحذافيرها في يد رجل من أمتي ثم قال: الحمد لله، لكان الحمد لله أفضل من ذلك». قال القرطبي وغيره: أي لكان إلهامه الحمد لله أكبر نعمة عليه من نعم الدنيا؛ لأن ثواب الحمد لا يفنى ونعيم الدنيا لا يبقى، قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]. وفي سنن ابن ماجه عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ حدثهم: «أن عبداً من عباد الله قال: يا رب، لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى السماء فقالا: يا رب، إن عبداً قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها، قال الله - وهو أعلم بما قال عبده - : ماذا قال عبدي؟ قالوا: يا رب إنه قد قال: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك. فقال الله لهما: اكتبها كما قال عبدي حتى يلقياني فأجزيه بها». وحكى القرطبي عن طائفة أنهم قالوا: قول العبد: الحمد لله رب العالمين، أفضل من قول: لا إله إلا الله؛ لاشتغال الحمد لله رب العالمين على التوحيد مع الحمد، وقال آخرون: لا إله إلا الله أفضل لأنها الفصل بين الإيمان والكفر، وعليها يقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله كما ثبت في الحديث المتفق عليه وفي الحديث الآخر في السنن: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له». وقد تقدم عن جابر مرفوعاً: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله». وحسنه الترمذي.

والألف واللام في الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد وصفوه الله تعالى كما جاء في الحديث: «اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله». الحديث.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والرب هو: المالك المتصرف، ويطلق في اللغة على السيد، وعلى المتصرف للإصلاح، وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى. ولا يستعمل الرب لغیر الله، بل بالإضافة تقول: رب الدار رب كذا، وأما الرب فلا يقال إلا لله ﷻ، وقد قيل: إنه الاسم الأعظم. والعالمين: جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله ﷻ، والعالم جمع لا واحد له من لفظه، والعالم أصناف المخلوقات في السموات والأرض في البر والبحر، وكل قرن منها وجبل يسمى عالماً أيضاً. قال بشر بن عمار، عن أبي روق، عن الضحاک، عن ابن عباس: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾» [الفاتحة: ٢] الحمد لله الذي له الخلق كله، السموات والأرضون، ومن فيهن وما بينهن، مما نعلم، وما لا نعلم. وفي رواية سعيد بن جبیر، وعكرمة، عن ابن عباس: رب الجن والإنس. وكذلك قال سعيد بن جبیر، ومجاهد وابن جريج، وروي عن علي نحوه. وقال ابن أبي حاتم: بإسناد لا يعتمد عليه.

واستدل القرطبي لهذا القول بقوله: ﴿يَكُونُ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وهم الجن والإنس. وقال الفراء وأبو عبيدة: العالم عبارة عما يعقل وهم الإنس والجن والملائكة والشياطين، ولا يقال للبهائم: عالم، وعن زيد بن أسلم وأبي عمرو بن العلاء كل ما له روح يرتزق. وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة مروان بن محمد بن مروان بن الحكم - وهو آخر خلفاء بني أمية ويعرف بالجعد ويلقب بالحمار - أنه قال: خلق الله سبعة عشر ألف عالم أهل السموات وأهل الأرض عالم واحد وسائر ذلك لا يعلمه إلا الله ﷻ. وقال قتادة: رب العالمين، كل صنف عالم. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال: الإنس عالم، والجن عالم، وما سوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم، أو أربعة عشر ألف عالم، هو يشك، من الملائكة على الأرض، وللأرض أربع زوايا، في كل زاوية ثلاثة آلاف عالم، وخمسمائة عالم، خلقهم الله لعبادته، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. وهذا كلام غريب يحتاج مثله إلى دليل صحيح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الفرات، يعني ابن الوليد، عن معتب بن سمي، عن تميم، يعني الحميري، في قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال: العالمين ألف أمة فستمائة في البحر، وأربعمائة في البر. وحكي مثله عن سعيد بن

المسيب. وقد روي نحو هذا مرفوعاً كما قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المشي في مسنده: حدثنا محمد بن المشي، حدثنا عبيد بن واقد القيسي، أبو عباد، حدثني محمد بن عيسى بن كيسان، حدثنا محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله، قال: قل الجراد في سنة من سني عمر التي ولي فيها فسأل عنه، فلم يخبر بشيء، فاعتم لذلك، فأرسل ركباً يضرب إلى اليمن، وآخر إلى الشام، وآخر إلى العراق، يسأل: هل روي من الجراد شيء أم لا؟ قال: فأتاه الراكب الذي من قبل اليمن بقبضة من جراد، فالتقاها بين يديه، فلما رآها كبير، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خلق الله ألف أمة، ستمائة في البحر وأربعمائة في البر، فأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد، فإذا هلك تابعت مثل النظام إذا قطع سلكه». محمد بن عيسى هذا - وهو الهلالي - ضعيف.

وحكى البغوي عن سعيد بن المسيب أنه قال: لله ألف عالم؛ ستمائة في البحر وأربعمائة في البر. وقال وهب بن منبه: لله ثمانية عشر ألف عالم؛ الدنيا عالم منها. وقال مقاتل: العوالم ثمانون ألفاً. وقال كعب الأحبار: لا يعلم عدد العوالم إلا الله عز وجل. نقله كله البغوي، وحكى القرطبي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: إن لله أربعين ألف عالم؛ الدنيا من شرقها إلى مغربها عالم واحد منها، وقال الزجاج: العالم كل ما خلق في الدنيا والآخرة. قال القرطبي: وهذا هو الصحيح أنه شامل لكل العالمين؛ كقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ والعالم مشتق من العلامة (قلت): لأنه علم دال على وجود خالقه وصانعه ووحدانيته كما قال ابن المعتز:

فبما عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شيء له آية تدل على أنه واحد

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٢٥)

وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ تقدم الكلام عليه في البسمة بما أغنى عن إعادته.

﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٢٦)

قرأ بعض القراء: ﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾. وقرأ آخرون: ﴿مَلِكٌ﴾. وكلاهما صحيح متواتر في السبع. ويقال: ﴿ملك﴾ أيضاً، وأشبع نافع كسرة الكاف فقرأ: ﴿ملكى يوم الدين﴾، وقد رجح كلا من القراءتين مرجحون من حيث المعنى، وكلاهما صحيحة حسنة، ورجح الزمخشري ملك؛ لأنها قراءة أهل الحرمين ولقوله: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾، وقوله: ﴿قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ وحكي عن أبي حنيفة أنه قرأ «ملك يوم الدين» على أنه فعل وفاعل ومفعول، وهذا غريب شاذ جداً. وقد روى أبو بكر بن أبي داود في ذلك شيئاً غريباً حيث قال: حدثنا أبو عبد الرحمن الأذرمي، حدثنا عبد الوهاب عن عدي بن الفضل، عن أبي المطرف، عن ابن شهاب: أنه بلغه أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية وابنه يزيد بن معاوية كانوا يقرؤون: ﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾. وأول من حدث «ملك» مروان. قلت: مروان عنده علم بصحة ما قرأه، لم يطلع عليه ابن شهاب، والله أعلم. وقد روي من طرق متعددة أوردها ابن مژدويه أن رسول الله ﷺ كان يقرأها: ﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾. ومالك مأخوذة من الملك، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا بِرُحْمَتِنَا﴾ (مریم: ٤٠) وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (مَلِكِ النَّاسِ) (الناس: ١، ٢) وملك: مأخوذة من المُلْك كما قال تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (غافر: ١٦) وقال: ﴿قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ (الأنعام: ٧٣)، وقال: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا﴾ (الفرقان: ٢٦).

وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه، لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعى أحد هنالك شيئاً، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَاللَّيْلُ كَفًا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (النبا: ٢٨) وقال تعالى: ﴿وَسَخَّصَ الْأَنْصَارُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا مَسَامًا﴾ (طه: ١٠٨)، وقال: ﴿يَوْمَ لَا يَكُنْ لَكُمْ فَيْسٌ وَلَا يَأْذَنُ فَيَتَنَمَّ سَفَى وَسَعِيدٌ﴾ (هود: ١٠٥).

وقال الضحاك عن ابن عباس «مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ» يقول: لا يملك أحد في ذلك اليوم معه حكماً، كملكهم في الدنيا. قال: ويوم الدين يوم الحساب للخلائق، وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، إلا من عفا عنه. وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف، وهو ظاهر. وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه ذهب إلى أن تفسير

﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾: أنه القادر على إقامته، ثم شرع يضعفه. والظاهر أنه لا منافاة بين هذا القول وما تقدم، وأن كلا من القائلين بهذا وبما قبله يعترف بصحة القول الآخر، ولا ينكره، ولكن السياق أدل على المعنى الأول من هذا، كما قال: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَ الدِّينِ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦] والقول الثاني يشبه قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، والله أعلم.

والملك في الحقيقة هو الله عز وجل؛ قال الله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَدُّوسُ اسْكُنُكَ﴾. وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً (أخضع اسم عند الله رجل تسمى بملك الأملاك ولا مالك إلا الله)، وفيهما عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض؟ أين الجبارين؟ أين المتكبرون؟ وفي القرآن العظيم: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ فاما تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُ مَلِكٌ﴾، ﴿إِذْ جَعَلْ فِيكُمْ نُبِيَآةً وَجَعَلَكُمْ مَثَلًا﴾، وفي الصحيحين: (مثل الملوك على الأسرة).

والدين: الجزاء والحساب؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾، وقال: ﴿أَوَلَا لَدَيْنُكَ عَذَابٌ﴾ أي مجزون محاسبون، وفي الحديث: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت» أي حاسب نفسه نفسه؛ كما قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم: ﴿يَوْمَ يُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

قرأ السبعة والجمهور بتشديد الياء من ﴿إِيَّاكَ﴾ وقرأ عمرو بن فايد بتخفيفها مع الكسر وهي قراءة شاذة مردودة؛ لأن «إيا» ضوء الشمس. وقرأ بعضهم: «إياك» بفتح الهمزة وتشديد الياء، وقرأ بعضهم: «هياك» بالهاء بدل الهمزة، كما قال الشاعر:

فهيّاك والأمر الذي إن تراحبت موارده ضاقت عليك مصادره
و ﴿نَسْتَعِينُ﴾ بفتح النون أول الكلمة في قراءة الجميع سوى يحيى بن وثاب والأعمش فإنهما كسراها وهي لغة بني أسد وربيعة وبني تميم وقيس.

العبادة في اللغة من الذلة، يقال: طريق مُعَبَّد، وبغير مُعَبَّد، أي: مذلل، وفي الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف. وقدم المفعول وهو ﴿إِيَّاكَ﴾، وكرر؛ لاهتمام والحرص، أي: لا نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة. والدين يرجع كله إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله، وهذا المعنى في غير آية من القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِفَعْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [مرد: ١٧٣]، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّا بِيَدِهِ وَتَحْتِ يَدَيْهِ يَوْمَئِذٍ﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿رَبِّ لَشَرِّهِمْ أَكْثَرُ﴾ [المزمل: ٩]، وكذلك هذه الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب، وهو مناسبة؛ لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى؛ فلهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وفي هذا دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى، وإرشاد لعباده أن يشئوا عليه بذلك؛ ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك، وهو قادر عليه، كما جاء في الصحيحين، عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». وفي صحيح مسلم، من حديث العلاء بن عبد الرحمن، مولى الحُرقة، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، إذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] قال: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣] قال: أثنى علي عبدي، فإذا قال: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] قال الله: مجدني عبدي، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] صرط الذين أُنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين [الفاتحة: ٧، ٦] قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يعني: إياك نوح ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على طاعتك وعلى أمورنا كلها. وقال قتادة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: يأمركم أن تخلصوا له العبادة، وأن تستعينوه

على أمركم. وإنما قدم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأن العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتمام والحزم هو أن يقدم ما هو الأهم فالأهم، والله أعلم.

فإن قيل: فما معنى النون في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؟ فإن كانت للجمع فالداعي واحد، وإن كانت للتعظيم فلا تناسب هذا المقام؟ وقد أجيب بأن المراد من ذلك الإخبار عن جنس العباد والمصلين فرد منهم، ولا سيما إن كان في جماعة أو إمامهم، فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين بالعبادة التي خلقوا لأجلها، وتوسط لهم بخير، ومنهم من قال: يجوز أن تكون للتعظيم، كأن العبد قيل له: إذا كنت في العبادة فأنت شريف وجاهك عريض فقل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وإذا كنت في خارج العبادة فلا تقل: نحن ولا فعلنا، ولو كنت في مائة ألف أو ألف ألف لافتقار الجمع إلى الله ﷻ. ومنهم من قال: ألطف في التواضع من إياك أعبد، لما في الثاني من تعظيمه نفسه من جعله وحده أهلاً لعبادة الله تعالى الذي لا يستطيع أحد أن يعبدَه حق عبادته، ولا يثني عليه كما يليق به، والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى، كما قال بعضهم:

لا تدعني إلا بيا عبدها فإننه أشرف أسمائني
وقد سمي الله رسوله عبده في أشرف مقاماته فقال: ﴿لَتَعْبُدُنَّ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١٦]، ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ٦٨]، فسماه عبداً عند إنزاله عليه وقيامه في الدعوة وإسرائه به، وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقات بضيق صدره من تكذيب المخالفين له، حيث يقول: ﴿لَقَدْ تَلَوَّكَ يَتَّبِعُكَ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [١٧] ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [١٨] ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩]. وقد حكى فخر الدين في تفسيره عن بعضهم: أن مقام العبودية أشرف من مقام الرسالة؛ لكون العبادة تصدر من الخلق إلى الحق والرسالة من الحق إلى الخلق؛ قال: ولأن الله متولي مصالح عبده، والرسول متولي مصالح أمته، وهذا القول خطأ، والتوجيه أيضاً ضعيف لا حاصل له، ولم يتعرض له فخر الدين بتضعيف ولا رده.

وقال بعض الصوفية: العبادة إما لتحصيل ثواب ورد عقاب؛ قالوا: وهذا ليس بطائل إذ مقصوده تحصيل مقصوده، وإما للتحريف بتكاليف الله تعالى، وهذا - أيضاً - عندهم ضعيف، بل العالي أن يعبد الله لذاته المقدسة الموصوفة بالكمال، قالوا: ولهذا يقول المصلي: أصلي لله. ولو كان لتحصيل الثواب ودرء العذاب لبطلت صلاته. وقد رد ذلك عليهم آخرون وقالوا: كون العبادة لله ﷻ، لا ينافي أن يطلب معها ثواباً، ولا أن يدفع عذاباً، كما قال ذلك الأعرابي: أما إني لا أحسن ندنتك ولا دندنة معاذ إنما أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار فقال النبي ﷺ: «حولها ندندن».

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

قراءة الجمهور بالصاد. وقرئ: «السرط» وقرئ بالزاي، قال الفراء: وهي لغة بني عذرة وبلقين وبني كلب. لما تقدم الثناء على المسؤول، تبارك وتعالى، ناسب أن يعقب بالسؤال؛ كما قال: «فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل» وهذا أكمل أحوال السائل، أن يمدح مسؤوله، ثم يسأل حاجته وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله: ﴿أَهْدِنَا﴾؛ لأنه أنجح للحاجة وأنجع للإجابة، ولهذا أرشد الله تعالى إليه لأنه الأكمل، وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] وقد يتقدمه مع ذلك وصف المسؤول، كقول ذي النون: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقد يكون بمجرد الثناء على المسؤول، كقول الشاعر:

أذكر حاجتي أم قد كفاني
إذا أثنى عليك الممر يوماً
حياؤك إن شيمتك الحياء
كفاه من تعرضه الشناء

والهداية ههنا: الإرشاد والتوفيق، وقد تعدى الهداية بنفسها كما هنا: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فتضمن معنى ألهمنا، أو وفقنا، أو أرزقنا، أو اعطنا؛ ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] أي: بينا له الخير والشر، وقد تعدى بإلى، كقوله تعالى: ﴿أَجَبْتَهُ وَهَدَيْتُهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٨] ﴿فَأَقْصَوْنَا إِلَى صِرَاطِ الْجَمِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣] وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وقد تعدى باللام، كقول أهل الجنة: ﴿لَتَعْبُدُنَّ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] أي وفقنا لهذا وجعلنا له أهلاً. وأما الصراط المستقيم، فقال الإمام أبو جعفر بن جرير: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن «الصراط المستقيم» هو الطريق الواضح الذي لا أعوجاج فيه.

وكذلك ذلك في لغة جميع العرب، فمن ذلك قول جرير بن عطية الخَطَفِي:

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صِرَاطٍ إِذَا أَعْوَجَ الْمَوَارِدُ مُسْتَقِيمٌ
قال: والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصر. قال: ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله في كل قول وعمل، وصف باستقامة أو اعوجاج، فتصف المستقيم باستقامته، والمعوج باعوجاجه. ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد، وهو المتابعة لله وللرسول؛ فروي أنه كتاب الله، قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثني يحيى بن يمان، عن حمزة الزيات، عن سعد، وهو أبو المختار الطائي، عن ابن أخي الحارث الأعور، عن الحارث الأعور، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الصراط المستقيم كتاب الله». وكذلك رواه ابن جرير، من حديث حمزة بن حبيب الزيات، وقد تقدم في فضائل القرآن فيما رواه أحمد والترمذي من رواية الحارث الأعور، عن علي مرفوعاً: «وهو جبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم».

وقد روي هذا موقوفاً عن علي، وهو أشبه، والله أعلم. وقال الثوري، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله، قال: الصراط المستقيم كتاب الله، وقيل: هو الإسلام. وقال الضحاك، عن ابن عباس، قال: قال جبريل لمحمد، عليهما السلام: قل يا محمد، اهدنا الصراط المستقيم. يقول: اهدنا الطريق الهادي، وهو دين الله الذي لا عوج فيه. وقال ميمون بن وهبان، عن ابن عباس، في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: ذاك الإسلام. وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قالوا: هو الإسلام. وقال عبد الله بن محمد بن عقييل، عن جابر: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: الإسلام، قال: هو أوسع مما بين السماء والأرض. وقال ابن الحنفية في قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: هو دين الله، الذي لا يقبل من العباد غيره. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: اهدنا الصراط المستقيم، قال: هو الإسلام.

وفي معنى هذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده، حيث قال: حدثنا الحسن بن سوار أبو العلاء، حدثنا ليث يعني ابن سعد، عن معاوية بن صالح: أن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، حدثه، عن أبيه، عن النواس بن سمعان، عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعاً ولا تموجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب، قال: ويحك، لا تفتحه؛ فإنك إن تفتحه تلجه. فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم». وهكذا رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير من حديث الليث بن سعد به. ورواه الترمذي والنسائي جميعاً، عن علي بن حجر عن بقية، عن بُجَيْر بن سعد، عن خالد بن مَعْدَانَ، عن جبير بن نفير، عن النواس بن سمعان، به. وهو إسناده صحيح، والله أعلم.

وقال مجاهد: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: الحق. وهذا أشمل، ولا منافاة بينه وبين ما تقدم. وروى ابن أبي حاتم وابن جرير، من حديث أبي النضر هاشم بن القاسم؛ حدثنا حمزة بن المغيرة، عن عاصم الأحول، عن أبي العالية: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: هو النبي ﷺ، وصاحبه من بعده، قال عاصم: فذكرنا ذلك للحسن، فقال: صدق أبو العالية ونصح. وكل هذه الأقوال صحيحة، وهي متلازمة، فإن من اتبع النبي ﷺ، واتدى باللذين من بعده أبي بكر وعمر، فقد اتبع الحق، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن، وهو كتاب الله وحبله المتين، وصراطه المستقيم، فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضاً، والله الحمد. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن الفضل السقطي، حدثنا إبراهيم بن مهدي البصيصي، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله، قال: الصراط المستقيم الذي تركنا عليه رسول الله ﷺ. ولهذا قال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي - أعني ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ - أن يكون معناه به: وفقنا للثبات على ما ارتضيناه ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك، من قول وعمل، وذلك هو الصراط المستقيم؛ لأن من وفق لما وفق له من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فقد وفق للإسلام، وتصديق الرسل، والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمره الله به، والانزجار عما زجره عنه،

واتباع منهاج النبي ﷺ، ومنهاج الخلفاء الأربعة، وكل عبد صالح، وكل ذلك من الصراط المستقيم.

فإن قيل: كيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها، وهو متصف بذلك؟ فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا؟ فالجواب: أن لا، ولولا احتياجه ليلاً ونهاراً إلى سؤال الهداية لما أرشده الله إلى ذلك؛ فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تربيته على الهداية، ورسوخه فيها، وتبصره، وازدياده منها، واستمراره عليها، فإن العبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله، فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمدّه بالمعونة والثبات والتوفيق، فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله؛ فإنه تعالى قد تكفل بإجابة الداعي إذا دعاه، ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]، فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان، وليس في ذلك تحصيل الحاصل؛ لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال البعيدة على ذلك، والله أعلم.

وقال تعالى أمرأ لعباده المؤمنين أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٨)، وقد كان الصديق رضي الله عنه يقرأ بهذه الآية في الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سراً. فمعنى قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٦) استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلى غيره.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (٧)

قد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٦) إلى آخرها أن الله يقول: «هذا لعبدي ولعبدي ما سألت». وقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ مفسر للصراط المستقيم. وهو بدل منه عند النحاة، ويجوز أن يكون عطف بيان، والله أعلم. و ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: هم المذكورون في سورة النساء، حيث قال: ﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (٩٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عِلْمًا (٧٠) [النساء: ٦٩، ٧٠]. وقال الضحاك، عن ابن عباس: صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك، من ملائكتك، وأنبيائك، والصديقين، والشهداء، والصالحين؛ وذلك نظير ما قال ربنا تعالى: ﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [النساء: ٦٩]. وقال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ قال: هم النبيون. وقال ابن جرير، عن ابن عباس: هم المؤمنون. وكذا قال مجاهد. وقال وكيع: هم المسلمون. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم النبي ﷺ ومن معه. والتفسير المتقدم، عن ابن عباس أعم وأشمل، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾: قرأ الجمهور: ﴿غَيْرِ﴾ بالجر على النعت، قال الزمخشري: وقرئ بالنصب على الحال، وهي قراءة رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب، ورويت عن ابن كثير، وذو الحال الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ والعامل: ﴿أَنْعَمْتَ﴾ والمعنى: أهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعتهم، وهم أهل الهداية والاستقامة، والطاعة لله ورسوله، وامتنال أوامره وترك نواهيه وزواجره، غير صراط المغضوب عليهم، وهم الذين فسدت إرادتهم، فعملوا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق، وأكد الكلام بلا، ليدل على أن تم مسلكن فاسدين، وهما طريقا اليهود والنصارى.

وقد زعم بعض النحاة أن ﴿غَيْرِ﴾ ههنا استثنائية، فيكون على هذا منقطعاً لاستثنائهم من المنعم عليهم وليسوا منهم، وما أوردهنا أولى، لقول الشاعر:

كَأَنَّكَ مِنْ جَمَالِ بَنِي أَقْمِشٍ يُقْفَقُ عِنْدَ رَجُلَيْنِهِ بَشَرُ
أَي: كأنك جمل من جمال بني أقمش، فحذف الموصوف واكتفى بالصفة، وهكذا، ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾. أي: غير صراط المغضوب عليهم. اكتفى بالمضاف إليه عن ذكر المضاف، وقد دل عليه سياق الكلام، وهو قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ثم قال تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾. ومنهم من زعم أن (لا) في قوله: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، زائدة، وأن تقدير الكلام عنده: غير المغضوب عليهم والضالين، واستشهد بييت العجاج:

فِي بَشَرٍ لَا حُورٍ سَرَى وَمَا شَعَرَ

أي في بشر حور. والصحيح ما قدمناه. ولهذا روى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن، عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: أنه كان يقرأ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَغَيْرِ

وكذلك قال الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد، وقال ابن أبي حاتم: ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافًا. وشاهد ما قاله هؤلاء الأئمة من أن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون، الحديث المتقدم، وقوله تعالى في خطابه مع بني إسرائيل في سورة البقرة: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّكُمُ فِي آلِهَتِكُمْ إِذَاقْتَرَأْتُمُوهُ﴾ (البقرة: ٢٥٠)، وقال في المائدة: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ يَأْتِيَنَّكُمْ عَنِ اللَّهِ أَنْ لَا يَأْتِيَنَّكُمْ عَنِ اللَّهِ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَوْسَ وَالْجَنَّةَ وَبَدَّ الْأَطْنُفُوتَ أُولَئِكَ كَفَرُوا مِنْكُمْ وَأَصْلَ عَنْ سَوَاءِ النَّبِيلِ﴾ (المائدة: ٦٠)، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (ص: ٧٨)، وقال تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُكْثَرِ قَتْلِهِمْ أَنْ يَقْتُلُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (المائدة: ٧٨، ٧٩). وفي السيرة، عن زيد بن عمرو بن نفيل؛ أنه لما خرج هو وجماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف، قالت له اليهود: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله. فقال: أنا من غضب الله أفر. وقالت له النصارى: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من سخط الله فقال: لا أستطيعه. فاستمر على فطرته، وجانب عبادة الأوثان ودين المشركين، ولم يدخل مع

أحد من اليهود ولا النصارى، وأما أصحابه فتنصروا ودخلوا في دين النصرانية؛ لأنهم وجدوه أقرب من دين اليهود إذ ذاك، وكان منهم ورقة بن نوفل، حتى هداه الله بنبيه لما بعثه آمن بما وجد من الوحي، رضي الله عنه.

(مسألة): والصحيح من مذاهب العلماء أنه يغتفر الإخلال بتحرير ما بين الضاد والطاء لقرب مخرجيهما؛ وذلك أن الضاد مخرجها من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس، ومخرج الطاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا، ولأن كلا من الحرفين من الحروف المجهورة ومن الحروف الرخوة ومن الحروف المطبقة، فلهذا كله اغتفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يميز ذلك والله أعلم. وأما حديث: «أنا أفصح من نطق بالضاد» فلا أصل له والله أعلم.

فصل

اشتملت هذه السورة الكريمة، وهي سبع آيات على حمد الله وتمجيده والثناء عليه، بذكر أسمائه الحسنی المستلزمة لصفاته العليا، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاده عبده إلى سؤاله والتضرع إليه، والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالالوهية تبارك وتعالى، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، وتثبيتهم عليه حتى يُفضي بهم ذلك إلى جواز الصراط الحسي يوم القيامة، المفضي بهم إلى جنات النعيم في جوار النبين، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة؛ ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل، لثلاثي حشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون. وما أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وحذف الفاعل في الغضب في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْلًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [المجادلة: ١٤]، وكذلك إسناد الضلال إلى من قام به، وإن كان هو الذي أضلهم بقدره، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]. وقال: ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَكَأَنَّهُ هَادٍ يُدْرِكُ لَمْ يَلْقَئَتْهُمْ بَحْرٌ مِنْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ سَبْحَانَهُ هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالْهُدَايَةِ وَالْإِضْلَالِ، لا كما تقوله الفرقة القدرية ومن هذا حذوهم، من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه، ويحتجون على بدعتهم بمشابهة من القرآن، ويتركون ما يكون فيه صريحاً في الرد عليهم، وهذا حال أهل الضلال والغي، وقد ورد في الحديث الصحيح: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم». يعني في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ بِهِ﴾ [آل عمران: ٧]، فليس - بحمد الله - لمبتدع في القرآن حجة صحيحة؛ لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل مفرقاً بين الهدى والضلال، وليس فيه تناقض ولا اختلاف؛ لأنه من عند الله، تنزيل من حكيم حميد.

فصل

يستحب لمن قرأ الفاتحة أن يقول بعدها: آمين مثل: يس، ويقال: آمين، بالقصر أيضاً مثل: يمين، ومعناه: اللهم استجب، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد وأبو داود، والترمذي عن وائل بن حجر، قال: سمعت النبي ﷺ قرأ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فقال: «آمين»، مد بها صوته، ولأبي داود: رفع بها صوته، وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وروي عن علي، وابن مسعود وغيرهم. وعن أبي هريرة، قال: كان رسول الله ﷺ إذا تلا: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: «آمين» حتى يسمع من يليه من الصف الأول. رواه أبو داود، وابن ماجه، وزاد: يرتج بها المسجد، والدارقطني وقال: هذا إسناد حسن. وعن بلال أنه قال: يا رسول الله، لا تسبقني بآمين. رواه أبو داود.

ونقل أبو نصر القشيري عن الحسن وجعفر الصادق أنهما شجدا الميم من آمين مثل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٢]. قال أصحابنا وغيرهم: ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة، ويتأكد في حق المصلي، وسواء كان منفرداً أو إماماً أو مأموماً، وفي جميع الأحوال، لما جاء في الصحيحين، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه» ولمسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال أحدكم في الصلاة: آمين، والملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه». قيل: بمعنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الزمان، وقيل: في الإجابة، وقيل: في صفة الإخلاص. وفي صحيح مسلم عن أبي موسى مرفوعاً: «إذا قال، يعني الإمام: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فقولوا: آمين. يجيبكم الله».

وقال جوير، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: قلت: يا رسول الله، ما معنى آمين؟ قال: «رب افعل». وقال الجوهري:

معنى آمين: كذلك فليكن، وقال الترمذي: معناه: لا تخيب رجاءنا، وقال الأكثرون: معناه: اللهم استجب لنا، وحكى القرطبي عن مجاهد وجعفر الصادق وهلال بن كيسان أن آمين اسم من أسماء الله تعالى وروي عن ابن عباس مرفوعاً ولا يصح، قاله أبو بكر بن العربي المالكي. وقال أصحاب مالك: لا يؤمن الإمام ويؤمن المأموم، لما رواه مالك عن شَمَيْ، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «وَإِذَا قَالَ، يَعْنِي الْإِمَامُ: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فَقُولُوا: آمِينَ. الْحَدِيثُ. وَاسْتَأْنَسُوا. أَيْضاً - بِحَدِيثِ أَبِي مُوسَى: «وَإِذَا قُرَأَ: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فَقُولُوا: آمِينَ». وَقَدْ قَدِمْنَا فِي الْمُتَّفِقِ عَلَيْهِ: «إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمْنُوا» وَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ يَوْمَنَ إِذَا قُرَأَ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

وقد اختلف أصحابنا في الجهر بالتأمين للمأموم في الجهرية، وحاصل الخلاف أن الإمام إن نسي التأمين جهر المأموم به قولاً واحداً، وإن أَمَّنَ الإمام جهرًا فالجديد أنه لا يجهر المأموم وهو مذهب أبي حنيفة، ورواية عن مالك؛ لأنه ذكر من الأذكار فلا يجهر به كسائر أذكار الصلاة. والقديم أنه يجهر به، وهو مذهب أحمد بن حنبل، والرواية الأخرى عن مالك، لما تقدم: «حتى يرتج المسجد». ولنا قول آخر ثالث: أنه إن كان المسجد صغيراً لم يجهر المأموم؛ لأنهم يسمعون قراءة الإمام، وإن كان كبيراً جهر ليبلغ التأمين مَنْ فِي أَرْجَاءِ الْمَسْجِدِ، والله أعلم. وقد روى الإمام أحمد في مسنده، عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ ذَكَرَتْ عِنْدَهُ الْيَهُودُ، فَقَالَ: «إِنَّهُمْ لَمِنْ يَحْسَدُونَا عَلَى شَيْءٍ كَمَا يَحْسَدُونَا عَلَى الْجُمُعَةِ الَّتِي هَدَانَا اللَّهُ لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى الْقَبْلَةِ الَّتِي هَدَانَا اللَّهُ لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى قَوْلِنَا خَلْفَ الْإِمَامِ: آمِينَ»، ورواه ابن ماجه، ولفظه: «ما حسدتمكم اليهود على شيء ما حسدتمكم على السلام والتأمين»، وله عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ما حسدتمكم اليهود على شيء ما حسدتمكم على قول: آمين، فأكثرُوا مِنْ قَوْلِ: آمِينَ» وفي إسناده طلحة بن عمرو، وهو ضعيف. وروى ابن مَرْزُوقٍ، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «آمِينَ: خَاتَمُ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ». وعن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيَ آمِينَ فِي الصَّلَاةِ وَعِنْدَ الدَّعَاءِ، لَمْ يَعْطَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُوسَى، كَانَ مُوسَى يَدْعُو، وَهَارُونَ يَوْمَنَ، فَاخْتَمُوا الدَّعَاءَ بِآمِينَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَسْتَجِيبُهُ لَكُمْ».

قلت: ومن هنا نزح بعضهم في الدلالة بهذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَتَهُ وَأَمْوَالَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُخْلَاَ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الْبَاطِلِ لَا يَمْلَكُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]، فذكر الدعاء عن موسى وحده، ومن سياق الكلام ما يدل على أن هَارُونَ أَمَّنَ، فنزل منزلة من دعا، لقوله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]، فدل ذلك على أن من أَمَّنَ على دعاء فكانما قاله؛ فلهذا قال من قال: إن المأموم لا يقرأ لأن تأمينه على قراءة الفاتحة بمنزلة قراءتها؛ ولهذا جاء في الحديث: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة»، وكان بلال يقول: لا تسبقني بآمين. فدل هذا المتزع على أن المأموم لا قراءة عليه في الجهرية، والله أعلم. ولهذا قال ابن مَرْزُوقٍ: حدثنا أحمد بن الحسن، حدثنا عبد الله بن محمد بن سلام، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا جرير، عن ليث بن أبي سليم، عن كعب، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قَالَ الْإِمَامُ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فَقَالَ: آمِينَ، فَتَوَافَقَ آمِينَ أَهْلُ الْأَرْضِ آمِينَ أَهْلُ السَّمَاءِ، غَفَرَ اللَّهُ لِلْعَبْدِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ. وَمِثْلُ مَنْ لَا يَقُولُ: آمِينَ، كَمِثْلِ رَجُلٍ غَزَا مَعَ قَوْمٍ، فَاقْتَرَعُوا، فَخَرَجَتْ سَهَامُهُمْ، وَلَمْ يَخْرُجْ سَهْمُهُ، فَقَالَ: لِمَ لَمْ يَخْرُجْ سَهْمِي؟ فَقِيلَ: إِنَّكَ لَمْ تَقُلْ: آمِينَ».



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

تفسير سورة البقرة

خمسة وعشرون ألفاً وخمسمائة حرف، وستة آلاف ومائة وعشرون كلمة، ومائتان وستة وثمانون آية في عدد الكوفي وعدد علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ذكر ما ورد في فضلها

قال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا معتمر، عن أبيه، عن رجل، عن أبيه، عن معقل بن يسار؛ أن رسول الله ﷺ قال: «البقرة سنّام القرآن وذروته، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً، واستخرجت: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] من تحت العرش، فوصلت بها، أو فوصلت بسورة البقرة، ويس: قلب القرآن، لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له، وأقرؤها على موتاكم». انفرد به أحمد. وقد رواه أحمد - أيضاً - عن عارم، عن عبد الله بن المبارك، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان - وليس بالثقة - عن أبيه، عن معقل بن يسار، قال: قال رسول الله ﷺ: «أقرؤها على موتاكم» يعني: يس. فقد بيّنا بهذا الإسناد معرفة المبهمة في الرواية الأولى. وقد أخرج هذا الحديث على هذه الصفة في الرواية الثانية أبو داود، والنسائي، وابن ماجة. وقد روى الترمذي من حديث حكيم بن جبير، وفيه ضعف، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء سنّام، وإن سنّام القرآن البقرة، وفيها آية هي سيدة آي القرآن: آية الكرسي». وفي مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذي والنسائي، من حديث سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، فإن البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان» وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثني ابن أبي مريم، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سنان بن سعد، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يخرج من البيت إذا سمع سورة البقرة تقرأ فيه». سنان بن سعد، ويقال بالعكس، وثقه ابن معين، واستنكر حديثه أحمد بن حنبل وغيره. وقال أبو عبيد: حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن سلمة بن كهيل، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، يعني ابن مسعود، قال: إن الشيطان يفر من البيت الذي يسمع فيه سورة البقرة. ورواه النسائي في اليوم والليلة، وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث شعبة، ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا أحمد بن كامل، حدثنا أبو إسماعيل الترمذي، حدثنا أيوب بن سليمان بن بلال، حدثني أبو بكر بن أبي أويس، عن سليمان بن بلال، عن محمد بن عجلان، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أَلْقَيْنَ أَحَدَكُمْ، يَضَعُ إحدَى رجليه على الأخرى يتغنّى، ويدع سورة البقرة يقرؤها؛ فإن الشيطان يفر من البيت تقرأ فيه سورة البقرة، وإن أضفر البيوت الجَوْفَ، الضُّفْر من كتاب الله». وهكذا رواه النسائي في اليوم والليلة، عن محمد بن نصر، عن أيوب بن سليمان، به. وروى الدارمي في مسنده عن ابن مسعود قال: ما من بيت تقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط. وقال: إن لكل شيء سنّاماً، وإن سنّام القرآن سورة البقرة، وإن لكل شيء لباباً، وإن لباب القرآن المفضل. وروى - أيضاً - من طريق الشعبي قال: قال عبد الله بن مسعود: من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة أربع من أولها وآية الكرسي وآيات بعدها وثلاث آيات من آخرها، وفي رواية: لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه ولا يقرآن على مجنون إلا أفاق.

وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء سنّاماً، وإن سنّام القرآن البقرة، من قرأها في بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال، ومن قرأها في بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام». رواه أبو القاسم الطبراني، وأبو حاتم، وابن حبان في صحيحه. وقد روى الترمذي، والنسائي، وابن ماجة من حديث عبد الحميد بن جعفر، عن سعيد المقبري، عن عطاء مولى أبي أحمد، عن أبي هريرة، قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً وهم ذوو عدد، فاستقراهم فاستقرأ كل واحد منهم، يعني ما معه من القرآن، فأتى على رجل من أحدثهم سنّاً، فقال: «ما مَعَكَ يا فلان؟» قال: «معي كذا وكذا وسورة البقرة، فقال: «أمعك سورة البقرة؟» قال: نعم. قال: «أذهب فأنت أميرهم»، فقال رجل من أشrafهم: والله ما منعتني أن أتعلم البقرة إلا أني خشيت ألا أقوم

سورة البقرة ذكر فضلها مع آل عمران

بها. فقال رسول الله ﷺ: «تعلموا القرآن وارقؤوه؛ فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكاً يفرح ريحه في كل مكان، ومثل من تعلمه، فيرقد وهو في جوفه، كمثل جراب أوكي على مسك». هذا لفظ رواية الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن. ثم رواه من حديث الليث، عن سعيد، عن عطاء مولى أبي أحمد مرسلًا، والله أعلم.

قال البخاري: وقال الليث: حدثني يزيد بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن أسيد بن حضير، قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس، فسكت، فسكنت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت، فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها. فأشفق أن تصيبه، فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال: «اقرأ يا ابن حضير». قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريباً، فرفعت رأسي وانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال: «وتدري ما ذاك؟» قال: لا. قال: «تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم». وهكذا رواه الإمام العالم أبو عبيد القاسم بن سلام، في كتاب فضائل القرآن، عن عبد الله بن صالح، ويحيى بن بكير، عن الليث، به. وقد روي من وجه آخر، عن أسيد بن حضير، كما تقدم، والله أعلم.

وقد وقع نحو من هذا لثابت بن قيس بن شماس، رضي الله عنه، وذلك فيما رواه أبو عبيد القاسم: حدثنا عباد بن عباد، عن جرير بن حازم، عن جرير بن يزيد: أن أشياخ أهل المدينة حدثوه: أن رسول الله ﷺ، قيل له: ألم تر ثابت بن قيس بن شماس؟ لم ترل داره البارحة تزهو مصابيح، قال: «فلعله قرأ سورة البقرة». قال: فستل ثابت، فقال: قرأت سورة البقرة. وهذا إسناده جيد، إلا أن فيه إيهاماً، ثم هو مرسل، والله أعلم.

ذكر ما ورد في فضلها مع آل عمران

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم، حدثنا بشير بن مهاجر، حدثني عبد الله بن بريدة، عن أبيه، قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ فسمعت يقول: «تعلموا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة». قال: ثم سكت ساعة، ثم قال: «تعلموا سورة البقرة، وآل عمران، فإنهما الزهراوان، يُطلَّان صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غماتان أو غيبتان، أو فرقان من طير صواف، وإن القرآن يلقي صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك. فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة. فيعطى الملك يمينه والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتين، لا يقوم لهما أهل الدنيا، فيقولان: بم كسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن. ثم يقال: اقرأ واصعد في دَرَج الجنة وغرفها. فهو في صعود ما دام يقرأ هذا كان أو ترتيلاً». وروى ابن ماجة من حديث بشير بن المهاجر بعضه، وهذا إسناده حسن على شرط مسلم، فإن بشيراً هذا أخرج له مسلم، ووثقه ابن معين، وقال النسائي: ليس به بأس، إلا أن الإمام أحمد قال فيه: هو منكر الحديث، قد اعتبرت أحاديثه فإذا هي تحيى بالمعجب. وقال البخاري: يخالف في بعض حديثه. وقال أبو حاتم الرازي: يكتب حديثه ولا يحتج به. وقال ابن عدي: روى ما لا يتابع عليه. وقال الدارقطني: ليس بالقوي. قلت: ولكن لبعضه شواهد؛ فمن ذلك حديث أبي أمامة الباهلي؛ قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الملك بن عمرو حدثنا هشام، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلام، عن أبي أمامة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اقرؤوا القرآن؛ فإنه شافع لأصحابه يوم القيامة، اقرؤوا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غماتان، أو كأنهما غيبتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن أهلها. ثم قال: «اقرؤوا البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة». وقد رواه مسلم في الصلاة من حديث معاوية بن سلام، عن أخيه زيد بن سلام، عن جده أبي سلام مَطْطُور الحَبَشِيِّ، عن أبي أمامة صَدِّي بن عجلان الباهلي به. الزهراوان: المنيران. والغاية: ما أظلك من فوقك. والفَرْقُ: القطعة من الشيء، والصواف: المصطفة المتضامة. والبطلة: السحرة. ومعنى «لا تستطيعها» أي: لا يمكنهم حفظها، وقيل: لا تستطيع النفوذ في قارئها، والله أعلم.

ومن ذلك حديث الثَّوَّاس بن سَمْعَانَ. قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا الوليد بن مسلم، عن محمد بن مهاجر، عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشِيِّ، عن جُبَيْر بن نُفَيْر، قال: سمعت النّوَّاس بن سَمْعَانَ الكلابي، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمهم سورة البقرة وآل عمران». وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: «كأنهما غماتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرْق، أو كأنهما فرقان من طير

صَوَافٍ يُحَاجُّانَ عَنْ صَاحِبِهِمَا». ورواه مسلم، عن إسحاق بن منصور، عن يزيد بن عبد ربه، به. والترمذي، من حديث الوليد بن عبد الرحمن الجريشي، به. وقال: حسن غريب. وقال أبو عبيد: حدثنا حجاج، عن حماد بن سلمة، عن عبد الملك بن عمير، قال: قال حماد: أحسبه عن أبي منيب، عن عمه: أن رجلاً قرأ البقرة وآل عمران، فلما قضى صلاته قال له كعب: أقرأت البقرة وآل عمران؟ قال: نعم. قال: فوالذي نفسي بيده، إن فيهما اسم الله الذي إذا دعي به استجاب. قال: فأخبرني به. قال: لا، والله لا أخبرك به، ولو أخبرتك لأوشكت أن تدعوه بدعوة أهلك فيها أنا وأنت. قال أبو عبيد: وحدثنا عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح، عن سليم بن عامر: أنه سمع أبا أمامة يقول: إن أخاً لكم أري في المنام أن الناس يسلكون في صدع جبل وعر طويل، وعلى رأس الجبل شجرتان خضراوان تهتفان: هل فيكم من يقرأ سورة البقرة؟ وهل فيكم من يقرأ سورة آل عمران؟ قال: فإذا قال الرجل: نعم، دنا منه بأعناقهما، حتى يتعلق بهما فتخطران به الجبل.

قال أبو عبيد: وحدثنا عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح، عن أبي عمران: أنه سمع أم الدرداء تقول: إن رجلاً ممن قرأ القرآن أغار على جاره، فقتله، وإنه أقيد به، فقتل، فما زال القرآن ينسل منه سورة سورة، حتى بقيت البقرة وآل عمران جمعة، ثم إن آل عمران انسلت منه، وأقامت البقرة جمعة، فقيل لها: ﴿مَا يَذُكُّ الْقَوْلَ لَدَيْ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّعَبِيدٍ﴾ [ق: ٢٩] قال: فخرجت كأنها السحابة العظيمة. قال أبو عبيد: أراه، يعني: أنهم كانوا معه في قبره تدفعان عنه وتؤنسانه، فكانتا من آخر ما بقي معه من القرآن. وقال - أيضاً -: حدثنا أبو مسهر الغساني، عن سعيد بن عبد العزيز التنوخي: أن يزيد بن الأسود الجريشي كان يحدث: أنه من قرأ البقرة وآل عمران في يوم، برى من النفاق حتى يمسي، ومن قرأهما في ليلة برى من النفاق حتى يصبح، قال: فكان يقرؤهما كل يوم وليلة سوى جزئه. قال أيضاً: وحدثنا يزيد، عن وقاء بن إياس، عن سعيد بن جبير، قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من قرأ البقرة وآل عمران في ليلة كان - أو كتب - من القانتين. فيه انقطاع، ولكن ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعة واحدة.

ذكر ما ورد في فضل السبع الطوال

قال أبو عبيد: حدثنا هشام بن إسماعيل الدمشقي، عن محمد بن شعيب، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبي المليح، عن واثلة بن الأسقع، عن النبي ﷺ، قال: «أعطيت السبع الطوال مكان التوراة، وأعطيت المثني مكان الإنجيل، وأعطيت المثاني مكان الزبور، وفضلت بالمفضل». هذا حديث غريب، وسعيد بن بشير، فيه لين. وقد رواه أبو عبيد أيضاً، عن عبد الله بن صالح، عن الليث، عن سعيد بن أبي هلال، قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال... فذكره، والله أعلم. ثم قال: حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن عمرو بن أبي عمرو، مولى المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن حبيب بن هند الأسلمي، عن عروة، عن عائشة، عن النبي ﷺ، قال: «من أخذ السبع فهو خير».

وهذا أيضاً غريب، وحبيب بن هند بن أسماء بن هند بن حارثة الأسلمي، روى عنه عمرو بن أبي عمرو وعبد الله بن أبي بكرة، وذكره أبو حاتم الرازي ولم يذكر فيه جرحاً، فالحق أعلم. وقد رواه الإمام أحمد، عن سليمان بن داود، وحسين، كلاهما عن إسماعيل بن جعفر، به. ورواه - أيضاً - عن أبي سعيد، عن سليمان بن بلال، عن حبيب بن هند، عن عروة، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «من أخذ السبع الأول من القرآن فهو خير». قال أحمد: وحدثنا حسين، حدثنا ابن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ مثله. قال عبد الله بن أحمد: وهذا أرى فيه، عن أبيه، عن الأعرج، ولكن كذا كان في الكتاب بلا «أبي»، أغفله أبي، أو كذا هو مرسل، ثم قال أبو عبيد: حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَآئِكَ سَبْعًا مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ [الحجر: ٨٧]، قال: هي السبع الطول: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس. قال: وقال مجاهد: هي السبع الطول. وهكذا قال مكحول، وعطية بن قيس، وأبو محمد الفارسي، وشَدَاد بن عبيد الله، ويحيى بن الحارث الذماري في تفسير الآية بذلك، وفي تعدادها، وأن يونس هي السابعة.

فصل

والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف، قال بعض العلماء: وهي مشتملة على ألف خبر، وألف أمر، وألف نهى. وقال العادون: آياتها مائتان وثمانون وسبع آيات، وكلماتها ستة آلاف كلمة ومائة وإحدى وعشرون كلمة، وحروفها خمسة وعشرون ألفاً وخمسمائة حرف، فالحق أعلم. قال ابن جرير، عن عطاء، عن ابن عباس: نزلت بالمدينة سورة البقرة. وقال خُصَيْف، عن مجاهد، عن عبد الله بن الزبير، قال: أنزل بالمدينة سورة البقرة. وقال الواقدي: حدثني الضحاك بن عثمان، عن أبي الزناد،

عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه، قال: نزلت البقرة بالمدينة. وهكذا قال غير واحد من الأئمة والعلماء والمفسرين، ولا خلاف فيه. وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا الحسن بن علي بن الوليد الفارسي، حدثنا خلف بن هشام؛ حدثنا عُبيس بن ميمون، عن موسى بن أنس بن مالك، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا: سورة البقرة، ولا سورة آل عمران، ولا سورة النساء، وكذا القرآن كله، ولكن قولوا: السورة التي يذكر فيها البقرة، والتي يذكر فيها آل عمران، وكذا القرآن كله». هذا حديث غريب لا يصح رفعه، وعيسى بن ميمون هذا هو أبو سلمة الخواص، وهو ضعيف الرواية، لا يحتج به. وقد ثبت في الصحيحين، عن ابن مسعود: أنه رمى الجمرة من بطن الوادي، فجعل البيت عن يساره، ومنى عن يمينه، ثم قال: هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة. أخرجاه.

وروى ابن مَرْدُويه، من حديث شعبة، عن عقيل بن طلحة، عن عتبة بن فرقد، قال: رأى النبي ﷺ في أصحابه تأخراً، فقال: «يا أصحاب سورة البقرة». وأظن هذا كان يوم حنين، حين ولوا مدبرين أمر العباس فناداهم: «يا أصحاب الشجرة»، يعني أهل بيعة الرضوان. وفي رواية: «يا أصحاب البقرة»؛ ولينشطهم بذلك، فجعلوا يقبلون من كل وجه. وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مسيلمة، جعل الصحابة يفرون لكثافة حُشْر بني حنيفة، فجعل المهاجرون والأنصار يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة، حتى فتح الله عليهم. رضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين.



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

قد اختلف المفسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السور، فمنهم من قال: هي مما استأثر الله بعلمه، فردوا علمها إلى الله، ولم يفسروها، حكاه القرطبي في تفسيره عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم به، وقاله عامر الشعبي وسفيان الثوري والربيع بن خثيم، واختاره أبو حاتم بن حبان. ومنهم من فسرّها، واختلف هؤلاء في معناها، فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما هي أسماء السور. قال العلامة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري في تفسيره: وعليه إطباق الأكثر، ونقله عن سيبويه أنه نص عليه، ويعتضد هذا بما ورد في الصحيحين، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة: الم السجدة، وهل أتى على الإنسان.

وقال سفيان الثوري، عن ابن أبي نَجِيج، عن مجاهد: أنه قال: الم، وحَم، والمص، وَص، فواتح افتتح الله بها القرآن. وكذا قال غيره، عن مجاهد. وقال مجاهد في رواية أبي حذيفة موسى بن مسعود، عن شبل، عن ابن أبي نَجِيج، عنه، أنه قال: الم، اسم من أسماء القرآن. وهكذا قال قتادة، وزيد بن أسلم. ولعل هذا يرجع إلى معنى قول عبد الرحمن بن زيد: أنه اسم من أسماء السور، فإن كل سورة يطلق عليها اسم القرآن، فإنه يبعد أن يكون «المص» اسماً للقرآن كله؛ لأن المتبادر إلى فهم سامع من يقول: قرأت «المص»، إنما ذلك عبارة عن سورة الأعراف، لا لمجموع القرآن. والله أعلم.

وقيل: هي اسم من أسماء الله تعالى. فقال الشعبي: فواتح السور من أسماء الله تعالى، وكذلك قال سالم بن عبد الله، وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير، وقال شعبة عن السدي: بلغني أن ابن عباس قال: الم اسم من أسماء الله الأعظم، هكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث شعبة. ورواه ابن جرير عن بُنْدَار، عن ابن مَهْدِي، عن شعبة، قال: سألت السدي عن حم وطس والم، فقال: قال ابن عباس: هي اسم الله الأعظم. وقال ابن جرير: وحدثنا محمد بن المثنى، حدثنا أبو النعمان، حدثنا شعبة، عن إسماعيل السدي، عن مَرَّة الهمداني، قال: قال عبد الله: فذكر نحوه وحكى مثله عن علي وابن عباس. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو قسم أقسم الله به، وهو من أسماء الله تعالى. وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث ابن عُلية، عن خالد الحذاء، عن عكرمة أنه قال: الم، قسم. وروياً - أيضاً - من حديث شريك بن عبد الله، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضحى، عن ابن عباس: الم، قال: أنا الله أعلم. وكذا قال سعيد بن جبيرة. وقال السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مَرَّة الهمداني عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: الم. قال: أما الم فهي حروف استفتحت من حروف هجاء أسماء الله تعالى.

وقال أبو جعفر الرّازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿الْم﴾، قال: هذه الأحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفاً دارت فيها الألسن كلها، ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه، وليس منها حرف إلا وهو من آلائه وبلائه، وليس منها حرف إلا وهو في مدة أقوام وآجالهم. قال عيسى ابن مريم، عليه السلام، وعَجِب، فقال: وأعجَب

أنهم ينطقون بأسمائه ويعيشون في رزقه، فكيف يكفرون به؛ فالألف مفتاح اسم الله، واللام مفتاح اسمه لطيف، والميم مفتاح اسمه مجيد، فالألف آلاء الله، واللام لطف الله، والميم مجد الله، والألف سنة، واللام ثلاثون سنة، والميم أربعون سنة. هذا لفظ ابن أبي حاتم. ونحوه رواه ابن جرير، ثم شرع يوجه كل واحد من هذه الأقوال ويوفق بينها، وأنه لا منافاة بين كل واحد منها وبين الآخر، وأن الجمع ممكن؛ فهي أسماء السور، ومن أسماء الله تعالى يفتح بها السور، فكل حرف منها دل على اسم من أسمائه وصفة من صفاته، كما افتتح سوراً كثيرة بتحميده وتسييحه وتعظيمه، قال: ولا مانع من دلالة الحرف منها على اسم من أسماء الله، وعلى صفة من صفاته، وعلى مدة وغير ذلك، كما ذكره الزبيعي ابن أنس عن أبي العالية؛ لأن الكلمة الواحدة تطلق على معان كثيرة، كلفظة الأمة فإنها تطلق ويراد به الدين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مَنَاقِبٍ أُكْرِمُوا﴾ [الزخرف: ٢٢]. وتطلق ويراد بها الرجل المطيع لله، كقوله: ﴿إِنَّ لِإِبْرَاهِيمَ كَلِمَ تَقْوَىٰ فَآتَاكَ اللَّهُ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]. وتطلق ويراد بها الجماعة، كقوله: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْكُنُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَشَّأْنَا فِي كُتُبٍ أُمَّةً رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦] وتطلق ويراد بها الحين من الدهر، كقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي نِمَا مِثْمَا وَأَذَكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] أي: بعد حين على أصح القولين، قال: فكذلك هذا.

هذا حاصل كلامه موجهاً، ولكن هذا ليس كما ذكره أبو العالية، فإن أبا العالية زعم أن الحرف دل على هذا، وعلى هذا، وعلى هذا معاً، ولفظة الأمة وما أشبهها من الألفاظ المشتركة في الاصطلاح، إنما دل في القرآن في كل موطن على معنى واحد دل عليه سياق الكلام، فأما حملة على مجموع محامله إذا أمكن فمسألة مختلف فيها بين علماء الأصول، ليس هذا موضع البحث فيها، والله أعلم؛ ثم إن لفظ الأمة يدل على كل معانيه في سياق الكلام بدلالة الوضع، فأما دلالة الحرف الواحد على اسم يمكن أن يدل على اسم آخر من غير أن يكون أحدهما أولى من الآخر في التقدير أو الإضمار بوضع ولا بغيره، فهذا مما لا يفهم إلا بتوقيف، والمسألة مختلف فيها، وليس فيها إجماع حتى يحكم به.

وما أنشدوه من الشواهد على صحة إطلاق الحرف الواحد على بقية الكلمة، فإن في السياق ما يدل على ما حذف بخلاف هذا، كما قال الشاعر:

قُلْنَا قَفِي لَنَا فَقَالَتْ قَافٌ لَا تُخَسِّبِي أَنَا نَسِينَا الإِيجَافُ
تعني: وقفت. وقال الآخر:

مَا لِلظَّلِيمِ عَالٌ كَيْفَ لَا يَأْ
قال ابن جرير: كأنه أراد أن يقول: إذا يفعل كذا وكذا، فاكتمى بالياء من يفعل، وقال الآخر:

بِالْخَيْرِ خَيْرَاتٍ وَإِنْ شَرًّا فَا
ولا أريد الشر إلا أن تـ

يقول: وإن شرًّا فشر، ولا أريد الشر إلا أن تشاء، فاكتمى بالفاء والتاء من الكلمتين عن بقيةتهما، ولكن هذا ظاهر من سياق الكلام، والله أعلم. قال القرطبي: وفي الحديث: «من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة» الحديث. قال شقيق: هو أن يقول في اقتل: اق. وقال خصيف، عن مجاهد؛ أنه قال: فواتح السور كلها «ق وص وحم وطسم والر» وغير ذلك هجاء موضوع. وقال بعض أهل العربية: هي حروف من حروف المعجم، استغني بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها، التي هي تنمة الثمانية والعشرين حرفاً، كما يقول القائل: ابني يكتب في: أ ب ت ث، أي: في حروف المعجم الثمانية والعشرين فيستغني بذكر بعضها عن مجموعها. حكاه ابن جرير. قلت: مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً، وهي: ال م ص ر ك ه ي ع ط س ح ق ن، يجمعها قولك: نص حكيم قاطع له سر. وهي نصف الحروف عدداً، والمذكور منها أشرف من المتروك، وبيان ذلك من صناعة التصريف. قال الزمخشري: وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أنصاف أجناس الحروف يعني من المهموسة والمجهورة، ومن الرخوة والشديدة، ومن المطبقة والمفتوحة، ومن المستعلية والمنخفضة ومن حروف الفلقلة. وقد سردها مفصلة ثم قال: فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته، وهذه الأجناس المعدودة ثلاثون بالمذكورة منها، وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله.

ومن ههنا لحظ بعضهم في هذا المقام كلاماً، فقال: لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثاً ولا سدى؛ ومن قال من الجهلة: إنه في القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية، فقد أخطأ خطأ كبيراً، فتعين أن لها معنى في نفس الأمر، فإن صح لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به، وإلا وقفنا حيث وقفنا، وقلنا: ﴿عَمَّا يَدْعُونَ كُلَّ مَنٍ عِندَ رَبِّنَا﴾ [إك عمران: ١٧]. ولم يجمع العلماء فيها

وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم، فقد ادعى ما ليس له، وطار في غير مطاره، وقد ورد في ذلك حديث ضعيف، وهو مع ذلك أدل على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته. وهو ما رواه محمد بن إسحاق بن يسار، صاحب المغازي: حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله بن رثاب، قال: مر أبو ياسر بن أخطب، في رجال من يهود، برسول الله ﷺ، وهو يتلو فاتحة سورة البقرة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ هُدًى لِلشَّاقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢] فأتى أخاه حبيبي بن أخطب في رجال من اليهود، فقال: تعلمون - والله - لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل الله عليه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ هُدًى لِلشَّاقِينَ﴾ فقالوا: يا محمد، ألم يذكر أنك تتلو فيما أنزل الله عليك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ هُدًى لِلشَّاقِينَ﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: بلى. فقالوا: جاءك بهذا جبريل من عند الله؟ فقال: «نعم». قالوا: لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بين لبيي منهم ما مدة ملكه وما أجل أمته غيرك. فقام حبيبي بن أخطب، وأقبل على من كان معه، فقال لهم: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة، أفندخلون في دين نبي، إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، هل مع هذا غيره؟ فقال: «نعم»، قال: ما ذاك؟ قال: «المص»، قال: هذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد سبعون، فهذه إحدى وثلاثون ومائة سنة. هل مع هذا يا محمد غيره؟ قال: «نعم». قال: ما ذاك؟ قال: «الر». قال: هذا أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مائتان. فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة. فهل مع هذا يا محمد غيره؟ قال: «نعم»، قال: ماذا؟ قال: «الم». قال: فهذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون ومائتان، ثم قال: لقد لبس علينا أمرك يا محمد، حتى ما ندري أقليلاً أعطيت أم كثيراً. ثم قال: قوموا عنه. ثم قال أبو ياسر لأخيه حبيبي بن أخطب، ولمن معه من الأحبار: ما يدريكم؟ لعله قد جمع هذا لمحمد كله إحدى وسبعون وإحدى وثلاثون ومائة وإحدى وثلاثون ومائتان وإحدى وسبعون ومائتان، فذلك سبع مائة وأربع سنين. فقالوا: لقد تشابه علينا أمره، فیزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]. فهذا مداره على محمد بن السائب الكلبي، وهو ممن لا يحتاج بما انفرد به، ثم كان مقتضى هذا المسلك إن كان صحيحاً أن يحسب ما لكل حرف من الحروف الأربعة عشر التي ذكرناها، وذلك يبلغ منه جملة كثيرة، وإن حسبت مع التكرار فأنم وأعظم، والله أعلم.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ هُدًى لِلشَّاقِينَ﴾

قال ابن جريج: قال ابن عباس: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ هُدًى لِلشَّاقِينَ﴾. وهذا الكتاب. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، والسدي

ومقاتل بن حيان، وزيد بن أسلم، وابن جريج: أن ذلك بمعنى هذا، والعرب تقارض بين هذين الاسمين من أسماء الإشارة فيستعملون كلاهما مكان الآخر، وهذا معروف في كلامهم. و ﴿الْكِتَابِ﴾: القرآن. ومن قال: إن المراد بذلك الكتاب الإشارة إلى التوراة والإنجيل، كما حكاه ابن جرير وغيره، فقد أبعد الثجعة وأغرق في النزع، وتكلف ما لا علم له به. والزيب: الشك، قال السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: لا شك فيه. وقاله أبو الدرداء وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبيرة وأبو مالك ونافع مولى ابن عمر وعطاء وأبو العالية والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان والسدي وقتادة وإسماعيل بن أبي خالد. وقال ابن أبي حاتم: لا أعلم في هذا خلافاً. وقد يستعمل الريب في التهمة قال جميل:

بشينة قالت يا جميل أربتنني فقلت كلانا يا بشين مريب
واستعمل - أيضاً - في الحاجة كما قال بعضهم:

قضينا من تهامة كل ريب وخبر ثم أجمنا السيوفنا
ومعنى الكلام: أن هذا الكتاب - وهو القرآن - لا شك فيه أنه نزل من عند الله، كما قال تعالى في السجدة: ﴿الْعَرَبُ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْمَلَكِينَ﴾ [السجدة: ١، ٢]. وقال بعضهم: هذا خبر ومعناه النهي، أي: لا ترتابوا فيه. ومن القراء من يقف على قوله: ﴿لَا رَيْبَ﴾. ويتبدى بقوله: ﴿فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ والوقف على قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أولى للآية التي ذكرنا، ولأنه يصير قوله: ﴿هُدًى﴾ صفة للقرآن، وذلك أبلغ من كون: ﴿فِيهِ هُدًى﴾.

و ﴿هُدًى﴾: يحتمل من حيث العربية أن يكون مرفوعاً على النعت، ومنصوباً على الحال. وخضت الهداية للمتقين. كما قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَنُورٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]. ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن؛ لأنه هو في نفسه هدى، ولكن لا يناله إلا الأبرار، كما قال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]. وقد قال السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: نوراً للمتقين. وقال الشعبي: هدى من الضلالة. وقال سعيد بن جبيرة: تبيان للمتقين. وكل ذلك صحيح. وقال السدي: عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال: هم المؤمنون. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى، ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به. وقال أبو روق، عن الضحاک، عن ابن عباس: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال: المؤمنين الذين يتقون الشرك بي، ويعملون بطاعتي. وقال سفيان الثوري، عن رجل، عن الحسن البصري، قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال: اتقوا ما حرم الله عليهم، وأدوا ما افترض عليهم. وقال أبو بكر بن عياش: سألتني الأعمش عن المتقين، قال: فأجبت. فقال لي: سل عنها الكلبي، فسألته فقال: الذين يجتنبون كبائر الإثم. قال: فرجعت إلى الأعمش، فقال: نرى أنه كذلك. ولم ينكره. وقال قتادة: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: هم الذين نعتهم الله بقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ الآية والتي بعدها [البقرة: ٣]. واختار ابن جرير: أن الآية تعم ذلك كله، وهو كما قال.

وقد روى الترمذي وابن ماجة، من رواية أبي عقیل عبد الله بن عقیل، عن عبد الله بن يزيد، عن ربيعة بن يزيد، وعطية بن قيس، عن عطية السعدي، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس». ثم قال الترمذي: حسن غريب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن عمران، حدثنا إسحاق بن سليمان، يعني الرازي، عن المغيرة بن مسلم، عن ميمون أبي حمزة، قال: كنت جالساً عند أبي وائل، فدخل علينا رجل، يقال له: أبو عفيف، من أصحاب معاذ، فقال له شقيق بن سلمة: يا أبا عفيف، ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل؟ قال: بلى سمعته يقول: يحبس الناس يوم القيامة في بقيق واحد، فينادي مناد: أين المتقون؟ فيقومون في كتف من الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر. قلت: من المتقون؟ قال: قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان، وأخلصوا لله العبادة، فيمرون إلى الجنة. وأصل التقوى: التوقي مما يكره لأن أصلها وقوي من الوقاية. قال النابغة:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد
وقال الآخر:

فالتقت قناعاً دونه الشمس واتقت بأحسن موصولين كف ومعصم
وقد قيل: إن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، سأل أبي بن كعب عن التقوى، فقال له: أما سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال: بلى، قال: فما عملت؟ قال: شمرت واجتهدت، قال: فذلك التقوى. وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال:

خل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك الشئقى
واصنع كمنش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من السحصى
وأشدد أبو الدرداء يوماً:

يريد الممر أن يوتى منهاه ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول الممر فائدتي ومالي وتقوى الله أفضل ما استفادا
وفي سنن ابن ماجه عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما استفاد الممر بعد تقوى الله خيراً من زوجة صالحة، إن نظر إليها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحتة في نفسها وماله».

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾

قال أبو جعفر الرازي، عن العلاء بن المسيب بن رافع، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، قال: الإيمان التصديق. وقال علي بن أبي طلحة وغيره، عن ابن عباس، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يصدقون. وقال معمر عن الزهري: الإيمان العمل. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يخشون. قال ابن جرير وغيره: والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولاً واعتقاداً وعملاً، قال: وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان، الذي هو تصديق القول بالعمل، والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله، وتصديق الإقرار بالفعل. قلت: أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض، وقد يستعمل في القرآن، والمراد به ذلك، كما قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُرْسَلِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، وكما قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، وذلك إذا استعمل مقروناً مع الأعمال، كقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الأنشقاق: ٢٥]، والذين: ٦٩، فأما إذا استعمل مطلقاً فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً. هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة، بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وغير واحد إجماعاً: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص. وقد ورد فيه آثار كثيرة وأحاديث أوردنا الكلام فيها في أول شرح البخاري، والله الحمد والمنة.

ومنهم من فسره بالخشية، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [الملك: ١٧]، وقوله: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّجَمَ وَالْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، والخشية خلاصة الإيمان والعلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. وأما الغيب المراد ههنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه، وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد. قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وجنته وناره ولفاته، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث، فهذا غيب كله. وكذا قال قتادة بن دعامة. وقال السدي، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس؛ وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: أما الغيب فما غاب عن العباد من أمر الجنة، وأمر النار، وما ذكر في القرآن. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ قال: بما جاء منه، يعني: من الله تعالى. وقال سفيان الثوري، عن عاصم، عن زُرّ، قال: الغيب القرآن.

وقال عطاء بن أبي رباح: من آمن بالله فقد آمن بالغيب. وقال إسماعيل بن أبي خالد: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: بغيب الإسلام. وقال زيد بن أسلم: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: بالقدر. فكل هذه متقاربة في معنى واحد؛ لأن جميع هذه المذكورات من الغيب الذي يجب الإيمان به. وقال سعيد بن منصور: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمارة بن عمير، عن عبد الرحمن بن يزيد، قال: كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً، فذكرنا أصحاب رسول الله ﷺ وما سبقوا به، قال: فقال عبد الله: إن أمر محمد ﷺ كان بينا لمن رآه، والذي لا إله إلا غيره ما آمن أحد قط إيماناً أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ١ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥]. وهكذا رواه ابن أبي حاتم، وابن مَرْدُويه، والحاكم في مستدركه، من طرق، عن الأعمش، به. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وفي معنى هذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد، حدثنا أبو المغيرة، أخبرنا الأوزاعي، حدثني أسيد بن عبد الرحمن، عن خالد بن دُرَيْك، عن ابن مُحَرِّيز، قال: قلت لأبي جمعة: حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال: نعم، أحدثك حديثاً جيداً: تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح، فقال: يا رسول الله، هل أحد خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك. قال: «نعم، قوم من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني».

طريق أخرى: قال أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسيره: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن مسعود، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا معاوية بن صالح، عن صالح بن جُبَيْر، قال: قدم علينا أبو جمعة الأنصاري، صاحب رسول الله ﷺ بيت المقدس، ليصلي فيه، ومعنا يومئذ رجاء بن حيوة، فلما انصرف خرجنا تشيعه، فلما أراد الانصراف قال: إن لكم جائزة وحقاً؛ أحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ، قلنا: هات رحمك الله، قال: كنا مع رسول الله ﷺ ومعنا معاذ بن جبل عاشر عشرة، فقلنا: يا رسول الله، هل من قوم أعظم أجراً منا؟ أمنا بك واتبعناك، قال: «ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحي من السماء، بل قوم من بعدكم يأتيهم كتاب بين لوحي يؤمنون به ويعملون بما فيه، أولئك أعظم منكم أجراً» مرتين.

ثم رواه من حديث ضَمْرَةَ بن ربيعة، عن مرزوق بن نافع، عن صالح بن جببر، عن أبي جمعة، بنحوه. وهذا الحديث فيه دلالة على العمل بالوَجَادَةِ التي اختلف فيها أهل الحديث، كما قررته في أول شرح البخاري؛ لأنه مدحهم على ذلك وذكر أنهم أعظم أجراً من هذه الحيثية لا مطلقاً. وكذا الحديث الآخر الذي رواه الحسن بن عرفة العبدي: حدثنا إسماعيل بن عياش الحمصي، عن المغيرة بن قيس التميمي، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «أي الخلق أعجب إليكم إيماناً؟». قالوا: الملائكة. قال: «وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟». قالوا: فالنبيون. قال: «وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟». قالوا: فنحن. قال: «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟». قال: فقال رسول الله ﷺ: «ألا إن أعجب الخلق إليّ إيماناً لَقَوْمٌ يكونون من بعدكم يَجِدُونُ صحفاً فيها كتاب يؤمنون بما فيها». قال أبو حاتم الرازي: المغيرة بن قيس البصري منكر الحديث.

قلت: ولكن قد روى أبو يعلى في مسنده، وابن مردويه في تفسيره، والحاكم في مستدركه، من حديث محمد بن أبي حميد، وفيه ضعف، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر، عن النبي ﷺ، بمثله أو بنحوه. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وقد روي نحوه عن أنس بن مالك مرفوعاً، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن محمد المسندي، حدثنا إسحاق بن إدريس، أخبرني إبراهيم بن جعفر بن محمود بن سلمة الأنصاري، أخبرني جعفر بن محمود، عن جدته تويلة بنت أسلم، قالت: صليت الظهر أو العصر في مسجد بني حارثة، فاستقبلنا مسجد إيلياء، فصلينا سجدتين، ثم جاءنا من يخبرنا: أن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت الحرام، فتحول النساء مكان الرجال، والرجال مكان النساء، فصلينا السجدتين الباقيتين، ونحن مستقبلون البيت الحرام. قال إبراهيم: فحدثني رجال من بني حارثة: أن رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك قال: «أولئك قوم آمنوا بالغيب». هذا حديث غريب من هذا الوجه.

﴿وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقِفُونَ﴾

قال ابن عباس: ﴿وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي: يقيمون الصلاة بفروضها. وقال الضحاك، عن ابن عباس: إقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها. وقال قتادة: إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها، ووضوئها، وركوعها وسجودها. وقال مقاتل بن حيان: إقامتها: المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها، والشهد والصلاة على النبي ﷺ، فهذا إقامتها.

وقال علي بن أبي طلحة، وغيره عن ابن عباس: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقِفُونَ﴾ قال: زكاة أموالهم. وقال السدي، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس؛ وعن مرة عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقِفُونَ﴾ قال: هي نفقة الرجل على أهله، وهذا قبل أن تنزل الزكاة. وقال جُوَيْر، عن الضحاك: كانت النفقات قربات

يتقربون بها إلى الله على قدر مسيرتهم وجهدهم، حتى نزلت فرائض الصدقات: سبعُ آيات في سورة براءة، مما يذكر فيهن الصدقات، من الناسخات المُبْتَنَات. وقال قتادة: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُقْفُونَ﴾: فأنفقوا مما أعطاكم الله، هذه الأموال عواري ودائع عندك يا ابن آدم، يوشك أن تفارقها. واختار ابن جرير أن الآية عامة في الزكاة والنفقات، فإنه قال: وأولى التأويلات وأحقها بصفة القوم: أن يكونوا لجميع اللازم لهم في أموالهم مؤذنين، زكاة كان ذلك أو نفقة من لزمته نفقته، من أهل أو عيال وغيرهم، ممن تجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك؛ لأن الله تعالى عم وصفهم ومدحهم بذلك، وكل من الإنفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه.

قلت: كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال، فإن الصلاة حق الله وعبادته، وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه، وتمجيده والابتهاج إليه، ودعائه والتوكل عليه؛ والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفق المتعدي إليهم، وأولى الناس بذلك القرباء والأهلون والمماليك، ثم الأجانب، فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُقْفُونَ﴾؛ ولهذا ثبت في الصحيحين، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت». والأحاديث في هذا كثيرة. وأصل الصلاة في كلام العرب الدعاء، قال الأعشى:

لها حارس لا يبرح الدهر بينَها وإن دُبَحَتْ صلى عليها وزُمَما
وقال أيضاً:

وقابلها الريح في دَنَها وصلّى على دَنَها وارتمم
أنشدهما ابن جرير مستشهداً على ذلك.

وقال الآخر - وهو الأعشى أيضاً -:

تقول بنتي وقد قُرِبْتُ مرتحلاً يا رب جُئْتُ أبي الأوصاب والوَجَعَا
عليك مثلُ الذي صليتِ فاغتمضي نوماً فإن لجنب المرء مضطجعاً
يقول: عليك من الدعاء مثل الذي دعيت لي. وهذا ظاهر، ثم استعملت الصلاة في الشرع في ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة في الأوقات المخصوصة، بشروطها المعروفة، وصفاتها، وأنواعها المشروعة المشهورة. وقال ابن جرير: وأرى أن الصلاة المفروضة سميت صلاة؛ لأن المصلي يتعرض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعمله، مع ما يسأل ربه من حاجته. وقيل: هي مشتقة من الصلّون إذا تحركا في الصلاة عند الركوع، وهما عرقان يمتدان من الظهر حتى يكتنفا عجب الذنب، ومنه سمي المصلي وهو الثاني للسابق في حلبة الخيل، وفيه نظر، وقيل: هي مشتقة من الصلي، وهو الملازمة للشيء من قوله: ﴿لَا يَسْلَمُ﴾ أي: يلزمها ويدوم فيها ﴿إِلَّا الْآتَقَى﴾ [الليل: ١٥] وقيل: مشتقة من تصلية الخشبة في النار لتقوم، كما أن المصلي يقوم عوجه بالصلاة: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنَهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [المنكيات: ٤٥] واشتقاقها من الدعاء أصح وأشهر، والله أعلم.

وأما الزكاة فسيأتي الكلام عليها في موضعه، إن شاء الله.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَا آخِرَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾

قال ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: يصدقون بما جئت به من الله، وما جاء به من قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم، ولا يجحدون ما جاؤهم به من ربهم ﴿وَيَا آخِرَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بالبعث والقيامة، والجنة، والنار، والحساب، والميزان. وإنما سميت الآخرة لأنها بعد الدنيا. وقد اختلف المفسرون في الموصوفين ههنا: هل هم الموصوفون بما تقدم من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُقْفُونَ﴾ [البقرة: ٣] ومن هم؟ على ثلاثة أقوال حكاه ابن جرير:

أحدها: أن الموصوفين أولاً هم الموصوفون ثانياً، وهم كل مؤمن، مؤمنو العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم، قاله مجاهد، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة.

والثاني: هما واحد، وهم مؤمنو أهل الكتاب، وعلى هذين تكون الواو عاطفة صفات على صفات، كما قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الفلق: ١] وَالَّذِي خَلَقَ فَسَوْىَ [٢] وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى [٣] وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى [٤] فَجَعَلَ غُلَّةً مِنْهُ [٥] [الاعلى: ١-٥] وكما قال الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم فعطفت الصفات بعضها على بعض، والموصوف واحد. والثالث: أن الموصوفين أولاً مؤمنو العرب، والموصوفون ثانياً بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية مؤمنو أهل الكتاب، نقله السدي في تفسيره، عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة، واختاره ابن جرير، ويستشهد لما قال بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٩٩]، وبقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْثَبَ مِنْ قَبْلِهِمْ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٥٦ وَلَا يُلْقِي عَنْهُمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُشْرِكِينَ ۝٥٧﴾ [آل عمران: ٥٦-٥٧]. وثبت في الصحيحين، من حديث الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى: أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي، ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل أدب جاريته فأحسن تأديبها ثم اعتقها وتزوجها» وأما ابن جرير فما استشهد على صحة ما قال إلا بمناسبة، وهي أن الله تعالى وصف في أول هذه السورة المؤمنين والكافرين، فكما أنه صنف الكافرين إلى صنفين: منافق وكافر، فكذلك المؤمنون صنفهم إلى عربي وكتابي.

قلت: والظاهر قول مجاهد فيما رواه الثوري، عن رجل، عن مجاهد. ورواه غير واحد، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد أنه قال: أربع آيات من أول سورة البقرة في نعت المؤمنين، وآيتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة في المنافقين، فهذه الآيات الأربع عامة في كل مؤمن انتصف بها من عربي وعجمي، وكتابي من إنسي وجني، وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى، بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها، فلا يصح الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والزكاة إلا مع الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ، وما جاء به من قبله من الرسل والإيقان بالآخرة، كما أن هذا لا يصح إلا بذلك، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بذلك، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ. وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِ﴾ الآية [النساء: ١٣٦]. وقال: ﴿وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بَالِيَيْنِ مِنْ أَحْسَنَ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَيْنَا وَإِلَهُكُمْ وَرَبُّكُمْ﴾ الآية [العنكبوت: ٢٦] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْكِتَابِ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [النساء: ٤٧] وقال تعالى: ﴿قُلْ يَأْهَلِ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَىٰ شَيْءٍ حَقٍّ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨] وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك، فقال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَرِفُقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٨٥] وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ﴾ [النساء: ١٥٢] وغير ذلك من الآيات الدالة على أمر جميع المؤمنين بالإيمان بالله ورسوله وكتبه. لكن لمؤمني أهل الكتاب خصوصية، وذلك أنهم مؤمنون بما بأيديهم مفصلاً، فإذا دخلوا في الإسلام وآمنوا به مفصلاً كان لهم على ذلك الأجر مرتين، وأما غيرهم فإنما يحصل له الإيمان، بما تقدم مجعلاً، كما جاء في الصحيح: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، ولكن قولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم»، ولكن قد يكون إيمان كثير من العرب بالإسلام الذي بعث به محمد ﷺ أتم وأكمل وأعم وأشمل من إيمان من دخل منهم في الإسلام، فهم وإن حصل لهم أجران من تلك الحيثية، فغيرهم قد يحصل له من التصديق ما ينيف ثوابه على الأجرين اللذين حصلوا لهم، والله أعلم.

﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

يقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، والإنفاق من الذي رزقهم الله، والإيمان بما أنزل إلى الرسول ومن قبله من الرسل، والإيقان بالدار الآخرة، وهو يستلزم الاستعداد لها من العمل بالصلوات وترك المحرمات. ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ أي: نور وبيان وبصيرة من الله تعالى. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبّير، عن ابن عباس: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: على نور من ربهم، واستقامة على ما جاءهم، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الذين أدركوا ما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا.

وقال ابن جرير: وأما معنى قوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فإن معنى ذلك: أنهم على نور من ربهم، وبرهان واستقامة وسداد، بتسديد الله إياهم، وتوفيقه لهم وتأويل قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: المُنْجِحُونَ المدركون ما طلبوا عند الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسوله، من الفوز بالثواب، والخلود في الجنات، والنجاة مما أعد الله لأعدائه من العقاب. وقد

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بما أنزل إليك، وإن قالوا: إننا قد آمنّا بما جاءنا قبلك ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك، وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق، فقد كفروا بما جاءك، وبما عندهم مما جاءهم به غيرك، فكيف يسمعون منك إنذاراً وتحذيراً، وقد كفروا بما عندهم من علمك؟! وقال أبو جعفر الرّازي، عن الرّبيع بن أنس، عن أبي العالية، قال: نزلت هاتان الآيتان في قادة الأحزاب، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا اللَّهَ كُفْرًا وَأَلْغَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْآبَارِ﴾ ﴿هَٰمْ يَصْلَوْنَهَا﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: محله من الإعراب أنه جملة مؤكدة للتي قبلها: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ أي هم كفار في كلا الحالين، فلهذا أكد ذلك بقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾. ويحتمل أن يكون ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبراً لأن تقديره: إن الذين كفروا لا يؤمنون، ويكون قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ جملة معترضة، والله أعلم.

﴿خَسَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٧﴾

قال السدي: «خَتَمَ اللَّهُ أَي: طبع الله. وقال قتادة في هذه الآية: استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه؛ فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون. وقال ابن جريج: قال مجاهد: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ» قال: نبئت أن الذنوب على القلب تحف به من كل نواحيه حتى تلتقي عليه، فالتقاؤها عليه الطبع، والطبع الختم، قال ابن جريج: الختم على القلب والسمع. قال ابن جريج: وحدثني عبد الله بن كثير، أنه سمع مجاهداً يقول: الزأ أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الأقفال، والأقفال أشد ذلك كله. وقال الأعمش: أرانا مجاهد بيده فقال: كانوا يرون أن القلب في مثل هذه - يعني: الكف - فإذا أذنبت العبد ذنباً ضُم منه. وقال بأصبعه الخنصر هكذا، فإذا أذنبت ضُم. وقال بأصبع أخرى، فإذا أذنبت ضُم، وقال بأصبع أخرى هكذا، حتى ضم أصابعه كلها، ثم قال: يطبع عليه بطابع. وقال مجاهد: كانوا يرون أن ذلك: الرين. ورواه ابن جرير: عن أبي كُرَيْب، عن وكيع، عن الأعمش، عن مجاهد، بنحوه.

وقال ابن جرير: وقال بعضهم: إنما معنى قوله: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ» إخبار من الله عن تكبرهم، وإعراضهم عن الاستماع لما دُعُوا إليه من الحق، كما يقال: إن فلاناً لأَصَمَ عن هذا الكلام، إذا امتنع من سماعه، ورفع نفسه عن تفهمه تكبراً. قال: وهذا لا يصح؛ لأن الله قد أخبر أنه هو الذي ختم على قلوبهم وأسماعهم. (قلت): وقد أطنب الزمخشري في تقرير ما رده ابن جرير ههنا وتناول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جداً، وما جراه على ذلك إلا اعتزاله؛ لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيح عنده - تعالى الله عنه في اعتقاده - ولو فهم قوله تعالى: «فَلَمَّا دَاعَوْا أَزْجَأَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» وقوله: «وَنَقَلَبْ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاءً وفاقاً على تماديهم في الباطل وتركهم الحق، وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح، فلو أحاط علماً بهذا لما قال ما قال والله أعلم. قال القرطبي: وأجمعت الأمة على أن الله عز وجل قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازة لكفرهم كما قال: «بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ» وذكر حديث تقلاب القلوب: «ويا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك»، وذكر حديث حذيفة الذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ قال: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأبى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأبى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرابط كالكوز مخجياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً» الحديث. قال: والحق عندي في ذلك ما صَحَّ بنظيره الخبر عن رسول الله ﷺ، وهو ما حدثنا به محمد ابن بشار، حدثنا صفوان بن عيسى، حدثنا ابن عجلان، عن القعقاع، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنبت ذنباً كانت نُكْتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونَزَعَ واستعْتَب صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلق قلبه، فذلك الزان الذي قال الله تعالى: «كَلَّا بَلْ كَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَاءٌ كَاثِرٌ يَكْبِتُونَ» [المطففين: ١٤].

وهذا الحديث من هذا الوجه قد رواه الترمذي والنسائي، عن قتيبة، عن الليث بن سعد، وابن ماجة عن هشام بن عمار عن حاتم بن إسماعيل والوليد بن مسلم، ثلاثتهم عن محمد بن عجلان به. وقال الترمذي: حسن صحيح. ثم قال ابن جرير: فأخبر رسول الله ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر عنها مخلص، فذلك هو الختم والطبع الذي ذكر في قوله تعالى: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ» نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف، التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها ثم حلها، فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلا بعد فض خاتمته وحله وباطله عنها.

واعلم أن الوقف التام على قوله تعالى: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ»، وقوله: «وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ» جملة تامة، فإن الطبع يكون على القلب وعلى السمع، والغشاوة - وهي الغطاء - تكون على البصر، كما قال السدي في تفسيره عن أبي مالك، عن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ في قوله: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ» يقول: فلا يعقلون ولا يسمعون، ويقول: وجعل على أبصارهم غشاوة، يقول: على أعينهم فلا يبصرون. قال ابن جرير: حدثني محمد بن سعد، حدثنا أبي، حدثني عمي الحسين بن الحسن، عن أبيه، عن جده، عن ابن عباس: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ»: والغشاوة على أبصارهم. وقال: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، يعني ابن داود، وهو شَيْد، حدثني حجاج، وهو ابن محمد الأعور، حدثني ابن جريج قال: الختم على القلب والسمع، والغشاوة على البصر، قال الله تعالى: «إِنَّ إِلَهًا لَّهُ يَخْتَرُ عَلَى قَلْبِكَ» [الشورى: ٢٤]، وقال: «وَحَتَمَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَلَقَدْ عَلَّمَهُمْ عَلَى بَصَرِهِمْ غِشَاوَةً» [الجنات: ٢٣]. قال ابن جرير: ومن نصب غشاوة من قوله تعالى: «وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ» يحتمل أنه نصبها بإضمار فعل، تقديره: وجعل على أبصارهم غشاوة، ويحتمل

أن يكون نصيبها على الاتباع، على محل ﴿وَكَلَّ سَمِيحٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ٢٢]، وقول الشاعر:
عَلَّفْتُهَا تَبْنَاءَ وَمَاءَ بَارِداً
حَتَّى شَتَّتْ هَمَّالَةً عَيْنَاهَا
وقال الآخر:

ورَأَيْتَ رُؤُوسَكَ فِي السُّوْغَى مَتَقَلِّداً سَيْفاً وَرُمَحاً
تقديره: وسقيتها ماء بارداً، ومعتقلاً رمحاً. لما تقدم وصف المؤمنين في صدر السورة بأربع آيات، ثم عَزَفَ حال الكافرين بهاتين الآيتين، شرع تعالى في بيان حال المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ولما كان أمرهم يشبهه على كثير من الناس أطنب في ذكرهم بصفات متعددة، كل منها نفاق، كما أنزل سورة براءة فيهم، وسورة المنافقين فيهم، وذكرهم في سورة النور وغيرها من السور، تعريفاً لأحوالهم لتجنب، ويجتنب من تلبس بها أيضاً، فقال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [النفاق: ٨] يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَآلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾
النفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي، وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب، كما سيأتي تفصيله في موضعه، إن شاء الله تعالى، وهذا كما قال ابن جرير: المنافق يخالف قَوْلَهُ فَعَلُهُ، وسِرَّهُ علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مخبيبه. وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلافه، من الناس من كان يظهر الكفر مُسْتَكْرَهاً، وهو في الباطن مؤمن، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام، على طريقة مشركي العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قَيْنُقَاعَ حلفاء الخزرج، وبنو النضير، وبنو قُرَيْظَةَ حلفاء الأوس، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وقُلٌّ من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام، رضي الله عنه، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضاً؛ لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف، بل قد كان، عليه الصلاة والسلام، وأَذَعَ اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة، فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته، وأعلى الإسلام وأهله، قال عبد الله بن أبي بن سلول، وكان رأساً في المدينة، وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا، واشتغلوا عنه، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعة بدر قال: هذا أمر قد تَوَجَّه فأظهر الدخول في الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هم على طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثَمَّ وُجِدَ النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد، لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرهاً، بل يهاجر ويترك ماله، وولده، وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة.

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [النفاق: ٨] يعني: المنافقين من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم. وكذا فسرها بالمنافقين أبو العالية، والحسن، وقتادة، والسدي. ولهذا نبه الله، سبحانه، على صفات المنافقين لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم، وهم كفار في نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خير، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [النفاق: ٨] أي: يقولون ذلك قولاً ليس وراءه شيء آخر، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَّقِفُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [النفاق: ١] أي: إنما يقولون ذلك إذا جاؤوك فقط، لا في نفس الأمر؛ ولهذا يؤكدون في الشهادة بأن ولام التأكيد في خبرها؛ كما أكدوا قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ﴾، وليس الأمر كذلك، كما أكذبهم الله في شهادتهم، وفي خبرهم هذا بالنسبة إلى اعتقادهم، بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَّقِفِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [النفاق: ١]، وبقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَآلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرائهم الكفر، يعتقدون بجاهلهم أنهم يخدعون الله بذلك، وأن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما يروج على بعض المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْهَتُهُمُ اللَّهُ جِئِمًا يَقُولُونَ لَمْ كُنَّا بِمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبِينَ﴾ [النفاق: ١٨] وللهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: وما يغترون بصنيعهم ولا يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون بذلك من أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِفِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدَّاعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]. ومن القراء من قرأ: ﴿وَمَا يَخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾، وكلا القراءتين ترجع إلى معنى واحد.

قال ابن جرير: فإن قال قائل: كيف يكون المنافق لله وللمؤمنين مخادعاً، وهو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد إلا نقيضاً؟

قيل: لا تمتنع العرب من أن تسمي من أعطى بلسانه غير الذي في ضميره تقية، لينجو مما هو له خائف، مخادعاً، فكذلك المنافق، سمي مخادعاً لله وللمؤمنين، بإظهاره ما أظهر بلسانه تقية، مما تخلص به من القتل والسياء والعذاب العاجل، وهو لغير ما أظهر، مستبطن، وذلك من فعله - وإن كان خداعاً للمؤمنين في عاجل الدنيا - فهو لنفسه بذلك من فعله خادع، لأنه يُظهر لها بفعله ذلك بها أنه يعطيها أمنيته، ويُسقيها كأس سرورها، وهو موردها به حياض عطيتها، ومُجرِّعها بها كأس عذابها، ومُزِيرها من غضب الله وأليم عقابه ما لا قبل لها به، فذلك خديعته نفسه، ظناً منه - مع إساءته إليها في أمر معادها - أنه إليها محسن، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ إعلاماً منه عيادته المؤمنين أن المنافقين بإساءتهم إلى أنفسهم في إسخاطهم عليها بهم بكفرهم، وشكهم وتكذيبهم، غير شاعرين ولا دارين، ولكنهم على عمياء من أمرهم مقيمون. وقال ابن أبي حاتم: أنبأنا علي بن المبارك، فيما كتب إلي، حدثنا زيد بن المبارك، حدثنا محمد بن ثور، عن ابن جُرَيْج، في قوله تعالى: ﴿يَخْدَعُونَ اللَّهَ﴾ قال: يظهرون «لا إله إلا الله» يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم، وفي أنفسهم غير ذلك. وقال سعيد، عن قتادة: ﴿وَيَوْمَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يَخْدَعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠﴾ نعت المنافق عند كثير: خُنع الأخلاق يصدق بلسانه وينكر بقلبه ويخالف بعمله، يصبح على حال ويمسي على غيره، ويمسي على حال ويصبح على غيره، يتكفأ تكفأ السفينة كلما هبَّت ريح هبَّ معها.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ﴿١٠﴾.

قال السدي، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس؛ وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ في هذه الآية: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، قال: شك، ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: شكاً. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال: شك. وكذلك قال مجاهد، وعكرمة، والحسن البصري، وأبو العالية، والزيح بن أنس، وقاتدة. وعن عكرمة، وطاوس: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾: يعني: الرياء. وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال: نفاق ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: نفاقاً، وهذا كالأول. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال: هذا مرض في الدين، وليس مرضاً في الأجساد، وهم المنافقون. والمرض: الشك الذي دخلهم في الإسلام ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: زادهم رجساً، وقرأ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، قال: شراً إلى شرهم وضلالة إلى ضلالتهم. وهذا الذي قاله عبد الرحمن، رحمه الله، حسن، وهو الجزء من جنس العمل، وكذلك قاله الأولون، وهو نظير قوله تعالى أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَهْدَاهُ اللَّهُ سَبِيلًا مَرْضًى﴾ [محمد: ١٧].

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾: وقرئ: ﴿يَكْذِبُونَ﴾، وقد كانوا متصفين بهذا، فإنهم كانوا كاذبة يكذبون بالحق يجمعون بين هذا وهذا. وقد سئل القرطبي وغيره من المفسرين عن حكمة كفه، عليه السلام، عن قتل المنافقين مع علمه بأعيان بعضهم، وذكروا أجوبة عن ذلك منها ما ثبت في الصحيحين: أنه قال لعمر: «أكره أن يتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه»، ومعنى هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تغير لكثير من الأعراب عن الدخول في الإسلام ولا يعلمون حكمة قتله لهم، وأن قتله إياهم إنما هو على الكفر، فإنهم إنما يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم فيقولون: إن محمداً يقتل أصحابه، قال القرطبي: وهذا قول علمائنا وغيرهم كما كان يعطي المؤلف قلوبهم مع علمه بشر اعتقادهم. قال ابن عطية: وهي طريقة أصحاب مالك نص عليه محمد بن الجهم والقاضي إسماعيل والأبهرى وابن الماجشون. ومنها: ما قال مالك، رحمه الله: إنما كف رسول الله ﷺ عن المنافقين ليبين لامته أن الحاكم لا يحكم بعلمه.

قال القرطبي: وقد اتفق العلماء عن بكرة أبيهم على أن القاضي لا يقتل بعلمه، وإن اختلفوا في سائر الأحكام، قال: ومنها ما قال الشافعي: إنما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم؛ لأن ما يظهرونه يجب ما قبله. ويؤيد هذا قوله، عليه السلام، في الحديث المجمع على صحته في الصحيحين وغيرهما: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله، عز وجل». ومعنى هذا: أن من قالها جرت عليه أحكام الإسلام ظاهراً، فإن كان يعتقدها وجد ثواب ذلك في الدار الآخرة، وإن لم يعتقدها لم ينفعه في الآخرة جريان الحكم عليه في الدنيا، وكونه كان خليطاً أهل الإيمان ﴿يَتَادُّوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّبَكُمْ آمَنًا حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٤]؛ فهم يخالطونهم في بعض المحشر، فإذا حقت المحققة تميزوا منهم وتخلفوا بعدهم ﴿وَجِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبا: ٥٤] ولم يمكنهم أن يسجدوا معهم كما نطق بذلك الأحاديث، ومنها ما قاله بعضهم: إنه إنما لم يقتلهم لأنه كان يخاف من شرهم مع وجوده، عليه السلام، بين أظهرهم يتلو عليهم آيات الله مبينات، فأما

بعده فيقتلون إذا أظهروا النفاق وعلمه المسلمون، قال مالك: المنافق في عهد رسول الله ﷺ هو الزنديق اليوم. قلت: وقد اختلف العلماء في قتل الزنديق إذا أظهر الكفر هل يستتاب أم لا. أو يفرق بين أن يكون داعية أم لا، أو يتكرر منه ارتداده أم لا، أو يكون إسلامه ورجوعه من تلقاء نفسه أو بعد أن ظهر عليه؟ على أقوال موضع بسطها وتقريرها وعزوها كتاب الأحكام. (تنبيه) قول من قال: كان عليه الصلاة والسلام يعلم أعيان بعض المنافقين إنما مستنده حديث حذيفة بن اليمان في تسمية أولئك الأربعة عشر منافقاً في غزوة تبوك الذين هموا أن يفتكوا برسول الله ﷺ في ظلمات الليل عند عقبة هناك؛ عزموا على أن ينفروا به الناقة ليسقط عنها فأوحى الله إليه أمرهم فأطلع على ذلك حذيفة. ولعل الكف عن قتلهم كان لمدرِك من هذه المدارك أو لغيرها والله أعلم. فأما غير هؤلاء فقد قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا يَعْلَمُونَ خَبْرَهُمْ تَعْلَمُهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿لَئِنْ لَّمْ يَنُوحُوا لَكُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مَّزِرُومٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَعُنتُكَ يَهُدَىٰ لَهُمْ لَكُمُ الْوَيْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا فَلَيْلًا ۖ تَلْمِزُهُمُ آيَاتُنَا مَنَعُوا أَحْذُوا وَقِيلُوا تُضَلُّوا ۖ فَتَبٰىكُم ۚ﴾ فيها دليل على أنه لم يغر بهم ولم يدرك على أعيانهم وإنما كانت تذكر له صفاتهم فيتوسمها في بعضهم كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ لَا تَرْضَوْنَ لَكُمْ فَرَقْتُمُوهُمْ بِسْمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ وقد كان من أشهرهم بالنفاق عبد الله بن أبي بن سلول وقد شهد عليه زيد بن أرقم بذلك الكلام الذي سبق في صفات المنافقين ومع هذا لما مات [صلى عليه] وشهد دفنه كما يفعل ببقية المسلمين، وقد عاتبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيه فقال: «إني أكره أن تتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه» وفي رواية في الصحيح «إني خيرت فاخترت» وفي رواية «لو أني أعلم لو زدت على السبعين يغفر الله له لزدت».

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۚ﴾ آلا إِنَّمَا هُمْ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٧﴾ قال السدي في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الطيب الهمداني، عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾: أما لا تفسدوا في الأرض، قال: الفساد هو الكفر، والعمل بالمعصية. وقال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قال: يعني: لا تعصوا في الأرض. وكان فسادهم ذلك معصية الله؛ لأنه من عصي الله في الأرض أو أمر بمعصية الله، فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسما بالطاعة. وهكذا قال الربيع بن أنس، وقتادة. وقال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قال: إذا ركبوها معصية الله، ففيل لهم: لا تفعلوا كذا وكذا، قالوا: إنما نحن على الهدى، مصلحون. وقد قال وكيع، وعيسى بن يونس، وعثام بن علي، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن عباد بن عبد الله الأسدي، عن سلمان الفارسي: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ قال سلمان: لم يجرى أهل هذه الآية بعد.

وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن عثمان بن حكيم، حدثنا عبد الرحمن بن شريك، حدثني أبي، عن الأعمش، عن زيد بن وهب وغيره، عن سلمان، في هذه الآية، قال: ما جاء هؤلاء بغد.

قال ابن جرير: يحتمل أن سلمان أراد بهذا أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فساداً من الذين كانوا في زمان النبي ﷺ، لا أنه عنى أنه لم يمض ممن تلك صفته أحد. قال ابن جرير: فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكهم في دينه الذي لا يقبل من أحد عمل إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والزيب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله، إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً. فذلك إفساد المنافقين في الأرض، وهم يحسبون أنهم يفعلون ذلك مصلحون فيها. وهذا الذي قاله حسن، فإن من الفساد في الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوا لَكُنْ فِي الْأَرْضِ وَقَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُوا أَن يَجْمَعُوا بَيْنَ عَلَيْكُمْ شُلُوكًا شُبِّهَ﴾ [النساء: ١٤٤] ثم قال: ﴿إِنَّ الْكُفْرَانَ فِي الذَّرِكِ الْأَسْفَلِ مِنَ السَّارِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥] فالمنافق لما كان ظاهره الإيمان أشبه أمره على المؤمنين، فكان الفساد من جهة المنافق حاصل؛ لأنه هو الذي غر المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له، وإلى الكافرين على المؤمنين، ولو أنه استمر على حاله الأولى لكن شره أخف، ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله لأُتُجَّح وأنجح؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي: نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين، ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء، كما قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي: إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب. يقول الله: ﴿آلَا إِنَّمَا هُمْ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: ألا إن هذا الذي يعتمدونه

ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَائِمُوا كَمَا مَائِمُ النَّاسِ قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا مَائِمُ النَّاسِ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ أَشَقُّهُمْ وَلَكِنْ لَا يَمْلِكُونَ﴾ (١٣).

يقول الله تعالى: وإذا قيل للمنافقين: ﴿مَائِمُوا كَمَا مَائِمُ النَّاسِ﴾ أي: كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار وغير ذلك، مما أخبر المؤمنين به وعنه، وأطيعوا الله ورسوله في امتثال الأوامر وترك الزواجر ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا مَائِمُ النَّاسِ﴾، يعنون - لعنهم الله - أصحاب رسول الله ﷺ، رضي الله عنهم، قاله أبو العالية والسدي في تفسيره، بسنده عن ابن عباس وابن مسعود وغير واحد من الصحابة، وبه يقول الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، يقولون: أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء!! والسفهاء: جمع سفيه، كما أن الحكماء جمع حكيم والحلماء جمع حليم، والسفيه: هو الجاهل الضعيف الرأى القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار؛ ولهذا سمي الله النساء والصبيان سفهاء، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا أَشَقُّهُمْ أَمْوَالُهُمْ أَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لِكُلِّ قَوْمٍ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥]. قال عامة علماء السلف: هم النساء والصبيان. وقد تولى الله، سبحانه، جوابهم في هذه المواطن كلها، فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ أَشَقُّهُمْ﴾ فأكد وحصر السفاهة فيهم. ﴿وَلَكِنْ لَا يَمْلِكُونَ﴾ يعني: ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل، وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى، والبعد عن الهدى.

﴿وَإِذَا لَعَنُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا عَنَّا مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٤) ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِرِجْمٍ يُرْتَدُّ فِي طَيِّفِينَ يَمْهُونَ﴾ (١٥).

يقول الله تعالى: وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا: ﴿آمَنَّا﴾ أي: أظهروا لهم الإيمان والموالة والمصافاة، غروراً منهم للمؤمنين ونفاقاً ومصانعة وتقية، ولشركهم فيما أصابوا من خير ومغرم، ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ يعني: وإذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم. فضمن ﴿خَلَوْا﴾ معنى انصرفوا لتعديته بالي؛ ليدل على الفعل المضمر والفعل المفلوظ به. ومنهم من قال: «إلى» هنا بمعنى «مع»، والاول أحسن، وعليه يدور كلام ابن جرير. وقال السدي عن أبي مالك: ﴿خَلَوْا﴾ يعني: مضوا، و ﴿شَيَاطِينِهِمْ﴾ يعني: سادتهم وكبراءهم ورؤسأهم من أحبار اليهود ورؤوس المشركين والمنافقين. قال السدي في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، عن ناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ يعني: هم رؤوسهم من الكفر. وقال الضحاك عن ابن عباس: وإذا خلوا إلى أصحابهم، وهم شياطينهم. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبّير، عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ من يهود الذين يأمرهم بالتكذيب وخلاف ما جاء به الرسول. وقال مجاهد: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾: إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين. وقال قتادة: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ قال: إلى رؤوسهم، وقادتهم في الشرك، والشر. وينحو ذلك فسرّه أبو مالك، وأبو العالية، والسدي، والربيع بن أنس. قال ابن جرير: وشياطين كل شيء مَرَدُّه، وتكون الشياطين من الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوسِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]. وفي المسند عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن». فقلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: «نعم».

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾: قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبّير، عن ابن عباس: أي إنا على مثل ما أنتم عليه ﴿إِنَّمَا عَنَّا مُسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعب بهم. وقال الضحاك، عن ابن عباس: قالوا إنما نحن مستهزون ساخرون بأصحاب محمد ﷺ. وكذلك قال الربيع بن أنس، وقاتدة. وقوله تعالى جواباً لهم ومقابلة على صنيعهم: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِرِجْمٍ يُرْتَدُّ فِي طَيِّفِينَ يَمْهُونَ﴾ (١٥). قال ابن جرير: أخبر الله تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُتَفَقِّهُونَ لِيَبْتَغِ مَا آمَنُوا أَنْطَرُونَا نَقِشَ رِجْمِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بِسَورٍ لَّهُمْ بَابٌ بِلَيْسَ فِيهِ رَحْمَةٌ وَظَاهَرُهُمْ مِنْ بَيْنِكَ الْعَذَابُ﴾ (١٦) الآية [الحديد: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ تَعْلِي لَكُمْ خَبْرٌ لَكُمْ أَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا تَعْلِي لَكُمْ لِيَرَدَّادُوا إِلَيْكُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١٧) [آل عمران: ١٧٨]. قال: فهذا وما أشبهه، من استهزاء الله، تعالى ذكره، وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين، وأهل الشرك به عند قائل هذا القول، ومتأول هذا التأويل. قال: وقال آخرون: بل استهزاؤه بهم توبيخه إياهم، ولومه لهم على ما ركبوا من معاصيه، والكفر به. قال: وقال آخرون: هذا وأمثاله على سبيل الجواب، كقول الرجل لمن يخدعه إذا ظفر به: أنا الذي خدعتك. ولم تكن منه خديعة، ولكن قال ذلك إذا صار الأمر إليه، قالوا: وكذلك قوله: ﴿وَمَكْرُوًّا وَسَكَّرَ اللَّهُ وَكَفَّرَ اللَّهُ حَيْثُ الْمَكْرُورُ﴾ (١٨) [آل عمران: ٥٤] و ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِرِجْمٍ﴾ على الجواب، والله لا يكون منه المكر ولا الهزء، والمعنى: أن المكر والهزء حاق بهم.

وقال آخرون: قوله: ﴿إِنَّمَا عَنَّا مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِرِجْمٍ﴾، وقوله: ﴿يَخْدَعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقوله:

﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]، و ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] وما أشبه ذلك، إخبار من الله تعالى أنه يجازيهم جزاء الاستهزاء، ويعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ، وإن اختلف المعنيين، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَغْتَابَ عَلَىٰكُمْ فَاغْتَابُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤]، فالأول ظلم، والثاني عدل، فهما وإن اتفق لفظاهما فقد اختلف معناهما. قال: وإلى هذا المعنى وجَّهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك. قال: وقال آخرون: إن معنى ذلك: أن الله أخبر عن المنافقين أنهم إذا خلَّوا إلى مَرَدِّهِمْ قالوا: إنا معكم على دينكم، في تكذيب محمد ﷺ وما جاء به، وإنما نحن بما يظهر لهم - من قولنا لهم: صدقنا بمحمد، عليه السلام، وما جاء به مستهزئون؛ فأخبر الله تعالى أنه يستهزئ بهم، فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا، يعني من عصمة دمائهم وأموالهم خلاف الذي لهم عنده في الآخرة، يعني من العذاب والنكال. ثم شرع ابن جرير يوجه هذا القول وينصره؛ لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله، ﷻ، بالإجماع، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك. قال: وينحو ما قلنا فيه روى الخبر عن ابن عباس: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عثمان، حدثنا بشر، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، قال: يسخر بهم للنعمة منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ يَخْسَرُونَ﴾: قال السدي، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن أناس من الصحابة قالوا: يمدِّهم: يملئهم لهم. وقال مجاهد: يزيدهم. قال ابن جرير: والصواب يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في غُيُوبِهِمْ وَتَمَرِّدِهِمْ، كما قال: ﴿وَقُلُوبٌ أَقْبَتْهُمْ وَأَصْغَرَتْهُمْ كَمَا لَا يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]. والطغيان: هو المجاوزة في الشيء. كما قال: ﴿إِنَّا لَنَا ظَنَّا أَنَّا لَمَلَكٌ مَّخْلُوقٌ لِلْمَآثِرَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: في كفرهم يترددون. وكذا فسر السدي بسنده عن الصحابة، وبه يقول أبو العالية، وقتادة، والزبيح بن أنس، ومجاهد، وأبو مالك، وعبد الرحمن بن زيد: في كفرهم وضلالتهم. قال ابن جرير: والعَمَهُ: الضلال، يقال: عمه فلان يغمه عَمَهَا وَعُمُوهَا: إذا ضل. قال: وقوله: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: في ضلالهم، وكفرهم الذي غمرهم دَنَسُهُ، وعلاهم رجسه، يترددون حيارى ضلَّالاً، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً، لأن الله تعالى قد طبع على قلوبهم وختم عليها، وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها، فلا يبصرون رُشْداً، ولا يهتدون سبيلاً. وقال بعضهم: العمى في العين، والعمه في القلب، وقد يستعمل العمى في القلب - أيضاً - قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَمَعَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَمَعَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] ويقال: عمه الرجل يعمه عموماً فهو عمه وعامه، وجمعه عَمَهُ، وذهبت إليه العمهاء: إذا لم يدر أين ذهبت.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَت بِخَدْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾

قال السدي في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾: قال: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾: أي: الكفر بالإيمان. وقال مجاهد: آمنوا ثم كفروا. وقال قتادة: استحبوا الضلالة على الهدى أي: الكفر بالإيمان. وهذا الذي قاله قتادة يشبهه في المعنى قوله تعالى في ثمود: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [نصبت: ١٧].

وحاصل قول المفسرين فيما تقدم: أن المنافقين عدَّلوا عن الهدى إلى الضلال، واعتاضوا عن الهدى بالضلالة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾: أي بذلوا الهدى ثمناً للضلالة، وسواء في ذلك من كان منهم قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر، كما قال تعالى فيهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣]، أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى، كما يكون حال فريق آخر منهم، فإنهم أنواع وأقسام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا رَبَحَت بِخَدْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾: أي: ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة، ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾: أي: راشدين في صنعهم ذلك. قال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة ﴿فَمَا رَبَحَت بِخَدْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾: قد - والله - رأيتهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنة إلى البدعة. وهكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث يزيد بن زُرَيْع، عن سعيد، عن قتادة، بمثله سواء.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ آلِ آدَمَ إِذْ أَخَذَ مِنْهُمُ الْمِيثَاقَ قَالُوا أَتُحِبُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ شِرْكُهُمْ وَرَزَقَهُمُ فِي طَاعَتِهِ لَا يَقُولُونَ إِلَّا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ قَالُوا بَلَىٰ إِنْ كُنَّا عَلَيْهِ لَمُؤَيَّدِينَ﴾ [البقرة: ١٧٠]

يقال: مثل ومثل ومثيل - أيضاً - والجمع أمثال، قال الله تعالى: ﴿وَلِئَلَّا يَتَّخِذَ الَّذِينَ ظَالِمٌ مَثَلًا مَّا حَرَّمَ اللَّهُ شِرْكُهُمْ وَمَا يَنْقُلُهَا إِلَّا أَتَمُّنَ﴾ [النكبات: ٤٣]. وتقرير هذا المثل: أن الله، سبحانه، شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد

التبصرة إلى العمى، بمن استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنس بها فبينما هو كذلك إذ طفت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع ذلك أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر؛ فهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغي على الرشد. وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر عنهم تعالى في غير هذا الموضع، والله أعلم.

وقد حكى هذا الذي قلناه فخر الدين الرازي في تفسيره عن السدي ثم قال: والتشبيه ههنا في غاية الصحة؛ لأنهم بإيمانهم اكتسبوا أولاً نوراً ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك النور فوقعوا في حيرة عظيمة فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين. وزعم ابن جرير أن المضروب لهم المثل ههنا لم يؤمنوا في وقت من الأوقات، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا مِنَ الْيَوْمِ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]. والصواب: أن هذا إخبار عنهم في حال نفاقهم وكفرهم، وهذا لا ينفي أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك، ثم سلبوه وطبع على قلوبهم، ولم يستحضر ابن جرير، رحمه الله، هذه الآية ههنا وهي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]؛ فلهذا وجه ابن جرير هذا المثل بأنهم استضاءوا بما أظهره من كلمة الإيمان، أي في الدنيا، ثم أعقبهم ظلمات يوم القيامة. قال: وصح ضرب مثل الجماعة بالواحد، كما قال: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَظُنُّونَ إِنْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْنِي عَنْهُ كَبُورُهُ﴾ [الأحزاب: ١٩] أي: كدوران عيني الذي يغشى عليه من الموت، وقال تعالى: ﴿مَا عَلَقْنَاكُمْ وَلَا بَعَثْنَاكُمْ إِلَّا كَفْثًا وَجِدًا﴾ [القصص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَسِلُوا كُفْرَتَهُمْ أَنَّمَا يَحْمِلُ كَعْبَلُ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَالًا﴾ [الجمعة: ٥]، وقال بعضهم: تقدير الكلام: مثل قصتهم كقصة الذي استوقد ناراً. وقال بعضهم: المستوقد واحد لجماعة معه. وقال آخرون: الذي ههنا بمعنى الذين كما قال الشاعر:

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد
قلت: وقد التفت في أثناء المثل من الواحد إلى الجمع، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُمْ دُخَانٌ فَأَبْصَرُوا كَبَدًا﴾ [البقرة: ٢٤]، وهذا أفصح في الكلام، وأبلغ في النظام، وقوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ يَسْمُوكَ﴾ [البقرة: ٢٤]، وهو ما يضرهم، وأبقى لهم ما يضرهم، وهو الإحراق والدخان ﴿وَرَكَّبَهُمْ فِي ظُلْمَةٍ﴾ [البقرة: ٢٤]، وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق ﴿لَا يَبْصُرُونَ﴾: لا يهتدون إلى سبل خير ولا يعرفونها، وهم مع ذلك ﴿صُمٌّ﴾ لا يسمعون خيراً ﴿بِكُمْ﴾ لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿عُمِّيٌّ﴾ في ضلالة وعماية البصيرة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَمَنَّى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَمَنَّى الْقُلُوبُ﴾ [البقرة: ٢٤]، فلماذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة.

ذكر أقوال المفسرين من السلف بنحو ما ذكرناه:

قال السدي في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُمْ﴾: زعم أن ناساً دخلوا في الإسلام مقدّم نبي الله ﷺ المدينة، ثم إنهم نافقوا، فكان مثلهم كمثل رجل كان في ظلمة، فأوقد ناراً، فأضاءت ما حوله من قدى، أو أذى، فأبصره حتى عرف ما يتقي منه، فبينما هو كذلك إذ طفت ناره، فأقبل لا يدري ما يتقي من أذى، فكذلك المنافق: كان في ظلمة الشرك فأسلم، فعرف الحلال والحرام، وعرف الخير والشر، فبينما هو كذلك إذ كفر، فصار لا يعرف الحلال من الحرام، ولا الخير من الشر. وقال مجاهد: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُمْ﴾ أما إضاءة النار فإقبالهم إلى المؤمنين، والهدى. وقال عطاء الخراساني في قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي أَشْتَوْقَدَ نَارًا﴾ قال: هذا مثل المنافق، يبصر أحياناً ويعرف أحياناً، ثم يدركه عمى القلب. وقال ابن أبي حاتم: وروي عن عكرمة، والحسن، والسدي، والزيّج بن أنس نحو قول عطاء الخراساني. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي أَشْتَوْقَدَ نَارًا﴾ إلى آخر الآية، قال: هذه صفة المنافقين. كانوا قد آمنوا حتى أضاء الإيمان في قلوبهم، كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا، ثم كفروا فذهب الله بنورهم فانتزع، كما ذهب بضوء هذه النار فتركهم في ظلمات لا يبصرون. وقال العوفي، عن ابن عباس، في هذه الآية، قال: أما النور: فهو إيمانهم الذي كانوا يتكلمون به، وأما الظلمة: فهي ضلالتهم وكفرهم الذي كانوا يتكلمون به، وهم قوم كانوا على هدى، ثم نزع منهم، فعتوا بعد ذلك. وأما قول ابن جرير فيشبه ما رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي أَشْتَوْقَدَ نَارًا﴾ قال: هذا مثل ضربه الله للمنافقين أنهم كانوا يعتزون بالإسلام، فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفئ، فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العز، كما سلب صاحب النار ضوءه. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي أَشْتَوْقَدَ نَارًا﴾: فإنما ضوء النار ما أوقدتها، فإذا خمدت ذهب نورها، وكذلك المنافق، كلما تكلم بكلمة الإخلاص، بلا إله إلا الله أضاء له، فإذا

شك وقع في الظلمة. وقال الضحاك في قوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾: أما نورهم فهو إيمانهم الذي تكلموا به. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾: فهي لا إله إلا الله؛ أضاءت لهم فأكلوا بها وشربوا وأمنوا في الدنيا، ونكحوا النساء، وحققوا دماءهم، حتى إذا ماتوا ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون. وقال سعيد، عن قتادة في هذه الآية: إن المعنى: أن المنافق تكلم بلا إله إلا الله فأضاءت له الدنيا، فناكح بها المسلمين، وغازاهم بها، ووارثهم بها، وحقن بها دمه وماله، فلما كان عند الموت سلبها المنافق؛ لأنه لم يكن لها أصل في قلبه، ولا حقيقة في عمله. ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ فِي ظُلُمَاتِهِ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ فِي ظُلُمَاتِهِ﴾ يقول: في عذاب إذا ماتوا. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ فِي ظُلُمَاتِهِ﴾: أي يبصرون الحق ويقولون به، حتى إذا خرجوا من ظلمات الكفر أطفؤوه بكفرهم ونفاقهم فيه، فتركهم الله في ظلمات الكفر، فهم لا يبصرون هدى، ولا يستقيمون على حق. وقال السدي في تفسيره بسنده: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ فِي ظُلُمَاتِهِ﴾: فكانت الظلمة نفاقهم. وقال الحسن البصري: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ فِي ظُلُمَاتِهِ لَا يَبْصُرُونَ﴾، فذلك حين يموت المنافق، فيظلم عليه عمله عمل السوء، فلا يجد له عملاً من خير عمل به يصدق به قول: لا إله إلا الله.

﴿مَنْ يَكُفِّرْ بِنُورِهِمْ﴾: قال السدي بسنده: ﴿مَنْ يَكُفِّرْ بِنُورِهِمْ﴾ يقول: فهم خرس عمي. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿مَنْ يَكُفِّرْ بِنُورِهِمْ﴾ يقول: لا يسمعون الهدى ولا يبصرون ولا يعقلونه، وكذا قال أبو العالية، وقاتدة بن دعامة. ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: قال ابن عباس: أي لا يرجعون إلى هدى، وكذلك قال الربيع بن أنس. وقال السدي بسنده: ﴿مَنْ يَكُفِّرْ بِنُورِهِمْ﴾: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى الإسلام. وقال قتادة: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: أي لا يتوبون، ولا هم يذكرون.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُرٌ يُجْعَلُونَ أَسْمِعُ فِي مَآذِنِهِمْ مِنَ الْقَرْعَةِ حَذَرَ الْقَوْتِ وَاللَّهُ يُحِيطُ بِالْكَافِرِينَ﴾ ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْلُطُ بِبَصَرِهِمْ لَمَّا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ لَكِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾. وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة، ويشكرون تارة أخرى، فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم وترددهم ﴿كَصَيِّبٍ﴾، والصيب: المطر؛ قاله ابن مسعود، وابن عباس، وناس من الصحابة، وأبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعطاء، والحسن البصري، وقاتدة، وعطية العوفي، وعطاء الخراساني، والسدي، والربيع بن أنس. وقال الضحاك: هو السحاب. والأشهر هو المطر نزل من السماء، في حال ظلمات، وهي الشكوك والكفر والنفاق. ﴿وَرَعْدٌ﴾: وهو ما يزعج القلوب من الخوف، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفرع، كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُوَّ﴾ [المنافقون: ٤] وقال: ﴿يَعْلَمُونَ بِاللَّهِ أَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ نَصْرٌ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلَكًا أَوْ مَنَزَلًا أَوْ مَدَنًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَعُونَ﴾ [التوبة: ٥٦، ٥٧]. والبرق: هو ما يلعب في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان، من نور الإيمان؛ ولهذا قال: ﴿يَجْعَلُونَ أَسْمِعُ فِي مَآذِنِهِمْ مِنَ الْقَرْعَةِ حَذَرَ الْقَوْتِ وَاللَّهُ يُحِيطُ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي: ولا يجدي عنهم حذرهم شيئاً؛ لأن الله محيط بهم بقدرته، وهم تحت مشيئته وإرادته، كما قال: ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ الْمُنَادِ﴾ ﴿فَرَعَوْهُ وَتَوَدُّوا﴾ ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ حَاسِبٌ﴾ [البروج: ١٧-٢٠]. والصواعق: جمع صاعقة، وهي نار تنزل من السماء وقت الرعد الشديد، وحكى الخليل بن أحمد عن بعضهم صاعقة، وحكى بعضهم صاعقة وصعقة وصاعقة، ونقل عن الحسن البصري أنه قرأ: «من الصواعق حذر الموت» بتقديم القاف وأنشدوا لأبي النجم:

يحكوك بالمشقولة القواطع شفق البرق عن الصواعق
قال النحاس: وهي لغة بني تميم وبعض بني ربيعة، حكى ذلك القرطبي في تفسيره. ثم قال: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْلُطُ بِبَصَرِهِمْ﴾: أي: لشدة وقوته في نفسه، وضعف بصرهم، وعدم ثباتها للإيمان. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْلُطُ بِبَصَرِهِمْ﴾ يقول: يكاد مُحْكَمُ القرآن يدل على عورات المنافقين. وقال ابن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْلُطُ بِبَصَرِهِمْ﴾: أي لشدة ضوء الحق، كلما أضاء لهم مشوا فيه ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾: أي كلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به واتبعوه، وتارة تعرض لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقوا حائرين.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿كَلَّمَآ أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ يقول: كلما أصاب المنافقين من عز الإسلام اطمأنوا إليه، وإن أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر، كقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْغِ اللَّهُ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أَلْهَى﴾ [الحج: ١١]. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿كَلَّمَآ أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾: أي: يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم في قولهم به على استقامة فإذا

ذكر الحديث الوارد في ذلك:

فتلخص من مجموع هذه الآيات الكريمات: أن المؤمنين صفان: مقربون وأبرار، وأن الكافرين صفان: دعاة ومقلدون، وأن المنافقين - أيضاً - صفان: منافق خالص، ومنافق فيه شعبة من نفاق. كما جاء في الصحيحين، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: «ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منها كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتهم خان». استدلو به على أن الإنسان قد تكون فيه شعبة من إيمان، وشعبة من نفاق.

إما عَمَلِي لهذا الحديث، أو اعتقادي كما دلت عليه الآية، كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض العلماء، كما تقدم وكما سيأتي، إن شاء الله. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا أبو معاوية يعني شيبان، عن ليث، عن عمرو بن مرة، عن أبي البخري، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة: قلب أجرد، فيه مثل السراج يُزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مُصْفَح؛ فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن، سراج فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص، عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة، يمدّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والدم، فأَي المذتين غلبت على الأخرى غلبت عليه». وهذا إسناد جيد حسن.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَنْبَصَرَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة، أو سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَنْبَصَرَهُمْ﴾: قال: لما تركوا من الحق بعد معرفته. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال ابن عباس: أي إن الله على كل ما أراد بعباده من نعمة، أو عفو، قدير. وقال ابن جرير: إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع؛ لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط، وأنه على إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير، ومعنى ﴿قَدِيرٌ﴾ قادر، كما أن معنى ﴿عَلِيمٌ﴾ عالم.

وذهب ابن جرير الطبري ومن تبعه من كثير من المفسرين أن هذين المثليين مضروبان لصنف واحد من المنافقين وتكون «أو» في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ بمعنى الواو، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلَاقِيَنَّهُمْ بَآئِنًا أَوْ كَثُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، أو تكون للتخيير، أي: أضرب لهم مثلاً بهذا وإن شئت بهذا، قاله القرطبي. أو للتساوي مثل جالس الحسن أو ابن سيرين، على ما وجهه الزمخشري: أن كلا منهما مساو للآخر في إباحة الجلوس إليه، ويكون معناه على قوله: سواء ضربت لهم مثلاً بهذا أو بهذا فهو مطابق لحالهم.

قلت: وهذا يكون باعتبار جنس المنافقين، فإنهم أصناف ولهم أحوال وصفات كما ذكرها الله تعالى في سورة براءة. ومنهم - ومنهم - يذكر أحوالهم وصفاتهم وما يعتمدونه من الأفعال والأقوال، فجعل هذين المثليين لصنفين منهم أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم، والله أعلم، كما ضرب المثليين في سورة النور لصنفي الكفار الدعاة والمقلدين في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَهْلُ الْغَمَامِ كَرِهَ اللَّهُ قِيَعَهُمْ﴾ إلى أن قال: ﴿أَوْ كَطُلُبُوتٍ فِي بَحْرٍ لَبِيٍّ يَبْشَرُهُ مَوْتٌ﴾ الآيتان [النور: ٣٩، ٤٠]؛ فالأول للدعاة الذين هم في جهل لمركب، والثاني لذوي الجهل البسيط من الأتباع المقلدين، والله أعلم بالصواب.

﴿يَتْلُوهَا النَّاسُ اتِّعَادًا وَبَيْنَ يَدَيْهِمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ وَالَّذِينَ يَنْتَظِرُونَ لِقَاءَ رَبِّهِمْ أَتْلُوهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ أَتْلُوهَا﴾ [البقرة: ١٢٩] الآية الأولى جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٩﴾.

شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته، بأنه تعالى هو المنعم على عبّيده، بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة، بأن جعل لهم الأرض فراشاً، أي: مهداً كالفرش مَقَرَّةً موطأةً مشبته بالرواسي الشامخات، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾، وهو السقف، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢] وأنزل لهم من السماء ماء - والمراد به السحاب ههنا - في وقته عند احتياجهم إليه، فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد؛ رزقاً لهم ولأنعامهم، كما قرر هذا في غير موضع من القرآن. ومن أشبه آية بهذه الآية قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَمَزَجَ لَكُمْ سُبُوحَكُمْ وَزَكَاةً مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [غافر: ٦٤] ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار، وساكنها، ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يُشْرَك به غيره؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. وفي الصحيحين عن ابن مسعود، قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً، وهو خالقك» الحديث. وكذا حديث معاذ: «أنذري ما حق الله على عباده؟ أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً» الحديث، وفي الحديث الآخر: «لا يقولن أحدكم: ما شاء الله وشاء فلان. ولكن ليقُل: ما شاء الله، ثم شاء فلان».

وقال حماد بن سلمة: حدثنا عبد الملك بن عمير، عن ربعي بن جِرَّاش، عن الطفيل بن سَخْبَرَة، أخي عائشة أم المؤمنين لأمها، قال: رأيت فيما يرى النائم، كأنني أتيت على نفر من اليهود، فقلت: من أنتم؟ فقالوا: نحن اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: غُزِير ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. قال: ثم مررت

بنفر من النصارى، فقلت: من أنتم؟ قالوا: نحن النصارى. قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحت أخبرت بها مَنْ أخبرت، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، فقال: «هل أخبرت بها أحداً؟» فقلت: نعم. فقام، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، فإن طُفَيْلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمتعني كذا وكذا أن أنهاركم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده». هكذا رواه ابن مردويه في تفسير هذه الآية من حديث حماد بن سلمة، به. وأخرجه ابن ماجة من وجه آخر، عن عبد الملك بن عمير به، بنحوه. وقال سفيان بن سعيد الثوري، عن الأجلح بن عبد الله الكندي، عن يزيد بن الأصم، عن ابن عباس، قال: قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت. فقال: «أجعلت لله نداً؟ قل: ما شاء الله وحده». رواه ابن مردويه، وأخرجه النسائي، وابن ماجة من حديث عيسى بن يونس، عن الأجلح، به. وهذا كله صيانة، وحماية لجناح التوحيد، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ للفریقین جميعاً من الكفار والمنافقين، أي: وحدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم. وبه عن ابن عباس: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاكًا وَأَنْتُمْ تَقْلُمُونَ﴾ أي: لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول ﷺ من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه. وهكذا قال قتادة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم، حدثنا أبي عمرو، حدثنا أبي الضحاک بن مخلد أبو عاصم، حدثنا شبيب بن بشر، حدثنا عكرمة، عن ابن عباس، في قول الله، عز وجل: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاكًا وَأَنْتُمْ تَقْلُمُونَ﴾ قال: الأنداد هو الشرك، أخفى من ديب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله حياتك يا فلان، وحياتي، ويقول: لولا كلبة هذا لأنانا للصوص، ولولا البط في الدار لأنى للصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها «فلان». هذا كله به شرك.

وفي الحديث: أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: «أجعلتني لله نداً». وفي الحديث الآخر: «نعم القوم أنتم، لولا أنكم تنددون، تقولون: ما شاء الله وشاء فلان».

قال أبو العالية: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاكًا﴾: أي عدلاء شركاء. وهكذا قال الربيع بن أنس، وقتادة، والسدي، وأبو مالك، وإسماعيل بن أبي خالد. وقال مجاهد: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاكًا وَأَنْتُمْ تَقْلُمُونَ﴾ قال: تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل.

ذكر حديث في معنى هذه الآية الكريمة:

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو خلف موسى بن خلف، وكان يُعَدُّ من البدلاء، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن سلام، عن جده مبطور، عن الحارث الأشعري: أن نبي الله ﷺ قال: «إن الله، ﷻ، أمر يحيى بن زكريا، عليه السلام، بخمس كلمات أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وكان يطمئ بهن، فقال له عيسى، عليه السلام: إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تبلغهن، وإما أن أبلغهن. فقال: يا أخي، إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي». قال: «فجمع يحيى بن زكريا بني إسرائيل في بيت المقدس، حتى امتلأ المسجد، فقعده على الشرف، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وأمركم أن تعملوا بهن، وأولهن: أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً، فإن مثل ذلك مثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بوزق أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده فأيكسره أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وأمركم بالصلاة؛ فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت، فإذا صليتم فلا تلتفتوا. وأمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثّل رجل معه صرة من مسك في عصابة، كلهم يجد ريح المسك، وإن خلو فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك. وأمركم بالصدقة؛ فإن مثل ذلك كمثّل رجل أسره العدو، فشدوا يديه إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال لهم: هل لكم أن أفندي نفسي؟ فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه. وأمركم بذكر الله كثيراً؛ وإن مثل ذلك كمثّل رجل طلبه العدو سراً في أثره، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله».

قال: وقال رسول الله ﷺ: «وأنا أمركم بخمس الله أمرني بهن: الجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في

سبيل الله؛ فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يراجع ومن دعا بدعوى جاهلية فهو من جثي جهنم. قالوا: يا رسول الله، وإن صام وصلى؟ فقال: «وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم؛ فادعوا المسلمين بأسمائهم على ما سماهم الله ﷻ: المسلمين المؤمنين عباد الله». هذا حديث حسن، والشاهد منه في هذه الآية قوله: «وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً». وهذه الآية دالة على توحيد تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع فقال: وهي دالة على ذلك بطريق الأولى، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطبائعها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب، وقد سئل: ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ فقال: يا سبحان الله، إن البعرة لتدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟

وحكى فخر الدين عن الإمام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل باختلاف اللغات والأصوات والنعمات، وعن أبي حنيفة أن بعض الزنادقة سأله عن وجود الباري تعالى، فقال لهم: دعوني فأني مفكر في أمر قد أخبرت عنه: ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخرق الأمواج العظام حتى تتخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد. فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل، فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع!! فهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه.

وعن الشافعي: أنه سئل عن وجود الصانع، فقال: هذا ورق التوت طعمه واحد تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم، وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبعير والأنعام فتلقيه بعراً وروثاً، وتأكله الطباع فيخرج منها المسك وهو شيء واحد.

وعن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك فقال: ههنا حصن حصين أملس، ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز بينا هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت ملبح، يعني بذلك أليضة إذا خرج منها الدجاجة.

وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد:

تأمل في نبات الأرض وانظر	إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات	بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات	بأن الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز:

فيا عجباً كيف يعصى الإله	أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية	تدل على أنه واحد

وقال آخرون: من تأمل هذه السموات في ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار المنيرة من السيارة ومن الثوابت، وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم في كل يوم وليلة دورة ولها في أنفسها سير يخصصها، ونظر إلى البحار الملتفة للأرض من كل جانب، والجبال الموضوعة في الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها كما قال: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَبِيَّةٌ سُودٌ ۝٢٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ لَهُمْ عِلْمٌ ۚ﴾ (فاطر: ٢٧، ٢٨)، وكذلك هذه الأنهار السارحة من قطر إلى قطر لمنافع العباد وما زرأ في الأرض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطعوم والأرايح والأشكال والألوان مع اتحاد طبيعة التربة والماء، علم وجود الصانع وقدرته العظيمة وحكمته ورحمته بخلقه ولطفه بهم وإحسانه إليهم وبره بهم لا إله غيره ولا رب سواه، عليه توكلت وإليه أنيب، والآيات في القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جداً.

﴿إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا زَكَّيْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٣﴾ إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِنَارِ الْكَافِرِينَ ۝٢٤﴾.

ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو، فقال مخاطباً للكافرين: ﴿إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا زَكَّيْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾

يعني: محمداً ﷺ ﴿فَأَتُوا سُورَةَ﴾ من مثل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله، فعارضوه بمثل ما جاء به، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله، فإنكم لا تستطيعون ذلك.

وقال ابن عباس: ﴿شَهَادَتُكُمْ﴾ أعوانكم أي: قوماً آخرين يساعدونكم على ذلك. وقال السدي، عن أبي مالك: شركاءكم أي استعينوا بالهتكم في ذلك يمدونكم وينصروكم. وقال مجاهد: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ قال: ناس يشهدون به يعني: حكام الفصحاء. وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن، فقال في سورة القصص: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَنِ اتَّبَعُ لَا يَأْتُونَ بِثَبَاطِئَةٍ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ بِهِمْ سَبِيلٌ. وَلَوْ كَانَتْ بِغَشْمِ إِعْيُظٍ ظُهُرًا﴾ [الاسراء: ٨٨]، وقال في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُوحٍ وَآلُ نُوحٍ فِي سُورَتِهِمْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَآدَمُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّ كَثِيرًا مِّن دُونِ اللَّهِ لَكَاذِبٌ يُفْتَنُونَ﴾ [هود: ١٣]، وقال في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يَقْرَأَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن نَّقِصَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧]، أم يقولون أَفَنُوحٍ وَآلُ نُوحٍ فِي سُورَتِهِمْ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلْظَمْتَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّ كَثِيرًا مِّن دُونِ اللَّهِ لَكَاذِبٌ يُفْتَنُونَ﴾ [يونس: ٣٧]، وكل هذه الآيات مكية.

ثم تحداهم الله تعالى بذلك - أيضاً - في المدينة، فقال في هذه الآية: ﴿وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنْهُ﴾ أي: في شك ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾. يعني: من مثل هذا القرآن؛ قاله مجاهد وقتادة، واختاره ابن جرير. بدليل قوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [هود: ١٣] وقوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِثَبَاطِئَةٍ﴾ [الاسراء: ٨٨] وقال بعضهم: من مثل محمد ﷺ، يعني: من رجل أمي مثله. والصحيح الأول؛ لأن التحدي عام لهم كلهم، مع أنهم أفصح الأمم، وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة، مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه، ومع هذا عجزوا عن ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَكِن تَقْعَلُوا﴾ [ولن: ١]. لنفي التأييد، أي: ولن تفعلوا ذلك أبداً. وهذه - أيضاً - معجزة أخرى، وهو أنه أخبر أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبداً، وكذلك وقع الأمر، لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن، وأتى يتأتى ذلك لأحد، والقرآن كلام الله خالق كل شيء؟ وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين؟!.

ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فناً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى، قال الله تعالى: ﴿إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْآيَةَ ثُمَّ قُولُوا أَنَّهُ لَكُنْ حَكِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [هود: ١]، فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف، فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يجارى ولا يدانى، فقد أخبر عن مغيبات ماضية وآتية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، وأمر بكل خير، ونهى عن كل شر كما قال: ﴿وَتَكُنَّ كَلِمَتُكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الانعام: ١١٥] أي: صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام، فكله حق وصدق وعدل وهدى ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء، كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل في الشعر: إن أهذبه أكذبه، وتجده القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو الخمر، أو في مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كاتنة أو مخافة أو سب، أو شيء من المشاهدات المتعينة التي لا تفيد شيئاً إلا قدرة المتكلم المعبر على التعبير على الشيء الخفي أو الدقيق أو إبرازه إلى الشيء الواضح، ثم تجده فيها بيتاً أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد وسائرها هذر لا طائل تحته.

وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة، سواء كانت مبسطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلما تكررت حلا وعلا، لا يخلق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والأذان، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن، كما قال في الترهيب: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَتَنَبَّهُونَ الْآنَ نَفْسٌ وَكَذَلِكَ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا كَخِلْدُوتٍ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال في الترهيب: ﴿أَفَأَمْسَرَ أَن يَجِيفَ بِكُمْ جَانِبُ الْجِبْرِ﴾ [الاسراء: ٦٨]، ﴿أَمْ أَنْتُمْ مِّن فِي السَّمَلَةِ أَن يَجِيفَ بِكُمْ الْأَرْضُ إِذَا هِيَ تَقُورُ﴾ [١٦] أم أنتم من في السَّمَلَةِ أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير [١٧] [الملك: ١٦، ١٧] وقال في الزجر: ﴿فَلَا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [المنكوث: ٤٠]، وقال في الوعد: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ [٢٠] ثم جاءهم ما كانوا يوعدون [٢١] ما آفئ عنهم ما كانوا يمتنون [٢٢] [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧]، إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة، وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي، اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب، والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء؛ كما قال ابن مسعود وغيره من السلف: إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن: ﴿يَأْتِيَنَّكَ الْيُوسُفُ﴾ فأرעה سمعك فإنه خير ما يأمر به أو شر ينهى عنه. ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْعَمْرِوِّ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ

وَيَحْزِمُهُ عَلَيْهِمُ الْجَنَّةَ وَيَصْعَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَثْلَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴿١٥٧﴾، وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأولياته وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم، بشرت به وحذرت وأندرت؛ ودعيت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وزهدت في الدنيا ورغبت في الآخرة، وثبتت على الطريقة المثلى، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم.

ولهذا ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ، قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» لفظ مسلم. وقوله: «وإنما كان الذي أوتيته وحياً» أي: الذي اختصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه، بخلاف غيره من الكتب الإلهية، فإنها ليست معجزة عند كثير من العلماء، والله أعلم. وله عليه الصلاة والسلام من الآيات الدالة على نبوته، وصدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر، والله الحمد والمنة.

وقد قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة في الصوفية، فقال: إن كان هذا القرآن معجزاً في نفسه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله ولا في قواهم معارضته، فقد حصل المدعى وهو المطلوب، وإن كان في إمكانهم معارضته بمثله ولم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له، كان ذلك دليلاً على أنه من عند الله؛ لصرفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك، وهذه الطريقة وإن لم تكن مرضية لأن القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته، كما قرنا، إلا أنها تصلح على سبيل التنزل والمجادلة والمنافعة عن الحق، وبهذه الطريقة أجاب فخر الدين في تفسيره عن سؤاله في السور القصار كالعصرو ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾، أما الوقود، بفتح الواو، فهو ما يلقى في النار لإضرارها كالحطب ونحوه، كما قال: ﴿وَأَنَّا الْفَيَظُونَ فَكَأَوْا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُّونَ﴾ [الانبيا: ٩٨]. والمراد بالحجارة ههنا: هي حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المتننة، وهي أشد الأحجار حراً إذا حُميت، أجازنا الله منها. قال عبد الملك بن ميسرة الزرّاد، عن عبد الرحمن بن سابط، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله بن مسعود، في قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ قال: هي حجارة من كبريت، خلقها الله يوم خلق السموات والأرض في السماء الدنيا، يعدها للكافرين. رواه ابن جرير، وهذا لفظه. وابن أبي حاتم، والحاكم في مستدركه وقال: على شرط الشيخين. وقال السدي في تفسيره، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾: أما الحجارة فهي حجارة في النار من كبريت أسود، يعذبون به مع النار. وقال مجاهد: حجارة من كبريت أنتن من الجيفة. وقال أبو جعفر محمد بن علي: هي حجارة من كبريت. وقال ابن جريج: حجارة من كبريت أسود في النار، وقال لي عمرو بن دينار: أصلب من هذه الحجارة وأعظم.

وقيل: المراد بها: حجارة الأصنام والأنداد التي كانت تعبد من دون الله كما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الانبيا: ٩٨]؛ حكاه القرطبي وفخر الدين ورجحه على الأول؛ قال: لأن أخذ النار في حجارة الكبريت ليس بمنكر فجعلها هذه الحجارة أولى، وهذا الذي قاله ليس بقوي؛ وذلك أن النار إذا أضرمت بحجارة الكبريت كان ذلك أشد لحرها وأقوى لسعيرها، ولا سيما على ما ذكره السلف من أنها حجارة من كبريت معدة لذلك، ثم إن أخذ النار في هذه الحجارة - أيضاً - مشاهد، وهذا الجص يكون أحجاراً فتعمل فيه بالنار حتى يصير كذلك. وكذلك سائر الأحجار تفخرها النار وتحرقها. وإنما سيق هذا في حر هذه النار التي وعدوا بها، وشدة ضرامها وقوة لهبها كما قال: ﴿كَلَّمَآ حَتَّى زِدْنَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. وهكذا رجح القرطبي أن المراد بها الحجارة التي تسعربها النار لتحمي ويشند لهما قال: ليكون ذلك أشد عذاباً لأهلها، قال: وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «كل مؤذ في النار» وهذا الحديث ليس بمحفوظ ولا معروف، ثم قال القرطبي: وقد فسر بمعنيين، أحدهما: أن كل من أذى الناس دخل النار، والآخر: كل ما يؤذي فهو في النار يتأذى به أهلها من السباع والهوام وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾: أظهر أن الضمير في ﴿أُعِدَّتْ﴾، عائد إلى النار التي وقودها الناس والحجارة، ويحتمل عوده إلى الحجارة، كما قال ابن مسعود، ولا منافاة بين القولين في المعنى؛ لأنهما متلازمان. و ﴿أُعِدَّتْ﴾ أي: أرصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله، كما قال محمد بن إسحاق، عن محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿أُعِدَّتْ

لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٥﴾ أي: لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر. وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله: ﴿أُعِدَّتْ﴾ أي: أُرصدت وهيئت. وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك منها: «تحت الجنة والنار»، ومنها: «استأذنت النار ربها فقالت: رب أكل بعضي بعضاً فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف»، وحديث ابن مسعود: سمعنا وجبة فقلنا: ما هذه؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذا حجر ألقي به من شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل إلى قعرها» وهو عند مسلم، وحديث صلاة الكسوف ولبلة الإسراء وغير ذلك من الأحاديث المتواترة في هذا المعنى وقد خالفت المعتزلة بجهلهم في هذا ووافقهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الأندلس.

تنبيه ينبغي الوقوف عليه:

قوله: ﴿قَالُوا يَسُورَ يَنْ يَسُورَ﴾ وقوله في سورة يونس: ﴿يَسُورَ يَسُورَ﴾ [يونس: ٢٨] يعم كل سورة في القرآن طويلة كانت أو قصيرة؛ لأنها نكرة في سياق الشرط فتعم كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين كما هو مقرر في موضعه، فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها، وهذا ما أعلم فيه نزاعاً بين الناس سلفاً وخلفاً، وقد قال الإمام العلامة فخر الدين الرازي في تفسيره: فإن قيل: قوله: ﴿قَالُوا يَسُورَ يَنْ يَسُورَ﴾ يتناول سورة الكوثر وسورة العصر، و ﴿قُلْ يَكْفُرُ الْكَافِرُونَ﴾ ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله أو بما يقرب منه ممكن. فإن قلتم: إن الإتيان بمثل هذه السور خارج عن مقدور البشر كان مكابرة، والإقدام على هذه المكابرات مما يطرُق بالتهمة إلى الدين. قلنا: فلهذا السبب اخترنا الطريق الثاني، وقلنا: إن بلغت هذه السورة في الفصاحة حد الإعجاز فقد حصل المقصود، وإن لم يكن كذلك، كان امتناعهم من المعارضة مع شدة دواعيهم إلى تهوين أمره معجزاً، فعلى التقديرين يحصل المعجز، هذا لفظه بحروفه. والصواب: أن كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها طويلة كانت أو قصيرة.

قال الشافعي، رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لكفتمهم: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِرٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِي آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَوَأَسْأَلُ بِالْحَقِّ وَوَأَسْأَلُ بِالْعَقْرِ﴾ [العصر: ١-٣]. وقد روي عن عمرو بن العاص أنه وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم بمكة في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِرٌ ﴿٢﴾﴾، ففكر ساعة ثم رفع رأسه فقال: ولقد أنزل عليّ مثلها، فقال: وما هو؟ فقال: يا وثر يا وثر، إنما أنت أذنان وصدر، وسأترك حقراً فقراً، ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أنني لأعلم إنك تكذب.

﴿وَيَبْرَأُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿١٥﴾.

لما ذكر تعالى ما أعد له لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله، الذين صدّقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة. وهذا معنى تسمية القرآن «مثنائي» على أصح أقوال العلماء، كما سنبسطه في موضعه، وهو أن يذكر الإيمان ويتبعه بذكر الكفر، أو عكسه، أو حال السعداء ثم الأشقياء، أو عكسه. وحاصله ذكر الشيء ومقابله. وأما ذكر الشيء ونظيره فذاك التشابه، كما سنوضحه إن شاء الله؛ فلهذا قال تعالى: ﴿وَيَبْرَأُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، فوصفها بأنها تجري من تحتها الأنهار، كما وصف النار بأن وقودها الناس والحجارة، ومعنى «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» أي: من تحت أشجارها وغرفها، وقد جاء في الحديث: أن أنهارها تجري من غير أخدود، وجاء في الكوثر أن حافتيه قباب اللؤلؤ المجوف، ولا منافاة بينهما، وطينها المسك الأذفر، وحصابؤها اللؤلؤ والجوهر، نسأل الله من فضله وكرمه إنه هو البر الرحيم. وقال ابن أبي حاتم: قرئ على الربيع بن سليمان: حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن ثوبان، عن عطاء بن قرّة، عن عبد الله بن ضمرة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنهار الجنة تُعْجَرُ مِنْ تَحْتِ تَلَالٍ - أو من تحت جبال - المسك». وقال أيضاً: حدثنا أبو سعيد، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، قال: قال عبد الله: أنهار الجنة تفجر من جبل مسك.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾: قال السدي في تفسيره، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ قال: إنهم أتوا بالثمرة في الجنة، فلما نظروا إليها قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل في دار الدنيا. وهكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن

أسلم، ونصره ابن جرير. وقال عكرمة: ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ قال: معناه: مثل الذي كان بالأمس، وكذا قال الربيع بن أنس. وقال مجاهد: يقولون: ما أشبهه به.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل تأويل ذلك: هذا الذي رزقنا من ثمار الجنة من قبل هذا، لشدة مشابهة بعضه بعضاً، لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا بِهِ مُنَشِّهَاتٍ﴾ قال سنيّد بن داود: حدثنا شيخ من أهل المصيصية، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، قال: يؤتى أحدهم بالصحفة من الشيء، فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى فيقول: هذا الذي أتينا به من قبل. فتقول الملائكة: كُلْ، فاللون واحد، والطعم مختلف. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عامر بن يساف، عن يحيى بن أبي كثير، قال: عشب الجنة الزعفران، وكتبانها المسك، ويطوف عليهم الولدان بالفواكه فيأكلونها، ثم يؤتون بمثلها، فيقول لهم أهل الجنة: هذا الذي أتيتونا أنفأ به، فيقول لهم الولدان: كلوا، فإن اللون واحد، والطعم مختلف. وهو قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا بِهِ مُنَشِّهَاتٍ﴾. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية: ﴿وَأَنزَلْنَا بِهِ مُنَشِّهَاتٍ﴾ قال: يشبه بعضه بعضاً، ويختلف في الطعم. وقال ابن أبي حاتم: وزوي عن مجاهد، والربيع بن أنس، والسدي، نحو ذلك. وقال ابن جرير بإسناده عن السدي في تفسيره، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة، في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا بِهِ مُنَشِّهَاتٍ﴾ يعني: في اللون والمرأى، وليس يشبهه في الطعم. وهذا اختيار ابن جرير. وقال عكرمة: ﴿وَأَنزَلْنَا بِهِ مُنَشِّهَاتٍ﴾ قال: يشبه ثمر الدنيا، غير أن ثمر الجنة أطيب. وقال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس: لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء. وفي رواية: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء. رواه ابن جرير، من رواية الثوري، وابن أبي حاتم من حديث أبي معاوية كلاهما عن الأعمش، به. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا بِهِ مُنَشِّهَاتٍ﴾ قال: يعرفون أسماء كما كانوا في الدنيا: التفاح بالتفاح، والرمان بالرمان، قالوا في الجنة: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، وأنابوا متشابهاً، يعرفونه وليس هو مثله في الطعم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: مطهرة من القذر والأذى. وقال مجاهد: من الحيض والغائط والبول والنخام واليزاق والمني والولد. وقال قتادة: مطهرة من الأذى والمأثم. وفي رواية عنه: لا حيض ولا كلف. وروي عن عطاء والحسن والضحاك وأبي صالح وعطية والسدي نحو ذلك. وقال ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال: المطهرة التي لا تحيض. قال: وكذلك خلقت حواء، عليها السلام، حتى عصت، فلما عصت قال الله تعالى: إني خلقتك مطهرة وسأمدك كما أمدت هذه الشجرة. وهذا غريب. وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا إبراهيم بن محمد، حدثني جعفر بن محمد بن حرب، وأحمد بن محمد الجبوري، قالوا: حدثنا محمد بن عبيد الكندي، حدثنا عبد الرزاق بن عمر البزيعي، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن شعبة، عن قتادة، عن أبي نصر، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال: «من الحيض والغائط والنخاعة واليزاق». هذا حديث غريب. وقد رواه الحاكم في مستدركه، عن محمد بن يعقوب، عن الحسن بن علي بن عفان، عن محمد بن عبيد، به. وقال: صحيح على شرط الشيخين. وهذا الذي ادعاه فيه نظر؛ فإن عبد الرزاق بن عمر البزيعي هذا قال فيه أبو حاتم بن حبان البستي: لا يجوز الاحتجاج به. قلت: والأظهر أن هذا من كلام قتادة، كما تقدم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: هذا هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع فلا آخر له ولا انقضاء، بل في نعيم سرمدي أبدي على الدوام، والله المسؤول أن يحشرنا في زمرة، إنه جواد كريم، برحيم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعْضُهُ فَمَا قَوْمُهُ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَاسَمُوا إِلَهِكَ أَمْسَحُوا بِأَلْيَدِكَ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا خِيفَلْ لَهُمْ كَثِيرًا وَيُهْدَى بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَتَقَفَّضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَدَلٍ مِيتَتَهُ وَيَقْتُلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُسَكَّلَ وَيُسَدَّدَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

قال السدي في تفسيره، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين، يعني قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] وقوله: ﴿أَوْ كَمِثْلِ مِمَّنْ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ١٩] الآيات الثلاث، قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله تعالى هذه الآية إلى قوله: ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. وقال عبد الرزاق، عن مَعمر، عن قتادة: لما ذكر الله العنكبوت والذباب، قال المشركون: ما بال العنكبوت والذباب يذكران؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعْضُهُ فَمَا قَوْمُهُ﴾. وقال سعيد، عن قتادة: أي إن الله لا يستحيي من الحق أن يذكر شيئاً ما، قل أو كثر، وإن الله حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت قال أهل

الضلالة: ما أراد الله من ذكر هذا؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً مَّا فَوْقَهَا﴾. قلت: العبارة الأولى عن قتادة فيها إشعار أن هذه الآية مكية، وليس كذلك، وعبارة رواية سعيد، عن قتادة أقرب والله أعلم. وروى ابن جريج عن مجاهد نحو هذا الثاني عن قتادة. وقال ابن أبي حاتم: روي عن الحسن وإسماعيل بن أبي خالد نحو قول السدي وقاتدة. وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس في هذه الآية قال: هذا مثل ضربه الله للدنيا؛ إذ البعوضة تحيا ما جاعت، فإذا سميت ماتت. وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب لهم هذا المثل في القرآن، إذا امتلأوا من الدنيا رياء أخذهم الله تعالى عند ذلك، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا شَاؤَا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]. هكذا رواه ابن جرير، ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية، بنحوه، فالله أعلم.

فهذا اختلافهم في سبب النزول، وقد اختار ابن جرير ما حكاه السدي؛ لأنه أسس بالسورة، وهو مناسب، ومعنى الآية: أنه تعالى أخبر أنه لا يستحيي، أي: لا يستنكف، وقيل: لا يخشى أن يضرب مثلاً ما، أي: أي مثل كان، بأي شيء كان، صغيراً كان أو كبيراً. و «ما» ههنا للتقليل، وتكون «بَعُوضَةً» منصوبة على البدل، كما تقول: لأضربن ضرباً ما، فيصدق بأدنى شيء أو تكون «ما» نكرة موصوفة ببعوضة. واختار ابن جرير أن ما موصولة، و «بَعُوضَةً» معربة بإعرابها، قال: وذلك سائغ في كلام العرب، أنهم يعربون صلة ما ومن بإعرابها لأنهما يكونان معرفة تارة، ونكرة أخرى، كما قال حسان بن ثابت:

وَكَفَى بِنَا فَضْلاً عَلَى مَنْ غَيْرِنَا حُبُّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ إِيَّانَا
قال: ويجوز أن تكون «بَعُوضَةً» منصوبة بحذف الجار، وتقدير الكلام: إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة إلى ما فوقها. وهذا الذي اختاره الكسائي والفراء. وقرأ الضحاک وإبراهيم بن أبي عبيدة ورويت «بعوضة» بالرفع، قال ابن جني: وتكون صلة لما وحذف العائد كما في قوله: ﴿فَمَّا عَلَى الْكَرَى أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٥] أي: على الذي أحسن هو أحسن، وحكى سيبويه: ما أنا بالذي قاتل لك شيئاً، أي: يعني بالذي هو قاتل لك شيئاً.

وقوله: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ فيه قولان: أحدهما: فما دونها في الصغر، والحقارة، كما إذا وصف رجل باللؤم والشح، فيقول السامع: نعم، وهو فوق ذلك، يعني فيما وصفت. وهذا قول الكسائي وأبي عبيدة، قال الرازي: وأكثر المحققين، وفي الحديث: «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء». والثاني: فما فوقها: فما هو أكبر منها؛ لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة. وهذا قول قتادة بن دعامة واختار ابن جرير. ويؤيده ما رواه مسلم عن عائشة، رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يشاك شوكه فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة».

فأخبر أنه لا يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة، كما لم يستنكف عن خلقها كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت في قوله: ﴿يَتْلُوهَا النَّاسُ ضَرْبٍ مَثَلٍ فَاسْتَعِمْوْا لَهُ إِنَّكَ الْذِيكَ تَعْمُرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَأْذِنُوا لَأَنبَحُ النَّبَأَ شَيْئًا لَا يَسْتَفْهِدُوهُ إِنَّهُ ضَعُفَ الْقَلْبُ وَالطَّلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، وقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِعْنَاءً وَإِنْ أَوْهَرَ الْعُيُوتُ لَيَبْتَغِيَنَّ مِنَ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (١) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٣) يَبْنِي اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٤)﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٧]، وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَيْنًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا (٥) الْآيَةُ (٦) ثُمَّ قَالَ: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ (٧) الْآيَةُ (٨) السَّحْلِ (٩)﴾ [السحل: ٧٦]، كما قال: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ (١٠) الْآيَةُ (الرُّوم: ٢٨)﴾ وقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِمُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا أَرْسَلَ (١١) الْآيَةُ (الزمر: ٢٩)﴾ وقد قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (١٢)﴾ [العنكبوت: ٤٣] وفي القرآن أمثال كثيرة. قال بعض السلف: إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (١٣)﴾.

وقال مجاهد قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً مَّا فَوْقَهَا﴾: الأمثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون ويعلمون أنها الحق من ربهم، ويهديهم الله بها. وقال قتادة: ﴿فَمَّا عَلَى الْكَرَى أَحْسَنَ﴾ أي: يعلمون أنه الحق من ربهم، ويهديهم الله بها.

كلام الرحمن، وأنه من عند الله. وروي عن مجاهد والحسن والربيع بن أنس نحو ذلك. وقال أبو العالية: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعني: هذا المثل: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾، كما قال في سورة المدثر: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عَنْدَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفْتِحَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلِيَذَّابَ الَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ ءَاتَوْا اللَّهَ وَالْيَوْمَ لَافِتًا وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مِرْسًا وَكُفْرًا مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِنَاسٍ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يُغْنِي عَنْهُمْ كُفْرُهُمْ وَلَافَتُهُمْ﴾. وكذلك قال ههنا: ﴿يُضِلُّ يَوْمَ كَثِيرًا وَيَهْدِي يَوْمَ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾.

قال السدي في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿يُضِلُّ يَوْمَ كَثِيرًا﴾ يعني: المنافقين، ﴿وَيَهْدِي يَوْمَ كَثِيرًا﴾ يعني المؤمنين، فيزيد هؤلاء ضلالة إلى ضلالهم لتكذيبهم بما قد علموه حقاً يقيناً، من المثل الذي ضربه الله بما ضربه لهم، وأنه لما ضربه له موافق، فذلك إضلال الله إياهم به ﴿وَيَهْدِي يَوْمَ﴾ يعني بالمثل كثيراً من أهل الإيمان والتصديق، فيزيدهم هدى إلى هداهم وإيماناً إلى إيمانهم، لتصديقهم بما قد علموه حقاً يقيناً أنه موافق ما ضربه الله له مثلاً وإقرارهم به، وذلك هداية من الله لهم به ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ قال: هم المنافقون. وقال أبو العالية: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾: قال: هم أهل النفاق. وكذا قال الربيع بن أنس. وقال ابن جريج عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ يقول: يعرفه الكافرون فيكفرون به. وقال قتادة: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾: فسقوا، فأضلهم الله على فسقهم. وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثَنَا عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ سُلَيْمَانَ، عَنْ أَبِي سِنَانٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَرْثَدَةَ، عَنْ مَعْصُوبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ سَعْدِ بْنِ سَعْدٍ: ﴿يُضِلُّ يَوْمَ كَثِيرًا﴾: يعني الخوارج.

وقال شعبه، عن عمرو بن مرة، عن مصعب بن سعد، قال: سألت أبي فقلت: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ إلى آخر الآية، فقال: هم الحرورية. وهذا الإسناد إن صح عن سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه، فهو تفسير على المعنى، لا أن الآية أريد منها التنصيص على الخوارج، الذين خرجوا على علي بالنهروان، فإن أولئك لم يكونوا حال نزول الآية، وإنما هم داخلون بوصفهم فيها مع من دخل؛ لأنهم سموا خوارج لخروجهم على طاعة الإمام والقيام بشرائع الإسلام. والفاسق في اللغة: هو الخارج عن الطاعة أيضاً. وتقول العرب: فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرتها؛ ولهذا يقال للفأرة: فويسقة، لخروجها عن جُحرها للفساد. وثبت في الصحيحين، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فواسق يُقتلن في الحل والحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور».

فالفاسق يشمل الكافر والعاصي، ولكن فسق الكافر أشد وأفحش، والمراد من الآية الفاسق الكافر، والله أعلم، بدليل أنه وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقُولُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيُفِيدُونَ فِي الْأَرْضِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَائِبُونَ﴾. وهذه الصفات صفات الكفار المبانية لصفات المؤمنين، كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿أَفَمَنْ يَمُنُّ أَنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ لَقَدْ كُنْ هُوَ أَفْهَمُ إِيمَانًا يَذَّكَّرُ أَزْوَاجًا الْأَلْفَبِ ١٦﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يُغْنُونَ أَلَيْشَ ١٧ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيَخُونُونَ سَوَاءَ الْحِسَابِ ١٨﴾، إلى أن قال: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقُولُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيُفِيدُونَ فِي الْأَرْضِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَائِبُونَ وَلَهُمْ سَوَاءُ الدَّارِ ٢٠﴾ (الرعد: ١٩-٢٠).

وقد اختلف أهل التفسير في معنى العهد الذي وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه، فقال بعضهم: هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه، وعلى لسان رسله. ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به. وقال آخرون: بل هي في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم، وعهد الله الذي نقضوه هو ما أخذه الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها واتباع محمد ﷺ إذا بعث والتصديق به، وبما جاء به من عند ربهم، ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وإنكارهم ذلك، وكتمانهم علم ذلك عن الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبينه للناس ولا يكتُمونه، فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمناً قليلاً. وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله وقول مقاتل بن حيان. وقال آخرون: بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق. وعهده إلى جميعهم في توحيده: ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته، وعهده إليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثلها الشاهدة لهم على صدقهم، قالوا: ونقضهم ذلك: تركهم الإقرار بما ثبتت لهم صحته بالأدلة وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق، وروي أيضاً عن مقاتل بن حيان نحو هذا، وهو حسن، وإليه مال الزمخشري، فإنه قال: فإن قلت: فما المراد بعهد الله؟ قلت: ما ركز في عقولهم من الحجة على التوحيد، كأنه أمر وصاهم به ووثق عليهم وهو معنى قوله: ﴿وَأَشْهِدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَسْتَرَيْتُمْكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الاعراف: ١٧٢] إذ أخذ الميثاق عليهم في الكتب المنزلة عليهم لقوله: ﴿وَأَوْفُوا

وهكذا روي عن السدي بسنده، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة - وعن أبي العالية والحسن البصري ومجاهد وقتادة وأبي صالح والضحاك وعطاء الخراساني نحو ذلك. وقال الثوري، عن السدي عن أبي صالح: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَفْئِدَةً قُلُوبِكُمْ ثُمَّ يُمْسِكُهُمْ ثُمَّ يُنْفِكُهُمْ ثُمَّ إِنَّهُمْ مُرْجَعُونَ ﴾ (٢٨) قال: يحييكم في القبر، ثم يميتكم. وقال ابن جرير عن يونس، عن ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ خلقهم في ظهر آدم ثم أخذ عليهم الميثاق، أم أماتهم ثم خلقهم في الأرحام، ثم أماتهم، ثم أحياهم يوم القيامة. وذلك كقول الله تعالى: ﴿ رَبَّنَا أَمَنَّاتُنِي وَأَحْيَا أُمَّتِي ﴾ وهذا غريب والذي قبله. والصحيح ما تقدم عن ابن مسعود وابن عباس، وأولئك الجماعة من التابعين، وهو كقوله تعالى: ﴿ فَلَئِنْ لَمْ يَنْفَكُوا مِنْكُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَفْئِدَةً كَأَفْئِدَةِ الْقَوْمِ ﴾ (٢٩) [الجانبية: ٢٦]. وعبر عن الحال قبل الوجود بالموت بجامع ما يشتركان فيه من عدم الإحساس، كما قال في الأصنام: ﴿ أَمْثَلُكُمْ غَيْرِ أَحْيَاءٍ ﴾

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢١)

قَالَ لِمَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ آبُوهُ ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ وَقِيلَ: إِنَّ الدَّخْيَ كَانَ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَدْ قَالَ السَّيِّدُ فِي تَفْسِيرِهِ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ - وَعَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - وَعَنْ مُرَّةَ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ نَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [٢١] قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَلَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا غَيْرَ مَا خَلَقَ قَبْلَ الْمَاءِ. فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ، أَخْرَجَ مِنَ الْمَاءِ دَخَانًا، فَارْتَفَعَ فَوْقَ الْمَاءِ فَسَمَاهُ عَلَيْهِ، فَسَمَاهُ سَمَاءً. ثُمَّ أَيْسَرَ الْمَاءَ فَجَعَلَهُ أَرْضًا وَاحِدَةً، ثُمَّ فَتَقَهَا فَجَعَلَهَا سَبْعَ أَرْضِينَ فِي يَوْمَيْنِ فِي الْأَحَدِ وَالْآثِنِينَ، فَخَلَقَ الْأَرْضَ عَلَى حَوْتٍ، وَالْحَوْتَ هُوَ النَّوْنُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ: ﴿تَ وَالْقَلَمِ﴾، وَالْحَوْتَ فِي الْمَاءِ، وَالْمَاءُ عَلَى ظَهْرِ صِفَاةٍ، وَالصِّفَاةُ عَلَى ظَهْرِ مَلَكٍ، وَالْمَلِكُ عَلَى صَخْرَةٍ، وَالصَّخْرَةُ فِي الرِّيحِ، وَهِيَ الصَّخْرَةُ الَّتِي ذَكَرَ لِقَمَانَ - لَيْسَتْ فِي السَّمَاءِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، فَتَحْرَكَ الْحَوْتَ فَاضْطَرِبَ، فَتَزَلْزَلَتِ الْأَرْضُ، فَأَرَسَى عَلَيْهَا الْجِبَالَ فَفَقَّرَتْ، فَالْجِبَالُ تَفْخَرُ عَلَى الْأَرْضِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْقَلَمِ فِي الْأَرْضِ رُوسٍ أَنْ يَشْعُرَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]. وَخَلَقَ الْجِبَالَ فِيهَا، وَأَقْوَاتُ أَهْلِهَا وَشَجَرُهَا وَمَا يَنْبَغِي لَهَا فِي يَوْمَيْنِ، فِي الثَّلَاثَاءِ وَالْأَرْبَعَاءِ، وَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ دِينُ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَحْمِلُونَ لَهُ أَثْقَالًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [٩] وَحَمَلَهَا رُوسٌ مِنْ قُوَّهَا وَبَرَكَةٍ فِيهَا [فصل: ٩، ١٠]. يَقُولُ: أَنْبَتُ شَجَرَهَا ﴿وَوَدَّزَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ يَقُولُ: أَقْوَاتُهَا لِأَهْلِهَا ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لَئِنْ﴾ [فصل: ١٠] يَقُولُ: مَنْ سَأَلَ فَهَكَذَا الْأَمْرُ. ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دَخَانٌ﴾ [فصل: ١١] وَذَلِكَ الدَّخَانُ مِنْ تَنْفَسِ الْمَاءِ حِينَ تَنْفَسُ، فَجَعَلَهَا سَمَاءً وَاحِدَةً، ثُمَّ فَتَقَهَا فَجَعَلَهَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ، فِي الْخَمِيسِ وَالْجُمُعَةِ، وَإِنَّمَا سَمِيَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ لِأَنَّهُ جُمِعَ فِيهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصل: ١٢] قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ فِي كُلِّ سَمَاءٍ خَلْقَهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْخَلْقُ الَّذِي فِيهَا، مِنَ الْبِحَارِ وَجِبَالِ الْبَرِّ وَمَا لَا نَعْلَمُ، ثُمَّ زَيْنَ السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِالْكَوَاكِبِ، فَجَعَلَهَا زِينَةً وَحِفْظًا، تَحْفَظُ مِنَ الشَّيَاطِينِ. فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ خَلْقِ مَا أَحْبَبَ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] وَيَقُولُ: ﴿كَانَتْ رَقًّا فَلْيَخْلُقْنَهَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وهذه الآية دالة على أن الأرض خلقت قبل السماء، كما قال في آية السجدة: ﴿قُلْ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْخَالِقِينَ﴾

الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُمْ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رِجْسَيْنِ مِنْ قَوْفٍ فِيهَا وَبَرَكَةٍ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ آيَاتٍ سَوَّاهُ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿٢١﴾ فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ مَسَافَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوَّحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَزَقْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ وَحَفَافًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٢﴾ [تفصلت: ٩ - ١٧]

فهذه وهذه دالتان على أن الأرض خلقت قبل السماء، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين العلماء إلا ما نقله ابن جرير عن قتادة: أنه زعم أن السماء خلقت قبل الأرض، وقد توقف في ذلك القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿مَنْتُمْ أَنْتُمْ خَلْقًا أَوْ آتَيْنَا بَنَاهَا﴾ ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكًا سَمَكًا ﴿٢٨﴾ وَأَغْلَقَ لَيْلَهَا وَفَتَحَ صُحُفَهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣١] قالوا: فذكر خلق السماء قبل الأرض. وفي صحيح البخاري: أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه، فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء، وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديماً وحديثاً، وقد قررنا ذلك في تفسير سورة النازعات، وحاصل ذلك أن الدحي مفسر بقوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ [النازعات: ٣٠ - ٣٢] ففسر الدحي بإخراج ما كان مودعاً فيها بالقوة إلى الفعل لما اكتملت صورة المخلوقات الأرضية ثم السماوية دحى بعد ذلك الأرض، فأخرجت ما كان مودعاً فيها من المياه، فنبتت النباتات على اختلاف أصنافها وصفاتها وألوانها وأشكالها، وكذلك جرت هذه الأفلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة، والله سبحانه وتعالى أعلم. وقد ذكر ابن أبي حاتم وابن مردويه في تفسير هذه الآية الحديث الذي رواه مسلم والنسائي في التفسير - أيضاً - من رواية ابن جريج قال: أخبرني إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة، عن أبي هريرة، قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة من آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل». وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم، وقد تكلم عليه علي بن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب، وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار، وإنما اشبهه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعاً، وقد حرر ذلك البيهقي.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٠﴾.

يخبر تعالى بامتثاله على بني آدم، بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ أَيُّ: واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة، وأقصص على قومك ذلك. وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية وهو أبو عبيدة، أنه زعم أن «إذ» ههنا زائدة، وأن تقدير الكلام: وقال ربك. ورد ابن جرير. قال القرطبي: وكذا رده جميع المفسرين حتى قال الزجاج: هذا اجتراء من أبي عبيدة. ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي: قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقال: ﴿وَجَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]. وقال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ لَكِهُنَّ فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ [الزخرف: ٦٠]. وقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَاقِيهِمْ خَلَفٌ﴾ [مريم: ٥٩]. وقرئ في الشاذ: «إني جاعل في الأرض خليفة» حكاه الزمخشري وغيره ونقلها القرطبي عن زيد بن علي.

وليس المراد ههنا بالخليفة آدم، عليه السلام، فقط، كما يقوله طائفة من المفسرين، وعزا القرطبي إلى ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل، وفي ذلك نظر، بل الخلاف في ذلك كثير، حكاه فخر الدين الرازي في تفسيره وغيره، والظاهر أنه لم يزد آدم عيناً إذ لو كان كذلك لما حسن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ فإنهم إنما أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من ضلصال من حمل مسنون، أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ويقع بينهم من المظالم ويرد عنهم المحارم والمآثم، قاله القرطبي، أو أنهم قاسوه على من سبق، كما سنذكر أقوال المفسرين في ذلك. وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم، كما قد يتوهمه بعض المفسرين وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول، أي: لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه وههنا لما أعلمهم أنه سيخلق في الأرض خلقاً.

قال قتادة: وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ الآية، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربنا، ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك،

فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، أي: نصلي لك كما سيأتي، أي: ولا يصدر من شيء من ذلك، وهلا وقع الاختصار علينا؟ قال الله تعالى مجيباً لهم عن هذا السؤال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم؛ فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد فيهم الصديقون والشهداء، والصالحون والعباد، والزهاد والأولياء، والأبرار والمقربون، والعلماء العاملون والخاشعون، والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله، صلوات الله وسلامه عليهم.

وقد ثبت في الصحيح: أن الملائكة إذا صعدت إلى الرب تعالى بأعمال عباده سألهم وهو أعلم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون. وذلك لأنهم يتعاقبون فينا ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيمكث هؤلاء ويصعد أولئك بالأعمال كما قال عليه السلام: «يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل» فقولهم: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون من تفسير قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقيل: معنى قوله جواباً لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أن لي حكمة مفصلة في خلق هؤلاء والحالة ما ذكرتم لا تعلمونها، وقيل: إنه جواب لقولهم: ﴿وَيَحْنُ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ﴾ فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: من وجود إبليس بينكم وليس هو كما وصفتم أنفسكم به. وقيل: بل تضمن قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ طلباً منهم أن يسكنوا الأرض بدل بني آدم، فقال الله تعالى لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أن بقاءكم في السماء أصلح لكم واليق بكم. ذكرها فخر الدين مع غيرها من الأجوبة، والله أعلم.

ذكر أقوال المفسرين ببسط ما ذكرناه:

قال ابن جرير: حدثني القاسم بن الحسن قال: حدثنا الحسين قال: حدثني الحجاج، عن جرير بن حازم، ومبارك، عن الحسن وأبي بكر، عن الحسن وقتادة، قالوا: قال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قال لهم: إني فاعل. وهذا معناه أنه أخبرهم بذلك. وقال السدي: استشار الملائكة في خلق آدم. رواه ابن أبي حاتم، قال: وروي عن قتادة نحوه. وهذه العبارة إن لم ترجع إلى معنى الأخبار ففيها تساهل، وعبارة الحسن وقتادة في رواية ابن جرير أحسن، والله أعلم. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد، حدثنا عطاء بن السائب، عن عبد الرحمن بن سابط أن رسول الله ﷺ قال: «دُجيت الأرض من مكة، وأول من طاف بالبيت الملائكة، فقال الله: إني جاعل في الأرض خليفة، يعني مكة». وهذا مرسل، وفي سنده ضعف، وفيه مُدْرَج، وهو أن المراد بالأرض مكة، والله أعلم؛ فإن الظاهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك. ﴿خَلِيفَةً﴾: قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة أن الله تعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالوا: ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويحسادون ويقتل بعضهم بعضاً. قال ابن جرير: فكان تأويل الآية على هذا: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ مني، يخلفني في الحكم بين خلقي، وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه. وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقه فمن غير خلفائه. قال ابن جرير: وإنما كان تأويل الآية على هذا معنى الخلافة التي ذكرها الله إنما هي خلافة قرن منهم قرناً. قال: والخليفة الفعيلة من قومك، خلف فلان فلاناً في هذا الأمر: إذا قام مقامه فيه بعده، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٦٤]. ومن ذلك قيل للسُّلْطَانُ الأعظم: خليفة؛ لأنه خلف الذي كان قبله، فقام بالأمر مقامه، فكان منه خلفاً.

قال: وكان محمد بن إسحاق يقول في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يقول: ساكناً وعامراً يسكنها ويعمرها خلفاً ليس منكم. قال ابن جرير: وحدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمار، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: أول من سكن الأرض الجن فآفَسُوا فيها وسفكوا فيها الدماء، وقتل بعضهم بعضاً. قال: فبعث الله إليهم إبليس، فقتلهم إبليس ومن معه حتى أحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال. ثم خلق آدم وأسكنه إياها، فلذلك قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. وقال سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن ابن سابط: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالوا: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ؟ قال: يعنون به بني آدم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال الله للملائكة: إني أريد أن أخلق في الأرض خلقاً وأجعل فيها خليفة وليس لله ﷻ، خلق إلا الملائكة، والأرض ليس فيها خلق، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟! وقد تقدم ما رواه السدي، عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة: أن الله أعلم الملائكة

بما يفعل ذرية آدم، فقالت الملائكة ذلك. وتقدم آنفاً ما رواه الضحاك، عن ابن عباس: أن الجن أفسدوا في الأرض قبل بني آدم، فقالت الملائكة ذلك، فقاموا هؤلاء بأولئك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن محمد الطنابيسي، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن بكير بن الأخنس، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، قال: كان الجن بنو الجان في الأرض قبل أن يخلق آدم بالف سنة، فأفسدوا في الأرض، وسفكوا الدماء، فبعث الله جنداً من الملائكة فضربوهم، حتى ألحقوهم بجزائر البحور، فقال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. قالوا: أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ قال: إني أعلم ما لا تعلمون. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ إلى قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُدَبُّونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ٣٣] قال: خلق الله الملائكة يوم الأربعاء وخلق الجن يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة؛ فكفر قوم من الجن، فكانت الملائكة تهبط إليهم في الأرض فتقاتلهم، فكانت الدماء بينهم، وكان الفساد في الأرض، فمن ثم قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ كما أفسدت الجن ﴿وَيَسْفِكُ الْدِمَاءَ﴾ كما سفكوا.

قال ابن أبي حاتم: وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا مبارك بن فضالة، حدثنا الحسن، قال: قال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قال لهم: إني فاعل. فأمنوا بربه، فعلمهم علماً وطوى عنهم علماً علمه ولم يعلموه، فقالوا بالعلم الذي علمهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ؟﴾ قال إني أعلم ما لا تعلمون. قال الحسن: إن الجن كانوا في الأرض يفسدون ويسفكون الدماء، ولكن جعل الله في قلوبهم أن ذلك سيكون فقالوا بالقول الذي علمهم. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة في قوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾: كان الله أعلمهم أنه كان في الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فذلك حين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام الرازي، حدثنا ابن المبارك، عن معروف، يعني ابن خربوذ المكي، عن سمع أبا جعفر محمد بن علي يقول: السجّل ملك، وكان هاروت وماروت من أعوانه، وكان له في كل يوم ثلاث لمحات ينظرهن في أم الكتاب، فنظر نظرة لم تكن له فابصر فيها خلق آدم وما فيه من الأمور، فأسر ذلك إلى هاروت وماروت، وكانا من أعوانه، فلما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ قال ذلك استطالة على الملائكة. وهذا أثر غريب. وبتقدير صحته إلى أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين الباقر، فهو نقله عن أهل الكتاب، وفيه نكارة توجب رده، والله أعلم. ومقتضاه أن الذين قالوا ذلك إنما كانوا اثنين فقط، وهو خلاف السياق.

وأغرب منه ما رواه ابن أبي حاتم - أيضاً - حيث قال: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن أبي عبد الله، حدثنا عبد الله بن يحيى بن أبي كثير، قال: سمعت أبي يقول: إن الملائكة الذين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ سَائِجِدُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ كانوا عشرة آلاف، فخرجت نار من عند الله فأحرقتهم. وهذا - أيضاً - إسرائيلي منكر كالذي قبله، والله أعلم. وقال ابن جرير: إنما تكلموا بما أعلمهم أنه كان من خلق آدم، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾. وقال ابن جرير: وقال بعضهم: إنما قالت الملائكة ما قالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؛ لأن الله أذن لهم في السؤال عن ذلك، بعدما أخبرهم أن ذلك كائن من بني آدم، فسألته الملائكة، فقالت على التعجب منها: وكيف يعصونك يا رب وأنت خالقهم؟! فأجابهم ربهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، يعني: أن ذلك كائن منهم. وإن لم تعلموه أنتم ومن بعض من ترونه لي طائعاً. قال: وقال بعضهم: ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عما لم يعلموا من ذلك، فكانهم قالوا: يا رب خبرنا، مسألة الملائكة استخبار منهم، لا على وجه الإنكار. واختاره ابن جرير. وقال سعيد عن قتادة قوله: ﴿وَرَأَى قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلِكِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فاستشار الملائكة في خلق آدم، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ وقد علمت الملائكة من علم الله أنه لا شيء أكره إلى الله من سفك الدماء والفساد في الأرض ﴿وَنَحْنُ سَائِجِدُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال إني أعلم ما لا تعلمون. فكان في علم الله أنه سيكون من تلك الخليقة أنبياء ورسول وقوم صالحون وساكنت الجنة، قال: وذكر لنا عن ابن عباس أنه كان يقول: إن الله لما أخذ في خلق آدم قالت الملائكة: ما الله خالق خلقاً أكرم عليه منا ولا أعلم منا، فابتلوا بخلق آدم، وكل خلق مبتلى كما ابتليت السموات والأرض بالطاعة فقال: ﴿أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالُوا أَلَيْسَ طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ سَائِجِدُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾: قال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: التسبيح: التسبيح، والتقدیس: الصلاة. وقال السدي، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿وَنَحْنُ سَائِجِدُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: يقولون: نصلي لك. وقال مجاهد: ﴿وَنَحْنُ سَائِجِدُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: نعظمك ونكبرك. وقال الضحاك: التقديس: التطهير. وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَنَحْنُ سَائِجِدُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: لا نعصي ولا نأتي شيئاً

تكرهه. وقال ابن جرير: التقديس: هو التعظيم والتطهير، ومنه قولهم: سُبُوحٌ قُدُّوسٌ، يعني بقولهم: سُبُوح، تنزيه له، ويقولهم: قدوس، طهارة وتعظيم له. ولذلك قيل للأرض: أرض مقدسة، يعني بذلك المطهرة. فمعنى قول الملائكة إذا: ﴿وَعَنْ سُبْحٍ بُحْدِكَ﴾، ننزهك ونبرئك مما يضيفه إليك أهل الشرك بك ﴿وَتُقَدِّسُ لَكَ﴾: ننسبك إلى ما هو من صفاتك، من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك. وفي صحيح مسلم عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ سئل: أي الكلام أفضل؟ قال: «ما اصطفى الله لملائكته سبحانه الله وبحمده». وروى البيهقي عن عبد الرحمن بن قرط أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به سمع تسبيحاً في السموات العلاء «سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى». ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال قتادة: فكان في علم الله أنه سيكون في تلك الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة، وسيأتي عن ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من الصحابة والتابعين أقوال في حكمة قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وقد استدل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما يختلفون فيه، ويقطع تنازعهم، ويتنصر لمظلومهم من ظالمهم، ويقيم الحدود، ويزجر عن تعاطي الفواحش، إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا يمكن إقامتها إلا بالإمام، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

والإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنة في أبي بكر، أو بالإيماء إليه كما يقول آخرون منهم، أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب، أو يتركه شورى في جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر، أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته أو بمبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور وحكى على ذلك إمام الحرمين الإجماع، والله أعلم، أو بقهر واحد الناس على طاعته فتجب لثلا يؤدي ذلك إلى الشقاق والاختلاف، وقد نص عليه الشافعي. وهل يجب الإشهاد على عقد الإمامة؟ فيه خلاف، فمنهم من قال: لا يشترط، وقيل: بلى ويكفي شاهدان، وقال الجبائي: يجب أربعة وعاقده ومعقود له، كما ترك عمر، رضي الله عنه، الأمر شورى بين ستة، فوقع الأمر على عاقد وهو عبد الرحمن بن عوف، ومعقود له وهو عثمان، واستنبط وجوب الأربعة الشهود من الأربعة الباقيين وفي هذا نظر، والله أعلم. ويجب أن يكون ذكراً حراً بالغاً عاقلاً مسلماً عدلاً مجتهداً بصيراً سليم الأعضاء خبيراً بالحروب والآراء قرشياً على الصحيح، ولا يشترط الهاشمي ولا المعصوم من الخطأ خلافاً للغلاة الروافض، ولو فسق الإمام هل ينزل أم لا؟ فيه خلاف، والصحيح أنه لا ينزل لقوله عليه الصلاة والسلام: «إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان»، وهل له أن يعزل نفسه؟ فيه خلاف، وقد عزل الحسن بن علي نفسه وسلم الأمر إلى معاوية لكن كان هذا لعذر وقد مدح على ذلك.

فأما نصب إمامين في الأرض أو أكثر فلا يجوز لقوله عليه الصلاة والسلام: «من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائناً من كان». وهذا قول الجمهور، وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد منهم إمام الحرمين، وقالت الكرامية: يجوز نصب إمامين فأكثر كما كان علي ومعاوية إمامين واجبي الطاعة، قالوا: وإذا جاز بعث نبين في وقت واحد وأكثر جاز ذلك في الإمامة؛ لأن النبوة أعلى رتبة بلا خلاف، وحكى إمام الحرمين عن الأستاذ أبي إسحاق أنه جوز نصب إمامين فأكثر إذا تباعدت الأقطار واتسعت الأقاليم بينهما، وتردد إمام الحرمين في ذلك، قلت: وهذا يشبه حال خلفاء بني العباس بالعراق والفاطميين بمصر والأمويين بالمغرب.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَكَادُمُ إِلَيْهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَبِأَسْمَائِهِمْ قَالَتْ أَلَمْ نَقُلْ لَكُمْ إِنِّي آعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة، بما اختصه به من علم أسماء كل شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له. وإنما قدم هذا الفصل على ذلك، لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة، حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم الله تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون؛ ولهذا ذكر تعالى هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم، فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾. وقال السدي، عمن حدثه، عن ابن عباس: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: عرض عليه أسماء ولده إنساناً إنساناً، والدواب، فقيل: هذا الحمار، هذا الجمل، هذا الفرس. وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان، ودابة، وسماء، وأرض، وسهل، وبحر، وجمل، وحمار، وأشياء ذلك من الأمم وغيرها. وروى ابن أبي حاتم وابن جرير، من حديث عاصم بن كليب، عن سعيد بن معبد، عن ابن عباس: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: علمه اسم الصحفة واليَدر، قال: نعم حتى الفسوة والفُسَيَّة. وقال

مجاهد: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: علمه اسم كل دابة، وكل طير، وكل شيء. وكذلك روي عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف: أنه علمه أسماء كل شيء. وقال الربيع في رواية عنه: أسماء الملائكة. وقال حميد الشامي: أسماء النجوم. وقال عبد الرحمن بن زيد: علمه أسماء ذريته كلهم. واختار ابن جرير أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ وهذا عبارة عما يعقل. وهذا الذي رجح به ليس بلازم، فإنه لا ينفي أن يدخل معهم غيرهم، ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب. كما قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّا تَلَوَّ فِيهِمْ مِّن مَّيْمُونٍ لَّا يَسْمَعُونَ وَلِلَّهِ يَرْجِعُونَ﴾ [النور: ٤٥]. وقد قرأ عبد الله بن مسعود: «ثم عرضهن» وقرأ أبي بن كعب: «ثم عرضها» أي: السموات.

والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها؛ ذواتها وأفعالها؛ كما قال ابن عباس حتى الفسوة والفُسْية. يعني أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر؛ ولهذا قال البخاري في تفسير هذه الآية من كتاب التفسير من صحيحه: حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام، حدثنا قتادة، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال - وقال لي خليفة: حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا سعيد، عن قتادة عن أنس، عن النبي ﷺ قال -: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا؟ فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقتك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هُناكم. ويذكر ذنبه فيستحيي؛ اتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتونه فيقول: لست هُناكم. ويذكر ذنبه فيستحيي؛ اتوا إبراهيم فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتونه فيقول: لست هُناكم. ويذكر سؤاله ربه ما ليس له به علم فيستحيي. فيقول: اتوا خليل الرحمن، فيأتونه، فيقول: لست هُناكم؛ فيقول: اتوا موسى عبداً كلمه الله، وأعطاه التوراة، فيأتونه، فيقول: لست هُناكم. ويذكر قتل النفس بغير نفس، فيستحيي من ربه؛ فيقول: اتوا عيسى عبداً الله ورسوله وكلمة الله وروحه، فيأتونه، فيقول: لست هُناكم؛ اتوا محمداً عبداً عَفَّرَ الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني، فأنطلق حتى أستاذن على ربي، فيؤذن لي، فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله، ثم يقال: ارفع رأسك، وسل تعطه، وقل يسمع، واشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأحمده بتحميد يعلمني، ثم أشفع فيحذلي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أعود إليه، وإذا رأيت ربي مثله، ثم أشفع فيحذلي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أعود الرابعة فأقول: ما بقي في النار إلا من حسبه القرآن ووجب عليه الخلود». هكذا ساق البخاري هذا الحديث ههنا. وقد رواه مسلم والنسائي من حديث هشام، وهو ابن أبي عبد الله الدستوثاني، عن قتادة، به. وأخرجه مسلم والنسائي وابن ماجة من حديث سعيد، وهو ابن أبي عروبة، عن قتادة. ووجه إيراد ههنا والمقصود منه قوله عليه الصلاة والسلام: «فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس خلقتك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء»، فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ يعني: المسميات؛ كما قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قال: ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة ﴿فَقَالَ أَتَيْتُكُمْ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وقال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ثم عرض المخلوق على الملائكة. وقال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾: عرض أصحاب الأسماء على الملائكة. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني الحجاج، عن جرير بن حازم ومبارك بن فضالة، عن الحسن - وأبي بكر، عن الحسن وقتادة - قالوا: علمه اسم كل شيء، وجعل يسمي كل شيء باسمه، وعرضت عليه أمة أمة. وبهذا الإسناد عن الحسن وقتادة في قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: إني لم أخلق خلقاً إلا كنتم أعلم منه، فأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: إن كنتم تعلمون لم أجعل في الأرض خليفة. وقال السدي، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: إن كنتم صادقين أن بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء.

وقال ابن جرير: وأولى الأقوال في ذلك تأويل ابن عباس ومن قال بقوله، ومعنى ذلك فقال: أنبئوني بأسماء من عرضته عليكم أيها الملائكة القائلون: أنجعل في الأرض من يفسد فيها ويسفك الدماء، من غيرنا أم منا، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ إن كنتم صادقين في قيلكم: إني إن جعلت خليفة في الأرض من غيركم عصاني ذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطمعوني واتبعت أمري بالتعظيم لي والتقديس، فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم، فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أخرى أن تكونوا غير عالمين.

وقوله: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٤) هذا تقدیس وتنزیه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى؛ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أي: العليم بكل شيء، الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك من تشاء ومنعك من تشاء، لك الحكمة في ذلك، والعدل التام. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن حجاج، عن ابن أبي مُيَيْكَةَ، عن ابن عباس: سبحان الله، قال: تنزيه الله نفسه عن السوء. قال: ثم قال عمر لعلي وأصحابه عنده: لا إله إلا الله، قد عرفناها، فما سبحان الله؟ فقال له علي: كلمة أحبها الله لنفسه، ورضيها، وأحب أن يقال. قال: وحدثنا أبي، حدثنا ابن نفيل، حدثنا النضر بن عربي قال: سأل رجل ميمون بن وهبان عن «سبحان الله»، فقال: اسم يُعْظَمُ الله به، ويَحْشَى به من السوء.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَكَادُمُ اثْنَيْتُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَتَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَِّّي أَقْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٣٥) قال زيد بن أسلم: قال: أنت جبريل، أنت ميكايل، أنت إسرئيل، حتى عدد الأسماء كلها، حتى بلغ الغراب. وقال مجاهد في قول الله: ﴿يَكَادُمُ اثْنَيْتُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ قال: اسم الحمامة، والغراب، واسم كل شيء. وروي عن سعيد بن جبیر، والحسن، وقتادة، نحو ذلك. فلما ظهر فضل آدم، عليه السلام، على الملائكة، عليهم السلام، في سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء، قال الله تعالى للملائكة: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَِّّي أَقْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي: أَلَمْ أَتَقَدِّمُ إِلَيْكُمْ أَنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ الظَّاهِرِ وَالْخَفِيِّ، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْخَفَى﴾ (٣٦) [طه: ٧]، وكما قال تعالى إخباراً عن الهمد أنه قال لسليمان: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْغَبَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُكَلِّمُونَ﴾ (٣٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٣٨﴾ [النمل: ٢٥، ٢٦]. وقيل في معنى قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ غير ما ذكرناه؛ فروى الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال: يقول: أعلم السر كما أعلم العلانية، يعني: ما كنتم إبليس في نفسه من الكبر والاعتزاز. وقال السدي، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة، قال: قولهم: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ فهذا الذي أبدوا ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يعني: ما أسر إبليس في نفسه من الكبر. وكذلك قال سعيد بن جبیر، ومجاهد، والسدي، والضحاك، والثوري. واختار ذلك ابن جرير.

وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، والحسن، وقتادة: هو قولهم: لم يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس: ﴿وَأَعْلَمُ مَا يُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فكان الذي أبدوا قولهم: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ وكان الذي كنتموا بينهم قولهم: لن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا نحن أعلم منه وأكرم. فعرفوا أن الله فضل عليهم آدم في العلم، والكرم. وقال ابن جرير: حدثنا يونس، حدثنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، في قصة الملائكة وآدم: فقال الله للملائكة: كما لم تعلموا هذه الأسماء فليس لكم علم، إنما أردت أن أجعلهم ليفسدوا فيها، هذا عندي قد علمته؛ ولذلك أخفيت عنكم أنني أجعل فيها من يعصيني ومن يطيعني، قال: وسبق من الله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [معد: ١١٩] قال: ولم تعلم الملائكة ذلك ولم يدروه قال: ولما رأوا ما أعطى الله آدم من العلم أقروا له بالفضل. وقال ابن جرير: وأولى الأقوال في ذلك قول ابن عباس، وهو أن معنى قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا يُبْدُونَ﴾: وأعلم - مع علمي غيب السموات والأرض - ما تظهرونه بالستكم وما كنتم تخفون في أنفسكم، فلا يخفى علي شيء، سواء عندي سرائركم، وعلايتكم. والذي أظهره بالستهم قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها، والذي كانوا يكتُمون ما كان عليه منطقياً إبليس من الخلاف على الله في أمره، والتكبر عن طاعته. قال: وصح ذلك كما تقول العرب: قُتِلَ الْجَيْشُ وَهُزِمُوا، وإنما قتل الواحد أو البعض، وهزم الواحد أو البعض، فيخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَوَّلَ يُبَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْعُتْرَةِ﴾ [الحجرات: ٤] ذُكِرَ أَنَّ الَّذِي نَادَى إِنَّمَا كَانَ وَاحِدًا مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، قال: وكذلك قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا يُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٦)

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته، حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم. وقد دل على ذلك أحاديث - أيضاً - كثيرة منها حديث الشفاعة المتقدم، وحديث موسى، عليه السلام: «رَبِّ، أرني آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة»، فلما اجتمع به قال: «أنت آدم الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته». قال... وذكر الحديث

كما سيأتي. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عُمارة، عن أبي روق، عن الضحّاك، عن ابن عباس قال: كان إبليس من حَيٍّ من أحياء الملائكة يقال لهم: الجِنّ، خلقوا من نار السموم، من بين الملائكة، وكان اسمه الحارث، وكان خازناً من خزان الجنة، قال: وخلق الملائكة كلهم من نور غير هذا الحي. قال: وخلق الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا لهبت قال: وخلق الإنسان من طين. فأول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، وقتل بعضهم بعضاً. قال: فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة - وهم هذا الحي الذين يقال لهم: الجِنّ - فقتلهم إبليس ومن معه، حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال، فلما فعل إبليس ذلك اغترّ في نفسه، فقال: قد صنعت شيئاً لم يصنعه أحد. قال: فاطلع الله على ذلك من قلبه، ولم يطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه، فقال الله تعالى للملائكة الذين معه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. فقالت الملائكة مجيبين له: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ كما أفسدت الجن وسفكت الدماء، وإنما بعثنا عليهم لذلك؟ فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. يقول: إني قد اطلعت من قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه من كبره واغتراره، قال: ثم أمر بتربة آدم فرفعت، فخلق الله آدم من طين لازب - واللازب: اللزج الصلب - من حمى مسنون متين، وإنما كان حمّاً مسنوناً بعد التراب. فخلق منه آدم بيده، قال: فمكث أربعين ليلة جسداً ملقى. فكان إبليس يأتيه فيضربه برجله، فيصلصل، أي فيصوت. قال: فهو قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ صَلْصَلِهِ كَذَّبَ حَتَّىٰ إِذَا أَفْخَارُ﴾ [الرحمن: ١٤] يقول: كالشيء المنفرج الذي ليس بمضمت. قال: ثم يدخل في فيه ويخرج من دبره، ويدخل من دبره، ويخرج من فيه. ثم يقول: لست شيئاً - للصلصلة - ولشيء ما خلقت، ولئن سلطت عليك لأهلكك، ولئن سلطت علي لأعصيتك. قال: فلما نفخ الله فيه من روحه، أتت النفخة من قبل رأسه، فجعل لا يجري شيء منها في جسده إلا صار لحماً ودماً. فلما انتهت النفخة إلى سُرته نظر إلى جسده فأعجبه ما رأى من جسده، فذهب لينهض فلم يقدر، فهو قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ جُرُودًا﴾ [الإسراء: ١١] قال: ضجر لا صبر له على سراء ولا ضراء. قال: فلما تمت النفخة في جسده عطس، فقال: «الحمد لله رب العالمين» بإلهام الله. فقال الله له: «يرحمك الله يا آدم».

قال: ثم قال الله تعالى للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون الملائكة الذين في السموات: اسجدوا لآدم. فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس أبى واستكبر، لما كان حدث نفسه من الكبر والاعتزاز. فقال: لا أسجد له، وأنا خير منه وأكبر سناً وأقوى خلقاً، خلقتني من نار وخلقته من طين. يقول: إن النار أقوى من الطين. قال: فلما أبى إبليس أن يسجد أبلسه الله، أي: آيسه من الخير كله، وجعله شيطاناً رجيماً عُقُوبَةً لمعصيته، ثم علّم آدم الأسماء كلها، وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان وداية وأرض وسهل وبحر وجبل وحمار، وأشياء ذلك من الأمم وغيرها. ثم عرض هذه الأسماء على أولئك الملائكة، يعني: الملائكة الذين كانوا مع إبليس، الذين خلقوا من نار السموم، وقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَؤُلَاءُ﴾ يقول: أخبروني بأسماء هؤلاء. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: إن كنتم تعلمون لم أجعل في الأرض خليفة. قال: فلما علمت الملائكة مودة الله عليهم فيما تكلموا به من علم الغيب، الذي لا يعلمه غيره، الذي ليس لهم به علم قالوا: سبحانك، تنزيهاً لله من أن يكون أحد يعلم الغيب غيره، وتبناً إليك ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ تبرئاً منهم من علم الغيب، إلا ما علمتنا كما علمت آدم، فقال: ﴿يَكْفُرُ أَتْقَهُمْ﴾ يعني: يقول: أخبرهم بأسمائهم ﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ﴾ يقول: أخبرهم ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ قال آثم أكل لكم، أيها الملائكة خاصة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولا يعلم غيري ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُدْرُونَ﴾ يقول: ما تظهرون ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يقول: أعلم السر كما أعلم العلانية، يعني: ما كنتم إبليس في نفسه من الكبر والاعتزاز.

هذا سياق غريب، وفيه أشياء فيها نظر، يطول مناقشتها، وهذا الإسناد إلى ابن عباس يروى به تفسير مشهور. وقال السدي في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ: لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش، فجعل إبليس على مُلْك السماء الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم: الجن، وإنما سموها الجن لأنهم خزان الجنة، وكان إبليس مع مُلْك خازناً، فوقع في صدره كبر وقال: ما أعطاني الله هذا إلا لمزية لي على الملائكة. فلما وقع ذلك الكبر في نفسه اطلع الله على ذلك منه. فقال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالوا: ربنا، وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً. قالوا: ربنا، ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَيَحْنُ تَسْبِيحَ مَحْمُودِكَ وَتُعَذِّبُكَ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: من شأن إبليس. فبعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت الأرض: إني أعوذ بالله منك أن تقبض مني أو تشينني فرجع ولم يأخذ، وقال: رب مني عاذت بك فأعذتها، فبعث ميكائيل، فعاذت منه فأعادها، فرجع فقال كما قال جبريل، فبعث مُلْك الموت

فعاذت منه . فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره ، فأخذ من وجه الأرض ، وخلقَ ولم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء ، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين ، فصعد به قبْلُ التراب حتى عاد طيناً لازباً - واللّازب : هو الذي يلتزق ببعضه ببعض - ثم قال للملائكة : ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ۖ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُم سَجْدًا﴾ [ص: ٧١ ، ٧٢] فخلق الله بيده لثلا يتكبر [إبليس عنه ، ليقول له : تتكبر عما عملت بيدي ، ولم أتكبر أنا عنه . فخلقته بشراً ، فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة ، فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه ، وكان أشدهم فرعاً منه إبليس ، فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار وتكون له صلصلة . فذلك حين يقول : ﴿مِن صَلَاسٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] ويقول : لأمر ما خلقت . ودخل من فيه فخرج من دبره ، وقال للملائكة : لا ترهبوا من هذا ، فإن ربكم صمدٌ وهذا أجوف . لئن سلطت عليه لأهلكنه ، فلما بلغ الحين الذي يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح ، قال للملائكة : إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له . فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه ، عطسَ ، فقالت الملائكة : قل : الحمد لله . فقال : الحمد لله . فقال له الله : رحمك ربك . فلما دخلت الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة . فلما دخل الروح في جوفه اشتهى الطعام ، فوثب قبل أن تبلغ الروح رجله عجلان إلى ثمار الجنة ، فذلك حين يقول تعالى : ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٢٧] .

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [٢٨] ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَدَ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [٢٩] [الحجر: ٣٠ ، ٣١] ، أبى واستكبر وكان من الكافرين . قال الله له : ما منعك أن تسجد إذ أمرتك لما خلقت بيدي ؟ قال : أنا خير منه ، لم أكن لأسجد لمن خلقته من طين . قال الله له : اخرج منها فما يكون لك ، يعني : ما ينبغي لك ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣] والصغار : هو الذل . قال ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ثم عرض الخلق على الملائكة ﴿فَقَالَ أَيُّكُمْ يَأْمُرُ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء ، فقالوا : ﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ قال الله : ﴿يَا آدَمُ أَنْفِخْ فِيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْفَخْتُ فِيهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال : قولهم : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ فهذا الذي أبدوا ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يعني : ما أسر إبليس في نفسه من الكبر .

فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السُّدِّي ، ويقع فيه إسرائيليات كثيرة ، فلعل بعضها مُذْرَج ليس من كلام الصحابة ، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة . والله أعلم . والحاكم يروي في مستدركه بهذا الإسناد بعينه أشياء ، ويقول : هو على شرط البخاري . والغرض أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليس في خطابه ؛ لأنه - وإن لم يكن من عُصَهرهم - إلا أنه كان قد تشبَّه بهم وتوسم بأفعالهم ؛ فلهذا دخل في الخطاب لهم ، وذم في مخالفة الأمر . وسنبسط المسألة - إن شاء الله تعالى - عند قوله : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] . ولهذا قال محمد بن إسحاق ، عن خلاد ، عن عطاء ، عن طاوس ، عن ابن عباس : قال : كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل ، وكان من سكان الأرض ، وكان من أشد الملائكة اجتهاداً ، وأكثرهم علماً ؛ فذلك دعاه إلى الكبر ، وكان من حي يسمون جناً .

وفي رواية عن خلاد ، عن عطاء ، عن طاوس - أو مجاهد - عن ابن عباس ، أو غيره ، بنحوه . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد - يعني : ابن العوام - عن سفيان بن حسين ، عن يعلى بن مسلم ، عن سعيد بن جبَّير ، عن ابن عباس قال : كان إبليس اسمه عزازيل ، وكان من أشراف الملائكة من ذوي الأجنحة الأربعة ، ثم أبلس بعد . وقال سُبيد ، عن حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس : كان إبليس من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازناً على الجنان ، وكان له سلطان سماء الدنيا ، وكان له سلطان الأرض . وهكذا روى الضحاك وغيره عن ابن عباس ، سواء . وقال صالح مولى التُوَامة ، عن ابن عباس : إن من الملائكة قبيلًا يقال لهم : الجن ، وكان إبليس منهم ، وكان يسوس ما بين السماء والأرض ، فعصى ، ففسخه الله شيطاناً رجيماً . رواه ابن جرير .

وقال قتادة عن سعيد بن المسيب : كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا . وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عدي بن أبي عدي ، عن عوف ، عن الحسن : قال : ما كان إبليس من الملائكة طرفه عين قط ، وإنه لأصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنسان . وهذا إسناد صحيح عن الحسن . وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم سواء . وقال شهر بن حوشب : كان إبليس من الجن الذين طردتهم الملائكة ، فأفسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء ، رواه ابن جرير . وقال سُبيد بن داود : حدثنا شُسيم ، أنبأنا عبد الرحمن بن يحيى ، عن موسى بن نمير وعثمان بن سعيد بن كامل ، عن سعد بن مسعود ، قال : كانت الملائكة تقاتل الجن ، فسبى إبليس وكان صغيراً ، فكان مع الملائكة ، فتعبد معها ، فلما أمروا بالسجود لآدم سجدوا ، فأبى إبليس . فلذلك قال تعالى : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠] . وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن سنان القرزاي ، حدثنا أبو

عاصم، عن شريك، عن رجل، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: إن الله خلق خلقاً، فقال: اسجدوا لآدم. فقالوا: لا نفعل. فبعث الله عليهم ناراً فأحرقتهم، ثم خلق خلقاً آخر، فقال: إني خالق بشرأ من طين، اسجدوا لآدم. قال: فأبوا. فبعث الله عليهم ناراً فأحرقتهم. ثم خلق هؤلاء، فقال: اسجدوا لآدم. قالوا: نعم. وكان إبليس من أولئك الذين أبوا أن يسجدوا لآدم. وهذا غريب، ولا يكاد يصح إسناده، فإن فيه رجلاً مبهماً، ومثله لا يحتج به، والله أعلم.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ فكانت الطاعة لله، والسجدة أكرم الله آدم بها أن أسجد له ملائكته. وقال في قوله تعالى: ﴿سَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ حسد عدو الله إبليس آدم، عليه السلام، على ما أعطاه الله من الكرامة، وقال: أنا ناري وهذا طيني. وكان بدء الذنوب الكبير، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم، عليه السلام. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، حدثنا صالح بن حيّان، حدثنا عبد الله بن يزيد: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ من الذين أبوا، فأحرقتهم النار. وقال أبو جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ يعني: من العصيين. وقال السدي: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾: الذين لم يخلقهم الله يومئذ يكونون بعد.

وقال محمد بن كعب القرظي: ابتداء الله خلق إبليس على الكفر والضلالة، وعمل بعمل الملائكة، فصيره إلى ما أبدى عليه خلقه من الكفر، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾. وقال بعض الناس: كان هذا سجود تحية وسلام وإكرام، كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأَيُّتُ هَذَا تَوَلَّىٰ أَتُؤْبِتُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رَبِّيَ حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠] وقد كان هذا مشروعاً في الأمم الماضية ولكنه نسخ في ملتنا، قال معاذ: قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم، فأتت يا رسول الله أحق أن يسجد لك، فقال: «لا، لو كنت أمراً بشراً أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها، ورجحه الرازي، وقال بعضهم: بل كانت السجدة لله وآدم قبله فيها كما قال: ﴿أَوَيَّرَ الْمَلَكُوتُ الْخَلْقَ﴾ [الإسراء: ٧٨] وفي هذا التنظير نظر، والأظهر أن القول الأول أولى، والسجدة لآدم إكراماً وإعظاماً واحتراماً وسلاماً، وهي طاعة لله، ولأنها امتثال لأمره تعالى، وقد قواه الرازي في تفسيره وضعف ما عده من القولين الآخرين وهما كونه جعل قبله إذ لا يظهر فيه شرف، والآخر: أن المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء ووضع الجبهة على الأرض وهو ضعيف كما قال. قلت: وقد ثبت في الصحيح: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر» وقد كان في قلب إبليس من الكبر - والكفر - والعناد ما اقتضى طرده وإبعاده عن جناب الرحمة وحضرة القدس؛ قال بعض المعريين: وكان من الكافرين أي: وصار من الكافرين بسبب امتناعه، كما قال: ﴿فَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٣]، وقال: ﴿فَنَكَّوْنَا مِنَ الْفَالِغِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] وقال الشاعر:

بتيها قفر والمطي كأنها قفا الحزن قد كانت فراحاً بيوضها
أي: قد صارت، وقال ابن فورك: تقديره: وقد كان في علم الله من الكافرين، ورجحه القرطبي، وذكر ههنا مسألة فقال: قال علماؤنا: من أظهر الله على يديه ممن ليس بنبي كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالاً على ولايته، خلافاً لبعض الصوفية والرافضة هذا لفظه. ثم استدل على ما قال: بأن لا يقطع بهذا الذي جرى الخارق على يديه أنه يوافي الله بالإيمان، وهو لا يقطع لنفسه بذلك، يعني والولي الذي يقطع له بذلك في نفس الأمر. قلت: وقد استدل بعضهم على أن الخارق قد يكون على يدي غير الولي، بل قد يكون على يد الفاجر والكافر، أيضاً، بما ثبت عن ابن صياد أنه قال: هو الدخ حين خبا له رسول الله ﷺ: ﴿فَأَرَبَّتْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ دُخَانًا مُّبِينًا﴾ [الدخان: ١٠]، وبما كان يضدر عنه أنه كان يملأ الطريق إذا غضب حتى ضربه عبد الله بن عمر، وبما ثبت به الأحاديث عن الدجال بما يكون على يديه من الخوارق الكثيرة من أنه يأمر السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تثبت فتثبت، وتبعه كنوز الأرض مثل اليعاسيب، وأنه يقتل ذلك الشاب ثم يحييه إلى غير ذلك من الأمور المبهولة. وقد قال يونس بن عبد الأعلى الصديقي: قلت للشافعي: كان الليث بن سعد يقول: إذا رأيت الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة، فقال الشافعي: قصر الليث، رحمه الله، بل إذا رأيت الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة، وقد حكى فخر الدين وغيره قولين للعلماء: هل المأمور بالسجود لآدم خاص بملائكة الأرض، أو عام في ملائكة السموات والأرض، وقد رجح كلا من القولين طائفة، وظاهر الآية الكريمة العموم: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [٢٠] إِلَّا إِبْلِيسَ [الحجر: ٣٠، ٣١ ص: ٧٣، ٧٤] فهذه أربعة أوجه مقوية للعموم، والله أعلم.

﴿وَلَمَّا يَخْلَدُ اسْتَكْبَرَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى اللَّهِ وَلَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الْغَالِبِينَ ﴿٢٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا

مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقَلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

يقول الله تعالى إخباراً عما أكرم به آدم، بعد أن أمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا إلا إبليس: إنه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء، ويأكل منها ما شاء، رَغَدًا، أي: هنيئاً واسعاً طيباً. وروى الحافظ أبو بكر بن مَرْذُويه، من حديث محمد بن عيسى الدامغاني، حدثنا سلمة بن الفضل، عن ميكايل، عن ليث، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر، قال: قلت: يا رسول الله؛ أريت آدم، أنبيأ كان؟ قال: نعم، نبيأ رسولاً، كلمه الله قَبْلًا، فقال: ﴿أَسْكَنْتَ أَتَ وَزَوْجَكَ الْجَنَّةَ﴾. وقد اختلف في الجنة التي أسكنها آدم، أهى في السماء أم في الأرض؟ والأكثرون على الأول، وحكى القرطبي عن المعتزلة والقدرية القول بأنها في الأرض، وسيأتي تقرير ذلك في سورة الأعراف، إن شاء الله تعالى، وسياق الآية يقتضي أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة. وقد صرح بذلك محمد بن إسحاق، حيث قال: لما فرغ الله من معابة إبليس، أقبل على آدم وقد علّمه الأسماء كلها، فقال: ﴿يَكَادُمْ أَتِيْتُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْكَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. قال: ثم ألقى السُّنَّةَ على آدم - فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم، عن ابن عباس وغيره - ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر، ولأم مكانه لحماً، وآدم نائم لم يهب من نومه، حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء، فسواها امرأة ليسكن إليها. فلما كُثِفَ عنه السُّنَّةُ وهب من نومه، رآها إلى جنبه، فقال - فيما يزعمون والله أعلم -: لحمي ودمي وروحي. فسكن إليها. فلما زوّجه الله، وجعل له سكناً من نفسه، قال له قَبْلًا: ﴿يَكَادُمْ أَتَسْكُنُ أَتَ وَزَوْجَكَ الْجَنَّةَ وَكَلَّا مَتْنَهَا رَغَدًا حَيْثُ يَشْتَتَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

ويقال: إن خلق حواء كان بعد دخوله الجنة، كما قال السدي في تفسيره، ذكره عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: أخرج إبليس من الجنة، وأسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وخشاً ليس له زوج يسكن إليه، فنام نومة فاستيقظ، وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها: ما أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إلي. قالت له الملائكة - ينظرون ما بلغ من علمه -: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء. قالوا: ولم سميت حواء؟ قال: إنها خلقت من شيء حي. قال الله: ﴿يَكَادُمْ أَتَسْكُنُ أَتَ وَزَوْجَكَ الْجَنَّةَ وَكَلَّا مَتْنَهَا رَغَدًا حَيْثُ يَشْتَتَا﴾. وأما قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم. وقد اختلف في هذه الشجرة: ما هي؟ فقال السدي، عمن حدثه، عن ابن عباس: الشجرة التي نهى عنها آدم، عليه السلام، هي الكَرْزُ. وكذا قال سعيد بن جبیر، والسدي، والشعبي، وجَعْفَةُ بن هُبَيْرَةَ، ومحمد بن قيس. وقال السدي - أيضاً - في خبر ذكره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ هي الكرم. وتزعم يهود أنها الحنطة. وقال ابن جرير وابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل بن سمرة الأحمسي، حدثنا أبو يحيى الجُماني، حدثنا النضر أبو عمر الخزاز، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس، قال: الشجرة التي نُهي عنها آدم، عليه السلام، هي السنبلة. وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عيينة وابن المبارك، عن الحسن بن عمار، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، قال: هي السنبلة. وقال محمد بن إسحاق، عن رجل من أهل العلم، عن حجاج، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: هي البر. وقال ابن جرير: وحدثني المثنى بن إبراهيم، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا القاسم، حدثني رجل من بني تميم، أن ابن عباس كتب إلى أبي الجلد يسأله عن الشجرة التي أكل منها آدم، والشجرة التي تاب عندها آدم. فكتب إليه أبو الجلد: سألتني عن الشجرة التي نهى عنها آدم، وهي السنبلة، وسألتني عن الشجرة التي تاب عندها آدم، وهي الزيتون. وكذلك فسر الحسن البصري، وهب بن مَثْبُة، وعطية العوفي، وأبو مالك، ومحارب بن دثار، وعبد الرحمن بن أبي ليلى. وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أهل اليمن، عن وهب بن منبه: أنه كان يقول: هي البُر، ولكن الحية منها في الجنة ككلى البقر، ألين من الزبد وأحلى من العسل. وقال سفيان الثوري، عن حصين، عن أبي مالك: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ قال: النخلة.

وقال ابن جرير، عن مجاهد: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ قال: تينة. وبه قال قتادة وابن جريج. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية: كانت الشجرة من أكل منها أحدث، ولا ينبغي أن يكون في الجنة حَدَثٌ، وقال عبد الرزاق: حدثنا عمر بن عبد الرحمن بن مُهْرَب، قال: سمعت وهب بن منبه يقول: لما أسكن الله آدم وزوجته الجنة، ونهاه عن أكل الشجرة، وكانت شجرة غصونها متشعب بعضها من بعض، وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم، وهي الثمرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته. فهذه أقوال ستة في تفسير هذه الشجرة. قال الإمام العلامة أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: والصواب في ذلك أن يقال: إن الله جل ثناؤه، نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة، دون سائر أشجارها، فأكل منها، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين؟ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة. وقد قيل:

كانت شجرة البر، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التين. وجائز أن تكون واحدة منها، وذلك علم، إذا علم ينفع العالم به علمه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به، والله أعلم. وكذلك رجع الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره وغيره وهو الصواب.

وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾: يصح أن يكون الضمير في قوله: ﴿عَنْهَا﴾ عائداً إلى الجنة، فيكون معنى الكلام كما قال حمزة وعاصم بن بهدلة، وهو ابن أبي النجود: فأزالهما، أي: فنجاهما. ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورين، وهو الشجرة، فيكون معنى الكلام كما قال الحسن وقتادة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أي: من قبيل الزلل، فعلى هذا يكون تقدير الكلام ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أي: بسببها، كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِكُ عَنْهُ مِنَ الْغَيْبِ﴾ [الذاريات: ٢٩] أي: يصرف بسببه من هو مأفوك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَاهُ وَمَا كَانَا فِيهِ﴾ أي: من اللباس والمنزل والرحب والرزق الهنيء والراحة.

﴿وَقُلْنَا أَمْطُوا بَعْضُكُمْ لِبَاسَهُ عَنِ الْآرْضِ مُمْسِكٌ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مَسْكَنٌ﴾ أي: قرار وأرزاق وأجبال ﴿إِلَّا جِبْنَ﴾ أي: إلى وقت مؤقت ومقدار معين، ثم تقوم القيامة. وقد ذكر المفسرون من السلف كالسدي بأسانيد، وأبي العلية، ووهب بن منبه وغيرهم، ههنا أخباراً إسرائيلية عن قصة الحية، وإبليس، وكيف جرى من دخول إبليس الجنة ووسوسته، وسنسط ذلك، إن شاء الله، في سورة الأعراف، فهناك القصة أبسط منها ههنا، والله الموفق. وقد قال ابن أبي حاتم ههنا: حدثنا علي بن الحسن بن إشكاب، حدثنا علي بن عاصم، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم رجلاً طَوَّالاً، كثير شعر الرأس، كأنه نخلة سَحُوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يَشْتَدُّ في الجنة، فأخذت شَعْرَهُ شَجَرَةً، فَنَازَعَهَا، فَنَادَاهُ الرَّحْمَنُ: يَا آدَمُ، مَنِي تَقَرُّ! فلما سمع كلام الرحمن قال: يا رب، لا، ولكن استحياء». قال: وحديثي جعفر بن أحمد بن الحكم القومسي سنة أربع وخمسين ومائتين، حدثنا سليم بن منصور بن عمار، حدثنا علي بن عاصم، عن سعيد، عن قتادة، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما ذاق آدم من الشجرة قَرَّ هارباً؛ فتعلقت شجرة بشعره، فنودي: يا آدم، أفراراً مني؟ قال: بل خياء منك، قال: يا آدم أخرج من جوارى؛ فبعزتي لا يساكنني فيها من عصاني، ولو خلقت مثلك ملء الأرض خلقاً ثم عصوني لأسكتهم دار العاصين». هذا حديث غريب، وفيه انقطاع، بل إعضال بين قتادة وأبي بن كعب، رضي الله عنهما؛ وقال الحاكم: حدثنا أبو بكر بن بالويه، عن محمد بن أحمد بن النضر، عن معاوية بن عمرو، عن زائدة، عن عَمَّار بن معاوية البجلي، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وقال عبد بن حميد في تفسيره: حدثنا روح، عن هشام، عن الحسن، قال: لبث آدم في الجنة ساعة من نهار، تلك الساعة ثلاثون ومائة سنة من أيام الدنيا. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، قال: خرج آدم من الجنة للساعة التاسعة أو العاشرة، فأخرج آدم معه غصناً من شجرة الجنة، على رأسه تاج من شجرة الجنة وهو الإكليل من ورق الجنة. وقال السدي: قال الله تعالى: ﴿أَمْطُوا مِنْهَا بَعْضاً﴾ فهبطوا فنزل آدم بالهند، ونزل معه الحجر الأسود، وقبضة من ورق الجنة فيه بالهند، فنبتت شجرة الطيب، فإنما أصل ما يجاء به من الهند من الطيب من قبضة الورق التي هبط بها آدم، وإنما قبضها آدم أسفاً على الجنة حين أخرج منها. وقال عمران بن عيينة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: أهبط آدم من الجنة يدخنا، أرض بالهند. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن عطاء، عن سعيد عن ابن عباس قال: أهبط آدم، عليه السلام، إلى أرض يقال لها: دُخْناء، بين مكة والطائف. وعن الحسن البصري، قال: أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدستيسان من البصرة على أميال، وأهبطت الحية بأصبهان. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، حدثنا محمد بن سعيد بن سابق، حدثنا عمرو بن أبي قيس، عن ابن عدي، عن ابن عمر، قال: أهبط آدم بالصفاء، وحواء بالمروة. وقال رجاء بن سلمة: أهبط آدم، عليه السلام، يده على ركبتيه مطأطأ رأسه، وأهبط إبليس مشبكاً بين أصابعه رافعاً رأسه إلى السماء. وقال عبد الرزاق: قال مَعْمَرُ: أخبرني عَوْفُ، عن قَسَّامَةَ بن زهير، عن أبي موسى، قال: إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض، غلَّمه صنعة كل شيء، وزوده من ثمار الجنة، فثماركم هذه من ثمار الجنة، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير.

وقال الزهري، عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها» رواه مسلم والنسائي. وقال فخر الدين: اعلم أن في هذه الآيات

تهديداً عظيماً عن كل المعاصي من وجوه: الأول: أن من تصور ما جرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل شديد من المعاصي، قال الشاعر:

يا ناظراً يرنو بعيني راقداً ومشاهداً للأمر غير مشاهد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي درج الجنان ونيل فوز العابد
أنسيت ربك حين أخرج آدمأ منها إلى الدنيا بذنوب واحد

قال فخر الدين عن فتح الموصلي أنه قال: كنا قوماً من أهل الجنة فسينا إبليس إلى الدنيا، فليس لنا إلا الهم والحزن حتى نرد إلى الدار التي أخرجنا منها. فإن قيل: فإذا كانت جنة آدم التي أسكنها في السماء كما يقوله الجمهور من العلماء، فكيف يمكن إبليس من دخول الجنة، وقد طرد من هنالك طرداً قديراً، والقدر لا يخالف ولا يمانع؟ فالجواب: أن هذا بعينه استدلال به من يقول: إن الجنة التي كان فيها آدم في الأرض لا في السماء، وقد بسطنا هذا في أول كتاب البداية والنهاية، وأجاب الجمهور بأجوبة، أحدها: أنه منع من دخول الجنة مكرماً، فأما على وجه الردع والإهانة، فلا يمتنع؛ ولهذا قال بعضهم: كما جاء في التوراة أنه دخل في فم الحية إلى الجنة، وقد قال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو خارج باب الجنة، وقال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو في الأرض، وهما في السماء، ذكرها الزمخشري وغيره. وقد أورد القرطبي ههنا أحاديث في الحيات وقتلهن وبين حكم ذلك، فأجاد وأفاد.

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَاتَّبَعَ عَلَيْهِمْ وَإِنَّهُ هُوَ الثَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣٧)

قيل: إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى: ﴿فَلَا رَيْبَ أَنْتَ لَهَا فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَاتَّبَعَ عَلَيْهِمْ وَإِنَّهُ هُوَ الثَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣٧) [الأعراف: ٢٢٣]؛ روي هذا عن مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وأبي العالية، والربيع بن أنس، والحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب القرظي، وخالد بن معدان، وعطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال أبو إسحاق السبيعي، عن رجل من بني تميم، قال: أتيت ابن عباس، فسألته: قلت: ما الكلمات التي تلقى آدم من ربه؟ قال: علم آدم شأن الحج.

وقال سفيان الثوري، عن عبد العزيز بن رُقيع، أخبرني من سمع عبيد بن عمير، وفي رواية: قال: أخبرني مجاهد، عن عبيد بن عمير، أنه قال: قال آدم: يا رب، خطيئتي التي أخطأت شيء كتبت علي قبل أن تخلقني، أو شيء ابتدعته من قبل نفسي؟ قال: بل شيء كتبت عليك قبل أن أخلقك. قال: فكما كتبت علي فاغفر لي. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾.

وقال السدي، عن حدثه، عن ابن عباس: فتلقى آدم من ربه كلمات، قال: قال آدم، عليه السلام: يا رب، ألم تخلقني بيدك؟ قيل له: بلى. ونفخت في من روحك؟ قيل له: بلى. وعطست فقلت: يرحمك الله، وسبقت رحمتك غضبك؟ قيل له: بلى، وكتبت علي أن أعمل هذا؟ قيل له: بلى. قال: أفرايت إن تبث هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال: نعم. وهكذا رواه العوفي، وسعيد بن جبيرة، وسعيد بن مَعْبُد، عن ابن عباس، بنحوه. ورواه الحاكم في مستدركه من حديث سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه وهكذا فسره السدي وعطية العوفي.

وقد روى ابن أبي حاتم ههنا حديثاً شبيهاً بهذا فقال: حدثنا علي بن الحسن بن إشكاب، حدثنا علي بن عاصم، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال آدم، عليه السلام: أرأيت يا رب إن تبث ورجعت، أعاندي إلى الجنة؟ قال: نعم. فذلك قوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾. وهذا حديث غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال: إن آدم لما أصاب الخطيئة قال: يا رب، أرأيت إن تبث وأصلحت؟ قال الله: إذن أرجعك إلى الجنة فهي من الكلمات. ومن الكلمات أيضاً: ﴿وَرَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَنَا تَقَفْرٌ لَنَا وَنَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٢٣].

وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد أنه كان يقول في قول الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال: الكلمات: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاقب علي، إنك أنت التواب الرحيم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الثَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ أي: إنه يتوب على من تاب إليه وأناب، كقوله: ﴿أَلَمْ يَلْمِزُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ

عِبَادِهِ. [التوبة: ١٠٤]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَمَلَّ سَوْءًا أَوْ يَطْلُبْ فَنَسْتُمْ ثُمَّ يَسْتَغْفِرَ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقوله: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧١]، وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب ويتوب على من يتوب وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبديه، لا إله إلا هو التواب الرحيم. وذكرنا في المسند الكبير من طريق سليمان بن سليم عن ابن بريدة وهو سليمان عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «لما أهبط الله آدم إلى الأرض طاف بالبيت سبعاً، وصلى خلف المقام ركعتين، ثم قال: اللهم إنك تعلم سري وعلايتي فاقبل معذرتي، وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي، وتعلم ما عندي فاغفر ذنوبي، أسألك إيماناً يباشر قلبي، و يقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لن يصيبني إلا ما كتبت لي. قال: فأوحى الله إليه إنك قد دعوتني بدعاء أستجيب لك فيه ولمن يدعوني به، وفرجت همومه وغمومه، ونزعت فقره من بين عينيه، وأجرت له من وراء كل تاجر زينة الدنيا وهي كلمات عهد وإن لم يزد لها» رواه الطبراني في معجمه الكبير.

﴿فَلَمَّا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَعَلْنَا بَنِي آدَمَ تَبَعًا لِمَنْ هَدَىٰ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٢٨] وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [٢٩].

يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حتى أهبطهم من الجنة، والمراد الذرية: أنه سينزل الكتب، ويبعث الأنبياء والرسول؛ كما قال أبو العالية: الهدى: الأنبياء والرسول والبيان. وقال مقاتل بن خيَّان: الهدى محمد ﷺ. وقال الحسن: الهدى القرآن. وهذان القولان صحيحان، وقول أبي العالية أعم. ﴿فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ﴾ أي: من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا، كما قال في سورة طه: ﴿قَالَ أَهْبِطُوا مِنْهَا جَعِلَ لَكُمْ لِكُلِّ شَيْءٍ عَدُوٌّ مُّبِينٌ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَصِلْ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣] قال ابن عباس: فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا يَنْصُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤] كما قال ههنا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [٢٩] أي: مخلدون فيها، لا محيد لهم عنها، ولا محيص.

وقد أورد ابن جرير، رحمه الله، ههنا حديثاً ساقه من طريقين، عن أبي مسلمة سعيد بن يزيد، عن أبي نصر المُنْذِر بن مالك بن قطعة، عن أبي سعيد - واسمه سعد بن مالك بن سنان الخُذْري - قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، لكن أقواماً أصابتهم النار بخطاياهم، أو بذنوبهم فاماتتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحمًا أذن في الشفاعة». وقد رواه مسلم من حديث شعبة عن أبي سلمة، به. وذكر هذا الإيهام الثاني لما تعلق به ما بعده من المعنى المغاير للأول، وزعم بعضهم أنه تأكيد وتكرير، كما تقول: قم قم، وقال آخرون: بل الإيهام الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، والثاني من سماء الدنيا إلى الأرض، والصحيح الأول، والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

﴿يَتَّبِعْ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا يَتَّبِعْ آلِيَّ أَتَمَّتْ عَلَيْكَ وَأَرْوَاهُ يَهْدِي أَوْ يَهْدِكُمْ وَلَئِنْ فَازَهُمْ يَوْنٌ ۖ وَآيِنُوا يَمَّا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰئِكَ كَانُوا فِي يَدَيْ يَتَّبِعُونَ نَارًا قَلِيلًا وَلَئِنْ فَازَهُمْ يَوْنٌ ۖ فَآتُونِي﴾ [٢٩].

يقول تعالى آمراً بني إسرائيل بالدخول في الإسلام، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، ومُهِجاً لهم بذكر أبيهم إسرائيل، وهو نبي الله يعقوب، عليه السلام، وتقديره: يا بني العبد الصالح المطيع لله كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق، كما تقول: يا ابن الكريم، افعل كذا. يا ابن الشجاع، بارز الأبطال. يا ابن العالم، اطلب العلم ونحو ذلك. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانَتْ عِبَادًا شَاكِرِينَ﴾ [الإسراء: ٢٣] لإسرائيل هو يعقوب، عليه السلام، بدليل ما رواه أبو داود الطيالسي: حدثنا عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، قال: حدثني عبد الله بن عباس قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقال لهم: «هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب؟» قالوا: اللهم نعم. فقال النبي ﷺ: «اللهم اشهد». وقال الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء، عن عمير مولى ابن عباس، عن عبد الله بن عباس؛ أن إسرائيل كقولك: عبد الله.

وقوله تعالى: ﴿أَذْكُرُوا يَتَّبِعْ آلِيَّ أَتَمَّتْ عَلَيْكَ﴾ قال مجاهد: نعمة الله التي أنعم بها عليهم فيما سمى وفيما سوى ذلك؛ فَجَّرَ لهم الحجر، وأنزل عليهم المن والسلوى، وأنجاهم من عبودية آل فرعون. وقال أبو العالية: نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرسول، وأنزل عليهم الكتب. قلت: وهذا كقول موسى، عليه السلام، لهم: ﴿يَقُولُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا تَمْيُتُونَ أَسَدًا مِنَ الْقُلُوبِ﴾ [الأنعام: ٢٠] يعني في زمانهم. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، في قوله: ﴿أَذْكُرُوا يَتَّبِعْ آلِيَّ أَتَمَّتْ عَلَيْكَ﴾ أي: بلائي عندكم وعند آبائكم

لِمَا كَانَ نَجَاهُمْ بِهِ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال: بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي محمد ﷺ إذا جاءكم. ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ﴾: أي أنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه واتباعه، بوضع ما كان عليكم من الإصر والأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم التي كانت من أذنابكم.

وقال الحسن البصري: هو قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزِيتُمْ عَنْ طَعْنِ غَدَاةٍ وَذُنُوبِكُمْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُعْطِيَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية [المائدة: ١٢]. وقال آخرون: هو الذي أخذه الله عليهم في التوراة أنه سيبعث من بني إسماعيل نبياً عظيماً يطيعه جميع الشعوب والمراد به محمد ﷺ فمن اتبعه عُفِرَ له ذنبه وأدخله الجنة وجعل له أجران. وقد أورد فخر الدين الرازي ههنا بشارات كثيرة عن الأنبياء عليهم السلام بمحمد ﷺ. وقال أبو العالية ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ قال: عهده إلى عباده: دينه الإسلام أن يتبعوه. وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ﴾ قال: أرض عنكم وأدخلكم الجنة. وكذا قال السدي، والضحاك، وأبو العالية، والربيع بن أنس.

وقوله: ﴿وَلِئِنْ قُلْتُمْ قُلُوبُنَا غُلُقٌ﴾ أي: فاشحون؛ قاله أبو العالية، والسدي، والربيع بن أنس، وقتادة. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلِئِنْ قُلْتُمْ قُلُوبُنَا غُلُقٌ﴾: أي أنزل بكم ما أنزل بمن كان قبلكم من آبائكم من الثِّقَمَاتِ التي قد عرفتم من المسخ وغيره. وهذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب، فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة، لعلهم يرجعون إلى الحق واتباع الرسول والاعتناظ بالقرآن وزواجه، وامتنثال أوامره، وتصديق أخباره، والله الهادي لمن يشاء إلى صراطه المستقيم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَمْنًا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ مَصَدِّقًا ماضياً منصوباً على الحال من ﴿بِمَا﴾ أي: بالذي أنزلت مصداقاً أو من الضمير المحذوف من قولهم: بما أنزلته مصداقاً، ويجوز أن يكون مصدراً من غير الفعل وهو قوله: ﴿بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا﴾ يعني به: القرآن الذي أنزله على محمد النبي الأمي العربي بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً مشتقاً على الحق من الله تعالى، مصداقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل. قال أبو العالية، رحمه الله، في قوله: ﴿وَمَا أَمْنًا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ يقول: يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم يقول: لأنهم يجدون محمداً ﷺ مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. وروي عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة نحو ذلك.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ قال بعض المفسرين: أول فريق كافر به ونحو ذلك. قال ابن عباس: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم. وقال أبو العالية: يقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾: أول من كفر بمحمد ﷺ يعني من جنسكم أهل الكتاب بعد سماعهم بمحمد وبمبعثه. وكذا قال الحسن، والسدي، والربيع بن أنس. واختار ابن جرير أن الضمير في قوله: ﴿بِهِ﴾ عائد على القرآن، الذي تقدم ذكره في قوله ﴿بِمَا أَنْزَلْتُ﴾. وكلا القولين صحيح؛ لأنهما متلازمان، لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ﷺ، ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالقرآن. وأما قوله: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ فيعني به أول من كفر به من بني إسرائيل؛ لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير، وإنما المراد أول من كفر به من بني إسرائيل مباشرة، فإن يهود المدينة أول بني إسرائيل خطبوا بالقرآن، فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم.

وقوله: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِمَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ قَلِيلًا﴾ يقول: لا تعاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها، فإنها قليلة فانية، كما قال عبد الله بن المبارك: أنبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن هارون بن زيد، قال: سُئِلَ الحسن، يعني البصري، عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَقِيلًا﴾ قال: الثمن القليل الدنيا بحذافيرها. وقال ابن أبيه: حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبيرة، في قوله: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِمَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ قَلِيلًا﴾: وإن آياته: كتابه الذي أنزله إليهم، وإن الثمن القليل: الدنيا وشهواتها. وقال السدي: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِمَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ قَلِيلًا﴾ يقول: لا تأخذوا طمعاً قليلاً، ولا تكتسبوا اسم الله لذلك الطمع وهو الثمن. وقال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِمَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ قَلِيلًا﴾ يقول: لا تأخذوا عليه أجراً. قال: وهو مكتوب عندهم في الكتاب الأول: يا ابن آدم، عِلِّمْ مَجَانًا كما عِلِّمْتَ مَجَانًا.

وقيل: معناه لا تعاضوا عن البيان والإيضاح ونشر العلم النافع في الناس بالكتمان واللبس لتستمروا على رياستكم في الدنيا القليلة الحقيرة الزائلة عن قريب، وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يرح راتحة الجنة يوم القيامة»، وأما تعليم العلم بأجرة، فإن كان قد تعين عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرة، ويجوز أن يتناول من بيت المال ما يقوم به حاله وعياله، فإن لم يحصل له منه شيء وقطعه التعليم عن التكسب، فهو كما لم يتعين عليه، وإذا لم يتعين عليه فإنه يجوز أن يأخذ عليه أجرة عند مالك والشافعي وأحمد وجمهور

العلماء، كما في صحيح البخاري عن أبي سعيد في قصة اللديغ: «إن أحق ما أخذتم عليه أجرأ كتاب الله»، وقوله في قصة المخطوبة: «زوجتكها بما معك من القرآن»، فأما حديث عبادة بن الصامت، أنه علم رجلاً من أهل الصفة شيئاً من القرآن فأهدى له قوساً، فسأل عنه رسول الله ﷺ فقال له: «إن أحببت أن تطوق بقوس من نار فأقبله» فتركه، رواه أبو داود، وروى مثله عن أبي بن كعب مرفوعاً، فإن صح إسناده فهو محمول عند كثير من العلماء منهم: أبو عمر بن عبد البر على أنه لما علمه الله لم يجز بعد هذا أن يعتاض عن ثواب الله بذلك القوس، فأما إذا كان من أول الأمر على التعليم بالأجرة فإنه يصح كما في حديث اللديغ وحديث سهل في المخطوبة، والله أعلم.

﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عمر الدوري، حدثنا أبو إسماعيل المؤدب، عن عاصم الأحول، عن أبي العالية، عن طلق بن حبيب، قال: التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله، والتقوى أن تترك معصية الله مخافة عذاب الله على نور من الله. ومعنى قوله: ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾: أنه تعالى يتوعددهم فيما يعتمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه، ومخالفتهم الرسول، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ غَافِلِينَ﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿١٣٣﴾.

يقول تعالى ناهياً لليهود عما كانوا يعتمدونه، من تلبيس الحق بالباطل، وتمويهه به، وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ غَافِلِينَ﴾؛ فنهاهم عن الشئين معاً، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به؛ ولهذا قال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾: لا تخلطوا الحق بالباطل والصدق بالكذب. وقال أبو العالية: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ يقول: ولا تخلطوا الحق بالباطل، وأدوا النصيحة لعباد الله من أمر محمد ﷺ. ويرى عن سعيد بن جبيرة والربيع بن أنس، نحوه. وقال قتادة: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ قال: ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام؛ إن دين الله الإسلام، واليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله. وروى عن الحسن البصري نحو ذلك. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ غَافِلِينَ﴾ أي: لا تكتنوا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به، وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم. وروى عن أبي العالية نحو ذلك. وقال مجاهد، والسدي، وقاتدة، والربيع بن أنس: ﴿وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ غَافِلِينَ﴾ يعني: محمداً ﷺ. قلت: ﴿وَتَكُنُوا﴾ يحتمل أن يكون مجزوماً، ويجوز أن يكون منصوباً، أي: لا تجمعوا بين هذا وهذا كما يقال: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. قال الزمخشري: وفي مصحف ابن مسعود: «وتكتنمون الحق» أي: في حال كتمانكم الحق وأنتم تعلمون حال أيضاً، ومعناه: وأنتم تعلمون الحق، ويجوز أن يكون المعنى: وأنتم تعلمون ما في ذلك من الضرر العظيم على الناس من إضلالهم عن الهدى المفضي بهم إلى النار إلى أن سلخوا ما تبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لترؤجوه عليهم، والبيان الإيضاح وعكسه الكتمان وخلط الحق بالباطل.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ قال مقاتل: قوله تعالى لأمل الكتاب: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: أمرهم أن يصلوا مع النبي ﷺ ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾: أمرهم أن يؤتوا الزكاة، أي: يدفعونها إلى النبي ﷺ ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾: أمرهم أن يركعوا مع الرَّاكِعِينَ من أمة محمد ﷺ يقول: كونوا منهم ومعهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ يعني بالزكاة: طاعة الله والإخلاص. وقال وكيع، عن أبي جنتاب، عن عكرمة عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ قال: فريضة واجبة، لا تنفع الأعمال إلا بها وبالصلاة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير عن أبي حيان العجمي التيمي، عن الحارث العكلي في قوله: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ قال: صدقة الفطر. وقوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي: وكونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم، ومن أخص ذلك وأكمل الصلاة. وقد استدلل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة، وبسط ذلك في كتاب الأحكام الكبير إن شاء الله، وقد تكلم القرطبي على مسائل الجماعة والإمامة فأجاد.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٣٤﴾

يقول تعالى: كيف يليق بكم - يا معشر أهل الكتاب، وأنتم تأمرون الناس بالبر، وهو جماع الخير - أن تنسوا أنفسكم، فلا تأمروا بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب، وتعلمون ما فيه على من قصر في أوامره؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم؟ فتنتبهوا من زقدنكم، وتبصروا من عمايتكم. وهذا كما قال عبد الرزاق عن مَعْمَرٍ، عن قتادة في قوله تعالى:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ قال: كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله ويتقوا، وبالبر، ويخالفون، فَعَيَّرَهُمُ اللَّهُ، وكذلك قال السدي. وقال ابن جرير: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾: أهل الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة، وَيَدْعُونََ الْعَمَلَ بما يأمرون به الناس، فعيبرهم الله بذلك، فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تتركون أنفسكم ﴿وَأَنْتُمْ تَنْتَلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من التوراة، وتتركون أنفسكم، أي: وأنتم تكفرون بما فيها من عهدي إليكم في تصديق رسولي، وتقتضون ميثاقي، وتجددون ما تعلمون من كتابي. وقال الضحاك، عن ابن عباس في هذه الآية، يقول: أتأمرون الناس بالدخول في دين محمد ﷺ وغير ذلك مما أمرتم به من إقام الصلاة، وتسنون أنفسكم. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني علي بن الحسن، حدثنا مسلم الجزمي، حدثنا مَحْلَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ، عن أيوب السخيتاني، عن أبي قلابة في قول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَنْتَلُونَ الْكِتَابَ﴾ قال: قال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذه الآية: هؤلاء اليهود إذا جاء الرجل يسألهم عن الشيء ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء أمره بالحق، فقال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَنْتَلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له، فإن الأمر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع أمرهم به، ولا يتخلف عنهم، كما قال شعيب، عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنفُسُكُمْ عَنْهُ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولي العلماء من السلف والخلف. وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصي لا ينهى غيره عنها، وهذا ضعيف، وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية؛ فإنه لا حجة لهم فيها. والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف، وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه.

قال مالك عن ربيعة: سمعت سعيد بن جبيرة يقول له: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر. وقال مالك: وصدق من ذا الذي ليس فيه شيء؟ قلت: ولكنه - والحالة هذه - مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية، لعلمه بها ومخالفته على بصيرة، فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم؛ ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك، كما قال الإمام أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا أحمد بن المعلى الدمشقي والحسن بن علي المعمر، قالوا: حدثنا هشام بن عمار، حدثنا علي بن سليمان الكلبي، حدثنا الأعمش، عن أبي تميمه الهجيمي، عن جندب بن عبد الله، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضيئ للناس ويحرق نفسه». هذا حديث غريب من هذا الوجه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حدثنا وكيع، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد هو ابن جددان، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مرت ليلة أسري بي على قوم شفاهم تُقْرَضُ بمقاريض من نار. قال: قلت: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون؟». ورواه عبد بن حميد في مسنده. وتفسيره، عن الحسن بن موسى، عن حماد بن سلمة، به. ورواه ابن مردويه في تفسيره، من حديث يونس بن محمد المؤدب، والحجاج بن مثقال، كلاهما عن حماد بن سلمة، به، وكذا رواه يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة، به. ثم قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم، حدثنا موسى بن هارون، حدثنا إسحاق بن إبراهيم التستري ببلخ، حدثنا مكِّي بن إبراهيم، حدثنا عمر بن قيس، عن علي بن زيد، عن ثمامة، عن أنس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مرت ليلة أسري بي على أناس تقرض شفاهم وأستتهم بمقاريض من نار. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء أمتك، الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم». وأخرجه ابن حبان في صحيحه، وابن أبي حاتم، وابن مردويه - أيضاً - من حديث هشام الدستوائي، عن المغيرة - يعني ابن حبيب - ختن مالك بن دينار، عن مالك بن دينار، عن ثمامة، عن أنس بن مالك، قال: لما عرج برسول الله ﷺ مَ يَقْرَأُ بِقَوْمٍ تُقْرَضُ شفاهم، فقال: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الخطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم؛ أفلا يعقلون؟».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن أبي واثل، قال: قيل لأسامة - وأنا رديفه -: ألا

تكلم عثمان؟ فقال: إنكم تزرون أني لا أكلمه إلا أسمعكم. إني لا أكلمه فيما بيني وبينه ما دون أن أفتح أمراً. لا أحب أن أكون أول من افتتحه، والله لا أقول لرجل: إنك خير الناس. وإن كان علي أميراً. بعد أن سمعت رسول الله ﷺ يقول، قالوا: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: «يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق به أفتابه، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار، فيقولون: يا فلان ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتية، وأنهاكم عن المنكر وآتية».

ورواه البخاري ومسلم، من حديث سليمان بن مهران الأعمش، به نحوه. وقال أحمد: حدثنا سيار بن حاتم، حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يعافي الأمين يوم القيامة ما لا يعافي العلماء». وقد ورد في بعض الآثار: أنه يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة، ليس من يعلم كمن لا يعلم. وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]. وروى ابن عساكر في ترجمة الوليد بن عقبة عن النبي ﷺ، قال: «إن أناساً من أهل الجنة يطلعون على أناس من أهل النار فيقولون: بم دخلتم النار؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم، فيقولون: إنا كنا نقول ولا نفعل» رواه من حديث الطبراني عن أحمد بن يحيى بن حيان الرقي عن زهير بن عباد الرواسي عن أبي بكر الداهري عن عبد الله بن حكيم عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي عن الوليد بن عقبة فذكره.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: أنه جاءه رجل، فقال: يا ابن عباس، إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، قال: أو بلغت ذلك؟ قال: أرجو. قال: إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل. قال: وما هن؟ قال: قوله ﷺ: ﴿اتَّأَمَّرُونَ النَّاسَ بِأَلْيِّ وَتَسَوَّوْا أَنْفُسَكُمْ﴾. أحكمت هذه؟ قال: لا. قال: فالحرف الثاني. قال: قوله تعالى: ﴿لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٣﴾. أحكمت هذه؟ قال: لا. قال: فالحرف الثالث. قال: قول العبد الصالح شعيب، عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ﴾ [مرد: ٨٨] أحكمت هذه الآية؟ قال: لا. قال: فابداً بنفسك. رواه ابن مردويه في تفسيره. وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا زيد بن الحريش، حدثنا عبد الله بن خراش، عن العوام بن حوشب، عن سعيد بن المسيب بن رافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا الناس إلى قول أو عمل ولم يعمل هو به لم يزل في ظل سخط الله حتى يكف أو يعمل ما قال، أو دعا إليه». إسناداه فيه ضعف؛ وقال إبراهيم النخعي: إني لأكره القصص الثلاث آيات قوله تعالى: ﴿اتَّأَمَّرُونَ النَّاسَ بِأَلْيِّ وَتَسَوَّوْا أَنْفُسَكُمْ﴾، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣]، وقوله إخباراً عن شعيب: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَقَلْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [مرد: ٨٨]. وما أحسن ما قال مسلم بن عمرو:

ما أقبح التزهيد من واعظ
لو كان في تزهيده صادقاً
إن رفض الناس فما باله
الرزق مقسوم على من ترى

وقال بعضهم: جلس أبو عثمان الحيري الزاهد يوماً على مجلس التذكير فأطال السكوت، ثم أنشأ يقول:
طبيب يداوي والطبيب مريض
وغير تقي يأمر الناس بالتقي
قال: فضج الناس بالبكاء. وقال أبو العتاهية الشاعر:
وصفت التقي حتى كأنك ذو تقي
وقال أبو الأسود الدؤلي:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله
فابدأ بنفسك فانها عن غيرها
فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الواحد بن زيد البصري العابد الواعظ قال: دعوت الله أن يريني رفيقي في الجنة، فقيل لي في المنام: هي امرأة في الكوفة يقال لها: ميمونة السوداء، فقصدت الكوفة لأراها. فقيل لي: هي ترعى غنماً بواد هناك،

يزهد الناس ولا يزهد
أضحى وأمسى بيته المسجد
يستفتح الناس ويستترقد
يسقى له الأبيض والأسود

وريح الخطايا من شأنك تقطع

عار عليك إذا فعلت عظيم
فاذا انتهت عنه فأنت حكيم
بالقول منك وينفع التعليم

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الواحد بن زيد البصري العابد الواعظ قال: دعوت الله أن يريني رفيقي في الجنة، فقيل لي في المنام: هي امرأة في الكوفة يقال لها: ميمونة السوداء، فقصدت الكوفة لأراها. فقيل لي: هي ترعى غنماً بواد هناك،

فجئت إليها فإذا هي قائمة تصلي والغنم ترعى حولها وبينهن الذئاب لا يفرن منه، ولا يسطو الذئاب عليهن. فلما سلمت قالت: يا ابن زيد، ليس الموعد هنا إنما الموعد ثم، فسألته عن شأن الذئاب والغنم. فقالت: إني أصلحت ما بيني وبين سيدي فأصلح ما بين الذئاب والغنم. فقلت لها: عطيني. فقالت: يا عجبا من واعظ بوعظ، ثم قالت: يا ابن زيد، إنك لو وضعت موازين القسط على جوارحك لخبرتكم بمكنون ما فيها، يا ابن زيد، إنه بلغني ما من عبد أعطى من الدنيا شيئا فابتغى إليه ثابثا إلا سلبه الله حب الخلوة وبدله بعد القرب البعد وبعد الأنس الوحشة ثم أنشأت تقول:

يا واعظاً قام لا حجاب
تنه عنه وأنت السقيم حقاً
تنه عن الغي والتمادي
لو كنت أصلحت قبل هذا
كان لما قلت يا حبيبي
﴿وَأَسْتَبِيْشُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيْرَةٌ اِلَّا عَلَى الْخٰشِعِيْنَ﴾ (٢٩) الَّذِينَ يَتْلُوْنَ اٰتَمَّ تِلْكَ اٰتَمَّ رَجُوْنٌ ﴿٣١﴾

يقول تعالى أمرأ عبده، فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة، بالاستعانة بالصبر والصلاة، كما قال مقاتل بن حيان في تفسير هذه الآية: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض، والصلاة. فأما الصبر فقليل: إنه الصيام، نص عليه مجاهد. قال القرطبي وغيره: ولهذا سمي رمضان شهر الصبر كما نطق به الحديث. وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن جزي بن كليب، عن رجل من بني سليم، عن النبي ﷺ قال: «الصوم نصف الصبر». وقيل: المراد بالصبر الكف عن المعاصي؛ ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعلىها: فعل الصلاة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبید الله بن حمزة بن إسماعيل، حدثنا إسحاق بن سليمان، عن أبي بنان، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن، وأحسن منه الصبر عن محارم الله.

قال: وروي عن الحسن البصري نحو قول عمر. وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة عن مالك بن دينار، عن سعيد بن جبیر، قال: الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب فيه، واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو يتجعد، لا يرى منه إلا الصبر. وقال أبو العالية في قوله: ﴿وَأَسْتَبِيْشُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ على مرضاة الله، واعلموا أنها من طاعة الله. وأما قوله: ﴿وَالصَّلَاةِ﴾: فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر، كما قال تعالى: ﴿اٰتٰلُ مَا اَوْحٰى اِلَيْكَ مِنْ اَلْكِتٰبِ وَاَقِمِ الصَّلَاةَ اِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهٰى عَنِ الْفَحْشَاةِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللّٰهِ اَكْبَرُ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٥]. وقال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن عكرمة بن عمار، عن محمد بن عبد الله الدؤلي، قال: قال عبد العزيز أخو حذيفة، قال حذيفة، يعني ابن اليمان: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. ورواه أبو داود عن محمد بن عيسى عن يحيى بن زكريا عن عكرمة بن عمار كما سياتي. وقد رواه ابن جرير، من حديث ابن جريج، عن عكرمة بن عمار، عن محمد بن عبيد بن أبي قدامة، عن عبد العزيز بن اليمان، عن حذيفة، قال: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة. ورواه بعضهم عن عبد العزيز بن أخي حذيفة، ويقال: أخى حذيفة مرسلًا عن النبي ﷺ؛ وقال محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة: حدثنا سهل بن عثمان أبو مسعود العسكري، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة قال: قال عكرمة بن عمار: قال محمد بن عبد الله الدؤلي: قال عبد العزيز: قال حذيفة: رجعت إلى النبي ﷺ، ليلة الأحزاب وهو مشتمل في شملة يصلي، وكان إذا حزبه أمر صلى. وحدثنا عبید الله بن معاذ، حدثنا أبي، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق سمع حارثة بن مضرب سمع علياً يقول: لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلي ويدعو حتى أصبح.

قال ابن جرير: وروي عنه، عليه الصلاة والسلام، أنه مر بأبي هريرة، وهو منبطح على بطنه، فقال له: «اشكنب درد» قال: نعم قال: «قم فصل فإن الصلاة شفاء» ومعناه: أبوجعك بطنك؟ قال: نعم. قال ابن جرير: وقد حدثنا محمد بن العلاء ويعقوب بن إبراهيم، قالوا: حدثنا ابن علقمة، حدثنا عبيدة بن عبد الرحمن، عن أبيه: أن ابن عباس نعي إليه أخوه قثم وهو في سفر، فاسترجع، ثم تنحى عن الطريق، فأنافخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿وَأَسْتَبِيْشُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيْرَةٌ اِلَّا عَلَى الْخٰشِعِيْنَ﴾ (٢٩). وقال سفيان، عن حجاج، عن ابن جرير: ﴿وَأَسْتَبِيْشُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ قال: إنهما معونتان على رحمة الله. والضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهَا﴾ عائد إلى الصلاة، نص عليه مجاهد، واختاره

وقتادة، وإسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك. ويجب الحمل على هذا؛ لأن هذه الأمة أفضل منهم، لقوله تعالى خطاباً لهذه الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وفي المساند والسنن عن معاوية بن خديجة القشيري، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنتم ثوفاون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله». والأحاديث في هذا كثيرة تذكر عند قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. وقيل: المراد تفضيل بنوع ما من الفضل على سائر الناس، ولا يلزم تفضيلهم مطلقاً، حكاه فخر الدين الرازي وفيه نظر. وقيل: إنهم فضلوا على سائر الأمم لاشتغال أمتهم على الأنبياء منهم، حكاه القرطبي في تفسيره، وفيه نظر؛ لأن ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ عام يشمل من قبلهم ومن بعدهم من الأنبياء، فأبراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم، ومحمد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

لما ذكرهم الله تعالى بنعمه أولاً، عطف على ذلك التحذير من حلول نقمه بهم يوم القيامة فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: لا يعني أحد عن أحد كما قال: ﴿وَلَا يَرْزُقُ وَارِدَةً وَرَدُّ أَعْرَضَ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقال: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنَبِّئُهُ﴾ [عبس: ٣٧]، وقال: ﴿يَكَلِّمُنَا أُنَاسٌ اتَّقَوْا رَبَّكُمْ وَاسْتَمَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَانِبٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣] فهذه أبلغ المقامات: أن كلا من الوالد وولده لا يعني أحدهما عن الآخر شيئاً، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ يعني عن الكافرين، كما قال: ﴿فَمَا نَعْمُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وكما قال عن أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ [ولا صديق حميم] [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، وقوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: لا يقبل منها فداء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُمْسَكَ مِنْ أَعْدَائِهِمْ بَدَلٌ وَالْأَرْضُ ذَهَبًا وَلَوْ أَنَّكَ أَنْتَ الْغَنِيُّ﴾ [آل عمران: ٩١]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَسْكٌ لَقَتَدَّوْا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا يَقْبَلُونَ مِنْهُمْ عَذَابُ الْيَمِّ﴾ [المائدة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَقِيلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ بِكُمْ مَتَاعٌ وَإِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥]؛ فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعث به، ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه، فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذي جاه، ولا يقبل منهم فداء، ولو بملء الأرض ذهباً، كما قال تعالى: ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال: ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ [إبراهيم: ٣١]، وقال سنيدي: حدثني حجاج، حدثني ابن جريج قال: قال مجاهد: قال ابن عباس: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ قال: بدل، والبدل: الفدية، وقال السدي: أما عدل فيعدلها من العذاب يقول: لو جاءت بملء الأرض ذهباً تفندي به ما تقبل منها، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ يعني: فداء. قال ابن أبي حاتم: وروي عن أبي مالك، والحسن، وسعيد بن جبيرة، وقتادة، والربيع بن أنس، نحو ذلك. وقال عبد الرزاق: أنبأنا الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه عن علي، رضي الله عنه، في حديث طويل، قال: والصرف والعدل: التطوع والغريضة. وكذا قال الوليد بن مسلم، عن عثمان بن أبي العاتكة، عن عمير بن هانيء.

وهذا القول غريب هنا، والقول الأول أظهر في تفسير هذه الآية، وقد ورد حديث يقويه، وهو ما قال ابن جرير: حدثني نعيم بن إبراهيم، حدثنا علي بن حكيم، حدثنا حميد بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عمرو بن قيس الملائي، عن رجل من بني أمية - من أهل الشام أحسن عليه الثناء - قال: قيل: يا رسول الله، ما العدل؟ قال: «العدل الفدية». وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله، كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه ولا يقبل منهم فداء. هذا كله من جانب التلطف، ولا لهم ناصر من أنفسهم، ولا من غيرهم، كما قال: ﴿قَالَ لَمْ يَنْفُذْ مِنْ قَوْمٍ وَلَا نَاصِرٌ﴾ [الطارق: ١٠] أي: إنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة، ولا ينقذ أحداً من عذابه منقذ، ولا يجيره منه أحد، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُجِرْ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعْذِرُ عَنْ عَذَابِهِ أَحَدٌ وَلَا يُوَفِّي وَكَافَّةً أَحَدٌ﴾ [النجر: ٢٥]، وقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ﴾ [بل هُمُ الَّذِينَ شَتَّتِلُونَهُ] [الصافات: ٢٥، ٢٦]، وقال: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٨]، قال الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ﴾ [٢٥] ما لكم اليوم لا تمنعون منا؟ هيهات ليس ذلك لكم اليوم. قال ابن جرير: وتأويل قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يعني: أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر، كما لا يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية. بطلت هنالك المحابة واضمحلت الرشى والشفاعات، وارتفع من القوم التعاون والتناصر، وصار الحكم إلى عدل الجبار الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء، فيجزى بالسيئة مثلاً وبالחסنة

أضعافها وذلك نظير قوله تعالى: ﴿وَقَفَّوْهُمْ أَهْلَهُمْ تَتَّبِعُونَ﴾ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ آيَاتٍ مُّسْتَلْهِنُونَ ﴿٢٦﴾ [الصفات: ٢٤-٢٦].
﴿وَإِذْ يَخَيَّنُكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَعْبِقُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (٢٩) وَإِذْ فَرَّقْنَا بَيْنَكُمْ
الْبَحْرَ فَأَلْبَيْتُكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٣٠﴾.

يقول تعالى: واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم ﴿وَإِذْ يَخَيَّنُكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: خلصتكم منهم وأنقذتكم من أيديهم
صحبة موسى، عليه السلام، وقد كانوا يسومونكم، أي: يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب. وذلك أن فرعون
- لعنه الله - كان قد رأى رؤيا حالته، رأى ناراً خرجت من بيت المقدس فدخلت دور القبط ببلاد مصر، إلا بيوت بني إسرائيل،
مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل، ويقال: بل تحدث سماره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج
رجل منهم، يكون لهم به دولة ورفعة، وهكذا جاء في حديث الفتون، كما سيأتي في موضعه في سورة طه، إن شاء الله، فعند
ذلك أمر فرعون - لعنه الله - بقتل كل ذي ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل، وأن تترك البنات، وأمر باستعمال بني إسرائيل في
مشاق الأعمال وأراذلها. ولهذا فسر العذاب بذيح الأبناء، وفي سورة إبراهيم عطف عليه، كما قال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
وَيَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَعْبِقُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦٠]، وسيأتي تفسير ذلك في أول سورة القصص، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة
والمعونة والتأييد. ومعنى ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ أي: يولونكم، قاله أبو عبيدة، كما يقال سامه خطة خسف إذا أولاه إياها، قال
عمرو بن كلثوم:

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أبيتنا أن نقر الخسف فينا
وقيل: معناه: يذيمون عذابكم، كما يقال: سائمة الغنم من إدامتها الرعي، نقله القرطبي، وإنما قال ههنا: ﴿يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ
وَيَسْتَعْبِقُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ ليكون ذلك تفسيراً للنعمة عليهم في قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ثم فسره بهذا لقوله ههنا: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِي
الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، وأما في سورة إبراهيم فلما قال: ﴿وَذَكَّرْهُمْ بِأَنْعَمَ اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٥٠] أي: بأيادي ونعمه عليهم فتاسب أن يقول
هناك: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَعْبِقُونَ نِسَاءَكُمْ﴾، فعطف عليه الذبح ليدل على تعدد النعم والأيادي. وفرعون علم
على كل من ملك مصر، كافر من العماليق وغيرهم، كما أن قيصر علم على كل من ملك الروم مع الشام كافراً، وكذلك كسرى
لكل من ملك الفرس، وتبع لمن ملك اليمن كافراً والنجاشي لمن ملك الحبشة، وبطيالموس لمن ملك الهند، ويقال: كان اسم
فرعون الذي كان في زمن موسى، عليه السلام: الوليد بن مصعب بن الريان، وقيل: مصعب بن الريان، وأياً ما كان فعليه
لعنة الله، وكان من سلالة عمليق بن داود بن إرم بن سام بن نوح، وكنيته أبو مرة، وأصله فارسي من استخر. وقوله تعالى:
﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال ابن جرير: وفي الذي فعلنا بكم من إنجاننا إياكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء
لكم من ربكم عظيم. أي: نعمة عظيمة عليكم في ذلك. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ
عَظِيمٌ﴾ قال: نعمة. وقال مجاهد: ﴿بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال: نعمة من ربكم عظيمة. وكذا قال أبو العالية، وأبو مالك،
والسدي، وغيرهم. وأصل البلاء: الاختبار، وقد يكون بالخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَيَكُونُوا بِالْخَيْرِ وَالْخَيْرِ فَتَنَةً﴾ [الأنبياء:
٣٥]، وقال: ﴿وَيَكُونُ لَهُمْ الْخَيْرَاتُ وَالْخَيْرَاتُ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. قال ابن جرير: وأكثر ما يقال في الشر: بلوته أبلوه بلاء، وفي
الخير: أبلبه إبلاء وبلاء، قال زهير بن أبي سلمى:

جَزَى الله بِالْإِحْسَانِ مَا فَعَلَا بِكُمْ وأبلاهما خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِي يَنْبَلُو
قال: فجمع بين اللغتين؛ لأنه أراد فأنعم الله عليهما خير النعم التي يَخْتَبِرُ بها عباده. وقيل: المراد بقوله: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ﴾:
إشارة إلى ما كانوا فيه من العذاب المهين من ذبح الأبناء واستحياء النساء؛ قال القرطبي: وهذا قول الجمهور ولفظه بعد ما حكى
القول الأول، ثم قال: وقال الجمهور: الإشارة إلى الذبح ونحوه، والبلاء ههنا في الشر، والمعنى في الذبح مكروه وامتحان.
وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَّقْنَا بَيْنَكُمْ الْبَحْرَ فَأَلْبَيْتُكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (٣٠) معناه: وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون،
وخرجتم مع موسى، عليه السلام، خرج فرعون في طلبكم، ففرقنا بكم البحر، كما أخبر تعالى عن ذلك مفصلاً كما سيأتي في
مواضعه، ومن أبسطها في سورة الشعراء إن شاء الله. ﴿فَأَلْبَيْتُكُمْ﴾ أي: خلصناكم منهم، وحجزنا بينكم وبينهم، وأغرقناهم
وأنتم تنظرون؛ ليكون ذلك أشفى لصدوركم، وأبلغ في إهانة عدوكم.

قال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن أبي إسحاق الهمداني، عن عمرو بن ميمون الأودي في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَّقْنَا بَيْنَكُمْ الْبَحْرَ﴾
إلى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ قال: لما خرج موسى ببني إسرائيل، بلغ ذلك فرعون فقال: لا تتبعوهم حتى تصيح الديكة. قال:

هذه صفة توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل، قال الحسن البصري، رحمه الله، في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَالَ مُرْسًى لَقَوْمُوهُ﴾ يَقَوْمُوهُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فقال: ذلك حين وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع حين قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ سَاقَطَ فِي تَابِئِهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْجِعْنَا رَبَّنَا وَتَغْفِرْ لَنَا﴾ الآية (الأعراف: ١٤٩). قال: فذلك حين يقول موسى: ﴿يَقَوْمُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾. وقال أبو العالية، وسعيد بن جبير، والربيع بن أنس: ﴿فَتَوْبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾: أي إلى خالقكم. قلت: وفي قوله ههنا: ﴿إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ تنبيه على عظم جرمهم، أي: فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبادتم معه غيره. وروى النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث يزيد بن هارون، عن الأصم بن زيد الوزاق عن

القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: قال الله تعالى: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم كل من لقي من ولد ووالد، فيقتله بالسيف، ولا ييالي من قتل في ذلك الموطن. فتاب أولئك الذين كانوا خفي على موسى وهارون ما اطلع الله من ذنوبهم، فاعترفوا بها، وفعلوا ما أمروا به فغفر الله تعالى للقاتل والمقتول. وهذا قطعة من حديث الفُتون، وسيأتي في تفسير سورة طه بكماله، إن شاء الله.

وقال ابن جرير: حدثني عبد الكريم بن الهيثم، حدثنا إبراهيم بن بشار، حدثنا سفيان بن عيينة، قال: قال أبو سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال موسى لقومه: ﴿فَتَوْبُوا إِلَيَّ يَا رِبِّكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. قال: أمر موسى قومه - من أمر ربه ﷻ - أن يقتلوا أنفسهم قال: واحتبى الذين عبدوا العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل، فأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظلة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضاً، فانجلت الظلة عنهم، وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة. وقال ابن جرير: أخبرني القاسم بن أبي بزة أنه سمع سعيد بن جبيرة ومجاهداً يقولان في قوله تعالى: ﴿فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قال: قام بعضهم إلى بعض بالخناجر فقتل بعضهم بعضاً، لا يحنو رجل على قريب ولا بعيد، حتى ألوى موسى بثوبه، فطرحوا ما بأيديهم، فكشف عن سبعين ألف قتيل. وإن الله أوحى إلى موسى: أن حنسي، فقد اكتفيت، فذلك حين ألوى موسى بثوبه، وروي عن علي رضي الله عنه نحو ذلك. وقال قتادة: أمر القوم بشديد من الأمر، فقاموا يتناحرون بالشفار يقتل بعضهم بعضاً، حتى بلغ الله فيهم نعمته، فسقطت الشفار من أيديهم، فأمسك عنهم القتل، فجعله لحيم توبة، وللمقتول شهادة. وقال الحسن البصري: أصابته ظلمة حنسد، فقتل بعضهم بعضاً نعمة، ثم انكشف عنهم، فجعل توبتهم في ذلك. وقال السدي في قوله: ﴿فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قال: فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف، فكان من قُتل من الفريقين شهيداً، حتى كثر القتل، حتى كادوا أن يهلكوا، حتى قتل بينهم سبعون ألفاً، وحتى دعا موسى وهارون؛ ربنا أهلك بني إسرائيل، ربنا البقية البقية، فأمرهم أن يضعوا السلاح وتاب عليهم، فكان من قتل منهم من الفريقين شهيداً، ومن بقي مكفراً عنه؛ فذلك قوله: ﴿فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

وقال الزهري: لما أمرت بنو إسرائيل بقتل أنفسهم، برزوا ومعهم موسى، فاضطربوا بالسيوف، وتطاعنوا بالخناجر، وموسى رافع يديه، حتى إذا أفنوا بعضهم، قالوا: يا نبي الله، ادع الله لنا. وأخذوا بعضديه يسندون يديه، فلم يزل أمرهم على ذلك، حتى إذا قبل الله توبتهم قبض أيديهم بعضهم عن بعض، فألقوا السلاح، وحزن موسى وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم، فأوحى الله، جل ثناؤه، إلى موسى: ما يحزنك؟ أما من قتل منكم فحي عندي يرزقون، وأما من بقي فقد قبلت توبته. فسر بذلك موسى، وبنو إسرائيل. رواه ابن جرير بإسناد جيد عنه.

وقال ابن إسحاق: لما رجع موسى إلى قومه، وأحرق العجل وذراه في اليم، خرج إلى ربه بمن اختار من قومه، فأخذتهم الصاعقة، ثم بُعثوا، فسأل موسى ربه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل. فقال: لا، إلا أن يقتلوا أنفسهم قال: فبلغني أنهم قالوا لموسى: نُصْبِرْ لأمر الله. فأمر موسى من لم يكن عبد العجل أن يقتل من عبده. فجلسوا بالأفنية وأضلت عليهم القوم السيوف، فجعلوا يقتلونهم، وبكى موسى، وبهش إليه النساء والصبيان، يطلبون العفو عنهم، فتاب الله عليهم، وعفا عنهم وأمر موسى أن ترفع عنهم السيوف. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما رجع موسى إلى قومه، وكان سبعون رجلاً قد اعتزلوا مع هارون العجل لم يعبدوه. فقال لهم موسى: انطلقوا إلى موعد ربكم. فقالوا: يا موسى، ما من توبة؟ قال: بلى، ﴿فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، فاختلطوا السيوف والجرزة والخناجر والسكاكين. قال: وبعث عليهم ضباية. قال: فجعلوا يتلامسون بالأيدي، ويقتل بعضهم بعضاً. قال: ويلقى الرجل أباه وأخاه فيقتله ولا يدري. قال: ويتنادون فيها: رحم الله عبداً صبر نفسه حتى يبلغ الله رضاه، قال: فقتلهم شهداء، وتيب على أحيائهم، ثم قرأ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَكُوفُوا لَنَا نَحْنُ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْتُمْ الْغَبْرَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَدَأْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في بعثي لكم بعد الصعق، إذ سألتهم رؤيتي جهرة عياناً، مما لا يستطيع لكم ولا لأمثالكم، كما قال ابن جريج، قال ابن عباس في هذه الآية: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَكُوفُوا لَنَا نَحْنُ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ قال: علانية. وكذا قال إبراهيم بن طهمان عن عباد بن إسحاق، عن أبي الحويرث، عن ابن عباس، أنه قال في قول الله تعالى: ﴿لَنْ تُؤْمِنُوا لَكَ حَتَّى نَرَى﴾

اللَّهُ جَهَنَّمَ: أي علانية، أي حتى نرى الله. وقال قتادة، والربيع بن أنس: ﴿حَتَّىٰ رَأَىٰ اللَّهَ جَهَنَّمَ﴾: أي عياناً. وقال أبو جعفر عن الربيع بن أنس: هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه. قال: فسمعوا كلاماً، فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ رَأَىٰ اللَّهَ جَهَنَّمَ﴾ قال: فسمعوا صوتاً فصعقوا، يقول: ماتوا. وقال مروان بن الحكم، فيما خطب به على منبر مكة: الصاعقة: صيحة من السماء. وقال السدي في قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ الصاعقة: نار. وقال عروة بن رُوَيْم في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ قال: فصعق بعضهم وبعض ينظرون، ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء. وقال السدي: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله، ويقول: رب، ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أنتيتهم وقد أهلكت خيارهم ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَلَئِنْ أَتَيْتَكُم بِمَا تُفَكِّرُ الشُّفَهَاءُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٥٥]. فأوحى الله إلى موسى أن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل، ثم إن الله أحياهم فقاموا وعاشوا رجل رجل، ينظر بعضهم إلى بعض: كيف يحيون؟ قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْهُ بِدَارٍ مَوْجِبَةٍ لَّعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [١٥٦]. وقال الربيع بن أنس: كان موثهم عقوبة لهم، فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم. وكذا قال قتادة. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن حميد، حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، قال: لما رجع موسى إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامري ما قال، وخرق العجل وذراه في اليم، اختار موسى سبعين منهم رجلاً الخَيْر فآلخير، وقال: انطلقوا إلى الله وتوبوا إلى الله مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربّه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعِلْم، فقال له السبعون، فيما ذكر لي، حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا للقاء الله، قالوا: يا موسى، اطلب لنا إلى ربك نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه، افعل ولا تفعل فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا للموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ رَأَىٰ اللَّهَ جَهَنَّمَ﴾ فأخذتهم الرجفة، وهي الصاعقة، فماتوا جميعاً. وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه، ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَلَئِنْ﴾ [الأعراف: ١٥٥] قد سفهوا، أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل بما يفعل السفهاء منا؟ أي: إن هذا لهم هلاك. اخترت منهم سبعين رجلاً، الخَيْر فالخير، أرجع إليهم وليس معي منهم رجل واحد! فما الذي يصدقوني به ويأمنوني عليه بعد هذا؟ ﴿إِنَّا هَذَاكَ إِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٦] فلم يزل موسى يناشد ربه، ﷻ، ويطلب إليه، حتى ردّ إليهم أرواحهم، وطلب إليه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل، فقال: لا؛ إلا أن يقتلوا أنفسهم. هذا سياق محمد بن إسحاق.

وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير: لما تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل وتاب الله عليهم بقتل بعضهم بعضاً كما أمرهم به، أمر الله موسى أن يأتيه في كل أناس من بني إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موسى، فاختار موسى قومه سبعين رجلاً على غيبته، ثم ذهب بهم ليعتذروا. وساق البقية. وهذا السياق يقتضي أن الخطاب توجه إلى بني إسرائيل في قوله: ﴿وَأَذِنتُ لَكُمْ تَكُونُونَ لَكُمْ حَقٌّ رَأَى اللَّهُ جَهَنَّمَ﴾ والمراد السبعون المختارون منهم، ولم يحك كثير من المفسرين سواء، وقد أغرب فخر الدين الرازي في تفسيره حين حكى في قصة هؤلاء السبعين: أنهم بعد إحيائهم قالوا: يا موسى، إنك لا تطلب من الله شيئاً إلا أعطاك، فادعه أن يجعلنا أنبياء، فدعا بذلك فأجاب الله دعوته، وهذا غريب جداً، إذ لا يعرف في زمان موسى نبي سوى هارون ثم يوشع بن نون، وقد غلط أهل الكتاب أيضاً في دعواهم أن هؤلاء رأوا الله ﷻ، فإن موسى الكليم، عليه السلام، قد سأل ذلك فمنع منه فكيف يناله هؤلاء السبعون؟.

القول الثاني في الآية: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير هذه الآية: قال لهم موسى - لما رجع من عند ربه بالألواح، قد كتب فيها التوراة، فوجدهم يعبدون العجل، فأمرهم بقتل أنفسهم، ففعلوا، فتاب الله عليهم، فقال: إن هذه الألواح فيها كتاب الله، فيه أمركم الذي أمركم به ونهيكم الذي نهاكم عنه. فقالوا: ومن يأخذه بقولك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة، حتى يطلع الله علينا فيقول: هذا كتابي فخذوه، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى! وقرأ قول الله ﴿لَنْ تَوْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾. قال: فجاءت غضبة من الله، فجاءتهم صاعقة بعد التوبة، فصعقتهم فماتوا أجمعون. قال: ثم أحياهم الله من بعد موتهم، وقرأ قول الله: ﴿ثُمَّ يَبْتَلِيكُمْ فِرْيَادَ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله. فقالوا: لا، فقال: أي شيء أصابكم؟ فقالوا: أصابنا أنا متنا ثم حيينا. قال: خذوا كتاب الله. قالوا: لا. فبعت الله ملائكة فنتقت الجبل فوقهم. وهذا السياق يدل على أنهم كلّفوا بعد ما أحيوا. وقد حكى الماوردي في ذلك قولين: أحدهما: أنه سقط التكليف عنهم

لمعاينتهم الأمر جهره حتى صاروا مضطرين إلى التصديق؛ والثاني: أنهم مكلفون لتلايخو عاقل من تكليف، قال القرطبي: وهذا هو الصحيح لأن معاينتهم للأمر الفطرية لا تمنع تكليفهم؛ لأن بني إسرائيل قد شاهدوا أموراً عظماً من خوارق العادات، وهم في ذلك مكلفون وهذا واضح، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا عَلَيْكُمُ الْقَنَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَ وَالسَّلَاطِينَ كُلَّ مَن مَّيْنَتٍ مَا رَزَقْنَكُمْ وَمَا ظَلَمُوا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم، شرع يذكرهم - أيضاً - بما أسبغ عليهم من النعم، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا عَلَيْكُمُ الْقَنَامَ﴾ وهو جمع غمامة، سمي بذلك لأنه يُغَمُّ السماء، أي: يوارئها ويستترها. وهو السحاب الأبيض، ظَلَّلُوا به في التيه ليقبهم حر الشمس. كما رواه النسائي وغيره عن ابن عباس في حديث الفتون، قال: ثم ظلل عليهم في التيه بالغمام. قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عمر، والزبيع بن أنس، وأبي مجلز، والضحاك، والسدي، نحو قول ابن عباس. وقال الحسن وقادة: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا عَلَيْكُمُ الْقَنَامَ﴾ قال: كان هذا في البرية، ظلل عليهم الغمام من الشمس. وقال ابن جرير: قال آخرون: وهو غمام أبرد من هذا، وأطيب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا عَلَيْكُمُ الْقَنَامَ﴾ قال: ليس بالسحاب، هو الغمام الذي يأتي الله فيه يوم القيامة، ولم يكن إلا لهم. وهكذا رواه ابن جرير، عن المثني بن إبراهيم، عن أبي حذيفة. وكذا رواه الثوري، وغيره عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد. وكأنه يريد، والله أعلم، أنه ليس من زبي هذا السحاب، بل أحسن منه وأطيب وأبهى منظراً، كما قال سنيدي في تفسيره عن حجاج بن محمد، عن ابن جريج قال: قال ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا عَلَيْكُمُ الْقَنَامَ﴾ قال: غمام أبرد من هذا وأطيب، وهو الذي يأتي الله فيه في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْكَثِيبَةِ﴾ [البقرة: ٢١٠] وهو الذي جاء في الملائكة يوم بدر. قال ابن عباس: وكان معهم في التيه. وقوله ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَ﴾: اختلفت عبارات المفسرين في المن: ما هو؟ فقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: كان المن ينزل عليهم على الأشجار، فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاؤوا. وقال مجاهد: المن: صمغة. وقال عكرمة: المن: شيء أنزله الله عليهم مثل الطل، شبه الرُّب الغليظ. وقال السدي: قالوا: يا موسى، كيف لنا بما ههنا؟ أين الطعام؟ أنزل الله عليهم المن، فكان يسقط على شجر الزنجبيل. وقال قتادة: كان المن ينزل عليهم في محلتهن سقوط الثلج، أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك؛ فإذا تعدى ذلك فسد ولم يبق، حتى إذا كان يوم سادسه، ليوم جمعته، أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر معيشته ولا يطلبه شيء، وهذا كله في البرية. وقال الربيع بن أنس: المن شراب كان ينزل عليهم مثل العسل، فيمزجونه بالماء ثم يشربونه. وقال وهب بن منبه - وسئل عن المن - فقال: حُبُّ الرِّزْقِاقِ مثل الذرة أو مثل التَّقْي. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن جابر، عن عامر وهو الشعبي، قال: عسلكم هذا جزء من سبعين جزءاً من المن. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنه العسل. ووقع في شعر أمية بن أبي الصلت، حيث قال:

فَرَأَى اللَّهُ أَنَّهُمْ بِمَضْمِيعٍ لَا بِذِي مَزْرَعٍ وَلَا مَثْمُورِ
فَسَنَاهَا عَلَيْهِمْ غَادِيَاتٍ وَتَرَى مُزْنَهُمْ خَلَايَا وَخُورِ
عَمَلًا نَاطِفًا وَمَاءَ فَرَاتٍ وَحَلِيْبًا ذَا بَهْجَةٍ مَّرْمُورِ

فالناطف: هو السائل، والحليب المرمور: الصافي منه. والغرض أن عبارات المفسرين متقاربة في شرح المن، فمنهم من فسره بالطعام، ومنهم من فسره بالشراب والظاهر، والله أعلم، أنه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك، مما ليس لهم فيه عمل ولا كد، فالمن المشهور إن أكل وحده كان طعاماً وحلاوة، وإن مزج مع الماء صار شراباً طيباً، وإن ركب مع غيره صار نوعاً آخر، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده؛ والدليل على ذلك قول البخاري: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن عبد الملك، عن عمرو بن حُرَيْث، عن سعيد بن زيد، رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ». وهذا الحديث رواه الإمام أحمد، عن سفيان بن عيينة، عن عبد الملك، وهو ابن عمير، به. وأخرجه الجماعة في كتبهم، إلا أبا داود، من طرق عن عبد الملك، وهو ابن عمير، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. ورواه البخاري ومسلم والنسائي من رواية الحكم، عن الحسن العُزَني، عن عمرو بن حُرَيْث، به. وقال الترمذي: حدثنا أبو عبيدة بن أبي السفر ومحمود بن غيلان، قالوا: حدثنا سعيد بن عامر، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قال

رسول الله ﷺ: «العجوة من الجنة، وفيها شفاء من السم، والكمأة من المن وماؤها شفاء للعين». تفرد بإخراجه الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن عمرو، وإلا من حديث سعيد بن عامر، عنه، وفي الباب عن سعيد بن زيد، وأبي سعيد وجابر. كذا قال، وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْزُويه في تفسيره، من طريق آخر، عن أبي هريرة، فقال: حدثنا أحمد بن الحسن بن أحمد البصري، حدثنا أسلم بن سهل، حدثنا القاسم بن عيسى، حدثنا طلحة بن عبد الرحمن، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين». وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وطلحة بن عبد الرحمن هذا سلمى واسطي، يكنى بأبي محمد، وقيل: أبو سليمان المؤدب قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدي: روى عن قتادة أشياء لا يتابع عليها.

ثم قال الترمذي: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة: أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ قالوا: الكمأة جُدرى الأرض، فقال النبي ﷺ: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين، والعجوة من الجنة وهي شفاء من السم». وهذا الحديث قد رواه النسائي، عن محمد بن بشار، به. وعنه، عن عُثْدَر، عن شعبة، عن أبي بشر جعفر بن إياس، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة، به. وعن محمد بن بشار، عن عبد الأعلى، عن خالد الحذاء، عن شهر بن حوشب. بقصة الكمأة فقط. وروى النسائي - أيضاً - وابن ماجه من حديث محمد بن بشار، عن أبي عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد، عن مطر الوراق، عن شهر: بقصة العجوة عند النسائي، وبالقصتين عند ابن ماجه. وهذه الطريق منقطعة بين شهر بن حوشب وأبي هريرة فإنه لم يسمعه منه، بدليل ما رواه النسائي في الوليمة من سننه، عن علي بن الحسين الدرهمي، عن عبد الأعلى، عن سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غَنَم، عن أبي هريرة، قال: خرج رسول الله ﷺ وهم يذكرون الكمأة، وبعضهم يقول: جدرى الأرض، فقال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين». وروى عن شهر بن حوشب عن أبي سعيد وجابر، كما قال الإمام أحمد: حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن شهر بن حوشب، عن جابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين والعجوة من الجنة وهي شفاء من السم». قال النسائي في الوليمة أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر جعفر بن إياس عن شهر بن حوشب، عن أبي سعيد وجابر، رضي الله عنهم، أن رسول الله ﷺ قال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين». ثم رواه - أيضاً -، وابن ماجه من طرق، عن الأعمش، عن أبي بشر، عن شهر عنهم، به.

وقد روي - أعني النسائي، وابن ماجه - من حديث سعيد بن مسلم، كلاهما عن الأعمش، عن جعفر بن إياس عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، زاد النسائي: وحديث جابر، عن النبي ﷺ قال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين». ورواه ابن مَرْزُويه، عن أحمد بن عثمان، عن عباس الدوري، عن لاحق بن صواب، عن عمار بن زَرْبِق، عن الأعمش، كابن ماجه. وقال ابن مردويه أيضاً: حدثنا أحمد بن عثمان، حدثنا عباس الدوري، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن الأعمش، عن الجنهال بن عمرو، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي سعيد الخدري، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كمات، فقال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين». وأخرجه النسائي، عن عمرو بن منصور، عن الحسن بن الربيع، ثم رواه ابن مردويه. رواه أيضاً عن عبد الله بن إسحاق عن الحسن بن سلام، عن عبيد الله بن موسى، عن شيبان، عن الأعمش، به، وكذا رواه النسائي عن أحمد بن عثمان بن حكيم، عن عبيد الله بن موسى به. وقد روى من حديث أنس بن مالك، رضي الله عنه، كما قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم، حدثنا حمدون بن أحمد، حدثنا حوثره بن أشرس، حدثنا حماد، عن شعيب بن الحبحاب، عن أنس: أن أصحاب رسول الله ﷺ تدارؤوا في الشجرة التي اجتمعت من فوق الأرض ما لها من قرار، فقال بعضهم: نحسبه الكمأة. فقال رسول الله ﷺ: «الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين، والعجوة من الجنة، وفيها شفاء من السم».

وهذا الحديث محفوظ أصله من رواية حماد بن سلمة. وقد روى الترمذي والنسائي من طريقه شيئاً من هذا والله أعلم. وقد روى عن شهر، عن ابن عباس، كما رواه النسائي - أيضاً - في الوليمة، عن أبي بكر أحمد بن علي بن سعيد، عن عبد الله بن عون الخزاز، عن أبي عبيدة الحداد، عن عبد الجليل بن عطية، عن شهر، عن عبد الله بن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين». فقد اختلف - كما ترى فيه - على شهر بن حوشب، ويحتمل عندي أنه حفظه ورواه من هذه الطرق كلها، وقد سمعه من بعض الصحابة وبلغه عن بعضهم، فإن الأسانيد إليه جيدة، وهو لا يتعمد الكذب، وأصل

الحديث محفوظ عن رسول الله ﷺ، كما تقدم من رواية سعيد بن زيد. وأما السلوى فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: السلوى طائر شبيه بالسَّمَانِي، كانوا يأكلون منه. وقال السدي في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: السلوى: طائر يشبه السَّمَانِي.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنا قرة بن خالد، عن جهضم، عن ابن عباس، قال: السلوى: هو السَّمَانِي. وكذا قال مجاهد، والشعبي، والضحاك، والحسن، وعكرمة، والربيع بن أنس، رحمهم الله. وعن عكرمة: أما السلوى فطير كبير يكون بالجنة، أكبر من العصفور، أو نحو ذلك. وقال قتادة: السلوى من طير إلى الحمرة، تحشرها عليهم الريح الجنوب. وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى فسد ولم يبق عنده، حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنه كان يوم عبادة لا يشخص فيه شيء ولا يطلبه. وقال وهب بن منبه: السلوى: طير سمين مثل الحمام، كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت. وفي رواية عن وهب، قال: سألت بنو إسرائيل موسى، عليه السلام، اللحم، فقال الله: لأطعمنهم من أقل لحم يعلم في الأرض، فأرسل عليهم ريحاً، فأذرت عند مساكنهم السلوى، وهو السمانى، مثل ميل في ميل قيد رمح إلى السماء فخيَّووا للغد فتن اللحم وخنز الخبز. وقال السدي: لما دخل بنو إسرائيل التيه، قالوا لموسى، عليه السلام: كيف لنا بما ههنا؟ أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المَنَّ فكان يسقط على الشجر الزنجيل، والسلوى وهو طائر يشبه السمانى أكبر منه، فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير، فإن كان سميناً ذبحه وإلا أرسله، فإذا سمن أتاه، فقالوا: هذا الطعام فأين الشراب؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، فشرب كل سبط من عين، فقالوا: هذا الشراب، فأين الظل؟ فظلَّ عليهم الغمام. فقالوا: هذا الظل، فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما يطول الصبيان، ولا يَنُخِرُ لهم ثوب، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلَوى﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَائِهِ فَقُلْنَا أْمُرْ بِعَصَاكَ الْغَبَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا كُلُّ أَتَّاسٍ مِّثْرَةٌ فَسَمِعْتَ﴾ [البقرة: ٦٠]. وروي عن وهب بن منبه، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو ما قاله السدي. وقال سنيّد، عن حجاج، عن ابن جريج، قال: قال ابن عباس: خلُق لهم في التيه ثياب لا تخرق ولا تدرن، قال ابن جريج: فكان الرجل إذا أخذ من المَنَّ والسلوى فوق طعام يوم فسد، إلا أنهم كانوا يأخذون في يوم الجمعة طعام يوم السبت فلا يصح فاسداً. قال ابن عطية: السلوى: طير بإجماع المفسرين، وقد غلط الهذلي في قوله: إنه العسل، وأنشد في ذلك مستشهداً:

وقاسمها بالله جهداً لأنتم أَلَذَّ مِنَ السَّلَوى إذا ما أشورها
قال: فظن أن السلوى عسلاً قال القرطبي: دعوى الإجماع لا تصح؛ لأن المؤرخ أحد علماء اللغة والتفسير قال: إنه العسل، واستدل بيت الهذلي هذا، وذكر أنه كذلك في لغة كنانة؛ لأنه يسلى به ومنه عين سلوان، وقال الجوهري: السلوى العسل، واستشهد بيت الهذلي - أيضاً -، والسلوان بالضم خرزة، كانوا يقولون إذا صب عليها ماء المطر فشرىها العاشق سلا، قال الشاعر:

شربت على سلوانة ماء مزنة فلا جديد العيش يا ما أسلو
واسم ذلك الماء السلوان، وقال بعضهم: السلوان دواء يشفي الحزين فيسلو والأطباء يسمونه (مفرج)، قالوا: والسلوى جمع بلفظ - الواحد - أيضاً، كما يقال: سمانى للمفرد والجمع وويلي كذلك، وقال الخليل واحده سلواة، وأنشد:

وإنني لسمروني لذكراك هزة كما انتفض السلواة من بلل القطر
وقال الكسائي: السلوى واحدة وجمعه سلاوى، نقله كله القرطبي. وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن مَّا رَزَقْنَكُمْ﴾: أمر بإباحة وإرشاد وامتنان. وقوله: ﴿وَمَا ظَنُّنَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، أي: أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا، كما قال: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَمْ﴾ [سبا: ١٥] فخالقوا وكفروا فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البيّنات والمعجزات القاطعات، وخوارق العادات، ومن ههنا تتبين فضيلة أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم، على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم، كما كانوا معه في أسفاره وغزواته، منها عام تبوك، في ذلك القيظ والحر الشديد والجهد، لم يسألوا خرق عادة، ولا إيجاداً أمر، مع أن ذلك كان سهلاً على الرسول ﷺ، ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه في تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم، فجاء قدر مَبْرُك الشاة، فدعا الله فيه، وأمرهم فملؤوا كل وعاء معهم. وكذا لما احتاجوا إلى

الماء سأل الله تعالى، فجاءت سحابة فأمطرتهم، فشربوا وسقوا الإبل وملؤوا أسقيتهم. ثم نظروا فإذا هي لم تتجاوز العسكر. فهذا هو الأكمل في الاتباع: المشي مع قدر الله، ومع متابعة الرسول ﷺ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا أَنْتَلُوا مِنْهَا حَيْثُ رِغْتُمْ فَبَدَأَ ثَوَابُكَ سَجْدًا وَفُلُوكُمْ حَقْلًا تَنْزِيلًا لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَيَزِيدُ الْمُغْبِيَةَ ٥٨﴾

فَبَدَأَ الثَّوَابُ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ٥٩﴾.

يقول تعالى لانما لهم على نكولهم عن الجهاد ودخول الأرض المقدسة، لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى، عليه السلام، فأمرؤا بدخول الأرض المقدسة التي هي ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل، وقاتل من فيها من الغماليق الكفرة، فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا، فرماهم الله في التيه عقوبة لهم، كما ذكره تعالى في سورة المائدة؛ ولهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هي بيت المقدس، كما نص على ذلك السدي، والربيع بن أنس، وقتادة، وأبو مسلم الأصبهاني وغير واحد وقد قال تعالى: ﴿يَقُولُوا أَتَدْخُلُونَ الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآيات [المائدة: ٢١ - ٢٤]. وقال آخرون: هي أريحا ويحكي عن ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد، وهذا بعيد؛ لأنها ليست على طريقهم، وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحا وأبعد من ذلك قول من ذهب أنها مصر، حكاه فخر الدين في تفسيره، والصحيح هو الأول؛ لأنها بيت المقدس. وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون، عليه السلام، وفتحها الله عليهم عشية جمعة، وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلاً حتى أمكن الفتح، وأما أريحا فقرية ليست مقصودة لبني إسرائيل، ولما فتحوها أمرؤا أن يدخلوا الباب - باب البلد - ﴿سَجْدًا﴾ أي: شكرًا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، وردّ بلدهم إليهم وإنقاذهم من التيه والضلال. قال العوفي في تفسيره، عن ابن عباس أنه كان يقول في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا أَنْتَلُوا مِنْهَا حَيْثُ رِغْتُمْ﴾ أي: ركعاً. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا أَنْتَلُوا مِنْهَا حَيْثُ رِغْتُمْ﴾ قال: ركعاً من باب صغير. ورواه الحاكم من حديث سفيان، به. ورواه ابن أبي حاتم من حديث سفيان، وهو الثوري، به. وزاد: فدخلوا من قبل استاهمهم. وقال الحسن البصري: أمرؤا أن يسجدوا على وجوههم حال دخولهم، واستبعده الرازي، وحكي عن بعضهم: أن المراد بالسجود ههنا الخضوع لتعذر حمله على حقيقته. وقال خفيف: قال عكرمة، قال ابن عباس: كان الباب قبل القبلة. وقال ابن عباس ومجاهد، والسدي، وقتادة، والضحاك: هو باب الحطة من باب إيلياء بيت المقدس، وحكى الرازي عن بعضهم أنه عن باب جهة من جهات القرية. وقال خفيف: قال عكرمة: قال ابن عباس: فدخلوا على شق. وقال السدي، عن أبي سعيد الأزدي، عن أبي الكنود، عن عبد الله بن مسعود: وقيل لهم ادخلوا الباب سجداً، فدخلوا مقتنعي رؤوسهم، أي: رافعي رؤوسهم خلاف ما أمرؤا. وقوله: ﴿وَقُولُوا حَقْلًا﴾: قال الثوري عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَقُولُوا حَقْلًا﴾: قال: مغفرة، استغفروا. وروي عن عطاء، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، نحوه. وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَقُولُوا حَقْلًا﴾: قال: قولوا: هذا الأمر حق، كما قيل لكم. وقال عكرمة: قولوا: لا إله إلا الله. وقال الأوزاعي: كتب ابن عباس إلى رجل قد سماه يسأله عن قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حَقْلًا﴾، فكتب إليه: أن أقروا بالذنب.

وقال الحسن وقتادة: أي احطط عنا خطايانا. ﴿تَنْزِيلًا لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَيَزِيدُ الْمُغْبِيَةَ﴾: هذا جواب الأمر، أي: إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات وضاعفتا لكم الحسنات. وحاصل الأمر: أنهم أمرؤا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها، والشكر على النعمة عندها والمبادرة إلى ذلك من المحبوب لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ٢١﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّكَ كَانَتْ تَوَّابًا ٢٢﴾ [النصر: ١ - ٢]. فسر بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر، وفسره ابن عباس بأنه نعي إلى رسول الله ﷺ أجله فيها، وأقره على ذلك عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. ولا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك عند ذلك، ونعى إليه روحه الكريمة أيضاً، ولهذا كان عليه السلام يظهر عليه الخضوع جداً عند النصر، كما روي أنه كان يوم الفتح - فتح مكة - داخلًا إليها من الثنية العليا، وإنه الخاضع لربه حتى إن عُثْنُونَهُ ليمس مَوْزِكَ رَحْلَهُ، يشكر الله على ذلك. ثم لما دخل البلد اغتسل وصلى ثماني ركعات وذلك ضحى، فقال بعضهم: هي صلاة الضحى، وقال آخرون: بل هي صلاة الفتح، فاستحبوا للإمام وللأمير إذا فتح بلدًا أن يصلي فيه ثماني ركعات عند أول دخوله، كما فعل سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه، لما دخل إيوان كسرى صلى فيه ثماني ركعات، والصحيح أنه يفصل بين كل ركعتين بتسليم؛ وقيل: يصليها كلها بتسليم واحد، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ الثَّوَابُ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾: قال البخاري: حدثني محمد، حدثنا عبد الرحمن بن

مَهْدِي، عن ابن المبارك، عن مَعْمَر، عن هَمَام بن منبه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «قيل لبني إسرائيل: ﴿وَادْخُلُوا آلَآبَآبَ شُجَّكَآ وَفُؤُلُوآ حِطَّةَ﴾ فدخلوا يزحفون على استاهمهم، فبدلوا وقالوا: حطة: حبة في شعرة». ورواه النسائي، عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن مهدي به موقوفاً. وعن محمد بن عبيد بن محمد، عن ابن المبارك ببعضه مسنداً، في قوله تعالى: ﴿حِطَّةَ﴾ قال: فبدلوا. فقالوا: حبة.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن هَمَام بن مُنْبِه أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «قال الله لبني إسرائيل: ﴿وَادْخُلُوا آلَآبَآبَ شُجَّكَآ وَفُؤُلُوآ حِطَّةَ تَمْنِزَ لَكُمُ حَطَايِكُمُ﴾ فبدلوا، ودخلوا الباب يزحفون على استاهمهم، فقالوا: حبة في شعرة». وهذا حديث صحيح، رواه البخاري عن إسحاق بن نصر، ومسلم عن محمد بن رافع. والترمذي عن عبد بن حميد، كلهم عن عبد الرزاق، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال محمد بن إسحاق: كان تبديلهم كما حدثني صالح بن كيسان، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة، وعن لا أنهم، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «دخلوا الباب - الذي أمروا أن يدخلوا فيه سجداً - يزحفون على استاهمهم، وهم يقولون: حطة في شعيرة». وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عبد الله بن وهب، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «قال الله لبني إسرائيل: ﴿وَادْخُلُوا آلَآبَآبَ شُجَّكَآ وَفُؤُلُوآ حِطَّةَ تَمْنِزَ لَكُمُ حَطَايِكُمُ﴾». ثم قال أبو داود: حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا ابن أبي فديك، عن هشام بن سعد، مثله. هكذا رواه منفرداً به في كتاب الحروف مختصراً. وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا إبراهيم بن مهدي، حدثنا أحمد بن محمد بن المنذر القرزاز، حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، قال: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كان من آخر الليل، أجزنا في ثنية يقال لها: ذات الحنظل، فقال رسول الله ﷺ: «ما مثل هذه الثنية الليلة إلا كمثل الباب الذي قال الله لبني إسرائيل: ﴿وَادْخُلُوا آلَآبَآبَ شُجَّكَآ وَفُؤُلُوآ حِطَّةَ تَمْنِزَ لَكُمُ حَطَايِكُمُ﴾». وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن البراء: «سَيُؤَلُّ الشُّفَهَاءُ مِنَ الْآبَابِ» [البقرة: ١٤٢] قال اليهود: قيل لهم: ادخلوا الباب سجداً، قال: ركعاً، وقولوا: حطة: أي مغفرة، فدخلوا على استاهمهم، وجعلوا يقولون: حطة حمراء فيها شعيرة، فذلك قول الله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾.

وقال الثوري، عن السدي، عن أبي سعد الأزدي، عن أبي الكنود، عن ابن مسعود: ﴿وَفُؤُلُوآ حِطَّةَ﴾ فقالوا: حطة حبة حمراء فيها شعيرة، فأنزل الله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾. وقال أسباط، عن السدي، عن مرة، عن ابن مسعود أنه قال: إنهم قالوا: «هَطِي سمعانا أزية مزبا» فهي بالعربية: حبة حطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء، فذلك قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾. وقال الثوري، عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَادْخُلُوا آلَآبَآبَ شُجَّكَآ﴾: ركعاً من باب صغير، فدخلوا من قبل استاهمهم، وقالوا: حطة، فهو قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾. وهكذا روي عن عطاء، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، ويحيى بن رافع. وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق من الحديث أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا سجداً، فدخلوا يزحفون على استاهمهم من قبل استاهمهم رافعي رؤوسهم، وأمروا أن يقولوا: حطة، أي: احطط عنا ذنوبنا، فاستهزؤوا فقالوا: حطة في شعرة. وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة؛ ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم، وهو خروجهم عن طاعته؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾. وقال الضحاك عن ابن عباس: كل شيء في كتاب الله من «الرَّجْزِ» يعني به العذاب. وهكذا روي عن مجاهد، وأبي مالك، والسدي، والحسن، وقتادة، أنه العذاب. وقال أبو العالية: الرجز الغضب. وقال الشعبي: الرجز: إما الطاعون، وإما البرد. وقال سعيد بن جبير: هو الطاعون. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن إبراهيم بن سعد - يعني ابن أبي وقاص - عن سعد بن مالك، وأسامة بن زيد، وخزيمة بن ثابت، رضي الله عنهم، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجز عذاب عُذِّبَ به من كان قبلكم». وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري به. وأصل الحديث في الصحيحين من حديث حبيب بن أبي ثابت: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها» الحديث. قال ابن جرير: أخبرني يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن يونس، عن الزهري، قال: أخبرني عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أسامة بن زيد عن رسول الله ﷺ، قال: «إن هذا الوجع والسقم رجز عُذِّبَ به بعض الأمم قبلكم». وهذا الحديث أصله مخرَّج في الصحيحين، من حديث الزهري، ومن حديث مالك، عن محمد بن المنكدر، وسالم أبي

النضر، عن عامر بن سعد، بنحوه.

﴿وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَايِهِ فَقُلْنَا أَتَرَبِّىَ الْحَجَرُ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَفْرَاجَهُمْ كَلِمَاتُ اللَّهِ لَا تَعْتَوْنَ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى، عليه السلام، حين استسقاني لكم، وتيسيري لكم الماء، وإخراجه لكم من حَجَرٍ يُحْمَلُ معكم، وتفجيرى الماء لكم منه من اثنتي عشرة عينا لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها، فكلوا من المن والسلوى، واشربوا من هذا الماء الذي أنبته لكم بلا سعي منكم ولا كد، واعبدوا الذي سخر لكم ذلك. ﴿وَلَا تَعْتَوْنَ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها. وقد بسطه المفسرون في كلامهم، كما قال ابن عباس: وجعل بين ظهرانيهم حجر مربع وأمر موسى، عليه السلام، فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، في كل ناحية منه ثلاث عيون، وأعلم كل سبط عندهم، يشربون منها لا يرحلون من مَثَلَةٍ إلا وجدوا ذلك معهم بالمكان الذي كان منهم بالمنزل الأول. وهذا قطعة من الحديث الذي رواه النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وهو حديث الفتون الطويل. وقال عطية العوفي: وجعل لهم حجر مثل رأس الثور يحمل على ثور، فإذا نزلوا منزلاً وضعوه فضربه موسى بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، فإذا ساروا حملوه على ثور، فاستسك الماء. وقال عثمان بن عطاء الخراساني، عن أبيه: كان لبني إسرائيل حجر، فكان يضعه هارون ويضربه موسى بالعصا. وقال قتادة: كان حجراً طورياً، من الطور، يحملونه معهم حتى إذا نزلوا ضربه موسى بعصاه. وقال الزمخشري: وقيل: كان من رخام وكان ذراعاً في ذراع، وقيل: مثل رأس الإنسان، وقيل: كان من أسس الجنة طوله عشرة أذرع على طول موسى. وله شعبتان تتقدان في الظلمة وكان يحمل على حمار، قال: وقيل: أهبطه آدم من الجنة فتوارثوه، حتى وقع إلى شعيب فدفعه إليه مع العصا، وقيل: هو الحجر الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل، فقال له جبريل: ارفع هذا الحجر فإن فيه قدرة ولك فيه معجزة، فحمله في مخلاته. قال الزمخشري: ويحتمل أن تكون اللام للجنس لا للعهد، أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر، وعن الحسن لم يأمه أن يضرب حجراً بعينه، قال: وهذا أظهر في المعجزة وأبين في القدرة فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر ثم يضربه فيبسي، فقالوا: إن فقد موسى هذا الحجر عطشنا، فأوحى الله إليه أن يكلم الحجارة فتنفجر ولا يمسه بالعصا لعلهم يقرؤن. وقال يحيى بن النضر: قلت لجوبير: كيف علم كل أناس مشربهم؟ قال: كان موسى يضع الحجر، ويقوم من كل سبط رجل، ويضرب موسى الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عينا فينتضح من كل عين على رجل، فيدعو ذلك الرجل سبطه إلى تلك العين. وقال الضحاك: قال ابن عباس: لما كان بنو إسرائيل في التيه شق لهم من الحجر أنهاراً. وقال سفيان الثوري، عن أبي سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: ذلك في التيه، ضرب لهم موسى الحجر فصار فيه اثنتا عشرة عينا من ماء، لكل سبط منهم عين يشربون منها. وقال مجاهد نحو قول ابن عباس: وهذه القصة شبيهة بالقصة المذكورة في سورة الأعراف، ولكن تلك مكية، فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب؛ لأن الله تعالى يقص ذلك على رسوله ﷺ عما فعل بهم. وأما في هذه السورة، وهي البقرة فهي مدنية؛ فلهذا كان الخطاب فيها متوجهاً إليهم. وأخبر هناك بقوله: ﴿فَأَنْجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] وهو أول الانفجار، وأخبر ههنا بما آل إليه الأمر آخراً وهو الانفجار فناسب ذكر الانفجار ههنا، وذاك هناك، والله أعلم. وبين السياقين تباين من عشرة أوجه لفظية ومعنوية قد سأل عنها الرازي في تفسيره وأجاب عنها بما عنده، والأمر في ذلك قريب والله تبارك وتعالى أعلم بأسرار كتابه.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ أَنْ نَضْمِرْ عَلَىٰ ظَهْرِكَ ذَبِيبًا فَقَدْ لَنَا بِكَ يُخْرِجُ لَنَا مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ مِنْ بَقَلَيْهَا وَقَفَّالَيْهَا وَقَوْمَهَا وَعَدَيْهَا وَبَسَلَيْهَا قَالَ أَتُنَبِّئُنِي بِالْأُورِيِّ هُوَ أَزْدٌ بِالْأُورِ هُوَ خَيْرٌ أَفْطَلُوا وَضُرَّا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾.

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المن والسلوى، طعماً طيباً نافعاً هنيئاً سهلاً، واذكروا ذبركم وضجركم مما رزقتمكم وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنية من البقول ونحوها مما سألتهم. وقال الحسن البصري رحمه الله: فبطروا ذلك ولم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه، وكانوا قوماً أهل أعداس وبصل ويقول وفوم، فقالوا: ﴿يُضْمِرُ لَنَا ضَمِيرٌ عَلَىٰ ظَهْرِكَ ذَبِيبٌ فَقَدْ لَنَا بِكَ يُخْرِجُ لَنَا مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ مِنْ بَقَلَيْهَا وَقَفَّالَيْهَا وَقَوْمَهَا وَعَدَيْهَا وَبَسَلَيْهَا﴾ وهم يأكلون المن والسلوى؛ لأنه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم فهو كأكمل واحد. فالبقول والقش والعنبر والبصل كلها معروفة. وأما «الفوم» فقد اختلف السلف في معناه فوقع في قراءة ابن مسعود «وئومها» بالثاء، وكذلك فسره مجاهد في رواية ليث بن أبي سليم، عنه، بالثوم. وكذا الربيع بن أنس، وسعيد بن جبير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن رافع، حدثنا أبو عمارة يعقوب بن إسحاق البصري، عن يونس، عن الحسن، في قوله: ﴿وَقَوْمَهَا﴾ قال: قال ابن عباس: الثوم. قالوا: وفي اللغة

القديمة: قَوْمُوا لَنَا بِمَعْنَى: اخْتَبِرُوا. وقال ابن جرير: فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ صَحِيحًا، فَإِنَّهُ مِنَ الْحُرُوفِ الْمَبْدَلَةِ كَقَوْلِهِمْ: وَقَعُوا فِي «عَاثُرٍ شَرٍّ» وَعَافُورٍ شَرٍّ، وَأَثَانِي وَأَثَانِي، وَمَغَايِرٍ وَمَغَايِرٍ. وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ مِمَّا تَقَلَّبَ الْفَاءُ ثَاءً وَالثَّاءُ فَاءً لِقَارِبِ مَخْرَجِهِمَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وقال آخرون: الْقَوْمُ الْحَنْطَةُ، وَهُوَ الْبَرُّ الَّذِي يَعْمَلُ مِنْهُ الْخَبِزُ. قال ابن أبي حاتم: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى قَرَأَهُ، أَنَبَانَا ابْنَ وَهْبٍ قَرَأَهُ، حَدَّثَنِي نَافِعُ بْنُ أَبِي نَعِيمٍ: أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سَمِعَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَقَوْمَهَا﴾: مَا فُورِمَهَا؟ قال: الْحَنْطَةُ. قال ابن عباس: أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ أَحِيحَةَ بْنِ الْجَلَّاحِ وَهُوَ يَقُولُ:

قَدْ كُنْتُ أَغْنَى النَّاسَ شَخْصًا وَاحِدًا وَرَزَّةَ الْمَدِينَةِ عَنْ زَرَاعَةِ قَوْمٍ
وقال ابن جرير: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا مُسْلِمُ الْجَرْمِيُّ، حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ يُونُسَ، عَنْ رَشْدِينَ بْنِ كُرَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَوْمَهَا﴾ قال: الْقَوْمُ الْحَنْطَةُ بِلِسَانِ بَنِي هَاشِمٍ. وَكَذَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، وَالضَّحَّاكُ، وَعِكْرَمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْقَوْمَ: الْحَنْطَةُ. وقال سفيان الثوري، عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ: ﴿وَقَوْمَهَا﴾ قَالَا: خَبِزَهَا. وقال مُشَيْمٌ عَنْ يُونُسَ، عَنْ الْحُسَيْنِ، وَحَصِينٍ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ: ﴿وَقَوْمَهَا﴾ قال: الْحَنْطَةُ. وَهُوَ قَوْلُ عِكْرَمَةَ، وَالسَّدي، وَالْحُسَيْنِ الْبَصْرِيِّ، وَقَتَادَةَ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ بَنِ اسْلَمَ، وَغَيْرُهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وقال الجوهري: الْقَوْمُ: الْحَنْطَةُ. وقال ابن دريد: الْقَوْمُ: السَّنْبِلَةُ، وَحَكِي الْقُرْطُبِيُّ عَنْ عَطَاءٍ وَقَتَادَةَ أَنَّ الْقَوْمَ كُلَّ حَبٍ يَخْتَبِزُ. قال: وقال بعضهم: هُوَ الْحَمَصُ لُغَةً شَامِيَّةً، وَمِنْهُ يُقَالُ لِبَنَاتِهِ: فَامِي مَغِيرَ عَنْ فُومِي. وقال البخاري: وقال بعضهم: الْحَبُوبُ الَّتِي تُؤْكَلُ كُلُّهَا فُومٌ. وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَشْتَبِلُونَ أَذَى هُوَ أَذَى يَأْذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ فِيهِ تَقْرِيعٌ لَهُمْ وَتَوْبِيخٌ عَلَى مَا سَأَلُوا مِنْ هَذِهِ الْأَطْعِمَةِ الدُّنْيَا مَعَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَيْشِ الرَّغِيدِ، وَالطَّعَامِ الْهَنِئِ الطَّيِّبِ النَّافِعِ.

وقوله: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا﴾ هَكَذَا هُوَ مَنْوُونٌ مَصْرُوفٌ مَكْتُوبٌ بِالْأَلْفِ فِي الْمَصَاحِفِ الْأَثَمَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وَهُوَ قَرَأَةُ الْجُمْهُورِ بِالصَّرَفِ. قال ابن جرير: وَلَا أُسْتَجِيزُ الْقِرَاءَةَ بِغَيْرِ ذَلِكَ؛ لِإِجْمَاعِ الْمَصَاحِفِ عَلَى ذَلِكَ. وقال ابن عباس: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا﴾ قال: مِصْرًا مِنَ الْأَمْصَارِ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْبَقَالِ سَعِيدِ بْنِ الْمَرْزِبَانِ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْهُ. قال: وَرَوَى عَنْ السَّدي، وَقَتَادَةَ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ نَحْوَ ذَلِكَ. وقال ابن جرير: وَقَعَ فِي قِرَاءَةِ أَبِي بَنِ كَعْبٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ: «أَهْبِطُوا مِصْرًا»، مِنْ غَيْرِ إِجْرَاءٍ يَعْنِي مِنْ غَيْرِ صَرْفٍ. ثُمَّ رَوَى عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ أَنَّهُمَا فَسَّرَا ذَلِكَ بِمِصْرِ فِرْعَوْنَ. وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، وَعَنْ الْأَعْمَشِ أَيْضًا. وقال ابن جرير: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ مِصْرَ فِرْعَوْنَ عَلَى قِرَاءَةِ الْإِجْرَاءِ أَيْضًا. وَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ بَابِ الْإِتْبَاعِ لِكِتَابَةِ الْمُصْحَفِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَوَارِيرًا قَوَارِيرًا﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦]. ثُمَّ تَوَقَّفَ فِي الْمَرَادِ مَا هُوَ؟ أَمْصَرُ فِرْعَوْنَ أَمْ مِصْرُ مِنَ الْأَمْصَارِ؟ وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ فِيهِ نَظَرٌ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْمَرَادَ مِصْرَ مِنَ الْأَمْصَارِ كَمَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ، وَالْمَعْنَى عَلَى ذَلِكَ لِأَنَّ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَقُولُ لَهُمْ: هَذَا الَّذِي سَأَلْتُمْ بِأَمْرِ عَزِيزٍ، بَلْ هُوَ كَثِيرٌ فِي أَيِّ بَلَدٍ دَخَلْتُمُوهُ وَجَدْتُمُوهُ، فَلَيْسَ بِسَاوِيٍّ مَعَ دَنَاءَتِهِ وَكَثْرَتِهِ فِي الْأَمْصَارِ أَنْ أَسْأَلَ اللَّهَ فِيهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَتَشْتَبِلُونَ أَذَى هُوَ أَذَى يَأْذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ تَأْسَلَتْهُ﴾ أَي: مَا طَلَبْتُمْ، وَلَمَّا كَانَ سُؤْلُهُمْ هَذَا مِنْ بَابِ الْبَطَرِ وَالْأَشْرَ وَلَا ضَرُورَةَ فِيهِ، لَمْ يَجَابُوا إِلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَمُتَّيْتُمْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبِنَا مِنْهُ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ وَيَتَكَبَّرُونَ اللَّهُ يَغْتَابُ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْمَوْعِدِ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمُتَّيْتُمْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أَي: وَضَعْتُ عَلَيْهِمْ وَالزَّمَوْتُ بِهَا شَرْعًا وَقَدَرًا، أَي: لَا يَزَالُونَ مُسْتَذِلِّينَ، مِنْ وَجْهِهِمْ اسْتِذْلَالُهُمْ وَأَهَانُهُمْ، وَضَرْبُ عَلَيْهِمُ الصَّغَارِ، وَهَمَّ مَعَ ذَلِكَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَذْلَاءٌ مُتَسَكِّنُونَ. قال الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمُتَّيْتُمْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ قال: هُمُ أَصْحَابُ النَّبَالَاتِ، يَعْنِي أَصْحَابُ الْجَزِيَةِ. وقال عبد الرزاق، عَنْ مَقْمَرٍ، عَنْ الْحُسَيْنِ وَقَتَادَةَ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمُتَّيْتُمْ عَلَيْهِمُ﴾ قال: يَعْطُونَ الْجَزِيَةَ عَنْ يَدِهِمْ صَاغِرُونَ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿وَمُتَّيْتُمْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ قال: الذِّلُّ. وقال الحسن: أَذْلَهُمُ اللَّهُ فَلَا مَنَعَةَ لَهُمْ، وَجَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْمُسْلِمِينَ. وَلَقَدْ أَدْرَكْتَهُمْ هَذِهِ الْأُمَّةُ وَإِنْ الْمَجُوسُ لَتَجْبِيهِمُ الْجَزِيَةَ. وقال أبو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالسَّدي: الْمَسْكَنَةُ الْفَاقَةُ. وقال عطية العوفي: الْخَرَاجُ. وقال الضَّحَّاكُ: الْجَزِيَةُ. وقوله تعالى: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبِنَا مِنْهُ﴾ قال الضَّحَّاكُ: اسْتَحَقُّوا الْغَضَبَ مِنَ اللَّهِ، وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: فَحَدَّثَ عَلَيْهِمْ غَضَبَ مِنَ اللَّهِ. وقال سعيد بن جبيرة: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبِنَا مِنْهُ﴾، يَقُولُ: اسْتَوْجِبُوا سَخَطًا، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبِنَا مِنْهُ﴾: انْصَرَفُوا وَرَجَعُوا، وَلَا يُقَالُ: بَاوُوا إِلَّا مُوَصَّلًا: إِمَّا بِخَيْرٍ وَإِمَّا بِشَرٍّ، يُقَالُ مِنْهُ: بَاءَ فُلَانٌ بِذَنْبِهِ يَبُوءُ بِهِ بُؤًا وَبُؤَاءً. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءُوا بِإِثْمِي وَإِثْمُكُمْ﴾ [المائدة: ٢٩] يَعْنِي: تَنْصَرِفُ مَتَحْمِلُهُمَا وَتَرْجِعُ بِهِمَا،

فإن هذا الذي قاله ابن عباس إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملاً، إلا ما كان موافقاً لشريعة محمد ﷺ بعد أن بعثه الله بما بعثه به، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة، فاليهود أتباع موسى، عليه السلام، الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة في زمانهم. واليهود من اليهودة وهي المودة أو التهود وهو التوبة؛ كقول موسى، عليه

السلام: ﴿إِنَّا هَذَا آلِكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي: تبنا، فكانهم سموا بذلك في الأصل لتبوتهم ومودتهم في بعضهم لبعض. وقيل: لنسبتهم إلى يهوذا أكبر أولاد يعقوب عليه السلام، وقال أبو عمرو بن العلاء: لأنهم يهودون، أي: يتحركون عند قراءة التوراة. فلما بعث عيسى ﷺ وجب على بني إسرائيل اتباعه والانقياد له، فأصحابه وأهل دينه هم النصارى، وسموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم، وقد يقال لهم: أنصار أيضاً، كما قال عيسى، عليه السلام: ﴿مَنْ أَصَارَ إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَرَارِيُّونَ فَقَدْ أَصَارَ إِلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] وقيل: إنهم إنما سُموا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضاً يقال لها ناصرة، قاله قتادة وابن جريج، وروي عن ابن عباس أيضاً، والله أعلم. والنصارى: جمع نصران كنشأوى جمع نشوان، وسكارى جمع سكران، ويقال للمرأة: نصرانة، قال الشاعر:

نصـرانـة لـم تـحـب

فلما بعث الله محمداً ﷺ خاتماً للنبيين، ورسولاً إلى بني آدم على الإطلاق، وجب عليهم تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانكفاف عما عنه زجر. وهؤلاء هم المؤمنون حقاً. وسميت أمة محمد ﷺ مؤمنين لكثرة إيمانهم وشدة إيقانهم، ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية. وأما الصابئون فقد اختلف فيهم؛ فقال سفيان الثوري، عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، قال: الصابئون قوم بين المجوس واليهود والنصارى، ليس لهم دين. وكذا رواه ابن أبي نجيح، عنه وروى عن عطاء وسعيد بن جبيرة نحو ذلك. وقال أبو العالية والربيع بن أنس، والسدي، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، والضحاك وإسحاق بن راهويه: الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور. ولهذا قال أبو حنيفة وإسحاق: لا بأس بذبائحهم ومناكحتهم. وقال هشيم بن مطرف: كنا عند الحكم بن عتيبة فحدثه رجل من أهل البصرة عن الحسن أنه كان يقول في الصابئين: إنهم كالمجوس، فقال الحكم: ألم أخبركم بذلك. وقال عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن عبد الكريم: سمعت الحسن ذكر الصابئين، فقال: هم قوم يعبدون الملائكة. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا معتمر بن سليمان عن أبيه، عن الحسن قال: أخبر زياد أن الصابئين يصلون إلى القبلة ويصلون الخمس. قال: فأراد أن يضع عنهم الجزية. قال: فخير بعد أنهم يعبدون الملائكة. وقال أبو جعفر الرازي: بلغني أن الصابئين قوم يعبدون الملائكة، ويقرؤون الزبور، ويصلون إلى القبلة.

وكذا قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن أبي الزناد، عن أبيه، قال: الصابئون قوم مما يلي العراق، وهم بكوثى، وهم يؤمنون بالنبيين كلهم، ويصومون من كل سنة ثلاثين يوماً ويصلون إلى اليمين كل يوم خمس صلوات. وسئل وهب بن منبه عن الصابئين، فقال: الذي يعرف الله وحده، وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفراً. وقال عبد الله بن وهب: قال عبد الرحمن بن زيد: الصابئون أهل دين من الأديان، كانوا بجزيرة الموصل يقولون: لا إله إلا الله. وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول: لا إله إلا الله، قال: ولم يؤمنوا برسول، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي ﷺ وأصحابه: هؤلاء الصابئون، يشبهونهم بهم، يعني في قول: لا إله إلا الله. وقال الخليل: هم قوم يشبه دينهم دين النصارى، إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب، يزعمون أنهم على دين نوح، عليه السلام. وحكى القرطبي عن مجاهد والحسن وابن أبي نجيح: أنهم قوم تركب دينهم بين اليهود والمجوس، ولا تؤكل ذبائحهم، قال ابن عباس: ولا تنكح نساؤهم. قال القرطبي: والذي تحصل من مذهبهم فيما ذكره بعض العلماء أنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم، وأنها فاعلة؛ ولهذا أفتى أبو سعيد الأصطخري بكفرهم للقادر بالله حين سأله عنهم، واختار فخر الدين الرازي أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب؛ بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء، أو بمعنى أن الله فوض تدبير أمر هذا العالم إليها، قال: وهذا القول هو المنسوب إلى الكثرانيين الذين جاءهم إبراهيم الخليل، عليه السلام، راداً عليهم ومبطلاً لقولهم. وأظهر الأقوال، والله أعلم، قول مجاهد ومتابعيه، وهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه؛ ولهذا كان المشركون ينيرون من أسلم بالصابئي، أي: إنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك. وقال بعض العلماء: الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبي، والله أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا بَدَّيْتُ لَكُمْ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾

يقول تعالى مذكراً بني إسرائيل ما أخذ عليهم من المهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له واتباع رسله، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل على رؤوسهم ليقروا بما عاهدوا عليه، ويأخذوه بقوة وحزم وهمة وامتنال، كما قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ لِقَوْمِكَ قَوْلَهُمْ كَأَنَّهُ طَلَّةٌ وَطَلُّوا أَنَّهُم رَأَوْهُ وَاعْبُدُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَآذِكُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١] فالطور هو الجبل، كما فسر بآية الأعراف، ونص على ذلك ابن عباس، ومجاهد، وعطاء وعكرمة والحسن والضحاك والربيع بن أنس، وغير واحد، وهذا ظاهر. وفي رواية عن ابن عباس: الطور ما أنبت من الجبال، وما لم يُثبت فليس بطور. وفي حديث الفتون: عن ابن عباس: أنهم لما امتنعوا عن الطاعة رفع عليهم الجبل ليسمعوا فسجدوا. وقال السدي: فلما أبوا أن يسجدوا أمر الله الجبل أن يقع عليهم، فنظروا إليه وقد غشيهم، فسقطوا سجداً فسجدوا على شق، ونظروا بالشق الآخر، فرحمهم الله فكشفه عنهم، فقالوا: والله ما سجدة أحب إلى الله من سجدة كشف بها العذاب عنهم، فهم يسجدون كذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾. وقال الحسن في قوله: ﴿خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾: يعني التوراة. وقال أبو العالية والربيع بن أنس: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي بطاعة. وقال مجاهد: بقوة: بعمل بما فيه. وقال قتادة: ﴿خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ القوة: الجد والإقذفة عليكم. قال: فأقروا بذلك: أنهم يأخذون ما أوتوا بقوة. ومعنى قوله: ﴿وَالَا قَذْفَةً عَلَيْكُمْ﴾، أي: أسقطته عليكم، يعني الجبل. وقال أبو العالية والربيع: ﴿وَآذِكُوا مَا فِيهِ﴾ يقول: اقرؤوا ما في التوراة واعملوا به. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ ذَلِكَ﴾ يقول تعالى: ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه وانشيتم ونقضتموه ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: توبته عليكم وإرساله النبيين والمرسلين إليكم ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ بنقضكم ذلك الميثاق في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ أَخْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُفُّوا قِرْدَةَ خَيْبِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ يا معشر اليهود، ما حلَّ من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره، إذ كان مشروعاً لهم، فتحيلوا على اصطيد الحيتان في يوم السبت، بما وضعوه لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت على عاداتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل، فلم تخلص منها يوماً ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت. فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة، وهي أشبه شيء بالإناس في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة. فكذلك أعمال هؤلاء وحيلهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم. وهذه القصة مبسطة في سورة الأعراف، حيث يقول تعالى: ﴿وَسَأَلْتَهُمُ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً لِّلْخَيْرِ إِذْ بَعُدْتُمْ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَلَّوْنَهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣] القصة بكاملها. وقال السدي: أهل هذه القرية هم أهل «أيلة». وكذا قال قتادة، وسنورد أقوال المفسرين هناك مبسطة إن شاء الله وبه الثقة. وقوله: ﴿كُفُّوا قِرْدَةَ خَيْبِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ﴾: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُفُّوا قِرْدَةَ خَيْبِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ﴾: قال: مسخت قلوبهم، ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله ﴿كَثَلِ الْخَمَارِ يَحْوِلَ أَشْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]. ورواه ابن جرير، عن المثني، عن أبي حذيفة. وعن محمد بن عمرو الباهلي، عن أبي عاصم، عن عيسى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، به. وهذا سند جيد عن مجاهد، وقول غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّا تُؤْتُونَ عِندَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَكَفُورٍ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ الآية [المائدة: ٦٠]. وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُفُّوا قِرْدَةَ خَيْبِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ﴾: فجعل الله منهم القردة والخنازير. فزع أن شباب القوم صاروا قردة والمشيخة صاروا خنازير. وقال شيبان النحوي، عن قتادة: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُفُّوا قِرْدَةَ خَيْبِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ﴾: فصار القوم قرداً تعاقوا لها أذناب بعدما كانوا رجالاً ونساء. وقال عطاء الخراساني: نودوا: يا أهل القرية، ﴿كُفُّوا قِرْدَةَ خَيْبِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ﴾، فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون: يا فلان، ألم نهكم؟ فيقولون برؤوسهم، أي بلى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عبد الله بن محمد بن ربيعة بالمصبصة، حدثنا محمد بن مسلم - يعني الطائفي - عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: إنما كان الذين اعتدوا في السبت فجعلوا قردة فورا ثم هلكوا. ما كان للمسوخ نسل. وقال الضحاك، عن ابن عباس: فمسخهم الله قردة بمعصيتهم، يقول: إذ لا يحيون في الأرض إلا ثلاثة أيام، قال: ولم يعيش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل. وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخلق في الستة الأيام التي ذكرها الله في كتابه، فمسخ الله هؤلاء القوم في صورة القردة، وكذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء. ويحوله كما يشاء. وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع، عن أبي العالية في قوله: ﴿كُفُّوا قِرْدَةَ خَيْبِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ﴾: قال: يعني أذلة صاغرين. وروي عن

مجاهد، وقتادة والربيع، وأبي مالك، نحوه. وقال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، قال: قال ابن عباس: إن الله إنما افترض على بني إسرائيل اليوم الذي افترض عليكم في عيدكم - يوم الجمعة - فخالقوا إلى السبت فعظموه، وتركوا ما أمروا به. فلما أبوا إلا لزوم السبت ابتلاهم الله فيه، فحرم عليهم ما أحل لهم في غيره. وكانوا في قرية بين أيلة والطور، يقال لها: «مدين»؛ فحرم الله عليهم في السبت الحيتان: صيدها وأكلها. وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت إليهم شُرْعاً إلى ساحل بحرهم، حتى إذا ذهب السبت ذهبن، فلم يروا حوتاً صغيراً ولا كبيراً. حتى إذا كان يوم السبت أتبن شُرْعاً، حتى إذا ذهب السبت ذهبن، فكانوا كذلك، حتى إذا طال عليهم الأمد وقرموا إلى الحيتان، عمد رجل منهم فأخذ حوتاً سراً يوم السبت، فخرمه بخيظ، ثم أرسله في الماء، وأوتد له وتداً في الساحل فأوثقه، ثم تركه. حتى إذا كان الغد جاء فأخذه، أي: إني لم أخذه في يوم السبت ثم انطلق به فأكله. حتى إذا كان يوم السبت الآخر، عاد لمثل ذلك، ووجد الناس ريح الحيتان، فقال أهل القرية: والله لقد وجدنا ريح الحيتان، ثم عثروا على صنيع ذلك الرجل. قال: ففعلوا كما فعل، وصنعوا سراً زماناً طويلاً، لم يعجل الله عليهم العقوبة حتى صادوها علانية وباعوها بالأسواق. فقالت طائفة منهم من أهل البقية: ويحكم، اتقوا الله. ونهروهم عما يصنعون. فقالت طائفة أخرى لم تأكل الحيتان، ولم تنه القوم عما صنعوا: ﴿لَمْ يَطُؤُوا قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةُ إِلَى رَبِّكُمْ لَسَخَطْنَا أَعْمَالَهُمْ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأعراف: ١٦٤]. قال ابن عباس: فبينما هم على ذلك أصبحت تلك البقية في أنديتهم ومساجدهم وفقدوا الناس فلا يرونهم قال: فقال بعضهم لبعض: إن للناس لشأناً! فانظروا ما هو. فذهبوا ينظرون في دورهم، فوجدوها مغلقة عليهم، قد دخلوها ليلاً فغلقوها على أنفسهم، كما يغلق الناس على أنفسهم فأصبحوا فيها قردة، وإنهم ليعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد، والمرأة بعينها وإنها لقردة، والصبي بعينه وإنه لقرد. قال: يقول ابن عباس: فلولا ما ذكر الله أنه أنجى الذين نهوا عن سوء لقننا: أهلك الجميع منهم، قال: وهي القرية التي قال الله جل ثناؤه لمحمد ﷺ: ﴿وَسَلَّمْتُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ الآية [الأعراف: ١٦٣]. وروى الضحاك عن ابن عباس نحوه من هذا.

قال السدي في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [١٦٥] قال: فهم أهل «أيلة»، وهي القرية التي كانت حاضرة البحر، فكانت الحيتان إذا كان يوم السبت - وقد حرم الله على اليهود أن يعملوا في السبت شيئاً - لم يبق في البحر حوت إلا خرج، حتى يخرج خراطيمهم من الماء، فإذا كان يوم الأحد لزم من مقل البحر، فلم ير منهم شيء حتى يكون يوم السبت، فذلك قوله تعالى: ﴿وَسَلَّمْتُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَابُهُمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَلَّوْنَهُمْ يَمَّا كَانُوا يَقْسُقُونَ﴾ [١٦٦] [الأعراف: ١٦٣]. فاشتبه بعضهم السمك، فجعل الرجل يحفر الحفيرة، ويجعل لها نهراً إلى البحر، فإذا كان يوم السبت فتح النهر فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقيها في الحفيرة، فيريد الحوت أن يخرج، فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر، فيمكث فإذا كان يوم الأحد جاء فأخذه، فجعل الرجل يشوي السمك فيجد جاره ريحه فيسأله فيخبره، فيصنع مثل ما صنع جاره، حتى فشا فيهم أكل السمك، فقال لهم علماؤهم: ويحكم! إنما تصطادون يوم السبت، وهو لا يحل لكم، فقالوا: إنما صيدناه يوم الأحد حين أخذناه. فقال العلماء: لا ولكنكم صيدتموه يوم فتحكم الماء فدخل، قال: وغلبوا أن ينتهوا. فقال بعض الذين نهوهم لبعض: ﴿لَمْ يَطُؤُوا قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، يقول: لم تعظوهم، وقد عظمتوهم فلم يطيعوكم؟ فقال بعضهم: ﴿مَعْذِرَةُ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤] فلما أبوا قال المسلمون: والله لا نساكنكم في قرية واحدة. فقسموا القرية بجدار، ففتح المسلمون باباً والمعتدون في السبت باباً، ولعنهم داود، عليه السلام، فجعل المسلمون يخرجون من بابهم، والكفار من بابهم، فخرج المسلمون ذات يوم، ولم يفتح الكفار بابهم، فلما أبطؤوا عليهم تسور المسلمون عليهم الحائط، فإذا هم قردة يشب بعضهم على بعض، ففتحوا عنهم، فذهبوا في الأرض، فذلك قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَزَا عَنْ مَا ثَبَّرُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [١٦٦] [الأعراف: ١٦٦] وذلك حين يقول: ﴿لَوْ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلِمُوا مَا لِي بِسَيِّئَةِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨] فهم القردة. قلت: والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد، رحمه الله، من أن مسخهم إنما كان معنوياً لا صورياً بل الصحيح أنه معنوي صوري، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [١٦٧] قال بعضهم: الضمير في ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ عائد على القردة، وقيل: على الحيتان، وقيل: على العقوبة، وقيل: على القرية، حكاه ابن جرير. والصحيح أن الضمير عائد على القرية، أي: فجعل الله هذه القرية، والمراد أهلها بسبب اعتدائهم في سببهم ﴿نَكَالًا﴾ أي: عاقبناهم عقوبة، فجعلناها عبرة كما

قال الله عن فرعون: ﴿فَأَنذَرْتُكَ اللَّهُ تَكَاَلُ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٥]، وقوله: ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي من القرى. قال ابن عباس: يعني جعلناها بما أحللتنا بها من العقوبة عبرة لما حولها من القرى. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَكُمْ تَرْجُونَ﴾ [الأحاف: ٢٧]، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الآية [الرعد: ٤١] على أحد الأقوال، فالمراد: لما بين يديها وما خلفها في المكان، كما قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: لما بين يديها من القرى وما خلفها من القرى. وكذا قال سعيد بن جبيرة: ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ قال: من بحضرتها من الناس يومئذ. وروى عن إسماعيل بن أبي خالد، وقتادة، وعطية العوفي: ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ قال: ما كان قبلها من الماضين في شأن السبت. وقال أبو العالية والربيع وعطية: ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾: لما بقي بعدهم من الناس من بني إسرائيل أن يعملوا مثل عملهم. وكان هؤلاء يقولون: المراد بما بين يديها وما خلفها في الزمان. وهذا مستقيم بالنسبة إلى من يأتي بعدهم من الناس أن يكون أهل تلك القرية عبرة لهم، وأما بالنسبة إلى من سلف قبلهم من الناس فكيف يصح هذا الكلام أن تفسر الآية به وهو أن تكون عبرة لمن سبقهم؟ هذا لعل أحداً من الناس لا يقوله بعد تصوره، فتعين أن المراد بما بين يديها وما خلفها في المكان، وهو ما حولها من القرى؛ كما قاله ابن عباس وسعيد بن جبيرة، والله أعلم. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع عن أبي العالية: ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي: عقوبة لما خلا من ذنوبهم. وقال ابن أبي حاتم: وروى عن عكرمة، ومجاهد، والسدي، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، نحو ذلك. وحكى القرطبي، عن ابن عباس والسدي، والفراء، وابن عطية: ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ بين ذنوب القوم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب، وحكى فخر الدين ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المراد بما بين يديها وما خلفها: من تقدمها من القرى، بما عندهم من العلم بخبرها، بالكتب المتقدمة ومن بعدها. الثاني: المراد بذلك من بحضرتها من القرى والأمم. والثالث: أنه جعلها تعالى عقوبة لجميع ما ارتكبه من قبل هذا الفعل وما بعده، قال: وهذا قول الحسن. قلت: وأرجح الأقوال أن المراد بما بين يديها وما خلفها: من بحضرتها من القرى التي يبلغهم خبرها، وما حل بها، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَكُمْ تَرْجُونَ﴾ [الأحاف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا نُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ نَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ [الرعد: ٣١]، وقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٤]، فجعلها عبرة ونكالا لمن في زمانهم، وعبرة لمن يأتي بعدهم بالخبر المتواتر عنهم، ولهذا قال: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾: الذين من بعدهم إلى يوم القيامة. وقال الحسن وقتادة: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾: بعدهم، فيتقون نعمة الله، ويحذرونها. وقال السدي، وعطية العوفي: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال: أمة محمد ﷺ. قلت: المراد بالموعظة ههنا الزاجر، أي: جعلنا ما أحللتنا بهؤلاء من البأس والنكال في مقابلة ما ارتكبه من محارم الله، وما تحيلوا به من الحيل، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم، كما قال الإمام أبو عبد الله بن بطة: حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم، حدثنا الحسن بن محمد بن محمد بن الصباح الزعفراني، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تتركوا ما ارتكب اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل». وهذا إسناد جيد، وأحمد بن محمد بن مسلم هذا وثقه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي، وباقي رجاله مشهورون على شرط الصحيح. والله أعلم.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا نُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ نَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ قالوا: أَنُظْذَرُوا هَؤُلَاءِ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُنْهَلِكِينَ ﴿٢٧﴾. يقول تعالى: واذكروا - يا بني إسرائيل - نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة، وبيان القاتل من هو بسببها وإحياء الله المقتول، ونصه على من قتله منهم. مسألة الإبل تنحر والغنم تذبح واختلفوا في البقر ف قيل: تذبح، وقيل: تنحر، والذبح أولى لنصر القرآن ولقرب منحرها من مذبحها. قال ابن المنذر: ولا أعلم خلافاً صحيحاً بين ما ينحر أو نحر ما يذبح، غير أن مالكاً كره ذلك. وقد يكره الإنسان ما لا يحرم، وقال أبو عبد الله: أعلم أن نزول قصة البقرة على موسى، عليه السلام، في أمر القتل قبل نزول القسامة في التوراة.

بسط القصة - كما قال ابن أبي حاتم -: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة السلماني، قال: كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله لئلا فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعوهم حتى تسلموا، وركب بعضهم إلى بعض، فقال ذوو الرأي منهم والنهي: علام يقتل بعضكم بعضاً وهذا رسول الله فيكم؟ فاتوا موسى، عليه السلام فذكروا ذلك له، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَلْبِذُونَهَا هُرُوءًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ . قال: فلو لم يعترضوا البقر لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شددوا فشدد عليهم، حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من مِله جلدها ذهباً فأخذوها بملء جلدها ذهباً فذبحوها، فضرِبوه ببعضها فقام فقالوا: من قتلَكَ؟ فقال: هذا، لابن أخيه. ثم مال ميتاً، فلم يعط من ماله شيئاً، فلم يُورَث قاتل بعد. ورواه ابن جرير من حديث أيوب، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة، بنحو من ذلك، والله أعلم. ورواه عبد بن حميد في تفسيره: أنبأنا يزيد بن هارون، به.

ورواه آدم بن أبي إياس في تفسيره، عن أبي جعفر - هو الرازي - عن هشام بن حسان، به. وقال آدم بن أبي إياس في تفسيره: أنبأنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية، في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ قال: كان رجل من بني إسرائيل، وكان غنياً، ولم يكن له ولد، وكان له قريب وكان وارثه، فقتله ليرثه، ثم ألقاه على مجمع الطريق، وأتى موسى، عليه السلام، فقال له: إن قريبي قتل واني إلى أمر عظيم، وإنني لا أجد أحداً يبين لي من قتله غيرك يا نبي الله. قال: فنادى موسى في الناس، فقال: أنشد الله من كان عنده من هذا علم إلا بيته لنا، قال: فلم يكن عندهم علم، فأقبل القاتل على موسى عليه السلام، فقال له: أنت نبي الله فاسأل لنا ربك أن يبين لنا، فسأل ربه فأوحى الله إليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ ففعلوا من ذلك، فقالوا: ﴿أَتَلْبِذُونَهَا هُرُوءًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿قَالُوا آذِغْ لَنَا رَبِّكَ بَيِّنًا لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِسٌ﴾ يعني: لا هَرَمَةٌ ﴿وَلَا يَكْرُ﴾ يعني: ولا صغيرة ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: نصف بين البكر والهرمة ﴿قَالُوا آذِغْ لَنَا رَبِّكَ بَيِّنًا لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ﴾ أي: لم يذلها العمل ﴿ثِيْبُ الْأَرْضِ﴾ يعني: وليست بذلول تثير الأرض ﴿وَلَا تَحْنِي لَفَافٌ﴾ يقول: ولا تعمل في الحرث ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ يعني: مسلمة من العيوب ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ يقول: لا يابض فيها ﴿قَالُوا أَلَمْ يَكُنْ حَتَّى يَأْتِيَ فَنَذْبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ قال: ولو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة، استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها، لكانت إياها، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد عليهم، ولولا أن القوم استثنوا فقالوا: ﴿وَرَبَّآ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ لَمَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ٧٠)، لما هدوا إليها أبداً. فبلغنا أنهم لم يجدوا البقرة التي نعت لهم إلا عند عجوز عندها يتامى، وهي القِيَمَةُ عليهم، فلما علمت أنه لا يزكو لهم غيرها، أضعفت عليهم الثمن. فاتوا موسى فأخبروه أنهم لم يجدوا هذا النعت إلا عند فلانة، وأنها سألتهم أضعاف ثمنها. فقال لهم موسى: إن الله قد كان خفف عليكم فشددتم على أنفسكم فأعطوها رضاها وحكمها. ففعلوا، واشتروها فذبحوها، فأمرهم موسى، عليه السلام، أن يأخذوا عظماً منها فيضربوا به القاتل، ففعلوا، فرجع إليه روحه، فسمى لهم قاتله، ثم عاد ميتاً كما كان، فأخذ قاتله - وهو الذي كان أتى موسى فشكا إليه مقتلته - فقتله الله على أسوأ عمله.

وقال محمد بن جرير: حدثني ابن سعد، حدثني أبي، حدثني عمي، حدثني أبي، عن أبيه عن جده، عن ابن عباس، في قوله في شأن البقرة: وذلك أن شيخاً من بني إسرائيل على عهد موسى، عليه السلام، كان مكثرأً من المال، وكان بنو أخيه فقراء لا مال لهم، وكان الشيخ لا ولد له وبنو أخيه ورثته فقالوا: ليت عمنا قد مات فورثنا ماله، وإنه لما تطاول عليهم ألا يموت معهم، أتاهم الشيطان فقال لهم: هل لكم إلى أن تقتلوا عمكم، فترثوا ماله، وتغرّموا أهل المدينة التي لستم بها دينته، وذلك أنهما كانتا مدينتين، كانوا في إحداهما وكان القاتل إذا قتل فطرح بين المدينتين، قيس ما بين القاتل والمدينتين فأيهما كانت أقرب إليه غرّمت الدية، وأنهم لما سأل لهم الشيطان ذلك، وتطاول عليهم ألا يموت عنهم عمّداً إليه فقتلوه، ثم عمدوا فطرحوه على باب المدينة التي ليسوا فيها. فلما أصبح أهل المدينة جاء بنو أخي الشيخ، فقالوا: عمنا قتل على باب مدينتكم، فوالله لتغرمن لنا دية عمنا. قال أهل المدينة: نقسم بالله ما قتلنا ولا علمنا قاتلاً، ولا فتحنا باب مدينتنا منذ أغلق حتى أصبحنا. وإنهم عمدوا إلى موسى، عليه السلام، فلما أتوه قال بنو أخي الشيخ: عمنا وجدناه مقتولاً على باب مدينتهم. وقال أهل المدينة: نقسم بالله ما قتلناه ولا فتحنا باب المدينة من حين أغلقناه حتى أصبحنا، وإنه جبريل جاء بأمر السميع العليم إلى موسى، عليه السلام، فقال: قل لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فضرِبوه ببعضها.

وقال السدي: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ قال: كان رجل من بني إسرائيل مكثرأً من المال وكانت له ابنة، وكان له ابن أخ محتاج، فخطب إليه ابن أخيه ابنته، فأبى أن يزوجه، فغضب الفتى، وقال: والله لأقتلن عمي، ولأخذن ماله، ولأنكحن ابنته، ولأكلن دينه. فأتاه الفتى وقد قدم تجار في بعض أسباط بني إسرائيل، فقال: يا عم، انطلق معي فخذ لي من تجارة هؤلاء القوم، لعلني أن أصيب منها، فإنهم إذا رأوك معي أعطوني. فخرج العم مع الفتى ليلاً، فلما بلغ الشيخ ذلك

السيط قتلته الفتى، ثم رجع إلى أهله. فلما أصبح جاء كأنه يطلب عمه، كأنه لا يدري أين هو، فلم يجده. فانطلق نحوه، فإذا هو بذلك السبط مجتمعين عليه، فأخذهم وقال: قتلتم عمي، فأذوا إلي ديتي فجعل يبكي ويحشو التراب على رأسه، وينادي: واعماهم. فرفعهم إلى موسى ف قضى عليهم بالدية، فقالوا له: يا رسول الله، ادع الله لنا حتى يبين لنا من صاحبه، فيؤخذ صاحب الجريمة، فوالله إن ديتي علينا لهينة، ولكننا نستحي أن نغير به فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿وَإِذ قُلْنَا نَسْأَلُكَ عَنْهَا بِقَرَّةٍ وَأَنْتَ تَخْرُجُ عَلَيْهَا ذَكَّاءً﴾ فقال لهم موسى، عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُذَبِّحُوا بِقَرَّةٍ﴾ قالوا: نسالك عن القتل وعن قتلته، وتقول: اذبحوا بقرة. اتهمنا بنا! ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُهْلِكِينَ﴾ قال ابن عباس: فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا وتعنتوا على موسى فشدد الله عليهم. فقالوا: ﴿أَدْعُ لَنَا رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضَ وَلَا يَكْرَ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾. والفارض: الهرمة التي لا تلد والبكر التي لم تلد إلا ولداً واحداً. والعوان: النصف التي بين ذلك، التي قد ولدت وولد ولدها ﴿فَأَفْصَلُوا مَا تَأْمُرُونَ﴾ قالوا أدع لنا ريك يبين لنا ما لوئها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها قال: نقي لونها ﴿كُتِرَ النَّظِيرُ﴾ قال: تعجب الناظرين ﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَّهَ عَلَيْنَا وَإِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْذُونَ﴾ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْقَرْيَةَ مَسْئَمَةً لَهَا فِيهَا﴾ من بياض ولا سواد ولا حمرة ﴿قَالُوا الْفَنَ حَيْثُ بِالْعَقَى﴾ فطلبوها فلم يقدروا عليها.

وكان رجل في بني إسرائيل، من أبر الناس بأبيه، وإن رجلاً مَرَّ به معه لؤلؤ بيبيعه، وكان أبوه نائماً تحت رأسه المفتاح، فقال له الرجل: تشتري مني هذا اللؤلؤ بسبعين ألفاً؟ فقال له الفتى: كما أنت حتى يستيقظ أبي فأخذه منك بشماني ألفاً. فقال الآخر: أيقظ أباك وهو لك بستين ألفاً، فجعل التاجر يحط له حتى بلغ ثلاثين ألفاً، وزاد الآخر على أن ينتظر أباه حتى يستيقظ حتى بلغ مائة ألف، فلما أكثر عليه قال: والله لا أشتريه منك بشيء أبداً، وأبى أن يوقظ أباه، ففوضه الله من ذلك اللؤلؤ أن جعل له تلك البقرة، فمرت به بنو إسرائيل يطلبون البقرة وأبصروا البقرة عنده، فسألوه أن يبيعهم إياها بقرة ببقرة، فأبى، فأعطوه ثنتين فأبى، فزادوه حتى بلغوا عشراً، فأبى، فقالوا: والله لا نتركك حتى نأخذها منك. فانطلقوا به إلى موسى، عليه السلام، فقالوا: يا نبي الله، إنا وجدناها عند هذا فأبى أن يعطيناها وقد أعطيناه ثمناً فقال له موسى: أعطهم بقرتك. فقال: يا رسول الله، أنا أحق بمالي. فقال: صدقت. وقال للقوم: أرضوا صاحبكم، فأعطوه وزنها ذهباً، فأبى، فأضعفوا له مثل ما أعطوه وزنها، حتى أعطوه وزنها عشر مرات ذهباً، فباعهم إياها وأخذ ثمنها، فذبحوها. قال: اضربوه ببعضها، فاضربوه بالضعة التي بين الكتفين، فعاش، فسألوه: من قتلك؟ فقال لهم: ابن أخي، قال: أقتله، فأخذ ماله، وأكح ابنته. فأخذوا الغلام فقتلوه.

وقال سفيان: حدثنا حجاج، هو ابن محمد، عن ابن جُرَيْج، عن مجاهد، وحجاج، عن أبي معشر، عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس - دخل حديث بعضهم في حديث بعض، قالوا: إن سبطاً من بني إسرائيل لما رأوا كثرة شرور الناس، بنوا مدينة فاعتزلوا شرور الناس، فكانوا إذا أمسوا لم يتركوا أحداً منهم خارجاً إلا أدخلوه، وإذا افتتحوا قام رئيسهم فنظر وأشرف، فإذا لم ير شيئاً فتح المدينة، فكانوا مع الناس حتى يمسا. قال: وكان رجل من بني إسرائيل له مال كثير، ولم يكن له وارث غير أخيه، فطال عليه حياته فقتله ليرثه، ثم حملة فوضعه على باب المدينة، ثم كمن في مكان هو وأصحابه. قال: فأشرف رئيس المدينة على باب المدينة فنظر، فلم ير شيئاً ففتح الباب، فلما رأى القتل رد الباب، فناداه أخو المقتول وأصحابه: هيهات! قتلتموه ثم تردون الباب. وكان موسى لما رأى القتل كثيراً في أصحابه بني إسرائيل، كان إذا رأى القتل بين ظهري القوم أخذهم، فكاد يكون بين أخي المقتول وبين أهل المدينة قتال، حتى لبس الفريقان السلاح، ثم كف بعضهم عن بعض، فأتوا موسى فذكروا له شأنهم. قالوا: يا رسول الله، إن هؤلاء قتلوا قتيلاً ثم ردوا الباب، وقال أهل المدينة: يا رسول الله قد عرفت اعتزالنا الشرور، وبنينا مدينة، كما رأيت، نعتزل شرور الناس، والله ما قتلنا ولا علمنا قاتلاً. فأوحى الله تعالى إليه أن يذبحوا بقرة فقال لهم موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُذَبِّحُوا بِقَرَّةٍ﴾. وهذه السياقات كلها عن عبدة وأبي العالية والسدي وغيرهم، فيها اختلاف ما، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل وهي مما يجوز نقلها، ولكن لا نصدق ولا نكذب، فلهذا لا نعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا، والله أعلم.

﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضَ وَلَا يَكْرَ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ ﴿فَأَفْصَلُوا مَا تَأْمُرُونَ﴾ ﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا لوئها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها كُتِرَ النَّظِيرُ﴾ ﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَّهَ عَلَيْنَا وَإِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْذُونَ﴾ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْقَرْيَةَ مَسْئَمَةً لَهَا فِيهَا﴾ ﴿قَالُوا الْفَنَ حَيْثُ بِالْعَقَى﴾ ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَمْعَلُونَ﴾ ﴿٧١﴾.

أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم . ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق عليهم ، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة كانت لوقت الموقع عنهم ، كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم ، فقالوا : ﴿إِنَّمَا نَحْنُ بَقَرَةٌ كَمَا مَا بَقَرَةٌ مَا هَذِهِ الْبَقَرَةُ؟ وَأَيُّ شَيْءٍ صَفَّيْتَهَا؟ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ ، حَدَّثَنَا عَثَامُ بْنُ عَلِيٍّ ، عَنْ الْأَعْمَشِ ، عَنْ الْمُنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : لَوْ أَخَذُوا أَدْنَى بَقَرَةٍ اكْتَفَوْا بِهَا ، وَلَكِنْهُمْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ . إسناده صحيح ، وقد رواه غير واحد عن ابن عباس . وكذا قال عبيدة ، والسدي ، ومجاهد ، وعكرمة ، وأبو العالية وغير واحد . وقال ابن جرير : قال لي عطاء : لو أخذوا أدنى بقرة كفتهم . قال ابن جرير : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّمَا أَمْرُوا بِأَدْنَى بَقَرَةٍ ، وَلَكِنْهُمْ لَمَّا شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ شَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ؛ وَإِنَّمَا لَوْ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَنْوُوا مَا بَيَّنَّتْ لَهُمْ آخِرُ الْأَبَدِ» . ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصٌ وَلَا يَكُرُّ أَيُّ : لَا كَبِيرَةٍ هَرَمَةٍ وَلَا صَغِيرَةٍ لَمْ يَلْحَقْهَا الْفَحْلُ ، كَمَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ ، وَالسَّيِّدِي ، وَمُجَاهِدٌ ، وَعُكْرَمَةُ ، وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ ، وَعَطَاءُ الْخِرَاسَانِيُّ ، وَوَهْبُ بْنُ مَنْبِهِ ، وَالضَّحَّاكُ ، وَالْحَسَنُ ، وَقَتَادَةُ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا . وَقَالَ الضَّحَّاكُ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ «عَوَانٌ بِتَرْكِ ذَلِكَ» يَقُولُ : نَصَفَ بَيْنَ الْكَبِيرَةِ وَالصَّغِيرَةِ ، وَهِيَ أَقْوَى مَا يَكُونُ مِنَ الدُّوَابِّ وَالْبَقَرِ وَأَحْسَنُ مَا تَكُونُ . وَرَوَى عَنْ عُكْرَمَةَ ، وَمُجَاهِدٍ ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ ، وَعَطَاءُ الْخِرَاسَانِيِّ ، وَالضَّحَّاكُ نَحْوَ ذَلِكَ . وَقَالَ السَّيِّدِي : الْعَوَانُ : النُّصَفُ الَّتِي بَيْنَ ذَلِكَ الَّتِي وَلَدَتْ ، وَوَلَدَ وَلَدَهَا . وَقَالَ هَشِيمٌ ، عَنْ جُوَيْرٍ ، عَنْ كَثِيرِ بْنِ زِيَادٍ ، عَنْ الْحَسَنِ فِي الْبَقَرَةِ : كَانَتْ بَقَرَةٌ وَحْشِيَّةً . وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ ، عَنْ عَطَاءٍ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : مَنْ لَبَسَ نَعْلًا صَفْرَاءَ لَمْ يَزَلْ فِي سُرُورٍ مَا دَامَ لَا بِسَهَاءٍ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿صَفْرَاءَ فَاقِعٌ لَوْنُهَا كَلَسُ النَّظِيرِ﴾ . وكذا قال مجاهد ، وَوَهْبُ بْنُ مَنْبِهِ أَنَّهَا كَانَتْ صَفْرَاءَ . وَعَنْ ابْنِ عَمْرٍو : كَانَتْ صَفْرَاءَ الظِّلْفِ . وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ : كَانَتْ صَفْرَاءَ الْقَرْنِ وَالظِّلْفِ . وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : حَدَّثَنَا أَبِي ، حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ ، حَدَّثَنَا نُوحُ بْنُ قَيْسٍ ، أَنَبَانَا أَبُو رَجَاءٍ ، عَنْ الْحَسَنِ فِي قَوْلِهِ : ﴿بَقَرَةً صَفْرَاءَ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ : قَالَ : سُودَاءُ شَدِيدَةُ السَّوَادِ . وَهَذَا غَرِيبٌ ، وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ ، وَلِهَذَا أَكَّدَ صَفَرَتَهَا بِأَنَّ «فَاقِعٌ لَوْنُهَا» . وَقَالَ عَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ : «فَاقِعٌ لَوْنُهَا» : تَكَادُ تُسَوِّدُ مِنْ صَفَرَتِهَا . وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ : «فَاقِعٌ لَوْنُهَا» : قَالَ : صَافِيَةُ اللَّوْنِ . وَرَوَى عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ ، وَالسَّيِّدِي ، وَالْحَسَنِ ، وَقَتَادَةَ نَحْوَهُ . وَقَالَ شَرِيكٌ ، عَنْ مَغْرَاءٍ ، عَنْ ابْنِ عَمْرٍو : «فَاقِعٌ لَوْنُهَا» : قَالَ : صَافٍ . وَقَالَ الْعَوْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : «فَاقِعٌ لَوْنُهَا» : شَدِيدُ الصَّفَرِ ، تَكَادُ مِنْ صَفَرَتِهَا تَبْيَضُ . وَقَالَ السَّيِّدِي : «كَلَسُ النَّظِيرِ» أَيُّ : تَعَجَّبُ النَّاضِرِينَ . وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ ، وَقَتَادَةُ ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ . وَفِي التَّوْرَةِ : أَنَّهَا كَانَتْ حُمْرَاءَ ، فَلَعَلَّ هَذَا خَطَأٌ فِي التَّعْرِيفِ أَوْ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ : إِنَّهَا كَانَتْ شَدِيدَةُ الصَّفَرِ تُضْرَبُ إِلَى حُمْرَةِ سُودٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وقال وهب بن منبه : إذا نظرت إلى جلدها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها . وقوله : ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَّهَ عَيْنًا﴾ أَيُّ : لَكَثَرَتِهَا ، فَمِيزَ لَنَا هَذِهِ الْبَقَرَةَ وَصَفَهَا وَجِلَّهَا لَنَا ﴿وَلَوْنًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ إِذَا بَيَّنَّتْهَا لَنَا ﴿لَكُمُتَدُونَ﴾ إِلَيْهَا . وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى الْأَوْدِيُّ الصُّوفِيُّ ، حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ أَحْمَدُ بْنُ دَاوُدَ الْحَدَّادُ ، حَدَّثَنَا سُرُورُ بْنُ الْمَغِيرَةِ الْوَاسِطِيُّ ، ابْنُ أَخِي مَنْصُورٍ بْنُ زَادَانَ ، عَنْ عِبَادِ بْنِ مَنْصُورٍ ، عَنْ الْحَسَنِ ، عَنْ أَبِي رَافِعٍ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «لَوْ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالُوا : ﴿وَلَوْنًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَكُمُتَدُونَ﴾ مَا أَعْطَوْا ، وَلَكِنْ اسْتَنْوُوا» . وَرَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْدَوَيْهِ فِي تَفْسِيرِهِ مِنْ وَجْهِ آخَرَ ، عَنْ سُرُورِ بْنِ الْمَغِيرَةِ ، عَنْ زَادَانَ ، عَنْ عِبَادِ بْنِ مَنْصُورٍ ، عَنْ الْحَسَنِ ، عَنْ حَدِيثِ أَبِي رَافِعٍ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «لَوْ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالُوا : ﴿وَلَوْنًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَكُمُتَدُونَ﴾ مَا أَعْطَوْا أَبَدًا ، وَلَوْ أَنَّهُمْ اعْتَرَضُوا بَقَرَةً مِنَ الْبَقَرِ فَذَبَحُوهَا لِأَجْزَاتٍ عَنْهُمْ ، وَلَكِنْهُمْ شَدَّدُوا ، فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» . وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ، وَأَحْسَنُ أَحْوَالِهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ أَبِي هُرَيْرَةَ ، كَمَا تَقَدَّمَ مِثْلُهُ عَنِ السَّيِّدِي ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أَيُّ : إِنَّهَا لَيْسَتْ مَذْلَلَةٌ بِالْحِرَاةِ وَلَا مَعْدَةٌ لِلْسَّقْيِ فِي السَّانِيَةِ ، بَلْ هِيَ مَكْرَمَةٌ حَسَنَةٌ صَبِيحَةٌ ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ صَحِيحَةٌ لَا عَيْبَ فِيهَا ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ أَيُّ : لَيْسَ فِيهَا لَوْنٌ غَيْرُ لَوْنِهَا . وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ ، عَنْ مَعْمَرٍ ، عَنْ قَتَادَةَ ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ يَقُولُ : لَا عَيْبَ فِيهَا ، وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ مِنَ الشَّيْءِ . وَقَالَ عَطَاءُ الْخِرَاسَانِيُّ : ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ الْقَوَائِمُ وَالْخَلْقُ ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ . قَالَ مُجَاهِدٌ : لَا بَيَاضَ وَلَا سُودَ . وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ ، وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ : لَيْسَ فِيهَا بَيَاضٌ . وَقَالَ عَطَاءُ الْخِرَاسَانِيُّ : ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ : قَالَ : لَوْنُهَا وَاحِدٌ بَهِيمٌ . وَرَوَى عَنْ عَطِيَّةِ الْعَوْفِيِّ ، وَوَهْبِ بْنِ مَنْبِهِ ، وَإِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ ، نَحْوَ ذَلِكَ . وَقَالَ السَّيِّدِي : ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ مِنْ بَيَاضٍ وَلَا سُودَ وَلَا حُمْرَةَ ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَقَابِرَةٌ فِي الْمَعْنَى ، وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ﴾ لَيْسَتْ بِمَذْلَلَةٍ بِالْعَمَلِ ثُمَّ اسْتَأْنَفَ فَقَالَ : ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ أَيُّ : يَعْمَلُ عَلَيْهَا بِالْحِرَاةِ لَكِنَّا لَا تَسْقِي الْحَرْثَ ، وَهَذَا ضَعِيفٌ ؛ لِأَنَّهُ فُسِّرَ الذَّلُولُ الَّتِي لَمْ تَذَلَّ بِالْعَمَلِ بِأَنَّهَا لَا تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ كَذَا قَرَّرَهُ الْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُ .

﴿قَالُوا لَنْ نَجِدَ يَالَهُمْ﴾: قال قتادة: الآن يثبت لنا، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: وقبل ذلك - والله - قد جاءهم الحق. ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾: قال الضحاك، عن ابن عباس: كادوا ألا يفعلوا، ولم يكن ذلك الذي أرادوا، لأنهم أرادوا ألا يذبحوها. يعني أنهم مع هذا البيان، وهذه الأسئلة، والأجوبة، والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذم لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعت، فلهذا ما كادوا يذبحونها. وقال محمد بن كعب، ومحمد بن قيس: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لكثرة ثمنها. وفي هذا نظر؛ لأن كثرة ثمنها لم يثبت إلا من نقل بني إسرائيل، كما تقدم من حكاية أبي العالية والسدي، ورواه العوفي عن ابن عباس. وقال عبيدة، ومجاهد، وهب بن منبه، وأبو العالية، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنهم اشتروها بمال كثير، وفيه اختلاف، ثم قد قيل في ثمنها غير ذلك. وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عيينة، أخبرني محمد بن سوقة، عن عكرمة، قال: ما كان ثمنها إلا ثلاثة دنانير. وهذا إسناده جيد عن عكرمة، والظاهر أنه نقله عن أهل الكتاب أيضاً. قال ابن جرير: وقال آخرون: لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة، إن أطلع الله على قاتل القتل الذي اختصموا فيه. ولم يستدع عن أحد، ثم اختار أن الصواب في ذلك أنهم لم يكادوا يفعلوا ذلك لغلاء ثمنها، وللفضيحة. وفي هذا نظر، بل الصواب - والله أعلم - ما تقدم من رواية الضحاك، عن ابن عباس، على ما وجهناه. وبالله التوفيق.

مسألة: استدل بهذه الآية في حصر صفات هذه البقرة حتى تعينت أو تم تقييدها بعد الإطلاق على صحة السلم في الحيوان كما هو مذهب مالك والأوزاعي والليث والشافعي وأحمد وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً بدليل ما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ: «لا تنعت المرأة المرأة لزوجها كأنه ينظر إليها». وكما وصف النبي ﷺ إبل الدية في قتل خطأ وشبه العمد بالصفات المذكورة بالحديث، وقال أبو حنيفة والثوري والكوفيون: لا يصح السلم في الحيوان لأنه لا تنضبط أحواله، وحكى مثله عن ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وعبد الرحمن بن سمرة وغيرهم.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذَرْنَاهُمْ فِيهَا وَاللَّهُ خَرَجَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ﴿٧٢﴾ قُلْنَا أَسْرِبُوا بِعَيْنِهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٧٣﴾ قال البخاري: «فَاذَرْنَاهُمْ»: اختلفتم. وهكذا قال مجاهد فيما رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن أبي حذيفة، عن شبل عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذَرْنَاهُمْ فِيهَا﴾: اختلفتم. وقال عطاء الخراساني، والضحاك: اختلفتم فيها. وقال ابن جرير: «وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذَرْنَاهُمْ فِيهَا». قال: قال بعضهم أنتم قتلتموه. وقال آخرون: بل أنتم قتلتموه. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. «وَاللَّهُ خَرَجَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ»: قال مجاهد: ما تغيبون. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن مسلم البصري، حدثنا محمد بن الطفيل العبدى، حدثنا صدقة بن رستم، سمعت المسيب بن رافع يقول: ما عمل رجل حسنة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وتصديق ذلك في كلام الله: ﴿وَاللَّهُ خَرَجَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قُلْنَا أَسْرِبُوا بِعَيْنِهَا. هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصلة به. وخرق العادة به كائن، وقد كان معيناً في نفس الأمر، فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبينه الله تعالى لنا، ولكن أبهمه، ولم يجر من طريق صحيح عن معصوم بيانه، فنحن نبهمه كما أبهمه الله. ولهذا قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: إن أصحاب بقرة بني إسرائيل طلبوها أربعين سنة حتى وجدوها عند رجل في بقر له، وكانت بقرة تعجبه، قال: فجعلوا يعطونه بها فيأبى، حتى أعطوه ملء مسكها دنانير، فذبحوها، فضربوه - يعني القتل - بعضها منها، فقام تشخب أوداجه دماً فسألوه، فقالوا له: من قتلك؟ قال: قتلني فلان. وكذا قال الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنه ضرب ببعضها. وفي رواية عن ابن عباس: إنهم ضربوه بالعظم الذي يلي الغضروف. وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرُ، قال: قال أيوب، عن ابن سيرين، عن عبيدة: ضربوا القتل ببعض لحمها. وقال معمر: قال قتادة: فضربوه بلحم فخذها فعاش، فقال: قتلني فلان. وقال أبو أسامة، عن النضر بن عربي، عن عكرمة: «قُلْنَا أَسْرِبُوا بِعَيْنِهَا»: قال: فضرب بفخذها فقام، فقال: قتلني فلان. قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد، وقاتدة، نحو ذلك. وقال السدي: فضربوه بالبضعة التي بين الكتفين فعاش، فسألوه، فقال: قتلني ابن أخي. وقال أبو العالية: أمرهم موسى، عليه السلام، أن يأخذوا عظماً من عظامها، فيضربوا به القتل، ففعلوا، فرجع إليه روحه، فسمى لهم قاتله ثم عاد ميتاً كما كان. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: فضربوه ببعض آرائها وقيل: بلسانها، وقيل: بعجب ذنبها. وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: فضربوه فحيي. وبَيَّنَّه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتل: جعل تبارك وتعالى ذلك الصنع حجة لهم على المعاد، وفاصلاً ما كان بينهم من الخصومة والفساد والله تعالى قد ذكر في هذه السورة ما خلقه في إحياء الموتى، في خمسة مواضع: ﴿ثُمَّ بَشَّرْنَاكُمْ بِإِبْنٍ بَدِيدٍ مَوْجِدٍ﴾ [البقرة: ٥٦]. وهذه القصة، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم والطيور الأربعة. وبه تعالى بإحياء

(وقد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز؛ وهو إسناد الخشوع إلى الحجارة كما أسندت الإرادة إلى الجدار في قوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَمْلِكَ﴾. قال الرازي والقرطبي وغيرهما من الأئمة: ولا حاجة إلى هذا فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ الآية، وقال: ﴿وَاللَّجَجُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ الآية، وأولئك يروون أن ما خلق الله من مَنٍ يَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ، الآية، ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَاعِنُ فِي الْأَمْرِ﴾ الآية، ﴿لَوْ أَرَادْنَا هَذِهِ الْقُرْآنَ أَنْ يَكُونَ عَلَى جَبَلٍ﴾ الآية، ﴿وَقَالُوا لِيَجْزِيَهمَ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَاهُ اللَّهُ﴾ الآية، وفي الصحيح: «هذا جبل يحينا ونحيه»، وكحنين الجذع المتواتر خبره، وفي صحيح مسلم: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن»، وفي صفة الحجر الأسود أنه يشهد لمن استلمه بحق يوم القيامة، وغير ذلك مما في معناه. وحكى القرطبي قولاً أنها للتخيير؛ أي مثلاً لهذا وهذا وهذا مثل جالس الحسن أو ابن سيرين. . وكذا حكاه الرازي في تفسيره. وزاد قولاً آخر: إنها للإيهام بالنسبة إلى المخاطب كقول القائل أكلت خبزاً أو تمراً، وهو يعلم أيهما أكل، وقال آخر: إنها بمعنى قول القائل كلوا حلواً أو حامضاً؛ أي لا يخرج عن واحد منهما؛ أي وقلوبكم صارت كالحجارة أو أشد قسوة منها لا تخرج عن واحد من هذين الشئتين. والله أعلم.

تفسيه:

اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ بعد الإجماع على استحالة كونها للشك، فقال بعضهم: «أو» ههنا بمعنى الواو، تقديره: فهي كالحجارة وأشد قسوة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَفْعَلْ مِثْلَهُمْ وَلَا تَفْعَلْ مِثْلَهُمْ وَلَا تَفْعَلْ مِثْلَهُمْ﴾ [الإنسان: ٢٤]، وكما قال النابغة الذبياني:

قالت ألا ليئما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا أو نصفه فقد
تريد: ونصفه، قاله ابن جرير. وقال جرير بن عطية:

نال الخلالة أو كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر
قال ابن جرير: يعني نال الخلافة، وكانت له قدراً. وحكى القرطبي قولاً: أنها للتخيير في مفهومها بهذا أو بهذا مثل جالس الحسن أو ابن سيرين، وكذا حكاه فخر الدين في تفسيره وزاد قولاً آخر وهو: أنها للإبهام والنسبة إلى المخاطب، كقول القائل: أكلت خبزاً أو تمرأ وهو يعلم أيهما أكل، وقولاً آخر وهو أنها بمعنى قول القائل: أكلني حلو أو حامض، أي: لا يخرج عن واحد منهما، أي: وقلوبكم صارت في قسوتها كالحجارة أو أشد قسوة منها لا يخرج عن واحد من هذين الشيتين والله أعلم. وقال آخرون: «أو» ههنا بمعنى بل، تقديره: فهي كالحجارة بل أشد قسوة، وكقوله: ﴿إِذَا رُفِعَ مِثْرُكُم مِّنْهُمُ يَسْتَوُونَ النَّاسُ كَهَيْئَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ حَشِيَّةً﴾ [النساء: ٧٧] ﴿وَأَرْسَلْتَهُ إِلَى يَاقَةَ آلِ أَبِي رَبِيعٍ﴾ [الصافات: ١٤٧] ﴿كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩] وقال آخرون: معنى ذلك ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ عندكم. حكاه ابن جرير. وقال آخرون: المراد بذلك الإبهام على المخاطب، كما قال أبو الأسود:

أحب محمداً حباً شديداً وعباساً وحمزة والوصيا
فإن يك حبيبهم رشداً أصبه ولست بمخطيء إن كان غيباً
قال ابن جرير: قالوا: ولا شك أن أبا الأسود لم يكن شاكاً في أن حب من سعى رشداً، ولكنه إبهام على من خاطبه، قال: وقد ذكر عن أبي الأسود أنه لما قال هذه الآيات قيل له: شككت؟ فقال: كلا والله. ثم انتزع يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ آلِيَّكُمْ لَكَانَ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ شَبِيبٍ﴾ [سبا: ٢٤]. فقال: أو كان شاكاً من أخبر بهذا في الهادي منهم من الضلال؟ وقال بعضهم: معنى ذلك: فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلين، إما أن تكون مثل الحجارة في القسوة وإما أن تكون أشد منها قسوة. قال ابن جرير: ومعنى ذلك على هذا التأويل: فبعضها كالحجارة قسوة، وبعضها أشد قسوة من الحجارة. وقد رجحه ابن جرير مع توجيه غيره. قلت: وهذا القول الأخير يبقى شبيهاً بقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] مع قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩] وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْنَاهُمْ كَرْبُهُمْ فَيَقْعُو﴾ [النور: ٣٩] مع قوله: ﴿أَوْ كَطَلْعَتٍ فِي بَحْرِ لَيْلٍ﴾ [النور: ٤٠]، أي: إن منهم من هو هكذا، ومنهم من هو هكذا، والله أعلم. قال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن أيوب، حدثنا محمد بن عبد الله بن أبي الثلج، حدثنا علي بن حفص، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن حاطب، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تكثرُوا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي». رواه الترمذي في كتاب الزهد من جامعه، عن محمد بن عبد الله بن أبي الثلج، صاحب الإمام أحمد، به. ومن وجه آخر عن إبراهيم بن عبد الله بن الحارث بن حاطب، به، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم. وروى الزبار عن أنس مرفوعاً: «أربع من الشقاء: جمود العين، وقسى القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا».

﴿أَنْتُمْ مِّنْهُمْ أَوْ يَكُونُ لَكُمْ قَرِينٌ مِّنْهُمْ يَتَّبِعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْكُمُونَ بِمِثْلِهَا مَا عَمَلُوا وَهُمْ يَتْلُونَ﴾ [٧٥] وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِمَعْشَرِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [٧٦] أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسِلُونَ وَمَا يُنْزِلُونَ﴾ [٧٧].

يقول تعالى: ﴿أَنْتُمْ مِّنْهُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أي: ينقاد لكم بالطاعة، هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود، الذين شاهد أبائهم من الآيات البينات ما شاهدوه، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ﴿وَقَدْ كَانَ قَرِينٌ مِّنْهُمْ يَتَّبِعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْكُمُونَ بِمِثْلِهَا﴾ أي: يتأولونه على غير تأويله ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَمَلُوا﴾ أي: فهو على الحلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ﴾ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله؟ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ يَتَّبِعُهُمْ لَمَتَّهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣]. قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس أنه قال: ثم قال الله تعالى لنبيه ﷺ، ولمن معه من المؤمنين يؤسهم منهم: ﴿أَنْتُمْ مِّنْهُمْ أَوْ يَكُونُ لَكُمْ قَرِينٌ مِّنْهُمْ يَتَّبِعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ وليس قوله: ﴿يَتَّبِعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾: يسمعون التوراة. كلهم قد سمعها. ولكنهم

الذين سألو موسى رؤية ربهم فآخذتهم الصاعقة فيها. قال محمد بن إسحاق: فيما حدثني بعض أهل العلم أنهم قالوا لموسى: يا موسى، قد حبل بيننا وبين رؤية الله تعالى، فأسمعنا كلامه حين يكلمك. فطلب ذلك موسى إلى ربه تعالى فقال: نعم، مَرَّمْ فليطهروا، وليطهروا ثيابهم ويصوموا ففعلوا، ثم خرج بهم حتى أتوا الطور، فلما غشيهم الغمام أمرهم موسى أن يسجدوا، فوقعوا سجوداً، وكلمه ربه تعالى، فسمعوا كلامه يأمرهم وينهاهم، حتى عقلوا عنه ما سمعوا. ثم انصرف بهم إلى بني إسرائيل، فلما جاؤهم حَرَفَ فريق منهم ما أمرهم به، وقالوا حين قال موسى لبني إسرائيل: إن الله قد أمركم بكذا وكذا. قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله: إنما قال كذا وكذا خلافاً لما قال الله عز وجل لهم، فهم الذين عنى الله لرسوله ﷺ. وقال السدي: ﴿وَقَدْ كَانَ قَرِيبٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ﴾ قال: هي التوراة، حرفوها. وهذا الذي ذكره السدي أعم مما ذكره ابن عباس وابن إسحاق، وإن كان قد اختاره ابن جرير لظاهر السياق. فإنه ليس يلزم من سماع كلام الله أن يكون منه، كما سمعه الكلبي موسى بن عمران، عليه الصلاة والسلام، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] أي: مبلّغاً إليه؛ ولهذا قال قتادة في قوله: ﴿ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَلْمِزُونَ﴾ قال: هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ووعوه.

وقال مجاهد: الذين يحرفونه والذين يكتُمونه هم العلماء منهم. وقال أبو العالية: عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم، من نعت محمد ﷺ، فحرفوه عن مواضعه. وقال السدي: ﴿وَهُمْ يَلْمِزُونَ﴾ أي أنهم أذنبوا. وقال ابن وهب: قال ابن زيد في قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ﴾ قال: التوراة التي أنزلها الله عليهم يحرفونها يجعلون الحلال فيها حراماً، والحرام فيها حلالاً، والحق فيها باطلاً، والباطل فيها حقاً؛ إذا جاءهم المحقق برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب، فهو فيه محق، وإن جاءهم أحد يسألهم شيئاً ليس فيه حق، ولا رشوة، ولا شيء، أمروه بالحق، فقال الله لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْهَوْنَ عَنْهُنَّ أَنْ يُعْبِتُوا الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. وقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا بِالْآيَةِ﴾ قال محمد بن إسحاق: حدثنا محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ أي بصاحبكم رسول الله، ولكنه اليكم خاصة. ﴿وَإِذَا خَلَا بِضَعْثُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا﴾ لا تحدثوا العرب بهذا، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فكان منهم. فأنزل الله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِضَعْثُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا﴾ أي: تقولون بأنه نبي، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر، ونجد في كتابنا. اجحدوه ولا تقروا به. يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [٧٧]. وقال الضحاك، عن ابن عباس: يعني المنافقين من اليهود. كانوا إذا لقوا أصحاب محمد ﷺ قالوا: آمنا. وقال السدي: هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا. وكذا قال الربيع بن أنس، وقتادة وغير واحد من السلف والخلف، حتى قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فيما رواه ابن وهب عنه: كان رسول الله ﷺ قد قال: «لا يدخلن علينا قسبة المدينة إلا مؤمن». فقال رؤسائهم من أهل الكفر والنفاق: اذهبوا فقولوا: آمنا، واكفروا إذا رجعتم إلينا، فكانوا يأتون المدينة بالبكر، ويرجعون إليهم بعد العصر. وقرأ قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمُ الْفُتُورَ﴾ [٧٢]. قال عمران: ٧٢ وكانوا يقولون، إذا دخلوا المدينة: نحن مسلمون. ليعلموا خبر رسول الله ﷺ وأمره. فإذا رجعوا رجعوا إلى الكفر. فلما أخبر الله نبيه ﷺ قطع ذلك عنهم فلم يكونوا يدخلون. وكان المؤمنون يظنون أنهم مؤمنون، فيقولون: أليس قد قال الله لكم كذا وكذا؟ فيقولون: بلى. فإذا رجعوا إلى قومهم [يعني الرؤساء] قالوا: ﴿أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ الآية.

وقال أبو العالية: ﴿أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: بما أنزل عليكم في كتابكم من نعت محمد ﷺ. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة: ﴿أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ قال: كانوا يقولون: سيكون نبي. فخلا بعضهم إلى بعض، فقالوا: ﴿أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾. قول آخر في المراد بالفتح: قال ابن جريج: حدثني القاسم بن أبي بزة، عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ قال: قام النبي ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم، فقال: «يا إخوان القردة والخنازير، ويا عبدة الطاغوت»، فقالوا: من أخبر بهذا الأمر محمداً؟ ما خرج هذا القول إلا منكم ﴿أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما حكم الله، للفتح، ليكون لهم حجة عليكم. قال ابن جريج، عن مجاهد: هذا حين أرسل إليهم علياً، فأدوا محمداً ﷺ. وقال السدي: ﴿أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ من العذاب ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا وكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عُدُّوا به. فقال بعضهم لبعض: ﴿أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ من العذاب، ليقولوا: نحن أحب إلى الله منكم، وأكرم على الله منكم. وقال عطاء الخراساني: ﴿أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: بما

قضى الله لكم وعليكم. وقال الحسن البصري: هؤلاء اليهود، كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض، قال بعضهم: لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم مما في كتابكم، فيحاجوكم به عند ربكم، فيخصموكم. وقوله: ﴿أَوَلَا يَسْمَعُونَ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ مَا يُمْرُرُكَ وَمَا يَمْشِيُونَ﴾ (٧٧): قال أبو العالية: يعني ما أسروا من كفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم به، وهو يجدونه مكتوباً عندهم. وكذا قال قتادة. وقال الحسن: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ مَا يُمْرُرُكَ﴾ قال: كان ما أسروا أنهم كانوا إذا تولوا عن أصحاب محمد ﷺ وخلا بعضهم إلى بعض، تناهوا أن يخبر أحد منهم أصحاب محمد ﷺ بما فتح الله عليهم مما في كتابهم، خشية أن يحاجهم أصحاب محمد ﷺ بما في كتابهم عند ربهم. ﴿وَمَا يَمْشِيُونَ﴾ يعني: حين قالوا لأصحاب محمد ﷺ: آمنا. وكذا قال أبو العالية، والربيع، وقاتدة.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَلْمُزُوكَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانًا وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَخْلَوْنَ﴾ (٧٨) قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْرَتُوا بِهِ. ثُمَّ قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُمُونَ﴾ (٧٩).

يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ أي: ومن أهل الكتاب، قاله مجاهد: والأميون جمع أمي، وهو: الرجل الذي لا يحسن الكتابة، قاله أبو العالية، والربيع، وقاتدة، وإبراهيم التخمي، وغير واحد، وهو ظاهر في قوله تعالى: ﴿لَا يَلْمُزُوكَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانًا﴾ أي: لا يدرون ما فيه. ولهذا في صفات النبي ﷺ أنه أمي؛ لأنه لم يكن يحسن الكتابة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُ بِسِنَّةٍ إِذَا لَتَاتَبَ الْأَنتَابُ﴾ (٨٨) [النبوة: ٤٨] وقال عليه الصلاة والسلام: «إنا أمة أمية، لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا الحديث. أي: لا نفتقر في عبادتنا ومواقيتنا إلى كتاب ولا حساب وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ١٢]. وقال ابن جرير: نسبت العرب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه في جهله بالكتاب دون أبيه، قال: وقد روي عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قول خلاف هذا، وهو ما حدثنا به أبو كريب: حدثنا عثمان بن سعيد، عن بشر بن عمار، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ قال: الأميون قوم لم يصدقوا رسولا أرسله الله، ولا كتابا أنزله الله، فكتبوا كتابا بأيديهم، ثم قالوا لقوم سفلة جهال: ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾. وقال: قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم، ثم سماهم أميين، لجحودهم كتب الله ورسله. ثم قال ابن جرير: وهذا التأويل على خلاف ما يعرف من كلام العرب المستفيض بينهم. وذلك أن الأمي عند العرب: الذي لا يكتب. قلت: ثم في صحة هذا عن ابن عباس، بهذا الإسناد، نظر. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَمَانًا﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿إِلَّا أَمَانًا﴾: إلا أحاديث. وقال الضحاك، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِلَّا أَمَانًا﴾ يقول: إلا قولاً يقولونه بأفواههم كذباً. وقال مجاهد: إلا كذباً. وقال سنيد، عن حجاج، عن ابن جريج عن مجاهد: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَلْمُزُوكَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانًا﴾ قال: أناس من يهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئاً، وكانوا يتكلمون بالظن بغير ما في كتاب الله، ويقولون: هو من الكتاب، أمانتي يمتنونها. وعن الحسن البصري، نحوه. وقال أبو العالية، والربيع وقاتدة: ﴿إِلَّا أَمَانًا﴾ يمتنون على الله ما ليس لهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿إِلَّا أَمَانًا﴾، قال: تمنوا فقالوا: نحن من أهل الكتاب. وليسوا منهم. قال ابن جرير: والأشبه بالصواب قول الضحاك عن ابن عباس، وقول مجاهد: إن الأميين الذين وصفهم الله أنهم لا يفقهون من الكتاب - الذي أنزل الله على موسى - شيئاً، ولكنهم يَتَخَرَّصُونَ الكذب ويتخرصون الأباطيل كذباً وزوراً. والتمني في هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه. ومنه الخبر المروي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه: «ما تغنيت ولا تمنيت». يعني ما تخرصت الباطل ولا اختلقت الكذب.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿لَا يَلْمُزُوكَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانًا وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَخْلَوْنَ﴾ ولا يدرون ما فيه، وهم يجحدون نبوتك بالظن. وقال مجاهد: ﴿وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَخْلَوْنَ﴾: يكذبون. وقال قتادة، وأبو العالية، والربيع: يظنون الظنون بغير الحق. وقوله: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْرَتُوا بِهِ ثُمَّ قَلِيلًا﴾ الآية: هؤلاء صنف آخر من اليهود، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله، وأكل أموال الناس بالباطل. والويل: الهلاك والدمار، وهي كلمة مشهورة في اللغة. وقال سفيان الثوري، عن زياد بن فياض: سمعت أبا عياض يقول: ويل: صديد في أصل جهنم. وقال عطاء بن يسار. الويل: واد في جهنم لو سيرت فيه الجبال لماعت.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ، قال: «ويل واد في جهنم، بهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره».

ورواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن الحسن بن موسى، عن ابن لهيعة، عن دراج، به. وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة. قلت: لم ينفرد به ابن لهيعة كما ترى، ولكن الآفة ممن بعده، وهذا الحديث بهذا الإسناد - مرفوعاً - منكر، والله أعلم. وقال ابن جرير: حدثنا المعنى، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام بن صالح العشيري، حدثنا علي بن جرير، عن حماد بن سلمة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن كنانة العدوي، عن عثمان بن عفان، عن رسول الله ﷺ: ﴿قَوِيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾. قال: «الويل جبل في النار. وهو الذي أنزل في اليهود؛ لأنهم حَرَفُوا التوراة، زادوا فيها ما أحبوا، ومحووا منها ما يكرهون، ومحووا اسم محمد ﷺ من التوراة. ولذلك غضب الله عليهم، فرفع بعض التوراة، فقال: ﴿قَوِيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾». وهذا غريب أيضاً جداً. وعن ابن عباس: الويل: السعير من العذاب، وقال الخليل بن أحمد: الويل: شدة الشر، وقال سيويه: ويل: لمن وقع في الهلكة، وويل لمن أشرف عليها، وقال الأصمعي: الويل: تفجع والويل ترحم، وقال غيره: الويل: الحزن. وقال الخليل: وفي معنى ويل: ويح ويوش وويه وويك وويب، ومنهم من فرق بينهما، وقال بعض النحاة: إنما جاز الابتداء بها وهي نكرة؛ لأن فيها معنى الدعاء، ومنهم من جوز نصبها، بمعنى: الزمهم ويلاً. قلت: لكن لم يقرأ بذلك أحد. وعن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿قَوِيلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾. قال: هم اليهود. وقال سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن علقمة: سألت ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿قَوِيلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾. قال: نزلت في المشركين وأهل الكتاب. وقال السدي: كان ناس من اليهود كتبوا كتاباً من عندهم، يبيعونه من العرب، ويحدثونهم أنه من عند الله، ليأخذوا به ثمناً قليلاً. وقال الزهري: أخبرني عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس أنه قال: يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه، أحدث أخبار الله تقرؤونه محضاً لم يشب؟ وقد خذتكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً؛ أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مُسَاءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذي أنزل إليكم. رواه البخاري من طرق عن الزهري. وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: الثمن القليل: الدنيا بخذاً غيرها. وقوله تعالى: ﴿قَوِيلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قليلاً قَوِيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (١٧٦) أي: فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان، والافتراء، وويل لهم مما أكلوا به من السحت، كما قال الضحاک عن ابن عباس: ﴿قَوِيلٌ لَهُمْ﴾ يقول: فالعذاب عليهم، من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب، ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ يقول: مما يأكلون به الناس السفلة وغيرهم. ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَتِينَا مَقْعُودَةً﴾ قلْ أَتَعِدُّنَّ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٧٧).

يقول تعالى إخباراً عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم، من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينجون منها، فرد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ أَتَعِدُّنَّ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً﴾ أي: بذلك؟ فإن كان قد وقع عهد فهو لا يُخْلِفُ عهده. ولكن هذا ما جرى ولا كان. ولهذا أتى بـ «أم» التي بمعنى: بل، أي: بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه. قال محمد بن إسحاق، عن سيف بن سليمان، عن مجاهد، عن ابن عباس: أن اليهود كانوا يقولون: هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نُعَذَّبُ بكل ألف سنة يوماً في النار، وإنما هي سبعة أيام معدودة. فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَتِينَا مَقْعُودَةً﴾ إلى قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٨٢]. ثم رواه عن محمد، عن سعيد - أو عكرمة - عن ابن عباس، بنحوه. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَتِينَا مَقْعُودَةً﴾: اليهود قالوا: لن تمسنا النار إلا أربعين ليلة، زاد غيره: هي مدة عبادتهم العجل، وحكاه القرطبي عن ابن عباس وقتادة. وقال الضحاک: قال ابن عباس: زعمت اليهود أنهم وجدوا في التوراة مكتوباً: أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة، إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم، التي هي نابتة في أصل الجحيم. وقال أعداء الله: إنما نعذب حتى تنتهي إلى شجرة الزقوم فتذهب جهنم وتهلك. فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَتِينَا مَقْعُودَةً﴾. وقال عبدالرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَتِينَا مَقْعُودَةً﴾ يعني: الأيام التي عبدنا فيها العجل. وقال عكرمة: خاصمت اليهود رسول الله ﷺ فقالوا: لن ندخل النار إلا أربعين ليلة، وسيخلفنا إليها قوم آخرون، يعنون محمداً ﷺ وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ: بيده على رؤوسهم: «بل أنتم خالدون مخلدون لا يخلفكم إليها أحد». فأنزل الله: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَتِينَا مَقْعُودَةً﴾ الآية.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه رحمه الله: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا محمد بن محمد بن صخر، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا ليث بن سعد، حدثني سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: لما فتحت

خبير أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا لي من كان من اليهود ههنا» فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أبوكم؟» قالوا: فلان. قال: «كذبتم، بل أبوكم فلان». فقالوا: صدقت وبرزت، ثم قال لهم: «هل أنتم صادقون عن شيء إن سألتكم عنه؟» قالوا: نعم، يا أبا القاسم، وإن كذبتك عرفت كذبنا كما عرفت في أبينا. فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أهل النار؟» فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها. فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخشوا، والله لا نخلفكم فيها أبداً». ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «هل أنتم صادقون عن شيء إن سألتكم عنه؟» قالوا: نعم يا أبا القاسم. فقال: «هل جعلتم في هذه الشاة سم؟» فقالوا: نعم. قال: «فما حملكم على ذلك؟» فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرنا. ورواه أحمد، والبخاري، والنسائي، من حديث الليث بن سعد، بنحوه.

﴿بَلْ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَعْلَتْ بِهِ خَاطِبُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨١) وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَآلِهِمْ خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٣﴾.

يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنيت، ولا كما تشتهون، بل الأمر: أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته، وهو من وافى يوم القيامة وليس له حسنة، بل جميع عمله سيئات، فهذا من أهل النار، والذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا الصالحات - من العمل الموافق للشريعة - فهم من أهل الجنة. وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا يُصِيرَ إِلَىٰ شَيْءٍ﴾ (١٢٤). قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن سعيد - أو عكرمة - عن ابن عباس: «بَلْ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً أَي: عمل مثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم به، حتى يحيط به كفره، فما له من حسنة. وفي رواية عن ابن عباس، قال: الشرك. قال ابن أبي حاتم: وروي عن أبي وائل، وأبي العالية، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، نحوه. وقال الحسن - أيضاً - والسدي: السينة: الكبيرة من الكبائر. وقال ابن جريج، عن مجاهد: «وَأَعْلَتْ بِهِ خَاطِبُهُ» قال: بقلبه. وقال أبو هريرة، وأبو وائل، وعطاء، والحسن: «وَأَعْلَتْ بِهِ خَاطِبُهُ» قالوا: أحاط به شركه. وقال الأعمش، عن أبي رزين، عن الربيع بن خثيم: «وَأَعْلَتْ بِهِ خَاطِبُهُ» قال: الذي يموت على خطايا من قبل أن يتوب. وعن السدي، وأبي رزين، نحوه. وقال أبو العالية، ومجاهد، والحسن، في رواية عنهما، وقتادة، والربيع بن أنس: «وَأَعْلَتْ بِهِ خَاطِبُهُ»: الكبيرة الموجبة. وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى، والله أعلم. ويذكر ههنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عمرو بن قتادة، عن عبد ربه، عن أبي عياض، عن عبد الله بن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه». وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً، كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة، فحضر صنع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً، وأججوا ناراً، فأنضجوا ما قذفوا فيها. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد، عن سعيد - أو عكرمة - عن ابن عباس: «وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَآلِهِمْ خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٣﴾» أي من آمن بما كفرتم به، وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها. يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله، لا انقطاع له أبداً.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَٰءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ۖ دِيَارَ الَّذِينَ إِخْسَٰنًا ۖ ذِي الْقُرْبَىٰ ۖ وَالْيَتَامَىٰ ۖ وَالْمَسْكِينِ ۖ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۖ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٨٤).

يذكر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر، وأخذ ميثاقهم على ذلك، وأنهم تولوا عن ذلك كله، وأعرضوا قصداً وعمداً، وهم يعرفونه ويذكرونه، فامرهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك خلقهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢١٥) [الأنبياء: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْحَبُوا أَلِفْهُغُورُ﴾ [النحل: ٣٦]. وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تعالى، أن يعبد وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين، وأكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين، ولهذا يقرن الله تعالى بين حقه وحق الوالدين، كما قال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]. وقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْ رُبَّكَ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۖ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ﴾ الآية إلى أن قال: ﴿وَأَمَّا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّبِيلَ﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤]. وفي الصحيحين، عن ابن مسعود، قلت: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». ولهذا جاء في الحديث الصحيح: أن رجلاً قال: يا رسول الله، من أبر؟ قال: «أهلك». قال: ثم من؟ قال: «أهلك».

قال: ثم من؟ قال: «أباك». ثم أدناك أدناك».

وقوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾: قال الزمخشري: خبر بمعنى الطلب، وهو أكد. وقيل: كان أضله: ألا تعبدوا كما قرأها بعض السلف، فحذفت أن فارتفع، وحكى عن أبي وابن مسعود، رضي الله عنهما، أنهما قرأها: «لا تعبدوا إلا الله». وقيل: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ مرفوع على أنه قسم، أي: والله لا تعبدون إلا الله، ونقل هذا التوجيه القرطبي في تفسيره عن سيبويه. وقال: اختاره المبرد والكسائي والفراء. قال: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ وهم: الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء. وقال أهل اللغة: اليتيم في بني آدم من الآباء، وفي البهائم من الأم، وحكى الماوردي أن اليتيم أطلق في بني آدم من الأم أيضاً. ﴿وَالسَّكِينِ﴾: الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم، وسباني الكلام على هذه الأصناف عند آية النساء، التي أمرنا الله تعالى بها صريحاً في قوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاللَّذِينَ إِحْسَنَّا﴾ الآية [النساء: ٣٦]. وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي: كلموهم طيباً، وليتوا لهم جانباً، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف، كما قال الحسن البصري في قوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾: فالْحُسْنُ من القول: يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، ويحلم، ويعفو، ويصفح، ويقول للناس حسناً كما قال الله، وهو كل خلق حسن رضي الله.

وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا أبو عامر الخزاز، عن أبي عمران الجوني، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، وإن لم تجد فالتق أخاك بوجه متطلق». وأخرجه مسلم في صحيحه، والترمذي وصححه، من حديث أبي عامر الخزاز، واسمه صالح بن رستم، به. وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسناً، بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي. ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمُعِين من ذلك، وهو الصلاة والزكاة، فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله، أي: تركوه وراء ظهورهم، وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به، إلا القليل منهم، وقد أمر تعالى هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء، بقوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاللَّذِينَ إِحْسَنَّا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالسَّكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْكَرْبِ وَالْعَجَاظِ وَالْكَرْبِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]. فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها، والله الحمد والمنة. ومن النقول الغريبة ههنا ما ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن خلف العسقلاني، حدثنا عبد الله بن يوسف - يعني الثنيسي - حدثنا خالد بن صبيح، عن حميد بن عقبة، عن أسد بن وداعة: أنه كان يخرج من منزله فلا يلقى يهودياً ولا نصرانياً إلا سلم عليه، فقيل له: ما شأنك؟ تسلم على اليهودي والنصراني. فقال: إن الله يقول: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ وهو السلام. قال: وروي عن عطاء الخراساني، نحوه. قلت: وقد ثبت في السنة أنهم لا يبدؤون بالسلام، والله أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُغْرِبُونَ أَنْفُسَكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ ثُمَّ أَفَرَضْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُغْرِبُونَ قَرِيبًا مِنْكُمْ بَيْنَ يَدَيْهِمْ تَظْهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْفُحْشِ وَإِنْ يَأْفُوكُمْ أَسْرَى تَنْدَرُهُمْ وَهُمْ حَرَمٌ عَلَيْكُمْ إِعْرَاجُهُمْ أَفْئُوتُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا جِزَاءُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَسْوَ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَصْنَعُونَ﴾ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَحْفَظُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُصْرَفُونَ﴾ (٨٦).

يقول تبارك وتعالى، منكر على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أن الأوس والخزرج، وهم الأنصار، كانوا في الجاهلية عباد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع. وبنو النضير حلفاء الخزرج. وبنو قريظة حلفاء الأوس. فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليه في دينه ونص كتابه. ويخرجونهم من بيوتهم وينهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استغفوا الأسارى من الفريق المغلوب، عملاً بحكم التوراة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفْئُوتُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُغْرِبُونَ أَنْفُسَكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ﴾ أي: لا يقتل بعضكم بعضاً، ولا يخرج من منزله، ولا يظهر عليه، كما قال تعالى: ﴿فَقُتِلُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَأَقْبَلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

وقوله: ﴿ثُمَّ أَفَرَضْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي: ثم أفررتكم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ

أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ يَنصِرُهُمْ تَقَتَّلَهُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْفُتُونِ وَإِن يَأْتُوكُم أَسْتَرَى تَقْتَدُواهُمْ وَهُوَ حَرَمٌ عَلَيْكُمْ إِحْرَاجُهُمْ، قال محمد بن إسحاق بن يسار: حدثني محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جبير - أو عكرمة - عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية، قال: أثبهم الله من فعلهم، وقد حرم عليهم في التوراة سفك دمائهم، وافترض عليهم فيها فداء أسرارهم، فكانوا فريقين: طائفة منهم بنو قينقاع وإنهم حلفاء الخزرج، والنضير، وقريظة وإنهم حلفاء الأوس، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس، يظهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه، حتى يتسافكوا دماءهم بينهم، وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم. والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان، ولا يعرفون جنة ولا ناراً، ولا بعثاً ولا قيامة، ولا كتاباً، ولا حلالاً ولا حراماً، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسرارهم، تصديقاً لما في التوراة، وأخذاً به؛ بعضهم من بعض، يفندي بنو قينقاع ما كان من أسرارهم في أيدي الأوس، ويفندي النضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم، ويطلون ما أصابوا من دمائهم، وقتلى من قتلوا منهم فيما بينهم، مظاهرة لأهل الشرك عليهم. يقول الله تعالى ذكره حيث أثبهم بذلك: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: يفاديه بحكم التوراة ويقتله، وفي حكم التوراة ألا يفعل، ولا يخرج من داره، ولا يظاھر عليه من يشرك بالله، ويعبد الأوثان من دونه، ابتغاء عرض الدنيا. ففي ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج - فيما بلغني - نزلت هذه القصة.

وقال أسباط عن السدي: كانت قريظة حلفاء الأوس، وكانت النضير حلفاء الخزرج، فكانوا يقتتلون في حرب سُمير، فيقاتل بنو قريظة مع حلفائهم النضير وحلفاءهم، وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفاءها، ويغلبونهم، فيخربون ديارهم، ويخرجونهم منها، فإذا أسر رجل من الفريقين كليهما، جمعوا له حتى يفدوه. فتعيرهم العرب بذلك، ويقولون: كيف تقاتلونهم وتفدونهم؟ قالوا: إنا أمرنا أن نفديهم، وحرم علينا قتالهم، قالوا: فلم تقاتلونهم؟ قالوا: إننا نستحي أن نُسندَل حلفاؤنا. فذلك حين عيرهم الله، فقال: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ يَنصِرُهُمْ﴾.

وقال شعبة، عن السدي: نزلت هذه الآية في قيس بن الخطيم: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ يَنصِرُهُمْ تَقَتَّلَهُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْفُتُونِ﴾. وقال أسباط، عن السدي، عن عبد خير، قال: غزونا مع سلمان بن ربيعة الباهلي بَلَنَجَر، فحاصرنا أهلها ففتحنا المدينة وأصبنا سبايا واشترى عبد الله بن سلام يهودية بسبعمائة، فلما مر برأس الجالوت نزل به، فقال له عبد الله: يا رأس الجالوت، هل لك في عجزو ههنا من أهل دينك، تشتريها مني؟ قال: نعم. قال: أخذتها بسبعمائة درهم. قال: فإني أُرْبِحُكَ سبعمائة أخرى. قال: فإني قد حلفت ألا أنقصها من أربعة آلاف. قال: لا حاجة لي فيها، قال: والله تشتريها مني، أو لتخفرن بدينك الذي أنت عليه، قال: ادن مني، فدنا منه، فقرأ في آذنه التي في التوراة: إنك لا تجد مملوكاً من بني إسرائيل إلا اشتريته فاعتقته ﴿وَإِن يَأْتُوكُم أَسْتَرَى تَقْتَدُواهُمْ وَهُوَ حَرَمٌ عَلَيْكُمْ إِحْرَاجُهُمْ﴾، قال: أنت عبد الله بن سلام؟ قال: نعم. قال: فجاه بأربعة آلاف، فأخذ عبد الله الفين، ورد عليه الفين. وقال آدم بن أبي إياس في تفسيره: حدثنا أبو جعفر يعني الرازي، حدثنا الربيع بن أنس، أخبرنا أبو العالية: أن عبد الله بن سلام مر على رأس الجالوت بالكوفة، وهو يفادي من النساء من لم يقع عليها العرب، ولا يفادي من وقع عليها العرب، فقال عبد الله بن سلام: أما إنه مكتوب عندك في كتابك أن تفاديهم كلهم. والذي أرشدت إليه الآية الكريمة، وهذا السياق، ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها، ومخالفة شرعها، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة، فلماذا لا يؤمنون على ما فيها ولا على نقلها، ولا يصدقون فيما يكتُمونه من صفة رسول الله ﷺ ونعته، ومبعثه ومخرجه، ومهاجره، وغير ذلك من شؤونه، التي قد أخبر بها الأنبياء قبله. واليهود عليهم لعائن الله يتكاثرون بينهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا جِزَاءُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ﴿وَيَوْمَ أَقْبَمْتُمْ يَرْثُوكَ إِلَهُ أَشْوَ الْعَالِي﴾ جزء على ما كتّمه من كتاب الله الذي بأيديهم ﴿وَمَا اللَّهُ بِمُغَيِّرٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي: استحسبوا على الآخرة واختاروها ﴿فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ أي: لا يفتر عنهم ساعة واحدة ﴿وَلَا هُمْ يُعْرَوْنَ﴾ أي: وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي، ولا يجيرهم منه.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُّسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

ينعت، تبارك وتعالى، بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة، والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، فذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب - وهو التوراة - فحرفوها وبدلوها، وخالفوا أوامرها وأولوها. وأرسل الرسل والنبیین من بعده

الذين يحكمون بشريعته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا الَّذِينَ آسَلُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّيْنِوْنَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ الآية [المائدة: ٤٤]، ولهذا قال: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ يَدَيْهِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال السدي، عن أبي مالك: أتبعنا. وقال غيره: أردفنا. والكل قريب، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [المؤمنون: ٤٤] حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله من البينات، وهي: المعجزات. قال ابن عباس: من إحياء الموتى، وخلق من الطين كهية الطير فينفخ فيها فتكون طيراً يأذن الله، وإبراهه الأسقام، وإخباره بالغيوب، وتأييده بروح القدس، وهو جبريل عليه السلام. ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به. فاشتد تكذيب بني إسرائيل له وخسدهم وعنادهم لمخالفة التوراة في البعض، كما قال تعالى إخباراً عن عيسى: ﴿وَلَا جبرَ لَكُمْ بِعَقْلِ آلِيهِ حَرَمَ عَلَيْكُمْ وَبَشِّرِ الصَّادِقِينَ بِذِيكُمُ﴾ الآية [آل عمران: ٥٠]. فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء عليهم السلام أسوأ المعاملة، ففريقاً يكذبونه. وفريقاً يقتلونهم، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم ويلزمهم بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها، فلماذا كان يشق ذلك عليهم، فيكذبونهم، وربما قتلوا بعضهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾. والدليل على أن روح القدس هو جبريل، كما نص عليه ابن مسعود في تفسير هذه الآية، وتابعه على ذلك ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي، وإسماعيل بن أبي خالد، والسدي، والربيع بن أنس، وعطية العوفي، وقاعدة مع قوله تعالى: ﴿تَزَكَّى يَدُ الرُّوحِ الْأَمِينِ﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٦١﴾ يَلْسَانُ عَزِيزٍ مُبِينٍ ﴿١٦٢﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥] ما قال البخاري: وقال ابن أبي الزناد، عن أبيه، عن عروة، عن عائشة: إن رسول الله ﷺ وضع لحيان بن ثابت مثبراً في المسجد، فكان ينافح عن رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك». وهذا من البخاري تعليق.

وقد رواه أبو داود في سننه، عن ثوين، والترمذي، عن علي بن حجر، وإسماعيل بن موسى الفزاري، ثلاثتهم عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه وهشام بن عروة، كلاهما عن عروة، عن عائشة به. وقال الترمذي: حسن صحيح، وهو حديث أبي الزناد. وفي الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة: أن عمر مر بحسان، وهو ينشد الشعر في المسجد، فلحظ إليه، فقال: قد كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك. ثم التفت إلى أبي هريرة، فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «أجب عني، اللهم أيد بروح القدس؟». فقال: اللهم نعم. وفي بعض الروايات: أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «اهجهم - أو: هاجهم - وجبريل معك». وفي شعر حسان قوله:

وجبريل رسول الله ينادي
وروح القدس ليس به خفاء
وقال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين المكي، عن شهر بن حوشب الأشعري: أن نفرًا من اليهود سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أخبرنا عن الروح. فقال: «أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أنه جبريل؟ وهو الذي يأتيني؟» قالوا: نعم. وفي صحيح ابن حبان أظنه عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إن روح القدس نفخ في روعي: إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فانتقوا الله وأجملوا في الطلب».

اقوال آخر:

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا منجاب بن الحارث، حدثنا بشر، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس: ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ قال: هو الاسم الأعظم الذي كان عيسى يُحيي به الموتى. وقال ابن جرير: حدثنا عن المنجاب. فذكره. قال ابن أبي حاتم: وروي عن سعيد بن جبير نحو ذلك. ونقله القرطبي عن عبيد بن عمير - أيضاً - قال: وهو الاسم الأعظم. وقال ابن أبي نجيع: الروح هو حفظة على الملائكة. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس: القدس هو الرب تبارك وتعالى. وهو قول كعب. وقال السدي: القدس: البركة. وقال العوفي، عن ابن عباس: القدس: الطهر. وحكى القرطبي عن مجاهد والحسن البصري أنهما قالوا: القدس: هو الله تعالى، وروحه: جبريل، فعلى هذا يكون القول الأول. وقال ابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْتَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قال: أيد الله عيسى بالإنجيل روحاً كما جعل القرآن روحاً، كلاهما روح من الله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

ثم قال ابن جرير: وأولى التأويلات في ذلك بالصواب قول من قال: الروح في هذا الموضع جبريل، لأن الله ﷻ، أخبر أنه أيد عيسى به، كما أخبر في قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ بِمَا كَانَ عَلَيْكَ مِنْ لَدُنِّي وَإِذْ وَلَدْتُكَ إِنْ كُنْتُ إِلَّا نَفْسًا مَنكُورًا﴾

في التمهيد وَكَهَلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ الآية (المائدة: ١١٠). فذكر أنه أيد به، فلو كان الروح الذي أيد به هو الإنجيل، لكان قوله: ﴿إِذْ أَيْدَيْنَاكَ يَدِيَّيْهِ الْقُدُسِ﴾ وَكَهَلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ تكرير قول لا معنى له، والله أعز أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به. قلت: ومن الدليل على أنه جبريل ما تقدم في أول السياق؛ والله الحمد. وقال الزمخشري ﴿يُرْوِجُ الْقُدُسِ﴾: بالروح المقدسة، كما يقول: حاتم الجود ورجل صدق ووصفها بالقدس كما قال: ﴿وَرُوحٌ وَفَتْهُ﴾ فوصفه بالاختصاص والتقريب تكربة، وقيل: لأنه لم تضمه الأصلاب والأرحام الطوامث، وقيل: بجبريل، وقيل: بالإنجيل، كما قال في القرآن: ﴿رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقيل باسم الله الأعظم الذي كان يحيي الموتى بذكره، وتضمن كلامه قولاً آخر وهو أن المراد روح عيسى نفسه المقدسة المطهرة. وقال الزمخشري في قوله: ﴿فَقَرِيفًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيفًا تَقْنَلُونَ﴾: إنما لم يقل: وفريقاً قتلتم؛ لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل - أيضاً - لأنهم حاولوا قتل النبي ﷺ بالسلم والسحر، وقد قال، عليه السلام، في مرض موته: «ما زالت أكلة خبير تعاونني فهذا أوان انقطاع أبهري»، وهذا الحديث في صحيح البخاري وغيره.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ كُلْ لَهُمُ اللَّهُ يَكْفُرُهُمْ فَعَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: في أكنة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: لا تفقه. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال: هي القلوب المطبوع عليها. وقال مجاهد: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾: عليها غشاوة. وقال عكرمة: عليها طابع. وقال أبو العالية: أي لا تفقه. وقال السدي: يقولون: عليها غلاف، وهو الغطاء. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ هو كقوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ [نصحت: ٥]. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، في قوله: ﴿غُلْفٌ﴾ قال: يقول: قلبي في غلاف فلا يخلص إليه ما تقول، قرأ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾. وهذا هو الذي رجحه ابن جرير، واستشهد مما روى من حديث عمرو بن مَرْة الجملي، عن أبي البخري، عن حذيفة، قال: القلوب أربعة. فذكر منها: وقلب أغلف مغضوب عليه، وذلك قلب الكافر. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الرحمن العزمي، أنبأنا أبي، عن جدي، عن قتادة، عن الحسن في قوله: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال: لم تختن. هذا القول يرجع معناه إلى ما تقدم من عدم طهارة قلوبهم، وأنها بعيدة من الخير.

قول آخر:

قال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال: قالوا: قلوبنا مملوءة علماً لا تحتاج إلى علم محمد، ولا غيره. وقال عطية العوفي: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: أوعية للعلم. وعلى هذا المعنى جاءت قراءة بعض الأنصار، فيما حكاه ابن جرير: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ بضم اللام، أي: جمع غلاف، أي: أوعية، بمعنى أنهم ادعوا أن قلوبهم مملوءة بعلم لا يحتاجون معه إلى علم آخر. كما كانوا يمتنون بعلم التوراة. ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ لَهُمْ اللَّهُ فَعَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: ليس الأمر كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها، كما قال في سورة النساء: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥]. وقد اختلفوا في معنى قوله: ﴿فَعَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فقال بعضهم: فقليل من يؤمن منهم واختاره فخر الدين الرازي وحكاة عن قتادة والأصم وأبي مسلم الأصهباني وقيل: فقليل إيمانهم. بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب، ولكنه إيمان لا ينفعهم، لأنه مغمور بما كفروا به من الذي جاءهم به محمد ﷺ. وقال بعضهم: إنهم كانوا غير مؤمنين بشيء، وإنما قال: ﴿فَعَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهم بالجميع كافرون، كما تقول العرب: قلما رأيت مثل هذا قط. تريد: ما رأيت مثل هذا قط. وقال الكسائي: تقول العرب: من زنى بأرض قلما تنبت، أي: لا تنبت شيئاً. حكاه ابن جرير، والله أعلم.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِكُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَمَسَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ يعني اليهود ﴿كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وهو: القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ يعني: من التوراة، وقوله: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِكُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان تقتلكم معه قتل عاد وإرم،

كما قال محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عُمر بن قتادة الأنصاري، عن أشياخ منهم قال: قالوا: فينا والله وفيهم - يعني في الأنصار - وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم، نزلت هذه القصة يعني: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِمُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ قالوا: كنا قد علو ناهم دهرًا في الجاهلية، ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب، فكانوا يقولون: إن نبيًا من الأنبياء يبعث الآن نتبعه، قد أظلم زمانه، نقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به. يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَمَسَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. وقال الضحاک، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِمُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، قال: يستظهرون يقولون: نحن نعين محمدًا عليهم، وليسوا كذلك، يكذبون. وقال محمد بن إسحاق: أخبرني محمد بن أبي محمد، أخبرني عكرمة أو سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه. فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه. فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء بن مغرور، أخو بني سلمة: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك، وتخبرونا بأنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته. فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جانا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم فانزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِمُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَمَسَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِمُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يقول: يستنصرون بخروج محمد ﷺ على مشركي العرب - يعني بذلك أهل الكتاب - فلما بعث محمد ﷺ ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه.

وقال أبو العالية: كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركي العرب، يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوبًا عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم. فلما بعث الله محمدًا ﷺ، ورأوا أنه من غيرهم، كفروا به حسدًا للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ؛ فقال الله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَمَسَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. وقال قتادة: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِمُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: كانوا يقولون: إنه سيأتي نبي. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾. وقال مجاهد: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَمَسَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ قال: هم اليهود. وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، عن محمود بن لبيد، أخي بني عبد الأشهل عن سلمة بن سلامة بن وقش، وكان من أهل بدر قال: كان لنا جار يهودي في بني عبد الأشهل قال: فخرج علينا يوماً من بيته قبل مبعث رسول الله ﷺ يسير، حتى وقف على مجلس بني عبد الأشهل. قال سلمة: وأنا يومئذ أحدث من فيهم سناً على بردة مضطجعاً فيها بفناء أصلي. فذكر البعث والقيامة والحسنات والميزان والجنة والنار. قال ذلك لأهل شرك أصحاب أوثان لا يرون بعثاً كائنًا بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان، ترى هذا كائنًا أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، يجزون فيها بأعمالهم؟ فقال: نعم، والذي يحلف به، لود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدنيا يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبق به عليه، وأن ينجو من تلك النار غداً. قالوا له: ويحك وما آية ذلك؟ قال: نبي يبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن. قالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إليّ وأنا من أحدثهم سناً، فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه. قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ وهو بين أظهرنا، فأمنّا به وكفر به بغياً وحسدًا. فقلنا: ويلك يا فلان، ألسنت بالذي قلت لنا؟ قال: بلى وليس به. تفرد به أحمد. وحكى القرطبي وغيره عن ابن عباس، رضي الله عنهما: أن يهود خيبر اقتتلوا في زمان الجاهلية مع غطفان فهزمتهم غطفان، فدعى اليهود عند ذلك، فقالوا: اللهم إنا نسألك بحق النبي الأمي الذي وعدتنا بإخراجه في آخر الزمان، إلا نصرتنا عليهم. قال: فنصروا عليهم. قال: وكذلك كانوا يصنعون يدعون الله فينصرون على أعدائهم ومن نازلهم. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ أي من الحق وصفه محمد ﷺ كفروا به فلعن الله على الكافرين..

﴿يَسْكَنَ أَشْرَؤُا يَوْمَ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَقِيَّتَا إِنْ يَتُوبَا إِلَى اللَّهِ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبِأَنَّهُمْ عَلَى غَصَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

قال مجاهد: ﴿يَسْكَنَ أَشْرَؤُا يَوْمَ أَنْفُسُهُمْ﴾: يهود شَرُّوا الحق بالباطل، وكتماً ما جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ بأن يبينوه. وقال السدي: ﴿يَسْكَنَ أَشْرَؤُا يَوْمَ أَنْفُسُهُمْ﴾ يقول: باعوا به أنفسهم، يعني: بشما اعتاضوا لأنفسهم ورضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ إلى تصديقه ومؤازرته ونصرته. وإنما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية ﴿أَنْ يَتُوبَا إِلَى اللَّهِ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ولا حسد أعظم من هذا. قال ابن إسحاق عن محمد، عن عكرمة أو سعيد، عن ابن عباس:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ أَنفُسِهِمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَعَثْنَا أَن نُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ﴾ أي: أن الله جعله من غيرهم ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ قال ابن عباس: فالغضب على الغضب، فغضبه عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهي معهم، وغضب بكفرهم بهذا النبي الذي أحدث الله إليهم. قلت: ومعنى ﴿فَبَاءُوا﴾: استوجبوا، واستحقوا، واستقروا بغضب على غضب. وقال أبو العالية: غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى، ثم غضب عليهم بكفرهم بمحمد، وبالقرآن، عليهما السلام، وعن عكرمة وقتادة مثله. وقال السدي: أما الغضب الأول فهو حين غضب عليهم في العجل، وأما الغضب الثاني فغضب عليهم حين كفروا بمحمد ﷺ. وعن ابن عباس مثله. وقوله: ﴿وَلَكِنِّي زِينَ عَذَابٍ مُّهِينٍ﴾: لما كان كفرهم سببه البغي والحسد، ومنشأ ذلك التكبر، قولوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَلِيلِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، أي صاغرين حقيرين ذليلين راغمين. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، حدثنا ابن عجلان، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا سجنًا في جهنم، يقال له: بولس فيعلوهم نار الأنبار يسقون من طينة الخبال: عصارة أهل النار».

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمَ ءَايَتُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَأْوِينُ بِنَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَكِفَرُوا بِمَا وَرَّاءُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [٩١] ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُّوسَىٰ بِآلِهَتِكُمْ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [٩٢].

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمَ﴾ أي: لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب ﴿ءَايَتُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي: على محمد ﷺ وصدقه واتباعه ﴿قَالُوا تَأْوِينُ بِنَا أَنزَلَ عَلَيْنَا﴾ أي: يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ولا نقر إلا بذلك، ﴿وَكُفَرُوا بِمَا وَرَّاءُ﴾ يعني: بما بعده ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ الحق ﴿مُصَدِّقًا﴾ منصوب على الحال، أي: في حال تصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل، فالحجة قائمة عليهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَرَوْنَهُ كَمَا يَبْرَوْنَ ءَأَنبَأَهُمُ﴾ [البقرة: ١٤٦] ثم قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في دعوكم الإيمان بما أنزل إليكم، فلم تقتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم والحكم بها وعدم نسخها، وأنتم تعلمون صدقهم؟ تقتلهم بغيا وحسداً وعداواً واستكباراً على رسل الله، فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتشهي، كما قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]. وقال السدي: في هذه الآية يعبرهم الله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾. وقال أبو جعفر بن جرير: قل يا محمد، لليهود بني إسرائيل - الذين - إذا قلت لهم: آمنوا بما أنزل الله قالوا: ﴿تَأْوِينُ بِنَا أَنزَلَ عَلَيْنَا﴾ - لم تقتلوا - إن كنتم يا معشر اليهود مؤمنين بما أنزل الله عليكم - أنبياءه وقد حرم الله في الكتاب الذي أنزل عليكم قتلهم، بل أمركم فيه باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم، وذلك من الله تكذيب لهم في قولهم: ﴿تَأْوِينُ بِنَا أَنزَلَ عَلَيْنَا﴾، وتعبير لهم. ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُّوسَىٰ بِآلِهَتِكُمْ﴾ أي: بالآيات الواضحات والدلائل القاطعة على أنه رسول الله، وأنه لا إله إلا الله. والبيّنات هي: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، وقلق البحر، وتظليلهم بالغمام، والمن والسلوى، والحجر، وغير ذلك من الآيات التي شاهدها ﴿ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ أي: معبوداً من دون الله في زمان موسى وآياته. وقوله: ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ قَوْمٌ مُّوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِن حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَّهُمُ خُوارٍ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، ﴿وَأَنظَرْتُمُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: وأنتم ظالمون في هذا الصنيع الذي صنعتموه من عبادتكم العجل، وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا سِيقَ فِي يَدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَنشِرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْكَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِسْنَتُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [٩٣].

يعدد، تبارك وتعالى، عليهم خطاهم ومخالفتهم للميثاق وعتوهم وإعراضهم عنه، حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه؛ ولهذا قال: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾. وقد تقدم تفسير ذلك. ﴿وَأَنشِرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿وَأَنشِرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ قال: أشربوا في قلوبهم حبه، حتى خلس ذلك إلى قلوبهم. وكذا قال أبو العالية، والربيع بن أنس. وقال الإمام أحمد: حدثنا عصام بن خالد، حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني، عن خالد بن محمد الثقفي، عن بلال بن أبي الدرداء، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «حُبِكَ الشَّيْ

يُغَمِّي وَيُصْمِّ. ورواه أبو داود عن حيوة بن شريح عن بَقِيَّة، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم به، وقال السدي: أخذ موسى، عليه السلام، العجل فذبحه ثم حرقه بالمبرد، ثم ذراه في البحر، فلم يبق بحر يجري يومئذٍ إلا وقع فيه شيء منه، ثم قال لهم موسى: اشربوا منه. فاشربوا، فمن كان يحبه خرج على شاربيه الذهب. فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْكِبْلَ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمارة بن عبد وأبي عبد الرحمن السلمي، عن علي بن أبي طالب، قال: عمد موسى إلى العجل، فوضع عليه المبارد، فبرده بها، وهو على شاطئ نهر، فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب. وقال سعيد بن جبيرة: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْكِبْلَ﴾ قال: لما أحرق العجل بُرِدَ ثم نسف، فحسوا الماء حتى عادت وجوههم كالزعران. وحكى القرطبي عن كتاب القشيري: أنه ما شرب منه أحد ممن عبد العجل إلا جُنَّ ثم قال القرطبي: وهذا شيء غير ما ههنا؛ لأن المقصود من هذا السياق، أنه ظهر النقيض على شفاههم ووجوههم، والمذكور ههنا: أنهم أشربوا في قلوبهم حب العجل، يعني: في حال عبادتهم له، ثم أنشد قول النابغة في زوجته عثمة:

تغلغل حب عثمة في فوادي فباديه مع الخافي يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ سرور
أكاد إذا ذكرت العهد منها أطير لو أن إنساناً يطير

وقوله: ﴿قُلْ يَسْكُنُ بِأَمْوَالِكُمْ يَوْمَ يُنْفَخُ الْكُتُبُ﴾ أي: بشما تعتمدونه في قديم الدهر وحديثه، من كفركم بآيات الله ومخالفتكم الأنبياء، ثم اعتمادكم في كفركم بمحمد ﷺ - وهذا أكبر ذنوبكم، وأشد الأمور عليكم - إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين المبعوث إلى الناس أجمعين، فكيف تدعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة، من نقضكم المواثيق، وكفركم بآيات الله، وعبادتهم العجل؟!

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ آخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِكَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَتَّ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٤) وَلَنْ يَمَسُّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَنَجْذِثُنَّهُمْ أَهْرَاسَ النَّاسِ عَلَى حَيَوَاتِهِمْ مِنَ الدَّيْنِ أَشْرَكُوا يَوْمَ أَهْلَهُمْ نَارُ سَعِيرٍ وَمَا هُوَ بِمُخْرِجِيهِمْ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦).

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: يقول الله لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ آخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِكَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَتَّ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٤) أي: ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب. فابوا ذلك على رسول الله ﷺ ﴿وَلَنْ يَمَسُّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٩٥) أي: يعلمهم بما عندهم من العلم بك، والكفر بذلك، ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلا مات. وقال الضحاک، عن ابن عباس: ﴿فَتَمْنُوا الْوَتَّ﴾: فسلا الموت. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن عبد الكريم الجزري، عن عكرمة، قوله: ﴿فَتَمْنُوا الْوَتَّ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال: قال ابن عباس: لو تمنى اليهود الموت لماتوا. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنطاقي، حدثنا عثام، سمعت الأعمش - قال: لا أظنه إلا عن المنهال، عن سعيد بن جبيرة - عن ابن عباس، قال: لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه. وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس. وقال ابن جرير في تفسيره: وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ولرأوا مقاعدهم من النار. ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً، ولا مالاً». حدثنا بذلك أبو كُرَيْب، حدثنا زكريا بن عدي، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ. ورواه الإمام أحمد، عن إسماعيل بن زيد الرقي أبي يزيد، حدثنا فرات، عن عبد الكريم، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن أحمد قال: حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار، حدثنا سرور بن المغيرة، عن عباد بن منصور، عن الحسن، قال: قول الله ما كانوا ليتمنوه بما قدمت أيديهم، قلت: رأيتك لو أنهم أحبوا الموت حين قيل لهم: تمنوا، أتراهم كانوا ميتين؟ قال: لا، والله ما كانوا ليتمنوا الموت، وما كانوا ليتمنوه، وقد قال الله ما سمعت: ﴿وَلَنْ يَمَسُّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٩٥).

وهذا غريب عن الحسن. ثم هذا الذي فسر به ابن عباس الآية هو المتعين، وهو الدعاء على أي الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة، ونقله ابن جرير عن قتادة، وأبي العالية والربيع بن أنس، رحمهم الله. ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿قُلْ يَكُنْهَا الدَّيْنُ هَادِرًا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَتَّ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٥) وَلَا يَمَسُّوهُ

أَبْدًا بِمَا قَدَّمْتَ إِلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَالِمُ الْغُورِ (٧) وَكَانَ مِنْ قَرَبِهِ عَنَّتْ عَنْ أُمِّي رُبَّهَا وَرُسُلِهِ فَمَاسَبَّتْهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبَهَا عَذَابًا نَكْرًا (٨) [الجمعة: ٦-٨] فهم - عليهم لعائن الله - لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصاري، دعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم، أو من المسلمين. فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم ظالمون؛ لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك، فلما تأخروا علم كذبهم. وهذا كما دعا رسول الله ﷺ وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة، وعثرهم وعنادهم إلى المباهلة، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَدُوٍّ جَاءَكَ مِنَ الْمَوْلَى فَقُلْ تَسَاءَلُوا نَدَىٰ آبَاءَكَ وَإِبْنَاءَكَ وَزُرْعَكَ وَزُرْعَكَ وَأَنْفُسُكُمْ فَدَعْ نَبْتَئِلَ فَمَنْجَعَلْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١)﴾ [آل عمران: ٦١] فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض: والله لئن باهلتهم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف. فعند ذلك جنحوا إلى السلم وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فضر بها عليهم. وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح، رضي الله عنه، أمينًا. ومثل هذا المعنى أو قريب منه قوله تعالى لنبيه ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلِمَئِذٍ لَأَرْحَمَنَّ مَنْ أَمَّا مَنْ فسر كان في الضلالة منا أو منكم، فزاده الله مما هو فيه ومدَّ له، واستدرجه، كما سيأتي تقريره في موضعه، إن شاء الله. فأما من فسر الآية على معنى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ أَلْدَارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩١)﴾ [آل عمران: ٩١] إن كنتم صادقين في دعواكم، فتمنوا الآن الموت. ولم يتعرض هؤلاء للمباهلة كما قرره طائفة من المتكلمين وغيرهم، ومال إليه ابن جرير بعد ما قارب القول الأول؛ فإنه قال: القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ أَلْدَارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩١)﴾ وهذه الآية مما احتج الله به لنبيه ﷺ على اليهود الذين كانوا بين ظهرائي مهاجرة، وفضح بها أحبارهم وعلماءهم؛ وذلك أن الله أمر نبيه ﷺ من النصارى إذ خالفوه في عيسى ابن مريم، عليه السلام، وجادلوه فيه، إلى فاصلة بينه وبينهم من المباهلة. فقال لفريق من اليهود: إن كنتم محقين فتمنوا الموت، فإن ذلك غير ضار بكم، إن كنتم محقين فيما تدعون من الإيمان وقرب المنزلة من الله، بل أعطيكم أمنيته من الموت إذا تمنيتم، فإنما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصبها وكدر عيشها، والفوز بجوار الله في جناته، إن كان الأمر كما تزعمون؛ من أن الدار الآخرة لكم خاصة دوننا. وإن لم تعطوها علم الناس أنكم المبطلون ونحن المحقون في دعوانا، وانكشف أمرنا وأمركم لهم فامتنعت اليهود من الإجابة إلى ذلك لعلها أنها إن تمت الموت هلكت، فذهبت دنياها وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها، كما امتنع فريق من النصارى.

فهذا الكلام منه أوله حسن، وأما آخره ففيه نظر؛ وذلك أنه لا تظهر الحجة عليهم على هذا التأويل، إذ يقال: لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون في دعواهم أن يتنموا الموت فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمني الموت، وكم من صالح لا يتمنى الموت، بل يود أن يعمر ليزداد خيراً وترتفع درجته في الجنة، كما جاء في الحديث: «خيركم من طال عمره وحسن عمله». وجاء في الصحيح النهي عن تمني الموت، وفي بعض ألفاظه: «لا تمنين أحدكم الموت لضر نزل به إما محسناً فلعلة أن يزداد، وإما مسيئاً فلعلة أن يستعقب». ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا: فما أنتم تعتقدون - أيها المسلمون - أنكم أصحاب الجنة، وأنتم لا تمنون في حال الصحة الموت؛ فكيف تلمزوننا بما لا نلزمكم؟ وهذا كله إنما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى، فأما على تفسير ابن عباس فلا يلزم شيء من ذلك، بل قيل لهم كلام نَصَف: إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس، وأنكم أبناء الله وأحباؤه، وإنكم أهل الجنة ومن عداكم من أهل النار، فباهلوا على ذلك وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة. فلما تيقنوا ذلك وعرفوا صدقه نكلوا عن المباهلة لما يعلمون من كذبهم وافتراءهم وكتمانهم الحق من صفة الرسول ﷺ ونعته، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحققونه. فلم كل أحد باطلهم، وخزيهم، وضلالهم وعنادهم - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - وسميت هذه المباهلة تمنياً؛ لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له ولا سيما إذا كان في ذلك حجة له فيها بيان حقه وظهوره، وكانت المباهلة بالموت؛ لأن الحياة عندهم عظيمة عزيزة لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَتَّعُوا أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْفَالِغِينَ﴾ (٤٥) وَلَنَجْذِثُنَّ عَنْهُمْ مِنَ النَّارِ عَلَى حَيَاتِهِمْ أَي: أحرص الخلق على حياة أي: على طول عُمر، لما يعلمون من مآلهم السيئ وعاقبتهم عند الله الخاسرة؛ لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم. وما يحذرون واقع بهم لا محالة، حتى وهم أحرص الناس من المشركين الذين لا كتاب لهم. وهذا من باب عطف الخاص على العام. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان عن الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قال: الأعاجم. ورواه الحاكم في مستدركه من حديث

الثوري، وقال: صحيح على شرطهما، ولم يخرجاه. قال: وقد اتفقا على سند تفسير الصحابي. وقال الحسن البصري: ﴿وَلَنَجْذِبَهُمْ إِلَىٰ آيَاتِهِ﴾ قال: المنافق أحرص الناس على حياة، وهو أحرص على الحياة من المشرك ﴿يُؤْذِيهِمْ﴾ أي: أحد اليهود كما يدل عليه نظم السياق. وقال أبو العالية: ﴿يُؤْذِيهِمْ﴾: يعني المجوس، وهو يرجع إلى الأول. ﴿لَوْ يَسْمُرُ آلَفُ سَمَوَاتٍ﴾ قال الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿يُؤْذِيهِمْ﴾ لَوْ يَسْمُرُ آلَفُ سَمَوَاتٍ فقال: هو كقول الفارسي: «زه هزارسال» يقول: عشرة آلاف سنة. وكذا روى عن سعيد بن جبير نفسه أيضاً. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق قال: سمعت أبي يقول: حدثنا أبو حمزة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿يُؤْذِيهِمْ لَوْ يَسْمُرُ آلَفُ سَمَوَاتٍ﴾ قال: هو قول الأعاجم: «هزارسال نوروز مهرجان». وقال مجاهد: ﴿يُؤْذِيهِمْ لَوْ يَسْمُرُ آلَفُ سَمَوَاتٍ﴾ قال: حببت إليهم الخطيئة طول العمر. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزْعِجِهِمْ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يَسْمُرَ﴾ أي: ما هو بمنجيهم من العذاب. وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت، فهو يحب طول الحياة وأن اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي بما صنع بما عنده من العلم. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزْعِجِهِمْ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يَسْمُرَ﴾ قال: هم الذين عادوا جبريل. وقال أبو العالية وابن عمر: فما ذلك بمغيثه من العذاب ولا منجيته منه. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذه الآية: يهود أحرص على هذه الحياة من هؤلاء، وقد ود هؤلاء أن يعمر أحدهم ألف سنة، وليس ذلك بمزحزحه من العذاب لو عمر، كما أن عمر إبليس لم ينفعه إذ كان كافراً. ﴿وَاللَّهُ بِبَيْتِهِمَا يَسْمُرُ﴾ أي: خير بصير بما يعمل عباده من خير وشر، وسيجازي كل عامل بعمله.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾.

قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً على أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك. فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ في أمر نبوته.

ذكر من قال ذلك

حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا يونس بن بكير، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شُهْر بن حَوْشَب، عن ابن عباس أنه قال: حضرت عصابة من اليهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خُلال نَسْأَلُكَ عَنْهُمْ، لا يعلمهم إلا نبي، فقال رسول الله ﷺ: «سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعني على الإسلام»، فقالوا: ذلك لك. فقال رسول الله ﷺ: «سلوني عما شئتم». فقالوا: أخبرنا عن أربع خُلال نَسْأَلُكَ عَنْهُمْ: أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟ وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم ووليه من الملائكة؟ فقال رسول الله ﷺ: «عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعني؟» فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق. فقال: «نشدتكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه، فنذر الله نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحزمن أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل وأحب الشراب إليه الألبان؟». فقالوا: اللهم نعم. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اشهد عليهم وأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله؟». قالوا: اللهم نعم. قال: «اللهم اشهد». قال: «وأنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تمام عيناه ولا ينال قلبه؟». قالوا: اللهم نعم. قال: «اللهم اشهد». قالوا: أنت الآن، فحدثنا من وليك من الملائكة، فعندنا نجاحك أو تفارقك. قال: «فإن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه». قالوا: فعندنا تفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك. قال: «فما منعكم أن تصدقوه؟» قالوا: إنه عدونا. فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَسْمُرُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣] فعندنا باؤوا بغضب على غضب. وقد رواه الإمام أحمد في مستدره، عن أبي النضر هاشم بن القاسم وعبد بن حميد في تفسيره، عن أحمد بن يونس، كلاهما عن عبد الحميد بن بهرام،

ورواه الإمام أحمد - أيضاً - عن الحسين بن محمد المروزي، عن عبد الحميد، بنحوه به. وقد رواه محمد بن إسحاق بن يسار: حدثني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين، عن شهر بن حوشب، فذكره مرسلًا، وزاد فيه: قالوا: فأخبرنا عن الروح. قال: «أنشدكم بالله وبآياته عند بني إسرائيل، هل تعلمون أنه جبريل، وهو الذي يأتيني؟» قالوا: نعم، ولكنه لنا عدو، وهو ملك إنما يأتي بالشدة وسفك الدماء، فلولا ذلك اتبعناك. فأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾﴾ [البقرة: ١٠١]. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد، حدثنا عبد الله بن الوليد العجلي، عن بكير بن شهاب، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، قال: قال: أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، إنا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك. فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦] قال: «هاتوا». قالوا: أخبرنا عن علامة النبي ﷺ. قال: «تنام عيناه ولا ينام قلبه». قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف يذكر الرجل؟ قال: «يلتقي الماءان فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت»، قالوا: أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه. قال: «كان يشتكي عرق الثسا، فلم يجد شيئًا يلائمه إلا ألبان كذا وكذا». قال أحمد: قال بعضهم: يعني الإبل، فحرم لحومها. قالوا: صدقت. قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: «ملك من ملائكة الله، موكل بالسحاب بيديه - أو في يده - مخراق من نار يزجر به السحاب، يسوقه حيث أمره الله ﷻ». قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمعه؟ قال: «صوته». قالوا: صدقت. إنما بقيت واحدة وهي التي نتابعك إن أخبرتنا: إنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: «جبريل عليه السلام»، قالوا: جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان. فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ إلى آخر الآية.

ورواه الترمذي، والنسائي من حديث عبد الله بن الوليد، به. وقال الترمذي: حسن غريب. وقال سنيّد في تفسيره، عن حجاج بن محمد، عن ابن جريج: أخبرني القاسم بن أبي بزة أن يهود سألوا النبي ﷺ عن صاحبه الذي ينزل عليه بالوحي. قال: «جبريل». قالوا: فإنه لنا عدو، ولا يأتي إلا بالشدة والحرب والقتال. فنزل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ الآية. قال ابن جريج: وقال مجاهد: قالت يهود: يا محمد، ما ينزل جبريل إلا بشدة وحرب وقتال، وإنه لنا عدو. فنزل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ الآية.

وقال البخاري: قوله ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ قال عكرمة: جبر، وميك، وإسراف: عبد. وإيل: الله. حدثنا عبد الله بن مثير سمع عبد الله بن بكر، حدثنا حميد، عن أنس بن مالك، قال: سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ، وهو في أرض يخترف. فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشرط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «أخبرني بهن جبريل أنفًا». قال: جبريل؟ قال: «نعم». قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾. «أما أول أشرط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع». قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله. يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني. فجاءت اليهود، فقال النبي ﷺ: «أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟» قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا. قال: «أرايتم إن أسلم عبد الله بن سلام». فقالوا: أعاده الله من ذلك. فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فقالوا: شرنا وابن شرنا. فانتقصوه. قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله. انفرد به البخاري من هذا الوجه، وقد أخرجه من وجه آخر، عن أنس بنحوه. وفي صحيح مسلم، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قريب من هذا السياق، كما سيأتي في موضعه. وحكاية البخاري عن عكرمة ما تقدم هو المشهور أن «إيل» هو الله. وقد رواه سفيان الثوري، عن خُصيف، عن عكرمة. ورواه عبد بن حميد، عن إبراهيم بن الحكم، عن أبيه، عن عكرمة، ورواه ابن جرير، عن الحسين بن يزيد الطحان، عن إسحاق بن منصور، عن قيس، عن عاصم، عن عكرمة، أنه قال: جبريل اسمه عبد الله وميكائيل: عبيد الله. إيل: الله. ورواه يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس، مثله سواء. وكذا قال غير واحد من السلف، كما سيأتي قريباً. وقال الإمام أحمد في أثناء حديث سمرة بن جندب: حدثنا محمد بن سلمة، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا محمد بن عمرو بن عطاء قال: قال لي علي بن الحسين: اسم جبريل عبد الله، واسم ميكائيل: عبيد الله. ومن الناس من يقول: «إيل» عبارة عن عبد، والكلمة الأخرى هي اسم الله؛ لأن كلمة «إيل» لا تتغير في الجميع، فوزانه: عبد الله، عبد الرحمن، عبد الملك، عبد القدوس، عبد السلام، عبد الكافي، عبد الجليل. فعبد موجودة في هذا

كله، واختلفت الأسماء المضاف إليها، وكذلك جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ونحو ذلك، وفي كلام غير العرب يقدمون المضاف إليه على المضاف، والله أعلم. ثم قال ابن جرير: وقال آخرون: بل كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بين عمر بن الخطاب وبينهم في أمر النبي ﷺ.

ذكر من قال ذلك

حدثني محمد بن المثنى، حدثني ربي بن عُليّة، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، قال: نزل عمر الروحاء، فرأى رجالاً يبتدرون أحجاراً يصلون إليها، فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يزعمون أن رسول الله ﷺ صلى ههنا. قال: فكره ذلك. وقال: إنما رسول الله ﷺ أدركته الصلاة بواد فصلها ثم ارتحل، فتركه. ثم أنشأ يحدثهم، فقال: كنت أشهد اليهود يوم مئذرتهم، فأعجب من التوراة كيف تصدق الفرقان ومن الفرقان كيف يصدق التوراة؟ فبينما أنا عندهم ذات يوم، قالوا: يا ابن الخطاب، ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك. قلت: ولم ذلك؟ قالوا: إنك تغشانا وتأتينا. قلت: إني أتيتكم فأعجب من الفرقان كيف يصدق التوراة، ومن التوراة كيف تصدق الفرقان. قال: ومرو رسول الله ﷺ فقالوا: يا ابن الخطاب، ذاك صاحبكم فالحق به، قال: فقلت لهم عند ذلك: نشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، وما استرعاكم من حقه واستودعكم من كتابه: أتعلمون أنه رسول الله؟ قال: فسكتوا. فقال لهم عالمهم وكبيرهم: إنه قد غلظ عليكم فأجيئوه. فقالوا: فأنت عالمتنا وكبيرنا فأجبه أنت. قال: أما إذ نشدتنا بما نشدتنا به فإنا نعلم أنه رسول الله، قال: قلت: ويحكم فأئى هلكتكم؟! قالوا: إنا لم نهلك. قال: قلت: كيف ذاك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ثم لا تتبعونه ولا تصدقونه؟ قالوا: إن لنا عدواً من الملائكة وسلماً من الملائكة، وإنه قرن بنوته عدونا من الملائكة. قال: قلت: ومن عدوك ومن سلمكم؟ قالوا: عدونا جبريل، وسلمنا ميكائيل. قال: قلت: وفيهم عاديتهم جبريل، وفيهم سالمهم ميكائيل؟ قالوا: إن جبريل ملك الغضاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا، وإن ميكائيل ملك الرأفة والرحمة والتخفيف ونحو هذا. قال: قلت: وما منزلتهما من ربهما؟ قالوا: أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره. قال: قلت: فوالله الذي لا إله إلا هو، إنهما والذي بينهما لعدو لمن عاداهما وسلم لمن سالمهما ما ينبغي لجبريل أن يسالم عدو ميكائيل وما ينبغي لميكائيل أن يسالم عدو جبريل. قال: ثم قمت فاتبع النبي ﷺ فلحقته وهو خارج من خوخة لبني فلان، فقال: «يا ابن الخطاب، ألا أفرئك آيات نزلن قبل؟» فقرأ علي: ﴿مَنْ كَانَتْ عُدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ حتى قرأ هذه الآيات. قال: قلت: بأبي وأمي يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لقد جئت وأنا أريد أن أخبرك، فاسمع اللطيف الخبير قد سبقني إليك بالخبر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن مجالد، أنبأنا عامر، قال: انطلق عمر إلى اليهود، فقال: أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى: هل تجدون محمداً في كتبكم؟ قالوا: نعم. قال: فما يمنعكم أن تتبعوه؟ قالوا: إن الله لم يبعث رسولاً إلا جعل له من الملائكة كفلاً وإن جبريل كفل محمداً، وهو الذي يأتيه، وهو عدونا من الملائكة، وميكائيل سلمنا؛ لو كان ميكائيل هو الذي يأتيه أسلمنا. قال: فإني أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى: ما منزلتهما من رب العالمين؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله. قال عمر: وإني أشهد ما ينزلان إلا بإذن الله، وما كان ميكائيل ليسالم عدو جبريل، وما كان جبريل ليسالم عدو ميكائيل. فبينما هو عندهم إذ مر النبي ﷺ فقالوا: هذا صاحبك يا ابن الخطاب. فقام إليه عمر، فأنابه، وقد أنزل الله، ﷻ، عليه: ﴿مَنْ كَانَتْ عُدُوًّا لِلَّهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٥٨). وهذان الإسنادان يدلان على أن الشعبي حدث به عن عمر، ولكن فيه انقطاع بينه وبين عمر، فإنه لم يدرك وفاته، والله أعلم. وقال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد بن زريع، عن سعيد، عن قتادة، قال: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب انطلق ذات يوم إلى اليهود. فلما أبصروه رحبوا به، فقال لهم عمر: أما والله ما جئت لحبكم ولا للرغبة فيكم، ولكن جئت لأسمع منكم. فسألهم وسألوه. فقالوا: من صاحب صاحبك؟ فقال لهم: جبريل. فقالوا: ذاك عدونا من أهل السماء، يُطلع محمداً على سرنا، وإذا جاء جاء الحرب والسنة، ولكن صاحب صاحبنا ميكائيل، وكان إذا جاء جاء الخصب والسلم. فقال لهم عمر: هل تعرفون جبريل وتكفرون محمداً ﷺ؟ ففارقهم عمر عند ذلك وتوجه نحو النبي ﷺ، ليحدثه حديثهم، فوجده قد أنزلت عليه هذه الآية: ﴿قُلْ مَنْ كَانَتْ عُدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

ثم قال: حدثني المثنى، حدثنا آدم، حدثنا أبو جعفر عن قتادة، قال: بلغنا أن عمر أقبل إلى اليهود يوماً، فذكر نحوه. وهذا أيضاً - منقطع، وكذلك رواه أسباط، عن السدي، عن عمر مثل هذا أو نحوه، وهو منقطع أيضاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا

محمد بن عمار، حدثنا عبد الرحمن - يعني الدُّشْتُكي - حدثنا أبو جعفر، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن يهودياً أتى عمر بن الخطاب، فقال: إن جبريل الذي يذكر صاحبكم عدو لنا. فقال عمر: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٩٨)، قال: فنزلت على لسان عمر، رضي الله عنه. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا حصين بن عبد الرحمن، عن ابن أبي ليلى في قوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ قال: قالت اليهود للمسلمين: لو أن ميكائيل كان الذي ينزل عليكم لتبعناكم، فإنه ينزل بالرحمة والغيث، وإن جبريل ينزل بالعذاب والفتنة، فإنه لنا عدو. قال: فنزلت هذه الآية. حدثني يعقوب قال: حدثنا هُشَيْم، أخبرنا عبد الملك، عن عطاء بن نحو. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة في قوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ قال: قالت اليهود: إن جبريل عدونا، لأنه ينزل بالشدة والسنة، وإن ميكائيل ينزل بالرخاء والعافية والخصب، فجبريل عدونا. فقال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ الآية. وأما تفسير الآية فقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: من عادى جبريل فليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له في ذلك، فهو رسول من رسل الله ملكي عليه وعلى سائر إخوانه من الملائكة السلام ومن عادى رسولا فقد عادى جميع الرسل، كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل، وكما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يُؤْيَدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُوا قَوْلٌ مِّنْ بَعْضٍ وَكُفْرٌ مِّنْ بَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (١٥٩) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٦٠) [النساء: ١٥٠، ١٥١] فحكم عليهم بالكفر المحقق، إذ آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم، وكذلك من عادى جبريل فإنه عدو لله؛ لأن جبريل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه، وإنما ينزل بأمر ربه كما قال: ﴿وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّهِ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ قَبِيضًا﴾ (٢١٠) [مریم: ٦٤] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْزِيلَ لِرَبِّ السَّمَوَاتِ أَنْ يَنَزَّلَ بِهَ الْأَرْحَ الْأَمِينِ﴾ (٢١١) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٢١٢) [الشعراء: ١٩٢-١٩٤]. وقد روى البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب». ولهذا غضب الله لجبريل على من عاداه، فقال: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: مِنَ الْكُتُبِ الْمُنْتَقَدِمَةِ ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: هدى لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة، وليس ذلك إلا للمؤمنين. كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبُشْرَى وَالَّذِينَ لَا يُمِشُّوكَ فِي مَآذِنِهِمْ وَقَرُّهُ عَلَيْهِمْ عَمَّى أُولَئِكَ يَبْذُلُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَذِيقُ الْفَاسِدِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٢١٧) [الإسراء: ٨٢].

ثم قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٩٨)، يقول تعالى: من عاداني وملائكتي ورسلي - ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنْ أَلْوَنًا مُّسَلًّا وَمِنْ أَلْوَنٍ﴾ [الحج: ٧٥]. ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾ وهذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا في الملائكة، ثم عموم الرسل، ثم خصصا بالذكر؛ لأن السياق في الانتصار لجبريل وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل في اللفظ؛ لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم وميكائيل وليهم، فأعلمهم أنه من عادى واحدا منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضاً؛ لأنه - أيضاً - ينزل على الأنبياء بعض الأحيان، كما قرن برسول الله ﷺ في ابتداء الأمر، ولكن جبريل أكثر، وهي وظيفته، وميكائيل موكل بالقطر والنبات، هذاك بالهدى وهذا بالرزق، كما أن إسرافيل موكل بالصور للنفخ للبعث يوم القيامة؛ ولهذا جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: «اللهم رب جبريل وإسرافيل وميكائيل فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهديني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم». وقد تقدم ما حكاه البخاري، ورواه ابن جرير عن عكرمة أنه قال: جبر، وميك، وإسراف: عُيِد. وإيل: الله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء، عن عمير مولى ابن عباس، عن ابن عباس، قال: إنما قوله: «جبريل» كقوله: «عبد الله» و«عبد الرحمن». وقيل: جبر: عبد. وإيل: الله. وقال محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن علي بن الحسين، قال: أتدرون ما اسم جبرائيل من أسمائكم؟ قلنا: لا. قال: اسمه عبد الله. وكل اسم مرجعه إلى «يل» فهو إلى الله. قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد وعكرمة والضحاك ويحيى بن يعمر نحو ذلك. ثم قال: حدثني أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثني عبد العزيز بن عمير قال: اسم جبريل في الملائكة خادم الله. قال: فحدثت به أبا سليمان الداراني، فانتفض وقال: لهذا الحديث أحب إلي من كل شيء وكتبته في دفتر كان بين يديه. وفي جبريل

ولا أرى الموت يسبق الموت شيء
وقال آخ:

قال الإمام أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دلالات على نبوتك، وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود، ومكنونات سرائر أخبارهم، وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل، والنبا عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أخبارهم وعلمائهم، وما حرفة أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم، التي كانت في التوراة. فأطلع الله في كتابه الذي أنزله إلى نبيه محمد ﷺ؛ فكان في ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف نفسه، ولم يَدْعُهُ إلى هلاكها الحسد والبغي، إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البينات التي وَصَفَ، من غير تعلم تعلمه من بَشَرِيٍّ ولا أخذ شيئاً منه عن آدمي. كما قال الضحاک، عن ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يقول: فانت تتلوه عليهم وتخبرهم به غدوة وعشية، وبين ذلك، وأنت عندهم أمي لا تقرأ كتاباً، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه. يقول الله: في ذلك لهم عبرة وبيان، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون. وقال محمد بن إسحاق: حدثنا محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، قال: قال ابن صُورِيا الفُطَيُونِي لرسول الله ﷺ: «يا محمد، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك. فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ (١١). وقال مالك بن الصيف - حين بُعث رسول الله ﷺ وذكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق، وما عهد إليهم في محمد ﷺ: والله ما عهد إلينا في محمد ﷺ ولا أخذ له علينا ميثاقاً. فأنزل الله: ﴿أَوَكَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذُوا فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾. وقال الحسن البصري في قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: نعم، ليس في الأرض عَهْدٌ يعاهدون عليه إلا نقضوه ونبذوه، يعاهدون اليوم، وينقضون غداً. وقال السدي: لا يؤمنون بما جاء به محمد ﷺ. وقال قتادة: ﴿نَبَذُوا فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ أي: نقضه فريق منهم. وقال ابن جرير: أصل النبذ: الطرح والإلقاء، ومنه سمي اللقيط: منبذاً، ومنه سمي النبيذ، وهو التمر والزبيب إذا طرحا في الماء. قال أبو الأسود الدؤلي:

نَظَرْتُ إِلَى عَنَوَانِهِ فَنَبَذْتُهُ كَنَبْذِكَ تَغْلًا أَخْلَقْتَ مِنْ نَعَالِكَا
قلت: فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهد التي تقدم الله إليهم في التمسك بها والقيام بحقها. ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول
المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، الذي في كتبهم نعمته وصفته وأخباره، وقد أمروا فيها باتباعه وموازرتة ومناصرته، كما قال:
﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي الشَّوْرِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ الآية (الاعراف: ١٥٧)، وقال لهنا: ﴿وَلَكَّا
جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ مِنَ الَّذِينَ أُتُوا بِالْكِتَابِ كَتَبَ اللَّهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٦١)
أي: اطرَح طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم، مما فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم، أي: تركوها، كأنهم لا يعلمون ما
فيها، وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه. ولهذا أرادوا كيداً برسول الله ﷺ وسَحَرُوهُ فِي مِشْطٍ وَمِشَاقَةٍ وَجُفٌ طُلُعَةٌ ذَكَرَ، تحت

راعوثه بشر ذي أروان. وكان الذي تولى ذلك منهم رجل، يقال له: لبيد بن الأعصم، لعنه الله؛ فأطلع الله على ذلك رسوله ﷺ، وشفاه منه وأنقذه، كما ثبت ذلك مبسوطاً في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، كما سيأتي بيانه. قال السدي: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ قال: لما جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة فخاصموه بها، فاتفقت التوراة والقرآن، فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت، فلم يوافق القرآن، فذلك قوله: ﴿كَانَهُمْ لَا يَتْلُونَ﴾. وقال قتادة في قوله: ﴿كَانَهُمْ لَا يَتْلُونَ﴾ قال: إن القوم كانوا يعلمون، ولكنهم نبذوا علمهم، وكنتموه وجحدوا به.

وقال العوفي في تفسيره، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾: وكان حين ذهب مُلْكُ سليمان ارتد فقام من الجن والإنس واتبعوا الشهوات، فلما رجع الله إلى سليمان ملكه، وقام الناس على الدين كما كان أوان سليمان، ظهر على كتبهم فدفنوها تحت كرسيه، وتوفي سليمان، عليه السلام، حدثنا ذلك، فظهر الإنس والجن على الكتب بعد وفاة سليمان، وقالوا: هذا كتاب من الله نزل على سليمان وأخفاه عنا فأخذوا به فجعلوه ديناً. فانزل الله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ قَرِيبٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وِرَاءَهُمْ كَانَهُمْ لَا يَتْلُونَ﴾. واتبعوا الشهوات، أي: التي كانت تلو الشياطين، وهي المعازف واللعب وكل شيء يصد عن ذكر الله. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: كان آصف كاتب سليمان، وكان يعلم الاسم «الأعظم»، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفن تحت كرسيه، فلما مات سليمان أخرجه الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل بها. قال: فأكفره جهال الناس وسبوه، ووقف علماؤهم فلم يزل جهالهم يسبون، حتى أنزل الله على محمد ﷺ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾. وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب سلم بن جنادة السوائي، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: كان سليمان، عليه السلام، إذا أراد أن يدخل الخلاء، أو يأتي شيئاً من نسائه، أعطى الجرادة - وهي امرأة - خاتمه. فلما أراد الله أن يتلي سليمان، عليه السلام، بالذي ابتلاه به، أعطى الجرادة ذات يوم خاتمه، فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها: هاتي خاتمي. فأخذه فلبسه. فلما لبسه دانت له الشياطين والجن والإنس. قال: فجاءها سليمان، فقال: هاتي خاتمي فقالت: كذبت، لست سليمان. قال: فعرف سليمان أنه بلاء ابتلي به. قال: فانطلقت الشياطين فكتبت في تلك الأيام كتباً فيها سحر وكفر، ثم دفنوها تحت كرسى سليمان، ثم أخرجوها وقروها على الناس، وقالوا: إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب. قال: فبريء الناس من سليمان، عليه السلام، وأكفروه حتى بعث الله محمداً ﷺ وأنزل عليه: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾.

ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عمران، وهو ابن الحارث قال: بينا نحن عند ابن عباس - رضي الله عنهما - إذ جاء رجل فقال له: من أين جئت؟ قال: من العراق. قال: من أيه؟ قال: من الكوفة. قال: فما الخبر؟ قال: تركتهم يتحدثون أن علياً خارج إليهم. ففرع ثم قال: ما تقول؟ لا أباك! لو شعرنا ما نكحنا نساءه، ولا قسمنا ميراثه، أما إني سأحدثكم عن ذلك: إنه كانت الشياطين يسترقون السمع من السماء، فيجيء أحدهم بكلمة حق قد سمعها، فإذا جُرِبَ منه صدق كذب معها سبعين كذبة، قال: فَتَشْرِبُهَا قُلُوبُ النَّاسِ. فأطلع الله عليها سليمان، عليه السلام، فدفنوها تحت كرسيه. فلما توفي سليمان، عليه السلام، قام شيطان الطريق، فقال: أفلا أدلكم على كنز الممّنع الذي لا كنز له مثله؟ تحت الكرسي. فأخرجوه، فقالوا: هذا سحره فتناسخها الأمم - حتى بقاياها ما يتحدث به أهل العراق - وأنزل الله ﷻ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾. ورواه الحاكم في مستدركه، عن أبي زكريا العنبري، عن محمد بن عبد السلام، عن إسحاق بن إبراهيم، عن جرير، به. وقال السدي في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ﴾ أي: على عهد سليمان. قال: كانت الشياطين تصعد إلى السماء، فتقعد منها مقاعد للسمع، فيستمعون من كلام الملائكة مما يكون في الأرض من موت أو غيب أو أمر، فيأتون الكهنة فيخبرونهم. فتحدث الكهنة الناس فيجدونه كما قالوا. حتى إذا أمنتهم الكهنة كذبوا لهم. وأدخلوا فيه غيره، فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة، فاكتب الناس الحديث في الكتب، وفشا في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب. فبعث سليمان في الناس فجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق، ثم دفنها تحت كرسيه. ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي إلا احترق. وقال: لا أسمع أحداً

يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عققه. فلما مات سليمان، عليه السلام، وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان، وخلف بعد ذلك خَلَفَ تمثل شيطان في صورة إنسان، ثم أتى نفرًا من بني إسرائيل، فقال لهم: هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبدًا؟ قالوا: نعم. قال: فاحفروا تحت الكرسي. وذهب معهم وأراهم المكان، وقام ناحية، فقالوا له: فاذن. قال: لا ولكني ههنا في أيديكم، فإن لم تجدوه فاقتلوني. فحفروا فوجدوا تلك الكتب. فلما أخرجوها قال الشيطان: إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر. ثم طار وذهب. وفشا في الناس أن سليمان كان ساحرًا. واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب، فلما جاء محمد ﷺ خاصموه بها؛ فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّهُ الشَّيْطَانُ كَفَرُوا﴾.

وقال الربيع بن أنس: إن اليهود سألوا محمداً ﷺ زماناً عن أمور من التوراة، لا يسألونه عن شيء من ذلك إلا أنزل الله تعالى عليه ما سألوه عنه، فيخصمهم، فلما رأوا ذلك قالوا: هذا أعلم بما أنزل الله إلينا منا. وإنهم سألوه عن السحر وخاصموه به، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مَلِكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا بِمَا يَعْلَمُونَ النَّاسَ الْيَتَرُ﴾. وإن الشياطين عَمِدُوا إلى كتاب فكتبوا فيه السحر والكهانة وما شاء الله من ذلك، فدفنوه تحت مجلس سليمان، وكان سليمان، عليه السلام، لا يعلم الغيب. فلما فارق سليمان الدنيا استخرجوا ذلك السحر وخذعوا الناس، وقالوا: هذا علم كان سليمان يكتبه ويحسد الناس عليه. فأخبرهم النبي ﷺ بهذا الحديث فرجعوا من عنده وقد حزنوا، وأدحض الله حجتهم. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مَلِكِ سُلَيْمَانَ﴾ قال: كانت الشياطين تستمع الوحي فما سمعوا من كلمة إلا زادوا فيها مائتين مثلها. فأرسل سليمان، عليه السلام، إلى ما كتبوا من ذلك. فلما توفي سليمان وجدته الشياطين فعلته الناس، وهو السحر. وقال سعيد بن جبيرة: كان سليمان، عليه السلام، يتبع ما في أيدي الشياطين من السحر فيأخذهم منهم، فيدفنه تحت كرسيه في بيت خزانته، فلم يقدر الشياطين أن يصلوا إليه، فدفنت إلى الإنس، فقالوا لهم: أتدرون ما العلم الذي كان سليمان يسخر به الشياطين والرياح وغير ذلك؟ قالوا: نعم. قالوا: فإنه في بيت خزانته وتحت كرسيه. فاستثار به الإنس واستخرجوه فعملوا بها. فقال أهل الحجاز: كان سليمان يعمل بهذا وهذا سحر. فأنزل الله تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ براءة سليمان، عليه السلام، فقال: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مَلِكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّهُ الشَّيْطَانُ كَفَرُوا﴾.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار: عمدت الشياطين حين عرفت موت سليمان بن داود، عليه السلام، فكتبوا أصناف السحر: «من كان يحب أن يبلغ كذا وكذا فليقل كذا وكذا». حتى إذا صنفوا أصناف السحر جعلوه في كتاب. ثم ختموا بخاتم على نقش خاتم سليمان، وكتبوا في غُتوانه: «هذا ما كتب آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان بن داود، عليهما السلام، من ذخائر كنوز العلم». ثم دفنوه تحت كرسيه واستخرجته بعد ذلك بقايا بني إسرائيل حتى أخذوها ما أخذوها. فلما عثروا عليه قالوا: والله ما كان سليمان بن داود إلا بهذا. فأفشوا السحر في الناس وتعلموه وعلموه. وليس هو في أحد أكثر منه في اليهود لعنهم الله. فلما ذكر رسول الله ﷺ فيما نزل عليه من الله، سليمان بن داود، وعده فيمن عُدَّه من المرسلين، قال من كان بالمدينة من يهود: ألا تعجبون من محمد! يزعم أن ابن داود كان نبياً، والله ما كان إلا ساحرًا. وأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مَلِكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّهُ الشَّيْطَانُ كَفَرُوا﴾ الآية. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا حسين، حدثنا الحجاج، عن أبي بكر، عن شهر بن حوشب، قال: لما سلب سليمان، عليه السلام، ملكه، كانت الشياطين تكتب السحر في غيبة سليمان. فكتبت: «من أراد أن يأتي كذا وكذا فليستقبل الشمس، وليقل كذا وكذا، ومن أراد أن يفعل كذا وكذا فليستدبر الشمس وليقل كذا وكذا». فكتبت وجعلت عنوانه: هذا ما كتب آصف بن برخيا للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم. ثم دفنته تحت كرسيه. فلما مات سليمان، عليه السلام، قام إبليس، لعنه الله، خطيباً، ثم قال: يا أيها الناس، إن سليمان لم يكن نبياً، إنما كان ساحرًا، فالتمسوا سحره في متاعه وبيوته. ثم دلهم على المكان الذي دفن فيه. فقالوا: والله لقد كان سليمان ساحرًا! هذا سحره، بهذا تعبدنا، وبهذا قهرنا. وقال المؤمنون: بل كان نبياً مؤمناً. فلما بعث الله النبي ﷺ جعل يذكر الأنبياء حتى ذكر داود وسليمان. فقالت اليهود لعنهم الله: انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل. يذكر سليمان مع الأنبياء. إنما كان ساحرًا يركب الريح فأنزل الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مَلِكِ سُلَيْمَانَ﴾ الآية. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعاني، قال: حدثنا المعتمر بن سليمان، قال: سمعت عمران بن حدير، عن أبي مجلز، قال: أخذ سليمان، عليه السلام، من كل دابة عهداً، فإذا أصيب رجل فسأل بذلك العهد، خلى عنه. فزاد الناس السجع والسحر، وقالوا: هذا يعمل به سليمان. فقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّهُ الشَّيْطَانُ كَفَرُوا بِمَا يَعْلَمُونَ النَّاسَ الْيَتَرُ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عصام بن رواد، حدثنا آدم، حدثنا مسعودي، عن زياد مولى ابن مصعب، عن الحسن: ﴿وَاتَّبَعُوا

أنه كان يقرأها: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ ويقول: هما علجان من أهل بابل. وَوَجَّه أصحاب هذا القول الإنزال بمعنى الخلق، لا بمعنى الإحياء، في قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَرْوَجَ﴾ [الزمر: ٦]، ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿وَوَهَبْنَا لَكُمْ مِنْ الْأَسْمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣]. وفي الحديث: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء». وكما يقال: أنزل الله الخير والشر. وحكى القرطبي عن ابن عباس وابن أبيزى والضحاك والحسن البصري: أنهم قرؤوا: «وما أنزل على المَلَكَيْنِ بكسر اللام. قال ابن أبيزى: وهما داود وسليمان. قال القرطبي: فعلى هذا تكون «ما» نافية أيضاً. وذهب آخرون إلى الوقف على قوله: ﴿يَعْلَمُونَ النَّاسَ الْيَخْرَ﴾ و «ما» نافية، قال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا الليث، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم بن محمد، وسأله رجل عن قول الله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ النَّاسَ الْيَخْرَ﴾ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِأَيِّ هَتُوتٍ وَمُتَوَكَّلٍ قال الرجل: يعلمان الناس السحر، ما أنزل عليهما، أو يعلمان الناس ما لم ينزل عليهما؟ فقال القاسم: ما أبالي أيتهما كانت. ثم روي عن يونس، عن أنس بن عياض، عن بعض أصحابه: أن القاسم قال في هذه القصة: لا أبالي أي ذلك كان، إني آمنت به. وذهب كثيرون من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء، وأنهما أنزلا إلى الأرض، فكان من أمرهما ما كان. وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه الإمام أحمد في مسنده كما سنورده إن شاء الله تعالى. وعلى هذا فيكون الجمع بين هذا وبين ما ثبت من الدلائل على عصمة الملائكة أن هذين سبق في علم الله لهما هذا، فيكون تخصيصاً لهما، فلا تعارض حينئذ، كما سبق في علمه من أمر إبليس ما سبق، وفي قول: إنه كان من الملائكة، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [طه: ١١٦]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك. مع أن شأن هاروت وماروت - على ما ذكر - أخف مما وقع من إبليس لعنه الله. وقد حكاه القرطبي عن علي، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وكعب الأحبار، والسدي، والكلبي.

ذكر الحديث الوارد في ذلك - إن صح سنده ورفع - وبيان الكلام عليه:

قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله، في مسنده: حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا زهير بن محمد، عن موسى بن جبير، عن نافع، عن عبد الله بن عمر: أنه سمع نبي الله ﷺ يقول: «إن آدم - عليه السلام - لما أهيضه الله إلى الأرض قالت الملائكة: أي رب، ﴿أَعْمَلُ فِيهَا مَنْ يُقْسِدُ فِيهَا وَكَسِفُكَ الْوَمَاءَ وَنَحْنُ سَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، قالوا: ربنا، نحن أطوع لك من بني آدم. قال الله تعالى للملائكة: هَلُمُّوا مَلَائِكَةً حَتَّى نَهَيَّيَهُمَا إِلَى الْأَرْضِ، فَنَنْظُرَ كَيْفَ يَعْمَلَانِ؟ قالوا: ربنا، هاروت وماروت. فأهبطا إلى الأرض ومثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر، فجاءتهما، فسألاها نفسها. فقالت: لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشراك. فقالا: والله لا نشرك بالله شيئاً أبداً. فذهبت عنهما ثم رجعت بصبي تحمله، فسألاها نفسها. فقالت: لا والله حتى تقتلا هذا الصبي. فقالا: لا، والله لا نقتله أبداً. ثم ذهبت فرجعت بِقَدَحٍ خَمْرٍ تحمله، فسألاها نفسها. فقالت: لا والله حتى تشربا هذا الخمر. فشربا فسكرا، فوقعا عليها، وقتلا الصبي. فلما أفاقا قالت المرأة: والله ما تركتما شيئاً أبيتماه علي إلا قد فعلتماه حين سكرتما. فخيروا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا». وهكذا رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه، عن الحسن بن سفيان، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يحيى بن أبي بكير، به. وهذا حديث غريب من هذا الوجه، ورجاله كلهم ثقات من رجال الصحيحين، إلا موسى بن جبير هذا، وهو الأنصاري السلمي مولا هم المديني الحذاء، رَوَى عن ابن عباس وأبي أمامة بن سهل بن حنيف، ونافع، وعبد الله بن كعب بن مالك. وروى عنه ابنه عبد السلام، ويكر بن مضر، وزهير بن محمد، وسعيد بن سلمة، وعبد الله بن لُهيعة، وعمرو بن الحارث، ويحيى بن أيوب. وروى له أبو داود، وابن ماجه، وذكره ابن أبي حاتم في كتاب الجرح والتعديل، ولم يحك فيه شيئاً من هذا ولا هذا، فهو مستور الحال، وقد تفرد به عن نافع مولى ابن عمر، عن ابن عمر عن النبي ﷺ. وروى له متابع من وجه آخر عن نافع، كما قال ابن مردويه: حدثنا دَعْلُجُ بن أحمد، حدثنا هشام بن علي بن هشام، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا سعيد بن سلمة، حدثنا موسى بن سَرْجِس، عن نافع، عن ابن عمر: سمع النبي ﷺ يقول. فذكره بطوله.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين - وهو سُئِدُ بن داود صاحب التفسير - حدثنا الفرج بن فضالة، عن معاوية بن صالح، عن نافع، قال: سافرت مع ابن عمر، فلما كان من آخر الليل قال: يا نافع، انظر، طلعت الحمراء؟ قلت: لا - مرتين أو ثلاثاً - ثم قلت: قد طلعت. قال: لا مرجباً بها ولا أهلاً؟ قلت: سبحان الله! نجم مسخر سامع مطيع. قال: ما

قلت لك إلا ما سمعتُ من رسول الله ﷺ - أو قال: قال لي رسول الله ﷺ -: «إن الملائكة قالت: يا رب، كيف صبرك على بني آدم في الخطايا والذنوب؟ قال: إني ابتليتهم وعافيتكم. قالوا: لو كنا مكانهم ما عصيناك. قال: فاختاروا ملكين منكم. قال: فلم يألوا جهداً أن يختاروا، فاختاروا هاروت وماروت». وهذان - أيضاً - غريبان جداً. وأقرب ما في هذا أنه من رواية عبد الله بن عمر، عن كعب الأحبار، لا عن النبي ﷺ، كما قال عبد الرزاق في تفسيره، عن الثوري، عن موسى بن عقبة، عن سالم، عن ابن عمر، عن كعب، قال: ذكرت الملائكة أعمال بني آدم، وما يأتون من الذنوب، فقيل لهم: اختاروا منكم اثنين، فاختاروا هاروت وماروت. فقال لهما: إني أرسل إلى بني آدم رسلاً، وليس بيني وبينكم رسول، أنزل لا تشركا بي شيئاً ولا تزنيا ولا تشربا الخمر. قال كعب: فوالله ما أمسيا من يومهما الذي أهبطاً فيه حتى استكملا جميع ما نهيا عنه. ورواه ابن جرير من طريقين، عن عبد الرزاق، به. ورواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن عاصم، عن مؤمل، عن سفیان الثوري، به. ورواه ابن جرير أيضاً: حدثني المثنى، حدثنا المعلى - وهو ابن أسد - حدثنا عبد العزيز بن المختار، عن موسى بن عقبة، حدثني سالم أنه سمع عبد الله يحدث، عن كعب الأحبار، فذكره. فهذا أصح وأثبت إلى عبد الله بن عمر من الإسنادين المتقدمين، وسالم أثبت في أبيه من مولاة نافع. فدار الحديث ورجع إلى نقل كعب الأحبار، عن كتب بني إسرائيل، والله أعلم.

ذكر الآثار الواردة في ذلك عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين:

قال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا الحجاج، حدثنا حماد، عن خالد الحذاء، عن عمير بن سعيد، قال: سمعت علياً رضي الله عنه، يقول: كانت الزهرة امرأة جميلة من أهل فارس، وإنها خاصمت إلى الملكين هاروت وماروت، فراوداها عن نفسها، فأبت عليهما إلا أن يعلماهما الكلام الذي إذا تكلم المتكلم به يُعرج به إلى السماء. فعلماهما فتكلمت به فعرجت إلى السماء. فمسخت كوكباً! وهذا الإسناد جيد ورجاله ثقات، وهو غريب جداً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الفضل بن شاذان، حدثنا محمد بن عيسى، حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا أبو معاوية، عن ابن أبي خالد، عن عمير بن سعيد، عن علي قال: هما ملكان من ملائكة السماء. يعني: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾. ورواه الحافظ أبو بكر بن مَزْذُويه في تفسيره بسنده، عن مغيث، عن مولاة جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، عن علي - مرفوعاً. وهذا لا يثبت من هذا الوجه. ثم رواه من طريقين آخرين، عن جابر، عن أبي الطفيل، عن علي، قال: قال رسول الله ﷺ: «لعن الله الزهرة، فإنها هي التي فتن الملكين هاروت وماروت». وهذا أيضاً لا يصح، وهو منكر جداً. والله أعلم. وقال ابن جرير: حدثني المثنى بن إبراهيم، حدثنا الحجاج بن منهل، حدثنا حماد، عن علي بن زيد، عن أبي عثمان النهدي، عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قالا جميعاً: لما كثر بنو آدم وعصوا، دعت الملائكة عليهم والأرض والجبال ربنا لا تهلكهم فأوحى الله إلى الملائكة: إني أزلت الشهوة والشیطان من قلوبكم، ولو نزلتم لفعلتم أيضاً. قال: فحدثوا أنفسهم أن لو ابتلوا اعتصموا، فأوحى الله إليهم أن اختاروا ملكين من أفضلكم. فاختاروا هاروت وماروت. فأهبط إلى الأرض. وأنزلت الزهرة إليهما في صورة امرأة من أهل فارس يسمونها ببيذخت. قال: فوقعاً بالخطيئة. فكانت الملائكة يستغفرون للذين آمنوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، فلما وقعوا بالخطيئة استغفروا لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم. فخيروا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختاروا عذاب الدنيا.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن جعفر الرقي، أخبرنا عبيد الله - يعني ابن عمرو - عن زيد بن أبي أنيسة، عن المنهال بن عمرو ويونس بن خباب، عن مجاهد، قال: كنت نازلاً على عبد الله بن عمر في سفر، فلما كان ذات ليلة قال لفلانة: انظر، طلعت الحمراء، لا مرحباً بها ولا أهلاً، ولا حياًها الله، هي صاحبة الملكين. قالت الملائكة: يا رب، كيف تدع عصاة بني آدم وهم يسفكون الدم ويتهكون محارمك ويفسدون في الأرض! قال: إني قد ابتليتهم، فعل إن ابتليتهم بمثل الذي ابتليتهم به فعلتم كالذي يفعلون. قالوا: لا. قال: فاختاروا من خياركم اثنين. فاختاروا هاروت وماروت. فقال لهما: إني مهبطكما إلى الأرض، وعاهد إليكما ألا تشركا ولا تزنيا ولا تخونا. فأهبط إلى الأرض وألقي عليهما الشبقي، وأهبط لهما الزهرة في أحسن صورة امرأة، فتعرضت لهما، فراوداها عن نفسها. فقالت: إني على دين لا يصح لأحد أن يأتيني إلا من كان على مثله. قالا: وما دينك؟ قالت: المجوسية. قالا: الشرك! هذا شيء لا تقر به. فمكثت عنهما ما شاء الله. ثم تعرضت لهما فأراداها عن نفسها. فقالت: ما شئتما، غير أن لي زوجاً، وأنا أكره أن يطلع على هذا مني فأفتضح، فإن أقررتما لي بديني، وشرطتما لي أن تصعدا بي إلى السماء فعلت. فأقرا لها بديتها وأتياها فيما يريان، ثم صعدا بها إلى السماء. فلما انتهيا

بها إلى السماء اختطفت منهما، وقطعت أجنحتهما، فوقعا خائفين نادمين يبيكان، وفي الأرض نبي يدعو بين الجمعيتين، فإذا كان يوم الجمعة أجيب. فقالا: لو أتينا فلانا فسلأناه فطلب لنا التوبة! فأتياه، فقال: رحمكما الله، كيف يطلب أهل الأرض لأهل السماء! قال: إنا قد ابتلينا. قال: اثنياني يوم الجمعة. فأتياه، فقال: ما أجبت فيكما بشيء، اثنياني في الجمعة الثانية. فأتياه، فقال: اختارا، فقد خيرتما، إن أحببتما معافاة الدنيا وعذاب الآخرة، وإن أحببتما فعذاب الدنيا وأنتما يوم القيامة على حكم الله. فقال أحدهما: إن الدنيا لم يمض منها إلا القليل. وقال الآخر: ويحك؟ إني قد أطعته في الأمر الأول فأطعني الآن، إن عذاباً يقضى ليس كعذاب يقضى، وإننا يوم القيامة على حكم الله، فأخاف أن يعذبنا. قال: لا، إني أرجو إن علم الله أنا قد اخترنا عذاب الدنيا مخافة عذاب الآخرة ألا يجمعهما علينا. قال: فاختارا عذاب الدنيا، فجعلنا في بكرات من حديد في قليب مملوءة من نار، غَالِيَهُمَا سَافِلَهُمَا.

وهذا إسناد جيد إلى عبد الله بن عمر. وقد تقدم في رواية ابن جرير من حديث معاوية بن صالح، عن نافع، عنه رفعه. وهذا أثبت وأصح إسناداً. ثم هو - والله أعلم - من رواية ابن عمر عن كعب، كما تقدم بيانه من رواية سالم عن أبيه. وقوله: إن الزهرة نزلت في صورة امرأة حسناء، وكذا في المروي عن علي، فيه غرابة جداً. وأقرب ما ورد في ذلك ما قال ابن أبي حاتم: حدثنا عصام بن رواد، حدثنا آدم، حدثنا أبو جعفر، حدثنا الربيع بن أنس، عن قيس بن عباد، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: لما وقع الناس من بعد آدم، عليه السلام، فيما وقعوا فيه من المعاصي والكفر بالله، قالت الملائكة في السماء: يا رب، هذا العالم الذي إنما خلقتهم لعبادتك وطاعتك، قد وقعوا فيما وقعوا فيه وركبوا الكفر وقتل النفس وأكل المال الحرام، والزنا والسرقة وشرب الخمر. فجعلوا يدعون عليهم، ولا يعذرونهم، فقيل: إنهم في غيب. فلم يعذروهم. فقيل لهم: اختاروا منكم من أفضلكم ملكين، أمرهما وأنهاهما. فاختاروا هاروت وماروت. فأهبوا إلى الأرض، وجعل لهما شهوات بني آدم، وأمرهما الله أن يعبداه ولا يشركا به شيئاً، ونهيا عن قتل النفس الحرام وأكل المال الحرام، وعن الزنا والسرقة وشرب الخمر. فلبثا في الأرض زماناً يحكمان بين الناس بالحق وذلك في زمان إدريس عليه السلام. وفي ذلك الزمان امرأة حسناء في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب، وإنهما أتيا عليها فحضا لهما في القول، وأراداها على نفسها فأبت إلا أن يكونا على أمرها وعلى دينها، فسألاها عن دينها، فأخرجت لهما صنماً فقالت: هذا أعبده. فقالا: لا حاجة لنا في عبادة هذا. فذهبا فغبرا ما شاء الله. ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها، ففعلت مثل ذلك. فذهبا، ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها، فلما رأت أنهما قد أبيا أن يعبداه الصنم قالت لهما: اختارا إحدى الخلال الثلاث: إما أن تعبداه هذا الصنم، وإما أن تقتلوا هذه النفس، وإما أن تشربا هذا الخمر. فقالا: كل هذا لا ينبغي، وأهون هذا شرب الخمر. فشربا الخمر فأخذت فيهما فواقعا المرأة، فخشيا أن يخبر الإنسان عنهما فقتلاه، فلما ذهب عنهما السكر وعلما ما وقعا فيه من الخطيئة أرادا أن يصعدا إلى السماء، فلم يستطيعا، وحيل بينهما وبين ذلك، وكشف الغطاء فيما بينهما وبين أهل السماء، فنظرت الملائكة إلى ما وقعا فيه، فعجبوا كل العجب، وعرفوا أنه من كان في غيب فهو أقل خشية، فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن في الأرض، فنزل في ذلك: ﴿وَاللَّيْكَةُ سَيِّئُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] فقيل لهما: اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة. فقالا: أما عذاب الدنيا فإنه يتقطع ويذهب، وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له. فاختارا عذاب الدنيا، فجعلنا ببابل، فهما يعذبان.

وقد رواه الحاكم في مستدركه مطولاً عن أبي زكريا العنبري، عن محمد بن عبد السلام، عن إسحاق بن راهويه، عن حكام بن سلم الرازي، وكان ثقة، عن أبي جعفر الرازي، به. ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. فهذا أقرب ما روي في شأن الزهرة، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم، حدثنا القاسم بن الفضل الحُدثاني، حدثنا يزيد - يعني الفارسي - عن ابن عباس قال: إن أهل سماء الدنيا أشرفوا على أهل الأرض فأروهم يعملون المعاصي، فقالوا: يا رب، أهل الأرض كانوا يعملون بالمعاصي! فقال الله: أنتم معي، وهم غيب عني. فقيل لهم: اختاروا منكم ثلاثة، فاختاروا منهم ثلاثة على أن يهبطوا إلى الأرض، على أن يحكموا بين أهل الأرض، وجعل فيهم شهوة الآدميين، فأمرؤا ألا يشربوا خمرأ ولا يقتلوا نفساً، ولا يزنوا، ولا يسجدوا لوثن. فاستقال منهم واحد، فأقبل. فأهبط اثنان إلى الأرض، فأتتهما امرأة من أحسن الناس يقال لها: مناهية. فهوياها جميعاً، ثم أتيا منزلها فاجتمعا عندها، فأراداها فقالت لهما: لا، حتى تشربا خمرى، وتقتلا ابن جاري، وتسجدوا لوثنى. فقالا: لا نسجد. ثم شربا من الخمر، ثم قتلا، ثم سجدا. فأشرف أهل السماء عليهما. فقالت لهما: أخبراني بالكلمة التي إذا قلتماها طرمتا. فأخبراهما فطارت فمسخت جمره. وهي هذه الزهرة. وأما هما فأرسل إليهما سليمان بن داود، فخيرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. فاختارا عذاب الدنيا. فهما مناطان بين السماء والأرض. وهذا السياق فيه زيادات

كثيرة وإغراب ونكارة، والله أعلم بالصواب. وقال عبد الرزاق: قال مَعْمَرُ: قال قتادة والزهري، عن عبيد الله بن عبد الله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِأَيْلٍ هُكُوتٌ وَمُزَيَّتٌ﴾: كانا ملكين من الملائكة، فأهبطا ليحكما بين الناس. وذلك أن الملائكة سخرُوا من حكام بني آدم، فحاكمت إليهما امرأة، فحافا لها. ثم ذهبَا يصعدان فحيل بينهما وبين ذلك، وخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا. وقال معمر: قال قتادة: فكانا يعلمان الناس السحر، فأخذ عليهما ألا يعلما أحداً حتى يقولوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فَتَنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾

وقال أسباط عن السدي أنه قال: كان من أمر هاروت وماروت أنهما طعنا على أهل الأرض في أحكامهم، فقيل لهما: إني أعطيت بني آدم عشرين شهوات، فيها يعصوني. قال هاروت وماروت: ربنا، لو أعطيتنا تلك الشهوات ثم نزلنا لحكمتنا بالعدل. فقال لهما: انزلا، فقد أعطيتكما تلك الشهوات العشر، فاحكما بين الناس. فنزلا ببابل فذباؤندا، فكانا يحكمان، حتى إذا أمسيا عرجا، فإذا أصبحا هبطا، فلم يزالا كذلك حتى أتتهما امرأة تخاصم زوجها، فأعجبهما حسنُها - واسمها بالعربية: «الزهرة»، وبالطبية «بيذخت»، وبالفارسية «أناهيد» - فقال أحدهما لصاحبه: إنها لتعجبنى. قال الآخر: قد أردت أن أذكر لك، فاستحييت منك. فقال الآخر: هل لك أن أذكرها لنفسها؟ قال: نعم ولكن كيف لنا بعذاب الله؟ قال الآخر: إنا لندرجو رحمة الله. فلما جاءت تخاصم زوجها ذكر إليها نفسها، فقالت: لا، حتى تقضيا لي على زوجي. فقضيا لها على زوجها، ثم واعدتهما خربة من الخرب يأتيناها فيها، فأتياها لذلك. فلما أراد الذي يواقعها قالت: ما أنا بالذي أفعل حتى تخبراني بأي كلام تصعدان إلى السماء، وبأي كلام تنزلان منها؟ فأخبراهما، فتكلمت فصعدت، فأنساها الله ما تنزل به، فبقيت مكانها، وجعلها الله كوكباً. فكان عبد الله بن عمر كلما رآها لعنها، فقال: هذه التي فتنت هاروت وماروت، فلما كان الليل أراد أن يصعدا فلم يطيقا، فعرفا الهلكة فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. فاختارا عذاب الدنيا، فعلقا ببابل، وجعلوا يكلمان الناس كلاهما وهو السحر.

وقال ابن أبي نجيج، عن مجاهد: أما شأن هاروت وماروت، فإن الملائكة عجب من ظلم بني آدم، وقد جاءتهم الرسل والكتب والبينات، فقال لهم ربهم تعالى: اختاروا منكم ملكين أنزلهما يحكمان في الأرض بين بني آدم فاختاروا فلم يألوا إلا هاروت وماروت، فقال لهما حين أنزلهما: أعجبكما من بني آدم من ظلمهم ومن معصيتهم، وإنما أتيتهم الرسل والكتب والبينات من وراء وراء، وأنتما ليس بيني وبينكما رسول، فافعلا كذا وكذا، ودعا كذا وكذا، فأمرهما بأمر ونهاهما، ثم نزلا علي ذلك ليس أحد أطوع لله منهما، فحكما فعذلا. فكانا يحكمان النهار بين بني آدم، فإذا أمسيا عرجا فكانا مع الملائكة، ويتزلا. حين يصبحان فيحكمان فيعدلان، حتى أنزلت عليهما الزهرة في أحسن صورة امرأة تُخاصم، فقضيا عليها. فلما قامت وجد كل واحد منهما في نفسه، فقال أحدهما لصاحبه: وجدت مثل الذي وجدت؟ قال: نعم. فبعثا إليها أن اثبتنا نقض لك. فلما رجعت قالا وقضيا لها، فأتتهما فتكشفا لها عن عورتها، وإنما كانت شهوتها في أنفسهما، ولم يكونا كبني آدم في شهوة النساء ولذتها. فلما بلغا ذلك واستحلا افتتنا، فطارت الزهرة فرجعت حيث كانت. فلما أمسيا عرجا فزجرا فلم يؤذن لهما، ولم تحملهما أجنحتهما. فاستغاثا برجل من بني آدم فأتياه، قالا: ادع لنا ربك. فقال: كيف يشفع أهل الأرض لأهل السماء؟ قالا: سمعنا ربك يذكر بك بخير في السماء. فوعدهما يوماً، وغدا يدعو لهما فدعا لهما، فاستجيب له، فخيرًا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فنظر أحدهما إلى صاحبه، فقال: ألا تعلم أن أفواج عذاب الله في الآخرة كذا وكذا في الخلد، وفي الدنيا تسع مرات مثلاً؟ فأمر أن ينزلا ببابل، فتم عذابهما. وزعم أنهما معلقان في الحديد مطويان، يصفقان بأجنحتهما.

وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين، كمجاهد والسدي والحسن البصري وقاتة وأبي العالية والزهري والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل؛ إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال. وقد ورد أثر غريب وسياق عجيب في ذلك أحسبنا أن ننبه عليه، قال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: حدثنا الربيع بن سليمان، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن أبي الزناد، حدثني هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة زوج النبي ﷺ رضي الله عنها وعن أبيها أنها قالت: قدمت امرأة علي من أهل دومة الجندل، جاءت تبغني رسول الله ﷺ بعد موته خدانة ذلك، تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر، ولم تعمل به. قالت عائشة، رضي الله عنها، لعروة: يا ابن أختي، فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله ﷺ فيشفيعها كانت تبكي حتى إني لأرحمها، وتقول: إني أخاف أن أكون قد هلكت. كأنه

لي زوج فغاب عني، فدخلت عليّ عجوز فشكوت ذلك إليها، فقالت: إن فعلت ما أمرك به فأجعله يأتيك. فلما كان الليل جاءني بكلبين أسودين، فركبت أحدهما وركبت الآخر، فلم يكن كشيء حتى وقفنا ببابل، وإذا برجلين معلقين بأرجلهم. فقالا: ما جاء بك؟ فقلت: أتعلم السحر. فقالا: إنما نحن فتنة فلا تكفري، فارجمي. فأبيت وقلت: لا. قالوا: فاذهبي إلى ذلك الثور، فبولي فيه. فذهبت ففرعته ولم أفعل، فرجعت إليهما، فقالا: أفعلت؟ فقلت: نعم. فقالا: هل رأيت شيئاً؟ فقلت: لم أر شيئاً. فقالا: لم تفعلي، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري فإنك على رأس أمرك. فأزبنت وأبيت. فقالا: اذهبي إلى ذلك الثور فبولي فيه. فذهبت فاقشعرت وخفت، ثم رجعت إليهما فقلت: قد فعلت. فقالا: فما رأيت؟ فقلت: لم أر شيئاً. فقالا: كذبت، لم تفعلي، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري؛ فإنك على رأس أمرك. فأربيت وأبيت. فقالا: اذهبي إلى ذلك الثور، فبولي فيه. فذهبت إليه فبلت فيه، فرأيت فارساً مقنعاً بحديد خرج مني، فذهب في السماء وغاب عني حتى ما أراه، فوجدتهما فقلت: قد فعلت. فقالا: فما رأيت؟ قلت: رأيت فارساً مقنعاً خرج مني فذهب في السماء، حتى ما أراه. فقالا: صدقت، ذلك إيمانك خرج منك. اذهبي. فقلت للمرأة: والله ما أعلم شيئاً وما قال لي شيئاً. فقالت: بلى، لم تريدي شيئاً إلا كان، خذي هذا القمح فابذري، فبذرت، وقلت: اطلعي. فأطلعت وقلت: احقلي فأحقلت، ثم قلت: افركي فأفركت. ثم قلت: ايسي فأيسيت. ثم قلت: اطحنني فأطحت. ثم قلت: اخبزي فأخبزت. فلما رأيت أنني لا أريد شيئاً إلا كان، سقط في يدي وندمت - والله - يا أم المؤمنين والله ما فعلت شيئاً قط ولا أفعله أبداً.

ورواه ابن أبي حاتم عن الربيع بن سليمان، به مطولاً، كما تقدم. وزاد بعد قولها: ولا أفعله أبداً: فسألت أصحاب رسول الله ﷺ حَدَاثَةَ وفاة رسول الله ﷺ، وهم يومئذ متوافرون، فما ذروا ما يقولون لها، وكلهم هاب وخاف أن يفتيها بما لا يعلمه، إلا أنه قد قال لها ابن عباس - أو بعض من كان عنده -: لو كان أبوك حين أو أحدهما لكان يكفيانك. قال هشام: فلو جاءتنا أفتيناها بالضمان قال: قال ابن أبي الزناد: وكان هشام يقول: إنهم كانوا من أهل الورع والخشية من الله. ثم يقول هشام: لو جاءتنا مثلها اليوم لوجدت نوكي أهل حق وتكلف بغير علم. فهذا إسناد جيد إلى عائشة، رضي الله عنها. وقد استدل بهذا الأثر من ذهب إلى أن الساحر له تمكن في قلب الأعيان؛ لأن هذه المرأة بذرت واستغلت في الحال. وقال آخرون: بل ليس له قدرة إلا على التخيل، كما قال الله تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْمَهُوهُمْ وَمَا يَبْصُرُ بِشَيْءٍ مِنَ الْغَيْبِ إِلَّا رَأْيَ سَحَرِهِمْ﴾ [مجادل: ٢٤]. واستدل به على أن بابل المذكورة في القرآن هي بابل العراق، لا بابل دُنيَاوند كما قاله السدي وغيره. ثم الدليل على أنها بابل العراق ما قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن صالح، حدثني ابن وهب، حدثني ابن لهيعة ويحيى بن أزهر، عن عمار بن سعد المرادي، عن أبي صالح الغفاري أن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه مر ببابل وهو يسير، فجاء المؤذن يؤذنه بصلاة العصر، فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة، فلما فرغ قال: إن حبيبي ﷺ نهاني أن أصلي بأرض المقبرة، ونهاني أن أصلي ببابل فإنها ملعونة.

وقال أبو داود: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا ابن وهب، حدثني ابن لهيعة ويحيى بن أزهر، عن عمار بن سعد المرادي، عن أبي صالح الغفاري: أن علياً مر ببابل، وهو يسير، فجاءه المؤذن يؤذنه بصلاة العصر، فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة، فلما فرغ قال: إن حبيبي ﷺ نهاني أن أصلي في المقبرة، ونهاني أن أصلي بأرض بابل، فإنها ملعونة. حدثنا أحمد بن صالح: حدثنا ابن وهب، أخبرني يحيى بن أزهر وابن لهيعة، عن الحجاج بن شداد، عن أبي صالح الغفاري، عن علي، بمعنى حديث سليمان بن داود، قال: فلما «خرج» مكان «برز». وهذا الحديث حسن عند الإمام أبي داود؛ لأنه رواه وسكت عنه؛ ففيه من الفقه كراهية الصلاة بأرض بابل، كما تكره بديار ثمود الذين نهى رسول الله ﷺ عن الدخول إلى منازلهم، إلا أن يكونوا باكين. قال أصحاب الهيئة: ويُعَدُّ ما بين بابل، وهي من إقليم العراق، عن البحر المحيط الغربي، ويقال له: أوقيانوس سبعون درجة، ويسمون هذا طولاً، وأما عرضها وهو بعد ما بينها وبين وسط الأرض من ناحية الجنوب، وهو المسامت لخط الاستواء، اثنان وثلاثون درجة، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَمْلِكَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾. قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن قيس بن عباد، عن ابن عباس، قال: فإذا أتاهما الآتي يريد السحر نهيته أشد النهي، وقاله: إنما نحن فتنة فلا تكفر، وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان، فعرفا أن السحر من الكفر. قال: فإذا أبى عليهما أمره أن يأتي مكان كذا وكذا، فإذا أتاه عاين الشيطان فعلمه، فإذا تعلم خرج منه النور، فنظر إليه ساطعاً في السماء فيقول: يا حسرتاه! يا ويله! ماذا أصنع؟

وعن الحسن البصري أنه قال في تفسير هذه الآية: نَعَمْ، أنزل الملكان بالسحر، ليعلما الناس البلاء الذي أراد الله أن يبتلي

به الناس، فأخذ عليهما الميثاق أن لا يعلما أحداً حتى يقولوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾. رواه ابن أبي حاتم، وقال قتادة: كان أخذ عليهما ألا يعلما أحداً حتى يقولوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ - أي: بلاء ابتلينا به - ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾. وقال قتادة والسدي: إذا أتاهما إنسان يريد السحر، وعظاه، وقال له: لا تكفر، إنما نحن فتنة. فإذا أبى قالا له: ائت هذا الرمامد، فبُل عليه. فإذا بال عليه خرج منه نور فسطع حتى يدخل السماء، وذلك الإيمان. وأقبل شيء أسود كهيئة الدخان حتى يدخل في مسامعه وكل شيء منه. وذلك غضب الله. فإذا أخبرهما بذلك علماه السحر، فذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا يُلِيمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ الآية. وقال سنيّد، عن حجاج، عن ابن جريج في هذه الآية: لا يجترىء على السحر إلا كافر. وأما الفتنة فهي المحنة والاختبار، ومنه قول الشاعر:

وقد فُتِنَ النُّاسُ فِي دِينِهِمْ
وَحَلَّى ابْنُ عَفَّانٍ شَرّاً طَوِيلاً
وكذلك قوله تعالى إخباراً عن موسى، عليه السلام، حيث قال: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: ابتلاؤك واختيارك وامتحانك ﴿تُضِلُّ بِهَا مَنِ شَاءَ وَيَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. وقد استدل بعضهم بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر، وُستشهد له بالحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن همام، عن عبد الله، قال: من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ. وهذا إسناد جيد، وله شواهد أخر. وقوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ أي: فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون به فيما يتصرفون فيه من الأفاعيل المذمومة، ما إنهم ليفرقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والانتلاف. وهذا من صنيع الشياطين، كما رواه مسلم في صحيحه، من حديث الأعمش، عن أبي سفيان طلحة بن نافع، عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه في الناس، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة، يجيء أحدهم فيقول: ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا. فيقول إبليس: ولا والله ما صنعت شيئاً. ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله، قال: فيقر به ويدنيه ويلتزمه، ويقول: نعم أنت. وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر: ما يخيّل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر، أو خلق أو نحو ذلك أو عقد أو بغضة، أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة.

والمرء عبارة عن الرجل، وتأنثه امرأة، ويشي كل منهما ولا يجمعان، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ قال سفيان الثوري: إلا بقضاء الله. وقال محمد بن إسحاق إلا بتخليّة الله بينه وبين ما أراد. وقال الحسن البصري: ﴿وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾، قال: نعم، من شاء الله سلطهم عليه، ومن لم يشأ الله لم يسלט، ولا يستطيعون ضر أحد إلا بإذن الله، كما قال الله تعالى، وفي رواية عن الحسن أنه قال: لا يضر هذا السحر إلا من دخل فيه. وقوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَحْسُرُونَمْ وَلَا يُنْفَعُهُمْ﴾ أي: يضرهم في دينهم، وليس له نفع يوازي ضرره. ﴿وَلَعَلَّكُمْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ أي: ولقد علم اليهود الذي استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول ﷺ لَمَنِ فعل فعلهم ذلك، أنه ما له في الآخرة من خلاق. قال ابن عباس ومجاهد والسدي: من نصيب. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ما له في الآخرة من جهة عند الله، وقال: وقال الحسن: ليس له دين. وقال سعد عن قتادة: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ قال: ولقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له في الآخرة. وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ولو أنهم آمنوا بالله ورسوله واتقوا المحارم، لكان مثوبة الله على ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

وقد استدلل بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ من ذهب إلى تكفير الساحر، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وقول طائفة من السلف. وقيل: بل لا يكفر، ولكن خذه صَرْبَ عنقه، لما رواه الشافعي وأحمد بن حنبل رحمهما الله: أخبرنا سفيان، عن عمرو بن دينار، أنه سمع بجالة بن عبيدة يقول: كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر. وقد أخرجه البخاري في صحيحه أيضاً. وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين سحرته جارية لها، فأمرت بها فقتلت. قال أحمد بن حنبل: صح عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ أذّنوا في قتل الساحر. وروى الترمذي من

حديث إسماعيل بن مسلم، عن الحسن، عن جُنْدُب الْأَزْدِيِّ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حَدَّ السَّاحِرُ ضَرْبَهُ بِالسَّيْفِ». ثُمَّ قَالَ: لَا نَعْرِفُهُ مَرْفُوعاً إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ مُسْلِمٍ يُضَعِّفُ فِي الْحَدِيثِ، وَالصَّحِيحُ: عَنْ الْحَسَنِ عَنْ جُنْدُبٍ مَوْقُوفاً. قُلْتُ: قَدْ رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ جُنْدُبٍ، مَرْفُوعاً. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَدْ رَوَى مِنْ طَرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ عَقْبَةَ كَانَ عِنْدَهُ سَاحِرٌ يَلْعَبُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَكَانَ يَضْرِبُ رَأْسَ الرَّجُلِ ثُمَّ يَصِيحُ بِهِ فَيَرِدُ إِلَيْهِ رَأْسُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: سَبْحَانَ اللَّهِ! يَحْيِي الْمَوْتَى! وَرَأَى رَجُلٌ مِنْ صَالِحِي الْمُهَاجِرِينَ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدَ جَاءَ مُشْتَمِلاً عَلَى سَيْفِهِ، وَذَهَبَ يَلْعَبُ لَعِبَهُ ذَلِكَ، فَاخْتَرَطَ الرَّجُلُ سَيْفَهُ فَضَرَبَ عُنُقَ السَّاحِرِ، وَقَالَ: إِنْ كَانَ صَادِقاً فَلْيَحْيِي نَفْسَهُ. وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أَفَتَأْتُونَكَ بِالْحَيَاةِ وَأَنْتَ تَبْصُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣] فَغَضِبَ الْوَلِيدُ إِذْ لَمْ يَسْتَأْذِنْهُ فِي ذَلِكَ فَسَجَنَهُ ثُمَّ أَطْلَقَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْخَلَالُ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنُ حَنْبَلٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنِي أَبُو إِسْحَاقَ، عَنْ حَارِثَةَ قَالَ: كَانَ عِنْدَ بَعْضِ الْأُمَرَاءِ رَجُلٌ يَلْعَبُ فَجَاءَ جُنْدُبٌ مُشْتَمِلاً عَلَى سَيْفِهِ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ: أَرَاهُ كَانَ سَاحِراً، وَحَمَلُ الشَّافِعِيِّ، رَحِمَهُ اللَّهُ، قِصَّةَ عَمْرِ، وَحِفْصَةَ عَلَى سِخْرِ يَكُونُ شُرَكَاءَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فصل

حكى أبو عبد الله الرازي في تفسيره عن المعتزلة أنهم أنكروا وجود السحر، قال: وربما كفروا من اعتقد وجوده. قال: وأما أهل السنة فقد جَوَّزُوا أَنْ يَقْدَرَ السَّاحِرُ أَنْ يَغْطِرَ فِي الْهَوَاءِ، وَيَقْلِبَ الْإِنْسَانَ حِمَاراً، وَالْحِمَارُ إِنْسَانٌ، إِلَّا أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنْ اللَّهُ يَخْلُقُ الْأَشْيَاءَ عِنْدَمَا يَقُولُ السَّاحِرُ تِلْكَ الرَّقِيَّ وَتِلْكَ الْكَلِمَاتِ الْمُعَيَّنَةِ، فَمَا أَنْ يَكُونَ الْمُؤْثِرُ فِي ذَلِكَ هُوَ الْفَلَكَ وَالنُّجُومُ فَلَا، خِلَافاً لِلْفَلَسَفَةِ وَالْمُنْجِمِينَ وَالصَّابِئَةِ، ثُمَّ اسْتَدَلَّ عَلَى وَقُوعِ السَّحْرِ وَأَنَّهُ يَخْلُقُ اللَّهُ تَعَالَى، بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُمْ بِمُتَكَاذِبِينَ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وَمِنْ الْأَخْبَارِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُحِرَ، وَأَنَّ السَّحْرَ عَمَلٌ فِيهِ، وَبِقِصَّةِ تِلْكَ الْمَرْأَةِ مَعَ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَمَا ذَكَرَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ مِنْ إِيْتَانِهَا بِبَابِلَ وَتَعَلُّمِهَا السَّحْرَ، قَالَ: وَيَمَا يَذْكُرُ فِي هَذَا الْبَابِ مِنَ الْحِكَايَاتِ الْكَثِيرَةِ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ هَذَا: الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ فِي أَنَّ الْعِلْمَ بِالسَّحْرِ لَيْسَ بِقَبِيحٍ وَلَا مُحْظُورٍ: اتَّفَقَ الْمُحَقِّقُونَ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ لِدَاثَةِ شَرِيفٍ، وَأَيْضاً لِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمْلِكُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]؛ وَلِأَنَّ السَّحْرَ لَوْ لَمْ يَعْلَمْ لِمَا أَمَكَّنَ الْفَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَعْجِزَةِ، وَالْعِلْمُ بِكَوْنِ الْمَعْجِزِ مُعْجِزاً وَاجِبٌ، وَمَا يَتَوَقَّفُ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ فَهُوَ وَاجِبٌ؛ فَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ تَحْصِيلُ الْعِلْمِ بِالسَّحْرِ وَاجِباً، وَمَا يَكُونُ وَاجِباً فَكَيْفَ يَكُونُ حَرَاماً وَقَبِيحاً؟!

هذا لفظه بحروفه في هذه المسألة، وهذا الكلام فيه نظر من وجوه، أحدها: قَوْلُهُ: «العلم بالسحر ليس بقبيح». إِنْ عَنِيَ بِهِ لَيْسَ بِقَبِيحٍ عَقْلاً، فَمُخَالَفَةُ الْمُعْتَزِلَةِ يَمْنَعُونَ هَذَا، وَإِنْ عَنِيَ أَنَّهُ لَيْسَ بِقَبِيحٍ شَرْعاً، فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ تَشْيِيعٌ لَتَعْلَمُ السَّحْرَ، وَفِي الصَّحِيحِ: «مَنْ أَتَى عَرُافاً أَوْ كَاهِناً، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ». وَفِي السَّنَنِ: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً وَنَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ». وَقَوْلُهُ: «وَلَا مُحْظُورٌ اتَّفَقَ الْمُحَقِّقُونَ عَلَى ذَلِكَ». كَيْفَ لَا يَكُونُ مُحْظُوراً مَعَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْآيَةِ وَالْحَدِيثِ؟! وَاتَّفَاقُ الْمُحَقِّقِينَ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ قَدْ نَصَّ عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أئِمَّةُ الْعُلَمَاءِ أَوْ أَكْثَرُهُمْ، وَأَبْنِ نَصُوصِهِمْ عَلَى ذَلِكَ؛ ثُمَّ إِدْخَالُهُ عِلْمَ السَّحْرِ فِي عُمُومِ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمْلِكُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ إِنَّمَا دَلَّتْ عَلَى مَدْحِ الْعَالَمِينَ بِالْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ، وَلَمْ تَقُلْ: إِنْ هَذَا مِنْهُ؟ ثُمَّ تَرْقِيهِ إِلَى وَجُوبِ تَعْلَمُهُ بِأَنَّهُ لَا يَحْصُلُ الْعِلْمُ بِالْمَعْجِزِ إِلَّا بِهِ، ضَعِيفٌ بَلْ فَاسِدٌ؛ لِأَنَّ مُعْظَمَ مُعْجِزَاتِ رَسُولِنَا، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، هِيَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ. ثُمَّ إِنْ الْعِلْمُ بِأَنَّهُ مُعْجِزٌ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى عِلْمِ السَّحْرِ أَصْلاً، ثُمَّ مِنَ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ وَأئِمَّةَ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَتَهُمْ، كَانُوا يَعْلَمُونَ الْمَعْجِزَ، وَيَفْرُقُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ السَّحْرَ وَلَا تَعْلَمُوهُ وَلَا عِلْمُوهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ قَدْ ذَكَرَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الرَّازِي أَنَّ أَنْوَاعَ السَّحْرِ ثَمَانِيَةٌ:

الأول: سحر الكلدانيين والكُشْدَانِيِّينَ، الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْكُوكَبَ السَّبْعَةَ الْمُتَحِيرَةَ، وَهِيَ السَّيَارَةُ، وَكَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا مُدَبَّرَةُ الْعَالَمِ، وَأَنَّهَا تَأْتِي بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَهُمْ الَّذِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ ﷺ، مُبْطِلاً لِمَقَالَتِهِمْ وَرَاداً لِمَذْهَبِهِمْ، وَقَدْ اسْتَقْصَى فِي «كِتَابِ السَّرِّ الْمَكْتُومِ»، فِي مَخَاطَبَةِ الشَّمْسِ وَالنُّجُومِ، الْمُنْسُوبِ إِلَيْهِ فِيمَا ذَكَرَهُ الْقَاضِي ابْنُ خُلِكَانٍ وَغَيْرِهِ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ تَابَ مِنْهُ. وَقِيلَ: إِنَّهُ صَنَفَهُ عَلَى وَجْهِ إِظْهَارِ الْفَضِيلَةِ لَا عَلَى سَبِيلِ الْإِعْتِقَادِ. وَهَذَا هُوَ الْمَظْنُونُ بِهِ، إِلَّا أَنَّهُ ذَكَرَ فِيهِ طَرَائِقَهُمْ فِي مَخَاطَبَةِ كُلِّ مِنْ هَذِهِ الْكُوكَبِ السَّبْعَةِ، وَكَيْفِيَّةَ مَا يَفْعَلُونَ وَمَا يَلْبَسُونَهُ، وَمَا يَتَسَكَّنُونَ بِهِ.

قال: والنوع الثاني: سحر أصحاب الأرواح والنفس القوية، ثم استدلل على أن الوهم له تأثير، بأن الإنسان يمكنه أن يمشي

على الجسر الموضوع على وجه الأرض، ولا يمكنه المشي عليه إذا كان ممدوداً على نهر أو نحوه. قال: وكما أجمعت الأطباء على نهى المَرُغُوف عن النظر إلى الأشياء الحُمْر، والمصروع إلى الأشياء القوية للمعان أو الدوران، وما ذاك إلا لأن النفوس خلقت مُطِيعَةً للأوهام. قال: وقد اتفق العقلاء على أن الإصابة بالعين حق.

وله أن يستدل على ذلك بما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ، قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين». قال: فإذا عرفت هذا، فنقول: النفس التي تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قوية جداً، فتستغني في هذه الأفاعيل عن الاستعانة بالآلات والأدوات، وقد تكون ضعيفة فتحتاج إلى الاستعانة بهذه الآلات. وتحقيقه أن النفس إذا كانت مستعيلة على البدن شديدة الانجذاب إلى عالم السماوات، صارت كأنها رُوح من الأرواح السماوية، فكانت قوية على التأثير في مواد هذا العالم. وإذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه الذات البدنية، فحينئذ لا يكون لها تصرف البتة إلا في هذا البدن. ثم أرشد إلى مداواة هذا الداء بتقليل الغذاء، والافتقار عن الناس والرياء.

قلت: وهذا الذي يشير إليه هو التصرف بالحال، وهو على قسمين: تارة يكون حالاً صحيحة شرعية يتصرف بها فيما أمر الله ورسوله ﷺ، ويترك ما نهى الله عنه ورسوله، وهذه الأحوال مواهب من الله تعالى وكرامات للمصالحين من هذه الأمة، ولا يسمى هذا سحراً في الشرع. وتارة تكون الحال فاسدة لا يمثل صاحبها ما أمر الله ورسوله ﷺ ولا يتصرف بها في ذلك. فهذه حال الأشقياء المخالفين للشرعية، ولا يدل إعطاء الله إياهم هذه الأحوال على محبته لهم، كما أن الدجال - لعنه الله - له من الخوارق للعادات ما دلّت عليه الأحاديث الكثيرة، مع أنه مذموم شرعاً لعنه الله. وكذلك من شابهه من مخالفين الشريعة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام. وبسط هذا يطول جداً، وليس هذا موضعه.

قال: النوع الثالث من السحر: الاستعانة بالأرواح الأرضية، وهم الجن، خلافاً للفلاسفة والمعتزلة: وهم على قسمين: مؤمنون، وكفار، وهم الشياطين. قال: واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية، لما بينهما من المناسبة والقرب، ثم إن أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقي والدخل والتجريد. وهذا النوع هو المسمى بالعزائم وعمل التسخير.

النوع الرابع من السحر: التخيلات، والأخذ بالعيون والشعبذة، ومعناه على أن البصر قد يخطئ ويستغل بالشئ المعين دون غيره، ألا ترى أن المشعبد الحاذق يظهر عمل شيء يذهل أذهان الناظرين به، ويأخذ عيونهم إليه، حتى إذا استفرغهم الشغل بذلك الشئ بالتحديق ونحوه، عمل شيئاً آخر عملاً بسرعة شديدة، وحينئذ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه. فيتعجبون منه جداً، ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمل، ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجهم، لفطن الناظرون لكل ما يفعله. قال: وكلما كانت الأحوال التي تقيد حسن البصر نوعاً من أنواع الخلل أشد، كان العمل أحسن، مثل أن يجلس المشعبد في موضع مضيء جداً، أو مظلم، فلا تقف القوة الناطقة على أحوالها بكلالها، والحالة هذه. قلت: وقد قال بعض المفسرين: إن سحر السحرة بين يدي فرعون إنما كان من باب الشعبذة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿يُخِيلُ إِلَهُهُم بِسِحْرِهِمْ أَتَى تَنَقُّ﴾ [طه: ٦٦] قالوا: ولم تكن تسعى في نفس الأمر. والله أعلم.

النوع الخامس من السحر: الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب الآلات المركبة من النسب الهندسية، كفارس على فرس في يده بوق، كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق، من غير أن يمسه أحد. ومنها الصور التي تُصَوِّرُهَا الرُّومُ والهند، حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان، حتى يصورونها ضاحكة وباكية. إلى أن قال: فهذه الوجوه من لطيف أمور المخايل. قال: وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل. قلت: يعني ما قاله بعض المفسرين: إنهم عمدوا إلى تلك الحبال والعصي، فحشوها زنبقاً فصارت تتلوى بسبب ما فيها من ذلك الزنبق، فيخيل إلى الراي أنها تسعى باختيارها. قال الرازي: ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات، ويندرج في هذا الباب علم جَرِّ الأثقال بالآلات الخفيفة. قال: وهذا في الحقيقة لا ينبغي أن يعد من باب السحر، لأن لها أسباباً معلومة يقينية، من اطلع عليه قدر عليها.

قلت: ومن هذا القبيل حيل النصارى على عامتهم، بما يُرَوِّعُهُمْ إياه من الأنوار، كقضية قُمامة الكنيسة التي لهم ببلد المقدس، وما يحتالون به من إدخال النار خفية إلى الكنيسة، وإشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروج على العوام منهم، وأما الخواص فهم يعترفون بذلك، ولكن يتأولون أنهم يجمعون شمل أصحابهم على دينهم، فيرون ذلك سائغاً لهم. وفيه شبه للجهلة الأغبياء من متعبدي الكَرَامِيَّة، الذين يرون جواز وضع الأحاديث في الترغيب والترهيب فيدخلون في عداد من قال رسول الله ﷺ فيهم:

«من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار». وقوله: «حدثوا عني ولا تكذبوا علي فإنه من يكذب علي يلج النار».

ثم ذكر ههنا حكاية عن بعض الرهبان، وهو أنه سمع صوت طائر حزين الصوت ضعيف الحركة، فإذا سمعته الطيور ترق له فتذهب فتلقي في وكّره من ثمر الزيتون، ليتبلغ به، فعند هذا الراهب إلى صنعة طائر على شكله، وتوصل إلى أن جعله أجوف، فإذا دخلته الريح يسمع له صوت كصوت ذلك الطائر، وانقطع في صومعة ابتناها، وزعم أنها على قبر بعض صالحهم، وعلق ذلك الطائر في مكان منها، فإذا كان زمان الزيتون فتح باباً من ناحية، فتدخل الريح إلى داخل هذه الصورة، فيسمع صوتها كذلك الطائر في شكله أيضاً، فتأتي الطيور فتحمل من الزيتون شيئاً كثيراً فلا ترى النصارى إلا ذلك الزيتون في هذه الصومعة، ولا يدرون ما سببه؟ ففتنهم بذلك، وأوهم أن هذا من كرامات صاحب هذا القبر، عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة.

قال الرازي: النوع السادس من السحر: الاستعانة بخواص الأدوية يعني في الأطعمة والدهانات. قال: واعلم أنه لا سبيل إلى إنكار الخواص، فإن أثر المغناطيس مشاهد. قلت: يدخل في هذا القبيل كثير ممن يدعي الفقر ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص، مدعياً أنها أحوال له، من مخالطة النيران ومسك الحيات إلى غير ذلك من المحالات.

قال: النوع السابع من السحر: تعليق القلب، وهو أن يدعي الساحر أنه عرف الاسم الأعظم، وأن الجن يطيعونه ويتقادون له في أكثر الأمور، فإذا اتفق أن يكون السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز اعتقد أنه حق، وتعلق قلبه بذلك وحصل في نفسه نوع من الرهب والمخافة، فإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة، فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء. قلت: هذا النمط يقال له التنبلة، وإنما يروج على الضعفاء العقول من بني آدم. وفي علم الفراسة ما يرشد إلى معرفة كامل العقل من ناقصه، فإذا كان المتنبّل حاذقاً في علم الفراسة عرف من ينقاد له من الناس من غيره.

قال: النوع الثامن من السحر: السعي بالنميمة والتضريب من وجوه خفيفة لطيفة، وذلك شائع في الناس. قلت: النميمة على قسمين، تارة تكون على وجه التحريش بين الناس وتفريق قلوب المؤمنين، فهذا حرام متفق عليه. فأما إذا كانت على وجه الإصلاح بين الناس واتلاف كلمة المسلمين، كما جاء في الحديث: «ليس بالكذب من ينم خيراً، أو يكون على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة»، فهذا أمر مطلوب، كما جاء في الحديث: «الحرب خدعة». وكما فعل نعيم بن مسعود في تفريقه بين كلمة الأحزاب وبين قريظة، وجاء إلى هؤلاء فنمى إليهم عن هؤلاء كلاماً، ونقل من هؤلاء إلى أولئك شيئاً آخر، ثم لأم بين ذلك، فتناكرت النفوس واقتربت. وإنما يحذو على مثل هذا الذكاء والبصيرة النافذة. والله المستعان. ثم قال الرازي: فهذه جملة الكلام في أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه. قلت: وإنما أدخل كثيراً من هذه الأنواع المذكورة في فنّ السحر، للطائفة مداركها؛ لأن السحر في اللغة: عبارة عما لطف وخفي سببه. ولهذا جاء في الحديث: «إن من البيان لسحراً». وسمي السحور لكونه يقع خفياً آخر الليل. والسحر: الرثة، وهي محل الغذاء، وسميت بذلك لخفائها ولطف مجاريها إلى أجزاء البدن وغضونه، كما قال أبو جهل يوم بدر لعتبة: انتفخ سحر ك. أي: انتفخت رثته من الخوف. وقالت عائشة، رضي الله عنها: توفي رسول الله ﷺ بين سحري وسحري. وقال: ﴿سَحَرُوا عِثْرَ النَّبِيِّ﴾ [الاعراف: ١١٦]، أي أخفوا عنهم عملهم، والله أعلم.

فصل

وقد ذكر الوزير أبو المظفر يحيى بن هبيرة بن محمد بن هبيرة في كتابه: «الإشراف على مذاهب الأشراف» باباً في السحر، فقال: أجمعوا على أن السحر له حقيقة إلا أبا حنيفة، فإنه قال: لا حقيقة له عنده. واختلفوا فيما يعلم السحر ويستعمله، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد: يكفر بذلك. ومن أصحاب أبي حنيفة من قال: إن تعلمه ليتقيه أو ليتجنبه فلا يكفر، ومن تعلمه معتقداً جوازه أو أنه يضعه ككفر. وكذا من اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر. وقال الشافعي، رحمه الله: إذا تعلم السحر قلنا له: صف لنا سحر ك. فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل ما يلتمس منها، فهو كافر. وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر. قال ابن هبيرة: وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله؟ فقال مالك وأحمد: نعم. وقال الشافعي وأبو حنيفة: لا. فأما إن قتل بسحره إنساناً فإنه يقتل عند مالك والشافعي وأحمد. وقال أبو حنيفة: لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك، أو يقر بذلك في حق شخص معين. وإذا قتل فإنه يقتل حداً عندهم إلا الشافعي، فإنه قال: يقتل - والحالة هذه - قصاصاً. قال: وهل إذا تاب الساحر تُقبل توبته؟ فقال مالك، وأبو حنيفة وأحمد في المشهور عنهما: لا تقبل. وقال الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى: تقبل. وأما ساحر أهل الكتاب فعند أبي حنيفة أنه يقتل، كما يقتل

الساحر المسلم. وقال مالك والشافعي وأحمد: لا يقتل. يعني لقصة لبيد بن أعصم. واختلفوا في المسلمة الساحرة، فعند أبي حنيفة: لا تقتل، ولكن تحبس. وقال الثلاثة: حكمها حكم الرجل، والله أعلم. وقال أبو بكر الخلال: أخبرنا أبو بكر المروزي، قال: قرأ على أبي عبد الله - يعني أحمد بن حنبل - عمرو بن هارون، حدثنا يونس، عن الزهري، قال: يقتل ساحر المسلمين ولا يقتل ساحر المشركين؛ لأن رسول الله ﷺ سحرته امرأة من اليهود فلم يقتلها. وقد نقل القرطبي عن مالك، رحمه الله، أنه قال في الذمي إذا سحر يقتل إن قتل سحره، وحكى ابن خويز مندد عن مالك روايتين في الذمي إذا سحر: إحداهما: أنه يستتاب فإن أسلم وإلا قتل، والثانية: أنه يقتل وإن أسلم، وأما الساحر المسلم فإن تضمن سحره كفر كفر عند الأئمة الأربعة وغيرهم لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَمْرٍ حَقٍّ يَقُولَانِ إِلَّا كُفْرًا وَتَكْذُوبًا﴾. لكن قال مالك: إذا ظهر عليه لم تقبل توبته لأنه كالزنديق، فإن تاب قبل أن يظهر عليه وجاءنا تائباً قبلناه ولم نقتله، فإن قتل سحره قتل. قال الشافعي: فإن قال: لم اتعمد القتل فهو مخطيء تجب عليه الدية.

مسألة: وهل يسأل الساحر حل سحره؟ فأجازه سعيد بن المسيب فيما نقله عنه البخاري، وقال عامر الشعبي: لا بأس بالنشرة، وكره ذلك الحسن البصري، وفي الصحيح عن عائشة: أنها قالت: يا رسول الله، هلا تنشرت، فقال: «أما الله فقد شفاني، وخشيت أن أفتح على الناس شراً». وحكى القرطبي عن وهب: أنه قال: يؤخذ سبع ورفات من سدر فتدق بين حجرين ثم تضرب بالماء ويقرأ عليها آية الكرسي ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات ثم يغتسل بياقيه فإنه يذهب ما به، وهو جيد للرجل الذي يؤخذ عن امرأته. قلت: أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله ﷺ في إذهاب ذلك وهما المعوذتان، وفي الحديث: «لم يتعوذ المتعوذون بمثلهما»، وكذلك قراءة آية الكرسي فإنها مطردة للشيطان. وقال أبو عبد الله القرطبي: وعندنا أن السحر حق، وله حقيقة يخلق الله عنده ما يشاء خلافاً للمعتزلة وأبي إسحاق الإسفراييني من الشافعية حيث قالوا: إنه تمويه وتخيل. قال: ومن السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة والشعوذي البريد؛ لخفة سيره. قال ابن فارس: هذه الكلمة من كلام أهل البادية. قال القرطبي: ومنه ما يكون كلاماً يحفظ ورقى من أسماء الله تعالى، وقد يكون من عهد الشياطين ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك. قال: وقوله، عليه السلام: «إن من البيان لسحراً» يحتمل أن يكون مدحاً كما نقوله طائفة، ويحتمل أن يكون ذماً للبلابة. قال: وهذا الأصح. قال: لأنها تصوب الباطل حين يوهم السامع أنه حق كما قال: «فعل بعضكم أن يكون ألحن لحجته من بعض» فافترض له الحديث.

﴿يَأْتِيهَا الذِّبْرُ ۖ مَأْمُورًا لَا تَقُولُوا رَعَيْتَا ۖ وَقُولُوا انظُرْنَا ۚ وَأَسْمِعُوا لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ إِلَهٍ ۝١٠٤﴾ مَا يَوْمُ الذِّبْرِ كَقَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكَتَنِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ ۚ أَنْ يُزِيلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرِ مَنِ رَزَقَكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَخْتَصِرُ رَحْمَتَهُ ۚ مَنْ يَكْفُرْ ۖ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝١٠٥﴾
نهى الله تعالى المؤمنين أن يشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يُعَانُونَ من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص - عليهم لعائن الله - فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا. يقولون: راعنا. يورون بالرعونة، كما قال تعالى: ﴿مِنْ الذِّبْرِ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ۚ وَنُفِّلُونَ سَمِعًا وَعَصِيًّا وَاتَّعَمَّ عَمْرٌ مُسَمِّعٌ وَرَعِيًّا لِيَا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الذِّبْرِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَأَنْظُرْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَمْنَهُمْ اللَّهُ يَكْفُرُهُمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٠٤﴾ [النساء: ٤٦] وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم، بأنهم كانوا إذا سَلِمُوا إنما يقولون: السام عليكم. والسام هو: الموت. ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ «وعليكم». وإنه يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا. والغرض: أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً، فقال: ﴿يَأْتِيهَا الذِّبْرُ ۖ مَأْمُورًا لَا تَقُولُوا رَعَيْتَا ۖ وَقُولُوا انظُرْنَا ۚ وَأَسْمِعُوا لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ إِلَهٍ ۝١٠٤﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت، حدثنا حسان بن عطية، عن أبي ميثب الجُرَشِيِّ، عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بين يدي الساعة بالسيف، حتى يُعبد الله وحده لا شريك له. وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعلت الذلة والضغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم». وروى أبو داود، عن عثمان بن أبي شيبة، عن أبي النضر هاشم بن القاسم، به: «من تشبه بقوم فهو منهم». ففيه دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد، على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم، ولباسهم وأعيادهم، وعبادتهم وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولم تُقرر عليها. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا يسعر، عن مغن وعون - أو أحدهما - أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود، فقال: اعهد إلي. فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَأْتِيهَا الذِّبْرُ ۖ مَأْمُورًا﴾ فأرעהما سَمْعُكَ، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه. وقال الأعمش، عن خيثمة، قال: ما تقرأون في القرآن: ﴿يَأْتِيهَا الذِّبْرُ ۖ مَأْمُورًا﴾ فإنه في التوراة: «يأتيها المساكين». وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جبيرة أو عكرمة، عن ابن عباس: ﴿رَعَيْتَا﴾

أي: أرعنا سمعك. وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا﴾ قال: كانوا يقولون للنبي ﷺ: أرعنا سمعك. وإنما ﴿رَعَيْنَا﴾ كقولك: عاطنا. وقال ابن أبي حاتم: وروى أبي العالية، وأبي مالك، والربيع بن أنس، وعطية العوفي، وقتادة، نحو ذلك.

وقال مجاهد: ﴿لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا﴾؛ لا تقولوا خلافاً. وفي رواية: اسمع منا ونسمع منك. وقال عطاء: ﴿لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا﴾: كانت لغة يقولها الأنصار فهمي الله عنها. وقال الحسن: ﴿لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا﴾، قال: الراعي من القول السخري منه. نهاهم الله أن يسخروا من قول محمد ﷺ، وما يدعوهم إليه من الإسلام. وكذا روي عن ابن جريج أنه قال مثله. وقال أبو صخر: ﴿لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَقُولُوا أَنْظَرْنَا وَأَسْمَعُوا﴾ قال: كان رسول الله ﷺ، إذا أدبر ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين، فيقول: أرعنا سمعك. فأعظم الله رسوله ﷺ أن يقال ذلك له. وقال السدي: كان رجل من اليهود من بني قينقاع، يدعى رفاعة بن زيد، يأتي النبي ﷺ، فإذا لقيه فكلمه قال: أرعني سمعك واسمع غير مُسمع. وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تُفخم بهذا، فكان ناس منهم يقولون: اسمع غير مسمع: غَيْرُ صاغر. وهي كالتي في سورة النساء. فتقدم الله إلى المؤمنين أن لا يقولوا: راعنا. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، بنحو من هذا. قال ابن جرير: والصواب من القول في ذلك عندنا: أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا للنبي ﷺ: راعنا؛ لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولوها للنبي ﷺ، نظير الذي ذكر عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقولوا للعب الكرم، ولكن قولوا: الحَبَلَة. ولا تقولوا: عبيدي، ولكن قولوا: فتاي». وما أشبه ذلك. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَا تَشْكُرُوا أَنْ يُبَدِّلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ خَيْرٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ﴾ بين تعالى بذلك شدة عداوة الكافرين من الكتاب والمشركون، الذين حذر تعالى من مشابهتهم للمؤمنين؛ ليقطع المودة بينهم وبينهم. وبينه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل، الذي شرعه لنبيهم محمد ﷺ، حيث يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا فَأَنبِئْ بِهَا آيَةً ۚ وَمَثَلُ الْآيَةِ الَّتِي نَسَخَ عَنْهَا آيَةٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ آتَمَ تَقَلَّمَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ السَّكَوتُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَمَا لَكُمْ مِنْ ذَمِّ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٦﴾.

قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾: ما نبذل من آية. وقال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾ أي: ما نُسَخَ من آية. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾: قال: ثبت خطؤها وبطل حكمها. حدث به عن أصحاب عبد الله بن مسعود. قال ابن أبي حاتم: وروى عن أبي العالية، ومحمد بن كعب القرظي، نحو ذلك. وقال الضحاك: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾: ما نُشِيك. وقال عطاء: أما ﴿مَا نَسَخَ﴾ فما نترك من القرآن. قال ابن أبي حاتم: يعني: ترك فلم ينزل على محمد ﷺ. وقال السدي: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾: نسخها: قبضها. قال ابن أبي حاتم: يعني: قبضها: رفعها، مثل قوله: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة. وقوله: «لو كان لابن آدم واديان من مال لا تبغى لهما ثالثاً». وقال ابن جرير: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾: ما ننقل من حكم آية إلى غيره فنبدله ونغيره، وذلك أن يُحوَّلَ الحلال حراماً، والحرام حلالاً، والمباح محظوراً، والمحظور مباحاً. ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة. فاما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ. وأصل النسخ من نسخ الكتاب، وهو نقله من نسخة إلى أخرى غيرها، فذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره، إنما هو تحويله ونقل عبادته إلى غيرها. وسواء نسخ حكمها أو خطها، وهي في كلتا حالتها منسوخة. وأما علماء الأصول فاختلقت عباراتهم في حد النسخ، والأمر في ذلك قريب؛ لأن معنى النسخ الشرعي معلوم عند العلماء ولخص بعضهم أنه رفع الحكم بدليل شرعي متأخر. فاندرج في ذلك نسخ الأخف بالأثقل، وعكسه، والنسخ لا إلى بدل. وأما تفاصيل أحكام النسخ وذكر أنواعه وشروطه فمبسوط في فن أصول الفقه.

وقال الطبراني: حدثنا أبو شبيب عبيد الله بن عبد الرحمن بن واقد، حدثنا أبي، حدثنا العباس بن الفضل، عن سليمان بن أرقم، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه، قال: قرأ رجلان سورة أقرأهما رسول الله ﷺ فكانا يقرآن بها، فقاما ذات ليلة يصليان، فلم يقدرا منها على حرف، فأصبحا غادين على رسول الله ﷺ فذكرا ذلك له، فقال رسول الله ﷺ: «إنها مما نسخ وأنسي، فאלهوا عنها». فكان الزهري يقرؤها: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ بضم النون خفيفة. سليمان بن أرقم ضعيف. وقد روى أبو بكر بن الأنباري، عن أبيه، عن نصر بن داود، عن أبي عبيد، عن عبد الله بن صالح، عن الليث، عن يونس وعبيد وعقيل، عن ابن شهاب، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف مثله مرفوعاً، ذكره القرطبي. قوله تعالى: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾: فقرأ على وجهين: «ننساها ونُنسها».

فأما من قرأها: «تَنَسَّاهَا» - بفتح النون والهمزة بعد السين - فمعناه: نَوَّخَرَهَا. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «مَا تَنَسَّخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ تَنَسَّاهَا» يقول: ما نبدل من آية، أو نتركها لا نبدلها. وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود: «أَوْ تَنَسَّاهَا»: نَسَبْتُ خَطَايَا وَنَبَذْتُ حُكْمَهَا. وقال عُثَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ، ومجاهد، وعطاء: «أَوْ تَنَسَّاهَا»: نَوَّخَرَهَا وَنَرَجَّحَهَا. وقال عطية العوفي: «أَوْ تَنَسَّاهَا»: نَوَّخَرَهَا فَلَا نَنْسَخُهَا. وقال السدي مثله أيضاً، وكذا قال الربيع بن أنس. وقال الضحاك: «مَا تَنَسَّخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ تَنَسَّاهَا» يعني: التناسخ من المنسوخ. وقال أبو العالية: «مَا تَنَسَّخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ تَنَسَّاهَا» أي: نَوَّخَرَهَا عِنْدَنَا. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عبيد الله بن إسماعيل البغدادي، حدثنا خلف، حدثنا الخفاف، عن إسماعيل - يعني ابن مسلم - عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: خطبنا عمر، رضي الله عنه، فقال: يقول الله ﷻ: «مَا تَنَسَّخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ تَنَسَّاهَا» أي: نَوَّخَرَهَا.

وأما على قراءة: «أَوْ تَنَسَّاهَا» فقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة في قوله: «مَا تَنَسَّخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ تَنَسَّاهَا» قال: وكان الله تعالى ينسخ نبيه ما يشاء، وينسخ ما يشاء. وقال ابن جرير: حدثنا سواد بن عبد الله، حدثنا خالد بن الحارث، حدثنا عوف، عن الحسن أنه قال في قوله: «أَوْ تَنَسَّاهَا» قال: إن نبيكم ﷺ أقرء قرآنًا ثم نسيه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نفيل، حدثنا محمد بن الزبير الحراني، عن الحجاج - يعني الجزري - عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان مما ينزل على النبي ﷺ الوحي بالليل وينساه بالنهار، فأنزل الله ﷻ: «مَا تَنَسَّخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ تَنَسَّاهَا نَأَتْ بِحَرْفٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا». قال أبو حاتم: قال لي أبو جعفر بن نفيل: ليس هو الحجاج بن أوطاة، هو شيخ لنا جزري. وقال عبيد بن عمير: «أَوْ تَنَسَّاهَا» نرفعها من عندهم. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْمٌ، عن يعلى بن عطاء، عن القاسم بن ربيعة قال: سمعت سعد بن أبي وقاص يقرأ: «مَا تَنَسَّخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ تَنَسَّاهَا» قال: قلت له: فإن سعيد بن المسيب يقرأ: «أَوْ تَنَسَّاهَا». قال: فقال سعد: إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب، قال الله، جل ثناؤه: «سَتَقْرَأُكَ فَلَا تَنْسَى» [١٦] «وَأَذْكُرُكَ إِنَّكَ إِذَا نَسِيتَ» [الكهف: ٢٤]. وكذا رواه عبد الرزاق، عن هشيم. وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث أبي حاتم الرازي، عن آدم، عن شعبة، عن يعلى بن عطاء، به. وقال: على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. قال ابن أبي حاتم: وروى عن محمد بن كعب، وقاتدة، وعكرمة، نحو قول سعيد. وقال الإمام أحمد: أخبرنا يحيى، حدثنا سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال عمر: عليّ أقضانا، وأبي أقرؤنا، وإنا لنندع بعض ما يقول أبي، وأبي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول، فلن أدعه لشيء. والله يقول: «مَا تَنَسَّخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ تَنَسَّاهَا نَأَتْ بِحَرْفٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا». وقال البخاري: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا يحيى، حدثنا سفيان، عن حبيب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال عمر: أقرؤنا أبي، وأقضانا علي، وإنا لنندع من قول أبي، وذلك أن أبا يقول: لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ. وقد قال الله: «مَا تَنَسَّخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ تَنَسَّاهَا».

وقوله: «نَأَتْ بِحَرْفٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا» أي: في الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «نَأَتْ بِحَرْفٍ مِّنْهَا» يقول: خير لكم في المنفعة، وأرفق بكم. وقال أبو العالية: «مَا تَنَسَّخَ مِنْ آيَةٍ» فلا نعمل بها، «أَوْ تَنَسَّاهَا» أي: نرجحها عندنا، نأت بها أو نظيرها. وقال السدي: «نَأَتْ بِحَرْفٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا» يقول: نأت بخير من الذي نسخناه، أو مثل الذي تركناه. وقال قتادة: «نَأَتْ بِحَرْفٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا» يقول: آية فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهي. وقوله: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [١٦] أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ لَكَ التَّكْوِينُ وَالْأَرْضُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ [١٧]: يرشد تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر وهو المتصرف، فكما يخلقهم كما يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي من يشاء، ويصح من يشاء، ويمرض من يشاء، ويوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ويبيح ما يشاء، ويحظر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه. ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون. ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى، ثم ينهي عنه لما يعلمه تعالى. فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أخبروا. وامتنال ما أمروا. وترك ما عنه زجروا. وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ، لكفر اليهود وتزييف شبهتهم - لعنهم الله - في دعوى استحالة النسخ إما عقلاً، كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً، وإما نقلاً كما تخرصه آخرون منهم افتراءً وإفكاً.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: فتأويل الآية: أَلَمْ تَعْلَمْ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ لِي مَلِكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسُلْطَانَهُمَا دُونَ غَيْرِي، أَحْكَمُ فِيهِمَا وَفِيمَا فِيهِمَا بِمَا أَشَاءُ، وَأَمْرُ فِيهِمَا وَفِيمَا فِيهِمَا بِمَا أَشَاءُ، وَأَنْهَى عَمَّا أَشَاءُ، وَأَنْسَخَ وَأَبْدَلُ وَأَغَيَّرُ مِنْ أَحْكَامِي

التي أحكم بها في عبادي ما أشاء إذا أشاء، وأقر فيها ما أشاء. ثم قال: وهذا الخبر وإن كان من الله تعالى خطاباً لنبيه ﷺ على وجه الخبر عن عظمته، فإنه منه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد، عليهما الصلاة والسلام، لمجيئهما بما جاء به من عند الله بتغيير ما غير الله من حكم التوراة. فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما، وأن الخلق أهل مملكته وطاعته وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما يشاء، ونهيهم عما يشاء، ونسخ ما يشاء، وإقرار ما يشاء، وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه.

وأمر إبراهيم، عليه السلام، بذبح ولده ثم نسخه قبل الفعل، وأمر جمهور بني إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم، ثم رفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم القتل. قلت: الذي يحمل اليهود على البحث في مسألة النسخ، إنما هو الكفر والعناد، فإنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله تعالى؛ لأنه يحكم ما يشاء كما يفعل ما يريد، مع أنه قد وقع ذلك في كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه، ثم حرم ذلك، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نسخ جل بعضها، وكان نكاح الأخنتين مباحاً لإسرائيل وبنيه، وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها. وأشياء كثيرة يطول ذكرها، وهم يعترفون بذلك ويصدقون عنه. وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية، فلا تصرف الدلالة في المعنى، إذ هو المقصود، كما في كتبهم مشهوراً من البشارة بمحمد ﷺ والأمر باتباعه، فإنه يفيد وجوب متابعتة، عليه السلام، وأنه لا يقبل عمل إلا على شريعته. وسواء قيل إن الشرائع المتقدمة مغيية إلى بعثته، عليه السلام، فلا يسمى ذلك نسخاً كقوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا آلَ إِبْرَهِيمَ إِلَى آلِئِيلَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقيل: إنها مطلقة، وإن شريعة محمد ﷺ نسختها، فعلى كل تقدير فوجوب اتباعه معين لأنه جاء بكتاب هو آخر الكتب عهداً بالله تبارك وتعالى. ففي هذا المقام بين تعالى تقدير جواز النسخ، رداً على اليهود، عليهم لعائن الله، حيث قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٦٦] ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [١٧٧] الآية، فكما أن له الملك بلا منازع، فكذلك له الحكم بما يشاء، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَكْثَرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقرئ في سورة آل عمران، التي نزل في صدرها خطاباً مع أهل الكتاب، ووقع النسخ عند اليهود في قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالاً لَيْتَى إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ الآية [آل عمران: ٩٣] كما سيأتي تفسيرها، والمسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ في أحكام الله تعالى، لما له في ذلك من الحكم البالغة، وكلهم قال بوقوعه. وقال أبو مسلم الأصبغاني المفسر: لم يقع شيء من ذلك في القرآن، وقوله هذا ضعيف مردود مردود. وقد تعسف في الأجوبة عما وقع من النسخ، فمن ذلك قضية العدة بأربعة أشهر وعشر بعد الحول، لم يجب عن ذلك بكلام مقبول، وقضية تحويل القبلة إلى الكعبة، عن بيت المقدس لم يجب بشيء، ومن ذلك نسخ مصابرة المسلم عشرة من الكفرة إلى مصابرة الاثنين، ومن ذلك نسخ وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ وغير ذلك، والله أعلم.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۚ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْفِتْرَةَ الْيَمِينِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [١٧٨].

نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة، عن كثرة سؤال النبي ﷺ عن الأشياء قبل كونها، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبَيِّنَ لَكُمْ سَوْفَ يُؤْمِنُوا وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا لَيُؤْذَنَنَّ لَكُمْ أَن تَقْرَأُ الْفُرْقَانَ ثُمَّ يُدَلِّكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] أي: وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه؛ فلعلة أن يحرم من أجل تلك المسألة. ولهذا جاء في الصحيح: «أعظم المسلمين جُزْأً من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته». ولما سُئِلَ رسول الله ﷺ عن الرجل يجد مع امرأته رجلاً، فإن تكلم تكلم بأمر عظيم، وإن سكنت سكنت عن مثل ذلك؛ فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها. ثم أنزل الله تعالى حكم الملاعة. ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبه: أن رسول الله ﷺ كان ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال. وفي صحيح مسلم: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه». وهذا إنما قاله بعد ما أخبرهم أن الله كتب عليهم الحج. فقال رجل: «أكل عام يا رسول الله؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثاً». ثم قال، عليه السلام: «لا، ولو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم». ثم قال: «ذروني ما تركتكم» الحديث. وهكذا قال أنس بن مالك: «نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا أبو كريب، حدثنا إسحاق بن سليمان، عن أبي سنان، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب، قال: إن كان ليأتي علي السنة أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن شيء فأنهيب منه، وإن كنا لنتمنى الأعراب. وقال البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا ابن فضيل، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ؛ ما سأله إلا عن نهي

عشرة مسألة، كلها في القرآن: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، و ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْهَارِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، و ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ٢٢٠] يعني: هذا وأشباهه.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلُوا مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ أي: بل تريدون. أو هي على بابها في الاستفهام، وهو إنكار، وهو يعم المؤمنين والكافرين، فإنه، عليه السلام، رسول الله إلى الجميع، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرًا فَأَخَذَهُمُ الصَّاعِقَةُ يَطْلِيهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣]. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: قال رافع بن خزيمة - أو وهب بن زيد -: يا محمد، اتنا بكتاب ننزلُه علينا من السماء نفروه، وفجّر لنا أنهاراً تنبعك وتصدقك. فأنزل الله من قولهم: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلُوا مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَنَّ يَتَّبِعِدُ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ سَأَلُوا سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلُوا مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَنَّ يَتَّبِعِدُ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ سَأَلُوا سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، قال: قال رجل: يا رسول الله، لو كانت كفاراتنا كفارات بني إسرائيل! فقال النبي ﷺ: «اللهم لا تنبئها - ثلاثاً - ما أعطاكم الله خير مما أعطى بني إسرائيل، كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفارتها، فإن كفرها كانت له خزيًا في الدنيا، وإن لم يكفرها كانت له خزيًا في الآخرة. فما أعطاكم الله خير مما أعطى بني إسرائيل». قال: ﴿وَمَنْ يَسْأَلْ سَوَاءً أَوْ يَطْلُبْ يُدِ الْغَيْبِ اللَّهُ يَجِدُ اللَّهُ عَفْوَكَ رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقال: «الصلوات الخمس من الجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن». وقال: «من هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه، وإن عملها كتبت سيئة واحدة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة، وإن عملها كتبت له عشر أمثالها، ولا يهلك على الله إلا هالك». فأنزل الله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلُوا مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾. وقال مجاهد: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلُوا مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾: أن يريهم الله جهره، قال: سألت قريش محمداً ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً. قال: «نعم وهو لكم كالمائدة لبني إسرائيل إن كفرتم»، فأبوا ورجعوا. وعن السدي وقناة نحو هذا، والله أعلم. والمراد أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء، على وجه التعنت والافتراء، كما سألت بنو إسرائيل موسى، عليه السلام، تعنتاً وتكديباً وعناداً، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعِدُ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أي: ومن يشتري الكفر بالإيمان ﴿فَقَدْ سَأَلُوا سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم، إلى مخالفتهم وتكذيبهم والافتراء عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها، على وجه التعنت والكفر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَعَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [٧٨] جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنَصُّونَ الْقُرْآنَ [٧٩] [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]. وقال أبو العالية: يتبدل الشدة بالرخاء.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكُمْ كَغُلَّآ حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَيْنِ مَا بَيْنَ لَهُمُ الْخَوْفُ فَتَأْتُوا وَأَشْفَقُوا حَقًّا يَأْتِي اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١١٠] وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَرَّبُوا لِلْخَيْرِ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [١١١].

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طرائق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم. ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال، حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح. ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه، كما قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جبيرة، أو عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان حُيَيُّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود للعرب حسداً، إذ خصهم الله برسوله ﷺ، وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام ما استطاعا، فأنزل الله فيهما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ﴾ الآية. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن الزهري، في قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ قال: هو كعب بن الأشرف. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه: أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً، وكان يهجو النبي ﷺ. وفيه أنزل الله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَأْتُوا وَأَشْفَقُوا﴾. وقال الضحاك، عن ابن عباس: إن رسولاً آمياً يخبرهم بما في أيديهم من الكتب والرسل والآيات، ثم يصدق بذلك كله مثل تصديقهم، ولكنهم جحدوا ذلك كُفْرًا وحسداً وبغياً؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿كَغُلَّآ حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَيْنِ مَا بَيْنَ لَهُمُ الْخَوْفُ﴾ يقول: من بعد ما أضاء لهم الحق، لم يجهلوا منه شيئاً، ولكن الحسد حملهم على الجحود، فعبرهم

ووبخهم ولا مهم أشد الملامة، وشرع لنبيه ﷺ وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل عليهم وما أنزل من قبلهم، بكرامته وثوابه الجليل ومعونته لهم. وقال الربيع بن أنس: «مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ»: من قبل أنفسهم. وقال أبو العالية: «مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ»: من بعد ما تبين لهم أن محمداً رسول الله يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، فكفروا به حسداً وبيعاً؛ إذ كان من غيرهم. وكذا قال قتادة والربيع والسدي. وقوله: «فَاعْبُوا وَاصْبِرُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ» مثل قوله تعالى: «وَلَقَدْ كُذِّبَتْ مِنْ آلِ الْذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ الَّذِينَ أَكْرَمْتَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَلَنْ نَحْنِيَ عَنْكَ وَالِدٌ قَدْ ذَكَرَ مِنْ عَذَابِ الْأُمُورِ» [آل عمران: ١٨٦]. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: «فَاعْبُوا وَاصْبِرُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ» نسخ ذلك قوله: «وَأَقْبَلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» [التوبة: ٥]، وقوله: «فَقِيلُوا الَّذِينَ لَا يُمِشُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَأْتِيهِمُ الْآخِرُ» إلى قوله: «وَهُمْ صَبَرُوا» [التوبة: ٢٩] فَتَسَخَّ هذا عفوهم عن المشركين. وكذا قال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقاتدة، والسدي: إنها منسوخة بآية السيف، ويرشد إلى ذلك أيضاً قوله: «حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني عروة بن الزبير: أن أسامة بن زيد أخبره، قال: كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله: «فَاعْبُوا وَاصْبِرُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ» [آل عمران: ١٨٦]. وكان رسول الله ﷺ يتأول من العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم بالقتل، فقتل الله به من قتل من صناديد قريش. وهذا إسناده صحيح، ولم أره في شيء من الكتب الستة ولكن له أصل في الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما. وقوله تعالى: «وَأَقْبِلُوا السَّكُونَ وَآثُوا الزَّكُونَ وَمَا تَقْدُمُوا لِأَفْئِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدْهُ عِنْدَ اللَّهِ» يَحْتُ تعالى على الاشتغال بما ينفعهم وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، حتى يمكن لهم الله النصر في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْرِضَتُهُمْ وَلَهُمْ أَلَعَنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» [غافر: ٥٢]؛ ولهذا قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» يعني: أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل، ولا يضيع لديه، سواء كان خيراً أو شراً، فإنه سيجازي كل عامل بعمله. وقال أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»: وهذا الخبر من الله للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين، أنهم مهما فعلوا من خير أو شر، سراً أو علانية، فهو به بصير لا يخفى عليه منه شيء، فيجزئهم بالإحسان خيراً، وبالإساءة مثلاً. وهذا الكلام وإن كان خرج مخرج الخبر، فإن فيه وعداً ووعداً وأمرًا وزجراً. وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ليجدوا في طاعته إذ كان ذلك مُدْخراً لهم عنده، حتى يشيهم عليه، كما قال: «وَمَا تَقْدُمُوا لِأَفْئِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدْهُ عِنْدَ اللَّهِ»، وليحذروا معصيته. قال: وأما قوله: «بَصِيرٌ» فإنه مبصر صرف إلى «بصير»، كما صرف مبدع إلى «بديع»، ومؤلم إلى «أليم»، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا ابن بُكَيْرٍ، حدثني ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن عتبة بن عامر، قال: رأيت رسول الله ﷺ يفسر في هذه الآية «سَبِيحٌ بِصِيرٌ» يقول: بكل شيء بصير.

«وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ آمَانِيَّتُهُمْ قُلْ هَكَأُو يُؤْمِنُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلْ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ بِالْهَيْدُوسِ عَلَى نَفْسٍ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ بِالْهَيْدُوسِ عَلَى نَفْسٍ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ عَذَابَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّمَا يَنْفَعُكُمْ فِيهَا مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١١٣﴾»

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا: «فَحَنَّا أَتَيْنَا اللَّهَ وَأَجَبْتُمُوهُ» [المائدة: ١٨]. فأكدبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك، وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينتقلون إلى الجنة. وردّ عليهم تعالى في ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوا بها دليل ولا حجة ولا بينة، فقال: «تِلْكَ آمَانِيَّتُهُمْ». وقال أبو العالية: آماني تمنوها على الله بغير حق. وكذا قال قتادة والربيع بن أنس. ثم قال: «قُلْ: أي: يا محمد، «هَكَأُو يُؤْمِنُكُمْ». وقال أبو العالية ومجاهد والسدي والربيع بن أنس: حجتكم. وقال قتادة: بينتكم على ذلك. «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» كما تدعونه. ثم قال تعالى: «بَلْ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ» أي: من أخلص العمل لله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: «إِنَّ حَاجَتَهُ قُلْتُ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ» الآية [آل عمران: ٢٠]. وقال أبو العالية والربيع: «بَلْ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ» يقول: من أخلص لله. وقال سعيد بن جبيرة: «بَلْ مَنْ أَسْلَمَ»: أخلص، «وَجْهَهُ»: قال: دينه، «وَهُوَ مُحْسِنٌ»: أي: متبع فيه الرسول ﷺ. فإن للعمل المتقيل شرطين، أحدهما: أن يكون خالصاً لله وحده، والآخر: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة. فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل؛ ولهذا قال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رُدٌّ».

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾: يبين به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم. كما قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ، اتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن خزيمة: ما أنتم على شيء، وكفر عيسى وبالإنجيل. وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء. ووجد نبوة موسى وكفر بالتوراة. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾. قال: إن كلا يتلو في كتابه تصديق من كفر به، أي: يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة، فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى، وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى، وما جاء من التوراة من عند الله، وكل يكفر بما في يد صاحبه. وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شيء. وقال قتادة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾: قال: بلى، قد كانت أوائل اليهود على شيء، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا. ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾: قال: بلى، قد كانت أوائل اليهود على شيء، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا. وعنه رواية أخرى كقول أبي العالية، والربيع بن أنس في تفسيره هذه الآية: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾: هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ. وهذا القول يقتضي أن كلا من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرى. ولكن ظاهر سياق الآية يقتضي ذمهم فيما قالوه، مع علمهم بخلاف ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾: أي: وهم يعلمون أن شريعة التوراة والإنجيل، كل منهما قد كانت مشروعة في وقت، ولكن تجاحدوا فيما بينهم عناداً وكفراً ومقابلة للفاسد بالفاسد، كما تقدم عن ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة في الرواية الأولى عنه في تفسيرها، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَكْفُرُونَ يَتْلُوهُمْ﴾: يبين بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا به من القول، وهذا من باب الإيماء والإشارة. وقد اختلف فيمن عنى بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يَكْفُرُونَ﴾ فقال الربيع بن أنس وقاتدة: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَكْفُرُونَ﴾: قالوا: قالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم. وقال ابن جريج: قلت لعطاء: من هؤلاء الذين لا يعلمون؟ قال: أمم كانت قبل اليهود والنصارى وقبل التوراة والإنجيل. وقال السدي: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَكْفُرُونَ﴾: فهم: العرب، قالوا: ليس محمد على شيء. واختار أبو جعفر بن جرير أنها عامة تصلح للجميع، وليس ثم دليل قاطع يعين واحداً من هذه الأقوال، فالحمل على الجميع أولى، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: أي: إنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد، ويفصل بينهم بقضائه العدل الذي لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة. وهذا كقوله تعالى في سورة الحج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (الحج: ١٧)، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَقْضَى بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ (سبا: ٢٦).

اختلف المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله وسَعَوْا في خرابها على قولين: أحدهما: ما رواه العوفي في تفسيره، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُؤُا﴾ قال: هم النصارى. وقال مجاهد: هم النصارى، كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرُ، عن قتادة في قوله: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾: هو بُخْتَنَصْرُ وأصحابه، خَرَّبَ بيت المقدس، وأعاناه على ذلك النصارى. وقال سعيد، عن قتادة: قال: أولئك أعداء الله النصارى، حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بُخْتَنَصْرَ البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس. وقال السدي: كانوا ظاهروا بُخْتَنَصْرَ على خراب بيت المقدس حتى خربه، وأمر به أن تطرح فيه الجيف، وإنما أعاناه الروم على خرابه من أجل أن بني إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا. وروي نحوه عن الحسن البصري.

القول الثاني: ما رواه ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُؤُا وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ قال: هؤلاء المشركون حين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية، وبين أن يدخل مكة حتى نحر هديه بذي طُوًى وهادنهم، وقال لهم: ما كان أحد يُصَدُّ عن هذا البيت، وقد كان الرجل يلقي قاتل أبيه وأخيه فلا يصد. فقالوا: لا يدخل علينا مَنْ قتل آباءنا يوم بدر وفيها باق. وفي قوله: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ قال: إذ قطعوا من يَغْمُرُها يذكره ويأتيها للحج والعمرة. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن سلمة قال: قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن قُرَيْشاً منعوا النبي ﷺ الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام، فأنزل الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُؤُا﴾. ثم اختار ابن جرير القول الأول، واحتج بأن قريشاً لم تسع في خراب الكعبة. وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس.

قلت: الذي يظهر - والله أعلم - القول الثاني، كما قاله ابن زيد، وروي عن ابن عباس؛ لأن النصارى إذا منعت اليهود الصلاة في البيت المقدس، كان دينهم أقوم من دين اليهود، وكانوا أقرب منهم، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولاً إذ ذاك؛ لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. وأيضاً فإنه تعالى لما وَجَّهَ الذم في حق اليهود والنصارى، شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة، ومنعوه من الصلاة في المسجد الحرام، وأما اعتماده على أن قريشاً لم تسع في خراب الكعبة، فأي خراب أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأنذادهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعْبُدُوهُمْ وَأَهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَقْرَأُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الْآثَارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [١٧] إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ أَمَانَتِ بِلَاهِ وَالْبُورِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَسَوَّىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ [التوبة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَنِي مَكْرَهُمْ أَنْ يَلْبَسَ لَهُمُ الْبُيُوتُ ثِيَابًا مَّا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَدْخُلُوهَا وَلَا يَحْجُزُوا عَنْهُمْ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الْآثَارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة: ١٧]، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ أَمَانَتِ بِلَاهِ وَالْبُورِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، فإذا كان من هو كذلك مطروداً منها مصدوداً عنها، فأي خراب لها أعظم من ذلك؟ وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِبِينَ﴾: هذا خبر معناه الطلب، أي: لا تَمَكَّنُوا هؤلاء - إذا قَدَّرْتُمْ عليهم - من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية. ولهذا لما فتح رسول الله ﷺ مكة أمر من العام القابل في سنة تسع أن ينادى برحاب منى: «ألا لا يُحْجُزَ بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته». وهذا كان تصديقاً وعملاً بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا آمَنُوا إِنَّمَا الشُّرُكُوتُ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَمَدِّ عَايِهِمْ هَكَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، وقال بعضهم: ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين على حال التيب، وارتعاد الفرائض من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً أن يستولوا عليها أو يمنعوا المؤمنين منها. والمعنى: ما كان الحق والواجب إلا ذلك، لولا ظلم الكفرة وغيرهم. وقيل: إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد، وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفاً، يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم. وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام، وأوصى رسول الله ﷺ أن لا يبقَى بجزيرة العرب دينان، وأن تُجْلَى اليهود والنصارى منها، والله الحمد والمنة. وما ذاك إلا لتشريف أكناف المسجد الحرام وتطهير البقعة المباركة التي بعث الله فيها رسوله

إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً صلوات الله عليه. وهذا هو الخزي لهم في الدنيا؛ لأن الجزاء من جنس العمل. فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام، صدوا عنه، وكما أجلوهم من مكة، أجلوها منها. ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ على ما انتهكوا من حرمة البيت، وامتهنوه من نصب الأصنام حوله، والدعاء إلى غير الله عنده والطواف به عرباً، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله. وأما من فُسِّرَ بيت المقدس، فقال كعب الأحيار: إن النصارى لما ظهرها على بيت المقدس خربوه، فلما بعث الله محمداً ﷺ أنزل عليه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ الآية، فليس في الأرض نصراني يدخل بيت المقدس إلا خائفاً. وقال السدي: فليس في الأرض رومي يدخله اليوم إلا وهو خائف أن يُضْرَبَ عُنُقُهُ، أو قد أخيف بأداء الجزية فهو يؤديها. وقال قتادة: لا يدخلون المساجد إلا مسارقة. قلت: وهذا لا ينفي أن يكون داخلًا في معنى عموم الآية فإن النصارى لما ظلموا بيت المقدس، بامتهان الصخرة التي كانت يصلي إليها اليهود، عُوقِبُوا شرعاً وَقَدَّرَ بِالذَّلَّةِ فِيهِ، إلا في أحيان من الدهر امتحن بهم بيت المقدس وكذلك اليهود لما عَصَوْا الله فيه أيضاً أعظم من عَضْبَانِ النصارى كانت عقوبتهم أعظم، والله أعلم. وفسر هؤلاء الخزي في الدنيا، بخروج المهدي عند السدي، وعكرمة، ووائل بن داود. وفسره قتادة بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون. والصحيح أن الخزي في الدنيا أعم من ذلك كله، وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة كما قال الإمام أحمد: حدثنا الهيثم بن خارجة، حدثنا محمد بن أيوب بن ميسرة بن حلبس: سمعت أبي يحدث، عن بُسْرِ بْنِ أَرْطَاةَ، قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا ومن عذاب الآخرة». وهذا حديث حسن، وليس هو في شيء من الكتب الستة، وليس لصحابيه وهو بُسْرِ بْنِ أَرْطَاةَ. ويقال: ابن أبي أَرْطَاةَ - حديث سواه، وسوى حديث: «لا تقطع الأيدي في الغزو».

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعُ عِلْمُهُ﴾ (١١٥)

وهذا - والله أعلم - فيه تسليية للرسول ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا من مكة وفارقوا مسجدهم ومُصَلَّاهُمْ، وقد كان رسول الله ﷺ يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه. فلما قدم المدينة وَجَّهَ إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾. قال أبو عبيد القاسم بن سلام، في كتاب النسخ والمنسوخ: حدثنا حجاج بن محمد، أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: أول ما نسخ من القرآن فيما ذكر لنا - والله أعلم - شأن القبلية: قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، فاستقبل رسول الله ﷺ فصلى نحو بيت المقدس، وترك البيت العتيق، ثم صرفه الله إلى بيته العتيق ونسخها، فقال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: كان أول ما نسخ من القرآن القبلية. وذلك أن رسول الله ﷺ لها هاجر إلى المدينة - وكان أهلها اليهود - أمره الله أن يستقبل بيت المقدس. ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يُحِبُّ قِبْلَةَ إِبْرَاهِيمَ، فكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاوَاتِ فَلَوْلَيْتَكَ قِبْلَةً نَّرَمَكُمَا﴾ إلى قوله: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، فأنزل الله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾. وقال عكرمة عن ابن عباس: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ قال: قبلية الله أينما توجهت شرقاً أو غرباً. وقال مجاهد: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ قال: قبلية الله: حيثما كنتم قبلية تستقبلونها: الكعبة. وقال ابن أبي حاتم بعد روايته الأثر المتقدم، عن ابن عباس، في نسخ القبلية، عن عطاء، عنه: وروي عن أبي العالية، والحسن، وعطاء الخراساني، وعكرمة، وقاتدة، والسدي، وزيد بن أسلم، نحو ذلك. وقال ابن جرير: وقال آخرون: بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه إلى الكعبة، وإنما أنزلها تعالى ليعلم نبيه ﷺ وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة، حيث شأوا من نواحي المشرق والمغرب؛ لأنهم لا يوجهون وجوههم وجهاً من ذلك وناحية إلا كان جل ثناؤه في ذلك الوجه وتلك الناحية؛ لأن له تعالى المشرق والمغرب، وأنه لا يخلو منه مكان، كما قال تعالى: ﴿وَلَا أَتَىٰ مِنْ ذَلِكَ كُتُبٌ إِلَّا هُوَ مُعَظِّمُ أَنْتُمْ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ١٧]، قالوا: ثم نسخ ذلك بالفرض الذي فرض عليهم التوجه إلى المسجد الحرام. هكذا قال، وفي قوله: «لأنه تعالى لا يخلو منه مكان»: إن أراد علمه تعالى فصحيح؛ فإن علمه تعالى محيط بجميع المعلومات، وأما ذاته تعالى فلا تكون محصورة في شيء من خلقه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ إذناً من الله أن يصلي التطوع حيث توجه من شرق أو

غرب، في مسيره في سفره، وفي حال المسايفة وشدة الخوف. حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا ابن إدريس، حدثنا عبد الملك - هو ابن أبي سليمان - عن سعيد بن جبير، عن ابن عمر: أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته. ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك، ويتأول هذه الآية: ﴿فَأَيُّكُمْ تَوَلَّىٰ وَجْهَهُ ۚ﴾. ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن مَرْذُويه، من طرق، عن عبد الملك بن أبي سليمان، به. وأصله في الصحيحين من حديث ابن عمر وعامر بن ربيعة، من غير ذكر الآية. وفي صحيح البخاري من حديث نافع، عن ابن عمر: أنه كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها. ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً قِيَاماً على أقدامهم، وركباً مستقبلي القبلة وغير مستقبليها. قال نافع: ولا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ.

مسألة: ولم يفرق الشافعي في المشهور عنه، بين سفر المسافة وسفر العدوى، فالجميع عنه يجوز التطوع فيه على الراحلة، وهو قول أبي حنيفة خلافاً لمالك وجماعته، واختار أبو يوسف وأبو سعيد الأصبخري، التطوع على الدابة في المصر، وحكاه أبو يوسف عن أنس بن مالك، رضي الله عنه. واختاره أبو جعفر الطبري، حتى للماشي أيضاً. قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في قوم عُمَيْتٍ عليهم القبلة، فلم يعرفوا شطرها، فصلوا على أنحاء مختلفة، فقال الله: لي المشارق والمغارب فأين وليتم وجوهكم فهناك وجهي، وهو قبلكم فيعلمكم بذلك أن صلاتكم ماضية. حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي، حدثنا أبو أحمد الزيري، حدثنا أبو الربيع السمان، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أبيه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في ليلة سوداء مظلمة، فنزلنا منزلاً فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجداً يصلي فيه. فلما أن أصبحنا إذا نحن قد صلينا على غير القبلة. فقلنا: يا رسول الله، لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الشَّرْقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيُّكُمْ تَوَلَّىٰ وَجْهَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عِلْمَهُ ۝١١٥﴾ الآية.

ثم رواه عن سفيان بن وكيع، عن أبيه، عن أبي الربيع السمان، بنحوه. ورواه الترمذي، عن محمود بن غيلان، عن وكيع. وابن ماجة، عن يحيى بن حكيم، عن أبي داود، عن أبي الربيع السمان. ورواه ابن أبي حاتم، عن الحسن بن محمد بن الصباح، عن سعيد بن سليمان، عن أبي الربيع السمان - واسمه أشعث بن سعيد البصري - وهو ضعيف الحديث. وقال الترمذي: هذا حديث حسن. ليس إسناده بذلك، ولا نعرفه إلا من حديث أشعث السمان، وأشعث يُضَعَّفُ في الحديث. قلت: وشيخه عاصم أيضاً ضعيف. قال البخاري: منكر الحديث. وقال ابن معين: ضعيف لا يحتج به. وقال ابن حبان: متروك، والله أعلم. وقد روى من طرق أخرى، عن جابر. وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية: حدثنا إسماعيل بن علي بن إسماعيل، حدثنا الحسن بن علي بن شبيب، حدثني أحمد بن عبيد الله بن الحسن؛ قال: وجدت في كتاب أبي: حدثنا عبد الملك العزمي، عن عطاء، عن جابر، قال: بَعَثَ رسول الله ﷺ سَرِيَّةً كنت فيها، فأصابتنا ظلمة فلم نعرف القبلة، فقالت طائفة منا: قد عرفنا القبلة، هي ههنا قبل السماك. فصلوا وخطوا خطوطاً، فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة. فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبي ﷺ، فسكت، وأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الشَّرْقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيُّكُمْ تَوَلَّىٰ وَجْهَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عِلْمَهُ ۝١١٥﴾. ثم رواه من حديث محمد بن عبيد الله العزمي، عن عطاء، عن جابر، به. وقال الدارقطني: قرئ على عبد الله بن عبد العزيز - وأنا أسمع - حدثكم داود بن عمرو، حدثنا محمد بن يزيد الواسطي، عن محمد بن سالم، عن عطاء، عن جابر، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في مسير فأصابنا غيم، فتحيرنا فاختلطنا في القبلة، فصلى كل منا على حدة. وجعل أحدنا يخط بين يديه لنعلم أمكنتنا، فذكرنا ذلك للنبي ﷺ، فلم يأمرنا بالإعادة، وقال: «قد أجزأت صلاتكم». ثم قال الدارقطني: كذا قال: عن محمد بن سالم، وقال غيره: عن محمد بن عبيد الله العزمي، عن عطاء، وهما ضعيفان. ثم رواه ابن مردويه أيضاً من حديث الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ بعث سَرِيَّةً فأخذتهم ضباب، فلم يهتدوا إلى القبلة، فصلوا لغير القبلة. ثم استبان لهم بعد طلوع الشمس أنهم صلوا لغير القبلة. فلما جاؤوا إلى رسول الله ﷺ حَدَّثُوهُ، فأنزل الله ﷻ هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ الشَّرْقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيُّكُمْ تَوَلَّىٰ وَجْهَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عِلْمَهُ ۝١١٥﴾. وهذه الأسانيد فيها ضَعْفٌ، ولعله يشد بعضها بعضاً. وأما إعادة الصلاة لمن تبين له خطؤه ففيها قولان للعلماء، وهذه دلائل على عدم القضاء، والله أعلم. قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في سبب النجاشي، كما حدثنا محمد بن بشار، حدثنا هشام بن معاذ، حدثني أبي، عن قتادة: أن النبي ﷺ قال: «إن أحاً لكم قدمات فصلوا عليه». قالوا: نصلي على رجل ليس بمسلم؟ قال: فنزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعُونَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، قال قتادة: فقالوا: فإن كان لا يصلي إلى القبلة. فأنزل الله ﷻ ﴿وَلِلَّهِ الشَّرْقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيُّكُمْ تَوَلَّىٰ وَجْهَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عِلْمَهُ ۝١١٥﴾. وهذا غريب، والله أعلم. وقد قيل: إنه كان يصلي إلى بيت المقدس قبل أن يبلغه

الناسخ إلى الكعبة، كما حكاها القرطبي عن قتادة، وذكر القرطبي أنه لما مات صلى عليه رسول الله ﷺ فأخذ بذلك من ذهب إلى الصلاة على الغائب، قال: وهذا خاص عند أصحابنا من ثلاثة أوجه:
أحدها: أنه عليه السلام، شاهده حين صلى عليه طويت له الأرض.

الثاني: أنه لما لم يكن عنده من يصلي عليه صلى عليه، واختاره ابن العربي، قال القرطبي: ويبعد أن يكون ملك مسلم ليس عنده أحد من قومه على دينه، وقد أجاب ابن العربي عن هذا لعلمهم لم يكن عندهم شرعية الصلاة على الميت. وهذا جواب جيد.

الثالث: أنه عليه الصلاة والسلام إنما صلى عليه ليكون ذلك كالتأليف لبقية الملوك، والله أعلم.

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية من حديث أبي معشر، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين المشرق والمغرب قبلة لأهل المدينة وأهل الشام وأهل العراق». وله مناسبة ههنا، وقد أخرجه الترمذي وابن ماجة من حديث أبي معشر، واسمه نجيج بن عبد الرحمن السندي المدني، به: «ما بين المشرق والمغرب قبلة». وقال الترمذي: وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة. وتكلم بعض أهل العلم في أبي معشر من قبل حفظه، ثم قال الترمذي: حدثني الحسن بن أبي بكر المروزي، حدثنا المعلى بن منصور، حدثنا عبد الله بن جعفر المخرمي، عن عثمان بن محمد الأحنسي، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما بين المشرق والمغرب قبلة». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وحكي عن البخاري أنه قال: هذا أقوى من حديث أبي معشر وأصح. قال الترمذي: وقد روي عن غير واحد من الصحابة: ما بين المشرق والمغرب قبلة - منهم عمر بن الخطاب، وعلي، وابن عباس. وقال ابن عمر: إذا جعلت المغرب عن يمينك والمشرق عن يسارك، فما بينهما قبلة، إذا استقبلت القبلة. ثم قال ابن مردويه: حدثنا علي بن أحمد بن عبد الرحمن، حدثنا يعقوب بن يونس مولى بني هاشم، حدثنا شعيب بن أيوب، حدثنا ابن نمير، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ، قال: «ما بين المشرق والمغرب قبلة». وقد رواه الدارقطني والبيهقي، وقال المشهور: عن ابن عمر، عن عمر، عن عمر، قوله. قال ابن جرير: ويحتمل: فأيما تولوا وجوهكم في دعائكم لي فهناك وجهي أستجيب لكم دعاءكم، كما حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني حجاج، قال: قال ابن جرير: قال مجاهد: لما نزلت: ﴿أَدْعُوكَ أَسْتَجِيبُ لَكَ﴾ [غافر: ٦٠]، قالوا: إلى أين؟ فنزلت: ﴿فَأَيُّكُمْ تَوَلَّوْا فَمَتَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾. قال ابن جرير: ويعني بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عَلَيْهِ﴾: يسع خلقه كلهم بالكفاية، والإنضال والجود. وأما قوله: ﴿عَلَيْمٌ﴾ فإنه يعني: عليم بأعمالهم، ما يغيب عنه منها شيء، ولا يعزب عن علمه، بل هو بجميعها عليم.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فَنِيثُونَ ﴿١١٦﴾ بَيِّنَاتٍ لِّلْمُتَّقِينَ وَالْأَرْضُ وَإِذَا قَسَمَ آمَنَّا بِقَوْلِ لِّهِ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة، والتي تليها على الرد على النصارى - عليهم لعائن الله - وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب، ممن جعل الملائكة بنات الله، فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم: إن لله ولداً. فقال تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً ﴿بَلْ لَمْ يَلِدْ﴾ أي: ليس الأمر كما افتروا، وإنما له ملك السموات والأرض، وهو المتصرف فيهم، وهو خالقهم ورازقهم، ومقدِّرهم ومسخرهم، ومسيرهم ومصرفهم، كما يشاء. والجميع عبيد له وملك له، فكيف يكون له ولد منهم، والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير، ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له، فكيف يكون له ولد! كما قال تعالى: ﴿بَيِّنَاتٍ لِّلْمُتَّقِينَ وَالْأَرْضُ أَتَى يَكُونُ لَمْ وَلَدًا وَلَوْ تَكُنْ لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١٠١] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿١١٧﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْقَرْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَغَشِيَ الْجِبَالُ دُخَانًا ﴿١١٨﴾ أَنْ دَعَا لِّلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿١١٩﴾ وَمَا يَنبَغِي لِّلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿١٢٠﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَتَى الرَّحْمَنُ عِندًا ﴿١٢١﴾ لَقَدْ أَمْسَكْنَاهُمْ وَعَدْنَاهُمْ عَذَابًا ﴿١٢٢﴾ وَكُلُّهُمْ مَائِيَّةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَرِيبًا ﴿١٢٣﴾﴾ [سريم: ٨٨ - ٩٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]. فقرر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم، الذي لا نظير له ولا شبه له، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة، فكيف يكون له منها ولد! ولهذا قال البخاري في تفسير هذه الآية من البقرة: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن عبد الله بن أبي حُسَيْن، حدثنا نافع بن جبير - هو ابن مطعم - عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «قال الله

تعالى: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَيَزْعُمُ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ. فَسَبِّحَانِي أَنْ أُتَخَذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا. انفرد به البخاري من هذا الوجه.

وقال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن كامل، حدثنا محمد بن إسماعيل الترمذي، حدثنا إسحاق بن محمد الفَرَوِي، حدثنا مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَنْبَغْ لَهُ أَنْ يَكْذِبَنِي، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَنْبَغْ لَهُ أَنْ يَشْتَمَنِي، أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي. وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ. وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا. وَأَنَا اللَّهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ». وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذَى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ؛ إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ». وَقَوْلُهُ: ﴿كُلُّ لَمْ يَكُنْ قَدْ نَبَذَ﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجَعِيُّ، حَدَّثَنَا أُسْبَاطُ، عَنْ مَطْرُفٍ، عَنْ عَطِيَّةٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: ﴿قَدْ نَبَذَ﴾ مُصْلِينَ. وَقَالَ عِكْرَمَةُ وَأَبُو مَالِكٍ: ﴿كُلُّ لَمْ يَكُنْ قَدْ نَبَذَ﴾: فُتْرُونَ لَهُ بِالْعِبَادَةِ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: ﴿كُلُّ لَمْ يَكُنْ قَدْ نَبَذَ﴾ يَقُولُ: لَهُ مَطْعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقَالَ خَصِيفٌ، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿كُلُّ لَمْ يَكُنْ قَدْ نَبَذَ﴾: قَالَ: مَطْعُونَ، كُنْ إِنْسَانًا فَكَانَ، وَقَالَ: كُنْ حِمَارًا فَكَانَ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿كُلُّ لَمْ يَكُنْ قَدْ نَبَذَ﴾: مَطْعُونَ. يَقُولُ: طَاعَةُ الْكَافِرِ فِي سَجْدَةٍ ظَلَمَ وَهُوَ كَارِهِ. وَهَذَا الْقَوْلُ عَنْ مُجَاهِدٍ - وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَبْرِ - يَجْمَعُ الْأَقْوَالَ كُلَّهَا، وَهُوَ أَنَّ الْقَتْلَ: هُوَ الطَّاعَةُ وَالِاسْتِكَانَةُ إِلَى اللَّهِ، وَذَلِكَ شَرْعِي وَقُدْرِي، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَّهُمْ ثَلَاثُ أَصْنَافٍ ۚ﴾ [الرعد: ١٥]. وَقَدْ وَرَدَ حَدِيثٌ فِيهِ بَيَانُ الْقَتْلِ فِي الْقُرْآنِ مَا هُوَ الْمَرَادُ بِهِ، كَمَا قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ: أَنَّ دَرَجًا أَبَا السَّمْحِ حَدَّثَهُ، عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «كُلُّ حَرْفٍ مِنَ الْقُرْآنِ يَذْكُرُ فِيهِ الْقَتْلُ فَهُوَ الطَّاعَةُ».

وكذا رواه الإمام أحمد، عن حسن بن موسى، عن ابن أبيه، عن دَرَجٍ بِإِسْنَادِهِ، مِثْلُهُ. وَلَكِنْ هَذَا الْإِسْنَادُ ضَعِيفٌ لَا يَعْتَمَدُ عَلَيْهِ. وَرَفَعَ هَذَا الْحَدِيثَ مُنْكَرٌ، وَقَدْ يَكُونُ مِنْ كَلَامِ الصَّحَابِيِّ أَوْ مِنْ دُونِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَكَثِيرًا مَا يَأْتِي بِهَذَا الْإِسْنَادُ تَفَاسِيرٌ فِيهَا نَكَاةٌ، فَلَا يَغْتَرُّ بِهَا، فَإِنَّ السَّنَدَ ضَعِيفٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَبْدِئُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: أَيُّ خَالِقُهُمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبْقٍ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسَّيِّدِيُّ: وَهُوَ مُقْتَضَى اللَّفْظِ. وَمَنْ يَقَالُ لِلشَّيْءِ الْمَحْدَثِ: بَدْعٌ. كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ لِمُسْلِمٍ: «فَإِنْ كُلُّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعٌ وَكُلُّ بَدْعٍ ضَلَالَةٌ». وَالبَدْعُ عَلَى قَسْمَيْنِ، تَارَةٌ تَكُونُ بَدْعًا شَرْعِيَّةً، كَقَوْلِهِ: فَإِنْ كُلُّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعٌ، وَكُلُّ بَدْعٍ ضَلَالَةٌ. وَتَارَةٌ تَكُونُ بَدْعًا لُغَوِيَّةً، كَقَوْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ جَمْعِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى صَلَاةِ التَّرَاوِيحِ وَاسْتِمْرَارِهِمْ: نَعَمْتُ الْبَدْعُ هَذِهِ. وَقَالَ ابْنُ جَبْرِ: وَيَبْدَعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ: مَبْدَعُهُمَا. وَإِنَّمَا هُوَ مُفْعِلٌ فَصَرَفَ إِلَى فَعِيلٍ، كَمَا صَرَفَ الْمُؤْمِنَ إِلَى الْأَلِيمِ، وَالْمَسْمُوعَ إِلَى السَّمِيعِ. وَمَعْنَى الْمَبْدَعِ: الْمُنْشِئُ وَالْمَحْدَثُ مَا لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَى إِنْشَاءِ مِثْلِهِ وَإِحْدَاثِهِ أَحَدٌ. قَالَ: وَلِذَلِكَ سَمِيَ الْمَبْدَعُ فِي الدِّينِ مَبْتَدَعًا؛ لِإِحْدَاثِهِ فِيهِ مَا لَمْ يَسْبِقْ إِلَيْهِ غَيْرُهُ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مُحَدَّثٍ فَعْلًا أَوْ قَوْلًا لَمْ يَتَقَدَّمْ فِيهِ مَتَقَدِّمٌ، فَإِنَّ الْعَرَبَ تَسْمِيَهُ مَبْتَدَعًا. وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ أَغْشَى ثَعْلَبَةَ، فِي مَدْحِ هُوْدَةَ بْنِ عَلِيٍّ الْخَنْفِيِّ:

يُرْعَى إِلَى قَوْلِ سَادَاتِ الرِّجَالِ إِذَا أَبْدَوْا لَهُ الْحَزْمَ أَوْ مَا شَاءَ ابْتَدَعَا
أَيُّ: يَحْدُثُ مَا شَاءَ. قَالَ ابْنُ جَبْرِ: فَمَعْنَى الْكَلَامِ: فَسَبِّحَانَ اللَّهُ أَنِّي يَكُونُ اللَّهُ وَلَدٌ، وَهُوَ مَالِكٌ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، تَشْهَدُ لَهُ جَمِيعُهَا بِدَلَالَتِهَا عَلَيْهِ بِالْوَخْدَانِيَّةِ، وَتَقَرُّ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَهُوَ بَارِتُهَا وَخَالِقُهَا وَمَوْجِدُهَا مِنْ غَيْرِ أَصْلٍ وَلَا مِثَالٍ احْتِذَاهَا عَلَيْهِ. وَهَذَا إِعْلَامٌ مِنَ اللَّهِ عِبَادَتِهِ أَنَّ مَنْ يَشْهَدُ لَهُ بِذَلِكَ الْمَسِيحُ، الَّذِي أَضَافُوا إِلَى اللَّهِ بَنُوهُ؛ وَإِخْبَارٌ مِنْهُمْ أَنَّهُ الَّذِي ابْتَدَعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْ غَيْرِ أَصْلٍ وَعَلَى غَيْرِ مِثَالٍ، هُوَ الَّذِي ابْتَدَعَ الْمَسِيحَ مِنْ غَيْرِ وَالِدٍ بِقُدْرَتِهِ. وَهَذَا مِنْ ابْنِ جَبْرِ، رَحِمَهُ اللَّهُ، كَلَامٌ جَيِّدٌ وَعِبَارَةٌ صَحِيحَةٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قَعَّتْ أُمْرًا فَلَنَمَّا يَقُولُ لَمْ يَكُنْ يَكُونُ﴾: يَبِينُ بِذَلِكَ تَعَالَى كَمَالَ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمَ سُلْطَانِهِ، وَأَنَّهُ إِذَا قَدَّرَ أَمْرًا وَأَرَادَ كُونَهُ، فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ. أَيُّ: مَرَّةً وَاحِدَةً، فَيَكُونُ، أَيُّ: فَيُوجَدُ عَلَى وَفْقِ مَا أَرَادَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [الفرع: ٥٠]، وَقَالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَلَنَمَّا يَقُولُ لَمْ يَكُنْ يَكُونُ
وَبَيَّنَ تَعَالَى بِذَلِكَ أَيْضًا عَلَى أَنَّهُ خَلَقَ عِيسَى بِكَلِمَةٍ: كُنْ، فَكَانَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مِثْلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَخَلْقِهِ مَادَمَ خَلَقْتَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

القول المروي عن محمد بن محمد بن كعب القرظي وغيره في ذلك، لاستحالة الشك من الرسول ﷺ في أمر أبويه. واختار القراءة الأولى. وهذا الذي سلكه ههنا فيه نظر، لاحتمال أن هذا كان في حال استغفاره لأبويه قبل أن يعلم أمرهما، فلما علم ذلك تبرأ منهما، وأخبر عنهما أنهما من أهل النار كما ثبت ذلك في الصحيح ولهذا أشباه كثيرة ونظائر، ولا يلزم ما ذكر ابن جرير. والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا فليح بن سليمان، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأمين، وأنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، لا فظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله. فيفتح به أعينا غُمياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلْفاً. انفرد بإخراجه البخاري، فرواه في البيوع عن محمد بن سنان، عن فليح، به. وقال: تابعه عبد العزيز بن أبي سلمة، عن هلال. وقال سعيد: عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن سلام. ورواه في التفسير عن عبد الله، عن عبد العزيز بن أبي سلمة، عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، به. فذكر نحوه، فعبد الله هذا هو ابن صالح، كما صرح به في كتاب الأدب. وزعم أبو مسعود الدمشقي أنه عبد الله بن رجاء. وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيْهِ في تفسير هذه الآية من البقرة، عن أحمد بن الحسن بن أيوب، عن محمد بن أحمد بن البراء، عن المعافى بن سليمان، عن فليح، به. وزاد: قال عطاء: ثم لقيت كعب الأحبار، فسألته فما اختلفا في حرف، إلا أن كعباً قال بَلَغْتِي: أعيناً عمومي، وآذاناً صمومي، وقلوباً غلوفاً.

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْخَيْرُ أَلَمْ تَكُنْ مِنَ الْغَالِينَ﴾ [١٢٠] وَلَوْ لَا نَفِيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُوْهُ حَتَّى يَلَايُوْهُ اُتُوْا بِكُمْ بِرَءٍ فَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْخٰسِرُوْنَ ﴿١٢١﴾

قال ابن جرير: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ وليست اليهود - يا محمد - ولا النصارى براضية عنك أبداً، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْخَيْرُ﴾ أي: قل يا محمد: إن هدى الله الذي بعثني به هو الهدى، يعني: هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل. قال قتادة في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْخَيْرُ﴾ قال: خصومة علمها الله محمداً ﷺ وأصحابه، يخاصمون بها أهل الضلالة. قال قتادة: وبلغنا أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقتتلون على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله». قلت: هذا الحديث مُخْرَجٌ في الصحيح عن عبد الله بن عمرو. ﴿وَلَيْنَ اُتُوْا بِرَءٍ لِّدِيْنِهِمْ يَتَّبِعُوْهُ اُتُوْا بِرَءٍ لِّدِيْنِهِمْ﴾ فيه تهديد ووعد شديد للامة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى، بعد ما علموا من القرآن والسنة، عباداً بالله من ذلك، فإن الخطاب مع الرسول، والأمر لأمرته. وقد استدلل كثير من الفقهاء بقوله: ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ حيث أفرد الملة على أن الكفر كله ملة واحدة كقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِيْنُكُمْ وَلِيَ دِيْنِ﴾ [الكافرون: ٦] فعلى هذا لا يتوارث المسلمون والكفار، وكل منهم يرث قرينه سواء كان من أهل دينه أم لا؛ لأنهم كلهم ملة واحدة، وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد في رواية عنه. وقال في الرواية الأخرى كقول مالك: إنه لا يتوارث أهل ملتين شتى، كما جاء في الحديث، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُوْهُ حَتَّى يَلَايُوْهُ﴾: قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: هم اليهود والنصارى. وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير. وقال سعيد عن قتادة: هم أصحاب رسول الله ﷺ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن موسى، وعبد الله بن عمران الأصبهاني، قالوا: حدثنا يحيى بن يمان حدثنا أسامة بن زيد، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب ﴿يَتْلُوْهُ حَتَّى يَلَايُوْهُ﴾: قال: إذا مر بذكر الجنة سأل الله الجنة، وإذا مر بذكر النار تعوذ بالله من النار. وقال أبو العالية: قال ابن مسعود: والذي نفسي بيده، إن حق تلاوته أن يُحْلَلَ حلاله ويحرم حرامه ويقرأ كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله. وكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة ومنصور بن المعتمر، عن ابن مسعود. وقال السدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: يُحْلَوْنَ حلاله وَيُحْرَمُونَ حرامه، ولا يُحَرَّفُونَهُ عن مواضعه. قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن مسعود نحو ذلك. وقال الحسن البصري: يعلمون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، يَكْلُوْنَ ما أشكل عليهم إلى عالمه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا ابن أبي زائدة، أخبرنا داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يَتْلُوْهُ حَتَّى يَلَايُوْهُ﴾ قال: يتبعونه حق اتباعه، ثم قرأ: ﴿وَالْقُرْآنُ إِذَا لُكِّهَ﴾ [الشمس: ٢٢]، يقول: أتبعها. قال: وروى عن عكرمة، وعطاء، ومجاهد، وأبي رزين، وإبراهيم النخعي نحو ذلك.

وقال سفيان الثوري: حدثنا زبيد، عن مرة، عن عبد الله بن مسعود، في قوله: ﴿يَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قال: يتبعونه حق اتباعه. قال القرطبي: وروى نصر بن عيسى، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قال: «يتبعونه حق اتباعه»، ثم قال في إسناده غير واحد من المجهولين فيما ذكره الخطيب إلا أن معناه صحيح. وقال أبو موسى الأشعري: من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة. وعن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: هم الذين إذا مروا بآية رحمة سألوا من الله، وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها، قال: وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ أنه كان إذا مر بآية رحمة سأل، وإذا مر بآية عذاب تعوذ. وقوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾. خبر عن ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكِتَابَ يَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أي: من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته، آمن بما أرسلتك به يا محمد، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَفْقَهُوا تِلْكَ الْآيَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْفَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ الآية [المائدة: ٦٦]. وقال: ﴿قُلْ يَتَأَخَّلُ الْكِتَابَ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُبَيِّنُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨]، أي: إذا أقمتوها حق الإقامة، وآمنت بها حق الإيمان، وصدقتم ما فيها من الأخبار بمبعث محمد ﷺ ونعتيه وصفته والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته، قادكم ذلك إلى الحق واتباع الخير في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ الرُّسُولَ النَّبِيُّ الْأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ كُتُوبًا عَنْهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ الآية [الاعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُنْ مِنْكُمْ شَيْءٌ وَلَا يَكُنْ مِنْكُمْ شَيْءٌ إِلَّا الَّذِي أَرَادَ الْعِلْمُ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يَتْلُو عَلَيْهِمْ يُخَرِّجُونَ لِلَّذِينَ شَكَّاهُ ﴿١٧٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٧٨﴾﴾ [الإسراء: ١٧٧، ١٧٨] أي: إن كان ما وعدنا به من شأن محمد ﷺ لواقعاً. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾ وَلَئِنْ يَتْلُ عَلَيْهِمْ قُلُوبًا قَالُوا مَأْمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَمْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَرَّحُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص: ٢٢-٢٤]. وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأَنْبِيَاءَ مَا سَلَّمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمْتُمْ فَقَدْ أَفْتَدَا قُلُوبُكُمْ فَكَيْفَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ وَاللَّهُ بِمِصْرٍ بِالْبَصَادِ﴾ [ال عمران: ٢٠] ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [هود: ١٧]. وفي الصحيح: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي، إلا دخل النار».

﴿يَنْبَغُ إِشْرَافَ أَذْكَرُوا يَسْتَقِ أَلَى أَنْعَمَتْ عَلَيْكَ وَأَلَى فَصَلَّحُوا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا نَنْفَعُهَا شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة، وكررت ههنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم ونعتهم واسمه وأمره وأمه. يحذروهم من كتمان هذا، وكتمان ما أنعم به عليهم، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم، من النعم الدنيوية والدنيوية، ولا يحسدوا بني عَمَمٍ من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم. ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه، والحيدة عن موافقته، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

﴿وَإِذْ أَخَذَ إِبْرَاهِيمُ رُكُوعَ بَيْتِهِمْ فَاتَّخَذَهُمْ قَالُوكَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَتَّخِذُ الْفَالِطِينَ ﴿١٢٤﴾﴾. يقول تعالى مثبهاً على شرف إبراهيم خليله، عليه السلام، وأن الله تعالى جعله إماماً للناس يقتدى به في التوحيد، حتى قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ إِبْرَاهِيمُ رُكُوعَ بَيْتِهِ﴾ أي: واذكر - يا محمد - لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملّة إبراهيم وليسوا عليها، وإنما الذي هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم، أي: اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي؛ ﴿فَاتَّخَذَهُمْ﴾ أي: قام بهن كلهن، كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧]، أي: وفّى جميع ما شرع له، فعمل به صلوات الله عليه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٦﴾ وَمَا يَنْتَهِي فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَآخِرَةً لِمَنِ الصَّلَاةُ ﴿١٢٧﴾ ثُمَّ أُوحِيَ إِلَيْكَ أَنْ أَتْبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٥-١٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْكَاسِبُ بِإِذْنِهِمْ لَكُنْ أَسْبَغُوهَا وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَكَانَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [ال عمران: ٦٧، ٦٨]. وقوله تعالى: ﴿يَكْفُرُ﴾ أي: بشرائع وأوامر ونواه، فإن الكلمات تطلق، ويراد بها الكلمات القدسية، كقوله تعالى عن مريم، عليها السلام: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْتَائِبِينَ﴾ [التحریم: ١٢]، وتطلق ويراد بها الشرعية، كقوله تعالى: ﴿وَكُنْتَ كَلِمَةً صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي كلماته الشرعية. وهي إما خير صدق، وإما طلب عدل إن كان أمراً أو نهياً، ومن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ إِبْرَاهِيمُ رُكُوعَ بَيْتِهِمْ فَاتَّخَذَهُمْ﴾ أي: قام بهن. قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: جزاء على ما فعل، كما قام

بالأوامر وَتَرَكَ الزَّوْجَرَ، جعله الله للناس قدوة وإماماً يقتدى به، ويحتذى حذوه.

وقد اختلف العلماء في تفسير الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم الخليل، عليه السلام. فروى عن ابن عباس في ذلك روايات: فقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، قال ابن عباس: ابتلاه الله بالمناusk. وكذا رواه أبو إسحاق السبيعي، عن التميمي، عن ابن عباس. وقال عبد الرزاق - أيضاً -: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿وَلَا بُتْلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رُؤْيُ يَكُونُ﴾ قال: ابتلاه الله بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد؛ في الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفَرَقَ الرأس. وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، وتنف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء. قال ابن أبي حاتم: وزُيِّدَ عن سعيد بن المسيب، ومجاهد، والشعبي، والثَّخَفِي، وأبي صالح، وأبي الجلد، نحو ذلك. قلت: وقريب من هذا ما ثبت في صحيح مسلم، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «عَشْرٌ مِنَ الْفَطْرَةِ: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، وتنف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء» قال مصعب: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة. قال وكيع: انتقاص الماء، يعني: الاستنجاء. وفي الصحيحين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «الْفَطْرَةُ خمس: الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، وتنف الإبط». ولغظه لمسلم. وقال ابن أبي حاتم: أنبأنا يونس بن عبد الأعلى، قراءة، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن ابن هبيرة، عن حَسَن بن عبد الله الصنعاني، عن ابن عباس: أنه كان يقول في هذه الآية: ﴿وَلَا بُتْلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رُؤْيُ يَكُونُ فَاتَمَّهُنَّ﴾، قال: عَشْرٌ، ست في الإنسان، وأربع في المشاعر. فأما التي في الإنسان: حلق العانة، وتنف الإبط، والختان. وكان ابن هبيرة يقول: هؤلاء الثلاثة واحدة. وتقليم الأظفار، وقص الشارب، والسواك، وغسل يوم الجمعة. والأربعة التي في المشاعر: الطواف، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار، والإفاضة.

وقال داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: ما ابتلي بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا بُتْلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رُؤْيُ يَكُونُ فَاتَمَّهُنَّ﴾ قلت له: وما الكلمات التي ابتلى الله إبراهيم بهن فأتَمَّهن؟ قال: الإسلام ثلاثون سهماً، منها عشر آيات في براءة: ﴿التَّائِبِينَ الَّذِينَ لَمْ يُدْخِلُوا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ (النوبة: ١١٢)، وعشر آيات في أول سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) و ﴿سَأَلَكُمُ الْمَلَأَ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ (٢) وعشر آيات في الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ (الأحزاب: ٣٥) إلى آخر الآية، فأتَمَّهن كلهن، فكتبت له براءة. قال الله: ﴿وَلَا يُزِيهِمُ الَّذِي وَفَّى﴾ (النجم: ٣٧). هكذا رواه الحاكم، وأبو جعفر بن جرير، وأبو محمد بن أبي حاتم، بأسانيدهم إلى داود بن أبي هند، به. وهذا لفظ ابن أبي حاتم. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس، قال: الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأتَمَّهن: فراق قومه - في الله - حين أمر بمفارقتهم. ومحاجته نمرود - في الله - حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلافه. وصبره على قذفه إياه في النار ليجرقوه - في الله - على هول ذلك من أمرهم. والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده - في الله - حين أمره بالخروج عنهم، وما أمره به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله، وما ابتلي به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه، فلما مضى على ذلك من الله كله وأخلصه للبلاء، قال الله له: ﴿أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على ما كان من خلاف الناس وفراقهم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا إسماعيل بن عُلَيْيَة، عن أبي رجاء، عن الحسن - يعني البصري - : ﴿وَلَا بُتْلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رُؤْيُ يَكُونُ فَاتَمَّهُنَّ﴾ قال: ابتلاه بالكوكب فرضي عنه، وابتلاه بالقمر فرضي عنه، وابتلاه بالشمس فرضي عنه، وابتلاه بالهجرة فرضي عنه، وابتلاه بالختان فرضي عنه، وابتلاه بابنه فرضي عنه. وقال ابن جرير: حدثنا بشر بن معاذ، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، حدثنا سعيد، عن قتادة، قال: كان الحسن يقول: إي والله، ابتلاه بأمر فصبر عليه: ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر، فأحسن في ذلك، وعرف أن ربه دائم لا يزول، فوجه وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما كان من المشركين. ثم ابتلاه بالهجرة فخرج من بلاده وقومه حتى لحق بالشام مهاجراً إلى الله، ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة فصبر على ذلك. وابتلاه الله بذبح ابنه والختان فصبر على ذلك.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن سمع الحسن يقول في قوله: ﴿وَلَا بُتْلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رُؤْيُ يَكُونُ فَاتَمَّهُنَّ﴾ قال: ابتلاه الله بذبح ولده، وبالنار، والكواكب، والشمس، والقمر. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا سَلَم بن قتيبة، حدثنا أبو هلال، عن الحسن: ﴿وَلَا بُتْلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رُؤْيُ يَكُونُ فَاتَمَّهُنَّ﴾ قال: ابتلاه بالكوكب، وبالشمس، والقمر، فوجده صابراً. وقال العوفي في تفسيره، عن ابن عباس: ﴿وَلَا بُتْلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رُؤْيُ يَكُونُ فَاتَمَّهُنَّ﴾ فمنهن: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، ومنهن: ﴿وَلَا يَقَعُ إِبْرَاهِيمُ الْفَوَاحِشَ مِنَ الْبَيْتِ وَلَا يَسْتَعِيلُ﴾، ومنهن: الآيات في شأن المنسك والمقام الذي جعل لإبراهيم، والرزق الذي رزق ساكنو البيت،

ومحمد بعث في دينهما. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا شبابة، عن ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّبِعْ إِبْرَاهِيمَ رُءُوسَهُمْ فَأَتَمَّهُمْ﴾ قال الله لإبراهيم: إني مبتليك بأمر فما هو؟ قال: تجعلني للناس إماماً. قال: نعم. قال: ومن ذريتي؟ ﴿قَالَ لَا يَتَّالِ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. قال: تجعل البيت مثابة للناس؟ قال: نعم. قال: وأمناء. قال: نعم. قال: وتجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك؟ قال: نعم. قال: وترزق أهل من الثمرات من آمن منهم بالله؟ قال: نعم. قال ابن أبي نجيح: سمعته عن عكرمة، فعرضته على مجاهد، فلم ينكره. وهكذا رواه ابن جرير من غير وجه، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد. وقال سفيان الثوري، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿وَلَا يَتَّبِعْ إِبْرَاهِيمَ رُءُوسَهُمْ فَأَتَمَّهُمْ﴾، قال: ابتلي بالآيات التي بعدها: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَتَّالِ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس: ﴿وَلَا يَتَّبِعْ إِبْرَاهِيمَ رُءُوسَهُمْ فَأَتَمَّهُمْ﴾ قال: الكلمات: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وقوله: ﴿وَلَا جَعَلْنَا آلِيَّكَ مَتَابَةً لِلنَّاسِ وَأَنْتَا﴾، وقوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وقوله: ﴿وَعَصَيْنَا إِلَّا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ الآية، قال: فذلك كله من الكلمات التي ابتلي بهن إبراهيم. وقال السدي: الكلمات التي ابتلي بهن إبراهيم ربه: ﴿رَبَّنَا قَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾، ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾.

وقال القرطبي: وفي الموطأ وغيره، عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: إبراهيم، عليه السلام، أول من اختتن وأول من ضاف الضيف، وأول من استحد، وأول من قلم أظفاره، وأول من قص الشارب، وأول من شاب فلما رأى الشيب، قال: ما هذا؟ قال: وقار، قال يا رب، زدني وقاراً. وذكر ابن أبي شيبه، عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه، قال: أول من خطب على المنابر إبراهيم، عليه السلام، قال غيره: وأول من برّد البريد، وأول من ضرب بالسيف، وأول من استاك، وأول من استنجد بالماء، وأول من لبس السراويل، وروى معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «إن اتخذ المنبر فقد اتخذ أبي إبراهيم، وإن اتخذ العصا فقد اتخذها أبي إبراهيم» قلت: هذا حديث لا يثبت، والله أعلم. ثم شرع القرطبي يتكلم على ما يتعلق بهذه الأشياء من الأحكام الشرعية. قال أبو جعفر بن جرير ما حاصله: أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر، وجائز أن يكون بعض ذلك، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع. قال: ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له. قال: غَيَّرَ أَنَّهُ قَدْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي نَظِيرٍ مَعْنَى ذَلِكَ خَبْرَانِ، أَحَدُهُمَا: مَا حَدَّثَنَا بِهِ أَبُو كُرَيْبٍ، حَدَّثَنَا رَشْدِينَ بْنُ سَعْدٍ، حَدَّثَنِي زِيَادُ بْنُ فَاثِدٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ مَعَاذٍ بْنِ أَنَسٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ لِمَ سَمَى اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَهُ ﴿الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]؟ لَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ كَلِمًا أَصْبَحَ وَكَلِمًا أَمْسَى: ﴿مُسَبِّحُنَا اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] حَتَّى يَخْتَمَ الْآيَةَ». قَالَ: وَالْآخَرُ مِنْهُمَا: حَدَّثَنَا بِهِ أَبُو كُرَيْبٍ، أَخْبَرَنَا الْحَسَنُ، عَنْ عَطِيَّةٍ، أَخْبَرَنَا إِسْرَائِيلَ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ الزَّبِيرِ، عَنِ الْقَاسِمِ، عَنْ أَبِي أَمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٤] أَلَا تَدْرُونَ مَا وَفَى؟». قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «وَفَّى عَمَلُ يَوْمِهِ، أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ فِي النَّهَارِ». وَرَوَاهُ آدَمُ فِي تَفْسِيرِهِ، عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ. وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، عَنْ يُونُسَ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ الزَّبِيرِ، بِهِ. ثُمَّ شَرَعَ ابْنُ جَرِيرٍ يَضَعُ هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ، وَهُوَ كَمَا قَالَ؛ فَإِنَّهُ لَا تَجُوزُ رَوَايَتُهُمَا إِلَّا بَيَانِ ضَعْفِهِمَا، وَضَعْفُهُمَا مِنْ وَجْهِ عَدِيدَةٍ، فَإِنَّ كَلَامَ ابْنِ السَّنْدِينِ مُشْتَمِلٌ عَلَى غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الضَّعْفِ، مَعَ مَا فِي مَتْنِ الْحَدِيثِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى ضَعْفِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ الَّذِي قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَأَبُو صَالِحٍ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ أَوْلَى بِالصَّوَابِ مِنَ الْقَوْلِ الَّذِي قَالَهُ غَيْرُهُمْ كَانَ مَذْهَبًا، فَإِنْ قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وقوله: ﴿وَعَصَيْنَا إِلَّا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهَّرَا بَنِيَّ لِلظَّالِمِينَ﴾ وسائر الآيات التي هي نظير ذلك، كالبیان عن الكلمات التي ذكر الله أنه ابتلي بهن إبراهيم.

قلت: والذي قاله أولاً من أن الكلمات تشمل جميع ما ذكر، أقوى من هذا الذي جوزه من قول مجاهد ومن قال مثله؛ لأن السياق يعطي غير ما قالوه، والله أعلم. وقوله: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَتَّالِ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾: لما جعل الله إبراهيم إماماً، سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته، فأجيب إلى ذلك، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون، وأنه لا ينالهم عهد الله، ولا يكونون أئمة فلا يقتدي بهم. والدليل على أنه أجيب إلى طلبه قول الله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْكَتَبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فكل نبي أرسله الله، وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم، ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه. وأما قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَتَّالِ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فقد اختلفوا في ذلك، فقال خصيف، عن مجاهد في قوله: ﴿قَالَ لَا يَتَّالِ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: إنه سيكون في ذريتك ظالمون. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿قَالَ لَا يَتَّالِ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: لا يكون

لي إمام ظالم يقتدى به. وفي رواية: لا أجعل إماماً ظالماً يَفْتَدَى به. وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِلَ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: لا يكون إمام ظالم يقتدى به. وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبي، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا شريك، عن منصور، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَيَنْتَظِرُ يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ قال: أما من كان منهم صالحاً فسأجعله إماماً يقتدى به. وأما من كان ظالماً فلا ولا نعمة عين. وقال سعيد بن جبير: ﴿لَا يَأْتِلَ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾: المراد به المشرك، لا يكون إمام ظالم. يقول: لا يكون إمام مشرك. وقال ابن جريج، عن عطاء، قال: ﴿إِنِّي جَائِعٌ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَنَ دُرَيْتِي﴾. فإني أن يجعل من ذريته إماماً ظالماً. قلت لعطاء: ما عهده؟ قال: أمره. وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا عمرو بن ثور القيساري فيما كتب إلى، حدثنا الفريابي، حدثنا إسرائيل، حدثنا سماك بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال الله لإبراهيم: ﴿إِنِّي جَائِعٌ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَنَ دُرَيْتِي﴾. فإني أن يفعل، ثم قال: ﴿لَا يَأْتِلَ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس: ﴿قَالَ وَنَ دُرَيْتِي قَالَ لَا يَأْتِلَ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾: يخبره أنه كائن في ذريته ظالم لا ينال عهده. ولا ينبغي له أن يوليه شيئاً من أمره وإن كان من ذرية خليله - ومحسن ستفد فيه دعوته، وتبلغ له فيه ما أراد من مسألته. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿لَا يَأْتِلَ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: يعني لا عهد لظالم عليك في ظلمه، أن تطيعه فيه. وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله، عن إسرائيل، عن مسلم الأعور، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: ﴿لَا يَأْتِلَ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: ليس للظالمين عهد، وإن عاهدته فانتقضه. وروي عن مجاهد، وعطاء، ومقاتل بن حيان، نحو ذلك. وقال الثوري، عن هارون بن عنترة، عن أبيه، قال: ليس لظالم عهد. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن قتادة، في قوله: ﴿لَا يَأْتِلَ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: لا ينال عهد الله في الآخرة الظالمين، فأما في الدنيا فقد ناله الظالم فأمن به، وأكل وعاش. وكذا قال إبراهيم النخعي، وعطاء، والحسن، وعكرمة. وقال الربيع بن أنس: عهد الله الذي عهد إلى عباده: دينه، يقول: لا ينال دينه الظالمين، ألا ترى أنه قال: ﴿وَنَزَعْنَا عَنْكَ إِنْشِقَاقَ وَنَ دُرَيْتِي هَمَا مَحِينٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مَبِيتٌ﴾ [الصفحات: ١١٣]، يقول: ليس كل ذريتك يا إبراهيم على الحق. وكذا روي عن أبي العالية، وعطاء، ومقاتل بن حيان. وقال جوير، عن الضحاك: لا ينال طاعتي عدو لي يعصيني، ولا أنحلها إلا ولياً لي يطيعني. وقال الحافظ أبو بكر بن مرزويه: حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن حامد، حدثنا أحمد بن عبد الله بن سعيد الأسدي، حدثنا سليم بن سعيد الدامغاني، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن علي بن أبي طالب، عن النبي ﷺ، قال: ﴿لَا يَأْتِلَ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، قال: «لا طاعة إلا في المعروف». وقال السدي: ﴿لَا يَأْتِلَ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ يقول: عهدي نبوتي. فهذه أقوال مفسري السلف في هذه الآية على ما نقله ابن جرير، وابن أبي حاتم، رحمهما الله تعالى. واختار ابن جرير أن هذه الآية - وإن كانت ظاهرة في الخبر - أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالماً. ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل، عليه السلام، أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه، كما تقدم عن مجاهد وغيره، والله أعلم.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَّكَاتٍ لِلنَّاسِ وَأَكْنُا وَاجْتَدُوا مِنْ مَقَارِ إِزْهَقَ مَصْلٌ﴾

قال العوفي، عن ابن عباس: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَّكَاتٍ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لا يقضون منه وطراً، يأتونه، ثم يرجعون إلى أهلهم، ثم يعودون إليه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿مَّكَاتٍ لِلنَّاسِ﴾، يقول: يثوبون. رواهما ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبي، أخبرنا عبد الله بن رجاء، أخبرنا إسرائيل، عن مسلم، عن مجاهد، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَّكَاتٍ لِلنَّاسِ﴾ قال: يثوبون إليه ثم يرجعون. قال: وروي عن أبي العالية، وسعيد بن جبير - في رواية - وعطاء، ومجاهد، والحسن، وعطية، والربيع بن أنس، والضحاك، نحو ذلك. وقال ابن جرير: حدثني عبد الكريم بن أبي عمير، حدثني الوليد بن مسلم قال: قال أبو عمرو - يعني الأوزاعي - حدثني عبدة بن أبي لبابة، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَّكَاتٍ لِلنَّاسِ﴾ قال: لا ينصرف عنه منصرف وهو يرى أنه قد قضى منه وطراً. وحدثني يونس، عن ابن وهب، قال: قال ابن زيد: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَّكَاتٍ لِلنَّاسِ﴾ قال: يثوبون إليه من البلدان كلها ويأتونه. وما أحسن ما قال الشاعر في هذا المعنى، أورده القرطبي:

جعل البيت مثاباً لهم ليس منه الدهر يقضون الوطر
وقال سعيد بن جبير - في الرواية الأخرى - وعكرمة، وقتادة، وعطاء الخراساني ﴿مَّكَاتٍ لِلنَّاسِ﴾ أي: مجمعا. ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَّكَاتٍ لِلنَّاسِ﴾

الضحاك عن ابن عباس: أي أَمْنًا للناس. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَنَّا يَقُولُ: أَمْنًا مِنَ الْعَدُوِّ، وَأَن يُخَمَّلَ فِيهِ السِّلَاحُ. وَقَدْ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ، وَهُمْ آمَنُونَ لَا يُشَبِّهُونَ. وَرَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ، وَعَطَاءٍ، وَالسَّدي، وَقَتَادَةَ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، قَالُوا: مَنْ دَخَلَ كَانَ آمِنًا. وَمُضْمُونُ مَا فَسَّرَ بِهِ هَؤُلَاءِ الْأَثْمَةُ هَذِهِ الْآيَةُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَذْكُرُ شَرَفَ الْبَيْتِ، وَمَا جَعَلَهُ مَوْصُوفًا بِهِ شَرعًا وَقَدْرًا، مِنْ كَوْنِهِ مَثَابَةً لِلنَّاسِ، أَي: جَعَلَهُ مَحَلًّا تَشْتَقُّ إِلَيْهِ الْأَرْوَاحُ وَتَحَنُّنٌ إِلَيْهِ، وَلَا تَقْضِي مِنْهُ وَطْرًا، وَلَوْ تَرَدَّدَتْ إِلَيْهِ كُلُّ عَامٍ، اسْتِجَابَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِدَعَاءِ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً يَبِغُ الْآثِينَ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿وَرَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٣٧-٤٠]. وَيُصِفُهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ جَعَلَهُ آمِنًا، مَنْ دَخَلَ أَمِنَ، وَلَوْ كَانَ قَدْ فَعَلَ مَا فَعَلَ ثُمَّ دَخَلَ كَانَ آمِنًا. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ: كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى قَاتِلَ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ فِيهِ فَلَا يَغْرُضُ لَهُ. كَمَا وَصَفَهَا فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، أَي: يُزْفَعُ عَنْهُمْ بِسَبَبِ تَعْظِيمِهَا السُّوءَ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَوْ لَمْ يَحِجَّ النَّاسُ هَذَا الْبَيْتَ لَأَطْبَقَ اللَّهُ السَّمَاءَ عَلَى الْأَرْضِ، وَمَا هَذَا الشَّرَفُ إِلَّا لَشَرَفِ بَانِيهِ أَوَّلًا وَهُوَ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ بَازُواكَ لِتُزَيِّمَ مَكَانَ الْآيَاتِ أَن لَّا تُفْلِكَ فِي شَيْءٍ﴾ [الحج: ٢٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِّلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

وفي هذه الآية الكريمة نبّه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده، فقال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وقد اختلف المفسرون في المراد بالمقام ما هو؟ فقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن شُبَّه النُميري، حدثنا أبو خلف - يعني عبد الله بن عيسى - حدثنا داود بن أبي هند، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قال: مقام إبراهيم: الحرم كله. وروى عن مجاهد وعطاء مثل ذلك. وقال أيضاً: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، قال: سألت عطاء عن ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، فقال: سمعت ابن عباس قال: أما مقام إبراهيم الذي ذكره هنا، فمقام إبراهيم هذا الذي في المسجد. ثم قال: و ﴿مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾: يعد كثير، «مقام إبراهيم»: الحج كله. ثم فسره لي عطاء فقال: التعريف، وصلتان بعرفة، والمشعر، ومنى، ورمي الجمار، والطواف بين الصفا والمروة. فقلت: أفسره ابن عباس؟ قال: لا. ولكن قال: مقام إبراهيم: الحج كله. قلت: أسمعت ذلك؟ لهذا أجمع. قال: نعم، سمعته منه.

وقال سفيان الثوري، عن عبد الله بن مسلم، عن سعيد بن جببر: «وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامٍ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى» قال: الحجر مقام إبراهيم نبي الله، قد جعله الله رحمة، فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجارة. ولو غسل رأسه كما يقولون لاختلف رجلاه. وقال السدي: المقام: الحجر الذي وضعت زوجته إسماعيل تحت قدم إبراهيم حتى غسلت رأسه. حكاه القرطبي، وضعفه ورجحه غيره، وحكاه الرازي في تفسيره عن الحسن البصري وقتادة والربيع بن أنس. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، عن ابن جُرَيْج، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، سمع جابراً يحدث عن حجة النبي ﷺ قال: لما طاف النبي ﷺ قال له عمر: هذا مقام أبينا إبراهيم؟ قال: نعم. قال: أفلا نتخذة مصلى؟ فأنزل الله، ﷻ: «وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامٍ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى». وقال عثمان بن أبي شيبة: أخبرنا أبو أسامة، عن زكريا، عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة قال: قال عمر: قلت: يا رسول الله، هذا مقام خليل ربنا؟ قال: نعم. قال: أفلا نتخذة مصلى؟ فنزلت: «وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامٍ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى». وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا دَعْلَج بن أحمد، حدثنا غيلان بن عبد الصمد، حدثنا مسروق بن المَرزبان، حدثنا زكريا بن أبي زائدة، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عمر بن الخطاب، أنه مرَّ بمقام إبراهيم، فقال: يا رسول الله، أليس نقوم مقام خليل ربنا؟ قال: «بلى». قال: أفلا نتخذة مصلى؟ فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت: «وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامٍ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى». وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن محمد القزويني، حدثنا علي بن الحسين بن الجندب، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد، عن مالك بن أنس، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر، قال: لما وقف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة عند مقام إبراهيم، قال له عمر: يا رسول الله، هذا مقام إبراهيم الذي قال الله: «وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامٍ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى»؟ قال: «نعم». قال الوليد: قلت لمالك: هكذا حدثك «وَأَتَّخِذُوا»؟ قال: نعم. هكذا وقع في هذه الرواية. وهو غريب. وقد روى النسائي من حديث الوليد بن مسلم، نحوه. وقال البخاري: باب قوله: «وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامٍ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى»: مثابة: يثوبون يرجعون.

حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا يحيى، عن حميد، عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب: وافقت ربي في ثلاث، أو وافقني ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾. وقلت: يا

رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آية الحجاب. وقال: وبلغني مُعَاتِبَةُ النبي ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهن فقلت: إن انتهيتن أو لبيدكن الله رسوله خيراً منكن، حتى أتيت إحدى نسائه، فقلت: يا عمر، أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟! فأنزل الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْزَاقًا خَيْرًا مِنْكَ﴾ الآية [التحریم: ٥]. وقال ابن أبي مريم: أخبرنا يحيى بن أيوب، حدثني حميد، قال: سمعت أنساً عن عمر، رضي الله عنهما. هكذا ساقه البخاري ههنا، وعلقت الطريق الثانية عن شيخه سعيد بن الحكم المعروف بابن أبي مريم المصري. وقد تفرد بالرواية عنه البخاري من بين أصحاب الكتب الستة. وروى عنه الباقر بواسطه، وغرضه من تعليق هذا الطريق لبيبن فيه اتصال إسناد الحديث، وإنما لم يسنده؛ لأن يحيى بن أيوب الغافقي فيه شيء، كما قال الإمام أحمد فيه: هو سيء الحفظ، والله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم، حدثنا حَمِيد، عن أنس، قال: قال عمر، رضي الله عنه: وافقت ربي، ﷺ، في ثلاث، قلت: يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن؟ فنزلت آية الحجاب. واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه في الغيرة. فقلت لهن: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْزَاقًا خَيْرًا مِنْكَ﴾ [التحریم: ٥] فنزلت كذلك. ثم رواه أحمد، عن يحيى وابن أبي عدي، كلاهما عن حميد، عن أنس، عن عمر أنه قال: وافقت ربي في ثلاث، أو وافقت ربي في ثلاث، فذكره. وقد رواه البخاري عن عُمر بن عُفْرٍ، والترمذي عن أحمد بن منيع، والنسائي عن يعقوب بن إبراهيم الدورقي، وابن ماجه عن محمد بن الصباح، كلهم عن هُشَيْم بن بشير، به. ورواه الترمذي - أيضاً - عن عبد بن حميد، عن حجاج بن منهال، عن حماد بن سلمة. والنسائي عن هناد، عن يحيى بن أبي زائدة، كلاهما عن حميد، وهو ابن تيزويه الطويل، به. وقال: هذا من صحيح الحديث، الترمذي: حسن صحيح. ورواه الإمام علي بن المديني، عن يزيد بن زريع، عن حميد، به. وقال: هذا من صحيح الحديث، وهو بصري، ورواه الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه بسند آخر، ولفظ آخر، فقال: حدثنا عقبة بن مكرم، أخبرنا سعيد بن عامر، عن جويرية بن أسماء، عن نافع، عن ابن عمر، عن عمر، قال: وافقت ربي في ثلاث: في الحجاب، وفي أسارى بدر، وفي مقام إبراهيم.

وقال أبو حاتم الرازي: حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثنا حميد الطويل، عن أنس بن مالك، قال: قال عمر بن الخطاب: وافقت ربي في ثلاث - أو وافقت ربي - قلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وقلت: يا رسول الله، لو حجبت النساء؟ فنزلت آية الحجاب. والثالثة: لما مات عبد الله بن أبي جاه رسول الله ﷺ ليصلي عليه. قلت: يا رسول الله، تصلي على هذا الكافر المنافق! فقال: «إيهأ عنك يا بن الخطاب»، فنزلت: ﴿وَلَا صَلَّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤]. وهذا إسناد صحيح أيضاً، ولا تعارض بين هذا ولا هذا، بل الكل صحيح، ومفهوم العدد إذا عارضه منطوق قدم عليه، والله أعلم. وقال ابن جرير: أخبرني جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر: أن رسول الله ﷺ رمى ثلاثة أشواط، ومشى أربعاً، حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين، ثم قرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وقال ابن جرير: حدثنا يوسف بن سلمان، حدثنا حاتم بن إسماعيل، حدثنا جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر قال: استلم رسول الله ﷺ الركن، فرمل ثلاثاً، ومشى أربعاً، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم، فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلى ركعتين. وهذا قطعة من الحديث الطويل الذي رواه مسلم في صحيحه، من حديث حاتم بن إسماعيل. وروى البخاري بسنده، عن عمرو بن دينار، قال: سمعت ابن عمر يقول: قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعاً، وصلى خلف المقام ركعتين. فهذا كله مما يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحجر الذي كان إبراهيم، عليه السلام، يقوم عليه لبناء الكعبة، لما ارتفع الجدار آناه إسماعيل، عليه السلام، به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار، كلما كُمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى، يطوف حول الكعبة، وهو واقف عليه، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها هكذا، حتى تم جدارات الكعبة، كما سيأتي بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت، من رواية ابن عباس عند البخاري. وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفاً تعرفه العرب في جاهليتها؛ ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة اللامية:

ومَوطىء إبراهيم في الضخَر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل
وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضاً. وقال عبد الله بن وهب: أخبرني يونس بن يزيد، عن ابن شهاب: أن أنس بن مالك حدثهم، قال: رأيت المقام فيه أثر أصابعه، عليه السلام، وأخمص قدميه، غير أنه أذهب مسخ الناس بأيديهم. وقال ابن جرير:

حدثنا بشر بن معاذ، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا سعيد، عن قتادة: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِرِ إِبْرَاهِيمَ مَثَلًا﴾: إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه. ولقد تكلفت هذه الأمة شيئاً ما تكلفته الأمم قبلها، ولقد ذُكر لنا من رأى أثر عقبيه وأصابه فيه، فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتى اخلوق وانمحي. قلت: وقد كان المقام ملتصقاً بجدار الكعبة قديماً، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمتد الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك، وكان الخليل، عليه السلام، لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك؛ ولهذا - والله أعلم - أمر بالصلاة هناك عند فراغ الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه، وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عُمَرُ بن الخطاب، رضي الله عنه، وهو أحد الأئمة المهيدين والخلفاء الراشدين، الذين أُمِرنا باتباعهم، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ: «اقتدوا بالَّذِينَ من بعدي أبي بكر وعمر». وهو الذي نزل القرآن بوفاقه في الصلاة عنده؛ ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين. قال عبد الرزاق، عن ابن جُرَيْج، حدثني عطاء وغيره من أصحابنا، قالوا: أول من نقله عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. وقال عبد الرزاق أيضاً، عن معمر، عن حميد الأعرج، عن مجاهد قال: أول من أخر المقام إلى موضعه الآن، عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي: أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان، أخبرنا القاضي أبو بكر أحمد بن كامل، حدثنا أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل السلمي، حدثنا أبو ثابت، حدثنا الدراوردي، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها: أن المقام كان في زمان رسول الله ﷺ وزمان أبي بكر ملتصقاً بالبيت، ثم أخره عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. وهذا إسناد صحيح مع ما تقدم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر العَدَنِي قال: قال سفيان - يعني ابن عيينة وهو إمام المكيين في زمانه - كان المقام في سُفْع البيت على عهد رسول الله ﷺ، فحوّله عمر إلى مكانه بعد النبي ﷺ وبعد قوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِرِ إِبْرَاهِيمَ مَثَلًا﴾ قال: ذهب السيل به بعد تحويل عمر إياه من موضعه هذا، فردّه عمر إليه. وقال سفيان: لا أدري كم بينه وبين الكعبة قبل تحويله. قال سفيان: لا أدري أكان لاصقاً بها أم لا؟. فهذه الآثار متعاضدة على ما ذكرناه، والله أعلم. وقد قال الحافظ أبو بكر بن مَرْذُويه: حدثنا أبو عمرو، حدثنا محمد بن عبد الوهاب، حدثنا آدم، حدثنا شريك، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، قال: قال عمر: يا رسول الله، لو صلينا خلف المقام؟ فأنزل الله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِرِ إِبْرَاهِيمَ مَثَلًا﴾. فكان المقام عند البيت، فحوّله رسول الله ﷺ إلى موضعه هذا. قال مجاهد: قد كان عمر يرى الرأي فينزل به القرآن. هذا مرسل عن مجاهد، وهو مخالف لما تقدم من رواية عبد الرزاق، عن معمر، عن حميد الأعرج، عن مجاهد أن أول من أخر المقام إلى موضعه الآن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وهذا أصح من طريق ابن مَرْذُويه، مع اعتضاد هذا بما تقدم، والله أعلم.

﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ مَلَكًا يَتَّبِعُ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَيِّبِينَ وَالرُّكَّعِ الشُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آيَاتًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مِنْ أَمْرِ إِلَهِهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِ وَالْزَّوْجِ الْأَخْرَجَ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأَتَتْهُمْ قِيلًا ثُمَّ انْقَضَتْهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيَسَّ الْمَعِجِدُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَقَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾.

قال الحسن البصري: قوله: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ قال: أمرهما الله أن يطهرا من الأذى والتنجس ولا يصيبه من ذلك شيء. وقال ابن جريج: قلت لعطاء: ما عهده؟ قال: أمره. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: أمرناه. كذا قال: والظاهر أن هذا الحرف إنما عُدِّي بآلي؛ لأنه في معنى: تقدمنا وأرحينا. وقال سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، قوله: ﴿أَنَّ مَلَكًا يَتَّبِعُ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَيِّبِينَ﴾ قال: من الأوثان. وقال مجاهد وسعيد بن جبیر: ﴿مَلَكًا يَتَّبِعُ لِلطَّائِفِينَ﴾: إن ذلك من الأوثان والرفث وقول الزور والرجس. قال ابن أبي حاتم: وزوي عن عُبَيْد بن عمير، وأبي العالية، وسعيد بن جبیر، ومجاهد، وعطاء، وقاتدة: ﴿أَنَّ مَلَكًا يَتَّبِعُ﴾ أي: بلا إله إلا الله، من الشرك. وأما قوله تعالى: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ فالطواف بالبيت معروف، وعن سعيد بن جبیر أنه قال في قوله تعالى: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ يعني: من أتاه من غُزْبَةٍ، ﴿وَالْمُكَيِّبِينَ﴾: المقيمين فيه. وهكذا روي عن قتادة، والربيع بن أنس: أنهما فسرا العاكفين بأهله المقيمين فيه، كما قال سعيد بن جبیر. وقال يحيى بن القطان، عن عبد الملك - هو ابن أبي سليمان - عن عطاء في قوله: ﴿وَالْمُكَيِّبِينَ﴾ قال: من انتابه من الأمصار فأقام عنده، وقال لنا: ونحن مجاورون -: أنتم من العاكفين. وقال وكيع، عن أبي بكر الهذلي، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: إذا كان جالساً فهو من العاكفين. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت، قال:

قلت لعبد الله بن عبيد بن عمير: ما أراني إلا منكلم الأمير أن أمنع الذين ينامون في المسجد الحرام، فإنهم يجنبون ويحدثون. قال: لا تفعل، فإن ابن عمر سئل عنهم، فقال: هم العاكفون.

ورواه عبد بن حميد عن سليمان بن حرب عن حماد بن سلمة، به. قلت: وقد ثبت في الصحيح أن ابن عمر كان ينام في مسجد الرسول ﷺ وهو عَزَب. وأما قوله تعالى: ﴿وَالرُّكُوعَ الشُّجُودَ﴾: فقال وكيع، عن أبي بكر الهذلي، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿وَالرُّكُوعَ الشُّجُودَ﴾: قال: إذا كان مصلياً فهو من الركع السجود. وكذا قال عطاء وقتادة. وقال ابن جرير، رحمه الله: فمعنى الآية: وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفتين. والتطهير الذي أمرهما به في البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومن الشرك. ثم أورد سؤالاً فقال: فإن قيل: فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت شيء من ذلك الذي أمر بتطهيره منه؟ وأجاب بوجهين، أحدهما: أنه أمرهما بتطهيره مما كان يعبد عنده زمان قوم نوح من الأصنام والأوثان، ليكون ذلك سنة لمن بعدهما، إذ كان الله تعالى قد جعل إبراهيم إماماً يقتدى به، كما قال عبد الرحمن بن زيد: ﴿أَن طَهَّرَا بَيْتِي﴾: قال: من الأصنام التي يعبدون، التي كان المشركون يعظمونها. قلت: وهذا الجواب مُفْرَعٌ على أنه كان يُعْبَدُ عنده أصنام قبل إبراهيم، عليه السلام، ويحتاج إثبات هذا إلى دليل عن المعصوم مُحْتَمِلٌ. الجواب الثاني: أنه أمرهما أن يخلصا في بنائه لله وحده لا شريك له، فبيناهما مطهراً من الشرك والريب، كما قال جل ثناؤه: ﴿أَقَمْنَا اسْمَكَ عَلَى الْبَيْتِ عَلَى تَقْوَى مِنَّا اللَّهُ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنَ اسْتَسَّ بِئْسَ كُفْرًا عَلَى شَفَا جُرْئِي هَٰذَا﴾ [التوبة: ١٠٩]. قال: فكذلك قوله: ﴿وَعَهْدًا إِلَيْنَا إِبراهيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهَّرَا بَيْتِي﴾: أي: ابنيا بيتي على طهر من الشرك بي والريب، كما قال السدي: ﴿أَن طَهَّرَا بَيْتِي﴾: ابنيا بيتي للطائفتين. وملخص هذا الجواب: أن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، أن يبنيا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له، للطائفتين به والعاكفين عنده، والمصلين إليه من الركع السجود، كما قال تعالى: ﴿وَرَدَّ بِأُكُلَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَن لَا تُشْرِكُوا بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦-٢٧]. وقد اختلف الفقهاء: أيما أفضل، الصلاة عند البيت أو الطواف؟ فقال مالك: الطواف به لأهل الأمصار أفضل من الصلاة عنده، وقال الجمهور: الصلاة أفضل مطلقاً، وتوجيه كل منهما يذكر في كتاب الأحكام.

والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته، المؤسس على عبادته وحده لا شريك له، ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْحَكِيمَ الَّذِي جَعَلَنَهُ لِلنَّاسِ سَوَاءَ الْعَنَافِ فِيهِ وَالْبَاءُ وَمَنْ يُدْرِ فِيهِ بِالْحَكِيمِ يَطْلُبُ ثَوَقَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٢٥]. ثم ذكر أن البيت إنما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له، إما بطواف أو صلاة، فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة: قيامها، وركوعها، وسجودها، ولم يذكر العاكفين لأنه تقدم ﴿سَوَاءَ الْعَنَافِ فِيهِ وَالْبَاءُ﴾ في هذه الآية الكريمة ذكر الطائفتين والعاكفين، واجتزأ بذكر الركوع والسجود عن القيام؛ لأنه قد علم أنه لا يكون ركوع ولا سجود إلا بعد قيام. وفي ذلك - أيضاً - رد على من لا يحججه من أهل الكتابين: اليهود والنصارى؛ لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وعظمته، ويعلمون أن بني هذا البيت للطواف في الحج والعمرة، وغير ذلك، وللاعتكاف والصلاة عنده، وهم لا يفعلون شيئاً من ذلك، فكيف يكونون مقتدين بالخليل، وهم لا يفعلون ما شرع الله له! وقد حَجَّ البيت موسى بن عمران وغيره من الأنبياء، عليهم السلام، كما أخبر بذلك المعصوم، الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إِنَّهُ هُوَ إِلَهًا وَهِيَ يَوْمَئِذٍ﴾ [النجم: ٤]. وتقدير الكلام إذا: ﴿وَعَهْدًا إِلَيْنَا إِبراهيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾: أي: تقدمنا لوحيدنا إلى إبراهيم وإسماعيل ﴿أَن طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾: أي: طهرا من الشرك والريب، وابنياه خالصاً لله، معقلاً للطائفتين والعاكفين والركع السجود. وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية، ومن قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمِئِذٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تَرْفَعَ وَيَلْعَنَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْأَشْدِّ وَالْأَصْوَالِ﴾ [النور: ٣٦]. ومن السنة من أحاديث كثيرة، من الأمر بتطهيرها وتطبيخها وغير ذلك، من صيانتها من الأذى والنجاسات وما أشبه ذلك. ولهذا قال، عليه السلام: «إنما بنيت المساجد لما بنيت له». وقد جَمَعْتُ في ذلك جزءاً على حدة، والله الحمد والممنة.

وقد اختلف الناس في أول من بنى الكعبة، فقيل: الملائكة قبل آدم، وروي هذا عن أبي جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين، ذكره القرطبي وحكى لفظه، وفيه غرابة، وقيل: آدم، عليه السلام، رواه عبد الرزاق عن ابن جريج، عن عطاء وسعيد بن المسيب وغيرهم: أن آدم بناه من خمسة أجبل: من حراء وطور سيناء وطور زينا وجبل لبنان والجودي، وهذا غريب أيضاً. وروى نحوه عن ابن عباس وكعب الأحبار وقتادة، وعن وهب بن منبه: أن أول من بناه شيث، عليه السلام، وغالب من يذكر هذا إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب، وهي مما لا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليها

بمجردهما، وأما إذا صح حديث في ذلك فعلى الرأس والعين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَكَ مِنْ الثَّمَرِ وَمِنْهُمْ يَأْتِيهِمُ الْآيَةُ﴾. قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم حرم بيت الله وأمنه، وإنني حرمت المدينة ما بين لابتيها، فلا يُصَادُ صيدها ولا يقطع عضاها». وهكذا رواه النسائي، عن محمد بن بشار، عن بُنْدَار، به. وأخرجه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، وعُمرُو النّاقِد، كلاهما عن أبي أحمد الزبيري، عن سفيان الثوري. وقال ابن جرير - أيضاً -: حدثنا أبو كُرَيْب وأبو السائب قالا: حدثنا ابن إدريس. وحدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الرحيم الرازي، قالا جميعاً: سمعنا أشعث، عن نافع، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم كان عبد الله وخليه، وإنني عبد الله ورسوله. وإن إبراهيم حرم مكة، وإنني حرمت المدينة ما بين لابتيها، عضاها وصيدها، لا يحمل فيها سلاح لقتال، ولا يقطع منها شجرة إلا لعلف بعير». وهذه الطريق غريبة، ليست في شيء من الكتب الستة، وأصل الحديث في صحيح مسلم من وجه آخر، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: كان الناس إذا رأوا أول الثمر، جاؤوا به إلى رسول الله ﷺ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال: «اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مُدُنَا. اللهم إن إبراهيم عبدك وخليك ونبيك، وإنني عبدك ونبيك. وإنه دعاك لمكة، وإنني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة، ومثله معه». ثم يدعو أصغرَ ولده له، فيعطيه ذلك الثمر. وفي لفظ: «بركة مع بركة». ثم يعطيه أصغر من يحضره من الولدان. لفظ مسلم. ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا بكر بن مضر، عن ابن الهاد، عن أبي بكر بن محمد، عن عبد الله بن عمرو بن عثمان، عن رافع بن خديج، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة، وإنني أحرم ما بين لابتيها». انفرد بإخراجه مسلم، فرواه عن قتيبة، عن بكر بن مضر، به. ولفظه كلفظه سواء. وفي الصحيحين عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ لأبي طلحة: «التمس لي غلاماً من غلمانكم يخدمني». فخرج بي أبو طلحة يردفني وراءه، فكنت أخدم رسول الله ﷺ كلما نزل. وقال في الحديث: ثم أقبل حتى إذا بدا له أحد قال: «هذا جبل يُحِبُّنا ونحبه». فلما أشرف على المدينة قال: «اللهم إني أحرم ما بين جبليها، مثلما حرم به إبراهيم مكة، اللهم بارك لهم في مذهبهم وصاعهم». وفي لفظ لهما: «اللهم بارك لهم في مكيالهم، وبارك لهم في صاعهم، وبارك لهم في مدهم». زاد البخاري: يعني: أهل المدينة.

ولهما أيضاً عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم اجعل بالمدينة ضِعْفِي ما جعلت بمكة من البركة». وعن عبد الله بن زيد بن عاصم، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها، وحُرِّمَت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة». رواه البخاري وهذا لفظه، ومسلم ولفظه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها وإنني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإنني دعوت لها في صاعها ومدها بمثل ما دعا إبراهيم لأهل مكة». وعن أبي سعيد، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «اللهم إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حراماً، وإنني حرمت المدينة حراماً ما بين مأزميها، لا يهراق فيها دم، ولا يحمل فيها سلاح لقتال، ولا يخطط فيها شجرة إلا لعلف. اللهم بارك لنا في مدينتنا، اللهم بارك لنا في صاعنا، اللهم بارك لنا في مُدُنَا، اللهم اجعل مع البركة بركتين». الحديث رواه مسلم. والأحاديث في تحريم المدينة كثيرة، وإنما أوردنا منها ما هو متعلق بتحريم إبراهيم، عليه السلام، لمكة، لما في ذلك في مطابقة الآية الكريمة. وتَمَسُّكُ بها من ذهب إلى أن تحريم مكة إنما كان على لسان إبراهيم الخليل، وقيل: إنها محرمة منذ خلقت مع الأرض وهذا أظهر وأقوى. وقد وردت أحاديث أخر تدلُّ على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والأرض، كما جاء في الصحيحين، عن عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة. وإنه لم يُجَل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة. لا يُغْضَدُ شوكه ولا ينفر صيده، ولا تُلَقَّطُ لُقَطَتُهُ إلا من عَرَفَها، ولا يختلي خلالها». فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر فإنه لقينهم وليبوتهم. فقال: «إلا الإذخر» وهذا لفظ مسلم. ولهما عن أبي هريرة نحو من ذلك.

ثم قال البخاري بعد ذلك: قال أبان بن صالح، عن الحسن بن مسلم، عن صفية بنت شيبة: سمعت النبي ﷺ، مثله. وهذا الذي علقه البخاري رواه الإمام أبو عبد الله بن ماجة، عن محمد بن عبد الله بن ثُمَيْر، عن يونس بن بُكَيْر، عن محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح، عن الحسن بن مسلم بن ثَيَّاق، عن صفية بنت شيبة، قالت: سمعت النبي ﷺ يخطب عام

وقال محمد بن إسحاق: لما عزل إبراهيم، عليه السلام، الدعوة عمن أبي الله أن يجعل له الولاية - انقطاعاً إلى الله ومحبه، وفراقاً لمن خالف أمره، وإن كانوا من ذريته، حين عرف أنه كائن منهم أنه ظالم ألا يناله عهده، يخبر الله له بذلك - قال الله: ومن كفر فإني أرزق البر والفاجر وأمتعه قليلاً. وقال حاتم بن إسماعيل عن حميد الخياط، عن عمار الدقني، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّرَاتِ مِنْ أَمْرِ عِنْتِهِم بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ الْآخِرَةِ﴾ قال ابن عباس: كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس، فأنزل الله ومن كفر أيضاً أرزقهم كما أرزق المؤمنين أخلق خلقاً لا أرزقهم؟! أمتعهم قليلاً، ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير. ثم قرأ ابن عباس: ﴿كَلَّا يُبَدِّلُ هَوَاؤُهُمْ وَهَوَاؤُهُ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عِطَاءُ رَبِّكَ حَظُولًا ۝٢٠﴾ [الاسراء: ٢٠] رواه ابن مَرْدُويه. وروي عن عكرمة ومجاهد نحو ذلك أيضاً. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝٢١﴾ [الأنعام: ٢١] متفق في الحديث أن إسماعيل مرهمهم ثم نذبتهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ۝٢٢﴾ [الأنعام: ٢٢] [يونس: ٦٩، ٧٠] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُمْ إِنََّّا جِئْنَاهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٦٩﴾ [التين: ٦٩]

ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٢﴾ [المناف: ٢٣، ٢٤]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُثْبِتْهُمْ سُقُوطًا مِّنْ سَمَوَاتٍ مَّعَارِجَ عَلَيْهَا يَتَطَهَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَلِيُثْبِتْهُمْ يَوْمًا وَمُرَّةً عَلَيْهِا يَنْكُحُونَ ﴿٢٤﴾ وَخُرُفًا وَلَٰنَ كُلِّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَّعَ لِلْعَالَمِ الْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

وقوله: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: ثم ألجئهم بعد متاعه في الدنيا وبسطنا عليه من ظلهما إلى عذاب النار وبش المصير. ومعناه: أن الله تعالى ينظرهم ويُمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كقوله تعالى: ﴿وَكَايْنِ تَن قَرِيَةً أَتَيْتُهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِّهٖ أَخَذْتُهَا وَلِيَ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٤٨]، وفي الصحيحين: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله؛ إنهم يجعلون له ولدًا، وهو يرزقهم ويعافيه»، وفي الصحيح أيضاً: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته». ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الشَّرَّاءُ مِنَّيْهِ عَلَيْهِ إِذْ أَخَذَهُ إِلَٰهٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [مرد: ١٠٢].

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ فالقواعد: جمع قاعدة، وهي السارية والأساس، يقول تعالى: «واذكر - يا محمد - لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، البيت، ورفعهما القواعد منه، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، فهما في عمل صالح، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما، كما روى ابن أبي حاتم من حديث محمد بن يزيد بن خنيس المكي، عن وهيب بن الورد: أنه قرأ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ ثم يبكي ويقول: يا خليل الرحمن، ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مُشْفِقٌ أن لا يتقبل منك. وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين المخلصين في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاهُمْ أَيْ: يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَدَةٌ﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أي: خائفة ألا يتقبل منهم. كما جاء به الحديث الصحيح، عن عائشة، عن رسول الله ﷺ كما سيأتي في موضعه.

وقال بعض المفسرين: الذي كان يرفع القواعد هو إبراهيم، والداعي إسماعيل. والصحيح أنهما كانا يرفعان ويقولان، كما سيأتي بيانه. وقد روى البخاري ههنا حديثاً سنورده ثم نُشِيعَ بآثار متعلقة بذلك. قال البخاري، رحمه الله: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَرٌ، عن أيوب السخيتاني، وكثير بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة - يزيد أحدهما على الآخر - عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، عليهما السلام. اتخذت منطقاً ليعفي أثرها على سارة. ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل، عليهما السلام، وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحه فوق زَمْزَم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قَفَى إبراهيم، عليه السلام، منطلقاً. فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتركننا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذا لا يضيعنا. ثم رجعت. فانطلق إبراهيم، عليه السلام، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات، ورفع يديه، قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُثَبِّتَ الْكَلْبَةَ فَاجْعَلْ أَهْلَهُ نَكَبًا مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، عليهما السلام، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ماء السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال: يتلطب - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً؟ فلم ترى أحداً. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طَرفَ درعها، ثم سعت سَعْيَ الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي. ثم أتت المروة، فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً. ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما».

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه، تريد نفسها، ثم تَسَمَّعَتْ فسمعت أيضاً. فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غَوَاثُ فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال: بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تُحَوِّضُهُ، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفرور بعد ما تغرف. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً». قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة؛ فإن ههنا بيتاً لله، ﷻ، بينه هذا الغلام وأبوه، وإن الله، ﷻ، لا يضيع أهله. وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُزْءٍ - أو أهل بيت من

جُرْهُم - مقبلين من طريق كَدَاء. فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عاتفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على الماء، لَعَنَهُدُنَا بهذا الوادي وما فيه ماء. فأرسلوا جَرِيّاً أو جَرِيَيْن، فإذا هم بالماء. فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا. قال: وأم إسماعيل عند الماء. فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حَقَّ لكم في الماء. قالوا: نعم.

قال ابن عباس: فقال النبي ﷺ: «فألقى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس. فنزلوا، وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم. حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام، وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجته امرأة منهم. وماتت أم إسماعيل، عليهما السلام، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل ليطالع تزكته. فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه. فقالت: خرج يتغني لنا. ثم سألها عن عيشهم وهيتهم، فقالت: نحن بشرٌ، نحن في ضيق وشدة. وشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرني عليه السلام، وقولي له: يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل، عليه السلام، كأنه أنس شيئاً. فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسأل عنك، فأخبرته، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا في جهْد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غَيْرُ عَتَبَةٍ بَابِكَ. قال: ذاك أبي. وقد أمرني أفارقك، فالحق بأهلك. فطَلَّقَهَا وتزوج منهم بأخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده. فدخل على امرأته، فسألها عنه، فقالت: خرج يتغني لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيتهم. فقالت: نحن بخير وسعة. وأنت على الله، ﷻ. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرباكم؟ قالت: الماء. قال: «اللهم بارك لهم في اللحم والماء». قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حَب، ولو كان لهم، لدعاهم فيه. قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقا». قال: «فإذا جاء زوجك فاقرني عليه السلام، ومريه يُبَيِّت عَتَبَةَ بَابِهِ، فلما جاء إسماعيل، عليه السلام، قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأنتت عليه، فسألني عنك، فأخبرته، فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير. قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرُك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك. ثم لَبِثَ عنهم ما شاء الله، ﷻ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يُبَيِّرُ ثِيْلًا له تحت دوحه قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الولد بالوالد، والوالد بالولد. ثم قال: «يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك ربك، ﷻ. قال: وتعيينني؟ قال: وأعينك. قال فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً. وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. قال: فعند ذلك رَفَعَا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾»، قال: «فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾».

ورواه عبد بن حميد عن عبد الرزاق به مطولاً.

ورواه ابن أبي حاتم، عن أبي عبد الله محمد بن حماد الظهراني. وابن جرير، عن أحمد بن ثابت الرازي، كلاهما عن عبد الرزاق به مختصراً. وقال أبو بكر بن مَرْذُويه: حدثنا إسماعيل بن علي بن إسماعيل، حدثنا بشر بن موسى، حدثنا أحمد بن محمد الأزرق، حدثنا مسلم بن خالد الزنجي، عن عبد الملك بن جَرِيح، عن كثير بن كثير، قال: كنت أنا وعثمان بن أبي سليمان، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين في ناس مع سعيد بن جبير، في أعلى المسجد ليلاً، فقال سعيد بن جبير: سلوني قبل أن لا تروني. فسألوه عن المقام، فأنشأ يحدثهم عن ابن عباس، فذكر الحديث بطوله. ثم قال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد. حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو، حدثنا إبراهيم بن نافع، عن كثير بن كثير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان، خرج بإسماعيل وأم إسماعيل، ومعهم شئ فيهما ماء، فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشئ، فَيَدِرُ لبنها على صبيها، حتى قدم مكة فوضعها تحت دوحه، ثم رجع إبراهيم إلى أهله، فاتبعته أم إسماعيل، حتى بلغوا كَدَاء نادته من ورائه: يا إبراهيم، إلى من تتركنا؟ قال: إلى الله، ﷻ. قالت: رضيت بالله. قال: فرَجَعَتْ، فجعلت تشرب من الشئ، ويَدِرُ لبنها على صبيها حتى لما فَيِيَ الماء قالت: لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحداً. قال: فذهبت فصعدت الصفا، فنظرت ونظرت هل تحس أحداً، فلم تحس أحداً. فلما بلغت الوادي سَعَتْ حتى أتت المروة، ففعلت ذلك أشواطاً ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل، تعني الصبي، فذهبت فنظرت فإذا هو على حاله كأنه يَنْشَعُ للموت، فلم تَقْرُها نفسها، فقالت: لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحداً. قال: فذهبت فصعدت الصفا، فنظرت ونظرت فلم تُحس أحداً، حتى أتمت سبعاً، ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل، فإذا هي بصوت، فقالت: أغث إن كان عندك خير. فإذا جبريل، عليه السلام، قال: فقال بعقبه هكذا، وغمز عَقِبَهُ على الأرض. قال: فانْبَقِ الماء، فَدَهَشَتْ أم إسماعيل، فجعلت

تحفر. قال: فقال أبو القاسم ﷺ: «لو تركت لك الماء ظاهراً». قال: فجعلت تشرب من الماء ويذر لبنها على صبيها. قال: فمر ناس من جزمهم بطن الوادي، فإذا هم بطير، كأنهم أنكروا ذلك، وقالوا: ما يكون الطير إلا على ماء فبعثوا رسولهم فَنَظَرَ، فإذا هو بالماء. فأتاهم فأخبرهم. فأتوا إليها فقالوا: يا أم إسماعيل، أتأذنين لنا أن نكون معك - أو نسكن معك؟ - فبلغ ابنها ونكح فيهم امرأة. قال: ثم إنه بدا لإبراهيم ﷺ، فقال لأهله: إني مُطْلَعٌ تَزَكِّي. قال: فجاء فسلم، فقال: أين إسماعيل؟ قالت امرأته: ذهب يصيد. قال: قل لي له إذا جاء: غير عتبة بيتك. فلما جاء أخبرته، قال: أنت ذاك، فاذهي إلى أهلك.

قال: ثم إنه بدا لإبراهيم، فقال لأهله: إني مُطْلَعٌ تَزَكِّي. قال: فجاء فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيد. فقالت: ألا تنزل فَتَطْعَمَ وتشرب؟ فقال: ما طعامكم وما شربكم؟ قالت: طعامنا اللحم، وشربنا الماء. قال: اللهم بارك لهم في طعامهم وشرايهم. قال: فقال أبو القاسم ﷺ: «بَرَكَ بَدْعُوه إِبْرَاهِيمَ». قال: ثم إنه بدا لإبراهيم ﷺ فقال لأهله: إني مُطْلَعٌ تَزَكِّي. فجاء فوافق إسماعيل من وراء زمزم يصلح ثبلاً له. فقال: يا إسماعيل، إن ربك، ﷻ، أمرني أن أبني له بيتاً. فقال: أطع ربك، ﷻ. قال: إنه قد أمرني أن تعينني عليه؟ فقال: إذن أفعل - أو كما قال - قال: فقاما، قال: فجعل إبراهيم يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، ويقولان: ﴿رَبَّنَا قَبِّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. قال: حتى ارتفع البناء وَضَعَفَ الشَّيْخُ عَنْ نَقْلِ الْحِجَارَةِ. فقام على حَجَرِ الْمَقَامِ، فجعل يناوله الحجارة ويقولان: ﴿رَبَّنَا قَبِّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

هكذا رواه من هذين الوجهين في كتاب الأنبياء. والعجب أن الحافظ أبا عبد الله الحاكم رواه في كتابه المستدرک، عن أبي العباس الأصم، عن محمد بن سنان القزّاز، عن أبي علي عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي، عن إبراهيم بن نافع، به. وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. كذا قال. وقد رواه البخاري كما ترى، من حديث إبراهيم بن نافع، كان فيه اقتصاراً، فإنه لم يذكر فيه شأن الذبح. وقد جاء في الصحيح، أن قرني الكيش كانا معلمين بالكعبة، وقد جاء أن إبراهيم، عليه السلام، كان يزور أهله بمكة على البراق سريعاً، ثم يعود إلى أهله بالبلاد المقدسة، والله أعلم. والحديث - والله أعلم - إنما فيه - مرفوع - أماكن صرح بها ابن عباس، عن النبي ﷺ. وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في هذا السياق ما يخالف بعض هذا، كما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، ومحمد بن المثنى قالا: حدثنا مؤمل، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن حارثة بن مضرب، عن علي بن أبي طالب، قال: لما أمر إبراهيم ببناء البيت، خرج معه إسماعيل وهاجر. قال: فلما قدم مكة رأى على رأسه في موضع البيت مثل الغمامة، فيه مثل الرأس. فكلّمه، قال: يا إبراهيم، ابن علي ظلي - أو قال على قدري - ولا تزد ولا تنقص: فلما بنى خرج، وخلف إسماعيل وهاجر، فقالت هاجر: يا إبراهيم، إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله. قالت: انطلق، فإنه لا يضيعنا. قال: فغطش إسماعيل عطفاً شديداً، قال: فصعدت هاجر إلى الصفا فنظرت فلم تر شيئاً، حتى أتت المروة فلم تر شيئاً، حتى فعلت ذلك سبع مرات، فقالت: يا إسماعيل، مت حيث لا أراك. فأتته وهو يَفْخَصُ برجله من العطش. فناداه جبريل فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا هاجر أم ولد إبراهيم. قال: فإلى من وَكَلَكُمَا؟ قالت: وكلنا إلى الله. قال: وكلكما إلى كاف. قال: ففحص الغلام الأرض بأصبعه، فنبعت زمزم. فجعلت تحبس الماء فقال: دعيه فإنها رَوَاء. ففي هذا السياق أنه بنى البيت قبل أن يفارقهما، وقد يحتمل - إن كان محفوظاً - أن يكون أولاً وضع له حوطاً وتحجيراً، لا أنه بناء إلى أعلاه، حتى كبر إسماعيل فبنياه معاً، كما قال الله تعالى.

ثم قال ابن جرير: حدثنا هُثَّاء بن السري، حدثنا أبو الأحوص، عن سمالك، عن خالد بن عرعة، أن رجلاً قام إلى علي، رضي الله عنه، فقال: ألا تخبرني عن البيت، أهو أول بيت وضع في الأرض؟ قال: لا، ولكنه أول بيت وضع فيه البركة مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً، وإن شئت أنبأتك كيف بني: إن الله أوحى إلى إبراهيم أن ابن لي بيتاً في الأرض، قال: فضاق إبراهيم بذلك ذرعاً فأرسل الله السكينة - وهي ريح خجوج، ولها راسان - فأتبع أحدهما صاحبه، حتى انتهت إلى مكة، فتطوت على موضع البيت كطي الحجة، وأمر إبراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة. فبنى إبراهيم وبقي حجر، فذهب الغلام يبني شيئاً. فقال إبراهيم: أبغني حجراً كما أمرك. قال: فانطلق الغلام يلتمس له حجراً، فأتاه به، فوجده قد ركب الحجر الأسود في مكانه. فقال: يا أبا، من أتاك بهذا الحجر؟ فقال: أتاني به من لن يتكلم على بئائك، جاء به جبريل، عليه السلام، من السماء. فأتاه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن بشر بن عاصم، عن سعيد بن المسيب، عن كعب الأحبار، قال: كان البيت غثاء على الماء قبل أن يخلق الله الأرض بأربعين عاماً، ومنه دحيث الأرض. قال سعيد: وحدثنا علي بن أبي طالب: أن إبراهيم أقبل من أرمينية، ومعه السكينة تدله على تبوء البيت كما تبوء العنكبوت بيتاً، قال: فكشفت عن أحجار لا يطيق الحجر إلا ثلاثون رجلاً. قلت: يا أبا محمد، فإن الله

يقول: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ قال: كان ذلك بعد.

وقال السدي: إن الله، ﷻ، أمر إبراهيم أن يبني البيت هو وإسماعيل: ابنيا بيتي للطائفتين والعاكفين والركع السجود، فانطلق إبراهيم، عليه السلام، حتى أتى مكة، فقام هو وإسماعيل، وأخذوا المعاول لا يدریان أين البيت؟ فبعث الله ربحاً، يقال لها: ربح الخجوج، لها جناحان ورأس في صورة حية، فكشفت لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول، واتباعها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس. فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ ﴿وَإِذْ يَوَدُّ أَنَّ لِبَرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]. فلما بنيا القواعد فبلغا مكان الركن. قال إبراهيم لإسماعيل: يا بني، اطلب لي حجراً حسناً أضعه ههنا. قال: يا أبت، إني كسلان لأغب. قال: عَلَيَّ بذلك فانطلق فطلب له حجراً، فجاءه بحجر فلم يرضه، فقال اتنتي بحجر أحسن من هذا، فانطلق يطلب له حجراً، وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند، وكان أبيض، ياقوته بيضاء مثل الثَّغَامَةِ، وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس، فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن، فقال: يا أبه، من جاءك بهذا؟ قال: جاء به من هو أنشط منك. فبينا وهما يدعوان الكلمات التي ابتلى بهن إبراهيم ربه، فقال: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وفي هذا السياق ما يدل على أن قواعد البيت كانت مبنية قبل إبراهيم. وإنما هُدي إبراهيم إليها وبُويء لها. وقد ذهب إلى ذلك ذاهبون، كما قال الإمام عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن أيوب، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ قال: القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك. وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا هشام بن حسان، عن سوار - ختن عطاء - عن عطاء بن أبي رباح، قال: لما أهبط الله آدم من الجنة، كانت رجلاه في الأرض ورأسه في السماء يسمع كلام أهل السماء ودعاءهم، يأنس إليهم، فهابته الملائكة، حتى شكت إلى الله في دعائها وفي صلاتها. فخفضه الله إلى الأرض، فلما فقد ما كان يسمع منهم استوحش حتى شكا ذلك إلى الله في دعائه وفي صلاته. فوجه إلى مكة، فكان موضع قَدَمِهِ قرية، وخطوه مفازة، حتى انتهى إلى مكة، وأنزل الله ياقوته من ياقوت الجنة، فكانت على موضع البيت الآن. فلم يزل يطوف به حتى أنزل الله الطوفان، فرفعت تلك الباقوت، حتى بعث الله إبراهيم، عليه السلام، فبناه. وذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَوَدُّ أَنَّ لِبَرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]. وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج، عن عطاء، قال: قال آدم: إني لا أسمع أصوات الملائكة؟! قال: بخطيئتك، ولكن اهبط إلى الأرض، فابن لي بيتاً ثم احف به، كما رأيت الملائكة تحف ببيتي الذي في السماء. فيزعم الناس أنه بناه من خمسة أجبل: من حراء. وطور زيتا، وطور سين، وجبل لبنان والجودي. وكان رَضَهُ من حراء. فكان هذا بناء آدم، حتى بناه إبراهيم، عليه السلام، بعد. وهذا صحيح إلى عطاء، ولكن في بعضه نكارة، والله أعلم. وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا معمر، عن قتادة، قال: وضع الله البيت مع آدم حين أهبط الله آدم إلى الأرض، وكان مهبطه بأرض الهند. وكان رأسه في السماء ورجلاه في الأرض، فكانت الملائكة تهابه، فنفض إلى ستين ذراعاً؛ فحزن إذ فقد أصوات الملائكة وتسبيحهم. فشكا ذلك إلى الله، ﷻ، فقال الله: يا آدم، إني قد أهبط لك بيتاً تطوف به كما يُطَاف حول عرشي، وتصلني عنده كما يصلني عند عرشي، فانطلق إليه آدم، فخرج ومُدَّ له في خطوه، فكان بين كل خطوتين مفازة. فلم تزل تلك المفازة بعد ذلك. فأتى آدم البيت فطاف به، ومن بعده من الأنبياء.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب القمي، عن حفص بن حميد، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: وضع الله البيت على أركان الماء، على أربعة أركان، قبل أن تُخْلَقَ الدنيا بألفي عام، ثم دجيت الأرض من تحت البيت. وقال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي نجيع، عن مجاهد وغيره من أهل العلم: أن الله لما بَوَّأ إبراهيم مكان البيت خرج إليه من الشام، وخرج معه بإسماعيل وبأمه هاجر، وإسماعيل طفل صغير يرضع، وحملوا - فيما حدثني - على البُرَاق، ومعه جبريل يَدُلُّهُ على موضع البيت ومعالم الحرم. وخرج معه جبريل، فكان لا يمر بقرية إلا قال: أبهذه أمرت يا جبريل؟ فيقول جبريل: افضه. حتى قدم به مكة، وهي إذ ذاك عَصَاة سَلَمَ وَسَمَر، وبها أناس يقال لهم: «العمالق» خارج مكة وما حولها. والبيت يومئذ ربوة حمراء مديرة، فقال إبراهيم لجبريل: أها هنا أمرت أن أضعهما؟ قال: نعم. فعمد بهما إلى موضع الجحر فأنزل لهما فيه، وأمر هاجر أم إسماعيل أن تتخذ فيه عريشاً، فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ إلى قوله: ﴿لَمَلَهُمْ شَكْرُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. وقال عبد الرزاق: أخبرنا هشام بن حسان، أخبرني حميد، عن مجاهد، قال: خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئا بألفي سنة، وأركانه في الأرض السابعة. وكذا قال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: القواعد في الأرض السابعة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن رافع، أخبرنا عبد الوهاب بن معاوية، عن عبد المؤمن بن خالد، عن علياء بن أحمر: أن ذا القرنين قدم مكة فوجد إبراهيم وإسماعيل بينين قواعد البيت من خمسة أجبل. فقال: ما لكما

ولأرضي؟ فقال: نحن عبدان مأموران، أمرنا ببناء هذه الكعبة. قال: فهاتا بالبينة على ما تدعيان. فقامت خمسة أكباش، فقلن: نحن نشهد أن إبراهيم وإسماعيل عبدان مأموران، أمرنا ببناء هذه الكعبة. فقال: قد رضيت وسلمت. ثم مضى.

وذكر الأزرقي في تاريخ مكة أن ذا القرنين طاف مع إبراهيم، عليه السلام، بالبيت، وهذا يدل على تقدم زمانه، والله أعلم. وقال البخاري، رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ بِرُؤُوسِهِ أَلَا تَأْمُرُونَ آلِهَتَكُمْ بِتَعْذِيرِ اللَّهِ﴾ الآية: القواعد: أساسه واحدها قاعدة. والقواعد من النساء: واحدتها قاعد. حدثنا إسماعيل، حدثني مالك، عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله: أن عبد الله بن محمد بن أبي بكر أخبر عبد الله بن عمر، عن عائشة زوج النبي ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «ألم تَرَى أن قومك حين بنوا البيت اقتصروا عن قواعد إبراهيم؟» فقلت: يا رسول الله، ألا ترؤها على قواعد إبراهيم؟ قال: «لولا جذنان قومك بالكفر». فقال عبد الله بن عمر: لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله ﷺ ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الجحجر إلا أن البيت لم يُتَمَّ على قواعد إبراهيم، عليه السلام. وقد رواه في الحج عن القعنبى، وفي أحاديث الأنبياء عن عبد الله بن يوسف. ومسلم عن يحيى بن يحيى، ومن حديث ابن وهب. والنسائي من حديث عبد الرحمن بن القاسم، كلهم عن مالك، به. ورواه مسلم أيضاً من حديث نافع، قال: سمعت عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن أبي قحافة يحدث عبد الله بن عمر، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية - أو قال: بكفر - لانفقت كنز الكعبة في سبيل الله، ولجعلت بابها بالأرض، ولأدخلت فيها الحجر». وقال البخاري: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الأسود، قال: قال لي ابن الزبير: كانت عائشة تُسر إليك حديثاً كثيراً، فما حدثتك في الكعبة؟ قال: قلت: قالت لي: قال النبي ﷺ: «يا عائشة، لولا قومك حديث عهدهم - فقال ابن الزبير: بكفر - لنقضت الكعبة، فجعلت لها بابين: باباً يدخل منه الناس، وباباً يخرجون». ففعله ابن الزبير. انفرد بإخراجه البخاري، فرواه هكذا في كتاب العلم من صحيحه.

وقال مسلم في صحيحه: حدثنا يحيى بن يحيى، أخبرنا أبو معاوية، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «لولا خدانة عهد قومك بالكفر لنقضت الكعبة ولجعلتها على أساس إبراهيم، فإن قریشاً حين بنت البيت استقصرت، ولجعلت لها خلفاً». قال: وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب، قالوا: حدثنا ابن نمير، عن هشام بهذا الإسناد. انفرد به مسلم. قال: وحدثني محمد بن حاتم، حدثني ابن مهدي، حدثنا سليم بن خثان، عن سعيد - يعني ابن مينا - قال: سمعت عبد الله بن الزبير يقول: حدثني خالتي - يعني عائشة رضي الله عنها - قالت: قال النبي ﷺ: «يا عائشة، لولا قومك حديث عهد بشرك، لهدمت الكعبة، فألزقتها بالأرض، ولجعلت لها بابين: باباً شرقياً، وباباً غربياً، وزدت فيها ستة أذرع من الجحجر؛ فإن قریشاً اقتصرتها حيث بنت الكعبة». انفرد به أيضاً.

ذكر بناء قریش الكعبة بعد إبراهيم الخليل، عليه السلام، بمدد طويلة وقبل مبعث رسول الله ﷺ

بخمسة سنين وقد نَقَلَ معهم في الحجارة، وله من العمر خمس وثلاثون سنة

صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: ولما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة، اجتمعت قریش لبنان الكعبة، وكانوا يَهْمُونَ بذلك ليسفوها، ويهابون هذمها، وإنما كانت رَضْماً فوق القامة، فأرادوا رفعها وتسقيفها، وذلك أن نفرأ سرقوا كنز الكعبة، وإنما كان يكون في بئر في جوف الكعبة، وكان الذي وجد عنده الكنز دويك، مولى بني مُلَيْح بن عمرو من خزاعة، فقطعت قریش يده. ويزعم الناس أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك. وكان البحر قد رمى بسفينته إلى جُدَّة، لرجل من تجار الروم، فتحطمت، فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها. وكان بمكة رجل قبضي نجار، فهيا لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها، وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كانت تَطْرُح فيها ما يُهْدَى لها كل يوم، فتتشرق على جدار الكعبة، وكانت مما يهايون. وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا اهزألت وكشَّت وفتحت فاهما، فكانوا يهايونها، فبينما هي يوماً تَشْتَرِقُ على جدار الكعبة، كما كانت تصنع، بعث الله إليها طائراً فأخطفها، فذهب بها. فقالت قریش: إنا لنرجو أن يكون الله قد رضي ما أردنا، عندنا عامل رفيق، وعندنا خشب، وقد كفانا الله الحية. فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها، قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم، فتناول من الكعبة حجراً، فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه. فقال: يا معشر قریش، لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيباً، لا يدخل فيها مهر بغي ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس. قال ابن إسحاق: والناس ينحلون هذا الكلام الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. قال: ثم إن قریشاً تَجَزَّأت الكعبة، فكان شق الباب لبني

عبد مناف وزهرة، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم، وكان ظهر الكعبة لبني جُمَحَ وسَهْم، وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي، ولبني أسد بن عبد العزى بن قُصي، ولبني عدي بن كعب بن لؤي، وهو الحطيم.

ثم إن الناس هابوا هَدمها وقرئوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هَدمها: فأخذ المَعُولُ ثم قام عليها وهو يقول: اللهم لم تُرْع، اللهم إنا لا نريد إلا الخير. ثم هدم من ناحية الركنين، فترى الناس تلك الليلة، وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله ما صنعنا. فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عَمَلِهِ، فهدم وهدم الناس معه، حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس، أساس إبراهيم، عليه السلام، أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة أخذ بعضها بعضاً. قال محمد بن إسحاق: فحدثني بعض من يروي الحديث: أن رجلاً من قريش، ممن كان يهدمها، أدخل عَتَلَةً بين حجرين منها ليقلع بها أحدهما، فلما تحرك الحجر تنقضت مكة بأسرها، فانتها عن ذلك الأساس. قال ابن إسحاق: ثم إن القبائل من قريش جَمَعَت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها، حتى بلغ البنيان موضع الركن - يعني الحجر الأسود - فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا وتخالفوا، وأعدوا للقتال. فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً، ثم تعافدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الحفنة، فسموا: لَقَعَةَ الدَم. فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً. ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا. فزعم بعض أهل الرواية: أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عَمَر بن مخزوم - وكان عامئذٍ أسن قريش كلهم - قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد، يقضي بينكم فيه. ففعلوا، فكان أول داخل رسول الله ﷺ. فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال رسول الله ﷺ: «هَلُمَّ إِلَيَّ ثَوْباً» فأتى به، فأخذ الركن - يعني الحجر الأسود - فوضعه فيه بيده، ثم قال: «لنأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب»، ثم قال: «ارفعوه جميعاً». ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ﷺ، ثم بنى عليه. وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي: الأمين. فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا، قال الزبير بن عبد المطلب، فيما كان من أمر الحية التي كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها:

إلى الشعبان وهي لها اضطراب
وأحياناً يكون لها وثاب
تَهَيَّبْنَا البناءَ وَقَدْ تَهَابَ
عقاب تَثَلَّيْتُبُ لها انصباب
لنا البنيان ليس له حجاب
لنا منه القواعد والتراب
وليس على مسؤولنا ثياب
فليس لأصله مثلهم ذهب
ومِرَّة قد تَقَدَّمَهَا كلاب
وعند الله يُلْتَمَسُ الثواب

عجبت لما تصوبت العُقَاب
وقد كانت يكون لها كشيخ
إذا قمننا إلى التأسيس شُدَّتْ
فلما أن خُشِينَا الزُّجَرَ جاءت
فضمتها إليها ثم خَلَّتْ
فَقُمْنَا حاشدين إلى بناء
غداة نُرْفَعُ التَّاسِيسَ منه
أَعَزَّ به المليكُ بني لؤي
وقد حَشَدَتْ هُناك بنو عدي
فَبَوَّأْنَا المليكُ بذلك عِزًّا

قال ابن إسحاق: وكانت الكعبة على عهد النبي ﷺ ثمانية عشر ذراعاً، وكانت تكسى القباطي، ثم كُيِّبَتْ بعد البرود، وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف. قلت: ولم نزل على بناء قريش حتى أحرقت في أول إمارة عبد الله بن الزبير بعد سنة ستين. وفي آخر ولاية يزيد بن معاوية، لما حاصروا ابن الزبير، فحينئذٍ نقضها ابنُ الزبير إلى الأرض وبنائها على قواعد إبراهيم، عليه السلام، وأدخل فيها الحجر وجعل لها باباً شرقياً وباباً غربياً ملصقين بالأرض، كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ. ولم تزل كذلك مدة إمارته حتى قتله الحجاج، فرداها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مَرْوَانَ له بذلك، كما قال مسلم بن الحجاج في صحيحه: حدثنا هُثَّاد بن السَّري، حدثنا ابن أبي زائدة، أخبرنا ابن أبي سليمان، عن عطاء، قال: لما احترق البيت زَمَنَ يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشام، وكان من أمره ما كان، تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم يريد أن يُجَرِّثَهُمْ - أو يُحْزِبَهُمْ - على أهل الشام، فلما صدر الناس قال: يا أيها الناس، أشيروا

علي في الكعبة، أنقضها ثم أبني بناءها أو أصلح ما وُهي منها؟ قال ابن عباس: فإني قد فُرق لي رأي فيها، أرى أن تُصلح ما وُهي منها، وتدع بيتاً أسلم الناس عليه، وأحجاراً أسلم الناس عليها، ويث على النبي ﷺ. فقال ابن الزبير: لو كان أحدهم احترق بيته ما رضي حتى يجده، فكيف بيت ربكم، ﷺ؟ إني مستخير ربي ثلاثاً ثم عازم على أمري. فلما مضت ثلاث أجمع رأيي على أن ينقضها. فتحامها الناس أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء، حتى صعد رجل، فألقى منه حجارة، فلما لم يره الناس أصابه شيء تابعوا، فنقضوه حتى بلغوا به الأرض. فجعل ابن الزبير أعمدة يستر عليها الستور، حتى ارتفع بناؤه. وقال ابن الزبير: إني سمعت عائشة، رضي الله عنها، تقول: إن النبي ﷺ، قال: «لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر، وليس عندي من النفقة ما يُقويني على بنائه، لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع، ولجعلت له باباً يدخل الناس منه، وباباً يخرجون منه». قال: فأنا أجد ما أنفق، ولست أخاف الناس. قال: فزاد فيه خمسة أذرع من الحجر، حتى أبدى له أساً نظَّر الناس إليه فبنى عليه البناء. وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعاً، فلما زاد فيه استقصره فزاد في طوله عشرة أذرع، وجعل له بابين: أحدهما يدخل منه، والآخر يخرج منه. فلما قُتل ابنُ الزبير كتبَ الحجاجُ إلى عبد الملك يخبره بذلك، ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أسٍ نظر إليه العدول من أهل مكة، فكتب إليه عبد الملك: إنا لسا من تلطخ ابن الزبير في شيء، أما ما زاده في طوله فأقره. وأما ما زاده فيه من الحجر فردّه إلى بنائه، وسد الباب الذي فتحه. فنقضه وأعادّه إلى بنائه. وقد رواه النسائي في سننه، عن هناد، عن يحيى بن أبي زائدة، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء، عن ابن الزبير، عن عائشة بالمرفوع منه. ولم يذكر القصة، وقد كانت السنة إقرار ما فعله عبد الله بن الزبير، رضي الله عنه؛ لأنه هو الذي وُده رسول الله ﷺ. ولكن خشي أن تنكره قلوب بعض الناس لحدائث عهدهم بالإسلام وقرب عهدهم من الكفر. ولكن خفيت هذه السنة على عبد الملك؛ ولهذا لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روت ذلك عن رسول الله ﷺ، قال: وددا أنا تركناه وما تولى. كما قال مسلم: حدثني محمد بن حاتم، حدثنا محمد بن بكر، أخبرنا ابن جُرَيْج، سمعت عبد الله بن عُبيد بن عمير والوليد بن عطاء، يحدثان عن الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، قال عبد الله بن عبيد: وفَدَّ الحارث بن عبد الله على عبد الملك بن مروان في خلافته، فقال عبد الملك: ما أظن أبا حُثَيْبٍ - يعني ابن الزبير - سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمعه منها. قال الحارث: بلى، أنا سمعته منها. قال: سمعتها تقول ماذا؟ قال: قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن قومك استقصروا من بنيان البيت، ولولا حدائث عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه، فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فهُلُمِّي لأريك ما تركوا منه». فأراها قريباً من سبعة أذرع. هذا حديث عبد الله بن عُبيد بن عمير. وزاد عليه الوليد بن عطاء: قال النبي ﷺ: «ولجعلت لها بابين موضوعين في الأرض شرقياً وغربياً، وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟» قالت: قلت: لا. قال: «تَعَزُّزاً ألا يدخلها إلا من أرادوا. فكان الرجل إذا هو أراد أن يدخلها، يَدْعُونَهُ حتى يرتقي، حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط». قال عبد الملك: فقلت للحارث: أنت سمعتها تقول هذا؟ قال: نعم. قال: فَتَنَكْتُ ساعة بعصاه، ثم قال: وَدِدْتُ أني تركت وما تَحَمَّلُ. قال مسلم: وحدثنا محمد بن عمرو بن جبلة، حدثنا أبو عاصم (ح) وحدثنا عُبدُ بن حُمَيْد، أخبرنا عبد الرزاق، كلاهما عن ابن جُرَيْج بهذا الإسناد، مثل حديث ابن بكر. قال: وحدثني محمد بن حاتم، حدثنا عبد الله بن بكر السهمي، حدثنا حاتم بن أبي صَغِيرَةَ، عن أبي قَزَعَةَ أنَّ عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذ قال: قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين، يقول: سمعتها تقول: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، لولا جذنان قومك بالكفر لنقضت البيت حتى أزيد فيها من الحجر، فإن قومك قصروا في البناء». فقال الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة: لا تقل هذا يا أمير المؤمنين، فأنا سمعت أم المؤمنين تحدث هذا. قال: لو كنتُ سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزبير. فهذا الحديث كالمقطوع به إلى عائشة أم المؤمنين، لأنه قد رُوي عنها من طرق صحيحة متعددة عن الأسود بن يزيد، والحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن محمد بن أبي بكر الصديق، وعروة بن الزبير. فدل هذا على صواب ما فعله ابن الزبير. فلو ترك لكان جيداً. ولكن بعد ما رجع الأمر إلى هذا الحال، فقد كره بعض العلماء أن يغيّر عن حاله، كما ذكر عن أمير المؤمنين هارون الرشيد - أو أبيه المهدي - : أنه سأل الإمام مالكا عن هدم الكعبة وردّها إلى ما فعله ابن الزبير. فقال له مالكا: يا أمير المؤمنين، لا تجعل كعبة الله مُلْعَبَةً للملوك، لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها. فترك ذلك الرشيد. نقله عياض والنواوي، ولا تزال - والله أعلم - هكذا إلى آخر الزمان، إلى أن يخربها ذو السُويقتين من الحبشة، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرب الكعبة ذو السُويقتين من الحبشة». أخرجاه. وعن عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «كأنني به أسود أفحج، يقلعها حجراً حجراً». رواه البخاري. وقال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده:

يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم - أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم - أي من ذرية إبراهيم . وقد وافقت هذه

الدعوة المستجابة قَدَّر الله السابق في تعيين محمد - صلوات الله وسلامه عليه - رسولاً في الأميين إليهم، وإلى سائر الأعجمين، من الإنس والجن، كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح، عن سعيد بن سُوَيْد الكلبي، عن عبد الأعلى بن هلال السلمي، عن العرياض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طيئته، وسأنبئكم بأول ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورويا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يَرَوْنَ». وكذلك رواه ابن وهب، والليث، وكاتبه عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح، وتابعه أبو بكر بن أبي مريم، عن سعيد بن سُوَيْد، به. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو النضر، حدثنا الفرج، حدثنا لقمان بن عامر: سمعت أبا أمامة قال: قلت: يا رسول الله، ما كان أول بَدْء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى بي، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام». والمراد أن أول من نُوِّه بذكره وشهره في الناس، إبراهيم، عليه السلام. ولم يزل ذكره في الناس مذكوراً مشهوراً سائراً حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بني إسرائيل نسباً، وهو عيسى ابن مريم، عليه السلام، حيث قام في بني إسرائيل خطيباً، وقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ الْكُتُوبِ وَيُبَشِّرُ بِرَسُولٍ يَأْتِي بَعْدِي أُمَّةٌ أَهْلُكُمْ﴾ [الصافات: ٦٠]؛ ولهذا قال في هذا الحديث: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى ابن مريم». وقوله: «ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام» قيل: كان مناماً رآته حين حملت به، وقصته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم، وكان ذلك توطئة. وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه وثبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم إذا نزل بدمشق بالمنازة الشرقية البيضاء منها. ولهذا جاء في الصحيحين: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك». وفي صحيح البخاري: «وهم بالشام». قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْنِ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يعني: أمة محمد ﷺ. فقيل له: قد استجيب لك، وهو كائن في آخر الزمان. وكذا قال السدي وقتادة. وقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني: القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ يعني: السنة، قاله الحسن، وقتادة، ومقاتل بن حيان، وأبو مالك وغيرهم. وقيل: الفهم في الدين. ولا منافاة. ﴿وَرَبِّهِمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني طاعة الله، والإخلاص. وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ قال: يعلمهم الخير فيفعلوه، والشر فيتقوه، ويخبرهم برضاه عنهم إذا أطاعوه واستكثروا من طاعته، وتجنبوا ما سخط من معصيته. وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْغَنِيُّ الْكَافِي﴾ أي: العزيز الذي لا يعجزه شيء، وهو قادر على كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله، فيضع الأشياء في محالها؛ لعلمه وحكمته وعدله.

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١٣٠] إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّي الْغَلِيِّ (١٣١) وَمَنْ يَمَّا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنِي إِذْ اللَّهُ اصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَشْئُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢). يقول تبارك وتعالى رَدًّا على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله، المخالف لملة إبراهيم الخليل، إمام الحنفاء، فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى، فلم يَدْع معه غيره، ولا أشرك به طرفه عين، وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه، حتى تبرأ من أبيه، فقال: ﴿يَنْفِقُوا إِنِّي بِرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ﴾ [٧٨] إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) [الأنعام: ٧٨، ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٨٠) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ عَذُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ (٨١) إِبْرَاهِيمَ لِأَزْوَاجِهِ سَلَامٌ (٨٢) [التوبة: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٤) شَاكِرًا لِّأَنْعَمِيهِ أَحَبُّنَهُ وَهَدَنَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢٥) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَالْآخِرَةُ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٦)﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٢]، ولهذا وأمثاله قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: عن طريقتة ومنهجه. فيخالفها ويرغب عنها ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي: ظلم نفسه بسفهة وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال، حيث خالف طريق من اصطفى في الدنيا للهداية والرشاد، من خدائته سنه إلى أن اتخذ الله خليلاً، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء - فترك طريقه هذا ومسلكه وملته واتبع طُرُق الضلالة والغي، فأي سفه أعظم من هذا؟ أم أي ظلم أكبر من هذا؟ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. وقال أبو العالية وقتادة: نزلت هذه الآية في اليهود؛ أحدثوا طريقاً ليست من عند الله وخالفوا ملة إبراهيم فيما أخذوه، ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٧) إِنَّكَ أَوَّلُ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلْغَيْنِ أَتَّبَعُوهُ وَهَذَا الْبَيْتُ وَالَّذِينَ مَأْسُواً وَاللَّهُ وَكَى الْمُؤْمِنِينَ (١٢٨)﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّي الْغَلِيِّ﴾ [١٣٠] أي: أمره الله بالإخلاص له والاستسلام والانقياد، فأجاب

إلى ذلك شرعاً وقدرأ، وقوله: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ يَتِيمًا وَيَعْقُوبَ﴾، أي: وصى بهذه الملة، وهي الإسلام لله أو يعود الضمير على الكلمة وهي قوله: ﴿أَسْلَمْتُ رَبِّي الْمَلَكَيْنِ﴾. لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة ووصوا أبناءهم بها من بعدهم؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيْقِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨] وقد قرأ بعض السلف «ويعقوب» بالنصب عطفًا على بنيه، كأن إبراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحاق وكان حاضراً ذلك، وقد ادعى القشيري فيما حكاه القرطبي عنه أن يعقوب إنما ولد بعد وفاة إبراهيم، ويحتاج مثل هذا إلى دليل صحيح؛ والظاهر، والله أعلم، أن إسحاق ولد له يعقوب في حياة الخليل وسارة؛ لأن البشارة وقعت بهما في قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَثِهِ إِبْرَاهِيمَ يَتِيمًا﴾ [هود: ٧١] وقد قرئ بنصب يعقوب ههنا على نزع الخافض، فلو لم يوجد يعقوب في حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحاق كبير فائدة، وأيضاً فقد قال الله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَوَقَّعْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْكِتَابَ وَمَا آتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ لَأَنْبِيَاءُ كَثِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٧] وقال في الآية الأخرى: ﴿وَوَقَّعْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]، وهذا يقتضي أنه وجد في حياته، وأيضاً فإنه باني بيت المقدس، كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة، وثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام»، قلت: ثم أي؟ قال: «بيت المقدس»، قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة» الحديث. فزعم ابن حبان أن بين سليمان الذي اعتقده أنه باني بيت المقدس - وإنما كان جدّه بعد خرابه وزخرفه - وبين إبراهيم أربعين سنة، وهذا مما أنكر على ابن حبان، فإن المدة بينهما تزيد على ألف سنين، والله أعلم، وأيضاً فإن ذكر وصية يعقوب لبنيه سيأتي ذكرها قريباً، وهذا يدل على أنه ههنا من جملة الموصين. وقوله: ﴿يَتِيمًا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: أحسنوا في حال الحياة والزمو هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه. فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه. وقد أجرى الله الكريم عاده بأن من قصد الخير وفق له ويسر عليه. ومن نوى صالحاً ثبت عليه. وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»؛ لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث: «فيعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس». وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَكُنَّ ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنِ ۖ فَسَنِيْعُهُ لِلْأُخْرَى ۖ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۖ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنِ ۖ فَسَنِيْعُهُ لِلْأُخْرَى ۖ﴾ [الليل: ١٠-١١].

﴿فَمَنْ كُنْتُمْ تُشْهَدُ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهِكُمْ وَحَدَّائِكُمْ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [١٣٣] تلك أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَفُونَ عَنْهَا كَانُوا يَمْلِكُونَ﴾ [١٣٤].

يقول تعالى محتجاً على المشركين من العرب أبناء إسماعيل، وعلى الكفار من بني إسرائيل - وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام - بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ وهذا من باب التغليب لأن إسماعيل عمه. قال النحاس: والعرب تسمي العم أباً، نقله القرطبي؛ وقد استدلل بهذه الآية من جعل الجد أباً وحجب به الإخوة، كما هو قول الصديق - رضي الله عنه - حكاه البخاري عنه من طريق ابن عباس وابن الزبير، ثم قال البخاري: ولم يختلف عليه، وإليه ذهب عائشة أم المؤمنين، وبه يقول الحسن البصري وطاوس وعطاء، وهو مذهب أبي حنيفة وغير واحد من علماء السلف والخلف؛ وقال مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه أنه يقاسم الإخوة؛ وحكى مالك عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت وجماعة من السلف والخلف، واختاره صاحب أبي حنيفة القاضي: أبو يوسف، ومحمد بن الحسن، ولتقريرها موضع آخر. وقوله: ﴿إِلَهِكُمْ وَحَدَّائِكُمْ﴾ أي: نوحدهم بالألوهية، ولا نشرك به شيئاً غيره ﴿وَوَحَّيْ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: مطيعون خاضعون كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣] والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة، وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٢٥]. والآيات في هذا كثيرة والأحاديث، فمنها قوله ﷺ: «نحن مفسر الأنبياء أولاد غلات ديننا واحد». وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي: إن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيراً يعود نفعه عليكم، فإن لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم: ﴿وَلَا تُنتَفُونَ عَنْهَا كَانُوا يَمْلِكُونَ﴾. وقال أبو العالية، والربيع، وقتادة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ يعني: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط ولهذا جاء في الأثر: من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه.

﴿وَقَالُوا كُتِبُوا هَؤُلَاءِ أَنْ تَكْفُرُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٣٥﴾.

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، حدثني سعيد بن جبيرة أو عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبنا يا محمد تهتد. وقالت النصارى مثل ذلك. فأنزل الله ﷻ ﴿وَقَالُوا كُتِبُوا هَؤُلَاءِ أَنْ تَكْفُرُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ١٣٥﴾. وقوله: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ١٣٥﴾: أي: لا نريد ما دعوتكم إليه من اليهودية والنصرانية، بل نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ١٣٥﴾: أي: مستقيماً. قاله محمد بن كعب القرظي، وعيسى بن جارية. وقال خصيب عن مجاهد: مخلصاً. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: حاجباً. وكذا روي عن الحسن والضحاك، وعطية، والسدي. وقال أبو العالية: الحنيف الذي يستقبل البيت بصلاته، ويرى أن حجه عليه إن استطاع إليه سبيلاً. وقال مجاهد، والربيع بن أنس: حنيفاً، أي: متبعاً. وقال أبو قلابة: الحنيف الذي يؤمن بالرسول كلهم من أولهم إلى آخرهم. وقال قتادة: الحنيفية: شهادة أن لا إله إلا الله. يدخل فيها تحريم الأمهات والبنات والخالات والعلمات وما حرم الله، ﷻ والختان.

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَلِئَسَّيْلَ وَلِئَسَّيْلَ وَلِئَسَّيْلَ وَمَا أَوْفَى مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أَوْفَى النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَعْرِفُونَ بَيْنَ أَعْمَرٍ وَنَهْزٍ وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ ١٣٦﴾.

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ، وبما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملًا، ونص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿وَرَبِّدُّونَ أَنْ يَفْرُقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَرَبِّدُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ١٣٦﴾. الآية (النساء: ١٥٠، ١٥١). وقال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عثمان بن عمار، أخبرنا علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويُفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا». وقد روى مسلم وأبو داود والنسائي من حديث عثمان بن حكيم، عن سعيد بن يسار عن ابن عباس، قال، كان رسول الله ﷺ أكثر ما يصلي الركعتين اللتين قبل الفجر بـ ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية، والأخرى بـ ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَنشَهُدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]. وقال أبو العالية والربيع وقاتدة: الأسباط: بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً؛ ولد كل رجل منهم أمة من الناس، فسموا الأسباط. وقال الخليل بن أحمد وغيره: الأسباط في بني إسرائيل، كالقبائل في بني إسماعيل؛ وقال الزمخشري في الكشاف: الأسباط: حفدة يعقوب وذراعي أبنائه الاثني عشر، وقد نقله الرازي عنه، وقرره ولم يعارضه. وقال البخاري: الأسباط: قبائل بني إسرائيل، وهذا يقتضي أن المراد بالأسباط ههنا شعوب بني إسرائيل، وما أنزل الله تعالى من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم، كما قال موسى لهم: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَيْنَةً وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا تَمْ يُؤْتِ أَكْثَرًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠] وقال تعالى: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْفَثَ عَشْرَةَ أَصْبَاطًا أَمَّا﴾ [الأعراف: ١٦٠] وقال القرطبي: وسموا الأسباط من السبط، وهو التابع، فهم جماعة متتابعون. وقيل: أصله من السبط بالتحريك، وهو الشجر، أي: هم في الكثرة بمنزلة الشجر، الواحدة سبطة. قال الزجاج: وبين لك هذا: ما حدثنا محمد بن جعفر الأنباري، حدثنا أبو نعيم الدقاق، حدثنا الأسود بن عامر، حدثنا إسرائيل عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمد - عليهم الصلاة والسلام. قال القرطبي: والسبط: الجماعة والقبيلة، الراجعون إلى أصل واحد. وقال قتادة: أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به، ويصدقوا بكتبه كلها وبرسوله. وقال سليمان بن حبيب: إنما أمرنا أن نؤمن بالتوراة والإنجيل، ولا نعمل بما فيهما. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن محمد بن مضعب الصوري، حدثنا مؤمل، حدثنا عبيد الله بن أبي حميد، عن أبي المليح، عن مغل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل، وليسمعكم القرآن».

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ تَبَيَّنَ لَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٣٧﴾ صَبَغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبْغَةً وَنَحْنُ لَكُمْ عِيدُونَ ١٣٨﴾.

يقول تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُ بِهِ﴾ أي: الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ﴿بِمِثْلِ مَا آمَنْتُ بِهِ﴾ أيها المؤمنون، من الإيمان بجميع كتب الله ورسوله، ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ أي: فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: عن الحق إلى الباطل، بعد قيام الحجة عليهم ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ تَبَيَّنَ لَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: فبينصرح عليهم ويُظهِرُكُم بِهِمْ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. وقال ابن أبي حاتم: قرئ على يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، حدثنا زياد بن يونس، حدثنا نافع بن أبي

نُعِيم، قال: أرسل إلي بعض الخلفاء مصحف عثمان بن عفان ليصلحه. قال زياد: فقلت له: إن الناس يقولون: إن مصحفه كان في حجره حين قُتل، فوقع الدم على ﴿نَبِّئِكُمْ أَنَّ اللَّهَ وَهُوَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ﴾. فقال نافع: بصُرت عيني بالدم على هذه الآية وقد قُدِّم. وقوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾: قال الضحّاك، عن ابن عباس: دين الله، وكذا روي عن مجاهد، وأبي العالية، وعكرمة، وإبراهيم، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعبد الله بن كثير، وعطية العوفي، والربيع بن أنس، والسدي، نحو ذلك. وانتصاب ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾: إما على الإغراء كقوله: ﴿فَطَرَتُ اللَّهُ﴾ [الروم: ٣٠] أي الزموا ذلك عليكموه. وقال بعضهم: بدل من قوله: ﴿يَلْبَسُهُ لِبَاسَهُ﴾. وقال سيبويه: هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله: ﴿وَأَمَّا بِاللَّهِ﴾ كقوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ٣٦]. وقد ورد في حديث رواه ابن أبي حاتم وابن مَرزُويه، من رواية أشعث بن إسحاق عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أن نبي الله ﷺ قال: «إن بني إسرائيل قالوا: يا موسى، هل يصيغ ربك؟ فقال: اتقوا الله. فناداه ربه: يا موسى، سألوكم هل يصيغ ربك؟ فقل: نعم، أنا أصبغ الألوان: الأحمر والأبيض والأسود، والألوان كلها من صبغي». وأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾. وكذا وقع في رواية ابن مردويه مرفوعاً، وهو في رواية ابن أبي حاتم موقوف، وهو أشبه، إن صح إسناده، والله أعلم.

﴿قُلْ أَتَمَاجُونًا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَكُمُ الْأَعْمَالُ﴾ [١٣٩] أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَنْبِيَاءَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَفَأَنْتُمْ أَكْفَرُ مِنَ اللَّهِ وَمَنْ أَظْلَمُ مِنْكُمْ وَمَنْ كَفَرَ شَهِدَةً عِنْدَ رَبِّكَ أَنَّ اللَّهَ وَمَا اللَّهُ يُغْفِلُ عَنْ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْهَا كَانُوا يَمْسَلُونَ ﴿١٤١﴾

يقول الله تعالى مرشداً نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين: ﴿قُلْ أَتَمَاجُونًا فِي اللَّهِ﴾ أي: أتناظروننا في توحيد الله والإخلاص له والانقياد، واتباع أوامره وترك زواجره ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ المتصرف فينا وفيكم، المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له! ﴿وَلَكُمُ الْأَعْمَالُ﴾ أي: نحن برآء منكم، وأنتم برآء منا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَنْ كَذَّبَكَ فَقُلْتُ لِي عَلَى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِّتُمْ وَمَا أَفْعَلُ وَأَنَا بِرٌّ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ سَاجِدًا لِقَدْرِ اللَّهِ وَمِنْ أَتْبَعِي وَفَلْيَلْزِمُنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آذَوْا آلَكَتَبَ وَالْأَمِينُ مَا سَلَمْتُمْ فَإِنْ أَتَمَلَّوْا فَقَدْ أَفْعَدُوا وَلَئِنْ تَوَلَّوْا فَلَيْسَ عَلَيْكَ أَلْبَلٌ وَأَلَّهُ بِعِزِّهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٢٠]. وقال تعالى إخباراً عن إبراهيم: ﴿وَسَاجِدٌ قَوْمُهُ قَالَ أَتَعْجَبُونَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠]. وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٨]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَكُمُ الْأَعْمَالُ﴾ أي: نحن برآء منكم كما أنتم برآء منا، ونحن له مخلصون، أي في العبادة والتوجه. ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم، إما اليهودية وإما النصرانية، فقال: ﴿قُلْ أَفَأَنْتُمْ أَكْفَرُ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني: بل الله أعلم، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]. الآية والتي بعدها. [آل عمران: ٦٧، ٦٨]. وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِنْكُمْ كَفَرَ شَهِدَةً عِنْدَ رَبِّكَ أَنَّ اللَّهَ﴾: قال الحسن البصري: كانوا يقرؤون في كتاب الله الذي أتاهم: إن الدين عند الله الإسلام، وإن محمداً رسول الله، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية، فشهد الله بذلك، وأقروا به على أنفسهم، فكتبوا شهادة الله عندهم من ذلك. وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ يُغْفِلُ عَنْهَا تَعْمَلُونَ﴾: فيه تهديد ووعد شديد، أي: أن علمه محيط بعملكم، وسيجزىكم عليه. ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي: قد مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي: لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْهَا كَانُوا يَمْسَلُونَ﴾ وليس يغني عنكم انتسابكم إليهم، من غير متابعة منكم لهم، ولا تغفروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا مثلهم منقادين لأوامر الله واتباع رسله، الذين بعثوا مبشرين ومنذرين، فإنه من كفر بنبي واحد فقد كفر بسائر الرسل، ولا سيما من كفر بسيد الأنبياء، وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من سائر المكلفين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين.

﴿سَيَقُولُ اتَّبَعْنَا مِنْ آتَايَ مَا وَلَهُمْ عَن قُلُوبِهِمْ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [١٤٢] أَمْ يَلْمِزُكَ أَتَمَاجُونًا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَكُمُ الْأَعْمَالُ﴾ [١٣٩] أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَنْبِيَاءَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَفَأَنْتُمْ أَكْفَرُ مِنَ اللَّهِ وَمَنْ أَظْلَمُ مِنْكُمْ وَمَنْ كَفَرَ شَهِدَةً عِنْدَ رَبِّكَ أَنَّ اللَّهَ وَمَا اللَّهُ يُغْفِلُ عَنْ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْهَا كَانُوا يَمْسَلُونَ ﴿١٤١﴾

قيل المراد بالسفهاء ههنا: المشركون؛ مشركو العرب، قاله الزجاج. وقيل: أحبار يهود، قاله مجاهد. وقيل: المنافقون، قاله السدي. والآية عامة في هؤلاء كلهم، والله أعلم. قال البخاري: حدثنا أبو نعيم، سمع زهيراً، عن أبي إسحاق، عن البراء، رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت،

وأنه صلى أول صلاة صلاها، صلاة العصر، وصلى معه قوم. فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت. وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالاً قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله ﷻ: ﴿اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُجِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾. انفرد به البخاري من هذا الوجه. ورواه مسلم من وجه آخر. وقال محمد بن إسحاق: حدثني إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي إسحاق، عن البراء، قال: كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس، ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله، فأنزل الله: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبُ وَجْهَكَ فِي السَّمَاوَاتِ فَلَوْلَيْسَتْكَ بَيْتُهُ رَبَّنَا قَوْلَ وَجْهَكَ مَطَرُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، فقال رجال من المسلمين: ودنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نُصرف إلى القبلة، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُجِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ وقال السفهاء من الناس، وهم أهل الكتاب: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ إلى آخر الآية. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا الحسن بن عطية، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: كان رسول الله ﷺ قد صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان يحب أن يُوجه نحو الكعبة، فأنزل الله: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبُ وَجْهَكَ فِي السَّمَاوَاتِ فَلَوْلَيْسَتْكَ بَيْتُهُ رَبَّنَا قَوْلَ وَجْهَكَ مَطَرُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: فوجه نحو الكعبة. وقال السفهاء من الناس، وهم اليهود: ﴿مَا وَلَهُمْ عَن قِبَلِهِمْ آلِي كَاؤًا عَلَيْهَا﴾ فأنزل الله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ مِرْيَاطَ مُسْتَقِيمٍ﴾. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: إن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله ﷻ: ﴿تَوَلَّوْا وُجُوهَكُمْ مَطَرُ﴾ أي: نحوه. فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ مِرْيَاطَ مُسْتَقِيمٍ﴾. وقد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة، وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله ﷺ أَمَرَ باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يُصَلِّي بين الركبتين، فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة تَعَدَّرَ الجمعُ بينهما، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس، قاله ابن عباس والجمهور، ثم اختلف هؤلاء هل كان الأمر به بالقرآن أو بغيره؛ على قولين، وحكى القرطبي في تفسيره عن عكرمة وأبي العالية والحسن البصري أن التوجه إلى بيت المقدس كان باجتهاده عليه الصلاة والسلام. والمقصود أن التوجه إلى بيت المقدس بعد مقدمه ﷺ المدينة، فاستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهراً، وكان يكثر الدعاء والابتهاال أن يُوجه إلى الكعبة، التي هي قبلة إبراهيم، عليه السلام، فأجيب إلى ذلك، وأمر بالتوجه إلى البيت العتيق، فخطب رسول الله ﷺ الناس وأعلمهم بذلك. وكان أول صلاة صلاها إليها صلاة العصر، كما تقدم في الصحيحين من رواية البراء. ووقع عند النسائي من رواية أبي سعيد بن المعلى: أنها الظهر. وأما أهل قُبَاء، فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر من اليوم الثاني، كما جاء في الصحيحين، عن ابن عمر أنه قال: بينما الناس بقبَاء في صلاة الصبح، إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها. وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة. وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به، وإن تقدم نزوله وإبلاغه، لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء، والله أعلم. ولما وقع هذا حصل لبعض الناس - من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود - ارتياب وزيف عن الهدى وتخبيط وشك، وقالوا: ﴿مَا وَلَهُمْ عَن قِبَلِهِمْ آلِي كَاؤًا عَلَيْهَا﴾ أي: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا؟ فأنزل الله جوابهم في قوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ وَلَكِنَّ الْآلِ مَنَ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] أي: الشأن كله في امتثال أوامر الله، فحيثما وجَّهنا توجَّهنا، فالطاعة في امتثال أمره، ولو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة، فنحن عبده وفي تصرفه وخُداؤه، حيثما وجَّهنا توجَّهنا، وهو تعالى له بعبدته ورسوله محمد - صلوات الله وسلامه عليه - وأمره غاية عظيمة؛ إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم، خليل الرحمن، وجعل توجَّههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له، أشرف بيوت الله في الأرض، إذ هي بناء إبراهيم الخليل، عليه السلام، ولهذا قال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ مِرْيَاطَ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وقد روى الإمام أحمد، عن علي بن عاصم، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عُمر بن قيس، عن محمد بن الأشعث، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ - يعني في أهل الكتاب -: «إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة، التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين». وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾: يقول تعالى: إنما حوَّلناكم إلى قبلة إبراهيم، عليه السلام، واختارناها لكم لنجعلكم خيَارَ الأمم، لتكونوا يوم القيامة شُهَدَاءَ على الأمم؛ لأن الجميع معترفون لكم

بالفضل . والوسط ههنا: الخيار والأجود، كما يقال: قرش أوسط العرب نسباً وداراً، أي: خيرها . وكان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه، أي: أشرفهم نسباً، ومنه الصلاة الوسطى، التي هي أفضل الصلوات، وهي العصر، كما ثبت في الصحاح وغيرها، ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خَصَّها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَجَبْتَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ١٧٨]. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم. فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما آتانا من نذير وما آتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته» قال: فذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾. قال: الوسط: العدل، فتدعون، فتشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم». رواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجة من طرق عن الأعمش، به . وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يحيى النبي يوم القيامة ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعى قومه، فيقال لهم: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا. فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم. فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته: فيدعى بمحمد وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم. فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا ﷺ فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا» فذلك قوله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: «عدلاً» ﴿لِيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: «عدلاً». وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه وابن أبي حاتم من حديث عبد الواحد بن زياد، عن أبي مالك الأشجعي، عن المغيرة بن عتيبة بن نهاس: حدثني مكتب لنا، عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «أنا وأمتي يوم القيامة على كؤم مشرفين على الخلائق. ما من الناس أحد إلا وذاته مثا. وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه، ﷻ».

وروى الحاكم في مستدركه وابن مژذويه أيضاً، واللفظ له، من حديث مصعب بن ثابت، عن محمد بن كعب القرظي، عن جابر بن عبد الله، قال: شهد رسول الله ﷺ جنازة في بني سلمة، وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ فقال بعضهم: والله - يا رسول الله - لنعم المرء كان، لقد كان عفيفاً مسلماً وكان... وأثنوا عليه خيراً. فقال رسول الله ﷺ: «أنت بما تقول». فقال الرجل: الله أعلم بالسرائر، فأما الذي بدا لنا منه فذاك. فقال النبي ﷺ: «وجبت». ثم شهد جنازة في بني حارثة، وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ فقال بعضهم: يا رسول الله، بش المرء كان، إن كان لفظاً غليظاً، فآثنا عليه شراً فقال رسول الله ﷺ لبعضهم: «أنت بالذي تقول». فقال الرجل: الله أعلم بالسرائر، فأما الذي بدا لنا منه فذاك. فقال رسول الله ﷺ: «وجبت». قال مصعب بن ثابت: فقال لنا عند ذلك محمد بن كعب: صدق رسول الله ﷺ ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾. ثم قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا داود بن أبي الفرات، عن عبد الله بن يزيد، عن أبي الأسود: ما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال: وقد وقع بها مرض، فهم يموتون موتاً ذريعاً. فجلست إلى عمر بن الخطاب، فمرت به جنازة، فأثني على صاحبها خير. فقال: وجبت وجبت. ثم مر بأخرى فأثني عليها شراً، فقال عمر: وجبت وجبت. فقال أبو الأسود: ما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت كما قال رسول الله ﷺ: «أيا مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة». قال: فقلنا: وثلاثة؟ قال: «وثلاثة». قال، فقلنا: واثنان؟ قال: «واثنان» ثم لم نسأله عن الواحد. وكذا رواه البخاري، والترمذي، والنسائي من حديث داود بن أبي الفرات، به. قال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن عثمان بن يحيى، حدثنا أبو قلابة الرقاشي، حدثني أبو الوليد، حدثنا نافع بن عمر، حدثني أمية بن صفوان، عن أبي بكر بن أبي زهير الثقفي، عن أبيه، قال: سمعت رسول الله ﷺ بالبابة يقول: «يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم». قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: «بالثناء الحسن والثناء السيئ»، أنتم شهداء الله في الأرض». ورواه ابن ماجة عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يزيد بن هارون. ورواه الإمام أحمد، عن يزيد بن هارون، وعبد الملك بن عمر، وشريح، عن نافع عن ابن عمر، به.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ أَلِيًّا كَتَّ عَلَيْهِمْ إِلَّا لِيَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ يقول تعالى: إنما شرعنا لك - يا محمد - التوجه أولاً إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة، ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبيه، أي: مُرْتَدّاً عن دينه ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أي: هذه الفعل،

وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أي: وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس، إلا على الذين هدى الله قلوبهم، وأيقنوا بتصديق الرسول، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مزية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله أن يكلف عباده بما شاء، وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك، بخلاف الذين في قلوبهم مرض، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكاً، كما يحصل للذين آمنوا إيقاناً وتصديقاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ لَا يَزِيدُ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَمًا فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى وَبَشَارًا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٧﴾﴾ [الإسراء: ٨٧]. ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول ﷺ واتباعه في ذلك، وتوجه حيث أمره الله من غير شك ولا ريب، من سادات الصحابة. وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلوا القبلتين. وقال البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا مسدد، حدثنا يحيى، عن سفيان، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: بنا الناس يصلون الصبح في مسجد قباء إذ جاء رجل فقال: قد أنزل على النبي ﷺ قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها. فتوجهوا إلى الكعبة. وقد رواه مسلم من وجه آخر، عن ابن عمر. ورواه الترمذي من حديث سفيان الثوري، وعنده: أنهم كانوا ركوعاً، فاستداروا كما هم إلى الكعبة، وهم ركوع. وكذا رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، مثله. وهذا يدل على كمال طاعتهم ﷺ ورسوله، وانقيادهم لأوامر الله ﷻ، رضي الله عنهم أجمعين.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك لا يضيع ثوابها عند الله، وفي الصحيح من حديث أبي إسحاق السبيعي، عن البراء، قال: مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس فقال الناس: ما حالهم في ذلك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾. ورواه الترمذي عن ابن عباس وصححه. وقال ابن إسحاق: خذني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: بالقبلة الأولى، وتصديقكم نبيكم، واتباعه إلى القبلة الأخرى. أي: ليُعطيكم أجرهما جميعاً. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. وقال الحسن البصري: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: ما كان الله ليضيع محمدًا ﷺ وانصرافكم معه حيث انصرف ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها، فجعلت كلما وجدت صبياً من السبي أخذته فألقته ب صدرها، وهي تدور على ولدها، فلما وجدته ضمته إليها وألقته ثديها. فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدها في النار، وهي تقدر على ألا تطرحه؟» قالوا: لا، يا رسول الله. قال: «فوالله، الله أرحم بعباده من هذه بولدها».

﴿قَدْ زَيَّ قَلْبُ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنَرْبِطَنَّ قَبْلَهُ تَرْصَنَهَا قَوْلٌ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْمَكْرَمِ وَبَيَّتَ مَا كُنْتُمْ قَوْلُوا وَجْهَكُمْ شَطْرُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَلِيظٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان يحب قبلة إبراهيم فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله: ﴿قَدْ زَيَّ قَلْبُ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿قَوْلُوا وَجْهَكُمْ شَطْرُ﴾ فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ﴿وَمَا لَكُمْ عَنْ قَبْلِهِمْ أَلَّا كَانُوا عَلِيمًا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وقال: ﴿فَأَيُّكُمْ قَوْلًا فَمَنْ وَجَّهَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١١٥]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾.

وروى ابن مَرْدُويه من حديث القاسم العُمري، عن عمه عُبَيْدِ اللَّهِ بن عمر، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: قال: كان النبي ﷺ إذا سلم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء فأنزل الله: ﴿فَلَنَرْبِطَنَّ قَبْلَهُ تَرْصَنَهَا قَوْلٌ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْمَكْرَمِ﴾ إلى الكعبة إلى الميزاب، يؤم به جبرائيل عليه السلام. وروى الحاكم في مستدركه، من حديث شعبة عن يعلى بن عطاء، عن يحيى بن قطة قال: رأيت عبد الله بن عمرو جالساً في المسجد الحرام، بإزاء الميزاب، فتلا هذه الآية: ﴿فَلَنَرْبِطَنَّ قَبْلَهُ تَرْصَنَهَا﴾ قال: نحو ميزاب الكعبة. ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ورواه ابن أبي حاتم، عن الحسن بن عرفة، عن هُشَيْم، عن يعلى بن عطاء، به. وهكذا قال غيره، وهو أحد قولي الشافعي، رحمه الله: إن الغرض إصابة عين القبلة. والقول الآخر وعليه الأكثرون: أن المراد المواجهة، كما رواه الحاكم من حديث محمد بن

إسحاق، عن عمير بن زياد الكندي، عن علي، رضي الله عنه، ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: شطره: قبله. ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وهذا قول أبي العالية، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وقنادة، والربيع بن أنس، وغيرهم. وكما تقدم في الحديث الآخر: «ما بين المشرق والمغرب قبله». وقال القرطبي: روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين المشرق والمغرب قبله لأهل المسجد، والمسجد قبله لأهل الحرم، والحرم قبله لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي». وقال أبو نعيم الفضل بن دكين: حدثنا زهير، عن أبي إسحاق، عن البراء أن النبي ﷺ صَلَّى قَبْلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وكان يعجبه قبلته قبل البيت وأنه صَلَّى صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان يصلي معه، فمرَّ على أهل المسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله قد صَلَّيتَ مع رسول الله ﷺ قَبْلَ مَكَّةَ، فداروا كما هم قبل البيت. وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: لما قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ صَلَّى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وكان رسول الله ﷺ يُحِبُّ أَنْ يَحُولَ نَحْوَ الْكَعْبَةِ، فنزلت: ﴿قَدْ رَأَى نَفْلًا وَجْهَكَ فِي السَّمَاوَاتِ فَلَوْلَيْتَكَ بَيْتَهُ رَضْنَاهُ﴾ فصرف إلى الكعبة. وروى النسائي عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنا نَعْبُدُ إِلَى الْمَسْجِدِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فنمر على المسجد فنصلي فيه، فمررنا يوماً - ورسول الله ﷺ قَاعِدٌ عَلَى الْمَنْبَرِ - قلت: لقد حَدَّثَ أمر، فجلست، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿قَدْ رَأَى نَفْلًا وَجْهَكَ فِي السَّمَاوَاتِ فَلَوْلَيْتَكَ بَيْتَهُ رَضْنَاهُ﴾ حتى فَرَّغَ مِنَ الْآيَةِ. فقلت لصاحبي: تَعَالَى نَرْكِعُ رَكَعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فنكون أول من صلى، فتوارينا فصليناها. ثم نزل النبي ﷺ فصلى للناس الظهر يومئذ. وكذا روى ابن مردويه، عن ابن عمر: أن أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ إلى الكعبة صَلَاةُ الظُّهْرِ، وأنها الصلاة الوُسْطَى. والمشهور أن أول صلاة صلاها إلى الكعبة صلاة العصر، ولهذا تأخر الخبر عن أهل قباء إلى صلاة الفجر. وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا الحسين بن إسحاق التُّسْتَرِيُّ، حدثنا رجاء بن محمد السَّقَطِيُّ، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا إبراهيم بن جعفر، حدثني أبي، عن جدته أم أبيه ثُوَيْلَةَ بنت مسلم، قالت: صَلَّيْنَا الظُّهْرَ - أو العصر - في مسجد بني حارثة، فاستقبلنا مسجد إيلياء فصلينا رَكَعَتَيْنِ، ثم جاء مَنْ يَحْدِثُنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ اسْتَقْبَلَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ، فتحول النساء مكان الرجال، والرجال مكان النساء، فصلينا السجدة الباقيتين، ونحن مستقبلون البيت الحرام. فحدثني رجل من بني حارثة أن النبي ﷺ قال: «أولئك رجال يؤمنون بالغيب». وقال ابن مردويه أيضاً: حدثنا محمد بن علي بن دُخْنِيمٍ، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا مالك بن إسماعيل التُّهَيْدِيُّ، حدثنا قيس، عن زياد بن علاقة، عن عُمَارَةَ بن أَوْسٍ قال: بينما نحن في الصلاة نحو بيت المقدس، ونحن ركوع، إذ أتى مناد بالباب: أن القبلة قد حُولَتْ إلى الكعبة. قال: فأشهد على إمامنا أنه انحرف فتحول هو والرجال والصبيان، وهم ركوع، نحو الكعبة. وقوله: ﴿وَبَيِّنْ مَا كُنْتُمْ قَوْلُوا وَجْهَكُمْ شَطْرَهُ﴾: أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض، شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، ولا يستثنى من هذا شيء، سوى النافلة في حال السفر، فإنه يصليها حيثما توجه قلبه وقلبه نحو الكعبة. وكذا في حال المسابقة في القتال يصلي على كل حال، وكذا من جهل جهة القبلة يصلي باجتهاده، وإن كان مخطئاً في نفس الأمر، لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها.

مسألة: وقد استدل المالكية بهذه الآية على أن المصلي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده كما ذهب إليه الشافعي وأحمد وأبو حنيفة، قال المالكية لقوله: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فلو نظر إلى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء وهو ينافي كمال القيام. وقال بعضهم: ينظر المصلي في قيامه إلى صدره. وقال شريك القاضي: ينظر في حال قيامه إلى موضع سجوده كما قال جمهور الجماعة، لأنه أبلغ في الخضوع وأكد في الخشوع وقد ورد به الحديث، وأما في حال ركوعه فإلى موضع قدميه، وفي حال سجوده إلى موضع أنفه وفي حال قعوده إلى حجره. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لْيَعْلَمُوا أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: واليهود - الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرفكم عن بيت المقدس - يعلمون أن الله تعالى سيوجهكم إليها، بما في كتبهم عن أنبيائهم، من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمنه، وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة، ولكن أهل الكتاب يتكاثرون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً؛ ولهذا يهددهم تعالى بقوله: ﴿رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أُولَئِكَ أَلْفَبُوا نَفْسَهُمْ وَمَا يَضِلُّ عَنْهُمْ وَهَدَى اللَّهُ سَبِيلَهُمْ وَإِنَّ سَعْيَهُمْ لَشَاكِرٌ﴾. وقالوا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أُولَئِكَ أَلْفَبُوا نَفْسَهُمْ وَمَا يَضِلُّ عَنْهُمْ وَهَدَى اللَّهُ سَبِيلَهُمْ وَإِنَّ سَعْيَهُمْ لَشَاكِرٌ﴾.

يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم، ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما

جاءهم به، لما اتبعوه وتركوا أهواءهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۚ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. ولهذا قال ههنا: ﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِيلَتَكَ﴾. وقوله: ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِيلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِيلَةِ بَعْضٍ﴾ إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به، وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم، فهو أيضاً مستمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته، وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله، وما كان متوجهاً إلى بيت المقدس؛ لأنها قبله اليهود، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى. ثم حذر الله تعالى من مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى؛ فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره. ولهذا قال مخاطباً للرسول، والمراد الأمة: ﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِيلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِيلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِيلَةِ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ وَنَاصَبَهُمْ مَا جَاءَكَ مِنْ أَلِيمٍ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الْفَالِيلِيكَ ۚ﴾.

﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَتَرَفَعُونَ كَمَا يَتَرَفَعُونَ آبَاءَهُمْ وَلَوْ قَرِيبًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۚ﴾ [الحق من ربك فلا تكونن من الممتنعين].

يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرفون أبناءهم كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صغير: «ابنك هذا؟» قال: نعم يا رسول الله، أشهد به. قال: «أما إنه لا يجني عليك ولا تجني عليه». قال القرطبي: ويروى أن عمر قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمداً ﷺ كما تعرف ولدك ابنك، قال: نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته، وإني لا أدري ما كان من أمره. قلت: وقد يكون المراد ﴿يَتَرَفَعُونَ كَمَا يَتَرَفَعُونَ آبَاءَهُمْ﴾ من بين أبناء الناس لا يشك أحد ولا يتماهى في معرفة ابنه إذا رآه من بين أبناء الناس كلهم. ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإتقان العلمي ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ أي: ليكتُمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي ﷺ، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. ثم ثبت تعالى نبية والمؤمنين وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، فقال: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۚ﴾. ﴿وَلِكُلِّ وِجْهٍ هُوَ مُوَلِّيًا فَاسْتَيْقُوا الْخَيْرَاتِ إِنَّمَا تَكُونُوا بَآئِرٍ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۚ﴾.

قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهٍ هُوَ مُوَلِّيًا﴾. يعني بذلك: أهل الأديان، يقول: لكل قبله يرضونها، ووجهه الله حيث توجه المؤمنون. وقال أبو العالية: لليهودي وجهه هو موليتها، وللنصراني وجهه هو موليتها، وهذاكم أنتم أيتها الأمة الموقنون للقبلة التي هي القبلة. وروي عن مجاهد، وعطاء، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي نحو هذا. وقال مجاهد في الرواية الأخرى: ولكن أمر كل قوم أن يصلوا إلى الكعبة. وقرأ ابن عباس، وأبو جعفر الباقر، وابن عامر: «ولكل وجهه هو مولأها». وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَمَلًا بَيْنَكُمْ يَرْعَى مِنْهَا وَأُولَا شَأْنُ اللَّهِ لَكُمْ أَمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَلَكِنْ يَسُبُّوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَيْقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٤٨]. وقال ههنا: ﴿إِنَّمَا تَكُونُوا بَآئِرٍ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: هو قادر على جمعكم من الأرض، وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِلَيْهِ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۚ﴾ [وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ إِلَّا لِمَنْ يَكُونُ لِلنَّاسِ عِلْقٌ مِنْهُ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِمَّ يَتَمَتَّعَ عَلَيْكُمْ وَلَمَّا كُنْتُمْ تَهْتَدُونَ ۚ﴾.

هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام، من جميع أقطار الأرض. وقد اختلفوا في حكمة هذا التكرار ثلاث مرات، فقيل: تأكيد، لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام على ما نص عليه ابن عباس وغيره، وقيل: بل هو منزل على أحوال، فالأمر الأول لمن هو مشاهد الكعبة، والثاني لمن هو في مكة غائبا عنها، والثالث لمن هو في بقية البلدان، هكذا وجهه فخر الدين الرازي. وقال القرطبي: الأول لمن هو بمكة، والثاني لمن هو في بقية الأمصار، والثالث لمن خرج في الأسفار، ورجع هذا الجواب القرطبي، وقيل: إنما ذكر ذلك لتعلقه بما قبله أوبعده من السياق، فقال: أولاً ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَتْ وَجْهَكَ فِي السَّمَاوَاتِ فَاتَّقِ اللَّهَ قِيلَةً رَضَاهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ﴾ فذكر في هذا المقام إجابته إلى طلبته وأمره بالقبلة التي كان يود التوجه إليها ويرضاها؛ وقال في الأمر الثاني: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِلَيْهِ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۚ﴾، فذكر أنه الحق من الله وارتقى عن المقام الأول، حيث كان موافقاً لرضا الرسول ﷺ فبين أنه الحق أيضاً من الله يحبه ويرضاه، وذكر في الأمر الثالث حكمة قطع حجة المخالف من

يُذَكِّرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعَثَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَيْهِمْ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللَّهِ مَبِينَاتٍ وَزَكِيَّهٍ، أَيْ: يَطْرَهُمْ مِنْ رِذَالِ الْأَخْلَاقِ وَدَسَسِ النَّفُوسِ وَأَفْعَالِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ - وَهُوَ الْقُرْآنُ - وَالْحِكْمَةَ - وَهِيَ السُّنَّةُ - وَيُعَلِّمُهُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ. فَكَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْجَهْلَاءُ يَسْتَهْزِئُونَ بِالْقَوْلِ الْفَرَى، فَانْتَقَلُوا بِبِرْكَةِ رِسَالَتِهِ، وَبِمَنْ سَفَارَتِهِ، إِلَى حَالِ الْأَوْلِيَاءِ، وَسَجَايَا الْعُلَمَاءِ فَصَارُوا أَعَمَقَ النَّاسِ عِلْمًا، وَأَبْرَهَمَ قُلُوبًا، وَأَقْلَهُمْ تَكَلُّفًا، وَأَصْدَقَهُمْ لَهْجَةً. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ. وَزَكَّاهُمْ﴾. الْآيَةُ (إِنْ) عِمْرَان: [١٦٤]. وَذَمُّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَاسْتَوُوا بِقَوْمِهِمْ دَارَ الْآثَارِ﴾ (إِبْرَاهِيم: ٢٨). قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي بِنِعْمَةِ اللَّهِ مُحَمَّدًا ﷺ. وَلِهَذَا نَدَّبَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْإِعْتِرَافِ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ وَمُقَابِلَتِهَا بِذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ، فَقَالَ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (١٥٩). قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا يَنْصَحُكُمْ﴾ يَقُولُ: كَمَا فَعَلْتُ فَادْكُرُونِي. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهَبٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَشْكُرُكَ؟ قَالَ لَهُ رَبِّهِ: تَذَكُّرُنِي وَلَا تَنْسَانِي، فَإِذَا ذَكَرْتَنِي فَقَدْ شَكَرْتَنِي، وَإِذَا نَسَيْتَنِي فَقَدْ كَفَرْتَنِي. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَالسَّيِّدِي، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: إِنَّ اللَّهَ يَذْكُرُ مِنْ ذِكْرِهِ، وَيَزِيدُ مِنْ شُكْرِهِ وَيُعَذِّبُ مَنْ كَفَرَهُ. وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَقُولُوا اللَّهُ حَقُّ نِقَائِهِ﴾ (إِنْ) عِمْرَان: [١٠٢] قَالَ: هُوَ أَنَّ يَطَاعَ فَلَا يُغْفَى، وَيَذْكُرَ فَلَا يُنْسَى، وَيُشْكَّرَ فَلَا يُكْفَرُ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الصَّبَّاحِ، أَخْبَرَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، أَخْبَرَنَا عِمَارَةُ الصِّدْلَانِيُّ، حَدَّثَنَا مَكْحُولُ الْأَزْدِيُّ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عُمَرَ: أَرَأَيْتَ قَاتِلَ النَّفْسِ وَشَارِبَ الْخَمْرِ وَالسَّارِقَ وَالزَّانِيَ يَذْكُرُ اللَّهَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ قَالَ: إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ هَذَا ذَكَرَهُ اللَّهُ بِلَعْنَتِهِ، حَتَّى يَسْكُتَ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ قَالَ: اذْكُرُونِي فِيمَا افْتَرَضْتُ عَلَيْكُمْ أَذْكُرْكُمْ فِيمَا أَوْجِبْتُ لَكُمْ عَلَى نَفْسِي. وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ: اذْكُرُونِي بِطَاعَتِي أَذْكُرْكُمْ بِمَغْفِرَتِي، وَفِي رِوَايَةٍ: بِرَحْمَتِي. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ قَالَ: ذَكَرَ اللَّهُ إِيَّاكُمْ أَكْبَرَ مِنْ ذِكْرِكُمْ إِيَّاهُ. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، مَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأَ ذِكْرَتِهِ فِي مَلَأَ خَيْرَ مِنْهُ». قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «قَالَ اللَّهُ ﷻ يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّ ذَكَرْتَنِي فِي نَفْسِكَ ذَكَرْتُكَ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَلَأَ ذِكْرَتِكَ فِي مَلَأَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ - أَوْ قَالَ: فِي مَلَأَ خَيْرٍ مِنْهُمْ - وَإِنْ دُنُوتَ

مني شبراً دنوت منك ذراعاً، وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً، وإن أتيتني تمشي أتيتك أهول». صحيح الإسناد، أخرجه البخاري من حديث قتادة. وعنده قال قتادة: الله أقرب بالرحمة. وقوله تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾: أمر الله تعالى بشكره، ووعدته على شكره بمزيد الخير، فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُحُومُكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (١٥٧). وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا شعبة، عن الفضيل بن فضالة - رجل من قيس - حدثنا أبو رجاء العطاردي، قال: خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خزل لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «من أنعم الله عليه نعمة فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه». وقال روح مرة: «على عبده».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٦) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَمَاتَهُ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (١٥٧).

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر شرع في بيان الصبر، والإرشاد إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها، أو في نقمة فصبر عليها؛ كما جاء في الحديث: «عجباً للمؤمن. لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له: إن أصابته سراء فشكر، كان خيراً له؛ وإن أصابته ضراء فصبر، كان خيراً له».

وبين تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمّل المصائب الصبر والصلاة، كما تقدم في قوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْفَاقِهِينَ﴾ (البقرة: ٤٥). وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذ حَزَبَهُ أمر صلى. والصبر صبران، فصبر على ترك المحارم والمآثم، وصبر على فعل الطاعات والقربات، والثاني أكثر ثواباً لأنه المقصود. كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الصبر في باين، الصبر لله بما أحب، وإن ثقل على الأنفس والأبدان، والصبر لله عما كره وإن نازعت إليه الأهواء. فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يسلم عليهم، إن شاء الله. وقال علي بن الحسين زين العابدين: إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادي مناد: أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب؟ قال: فيقوم عُقْبُ من الناس، فتتلقاهم الملائكة، فيقولون: إلى أين يا بني آدم؟ فيقولون: إلى الجنة. فيقولون: وقبل الحساب؟ قالوا: نعم، قالوا: ومن أنتم؟ قالوا: الصابرون، قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا على طاعة الله، وصبرنا عن معصية الله، حتى توفانا الله. قالوا: أنتم كما قلتم، ادخلوا الجنة، فنعلم أجر العاملين. قلت: ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَوْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠). وقال سعيد بن جبیر: الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه، واحتسابه عند الله رجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو مُتَجَلِّد لا يرى منه إلا الصبر. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَمَاتَهُ﴾: يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء برزقون، كما جاء في صحيح مسلم: «أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل مُعَلَّقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك أطلاعة»، فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا، وأتني شيء نبغي، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ثم عاد إليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يُثْرَكُونَ من أن يسألوا، قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا، فنقاتل في سبيلك، حتى نقتل فيك مرة أخرى؛ لما يرون من ثواب الشهادة - فيقول الرب جلّ جلاله: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون».

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد، عن الإمام الشافعي، عن الإمام مالك، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ تَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَمْعُهُ». ففقه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً، وإن كان الشهداء قد خَصَّصُوا بالذكر في القرآن، تشريفاً لهم وتكريماً وتعظيماً.

﴿وَلَبَّيْكُمْ يَوْمَ تَمُوتُونَ مِنَ الْجُوعِ وَتَمُوتُونَ مِنَ الْآمَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالتَّوْبَةِ وَتَبَيَّنَ الصَّابِرُونَ﴾ (١٥٨) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَلَئِنْ إِلَهِ رَبِّكُمْ (١٥٩) أُرْسِلَتْ عَلَيْهِمْ مَلَكُوتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٦٠).

أخبر تعالى أنه يبتلي عباده المؤمنين، أي: يختبرهم ويمتحنهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَبَّيْكُمْ حِينَ تَمُوتُونَ مِنَ الْجُوعِ وَتَمُوتُونَ مِنَ الْآمَالِ وَتَمُوتُونَ مِنَ الْآفَاقِ﴾ (١٦١). [سجد: ٣١] فتارة بالسراء، وتارة بالضراء من خوف وجوع، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَعَلْنَا إِلَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ (النحل: ١١٢) فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه؛ ولهذا قال: لباس الجوع والخوف. وقال ههنا ﴿يَمُوتُونَ مِنَ الْجُوعِ وَالْآفَاقِ﴾ أي: بقليل من ذلك ﴿وَتَبَيَّنَ مِنَ الْآمَالِ﴾ أي: ذهب بعضها ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ كموت الأصحاب والأقارب والأحباب ﴿وَالْتَّوْبَةِ﴾ أي: لا تغل الحداث والمزارع كعادتها. كما قال بعض السلف: فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة. وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده، فمن صبر أثابه الله، ومن قنط أحلّ الله به عقابه. ولهذا قال: ﴿وَتَبَيَّنَ الصَّابِرُونَ﴾. وقد حكى بعض المفسرين أن المراد من الخوف ههنا: خوف الله، وبالجوع: صيام رمضان، ونقص الأموال: الزكاة، والأنفس: الأمراض، والشرمات: الأولاد. وفي هذا نظر، والله أعلم. ثم بيّن تعالى من الصابرون الذين شكرهم، قال:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَلَئِنَّا إِلَيْهِ رَجُوعُونَ﴾ (١٥٨) أي: تسَلَّوْا بقولهم هذا عما أصابهم، وعلموا أنَّهم ملك الله يتصرف في عيده بما يشاء، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده، وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة. ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال: ﴿أَوَلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي ثناء من الله عليهم ورحمة. قال سعيد بن جبير: أي أَمَنَةٌ من العذاب ﴿وَأَوَلَيْكَ هُمُ الْمُتَهَدِّثُونَ﴾: قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: نَغَمَ العذلان ونعمت العلاوة ﴿أَوَلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ فهذان العذلان ﴿وَأَوَلَيْكَ هُمُ الْمُتَهَدِّثُونَ﴾ فهذه العلاوة، وهي ما توضع بين العدلين، وهي زيادة في الحمل وكذلك هؤلاء، أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً. وقد ورد في ثواب الاسترجاع، وهو قول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَلَئِنَّا إِلَيْهِ رَجُوعُونَ﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة. فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليث - يعني ابن سعد - عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد، عن عمرو بن أبي عمرو، عن المطلب، عن أم سلمة قالت: أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ، فقال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولاً سُرْتُ به. قال: «لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبتها، ثم يقول: اللهم أجزني في مصيبتى واخلف لي خيراً منها، إلا فعل ذلك به». قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه، فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت: اللهم أجزني في مصيبتى واخلف لي خيراً منه، ثم رجعت إلى نفسي. فقلت: من أين لي خير من أبي سلمة؟ فلما انقضت عدتي استأذن علي رسول الله ﷺ - وأنا أدبغ إهاباً لي - فغسلت يدي من القِرْط، وأذنت له، فوضعت له وسادة آدم حَشَوْها ليف، فقعدها عليها، فخطبني إلى نفسي، فلما فرغ من مقاله قلت: يا رسول الله، ما بي ألا يكون بك الرغبة، ولكني امرأة في غيرة شديدة، فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السن، وأنا ذات عيال، فقال: «أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يُذهباها الله، عَنكَ. وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي». قالت: فقد سَلَّمْتُ لرسول الله ﷺ. فتزوجها رسول الله ﷺ، فقالت أم سلمة بعد: أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه، رسول الله ﷺ. وفي صحيح مسلم، عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَلَئِنَّا إِلَيْهِ رَجُوعُونَ﴾ اللهم أجزني في مصيبتى واخلف لي خيراً منها، إلا أجره الله من مصيبتها، واخلف له خيراً منها». قالت: فلما تُوفِّي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ، فأخلف الله لي خيراً منه: رسول الله ﷺ. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، وعَبَاد بن عباد قال: حدثنا هشام بن أبي هشام، حدثنا عباد بن زياد، عن أمه، عن فاطمة ابنة الحسين، عن أبيها الحسين بن علي، عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها - وقال عباد: قَدَّمْ عهدها - فيُحَدِّثْ لذلك استرجاعاً، إلا جدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب». ورواه ابن ماجه في سننه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع، عن هشام بن زياد، عن أمه، عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها الحسين. وقد رواه إسماعيل بن عُليَّة، ويزيد بن هارون، عن هشام بن زياد، عن أبيه، كذا، عن فاطمة، عن أبيها. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق السالحي، أخبرنا حَمَّاد بن سلمة، عن أبي سنان قال: دفنتُ ابناً لي، فإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة - يعني الخولاني - فأخرجني، وقال لي: ألا أبشرك؟ قلت: بلى. قال: حدثني الضحَّاك بن عبد الرحمن بن عَزْرَب، عن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: يا ملك الموت، قبضت ولد عبدي؟ قبضت قُرَّة عينه وثمره فواده؟ قال: نعم. قال: فما قال؟ قال: حَمَدَكَ واسترجع، قال: ابنوا له بيتاً في الجنة، وسَمَّوه بيت الحمد». ثم رواه عن علي بن إسحاق، عن عبد الله بن المبارك. فذكره. وهكذا رواه الترمذي عن سُويد بن نصر، عن ابن المبارك، به. وقال: حسن غريب. واسم أبي سنان: عيسى بن سنان.

﴿إِنَّ الصَّمَا وَالْمَرَّةَ مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ مَن حَجَّ إِلَيْهِ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ حَرًّا فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَاكِرٌ عَلَيْهِ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود الهاشمي، أخبرنا إبراهيم بن سعد، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: قلت: أَرَأَيْتَ قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّمَا وَالْمَرَّةَ مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ مَن حَجَّ إِلَيْهِ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ قلت: فوالله ما على أحد جناح أن لا يطَّوَّفَ بهما؟ فقالت عائشة: بشما قلت يا ابن أخي إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت: فلا جناح عليه ألا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يَهْلُونَ لمناة الطاغية، التي كانوا يعبدونها عند المُشَلَّل. وكان من أهل لها يتحرج أن يطَّوَّفَ بالصفاء والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتحرج أن نَطَّوَّفَ بالصفاء والمروة في الجاهلية. فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الصَّمَا وَالْمَرَّةَ مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ قالت عائشة: ثم قد سنَّ رسول الله ﷺ الطواف بهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما. أخرجه في الصحيحين. وفي رواية عن الزهري أنه قال: فحدثت بهذا الحديث أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فقال: إن

هذا العلم، ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يقولون: إن الناس - إلا من ذكرت عائشة - كانوا يقولون: إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية. وقال آخرون من الأنصار: إنما أمرنا بالطواف بالبيت، ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ قال أبو بكر بن عبد الرحمن: فلعلها نزلت في هؤلاء هؤلاء. ورواه البخاري من حديث مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، بنحو ما تقدم. ثم قال البخاري: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنساً عن الصفا والمروة قال: كنا نرى ذلك من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾. وذكر القرطبي في تفسيره عن ابن عباس قال: كانت الشياطين تفرق بين الصفا والمروة الليل كله، وكانت بينهما آلهة، فلما جاء الإسلام سألو رسول الله ﷺ عن الطواف بينهما، فنزلت هذه الآية. وقال الشعبي: كان إساف على الصفا، وكانت نائلة على المروة، وكانوا يستلمونها فخرجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما، فنزلت هذه الآية. قلت: وذكر ابن إسحاق في كتاب السيرة أن إسافاً ونائلة كانا بشرين، فزينا داخل الكعبة فمسخا حجرين فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس، فلما طال عهدهما عبداً، ثم حولا إلى الصفا والمروة، فنصبا هنالك، فكان من طاف بالصفا والمروة يستلمهما، ولهذا يقول أبو طالب في قصيدته المشهورة:

وحيث ينيخ الأشعررون ركابهم بمفضي السيول من إساف ونائل
وفي صحيح مسلم من حديث جابر الطويل، وفيه: أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت، عاد إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من باب الصفا، وهو يقول: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ ثم قال: «أبدأ بما بدأ الله به». وفي رواية النسائي: «أبدؤا بما بدأ الله به». وقال الإمام أحمد: حدثنا شريح، حدثنا عبد الله بن المؤمل، عن عطاء بن أبي رباح، عن صفية بنت شيبة، عن حبيبة بنت أبي تخرجة، قالت: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة، والناس بين يديه، وهو وراءهم، وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره، وهو يقول: «استعوا، فإن الله كتب عليكم السعي». ثم رواه أمام أحمد، عن عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن واصل - مولى أبي عيينة - عن موسى بن عبيدة، عن صفية بنت شيبة، أن امرأة أخبرتها أنها سمعت النبي ﷺ بين الصفا والمروة يقول: «كتب عليكم السعي، فاستعوا». وقد استدلل بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعي بين الصفا والمروة ركن في الحج، كما هو مذهب الشافعي، ومن وافقه ورواية عن أحمد وهو المشهور عن مالك. وقيل: إنه واجب، وليس بركن فإن تركه عمداً أو سهواً جبره بدم وهو رواية عن أحمد وبه تقول طائفة وقيل: بل مستحب، وإليه ذهب أبو حنيفة والثوري والشعبي وابن سيرين، وروي عن أنس وابن عمر وابن عباس، وحكي عن مالك في العتبية، قال القرطبي: واحتجوا بقوله: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾. وقيل: بل مستحب. والقول الأول أرجح، لأنه عليه السلام طاف بينهما، وقال: «لتأخذوا عني مناسككم». فكل ما فعله في حجه تلك واجب لا بد من فعله في الحج، إلا ما خرج بدليل، والله أعلم، وقد تقدم قوله عليه السلام: «استعوا فإن الله كتب عليكم السعي». فقد بين الله - تعالى - أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله، أي: مما شرع الله تعالى لإبراهيم الخليل في مناسك الحج، وقد تقدم في حديث ابن عباس أن أصل ذلك مأخوذ من تطواف هاجر وتزدادها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها، لما نفذ ماؤها وزادها، حين تركهما إبراهيم - عليه السلام - هنالك ليس عندهما أحد من الناس، فلما خافت الضيعة على ولدها هنالك، ونفذ ما عندها قامت تطلب الغوث من الله، فلم تزل تردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متذلة خائفة وجله مضطرة فقيرة إلى الله، ﷻ، حتى كشف الله كربتها، وأنس غريبتها، وفرج شدتها، وأنبع لها زمزم التي ماؤها طعام طم، وشفاء سقم، فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه، وأن يلتجئ إلى الله، ﷻ، ليُريح ما هو به من النقائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم، وأن يثبت عليه إلى مماته، وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي، إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة، كما فعل بهاجر - عليها السلام.

وقوله: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ قيل: زاد في طوافه بينهما على قدر الواجب ثمانية وتسعة ونحو ذلك. وقيل: يطوف بينهما في حجة تطوع، أو عمرة تطوع. وقيل: المراد تطوع خيراً في سائر العبادات. حكى ذلك فخر الدين الرازي، وعزى الثالث إلى الحسن البصري، والله أعلم. وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: يشيب على القليل بالكثير ﴿عَلِيمٌ﴾ بقدر الجزاء فلا يبخس أحداً ثوابه ولا يظلم شيئاً مثقال ذرة وإن تلك حسنة يصنعها ويؤت من لذة أجر عظيم﴾ [النساء: ٤٠].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْكِتَابِ ظَنَنَّا أَنَّهٗمْ يُكْفِرُونَ﴾ [النساء: ٤١] ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْكِتَابِ ظَنَنَّا أَنَّهٗمْ يُكْفِرُونَ﴾ [النساء: ٤٢] ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْكِتَابِ ظَنَنَّا أَنَّهٗمْ يُكْفِرُونَ﴾ [النساء: ٤٣] ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْكِتَابِ ظَنَنَّا أَنَّهٗمْ يُكْفِرُونَ﴾ [النساء: ٤٤] ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْكِتَابِ ظَنَنَّا أَنَّهٗمْ يُكْفِرُونَ﴾ [النساء: ٤٥]

أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَلِيلَيْنِ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْقَرُونَ ﴿١٦٢﴾ .

هذا وعيد شديد لمن كنتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب، من بعد ما بينه الله - تعالى - لعباده في كتبه، التي أنزلها على رسله. قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب، كنتموا صفة محمد ﷺ. ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء، حتى الحوت في الماء والطير في الهواء، فهؤلاء بخلاف العلماء الذين يكتنمون، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. وقد ورد في الحديث المسند من طرق يشد بعضها بعضاً، عن أبي هريرة، وغيره: أن رسول الله ﷺ قال: «من سئل عن علم، فكنتم أجمع يوم القيامة بلجام من نار». والذي في الصحيح عن أبي هريرة أنه قال: لولا آية في كتاب الله ما حدث أحد شيئاً: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أُنْزِلَ مِنَ الْكِتَابِ وَالْمُكَدَّبِينَ» الآية. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عمار بن محمد، عن ليث بن أبي سليم، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان أبي عمر، عن البراء بن عازب، قال: كنا مع النبي ﷺ في جنازة، فقال: «إِنَّ الْكَافِرَ يُضْرَبُ ضَرْبَةً بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَيَسْمَعُ صَوْتَهُ كُلَّ دَابَّةٍ غَيْرِ الثَّقَلَيْنِ، فَتَلْعَنُهُ كُلُّ دَابَّةٍ سَمِعَتْ صَوْتَهُ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: «أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ» يعني: دواب الأرض». ورواه ابن ماجة عن محمد بن الصباح عن عمار بن محمد به. وقال عطاء بن أبي رباح: كل دابة والجن والإنس. وقال مجاهد: إذا أجدبت الأرض قالت البهائم: هذا من أجل عصاة بني آدم، لعن الله عصاة بني آدم. وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة «وَلَعَنَهُمُ اللَّاعِنُونَ»: يعني تلعنهم ملائكة الله، والمؤمنون. وقد جاء في الحديث، أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان، وجاء في هذه الآية: أن كاتب العلم يلعنه الله والملائكة والناس أجمعون، واللاعنون أيضاً، وهم كل فصيح وأعجمي إما بلسان المقال، أو الحال أو لو كان له عقل أو يوم القيامة والله أعلم. ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه فقال: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَمْسَلُوا وَبَيَّنُّوا» أي: رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم وأحوالهم وبيّنوا للناس ما كانوا كنموه «فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ». وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر، أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه.

وقد ورد أن الأمم السالفة لم تكن التوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم، ولكن هذا من شريعة نبي التوبة ونبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه. ثم أخبر تعالى عن كفره واستمر به الحال إلى مماته بأن «عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَلِيلَيْنِ فِيهَا» أي: في اللعنة التابعة لهم إلى يوم القيامة، ثم المصاحبة لهم في نار جهنم التي «فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ» فيها، أي: لا ينقص عما هم فيه «وَلَا هُمْ يُنْقَرُونَ» أي: لا يُغَيَّرُ عنهم ساعة واحدة، ولا يفتر، بل هو متواصل دائم، فنعوذ بالله من ذلك. وقال أبو العالية وقتادة: إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله، ثم تلعنه الملائكة، ثم يلعنه الناس أجمعون.

فصل: لا خلاف في جواز لعن الكفار، وقد كان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ومن بعده من الأئمة، يلعنون الكفرة في القنوت وغيره؛ فأما الكافر المعين، فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يلعن لأننا لا ندرى بما يخطئ له، واستدل بعضهم بهذه الآية: «إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٣﴾»، وقالت طائفة أخرى: بل يجوز لعن الكافر المعين. واختار ذلك الفقيه أبو بكر بن العربي المالكي، ولكنه احتج بحديث فيه ضعف، واستدل غيره بقوله، عليه السلام، في صحيح البخاري في قصة الذي كان يؤتى به سكران فيحده، فقال رجل: لعنه الله، ما أكثر ما يؤتى به، فقال رسول الله ﷺ: «لَا تَلْعَنُهُ فَإِنَّهُ يَحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» قالوا: فعلة المنع من لعنه؛ بأنه يحب الله ورسوله فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يلعن، والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَفَرُّدِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا عَدِيلَ لَهُ، بَلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَنَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. وقد تقدم تفسير هذين الاسمين في أول السورة. وفي الحديث عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد بن السكن، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ و ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾» (آل عمران: ١، ٢). ثم ذكر الدليل على تفردة بالإلهية بتفردة بخلق السموات والأرض وما فيها، وما بين ذلك مما ذُكر وأبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته، فقال:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ الْإِنْسَانِ وَالشَّجَرِ الَّذِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْبَثَ بِهِ الْأَرْضَ بِمَدٍّ مَوْتًا وَبَنَى فِيهَا مِنْ كُلِّ صَافًى وَتَشْرِيفٍ الْإِنْبَجَ وَالشَّجَابِ الْمُسَحَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تلك في لطافتها وارتفاعها واتساعها وكواكبها السيارة والثواب ودوران فلكها، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها وغمرانها وما فيها من المنافع ﴿وَأَخْتَلَفَ الْأَلْبَاطُ وَالنَّهَارُ﴾ هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١] أي: يزيد من هذا في هذا، ومن هذا في هذا ﴿وَالْفُلُوكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ أي: في تسخير البحر لحمل السفن من جانب إلى جانب لمعاش الناس، والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء وما عند أولئك إلى هؤلاء ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَنْتَ فِي الْبُحْرِ وَفَوْقَ الْبُحْرِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَنْتَ فِي الْبُحْرِ وَفَوْقَ الْبُحْرِ﴾ [هود: ٦١] ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ أي: تارة تأتي بالرحمة وتارة تأتي بالعذاب، تارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه، وتارة تجمعها، وتارة تفرقه، وتارة تصرفه، ثم تارة تأتي من الجنوب وهي الشامية، وتارة تأتي من ناحية اليمن وتارة صبا، وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة، وتارة ديور وهي غربية تغد من ناحية دبر الكعبة والرياح تسمى كلها بحسب مرورها على الكعبة. وقد صنف الناس في الرياح والمطر والأنواء كتباً كثيرة فيما يتعلق بلغاتها وأحكامها، وبسط ذلك يطول ههنا، والله أعلم. ﴿وَالْأَنْعَامِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: سائر بين السماء والأرض يسخر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن، كما يصرفه تعالى: ﴿لَا يَلَيْسَ لِقَوْمِهِمْ يَقُولُونَ﴾ أي: في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨] الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَنَّكُونَ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ رِيًّا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُشِيعُونَ فَقَدْ حَدَّثَ كَذِبًا﴾ [الزمر: ١٨] قال عمران: ١٩٠، ١٩١.

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيْهِ: أخبرنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا أبو سعيد الدشتكي حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أتت قريش محمداً ﷺ فقالوا: يا محمد إنما نريد أن تدعو ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً، فنشتري به الخيل والسلاح، فنؤم بك ونقاتل معك. قال: «أو تقولوا لي لئن دعوت ربي فجعل لكم الصفا ذهباً لثؤمتم بي». فأوثقوا له، فدعاه، فأتاه جبريل فقال: إن ربك قد أعطاهم الصفا ذهباً على أنهم إن لم يؤمنوا بك عذبهم عذاباً لم يعذب به أحداً من العالمين. قال محمد ﷺ: «رب لا، بل دعني وقومي فلاذعهم يوماً بيوم». فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾. ورواه ابن أبي حاتم من وجه آخر، عن جعفر بن أبي المغيرة، به. وزاد في آخره: وكيف يسألونك عن الصفا وهم يرون من الآيات ما هو أعظم من الصفا. وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجیح، عن عطاء، قال: نزلت على النبي ﷺ بالمدينة: ﴿وَاللَّهُ يَكْفُرُ بِالْإِثْمِ وَاللَّهُ وَجِدٌ لِّهُ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ١٨]. فقال كفار قريش بمكة: كيف يسبح الناس إله واحد؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَلَيْسَ لِقَوْمِهِمْ يَقُولُونَ﴾. فهذا يعلمون أنه إله واحد، وأنه إله كل شيء وخالق كل شيء. وقال وكيع: حدثنا سفيان، عن أبيه، عن أبي الضحى قال: لما نزلت: ﴿وَاللَّهُ يَكْفُرُ بِالْإِثْمِ وَاللَّهُ وَجِدٌ لِّهُ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ١٨] قال المشركون: إن كان هكذا فليأتنا بآية. فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾. ورواه آدم بن أبي إياس، عن أبي جعفر - هو الرازي - عن سعيد بن مسروق، والد سفيان، عن أبي الضحى، به.

﴿وَيَوْمَ النَّاسِ مَنْ يَرْجُو مِنْ رَبِّهِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ كُفْرًا وَلَدُنْهُمْ نَارٌ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ عَلَىٰ الرَّحْمَنِ لَا يَرَوْنَ إِلَّا اللَّهَ وَهُوَ الَّذِي يَرَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [الزمر: ١٨] إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَفَتِ بِهِمُ الْأَسْبَابُ [الزمر: ١٨] وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِي مَا كُنَّا لَنُؤْمِنَ بِهِمْ وَلَا نَحْمِلُ بِهِمْ خُذْ لَنَا حِزْبًا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنَ الدَّارِ الْآخِرَةِ، حيث جعلوا له أنبأداً، أي: أمثلاً ونظراً يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضد له ولا ند له، ولا شريك معه. وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود

قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾: ولحبهم لله وتعام معرفتهم به، وتوقيرهم وتوحيدهم له، لا يشركون به شيئاً، بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه، ويلجؤون في جميع أمورهم إليه. ثم تَوَعَّدُ تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك فقال: ﴿وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْزَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ قال بعضهم: تقدير الكلام: لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعاً، أي: إن الحكم له وحده لا شريك له، وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَكِيبُ الْعَذَابِ﴾ كما قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ عَذَابَ اللَّهِ أَشَدَّ﴾ [النجم: ٢٥، ٢٦] يقول: لو علموا ما يعاينونه هنالك، وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم، لانتهوا عما هم فيه من الضلال. ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبرؤ المتبوعين من التابعين، فقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ تبرات منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في دار الدنيا، فتقول الملائكة: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِلَّا فِئْتَانًا يَمَيِّدُونَ﴾ [النقص: ٦٣] ويقولون: ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبا: ٤١]. والجن أيضاً تبتراً منهم، ويتصلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَسَدٌ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَنْتَجِبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ] [الأحاف: ٥، ٦] وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَهُمْ يُكُونُوا لَهْمُ عِزًّا﴾ [كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا] [مریم: ٨١، ٨٢]. وقال الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَمَنَّ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمُ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ [المنكوث: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَزَقْنَاهُ إِذْ الظَّالِمُونَ مَوْتُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ رِجْعٌ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [٢٦] قال الذين استكبروا للذين استضعفوا نحن صدقناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كُنتُمْ مُجْرِمِينَ [٢٧] وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ الْإِيلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرَأْنَا أَنْدَادَنَا لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْدَاءَ فِي أَصْحَابِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [٢٨] [سبا: ٣١-٣٣] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْفِتْلَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُخْرِخِكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَكْثَرْتُمُونِ قَبْلَ إِنَّ الْفِتْلَانِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وقوله: ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ أي: عاينوا عذاب الله، وتقطعت بهم الجبل وأسباب الخلاص ولم يجدوا عن النار مغدلاً ولا مخرجاً. قال عطاء عن ابن عباس: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ قال: المودة. وكذا قال مجاهد في رواية ابن أبي نجیح. وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ أي: لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم، فلا نلتفت إليهم، بل نوحدهم بالعبادة. وهم كاذبون في هذا، بل لو رَدُّوا لعادوا لما نهوا عنه. كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك؛ ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يُرِيدُ اللَّهُ أَغْلَابَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ أي: تذهب وتضمحل كما قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْهَةً نَسْوُوا﴾ [الفرقان: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أََعْمَلَهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ الآية [إبراهيم: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْلَابَهُمْ كَرَامٌ يَقِيعُو بِحَسْبَةِ الظُّلُمَاتِ مَا هِيَ إِلَّا أَسْمَانُ مَذْمُومَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾. ﴿يَتَابِعُهَا النَّاسُ مِمَّا فِي الْأَرْضِ فَكَلَّا فَلَمَّا جَاءَ عَذَابُ اللَّهِ وَأَنَّ النَّاسَ كَانُوا لِلَّهِ لَأُولِيَاءَ﴾ [النور: ٢٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه المستقل بالخلق، شرع يبين أنه الرازق لجميع خلقه، فذكر ذلك في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالاً من الله طيباً، أي: مستطاباً في نفسه غير ضار للأبدان ولا للعقول ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، وهي: طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها مما رآه لهم في جاهليتهم، كما في حديث عياض بن حمار الذي في صحيح مسلم، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: إن كل ما آمنه عبدي فهو لهم حلال» وفيه: «وإني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحُرِّمْتُ عليهم ما أحللت لهم». وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْزُوق: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن عيسى بن شيبة المصري، حدثنا الحسين بن عبد الرحمن الاحتياطي، حدثنا أبو عبد الله الجوزجاني - رفيق إبراهيم بن أدهم - حدثنا ابن جُرَيج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: ثلثت هذه الآية عند النبي ﷺ: ﴿يَتَابِعُهَا النَّاسُ مِمَّا فِي الْأَرْضِ فَكَلَّا فَلَمَّا جَاءَ عَذَابُ اللَّهِ وَأَنَّ النَّاسَ كَانُوا لِلَّهِ لَأُولِيَاءَ﴾ فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال: «يا سعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس

محمد بيده، إن الرجل لَيَقْذِفُ اللقمة الحرام في جوفه ما يَنْقُبُله منه أربعين يوماً، وأيّما عبد نبت لحمه من الشئ والربا فالنار أولى به». وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَكُمْ عَذَابٌ مُبِينٌ﴾: تنفير عنه وتحذير منه، كما قال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [طاهر: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: كل معصية لله فهي من خطوات الشيطان. وقال عكرمة: هي نزعات الشيطان، وقال مجاهد: خطاه، أو قال: خطايا. وقال أبو مجلز: هي النذور في المعاصي. وقال الشعبي: نذر رجل أن ينحر ابنه فأفاته مسروق بذبح كبش. وقال: هذا من خطوات الشيطان.

وقال أبو الضحى، عن مسروق: أتى عبد الله بن مسعود بضرع وملح، فجعل يأكل، فاعتزل رجل من القوم، فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم. فقال: لا أريده. فقال: أصابكم أنت؟ قال: لا. قال: فما شأنك؟ قال: حرمت أن أكل ضرعاً أبداً. فقال ابن مسعود: هذا من خطوات الشيطان، فاطعمم وكفر عن يمينك. رواه ابن أبي حاتم، وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا حسان بن عبد الله المضري، عن سليمان التيمي، عن أبي رافع، قال: غضبت على امرأتي، فقالت: هي يوماً يهودية ويوماً نصرانية، وكل مملوك لها حر، إن لم تطلق امرأتك. فأتيت عبد الله بن عمر فقال: إنما هذه من خطوات الشيطان. وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة، وهي يومئذ أفضه امرأة في المدينة. وأتيت عاصماً وابن عمر فقالا مثل ذلك. وقال عبد بن حميد: حدثنا أبو نعيم، عن شريك، عن عبد الكريم، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ما كان من يمين أو نذر في غضب، فهو من خطوات الشيطان، وكفارته كفارة يمين. وقال سعيد بن داود في تفسيره: حدثنا عبادة بن عباد المهلب عن عاصم الأحول، عن عكرمة في رجل قال لغلامه: إن لم أجلك مائة سوط فامرأته طالق، قال: لا يجلد غلامه، ولا تطلق امرأته هذا من خطوات الشيطان. وقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالشُّرِّ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [١٧١]: أي: إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم، فيدخل في هذا كل كافر وكل مبتدع أيضاً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آتَيْنَا عَلَيْهِ هَآئِهِمْ أَوْ لَوْ كُنَّا رَبَّهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ شَيْئًا وَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [١٧٢] وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَدْعُو بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً مِمَّنْ يَكْفُرُ عَنْهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [١٧٣].

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ على رسوله، واتركوا ما أنتم فيه من الضلال والجهل، قالوا في جواب ذلك: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا آتَيْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: وجدنا ﴿عَلَيْهِ هَآئِهِمْ﴾ أي: من عبادة الأصنام والأنداد. قال الله تعالى متكرراً عليهم: ﴿أَوْ لَوْ كُنَّا رَبَّهُمْ﴾ أي: الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم ﴿لَا يَتَّبِعُونَ شَيْئًا وَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: ليس لهم فهم ولا هداية!! وروى ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: أنها نزلت في طائفة من اليهود، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: بل نتبع ما آتينا عليه آبائنا. فأنزل الله هذه الآية. ثم ضرب لهم تعالى مثلاً، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ [النحل: ٦٠]، فقال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل كالذباب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا نعت بها راعيها، أي: دعاها إلى ما يرشدها، لا تفقه ما يقول ولا تفهمه، بل إنما تسمع صوته فقط. هكذا روي عن ابن عباس، وأبي العالية، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني والربيع بن أنس، نحو هذا. وقيل: إنما هذا مثل ضرب لهم في دعائهم الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئاً، اختاره ابن جرير، والأول أولى؛ لأن الأصنام لا تسمع شيئاً ولا تعقل ولا تبصر، ولا بطش لها ولا حياة فيها. وقوله: ﴿مِمَّنْ يَكْفُرُ عَنْهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: صم عن سماع الحق، بكم لا يتفهمون به، عمي عن رؤية طريقه ومسلكه ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُورُهُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشْكُرُ اللَّهَ يَحْلِلُهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا مِنْ صَادِقَاتِ رَبِّكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ بِنَاءِ قَبُولِكُمْ﴾ [١٧٤] إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ أَشْطَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا تَحَارْ فَلَا إِفْهَامَ عَلَيْهِ إِنْ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ رَبُّكُمْ﴾ [١٧٥].

يقول تعالى آمراً عبادة المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى، وأن يشكروه على ذلك، إن كانوا عبيده، والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا الفضيل بن مرزوق، عن عدي بن ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا

الرَّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاتَّخِذُوا صُلُبَكُمْ إِلَىٰ يَمَانِكُمْ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَعَهُ قُوَّةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ مُبْهِمًا ﴿١٧٠﴾ [المومن: ٥١] وقال: ﴿يَتَّخِذُهَا الذِّبْنَ دَامَتْهَا كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأتى يستجاب لذلك. ورواه مسلم في صحيحه، والترمذي من حديث فضيل بن مرزوق. ولما امتن تعالى عليهم برزقه، وأرشدهم إلى الأكل من طيبه، ذكر أنه لم يُحَرِّمْ عليهم من ذلك إلا الميتة، وهي التي تموت خنث أنفها من غير تذكية، وسواء كانت منخقة أو موقوذة أو مُتَرَدِّية أو نطيحة أو قد عدا عليها السبع. وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر لقوله تعالى: ﴿أَيُّلَ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَّعًا لَكُمْ وَلَلْيَسَّارُ﴾ [المائدة: ٩٦] على ما سيأتي، وحديث العنبر في الصحيح. وفي المسند والموطأ والسنن قوله، عليه السلام، في البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» وروى الشافعي وأحمد وابن ماجة والدارقطني من حديث ابن عمر مرفوعاً: «أحل لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال» وسيأتي تقرير ذلك في سورة المائدة. ولبن الميتة وبيضها المتصل بها نجس عند الشافعي وغيره؛ لأنه جزء منها. وقال مالك في رواية: هو طاهر إلا أنه ينجس بالمجاورة، وكذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف والمشهور عندهم أنها نجسة، وقد أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة من جن المجوس، فقال القرطبي في تفسيره ههنا: يخالط اللبن منها يسير، ويعفى عن قليل النجاسة إذا خالط الكثير من المانع. وقد روى ابن ماجة من حديث سيف بن هارون عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي. عن سلمان سئل رسول الله ﷺ عن السمن والجبن والفراء، فقال: «الحلال ما أحل الله في كتابه، والحرام ما حرم الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه». وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير، سواء ذُكِّي أو مات خنث أنفه، ويدخل شحمه في حكم لحمه، إما تغليظاً أو أن اللحم يشمل ذلك، أو بطريق القياس على رأي. وكذلك حُرِّمَ عليهم ما أهْلُ به لغير الله، وهو ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام، ونحو ذلك مما كانت الجاهلية ينحرون له. وذكر القرطبي عن ابن عطية أنه نقل عن الحسن البصري: أنه سئل عن امرأة عملت عرساً للعبيد فنحرت فيه جزوراً، فقال: لا تؤكل لأنها ذبحت لصنم؛ وأورد القرطبي عن عائشة أنها سئلت عما يذبحه العجم في أعيادهم فيهدون منه للمسلمين، فقالت: ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوه، وكلوا من أشجارهم. ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها، عند فقد غيرها من الأطعمة، فقال: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي: في غير بني ولا عدوان، وهو مجاوزة الحد ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: في أكل ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقال مجاهد: فمن اضطر غير باغ ولا عاد، قاطعاً للسبيل، أو مفارقاً للأئمة، أو خارجاً في معصية الله، فله الرخصة، ومن خرج باغياً أو عادياً أو في معصية الله فلا رخصة له، وإن اضطر إليه، وكذا روى عن سعيد بن جبير. وقال سعيد - في رواية عنه، ومقاتل بن حيان: غير باغ: يعني غير مستحل. وقال السدي: غير باغ يبتغي فيه شهوته، وقال عطاء الخراساني في قوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ قال: لا يشوي من الميتة ليشهيه ولا يطبخه، ولا يأكل إلا المُلَقَّة، ويحمل معه ما يبلغه الحلال، فإذا بلغه ألقاه وهو قوله: ﴿وَلَا عَادٍ﴾ يقول: لا يعدو به الحلال. وعن ابن عباس: لا يشيع منها. وفسره السدي بالعدوان. وعن ابن عباس: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قال: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ في الميتة، و﴿وَلَا عَادٍ﴾ في أكله. وقال قتادة: فمن اضطر غير باغ ولا عاد في أكله: أن يتعدى حلالاً إلى حرام، وهو يجد عنه مندوحة. وحكى القرطبي عن مجاهد في قوله: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾ أي: أكره على أكل ذلك بغير اختياره. مسألة: ذكر القرطبي إذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير بحيث لا قطع فيه ولا أذى، فإنه لا يحل له أكل الميتة بل يأكل طعام الغير بلا خلاف - كما قال - ثم قال: وإذا أكله، والحالة هذه، هل يضمنه أم لا؟ فيه قولان هما روايتان عن مالك، ثم أورد من سنن ابن ماجة من حديث شعبة عن أبي إياس جعفر بن أبي وحشية: سمعت عباد بن شرحبيل الغبري قال: أصابتنا عاماً مخمصة، فأتيت المدينة. فأتيت حائطاً، فأخذت سنبلأ ففركته وأكلته، وجعلت منه في كسائي، فجاء صاحب الحائط فضرمني وأخذ ثوبي، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال للرجل: «ما أطعمته إذ كان جائعاً أو ساعياً، ولا علمته إذ كان جاهلاً». فأمره فرد إليه ثوبه، وأمر له بوسق من طعام أو نصف وسق، إسناد صحيح قوي جيد وله شواهد كثيرة: من ذلك حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: سئل رسول الله ﷺ عن الثمر المعلق، فقال: «من أصاب منه من ذي حاجة بغيره غير متخذ خبنة، فلا شيء عليه» الحديث. وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: الله غفورٌ رحيمٌ: «فيما أكل من اضطرار، وبلغنا - والله أعلم - أنه لا يزداد على ثلاث لقم». وقال سعيد بن جبير: غفورٌ لما أكل من الحرام. رحيمٌ إذ أحل له الحرام في الاضطرار. وقال وكيع: حدثنا الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: من اضطر فلم يأكل ولم يشرب، ثم مات دخل النار. وهذا

﴿لَيْسَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تُولُوا بِمُؤْمَعَكُمْ﴾ فَقَالَ الْمَشْرِقِيُّ وَالْمَغْرِبِيُّ وَكَذَلِكَ إِلَهٌ مِنْ مَعْنَى إِلَهُ وَالْيَوْمُ الْآخِرُ وَالْكَتَابُ وَالْيَتِيمَ وَوَعَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ. وَوَى الْمَرْبُوتَ وَالْيَتِيمَ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ وَالْمَكْلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَوَعَى الزَّكَاةَ وَالْمُرُوفَاتِ بِمَعْنَى إِذَا عَهْدُوا وَالْقَنَدِيرِ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَسَمِعَ الْبَاقِينَ الَّذِينَ مَدَّوْا وَأَرْفَعُوا هُمُ الْمُتَعَوَّنَ ﴿١٧٧﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة، على جمل عظيمة، وقواعد عجيبة، وعقيدة مستقيمة، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبيد بن هشام الحلبي، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عامر بن شعبي، عن عبد الكريم، عن مجاهد، عن أبي ذر: أنه سأل رسول الله ﷺ: ما الإيمان؟ فتلا عليه: ﴿لَيْسَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تُولُوا بِمُؤْمَعَكُمْ﴾ إلى آخر الآية. قال: ثم سأله أيضاً، فتلاها عليه، ثم سأله. فقال: «إذا عملت حسنة أحبها قلبك، وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك». وهذا منقطع؛ فإن مجاهداً لم يدرك أبا ذر؛ فإنه مات قديماً. وقال المسعودي: حدثنا القاسم بن عبد الرحمن، قال: جاء رجل إلى أبي ذر، فقال: ما الإيمان؟ فقرأ عليه هذه الآية: ﴿لَيْسَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تُولُوا بِمُؤْمَعَكُمْ﴾ حتى فرغ منها. فقال الرجل: ليس عن البر سألتك. فقال أبو ذر: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ

فسأله عما سألتني عنه، فقرأ عليه هذه الآية، فأبى أن يرضى كما أبى أنت أن ترضى فقال له رسول الله ﷺ - وأشار بيده -: «المؤمن إذا عمل حسنة سترته ورجا ثوابها، وإذا عمل سيئة أحرزته وخاف عقابها». رواه ابن مَرْدُويه، وهذا أيضاً منقطع، والله أعلم. وأما الكلام على تفسير هذه الآية، فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس، ثم حَوَّلهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله، ﷻ، وامتنال أوامره، والتوجه حيثما وجه، واتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق إلى المغرب بر ولا طاعة، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه؛ ولهذا قال: ﴿لَيْسَ إِلَهٌ أَنْ تَوَلَّوْا وَجُوهَكُمْ فِى الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ إِلَهَ مَنْ أَمَرَ بِاللَّهِ وَيَتَوَبَّعُ الْآخِرِ﴾ الآية، كما قال في الأضاحي والهدايا: ﴿لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَافَهَا وَلَكِنَّ يَبَالُ النَّفْسَ وَنَفْسُكُمْ﴾ [الحج: ١٣٧]. وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: ليس البر أن تُصَلُّوا ولا تعملوا. فهذا حين تحول من مكة إلى المدينة ونزلت الفرائض والحدود، فأمر الله بالفرائض والعمل بها.

وروي عن الضحاك ومقاتل نحو لك. وقال أبو العالية: كانت اليهود تُقْبِل قبل المغرب، وكانت النصارى تقبل قبل المشرق، فقال الله تعالى: ﴿لَيْسَ إِلَهٌ أَنْ تَوَلَّوْا وَجُوهَكُمْ فِى الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ يقول: هذا كلام الإيمان وحقيقته العمل. وروي عن الحسن والربيع بن أنس مثله. وقال مجاهد: ولكن البر ما ثبت في القلوب من طاعة الله، ﷻ. وقال الضحاك: ولكن البر والتقوى أن تؤدوا الفرائض على وجوها. وقال الثوري: ﴿وَلَكِنَّ إِلَهَ مَنْ أَمَرَ بِاللَّهِ﴾ الآية، قال: هذه أنواع البر كلها. وصدق رحمه الله؛ فإن من اتصف بهذه الآية، فقد دخل في غرَى الإسلام كلها، وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الإيمان بالله وهو أنه لا إله إلا هو، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسوله ﴿وَالْكِتَابِ﴾ وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، حتى ختمت بأشرفها، وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب، الذي انتهى إليه كل خير، واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة، ونسخ الله به كل ما سواه من الكتب قبله، وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وقوله: ﴿وَمَا أَتَى النَّاسَ عَلَى خَيْرٍ﴾ أي: أخرجه، وهو مُحِب له، راغب فيه. نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبيرة وغيرهما من السلف والخلف، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «أفضل الصدقة أن تُصَدَّقَ وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى، وتخشى الفقر». وقد روى الحاكم في مستدركه، من حديث شعبة والثوري، عن منصور، عن زُبَيْد، عن مُرَّة، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا أَتَى النَّاسَ عَلَى خَيْرٍ﴾: أن تعطيه وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى وتخشى الفقر. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. قلت وقد رواه وكيع عن الأعمش، وسفيان عن زُبَيْد، عن مرة، عن ابن مسعود، موقوفاً، وهو أصح، والله أعلم. وقال تعالى: ﴿وَيُطِيعُونَ أَمْرًا عَلَى خَيْرٍ وَيَتَكَبَّرُونَ وَيَكْبَرُونَ﴾ [٨٨] ﴿إِنَّمَا تَطْلَعُ لَيْسَ إِلَهٌ أَنْ تَوَلَّوْا وَجُوهَكُمْ وَلَا تَكْبَرُوا﴾ [٩٢]. وقال تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا إِلَهَ حَتَّى تَفْقَهُوا مِمَّا شِئْتُمْ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وقوله: ﴿وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] نطأ آخر أرفع من هذا ومن هذا، وهو أنهم أتوا بما هم مضطرون إليه، وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبوبون له. وقوله: ﴿ذَوَى الشَّرَفِ﴾ وهم: قرابات الرجل، وهم أولى من أعطى من الصدقة، كما ثبت في الحديث: «الصدقة على المساكين صدقة، وعلى ذوي الرحم ثنتان: صدقة وصلة». فهم أولى الناس بك وبرك وإعطائك. وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم في غير ما موضع من كتابه العزيز.

﴿وَالْيَتَامَى﴾ هم: الذي لا كاسب لهم، وقد مات أبائهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب، وقد قال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، عن جوبير، عن الضحاك، عن النزال بن سَبْرَةَ، عن علي، عن رسول الله ﷺ قال: «لا يُثْم بعد حُلْم». ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ هم: الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناتهم، فيعطون ما تُسَدُّ به حاجتهم وختلتهم. وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمران واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفْطِن له فيُصَدَّق عليه». ﴿وَأَيْنَ الْكَبِيلِ﴾ وهو: المسافر المجتاز الذي قد فرغت نفقته فيعطى ما يوصله إلى بلده، وكذا الذي يريد سفرأ في طاعة، فيعطى ما يكفي في ذهابه وإيابه، ويدخل في ذلك الضيف، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنه قال: ابن السبيل هو الضيف الذي ينزل بالمسلمين، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وأبو جعفر الباقر، والحسن، وقادة، والضحاك والزهرى والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان. ﴿وَالْأَسْلَابِ﴾ هم: الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات، كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وعبد الرحمن، قالا: حدثنا سفيان، عن مصعب بن محمد، عن يعلى بن أبي يحيى، عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها - قال عبد الرحمن: حسين بن علي - قال: قال رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على فرس». رواه أبو داود. ﴿وَفِي أَرْقَابِ﴾ هم: المكاتبون الذين لا

يجدون ما يؤدونه في كتابتهم. وسيأتي الكلام على كثير من هذه الأصناف في آية الصدقات من براءة، إن شاء الله تعالى. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا شريك، عن أبي حمزة، عن الشعبي، حدثني فاطمة بنت قيس: أنها سألت رسول الله ﷺ: «أفي المال حق سوى الزكاة؟» قالت: «فلا عليّ». «وَأَفَى الْمَالِ عَلَى مُحَمَّدٍ». ورواه ابن مَرْزُوبِه من حديث آدم بن أبي إياس، ويحيى بن عبد الحميد، كلاهما، عن شريك، عن أبي حمزة عن الشعبي، عن فاطمة بنت قيس، قالت: قال رسول الله ﷺ: «في المال حق سوى الزكاة» ثم تلا: «لَيْسَ إِلَهَ أَنْ تَوْلُوا وَجُوعَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ» إلى قوله: «وَفِي الرِّقَابِ».

وقد أخرجه ابن ماجة والترمذي وضعف أبا حمزة ميمونا الأعور، قال: وقد رواه بيان وإسماعيل بن سالم عن الشعبي. وقوله: «وَأَفَى الْمَالِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» أي: وأتم أفعال الصلاة في أوقاتها بركوعها، وسجودها، وطمانيتها، وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي. وقوله: «وَأَفَى الزَّكَاةَ»: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ زَكَاةُ النَّفْسِ، وَتَخْلِيصُهَا مِنَ الْأَخْلَاقِ الدُّنْيَا الرَّذِيلَةِ، كقوله: «قَدْ أَطْلَعَ مَنْ رَكَّبَهَا» (٩) «وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا» (١٠) [الشمس: ٩، ١٠]، وقول موسى لفرعون: «هَلْ لَكَ إِلَّا أَنْ تَزَكَّى» (١١) «وَأَهْدِكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَحَقِّقْ» (١٢) [النازعات: ١٨، ١٩]، وقوله تعالى: «وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ» [نصبت: ٦، ٧]. ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال، كما قاله سعيد بن جبيرة ومقاتل بن حيان ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين إنما هو التطوع والبر والصلة؛ ولهذا تقدم في الحديث عن فاطمة بنت قيس: أن في المال حقاً سوى الزكاة، والله أعلم. وقوله: «وَالْمُؤْمِنُونَ يَهْدِيهِمْ إِذَا عَاهَدُوا»، كقوله: «الَّذِينَ يُؤْتُونَ يَهْدِي اللَّهُ وَلَا يَفْضَحُونَ أَلَيْسَ» [الرعد: ٢٠] وعكس هذه الصفة النفاق، كما صح في الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتهم خان». وفي الحديث الآخر: «إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». وقوله: «وَالْقَائِدِينَ فِي الْأَسْأَةِ وَالضَّرَّاءَ وَبَيْنَ الْأَيْتَانِ» أي: في حال الفقر، وهو البأساء، وفي حال المرض والأسقام، وهو الضراء. «وَبَيْنَ الْأَيْتَانِ» أي: في حال القتال والتقاء الأعداء، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وأبو العالية، ومرة الهمداني، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وقائدة، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان، وأبو مالك، والضحاك، وغيرهم. وإنما نصب «وَالْقَائِدِينَ» على المدح والحث على الصبر في هذه الأحوال لشدة وصعوبته، والله أعلم، وهو المستعان وعليه التكلان. وقوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا» أي: هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم؛ لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الذين صدقوا «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات.

«يَتَابَعُ الَّذِينَ آمَنُوا كَيْفَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ أَمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِ شَيْءٍ قَالُوا بَلَىٰ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاةَ اللَّهِ يَأْتِيَنَّ ذَلِكَ تَخَفٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةً مِمَّنْ اعْتَدَىٰ بِدَنِّكَ فَلَمْ يَكُنْ عَذَابُ اللَّهِ» (١٧٨) «وَكُنْ فِي الْقِصَاصِ حِكْمَةٌ يَتَأَوَّلِي الْأَلْبَابَ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (١٧٩). يقول تعالى: «كَيْفَ عَلَيْكُمُ الْعَدْلُ فِي الْقِصَاصِ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - حُرِّمَ بِحُرْمِ، وَعَبْدُكُمْ بِعَبْدِكُمْ، وَأَنْشَأَكُمْ بِأَنْشَأَكُمْ، وَتَجَاوَزُوا وَتَعْتَدُوا، كَمَا اعْتَدَىٰ مِنْ قَبْلِكُمْ وَغَيْرُوا حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ، وَسَبَبُ ذَلِكَ قَرِيبَةٌ وَبَنُو النَّضِيرِ، كَانَتْ بَنُو النَّضِيرِ قَدْ غَزَتْ قَرِيبَةً فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَقَهَرُوهُمْ، فَكَانَ إِذَا قَتَلَ النَّضِرِيُّ الْقُرْطِيَّ لَا يَقْتُلُ بِهِ، بَلْ يُقَادَىٰ بِمِائَةِ وَسْقٍ مِنَ التَّمْرِ، وَإِذَا قَتَلَ الْقُرْطِيُّ النَّضِرِيَّ قَتَلَ بِهِ، وَإِنْ فَادَوْهُ فَادَوْهُ بِمِائَتِي وَسْقٍ مِنَ التَّمْرِ ضَعْفُ دِيَةِ الْقُرْطِيِّ، فَأَمَرَ اللَّهُ بِالْعَدْلِ فِي الْقِصَاصِ، وَلَا يَتَّبِعُ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ الْمُحَرِّفِينَ الْمُخَالِفِينَ لِأَحْكَامِ اللَّهِ فِيهِمْ، كَفَرًا وَبَغْيًا، فَقَالَ تَعَالَى: «كَيْفَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ أَمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِ شَيْءٍ قَالُوا بَلَىٰ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاةَ اللَّهِ يَأْتِيَنَّ ذَلِكَ تَخَفٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةً مِمَّنْ اعْتَدَىٰ بِدَنِّكَ فَلَمْ يَكُنْ عَذَابُ اللَّهِ» (١٧٨) «وَكُنْ فِي الْقِصَاصِ حِكْمَةٌ يَتَأَوَّلِي الْأَلْبَابَ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (١٧٩). وذكر في سبب نزولها ما رواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني عبد الله بن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبيرة، في قول الله تعالى: «يَتَابَعُ الَّذِينَ آمَنُوا كَيْفَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ» يعني: إذا كان عَمْدًا الحر بالحر. وذلك أن حَيَّيْنِ مِنَ الْعَرَبِ اقْتَتَلُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ بِقَلِيلٍ، فَكَانَ بَيْنَهُمْ قَتْلٌ وَجَرَاحَاتٌ، حَتَّى قَتَلُوا الْعَبِيدَ وَالنِّسَاءَ، فَلَمْ يَأْخُذْ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ حَتَّى أَسْلَمُوا، فَكَانَ أَحَدُ الْحَيَّيْنِ يَتَطَاوَلُ عَلَى الْآخَرِ فِي الْعِدَّةِ وَالْأُمُودِ، فَحَلَفُوا أَلَّا يَرْضَوْا حَتَّى يَقْتُلَ بِالْعَبْدِ مِنَ الْحَرِّ مِنْهُمْ، وَبِالْمَرْأَةِ مِنَ الرَّجُلِ مِنْهُمْ، فَنَزَلَتْ فِيهِمْ. «أَمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِ شَيْءٍ قَالُوا بَلَىٰ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاةَ اللَّهِ يَأْتِيَنَّ ذَلِكَ تَخَفٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةً مِمَّنْ اعْتَدَىٰ بِدَنِّكَ فَلَمْ يَكُنْ عَذَابُ اللَّهِ» (١٧٨) «وَكُنْ فِي الْقِصَاصِ حِكْمَةٌ يَتَأَوَّلِي الْأَلْبَابَ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (١٧٩). «وَالْقَسَسَ وَالْقَتْنِ» [المائدة: ٤٥]. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: «وَالْقَتْنِ بِالْقَتْنِ» وذلك أنهم لا يقتلون الرجل بالمرأة، ولكن يقتلون الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة فأنزل الله: النفس بالنفس والعين بالعين، فجعل الأحرار في القصاص سواء فيما بينهم من العمد رجالهم ونسأؤهم في النفس، وفيما دون النفس، وجعل العبيد مستوين فيما بينهم من العمد في النفس وفيما دون النفس رجالهم ونسأؤهم، وكذلك روي عن أبي مالك أنها منسوخة بقوله: «الْقَسَسَ وَالْقَتْنِ».

مسألة: مذهب أبي حنيفة أن الحر يقتل بالعبد لعموم آية المائدة، وإليه ذهب الثوري وابن أبي ليلى وداود، وهو مروي عن علي، وابن مسعود، وسعيد بن المسيب، وإبراهيم النخعي، وقتادة والحكم، وقال البخاري، وعلي بن المديني وإبراهيم النخعي والثوري في رواية عنه: يقتل السيد بعبد؛ لعموم حديث الحسن عن سمرة: «من قتل عبده قتلناه، ومن جذعه جذعناه، ومن خصاه خصيناه»، وخالفهم الجمهور وقالوا: لا يقتل الحر بالعبد؛ لأن العبد سلعة لو قتل خطأ لم تجب فيه دية، وإنما تجب فيه قيمته، وأنه لا يقاد بطرفه ففي النفس بطريق أولى، وذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر، كما ثبت في البخاري عن علي، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقتل مسلم بكافر» ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا، وأما أبو حنيفة فذهب إلى أنه يقتل به لعموم آية المائدة.

مسألة: قال الحسن وعطاء: لا يقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية، وخالفهم الجمهور لآية المائدة؛ ولقوله عليه السلام: «المسلمون تنكأ ما دأبهم»، وقال الليث: إذا قتل الرجل امرأته لا يقتل بها خاصة.

مسألة: ومذهب الأئمة الأربعة والجمهور أن الجماعة يقتلون بالواحد؛ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في غلام قتله سبعة فقتلهم، وقال: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم، ولا يعرف له في زمانه مخالف من الصحابة، وذلك كالإجماع. وحكي عن الإمام أحمد رواية: أن الجماعة لا يقتلون بالواحد، ولا يقتل بالنفس إلا نفس واحدة. وحكاها ابن المنذر عن معاذ وابن الزبير، وعبد الملك بن مروان والزهرري ومحمد بن سيرين وحبیب بن أبي ثابت؛ ثم قال ابن المنذر: وهذا أصح، ولا حجة لمن أباح قتل الجماعة. وقد ثبت عن ابن الزبير ما ذكرناه، وإذا اختلفت الصحابة فسيبيله النظر. وقوله: «فَمَنْ عُيِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبَى أَنْ يَخْتَصِمَ بِهِ فَإِنْ أَضْمَرَ إِيمَانَهُ فَتَضَاهَى عَلَيْهِ» قال مجاهد عن ابن عباس: «فَمَنْ عُيِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ» فالعفو: أن يقبل الدية في العمد، وكذا روي عن أبي العالیه، وأبي الشعثاء، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، وعطاء، والحسن، وقتادة، ومقاتل بن حیان. وقال الضحاك عن ابن عباس: «فَمَنْ عُيِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ» يقول: فمن ترك له من أخيه شيء يعني: بعد أخذ الدية بعد استحقاق الدم، وذلك العفو «فَأَبَى أَنْ يَخْتَصِمَ بِهِ» يقول: فعلى الطالب اتباع بالمعروف إذا قِيلَ الدية «وَأَدَّى إِلَيْهِ يَخْتَصِمُ» يعني: من القاتل من غير ضرر ولا مغل، يعني المدافعة. وروى الحاكم من حديث سفيان، عن عمرو، عن مجاهد، عن ابن عباس: ويؤدي المطلوب بإحسان. وكذا قال سعيد بن جبیر، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حیان.

مسألة: قال مالك - رحمه الله - في رواية ابن القاسم عنه وهو المشهور، وأبو حنيفة وأصحابه والشافعي في أحد قوله: ليس لولي الدم أن يعفو على الدية إلا برضا القاتل، وقال الباقر: له أن يعفو عليها وإن لم يرض القاتل، وذهب طائفة من السلف إلى أنه ليس للنساء عفو؛ منهم الحسن، وقتادة، والزهرري، وابن شبرمة، والليث، والأوزاعي، وخالفهم الباقر. وقوله: «ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ» يقول تعالى: إنما شرع لكم أخذ الدية في العمد تخفيفاً من الله عليكم ورحمة بكم، مما كان محتوماً على الأمم قبلكم من القتل أو العفو، كما قال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، أخبرني مجاهد، عن ابن عباس، قال: كتب على بني إسرائيل القصاص في القتلى، ولم يكن فيهم العفو، فقال الله لهذه الأمة: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ كَقَرِّ الْحَرْبِ وَالْمَيْدِ وَالْمَعْبُدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُيِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ» فالعفو أن يقبل الدية في العمد، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة مما كتب على من كان قبلكم، فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان. وقد رواه غير واحد عن عمرو بن دينار، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، عن عمرو بن دينار، به. وقد رواه البخاري والنسائي عن ابن عباس؛ ورواه جماعة عن مجاهد عن ابن عباس، بنحوه. وقال قتادة: «ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ»: رحم الله هذه الأمة وأطعمهم الدية، ولم تحل لأحد قبلكم، فكان أهل التوراة إنما هو القصاص وعفو ليس بينهم أرش، وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو أمروا به، وجعل لهذه الأمة القصاص والعفو والأرش. وهكذا روي عن سعيد بن جبیر، ومقاتل بن حیان، والربيع بن أنس، نحو هذا. وقوله: «فَمَنْ أَغْدَقَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ» يقول تعالى: فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها، فله عذاب من الله أليم موجه شديد. وكذا روي عن ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حیان: أنه هو الذي يقتل بعد أخذ الدية، كما قال محمد بن إسحاق، عن الحارث بن فضيل، عن سفيان بن أبي العوجاء، عن أبي شريح الخزاعي: أن النبي ﷺ قال: «من أصيب بقتل أو خَبَل فإنه يختار إحدى ثلاث: إما أن يقتص، وإما أن يعفو، وإما أن يأخذ الدية؛ فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه. ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالداً فيها» رواه أحمد. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أعافي رجلاً قتل بعد أخذ الدية - يعني: لا أقبل منه الدية - بل أقتله». وقوله: «وَلَكُمْ فِي

أَلْقِصَاصِ حَيَّوْهُ: يقول تعالى: وفي شَرْعِ القصاص لكم - وهو قتل القاتل - حكم عظيمة لكم، وهي بقاء المُهْجِ وَصُونُهَا؛ لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه، فكان في ذلك حياة النفوس. وفي الكتب المتقدمة: القتل أنفى للقتل. فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح، وأبلغ، وأوجز. ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَّوْهُ﴾: قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يقتل، فتمنعه مخافة أن يقتل. وكذا روي عن مجاهد، وسعيد بن جبیر، وأبي مالك، والحسن، وقناة، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حیان، ﴿يَتَأَذَّرُ الْأَكْبَبُ لِمَلَكِكُمْ تَتَفَوَّنُ﴾ يقول: يا أولي العقول والأفهام والتَّهْي، لعلكم تنزجرون فتتكون محارم الله ومآثمه، والتقوى: اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا ضَعَضَ أَعْدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٨١﴾ ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَدَمًا سِمْعًا فَإِنَّا إِشْمُ عَلَى الَّذِينَ يَبْدُلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سِمْعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٨٢﴾ ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١٨٣﴾. اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين. وقد كان ذلك واجباً - على أصح القولين - قبل نزول آية الموارث، فلما نزلت آية الفرائض نُسخَتْ هذه، وصارت الموارث المقدرة فريضة من الله، يأخذها أهلها حتماً من غير وصية ولا تحمل مئة الموصي، ولهذا جاء الحديث في السنن وغيرها عن عمرو بن خارجه قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث». وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن علقمة، عن يونس بن عبيد، عن محمد بن سيرين، قال: جلس ابن عباس فقرأ سورة البقرة حتى أتى على هذه الآية: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ فقال: نُسخَتْ هذه الآية. وكذا رواه سعيد بن منصور، عن هُشَيْم، عن يونس، به. ورواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح على شرطهما. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ قال: كان لا يرث مع الوالدين غيرهما إلا وصية للأقربين، فأنزل الله آية الميراث، فبين ميراث الوالدين، وأقر وصية الأقربين في ثلث مال الميت. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج بن محمد، أخبرنا ابن جريج، وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس، في قوله: ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾: نسختها هذه الآية: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ ﴿٤﴾ [النساء: ٧]. ثم قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عمر، وأبي موسى، وسعيد بن المسيب، والحسن، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبیر، ومحمد بن سيرين، وعكرمة، وزيد بن أسلم، والربيع بن أنس، وقناة، والسدي، ومقاتل بن حیان، وطاوس، وإبراهيم التَّحْمِي، وشريح، والضحاك، والزهري: أن هذه الآية منسوخة نسخها آية الميراث. والمعجب من أبي عبد الله مُحَمَّد بن عمر الرازي - رحمه الله - كيف حكى في تفسيره الكبير عن أبي مسلم الأصفهاني: أن هذه الآية غير منسوخة، وإنما هي مُفسرة بآية الموارث، ومعناه: كتب عليكم ما أوصى الله به من توريث الوالدين والأقربين. من قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١] قال: وهو قول أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء. قال: ومنهم من قال: إنها منسوخة فيمن يرث، ثابتة فيمن لا يرث، وهو مذهب ابن عباس، والحسن، ومسروق، وطاوس، والضحاك، ومسلم بن يسار، والعلاء بن زياد.

قلت: وبه قال أيضاً سعيد بن جبیر، والربيع بن أنس، وقناة ومقاتل بن حیان. ولكن على قول هؤلاء لا يسمى هذا نسخاً في اصطلاحنا المتأخر؛ لأن آية الميراث إنما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه عموم آية الوصاية، لأن «الأقربين» أعم ممن يرث ومن لا يرث، فرفع حكم من يرث بما عيّن له، وبقي الآخر على ما دلت عليه الآية الأولى. وهذا إنما يتأتى على قول بعضهم: أن الوصاية في ابتداء الإسلام إنما كانت نذراً حتى نُسخَتْ. فأما من يقول: إنها كانت واجبة وهو الظاهر من سياق الآية - فيتعين أن تكون منسوخة بآية الميراث، كما قاله أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء؛ فإنَّ وجوب الوصية للوالدين والأقربين الوارثين منسوخ بالإجماع. بل منهي عنه للحديث المتقدم: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث». فآية الميراث حكم مستقل، ووجوب من عند الله لأهل الفروض وللعصابات، رفع بها حُكْمُ هذه بالكلية. بقي الأقارب الذين لا ميراث لهم، يستحب له أن يُوصي لهم من الثلث، استئناساً بآية الوصية وشمولها، ولما ثبت في الصحيحين، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده». قال ابن عمر ما مرت عليّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندي وصيتي. والآيات والأحاديث بالأمر ببر الأقارب والإحسان إليهم، كثيرة جداً. وقال عبد بن حميد في مسنده: أخبرنا عبيد الله، عن مبارك بن حسان، عن نافع قال: قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، نثنتان لم يكن لك واحدة منهما جعلت لك نصيباً في مالك حين أخذت بكظملك، لأظهره به وأزكيك، وصلاة عبادي عليك بعد انقضاء أجلك». وقوله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي: مالا. قاله ابن عباس،

ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبّير، وأبو العالية، وعطية العوفى، والضحاك، والسدي، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان، وقنادة، وغيرهم. ثم منهم من قال: الوصية مشروعة سواء قلّ المال أو كثر كالورثة، ومنهم من قال: إنما يوصي إذا ترك مالا جزئياً، ثم اختلفوا في مقداره، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، أخبرنا سفيان، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: قيل لعلي، رضي الله عنه: إن رجلاً من قريش قد مات، وترك ثلاثمائة دينار أو أربعمائة، ولم يوص. قال: ليس بشيء، إنما قال الله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾. قال: وحدثنا هارون بن إسحاق الهمداني، حدثنا عتبة - يعني ابن سليمان - عن هشام بن عروة، عن أبيه: أن علياً دخل على رجل من قومه يعوده، فقال له: أوصي؟ فقال له علي: إنما قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ إنما تركت شيئاً يسيراً، فاتركه لولدك. وقال الحكم بن أبان: حدثني عكرمة، عن ابن عباس: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ قال ابن عباس: من لم يترك ستين ديناراً لم يترك خيراً، قال طائوس: لم يترك خيراً من لم يترك ثمانين ديناراً. وقال قنادة: كان يقال: ألفاً فما فوقها. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ فَأَمِّمُوا أَمْوَالَهُمْ﴾ قال: نعم، الوصية حق، على كل مسلم أن يوصي إذا حضره الموت بالمعروف غير المنكر. والمراد بالمعروف: أن يوصي لأقربيه وصية لا تجحف بورثته، من غير إسراف ولا تقتير، كما ثبت في الصحيحين أن سعداً قال: يا رسول الله، إن لي مالا ولا يرثني إلا ابنة لي، أفأوصي بثلاثي مالي؟ قال: «لا» قال: فبالشطر؟ قال: «لا» قال: فالثلث؟ قال: «الثلث، والثلث كثير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفون الناس». وفي صحيح البخاري: أن ابن عباس قال: لو أن الناس غصوا من الثلث إلى الربع فإن رسول الله ﷺ قال: «الثلث، والثلث كثير». وروى الإمام أحمد، عن أبي سعيد مولى بني هاشم، عن ذياب بن عبيد بن حنظلة، سمعت حنظلة بن جندب بن حنيفة: أن جده حنيفة أوصى ليتيم في حجره بمائة من الإبل، فشق ذلك على بنيه، فارتفعوا إلى رسول الله ﷺ. فقال حنيفة: إني أوصيت ليتيم لي بمائة من الإبل، كنا نسميها المطيئة. فقال النبي ﷺ: «لا، لا، لا. الصدقة: خمس، وإلا فعشر، وإلا فخمسة عشرة، وإلا فعشرون، وإلا فخمسة وعشرون، وإلا فثلاثون، وإلا فخمسة وثلاثون، فإن أكثرت فأربعون». وذكر الحديث بطوله. وقوله: ﴿فَمَنْ بَدَلَ عَنْ مِيتَةٍ مَاتَ بِهَا عَلَى شَيْءٍ فَإِنَّهُ عَلَى الْغَبَاءِ﴾ يقول تعالى: فمن بدل الوصية وحزفها، فغير حكمها وزاد فيها أو نقص - ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى - ﴿فَأَنَّهَا إِنَّمَا عَلَى الْغَبَاءِ﴾. قال ابن عباس وغير واحد: وقد وقع أجر الميت على الله، وتعلق الإنم بالذين بدلوا ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: قد اطلع على ما أوصى به الميت، وهو عليم بذلك، وبما بدله الموصي إليهم. وقوله: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ عَذَابُ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي: الجحف: الخطأ. وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها، بأن زاد وارثاً بواسطة أو وسيلة، كما إذا أوصى ببيع الشيء الفلاني محاباة، أو أوصى لابن ابنته ليزيدها، أو نحو ذلك من الوسائل، إما مخطئاً غير عامد، بل بطبعه وقوة شفقتة من غير تبصر، أو متعمداً أتماً في ذلك، فللوصي - والحالة هذه - أن يصلح القضية، ويعدل في الوصية على الوجه الشرعي. ويعدل عن الذي أوصى به الميت إلى ما هو أقرب الأشياء إليه وأشبه الأمور به، جمعاً بين مقصود الموصي والطريق الشرعي. وهذا الإصلاح والتوفيق ليس من التبديل في شيء. ولهذا عطف هذا - فينه - على النهي لذلك، ليعلم أن هذا ليس من ذلك بسيل، والله أعلم.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد، قراءة، أخبرني أبي، عن الأوزاعي، قال الزهري: حدثني عروة، عن عائشة، عن النبي ﷺ: أنه قال: «يُرَدُّ مِنْ صَدَقَةِ الْخَائِفِ فِي حَيَاتِهِ مَا يَرَدُّ مِنْ وَصِيَّةِ الْمَجْنُونِ عِنْدَ مَوْتِهِ». وهكذا رواه أبو بكر بن مَرْزُوقٍ، من حديث العباس بن الوليد، به. قال ابن أبي حاتم: وقد أخطأ فيه الوليد بن مزيد. وهذا الكلام إنما هو عن عروة فقط. وقد رواه الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، فلم يجاوز به عروة. وقال ابن مردويه أيضاً: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا إبراهيم بن يوسف، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا عمر بن المغيرة، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «الحيف في الوصية من الكبائر». وهذا في رفعه أيضاً نظر. وأحسن ما ورد في هذا الباب ما قال عبد الرزاق: حدثنا معمر، عن أشعث بن عبد الله، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل ليعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى حاف في وصيته فيختم له بشر عمله، فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة، فيعدل في وصيته، فيختم له بخير عمله، فيدخل الجنة». قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُواهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْوَصِيَّةُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَكُمْ نَفَقَاتُ أَنْفُسِكُمْ أَنْتُمْ مَعْدُونَةٌ وَمَنْ كَانَتْ يَدَاكَ بِكُمْ

رَبِّضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيعُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَلَوَّحَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٣﴾

يقول تعالى مخاطباً للمؤمنين من هذه الأمة وأمرأ لهم بالصيام، وهو: الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله، لما فيه زكاة النفس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة. وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم، فلهم فيه أسوة، وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الغرض أكمل مما فعله أولئك، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَمَلْنَا مِنكُم مِّشْرَعَةً وَمِنهُنَّا مَن كَانَ شَاءَ اللَّهِ لَجَمَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ الآية [المائدة: ٤٨]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَ تَعْلَمُونَ﴾ لأن الصوم فيه تركية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان؛ ولهذا ثبت في الصحيحين: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» ثم بين مقدار الصوم، وأنه ليس في كل يوم، لئلا يشق على النفوس فتضعف عن حمله وأدائه، بل في أيام معدودات. وقد كان هذا في ابتداء الإسلام يصومون من كل شهر ثلاثة أيام، ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان، كما سيأتي بيانه. وقد روي أن الصيام كان أولاً كما كان عليه الأمم قبلنا، من كل شهر ثلاثة أيام - عن معاذ، وابن مسعود، وابن عباس، وعطاء، وقتادة، والضحاك بن مزاحم. وزاد: لم يزل هذا مشروعاً من زمان نوح إلى أن نسخ الله ذلك بصيام شهر رمضان. وقال عباد بن منصور، عن الحسن البصري: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَ تَعْلَمُونَ﴾ الآية [البقرة: ١٨٣] فقال: نعم، والله لقد كتب الصيام على كل أمة قد خلت كما كتب علينا شهراً كاملاً وأياماً معدودات: عدداً معلوماً. وروي عن السدي، نحوه. وروي ابن أبي حاتم من حديث أبي عبد الرحمن المقرئ، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني عبد الله بن الوليد، عن أبي الربيع، رجل من أهل المدينة، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم...» في حديث طويل اختصر منه ذلك. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن عمه حدثني عن ابن عمر، قال: أنزلت: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَ تَعْلَمُونَ﴾ كتب عليهم إذا صلى أحدهم العتمة ونام حرم الله عليه الطعام والشراب والنساء إلى مثلها. قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عباس، وأبي العالية، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، ومقاتل بن حيان، والربيع بن أنس، وعطاء الخراساني، نحوه ذلك. وقال عطاء الخراساني، عن ابن عباس: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني بذلك: أهل الكتاب. وروي عن الشعبي والسدي، وعطاء الخراساني، مثله.

ثم بين حكم الصيام على ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فقال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي: المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر؛ لما في ذلك من المشقة عليهما، بل يفطران ويقضيان بعده ذلك من أيام آخر. وأما الصحيح المقيم الذي يطيق الصيام، فقد كان مخيراً بين الصيام وبين الإطعام، إن شاء صام، وإن شاء أظفر، وأطعم عن كل يوم مسكيناً، فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم، فهو خير، وإن صام فهو أفضل من الإطعام، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وطاوس، ومقاتل بن حيان، وغيرهم من السلف؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيعُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَلَوَّحَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا المسعودي، حدثنا عمرو بن مرة، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن معاذ بن جبل، رضي الله عنه، قال: أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال، وأحيل الصيام ثلاثة أحوال؛ فأما أحوال الصلاة فإن النبي ﷺ قدم المدينة، وهو يصلي سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس، ثم إن الله ﷻ أنزل عليه: ﴿قَدْ رَزَى نَفْسُكَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاوَاتِ فَلَوْلَيْسَتْكَ قِبَلَهُ تَرْمَتُهَا﴾ الآية [البقرة: ١٤٤] فوجهه الله إلى مكة. هذا حول. قال: وكانوا يجتمعون للصلاة ويؤذّن بها بعضهم بعضاً حتى تقسوا أو كادوا ينقشون. ثم إن رجلاً من الأنصار، يقال له: عبد الله بن زيد، أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني رأيت فيما يرى النائم - ولو قلت: إني لم أكن نائماً لصدقت - أنني بينا أنا بين النائم واليقظان إذ رأيت شخصاً عليه ثوبان أخضران، فاستقبل القبلة، فقال: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله - منى حتى فرغ من الأذان، ثم أمهل ساعة، ثم قال مثل الذي قال، غير أنه يزيد في ذلك: قد قامت الصلاة - مرتين - قال رسول الله ﷺ: «عَلِمَهَا بِلَا أَقْلِيُودَنَ بِهَا». فكان بلال أول من أذن بها. قال: وجاء عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله ﷺ، إنه قد طاف بي مثل الذي طاف به، غير أنه سبقني، فهذان حالان. قال: وكانوا يأتون الصلاة - قد سبقهم النبي ﷺ ببعضها، فكان الرجل يشير إلى الرجل إذا كم صلى، فيقول: واحدة أو اثنتين، فيصليهما، ثم يدخل مع القوم في صلاتهم. قال: فجاء معاذ فقال: لا أجده على حال إبداء إلا كنت عليها، ثم قضيت ما سبقني.

قال: فجاء وقد سبقه النبي ﷺ ببعضها، قال: فثبت معه، فلما قضى رسول الله ﷺ قام فقصي، فقال رسول الله ﷺ: «إنه قد سن لكم معاذ، فهكذا فاصنعوا». فهذه ثلاثة أحوال. وأما أحوال الصيام فلأن رسول الله ﷺ قدم المدينة، فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وصام عاشوراء، ثم إن الله فرض عليه الصيام، وأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ فكان من شاء صام، ومن شاء أطعم مسكيناً، فأجزأ ذلك عنه. ثم إن الله ﷻ أنزل الآية الأخرى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فثبت الله صيامه على المقيم الصحيح، ورخص فيه للمريض والمسافر، وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام، فهذان حالان. قال: وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا امتنعوا، ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له: صزمة، كان يعمل صائماً حتى أمسى، فجاء إلى أهله فصلى العشاء، ثم نام فلم يأكل ولم يشرب، حتى أصبح فأصبح صائماً، فراه رسول الله ﷺ وقد جهد جهداً شديداً، فقال: ما لي أراك قد جهدت جهداً شديداً؟ قال: يا رسول الله، إني عملت أمس فجنث حين جنث فالتقيت نفسي فتمت فأصبحت حين أصبحت صائماً. قال: وكان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِن لَّكُم لَعْنَةُ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا كُفَرُوا بِهِ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّمَا أَمُوكُمْ إِلَى آثِلٍ﴾. وأخرجه أبو داود في سننه، والحاكم في مستدركه، من حديث المسعودي، به. وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث الزهري، عن عروة، عن عائشة أنها قالت: كان عاشوراء يصام، فلما نزل فرض رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر. وروى البخاري عن ابن عمر وابن مسعود، مثله. وقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كما قال معاذ: كان في ابتداء الأمر: من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً. وهكذا روى البخاري عن سلمة بن الأكوع أنه قال: لما نزلت: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كان من أراد أن يفطر يفتدي، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها. وروى أيضاً من حديث عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، قال: هي منسوخة. وقال السدي، عن مرة، عن عبد الله، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ قال: يقول: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي: يتجشمونه، قال عبد الله: فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً ﴿فَمَن تَطَوَّعَ﴾ قال: يقول: أطعم مسكيناً آخر ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكَ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فكانوا كذلك حتى نسختها: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

وقال البخاري أيضاً: حدثنا إسحاق، أخبرنا روح، حدثنا زكريا بن إسحاق، حدثنا عمرو بن دينار، عن عطاء سمع ابن عباس يقرأ: «وعلى الذين يطوقونه فدية طعام مسكين». قال ابن عباس: ليست منسوخة، هو للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما، فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً.

وهكذا روى غير واحد عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، نحوه. وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا عبد الرحيم بن سليمان، عن أشعث بن سوار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ في الشيخ الكبير الذي لا يطيق الصوم ثم ضمف، فزخص له أن يطعم مكان كل يوم مسكيناً. وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد، حدثنا الحسين بن محمد بن بهرام المحرمي، حدثنا وهب بن بقیة، حدثنا خالد بن عبد الله، عن ابن أبي لیلی، قال: دخلت على عطاء في رمضان، وهو يأكل، فقال: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً، ثم نزلت هذه الآية فنسخت الأولى، إلا الكبير الفاني إن شاء أطعم عن كل يوم مسكيناً وأفطر. فحاصل الأمر أن النسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه، بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وأما الشيخ الفاني الهرم الذي لا يستطيع الصيام فله أن يفطر ولا قضاء عليه، لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيها من القضاء، ولكن هل يجب عليه إذا أفطر أن يطعم عن كل يوم مسكيناً إذا كان ذا جدة؟ فيه قولان للعلماء، أحدهما لا يجب عليه إطعام؛ لأنه ضعيف عنه لسته، فلم يجب عليه فدية كالصبي؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وهو أحد قولي الشافعي. والثاني - وهو الصحيح، وعليه أكثر العلماء - أنه يجب عليه فدية عن كل يوم، كما فسره ابن عباس وغيره من السلف على قراءة من قرأ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي: يتجشمونه، كما قاله ابن مسعود وغيره، وهو اختيار البخاري فإنه قال: وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام، فقد أطعم أنس - بعد أن كبر عاماً أو عامين - كل يوم مسكيناً خبزاً ولحماً، وأفطر. وهذا الذي علقه البخاري قد أسنده الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده، فقال: حدثنا عبيد الله بن معاذ، حدثنا أبي، حدثنا عمران، عن أيوب بن أبي تميمة، قال: ضعف أنس بن مالك عن الصوم، فصنع جفنة من ثريد فدعا ثلاثين مسكيناً فطعمهم. ورواه عبد بن حميد، عن روح بن عباد، عن عمران - وهو ابن حذير - عن أيوب، به. ورواه عبد

أيضاً، من حديث ستة من أصحاب أنس، عن أنس - بمعناه. ومما يلتحق بهذا المعنى: الحامل والمرضع، إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما، ففيهما خلاف كثير بين العلماء، فمنهم من قال: يفطران ويفديان ويقضيان. وقيل: يفديان فقط، ولا قضاء. وقيل: يجب القضاء بلا فدية. وقيل: يفطران، ولا فدية ولا قضاء. وقد بسطنا هذه المسألة مستقصاة في كتاب الصيام الذي أفردناه. والله الحمد والمنة.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ ۚ وَلَلَكُمْ فِي الشَّكْرِ لَعْنٌ ۖ﴾.

يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور، بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم فيه، وكما اختصه بذلك، قد ورد الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء. قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عمران أبو العوام، عن قتادة، عن أبي المليح، عن واثلة - يعني ابن الأسقع - أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت صُحُفُ إبراهيم في أول ليلة من رمضان. وأنزلت التوراة لَيْسَ مَضِينَ من رمضان، والإنجيل لثلاث عَشْرَةَ خَلَّتْ من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان». وقد روي من حديث جابر بن عبد الله فيه: أن الزبور أنزل لثني عشرة ليلة خلت من رمضان، والإنجيل لثمانية عشرة، والباقي كما تقدم. رواه ابن مردويه. أما الصحف والتوراة والزبور والإنجيل - فنزل كل منها على النبي الذي أنزل عليه جملة واحدة، وأما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا، وكان ذلك في شهر رمضان، في ليلة القدر منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝﴾ [القدر: ٤]. وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ۝﴾ [الدخان: ٣]، ثم نزل بعد مفزقاً بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ. هكذا روي من غير وجه، عن ابن عباس، كما قال إسرائيل، عن السدي، عن محمد بن أبي المجالد عن يقسم، عن ابن عباس أنه سأل عطاء بن الأسود، فقال: وقع في قلبي الشك من قول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝﴾، وقد أنزل في شوال، وفي ذي القعدة، وفي ذي الحجة، وفي المحرم، وصفر، وشهر ربيع. فقال ابن عباس: إنه أنزل في رمضان، في ليلة القدر وفي ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم ترتيباً في الشهور والأيام. رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه، وهذا لفظه.

وفي رواية سعيد بن جبّير، عن ابن عباس قال: أنزل القرآن في النصف من شهر رمضان إلى سماء الدنيا فجعل في بيت العزة، ثم أنزل على رسول الله ﷺ في عشرين سنة لجواب كلام الناس. وفي رواية عكرمة، عن ابن عباس، قال: نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر إلى هذه السماء الدنيا جملة واحدة، وكان الله يُخَدِّثُ لَنبِيهِ مَا يَشَاءُ، ولا يجيء المشركون بمثل يخاصمون به إلا جاءهم الله بجوابه، وذلك قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝﴾ [٢٢] وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣]. قال فخر الدين: ويحتمل أنه كان ينزل في كل ليلة قدر ما يحتاج الناس إلى إنزاله إلى مثله من اللوح إلى سماء الدنيا، وتوقف هل هذا أولى أو الأول؟ وهذا الذي جعله احتمالاً نقله القرطبي عن مقاتل بن حيان، وحكى الإجماع على أن القرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، وحكى الرازي عن سفيان بن عيينة وغيره أن المراد بقوله: ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي: في فضله أو وجوب صومه، وهذا غريب جداً. وقوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾: هذا مدح للقرآن الذي أنزل الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقوه واتبعوه ﴿وَبَيِّنَاتٍ﴾ أي: ودلائل وُحِّجَ بيته واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال، والرشد المخالف للغي، ومفرقاً بين الحق والباطل، والحلال والحرام. وقد روي عن بعض السلف أنه كره أن يقال: «شهر رمضان» ولا يقال: «رمضان»؛ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن بكار بن الريان، حدثنا أبو معشر، عن محمد بن كعب القرظي، وسعيد - هو المقرئ - عن أبي هريرة، قال: لا تقولوا: رمضان، فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى، ولكن قولوا: شهر رمضان. قال ابن أبي حاتم: وقد روي عن مجاهد، ومحمد بن كعب نحو ذلك، ورخص فيه ابن عباس وزيد بن ثابت. قلت: أبو معشر هو نجيع بن عبد الرحمن المدني إمام في المغازي، والسير، ولكن فيه ضعف، وقد رواه ابنه محمد عنه فجعله مرفوعاً، عن أبي هريرة، وقد أنكره عليه الحافظ ابن عدي - وهو جدير بالإنكار - فإنه متروك، وقد وهم في رفع هذا الحديث، وقد انتصر البخاري، رحمه الله، في كتابه لهذا فقال: «باب يقال رمضان»، وساق أحاديث في ذلك منها: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» ونحو ذلك.

وقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾: هذا إيجاب حتم على من شهد استهلال الشهر - أي كان مقيماً في البلد حين دخل شهر رمضان، وهو صحيح في بدنه - أن يصوم لا محالة. ونسخت هذه الآية الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحاً مقيماً أن يفطر ويفدي بإطعام مسكين عن كل يوم، كما تقدم بيانه. ولما حتم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر في الإفطار، بشرط القضاء فقال: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ معناه: ومن كان به مرض في بدنه يشق عليه الصيام معه، أو يؤذيه، أو كان على سفر أي في حال سفر - فله أن يفطر، فإذا أفطر فعليه بعدة ما أفطره في السفر من الأيام؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ أي: إنما رخص لكم في الفطر في حال المرض وفي السفر، مع تحتمه في حق المقيم الصحيح، تيسيراً عليكم ورحمة بكم. وههنا مسائل تتعلق بهذه الآية: إحداها: أنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أن من كان مقيماً في أول الشهر ثم سافر في أثنائه، فليس له الإفطار بعذر السفر والحالة هذه، لقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾. وإنما يباح الإفطار لمسافر استهل الشهر وهو مسافر، وهذا القول غريب نقله أبو محمد بن حزم في كتابه المحلى، عن جماعة من الصحابة والتابعين. وفيما حكاه عنهم نظر، والله أعلم. فإنه قد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه خرج في شهر رمضان لغزوة الفتح، فسار حتى بلغ الكديد، ثم أفطر، وأمر الناس بالفطر. أخرجه صاحبنا الصحيح. الثانية: ذهب آخرون من الصحابة والتابعين إلى وجوب الإفطار في السفر، لقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. والصحيح قول الجمهور، أن الأمر في ذلك على التخيير، وليس يحتم؛ لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان. قال: «فمنا الصائم ومن المفطر، فلم يعب الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم». فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام، بل الذي ثبت من فعل رسول الله ﷺ أنه كان في مثل هذه الحالة صائماً، لما ثبت في الصحيحين عن أبي الدرداء قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حر شديد، حتى إن كان أحداً ليضع يده على رأسه من شدة الحر، وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة. الثالثة: قالت طائفة منهم الشافعي: الصيام في السفر أفضل من الإفطار، لفعل النبي ﷺ كما تقدم، وقالت طائفة: بل الإفطار أفضل، أخذاً بالرخصة، ولما ثبت عن رسول الله ﷺ: أنه سئل عن الصوم في السفر، فقال: «من أفطر فحسن، ومن صام فلا جناح عليه». وقال في حديث آخر: «عليكم برخصة الله التي رخص لكم». وقالت طائفة: هما سواء لحديث عائشة: أن حمزة بن عمرو الأسلمي قال: يا رسول الله، إني كثير الصيام، أفأصوم في السفر؟ فقال: «إن شئت فصم، وإن شئت فأفطر». وهو في الصحيحين. وقيل: إن شق الصيام للإفطار أفضل لحديث جابر: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قد ظلل عليه، فقال: «ما هذا؟» قالوا: صائم، فقال: «ليس من البر الصيام في السفر». أخرجاه. فأما إن رغب عن السنة، ورأى أن الفطر مكروه إليه، فهذا يتعين عليه الإفطار، ويحرم عليه الصيام، والحالة هذه، لما جاء في مسند الإمام أحمد وغيره، عن ابن عمر وجابر، وغيرهما: من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة.

الرابعة: القضاء، هل يجب متابعا أو يجوز فيه التفريق؟ فيه قولان: أحدهما: أنه يجب التتابع، لأن القضاء يحكي الأداء. والثاني: لا يجب التتابع، بل إن شاء فزق، وإن شاء تابع. وهذا قول جمهور السلف والخلف، وعليه ثبتت الدلائل؛ لأن التتابع إنما وجب في الشهر لضرورة أدائه في الشهر، فأما بعد انقضاء رمضان فالمراد صيام أيام عدة ما أفطر. ولهذا قال تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ ثم قال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سلمة الخزاعي، حدثنا ابن هلال، عن حميد بن هلال العدوي، عن أبي قتادة، عن الأعرابي الذي سمع النبي ﷺ يقول: «إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره». وقال أحمد أيضاً: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا عاصم بن هلال، حدثنا غاضرة بن غزوة الفُقمي، حدثني أبي غزوة، قال: كنا ننظر النبي ﷺ فخرج رجلاً يَفْطُرُ رأسه من وضوء أو غسل، فصلى، فلما قضى الصلاة جعل الناس يسألونه: علينا حرج في كذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن دين الله في يسر» ثلاثاً يقولها. ورواه الإمام أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسير هذه الآية من حديث مسلم بن إبراهيم، عن عاصم بن هلال، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة قال: حدثنا أبو التياح، سمعت أنس بن مالك يقول: إن رسول الله ﷺ قال: «يسروا، ولا تعسروا، وسكّنوا ولا تنفروا». أخرجاه في الصحيحين. وفي الصحيحين أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن: «بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلفا». وفي السنن والمسانيد أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت بالحنيفة السمحة».

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره: حدثنا عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم، حدثنا يحيى بن أبي طالب، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا أبو مسعود الجُزيري، عن عبد الله بن شقيق، عن مِخْجَن بن الأدرع: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً

يصلي فتراه بصره ساعة، فقال: «أترأه يصلي صادقاً؟» قال: قلت: يا رسول الله، هذا أكثر أهل المدينة صلاة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تُسمِعه فتَهْلِكْ». وقال: «إن الله إنما أراد بهذه الأمة اليسر، ولم يرد بهم العسر». ومعنى قوله: «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا آلِدَّةَ» أي: إنما أرخص لكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعدار لإرادته بكم اليسر، وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم. وقوله: «وَلِتُكْمِلُوا اللَّهَ عَزَّ مَا هَدَنَكُمْ» أي: ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم، كما قال: «قَلِيلًا فَصَبْرُهُ شَأْنُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا» [البقرة: ٢٠٠] وقال: «فَإِذَا فَصَبْرُهُ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ وَفَعُولًا وَعَنْ جُوبَيْكُمْ» [النساء: ١٠٣]، «فَإِذَا فَصَبْرُهُ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» [الجمعة: ١٠] وقال: «وَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ» [١٦] وَمِنْ أَلْيَلِ فَسَبِّحْهُ وَادْبِرْ الشُّجُورَ» [١٧] [٢٩: ٤٠]، ولهذا جاءت السنة باستحباب التسبيح، والتحميد، والتكبير بعد الصلوات المكتوبات. وقال ابن عباس: ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلا بالتكبير؛ ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر من هذه الآية: «وَلِتُكْمِلُوا آلِدَّةَ وَلِتُكْمِلُوا اللَّهَ عَزَّ مَا هَدَنَكُمْ» حتى ذهب داود بن علي الأصبهاني الظاهري إلى وجوبه في عيد الفطر؛ لظاهر الأمر في قوله: «وَلِتُكْمِلُوا اللَّهَ عَزَّ مَا هَدَنَكُمْ» وفي مقابلته مذهب أبي حنيفة - رحمه الله - أنه لا يُشْرَعُ التكبير في عيد الفطر. والباقون على استحبابه، على اختلاف في تفاصيل بعض الفروع بينهم.

وقوله: «وَلَكُمْ فِي تَنكِرَتِكُمْ» أي: إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه، وترك محارمه، وحفظ حدوده، فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك.

«وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ» [٢١].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، أخبرنا جرير، عن عبدة بن أبي برزة السجستاني، عن الصُّلب بن حكيم بن معاوية بن حيدة القشيري، عن أبيه، عن جده، أن أعرابياً قال: يا رسول الله، أقرب ربنا فتناجيه أم بعيد فتناديه؟ فسكت النبي ﷺ، فأنزل الله: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ». ورواه ابن مَرْزُوب، وأبو الشيخ الأصبهاني، من حديث محمد بن أبي حميد، عن جرير، به. وقال عبد الرزاق: أخبرنا جعفر بن سليمان، عن عوف، عن الحسن، قال: سأل أصحاب رسول الله ﷺ النبي ﷺ: - أين ربنا؟ فأنزل الله ﷻ: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ». وقال ابن جُرَيْج عن عطاء: أنه بلغه لما نزلت: «وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» [غافر: ٦٠] قال الناس: لو نعلم أي ساعة ندعو؟ فنزلت: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي، حدثنا خالد الحذاء، عن أبي عثمان النهدي، عن أبي موسى الأشعري، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غَزَاة فجعلنا لا نضعد شرفاً، ولا نعلو شرفاً، ولا نهبط وادياً إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير. قال: فدنا منا فقال: «يا أيها الناس، أزيغوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته. يا عبد الله بن قيس، ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله». أخرجاه في الصحيحين، وبقية الجماعة من حديث أبي عثمان النهدي، واسمه عبد الرحمن بن مَلْ عَنْه، بنحوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا شعبة، حدثنا قتادة، عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا دعاني». وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، أخبرنا عبد الله، أخبرنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثنا إسماعيل بن عبيد الله، عن كريمة بنت الخشخاش المزنية، قالت: حدثنا أبو هريرة: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: أنا مع عبدي ما ذكرني، وتحركت بي شفتاه». قلت: وهذا كقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ» [النحل: ١٢٨]، وكقوله لموسى وهارون، عليهما السلام: «إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى» [طه: ٤٦]. والمراد من هذا: أنه تعالى لا يخيب دعاء داع، ولا يشغله عنه شيء، بل هو سميع الدعاء. وفيه ترغيب في الدعاء، وأنه لا يضيع لديه تعالى، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا يزيد، حدثنا رجل أنه سمع أبا عثمان - هو النهدي - يحدث عن سلمان - يعني الفارسي - رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ليستحيي أن يسط العبد إليه يديه يسأله فيها خيراً فبردهما خائبين». قال يزيد: سموالي هذا الرجل، فقالوا: جعفر بن ميمون. وقد رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه من حديث جعفر بن ميمون، صاحب الأنماط، به. وقال الترمذي: حسن غريب. ورواه بعضهم، ولم يرفعه. وقال الشيخ الحافظ أبو الحجاج المزي، رحمه الله، في أطرافه: وتابعه أبو همام محمد بن الزبيرقان، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي، به. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا

أبو عامر، حدثنا علي بن ذؤاد أبو المتوكل الناجي، عن أبي سعيد: أن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو الله ﷻ بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها» قالوا: إذا نكث. قال: «الله أكثر». وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن منصور الكوسج، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن جُبَيْر بن نفيير، أن عُبَادَةَ بن الصامت حدثهم أن النبي ﷺ قال: «ما على ظهر الأرض من رجل مُسْلِم يدعو الله ﷻ، بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو كف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم». ورواه الترمذي، عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن محمد بن يوسف الفريابي، عن ابن ثوبان - وهو عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان - به. وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه. وقال الإمام مالك، عن ابن شهاب، عن أبي عبيد - مولى ابن أزهر - عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «يُسْتَجَاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوتُ فلم يستجب لي». أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك، به. وهذا لفظ البخاري، رحمه الله، وأتابه الجنة. وقال مسلم أيضاً: حدثني أبو الطاهر، حدثنا ابن وهب، أخبرني معاوية بن صالح، عن ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل». قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: «يقول: قد دعوتُ، وقد دعوتُ، فلم أر يستجاب لي، فيستحسر عند ذلك، ويترك الدعاء».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا ابن هلال، عن قتادة، عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل». قالوا: وكيف يستعجل؟ قال: «يقول: قد دعوتُ ربي فلم يستجب لي». وقال الإمام أبو جعفر الطبري في تفسيره: حدثني يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، حدثني أبو صخر: أن يزيد بن عبد الله بن قسيط حدثه، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: ما من عبد مؤمن يدعو الله بدعوة فتذهب، حتى تُعْجَل له في الدنيا أو تُدْخَر له في الآخرة إذا لم يعجل أو يقسط. قال عروة: قلت: يا أمّاه، كيف عجلته وقتوته؟ قالت: يقول: سألت فلم أعط، ودعوت فلم أجب. قال ابن قسيط: وسمعت سعيد بن المسيب يقول كقول عائشة سواء. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا بكر بن عمرو، عن أبي عبد الرحمن الحُبَلِي، عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ قال: «القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتهم الله أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإنه لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل». وقال ابن مَرْزُويه: حدثنا محمد بن إسحاق بن أيوب، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن أبي نافع بن معديكرب ببغداد، حدثني أبي بن نافع، حدثني أبي نافع بن معديكرب، قال: كنت أنا وعائشة سألتُ رسول الله ﷺ عن الآية: ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا﴾ قال: «يا رب، مسألة عائشة». فهبط جبريل فقال: الله يقرئك السلام، هذا عبيد الصالح، بالنية الصادقة، وقلبه نقي، يقول: يا رب، فأقول: لبيك. فأقضي حاجته. هذا حديث غريب من هذا الوجه. وروى ابن مَرْزُويه من حديث الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: حدثني جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قرأ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا﴾ الآية. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم أمرت بالدعاء، وتوكلت بالإجابة، لبيك اللهم لييك، لبيك لا شريك لك، لبيك إن الحمد والنعمة لك، والملك لا شريك لك، أشهد أنك فرد أحد صمد لم تلد ولم تولد ولم يكن لك كفواً أحد، وأشهد أن وعدك حق، ولقاءك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة آتية لا ريب فيها، وأنت تبعث من في القبور».

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا الحسن بن يحيى الأزدي، ومحمد بن يحيى القطعي، قالا: حدثنا الحجاج بن منهال، حدثنا صالح المُرِّي، عن الحسن، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، واحدة لك وواحدة لي، وواحدة فيما بيني وبينك؛ فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً، وأما التي لك فما عملت من شيء وقئتك، وأما التي بيني وبينك فمنك الدعاء وعليّ الإجابة». وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء، متخللة بين أحكام الصيام، إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة، بل وعند كل فطر، كما رواه الإمام أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثنا أبو محمد المليكي، عن عمرو - هو ابن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عمرو، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة». فكان عبد الله بن عمرو إذا أفطر دعا أهله، وولده ودعا. وقال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة في سننه: حدثنا هشام بن عمار، أخبرنا الوليد بن مسلم، عن إسحاق بن عبيد الله المدني، عن عبد الله بن أبي مُلَيْكَةَ، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال النبي ﷺ: «إن للصائم عند فطره دعوة ما تُرَدُّ». قال عبد الله بن أبي مُلَيْكَةَ: سمعت عبد الله بن عمرو يقول إذا أفطر: اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر

لي. وفي مسند الإمام أحمد، وسنن الترمذي، والنسائي، وابن ماجة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة، ويفتح لها أبواب السماء»، ويقول: بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين».

﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الْفَيْصَارِ الرَّقْتُ إِنْ يَسْأَلُكُمْ هُنَّ لَيْسَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لَيْسَ لَهُنَّ عِلْمٌ اللَّهُ أَنْكُمُ كُنْتُمْ تَخْتَاوْنَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ مَأْكُولُونَ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْحَبِطَ الْأَبْيَضَ مِنَ الْحَبِطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِينَا أَلْيَمَ إِلَى الْأَيْلِ وَلَا تَبْشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَنْكُمُوهُمْ فِي التَّسْجِدِ يَلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لِلنَّاسِ لَمَلَهُمْ بَيَّنُّوا ۝١٨٧﴾.

هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين، ورفع لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة. فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة. والرفث هنا هو: الجماع. قاله ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وطاوس، وسالم بن عبد الله، وعمر بن دينار، والحسن، وقتادة، والزهري، والضحاك، وإبراهيم السخمي، والسدي، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان. وقوله: ﴿هُنَّ لَيْسَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لَيْسَ لَهُنَّ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسدي، ومقاتل بن حيان: يعني هن سكن لكم، وأنتم سكن لهن. وقال الربيع بن أنس: هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن. وحاصله أن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويؤامسه ويضاجعه، فناسب أن يُرخص لهم في المجامعة في ليل رمضان، لتلا يشق ذلك عليهم، ويخرجوا، قال الشاعر:

إِذَا مَا الضَّجِيعُ نَشَى جِيدهَا تَدَاعَتْ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاسَا

وكان السبب في نزول هذه الآية كما تقدم في حديث معاذ الطويل، وقال أبو إسحاق عن البراء بن عازب قال: كان أصحاب النبي ﷺ إذا كان الرجل صائماً فنام قبل أن يفطر، لم يأكل إلى مثلها، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً، وكان يومه ذاك يعمل في أرضه، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال: هل عندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك. فغلبته عينه فنام، وجاءت امرأته، فلما رآته نائماً قالت: خيبة لك! أمت؟ فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الْفَيْصَارِ الرَّقْتُ إِنْ يَسْأَلُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْحَبِطَ الْأَبْيَضَ مِنَ الْحَبِطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ ففرحوا بها فرحاً شديداً. ولفظ البخاري ههنا من طريق أبي إسحاق: سمعت البراء قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقرئون النساء، ومضاً كله، وكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَاوْنَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: كان المسلمون في شهر رمضان إذا صلوا العشاء حرم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة، ثم إن أناساً من المسلمين أصابوا من النساء والطعام في شهر رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب، فشكروا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَاوْنَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُمْ﴾. وكذا روى العوفي عن ابن عباس. وقال موسى بن عقبة، عن كُرَيْب، عن ابن عباس، قال: إن الناس كانوا قبل أن ينزل في الصوم ما نزل فيهم يأكلون ويشربون، ويحل لهم شأن النساء، فإذا نام أحدهم لم يطعم ولم يشرب ولا يأتي أهله حتى يفطر من القابلة، فبلغنا أن عمر بن الخطاب بعدما نام ووجب عليه الصوم وقَعَ على أهله، ثم جاء إلى النبي ﷺ فقال: أشكو إلى الله وإليك الذي صنعت. قال: «وماذا صنعت؟» قال: «إني سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي، فَوَقَعْتُ عَلَى أَهْلِي بَعْدَ مَا نَمْتُ وَأَنَا أُرِيدُ الصَّوْمَ. فَرَعَمُوا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا كُنْتُ خَلِيقاً أَنْ تَفْعَلَ». فنزل الكتاب: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الْفَيْصَارِ الرَّقْتُ إِنْ يَسْأَلُكُمْ﴾. وقال سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قيس بن سعد، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة في قوله الله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الْفَيْصَارِ الرَّقْتُ إِنْ يَسْأَلُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَتِينَا أَلْيَمَ إِلَى الْأَيْلِ﴾ قال: كان المسلمون قبل أن تنزل هذه الآية إذا صلوا العشاء الآخرة حَرَمَ عَلَيْهِمُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ وَالنِّسَاءَ حَتَّى يَفْطَرُوا، وإن عمر بن الخطاب أصاب أهله بعد صلاة العشاء، وإن صرمة بن قيس الأنصاري غلبته عينه بعد صلاة المغرب، فنام ولم يشبع من الطعام، ولم يستيقظ حتى صلى رسول الله ﷺ العشاء، فقام فأكَل وشرب، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، فأنزل الله عند ذلك: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الْفَيْصَارِ الرَّقْتُ إِنْ يَسْأَلُكُمْ﴾ يعني بالرفث: مجامعة النساء ﴿هُنَّ لَيْسَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لَيْسَ لَهُنَّ عِلْمٌ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَاوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني: تجامعون النساء، وتأكلون وتشربون بعد العشاء ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُمْ﴾ يعني: جامعوهم ﴿وَأَتَيْنَا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يعني:

الولد ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾. فكان ذلك عفواً من الله ورحمة. وقال هُشَيْم، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال: قام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، إنني أردت أهلي البارحة على ما يريد الرجل أهله فقالت: إنها قد نامت، فلظنتها تغتفل، فواقعتها، فنزل في عمر: ﴿أَيُّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِكَاحِكُمْ﴾.

وهكذا رواه شعبة، عن عمرو بن مرة، عن ابن أبي ليلى، به. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني المثنى، حدثنا سويد، أخبرنا ابن المبارك، عن ابن لهيعة، حدثنا موسى بن جبير - مولى بني سلمة - أنه سمع عبد الله بن كعب بن مالك يحدث عن أبيه قال: كان الناس في رمضان إذا صام الرجل فأمسى فنام، حُزِمَ عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من الغد. فرجع عمر بن الخطاب من عند النبي ﷺ ذات ليلة وقد سَمَرَ عنده، فوجد امرأته قد نامت، فأرادها، فقالت: إني قد نمت! فقال: ما نمت! ثم وقع بها. وصنع كعب بن مالك مثل ذلك. فغدا عمر بن الخطاب إلى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَيِّنُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الآية. وهكذا روي عن مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والسدي، وقتادة، وغيرهم في سبب نزول هذه الآية في عمر بن الخطاب ومن صنع كما صنع، وفي صِزْمَةِ بن قيس؛ فأباح الجماع والطعام والشراب في جميع الليل رحمة ورخصة ورفقاً. وقوله: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾: قال أبو هريرة، وابن عباس، وأنس، وشريح القاضي، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعطاء، والربيع بن أنس، والسدي، وزيد بن أسلم، والحكم بن عتيبة، ومقاتل بن حيان، والحسن البصري، والضحاك، وقتادة، وغيرهم: يعني الولد. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾: يعني: الجماع. وقال عمرو بن مالك الثُّكْرِي، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾: قال: ليلة القدر. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرُ قال: قال قتادة: وابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم. وقال سعيد عن قتادة: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾: يقول: ما أحل الله لكم. وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا ابن عُيَيْنَةَ، عن عمرو بن دينار، عن عطاء بن أبي رباح، قال: قلت لابن عباس: كيف تقرأ هذه الآية: ﴿وَابْتَغُوا﴾ أو: «اتبعوا»؟ قال: أتيتها شئت: عليك بالقراءة الأولى. واختار ابن جرير أن الآية أعم من هذا كله. وقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾: أباح تعالى الأكل والشرب، مع ما تقدم من إباحة الجماع في أي الليل شاء الصائم إلى أن يبين ضياء الصباح من سواد الليل، وعبر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود، ورفع اللبس بقوله: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أبو عبد الله البخاري: حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا أبو عَسَّانَ محمد بن مُطَرِّف، حدثني أبو حازم، عن سهل بن سعد، قال: أنزلت: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ ولم ينزل ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ وكان رجال إذا أرادوا الصوم، رَبَطُوا أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل حتى يبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعد: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فعملوا أنما يعني: الليل والنهار. وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم، أخبرنا حُصَيْن، عن الشعبي، أخبرني عَدِي بن حاتم قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ عمدت إلى عقالين، أحدهما أسود والآخر أبيض، قال: فجعلتهما تحت وسادتي، قال: فأخبرته بالذي صنعت. فقال: «إن وسادك إذا لعريض، وإنا ذلك بياض النهار وسواد الليل». أخرجاه في الصحيحين من غير وجه، عن عَدِي. ومعنى قوله: «إن وسادك إذا لعريض» أي: إن كان يسع لوضع الخيط الأسود والخيط الأبيض المرادين من هذه الآية تحتها، فإنهما بياض النهار وسواد الليل. فيقتضي أن يكون بعرض المشرق والمغرب. وهكذا وقع في رواية البخاري مفسراً بهذا: أخبرنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن حُصَيْن، عن الشعبي، عن عَدِي قال: أخذ عَدِي عقلاً أبيض وعقلاً أسود، حتى كان بعض الليل نظر فلم يبين. فلما أصبح قال: يا رسول الله، جعلت تحت وسادتي. قال: «إن وسادك إذا لعريض، أن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك». وجاء في بعض الألفاظ: إنك لعريض القفا. ففسره بعضهم بالبلادة، وهو ضعيف. بل يرجع إلى هذا؛ لأنه إذا كان سواده عريضاً فقفاً أيضاً عريض، والله أعلم. ويفسره رواية البخاري أيضاً: حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن مُطَرِّف، عن الشعبي، عن عَدِي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهما الخيطان؟ قال: «إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين». ثم قال: «لا، بل هو سواد الليل وبياض النهار». وفي إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر، دليل على استحباب السُّحُور؛ لأنه من باب الرخصة، والأخذ بها محبوب؛ ولهذا وردت السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ بالحث على السُّحُور لأنه من باب الرخصة والأخذ بها، ففي الصحيحين

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «تَسْحَرُوا فَإِنْ فِي السَّحُورِ بَرَكَةٌ». وفي صحيح مسلم، عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ فَضَّلَ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكَلَةُ السَّحَرِ». وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، هو ابن الطباع، حدثنا عبد الرحمن بن زيد، عن أبيه، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «السَّحُورُ أَكْلُهُ بَرَكَةٌ، فَلَا تَدْعُوهُ، وَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَجْزَعُ جُرْعَةً مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يَصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ». وقد ورد في الترغيب في السحور أحاديث كثيرة حتى ولو بجُرْعَةٍ مِنْ مَاءٍ، تشبهاً بالأكليين. ويستحب تأخيرها إلى قريب انفجار الفجر، كما جاء في الصحيحين، عن أنس بن مالك، عن زيد بن ثابت، قال: تسحرنا مع رسول الله ﷺ، ثم قمنا إلى الصلاة. قال أنس: قلت لزيد: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية. وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن سالم بن غيلان، عن سليمان بن أبي عثمان، عن عدي بن حاتم الحمصي، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَزَالُ أُمْتِي بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْإِفْطَارَ وَأَخَّرُوا السَّحُورَ». وقد ورد في أحاديث كثيرة أن رسول الله ﷺ سَمَّاهُ الْعَدَاءَ الْمُبَارَكَ، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد، والنسائي، وابن ماجه من رواية حماد بن سلمة، عن عاصم بن بهدلة، عن زُرَّ بن حبش، عن حذيفة بن اليمان قال: تسحرنا مع رسول الله ﷺ، وكان النهار إلا أن الشمس لم تطلع. وهو حديث تفرد بن عاصم بن أبي النجود، قاله النسائي، وحمله على أن المراد قرب النهار، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغَ الْبُحْرَيْنِ فَأَنْسِكُوا مِنْ يَمِينِ وَبُحْرَيْنِ أَوْ قَارِئِهِمْ يَمْعُرُونَ﴾ [الطلاق: ٢] أي: قاربين انقضاء العدة، فإما إمساك أو ترك للفراق. وهذا الذي قاله هو المتعين حمل الحديث عليه: أنهم تسحروا ولم يتيقنوا طلوع الفجر، حتى إن بعضهم ظن طلوعه وبعضهم لم يتحقق ذلك. وقد روي عن طائفة كثيرة من السلف أنهم تسامحوا في السحور عند مقاربة الفجر. روي مثل هذا عن أبي بكر، وعمر، وعلي، وابن مسعود، وحذيفة، وأبي هريرة، وابن عمر، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وعن طائفة كثيرة من التابعين، منهم: محمد بن علي بن الحسين، وأبو مجلز، وإبراهيم النخعي، وأبو الضحى، وأبو وائل، وغيره من أصحاب ابن مسعود، وعطاء، والحسن، والحكم بن عتيبة، ومجاهد، وعروة بن الزبير، وأبو الشعثاء جابر بن زيد. وإليه ذهب الأعمش ومعمّر بن راشد. وقد حررنا أسانيد ذلك في كتاب الصيام المفرد، والله الحمد.

وحكى أبو جعفر بن جرير في تفسيره، عن بعضهم: أنه إنما يجب الإمساك من طلوع الشمس كما يجوز الإفطار بغروبها. قلت: وهذا القول ما أظن أحداً من أهل العلم يستقر له قَدَمٌ عليه، لمخالفته نص القرآن في قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْغَيْطُ مِنَ الْغَيْظِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الْبُيُوتَ إِلَىٰ أَهْلِكُمْ﴾ وقد وَرَدَ في الصحيحين من حديث القاسم، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَمْنَعُكُمْ أَذَانُ بِلَالٍ عَنْ سَحُورِكُمْ، فَإِنَّهُ يَنَادِي بِلِيلٍ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى تَسْمَعُوا أَذَانَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ فَإِنَّهُ لَا يُؤْذَنُ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ». لفظ البخاري. وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا محمد بن جابر، عن قيس بن طلق، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «لَيْسَ الْفَجْرُ الْمُسْتَطِيلُ فِي الْأَفْقِ وَلَكِنَّهُ الْمَعْتَرِضُ الْأَحْمَرُ». ورواه أبو داود والترمذي ولفظهما: «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا يَهْدِيَنَّكُمْ السَّاطِعُ الْمَصْعَدُ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَعْتَرِضَ لَكُمْ الْأَحْمَرُ». وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا شعبة، عن شيخ من بني قشير: سمعت سُمْرَةَ بن جُنْدَبٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَغْرُنْكُمْ نَدَاءُ بِلَالٍ وَهَذَا الْبَيَاضُ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ، أَوْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ». ثم رواه من حديث شعبة وغيره، عن سَوَادَةَ بن حَنْظَلَةَ، عن سَمُرَةَ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَمْنَعُكُمْ مِنْ سَحُورِكُمْ أَذَانُ بِلَالٍ وَلَا الْفَجْرُ الْمُسْتَطِيلُ، وَلَكِنَّ الْفَجْرَ الْمُسْتَطِيرَ فِي الْأَفْقِ». قال: وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُثَيْبَةَ، عن عبد الله بن سَوَادَةَ الْقُسَيْرِيِّ، عن أبيه، عن سَمُرَةَ بن جُنْدَبٍ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَغْرُنْكُمْ أَذَانُ بِلَالٍ وَلَا هَذَا الْبَيَاضُ، تَعَمَّدُوا الصَّبْحَ حِينَ يَسْتَطِيرُ». ورواه مسلم في صحيحه عن زهير بن حرب، عن إسماعيل بن إبراهيم - يعني ابن علي - مثله سواء. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْدٍ، حدثنا ابن المبارك، عن سُلَيْمَانَ التَّيْمِيِّ، عن أبي عثمان النهدي، عن ابن مسعود قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَذَانُ بِلَالٍ عَنْ سَحُورِهِ، أَوْ قَالَ نَدَاءُ بِلَالٍ - فَإِنْ بَلَّالاً يُؤْذَنُ أَوْ قَالَ يَنَادِي - لِيَنْبَهَ نَائِمَكُمْ وَلِيَرْجِعَ قَائِمَكُمْ، وَلَيْسَ الْفَجْرُ أَنْ يَقُولَ هَكَذَا أَوْ هَكَذَا، حَتَّى يَقُولَ هَكَذَا». ورواه من وجه آخر عن التَّيْمِيِّ، به. وحدثني الحسن بن الزبير النخعي، حدثنا أبو أسامة عن محمد بن أبي ذئب، عن الحارث بن عبد الرحمن، عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْفَجْرُ فَجْرَانِ، فَالَّذِي كَانَهُ ذَنْبُ السَّرْحَانِ لَا يُحَرِّمُ شَيْئاً، وَأَمَّا الْمُسْتَطِيرُ الَّذِي يَأْخُذُ الْأَفْقَ، فَإِنَّهُ يَحِلُّ الصَّلَاةُ وَيَحْرَمُ الطَّعَامُ». وهذا مرسل جيد. وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج، عن عطاء قال: سمعت ابن عباس يقول: هما فجران، فأما الذي يسطع في السماء فليس يُحِلُّ وَلَا يَحْرَمُ شَيْئاً، ولكن الفجر الذي يستبين على رؤوس الجبال، هو الذي يحرم الشراب. قال عطاء: فأما

إذا سطع سطوعاً في السماء، وسطوعه أن يذهب في السماء طولاً، فإنه لا يحرم به شراب لصيام ولا صلاة، ولا يفوت به حج، ولكن إذا انتشر على رؤوس الجبال، حرم الشراب للصيام وفات الحج. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس وعطاء، وهكذا روي عن غير واحد من السلف، رحمهم الله. مسألة: ومن جفله تعالى الفجر غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام، يستدل على أنه من أصبح جنباً فليغتسل، وليتم صومه، ولا حرج عليه. وهذا مذهب الأئمة الأربعة وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً، لما رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة وأم سلمة، رضي الله عنهما، أنهما قالتا: كان رسول الله ﷺ يصبح جنباً من جماع غير احتلام، ثم يغتسل ويصوم. وفي حديث أم سلمة عندهما: ثم لا يفطر ولا يقضي. وفي صحيح مسلم، عن عائشة: أن رجلاً قال: يا رسول الله، تُدركني الصلاة وأنا جنب، فأصوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «وأنا تدركني الصلاة وأنا جنب، فأصوم». فقال: لست مثلاً - يا رسول الله - قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فقال: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي». فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن همام، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا نودي للصلاة - صلاة الصبح - وأحدكم جنب فلا يصم يومئذ»، فإنه حديث جيد الإسناد على شرط الشيخين، كما ترى، وهو في الصحيحين عن أبي هريرة، عن الفضل بن عباس عن النبي ﷺ، وفي سنن النسائي: عنه، عن أسامة بن زيد، والفضل بن عباس ولم يرفعه. فمن العلماء من علل هذا الحديث بهذا، ومنهم من ذهب إليه، ويحكى هذا عن أبي هريرة، وعطاء، وسالم، وهشام بن عروة، والحسن البصري. ومنهم من ذهب إلى التفرقة بين أن يصبح جنباً نائماً فلا عليه، لحديث عائشة وأم سلمة، أو مختاراً فلا صوم له، لحديث أبي هريرة، يحكى هذا عن عُرْوَة، وطاوس، والحسن. ومنهم من فرق بين الفرض فيتمه ويقضيه وأما الثقل فلا يضره. رواه الثوري، عن منصور، عن إبراهيم النخعي وهو رواية عن الحسن البصري أيضاً، ومنهم من ادعى نسخ حديث أبي هريرة بحديثي عائشة وأم سلمة، ولكن لا تاريخ معه. وادعى ابن حزم أنه منسوخ بهذه الآية الكريمة، وهو بعيد أيضاً، وأبعد؛ إذ لا تاريخ، بل الظاهر من التاريخ خلافه. ومنهم من حمل حديث أبي هريرة على نفي الكمال «فلا صوم له» لحديث عائشة وأم سلمة الدالين على الجواز. وهذا المسلك أقرب الأقوال وأجمعها، والله أعلم. وقوله تعالى: «ثُمَّ أَتُوا كَبِيرًا إِلَىٰ آلِ لَيْلَىٰ» يقتضي الإفطار عند غروب الشمس حكماً شرعياً، كما جاء في الصحيحين، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا، فقد أفطر الصائم». وعن سهل بن سعد الساعدي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر» أخرجه أيضاً. وقال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي، حدثنا قُرَّة بن عبد الرحمن، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «يقول الله، ﷻ: أن أحب عبادي إليَّ أعجلهم فطراً». ورواه الترمذي من غير وجه، عن الأوزاعي به. وقال: هذا حديث حسن غريب. وقال أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا عبيد الله بن إباد، سمعت إياد بن لقيط قال: سمعت ليلي امرأة تبشير بن الحَصَاصِيَّة، قالت: أردت أن أصوم يومين مواصلة، فمعتني بشير وقال: إن رسول الله ﷺ نهى عنه. وقال: «يفعل ذلك النصراني، ولكن صوموا كما أمركم الله، وأنموا الصيام إلى الليل، فإذا كان الليل فافطروا». وروى الحافظ ابن عساكر، حدثنا بكر بن سهل، حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا يحيى بن حمزة، عن ثور بن يزيد، عن علي بن أبي طلحة، عن عبد الملك بن أبي ذر، أن رسول الله ﷺ واصل يومين وليلة؛ فاتاه جبريل فقال: إن الله قد قبل وصالك، ولا يحل لأحد بعدك، وذلك بأن الله قال: «ثُمَّ أَتُوا كَبِيرًا إِلَىٰ آلِ لَيْلَىٰ»، فلا صيام بعد الليل، وأمرني بالوتر قبل الفجر، وهذا إسناد لا بأس به، أورده في ترجمة عبد الملك بن أبي ذر في تاريخه.

ولهذا ورد في الأحاديث الصحيحة النهي عن الوصال، وهو أن يصل صوم يوم بيوم آخر، ولا يأكل بينهما شيئاً. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تواصلوا». قالوا يا رسول الله، إنك تواصل. قال: «فإني لست مثلكم، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني» قال: فلم ينتهوا عن الوصال، فواصل بهم النبي ﷺ يومين وليلتين، ثم رأوا الهلال، فقال: «لو تأخر الهلال لزدتكم» كالمُتَكَلِّم بهم. وأخرجه في الصحيحين، من حديث الزهري. به. وكذلك أخرجا النهي عن الوصال من حديث أنس وابن عمر. وعن عائشة، رضي الله عنها، قالت: نهى رسول الله ﷺ عن الوصال، رحمة لهم، فقالوا: إنك تواصل. قال: «إني لست كهيتكم، إني يطعمني ربي ويسقيني». فقد ثبت النهي عنه من غير وجه، وثبت أنه من خصائص النبي ﷺ، وأنه كان يقوى على ذلك ويعان، والأظهر أن ذلك الطعام والشراب في حقه إنما كان معنوياً لا حسيّاً، وإلا فلا يكون مواصلاً مع الحسي، ولكن كما قال الشاعر:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد

وأما من أحب أن يُفسك بعد غروب الشمس إلى وقت السحر فله ذلك، كما في حديث أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تواصلوا، فأنيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر». قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله. قال: «إني لست كهيتكم، إني أبيت لي مطعم يطعمني، وساق يسقيني». أخرجه في الصحيحين أيضاً. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو نعيم، حدثنا أبو إسرائيل العنسي، عن أبي بكر بن حفص، عن أم ولد حاطب بن أبي بلتعة: أنها مرت برسول الله ﷺ وهو يتسحر، فدعاها إلى الطعام. فقالت: إني صائمة. قال: وكيف تصومين؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال: «أين أنت من وصال آل محمد، من السحر إلى السحر». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا إسرائيل، عن عبد الأعلى، عن محمد بن علي، عن علي: أن النبي ﷺ كان يواصل من السحر إلى السحر. وقد روى ابن جرير، عن عبد الله بن الزبير وغيره من السلف، أنهم كانوا يواصلون الأيام المتعددة وحمله منهم على أنهم كانوا يفعلون ذلك رياضة لأنفسهم، لا أنهم كانوا يفعلونه عبادة. والله أعلم. ويحتمل أنهم كانوا يفهمون من النهي أنه إرشاد، أي من باب الشفقة، كما جاء في حديث عائشة: «رحمة لهم»، فكان ابن الزبير وابنه عامر ومن سلك سبيلهم يتجشمون ذلك ويفعلونه، لأنهم كانوا يجدون قوة عليه. وقد ذكر عنهم أنهم كانوا أول ما يفطرون على السمن والضَّير لثلاث تنخرق الأمعاء بالطعام أولاً. وقد روي عن ابن الزبير أنه كان يواصل سبعة أيام ويصحب في اليوم السابع أقواهم وأجلدهم. وقال أبو العالية: إنما فرض الله الصيام بالنهار فإذا جاء بالليل فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَيِّرُ وَجْهَكَ عَنْ كُنُوفِكَ وَتَوَلَّى وَجْهَكَ إِلَى السَّمَاءِ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غير رمضان، فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلاً ونهاراً حتى يقضي اعتكافه. وقال الضحاك: كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد، جامع إن شاء، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تُبَيِّرُ وَجْهَكَ عَنْ كُنُوفِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: لا تقربوهن ما دمت عاكفين في المسجد ولا في غيره. وكذا قال مجاهد، وقتادة وغير واحد أنهم كانوا يفعلون ذلك حتى نزلت هذه الآية. قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن مسعود، ومحمد بن كعب، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وقتادة، والضحاك والسُّدي، والربيع بن أنس، ومقاتل، قالوا: لا يقربها وهو معتكف، وهذا الذي حكاه عن هؤلاء هو الأمر المتفق عليه عند العلماء: أن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفاً في مسجده، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد له منها فلا يحل له أن يتلبث فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك، من قضاء الغائط، أو أكل، وليس له أن يقبل امرأته، ولا يضمها إليه، ولا يشتغل بشيء سوى اعتكافه، ولا يعود المريض، لكن يسأل عنه وهو مار في طريقه.

وللاعتكاف أحكام مفصلة في بابه، منها ما هو مجمع عليه بين العلماء، ومنها ما هو مختلف فيه. وقد ذكرنا قطعة صالحة من ذلك في آخر كتاب الصيام، والله الحمد. ولهذا كان الفقهاء المصنفون يُنبِعون كتابَ الصيام بكتاب الاعتكاف، اقتداء بالقرآن العظيم، فإنه نبه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم. وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبيه على الاعتكاف في الصيام، أو في آخر شهر الصيام، كما ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ: أنه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان، حتى توفاه الله ﷻ. ثم اعتكف أزواجه من بعده. أخرجه من حديث عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها. وفي الصحيحين أن صفية بنت حيي كانت تزور النبي ﷺ وهو معتكف في المسجد، فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت لترجع إلى منزلها - وكان ذلك ليلاً - فقام النبي ﷺ ليمشي معها حتى تبلغ دارها، وكان منزلها في دار أسامة بن زيد في جانب المدينة، فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعوا - وفي رواية: تواريا - أي حياء من النبي ﷺ لكون أهله معه، فقال لهما النبي ﷺ: «على رسلكما إنها صفية بنت حيي» أي: لا تسرعا، واعلما أنها صفية بنت حيي، أي: زوجتي. فقالا: سبحان الله يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا» أو قال: «شراً». قال الشافعي، رحمه الله: أراد، عليه السلام، أن يعلم أمته التبري من التهمة في محلها، لثلاث يقع في محذور، وهما كانا أتقى الله أن يظن بالنبي ﷺ شيئاً. والله أعلم. ثم المراد بالمباشرة: إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيل، ومعانقة ونحو ذلك، فأما معاطاة الشيء ونحوه فلا بأس به؛ فقد ثبت في الصحيحين، عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُدني إلي رأسه فأرجله وأنا حائض، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان. قالت عائشة: ولقد كان المريض يكون في البيت فما أسأل عنه إلا وأنا مارة. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ أَوْ لَا وَاعْتَذِرُوا بِالنَّوَاسِيَةِ﴾ أي: هذا الذي بيناه، وفرضناه، وحددناه من الصيام، وأحكامه، وما أبحننا فيه وما حرّمنا، وذكر غاياته ورخصه وعزائمه، حدود الله، أي: شرعها الله وبينها بنفسه ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أي: لا تجاوزوها، وتعتدوها. وكان الضحاك ومقاتل يقولان في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ أَوْ لَا وَاعْتَذِرُوا بِالنَّوَاسِيَةِ﴾: أي: المباشرة في الاعتكاف. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني هذه الحدود الأربعة، ويقرأ: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَاةِ الرَّقَّتِ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ حتى

بلغ: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا آلَ إِبْرَٰهِيمَ إِلَى الْأَيْلِ﴾ قال: وكان أبي وغيره من مَشِيختنا يقولون هذا يتلونه علينا. ﴿كَذَٰلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ مَا بَيَّنَّ لِلنَّاسِ﴾ أي كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفصيله، وكذلك يبين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ: ﴿لِلنَّاسِ لَمْ يَكُنْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يعرفون كيف يهتدون، وكيف يطيعون كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَنْ عَبْدِهِ مَا يُغِيبُ وَيَنْتَهِزُ لِإِخْرَاجِكَ مِنْ الْأُمُتِ إِلَى الْآخِرَةِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٩].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْمَسْكَاةِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هذا في الرجل يكون عليه مال، وليس عليه فيه بَيِّنَةٌ، فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام، وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه آثم أكل حرام. وكذا روي عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدي، ومقاتل بن حَيَّان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: لا تُخَاصِمُ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ ظَالِمٌ. وقد ورد في الصحيحين عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إنما أنا بشر، وإنما يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من نار، فليخملها، أو ليذرها». فدلَّت هذه الآية الكريمة، وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر، فلا يحل في نفس الأمر حراماً هو حرام، ولا يحرم حلالاً هو حلال، وإنما هو يلزم في الظاهر، فإن طابق في نفسه الأمر فذاك، وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْمَسْكَاةِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا﴾ أي طائفة ﴿مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعلمون بطلان ما تدعونه وترجون في كلامكم. قال قتادة: اعلم - بآدم - أن قضاء القاضي لا يحل لك حراماً، ولا يحل لك باطلاً، وإنما يقضي القاضي بنحو ما يرى ويشهد به الشهود، والقاضي بشر يخطئ ويصيب، واعلموا أن من قضى له بباطل أن خصومته لم تنقُص حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضي على المبطل للمحق بأجود مما قضى به للمبطل على المحق في الدنيا. وقال أبو حنيفة: حكم الحاكم بطلاق الزوجة إذا شهد شاهداً زوراً في نفس الأمر، ولكنهما عدلان عنده يحلها للأزواج حتى للشاهدين ويحرمها على زوجها الذي حكم بطلاقها منه، وقالوا: هذا كلعان المرأة، إنه يبينها من زوجها ويحرمها عليه، وإن كانت كاذبة في نفس الأمر، ولو علم الحاكم بكذبها لحدها ولما حرمها وهذا أولى. مسألة: قال القرطبي: أجمع أهل السنة على أن من أكل مالاً حراماً ولو ما يصدق عليه اسم المال أنه يفسق، وقال بشر بن المعتمر في طائفة من المعتزلة: لا يفسق إلا بأكل مائتي درهم فما زاد، ولا يفسق بما دون ذلك، وقال الجبائي: يفسق بأكل درهم فما فوقه إلا بما دونه.

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْعَمْعِ وَلَيْسَ الْإِرْ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْإِرَ مَنِ انْتَرَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَوْبَهِهَا وَأَقْرَبُوا إِلَيْهَا إِنَّكُمْ بِعَلَمِكُمْ لَتَوَلَّوْنَ﴾.

قال العوفي عن ابن عباس: سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة، فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْعَمْعِ﴾ يعلمون بها حل دينهم، وعدة نسائهم، ووقت حجهم. وقال أبو جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية: بلغنا أنهم قالوا: يا رسول الله، لم خلقت الأهلة؟ فأنزل الله ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾. يقول: جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم، وعدة نسائهم، ومحل دينهم. وكذا روي عن عطاء، والضحاك، وقتادة، والسدي، والربيع بن أنس، نحو ذلك. وقال عبد الرزاق، عن عبد العزيز بن أبي رزاد، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «جعل الله الأهلة مواقيت للناس. فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فعُدُّوا ثلاثين يوماً». ورواه الحاكم في مستدركه، من حديث ابن أبي رواد، به. وقال: كان ثقة عابداً مجتهداً شريف النسب، فهو صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقال محمد بن جابر، عن قيس بن طلق، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «جعل الله الأهلة، فإذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا، فإن غمى عليكم فأكملوا العدة ثلاثين». وكذا روي من حديث أبي هريرة، ومن كلام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. وقوله: ﴿وَلَيْسَ الْإِرَ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْإِرَ مَنِ انْتَرَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَوْبَهِهَا﴾: قال البخاري: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله ﴿وَلَيْسَ الْإِرَ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْإِرَ مَنِ انْتَرَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَوْبَهِهَا﴾. وكذا رواه أبو داود الطيالسي، عن شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء، قال: كانت الأنصار إذا قدما من سفر لم يدخل الرجل من قبل بابه، فنزلت هذه الآية. وقال الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر: كانت قريش تدعى الحُمس، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام، فبينما رسول الله ﷺ في بستان إذ خرج من بابه، وخرج معه قُطَيْبَةُ بن عامر الأنصاري، فقالوا: يا رسول الله، إن قطبة بن عامر رجل تاجر، وإنه خرج معك من الباب. فقال له: «ما حملك

على ما صنعت؟ قال: رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت. فقال: «إني رجل أحسن». قال له: فإن ديني دينك. فأنزل الله ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِكُمْ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَدْبَارِهَا﴾. رواه ابن أبي حاتم. ورواه العوفي عن ابن عباس بنحوه. وكذا روي عن مجاهد، والزهري، وقتادة، وإبراهيم النخعي، والسدي، والربيع بن أنس.

وقال الحسن البصري: كان أقوام من أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم سفراً وخرج من بيته يريد سفره الذي خرج له، ثم بدا له بعد خروجه أن يقيم ويدع سفره، لم يدخل البيت من بابيه، ولكن يتسوره من قبل ظهره، فقال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِكُمْ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ الآية. وقال محمد بن كعب: كان الرجل إذا اعتكف لم يدخل منزله من باب البيت، فأنزل الله هذه الآية. وقال عطاء بن أبي رباح: كان أهل يثرب إذا رجعوا من عيدهم دخلوا منازلهم من ظهورها ويرون أن ذلك أدنى إلى البر، فقال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِكُمْ﴾. وقوله: ﴿وَأَتُوا اللَّهَ لَمَّكُم تَقْلُوبُكُمْ﴾ أي: اتقوا الله فافعلوا ما أمركم به، واتركوا ما نهاكم عنه ﴿لَمَّكُم تَقْلُوبُكُمْ﴾ غداً إذا وقفت بين يديه، فيجزىكم بأعمالكم على التمام، والكمال.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَقْسِدُوا إِيكَ اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [١٩١] وَأَقْتُلُوا حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمُ وَالْإِنْفَةَ أَشَدَّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْكَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوهُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ [١٩٢] فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُودٌ ذَرِيمٌ [١٩٣] وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ لِلدِّينِ بَلَدٌ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ [١٩٤].

قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ﴾ قال: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله، ويكف عمن كف عنه حتى نزلت سورة براءة. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم حتى قال: هذه منسوخة بقوله: ﴿وَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وفي هذا نظر؛ لأن قوله: ﴿الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ﴾ إنما هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين همّتهم قتال الإسلام وأهله، أي: كما يقاتلونكم فقاتلوهم أنتم، كما قال: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]؛ ولهذا قال في هذه الآية: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمُ﴾ أي: لكن همتمكم منبعثة على قتالهم، كما أن همتهم منبعثة على قتالكم، وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها، قصاصاً.

وقد حكى عن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، أن أول آية نزلت في القتال بعد الهجرة، ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ بِأَنَّهُمْ غَلِبُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٣٩] وهو الأشهر وبه ورد الحديث. وقوله: ﴿وَلَا تَقْسِدُوا إِيكَ اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: قاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا في ذلك ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي - كما قاله الحسن البصري - من المثلة، والغلول، وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس، وعمر بن عبد العزيز، ومقاتل بن حيان، وغيرهم. ولهذا جاء في صحيح مسلم، عن يزيد أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تُمَثِّلُوا، ولا تقتلوا وليداً، ولا أصحاب الصوامع». رواه الإمام أحمد. وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال: «أخرجوا باسم الله، قاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا، ولا تُمَثِّلُوا، ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع». رواه الإمام أحمد. ولأبي داود، عن أنس مرفوعاً، نحوه. وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: وجدت امرأة في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان. وقال الإمام أحمد: حدثنا مُصْعَبُ بْنُ سَلَامٍ، حدثنا الأجلح، عن قيس بن أبي مسلم، عن ربعي بن جِرَاش، قال: سمعت خديجة يقول: ضرب لنا رسول الله ﷺ أمثالاً: واحداً، وثلاثة، وخمسة، وسبعة، وتسعة، وأحد عشر، فضرب لنا رسول الله ﷺ منها مثلاً وترك سائرهما، قال: «إن قوماً كانوا أهل ضَعْفٍ ومسكنة، قاتلهم أهل تجبر وعداء، فأظهر الله أهل الضعف عليهم، فعمدوا إلى غدوهم فاستعملوهم وسلطوهم فأسخطوا الله عليهم إلى يوم يلقونه». هذا حديث حسن الإسناد. ومعناه: أن هؤلاء الضعفاء لما قدروا على الأقوياء، فاعتدوا عليهم واستعملوهم فيما لا يليق بهم، أسخطوا الله عليهم بسبب هذا الاعتداء. والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً. ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتل الرجال، نبه تعالى على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصد عن سبيله أبلغ وأشد وأعظم وأظم من القتل؛ ولهذا قال: ﴿وَالْإِنْفَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾. قال أبو مالك: أي: ما أنتم مقيمون عليه أكبر من القتل. وقال أبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك، والربيع بن أنس في قوله: ﴿وَالْإِنْفَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ يقول: الشرك أشد من القتل. وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْكَرَامِ﴾ كما جاء في الصحيحين: «إن هذا البلد

حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، وَإِنِّهَا سَاعَتِي هَذِهِ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُغْضَدُ شَجَرُهُ، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ. فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ أَذَنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ». يعني بذلك - صلوات الله وسلامه عليه - قتاله أهلها يوم فتح مكة، فإنه فتحها عنوة، وقتلت رجال منهم عند الخندمة، وقيل: صلحاً؛ لقوله: من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. وقد حكى القرطبي: أن النهي عن القتال عند المسجد الحرام منسوخ. قال قتادة: نسخها قوله: ﴿إِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. قال مقاتل بن حيان: نسخها قوله: ﴿إِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾. وفي هذا نظر. وقوله: ﴿حَتَّى يُقَاتِلَوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَنْتُمْ لَهُ جِزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ يقول تعالى: لا تقتلواهم عند المسجد الحرام إلا أن يبدؤكم بالقتال فيه، فلکم حينئذ قتالهم وقتلهم دفعاً للصيال، كما بايع النبي ﷺ أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال، لما تألبت عليه بطون قريش ومن والا هم من أحياء ثقيف والأحباش عامئذ، ثم كف الله القتال بينهم فقال: ﴿وَمَنْ أَلَزَمَ الْكُفَّاءَ يَدَيْهِمْ عَنْكُمْ وَلِيَدِيكُمْ عَنْهُمْ يَبْلُغَنَّ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَفْطَرَكُمُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤]، وقال: ﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ ثَمُودُونَ وَنِسَاءٌ ثَمُودَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطْلُقُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَنَذَرْنَا الْذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]، وقوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا اللَّهُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آي: ١٩٢]، فإن تركوا القتال في الحرم، وأنابوا إلى الإسلام والتوبة، فإن الله غفور رحيم يغفر ذنوبهم، ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله، فإنه تعالى لا يتعاطاه ذنب أن يغفر لمن تاب منه إليه. ثم أمر تعالى بقتال الكفار: ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: شرك. قاله ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والربيع، ومقاتل بن حيان، والسدي، وزيد بن أسلم. ﴿وَيَكُونُ الْذِينَ لِلَّهِ﴾ أي: يكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيحين: عن أبي موسى الأشعري، قال: سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاقل حمية، ويقاقل رياء، أتى ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». وفي الصحيحين: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله». وقوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يقول: فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك، وقتل المؤمنين، فكفوا عنهم، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم، ولا عدوان إلا على الظالمين، وهذا معنى قول مجاهد: لا يقاتل إلا من قاتل. أو يكون تقديره: فإن انتهوا فقد تخلصوا من الظلم، وهو الشرك. فلا عدوان عليهم بعد ذلك والمراد بالعدوان ههنا المعاقبة والمقاتلة، كقوله: ﴿مَنْ أَعْتَدَ عَلَيْكُمْ فَاَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَ عَلَيْكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَيَكُونُ الْذِينَ لِلَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَلَنْ عَاقِبَتُهُمْ فَصَافُوا بِمِثْلِ مَا عُوِضُوا بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]. ولهذا قال عكرمة وقتادة: الظالم: الذي أبى أن يقول: لا إله إلا الله. وقال البخاري: قوله: ﴿وَيَقْتُلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الْذِينَ لِلَّهِ﴾ الآية: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، قال: أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس صنعوا وأنت ابن عمر وصاحب النبي ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أن الله حرم دم أخي. قال: ألم يقل الله: ﴿وَيَقْتُلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ قال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله. وزاد عثمان ابن صالح، عن ابن وهب قال: أخبرني فلان وحيوة بن شريح، عن بكر بن عمرو المعافري: أن بكير بن عبد الله حدثه، عن نافع: أن رجلاً أتى ابن عمر فقال له: يا أبا عبد الرحمن، ما حملك على أن تحج عاماً وتعتز عاماً، وتترك الجهاد في سبيل الله، وقد علمت ما رغب الله فيه؟ فقال: يا ابن أخي، بُني الإسلام على خمس: الإيمان بالله ورسوله، والصلوات الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحج البيت. قال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وَلَنْ تَلْفَتَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ قَاتَلُوا فَأَصْلَحُوا بِهِمْ فَإِنْ كُنَّا فِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَلَمْ يَكُنْ حَتَّى يَفْعَلَهُ اللَّهُ أَمْرًا نَبِيًّا﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿وَيَقْتُلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال: فعلنا على عهد النبي ﷺ وكان الإسلام قليلاً وكان الرجل يفتن في دينه: إما قتلوه أو عذبوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، قال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال: أما عثمان فكان الله عفا عنه، وأما أنتم فكرهتم أن تعفوا عنه، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وحثته، وأشار بيده فقال: هذا بيته حيث ترون.

﴿الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ بِأَشْهُرٍ مُفَرَّجَاتٍ﴾ [التوبة: ٣٦]، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وحثته، وأشار بيده فقال: هذا بيته حيث ترون. قال عكرمة، عن ابن عباس، والضحاك، والسدي، ومقسم، والربيع بن أنس، وعطاء وغيرهم: لما سار رسول الله ﷺ مُعْتَمِرًا فِي سَنَةِ سِتٍّ مِنَ الْهَجْرَةِ، وَحَبَسَ الْمُشْرِكُونَ عَنِ الدُّخُولِ وَالْوُصُولِ إِلَى الْبَيْتِ، وَصَدَّوْهُ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَهُوَ شَهْرٌ حَرَامٌ، حَتَّى قَاضَاهُمْ عَلَى الدُّخُولِ مِنْ قَابِلٍ، فَدَخَلَهَا فِي السَّنَةِ الْآتِيَةِ، هُوَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْصَحَهُ اللهُ مِنْهُمْ، فَتَزَلَّتْ فِي ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ بِأَشْهُرٍ مُفَرَّجَاتٍ﴾ [التوبة: ٣٦]. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن

عيسى، حدثنا ليث بن سعد، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله، قال: لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يُغزى ويُغزوا، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ. هذا إسناد صحيح؛ ولهذا لما بلغ النبي ﷺ - وهو مُحَمَّمٌ بالحديبية - أن عثمان قد قتل - وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين - بايع أصحابه، وكانوا ألفاً وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل كَفَّ عن ذلك، وجنح إلى المسالمة والمصالحة، فكان ما كان. وكذلك لما فَرَّغَ من قتال هَوازَن يوم حنين وتَحَصَّنَ قُلُهْمَ بالطائف، عَدَلَ إليها، فحاصَرها ودخل ذو القعدة وهو محاصرها بالمنجنيق، واستمر عليها إلى كمال أربعين يوماً، كما ثبت في الصحيحين عن أنس. فلما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها ولم تُفْتَحْ، ثم كر راجعاً إلى مكة واعتمر من الجعرانة، حيث قسم غنائم حُنين. وكانت غُفْرته هذه في ذي القعدة أيضاً عام ثمان، صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: ﴿فَمَنْ أَعَدَّكُمْ عَلَيْهِ فَاغْتَدُوا عَلَيْهِ بِسَيْلٍ مَّا أَعَدَّكُمْ عَلَيْهِ﴾: أمر بالعدل حتى في المشركين: كما قال: ﴿وَلَمَّا عَقَبْتُمْ فَأَقْبُوا بِسَيْلٍ مَّا عَقَبْتُمْ﴾ [النحل: ١٢٦]. وقال: ﴿وَبَرَزُوا بِسَيْفٍ مُنْتَلَهًا﴾ [الشورى: ٤٠]. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن قوله: ﴿فَمَنْ أَعَدَّكُمْ عَلَيْهِ فَاغْتَدُوا عَلَيْهِ بِسَيْلٍ مَّا أَعَدَّكُمْ عَلَيْهِ﴾: نزلت بمكة حيث لا شوكة ولا جهاد، ثم نسخ بآية الجهاد بالمدينة. وقد رَدَّ هذا القول ابن جرير، وقال: بل هذه الآية مدنية بعد غُفْرَةِ القُضِيَّةِ، وعزا ذلك إلى مجاهد، رحمه الله. وقد أطلق ههنا الاعتداء على الاقتصاد، من باب المقابلة، كما قال عمرو بن أم كلثوم:

ألا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا
وقال ابن دريد:

لي استنواء إن موالسي استنواء
لي استنواء إن تعادى التواء
وقال غيره:

ولي فرس للحلم بالحلم ملجم
ومن رام تقويمي فلاني مقوم
وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾: أمر لهم بطاعة الله وتقواه، وإخباراً بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة.

﴿وَاتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٥).

قال البخاري: حدثنا إسحاق، أخبرنا النضر، أخبرنا شعبة عن سليمان قال: سمعت أبا وائل، عن حذيفة: ﴿وَاتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قال: نزلت في النفقة. ورواه ابن أبي حاتم، عن الحسن بن محمد بن الصباح، عن أبي معاوية عن الأعمش، به مثله. قال: وروى عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، وعطاء، والضحاك، والحسن، وقادة، والسدي، ومقاتل بن حَيَّان، نحو ذلك. وقال الليث بن سعد، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أسلم أبي عمران قال: حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خَرَقَهُ، ومعنا أبو أيوب الأنصاري، فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة. فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية إنما نزلت فينا، صحبتنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر، اجتمعنا معشر الأنصار نَجِيًّا، فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونَصْرِهِ، حتى فشا الإسلام وكثر أهله، وكنا قد أثَرناه على الأهليين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها، فترجع إلى أهلينا وأولادنا فقيم فيهما. فنزل فينا ﴿وَاتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾. فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد. رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ في تفسيره، وابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن مَرْذُويه، والحافظ أبو يعلى في مسنده، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، كلهم من حديث يزيد بن أبي حبيب، به. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب. وقال الحاكم: على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. ولفظ أبي داود عن أسلم أبي عمران: كنا بالقسطنطينية - وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى أهل الشام رجل، يريد فُضالة بن عُبَيْد - فخرج من المدينة صَفٌّ عظيم من الروم، فصفقنا لهم فَحَمَلَ رجل من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم: ثم خرج إلينا فصاح الناس إليه فقالوا: سبحان الله، ألقى بيده إلى التهلكة. فقال أبو أيوب: يا أيها الناس، إنكم لتأولون هذه الآية على غير التأويل، وإنما نزلت فينا معشر الأنصار، وإنما لما أعز الله دينه، وكثر ناصروه قلنا فيما بيننا: لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها. فأنزل الله هذه الآية. وقال أبو بكر بن عياش، عن أبي إسحاق السبيعي قال: قال رجل للبراء بن عازب: إن حملتُ على العدو وحدي فقتلوني أكنْتُ ألقِيْتُ بيدي إلى التهلكة؟ قال: لا، قال الله

لرسوله: ﴿فَقَتِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ [النساء: ٨٤]، إنما هذا في النفقة. رواه ابن مردويه وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث إسرائيل، عن أبي إسحاق، به. وقال صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. ورواه الثوري، وقيس بن الربيع، عن أبي إسحاق، عن البراء - فذكره. وقال بعد قوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ﴾: ولكن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب، فيلقي يده إلى التهلكة ولا يتوب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح - كاتب الليث - حدثني الليث، حدثنا عبد الرحمن بن خالد بن مسافر، عن ابن شهاب، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: أن عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث أخبره: أنهم حاصروا دمشق، فانطلق رجل من أزد شنوءة، فأسرع إلى العدو وحده ليستقبل، فعاب ذلك عليه المسلمون ورفعوا حديثه إلى عمرو بن العاص، فأرسل إليه عمرو فزده، وقال عمرو: قال الله ﴿وَلَا تُلْقُوا يَدَيْكُمَا إِلَى الْهَلَكَةِ﴾.

وقال عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى الْهَلَكَةِ﴾: ليس ذلك في القتال، إنما هو في النفقة أن تمسك بيدك عن النفقة في سبيل الله. ولا تلق بيدك إلى التهلكة. وقال حماد بن سلمة، عن داود، عن الشعبي. عن الضحاك بن أبي جبير قال: كانت الأنصار يتصدقون وينفقون من أموالهم، فأصابته سنة، فأمسكوا عن النفقة في سبيل الله فنزلت: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى الْهَلَكَةِ﴾ وقال الحسن البصري: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى الْهَلَكَةِ﴾ قال: هو البخل. وقال سيمك بن حرب، عن النعمان بن بشير في قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى الْهَلَكَةِ﴾: أن يذنب الرجل الذنب، فيقول: لا يغفر لي، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى الْهَلَكَةِ وَأَخْبَرُوا أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. رواه ابن مردويه. وقال ابن أبي حاتم: وزوي عن عبيدة السلماني، والحسن، وابن سيرين، وأبي قلابة - نحو ذلك. يعني: نحو قول النعمان بن بشير: إنها في الرجل يذنب الذنب فيعتقد أنه لا يغفر له، فيلقي يده إلى التهلكة، أي يستكثر من الذنوب فيهلك. ولهذا روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: التهلكة: عذاب الله. وقال ابن أبي حاتم وابن جرير جميعاً: حدثنا يونس، حدثنا ابن وهب، أخبرني أبو صخر، عن القُرظي: أنه كان يقول في هذه الآية: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى الْهَلَكَةِ﴾ قال: كان القوم في سبيل الله، فيتزود الرجل. فكان أفضل زاداً من الآخر، أنفق البائس من زاده، حتى لا يبقى من زاده شيء، أحب أن يواسي صاحبه، فأنزل الله: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى الْهَلَكَةِ﴾. وقال ابن وهب أيضاً: أخبرني عبد الله بن عباس، عن زيد بن أسلم في قول الله: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى الْهَلَكَةِ﴾: وذلك أن رجلاً كانوا يخرجون في بعوث يبعثها رسول الله ﷺ، بغير نفقة، فإذا يقطع بهم، وإما كانوا عيالاً، فأمرهم الله أن يستنفقوا مما رزقهم الله، ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة، والتهلكة أن يهلك رجال من الجوع أو العطش أو من المشي. وقال لمن بيده فضل: ﴿وَأَخْبَرُوا أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. ومضمون الآية: الأمر بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم، والإخبار عن ترك ذلك بأنه هلاك ودمار إن لزمه واعتاده. ثم عطف بالأمر بالإحسان، وهو أعلى مقامات الطاعة، فقال: ﴿وَأَخْبَرُوا أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَأَيُّهَا النَّاسُ وَالْعُمْرَةُ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِلُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَدِئْتُهُ مِنْ سَبِيلِهِ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ سَلَكُ فَإِذَا أَمْنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ قَبِيضًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ رَسَعُوا إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْكُمْ عَشْرَةَ كَاوِلَةً ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي السَّجْدَةِ الْحَرَامِ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

لما ذكر تعالى أحكام الصيام وعطف بذكر الجهاد، شرع في بيان المناسك، فأمر بإتمام الحج والعمرة، وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ أَي: ضُيِّدْتُمْ عن الوصول إلى البيت ومنعتم من إتمامهما. ولهذا اتفق العلماء على أن الشروع في الحج والعمرة ملزَم، سواء قيل بوجوب العمرة أو باستحبابها، كما هما قولان للعلماء. وقد ذكرناهما بدلائلنا في كتابنا «الأحكام» مستقصى، والله الحمد والمنة. وقال شعبة، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن سلمة، عن علي: أنه قال في هذه الآية: ﴿وَأَيُّهَا النَّاسُ وَالْعُمْرَةُ لِلَّهِ﴾ قال: أن تُحْرِمَ من ذُؤيرة أهلك. وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وطاوس. وعن سفيان الثوري أنه قال في هذه الآية: إتمامهما أن تحرم من أهلك، لا تريد إلا الحج والعمرة، وتُهَلَّ من الميقات ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة، حتى إذا كنت قريباً من مكة قلت: لو حججت أو اعتمرمت، وذلك يجزئ، ولكن التمام أن تخرج له، ولا تخرج لغيره. وقال مكحول: إتمامهما إنشاءهما جميعاً من الميقات. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن الزهري قال: بلغنا أن عمر قال في قول الله: ﴿وَأَيُّهَا النَّاسُ وَالْعُمْرَةُ لِلَّهِ﴾ قال: من تمامهما أن تُفْرِدَ كُلَّ واحد منهما من الآخر، وأن تعتمر في غير أشهر الحج؛ إن الله تعالى يقول: ﴿الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾. وقال هُشَيْنٌ عن ابن عون قال: سمعت

القاسم بن محمد يقول: إن العمرة في أشهر الحج ليست بتامة، فقليل له: العمرة في المحرم؟ قال: كانوا يرونها تامة. وكذا روي عن قتادة بن دعامة، رحمهما الله. وهذا القول فيه نظر؛ لأنه قد ثبت أن رسول الله ﷺ اعتمر أربع عُمرٍ كلها في ذي القعدة: عمرة الحديبية في ذي القعدة سنة ست، وعمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، وعمرة الجعرانة في ذي القعدة سنة ثمان، وعمرته التي مع حجته أحرم بهما معاً في ذي القعدة سنة عشر، ولا اعتمر قط في غير ذلك بعد هجرته، ولكن قال لام هانئ: «عُمرة في رمضان تعدل حجة معي». وما ذاك إلا لأنها كانت قد عزمتم على الحج معه، عليه السلام، فاعتاقت عن ذلك بسبب الطهر، كما هو مبسوط في الحديث عند البخاري، ونَصَّ سعيد بن جبيرة على أنه من خصائصها، والله أعلم. وقال السدي في قوله: ﴿وَأَيُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾: أي: أقيموا الحج والعمرة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَيُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ يقول: من أحرم بالحج أو بالعمرة، فليس له أن يحل حتى يتمهما، تمام الحج يوم النحر، إذا رمى جمره العقبة، وطاف بالبيت، وبالصفا، والمروة، فقد حل. وقال قتادة، عن زُرارة، عن ابن عباس أنه قال: الحج عرفة، والعمرة الطواف. وكذا روى الأعمش، عن إبراهيم عن علقمة في قوله: ﴿وَأَيُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ قال: هي في قراءة عبد الله: «وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت» لا تُجاوز بالعمرة البيت. قال إبراهيم: فذكرت ذلك لسعيد بن جبيرة، فقال: كذلك قال ابن عباس.

وقال سفيان عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة أنه قال: «وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت» وكذا روى الثوري أيضاً عن إبراهيم، عن منصور، عن إبراهيم أنه قرأ: «وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت». وقرأ الشعبي: «وأتموا الحج والعمرة لله» برفع العمرة. وقال: ليست بواجبة. وروي عنه خلاف ذلك. وقد وردت أحاديث كثيرة من طرق متعددة، عن أنس وجماعة من الصحابة: أن رسول الله ﷺ جَمَعَ في إحرامه بحج وعمرة، وثبت عنه في الصحيح أنه قال لأصحابه: «من كان معه هذِي فليهل بحج وعمرة». وقال في الصحيح أيضاً: «دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة». وقد روى الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في سبب نزول هذه الآية حديثاً غريباً فقال: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو عبد الله الهروي، حدثنا غسان الهروي، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عطاء، عن صفوان بن أمية أنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ مُتَضَمِّعاً بالزعفران، عليه جبة، فقال: كيف تأمرني يا رسول الله في عمرتي؟ قال: فأنزل الله: ﴿وَأَيُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «أين السائل عن العُمرة؟» فقال: ها أنا ذا. فقال له: «ألقي عنك ثيابك، ثم اغتسل، واستنشق ما استطعت، ثم ما كنت صانعاً في حَجِّكَ فاصنعه في عمرتك». هذا حديث غريب وسياق عجيب، والذي ورد في الصحيحين، عن يعلى بن أمية في قصة الرجل الذي سأل النبي ﷺ وهو بالجعرانة فقال: كيف ترى في رجل أحرم بالعمرة وعليه جبة وخلوق؟ فسكت رسول الله ﷺ، ثم جاءه الوحي، ثم رفع رأسه فقال: «أين السائل؟» فقال: ها أنا ذا فقال: «أما الجبة فانزعها، وأما الطيب الذي بك فاغسله، ثم ما كنت صانعاً في حجك فاصنعه في عُمرتك». ولم يذكر فيه الغسل والاستنشاق، ولا ذكر نزول الآية، وهو عن يعلى بن أمية، لا عن صفوان بن أمية، والله أعلم. وقوله: ﴿إِنْ أَتَيْتُمْ قَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾: ذكروا أن هذه الآية نزلت في سنة ست، أي عام الحديبية، حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت، وأنزل الله في ذلك سورة الفتح بكاملها، وأنزل لهم رُخْصَةً: أن يذبحوا ما معهم من الهدي وكان سبعين بدنة، وأن يتحللوا من إحرامهم، فعند ذلك أمرهم عليه السلام بأن يحلقوا رؤوسهم ويتحللوا. فلم يفعلوا انتظاراً للنسخ حتى خرج فحلق رأسه، ففعل الناس وكان منهم من قَصَرَ رأسه ولم يحلقه، فلذلك قال ﷺ: «رَجِمَ الله المُحَلِّقِينَ». قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ فقال في الثالثة: «والمقصرين». وقد كانوا اشتروا في هديهم ذلك، كُلُّ سبعة في بدنة، وكانوا ألفاً وأربعمائة، وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم، وقيل: بل كانوا على طرف الحرم، فإله أعلم.

ولهذا اختلف العلماء هل يختص الحصر بالعدو، فلا يتحلل إلا من حصره عدو، لا مرض ولا غيره؟ على قولين: فقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس، وابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس، وابن أبي نجيح ومجاهد، عن ابن عباس، أنه قال: لا حَصْرُ إلا حَصْرُ العدو، فأما من أصابه مرض أو وجع أو ضلال فليس عليه شيء، إنما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا أَيْتُمُ﴾، فليس الأمن حَصراً. قال: وروي عن ابن عمر، وطاوس، والزهرى، وزيد بن أسلم، نحو ذلك. والقول الثاني: أن الحصر أعم من أن يكون بعدو أو مرض أو ضلال. وهو الثَّوَّان عن الطريق - أو نحو ذلك. قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا حُجَّاج الصَّوَّاف، عن يحيى بن أبي كثير، عن عكرمة، عن الحجاج بن عمرو الأنصاري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كُسِرَ أو عَرِجَ فقد حل، وعليه حجة أخرى». قال: فذكرت ذلك لابن عباس وأبي هريرة فقالا: صدق. وأخرجه أصحاب الكتب الأربعة من حديث يحيى بن

أبي كثير، به. وفي رواية لأبي داود وابن ماجه: من عرج أو كسر أو مَرَض - فذكر معناه. ورواه ابن أبي حاتم، عن الحسن بن عرفة، عن إسماعيل بن عُلَيْثٍ، عن الحجاج بن أبي عثمان الصواف، به. ثم قال: وروي عن ابن مسعود، وابن الزبير، وعلقمة، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، ومجاهد، والنخعي، وعطاء، ومقاتل بن حيان، أنهم قالوا: الإحصار من عدو، أو مرض، أو كسر. وقال الثوري: الإحصار من كل شيء آذاه. وثبت في الصحيحين عن عائشة: أن رسول الله ﷺ دَخَلَ على ضَبَاة بنت الزبير بن عبد المطلب، فقالت: يا رسول الله، إني أريد الحج وأنا شاكية. فقال: «حُجِّي واشترطي: أنْ مَجِّلِي حيثُ حَبَشْتِي». ورواه مسلم عن ابن عباس بمثله. فذهب من ذهب من العلماء إلى صحة الاشتراط في الحج لهذا الحديث. وقد علق الإمام محمد بن إدريس الشافعي القولُ بصحة هذا المذهب على صحة هذا الحديث. قال البيهقي وغيره من الحفاظ: فقد صح، والله الحمد.

وقوله: «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ»: قال الإمام مالك، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب أنه كان يقول: «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ»: شاة. وقال ابن عباس: الهدي من الأوزاج الثمانية: من الإبل والبقر والمعز والضأن. وقال الثوري، عن حبيب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس في قوله: «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ»، قال: شاة. وكذا قال عطاء، ومجاهد، وطاوس، وأبو العالية، ومحمد بن علي بن الحسين، وعبد الرحمن بن القاسم، والشعبي، والنخعي، والحسن، وقتادة، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وغيرهم مثل ذلك، وهو مذهب الأئمة الأربعة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم، عن عائشة وابن عمر: أنهما كانا لا يريان «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» إلا من الإبل والبقر. قال: وروى عن سالم، والقاسم، وعروة بن الزبير، وسعيد بن جبيرة - نحو ذلك. قلت: والظاهر أن مستند هؤلاء فيما ذهبوا إليه قضية الحديبية، فإنه لم يُنْقَلْ عن أحد منهم أنه ذبح في تحلله ذاك شاة، وإنما ذبحوا الإبل والبقر، ففي الصحيحين عن جابر قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بقرة. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس في قوله: «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» قال: بقدر يسارته. وقال العوفي، عن ابن عباس: إن كان موسراً فمن الإبل، وإلا فمن البقر، وإلا فمن الغنم. وقال هشام بن عروة، عن أبيه: «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» قال: إنما ذلك فيما بين الرخص والغلاء. والدليل على صحة قول الجمهور فيما ذهبوا إليه من إجزاء ذبح الشاة في الإحصار: أن الله أوجب ذبح ما استيسر من الهدي، أي: مهما تيسر مما يسمى هدياً، والهدي من بهيمة الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، كما قاله الخبر البحر ترجمان القرآن وابن عم الرسول ﷺ. وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، قالت: أهدى النبي ﷺ مرة غنماً. وقوله: «وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ» معطوف على قوله: «وَأَيُّهَا الْمَلِكُ وَالْمَلَكَةُ» وليس معطوفاً على قوله: «إِنْ أَصْبَحْتُمْ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» كما زعمه ابن جرير، رحمه الله؛ لأن النبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم، حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم، فأما في حال الأمن والوصول إلى الحرم فلا يجوز الحلق «حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ» ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة، إن كان قارناً، أو من فعل أحدهما إن كان مفرداً أو متمتعاً، كما ثبت في الصحيحين عن حفصة أنها قالت: يا رسول الله، ما شأن الناس حَلُّوا من العمرة، ولم تحل أنت من عمرتك؟ قال: «إني لَبُذْتُ رَأْسِي وَقُلِدْتُ هَذْيِي، فلا أحل حتى أنحر».

وقوله: «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَدِئَةٌ مِنْ مِيعَاتِهِ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ سُكْلٌ»: قال البخاري: حدثنا آدم، حدثنا شعبة، عن عبد الرحمن بن الأصبهاني: سمعت عبد الله بن مغفل، قال: قعدت إلى كعب بن عُجْرَةَ في هذا المسجد - يعني مسجد الكوفة - فسألته عن «فِدْيَةِ مَنْ مِيعَاتِهِ»، فقال: حُمِلَتْ إلى النبي ﷺ والقملُ يتناثر على وجهي. فقال: «ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا! أما تجد شاة؟» قلت: لا. قال: «صُمُّ ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من طعام، - واحلق رأسك». فنزلت في خاصة، وهي لكم عامة. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب، عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عُجْرَةَ قال: أتى عَلِيَّ النبي ﷺ وأنا أوقد تحت قدر، والقملُ يتناثر على وجهي - أو قال: حاجبي - فقال: «يُؤْذِيكَ هَوَامُ رَأْسِكَ؟» قلت: نعم. قال: «فاحلقه، وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، أو انسك نسيكة». قال أيوب: لا أدري بأيتهن بدأ. وقال أحمد أيضاً: حدثنا هُشَيْم، أخبرنا أبو بشر، عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عُجْرَةَ قال: كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية، ونحن محرمون، وقد حصره المشركون، وكانت لي وَفْرَةٌ، فجعلت الهوام تَسْقُطُ على وجهي، فمر بي رسول الله ﷺ فقال: «أيؤذيكَ هوامُ رأسك؟» فأمره أن يحلق. قال: ونزلت هذه الآية: «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَدِئَةٌ مِنْ مِيعَاتِهِ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ سُكْلٌ». وكذا رواه عفان، عن شعبة، عن أبي بشر،

وهو جعفر بن إياس، به. وعن شعبة، عن الحكم، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، به. وعن شعبة، عن داود، عن الشعبي، عن كعب بن عُجْرة، نحوه. ورواه الإمام مالك عن حميد بن قيس، عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عجرة - فذكر نحوه. وقال سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة، عن أبيان بن صالح، عن الحسن البصري: أنه سمع كعب بن عُجْرة يقول: فذبحت شاة. رواه ابن مَرْذُويه. وروى أيضاً من حديث عمر بن قيس، سندل - وهو ضعيف - عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «النسك شاة، والصيام ثلاثة أيام، والطعام فَرْق، بين ستة». وكذا روى عن علي، ومحمد بن كعب، وعكرمة، وإبراهيم النخعي، ومجاهد، وعطاء، والسدي، والربيع بن أنس. وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا عبد الله بن وهب: أن مالك بن أنس حدثه، عن عبد الكريم بن مالك الجَزْري، عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عُجْرة: أنه كان مع رسول الله ﷺ، فأذاه القمْل في رأسه، فأمره رسول الله ﷺ أن يحلق رأسه، وقال: «صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، مَدِين مَدِين لكل إنسان، أو انسك شاة، أي ذلك فعلت أجزاً عنك». وهكذا روى ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: «فَقِذْيَةٌ مِنْ صِيَاءٍ أَوْ مَدَقَّةً أَوْ شُلُوكًا»، قال: إذا كان «أو» فأية أخذت أجزاً عنك. قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وطاوس، والحسن، وخُميد الأعرج، وإبراهيم النخعي، والضحاك، نحو ذلك. قلت: وهو مذهب الأئمة الأربعة وعامة العلماء أنه يُخَيَّر في هذا المقام، إن شاء صام، وإن شاء تصدق بقرق، وهو ثلاثة أصع، لكل مسكين نصف صاع، وهو مُدَّان، وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على الفقراء، أي ذلك فعل أجزاً. ولما كان لفظ القرآن في بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل: «فَقِذْيَةٌ مِنْ صِيَاءٍ أَوْ مَدَقَّةً أَوْ شُلُوكًا» وَلَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ بِذَلِكَ، أَرْشَدَهُ إِلَى الْأَفْضَل، فَالْأَفْضَل، فقال: انسك شاة، أو اطعم ستة مساكين أو صم ثلاثة أيام. فكل حسن في مقامه. والله الحمد والمنة. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا أبو بكر بن عياش قال: ذكر الأعمش قال: سأل إبراهيم سعيد بن جبيرة عن هذه الآية: «فَقِذْيَةٌ مِنْ صِيَاءٍ أَوْ مَدَقَّةً أَوْ شُلُوكًا» فأجابته يقول: يُخَيَّر عليه طعام، فإن كان عنده اشترى شاة، وإن لم يكن قومت الشاة دراهم، وجعل مكانها طعام فتصدق، وإلا صام بكل نصف صاع يوماً، قال إبراهيم: كذلك سمعت علقمة يذكر. قال: لما قال لي سعيد بن جبيرة: من هذا؟ ما أظرفه! قال: قلت: هذا إبراهيم. فقال: ما أظرفه! كان يجالسنا. قال: فذكرت ذلك لإبراهيم، قال: فلما قلت: «يجالسنا» انتفض منها.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا ابن أبي عمران، حدثنا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُعَاذٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَشْعَثَ، عَنْ الْحَسَنِ فِي قَوْلِهِ: «فَقِذْيَةٌ مِنْ صِيَاءٍ أَوْ مَدَقَّةً أَوْ شُلُوكًا» قال: إذا كان بالمُحْرِمِ أذى من رأسه، حَلَقَ وافْتَدَى بِأَيِّ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ شَاءَ، وَالصِّيَامُ عَشْرَةُ أَيَّامٍ، وَالصَّدَقَةُ عَلَى عَشْرَةِ مَسَاكِينَ، كُلُّ مَسْكِينٍ مَكُوكَيْنِ: مَكُوكًا مِنْ تَمْرٍ، وَمَكُوكًا مِنْ بُرٍّ، وَالنَّسْكُ شَاةٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ، عَنْ الْحَسَنِ وَعَكْرَمَةَ فِي قَوْلِهِ: «فَقِذْيَةٌ مِنْ صِيَاءٍ أَوْ مَدَقَّةً أَوْ شُلُوكًا» قال: إطعام عشرة مساكين. وهذا القولان من سعيد بن جبيرة، وعلقمة، والحسن، وعكرمة قولان غريبان فيهما نظر؛ لأنه قد ثَبَتَ السَّنَةُ فِي حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ بِصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، لَا عَشْرَةَ وَلَا سِتَّةَ، أَوْ إِطْعَامِ سِتَّةِ مَسَاكِينَ أَوْ نَسْكَ شَاةٍ، وَأَنَّ ذَلِكَ عَلَى التَّخْيِيرِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْقُرْآنِ. وَأَمَّا هَذَا التَّرْتِيبُ فَإِنَّمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي قَتْلِ الصَّيْدِ، كَمَا هُوَ نَصُّ الْقُرْآنِ. وَعَلَيْهِ أَجْمَعَ الْفُقَهَاءُ هُنَاكَ، بِخِلَافِ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ هُشَيْمٌ: أَخْبَرَنَا لَيْثٌ، عَنْ طَاوُسٍ: أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: مَا كَانَ مِنْ دَمٍ أَوْ طَعَامٍ فَبِمَكَّةَ، وَمَا كَانَ مِنْ صِيَامٍ فَحَيْثُ شَاءَ. وَكَذَا قَالَ عَطَاءٌ، وَمَجَاهِدٌ، وَالْحَسَنُ. وَقَالَ هُشَيْمٌ: أَخْبَرَنَا حُجَّاجٌ وَعَبْدُ الْمَلِكِ وَغَيْرُهُمَا عَنْ عَطَاءٍ: أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: مَا كَانَ مِنْ دَمٍ فَبِمَكَّةَ، وَمَا كَانَ مِنْ طَعَامٍ وَصِيَامٍ فَحَيْثُ شَاءَ. وَقَالَ هُشَيْمٌ: أَخْبَرَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ خَالِدٍ، أَخْبَرَنَا أَبُو أَسْمَاءَ مَوْلَى ابْنِ جَعْفَرٍ، قَالَ: حَجَّ عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وَمَعَهُ عَلِيُّ وَالحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ، فَارْتَحَلَ عَثْمَانُ. قَالَ أَبُو أَسْمَاءَ: وَكُنْتُ مَعَ ابْنِ جَعْفَرٍ، فِإِذَا نَحْنُ بِرَجُلٍ نَائِمٍ وَنَاقَتُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ، قَالَ: فَقُلْتُ: أَيُّهَا النَّوْمُ. فَاسْتَيْقِظَ، فِإِذَا الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ. قَالَ: فَحَمَلَهُ ابْنُ جَعْفَرٍ حَتَّى أَتَيْنَاهُ بِالسُّقْيَا قَالَ: فَأَرْسَلَ إِلَى عَلِيٍّ وَمَعَهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ عَمِيْسٍ. قَالَ: فَمَرْضَتَاهُ نَحْوًا مِنْ عِشْرِينَ لَيْلَةً. قَالَ: قَالَ عَلِيُّ لِلْحُسَيْنِ: مَا الَّذِي تَجِدُ؟ قَالَ: فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى رَأْسِهِ. قَالَ: فَأَمَرَ بِهِ عَلِيٌّ فَحَلَقَ رَأْسَهُ، ثُمَّ دَعَا بِبَذَنَةٍ فَنَحَرَهَا. فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ النَّاقَةُ عَنْ الْحَلْقِ فَفِيهِ أَنَّهُ نَحَرَهَا دُونَ مَكَّةَ. وَإِنْ كَانَتْ عَنِ التَّحَلُّلِ فَوَاضِحٌ. وَقَوْلُهُ: «فَإِذَا أَمِنْتُمْ مِّنْ تَمَنُّعٍ بِالْعَمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» أَيُّ: إِذَا تَمَكَّنْتُمْ مِنْ آدَاءِ الْمَنَاسِكِ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُتَمَتِّعًا بِالْعَمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ، وَهُوَ يَشْمَلُ مِنْ أَحْرَمَ بِهِمَا، أَوْ أَحْرَمَ بِالْعَمْرَةِ أَوَّلًا، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهَا أَحْرَمَ بِالْحَجِّ وَهَذَا هُوَ التَّمَتُّعُ الْخَاصُّ، وَهُوَ الْمَعْرُوفُ فِي كَلَامِ الْفُقَهَاءِ. وَالتَّمَتُّعُ الْعَامُّ يَشْمَلُ الْقَسْمَيْنِ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ، فَإِنَّ مِنَ الرُّوَاةِ مَنْ يَقُولُ: تَمَتُّعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. وَآخِرُ يَقُولُ: قَرَنَ. وَلَا خِلَافَ أَنَّهُ سَاقِ الْهَدْيِ. وَقَالَ تَعَالَى: «فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعَمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» أَيُّ: فَلْيَذْبَحْ مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ مِنَ الْهَدْيِ، وَأَقْلَهُ شَاةٍ، وَلَهُ أَنْ

يذبح البقر؛ لأن رسول الله ﷺ ذبح عن نسائه البقر. وقال الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ ذبح بقرة عن نسائه، وكن متمتعات. رواه أبو بكر بن مَزْدُوَيْه.

وفي هذا دليل على شرعية التمتع، كما جاء في الصحيحين عن عمران بن حصين قال: نزلت آية التمتع في كتاب الله، وفعلناها مع رسول الله ﷺ. ثم لم يُنزل قرآن يُحَرِّمُهُ، ولم يَنْهَ عنها، حتى مات. قال رجل برأيه ما شاء. قال البخاري: يقال: إنه عُمَرُ. وهذا الذي قاله البخاري قد جاء مصرحاً به أن عمر، رضي الله عنه، كان ينهى الناس عن التمتع، ويقول: إن نأخذ بكتاب الله فإن الله يأمر بالتمام. يعني قوله: ﴿وَأَيُّهَا الْمَلَأَ الْأَعْيُنَ وَالْعُرَىٰ بِلَهُ﴾. وفي نفس الأمر لم يكن عمر، رضي الله عنه، ينهى عنها محرماً لها، إنما كان ينهى عنها ليعتد الناس للبيت حاجين ومعتمرين، كما قد صرح به، رضي الله عنه. وقوله: ﴿فَنَ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي لَحَجٍّ وَسَعَوْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْكَ عَشْرَةَ كَاوِلَةٍ﴾. يقول تعالى: فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج، أي: في أيام المناسك. قال العلماء: والأولى أن يصومها قبل يوم عرفة في العشر، قاله عطاء. أو من حين يحرم، قاله ابن عباس وغيره، لقوله: ﴿فِي لَحَجٍّ﴾، ومنهم من يجوز صياهما من أول شوال، قاله طاوس ومجاهد وغير واحد. وجوز الشعبي صيام يوم عرفة وقبلة يومين، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، والسدي، وعطاء، وطاوس، والحكم، والحسن، وحماد، وإبراهيم، وأبو جعفر الباقر، والربيع، ومقاتل بن حَيَّان. وقال العوفي، عن ابن عباس: إذا لم يجد هدياً فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة، فإذا كان يوم عرفة الثالث فقد تم صومه وسبعة إذا رجع إلى أهله. وكذا رَوَى أبو إسحاق عن وبرة، عن ابن عمر، قال: يصوم يوماً قبل التروية، ويوم التروية، ويوم عرفة. وكذا رَوَى عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي أيضاً. فلو لم يصنمها أو بعضها قبل يوم العيد فهل يجوز أن يصومها في أيام التشريق؟ فيه قولان للعلماء، وهما للإمام الشافعي أيضاً، القديم منهما أنه يجوز له صيامها لقول عائشة وابن عمر في صحيح البخاري: لم يَرْتَحِصْ في أيام التشريق أن يصنم إلا لمن لا يجد الهدي. وكذا رواه مالك، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة. وعن سالم، عن ابن عمر إنما قالوا ذلك لعموم قوله: ﴿فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي لَحَجٍّ وَسَعَوْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْكَ عَشْرَةَ كَاوِلَةٍ﴾، وقد روي من غير وجه عنهما. ورواه سفيان، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي أنه كان يقول: من فاته صيام ثلاثة أيام في الحج صامهن أيام التشريق. وبهذا يقول عُبَيْد بن عُمَيْر الليثي، وعكرمة، والحسن البصري، وعروة بن الزبير؛ وإنما قالوا ذلك لعموم قوله: ﴿فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي لَحَجٍّ﴾. والجديد من القولين: أنه لا يجوز صيامها أيام التشريق، لما رواه مسلم عن نَبِيْئَةَ الهذلي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله».

وقوله: ﴿وَسَعَوْ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾: فيه قولان: أحدهما: إذا رجعت في الطريق. ولهذا قال مجاهد: هي رخصة إذا شاء صامها في الطريق. وكذا قال عطاء بن أبي رباح. والقول الثاني: إذا رجعت إلى أوطانكم؛ قال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن يحيى بن سعيد، عن سالم، سمعت ابن عمر قال: ﴿فَنَ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي لَحَجٍّ وَسَعَوْ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾. قال: إذا رجع إلى أهله. وكذا رَوَى عن سعيد بن جبيرة، وأبي العالية، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والزهري، والربيع بن أنس. وحكى على ذلك أبو جعفر بن جرير الإجماع. وقد قال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن عُقَيْل، عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله أن ابن عمر قال: تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى فساق معه الهدي من ذي الحليفة، وبدأ رسول الله ﷺ فأهل بالعمرة، ثم أهل بالحج، فتمتع الناس مع النبي ﷺ بالعمرة إلى الحج. فكان من الناس من أهدى فساق الهدي، ومنهم من لم يهد. فلما قدم النبي ﷺ مكة قال للناس: «من كان منكم أهدى فإنه لا يحل لشيء حرم منه حتى يقضي حجه، ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمروة، وليقتصر وليحلل، ثم ليهل بالحج، فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله». وذكر تمام الحديث. قال الزهري: وأخبرني عروة، عن عائشة بمثل ما أخبرني سالم عن أبيه. والحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهري، به. وقوله: ﴿إِلَيْكَ عَشْرَةَ كَاوِلَةٍ﴾: قيل: تأكيد، كما تقول العرب: رأيت بعيني، وسمعت بأذني، وكتبت بيدي. وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْمِئِنُّ بَطْنُ يَمَنِاتِهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقال: ﴿وَلَا تَحْطَأُ يَمِينُكَ﴾ [المنكبر: ٤٨]، وقال: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا عَشْرَ فَنَمَ يَمِينَتْ رَبِّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. وقيل: معنى «كَاوِلَةٍ»: الأُمُرُ بِإِكْمَالِهَا وَإِتْمَامِهَا، اختاره ابن جرير. وقيل: معنى «كَاوِلَةٍ»: أي: مُجَزَّة عن الهدي. قال هُشَيْم، عن عباد بن راشد، عن الحسن البصري، في قوله: ﴿إِلَيْكَ عَشْرَةَ كَاوِلَةٍ﴾: قال: من الهدي.

وقوله: ﴿وَلَا يَكُنْ أَهْلُهُ حَاوِيَةً حَاوِيَةً حَاوِيَةً﴾: قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل فيمن غني بقوله: ﴿لَمَ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاوِيَةً حَاوِيَةً حَاوِيَةً﴾ بعد إجماع جميعهم على أن أهل الحرم مغنيون به، وأنه لا متعة لهم، فقال بعضهم: عنى بذلك أهل

الحرم خاصة دون غيرهم. حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان - هو الثوري - قال: قال ابن عباس ومجاهد: هم أهل الحرم. وكذا روى ابن المبارك، عن الثوري، وزاد: الجماعة عليه. وقال قتادة: ذكر لنا أن ابن عباس كان يقول: يا أهل مكة، لا تمتعوا لكم، أحلت لأهل الأفاق وحُرِّمت عليكم، إنما يقطع أحداكم وادياً - أو قال: يجعل بينه وبين الحرم وادياً - ثم يُهَلُّ بعمره. وقال عبد الرزاق: حدثنا معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه قال: تمتع للناس - لا لأهل مكة - مَنْ لم يكن أهله من الحرم. وذلك قول الله ﷻ: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. قال: وبلغني عن ابن عباس مثل قول طاووس. وقال آخرون: هم أهل الحرم ومن بينه وبين المواقيت، كما قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن رجل، عن عطاء، قال: من كان أهله دون المواقيت، فهو كأهل مكة، لا يتمتع. وقال عبد الله بن المبارك، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن مكحول، في قوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: من كان دون الميقات. وقال ابن جُرَيْج عن عطاء: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: عرفة، ومَرَزَ، وعُزَنَ، وضُحْنان، والرجيع. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، سمعت الزهري يقول: من كان أهله على يوم أو نحوه تمتع. وفي رواية عنه: اليوم واليومين. واختار ابن جرير في ذلك مذهب الشافعي أنهم أهل الحرم، ومن كان منه على مسافة لا تقصر منها الصلاة؛ لأن من كان ذلك يُعَدُّ حاضراً لا مسافراً، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَقْبُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما أكرمكم وما نهاكم ﴿وَأَقْبُوا اللَّهَ شَيْدَ الْقَبَابِ﴾ أي: لمن خالف أمره، وارتكب ما عنه زجره. ﴿الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ فَمَنْ رَزَقَ فِيهِمْ لَحْمٌ فَلَا رَفَقَ وَلَا سُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَقَعَّلُوا مِنْ حَيْرٍ يَسْكُنَهُ اللَّهُ تَسْوَدُّوا فَلَمْ يَكُنْ حَيْرَ الزَّادِ الْقَوِيُّ وَالْقَوِيُّ يَتَأَدَّى الْأَلْتَبِ﴾.

اختلف أهل العربية في قوله: ﴿الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ﴾ فقال بعضهم: تقديره: الحج حَجٌّ أشهر معلومات، فعلى هذا التقدير يكون الإحرام بالحج فيها أكمل من الإحرام به فيما عداها، وإن كان ذلك صحيحاً والقول بصحة الإحرام بالحج في جميع السنة مذهب مالك، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وبه يقول إبراهيم النخعي، والثوري، والليث بن سعد. واحتج لهم بقوله تعالى: ﴿يَسْتَلْظَنُونَ أَنَّ الْأَهْلَ قُلُوبَهُمْ مَوْقِفٌ لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ﴾ [البقرة: ١٩٨] وبأنه أحد النسكين. فصح الإحرام به في جميع السنة كالعمرة.

ومذهب الشافعي، رحمه الله، إلى أنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره، فلو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه به، وهل ينعقد عُمره؟ فيه قولان عنه. والقول بأنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره مَرْوِيٌّ عن ابن عباس، وجابر، وبه يقول عطاء، وطاوس، ومجاهد، رحمهم الله، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ﴾، وظاهره التقدير الآخر الذي ذهب إليه النحاة، وهو أن: وقت الحج أشهر معلومات، فخصصه بها من بين سائر شهور السنة، فدلَّ على أنه لا يصح قبلها، كميقات الصلاة. قال الشافعي، رحمه الله: أخبرنا مسلم بن خالد، عن ابن جريج، أخبرني عُمر بن عطاء، عن عكرمة، عن ابن عباس، أنه قال: لا ينبغي لأحد أن يُحْرِمَ بالحج إلا في شهور الحج، من أجل قول الله: ﴿الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ﴾. وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن يحيى بن مالك السوسي، عن حجاج بن محمد الأعمور، عن ابن جريج، به. ورواه ابن مَرْدُويه في تفسيره من طريقين، عن حجاج بن أرطاة، عن الحكم بن عُثَيِّبة، عن مِقْسَم، عن ابن عباس أنه قال: من السنة ألا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج. وقال ابن خزيمة في صحيحه: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن شعبة، عن الحكم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس، قال: لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج، فإنه من سنة الحج أن يحرم بالحج في أشهر الحج. وهذا إسناد صحيح، وقول الصحابي: «من السنة كذا» في حكم المرفوع عند الأكثرين، ولا سيما قول ابن عباس تفسيراً للقرآن، وهو ترجمانه. وقد ورد فيه حديث مرفوع، قال ابن مردويه: حدثنا عبد الباقي بن قانع، حدثنا الحسن بن المُثَنَّى، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا سفيان، عن أبي الزبير، عن جابر، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في أشهر الحج». وإسناده لا بأس به. لكن رواه الشافعي، والبيهقي من طُرُق، عن ابن جريج، عن أبي الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يسأل: أيُّهَلُّ بالحج قبل أشهر الحج؟ فقال: لا. وهذا الموقوف أصح وأثبت من المرفوع، ويبقى حينئذ مذهب صحابي، يتقوى بقول ابن عباس: «من السنة أن لا يحرم بالحج إلا في أشهره». والله أعلم. وقوله: ﴿أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ﴾ قال البخاري: قال ابن عمر: هي شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة. وهذا الذي علَّقه البخاري عنه بصيغة الجزم رواه ابن جرير موصولاً: حدثنا أحمد بن حازم بن أبي عُزْزَةَ، حدثنا أبو نعيم، حدثنا ورقاء، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر: ﴿الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ﴾ قال: شوال، وذو القعدة وعشر من ذي الحجة. إسناد صحيح، وقد رواه الحاكم أيضاً في مستدركه، عن الأصم، عن الحسن بن علي بن عفان، عن عبد الله بن نمير، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر - فذكره وقال: على شرط الشيخين.

قلت: وهو مزوي عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وعبد الله بن الزبير، وابن عباس، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وإبراهيم النخعي، والشعبي، والحسن، وابن سيرين، ومكحول، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان. وهو مذهب الشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، وأبي يوسف، وأبي ثور، رحمهم الله. واختار هذا القول ابن جرير، قال: وصح إطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث للتغليب، كما تقول العرب: «فُزِرَتِ العام، ورأيتُ اليوم» وإنما وقع ذلك في بعض العام واليوم؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ تَجَلَّىٰ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] وإنما تعجل في يوم ونصف. وقال الإمام مالك بن أنس والشافعي في القديم: هي: شوال وذو القعدة وذو الحجة بكماله. وهو رواية عن ابن عمر أيضاً؛ قال ابن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا شريك، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: شوال وذو القعدة وذو الحجة. وقال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني ابن جريج، قال: قلت لنافع: أسمعت عبد الله بن عمر يسمي شهور الحج؟ قال: نعم، كان عبد الله يسمي: «شوال وذو القعدة وذو الحجة». قال ابن جريج: وقال ذلك ابن شهاب، وعطاء، وجابر بن عبد الله صاحب النبي ﷺ، وهذا إسناد صحيح إلى ابن جريج. وقد حكي هذا أيضاً عن طاوس، ومجاهد، وعروة بن الزبير، والربيع بن أنس، وقتادة. وجاء فيه حديث مرفوع، ولكنه موضوع، رواه الحافظ ابن مردويه، من طريق حصين بن مخارق. وهو متهم بالوضع - عن يونس بن عبيد، عن شهر بن حوشب، عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: «الحج أشهر معلومات: شوال وذو القعدة وذو الحجة». وهذا كما رأيت لا يصح رفعه، والله أعلم. وفائدة مذهب مالك أنه إلى آخر ذي الحجة، بمعنى أنه مختص بالحج، فيكره الاعتمار في بقية ذي الحجة، لا أنه يصح الحج بعد ليلة النحر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، قال: قال عبد الله: الحج أشهر معلومات، ليس فيها عمرة. وهذا إسناد صحيح. قال ابن جرير: إنما أراد من ذهب إلى أن أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة أن هذه الأشهر ليست أشهر العمرة، إنما هي للحج، وإن كان عمل الحج قد انقضى بانقضاء أيام منى، كما قال محمد بن سيرين: ما أحد من أهل العلم يشك في أن عمرة في غير أشهر الحج أفضل من عمرة في أشهر الحج. وقال ابن عون: سألت القاسم بن محمد، عن العمرة في أشهر الحج، فقال: كانوا لا يرونها تامة. قلت: وقد ثبت عن عمر وعثمان، رضي الله عنهما، أنهما كانا يحبان الاعتمار في غير أشهر الحج، وينهيان عن ذلك في أشهر الحج، والله أعلم. وقوله: ﴿فَمَنْ رَمَىٰ فِيهِمْ الْحَجَّ﴾ أي: أوجب بإحرامه حجاً. فيه دلالة على لزوم الإحرام بالحج والمضي فيه. قال ابن جرير: أجمعوا على أن المراد من الفرض ههنا الإيجاب والإلزام. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَمَنْ رَمَىٰ فِيهِمْ الْحَجَّ﴾ يقول: من أحرم بحج أو عمرة. وقال عطاء: الفرض الإحرام. وكذا قال إبراهيم، والضحاك، وغيرهم. وقال ابن جريج: أخبرني عمر بن عطاء، عن عكرمة، عن ابن عباس: أنه قال: ﴿فَمَنْ رَمَىٰ فِيهِمْ الْحَجَّ﴾: فلا ينبغي أن يلبي بالحج ثم يقيم بأرض. قال ابن أبي حاتم: وزوي عن ابن مسعود، وابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد، وعطاء، وإبراهيم النخعي، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، وسفيان الثوري، والزهري، ومقاتل بن حيان - نحو ذلك. وقال طاوس، والقاسم بن محمد: هو التلبية. وقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أي: من أحرم بالحج أو العمرة، فليجتنب الرفث، وهو الجماع، كما قال تعالى: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الْفَجْرِ الرَّفَثُ إِلَيْنَا سَكِينٌ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وكذلك يحرم تعاطي دواعيه من المباشرة والتقبييل ونحو ذلك، وكذا التكلم به بحضرة النساء. قال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يونس: أن نافعاً أخبره: أن عبد الله بن عمر كان يقول: الرفث إتيان النساء، والتكلم بذلك: الرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم. قال ابن وهب: وأخبرني أبو صخر، عن محمد بن كعب، مثله. قال ابن جرير: وحدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن رجل، عن أبي العالية الرياحي، عن ابن عباس: أنه كان يحدو - وهو محرم - وهو يقول:

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا مَيْسَا إِنْ يَضُدُّكَ الطَّيْرُ نَلَّ لَمَيْسَا

قال أبو العالية فقلت: تكلم بالرفث وأنت محرم؟! قال: إنما الرفث ما قبل عند النساء. ورواه الأعمش، عن زياد بن حصين، عن أبي العالية، عن ابن عباس، فذكره. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا ابن أبي عدي، عن عون، حدثني زياد بن حصين، حدثني أبي حصين بن قيس، قال: أضعدت مع ابن عباس في الحاج، وكنت خليلاً له، فلما كان بعد إحرامنا قال ابن عباس: فأخذ بذنب بعيره فجعل يلويه وهو يرتجز، ويقول:

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا مَيْسَا إِنْ يَضُدُّكَ الطَّيْرُ نَلَّ لَمَيْسَا

قال: فقلت: أترفت وأنت محرم؟ فقال: إنما الرفت ما قيل عند النساء. وقال عبد الله بن طاوس، عن أبيه: سألت ابن عباس عن قول الله تعالى: ﴿وَلَا رَفَثَ وَلَا سُوءَ﴾ قال: الرفت التعريض بذكر الجماع، وهي العزابة في كلام العرب، وهو أدنى الرفت. وقال عطاء بن أبي رباح: الرفت الجماع وما دونه من قول الفحش، وكذا قال عمرو بن دينار. وقال عطاء: كانوا يكرهون العزابة، وهو التعريض بذكر الجماع وهو مخرم. وقال طاوس: هو أن تقول للمرأة: إذا خللت أصبتك. وكذا قال أبو العالية. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الرفت: غشيان النساء والقُبْل والغَمَز، وأن يُعَرَّضَ لها بالفحش من الكلام، ونحو ذلك. وقال ابن عباس أيضاً وابن عمر: الرفت: غشيان النساء. وكذا قال سعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد، وإبراهيم، وأبو العالية، وعطاء، ومكحول، وعطاء بن يسار، وعطية، وإبراهيم النخعي، والربيع، والزهري، والسدي، ومالك بن أنس، ومقاتل بن حيان، وعبد الكريم بن مالك، والحسن، وقتادة والضحاك، وغيرهم. وقوله: ﴿وَلَا سُوءَ﴾ قال مفسّم وغير واحد، عن ابن عباس: هي المعاصي. وكذا قال عطاء، ومجاهد، وطاوس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب، والحسن، وقتادة، وإبراهيم النخعي، والزهري، ومكحول، وابن أبان، والربيع بن أنس، وعطاء بن يسار، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان. وقال محمد بن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر قال: الفسوق: ما أصيب من معاصي الله به صنيذ أو غيره. وكذا روى ابن وهب، عن يونس، عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يقول: الفسوق إتيان معاصي الله في الحرم. وقال آخرون: الفسوق ههنا السباب، قاله ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، ومجاهد، والسدي، وإبراهيم، والحسن. وقد يتمسك لهؤلاء بما ثبت في الصحيح: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر». ولهذا رواه ههنا الحبر أبو محمد بن أبي حاتم، رحمه الله، من حديث سفيان الثوري عن يزيد، عن أبي وائل، عن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»، وروى من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه، ومن حديث أبي إسحاق عن محمد بن سعد عن أبيه. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الفسوق ههنا: الذبح للأصنام. قال الله تعالى: ﴿أَوْ يَشَاقُ أَوْلِيَّ لَيْعَنِ اللَّهِ رَبُّهُ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وقال الضحاك: الفسوق: التنايز بالألقاب. والذين قالوا: الفسوق ههنا هو جميع المعاصي، معهم الصواب، كما نهى تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم، وإن كان في جميع السنة منهيًا عنه، إلا أنه في الأشهر الحرم أكد؛ ولهذا قال: ﴿يَنْهَى أَرْبَعَهُ حُرْمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْفَمُوا فَلَا تَقْلِبُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [النوبة: ٣٦]، وقال في الحرم: ﴿وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْعِصْيَانِ يُظَلِّمْ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]. واختار ابن جرير أن الفسوق ههنا: هو ارتكاب ما نهى عنه في الإحرام، من قتل الصيد، وخلق الشعر، وقلم الأظفار، ونحو ذلك، كما تقدم عن ابن عمر. وما ذكرناه أولى، والله أعلم. وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه». وقوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ فيه قولان: أحدهما: ولا مجادلة في وقت الحج وفي مناسكه، وقد بين الله أتم بيان ووضحه أكمل إيضاح. كما قال وكيع، عن العلاء بن عبد الكريم: سمعت مجاهداً يقول: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قد بين الله أشهر الحج، فليس فيه جدال بين الناس. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قال: لا شهر يُنسأ، ولا جدال في الحج، قد تبين، ثم ذكر كيفية ما كان المشركون يصنعون في النسب الذي ذمهم الله به. وقال الثوري، عن عبد العزيز بن ربيعة، عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قال: قد استقام الحج، فلا جدال فيه. وكذا قال السدي. وقال هشيم: أخبرنا حجاج، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قال: المرء في الحج.

وقال عبد الله بن وهب: قال مالك: قال الله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ فالجدال في الحج - والله أعلم - أن قريشاً كانت تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة، وكانت العرب، وغيرهم يقفون بعرقة وكانوا يتجادلون، يقول هؤلاء: نحن أصوب. ويقول هؤلاء: نحن أصوب. فهذا فيما نرى، والله أعلم. وقال ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كانوا يقفون مواقف مختلفة يتجادلون، كلهم يدعي أن موقفه موقف إبراهيم فقطعه الله حين أعلم نبيه بالمناسك. وقال ابن وهب، عن أبي صخر، عن محمد بن كعب، قال: كانت قريش إذا اجتمعت بمنى قال هؤلاء: حجنا أتم من حجكم. وقال هؤلاء: حجنا أتم من حجكم. وقال حماد بن سلمة عن جبر بن حبيب، عن القاسم بن محمد أنه قال: الجدال في الحج أن يقول بعضهم: الحج غداً. ويقول بعضهم: اليوم. وقد اختار ابن جرير مضمون هذه الأقوال، وهو قطع التنازع في مناسك الحج. والقول الثاني: أن المراد بالجدال ههنا: المخاصمة. قال ابن جرير: حدثنا عبد الحميد بن بيان، حدثنا إسحاق، عن شريك، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله - هو ابن مسعود - في قوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾. قال: أن تماري صاحبك حتى تغضبه. وبهذا الإسناد إلى أبي إسحاق، عن التميمي: سألت ابن عباس عن «الجدال» قال: المرء، تماري صاحبك حتى تغضبه. وكذا

روى مِقْسَم والضحاك، عن ابن عباس. وكذا قال أبو العالية، وعطاء ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وجابر بن زيد، وعطاء الخراساني، ومكحول، وعمرو بن دينار، والسدي، والضحاك، والريبع بن أنس، وإبراهيم النخعي، وعطاء بن يسار، والحسن، وقتادة، والزهري، ومقاتل بن حيان. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قال: الجدل: المراء والملاحة، حتى تغضب أخاك وصاحبك، فهى الله عن ذلك. وقال إبراهيم النخعي: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قال: كانوا يكرهون الجدل. وقال محمد بن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر، قال: الجدل: السباب والمنازعة. وكذا روى ابن وهب، عن يونس، عن نافع: أن ابن عمر كان يقول: الجدل في الحج: السباب، والمراء، والخصومات، وقال ابن أبي حاتم: وروى عن ابن الزبير، والحسن، وإبراهيم، وطاوس، ومحمد بن كعب، قالوا: الجدل المراء. وقال عبد الله بن المبارك، عن يحيى بن بشر، عن عكرمة: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾: والجدال الغضب، أن تغضب عليك مسلماً، إلا أن تستعقب مملوكاً فتغضبه من غير أن تضربه، فلا بأس عليك، إن شاء الله.

قلت: ولو ضربه لكان جائزاً سائغاً. والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن إدريس، حدثنا محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه: أن أسماء بنت أبي بكر قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ حُجَّاجاً، حتى إذا كنا بالعَرَجِ نَزَلَ رسول الله ﷺ، فجلست عائشة إلى جنب رسول الله ﷺ، وجلست إلى جنب أبي. وكانت زَمَالَةَ أبي بكر وزَمَالَةَ رسول الله ﷺ واحدة مع غلام أبي بكر، فجلس أبو بكر ينتظره إلى أن يطلع عليه، فأطلع وليس معه بعيره، فقال: أين بعيرك؟ فقال: أضلته البارحة. فقال أبو بكر: بعير واحد تَصْلُهُ؟ فطلق يضربه، ورسول الله ﷺ يتسم ويقول: «انظروا إلى هذا الْمُخْرِمِ ما يصنع؟». وهكذا أخرجه أبو داود، وابن ماجه، من حديث ابن إسحاق. ومن هذا الحديث حكى بعضهم عن بعض السلف أنه قال: من تمام الحج ضَرْبُ الجمال. ولكن يستفاد من قول النبي ﷺ عن أبي بكر: «انظروا إلى هذا الْمُخْرِمِ ما يصنع؟» - كهيئة الإنكار اللطيف - أن الأولى ترك ذلك، والله أعلم. وقد قال الإمام عبد بن حميد في مسنده: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن موسى بن عبيدة، عن أخيه عبد الله بن عبيدة، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من قَضَى نُسْكَه وسَلِم المسلمون من لسانه ويده، غفر له ما تقدم من ذنبه». وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ حَيْرٍ يَسْلَمَهُ اللَّهُ﴾: لما نهاهم عن إتيان القبيح قولاً وفعلًا، حَثُّهم على فعل الجميل، وأخبرهم أنه عالم به، وسيجزئهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة. وقوله: ﴿وَتَسْكُودُوا فَاِنَّكُمْ حَيْرَ الْأَزْوَاقِ النَّفَقَاءِ﴾: قال العوفي، عن ابن عباس: كان أناس يخرجون من أهلهم ليست معهم أزودة، يقولون: نُحْجُ بيت الله ولا يطعمنا. فقال الله: تزودوا ما يكف وجوهكم عن الناس. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة: قال: إن ناساً كانوا يحجون بغير زاد، فأنزل الله: ﴿وَتَسْكُودُوا فَاِنَّكُمْ حَيْرَ الْأَزْوَاقِ النَّفَقَاءِ﴾. وكذا رواه ابن جرير عن عمرو - وهو القلاس - عن ابن عيينة. قال ابن أبي حاتم: وقد روى هذا الحديث ورفاه، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس. قال: وما يرويه ابن عيينة أصح. قلت: قد رواه النسائي، عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومي، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان ناس يحجون بغير زاد، فأنزل الله: ﴿وَتَسْكُودُوا فَاِنَّكُمْ حَيْرَ الْأَزْوَاقِ النَّفَقَاءِ﴾. وأما حديث ورقاء فأخرجه البخاري، عن يحيى بن بشر، عن شِيبَةَ. وأخرجه أبو داود، عن أبي مسعود أحمد بن الفرات الرازي، ومحمد بن عبد الله المخزومي، عن شِيبَةَ، عن ورقاء، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان أهل اليمن يَحْجُونَ ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون. فأنزل الله: ﴿وَتَسْكُودُوا فَاِنَّكُمْ حَيْرَ الْأَزْوَاقِ النَّفَقَاءِ﴾. ورواه عبد بن حميد في تفسيره، عن شِيبَةَ به. ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث شِيبَةَ، به. وروى ابن جرير وابن مَرْزُوق من حديث عَمْرُو بن عبد الغفار عن محمد بن سوقة، عن نافع، عن ابن عمر، قال: كانوا إذا أحرموا - ومعهم أزوادهم - رموا بها، واستأنفوا زاداً آخر، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَسْكُودُوا فَاِنَّكُمْ حَيْرَ الْأَزْوَاقِ النَّفَقَاءِ﴾ فَنُهِوا عن ذلك، وأُمِرُوا أن يتزودوا الكعك والدقيق والسويق. وكذا قال ابن الزبير، وأبو العالية، ومجاهد، وعكرمة، والشعبي، والنخعي، وسالم بن عبد الله، وعطاء الخراساني، وقتادة، والريبع بن أنس، ومقاتل بن حيان. وقال سعيد بن جبير: فتزودوا الدقيق والسويق والكعك. وقال وكيع بن الجراح في تفسيره: حدثنا سفيان، عن محمد بن سوقة، عن سعيد بن جبير: ﴿وَتَسْكُودُوا﴾ قال: الخشكنانج والسويق. وقال وكيع أيضاً: حدثنا إبراهيم المكي، عن ابن أبي نجيع، عن مجاهد، عن ابن عمر، قال: إن من كَرَم الرجل طيب زاده في السفر. وزاد فيه حماد بن سلمة، عن أبي ريحانة أن ابن عمر كان يشترط على من صحبه الجَوْزَةَ. وقوله: ﴿وَتَسْكُودُوا فَاِنَّكُمْ حَيْرَ الْأَزْوَاقِ النَّفَقَاءِ﴾: لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى

إليها، كما قال: ﴿وَرَبِّمَآ وَبَآشُ الْتَقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]. لما ذكر اللباس الحسي تَبَّه مرشداً إلى اللباس المعنوي، وهو الخشوع، والطاعة، والتقوى، وذكر أنه خير من هذا، وأنفع. قال عطاء الخراساني في قوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّثْرَ الْآرَاؤِ الْتَقْوَىٰ﴾ يعني: زاد الآخرة. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبدان، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا مروان بن معاوية، عن إسماعيل عن قيس، عن جرير بن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «من يتزود في الدنيا يَنْفَعَهُ في الآخرة». وقال مقاتل بن حيان: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَكَزَّوْذُوا﴾ قام رجل من فقهاء المسلمين فقال: يا رسول الله، ما نجد زاداً نتزوده. فقال رسول الله ﷺ: «تزود ما تكف به وجهك عن الناس، وخير ما تزودتم التقوى». رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَأَتَّقُوا يَتَأُولَى الْأَتَّقَى﴾ يقول: واتقوا عقابي، ونكالي، وعذابي لمن خالفني ولم يأتمر بأمرى، يا ذوي العقول والأفهام.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِّنْ عَرَقْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّآلِينَ﴾.

قال البخاري: حدثنا محمد، أخبرني ابن عيينة، عن عمرو، عن ابن عباس، قال: كانت عكاظ ومَجَنَّة، وذو المجاز أسواق الجاهلية، فتأتموا أن يتجروا في المواسم، فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في مواسم الحج. وهكذا رواه عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وغير واحد، عن سفيان بن عيينة، به. ولبيعضهم: فلما جاء الإسلام تأتموا أن يتجروا، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله هذه الآية. وكذلك رواه ابن جريج، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس، قال: كان متجر الناس في الجاهلية عكاظ ومَجَنَّة وذو المجاز، فلما كان الإسلام كأنهم كرهوا ذلك، حتى نزلت هذه الآية. وروى أبو داود، وغيره، من حديث يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: كانوا يَتَّقُونَ البيوع والتجارة في الموسم، والحج، يقولون: أيام ذكر، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا حجاج، عن عطاء، عن ابن عباس: أنه قال: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج». وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: لا حرج عليكم في الشراء والبيع قبل الإحرام وبعده. وهكذا زوى العوفي، عن ابن عباس. وقال وَكِيعٌ: حدثنا طلحة بن عمرو الحضرمي، عن عطاء، عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج». وقال عبد الرزاق: عن ابن عيينة، عن عبيد الله بن أبي يزيد: سمعت ابن الزبير يقول: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج». ورواه عبد بن حميد، عن محمد بن الفضل، عن حماد بن زيد، عن عبيد الله بن أبي يزيد، سمعت ابن الزبير يقرأ - فذكر مثله سواء. وهكذا فسرها مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، ومنصور بن المعتمر، وقتادة، وإبراهيم النخعي، والربيع بن أنس، وغيرهم.

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا شُبابَةُ بن سَوَّار، حدثنا شُعبة، عن أبي أمية قال: سمعت ابن عمر - وسُئِلَ عن الرجل يَحْتَجُّ ومعه تجارة - فقرأ ابن عمر: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾. وهذا موقف، وهو قوي جيد، وقد روي مرفوعاً، قال أحمد: حدثنا أسباط، حدثنا الحسن بن عمرو الفُتَيْمِي، عن أبي أمامة التيمي، قال: قلت لابن عمر: إنا نُكْرَى، فهل لنا من حج، قال: أليس تطوفون بالبيت، وتأتون المَعْرَفَ، وترمون الجمار، وتحلقون رؤوسكم؟ قال: قلنا: بلى. فقال ابن عمر: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني فلم يجبه، حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾، فدعاه النبي ﷺ، فقال: «أنتم حجاج». وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن العلاء بن المسيب، عن رجل من بني تيم الله قال: جاء رَجُلٌ إلى عبد الله بن عمر، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إنا قوم نُكْرَى، ويزعمون أنه ليس لنا حج. قال: ألسنتم تحرمون كما يحرمون، وتطوفون كما يطوفون، وترمون كما يرمون؟ قال: بلى. قال: فأنت حاج. ثم قال ابن عمر: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فسأله عما سألت عنه، فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾. ورواه عبد بن حميد في تفسيره، عن عبد الرزاق به. وهكذا روى هذا الحديث أبو حذيفة، عن الثوري، مرفوعاً. وهكذا روي من غير هذا الوجه مرفوعاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عباد بن العوام، عن العلاء بن المسيب، عن أبي أمامة التيمي، قال: قلت لابن عمر: إنا أناس نُكْرَى في هذا الوجه إلى مكة، وإن ناساً يزعمون أنه لا حَجَّ لنا، فهل ترى لنا حجاً؟ قال: ألسنتم تحرمون، وتطوفون بالبيت، وتقضون المناسك؟ قال: قلت: بلى. قال: فأنتم حجاج. ثم قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن مثل الذي سألت، فلم يَدْر ما يعود عليه - أو قال: فلم يَدْرْ عليه شيئاً - حتى نزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فدعا الرجل، فتلاها عليه، وقال: «أنتم حجاج». وكذا رواه مسعود بن سعد، وعبد الواحد بن زياد،

وشريك القاضي، عن العلاء بن المسيب به مرفوعاً. وقال ابن جرير: حدثني طليق بن محمد الواسطي، حدثنا أسباط - هو ابن محمد - أخبرنا الحسن بن عمرو - هو الفقيهي - عن أبي أمامة التيمي. قال: قلت لابن عمر: إنا قوم نُكْزَى، فهل لنا من حج؟ فقال: ليس تطوفون بالبيت، وتأتون المَعْرَفَ، وترمون الجمار، وتحلقون رؤوسكم؟ قلنا: بلى. قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فسأله عن الذي سألتني عنه، فلم يدر ما يقول له، حتى نزل جبريل، عليه السلام، بهذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إلى آخر الآية، فقال النبي ﷺ: «أنتم حجاج». وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا منذل، عن عبد الرحمن بن المهاجر، عن أبي صالح مولى عمر، قال: قلت: يا أمير المؤمنين، كنتم تتجرون في الحج؟ قال: وهل كانت معاشهم إلا في الحج؟ وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَقْبَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْأَقْصَى﴾. إنما صَرَفَ «عرفات» وإن كان علماً على مؤنث؛ لأنه في الأصل جمع كمسلمات ومؤمنات، سمي به بقعة معينة، فروع في الأصل، فصرف. اختاره ابن جرير. وعرفة: موضع الموقف في الحج، وهي عمدة أفعال الحج؛ ولهذا روى الإمام أحمد، وأهل السنن، بإسناد صحيح، عن الثوري، عن بكير بن عطاء، عن عبد الرحمن بن يغمر الديلي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحج عرفات - ثلاثاً - فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر، فقد أدرك. وأيام منى ثلاثة، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه».

وقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر؛ لأن النبي ﷺ وقف في حجة الوداع، بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس، وقال: «لنأخذوا عني مناسككم». وقال في هذا الحديث: «فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك» وهذا مذهب مالك، وأبي حنيفة، والشافعي رحمهم الله. وذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة. واحتجوا بحديث الشعبي، عن عروة بن مضر بن حارثة بن لام الطائي قال: أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة، حين خرج إلى الصلاة، فقلت: يا رسول الله، إني جئت من جبلتي طيء، أكللت راحتي، وأتبت نفسي، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه، فهل لي من حج؟ فقال رسول الله ﷺ: «من شهد صلاتنا هذه، فوقف معنا حتى ندفع، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً، فقد تم حجه، وقضى نقته». رواه الإمام أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذي.

ثم قيل: إنما سميت عرفات لما رواه عبد الرزاق: أخبرني ابن جريج قال: قال ابن المسيب: قال علي بن أبي طالب: بعث الله جبريل، عليه السلام، إلى إبراهيم، عليه السلام، فحج به، حتى إذا أتى عرفة قال: عرفت، وكان قد أتاه مرة قبل ذلك، فلذلك سميت عرفة. وقال ابن المبارك، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء، قال: إنما سميت عرفة، أن جبريل كان يري إبراهيم المناسك، فيقول: عَرَفْتُ عَرَفْتُ. فسمي «عرفات». وروي نحوه عن ابن عباس، وابن عمر وأبي مجلز، فانه أعلم. وتسمى عرفات المشعر الحلال، والمشعر الأقصى، وإلال - على وزن هلال - ويقال للجبل في وسطها: جَبَلُ الرحمة. قال أبو طالب في قصيدته المشهورة:

وبالْمَشْعَرِ الْأَقْصَى إِذَا قَصَدُوا لَهُ إِلالَ إِلَى تِلْكَ الشُّجَرِ الْقَوَابِلِ

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا حماد بن الحسن بن عتبة، حدثنا أبو عامر، عن زمعة - هو ابن صالح - عن سلمة - هو ابن وهزام - عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة حتى إذا كانت الشمس على رؤوس الجبال، كأنها العمائم على رؤوس الرجال، دفعوا، فأخبر رسول الله ﷺ الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس. ورواه ابن مَرْزُويه، من حديث زمعة بن صالح، وزاد: ثم وقف بالمزدلفة، وصلى الفجر بقلنس، حتى إذا أسفر كل شيء، وكان في الوقت الآخر، دفع. وهذا حسن الإسناد. وقال ابن جريج، عن محمد بن قيس، عن المشور بن مخزومة قال: حَطَبْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وهو بعرفات، فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: «أما بعد - وكان إذا خطب خطبة قال: أما بعد - فإن هذا اليوم الحج الأكبر، ألا وإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون في هذا اليوم قبل أن تغيب الشمس، إذا كانت الشمس في رؤوس الجبال، كأنها عمائم الرجال في وجوها، وإنما ندفع بعد أن تغيب الشمس، وكانوا يدفعون من المشعر الحرام بعد أن تطلع الشمس، إذا كانت الشمس في رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوها وإنما ندفع قبل أن تطلع الشمس، مُخَالَفًا هَذَا الَّذِي أَهْلُ الشَّرْكِ». هكذا رواه ابن مَرْزُويه وهذا لفظه، والحاكم في مستدركه، كلاهما من حديث عبد الرحمن بن المبارك العيشي، عن عبد الوارث بن سعيد، عن ابن جريج، به. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. قال: وقد صح وثبت بما ذكرناه سماع المشور من رسول الله ﷺ، لا كما يتوهمه رعا أصحابنا أنه ممن له رؤية بلا سماع. وقال وكيع، عن شعبة، عن إسماعيل بن رجاء الزبيدي، عن المعمر بن سويد، قال: رأيت عمر، رضي الله عنه، حين دفع من عرفة، كاني أنظر إليه رجلاً أصلع على بعير

له، يُوضع، وهو يقول: إنا وجدنا الإفاضة هي الإيضاح. وفي حديث جابر بن عبد الله الطويل، الذي في صحيح مسلم، قال فيه: فلم يزل واقفاً - يعني بعرفة - حتى غربت الشمس، وذهبت الصُفرة قليلاً، حتى غاب القُرضُ، وأُردفَ أسامة خلفه، ودفعَ رسول الله ﷺ وقد شَتَقَ للقصواء الزمام، حتى إنَّ رأسها ليصيب مَؤَرَك رحله، ويقول بيده اليميني: «أيها الناس، السكينة السكينة». كلما أتى جبلاً من الجبال أَرَخَى لها قليلاً حتى تصعد، حتى أتى المُزْدَلِفَةَ فصلّى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يُسَبِّح بينهما شيئاً، ثم اضطجع حتى طلع الفجرُ فصلّى الفجر حين تَبَيَّنَ له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعا الله وكبره وهللّه ووحدّه، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس. وفي الصحيح، عن أسامة بن زيد، أنه سُئِلَ كيف كان يسير رسول الله ﷺ حين دَفَعَ؟ قال: «كان يسير العتق، فإذا وجد فَجوة نص». والعتق: هو انبساط السير، والنَّص، فوقه.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو محمد ابن بنت الشافعي، فيما كَتَبَ إليّ، عن أبيه أو عمه، عن سفيان بن عيينة قوله: ﴿كَأِذَا أَنْقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ وهي الصلاتين جميعاً. وقال أبو إسحاق السبيعي، عن عمرو بن ميمون: سألت عبد الله بن عمرو عن المشعر الحرام، فسكت حتى إذا هبطت أيدي رواحلنا بالمزدلفة قال: أين السائل عن المشعر الحرام؟ هذا المشعر الحرام. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، عن سالم قال: قال ابن عمر: المشعر الحرام المزدلفة كلها. وقال مُشَيْم، عن حجاج، عن نافع، عن ابن عمر: أنه سئل عن قوله: ﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ قال: فقال: هو الجبل وما حوله. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن المغيرة، عن إبراهيم قال: رَأَى ابن عمر يزدهمون على قَرْح، فقال: علام يزدهم هؤلاء؟ كل ما ههنا مشعر. وروي عن ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، ومجاهد، والسدي، والريعي بن أنس، والحسن، وقتادة أنهم قالوا: هو ما بين الجبلين. وقال ابن جريج: قلت لعطاء: أين المزدلفة؟ قال: إذا أَنْقَضْتَ من مَازَمِي عرفة فذلك إلى مُحَسَّر. قال: وليس المَازَمَانِ مَازَماً عرفة من المزدلفة، ولكن مَفَاضَاهُمَا. قال: فَفَقَّ بينهما إن شئت، قال: وأحب أن تَقِفَ دون قَرْح، هَلَمْ لينا من أجل طريق الناس. قلت: والمشاعر هي المعالم الظاهرة، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام؛ لأنها داخل الحرم، وهل الوقوف بها ركن في الحج لا يصح إلا به، كما ذهب إليه طائفة من السلف، وبعض أصحاب الشافعي، منهم: القفال، وابن خُزَيْمَة، لحديث عُرْوَة بن مَضْرُس؟ أو واجب، كما هو أحد قولي الشافعي يَجْبَرُ بدم؟ أو مستحب لا يجب بتركه شيء كما هو القول الآخر؟ في ذلك ثلاثة أقوال للعلماء، لبسطها موضع آخر غير هذا، والله أعلم.

وقال عبد الله بن المبارك، عن سفيان الثوري، عن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ قال: «عَرَفَةُ كلها موقف، وارفَعُوا عن عُرْنَةِ، وجمع كلها موقف إلا مُحَسَّرًا». هذا حديث مرسل. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا سعيد بن عبد العزيز، حدثني سليمان بن موسى، عن جبيرة بن مطعم، عن النبي ﷺ، قال: «كل عرفات موقف، وارفَعُوا عن عُرْنَةِ. وكل مزدلفة موقف وارفَعُوا عن مُحَسَّر، وكل فجاج مكة مَنَحَر، وكل أيام التشريق ذبَح». وهذا أيضاً منقطع، فإن سليمان بن موسى هذا - وهو الأشدق - لم يدرك جُبَيْر بن مطعم. ولكن رواه الوليد بن مسلم، وسويد بن عبد العزيز، عن سعيد بن عبد العزيز، عن سليمان، فقال الوليد: عن ابن الجبيرة بن مطعم، عن أبيه. وقال سويد: عن نافع بن جبيرة بن مطعم، عن أبيه، عن النبي ﷺ، فذكره، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْكَافِرِينَ﴾: تنبيه لهم على ما أَنْعَمَ به عليهم، من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج، على ما كان عليه إبراهيم الخليل، عليه السلام؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْكَافِرِينَ﴾: قيل: من قبل هذا الهدى، وقيل القرآن، وقيل الرسول. والكل متقارب، ومتلازم، وصحيح.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ الْكَافِرُ وَأَسْتَفِيزُوا اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

«ثم» ههنا لعطف خبر على خبر وترتيبه عليه، كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يَدْفَعَ إلى المزدلفة، ليذكر الله عند المشعر الحرام، وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات، كما كان جمهور الناس يصنعون، يقفون بها إلا قريشاً، فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم، فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الجبل، ويقولون: نحن أهل الله في بلدته، وقُطَان بيته. وقال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا محمد بن حازم، حدثنا هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسَمُّونَ الحُمْسَ، وكان سائر العرب يقفون بعرفات. فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يَأْتِيَ عرفات، ثم يقف بها ثم يُفِيضُ منها، فذلك قوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ أَفَاضَ الْكَافِرُ﴾. وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وقتادة، والسدي، وغيرهم. واختاره ابن جرير، وحكى عليه الإجماع، رحمهم الله.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سُفيان، عن عمرو، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، قال: أضلكتُ بعيراً لي بعرفة، فذهبتُ أطلبه، فإذا النبي ﷺ واقف، قلت: إن هذا من الخُمس، ما شأنه ههنا؟ أخرجاه في الصحيحين. ثم روى البخاري من حديث موسى بن عقبة، عن كُريب، عن ابن عباس ما يقتضي أن المراد بالإفاضة ههنا هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمي الجمار. قاله أعلم. وحكاها ابنُ جرير، عن الضحاك بن مزاحم فقط. قال: والمراد بالناس: إبراهيم، عليه السلام. وفي رواية عنه: الإمام. قال ابن جرير: ولولا إجماعُ الحجة على خلافه لكان هو الأرجح. وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُكَ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات؛ ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر ثلاثاً. وفي الصحيحين أنه نذب إلى التسييح والتحميد والتكبير، ثلاثاً وثلاثين، ثلاثاً وثلاثين. وقد أوردناه في جزء جمعناه في فضل يوم عرفة. العباس بن مرداس السلمي في استغفاره، عليه السلام، لأمتة عَشِيَّةَ عرفة، وقد أوردناه في جزء جمعناه في فضل يوم عرفة. وأورد ابن مَزْدُويه ههنا الحديث الذي رواه البخاري، عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها في ليلة فمات في ليلة دخل الجنة، ومن قالها في يومه فمات دخل الجنة». وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو: أن أبا بكر قال: يا رسول الله، علّمني دعاء أدعوه به في صلاتي؟ فقال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم». والأحاديث في الاستغفار كثيرة.

﴿فَلَمَّا قَضَيْتُمْ صَلَاتَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ ۚ وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۚ﴾ (٢٠١) أَوَّلِيكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢).

يأمرُ تعالى بذكره والإكثار منه بعد قضاء المناسك و فراغها. وقوله: ﴿ذِكْرًا كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾: اختلفوا في معناه، فقال ابنُ جرير، عن عطاء: هو كقول الصبي: «أبُة أمُّ»، يعني: كما يُلْهَج الصبي بذكر أبيه وأمه، فكَذلك أنتم، فالحجوا بذكر الله بعد قضاء النسك. وكذا قال الضحاك والربيع بن أنس. وروى ابنُ جرير من طريق العوفي، عن ابن عباس - نحوه. وقال سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم، فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحِمَالات ويحمل الديات. ليس لهم ذكر غير فَعَال آبائهم. فأنزل الله على محمد ﷺ: ﴿فَادْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾. قال ابن أبي حاتم: وروى عن أنس بن مالك، وأبي وائل، وعطاء بن أبي رباح في أحد قوليه، وسعيد بن جُبَيْر، وعكرمة في إحدى رواياته، ومجاهد، والسدي، وعطاء الخراساني، والربيع بن أنس، والحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب، ومقاتل بن حيان، نحو ذلك. وهكذا حكاها ابن جرير أيضاً عن جماعة، والله أعلم. والمقصود منه الحث على كثرة الذكر لله ﷻ؛ ولهذا كان انتصاب قوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ على التمييز، تقديره كذكركم آباءكم أو أشد منه ذكراً. و «أو» ههنا لتحقيق المماثلة في الخبر، كقوله: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَابَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ١٧٤]، وقوله: ﴿يَتَشَوَّانَ النَّاسُ كَهَفِيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ١٧٧]، ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى بَنَاتِ آلِثَّيْ أَوْ يَبْدُوكَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، ﴿كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩]، فليست ههنا للشك قطعاً، وإنما هي لتحقيق الخبر عنه بأنه كذلك أو أزيد منه. ثم إنه تعالى أرشد إلى دُعائه بعد كثرة ذكره، فإنه مظنة الإجابة، ودَمَّ من لا يسأله إلا في أمر دنياه، وهو معرض عن أخراه، فقال: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ﴾ أي: من نصيب ولا حظ. وتضمن هذا الظم التفسير عن التشبه بمن هو كذلك. قال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف، فيقولون: اللهم اجعله عام غيث وعام خضب وعام ولاد حسن. لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل الله فيهم: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ﴾ وكان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فأنزل الله: ﴿أَوَّلِيكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. ولهذا مدح من يسأله للدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا، وصرفت كل شر، فإن الحسنه في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي، من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنه في الدنيا. وأما الحسنه في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العَرَصات، وتيسير الحساب

وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا، من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام. وقال القاسم بن عبد الرحمن: من أعطي قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وجسداً صابراً، فقد أوتي في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وفي عذاب النار. ولهذا وردت السنة بالترغيب في هذا الدعاء. فقال البخاري: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، عن عبد العزيز، عن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ يقول: «اللهم ربنا، آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار». وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عبد العزيز بن صهيب، عن أنس قال: كان أكثر دعوة يدعو بها رسول الله ﷺ يقول: «اللهم ربنا، آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار». وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها، وإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد السلام بن شداد - يعني أبا طالوت - قال: كنت عند أنس بن مالك، فقال له ثابت: إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم. فقال: اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار. وتحدثوا ساعة حتى إذا أرادوا القيام، قال: يا أبا حمزة، إن إخوانك يريدون القيام فادع لهم فقال: تريدون أن أشق لكم الأمور، إذا آتاكم الله في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ووقاكم عذاب النار فقد آتاكم الخير كله. وقال أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن حميد، عن أنس، أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد صار مثل الفَرْخ: فقال له رسول الله ﷺ: «هل تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟» قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا. فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله! لا تطيقه - أو لا تستطيعه - فهلا قلت: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. قال: فدعا الله، فشفاه. انفراد بإخراجه مسلم، فرواه من حديث ابن أبي عدي - به. وقال الإمام الشافعي: أخبرنا سعيد بن سالم القداح، عن ابن جريج، عن يحيى بن عبيد - مولى السائب - عن أبيه، عن عبد الله بن السائب: أنه سمع النبي ﷺ يقول فيما بين الركن اليماني والركن الأسود: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. ورواه الثوري عن ابن جريج كذلك. وروى ابن ماجه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، نحو ذلك. وفي سنده ضعف، والله أعلم. وقال ابن مَرْدُوَيْهِ: حدثنا عبد الباقي، أخبرنا أحمد بن القاسم بن مساور، حدثنا سعيد بن سليمان، عن إبراهيم بن سليمان، عن عبد الله بن هرمز، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مرت على الركن إلا رأيت عليه ملكاً يقول: آمين. فإذا مررت عليه فقولوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. وقال الحاكم في مستدركه: أخبرنا أبو زكريا العنبري، حدثنا محمد بن عبد السلام، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا جرير، عن الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: إني أجرت نفسي من قوم على أن يحملوني، ووضعت لهم من أجرتي على أن يدعوني أحج معهم، أفيجزي ذلك؟ فقال: أنت من الذين قال الله فيهم: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نُجُوبٌ يَمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

﴿وَذَكِّرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَجَلَّى فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِيَنِ اتَّقَى وَآتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَٰهِي تَحْتَرُونَ﴾.

قال ابن عباس: «الأيام المعدادات» أيام التشريق، و «الأيام المعلومات» أيام العشر. وقال عكرمة: ﴿وَذَكِّرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ يعني: التكبير أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات: الله أكبر، الله أكبر. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا موسى بن علي، عن أبيه، قال: سمعت عتبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم عَرَفَةَ ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام، وهي أيام أكل وشرب». وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا هُشَيْم، أخبرنا خالد، عن أبي المليح، عن نُبَيْشَةَ الهذلي قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله». رواه مسلم أيضاً، وتقدم حديث جبير بن مطعم: «عَرَفَةَ كلها موقوف، وأيام التشريق كلها ذبيح». وتقدم أيضاً حديث عبد الرحمن بن يَغْمَرِ الدَّيْلِي: «وأيام منى ثلاثة، فمن تمجّل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه». وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم وخلاّد بن أسلم، قالوا: حدثنا هُشَيْم، عن عمرو بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «أيام التشريق أيام طُغْمٍ وذكر». وحدثنا خلاّد بن أسلم، حدثنا زَوْج، حدثنا صالح، حدثني ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن حُذَافَةَ يطوف في منى: «لا تصوموا هذه الأيام، فإنها أيام أكل وشرب، وذكر الله ﷻ». وحدثنا يعقوب، حدثنا هُشَيْم، عن سفيان بن حسين، عن الزهري قال: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حُذَافَةَ، فنادى في أيام التشريق فقال: «إن هذه الأيام أيام أكل وشرب وذكر الله، إلا من كان عليه صَوْمٌ من هَذِي»، زيادة حسنة ولكن مرسله. وبه قال هُشَيْم، عن عبد

الملك بن أبي سليمان، عن عمرو بن دينار: أن رسول الله ﷺ بعث بشر بن سحيم، فنادى في أيام التشريق، فقال: «إن هذه الأيام أيام أكل وشرب وذكر الله». وقال هُثَيْم، عن ابن أبي ليلى، عن عطاء، عن عائشة قالت: نهى رسول الله ﷺ عن صوم أيام التشريق، قال: «هي أيام أكل وشرب وذكر الله». وقال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن حكيم، عن مسعود بن الحاكم الزُرقي، عن أمه قالت: لكانني أنظر إلى عليّ على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، حتى وقف على شعب الأنصار وهو يقول: «يا أيها الناس، إنها ليست بأيام صيام، إنما هي أيام أكل وشرب وذكر». وقال مِقْسَم عن ابن عباس: الأيام المعدودات: أيام التشريق، أربعة أيام: يوم النحر، وثلاثة أيام بعده. وزُوي عن ابن عمر، وابن الزبير، وأبي موسى، وعطاء، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وأبي مالك، وإبراهيم التخفي، ويحيى بن أبي كثير، والحسن، وقتادة، والسدي، والزهري، والربيع بن أنس، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وعطاء الخراساني، ومالك بن أنس، وغيرهم - مثل ذلك. وقال علي بن أبي طالب: هي ثلاثة، يوم النحر ويومان بعده، اذبح في أيهن شت، وأفضلها أولها. والقول الأول هو المشهور وعليه دل ظاهر الآية الكريمة، حيث قال: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فدل على ثلاثة بعد النحر. ويتعلق بقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ ذكر الله على الأصاحي، وقد تقدم، وأن الراجح في ذلك مذهب الشافعي، رحمه الله، وهو أن وقت الأصحية من يوم النحر إلى آخر أيام التشريق. ويتعلق به أيضاً الذكر المؤقت خلف الصلوات، والمطلق في سائر الأحوال. وفي وقته أقوال للعلماء، وأشهرها الذي عليه العمل أنه من صلاة الصبح يوم عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق، وهو آخر الثَّغْرِ الآخر. وقد جاء فيه حديث رواه الدارقطني، ولكن لا يصح مرفوعاً، والله أعلم. وقد ثبت أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كان يكبر في قبه، فيكبر أهل السوق بتكبيره، حتى ترتج مني تكبيراً. ويتعلق بذلك أيضاً التكبير وذكر الله عند رمي الجمرات كل يوم من أيام التشريق. وقد جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره: «إنما جعل الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار، لإقامة ذكر الله ﷻ». ولما ذكر الله تعالى الثَّغْرَ الأول والثاني، وهو تفرق الناس من موسم الحج إلى سائر الأقاليم والآفاق بعد اجتماعهم في المشاعر والمواقف، قال: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُقَرُّونَ﴾ أي: تجتمعون يوم القيامة، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٩].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجْحِبُ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْجَهَادِ﴾ [٢٠٤] وَإِذَا تَوَلَّى سَكَتٌ فِي الْأَرْضِ يُفْعِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُنْكَادَ﴾ [٢٠٥] وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ الْأَمْرَةَ يَقْسَبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ إِلَهِهَ إِلَّا يَدَّ وَيَرَى النَّاسَ مَن يُشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْكَاتٍ اللَّهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [٢٠٦].

قال السدي: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، جاء إلى رسول الله ﷺ، وأظهر الإسلام وفي باطنه خلاف ذلك. وعن ابن عباس: أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في حُبِّب وأصحابه الذين قتلوا بالزَّجِيع وعابوهم، فأنزل الله في ذم المنافقين ومدح حُبِّب وأصحابه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْكَاتٍ اللَّهِ﴾. وقيل: بل ذلك عام في المنافقين كلهم وفي المؤمنين كلهم. وهذا قول قتادة، ومجاهد، والزَّجِيع بن أنس، وغير واحد، وهو الصحيح. وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني الليث بن سعد، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن القرظي، عن نَوْف - وهو البكالي، وكان ممن يقرأ الكتب - قال: إني لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل: قوم يحتالون على الدنيا بالدين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أَمَر من الضَّيْر، يلبسون للناس مُسُوك الضَّان، وقلوبهم قلوب الذئاب. يقول الله تعالى: فعليّ يجترون! وبني يُغْتَرُونَ! حلفت بنفسي لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم فيها حيران. قال القرظي: تدبرتها في القرآن، فإذا هم المنافقون، فوجدتها: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجْحِبُ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ الآية. وحدثني محمد بن أبي معشر، أخبرني أبي أبو معشر نَجِيع قال: سمعت سعيداً المقبري يذاكر محمد بن كعب القرظي، فقال سعيد: إن في بعض الكتب: إن لله عبداً ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أَمَر من الضَّيْر، لبسوا للناس مُسُوك الضَّان من اللين، يَجْتَزُونَ الدنيا بالدين. قال الله تعالى: عليّ تجترون! وبني تغترون! وعزتي لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران. فقال محمد بن كعب: هذا في كتاب الله. فقال سعيد: وأين هو من كتاب الله؟ قال: قول الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجْحِبُ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية. فقال سعيد: قد عرفتُ فيمن أنزلت هذه الآية. فقال محمد بن كعب: إن الآية تنزل في الرجل، ثم تكون عامة بعد. وهذا الذي قاله القرظي حسن صحيح. وأما قوله: ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾: فقرأه ابن محيصة: «وَيُشْهَدُ اللَّهُ» بفتح الباء، وضم الجلالة «عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ» ومعناها: أن هذا وإن أظهر لكم الحيل، لكن الله يعلم من قلبه القبيح، كقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [النفاق: ١]. وقراءة الجمهور بضم

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِتِصَامِ﴾ أي: إذا وعظ هذا الفاجر في مقاله وفعله، وقيل له: اتق الله، وانزع عن قولك وفعلك، وارجع إلى الحق - امتنع وأبى، وأخذته الحمية والغضب بالإثم، أي: بسبب ما اشتمل عليه من الآثام، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ تَقُوفُ فِي دُجُوبِ اللَّيْلِ كَفَرُوا أَتَمَكَّدُوا بِمَكَادُوتٍ يُسْطُونَ بِأَيْدِيهِمْ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ شَرُّ مِمَّنْ ذُكِّرُوا النَّارَ وَعَهَا اللَّهُ أَنْتُمْ كَفَرُوا وَيُسَّرُّ الْمَيْمِرُ ۝﴾ [الحج: ٧٧]؛ ولهذا قال في هذه الآية: ﴿فَتَحَسَّبُوا جَهَنَّمَ وَلَكِنَّهَا أَلْهَادٌ﴾ أي: هي كافيته عقوبة في ذلك. وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْهَاتٍ اللَّهِ﴾ لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة، ذكر صفات المؤمنين الحميدة، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْهَاتٍ اللَّهِ﴾. قال ابن عباس، وأنس، وسعيد بن المسيب، وأبو عثمان النهدي، وعكرمة، وجماعة: نزلت في صهيب بن سنان الرومي، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرّد منه ويهاجر، ففعل. فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة. فقالوا: ربح البيع. فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية. ويروى أن رسول الله ﷺ قال له: «ربح البيع صهيب، ربح البيع صهيب». قال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن عبد الله بن رُسْتَه، حدثنا سليمان بن داود، حدثنا جعفر بن سليمان الضَّبْعِي، حدثنا عوف، عن أبي عثمان النهدي، عن صهيب قال: لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ قالت لي قريش: يا صهيب، قَدِّمْتُ إلينا ولا مَالَ لكَ، وتخرج أنت ومالك؟ والله لا يكون ذلك أبداً. فقلت لهم: أرايتم إن دَفَعْتُ إليكم مالي تُخْلُون عني؟ قالوا: نعم. فدفعْتُ إليهم مالي، فخلُّوا عني، فخرجت حتى قدِمْتُ المدينة. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب» مرتين. وقال حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: أقبل صهيب مهاجراً نحو النبي ﷺ فاتبعه ثَمَرٌ من قريش، فنزل عَنْ راحلته، وانتل ما في كنانته. ثم قال: يا معشر قريش، قد علمتم أنني من أُرَماكم رجلاً، وأنتم والله لا تصلون إلي حتى أرمي كُلَّ سهم في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم افعلوا ما شئتم، وإن شئتم دللتكم على مالي وقُتِيْتِ بمكة وخُلِيْتِ سبيلي؟ قالوا: نعم. فلما قَدِمَ على النبي ﷺ قال: «ربح البيع، ربح البيع». قال: ونزلت: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْهَاتٍ اللَّهِ وَاللَّهُ زَوَّاقٌ بِالْعَمَاوِ ۝﴾. وأما

الْأَكْثَرُونَ فَحَمَلُوا ذَلِكَ عَلَيَّ أَنهَا نَزَلَتْ فِي كُلِّ مُجَاهِدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْبَلُوكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَفْقَهُونَ وَيَسْتَلْزِمُوا وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]. ولما حمل هشام بن عامر بين الصنفين، أنكر عليه بعض الناس، فرد عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما، وتلوا هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعَاصِينَ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْزَلُوا فِي السِّلَاحِ كَأَنَّهُمْ لَا تَتِيمُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [٢٠٨] فَإِنْ زِلْزَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [٢٠٩].

يقول تعالى أمرأ عباده المؤمنين به المصدقين برسوله: أَنْ يَأْخُذُوا بِجَمِيعِ غُرَى الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ، والعمل بجميع أوامره، وترك زواجره ما استطاعوا من ذلك. قال العوفي، عن ابن عباس، ومجاهد، وطاوس، والضحاك، وعكرمة، وقتادة، والسدي، وابن زيد، في قوله: ﴿أَدْخُلُوا فِي السِّلَاحِ﴾ يعني: الإسلام. وقال الضحاك، عن ابن عباس، وأبو العالية، والربيع بن أنس: ﴿أَدْخُلُوا فِي السِّلَاحِ﴾ يعني: الطاعة. وقال قتادة أيضاً: المواجهة. وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا تَتِيمُوا﴾ يعني: لا يعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر. وزعم عكرمة أنها نزلت في نفر ممن أسلم من اليهود وغيرهم، كعبد الله بن سلام، وثعلبة وأسد بن عُبيد وطائفة استأذنوا رسول الله ﷺ في أَنْ يُسْتَبَا، وأن يقوموا بالتوراة ليلاً. فأمرهم الله بإقامة شعائر الإسلام والاشتغال بها عما عداها. وفي ذكر عبد الله بن سلام مع هؤلاء نفر، إذ يبعد أن يستأذن في إقامة السبت، وهو مع تمام إيمانه يتحقق نسخه ورفع بطلانه، والتعويض عنه بأعياد الإسلام. ومن المفسرين من يجعل قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا تَتِيمُوا﴾ حالاً من الداخلين، أي: ادخلوا في الإسلام كلكم، والصحيح الأول، وهو أنهم أمروا كلهم أَنْ يَعْمَلُوا بِجَمِيعِ شُعَبِ الْإِيمَانِ وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، وهي كثيرة جداً ما استطاعوا منها. وقال: ابن أبي حاتم: أخبرنا علي بن الحسين، أخبرنا أحمد بن الصباح، أخبرني الهيثم بن يمان، حدثنا إسماعيل بن زكريا، حدثني محمد بن عون، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْزَلُوا فِي السِّلَاحِ كَأَنَّهُمْ لَا تَتِيمُوا﴾ - كذا قرأها بالنصب - يعني مؤمني أهل الكتاب، فإنهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمر التوراة والشرائع التي أنزلت فيهم، فقال الله: ﴿أَدْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَأَنَّهُمْ لَا تَتِيمُوا﴾، يقول: ادخلوا في شرائع دين محمد ﷺ ولا تدعوا منها شيئاً، وحسبكم بالإيمان بالتوراة وما فيها. وقوله: ﴿وَلَا تَتِيمُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: اعملوا الطاعات، واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان ف﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَةِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩]، و﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، ولهذا قال: ﴿إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾. قال مطرف: أغش عباد الله لعبيد الله الشيطان. وقوله: ﴿فَإِنْ زِلْزَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: عدلتكم عن الحق بعدما قامت عليكم الحجج، فاعلموا أن الله عزيز أي في انتقامه، لا يفوته هارب، ولا يغلبه غالب. حكيم في أحكامه ونقضه وإبرامه؛ ولهذا قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس: عزيز في نعمته، حكيم في أمره. وقال محمد بن إسحاق: العزيز في نصره ممن كفر به إذا شاء، الحكيم في عذره وحقته إلى عباده.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [٢١٠].

يقول تعالى مُهَذَّباً لِلْكَافِرِينَ بِمُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ يعني: يوم القيامة، لفصل القضاء بين الأولين والآخرين، فيجزى كُلُّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؛ ولهذا قال: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [٢١٠] كما قال: ﴿لَا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [٢١] بِمَاءِ رَبِّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا [٢٢] وَمَا يَوْمُكُمْ يَوْمَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَنْدَعُرُ الْأَشْنُ وَأَنْ لَ الْكَرَى [٢٣] [الفجر: ٢١-٢٣]، وقال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْثُ مَائِكَ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْثُ مَائِكَ رَبُّكَ﴾ الآية [الأنعام: ١٥٨]. وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير لهذا حديث الصور بطوله من أوله، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ. وهو حديث مشهور ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم، وفيه: «أَنَّ النَّاسَ إِذَا أَهْتَمُّوا لِمَوْقِفِهِمْ فِي الْعُرْصَاتِ تَشَفَّعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِالْأَنْبِيَاءِ وَاحِداً وَاحِداً، مِنْ آدَمَ فَمِنْ بَعْدِهِ، فَكُلُّهُمْ يَحِيدُ عَنْهَا حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، فَإِذَا جَاؤُوا إِلَيْهِ قَالَ: أَنَا لَهَا، أَنَا لَهَا. فَيَذْهَبُ فَيَسْجُدُ لِلَّهِ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَيَشْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ فِي أَنْ يَأْتِيَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيُشَفِّعُهُ اللَّهُ، وَيَأْتِي فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ بَعْدَمَا تَنْشَقُّ السَّمَاءُ الدُّنْيَا، وَيَنْزِلُ مِنْ فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، ثُمَّ الثَّانِيَةِ، ثُمَّ الثَّالِثَةَ إِلَى السَّابِعَةِ، وَيَنْزِلُ حَمَلَةُ الْعَرْشِ وَالْكَرُوبِيُّونَ قَالَ: وَيَنْزِلُ الْجِبَارُ، فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ، وَلَهُمْ رَجُلٌ مِنْ تَسْبِيحِهِمْ يَقُولُونَ: سُبْحَانَ ذِي الْمَلِكِ وَالْمَلَكُوتِ، سُبْحَانَ رَبِّ

العرش ذي الجبروت، سبحانه الحي الذي لا يموت، سبحانه الذي يميئ الخلاق ولا يموت، سُبُوح قدوس، رب الملائكة والروح، قدوس قدوس، سبحانه ربنا الأعلى، سبحانه ذي السلطان والعظمة، سبحانه أبداً أبداً. وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مَرْذُويه ههنا أحاديث فيها غرابة والله أعلم؛ فمنها ما رواه من حديث المنهال بن عمرو، عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن مسروق، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم، قياماً شاخصة أبصارهم إلى السماء، ينتظرون فُضْلَ القضاء، وينزل الله في ظُلُلٍ من الغمام من العرش إلى الكرسي». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا أبو بكر بن عطاء بن مقدم، حدثنا معتمر بن سليمان، سمعت عبد الجليل القيسي، يحدث عن عبد الله بن عمرو: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِنَ الْغَمَامِ» الآية، قال: يهبط حين يهبط، وبينه وبين خَلْقِهِ سبعون ألف حِجَابٍ، منها: النور، والظلمة، والماء. فيصوت الماء في تلك الظلمة صوتاً تنخلع له القلوب. قال: وحدثنا أبي: حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي، حدثنا الوليد قال: سألت زهير بن محمد، عن قول الله: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِنَ الْغَمَامِ» قال: ظلل من الغمام، منظوم من الياقوت، مكلل بالجواهر والزبرجد. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: «فِي ظُلُلٍ مِنَ الْغَمَامِ» قال: هو غير السحاب، ولم يكن قَطُّ إِلَّا لبني إسرائيل في تبهم حين تاهوا. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَاللَّيْلِ» قال: يقول: والملائكة يجيئون في ظلل من الغمام، والله تعالى يجيء فيما يشاء - وهي في بعض القراءة: «هل ينظرون إلا أن يأتهم الله والملائكة في ظُلُلٍ من الغمام» وهي كقوله: «وَيَوْمَ تَشْقَى الْأُنثَىٰ وَأَلْقَتْ مِن يَدَيْهَا ذَنُوبَهَا» [الفرقان: ٢٥].

﴿سَلِّ بَيْنَ يَدَيْهِ كَمَا مَاتَتْهُمْ مِنْ أَيْمٍ بَيْنَهُ وَمَنْ يَبْدُلُ يَمَّةَ اللَّهِ مِنْ بَدَلٍ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [٢٦] ﴿يُنْزِلُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَبْلَ الَّذِي ذُكِّرُوا بِهٖ فِي الْأَيَّامِ الْأُولَىٰ﴾ [٢٧] ﴿وَمَنْ يَبْدُلْ يَمَّةَ اللَّهِ مِنْ بَدَلٍ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [٢٨] ﴿كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَنْ كُفَرَاءٍ قَرِيشٍ: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا يَمَّةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَعَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْآثَارِ﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنْصُرُ الْقَرَارَ﴾ [٢٩] ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رَضُوا بها واطمأنوا إليها، وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التي أمروا بها مما يُرْضِي الله عنهم، وسخروا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها، وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم، وبذلوا ابتغاء وجه الله؛ فلهذا فازوا بالمقام الأسعد والحق الأوفر يوم معادهم، فكانوا فوق أولئك في محشرهم ومُنْشَرِّهم، ومسيرهم ومأواهم، فاستقروا في الدرجات في أعلى عليين، وخلد أولئك في الدركات في أسفل السافلين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [٣٠] أي: يرزق من يشاء من خلقه، ويعطيه عطاء كثيراً جزيلاً بلا حصر ولا تعداد في الدنيا والآخرة، كما جاء في الحديث: «ابن آدم، أنفق أنفق عليك»، وقال النبي ﷺ: «أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا». وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبا: ٣٩]، وفي الصحيح أن ملكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم، يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً. ويقول الآخر: اللهم أعط مُسْكِياً تلفاً. وفي الصحيح: «يقول ابن آدم: مالي، مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت، وما لبست فأبليت، وما تصدقت فأمضيت؟ وما سوى ذلك فذهب وتاركه للناس». وفي مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يَجْمَعُ من لا عقل له».

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحَقَّ بِحُكْمٍ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [٣١]

قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو داود، أخبرنا هَمَامٌ، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق. فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله: «كان الناس أمة واحدة فاختلفوا». ورواه الحاكم في مستدركه، من حديث بُنْدَارٍ عن محمد بن بشار. ثم قال: صحيح ولم يخرجاه. وكذا روى أبو جعفر الرازي، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب: أنه كان يقرؤها: «كان الناس أمة واحدة

فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين». وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قال: كانوا على الهدى جميعاً، «فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين» فكان أول نبي بعث نوحاً. وهكذا قال مجاهد، كما قال ابن عباس أولاً. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يقول: كانوا كفاراً، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾. والقول الأول عن ابن عباس أصح سنداً ومعنى: لأن الناس كانوا على ملة آدم، عليه السلام، حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً، عليه السلام، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. ولهذا قال: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحَقَّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَدَلٍ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيِّنَاتٍ بَيْنَهُمْ﴾ أي: من بعدما قامت عليهم الحجج وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض، ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. وقال عبد الرزاق: حدثنا معمر، عن سليمان الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة في قوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ قال: قال النبي ﷺ: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولاً الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، فهدانا له، فالتاس لنا فيه تبع، فغداً لليهود، وبعد غد للنصارى». ثم رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن طائوس، عن أبيه، عن أبي هريرة.

وقال ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه في قوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾: فاختلفوا في يوم الجمعة، فاتخذ اليهود يوم السبت، والنصارى يوم الأحد. فهدى الله أمة محمد ليوم الجمعة. واختلفوا في القبلة؛ فاستقبلت النصارى المشرق، واليهود بيت المقدس، فهدى الله أمة محمد للقبلة. واختلفوا في الصلاة؛ فمنهم من يركع ولا يسجد، ومنهم من يسجد ولا يركع، ومنهم من يصلي وهو يتكلم، ومنهم من يصلي وهو يمشي، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا في الصيام، فمنهم من يصوم بعض النهار، ومنهم من يصوم عن بعض الطعام، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا في إبراهيم، عليه السلام، فقالت اليهود: كان يهودياً، وقالت النصارى: كان نصرانياً، وجعله الله حنيفاً مسلماً، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا في عيسى، عليه السلام، فكذبت به اليهود، وقالوا لأمه بهتاناً عظيماً، وجعلته النصارى إلهاً وولداً، وجعله الله روحه، وكلمته، فهدى الله أمة محمد ﷺ للحق من ذلك. وقال الربيع بن أنس في قوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ أي: عند الاختلاف أنهم كانوا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف، أقاموا على الإخلاص لله ﷻ وحده، وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف، واعتزلوا الاختلاف، وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة شهداء على قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم شعيب، وآل فرعون، أن رسلهم قد بلغوهم، وأنهم قد كذبوا رسلهم. وفي قراءة أبي بن كعب: «وليكونوا شهداء على الناس يوم القيامة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»، وكان أبو العالية يقول: في هذه الآية المخرج من الشهات والضلالات والفتن. وقوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بعلمه، بما هداهم له. قاله ابن جرير: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: من خلقه ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: وله الحكم والحجة البالغة. وفي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «اللهم، رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم». وفي الدعاء المأثور: اللهم، أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، ووقفنا لاجتنابه، ولا تجعله ملتبساً علينا فنضل، واجعلنا للمتعين إماماً.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ﴾ قبل أن تُبْتَلُوا وتختبروا وتمتحنوا، كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾ وهي: الأمراض؛ والأسقام، والآلام، والمصائب والنواب. قال ابن مسعود، وابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، ومرة الهُمْدَانِي، والحسن، وقتادة والضحاك، والربيع، والسدي، ومقاتل بن حَيَّان: ﴿الْبَأْسَاءُ﴾: الفقر. قال ابن عباس: ﴿وَالضَّرَّاءُ﴾: السقم. ﴿وَزُلْزِلُوا﴾: خوفاً من الأعداء زلزالاً شديداً، وامتحنوا امتحاناً عظيماً، كما جاء في الحديث الصحيح عن حَبَّاب بن الْأَرْت قال: قلنا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فقال: «إِنْ من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفراق رأسه فيخلص إلى قدميه، لا

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، حدثني الحضرمي، عن أبي السَّوَّار، عن جُنْدَب بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ رَهَطًا، وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح أو عبيدة بن الحارث، فلما ذهب ينطلق، بكى صَبَاة إلى رسول الله ﷺ فَحَلَسَ، فبعث عليهم مكانه عبد الله بن جحش، وكتب له كتابًا،

وأمره ألا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا، وقال: لا تُكْرِهَنَّ أَحَدًا عَلَى السَّيْرِ مَعَكَ مِنْ أَصْحَابِكَ. فلما قرأ الكتاب استرجع، وقال: سمعاً وطاعة لله ولرسوله. فخبّرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب، فرجع رجلان، وبقي بقيّتهم، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يذروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى. فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام فأنزل الله ﴿يَتْلُوكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ الآية. وقال السدي، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود: ﴿يَتْلُوكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ بعث سرّيته، وكانوا سبعة نفر، عليهم عبد الله بن جحش الأسدي، وفيهم عمار بن ياسر، وأبو حذيفة بن غنّة بن ربيعة، وسعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان السلمي - حليف لبني نوفل - وسُهَيْل بن بيضاء، وعامر بن فهيرة، وواقد بن عبد الله الزبوعي، حليف لعمر بن الخطاب. وكتب لابن جحش كتاباً، وأمره ألا يقرأه حتى ينزل بطن مَلَل، فلما نزل بطن مَلَل فتح الكتاب، فإذا فيه: أن سِرَّ حتى تنزل بطن نخلة. فقال لأصحابه: مَنْ كان يريد الموت فليمض وليوص، فلإني موص وماض لأمر رسول الله ﷺ. فسار، فتخلف عنه سعد بن أبي وقاص، وعتبة، وأضلا راحلة لهما فأتيا بُحْران يطلبانها، وسار ابن جحش إلى بطن نخلة، فإذا هو بالحكم بن كيسان، والمغيرة بن عثمان، وعمرو بن الحضرمي، وعبد الله بن المغيرة. وانفلت ابن المغيرة، فأمروا الحكم بن كيسان والمغيرة وقتل عمرو، وقتل واقد بن عبد الله. فكانت أول غنيمة غنمها أصحاب النبي ﷺ. فلما رجعوا إلى المدينة بالأسيرين وما أصابوا من المال، أراد أهل مكة أن يفادوا الأسيرين، فقال النبي ﷺ: «حتى ننظر ما فعل صاحبانا» فلما رجع سعد وصاحبه، فادى بالأسيرين، ففجر عليه المشركون وقالوا: إن محمداً يزعم أنه يتبع طاعة الله، وهو أول من استحل الشهر الحرام، وقتل صاحبنا في رجب. فقال المسلمون: إنما قتلناه في جمادى - وقيل: في أول رجب، وآخر ليلة من جمادى - وغمد المسلمون سيوفهم حين دخل شهر رجب. فأنزل الله يَغَيِّرُ أَهْلَ مَكَّةَ: ﴿يَتْلُوكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ لا يحل، وما صنعتكم أنتم يا معشر المشركين أكبر من القتل في الشهر الحرام، حين كفرتم بالله، وصددتم عنه محمداً ﷺ وأصحابه، وإخراج أهل المسجد الحرام منه، حين أخرجوا محمداً ﷺ أكبر من القتل عند الله. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿يَتْلُوكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾. وذلك أن المشركين صدّوا رسول الله ﷺ، وزدوه عن المسجد الحرام في شهر حرام، ففتح الله على نبيه في شهر حرام من العام المقبل. فعاب المشركون على رسول الله ﷺ القتال في شهر حرام. فقال الله: ﴿وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرُوا بِهِ وَالتَّسْجِدَ لِلْعَرَارِ وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ﴾ من القتال فيه. وأن محمداً ﷺ بعث سرية فلقوا عمرو بن الحضرمي، وهو مقبل من الطائف في آخر ليلة من جمادى، وأول ليلة من رجب. وأن أصحاب محمد ﷺ كانوا يظنون أن تلك الليلة من جمادى، وكانت أول رجب ولم يشعروا، فقتله رجل منهم وأخذوا ما كان معه. وأن المشركين أرسلوا يعبرونه بذلك. فقال الله: ﴿يَتْلُوكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾، وغير ذلك أكبر منه: صدّ عن سبيل الله، وكفر به والمسجد الحرام، وإخراج أهله منه: إخراج أهل المسجد الحرام أكبر من الذي أصاب أصحاب محمد ﷺ، والشرك أشد منه.

وهكذا روى أبو سعد البقّال، عن عكرمة، عن ابن عباس أنها أنزلت في سرّية عبد الله بن جحش، وقتل عمرو بن الحضرمي. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: نزل فيما كان من مصاب عمرو بن الحضرمي: ﴿يَتْلُوكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ إلى آخر الآية. وقال عبد الملك بن هشام راوي السيرة، عن زياد بن عبد الله البكائي، عن محمد بن إسحاق بن يسار المدني، رحمه الله، في كتاب السيرة له، أنه قال: وبعث - يعني رسول الله ﷺ - عبد الله بن جحش بن رثاب الأسدي في رجب، مَقْلَعُهُ من بدر الأولى، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتاباً، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه، فيمضي لما أمره به، ولا يَسْتَكْرِه من أصحابه أحداً. وكان أصحاب عبد الله بن جحش من المهاجرين. ثم من بني عبد شمس بن عبد مناف: أبو حذيفة بن غنّة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، ومن حلفائهم: عبد الله بن جحش، وهو أمير القوم، وعُكاشة بن مخصن بن حُزْثَان، أحد بني أسد بن خزيمة، حليف لهم. ومن بني نوفل بن عبد مناف: عتبة بن غزوان بن جابر، حليف لهم. ومن بني زُهْرة بن كلاب: سعد بن أبي وقاص. ومن بني عدي بن كعب: عامر بن ربيعة، حليف لهم من عَنَز بن وائل، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف بن عَرِين بن ثعلبة بن يربوع، أحد بني تميم، حليف لهم. وخالد بن البكير أحد بني سعد بن ليث، حليف لهم. ومن بني الحارث بن فهر: سُهَيْل بن بيضاء. فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فيه فإذا فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة، بين مكة والطائف، ترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم».

فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال: سمعاً وطاعة. ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة، أرصد بها قريشاً، حتى آتية منهم بخير، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم. فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فَلْيَنْطَلِقْ، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فامض لأمر رسول الله ﷺ، فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد. فسلك على الحجاز، حتى إذا كان بمَعْدَن، فوق الْفُرْع، يقال له: بُحْران، أضلَّ سعد بن أبي وقاص وعُتْبَةُ بن غزوان بغيراً لهما، كانا يَغْتَقِبَانِه، فتخلفا عليه في طلبه، ومضى عبد الله بن جحش وبقيّة أصحابه حتى نزل بنخلة، فمَرَّتْ به عير لقريش تحمل زبيياً وأدماً وتجارة من تجارة قريش، فيها: عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان، والحكم بن كيسان، مولى هشام بن المغيرة. فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم، فأشرف لهم عكاشة بن محصن، وكان قد حلق رأسه، فلما رآه أمثوا وقالوا: عُمَار، لا بأس عليكم منهم. وتشاور القوم فيهم، وذلك في آخر يوم من رجب، فقال القوم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم، فليمتنعن منكم به، ولئن قتلتموهن لثقتلنهم في الشهر الحرام. فتردد القوم، وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم. فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وأفلت القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم. وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعبير والأسيرين، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة. قال ابن إسحاق: وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش: أن عبد الله قال لأصحابه: إن لرسول الله ﷺ مما غنمنا الخمس، وذلك قبل أن يُفَرِّضَ الله الخمس من المغنم، فعزل لرسول الله ﷺ خمس العير، وقسم سائرهما بين أصحابه. قال ابن إسحاق: فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام». فوَقَّفَ العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ أسقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعثفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا. وقالت قريش: قد استحلَّ محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال. فقال من يَزِدُّ عليهم من المسلمين ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان. وقالت يهود نَقَاءُ بذلك على رسول الله ﷺ: عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله: عمرو: عمرت الحرب، والحضرمي: حضرت الحرب، وواقد بن عبد الله: وقدت الحرب. فجعل الله عليهم ذلك لا لهم. فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ النَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي: إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي: قد كانوا يفتنون المسلم في دينه، حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ أي: ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه، غير تائبين ولا نازعين.

قال ابن إسحاق: فلما نزل القرآن بهذا من الأمر، وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشَّقِّ قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وبعثت إليه قريش في فداء عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، فقال رسول الله ﷺ: لا تُفديكموهما حتى يقدم صاحباناً - يعني سعد بن أبي وقاص وعُتْبَةُ بن غزوان - فإن قتلوهما نقتل صاحبيكم. فقدم سعد وعُتْبَةُ، فأفداهما رسول الله ﷺ منهم. فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً. وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة، فمات بها كافراً. قال ابن إسحاق: فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن، طمَعُوا في الأجر، فقالوا: يا رسول الله، أنطمع أن تكون لنا غزوة تُعْطَى فيها أجر المجاهدين المهاجرين؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الْكُفْرَ أَشَدُّ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِيمَانُ أَجْرُهُمَا جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ لِكُلِّ رَجُلٍ رَحِمَتُ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فوضعهم الله من ذلك على أعظم الرجاء. قال ابن إسحاق: والحديث في هذا عن الزهري، ويزيد بن رومان، عن عروة. وقد روى يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قريباً من هذا السياق. وروى موسى بن عقبة عن الزهري نفسه، نحو ذلك. وروى شعيب بن أبي حمزة، عن الزهري، عن عروة بن الزبير نحوه من هذا أيضاً، وفيه: فكان ابن الحضرمي أول قتيل قتل بين المسلمين والمشركين، فركب وفد من كفار قريش حتى قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة فقالوا: أيجلُّ القتال في الشهر الحرام؟ فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ النَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ الآية. وقد استقصى ذلك الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب «دلائل النبوة». ثم قال ابن هشام عن زياد، عن ابن إسحاق: وقد ذكر عن بعض آل عبد الله بن جحش: أن الله قسم الفيء حين أحله، فجعل أربعة أخماس لمن أفاءه، وخمساً إلى الله ورسوله. فوقع على ما

كان عبد الله بن جحش صنع في تلك العير. قال ابن هشام: وهي أول غنيمة غنمها المسلمون. وعمرو بن الحضرمي أول من قتل المسلمون، وعثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون. قال ابن إسحاق: فقال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، في غزوة عبد الله بن جحش، ويقال: بل عبد الله بن جحش قالها، حين قالت قريش: قد أحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، فسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه المال، وأسروا فيه الرجال. قال ابن هشام: هي لعبد الله بن جحش:

تَعُدُّونَ قَتْلًا فِي الْحَرَامِ عَظِيمَةً وَأَعْظَمَ مِنْهُ لَوْ يَرَى الرَّشِدُ رَاشِدًا
صَدُودَكُمْ عَمَّا يَقُولُ مُحَمَّدٌ وَكَفَرَ بِهِ وَاللهُ رَأَى وَشَاهَدُ
وَإِخْرَاجَكُمْ مِنْ مَسْجِدِ اللَّهِ أَهْلَهُ لَسَلَا يُرَى اللَّهُ فِي الْبَيْتِ سَاجِدُ
فَلِنَا وَإِنْ عَيَّرْتُمُونَا بِقَتْلِهِ وَأَرْجَفَ بِالإِسْلَامِ بَاغٌ وَحَاسِدُ
سَقَيْنَا مِنْ ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ رِمَاحَنَا بِنَخْلَةٍ لَنَا أَوْقَدَ الْحَرْبَ وَأَقْدُ
دَمًا وَابْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَثْمَانُ بَيْنَنَا يَنْزَاعُهُ غُلٌّ مِنَ الْقَدِّ عَانِدُ
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُبَيِّعُونَ قُلْ أَبَيْعُ كَذَلِكَ بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَارْوَغُوا فِي مَالِهِمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٢٠).

قال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي مسيرة، عن عمر أنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت هذه الآية التي في البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْعٌ لِلنَّاسِ﴾ فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: ٤٣]، فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى: ألا يقربن الصلاة سكران. فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في المائدة: ﴿دُعِيَ عَمْرُ بْنُ قُرَيْشٍ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا. فَتَنَزَّلَتْ آيَةُ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ. فَدُعِيَ عَمْرُ، فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَلَمَّا بَلَغَ: ﴿فَقُلْ أَنْتُمْ تُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]؟ قال عمر: انتهينا، انتهينا. وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من طرق، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق. وكذا رواه ابن أبي حاتم وابن مزيه عن طريق الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي مسيرة، واسمه عمرو بن شرحبيل الهمداني الكوفي، عن عمر. وليس له عنه سواه، لكن قال أبو زرعة: لم يسمع منه. والله أعلم. وقال علي بن المديني: هذا الإسناد صالح وصححه الترمذي. وزاد ابن أبي حاتم - بعد قوله: انتهينا -: إنها تذهب المال وتذهب العقل. وسيأتي هذا الحديث أيضاً مع ما رواه أحمد من طريق أبي هريرة أيضاً - عند قوله في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا كُنَّ لِحَافًا لَبِيسٍ وَالْأَصْحَابُ وَالْآذَانُ يَنْصَتُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] - فقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾: أما الخمر فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: إنه كل ما خامر العقل. كما سيأتي بيانه في سورة المائدة، وكذا الميسر، وهو القمار. وقوله: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْعٌ لِلنَّاسِ﴾: أما إثمهما فهو في الدين، وأما المنافع فدنوية، من حيث إن فيها نفع البدن، وتهضم الطعام، وإخراج الفضلات، وتشحيد بعض الأذهان، ولذة الشدة المطربة التي فيها، كما قال حسان بن ثابت في جاهليته:

وَنَشْرِبُهَا فَنَتَرَكُنَا مَلُوكًا وَأَسْنَدًا لَا يُؤْنِسُنَا فِيهَا الْبَلَاءُ
وكذا بيعها والاتفاع بثمنها. وما كان يُقْمَشُهُ بعضهم من الميسر فينفقه على نفسه أو عياله. ولكن هذه المصالح لا توازي ضررته ومفسدته الراجحة، لتعلقها بالعقل والدين، ولهذا قال: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾؛ ولهذا كانت هذه الآية مهدة لتحريم الخمر على البتات، ولم تكن مصرحة بل معرضة؛ ولهذا قال عمر، رضي الله عنه، لما قرئت عليه: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، حتى نزل التصريح بتحريمها في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا كُنَّ لِحَافًا لَبِيسٍ وَالْأَصْحَابُ وَالْآذَانُ يَنْصَتُونَ فَاجْزَيْتُمْ لَكُمْ قُلُوبُكُمْ﴾ (٢١٩) إِنَّمَا يُرِيدُ الْقَائِلُ أَنْ يُفَكِّكَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْغَيْبِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدِّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (٢٢٠) [المائدة: ٩٠، ٩١]. وسيأتي الكلام على ذلك في سورة المائدة إن شاء الله، وبه الثقة. قال ابن عمر، والشعبي، ومجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه أول آية نزلت في الخمر: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْعٌ لِلنَّاسِ﴾، ثم نزلت الآية التي في سورة النساء، فحرمت الخمر. وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُبَيِّعُونَ قُلْ أَبَيْعُ كَذَلِكَ بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: قرئ بالنصب وبالرفع، وكلاهما حسن مثجه قريب. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا

موسى بن إسماعيل، حدثنا أبان، حدثنا يحيى أنه بلغه: أن معاذ بن جبل وثعلبة أنيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، إن لنا أرقاء وأهلين فما ننفق من أموالنا. فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾. وقال الحكم، عن مفسم، عن ابن عباس: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ﴾ قال: ما يفضل عن أهلك.

وكذا روي عن ابن عمر، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، ومحمد بن كعب، والحسن، وقتادة، والقاسم، وسالم، وعطاء الخراساني، والربيع بن أنس، وغير واحد: أنهم قالوا في قوله: ﴿قُلِ الْغَفْوُ﴾: يعني الفضل. وعن طاوس: اليسير من كل شيء، وعن الربيع أيضاً: أفضل مالك، وأطيبه. والكل يرجع إلى الفضل. وقال عبد بن حميد في تفسيره: حدثنا هوزة بن خليفة، عن عوف، عن الحسن: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ﴾ قال: ذلك ألا تجهد مالك ثم تقعد تسأل الناس. ويدل على ذلك ما رواه ابن جرير: حدثنا علي بن مسلم، حدثنا أبو عاصم، عن ابن عجلان، عن المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رجل: يا رسول الله، عندي دينار؟ قال: «أنفقه على نفسك». قال: عندي آخر؟ قال: «أنفقه على أهلك». قال: عندي آخر؟ قال: «أنفقه على ولدك». قال: عندي آخر؟ قال: «فأنت أبصر». وقد رواه مسلم في صحيحه. وأخرج مسلم أيضاً عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أبدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلاهلك، فإن فضل شيء عن أهلك فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا». وعنده عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وأبدأ بمن تعول». وفي الحديث أيضاً: «ابن آدم، إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف». ثم قد قيل: إنها منسوخة بآية الزكاة، كما رواه علي بن أبي طلحة، والعمري عن ابن عباس، وقاله عطاء الخراساني والسدي، وقيل: مبينة بآية الزكاة، قاله مجاهد وغيره، وهو أوجه.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يبينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: كما فضل لكم هذه الأحكام وبيئها وأوضحها، كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ووعده، ووعيد، لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني في زوال الدنيا وفنائها، وإقبال الآخرة وبقيائها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا أبو أسامة، عن الضعق العيشي، قال: شهدت الحسن - وقرأ هذه الآية من البقرة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ قال: هي والله لمن تفكر فيها، ليعلم أن الدنيا دار بلاء، ثم دار فناء، وليعلم أن الآخرة دار جزاء، ثم دار بقاء. وهكذا قال قتادة، وابن جريج، وغيرهما. وقال عبد الرزاق عن معمر، عن قتادة: لتعلموا فضل الآخرة على الدنيا. وفي رواية عن قتادة: فاترؤوا الآخرة على الأولى. وقد ذكرنا عند قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ الثَّمَرَاتِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] آثاراً كثيرة عن السلف في معنى التفكير والاعتبار.

وقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَلْيَخَوَّكُمُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْتَكُمُ﴾ الآية: قال ابن جرير: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا جرير، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِآلِيهِ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤] و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَلْيَخَوَّكُمُ﴾ فخلطوا طعامهم وشرابهم بشرابهم. وهكذا رواه أبو داود، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم في مستدركه من طرق، عن عطاء بن السائب، به. وكذا رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وكذا رواه السدي، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود - بمثله. وهكذا ذكر غير واحد في سبب نزول هذه الآية كمجاهد، وعطاء، والشعبي، وابن أبي ليلى، وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف. قال وكيع بن الجراح: حدثنا هشام الدستوائي، عن حماد، عن إبراهيم قال: قالت عائشة: لأنني لأكره أن يكون مال اليتيم عندي غرة حتى أخلط طعامه بطعامي وشرابه بشرابي.

فقوله: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أي: على حدة ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ أي: وإن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم، فلا بأس عليكم؛ لأنهم إخوانكم في الدين؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ أي: يعلم من قضده ونيته الإفساد أو الإصلاح. وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْتَكُمُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ولو شاء لضيق عليكم وأخرجكم، ولكنه وسع عليكم، وخفف عنكم، وأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن، كما قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِآلِيهِ أَحْسَنُ﴾

[الأنعام: ١٥٢]، بل قد جوز الأكل منه للفقير بالمعروف، إما بشرط ضمان البدن لمن أيسر، أو مجاناً كما سيأتي بيانه في سورة النساء، إن شاء الله، وبه الثقة.

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَا تُعْجِبَكُمْ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْوَحْدَةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيَتَنَبَّأُ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

هذا تحريم من الله ﷻ على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان. ثم إن كان عمومها مراداً، وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية، فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله: ﴿وَاللَّحْمَنِتُّنَ مِنَ الْكُوفَيْنِ وَالْحَمَنِتُّنَ مِنَ الْكُوفَيْنِ أَوْثَانًا لِّكِنَّ مِنَ قَبْلِكُمْ إِلَّا مَا تَشْكُرُونَ أَجْرُهُنَّ مَحْصُونِينَ غَيْرَ مُسَوِّغِينَ وَلَا مُتَحَدِّثِينَ أَخَذَانِ﴾ [المائدة: ٥]. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ﴾: استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب. وهكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومكحول، والحسن، والضحاك، وزيد بن أسلم، والربيع بن أنس، وغيرهم. وقيل: بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأوثان، ولم يُرد أهل الكتاب بالكلية، والمعنى قريب من الأول، والله أعلم. فأما ما رواه ابن جرير: حدثني عبيد بن آدم بن أبي إياس العسقلاني، حدثنا أبي، حدثنا عبد الحميد بن بهزَام الفزاري، حدثنا شَهْر بن حَوْشَب قال: سمعت عبد الله بن عباس يقول: نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء، إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات، وحرم كل ذات دين غير الإسلام، قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِسْلَامِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥]. وقد نكح طلحة بن عبيد الله يهودية، ونكح حذيفة بن اليمان نصرانية، فغضب عمر بن الخطاب غضباً شديداً، حتى هَمَّ أن يسطو عليهما. فقالا: نحن نطلق يا أمير المؤمنين، ولا تغضب! فقال: لئن خلّ طلاقهن لقد حل نكاحهن، ولكني أنتزعهن منكم صَغَرَةً قَمَاءً - فهو حديث غريب جداً. وهذا الأثر عن عمر غريب أيضاً. قال أبو جعفر بن جرير، رحمه الله، بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات: وإنما كره عمر ذلك، لثلا يزهد الناس في المسلمات، أو لغير ذلك من المعاني، كما حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا ابن إدريس، حدثنا الصلت بن بهرام، عن شقيق قال: تزوج حذيفة يهودية، فكتب إليه عمر: خلّ سبيلها، فكتب إليه: أتزعم أنها حرام فأخلي سبيلها؟ فقال: لا أزعم أنها حرام، ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن. وهذا إسناد صحيح، وروى الخلال عن محمد بن إسماعيل، عن وكيع، عن الصلت، نحوه. وقال ابن جرير: حدثني موسى بن عبد الرحمن المسروقي، حدثنا محمد بن بشر، حدثنا سفيان بن سعيد، عن يزيد بن أبي زياد، عن زيد بن وهب قال: قال لي عمر بن الخطاب: المسلم يتزوج النصرانية، ولا يتزوج النصراني المسلمة. قال: وهذا أصح إسناداً من الأول. ثم قال: وقد حدثنا تميم بن المنتصر، أخبرنا إسحاق الأزرق، عن شريك، عن أشعث بن سوار، عن الحسن، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «تزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا». ثم قال: وهذا الخبر - وإن كان في إسناده ما فيه - فالقول به لإجماع الجميع من الأمة على صحة القول به. كذا قال ابن جرير، رحمه الله. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وكيع، عن جعفر بن بُزْقَان، عن ميمون بن مِهْرَان، عن ابن عمر: أنه كره نكاح أهل الكتاب، وتأول: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ﴾. وقال البخاري: وقال ابن عمر: لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول: ربها عيسى. وقال أبو بكر الخلال الحنبلي: حدثنا محمد بن هارون، حدثنا إسحاق بن إبراهيم (ح) وأخبرني محمد بن علي، حدثنا صالح بن أحمد: أنهما سألا أبا عبد الله أحمد بن حنبل، عن قول الله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ﴾، قال: مشركات العرب الذين يعبدون الأوثان.

وقوله: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَا تُعْجِبَكُمْ﴾: قال السدي: نزلت في عبد الله بن رواحة، كانت له أمه سوداء، فغضب عليها فلطمها، ثم فزع، فأتى رسول الله ﷺ، فأخبره خبرها. فقال له: «ما هي؟» قال: تصوم، وتصلي، وتحسن الوضوء، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله. فقال: «يا أبا عبد الله، هذه مؤمنة». فقال: والذي بعثك بالحق لأعتقنها ولا تزوجنها. ففعل، فطعن عليه ناس من المسلمين، وقالوا: نكح أمة. وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين، وينكحوهم رغبة في أحسابهم، فأنزل الله: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَا تُعْجِبَكُمْ﴾. ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَا تُعْجِبَكُمْ﴾. وقال عبد بن حميد: حدثنا جعفر بن عون، حدثنا عبد الرحمن بن زياد الإفريقي، عن عبد الله بن يزيد، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «لا تنكحوا النساء لحسنهن، فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا تنكحوهن على أموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن، وانكحوهن على الدين، فلا أمة سوداء خرماء ذات دين أفضل». والإفريقي ضعيف. وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «نكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها ولجمالها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين تربت يداك».

ولمسلم عن جابر مثله. وله، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة». وقوله: «وَلَا تُنْكِرُوا الشِّرْكَينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا» أي: لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات، كما قال تعالى: «لَا هُنَّ حِلٌّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لهنَّ» [المتحنة: ١٠]. ثم قال تعالى: «وَلَقَدْ مَوَّاهُ خَيْرٌ مِنْ شُرَكَائِهِ وَلَوْ أَعْلَمْتُمْ» أي: ولرجل مؤمن - ولو كان عبداً حبشياً - خير من مشرك، وإن كان رئيساً سرياً. «أَوَلَيْكَ يَدْعُونَ إِلَى الْآثَرِ» أي: معاشرتهم ومخالطتهم تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة، وعاقبة ذلك وخيمة «وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ» أي: بشرعه وما أمر به وما نهى عنه «وَيَبَيِّنُ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ».

«وَسَتَلَوْنَكُ عَنِ الْمَجِيصِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَجِيصِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَبِحَبِّ السُّكُونِ» يسألونكم حُرَّتْ لَكُمْ فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ أَنْ يَشْتُمَ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْكُهُ وَبَشِّرِ الْمُتَّقِينَ». قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ فأُنزل الله ﷻ: «وَسَتَلَوْنَكُ عَنِ الْمَجِيصِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَجِيصِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ» حتى فرغ من الآية. فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح». فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه! فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله، إن اليهود قالت كذا وكذا، أفلا نجتمعن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجدَ عليهما، فخرجنا، فاستقبلتهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ، فأرسل في آثارهما، فسقاهما، فعرفا أن لم يجدَ عليهما. رواه مسلم عن حديث حماد بن سلمة. فقلوه: «فَأَعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَجِيصِ» يعني في الفرج، لقلوه: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»؛ ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم إلى أنه تجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج. قال أبو داود: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن أيوب، عن عكرمة، عن بعض أزواج النبي ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا أراد من الحائض شيئاً، ألقى على فرجها ثوباً. وقال أبو داود أيضاً: حدثنا القعنبی، حدثنا عبد الله - يعني ابن عمر بن غانم - عن عبد الرحمن - يعني ابن زياد - عن عمارة بن غَرَاب: أن عمة له حدثته: أنها سألت عائشة قالت: إحدانا تحيض، وليس لها ولزوجها فراش إلا فراش واحد؟ قالت: أخبرك بما صنع رسول الله ﷺ: دخل فمضى إلى مسجده - قال أبو داود: تعني مسجد بيتها - فما انصرف حتى غلبتني عيني، وأوجعه البرد، فقال: «ادني مني». فقلت: إني حائض. فقال: «اكشفي عن فخذي». فكشفت فخذي، فوضع خذه وصدره على فخذي، وحثيت عليه حتى دفىء ونام ﷺ. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا أيوب عن كتاب أبي قلابة: أن مسروقاً ركب إلى عائشة، فقال: السلام على النبي وعلى أهله. فقالت عائشة: أبو عائشة! مرحباً مرحباً. فأذنوا له فدخل، فقال: إني أريد أن أسألك عن شيء، وأنا أستحيي. فقالت: إنما أنا أمك، وأنت ابني. فقال: ما للرجل من امرأته وهي حائض؟ فقالت: له كل شيء إلا فرجها. ورواه أيضاً عن حميد بن مسعدة، عن يزيد بن زريع، عن عيينة بن عبد الرحمن بن جوشن، عن مروان الأصغر، عن مسروق قال: قلت لعائشة: ما يحل للرجل من امرأته إذا كانت حائضاً؟ قالت: كل شيء إلا الجماع. وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وعكرمة.

وروى ابن جرير أيضاً، عن أبي كُرَيْب، عن ابن أبي زائدة، عن حجاج، عن ميمون بن مهران، عن عائشة قالت: له ما فوق الإزار. قلت: وتحل مضاجعتها ومواكلتها بلا خلاف. قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يأمرني فأغسل رأسه وأنا حائض، وكان يتكئ في حجرني وأنا حائض، فيقرأ القرآن. وفي الصحيح عنها قالت: كنت أتعرِّق العرق وأنا حائض، فأعطيه النبي ﷺ، فيضع فمه في الموضع الذي وضعت فمي فيه، وأشرب الشراب فأناوله فيضع فمه في الموضع الذي كنت أشرب. وقال أبو داود: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا يحيى، عن جابر بن صُبْح: سمعت خلاساً الهجري قال: سمعت عائشة تقول: كنت أنا ورسول الله ﷺ نبيت في الشعار الواحد، وإني حائض طامث، فإن أصابه مني شيء، غسل مكانه لم يغدّه، وإن أصاب - يعني ثوبه - شيء غسل مكانه لم يغدّه، وصلى فيه. فأما ما رواه أبو داود: حدثنا سعيد بن عبد الجبار، حدثنا عبد العزيز - يعني ابن محمد - عن أبي اليمان، عن أم ذرة، عن عائشة: أنها قالت: كنت إذا حضتُ نزلت عن المئال على الحصير، فلم تقرب رسول الله ﷺ ولم نذن منه حتى نطهر - فهو محمول على التنزه والاحتياط. وقال آخرون: إنما تحل له مباشرتها فيما عدا ما تحت الإزار، كما ثبت في الصحيحين، عن ميمونة بنت الحارث الهلالية قالت: كان النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فاتزرت وهي حائض. وهذا لفظ البخاري. ولهما عن عائشة نحوه. وروى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه من حديث العلاء بن الحارث، عن حزام بن حكيم، عن عمه عبد الله بن سعد الأنصاري: أنه سأل

رسول الله ﷺ: ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ قال: «ما فوق الإزار».

ولأبي داود أيضاً، عن معاذ بن جبل قال: سألت رسول الله ﷺ عما يحل لي من امرأتي وهي حائض. قال: «ما فوق الإزار والتعفف عن ذلك أفضل». وهو رواية عن عائشة - كما تقدم - وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وشريح. فهذه الأحاديث وما شابهها حجة من ذهب إلى أنه يحل له ما فوق الإزار منها، وهو أحد القولين في مذهب الشافعي رحمه الله، الذي رجحه كثير من العراقيين وغيرهم. ومأخذهم أنه حريم الفرج، فهو حرام، لثلاث يتوصل إلى تعاطي ما حرم الله ﷻ، الذي أجمع العلماء على تحريمه، وهو المباشرة في الفرج. ثم من فعل ذلك فقد أثم، فيستغفر الله ويتوب إليه. وهل يلزمه مع ذلك كفارة أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: نعم، لما رواه الإمام أحمد، وأهل السنن، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ في الذي يأتي امرأته وهي حائض: «يتصدق بدينار، أو نصف دينار». وفي لفظ للترمذي: «إذا كان دماً أحمر فدينار، وإن كان دماً أصفر فنصف دينار». وللإمام أحمد أيضاً، عنه: أن رسول الله ﷺ جعل في الحائض تصاب، ديناراً فإن أصابها وقد أدبر الدم عنها ولم تغتسل، فنصف دينار. والقول الثاني: وهو الصحيح الجديد من مذهب الشافعي، وقول الجمهور: أنه لا شيء في ذلك، بل يستغفر الله ﷻ، لأنه لم يصح عندهم رفع هذا الحديث، فإنه قد روي مرفوعاً كما تقدم وموقوفاً، وهو الصحيح عند كثير من أئمة الحديث، فقلوه تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَتَهَيَّزْنَ﴾ تفسير لقوله: ﴿فَاعْتَرِلُوا الْيَسَاءَ فِي الْمَجْبِينَ﴾ ونهى عن قربانهن بالجماع ما دام الحيض موجوداً، ومفهومه حله إذا انقطع، وقد قال به طائفة من السلف. قال القرطبي: وقال مجاهد وعكرمة وطاوس: انقطاع الدم يحلها لزوجها ولكن بأن تتوضأ. وقوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ فيه نذب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال. وذهب ابن حزم إلى وجوب الجماع بعد كل حيضة، لقوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ وليس له في ذلك مستند، لأن هذا أمر بعد الحظر. وفيه أقوال لعل العلماء الأصول، منهم من يقول: إنه للوجوب كالمطلق. وهؤلاء يحتاجون إلى جواب ابن حزم، ومنهم من يقول: إنه للإباحة، ويجعلون تقدم النهي عليه قرينة صارفة له عن الوجوب، وفيه نظر. والذي ينهض عليه الدليل أنه يَرَدُّ الحكم إلى ما كان عليه الأمر قبل النهي، فإن كان واجباً فواجب، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْكُتُبُ الْقُرْمَ فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥٠]، أو مباحاً فمباح، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢٧]، ﴿وَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠] وعلى هذا القول تجتمع الأدلة، وقد حكاه الغزالي وغيره، واختاره بعض أئمة المتأخرين، وهو الصحيح.

وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء أو تتييم، إن تعذر ذلك عليها بشرطه، إلا يحيى بن بكير من المالكية وهو أحد شيوخ البخاري، فإنه ذهب إلى إباحة وطء المرأة بمجرد انقطاع دم الحيض، ومنهم من ينقله عن ابن عبد الحكم أيضاً، وقد حكاه القرطبي عن مجاهد وعكرمة عن طاوس كما تقدم. إلا أن أبا حنيفة، رحمه الله، يقول فيما إذا انقطع دمها لأكثر الحيض، وهو عشرة أيام عنده: إنها تحل بمجرد الانقطاع ولا تفتقر إلى غسل ولا يصح لأقل من ذلك المزيد في حلها من الغسل ويدخل عليها وقت صلاة إلا أن تكون دمثة، فيدخل بمجرد انقطاعه، والله أعلم. وقال ابن عباس: ﴿حَتَّى يَتَهَيَّزْنَ﴾ أي: من الدم ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أي: بالماء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، ومقاتل بن حيان، والليث بن سعد، وغيرهم. وقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: يعني الفرج؛ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يقول في الفرج ولا تغدوه إلى غيره، فمن فعل شيئاً من ذلك فقد اعتدى. وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: أن تعتزلوهن. وفيه دلالة حينئذ على تحريم الوطء في الدبر، كما سيأتي تقريره قريباً. وقال أبو رزين، وعكرمة، والضحاك وغير واحد: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يعني: طاهرات غير حائض، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ النَّوَافِلَ﴾ أي: من الذنب وإن تكرر غشيانه، ﴿وَيُحِبُّ التَّطَهُّرَ﴾ أي: المنتزهين عن الأقدار والأذى، وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض، أو في غير المأني. وقوله: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس: الحرث موضع الولد ﴿فَأَتُوا رَبَّكُمْ أَنْ يَسْأَلَكُمْ﴾ أي: كيف شئتم مقبلة ومدبرة في صمام واحد، كما ثبتت بذلك الأحاديث. قال البخاري: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان عن ابن المنكدر قال: سمعت جابراً قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَتُوا رَبَّكُمْ أَنْ يَسْأَلَكُمْ﴾. ورواه داود، من حديث سفيان الثوري به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني مالك بن أنس وابن جريج وسفيان بن سعيد الثوري: أن محمد بن المنكدر حدثهم: أن جابر بن عبد الله أخبره: أن اليهود قالوا للمسلمين: من أتى امرأة وهي مدبرة جاء الولد أحول، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَتُوا رَبَّكُمْ أَنْ يَسْأَلَكُمْ﴾. قال ابن جريج في الحديث: فقال رسول الله ﷺ:

«مقبلة ومدبرة، إذا كان ذلك في الفرج». وفي حديث بهز بن حكيم بن معاوية بن خديعة القشيري، عن أبيه، عن جده أنه قال: يا رسول الله، نساؤنا ما تأتي منها وما نذر؟ قال: «حرثك، انت حرثك أنى شئت، غير ألا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في الميت». الحديث، رواه أحمد، وأهل السنن.

حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب، عن عامر بن يحيى، عن حنش بن عبد الله، عن عبد الله بن عباس قال: أتى ناس من حمير إلى رسول الله ﷺ، فسألوه عن أشياء، فقال له رجل: إني أحب النساء، فكيف ترى في ذلك؟ فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ﴾.

حديث آخر: قال أبو جعفر الطحاوي في كتابه «مشكل الحديث»: حدثنا أحمد بن داود بن موسى، حدثنا يعقوب بن كاسب، حدثنا عبد الله بن نافع، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري: أن رجلاً أصاب امرأة في دبرها، فأنكر الناس عليه ذلك، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَوَّا حَرِّكُمْ أَنِّي شَيْئٌ﴾، ورواه ابن جرير عن يونس وعن يعقوب، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن عبد الرحمن بن سابط قال: دخلت على حفصة ابنة عبد الرحمن بن أبي بكر فقلت: إني سائلك عن أمر، وإني أستحيي أن أسألك. قالت: فلا تستحي يا ابن أخي. قال: عن إتيان النساء في أدبارهن؟ قالت: حدثتني أم سلمة أن الأنصار كانوا لا يجتنبون النساء، وكانت اليهود تقول: إنه من جئى امرأته كان الولد أحول، فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا في نساء الأنصار، فجبوهن، فأبت امرأة أن تطيع زوجها وقالت: لن تفعل ذلك حتى أتى رسول الله ﷺ. فدخلت على أم سلمة فذكرت لها ذلك، فقالت: اجلسي حتى يأتي رسول الله ﷺ، فلما جاء رسول الله ﷺ استحييت الأنصارية أن تسأله، فخرجت، فحدثت أم سلمة رسول الله ﷺ فقال: «ادعي الأنصارية»: فدُعيت، فتلا عليها هذه الآية: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَوَّا حَرِّكُمْ أَنِّي شَيْئٌ﴾ صماماً واحداً. ورواه الترمذي، عن بُذَار، عن ابن مهدي، عن سفيان، عن ابن خثيم، به. وقال: حسن. قلت: وقد روي من طريق حماد بن أبي حنيفة، عن أبيه، عن ابن خثيم، عن يوسف بن ماهد، عن حفصة أم المؤمنين: أن امرأة أتتها فقالت: إني زوجي يأتيني مُحْتِيةً ومستقبلة فكرهته، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «لا بأس إذا كان في صمام واحد».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا يعقوب - يعني الفُهمي - عن جعفر، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هلكت! قال: «ما الذي أهلكك؟» قال: حولت رجلي البارحة! قال: فلم يرد عليه شيئاً. قال: فأوحى الله إلى رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَوَّا حَرِّكُمْ أَنِّي شَيْئٌ﴾. أقبل وأدبر، واتق الدبر والحیضة. رواه الترمذي، عن عبد بن حميد، عن حسن بن موسى الأشيب، به. وقال: حسن غريب. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غثان، حدثنا رشدين، حدثني الحسن بن ثوبان، عن عامر بن يحيى المعافري، عن حنش، عن ابن عباس قال: أنزلت هذه الآية: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ﴾ في أناس من الأنصار، أتوا النبي ﷺ، فسألوه، فقال النبي ﷺ: «أتها على كل حال، إذا كان في الفرج». وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا الحارث بن سريج، حدثنا عبد الله بن نافع، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد قال: أنفر رجل امرأته على عهد رسول الله ﷺ، فقالوا: أنفر فلان امرأته، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَوَّا حَرِّكُمْ أَنِّي شَيْئٌ﴾. وقال أبو داود: حدثنا عبد العزيز بن يحيى أبو الأصبح، قال: حدثني محمد - يعني ابن سلمة - عن محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: إن ابن عمر - والله يغفر له - أوهم، إنما كان أهل هذا الحي من الأنصار - وهم أهل وثن - مع أهل هذا الحي من يهود - وهم أهل كتاب - وكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم، وكان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا على حرف، وذلك أستر ما تكون المرأة، فكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم، وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرحاً منكراً، ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات. فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار، فذهب يصنع بها ذلك، فأنكرته عليه، وقالت: إنما كنا نؤتي على حرف. فاصنع ذلك وإلا فاجتنبني، فسرى أمرهما، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَوَّا حَرِّكُمْ أَنِّي شَيْئٌ﴾ أي: مقبلات، ومدبرات، ومستلقيات - يعني بذلك موضع الولد. تفرد به أبو داود، ويشهد له بالصحة ما تقدم من الأحاديث، ولا سيما رواية أم سلمة، فإنها مشابهة لهذا السياق.

وقد روى هذا الحديث الحافظ أبو القاسم الطبراني من طريق محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح، عن مجاهد قال:

عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها، حتى انتهت إلى هذه الآية: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ أَنْ يَشْتُمْ﴾، فقال ابن عباس: إن هذا الحي من قريش كانوا يشرحون النساء بمكة، ويتلذذون بهن. فذكر القصة بتمام سياقها. وقول ابن عباس: «إن ابن عمر - والله يغفر له - أوهم». كأنه يشير إلى ما رواه البخاري: حدثنا إسحاق، حدثنا النضر بن شميل، أخبرنا ابن عون عن نافع قال: كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه، فأخذت عليه يوماً فقرأ سورة البقرة، حتى انتهى إلى مكان قال: أتدري فيم أنزلت؟ قلت: لا. قال: أنزلت في كذا وكذا. ثم مضى. وعن عبد الصمد قال: حدثني أبي، حدثني أيوب، عن نافع، عن ابن عمر: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ أَنْ يَشْتُمْ﴾ قال: يأتيها في... هكذا رواه البخاري، وقد تفرد به من هذه الوجوه. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا ابن عون، عن نافع قال: قرأت ذات يوم: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ أَنْ يَشْتُمْ﴾، فقال ابن عمر: أتدري فيم أنزلت؟ قلت: لا. قال: نزلت في إتيان النساء في أدبارهن. وحدثني أبو قلابة، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثني أبي، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ أَنْ يَشْتُمْ﴾ قال: في الدبر. وروي من حديث مالك، عن نافع، عن ابن عمر، ولا يصح. وروى النسائي، عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، عن أبي بكر بن أبي أويس، عن سليمان بن بلال، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر: أن رجلاً أتى امرأته في دبرها، فوجد في نفسه من ذلك وجداً شديداً، فانزل الله: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ أَنْ يَشْتُمْ﴾. قال أبو حاتم الرازي: لو كان هذا عند زيد بن أسلم، عن ابن عمر لما أوقع الناس بنافع. وهذا تعليل منه لهذا الحديث. وقد رواه عبد الله بن نافع، عن داود بن قيس، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن ابن عمر - فذكره. وهذا محمول على ما تقدم، وهو أنه يأتيها في قبلها من دبرها، لما رواه النسائي أيضاً عن علي بن عثمان النخيلي، عن سعيد بن عيسى، عن المفضل بن فضالة عن عبد الله بن سليمان الطويل، عن كعب بن علقمة، عن أبي النضر: أنه أخبره أنه قال لنافع مولى ابن عمر: إنه قد أكثر عليك القول: إنك تقول عن ابن عمر إنه أفتى أن تؤتي النساء في أدبارهن قال: كذبوا علي، ولكن سأحدثك كيف كان الأمر: إن ابن عمر عرض المصحف يوماً وأنا عنده، حتى بلغ: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ أَنْ يَشْتُمْ﴾: فقال: يا نافع، هل تعلم من أمر هذه الآية؟ قلت: لا. قال: إنا كنا معشر قريش نُجَبِي النساء، فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار، أردنا منهن مثل ما كنا نريد فإذا من قد كرهن ذلك وأعظمهن، وكانت نساء الأنصار قد أخذن بحال اليهود، إنما يؤتين على جنوبيهن، فانزل الله: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ أَنْ يَشْتُمْ﴾. وهذا إسناد صحيح، وقد رواه ابن مردويه، عن الطبراني، عن الحسين بن إسحاق، عن زكريا بن يحيى كاتب العمري، عن مفضل بن فضالة، عن عبد الله بن عياش، عن كعب بن علقمة، فذكره. وقد روي عن ابن عمر خلاف ذلك صريحاً، وأنه لا يباح ولا يحل كما سيأتي، وإن كان قد نسب هذا القول إلى طائفة من فقهاء المدينة وغيرهم، وعزاه بعضهم إلى الإمام مالك في كتاب السر، وأكثر الناس ينكر أن يصح ذلك عن الإمام مالك، رحمه الله. وقد وردت الأحاديث المروية من طرق متعددة بالزجر عن فعله وتعاطيه؛ فقال الحسن بن عرفة: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن سهيل بن أبي صالح، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا، إن الله لا يستحي من الحق، لا يحل مأتى النساء في حشوشهن». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن شداد عن رجل عن خزيمة بن ثابت: أن رسول الله ﷺ نهى أن يأتي الرجل امرأته في دبرها.

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا يعقوب، سمعت أبي يحدث، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد: أن عبيد الله بن الحصين الوالبي حدثه أن هرمي بن عبد الله الواقفي حَدَّثَهُ: أن خزيمة بن ثابت الخطمي حدثه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يستحي الله من الحق، لا يستحي الله من الحق - ثلاثاً - لا تأتوا النساء في أعجازهن». ورواه النسائي، وابن ماجه من طرق، عن خزيمة بن ثابت. وفي إسناده اختلاف كثير.

حديث آخر: قال أبو عيسى الترمذي، والنسائي: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن الضحاك بن عثمان، عن مَخْرَمَةَ بن سليمان، عن كُرَيْب، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في الدبر». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وهكذا أخرجه ابن حبان في صحيحه. وصححه ابن حزم أيضاً. ولكن رواه النسائي، عن هناد، عن وكيع، عن الضحاك، به موقوفاً. وقال عبد: أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن ابن طاوس، عن أبيه: أن رجلاً سأل ابن عباس عن إتيان المرأة في دبرها قال: تسألني عن الكفر! إسناد صحيح. وكذا رواه النسائي، من طريق ابن المبارك، عن معمر - به نحوه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن

النبي ﷺ قال: «الذي يأتي امرأته في دبرها هي اللوطية الصغرى» وقال عبد الله بن أحمد: حدثني هبة، حدثنا همام، قال: سئل قتادة عن الذي يأتي امرأته في دبرها. فقال قتادة: حدثنا عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده: أن النبي ﷺ قال: «هي اللوطية الصغرى». قال قتادة: وحدثني عقبة بن وسّاج، عن أبي الدرداء قال: وهل يفعل ذلك إلا كافر؟. وقد روى هذا الحديث يحيى بن سعيد القطان، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قوله. وهذا أصح، والله أعلم. وكذلك رواه عبد بن حميد، عن يزيد بن هارون، عن حميد الأعرج، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو، موقوفاً من قوله. طريق أخرى: قال: جعفر الفريابي: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم، ويقول: ادخلوا النار مع الداخلين: الفاعل والمفعول به، والناكح يده، وناكح البهيمة، وناكح المرأة في دبرها، وجامع بين المرأة وابنتها، والزاني بحليلة جاره، والمؤذي جاره حتى يلعه». ابن لهيعة وشيخه ضعيفان.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن عاصم، عن عيسى بن حطان، عن مسلم بن سلام، عن علي بن طلق، قال: نهى رسول الله ﷺ أن تؤتى النساء في أدبارهن؛ فإن الله لا يستحيي من الحق. وأخرجه أحمد أيضاً، عن أبي معاوية، وأبو عيسى الترمذي من طريق أبي معاوية أيضاً، عن عاصم الأحول به وفيه زيادة، وقال: هو حديث حسن. ومن الناس من يورد هذا الحديث في مسند علي بن أبي طالب، كما وقع في مسند الإمام أحمد بن حنبل، والصحيح أنه علي بن طلق.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن سُهَيْل بن أبي صالح، عن الحارث بن مُخَلَّد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الذي يأتي امرأته في دبرها لا ينظر الله إليه». وحدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا سهيل، عن الحارث بن مخلد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها». وكذا رواه ابن ماجه من طريق سهيل. وحدثنا وكيع، حدثنا سفيان عن سهيل بن أبي صالح، عن الحارث بن مخلد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى امرأة في دبرها». وهكذا رواه أبو داود، والنسائي من طريق وكيع، به. طريق أخرى: قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني: أخبرنا أحمد بن القاسم بن الريان، حدثنا أبو عبد الرحمن النسائي، حدثنا هناد، ومحمد بن إسماعيل - واللفظ له - قالوا: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى امرأة في دبرها». ليس هذا الحديث هكذا في سنن النسائي، وإنما الذي فيه عن سهيل، عن الحارث بن مخلد، كما تقدم. قال شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي: ورواية أحمد بن القاسم بن الريان هذا الحديث بهذا السند، وَهَمَّ منه، وقد ضعفه. طريق أخرى: رواها مسلم بن خالد الزنجي، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ملعون من أتى النساء في أدبارهن». ومسلم بن خالد فيه كلام، والله أعلم. طريق أخرى: رواها الإمام أحمد، وأهل السنن من حديث حماد بن سلمة، عن حكيم الأثرم، عن أبي تيممة الهُجَينِي، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها، أو كاهناً فصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد». وقال الترمذي: ضعف البخاري هذا الحديث. والذي قاله البخاري في حديث حكيم الأثرم عن أبي تيممة: لا يتابع في حديثه. طريق أخرى: قال النسائي: حدثنا عثمان بن عبد الله، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن من كتابه، عن عبد الملك بن محمد الصنعاني، عن سعيد بن عبد العزيز، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «استحيوا من الله حق الحياء، لا تأتوا النساء في أدبارهن». تفرد به النسائي من هذا الوجه. قال حمزة بن محمد الكُتَّانِي الحافظ: هذا حديث منكر باطل من حديث الزهري، ومن حديث أبي سلمة ومن حديث سعيد؛ فإن كان عبد الملك سمعه من سعيد، فإنما سمعه بعد الاختلاط، وقد رواه الزهري عن أبي سلمة أنه كان ينهى عن ذلك، فأما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فلا. انتهى كلامه. وقد أجاد وأحسن الانتقاد؛ إلا أن عبد الملك بن محمد الصنعاني لا يعرف أنه اختلط، ولم يذكر ذلك أحد غير حمزة الكُتَّانِي، وهو ثقة، ولكن تكلم فيه دُحَيْم، وأبو حاتم، وابن حبان، وقال: لا يجوز الاحتجاج به، والله أعلم. وقد تابعه زيد بن يحيى بن عبيد، عن سعيد بن عبد العزيز. وروي من طريقين آخرين، عن أبي سلمة. ولا يصح منها شيء. طريق أخرى: قال النسائي: حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان الثوري، عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، عن أبي هريرة قال: إتيان الرجال النساء في أدبارهن كفر. ثم رواه، عن بُنْدَار، عن عبد الرحمن، به. قال: من أتى امرأة في دبرها ملك كفره. هكذا رواه النسائي، من طريق الثوري، عن ليث، عن مجاهد، عن أبي هريرة موقوفاً. وكذا رواه من طريق علي بن بزيمة، عن مجاهد،

عن أبي هريرة موقوفاً. ورواه بكر بن خنيس، عن ليث، عن مجاهد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «من أتى شيئاً من الرجال والنساء في الأدبار فقد كفر» والموقوف أصح، وبكر بن خنيس ضعفه غير واحد من الأئمة، وتركه آخرون.

حديث آخر: قال محمد بن أبان البلخي: حدثنا وكيع، حدثنا زغبة بن صالح، عن ابن طاوس، عن أبيه. وعن عمرو بن دينار، عن عبد الله بن يزيد بن الهاد قال: قال عمر بن الخطاب: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء في أدبارهن». وقد رواه النسائي: حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقاني، عن عثمان بن اليمان، عن زغبة بن صالح، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن الهاد، عن عمر قال: «لا تأتوا النساء في أدبارهن». وحدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا يزيد بن أبي حكيم، عن زغبة بن صالح، عن عمرو بن دينار، عن طاوس، عن عبد الله بن الهاد الليثي قال: قال عمر رضي الله عنه: استحيوا من الله، فإن الله لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء في أدبارهن. الموقوف أصح.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا غندر ومعاذ بن معاذ قال: حدثنا شعبه عن عاصم الأحول، عن عيسى بن حطان، عن مسلم بن سلام، عن طلق بن يزيد - أو يزيد بن طلق - عن النبي ﷺ قال: «إن الله لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء في أستاهن». وكذا رواه غير واحد، عن شعبه. ورواه عبد الرزاق، عن معمر، عن عاصم الأحول، عن عيسى بن حطان، عن مسلم بن سلام، عن طلق بن علي، والأشبه أنه علي بن طلق، كما تقدم، والله أعلم.

حديث آخر: قال أبو بكر الأثرم في سننه: حدثنا أبو مسلم الحرزمي، حدثنا أخى أنيس بن إبراهيم أن أباه إبراهيم بن عبد الرحمن بن القعقاع أخبره، عن أبيه أبي القعقاع، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «محاش النساء حرام». وقد رواه إسماعيل بن عليه، وسفيان الثوري، وشعبة، وغيرهم، عن أبي عبد الله الشقري - واسمه سلمة بن تمام: ثقة - عن أبي القعقاع، عن ابن مسعود - موقوفاً. وهو أصح. طريق أخرى: قال ابن عدي: حدثنا أبو عبد الله المحاملي، حدثنا سعيد بن يحيى الأموي، حدثنا محمد بن حمزة، عن زيد بن رفيع عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تأتوا النساء في أعجازهن»، محمد بن حمزة هو الجزري، وشيخه فيهما مقال. وقد روي من حديث أبي بن كعب، والبراء بن عازب، وعقبة بن عامر، وأبي ذر، وغيرهم. وفي كل منها مقال لا يصح معه الحديث، والله أعلم. وقال الثوري، عن الصلت بن بهرام، عن أبي المعتمر، عن أبي جويرية قال: سألت رجل علياً عن إتيان المرأة في دبرها، فقال: سفلت، سفل الله بك! ألم تسمع إلى قول الله ﷻ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحْوَرِكِ الْعَلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]. وقد تقدم قول ابن مسعود، وأبي الدرداء، وأبي هريرة، وابن عباس، وعبد الله بن عمرو في تحريم ذلك، وهو الثابت بلا شك عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، أنه يحرمه. قال أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي في مستنده: حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا الليث عن الحارث بن يعقوب، عن سعيد بن يسار أبي الحباب قال: قلت لابن عمر: ما تقول في الجوارى، أنحمض لهن؟ قال: وما التحميض؟ فذكر الدبر. فقال: وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين؟. وكذا رواه ابن وهب وقتيبة، عن الليث، به. وهذا إسناد صحيح ونص صريح منه بتحريم ذلك، فكل ما ورد عنه مما يحتمل ويحتمل فهو مردود إلى هذا المحكم. وقال ابن جرير: حدثني عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد بن أبي الغمر، حدثني عبد الرحمن بن القاسم، عن مالك بن أنس أنه قيل له: يا أبا عبد الله، إن الناس يروون عن سالم بن عبد الله أنه قال: كذب العبد، أو العلاج، على أبي عبد الله فقال مالك: أشهد على يزيد بن رومان أنه أخبرني، عن سالم بن عبد الله، عن ابن عمر مثل ما قال نافع. فقيل له: فإن الحارث بن يعقوب يروي عن أبي الحباب سعيد بن يسار: أنه سأل ابن عمر فقال له: يا أبا عبد الرحمن، إنا نشترى الجوارى أنحمض لهن؟ فقال: وما التحميض؟ فذكر له الدبر. فقال ابن عمر: أف! أف! يفعل ذلك مؤمن - أو قال: مسلم - فقال مالك: أشهد على ربيعة لأخبرني عن أبي الحباب، عن ابن عمر، مثل ما قال نافع. وروى النسائي، عن الربيع بن سليمان، عن أصبغ بن الفرغ الفقيه، حدثنا عبد الرحمن بن القاسم قال: قلت لمالك: إن عندنا بمصر الليث بن سعد يحدث عن الحارث بن يعقوب، عن سعيد بن يسار، قال: قلت لابن عمر: أنا نشترى الجوارى، فنحمض لهن؟ قال: وما التحميض؟ قلت: نأتيهن في أدبارهن. فقال: أف! أف! أو يعمل هذا مسلم؟ فقال لي مالك: فأشهد على ربيعة لأحدثني عن سعيد بن يسار أنه سأل ابن عمر، فقال: لا بأس به. وروى النسائي أيضاً من طريق يزيد بن رومان، عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر أن ابن عمر كان لا يرى بأساً أن يأتي الرجل المرأة في دبرها. وروى معمر بن عيسى، عن مالك: أن ذلك حرام. وقال أبو بكر بن زياد النيسابوري: حدثني إسماعيل بن حصن، حدثني إسماعيل بن روح: سألت مالك بن أنس: ما تقول في إتيان النساء في أدبارهن؟ قال: ما أنتم قوم عرب. هل يكون الحرث إلا موضع الزرع، لا تعدو الفرج. قلت: يا أبا عبد الله، إنهم يقولون:

إنك تقول ذلك؟! قال: يكذبون علي، يكذبون علي. فهذا هو الثابت عنه، وهو قول أبي حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة. وهو قول سعيد بن المسيب، وأبي سلمة، وعكرمة، وطاوس، وعطاء، وسعيد بن جبير، وعروة بن الزبير، ومجاهد بن جبر، والحسن وغيرهم من السلف: أنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار، ومنهم من يطلق على فاعله الكفر، وهو مذهب جمهور العلماء. وقد حكى في هذا شيء عن بعض فقهاء أهل المدينة، حتى حكوه عن الإمام مالك، وفي صحته عنه نظر. وقد روى ابن جرير في كتاب النكاح له وجمعه عن يونس بن عبد الأحوص بن وهب بإحاطة. قال الطحاوي: روى أصبغ بن الفرّج، عن عبد الرحمن بن القاسم قال: ما أدركت أحداً اقتدي به في ديني يشك في أنه حلال. يعني وطء المرأة في دبرها. ثم قرأ: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ﴾ ثم قال: فأني شيء أبين من هذا؟ هذه حكاية الطحاوي. وقد روى الحاكم، والدارقطني، والخطيب البغدادي، عن الإمام مالك من طرق ما يقتضي إباحة ذلك. ولكن في الأسانيد ضعف شديد، وقد استقصاها شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي في جزء جمعه في ذلك، فالله أعلم.

وقال الطحاوي: حكى لنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أنه سمع الشافعي يقول: ما صح عن النبي ﷺ في تحليله ولا تحريمه شيء. والقياس أنه حلال. وقد روى ذلك أبو بكر الخطيب، عن أبي سعيد الصيرفي، عن أبي العباس الأصم، سمعت محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، سمعت الشافعي يقول... فذكر. قال أبو نصر بن الصبّاغ: كان الربيع يحلف بالله الذي لا إله إلا هو: لقد كذب. يعني ابن عبد الحكم - على الشافعي في ذلك فإن الشافعي نص على تحريمه في ستة كتب من كتبه، والله أعلم. وقال القرطبي في تفسيره: وممن ينسب إليه هذا القول - وهو إباحة وطء المرأة في دبرها - سعيد بن المسيب ونافع وابن عمر ومحمد بن كعب القرظي وعبد الملك بن الماجشون. وهذا القول في العتبية. وحكى ذلك عن مالك في كتاب له أسماء كتاب السر، وحذاق أصحاب مالك ومشايخهم ينكرون ذلك الكتاب، ومالك أجل من أن يكون له كتاب السر، ووقع هذا القول في العتبية وذكر ابن العربي أن ابن شعبان أسند هذا القول إلى زمرة كبيرة من الصحابة والتابعين وإلى مالك من رواية كثيرة من كتاب جماع النسوان وأحكام القرآن هذا لفظه قال: وحكى الكيا الهراسي الطبري عن محمد بن كعب القرظي أنه استدلى على جواز ذلك بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْمَكِينِ﴾ ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]. يعني مثله من المباح ثم رده بأن المراد بذلك من خلق الله لهم من فروج النساء لا أدبارهن قلت: وهذا هو الصواب وما قاله القرظي إن كان صحيحاً إليه خطأ. وقد صنف الناس في هذه المسألة مصنفات منهم أبو العباس القرطبي وسمى كتابه إظهار إيدار من أجاز الوطء في الأدبار.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: من فعل الطاعات، مع امتثال ما نهاكم عنه من ترك المحرمات؛ ولهذا قال: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: فيحاسبكم على أعمالكم جميعاً. ﴿وَنُفِثَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المطيعين لله فيما أمرهم، التاركين ما عنه زجرهم. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا حسين، حدثني محمد بن كثير، عن عبد الله بن واقد، عن عطاء - قال: أراه عن ابن عباس -: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ قال: يقول: «باسم الله»، التسمية عند الجماع. وقد ثبت في صحيح البخاري، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: باسم الله، اللهم جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً».

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْتَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَاللَّهِ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُحْشِ إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾

يقول تعالى: لا تجعلوا إيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر وصلة الرحمن إذا حلقتكم على تركها، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِي أُولَ الْفَضْلِ يَنْكَرُ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتَى أُولَى الْقُرْبَى وَالْمُسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمُوا لِيَصْنَعُوا آلَا جُنُودٍ أَنْ يَتَغَفَرَ اللَّهُ لَكُمْ وَلِلَّهِ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، فالاستمرار على اليمين آثم لصاحبها من الخروج منها بالكفر. كما قال البخاري: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن همام بن منبه، قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة»، وقال رسول الله ﷺ: «والله لأن يلج أحدكم بيمينه في أهله آثم له عند الله من أن يعطي كفارته التي افترض الله عليه» وهكذا رواه مسلم، عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، به، ورواه أحمد، عنه، به. ثم قال البخاري: حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا معاوية، هو ابن سلام، عن يحيى، وهو ابن أبي كثير، عن عكرمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من استلج في أهله يمين، فهو أعظم إثماً، ليس تغني الكفارة». وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْتَانِكُمْ﴾ قال: لا تجعلن عرضة ليمينك ألا

تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير. وهكذا قال مسروق، والشعبي، وإبراهيم النخعي، ومجاهد، وطاوس، وسعيد بن جبير، وعطاء، وعكرمة، ومكحول، والزهري، والحسن، وقتادة، ومقاتل بن حيان، والربيع بن أنس، والضحاك، وعطاء الخراساني، والسدي.

ويؤيد ما قاله هؤلاء الجمهور ما ثبت في الصحيحين، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني والله - إن شاء الله - لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللته»، وثبت فيهما أيضاً أن رسول الله ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة: «يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت خيراً منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك». وروى مسلم، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها، فليكفر عن يمينه، وليفعل الذي هو خير». وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا خليفة بن خياط، حدثني عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها فتركها كفارتها». ورواه أبو داود من طريق عبيد الله بن الأخنس، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا نذر ولا يمين فيما لا يملك ابن آدم، ولا في معصية الله، ولا في قطيعة رحم، ومن حلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها فليدعها، وليأت الذي هو خير، فإن تركها كفارتها». ثم قال أبو داود: والأحاديث عن النبي ﷺ كلها: «فليكفر عن يمينه» وهي الصحيح. وقال ابن جرير: حدثنا علي بن سعيد الكندي، حدثنا علي بن مسهر، عن حارثة بن محمد، عن عمرة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على قطيعة رحم أو معصية، فبره أن يحث فيها ويرجع عن يمينه». وهذا حديث ضعيف؛ لأن حارثة هذا هو ابن أبي الرجال محمد بن عبد الرحمن، متروك الحديث، ضعيف عند الجميع. ثم روى ابن جرير عن ابن جبير، وسعيد بن المسيب، ومسروق، والشعبي: أنهم قالوا: لا يمين في معصية، ولا كفارة عليها.

وقوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْتِنِكُمْ﴾ أي: لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية، وهي التي لا يقصدها الحالف، بل تجري على لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد، كما ثبت في الصحيحين من حديث الزهري، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف فقال في حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله» فهذا قاله لقوم حديثي عهد بجاهلية، قد أسلموا وألستهم قد ألفت ما كانت عليه من الحلف باللات من غير قصد، فأمرُوا أن يتلفظوا بكلمة الإخلاص، كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد، لتكون هذه بهذه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَوَّزٌ حَلِيمٌ﴾ كما قال في الآية الأخرى في المائدة: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْتَانَ﴾ [المائدة: ٨٩]. قال أبو داود: باب لغو اليمين: حدثنا حميد بن مسعدة الشامي حدثنا حسان - يعني ابن إبراهيم - حدثنا إبراهيم - يعني الصائغ - عن عطاء: في اللغو في اليمين، قال: قالت عائشة: إن رسول الله ﷺ قال: «هو كلام الرجل في بيته: كلا والله وبلى والله». ثم قال أبو داود: رواه داود بن أبي الفرات، عن إبراهيم الصائغ، عن عطاء، عن عائشة موقوفاً. ورواه الزهري، وعبد الملك، ومالك بن مغول، كلهم عن عطاء، عن عائشة، موقوفاً أيضاً. قلت: وكذا رواه ابن جريج، وابن أبي ليلى، عن عطاء، عن عائشة، موقوفاً. ورواه ابن جرير، عن هناد، عن وكيع، وعبد، وأبي معاوية، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة في قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْتِنِكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] قالت: لا والله، وبلى والله. ثم رواه عن محمد بن حميد، عن سلمة، عن ابن إسحاق، عن هشام، عن أبيه، عنها. وبه، عن ابن إسحاق، عن الزهري، عن القاسم، عنها. وبه، عن سلمة عن ابن أبي نجيح، عن عطاء، عنها. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة في قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْتِنِكُمْ﴾ قالت: هم القوم يتدارؤون في الأمر، فيقول هذا: لا والله، وبلى والله، وكلا والله يتدارؤون في الأمر: لا تعقد عليه قلوبهم. وقد قال ابن أبي حاتم: أخبرنا هارون بن إسحاق الهمداني، حدثنا عبدة - يعني ابن سليمان - عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة في قول الله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْتِنِكُمْ﴾ قالت: هو قول الرجل: لا والله، وبلى والله. وحدثنا أبي، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، حدثني ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة قال: كانت عائشة تقول: إنما اللغو في المزاح والهزل، وهو قول الرجل: لا والله، وبلى والله. فذاك لا كفارة فيه، إنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله، ثم لا يفعله. ثم قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عمر، وابن عباس في أحد أقواله، والشعبي، وعكرمة في أحد قوليه، وعطاء، والقاسم بن محمد، ومجاهد في أحد قوليه، وعروة بن الزبير، وأبي صالح، والضحاك في أحد قوليه، وأبي قلاب، والزهري، نحو ذلك. الوجه الثاني: قرئ على يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني الثقة، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة: أنها كانت تتأول

هذه الآية - يعني قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُحْوَ فِي آيَاتِكُمْ﴾ وتقول: هو الشيء يحلف عليه أحدكم، لا يريد منه إلا الصدق، فيكون على غير ما حلف عليه. ثم قال: وروي عن أبي هريرة، وابن عباس - في أحد قوليه - وسعيد بن جبيرة، ومجاهد - في أحد قوليه - وإبراهيم النخعي - في أحد قوليه - والحسن، وزرارة بن أوفى، وأبي مالك، وعطاء الخراساني، وبكر بن عبد الله، وأحد قوليه عكرمة، وحبيب بن أبي ثابت، والسدي، ومكحول، ومقاتل، وطاوس، وقتادة، والربيع بن أنس، ويحيى بن سعيد، وربيعة، نحو ذلك.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن موسى الحرشي، حدثنا عبد الله بن ميمون المرالي، حدثنا عوف الأعرابي عن الحسن بن أبي الحسن، قال: مر رسول الله ﷺ يقوم ينتضلون - يعني: يرمون - ومع رسول الله ﷺ رجل من أصحابه، فرمى رجل من القوم فقال: أصبت والله وأخطأت والله. فقال الذي مع النبي ﷺ: حنث الرجل يا رسول الله. قال: «كلا، أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها ولا عقوبة» هذا مرسل حسن عن الحسن. وقال ابن أبي حاتم: وروي عن عائشة القولان جميعاً. حدثنا عصام بن رواد، أخبرنا آدم، أخبرنا شيبان، عن جابر، عن عطاء بن أبي رباح، عن عائشة قالت: هو قوله: لا والله، وبلى والله، وهو يرى أنه صادق، ولا يكون كذلك.

أقوال آخر: قال عبد الرزاق، عن هشيم، عن مغيرة، عن إبراهيم: هو الرجل يحلف على الشيء ثم ينساه. وقال زيد بن أسلم: هو قول الرجل: أعمى الله بصري إن لم أفعل كذا وكذا، أخرجنى الله من مالي إن لم أتك غداً، فهو هذا. قال ابن أبي حاتم: وحدثنا علي بن الحسين، حدثنا مسدد، حدثنا خالد، أخبرنا عطاء، عن طاوس، عن ابن عباس قال: لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان. وأخبرني أبي، أخبرنا أبو الجماهر، حدثنا سعيد بن بشير، حدثني أبو بشر، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: لغو اليمين أن تحرم ما أحل الله لك، فذلك ما ليس عليك فيه كفارة، وكذا روي عن سعيد بن جبيرة. وقال أبو داود «باب اليمين في الغضب»: حدثنا محمد بن المنهال، أنبأنا يزيد بن زريع، حدثنا حبيب المعلم، عن عمرو بن شعيب، عن سعيد بن المسيب: أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث، فسأل أحدهما صاحبه القسمة فقال: إن عدت تسألني عن القسمة، فكل مالي في رتاج الكعبة. فقال له عمر: إن الكعبة غنية عن مالك، كفر عن يمينك وكلم أخاك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يمين عليك، ولا نذر في معصية الرب ﷻ، ولا في قطيعة الرحم، وفيما لا تملك».

وقوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: هو أن يحلف على الشيء وهو يعلم أنه كاذب. قال مجاهد وغيره: وهي كقوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ الآية [المائدة: ٨٩]. «وَاللَّهُ عَفْوٌ حَلِيمٌ» أي: غفور لعباده، حلیم عليهم.

﴿لَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَابِهِمْ تَرَبُّوا أَنَّهُمْ أَنَشْرُ فَإِنْ قَالُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَّحِيمٌ﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾.

الإيلاء: الحلف، فإذا حلف الرجل ألا يجامع زوجته مدة، فلا يخلو: إما أن يكون أقل من أربعة أشهر، أو أكثر منها، فإن كانت أقل، فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته، وعليها أن تصبر، وليس لها مطالبة بالفيئة في هذه المدة، وهذا كما ثبت في الصحيحين عن عائشة: أن رسول الله ﷺ أتى من نسائه شهراً، فنزل تسع وعشرين، وقال: «الشهر تسع وعشرون» ولهما عن عمر بن الخطاب نحوه. فأما إن زادت المدة على أربعة أشهر، فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر: إما أن يفىء - أي: يجامع - وإما أن يطلق، فيجبره الحاكم على هذا أو هذا لئلا يضر بها. ولهذا قال تعالى: ﴿لَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ أي: يحلفون على ترك الجماع من نسائهم، فيه دلالة على أن الإيلاء يختص بالزوجات دون الإماء كما هو مذهب الجمهور. ﴿تَرَبُّوا أَنَّهُمْ أَنَشْرُ﴾ أي: ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف، ثم يوقف ويطلب بالفيئة أو الطلاق. ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: رجعوا إلى ما كانوا عليه، وهو كناية عن الجماع، قاله ابن عباس، ومسروق والشعبي، وسعيد بن جبيرة، وغير واحد، ومنهم ابن جرير رحمه الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين. وقوله: ﴿فَإِنْ قَالُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه دلالة لأحد قوليه العلماء - وهو القديم عن الشافعي: أن المولي إذا فاء بعد الأربعة الأشهر أنه لا كفارة عليه. ويعتضد بما تقدم في الآية التي قبلها، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فتركها كفارتها»، كما رواه أحمد وأبو داود، والذي عليه الجمهور وهو الجديد من مذهب الشافعي أن عليه الكفارة لعموم وجوب التكفير على كل حالف، كما تقدم أيضاً في الأحاديث الصحاح. والله أعلم. وقد ذكر الفقهاء وغيرهم - في مناسبة تأجيل المولي بأربعة أشهر - الأثر الذي رواه الإمام مالك بن أنس، رحمه الله، في الموطأ، عن عمرو بن دينار قال: خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول:

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ وَاسْوَدَّ جَانِبُهُ
فَوَاللهَ لَوَلَا اللهُ أَنِّي أَرَأَيْتُ
أَرْقُنِي إِلَّا خَلِيلَ الْأَعْبَةِ
لَحَرَّكَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهُ

فسأل عمر ابنته حفصة، رضي الله عنها: كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: ستة أشهر أو أربعة أشهر. فقال عمر: لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك. وقال: محمد بن إسحاق، عن السائب بن جبير، مولى ابن عباس - وكان قد أدرك أصحاب النبي ﷺ - قال: ما زلت أسمع حديث عمر أنه خرج ذات ليلة يطوف بالمدينة، وكان يفعل ذلك كثيراً؛ إذ مر بامرأة من نساء العرب مغلفة بابها وهي تقول:

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ وَاسْوَدَّ جَانِبُهُ
الْأَعْبَةِ طَوَّاراً وَطَوَّاراً كَأَنَّمَا
يَسْرَبُهُ مِنْ كَانَ يَلْهُو بِقَرْبِهِ
فَوَاللهَ لَوَلَا اللهُ لَا شَيْءٌ غَيْرُهُ
وَلَكِنِّي أَخْشَى رَقِيباً مُوَكَّلَا

ثم ذكر بقية ذلك كما تقدم، أو نحوه. وقد روي هذا من طرق، وهو من المشهورات. وقوله: ﴿وَلَنْ عَزَّوَاللَّهِ﴾: فيه دلالة على أنه لا يقع الطلاق بمجرد مضي الأربعة أشهر كقول الجمهور، وذهب آخرون إلى أنه يقع بمضي الأربعة أشهر تلبية، وهو مروي بأسانيد صحيحة عن عمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وبه يقول ابن سيرين، ومسروق، والقاسم، وسالم، والحسن، وأبو سلمة، وقتادة، وشريح القاضي، وقبيصة بن ذؤيب، وعطاء، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وسليمان بن طرخان التيمي، وإبراهيم النخعي، والربيع بن أنس، والسدي. ثم قيل: إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر طلقة رجعية؛ قاله سعيد بن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، ومكحول، وربيع، والزهري، ومروان بن الحكم. وقيل إنها تطلق طلقة بائة، روي عن علي، وابن مسعود، وعثمان، وابن عباس، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وبه يقول: عطاء، وجابر بن زيد، ومسروق وعكرمة، والحسن، وابن سيرين، ومحمد بن الحنفية، وإبراهيم، وقبيصة بن ذؤيب، وأبو حنيفة، والثوري، والحسن بن صالح، وكل من قال: إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر أوجب عليها العدة، إلا ما روي عن ابن عباس وأبي الشعثاء: أنها إن كانت حاضت ثلاث حيض فلا عدة عليها، وهو قول الشافعي، والذي عليه الجمهور أنه يوقف فيطالب إما بهذا أو هذا، ولا يقع عليها بمجرد مضيها طلاق. وروى مالك، عن نافع، عن عبد الله بن عمر أنه قال: إذا ألكى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر، حتى يوقف، فلما أن يطلق، وإما أن يفىء. وأخرجه البخاري. وقال الشافعي، رحمه الله: أخبرنا سفيان بن عيينة، عن يحيى بن سعيد، عن سليمان بن يسار قال: أدركت بضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ كلهم يوقف المولي قال الشافعي: وأقل ذلك ثلاثة عشر. ورواه الشافعي عن علي رضي الله عنه: أنه وقف المولي. ثم قال: وهكذا نقول، وهو موافق لما روينا عن عمر، وابن عمر، وعائشة، وعن عثمان، وزيد بن ثابت، وبضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ. هكذا قال الشافعي، رحمه الله. وقال ابن جرير: حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن عمر، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه قال: سألت اثني عشر رجلاً من الصحابة عن الرجل يولي من امرأته، فكلهم يقول: ليس عليه شيء حتى تمضي أربعة أشهر فيوقف، فإن فاء وإلا طلق. ورواه الدارقطني من طريق سهيل. قلت: وهو مروي عن عمر، وعثمان، وعلي، وأبي الدرداء، وعائشة أم المؤمنين، وابن عمر، وابن عباس. وبه يقول سعيد بن المسيب، وعمر بن عبد العزيز، ومجاهد، وطاوس، ومحمد بن كعب، والقاسم. وهو مذهب مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وأصحابهم، رحمهم الله، وهو اختيار ابن جرير أيضاً، وهو قول الليث بن سعد، وإسحاق بن راهويه، وأبي عبيد، وأبي ثور، ودادود، وكل هؤلاء قالوا: إن لم يفىء ألزم بالطلاق، فإن لم يطلق طلق عليه الحاكم، والطلقة تكون رجعية له رجعتها في العدة. وانفرد مالك بأن قال: لا يجوز له رجعتها حتى يجامعها في العدة، وهذا غريب جداً.

﴿وَالَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مَلَأُوا مَوَازِينَهُمْ بِالْإِيمَانِ أَفْئِدَتُهُمْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا وَإِنَّ اللَّهَ خَلْقَ مَا ظَنُّوا أَن يَخْلُقَ لَهُمْ أَفْئِدَتَهُمْ فَلْيُقْضَىٰ لَهُمْ فِي الْأَعْيُنِ وَأَنزِلُ الْوَيْلَ الْآخِرَ وَوَيْلٌ لِّمَنْ يَكْفُرْ﴾

هذا الأمر من الله سبحانه وتعالى للمطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء، بأن يترصدن بأنفسهن ثلاثة قروء، أي: بأن تمكث

إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء؛ ثم تتزوج إن شاءت، وقد أخرج الأئمة الأربعة من هذا العموم الأمة إذا طُلِّقت، فإنها تعتدّ عندهم بقرءين، لأنها على النصف من الحرية، والقُرء لا يتبعض، فكمّل لها قرءان. ولما رواه ابن جريج عن مظاهر بن أسلم المخزومي المدني، عن القاسم، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان». رواه أبو داود، والترمذي وابن ماجة. ولكن مظاهر هذا ضعيف بالكلية. وقال الحافظ الدارقطني وغيره: الصحيح أنه من قول القاسم بن محمد نفسه. ورواه ابن ماجة من طريق عطية العوفي عن ابن عمر مرفوعاً. قال الدارقطني: والصحيح ما رواه سالم ونافع، عن ابن عمر قوله. وهكذا روي عن عمر بن الخطاب. قالوا: ولم يعرف بين الصحابة خلاف. وقال بعض السلف: بل عدتها كعدة الحرة لعموم الآية؛ ولأن هذا أمر جليّ فكان الإمام والحرائر في هذا سواء، والله أعلم، حكى هذا القول الشيخ أبو عمر بن عبد البر، عن محمد بن سيرين وبعض أهل الظاهر، وضعفه. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل - يعني ابن عتيّاش - عن عمرو بن مهاجر، عن أبيه: أن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية قالت: طُلِّقت على عهد رسول الله ﷺ، ولم يكن للمطلقة عدة، فأنزل الله ﷻ، حين طلقت أسماء العدة للمطلاق، فكانت أول من نزلت فيها العدة للمطلاق، يعني: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾. هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقد اختلف السلف والخلف والأئمة في المراد بالأقراء ما هو؟ على قولين:

أحدهما: أن المراد بها: الأطهار، وقال مالك في الموطأ عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة أنها قالت: انتقلت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، حين دخلت في الدم من الحيضة الثالثة، قال الزهري: فذكرت ذلك لعمرة بنت عبد الرحمن، فقالت: صدق عروة. وقد جادلها في ذلك ناس فقالوا: إن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ فقالت عائشة: صدقتم، وتدرّون ما الأقراء؟ إنما الأقراء: الأطهار. وقال مالك: عن ابن شهاب، سمعت أبا بكر بن عبد الرحمن يقول: ما أدركت أحداً من فقهاءنا إلا وهو يقول ذلك، يريد قول عائشة. وقال مالك: عن نافع، عن عبد الله بن عمر، أنه كان يقول: إذا طلق الرجل امرأته فدخلت في الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه ويرى منها. وقال مالك: وهو الأمر عندنا. وروي مثله عن ابن عباس، وزيد بن ثابت، وسالم، والقاسم، وعروة، وسليمان بن يسار، وأبي بكر بن عبد الرحمن، وأبان بن عثمان، وعطاء بن أبي رباح، وقتادة، والزهري، وبقية الفقهاء السبعة، وهو مذهب مالك، والشافعي وغير واحد وداود وأبي ثور، وهو رواية عن أحمد، واستدلوا عليه بقوله تعالى: ﴿طَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتِ﴾ [الطلاق: ١] أي: في الأطهار. ولما كان الطهر الذي يطلق فيه محتسباً، دل على أنه أحد الأقراء الثلاثة المأمور بها؛ ولهذا قال هؤلاء: إن المعتدة تنقضي عدتها وتبين من زوجها بالطلعن في الحيضة الثالثة، وأقل مدة تصدق فيها المرأة في انقضاء عدتها اثنان وثلاثون يوماً ولحظتان. واستشهد أبو عبيد وغيره على ذلك بقول الشاعر - وهو الأعشى -:

ففي كل عام أنت جاشم غزوة تشد لأتصاهما عزيماً عزائكا
مؤزّنة عدداً، وفي الحي رفعة لما ضاع فيها من قروء نسائك
يمدح أميراً من أمراء العراب أثر الغزو على المقام، حتى ضاعت أيام الطهر من نسائه لم يواقعهن فيها.

والقول الثاني: أن المراد بالأقراء: الحيض، فلا تنقضي العدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة، زاد آخرون: وتغتسل منها. وأقل وقت تصدق فيه المرأة في انقضاء عدتها ثلاثة وثلاثون يوماً ولحظة. قال الثوري: عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة قال: كنا عند عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فجاءته امرأة فقالت: إن زوجي فارقتي بواحدة أو اثنتين، فجاءني وقد وضعت مائي وقد نزع ثيابي وأغلقت بابي. فقال عمر لعبد الله - يعني ابن مسعود - ما ترى؟ قال: أراها امرأته، ما دون أن تحل لها الصلاة. قال عمر: وأنا أرى ذلك. وهكذا روي عن أبي بكر الصديق، وعمر، وعثمان، وعلي، وأبي الدرداء، وعبادة بن الصامت، وأنس بن مالك، وابن مسعود، ومعاذ، وأبي بن كعب، وأبي موسى الأشعري، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعلقمة، والأسود، وإبراهيم، ومجاهد، وعطاء، وطاوس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومحمد بن سيرين، والحسن، وقتادة، والشعبي، والربيع، ومقاتل بن حيان، والسدي، ومكحول، والضحاك، وعطاء الخراساني، أنهم قالوا: الأقراء: الحيض. وهذا مذهب أبي حنيفة وأصحابه، وأصح الروايتين عن الإمام أحمد بن حنبل، وحكى عنه الأثر أنه قال: الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: الأقراء الحيض. وهو مذهب الثوري، والأوزاعي، وابن أبي ليلى، وابن شبرمة، والحسن بن صالح بن حّتي، وأبي عبيد، وإسحاق بن راهويه. ويؤيد هذا ما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود والنسائي، من طريق

المندر بن المغيرة، عن عروة بن الزبير، عن فاطمة بنت أبي حبيش، أن رسول الله ﷺ قال لها: «دعي الصلاة أيام أقرائك». فهذا لو صح لكان صريحاً في أن القرء هو الحيض، ولكن المندر هذا قال فيه أبو حاتم: مجهول ليس بمشهور. وذكره ابن حبان في الثقات. وقال ابن جرير: أصل القرء في كلام العرب: «الوقت لمجيء الشيء المعتاد مجيئه في وقت معلوم، ولإدبار الشيء المعتاد إدباره لوقت معلوم». وهذه العبارة تقتضي أن يكون مشتركاً بين هذا وهذا، وقد ذهب إليه بعض العلماء الأصوليين فالله أعلم. وهذا قول الأصمعي: أن القرء هو الوقت. وقال أبو عمرو بن العلاء: العرب تسمي الحيض: قرءاً، وتسمي الطهر: قرءاً، وتسمى الحيض مع الطهر جميعاً: قرءاً. وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر: لا يختلف أهل العلم بلسان العرب والفقهاء أن القرء يراد به الحيض ويراد به الطهر، وإنما اختلفوا في المراد من الآية ما هو على قولين.

وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ يَكُنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أََرْحَامِهِنَّ﴾ أي: من حبل أو حيض. قاله ابن عباس، وابن عثر، ومجاهد، والشعبي، والحكم بن عتيبة، والربيع بن أنس، والضحاك، وغير واحد. وقوله: ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: تهديد لهن على قول خلاف الحق. ودل هذا على أن المرجع في هذا إليهن؛ لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن، وتتعدى إقامة البينة غالباً على ذلك، فرد الأمر إليهن، وتوعدن فيه، لئلا تخبر بغير الحق إما استعجالاً منها لانقضاء العدة، أو رغبة منها في تطويلها، لما لها في ذلك من المقاصد. فأمرت أن تخبر بالحق في ذلك من غير زيادة ولا نقصان. وقوله: ﴿وَيُؤْمِنُ أَكْثَرُ رِجَالٍ إِنْ أَرَادُوا مُصْلَحًا﴾ أي: وزوجها الذي طلقها أحق بردها ما دامت في عدتها، إذا كان مراده بردها الإصلاح والخير. وهذا في الرجعات. فاما المطلقات البوائن فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن، وإنما صار ذلك لما حُصروا في الطلقات الثلاث، فاما حال نزول هذه الآية فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة، فلما قصروا في الآية التي بعدها على ثلاث طلقات، صار للناس مطلقة بائن وغير بائن. وإذا تأملت هذا تبين لك ضعف ما سلكه بعض الأصوليين، من استشهداهم على مسألة عود الضمير. هل يكون مخصصاً لما تقدمه من لفظ العموم أم لا؟ - بهذه الآية الكريمة، فإن التمثيل بها غير مطابق لما ذكره، والله أعلم. وقوله: ﴿وَمَنْ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف، كما ثبت في صحيح مسلم، عن جابر، أن رسول الله ﷺ قال في خطبته، في حجة الوداع: «فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف». وفي حديث بهز بن حكيم، بن معاوية بن خديجة القشيري، عن أبيه، عن جده، أنه قال: يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا؟ قال: «أن تطعمها إذا طعنت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت». وقال وكيع عن بشير بن سليمان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: إني لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تزين لي المرأة؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَنْ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. وقوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أي: فكأن الله بصفتهن على بعض ويمكن أنفقوا من أموالهم. أي: في الفضيلة في الخلق، والمنزلة، وطاعة الأمر، والإنفاق، والقيام بالمصالح، والفضل في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أي: فكأن الله بصفتهن على بعض ويمكن أنفقوا من أموالهم. [النساء: ٣٤]. وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، حكيم في أمره وشرعه وقدره.

﴿الطَّلَقُ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ سَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَرِيحُ بِإِخْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُعْصِيََا اللَّهَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُعْصِيََا اللَّهَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيَا أَفْكَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهَا مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ طَلَّقَا أَنْ يَفْعَمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٢٣٠).

هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته، وإن طلقها مائة مرة ما دامت في العدة، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله ﷻ إلى ثلاث طلقات، وأباح الرجعة في المرة والثنتين، وأبانها بالكلية في الثالثة، فقال: ﴿الطَّلَقُ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ سَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَرِيحُ بِإِخْسَانٍ﴾. قال أبو داود، رحمه الله، في سننه: «باب في نسخ المراجعة بعد الطلقات الثلاث»: حدثنا أحمد بن محمد المروزي، حدثني علي بن الحسين بن واقد، عن أبيه، عن يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَالطَّلَاقُ ثَلَاثَةٌ فَرَوْوُ وَلَا يَحِلُّ لِمَنْ أَنْ يَكُنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أََرْحَامِهِنَّ﴾ الآية: وذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعته، وإن طلقها ثلاثاً، فنسخ ذلك فقال: ﴿الطَّلَقُ مَرَّتَيْنِ﴾ الآية. ورواه النسائي عن زكريا بن يحيى، عن إسحاق بن إبراهيم، عن علي بن الحسين، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا عبدة - يعني ابن سليمان - عن هشام بن عروة، عن أبيه، أن رجلاً قال لامرأته: لا أطلقك أبداً ولا أؤويك أبداً.

قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك، حتى إذا دنا أجلك راجعتك. فأتت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾. وهكذا رواه ابن جرير في تفسيره من طريق جرير بن عبد الحميد، وابن إدريس. ورواه عبد بن حميد في تفسيره، عن جعفر بن عون، كلهم عن هشام، عن أبيه. قال: كان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها ما شاء، ما دامت في العدة، وإن رجلا من الأنصار غضب على امرأته فقال: والله لا أؤويك ولا أفارئك. قالت: وكيف ذلك. قال: أطلقك فإذا دنا أجلك راجعتك، ثم أطلقك، فإذا دنا أجلك راجعتك. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله ﷻ: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾. قال: فاستقبل الناس الطلاق، من كان طلق ومن لم يكن طلق. وقد رواه أبو بكر بن مَرْزُوق، من طريق محمد بن سليمان، عن يعلى بن شبيب - مولى الزبير - عن هشام، عن أبيه، عن عائشة فذكره بنحو ما تقدم. ورواه الترمذي، عن قتيبة، عن يعلى بن شبيب به. ثم رواه عن أبي كريب، عن ابن إدريس، عن هشام، عن أبيه مرسلًا. وقال: هذا أصح. ورواه الحاكم في مستدركه، من طريق يعقوب بن حميد بن كاسب، عن يعلى بن شبيب به، وقال صحيح الإسناد. ثم قال ابن مَرْزُوق: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا إسماعيل بن عبد الله، حدثنا محمد بن حميد، حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: لم يكن للطلاق وقت، يطلق الرجل امرأته ثم يراجعها ما لم تنقض العدة، وكان بين رجل من الأنصار وبين أهله بعض ما يكون بين الناس، فقال: والله لأتركك لا أئماً ولا ذات زوج، فجعل يطلقها حتى إذا كادت العدة أن تنقضي راجعها، ففعل ذلك مراراً، فأنزل الله ﷻ فيه: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾. فوقت الطلاق ثلاثاً لا رجعة فيه بعد الثالثة، حتى تنكح زوجاً غيره. وهكذا روي عن قتادة مرسلًا. وذكره السدي، وابن زيد، وابن جرير كذلك، واختار أن هذا تفسير هذه الآية.

وقوله: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ أي: إذا طلقتهما واحدة أو اثنتين، فأنت مخير فيها ما دامت عدتها باقية، بين أن تردها إليك ناوياً الإصلاح بها والإحسان إليها، وبين أن تركها حتى تنقضي عدتها، فتبين منك، وتطلق سراحها محسناً إليها، لا تظلمها من حقها شيئاً، ولا تُضَارَ بها. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: إذا طلق الرجل امرأته طليقتين، فلبت الله في الثالثة، فإما أن يمسكها بمعروف فيحسن صاحبته، أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئاً. وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أخبرنا ابن وهب، أخبرني سفيان الثوري. حدثني إسماعيل بن سميع، قال: سمعت أبا رزين يقول: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت قول الله ﷻ: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ أين الثالثة؟ قال: «التسريح بإحسان». ورواه عبد بن حميد في تفسيره، ولفظه: أخبرنا يزيد بن أبي حكيم، عن سفيان، عن إسماعيل بن سميع، أن أبا رزين الأسدي يقول: قال رجل: يا رسول الله، أرأيت قول الله ﷻ: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾، فأين الثالثة؟ قال: «التسريح بإحسان الثالثة». ورواه الإمام أحمد أيضاً. وهكذا رواه سعيد بن منصور، عن خالد بن عبد الله، عن إسماعيل بن زكريا وأبي معاوية، عن إسماعيل بن سميع، عن أبي رزين، به. وكذا رواه قيس بن الربيع، عن إسماعيل بن سميع عن أبي رزين به مرسلًا. ورواه ابن مردويه أيضاً من طريق عبد الواحد بن زياد، عن إسماعيل بن سميع، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ، فذكره. ثم قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن عبد الرحيم، حدثنا أحمد بن يحيى، حدثنا عبيد الله بن جرير بن جبلة، حدثنا ابن عائشة، حدثنا حماد بن سلمة، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ذكر الله الطلاق مرتين، فأين الثالثة؟ قال: «إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان». وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُعْصِيََا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: لا يحل لكم أن تضاروهن وتضيّقوا عليهن، ليفتنين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو ببعضه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَضْرِبُوهُنَّ لِذُنُوبِهِنَّ بِضَعْفٍ مَّا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْذِنَ بَعْضُهُنَّ مِبْرَةً﴾ [النساء: ١٩]، فأما إن وهبه المرأة شيئاً عن طيب نفس منها. فقد قال تعالى: ﴿فَإِنْ طَلِقَ لَكُمْ عَنْ قَبْلِ يَتِّهِمَا فَكُلُوهُنَّ حَيْثُ مَرَرْتُمَا﴾ [النساء: ٤]، وأما إذا تشاقق الزوجان، ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته، فلها أن تنفدي منه بما أعطاهما، ولا حرج عليها في بذلها، ولا عليه في قبول ذلك منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُعْصِيََا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُعْصِيََا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ الآية.

فأما إذا لم يكن لها عذر وسألت الافتداء منه، فقد قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الوهاب. وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية - قالاً جميعاً: حدثنا أيوب، عن أبي قلابة، عن عمن حدثه، عن ثوبان، أن رسول الله ﷺ قال: «أيا امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس، فحرام عليها رائحة الجنة». وهكذا رواه الترمذي، عن بشار، عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي به. وقال حسن: قال: ويروى، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان. ورواه بعضهم، عن

أيوب بهذا الإسناد. ولم يرفعه. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن أبي قلابة - قال: وذكر أبا أسماء وذكر ثوبان - قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة». وهكذا رواه أبو داود، وابن ماجه، وابن جرير، من حديث حماد بن زيد، به. طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن ليث، عن أبي إدريس، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق في غير ما بأس، حرم الله عليها رائحة الجنة». وقال: «المختلعات هن المنافقات». ثم رواه ابن جرير والترمذي جميعاً، عن أبي كريب، عن مزاحم بن دُوَاد بن عُلْبَة، عن أبيه، عن ليث، هو ابن أبي سليم، عن أبي الخطاب، عن أبي زُرْعَة، عن أبي إدريس، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «المختلعات هن المنافقات». ثم قال الترمذي: غريب من هذا الوجه، وليس إسناده بالقوى.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب حدثنا حفص بن بشر، حدثنا قيس بن الربيع، عن أشعث بن سوار، عن الحسن، عن ثابت بن يزيد، عن عقبه بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المختلعات المنتزعات هن المنافقات». غريب من هذا الوجه ضعيف.

حديث آخر: قال ابن ماجه: حدثنا بكر بن خلف أبو بشر، حدثنا أبو عاصم، عن جعفر بن يحيى بن ثوبان، عن عمه عمارة بن ثوبان، عن عطاء، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسأل امرأة زوجها الطلاق في غير كُنْهه فتجد ريح الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا أيوب، عن الحسن عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «المختلعات والمنتزعات هن المنافقات». ثم قد قال طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف: إنه لا يجوز الخلع إلا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب المرأة، فيجوز للرجل حينئذ قبول الفدية، واحتجوا بقوله: «وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُصِيبَا حُدُودَ اللَّهِ» الآية. قالوا: فلم يشرع الخلع إلا في هذه الحالة، فلا يجوز في غيرها إلا بدليل، والأصل عدَمُه، وممن ذهب إلى هذا ابن عباس، وطاوس، وإبراهيم، وعطاء، والحسن، والجمهور حتى قال مالك والأوزاعي: لو أخذ منها شيئاً وهو مضار لها وجب ردّه إليها، وكان الطلاق رجعيّاً. قال مالك: وهو الأمر الذي أدركتُ الناس عليه. وذهب الشافعي، رحمه الله، إلى أنه يجوز الخلع في حالة الشقاق، وعند الاتفاق بطريق الأولى والأخرى، وهذا قول جميع أصحابه قاطبة. وحكى الشيخ أبو عمر بن عبد البر في كتاب «الاستذكار» له، عن بكر بن عبد الله المزني، أنه ذهب إلى أن الخلع منسوخ بقوله: «وَأَتَيْتُمُوهُنَّ فَنُطِلَّ لَهُنَّ فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا» [النساء: ٢٠]. ورواه ابن جرير عنه. وهذا قول ضعيف ومأخذ مردود على قائله. وقد ذكر ابن جرير، رحمه الله، أن هذه الآية نزلت في شأن ثابت بن قيس بن شماس وامراته حبيبة بنت عبد الله بن أبي بن سلول. ولنذكر طرق حديثها، واختلاف ألفاظه:

قال الإمام مالك في موطنه: عن يحيى بن سعيد، عن عُمَرَة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زرارَة، أنها أخبرته عن حبيبة بنت سهل الأنصارية، أنها كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس، وأن رسول الله ﷺ خرج إلى الصبح فوجد حبيبة بنت سهل عند بابه في الغلَس، فقال رسول الله ﷺ: «من هذه؟» قالت: أنا حبيبة بنت سهل. فقال: «ما شأنك؟» فقالت: لا أنا ولا ثابت بن قيس - لزوجه - فلما جاء زوجها ثابت بن قيس قال له رسول الله ﷺ: «هذه حبيبة بنت سهل قد ذكرت ما شاء الله أن تذكر». فقالت حبيبة: يا رسول الله، كل ما أعطاني عندي. فقال رسول الله ﷺ: «خذ منها». فأخذ منها وجلست في أهلها. وهكذا رواه الإمام أحمد، عن عبد الرحمن بن مهدي، عن مالك بإسناده - مثله - ورواه أبو داود، عن القعني، عن مالك. والنسائي، عن محمد بن مسلمة، عن ابن القاسم، عن مالك به.

حديث آخر: عن عائشة: قال أبو داود وابن جرير: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا أبو عامر، حدثنا أبو عمرو السدوسي، عن عبد الله - يعني ابن أبي بكر - عن عمرة، عن عائشة أن حبيبة بنت سهل كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس، ففرضها فكسر نُغضها، فأتى رسول الله ﷺ بعد الصبح فاشتكت إليه، فدعا رسول الله ﷺ ثابتاً فقال: «خذ بعض مالها وفارقها». قال: ويصلح ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم». قال: فإني أصدقها حديثي، فهما بيدها. فقال النبي ﷺ: «خذها وفارقها». ففعل. وهذا لفظ ابن جرير. وأبو عمرو السدوسي هو سعيد بن سلمة بن أبي الحسام.

حديث آخر فيه: عن ابن عباس رضي الله عنه: قال البخاري: حدثنا أزهر بن جميل، حدثنا عبد الوهاب الثقفي، حدثنا خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله، ما أعتب عليه

في خلق ولا دين، ولكنني أكره الكفر في الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «أتردين عليه حديثه؟» قالت: نعم. قال رسول الله ﷺ: «أقبل الحديقة وطلقها تطليقة». وكذا رواه النسائي، عن أزهر بن جميل بإسناده، مثله. ورواه البخاري أيضاً، عن إسحاق الواسطي، عن خالد هو ابن عبد الله الطحان، عن خالد، هو ابن مهران الحداء، عن عكرمة به، نحوه.

وهكذا رواه البخاري أيضاً من طرق، عن أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس، به. وفي بعضها أنها قالت: لا أطيقه، تعني: بغضاً. وهذا الحديث من أفراد البخاري من هذا الوجه. ثم قال: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب، عن عكرمة، أن جميلة رضي الله عنها. كذا قال، والمشهور أن اسمها حبيبة كما تقدم. قال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا أزهر بن مروان الرقاشي، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن عكرمة. عن ابن عباس، أن جميلة بنت سلول أتت النبي ﷺ فقالت: والله ما أعتب على ثابت بن قيس بن شماس في دين ولا خلق، ولكنني أكره الكفر بعد الإسلام، ولا أطيقه بغضاً. فقال النبي ﷺ: «أتردين عليه حديثه؟» قالت: نعم، فأمره رسول الله ﷺ أن يأخذ منها حديثه ولا يزداد. وهكذا رواه ابن ماجة عن أزهر بن مروان، بإسناده مثله سواء، وهذا إسناد جيد مستقيم، ورواه أيضاً أبو القاسم البغوي، عن عبيد الله القواريري، عن عبد الأعلى، مثله، لكن قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا الحسين بن واقد، عن ثابت، عن عبد الله بن رباح، عن جميلة بنت أبي بن سلول: أنها كانت تحت ثابت بن قيس، فنشزت عليه، فأرسل إليها النبي ﷺ فقال: «يا جميلة، ما كرهت من ثابت؟» قالت: والله ما كرهت منه ديناً ولا خلقاً، إلا أنني كرهت دمايته! فقال لها: «أتردين الحديث؟» قالت: نعم. فردت الحديقة، وفرق بينهما. قال ابن جرير أيضاً: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: قرأت على فضيل، عن أبي جرير، أنه سأل عكرمة: هل كان للخلع أصل؟ قال: كان ابن عباس يقول: إن أول خلع كان في الإسلام في أخت عبد الله بن أبي، أنها أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، لا يجمع رأسي ورأسه شيء أبداً، إني رفعت جانب الخباء، فرأيت أقبيل في عدة، فإذا هو أشدهم سواداً، وأنصرهم قامة وأقبحهم وجهاً. قال زوجها: يا رسول الله، إني أعطيتها أفضل مالي، حديقة لي، فإن ردت عليّ حديثي؟ قال: «ما تقولين؟» قالت: نعم، وإن شاء زدته. قال ففرق بينهما.

حديث آخر: قال ابن ماجة: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن حجاج، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كانت حبيبة بنت سهل تحت ثابت بن قيس بن شماس، وكان رجلاً دميماً، فقالت: يا رسول الله، والله لولا مخافة الله إذا دخل عليّ بصقت في وجهه! فقال رسول الله ﷺ: «أتردين عليه حديثه؟» قالت: نعم. فردت عليه حديثه. قال: ففرق بينهما رسول الله ﷺ. وقد اختلف الأئمة، رحمهم الله، في أنه: هل يجوز للرجل أن يفاديها بأكثر مما أعطاه؟ فذهب الجمهور إلى جواز ذلك، لعموم قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا فَيَا أَقْدَتَ يَوْمَ﴾. وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عليه، أخبرنا أيوب، عن كثير مولى سمرة: أن عمر أتى بامرأة ناشز، فأمر بها إلى بيت كثير الزبل، ثم دعا بها فقال: كيف وجدت؟ فقالت: ما وجدت راحة منذ كنت عنده إلا هذه الليلة التي حبستني. فقال لزوجها: اخلعها ولو من قرطها. ورواه عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب، عن كثير مولى سمرة، فذكر مثله، وزاد: فحبسها فيه ثلاثة أيام. قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن حميد بن عبد الرحمن: أن امرأة أتت عمر بن الخطاب، فشكت زوجها، فأباتها في بيت الزبل. فلما أصبحت قال لها: كيف وجدت مكانك؟ قالت: ما كنت عنده ليلة أقر لعيني من هذه الليلة. فقال: خذ ولو عقاصها. وقال البخاري: وأجاز عثمان الخلع دون عقاص رأسها. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن عبد الله بن محمد بن عجيل: أن الربيع بنت معوذ بن عفراء حدثته قالت: كان لي زوج يُقَالُ عليّ الخير إذا حضرني، ويحرمني إذا غاب عني. قالت: فكانت مني زلة يوماً، فقلت له: أخلع منك بكل شيء أملكه؟ قال: نعم. قالت: ففعلت. قالت: فخاصم عمي معاذ بن عفراء إلى عثمان بن عفان، فأجاز الخلع، وأمره أن يأخذ عقاص رأسي فما دونه، أو قالت: ما دون عقاص الرأس. ومعنى هذا: أنه يجوز أن يأخذ منها كل ما بيدها من قليل وكثير، ولا يترك لها سوى عقاص شعرها. وبه يقول ابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وإبراهيم النخعي، وقبيصة بن ذؤيب، والحسن بن صالح، وعثمان البتي. وهذا مذهب مالك، والليث، والشافعي، وأبي ثور، واختاره ابن جرير. وقال أصحاب أبي حنيفة، رحمهم الله: إن كان الإضرار من قبلها جاز أن يأخذ منها ما أعطاه، ولا تجوز الزيادة عليه، فإن ازداد جاز في القضاء: وإن كان الإضرار من جهته لم يجز أن يأخذ منها شيئاً، فإن أخذ جاز في القضاء. وقال الإمام أحمد، وأبو عبيد، وإسحاق بن راهويه: لا يجوز أن يأخذ منها أكثر مما أعطاه. وهذا قول سعيد بن المسيب، وعطاء، وعمر بن شعيب، والزهرري، وطاوس، والحسن، والشعبي، وحماد بن أبي سليمان، والربيع بن أنس. وقال معمر،

فصل

مسألة: وذهب مالك، وأبو حنيفة، والشافعي، وأحمد وإسحاق في رواية عنهما، وهي المشهورة؛ إلى أن المختلعة عدتها عدة المطلقة بثلاثة قروء، إن كانت ممن تحيض. وروي ذلك عن عمر، وعلي، وابن عمر. وبه يقول سعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار، وعروة، وسالم، وأبو سلمة، وعمر بن عبد العزيز، وابن شهاب، والحسن، والشعبي، وإبراهيم النخعي، وأبو عياض، وخلاس بن عمرو، وقائدة، وسفيان الثوري، والأوزاعي، والليث بن سعد، وأبو عبيد. قال الترمذي: وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة وغيرهم. ومأخذهم في هذا أن الخلع طلاق، فتعتد كسائر المطلقات. والقول الثاني: أنها تعتد بحيضة واحدة تستبرئ بها رحمها. قال ابن أبي شيبة: حدثنا يحيى بن سعيد عن عبيد الله بن عمر، عن نافع أن الربيع اختلعت من زوجها، فأتى عمها عثمان، رضي الله عنه، فقال: تعتد حيضة. قال: وكان ابن عمر يقول: تعتد ثلاث حيض، حتى قال هذا عثمان، فكان ابن عمر يفتي به ويقول: عثمان خيرنا وأعلمنا. وحدثنا عبدة، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: عدة المختلعة حيضة. وحدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي، عن ليث، عن طائوس، عن ابن عباس قال: عدتها حيضة. وبه يقول عكرمة، وأبان بن عثمان، وكل من تقدم ذكره ممن يقول: إن الخلع فسخ - يلزمه القول بهذا، واحتجوا لذلك بما رواه أبو داود، والترمذي، حيث قال كل واحد منهما: حدثنا محمد بن عبد الرحيم البغدادي، حدثنا علي بن بحر، حدثنا هشام بن يوسف، عن معمر، عن عمرو بن مسلم، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها على عهد النبي ﷺ، فأمرها النبي ﷺ أن تعتد بحيضة. ثم قال الترمذي: حسن غريب. وقد رواه عبد الرزاق، عن

معمراً، عن عمرو بن مسلم، عن عكرمة مرسلًا.

حديث آخر: قال الترمذي: حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا الفضل بن موسى، عن سفيان، حدثنا محمد بن عبد الرحمن وهو مولى آل طلحة، عن سليمان بن يسار، عن الربيع بنت معوذ بن عفراء: أنها اختلعت على عهد رسول الله ﷺ فأمرها النبي - أو أمرت - أن تعتد بحیضة. قال الترمذي: الصحيح أنها أمرت أن تعتد بحیضة. طريق أخرى: قال ابن ماجه: حدثنا علي بن سلمة النيسابوري، حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد، حدثنا أبي عن ابن إسحاق، أخبرني عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، عن الربيع بنت معوذ بن عفراء قال: قلت لها: حدثيني حديثك. قالت: اختلعت من زوجي، ثم جث عثمان، فسألت: ماذا علي من العدة؟ قال: لا عدة عليك، إلا أن يكون حديث عهد بك، فتعكثين عنده حتى تحيض حيضة. قالت: وإنما تبع في ذلك قضاء رسول الله ﷺ في مريم المغالية، وكانت تحت ثابت بن قيس، فاختلعت منه. وقد روى ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن أبي سلمة ومحمد بن عبد الرحمن بن ثوبان، عن الربيع بنت معوذ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يأمر امرأة ثابت بن قيس حين اختلعت منه أن تعتد بحیضة.

مسألة: وليس للمخالع أن يراجع المختلعة في العدة بغير رضاها عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء؛ لأنها قد ملكت نفسها بما بذلت له من العطاء. وروي عن عبد الله بن أبي أوفى، وماهان الحنفي، وسعيد بن المسيب، والزهري أنهم قالوا: إن رد إليها الذي أعطاهما جاز له رجعتها في العدة بغير رضاها، وهو اختيار أبي ثور، رحمه الله. وقال سفيان الثوري: إن الخلع بغير لفظ الطلاق فهو فرقة ولا سبيل له عليها، وإن كان سمي طلاقاً فهو أملك لرجعتها ما دامت في العدة. وبه يقول داود بن علي الظاهري، واتفق الجميع على أن للمختلعة أن يتزوجها في العدة. وحكى الشيخ أبو عمر بن عبد البر، عن فرقة أنه لا يجوز له ذلك، كما لا يجوز لغيره، وهو قول شاذ مردود.

مسألة: وهل له أن يوقع عليها طلاقاً آخر في العدة؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء: أحدها: ليس له ذلك؛ لأنها قد ملكت نفسها وبانت منه. وبه يقول ابن عباس، وابن الزبير، وعكرمة، وجابر بن زيد، والحسن البصري، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو ثور. والثاني: قال مالك: إن أتبع الخلع طلاقاً من غير سكوت بينهما وقع، وإن سكوت بينهما لم يقع. قال ابن عبد البر: وهذا يشبه ما روي عن عثمان، رضي الله عنه. والثالث: أنه يقع عليها الطلاق بكل حال ما دامت في العدة، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، والثوري، والأوزاعي. وبه يقول سعيد بن المسيب، وشريح، وطاوس، وإبراهيم، والزهري، والحكم، وحماد بن أبي سليمان. وروي ذلك عن ابن مسعود، وأبي الدرداء. قال ابن عبد البر: وليس ذلك بثابت عنهما. وقوله: ﴿ذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: هذه الشرائع التي شرعها لكم هي حدوده، فلا تتجاوزوها. كما ثبت في الحديث الصحيح: «إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها، وفرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم محارم فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان، فلا تسألوا عنها». وقد يستدل بهذه الآية من ذهب إلى أن جمع الطلقات الثلاث بكلمة واحدة حرام، كما هو مذهب المالكية ومن وافقهم، وإنما السنة عندهم أن يطلق واحدة واحدة، لقوله: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَيْنِ﴾ ثم قال: ﴿ذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ويقولون ذلك بحديث محمود بن لبيد الذي رواه النسائي في سننه حيث قال: حدثنا سليمان بن داود، أخبرنا ابن وهب عن مخرمة بن بكير عن أبيه، عن محمد بن لبيد قال: أخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً فقام غضبان، ثم قال: «أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم؟!» حتى قام رجل فقال: يا رسول الله، ألا أقتله؟، فيه انقطاع. وقوله تعالى: ﴿إِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَدَحٍ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرًا﴾ أي: إنه إذا طلق الرجل امرأته طلاقاً ثالثة بعدما أرسل عليها الطلاق مرتين، فإنها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره، أي: حتى يطأها زوج آخر في نكاح صحيح، فلو وطئها واطيء في غير نكاح، ولو في ملك يمين لم تحل للأول؛ لأنه ليس بزواج وهكذا لو تزوجت، ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول، واشتهر بين كثير من الفقهاء عن سعيد بن المسيب، رحمه الله، أنه يقول: يحصل المقصود من تحليلها للأول بمجرد العقد على الثاني. وفي صحته عنه نظر، على أن الشيخ أبا عمر بن عبد البر قد حكاه عنه في الاستذكار، فالحق أعلم. وقد قال أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: حدثنا ابن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن علقمة بن مرثد، عن سالم بن رزين، عن سالم بن عبد الله، عن سعيد بن المسيب، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ في الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها البتة، فيتزوجها زوج آخر فيطلقها، قبل أن يدخل بها: أترجع إلى الأول؟ قال: «لا، حتى تذوق عسليته وذوق عسيلتها». هكذا وقع في رواية ابن جرير، وقد رواه الإمام أحمد فقال: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن علقمة بن مرثد، سمعت سالم بن رزين يحدث عن سالم بن عبد الله، يعني: ابن عمر،

عبد الرزاق، والنسائي من حديث يزيد بن زريع، ثلاثهم عن معمر به. وفي حديث عبد الرزاق عند مسلم: إن رفاة طلقها آخر ثلاث تطليقات. وقد رواه الجماعة إلا أبا داود من طريق سفيان بن عيينة، والبخاري من طريق عقيل، ومسلم من طريق يونس بن يزيد وعنده ثلاث تطليقات، والنسائي من طريق أيوب بن موسى، ورواه صالح بن أبي الأخضر كلهم عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، به. وقال مالك عن المسور بن رفاة القرظي عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير: أن رفاة بن سمؤال طلق امرأته تميمة بنت وهب في عهد رسول الله ﷺ ثلاثاً، فنكحت عبد الرحمن بن الزبير، فاعترض عنها فلم يستطع أن يمسها، ففارقها، فأراد رفاة أن ينكحها، وهو زوجها الأول الذي كان طلقها، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فنهاه عن تزويجها، وقال: «لا تحل لك حتى تذوق العسيلة» كذا رواه أصحاب الموطأ عن مالك وفيه انقطاع. وقد رواه إبراهيم بن طهمان، وعبد الله بن وهب، عن مالك، عن رفاة، عن الزبير بن عبد الرحمن، عن أبيه، فوصله.

فصل

والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغباً في المرأة، قاصداً لدوام عشرتها، كما هو المشروع من التزويج، واشتراط الإمام مالك مع ذلك أن يطأها الثاني وطناً مباحاً، فلو وطئها وهي محرمة أو صائمة أو معتكفة أو حائض أو نفساء أو الزوج صائم أو محرم أو معتكف، لم تحل للأول بهذا الوطء. وكذا لو كان الزوج الثاني ذمياً لم تحل للمسلم بنكاحه، لأن أنكحة الكفار باطلة عنده. واشتراط الحسن البصري فيما حكاه عنه الشيخ أبو عمر بن عبد البر أن ينزل الزوج الثاني، وكأنه تمسك بما فهمه من قوله عليه السلام: «حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك»، ويلزم على هذا أن تنزل المرأة أيضاً. وليس المراد بالعسيلة المنى لما رواه الإمام أحمد والنسائي، عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إن العسيلة الجماع»، فأما إذا كان الثاني إنما قصده أن يحلها للأول، فهذا هو المحلل الذي وردت الأحاديث بدمه ولعنه، ومتى صرح بمقصوده في العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة.

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك

الحديث الأول: عن ابن مسعود. قال الإمام أحمد: حدثنا الفضل بن ذكّين، حدثنا سفيان، عن أبي قيس، عن الهزيل، عن عبد الله قال: لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة، والمحلل والمحلل له، وأكل الربا وموكله. ثم رواه أحمد، والترمذي، والنسائي من غير وجه، عن سفيان، وهو الثوري، عن أبي قيس واسمه عبد الرحمن بن ثروان الأودي، عن هزيل بن شرحبيل الأودي، عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ به. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. قال: والعمل على هذا عند أهل العلم من الصحابة، منهم: عمر، وعثمان، وابن عمر. وهو قول الفقهاء من التابعين، ويروى ذلك عن علي، وابن مسعود، وابن عباس. طريق أخرى: عن ابن مسعود. قال الإمام أحمد: حدثنا زكريا بن عدي، حدثنا عبيد الله، عن عبد الكريم، عن أبي الواصل، عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله المحلل والمحلل له». طريق أخرى: روى الإمام أحمد، والنسائي، من حديث الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن الحارث الأعور، عن عبد الله بن مسعود قال: أكل الربا وموكله، وشاهداه وكتبته إذا علموا به، والواصلة، والمستوصلة، ولاوي الصدقة، والمعتدي فيها، والمرتد على عقبيه أعرابياً بعد هجرته، والمحلل والمحلل له، ملعونون على لسان محمد ﷺ يوم القيامة.

الحديث الثاني: عن علي رضي الله عنه. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن جابر وهو ابن يزيد الجعفي، عن الشعبي، عن الحارث، عن علي قال: لعن رسول الله ﷺ أكل الربا وموكله، وشاهديه وكتابه، والواشمة والمستوشمة للحسن، ومانع الصدقة، والمحلل، والمحلل له، وكان ينهى عن التوح. وكذا رواه عن غندر، عن شعبة، عن جابر، وهو ابن يزيد الجعفي، عن الشعبي عن الحارث، عن علي، به. وكذا رواه من حديث إسماعيل بن أبي خالد، وحصين بن عبد الرحمن، ومجالد بن سعيد، وابن عون، عن عامر الشعبي، به. وقد رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه من حديث الشعبي، به. ثم قال أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي قال: لعن رسول الله ﷺ صاحب الربا، وأكله، وكتابه، وشاهده، والمحلل، والمحلل له.

الحديث الثالث: عن جابر: قال الترمذي: حدثنا أبو سعيد الأشج، أخبرنا أشعث بن عبد الرحمن بن زبيد اليامي، حدثنا مجالد، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله وعن الحارث، عن علي: أن رسول الله ﷺ لعن المحلل والمحلل له. ثم قال: وليس إسناداه بالقائم، ومجالد ضعفه غير واحد من أهل العلم، منهم أحمد بن حنبل. قال: ورواه ابن نمير، عن مجالد، عن

هذا أمر من الله ﷻ للرجال إذا طلق أحدهم المرأة طلاقاً له عليها فيه رجعة، أن يحسن في أمرها إذا انقضت عدتها، ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها، فإذا أن يمسكها، أي: يرجعها إلى عصمة نكاحه بمعروف، وهو أن يشهد على رجعتها، وينوي عسرتها بالمعروف، أو يسرحها، أي يتركها حتى تنقضي عدتها، ويخرجها من منزله بالتي هي أحسن، من غير شقاق ولا

مخاصمة ولا تقابح، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُشْكِرْنَ شَيْئًا إِلَّا عَنَّا﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، ومسروق، والحسن، وقتادة، والضحاك، والربيع، ومقاتل بن حيان وغير واحد: كان الرجل يطلق المرأة، فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضراراً، لئلا تذهب إلى غيره، ثم يطلقها فتعتد، فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة، فنهاهم الله عن ذلك، وتوعدهم عليه فقال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي: بمخالفته أمر الله تعالى. وقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾: قال ابن جرير: عند هذه الآية: أخبرنا أبو كُرَيْب، أخبرنا إسحاق بن منصور، عن عبد السلام بن حرب، عن يزيد بن عبد الرحمن، عن أبي العلاء الأودي، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبي موسى: أن رسول الله ﷺ غضب على الأشعرين، فأتاه أبو موسى فقال: يا رسول الله، أغضبت على الأشعرين؟! فقال: «يقول أحدكم: قد طلقت، قد راجعت، ليس هذا طلاق المسلمين، طلقوا المرأة قبل عدتها». ثم رواه من وجه آخر، عن أبي خالد الدالاني، وهو يزيد بن عبد الرحمن، وفيه كلام. وقال مسروق: هو الذي يطلق في غير كنهه، ويضار امرأته بطلاقها وارتجاعها، لتطول عليها العدة. وقال الحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني، والربيع، ومقاتل بن حيان: هو الرجل يطلق ويقول: كنت لاعباً أو يعتق أو ينكح ويقول: كنت لاعباً. فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ فألزم الله بذلك. وقال ابن مردويه: حدثنا إبراهيم بن محمد، حدثنا أبو أحمد الصيرفي، حدثني جعفر بن محمد السمسار، عن إسماعيل بن يحيى، عن سفيان، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: طلق رجل امرأته وهو يلعب، لا يريد الطلاق؛ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ فألزمه رسول الله ﷺ الطلاق. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عصام بن رواد، حدثنا آدم، حدثنا المبارك بن فضالة، عن الحسن، هو البصري، قال: كان الرجل يطلق ويقول: كنت لاعباً أو يعتق ويقول: كنت لاعباً وينكح ويقول: كنت لاعباً فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾، وقال رسول الله ﷻ: «من طلق أو أعتق أو نكح أو أنكح، جاداً أو لاعباً، فقد جاز عليه». وكذا رواه ابن جرير من طريق الزهري، عن سليمان بن أرقم، عن الحسن، مثله. وهذا مرسل. وقد رواه ابن مردويه، من طريق عمرو بن عبيد، عن الحسن، عن أبي الدرداء موقوفاً عليه. وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن الحسن بن أيوب، حدثنا يعقوب بن أبي يعقوب، حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا أبو معاوية، عن إسماعيل بن سلمة، عن الحسن، عن عباد بن الصامت، في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ قال: كان الرجل على عهد النبي ﷺ يقول للرجل زوجته ابنتي ثم يقول: كنت لاعباً. ويقول: قد أعتقت، ويقول: كنت لاعباً فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ فقال رسول الله ﷺ: «ثلاث من قالهن لاعباً أو غير لاعب، فهن جائزات عليه: الطلاق، والعناق، والنكاح».

والمشهور في هذا الحديث الذي رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجة من طريق عبد الرحمن بن حبيب بن أردك، عن عطاء، عن ابن ماهك، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة جدهن جد، وهزلهن جد: النكاح، والطلاق، والرجعة». وقال الترمذي: حسن غريب.

وقوله: «وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ» أي: في إرساله الرسول بالهدى والبيئات إليكم ﴿وَمَا أَرْكَرْ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي: السنة ﴿يُطَلِّكُم بِهَا﴾ أي: يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما تأتون وفيما تذكرون ﴿وَأَعْمُوا أَنَّ اللَّهَ يَكْفِي مَقْدَرًا عَليمًا﴾ أي: فلا يخفى عليه شيء من أموركم السرية والجهرية، وسيجازيكم على ذلك. ﴿وَلِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا تَفَضَّلْتُمْ أَنْ يَنْكِحُنَّ آزْوَاجَهُنَّ إِذَا زَمَمْتُمْ بِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ أَدْلَى لَكُمْ وَأَلْهَمُ وَاللَّهُ يَسِّرُ وَتُسِّرُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طليقة أو طلقتين، فتنتضي عدتها، ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها، وتريد المرأة ذلك، فيمنعها أولياؤها من ذلك، فهي الله أن يمنعهوا. وكذا روى العوفي، عنه، وكذا قال مسروق، وإبراهيم النخعي، والزهري والضحاك أنها نزلت في ذلك. وهذا الذي قاله ظاهر من الآية، وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها، وأنه لا بد في تزويجها من ولي، كما قاله الترمذي وابن جرير عند هذه الآية، كما جاء في الحديث: «لا تزوج المرأة المرأة، ولا تزوج المرأة نفسها، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها». وفي الأثر الآخر: لا نكاح إلا بولي مرشد، وشاهدي عدل. وفي هذه المسألة نزاع بين العلماء محرر في موضعه من كتب الفروع، وقد قرنا ذلك في كتاب «الأحكام»، والله الحمد والمنة.

وقد روي أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار المزني وأخته، فقال البخاري، رحمه الله، في كتابه الصحيح عند تفسير هذه الآية: حدثنا عبيد الله بن سعيد، حدثنا أبو عامر العقدي، حدثنا عباد بن راشد، حدثنا الحسن قال: حدثني معقل بن يسار

قال: كانت لي أخت تخطب إلي - قال البخاري: وقال إبراهيم، عن يونس، عن الحسن: حدثني معقل بن يسار. وحدثنا أبو مَعْمَر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا يونس، عن الحسن: أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها، فتركها حتى انقضت عدتها، فخطبها، فأبى معقل، فنزلت: ﴿فَلَا تَقْرَبُوا مَا يَتَخَصَّمُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا أَزْوَاجَهُمْ﴾. وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن مردويه من طرق متعددة، عن الحسن، عن معقل بن يسار، به. وصححه الترمذي أيضاً، ولفظه عن معقل بن يسار: أنه زوج أخته رجلاً من المسلمين، على عهد رسول الله ﷺ، فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة، فهويها وهويته، ثم خطبها مع الخطاب، فقال له: يالكع، أكرمتك بها وزوجتكها، فطلقتها! والله لا ترجع إليك أبداً، آخر ما عليك قال: فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعْلِها، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجْسَهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَقْلُبُونَ﴾ فلما سمعها معقل قال: سَمِعْتُ لِرَبِّي وَطَاعَةً ثُمَّ دَعَاهُ، فقال: أزواجك وأكرمك، زاد ابن مردويه: وكفرت عن يميني. وروى ابن جرير، عن ابن جريج قال: هي جمل بنت يسار كانت تحت أبي البداح، وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق السبيعي قال: هي فاطمة بنت يسار. وهكذا ذكر غير واحد من السلف: أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار وأخته. وقال السدي: نزلت في جابر بن عبد الله، وابنة عم له، والصحيح الأول، والله أعلم. وقوله: ﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: هذا الذي نهيناكم عنه من منع الولايا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف، ياتمر به ويتعطل به ويفعل له ﴿مَنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: يؤمن بشرع الله، ويخاف وعيد الله وعذابه في الدار الآخرة، وما فيها من الجزاء ﴿ذَلِكَ أَزْكَ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي: اتباعكم شرع الله في رد الموليّات إلى أزواجهن، وترك الحمية في ذلك، أزكى لكم وأطهر لقلوبكم ﴿وَاللَّهُ بِكُمْ﴾ أي: من المصالح فيما يأمر به وينهى عنه ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَقْلُبُونَ﴾ أي: الخيرة فيما تأتون ولا فيما تدرّون.

﴿وَالَّذِينَ يُضَعْنَ أَبْطُنُهُنَّ لِلْحَيْضِ لَمْ يُدْخِلْنَ فِيهِنَّ الرَّضَاعَ وَنَحْلُوهُنَّ بِالْمَرْوَةِ لَا تَكُلْنَ نَفْسٌ إِلَّا وَسْمَهَا لَا تُصَاكِرُ وَلَدَهُ وَلَا يُولَدُ لَهُمْ يَوْلَدٌ وَلَا يُولَدُ لَهُمْ يَوْلَدٌ وَمَنْ أَرَادَ فَصَالاً عَنْ قَرَابَتِهِمَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَادْتُمْ أَنْ تُتْرَعُوا أَوْلَدُكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَكُمْ بِالْمَرْوَةِ وَالْقُرْآنِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

هذا إرشاد من الله تعالى للولدات: أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة، وهي سنتان، فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَ﴾ وذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم. قال الترمذي: «باب ما جاء أن الرضاعة لا تحرم إلا في الصغر دون الحولين»: حدثنا قتيبة، حدثنا أبو عوانة، عن هشام بن عروة، عن فاطمة بنت المنذر، عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي، وكان قبل الفطام». وقال: حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم: أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين، وما كان بعد الحولين الكاملين فإنه لا يحرم شيئاً. وفاطمة بنت المنذر ابن الزبير بن العوام، وهي امرأة هشام بن عروة. قلت: تفرد الترمذي برواية هذا الحديث، ورجاله على شرط الصحيحين، ومعنى قوله: إلا ما كان في الثدي، أي: في محل الرضاعة قبل الحولين، كما جاء في الحديث، الذي رواه أحمد، عن وكيع وغندر، عن شعبة، عن عدي بن ثابت، عن البراء بن عازب قال: لما مات إبراهيم ابن النبي ﷺ قال: «إن له مرضعاً في الجنة». وهكذا أخرجه البخاري من حديث شعبة، وإنما قال، عليه السلام، ذلك؛ لأن ابنه إبراهيم، عليه السلام، مات وله سنة وعشرة أشهر، فقال: «إن له مرضعاً في الجنة» يعني: تكمل رضاعه، ويؤيده ما رواه الدارقطني، من طريق الهيثم بن جميل، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما كان في الحولين»، ثم قال: لم يسنده عن ابن عيينة غير الهيثم بن جميل، وهو ثقة حافظ. قلت: وقد رواه الإمام مالك في الموطأ، عن ثور بن زيد، عن ابن عباس موقوفاً. ورواه الدراوردي عن ثور، عن عكرمة، عن ابن عباس وزاد: «وما كان بعد الحولين فليس بشيء»، وهذا أصح. وقال أبو داود الطيالسي، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا رضاع بعد فصلا، ولا يتم بعد احتلام»، وتام الدلالة من هذا الحديث في قوله: ﴿وَفَصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]. وقال: ﴿وَحَلْمُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]. والقول بأن الرضاعة لا تحرم بعد الحولين مروى عن علي، وابن عباس، وابن مسعود، وجابر، وأبي هريرة، وابن عمر، وأم سلمة، وسعيد بن المسيب، وعطاء، والجمهور. وهو مذهب الشافعي، وأحمد، وإسحاق، والثوري، وأبي يوسف، ومحمد، ومالك في رواية، وعنه: أن مدته سنتان وشهران، وفي رواية: وثلاثة أشهر. وقال أبو حنيفة: سنتان وستة أشهر، وقال زفر بن الهذيل: ما دام يرضع فإلى ثلاث سنين، وهذا رواية عن الأوزاعي. قال مالك:

ولو فطم الصبي دون الحولين فأرضعته امرأة بعد فصاله لم يحرم؛ لأنه قد صار بمنزلة الطعام، وهو رواية عن الأوزاعي، وقد روي عن عمر وعلي أنها قالا: لا رضاع بعد فصال، فيحتمل أنهما أرادا الحولين كقول الجمهور، سواء فطم أو لم يطم، ويحتمل أنهما أرادا الفعل، كقول مالك، والله أعلم.

وقد روي في الصحيح عن عائشة، رضي الله عنها: أنها كانت ترى رضاع الكبير يؤثر في التحريم، وهو قول عطاء بن أبي رباح، والليث بن سعد، وكانت عائشة تأمر بمن تختار أن يدخل عليها من الرجال لبعض نساها فترضعه، وتحتج في ذلك بحديث سالم مولى أبي حذيفة حيث أمر النبي ﷺ امرأة أبي حذيفة أن ترضعه، وكان كبيراً، فكان يدخل عليها بتلك الرضاعة، وأبى ذلك سائر أزواج النبي ﷺ، ورأى ذلك من الخصائص، وهو قول الجمهور. وحجة الجمهور - منهم الأئمة الأربعة، والفقهاء السبعة، والأكابر من الصحابة، وسائر أزواج رسول الله ﷺ سوى عائشة - ما ثبت في الصحيحين، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «انظُرْنَ مِنْ إِخْوَانِكُنَّ، فَإِنَّمَا الرُّضَاعَةُ مِنَ الْمَجَاعَةِ». وسيأتي الكلام على مسائل الرضاع، وفيما يتعلق برضاع الكبير، عند قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]. وقوله: ﴿وَعَلَى الْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ وَبِالْأُمَّهَاتِ حُسْنٌ ۚ فَإِذَا وَجِدَتْكُمُ الْأُمَّهَاتُ لَكُمْ أَسْرَافًا فَلَا تَبْذُرُوهُنَّ عَلَى مَا هَفَوْا ۖ خِفَافًا أَوْ ثِقَلًا بِمَا هَفَوْنَ ۚ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَنُسُلِهِمْ أَجْفَاءٌ فَلَا تُبْذِرُوهُنَّ أُولَئِكَ هُمُ الرِّجَالُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَاقِبُونَ ۚ﴾ [النساء: ٣٥].

أي: وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف، أي: بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف ولا إقتار، بحسب قدرته في يساره وتوسطه وإقتاره، كما قال تعالى: ﴿يُثْبِتُ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۚ وَمَن قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُثْبِتْ ۖ وَمَا إِلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۚ لَآ يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا ءَاتَاهُ سَيِّئِلًا ۚ إِنَّهُ بَدَّ عُيُورَ الْبَشَرِ ۗ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا نَّصِيرًا ۚ﴾ [الطلاق: ٧]. قال الضحاك: إذا طلق الرجل زوجته وله منها ولد، فأرضعت له ولده، وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف. وقوله: ﴿لَا تُضَاكِرْ ذُلَّةً يُولَدُهَا﴾ أي: لا تدفعه عنها لتضر أباه بتربيته، ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللبن الذي لا يعيش بدون تناوله غالباً، ثم بعد هذا لها رفعه عنها إن شاءت، ولكن إن كانت مضارة لأبيه فلا يحل لها ذلك، كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرر لها. ولهذا قال: ﴿وَلَا مَوْلُودَ لَهُ يُولَدُهَا﴾ أي: بأن يريد أن ينتزع الولد منها إضراراً بها، قاله مجاهد، وقتادة، والضحاك، والزهري، والسدي، والثوري، وابن زيد، وغيرهم. وقوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾. قيل: في عدم الضرر لقربيه، قاله مجاهد، والشعبي، والضحاك. وقيل: عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدته الطفل، والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها، وهو قول الجمهور. وقد استقصى ذلك ابن جرير في تفسيره. وقد استدلل بذلك من ذهب من الحنفية والحنبلية إلى وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، وهو مروى عن عمر بن الخطاب، وجمهور السلف، ويرشح ذلك بحديث الحسن، عن سمره مرفوعاً: «مَنْ مَلَكَ ذَا رَحِمٍ مَحْرُومٍ عُنِيَ عَلَيْهِ». وقد ذكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت الولد إما في بدنه أو عقله، وقد قال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة: أنه رأى امرأة ترضع بعد الحولين. فقال: لا ترضعيه. وقوله: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّمَّاهُمَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: فإن اتفقا والد الطفل على فطامه قبل الحولين، ورأيا في ذلك مصلحة له، وتشاورا في ذلك، وأجمعا عليه، فلا جناح عليهما في ذلك، فيؤخذ منه: أن انفرد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر، قاله الثوري وغيره، وهذا فيه احتياط للطفل، وإلزام للنظر في أمره، وهو من رحمة الله بعباده، حيث حجب على الوالدين في تربية طفلهما وأرشدتهما إلى ما يصلحه ويصلحهما كما قال في سورة الطلاق: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكَ فَتَأَوَّهْنَ أَجُورَهُنَّ وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ رَبِّكُمْ ۖ وَإِنْ تَسَارَعْتُمْ فَسَرَّعْ لَهُ الْآخَرُ ۚ﴾ [الطلاق: ٦]. وقوله: ﴿وَلَنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا وَلَوْلَا ذَلِكَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا ءَاتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: إذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يتسلم منها الولد، إما لعذر منها، أو عذر له، فلا جناح عليهما في بذله، ولا عليه في قبوله منها إذا سلمها أجرتها الماضية بالتي هي أحسن، واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف. قاله غير واحد. وقوله: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ ۚ﴾ أي: في جميع أحوالكم «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَماً» أي: فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأقوالكم. ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَكُمْ وَيَدْعُونَكُمْ إِلَى الْفِتَنِ يَتَّبِعُوا أَمْرَهُمْ وَتَرْكُهُمْ أَمْرُهُمْ ۚ إِنَّهُمْ أَمَّا لَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَبِالْمَعْرُوفِ ۚ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَكُمْ وَيَدْعُونَكُمْ إِلَى الْفِتَنِ يَتَّبِعُوا أَمْرَهُمْ وَتَرْكُهُمْ أَمْرُهُمْ ۚ إِنَّهُمْ أَمَّا لَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَبِالْمَعْرُوفِ ۚ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَكُمْ وَيَدْعُونَكُمْ إِلَى الْفِتَنِ يَتَّبِعُوا أَمْرَهُمْ وَتَرْكُهُمْ أَمْرُهُمْ ۚ إِنَّهُمْ أَمَّا لَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَبِالْمَعْرُوفِ ۚ﴾ [النساء: ٦١].

هذا أمر من الله للنساء اللاتي يتوفى عنهن أزواجهن: أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالإجماع، ومستنده في غير المدخول بها عموم الآية الكريمة، وهذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي: أن ابن مسعود سُئِلَ عن رجل تزوج امرأة فمات ولم يدخل بها، ولم يفرض لها؟ فترددوا إليه مراراً في ذلك فقال: أقول فيها برأيي، فإن يكون صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه: أرى لها الصداق كاملاً. وفي لفظ: لها صداق مثلها، لا وكس، ولا شطط، وعليها العدة، ولها الميراث. فقام معقل بن سنان الأشجعي فقال: سمعت رسول الله ﷺ قضى به في بَرُوع بنت واشِق. ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً. وفي

رواية: فقام رجال من أشجع، فقالوا: نشهد أن رسول الله ﷺ قضى به في بَرَّوَج بنت واثق. ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها، وهي حامل، فإن عدتها بوضع الحمل، ولو لم تمكث بعده سوى لحظة؛ لعموم قوله: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]. وكان ابن عباس يرى: أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين من الوضع، أو أربعة أشهر وعشر، للجمع بين الآيتين، وهذا مأخذ جيد ومسلط قوي، لولا ما ثبت به السنة في حديث سُبَيْعة الأسلمية، المخرج في الصحيحين من غير وجه: أنه توفي عنها زوجها سعد بن خولة، وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، وفي رواية: فوضعت حملها بعده بليال، فلما تَعَلَّتْ من نفاسها تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بَعْكُك، فقال لها: ما لي أراك مَنَجَمَلَةً؟ لعلك ترجين النكاح. والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر. قالت سُبَيْعة: فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حين أمسيت، فأتيت رسول الله ﷺ، فسألته عن ذلك، فأفانيتني بأني قد حللت حين وضعت، وأمرني بالتزويج إن بدا لي. قال أبو عمر بن عبد البر: وقد روي أن ابن عباس رجع إلى حديث سُبَيْعة، يعني لما احتج عليه به. قال: ويصحح ذلك عنه: أن أصحابه أفتوا بحديث سُبَيْعة، كما هو قول أهل العلم قاطبة. وكذلك يستثنى من ذلك الزوجة إذا كانت أمة، فإن عدتها على النصف من عدة الحرة، شهران وخمس ليال، على قول الجمهور؛ لأنها لما كانت على النصف من الحرة في الحَدِّ، فكذلك فلتكن على النصف منها في العدة. ومن العلماء - كمحمد بن سيرين وبعض الظاهرية - من يسوي بين الزوجات الحرات والإماء في هذا المقام؛ لعموم الآية، ولأن العدة من باب الأمور الجبلية التي تستوي فيها الخليفة. وقد ذكر سعيد بن المسيب، وأبو العالية وغيرهما: أن الحكمة في جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشر؛ لاحتمال اشتغال الرحم على حمل، فإذا انتظر به هذه المدة ظهر إن كان موجوداً، كما جاء في حديث ابن مسعود الذي في الصحيحين وغيرهما: «إن خلق أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح». فهذه ثلاثة أربعينات بأربعة أشهر، والاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور، ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه، والله أعلم. قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة: سألت سعيد بن المسيب: ما بال العشر؟ قال: فيه ينفخ الروح. وقال الربيع بن أنس: قلت لأبي العالية: لِمَ صارت هذه العشر مع الأشهر الأربعة؟ قال: لأنه ينفخ فيها الروح. رواهما ابن جرير. ومن ههنا ذهب الإمام أحمد، في رواية عنه، إلى أن عدة أم الولد عدة الحرة ههنا؛ لأنها صارت فراشاً كالحرث، وللحديث الذي رواه الإمام أحمد، عن يزيد بن هارون، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن رجاء بن حيوة، عن قبيصة بن ذؤيب، عن عمرو بن العاص أنه قال: لا تُلِسُوا علينا سنة نبينا، عدة أم الولد إذا توفي عنها سيدها أربعة أشهر وعشر. ورواه أبو داود، عن قتيبة، عن عُثْرٍ. وعن ابن المثنى، عن عبد الأعلى. وابن ماجه، عن علي بن محمد، عن وَكِيع - ثلاثتهم عن سعيد بن أبي عروبة، عن مَطَرٍ الوراق، عن رجاء بن حيوة، عن قبيصة، عن عمرو بن العاص، فذكره. وقد روي عن الإمام أحمد أنه أنكر هذا الحديث، وقيل: إن قبيصة لم يسمع عُثْرًا، وقد ذهب إلى القول بهذا الحديث طائفة من السلف، منهم: سعيد بن المسيب، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وابن سيرين، وأبو عياض، والزهري، وعمر بن عبد العزيز. وبه كان يأمر يزيد بن عبد الملك بن مروان، وهو أمير المؤمنين. وبه يقول الأوزاعي، وإسحاق بن زَاهَوِيَّه، وأحمد بن حنبل، في رواية عنه. وقال طاوس وقاتدة: عدة أم الولد إذا توفي عنها سيدها نصفُ عدة الحرة: شهران وخمس ليال. وقال أبو حنيفة وأصحابه، والثوري، والحسن بن صالح بن حَيٍّ: تعتد بثلاث حيض. وهو قول علي، وابن مسعود، وعطاء، وإبراهيم النخعي. وقال مالك، والشافعي، وأحمد في المشهور عنه: عدتها حيضة. وبه يقول ابن عمر، والشعبي، ومكحول، والليث، وأبو عبيد، وأبو ثور، والجمهور. قال الليث: ولو مات وهي حائض أجزأتها. وقال مالك: فلو كانت ممن لا تحيض فثلاثة أشهر. وقال الشافعي والجمهور: شهر، وثلاثة أحب إلي. والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يستفاد من هذا وجوب الإحداث على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها، لما ثبت في الصحيحين، من غير وجه، عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أم المؤمنين، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تُحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا». وفي الصحيحين أيضاً، عن أم سلمة: أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن ابنتي توفي عنها زوجها، وقد اشتكت عيئها، أفنكحها؟ فقال: «لا». كل ذلك يقول: «لا» مرتين أو ثلاثاً. ثم قال: «إنما هي أربعة أشهر وعشر، وقد كانت إحداكن في الجاهلية تمكث سنة». قالت زينب بنت أم سلمة: كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حفشاً، ولبست شر ثيابها، ولم تمس طيباً ولا شيئاً، حتى تمر بها سنة، ثم تخرج فتعطى بَغْرَ فترمي بها، ثم تؤتي بدابة - حمار أو

شاة أو طير - فَتَقْتَضُ بِهِ فَقَلَمًا تَقْتَضُ بِشَيْءٍ إِلَّا مَاتَ.

ومن ههنا ذهب كثير من العلماء إلى أن هذه الآية ناسخة للآية التي بعدها، وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ الآية (البقرة: ٢٤٠)، كما قاله ابن عباس وغيره، وفي هذا نظر كما سيأتي تقريره. والغرض أن الإحداد هو عبارة عن ترك الزينة من الطيب، ولبس ما يدعواها إلى الأزواج من ثياب وخُلِيٍّ وغير ذلك وهو واجب في عدة الوفاة قولاً واحداً، ولا يجب في عدة الرجعية قولاً واحداً، وهل يجب في عدة البائن؟ فيه قولان. ويجب الإحداد على جميع الزوجات المتوفى عنهن أزواجهن، سواء في ذلك الصغيرة والآيسة، والحرّة والأمة، والمسلمة والكافرة، لعموم الآية. وقال الثوري وأبو حنيفة وأصحابه: لا إحداد على الكافرة. وبه يقول أشهب، وابن نافع من أصحاب مالك. وحجة قائل هذه المقالة قوله ﷺ: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تُجَدَّ على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً»: قالوا: فجعله تعبدًا. وألحق أبو حنيفة وأصحابه والثوري الصغيرة بها، لعدم التكليف. وألحق أبو حنيفة وأصحابه الأمة المسلمة لنقصها. ومحل تقرير ذلك كله في كتب الأحكام والفروع، والله الموفق للصواب.

وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: انقضت عدتهن. قال الضحاك والربيع بن أنس، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ قال الزهري: أي: على أوليائنها ﴿فِيمَا فَعَلْنَ﴾ يعني: النساء اللاتي انقضت عدتهن. قال العوفي، عن ابن عباس: إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها، فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تتزين وتتصنع وتعرض للتزويج، فذلك المعروف. روي عن مقاتل بن حيان نحوه، وقال ابن جريج عن مجاهد: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال: هو النكاح الحلال الطيب. وروي عن الحسن، والزهري، والسدي نحو ذلك.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّسْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَسَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَتَكُونُ لَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَزِمُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْلُغُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَأَخَذُوا مَا وَعَدُوا أَنَّ اللَّهَ عَفْوٌ ذَلِيلٌ﴾ (٢٣٥).

يقول تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أن تعرضوا بخطبة النساء في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح. قال الثوري وشعبة وجريير وغيرهم، عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّسْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ قال: التعريض أن تقول: إني أريد التزويج، وإني أحب امرأة من أمرها ومن أمرها - يعرض لها بالقول بالمعروف - وفي رواية: وددت أن الله رزقني امرأة ونحو هذا. ولا ينصب للخطبة. وفي رواية: إني لا أريد أن أتزوج غيرك إن شاء الله، ولوددت أني وجدت امرأة صالحة، ولا ينصب لها ما دامت في عدتها. ورواه البخاري تعليقا، فقال: قال لي طلق بن عثام، عن زائدة، عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّسْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ هو أن يقول: إني أريد التزويج، وإن النساء لمن حاجتي، ولوددت أنه تيسر لي امرأة صالحة. وهكذا قال مجاهد، وطاوس، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وإبراهيم النخعي، والشعبي، والحسن، وقتادة، والزهري، ويزيد بن قسيط، ومقاتل بن حيان، والقاسم بن محمد، وغير واحد من السلف والأئمة في التعريض: إنه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة. وهكذا حكم المطلقة المبتوتة يجوز التعريض لها، كما قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس، حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص: آخر ثلاث تطليقات. فأمرها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم، وقال لها: «فإذا خللت فأذيني». فلما حلت خطب عليها أسامة بن زيد مولاه، فزوجه إياه. فأما المطلقة الرجعية: فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها، والله أعلم. وقوله: ﴿أَوْ أَكْتَسَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: أضمرتم في أنفسكم خطبتهن، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلَقُ مَا يَكُونُ مِنْكُمْ مِمَّا تَرْضَوْنَ وَمَا يَخْلُقُكُمْ﴾ [الفصل: ٦٩]، وكقوله: ﴿وَأَنَا أَفْهَمُ يَمَا أَفْقَمْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ﴾ [المتحة: ١]؛ ولهذا قال: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ سَتَكُونُ لَهُنَّ﴾ أي: في أنفسكم، فرفع الحرج عنكم في ذلك، ثم قال: ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ قال أبو مجلز، وأبو الشعثاء - جابر بن زيد - والحسن البصري، وإبراهيم النخعي، وقتادة، والضحاك، والربيع بن أنس، وسليمان التيمي، ومقاتل بن حيان، والسدي: يعني الزنا. وهو معنى رواية العوفي عن ابن عباس، واختاره ابن جرير.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾: لا تقل لها: إني عاشق، وعاهديني ألا تتزوجي غيري، ونحو هذا. وكذا روي عن سعيد بن جبيرة، والشعبي، وعكرمة، وأبي الضحى، والضحاك، والزهري، ومجاهد، والثوري: هو أن يأخذ ميثاقها ألا تتزوج غيره، وعن مجاهد: هو قول الرجل للمرأة: لا تقوتيني بنفسك، فإني ناكحك. وقال قتادة: هو أن يأخذ عهد المرأة، وهي في عدتها ألا تنكح غيره، فنهى الله عن ذلك وقدم فيه، وأحل الخطبة والقول بالمعروف. وقال

ابن زيد: ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُمْ بَرًّا﴾ هو أن يتزوجها في العدة سراً، فإذا حلت أظهر ذلك. وقد يحتمل أن تكون الآية عامة في جميع ذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَمْرُوفًا﴾ قال ابن عباس، ومجاهد وسعيد بن جبير، والسدي، والثوري، وابن زيد: يعني به: ما تقدم من إباحة التعريض. كقوله: إني فيك لرأغب. ونحو ذلك. وقال محمد بن سيرين: قلت لعبيدة: ما معنى قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَمْرُوفًا﴾؟ قال: يقول لوليها: لا تسفني بها، يعني: لا تزوجها حتى تُعلمني. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَلَا تَمْرُمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ يعني: ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضي العدة. قال ابن عباس، ومجاهد، والشعبي، وقتادة، والربيع بن أنس، وأبو مالك، وزيد بن أسلم، ومقاتل بن حيان، والزهري، وعطاء الخراساني، والسدي، والثوري، والضحاك: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ يعني: حتى تنقضي العدة. وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد في مدة العدة. واختلفوا فيمن تزوج امرأة في عدتها فدخل بها، فإنه يفرق بينهما، وهل تحرم عليه أبداً؟ على قولين: الجمهور على أنها لا تحرم عليه، بل له أن يخطبها إذا انقضت عدتها. وذهب الإمام مالك إلى أنها تحرم عليه على التأييد. واحتج في ذلك بما رواه عن ابن شهاب، وسليمان بن يسار: أن عمر، رضي الله عنه، قال: أيما امرأة نكحت في عدتها، فإن كان زوجها الذي تزوجها لم يدخل بها، فرق بينهما، ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الأول، ثم كان الآخر خاطباً من الخطاب، وإن كان دخل بها فرق بينهما، ثم اعتدت بقية عدتها من الأول، ثم اعتدت من الآخر، ثم لم ينكحها أبداً. قالوا: وماخذ هذا: أن الزوج لما استعجل ما أجل الله، عوقب بنقيض قصده، فحرمت عليه على التأييد، كالقاتل يحرم الميراث. وقد روى الشافعي هذا الأثر عن مالك. قال البيهقي: وذهب إليه في القديم ورجع عنه في الجديد، لقول علي: إنها تحل له. قلت: ثم هو منقطع عن عمر. وقد روى الثوري، عن أشعث، عن الشعبي، عن مسروق: أن عمر رجع عن ذلك وجعل لها مهرها، وجعلها يجتمعان. وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ توعدهم على مايقع في ضمائرهم من أمور النساء، وأرشدتهم إلى إضمار الخير دون الشر، ثم لم يُؤَيِّنْهُمْ من رحمته، ولم يُقْطِعْهُمْ من عاندته، فقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَظِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ نِسَاءَكُمْ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَمْسُوهُنَّ لَهِنَّ فَرْصَةٌ وَنَتَمُوهُنَّ عَلَى الْوَلِيِّ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾.

أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها وقبل الدخول بها. قال ابن عباس، وطاوس، وإبراهيم، والحسن البصري: المس: النكاح. بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها، والفرض لها إن كانت مُقْرُوضَةً، وإن كان في هذا انكسار لقلبها؛ ولهذا أمر تعالى بإمتاعها، وهو تعويضها عما فاتها بشيء تعطاء من زوجها بحسب حاله، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره. وقال سفيان الثوري، عن إسماعيل بن أمية، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: متعة الطلاق أعلاه الخادم، ودون ذلك الورق، ودون ذلك الكسوة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: إن كان موسراً متعها بخادم، أو شبه ذلك، وإن كان معسراً أمتعها بثلاثة أثواب. وقال الشعبي: أوسط ذلك: درع وخمار وملحفة وجلباب. قال: وكان شريح يمتع بخمس مائة. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن أيوب، عن ابن سيرين قال: كان يُمتع بالخادم، أو بالنفقة، أو بالكسوة، قال: ومتع الحسن بن علي بعشرة آلاف، ويروى أن المرأة قالت: متاعٌ قليلٌ من حبيبٍ مُفَارِقٍ.

وذهب أبو حنيفة، رحمه الله، إلى أنه متى تنازع الزوجان في مقدار المتعة وجب لها عليه نصف مهر مثلها. وقال الشافعي في الجديد: لا يجبر الزوج على قدر معلوم، إلا على أقل ما يقع عليه اسم المتعة، وأحب ذلك إلي أن يكون أقله ما تجزئ فيه الصلاة. وقال في القديم: لا أعرف في المتعة قدراً، إلا أنني أستحسن ثلاثين درهماً؛ لما روي عن ابن عمر، رضي الله عنهما. وقد اختلف العلماء أيضاً: هل تجب المتعة لكل مطلقة، أو إنما تجب للمتعة لغير المدخول بها التي لم يفرض لها؟ على أقوال: أحدها: أنه تجب المتعة لكل مطلقة، لعموم قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١] ولقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَرَبَّهَا فَعَالِمٌ أَمَّا لَكُمْ عَلَيْكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ فَتَدُونَهَا فَمَعِيَّوْنٌ وَبِئْسَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، وقد كن مفروضاً لهن ومدخولاً بهن، وهذا قول سعيد بن جبير، وأبي العالية، والحسن البصري. وهو أحد قولي الشافعي، ومنهم من جعله الجديد الصحيح، فالله أعلم. والقول الثاني: أنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل الميسس، وإن كانت مفروضاً لها لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَرَبَّهَا فَعَالِمٌ أَمَّا لَكُمْ عَلَيْكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ فَتَدُونَهَا فَمَعِيَّوْنٌ وَبِئْسَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، قال شعبة وغيره، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب قال: نسخت هذه الآية التي في الأحزاب الآية التي في البقرة. وقد روى البخاري في صحيحه، عن سهل بن سعد، وأبي أسيد أنهما قالاً: تزوج

رسول الله ﷺ أميمة بنت شراحيل، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها فكأنما كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقين. والقول الثالث: أن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها، ولم يفرض لها، فإن كان قد دخل بها وجب لها مهر مثلها إذا كانت مفوضة، وإن كان قد فرض لها وطلقها قبل الدخول، وجب لها عليه شطره، فإن دخل بها استقر الجميع، وكان ذلك عوضاً لها عن المتعة، وإنما المصابة التي لم يفرض لها ولم يدخل بها فهذه التي دلت هذه الآية الكريمة على وجوب متعتها. وهذا قول ابن عمر، ومجاهد. ومن العلماء: من استحباها لكل مطلقة ممن عدا المفوضة المفارقة قبل الدخول: وهذا ليس بمنكور، وعليه تحمل آية التخيير في الأحزاب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّحٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٢١]. ومن العلماء من يقول: إنها مستحبة مطلقاً. قال ابن أبي حاتم: حدثنا كثير بن شهاب القزويني، حدثنا محمد بن سعيد بن سابق، حدثنا عمرو - يعني ابن أبي قيس - عن أبي إسحاق، عن الشعبي قال: ذكروا له المتعة، أيجس فيها؟ قرأ: ﴿عَلَى الْوَيْعِ قَدَرٌ وَعَلَى الْمُعْتَرِ قَدَرٌ﴾ قال الشعبي: والله ما رأيت أحداً حبس فيها، والله لو كانت واجبة لحبس فيها القضاة.

﴿وَلَا تَلْقَئُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسَوَّهْنَ وَفَدَّ فَرْصَتَهُنَّ فَرِيضَةً قِصْفٌ مَا قُضِيَ إِلَّا أَنْ يَقُولَنَّ أَوْ يَقُولَنَّ أَلَّذِي يَدُوهُ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَقُولَنَّ أَقْرَبُ لِلْقَوَى وَلَا تَنْسَوُا الْعَهْدَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَعِيرٌ﴾.

وهذه الآية الكريمة مما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى، حيث إنما أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض، وإذا طلق الزوج قبل الدخول، فإنه لو كان ثم واجب آخر من متعة لبينها، لا سيما وقد قرنها بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الحالة، والله أعلم. وتشطير الصداق - والحالة هذه - أمر مجمع عليه بين العلماء، لا خلاف بينهم في ذلك، فإنه متى كان قد سمي لها صداقاً ثم فارقتها قبل دخوله بها، فإنه يجب لها نصف ما سمي من الصداق، إلا أن عند الثلاثة أنه يجب جميع الصداق إذا خلا بها الزوج، وإن لم يدخل بها، وهو مذهب الشافعي في القديم، وبه حكم الخلفاء الراشدون، لكن قال الشافعي: أخبرنا مسلم بن خالد، أخبرنا ابن جريج، عن ليث بن أبي سليم، عن طائوس، عن ابن عباس أنه قال: - في الرجل يتزوج المرأة فيخلو بها ولا يمسهما ثم يطلقها - ليس لها إلا نصف الصداق؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَا تَلْقَئُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسَوَّهْنَ وَفَدَّ فَرْصَتَهُنَّ فَرِيضَةً قِصْفٌ مَا قُضِيَ﴾ قال الشافعي: هذا أقوى، وهو ظاهر الكتاب. قال البيهقي: وليث بن أبي سليم وإن كان غير محتج به، فقد رويناه من حديث ابن أبي طلحة، عن ابن عباس فهو يقوله. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولَنَّ﴾ أي: النساء عما وجب لها على زوجها من النصف، فلا يجب لها عليه شيء. قال السدي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولَنَّ﴾ قال: إلا أن تعفو الثيب فتدع حقها. قال الإمام أبو محمد بن أبي حاتم، رحمه الله: وروى عن شريح، وسعيد بن المسيب، وعكرمة، ومجاهد، والشعبي، والحسن، ونافع، وقتادة، وجابر بن زيد، وعطاء الخراساني، والضحاك، والزهري، ومقاتل بن حيان، وابن سيرين، والربيع بن أنس، والسدي، نحو ذلك. قال: وخالفهم محمد بن كعب القرظي فقال: ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولَنَّ﴾ يعني: الرجال، وهو قول شاذ لم يتابع عليه. انتهى كلامه. وقوله: ﴿أَوْ يَقُولَنَّ أَلَّذِي يَدُوهُ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ قال ابن أبي حاتم: ذكر عن ابن لهيعة، حدثني عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «ولي عقدة النكاح الزوج». وهكذا أسنده ابن مردويه من حديث عبد الله بن لهيعة، به. وقد أسنده ابن جرير، عن ابن لهيعة، عن عمرو بن شعيب أن رسول الله ﷺ، فذكره، ولم يقل: عن أبيه، عن جده، فالحق أعلم. ثم قال ابن أبي حاتم، رحمه الله: وحدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا جرير، يعني ابن حازم، عن عيسى - يعني ابن عاصم - قال: سمعت شريحاً يقول: سألتني علي بن أبي طالب عن الذي بيده عقدة النكاح. فقلت له: هو ولي المرأة. فقال علي: لا، بل هو الزوج. ثم قال: وفي إحدى الروايات عن ابن عباس، وجبير بن مطعم، وسعيد بن المسيب، وشريح - في أحد قوليه - وسعيد بن جبير، ومجاهد، والشعبي، وعكرمة، ونافع، ومحمد بن سيرين، والضحاك، ومحمد بن كعب القرظي، وجابر بن زيد، وأبي مجلز، والربيع بن أنس، وإياس بن معاوية، ومكحول، ومقاتل بن حيان: أنه الزوج. قلت: وهذا هو الجديد من قولي الشافعي، ومذهب أبي حنيفة. وأصحابه، والثوري، وابن شبرمة، والأوزاعي، واختاره ابن جرير. ومأخذ هذا القول: أن الذي بيده عقدة النكاح حقيقة الزوج، فإن بيده عقدها وإبرامها ونقضها وإنهائها، وكما أنه لا يجوز للولي أن يهب شيئاً من مال المولية للغير، فكذلك في الصداق. قال: والوجه الثاني: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا محمد بن مسلم، حدثنا عمرو بن دينار، عن ابن عباس - في الذي ذكر الله بيده عقدة النكاح - قال: ذلك أبوها أو أخوها، أو من لا تنكح إلا بإذنه، وروي عن علقمة، والحسن، وعطاء، وطائوس، والزهري، وربيع، وزيد بن أسلم، وإبراهيم النخعي، وعكرمة في أحد قوليه، ومحمد بن سيرين - في أحد قوليه: أنه الولي. وهذا مذهب مالك، وقول الشافعي في القديم؛ ومأخذه أن الولي هو

الذي أكسبها إياه، فله التصرف فيه بخلاف سائر مالها. وقال ابن جرير: حدثنا سعيد بن الربيع الرازي، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة قال: أذن الله في العفو وأمر به، فأمر امرأة عفت جاز عفوها، فإن شحت وضنت عفا وليها وجاز عفو. وهذا يقتضي صحة عفو الولي، وإن كانت رشيدة، وهو مروى عن شريح. لكن أنكر عليه الشعبي، فرجع عن ذلك، وصار إلى أنه الزوج وكان يباهل عليه. وقوله: ﴿وَأَنْ تَقْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى﴾: قال ابن جرير: قال بعضهم: خُوطب به الرجال والنساء. حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، سمعت ابن جريج يحدث عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس: ﴿وَأَنْ تَقْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى﴾. قال: أقربهما للتقوى الذي يعفو. وكذا روي عن الشعبي وغيره، وقال مجاهد، والضحاك، ومقاتل بن حيان، والربيع بن أنس، والثوري: الفضل لهما أن تعفو المرأة عن شطرها، أو إتمام الرجل الصداق لها. ولهذا قال: ﴿وَلَا تَسْأَلُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: الإحسان، قاله سعيد. وقال الضحاك، وقتادة، والسدي، وأبو وائل: المعروف، يعني: لا تهملوه بل استعملوه بينكم. وقد قال أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا موسى بن إسحاق، حدثنا عقبة بن مكرم، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا عبيد الله بن الوليد الوصافي، عن عبد الله بن عبيد، عن علي بن أبي طالب، أن رسول الله ﷺ قال: ﴿لِبَآئِيْنَ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ عُضُوضٌ، يَعْصُ الْمُؤْمِنُ عَلَى مَا فِي يَدَيْهِ وَيَنْسَى الْفَضْلَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْأَلُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، شرار يبايعون كل مضطر، وقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع المضطر، وعن بيع العَرَّة، فإن كان عندك خير فعُدْ به على أخيك، ولا تزده هلاكاً إلى هلاكه، فإن المسلم أخو المسلم لا يَحْزُنُهُ ولا يَحْرُمُهُ. وقال سفيان، عن أبي هارون قال: رأيت عون بن عبد الله في مجلس القرظي، فكان عون يحدثنا ولحيته تُرَشُّ من البكاء ويقول: صحبت الأغنياء فكنت من أكثرهم همًّا، حين رأيتهم أحسن ثياباً، وأطيب ريحاً، وأحسن مركباً مني. وجالست الفقراء فاسترحت بهم، وقال: ﴿وَلَا تَسْأَلُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾. إذا أتاه السائل وليس عنده شيء فليدْعُ له. رواه ابن أبي حاتم. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء من أموركم وأحوالكم، وسيجزي كل عامل بعمله.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ رِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْمَلُونَ ﴿٢٣٩﴾.

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها، وحفظ حدودها وأدائها في أوقاتها، كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «الصلوة على وقتها». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين». قال: حدثني بهن رسول الله ﷺ، ولو استزدته لزادني. وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليث، عن عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم، عن القاسم بن غنم، عن جدته أم أبيه الدنيا، عن جدته أم قزوة. وكانت ممن بايع رسول الله ﷺ، أنها سمعت رسول الله ﷺ، وذكر الأعمال، فقال: «إن أحب الأعمال إلى الله تحجيل الصلاة لأول وقتها». وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، وقال: لا نعرفه إلا من طريق العمري، وليس بالقوي عند أهل الحديث. وخص تعالى من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى. وقد اختلف السلف والخلف فيها: أي صلاة هي؟ فقيل: إنها الصبح. حكاها مالك في الموطأ بلاغاً عن علي، وابن عباس قال: مالك: وذلك رأيي. وقال هشيم، وابن عُلية، وعُثْر، وابن أبي عدي، وعبد الوهاب، وشريك وغيرهم، عن عوف الأعرابي، عن أبي رجاء العطاردي قال: صليت خلف ابن عباس الفجر، فقلت فيها، ورفع يديه، ثم قال: هذه الصلاة الوسطى التي أمرنا أن نقوم فيها قانتين. رواه ابن جرير. ورواه أيضاً من حديث عوف، عن جُلَاس بن عمرو، عن ابن عباس، مثله سواء. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا عوف، عن أبي المنهال، عن أبي العالية، عن ابن عباس: أنه صلى الغداة في مسجد البصرة، فقلت قبل الركوع وقال: هذه الصلاة الوسطى التي ذكرها الله في كتابه فقال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ ﴿٢٣٨﴾. وقال أيضاً: حدثنا محمد بن عيسى الدامغاني، أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا الربيع بن أنس، عن أبي العالية قال: صليت خلف عبد الله بن قيس بالبصرة صلاة الغداة، فقلت لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ، إلى جاني: ما الصلاة الوسطى؟ قال: هذه الصلاة. وروى من طريق أخرى عن الربيع، عن أبي العالية: أنه صلى مع أصحاب رسول الله ﷺ، صلاة الغداة، فلما أن فرغوا قال، قلت لهم: أيتهن الصلاة الوسطى؟ قالوا: التي قد صليتها قبل. وقال أيضاً: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن عثمة، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن جابر بن عبد الله قال: الصلاة الوسطى صلاة الصبح. وحكاها ابن أبي حاتم، عن ابن عمر، وأبي أمامة، وأنس، وأبي العالية، وعُبَيْد بن عمير، وعطاء، ومجاهد، وجابر بن زيد، وعكرمة، والربيع بن أنس. ورواه ابن جرير، عن عبد الله بن شداد بن الهاد أيضاً، وهو الذي نص عليه الشافعي، رحمه الله، محتجاً بقوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾. والقنوت عنده في صلاة

الصبح. ونقله الديماطي عن عمر، ومعاذ، وابن عباس، وابن عمر، وعائشة على خلاف منهم، وأبي موسى، وجابر، وأنس، وأبي الشعثاء، وطاوس، وعطاء، وعكرمة، ومجاهد. ومنهم من قال: هي الوسطى باعتبار أنها لا تقصر، وهي بين صلاتين رباعيتين مقصورتين. وترد المغرب. وقيل: لأنها بين صلاتي ليل جهريتين، وصلاتي نهار سريتين.

وقيل: إنها صلاة الظهر. قال أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثنا ابن أبي ذئب، عن الزبرقان - يعني ابن عمرو - عن زهرة - يعني ابن معبد - قال: كنا جلوساً عند زيد بن ثابت، فأرسلوا إلى أسامة، فسألوه عن الصلاة الوسطى، فقال: هي الظهر، كان النبي ﷺ يصليها بالهجير. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، حدثني عمرو بن أبي حكيم، سمعت الزبرقان يحدث عن عروة بن الزبير، عن زيد بن ثابت قال: كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر بالهجرة، ولم يكن يصلي صلاة أشد على أصحاب النبي ﷺ منها، فنزلت ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ وقال: «إن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين»، ورواه أبو داود في سننه، من حديث شعبة، به.

وقال أحمد أيضاً: حدثنا يزيد، حدثنا ابن أبي ذئب، عن الزبرقان: أن رهطاً من قريش مر بهم زيد بن ثابت، وهم مجتمعون، فأرسلوا إليه غلامين لهم؛ يسألانه عن الصلاة الوسطى، فقال: هي العصر. فقام إليه رجلان منهم فسألاه، فقال: هي الظهر. ثم انصرفا إلى أسامة بن زيد فسألاه، فقال: هي الظهر؛ إن النبي ﷺ كان يصلي الظهر بالتهجير، فلا يكون وراءه إلا الصف والصفان، والناس في قائلتهم وفي تجارتهم، فأنزل الله: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَنِينَ﴾ قال: فقال رسول الله ﷺ «لَيَنْتَهِيَنَّ رَجَالٌ أَوْ لَأَحْرِقَنَّ بَيْتَهُمْ». الزبرقان هو ابن عمرو بن أمية الضمري، لم يدرك أحداً من الصحابة. والصحيح ما تقدم من روايته، عن زهرة بن معبد، وعروة بن الزبير. وقال شعبة وهمام، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن ابن عمر، عن زيد بن ثابت قال: الصلاة الوسطى: صلاة الظهر. وقال أبو داود الطيالسي وغيره، عن شعبة، أخبرني عمر بن سليمان، من ولد عمر بن الخطاب قال: سمعت عبد الرحمن بن أبان بن عثمان، يحدث عن أبيه، عن زيد بن ثابت قال: الصلاة الوسطى هي الظهر. ورواه ابن جرير، عن زكريا بن يحيى بن أبي زائدة، عن عبد الصمد، عن شعبة، عن عمر بن سليمان، به، عن زيد بن ثابت، في حديث رفعه قال: الصلاة الوسطى صلاة الظهر. ومن روي عنه أنها الظهر: ابن عمر، وأبو سعيد، وعائشة على اختلاف عنهم. وهو قول عروة بن الزبير، وعبد الله بن شداد بن الهاد. ورواية عن أبي حنيفة، رحمه الله.

وقيل: إنها صلاة العصر. قال الترمذي والبيهقي، رحمهما الله: وهو قول أكثر علماء الصحابة وغيرهم، وقال القاضي الماوردي: وهو قول جمهور التابعين. وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: هو قول أكثر أهل الأثر. وقال أبو محمد بن عطية في تفسيره: هو قول جمهور الناس. وقال الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الديماطي في كتابه المسمى: «كشف المغطى، في تبيين الصلاة الوسطى»: وقد نصر فيه أنها العصر، وحكاها عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وأبي أيوب، وعبد الله بن عمرو، وسمرة بن جندب، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وحفصة، وأم حبيبة، وأم سلمة. وعن ابن عمر، وابن عباس، وعائشة على الصحيح عنهم. وبه قال عبيدة، وإبراهيم النخعي، وزر بن حبيش، وسعيد بن جبيرة، وابن سيرين، والحسن، وقتادة، والضحاك، والكلبي، ومقاتل، وعبيد بن أبي مريم، وغيرهم وهو مذهب أحمد بن حنبل. قال القاضي الماوردي: والشافعي. قال ابن المنذر: وهو الصحيح عن أبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد، واختاره ابن حبيب المالكي، رحمه الله.

ذكر الدليل على ذلك

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن مسلم، عن شتير بن شكل، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملا الله قلوبهم وبيوتهم ناراً». ثم صلاها بين العشاءين: المغرب والعشاء. وكذا رواه مسلم، من حديث أبي معاوية محمد بن حازم الضرير، والنسائي من طريق عيسى بن يونس، كلاهما عن الأعمش عن مسلم بن صبيح أبي الضحى، عن شتير بن شكل بن حميد، عن علي بن أبي طالب، عن النبي ﷺ مثله. وقد رواه مسلم أيضاً، من طريق شعبة، عن الحكم بن عتيبة، عن يحيى بن الجزار، عن علي، به. وأخرجه الشيخان، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وغير واحد من أصحاب المساند، والسنن، والصحاح من طرق يطول ذكرها، عن عبيدة السلماني، عن علي، به. ورواه الترمذي، والنسائي من طريق الحسن البصري، عن علي، به. قال الترمذي: «ولا يعرف سماعه منه». وقال ابن

أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن عاصم، عن زر: قال قلت لعبيدة: سل علياً عن صلاة الوسطى فسأله، فقال: كنا نراها الفجر - أو الصبح - حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله قبورهم وأجوافهم - أو بيوتهم - ناراً» ورواه ابن جرير، عن بشار، عن ابن مهدي، به. وحديث يوم الأحزاب، وشغل المشركين رسول الله ﷺ، وأصحابه عن أداء صلاة العصر يومئذ، مروى عن جماعة من الصحابة يطول ذكرهم، وإنما المقصود رواية من نص منهم في روايته أن الصلاة الوسطى: هي صلاة العصر. وقد رواه مسلم أيضاً، من حديث ابن مسعود، والبراء بن عازب - رضي الله عنهما.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، عن قتادة، عن الحسن، عن سُمرة: أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة الوسطى: صلاة العصر». وحدثنا بهز، وعفان قالوا: حدثنا أبان، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سُمرة: أن رسول الله ﷺ قال: «حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى» وسماها لنا أنها هي: صلاة العصر. وحدثنا محمد بن جعفر، وروح، قالوا: حدثنا سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن سُمرة بن جندب: أن رسول الله ﷺ قال: «هي العصر». قال ابن جعفر: سئل عن صلاة الوسطى. ورواه الترمذي، من حديث سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن سُمرة. وقال: حسن صحيح: وقد سمع منه.

حديث آخر: وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، عن التيمي، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة الوسطى صلاة العصر».

طريق أخرى، بل حديث آخر: وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا سليمان بن أحمد الجرشي الواسطي، حدثنا الوليد بن مسلم. قال: أخبرني صدقة بن خالد، حدثني خالد بن دهقان، عن خالد بن سبلان، عن كهيل بن حرملة. قال: سئل أبو هريرة عن الصلاة الوسطى، فقال: اختلفنا فيها كما اختلفتم فيها، ونحن بفناء بيت رسول الله ﷺ، وفيما الرجل الصالح: أبو هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، فقال: أنا أعلم لكم ذلك، فقام فاستأذن على رسول الله ﷺ، فدخل عليه، ثم خرج إلينا فقال: أخبرنا أنها صلاة العصر. غريب من هذا الوجه جداً.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا عبد السلام، عن سالم مولى أبي بصير، حدثني إبراهيم بن يزيد الدمشقي قال: كنت جالساً عند عبد العزيز بن مروان فقال: يا فلان، اذهب إلى فلان فقل له: أي شيء سمعت من رسول الله ﷺ في الصلاة الوسطى؟ فقال رجل جالس: أرسلني أبو بكر وعمر - وأنا غلام صغير - أسأله عن الصلاة الوسطى، فأخذ إصبعي الصغيرة فقال: هذه الفجر، وقبض التي تليها، فقال: هذه الظهر. ثم قبض الإبهام، فقال: هذه المغرب. ثم قبض التي تليها، فقال: هذه العشاء. ثم قال: أي أصابعك بقيت؟ فقلت: الوسطى. فقال: أي الصلاة بقيت؟ فقلت: العصر. فقال: هي العصر، غريب أيضاً.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثني محمد بن عوف الطائي، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثني أبي، حدثني ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة الوسطى صلاة العصر». إسناده لا بأس به.

حديث آخر: قال أبو حاتم بن حبان في صحيحه: حدثنا أحمد بن يحيى بن زهير، حدثنا الجراح بن مخلد، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا همام عن قتادة عن مَوْزُقِ العِجْلِي، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الوسطى صلاة العصر». وقد روى الترمذي، من حديث محمد بن طلحة بن مُصَرِّف، عن زيد اليامي، عن مَرَّةِ الهمداني، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الوسطى صلاة العصر»، ثم قال: حسن صحيح. وأخرجه مسلم في صحيحه، من طريق محمد بن طلحة، به ولفظه: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر» الحديث.

فهذه نصوص في المسألة لا تحتمل شيئاً، ويؤكد ذلك الأمر بالمحافظة عليها، وقوله ﷺ في الحديث الصحيح، من رواية الزهري، عن سالم، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله». وفي الصحيح أيضاً، من حديث الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي قلابة، عن أبي المهاجر عن بُزَيْدَةَ بن الحُصَيْن، عن النبي ﷺ قال: «بكروا بالصلاة في يوم الغيم، فإنه من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله». وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا ابن لهيعة، عن عبد الله بن هبيرة، عن أبي تميم، عن أبي بصرة الغفاري قال: صلى بنا رسول الله ﷺ في واد من أوديتهم،

يقال له: المَحْمُص صلاة العصر، فقال: «إن هذه الصلاة صلاة العصر عُزِّصَتْ على الذين من قبلكم فضيعوها، ألا ومن صلاحها ضَعُفَ له أجره مرتين، ألا ولا صلاة بعدها حتى تروا الشاهد». ثم قال: رواه عن يحيى بن إسحاق، عن الليث، عن خير بن نعيم، عن عبد الله بن هبيرة، به. وهكذا رواه مسلم والنسائي جميعاً، عن قتيبة، عن الليث. ورواه مسلم أيضاً من حديث محمد بن إسحاق، حدثني يزيد بن أبي حبيب كلاهما عن خير بن نعيم الحضرمي، عن عبد الله بن هبيرة السبائي، به. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد أيضاً: حدثنا إسحاق، أخبرني مالك، عن زيد بن أسلم، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي يونس مولى عائشة قال: أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً، قالت: إذا بلغت هذه الآية: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ فأذني. فلما بلغت أذنتها، فأملت علي: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين» قالت: سمعتها من رسول الله ﷺ. وهكذا رواه مسلم، عن يحيى بن يحيى، عن مالك، به. وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا الحجاج، حدثنا حماد، عن هشام بن عروة عن أبيه قال: كان في مصحف عائشة: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهي صلاة العصر». وهكذا رواه من طريق الحسن البصري: أن رسول الله ﷺ قرأها كذلك. وقد روى الإمام مالك أيضاً، عن زيد بن أسلم عن عمرو بن رافع قال: كنت أكتب مصحفاً لحفصة زوج النبي ﷺ، فقالت: إذا بلغت هذه الآية فأذني: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ فلما بلغت أذنتها. فأملت علي: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين». وهكذا رواه محمد بن إسحاق بن يسار فقال: حدثني أبو جعفر محمد بن علي، ونافع مولى ابن عمر: أن عمرو بن رافع قال... فذكر مثله، وزاد: كما حفظتها من النبي ﷺ. طريق أخرى عن حفصة: قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن عبد الله بن يزيد الأزدي، عن سالم بن عبد الله: أن حفصة أمرت إنساناً أن يكتب لها مصحفاً، فقالت: إذا بلغت هذه الآية: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ فأذني. فلما بلغ أذنها فقالت: اكتب: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر». طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثني ابن المثنى حدثنا عبد الوهاب، حدثنا عبيد الله، عن نافع، أن حفصة أمرت مولى لها أن يكتب لها مصحفاً فقالت: إذا بلغت هذه الآية: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ فلا تكتبها حتى أملكها عليك كما سمعت رسول الله ﷺ يقرأها. فلما بلغها أمرته فكتبتها: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين». قال نافع: فقرأت ذلك المصحف فرأيت فيه «الواو». وكذا روى ابن جرير، عن ابن عباس وعبيد بن عمير أنهما قرأ كذلك. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عبدة، حدثنا محمد بن عمرو، حدثني أبو سلمة، عن عمرو بن رافع مولى عمر قال: كان في مصحف حفصة: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين». وتقرير المعارضة أنه عطف صلاة العصر على الصلاة الوسطى بواو العطف التي تقتضي المغايرة، فدل ذلك على أنها غيرها. وأجيب عن ذلك بوجوه: أحدها أن هذا إن روي على أنه خبر، فحديث علي أصح وأصرح منه، وهذا يحتمل أن تكون الواو زائدة، كما في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْأَنْبِيَاءَ وَنَرْسُخُ سَبِيلَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]، أو تكون لعطف الصفات لا لعطف الذوات، كقوله: ﴿وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وكقوله: ﴿سَبِّحْ أَشَدَّ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [١] الَّذِي خَلَقَ مَوْتَئ [٢] وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَنَّا [٣] وَالَّذِي أَمَرَ مِنَ [٤] [الأعلى: ١-٤] وأشباه ذلك كثيرة، وقال الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام
وقال أبو ذؤاد الإيادي:

سلط الموت والمنون عليهم
فلهم في صدى المقابر هام
والموت هو المنون؛ قال عدي بن زيد العبادي:

فقدمت الأديم لرامشيهِ
فألفى قولها كذباً وميناً

والكذب: هو العين، وقد نص سيبويه شيخ النحاة على جواز قول القائل: مررت بأخيك وصاحبك، ويكون الصاحب هو الأخ نفسه، والله أعلم. وأما إن روي على أنه قرآن فإنه لم يتواتر، فلا يثبت بمثل خبر الواحد قرآن؛ ولهذا لم يثبت أمير المؤمنين عثمان بن عفان في المصحف الإمام. ولا قرأ بذلك أحد من القراء الذين ثبتت الحجة بقرائهم، لا من السبعة ولا غيرهم. ثم قد روي ما يدل على نسخ هذه التلاوة المذكورة في هذا الحديث. قال مسلم. أخبرنا إسحاق بن راهويه، أخبرنا يحيى بن آدم، عن فضيل بن مرزوق، عن شقيق بن عقبة، عن البراء بن عازب، قال: نزلت: «حافظوا على الصلوات وصلاة العصر» فقرأناها

على رسول الله ﷺ ما شاء الله، ثم نسخها الله ﷻ، فأنزل: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾، فقال له زاهر - رجل كان مع شقيق -: أهى العصر؟ قال: قد حدثتك كيف نزلت، وكيف نسخها الله ﷻ. قال مسلم: ورواه الأشجعي، عن الثوري، عن الأسود، عن شقيق. قلت: وشقيق هذا لم يرو له مسلم سوى هذا الحديث الواحد، والله أعلم. فعلى هذا تكون هذه التلاوة، وهي تلاوة الجادة، ناسخة للفظ رواية عائشة وحفصة، ولمعناها، إن كانت الواو دالة على المغايرة، وإلا فللفظها فقط، والله أعلم.

وقيل: إن الصلاة الوسطى هي صلاة المغرب. رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس. وفي إسناده نظر؛ فإنه رواه عن أبيه، عن أبي الجُمَاهِر، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبي الخليل، عن عمه، عن ابن عباس قال: صلاة الوسطى: المغرب. وحكى هذا القول ابن جرير عن قبيصة بن ذؤيب، وحكى أيضاً عن قتادة على اختلاف عنه. ووجه هذا القول بعضهم بأنها: وسطى في العدد بين الرباعية والثمانية، وبأنها وتر المفروضات، وبما جاء فيها من الفضيلة، والله أعلم.

وقيل: إنها العشاء الآخرة، اختاره علي بن أحمد الواحدي في تفسيره المشهور: وقيل: هي واحدة من الخمس، لا بعينها، وأبهمت فيهن، كما أبهمت ليلة القدر في الحول أو الشهر أو العشر. ويحكى هذا القول عن سعيد بن المسيب، وشريح القاضي، ونافع مولى ابن عمر، والربيع بن خثيم، ونقل أيضاً عن زيد بن ثابت، واختاره إمام الحرمين الجويني في نهايته. وقيل: بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس، رواه ابن أبي حاتم عن ابن عمر، وفي صحته أيضاً نظر. والعجب أن هذا القول اختاره الشيخ أبو عمر بن عبد البر الثمري، إمام ما وراء البحر، وإنها لإحدى الكبر، إذ اختار - مع اطلاعه وحفظه - ما لم يقم عليه دليل من كتاب ولا سنة ولا أثر. وقيل: إنها صلاة العشاء وصلاة الفجر، وقيل: بل هي صلاة الجماعة. وقيل: صلاة الجمعة. وقيل: صلاة الخوف. وقيل: بل صلاة عيد الفطر. وقيل: بل صلاة عيد الأضحى. وقيل: الوتر. وقيل: الضحى. وتوقف فيها آخرون لما تعارضت عندهم الأدلة، ولم يظهر لهم وجه الترجيح. ولم يقع الإجماع على قول واحد، بل لم يزل التنازع فيها موجوداً من زمن الصحابة وإلى الآن. قال ابن جرير: حدثني محمد بن بشار وابن مثنى، قالوا: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة قال: سمعت قتادة يحدث عن سعيد بن المسيب قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين في الصلاة الوسطى هكذا، وثبت بين أصابعه. وقد حكى فخر الدين الرازي في تفسيره قولاً عن جمع من العلماء منهم زيد بن ثابت، وربيع بن خثيم: أنها لم يرد بيانها، وإنما أريد إبهامها، كم أبهمت ليلة القدر في شهر رمضان، وساعة الإجابة في يوم الجمعة، والاسم الأعظم في أسماء الله تعالى، ووقت الموت على المكلف؛ ليكون في كل وقت مستعداً، وكذا أبهمت الليلة التي ينزل فيها من السماء وباء ليحذرها الناس، ويعطوا الأهبة دائماً، وكذا وقت الساعة استأثر الله بعلمه؛ فلا تأتي إلا بغتة. وكل هذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التي قبلها، وإنما المدار ومعترك النزاع في الصبح والعصر. وقد ثبتت السنة بأنها العصر، فتعين المصير إليها. وقد روى الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي في كتاب «فضائل الشافعي» رحمه الله: حدثنا أبي، سمعت حرملة بن يحيى التجيبي يقول: قال الشافعي: كل ما قلت فكان عن النبي ﷺ خلاف قلتي مما يصح، فحديث النبي ﷺ أولى، ولا تقلدوني. وكذا روى الربيع والزعفراني وأحمد بن حنبل، عن الشافعي. وقال موسى أبو الوليد بن أبي الجارود، عن الشافعي: إذا صح الحديث وقلت قولاً فأنا راجع عن قلتي وقائل بذلك. فهذا من سيادته وأمانته، وهذا نفس إخوانه من الأئمة، رحمهم الله ورضي عنهم أجمعين أمين. ومن ههنا قطع القاضي الماوردي بأن مذهب الشافعي، رحمه الله، أن صلاة الوسطى هي صلاة العصر، وإن كان قد نص في الجديد وغيره أنها الصبح، لصحة الأحاديث أنها العصر، وقد وافقه على هذه الطريقة جماعة من محدثي المذهب، والله الحمد والمنة. ومن الفقهاء في المذهب من ينكر أن تكون هي العصر مذهباً للشافعي، وصمموا على أنها الصبح قولاً واحداً. قال الماوردي: ومنهم من حكى في المسألة قولين، ولتقرير المعارضات والجوابات موضع آخر غير هذا، وقد أفردناه على حدة، والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ أي: خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه، وهذا الأمر مستلزم ترك الكلام في الصلاة، لمنافاته إياها؛ ولهذا لما امتنع النبي ﷺ من الرد على ابن مسعود حين سلم عليه، وهو في الصلاة، اعتذر إليه بذلك، وقال: «إن في الصلاة لشغلاً»، وفي صحيح مسلم أنه عليه السلام قال لمعاوية بن الحكم السلمي حين تكلم في الصلاة: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هي التسبيح والتكبير وذكر الله». وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد، عن إسماعيل، حدثني الحارث بن شبيل، عن أبي عمرو الشيباني، عن زيد بن أرقم قال: كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي ﷺ، في الحاجة في الصلاة، حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت. رواه الجماعة - سوى ابن

ماجة، به، من طرق عن إسماعيل، به. وقد أشكل هذا الحديث على جماعة من العلماء، حيث ثبت عندهم أن تحريم الكلام في الصلاة كان بمكة، قبل الهجرة إلى المدينة وبعد الهجرة إلى أرض الحبشة، كما دل على ذلك حديث ابن مسعود الذي في الصحيح، قال: كنا نسلم على النبي ﷺ قبل أن نهجر إلى الحبشة وهو في الصلاة، فيرد علينا، قال: فلما قدمنا سلمت عليه، فلم يرد علي، فأخذني ما قرب وما بعد، فلما سلم قال: «إني لم أرد عليك إلا أني كنت في الصلاة، وإن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث ألا تكلموا في الصلاة». وقد كان ابن مسعود ممن أسلم قديماً، وهاجر إلى الحبشة، ثم قدم منها إلى مكة مع من قدم، فهاجر إلى المدينة، وهذه الآية: ﴿وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَنِينِينَ﴾ مدنية بلا خلاف، فقال قائلون: إنما أراد زيد بن أرقم بقوله: «كان الرجل يكلم أخاه في حاجته في الصلاة» الإخبار عن جنس الناس، واستدل على تحريم ذلك بهذه الآية بحسب ما فهمه منها، والله أعلم. وقال آخرون: إنما أراد أن ذلك قد وقع بالمدينة بعد الهجرة إليها، ويكون ذلك قد أبيح مرتين، وحرم مرتين، كما اختار ذلك قوم من أصحابنا وغيرهم، والأول أظهر. والله أعلم. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا بشر بن الوليد، حدثنا إسحاق بن يحيى، عن المسيب، عن ابن مسعود قال: كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة، فمررت برسول الله ﷺ فسلمت عليه، فلم يرد علي، فوقع في نفسي أنه نزل في شيء، فلما قضى النبي ﷺ صلاته قال: «وعليك السلام، أيها المسلم، ورحمة الله، إن الله، ﷻ، يحدث من أمره ما يشاء، فإذا كنتم في الصلاة فاقتنوا ولا تكلموا». وقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ رِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمْنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٣٨) : لما أمر تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات والقيام بحدودها، وشدد الأمر بتأكيدهما، ذكر الحال التي يشتغل الشخص فيها عن أداها على الوجه الأكمل، وهي حال القتال والتحام الحرب، فقال: ﴿إِنْ خِفْتُمْ رِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً﴾ أي: فصلوا على أي حال كان. رجلاً أو ركباناً، يعني مستقبلتي القبلة وغير مستقبلتيها كما قال مالك. عن نافع: أن ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها. ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجلاً على أقدامهم، أو ركباناً، مستقبلتي القبلة أو غير مستقبلتيها. قال نافع: لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ. ورواه البخاري - وهذا لفظه - ومسلم ورواه البخاري أيضاً من وجه آخر، عن ابن جريج، عن موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ: نحوه أو قريباً منه. ولمسلم أيضاً، عن ابن عمر قال: فإن كان خوف أشد من ذلك فصلوا ركباً، أو قائماً تومئ إيماء.

وفي حديث عبد الله بن أنيس الجهني لما بعثه النبي ﷺ، إلى خالد بن سفيان الهذلي ليقبله، وكان نحو عرفة - أو عرفات - فلما واجهه حانت صلاة العصر، قال: فخشيت أن تفوتني، فجعلت أصلي وأنا أومئ إيماء. الحديث بطوله رواه أحمد، وأبو داود بإسناد جيد. وهذا من رخصة الله التي رخص لعباده، ووَضِعَ الآصار والأغلال عنهم. وقد روى ابن أبي حاتم، من طريق شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال في هذه الآية: يصلي الراكب على دابته، والراجل على رجله، قال: وروي عن الحسن، ومجاهد، ومكحول، والسدي، والحكم، ومالك، والأوزاعي، والثوري، والحسن بن صالح، نحو ذلك، وزادوا: يومئ برأسه أينما توجه. ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان، حدثنا أبو داود - يعني ابن علي - عن مطرف، عن عطية، عن جابر بن عبد الله قال: إذا كانت المسافة فليومئ برأسه إيماء حيث كان وجهه، فذلك قوله: ﴿وَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً﴾. وروي عن الحسن، ومجاهد. وسعيد بن جبير، وعطاء، وعطية، والحكم، وحماد، وقتادة، نحو ذلك. وقد ذهب الإمام أحمد، فيما نص عليه، إلى أن صلاة الخوف تفعل في بعض الأحيان ركعة واحدة إذا تلاحم الجيشان، وعلى ذلك ينزل الحديث الذي رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجة، وابن جرير، من حديث أبي عوانة الوضاح بن عبد الله الشكري - زاد مسلم والنسائي: وأيوب بن عائذ - كلاهما، عن بكير بن الأحنس الكوفي، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ، في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة. وبه قال الحسن البصري، وقتادة، والضحاك، وغيرهم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن مهدي، عن شعبة قال: سألت الحكم، وحماداً، وقتادة، عن صلاة المسافة، فقالوا: ركعة. وهكذا روى الثوري، عنهم سواء. وقال ابن جرير أيضاً: حدثني سعيد بن عمرو السكوني، حدثنا بقيق بن الوليد، حدثنا المسعودي، حدثنا يزيد الفقير، عن جابر بن عبد الله قال: صلاة الخوف. ركعة. واختار هذا القول ابن جرير.

وقال البخاري: «باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو»: وقال الأوزاعي: إن كان تهبأ الفتح، ولم يقدروا على الصلاة، صلوا إيماء، كل امرئ لنفسه، فإن لم يقدروا على الإيماء آخروا الصلاة حتى ينكشف القتال أو يأمّنوا، فيصلوا ركعتين، فإن لم يقدروا صلوا ركعة وسجدتين، فإن لم يقدروا لا يجزئهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمّنوا. وبه قال مكحول

- وقال أنس بن مالك: حضرت مناهضة حصن تستر عند إضاءة الفجر، واشتد اشتعال القتال، فلم يقدروا على الصلاة، فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار، فصليناها، ونحن مع أبي موسى، ففتح لنا. قال أنس: وما يسرني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها. هذا لفظ البخاري، ثم استشهد على ذلك بحديث تأخيره، عليه السلام، صلاة العصر يوم الخندق بعذر المحاربة إلى غيبوبة الشمس، وبقوله، عليه السلام، بعد ذلك لأصحابه، لما جهزهم إلى بني قريظة: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة»، فمنهم من أدركته الصلاة في الطريق فصلوا، وقالوا: لم يرد منها رسول الله ﷺ، إلا تعجيل السير، ومنهم من أدركته فلم يصل إلى أن غربت الشمس في بني قريظة، فلم يعنف واحداً من الفريقين. وهذا يدل على اختيار البخاري لهذا القول، والجمهور على خلافه، ويعولون على أن صلاة الخوف على الصفة التي ورد به القرآن في سورة النساء، ووردت بها الأحاديث، لم تكن مشروعة في غزوة الخندق، وإنما شرعت بعد ذلك. وقد جاء مصرحاً بهذا في حديث أبي سعيد، وغيره، وأما مكحول، والأوزاعي، والبخاري فيجيبون بأن مشروعية صلاة الخوف بعد ذلك لا تنافي جواز ذلك؛ لأن هذا حال نادر خاص، فيجوز فيه مثل ما قلنا، بدليل صنيع الصحابة زمن عمر في فتح تستر، وقد اشتهر ولم ينكر، والله أعلم. وقوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ أي: أقيموا صلاتكم كما أمرتم، فأتوا ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها وجودها ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ أي: مثل ما أنعم عليكم وهذاكم للإيمان وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة، فقابلوه بالشكر والذكر، كقوله بعد ذكر صلاة الخوف: ﴿وَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] وستأتي الأحاديث الواردة في صلاة الخوف وصفاتها في سورة النساء، عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ الآية [النساء: ١٠٢].

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنًا إِلَى الْوَلَدِ عِزٌّ لِبُحْرَانٍ فَإِنَّ حَرْجَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَشْهُرٍ مِنْ مَمَرُوفٍ وَاللَّهُ غَفِيرٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٠] وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتْنٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى النَّسَائِ ۖ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤١].

قال الأكثرون: هذه الآية منسوخة بالتالي قبلها، وهي قوله: ﴿يَرْبِضْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾. قال البخاري: حدثنا أمية، حدثنا يزيد بن زريع، عن حبيب، عن ابن أبي مليكة، قال ابن الزبير: قلت لعثمان بن عفان: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها - أو تدعها؟ قال: يا ابن أخي، لا غير شيئاً منه من مكانه. ومعنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان: إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر، فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها، وبقاء رسمها بعد التي نسختها يومهم بقاء حكمها؟ فأجابه أمير المؤمنين بأن هذا أمر توقيفي، وأنا وجدتُها مثبتة في المصحف كذلك بعدها، فأثبتتها حيث وجدتُها. قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج بن محمد، عن ابن جريج، وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنًا إِلَى الْوَلَدِ عِزٌّ لِبُحْرَانٍ﴾ فكان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكنائها في الدار سنة، فنسختها آية الموارث، فجعل لها الربع أو الثمن مما ترك الزوج. ثم قال: وروي عن أبي موسى الأشعري، وابن الزبير، ومجاهد، وإبراهيم، وعطاء، والحسن، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وزيد بن أسلم، والسدي، ومقاتل بن حيان، وعطاء الخراساني، والربيع بن أنس: أنها منسوخة. وروي من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: كان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة في بيته، ينفق عليها من ماله، ثم أنزل الله بعد: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنًا﴾. فهذه عدة المتوفى عنها زوجها، إلا أن تكون حاملاً، فعدها أن تضع ما في بطنها، وقال: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَهُنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكَهُنَّ﴾ [النساء: ١٢]. فبين ميراث المرأة، وترك الوصية والنفقة. قال: وروي عن مجاهد، والحسن، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، والربيع، ومقاتل بن حيان، قالوا: نسختها ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾. قال: وروي عن سعيد بن المسيب قال: نسختها التي في الأحزاب: ﴿يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا كُنْتُمْ فِي السَّيْرِ ثُمَّ يَخْلَفُونَ﴾ [الأحزاب: ٤٩]. قلت: وروي عن مقاتل وقتادة: أنها منسوخة بآية الميراث. وقال البخاري: حدثنا إسحاق بن راهويه، حدثنا روح، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ قال: كانت هذه العدة، تعتد عند أهل زوجها واجب، فأنزل الله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنًا إِلَى الْوَلَدِ عِزٌّ لِبُحْرَانٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَشْهُرٍ مِنْ مَمَرُوفٍ﴾ قال: جعل الله تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية، إن شاءت سكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت، وهو قول الله: ﴿عِزٌّ لِبُحْرَانٍ فَإِنَّ حَرْجَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، فالعدة كما هي واجب

عليها، زعم ذلك عن مجاهد رحمه الله. وقال عطاء: وقال ابن عباس: نسخت هذه الآية عدتها عند أهلها، فتعدت حيث شاءت، وهو قول الله تعالى: ﴿عَزَّ إِخْرَاجُ﴾ قال عطاء: إن شاءت اعتدت عند أهلها وسكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت لقول الله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا قَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ قال عطاء: ثم جاء الميراث فنسخ السكنى، فتعدت حيث شاءت، ولا سكنى لها، ثم أسند البخاري عن ابن عباس مثل ما تقدم عنه. فهذا القول الذي عول عليه مجاهد وعطاء، من أن هذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سنة كما زعمه الجمهور، حتى يكون ذلك منسوخاً بالأربعة الأشهر وعشر، وإنما دلت على أن ذلك كان من باب الوصاة بالزوجات أن يمكن من السكنى في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولاً كاملاً، إن اخترن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَصِيَّةٌ لِّأَزْوَاجِهِمْ﴾ أي: يوصيكم الله بهن وصية، كقوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ الآية [النساء: ١١]، وقال: ﴿وَصِيَّةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٢]، وقيل: إنما انتصب على معنى: فلتوصوا بهن وصية. وقرأ آخرون بالرفع «وصية» على معنى: كتب عليكم وصية واختارها ابن جرير. ولا يمتنع من ذلك، لقوله: ﴿عَزَّ إِخْرَاجُ﴾ فأما إذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر، أو بوضع الحمل، واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل، فانهن لا يمتنعن من ذلك، لقوله: ﴿فَإِنْ حَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا قَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْ مَّعْرُوفٍ﴾ وهذا القول له اتجاه، وفي اللفظ مساعدة له، وقد اختاره جماعة، منهم: الإمام أبو العباس بن تيمية، ورده آخروه، منهم: الشيخ أبو عمر بن عبد البر. وقول عطاء ومن تابعه على أن ذلك منسوخ بآية الميراث، إن أرادوا ما زاد على الأربعة أشهر والعشر فمسلّم، وإن أرادوا أن سكنى الأربعة أشهر وعشر لا تجب في تركة الميت، فهذا محل خلاف بين الأئمة، وهما قولان للشافعي، رحمه الله، وقد استدلوا على وجوب السكنى في منزل الزوج بما رواه مالك في موطنه عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة، عن عمته زينب بنت كعب بن عجرة: أن الفريضة بنت مالك بن سنان، وهي أخت أبي سعيد الخدري، رضي الله عنهما أخبرتها: أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن يرجع إلى أهلها في بني خُدرة، فإن زوجها خرج في طلب أعبد له أبقوا، حتى إذا كانوا بطرف القدوم لحقهم، فقتلوه. قالت: فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي في بني خُدرة، فإن زوجي لم يتركني في مسكن يملكه ولا نفقة قالت: فقال رسول الله ﷺ: «نعم» قالت: فانصرفت، حتى إذا كنت في الحجرة ناداني رسول الله ﷺ - أو أمربي فنوديت له - فقال: «كيف قلت؟» فرددت عليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي. فقال: «امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشراً. قالت: فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلي، فسألني عن ذلك، فأخبرته، فاتبعه، وقضى به. وكذا رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث مالك، به، ورواه النسائي أيضاً وابن ماجة من طرق، عن سعد بن إسحاق به وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتْنَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما نزل قوله: ﴿مَتْنَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦] قال رجل: إن شئت أحسنت ففعلت، وإن شئت لم أفعل. فأنزل الله هذه الآية ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتْنَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦] وقد استدلت بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة، سواء كانت مفوضة، أو مفروضاً لها أو مطلقاً، قبل المسيس أو مدخولاً بها، وهو قول عن الشافعي، رحمه الله. وإليه ذهب سعيد بن جبير. وغيره من السلف، واختاره ابن جرير. ومن لم يوجبها مطلقاً يخصص من هذا العموم بمفهوم قوله: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتْنَعُهُنَّ عَلَى الْوَسْعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقَرَّبِ قَدَرُهُ مَتْنَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦] وأجاب الأولون: بأن هذا من باب ذكر بعض أفراد العموم، فلا تخصيص على المشهور المنصور، والله أعلم. وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: في إحلاله وتحريمه، وفروضه، وحدوده، فيما أمركم به ونهاكم عنه، بيّنه ووضحه وفسره، ولم يتركه مجعلاً في وقت احتياجكم إليه ﴿لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ﴾ أي: تهفمون، وتندبرون.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الذُّنُوبِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَعْيَاهُمْ إِنَّكَ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَيَقُولُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٣٧﴾ مَن ذَا الَّذِي يَرْفُضُ اللَّهُ قَرْمَازًا حَسَنًا يَفْتَنُكُمْ لَهُ أَشْمَاقًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقِضُ وَيَبْشُطُ وَإِلَيْهِ تُجْعَلُونَ ﴿٢٣٨﴾.

روي عن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف، وعنه: كانوا ثمانية آلاف. وقال أبو صالح: تسعة آلاف، وعن ابن عباس: أربعون ألفاً. وقال وهب بن منبه، وأبو مالك: كانوا بضعة وثلاثين ألفاً. وروى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كانوا أهل قرية يقال لها: داوردان. وكذا قال السدي وأبو صالح، وزاد: من قبل واسط. وقال سعيد بن عبد العزيز: كانوا من أهل أذرعات، وقال ابن جريج، عن عطاء قال: هذا مثل. وقال علي بن عاصم: كانوا من أهل داوردان، قرية على فرسخ من واسط. وقال وكيع بن الجراح في تفسيره: حدثنا سفيان، عن ميسرة بن حبيب النهدي، عن المنهال بن عمرو الأسدي، عن سعيد بن

جبير، عن ابن عباس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ قال: كانوا أربعة آلاف، خرجوا فراراً من الطاعون، قالوا: تأتي أرضاً ليس بها موت، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم: ﴿مُوتُوا﴾ فماتوا، فمر عليهم نبي من الأنبياء، فدعا ربه أن يحييهم، فأحياهم، فذلك قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ الآية. وذكر غير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كانوا أهل بلدة في زمان بني إسرائيل، استوخموا أرضهم وأصابهم بها وباء شديد، فخرجوا فراراً من الموت إلى البرية، فنزلوا وادياً أفيح، فملاوا ما بين عدوتيهِ، فأرسل الله إليهم ملكين، أحدهما من أسفل الوادي، والآخر من أعلاه، فصاحا بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم مائة رجل واحد، فحيزوا إلى حظائر، وبني عليهم جدران وقبور، وفنوا وتمزقوا وتفرقوا، فلما كان بعد دهر مَرَّ بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل، يقال له: حزقيل، فسأل الله أن يحييهم على يديه، فأجابته إلى ذلك، وأمره أن يقول: أيتها العظام البالية، إن الله يأمرك أن تجتمعوا فاجتمع عظام كل جسد بعضها إلى بعض، ثم أمره فنادى: أيتها العظام، إن الله يأمرك أن تكتسي لحماً وعصباً وجلداً. فكان ذلك، وهو يشاهده. ثم أمره فنادى: أيتها الأرواح، إن الله يأمرك أن ترجع كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمرة. فقاموا أحياء ينظرون، قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة، وهم يقولون: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لا إله إلا أنت. وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج والدلالات الدامغة، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم في دينهم ودنياهم. وفي هذه القصة عبرة ودليل على أنه لن يغني حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإن هؤلاء فروا من الوباء طلباً لطول الحياة، فعملوا بتيقُّض قصدهم، وجاءهم الموت سريعاً في آن واحد. ومن هذا القبيل الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، أخبرنا مالك، وعبد الرزاق، أخبرنا معمر، كلاهما عن الزهري، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن عبد الله بن عباس: أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسرخ، لقيه أمراء الأجناد: أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، فذكر الحديث، فجاءه عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيباً لبعض حاجته فقال: إن عندي من هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه» فحمد الله عمر ثم انصرف.

وأخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري به. طريق أخرى لبعضه: قال أحمد: حدثنا حجاج ويزيد العمري، قالوا: أخبرنا ابن أبي ذئب، عن الزهري، عن سالم، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة: أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر، وهو في الشام، عن النبي ﷺ: «إن هذا السقم عذب به الأمم قبلكم، فإذا سمعتم به في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه». قال: فرجع عمر من الشام. وأخرجاه في الصحيحين، من حديث مالك، عن الزهري، بنحوه.

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: كما أن الحذر لا يغني من القدر، كذلك الفرار من الجهاد وتجنبه لا يقرب أجلاً، ولا يباعده، بل الأجل المحتوم والرزق المقسوم مقدر مقين، لا يزداد فيه ولا ينقص منه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَنِ اطَّاعُنَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنِّي نَفْسُكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا لَكَ أَجَلٌ قَرِيبٌ قُلْ مَتَى الدِّينُ قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ الْغَفْلُ وَلَا يُظْلَمُونَ قَلِيلًا﴾ [٧٧] آيِنَمَا تَكُونُوا يَدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُجٍ مُّشِيدَةٍ [النساء: ٧٧، ٧٨]. وروينا عن أمير الجيوش، ومقدم العساكر، وحامي حوزة الإسلام، وسيف الله المسلول على أعدائه، أبي سليمان خالد بن الوليد رضي الله عنه، أنه قال: - وهو في سياق الموت: لقد شهدت كذا كذا موقفاً، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة، وها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت العير!! فلا نامت أعين الجبناء يعني: أنه يتألم لكونه ما مات قتيلاً في الحرب، ويتأسف على ذلك، ويتألم أن يموت على فراشه. وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾: يحث تعالى عباده على الإنفاق في سبيله، وقد كرر تعالى هذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع. وفي حديث النزول أنه يقول تعالى: «من يقرض غير عديم ولا ظلوم» وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا خلف بن خليفة، عن حميد الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾: قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: «نعم يا أبا الدحداح». قال: أرني يدك يا رسول الله. قال: فتأوله يده قال: فأني قد أقرضت ربي حائطي. قال: وحائط له فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها. قال: فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح. قالت: لبيك. قال: اخرجي فقد أقرضته ربي، ﷻ. وقد رواه ابن مردويه، من حديث

والتابوت الذي كان في قديم الزمان، وكان ذلك موروثاً لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة والسلام، فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب، وأخذ التوراة من أيديهم، ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل، وانقطعت النبوة من أسباطهم، ولم يبق من سبط لاوي الذي يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها. وقد قتل، فأخذوها فحبسوها في بيت، واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاماً يكون نبياً لهم، ولم تزل تلك المرأة تدعو الله تعالى أن يرزقها غلاماً، فسمع الله لها وهبها غلاماً، فسمته شمويل: أي: سمع الله. ومنهم من يقول: شمعون. وهو بمعناه، فشب ذلك الغلام ونشأ فيهم، وأنبته الله نبأاً حسناً، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه، وأمره بالدعوة إليه وتوحيده، فدعا بني إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم، وكان الملك أيضاً قد باد فيهم، فقال لهم النبي: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكاً ألا تنفوا بما التزمتم من القتال معه **﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾** أي: وقد أخذت منا البلاد، وسييت الأولاد؟ قال الله تعالى: **﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾** أي: ما وفوا بما وعدوا، بل نكل عن الجهاد أكثرهم، والله عليم بهم.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مِثْلًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَمَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ ابْتَلَاكُمْ بِنَهَرٍ وَرَآدُهُ بَسْطَةٌ فِي الْمِيَاهِ وَالْجَسَدُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ رَئِيسُ عَالَمِينَ﴾

أي: لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً منهم، فعين لهم طالوت، وكان رجلاً من أجنادهم، ولم يكن من بيت الملك فيهم؛ لأن الملك فيهم كان في سبط يهوذا، ولم يكن هذا من ذلك السبط، فلهذا قالوا: **﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾** أي: كيف يكون ملكاً علينا **﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَمَةً مِّنَ الْمَالِ﴾** أي: ثم هو مع هذا فقير، لا مال له يقوم بالملك، وقد ذكر بعضهم أنه كان سقاء، وقيل: دباغاً. وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت، وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف ثم قد أجابهم النبي قائلاً: **﴿إِنَّ اللَّهَ ابْتَلَاكُمْ بِنَهَرٍ﴾** أي: اختاره لكم من بينكم، والله أعلم به منكم. يقول: لست أنا الذي عينته من تلقاء نفسي، بل الله أمرني به لما طلبتم مني ذلك **﴿وَرَآدُهُ بَسْطَةٌ فِي الْمِيَاهِ وَالْجَسَدُ مَن يَشَاءُ﴾** أي: وهو مع هذا أعلم منكم، وأنبأ وأشكل منكم، وأشد قوة وصبراً في الحرب ومعرفة بها، أي: أتم علماً وقامة منكم. ومن ههنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة في بدنه ونفسه، ثم قال: **﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُومًا مَّن يَشَاءُ﴾** أي: هو الحاكم الذي ما شاء فعل، ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، لعلمه وحكمته ورأفته بخلقه؛ ولهذا قال: **﴿وَاللَّهُ رَئِيسُ عَالَمِينَ﴾** أي: هو واسع الفضل يختص برحمته من يشاء، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْكَاهِنَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم مِّن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

يقول نبيهم لهم: إن علامة بركة ملك طالوت عليكم أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم. **﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾** قيل: معناه فيه وقار، وجلالة. قال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة **﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾** أي: وقار. وقال الربيع: رحمة. وكذا روي عن العوفي، عن ابن عباس، وقال ابن جريج: سألت عطاء عن قوله: **﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾** قال: ما يعرفون من آيات الله فيسكنون إليه. وقيل: السكينة طست من ذهب، كانت تغسل فيه قلوب الأنبياء، أعطاه الله موسى عليه السلام، فوضع فيها الألواح. ورواه السدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس. وقال سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن أبي الأحوص، عن علي قال: السكينة لها وجه كوجه الإنسان، ثم هي ريح هفافة. وقال ابن جرير: حدثني ابن المنثي، حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة، وحماد بن سلمة، وأبو الأحوص، كلهم عن سيمك، عن خالد بن عرعة، عن علي قال: السكينة ريح خجوج ولها رأسان. وقال مجاهد: لها جناحان وذنب. وقال محمد بن إسحاق، عن وهب بن منبه: السكينة رأس هرة ميتة، إذا صرخت في التابوت بصراخ هر، أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح. وقال عبد الرزاق: أخبرنا بكار بن عبد الله أنه سمع وهب بن منبه يقول: السكينة روح من الله تتكلم، إذا اختلجوا في شيء تكلم، فأخبرهم ببيان ما يريدون. وقوله: **﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾** قال ابن جريج: أخبرنا ابن المنثي، حدثنا أبو الوليد، حدثنا حماد، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس في هذه الآية: **﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾** قال: عصاه ورضاض الألواح. وكذا قال قتادة، والسدي، والربيع بن أنس، وعكرمة وزاد: والتوراة. وقال أبو صالح **﴿وَبَقِيَّةٌ﴾** يعني: عصا موسى، وعصا هارون، ولوحين من التوراة، والمن. وقال عطية بن سعد: عصا موسى، وعصا هارون، وثياب موسى، وثياب هارون، ورضاض الألواح. وقال عبد الرزاق: سألت الثوري عن قوله: **﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾** فقال: منهم من

يقول قفيز من مَنْ، ورضا الألواح. ومنهم من يقول: العصا، والنعلان. وقوله: ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾: قال ابن جريج: قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمِلُ التابوت بين السماء والأرض، حتى وضعت بين يدي طالوت، والناس ينظرون. وقال السدي: أصبح التابوت في دار طالوت، فأمنوا بنبوة شمعون، وأطاعوا طالوت. وقال عبد الرزاق، عن الثوري، عن بعض أشياخه: جاءت به الملائكة تسوقه على عجلة على بقرة، وقيل: على بقرتين. وذكر غيره أن التابوت كان بأريحا، وكان المشركون لما أخذوه وضعوه في بيت ألتهتهم، تحت صنمهم الكبير، فأصبح التابوت على رأس الصنم، فأنزلوه فوضعوه تحته، فأصبح كذلك، فسمروه تحته فأصبح الصنم مكسر القوائم، ملقى بعيداً، فعلموا أن هذا أمر من الله لا قبل لهم به، فأخرجوا التابوت من بلدهم، فوضعوه في بعض القرى، فأصاب أهلها داء في رقابهم، فأمرتهم جارية من سبي بني إسرائيل أن يردوه إلى بني إسرائيل، حتى يخلصوا من هذا الداء، فحملوه على بقرتين، فسارتا به لا يقربه أحد إلا مات، حتى اقتربتا من بلد بني إسرائيل، فكسرتا النيرين ورجعتا. وجاء بنو إسرائيل فأخذوه، فقبل: إنه تسلمه داود، عليه السلام، وإنه لما قام إليهما حجل من فرحه بذلك. وقيل: شابان منهم، فالله أعلم. وقيل: كان التابوت بقرية من قرى فلسطين، يقال لها: أزدرد. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم﴾ أي: على صدقي فيما جنتكم به من النبوة، وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: بالله واليوم الآخر.

﴿فَلَمَّا فَسَلَ طَاوُثٌ إِلَى الْجَنُودِ قَالَ إِنَّكَ تُبْطِغُكُمْ فِيهِمْ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَوْمِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالرَّيْحُ آمَنُوا مِنْكُمْ كَمَا أُولُوا لَا طَائِفَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ أَنَّهُمْ مِثْلُكُمْ اللَّهُ كَمِ مِنْ فَتْنَةٍ قَلِيلًا غَلَبَتْ فِيهِ كَثِيرَةٌ يَأِذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١٦٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل، وكان جيشه يومئذ فيما ذكره السدي ثمانين ألفاً، فالله أعلم، أنه قال: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ تَبْلِيكُكُمْ بِنَهْرٍ﴾ قال ابن عباس وغيره: وهو نهر بين الأردن وفلسطين، يعني: نهر الشريعة المشهور ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي: فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه، ﴿وَمَنْ لَمْ يَلْطَمَهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ أي: فلا بأس عليه، قال الله تعالى: ﴿فَتَرَوُا مِائِدَةً تُخْرِجُهَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ قال ابن جريج: قال ابن عباس: من اغترف منه بيده روى، ومن شرب منه لم يرو. وكذا رواه السدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس. وكذا قال قتادة، وابن شاذب. وقال السدي: كان الجيش ثمانين ألفاً، فشرب ستة وسبعون ألفاً، وتبقى معه أربعة آلاف، كذا قال. وقد روى ابن جرير، من طريق إسرائيل، وسفيان الثوري، ومُسْعَر بن كدام، عن أبي إسحاق السبيعي، عن البراء بن عازب قال: كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر، على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، وما جازاه معه إلا مؤمن. ورواه البخاري، عن عبد الله بن رجا، عن إسرائيل بن يونس، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: «كنا - أصحاب محمد ﷺ - نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت، الذين جازوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن بضعة عشر وثلاثمائة». ثم رواه من حديث سفيان الثوري وزهير، عن أبي إسحاق، عن البراء، بنحوه. ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي: استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم، فشحعهم علماؤهم وهم العالمون بأن وعد الله حق، فإن النصر من عند الله، ليس عن كثرة عدد ولا عدد. ولهذا قالوا: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

[illegible]

أي: لما واجه حزب الإيمان - وهم قليل - من أصحاب طالوت، لعدوهم أصحاب جالوت - وهم عدد كثير - ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبِئًا﴾ أي: أنزل علينا صبرا من عندك ﴿وَكُنَّتْ أَقْدَامُنَا﴾ أي: في لقاء الأعداء، وجنبنا الفرار والعجز ﴿وَأَضْرَبْنَا عَلَى الْقُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ قال الله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم ﴿وَفَقَّلَ دَاوُدَ جَالُوتَ﴾ ذكروا في الإسرائيليات: أنه قتله بمقلاع كان في يده، رماه به فأصابه فقتله، وكان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ويشاطره نعمته، ويشركه في أمره، فوفى له، ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ اللَّهُ الثَّلَاثَ﴾ الذي كان بيد طالوت ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: النبوة بعد شمويل ﴿وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: مما يشاء الله من العلم الذي اختصه به ﷺ، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ أي:

هذه الحياة الدنيا ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَا يَبْتَغِ فِيهِ وَلَا خُلَّةً وَلَا شَفْعَةً﴾ أي: لا يبيع أحد من نفسه، ولا يفادي بمال لو بذله، ولو جاء بملء الأرض ذهباً، ولا تنفعه خلة أحد، يعني: صداقته، بل ولا نسايته، كما قال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَلَا شَفْعَةً﴾ أي: ولا تنفعهم شفاعة الشافعين. وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾: مبتدأ محصور في خبره، أي: ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ كافراً. وقد روى ابن أبي حاتم، عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾، ولم يقل: والظالمون هم الكافرون.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

هذه آية الكرسي، ولها شأن عظيم، قد صح الحديث عن رسول الله ﷺ، بأنها أفضل آية في كتاب الله. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا سفيان، عن سعيد الجبري، عن أبي السليل، عن عبد الله بن رباح، عن أبي - هو ابن كعب - أن النبي ﷺ سألته «أي آية في كتاب الله أعظم؟» قال: الله ورسوله أعلم. فرددها مراراً، ثم قال أبي: آية الكرسي. قال: «ليهنك العلم أبا المنذر، والذي نفسي بيده إن لها لساناً وشفعتين، تقدس الملك عند ساق العرش» وقد رواه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عبد الأعلى بن عبد الأعلى، عن الجبري - به، وليس عنده زيادة: «والذي نفسي بيده... إلخ».

حديث آخر: عن أبي أيضاً، في فضل آية الكرسي، قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي، حدثنا مبشر عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن عبدة بن أبي لبابة، عن عبد الله بن أبي بن كعب: أن أباه أخبره: أنه كان له جرن فيه تمر، قال: فكان أبي يتعاهده، فوجده ينقص، قال: فحرسه ذات ليلة، فإذا هو بدابة شبيه الغلام المحتلم، قال: فسلمت عليه فرد السلام. قال: فقلت: ما أنت، جني أم إنسي؟ قال: جني. قلت: ناولني يدك. قال: فناولني، فإذا يد كلب، وشعر كلب. فقلت: هكذا خلق الجن؟ قال: لقد علمت الجن ما فيهم أشد مني، قلت: فما حملك على ما صنعت؟ قال: بلغني أنك رجل تحب الصدقة، فأحبنا أن نصيب من طعامك. قال: فقال له: فما الذي يجيرنا منك؟ قال: هذه الآية: آية الكرسي. ثم غدا إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال النبي ﷺ: «صدق الخبيث». وهكذا رواه الحاكم في مستدركه، من حديث أبي داود الطيالسي، عن حرب بن شداد، عن يحيى بن أبي كثير، عن الحضرمي بن لاحق، عن محمد بن عمرو بن أبي كعب، عن جده، به. وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عثمان بن غياث، قال: سمعت أبا السليل قال: كان رجل من أصحاب النبي ﷺ يحدث الناس حتى يكتروا عليه، فيصعد على سطح بيت فيحدث الناس، قال: قال رسول الله ﷺ: «أي آية في القرآن أعظم؟» فقال رجل: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. قال: فوضع يده بين كتفي، فوجدت بردها بين ثديي، أو قال: فوضع يده بين ثديي فوجدت بردها بين كتفي، وقال: «ليهنك العلم يا أبا المنذر».

حديث آخر: عن الأسقع الكبري. قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو يزيد القراطيسي، حدثنا يعقوب بن أبي عباد المكي، حدثنا مسلم بن خالد، عن ابن جريج، أخبرني عمر بن عطاء أن موسى ابن الأسقع - رجل صدق - أخبره، عن الأسقع البكري: أنه سمعه يقول: إن النبي ﷺ جاءهم في صفة المهاجرين، فسأله إنسان: أي آية في القرآن أعظم؟ فقال النبي ﷺ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ حتى انقضت الآية.

حديث آخر: عن أنس. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن الحارث، حدثني سلمة بن وردان، أن أنس بن مالك حدثه، أن رسول الله ﷺ سأل رجلاً من صحابته فقال: «أي فلان، هل تزوجت؟» قال: لا، وليس عندي ما أتزوج به. قال: «أوليس معك: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؟» قال: بلى. قال: «ربع القرآن. أليس معك: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا الْكُفْرَ﴾؟» قال: بلى. قال: «ربع القرآن. أليس معك: ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾؟» قال: بلى. قال: «ربع القرآن. أليس معك: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟» قال: بلى. قال: «ربع القرآن. أليس معك آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؟» قال: بلى. قال: «ربع القرآن».

حديث آخر: عن أبي ذر جندب بن جنادة، قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع بن الجراح، حدثنا المسعودي، أنبأني أبو عمر الدمشقي، عن عبيد بن الخشاش، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد، فجلست. فقال: «يا أبا ذر، هل صليت؟» قلت: لا. قال: «قم فصل» قال: فقممت فصليت، ثم جلست. فقال: «يا أبا ذر، تَعَوَّذَ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ شَيْطَانَيْنِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ» قال: قلت: يا رسول الله، أو للإنس شياطين؟ قال: «نعم» قال: قلت: يا رسول الله، الصلاة؟ قال: «خير موضوع، من شاء أقل، ومن شاء أكثر». قال: قلت: يا رسول الله، فالصوم؟ قال: «فرض مجزئ، وعند الله مزيد» قلت: يا

رسول الله، فالصدقة؟ قال: «أضعاف مضاعفة». قلت: يا رسول الله، فأيهما أفضل؟ قال: «جهد من مقل، أو سر إلى فقير» قلت: يا رسول الله أي الأنبياء كان أول؟ قال: «آدم» قلت: يا رسول الله، ونبي كان؟ قال: «نعم، نبي مكرم» قال: قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: «ثلثمائة وبضعة عشر، جمعاً غفيراً» وقال مرة: «وخمسة عشر» قال: قلت: يا رسول الله، أيما أنزل عليك أعظم؟ قال: «آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾» ورواه النسائي.

حديث آخر: عن أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري، رضي الله عنه وأرضاه، قال الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد حدثنا سفيان، عن ابن أبي ليلى، عن أخيه عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي أيوب: أنه كان في سهوة له، وكانت الغول تجيء فتأخذ، فشكاها إلى النبي ﷺ فقال: «فإذا رأيته فقل: باسم الله، أجيبني رسول الله». قال: فجاءت، فقال لها: فأخذها، فقالت: إني لا أعود. فأرسلها، فجاء، فقال له النبي ﷺ: «ما فعل أسيرك؟» قال: أخذتها، فقالت لي: إني لا أعود إني لا أعود. فأرسلتها. فقال: «إنها عائدة» فأخذتها مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك تقول: لا أعود، وأجني إلى النبي ﷺ فيقول: «ما فعل أسيرك؟» فأقول: لا أعود. فيقول: «إنها عائدة» فأخذها، فقالت: أرسلني وأعلمك شيئاً تقوله فلا يقربك شيء. آية الكرسي. فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «صدقت، وهي كذوب». ورواه الترمذي في فضائل القرآن، عن يثدار، عن أبي أحمد الزبيري، به. وقال: حسن غريب. وقد ذكر البخاري هذه القصة، عن أبي هريرة، فقال في كتاب «فضائل القرآن» وفي كتاب «الوكالة»، وفي «صفة إبليس» من صحيحه: قال عثمان بن الهيثم أبو عمرو، حدثنا عوف، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال: إني محتاج، وعلي عيال، ولي حاجة شديدة. قال: فخليت عنه. فأصبحت فقال النبي ﷺ: «يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟» قال: قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيلاً، فرحمته وخلت سبيله. قال: «أما إنه قد كذبك وسيعود» فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ: «إنه سيعود» فرصدته فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال: دعني، فإني محتاج، وعلي عيال، لا أعود. فرحمته وخلت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله شكا حاجة وعيلاً فرجته فخلت سبيله. قال: «أما إنه قد كذبك وسيعود» فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ. وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود، ثم تعود. فقال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها. قلت: ما هن. قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخلت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخلت سبيله. قال: «ما هي؟» قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. وكانوا أحرص شيء على الخير، فقال النبي ﷺ: «أما إنه صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليل يا أبا هريرة؟» قلت: لا قال: «ذاك شيطان».

كذا رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم. وقد رواه النسائي في «اليوم والليلة» عن إبراهيم بن يعقوب، عن عثمان بن الهيثم، فذكره. وقد روي من وجه آخر، عن أبي هريرة بسياق آخر قريب من هذا، فقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره: حدثنا محمد بن عبد الله بن عمرو بن الصغار، حدثنا أحمد بن زهير بن حرب، أخبرنا مسلم بن إبراهيم، أخبرنا إسماعيل بن مسلم العبدى، أخبرنا أبو المتوكل الناجي: أن أبا هريرة كان معه مفتاح بيت الصدقة، وكان فيه تمر، فذهب يوماً ففتح الباب، فوجد التمر قد أخذ منه ملء كف، ودخل يوماً آخر فإذا قد أخذ منه ملء كف، ثم دخل يوماً آخر ثالثاً فإذا قد أخذ منه مثل ذلك. فشكا ذلك أبو هريرة إلى النبي، فقال له النبي ﷺ: «تحب أن تأخذ صاحبك هذا؟» قال: نعم. قال: «فإذا فتحت الباب فقل: سبحان من سخرك محمد» فذهب ففتح الباب، فقال: سبحان من سخرك محمد. فإذا هو قائم بين يديه، قال: يا عدو الله، أنت صاحب هذا؟ قال: نعم، دعني، فإني لا أعود، ما كنت أخذاً إلا لأهل بيت من الجن فقراء، فخلى عنه. ثم عاد الثانية، ثم عاد الثالثة. فقلت: أليس قد عاهدتني ألا تعود؟ لا أدعك اليوم حتى أذهب بك إلى النبي ﷺ. قال: لا تفعل، فإنك إن تدعني علمتك كلمات، إذا أنت قلتها لم يقربك أحد من الجن، صغير ولا كبير، ذكر ولا أنثى، قال له: لنفعلن؟ قال: نعم. قال: ما هن؟ قال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ قرأ آية الكرسي حتى ختمها، فتركه فذهب فأبعد، فذكر ذلك أبو هريرة للنبي ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أما علمت أن ذلك كذلك؟». وقد رواه النسائي، عن أحمد بن محمد بن عبيد الله، عن شعيب بن

حرب، عن إسماعيل بن مسلم، عن أبي المتوكل عن أبي هريرة، به. وقد تقدم لأبي بن كعب كائنة مثل هذه أيضاً، فهذه ثلاث وقائع.

قصة أخرى: قال أبو عبيد في كتاب «الغريب»: حدثنا أبو معاوية، عن أبي عاصم الثقفي، عن الشعبي، عن عبد الله بن مسعود قال: خرج رجل من الإنس فلقه رجل من الجن، فقال: هل لك أن تصارعني، فإن صرعتني علمتكم آية إذا قرأتها حين تدخل بيتك لم يدخله شيطان؟ فصارعه، فصارعه، فقال: إني أراك ضئيلاً شخيتاً كان ذراعك ذراعاً كلب، أفهكذا أنتم أيها الجن كلكم، أم أنت من بينهم؟ فقال: إني بينهم لضليع فعاودني فصارعه فصارعه الإنسي. فقال: تقرأ آية الكرسي، فإنه لا يقرؤها أحد إذا دخل بيته إلا خرج الشيطان، وله خَجَجٌ كخجج الحمام. فقيل لابن مسعود: أهو عمر؟ فقال: من عسى أن يكون إلا عمر. قال أبو عبيد: الضئيل: النحيف الجسم، والخَجَجُ بالخاء المعجمة، ويقال: بالحاء المهملة: الضراط.

حديث آخر عن أبي هريرة: قال الحاكم أبو عبد الله في مستدركه: حدثنا علي بن حمشاذ، حدثنا بشر بن موسى، حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثني حكيم بن جُبَيْر الأسدي، عن أبي صالح، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «سورة البقرة فيها آية سيدة أي القرآن، لا تقرأ في بيت فيه شيطان إلا خرج منه! آية الكرسي». وكذا رواه من طريق أخرى عن زائدة، عن حكيم بن جبير ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. كذا قال. وقد رواه الترمذي من حديث زائدة به، ولفظه: «لكل شيء سنام وسنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هي سيدة أي القرآن: آية الكرسي». ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من حديث حكيم بن جبير، وقد تكلم فيه شعبة وضعفه. قلت: وكذا ضعفه أحمد، ويحيى بن معين وغير واحد من الأئمة، وتركه ابن مهدي، وكذبه السعدي.

حديث آخر: قال ابن مَرْذُويه: حدثنا عبد الباقي بن نافع، أخبرنا عيسى بن محمد المروزي، أخبرنا عمر بن محمد البخاري، أخبرنا أبي، أخبرنا عيسى بن موسى عُثْبَار، عن عبد الله بن كَيْسَانَ، أخبرنا يحيى بن عَقِيل، عن يحيى بن يعمر، عن ابن عمر، عن عمر بن الخطاب: أنه خرج ذات يوم إلى الناس، وهم سباطات، فقال: أيكم يخبرني بأعظم آية في القرآن؟ فقال ابن مسعود: على الخير سَقَطَتْ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أعظم آية في القرآن: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾».

حديث آخر في اشتغالها على اسم الله الأعظم: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، أخبرنا عبيد الله بن أبي زياد، حدثنا شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ و﴿الْعَزَّوَجَلَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١، ٢] «إن فيهما اسم الله الأعظم». وكذا رواه أبو داود عن مُسَدَّدٍ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ عَلِي بْنِ خُشْرَمٍ وَابْنِ مَاجَةَ عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، ثَلَاثَتُهُمْ عَنْ عِيسَى بْنِ يُونُسَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي زِيَادٍ، بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

حديث آخر في معنى هذا عن أبي أمامة رضي الله عنه: قال ابن مَرْذُويه: أخبرنا عبد الرحمن بن نمير، أخبرنا إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل، أخبرنا هشام بن عمار، أخبرنا الوليد بن مسلم، أخبرنا عبد الله بن العلاء بن زيد: أنه سمع القاسم بن عبد الرحمن، يحدث عن أبي أمامة يرفعه، قال: «اسم الله الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب في ثلاث: سورة البقرة، وآل عمران، وطه». وقال هشام - وهو ابن عمار خطيب دمشق -: أما البقرة فـ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وفي آل عمران: ﴿الْعَزَّوَجَلَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وفي طه: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١].

حديث آخر عن أبي أمامة في فضل قراءتها بعد الصلاة المكتوبة: قال أبو بكر بن مَرْذُويه: حدثنا محمد بن محرز بن مساور الأدمي، أخبرنا جعفر بن محمد بن الحسن، أخبرنا الحسين بن بشر بطرسوس، أخبرنا محمد بن حفيظ، أخبرنا محمد بن زياد، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ دُبُرَ كل صلاة مكتوبة آية الكرسي لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت». وهكذا رواه النسائي في «اليوم والليلة» عن الحسين بن بشر، به، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، من حديث محمد بن جعفر، وهو الحمصي من رجال البخاري أيضاً، فهو إسناد على شرط البخاري، وقد زعم أبو الفرج بن الجوزي أنه حديث موضوع. فالله أعلم. وقد روى ابن مردويه من حديث علي، والمغيرة بن شعبة، وجابر بن عبد الله نحو هذا الحديث. ولكن في إسناد كل منها ضعف. وقال ابن مردويه أيضاً: حدثنا محمد بن الحسن بن زياد المقرئ، أخبرنا يحيى بن دُرُسْتُويه المروزي، أخبرنا زياد بن إبراهيم، أخبرنا أبو حمزة السكري، عن المثني، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال: «أوحى الله إلى موسى بن عمران، عليه السلام، أن اقرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة، فإنه من يقرؤها في دبر كل صلاة مكتوبة أجعل له قلب الشاكرين، ولسان الذاكرين، وثواب المنيبين، وأعمال الصديقين، ولا يواظب

على ذلك إلا نبي أو صديق أو عبد امتحن قلبه للإيمان، أو أريد قتله في سبيل الله» وهذا حديث منكر جداً.

حديث آخر في أنها تحفظ من قراءها في أول النهار وأول الليل: قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا يحيى بن المغيرة، أبو سلمة المخزومي المدني، أخبرنا ابن أبي فديك، عن عبد الرحمن المليكي، عن زرارة بن مصعب، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ: ﴿حَمْدَ﴾ المؤمن، إلى: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ١-٣] وآية الكرسي حين يصبح، حفظ بهما حتى يمسي، ومن قراءهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح» ثم قال: هذا حديث غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم في عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي مُلَيْكَةَ المليكي من قبل حفظه. وقد ورد في فضيلتها أحاديث أخر، تركناها اختصاراً لعدم صحتها وضعف أسانيدها. كحديث علي في قراءتها عند الخجامة: إنها تقوم مقام حجابتين، وحديث أبي هريرة في كتابتها في اليد اليسرى بالزعفران سبع مرات، وتلحس للحفظ وعدم النسيان أوردتهما ابن مردويه، وغير ذلك.

وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة

فقوله: ﴿أَلَمْ يَلَمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ۚ﴾ إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلاق، ﴿أَلَمْ يَلَمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ۚ﴾ أي: الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً المقيم لغيره، وكان عمر يقرأ: «الْقَيَّامُ»، فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهو غني عنها، ولا قوام لها بدون أمره، كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]، وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أي: لا يعثره نقص ولا غفلة ولا ذمول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه خافية. ومن تمام القيومية أنه لا يعثره سنة ولا نوم فقوله: ﴿لَا تَأْخُذُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أي لا تغلبه سنة، وهي الوسن والنعاس؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾؛ لأنه أقوى من السنة. وفي الصحيح عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجاب النور - أو النار - لو كشفه لأحرقت سُبحَات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه». وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرُ، أخبرني الحكم بن أبان، عن عكرمة مولى ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَأْخُذُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾: أن موسى، عليه السلام، سأل الملائكة هل ينام الله، ﷻ؟ فأوحى الله إلى الملائكة وأمرهم أن يورقوه ثلاثاً، فلا يتركوه نيام، ففعلوا، ثم أعطوه قارورتين فأمسكهما، ثم تركوه، وحذروه أن يكسرهما. قال: فجعل ينعس وهما في يده، في كل يد واحدة. قال: فجعل ينعس وينبه، وينعس وينبه، حتى نعس نعسة، فضرب إحداهما بالأخرى فكسرها. قال معمر: إنما هو مثل ضربه الله، ﷻ، يقول: فكذلك السموات والأرض في يديه. هكذا رواه ابن جرير، عن الحسن بن يحيى، عن عبد الرزاق، فذكره. وهو من أخبار بني إسرائيل، وهو مما يعلم أن موسى، عليه السلام، لا يخفى عليه مثل هذا من أمر الله، ﷻ، وأنه منزّه عنه.

وأغرب من هذا كله الحديث الذي رواه ابن جرير: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا هشام بن يوسف، عن أمية بن شبل، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى، عليه السلام، على المنبر، قال: «وقع في نفس موسى: هل ينام الله؟ فأرسل الله إليه ملكاً فأرقه ثلاثاً، ثم أعطاه قارورتين، في كل يد قارورة، وأمره أن يحتفظ بهما». قال: «فجعل ينام تكاد يداه تلتقيان فيستيقظ، فيحبس إحداهما عن الأخرى، حتى نام نومة فاصطفقت يداه، فانكسرت القارورتان» قال: «ضرب الله له مثلاً ﷻ: أن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض». وهذا حديث غريب جداً، والأظهر أنه إسرائيلي مرفوع، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدُّشَنَكِيُّ، حدثني أبي، عن أبيه، حدثنا أشعث بن إسحاق، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن بني إسرائيل قالوا: يا موسى، هل ينام ربك؟ قال: اتقوا الله. فناداه ربه، ﷻ: يا موسى، سألوكم: هل ينام ربك، فخذ زجاجتين في يديك فقم الليل ففعل موسى، فلما ذهب من الليل ثلث نعس فوقع لركبتيه، ثم انتعش فضبطهما، حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا. فقال: يا موسى، لو كنت أنام لسقطت السموات والأرض فهلكن كما هلكت الزجاجتان في يديك. وأنزل الله على نبيه ﷺ آية الكرسي. وقوله: ﴿لَمْ يَلَمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ۚ﴾ أي: لقد أحصيتهم وعدتهم عدداً ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥]. وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ كقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا يَقْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يُأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وكقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨] وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه، ﷻ، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع عنده إلا بإذنه له

في الشفاعة، كما في حديث الشفاعة: «آتي تحت العرش فأخر ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال: ارفع رأسك، وقل تسمع، واسمع تنفع» قال: «فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة». وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات: ماضيها وحاضرها ومستقبلها، كقوله إخباراً عن الملائكة: ﴿وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُمْ مَا يَبْغِينَ وَيَأْتِيهِمْ الْخَبْرُ لَمَّا يَدْعُونَ وَمَا يُبَدِّلُ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ يَوْمَ تَعْلَمُونَ وَمَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْجِيهِمْ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٦٤]. وقوله: ﴿وَلَا يُجِطُّونَ إِلَيْهِ بِأَشْيَاءٍ﴾ أي: لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله ﷻ، وأطلعه عليه. ويحتمل أن يكون المراد: لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته إلا بما أطلعهم الله عليه، كقوله: ﴿وَلَا يُجِطُّونَ بِهِ عِلْماً﴾ [طه: ١١١].

وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن إدريس، عن مطرف بن طريف، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ قال: علمه. وكذا رواه ابن جرير من حديث عبد الله بن إدريس وهشيم، كلاهما عن مطرف بن طريف، به. قال ابن أبي حاتم: وروي عن سعيد بن جبيرة مثله. ثم قال ابن جرير: وقال آخرون: الكرسي، موضع القدمين، ثم رواه عن أبي موسى، والسدي، والضحاك، ومسلم البطين. وقال شجاع بن مخلد في تفسيره: أخبرنا أبو عاصم، عن سفيان، عن عمار الدقني، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: سئل النبي ﷺ عن قول الله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ قال: «كرسيه موضع قدميه، والعرش لا يقدر قدره إلا الله ﷻ». كذا أورد هذا الحديث الحافظ أبو بكر بن مردويه، من طريق شجاع بن مخلد الفلاس، فذكره، وهو غلط، وقد رواه وكيع في تفسيره: حدثنا سفيان، عن عمار الدقني، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره. وقد رواه الحاكم في مستدركه، عن أبي العباس محمد بن أحمد المحبوبي، عن محمد بن معاذ، عن أبي عاصم، عن سفيان - وهو الثوري - بإسناده، عن ابن عباس موقوفاً مثله، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وقد رواه ابن مردويه من طريق الحكم بن ظهير الفزاري الكوفي - وهو متروك - عن السدي، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعاً، ولا يصح أيضاً. وقال السدي عن أبي مالك: الكرسي تحت العرش. وقال السدي: السموات والأرض في جوف الكرسي، والكرسي بين يدي العرش. وقال الضحاك عن ابن عباس: لو أن السموات السبع والأرضين السبع بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض، ما كن في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة. ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرني ابن وهب قال: قال ابن زيد: حدثني أبي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السموات السبع في الكرسي، إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس». قال: وقال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض». وقال أبو بكر بن مردويه: أخبرنا سليمان بن أحمد، أخبرنا عبد الله بن وهيب الغزي، أخبرنا محمد بن أبي السري العسقلاني، أخبرنا محمد بن عبد الله التميمي، عن القاسم بن محمد الشقفي، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر الغفاري، أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ما السموات السبع، والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلان، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة».

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا زهير، حدثنا ابن أبي بكير، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن خليفة، عن عمر، رضي الله عنه، قال: أتت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة. قال: فعظم الرب تبارك وتعالى وقال: «إن كرسيه وسع السموات والأرض، وإن له أطيافاً كأطياف الرُّحل الجديد من ثقله». وقد رواه الحافظ البزار في مسنده المشهور، وعبد بن حميد وابن جرير في تفسيريهما، والطبراني وابن أبي عاصم في كتابي السنة لهما، والحافظ الضياء في كتابه «المختار» من حديث أبي إسحاق السبيعي، عن عبد الله بن خليفة، وليس بذلك المشهور، وفي سماعه من عمر نظر. ثم منهم من يرويه عنه، عن عمر موقوفاً، ومنهم من يرويه عنه مرسلأ، ومنهم من يزيد في متنه زيادة غريبة، ومنهم من يحذفها. وأغرب من هذه حديث جبيرة بن مطعم في صفة العرش كما رواه أبو داود في كتاب السنة من سنته، والله أعلم. وقد روى ابن مردويه وغيره أحاديث عن بريدة وجابر وغيرهما، في وضع الكرسي يوم القيامة لفصل القضاء والظاهر أن ذاك غير المذكور في هذه الآية. وقد زعم بعض المتكلمين على علم الهيئة من الإسلاميين: أن الكرسي عندهم هو الفلك الثامن، وهو فلك الثوابت الذي فوقه الفلك التاسع، وهو الفلك الأثير، ويقال له: الأطلس. وقد رد ذلك عليهم آخرون. وروى ابن جرير من طريق جوير، عن الحسن البصري أنه كان يقول: الكرسي هو العرش. والصحيح أن الكرسي غير العرش، والعرش أكبر منه، كما دلت على ذلك الآثار والأخبار، وقد اعتمد ابن جرير على حديث عبد الله بن خليفة، عن عمر في

ذلك، وعندني في صحته نظر، والله أعلم. وقوله: ﴿وَلَا يَتُودُّ حِفْظَهُمْ﴾ أي: لا يثقله ولا يكرهه حفظ السموات والأرض ومن فيها ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه، يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء فلا يعزب عنه شيء، ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه محتاجة فقيرة وهو الغني الحميد، الفعال لما يريد، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلي العظيم لا إله غيره ولا رب سواه، فقوله: ﴿وَهُوَ أَلَمُّ الْغُيُوبِ﴾ كقوله: ﴿وَهُوَ أَلَمُّ الْكِبَرِ﴾ [سبا: ٢٣] وكقوله: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٢٩]. وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح إمرارها كما جاءت، من غير تكيف ولا تشبيه.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْثُرِ بِالْظُلُومِ يَرْؤُوهَ يَأْكُلْهُ الشَّيْطَانُ فَكَيْفَ اسْتَسْكَنَ بِالْمَرْءِ الْوُفْقَ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَيَّعُ عَلَيْهِ﴾.

يقول تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أي: لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداة الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً. وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار، وإن كان حكمها عاماً. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن عدي، عن شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانت المرأة تكون مقلداً فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله، ﷻ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾. وقد رواه أبو داود والنسائي جميعاً، عن بُنْدَارٍ، به. ومن وجوه أخرى، عن شعبة، به نحوه، وقد رواه ابن أبي حاتم، وابن حبان في صحيحه، من حديث شعبة، به. وهكذا ذكر مجاهد، وسعيد بن جبير، والشعبي، والحسن البصري، وغيرهم: أنها نزلت في ذلك. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد الحرشي، مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ قال: نزلت في رجل من الأنصار، من بني سالم بن عوف، يقال له: الحصين، كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلماً، فقال للنبي ﷺ: ألا أستكرهما، فإنهما قد آبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله فيه ذلك. رواه ابن جرير، وروى عن السدي نحو ذلك، وزاد: وكنا قد تنصرا على يدي تجار قدموا من الشام، يحملون زيتاً، فلما عزمنا على الذهاب معهم أراد أبوهما أن يستكرهما، وطلب من رسول الله ﷺ أن يبعث في آثارهما، فنزلت هذه الآية. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عوف، أخبرنا شريك، عن أبي هلال، عن أسق قال: كنت في دينهم مملوكاً نصرانياً لعمر بن الخطاب، فكان يعرض علي الإسلام، فأبى فيقول: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، ويقول: يا أسق، لو أسلمت لاستعنا بك على بعض أمور المسلمين.

وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء أن هذه محمولة على أهل الكتاب، ومن دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل إذا بدلوا الجزية. وقال آخرون: بل هي منسوخة بآية القتال، فإنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف دين الإسلام، فإن أبى أحد منهم الدخول فيه ولم ينقله وببذل الجزية، قوتل حتى يقتل. وهذا معنى الإكراه قال الله تعالى: ﴿سَتَدْعُونَ إِلَّاءَ قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَقَبُولُهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُكْفَرُونَ﴾ [البقرة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]. وفي الصحيح: «عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل»، يعني: الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام في الوثاق والأغلال والقيود والأكبال، ثم بعد ذلك يسلمون، وتصلح أعمالهم وسرائرهم، فيكونون من أهل الجنة. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن حميد، عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسلم» قال: إني أجدني كارهاً. قال: «وإن كنت كارهاً». فإنه ثلاثي صحيح، ولكن ليس من هذا القبيل، فإنه لم يكرهه النبي ﷺ على الإسلام، بل دعاه إليه، فأخبر أن نفسه ليست قابلة له، بل هي كارهة، فقال له: «أسلم»، وإن كنت كارهاً، فإن الله سيرزقك حسن النية والإخلاص». وقوله: ﴿فَمَنْ يَكْثُرِ بِالْظُلُومِ يَرْؤُوهَ يَأْكُلْهُ الشَّيْطَانُ فَكَيْفَ اسْتَسْكَنَ بِالْمَرْءِ الْوُفْقَ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَيَّعُ عَلَيْهِ﴾ أي: من خلع الأنداد والأوثان، وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله، ووجد الله فعبده وحده، وشهد أنه لا إله إلا هو ﴿فَكَيْفَ اسْتَسْكَنَ بِالْمَرْءِ الْوُفْقَ﴾ أي: فقد ثبت في أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم. قال أبو القاسم البغوي: حدثنا أبو روح البلدي، حدثنا أبو الأحوص سلام بن سليم، عن أبي إسحاق، عن حسان - هو ابن فائد العبسي - قال: قال عمر، رضي الله عنه: إن

الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان، وإن الشجاعة والجبن غرائز تكون في الرجال، يقاتل الشجاع عمن لا يعرف، ويفر الجبان عن أمه، وإن كرم الرجل دينه، وحسبه خلقه وإن كان فارسياً أو نبطياً. وهكذا رواه ابن جرير. وابن أبي حاتم، من حديث الثوري، عن أبي إسحاق، عن حسان بن فائد العبسي، عن عمر، فذكره. ومعنى قوله في الطاغوت: إنه الشيطان، قوي جداً، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية، من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها. وقوله: ﴿فَقَدْ اسْتَسْكَ بِالْمَرْءِ الْوُثْنَ لَا أَنْفَصَامَ لَهَا﴾ أي: فقد استمسك من الدين بأقوى سبب، وشبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم، فهي في نفسها محكمة مبرمة قوية، وربطها قوي شديد؛ ولهذا قال: ﴿فَقَدْ اسْتَسْكَ بِالْمَرْءِ الْوُثْنَ لَا أَنْفَصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَبَّحٌ عَلَيْهَا﴾.

قال مجاهد: ﴿فَقَدْ اسْتَسْكَ بِالْمَرْءِ الْوُثْنَ﴾ يعني: الإيمان. وقال السدي: هو الإسلام، وقال سعيد بن جبير، والضحاك: يعني لا إله إلا الله. وعن أنس بن مالك: ﴿بِالْمَرْءِ الْوُثْنَ﴾: القرآن. وعن سالم بن أبي الجعد قال: هو الحب في الله والبغض في الله. وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا تنافي بينها. وقال معاذ بن جبل، في قوله: ﴿لَا أَنْفَصَامَ لَهَا﴾ أي: لا انقطاع لها دون دخول الجنة. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: ﴿فَقَدْ اسْتَسْكَ بِالْمَرْءِ الْوُثْنَ لَا أَنْفَصَامَ لَهَا﴾ ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن يوسف، حدثنا ابن عون، عن محمد، عن قيس بن عباد قال: كنت في المسجد، فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع، فدخل فصلى ركعتين أوجز فيهما، فقال القوم: هذا رجل من أهل الجنة. فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله، فدخلت معه، فحدثته، فلما استأنس قلت له: إن القوم لما دخلت قبل المسجد قالوا كذا وكذا. قال: سبحان الله، ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك لم: إني رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ، فقصصتها عليه: رأيت كأنني في روضة خضراء - قال ابن عون: فذكر من خضرتها وسعتها - وسطها عمود حديد، أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة، فقبل لي: اصعد عليه. فقلت: لا أستطيع. فجاءني مِنْصَف - قال ابن عون: هو الوصف - فرفع ثيابي من خلفي، فقال: اصعد. فصعدت حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك بالعروة. فاستقيظت وإنها لفي يدي، فأتيت رسول الله ﷺ فقصصتها عليه. فقال: «أما الروضة فروضة الإسلام، وأما العمود فعمود الإسلام، وأما العروة فهي العروة الوثقى، أنت على الإسلام حتى تموت». قال: وهو عبد الله بن سلام. أخرجه في الصحيحين من حديث عبد الله بن عون، وأخرجه البخاري من وجه آخر، عن محمد بن سيرين، به. طريق أخرى وسياق آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، وعفان قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن عاصم بن بهدلة، عن المسيب بن رافع، عن خرشة بن الحر قال: قدمت المدينة فجلست إلى مشيخة في مسجد النبي ﷺ. فجاء شيخ يتوكأ على عصاه، فقال القوم: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا. فقام خلف سارية فصلى ركعتين فقامت إليه، فقلت له: قال بعض القوم: كذا وكذا. فقال: الجنة لله يُدخلها من يشاء، وإني رأيت على عهد رسول الله ﷺ رؤيا، رأيت كأن رجلاً أتاني فقال: انطلق. فذهبت معه، فسلكت بي منهجاً عظيماً، فعرضت لي طريق عن يساري، فأردت أن أسلكها. فقال: إنك لست من أهلها. ثم عرضت لي طريق عن يميني، فسلكتها حتى انتهيت إلى جبل زلق، فأخذ بيدي فزجل، فإذا أنا على ذروته، فلم أبق ولم أتماسك، فإذا عمود حديد في ذروته حلقة من ذهب، فأخذ بيدي فزجل حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك. فقلت: نعم. ففُضِرَ العمود برجله فاستمسكت بالعروة، فقصصتها على رسول الله ﷺ فقال: «رأيت خيراً، أما المنهج العظيم فالمحشر، وأما الطريق التي عرضت عن يسارك فطريق أهل النار، ولست من أهلها، وأما الطريق التي عرضت عن يمينك فطريق أهل الجنة، وأما الجبل الزلق فمنزلة الشهداء، وأما العروة التي استمسكت بها فعروة الإسلام، فاستمسك بها حتى تموت». قال: فانا أرجو أن أكون من أهل الجنة. قال: وإذا هو عبد الله بن سلام. وهكذا رواه النسائي، عن أحمد بن سليمان، عن عفان، وابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن الحسن بن موسى الأشيب، كلاهما عن حماد بن سلمة، به نحوه. وأخرجه مسلم في صحيحه، من حديث الأعمش، عن سليمان بن مُسْهِر، عن خرشة بن الحر الفزاري، به.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٥٧).

يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبيل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير، وأن الكافرين إنما وليهم الشياطين تزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والافتك ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. ولهذا وحد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات؛ لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة، وكلها باطلة كما قال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا

الشَّيْءَ فَفَرَّقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَلَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢٥٧﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿يَجْعَلُ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ٢١]، وقال تعالى: ﴿عَنِ الْيَسِينِ وَالْأَسْمَاءِ﴾ [النحل: ٤٨] إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق، وانتشار الباطل وتفرقه وتشعبه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن ميسرة، حدثنا عبد العزيز بن أبي عثمان، عن موسى بن عبيدة، عن أيوب بن خالد، قال: يبعث أهل الأهواء - أو قال: يبعث أهل الفتن - فمن كان هواه الإيمان كانت فتنته بيضاء مضيئة، ومن كان هواه الكفر كانت فتنته سوداء مظلمة، ثم قرأ هذه الآية: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ أَهْلُ الظُّلُمَاتِ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الظُّلُمَاتِ﴾ ﴿٢٥٧﴾.
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُبْعَثُ قَالِ آتَا أَنِي. وَأُبَيِّتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّكَ اللَّهُ يَأْتِي بِالْمَشْرِقِ فَأَتَتْ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٥٨﴾.

هذا الذي حاج إبراهيم في ربه هو ملك بابل: نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح. ويقال: نمرود بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح والأول قول مجاهد، وغيره. قال مجاهد: وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان بن دود، وذو القرنين. والكافران: نمرود بن كنعان ويختصر. فالله أعلم. ومعنى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: بقلبك يا محمد ﴿إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ أي: في وجود ربه. وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره، كما قال بعده فرعون لملئه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٢٨]، وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبره، وطول مدته في الملك؛ وذلك أنه يقال: إنه مكث أربعمئة سنة في ملكه؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ وكأنه طلب من إبراهيم دليلاً على وجود الرب الذي يدعو إليه، فقال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُبْعَثُ وَيُيَبِّتُ﴾ أي: الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها. وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة؛ لأنها لم تحدث بنفسها، فلا بد لها من موجد أوجدها وهو الرب الذي أدعوا إلى عبادته وحده لا شريك له. فعند ذلك قال المحاج - وهو النمرود -: ﴿أَنَا أَنِي. وَأُبَيِّتُ﴾. قال قتادة، ومحمد بن إسحاق، والسدي، وغير واحد: وذلك أنني أوتى بالرجلين قد استحقا القتل، فأمر بقتل أحدهما فيقتل، وبالعفو عن الآخر فلا يقتل. فذلك معنى الإحياء والإماتة. والظاهر - والله أعلم - أنه ما أراد هذا؛ لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم ولا في معناه؛ لأنه غير مانع لوجود الصانع. وإنما أراد أن يدعي لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة، ويوهم أنه الفاعل لذلك، وأنه هو الذي يحيي ويميت، كما اقتدى به فرعون في قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾؛ ولهذا قال له إبراهيم لما ادعى هذه المكابرة: ﴿فَإِنَّكَ اللَّهُ يَأْتِي بِالْمَشْرِقِ فَأَتَتْ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أي: إذا كنت كما تدعي من أنك أنت الذي تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهاً كما ادعيت تحيي وتميت، فأت بها من المغرب. فلما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بُهِتَ، أي: أخرس فلا يتكلم، وقامت عليه الحجة. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يلهيهم حجة ولا برهاناً، بل حجبتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.

وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين: أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني انتقال من دليل إلى أوضح منه، ومنهم من قد يطلق عبارة ردية. وليس كما قالوه، بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني ويبيّن بطلان ما ادعاه نمرود في الأول والثاني، والله الحمد والمنة. وقد ذكر السدي أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم ونمرود بعد خروج إبراهيم من النار، ولم يكن اجتمع بالملك إلا في ذلك اليوم، فجرت بينهما هذه المناظرة. وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن زيد بن أسلم: أن النمرود كان عنده طعام، وكان الناس يغدون إليه للميرة، فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة، فكان بينهما هذه المناظرة، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس بل خرج وليس معه شيء من الطعام، فلما قرب من أهله عمد إلى كتيب من التراب فلما منه عدليه وقال: أشغل أهلي عني إذا قدمت عليهم، فلما قدم وضع رجليه، وجاء فاتكاً فنام. فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملائتين طعاماً طيباً، فعملت منه طعاماً. فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه، فقال: أني لكم هذا؟ قالت: من الذي جئت به. فعرف أنه رزق رزقهموه الله، ﷻ. قال زيد بن أسلم: وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكاً يأمر بالإيمان بالله، فأبى عليه، ثم دعاه الثانية فأبى، ثم الثالثة فأبى، وقال: اجمع جموعك وأجمع جموعي. فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، وأرسل الله عليهم باباً من البعوض، بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظاماً بادية، ودخلت واحدة منها في منخري الملك، فمكثت في منخريه أربعمئة

سنة، عذبه الله بها، فكان يضرب رأسه بالمرازب في هذه المدة كلها حتى أهلكه الله بها.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَيْفَ لَيْتُكَ يَوْمَآ أَوْ بَعْضَ يَوْمَيْهِ قَالَ بَلْ لَيْتُكَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى مَلَأَيْكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى جَمَازِكَ وَانْظُرْ إِلَى الْفُطَايِرِ كَيْفَ تُنْشِرُهَا ثُمَّ نَكَّهَهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهَا قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾.

تقدم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آمَنَهُ اللَّهُ الْمَلَكُ﴾ وهو في قوة قوله: هل رأيت مثل الذي حاج إبراهيم في ربه؟ ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾. اختلفوا في هذا المار من هو؟ فروى ابن أبي حاتم عن عصام بن زوَاد، عن آدم بن أبي إياس، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن ناجية بن كعب، عن علي بن أبي طالب أنه قال: هو عزيز. ورواه ابن جرير، عن ناجية، نفسه. وحكاها ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدي، وسليمان بن بَرْزَةَ، وهذا القول هو المشهور. وقال وهب بن منبه، وعبد الله بن عبيد بن عمير: هو إرميا بن حلقيا. قال محمد بن إسحاق؛ عمن لا يتهم، عن وهب بن منبه، أنه قال: وهو اسم الخضر، عليه السلام. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي قال: سمعت سليمان بن محمد اليساري الجاري - من أهل الجار، ابن عم مطرف - قال: سمعت رجلاً من أهل الشام يقول: إن الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه اسمه: حزقيل بن بورا. وقال مجاهد بن جبر: هو رجل من بني إسرائيل. وذكر غير واحد أنه مات وهو ابن أربعين سنة؛ فبعثه الله وهو كذلك، وكان له ابن، فبلغ من السن مائة وعشرين سنة، وبلغ ابن ابنة تسعين وكان الجد شاباً وابنه وابن ابنة شيخان كبيران قد بلغا الهرم، وأنشدني به بعض الشعراء:

واسودَّ رأس شاب من قبل ابنه ومن قبله ابن ابنه فهو أكبر
يرى أنه شيخا يدب على عصا ولحيته سوداء والرأس أشعر
وما لابنه حبل ولا فضل قوة يقوم كما يمشي الصغير فيعشر
وعمر ابنه أربعون أمرها ولابن ابنه في الناس تسعين غير

وأما القرية: فالمشهور أنها بيت المقدس، مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها. ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ أي: ليس فيها أحد، من قولهم: خوت الدار تخوي خواء وخوياً. وقوله: ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي: ساقطة سقفها وجدرانها على عرصات، فوقفت متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة، وقال: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وذلك لما رأى من دورها وشدة خرابها وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ قال: وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته، وتكامل ساكنوها وتراجعت بنو إسرائيل إليها. فلما بعثه الله، ﷺ، بعد موته كان أول شيء أحيأه الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيي بدنه؟ فلما استقل سوياً قال الله له - أي بواسطة الملك -: ﴿كَمْ لَيْتُكَ يَوْمَآ أَوْ بَعْضَ يَوْمَيْهِ﴾ قالوا: وذلك أنه مات أول النهار، ثم بعثه الله في آخر النهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم، فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمَيْهِ قَالَ بَلْ لَيْتُكَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى مَلَأَيْكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ وذلك: أنه كان معه، فيما ذكر، عنب وتين وعصير، فوجده كما فقدته لم يتغير منه شيء، لا العصير استحال، لا التين حمض، ولا أنتن، ولا العنب تعفن ﴿وَانْظُرْ إِلَى جَمَازِكَ﴾ أي: كيف يحييه الله، ﷺ، وأنت تنظر ﴿وَلْيَتَمَلَّكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي: دليلاً على المعاد، ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْفُطَايِرِ كَيْفَ تُنْشِرُهَا﴾ أي: نرفعها فتركب بعضها على بعض. وقد روى الحاكم في مستدركه، من حديث نافع بن أبي نعيم، عن إسماعيل بن أبي حكيم، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿كَيْفَ تُنْشِرُهَا﴾ بالزاي. ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقرئ: ﴿تُنْشِرُهَا﴾ أي: يحييها، قاله مجاهد، ﴿ثُمَّ نَكَّهَهَا لَحْمًا﴾. وقال السدي وغيره: تفرقت عظام حماره حوله يميناً ويساراً، فنظر إليها وهي تلوح من بياضها، فبعث الله ريحاً فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة، ثم ركب كل عظم في موضعه حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم عليها، ثم كساها الله لحماً وعصاً وعروقاً وجلداً، وبعث الله ملكاً فنخ في منخري الحمار، فنهق كله بإذن الله ﷻ، وذلك كله بمرأى من العزيز، فعند ذلك لما تبين له هذا كله ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: أنا عالم بهذا، وقد رأيت عياناً، فانا أعلم أهل زماني بذلك وقرأ آخرون: ﴿قال اغلم﴾، على أنه أمر له بالعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ تَمُوتَ أَوْ لَوْ أَنَّكَ تَمُوتُ فَلَمَّ جَسَدُكَ قَالَ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيٌ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام، أسباباً، منها: أنه لما قال لنمرود: ﴿رَبِّ اَلَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين في ذلك إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة فقال: ﴿رَبِّ اَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ اَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾. فأما الحديث الذي رواه البخاري عند هذه الآية: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرني يونس، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة وسعيد، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم، إذ قال: رب أرنى كيف تحيي الموتى؟ قال: أولم تؤمن. قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي» وكذا رواه مسلم، عن حرملة بن يحيى، عن ابن وهب، به - فليس المراد ههنا بالشك ما قد يفهمه من لا علم عنده، بلا خلاف. وقد أجيب عن هذا الحديث بأجوبة، أحدها...

وقوله: ﴿قَالَ فَخَذَ اَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصَرَّهُنَّ اِلَيْكَ﴾: اختلف المفسرون في هذه الأربعة: ما هي وإن كان لا طائل تحت تعيينها، إذ لو كان في ذلك مُثَمِّنٌ لنص عليه القرآن، فروي عن ابن عباس أنه قال: هي الغرنوق، والطاووس، والديك، والحمامة. وعنه أيضاً: أنه أخذ وزاً، ورألاً - وهو فرخ النعام - وديكاً، وطاووساً. وقال مجاهد وعكرمة: كانت حمامة، وديكاً، وطاووساً، وغراباً. وقوله: ﴿فَصَرَّهُنَّ اِلَيْكَ﴾ أي: قطعهن. قاله ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو مالك، وأبو الأسود الديللي، ووهب بن منبه، والحسن، والسدي، وغيرهم. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَصَرَّهُنَّ اِلَيْكَ﴾: أوثقهن، فلما أوثقهن ذبحهن، ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً، فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن، ثم قطعهن وנתف ريشهن، ومزقهن وخلط بعضهن في بعض، ثم جزأهن أجزاء، وجعل على كل جبل منهن جزءاً، قيل: أربعة أجبل. وقيل: سبعة. قال ابن عباس: وأخذ رؤوسهن بيده، ثم أمره الله، ﷻ، أن يدعوهم، فدعاهن كما أمره الله، ﷻ، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته، وأتينه يمشين سعيّاً ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجيء لياخذ رأسه الذي في يد إبراهيم، عليه السلام، فإذا قدم له غير رأسه ياباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته؛ ولهذا قال: ﴿وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز لا يغلبه شيء، ولا يتمتع منه شيء، وما شاء كان بلا مناع لأنه العظيم القاهر لكل شيء، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره. قال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن أيوب في قوله: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ قال: قال ابن عباس: ما في القرآن آية أرجى عندي منها. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت زيد بن علي يحدث، عن رجل، عن سعيد بن المسيب قال: اتعد عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص أن يجتمعا. قال: ونحن شعبة، فقال أحدهما لصاحبه: أي آية في كتاب الله أرجى لهذه الأمة؟ فقال عبد الله بن عمرو: قول الله تعالى: ﴿يَكِيدُوا الَّذِينَ الَّذِينَ أُشْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ الآية [الزمر: ٥٣]. فقال ابن عباس: أما إن كنت تقول: إنها، وإن أرجى منها لهذه الأمة قول إبراهيم: ﴿رَبِّ اَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ اَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث، حدثني ابن أبي سلمة عن محمد بن المنكدر، أنه قال: التقى عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص: أي آية في القرآن أرجى عندك؟ فقال عبد الله بن عمرو: قول الله ﷻ: ﴿يَكِيدُوا الَّذِينَ الَّذِينَ أُشْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ الآية. فقال ابن عباس: لكن أنا أقول: قول الله: ﴿وَإِذْ قَالَ اِبْرَاهِيمُ رَبِّ اَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ اَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾. قال: فهذا لما يعترض في النفوس ويوسوس به الشيطان. وهكذا رواه الحاكم في المستدرک، عن أبي عبد الله محمد بن يعقوب بن الأخرم، عن إبراهيم بن عبد الله السعدي، عن بشر بن عمر الزهراني، عن عبد العزيز بن أبي سلمة، بإسناده، مثله. ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْذَرُونَ آمَانَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُكُلَةٍ ثَمَرَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُعْطِي لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٦١).

هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاه مرضاته، وأن الحسنه تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْذَرُونَ آمَانَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال سعيد بن جبير: يعني: في طاعة الله. وقال مكحول: يعني به: الإنفاق في الجهاد، من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك. وقال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: الجهاد والحج، يضعف الدرهم فيها إلى سبعمائة ضعف؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُكُلَةٍ ثَمَرَةٌ حَبَّةٌ﴾. وهذا المثل أبلغ في النفوس، من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله، ﷻ، لأصحابها،

كما ينمي الزرع لمن يذره في الأرض الطيبة، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمئة ضعف، قال الإمام أحمد: حدثنا زياد بن الربيع أبو خذاش، حدثنا واصل مولى أبي عيينة، عن بشار بن أبي سيف الجرمي، عن عياض بن غطيف قال: دخلنا على أبي عبيدة بن الجراح نعوذ من شكوى أصابه - وأمراته تُخَيِّفُه قاعده عند رأسه - قلنا: كيف بات أبو عبيدة؟ قالت: والله لقد بات بأجر، قال أبو عبيدة: ما بت بأجر، وكان مقبلاً بوجهه على الحائط، فأقبل على القوم بوجهه، وقال: ألا تسألوني عما قلت؟ قالوا: ما أعجبنا ما قلت فنسألك عنه! قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنفق نفقة فاضلة في سبيل الله فبسبعمئة، ومن أنفق على نفسه وأهله، أو عاد مريضاً أو مازأذى، فالحسنة بعشر أمثالها، والصوم جنة ما لم يخرقها، ومن ابتلاه الله، ﷻ، بلاء في جسده فهو له حطة». وقد روى النسائي في الصوم بعضه من حديث واصل به، ومن وجه آخر موقوفاً.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن سليمان، سمعت أبا عمرو الشيباني، عن أبي مسعود: أن رجلاً تصدق بناقطة مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لثنتين يوم القيامة بسبعمئة ناقطة مخطومة». ورواه مسلم والنسائي، من حديث سليمان بن مهران الأعمش، به. ولفظ مسلم: جاء رجل بناقطة مخطومة، فقال: يا رسول الله، هذه في سبيل الله. فقال: «لك بها يوم القيامة سبعمئة ناقطة».

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا عمرو بن مَجْمَع أبو المنذر الكندي، أخبرنا إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله، ﷻ، جعل حسنة ابن آدم بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلا الصوم، والصوم لي وأنا أجزي به، وللصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره، وفرحة يوم القيامة، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، إلى ما شاء الله، يقول الله: إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشهوته من أجلي، وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك. الصوم جنة، الصوم جنة». وكذا رواه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، وأبي سعيد الأشج، كلاهما عن وكيع، به.

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا حسين بن علي، عن زائدة، عن الركين، عن يسير بن عميلة، عن خريم بن فاتك قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق نفقة في سبيل الله تضاعف سبعمئة ضعف».

حديث آخر: قال أبو داود: حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح، حدثنا ابن وهب، عن يحيى بن أيوب وسعيد بن أبي أيوب، عن زبآن بن فائد، عن سهل بن معاذ، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصلاة والصيام والذكر يضاعف على النفقة في سبيل الله سبعمئة ضعف».

حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هارون بن عبد الله بن مروان، حدثنا ابن أبي فديك، عن الخليل بن عبد الله، عن الحسن، عن عمران بن حصين، عن رسول الله ﷺ قال: «من أرسل بنفقة في سبيل الله، وأقام في بيته، فله بكل درهم سبعمئة درهم يوم القيامة، ومن غزا في سبيل الله، وأنفق في وجهه ذلك، فله بكل درهم سبعمئة ألف درهم». ثم تلا هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وهذا حديث غريب. وقد تقدم حديث أبي عثمان النهدي، عن أبي هريرة في تضعيف الحسنة إلى ألفي ألف حسنة، عند قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

حديث آخر: قال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن عبيد الله بن العسكري البزاز، أخبرنا الحسن بن علي بن شبيب، أخبرنا محمود بن خالد الدمشقي، أخبرنا أبي، عن عيسى بن المسيب، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال النبي ﷺ: «رب زد أمتي» قال: فانزل الله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال: «رب زد أمتي» قال: فانزل الله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. وقد رواه أبو حاتم ابن حبان في صحيحه، عن حاجب بن أركين، عن أبي عمر حفص بن عمر بن عبد العزيز المقرئ، عن أبي إسماعيل المؤدب، عن عيسى بن المسيب، عن نافع، عن ابن عمر، فذكره. وقوله ههنا: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: بحسب إخلاصه في عمله ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: فضله واسع كثير أكثر من خلقه، عليم بمن يستحق ومن لا يستحق.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُنْفِقُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

﴿قَوْلَ مَعْرُوفٍ وَمَغْفِرَةَ خَيْرٍ مِّنْ صَّدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَىٌ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَلِيمٌ ۝٢٦٢﴾ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالَّذِي كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَةَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ رَأْسٌ قَاصِبٌ وَإِنَّ فَرَكَكُمْ صَدَقًا لَا يَفْدُونَكَ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝٢٦٣﴾

يمجد تعالى الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات متاعاً على من أعطوه، فلا يمتنون به على أحد، ولا يمتنون به لا بقول ولا بفعل. وقوله: ﴿وَلَا أَذَىٌ﴾ أي: لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهاً يحبطون به ما سلف من الإحسان. ثم وعدهم تعالى الجزاء الجزيل على ذلك، فقال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ثوابهم على الله، لا على أحد سواه ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: على ما خلفوه من الأولاد وما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها، لا يأسفون عليها؛ لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك. ثم قال تعالى: ﴿قَوْلَ مَعْرُوفٍ﴾ أي: من كلمة طيبة ودعاء لمسلم ﴿وَمَغْفِرَةَ﴾ أي: عفو عن ظلم قولي أو فعلي ﴿خَيْرٍ مِّنْ صَّدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَىٌ﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نفيل قال: قرأت على معقل بن عبيد الله، عن عمرو بن دينار قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «ما من صدقة أحب إلى الله من قول معروف، ألم تسمع قوله: ﴿قَوْلَ مَعْرُوفٍ وَمَغْفِرَةَ خَيْرٍ مِّنْ صَّدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَىٌ﴾».

﴿وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ﴾ أي: عن خلقه، ﴿حَلِيمٌ﴾ أي: يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم. وقد وردت الأحاديث بالنهي عن المن في الصدقة، ففي صحيح مسلم، من حديث شعبة، عن الأعمش عن سليمان بن مُسْهِر، عن خرشة بن الحر، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكّيهم، ولهم عذاب أليم: المنان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب». وقال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن عثمان بن يحيى، أخبرنا عثمان بن محمد الدوري، أخبرنا هُثَيْم بن خارجة، أخبرنا سليمان بن عقبة، عن يونس بن ميسرة، عن أبي إدريس، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة عاق، ولا منان، ولا مدمن خمر، ولا مكذب بقدر» وروى أحمد وابن ماجه، من حديث يونس بن ميسرة نحوه.

ثم روى ابن مردويه، وابن حبان، والحاكم في مستدركه، والنسائي من حديث عبد الله بن يسار الأعرج، عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنان بما أعطى». وقد روى النسائي، عن مالك بن سعد، عن عمه روح بن عباد، عن عتاب بن بشير، عن خصيف الجزري، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة مدمن خمر، ولا عاق لوالديه، ولا منان». وقد رواه ابن أبي حاتم، عن الحسن بن المنهال، عن محمد بن عبد الله بن عمار الموصلي، عن عتاب، عن خُصَيْف، عن مجاهد، عن ابن عباس. ورواه النسائي من حديث، عبد الكريم بن مالك الجزري، عن مجاهد، قوله. وقد روى عن مجاهد، عن أبي سعيد، وعن مجاهد، عن أبي هريرة، نحوه. ولهذا قال تعالى: ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالَّذِي كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَةَ النَّاسِ﴾ أي: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كما تبطل صدقة من رآى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله وإنما قصده مدحة الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة، ليشكر بين الناس، أو يقال: إنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائي بإنفاقه - قال الضحاك: والذي يتبع نفقته متاعاً أو أذى - فقال: ﴿فَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ صَفْوَانَ﴾ وهو جمع صفوانة، ومنهم من يقول: الصفوان يستعمل مفرداً أيضاً، وهو الصفا، وهو الصخر الأملس ﴿عَلَيْهِ رَأْسٌ قَاصِبٌ وَإِنَّ﴾ وهو المطر الشديد ﴿فَرَكَكُمْ صَدَقًا﴾ أي: فترك الوايل ذلك الصفوان صلدأ، أي: أملس يابسأ، أي: لا شيء عليه من ذلك التراب، بل قد ذهب كله، أي: وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله، وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَفْدُونَكَ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَمَثَلِ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ أَتَيْنَاكَ مَرْمَسَاتٍ اللَّهُ وَتَلْمِيزًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَكَمٍ يَرْتَوِي أَصَابَهُ وَإِنَّ فَكَاثَ أَكَلَهَا يَنْفَعَتِ فَإِنَّ لَمْ يُبْسَبْ وَإِنَّ قُلَّ وَاللَّهُ يَمَا تَقْمَلُونَ بَعِيرٌ ۝٢٦٣﴾

وهذا مثل المؤمنين المنفقين ﴿أَمْوَالَهُمْ أَتَيْنَاكَ مَرْمَسَاتٍ﴾ عنهم في ذلك ﴿وَتَلْمِيزًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: وهم متحققون مثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء، ونظير هذا في المعنى قوله، عليه السلام، في الحديث المتفق على صحته: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً...» أي: يؤمن أن الله شرعه، ويحتسب عند الله ثوابه. قال الشعبي: ﴿وَتَلْمِيزًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي:

تصدقياً وبقيناً. وكذا قال قتادة، وأبو صالح، وابن زيد. واختاره ابن جرير. وقال مجاهد والحسن: أي: يشتبون أين يضعون صدقاتهم. وقوله: ﴿كَشَلْ جَنَّتَ بِرَبْوَةٍ﴾ أي: كمثل بستان بريوة. وهو عند الجمهور: المكان المرتفع المستوي من الأرض. وزاد ابن عباس والضحاك: وتجري فيه الأنهار. قال ابن جرير: وفي البروة ثلاث لغات من ثلاث قراءات: بضم الراء، وبها قرأ عامة أهل المدينة والحجاز والعراق. وفتحها، وهي قراءة بعض أهل الشام والكوفة، ويقال: إنها لغة تميم. وكسر الراء، ويذكر أنها قراءة ابن عباس. وقوله: ﴿أَسَابَهَا وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد، كما تقدم، فأتت: ﴿أَكْثَلَهَا﴾ أي: ثمرتها ﴿ضِعْفَتَيْنِ﴾ أي: بالنسبة إلى غيرها من الجنان. ﴿فَإِنْ لَمْ يُبْسَبْهَا وَابِلٌ فَكَلَّ﴾ قال الضحاك: هو الرذاذ، وهو اللين من المطر. أي: هذه الجنة بهذه البروة لا تمحل أبداً؛ لأنها إن لم يصيبها وابل فطل، وأياً ما كان فهو كفايتها، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبداً، بل يتقبله الله ويكثره وينمي، كل عامل بحسبه؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَمِيمٌ﴾ أي: لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء.

﴿أَيُّدُ أَعْدَاكُمْ أَنْ تَكُونُوا لَكُمْ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَسَابَةُ الْكِبَرِ وَلَمْ ذَرِيَّةٌ مُعَمَّاتٌ فَأَسَابَهَا بِأَعْنَابٍ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام - هو ابن يوسف - عن ابن جريج: سمعت عبد الله بن أبي مليكة، يحدث عن ابن عباس، وسمعت أخاه أبا بكر بن أبي مليكة يحدث عن عبيد بن عمير قال: قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيُّدُ أَعْدَاكُمْ أَنْ تَكُونُوا لَكُمْ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٌ﴾؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. فقال عمر: يا ابن أخي، قل ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل. قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل. قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله. ثم رواه البخاري، عن الحسن بن محمد الزعفراني، عن حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جريج، فذكره. وهو من أفراد البخاري، رحمه الله. وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية، وتبين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولاً، ثم بعد ذلك انعكس سيره، فبدل الحسنات بالسيئات، عياداً بالله من ذلك، فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدم من الصالح، واحتاج إلى شيء من الأول في أضيق الأحوال، فلم يحصل له منه شيء، وخانه أحوج ما كان إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَسَابَةُ الْكِبَرِ وَلَمْ ذَرِيَّةٌ مُعَمَّاتٌ فَأَسَابَهَا بِأَعْنَابٍ﴾ وهو الريح الشديد ﴿فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ أي: أحرق ثمارها وأباد أشجارها، فأي حال يكون حاله. وقد روى ابن أبي حاتم، من طريق القوفي، عن ابن عباس قال: ضرب الله له مثلاً حسناً، وكل أمثاله حسن، قال: ﴿أَيُّدُ أَعْدَاكُمْ أَنْ تَكُونُوا لَكُمْ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ يقول: ضيعة في شيبته ﴿وَأَسَابَةُ الْكِبَرِ﴾ وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره، فجاء إعصار فيه نار فأحرق بستانه، فلم يكن عنده قوة أن يفرس مثله، ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه، وكذلك الكافر يوم القيامة، إذا رُدَّ إلى الله، ﷻ، ليس له خير فيستغثب، كما ليس لهذا قوة فيفرس مثل بستانه، ولا يجده قدم لنفسه خيراً يعود عليه، كما لم يُغن عن هذا ولده، وحُرم أجره عند أفقر ما كان إليه، كما حرم هذا جنة الله عند أفقر ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته. وهكذا روى الحاكم في مستدركه: أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه: «اللهم اجعل أوسع رزقك علي عند كبر سني وانقضاء عمري»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني، وتنزلونها على المراد منها، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَقْبَلُهَا إِلَّا الْمُسْلِمُونَ﴾ [النكبات: ٤٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَرْتَمْتُمْ لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَيْبَةَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِقَائِدِيهِ إِلَّا أَنْ تُحِبُّوا فِيهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَوِيٌّ حَيْدٌ﴾ الشيطان يبذلكم الفقر ويأمركم بالفسقة والله يعذبكم مذبذباً منه وقضلاً والله واسع عليم ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْأَلْبَابِ﴾.

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإنفاق - والمراد به الصدقة ههنا؛ قاله ابن عباس - من طيبات ما رزقهم من الأموال التي اكتسبوها. قال مجاهد: يعني التجارة بتيسيره إياها لهم. وقال علي والسدي: ﴿مِنْ طَيْبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ يعني: الذهب والفضة، ومن الثمار والزرع التي أنبتت لهم من الأرض. قال ابن عباس: أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصدق برذالة المال وذنبه - وهو خبيثه - فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ أي: تقصدوا ﴿الْهَيْبَةَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِقَائِدِيهِ﴾ أي: لو أعطيتهم ما أخذتموه، إلا أن تتفاضوا فيه، فإله أغنى عنه منكم، فلا تجعلوا لله ما

تكرهون. وقيل: معناه: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ أي: لا تعدلوا عن المال الحلال، وتقصدوا إلى الحرام، فتجعلوا نفقتكم منه. ويذكر لهذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا أبان بن إسحاق، عن الصباح بن محمد، عن مروة الهمداني، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده، لا يسلم عبدٌ حتى يُسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جأزه وبوائقه». قالوا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: «عَشْمُهُ وظلمه، ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار: إن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكن يمحو السيء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث». والصحيح القول الأول: قال ابن جرير: حدثني الحسين بن عمرو العنقزي، حدثني أبي، عن أسباط، عن السدي، عن عدي بن ثابت، عن البراء بن عازب في قول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَرْجَاكُمْ لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ الآية. قال: نزلت في الأنصار، كانت الأنصار إذا كان أيام جذاذ النخل، أخرجت من حيطانها أقاء البسر، فعلقوه على جبل بين الأسطواناتين في مسجد رسول الله ﷺ، فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيغمد الرجل منهم إلى الخشف، فيدخله مع أقاء البسر، يظن أن ذلك جائز، فأنزل الله فيمن فعل ذلك: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾. ثم رواه ابن جرير، وابن ماجة، وابن مَرْزُوقٍ، والحاكم في مستدركه، من طريق السدي، عن عدي بن ثابت، عن البراء، بنحوه. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن السدي، عن أبي مالك، عن البراء: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِكَافِرِيهِ إِذْ أَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ﴾ قال: نزلت فينا، كنا أصحاب نخل، وكان الرجل يأتي من نخله بقدر كثرته وقلته، فيأتي الرجل بالبقنو فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع جاء فضربه بعصاه، فيسقط منه البسر والتمر، فيأكل، وكان أناس ممن لا يرغبون في الخير يأتي بالبقنو فيه الحشف والشبص، ويأتي بالبقنو قد انكسر فيعلقه، فنزلت: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِكَافِرِيهِ إِذْ أَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ﴾ قال: لو أن أحدكم أهدي له مثل ما أعطى ما أخذه إلا على إغماض وخياء، فكنا بعد ذلك يجيء الرجل منا بصالح ما عنده. وكذا رواه الترمذي، عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن عبيد الله - هو ابن موسى العبيسي - عن إسرائيل، عن السدي - وهو إسماعيل بن عبد الرحمن - عن أبي مالك الغفاري - واسمه غزوان - عن البراء، فذكر نحوه. ثم قال: وهذا حديث حسن غريب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد، حدثنا سليمان بن كثير، عن الزهري، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ نهى عن لونين من الثمر: الجُغُرُور ولون الحُبَيْق. وكان الناس يتيممون شرار ثمارهم ثم يخرجونها في الصدقة، فنزلت: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾. ورواه أبو داود من حديث سفيان بن حسين، عن الزهري به. ثم قال: أسنده أبو الوليد، عن سليمان بن كثير، عن الزهري، ولفظه: نهى رسول الله ﷺ عن الجُغُرُور ولون الحُبَيْق أن يؤخذوا في الصدقة. وقد روى النسائي هذا الحديث من طريق عبد الجليل بن حُمَيد اليخضبي، عن الزهري، عن أبي أمامة. ولم يقل: عن أبيه، فذكر نحوه. وكذا رواه ابن وهب، عن عبد الجليل. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، حدثنا جرير، عن عطاء بن السائب، عن عبد الله بن مغل في هذه الآية: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ قال: كسب المسلم لا يكون خبيثاً، ولكن لا يصدق بالحشف، والدرهم الزيف، وما لا خير فيه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن حماد - هو ابن أبي سليمان - عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: أتني رسول الله ﷺ بضب فلم يأكله ولم يبه عنه. قلت: يا رسول الله، نطعمه المساكين؟ قال: «لا تطعموهم مما لا تأكلون». ثم رواه عن عفان، عن حماد بن سلمة. به. فقلت: يا رسول الله، ألا أطعمه المساكين؟ قال: «لا تطعموهم ما لا تأكلون». وقال الثوري: عن السدي، عن أبي مالك، عن البراء: ﴿وَلَسْتُمْ بِكَافِرِيهِ إِذْ أَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ﴾ يقول: لو كان لرجل على رجل، فأعطاه ذلك لم يأخذه؛ إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه رواه ابن جرير. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلَسْتُمْ بِكَافِرِيهِ إِذْ أَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ﴾ يقول: لو كان لكم على أحد حق، فجاءكم بحق دون حَقِّكم لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه. قال: فذلك قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تُنْفِقُوا فِيهِ﴾. فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم، وحقي عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه!! رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وزاد: وهو قوله: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا رَحِمْنَا﴾ قال عمران: ٩٢ ثم روى من طريق العوفي وغيره، عن ابن عباس نحو ذلك، وكذا ذكر غير واحد. قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَكِيمٌ﴾ أي: وإن أمركم

بالصدقات وبالطيب منها فهو غني عنها، وما ذاك إلا لیساوي الغني والفقير، كقوله: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دَمُهَا وَلَكِنَّ يَنَالَهُ الْثَقَوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] وهو غني عن جميع خلقه، وجميع خلقه فقراء إليه، وهو واسع الفضل لا ينفذ ما لديه، فمن تصدق بصدقة من كسب طيب، فلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ وَاسِعُ الْعَطَاءِ، كريم جواد، سيجزيه بها ويضاعفها له أضعافاً كثيرة من يقرض غَيْرَ عديم ولا ظلوم، وهو الحميد، أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، لا إله إلا هو، ولا رب سواه. وقوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَدْعُوكُمْ إِلَى الْفَقْرِ وَيَأْتُرْكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَدْعُوكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رُزْغَةَ، حدثنا هُثَّادُ بْنُ السَّرِيِّ، حدثنا أبو الأحوص، عن عطاء بن السائب، عن مرة الهَمْدَانِي، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَلْمَةَ بَابَنِ آدَمَ، وَلِلْمَلَكِ لَمَةً، فَأَمَّا لَمَةُ الشَّيْطَانِ فَأَيُّهَا بَالِشَّرِ وَتَكْذِيبِ الْحَقِّ، وَأَمَّا لَمَةُ الْمَلِكِ فَأَيُّهَا بَالْخَيْرِ وَتَصَدِيقِ الْحَقِّ. فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ الْآخَرَى فَلْيَتَعَوَّذْ مِنَ الشَّيْطَانِ». ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَدْعُوكُمْ إِلَى الْفَقْرِ وَيَأْتُرْكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَدْعُوكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً﴾ الآية. وهكذا رواه الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سُتْنَيْهِمَا جَمِيعاً، عن هُثَّادِ بْنِ السَّرِيِّ. وأخرج ابن حبان في صحيحه، عن أبي يعلى الموصلي، عن هُثَّادٍ، به. وقال الترمذي: حسن غريب، وهو حديث أبي الأحوص - يعني سلام بن سليم - لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديثه. كذا قال. وقد رواه أبو بكر بن مَرْذُوقٍ في تفسيره، عن محمد بن أحمد، عن محمد بن عبد الله بن عبد الله بن رُسْتَمَ، عن هَارُونَ الْقُرَوِيِّ، عن أبي صُمْرَةَ، عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن مسعود، مرفوعاً نحوه. ولكن رواه يَسْمَعُ، عن عطاء بن السائب، عن أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة، عن ابن مسعود. فجعله من قوله، والله أعلم.

ومعنى قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَدْعُوكُمْ إِلَى الْفَقْرِ﴾ أي: يخوفكم الفقر، لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله، ﴿وَيَأْتُرْكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ﴾ أي: في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء ﴿وَفَضْلاً﴾ أي: في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. وقوله: ﴿يُؤْتِي الْوَحْيَ مَنْ يَشَاءُ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله. وروى جُوَيْرٍ، عن الضحاك، عن ابن عباس مرفوعاً: الحكمة القرآن. يعني: تفسيره، قال ابن عباس: فإنه قد قرأه البر والفاجر. رواه ابن مَرْذُوقٍ. وقال ابن أبي نَجِيج، عن مجاهد: يعني بالحكمة: الإصابة في القول. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿يُؤْتِي الْوَحْيَ مَنْ يَشَاءُ﴾: ليست بالنبوة، ولكنه العلم والفقه والقرآن. وقال أبو العالية: الحكمة خشية الله، فإن خشية الله رأس كل حكمة. وقد روى ابن مَرْذُوقٍ، من طريق بَقِيَّةٍ، عن عثمان بن زُفَرٍ الْجُهَنِيِّ، عن أبي عمار الأسدي، عن ابن مسعود مرفوعاً: «رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللَّهِ». وقال أبو العالية في رواية عنه: الحكمة: الكتاب والفهم. وقال إبراهيم النَّخَعِيُّ: الحكمة: الفهم. وقال أبو مالك: الحكمة: السنة. وقال ابن وهب، عن مالك، قال زيد بن أسلم: الحكمة: العقل. قال مالك: وإنه ليقع في قلبي أن الحكمة هو الفقه في دين الله، وأثر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله، ومما يبين ذلك، أنك تجد الرجل عاقلاً في أمر الدنيا إذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفاً في أمر دنياه، عالماً بأمر دينه، بصيراً به، يؤتبه الله إياه ويحرمه هذا، فالحكمة: الفقه في دين الله. وقال السدي: الحكمة: النبوة. والصحيح أن الحكمة - كما قاله الجمهور - لا تختص بالنبوة، بل هي أعم منها، وأعلها النبوة، والرسالة أخص، ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبعية، كما جاء في بعض الأحاديث: «مَنْ حَفِظَ الْقُرْآنَ فَقَدْ أَذْرَجَتْ النَّبُوَّةَ بَيْنَ كَتْفَيْهِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُوْحَى إِلَيْهِ». رواه وكيع بن الجراح في تفسيره، عن إسماعيل بن رافع، عن رجل لم يسمه عن عبد الله بن عمر، قوله. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ويزيد قالوا: حدثنا إسماعيل - يعني بن أبي خالد - عن قيس - وهو ابن أبي حازم - عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَةٍ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيَعْلَمُهَا». وهكذا رواه البخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه - من طرق متعددة - عن إسماعيل بن أبي خالد، به. وقوله: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي: وما ينتفع بالموعظة والتذكارات إلا من له لب وعقل يعي به الخطاب ومعنى الكلام.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٢٧٠) إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْوَاهَا إِلَى الْفُتَرَاءِ فَهِيَ مِنْكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١).

يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده. وتوعد من لا يعمل بطاعته، بل خالف أمره وكذب خبره وعبد معه غيره،

سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: أنه كان يأمر بالآتصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ جُنَاحٌ إِذَا أَخْرَجْتَ أَمْوَالَكَ بِالْصَّدَقَةِ بَعْدَهَا عَلَى كُلِّ مَنْ سَأَلَكَ مِنْ كُلِّ دِينٍ. وَسَيَأْتِيكَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَتَذَكَّرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُّوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَا يُخْرِجُوكَ مِنْ دِينِكُمْ﴾ الآية [المتحنة: ٨] حديث أسماء بنت الصديق في ذلك إن شاء الله تعالى. وقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يُشْرِكْكُمْ﴾ كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦، الجاثية: ١٥] ونظرائها في القرآن كثيرة. وقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا لِأَنْفُسِكُمْ وَبِمَا أَعْطَاكُمْ اللَّهُ﴾ قال الحسن البصري: نفقة المؤمن لنفسه، ولا ينفق المؤمن - إذا أنفق - إلا ابتغاء وجه الله. وقال عطاء الخراساني: يعني إذا أعطيت لوجه الله، فلا عليك ما كان عمله وهذا معنى حسن، وحاصله أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله فقد وقع أجره على الله، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب: البز أو فاجر أو مستحق أو غيره، هو مثاب على قصده، ومستند هذا تمام الآية: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُغْلَبُونَ﴾، والحديث المخرج في الصحيحين، من طريق أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: لأنصدق الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبح الناس يتحدثون: تُصَدَّقُ على زانية! فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأنصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون: تُصَدَّقُ الليلة على غني! فقال: اللهم لك الحمد على غني، لأنصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصَدَّقُ الليلة على سارق! فقال: اللهم لك الحمد على زانية، وعلى غني، وعلى سارق، فأتني فقيل له: أما صدقتك فقد قبلت؛ أما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن زناها، ولعل الغني يعتبر فينق مما أعطاه الله، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقة».

وقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْضِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: المهاجرين الذين قد انقطعوا إلى الله وإلى رسوله، وسكنوا المدينة وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم و﴿لَا يَسْأَلُونَ صَدَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: سفيراً للتسبب في طلب المعاش. والضرب في الأرض: هو السفر؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا صَرَفْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ رَرْقٌ وَأَخْرُجُوا بِغَيْرِ حَقٍّ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُجُوا بِغَيْرِ حَقٍّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [المزمل: ٢٠].

وقوله: ﴿يُخَصِّصُهُمُ الْكَافَّةُ مِنْ أَعْيَانِهِ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ أي: الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء، من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقاليهم. وفي هذا المعنى الحديث المتفق على صحته، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرثان، واللقمة واللقمات، والأكلة والأكلات، ولكن المسكين الذي لا يجد غني يغنيه، ولا يظنن له فيصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً». وقد رواه أحمد، من حديث ابن مسعود أيضاً. وقوله: ﴿تَقْرِفُهُمْ بِسَيِّئِهِمْ﴾ أي: بما يظهر لذوي الألباب من صفاتهم، كما قال الله تعالى: ﴿سَيِّئَاتِهِمْ فِي وَجْهِهِمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿وَتَقْرِفُهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]. وفي الحديث الذي في السنن: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله»، ثم قرأ: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾ [الحجر: ٧٥]. وقوله: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي: لا يلحون في المسألة ويكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فإن من سأل وله ما يغنيه عن السؤال، فقد ألحف في المسألة؛ قال البخاري: حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شريك بن أبي نمر: أن عطاء بن يسار وعبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري قالا: سمعنا أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرثان، ولا اللقمة واللقمات، إنما المسكين الذي يتعفف؛ أقرؤوا إن شئتم - يعني قوله -: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾». وقد رواه مسلم، من حديث إسماعيل بن جعفر المديني، عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر، عن عطاء بن يسار - وحده - عن أبي هريرة، به. وقال أبو عبد الرحمن النسائي: أخبرنا علي بن حجر، حدثنا إسماعيل، أخبرنا شريك - وهو ابن أبي نمر - عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرثان، واللقمة واللقمات، إنما المسكين المتعفف؛ أقرؤوا إن شئتم: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾». وروى البخاري من حديث شعبة، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، نحوه. وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن أبي ذئب، عن أبي الوليد، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بالطواف عليكم، فتطعمونه لقمة لقمة، إنما المسكين المتعفف الذي لا يسأل الناس إلحافاً». وقال ابن جرير: حدثني معتمر، عن الحسن بن مالك، عن صالح بن سويد، عن أبي هريرة قال: ليس المسكين الطواف الذي ترده الأكلة والأكلات، ولكن المسكين المتعفف في بيته، لا يسأل الناس شيئاً تصبيه الحاجة؛ أقرؤوا إن شئتم: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا

عبد الحميد بن جعفر، عن أبيه، عن رجل من مزينة، أنه قالت له أمه: ألا تنطلق فتسأل رسول الله ﷺ كما يسأله الناس؟ فانطلقت أسأله، فوجدته قائماً يخطب، وهو يقول: «ومن استغنى أغناه الله، ومن استغنى أغناه الله، ومن يسأل الناس وله عدل خمس أواق فقد سأل الناس إلحافاً». فقلت بيني وبين نفسي: لناقة لي خير من خمس أواق، ولغلامه ناقة أخرى فهي خير من خمس أواق فرجعت ولم أسأل. وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الرجال، عن عمارة بن غزية، عن عبد الرحمن بن أبي سعيد، عن أبيه قال: سرحتني أمي إلى رسول الله ﷺ، أسأله، فأتيته فقعدت، قال: فاستقبلني فقال: «من استغنى أغناه الله، ومن استغنى أغناه الله، ومن استكف كفاه الله، ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف». قال: فقلت: ناقتي الياقوتة خير من أوقية. فرجعت ولم أسأله. وهكذا رواه أبو داود والنسائي، كلاهما عن قتيبة. زاد أبو داود: وهشام بن عمار كلاهما عن عبد الرحمن بن أبي الرجال بإسناده، نحوه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجماهير، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الرجال، عن عمارة بن غزية، عن عبد الرحمن بن أبي سعيد قال: قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «من سأل وله قيمة وقيمة فهو ملحف» والوقية: أربعون درهماً. وقال أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن رجل من بني أسد قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل وله أوقية - أو عدلها - فقد سأل إلحافاً». وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن حكيم بن جبير، عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل وله ما يغنيه، جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً - أو كدوشاً - في وجهه». قالوا: يا رسول الله، وما غناه؟ قال: «خمسون درهماً، أو حسابها من الذهب». وقد رواه أهل السنن الأربعة، من حديث حكيم بن جبير الأسدي الكوفي. وقد تركه شعبة بن الحجاج، وضعفه غير واحد من الأئمة من جراء هذا الحديث. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا أبو حصين عبد الله بن أحمد بن يونس، حدثني أبي، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين قال: بلغ الحارث - رجلاً كان بالشام من قریش - أن أبا ذر كان به عوز، فبعث إليه ثلاثمائة دينار، فقال: ما وجد عبد الله رجلاً هو أهون عليه مني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سأل وله أربعون فقد ألحف» ولآل أبي ذر أربعون درهماً وأربعون شاة وماهنان. قال أبو بكر بن عياش: يعني خادمين. وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، أخبرنا إبراهيم بن محمد، أنبأنا عبد الجبار، أخبرنا سفيان، عن داود بن سابور، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «من سأل وله أربعون درهماً فهو مُلْحَفٌ، وهو مثل سف الملة» يعني: الرمل. ورواه النسائي، عن أحمد بن سليمان، عن يحيى بن آدم، عن سفيان - وهو ابن عيينة - بإسناده، نحوه. قوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَكُمْ أَلَّهُ بِهِ عَلَيْهِ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء منه، وسيجزى عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة، أحوج ما يكونون إليه. وقوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِلَى وَالتَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٧٢) هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله، وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات من ليل أو نهار، والأحوال من سر وجهار، حتى إن النفقة على الأكل تدخل في ذلك أيضاً، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص - حين عاده مريضاً عام الفتح، وفي رواية عام حجة الوداع -: «وانك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتى ما تجعل في فم امرأتك». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر وبَهْز قال: حدثنا شعبة، عن عدي بن ثابت قال: سمعت عبد الله بن يزيد الأنصاري، يحدث عن أبي مسعود، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له صدقة» أخرجه من حديث شعبة، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن، حدثنا محمد بن شعيب، قال: سمعت سعيد بن يسار، عن يزيد بن عبد الله بن عريب المليكي، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِلَى وَالتَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٧٢) في أصحاب الخيل». وقال حنش الصنعاني، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: هم الذي يعلقون الخيل في سبيل الله. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وكذا روي عن أبي أمامة، وسعيد بن المسيب، ومكحول. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، أخبرنا يحيى بن يمان، عن عبد الوهاب بن مجاهد بن جبر، عن أبيه قال: كان لعملي أربعة دراهم، فأنفق درهماً ليلاً، ودرهماً نهاراً، ودرهماً سرّاً، ودرهماً علانية، فنزلت: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِلَى وَالتَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٧٢). وكذا رواه ابن جرير من طريق عبد الوهاب بن مجاهد، وهو ضعيف. ولكن رواه ابن مردويه من وجه آخر، عن ابن عباس أنها أنزلت في علي بن أبي طالب. وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾

أي: يوم القيامة على ما فعلوا من الإنفاق في الطاعات ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ تقدم تفسيره.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَيْمَنِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّقَ اللَّهَ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧٥).

لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات، المخرجين الزكوات، المتفضلين بالبر والصلات لذوي الحاجات والقربات في جميع الأحوال والآفات - شرع في ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَيْمَنِ﴾ أي: لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له؛ وذلك أنه يقوم قياماً منكراً. وقال ابن عباس: أكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يُخَنَّق. رواه ابن أبي حاتم، قال: روي عن عوف بن مالك، وسعيد بن جبيرة، والسدي، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان، نحو ذلك. وحكي عن عبد الله بن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وقتادة، ومقاتل بن حيان أنهم قالوا في قوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَيْمَنِ﴾ يعني: لا يقومون يوم القيامة. وكذا قال ابن أبي نجيع، عن مجاهد، والضحاك، وابن زيد. وروي ابن أبي حاتم، من حديث أبي بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب، عن ابن عبد الله بن مسعود، عن أبيه أنه كان يقرأ: «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذين يتخبطه الشيطان من المس يوم القيامة». وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا ربيعة بن كلثوم، حدثنا أبي، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: يقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ سلاحك للحرب. وقرأ: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَيْمَنِ﴾ قال: وذلك حين يقوم من قبره. وفي حديث أبي سعيد في الإسراء، كما هو مذكور في سورة سبحان: أنه، عليه السلام، مر ليلتئذ يقوم لهم أجواف مثل البيوت، فسأل عنهم فقيل: هؤلاء أكلة الربا. رواه البيهقي مطولاً. وقال ابن ماجة: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا الحسن بن موسى، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي الصلت، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنيت ليلة أسري بي على قوم بطونهم كالبيوت، فيها الحيات ثرى من خارج بطونهم فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا». ورواه الإمام أحمد، عن حسن وعفان، كلاهما عن حماد بن سلمة، به. وفي إسناده ضعف.

وقد روى البخاري، عن سُمرة بن جندب في حديث المنام الطويل: «فأتينا على نهر - حسبنا أنه كان يقول: أحمر مثل الدم - وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع الحجارة عنده فيغفر له فاه فيلقمه حجراً» وذكر في تفسيره: أنه أكل الربا. وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ أي: إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله في شرعه، وليس هذا قياساً منهم للربا على البيع؛ لأن المشركون لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذي شرعه الله في القرآن، ولو كان هذا من باب القياس لقالوا: إنما الربا مثل البيع، وإنما قالوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ أي: هو نظيره، فلم حرم هذا وأبيح هذا؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع، أي: هذا مثل هذا، وقد أحل هذا وحرم هذا! وقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ يحتمل أن يكون من تمام الكلام، رداً عليهم، أي: قالوا ما قالوه من الاعتراض، مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكماً، وهو الحكيم العليم الذي لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها، وما ينفع عباده فيبيحه لهم، وما يضرهم فينهاهم عنه، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل؛ ولهذا قال: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّقَ اللَّهَ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: من بلغه نهى الله عن الربا فانتبهى حال وصول الشرع إليه، فله ما سلف من المعاملة، لقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: ٩٥] وكما قال النبي ﷺ يوم فتح مكة: «وكل رباً في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين، وأول رباً أضع ربا العباس» ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة في حال الجاهلية، بل عفا عما سلف، كما قال تعالى: ﴿فَلَا مَسَافَةَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾.

قال سعيد بن جبيرة والسدي: ﴿فَلَا مَسَافَةَ﴾ فله ما كان أكل من الربا قبل التحريم. وقال ابن أبي حاتم: قرئ على محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أخبرنا ابن وهب، أخبرني جرير بن حازم، عن أبي إسحاق الهمداني، عن أم يونس - يعني امرأته العالية بنت أيفع - أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت لها أم مجة أم ولد لزيد بن أرقم - يا أم المؤمنين، أتعرفين زيد بن أرقم؟ قالت: نعم. قالت: فإني بعته عبداً إلى العطاء بشمانانة، فاحتاج إلى ثمنه، فاشتريته قبل محل الأجل بستماننة. فقالت: بش ما شريت! وما بش ما اشتريت! أبلغني زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إن لم يتب قالت: فقلت: أرايت إن تركت المائتين وأخذت الستماننة؟ قالت: نعم، ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّقَ اللَّهَ مَا سَلَفَ﴾. وهذا الأثر مشهور، وهو دليل لمن حرم

مسألة العينة، مع ما جاء فيها من الأحاديث المقررة في كتاب الأحكام، والله الحمد والمنة. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ أي: إلى الربا ففعله بعد بلوغ نهي الله له عنه، فقد استوجب العقوبة، وقامت عليه الحجة؛ ولهذا قال: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَتَّحَبُ النَّكَارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وقد قال أبو داود: حدثنا يحيى بن معين، أخبرنا عبد الله بن رجاء المكي، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَرِيِّ﴾ قال رسول الله ﷺ: «من لم يذر المخابرة، فليؤذن بحرب من الله ورسوله». ورواه الحاكم في مستدركه، من حديث ابن خثيم، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجه. وإنما حرمت المخابرة وهي: المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض، والمزابنة وهي: اشتراء الرطب في رؤوس النخل بالتمر على وجه الأرض، والمحاولة وهي: اشتراء الحب في سنبله في الحقل بالحب على وجه الأرض - إنما حرمت هذه الأشياء وما شاكلها، جسماً لمادة الربا؛ لأنه لا يعلم التساوي بين الشئتين قبل الجفاف. ولهذا قال الفقهاء: الجهل بالمماثلة كحقيقة المفاضلة. ومن هذا حرموا أشياء بما فهموا من توضيق المسالك المفضية إلى الربا، والوسائل الموصلة إليه وتفاوت نظرهم بحسب ما وهب الله لكل منهم من العلم، وقد قال تعالى: ﴿وَقَوْفٌ كُنْزٍ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ﴾ [يوسف: ٧٦]. وباب الربا من أشكال الأبواب على كثير من أهل العلم، وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ عهد إلينا فيهن عهداً تنتهي إليه: الجدة، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا. يعني بذلك بعض المسائل التي فيها شائبة الربا، والشرعية شاهدة بأن كل حرام فالوسيلة إليه مثله؛ لأن ما أفصى إلى الحرام حرام، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وقد ثبت في الصحيحين، عن النعمان بن بشير، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بين وإن الحرام بين، وبين ذلك أمور مشتهيات، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه». وفي السنن عن الحسن بن علي، رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك». وفي الحديث الآخر: «الإثم ما حاك في القلب وترددت فيه النفس، وكرهت أن يطلع عليه الناس». وفي رواية: «استغف قلبك، وإن أفنك الناس وأفنوك». وقال الثوري: عن عاصم، عن الشعبي، عن ابن عباس قال: آخر ما نزل على رسول الله ﷺ آية الربا. رواه البخاري عن قبيصة، عنه. وقال أحمد، عن يحيى، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب أن عمر قال: من آخر ما نزل آية الربا، وإن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يفسرها لنا، فدعوا الربا والريبة. رواه ابن ماجة، وابن مردويه. وروى ابن مردويه عن طريق هياج بن بسطام، عن داود بن أبي هند، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: خطبنا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال: إني لعلي أنهاركم عن أشياء تصلح لكم وأمركم بأشياء لا تصلح لكم، وإن من آخر القرآن نزولاً آية الربا، وإنه قد مات رسول الله ﷺ ولم يبينه لنا، فدعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم. وقد قال ابن ماجة: حدثنا عمرو بن علي الصيرفي، حدثنا ابن أبي عدي، عن شعبة، عن زبيد، عن إبراهيم، عن مسروق، عن عبد الله - هو ابن مسعود - عن النبي ﷺ قال: «الربا ثلاثة وسبعون باباً». ورواه الحاكم في مستدركه، من حديث عمرو بن علي الفلاس، بإسناد مثله، وزاد: «أيسرها أن ينكح الرجل أمه، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم». وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وقال ابن ماجة: حدثنا عبد الله بن سعيد، حدثنا عبد الله بن إدريس، عن أبي معشر، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الربا سبعون حوباً، أيسرها أن ينكح الرجل أمه». وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، عن عباد بن راشد، عن سعيد بن أبي خيرة، حدثنا الحسن - منذ نحو من أربعين أو خمسين سنة - عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا» قال: قيل له: الناس كلهم؟ قال: «من لم يأكله منهم ناله من غباره» وكذا رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجة من غير وجه، عن سعيد بن أبي خيرة، عن الحسن، به. ومن هذا القبيل، وهو تحريم الوسائل المفضية إلى المحرمات الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مسلم بن صبيح، عن مسروق، عن عائشة قالت: لما نزلت الآيات من آخر البقرة في الربا خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد، فقراهن، فحرم التجارة في الخمر. وقد أخرجه الجماعة سوى الترمذي، من طرق، عن الأعمش، به، وهكذا لفظ رواية البخاري، عند تفسير الآية: فحرم التجارة، وفي لفظ له، عن عائشة قالت: لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا قرأها رسول الله ﷺ على الناس، ثم حرم التجارة في الخمر. قال بعض من تكلم على هذا الحديث من الأئمة: لما حرم الربا ووسائله حرم الخمر وما يفضي إليه من تجارة ونحو ذلك. كما قال، عليه السلام، في الحديث المتفق عليه: «لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها وأكلوا أثمانها». وقد تقدم في حديث علي وابن مسعود وغيرهما، عند لعن المحلل في تفسير قوله: ﴿حَتَّىٰ تَنْكَحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠]

قوله ﷺ: «لعن الله آكل الربا وموكله، وشاهديه وكاتبه». قالوا: وما يشهد عليه ويكتب إلا إذا أظهر في صورة عقد شرعي ويكون داخله فاسداً، فالاعتبار بمعناه لا بصورته؛ لأن الأعمال بالنيات، وفي الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». وقد صنف الإمام، العلامة أبو العباس بن تيمية كتاباً في «إبطال التحليل» تضمن النهي عن تعاطي الوسائل المفضية إلى كل باطل، وقد كفى في ذلك وشفى، فرحمه الله ورضي عنه.

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ إِرْبَاؤَهُ وَيَرْبِي الصَّدَقَاتُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾.

يخبر تعالى أنه يمحى الربا، أي: يذهب، إما بأن يذهب بالكلية من يد صاحبه، أو يخرمه بركة ماله فلا ينتفع به، بل يعذبه به في الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة. كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ (المائدة: ١٠٠)، وقال تعالى: ﴿يَعْمَلُ الْخَبِيثُ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكَبُكُمْ جَمِيعًا فَيَجْمَلُكُمْ فِي جَهَنَّمَ﴾ (الأنعام: ٣٧)، وقال: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبَا يَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيئُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ (آية الروم: ٣٩). وقال ابن جرير: في قوله: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ إِرْبَاؤَهُ﴾ وهذا نظير الخبر الذي روي عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ، أنه قال: «الربا وإن كثر فإلى قُلْ». وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد في مسنده، فقال: حدثنا حجاج قال: حدثنا شريك عن الركين بن الربيع بن عميلة الفزاري عن أبيه، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «إن الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قُلْ» وقد رواه ابن ماجة، عن العباس بن جعفر، عن عمرو بن عون، عن يحيى بن أبي زائدة، عن إسرائيل، عن الركين بن الربيع بن عميلة الفزاري، عن أبيه، عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أحد أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قلة». وهذا من باب المعاملة بتقيض المقصود، كما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا الهيثم بن رافع الطاطري، حدثني أبو يحيى - رجل من أهل مكة - عن فروخ مولى عثمان: أن عمر - وهو يومئذ أمير المؤمنين - خرج إلى المسجد، فرأى طعاماً منشوراً. فقال: ما هذا الطعام؟ فقالوا: طعام جلب إلينا. قال: بارك الله فيه وفيمن جلبه. قيل: يا أمير المؤمنين، إنه قد احتكر. قال: ومن احتكره؟ قالوا: فروخ مولى عثمان، وفلان مولى عمر. فأرسل إليهما فدعاهما فقال: ما حملكما على احتكار طعام المسلمين؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، نشترى بأموالنا ونبيع!! فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالإفلاس أو يجذام». فقال فروخ عند ذلك: أعاهد الله وأعاهدك ألا أعود في طعام أبداً. وأما مولى عمر فقال: إنما نشترى بأموالنا ونبيع. قال أبو يحيى: فلقد رأيت مولى عمر مجذوماً. ورواه ابن ماجة من حديث الهيثم بن رافع، به. ولفظه: «من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس».

وقوله: ﴿وَيَرْبِي الصَّدَقَاتُ﴾: قرئ بضم الياء والتخفيف، من «ربا الشيء يربو» و «أرباه يربيه» أي: كثره ونماه ينميه. وقرئ: «ويَرْبِي» بالضم والتشديد، من التربية، كما قال البخاري: حدثنا عبد الله بن منير، سمع أبا النضر، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله ليقبلها بيمينه، ثم يربها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوه، حتى يكون مثل الجبل». كذا رواه في كتاب الزكاة. وقال في كتاب التوحيد: وقال خالد بن مخلد، عن سليمان بن بلال، عن عبد الله بن دينار، فذكر بإسناده، نحوه. وقد رواه مسلم في الزكاة عن أحمد بن عثمان بن حكيم، عن خالد بن مخلد، فذكره. قال البخاري: ورواه مسلم بن أبي مريم، وزيد بن أسلم، وسهيل، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. قلت: أما رواية مسلم بن أبي مريم: فقد تفرد البخاري بذكرها، وأما طريق زيد بن أسلم: فرواه مسلم في صحيحه، عن أبي الطاهر بن السرح، عن ابن وهب، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، به. وأما حديث سهيل فرواه مسلم، عن قتيبة، عن يعقوب بن عبد الرحمن، عن سهيل، به. والله أعلم. قال البخاري: وقال وراق عن ابن دينار، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. وقد أسند هذا الحديث من هذا الوجه الحافظ أبو بكر البيهقي، عن الحاكم وغيره، عن الأصم، عن العباس الدوري، عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن وراق - وهو ابن عمر الشكري - عن عبد الله بن دينار، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب، فإن الله يقبلها بيمينه، فيربها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل أحد». وهكذا روى هذا الحديث مسلم، والترمذي، والنسائي جميعاً، عن قتيبة، عن الليث بن سعد، عن سعيد المقبري. وأخرجه النسائي - من رواية مالك، عن يحيى بن سعيد الأنصاري - ومن طريق يحيى القطان، عن محمد بن عجلان، ثلاثتهم عن سعيد بن يسار أبي الحباب المدني، عن

أبي هريرة، عن النبي ﷺ، فذكره. وقد روي عن أبي هريرة من وجه آخر، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا وكيع، عن عباد بن منصور، حدثنا القاسم بن محمد قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله، يقبل الصدقة ويأخذها يمينه، فيربها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره - أو فلوله - حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد». وتصدق ذلك في كتاب الله: «يَمَعُ اللَّهُ أَرْبَا وَرَبِّي الْكَذِبَتْ». وكذا رواه أحمد، عن وكيع، وهو في تفسير وكيع. ورواه الترمذي، عن أبي كريب، عن وكيع، به وقال: حسن صحيح، وكذا رواه الثوري عن عباد بن منصور، به. ورواه أحمد أيضاً، عن خلف بن الوليد، عن ابن المبارك، عن عبد الواحد بن ضمرة وعباد بن منصور كلاهما عن أبي نضرة، عن القاسم، به. وقد رواه ابن جرير، عن محمد بن عبد الملك بن إسحاق، عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن أيوب، عن القاسم بن محمد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا تصدق من طيب، يقبلها الله منه، فيأخذها يمينه، وُرْبِهَا كما يربي أحدكم مهره أو فضيله، وإن الرجل ليتصدق باللقمة فتربو في يد الله - أو قال: في كف الله - حتى تكون مثل أحد، فتصدقوا». وهكذا رواه أحمد، عن عبد الرزاق. وهذا طريق غريب صحيح الإسناد، ولكن لفظه عجيب، والمحفوظ ما تقدم. وروي عن عائشة أم المؤمنين، فقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد، عن ثابت، عن القاسم بن محمد، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليربي لأحدكم التمرة واللقمة، كما يربي أحدكم فلوله أو فضيله، حتى يكون مثل أحد». تفرد به أحمد من هذا الوجه. وقال البزار: حدثنا يحيى بن المعلى بن منصور، حدثنا إسماعيل، حدثني أبي، عن يحيى بن سعيد، عن عمرة، عن عائشة، عن النبي ﷺ، وعن الضحاك بن عثمان، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الرجل ليتصدق بالصدقة من الكسب الطيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فيتلقاها الرحمن بيده فيربها، كما يربي أحدكم فلوله - أو وصيفه - أو قال: فضيله» ثم قال: لا نعلم أحداً رواه عن يحيى بن سعيد عن عمرة إلا أبو أوس. وقوله: «وَاللَّهُ لَا يُجِبُ كُلَّ كَلَامٍ أَيْ: لا يحب كفور القلب أثم القول والفعل، ولا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع له من التكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلوم أثم يأكل أموال الناس بالباطل. ثم قال تعالى مادحاً للمؤمنين بربهم، المطيعين أمره، المؤدين شكره، المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مخبراً عما أعد لهم من الكرامة، وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفُسُ اللَّهِ وَذُكُّوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾. ﴿إِن لَّمْ تَقْعَلُوا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُنْتَهُ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْثَلُكُمْ لَا تَقْلُمُونَ وَلَا تَقْلُمُونَ﴾. ﴿وَإِن كَانَتْ ذُو عُرْفَرٍ فَلْيُقَظِرْ إِلَىٰ مَيَّسَرَةٍ وَآنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. ﴿وَأَقْبُوا يَوْمًا تَجْمَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تَوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بتقواه، ناهياً لهم عما يقرّبهم إلى سخطه ويبعدهم عن رضاه، فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفُسُ اللَّهِ﴾ أي: خافوه وراقبوه فيما تفعلون ﴿وَذُكُّوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ أي: اتركوا مالكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال، بعد هذا الإنذار ﴿إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: بما شرع الله لكم من تحليل البيع، وتحريم الربا وغير ذلك. وقد ذكر زيد بن أسلم، وابن جرير، ومقاتل بن حيان، والسدي: أن هذا السياق نزل في بني عمرو بن عмир بن ثقيف، وبني المغيرة من بني مخزوم، كان بينهم ربا في الجاهلية، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، طلبت ثقيف أن تأخذه منهم، فتشاؤروا، وقالت بنو المغيرة: لا نؤدي الربا في الإسلام، فكتب في ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية فكتب بها رسول الله ﷺ إليه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفُسُ اللَّهِ وَذُكُّوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾. ﴿إِن لَّمْ تَقْعَلُوا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فقالوا: نتوب إلى الله، ونذر ما بقي من الربا، فتركوه كلهم. وهذا تهديد شديد ووعد أكيد، لمن استمر على تعاطي الربا بعد الإنذار، قال ابن جرير: قال ابن عباس: ﴿فَاذْنُوا بِحَرْبٍ﴾ أي: استيقنوا بحرب من الله ورسوله. وتقدم من رواية ربيعة بن كلثوم، عن أبيه، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: يقال يوم القيامة لأكل الربا: خذ سلاحك للحرب. ثم قرأ: ﴿إِن لَّمْ تَقْعَلُوا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِن لَّمْ تَقْعَلُوا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: فمن كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه فحق على إمام المسلمين أن يستتبه، فإن نزاع وإلا ضرب عنقه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا هشام بن حسان، عن الحسن وابن سيرين، أنهما قالا: والله إن هؤلاء الصيارفة لأكلة الربا، وإنهم قد أذنوا بحرب من الله ورسوله، ولو كان على الناس إمام

عادل لاستتابهم، فإن تابوا وإلا وضع فيهم السلاح. وقال قتادة: أوعدهم الله بالقتل كما تسمعون، وجعلهم بهرجاً أينما أتوا، فإياكم وما خالط هذه البيوع من الربا؛ فإن الله قد أوسع الحلال وأطابه، فلا تلجئكم إلى معصيته فاقة. رواه ابن أبي حاتم. وقال الربيع بن أنس: أوعد الله أكل الربا بالقتل. رواه ابن جرير. وقال السهيلي: ولهذا قالت عائشة لأم محبة، مولاة زيد بن أرقم، في مسألة العينة: أخبره أن جهاده مع رسول الله ﷺ قد بطل، إلا أن يتوب، فخصت الجهاد؛ لأنه ضد قوله: ﴿فَأَذُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال: وهذا المعنى ذكره كثير. قال: ولكن هذا إسناده إلى عائشة ضعيف. ثم قال تعالى: ﴿وَإِن تَبَيَّنَتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: بأخذ الزيادة ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: بوضع رؤوس الأموال أيضاً، بل لكم ما بذلتكم من غير زيادة عليه ولا نقص منه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الحسين بن إشكاب، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن شيبان، عن شبيب بن غرقدة البارقى، عن سليمان بن الأحوص عن أبيه قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال: «ألا إن كل ربا كان في الجاهلية موضوع عنكم كله، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، وأول ربا موضوع ربا العباس بن عبد المطلب، موضوع كله» كذا وجدته: سليمان بن الأحوص. وقد قال ابن مردويه: حدثنا الشافعي، حدثنا معاذ بن المثنى، أخبرنا مسدد، أخبرنا أبو الأحوص، حدثنا شبيب بن غرقدة، عن سليمان بن عمرو، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع، فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون». وكذا رواه من حديث حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي حرة الرقاشي، عن عمرو - هو ابن خازجة - فذكره. وقوله: ﴿وَإِن كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن يَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكَ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨١): يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء، فقال: ﴿وَإِن كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ أي: لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين: إما أن تقضي وإما أن تربي. ثم يندب إلى الوضع عنه، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل، فقال: ﴿وَأَن يَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكَ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: وأن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين. وقد وردت الأحاديث من طرق متعددة عن النبي ﷺ، بذلك:

فالحديث الأول: عن أبي أمامة أسعد بن زارة النقيب، قال الطبراني: حدثنا عبد الله بن محمد بن شعيب الرجاني، حدثنا يحيى بن حكيم المقوم، حدثنا محمد بن بكر البرساني، حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثني عاصم بن عبيد الله، عن أبي أمامة أسعد بن زارة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله، فليُسر على معسر أو ليضع عنه». **حديث آخر:** عن بريدة، قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الوارث، حدثنا محمد بن جحادة، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة». قال: ثم سمعته يقول: «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة». قلت: سمعتك - يا رسول الله - تقول: «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة». ثم سمعتك تقول: «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة»؟! قال: «له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين، فإذا حل الدين فأنظره، فله بكل يوم مثله صدقة».

حديث آخر: عن أبي قتادة الحارث بن ربعي الأنصاري، قال الإمام أحمد: حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا أبو جعفر الخطمي، عن محمد بن كعب القرظي: أن أبا قتادة كان له دين على رجل، وكان يأتيه يتقاضاه، فيخيبه منه، فجاء ذات يوم فخرج صبي فسأله عنه، فقال: نعم، هو في البيت يأكل خزيرة فناده: يا فلان، اخرج، فقد أخبرت أنك ههنا فخرج إليه، فقال: ما يغيبك عني؟ فقال: إني معسر، وليس عندي. قال: الله إنك معسر؟ قال: نعم. فبكى أبو قتادة، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نفس عن غريمه - أو محا عنه - كان في ظل العرش يوم القيامة». ورواه مسلم في صحيحه. **حديث آخر:** عن حذيفة بن اليمان، قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا الأحنس أحمد بن عمران، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا أبو مالك الأشجعي، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتى الله بعيد من عبده يوم القيامة، قال: ماذا عملت لي في الدنيا؟ فقال: ما عملت لك يا رب مثقال ذرة في الدنيا أرجوك بها، قالها ثلاث مرات، قال العبد عند آخرها: يا رب، إنك أعطيتني فضل مال، وكنت رجلاً أباع الناس وكان من خلقي الجواز، فكنت أيسر على الموسر، وأنظر المعسر. قال: فيقول الله، ﷻ: أنا أحق من يسر، ادخل الجنة». وقد أخرجه البخاري، ومسلم، وابن ماجه - من طرق - عن ربعي بن حراش، عن حذيفة. زاد مسلم: وعقبة بن عامر وأبي مسعود البصري عن النبي ﷺ، بنحوه. ولفظ البخاري: حدثنا هشام بن عمار، حدثنا يحيى بن حمزة، حدثنا الزهري، عن عبد الله بن عبد الله أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كان تاجر يداين الناس، فإذا

رأى معسراً قال لفتيانه: تجاوزوا عنه، لعل الله يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه.

حديث آخر: عن سهل بن حنيف، قال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب، حدثنا يحيى بن محمد بن يحيى، حدثنا أبو الوليد هشام بن عبد الملك، حدثنا عمرو بن ثابت، حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل، عن عبد الله بن سهل بن حنيف، أن سهلاً حدثه، أن رسول الله ﷺ قال: «من أعان مجاهداً في سبيل الله أو غازياً، أو غارماً في عسرتة، أو مكاتباً في رقبته، أظله الله يوم لا ظل إلا ظله» ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

حديث آخر: عن عبد الله بن عمر، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، عن يوسف بن صهيب، عن زيد العمي، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من أراد أن تستجاب دعوته، وأن تكشف كربته، فليفرج عن معسر»، انفرد به أحمد.

حديث آخر: عن أبي مسعود عقبة بن عمرو، قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا أبو مالك، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة، أن رجلاً أتى به الله ﷻ، فقال: ماذا عملت في الدنيا؟ فقال له الرجل: ما عملت مثقال ذرة من خير أرجوكم بها، فقال له ثلاثاً، وقال في الثالثة: أي رب كنت أعطيتني فضلاً من المال في الدنيا، فكنت أبايع الناس، فكنت أتيسر على الموسر، وأنظر المعسر. فقال تبارك وتعالى: نحن أولى بذلك منك، تجاوزوا عن عبيدي. فغفر له. قال أبو مسعود: هكذا سمعت من النبي ﷺ، وهكذا رواه مسلم من حديث أبي مالك سعد بن طارق به.

حديث آخر: عن عمران بن حصين، قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبي داود، عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له على رجل حق فأخره، كان له بكل يوم صدقة». غريب من هذا الوجه، وقد تقدم عن بريدة نحوه.

حديث آخر: عن أبي اليسر كعب بن عمرو، قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، عن عبد الملك بن عمير، عن ربعي، قال: حدثنا أبو اليسر، أن رسول الله ﷺ قال: «من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله ﷻ، في ظله يوم لا ظل إلا ظله». وقد أخرجه مسلم في صحيحه من وجه آخر، من حديث عبادة بن الوليد بن عباد بن الصامت، قال: خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحي من الأنصار قبل أن يهلكوا، فكان أول من لقينا أبا اليسر صاحب رسول الله ﷺ، ومعه غلام له معه ضمامة من صفح، وعلى أبي اليسر بردة ومعافري، وعلى غلامه بردة ومعافري فقال له أبي: يا عم، إني أرى في وجهك سفعة من غضب؟ قال أجل، كان لي على فلان بن فلان الحرامي مال، فأتيت أهله فسلمت، فقلت: أثم هو؟ قالوا: لا، فخرج علي ابن له جفر فقلت: أين أبوك؟ فقال: سمع صوتك فدخل أريكة أُمي. فقلت: أخرج إلي فقد علمت أين أنت؟ فخرج، فقلت: ما حملك على أن اختبأت مني؟ قال: أنا والله أحدثك ثم لا أكذبك؛ خشيت - والله - أن أحدثك فأكذبك، وأن أعدك فأخلفك، وكنت صاحب رسول الله ﷺ، وكنت - والله - معسراً قال: قلت: آله؟ قال: الله. قلت: آله؟ قال: الله. قلت: آله؟ قال: الله. قلت: آله؟ قال: الله. قال: فأتى بصحيفته فمحاها بيده، ثم قال: فإن وجدت قضاء فاقضني، وإلا فأنت في حل، فأشهد بصر عيني - ووضع أصبعيه على عينيه - وسمع أذني هاتين، ووعاه قلبي - وأشار إلى مناط قلبه - رسول الله ﷺ وهو يقول: «من أنظر معسراً، أو وضع عنه أظله الله في ظله». وذكر تمام الحديث.

حديث آخر: عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، قال عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه حدثني أبو يحيى البرزاز محمد بن عبد الرحيم، حدثنا الحسن بن بشر بن سلم الكوفي، حدثنا العباس بن الفضل الأنصاري، عن هشام بن زياد القرشي، عن أبيه، عن محجن مولى عثمان، عن عثمان، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أظل الله عيناً في ظله، يوم لا ظل إلا ظله من أنظر معسراً، أو ترك لغارم». حديث آخر: عن ابن عباس، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا نوح بن جعونة السلمي الخراساني، عن مقاتل بن حيان، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد، وهو يقول بيده هكذا - وأوماً عبد الرحمن بيده إلى الأرض -: «من أنظر معسراً أو وضع له، وقاه الله من فيح جهنم، ألا إن عمل الجنة حزن بربوة - ثلاثاً - ألا إن عمل النار سهل بسهوة، والسعيد من وفي الفتن، وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد، ما كظمها عبد الله إلا ملأ الله جوفه إيماناً» تفرد به أحمد. طريق أخرى: قال الطبراني: حدثنا أحمد بن محمد البوزاني قاضي الحديثة من ديار ربيعة، حدثنا الحسين بن علي الصُدائي، حدثنا الحكم بن الجارود، حدثنا ابن أبي المنتد - خال ابن عيينة - عن أبيه، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنظر معسراً إلى مسيرته أنظره الله بذنبه إلى توبته». ثم قال تعالى يعظ عباده ويذكرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها، وإتيان الآخرة والرجوع إليه تعالى ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر، ويحذرهم عقوبته، فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ

فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تَوَفَّ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨٢﴾. وقد روي أن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن العظيم، فقال ابن لهيعة: حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير، قال: آخر ما نزل من القرآن كله: ﴿وَأَتَوْا يَوْمَ تُجْعَلُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تَوَفَّ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨٢﴾، وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال، ثم مات يوم الاثنين، لليلتين خلتا من ربيع الأول. رواه ابن أبي حاتم. وقد رواه ابن مَرْذُوقٍ من حديث المسعودي، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: آخر آية نزلت: ﴿وَأَتَوْا يَوْمَ تُجْعَلُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾. وقد رواه النسائي، من حديث يزيد النحوي، عن عكرمة، عن عبد الله بن عباس، قال: آخر شيء نزل من القرآن: ﴿وَأَتَوْا يَوْمَ تُجْعَلُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تَوَفَّ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨٢﴾. وكذا رواه الضحاك، والعمري، عن ابن عباس، وروى الثوري، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: آخر آية أنزلت: ﴿وَأَتَوْا يَوْمَ تُجْعَلُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، فكان بين نزولها وبين موت النبي ﷺ واحد وثلاثون يوماً. وقال ابن جريج: قال ابن عباس: آخر آية نزلت: ﴿وَأَتَوْا يَوْمَ تُجْعَلُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية. قال ابن جريج: يقولون: إن النبي ﷺ عاش بعدها تسع ليال، وبدى يوم السبت ومات يوم الاثنين، رواه ابن جرير. ورواه عطية عن أبي سعيد، قال: آخر آية أنزلت: ﴿وَأَتَوْا يَوْمَ تُجْعَلُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تَوَفَّ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨٢﴾.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَعْتُمْ بَيْنِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاصْبِرُوا وَاصْبِرُوا بِبَيْنِكُمْ كَائِبًا بِالْكَذِبِ وَلَا يَأْبُ كَائِبًا أَنْ يَكُذِبَ كَمَا عَلَّمَ اللَّهُ فَلْيَكُذِبْ وَلْيَكُذِبْ الَّذِينَ عَلَى اللَّهِ الْحَقُّ وَلْيَكُذِبْ مَنْ شَاءَ فَإِنْ كَانَ الَّذِينَ عَلَيْهِ الْحَقُّ سَيِّئًا أَوْ سَوِيًّا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُذِبَ هُوَ فَلْيَكُذِبْ وَلْيَكُذِبْ وَأَسْتَشْهِدُ شَهِيدَيْنِ مِنْ رِبَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَاضِينَ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِنْ الشَّهَدَةِ أَنْ تَكُذِبَ إِنْ حَدَّثْتُمَا مَقْصُورًا لَمْ نَحْمَدْهُمَا الْآخَرَيْنِ وَلَا يَأْبُ الشَّهَدَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَقْصُوا أَنْ تَكُذِبُوا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكَمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَدَةِ وَأَدَقُّ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَيْنَهُمَا حَبِيرَةٌ تُدْرِكُهُمَا بَيْنَكُمُ فَلْيَسَّ عَلَيْكُمُ جُنَاحُ آلَا تَكْذُوبُهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُنَاكَرُ كَائِبًا وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَأَتَوْا اللَّهَ وَرَبَّكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ يَكْفِي مَوَدَّةً عَلَيْهِ﴾ ﴿٢٨٢﴾.

هذه الآية الكريمة أطول آية في القرآن العظيم، وقد قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يونس، عن ابن شهاب قال، حدثني سعيد بن المسيب: أنه بلغه أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس أنه قال: لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ: «إن أول من جحد آدم، عليه السلام، أن الله لما خلق آدم، مسح ظهره فأخرج منه ما هو ذاريء إلى يوم القيامة، فجعل يعرض ذريته عليه، فرأى فيهم رجلاً يزهر، فقال: أي رب، من هذا؟ قال: هو ابنك داود. قال: أي رب، كم عمره؟ قال: ستون عاماً، قال: رب زدني عمره. قال: لا، إلا أن أزيد من عمرك. وكان عمر آدم ألف سنة، فزاده أربعين عاماً، فكتب عليه بذلك كتاباً وأشهد عليه الملائكة، فلما احتضر آدم وأتته الملائكة قال: إنه قد بقي من عمري أربعون عاماً، فقيل له: إنك قد وهبتها لابنك داود. قال: ما فعلت. فأبرز الله عليه الكتاب، وأشهد عليه الملائكة. وحدثنا أسود بن عامر، عن حماد بن سلمة، فذكره، وزاد فيه: «فأتتها الله لداود مائة، وأتمها لآدم ألف سنة». وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن يونس بن حبيب، عن أبي داود الطيالسي عن حماد بن سلمة به. هذا حديث غريب جداً، وعلي بن زيد بن جُدعان في أحاديثه نكارة. وقد رواه الحاكم في مستدركه بنحوه، من حديث الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة. ومن رواية داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن أبي هريرة. ومن طريق محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة. ومن حديث هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، فذكره بنحوه. فقله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَعْتُمْ بَيْنِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاصْبِرُوا وَاصْبِرُوا بِبَيْنِكُمْ كَائِبًا بِالْكَذِبِ وَلَا يَأْبُ كَائِبًا أَنْ يَكُذِبَ كَمَا عَلَّمَ اللَّهُ فَلْيَكُذِبْ وَلْيَكُذِبْ الَّذِينَ عَلَى اللَّهِ الْحَقُّ وَلْيَكُذِبْ مَنْ شَاءَ فَإِنْ كَانَ الَّذِينَ عَلَيْهِ الْحَقُّ سَيِّئًا أَوْ سَوِيًّا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُذِبَ هُوَ فَلْيَكُذِبْ وَلْيَكُذِبْ وَأَسْتَشْهِدُ شَهِيدَيْنِ مِنْ رِبَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَاضِينَ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِنْ الشَّهَدَةِ أَنْ تَكُذِبَ إِنْ حَدَّثْتُمَا مَقْصُورًا لَمْ نَحْمَدْهُمَا الْآخَرَيْنِ وَلَا يَأْبُ الشَّهَدَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَقْصُوا أَنْ تَكُذِبُوا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكَمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَدَةِ وَأَدَقُّ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾. وقال سفيان الثوري، عن ابن أبي نجيع عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَعْتُمْ بَيْنِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاصْبِرُوا وَاصْبِرُوا بِبَيْنِكُمْ كَائِبًا بِالْكَذِبِ وَلَا يَأْبُ كَائِبًا أَنْ يَكُذِبَ كَمَا عَلَّمَ اللَّهُ فَلْيَكُذِبْ وَلْيَكُذِبْ الَّذِينَ عَلَى اللَّهِ الْحَقُّ وَلْيَكُذِبْ مَنْ شَاءَ فَإِنْ كَانَ الَّذِينَ عَلَيْهِ الْحَقُّ سَيِّئًا أَوْ سَوِيًّا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُذِبَ هُوَ فَلْيَكُذِبْ وَلْيَكُذِبْ وَأَسْتَشْهِدُ شَهِيدَيْنِ مِنْ رِبَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَاضِينَ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِنْ الشَّهَدَةِ أَنْ تَكُذِبَ إِنْ حَدَّثْتُمَا مَقْصُورًا لَمْ نَحْمَدْهُمَا الْآخَرَيْنِ وَلَا يَأْبُ الشَّهَدَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَقْصُوا أَنْ تَكُذِبُوا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكَمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَدَةِ وَأَدَقُّ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾. قال: أنزلت في السُّلَمِ إلى أجل معلوم. وقال قتادة، عن أبي حسان الأعرج، عن ابن عباس، قال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أحله وأذن فيه، ثم قرأ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَعْتُمْ بَيْنِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاصْبِرُوا وَاصْبِرُوا بِبَيْنِكُمْ كَائِبًا بِالْكَذِبِ وَلَا يَأْبُ كَائِبًا أَنْ يَكُذِبَ كَمَا عَلَّمَ اللَّهُ فَلْيَكُذِبْ وَلْيَكُذِبْ الَّذِينَ عَلَى اللَّهِ الْحَقُّ وَلْيَكُذِبْ مَنْ شَاءَ فَإِنْ كَانَ الَّذِينَ عَلَيْهِ الْحَقُّ سَيِّئًا أَوْ سَوِيًّا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُذِبَ هُوَ فَلْيَكُذِبْ وَلْيَكُذِبْ وَأَسْتَشْهِدُ شَهِيدَيْنِ مِنْ رِبَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَاضِينَ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِنْ الشَّهَدَةِ أَنْ تَكُذِبَ إِنْ حَدَّثْتُمَا مَقْصُورًا لَمْ نَحْمَدْهُمَا الْآخَرَيْنِ وَلَا يَأْبُ الشَّهَدَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَقْصُوا أَنْ تَكُذِبُوا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكَمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَدَةِ وَأَدَقُّ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾. وثبت في الصحيحين من رواية سفيان بن عيينة، عن ابن أبي نجيع، عن عبد الله بن كثير، عن أبي المنهال، عن ابن عباس، قال: قدم النبي ﷺ المدينة وهم يُسَلِّفُونَ في الثمار الستين والثلاث، فقال رسول الله ﷺ: «من أسلف فليسلف في كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم».

وقوله: ﴿فَاصْبِرُوا﴾: أمر منه تعالى بالكتابة والحالة هذه للثبوت والحفظ، فإن قيل: فقد ثبت في الصحيحين، عن عبد الله بن

عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»، فما الجمع بينه وبين الأمر بالكتابة؟ فالجواب: أن الذين من حيث هو غير مفتقر إلى كتابة أصلاً؛ لأن كتاب الله قد سهل الله ويسر حفظه على الناس، والسنن أيضاً محفوظة عن رسول الله ﷺ، والذي أمر بكتابه إنما هو أشياء جزئية تقع بين الناس، فأمرُوا أمر إرشاد لا أمر إيجاب، كما ذهب إليه بعضهم. قال ابن جريج: من أذن فليكتب، ومن ابتاع فليشهد. وقال قتادة: ذكر لنا أن أبا سليمان المرعشي، كان رجلاً صاحب كعباً، فقال ذات يوم لأصحابه: هل تعلمون مظلوماً دعا ربه فلم يستجب له؟ فقالوا: وكيف يكون ذلك قال: رجل باع بيعاً إلى أجل فلم يشهد ولم يكتب، فلما حل ماله جحده صاحبه، فدعا ربه فلم يستجب له؛ لأنه قد عصى ربه. وقال أبو سعيد، والشعبي، والربيع بن أنس، والحسن، وابن جريج، وابن زيد، وغيرهم: كان ذلك واجباً ثم نسخ بقوله: ﴿إِنْ آمَنَ بِكُمْ بَعْضُ قُلُوبِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾. قال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا ليث، عن جعفر بن ربيعة، عن عبد الرحمن بن هُرْمُز، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه ذكر «أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: انتني بشهداء أشهدهم. قال: كفى بالله شهيداً. قال: انتني بكفيل. قال: كفى بالله كفيلاً. قال: صدقت. فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقصى حاجته، ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها، ثم رَجَعَ موضعها، ثم أتى بها البحر، ثم قال: اللهم إنك قد علمت أنني استسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً، فقلت: كفى بالله كفيلاً. فرضي بذلك، وسألني شهيداً، فقلت: كفى بالله شهيداً. فرضي بذلك، وإنني استودعْتُكها. فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف، وهو في ذلك يطلب مركباً إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً تجتبه بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله خطباً فلما كسرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الرجل الذي كان تسلف منه، فأثابه بألف دينار وقال: والله ما زلت جاهدك في طلب مركب لأتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذي آتيت فيه. قال: هل كنت بعثت إلي بشيء؟ قال: ألم أخبرك أنني لم أجد مركباً قبل هذا الذي جئت فيه؟ قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة، فانصرف بألفك راشداً. وهذا إسناد صحيح، وقد رواه البخاري في سبعة مواضع من طرق صحيحة معلقاً بصيغة الجزم، فقال: وقال الليث بن سعد، فذكره. ويقال: إنه رواه في بعضها عن عبد الله بن صالح كاتب الليث، عنه.

وقوله: ﴿وَلْيَكُتِبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ أي: بالقسط والحق، ولا يُجَزَّ في كتابته على أحد، ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان. وقوله: ﴿وَلَا يَأْتِ كَاتِبٌ أَنْ يَكُتِبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَيَكُتِبْ﴾ أي: ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سُئِلَ أن يكتب للناس، ولا ضرورة عليه في ذلك، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم، فليصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب، كما جاء في الحديث: «إن من الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لأخرق». وفي الحديث الآخر: «من كتب علماً يعلِّمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار». وقال مجاهد وعطاء: واجب على الكاتب أن يكتب. وقوله: ﴿وَلْيُكَلِّبِ اللَّهُ عَلَى الْقَلْبِ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبُّهُ﴾ أي: وليملل المدين على الكاتب ما في ذمته من الدين، وليتق الله في ذلك، ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ أي: لا يكتس منه شيئاً، ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ عَلَى الْقَلْبِ سَبِيحاً﴾ محجوراً عليه بتبذير ونحوه، ﴿أَوْ ضَمِيقاً﴾ أي: صغيراً أو مجنوناً ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُكَلِّبَ هُوَ﴾ إما لعي أو جهل بموضع صواب ذلك من خطئه. ﴿فَلْيُكَلِّبْ وَلْيُكَلِّبْ بِالْعَدْلِ﴾. وقوله: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، أمر بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثيق، ﴿إِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾، وهذا إنما يكون في الأموال وما يقصد به المال، وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة، كما قال مسلم في صحيحه: حدثنا قتيبة، حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن عمرو بن أبي عمرو، عن المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «يا معشر النساء، تصدقن وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار»، فقالت امرأة منهن جزلة: وما لنا - يا رسول الله - أكثر أهل النار؟ قال: «تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لدي ليُب منكن». قالت: يا رسول الله، ما نقصان العقل والدين؟ قال: «أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تُعَدُّ لشهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي لا تصلي، وتغتر في رمضان، فهذا نقصان الدين». وقوله: ﴿وَمَنْ رَمَوْا مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾: فيه دلة على اشتراط العدالة في الشهود، وهذا مقيد، حكم به الشافعي على كل مطلق في القرآن، من الأمر بالإشهاد من غير اشتراط. وقد استدل من رد المستور بهذه الآية الدالة على أن يكون الشاهد عدلاً مرضياً. وقوله: ﴿أَنْ تَبْلُغَ إِحْدَهُمَا﴾ يعني: المرأتين إذا نسيت الشهادة ﴿فَتَذَكَّرْ إِحْدَهُمَا الْأُخْرَى﴾ أي: يحصل لها ذكرى بما وقع به الإشهاد، ولهذا قرأ آخرون: ﴿فَتَذَكَّرْ﴾ بالتشديد من التذكار. ومن قال: إن شهادتها معها تجعلها كشهادة ذكر فقد أبعد، والصحيح الأول، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾: قيل: معناه: إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة، وهو قول قتادة والربيع بن أنس. وهذا كقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾، ومن ههنا استفيد أن تحمّل الشهادة فرض كفاية. وقيل - وهو مذهب الجمهور -: المراد بقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ للاداء، لحقيقة قوله: ﴿الشُّهَدَاءُ﴾، والشاهد حقيقة فيمن تحمّل، فإذا دعي لأدائها فعليه الإجابة إذا تعينت وإلا فهو فرض كفاية، والله أعلم. وقال مجاهد وأبو مجلز، وغير واحد: إذا دعيت لشهد فأنت بالخيار، وإذا شهدت فدعيت فاجب. وقد ثبت في صحيح مسلم والسنن، من طريق مالك، عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو بن عثمان، عن عبد الرحمن بن أبي عَمْرَةَ، عن زيد بن خالد: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها». فأما الحديث الآخر في الصحيحين: «ألا أخبركم بشر الشهداء؟ الذين يشهدون قبل أن يُستشهدوا»، وكذا قوله: «ثم يأتي قوم تسبق إيمانهم شهادتهم وتسبق شهادتهم إيمانهم». وفي رواية: «ثم يأتي قوم يشهدون ولا يستشهدون». فهؤلاء شهود الزور. وقد روي عن ابن عباس والحسن البصري: أنها تعم الحالين: التحمل والاداء. وقوله: ﴿وَلَا تَقْمَرُوا أَنْ تَكْتُبُوا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَهَ أَجَلٍ﴾: هذا من تمام الإرشاد، وهو الأمر بكتابة الحق صغيراً كان أو كبيراً، فقال: ﴿وَلَا تَقْمَرُوا﴾ أي: لا تملوا أن تكتبوا الحق على أي حال كان من القلة والكثرة ﴿إِلَهَ أَجَلٍ﴾. وقوله: ﴿ذَلِكَمُ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَدَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ أي: هذا الذي أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان موجلاً هو ﴿أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: أعدل ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَدَةِ﴾ أي: أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة، لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه، كما هو الواقع غالباً ﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾: وأقرب إلى عدم الريبة، بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه، فيفصل بينكم بلا ريبة. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَيْنَكُمْ بِلَا رِيْبَةٍ حَاضِرَةٌ تُذِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أي: إذا كان البيع بالحاضر يدا بيد، فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور في تركها. فأما الإشهاد على البيع، فقد قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثني يحيى بن عبد الله بن بُكَيْرٍ، حدثني ابن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير في قول الله: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ يعني: أشهدوا على حقكم إذا كان فيه أجل أو لم يكن، فأشهدوا على حقكم على كل حال. قال: وروي عن جابر بن زيد، ومجاهد، وعطاء، والضحاك، نحو ذلك.

وقال الشعبي والحسن: هذا الأمر منسوخ بقوله: ﴿فَإِنْ أَيْنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَيِّرِ الْآذَىٰ أَوْ لْيُؤَيِّنْ آمَنَتَهُ﴾. وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب، لا على الوجوب. والدليل على ذلك حديث خزيمة بن ثابت الأنصاري، وقد رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري، حدثني عَمَارَةُ بن خزيمة الأنصاري، أن عمه حدثه - وهو من أصحاب النبي ﷺ - أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي، فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبي ﷺ وأبطأ الأعرابي، فطلق رجال يعترضون الأعرابي فيسأله بالفرس، ولا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبي ﷺ، فنادى الأعرابي النبي ﷺ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعته، وإلا بعته، فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي، قال: «أوليس قد ابتعته منك؟» قال الأعرابي: لا، والله ما بعته. فقال النبي ﷺ: «بل قد ابتعته منك». فطلق الناس يلودون بالنبي ﷺ والأعرابي وهما يتراجعان، فطلق الأعرابي يقول: هَلُمَّ شهيداً يشهد أنني بايعتك. فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك! إن النبي ﷺ لم يكن يقول إلا حقاً. حتى جاء خزيمة، فاستمع لمراجعة النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي يقول: هَلُمَّ شهيداً يشهد أنني بايعتك. قال خزيمة: أن أشهد أنك قد بايعته. فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال: «بم تشهد؟» قال: بتصديقك يا رسول الله. فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين. وهكذا رواه أبو داود من حديث شعيب، والنسائي من رواية محمد بن الوليد الزبيدي، كلاهما عن الزهري، به نحوه. ولكن الاحتياط هو الإشهاد، لما رواه الإمامان الحافظ أبو بكر بن مَرْزُوقٍ والحاكم في مستدركه من رواية معاذ بن معاذ العنبري، عن شعبة، عن فراس، عن الشعبي، عن أبي بُرْزَةَ، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم: رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل دفع مال يتيم قبل أن يبلغ، ورجل أقرض رجلاً مالا فلم يُشْهَد» ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط الشيخين، قال: ولم يخرجاه، لتوقيف أصحاب شعبة هذا الحديث على أبي موسى، وإنما أجمعوا على سند حديث شعبة بهذا الإسناد: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين». وقوله: ﴿وَلَا يَضْرَكُ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾: قيل: معناه: لا يضار الكاتب ولا الشاهد، فيكتب هذا خلاف ما يملئ، ويشهد هذا بخلاف ما سمع أو يكتبها بالكلية، وهو قول الحسن وقاتة وغيرهما. وقيل: معناه لا يضر بهما، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أسيد بن عاصم، حدثنا الحسين - يعني ابن حفص - حدثنا سفيان، عن

يزيد بن أبي زياد، عن مفسم، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿وَلَا يَصَارُ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ قال: يأتي الرجل فيدعوهما إلى الكتاب والشهادة، فيقولان: إنا على حاجة فيقول: إنكما قد أمرتما أن تجيبا. فليس له أن يضارهما. ثم قال: وروي عن عكرمة، ومجاهد، وطاوس، وسعيد بن جبير، والضحاك، وعطية، ومقاتل بن حيان، والربيع بن أنس، والسدي، نحو ذلك. وقوله: ﴿لَنْ تَعْمَلُوا فِيهَا شَيْئًا شَوْفًا يَكُمُ﴾ أي: إن خالفتم ما أمرتم به، وفعلتم ما نهيتكم عنه، فإنه فسق كائن بكم، أي: لازم لكم لا تحيدون عنه ولا تنفكون منه. وقوله: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ أي: خافوه وراقبوه، واتبعوا أمره واتركوا زجره، ﴿وَيُكَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ كقوله: ﴿يُنَادِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَشْقُوا اللَّهُ بِمَعْلَلِكُمْ قُرْآنًا﴾ [الأنفال: ٢٢٩]، وكقوله: ﴿يُنَادِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ فَمَا بُعِدُوا﴾ [سورة البقرة: ٢٨٣]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ شَيْءًا عَلَيْهِ﴾ أي: هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء، بل علمه محيط بجميع الكائنات.

﴿وَلَنْ كُنْتُمْ عَلَى سَعَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَةً فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتِيَوا كَيْفَ اؤْتِيتُمْ وَلِئِنْ كُنْتُمْ اَلْمُشْكِكَةُ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَلَئِنَّ يَوْمًا قَلْبُهُ عَلَى اللَّهِ يَكْفُرُ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٣].

يقول تعالى: ﴿لَنْ كُنْتُمْ عَلَى سَعَرٍ﴾ أي: مسافرين وتداينتكم إلى أجل مسمى ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ يكتب لكم. قال ابن عباس: أو وجدوه ولم يجد قرطاساً أو دواة أو قلماً فَرِهْنَ مَقْبُوضَةً، أي: فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة في يد صاحب الحق. وقد استدل بقوله: ﴿فَرِهْنَ مَقْبُوضَةً﴾، على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض، كما هو مذهب الشافعي والجمهور، واستدل بها آخرون على أنه لا بد أن يكون الرهن مقبوضاً في يد المرتهن، وهو رواية عن الإمام أحمد، وذهب إليه طائفة. واستدل آخرون من السلف بهذه الآية على أنه لا يكون الرهن مشروعاً إلا في السفر، قاله مجاهد وغيره. وقد ثبت في الصحيحين، عن أنس، أن رسول الله ﷺ ثَوَّقَ يَدْرَعَهُ مَرْهُونَةً عِنْدَ يَهُودِيٍّ عَلَى ثَلَاثِينَ وَسْقًا مِنْ شَعِيرٍ، رهنها قوتاً لأهله. وفي رواية: من يهود المدينة. وفي رواية الشافعي: عند أبي الشحم اليهودي. وتقرير هذه المسائل في كتاب «الأحكام الكبير»، والله الحمد والمنة، وبه المستعان. وقوله: ﴿فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتِيَوا كَيْفَ اؤْتِيتُمْ﴾، روى ابن أبي حاتم بإسناد جيد، عن أبي سعيد الخدري أنه قال: هذه نسخت ما قبلها. وقال الشعبي: إذا اتهم بعضكم بعضاً فلا بأس ألا تكتبوا أو لا تشهدوا. وقوله: ﴿وَلِئِنْ كُنْتُمْ اَلْمُشْكِكَةُ﴾ يعني: المؤمن، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن، من رواية قتادة، عن الحسن، عن سمره: أن رسول الله ﷺ قال: «على اليد ما أخذت حتى تؤديه». وقوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا اَلْمُشْكِكَةَ﴾ أي: لا تخفوها وتغلوها ولا تظهروها. قال ابن عباس وغيره: شهادة الزور من أكبر الكبائر، وكتمانها كذلك. ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَلَئِنَّ يَوْمًا قَلْبُهُ عَلَى اللَّهِ يَكْفُرُ﴾ يعني فاجر قلبه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا شَهَادَةَ اللَّهِ إِذَا لَيْتُمُ الْآيَاتِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿يُنَادِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَّوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، وهكذا قال ههنا: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا اَلْمُشْكِكَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَلَئِنَّ يَوْمًا قَلْبُهُ عَلَى اللَّهِ يَكْفُرُ﴾.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوا بِحَسَابِكُمْ إِلَى اللَّهِ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٣].

يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه المطلع على ما فيهن، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر، وإن دقت وخفيت، وأخبر أنه سبحانه عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم كما قال: ﴿قُلْ إِنْ تُحِبُّوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوا بِمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ وَبِمَا فِي أَنْفُسِكُمْ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٢٩]، وقال: ﴿يَعْلَمُ الْغُيُوبَ﴾ [الح: ٧]، والآيات في ذلك كثيرة جداً، وقد أخبر في هذه بمزيد على العلم، وهو: المحاسبة على ذلك، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة، رضي الله عنهم، وخافوا منها، ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم. قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الرحيم بن إبراهيم، حدثني أبو عبد الرحمن - يعني العلاء - عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوا بِحَسَابِكُمْ إِلَى اللَّهِ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٣]، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزل عليك هذه الآية ولا نطيعها. فقال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير». فلما أقر بها القوم وذلت بها

أستتهم، أنزل الله في أثرها: ﴿ءَامَنَ الرُّسُلُ بِمَا أَنزَلَ إِلَهُ مِنْ رَبِّهِمْ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَرِفُوا بَيْنَ يَدَيْهِ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٣﴾﴾. فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل: ﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْمَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، إلى آخره. ورواه مسلم منفرداً به، من حديث يزيد بن زريع، عن روح بن القاسم، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، فذكر مثله، ولفظه: «فلما فعلوا ذلك نسخها الله، فأنزل: ﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْمَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: نعم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلُنَا﴾ قال: نعم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: نعم، ﴿وَاغْفِرْ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: نعم. حديث ابن عباس في ذلك: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن آدم بن سليمان، سمعت سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنْ تُبْذُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَعُّوهُ يُعَاسِبَكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء، قال: فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: سمعنا وأطعنا وسألنا». فالتقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله: ﴿ءَامَنَ الرُّسُلُ بِمَا أَنزَلَ إِلَهُ مِنْ رَبِّهِمْ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَرِفُوا بَيْنَ يَدَيْهِ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٣﴾﴾، إلى قوله: ﴿فَاصْبِرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. وهكذا رواه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، وأبي كريب، وإسحاق بن إبراهيم، ثلاثتهم عن وكيع، به، وزاد ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: قد فعلت، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلُنَا﴾ قال: قد فعلت، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: قد فعلت ﴿وَاغْفِرْ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا﴾ قال: قد فعلت.

طريق أخرى عن ابن عباس: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَرُ، عن حميد الأعرج، عن مجاهد، قال: دخلت على ابن عباس فقلت: يا أبا عباس، كنت عند ابن عمر فقراً هذه الآية فيكي. قال: آية آية؟ قلت: ﴿وَإِنْ تُبْذُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَعُّوهُ﴾. قال ابن عباس: إن هذه الآية حين أنزلت غَمَّتْ أصحاب رسول الله ﷺ غمّاً شديداً، وغازتهم غيظاً شديداً، يعني، وقالوا: يا رسول الله، هلكنّا، إن كنا نؤاخذ بما تكلمنا وبما نعمل، فاما قلوبنا فليست بأيدينا، فقال: لهم رسول الله ﷺ: «قولوا: سمعنا وأطعنا». قالوا: سمعنا وأطعنا. قال: فنسخها هذه الآية: ﴿ءَامَنَ الرُّسُلُ بِمَا أَنزَلَ إِلَهُ مِنْ رَبِّهِمْ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ إلى ﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْمَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾، فتجاوز لهم عن حديث النفس وأخذوا بالأعمال. طريق أخرى عنه: قال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، وأخبرني يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، عن سعيد بن مَرْجَانة، سمعه يحدث أنه بينما هو جالس مع عبد الله بن عمر تلا هذه الآية: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْذُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَعُّوهُ يُعَاسِبَكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَمْحُورَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الآية. فقال: والله لئن وادخنا الله بهذا لنهلكن، ثم بكى ابن عمر حتى سُمِعَ نَشِيجه. قال ابن مَرْجَانة: فقممت حتى أتيت ابن عباس، فذكرت له ما قال ابن عمر، وما فعل حين تلاها، فقال عبد الله بن عباس: يغفر الله لأبي عبد الرحمن. لَعَنَرِي لَقَدْ وَجَدَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهَا حِينَ أَنْزَلَتْ مِثْلَ مَا وَجَدَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، فأنزل الله بعدها: ﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْمَهَا﴾ إلى آخر السورة، قال ابن عباس: فكانت هذه الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين بها، وصار الأمر إلى أن قضى الله، ﷻ، أن للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت في القول والفعل. طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا يزيد بن هارون، عن سفيان بن حسين، عن الزهري، عن سالم: أن أباة قرأ: ﴿وَإِنْ تُبْذُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَعُّوهُ يُعَاسِبَكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ فدمعت عيناه، فبلغ صنيعة ابن عباس، فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن، لقد صنع كما صنع أصحاب رسول الله ﷺ حين أنزلت، فنسختها الآية التي بعدها: ﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْمَهَا﴾. فهذه طرق صحيحة عن ابن عباس، وقد ثبت عن ابن عمر كما ثبت عن ابن عباس. قال البخاري: حدثنا إسحاق، حدثنا روح، حدثنا شعبة، عن خالد الحذاء، عن مَرْوَانَ الْأَصْفَرِ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ - أحسبه ابن عمر - ﴿وَإِنْ تُبْذُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَعُّوهُ﴾ قال نسختها الآية التي بعدها. وهكذا رُوِيَ عن علي، وابن مسعود، وكعب الأحبار، والشعبي، والنخعي، ومحمد بن كعب القُرَظِي، وعكرمة، وسعيد بن جُبَيْر، وقتادة: أنها منسوخة بالتالي بعدها. وقد ثبت بما رواه الجماعة في كتبهم الستة من طريق قتادة، عن زرارة بن أوفى، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تكلم أو تعمل». وفي الصحيحين، من

حديث سفيان بن عُيينة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشرًا». لفظ مسلم، وهو في أفراد من طريق إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: إذا هم عبدي بحسنة ولم يعملها كتبها له حسنة، فإن عملها كتبها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإذا هم بسيئة فلم يعملها لم أكتبها عليه، فإن عملها كتبها سيئة واحدة». وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن هَمَام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة، عن محمد رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة، فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعمل، فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها». وقال رسول الله ﷺ: «قالت الملائكة: رب، وإن عبدك يريد أن يعمل سيئة - وهو أبصر به - فقال: ارقبوه، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، وإنما تركها من جراي». وقال رسول الله ﷺ: «إذا أحسن أحد إسلامه، فكل حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وكل سيئة تكتب بمثلها حتى يلقي الله ﷻ». تفرد به مسلم عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق بهذا السياق واللفظ، وبعضه في صحيح البخاري. وقال مسلم أيضاً: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن هشام، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من هم بحسنة فلم يعملها كتب له حسنة، ومن هم بحسنة فعملها كتب له عشرًا إلى سبعمائة ضعف، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب، وإن عملها كُتِبَتْ». تفرد به مسلم دون غيره من أصحاب الكتب. وقال مسلم: حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا عبد الوارث، عن الجعد أبي عثمان، حدثنا أبو رجاء العطاردي، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه تعالى قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة. وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة».

ثم رواه مسلم، عن يحيى بن يحيى، عن جعفر بن سليمان، عن الجعد أبي عثمان في هذا الإسناد بمعنى حديث عبد الوارث، وزاد: «ومحأها الله، ولا يهلك على الله إلا هالك». وفي حديث سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم. قال: «ذاك صريح الإيمان». لفظ مسلم، وهو عند مسلم أيضاً من طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، به. وروى مسلم أيضاً من حديث مغيرة، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله، قال: سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة، قال: «تلك صريح الإيمان». وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «وَلَا تَبْذُؤْ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ» فإنها لم تُنسخ، ولكن الله إذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول: إني أخبركم بما أخفيتم في أنفسكم، مما لم يطلع عليه ملائكتي، فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم، وهو قوله: «يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ»، يقول: يخبركم، وأما أهل الشك والريب فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب وهو وقوله: «فَيَقْبِضُوا مِنْ يَمَنِكَ وَيَجْلَبُونَ مِنْ يَمَنِكَ»، وقوله: «وَلَكِنْ يَوَازِيهِمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُهُمْ» [البقرة: ٢٢٥] أي: من الشك والنفاق. وقد روى العوفي والضحاك عنه قريباً من هذا. وروى ابن جرير، عن مجاهد والضحاك، نحوه. وعن الحسن البصري أنه قال: هي مُحْكَمَةٌ لم تنسخ. واختار ابن جرير ذلك، واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة، وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر، وقد يحاسب ويعاقب بالحديث الذي رواه عند هذه الآية، قائلًا: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبي عدي، عن سعيد وهشام، (ج) وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُليَّة، حدثنا هشام، قالا جميعاً في حديثهما: عن قتادة، عن صفوان بن مُحرز، قال: بينا نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر، وهو يطوف، إذ عرض له رجل فقال: يا ابن عمر، ما سمعت رسول الله ﷺ يقول في التجوى؟ فقال: سمعت نبي الله ﷺ يقول: «يدنو المؤمن من ربه، حتى يضع عليه كتفه، فيقرره بذنوبه فيقول: هل تعرف كذا؟ فيقول: رب أغرف - مرتين - حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم». قال: «فيعطى صحيفة حسنته - أو كتابه - يمينه، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الأشهاد: «هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى

رَبِّهِمْ أَلَّا لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ» [مرد: ١٨]. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وغيرهما من طرق متعددة، عن قتادة، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أمية قالت: سألت عائشة عن هذه الآية: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُعَاقِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ فقالت: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ عنها فقال: «هذه مبايعة الله العبد، وما يصيبه من الحمى، واللكبة، والبضاعة يضعها في يد كفه، فيفقددها فيفزع لها، ثم يجدها في ضيقه، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكبر». وكذا رواه الترمذي، وابن جرير من طريق حماد بن سلمة، به. وقال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من حديثه. قلت: وشيخه علي بن زيد بن جُدعان ضعيف، يغرب في رواياته، وهو يروي هذا الحديث عن امرأة أبيه: أم محمد أمية بنت عبد الله، عن عائشة، وليس لها عنها في الكتب سواء.

﴿إِنَّمَا الرُّسُلُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنَ رَبِّهِ. وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ. لَا تَفَرُّقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ كُنَّا غَافِلِينَ أَوْ أَخْلَقْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

ذكر الأحاديث الواردة

في فضل هاتين الآيتين الكريمتين نفعا الله بهما

الحديث الأول: قال البخاري: حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا شعبة، عن سليمان، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن، عن أبي مسعود، عن النبي ﷺ قال: «من قرأ بالآيتين»، وحدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن أبي مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كَفَتْها». وقد أخرجه بقية الجماعة من طريق سليمان بن مهران الأعمش، بإسناده، مثله. وهو في الصحيحين من طريق الثوري، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن، عنه، به. وهو في الصحيحين أيضاً عن عبد الرحمن، عن علقمة عن أبي مسعود. قال عبد الرحمن: ثم لقيت أبا مسعود، فحدثني به. وهكذا رواه أحمد بن حنبل: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا شريك، عن عاصم. عن المسيب بن رافع، عن علقمة، عن أبي مسعود، عن النبي ﷺ، قال: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كَفَتْها».

الحديث الثاني: قال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا شيبان، عن منصور، عن ربعي، عن خُرشة بن الحُر، عن المعمر بن سويد، عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش، لم يعطهن نبي قبلي». وقد رواه ابن مردويه، من حديث الأشجعي، عن الثوري، عن منصور، عن ربعي، عن زيد بن طَبَّان، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش».

الحديث الثالث: قال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو أسامة، حدثنا مالك بن مغول (ح) وحدثنا ابن نعيم، وزهير بن حرب جميعاً، عن عبد الله بن نعيم - وألفاظهم متقاربة - قال ابن نعيم: حدثنا أبي، حدثنا مالك بن مغول، عن الزبير بن عدي، عن طلحة، عن مرة، عن عبد الله، قال: لما أُسْرِيَ برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدة المنتهى، وهي في السماء السادسة إليها ينتهي ما يُفْرَجُ به من الأرض فَيُقْبَضُ منها، وإليها ينتهي ما يُهْبَطُ به من فوقها فَيُقْبَضُ منها، قال: ﴿إِذْ يَنْتَقِلُ الْيَدْرُ مَا يَنْتَقِلُ﴾ [النجم: ١٦]، قال: فزأش من ذهب. قال: وأعطى رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطيت الصلوات الخمس، وأعطيت خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المَقْضَمَات.

الحديث الرابع: قال أحمد: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الرازي، حدثنا سلمة بن الفضل، حدثني محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبي حبيب، عن مَرْثَد بن عبد الله اليزني، عن عتبة بن عامر الجهني قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فإني أعطيهما من تحت العرش». هذا إسناده حسن، ولم يخرجوه في كتبهم.

الحديث الخامس: قال ابن مَرْثُويه: حدثنا أحمد بن كامل، حدثنا إبراهيم بن إسحاق الحربي، أخبرنا مُسَدَّد أخبرنا أبو عوانة، عن أبي مالك، عن ربعي، عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث، أوتيت هؤلاء الآيات من آخر سورة البقرة من بيت كنز تحت العرش، لم يعطها أحد قبلي، ولا يعطاها أحد بعدي». ثم رواه من

حديث نعيم بن أبي هند، عن ربعي، عن حذيفة، بنحوه.

الحديث السادس: قال ابن مردويه: حدثنا عبد الباقي بن قانع، أنبأنا إسماعيل بن الفضل، أخبرنا محمد بن حاتم بن بزيع، أخبرنا جعفر بن عون، عن مالك بن مغول، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي قال: لا أرى أحداً عقيل الإسلام ينالم حتى يقرأ خواتيم سورة البقرة، فإنها كنز أعطيه نبيكم ﷺ من تحت العرش. ورواه وكيع عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمير بن عمرو الخارفي، عن علي قال: ما أرى أحداً يعقل، بلغه الإسلام، ينالم حتى يقرأ آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة، فإنها من كنز تحت العرش.

الحديث السابع: قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا بُذَار، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا حماد بن سلمة، عن أشعث بن عبد الرحمن الحزمي، عن أبي قلابة، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن النعمان بن بشير، عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان». ثم قال: هذا حديث غريب. وهكذا رواه الحاكم في مستدركه من حديث حماد بن سلمة به، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

الحديث الثامن: قال ابن مردويه: حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن مدين، أخبرنا الحسن بن الجهم، أخبرنا إسماعيل بن عمرو، أخبرنا ابن أبي مريم، حدثني يوسف بن أبي الحجاج، عن سعيد، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ آخر سورة البقرة وآية الكرسي ضحك، وقال: «إنهما من كنز الرحمن تحت العرش». وإذا قرأ: «مَنْ يَحْمِلْ سَوْءًا يُحْمَرْ بِهِ» [النساء: ١٢٣]، «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى» [١٢٤] «وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى» [١٢٥] «ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الَّذِي كَسَبَ» [النجم: ٣٩-٤١]، استرجع واستكان.

الحديث التاسع: قال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن محمد بن كوفي، حدثنا أحمد بن يحيى بن حمزة، حدثنا محمد بن بكر، حدثنا مكى بن إبراهيم، حدثنا عبد الله بن أبي حميد، عن أبي مليح، عن معقل بن يسار، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش، والمفصل نافلة».

الحديث العاشر: قد تقدم في فضائل الفاتحة، من رواية عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل، إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما أفتح قط. قال: فنزل منه ملك، فأتى النبي ﷺ فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته، رواه مسلم والنسائي، وهذا لفظه.

الحديث الحادي عشر: قال أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي في مسنده: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثنا أبيع بن عبد الله الكلاعي قال: قال رجل: يا رسول الله، أي آية في كتاب الله أعظم؟ قال: «آية الكرسي: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» قال: فأى آية في كتاب الله تحب أن تصيبك وأمنك؟ قال: «آخر سورة البقرة، ولم يترك خيراً في الدنيا والآخرة إلا اشتملت عليه».

فقوله تعالى: «وَأَمَّا الرُّسُلُ يَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ». إخبار عن النبي ﷺ بذلك. قال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة، قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «ويحق له أن يؤمن». وقد روى الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو النضر الفقيه، حدثنا معاذ بن نجدة القرشي، حدثنا خلاد بن يحيى، حدثنا أبو عقيل، عن يحيى بن أبي كثير، عن أنس بن مالك، قال: لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ «وَأَمَّا الرُّسُلُ يَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ». قال النبي ﷺ «حق له أن يؤمن». ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقوله: «وَالْمُؤْمِنُونَ» عطف على «الرُّسُلُ» ثم أخبر عن الجميع فقال: «كُلُّ عَامِلٍ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ يَتَّخِذُونَ أَحِبَّ مِنْ رُسُلِهِ». فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، ولا رب سواه. ويصدقون بجميع الأنبياء والرسول والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله، حتى نسخ الجميع بشرع محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين. وقوله: «وَكَاوُوا سَمَئًا وَآلَمَنَّا» أي: سمعنا قولك يا ربنا، وفهمناه،

وقمنا به، وامثلنا العمل بمقتضاه، ﴿عُذْرَانِكَ رَبَّنَا﴾ سؤال للغفر والرحمة واللفظ. قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا ابن فضيل، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قول الله: ﴿إِنَّمَا أَرْسَلْنَا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، إلى قوله: ﴿عُذْرَانِكَ رَبَّنَا﴾ قال: قد غفرت لكم، ﴿وَالَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي: إليك المرجع والمآب يوم يقوم الحساب. قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن بيان، عن حكيم بن جابر قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَرْسَلْنَا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتِبَ لَهُمْ سُبُحَاتُهَا لَا تَقْرَأُ بِهَا أَحَدٌ مِنْ رُسُلِهِ وَكَانُوا سَوَاءً﴾ وألفعتا عُذْرَانِكَ رَبَّنَا وَالَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ قال جبريل: إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك، فسل ثغطه. فقال: ﴿لَا يَكْفُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَشَمَهَا﴾ إلى آخر الآية. وقوله: ﴿لَا يَكْفُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَشَمَهَا﴾ أي: لا يكلف أحداً فوق طاقته، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم، وهذه هي الناسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة، في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مَا فِي أَفْهَامِكُمْ أَوْ تَخَفُوا يُعَاسِبَكُمْ يَوْمَ اللَّهِ﴾ أي: هو وإن حاسب وسأل لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه، فاما ما لا يمكن دفعه من وسوسة النفس وحديثها، فهذا لا يكلف به الإنسان، وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان. وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي: من خير، ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ أي: من شر، وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف، ثم قال تعالى مرشداً عباده إلى سؤاله، وقد تكفل لهم بالإجابة، كما أرشدهم وعلمهم أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا﴾ أي: إن تركنا فرضاً على جهة النسيان، أو فعلنا حراماً كذلك، ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي: الصواب في العمل، جهلاً منا بوجهه الشرعي. وقد تقدم في صحيح مسلم لحديث أبي هريرة: «قال الله: نعم» ولحديث ابن عباس: «قال الله: قد فعلت». وروى ابن ماجة في سننه، وابن حبان في صحيحه، من حديث أبي عمرو الأزاعي، عن عطاء - قال ابن ماجة في روايته: عن ابن عباس. وقال الطبراني وابن حبان: عن عطاء، عن عبيد بن غمير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه». وقد روي من طرق أخر وأعله أحمد وأبو حاتم، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا أبو بكر الهذلي، عن شهر، عن أم الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «إن الله تجاوز لأمتي عن ثلاث: عن الخطأ، والنسيان، والاستكراه» قال أبو بكر: فذكرت ذلك للحسن، فقال: أجل، أما تقرأ بذلك قرأنا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ أي: لا تكلفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها، كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والأصبار التي كانت عليهم، التي بعثت نبيك محمداً ﷺ نبي الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به، من الدين الحنيف السهل السمح. وقد ثبت في صحيح مسلم، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: نعم». وعن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: قد فعلت». وجاء الحديث من طرق، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفة السمحة». وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أي: من التكليف والمصائب والبلاء، لا تتبلينا بما لا قبل لنا به. وقد قال مكحول في قوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: الغزوة والغلبة، رواه ابن أبي حاتم، «قال الله: نعم» وفي الحديث الآخر: «قال الله: قد فعلت». وقوله: ﴿وَأَعِظْ عَنَّا﴾ أي: فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا، ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا﴾ أي: فيما بيننا وبين عبادك، فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة، ﴿وَارْحَمْنَا﴾ أي: فيما يستقبل، فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر، ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره. وقد تقدم في الحديث أن الله قال: نعم. وفي الحديث الآخر: «قال الله: قد فعلت». وقوله: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أي: أنت ولينا وناصرنا، وعليك توكلنا، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك، ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك، ورسالة نبيك، وعبدوا غيرك، وأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة، «قال الله: نعم». وفي الحديث الذي رواه مسلم، عن ابن عباس: «قال الله: قد فعلت». وقال ابن جرير: حدثني المثنى بن إبراهيم، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، أن معاذاً، رضي الله عنه، كان إذا فرغ من هذه السورة ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: آمين. ورواه وكيع عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن رجل، عن معاذ بن جبل: أنه كان إذا ختم البقرة قال: آمين.

يخبر تعالى أن القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب، أي: بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها على أحد من الناس، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن رَدَّ ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، وحكم محكمه على متشابهه عنده، فقد اهتدى. ومن عكس انعكس؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾

أي: أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه **﴿وَأَمْرٌ مُتَشَبِهٌ﴾** أي: تحتل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب، لا من حيث المراد. وقد اختلفوا في المحكم والمتشابه، فروي عن السلف عبارات كثيرة، فقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنه قال: المحكمات ناسخه، وحلاله وحرامه، وحدوده وفرائضه، وما يؤمر به ويعمل به. وكذا روي عن عكرمة، ومجاهد، وقادة، والضحاك، ومقاتل بن حيان، والربيع بن أنس، والسدي أنهم قالوا: المحكم الذي يعمل به. وعن ابن عباس أيضاً أنه قال: المحكمات في قوله تعالى: **﴿قُلْ تَكُونُوا أَقْدَمَ مَا حَرَّمَ رَبِّي كُنتُم مِّنْهُ شَرَفًا﴾** [الأنعام: ١٥١] والآيات بعدها، وقوله تعالى: **﴿وَقَضَىٰ رَبِّي أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾** [الإسراء: ٢٣] إلى ثلاث آيات بعدها. رواه ابن أبي حاتم، وحكاه عن سعيد بن جبيرة، ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن إسحاق بن سويد أن يحيى بن يعمر وأبا فاختة تراجعا في هذه الآية: **﴿هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ﴾**، فقال أبو فاختة: فواتح السور. وقال يحيى بن يعمر: الفرائض، والأمر والنهي، والحلال والحرام. وقال ابن أبي عمير عن عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبيرة: **﴿هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ﴾** يقول: أصل الكتاب، وإنما سماهم أم الكتاب، لأنهن مكتوبات في جميع الكتب. وقال مقاتل بن حيان: لأنه ليس من أهل دين إلا يرضى بهن.

وقيل في المتشابهات: إنهن المنسوخة، والمقدم منه والمؤخر، والأمثال فيه والأقسام، وما يؤمن به ولا يعمل به. رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وقيل: هي الحروف المقطعة في أوائل السور، قاله مقاتل بن حيان. وعن مجاهد: المتشابهات يصدق بعضهن بعضاً. وهذا إنما في تفسير قوله: **﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَّثَانًا﴾** [الزمر: ٢٣]. هناك ذكروا: أن المتشابه هو الكلام الذي يكون في سياق واحد، والمثاني هو الكلام في شيئين متقابلين كصفة الجنة وصفة النار، وذكر حال الأبرار ثم حال الفجار، ونحو ذلك. فأما ههنا فالمتشابه هو الذي يقابل المحكم. وأحسن ما قيل فيه الذي قدمناه، وهو الذي نص عليه محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله، حيث قال: **﴿مِنَهُ مَا يَكُنْ تُحْكَمُ مِنْهُ أُمَّ الْكِتَابِ﴾** فيهن حجة الرب، وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه. قال: والمتشابهات في الصدق، لهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى الله فيهن العباد، كما ابتلاهم في الحلال والحرام ألا يصرفن إلى الباطل، ولا يحرفن عن الحق.

ولهذا قال تعالى: **﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾** أي: ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل **﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ بِهِ﴾** أي: إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها، لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه؛ لأنه دامغ لهم وحجة عليهم، ولهذا قال: **﴿إِنِّي أَنزَلْتُ الْقُرْآنَ﴾** أي: الإضلال لأتباعهم، إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهذا حجة عليهم لا لهم، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى هو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وتركوا الاحتجاج بقوله تعالى: **﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾** [الزخرف: ٥٩]، ويقول: **﴿إِنَّكَ مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾** [آل عمران: ٥٩] وغير ذلك من الآيات المحكمة المصروفة بأنه خلق من مخلوقات الله، وعبد، ورسول من رسل الله. وقوله: **﴿وَأَنبِئَا قُلُوبَهُمْ﴾** أي: تحريفه على ما يريدون. وقال مقاتل والسدي: يتفنون أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء من القرآن. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب عن عبد الله بن أبي مليكة، عن عائشة قالت: قرأ رسول الله ﷺ: **﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكَمُ مِنْهُ أُمَّ الْكِتَابِ وَأَمْرٌ مُتَشَبِهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾** إلى قوله **﴿أُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءُ﴾** فقال: «فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنتي الله فاحذروهم». وهكذا وقع هذا الحديث في مسند الإمام أحمد، رحمه الله، من رواية ابن أبي مليكة، عن عائشة، ليس بينهما أحد. وهكذا رواه ابن ماجة من طريق إسماعيل بن علفية وعبد الوهاب الثقفي، كلاهما عن أيوب، عن عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة، عنها. ورواه محمد بن يحيى العبادي في مسنده عن عبد الوهاب الثقفي، عن أيوب به. وكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب. وكذا رواه غير واحد عن أيوب. وقد رواه ابن حبان في صحيحه، من حديث أيوب، به. وتابع أيوب أبو عامر الخزاز وغيره عن ابن أبي مليكة، فرواه الترمذي عن بُنْدَار، عن أبي داود الطيالسي، عن أبي عامر الخزاز، فذكره. وهكذا رواه سعيد بن منصور في سننه، عن حماد بن يحيى الأصبغ، عن عبد الله بن أبي مليكة، عن عائشة. ورواه ابن جرير، من حديث روح بن القاسم، ونافع بن عمر الجمحي، كلاهما عن ابن أبي مليكة، عن عائشة، به. وقال نافع في روايته عن ابن أبي مليكة: حدثني عائشة، فذكره.

وقد روى هذا الحديث البخاري، رحمه الله، عند تفسير هذه الآية، ومسلم في كتاب القدر من صحيحه، وأبو داود في السنة من سننه، ثلاثهم، عن القعقبي، عن يزيد بن إبراهيم الشنترقي، عن ابن أبي مليكة، عن القاسم بن محمد، عن عائشة،

رضي الله عنها، قالت: تلا رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيتم الذين يتشبهون ما تشابه منه فأولئك الذين سَمَى اللَّهُ فَأَخَذُواهُمْ» لفظ البخاري. وكذا رواه الترمذي أيضاً، عن أبي داود الطيالسي، عن يزيد بن إبراهيم التستري، به. وقال: حسن صحيح. وذكر أن يزيد بن إبراهيم التستري تفرد بذكر القاسم في هذا الإسناد، وقد رواه غير واحد عن ابن أبي مليكة، عن عائشة، ولم يذكرها القاسم. كذا قال. ورواه ابن المنذر في تفسيره من طريقين عن النعمان بن محمد بن الفضل السدوسي - ولقبه عارم - حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة، به. وقد رواه ابن أبي حاتم فقال: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد الطيالسي، حدثنا يزيد بن إبراهيم التستري وحماد بن سلمة، عن ابن أبي مليكة، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن قول الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ بِهِ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الذين يتشبهون ما تشابه منه فأولئك الذين سَمَى اللَّهُ، فَأَخَذُواهُمْ». وقال ابن جرير: حدثنا علي بن سهل حدثنا الوليد بن مسلم، عن حماد بن سلمة، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة قالت: نزع رسول الله ﷺ بهذه الآية: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ بِهِ أَتَفَهِتُمْ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «قد حذركم الله، فإذا رأيتموهم فأغروهم». ورواه ابن مردويه من طريق أخرى، عن القاسم، عن عائشة، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد، عن أبي غالب قال: سمعت أبا أمامة يحدث، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ بِهِ﴾ قال: «هم الخوارج»، وفي قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ قال: «هم الخوارج». وقد رواه ابن مردويه من غير وجه، عن أبي غالب، عن أبي أمامة مرفوعاً، فذكره. وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفاً من كلام الصحابي، ومعناه صحيح؛ فإن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج، وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم رسول الله ﷺ غنائم حُتَيْنَ، فكانهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة، فجاؤوه بهذه المقالة، فقال قائلهم - وهو ذو الحُويصرة - بقر الله خاصرته -: «عدل فإنك لم تعدل، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد جَبْتُ وخَسِرْتُ إِنَّ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلْ، أَيَمْنَتِي عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا تَأْمُونِي». فلما قفا الرجل استأذن عمر بن الخطاب، وفي رواية: خالد بن الوليد - ولا بُعد في الجمع - رسول الله ﷺ في قتله، فقال: «دَعُهُ فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضَيْضِي» هذا - أي: من جنسه - قوم يَحْقِرُ أحداً من صلواتهم، وصيامهم مع صيامهم، وقراءتهم مع قراءاتهم، يَفْرُقُونَ من الدين كما يَفْرُقُ السهم من الزِيَمَةِ، فأينما لقيتموهم فاقتلوه، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم». ثم كان ظهورهم أيام علي بن أبي طالب، وقتلهم بالثُوروان، ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونحل كثيرة منتشرة، ثم تَبَعَتِ الْقَدَرِيَّةُ، ثم المعتزلة، ثم الْجَهْمِيَّةُ، وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوق في قوله: «وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فِرْقَةً، كلها في النار إلا واحدة» قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «من كان على ما أنا عليه وأصحابي». أخرجه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو موسى، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا المعتمر، عن أبيه، عن قتادة، عن الحسن بن جندب بن عبد الله أنه بلغه عن حذيفة - أو سمعه منه - يحدث عن رسول الله ﷺ أنه ذكر: «إن في أمتي قوماً يقرؤون القرآن ينثرونه نثر الدُّقْلِ، يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ». لم يخرجوه. وقوله: ﴿وَمَا يَسْكُرُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾: اختلف القراء في الوقف ههنا، فقليل: على الجلالة، كما تقدم عن ابن عباس أنه قال: التفسير على أربعة أنحاء: فتفسير لا يعذر أحد في فهم، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم، وتفسير لا يعلمه إلا الله ﷻ. ويروي هذا القول عن عائشة، وعروة، وأبي الشعثاء، وأبي نهيك، وغيرهم. وقد قال الحافظ أبو القاسم في المعجم الكبير: حدثنا هاشم بن مرثد، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثني أبي، حدثني ضَمُضَمٌ بن زُرْعَةَ، عن شُرَيْحِ بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا أخاف على أمتي إلا ثلاث خلال: أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتلوا، وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذهم المؤمن بيتغي تأويله، ﴿وَمَا يَسْكُرُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالْزَّيْحُونَ فِي الْيَلِّ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ الآية، وأن يزداد علمهم فيضيعوه ولا يبالون عليه» غريب جداً. وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، أخبرنا أحمد بن عمرو، أخبرنا هشام بن عمار، أخبرنا ابن أبي حازم، عن أبيه، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن ابن العاص، عن رسول الله ﷺ قال: «إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به». وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرُ، عن ابن طاوس، عن أبيه قال: كان ابن عباس يقرأ: «وما يعلم تأويله إلا الله، ويقول الراسخون: آمنا به». وكذا رواه ابن جرير، عن عمر بن عبد العزيز، ومالك بن أنس: أنهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله. وحكى ابن جرير أن في قراءة عبد الله بن مسعود:

«إن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به». وكذا عن أبي بن كعب. واختار ابن جرير هذا القول. ومنهم من يقف على قوله: «وَالرَّاسِخُونَ فِي أَلْيَرِ»، وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول، وقالوا: الخطاب بما لا يفهم بعيد. وقد روى ابن أبي نجيج، عن مجاهد، عن ابن عباس أنه قال: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله. وقال ابن أبي نجيج، عن مجاهد: والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به. وكذا قال الربيع بن أنس. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير: «وَمَا يَسْتَمُ تَأْوِيلُهُ» الذي أراد ما أراد «إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي أَلْيَرِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ». ثم ردوا تأويل المتشابه على ما عرفوا من تأويل الْمُحْكَمَةِ التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد، فانسق بقولهم الكتاب، وصدق بعضه بعضاً، فنفذت الحجة، وظهر به العذر، وزاح به الباطل، ودفع به الكفر. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ دعا لابن عباس فقال: «اللهم قَهْهُ في الدين وعلمه التأويل».

ومن العلماء من فصل في هذا المقام، فقال: التأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان، أحدهما: التأويل بمعنى حقيقة الشيء، وما يؤول أمره إليه، ومنه قوله تعالى: «وَرَزَعُ أَيْوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَى مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا» [يوسف: ١٠٠]، وقوله: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ» [الاعراف: ٥٣] أي: حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا، فالوقف على الجلالة؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا الله ﷻ، ويكون قوله: «وَالرَّاسِخُونَ فِي أَلْيَرِ» مبتدأ و «يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ» خبره. وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر وهو التفسير والتعبير والبيان عن الشيء كقوله تعالى: «يَنْتَقِلُ تَأْوِيلُهُ» [يوسف: ٣٦] أي: بتفسيره، فإن أريد به هذا المعنى، فالوقف على «وَالرَّاسِخُونَ فِي أَلْيَرِ» لأنهم يعلمون ويفهمون ما خطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا فيكون قوله: «يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ» حالا منهم، وساغ هذا، وهو أن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه، كقوله: «لِلْفَقَرَةِ الْمُهَيَّجِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ» إلى قوله: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَدْيِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْفِزْ لَنَا وَلِأَخْرَجْنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ» الآية [الحشر: ٨ - ١٠]، وكقوله تعالى: «وَبِمَا رَزَكْنَاكَ وَالْمَلَكُ صَمًّا صَمًّا» [النجر: ٢٢] أي: وجاءت الملائكة صفوفاً صفوفاً.

وقوله إخباراً عنهم أنهم «يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ» أي: بالمتشابه «كُلِّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا» أي: الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له؛ لأن الجميع من عند الله وليس شيء من عند الله بمختلف ولا متضاد لقوله: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» [النساء: ٨٢] ولهذا قال تعالى: «وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَوْلَا الْأَنْبِيَاءِ» أي: إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف الجهمي، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا فياض الرقي، حدثنا عبد الله بن يزيد. وكان قد أدرك أصحاب النبي ﷺ: أنساً، وأباً أمامة، وأباً الدرداء، رضي الله عنهم، قال: حدثنا أبو الدرداء، أن رسول الله ﷺ سئل عن الراسخين في العلم، فقال: «من بَرَّتْ يمينه، وصدق لسانه، واستقام قلبه، ومن أعفَ بطنه وفرجه، فذلك من الراسخين في العلم». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن الزهري، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: سمع رسول الله ﷺ يوماً يتدارؤون فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما أنزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه». وقد تقدم رواية ابن مردويه لهذا الحديث، من طريق هشام بن عمار، عن ابن أبي حازم، عن أبيه، عن عمرو بن شعيب، به. وقد قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن العثي الموصلي في مسنده، حدثنا زهير بن حرب، حدثنا أنس بن عياض، عن أبي حازم، عن أبي سلمة قال: لا أعلمه إلا عن أبي هريرة. أن رسول الله ﷺ قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف، والمِرَاءُ في القرآن كفر - ثلاثاً - ما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه». وهذا إسناد صحيح، ولكن فيه علة بسبب قول الراوي: لا أعلمه إلا عن أبي هريرة. وقال ابن المنذر في تفسيره: أخبرنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أخبرنا ابن وهب قال: أخبرني نافع بن يزيد قال: يقال: الراسخون في العلم المتواضعون لله، المتذللون لله في مرضاته، لا يتعاطون من فوقهم، ولا يحقرون من دونهم. ولهذا قال تعالى: «وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَوْلَا الْأَنْبِيَاءِ» أي: إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة أو الفهوم المستقيمة.

ثم قال تعالى عنهم مخبراً أنهم دعوا ربه قائلين: «رَبَّنَا لَا تُخِجْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا» أي: لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتهما عليه، ولا تجعلنا كالذين في قولهم زيف، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم، ودينك القويم «وَعَبَّ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ» أي: من عندك «رَحْمَةً» تثبت بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً «إِنَّكَ أَنْتَ الْوَكَّابُ». قال ابن

أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي - وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب - قالاً جميعاً: حدثنا وَكِيع، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حَوْشَب، عن أم سلمة، رضي الله عنها، أن النبي ﷺ كان يقول: «يا مُقَلَّبَ القلوب ثَبِّت قلبي على دينك»، ثم قرأ: ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَكَّابُ ۝﴾ . ورواه ابن مردويه من طريق محمد بن بَكَّار، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حَوْشَب، عن أم سلمة، وهي أسماء بنت يزيد بن السكن، سمعها تحدّث أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه: «اللهم مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك» قالت: قلت: يا رسول الله، وإن القلب ليتقلب؟ قال: «نعم، ما خلق الله من بني آدم من بشر إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله ﷻ، فإن شاء أقامه، وإن شاء أزاعه». فنسأل الله ربنا ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة، إنه هو الوهاب. وهكذا رواه ابن جرير من حديث أسد بن موسى، عن عبد الحميد بن بهرام، به مثله. ورواه أيضاً عن المثني، عن الحجاج بن مثقال، عن عبد الحميد بن بهرام، به مثله، وزاد: «قلت: يا رسول الله، ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: «بلى، قل: اللهم رب النبي محمد، اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجزني من مضلات الفتن». ثم قال ابن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن هارون بن بكار الدمشقي، أخبرنا العباس بن الوليد الخلال، أخبرنا يزيد بن يحيى بن عبيد الله، أخبرنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبي حسان الأعرج، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك»، قلت: يا رسول الله، ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء. فقال: «ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاعه، أما تسمعين قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَكَّابُ ۝﴾». غريب من هذا الوجه، ولكن أصله ثابت في الصحيحين، وغيرهما من طرق كثيرة بدون زيادة ذكر هذه الآية الكريمة.

وقد روى أبو داود والنسائي وابن مردويه، من حديث أبي عبد الرحمن المقرئ - زاد النسائي وابن حبان: وعبد الله بن وهب، كلاهما عن سعيد بن أبي أيوب، حدثني عبد الله بن الوليد الثجبي، عن سعيد بن المسيب، عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ من الليل قال: «لا إله إلا أنت سبحانك، اللهم إني أستغفرك لذنبي، وأسألك رحمة، اللهم زدني علماً، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب» لفظ ابن مردويه. وقال عبد الرزاق، عن مالك، عن أبي عبيد - مولى سليمان بن عبد الملك - عن عبادة بن نُسَي، أنه أخبره، أنه سمع قيس بن الحارث يقول: أخبرني أبو عبد الله الصنابحي، أنه صلى وراء أبي بكر الصديق المغرب، فقرأ أبو بكر في الركعتين الأولىين بأم القرآن وسورتين من قصار المفصل، وقرأ في الركعة الثالثة، قال: فدنوت منه حتى إن ثيابي لتكاد تمس ثيابه، فسمعتة يقرأ بأم القرآن وهذه الآية: ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَكَّابُ ۝﴾ . قال أبو عبيد: وأخبرني عبادة بن نُسَي: أنه كان عند عمر بن عبد العزيز في خلافته، فقال عمر لقيس: كيف أخبرتني عن أبي عبد الله الصنابحي فأخبره بما سمع أبا عبد الله ثانياً. قال عمر: فما تركناها منذ سمعناها منه، وإن كنت قبل ذلك لَعَلِّي غير ذلك. فقال له رجل: على أي شيء كان أمير المؤمنين قبل ذلك؟ قال: كنت أقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾ [الإخلاص: ١].

وقد روى هذا الأثر الوليد بن مسلم، عن مالك والأوزاعي، كلاهما عن أبي عبيد، به. ورواه الوليد أيضاً، عن ابن جابر، عن يحيى بن يحيى الغساني، عن محمود بن لبيد، عن الصنابحي: أنه صلى خلف أبي بكر، رضي الله عنه، المغرب فقرأ في الأولىين بفاتحة الكتاب وسورة قصيرة، يجهر بالقراءة، فلما قام إلى الثالثة ابتدأ القراءة فدنوت منه حتى إن ثيابي لتمس ثيابه، فقرأ هذه الآية: ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَكَّابُ ۝﴾ . وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَمِيعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخَلِّقُ إِلَهِكَ ۝﴾ أي: يقولون في دعائهم: إنك - يا ربنا - ستجمع بين خلقك يوم معادهم، وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه، وتجزي كلا بعمله، وما كان عليه في الدنيا من خير وشر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُنْفِكَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَمْوَالُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ كَذَّابُونَ ۝﴾ كَذَّابٌ مَالٍ يَرْفَعُونَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُّوهُمْ وَأَلَّهُ شَيْدُ الْوَقَابِ ۝﴾ .

يخبر تعالى عن الكفار أنهم وقود النار، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝﴾ [غان: ٥٢]، وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال والأولاد ينافع لهم عند الله، ولا بمنجيتهم من عذابه وأليم عقابه، بل كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْجِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُفْزِعَهُمْ يَوْمَ يُدْعَىٰ إِلَى الدِّينِ وَيَتَرَكَهُمْ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ۝﴾ [التوبة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿لَا يَنْفَعُكَ تَقْلُبُ

الَّذِينَ كَفَرُوا فِي آلِ لَيْدٍ ﴿١٢﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٣﴾ ﴿١٢﴾ كَمَا قَالَ لَهُنَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بآيات الله وكذبوا رسله، وخالفوا كتابه، ولم ينتفعوا بوحىه إلى أنبيائه ﴿لَنْ تُنْفَعَ عَنْهُمْ أُمُورُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ أي: حطبها الذي تسجر به وتوقد به، كقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا بِكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبَ جَهَنَّمَ أَكْثَرَ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [النبي: ٩٨]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي مريم، أخبرنا ابن لبيبة، أخبرني ابن الهاد، عن هند بنت الحارث، عن أم الفضل أم عبد الله بن عباس قالت: بينما نحن بمكة قام رسول الله ﷺ من الليل، فقال: «هل بلغت، اللهم هل بلغت...» ثلاثاً، فقام عمر بن الخطاب فقال: نعم. ثم أصبح فقال النبي ﷺ: «ليظهرن الإسلام حتى يرد الكفر إلى موطنه، وَلِتَخُوضَنَّ البحار بالإسلام، وليأتين على الناس زمان يتعلمون القرآن ويقرؤونه، ثم يقولون: قد قرأنا وعلمنا، فمن هذا الذي هو خير منا، فهل في أولئك من خير؟ قالوا: يا رسول الله، فمن أولئك؟ قال: «أولئك منكم وأولئك هم وقود النار». وكذا رأيته بهذا اللفظ. وقد رواه ابن مردويه من حديث يزيد بن عبد الله بن الهاد، عن هند بنت الحارث، امرأة عبد الله بن شداد، عن أم الفضل؛ أن رسول الله ﷺ قام ليلة بمكة فقال: «هل بلغت؟» يقولها ثلاثاً، فقام عمر بن الخطاب - وكان أواها - فقال: اللهم نعم، وحرصت وجهدت ونصحت فاصبر. فقال النبي ﷺ: «ليظهرن الإيمان حتى يرد الكفر إلى موطنه، وليخوضن رجال البحار بالإسلام، وليأتين على الناس زمان يقرؤون القرآن، فيقرؤونه ويعلمونه، فيقولون: قد قرأنا، وقد علمنا، فمن هذا الذي هو خير منا؟ فما في أولئك من خير؟ قالوا: يا رسول الله، فمن أولئك؟ قال: «أولئك منكم، وأولئك هم وقود النار» ثم رواه من طريق موسى بن عبيد، عن محمد بن إبراهيم، عن بنت الهاد، عن العباس بن عبد المطلب: ينحوه.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّابٌ مَالِي وَرَقُونَ﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس: كصنيع آل فرعون. وكذا روي عن عكرمة، ومجاهد، وأبي مالك، والضحاك، وغير واحد، ومنهم من يقول: كسنة آل فرعون، وكفعل آل فرعون وكشبه آل فرعون، والألفاظ متقاربة. والدأب - بالتسكين، والتحريك أيضاً كَنَهْرٌ وَنَهْرٌ -: هو الصنع والشأن والحال والأمر والعادة، كما يقال: لا يزال هذا دأبي ودأبك، وقال امرؤ القيس:

وقوفاً بها صحبي على مطيهم يقولون: لا تهلك أسى وتجمل
كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمائل
والمعنى: كعادتك في أم الحويرث حين أهلكت نفسك في حبها وبكيت دارها ورسمها. والمعنى في الآية: أن الكافرين لا تغني عنهم الأولاد ولا الأموال، بل يهلكون ويعذبون، كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسول فيما جاؤوا به من آيات الله وحججه. ﴿كَذَّابٌ مَالِي وَرَقُونَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَلَاخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: شديد الأخذ أليم العذاب، لا يمتنع منه أحد، ولا يفوته شيء بل هو الفعال لما يريد، الذي قد غلب كل شيء، وذل له كل شيء، لا إله غيره ولا رب سواه.

﴿قُلِ لِلَّهِ كُفْرُوا سَتَلْبُكُونَ وَتُعْذِرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ ﴿١٣﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي سِتِّينَ الْفَتْحَةِ فَتَةً تَنْذِيلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجَ كَافِرًا يَرَوْنَهُمْ يَنْفَكُهُمْ رَأَى الْقَتْلَ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصِيرَةَ مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ الْأَبْصَارِ ﴿١٤﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد للكافرين: ﴿سَتَلْبُكُونَ﴾ أي: في الدنيا، ﴿وَتُعْذِرُونَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾. وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار، عن عاصم بن عمر بن قتادة؛ أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال: «يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم الله ما أصاب قريشاً». فقالوا: يا محمد، لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرًا من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلنا لعرفت أننا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا؟ فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿قُلِ لِلَّهِ كُفْرُوا سَتَلْبُكُونَ وَتُعْذِرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ ﴿١٣﴾ إلى قوله: ﴿تَسِيرَةُ الْأَبْصَارِ﴾. وقد رواه ابن إسحاق أيضاً، عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس فذكره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي: قد كان لكم - أيها اليهود القائلون ما قلتم - ﴿آيَةٌ﴾ أي: دلالة على أن الله مع دينه، وناصر رسوله، ومظهر كلمته، ومعل أمر ﴿فِي سِتِّينَ﴾ أي: طائفتين ﴿الْفَتْحَةِ﴾ أي: للقتال ﴿فَتَةً تَنْذِيلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المسلمون، ﴿وَأَخْرَجَ كَافِرًا﴾ وهم مشركو قريش يوم بدر. وقوله: ﴿يَرَوْنَهُمْ يَنْفَكُهُمْ رَأَى الْقَتْلَ﴾ قال بعض العلماء - فيما حكاه ابن جرير -: يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثلهم في العدد رأي أعينهم، أي: جعل الله ذلك فيما رآه سبباً لنصرة الإسلام عليهم. وهذا لا إشكال عليه إلا من جهة واحدة، وهي أن المشركين بعثوا عمر بن سعد يومئذ قبل

القتال يحزر لهم المسلمین، فأخبرهم بأنهم ثلاثمائة، يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً. وهكذا كان الأمر، كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، ثم لما وقع القتال أمدهم الله بألف من خواص الملائكة وساداتهم. والقول الثاني: أن المعنى في قوله: ﴿يَرْفَعُهُمْ﴾ يَرْفَعُهُمْ رَأَى الْمَكِينُ أي: ترى الفئة المسلحة الفئة الكافرة مثلهم، أي: ضعفهم في العدد، ومع هذا نصرهم الله عليهم. وهذا لا إشكال فيه على ما رواه العوفي، عن ابن عباس أن المؤمنين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، والمشركون كانوا ستمائة وستة وعشرين رجلاً. وكان هذا القول مأخوذ من ظاهر هذه الآية، ولكنه خلاف المشهور عند أهل التواريخ والسير وأيام الناس، وخلاف المعروف عند الجمهور من أن المشركون كانوا ما بين التسعمائة إلى الألف كما رواه محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، أن رسول الله ﷺ لما سأل ذلك العبد الأسود لبني الحجاج عن عذة قرش، فقال: كثير، قال: «كم ينحرون كل يوم؟» قال: يوماً تسعاً، ويوماً عشرة، فقال النبي ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف». وروى أبو إسحاق السبيعي، عن حارثة، عن علي، قال: كانوا ألفاً، وكذا قال ابن مسعود. والمشهور أنهم كانوا ما بين التسعمائة إلى الألف، وعلى كل تقدير فقد كانوا ثلاثة أمثال المسلمين، وعلى هذا فيشكل هذا القول والله أعلم. لكن وجه ابن جرير هذا، وجعله صحيحاً كما تقول: عندي ألف وأنا محتاج إلى مثلها، وتكون محتاجاً إلى ثلاثة آلاف، وكذا قال. وعلى هذا فلا إشكال.

لكن بقي سؤال آخر وهو وارد على القولين، وهو أن يقال: ما الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى في قصة بدر: ﴿وَرَأَى يُرْكَبُهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَصْنَانِمْ قِيلَ لَكُمُ فِي أَصْنَانِمْ لَقِئِنَّ اللَّهَ أَشْرَكَ كَاتَ مَعُولاً﴾ [الأنفال: ٤٤]؟ والجواب: أن هذا كان في حال، والآخر كان في حال أخرى، كما قال السدي، عن مرة الطيب، عن ابن مسعود في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فَيْتِنِ اتَّقَاتِ فَيْتَةً تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَشْرَكَ كَاتَ يَرْفَعُهُمْ وَيُنْزِلُهُمْ رَأَى الْمَكِينُ﴾ الآية، قال: هذا يوم بدر. قال عبد الله بن مسعود: وقد نظرنا إلى المشركون فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَرَأَى يُرْكَبُهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَصْنَانِمْ قِيلَ لَكُمُ فِي أَصْنَانِمْ لَقِئِنَّ اللَّهَ أَشْرَكَ كَاتَ مَعُولاً﴾. وقال أبو إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة. قال: فأسرنا رجلاً منهم فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً.

فعندما عاين كل الفريقين الآخر رأى المسلمون المشركون مثلهم، أي: أكثر منهم بالضعف، ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم، ﷺ. ورأى المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع، ثم لما حصل التصاف والتقى الفريقان قلل الله هؤلاء في أعين هؤلاء، وهؤلاء في أعين هؤلاء، ليقدم كل منهما على الآخر. ﴿لَقِئِنَّ اللَّهَ أَشْرَكَ كَاتَ مَعُولاً﴾ أي: ليفرق بين الحق والباطل، فيظهر كلمة الإيمان على الكفر، ويعز المؤمنين ويذل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَصَّرْنَاكُمْ اللَّهُ يَسِّرُ وَأَنْتُمْ أَوْلَهُ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال ههنا: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ لِمَنْ فِي ذَلِكَ لَئِبَةً لِأُولَى الْأَنْصَارِ﴾ أي: إن في ذلك لمعتبراً لمن له بصيرة وفهم يهتدي به إلى حكمة الله وأفعاله، وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

﴿رَيْنَ لِلنَّاسِ هُبُ الْقَهَوَاتِ مِنَ الْوَسْوَ وَالْقَتِيلِ الْمُنْقَطَرِ مِنَ الدَّهَبِ وَالْفَحِيلِ الْمُسَوِّمِ وَالْأَنْتَمِ وَالْعَرَبِ ذَلِكَ مَسْجِدُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِلِ﴾ ﴿١٤﴾ قُلْ أَزْيَنُكُمْ بِحَبْرِ دَلِيلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِزْقٌ مِمَّا فِي الْأَنْهَارِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بِالْإِسْلَامِ عَلِيمٌ ﴿١٥﴾

يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد، كما ثبت في الصحيح أنه عليه السلام، قال: «مَا تَزَكَّتْ بَغْدِي فِتْنَةٌ أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ». فاما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد، فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه، «وإن خير هذه الأمة كان أكثرها نساء»، وقوله، عليه السلام: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِهَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، إِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّهُ، وَإِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا حَفَظَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهَا»، وقوله في الحديث الآخر: «حُبُّ إِي النِّسَاءِ وَالطَّيِّبِ، وَجُعِلَتْ قُرَةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ». وقالت عائشة، رضي الله عنها: لم يكن شيء أحب إلى رسول الله ﷺ من النساء إلا الخيل، وفي رواية: من الخيل إلا النساء.

وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل في هذا، وتارة يكون لتكثير النسل، وتكثير أمة محمد ﷺ ممن يعبد الله وحده لا شريك له، فهذا محمود ممدوح، كما ثبت في الحديث: «تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ، فَإِنِّي مُكَاتِرٌ بِكُمْ الْأَمَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وحب العيال - كذلك - تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء، والتجبر على الفقراء، فهذا مذموم، وتارة يكون للنفقة

في القربات وصلة الأرحام والقربات ووجوه البر والطاعات، فهذا ممدوح محمود عليه شرعاً. وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال، وحاصلها: أنه المال الجزيل، كما قاله الضحاك وغيره، وقيل: ألف دينار. وقيل: ألف ومائتا دينار. وقيل: اثنا عشر ألفاً. وقيل: أربعون ألفاً. وقيل: ستون ألفاً وقيل: سبعون ألفاً. وقيل: ثمانون ألفاً. وقيل غير ذلك.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الْقِنْطَارُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَوْقِيَّةٍ، كُلُّ أَوْقِيَّةٍ خَيْرٌ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». وقد رواه ابن ماجة، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عبد الصمد بن عبد الوارث، عن حماد بن سلمة، به. وقد رواه ابن جرير عن بُنْدَار، عن ابن مهدي، عن حماد بن زيد، عن عاصم - هو ابن بهذلة - عن أبي صالح، عن أبي هريرة، موقوفاً، وهذا أصح. وهكذا رواه ابن جرير عن معاذ بن جبل وابن عمر. وحكاه ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة وأبي الدرداء، أنهم قالوا: القنطار ألف ومائتا أوقية. ثم قال ابن جرير: حدثني زكريا بن يحيى الضمير، حدثنا شبابة، حدثنا مُخَلَّد بن عبد الواحد، عن علي بن زيد، عن عطاء بن أبي ميمونة، عن زَرِّ بن حُبَيْش عن أَبِي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «الْقِنْطَارُ أَلْفُ أَوْقِيَّةٍ وَمِائَتَا أَوْقِيَّةٍ». وهذا حديث منكر أيضاً، والأقرب أن يكون موقوفاً على أبي بن كعب، كغيره من الصحابة. وقد روى ابن مَرْذُويه، من طريق موسى بن عُبيدة الرَّبَيعِي، عن محمد بن إبراهيم عن يحيى بن حنشل أبي موسى، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ مِائَةَ آيَةٍ لَمْ يَكُتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَرَأَ مِائَةَ آيَةٍ إِلَى أَلْفٍ أَصْبَحَ لَهُ قِنْطَارٌ مِنْ أَجْرِ عِنْدَ اللَّهِ، الْقِنْطَارُ مِثْلُ الْجَبَلِ الْعَظِيمِ». ورواه وكيع، عن موسى بن عُبيدة، بمعناه وقال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عيسى بن زيد اللخمي بن تيس، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، حدثنا زهير بن محمد، حدثنا حميد الطويل، ورجل آخر، عن أنس بن مالك قال: سئل رسول الله ﷺ عن قول الله ﷻ: ﴿وَالْقِنْطَارِ الْمُنْقَطِرِ﴾ قال: «الْقِنْطَارُ أَلْفُ أَوْقِيَّةٍ». صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، هكذا رواه الحاكم. وقد رواه ابن أبي حاتم بلفظ آخر فقال: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الرُّقَاشِي، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، حدثنا زهير - يعني ابن محمد - حدثنا حميد الطويل ورجل آخر قد سماه - يعني يزيد الرُّقَاشِي - عن أنس، عن رسول الله ﷺ في قوله: قنطار، يعني: «ألف دينار». وهكذا رواه ابن مَرْذُويه، ورواه الطبراني، عن عبد الله بن محمد بن أبي مريم، عن عمرو بن أبي سلمة، فذكر بإسناده مثله سواء. وروى ابن جرير عن الحسن البصري مرسلاً عنه وموقوفاً عليه: القنطار ألف ومائتا دينار. وكذا رواه العوفي عن ابن عباس. وقال الضحاك: من العرب من يقول: القنطار ألف دينار. ومنهم من يقول: اثنا عشر ألفاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عارم، عن حَمَّاد، عن سعيد الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: القنطار مئة مسك الثور ذهباً. قال أبو محمد: ورواه محمد بن موسى الحرشي، عن حماد بن زيد، مرفوعاً. والموقوف أصح.

وحب الخيل على ثلاثة أقسام، تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله تعالى، متى احتاجوا إليها غزوا عليها، فهؤلاء يثابون. وتارة تربط فخرًا ونواء لأهل الإسلام، فهذه على صاحبها وزر. وتارة للتعفف واقتناء نسلها. ولم ينس حق الله في رقابها، فهذه لصاحبها ستر، كما سيأتي الحديث بذلك إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِيبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وأما «الْمُسَوِّمَةُ» فعن ابن عباس، رضي الله عنهما: المسومة الراعية، والمطهمة الحسان، وكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وعبد الرحمن بن عبد الله بن أبزي، والسُّدِّي، والربيع بن أنس، وأبي سنان وغيرهم. وقال مكحول: المسومة: القُرَّة والتحجيل. وقيل غير ذلك. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عبد الحميد بن جعفر، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سُوَيْد بن قيس، عن معاوية بن حُذَيْج، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ إِلَّا يُؤَدُّ لَهُ مَعَ كُلِّ فَرَسٍ يَدْعُو بِدَعْوَتَيْنِ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ خَوَّلْتَنِي مِنْ بَنِي آدَمَ، فَاجْعَلْنِي مِنْ أَحَبِّ مَالِهِ وَأَهْلِهِ إِلَيْهِ، أَوْ أَحَبِّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ».

وقوله: ﴿وَالْأَنْثَمِيُّ﴾ يعني: الإبل والبقر والغنم «وَالْعَكْرِيُّ» يعني: الأرض المتخذة للغراس والزراعة. قال الإمام أحمد: حدثنا رُوَح بن عباد، حدثنا أبو نعامه العدوي، عن مسلم بن بُذَيْل، عن إياس بن زهير، عن سُوَيْد بن هُبَيْرَة، عن النبي ﷺ قال: «خَيْرُ مَالٍ أَمْرِي لَهُ مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ، أَوْ سَبَكَةٌ مَأْمُورَةٌ، الْمَأْمُورَةُ الْكَثِيرَةُ النَّسْلِ، وَالسَّبَكَةُ: النَخْلُ الْمَصْطَفُ، وَالْمَأْمُورَةُ: الملقحة. ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَكِّ الْأَحْيَاءِ الْأَذْيَاءِ﴾ أي: إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة «وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْقَاصِ» أي: حسن المرجع والثواب. وقد قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن عطاء، عن أبي بكر بن حفص بن عُمر بن سعد قال: قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: لما أنزلت: ﴿رُؤْيَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ قلت: الآن يا

رب حين زينتها لنا! فنزلت: ﴿قُلْ أُو۟سَيِّرُكُمْ بِخَيْرٍ مِّن دَالِيكُمْ إِلَٰذِيۦنَ اتَّقُوا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أُو۟سَيِّرُكُمْ بِخَيْرٍ مِّن دَالِيكُمْ﴾ أي: قل يا محمد للناس: الأخيركم بخير مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها، الذي هو زائل لا محالة. ثم أخبر عن ذلك، فقال: ﴿إِلَٰذِيۦنَ اتَّقُوا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: تتخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار، من أنواع الأشربة؛ من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿حَلِيلِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبد الآباد، لا يبعثون عنها جولا. ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: من الدُّنَس، والخَبَث، والأذى، والحِض، والنفاس، وغير ذلك مما يعتري نساء الدنيا. ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: يحل عليهم رضوانه، فلا يَسْخَطُ عليهم بعده أبداً، ولهذا قال في الآية الأخرى التي في براءة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] أي: أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم، ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِعَمِيرٍ وَالنَّاسِ﴾ أي: يعطي كلاً بحسب ما يستحقه من العطاء.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا مَعَكُم مَّا غَفَرْنَا لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٦) ﴿الْمَكِيدِينَ وَالْمَكِيدَاتِ وَالْقَانِطِينَ وَالْقَانِطَاتِ وَالسَّائِفِينَ وَالسَّائِفَاتِ وَالْمُنْكَارِ﴾ (١٧).

يصف تعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا مَعَكُم﴾ أي: بك ويكتابك وبرسولك ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: بإيماننا بك وبما شرعته لنا فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا من أمرنا بفضلك ورحمتك ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. ثم قال: ﴿الْمَكِيدِينَ﴾ أي: في قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات ﴿وَالْمَكِيدَاتِ﴾ فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمون به من الأعمال الشاقة ﴿وَالْقَانِطِينَ﴾ والقنوت: الطاعة والخضوع ﴿وَالْقَانِطَاتِ﴾ أي: من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات، وصلة الأرحام والقرابات، وسد الخلات، ومواساة ذوي الحاجات ﴿وَالسَّائِفِينَ﴾ أي: من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات، وصلة الأرحام والقرابات، وسد الخلات، ومواساة ذوي الحاجات ﴿وَالسَّائِفَاتِ﴾ أي: من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات، وصلة الأرحام والقرابات، وسد الخلات، ومواساة ذوي الحاجات ﴿وَالْمُنْكَارِ﴾ دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار. وقد قيل: إن يعقوب، عليه السلام، لما قال لبنينه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨] أنه أخرهم إلى وقت السحر. وثبت في الصحيحين وغيرهما من المساند والسنن، من غير وجه، عن جماعة من الصحابة، أن رسول الله ﷺ قال: «يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَنْفِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ يَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيهِ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟» الحديث. وقد أورد الحافظ أبو الحسن الدارقطني في ذلك جزءاً على حدة، فرواه من طرق متعددة. وفي الصحيحين، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: من كُلِّ اللَّيْلِ قَدْ أَوْتَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، مِنْ أَوْلَاهِ وَأَوْسَطِهِ وَآخِرِهِ، فَأَنْتَهَى وَتَرَهُ إِلَى السَّحْرِ.

وكان عبد الله بن عمر يصلي من الليل، ثم يقول: يا نافع، هل جاء السحر؟ فإذا قال: نعم، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن حُرَيْثِ بْنِ أَبِي مَطَرٍ، عن إبراهيم بن حاطب، عن أبيه قال: سمعت رجلاً في السحر في ناحية المسجد وهو يقول: رب أمرني فأطعتك، وهذا سحر، فاغفر لي. فنظرت فإذا ابن مسعود، رضي الله عنه. وروى ابن مَرْدُويه عن أنس بن مالك قال: كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر في آخر السحر سبعين مرة.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالشَّيْكَةُ وَأُولُوا الْأَيْلِ قَالِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨) ﴿إِنَّ الْوَيْتَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّهُ سَاحِرٌ كَاذِبٌ﴾ (١٩) ﴿إِنَّ سَاحِرَكَ فَقُلْ أَتَلَّيْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِي فَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَتَلَّيْتُ فَإِنْ أَتَلَّيْتُ فَقَدْ أَتَلَّيْتُ فَإِنْ أَتَلَّيْتُ فَقَدْ أَتَلَّيْتُ فَإِنْ أَتَلَّيْتُ فَقَدْ أَتَلَّيْتُ وَاللَّهُ بِعَمِيرٍ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ (٢٠).

شهد تعالى - وكفى به شهيداً، وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم، وأصدق القائلين - ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبده وخلقه، والفقراء إليه، وهو الغني عما سواه كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَرْزَلْ إِلَيْكَ أَنْزَلْنَاهُ يُعَلِّمُوكَ. وَاللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا كُنَّا نَقُولُ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (١٨) الآية [النساء: ١٦٦]. ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالشَّيْكَةُ وَأُولُوا الْأَيْلِ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام. ﴿قَالِمًا بِالْقِسْطِ﴾ منصوب على الحال، وهو في جميع الأحوال كذلك. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد لما سبق ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العزيز: الذي لا يرام جنباه عظمة وكبرياء، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، حدثني جبير بن عمرو القرشي، حدثنا أبو سعيد الأنصاري، عن أبي يحيى مولى آل الزبير بن العوام، عن الزبير بن العوام، قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يعرفه يقرأ هذه

الآية: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَالِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (١٦) ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ يَا رَبِّ﴾. وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر، فقال: حدثنا علي بن حسين، حدثنا محمد بن المتوكل العسقلاني، حدثنا عُمَرُ بن حفص بن ثابت أبو سعيد الأنصاري، حدثنا عبد الملك بن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن جده، عن الزبير قال: سمعت رسول الله ﷺ حين قرأ هذه الآية: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ قال: ﴿وَأَنَا أَشْهَدُ أَنِّي رَبِّ﴾.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في المعجم الكبير: حدثنا عبدان بن أحمد وعلي بن سعيد الرازي قالا: حدثنا عُمَرُ بن عمر بن المختار، حدثني أبي، حدثني غالب القطان قال: أتيت الكوفة في تجارة، فنزلت قريباً من الأعمش، فلما كانت ليلة أردت أن أتخبر قام فتهدج من الليل، فمر بهذه الآية: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَالِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (١٧) ﴿إِنَّ الْأَوَّلَ عِنْدَ اللَّهِ الْآخِرُ﴾ ثم قال الأعمش: وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة، وهي لي عند الله وديعة: ﴿إِنَّ الْأَوَّلَ عِنْدَ اللَّهِ الْآخِرُ﴾ قالها مراراً. قلت: لقد سمع فيها شيئاً، فغدوت إليه فودعته، ثم قلت: يا أبا محمد، إني سمعتك تردد هذه الآية. قال: أو ما بلغك ما فيها؟ قلت: أنا عندك منذ شهر لم تحدثني. قال: والله لا أحدثك بها إلى سنة. فأقمت سنة فكنت على بابه، فلما مضت السنة قلت: يا أبا محمد، قد مضت السنة. قال: حدثني أبو وائل، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجَاءُ بِصَاحِبِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، فيقول الله ﷻ: «عَبْدِي عَهْدٌ إِلَيَّ، وَأَنَا أَحَقُّ مَنْ وَفَى بِالْعَهْدِ، أَذْخَلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ». وقوله: ﴿إِنَّ الْأَوَّلَ عِنْدَ اللَّهِ الْآخِرُ﴾ إخبار من الله تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتى ختموا بمحمد ﷺ، الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثته محمداً ﷺ بدين على غير شريعته، فليس بمقبل. كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ يَهُدَىٰ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١٨) [آل عمران: ٨٥]. وقال في هذه الآية مخبراً بانحصار الدين المتقبل عنده في الإسلام: ﴿إِنَّ الْأَوَّلَ عِنْدَ اللَّهِ الْآخِرُ﴾. وذكر ابن جرير أن ابن عباس قرأ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَالِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (١٩) ﴿إِنَّ الْأَوَّلَ عِنْدَ اللَّهِ الْآخِرُ﴾ بكسر «أَنْتُمْ» وفتح «إِنَّ الْأَوَّلَ عِنْدَ اللَّهِ الْآخِرُ» أي: شهد هو وملائكته وأولو العلم من البشر بأن الدين عند الله الإسلام. والجمهور قرؤوها بالكسر على الخبر، وكلا المعنيين صحيح. ولكن هذا على قول الجمهور أظهر والله أعلم.

ثم أخبر تعالى بأن الذين أوتوا الكتاب الأول إنما اختلفوا بعد ما قامت عليهم الحجة، بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم، فقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الْأَوَّلَ أَوْثُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيِّنُهُمْ﴾ أي: بغى بعضهم على بعض، فاختلفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابهم، فحمل بعضهم بغض البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله، وإن كانت حقاً، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ يَتَكَبَّرْ اللَّهُ فَإِنَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٢٠) أي: من جحد بما أنزل الله في كتابه فإن الله سيجازيه على ذلك، ويحاسبه على تكذيبه، ويعاقبه على مخالفته كتابه.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ جَٰدِلُكَ فِي التَّوْحِيدِ﴾ ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ﴾ أي: فقل أخلصت عبادتي لله وحده، لا شريك له ولا ند له ولا ولد له ولا صاحبة له ﴿وَمَنِ اتَّبَعْتُ﴾ على ديني، يقولون كمفالتي، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلُ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَنُحْنُ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٢١) [يوسف: ١٠٨]. ثم قال تعالى أمرأ لعبده ورسوله محمد ﷺ أن يدعو إلى طريقته ودينه، والدخول في شرعه وما بعثه الله به الكتائبين من الملتين والأميين من المشركين فقال: ﴿وَقُلْ لِلَّهِ أَوْثُوا الْكِتَابَ وَالْأَمِينَمْ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ افْتَدَوْا وَلَئِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ﴾ أي: والله عليه حسابهم وإليه مرجعهم ومآبهم، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وله الحكمة في ذلك، والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعَمَالِ﴾ أي: هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة، وهو الذي ﴿لَا يَسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ (٢٢) [الأنبياء: ٢٣]. وما ذاك إلا لحكمته ورحمته. وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته، صلوات الله وسلامه عليه، إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الاعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (٢٣) [الفرقان: ١] وفي الصحيحين وغيرهما، مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة، أنه بعث كتبه ﷺ يدعو إلى الله ملوك الآفاق، وطوائف بني آدم من عربهم وعجمهم، كتبهم وأمهم، امتثالاً لأمر الله له بذلك. وقد روى عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قُتَيْبَةَ، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ يَهُودِي وَلَا

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ مَنْ نَشَاءُ وَنَزَعِ الْمُلْكَ مِنْ نَشَاءُ وَتُضِلْ مَنْ نَشَاءُ يَذِيقْ الْعَذَابَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

قُلْ أَلَيْدُ فِي النَّهَارِ وَنُجْلُ النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ النَّعْمَ مِنَ النَّبْتِ وَتُدْخِلُ النَّبْتَ فِي النَّعْمِ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِعَمْرِ حَسَابٍ ﴿٢٧﴾ .
 يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، معظماً لربك ومتوكلاً عليه، وشاكراً له ومفوضاً إليه: ﴿اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ﴾، أي: لك الملك كله ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾، أي: أنت المعطي، وأنت المانع، وأنت الذي ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن. وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة؛ لأن الله حول النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي المكي الأمي خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول الله إلى جميع الثقلين الإنس والجن، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله، وخصه بخصائص لم يُعْطَها نبياً من الأنبياء ولا رسولاً من الرسل، في العلم بالله وشرعيته وإطلاعه على الغيوب الماضية والآتية، وكشفه عن حقائق الآخرة ونشر أمته في الآفاق، في مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان، والشرائع، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، ما تعاقب الليل والنهار. ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَلَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَسْجُدُ لَكَ الْعَبَرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨﴾ . أي: أنت المتصرف في خلقك، الفعال لما تريد، كما رد تبارك وتعالى على من يتحكم عليه في أمره، حيث قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الزخرف: ٣١]. قال الله تعالى رداً عليهم: ﴿أَهَرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَن قَسَمِنَا إِنَّهُمْ مَّيْسَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَوَعَدْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الزخرف: ٣٢] أي: نحن نتصرف في خلقنا كما نريد، بلا ممانع ولا مدافع، ولنا الحكمة والحجة في ذلك، وهكذا نعطي النبوة لمن نريد، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٢١]. وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة إسحاق بن أحمد من تاريخه عن المأمون الخليفة: أنه رأى في قَصْرِ بِلَادِ الرُّومِ مكتوباً بالحميرية، فعرّب له، فإذا هو: باسم الله ما اختلف الليل والنهار، ولا دارت نجوم السماء في الفلك إلا بنقل النعيم عن ملك قد زال سلطانه إلى ملك. ومثلُ ذي العرش دائم أبداً ليس بفانٍ ولا بمشترك. وقوله: ﴿قُلْ أَلَيْدُ فِي النَّهَارِ وَنُجْلُ النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: تأخذ من طول هذا فتزیده في قصر هذا فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا في هذا فيفتاوتان، ثم يعتدلان. وهكذا في فصول السنة: ربيعاً وصيفاً وخريفاً وشتاء. وقوله: ﴿تُخْرِجُ النَّعْمَ مِنَ النَّبْتِ وَتُدْخِلُ النَّبْتَ فِي النَّعْمِ﴾ أي: تخرج الحبّة من الزرع والزرع من الحبّة، والنخلة من النواة والنواة من النخلة، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، والدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِعَمْرِ حَسَابٍ﴾ أي: تعطي من شئت من المال ما لا يعبده ولا يقدر على إحصائه، وتقتدر على آخرين، لما لك في ذلك من الحكمة والإرادة والمشیئة والعدل. قال الطبراني: حدثنا محمد بن زكريا الغلابي، حدثنا جعفر بن جسر بن قزْد، حدثنا أبي، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «اسم الله الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب، في هذه الآية من آل عمران: ﴿قُلْ أَلَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَسْجُدُ لَكَ الْعَبَرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾» .

﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ وَلَآ أَن كَتَبْنَا مِنْهُمْ ثَقَنَةً وَبَعَدْنَاكُمْ اللَّهُ تَعَالَى وَلَآ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ .

نهى الله، تبارك وتعالى، عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين، وأن يتخذوهم أولياء يُسِرُّونَ إليهم بالمودة من دون المؤمنين، ثم تواعد على ذلك فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي: من يرتكب نهى الله في هذا فقد برىء من الله كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُوا أَن يَجْعَلُوا بَيْنَكُمْ سُلْطَانًا بَيْنَنَا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَةَ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ أَن يَحْبِسُوا عَنكُمْ ثَمَنَ الْبَرِّ إِنَّمَا اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة: ٥١]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوَّيْكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَهُكُم بِأَلْسِنَةٍ حَقِينَةٍ إِلَى أَن قَال: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٣١﴾﴾ [المنحة: ١] وقال تعالى - بعد ذكر موالة المؤمنين للمؤمنين من المهاجرين والأنصار والأعراب -: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِعَهْدِ اللَّهِ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ فِي الْأَرْضِ وَقَدْ كُتِبَ لَهُمُ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٧٣]. وقوله: ﴿لَآ أَن كَتَبْنَا مِنْهُمْ ثَقَنَةً وَبَعَدْنَاكُمْ اللَّهُ تَعَالَى وَلَآ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَمِيدُ﴾ أي: إلا من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، كما حكاه البخاري عن أبي الدرداء أنه قال: «إِنَّا لَنَكْشُرُ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ وَغُلُوبِنَا لَتَلْعَنَهُمُ». وقال الثوري: قال ابن عباس، رضي الله عنهما: ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان، وكذا رواه العوفي عن ابن عباس: إنما التقية باللسان، وكذا قال أبو العالية، وأبو الشعثاء والضحاك، والربيع بن أنس. ويؤيد ما قاله قول الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ لَآ مَنَ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَلَكِنْ مَن شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٩﴾ [النحل: ١٠٦]. وقال البخاري: قال الحسن: التقية إلى يوم القيامة. ثم قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي: يحذركم نقمته، أي مخالفته وسطوته في عذابه لمن وإلى أعداءه وعادى أوليائه. ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْكَاسِيَةُ﴾ أي: إليه المرجع والمنقلب، فيجازي كل عامل بعمله. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا مسلم بن خالد، عن ابن أبي حسين، عن عبد الرحمن بن سابط، عن عمرو بن ميمون بن مهران قال: قام فينا معاذ بن جبل فقال: يا بني أود، إني رسولُ رسولِ الله إليكم، تعلمون أن المعاد إلى الله إلى الجنة أو إلى النار.

﴿قُلْ إِن تَحِبُّوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوا فَمَنْ يَلْبَسُهُ اللَّهُ وَنَحْمُكَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَبْدَأُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْصَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾.

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والآفات واللحظات وجميع الأوقات، وبجميع ما في السموات والأرض، لا يغيب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال، وهو ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: قدرته نافذة في جميع ذلك. وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته، وألا يرتكبوا ما نهى عنه وما يَنْغِضُهُ مِنْهُمْ، فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، وإن أنظر من أنظر منهم، فإنه يمهّل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿يَوْمَ تَبْدَأُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْصَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ الآية، يعني: يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ يُنْفَخُ بِمَا قَدَّمَ وَكَثُرَ ﴿٣١﴾﴾ [القيامة: ١٣]، فما رأى من أعمال حسنًا سره ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح ساءه وغاظه، وود لو أنه تبرأ منه، وأن يكون بينهما أمد بعيد، كما يقول لشيطانه الذي كان مقترنًا به في الدنيا، وهو الذي جرّاه على فعل السوء: ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْبَسُ الْقَرْيُنُ﴾ [الزخرف: ٣٨]. ثم قال تعالى: مؤكداً ومهدداً ومتوعداً ﴿وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي: يخوفكم عقابه، ثم قال مرجعاً لعباده لئلا يياسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾. قال الحسن البصري: من رافته بهم حذرهم نفسه. وقال غيره: أي رحيم بخلقه، يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القويم، وأن يتبعوا رسوله الكريم.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٢﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرًا فَهُوَ زَدٌ» ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تُحِبَّ، إنما الشأن أن تُحَبَّ. وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا عبيد الله بن موسى عن عبد الأعلى بن أعين، عن يحيى بن أبي كثير، عن عروة، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «وَهَلْ الدِّينُ إِلَّا الْحُبُّ وَالْبُغْضُ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾» قال أبو زرعة: عبد الأعلى هذا منكر الحديث.

ثم قال: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: باتباعكم للرسول ﷺ يحصل لكم هذا كله ببركة سفارته. ثم قال أمراً لكل أحد من خاص وعام: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه يحب الله ويتقرب إليه، حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل، ورسول الله إلى جميع الثقلين الجن والإنس، الذي لو كان الأنبياء - بل المرسلون، بل أولوا العزم منهم - في زمانه لما وسعهم إلا اتباعه، والدخول في طاعته، واتباع شريعته، كما سيأتي تقريره عند قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية [آل عمران: ٨١] إن شاء الله تعالى.

﴿إِنَّ اللَّهَ اسْتَلَفَ نَادِمًا وَنَادِمًا إِبْرَاهِيمَ وَمَالَ عِزْرَةَ عَلَى الْغُلَامِينَ ﴿٣٤﴾ ذُرِّيَّةً بِضَافًا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى آدم، عليه السلام، خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة ثم أبطه منها، لما له في ذلك من الحكمة.

واصطفى نوحاً، عليه السلام، وجعله أول رسول بعثه إلى أهل الأرض، لما عبد الناس الأوثان، وأشركوا في دين الله ما لم ينزل به سلطاناً، وانتقم له لما طالت مدته بين ظهرائي قومه، يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاراً، فلم يزدحم ذلك إلا فراراً، فدعا عليهم، فأغرقهم الله عن آخرهم، ولم ينج منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به. واصطفى آل إبراهيم، ومنهم: سيد البشر وخاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ، وآل عمران، والمراد بعمران هذا: هو والد مريم بنت عمران، أم عيسى ابن مريم، عليهم السلام. قال محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله: هو عمران بن ياشم بن أمون بن ميثا بن حزقيا بن أحريق بن يوثم بن عزاريا بن أمصيا بن ياروش بن أجريهو بن يازم بن يهفاشاط بن إنشا بن أبيان بن رخييم بن سليمان بن داود، عليهما السلام. فعيسى، عليه السلام، من ذرية إبراهيم، كما سيأتي بيانه في سورة الأنعام، إن شاء الله وبه الثقة.

﴿إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُعَرَّرًا فَقَبَّلَ مِنْهُ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَصَّيْنَاهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَصَّيْنَاهُ أَنْتَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَصَّيْتُمْ وَلَيْسَ الذَّكَرَ كَالْأُنثَى وَلَئِنْ سَأَلْتَهُنَّ لَيَمُرَّ بِكُمْ لُؤْلُؤُ عُنُقِهِنَّ يَلَكَ وَدُورَتُهُمَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾.

امرأة عمران هذه أم مريم بنت عمران عليها السلام، وهي حنّة بنت فاقوذ، قال محمد بن إسحاق: وكانت امرأة لا تحمل، فرأت يوماً طائراً يُزَيِّقُ فرخه، فاشتتت الولد، فدعت الله، ﷻ، أن يهبها ولداً، فاستجاب الله دعاءها، فواقعها زوجها، فحملت منه، فلما تحققت الحمل نذرته أن يكون «مُعَرَّراً»، أي: خالصاً مفرغاً للعبادة، ولخدمة بيت المقدس، فقالت: «رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُعَرَّرًا فَقَبَّلَ مِنْهُ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»، أي: السميع لدعائي، العليم بنيتي، ولم تكن تعلم ما في بطنها أذكراً أم أنثى؟ «فَلَمَّا وَصَّيْنَاهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَصَّيْنَاهُ أَنْتَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَصَّيْتُمْ». قرئ برفع التاء على أنها تاء المتكلم، وأن ذلك من تمام قولها، وقرئ بتسكين التاء على أنه من قول الله ﷻ: «وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى»، أي: في القوة والجَلَد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُنَّ لَيَمُرَّ بِكُمْ لُؤْلُؤُ عُنُقِهِنَّ». فيه دلالة على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق؛ لأنه شرع من قبلنا، وقد حكي مقررًا، وبذلك ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ حيث قال: «وُلِدَ لِي اللَّيْلَةُ وَلَدٌ سَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ». أخرجاه، وكذلك ثبت فيهما أن أنس بن مالك ذهب بأخيه، حين ولدته أمه، إلى رسول الله ﷺ، فحنّكه وسمّاه عبد الله. وفي صحيح البخاري: أن رجلاً قال: يا رسول الله، وُلِدَ لِي وَلَدٌ، فما أسمّيه؟ قال: اسم وَلَدِكَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ. وثبت في الصحيح أيضاً: أنه لما جاءه أبو أسيد بانه ليحنّكه، فذهل عنه، فأمر به أبوه فَرَدَهُ إلى منزلهم، فلما ذكر رسول الله ﷺ في المجلس سمّاه المنذر. فأما حديث قتادة، عن الحسن البصري، عن سَمُرَةَ بن جُنْدُب؛ أن رسول الله ﷺ قال: كُلُّ غُلَامٍ رَمِينَ بِعَقِيْقَتِهِ، يُدْنِجُ عَنْهُ يَوْمَ سَابِعِهِ، وَيُسَمَّى وَيُحَلَّقُ رَأْسُهُ فَقَدْ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السَّنَنِ، وصححه الترمذي بهذا اللفظ، وروى: «وَيُدْنَمِي»، وهو أثبت وأحفظ، والله أعلم. وكذا ما رواه الزبير بن بكار في كتاب النسب: أن رسول الله ﷺ عَقَّ عن ولده إبراهيم يوم سابعه وسمّاه إبراهيم. فإسناده لا يثبت، وهو مخالف لما في الصحيح، ولو صح لَحُمِلَ على أنه أشهر اسمه بذلك يومئذ، والله أعلم. وقوله إخباراً عن أم مريم أنها قالت: «وَلَئِنْ أُمِيتُهَا يَلَكَ وَدُورَتُهُمَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»، أي: عَوَّدْتَهَا بِاللَّهِ، ﷻ، من شر الشيطان، وعوِذَتْ ذريتها، وهو ولدها عيسى، عليه السلام. فاستجاب الله لها ذلك كما قال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرُ، عن الزهري، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا مَسَّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهْلُ صَارِخاً مِنْ مَسِّهِ إِيَّاهُ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَتَهَا». ثم يقول أبو هريرة: اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: «وَلَئِنْ أُمِيتُهَا يَلَكَ وَدُورَتُهُمَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ». أخرجاه من حديث عبد الرزاق. ورواه ابن جرير، عن أحمد بن الفرّج، عن بَقِيَّة، عن الزبيدي عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، بنحوه. وروى من حديث قيس، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا وَقَدْ عَصَرَهُ الشَّيْطَانُ عَصْرَةً أَوْ عَصْرَتَيْنِ إِلَّا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَمَرْيَمَ» ثم قرأ رسول الله ﷺ: «وَلَئِنْ أُمِيتُهَا يَلَكَ وَدُورَتُهُمَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ». ومن حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة. ورواه مسلم، عن أبي الطاهر، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن أبي يونس، عن أبي هريرة. ورواه وهب أيضاً، عن ابن أبي ذئب، عن غنجلان مولى المشمعل، عن أبي هريرة، ورواه محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبد الله بن قُسيط، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بأصل الحديث. وهكذا رواه الليث بن سعد، عن جعفر بن ربيعة، عن عبد الرحمن بن هرمز، الأعرج قال: قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ يَطْعَنُ الشَّيْطَانُ فِي جَنْبِهِ حِينَ يَلِدُهُ أُمُّهُ، إِلَّا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، ذَهَبَ يَطْعَنُ فُطْعَنَ فِي الْحِجَابِ».

قوله: ﴿مُمَدِّقًا يَكْمَلُ مِنَ اللَّهِ﴾ قال: كان يحيى وعيسى ابني خالة، وكانت أم يحيى تقول لمريم: إني أجد الذي في بطني يَسْجُدُ للذي في بطنك فذلك تصديقه بعيسى: تصديقه له في بطن أمه، وهو أول من صدق عيسى، وكلمة الله عيسى، وهو أكبر من عيسى، عليه السلام، وهكذا قال السدي أيضاً. وقوله: ﴿وَسَيِّدًا﴾ قال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، وسعيد بن جبير، وغيرهم: الحكيم، وقال قتادة: سيداً في العلم والعبادة. وقال ابن عباس، والثوري، والضحاك: السيد الحكيم المتقي، وقال سعيد بن المسيب: هو الفقيه العالم. وقال عطية: السيد في خلقه ودينه. وقال عكرمة: هو الذي لا يغلبه الغضب. وقال ابن زيد: هو الشريف. وقال مجاهد وغيره: هو الكريم على الله، ﷺ.

وقوله: ﴿وَحَصُورًا﴾ روي عن ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبي الشعثاء، وعطية العوفي أنهم قالوا: هو الذي لا يأتي النساء. وعن أبي العالية والربيع بن أنس: هو الذي لا يولد له. وقال الضحاك: هو الذي لا ولد له ولا ماء له. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، أنبأنا جرير، عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس في الحَصُور: الذي لا ينزل الماء، وقد روى ابن أبي حاتم في هذا حديثاً غريباً جداً فقال: حدثنا أبو جعفر محمد بن غالب البغدادي، حدثني سعيد بن سليمان، حدثنا عبادة - يعني ابن العوام - عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن ابن العاص - لا يدري عبد الله أو عمرو - عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ قال: ثم تناول شيئاً في الأرض فقال: «كان ذكره مثل هذا». ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان حدثنا يحيى بن سعيد القطان، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، أنه سمع سعيد بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: ليس أحد من خلق الله لا يلقاه بذنب غير يحيى بن زكريا، ثم قرأ سعيد: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾، ثم أخذ شيئاً من الأرض فقال: الحصور ما كان ذكره مثل ذي وأشار يحيى بن سعيد القطان بطرف إصبعه السبابة. فهذا موقوف، وهو أقوى إسناداً من المرفوع، بل وفي صحة المرفوع نظر، والله سبحانه وتعالى أعلم. وقد قال القاضي عياض في كتابه الشفاء: اعلم أن شاء الله تعالى على يحيى أنه كان ﴿وَحَصُورًا﴾ ليس كما قاله بعضهم: إنه كان هيوياً، أو لا ذكر له، بل قد أنكر هذا خذائق المفسرين ونقاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب ولا تليق بالأنبياء، عليهم السلام، وإنما معناه: أنه معصوم من الذنوب، أي لا يأتيها كأنه حصر عنها، وقيل: مانعاً نفسه من الشهوات. وقيل: ليست له شهوة في النساء. وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم قمعها: إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله ﷻ، كيحيى عليه السلام. ثم هي حق من أقدار عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه درجة عليها، وهي درجة نبينا محمد ﷺ الذي لم يشغله كثرتهم عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة، بتحسينهن وقيامه عليهن، واكتسابه لهن، وهدايته إياهن. بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره، فقال: «حُبُّ إِلَهِ مِنْ دُنْيَاكُمْ». هذا لفظه. والمقصود أن مدح يحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتي النساء، بل معناه كما قاله هو وغيره: أنه معصوم عن الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال: ﴿وَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ كأنه قال: ولداً له ذرية ونسل وعقب، والله سبحانه وتعالى أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا عيسى بن حماد رُغْبَةُ ومحمد بن سلمة المرادي قالا: حدثنا حجاج، عن سلمان بن القمري، عن الليث بن سعد، عن محمد بن عجلان، عن القعقاع، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «كل ابن آدم يلقي الله بذنب قد أذنبه يعذبه عليه إن شاء أو يرحمه، إلا يحيى بن زكريا، فإنه كان سيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين». ثم أهوى النبي ﷺ إلى قذاة من الأرض فأخذها وقال: «كان ذكره مثل هذه القذاة».

قوله: ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ هذه بشارة ثانية بنبوته يحيى بعد البشارة بولادته، وهي أعلى من الأولى كقوله تعالى لأم موسى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْكَ الْوَحِيدَ﴾ [النقص: ٧] فلما تحقق زكريا، عليه السلام، هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ﴾ أي الملك: ﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شيء ولا يتعاضله أمر ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي: علامة أستدل بها على وجود الولد مني ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا زَوْجًا﴾ أي: إشارة لا تستطيع النطق، مع أنك سوي صحيح، كما في قوله: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] ثم أمر بكثرة الذكر والشكر والتسبيح في هذه الحال، فقال: ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّيْتِ وَالْإِنْكِرِ﴾. وسيأتي طرف آخر في بسط هذا المقام في أول سورة مريم، إن شاء الله تعالى.

﴿وَلَا قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ مَخْلُوقٌ وَطَهَّرَكَ وَطَهَّرَكَ عَلَىٰ نَسَاةٍ الْفَالِوِيكُ ۚ يَمْرُؤُا أَفَتُنِىٰ رَبِّكَ وَأَسْمُرِي وَأَذْكُرِي مَعَ الْأَكْفِيكُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [١١].

هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم، عليها السلام، عن أمر الله لهم بذلك: أن الله قد اصطفاها، أي: اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهرها من الأكدار والوسواس، واصطفاها ثانياً مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين. قال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرُ، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ النَّاسِ﴾. قال: كان أبو هريرة يحدث عن رسول الله ﷺ: «خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبَ الْإِبِلَ نِسَاءُ قُرَيْشٍ، أَخْنَأُ عَلَى وَلَدٍ فِي صِغَرِهِ، وَأَزْعَا عَلَى رُجُوجٍ فِي ذَاتِ يَدَيْهِ، وَلَمْ تَرْكَبْ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ بَعِيرًا قَطُّ». لم يخرجوه من هذا الوجه، سوى مسلم فإنه رواه عن محمد بن رافع وعبد بن حميد، كلاهما عن عبد الرزاق، به. وقال هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن جعفر، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خَيْرُ نِسَائِهِا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ». أخرجاه في الصحيحين، من حديث هشام، به مثله. وقال الترمذي: حدثنا أبو بكر بن زنجويه، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَرُ، عن قتادة: عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «حَسْبُكِ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَقَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَأَسِيَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ» تفرد به الترمذي وصححه. وقال عبد الله بن أبي جعفر الرازي، عن أبيه قال: كان ثابت البُنَّاني يحدث عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قال: «خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ أَرْبَعٌ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَأَسِيَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَقَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ». رواه ابن مردويه. وروى ابن مردويه من طريق شعبة، عن معاوية بن قرة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمُلُ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا ثَلَاثٌ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَأَسِيَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَضْلٌ عَائِشَةُ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ». وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا آدم العسقلاني، حدثنا شعبة، حدثنا عمرو بن مرة، سمعت مرة الهمداني يحدث عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمُلُ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَأَسِيَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ». وقد أخرجه الجماعة إلا أبا داود من طرق عن شعبة به، ولفظ البخاري: «كَمُلُ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَسِيَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنْ فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ». وقد استقصيت طرق هذا الحديث وألفاظه في قصة عيسى ابن مريم، عليها السلام، في كتابنا: «البيداية والنهاية» والله الحمد والمنة.

ثم أخبر تعالى عن الملائكة: أنهم أمروها بكثرة العباد والخشوع والخضوع والسجود والركوع والدُّوب في العمل لها، لما يريد الله تعالى بها من الأمر الذي قدره وقضاه، مما فيه محنة لها ورفعة في الدارين، بما أظهر الله تعالى فيها من قدرته العظيمة، حيث خلق منها ولدًا من غير أب، فقال تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ أُنْثَىٰ لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ﴾ [١١٦]. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث: أن ذراجاً أباً السَّمْحِ حدثه عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ حَرْفٍ فِي الْقُرْآنِ يَذْكُرُ فِيهِ الْقُنُوتُ فَهُوَ الطَّاعَةُ». ورواه ابن جرير من حديث ابن لهيعة، عن ذراج، به، وفيه نكارة. وقال مجاهد: كانت مريم، عليها السلام، تقوم حتى تتورم كعباها، والقنوت هو: طول الركود في الصلاة، يعني امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ أُنْثَىٰ لِرَبِّكِ﴾. بل قال الحسن: يعني عبيد لربك ﴿وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ﴾ أي: كوني منهم. وقال الأوزاعي: ركزت في محرابها راكعة وساجدة وقائمة، حتى نزل الماء الأصفر في قدميها، رضي الله عنها. وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمتها من طريق محمد بن يونس الكندي - وفيه مقال -: حدثنا علي بن بحر بن بري، حدثنا الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير في قوله: ﴿يَتَذَكَّرُ أُنْثَىٰ لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي﴾ قال: سَجَدَتْ حتى نزل الماء الأصفر في عينيها. وذكر ابن أبي الدنيا: حدثنا الحسن بن عبد العزيز، حدثنا ضُمَيْرَةُ، عن ابن شُوذْبَ قال: كانت مريم، عليها السلام، تغتسل في كل ليلة.

ثم قال تعالى لرسوله عليه أفضل الصلوات والسلام بعدما أطلعه على جلية الأمر: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي: نقصه عليك ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَحَ أَهْمُ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَتَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: ما كنت عندهم يا محمد فتخبرهم عنهم معانية عما جرى، بل أطلعك الله على ذلك كأنك كنت حاضراً وشاهداً لما كان من أمرهم حين اقتصروا في شأن مريم أيهم يكفلها، وذلك لرغبتهم في الأجر. قال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني حجاج، عن ابن جريج، عن القاسم بن أبي بزة، أنه أخبره عن عكرمة - وأبي بكر، عن عكرمة - قال: ثم خَرَجَتْ بها - يعني أم مريم بمريم - تحملها في خرقها إلى بني الكاهن بن هارون أخي موسى، عليهما السلام - قال: وهم يومئذ يولون في بيت المقدس ما يلي الحَجَبَةِ من الكعبة - فقالت لهم: ذونكم هذه النَّبِيرَةُ فإني حررتها وهي ابنتي، ولا تدخل الكنيسة حائض، وأنا لا أردّها إلى بيتي؟ فقالوا:

هذه ابنة إمامنا - وكان عمران يؤمهم في الصلاة - وصاحب قربانا فقال زكريا: ادفعوها إلي: فإن خالتي تحتي. فقالوا: لا تطيب أنفسنا، هي ابنة إمامنا فذلك حين اقترعوا بأقلامهم عليها التي يكتبون بها التوراة، فقرأهم زكريا، فكفلها. وقد ذكر عكرمة أيضاً، والسدي، وقتادة، والربيع بن أنس، وغير واحد - دخل حديث بعضهم في بعض - أنهم دخلوا إلى نهر الأردن واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم فيه فإيهم ثبت في جزية الماء فهو كافلها، فآلقوا أقلامهم فاحتلمها الماء، إلا قلم زكريا فإنه ثبت. ويقال: إنه ذهب صُعْدًا يشق جرية الماء، وكان مع ذلك كبيرهم وسيدهم، وعالمهم وإمامهم ونبیهم صلوات الله وسلامه عليه وسائر النبيين والمرسلين.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لِمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الطَّيِّبُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَعَزَ أَمْرًا فَلَا يَأْتِيهِ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾.

هذه بشارة من الملائكة لمريم، عليها السلام، بأن سيوجد منها ولد عظيم، له شأن كبير. قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لِمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ أي: بولد يكون وجوده بكلمة من الله، أي: بقوله له: «كن» فيكون، وهذا تفسير قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِكَلِمَةٍ مِنْ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٩] كما ذكره الجمهور على ما سبق بيانه ﴿اسْمُهُ الطَّيِّبُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي يكون مشهوراً بهذا في الدنيا، يعرفه المؤمنون بذلك. وسمي المسيح، قال بعض السلف: لكثرة سياحته. وقيل: لأنه كان مسيح القدمين: أي لا أخصص لهما. وقيل: لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات برىء بإذن الله تعالى. وقوله: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ نسبة له إلى أمه، حيث لا أب له ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: له وجاعة ومكانة عند الله في الدنيا، بما يوحيه الله إليه من الشريعة، وينزل عليه من الكتاب، وغير ذلك مما منحه به. وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه، أسوة بإخوانه من أولي العزم، صلوات الله عليهم. وقوله: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي: يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، في حال صغره، معجزة آية، وفي حال كهولته حين يوحى الله إليه بذلك ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: في قوله وعمله، له علم صحيح وعمل صالح. قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن محمد بن شرحبيل، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «مَا تَكَلَّمَ مَوْلُودٌ فِي صَغَرِهِ إِلَّا عِيسَى وَصَاحِبُ جُرْنِجٍ». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو الصقر يحيى بن محمد بن قزعة، حدثنا الحسين - يعني المروزي - حدثنا جبر - يعني ابن حازم - عن محمد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ، عِيسَى، وَصَبِيٌّ كَانَ فِي زَمَنِ جُرْنِجٍ، وَصَبِيٌّ آخَرٌ». فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك، عن الله، ﷻ قالت في مناجاتها: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ تقول: كيف يوجد هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج ولا من عزمي أن أتزوج، ولست بغيا؟ حاشا لله. فقال لها الملك - عن الله، ﷻ في جواب هذا السؤال -: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شيء. وصرح لها بقوله: ﴿يَخْلُقُ﴾ ولم يقل: «يفعل» كما في قصة زكريا، بل نص لها على أنه يخلق؛ لئلا يبقى شبهة، وأكد ذلك بقوله: ﴿إِذَا قَعَزَ أَمْرًا فَلَا يَأْتِيهِ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: فلا يتأخر شيئاً، بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجْدَةٌ كُلُّهَا بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [الفرق: ٥٠]، أي: إنما نأمر مرة واحدة لا مشاورة فيها، فيكون ذلك الشيء سريعاً كالمح بالبحر.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِنْ بَقِيَ إِشْرَافُ أَنْ يَدَّ جَنَّتَكُمْ بِأَيِّهِمْ أَنْ تَخْلُقَ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُزْرُوثُ الْأَكْصَى وَالْأَيْمَنُ وَأُمِّي التَّوْرَةِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَشْرَبُونَ فِي يُؤَيِّدُكُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَكُنْهٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلاَحْجَلُ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجَنَّتَكُمْ بِأَيِّهِمْ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَنْفُخُوا فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَرَبِّكُمْ فَأَنْفُخُوا هَذَا صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥١﴾﴾.

يقول تعالى - مخبراً عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى، عليه السلام - أن الله يعلمه ﴿الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ﴾ الظاهر أن المراد بالكتاب ههنا الكتابة. والحكمة تقدم الكلام على تفسيرها في سورة البقرة. و ﴿التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ فالتوراة: هو الكتاب الذي أنزله الله على موسى بن عمران. والإنجيل: الذي أنزله الله على عيسى عليهما السلام، وقد كان عيسى عليه السلام، يحفظ هذا وهذا. وقوله: ﴿وَرَسُولًا إِنْ بَقِيَ إِشْرَافُ أَنْ يَدَّ جَنَّتَكُمْ بِأَيِّهِمْ﴾ أي: ويجعله رسولاً إلى بني إسرائيل، قائلاً لهم: ﴿إِنْ قَدْ جَنَّتَكُمْ بِأَيِّهِمْ مِنْ رَبِّكُمْ أَنْ تَخْلُقَ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وكذلك كان يفعل: يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخ فيه، فيطير عياناً بإذن الله، ﷻ الذي جعل هذا معجزة يَدُلُّ على أن الله أرسله. ﴿وَأُزْرُوثُ الْأَكْصَى﴾ قيل: هو الذي يبصر نهاراً ولا يبصر ليلاً. وقيل بالعكس: وقيل: هو الأعشى. وقيل: الأعمش. وقيل: هو الذي يولد أعمى. وهو أشبه؛ لأنه

إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰٓيٰسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الذِّنِّ كَمَا جِئْتَ بِنَجْوَىٰكَ وَجَاعِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَاعْلَمُوا أَنَّهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا الصَّالِحِينَ فَوَقَّعْنَا لَهُمُ الْجَنَّةَ الَّتِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٥٧﴾ لَا يُمْسِكُهُمُ الْعَذَابُ فَهُمْ لَهُمُ الْمَسْكَنَاتُ وَأُولَئِكَ فِي الْجَنَّةِ مُقَرَّبُونَ ﴿٥٨﴾

اختلف المفسرون في قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾. فقال قتادة وغيره: هذا من المقدم والمؤخر، تقديره: إني رافعك إلي ومتوفيك، يعني بعد ذلك. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: ميمتك. وقال محمد بن إسحاق، عمن لا يتهم، عن وهب بن مئنه، قال: توفاه الله ثلاث ساعات من النهار حين رفعه الله إليه. قال ابن إسحاق: والنصارى يزعمون أن الله توفاه سبع ساعات ثم أحياه. وقال إسحاق بن بشر، عن إدريس، عن وهب: أماته الله ثلاثة أيام، ثم بعثه، ثم رفعه. وقال مطر الوراق: متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت، وكذا قال ابن جريج: توفيه هو رفعه. وقال الأكثرون: المراد بالوفاة ههنا: النوم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَاسِكِهَا فِيمِنْكُمْ أَلَّذِي فَضَّلَ عَلَىكَ الْوَيْتَ وَيُرْسِلَ الْخُفْرَةَ إِلَيْكَ أَجَلٌ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢]، وكان رسول الله ﷺ يقول: إذا قام من النوم -: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْيَانَنَا بَعْدَ مَا آمَانَتْنا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»، وقال الله تعالى: ﴿وَيَكْفُرْهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بَهْتًا عَظِيمًا﴾ [١٥٦] وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا قُلُوهُ يَحْتَابِلُ رَبُّهُمُ اللَّهُ أَيُّهُ وَكَانَ اللَّهُ غَيْرًا حَكِيمًا﴾ [١٥٨] وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَلِيلٌ مَّوَدَّةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ سَبِيحًا﴾ [١٥٩] [النساء: ١٥٦ - ١٥٩] والضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ عائذ على عيسى، عليه السلام، أي: وإن من أهل الكتاب إلا يؤمن بعيسى قبل موت عيسى، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة، على ما سيأتي بيانه، فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلهم؛ لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثنا عبد الله بن أبي جعفر، عن أبيه، حدثنا الربيع بن أنس، عن الحسن أنه قال في قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ يعني وفاة المنام، رفعه الله في منامه. قال الحسن: قال رسول الله ﷺ لليهود: «إِنَّ عِيسَى لَمْ يَمُتْ، وَإِنَّهُ رَاجِعٌ إِلَيْكُمْ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ». وقوله تعالى: ﴿وَتُطَهَّرُكَ مِنَ الذَّرِّينَ كَفَرُوا﴾ أي: برفعي إياك إلى السماء ﴿وَيَسْأَلُ الَّذِينَ آمَنُواكَ فَوْقَ الذَّرِّينَ كَفَرُوا إِنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وهكذا وقع؛ فإن المسيح، عليه السلام، لما رفعه الله إلى السماء تفرقت أصحابه شيعاً بعده؛ فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله. وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة. وقد حكى الله مقالاتهم في القرآن، ورد على كل فريق، فاستمروا كذلك قريباً من ثلاثمائة سنة، ثم تبع لهم ملك من ملوك اليونان، يقال له: قسطنطين، فدخل في دين النصرانية، قيل: حيلة ليفسده، فإنه كان فيلسوفاً، وقيل: جهلاً منه، إلا أنه بدل لهم دين المسيح وحرّفه، وزاد فيه ونقص منه، ووضعت له القوانين والأمانة الكبيرة - التي هي الخيانة الحقيرة - وأحل في زمانه لحم الخنزير، وصلوا له إلى المشرق، وصوروا له الكنائس، وزادوا في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه، فيما يزعمون. وصار دين المسيح دين قسطنطين إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثني عشر ألف معبد، وبنى المدينة المنسوبة إليه، واتبعه الطائفة الملكية منهم. وهم في هذا كله قاهرون لليهود، أيدهم الله عليهم لأنهم أقرب إلى الحق منهم، وإن كان الجميع كفار، عليهم لعائن الله.

فلما بعث الله محمداً ﷺ فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق - كانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض - إذ قد صدقوا الرسول النبي الأمي، خاتم الرسل، وسيد ولد آدم، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق، فكانوا أولى بكل نبي من أمته، الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته، مع ما قد خرفوا وبدلوا. ثم لو لم يكن شيء من ذلك لكان قد نسخ الله بشريعته شريعة جميع الرسل بما بعث به محمداً ﷺ من الدين الحق، الذي لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة، ولا يزال قائماً منصوراً ظاهراً على كل دين. فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها، واحتازوا جميع الممالك، ودانت لهم جميع الدول، وكسروا كسرى، وقصروا قصر، وسلبوها كنوزهما، وأنفتحت في سبيل الله، كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم، ﷺ في قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥] ولهذا لما كانوا هم المؤمنون بالمسيح حقاً سلبوا النصارى بلاد الشام وأجلّوهم إلى الروم، فلجؤوا إلى مدينتهم القسطنطينية، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة. وقد أخبر الصادق المصدوق أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية، ويستفيضون ما فيها من الأموال، ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جداً، لم ير الناس مثلاً ولا يرون بعدها نظيراً، وقد جمعت في هذا جزءاً مفرداً. ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُ الَّذِينَ آمَنُواكَ فَوْقَ الذَّرِّينَ كَفَرُوا إِنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَأَكْبَرُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَأَنصَحْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ يَوْمَ تُخْلَفُونَ فَمَّا الذَّرِّينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الذَّيْنِ وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ]، وكذلك فعل تعالى بمن كفر بالمسيح من اليهود، أو غلا فيه وأطراه من النصارى؛ عذبهم في الدنيا بالقتل والسبي وأخذ الأموال وإزالة الأيدي عن الممالك، وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ

من واق ﴿الرعد: ٣٤﴾. «وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَفَلُوا فَلَسَلَحْتْ فَيُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ»، أي: في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالنصر والظفر، وفي الآخرة بالجنات العاليات ﴿وَأَلَّهُ لَا يُعْبُؤُ النَّظَّيِيرَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ (٩٨) أي: هذا الذي قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ فِي أَمْرِ عِيسَى وَمِيلَادِهِ وَكَيْفِيَةِ أَمْرِهِ، هُوَ مِمَّا قَالَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ وَنَزَّلَهُ عَلَيْكَ مِنَ اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ، فَلَا مَرِيَّةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٢١) مَا كَانَ لَهُ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّا نَقُولُ لَهُ إِنِّي أَنَا فَعَلْتُهَا - وَمُهْنًا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَرْيَمُ﴾ (٣٤، ٣٥)

﴿إِنْ مَثَلٌ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُتَعَذِّينَ ﴿٦٠﴾ مَن حَاجَّكَ فَبِهِ مِنْ
بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَلِيِّ فَقُلْ مَا تَوَلَّوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَآبَاءَكُمْ وَآبَاءَكُمْ وَآبَاءَكُمْ وَأَنْتُمْ وَأَنْتُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَمَنَّا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦١﴾
إِنْ هَذَا لَهُوَ الْفُتُورُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَئِنْ أَنَا لَهُ الْقَرِينُ الْعَكِيدُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ قَوْلُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْعِدِينَ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ ۖ فِي قَدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ حَيْثُ خَلَقَهُ مِنْ غَيْرِ أَبِي ۖ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ خَلَقَهُ مِنْ غَيْرِ أَبِي وَلَا أُمٍّ ۖ بَلْ خَلَقَهُ مِنْ رُكْبَةٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ والذي خلق آدم قادر على خلق عيسى بالطريق الأولى والأخرى، وإن جاز ادعاء النبوة في عيسى بكونه مخلوقاً من غير أب، فجاوز ذلك في آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواها في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً. ولكن الرب، ﷻ أراد أن يظهر قدرته لخلقه، حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى؛ وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى، ولهذا قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَلَنَجْجِلكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ (مريم: ٢٦)، وقال لهمنا: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (١٠) أي: هذا القول هو الحق في عيسى، الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

ثم قال تعالى - أمراً رسوله ﷺ أن يباهل من غائده الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان : ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَدُو مَا جَاءَكَ مِنْ آلِهِمْ فَقُلْ تَمَازُوا نَدْعُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاؤَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَأَنْفُسَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ﴾ أي : نحضرهم في حال المباهلة ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ لَمَنْتَ اللَّهُ عَلَى الْكُذِبِ﴾ أي : نلتعن ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ لَمَنْتَ اللَّهُ عَلَى الْكُذِبِ﴾ أي : من أوا منكـم . وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نجران ، أن النصارى حين قدموا فجعلوا يَحَاجُّونَ في عيسى ، ويزعمون فيه ما يزعمون من النبوة والإلهية ، فأنزل الله صَدْرَ هذه السورة رَدّاً عليهم ، كما ذكره الإمام محمد بن إسحاق بن يسار وغيره . قال ابن إسحاق في سيرته المشهورة وغيره : وقَدَّم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نَجْرَان ، ستون راكباً ، فيهم أربعة عَشْرَ رجلاً من أشرافهم يؤول إليهم أمرهم ، وهم : العاقب ، واسمه عبد المسيح ، والسيد ، وهو الأيهم ، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل ، وأريس الحارث ، وزيد ، وقيس ، ويزيد ، ونبية ، وخويلد ، وعَمْرُو ، وخالد ، وعبد الله ، وَيَحْنَسُ . وأَمُرُ هؤلاء يؤول إلى ثلاثة منهم ، وهم : العاقب وكان أمير القوم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم ، والذي لا يصدرُونَ إلا عن رأيهِ ، والسيد وكان عالمهم وصاحب رَحْلِهِمْ ومُجْتَمِعِهِمْ ، وأبو حارثة بن علقمة وكان أَسْقَفَهُمْ وخَبِيرَهُمْ وإمامهم وصاحب مدراسهم ، وكان رجلاً من العرب من بني بكر بن وائل ، ولكنه تَفَضَّرَ ، فعظمت الروم وملوكها وشرفوه ، وبنوا له الكنائس وَمَوَلُّوه وأَخَذَمُوهُ ، لما يعلمونه من صلابته في دينهم . وقد كان يعرف أمر رسول الله ﷺ وشأنه وصفته بما علمه من الكتب المتقدمة جيداً ، ولكن احتمله جهله على الاستمرار في النصرانية لما يرى من تعظيمه فيها ووجاهته عند أهلها . قال ابن إسحاق : وحدثنني محمد بن جعفر بن الزبير ، قال : قَدِمُوا على رسول الله ﷺ المدينة فدخلوا عليه مَسْجِدَهُ حين صلى العصر ، عليهم ثياب الحبريات : جُبَّ وأَزْدِيَّة ، في جَمَال رجال بني الحارث بن كعب . قال : يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي ﷺ : ما رأينا بعدهم وفداً مثْلهم . وقد حانت صلاتهم ، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ يصلون ، فقال رسول الله ﷺ : دَعُوهم ، فصلوا إلى المشرق . قال : فكلم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة ، والعاقب عبد المسيح ، أو السَّيِّدُ الأيهم ، وهم من النصرانية على دين الملك ، مع اختلاف أمرهم ، يقولون : هو الله ، ويقولون : هو ولد الله ، ويقولون : هو ثالث ثلاثة . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وكذلك قول النصرانية ، فهم يحتجون في قولهم : «هو الله» بأنه كان يحيي الموتى ، وَيُبْرِئُ الْأَسْقَامَ ، ويخبر بالغيوب ، ويخلق من الطين كهيئة الطير ، ثم ينفخ فيه فيكون طيراً . وذلك كله بأمر الله ، وليجعله آية للناس . ويحتجون في قولهم بأنه ابن الله ، يقولون : لم يكن له أب يعلم ، وقد تكلم في المهد بشيء لم يصنعه أحد من بني آدم قبله . ويحتجون في قولهم بأنه ثالث ثلاثة ، بقول الله تعالى : فعلنا ، وأمرنا ، وخلقنا ، وقضينا ؛ فيقولون : لو كان واحداً ما قال إلهاً فخلقنا وقضيتُ وأمرتُ وخلقْتُ ؛ ولكنه هو وعيسى ومَرْيَمُ وفي كل ذلك من قولهم قد نزل القرآن .

فلما كلمه الخبران قال لهما رسول الله ﷺ: «أَسْلِمَا» قالا: قد أسلمنا. قال: «إِنكُمَا لَمْ تُسْلِمَا فَأَسْلِمَا» قالا: بلى، قد أسلمنا قبلك. قال: «كَذَبْتُمَا، يَمْنَعُكُمَا مِنَ الْإِسْلَامِ دَعَاؤُكُمَا لِلَّهِ وَلِدَا، وَعِبَادَتُكُمَا الصَّلِيبِ وَأَكْلُكُمَا الْخِزْيِرَ» قالا: فمن أبوه يا محمد؟ فَصَمَّتْ رسول الله ﷺ عنهما فلم يجيبهما، فأنزل الله في ذلك من قولهم، واختلاف أمرهم، صَدْرَ سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها. ثم تَكَلَّمَ ابن إسحاق على التفسير إلى أن قال: فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله، والفَضْلُ من القضاء بينه وبينهم، وأمر بما أمر به من ملاعتهم إن رَدَّوا ذلك عليه، دعاهم إلى ذلك؛ فقالوا: يا أبا القاسم، دَعْنَا نَنْظُرَ فِي أَمْرِنَا، ثم نَأْتِيكَ بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه، فانصرفوا عنه، ثم خَلَّوْا بالعاقب، وكان ذا رأيهم، فقالوا: يا عبد المسيح، ماذا ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى لقد عَرَفْتُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا نَبِيُّ مَرْسَل، ولقد جاءكم بالفَضْل من خَبَرِ صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لَأَعَن قوم نبياً قط فبقى كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبَيْتُمْ إلّا ألف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. فاتوا النبي ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، قد رأينا ألا نلاعنك، ونتركك على دينك، ونرجع على ديننا، ولكن ابعت معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا في أشياء اختلافنا فيها من أموالنا، فإنكم عندنا رَضًا. قال محمد بن جعفر: فقال رسول الله ﷺ: «اثْنُونِي أَلَعَشِيَّةً ابْعَثْ مَعَكُمْ الْقَوِي الْأَمِين»، فَكَانَ عمر بن الخطاب يقول: ما أَحْبَبْتُ الْإِمَارَةَ قَطُّ حَتَّى إِيَّاهَا يَوْمُئِذٍ، رجاء أن أكون صاحبها، فَرُخْتُ إِلَى الظَّهْرِ مُهْجَرًا، فلما صلى رسول الله ﷺ الظَّهْر سَلَّمَ، ثم نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ، فجعلت أُنْطَاقُوه له ليراني، فلم يَزَلْ يَلْتَمِسُ بَصَرَهُ حَتَّى رَأَى أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجُرَّاحِ، فدعاه: «أَخْرِجْ مَعَهُمْ، فَأَقْضِ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ يَمَّا اخْتَلَفُوا فِيهِ». قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة، رضي الله عنه. وقد روى ابن مردويه من طريق محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن رافع بن خَدِيج: أن وفد أهل نجران قدموا على رسول الله ﷺ فذكر نحوه، إلّا أنه قال في الأشراف: كانوا اثني عشر. وذكر بقيته بأطول من هذا السياق، وزادات آخر. وقال البخاري: حدثنا عباس بن الحسين، حدثنا يحيى بن آدم، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن صِلَةَ بن زُفَرٍ، عن حذيفة قال: جاء العاقبُ والسيدُ صاحباً نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تَفْعَلْ، فوالله إن كان نبياً فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا. قالا: إنا نعطيك ما سألنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلّا أميناً. فقال: «لَا تَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا، حَقٌّ أَمِينٌ»، فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: «فَمَنْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنُ الْجُرَّاحِ؟» فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هَذَا أَمِينٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ». ورواه البخاري أيضاً، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، من طرق عن أبي إسحاق السبيعي، عن صِلَةَ، عن حذيفة، بنحوه. وقد رواه أحمد، والنسائي، وابن ماجة، من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق، عن صِلَةَ عن ابن مسعود، بنحوه. وقال البخاري: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، عن خالد، عن أبي قلابة، عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجُرَّاحِ». وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن يزيد الرُّزِّيُّ أبو يزيد، حدثنا قُرَات، عن عبد الكريم بن مالك الجَزْرِي، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال أبو جهل: إن رأيت رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة لأتينه حتى أطأ على عتقه. قال: فقال: «لو فعل لأخَذْتَهُ الْمَلَائِكَةُ عِيَانًا، ولو أن اليهود تمثوا الموت لماتوا وأروا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون ما ولا أهلاً». وقد رواه الترمذي، والنسائي، من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن عبد الكريم، به. وقال الترمذي. حديث حسن صحيح. وقد روى البيهقي في دلائل النبوة قصّة وفَدَّ نَجْرَانَ مطولة جداً، ولنذكره فإن فيه فوائد كثيرة، وفيه غرابة وفيه مناسبة لهذا المقام، قال البيهقي:

حدثنا أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد محمد بن موسى بن الفضل، قالا: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس بن بكير، عن سلمة بن عبد يسوع، عن أبيه، عن جده - قال يونس: وكان نصرانياً فأسلم -: إن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل نجران قبل أن ينزل عليه طس سليمان: «بِاسْمِ إِلَهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى أَشْقَفِ نَجْرَانَ وَأَهْلِ نَجْرَانَ سَلِّمْ أَنْتُمْ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكُمْ إِلَهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ، وَأَدْعُوكُمْ إِلَى وَلَايَةِ اللَّهِ مِنْ وَلَايَةِ الْعِبَادِ، فَإِنِ ابْنَيْتُمْ فَالْجَزِيَّةُ، فَإِنِ ابْنَيْتُمْ أَدْنَتْكُمْ بِحَرْبٍ وَالسَّلَامُ». فلما أتى الأسقف الكتاب فقرأه فقطع به، ودَعَرَهُ دَعْرًا شَدِيدًا، وبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له. شَرَحْبِيلَ بن وداعة - وكان من همدان ولم يكن أحد يُدْعَى إِذَا نَزَلَتْ مُغْضَلَةٌ قَبْلَهُ، لا الأيهم ولا السيد ولا العاقب - فدفع الأسقف كتاب رسول الله ﷺ إلى شَرَحْبِيلَ، فقرأه، فقال الأسقف: يا أبا مريم، ما رأيك؟ فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة، فما يؤمن أن يكون هذا هو ذاك الرجل، ليس لي في النبوة رأي، ولو كان أمر من

أمور الدنيا لأشرت عليك فيه برأيي، وجَهِدْتُ لك، فقال له الأسقف: تَتَحُ فاجلس. فَتَنَحَّى شرحبيل فجلس ناحية، فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران، يقال له: عبد الله بن شرحبيل، وهو من ذي أصبح من حمير، فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأي فيه، فقال له مثل قول شرحبيل، فقال له الأسقف: فاجلس، فَتَنَحَّى فجلس ناحية. وبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران، يقال له: جبار بن فيض، من بني الحارث بن كعب، أحد بني الحماس، فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأي فيه؟ فقال له مثل قول شرحبيل وعبد الله، فأمره الأسقف فَتَنَحَّى فجلس ناحية. فلما اجتمع الرأي منهم على تلك المقالة جميعاً، أمر الأسقف بالناقوس فَضْرَبَ به، وَرَفَعَت النيران والمسوح في الصوامع، وكذلك كانوا يفعلون إذا فَرَعُوا بالنهار، وإذا كان فَرَعُهُمْ ليلاً ضَرَبُوا بالناقوس، وَرَفَعَت النيران في الصوامع، فَاجْتَمَعُوا حين ضرب بالناقوس وَرَفَعَت المسوح أهل الوادي أعلاه وأسفله - وطول الوادي مَسِيرَة يوم للراكب السريع، وفيه ثلاث وسبعون قرية، وعشرون ومائة ألف مقاتل. فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، وسألهم عن الرأي فيه، فَاجْتَمَعَ رَأْيُ أَهْلِ الرَّأْيِ منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وذاعة الهمداني، وعبد الله بن شَرْحِبِيل الأصبحي، وجبار بن فيض الحارثي، فَيَأْتُونَهُمْ بخبر رسول الله ﷺ. فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة وضعوا ثياب السفر عنهم، ولبسوا خُلُلاً لهم يجرونها من حبرة، وخواتيم الذهب، ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله ﷺ، فسلموا عليه، فلم يرد عليهم، وتصدوا لكلامه نهاراً طويلاً، فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل وخواتيم الذهب. فانطلقوا يتبعون عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، وكانا مغفرة لهم، فوجدوهما في ناس من المهاجرين والأنصار في مجلس، فقالوا: يا عثمان ويا عبد الرحمن، إن نبيكم كتب إلينا بكتاب، فأقبلنا مجيبين له، فأتيناه فسلمنا عليه فلم يرد سلامنا، وتصدينا لكلامه نهاراً طويلاً فأعيناً أن يكلمنا، فما الرأي منكما، أترون أن نرجع؟ فقالا لعلي بن أبي طالب - وهو في القوم -: ما ترى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم؟ فقال علي لعثمان ولعبد الرحمن: أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم، ويلبسوا ثياب سفرهم ثم يعودوا إليه. ففعلوا فسلموا، فرد سلامهم، ثم قال: «وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لَقَدْ أَتَوْنِي الْمَرْءَ الْأَوَّلَى، وَإِنْ إِنْ لَيْسَ لَمَعَهُمْ» ثم سألهم وسألوهم، فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا: ما تقول في عيسى، فإننا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى، يسرنا إن كنت نبياً أن نسمع ما تقول فيه؟ قال رسول الله ﷺ: «مَا عِنْدِي فِيهِ شَيْءٌ يُؤْمِي هَذَا، فَأَيُّمُوا حَتَّى أَخْبِرَكُمْ بما يقول لي رَبِّي في عيسى». فأصبح الغد وقد أنزل الله ﷻ، هذه الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ مَن حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ آيَاتِهِ فَقُلْ تَمَازَوْا نَدْعُ آبَاءَكُمْ وَأَبْنَاؤَكُمْ وَرِسَالَتَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾، فآبَوا أن يُقَرُّوا بذلك، فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد بعد ما أخبرهم الخبر، أقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خميل له وفاطمة تمشي عند ظهره للملاعة، وله يومئذ عدة نسوة، فقال شرحبيل لصاحبه: قد علمتما أن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا ولم يصدروا إلا عن رأيي، وإني والله أرى أمراً أقْبَلًا، والله لئن كان هذا الرجل ملكاً مبعوثاً، فكنا أول العرب طعن في عينيه ورد عليه أمره، لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور أصحابه حتى يصيبونا بجائحة، وإنا لأدنى العرب منهم جواراً، ولئن كان الرجل نبياً مرسلًا فلا عناه لا يبقى على وجه الأرض منا شَعْرٌ ولا ظَفَرٌ إلا هلك. فقال له صاحبه: يا أبا مريم، فما الرأي؟ فقال: أرى أن أحكمه، فإني أرى رجلاً لا يحكم شططاً أبداً. فقالا له: أنت وذاك. قال: فلقي شرحبيل رسول الله ﷺ، فقال له: إني قد رأيت خيراً من ملاعتك. فقال: «وما هو؟» فقال: حكمك اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصباح، فمهما حكمت فينا فهو جائز. فقال رسول الله ﷺ: «لَعَلَّ رِءَاكَ أَحَدًا يَثْرِبُ عَلَيْكَ؟» فقال شرحبيل: سل صاحبي. فسألها فقالا: ما يرد الوادي ولا يصدُرُ إلا عن رأيي شرحبيل. فَرَجَعَ رسول الله ﷺ فلم يلاعنهم، حتى إذا كان الغد أتوه فكتب لهم هذا الكتاب: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا كَتَبَ مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ رَسُولُ اللَّهِ لِنَجْرَانَ - إِنَّ كَانَ عَلَيْهِمْ حُكْمٌ - فِي كُلِّ ثَمَرَةٍ وَكُلِّ صَفْرَاءٍ وَبَيْضَاءٍ وَسَوْدَاءٍ وَرِقِيٍّ فَاضِلٍ عَلَيْهِمْ، وَتَزَكُّ ذَلِكَ كُلُّهُ لَهُمْ، عَلَى أَلْفِي حُلَّةٍ، فِي كُلِّ رَجَبٍ أَلْفُ حُلَّةٍ، وَفِي كُلِّ صَفَرٍ أَلْفُ حُلَّةٍ» وذكر تمام الشروط وبقية السياق.

والغرض أن وفودهم كان في سنة تسع؛ لأن الزهري قال: كان أهل نجران أول من أدى الجزية إلى رسول الله ﷺ وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح، وهي قوله تعالى: ﴿قَبِلُوا الذِّكْرَ لَا يُوْثِقُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الذِّكْرِ أَوْثُوا لِكَتَبَ حَتَّى يَطْغُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَوْمَئِذٍ وَهُمْ صُغُرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (التوبة: ٢٩).

وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا أحمد بن داود المكي، حدثنا بشر بن مهرا، أخبرنا محمد بن دينار، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن جابر قال: قدم على النبي ﷺ العاقب والطيب، فدعاهما إلى الملاعة فواعدها على أن يلاعنه الغداة. قال: فغددا رسول الله ﷺ، فأخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين، ثم أرسل إليهما قَائِلًا أن يجيئا،

وأقرأ بالخراج، قال: فقال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لَوْ قَالَا: لَا، لَأَمْطَرُ عَلَيْهِمُ الْوَادِي نَارًا» قال جابر: فيهم نزلت ﴿يَدْعُ أَبْنَاءَهُ وَأَبْنَاءَ كَثْرٍ وَبَنَاتَهُ وَأَخْوَاصَكُمْ وَأَقْسَامَكُمْ﴾. قال جابر: «وَأَقْسَامَكُمْ وَأَقْسَامَكُمْ»: رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب «أَبْنَاءَكُمْ»: الحسن والحسين «وَبَنَاتَكُمْ»: فاطمة. وهكذا رواه الحاكم في مستدركه، عن علي بن عيسى، عن أحمد بن محمد الأزهرى، عن علي بن خنجر، عن علي بن مسهر، عن داود بن أبي هند، به بمعناه، ثم قال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. هكذا قال وقد رواه أبو داود الطيالسي، عن شعبة، عن المغيرة، عن الشعبي مرسلًا، وهذا أصح، وقد روي عن ابن عباس والبراء نحو ذلك.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ أي: هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا تغفل عنه ولا تحيد ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَئِكَ اللَّهُ هُوَ أَعْلَمُ الْغُيُوبِ﴾ أي: عن هذا إلى غيره ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي: من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد والله عليم به، وسيجزيه على ذلك شر الجزاء، وهو القادر، الذي لا يفوته شيء، سبحانه ويحمده، ونعوذ به من حلول نقمه.

﴿قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَمَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن جرى مجراهم ﴿قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَمَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ﴾ والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال ههنا. ثم وصفها بقوله: ﴿سَوَّاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: عدل ونصف، نستوي نحن وأنتم فيها. ثم فسرها بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ لا وثنا، ولا صنما، ولا صليبا ولا طاغوتا، ولا نارا، ولا شيئا. بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له. وهذه دعوة جميع الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوفَ﴾ [النحل: ٣٦]. ثم قال: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال ابن جرير: يعني: يطيع بعضنا بعضا في معصية الله. وقال عكرمة: يعني: يسجد بعضنا لبعض. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: فإن تولوا عن هذا النصف وهذه الدعوة فاشهدوهم أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم.

وقد ذكرنا في شرح البخاري، عند روايته من طريق الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس، عن أبي سفيان، في قصته حين دخل على قيصر، فسألهم عن نسب رسول الله ﷺ وعن صفته ونعته وما يدعو إليه، فأخبره بجميع ذلك على الجلية، مع أن أبا سفيان كان إذ ذاك مشركا لم يسلم بعد، وكان ذلك بعد صلح الحديبية وقبل الفتح، كما هو مفسر به في الحديث، ولأنه لما قال: هل يغدر؟ قال: فقلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها. قال: ولم يمكنني كلمة أزيد فيها شيئا سوى هذه. والغرض أنه قال: ثم جيء بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلٍ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ آتَيْتِ الْهُدَى. أَمَا نَعُدُّ، فَأَسْلِمَ تَسْلَمَ، وَأَسْلِمَ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ»، و﴿يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَمَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغير واحد أن صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران، وقال الزهري: هم أول من بدل الجزية. ولا خلاف أن آية الجزية نزلت بعد الفتح، فما الجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح إلى هرقل في جملة الكتاب، وبين ما ذكره محمد بن إسحاق والزهري؟ والجواب من وجوه: أحدها: يحتمل أن هذه الآية نزلت مرتين، مرة قبل الحديبية، ومرة بعد الفتح. الثاني: يحتمل أن صدر سورة آل عمران نزل في وفد نجران إلى عند هذه الآية، وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك، ويكون قول ابن إسحاق: «إلى بضع وثمانين آية» ليس بمحفوظ، لدلالة حديث أبي سفيان. الثالث: يحتمل أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية، وأن الذي بذلوه مصالحة عن المباهاة لا على وجه الجزية، بل يكون من باب المهادنة والمصالحة، ووافق نزول آية الجزية بعد ذلك على وفق ذلك كما جاء فرض الخمس والأربعة الأخماس وفق ما فعله عبد الله بن جحش في تلك السرية قبل بدر، ثم نزلت فريضة القسم على وفق ذلك. الرابع: يحتمل أن رسول الله ﷺ لما أمر بكتب هذا الكلام في كتابه إلى هرقل لم يكن أنزل بعد، ثم نزل القرآن موافقة له كما نزل بموافقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الحجاب وفي الأسارى، وفي عدم الصلاة على المنافقين، وفي قوله: ﴿وَاصْبِرُوا مِنْ مَقَامٍ إِيَّاهُ فَاصْبِرُوا﴾ [البقرة: ١٢٥]، وفي قوله: ﴿عَنِ رَبِّهِ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يَبْلُغَهُ أَزْدِمَا تَبَرَ كَتَبْنَاكَ﴾ [الآية: التحريم: ٥].

اتبع دينكم ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين، فيؤمنا به ويحتجوا به عليكم؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَكُنَّ هَذِي اللَّهُ﴾ أي هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان، بما ينزله على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات البينات، والدلائل القاطعات، والحجج الواضحات، وإن كنتم - أيها اليهود - ما بأيديكم من صفة محمد في كتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين. وقوله: ﴿أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مَثَلًا أَوْ يَتَّبِعُوا عَنْ يَدَيْكُمْ﴾ يقولون: لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين، فيتعلموه منكم، ويساووكم فيه، ويمتازوا به عليكم لشدة الإيمان به، أو يحاجوكم به عند الله، أي: يتخذوه حجة عليكم مما بأيديكم، فنقوم به عليكم الدلالة وتتركب الحجة في الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَلْفَضَلْ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: الأمور كلها تحت تصرفه، وهو المعطي المانع، يمن على من يشاء بالإيمان والعلم والتصور التام، ويضل من يشاء ويعمي بصره وبصيرته، ويختم على سمعه وقلبه، ويجعل على بصره غشاوة، وله الحجة والحكمة. ﴿وَاللَّهُ وَبِعْدَ ذَلِكَ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي: اختصكم - أيها المؤمنون - من الفضل بما لا يحُد ولا يوصف، بما شرف به نبيكم محمداً ﷺ على سائر الأنبياء وهداكم به لأحمد الشرائع.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْ بِقَبَالِهِ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ يَنْهَكُمُ قَوْلُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُورِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [٧٥] بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٧٦].
يخبر تعالى عن اليهود بأن فيهم الخونة، ويحذر المؤمنون من الاغترار بهم، فإن منهم ﴿مَنْ إِنْ تَأَمَّنْ بِقَبَالِهِ﴾ أي: من المال ﴿يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ أي: وما دونه بطريق الأولى أن يؤديه إليك ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أي: بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقه، وإذا كان هذا صنيعه في الدينار فما فوقه أولى ألا يؤديه. وقد تقدّم الكلام على القنطار في أول السورة، وأما الدينار فمعروف. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا سعيد بن عمرو السكوني، حدثنا بَقِيَّةُ، عن زياد بن الهيثم، حدثني مالك بن دينار قال: إنما سمي الدينار لأنه دين وثار، وقال: معناه: أنه من أخذه بحقه فهو دينه، ومن أخذه بغير حقه فله النار. ومناسب أن يكون ههنا الحديث الذي علقه البخاري في غير موضع من صحيحه، ومن أحسنها سياقه في كتاب الكفالة حيث قال: وقال الليث: حدثني جعفر بن ربيعة، عن عبد الرحمن بن هُرْمُزٍ الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسَلِّفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ: اثْنَيْنِ بِالشَّهَادَةِ أَشْهَدُهُمْ. فَقَالَ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. قَالَ: اثْنَيْنِ بِالْكَفِيلِ. قَالَ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا. قَالَ: صَدَقْتَ. فَذَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجْلِ مُسَمًى، فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ التَّمَسَّ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلْأَجْلِ الَّذِي أَجَلُهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَتَقَرَّرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ، وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ، ثُمَّ رَجَعَ مُوضِعَهَا، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي اسْتَسْلَفْتُ فَلَانًا أَلْفَ دِينَارٍ فَسَأَلْتَنِي كَفِيلًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا فَرَضِي بِكَ. وَسَأَلْتَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. فَرَضِي بِكَ، وَإِنِّي جَهِدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثَ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي اسْتَوْدَعْتُهَا. فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ اسْتَلَفَهُ يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا يَجِيئُهُ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطْبًا، فَلَمَّا كَسَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدَّمَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ تَسَلَّفَ مِنْهُ، فَأَتَاهُ بِالْأَلْفِ دِينَارٍ، وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لِأَتِيكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ. قَالَ: هَلْ كُنْتَ بَعَثَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: أَلَمْ أَخْبِرْكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ هَذَا؟ قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الْخَشَبَةِ، فَأَنْصَرَفَ بِالْأَلْفِ دِينَارٍ رَاشِدًا. هكذا رواه البخاري في موضعه معلقًا بصيغة الجزم، وأسندته في بعض المواضع من الصحيح عن عبد الله بن صالح كاتب الليث عنه. ورواه الإمام أحمد في مسنده هكذا مطولاً، عن يونس بن محمد المؤدب، عن الليث به. ورواه البزار في مسنده، عن الحسن بن مُذْرِكٍ، عن يحيى بن حماد، عن أبي عوانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه، ثم قال: لا يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد. وكذا قال، وهو خطأ، لما تقدم.

وقوله: ﴿ذَلِكَ يَنْهَكُمُ قَوْلُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُورِ سَبِيلٌ﴾ أي: إِنْما حَمَلْنَاهُ عَلَى جُحُودِ الْحَقِّ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: لَيْسَ عَلَيْنَا فِي دِينِنَا حَرَجٌ فِي أَكْلِ أَمْوَالِ الْأُمِّيِّينَ، وَهُمْ الْعَرَبُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْلَاهَا لَنَا. قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: وقد اختلفوا هذه المقالة، وانتفكوا بهذه الضلالة، فإن الله حَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَكْلَ الْأَمْوَالِ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَإِنَّمَا هُمْ قَوْمٌ بُهْتُ. قال عبد الرزاق: أَنَبَانَا مَغْمَرٌ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ الْهَمْدَانِي، عَنْ أَبِي صَغَصَةَ بْنِ يَزِيدٍ؛ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ، قَالَ: إِنَّا نُنْصِيبُ فِي الْغَزْوِ مِنْ أَمْوَالِ أَهْلِ الذِّمَّةِ الدِّجَاجَ وَالشَّاةَ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَتَقُولُونَ مَاذَا؟ قَالَ: نَقُولُ: لَيْسَ عَلَيْنَا بِذَلِكَ بَأْسٌ. قَالَ: هَذَا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُورِ سَبِيلٌ﴾ إِنْهُمْ إِذَا أَدَّوْا الْجَزْيَةَ لَمْ تَحُلْ لَكُمْ أَمْوَالُهُمْ إِلَّا بِطِيبِ أَنْفُسِهِمْ. وكذا رواه الثوري، عن أبي

إسحاق بنحوه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن يحيى، أخبرنا أبو الربيع الزهراني، حدثنا يعقوب، حدثنا جعفر، عن سعيد بن جبيرة قال: لما قال أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمْنَيْنِ سَبِيلٌ﴾ قال نبي الله ﷺ: «كَذَّبَ أَغْدَاءُ اللَّهِ، مَا مِنْ شَيْءٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا وَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ إِلَّا الْأَمَانَةُ، فَإِنَّهَا مُؤَدَّاةٌ إِلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ».

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾ أي: لكن من أوفى بعهدكم منكم يا أهل الكتاب الذي عاهدكم الله عليه، من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بعث، كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأممهم بذلك، واتقى محارم الله تعالى واتباع طاعته وشيئته التي بعث بها خاتم رسله وسيد البشر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَيَأْتِمِنُونَ مِمَّا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُصَلِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

يقول تعالى: إن الذين يعتاضون عما عاهدوا الله عليه، من اتباع محمد ﷺ، وذكر صفته للناس وبيان أمره، وعن إيمانهم الكاذبة الفاجرة الأئمة بالأئمان القليلة الزهيدة، وهي عروض هذه الدنيا الفانية الزائلة ﴿أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: لا نصيب لهم فيها، ولا حظ لهم منها ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: برحمة منه لهم، بمعنى: لا يكلمهم كلام لطف بهم، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿وَلَا يُصَلِّيهِمْ﴾ أي: من الذنوب والأدناس، بل يأمر بهم إلى النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة فلنذكر ما تيسر منها:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا شعبة قال: علي بن مذكّر أخبرني قال: سمعت أبا رزعة، عن خُرَشة بن الحر، عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قلت: يا رسول الله، من هم؟ خابوا وخسروا. قال: وأعاد رسول الله ﷺ ثلاث مرات قال: «الْمُسْبِلُ، وَالْمُنْفِقُ، سِلْعَتُهُ بِالْخَلِيفِ الْكَاذِبِ، وَالْمَنَافُ». ورواه مسلم، وأهل السنن، من حديث شعبة، به.

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا إسماعيل، عن الجريري، عن أبي العلاء بن الشخير، عن أبي الأخصر، قال: لقيت أبا ذر، فقلت له: بلغني عنك أنك تحدث حديثاً عن رسول الله ﷺ. فقال: أما إنه لا تخالني أكذب على رسول الله ﷺ بعدما سمعته منه، فما الذي بلغك عني؟ قلت: بلغني أنك تقول: ثلاثة يحبهم الله، وثلاثة يشنؤهم الله. قال: قلته وسمعته. قلت: فمن هؤلاء الذين يحبهم الله؟ قال: الرجل يلقى العدو في فئة فينصب لهم نخره حتى يقتل أو يفتح لأصحابه. والقوم يسافرون فيطول سراهم حتى يجيؤا أن يمسا الأرض فينزلون، فيتنحى أحدهم فيصلي حتى يوقظهم لرحيلهم. والرجل يكون له الجار يؤذيه فيصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن. قلت: ومن هؤلاء الذين يشنأ الله؟ قال: التاجر الحلاف - أو: البائع الحلاف - والفقير المختال، والبخيل المنان. غريب من هذا الوجه.

الحديث الثاني: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن جرير بن حازم قال: حدثنا عدي بن عدي، أخبرني رجاء بن خيرة والغزس بن عميرة عن أبيه عدي - هو ابن عميرة الكندي - قال: خاصم رجل من كندة يقال له: امرؤ القيس بن عابس رجلاً من حضرموت إلى رسول الله ﷺ في أرض، ففرض على الحضرمي بالبينة، فلم يكن له بينة، ففرض على امرئ القيس باليمين. فقال الحضرمي: إن أمكنته من اليمين يا رسول الله ذهب رب الكعبة أرضي. فقال النبي ﷺ: «مَنْ خَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةً لِقِطْعَ بِهَا مَالٍ أَحَدٌ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ» قال رجاء: وتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَيَأْتِمِنُونَ مِمَّا قَلِيلًا﴾. فقال امرؤ القيس: ماذا لمن تركها يا رسول الله؟ فقال: «الجنة» قال: فاشهد أنني قد تركتها له كلها. ورواه النسائي من حديث عدي بن عدي، به.

الحديث الثالث: قال أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ خَلَفَ عَلَى يَمِينٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لِقِطْعَ بِهَا مَالٍ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ». فقال الأشعث: في والله كان ذلك، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجددني، فقدمته إلى رسول الله ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ: «أَلَمْ يَبْنِ؟» قلت: لا، فقال لليهودي: «اخْلِفْ» فقلت: يا رسول الله، إذا يحلف فيذهب مالي. فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَيَأْتِمِنُونَ مِمَّا قَلِيلًا﴾ إلى آخر الآية. أخرجه من حديث الأعمش.

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا أبو بكر بن عيَّاش، عن عاصم بن أبي النجود، عن شقيق بن سلمة، حدثنا عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ اقْتَطَعَ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بغير حقٍّ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ» قال:

فجاء الأشعث بن قيس فقال: ما يُحدِّثكم أبو عبد الرحمن؟ فحدثناه، فقال: فني كان هذا الحديث، خاصمتُ ابنَ عَمِّ لي إلى رسول الله ﷺ في بئر لي كانت في يده، فجددني، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ افْتَطَعَ مَالَ امْرِيءٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَان» قال: وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا تَخْلُقُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَكْلُمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِسْمَةِ وَلَا يَرْحَمُهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٧).

الحديث الرابع: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رشدين عن زيان، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه، عن النبي ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى عِبَادًا لَا يَكْلُمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ» قيل: ومن أولئك يا رسول الله؟ قال: «مُتَّبِرُونَ مِنْ وَالِدَيْهِ زَاغِبٌ عَنْهُمَا، وَمُتَّبِرُونَ مِنْ وَلَدِهِ، وَرَجُلٌ أَنْعَمَ عَلَيْهِ قَوْمٌ فَكَفَرُوا بِنِعْمَتِهِمْ وَتَبَرَّأُوا مِنْهُمْ».

الحديث الخامس: قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا هُشَيْم، أنبأنا العوام - يعني ابن حَوْشَب - عن إبراهيم بن عبد الرحمن - يعني السُّكْسُكِي - عن عبد الله بن أبي أوفى: أن رجلاً أقام سلعة له في السوق، فحلف بالله لقد أعطى بها ما لم يُعطه، ليقع فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. ورواه البخاري، من غير وجه، عن العوام.

الحديث السادس: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هرير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَكْلُمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ: رَجُلٌ مَتَّعَ ابْنَ السَّبِيلِ فَضَّلَ مَاءَهُ عَنْهُ، وَرَجُلٌ خَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ بَعْدَ الْغَصْرِ - يعني كاذباً - وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا، فَإِنْ أَغْطَاهُ وَفَى لَهُ، وَإِنْ لَمْ يُغْطِهِ لَمْ يَفِ لَهُ». ورواه أبو داود، والترمذي، من حديث وكيع. وقال الترمذي: حسن صحيح.

﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقٌ يَلْعَنُونَ أَلَيْسَتْ لَهُمُ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٨).

يخبر تعالى عن اليهود، عليهم لعائن الله، أن منهم فريقاً يُحَرِّفُونَ الكلم عن مواضعه وَيَذْلُونَ كلام الله، ويزيلونه عن المراد به، ليُوهَموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك، وينسبونه إلى الله، وهو كذب على الله، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله؛ ولهذا قال: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. وقال مجاهد، والشعبي، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس: ﴿يَلْعَنُونَ أَلَيْسَتْ لَهُمُ بِالْكِتَابِ﴾: يحرفونه. وهكذا روى البخاري عن ابن عباس: أنهم يحرفون ويزيدون. وليس أحد من خلق الله يزيل لفظ كتاب من كتب الله، لكنهم يحرفونه: يتأولونه على غير تأويله. وقال وهب بن مُثَنَّب: إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله لم يغير منهما حرف، ولكنهم يضلُّون بالتحريف والتأويل، وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، فأما كتب الله فإنها محفوظة ولا تحول. رواه ابن أبي حاتم، فإن عَنَى وَهَبُ ما بأيديهم من ذلك، فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص، وأما تعريب ذلك المشاهد بالعربية فيه خطأ كبير، وزيادات كثيرة ونقصان، وهم فاحش. وهو من باب تفسير المعبر المعرب، وفهم كثير منهم بل أكثرهم، بل جميعهم فاسد. وأما إن عَنَى كتب الله التي هي كتبه عنده، فتلك كما قال محفوظة لم يدخلها شيء.

﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوَفِّيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ مُسْلِمِينَ﴾ (٧٩).

قال محمد بن إسحاق: حدثنا محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: قال أبو رافع القرظي، حين اجتمعت الأحزاب من اليهود والنصارى من أهل نجران، عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس: أو ذاك تريد منا يا محمد، وإليه تدعوننا؟ أو كما قال. فقال رسول الله ﷺ: «مَعَادُ اللَّهِ أَنْ تَعْبُدَ غَيْرَ اللَّهِ، أَوْ أَنْ تَأْمُرَ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ، مَا بِذَلِكَ بَعْثَنِي، وَلَا بِذَلِكَ أَمَرَنِي». أو كما قال ﷺ، فأنزل الله ﷻ في ذلك من قولهما: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوَفِّيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ﴾ الآية إلى قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾. فقوله: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوَفِّيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يقول للناس: اعبدوني من دون الله. أي: مع الله، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأخرى؛ ولهذا قال الحسن البصري: لا ينبغي هذا لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته. قال: وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضاً - يعني أهل الكتاب - كانوا يتعبدون لأحبارهم

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ حِكْمَةٍ وَجَعَلْنَاهُ شَرْعًا جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَفَرَأَيْنَا قَالُوا فَاتَّبَعُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٨٢﴾﴾.

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم، عليه السلام، إلى عيسى، عليه السلام، لهما أتى الله أحدهم من كتاب وحكمة، وبلغ أي مبلغ، ثم جاءه رسول من بعده، ليؤمنن به ولينصرنّه، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته؛ ولهذا قال تعالى وتقدس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ حِكْمَةٍ وَجَعَلْنَاهُ شَرْعًا جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾. وقال ابن عباس، ومجاهد، والربيع، وقتادة، والسدي: يعني عهدي. وقال محمد بن إسحاق: ﴿إِصْرِي﴾ أي: ثقل ما حُملت من عهدي، أي: ميثاقي الشديد المؤكد. ﴿قَالُوا أَفَرَأَيْنَا قَالُوا فَاتَّبَعُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: عن هذا العهد والميثاق، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. قال علي بن أبي طالب وابن عمه عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث محمداً وهو حيّ ليؤمنن به ولينصرنّه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بعث محمد ﷺ وهم أحياء ليؤمننّ به ولينصرنّه. وقال طاووس، والحسن البصري، وقتادة: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً. وهذا لا يضاد ما قاله عليّ وابن عباس ولا ينفيه، بل يستلزمه ويقضيه. ولهذا رواه عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن ابن طاووس، عن أبيه مثل قول عليّ وابن عباس. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا سفيان، عن جابر، عن الشعبي، عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخ لي من قُرَظْلَةَ، فكتب لي جَوَامِعَ من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغيّر وجه رسول الله ﷺ - قال عبد الله بن ثابت: قلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً - قال: فسُرّي عن رسول الله ﷺ وقال: «والذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيده لو أَصْبَحَ فيكُمْ موسى عليه السلام، ثم اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَفَضَلْتُمْ، إِنَّكُمْ حَظِي مِنَ الْأُمَمِ، وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ».

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر: حدثنا إسحاق، حدثنا حماد، عن مُجالد، عن الشعبي، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا، وَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ وَإِمَّا أَنْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ، وَإِنَّهُ - وَاللَّهِ - لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيَّنَّ أَظْهَرَكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي». وفي بعض الأحاديث له: «لَوْ كَانَ مُوسَى وَعِيسَى

خَبِيرَ لَمَّا وَسِعَهُمَا إِلَّا آتَابِي». فالرسول محمد خاتم الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليه، دائماً إلى يوم الدين، وهو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم؛ ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا بيت المقدس، وكذلك هو الشفيع في يوم الحشر في إتيان الرب لفضل القضاء، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له، والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين، حتى تنتهي النبوة إليه، فيكون هو المخصوص به.

﴿أَفَنَدْرِبِينَ اللَّهُ يَجْعَلُ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُجْعَلُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَهَارُونَ وَالْأَنْبِيَاءُ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفَرُ بَيْنَ أَهْلِ بَيْتِهِمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

يقول تعالى منكراً على من أراد ديناً سوى دين الله، الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله، وهو عبادته وحده لا شريك له، الذي ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: استسلم له من فيهما طوعاً وكرهاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَطِلَافُهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْآسَالِ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: ١٥]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ نَفْسِهِمْ أَنْثًا ثُمَّ وَقَفْنَا عَلَى الْإِنثَىٰ وَالسَّابِقُ سَبَقُ اللَّهِ وَهُمْ ذُرِّيَّتُهُ ﴿١٨﴾ وَلَهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحج: ٤٨-٥٠]. فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهاً، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم، الذي لا يخالف ولا يمانع. وقد ورد حديث في تفسير هذه الآية، على معنى آخر فيه غرابة، فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن النضر العسكري، حدثنا سعيد بن حفص الثَّقَلِي، حدثنا محمد بن مَخْضَن العكاشي، حدثنا الأوزاعي، عن عطاء بن أبي رباح، عن النبي ﷺ: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا: «أَمَّا مَنْ فِي السَّمَوَاتِ فَالْمَلَائِكَةُ، وَأَمَّا مَنْ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ وَلِدَ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَأَمَّا كَرْهًا فَمَنْ أَتَى بِهِ مِنْ سَبَائِلِ الْأُمَمِ فِي السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ، يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ وَهُمْ كَارِهُونَ». وقد ورد في الصحيح: «عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ». وسيأتي له شاهد من وجه آخر، ولكن المعنى الأول للآية أقوى. وقد قال وكيع في تفسيره: حدثنا سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال: هو كقوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]. وقال أيضاً: حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال: حين أخذ الميثاق.

﴿وَإِلَيْهِ يُجْعَلُونَ﴾ أي: يوم المَعَاد، فيجازي كلأ بعمله. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعني: القرآن: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي: من الصحف والوحي ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾ وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل - هو يعقوب - الاثني عشر. ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ يعني بذلك: التوراة والإنجيل ﴿وَالْأَنْبِيَاءُ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهذا يعم جميع الأنبياء جملة ﴿لَا نَفَرُ بَيْنَ أَهْلِ بَيْتِهِمْ﴾ يعني: بل نؤمن بجميعهم ﴿وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾: فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل، وبكل كتاب أنزل، لا يكفرون بشيء من ذلك بل هم مُصَدِّقُونَ بما أنزل من عند الله، وبكل نبي بعثه الله. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ أي: من سلك طريقاً سوى ما شرعه الله فلن يقبل منه ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ». وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عباد بن راشد، حدثنا الحسن، حدثنا أبو هريرة، إَذَاكَ وَنَحْنُ بِالْمَدِينَةِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَجِيءُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتَجِيءُ الصَّلَاةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصَّلَاةُ، فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ. وَتَجِيءُ الصَّدَقَةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصَّدَقَةُ. فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ. ثُمَّ تَجِيءُ الصِّيَامُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَنَا الصِّيَامُ. فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ. ثُمَّ تَجِيءُ الْأَعْمَالُ، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ، ثُمَّ تَجِيءُ الْإِسْلَامُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنْتَ السَّلَامُ وَأَنَا الْإِسْلَامُ. فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ، بِكَ الْيَوْمَ أَخَذْتُ بِكَ أَغْطِي، قَالَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾. تفرد به أحمد. قال أبو عبد الرحمن عبد الله بن الإمام أحمد: عباد بن راشد ثقة، ولكن الحسن لم يسمع من أبي هريرة.

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّا أَرْسَلْنَا حَقًّا وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أَوَلَيْكَ جَزَاءُكَمُ أَنْ عَلَيْهِمْ لَسَعَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةُ وَالْأَنْبِيَاءُ أَجْمَعُونَ ﴿٨٧﴾ خَلِيلِينَ فِيهَا لَا يَفْهَمُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَلَانَ اللَّهُ عَفْوَ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾.

قال ابن جرير: حدثني محمد بن عبد الله بن بَزِيع البصري، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، حدثنا داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن

ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم، فأرسل إلى قومه: أن سلوا لي رسول الله ﷺ: هل لي من توبة؟ قال: فنزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٨٩). وهكذا رواه النسائي، وابن حبان، والحاكم، من طريق داود بن أبي هند، به. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال عبد الرزاق: أخبرنا جعفر بن سليمان، حدثنا حميد الأعرج، عن مجاهد قال: جاء الحارث بن سويد فأسلم مع النبي ﷺ، ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه فأنزل الله فيه: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٨٩)، قال: فحملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه. فقال الحارث: إنك والله ما علمت لصدوق، وإن رسول الله ﷺ لأصدق منك، وإن الله لأصدق الثلاثة. قال: فرجع الحارث فأسلم فحسن إسلامه. فقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول، ووضح لهم الأمر، ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلَّبسوا به من العماية؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. ثم قال: ﴿أَوَلَيْكَ جَزَاءُهمُ أَنْ عَلَّمَهُمُ لَفَسَ اللَّهِ وَالْمَلَكُوتَ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٠) أي: يلعنهم الله ويلعنهم خلقه ﴿خَلْقَ الَّذِينَ فِيهَا﴾ أي: في اللعنة ﴿لَا يَخْتَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي: لا يُفْتَر عنهم العذاب ولا يُخَفَّف عنهم ساعة واحدة. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩١). وهذا من لطفه وبره ورحمته وعائدته على خلقه: أنه من تاب إليه تاب عليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَنْ نَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأَوَلَيْكَ هُمْ الْعَاكِفُونَ﴾ (٩١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُبْعَثَ مِنْ أَحَدِهِمْ تِلْكَ الْأَرْضُ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَنَّا بِهِمْ أَوَلَيْكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَعِيرٍ (٩٢).

يقول تعالى متوعداً ومتهذباً لمن كفر بعد إيمانه ثم ازداد كفراً، أي: استمر عليه إلى الممات، ومخبراً بأنه لا يقبل لهم توبة عند مماتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ الْأَنْتَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أَوَلَيْكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء: ١٨). ولهذا قال ههنا: ﴿لَنْ نَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأَوَلَيْكَ هُمْ الْعَاكِفُونَ﴾ أي: الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغي. قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا ابن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن قوماً أسلموا ثم ارتدوا، ثم أسلموا ثم ارتدوا، فأسلموا إلى قومهم يسألون لهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَنْ نَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ﴾. هكذا رواه، وإسناده جيد. ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُبْعَثَ مِنْ أَحَدِهِمْ تِلْكَ الْأَرْضُ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَنَّا بِهِمْ﴾ أي: من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبداً، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيما يراه قربة، كما سئل النبي ﷺ عن عبد الله بن جُدعان - وكان يغري الضيف، ويُفك العاني، ويُطعم الطعام - هل ينفعه ذلك؟ فقال: «لا، إنه لم يقل يوماً من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين». وكذلك لو افتدى بملء الأرض أيضاً ذهباً ما قبل منه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقال: ﴿لَا يَبِيعُ فَبِئْسَ مَا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال: ﴿لَا يَبِيعُ فِيهِمْ وَلَا جُلُلٌ﴾ [إبراهيم: ٣١]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُبْعَثَ مِنْ أَحَدِهِمْ تِلْكَ الْأَرْضُ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَنَّا بِهِمْ أَوَلَيْكَ لَهُمْ عَذَابٌ﴾ [المائدة: ٣٦]؛ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُبْعَثَ مِنْ أَحَدِهِمْ تِلْكَ الْأَرْضُ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَنَّا بِهِمْ﴾ فعطف ﴿وَلَوْ افْتَنَّا بِهِمْ﴾ على الأول، فدل على أنه غيره، وما ذكرناه أحسن من أن يقال: إن الواو زائدة، والله أعلم. ويتقضي ذلك ألا ينقذه من عذاب الله شيء، ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهباً، ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهباً، بوزن جبالها وتلالها وثراياها ورمالها وسهولها ووعورها وبرها وبحرها. وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثني شعبة، عن أبي عمران الجوني، عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟ قَالَ: قِيْقُولُ: نعم. قال: فيقول: قَدْ أَزِدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ أَبِيكَ أَدَمَ الْأَشْرَكَ بِي شَيْئاً، فَأَيُّتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ». وهكذا أخرجاه: البخاري، ومسلم.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا زوج، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ قِيْقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَنَزْلَكَ؟ قِيْقُولُ: أَنِّي رَبٌّ، خَيْرٌ مَنَزَلٍ. قِيْقُولُ: سَلْ وَتَمَنَّ. قِيْقُولُ: مَا أَسْأَلُ وَلَا أَمْتَنِي إِلَّا أَنْ تُرُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأَقْتُلَ فِي سَبِيلِكَ عَشْرَ مِرَارٍ. لَمَّا بَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ. وَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ قِيْقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَنَزْلَكَ؟ قِيْقُولُ: يَا رَبِّ، شَرٌّ مَنَزَلٍ. قِيْقُولُ لَهُ: تَفْتَدِي مِنِّي بِطَلَاعِ الْأَرْضِ ذَهَبًا؟ قِيْقُولُ: أَنِّي رَبٌّ، نَعَمْ. قِيْقُولُ: كَذَبْتَ، قَدْ سَأَلْتُكَ أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ وَأَبْسَرَ فَلَمْ تَفْعَلْ، فَيُرَدُّ إِلَى النَّارِ». ولهذا قال: ﴿أَوَلَيْكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ

تَغِيرَنَّ أَي: وما لهم من أحد يُنْقِذَهُمْ من عذاب الله، ولا يجيرهم من أليم عقابه.

﴿لَنْ نَنَالُوا الْآلِرَ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْنَا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَوْمَ يَحْكُمُ عَلَيْنَا﴾.

روى وكيع في تفسيره عن شريك، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون ﴿لَنْ نَنَالُوا الْآلِرَ﴾ قال: البر الجنة. وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا مالك، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، سمع أنس بن مالك يقول: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالا، وكان أحب أمواله إليه بئرحاء. وكانت مستقبله المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. قال أنس: فلما نزلت: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْآلِرَ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْنَا﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْآلِرَ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْنَا﴾ وإن أحب أموالي إلي بئرحاء وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله تعالى، فصغها يا رسول الله حيث أراك الله تعالى. فقال النبي ﷺ: «بئح، ذاك مال رابع، ذاك مال رابع، وقد سمعته، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين». فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقصها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه. أخرجاه. وفي الصحيحين أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، لم أصب مالا قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر، فما تأمرني به؟ قال: «حبس الأضل، وسبل الثمرة». وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أبو الخطاب زياد بن يحيى الحساني، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي عمرو بن حماس عن حمزة بن عبد الله بن عمر، قال: قال عبد الله: حضرتني هذه الآية: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْآلِرَ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْنَا﴾ فذكرت ما أعطاني الله، فلم أجد شيئا أحب إلي من جارية رومية، فقلت: هي حرة لوجه الله. فلو أني أعود في شيء جعلته لله لنكحتها، يعني تزوجتها.

﴿كُلُّ الظَّالِمِ كَانَ جَلًّا يَتَّبِعْ إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَنَّا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٢) ﴿فَمَنْ افْتَرَقَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٩٣) ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤).

قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا عبد الحميد، حدثنا شهر قال: قال ابن عباس رضي الله عنه: حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقالوا: حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي. قال: «سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله، وما أخذ يغفوب على بيته لئن أنا حدثتكم شيئا فعرقتموه لتتابعني على الإسلام». قالوا: فذلك لك. قال: «فسلوني عما شئتم» قالوا: أخبرنا عن أربع خلال: أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل؟ كيف هذا النبي الأمي في النوم؟ ومن وليه من الملائكة؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنه وقال: «أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى: هل تعلمون أن إسرائيل مريض مرضا شديدا وطال سقمه، فتذر لله نذرا لئن شفاه الله من سقمه ليحرم أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه، وكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل، وأحب الشراب إليه لبنها» فقالوا: اللهم نعم. قال: «اللهم اشهد عليهم». وقال: «أنشدكم بالذي لا إله إلا هو، الذي أنزل التوراة على موسى: هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، إن علا ماء الرجل ماء المرأة كان ذكرا بإذن الله، وإن علا ماء المرأة ماء الرجل كان أنثى بإذن الله». قالوا: نعم. قال: «اللهم اشهد عليهم». وقال: «أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى: هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا يتألم قلبه». قالوا: اللهم نعم. قال: «اللهم اشهد». قالوا: وأنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة؟ فعندها نجامعك أو نفارقك قال: «إن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبيا قط إلا وهو وليه». قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك غيره لتابعناك، فعند ذلك قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ الآية [البقرة: ٩٧]. ورواه أحمد أيضا، عن حسين بن محمد، عن عبد الحميد، به.

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا عبد الله بن الوليد العجلي، عن بكير بن شهاب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أقبلت يهود على رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعتناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بيته إذ قال: ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦]. قال: «هاتوا». قالوا: أخبرنا عن علامة النبي؟ قال: «تنام عيناه ولا يتألم قلبه». قالوا: أخبرنا كيف تؤث المرأة وكيف تذكرك؟ قال: «يلتقي الماءان، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت. قالوا: أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه، قال: «كان يشتكي عرق النسا، فلم يجد شيئا يلائمه إلا اللبن كذا وكذا. قال أحمد: قال بعضهم: يعني الإبل - فحرم لحومها». قالوا: صدقت. قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: «ملك من ملائكة الله موكل بالسحاب بيده - أو في يده - ومخراق من نار يزجر به السحاب، يسوقه حيث أمره الله ﷻ». قالوا: فما هذا الصوت الذي يسمع؟ قال: «صوته». قالوا: صدقت، إنما بقيت واحدة،

وهي التي تنابك إن أخبرتنا بها، فإنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: «جبريل عليه السلام». قالوا: جبريل ذاك ينزل بالحرب والقتال والعذاب غدونا. لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان، فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَرَكَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]. وقد رواه الترمذي، والنسائي، من حديث عبد الله بن الوليد العجلي، به نحوه، وقال الترمذي: حسن غريب. وقال ابن جريج والعوفي، عن ابن عباس: كان إسرائيل - وهو يعقوب عليه السلام - يغيره عرق النسا بالليل، وكان يقلقه ويزعجه عن النوم، ويُفْلِقُ الْوَجْعَ عنه بالنهار، فنذر الله لئن عافاه الله لا يأكل عرقاً ولا يأكل ولد ما له عرق. وهكذا قال الضحاك والسدي. كذا حكاه ورواه ابن جرير في تفسيره. قال: فأتبعه بثوّه في تحريم ذلك استئناً به واقتداءً بطريقه. قال: وقوله: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ تَنْزَلَ التَّوْرَةُ﴾ أي: حرم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة. قلت: ولهذا السياق بعد ما تقدم مناسبتان: إحداهما: أن إسرائيل، عليه السلام، حرم أحب الأشياء إليه وتركها لله، وكان هذا سائغاً في شريعتهم، فله مناسبة بعد قوله: ﴿لَنْ نَأْتِيَكَ بِشَيْءٍ تُلْفِقُوا لَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. فهذا هو المشروع عندنا وهو الإنفاق في طاعة الله مما يحبّه العبد ويشتهي، كما قال: ﴿وَأَتَى الْكَلَامَ عَلَى حَيْدِهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقال: ﴿وَيُطِيعُونَ أَلْفَعَامَ عَلَى حَيْدِهِ﴾ [الإنسان: ٨].

المناسبة الثانية: لما تقدم السياق في الرد على النصارى، واعتقادهم الباطل في المسيح وتبين زيف ما ذهبوا إليه. وظهر الحق واليقين في أمر عيسى وأمه، وكيف خلقه الله بقدرته ومشيته، وبعثه إلى بني إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه تعالى - شرع في الرد على اليهود، فبهمهم الله، وبيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع، فإن الله ﷻ، قد نص في كتابهم التوراة أن نوحاً، عليه السلام، لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لُحْمان الإبل وألبانها، فأتبعه بنوه في ذلك، وجاءت التوراة بتحريم ذلك، وأشياء أخر زيادة على ذلك. وكان الله ﷻ، قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه، وقد حرم ذلك بعد ذلك. وكان التشرّي على الزوجة مباحاً في شريعة إبراهيم، وقد فعله الخليل إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة، وقد حرم مثل هذا في التوراة عليهم. وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغاً، وقد فعله يعقوب، عليه السلام، جمع بين الأختين، ثم حرم ذلك عليهم في التوراة. وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم، فهذا هو النسخ بعينه، فذلك فليكن ما شرعه الله للمسيح، عليه السلام، في إحلاله بعض ما حرم في التوراة، فما بالهم لم يتبعوه؟ بل كذبوه وخالفوه؟ وكذلك ما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين القويم، والصراط المستقيم، وملة أبيه إبراهيم فما بالهم لا يؤمنون؟ ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُّ الْأَعْمَارِ كَانَ جَلَدًا لِنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ أي: كان حلاً لهم جميع الأطعمة قبل نزول التوراة إلا ما حرمه إسرائيل، ثم قال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ فإنها ناطقة بما قلناه ﴿فَمَنْ أَفْتَكَا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آي: ١٩١] فمن كذب على الله وأدعى أنه شرع لهم السبت والتمسك بالتوراة دائماً، وأنه لم يبعث نبياً آخر يدعو إلى الله بالبراهين والحجج بعد هذا الذي بيّناه من وقوع النسخ وظهور ما ذكرناه ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أي: قل يا محمد: صدق فيما أخبر به وفيما شرعه في القرآن ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: اتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ، فإنه الحق الذي لا شك فيه ولا مزية، وهي الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ مَنْ أُتِيَ بِمِلَّةٍ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]. ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آي: ٩٧] فَيَدْعُوهُمْ إِلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ

أَلْبَسَتْ مَنَاسِكَاتٍ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ غَلِيظٌ [آي: ٩٧].
يُخْبِرُ تَعَالَى أَنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ، أي: لعموم الناس، لعبادتهم وتسكهم، يطوفون به ويصلون إليه ويمتدحون عنده ﷻ للذي بِبَكَّةَ، يعني: الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي يزعم كل من طائفتي النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجه، ولا يحجّون إلى البيت الذي بناه عن أمر الله له في ذلك ونادى الناس إلى حجة. ولهذا قال: ﴿مُبَارَكًا﴾ أي وضع مباركاً ﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة». قلت: ثم أي؟ قال: ثم حيث أذرك الصلاة فصل، فكلها مسجد. وأخرجه البخاري، ومسلم، من حديث الأعمش، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا

سعيد بن سليمان، حدثنا شريك عن مُجالد، عن الشَّعْبِيِّ عن عليّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ قال: كانت البيوت قبله، ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله تعالى. قال: وحدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأخوص، عن يسماك، عن خالد بن عَزْرَةَ قال: قام رجل إلى عليّ فقال: ألا تُحَدِّثُنِي عن البيت: أهو أول بيت وُضِعَ في الأرض؟ قال: لا، ولكنه أول بيت وضع فيه البركة مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً. وذكر تمام الخبر في كيفية بناء إبراهيم البيت، وقد ذكرنا ذلك مُسْتَقْصًى في سورة البقرة فَأَعْتَى عن إعادته. وزعم السُّدِّي أَنَّهُ أول بيت وضع على وجه الأرض مطلقاً. والصحيح قول عليّ رضي الله عنه. فأما الحديث الذي رواه البيهقي في بناء الكعبة في كتابه دلائل النبوة، من طريق ابن كهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً: «بَعَثَ اللَّهُ جَبْرِيْلَ إِلَى آدَمَ وَحَوَّاءَ فَأَمَرَهُمَا بِبِنَاءِ الْكَعْبَةِ، فَبَنَاهَا آدَمُ، ثُمَّ أَمَرَ بِالطَّوَافِ بِهِ، وَقِيلَ لَهُ: أَنْتَ أَوَّلُ النَّاسِ، وَهَذَا أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ» فَفِيهِ كَمَا تَرَى مِنْ مُفَرَّدَاتِ ابْنِ كَهَيَّعَةَ، وهو ضعيف. والأشبه، والله أعلم، أن يكون هذا موقوفاً على عبد الله بن عمرو. ويكون من الزاميتين اللتين أصابهما يوم النَّيْزُوكِ، من كلام أهل الكتاب.

وقوله تعالى: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ بكّة: من أسماء مكة على المشهور، قيل: سُمِّيَتْ بذلك لأنها تَبَكَ أعناق الظلمة والجبابرة، بمعنى: يُبْكُونُ بها ويخضعون عندها. وقيل: لأن الناس يَتَبَاكُونُ فيها، أي: يزدهمون. قال قتادة: إن الله بَكََّ به الناس جميعاً، فيصلي النساء أمام الرجال، ولا يفعل ذلك ببلد غيرها. وكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعُمر بن شُعَيْبٍ، ومقاتل بن حَيَّان. وذكر حَمَّاد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَيْرٍ، عن ابن عباس قال: مَكَّةُ من الفج إلى التنعيم، وبكّة من البيت إلى البطحاء. وقال شعبة، عن المغيرة، عن إبراهيم: بكّة: البيت والمسجد. وكذا قال الزهري. وقال عكرمة في رواية، وميمون بن مهران: البيت وما حوله بكّة، وما وراء ذلك مكة. وقال أبو صالح، وإبراهيم النَّخَعِيُّ، وعطية العوفي، ومقاتل بن حيان: بكّة موضع البيت، وما سوى ذلك مكة. وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة: مكة، وبكة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين، والمأمون، وأمُّ رُحْمٍ، وأمُّ الْفَرَى، وصلاح، والعرش على وزن بدر، والقادس؛ لأنها تطهر من الذنوب، والمقدسة، والناسة: بالنون، وبالباء أيضاً، والحاطمة، والنساسة، والرأس، وكُوْثَى، والبلدة، والبيّنة، والكعبة. وقوله: ﴿فِيهِ مَائِكَةُ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم، وأن الله تعالى عَظَّمَهُ وشرفه. ثم قال تعالى: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني: الذي لَمَّا ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران، حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل، وقد كان ملتصقاً بجدار البيت، حتى آخره عُمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطَّوَافُ، ولا يُشَوِّشُونَ على المصلين عنده بعد الطَّوَافِ؛ لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال: ﴿وَأَخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مَوْكَلًا﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقد قدمنا الأحاديث في ذلك، فأَعْتَى عن إعادتها ههنا، والله الحمد والمنة. وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿فِيهِ مَائِكَةُ بَيِّنَاتٍ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: فمنهنَّ مقام إبراهيم والمَشْعَرُ. وقال مجاهد: أثر قدمي في المقام آية بيّنة. وكذا روي عن عُمر بن عبد العزيز، والحسن، وقاتدة، والسُّدِّي، ومُقاتِل بن حَيَّان، وغيرهم. وقال أبو طالب في قصيدته:

وَمَوْطِيءُ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَظْبَةٌ عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيَاً غَيْرَ نَاعِلٍ
وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد وعُمرُو الأودي قالوا: حدثنا وَكِيعٌ، حدثنا سفيان، عن ابن جُرَيْجٍ، عن عطاء، عن ابن عباس في قوله: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال: الْحَرَمُ كله مقام إبراهيم. ولفظ عمرو: الْحَجَرُ كله مقام إبراهيم. وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: الحج مقام إبراهيم. هكذا رأيت في النسخة، ولعله الْحَجَرُ كله مقام إبراهيم، وقد صرح بذلك مجاهد. وقوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ يعني: حَرَمُ مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية، كما قال الحسن البصري وغيره: كان الرجل يُقْتَلُ فَيُضَعُ في عُقْبِهِ صَوْقَةٌ ويدخل الحرم فيلقاه ابنُ المقتول فلا يُضَيِّجُهُ حتى يخرج. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو يحيى الثَّيْمِيُّ، عن عطاء، عن سعيد بن جُبَيْرٍ، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ قال: من عاذ بالبيت أعاده البيت، ولكن لا يؤوى ولا يُطْعَم ولا يُسْقَى، فإذا خرج أخذ بذنبه. وقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَكِينًا وَمُخَفَّفًا لِلنَّاسِ مِنْ حَرِّهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ﴿٢﴾ الَّذِي أَلْهَمَهُمْ مِنْ جَوْعٍ وَمَأْتِهِمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿١﴾ [فريش: ٣، ٤] وحتى إنه من جُمْلَةِ تحريمها حُرْمَةُ اصطِيَادِ صيدها وتَنَفُّيره عن أوكاره، وحُرْمَةُ قطع شجرها وقُلْعِ خشبها، كما ثبتت الأحاديث والآثار في ذلك عن جماعة من الصحابة مرفوعاً وموقوفاً. ففي الصحيحين، واللفظ لمسلم، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح فتح مكة: «لَا هِجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبِنَةٌ،

وَإِذَا اسْتَنْفَرْتُمْ فَاقْبَرُوا»، وقال يوم الفتح فتح مكة: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لَا يُغْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهُ، وَلَا يُلْتَقَطُ لِقَطْعُهُ إِلَّا مِنْ عَرَفْهَا، وَلَا يُخْتَلَى خِلَاؤها، فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر، فإنه لقينهم وليوتهم، فقال: «إلا الإذخر». ولهما عن أبي هريرة، مثله أو نحوه، ولهما واللفظ لمسلم أيضاً عن أبي شريح العدوي أنه قال لعمر بن سعيد، وهو يبعث البعوث إلى مكة: انذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ العذ من يوم الفتح سمعته أذناني ووعاه قلبي وأبصرته عيني حين تكلم به، إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَمُهَا اللَّهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَحِلُّ لِمَرِيٍّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلَا يُغْضَدَ بِهَا شَجَرَةٌ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهَا فَقُولُوا لَهُ: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ» فقيل لأبي شريح: ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يُعِيدُ عَاصِيًّا وَلَا قَارَأَ يَدَمٍ وَلَا قَارَأَ بَخْرِيَّةً. وعن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَحِلُّ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يُخِمِلَ بِمَكَّةَ السَّلَاحَ» رواه مسلم. وعن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول، وهو واقف بالحزوة في سوق مكة: «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْ لَأَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ». رواه الإمام أحمد، وهذا لفظه، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه. وقال الترمذي: حسن صحيح، وكذا صحح من حديث ابن عباس نحوه. وروى أحمد عن أبي هريرة، نحوه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا بشر بن آدم ابن بنت أزهر السماء، حدثنا أبو عاصم، عن زريق بن مسلم الأعمى مولى بني مخزوم، حدثني زياد بن أبي عياش، عن يحيى بن جعدة بن هبيرة، في قوله تعالى: «وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا» قال: آمنا من النار. وفي معنى هذا القول الحديث الذي رواه البيهقي: أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن غيدان، أخبرنا أحمد بن عبيد، حدثنا محمد بن سليمان الواسطي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا ابن المؤمل، عن ابن مخين، عن عطاء، عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَخَلَ الْبَيْتَ دَخَلَ فِي حَسَنَةٍ وَخَرَجَ مِنْ سَيِّئَةٍ، وَخَرَجَ مَغْفُورًا لَهُ»: ثم قال: تفرد به عبد الله بن المؤمل، وليس بقوي. وقوله: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» هذه آية وجوب الحج عند الجمهور. وقيل: بل هي قوله: «وَاتَّبَعُوا لِحُجِّهِ وَالْمَوْتَةَ لَهُ» (البقرة: ١٩٦) والأول أظهر. وقد رذت الأحاديث المتعددة بأنه أخذ أركان الإسلام ودعائه وقواعده، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعاً ضرورياً، وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع. قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا الربيع بن مسلم الفَرَشِي، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة، قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ فَحُجُّوا». فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثاً. فقال رسول الله ﷺ: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجِبَتْ، وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ». ثم قال: ذُرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكٌ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَذَعُّوهُ». ورواه مسلم، عن زهير بن حرب، عن يزيد بن هارون، به نحوه. وقد روى سفيان بن حسين، وسليمان بن كثير، وعبد الجليل بن حميد، ومحمد بن أبي حفصة، عن الزهري، عن أبي سنان الدؤلي - واسمه يزيد بن أمية - عن ابن عباس قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ». فقام الأقرع بن حابس فقال: يا رسول الله، أفي كل عام؟ قال: «لَوْ قُلْتُمْ، لَوَجِبَتْ، وَلَوْ وَجِبَتْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهَا، وَلَمْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْمَلُوا بِهَا؛ الْحَجُّ مَرَّةً، فَمَنْ زَادَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ». رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم من حديث الزهري، به. ورواه شريك، عن سيمك، عن عكرمة، عن ابن عباس، بنحوه. وروي من حديث أسامة بن زيد.

وقال الإمام أحمد: حدثنا منصور بن وردان، عن علي بن عبد الأعلى، عن أبيه، عن أبي البختري، عن علي قال: لما نزلت: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» قالوا: يا رسول الله، في كل عام؟ فسكت، قالوا: يا رسول الله، في كل عام؟ قال: «لَا، وَلَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجِبَتْ». فأنزل الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْتَأْذِنُوا عَنْ أَشْيَاءَ لَنْ تُبَدِّلَكُمْ مَسْئُومًا» (المائدة: ١٠١). وكذا رواه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم، من حديث منصور بن وردان، به. ثم قال الترمذي: حسن غريب. وفيما قال نظر؛ لأن البخاري قال: لم يسمع أبو البختري من علي. وقال ابن ماجه: حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا محمد بن أبي عبيدة، عن أبيه، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن أنس بن مالك قال: قالوا: يا رسول الله، الحج في كل عام؟ قال: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجِبَتْ، وَلَوْ وَجِبَتْ لَمْ تَقُومُوا بِهَا، وَلَوْ لَمْ تَقُومُوا بِهَا لَعَذَّبْتُمْ». وفي الصحيحين من حديث ابن

جُرَيْجٍ، عن عطاء، عن جابر، عن سُرَاقَةَ بن مالك قال: يا رسول الله، مُتَعَتْنَا هذه لعامنا هذا أم للأبد؟ قال: «لَا، بَلْ لِلْأَبَدِ». وفي رواية: «بَلْ لِلْأَبَدِ أَبَدٍ». وفي مسند الإمام أحمد، وسنن أبي داود، من حديث واقد بن أبي واقد الليثي، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال لنسائه في حجة: «هَذِهِ ثُمَّ ظُهُورُ الْخُصْرِ» يعني: ثُمَّ الزَّمَنُ ظُهُورُ الْحَصْرِ، ولا تخرجن من البيوت. وأما الاستطاعة فأقسام: تارة يكون الشخص مستطيعاً بنفسه، وتارة بغيره، كما هو مقرر في كتب الأحكام. قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا عَبْدُ بن حميد، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا إبراهيم بن يزيد قال: سمعت مُحَمَّدَ بن عَبَّاد بن جعفر يحدث عن ابن عمر قال: قام رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: مَنْ الْحَاجُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «الشَّعْتُ الثَّقِيلُ»، فقام آخر فقال: أَيُّ الْحَجِّ أَفْضَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «الْعَجُّ وَالثَّجُّ»، فقام آخر فقال: ما السبيل يا رسول الله؟ قال: «الرَّادُّ وَالرَّاجِلَةُ».

وهكذا رواه ابن ماجه من حديث إبراهيم بن يزيد وهو الخُوزي. قال الترمذي: ولا نعرفه إلا من حديثه، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه. كذا قال هُنا. وقال في كتاب الْحَجِّ: هذا حديث حسن. ولا يشك أن هذا الإسناد رجاله كلهم ثقات سوى الخوزي هذا، وقد تكلموا فيه من أجل هذا الحديث. لكن قد تابعه غيره، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله العامري، حدثنا محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي، عن محمد بن عباد بن جعفر قال: جلست إلى عبد الله بن عمر قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال له: ما السبيل؟ قال: «الرَّادُّ وَالرَّاجِلَةُ». وكذا رواه ابن مَرْزُوقٍ من رواية محمد بن عبد الله بن عُبيد بن عمير، به. ثم قال ابن أبي حاتم: وقد روي عن ابن عباس، وأنس، والحسن، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، والربيع بن أنس، وقتادة - نحو ذلك. وقد روي هذا الحديث من طُرُقٍ أُخَر من حديث أنس، وعبد الله بن عباس، وابن مسعود، وعائشة كُلُّها مرفوعة، ولكن في أسانيدنا مقال، كما هو مقرر في كتاب الأحكام، والله أعلم. وقد اعتنى الحافظ أبو بكر بن مَرْزُوقٍ بجمع طرق هذا الحديث. ورواه الحاكم من حديث قَتَادَةَ، عن حماد بن سلمة، عن قتادة، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله: «مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» فقيل: ما السبيل؟ قال: «الرَّادُّ وَالرَّاجِلَةُ». ثم قال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُثَيْمٍ، عن يونس، عن الحسن قال: قرأ رسول الله ﷺ: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» قالوا: يا رسول الله، ما السبيل؟ قال: «الرَّادُّ وَالرَّاجِلَةُ». ورواه وكيع في تفسيره، عن سفيان، عن يونس، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا الثوري، عن إسماعيل - وهو أبو إسرائيل الملائي - عن فضيل - يعني ابن عمرو - عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعَجَّلُوا إِلَى الْحَجِّ - يعني الفريضة - فَإِنْ أَحَدُكُمْ لَا يَذِرِي مَا يَغْرُسُ لَهُ».

وقال أحمد أيضاً: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الحسن بن عمرو الفقيمي، عن مِهْرَانَ بن أبي صفوان، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آزَادَ الْحَجَّ فَلَيْتَعَجَّلْ». ورواه أبو داود، عن مُسَدَّدٍ، عن أبي معاوية الضرير، به. وقد روى ابن جبير، عن ابن عباس في قوله: «مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». قال: من ملك ثلاثمائة درهم فقد استطاع إليه سبيلاً. وعن عكرمة موله أنه قال: السبيل الضحّة. وروى وكيع بن الجراح، عن أبي جَنَابٍ - يعني الكلبي - عن الضحاك بن مَرْزُوحٍ، عن ابن عباس قال: «مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» قال: الزاد والبكير. وقوله: «وَمَنْ كَفَّرَ فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنِ الْمَلَكَيْنِ» قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: أي ومن جحد فريضة الحج فقد كفر، والله غني عنه. وقال سعيد بن منصور، عن سفيان، عن ابن أبي نجيع، عن عكرمة قال: لما نزلت: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ» قالت اليهود: فنحن مسلمون. قال الله ﷻ: فاخْصَمْتُمْ فَحَجَّجْتُمْ - يعني فقال لهم النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَرَضَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَجَّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». فقالوا: لم يكتب علينا، وأبوا أن يحجوا. قال الله: «وَمَنْ كَفَّرَ فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنِ الْمَلَكَيْنِ». وروى ابن أبي نجيع، عن مجاهد، نُخُوهُ. وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، أخبرنا إسماعيل بن عبد الله بن مسعود، أخبرنا مسلم بن إبراهيم وشاذ بن فياض قال: أخبرنا هلال أبو هاشم الخراساني، أخبرنا أبو إسحاق الهمداني، عن الحارث، عن علي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَلَكَ زَادًا وَرَاجِلَةً وَلَمْ يَخُجْ بَيْتَ اللَّهِ، فَلَا يَضُرُّهُ مَاتَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» وَمَنْ كَفَّرَ فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنِ الْمَلَكَيْنِ». وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي زُرْعَةَ الرازي: حدثنا هلال بن فياض، حدثنا هلال أبو هاشم الخراساني، فذكره بإسناده مثله. ورواه الترمذي عن محمد بن يحيى القطعي، عن مسلم بن إبراهيم، عن هلال بن عبد الله مولى ربيعة بن عمرو بن مسلم الباهلي، به، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفي إسناده مقال، وهلال مجهول، والحارث يضعف في الحديث. وقال البخاري: هلال هذا منكر الحديث. وقال ابن عَدِيٍّ: هذا الحديث ليس بمحفوظ. وقد روى أبو بكر الإسماعيلي الحافظ من

حديث أبي عمرو الأزاعي، حدثني إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، حدثني عبد الرحمن بن غنم أنه سمع عمر بن الخطاب يقول: من أطاق الحج فلم يحج، فسواء عليه يهودياً مات أو نصرانياً. وهذا إسناد صحيح إلى عمر، رضي الله عنه، وروى سعيد بن منصور في سننه عن الحسن البصري قال: قال عمر بن الخطاب: لقد هممت أن أبعث رجلاً إلى هذه الأمصار فينظروا كل من كان له جدة فلم يحج، فيضربوا عليهم الجزية، ما هم بمسلمين. ما هم بمسلمين.

﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن مَّا مَن تَبُوءَاتِ عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

هذا تعنيف من الله تعالى لكفرة أهل الكتاب، على عنادهم للحق، وكفرهم بآيات الله، وضدّهم عن سبيله من أرادهم من أهل الإيمان بجهدهم وطاعتهم، مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله، بما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين، والسادة المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وما بشروا به ونؤفوا، من ذكر النبي ﷺ الأمي الهاشمي العربي المكي، سيد ولد آدم، وخاتم الأنبياء، ورسول رب الأرض والسماء. وقد تورعدهم الله تعالى على ذلك بأنه شهيد على ضيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء، ومقابلتهم الرسول المبشر بالكذب والجحود والعناد، وأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون، أي: وسيجزيهم على ذلك يوم لا ينفعهم مال ولا بنون.

﴿يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن طَلِبُوا قُرْآنًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بِهِ إِيمَانَكُمْ كَفَرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنْتَلَّ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَمِدْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أن يطلبوا طائفة من الذين أوتوا الكتاب، الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، وما مَنَحهم به من إرسال رسوله، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا حَسَبًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩] وهكذا قال ههنا: ﴿إِن طَلِبُوا قُرْآنًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بِهِ إِيمَانَكُمْ كَفَرِينَ﴾ ثم قال: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنْتَلَّ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ يعني: أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه، فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلاً ونهاراً، وهو يتلوها عليكم ويلفها إليكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمُ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِقَوْمًا يُؤْمِنُونَ وَقَدْ آخَذَ مِن قَبْلِكُمُ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الحديد: ٨] والآية بعدها. وكما جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَغْجَبَ إِلَيْكُمْ إِيْمَانًا؟» قالوا: الملائكة. قال: «وَكَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟» وذكروا الأنبياء، قال: «وَكَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ؟» قالوا: فنحن. قال: «وَكَيْفَ لَا تُؤْمِنُونَ وَأَنَا بَيِّنٌ أَظْهَرُكُمْ؟!» قالوا: فأي الناس أعجب إيماناً؟ قال: «قَوْمٌ يَحْيَتُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ يَجِدُونَ صُحُفًا يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا». وقد ذكرت سند هذا الحديث والكلام عليه في أول شرح البخاري، والله الحمد. ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَمِدْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العُمدة في الهداية، والعُدّة في مباحة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد.

﴿يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٣﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان وشُعْبَةَ، عن زَيْدِ بْنِ أَبِي حَتْمٍ، عن مرة، عن عبد الله - هو ابن مسعود - «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ». قال: أن يطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر. وهذا إسناد صحيح موقوف، وقد تابع مرة عليه عمرو بن ميمون عن ابن مسعود. وقد رواه ابن مَرْزُوقٍ عن حديث يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن سفيان الثوري، عن زَيْدِ بْنِ أَبِي حَتْمٍ، عن مرة، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ». أن يطاع فلا يُعصى، ويُشكر فلا يُكفر، ويُذكر فلا يُنسى. وكذا رواه الحاكم في مستدركه، من حديث مسعر، عن زَيْدِ بْنِ أَبِي حَتْمٍ، عن ابن مسعود، مرفوعاً فذكره. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. كذا قال. والأظهر أنه موقوف والله أعلم. ثم قال ابن أبي حاتم: وروى نحوه عن مرة الهذلي، والربيع بن خثيم، وعمرو بن ميمون، وإبراهيم التَّخَمي، وطاووس، والحسن، وقتادة، وأبي سنان، والسُّدِّي، نحوه ذلك. وروي عن أنس أنه قال: لا يتقي العبد الله حق تقاته حتى يخزن من لسانه. وقد ذهب سعيد بن جبير، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حَيَّان، وزيد بن أسلم، والسُّدِّي وغيرهم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التحريم: ١٦]. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾. قال: لم تُنسخ، ولكن «حَقَّ تَقَاتِهِ» أن يجاهدوا في سبيله حق جهاده، ولا تأخذهم في الله لومة لائم،

ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم. وقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه، فعياداً بالله من خلاف ذلك. قال الإمام أحمد: حدثنا رُوح، حدثنا شعبة قال: سمعتُ سليمان، عن مجاهد، أن الناس كانوا يطوفون بالبيت، وابنُ عباس جالس معه مخبج، فقال: قال رسول الله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ أَنَّ قُطْرَةَ مِنَ الزُّقُومِ قُطِرَتْ لَأَمَرْتُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ عَيْشَتَهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلَّا الزُّقُومُ.﴾

وهكذا رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن جبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، من طرق عن شعبة، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الحاكم: على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحَّزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَذِرْهُ مَيْتَةً، وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَيَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ.﴾ وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ ﷻ». ورواه مسلم من طريق الأعمش، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو يونس، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَإِنْ ظَنَّنِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّنِي شَرًّا فَلَهُ». وأصل هذا الحديث ثابت في الصحيحين من وجه آخر، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي». وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الملك القرشي، حدثنا جعفر بن سليمان، عن ثابت - وأحسبه - عن أنس قال: كان رجل من الأنصار مريضاً، فجاءه النبي ﷺ يَمُودُهُ، فوافقه في السوق فسلم عليه، فقال له: «كَيْفَ أَنْتَ يَا فَلَانُ؟» قال: بخير يا رسول الله، أرجو الله وأخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي هَذَا الْعَوْنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَأَمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ». ثم قال: لا تعلم رواه عن ثابت غير جعفر بن سليمان. وهكذا رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه من حديثه، ثم قال الترمذي: غريب. وقد رواه بعضهم عن ثابت مرسلًا.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن يوسف بن ماهك، عن حكيم بن جزام قال: بايعت رسول الله ﷺ على ألا أُجْرَ إِلَّا قَاتِمًا. ورواه النسائي في سننه عن إسماعيل بن مسعود، عن خالد بن الحارث، عن شعبة، به، وترجم عليه فقال: (باب كيف يخر للسجود) ثم ساقه مثله فقيل: معناه: على ألا أموت إلا مسلماً، وقيل: معناه على ألا أقتل إلا مُقْبِلًا غير مُدْبِر، وهو يرجع إلى الأول. وقوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ قيل: ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ أي: بعهد الله، كما قال في الآية بعدها: ﴿صُرِّتْ عَلَيْهِمُ الْآيَةُ أَنْ مَا يَقُولُوا إِلَّا بِحَبْلِ اللَّهِ وَحَبْلِ بَيْنَ النَّاسِ﴾ قال عمران: ١١٢ أي بعهد وذمة. وقيل: ﴿بِحَبْلِ بَيْنَ اللَّهِ﴾ يعني: القرآن، كما في حديث الحارث الأعور، عن عليّ مرفوعاً في صفة القرآن: «هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ». وقد رَوَدَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ خَاصٌ بِهَذَا الْمَعْنَى، فَقَالَ الْإِمَامُ الْحَافِظُ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبْرِيُّ: حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ يَحْيَى الْأُمَوِيُّ، حَدَّثَنَا أَسْبَاطُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ الْعَزْزَمِيِّ، عَنْ عَطِيَّةٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كِتَابُ اللَّهِ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ». وروى ابن مَرْدُودِيهِ مِنْ طَرِيقِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُسْلِمٍ الْهَجَرِيِّ، عَنْ أَبِي الْأَخْوَصِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ النُّورُ الْمَبِينُ وَهُوَ الشَّعَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنْ اتَّبَعَهُ». وَرَوَى مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ وَزَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ نَحْوَ ذَلِكَ. وَقَالَ وَكِيعٌ: حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «إِنَّ هَذَا الصِّرَاطَ مُحْتَضَرٌ تَحْضَرُهُ الشَّيَاطِينُ، يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا الطَّرِيقُ، هَلُمَّ إِلَى الطَّرِيقِ، فَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ فَإِنَّ حَبْلَ اللَّهِ الْقُرْآنَ». وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾: أَمَرَهُمُ بِالْجَمَاعَةِ وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّفَرُّقِ. وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ الْمُتَعَدَّةُ بِالنَّهْيِ عَنِ التَّفَرُّقِ وَالْأَمْرُ بِالْإِجْتِمَاعِ وَالْإِتِّلَافِ، كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا، أَنْ تَغِيْبُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَغْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُتَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ: وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ».

وقد ضُمَّنَا لَهُمُ الْعِصْمَةَ، عِنْدَ اتِّفَاقِهِمْ، مِنْ الْخَطَا، كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الْمُتَعَدَّةُ أَيْضًا، وَخِيفَ عَلَيْهِمُ الْإِفْتِرَاقُ، وَالْإِخْتِلَافُ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ فَافْتَرَقُوا عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، مِنْهَا فِرْقَةٌ نَاجِيَةٌ إِلَى الْجَنَّةِ وَمُسْلِمَةٌ مِنْ عَذَابِ النَّارِ،

وهم الذين على ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه. وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ إلى آخر الآية، وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن وإحزَنٌ وذُخُولُ طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم، صاروا إخواناً متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي لَمَّا بَقِعْتُمُوهَا وَكَانَ بَيْنَ يَدَيْكُمْ آخِذٌ بِعَهْدِكُمْ أَنْ لَا تُدْخِرَ الْفِتْنَةَ بَيْنَكُمُوهَا وَأُفٍّ لَكُمْ فِي ظُهُورِكُمْ إِذْ قَامْتُمْ عَلَيْهَا فِئَةٌ مَبْرُورَةٌ﴾ [الأنفال: ٦٢] وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم، فابعدهم الله منها: أَنْ هَذَا لَهُمُ الْإِيمَانُ. وقد امتن عليهم بذلك رسول الله ﷺ يوم قَسَمَ غَنَائِمَ حُتَيْنَ، فَعَتَبَ من عتب منهم لما فَضَّلَ عليهم في القسمة بما أراه الله، فخطبهم فقال: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ يَ، وَكُنْتُمْ مُفْرَقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ يَ، وَعَالَةً فَاغْتَاكُمْ اللَّهُ يَ؟» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله آمن. وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار وغيره: أن هذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج، وذلك أن رجلاً من اليهود مرَّ بملأ من الأوس والخزرج، فسأه ما هم عليه من الاتفاق والألفة، فبعث رجلاً معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم بُعِثَ وتلك الحروب، ففعل، فلم يزل ذلك دأبه حتى حُميت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض، وتثاروا، ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم، وتواعدوا إلى الحرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاهم فجعل يُسَكِّتُهُمْ ويقول: «إِبْدَعُوا الْجَاهِلِيَّةَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟» تلا عليهم هذه الآية، فندموا على ما كان منهم، واصطلحوا وتعانقوا، وألقوا السلاح، رضي الله عنهم. وذكر عكرمة أن ذلك نزل فيهم حين تثاروا في قضية الإفك، والله أعلم.

﴿وَلَنْتَكُنَّ بِكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْعُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا بَيْنَ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتِ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وَجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ مَائِكَتُ اللَّهِ تَنْتَوِيهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلَوْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩).

يقول تعالى: ﴿وَلَنْتَكُنَّ بِكُمْ أُمَّةٌ﴾ أي: منتصبة للقيام بأمر الله، في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قال الضحاك: هم خاصة الصحابة وخاصة الرواة، يعني: المجاهدين والعلماء. وقال أبو جعفر الباقر: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَلَنْتَكُنَّ بِكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ ثم قال: «الْخَيْرُ اتِّبَاعُ الْقُرْآنِ وَسُنَّتِي» رواه ابن مردويه. والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ يَدُهُ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِلْسَانُهُ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ». وفي رواية: «وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَزْدَلٍ». وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان الهاشمي، أخبرنا إسماعيل بن جعفر، أخبرني عمرو بن أبي عمرو، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهلي، عن حذيفة بن اليمان، أن النبي ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عُنْدِهِ، ثُمَّ لَتَزْجَعُنَّهُ فَلَا يُسْتَجِيبُ لَكُمْ». ورواه الترمذي، وابن ماجة، من حديث عمرو بن أبي عمرو، به وقال الترمذي: حسن. والأحاديث في هذا الباب كثيرة مع الآيات الكريمة كما سيأتي تفسيرها في أماكنها.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا بَيْنَ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتِ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٥): ينهى هذه الأمة أن تكون كالأمم الماضية في تفرقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثني أزهر بن عبد الله الهوزني عن أبي عامر عبد الله بن لُحَيٍّ قال: حججنا مع معاوية بن أبي سفيان، فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً - يعني الأهواء - كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ، وَإِنَّهُ سَيُخْرِجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامًا تَتَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ، كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ، لَا يَبْقَى مِنْهُ عِزٌّ وَلَا مُفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ. وَاللَّهُ - يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ - لَيَنْ لَمْ تَقُومُوا بِمَا جَاءَ بِهِ بَيْنَكُمْ ﷺ لَغَيْرَكُمْ مِنَ النَّاسِ أُخْرَى لَا يَقُومُ بِهِ».

وهكذا رواه أبو داود، عن أحمد بن حنبل ومحمد بن يحيى، كلاهما عن أبي المغيرة - واسمه عبد القدوس بن الحجاج الشامي - به، وقد روي هذا الحديث من طرق. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وَجُوهٌ﴾ يعني: يوم القيامة، حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة، قاله ابن عباس، رضي الله عنهما. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ؟﴾ قال الحسن البصري: وهم المنافقون. ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهذا الوصف يعم كل كافر.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْصَرَتْ وَجُوهُهُمْ فَأَنَّى رَحِمَهُ اللَّهُ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني: الجنة، ماكثون فيها أبداً لا يبعثون عنها حولاً. وقد قال أبو عيسى الترمذي عند تفسير هذه الآية: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وَكِيع، عن رِبْعٍ - وهو ابن صَبِيح - وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، عَنْ أَبِي غَالِبٍ قَالَ: رَأَى أَبُو أُمَامَةَ رُؤُوساً مَنْصُوبَةً عَلَى دَرَجٍ دِمَشْقٍ، فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ: كِلَابُ النَّارِ، شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، خَيْرٌ قَتْلَى مِنْ قَتْلِهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. قُلْتُ لِأَبِي أُمَامَةَ: أَنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: لَوْ لَمْ أَسْمَعَهُ إِلَّا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا - حَتَّى عَذَّ سَبْعًا - مَا حَدَّثْتُكُمْ بِهِ. ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ مِنْ حَدِيثِ سَفْيَانَ بْنِ عِيْنَةَ عَنْ أَبِي غَالِبٍ، وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ، عَنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَقْمَرٍ، عَنْ أَبِي غَالِبٍ، بِنَحْوِهِ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ مَرْزُوقٍ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، حَدِيثاً مَطُولاً غَرِيباً عَجِيباً جَدّاً. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ آيَاتِ اللَّهِ وَحُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ﴾ يَأْتِي بِمُحَمَّدٍ ﴿وَالْحَقُّ﴾ أَي: نَكْشِفُ مَا الْأَمْرُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أَي: لَيْسَ بِظَالِمٍ لَهُمْ بَلْ هُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ الَّذِي لَا يَجُورُ؛ لِأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَلَا يَحْتَاجُ مَعَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: الْجَمِيعُ مُلْكٌ لَهُ وَعَبِيدٌ لَهُ. ﴿وَالِلَّهِ رُجْعُ الْأُمُورِ﴾ أَي: هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، الْحَاكِمُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَلَهُمْ يَنْهَوْنَ وَيُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ لَنْ يَمُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ أَلَا يَأْتِيكُمْ إِلَّا نَجَسٌ فَلَا يَنْفَعُ الْإِيمَانُ إِذَا مَا تَقَوَّيَا إِلَّا جَمِلَ مِنَ اللَّهِ وَبَلَّيَ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَأَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْكَلْبِيَّةَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَحْمُودَةِ بِأَنَّهُمْ خَيْرُ الْأُمَمِ فَقَالَ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. قَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُونُسَ، عَنْ سَفْيَانَ، عَنْ مَيْسَرَةَ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قَالَ: خَيْرُ النَّاسِ لِلنَّاسِ، تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ. وَهَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَعَطَاءٌ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ يَعْنِي: خَيْرُ النَّاسِ لِلنَّاسِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ خَيْرُ الْأُمَمِ وَأَنْفَعُ النَّاسِ لِلنَّاسِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾. قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، حَدَّثَنَا شَرِيكٌ، عَنْ سِمَاكٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَيْرٍ عَنْ زَوْجِ دُرَّةَ بِنْتِ أَبِي لَهَبٍ، عَنْ دُرَّةَ بِنْتِ أَبِي لَهَبٍ، قَالَتْ: قَامَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ فَقَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ أَقْرَبُهُمْ وَأَتْقَاهُمْ لِلَّهِ، وَأَمْرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَانْتِهَائُهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَوْصَلُهُمْ لِلرَّحِمِ». وَرَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ، وَالنَّسَائِيُّ فِي سُنَنِهِ، وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ، مِنْ حَدِيثِ سِمَاكٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، قَالَ: هُمُ الَّذِينَ هَاجَرُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عَامَةٌ فِي جَمِيعِ الْأُمَّةِ، كُلِّ قَرْنٍ بِحَسَبِهِ، وَخَيْرُ قُرُونِهِمُ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخِرَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، أَي: خِيَارًا ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ الْآيَةَ. وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَجَامِعِ التِّرْمِذِيِّ، وَسُنَنِ ابْنِ مَاجَةَ، وَمُسْتَدْرَكِ الْحَاكِمِ، مِنْ رِوَايَةِ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَنْدَلَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْتُمْ تَوْفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا، وَأَنْتُمْ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ». وَهُوَ حَدِيثٌ مَشْهُورٌ، وَقَدْ حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ. وَيُرْوَى مِنْ حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ، بِنَحْوِهِ. وَإِنَّمَا حَازَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَصَبَ السُّبْقِ إِلَى الْخَيْرَاتِ بِنَبِيِّهَا مُحَمَّدٍ ﷺ، فَإِنَّهُ أَشْرَفُ خَلْقِ اللَّهِ وَأَكْرَمُ الرُّسُلِ عَلَى اللَّهِ، وَبِعَثَّةِ اللَّهِ بِشَرِّعٍ كَامِلٍ عَظِيمٍ لَمْ يُغْطِ نَبِيًّا قَبْلَهُ وَلَا رَسُولًا مِنَ الرُّسُلِ. فَالْعَمَلُ عَلَى مَنَاجِهِ وَسَبِيلِهِ، يَقُومُ الْقَلِيلُ مِنْهُ مَا لَا يَقُومُ الْعَمَلُ الْكَثِيرُ مِنْ أَعْمَالِ غَيْرِهِمْ مَقَامَهُ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، حَدَّثَنَا ابْنُ زُهَيْرٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ - يَعْنِي ابْنَ مُحَمَّدٍ - عَنْ عَقِيلٍ - عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، وَهُوَ ابْنُ الْحَنْفِيَّةِ، أَنَّهُ سَمِعَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُعْطِيَتْ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ». فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هُوَ؟ قَالَ: «نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ وَأُعْطِيْتُ مَقَاتِيحَ الْأَرْضِ، وَسُمِّيتُ أَحْمَدَ، وَجُعِلَ الثَّرَابُ لِي طَهْرًا، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الْأُمَمِ». تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَلَاءِ الْحَسَنُ بْنُ سَوَّارٍ، حَدَّثَنَا لَيْثٌ، عَنْ مُعَاوِيَةَ عَنْ أَبِي حَلِيسٍ يَزِيدُ بْنُ مَيْسَرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أُمَّ الدَّرْدَاءِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ، وَمَا سَمِعْتُهُ يَكْنِيهِ قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا، يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا عِيسَى، إِنِّي بَاعْتُ بِعَدْلِكَ أُمَّةً، إِنَّ أَصَابَهُمْ مَا يُجِبُونَ حِمْدًا وَشُكْرًا، وَإِنْ أَصَابَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ اخْتَسَبُوا وَصَبَرُوا، وَلَا جَلَمَ وَلَا

عَلِمَ». قال: «يَا رَبِّ، كَيْفَ هَذَا لَهُمْ، وَلَا جِلْمٌ وَلَا عِلْمٌ؟». قال: «أُعْطِيَهُمْ مِنْ جِلْمِي وَعِلْمِي».

وقد وردت أحاديث يناسب ذكرها ههنا: قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا المسعودي، حدثنا يَكْبَرُ بْنُ الْأَخْنَسِ، عن رجل، عن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيَتْ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَلَوْ يُهْمُّ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَاسْتَزَدْتُ رَبِّي، ﷻ، فَرَاذَنِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفًا». قال أبو بكر، رضي الله عنه: فرأيت أن ذلك آتٍ على أهل القرى، ومصيبٌ من حافات البوادي.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن بكر السهمي، حدثنا هشام بن حسان، عن القاسم بن مهران، عن موسى بن عبيد، عن ميمون بن مهران، عن عبد الرحمن بن أبي بكر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ رَبِّي أَعْطَانِي سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، بِغَيْرِ حِسَابٍ». فقال عمر: يا رسول الله، فهلا استزدت؟ فقال: «اسْتَزَدْتُ فَأَعْطَانِي مَعَ كُلِّ رَجُلٍ سَبْعِينَ أَلْفًا». قال عمر: فهلا استزدت؟ قال: «قَدْ اسْتَزَدْتُ فَأَعْطَانِي هَكَذَا». وفرج عبد الله بن بكر بين يديه، وقال عبد الله: وبسط باعيه، وحثا عبد الله، قال هشام: وهذا من الله لا يدري ما عده.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ضَمُصَمِ بْنِ زُرْعَةَ قال: قال شَرِيحُ بْنُ عبيد: مَرَضَ ثُوْبَانُ بِحُمَصٍ، وعليها عبد الله بن قُرْطُ الْأَزْدِيِّ، فلم يَغْدُ، فدخل على ثوبان رجل من الكلاءيين عائداً، فقال له ثوبان: أنكتب؟ قال: نعم. فقال: اكتب، فكتب: للأمير عبد الله بن قُوط، من ثوبان مولى رسول الله ﷺ، أما بعد: فإنه لو كان لموسى وعيسى، عليهما السلام، بحضرتك خادماً لعدته. ثم طوى الكتاب وقال له: أنبلغه إياه؟ فقال: نعم. فانطلق الرجل بكتابه فدفعه إلى ابن قُوط، فلما رآه قام فزَعَا، فقال الناس: ما شأنه؟ أحدث أمراً؟ فأتى ثوبان حتى دخل عليه فعاذه، وجلس عنده ساعة ثم قام، فأخذ ثوبان بردائه وقال: اجلس حتى أحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، سمعته يقول: «لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا، لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا». تفرد به أحمد من هذا الوجه، وإسناده رجاله كلهم ثقات شاميون جَمُصِيَّونَ، فهو حديث صحيح، والله الحمد.

طريق أخرى: قال الطبراني: حدثنا عمرو بن إسحاق بن زُبَيْرِ الْجَمُصِيِّ، حدثنا محمد بن إسماعيل - يعني ابن عِيَّاشٍ - حدثنا أبي، عن ضَمُصَمِ بْنِ زُرْعَةَ، عن شَرِيحِ بْنِ عبيد، عن أبي أسماء الزخبي، عن ثوبان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ رَبِّي، ﷻ، وَعَدَنِي مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا لَا يُحَاسِبُونَ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا». هذا لعله هو المحفوظ بزيادة أبي أسماء الرحبي، بين شريح وبين ثوبان، والله أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَرٌ، عن قتادة، عن الحسن، عن عمران بن حُصَيْنٍ، عن ابن مسعود قال: أكثرنا الحديث عند رسول الله ﷺ ذات ليلة، ثم غَدَوْنَا إِلَيْهِ فقال: «غَرَضْتُ عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءَ اللَّيْلَةَ بِأَمَمِهَا، فَجَعَلَ النَّبِيُّ يَمُرُّ وَمَعَهُ الثَّلَاثَةُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الْعَصَابَةُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الْقُرْ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى مَرَّ عَلَيَّ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَعَهُ كَنَبَكَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَعَجَبُونِي، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَقِيلَ: هَذَا أَخُوكَ مُوسَى، مَعَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ». قال: «فَقُلْتُ: فَأَيْنَ أُمَّتِي؟ فَقِيلَ: انْظُرْ عَنْ يَمِينِكَ. فَتَنَظَّرْتُ فَإِذَا الظَّرَابُ قَدْ سُدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ عَنْ يَسَارِكَ. فَتَنَظَّرْتُ، فَإِذَا الْأَفْقُ قَدْ سُدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ فَقِيلَ لِي: قَدْ رَضِيتَ؟ فَقُلْتُ: «رَضِيتُ يَا رَبِّ، رَضِيتُ يَا رَبِّ». قال: «فَقِيلَ لِي: إِنَّ مَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ». فقال النبي ﷺ: «فِدَاكُمْ أَبِي وَأُمِّي، إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا فَافْعَلُوا فَإِنْ قَصُرْتُمْ فَكُونُوا مِنَ أَهْلِ الظَّرَابِ، فَإِنْ قَصُرْتُمْ فَكُونُوا مِنَ أَهْلِ الْأَفْقِ، فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ ثُمَّ أَنَا سَيِّئًا وَشَوْشًا». فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله يا رسول الله أن يجعلني منهم. أي من السبعين، فدعا له. فقام رجل آخر فقال: ادع الله يا رسول الله أن يجعلني منهم فقال: «قَدْ سَبَقَكَ بِهَا عَكَّاشَةٌ». قال: ثم تحدثنا فقلنا: من تَرَوْنَ هَؤُلَاءِ السَّبْعِينَ أَلْفَ؟ قوم ولدوا في الإسلام لم يُشْرِكُوا بالله شيئاً حتى ماتوا. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَكْفُرُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَطْهَرُونَ، وَعَلَى رُءُوسِهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». هكذا رواه أحمد بهذا السند وهذا السياق، ورواه أيضاً عن عبد الصمد، عن هشام، عن قتادة، بإسناده مثله، وزاد بعد قوله: «رَضِيتُ يَا رَبِّ رَضِيتُ يَا رَبِّ» قال: «رَضِيتُ؟ فَقُلْتُ: «نَعَمْ». قَالَ: انْظُرْ عَنْ يَسَارِكَ قَالَ: «فَتَنَظَّرْتُ فَإِذَا الْأَفْقُ قَدْ سُدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ». فقال: رَضِيتُ؟ فَقُلْتُ: «رَضِيتُ». وهذا إسناد صحيح من هذا الوجه، تفرد به أحمد ولم يخرجوه.

حديث آخر: قال أحمد بن منيع: حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز، حدثنا حَمَادٌ، عن عاصم، عن زر، عن ابن مسعود قال النبي ﷺ: «غَرَضْتُ عَلَيَّ الْأَمَمَ بِالْمُؤْسِمِ قَرَأْتُ عَلَيَّ أُمَّتِي، ثُمَّ رَأَيْتُهُمْ فَأَعَجَبَنِي كَثَرَتُهُمْ وَهَيَأَتُهُمْ، قَدْ مَلَأُوا السَّهْلَ وَالْجَبَلَ»، فَقَالَ: أَرَضِيتُ يَا مُحَمَّدٌ؟ فَقُلْتُ: «نَعَمْ». قَالَ: فَإِنَّ مَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَهُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ

وَلَا يَكْفُرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». فقام عكاشة بن مخصن فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم فقال: «أنت منهم». فقام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم فقال: «سَبَقَكَ بِهَا عكاشة». رواه الحافظ الضياء المقدسي، وقال: هذا عندي على شرط مسلم.

حديث آخر: قال الطبراني: حدثنا محمد بن محمد الجُدوعي القاسي، حدثنا عُقبة بن مكرم. حدثنا محمد بن أبي عدي عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين، عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ». قيل: من هم؟ قال: «هُمْ الَّذِينَ لَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». رواه مسلم من طريق هشام بن حسان، وعنده ذكر عكاشة.

حديث آخر: ثَبِتَ فِي الصَّحِيحِينَ مِنْ رِوَايَةِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ حَدَّثَهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمَرَةٌ وَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، تُضَيُّ وَجُوهُهُمْ إِضَاءَةُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ». فقال أبو هريرة: فقام عكاشة بن مخصن الأسدي يرفع نَمِرَةً عَلَيْهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادع الله أن يجعلني منهم. فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ». ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم فقال: «سَبَقَكَ بِهَا عكاشة».

حديث آخر: قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا يحيى بن عثمان، حدثنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا أبو غسان، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لِيَدْخُلَنَّ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا - أَوْ سَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ - آخِذٌ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حَتَّى يَدْخُلَ أَوَّلُهُمْ وَأَخِيرُهُمُ الْجَنَّةَ، وَوُجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ». أخرجه البخاري ومسلم جميعاً، عن قُتَيْبَةَ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سَهْلٍ، بِهِ.

حديث آخر: قال مسلم بن الحجاج في صحيحه: حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا هُشَيْمٌ، أَخْبَرَنَا حُصَيْنٌ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ: أَتَيْكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَ الْبَارِحَةَ؟ قُلْتُ: أَنَا. ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ، وَلَكِنْ لُدَّغْتُ. قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: اسْتَرْقَيْتُ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثُ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ. قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ الشَّعْبِيُّ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بَرْزَنْةَ بْنِ الْحَصْبِيِّ الْأَسْلَمِيِّ أَنَّهُ قَالَ: لَا رُقِيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حِمَّةٍ. فَقَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مِنْ أَنْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ، وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ. فَتَنَظَّرْتُ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ الْآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَلَا عَذَابٍ. ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسَ فِي أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَجَبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وَلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا الَّذِي تَخَوْضُونَ فِيهِ؟» فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «هُمْ الَّذِينَ لَا يَزْفُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». فقام عكاشة بن مخصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم قال: «أنت منهم». ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: «سَبَقَكَ بِهَا عكاشة». وأخرجه البخاري عن أسيد بن زيد، عن هُشَيْمٍ وليس عنده، «لا يرقون».

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا رُوح بن عباد. حدثنا ابن جُرَيْجٍ، أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ، أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَ حَدِيثًا، وَفِيهِ: «فَتَنْجُو أَوَّلَ زُمَرَةٍ وَوُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ سَبْعُونَ أَلْفًا، لَا يُحَاسِبُونَ، ثُمَّ الَّذِينَ يَكُونُهُمْ، كَأَصْوَابِ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ كَذَلِكَ». وذكر بقية، رواه مسلم من حديث رُوح، غير أنه لم يذكر النبي ﷺ.

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر بن أبي عاصم في كتاب السنن له: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن محمد بن زياد، سمعت أبا أمامة الباهلي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابٍ. وَثَلَاثَ حَيَاتٍ مِنْ حَيَاتِ رَبِّي ﷺ». وكذا رواه الطبراني من طريق هشام بن عمار، عن إسماعيل بن عياش، به، وهذا إسناد جيد.

طريق أخرى عن أبي أمامة: قال ابن أبي عاصم: حدثنا دُحَيْمٌ، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا صفوان بن عمرو، عن سليم بن عامر، عن أبي اليمان الهوزني - واسمه عامر بن عبد الله بن لُحَيٍّ، عن أبي أمامة، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ وَعَدَنِي أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ». قال يزيد بن الأخنس: والله ما أولئك في أمتك يا رسول الله إلا مثل

الذباب الأصهب في الذباب. قال رسول الله ﷺ: «قَاتِلُوا اللَّهَ وَعَذَابِي سَبْعِينَ أَلْفًا، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، وَزَادَنِي ثَلَاثَ حَيَّاتٍ». وهذا أيضاً إسناد حسن.

حديث آخر: قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا أبو ثوبة، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد بن سلام أنه سمع أبا سلام يقول: حدثني عامر بن زيد البكالي أنه سمع عتبة بن عبد السلمي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ رَبِّي ﷻ وَغَدَنِي أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، ثُمَّ يَشْفَعُ كُلُّ أَلْفٍ لِسَبْعِينَ أَلْفًا، ثُمَّ يَخْتِي رَبِّي ﷻ، بِكَفِّهِ ثَلَاثَ حَيَّاتٍ». فذكر عمر وقال: إن السبعين الأول يُشَفِّعُهُمْ الله في آبائهم وأبنائهم وعشائهم، وأرجو أن يجعلني الله في إحدى الحيات الأواخر. قال الحافظ الضياء المقدسي في كتابه صفة الجنة: لا أعلم لهذا الإسناد علة. والله أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا هشام - يعني الدستوائي - حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن هلال بن أبي ميمونة، حدثنا عطاء بن يسار أن رِافعة الجهنِّي حَدَّثَهُ قَالَ: أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْكَدِيدِ - أَوْ قَالَ بِقَدِيدٍ - فَذَكَرَ حَدِيثًا، فِيهِ: ثُمَّ قَالَ: «وَعَذَابِي رَبِّي ﷻ، أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَدْخُلُوهَا حَتَّى تَبَوَّؤُوا أَتَمَّ وَمَنْ صَلَّحَ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَذُرِّيَّتِكُمْ مَسَاكِينَ فِي الْجَنَّةِ». قال الضياء المقدسي: وهذا عندي على شرط مسلم.

حديث آخر: قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة، عن أنس، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَغَدَنِي أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي أَرْبَعَمِائَةِ أَلْفٍ». قال أبو بكر: زدنا يا رسول الله. قال: والله هكذا. فقال عمر: حسبك يا أبا بكر. فقال أبو بكر: ذغني، وما عليك أن يدخلنا الله الجنة كلها. فقال عمر: إن شاء الله أدخل خلقه الجنة بكف واحد. فقال النبي ﷺ: «صَدَقَ عُمَرُ».

هذا الحديث بهذا الإسناد انفرد به عبد الرزاق، قاله الضياء. وقد رواه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني: حدثنا محمد بن أحمد بن مخلد، حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا أبو هلال، عن قتادة، عن أنس عن النبي ﷺ قال: «وَعَذَابِي رَبِّي أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي مِائَةَ أَلْفٍ». فقال أبو بكر: يا رسول الله، زدنا قال: «وهكذا». وأشار سليمان بن حرب بيده كذلك. قلت: يا رسول الله، زدنا. فقال عمر: إن الله قادر أن يدخل الناس الجنة بَحَفَّتَةٍ واحدة. فقال رسول الله ﷺ: «صَدَقَ عُمَرُ». هذا حديث غريب من هذا الوجه، وأبو هلال اسمه: محمد بن سُلَيْمٍ الراسبي، بصري.

طريق أخرى عن أنس: قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا عبد القاهر بن السري السلمي، حدثنا حميد، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا». قالوا: زدنا يا رسول الله. قال: «لِكُلِّ رَجُلٍ سَبْعُونَ أَلْفًا» قالوا: زدنا. وكان على كتيب - فقال: هكذا، وحثا بيده. قالوا: يا رسول الله، أبعث الله من دخل النار بعد هذا، وهذا إسناد جيد، رجاله ثقات، ما عدا عبد القاهر بن السري، وقد مثل عنه ابن معين، فقال: صالح.

حديث آخر: روى الطبراني من حديث قتادة، عن أبي بكر بن أنس، عن أبي بكر بن عمير عن أبيه: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ وَغَدَنِي أَنْ يَدْخُلَ مِنْ أُمَّتِي ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ الْجَنَّةَ». فقال عمير: يا رسول الله، زدنا. فقال هكذا بيده. فقال عمير: يا رسول الله، زدنا. فقال عمر: حسبك، إن الله إن شاء أدخل الناس الجنة بَحَفَّتَةٍ - أَوْ بِحَفَّتَةٍ - واحدة. فقال نبي الله ﷺ: «صَدَقَ عُمَرُ».

حديث آخر: قال الطبراني: حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا أبو ثوبة، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد بن سلام أنه سمع أبا سلام يقول: حدثني عبد الله بن عامر، أن قيساً الكندي حَدَّثَ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْأَنْمَارِي حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ رَبِّي وَغَدَنِي أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَيَشْفَعُ كُلُّ أَلْفٍ لِسَبْعِينَ أَلْفًا، ثُمَّ يَخْتِي رَبِّي ثَلَاثَ حَيَّاتٍ بِكَفِّهِ». كذا قال قيس، فقلت لأبي سعيد: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، بأذني، ووعاه قلبي. قال أبو سعيد: فقال - يعني رسول الله ﷺ -: «وَذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، ﷻ، يَسْتَوْعِبُ مُهَاجِرِي أُمَّتِي، وَيُؤْفِي اللَّهُ بَقِيَّتِهِ مِنْ أَغْرَابِنَا». وقد روى هذا الحديث محمد بن سهل بن عسكر، عن أبي ثوبة الربيع بن نافع بإسناده، مثله. وزاد: قال أبو سعيد: فحسب ذلك عند رسول الله ﷺ، فبلغ أربعمائة ألف ألف وتسعين ألف ألف.

حديث آخر: قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا هاشم بن مرزئد الطبراني حدثنا محمد بن إسماعيل بن عتيَّاش، حدثني أبي، حدثني ضَمُضَمٌ بن زُرْعَةَ، عن شُرَيْحِ بْنِ عُبَيْدٍ، عن أبي مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أَمَّا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَيُبْعَثَنَّ

مِنْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ مِثْلَ اللَّيْلِ الْأَسْوَدِ، زُمْرَةٌ جَمِيعُهُمْ يَخْبُطُونَ الْأَرْضَ، تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: لِمَ جَاءَ مَعَ مُحَمَّدٍ أَكْثَرُ مِمَّا جَاءَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ؟». وهذا إسناد حسن.

نوع آخر من الأحاديث الدالة على فضيلة هذه الأمة وشرفها بكرامتها على الله، وإنها خير الأمم في الدنيا والآخرة: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا ابن جريج أخبرني أبو الزبير، عن جابر، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَكُونَ مَنْ يَتَّبِعُنِي مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ رُبْعُ الْجَنَّةِ». قال: فكبرنا. ثم قال: «أَرْجُو أَنْ يَكُونُوا ثُلُثُ النَّاسِ». قال: فكبرنا. ثم قال: «أَرْجُو أَنْ يَكُونُوا شَطْرُ». وهكذا رواه عن روح، عن ابن جريج، به. وهو على شرط مسلم.

وثبت في الصحيحين من حديث أبي إسحاق السبيعي، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله بن مسعود قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «أَمَّا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» فكبرنا. ثم قال: «أَمَّا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» فكبرنا. ثم قال: «إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

طريق أخرى عن ابن مسعود: قال الطبراني: حدثنا أحمد بن القاسم بن مساور، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثني الحارث بن حصيرة، حدثني القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أَنْتُمْ وَرُبْعُ الْجَنَّةِ لَكُمْ وَلِسَانُ النَّاسِ ثَلَاثَةَ أَزْبَاعِهَا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «كَيْفَ أَنْتُمْ وَثُلُثُهَا؟» قالوا: ذاك أكثر. قال: «كَيْفَ أَنْتُمْ وَالشَّطْرُ لَكُمْ؟» قالوا: ذاك أكثر. فقال رسول الله ﷺ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةٌ صَفٌّ، لَكُمْ مِنْهَا ثَمَانُونَ صَفًّا». قال الطبراني: تفرد به الحارث بن حصيرة.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا ضرار بن مرة أبو سنان الشيباني، عن محارب بن دثار، عن ابن بريدة، عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةٌ صَفٌّ، هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْ ذَلِكَ ثَمَانُونَ صَفًّا». وكذلك رواه عن عفان، عن عبد العزيز، به. وأخرجه الترمذي من حديث أبي سنان، به وقال: هذا حديث حسن. ورواه ابن ماجة من حديث سفيان الثوري، عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه، به.

حديث آخر: رَوَى الطبراني من حديث سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، حدثنا خالد بن يزيد البجلي، حدثنا سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جده، عن رسول الله ﷺ قال: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةٌ صَفٌّ، ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ أُمَّتِي». تفرد به خالد بن يزيد البجلي، وقد تكلم فيه ابن عدي.

حديث آخر: قال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا موسى بن غيلان، حدثنا هاشم بن مخلد، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن سفيان، عن أبي عمرو، عن أبيه عن أبي هريرة قال: لما نزلت ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ (١١٠) وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١١١) [الواقعة: ٣٩، ٤٠] قال رسول الله ﷺ: «أَنْتُمْ رُبْعُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، أَنْتُمْ ثُلُثُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، أَنْتُمْ نِصْفُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، أَنْتُمْ ثُلُثَا أَهْلِ الْجَنَّةِ».

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «نَحْنُ الْأَخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، بَيِّدَ أَنْهُمْ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأَوْتِنَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَهَذَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَهَذَا الْيَوْمَ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، النَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، غَدًا لِلْيَهُودِ وَلِلنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ». رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ مرفوعاً بنحوه. ورواه مسلم أيضاً عن طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نَحْنُ الْأَخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ»، وذكر تمام الحديث.

حديث آخر: روى الدارقطني في الأفراد من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْجَنَّةَ حُرِّمَتْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ حَتَّى أُذْخِلَهَا، وَحُرِّمَتْ عَلَى الْأُمَمِ حَتَّى تُدْخِلَهَا أُمَّتِي». ثم قال: تفرد به ابن عقيل، عن الزهري، ولم يرو عنه سواه، وتفرد به زهير بن محمد، عن ابن عقيل، وتفرد به عمرو بن أبي سلمة، عن زهير. وقد رواه أبو أحمد بن عدي الحافظ فقال: حدثنا أحمد بن الحسين بن إسحاق، حدثنا أبو بكر الأعمش محمد بن أبي عثاب، حدثنا أبو حفص التميمي - يعني عمرو بن أبي سلمة - حدثنا صدقة الدمشقي. عن زهير بن محمد، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الزهري. ورواه الثعلبي: حدثنا أبو العباس المخلدي، أخبرنا أبو نعيم عبد الملك بن محمد، أخبرنا أحمد بن عيسى التنيسي، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، حدثنا

صدقة بن عبد الله، عن زهير بن محمد، عن ابن عقيل، به.

فهذه الأحاديث في معنى قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فمن انصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء عليهم والمدح لهم، كما قال قتادة: بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة حجها رأى من الناس سُرعة، فقرأ هذه الآية: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، ثم قال: من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شُرط الله فيها. رواه ابن جرير. ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩]. ولهذا لما مدح الله تعالى هذه الأمة على هذه الصفات شرع في ذم أهل الكتاب وتائبهم، فقال: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ أي: بما أنزل على محمد ﷺ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان. ثم قال تعالى مخبراً عباده المؤمنين ومبشراً لهم أن النصر والظفر لهم على أهل الكتاب الكفرة الملحدين، فقال: ﴿لَنْ يَغْلِبَكُمْ إِلَّا الْآدَمُ إِنَّ يَغْلِبُوكُمْ بِوَلُوكُمُ الْآدَمِيَّةَ ثُمَّ لَا يَمُورُكُمْ﴾ [النحل: ٩٠]. وهكذا وقع، فإنهم يوم خيبر أذلهم الله وأزعم أنافهم، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بني قَيْنِقَاعَ وبني النضير وبني قُرَيْظَةَ، كلهم أذلهم الله، وكذلك النصاري بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن، وسلبوهم مُلْكُ الشام أبد الأبدين ودهر الدهرين، ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام وهم كذلك، ويحكم عليه السلام بشرع محمد، عليه أفضل الصلاة والسلام، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام.

ثم قال تعالى: ﴿حُرِّيتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَنْ مَا تَفْعَلُوا إِلَّا بِحَبْلِ يَنْ أَلَّهِ وَحَبْلِ يَنْ النَّاسِ﴾ أي: ألزهمهم الله الذلة والصغار أينما كانوا فلا يأمنون ﴿إِلَّا بِحَبْلِ يَنْ أَلَّهِ﴾ أي: بذمة من الله، وهو عقد الذمة لهم وضرب الجزية عليهم، وإلزامهم أحكام الملة ﴿وَحَبْلِ يَنْ أَلَّهِ﴾ أي: أمان منهم ولهم، كما في المهادن والمعاهد والأسير إذا أمته واحد من المسلمين ولو امرأة، وكذا عبد، على أحد قوليه العلماء. قال ابن عباس: ﴿إِلَّا بِحَبْلِ يَنْ أَلَّهِ وَحَبْلِ يَنْ النَّاسِ﴾ أي: بعهد من الله وعهد من الناس، وهكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسدي، والربيع بن أنس. وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَفْضَحُونَ يَنْ أَلَّهِ﴾ أي: ألزموا فالتزموا بغضب من الله، وهم يستحقونه ﴿وَحُرِّيتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ألزموها قدراً وشرعاً. ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، أي: وإنما حملهم على ذلك الكبر والبغي والحسد، فأغضبهم ذلك الذلة والصغار والمسكنة أبداً، متصلاً بذلة الآخرة، ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي: إنما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رُسُلِ الله وقبضوا لذلك أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله ﷻ، والغشيان لمعاصي الله، والاعتداء في شرع الله، فعباداً بالله من ذلك، والله المستعان. قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا شعبة، عن سليمان الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي مَعْمَرٍ الأزدي، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم ثلاثمائة نبي، ثم يقوم شوق بقلهم آخر النهار.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً يَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أَتَمَّةً قَائِمَةً يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ مَا تَلَّى وَهُمْ يَسْتَحْذِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٠] ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْحَسَنَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧] ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوا بِاللَّهِ عَلَيْهِمُ الْبُيُوتُ﴾ [البقرة: ١٧٨] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ يَنْ أَلَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٠] ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرَّتٍ قَوْرٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَمْلَكَتْهُمَا وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٦١].

قال ابن أبي نجیح: زعم الحسن بن يزيد العجلي، عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً يَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أَتَمَّةً قَائِمَةً﴾، قال: لا يستوي أهل الكتاب وأمة محمد ﷺ. وهكذا قال السدي، ويؤيد هذا القول الحديث الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حدثنا أبو النضر وحسن بن موسى قالوا: حدثنا شيبان، عن عاصم، عن زر، عن ابن مسعود قال: آخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة: فقال: «أما إنه ليس من أهل هذه الأيام أحدٌ يَذْكُرُ اللَّهَ هَذِهِ السَّاعَةَ غَيْرَ كُمْ». قال: وأنزلت هذه الآيات ﴿لَيْسُوا سَوَاءً يَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أَتَمَّةً قَائِمَةً﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُفْتِرِينَ﴾. والمشهور عن كثير من المفسرين - كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره، ورواه العوفي عن ابن عباس - أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحوار أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأسد بن عُبَيْدٍ وثعلبة بن سَعْيَةَ وأسيد بن سَعْيَةَ وغيرهم، أي: لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي: ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المُنْجِرِم، ولهذا قال تعالى: ﴿يَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أَتَمَّةً قَائِمَةً﴾، أي: قائمة بأمر الله، مطيعة

لشره، مُتَّبِعَةُ نَبِيِّ اللَّهِ، فِيهِ «قَائِمَةٌ» بِعَنِي مُسْتَقِيمَةٌ «يَتْلُونَ مَا يَنْتِ اللَّهُ أَلَيْلَ وَهُمْ يَسْجُدُونَ» أَي: يَقُومُونَ اللَّيْلَ، وَيَكْثُرُونَ التَّهَجُّدَ، وَيَتْلُونَ الْقُرْآنَ فِي صَلَوَاتِهِمْ «يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَرُسُودُهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ» (١١٨). وَهُوَ هَؤُلَاءِ هُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي آخِرِ السُّورَةِ: «وَرَأَى مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْكُرُونَ بِعَابَتِ اللَّهِ شُكْرًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ» (الآية: ١١٩) وَهَكَذَا قَالَ هُنَا: «وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوا» أَي: لَا يَضِيعُ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ يَجْزِيكُمْ بِهِ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ. «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْغُيُوبِ» أَي: لَا يَخْفَى عَلَيْهِ عَمَلُ عَامِلٍ، وَلَا يَضِيعُ لَدَيْهِ أَجْرُ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفْرَةِ الْمَشْرُكِينَ بِأَنَّهُ «لَنْ تُنْفِكَ عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» أَي لَا يَزِيدُ عَنْهُمْ بِأَسِ اللَّهِ وَلَا عَذَابُهُ إِذَا أَرَادَهُ بِهِمْ «وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلًا لِمَا يَنْفِقُهُ الْكُفَرَاءُ فِي هَذِهِ الدَّارِ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ، وَالسُّدِّيُّ، فَقَالَ تَعَالَى: «مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ» أَي: بَرْدٌ شَدِيدٌ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعُكْرَمَةُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ وَالْحَسَنُ، وَالضَّمْحَكُ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَغَيْرُهُمْ. وَقَالَ عَطَاءٌ: بَرْدٌ وَجَلِيدٌ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَمُجَاهِدٌ «فِيهَا صِرٌّ» أَي: نَارٌ. وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى الْأَوَّلِ، فَإِنَّ الْبَرْدَ الشَّدِيدَ - سَيِّمًا الْجَلِيدَ - يَحْرِقُ الزَّرْعَ وَالشَّجَرِ، كَمَا يَحْرِقُ الشَّيْءَ بِالنَّارِ «أَصَابَتْ حَرَّتُ قَوْرِ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَلْكَكْتَهُ» أَي: أَحْرَقْتَهُ، يَعْنِي بِذَلِكَ السَّفْعَةَ إِذَا نَزَلَتْ عَلَى حَرْثٍ قَدْ آنَ جَذَاؤُهُ أَوْ حَصَادُهُ فدمَرْتُهُ وَأَعْدَمْتُهُ مَا فِيهِ مِنْ ثَمَرٍ أَوْ زَرْعٍ، فَذَهَبَتْ بِهِ وَأَفْسَدَتْهُ، فَغَدَمَتْ صَاحِبَهُ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهِ. فَكَذَلِكَ الْكُفَرَاءُ يَمَحُقُ اللَّهُ ثَوَابَ أَعْمَالِهِمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَثَمَرَتِهَا كَمَا أَذْهَبَ ثَمَرَةَ هَذَا الْحَرْثِ بِذُنُوبِ صَاحِبِهِ. وَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ يَتَوَهَّأُونَ عَلَى غَيْرِ أَضَلِّ وَعَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ «وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ».

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُونًا مَا عِثُّمْ قَدْ بَدَتْ الْبَغْيَةُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي سُودُورُهُمْ أَكْثَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ» (١٢٠) هَآئِهِمْ أُولَئِكَ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَهُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَنْكُمْ الْأَمْرَ مِنَ الْقَبِيلِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِعَيْبَتِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٢١) إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَنُؤْتِيكُمْ سَيِّئَةً يَبْغُوا بِهَا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَمْكُرُونَ مُحِيطٌ (١٢٢).

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ اتِّخَاذِ الْمُنَافِقِينَ بِطَانَةً، أَي: يُطْلَعُونَهُمْ عَلَى سَرَائِرِهِمْ وَمَا يَضْمُرُونَهُ لِأَعْدَائِهِمْ، وَالْمُنَافِقُونَ بِجَهْدِهِمْ وَطَاقَتِهِمْ لَا يَأْلُونَ الْمُؤْمِنِينَ خَبَالًا، أَي: يَسْعَوْنَ فِي مَخَالَفَتِهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ بِكُلِّ مَكْنٍ، وَبِمَا يَسْتَطِيعُونَهُ مِنَ الْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ، وَيُودُونَ مَا يُغْنِي الْمُؤْمِنِينَ وَيَحْرِجُهُمْ وَيُشَقُّ عَلَيْهِمْ. وَقَوْلُهُ: «لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ» أَي: مِنْ غَيْرِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ، وَبِطَانَةِ الرَّجُلِ: هُمُ خَاصَّةُ أَهْلِهِ الَّذِينَ يَطْلَعُونَ عَلَى دَاخِلَةِ أَمْرِهِ. وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، وَغَيْرُهُمَا، مِنْ حَدِيثِ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ: يُونُسُ، وَيَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، وَمُوسَى بْنُ عَقِبَةَ، وَابْنُ أَبِي عَتِيقٍ - عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا يَتَّكُ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالسُّوءِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَالْمَغْضُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ». وَقَدْ رَوَاهُ الْأَوْزَاعِيُّ وَمَعَاوِيَةُ بْنُ سَلَامٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا بِنَحْوِهِ. فَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ عِنْدَ الزُّهْرِيِّ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْهُمَا. وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ عَنِ الزُّهْرِيِّ أَيْضًا. وَعَلَّقَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ فَقَالَ: وَقَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي جَعْفَرٍ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سَلِيمٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي أَيُّوبٍ الْأَنْصَارِيِّ، فَذَكَرَهُ. فَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ عِنْدَ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ ثَلَاثَةِ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو أَيُّوبَ مُحَمَّدُ بْنُ الْوَرَّانِ، حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ يُونُسَ، عَنْ أَبِي حَيَّانَ التَّمِيمِيِّ عَنْ أَبِي الزُّنْبَاعِ، عَنْ ابْنِ أَبِي الدُّغَانَةِ قَالَ: قِيلَ لِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ هُنَا غَلَامًا مِنْ أَهْلِ الْجَبَرَةِ، حَافِظُ كِتَابٍ، فَلَوْ اتَّخَذْتَهُ كَاتِبًا؟ قَالَ: قَدْ اتَّخَذْتُ إِذَا بِطَانَةً مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ. فَقِي هَذَا الْأَمْرُ مَعَ هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةً عَلَى أَنَّ أَهْلَ الذِّمَّةِ لَا يَجُوزُ اسْتِعْمَالُهُمْ فِي الْكِتَابَةِ، الَّتِي فِيهَا اسْتِظْلَالٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَإِطْلَاعٌ عَلَى دَوَاجِلِ أُمُورِهِمُ الَّتِي يُخْشَى أَنْ يُفْشَوْهَا إِلَى الْأَعْدَاءِ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُونًا مَا عِثُّكُمْ». وَقَدْ قَالَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِسْرَائِيلَ، حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، حَدَّثَنَا الْعَوَّامُ، عَنْ الْأَزْهَرِيِّ بْنِ رَاشِدٍ قَالَ: كَانُوا يَأْتُونَ أَنْسَاءً، فَإِذَا حَدَّثَهُمْ بِحَدِيثٍ لَا يَدْرُونَ مَا هُوَ، أَتَوْا الْحَسَنَ - يَعْنِي الْبَصْرِيَّ - فَيَفْسِرُهُ لَهُمْ. قَالَ: فَحَدَّثْتُ ذَلِكَ يَوْمَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَنْتَفِضُوا بِنَارِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَا تَنْفُسُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًّا». فَلَمْ يَدْرُوا مَا هُوَ، فَأَتَوْا الْحَسَنَ فَقَالُوا لَهُ: إِنْ أَنْسَأَ حَدَّثَنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَنْتَفِضُوا بِنَارِ الشُّرْكِ وَلَا تَنْفُسُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًّا». فَقَالَ الْحَسَنُ: أَمَا قَوْلُهُ: «لَا تَنْفُسُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًّا» - مُحَمَّدٌ ﷺ. وَأَمَا قَوْلُهُ: «لَا تَنْتَفِضُوا بِنَارِ الشُّرْكِ» يَقُولُ: لَا تَسْتَشِيرُوا الْمُشْرِكِينَ فِي أُمُورِكُمْ. ثُمَّ قَالَ الْحَسَنُ: تَصَدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ».

هكذا رواه الحافظ أبو يعلى، رحمه الله، وقد رواه النسائي عن مجاهد بن موسى، عن هُشَيْم. ورواه الإمام أحمد، عن هشيم بإسناده مثله، من غير ذكر تفسير الحسن البصري. وهذا التفسير فيه نظر، ومعناه ظاهر: «لَا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِمِكُمْ عَرَبِيًّا» أي: بخط عربي، لثلاث يشابه نقش خاتم النبي ﷺ، فإنه كان نقشه محمد رسول الله؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح أنه نهى أن يُنْقَشَ أحد على نقشه. وأما الاستئصاء بنار المشركين، فعنه: لا تقاربهم في المنازل بحيث تكونون معهم في بلادهم، بل تَبَاعِدُوا مِنْهُمْ وَهَاجِرُوا مِنْ بِلَادِهِمْ؛ ولهذا روى أبو داود رحمه الله: «لَا تَتَرَاةَى نَارَهُمَا» وفي الحديث الآخر: «مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ أَوْ سَكَنَ مَعَهُ، فَهُوَ مِنْهُمْ»؛ فَحُلِّ الْحَدِيثِ عَلَى مَا قَالَهُ الْحَسَنُ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَالِاسْتِشْهَادُ عَلَيْهِ بِالْآيَةِ فِيهِ نَظَرٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «قَدْ بَدَتْ أَلْبَاسُهُمْ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ»، أي: قد لاج على صَفَحَاتِ وجوههم، وفلتات ألباسهم من العداوة، مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله، ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل؛ ولهذا قال: «قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ مُقُولُونَ». وقوله تعالى: «هَآئِنْتُمْ أُولَآئِكَ خُبْرُهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ» أي: أنتم أيها المؤمنون - تحبون المنافقين مما يظهرون لكم من الإيمان، فتحبونهم على ذلك وهم لا يحبونكم، لا باطناً ولا ظاهراً «وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ» أي: ليس عندكم في شيء منه شك ولا ريب، وهم عندهم الشك والريب والخيرة. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: «وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ» أي: بكتابكم وكتابهم، وبما مضى من الكتب قبل ذلك، وهم يكفرون بكتابكم، فأنتم أحق بالبغضاء لهم، منهم لكم. رواه ابن جرير. «وَإِذَا لَكُمْ كُلٌّ مِمَّا لَمَّا خَلَوْا عَشُورًا عَلَيْكُمْ الْآيَاتِ مِنَ الْقُرْآنِ» والأنامل: أطراف الأصابع، قاله قتادة. وقال الشاعر:

أَوْ ذُ كَمَا مَابِلَ خَلْقِي رِيْقِي وَمَا حَمَلْتُ كَفَّايِ أَتَمْلِي الْعَشِيرَا
وقال ابن مسعود، والسُّدِّي، والربيع بن أنس: «الْآيَاتِ»: الأصابع. وهذا شأن المنافقين يُظْهِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ الْإِيمَانَ وَالْمُؤَدَّةَ، وَهُمْ فِي الْبَاطِنِ بِخِلَافِ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَإِذَا خَلَوْا عَشُورًا عَلَيْكُمْ الْآيَاتِ مِنَ الْقُرْآنِ» وذلك أشد الغيظ والحق، قال الله تعالى: «قُلْ مُؤْمِنُوا بِعَهْدِي إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» أي: مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيطكم ذلك منهم فاعلموا أن الله متم نعمته على عباده المؤمنين ومكمل دينه، ومُعَلِّ كَلِمَتِهِ وَمُظْهِر دِينِهِ، فموتوا أنتم بغيطكم «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» أي: هو عليم بما تنطوي عليه ضمائرهم، وتكنه سرائرهم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تؤمنون، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها، فلا خروج لكم منها. ثم قال: «إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَنُوْهُمُ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا». وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب، ونصر وتأييد، وكثروا وعز أنصارهم، ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سئة - أي: جذب - أو أذبل عليهم الأعداء، لما لله في ذلك من الحكمة، كما جرى يوم أُحُد، فرح المنافقون بذلك، قال الله تعالى مخاطباً عباده المؤمنين: «وَإِنْ تَصَيَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَفْرَحْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ»، يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكَيْدِ الْفُجَّارِ، باستعمال الصبر والتقوى، والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيته، ومن توكل عليه كفاه. ثم شرع تعالى في ذكر قصة أُحُد، وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين، وبيان صَبْرِ الصَّابِرِينَ، فقال تعالى:

«وَإِذْ عَزَّوَتْ مِنْ أَهْلِكَ ثُبُوءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْلُودٌ لِقَوْلِ اللَّهِ سَمِعُ عِلْمٍ ﴿١٢١﴾ إِذْ مَتَّعَ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَ اللَّهُ وَلِيَّهُمَا وَكَلَّ اللَّهُ فَلَيتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَعَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرِ أُذُنِهِ فَأَتَقُوا اللَّهَ لَمَلَكُمْ تَشَكُّرُونَ ﴿١٢٣﴾».

المراد بهذه الواقعة يوم أُحُد عند الجمهور، قاله ابن عباس، والحسن، وقاتدة والسُّدِّي، وغير واحد. وعن الحسن البصري: المراد بذلك يوم الأحزاب. رواه ابن جرير، وهو غريب لا يُعَوَّلُ عليه. وكانت وقعة أُحُد يوم السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة. قال قتادة: لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال. وقال عكرمة: يوم السبت للنصف من شوال، والله أعلم. وكان سببها أن المشركين حين قُتل من قتل من أشرافهم يوم بَدْر، وسَلَمَتِ الْعِيرُ بما فيها من التجارة التي كانت مع أَبِي سَفْيَانَ، فلما رجع قَتَلَهُمْ إِلَى مَكَّةَ قَالَ أَبْنَاءُ مِنْ قُتِلَ، وَرُؤَسَاءُ مِنْ بَقِيَ لِأَبِي سَفْيَانَ: اِرْصِدْ هَذِهِ الْأَمْوَالَ لِقِتَالِ مُحَمَّدٍ، فَأَنْفَقُوهَا فِي ذَلِكَ، وَجَمَعُوا الْجُمُوعَ وَالْأَحَابِيشَ وَأَقْبَلُوا فِي قَرِيبٍ مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافٍ، حَتَّى نَزَلُوا قَرِيبًا مِنْ أَحَدِ تَلَفَاءِ الْمَدِينَةِ، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهَا صَلَّى عَلَى رَجُلٍ مِنْ بَنِي النَّجَارِ، يَقَالُ لَهُ: مَالِكُ بْنُ عَمْرٍو، وَاسْتَشَارَ النَّاسَ: أَيْخُرَجُ إِلَيْهِمْ أَمْ يَمَكُثُ بِالْمَدِينَةِ؟ فَأَشَارَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي الْمَقَامِ بِالْمَدِينَةِ، فَإِنْ أَقَامُوا أَقَامُوا بِشَرِّ مَخْبَسٍ، وَإِنْ دَخَلُوهَا قَاتَلَهُمُ الرِّجَالُ فِي وَجْهِهِمْ،

ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين. وأشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهد بدرًا بالخروج إليهم، فدخل رسول الله ﷺ فلبس لأمته وخرج عليهم، وقد ندم بعضهم وقالوا: لعلنا استكرهنا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إن شئت أن نمكت؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَا يَتَّبِعِي لِيَبِي إِذَا لَيْسَ لَأَمَتُهُ أَنْ يَزْجَعَ حَتَّى يَخُكَّمَ اللَّهُ لَهُ».

فسار، عليه السلام، في ألف من أصحابه، فلما كان بالشوط رجع عبد الله بن أبي في ثلث الجيش مُغْضِبًا؛ لكونه لم يرجع إلى قوله، وقال هو وأصحابه: لو نعلم اليوم قتلاً لا تبغناكم، ولكننا لا نراكم تقاتلون اليوم. واستمر رسول الله ﷺ سائراً حتى نزل الشعب من أخذ في عذوة الوادي. وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال: «لَا يَقَاتِلُن أَحَدٌ حَتَّى نَأْمُرَهُ بِالْقِتَالِ».

وتنهياً رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمائة من أصحابه، وأمر على الرماة عبد الله بن جُبَيْر أَخَا بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، والرماة يومئذ خمسون رجلاً، فقال لهم: «انْضَحُوا الْخَيْلَ عَنَّا، وَلَا تُؤْتِرْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ. وَالزُّمُوا مَكَانَكُمْ إِنْ كَانَتْ الثُّورَةُ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا تَحْطِفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ». وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين، وأعطى اللواء مُضْعَبُ بْنُ عَمِيرِ أَخَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ. وأجاز رسول الله ﷺ بعض العُلمَانِ يومئذ وأرجأ آخرين، حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم بقریب من سنتين. وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف، ومعهم مائتا فرس قد جئبوا، فجعلوا على مِئْمَنَةِ الْخَيْلِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ؛ وَعَلَى الْمِيسِرَةِ عِكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، ودفعوا إلى بني عبد الدار اللواء. ثم كان بين الفريقين ما سيأتي تفصيله في مواضعه عند هذه الآيات، إن شاء الله تعالى.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ الْقِتَالِ﴾ أي: بَيَّنَّ لَهُمْ مَنَازِلَهُمْ وَنَجَعْلُهُمْ مِئْمَنَةً وَمِيسِرَةً وَحَيْثُ أَمَرْتَهُمْ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سَمِيعٌ لِمَا يَقُولُونَ، عَلِيمٌ بِضَمَائِرِهِمْ. وقد أورد ابن جرير ههنا سؤالاً، حاصله: كيف يقولون: إن النبي ﷺ سار إلى أحد يوم الجمعة بعد الصلاة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ الْقِتَالِ﴾؟ ثم كان جوابه عنه: أن غدوه ليوثهم مقاعد، إنما كان يوم السبت أول النهار. وقوله: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان قال: قال عمرو: سمعت جابر بن عبد الله يقول: فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. قال: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة، وما نجب - وقال سفيان مرة: وما يسرنى - أنها لم تنزل، لقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

وكذا رواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة، به. وكذا قال غير واحد من السلف: إنهم بنو حارثة وبنو سلمة. وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أُولَئِكَ فَآتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: يوم بدر، وكان في جمعة، وافق السابع عشر من رمضان، من سنة اثنين من الهجرة، وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودفع فيه الشرك وخزب محله، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فيهم فرسان وسبعون بعييراً، والباقيون مشاة، ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبيض، والعدة الكاملة والخيول المسومة والحلي الزائد، فأعز الله رسوله، وأظهر وحيه وتنزله، وبَيَضَ وَجْهَ النَّبِيِّ وَقَبِيلَهُ، وَأَخْزَى الشَّطَانَ وَجِيلَهُ. ولهذا قال تعالى: - مُمْتَنِّناً عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَجِزِهِ الْمُتَّقِينَ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أُولَئِكَ﴾ أي: قليل عددكم ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، لا بكثرة العدد والعدد؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ ١٥. ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُوداً لَوْ تَرَوْهَا وَعَذَبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ١٦. ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٧. [النسبة: ٢٥-٢٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن سيماء قال: سمعت عياضاً الأشعري قال: شهدت الزمزموك وعلينا خمسة أمراء: أبو عبيدة، ويزيد بن أبي سفيان، وابن حنينة، وخالد بن الوليد، وعياض - وليس عياض هذا الذي حدث سماكاً - قال: وقال عمر، رضي الله عنه: إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة. قال: فكتبنا إليه: إنه قد جاش إلينا الموت، واستمددناه، فكتب إلينا: إنه قد جاني كتابكم تستمدونني، وإني أدلكم على من هو أعز نصراً، وأحصن جنداً: الله ﷻ، فاستنصروه، فإن محمداً ﷺ قد نُصِرَ يَوْمَ بَدْرٍ فِي أَقْلٍ مِنْ عَدَدِكُمْ، فإذا جاءكم كتابي فقاتلوهم ولا تراجعوني. قال: فقاتلناهم فهزمناهم أربعة فراسخ، قال: وأصبنا أموالاً، فتشاورنا، فأشار علينا عياض أن نُغْطِي عَنْ كُلِّ ذِي رَأْسٍ عَشْرَةَ. قال: وقال أبو عبيدة: من يراهنني؟ فقال شاب: أنا، إن لم تغضب. قال: فسبقه، فرأيت عقيصتي أبي عبيدة تنفران وهو خلفه على فرس عزي. وهذا إسناد صحيح. وقد أخرجه ابن جبان في صحيحه من حديث بُنْدَارٍ، عن عُثْمَرِ بْنِ نَحْوٍ، واختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه. وبدر محلّة بين مكة والمدينة، تُعرف ببشرها، منسوبة إلى رجل حفرها يقال له: «بدر بن النارين». قال

الشعبي: بدر بئر لرجل يسمى بدرأ. وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ أي: تقومون بطاعته.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَيْبَكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ﴾ (١٢٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يَتَوَدَّدَكُمْ رَيْبَكُمْ بِخَسَّةٍ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلَسَطَافٍ قُلُوبِكُمْ بِذِهِ وَمَا أَتَاكُمْ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَ غِلًّا يَصْلَحُ يَوْمَ الْآخِرِ إِنَّكُمْ لَسَوْفَ تَكُونُونَ لَكُمْ مِنَ الْأَمْرِ مَنًى أَوْ يُتَوَبَّ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلُوا وَإِلَيْهِ مَتَابُ السَّاعَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَتَغَيَّرُ بِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفُودٌ رَحِيمٌ (١٢٧).

اختلف المفسرون في هذا الوعد؟ هل كان يوم بدر أو يوم أحد؟ على قولين:

أحدهما: أن قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾. ورؤي هذا عن الحسن البصري، وعامر الشعبي، والربيع بن أنس، وغيرهم. واختاره ابن جرير. قال عباد بن منصور، عن الحسن في قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَيْبَكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾، قال: هذا يوم بدر، رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا وهيب عن داود، عن عامر - يعني الشعبي - أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كُزَّ بن جابر يمد المشركين، فشق ذلك عليهم، فأنزل الله: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَيْبَكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾. قال: فبلغت كُزَّ الهزيمة، فلم يمد المشركين، ولم يمد الله المسلمين بالخمسة. وقال الربيع بن أنس: أمد الله المسلمين بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف. فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية - على هذا القول - وبين قوله تعالى في قصة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَشِيرُونَ رَيْبَكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْثَلَاثَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَوِّفِينَ﴾ (١٢٤) وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلَسَطَافٍ قُلُوبِكُمْ وَمَا أَتَاكُمْ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٢٦) [الأنفال: ٩، ١٠]؟ فالجواب: أن التنصيص على الألف ههنا لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها، لقوله: ﴿مُرَوِّفِينَ﴾، بمعنى يزدلفهم غيرهم ويتبعهم ألوف آخر مثلهم. وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران. فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، والله أعلم، قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة: أمد الله المؤمنين يوم بدر بخمسة آلاف.

القول الثاني: أن هذا الوعد متعلق بقوله: ﴿وَإِذْ عَدَّتْ مِنْ أَهْلِكَ ثُبُوتُ الْمُؤْمِنِينَ مَكْلِدًا لِقِتَالِهِ﴾، وذلك يوم أحد. وهو قول مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والزهري، وموسى بن عقبة وغيرهم. لكن قالوا: لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف؛ لأن المسلمين فرّوا يومئذ - زاد عكرمة: ولا بالثلاثة الآلاف؛ لقوله: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾، فلم يصبروا، بل فروا، فلم يمدوا بملك واحد. وقوله: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾، يعني: تصبروا على مضاربة عدوكم وتتقوني وتطيعوا أمري. وقوله: ﴿وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا﴾، قال الحسن، وقاتدة، والربيع، والسدي: أي من وجههم هذا. وقال مجاهد، وعكرمة، وأبو صالح: أي من غضبهم هذا. وقال الضحاك: من غضبهم ووجههم. وقال العوفي عن ابن عباس: من سفرهم هذا. ويقال: من غضبهم هذا. وقوله: ﴿يَتَوَدَّدَكُمْ رَيْبَكُمْ بِخَسَّةٍ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أي: معلمين بالسِّمَا. وقال أبو إسحاق السبيعي، عن حارثة بن مضرب، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: كان سيمًا الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض، وكان سيماهم أيضاً في نواصي خيلهم. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا هُدبة بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة في هذه الآية: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ قال: بالعين الأحمر. وقال مجاهد: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ أي: مُحَدِّقَة أعرافها، مُعَلِّمَة نواصيها بالصوف الأبيض في أذناب الخيل. وقال العوفي، عن ابن عباس، قال: أتت الملائكة محمداً ﷺ مُسَوِّمِينَ بالصوف، فسَوَّم محمد وأصحابه أنفسهم وخيولهم على سيماهم بالصوف. وقال عكرمة وقاتدة: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ أي: بسيم القتال، وقال مكحول: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ بالعمام. وروى ابن مَرْزُوق، من حديث عبد القدوس بن حبيب، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ قال: «مُعَلِّمِينَ». وكان سيمًا الملائكة يوم بدر عمام سود، ويوم حنين عمام خمر. وروى من حديث حُصَيْن بن مُحَارِق، عن سعيد، عن الحكم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس قال: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر. وقال ابن إسحاق: حَدَّثَنِي مَنْ لَا أَنَّهُمْ، عن مِقْسَم، عن ابن عباس قال: كان سيمًا الملائكة يوم بدر عمام بيض قد أَرْسَلُوهَا في ظهورهم، ويوم حنين عمام خمر. ولم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عِدَاداً وَمَدَدًا لَا يَضْرِبُونَ. ثم رواه عن الحسن بن عمار، عن الحكم، عن مِقْسَم عن ابن عباس، فذكر نحوه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الأحمسي، حدثنا وكيع، حدثنا هشام بن عروة، عن يحيى بن عباد: أن الزبير بن العوام، رضي الله عنه، كان عليه يوم بدر عمامة صفراء مُعْتَجِرًا بها، فنزلت الملائكة عليهم عمام صفر. رواه ابن مَرْزُوق عن طريق هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير، فذكره. وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلَسَطَافٍ قُلُوبِكُمْ

وهكذا رواه النسائي، من حديث عبد الله بن المبارك وعبد الرزاق، كلاهما، عن مَعْمَرٍ، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو الثَّغَرِ، حدثنا أبو عَقِيلٍ - قال أحمد: وهو عبد الله بن عَقِيلٍ، صالح الحديث ثقة - قال: حدثنا عُمَرُ بْنُ حَمْزَةَ، عن سالم، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم العن فلاناً، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن سَهْلَ بْنَ عَمْرٍو، اللهم العن صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ». فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ ظُلُمَاتٌ لَّيْلِيَّةٌ﴾، فتيب عليهم كلهم. وقال أحمد: حدثنا أبو معاوية الغلابي، حدثنا خالد بن الحارث، حدثنا محمد بن عَجْلَان، عن نافع، عن عبد الله، أن رسول الله ﷺ كان يدعو على أربعة قال: فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ ظُلُمَاتٌ لَّيْلِيَّةٌ﴾، قال: وهدهم الله للإسلام. وقال محمد بن عَجْلَان، عن نافع، عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يدعو على رجال من المشركين يُسَمِّيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ، حتى أنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية. وقال البخاري أيضاً: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن سَعْدٍ، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيَّب، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد - أو يدعو لأحد - قَتَلَ بعد الركوع، وربما قال - إذا قال: «سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد: اللَّهُمَّ انجِ الْوَلِيدَ بنَ الْوَلِيدِ، وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، وَعِيشَانَ بْنَ أَبِي رَيْعَةَ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرٍّ، وَأَجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سَبِينَ كَسَبَنِي يُوسُفُ». يجره بذلك، وكان يقول - في بعض صلاته في صلاة الفجر -: «اللهم العن فلاناً وفلاناً لأحياء من أحياء العرب، حتى أنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية. وقال البخاري: قال حَمِيد وثابت، عن أنس بن مالك: شجَّ النبي ﷺ يوم أُحُد، فقال: «كَيْفَ يُفْلَحُ قَوْمٌ شَجَّوا نَبِيَّهُمْ؟». فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. وقد أسند هذا الذي علَّقه البخاري رحمه الله. وقال البخاري: في غزوة أُحُد: حدثنا يحيى بن عُبْدِ اللَّهِ السلمي، حدثنا عبد الله - أخبرنا مَعْمَرٌ، عن الزهري، حَدَّثَنِي سالم بن عبد الله، عن أبيه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول - إذا رفع رأسه من الركوع، في الركعة الأخيرة من الفجر -: «اللهم العن فلاناً وفلاناً وفلاناً» بعدما يقول: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، ربنا ولك الحمد». فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَهُمْ ظُلُمَاتٌ﴾. وعن حفظة بن أبي سفيان قال: سمعت سالم بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يدعو على صفوان بن أُمَيَّة، وسَهْلِ بْنِ عَمْرٍو، والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ ظُلُمَاتٌ لَّيْلِيَّةٌ﴾. هكذا ذكر هذه الزيادة البخاري معلقة بمرسلة وقد تقدمت مسندة متصلة في مسند أحمد متصلة آنفاً. وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْمٌ، حدثنا حَمِيدٌ، عن أنس، رضي الله عنه أن النبي ﷺ كَسَرَتْ رِجْلَيْهِ يَوْمَ أُحُد، وشجَّ في جبهته حتى سال الدم على وجهه، فقال: «كَيْفَ يُفْلَحُ قَوْمٌ قَتَلُوا هَذَا نَبِيَّهُمْ، وهو يدعوهم إلى ربهم، ﷻ». فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ ظُلُمَاتٌ لَّيْلِيَّةٌ﴾.

طَلُّوْكَ ﴿١٣٠﴾ . انفراد به مسلم، فرواه عن القعني، عن حماد، عن ثابت، عن أنس، فذكره. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا الحسين بن واقد، عن مطر، عن قتادة قال: أصيب النبي ﷺ يوم أحد وكسرت رباعيته، وفرق حاجبه، فوقع وعليه درعان والدم يسيل، فمر به سالم مولى أبي حذيفة، فأجلسه ومسح عن وجهه، فأفاق وهو يقول: «كَيْفَ يَقُومُ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ، وهو يدعوهم إلى الله؟ فانزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿١٣١﴾. وكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، بنحوه، ولم يقل: فأفاق. ثم قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملك له، وأهلها عبيد بين يديه ﴿يَقْبِضُ بِمَنْ يَشَاءُ وَيُعْذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: هو المتصرف فلا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، والله غفور رحيم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ مَكْرَهُمْ وَأَتَوْا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُذْهِبُونَ﴾ ﴿١٣٢﴾ وَأَتَوْا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣٣﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٤﴾ وسأيقول إن معفرة من ربكم وجنّ عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴿١٣٥﴾ الذين يفيقون في الشراء والبراء والعظيم المغيظ والكافرين عن الناس والله يحب المتحسين ﴿١٣٦﴾ والذين إذا فعلوا فحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴿١٣٧﴾ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنت تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وهم أجمعون ﴿١٣٨﴾.

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الربا وأكله أضغافاً مضاعفة، كما كانوا يقولون في الجاهلية - إذ حل أجل الدين -: إما أن يقضي وإما أن يُزَيَّر، فإن قضاء وإلا زاده في المدة وزاده الآخر في القدر، وهكذا كل عام، فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً. وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى والأخرى، ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها، فقال: ﴿وَأَتَوْا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٣٣﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٤﴾. ثم نذّبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمصارعة إلى نيل القربات، فقال: ﴿﴿١٣٥﴾ وسأيقول إن معفرة من ربكم وجنّ عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴿١٣٥﴾﴾ أي: كما أعدت النار للكافرين. وقد قيل: إن معنى قوله: ﴿عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾: تنبيهاً على اتساع طولها، كما قال في صفة فرش الجنة: ﴿بَلَدَيْنَا مِنْ شَتَّى﴾ [الرحمن: ٥٤] أي: فما ظنك بالظواهر؟ وقيل: بل عرضها كطولها؛ لأنها قبة تحت العرش، والشئ المُقَبَّب والمستدير عرضها كطولها. وقد دل على ذلك ما ثبت في الصحيح: «إذا سألت الله الجنة فأسأله الفِرْدَوْسَ، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وسقفها عرش الرحمن». وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحديد: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [الحديد: ٢١]. وقد روي في مسند الإمام أحمد: أن هرقل كتب إلى النبي ﷺ: إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض، فأين النار؟ فقال النبي ﷺ: «سُبْحَانَ اللَّهِ! فأين الليل إذا جاء النهار؟». وقد رواه ابن جرير فقال: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني مسلم بن خالد، عن أبي خثيم، عن سعيد بن أبي راشد، عن يعلى بن مرة قال: لقيت الشنخي رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ بجمص، شيخاً كبيراً قدس، قال: قدمت على رسول الله ﷺ بكتاب هرقل، فتناول الصحيفة رجلاً عن يساره. قال: قلت: من صاحبكم الذي يقرأ؟ قالوا: معاوية. فإذا كتاب صاحبي: «إنك كتبت تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، فأين النار؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «سُبْحَانَ اللَّهِ! فأين الليل إذا جاء النهار؟».

وقال الأعمش، وسفيان الثوري، وشعبة، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، أن ناساً من اليهود سألو أعمَرَ بن الخطاب عن جنة عرضها السموات والأرض، فأين النار؟ فقال عمر رضي الله عنه: رأيتم إذا جاء الليل أين النهار؟ وإذا جاء النهار أين الليل؟ فقالوا: لقد نزعتم مثلها من التوراة. رواه ابن جرير من الثلاثة الطرق، ثم قال: حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا أبو نعيم، حدثنا جعفر بن بزقان، أنبأنا يزيد بن الأصم: أن رجلاً من أهل الكتاب قال: يقولون: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، فأين النار؟ فقال ابن عباس: أين يكون الليل إذا جاء النهار، وأين يكون النهار إذا جاء الليل؟. وقد روي هذا مرفوعاً، فقال البزار: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا المغيرة بن سلمة أبو هشام، حدثنا عبد الواحد بن زياد، عن عبيد الله بن عبد الله بن الأصم، عن عمه يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أرايت قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، فأين النار؟ قال: «أرايت الليل إذا جاء لَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ، فأين النهار؟» قال: حيث شاء الله. قال: «وَكُلُّكَ النَّارُ تكون حيث شاء الله ﷻ». وهذا يحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون المعنى في ذلك: أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار ألا يكون في مكان، وإن كنا لا نعلمه، وكذلك النار تكون حيث يشاء الله ﷻ، وهذا أظهر كما تقدم في حديث أبي هريرة، عن البزار. الثاني: أن يكون المعنى: أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب، فإن الليل يكون من

الجانب الآخر، فكَذَلِكَ الْجَنَّةُ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ فوق السموات تحت العرش، وعرضها كما قال الله، ﷻ: ﴿كَرَّسَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ﴾ [الحديد: ٢١]، والنار في أسفل سافلين. فلا تنافي بين كونها كعرض السموات والأرض، وبين وجود النار، والله أعلم.

ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة، فقال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: في الشدة والرخاء، والمنشط والمكره، والصحة والمرض، وفي جميع الأحوال، كما قال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ يَأْكُلُ وَالْفَكَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤]. والمعنى: أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مَرَاصِيهِ، والإحسان إلى خلقه من قرباتهم وغيرهم بأنواع البر. وقوله: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أي: إذا ثار بهم الغيظ كظموه، بمعنى: كتموه فلم يعملوه، وعَفَوْا مع ذلك عمن أساء إليهم. وقد ورد في بعض الآثار: يقول الله تعالى: ابن آدم، اذكرني إذا غَضِبْتُ، اذكرك إذا غَضِبْتُ، فلا أهلكك فيمن أهلك؟ رواه ابن أبي حاتم. وقد قال أبو يعلى في مسنده: حدثنا أبو موسى الزمن، حدثنا عيسى بن شعيب الضرير أبو الفضل، حدثنا الربيع بن سليمان العجزي، عن أبي عمرو بن أنس بن مالك، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ كَفَّ اللَّهُ عَنْهُ عَذَابَهُ، وَمَنْ خَزَنَ لِسَانَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ اغْتَذَرَ إِلَى اللَّهِ قَبْلَ عَذْرِهِ» وهذا حديث غريب، وفي إسناده نظر. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا مالك، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ». وقد رواه الشيخان من حديث مالك. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن الحارث بن سويد، عن عبد الله، هو ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ مَالٌ وَارِثَةٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟» قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه. قال: «اعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا مَالٌ وَارِثَةٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ، مَالِكٌ مِنْ مَالِكٍ إِلَّا مَا قَدَّمْتُ، وَمَالٌ وَارِثَةٌ مَا أَخْرَزْتُ». قال: وقال رسول الله ﷺ: «مَا تَعْدُونَ فِيَكُمُ الصُّرْعَةُ؟» قلنا: الذي لا تُصْرَعُ الرجال، قال: قال: «لا، ولكن الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ». قال: وقال رسول الله ﷺ: «مَا تَعْدُونَ فِيَكُمُ الرُّقُوبُ؟» قلنا: الذي لا ولد له. قال: «لا، ولكن الرُّقُوبُ الَّذِي لَمْ يَقْدَمْ مِنْ وَلَدِهِ شَيْئًا».

أخرج البخاري الفصل الأول منه وأخرج مسلم أصل هذا الحديث من رواية الأعمش، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعْبَةُ، سمعت عُرْوَةَ بن عبد الله الجعفي يحدث عن أبي حصبة، أو ابن حصبة، عن رجل شهد النبي ﷺ يخطب فقال: «تَذَرُونَ مَا الرُّقُوبُ؟» قالوا: الذي لا ولد له. قال: «الرُّقُوبُ الَّذِي لَهُ وَلَدٌ فَمَاتَ، وَلَمْ يَقْدَمْ مِنْهُمْ شَيْئًا». قال: «تَذَرُونَ مَا الصُّغْلُوكُ؟» قالوا: الذي ليس له مال. قال النبي ﷺ: «الصُّغْلُوكُ كُلُّ الصُّغْلُوكِ الَّذِي لَهُ مَالٌ، فَمَاتَ وَلَمْ يَقْدَمْ مِنْهُ شَيْئًا». قال: ثم قال النبي ﷺ: «مَا الصُّرْعَةُ؟» قالوا: الصريع. قال: فقال ﷺ: «الصُّرْعَةُ كُلُّ الصُّرْعَةِ الَّذِي يَغْضَبُ فَيَشْتَدُّ غَضَبُهُ، وَيَحْمَرُّ وَجْهُهُ، وَيَقْشَعِرُّ شَعْرُهُ، فَيَضْرَعُ غَضَبَهُ».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا ابن ثَمَرٍ، حدثنا هشام - هو ابن عروة - عن أبيه، عن الأحنف بن قيس، عن عم له يقال له: جارية بن قدامة السعدي؛ أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قل لي قولاً ينفعني وأقلل عليّ، لعلني أعيه. فقال رسول الله ﷺ: «لَا تَغْضَبْ». فأعاد عليه حتى أعاد عليه مراراً، كل ذلك يقول: «لَا تَغْضَبْ». وكذا رواه عن أبي معاوية، عن هشام، به. ورواه أيضاً عن يحيى بن سعيد القطان، عن هشام، به؛ أن رجلاً قال: يا رسول الله، قل لي قولاً وأقلل عليّ لعلني أعقله. قال: «لَا تَغْضَبْ». الحديث انفرد به أحمد.

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن حميد بن عبد الرحمن، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَغْضَبْ» قال الرجل: فكفرت حين قال ﷺ ما قال، فإذا الغضب يجمع الشر كله. انفرد به أحمد.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا داود بن أبي هند عن ابن أبي حَرْبٍ بن أبي الأسود، عن أبي الأسود، عن أبي ذر قال: كان يسقي على حوض له، فجاء قوم قالوا: أيكم يورد على أبي ذر ويحتسب شعرات من رأسه فقال رجل: أنا. فجاء الرجل فأورد عليه الحوض فدقه، وكان أبو ذر قائماً فجلس، ثم اضطجع، فقيل له: يا أبا ذر، لم جلست ثم اضطجعت؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ دَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَالْأَفْئُطُ جُعِ». ورواه أبو داود، عن أحمد بن حنبل إسناده، إلا أنه وقع في روايته: عن أبي حرب، عن أبي ذر، والصحيح: ابن أبي حرب، عن أبيه، عن أبي ذر، كما رواه عبد الله بن أحمد، عن أبيه.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاَسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار. قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا همام بن يحيى، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن رجلاً أذنب ذنباً، فقال: رب، إني أذنبت ذنباً فاغفره. فقال الله ﷻ: عبدي عمل ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذه به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب، إني عملت ذنباً فاغفره. فقال تبارك وتعالى: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذه به، قد غفرت لعبدي. ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب، إني عملت ذنباً فاغفره. فقال ﷻ: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذه به، قد غفرت لعبدي ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب، إني عملت ذنباً فاغفره. فقال ﷻ: عبدي علم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذه به، أشهدكم أنني قد غفرت لعبدي، فليعمل ما شاء». أخرجه في الصحيح من حديث إسحاق بن أبي طلحة، بنحوه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر وأبو عامر قالا: حدثنا زهير، حدثنا سعد الطائي، حدثنا أبو المَدَّة - مولى أم المؤمنين - سمع أبا هريرة، قلنا: يا رسول الله، إذا رأيناك رقت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، وإذا فارقتك أعجبتنا الدنيا وشجعنا النساء والأولاد، فقال: «لَوْ أَنَّكُمْ تَكُونُونَ عَلَى كُلِّ حَالٍ، عَلَى الْحَالِ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا عِنْدِي، لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةَ بِأَكْفِهِمْ، وَلَزَّازْتُكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ، وَلَوْ لَمْ تُذْهِبُوا لَجَاءَ اللَّهُ بِعَوْمٍ يُذْهِبُونَ كَيْيَ غَيْرَ لَهُمْ». قلنا: يا رسول الله، حدثنا عن الجنة، ما بناوها؟ قال: «لَيْسَ دَعْبٌ، وَلَيْسَ فَصَّةٌ، وَمَلَأْتُهَا الْمِسْكَ الْأَذْفَرَ، وَخَضَبْتُهَا اللَّوْلُؤَ وَالْيَاقُوتَ، وَتَرَانِيهَا الرُّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ وَلَا يَأْسُ، وَيَخْلُدُ وَلَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْتَنُ شَبَابُهُ، ثَلَاثَةٌ لَا تَرُدُّ دَعْوَتَهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الْعَمَامِ وَتُفْتَحَ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي لَا تُصْرِنُكَ وَلَوْ بَعْدَ جِينٍ». ورواه الترمذي وابن ماجة، من وجه آخر عن سعد، به. ويتأكد الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة، لما رواه الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا وكيع، حدثنا مسعر، وسفيان - هو الثوري - عن عثمان بن المغيرة الثقفي، عن علي بن ربيعة، عن أسماء بن الحكم الفزاري، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعتني الله بما شاء منه، وإذا حدثني عنه غيري استخلفته، فإذا حلف لي صدقته، وإن أبا بكر رضي الله عنه حدثني وصدق أبو بكر - أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ - الْوُضُوءَ - قَالَ مِسْعَرٌ: فَيُصَلِّي. وَقَالَ سُفْيَانُ: ثُمَّ يُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ - فَيَسْتَغْفِرُ اللَّهُ ﷻ إِلَّا غَفَرَ لَهُ».

كذا رواه علي بن المَدِينِي، والْحَمْدِيُّ وأبو بكر بن أبي شيبة، وأهل السنن، وابن جَبَّان في صحيحه والبخاري، وابن طرُق، عن عثمان بن المغيرة، به. وقال الترمذي: هو حديث حسن. وقد ذكرنا طرقه والكلام عليه مستقصى في مسند أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، وبالجمله فهو حديث حسن، وهو من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن خليفة النبي ﷺ أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما. ومما يشهد لصحة هذا الحديث ما رواه مسلم في صحيحه، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبَلِّغُ - أَوْ: فَيَسْبِغُ - الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ». وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، أنه توضع لهم وضوء النبي ﷺ، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ لَا يَحْدُثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غَيْرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». فقد ثبت هذا الحديث من رواية الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، عن سيد الأولين والآخرين ورسول رب العالمين، كما دل عليه الكتاب المبين من أن الاستغفار من الذنب ينفع العاصين. وقد قال عبد الرزاق: أخبرنا جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: بلغني أن إبليس حين نزل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية، بكى. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا مُخَرِّزُ بْنُ عَزُون، حدثنا عثمان بن مطر، حدثنا عبد الغفور، عن أبي نُصَيْرَةَ عن أبي رجاء، عن أبي بكر، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «عَلَيْكُمْ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالِاسْتِغْفَارَ، فَأَثَرُوا مِنْهُمَا، فَإِنَّ إِبْلِيسَ قَالَ: أَهْلَكْتُ النَّاسَ بِالذُّنُوبِ، وَأَهْلَكُونِي بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالِاسْتِغْفَارَ، فَلَمَّا رَأَيْتَ ذَلِكَ أَهْلَكْتَهُمْ بِالْأَهْوَاءِ، فَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ». عثمان بن مطر وشيخه ضعيفان.

وروى الإمام أحمد في مسنده، من طريق عمرو بن أبي عمرو وأبي الهيثم العنبري، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «قَالَ إِبْلِيسُ: يَا رَبِّ، وَعِزَّتِكَ لَا أَزَالُ أَغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ». فَقَالَ اللَّهُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَلَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي». وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عمر بن أبي خليفة، سمعت أبا بَدْرٍ يحدث عن ثابت، عن أنس قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، أَذْنِبْتُ ذَنْبًا، فقال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَذْنِبْتَ فَاسْتَغْفِرْ رَبَّكَ». قال: فأني أستغفر، ثم أعود فأذنب. قال: «فَإِذَا أَذْنِبْتَ فَقَدْ فَاسْتَغْفِرَ رَبَّكَ». فقالها في الرابعة فقال: «اسْتَغْفِرْ رَبَّكَ حَتَّى يَكُونَ الشَّيْطَانُ هُوَ الْمَحْسُورُ». وهذا حديث غريب من هذا الوجه. وقوله: «وَمَنْ يَقُورَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ؟» أي: لا يغفرها أحد سواه، كما قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن مُصَنَّب، حدثنا سلام بن مسكين، والمبارك، عن الحسن، عن الأسود بن سَرِيع، أن النبي ﷺ أتى بأسير فقال: اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد. فقال النبي ﷺ: «عَرَفَ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». وقوله: «وَلَمْ يَصِرُوا عَلَيَّ مَا قَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ؟» أي: تابوا من ذنوبهم، ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها، ولو تكرر منهم الذنب تابوا عنه، كما قال الحافظ أبو يعلى الموصلي، رحمه الله، في مسنده: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل وغيره قالوا: حدثنا أبو يحيى عبد الحميد الجُمَانِي، عن عثمان بن واقد عن أبي نُصَيْرَةَ، عن مولى لأبي بكر،

بمحسوس كالمحسوس، كما تتخيل الشاة صداقة الكباش وعداوة الذئب.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَذَبُوا كِتَابَ تُوَجَّلًا وَمَنْ رِءُ قَوَابِ الدُّنْيَا تُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَنْ رِءُ قَوَابِ الْآخِرَةِ تُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَانَ مِنْ لَبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَلُوا إِلَّا أَمَا بِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَاتَّخَذَهُمُ اللَّهُ قَوَابِ الدُّنْيَا وَحَسَنَ قَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾.

لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقُتل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قُتل. ورجع ابن قبيصة إلى المشركين فقال لهم: قُتل محمد. وإنما كان قد ضرب رسول الله ﷺ، فشقَّه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس واعتقدوا أن رسول الله قد قُتل، وجوزوا عليه ذلك، كما قد قصَّ الله عن كثير من الأنبياء، عليهم السلام، فحصل وهن وضعف وتأخر عن القتال، ففي ذلك أنزل الله ﷻ على رسوله ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: له أشوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه. قال ابن أبي نجيج، عن أبيه، أن رجلاً من المهاجرين مرَّ على رجل من الأنصار وهو يتشطح في دمه، فقال له: يا فلان أشعرت أن محمداً ﷺ قد قُتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمد ﷺ قد قُتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم، فنزل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾. رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في دلائل النبوة. ثم قال تعالى منكرًا على من حصل له ضعف: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ أي: رجعتُم القهقري ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: الذين قاموا بباطلته وقاتلوا عن دينه، واتبعوا رسوله حياً وميتاً. وكذلك ثبت في الصحاح والمساند والسنن، وغيرها من كتب الإسلام من طرق متعددة تفيد القطع، وقد ذكرت ذلك في مُسندي الشيوخين أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما؛ أن الصديق - رضي الله عنه - تلا هذه الآية لما مات رسول الله ﷺ. وقال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن عُقيل عن ابن شهاب، أخبرني أبو سلمة؛ أن عائشة، رضي الله عنها، أخبرته أن أبا بكر، رضي الله عنه، أقبل على فرس من مسكنه بالسُّنح حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيَّم رسول الله ﷺ وهو مغشى بشوب حبرة، فكشف عن وجهه ﷺ، ثم أكب عليه وقبَّله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي. والله لا يجمع الله عليك مؤتئين؛ أما الموة التي كتبت عليك فقد مُتَّها. وقال الزهري: وحدثني أبو سلمة عن ابن عباس، أن أبا بكر خرج وعمر يُحدِّث الناس فقال: اجلس يا عمر فأبي عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمرَ، فقال أبو بكر: أما بعد، مَنْ كَانَ يَبْعِدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَبْعِدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إلى قوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ قال: فوالله لكانَّ الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها الناس منه كلهم، فما سمعها بشر من الناس إلا تلاها. وأخبرني سعيد بن المُسيَّب أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فَعَقَرْتُ حتى ما تقلني رجلاي، وحتى هَوَيْتُ إلى الأرض.

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا عمرو بن حماد بن طلحة القنَّاد، حدثنا أسباط بن نصر، عن سماك بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس أن علياً كان يقول في حياة رسول الله: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾، والله لا تنقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله، والله لئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت، والله إني لأخوه، ووليه، وابن عمه، ووارثه فمن أحق به مني؟. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَذَبُوا كِتَابَ تُوَجَّلًا﴾ أي: لا يموت أحد إلا بقدر الله، وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له؛ ولهذا قال: ﴿كَذَبُوا كِتَابَ تُوَجَّلًا﴾، كقوله: ﴿وَمَا يَعْزُرُ مِنْ تُعْمَرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١]، وكقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَعَقَ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [الأنعام: ٢٧]. وهذه الآية فيها تشجيع للجنَّاء وترغيب لهم في القتال، فإن الإقدام والإحجام لا يتنقص من العمر ولا يزيد فيه كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا العباس بن يزيد العبدي قال: سمعت أبا معاوية، عن الأعمش، عن حبيب بن ضُهبان، قال: قال رجل من المسلمين - وهو حجر بن عدي -: ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو، هذه النقطة؟ - يعني دجلة - ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَذَبُوا كِتَابَ تُوَجَّلًا﴾، ثم أقحم فرسه دجلة فلما أقحم أقحم الناس فلما رآهم العدو قالوا: ديوان، فهربوا. وقوله: ﴿وَمَنْ رِءُ قَوَابِ الدُّنْيَا تُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَنْ رِءُ قَوَابِ الْآخِرَةِ تُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾ أي: من كان عمله للدنيا فقط نال منها ما قدَّره الله له، ولم يكن له في الآخرة من نصيب، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها مع ما قسم له في الدنيا كما قال: ﴿مَنْ كَانَتْ رِءُ حَرَّتِ الْآخِرَةِ رِءُ لَمْ فِي حَرَّتِهِ وَمَنْ كَانَتْ رِءُ حَرَّتِ الدُّنْيَا تُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَا لَمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ

يُرِيدُ الْمَسَاجِدَ عَجَلًا لَمْ فِيهَا مَا تَشَاءُ لَمَ تَرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَكُمْ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٤٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٤٩﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩] وهكذا قال ههنا: ﴿وَسَعَى الشَّاكِرِينَ﴾ أي: سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم. ثم قال تعالى - مسلماً للمسلمين عما كان وقع في نفوسهم يوم أُخِذَ -: ﴿وَكَايَن لَّيْن قَتَلَ مَعَهُ رَيْثُؤُنْ كَيْدٍ﴾، قيل: معناه: كم من نبي قُتِلَ وقتل معه ربيون من أصحابه كثير. وهذا القول هو اختيار ابن جرير، فإنه قال: وأما الذين قرؤوا: ﴿قتل معه ربيون كثير﴾ فإنهم قالوا: إنما عني بالقتل النبي وبعض من معه من الربيين دون جميعهم، وإنما نفى الوهن والضعف عمن بقي من الربيين ممن لم يقتل.

قال: ومن قرأ ﴿قَتَلَ﴾ فإنه اختار ذلك لأنه قال: لو قتلوا لم يكن لقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ وجه معروف؛ لأنهم يستحيل أن يوصفوا بأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا بعد ما قتلوا. ثم اختار قراءة من قرأ ﴿قتل معه ربيون كثير﴾؛ لأن الله تعالى عاتب بهذه الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أحد، وتركوا القتال أو سمعوا الصانع يصيح: «إن محمداً قد قتل». فعذله الله على فرارهم وتركهم القتال فقال لهم: ﴿أَفَأَمِنَ مَا تَأْتِي قَتَلَ أَوْ قَتِلَ﴾ أيها المؤمنون ارتدتم عن دينكم وانقلبتم على أعقابكم؟ وقيل: وكم من نبي قتل بين يديه من أصحابه ربيون كثير. وكلام ابن إسحاق في السيرة يقتضي قولاً آخر، فإنه قال: أي وكأين من نبي أصابه القتل، ومعه ربيون، أي: جماعات فما وهنوا بعد نبيهم، وما ضعفوا عن عدوهم، وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن الله وعن دينهم، وذلك الصبر، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُصْبِرِينَ﴾. فجعل قوله: ﴿مَعَهُ رَيْثُؤُنْ كَيْدٍ﴾ حالاً، وقد نصر هذا القول السهلي وبالع في، وله اتجاه لقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمُ الْآيَةُ﴾، وكذلك حكاة الأموي في مغازيه، عن كتاب محمد بن إبراهيم، ولم يقل غيره. وقرأ بعضهم: ﴿قَتَلَ مَعَهُ رَيْثُؤُنْ كَيْدٍ﴾، قال سفيان الثوري، عن عاصم، عن زر، عن ابن مسعود ﴿رَيْثُؤُنْ كَيْدٍ﴾، أي: ألوف. وقال ابن عباس، ومجاهد وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدي، والربيع، وعطاء الخراساني: الربيون: الجموع الكثيرة. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ عن الحسن: ﴿رَيْثُؤُنْ كَيْدٍ﴾ أي: علماء كثير، وعنه أيضاً: علماء صبر أبرار أتقياء. وحكى ابن جرير، عن بعض نحاة البصرة: أن الربيين هم الذين يعبدون الرب، ﷺ، قال: ورد بعضهم عليه قال: لو كان كذلك لقليل ربيون، بفتح الراء. وقال ابن زيد: «الربيون: الأتباع، والريعية، والربايون: الولاة». ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْكَتُوهَا﴾ قال قتادة والربيع بن أنس: ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ بقتل نبيهم ﴿وَمَا أَسْكَتُوهَا﴾، يقول: فما ارتدوا عن نصرتهم ولا عن دينهم، أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله حتى لحقوا بالله. وقال ابن عباس: ﴿وَمَا أَسْكَتُوهَا﴾: تَحْشَعُوا. وقال السدي وابن زيد: وما ضلوا لعدوهم. وقال محمد بن إسحاق، وقتادة والسدي: أي ما أصابهم ذلك حين قُتِلَ نبيهم. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُصْبِرِينَ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَبِئْسَ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: لم يكن لهم هجيري إلا ذلك. ﴿فَقَاتِلْهُمْ اللَّهُ تَوَّابٌ أَلْزَمَ﴾ أي: النصر والظفر والعاقبة ﴿وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ أي: جمع لهم ذلك مع هذا، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُلِيْعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرْذُوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ﴿١٥١﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٢﴾ سَتَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُحْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَهُمْ لَكَارٍ وَيَسْأَلُكَ الْمُتَّقِلِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَخُسُّونَهُم بِآيَاتِهِ خَوْفًا إِذَا قِيلَ لَهُمْ وَتَنْزِعُهُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَا تُجِيبُونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ مَرْسَلَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٤﴾ إِذْ تُفْعَلُونَ وَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ أَكْثَرِ الرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجَكُمْ فَأَتَيْتُكُمْ عَمَّا يَسُوءُ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٥﴾.

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ تُلِيْعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرْذُوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾. ثم أمرهم بطاعته وموالاته، والاستعانة به، والتوكل عليه، فقال: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾. ثم بشرهم بأنه سيقضي في قلوب أعدائهم الخوف منهم والذلة لهم، بسبب كفرهم وشركهم، مع ما ادخره لهم في الدار الآخرة من العذاب والثكال، فقال: ﴿سَتَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُحْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَهُمْ لَكَارٍ وَيَسْأَلُكَ الْمُتَّقِلِينَ﴾. وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيَتْ حُمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرَّغَبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُجِّلَتْ لِي الْعَنَائِمُ، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يَبْتَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَةً وَيَبْتَثُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي عن سليمان - يعني التيمي - عن سيار، عن أبي أمامة؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«فَضَّلَنِي رَبِّي عَلَى الْإِنِّيَاءِ - أَوْ قَالَ: عَلَى الْأُمَمِ - بَأَزْبَعٍ» قَالَ: «أُزِيلْتُ إِلَى النَّاسِ كَأَنَّهُ وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ كُلَّهَا وَلَأُمِّي مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّنَا أَذْرَكْتُ رَجُلًا مِنْ أُمِّي الصَّلَاةَ فَعِنْدَهُ مَسْجِدُهُ وَطَهُورُهُ، وَنُصِرْتُ بِالرُّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ يَقْدِفُهُ فِي قُلُوبِ أَغْدَانِي وَأَحِلَّ لِي الْغَنَائِمُ». ورواه الترمذي من حديث سليمان التيمي، عن سَيَّارِ الْقُرَشِيِّ الْأُمَوِيِّ مَوْلَاهُم الدمشقي - سكن البصرة - عن أبي أمامة صُدِّيِّ بْنِ عَجَلَانَ، رضي الله عنه، به. وقال: حسن صحيح. وقال سعيد بن منصور: أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث: أن أبا يونس حدثه، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ عَلَى الْعُدُوِّ». ورواه مسلم من حديث ابن وهب. وروى الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق عن أبي بَرْدَةَ، عن أبيه أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيْتُ خَمْسًا: بُعِثْتُ إِلَى الْأَخْمَرِ وَالْأَسْوَدِ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَجَلْ لِمَنْ كَانَ قَبْلِي، وَنُصِرْتُ بِالرُّغْبِ شَهْرًا، وَأُعْطِيْتُ الشَّفَاعَةَ، وَلَيْسَ مِنِّي إِلَّا وَقَدْ سَأَلَ شَفَاعَتَهُ، وَإِنِّي أَخْبَاتُ شَفَاعَتِي، ثُمَّ جَعَلْتُهَا لِمَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا». تفرد به أحمد.

وروى العوفي، عن ابن عباس في قوله: «سُئِلُوا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّغْبَ»، قال: قذف الله في قلب أبي سفيان الرعب، فرجع إلى مكة، فقال النبي ﷺ: «إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَدْ أَصَابَ مِنْكُمْ طَرَفًا، وَقَدْ رَجَعَ، وَقَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ الرُّغْبَ». رواه ابن أبي حاتم. وقوله: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ اللَّهُ وَعَدَّكُمْ إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ». قال ابن عباس: وعدهم الله النصر. وقد يستدل بهذه الآية على أحد القولين المتقدمين في قوله: «إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَ رَبُّكُمْ ثَلَاثَةَ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ ﴿١٧٦﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَآتَوْكُمْ مِنْ قُوْرِهِمْ هَذَا يَبْدُوَكُمْ رَبُّكُمْ بِخَسَّةٍ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٧٧﴾» أن ذلك كان يوم أحد لأن عدوهم كان ثلاثة آلاف مقاتل، فلما واجهوهم كان الظفر والنصر أول النهار للإسلام، فلما حصل ما حصل من عصيان الرُماة وفشل بعض المقاتلة، تأخر الوعد الذي كان مشروطاً بالثبات والطاعة؛ ولهذا قال: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ اللَّهُ وَعَدَّكُمْ» أي: أول النهار «إِذْ تَحْسُونَهُمْ» أي: تقتلونهم «بِإِذْنِهِ» أي: بتسليطه إياكم عليهم «حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ» وقال ابن جريج: قال ابن عباس: الفشل الجبن، «وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ» كما وقع للرماة «مَنْ يَبْدُ مَا أَرْنَكُمْ مَا تُحِبُّونَ» وهو الظفر منهم، «مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا» وهم الذين رغبوا في المغنم حين رأوا الهزيمة «وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ مَكَّنَّاكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ» ثم أдалهم عليكم ليختبركم ويمتنحكم «وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ» أي: غفر لكم ذلك الصنيع، وذلك - والله أعلم - لكثرة عدد العدو وعُددهم، وقلة عدد المسلمين وعُددهم. وقال ابن جريج: قوله: «وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ»، قال: لم يستأصلكم. وكذا قال محمد بن إسحاق، رواهما ابن جرير. «وَاللَّهُ دُو فَضَّلِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ». وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود أخبرنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن عُبَيْدِ اللَّهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: مَا نَصَرَ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ كَمَا نَصَرَ يَوْمَ أُحُدٍ. قال: فأنكرنا ذلك، فقال ابن عباس: بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله، إن الله يقول في يوم أحد: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ اللَّهُ وَعَدَّكُمْ إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ»، يقول ابن عباس: وَالْحَسَنُ: القتل. «حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مَنْ يَبْدُ مَا أَرْنَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ» الآية، وإنما عني بهذا الرُماة، وذلك أن النبي ﷺ أقامهم في موضع، ثم قال: «اأخْمُوا طَهُورَتَنَا، فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نَقْتُلُ فَلَا تَنْصُرُونَا وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ غَنَيْتَا فَلَا تَشْرِكُونَا». فلما غنم النبي ﷺ وأبأخوا عسكر المشركين أكَبَّتِ الرُماة جميعاً ودخلوا في العسكر ينهبون، ولقد التقت صفوف أصحاب رسول الله ﷺ، فهُم هَكَذَا - وشبك بين يديه - وانتشَبُوا، فلما أخل الرماة تلك الخلَّة التي كانوا فيها، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب رسول الله ﷺ، فضرب بعضهم بعضاً والتبسوا، وقُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَاسٌ كَثِيرٌ، وَقَدْ كَانَ النَّصْرُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ أَوَّلَ النَّهَارِ، حَتَّى قُتِلَ مِنْ أَصْحَابِ لُؤَاءِ الْمَشْرِكِينَ سَبْعَةٌ أَوْ تِسْعَةٌ، وَجَالَ الْمُسْلِمُونَ جَوْلَةً نَحْوَ الْجَبَلِ وَلَمْ يَبْلُغُوا - حيث يقول الناس - الغار، إنما كان تحت الجُهراس، وصاح الشيطان: قُتِلَ مُحَمَّدٌ، فَلَمْ يُشَكَّ فِيهِ أَنَّهُ حَقٌّ، فَمَا زِلْنَا كَذَلِكَ مَا نَشُكُّ أَنَّهُ حَقٌّ، حَتَّى طَلَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ السَّعْدَيْنِ، نَعْرِفُهُ بِلَفْتِهِ إِذَا مَشَى - قال: ففرحنا حتى كأنه لم يصبنا ما أصابنا - قال: فَزَيَّنَا نَحْنُ وَهُوَ يَقُولُ: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ دَمَوْا وَجَةَ رَسُولِ اللَّهِ». ويقول مرة أخرى: «اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ لَهْمٌ أَنْ يَغْلِبُونَا». حتى انتهى إلينا، فمكث ساعة، فإذا أبو سفيان يصيح في أسفل الجبل: اغل هبل، مرتين - يعني ألهته - أين ابن أبي كبشة؟ أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: يا رسول الله، ألا أجيبه؟ قال: «بلى» قال: فلما قال: اعل هبل. قال عمر: الله أعلى وأجل. فقال أبو سفيان: قد أنعمت عينها فعاد عنها، أو: فَعَالٍ! فقال: أين ابن أبي كبشة؟ أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: هذا رسول الله، وهذا أبو بكر، وما أنا ذا عمر. قال: فقال أبو سفيان:

يوم بيوم بدر، الأيام ذُول، وإن الحرب سيَجَال. قال: فقال عمر: لا سواء، قتلنا في الجنة وقتلناكم في النار. قال: إنكم تزعمون ذلك، لقد جئنا إذاً وخسِرنا ثم قال أبو سفيان: إنكم ستجدون في قتالكم مثله، ولم يكن ذلك عن رأي سراتنا. قال: ثم أدركته حَمِيَّة الجاهلية فقال: أما إنه إن كان ذلك لم نُكْرِهه. هذا حديث غريب، وسياق عجيب، وهو من مراسلات ابن عباس، فإنه لم يشهد أحدًا ولا أبوه. وقد أخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي الثَّغر الفقيه، عن عثمان بن سعيد، عن سليمان بن داود بن علي بن عبد الله بن عباس، به. وهكذا رواه ابن أبي حاتم والبيهقي في دلائل النبوة، من حديث سليمان بن داود الهاشمي، به. ولبعضه شواهد في الصحاح وغيرها، فقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، حدثنا عطاء بن السائب عن الشعبي، عن ابن مسعود قال: إن النساء كن يوم أحد، خلف المسلمين، يُجْهَرْنَ على جَزْحِي المشركين، فلو خَلَفَتْ يومئذ رجوت أن أُبَر: أنه ليس أحد منا يريد الدنيا، حتى أنزل الله ﷻ: ﴿يَنْصَحُكُمْ مِّنْ يُّرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ مَرَّكُمْ عَنْهُمْ بِبَنِيكُمْ﴾ فلما خالف أصحاب النبي ﷺ وعَصَوْا ما أمروا به، أفرد رسول الله ﷺ في تسعة: سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش، وهو عاشرهم، فلما رَهَقُوهُ قال: «رَجِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَدَّهْمُ عَنَّا». قال: فقام رجل من الأنصار فقاتل ساعة حتى قتل، فلما رَهَقُوهُ أيضاً قال: «رَجِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَدَّهْمُ عَنَّا». فلم يزل يقول ذا حتى قُيِّل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: «مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا».

فجاء أبو سفيان فقال: اغْلُ هُبْلُ. فقال رسول الله ﷺ: «قُولُوا: اللَّهُ أَغْلَى وَأَجْلُ». فقالوا: الله أعلى وأجل. فقال أبو سفيان: لنا العَزَى ولا عَزَى لكم. فقال رسول الله ﷺ: «قُولُوا: «اللَّهُ مَوْلَانَا، وَالْكَافِرُونَ لَا مَوْلَى لَهُمْ»». ثم قال أبو سفيان: يوم بيوم بَدْر، يوم علينا ويوم لنا، ويوم نُسَاء ويوم نُسَر. حَفْظَةً بِحَفْظَةٍ، وفلان بفلان، وفلان بفلان، فقال رسول الله ﷺ: «لَا سَوَاء. أَمَا قَتَلْنَا فَأَخْيَاءَ يَزْقُونَ، وَقَتَلْنَاكُمْ فِي النَّارِ يَمْدُبُونَ». قال أبو سفيان: قد كان في القوم مُثْلَةٌ، وإن كَانَتْ لَعَنَ غير مَلَأْنَا، ما أَمَرْتُ وَلَا نَهَيْتُ، وَلَا أَخْبَيْتُ وَلَا كَرِهْتُ، ولا ساءني ولا سَرَّني. قال: فنظروا فإذا حمزة قد بَقِرَ بَطْنُهُ، وأخذت هند كبدَه فلاكتها فلم تستطع أن تأكلها، فقال رسول الله ﷺ: «أَكَلْتُ شَيْئًا؟» قالوا: لا. قال: «مَا كَانَ اللَّهُ لِيُدْخِلَ شَيْئًا مِنْ حِمَزَةٍ فِي النَّارِ». قال: فوضع رسول الله ﷺ حمزة فَصَلَّى عليه، وَجِيءَ برجل من الأنصار فَوُضِعَ إلى جنبه فَصَلَّى عليه، فَرَفَعَ الأنصاري وَتَرَكَ حمزة، ثم جِيءَ بآخر فوضعه إلى جنب حمزة فَصَلَّى عليه، ثم رَفَعَ وَتَرَكَ حمزة، حتى صَلَّى عليه يومئذ سبعين صلاة. تفرد به أحمد أيضاً. وقال البخاري: حدثنا غُبَيْدُ اللَّهِ بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق: عن البراء قال: لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جَنْبًا من الرُّمَاءِ، وأمر عليهم عبد الله - يعني ابن جُبَيْر - وقال: «لَا تَبْرَحُوا إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْكُمْ فَلَا تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُعَيِّنُونَا». فلما لقيناهم هربوا، حتى رأينا النساء يَشْتَدِدْنَ في الجبل، رَفَعْنَ عن سَوْقِهِنَّ، وقد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنِمة الغنِمة. فقال عبد الله: عَهْدُ إِلَيَّ النَّبِيِّ ﷺ لَا تَبْرَحُوا. فَأَبَوْا، فلما أَبَوْا صَرَفَ وجوههم، فأصيب سبعون قتيلاً، فأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: «لَا تُجِيبُوهُ». فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: «لَا تُجِيبُوهُ». فقال: أفي القوم ابن عُمَرَ نفسه فقال: كَذَبْتُ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، قد أبقي الله لك ما يُحْزِنُكَ. فقال أبو سفيان: اغْلُ هُبْلُ. فقال النبي ﷺ: «أَجِيبُوهُ». قالوا: ما نقول؟ قال: «قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ». قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سَجَال، وتجدون مُثْلَةً لم أمر بها ولم تسؤني. تفرد به البخاري من هذا الوجه، ثم رواه عن عُمَرُو بن خالد، عن زُهَيْر بن معاوية عن أبي إسحاق، عن البراء، بنحوه. وسياتي بأبسط من هذا. وقال البخاري أيضاً: حدثنا غُبَيْدُ اللَّهِ بن سعيد، حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أَحَدٍ هَزِمَ الْمُشْرِكُونَ، فَصَرَخَ إِبْلِيسُ: أَيُّ عِبَادِ اللَّهِ، أَخْرَاكُمْ. فَرَجَعَتْ أَوْلَاهُمْ فَاجْتَلَدَتْ هِيَ وَأَخْرَاهُمْ، فَبَصُرَ حَذِيفَةُ فَإِذَا هُوَ بِأَبِيهِ الْيَمَانِ، فقال: أَيُّ عِبَادِ اللَّهِ، أَبِي أَبِي. قال: قالت: فوالله ما اخْتَبَرُوا حَتَّى قَتَلُوهُ، فقال حذيفة: يغفر الله لكم. قال عروة: فوالله ما زَالَتْ في حذيفة بقية خير حتى لقي الله ﷻ. وقال محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عَبَّاد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن جده أن الزبير بن العوام قال: والله لقد رأيتني أنظر إلى خَدَمِ هِنْدَ وصواحباتها مُشْمَرَاتٍ هَوَارِبَ ما دون أَخْذِهِنَّ كَثِيرَ ولا قَلِيلَ، ومالت الرُّمَاءُ إلى العسكر حين كَشَفْنَا القوم عنه، يريدون النهب وَخَلُّوا ظَهْرُنَا لِلخَيْلِ فَاتَّتْنَا مِنْ أَدْبَارِنَا، وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قُتِلَ. فانكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد أن أَصَبْنَا أصحاب اللِّوَاءِ، حتى ما يدنو منه أحد من القوم. قال محمد بن إسحاق: فلم يزل لواء المشركين صريعاً، حتى أخذته عَمْرَةٌ بنت علقمة الحارثية، فدفعته لقريش فلاثوا به. وقال السُّدِّيُّ عن عبد خير قال: عن عبد الله بن مسعود، قال: ما كنتُ أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا ما نزل يوم أحد ﷻ مِنْكُمْ مَّنْ يُّرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ

يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴿١٤٩﴾. وقد رُوي من غير وجه عن ابن مسعود، وكذا رُوي عن عبد الرحمن بن عوف وأبي طلحة، وراهن ابن مَرْزُوقٍ في تفسيره. وقوله: ﴿ثُمَّ مَكَرَكُمُ عَنْهُمْ لَيْتِلَكُمْ﴾ قال ابن إسحاق: حدثني القاسم بن عبد الرحمن بن رافع، أخذ بني عدي بن النجار قال: انتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك، إلى عمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله، في رجال من المهاجرين والأنصار، قد ألقوا بأيديهم فقال: ما يخليكم؟ فقالوا: قُتِلَ رسولُ الله ﷺ. قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه. ثم استقبل القوم فقاتل حتى قُتِلَ. وقال البخاري: حدثنا حسان بن حسان، حدثنا محمد بن طلحة، حدثنا حُمَيْد، عن أنس بن مالك: أن عمه - يعني أنس بن النضر - غاب عن بدر فقال: غُبْتُ عن أول قتال رسول الله ﷺ، لئن أشهدني الله مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أجد فلقي يوم أحد، فهزم الناس، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدم بسيفه فلقى سعد بن معاذ فقال: أين يا سعد؟ إني أجد ريح الجنة دون أحد. فمضى فُقُتِلَ، فما عُرف حتى عُرِفَتْ أخته بينانه بشامة، وبه بضغ وثمانون من طغنة وضربة وزمعة بسهم.

هذا لفظ البخاري وأخرجه مسلم من حديث ثابت عن أنس، بنحوه. وقال البخاري أيضاً: حدثنا عبدان، أخبرنا أبو حمزة عن عثمان بن مَوْهَب قال: جاء رجل حج البيت، فرأى قوماً جلوساً، فقال: من هؤلاء القمُود؟ قالوا: هؤلاء قريش. قال: من الشيخ؟ قالوا: ابن عمر. فأناه فقال: إني سائلك عن شيء فحدثني. قال: أتشدك بحرمة هذا البيت أتعلم أن عثمان بن عفان فر يوم أحد؟ قال: نعم. قال: فتعلمه تغيب عن بدر فلم يشهد؟ قال: نعم. قال فتعلم أنه تخلف عن بيعة الرضوان فلم يشهد؟ قال: نعم. قال: فكبر، فقال ابن عمر: تعال لأخبرك ولأبين لك عما سألتني عنه. أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه، وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحته بنت النبي ﷺ، وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: «إِنَّ لَكَ أَجْرَ رَجُلٍ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا وَسَهْمَهُ». وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز بطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث عثمان، فكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة. فقال النبي ﷺ بيده اليمنى: «هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ». فضرب بها على يده، فقال: «هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ» أَذْهَبَ بِهَا الْآنَ مَعَكَ. ثم رواه البخاري من وجه آخر عن أبي عوانة عن عثمان بن عبد الله بن موهب. وقوله: ﴿إِذْ تُصِيدُوكَ وَلَا تَكُونُكَ عَلَى أَحَدٍ﴾ أي: صرفكم عنهم ﴿إِذْ تُصِيدُوكَ﴾ أي: في الجبل هاربين من أعدائكم. وقرأ الحسن وقتادة: ﴿إِذْ تُصِيدُوكَ﴾ أي: في الجبل ﴿وَلَا تَكُونُكَ عَلَى أَحَدٍ﴾ أي: وأنتم لا تلوون على أحد من الدهش والخوف والرعب ﴿وَأَرْسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ﴾ أي: وهو قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء، وإلى الرجعة والعودة والكرة. قال السُّدِّي: لما شدَّ المشركون على المسلمين بأحد فهزموهم، دخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة فقاموا عليها، وجعل الرسول ﷺ يدعو الناس: ﴿إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ، إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾. فذكر الله صمودهم على الجبل، ثم ذكر دعاء النبي ﷺ إليهم فقال: ﴿إِذْ تُصِيدُوكَ وَلَا تَكُونُكَ عَلَى أَحَدٍ وَأَرْسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ﴾. وكذا قال ابن عباس، وقتادة والربيع، وابن زيد. وقد قال عبد الله بن الزُّبَيْرِ يذكر هزيمة المسلمين يوم أحد في قصيدته - وهو مشرك بعد لم يسلم - التي يقول في أولها:

إِنَّمَا تَنُطِطُّ شَيْئاً قَدْ فُعِلَ
وَكَلَّا ذَلِكُ وَجْهَهُ وَقَبِيلُ

يَا غُرَابَ الْبَيْتِ أَشْمَعْتَ قُتِلَ
إِنَّ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ مَدَى
إِلَى أَنْ قَالَ:

جَزَعَ الْخَزْرَجُ مَنْ وَقَعَ الْأَسْلُ
وَاسْتَحَرَّ الْقَتْلُ فِي عَبْدِ الْأَسْلِ
رَقَصَ الْحَقْفَانِ يَعْلُو فِي الْجَبَلِ
وَعَذَلْنَا مَيْلَ بَدْرٍ فَاغْتَدَلْ

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرٍ شَهِدُوا
حِينَ حَكَّتْ بِقُبَاءِ بَرْكَهَا
ثُمَّ خَفُوا عِنْدَ ذَاكُم رُقُصَا
فَقَتَلْنَا الضَّعْفَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ

الحفان: صغار النعم. وقد كان النبي ﷺ قد أفرد في اثني عشر رجلاً من أصحابه، كما قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا زهير، حدثنا أبو إسحاق أن البراء بن عازب قال: جعل رسول الله ﷺ على الرماة يوم أحد - وكانوا خمسين رجلاً - عبد الله بن جُبَيْر قال: ووضعهم موضعاً وقال: «إِنَّ زَائِمُونَا تَخَطَّفَنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أَرْسِلَ إِلَيْكُمْ وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَى الْعَدُوِّ وَأَوْطَانَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أَرْسِلَ إِلَيْكُمْ قال: فهزموهم. قال: فأنا والله رايت النساء يشتددن على الجبل، وقد بدت أسوفهن وخلاخلهن رافعات ثيابهن، فقال أصحاب عبد الله: الغنيمة، أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ قال

عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ فقالوا: إنا والله لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ فَلَنُصَيِّبَنَّ مِنَ الْغَنِيمَةِ. فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين، فذلك الذي يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبق مع رسول الله ﷺ غير اثني عشر رجلاً، فأصابوا منا سبعين، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بذر أربعين ومائة: سبعين أسيراً وسبعين قتيلاً. قال أبو سفيان: أفي القوم محمد؟ أفي القوم محمد؟ أفي القوم محمد؟ - ثلاثاً - قال: فتهاهم رسول الله ﷺ أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ أفي القوم ابن أبي قحافة؟ أفي القوم ابن الخطاب؟ أفي القوم ابن الخطاب؟ ثم أقبل على أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، قد كُفِّتُمُوهُ. فما ملك عَمَرُ نَفْسَهُ أَنْ قَالَ: كَذِبَ وَاللَّهِ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، إِنْ الَّذِينَ عَدَدْتُ لِأَحْيَاءِ كُلِّهِمْ، وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسْوَكَ. فقال: يوم بيوم بدر، الحرب سجال، إنكم ستجدون في القوم مثلاً لم أمر بها ولم تسؤني. ثم أخذ يرتجز، يقول: اعلِ هُبْلٌ، اعلِ هُبْلٌ. فقال رسول الله ﷺ: «أَلَا تُجِيبُوهُ؟» قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلٌ». قال: لَنَا الْعُرَى وَالْعُرَى لَكُمْ. فقال رسول الله ﷺ: «أَلَا تُجِيبُوهُ؟» قالوا: يا رسول الله، وما نقول؟ قال: «قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ». وقد رواه البخاري من حديث زهير بن معاوية مختصراً، ورواه من حديث إسرائيل، عن أبي إسحاق بأبسط من هذا، كما تقدم. والله أعلم. وروى البيهقي في دلائل النبوة من حديث عمارة بن غزينة، عن أبي الزبير، عن جابر قال: انهزم الناس عن رسول الله ﷺ يوم أحد وبقي معه أحد عشر رجلاً من الأنصار، وطلحة بن عبيد الله وهو يصعد الجبل، فلقبهم المشركون، فقال: «أَلَا أَحَدٌ لَهُؤُلَاءِ؟» فقال طلحة: أنا يا رسول الله، فقال: «كَمَا أَنْتَ يَا طَلْحَةُ». فقال رجل من الأنصار: فأنأ يا رسول الله، فقاتل عنه، وصعد رسول الله ﷺ ومن بقي معه، ثم قُتِلَ الْأَنْصَارِيُّ فَلَحِقُوهُ فَقَالَ: «أَلَا زَجَلٌ لَهُؤُلَاءِ؟» فقال طلحة مثل قوله، فقال رسول الله ﷺ مثل قوله، فقال رجل من الأنصار: فأنأ يا رسول الله، فقاتل عنه وأصحابه يصعدون، ثم قتل فلحقوه، فلم يزل يقول مثل قوله الأول فيقول طلحة: فأنأ يا رسول الله، فيحبسه، فيستأذنه رجل من الأنصار للمقاتلة فيأذن له، فيقاتل مثل من كان قبله، حتى لم يبق معه إلا طلحة فَعَسَوْهُمَا، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَهُؤُلَاءِ؟» فقال طلحة: أنا. فقاتل مثل قتال جميع من كان قبله وأصببت أنامله، فقال: حس، فقال رسول الله ﷺ: «لَوْ قُلْتُ: بِإِسْمِ اللَّهِ، وَذَكَرْتُ اسْمَ اللَّهِ، لَرَفَعْتُكَ الْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ، حَتَّى تَلْجَ بِكَ فِي جَوْ السَّمَاءِ»، ثم صعد رسول الله ﷺ إلى أصحابه وهم مجتمعون. وقد روى البخاري، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع، عن إسماعيل، عن قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي ﷺ يعني يوم أحد. وفي الصحيحين من حديث مُعْتَمِرِ بْنِ سُلَيْمَانَ، عن أبيه، عن أبي عثمان التَّهْدِي قال: لم يبق مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيام، التي قاتل فيهن رسول الله ﷺ غَيْرُ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَسَعْدَ، عَنْ حَدِيثِهِمَا. وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد وثابت عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رَهَقُوهُ قَالَ: «مَنْ يَزِدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ - أَوْ: وَهُوَ رَافِقِي فِي الْجَنَّةِ؟» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتِلَ، ثم رَهَقُوهُ أَيْضاً، فقال: «مَنْ يَزِدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ؟» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل. فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: «مَا أَصَفْنَا أَصْحَابَنَا». رواه مسلم عن هُدْبَةَ بْنِ خَالِدٍ، عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ، بِهِ نَحْوُهُ. وقال الحسن بن عرفة: حدثنا مروان بن معاوية، عن هاشم بن الزهري، قال سمعت سعيد بن المسيب يقول: سمعت سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يقول: نَتَلَّى لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَنَانَتَهُ يَوْمَ أَحَدٍ وَقَالَ: «إِزْمِ فِذَاكَ أَبِي وَأُمِّي».

وأخرجه البخاري، عن عبد الله بن محمد، عن مروان بن معاوية. وقال محمد بن إسحاق: حدثني صالح بن كيسان، عن بعض آل سعد، عن سعد بن أبي وقاص؛ أنه رمى يوم أحد دُونَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ سَعْدُ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَنْوِلُنِي النَّبْلَ وَيَقُولُ: «إِزْمِ فِذَاكَ أَبِي وَأُمِّي» حتى إنه ليناولني السهم ليس له نصل، فأرمي به. وثبت في الصحيحين من حديث إبراهيم بن سعد عن أبيه، عن جده، عن سعد بن أبي وقاص، قال: رأيت يوم أحد عن يمين النبي ﷺ وعن يساره رجلين، عليهما ثياب بيض، يقاتلان عنه أشد القتال، ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده، يعني: جبريل وميكائيل عليهما السلام. وقال أبو الأسود، عن عروة بن الزبير قال: كان أَبِي بْنُ خَلْفٍ، أَخُو بَنِي جُمَحٍ، قَدْ حَلَفَ وَهُوَ بِمَكَّةَ لَيَقْتُلَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا بَلَغَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَلْفَتُهُ قَالَ: «بَلِّ أَنَا أَفْتُلُهُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ». فلما كان يوم أحد أقبل أبي في الحديد مُقْتَعًا، وهو يقول لا تَجُوزْ إِنَّ نَجَا مُحَمَّدٍ. فحمل على رسول الله ﷺ يريد قتله، فاستقبله مُضْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ، أَخُو بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، يَقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَفْسَهُ، فَقَتَلَ مَضْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ، وَأَبْصَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَرْقُوتَهُ أَبِي بْنِ خَلْفٍ مِنْ فَرْجَةٍ بَيْنَ سَابِغَةِ الدَّرْعِ وَالْبَيْضَةِ، وَطَعَنَهُ فِيهَا بِحَرْبَتِهِ، فَوَقَعَ إِلَى الْأَرْضِ عَنْ فَرْسِهِ، لَمْ يَخْرُجْ مِنْ طَعْنَتِهِ دَمٌ، فَأَنَاءَ أَصْحَابُهُ فَاحْتَمَلُوهُ وَهُوَ يَخُورُ خُورَ الثَّوْرِ، فَقَالُوا: لَمْ أَجْزَعْكَ إِنَّمَا هُوَ خَدَشٌ؟ فَذَكَرَ لَهُمْ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا أَفْتُلُ أَبِي». ثم قال: والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي

بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون. فمات إلى النار، فسحقاً لأصحاب السعير. وقد رواه موسى بن عُقبة في مغازيه، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب بنحوه. وذكر محمد بن إسحاق قال: لما أَسْنَدَ رسول الله ﷺ في الشعب، أدركه أبي بن خلف وهو يقول: لا نجوت إن نجوت فقال القوم: يا رسول الله، يَغْطِفُ عليه رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ: «دَعُوهُ» فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصَّمَّة، فقال بعض القوم كما ذكر لي: فلما أخذها رسول الله ﷺ منه انتفض بها انتفاضة، تطايرنا عنه تطاير الشَّعر عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله رسول الله ﷺ فطعن في عنقه تدأداً منها عن فرسه مراراً. وذكر الواقدي، عن يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمرو بن قتادة، عن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه نحو ذلك. قال الواقدي: كان ابن عمر يقول: مات أبي بن خلف ببطن رابع، فإني لأسير ببطن رابع بعد هوي من الليل إذا أنا بنار تَأَجَّج، فهبتها، فإذا رجل يخرج منها في سلسلة يجتذبها يهيج به العطش، وإذا رجل يقول: لا تسقه، فإن هذا قاتل رسول الله ﷺ، هذا أبي بن خلف.

وثبت في الصحيحين، من رواية عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن هَمَّام بن مَثَب، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «اِسْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ فَعَلُوا بِرَسُولِ اللَّهِ - وهو حيث ذُكِرَ - رِبَاعِيَةً - اِسْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى رَجُلٍ يَقْتُلُهُ رسول الله ﷺ في سَبِيلِ اللَّهِ». ورواه البخاري أيضاً من حديث ابن جُرَيْج، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: اشتد غضب الله على من قتل رسول الله ﷺ، بيده في سبيل الله، اشتد غضب الله على قوم دَمَوْا وجه رسول الله ﷺ. وقال محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله: أصيبت رِبَاعِيَةً رسول الله ﷺ وشج في وَجْته، وكَلِمَتِ شَفْتُهُ، وكان الذي أصابه عتبة بن أبي وقاص. فحدثني صالح بن كيسان، عن حدثه، عن سعد بن أبي وقاص قال: ما حَرَصْتُ على قتل أحد قط ما حرصت على قتل عُتْبَةَ بن أبي وقاص وإن كان ما علمته لسيء الخلق، مُبَغِّضاً في قومه، ولقد كفاني فيه قول رسول الله ﷺ: «اِسْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى مَنْ دَمَى وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ». وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، عن الزهري، عن عثمان الجزري، عن مَقْسَم؛ أن رسول الله ﷺ دعا على عُتْبَةَ بن أبي وقاص يوم أُحُد حين كَسَرَ رِبَاعِيَتَهُ ودَمَى وجهه فقال: «اللَّهُمَّ لا تحلْ عَلَيْهِ الحَوْلَ حَتَّى يَمُوتَ كَافِرًا». فما حال عليه الحَوْلُ حتى مات كافراً إلى النار. ذكر الواقدي عن ابن أبي سيرة، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي قُرُوزة، عن أبي الحُوَيْرِث، عن نافع بن جبير قال: سمعت رجلاً من المهاجرين يقول: شهدت أُحُدًا فنظرت إلى التُّبَلِّ يأتي من كل ناحية، ورسول الله ﷺ وسطها، كُلُّ ذَلِكَ يُضْرَفُ عنه، ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهري يقول يومئذ: ذُلُّوني على محمد، لا تَجُوثُ إن نجا، ورسول الله ﷺ إلى جنبه ليس معه أحد، ثم جاوزه، فعاتبه في ذلك صُفْرَان، فقال: والله ما رأيته، أحلف بالله إنه منا ممنوع. خرجنا أربعة فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله، فلم نخلص إلى ذلك. قال الواقدي: الثَّبْتُ عندنا أن الذي رمى في وَجْته رسول الله ﷺ ابن قَمِيته، والذي دَمَى شفته وأصاب رِبَاعِيَتَهُ عتبة بن أبي وقاص. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا ابن المبارك، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة بن عبيد الله، أخبرني عيسى بن طلحة، عن أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، قالت: كان أبو بكر، رضي الله عنه، إذا ذكر يوم أُحُد قال: ذاك يوم كُله لطلحة، ثم أنشأ يحدث قال: كنت أول من فاء يوم أُحُد، فرأيت رجلاً يقاتل مع رسول الله ﷺ دونه - وأراه قال: حَمِيَّة قال: فقلت: كن طلحة، حيث فاتني ما فاتني، فقلت: يكون رجلاً من قومي أحب إلي، وبينني وبين المشركين رجل لا أعرفه، وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه، وهو يخطف المشي خطفاً لا أحفظه، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح، فانتهينا إلى رسول الله ﷺ: وقد كسرت رِبَاعِيَتَهُ وشج في وجهه، وقد دخل في وَجْته حلقتان من خلق الجفَر، قال رسول الله ﷺ: «عليكما صَاحِبَكُما». يريد طلحة، وقد نَزَف، فلم نلتف إلى قوله، قال: وذهبت لأنزع ذلك من وجهه، فقال أبو عبيدة: أقسمت عليك بحقي لما تركتني. فتركته، فكره أن يتناولها بيده فيؤذي النبي ﷺ، فَأَزَمَ عليها فبِهِ فاستخرج إحدى الحلقتين، ووقعت ثَنِيَّة مع الحلقة، وذهبت لأصنع ما صنع، فقال: أقسمت عليك بحقي لما تركتني، قال: ففعل مثل ما فعل في المرة الأولى، فوقعت ثَنِيَّة الأخرى مع الحلقة، فكان أبو عبيدة، رضي الله عنه، أحسن الناس هُتْماً، فأصلحنا من شأن رسول الله ﷺ، ثم أتينا طلحة في بعض تلك الجفار، فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر من طعنة ورمية وضربة، وإذا قد قُطِعَتْ إصبعه، فأصلحنا من شأنه. ورواه الهيثم بن كليب، والطبراني، من حديث إسحاق بن يحيى به. وعند الهيثم: فقال أبو عبيدة: أنشدك يا أبا بكر إلا تركتني؟ فأخذ أبو عبيدة السهم فبِهِ، فجعل يُنْضِضُهُ كراهية أن يؤذي رسول الله ﷺ، ثم استل السهم فبِهِ فبدرت ثنية أبي عبيدة. وذكر تمامه، واختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه. وقد ضَمَّقَ علي بن المديني هذا الحديث من جهة إسحاق بن يحيى هذا، فإنه تكلم فيه يحيى بن سعيد القطان، وأحمد، ويحيى بن معين، والبخاري، وأبو زُرْعَة، وأبو حاتم، ومحمد بن

يقول تعالى مُتَنَتًا على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنّة، وهو النعاس الذي غشيهم وهم مستأنمو السلاح في حال مَهْمٍ وَغَمٍّ، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان، كما قال تعالى في سورة الأنفال، في قصة بدر: ﴿إِذْ يَشْكُمُ الْكُفَّارُ أَنَّهُ يَتَذَكَّرُ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَهُ بِكُمْ لَبِيبٌ ۚ وَذَهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْزُ الَّذِي كُنْتُمْ تُرِيدُونَ أَن تَصَدِّقُوا بِهِ ۚ لَقَدْ أَفْلَحَ الَّذِينَ آمَنُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ۖ وَكَانَ هَذَا نِعْمَ الْفَتْحَ ۚ﴾ [الأنفال: ١١]. وقال الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو نعيم ووكيع، عن سفيان، عن عاصم، عن أبي رزين، عن عبد الله بن مسعود قال: النعاس في القتال من الله، وفي الصلاة من الشيطان. قال البخاري: قال لي خليفة: حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن أنس، عن أبي طلحة، رضي الله عنه، قال: كنت فيمن نَعَسَ النعاس يوم أُحُد، حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وأخذه، ويسقط وأخذه. هكذا رواه في المغازي معلقاً. ورواه في كتاب التفسير مُسْتَدًّا عن شيبان، عن قتادة، عن أنس، عن أبي طلحة قال: غَشِينَا النعاس ونحن في مَصَافِنَا يوم أُحُد. قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذه، ويسقط وأخذه. وقد رواه الترمذي والنسائي والحاكم، من حديث حَمَّاد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، عن أبي طلحة قال: رفعت رأسي يوم أُحُد، وجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد إلا يُمِيد تحت حَجَفَتِهِ من النعاس. لفظ الترمذي، وقال حسن صحيح. ورواه النسائي أيضاً، عن محمد بن المثنى، عن خالد بن الحارث، عن أبي قتيبة، عن ابن أبي عدي، كلاهما عن حميد، عن أنس قال: قال أبو طلحة: كنت فيمن ألقى عليه النعاس - الحديث. وهكذا رَوَى عن الزبير وعبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنهما. وقال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرني أبو الحسين محمد بن يعقوب، أخبرنا محمد بن إسحاق الثقفي، حدثنا محمد بن عبد الله بن المبارك المخزومي، حدثنا يونس بن

وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٩﴾ تضمن هذا أن القتل في سبيل الله، والموت أيضاً، وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه، وذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني. ثم أخبر بأن كل من مات أو قتل فمسيره ومرجه إلى الله، ﷻ، فيجزيه بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر فقال: ﴿وَلَكُمْ مِثْمُ أَوْ قِيلَتُمْ لَأَنَّ اللَّهَ شَحُورُونَ﴾ ﴿١٦٠﴾.

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ وَكَوْنَتْ قَلْبًا غَلِيظًا مِنَ حَرْبٍ لَأَنْقَضُوا مِنْ حَرْبٍ لَأَقَعَتْ عَنْهُمْ وَاسْتَفْزَرَهُمْ فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّا عَزَمَتْ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ ﴿١٦١﴾ إن يصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده. وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٢﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تَوَكَّلْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٣﴾ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ يَتَذَكَّرْ بِاللَّهِ وَمَا أَوْلَاهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٤﴾ هُمْ دَرَجَتُكَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٥﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَرُحَّتْ عَلَيْهِمْ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ وَالْحِصَّةُ وَلِأَنَّ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٦﴾.

يقول تعالى مخاطباً رسوله ﷺ، ممتناً عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته، المتبعين لأمره، التاركين لجزره، وأطاب لهم لفظه: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ﴾ أي: أي شيء جعلكم لهم ليناً لولا رحمة الله بك وبهم. قال قتادة: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ﴾ يقول: فبرحمة من الله لنت لهم. و «ما» صلة، والعرب تصلها بالمعرفة كقوله: ﴿فِيمَا نَقَّصْنَاهُمْ مِنْ شَتْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥] [المائدة: ١٣]، وبالنكرة كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠] وهكذا ههنا قال: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ﴾ أي: برحمة من الله. وقال الحسن البصري: هذا خلقت محمد ﷺ بعثه الله به. وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وقال الإمام أحمد: حدثنا حيوة، حدثنا بَقِيَّةُ، حدثنا محمد بن زياد، حدثني أبو راشد الخُبْراني قال: أخذ بيدي أبو أمامة الباهلي وقال: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فقال: «يَا أَبَا أَمَامَةَ، إِنَّ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يَلِينُ لِي قَلْبُهُ». انفراد به أحمد. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ قَلْبًا غَلِيظًا لَأَنْقَضُوا مِنْ حَرْبٍ لَأَقَعَتْ قُلُوبُكُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ فَزِلْنَهُمْ ذُرِّيَةً وَمُلُكُومٌ﴾ [الأنفال: ١٣]. ثم قال: «وَلَوْ كُنْتَ قَلْبًا غَلِيظًا لَأَنْقَضُوا مِنْ حَرْبٍ لَأَقَعَتْ قُلُوبُكُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ فَزِلْنَهُمْ ذُرِّيَةً وَمُلُكُومٌ». والمراد به ههنا غليظ الكلام؛ لقوله بعد ذلك: ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ أي: لو كنت سيئ الكلام قاسي القلب عليهم لانقضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، ولأن جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم، كما قال عبد الله بن عمرو: إنه رأى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة: أنه ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح. وروى أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذي، أنبأنا بشر بن عُبَيْد الدارمي، حدثنا عَمَّار بن عبد الرحمن، عن المسعودي، عن ابن أبي مُلَيْكَةَ، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِمُدَاوَاةِ النَّاسِ كَمَا أَمَرَنِي بِإِقَامَةِ الْفَرَائِضِ» حديث غريب.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدُلُهَا وَلَا تَحْدُدْ بِهَا شَيْئًا وَلَا تَحْمِلْ حِمْلًا مَثَلًا لِمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَبْشُرُ الْإِيمَانُ النَّاسَ أَنْ يَمْلِكُوا لِلَّهِ الْأَمْرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٣٠]. ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حَدَثَ، تطبيياً لقلوبهم؛ ليكونوا فيما يفعلونه أنشط لهم، كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير، فقالوا: يا رسول الله، لو استعرضت بنا عَرَضَ البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى بَرْكِ الْعَمَاد لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب، فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون. وشاورهم - أيضاً - أين يكون المنزل؟ حتى أشار المنذر بن عمرو المعنق ليموت، بالتقدم إلى أمام القوم، وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم. وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلاث ثمار المدينة عامنذ، فأبى عليه ذلك السعدان: سعد بن معاذ وسعد بن عُبَادَة، فترك ذلك. وشاورهم يوم الحُدَيْبِيَّة في أن يميل على دُرَارِي المشرِكين، فقال له الصديق: إنا لم نجيء لقتال أحد، وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال. وقال عليه السلام في قصة الإفك: «أَشِيرُوا عَلَيَّ مَفْشَرِ الْمُسْلِمِينَ فِي قَوْمِ آبَائِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَرُؤُوسِهِمْ، وَإِنَّمَا اللَّهُ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ، وَأَبْنَاهُمْ بِمَنْ - وَاللَّهِ - مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا». واستشار علياً وأسامة في فراق عائشة، رضي الله عنها. فكان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها. وقد اختلف الفقهاء: هل كان ذلك واجباً عليه أو من باب الندب تطبيياً لقلوبهم؟ على قولين. وقد قال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو جعفر محمد بن محمد البغدادي، حدثنا يحيى بن أيوب العلاف بمصر، حدثنا سعيد بن أبي مريم، أنبأنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ قال: أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وهكذا رواه الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: نزلت في أبي بكر وعمر، وكانا حَوَارِيَّي رسول الله ﷺ ووزيريّه وأبوي المسلمين. وقد روى الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا عبد الحميد، عن شَهْرَ بن حَوْشَب، عن عبد الرحمن بن عَثَم أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر وعمر: «لو اجتمعتما في مَشُورَةٍ مَا خَالَفْتُكُمَا».

وروى ابن مَرْدُويه، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: سئل رسول الله ﷺ عن العَزم؟ قال: «مُشَاوَرَةُ أَهْلِ الرَّأْيِ ثُمَّ اتَّبَاعُهُمْ». وقد قال ابن ماجة: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا يحيى بن أبي بكير، عن شيبان، عن عبد الملك بن عُمر، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ». ورواه أبو داود والترمذي، وحسنه، والنسائي، من حديث عبد الملك بن عمر بإسقاط منه. ثم قال ابن ماجة: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أسود بن عامر، عن شريك، عن الأعمش، عن أبي عمرو الشيباني، عن أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ». تفرد به. وقال أيضاً: وحدثنا أبو بكر، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة وعلي بن هاشم، عن ابن أبي ليلى، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مُسْتَشَارَ أَخَذَكُمْ أَخَاهُ فَلْيُشِيرْ عَلَيْهِ. تفرد به أيضاً. وقوله: ﴿وَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: إذا شاورتهم في الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾. وقوله: ﴿إِنْ يَصْرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذْ لَكُمْ مِنْ دَا أَلَدَى يَصْرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. وهذا كما تقدم من قوله: ﴿وَمَا أَلْتَمَسْ لَنَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْفَرِيزَ لَمَكْرِهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، ثم أمرهم بالتوكل عليه فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد: ما ينبغي لنبي أن يخون. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا المسيب بن واضح، حدثنا أبو إسحاق الفزاري، عن سفيان، عن خفيف، عن عكرمة عن ابن عباس قال: فقدوا قطيفة يوم بدر فقالوا: لعل رسول الله ﷺ أخذها. فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ﴾ أي: يخون.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا خفيف، حدثنا مِقْسَم حدثني ابن عباس أن هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ﴾ نزلت في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: لعل رسول الله ﷺ أخذها. قال فأكثروا في ذلك، فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ وَمَنْ يَكُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾. وكذا رواه أبو داود، رحمه الله، والترمذي جميعاً، عن قتية، عن عبد الواحد بن زياد، به. وقال الترمذي: حسن غريب. ورواه بعضهم عن خفيف، عن مِقْسَم - يعني مرسلاً. وروى ابن مَرْدُويه من طريق أبي عمرو بن العلاء، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: اتهم المنافقون رسول الله ﷺ بشيء ففقد، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ﴾. وقد روي من غير وجه عن ابن عباس نحو ما تقدم. وهذه تبرئة له، صلوات الله وسلامه عليه، عن جميع وجوه الخيانة في أداء الأمانة وقسم الغنيمة وغير ذلك. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ﴾ أي: بأن يُقسَم لبعض السرايا ويترك بعضاً. وكذا قال الضحاك. وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ﴾: بأن يترك بعض ما أنزل إليه فلا يبلغه أمته. وقرأ الحسن البصري وطاوس، ومجاهد، والضحاك: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ﴾ بضم الياء أي: يخان. وقال قتادة والربيع بن أنس: نزلت هذه الآية يوم بدر، وقد غلَّ بعض أصحابه. رواه ابن جرير عنهما، ثم حكى عن بعضهم أنه قرأ هذه القراءة بمعنى يَتُّهم بالخيانة. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَكَّلْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهَمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد. وقد وردت السنة بالنهي عن ذلك أيضاً في أحاديث متعددة. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الملك، حدثنا زهير - يعني ابن محمد - عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن عطاء بن يسار، عن أبي مالك الأشجعي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «أَعْظَمُ الْغُلُولِ عِنْدَ اللَّهِ ذِرَاعٌ مِنَ الْأَرْضِ تَجْدُونَ الرَّجُلَيْنِ جَارَيْنِ فِي الْأَرْضِ - أَوْ فِي الدَّارِ - فَيَقْطَعُ أَحَدُهُمَا مِنْ حَظِّ صَاحِبِهِ ذِرَاعاً، فَإِذَا اقْتَطَعَهُ طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وفي الصحيحين عن سعيد بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ ظَلَمَ قَيْدَ شَبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ طَوَّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن ابن هُبَيْرَةَ والحارث بن يزيد، عن عبد الرحمن بن جبيرة. قال: سمعت المُسْتَوْدِدَ بن شداد يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ وَلِيَ لَنَا عَمَلًا وَلَيْسَ لَهُ مَثَرٌ فَلْيَتَّخِذْ مَثَرًا، أَوْ لَيْسَ لَهُ زَوْجَةٌ فَلْيَتَزَوَّجْ، أَوْ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَتَّخِذْ خَادِمًا، أَوْ لَيْسَ لَهُ دَابَّةٌ فَلْيَتَّخِذْ دَابَّةً، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ غَالٍ». هكذا رواه الإمام أحمد، وقد رواه أبو داود بسند آخر وسياق آخر فقال: حدثنا موسى بن مروان الرُّقِّي، حدثنا المعافى، حدثنا الأزاعي، عن الحارث بن يزيد، عن جبيرة بن نَفِير، عن المستورد بن شداد. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كَانَ لَنَا عَمَلًا فَلْيَكْتَسِبْ زَوْجَةً، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَكْتَسِبْ خَادِمًا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَسْكَنٌ فَلْيَكْتَسِبْ مَسْكَنًا». قال: قال أبو بكر: أَخْبِرْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ اتَّخَذَ غَيْرَ ذَلِكَ فَهُوَ غَالٍ، أَوْ سَارِقٌ». قال شيخنا الحافظ المزني رحمه الله: رواه جعفر بن محمد الفريابي، عن موسى بن مروان فقال: عن عبد الرحمن بن جُبَيْر بدل جبيرة بن نَفِير، وهو أشبه بالصواب.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا حفص بن بشر، حدثنا يعقوب الفُهمي، حدثنا حفص بن حميد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا أَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ شَاةَ لَهَا ثَغَاءٌ، فَيَنَادِي: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، قَدْ بَلَغْتُكَ». وَلَا أَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ جَمَلاً لَهُ رُغَاءٌ، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، قَدْ بَلَغْتُكَ. وَلَا أَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ فَرَساً لَهُ حَمَحَمَةٌ، فَيَنَادِي: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، قَدْ بَلَغْتُكَ، وَلَا أَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ قِشْعاً مِنْ أَدَمٍ، فَيَنَادِي: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، قَدْ بَلَغْتُكَ». لم يروه أحد من أهل الكتب الستة.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن الزهري، سمع غزوة يقول: أخبرنا أبو حميد الساعدي قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له: ابن اللثبيّة على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم وهذا أهدي لي. فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال: «مَا بَالُ الْغَامِلِ يَبْتَعُهُ فَيَجِيءُ فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أَهْدِي لِي. أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأَمَهُ فَيَنْظُرُ أَهْدَى إِلَيْهِ أَمْ لَا؟ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَأْتِي أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْهَا بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رِقْبَتِهِ إِنْ كَانَ بِعِيرٍ لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةٍ لَهَا خَوَارٌ، أَوْ شَاةٍ تَبْعَرُ» ثم رفع يديه حتى رأينا غفرةً إنطهت ثم قال: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ ثَلَاثًا. وزاد هشام بن غزوة: فقال أبو حميد: بَصُرْتُ عَيْنِي، وَسَمِعْتُ أُذُنِي، وَسَلَوْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ. أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ سَفْيَانَ بْنِ عَيِّنَةَ. وعند البخاري: وسَلَوْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ. ومن غير وجه عن الزهري، ومن طرق عن هشام بن غزوة، كلاهما عن عروة به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا إسماعيل بن عِيَّاش، عن يحيى بن سعيد، عن عروة بن الزبير، عن أبي حميد أن رسول الله ﷺ قال: «هَذَا يَأْتِي الْعُمَالُ عُلوْلٌ». وهذا الحديث من أفراد أحمد، وهو ضعيف الإسناد، وكأنه مختصر من الذي قبله، والله أعلم.

حديث آخر: قال أبو عيسى الترمذي في كتاب الأحكام، حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو أسامة، عن داود بن يزيد الأزدي، عن المغيرة بن شبل، عن قيس بن أبي حازم، عن معاذ بن جبل قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فلما سرت أرسل في أثري فَرُدَّدْتُ، فقال: «أَتَدْرِي لِمَ بَعَثْتُ إِلَيْكَ؟ لَا تُصِيبَنَّ شَيْئاً بِعَيْرٍ إِذْنِي فَإِنَّهُ عُلوْلٌ، «وَمَنْ يَقُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» لهذا دَعَوْتُكَ، فَاْمْضِ لِعَمَلِكَ». هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفي الباب عن عدي بن عميرة، وبُزَيْدَةَ، والمستورد بن شداد، وأبي حميد، وابن عمر.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن عُلَيْة، حدثنا أبو حيان يحيى بن سعيد التميمي، عن أبي رُزَعة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً، فذكر العُلوْلَ فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثم قال: «لَا الْفَيِّنُ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بِعَيْرٍ لَهُ رُغَاءٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اغْنِنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا الْفَيِّنُ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهَا حَمَحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اغْنِنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا الْفَيِّنُ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا الْفَيِّنُ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، قَدْ بَلَغْتُكَ». أخرجه من حديث أبي حيان، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن إسماعيل بن أبي خالد، حدثني قيس، عن عدي بن عميرة الكندي قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِيهَا النَّاسُ، مَنْ عَمِلَ لَنَا مِنْكُمْ عَمَلاً، فَكَتَمْنَا مِنْهُ مَخِيطاً فَمَا قَوَّهَ فَهُوَ عَلَى يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». قال: فقال رجل من الأنصار أسود - قال مجالد - هو سعد بن عباد - كَانِي أَنْظُرَ إِلَيْهِ، فقال: يا رسول الله، أقبل عني عملك. قال: «وَمَا ذَاكَ؟» قال: سمعتك تقول كذا وكذا. قال: «وَأَنَا أَقُولُ ذَلِكَ الْآنَ: مَنْ اسْتَعْمَلَنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِيءْ بِقَلْبِيهِ وَكَبِيرِهِ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَهُ. وَمَا نَهِيَ عَنْهُ انْتَهَى». وكذا رواه مسلم، وأبو داود، من طرق عن إسماعيل بن أبي خالد، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا أبو إسحاق الفزاري، عن ابن جريج، حدثني منبوذ، رجل من آل أبي رافع، عن الفضل بن عبيد الله بن أبي رافع، عن أبي رافع قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر رُثِمَا ذهب إلى بني عبد الأشهل فيتحدث معهم حتى ينحدر المغرب، قال أبو رافع: فبينما رسول الله ﷺ مسرعاً إلى المغرب إذ مر بالقيع فقال: «أَفْ لَكَ.. أَفْ لَكَ؟» مرتين، فبكى في ذروعي وتأخرت وطننت أنه يريدني، فقال: «مَا لَكَ؟ امش» قال: قلت: أحدثت حديثاً يا رسول الله؟ قال: «وَمَا ذَاكَ؟» قلت: أَفُتَّ بِي. قال: «لَا، وَلَكِنْ هَذَا قَبْرُ فَلَانٍ، بَعَثْتُهُ سَاعِيّاً عَلَى آلِ فَلَانٍ، فَعَلَّ ثِمَرَةً فَدَرَعَ الْآنَ مِثْلَهُ مِنْ نَارٍ».

حديث آخر: قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن سالم الكوفي المفلوج - وكان بمكة - حدثنا عُبَيْدَةُ بْنُ الْأَسود، عن القاسم بن الوليد، عن أبي صادق، عن ربيعة بن ناجد، عن عبادة بن الصامت، أن النبي ﷺ كان يأخذ الوبرة من جنب البعير من المغنم، ثم يقول: «مَالِي فِيهِ إِلَّا مِثْلُ مَا لِأَحَدِكُمْ، إِيَّاكُمْ وَالْغُلُولُ، فَإِنَّ الْغُلُولَ خَزْيٌ عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَذُوا الْخَيْطِ وَالْمِخِيطِ وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ، وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْقَرِيبَ وَالْبَعِيدَ، فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ، فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، إِنَّهُ لَيُنْجِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهَمِّ وَالْعَمَلِ؛ وَأَقِيمُوا حُدُودَ اللَّهِ فِي الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَانِمٍ». وقد روى ابن ماجه بَعْضَهُ عن المفلوج، به.

حديث آخر: عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «رُذُومُ الْخِيَاطِ وَالْمِخِيطِ، فَإِنَّ الْغُلُولَ عَارٌ وَنَارٌ وَشَتَارٌ عَلَى أَهْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

حديث آخر: قال أبو داود: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن مُطَرِّفٍ، عن أبي الجهم، عن أبي مسعود الأنصاري قال: بعثني رسول الله ﷺ ساعياً ثم قال: «انْطَلِقْ - أبا مسعود - لَا أَلْفَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَجِيءُ عَلَى ظَهْرِكَ بَعِيرٌ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ لَهُ رُغَاءٌ قَدْ غَلَّتْهُ». قال: إذا لا انطلق. قال: «إِذَا لَا أَكْرَهُكَ». تفرد به أبو داود.

حديث آخر: قال أبو بكر بن مَزْدُويه: أنبأنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، أنبأنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، أنبأنا عبد الحميد بن صالح أنبأنا أحمد بن أبان، عن علقمة بن مَرْثَدٍ، عن ابن بُرَيْدة، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْحَجَرَ لَيَرْمِي بِهِ فِي جَهَنَّمَ قَبْهَرِي سَبْعِينَ خَرِيفاً مَا يَبْلُغُ قَعْرَهَا، وَيَوْتِي بِالْغُلُولِ قَيْظُفٌ مَعَهُ، ثُمَّ يُقَالُ لِمَنْ عَلَّأْتِ بِهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: «وَمَنْ يَقْتُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّأَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا عكرمة بن عامر، حدثني سماك الخنفي أبو زُمَيْل، حدثني عبد الله بن عباس، حدثني عُمر بن الخطاب قال: لما كان يومَ خَيْبَرٍ أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: فلان شهيد، وفلان شهيد. حتى أتوا على رجل فقالوا: فلان شهيد؟ فقال رسول الله ﷺ: «كَلَّا، إِنِّي زَائِنَةٌ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا - أَوْ عَبَاءَةٌ». ثم قال رسول الله ﷺ: «يَا أَبْنَ الْحَطَّابِ أَذْهَبَ فِتْنَادٌ فِي النَّاسِ: إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ». قال: فخرجت فتاديت: ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون. وكذا رواه مسلم، والترمذي من حديث عكرمة بن عامر به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا سعيد بن يحيى الأموي، حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن سعيد، عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ بعث سعد بن عُبَادَةَ مُصَدِّقاً، فقال: «إِيَّاكَ يَا سَعْدُ أَنْ تَجِيءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِبَعِيرٍ تَحْمِلُهُ لَهُ رُغَاءٌ» قَالَ: لَا أَخْذُهُ وَلَا أَجِيءُ بِهِ، فَأَعْفَاه. ثم رواه من طريق عُبيد الله، عن نافع، به، نحوه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا عبد العزيز بن محمد، حدثنا صالح بن محمد بن زائدة، عن سالم بن عبد الله، أنه كان مع مَسْلَمَةَ بن عبد الملك في أرض الروم، فوجد في متاع رجل غُلُول. قال: فسأل سالمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ: حدثني أبي عبد الله، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ وَجَدْتُمْ فِي مَتَاعِهِ غُلُولاً فَأَخْرِقُوهُ» قَالَ: وَأَحْسِبْهُ قَالَ: واضربوه. قال: فأخرج متاعه في السوق، فَوَجَدَ فِيهِ مَصْحَفًا، فَسَأَلَ سَالِمًا فَقَالَ: بَعْدُ وَتَصَدَّقْ بِثَمَنِهِ. وهكذا رواه علي بن المديني، وأبو داود، والترمذي من حديث عبد العزيز بن محمد الدراوردي - زاد أبو داود: وأبو إسحاق الفزاري - كلاهما عن أبي واقد الليثي الصغير صالح بن محمد بن زائدة، به. وقد قال علي بن المديني، رحمه الله والبخاري وغيرهما: هذا حديث منكر من رواية أبي واقد هذا. وقال الدارقطني: الصحيح أنه من فتوى سالم فقط، وقد ذهب إلى القول بمقتضى هذا الحديث الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله، ومن تابعه من أصحابه، وخالفه أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، والجمهور فقالوا: لا يحرق متاع الغال، بل يعزر تعزير مثله. وقال البخاري: وقد امتنع رسول الله ﷺ من الصلاة على الغال، ولم يحرق متاعه، والله أعلم.

طريق أخرى عن عمر: قال ابن جرير: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا عبد الله بن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث: أن موسى بن جُبَيْرٍ حدثه: أن عبد الله بن عبد الرحمن بن الحباب الأنصاري حدثه: أن عبد الله بن أنيس حدثه: أنه تذاكر هو وعمر بن الخطاب يوماً الصدقة فقال: ألم تسمع رسول الله ﷺ حين ذكر غُلُولَ الصَّدَقَةِ: «مَنْ عَلَّأَ مِنْهَا بَعِيرًا أَوْ شَاةً، فَإِنَّهُ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قال عبد الله بن أنيس: بلى. ورواه ابن ماجه، عن عمرو بن سواد، عن عبد الله بن وهب، به. ورواه الأموي عن معاوية، عن أبي إسحاق، عن يونس بن عبيد، عن الحسن قال: عقوبة الغال أن يخرج رحله ويحرق على ما فيه.

ثم روى عن معاوية، عن أبي إسحاق، عن عثمان بن عطاء، عن أبيه، عن علي رضي الله عنه قال: الغال يجمع رحله فيحرق ويجلد دون حد المملوك، ويحرم نصيبه، وخالفه أبو حنيفة ومالك والشافعي والجمهور فقالوا: لا يحرق متاع الغال، بل يعزر تعزير مثله، وقد قال البخاري: وقد امتنع رسول الله ﷺ من الصلاة على الغال ولم يحرق متاعه، والله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، أنبأنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن خُمَيْرِ بْنِ مَالِكٍ قال: أمر بالمصاحف أن تُغَيَّرَ قال: فقال ابن مسعود: من استطاع منكم أن يَغُلَّ مصحفاً فليغله، فإنه من غُلِّ شيئاً جاء به يوم القيامة، ثم قال: قرأت من فم رسول الله ﷺ سبعين سورة، أفأترك ما أخذت من في رسول الله ﷺ؟. وروى وكيع في تفسيره عن شريك، عن إبراهيم بن مهاجر، عن إبراهيم، قال: لما أمر بتحريق المصاحف قال عبد الله: يأبها الناس، غُلُّوا المصاحف، فإنه من غُلِّ يأت بما غُلَّ يوم القيامة، ونعم الغُلُّ المصحف. يأتي به أحكم يوم القيامة. وقال أبو داود عن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ قال: كان رسول الله ﷺ إذا غنم غنيمة أمر بلالاً فينادي في الناس، فَيَجِئُثُونَ بغنائمهم يخمسه ويقسمه، فجاء رجل بعد النداء بزمام من شعر فقال: يا رسول الله، هذا كان مما أصبنا من الغنيمة. فقال: «أَسَمِعْتَ بلالاً ينادي ثلاثاً؟»، قال: نعم. قال: «فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَجِيءَ بِهِ؟» فاعتذر إليه، فقال: «كَلَّا، أَنْتَ تَجِيءُ بِهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَنْ أَقْبَلَهُ مِنْكَ».

وقوله: «أَمَّنْ أَتَى رِضْوَانَ اللَّهِ كُنَّ بَاءٌ يَسْخَطُونَ اللَّهَ وَمَا وَدَّ جَهَنَّمَ وَيَسَّخَرُونَ لَهَا» أي: لا يستوي من اتبع رضوان الله فيما شرعه، فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه وأجير من وبيل عقابه، ومن استحق غضب الله والأزم به، فلا محيد له عنه، وماواه يوم القيامة جهنم ويش المصير. وهذه لها نظائر في القرآن كثيرة كقوله تعالى: «أَمَّنْ يَمْلِكُ لَكَ إِلَهٌ مِنْ رَبِّكَ لَوْ كُنَّ هُوَ آمِنًا» [الرعد: ١٩] وكقوله: «أَمَّنْ وَعَدْتُهُ وَعَدًا حَسَنًا فَهُوَ لَفِي دَمْنَةٍ كَذِبَةٍ» [القصص: ٦١].

ثم قال: «هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ». قال الحسن البصري ومحمد بن إسحاق: يعني: أهل الخير وأهل الشر درجات، وقال أبو عبيدة والكسائي: منازل، يعني متفاوتون في منازلهم ودرجاتهم في الجنة ودرجاتهم في النار، كما قال تعالى: «وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ عَمَلٌ» الآية [الأنعام: ١٣٢]؛ ولهذا قال: «وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ» أي: وسيوفيهم إياها، لا يظلمهم خيراً ولا يزيدهم شراً، بل يجازي كلأ بعمله. وقوله: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ» أي: من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به، كما قال تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا» [الروم: ٢١] أي: من جنسكم. وقال تعالى: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ» [الكهف: ١١٠] وقال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الرُّسُلِ إِلَّا إِنْهُمْ لِيَاسَكُنَ أَزْوَاجًا لِكُنْهُمْ فِي الْآسِرَاتِ» [الفرقان: ٢٠]. وقال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: «يَتَمَشَرُّ لَيْلِي وَالْأَنْبِيَاءُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ» [الأنعام: ١٢٠]، فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم، بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته في فهم الكلام عنه، ولهذا قال: «يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ» يعني: القرآن «وَيُزَكِّيهِمْ» أي: يأمهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر لتزكو نفوسهم وتظهر من الدنس والخبث الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم وجاهليتهم «وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ» يعني: القرآن والسنة «وَأِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ» أي: من قبل هذا الرسول «لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» أي: لفي غي وجهل ظاهر جلبي بين لكل أحد.

«أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مَعْصِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ نَفْسًا فَلَمْ يَكُنْ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [١٦٥] وَمَا أَصَبْتُمْ يَوْمَ النَّقَى الْمُحَرَّمَيْنِ يَاقِينَ اللَّهِ وَلَيْسَ الْمُؤْمِنِينَ [١٦٦] وَلَيْسَ الَّذِينَ نَاقَوْا وَقِيلَ لَهُمْ تَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْعُوا قَاتِلُوا لَوْ تَعْلَمُونَ قَاتِلُوا لَأَكْبَحْتُمْ هُمْ لِكُفْرِهِمْ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ [١٦٧] الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَدْ دُفِنُوا مَا قَاتِلُوا قَاتِلُوا قَاتِلُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [١٦٨].

يقول تعالى: «أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مَعْصِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ نَفْسًا فَلَمْ يَكُنْ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ» أي: ما أصيب منهم يوم أحد من قتل السبعين منهم «قَدْ أَصَبْتُمْ نَفْسًا» يعني: يوم بذر، فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلاً وأسروا سبعين أسيراً «فَلَمْ يَكُنْ هَذَا» أي: من أين جرى علينا هذا؟ «قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ». قال ابن أبي حاتم: ذكره أبي، أنبأنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا قُرَادُ أَبُو نُوحٍ، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا سِمَاكُ الْحَنْفِيُّ أَبُو زَمِيلٍ، حدثني ابن عباس، حدثني عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قال: لما كان يوم أحد من العام المقبل، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون وفُرَّ أصحاب رسول الله ﷺ عنه، وكُسِرَتْ رِجَالُهُمْ وَهَشِمَتْ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله ﷻ: «أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مَعْصِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ نَفْسًا فَلَمْ يَكُنْ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ» بأخذكم الفداء. وهكذا رواه الإمام أحمد، عن عبد الرحمن بن غَزْوَانَ، وهو قُرَادُ أَبُو نُوحٍ، بإسناده ولكن بأطول منه، وكذا قال

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَحَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ﴾ أي: فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لأخرين، كان بقضاء الله وقدره، وله الحكمة في ذلك. وقوله: ﴿وَلَيْعَلَّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿وَلَيْعَلَّ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَاللَّهِ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ آذَقُوا قَاتِلُوا لَوْ نَعْلَمُ قَاتِلًا لَأَنْتَبِعَنَّكُمْ﴾ يعني أصحاب عبد الله بن أبي بن سلول الذين رجعوا معه في أثناء الطريق، فاتبعهم من اتبعهم من المؤمنين يحرضونهم على الإياب والقتال والمساعدة، ولهذا قال: ﴿أَوْ آذَقُوا﴾. قال ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، وأبو صالح، والحسن، والسدي: يعني كثرُوا سواد المسلمين. وقال الحسن بن صالح: ادفعوا بالدعاء. وقال غيره: رابطوا. فتعللوا قائلين: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قَاتِلًا لَأَنْتَبِعَنَّكُمْ﴾ قال مجاهد: يعنون لو نعلم أنكم تلقون حرباً لجئناكم، ولكن لا تلقون قتالا. قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، وغيرهم من علمائنا، كلهم قد حدث قال: خَرَجَ رسول الله ﷺ - يعني حين خرج إلى أحد - في ألف رجل من أصحابه، حتى إذا كان بالشوط - بين أحد والمدينة - انحاز عنه عبد الله بن أبي بن سلول بثلاث الناس، وقال: أطاعهم فخرج وعصاني، والله ما ندرى علام نقتل أنفسنا وهنا أيها الناس، فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه من أهل النفاق وأهل الريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حزام أخو بني سلمة، يقول: يا قوم، أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدوكم، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكننا لا نرى أن يكون قتال. فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم، قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم. ومضى رسول الله ﷺ. قال الله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾. استدلوا به على أن الشخص قد تنقلب به الأحوال، فيكون في حال أقرب إلى الكفر، وفي حال أقرب إلى الإيمان؛ لقوله: ﴿هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾. ثم قال: ﴿يَقُولُونَ يَا أَهْلَهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته، ومنه قولهم هذا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قَاتِلًا لَأَنْتَبِعَنَّكُمْ﴾ فإنهم يتحققون أن جندا من المشركين قد جاءوا من بلاد بعيدة، يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من سراتهم يوم بدر، وهم أضعاف المسلمين، أنه كائن بينهم قتال لا محالة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِيَخْرِجْهُمْ وَقَدْ دُورُوا أَطَاعُوا مَا قِيلُوا﴾ أي: لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل. قال الله تعالى: ﴿قُلْ قَادِرَةٌ عَلَيْنَا الْآيَاتُ﴾ أي: إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت، فينبغي، أنكم لا تموتون، والموت لا بد أن إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين. قال مجاهد، عن جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي بن سلول.

﴿وَلَا تَحْزَنْ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَالُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ إِعْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٨﴾ فَرِحَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ الَّذِينَ قُتِلُوا وَالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٦٩﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَقَضَىٰ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٠﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا اللَّهُ وَقَضَىٰ ثُمَّ يَسْتَبْشِرُونَ سَوْءَهُمْ وَأَكْبَرُوا بَصُولَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٣﴾ إِنَّا ذَلِكُمْ الْفَلَكُ الْيَحُوتُ أُولَئِكَ هُمْ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾﴾ .

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار. قال ابن جرير: حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا عمر بن يونس، عن عكرمة، حدثنا إسحاق بن أبي طلحة، حدثني أنس بن مالك في أصحاب النبي ﷺ الذين أرسلهم نبي الله ﷺ إلى أهل بئر معونة قال: لا أدري أربعين أو سبعين. وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفري، فخرج أولئك الثغر من أصحاب رسول الله ﷺ، حتى أتوا غاراً مشرفاً على الماء فقعوا فيه، ثم قال بعضهم لبعض: أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ أهل هذا الماء؟ فقال - أراه ابن ملحان الأنصاري -: أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ. فخرج حتى أتى حياً منهم فاخبتاً أمام البيوت، ثم قال: يا أهل بئر معونة، إني رسول رسول الله إليكم، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فأمنوا بالله ورسوله. فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح فضرب به في جنبه حتى خرج من الشق الآخر. فقال: الله أكبر، فزئت ورب الكعبة. فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه في الغار فقتلهم أجمعين عامر بن الطفيل. وقال إسحاق: حدثني أنس بن مالك: أن الله تعالى أنزل فيهم قرآناً: **بَلِّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَرَضِينَا عَنْهُ** ثم نسخت فرفعت بعد ما قرأناها زماناً وأنزل الله: **﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرِزُّونَ﴾**. وقد قال الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري في صحيحه: حدثنا محمد بن عبد الله بن ثُمير، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية: **﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرِزُّونَ﴾** فقال: أما إننا قد سألنا عن ذلك فقال: **«أَزْوَاجُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطْلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ أَطْلَاعَةً فَقَالَ: هَلْ تَسْتَهْوُونَ شَيْئاً؟ فَقَالُوا: أَيُّ شَيْءٍ نَسْتَهْوِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْثُ شِئْنَا؟ فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يَمُوتُوا مِنْ أَنْ يَسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ نَرُدَّ أَزْوَاجَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نَقْتُلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تَرَكُوا»**. وقد روي نحوه عن أنس وأبي سعيد.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد، حدثنا ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: **«مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ، لَهَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ، يَسُرُّهَا أَنْ تَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا إِلَّا الشَّهِيدَ فَإِنَّهُ يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيَقْتُلَ مَرَّةً أُخْرَى لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ»**. انفرد به مسلم عن طريق حماد.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عبد الله المدني، حدثنا سفيان، عن محمد بن علي بن ربيعة السلمي، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ أَخِيَا أَبَاكَ فَقَالَ لَهُ: تَمَنَّ عَلَيَّ، فَقَالَ لَهُ: أَرُدَّ إِلَى الدُّنْيَا، فَأَقْتُلْ مَرَّةً أُخْرَى، فَقَالَ: إِنِّي قَضَيْتُ الْحُكْمَ أَنَّهُمْ لِإِيَّهَا لَا يَزِجُونَ»**. انفرد به أحمد عن هذا الوجه. وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما أن أبا جابر - وهو عبد الله بن عمرو بن خزام الأنصاري رضي الله عنه - قتل يوم أحد شهيداً. قال البخاري: وقال أبو الوليد، عن شعبة عن ابن المنكدر قال: سمعت جابراً قال: لما قُتِلَ أَبِي جَعَلْتُ أَبْيَكِي وَأَكْشَفُ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ، فَجَعَلَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَهْتَوْنِي، وَالنَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَنْهَ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«لَا تَبْيَكِي»** - أو: **«مَا تَبْيَكِي»** - مَا زَالَتْ الْمَلَائِكَةُ تَطْلُعُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رَفِعَ. وقد أسنده هو ومسلم والنسائي عن طريق آخر عن شعبة عن محمد بن المنكدر عن جابر قال: لما قُتِلَ أَبِي يَوْمَ أُحُدٍ، جَعَلْتُ أَكْشِفُ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ وَأَبْيَكِي... وذكر تمامه بنحوه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثنا إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد، عن أبي الزبير المكي، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: **«لَمَّا أَصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللَّهُ أَزْوَاجَهُمْ فِي أَجْوَابِ طَيْرٍ خَضِرٍ، تَرُدُّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِهَا وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلٍ مِنْ دَهَبٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَشْرِيبِهِمْ وَمَأْكَلِهِمْ، وَحَسُنَ مَقْلَبُهُمْ قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوَانُنَا يَعْلَمُونَ مَا صَنَعَ اللَّهُ لَنَا، لِيَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَتَكَلَّبُوا عَنِ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: أَنَا أَبْلَغُهُمْ عَنْكُمْ. فَانْزَلَ اللَّهُ ﷻ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ: **﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرِزُّونَ﴾**»** وما بعدها.

هكذا رواه الإمام أحمد، وكذا رواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وهب، عن إسماعيل بن عياش عن محمد بن إسحاق به. ورواه أبو داود والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن إدريس عن محمد بن إسحاق، عن إسماعيل بن أمية، عن أبي الزبير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فذكره، وهذا أثبت. وكذا رواه سفيان الثوري، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وروى الحاكم في مستدركه من حديث أبي إسحاق الفزاري، عن سفيان، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في حمزة وأصحابه: **﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**

أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاہُمْ عِنْدَ رَبِّہِم بِرِزْقُونَا ﴿١٦٩﴾ ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وكذا قال قتادة، والربيع، والضحاك: إنها نزلت في قتلى أحد.

حديث آخر: قال أبو بكر بن مَرْدَوَيْه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا هارون بن سليمان، أنبأنا علي بن عبد الله المدني، أنبأنا موسى بن إبراهيم بن كثير بن بشير بن الفايك الأنصاري، سمعت طلحة بن خراش بن عبد الرحمن بن خراش بن الصمة الأنصاري، قال: سمعت جابر بن عبد الله قال: نظر إلي رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «يا جابر، مالي أراك مُهْتَمًّا؟» قال: قلت: يا رسول الله، استشهد أبي وترك ديناً وعيالاً. قال: فقال: «الْأَخْرُكُ؟ مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَرَأَيْتُهُ كَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا - قال علي: الكَفَاحُ: المواجهة - فَقَالَ: سَلْنِي أَغْطِكَ. قَالَ: أَسْأَلُكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى الدُّنْيَا فَأَقْتُلَ فِيكَ ثَانِيَةً فَقَالَ الرَّبُّ ﷻ: إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّي الْقَوْلُ أَنَّهُمْ لَا يُرْجَعُونَ. قَالَ: أَيُّ رَبِّ؟ فَأَبْلَغُ مِنْ وَرَائِي. فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ الآية. ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن سليمان بن سبيط الأنصاري، عن أبيه، عن جابر، به نحوه. وكذا رواه البيهقي في «دلائل النبوة» من طريق علي بن المدني، به.

وقد رواه البيهقي أيضاً من حديث أبي عبادَةَ الأنصاري، وهو عيسى بن عبد الرحمن، إن شاء الله، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ لجابر: «يَا جَابِرُ، أَلَا أَبْشُرُكَ؟» قال: بلى. بشرك الله بالخير. قال: «شَعَرْتَ أَنَّ اللَّهَ أَحْيَا أَبَاكَ فَقَالَ: تَمَنَّ عَلَيَّ عَبْدِي مَا شِئْتَ أَغْطِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، مَا عَيْدُكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ. أَتَمَنَّى عَلَيْكَ أَنْ تَرْدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأَقَاتِلَ مَعَ نَبِيِّكَ، وَأَقْتُلَ فِيكَ مَرَّةً أُخْرَى. قَالَ: إِنَّهُ سَلَفَ مِنِّي أَنَّهُ لَيْسَ لَهَا رِجْعٌ».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثنا الحارث بن فضَّيل الأنصاري، عن محمود بن لبيد، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «الشَّهَدَاءُ عَلَى بَارِقِ نَهَرٍ يَبَاقُ النَّجَّةُ، فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بَكْرَةً وَعَشِيًّا». تفرد به أحمد، وقد رواه ابن جرير عن أبي كُرَيْبٍ حدثنا عبد الرحيم بن سليمان، وعبدُة، عن محمد بن إسحاق، به. وهو إسناد جيد. وكان الشهداء أقسام: منهم من تسرح أرواحهم في الجنة، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر فيجتمعون هنالك، ويُعَدُّ عليهم برزقهم هناك ويُراح، والله أعلم. وقد روي في مسند الإمام أحمد حديثاً فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضاً فيها، وتأكُل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعدَّه الله لها من الكرامة، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة؛ فإن الإمام أحمد، رحمه الله، رواه عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي، رحمه الله، عن مالك بن أنس الأصبحي، رحمه الله، عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَغْلِقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يُرْجَعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ. قَوْلُهُ: «يَعْلِقُ»، أَي: يَأْكُل. وفي هذا الحديث: «إِنَّ رُوحَ الْمُؤْمِنِ تَكُونُ عَلَى شَكْلِ طَائِرٍ فِي الْجَنَّةِ». وأما أرواح الشهداء، فكما تقدم في حواصل طير خضر، فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين فإنها تطير بأنفسها، فتنال الله الكريم المنان أن يشتتا على الإيمان.

وقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَكَاسَتْهُمْ بِأَلْدِينِ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٧٠﴾. أي: الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله أحياء عند الله، وهم فَرَحُونَ مما هم فيه من النعمة والغبطة، ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدِّمون عليهم، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم. قال محمد بن إسحاق ﴿وَكَاسَتْهُمْ بِأَلْدِينِ﴾ أي: ويسرون بلحوق من خلفهم من إخوانهم على ما مضوا عليه من جهادهم؛ ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذي أعطاهم. وقال السدي: يُؤْتَى الشهيد بكتاب فيه: «يَقْدَمُ عَلَيْكَ فَلَانٌ فَلَانٌ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، فَيُسَرُّ بِذَلِكَ كَمَا يُسَرُّ أَهْلُ الدُّنْيَا بِقُدُومِ غِيَابِهِمْ». وقال سعيد بن جبیر: لَمَّا دَخَلُوا الْجَنَّةَ وَرَأَوْا مَا فِيهَا مِنَ الْكَرَامَةِ لِلشَّهَدَاءِ قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ فِي الدُّنْيَا يَعْلَمُونَ مَا عَرَفْنَا مِنَ الْكَرَامَةِ، فَإِذَا شَهِدُوا الْقِتَالَ بِأَسْرُوها بِأَنْفُسِهِمْ، حَتَّى يُسْتَشْهِدُوا فَيَصْبِيحُوا مَا أَصْبَحْنَا مِنَ الْخَيْرِ، فَأَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَمْرِهِمْ وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكَرَامَةِ، وَأَخْبَرَهُمْ - أَي: ربهِم - أَنِّي قَدْ أَنْزَلْتُ عَلَى نَبِيِّكَ وَأَخْبَرْتَهُ بِأَمْرِكُمْ، وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ، فَاسْتَبَشَرُوا بِذَلِكَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَكَاسَتْهُمْ بِأَلْدِينِ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية. وقد ثبت في الصحيحين عن أنس، رضي الله عنه، في قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار، الذين قتلوا في غداة واحدة، وَقَتَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الَّذِينَ قَتَلُوهُمْ، يَدْعُو عَلَيْهِمْ وَيَلْعَنُهُمْ، قَالَ أَنَسُ: وَنَزَلَ فِيهِ قُرْآنُ قُرْآنِهِ حَتَّى رَفَعَ: «أَنْ بَلَّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَّا لَقِينَا رَبَّنَا قَرْضِي عَنَّا وَأَرْضَانَا». ثم قال: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِمَعْمَرٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَصِفُ أَعْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧١﴾. قال

محمد بن إسحاق: استبشروا وسُرُوا لما عاينوا من وفاء الموعود وجزيل الثواب. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم، سواء الشهداء وغيرهم، وقلما ذكر الله فضلاً ذكر به الأنبياء وثواباً أعطاهم إلا ذكر ما أعطى الله المؤمنين من بعدهم. وقوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾: هذا كان يوم «حمراء الأسد»، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كُرُوا راجعين إلى بلادهم، فلما استمروا في سيرهم تَدَمَّوْا لم لا تَدَمَّوْا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ نذب المسلمين إلى الذَّهاب وراءهم لِيُرْعِيَهُمْ ويريهم أن بهم قُوَّةٌ وجلدًا، ولم يَأْذَنْ لأحد سوى من حضر الواقعة يوم أحد، سوى جابر بن عبد الله رضي الله عنه - لما سنذكره - فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله ﷻ ولرسوله ﷺ.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو، عن عكرمة قال: لما رجع المشركون عن أحد قالوا: لا محمداً قُتِلْتُمْ، ولا الكواعب أُرِفْتُمْ، بشما صنعتم، ارجعوا. فسمع رسول الله ﷺ، فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد - أو: بئر أبي عيينة - الشك من سفيان - فقال المشركون: نرجع من قابل. فرجع رسول الله ﷺ، فكانت تعد غزوة، فأنزل الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أُولَئِكَ هُمْ هَؤُلَاءِ﴾. ورواه ابن مَرْزُويه من حديث محمد بن منصور، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس فذكره. وقال محمد بن إسحاق: كان يوم أحد يوم السبت للنصف من شوال، فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو، وأذن مؤذنه ألا يخرج معنا أحد إلا أحد حضر يومنا بالأمس. فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام فقال: يا رسول الله، إن أبي كان خلفني على أخوات لي سَبَعَ وقال: يا بُنَيَّ، إنه لا ينبغي لي ولا لك أن تترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن، ولست بالذي أوترك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي، فتخلف على أخواتك، فتخلفت عليهن، فأذن له رسول الله ﷺ، فخرج معه. وإنما خرج رسول الله ﷺ مُرْهَباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليطنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يؤهّنهم عن عدوهم. قال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن خازم بن زيد بن ثابت، عن أبي السائب مولى عائشة بنت عثمان؛ أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ من بني عبد الأشهل، كان شهد أحدًا قال: شهدت أحدًا مع رسول الله ﷺ أنا وأخي، فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي - أو قال لي -: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثَقِيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنت أيسر جراحاً منه، فكان إذا غلب حملته عُقْبَةٌ ومشى عُقْبَةٌ حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون. وقال البخاري: حدثنا محمد بن سلام، حدثنا أبو معاوية، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أُولَئِكَ هُمْ هَؤُلَاءِ﴾، قالت لعروة: يا ابن أختي، كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر، رضي الله عنهما، لما أصاب نبي الله ﷺ ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا فقال: «مَنْ يَرْجِعْ فِي إِثْرِهِمْ؟» فانتدب منهم سبعون رجلاً، فيهم أبو بكر والزبير، رضي الله عنهما. هكذا رواه البخاري منفرداً به، بهذا السياق. وهكذا رواه الحاكم في مستدركه عن الأصم، عن عباس الدوري، عن أبي النضر، عن أبي سعيد المؤدب، عن هشام بن عروة به، ثم قال: صحيح ولم يخرجاه. كذا قال. ورواه أيضاً من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن البهي، عن عروة قال: قالت لي عائشة: يا بُنَيَّ، إن أباك من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وروى ابن ماجة، عن هشام بن عمار، وهذبة بن عبد الوهاب عن سفيان بن عيينة، عن هشام بن عروة به وهكذا رواه سعيد بن منصور وأبو بكر الحميدي في مسنده عن سفيان به. وقال أبو بكر بن مَرْزُويه: حدثنا عبد الله بن جعفر من أصل كتابه، أنبأنا سمويه، أنبأنا عبد الله بن الزبير، أنبأنا سفيان، أنبأنا هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «إِنْ كَانَ أَبُوكَ لَمِنْ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ: أَبُو بَكْرٍ وَالزَّبِيرُ، رضي الله عنهما». ورفع هذا الحديث خطأ محض من جهة إسناده، لمخالفته رواية الثقات من وقفه على عائشة كما قدمناه، ومن جهة معناه، فإن الزبير ليس هو من آباء عائشة، وإنما قالت عائشة لعروة بن الزبير ذلك لأنه ابن أختها أسماء بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عنهم. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سعد، حدثني أبي، حدثني عمي، حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس قال: إن الله قَتَفَ في قَلْبِ أَبِي سَفِيَانَ الرُّغْبَ يوم أحد بعد ما كان منه ما كان، فرجع إلى مكة، فقال النبي ﷺ: «إِنْ أَبَا سَفِيَانَ قَدْ أَصَابَ مِنْكُمْ طَرْفًا، وَقَدْ رَجَعَ، وَقَدْ ذَفَّ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ الرُّغْبَ». وكانت وقعة أحد في شوال، وكان التجار يَفْدَمُونَ المدينة في ذي القعدة، فينزلون ببدر الصغرى في كل سنة مرة، وإنهم قدموا بعد وقعة أحد

وكان أصاب المؤمنين القرح، واشتكوا ذلك إلى النبي ﷺ، واشتد عليهم الذي أصابهم. وإن رسول الله ﷺ نذَّب الناس لينطلقوا معه، ويتبعوا ما كانوا متبعين، وقال: «إِنَّمَا يَزْتَجِلُونَ الْآنَ قِيَاتُونَ الْحَجَّ وَلَا يَتَذَرُونَ عَلَىٰ مِثْلِهَا حَتَّىٰ عَامَ مُقِيلٍ». فجاء الشيطان فخوف أوليائه فقال: إن الناس قد جمعوا لكم فأبى عليه الناس أن يتبعوه، فقال: «إِنِّي ذَاهِبٌ وَإِنْ لَمْ يَتَّبِعْنِي أَحَدٌ». لأحضض الناس، فانتدب معه أبو بكر الصديق، وعمر، وعثمان، وعلي، والزبير، وسعد، وطلحة، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وأبو عبيدة بن الجراح في سبعين رجلاً، فساروا في طلب أبي سفيان، فطلبوا حتى بلغوا الصفراء، فأنزل الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٧١﴾. ثم قال ابن إسحاق: فخرج رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى حمراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال. قال ابن هشام: واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم فأقام بها الاثنین والثلاثاء والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة. وقد مر به - كما حدثني عبد الله بن أبي بكر - مغيد بن أبي معبد الخزاعي، وكانت خُزاعة - مسلمهم ومشركهم - عيبة نُصح لرسول الله ﷺ بشهامه، صَفَّقْتُهُمْ معه، لا يخفون عنه شيئاً كان بها، ومعبد يومئذٍ مشرك فقال: يا محمد، أما والله لقد عَزَّ علينا ما أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله عافاك فيهم. ثم خرج ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد، حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالزُّوحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وقالوا: أصبنا خد أصحابه وقادتهم وأشرفهم، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم. . . لثُكِرَتْ على بقيتهم فَلتَفْرُغَنَّ منهم. فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جَمْعٍ لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحَقِّ عليكم شيء لم أر مثله قط. قال: وبيك، ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل - قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم. قال: فإني أنهارك عن ذلك. ووالله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتاً من شعر، قال: وما قلت؟ قال: قلت:

كَادَتْ تُهْدُ مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي	إِذْ سَأَلْتُ الْأَرْضَ بِالْجُرْزِ الْأَبَابِيلِ
تَزْدِي بِأَشَدِّ كِرَامٍ لَا تَنَابِلَةَ	عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلَ مَعَاذِيلِ
فَظَلْتُ عَذْوًا أَظُنُّ الْأَرْضَ مَائِلَةً	لَمَّا سَمَوُا بِرُئَيْسٍ غَيْرِ مَخْذُولِ
فَقُلْتُ: وَيْلَ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقَائِكُمْ	إِذَا تَغَطَّمَطَتِ الْبَطْحَاءُ بِالْجِيلِ
إِنِّي نَذِيرٌ لَأَهْلِ الْبَيْتِ ضَاحِيَةٌ	لِكُلِّ ذِي إِزْبَةٍ مِنْهُمْ وَمَعْقُولِ
مِنْ جَيْشٍ أَحْمَدٌ لَا وَخْشٍ تَنَابِلَةَ	وَلَيْسَ يُوصَفُ مَا أَنْذَرْتُ بِالْقِيلِ

قال: فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه. ومر به ركب من بني عبد القيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة. قال: ولم؟ قالوا: نريد الميرة. قال: فهل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها إليه، وأحمل لكم هذه غداً زيباً بعبكاذ إذ وافئتمونا. قالوا: نعم. قال: فإذا وافئتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا المسير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه، فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل. وذكر ابن هشام عن أبي عبيدة قال: قال رسول الله ﷺ حين بلغه رجوعهم: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سُوِّمَتْ لَهُمْ جِجَارَةٌ لَوْ صُبِّحُوا بِهَا لَكَثُوا كَأَمْسِ الذَّاهِبِ». وقال الحسن البصري في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾: إن أبا سفيان وأصحابه أصابوا من المسلمين ما أصابوا ورجعوا، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَبَا سَفْيَانَ قَدْ رَجَعَ وَقَدْ قَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ الرُّعْبَ، فَمَنْ يَتَنَدَّبُ فِي طَلَبِهِ؟» فقام النبي ﷺ، وأبو بكر وعمر، وعثمان، وعلي، وناس من أصحاب النبي ﷺ، فاتبعوه، فبلغ أبا سفيان أن النبي ﷺ يطلبه، فلقي غيراً من التجار فقال: ردوا محمداً ولكم من الجفل كذا وكذا، وأخبرهم أنني قد جمعت لهم جموعاً، وأنني راجع إليهم. فجاء التجار فأخبروا بذلك رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. فأنزل الله هذه الآية. وهكذا قال عكرمة، وقتادة وغير واحد: إن هذا السياق نزل في شأن غزوة «حمراء الأسد»، وقيل: نزلت في بدر الموعود، والصحيح الأول. وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ١٧٢﴾ أي: الذين توعدهم الناس بالجموع وخوفهم بكثرة الأعداء، فما اقتصروا لذلك، بل توكلوا على الله واستعانوا به ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. قال البخاري: حدثنا أحمد بن يونس، أراه قال: حدثنا أبو بكر، عن أبي حصين، عن أبي الضحى، عن ابن عباس: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾: قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار وقالها محمد ﷺ

حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. وقد رواه النسائي، عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم وهارون بن عبد الله، كلاهما عن يحيى بن أبي بكير، عن أبي بكر - وهو ابن عياش - به. والعجب أن الحاكم أباعيد الله رواه من حديث أحمد بن يونس، به، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

ثم رواه البخاري عن أبي غسان مالك بن إسماعيل، عن إسرائيل، عن أبي حصين، عن أبي الضحى، عن ابن عباس قال: كان آخر قول إبراهيم، عليه السلام، حين ألقى في النار: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. وقال عبد الرزاق: قال ابن عيينة: وأخبرني زكريا، عن الشَّعْبِيِّ، عن عبد الله بن عمرو قال: هي كلمة إبراهيم عليه السلام حين ألقى في البنيان. رواه ابن جرير. وقال أبو بكر بن مَزْدُوْه: حدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا إبراهيم بن موسى الثوري، أخبرنا عبد الرحيم بن محمد بن زياد السكري، أنبأنا أبو بكر بن عياش، عن حميد الطويل، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ أنه قيل له يوم أحد: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشَوْهم. فأنزل الله هذه الآية. وروى أيضاً بسنده عن محمد بن عُبَيْد الله الرافعي، عن أبيه، عن جده أبي رافع أن النبي ﷺ وَجَّهَ عَلَيْهِ فِي نَفَرٍ مَعَهُ فِي طَلَبِ أَبِي سَفْيَانَ، فَلَقِيَهُمْ أَعْرَابِيٌّ مِنْ خَزَاعَةَ فَقَالَ: إِنَّ الْقَوْمَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ، قَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فنزلت فيهم هذه الآية. ثم قال ابن مَزْدُوْه: حدثنا دَعْلَجُ بْنُ أَحْمَدَ، أَخْبَرَنَا الْحَسَنُ بْنُ سَفْيَانَ، أَنبَأَنَا أَبُو حَنِئِمَةَ مُضَضَّبُ بْنُ سَعِيدٍ، أَنبَأَنَا مُوسَى بْنُ أَعْيَنَ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا وَقَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ الْعَظِيمِ فَقُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ». هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا حُذَيْفَةُ بْنُ شَرِيحٍ وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي الْعَبَّاسِ قَالَا: حَدَّثَنَا بَقِيَّةٌ، حَدَّثَنَا بَجِيرُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، عَنْ سَيْفٍ، عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَقَالَ الْمُقْضَى عَلَيْهِ لِمَا أَدْبَرَ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فقال رسول الله ﷺ: «رُدُّوْا عَلَيَّ الرَّجُلَ». فقال: «ما قلت؟». قال: قلت: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ قُتِلَ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ». وكذا رواه أبو داود والنسائي من حديث بَقِيَّةِ عَنْ بَجِيرٍ، عَنْ خَالِدٍ، عَنْ سَيْفٍ - وهو الشامي، ولم ينسب - عن عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، بِنَحْوِهِ. وقال الإمام أحمد: حدثنا أسباط، حدثنا مَطْرَفٌ، عَنْ غَطِيَّةٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَمَّا يَنْزِلُ فِي الْأَنْفَارِ﴾ [المدر: ٨] قال: قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أُنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدْ انْتَمَ الْقَرْنُ وَحَتَّى جَبَهَتُهُ، يَسْمَعُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ». فقال أصحاب محمد ﷺ: فما نقول؟ قال: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا».

وقد روي هذا من غير وجه، وهو حديث جيد. وروينا عن أم المؤمنين عائشة وزينب بنت جحش رضي الله عنهما، أنهما تفاخرتا فقالت زينب: رُوجِنِي اللَّهَ وَزَوْجَكُنْ أَهْلِيكَ. وقالت عائشة: نزلت براءتي من السماء في القرآن. فَسَلَّمَتْ لَهَا زَيْنَبُ، ثُمَّ قَالَتْ: كَيْفَ قُلْتَ حِينَ رَكِبْتَ رَاحِلَةَ صَفْوَانَ بْنِ الْمَعْطَلِ؟ فقالت: قلت: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فقالت زينب: قلت كلمة المؤمنين. ولهذا قال تعالى: ﴿فَاتَّقِلُوا يَتِيمَةً مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ أي: لما توكلوا على الله كفاهم ما أمهتهم وَرَدَّ عَنْهُمْ بَأْسَ مَنْ أَرَادَ كَيْدَهُمْ، فَرَجَعُوا إِلَى بِلَدِهِمْ ﴿يَتِيمَةً مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ مما أضمر لهم عدوهم ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾. قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو بكر بن داود الزاهد، حدثنا محمد بن نعيم، حدثنا بشر بن الحكم، حدثنا مبشر بن عبد الله بن رزين، حدثنا سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن عكرمة، عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿فَاتَّقِلُوا يَتِيمَةً مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ قال: النعمة أنهم سلموا، والفضل أن عيرا مرت، وكان في أيام الموسم، فاشترتها رسول الله ﷺ فربح فيها مالاً، قسمه بين أصحابه. وقال ابن أبي نَجِيجٍ، عن مجاهد في قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ قال: هذا أبو سفيان، قال لمحمد ﷺ: موعدكم بدر، حيث قتلتم أصحابنا. فقال محمد ﷺ: «عَسَى». فانطلق رسول الله ﷺ لموعده حتى نزل بدرًا، فوافقوا السوق فيها وابتاعوا فذلك قول الله ﷻ: ﴿فَاتَّقِلُوا يَتِيمَةً مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (١٧٤). قال: وهي غزوة بدر الصغرى. رواه ابن جرير. وروى أيضاً عن القاسم، عن الحسين، عن حجاج، عن ابن جُرَيْجٍ قال: لما عمد رسول الله ﷺ لموعد أبي سفيان، فجعلوا يلقون المشركين ويسألونهم عن قریش، فيقولون: قد جمعوا لكم يكيدونهم بذلك، يريدون أن يَرْعَبُوهُمْ، فيقول المؤمنون: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ حتى قدموا بدرًا، فوجدوا أسواقها غافية لم ينازعهم فيها أحد، قال: وقدم رجل من المشركين فأخبر أهل مكة بخيل محمد، وقال في ذلك:

نَفَرَتْ قُلُوبِي مِنْ خِيَلِ مُحَمَّدٍ وَعَجْزَةٌ مَثُورَةٌ كَالْمُنْجِدِ
وَاتَّخَذَتْ مَاءً قُدَيْدٍ مَسْزَعْدِي

عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤْذِ زَكَاتَهُ مِثْلَ لَهُ شَجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَيْبَتَانِ، يُطَوِّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَأْخُذُ بِلَهْزَمَتَيْهِ - يَعْنِي بِشِدْقَتَيْهِ - يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَلَا يَحْصِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. تَفَرَّدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ دُونَ مُسْلِمٍ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ مِنْ طَرِيقِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَجْلَانَ، عَنْ الْقُقْفَاعِ بْنِ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، بِهِ.

حَدِيثٌ آخَرٌ: قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ؛ حَدَّثَنَا حُجَّيْنُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ ابْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الَّذِي لَا يُؤْذِي زَكَاتَ مَالِهِ يُمِثَّلُ اللَّهُ لَهُ مَالَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَيْبَتَانِ، ثُمَّ يُلْزِمُهُ يَطَوِّقُهُ، يَقُولُ: أَنَا كَنْزُكَ، أَنَا كَنْزُكَ». وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ عَنِ الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ، عَنْ أَبِي النَّضْرِ هَاشِمِ بْنِ الْقَاسِمِ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ، بِهِ، ثُمَّ قَالَ النَّسَائِيُّ: وَرَوَاهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ ابْنِ عَمْرٍو، أَثْبَتَ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ. قُلْتُ: وَلَا مَنَافَةَ بَيْنَهُمَا، فَقَدْ يَكُونُ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ مِنَ الْوُجْهِينِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَدْ سَاقَهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْزُوقٍ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَمِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي حَمِيدٍ، عَنْ زِيَادِ الْخَطَمِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، بِهِ.

حَدِيثٌ آخَرٌ: قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا سَفِيانٌ، عَنْ جَامِعٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ لَا يُؤْذِي زَكَاتَ مَالِهِ إِلَّا جُعِلَ لَهُ شَجَاعٌ أَقْرَعَ يَتَّبِعُهُ، يَفَرُّ مِنْهُ وَهُوَ يَتَّبِعُهُ فَيَقُولُ: أَنَا كَنْزُكَ». ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ مُصَدِّقَهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ: ﴿سَيَطُوفُونَ مَا بِحُلُومِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ، مِنْ حَدِيثِ سَفِيانَ بْنِ عَيِّنَةَ، عَنْ جَامِعِ بْنِ أَبِي رَاشِدٍ، زَادَ التِّرْمِذِيُّ: وَعَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ أَعْيَنٍ، كِلَاهُمَا عَنْ أَبِي وَائِلٍ شَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، بِهِ. ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَقَدْ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عِيَّاشٍ وَسَفِيانَ الثَّوْرِيِّ، كِلَاهُمَا عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ السَّبْعِيِّ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، بِهِ. وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، مَوْقُوفًا.

حَدِيثٌ آخَرٌ: قَالَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى: حَدَّثَنَا أُمَيَّةُ بْنُ بَسْطَامٍ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، عَنْ مَعْدَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ثُوبَانَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَرَكَ بَعْدَهُ كَنْزًا مِثْلَ لَهُ شَجَاعًا أَقْرَعَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ زَيْبَتَانِ، يَتَّبِعُهُ وَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ وَتِلْكَ». فَيَقُولُ: أَنَا كَنْزُكَ الَّذِي خَلَّفْتَ بَعْدَكَ فَلَا يَزَالُ يَتَّبِعُهُ حَتَّى يُلْقِيَهُ يَدَهُ فَيَقْبِضُهَا، ثُمَّ يَتَّبِعُهُ سَائِرَ جَسَدِهِ. إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ قَوِي وَلَمْ يَخْرُجْهُ. وَقَدْ رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ. وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ مَرْزُوقٍ مِنْ حَدِيثِ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَأْتِي الرَّجُلُ مَوْلَاً فَيَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِ مَالِهِ عِنْدَهُ، فَيَمْنَعُهُ إِثْمًا، إِلَّا دُعِيَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَجَاعٌ يَتَلَمَّظُ فَضْلَهُ الَّذِي مَنَعَ». لَفْظُ ابْنِ جَرِيرٍ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْأَعْلَى، حَدَّثَنَا دَاوُدُ، عَنْ أَبِي قُرَّةَةَ، عَنْ رَجُلٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ ذِي رَحِمٍ يَأْتِي ذَا رَحِمَةٍ، فَيَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِ جَعَلَهُ اللَّهُ عِنْدَهُ، فَيَبْخُلُ بِهِ عَلَيْهِ، إِلَّا أَخْرَجَ لَهُ مِنْ جَهَنَّمَ شَجَاعٌ يَتَلَمَّظُ، حَتَّى يَطَوِّقَهُ». ثُمَّ رَوَاهُ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى عَنْ أَبِي قُرَّةَةَ - وَاسْمُهُ حُجَيْرُ بْنُ بَيَّانٍ - عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْعَدِيِّ مَوْقُوفًا. وَرَوَاهُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ عَنْ أَبِي قُرَّةَةَ مَرْسَلًا. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِي يَبْخُلُوا بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْكُتُبِ الْمَنْزُورَةِ أَنْ يَبِينُوهَا. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ، وَإِنْ دَخَلَ هَذَا فِي مَعْنَاهُ. وَقَدْ يَقَالُ: إِنَّ هَذَا أَوَّلُ بِالْدُخُولِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ يَرِثُ السَّمَكُونَ وَالْأَرْضَ﴾ أَي: فَانْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ، فَإِنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا مَرْجِعُهَا إِلَى اللَّهِ ﷻ. فَقَدِّمُوا لَكُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ مَا يَنْفَعُكُمْ يَوْمَ مَعَادِكُمْ ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أَي: يَبَيِّنَاتِكُمْ وَضُمَائِكُمْ.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الْيَهُودِ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاكَ سَكَتُكُمْ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَتَّى وَقَوْلُهُمْ دُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (البقرة: ٢٤٥) قَالَتِ الْيَهُودُ: إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِغَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿الْيَهُودِ﴾ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ لَيْنًا أَلَّا تُؤْمِرُوا رَسُولًا أَنْ يَنْبَأَنَا بِغُرَابٍ تَأْكُلُهُ الْأَرْضُ كُلَّ جَاءِكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ كُنْتُمْ تُكْفِرُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿الْيَهُودِ﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءَهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِينَ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿الْيَهُودِ﴾.

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] قَالَتِ الْيَهُودُ: يَا مُحَمَّدُ، افْتَقَرْنَا رَيْكَ. سَأَلَ عِبَادَهُ الْقَرْضَ؟ فَانْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الْيَهُودِ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاكَ﴾ الْآيَةَ. رَوَاهُ ابْنُ مَرْزُوقٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي مُحَمَّدٍ، عَنْ عِكْرَمَةَ أَنَّهُ حَدَّثَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بَيْتَ الْمَدْرَاسِ، فَوَجَدَ مِنْ يَهُودٍ أَنَاثًا كَثِيرًا قَدْ اجْتَمَعُوا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ يَقَالُ لَهُ: فَيُتَخَاصُّ وَكَانَ مِنْ عِلْمَانِهِمْ وَأَحْبَارِهِمْ، وَمَعَ خَبَرٍ يَقَالُ لَهُ: أَشِيعَ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَيْحَكَ يَا

فَنَحَاصُ، اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله - يا أبا بكر - ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير. ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإننا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويُعْطِنَا، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر، رضي الله عنه، فضرب وجهه فنحاص ضرباً شديداً، وقال: والذي نفسي بيده، لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: أبصر ما صنع بي صاحبك. فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «ما حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟» فقال: يا رسول الله، إن عدو الله قد قال قولاً عظيماً، زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَأَنَّهُمْ عَنْهُ أَغْنِيَاءُ، فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ غَضِبْتُ اللَّهَ مِمَّا قَالَ، فَضَرَبْتُ وَجْهَهُ فَجَحَدَ ذَلِكَ فَنَحَاصُ وَقَالَ: مَا قُلْتُ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيمَا قَالَ فَنَحَاصُ رِداً عَلَيْهِ وَتَصْدِيقاً لِأَبِي بَكْرٍ: «لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الْذَّيْبِ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ» الآية. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَوْلُهُ: «سَكَتُكُمْ مَا قَالُوا» تهديد ووعيد؛ ولهذا قرنه بقوله: «وَقَلَّكُمْ الْأَنْبِيَاءَ بِمَعْرِ حَقِّي» أي: هذا قولهم في الله، وهذه معاملتهم لرسول الله، وسيجزئهم الله على ذلك شر الجزاء؛ ولهذا قال: «وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ» (١٨٦) أي: يقال لهم ذلك تقريباً وتحقيراً وتصغيراً. وقوله: «الذَّيْبُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَاهِدٌ لِّأَيِّنَّا أَلَّا نُؤْمِنَ بِرُسُولِهِ حَتَّىٰ يَأْتِيََنَا بِفُرْقَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ» يقول تعالى تكذيباً أيضاً لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم في كتبهم ألا يؤمنوا برسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فقبلت منه أن تنزل نار من السماء تأكله. قاله ابن عباس والحسن وغيرهما. قال الله تعالى: «قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ يَآلَيْسَتْ» أي: بالحجج والبراهين «وَيَآلَيْتُمْ» أي: وينار تأكل القرايين المتقبلة «فَلَيْدَ قَتَلْتُمُوهُمْ» أي: فلم قابلتموهم بالكذب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم «إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ» أنكم تتبشرون الحق وتتقادون للرسول. ثم قال تعالى مسلماً لنبيه ﷺ: «فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْأُنِيرِ» (١٨٧) أي: لا يهيدنك تكذيب هؤلاء لك، فلك أسوة من قبلك من الرسل الذين كذبوا مع ما جاؤوا به من البينات وهي الحجج والبراهين القاطعة «وَالزُّبُرِ» وهي الكتب المتلقة من السماء، كالصحف المنزلة على المرسلين «وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ» أي: البين الواضح الجلي.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجْرُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن رُّحِمَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ (١٨٨) ﴿لَنُتْلِزَكُ فِي أُمُورِكُمْ وَلَسْتُمْ مِّنْ أَوَّلِي أَمْرٍ أَوْثَرُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَبِيرًا﴾ (١٨٩) ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِن عَزْزِ الْأُمُورِ﴾ (١٩٠).

يخبر تعالى إخباراً عاماً يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت، كقوله: ﴿كُلُّ مَن عَلَيْهَا فَايَ﴾ (١٩١) ﴿وَمَن رَّبَّهُ ذُو الْإِلْتِنِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (١٩٢) فهو تعالى وحده هو الحي الذي لا يموت والإنس والجن يموتون، وكذلك الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء، فيكون آخرأ كما كان أولاً. وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت، فإذا انقضت المدة وقرعت النطفة التي قدر الله وجودها من صلب آدم وانتهت البرية - أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيها، كثيرها وقليلها، كبيرها وصغيرها، فلا يظلم أحداً مثقال ذرة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجْرُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد العزيز الأوسي، حدثنا علي بن أبي علي النهدي، عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: لما توفي النبي ﷺ وجاءت التعزية، جاءهم أت يسمعون حسه ولا يرون شخصه فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجْرُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. إن في الله عَزَاءً مِّن كُلِّ مُصِيبَةٍ، وخَلْفًا مِّن كُلِّ هَالِكٍ، ودركاً مِّن كُلِّ فَاثَةٍ، فبِاللَّهِ فَتَقُوا، وإياه فارجوا، فإن المصائب من حُرْمِ الثَّوَابِ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. قال جعفر بن محمد: فأخبرني أبي أن علي بن أبي طالب قال: أتدرون من هذا؟ هذا الخضر، عليه السلام.

وقوله: ﴿فَمَن رُّحِمَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (١٩٣) أي: من جنب النار ونجا منها وأدخل الجنة، فقد فاز كل الفوز. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَوْضِعٌ سَوَطٌ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِّنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، اقْرَؤُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿فَمَن رُّحِمَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾. هذا حديث ثابت في الصحيحين من غير هذا الوجه بدون هذه الزيادة، وقد رَوَاهُ بِدُونِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ أَبُو حَاتِمٍ، وَابْنُ حِبَانَ فِي صَحِيحِهِ، وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ، مِّنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو هَذَا. وَرَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ أَيْضاً مِّنْ وَجْهِ آخَرَ فَقَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى، أَنبَأَنَا حُمَيْدُ بْنُ مَسْعُودَةَ، أَنبَأَنَا عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ، عَنْ

أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «الموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها». قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَنْ زُحِجَ عَنِ الْكَارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾. وتقدم عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا بِمَا نُنْزِلُ﴾ ما رواه الإمام أحمد، عن وكيع، عن الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يخرج عن النار وأن يدخل الجنة، فلتدركه ميتته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه». وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْمُرُورِ﴾ تصغيراً لشأن الدنيا، وتحقيراً لأمرها، وأنها دينية فانية قليلة زائلة، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْخِرُونَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الاعلى: ١٦، ١٧] وقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦] وقال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَفْءُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصاص: ٦٠]، وفي الحديث: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم إصبعه في اليم، فليست بيم تزج إليه؟». وقال قتادة في قوله: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْمُرُورِ﴾: هي متاع، هي متاع، متروكة، أوشكت. والله الذي لا إله إلا هو - أن تَضْمَجَلْ عن أهلها، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم، ولا قوة إلا بالله. وقوله: ﴿لَتُنْفَكَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ كقوله: ﴿وَلَتَنُفَكَنَّكُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ مِنَ الْقَوَى وَالْجُوعِ وَنَقَصِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالْقُرْبَى وَيُفَرِّقُ الصَّبْرَ﴾ [١٨٥] الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَلَئِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ [١٨٦] [البقرة: ١٥٥، ١٥٦] أي: لا بد أن يبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله، ويبتلى المؤمن على قدر دينه، إن كان في دينه صلاة زيد في البلاء ﴿وَلَتَنُفَكَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً﴾، يقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر، مسلماً لهم عما نالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركون، وأمرهم بالصبر والصفح والعفو حتى يفرج الله، فقال: ﴿وَإِنْ نَصَبُوا وَتَوَقَّعُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْزِ الْأُمُورِ﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب بن أبي حمزة، عن الزهري، أخبرني غزوة بن الزبير: أن أسامة بن زيد أخبره قال: كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركون وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله: ﴿وَلَتَنُفَكَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ نَصَبُوا وَتَوَقَّعُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْزِ الْأُمُورِ﴾ قال: وكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم. هكذا رواه مختصراً، وقد ذكره البخاري عند تفسير هذه الآية مطولاً فقال: حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، عن الزهري أخبرني عروة بن الزبير؛ أن أسامة بن زيد أخبره أن رسول الله ﷺ ركب على حمار، عليه قطيفة فدية وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عباد في بني الحارث بن الخزرج، قبل وقعة بدر، قال: حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي ابن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركون، عبدة الأوثان واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاظة الدابة خمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه وقال: لا تغربوا علينا. فسلم رسول الله ﷺ، ثم وقف، فنزل فدعاهم إلى الله ﷻ، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي: أيها المرء، إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا، ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه. فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله، فأغشنا به في مجالسنا فإننا نحب ذلك. فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثأرون، فلم يزل النبي ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حتى سكتوا، ثم ركب النبي ﷺ دابته، فسار حتى دخل على سعد بن عباد، فقال له النبي ﷺ: «يا سعد، ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب - يريد عبد الله بن أبي - قال كذا وكذا». فقال سعد: يا رسول الله، اعف عنه واصفح، فوالله الذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البخيرة على أن يتوجوه ويُعَصِّبُوهُ بالعصاة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شوق بذلك، فذلك الذي قُبل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركون وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله تعالى: ﴿وَلَتَنُفَكَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ نَصَبُوا وَتَوَقَّعُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْزِ الْأُمُورِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَوَعَدُكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَدْوٍ بِمَنِّكُمْ كَذِباً حَسْكَاً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَصُوا وَأَصْلَحُوا حَتَّى بَيَّنَّ اللَّهُ بَاطِلَهُمْ وَالْمُرُورِ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وكان النبي ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرأ، قتل الله به صناديد كفار قريش، قال عبد الله بن أبي ابن سلول ومن معه من المشركون وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجّه، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام وأسلموا.

فكان من قام بحق، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، فلا بد أن يؤذى، فما له دواء إلا الصبر في الله، والاستعانة بالله، والرجوع إلى الله، ﷻ.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّ لِلنَّاسِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّنَّ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْرَحُونَ يَمَا أَتَوُا وَيُجِبُونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَقَافِرٍ مِّنَ الْعَذَابِ لَكُمُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب، الذين أخذ عليهم العهد على السنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينهوا بذكره في الناس ليكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكنتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف، والحظ الدنيوي السخيف، فبيئت الصفقة صفقتهم، وبيئت البيعة بيعتهم. وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويسلك بهم مسلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئاً، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي ﷺ أنه قال: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار». وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْرَحُونَ يَمَا أَتَوُا وَيُجِبُونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَقَافِرٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾ الآية، يعني بذلك المرأين المتكثرين بما لم يفعلوا، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ: «من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزد الله إلا قلة». وفي الصحيح: «المتشبع بما لم ينفع كلابس ثوبي زور». وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، عن ابن جريج، أخبرني ابن أبي مليكة أن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أخبره: أن مروان قال: اذهب يا رافع - لبوابه - إلى ابن عباس، رضي الله عنه، فقل: لئن كان كل امرئ مما فرح بما أتى، وأحب أن يحمد بما لم يفعل - معذباً، لتعذبن أجمعون؟ فقال ابن عباس: وما لكم بهذه؟ إنما نزلت هذه في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّ لِلنَّاسِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّنَّ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ وتلا ابن عباس: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْرَحُونَ يَمَا أَتَوُا وَيُجِبُونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية. وقال ابن عباس: سألهم النبي ﷺ عن شيء، فكتموه وأخبروه بغيره، فخرجوا قد أنزوه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه. وهكذا رواه البخاري في التفسير، ومسلم، والترمذي والنسائي في تفسيريهما، وابن أبي حاتم وابن جرير وابن مَرْزُوق، والحاكم في مستدركه، كلهم من حديث عبد الملك بن جريج، بنحوه. ورواه البخاري أيضاً من حديث ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن علقمة بن وقاص: أن مَرْوَانَ قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس، فذكره. وقال البخاري: حدثنا سعيد بن أبي مريم، أنبأنا محمد بن جعفر، حدثني زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه؛ أن رجلاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتدروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْرَحُونَ يَمَا أَتَوُا وَيُجِبُونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية. وكذا رواه مسلم من حديث ابن أبي مريم، بنحوه. وقد رواه ابن مَرْزُوق في تفسيره من حديث الليث بن سعد، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم قال: كان أبو سعيد ورافع بن خديج وزيد بن ثابت عند مَرْوَانَ فقال: يا أبا سعيد، رأيت قول الله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْرَحُونَ يَمَا أَتَوُا وَيُجِبُونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾. ونحن نفرح بما أتينا ونحجب أن نحمد بما لم نفعل؟ فقال أبو سعيد: إن هذا ليس من ذاك، إنما ذاك أن ناساً من المنافقين كانوا يتخلفون إذا بعث رسول الله ﷺ بغتاً، فإن كان فيهم نكبة فرحوا بتخلفهم، وإن كان لهم نصر من الله وفتح حلفوا لهم ليرضوهم ويحمدوهم على سرورهم بالنصر والفتح. فقال مروان: أين هذا من هذا؟ فقال أبو سعيد: وهذا يعلم هذا، فقال مروان: أأذلك يا زيد؟ قال: نعم، صدق أبو سعيد. ثم قال أبو سعيد: وهذا يعلم ذاك - يعني رافع بن خديج - ولكنه يخشى إن أخبرك أن تنزع قلائصه في الصدقة. فلما خرجوا قال لأبي سعيد الخدري: ألا تحمدي علي ما شهدت لك؟ فقال أبو سعيد: شهدت الحق. فقال زيد: أو لا تحمدي علي ما شهدت الحق؟ ثم رواه من حديث مالك، عن زيد بن أسلم، عن رافع بن خديج: أنه كان هو وزيد بن ثابت عند مَرْوَانَ بن الحكم، وهو أمير المدينة، فقال مروان: يا رافع، في أي شيء نزلت هذه؟ فذكره كما تقدم عن أبي سعيد، رضي الله عنهم، وكان مَرْوَانَ يبعث بعد ذلك يسأل ابن عباس كما تقدم، فقال له ما ذكرناه، ولا منافاة بين ما ذكره ابن عباس وما قاله هؤلاء؛ لأن الآية عامة في جميع ما ذكر، والله أعلم. وقد روى ابن مَرْزُوق أيضاً من حديث محمد بن أبي عتيق وموسى بن عُفَيْة، عن الزهري، عن محمد بن ثابت الأنصاري؛ أن ثابت بن قيس الأنصاري قال: يا رسول الله، والله لقد خشيت أن أكون هلكاً. قال: «لم؟» قال: نهى الله المرء أن يحب أن يُحْمَدَ بما لم يفعل، وأجدي أحب الحمد. ونهى الله عن الخيلاء، وأجدي أحب الجمال، ونهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك، وأنا امرؤ جهوري الصوت. فقال رسول الله ﷺ: «ألا ترضى أن تعيش حبيداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟» قال: بلى يا

رسول الله، فعاش حميداً، وقُتل شهيداً يوم مُبَيْلَةَ الكذاب. وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّكُمْ يَمُوتُونَ مِنَ الْعَذَابِ﴾ يقرأ بالتاء على مخاطبة المفرد، وبالياء على الإخبار عنهم، أي: لا تحسبون أنهم ناجون من العذاب، بل لا بد لهم منه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٩٣). أي: هو مالك كل شيء، والقادر على كل شيء فلا يعجزه شيء، فهابوه ولا تخالفوه، واحذروا نعمته وغضبه، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه، القدير الذي لا أقدر منه.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالتَّخْلِيفِ الْإِلَهِيِّ وَالتَّجَارِ لِآيَاتٍ لِلَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ يَتَنَبَّهُونَ وَيَتَذَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٩٤). رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنا مَعَ الْآبِرَارِ﴾ (١٩٥). رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (١٩٦).

قال الطبراني: حدثنا الحسن بن إسحاق الثوري، حدثنا يحيى الجعفي، حدثنا يعقوب القمي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: أتت قريش اليهود فقالوا: بم جاءكم موسى؟ قالوا: عصاه بيضاء للناظرين. وأتوا النصارى فقالوا: كيف كان عيسى؟ قالوا: كان يُبْرِئُ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى. فأتوا النبي ﷺ فقالوا: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً. فدعاه، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالتَّخْلِيفِ الْإِلَهِيِّ وَالتَّجَارِ لِآيَاتٍ لِلَّذِينَ يَذْكُرُونَ﴾ (١٩٣)، فليتفكروا فيها. وهذا مُشْكَل، فإن هذه الآية مدنية. وسؤالهم أن يكون الصفا ذهباً كان بمكة، والله أعلم. ومعنى الآية أنه يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هذه في ارتفاعها واتساعها، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها. وما فيها من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارت، وثوابت وبحار، وجبال وقفار وأشجار ونبات وزروع وثمار، وحيوان ومعادن ومنافع، مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص ﴿والتَّخْلِيفِ الْإِلَهِيِّ وَالتَّجَارِ﴾ أي: تعاقبهما وتَقَارُضُهما الطول والقصر، فتارة يطول هذا ويقصر هذا، ثم يعتدلان، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيراً، ويقصر الذي كان طويلاً، وكل ذلك تقدير العزيز الحكيم؛ ولهذا قال: ﴿لِآيَاتٍ لِلَّذِينَ يَذْكُرُونَ﴾ أي: العقول التامة الذكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَكَايْنِ يَنْفَرُونَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٩). وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (٢٠). ثم وصف تعالى أولي الأبواب فقال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ يَتَنَبَّهُونَ وَيَتَذَكَّرُونَ﴾ (١٩٤). كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «صَلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فقلبي جَنِّكَ» أي: لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضامئهم والستهم ﴿يَتَنَبَّهُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يفهمون ما فيها من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته، وعلمه وحكمته، واختياره ورحمته. وقال الشيخ أبو سليمان الداراني: إني لأخرج من منزلي، فما يقع بصري على شيء إلا رأيت الله عليّ فيه نعمة، أو لي فيه عبرة. رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «التفكير والاعتبار». وعن الحسن البصري أنه قال: تَفَكَّرْ ساعة خير من قيام ليلة. وقال الفضيل: قال الحسن: الفكرة مِرَاة تترك حَسَنَاتِكَ وسيئاتك. وقال سفيان بن عيينة: الفكرة نور يدخل قلبك. وربما تمثل بهذا البيت:

إذا المرء كانت له فِكْرَةٌ ففسي كل شيء له عبْرَةٌ
وعن عيسى، عليه السلام، أنه قال: طُوبَى لِمَنْ كَانَ قِيلُهُ تَذَكُّراً، وَصَمْتُهُ تَفَكُّراً، وَنَظَرُهُ عِبْرَةً. وقال لقمان الحكيم: إن طول الوحدة أَلْهُمُّ للفكرة، وطول الفكرة دليل على طَرَقِ باب الجنة. وقال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم، وما فهم امرؤ قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل. وقال عمر بن عبد العزيز: الكلام بذكر الله، ﷻ، حَسَنٌ، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة. وقال مغيث الأسود: زوروا القبور كل يوم تفكركم، وشاهدوا الموقف بقلوبكم، وانظروا إلى المنصرف بالفرقين إلى الجنة أو النار، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامها وأطباقها، وكان يبكي عند ذلك حتى يُزْفِعَ صريعاً من بين أصحابه، قد ذهب عقله. وقال عبد الله بن المبارك: مرَّ رجل براهبٍ عند مقبرة ومزبلة، فناداه فقال: يا راهب، إن عندك كنز من كنوز الدنيا لك فيها مُعْتَبَرٌ، كنز الرجال وكنز الأموال. وعن ابن عمر: أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه، يأتي الخربة فيقف على بابها، فينادي بصوت حزين فيقول: أين أهْلُكَ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [التقصص: ٢٨]. وعن ابن عباس أنه قال: ركعتان مقتصدتان في تفكير، خير من قيام ليلة والقلب ساوٍ. وقال الحسن: يا ابن آدم، كُلْ في ثلث بطنك، واشرب في ثلثه، ودع ثلثه الآخر تنفَسْ للفكرة. وقال بعض الحكماء: من نظر إلى الدنيا بغير العبرة انطمَسَ مِنْ بَصَرِ قلبه بقدر تلك الغفلة. وقال بشر بن الحارث الحافي: لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه. وقال الحسن، عن

عامر بن عبد قيس قال: سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ يقولون: إن ضياء الإيمان، أو نور الإيمان، التفكير. وعن عيسى، عليه السلام، أنه قال: يا ابن آدم الضعيف، اتق الله حشما كنت، وكُنْ في الدنيا ضَيِّفًا، واتَّخِذِ المساجد بيئات، وعَلِّمْ عينيك البكاء، وحَسِّدْكَ الصُّبْر، وقلبك الفِكْر، ولا تهتم برزق غد. وعن أمير المؤمنين عُمَرُ بن عبد العزيز، رضي الله عنه، أنه بكى يوماً بين أصحابه، فُسِّلَ عن ذلك، فقال: فَكُرَّتْ في الدنيا ولذاتها وشهواتها، فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتها تَنْقُضي حتى تكدرها مرارتها، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر إن فيها مواظ لمن اذكر. وقال ابن أبي الدنيا: أنشدني الحسين بن عبد الرحمن:

نُزِفَةُ الْمُؤْمِنِ الْفَكَزُ
نَحْمَدُ اللَّهَ وَخُدَّه
رُبَّ لَاهٍ وَعُغْمُزُهُ
رُبَّ عَيْشٍ قَدْ كَانَ فَو
فِي خَرِيرٍ مِنَ الْعُمُورِ
وَشُرُورٍ مِنَ الْبُيُوتِ
عُيُورُهُ وَأَفْلُهُ
نَحْمَدُ اللَّهَ وَحَمْدَهُ
إِنْ فِي ذَا لَمَعْبَرَةٍ

لَذَةُ الْمُؤْمِنِ الْعُوبِزُ
نَخْرُنُ كُلَّ عَلَى خَطَرُ
قَدْ تَقَضَّى وَمَا شَعَرُ
قِ الْمُنَى مُونَقَ الزَّهَرُ
ن وَظِلُّ مِنَ الشُّجَرِ
ت وَطَيْبٌ مِنَ الثُّمَرِ
سَرْعَةُ الذَّهْرِ بِالْغَيْرِ
إِنْ فِي ذَا لَمَعْبَرَةٍ
لِلْبَيْبِ إِنْ اغْتَابَرُ

وقد ذمَّ الله تعالى مَنْ لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته، فقال: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٩٠) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٩١﴾ (يسرّف: ١٠٥، ١٠٦)، ومدح عباده المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ رَتَنَ تَكْرَرًا فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قائلين: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ أي: ما خلقت هذا الخلق عبثًا، بل بالحق لتجزّي الذين أسأوا بما عملوا، وتجزّي الذين أحسنوا بالحسنى. ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ أي: عَنْ أَنْ تَخْلُقَ شَيْئًا بَاطِلًا ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي: يا مَنْ خَلَقَ الْخَلْقَ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ يا مَنْ هُوَ مُؤْتَرَهٌ عَنِ النَّقَائِصِ وَالْعَيْبِ وَالْعَبَثِ، قنا من عذاب النار بحولك وقوتك وقِيضْنَا لأعمال ترضى بها عنا، ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم، وتجبرنا به من عذابك الأليم. ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾ أي: أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي: يوم القيامة لا مُجِيرَ لَهُمْ مِنْكَ، ولا مُجِيدَ لَهُمْ عما أُرِدَتْ بِهِمْ ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ أي: داعيًا يدعو إلى الإيمان، وهو الرسول ﷺ ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ أي يقول: ﴿آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ أي: فاستجبنا له واتبعناه ﴿رَبَّنَا فَاقْضِ لَنَا دُيُونَنَا﴾ أي: بإيماننا واتباعنا نبيك فاغفر لنا ذنوبنا، أي: استرها ﴿وَكُفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ أي: فيما بيننا وبينك ﴿وَتُوفِّقْنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ أي: إلحقنا بالصالحين ﴿رَبَّنَا وَإِنَّا مِمَّا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ قيل: معناه: على الإيمان برسلك. وقيل: معناه: على السنة رسلك. وهذا أظهر. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عمرو بن محمد، عن أبي عَقَال، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «عَسَقَلَانِ أَحَدُ الْعُرُوسَيْنِ، يَبِيعُ اللَّهُ مِنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعِينَ أَلْفًا لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ، وَيَبِيعُ مِنْهَا خَمْسِينَ أَلْفًا شَهْدَاءَ وَتُؤَدَّى إِلَى اللَّهِ، وَبِهَا صُفُوفُ الشَّهْدَاءِ، رُؤُوسُهُمْ مُقَطَّعَةٌ فِي أَيْدِيهِمْ، تَبِيعُ أُرْدَاهُجَهُمْ دَمًا، يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا وَإِنَّا مِمَّا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا نَحْزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ أَلِيمَاعِدَ﴾﴾ فيقول: صَدَقَ عبيدي، اغسلوهم بنهر البِيضَةِ. فيخرجون منه نَقَاءً بِيضًا، فيسرحون في الجنة حيث شاؤوا. وهذا الحديث يُعَدُّ من غرائب المسند، ومنهم من يجعله موضوعًا، والله أعلم.

﴿وَلَا نَحْزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: على رؤوس الخلائق ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ أَلِيمَاعِدَ﴾ أي: لا بد من الميعاد الذي أخبرت عنه رُسُلُكَ، وهو القيام يوم القيامة بين يديك. وقد قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا الحارث بن سُرَيْج، حدثنا المعتمر، حدثنا الفضل بن عيسى، حدثنا محمد بن المنكدر: أن جابر بن عبد الله حدثه: أن رسول الله ﷺ قال: «العار والتخزية تبلغ من ابن آدم في القيامة في المقام بين يدي الله، ﷻ، ما يتمنى العبد أن يؤمر به إلى النار» حديث غريب. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده، فقال البخاري، رحمه الله: حدثنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا محمد بن جعفر، أخبرني شريك بن عبد الله بن أبي نُؤَيْر، عن كُزَيْبٍ عن ابن عباس قال: بت عند خالتي ميمونة، فتحدث

لَا يَنْتَظِرُ أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ ﴿١٩٥﴾ ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها». وقد رواه عَبْدُ عُبَيْدِ بْنِ حُمَيْدٍ، عن جَعْفَرِ بْنِ عَوْنٍ، عن أَبِي جَنَابِ الْكَلْبِيِّ عن عطاء، بأطول من هذا وأتم سياقاً. وهكذا رواه أَبُو حَاتِمٍ بْنُ حَبَانَ فِي صَحِيحِهِ، عن عِمْرَانَ بْنِ مُوسَى، عن عثمان بن أبي شيبة، عن يحيى بن زكريا، عن إبراهيم بن سُوَيْدِ الثَّخَفِيِّ، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء قال: دخلت أنا وعبد الله بن عمر وعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ عَلَى عَائِشَةَ، فَذَكَرَ نَحْوَهُ. وهكذا رواه عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا في كتاب «التفكير والاعتبار» عن شجاع بن أشرس، به. ثم قال: حدثني الحسن بن عبد العزيز: سمعت سُئِيداً يَذْكُرُ عَنْ سَفْيَانَ - هُوَ الثَّوْرِيُّ - رَفَعَهُ قَالَ: مَنْ قَرَأَ آخِرَ آلِ عِمْرَانَ فَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهِ وَلَيْلَهُ. يَمُدُّ بِأَصَابِعِهِ عَشْرًا. قَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: فَأَخْبِرَنِي عُبَيْدُ بْنُ السَّائِبِ قَالَ: قِيلَ لِلْأَوْزَاعِيِّ: مَا غَايَةُ التَّفَكُّرِ فِيهِمْ؟ قَالَ: يَقْرَءُونَ وَهُوَ يَعْقِلُهُنَّ. قَالَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا: وَحَدَّثَنِي قَاسِمُ بْنُ هَاشِمٍ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَيَّاشٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ: سَأَلْتُ الْأَوْزَاعِيَّ عَنْ أَدْنَى مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُتَعَلِّقُ مِنَ الْفِكْرِ فِيهِمْ وَمَا يَنْجِيهِ مِنْ هَذَا الْوَيْلِ؟ فَاطْرُقَ هَيْئَةً ثُمَّ قَالَ: يَقْرَءُونَ وَهُوَ يَعْقِلُهُنَّ. حَدِيثٌ آخَرُ فِيهِ غُرَابَةٌ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْدَوَيْهِ: أَنْبَأَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ بَشِيرٍ بْنُ نَعِيمٍ، أَنْبَأَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْبَسْتِي ح وَقَالَ: أَنْبَأَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ زَيْدٍ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ: أَنْبَأَنَا هِشَامُ بْنُ عَمَارٍ، أَنْبَأَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ مُوسَى الزَّهْرِيُّ، أَنْبَأَنَا مَظَاهِرُ بْنُ أَسْلَمَ الْمَخْزُومِي، أَنْبَأَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبَرِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ كُلِّ لَيْلَةٍ. مَظَاهِرُ بْنُ أَسْلَمَ ضَعِيفٌ.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قَالَ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَآخَرُجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوْدُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَمَاتُوا لَا كُفْرًا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا ذِلَّةً لَهُمْ جَنَّاتُ جَنَّةٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ قَوَامًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثََّوَابِ ﴿١٩٦﴾.

يقول تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: فأجابهم ربهم، كما قال الشاعر:

وداع دعا: يَا مَنْ يَجِيبُ إِلَى التَّوَدَى قَلَمٌ يَسْتَجِيبُهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبٌ
قال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن سلمة، رجل من آل أم سلمة، قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله، لا نَسْمَعُ اللَّهَ ذَكَرَ النِّسَاءِ فِي الْهَجْرَةِ بَشِيءٌ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتُمْ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. وَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: هِيَ أَوَّلُ طَعْنَةٍ قَدِمَتْ عَلَيْنَا. وَقَدْ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ مِنْ حَدِيثِ سَفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، ثُمَّ قَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ، وَلَمْ يَخْرُجْ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: آخِرُ آيَةٍ أَنْزَلَتْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إِلَى آخِرِهَا. رَوَاهُ ابْنُ مَرْزُوقٍ. وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ ذَوِي الْأَلْبَابِ لَمَّا سَأَلُوا - مِمَّا تَقَدَّمَ ذَكَرُهُ - فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ - عَقِبَ ذَلِكَ بِفَاءِ التَّعْقِيبِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَأَى سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْتُوا بِكَلِمَاتِهِمْ يَوْمَ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وَقَوْلُهُ: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتُمْ﴾ هَذَا تَفْسِيرٌ لِلْإِجَابَةِ، أَيْ قَالَ لَهُمْ مُجِيبًا لَهُمْ: أَنَّهُ لَا يَضِيعُ عَمَلٌ عَامِلٌ لَدَيْهِ، بَلْ يُؤْتَى كُلُّ عَامِلٍ بِقِسْطِ عَمَلِهِ، مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أَيْ: جَمِيعُكُمْ فِي ثَوَابِي سَوَاءٌ ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ أَيْ: تَرَكُوا دَارَ الشُّرْكِ وَأَتُوا إِلَى دَارِ الْإِيمَانِ وَفَارَقُوا الْأَحْبَابَ وَالْإِخْوَانَ وَالْجِيرَانَ. ﴿وَالَّذِينَ بَدَلُوا مَوَدَّتَهُمْ﴾ أَيْ: ضَاقِقَهُمُ الْمُشْرِكُونَ بِالْأَذَى حَتَّى الْجَوْهَرُ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأُوْدُوا فِي سَبِيلِي﴾ أَيْ: إِنَّمَا كَانَ ذَنْبُهُمْ إِلَى النَّاسِ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُحْيِي الرُّسُلَ وَإِنَّا لَنُؤْتِيهِمْ يَوْمَ تَشْهَدُونَ﴾ [المتحة: ١٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَقْشَرُوا عَنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْتُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البرج: ٨]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَتَلُوا وَمَاتُوا﴾ وَهَذَا أَعْلَى الْمَقَامَاتِ أَنْ يَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيُفْقَرُ جَوَادُهُ، وَيَعْفَرُ وَجْهَهُ بِدَمِهِ وَتَرَابِهِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ، أَيْكُفَّرَ اللَّهُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ قَالَ: «نَعَمْ» ثُمَّ قَالَ: «كَيْفَ قُلْتَ؟» فَأَعَادَ عَلَيْهِ مَا قَالَ، فَقَالَ: نَعَمْ، إِلَّا الدِّينَ، قَالَ لِي جَبْرِيلُ أَنْفَاءً. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا كُفْرًا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا ذِلَّةً لَهُمْ جَنَّاتُ جَنَّةٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَيْ: تَجْرِي فِي خِلَالِهَا الْأَنْهَارُ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَشَارِبِ، مِنْ لَبَنٍ وَعَسَلٍ وَخَمْرٍ وَمَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿قَوَامًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أَضَافَهُ إِلَيْهِ وَنَسَبَهُ إِلَيْهِ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ عَظِيمٌ؛ لِأَنَّ الْعَظِيمَ الْكَرِيمَ لَا يُعْطَى إِلَّا جَزِيلًا كَثِيرًا، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنْ يُعْذَبُ يَكُنْ غَرَامًا وَإِنْ يُغْفَرْ يَكُنْ جَزِيلًا فَلَيْسَ لَهُ لَا يُبَالِي
وقوله: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثََّوَابِ﴾ أَيْ: عِنْدَهُ حُسْنُ الْجَزَاءِ لِمَنْ عَمِلَ صَالِحًا. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: ذَكَرَ عَنْ دُحَيْمِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ:

﴿لَا يَمُرُّكَ قَلْبُ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْيَلَدِ﴾ ﴿١٧٦﴾ قِيلَ لُهُ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْهَامُ ﴿١٧٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّخَفُوا رَبَّهُمْ لَمْ يَجْنُتْ خَيْرِي مِنْ تَحِيَّتِ الْأَنْهَرِ خَلِيدِينَ بِهَا نُزِّلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزَارِ ﴿١٧٨﴾ ﴿١٧٩﴾

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٠٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَابِرِينَ وَصَابِرَاتٍ وَرِاثَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا وَلِأَنْفُسِهِمْ لَكُمْ مِنْكُمْ قُلُوبٌ ﴿١١٠﴾﴾

يخبرُ تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، وبما أنزل على محمد، مع ما هم يؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله، أي: مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه، ﴿لَا يَشْرَتُونَ بِكَائِبَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا يكتمنون ما بأيديهم من البشارات بمحمد ﷺ، وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم، سواء كانوا هودًا أو نصارى. وقد قال تعالى في سورة القصص: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكُتُبُ مِنْ قَبْلِهِمْ بِهِ يَوْمُؤُنَ ۖ وَلَئِنْ بَلَغَ عَلَيْهِمْ قَالُوا مَأْمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّ كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُشْرِكِينَ ۝١٥١ أُولَئِكَ يَوْمَئِذٍ كَرِهَتْ أَعْيُنُهُمْ إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْهُمُ الْكِتَابَ بِمَا صَبَّأُوا ۖ وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكُتُبُ يَتْلَوْهُ حَقًّا وَلَا يَرَوُوهَ إِلَّا كُفْرًا وَلَئِنْ لَمْ يَنصَرُوا إِلَيْنَا لَنَكُنَّ مِنْهُمْ قِلًّا ۝١٥٢﴾ وقال تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهُودُوتَ يَلِيقُ وَبِهِمْ ۖ يَعْلَمُونَ ۝١٥٣﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِمَّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُ اللَّهُ مَأْنَاهُ أَتَىٰ اللَّهُ الْكَلِمَ الْكُلِّيَّ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝١٥٤﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَسْمِعُوا أَوْ لَا تَسْمِعُوا أَوْ لَا يَفْقَهُوا أَوْ لَا يَفْقَهُوا أَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَوْمَ الْبَيْتِ إِذْ أُنزِلَتْ السُّورَةُ عَلَى الْمَسْجِدِ فَأَنذَرْتُكُمْ لَإِذَا كَانَ أَوَّلُ الْيَوْمِ لَإِذَا يَأْتِيكُمُ الْمَلَكُ مِنْ فَوْقِكُمْ يَقُولُوا لِلنَّاسِ هَذَا نَبَأُ الْمَسْجِدِ وَإِنِ لَمُنَاسِكُ يَوْمَئِذٍ ۖ وَرَازِقُهُمْ وَأَنزَلَ الْكَافُورَ ۝١٥٦﴾ [الأنعام: ١٠٧-١٠٩]، وهذه الصفات توجد في اليهود، ولكن قليلا، كما وجد في عبد الله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أحوار اليهود ولم يبلغوا عشرة أنفس، وأما

النصارى فكثير منهم مهتدون وينقادون للحق، كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَتَمَرُكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ ذَلِكَ يَأْنٍ مِنْهُمْ فَيَبْسُوكَ وَهُمْ كَاثِبُونَ لَا يَتَضَرَّوْنَ ۚ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَرْسَلُوا رَجُلًا مِنْهُمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْ مَعَ الشَّاهِدِينَ ۚ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الْعَالِيِينَ ۚ﴾ فَأَنبَأَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ الْآيَةُ. وقد ثبت في الحديث أن جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، لما قرأ سورة ﴿كَهْفٍ﴾ بحضرة النجاشي ملك الحبشة، وعنده البطارقة والقساوسة بكى وبكوا معه، حتى أخضبوا لإحراقهم. وثبت في الصحيحين أن النجاشي لما مات نعاه النبي ﷺ إلى أصحابه، وقال: «إن أخاك لكم بالحبشة قد مات فصلوا عليه». فخرج بهم إلى الصحراء، فصمهم، وصلى عليه، وروى ابن أبي حاتم والحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: لما توفى النجاشي قال رسول الله ﷺ: «استغفروا لأخيكم». فقال بعض الناس: يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة. فنزلت: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ ۚ﴾. ورواه عبد بن حميد وابن أبي حاتم من طريق أخرى عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن الحسن، عن النبي ﷺ. ثم رواه ابن مردويه أيضا من طرق عن حنيد، عن أنس بن مالك بنحو ما تقدم. ورواه أيضا ابن جرير من حديث أبي بكر الهذلي، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن جابر قال: قال لنا رسول الله ﷺ حين مات النجاشي: «إن أخاكم أضحمة قد مات». فخرج رسول الله ﷺ فصلى كما يصلي على الجنائز فكبر عليه أربعاً، فقال المنافقون: يصلي على علج مات بأرض الحبشة، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَائِدَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝﴾.

وقد روى الحافظ أبو عبد الله الحاكم في مستدركه أنبأنا أبو العباس السيارى بمرو، حدثنا عبد الله بن علي الغزال، حدثنا علي بن الحسن بن شقيق، حدثنا ابن المبارك، أنبأنا مصعب بن ثابت، عن عامر بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه قال: نزل بالنجاشي عذو من أرضهم، فجاءه المهاجرون فقالوا: نحب أن نخرج إليهم حتى نقاتل معك، وتري جراتنا، ونجزيك بما صنعت بنا. فقال: لا، دواء بنصرة الله ﷻ خير من دواء بنصرة الناس. قال: وفيه نزلت: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ ۚ﴾. الآية، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقال أبو داود: حدثنا محمد بن عمرو الرازي، حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، حدثني يزيد بن رومان، عن عروة، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: لما مات النجاشي كنا نحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور. وقال ابن أبي نجيج، عن مجاهد: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ ۚ﴾. يعني: مسلمة أهل الكتاب. وقال عباد بن منصور: سألت الحسن البصري عن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ ۚ﴾. الآية. قال: هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد ﷺ، فاتبعوه وعرفوا الإسلام، فأعطاهم الله تعالى أجر اثنين للذي كانوا عليه من الإيمان قبل محمد ﷺ، وبالذي اتبعوا محمداً ﷺ. رواهما ابن أبي حاتم. وقد ثبت في الصحيحين، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتَوْنَ أَجْرَهُمْ مرتين» فذكر منهم: «ورجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي». وقوله: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِعَائِدَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ﴾ أي: لا يكتمون ما بأيديهم من العلم، كما فعله الطائفة المردولة منهم، بل يبدلون ذلك مجاناً؛ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۚ﴾. قال مجاهد: «سَرِيعُ الْحِسَابِ» يعني: سريع الإحصاء. رواه ابن أبي حاتم وغيره. وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبَرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ۚ﴾ قال الحسن البصري، رحمه الله: أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم، وهو الإسلام، فلا يدعو لسراء ولا لضرء ولا لشيء ولا ليرءاء، حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم. وكذا قال غير واحد من علماء السلف. وأما المراقبة فهي المداومة في مكان العبادة والثبات. وقيل: انتظار الصلاة بعد الصلاة، قاله مجاهد وابن عباس وسهل بن حنيفة، ومحمد بن كعب القُرظي، وغيرهم.

وروى ابن أبي حاتم ههنا الحديث الذي رواه مسلم والنسائي، من حديث مالك بن أنس، عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب، مولى الحرقة، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط». وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد، حدثنا موسى بن إسحاق حدثنا أبو جحيفة علي بن يزيد

الكوفي، أنبأنا ابن أبي كريمة، عن محمد بن يزيد، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: أقبل عليّ أبو هريرة يوماً فقال: أندري يا ابن أخي فيم نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاضُوا﴾؟ قلت: لا. قال: أما إنه لم يكن في زمان النبي ﷺ غزو يرابطون فيه، ولكنها نزلت في قوم يعمرّون المساجد، يصلّون الصلاة في مواقيتها، ثم يذكرون الله فيها، فعليهم أنزلت: ﴿أَصْبِرُوا﴾ أي: على الصلوات الخمس ﴿وَصَابِرُوا﴾ على أنفسكم وهواكم ﴿وَرَاضُوا﴾ في مساجدكم ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. وهكذا رواه الحاكم في مستدركه من طريق سعيد بن منصور بن المبارك عن مصعب بن ثابت، عن داود عن ابن صالح، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة - بنحوه. وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب، حدثني ابن فضيل، عن عبد الله بن سعيد المقبري، عن جده، عن شرحبيل، عن علي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يُكفّر الذنوب والخطايا؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط». وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا موسى بن سهل الرملي، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا محمد بن مهاجر، حدثني يحيى بن يزيد، عن زيد بن أبي أنيسة، عن شرحبيل، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يَمْحُو الله به الخطايا ويكفّر به الذنوب؟» قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضوء في أماكنها، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط». وقال ابن مَرْدُويه: حدثني محمد بن علي، أنبأنا محمد بن عبد الله بن عبد السلام البيروني، أنبأنا محمد بن غالب الأنطاكي، أنبأنا عثمان بن عبد الرحمن، أنبأنا الوازع بن نافع، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي أيوب، رضي الله عنه، قال: وقف علينا رسول الله ﷺ فقال: «هل لكم إلى ما يَمْحُو الله به الذنوب ويعظم به الأجر؟» قلنا: نعم، يا رسول الله، وما هو؟ قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة». قال: «وهو قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاضُوا وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾»، فذلك هو الرباط في المساجد وهذا حديث غريب من هذا الوجه جداً. وقال عبد الله بن المبارك، عن مُصْعَب بن ثابت بن عبد الله بن الزُّبَيْر، حدثني داود بن صالح قال: قال لي أبو سلمة بن عبد الرحمن: يا ابن أخي، هل تدري في أي شيء نزلت هذه الآية ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاضُوا﴾؟ قال: قلت: لا. قال: إنه - يا ابن أخي - لم يكن في زمان النبي ﷺ غزو يُرَاطَب فيه، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة. رواه ابن جرير، وقد تقدم سياق ابن مَرْدُويه، وأنه من كلام أبي هريرة، فالله أعلم. وقيل: المراد بالمرابطة ههنا مرابطة الغزو في نُحُور العدو، وحفظ نُحُور الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حَوْزَة بلاد المسلمين، وقد وردت الأخبار بالترغيب في ذلك، وذكُر كثرة الثواب فيه، فَرَوَى البخاري في صحيحه عن سَهْل بن سَعْد الساعدي، رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها».

حديث آخر: روى مسلم، عن سَلْمَانَ الفارسي، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جَرَى عليه عمله الذي كان يعمل، وأجره عليه رزقه، وأمن الفتان».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا ابن المبارك، عن حنيفة بن شريح، أخبرني أبو هانيء الخولاني، أن عمرو بن مالك الجنبي أخبره: أنه سمع فضالة بن عبيد يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ميت يُخْتَم على عمله، إلا الذي مات مُرَابِطاً في سبيل الله، فإنه يَتَمَّى له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن فتنة القبر». وهكذا رواه أبو داود، والترمذي من حديث أبي هانيء الخولاني. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه ابن حبان في صحيحه أيضاً.

حديث آخر: وروى الإمام أحمد أيضاً عن يحيى بن إسحاق وحسن بن موسى وأبي سعيد وعبد الله بن يزيد قالوا: حدثنا ابن لهيعة حدثنا مَشْرَح بن هاعان، سمعت عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ميت يُخْتَم على عمله، إلا المُرَابِط في سبيل الله، فإنه يجري عليه عمله حتى يُنْعَث ويأمن من الفتان». وروى الحارث بن محمد بن أبي أسامة في مسنده، عن المقبري وهو عبد الله بن يزيد، به إلى قوله: «حتى يبعث» دون ذكر «الفتان». وابن لهيعة إذا صرح بالتحديث فهو حَسَن، ولا سيما مع ما تقدم من الشواهد.

حديث آخر: قال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة في سننه: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا عبد الله بن وهب، أخبرني اللَّيْث، عن زُهْرَة بن مَعْبُد، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «من مات مُرَابِطاً في سبيل الله، أجرى عليه عمله الصالح الذي كان يعمل وأجرى عليه رزقه، وأمن من الفتان، وبعثه الله يوم القيامة آمناً من الفزع».

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا موسى، أنبأنا ابن لُؤَيْعَة، عن موسى بن زُردان، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «من مات مُرَابِطاً وفي فتنة القبر، وأمن من الفزع الأكبر، وعَدَاً عليه وريح برزقه من

الجنة، وكتب له أجر الرباط إلى يوم القيامة.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن محمد بن عمرو بن حنبل، عن الدؤلي، عن إسحاق بن عبد الله، عن أم الدرداء ترفع الحديث قالت: «من رباط في شيء من سواحل المسلمين ثلاثة أيام، أجزأت عنه رباط سنة».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا كهشمس، حدثنا مضعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير قال: قال عثمان، رضي الله عنه - وهو يخطب على منبره -: «إني محدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لم يكن يمتني أن أحدثكم به إلا الضن بكم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حَزَسَ لَيْلَةَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ يَقَامُ لَيْلَهَا وَيَصَامُ نَهَارَهَا». وهكذا رواه أحمد أيضاً عن رُوْح عن كهشمس عن مصعب بن ثابت، عن عثمان. وقد رواه ابن ماجة عن هشام بن عمار، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن مضعب بن ثابت، عن عبد الله بن الزبير قال: خطب عثمان بن عفان الناس فقال: يا أيها الناس، إني سمعت حديثاً من رسول الله ﷺ لم يمتني أن أحدثكم به إلا الضن بكم وبصحبائكم، فليختر مَخْتَارَ نفسه أو لِيَذْغ. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ رَابَطَ لَيْلَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَانَتْ كَأَلْفِ لَيْلَةٍ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا».

طريق أخرى عن عثمان رضي الله عنه: قال الترمذي: حدثنا الحسن بن علي الخلال، حدثنا هشام بن عبد الملك، حدثنا الليث بن سعد، حدثنا أبو عقيل زهرة بن مَعْبِد، عن أبي صالح مولى عثمان بن عفان قال: سمعت عثمان - وهو على المنبر - يقول: «إني كَتَمْتُكُمْ حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ كَرَاهِيَةً يَفْرُقُكُمْ عَنِّي، ثُمَّ بَدَأَ لِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْوه، ليختار امرأ لنفسه ما بدا له، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَنَازِلِ». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، قال محمد - يعني البخاري -: أبو صالح مولى عثمان اسمه بُزْكَان، وذكر غير الترمذي أن اسمه الحارث، فالله أعلم. وهكذا رواه الإمام أحمد من حديث الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة وعنده زيادة في آخره فقال - يعني عثمان -: فليرباط امرؤ كيف شاء، هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد.

حديث آخر: قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، حدثنا محمد بن الثُّنْكَدَر قال: مر سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ بِشَرْحِبِيلِ بْنِ السَّمْطِ، وهو في مُرَابَطٍ لَهُ، وَقَدْ شَقَّ عَلَيْهِ وَعَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَفَلَا أُحَدِّثُكُمْ - يَا ابْنَ السَّمْطِ - بِحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ - أَوْ قَالَ: خَيْرٌ - مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَمَنْ مَاتَ فِيهِ وَقِيَّةُ فَتْنَةِ الْقَبْرِ، وَنَمَى لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». تفرد به الترمذي من هذا الوجه، وقال: هذا حديث حسن. وفي بعض النسخ زيادة: وليس إسناده بمتصل، وابن المنكدر لم يدرك سلمان. قلت: الظاهر أن محمد بن المنكدر سمعه من شرحبيل بن السمط وقد رواه مسلم والنسائي من حديث مكحول وأبي عُبَيْدَةَ بْنِ عَقْبَةَ، كلاهما عن شرحبيل بن السمط - وله صحبة - عن سلمان الفارسي عن النبي ﷺ أنه قال: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأَجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمَّا الْفَتَانُ» وقد تقدم سياق مسلم بمفرده.

حديث آخر: قال ابن ماجة: حدثنا محمد بن إسماعيل بن سَمُرَةَ، حدثنا محمد بن يَغْلَى السُّلَمِيُّ، حدثنا عُمَرُ بْنُ صُبَيْحٍ، عن عبد الرحمن بن عَمْرٍو، عن مكحول، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «لِرِبَاطِ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مِنْ وَرَاءِ عَوْرَةِ الْمُسْلِمِينَ مُخْتَصِباً، مِنْ غَيْرِ شَهْرِ رَمَضَانَ، أَعْظَمُ أَجْراً مِنْ عِبَادَةِ مِائَةِ سَنَةٍ، صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا. وَرِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مِنْ وَرَاءِ عَوْرَةِ الْمُسْلِمِينَ مُحْتَسِباً، مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَعْظَمُ أَجْراً - أَرَاهُ قَالَ -: مِنْ عِبَادَةِ أَلْفِ سَنَةٍ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا، فَإِنْ رَدَّ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى أَهْلِهِ سَالِماً، لَمْ تَكُتْ عَلَيْهِ سِتَّةُ أَلْفِ سَنَةٍ، وَتَكُتْ لَهُ الْحَسَنَاتُ، وَيُجْزَى لَهُ أَجْرُ الرِّبَاطِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، بَلْ مُتَكَرَّرٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَعُمَرُ بْنُ صُبَيْحٍ مُتَّهَمٌ.

حديث آخر: قال ابن ماجة: حدثنا عيسى بن يونس الرَّمْلِيُّ، حدثنا محمد بن شُعَيْبٍ بن شَابُور، عن سعيد بن خالد بن أبي طویل، سمعت أنس بن مالك يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حَزَسَ لَيْلَةَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ صِيَامِ رَجُلٍ وَقِيَامِهِ فِي أَهْلِهِ أَلْفَ سَنَةٍ: السَّنَةُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ يَوْماً، وَالْيَوْمُ كَأَلْفِ سَنَةٍ». وهذا حديث غريب أيضاً، وسعيد بن خالد هذا ضَعَفَهُ أَبُو زُرْعَةَ وغير واحد من الأئمة، وقال العقيلي: لا يتابع على حديثه. وقال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به، وقال الحاكم: روى عن أنس أحاديث موضوعة.

حديث آخر: قال ابن ماجة: حدثنا محمد بن الصَّبَّاح، أنبأنا عبد العزيز بن محمد، عن صالح بن مُحَمَّد بن زائدة، عن

عُمَرَ بن عبد العزيز، عن عقبة بن عامر الجهني قال: قال رسول الله ﷺ «رحم الله حارس الحرس». فيه انقطاع بين عمر بن عبد العزيز وبين عقبة بن عامر، فإنه لم يدركه، والله أعلم.

حديث آخر: قال أبو داود: حدثنا أبو توبة، حدثنا معاوية - يعني ابن سلام عن زيد - يعني ابن سلام - أنه سمع أبا سلام قال: حدثني السلولي: أنه حدثه سهل بن الحنظلية: أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حُنين، فاطنّبوا السير حتى كانت غُشَيَّة، فحضرت الصلاة مع رسول الله ﷺ، فجاء رجل فارس فقال: يا رسول الله، إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعيمهم وشانهم، اجتمعوا إلى حنين، فتبسم النبي ﷺ وقال: «تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله تعالى». ثم قال: «من يحرسنا الليلة؟» قال أنس بن أبي مرثد: أنا يا رسول الله. فقال: «فاركب» فركب فرساً له، فجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه ولا تُغْرَبُ من قبلك الليلة» فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاة فركع ركعتين ثم قال: «هل أحسستم فارسكم؟» قال رجل: يا رسول الله، ما أحسنه، فثوب بالصلاة، فجعل النبي ﷺ، وهو يصلي يلتفت إلى الشعب، حتى إذا قضى صلاته قال: «أُبشروا فقد جاءكم فارسكم» فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشعب، فإذا هو قد جاء، حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال: إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشعب حيث أمرني رسول الله ﷺ، فلما أصبحت طلعت الشعين كليهما، فنظرت فلم أر أحداً، فقال له رسول الله ﷺ: «هل نزلت الليلة؟» قال: لا، إلا مصلياً أو قاضياً حاجة، فقال له: «أُوجِبَتْ، فلا عليك ألا تعمل بعدها». ورواه النسائي عن محمد بن يحيى بن محمد بن كثير الحراني، عن أبي توبة وهو الربيع بن نافع به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنا عبد الرحمن بن شريح، سمعت محمد بن شَمِير الرُّعَيْنِي يقول: سمعت أبا عامر النُّجَيْي. قال الإمام أحمد: وقال غير زيد: أبا علي الجُنَيْي يقول: سمعت أبا ريحانة يقول: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فأتينا ذات ليلة إلى شَرْف فَبَيْتْنَا عليه، فأصابنا برد شديد، حتى رأيت مَنْ يحفر في الأرض حفرة، يدخل فيها ويلقي عليه الجحفة - يعني الثرس - فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ من الناس نادى: «من يَحْرُسُنَا في هذه الليلة فادعوا له بدعاء يكون له فيه فضل؟» فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله. فقال: «إِذْ» فدنا، فقال: «من أنت؟» فتسمى له الانصاري، ففتح رسول الله ﷺ بالدعاء، فأكثر منه. فقال أبو ريحانة: فلما سمعت ما دعا به رسول الله ﷺ قلت: أنا رجل آخر. فقال: «إِذْ». فدنوت. فقال: «من أنت؟» قال: فقلت: أنا أبو ريحانة. فدعا بدعاء هو دون ما دعا للانصاري، ثم قال: «حَرَمَتِ النار على عَيْنٍ دَمَعَتْ - أو بَكَتْ - من حَشِيَّةِ الله، وحرمت النار على عين مَهْرَتْ في سَبِيلِ الله». وروى النسائي منه: «حرمت النار...» إلى آخره عن عَصَمَةَ بن الفضل، عن زيد بن الحباب به، وعن الحارث بن مسكين، عن ابن وهب، عن عبد الرحمن بن شريح، به، وأتم، وقال في الروایتين: عن أبي علي الجنبی.

حديث آخر: قال الترمذي: حدثنا نصر بن علي الجهضمي، حدثنا بشر بن عَمَر، حدثنا شعيب بن رَزِيق أبو شَيْبَةَ، حدثنا عطاء الخراساني، عن عطاء بن أبي رَباح، عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النار: عَيْنٌ بَكَتْ من حَشِيَّةِ الله، وعَيْنٌ باتت تَحْرُسُ في سَبِيلِ الله». ثم قال: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث شُعَيْب بن رَزِيق، قال: وفي الباب عن عثمان وأبي ريحانة. قلت: وقد تقدما، والله الحمد.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن عَمِلَانَ، حدثنا رشدين، عن زَبَّان عن سهل بن معاذ عن أبيه معاذ بن أنس، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «من حَرَسَ من وراء المسلمين في سَبِيلِ الله، متطوعاً لا بأجرة سلطان، لم ير النار بعينه إلا تَحَلَّه النَّسَم، فإن الله يقول: ﴿وَلَنْ يَنْكَرَ لَأَ وَارِدُهَا﴾ [مریم: ٧١]. تفرد به أحمد رحمه الله تعالى.

حديث آخر: روى البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «تَوَسَّعَ عبد الدينار وعبد الدُرْهَم وعبد الحُمَيْصَة، إن أُعْطِيَ رضي، وإن لم يُعْطَ سَخِطَ، تَعَسَّ وانتَكَسَ، وإذا شِيك فلا انْتَقَشَ، طُوبَى لَعَبْدٍ أَخَذَ بَعَنَانَ قَرْسِهِ في سَبِيلِ الله، أشعث رأسه، مُتَبَرِّجاً قدامه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في السَّاقَة كان في السَّاقَة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شَفَعَ لم يُشَفَّعْ». فهذا ما تَبَيَّنَ إيرادُه من الأحاديث المتعلقة بهذا المقام، والله الحمد على جزيل الإنعام، على تعاقب الأعوام والأيام.

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا مَطَرُف بن عبد الله المدني، حدثنا مالك، عن زيد بن أسلم قال: كتب أبو عبيدة، رضي الله عنه، إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يذكر له جموعاً من الروم وما يتخوف منهم، فكتب إليه عمر: أما بعد، فإنه مهما يَنْزِلُ بعبد مؤمن من مَنَزِلَةٍ شدة يجعل الله بعدها فرجاً، وإنه لن يغلب عُسْرُ يسرين، وإن الله تعالى يقول في كتابه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن المبارك، من طريق محمد بن إبراهيم بن أبي سكينه قال: أُملى عليّ عبد الله بن المبارك هذه الآيات بطرسوس، وودعته للخروج، وأنشدها معي إلى الفضيل بن عياض في سنة سبعين ومائة، وفي رواية: سنة سبع وسبعين ومائة:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا
من كان يخضب خدّه بدموعه
أو كان يُثعبُ خيلَه في باطل
ربح العبير لكم، ونحن عبيدنا
ولقد أتانا من مقال نبينا
لا يستوي وعبار خيل الله في
هذا كتاب الله ينطق بيننا

قال: فلقيت الفضيل بن عياض بكتابه في المسجد الحرام، فلما قرأه ذرقت عيناه وقال: صدق أبو عبد الرحمن، ونصحتني، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قال: قلت: نعم. قال: فاكتب هذا الحديث كراء حملك كتاب أبي عبد الرحمن إلينا. وأُملى عليّ الفضيل بن عياض: حدثنا منصور بن المعتمر، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، أن رجلاً قال: يا رسول الله، علمني عملاً أنا له ثواب المجاهدين في سبيل الله. فقال: «هل تستطيع أن تُصلي فلا تُفتر، وتصوم فلا تُفطر؟» فقال: يا رسول الله، أنا أضعف من أن أستطيع ذلك، ثم قال النبي ﷺ: «فوالذي نفسي بيده لو طوّقت ذلك ما بلغت المجاهدين في سبيل الله، أو ما علمت أن فرس المجاهد ليستنّ في طوله، فيكتب له بذلك الحسنات». وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم وأحوالكم، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حيث بعثه إلى اليمن: «أتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن». ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة. وقال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أنبأنا أبو صخر، عن محمد بن كعب القرظي: أنه كان يقول في قول الله ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: واتقوا الله فيما بيني وبينكم، لعلكم تفلحون غداً إذا لقيتوني.

آخر تفسير سورة آل عمران،

وشه الحمد والمنة، نساله الموت على الكتاب والسنة



تفسير سورة النساء

وهي مدنية. قال العوفي عن ابن عباس: نزلت سورة النساء بالمدينة. وكذا روى ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير، وزيد بن ثابت، وروى من طريق عبد الله بن لهيعة، عن أخيه عيسى، عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نزلت سورة النساء قال رسول الله ﷺ: «لا حبس». وقال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أبو البختري عبد الله بن محمد بن شاكر، حدثنا محمد بن بشر العبدي، حدثنا مسعر بن كدام، عن مَعْن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: إن في سورة النساء لخمسة آيات ما يُشترى أن لي بها الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية، و ﴿إِنْ تَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية، و ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، و ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ الآية، و ﴿وَمَنْ يَمَلْ سَوْءًا أَوْ يظلم نفسه ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. ثم قال: هذا إسناده صحيح إن كان عبد الرحمن سمع من أبيه، فقد اختلف في ذلك. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن رجل، عن ابن مسعود قال في خمس آيات من النساء: لهن أحب إلي من الدنيا جميعاً: ﴿إِنْ تَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَلَنْ تَكُ حَسَنَةً يُصَوِّفُهَا﴾، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ يَمَلْ سَوْءًا أَوْ يظلم نفسه ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يَقُولُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَوْلِيَّكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. رواه ابن جرير: ثم روى من طريق صالح المعري، عن قتادة، عن ابن عباس قال: ثمان آيات نزلت في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس

وغربت، أولاهن: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ لِيُثَبِّتَ لَكُمْ دِينَكُمْ سَتَقَبَلُونَهُ كَيْفَ يُرِيدُ اللَّهُ شَيْئًا فَإِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُؤْتِي﴾. ثم ذكر قول ابن مسعود سواء، يعني في الخمسة الباقية. وروى الحاكم من طريق أبي نعيم، عن سفيان بن عيينة، عن عبيد الله بن أبي يزيد، عن ابن أبي مليكة: سمعت ابن عباس يقول: سلوني عن سورة النساء، فإني قرأت القرآن وأنا صغير. ثم قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

يقول تعالى أمراً خلقه بتقواه، وهي عبادته وحده لا شريك له، ومُنْتَبِهاً لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة، وهي آدم، عليه السلام ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي حواء، عليها السلام، خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم، فاستيقظ فراها فأعجبته، فأنس إليها وأنست إليه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن مقاتل، حدثنا وكيع، عن أبي هلال، عن قتادة، عن ابن عباس قال: خُلِقَتِ المرأة من الرجل، فجعل نَهْمَتُهَا في الرجل، وخلق الرجل من الأرض، فجعل نَهْمَتُهُ في الأرض، فاحسبوا نساءكم. وفي الحديث الصحيح: «إن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن استمعت بها استمعت بها وفيها عوج». وقوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ أي: وذراً منهما، أي: من آدم وحواء رجالاً كثيراً ونساء، ونَشَرَهُمْ في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر. ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ أي: واتقوا الله بطاعتكم إياه، قال إبراهيم ومجاهد والحسن: ﴿الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ أي: كما يقال: أسألك بالله وبالرحم. وقال الضحاك: واتقوا الله الذي به تعاقدون وتعاهدون، واتقوا الأرحام أن تقطعوا، ولكن بروها وصلوها، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، والضحاك، والربيع وغير واحد. وقرأ بعضهم: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ بالخفض على العطف على الضمير في به، أي: تساءلون بالله وبالأرحام، كما قال مجاهد وغيره. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أي: هو مراقب لجميع أعمالكم وأحوالكم كما قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ١٩]. وفي الحديث الصحيح: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب؛ ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة؛ ليعطف بعضهم على بعض، ويحتنهم على ضعفائهم، وقد ثبت في صحيح مسلم، من حديث جرير بن عبد الله البجلي؛ أن رسول الله ﷺ حين قدم عليه أولئك النفر من مَضَر - وهم مُجَنَّبُو النُمار - أي من غُرُبهم وقُفْرهم - قام فَخَطَبَ الناس بعد صلاة الظهر فقال في خطبته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]. ثم ختم الآية: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١٨]. ثم خُصِّصَ على الصدقة فقال: ﴿تَصَدَّقْ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ...﴾ وذكر تمام الحديث. وهكذا رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود في خُطْبَةِ الحاجة، وفيها ثم يقرأ ثلاث آيات هذه منها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

﴿وَمَا أَمْوَالُ الْيَتَامَىٰ وَالْمَالُ عَلَىٰ يَدَيْهِمْ إِذَا بَلَغُوا الْحُلُمَ كَامِلَةٌ مَوْفُورَةٌ، وَيُنْهَىٰ عَنْ أَكْلِهَا وَضَمِّهَا إِلَىٰ أَمْوَالِهِمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا لَمَنَظِيرًا﴾﴾. قال سفيان الثوري، عن أبي صالح: لا تغفل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الرزق الحلال الذي قدر لك. وقال سعيد بن جبيرة: لا تبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم، يقول: لا تبدلوا أموالكم الحلال وتأكلوا أموالهم الحرام. وقال سعيد بن المسيب والزهرى: لا تُعْطَ مهزولاً وتأخذ سميناً. وقال إبراهيم النخعي والضحاك: لا تعط زائفاً وتأخذ جيداً. وقال السدي: كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم، ويجعل فيها مكانها الشاة المهزولة، ويقول: شاة بشاة، ويأخذ الدرهم الجيد ويطرح مكانه الزيف، ويقول: درهم بدرهم. وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ الَّتِي أَمْوَالُكُمْ﴾ قال مجاهد،

وسعيد بن جبير، ومقاتل بن حيان، والسدي، وسفيان بن حسين: أي لا تخلطوها فتأكلوها جميعاً. وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُبًّا كَبِيرًا﴾ قال ابن عباس: أي إثمًا كبيراً عظيماً. وقد رواه ابن مردويه، عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿حُبًّا كَبِيرًا﴾ قال: «إثمًا كبيراً». ولكن في إسناده محمد بن يونس الكندي وهو ضعيف. وهكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وابن سيرين، وقادة، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وأبي مالك، وزيد بن أسلم، وأبي سنان مثل قول ابن عباس. وفي الحديث المروي في سنن أبي داود: «اغفر لنا حوبنا وخطايانا». وروى ابن مردويه بإسناده إلى واصل، مولى أبي عبيدة، عن محمد بن سيرين، عن ابن عباس: أن أبا أيوب طلق امرأته، فقال له النبي ﷺ: «يا أبا أيوب، إن طلاق أم أيوب كان حوباً» قال ابن سيرين: الحوب الإثم. ثم قال ابن مردويه: حدثنا عبد الباقي، حدثنا بشر بن موسى، أخبرنا هروذ بن خليفة، أخبرنا عوف، عن أنس: أن أبا أيوب أراد طلاق أم أيوب، فاستأذن رسول الله ﷺ فقال: «إن طلاق أم أيوب لحوب فأمسكها»، ثم رواه ابن مردويه والحاكم في مستدركه من حديث علي بن عاصم، عن حميد الطويل، سمعت أنس بن مالك يقول: أراد أبو طلحة أن يطلق أم سليم فقال النبي ﷺ: «إن طلاق أم سليم لحوب» فكف.

والمعنى: إن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم وخطأ كبير فاجتنبوه. وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتًى﴾ أي: إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة وخاف ألا يعطيها مهر مثلها، فليعدل إلى ما سواها من النساء، فإنهن كثير، ولم يضيق الله عليه. وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام، عن ابن جريج، أخبرني هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: أن رجلاً كانت له يتيمة فنكحها، وكان لها عذق. وكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء فنزلت فيه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾. أحسبه قال: كانت شريكته في ذلك العذق وفي ماله. ثم قال البخاري: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ قالت: يا ابن أخي، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبها ماله وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويلبوا بهن أعلى سنتهن في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن. قال عروة: قالت عائشة: وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية، فأنزل الله تعالى: ﴿وَسَتَقُونَكُمْ فِي النِّسَاءِ﴾ قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرى: ﴿وَرَبَّيْنَاهُنَّ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧] رغبة أحدكم عن يتيمة حين تكون قليلة المال والجمال. فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في ماله وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهن عنهن إذا كن قليلات المال والجمال.

وقوله: ﴿مَتًى وَتِلْكَ رِبْعٌ﴾ أي: انكحوا ما شئتم من النساء سواهن إن شاء أحدكم ثنتين، وإن شاء ثلاثاً وإن شاء أربعاً، كما قال تعالى: ﴿جَائِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسلًا أُولَى الْأَجْمَعِ مَتًى وَتِلْكَ رِبْعٌ﴾ [فاطر: ١] أي: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ولا ينفي ما عدا ذلك في الملائكة لدلالة الدليل عليه، بخلاف قصر الرجال على أربع، فمن هذه الآية كما قاله ابن عباس وجمهور العلماء؛ لأن المقام مقام امتنان وإباحة، فلو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لذكره. قال الشافعي: وقد دلت سنة رسول الله ﷺ المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة. وهذا الذي قاله الشافعي، رحمه الله، مجمع عليه بين العلماء، إلا ما حكى عن طائفة من الشيعة أنه يجوز الجمع بين أكثر من أربع إلى تسع. وقال بعضهم: بلا حصر. وقد يتمسك بعضهم بفعل النبي ﷺ في جمعه بين أكثر من أربع إلى تسع كما ثبت في الصحيحين، وإما إحدى عشرة كما جاء في بعض ألفاظ البخاري. وقد علقه البخاري، وقد روي عن أنس أن رسول الله ﷺ تزوج بخمس عشرة امرأة، ودخل منهن بثلاث عشرة، واجتمع عنده إحدى عشرة ومات عن تسع. وهذا عند العلماء من خصائص رسول الله ﷺ دون غيره من الأمة، لما سنذكره من الأحاديث الدالة على الحصر في أربع.

ذكر الأحاديث في ذلك:

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل ومحمد بن جعفر قالا: حدثنا معمر، عن الزهري. قال ابن جعفر في حديثه: أنبأنا ابن شهاب، عن سالم، عن أبيه: أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحتة عشرة نسوة، فقال له النبي ﷺ: اختر منهن أربعاً. فلما كان في عهد عمر طلق نساءه، وقسم ماله بين بنيه، فبلغ ذلك عمر فقال: إني لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك ففقد في نفسك ولعلك لا تمكث إلا قليلاً. وإيم الله لتراجعن نساءك ولترجعن في مالك أو لأورثنهن منك، ولأمرن بقبرك فيرجم، كما رجم قبر أبي رغال. وهكذا رواه الشافعي والترمذي وابن ماجة والدارقطني والبيهقي وغيرهم عن

إسماعيل بن عُلَيْبٍ وَعُثْمَرُ وَيزيد بن زُرَيْعٍ وسعيد بن أبي عَرُوبَةَ، وسفيان الثوري، وعيسى بن يونس، وعبد الرحمن بن محمد المحاربي، والفضل بن موسى وغيرهم من الحفاظ، عن مَعْمَرٍ - بإسناده - مثله إلى قوله: اختر منهن أربعاً. وباقى الحديث في قصة عمر من أفراد أحمد، وهي زيادة حسنة، وهي مضغعة لما علل به البخاري هذا الحديث فيما حكاه عنه الترمذي، حيث قال بعد روايته له: سمعتُ البخاري يقول: هذا حديث غير محفوظ، والصحيح ما روى شُعَيْبٌ وغيره، عن الزهري، حَدَّثْتُ عَنْ محمد بن سُوَيْدٍ الثَّقَفِيِّ أَنَّ غِيلَانَ بن سلمة، فذكره. قال البخاري: وإنما حديث الزهري عن سالم عن أبيه: أن رجلاً من ثَقِيفٍ طلق نساءه، فقال له عمر: لتراجعن نساءك أو لأرجمن قبرك كما رجم قبر أبي رَعَالٍ. وهذا التعليل فيه نظر، والله أعلم. وقد رواه عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن الزهري مرسلًا. وهكذا رواه مالك، عن الزهري مرسلًا. قال أبو زرعة: وهو أصح. قال البيهقي: ورواه عقيل، عن الزهري: بلغنا عن عثمان بن محمد بن أبي سويد. قال أبو حاتم: وهذا وهم، إنما هو الزهري عن عثمان بن أبي سويد بلغنا أن رسول الله ﷺ، فذكره.

قال البيهقي: ورواه يونس وابن عُيَيْنَةَ، عن الزهري، عن محمد بن أبي سويد. وهذا كما علله البخاري. وهذا الإسناد الذي قدمناه من مسند الإمام أحمد رجاله ثقاتٌ على شرط الصحيحين. ثم قد رُوِيَ من غير طريق مَعْمَرٍ، بل والزهري قال الحفاظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو علي الحافظ، حدثنا أبو عبد الرحمن النسائي، حدثنا أبو بَرِيدٍ عَمْرُو بن يزيد الجرمي، أخبرنا سيف بن عُبيد، حدثنا سُرَّار بن مُجَشَّر، عن أيوب، عن نافع وسالم، عن ابن عمر: أن غيلان بن سلمة كان عنده عشر نسوة فأسلم وأسلمن معه، فأمره النبي ﷺ أن يختار منهن أربعاً. هكذا أخرجه النسائي في سننه. قال أبو علي بن السكن: تفرد به سرار بن مُجَشَّر وهو ثقة، وكذا وثقه ابن معين. قال أبو علي: وكذلك رواه السَّيْدُوع بن وَاهِب، عن سرار. قال البيهقي: وروينا من حديث قيس بن الحارث أو الحارث بن قيس، وعروة بن مسعود الثقفي، وصفوان بن أمية - يعني حديث غيلان بن سلمة. فوجه الدلالة أنه لو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لسوغ له رسول الله ﷺ سائرهن في بقاء العشرة وقد أسلمن معه، فلما أمره بإمساك أربع وفراق سائرهن دل على أنه لا يجوز الجمع بين أكثر من أربع بحال، وإذا كان هذا في الدوام، ففي الاستئناف بطريق الأولى والأخرى، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

حديث آخر في ذلك: روى أبو داود وابن ماجة في سنتهما، من طريق محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن حُمَيْضَةَ بن الشَّمْرَدَل - وعند ابن ماجة: بنت الشمردل، وحكى أبو داود أن منهم من يقول: الشمردل بالذال المعجمة - عن قيس بن الحارث. وعند أبي داود في رواية: الحارث بن قيس بن عميرة الأسدي قال: أسلمت وعندي ثمانى نسوة، فذكرت للنبي ﷺ فقال: «اختر منهن أربعاً». وهذا الإسناد حسن، ومجرد هذا الاختلاف لا يضر مثله، لما للحديث من الشواهد.

حديث آخر في ذلك: قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، رحمه الله، في مسنده: أخبرني من سمع ابن أبي الزُّنَاد يقول: أخبرني عبد المجيد بن سَهْلٍ بن عبد الرحمن بن عوف بن الحارث، عن نوفل بن معاوية الديلي، رضي الله عنه، قال: أسلمت وعندي خمس نسوة، فقال لي رسول الله ﷺ: «اختر أربعاً أيتهن شئت، وفارق الأخرى»، فَعَمَدْتُ إلى أقدمهن صحبة عجوز عاقر معي منذ ستين سنة، فطلقتها. فهذه كلها شواهد بصفة ما تقدم من حديث غِيلَانَ كما قاله الحفاظ أبو بكر البيهقي، رحمه الله. وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: فإن خشيتن من تعداد النساء ألا تعدلوا بينهن، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩] فمن خاف من ذلك فيقتصر على واحدة، أو على الجواري السراي، فإنه لا يجب قسم بينهن، ولكن يستحب فمن فعل فحسن، ومن لا فلا حرج. وقوله: ﴿ذَلِكَ أَتَىكَ آلَا تَقُولُوا﴾ قال بعضهم: أي أدنى ألا تكثر عائلتك. قاله زيد بن أسلم وسفيان بن عيينة والشافعي، رحمهم الله، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي: فقرأ ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٢٨] وقال الشاعر:

فَمَا يَدْرِي الْفَقِيرَ مَتَى غِنَاهُ وَمَا يَدْرِي الْغَنِيَّ مَتَى يَعْجِلُ
وتقول العرب: عال الرجل يعيل عَيْلَةً، إذا افتقر ولكن في هذا التفسير ههنا نظر؛ فإنه كما يخشى كثرة العائلة من تعداد الحرائر، كذلك يخشى من تعداد السراي أيضاً. والصحيح قول الجمهور: ﴿ذَلِكَ أَتَىكَ آلَا تَقُولُوا﴾ أي: لا تجوروا. يقال: عال في الحكم: إذا قَسَطَ وظلم وجار، وقال أبو طالب في قصيدته المشهورة:

بِمِيزَانٍ قَسِطٍ لَا يَخِيْسُ شَعْبِيرَةً لَهُ شَاهِدٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرُ عَائِلٍ
وقال هُشَيْمٌ: عن أبي إسحاق قال: كتب عثمان بن عفان إلى أهل الكوفة في شيء عاتبوه فيه: إني لست بميزان لا أعول. رواه

ابن جرير. وقد روى ابن أبي حاتم، وابن مَرْدُويه، وأبو حاتم ابن جَبَّان في صحيحه، من طريق عبد الرحمن بن إبراهيم دُخَيْم، حدثنا محمد بن شعيب، عن عمر بن محمد بن زيد، بن عبد الله بن عمر، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة عن النبي ﷺ: ﴿لَا تَتَوَلَّوْا﴾ قال: «لا تجوروا». قال ابن أبي حاتم: قال أبي: هذا حديث خطأ، والصحيح: عن عائشة. موقوف. وقال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عباس، وعائشة، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وأبي مالك، وأبي زَرِين، والشَّعْبِي، والشَّعْبِي، والضَّحَّاك وعطاء الخراساني، وقتادة، والسُّدِّي، ومُقاتِل بن حَيَّان: أنهم قالوا: لا تميلوا. وقد استشهد عِكْرَمَة، رحمه الله، ببيت أبي طالب الذي قدمناه، ولكن ما أنشده كما هو المروي في السيرة، وقد رواه ابن جرير، ثم أنشده جيداً، واختاره ذلك. وقوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: النحلة: المهر. وقال محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة: نحلة: فريضة. وقال مقاتل وقتادة وابن جُرَيْج: نحلة: أي فريضة. زاد ابن جريج: مسماة. وقال ابن زيد: النحلة في كلام العرب: الواجب، يقول: لا تنكحها إلا بشيء واجب لها، وليس ينبغي لأحد بعد النبي ﷺ أن ينكح امرأة إلا بصداق واجب، ولا ينبغي أن يكون تسمية الصداق كذباً بغير حق. ومضمون كلامهم: أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتماً، وأن يكون طيب النفس بذلك، كما يمنح المنيحة ويعطي النحلة طيباً بها، كذلك يجب أن يعطي المرأة صداقها طيباً بذلك، فإن طابت هي له به بعد تسميته أو عن شيء منه فليأكله حلالاً طيباً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَكُلُوهُ هَنِيئًا رَئِيًا﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِي، عن سفيان، عن السدي، عن يعقوب بن المغيرة بن شعبة، عن علي قال: إذا اشتكى أحدكم شيئاً، فليَسأل امرأته ثلاثة دراهم أو نحو ذلك، فليبتع بها عسلاً، ثم ليأخذ ماء السماء فيجتمع هنيئاً مريئاً شفاء مباركاً. وقال هُشَيْم، عن سيار، عن أبي صالح قال: كان الرجل إذا زوج ابنته أخذ صداقها دونها، فنهاهم الله عن ذلك، ونزل: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَتِهِنَّ نِحْلَةً﴾. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وكيع، عن سفيان عن عمير الخثعمي، عن عبد الملك بن المغيرة الطائفي، عن عبد الرحمن بن البيلماني قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَتِهِنَّ نِحْلَةً﴾. قالوا: يا رسول الله، فما العلائق بينهم؟ قال: «ما تراضى عليه أهلوه». وقد روى ابن مَرْدُويه من طريق حَجَّاج بن أُرْطَاة، عن عبد الملك بن المغيرة، عن عبد الرحمن بن البيلماني، عن عمر بن الخطاب قال: خطبَ رسول الله ﷺ فقال: «أنكحوا الأيامي ثلاثاً، فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله، ما العلائق بينهم؟ قال «ما تراضى عليه أهلوه». ابن البيلماني ضعيف، ثم فيه انقطاع أيضاً.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا رِزْقًا وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ وَاللَّهُ يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ إِنَّهٗ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾

ينهى تعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياماً، أي: تقوم بها معاشهم من التجارات وغيرها. ومن ههنا يؤخذ الحجر على السفهاء، وهم أقسام: فتارة يكون الحجر للصغر؛ فإن الصغير مسلوب العبارة. وتارة يكون الحجر للجنون، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين، وتارة يكون الحجر للقلس، وهو ما إذا أحاطت الدين برجل وضاق ماله عن وفائها، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحجر عليه حَجَرَ عليه. وقد قال الضحَّاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ قال: هم بُنُوك والنساء، وكذا قال ابن مسعود، والحكم بن عَتِيبة، والحسن، والضحَّاك: هم النساء والصبيان. وقال سعيد بن جُبَيْر: هم اليتامى. وقال مجاهد وعكرمة وقتادة: هم النساء. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عَمَّار، حدثنا صدقة بن خالد، حدثنا عثمان بن أبي العاتكة، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «وإن النساء السفهاء إلا التي أطاعت قِيَمَهَا». ورواه ابن مَرْدُويه مطولاً. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن مسلم بن إبراهيم، حدثنا حَزْب بن سُرَيْج، عن معاوية بن قرة، عن أبي هريرة ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ قال: الخدم، وهم شياطين الإنس وهم الخدم. وقوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول تعالى: لا تَعْمَدُ إلى مالك وما حَوْلَكَ الله، وجعله معيشة، فتعطيه امرأتك أو بَنِيكَ، ثم تنظر إلى ما في أيديهم، ولكن أَمْسِكْ مالك وأصلحْه، وكن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن فراس، عن الشعبي، عن أبي بَزْدَة، عن أبي موسى قال: ثلاثة يدعون الله فلا يستجيب لهم: رجل كانت له امرأة سَيِّئَة الخُلُق فلم يُطْلِقْهَا،

ورجل أعطى ماله سفياً، وقد قال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾، ورجل كان له على رجل دين فلم يشهد عليه.

وقال مجاهد: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مِّثْرًا﴾: يعني في البر والصلة. وهذه الآية الكريمة انتظمت الإحسان إلى العائلة، ومن تحت الحجر بالفعل، من الإنفاق في الكساوي والأزواق والكلام الطيب، وتحسين الأخلاق. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَلْتُمْ﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، والسدي، ومقاتل بن حيان: أي اختبروهم ﴿عَنْ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾، قال مجاهد: يعني الحُلُم. قال الجمهور من العلماء: البلوغ في الغلام تارة يكون بالحُلُم، وهو أن يرى في منامه ما ينزل به الماء الدافق الذي يكون منه الولد. وقد روى أبو داود في سننه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: حفظت من رسول الله ﷺ: «لا يُثم بعد احتلام، ولا ضَمَات يوم إلى الليل». وفي الحديث الآخر عن عائشة وغيرها من الصحابة، رضي الله عنهم، عن النبي ﷺ قال: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وَعَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنْ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ». أو يستكمل خمس عشرة سنة، وأخذوا ذلك من الحديث الثابت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر قال: عُرِضْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة، فلم يجزني، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني، فقال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز - لما بلغه هذا الحديث - إن هذا الفرق بين الصغير والكبير. واختلفوا في إنبات الشعر الخشن حول الفرج، وهو الشُعْرَة، هل تَذَل على بلوغ أم لا؟ على ثلاثة أقوال، يفرق في الثالث بين صبيان المسلمين، فلا يدل على ذلك لاحتمال المعالجة، وبين صبيان أهل الذمة فيكون بلوغاً في حقهم؛ لأنه لا يتعجل بها إلا ضرب الجزية عليه، فلا يعالجه. والصحيح أنها بلوغ في حق الجميع لأن هذا أمر جبلي يستوي فيه الناس، واحتمال المعالجة بعيد، ثم قد دلت السنة على ذلك في الحديث الذي رواه الإمام أحمد، عن عَطِيَّةِ الْقُرْظِيِّ، رضي الله عنه قال: عُرِضْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يوم قُرَيْظَةَ فكَانَ مِنْ أَثْبَتِ قَتْلٍ، وَمَنْ لَمْ يُثْبِتْ خَلَى سَبِيلَهُ، فَكَتَبْتُ فِيمَنْ لَمْ يُثْبِتْ، فَخَلَى سَبِيلِي. وقد أخرجه أهل السنن الأربعة بنحوه، وقال الترمذي: حسن صحيح. وإنما كان كذلك؛ لأن سعد بن معاذ، رضي الله عنه، كان قد حكم فيهم بقتل مقاتلة وسبي الذرية. وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب «الغريب»: حدثنا ابن عليه، عن إسماعيل بن أمية، عن محمد بن يحيى بن حبان، عن عمر: أن غلاماً ابتهر جارية في شعره، فقال عمر، رضي الله عنه: انظروا إليه. فلم يوجد أثبت، فذَرَأَ عَنْهُ الْحَدَّ. قال أبو عُبَيْدٍ: ابتهرها: أي قذفها، والابتهار أن يقول: فعلت بها وهو كاذب. فإن كان صادقاً فهو الابتيار، قال الكهيت في شعره:

قَبِيحٌ بِمِثْلِي نَعْتُ الْفَتَاةِ إِمَّا ابْتِهَاراً وَإِمَّا ابْتِيَاراً

وقوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ بِمِثْلِهِ مُشْكُونَ فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾. قال سعيد بن جبير: يعني صلاحاً في دينهم وحفظاً لأموالهم. وكذا روي عن ابن عباس، والحسن البصري، وغير واحد من الأئمة. وهكذا قال الفقهاء متى بلغ الغلام مُضِلِحاً لدينه وماله، انفك الحجر عنه، فيسلم إليه ماله الذي تحت يد وليه بطريقه. وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بَاطِلًا وَأَنْ يَكْبُرُوا﴾. ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية إسرافاً ومبادرة قبل بلوغهم. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾: أي: من كان في غنية عن مال اليتيم فليستعفف عنه، ولا يأكل منه شيئاً. قال الشعبي: هو عليه كالميتة والدم. ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾: قال ابن أبي حاتم: حدثنا الأشج، حدثنا عبد الله بن سليمان، حدثنا هشام، عن أبيه، عن عائشة: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾. نزلت في مال اليتيم. وحدثنا الأشج وهارون بن إسحاق قالا: حدثنا عبدة بن سليمان، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة، قالت: نزلت في والي اليتيم الذي يقوم عليه ويصلحه إذا كان محتاجاً أن يأكل منه. وحدثنا أبي، حدثنا محمد بن سعيد الأصبهاني، حدثنا علي بن مسهر، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: أنزلت هذه الآية في والي اليتيم ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ بقدر قيامه عليه. ورواه البخاري عن إسحاق عن عبد الله بن نمير، عن هشام، به، قال الفقهاء: له أن يأكل أقل الأمرين: أجرة مثله أو قدر حاجته. واختلفوا: هل يرد إذا أيسر، على قولين: أحدهما: لا؛ لأنه أكل بأجرة عمله وكان فقيراً. وهذا هو الصحيح عند أصحاب الشافعي؛ لأن الآية أباحت الأكل من غير بدل. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، حدثنا حسين، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: ليس لي مال ولي يتيم؟ فقال: «كُلْ مِنْ مَالِ يَتِيمِكَ غَيْرَ مُسْرِفٍ وَلَا مُبَذِّرٍ وَلَا مُتَأَتِّلٍ مَالاً، وَمَنْ غَيْرَ أَنْ تَقِي مَالَكَ - أَوْ قَالَ: تَقْدِي مَالَكَ - بِمَالِهِ شَكَّ حَسِين. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، حدثنا حسين المكتب، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن عندي يتيماً عنده مال - وليس عنده شيء ما - أكل من ماله؟ قال: «بالمعروف غير مُسْرِفٍ». ورواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه من حديث حسين المعلم، به.

وروي أبو حاتم ابن حبان في صحيحه، وابن مردويه في تفسيره من حديث يعلى بن مهدي، عن جعفر بن سليمان، عن أبي

عامر الخزاز، عن عمرو بن دينار، عن جابر: أن رجلاً قال: يا رسول الله، فيم أضرب يتيمي؟ قال: ما كنت ضارباً منه ولدك، غير واثق مالك بماله، ولا متأثر منه مالا. وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن يحيى، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا الشوري، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم بن محمد قال: جاء أعرابي إلى ابن عباس فقال: إن في حجري أيتاماً، وإن لهم إبلاً ولي إبل، وأنا أمتح في إبلي وأقفر فمادما يحل لي من الألبانها؟ فقال: إن كنت تبغي ضالتها وتهنأ جربها، وتلوط حوضها، وتسقي عليها، فاشرب غير مضر بنسل، ولا ناهك في الحلب. ورواه مالك في موطنه، عن يحيى بن سعيد، به. وبهذا القول - وهو عدم أداء البذل - يقول عطاء بن أبي رباح، وعكرمة، وإبراهيم النخعي، وعطية العوفي، والحسن البصري. والثاني: نعم؛ لأن مال اليتيم على الحظر، وإنما أبيع للحاجة، فيرد بدله كأكل مال الغير للمضطر عند الحاجة. وقد قال أبو بكر ابن أبي الدنيا: حدثنا ابن خيثمة، حدثنا وكيع، عن سفيان وإسرائيل، عن أبي إسحاق، عن حارثة بن مضرب قال: قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: إني أنزلت نفسي من هذا المال بمنزلة والي اليتيم، إن استغثت استغثت، وإن احتجت استقرضت، فإذا أيسرت قضيت. طريق أخرى: قال سعيد بن منصور: حدثنا أبو الأحوص، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: قال لي عمر، رضي الله عنه: إني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة والي اليتيم، إن اختججت أخذت منه، فإذا أيسرت ردذته، وإن استغثت استغثت. إسناد صحيح، وروى البيهقي عن ابن عباس نحو ذلك. وهكذا رواه ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يعني: القرض. قال: وزوي عن عبيدة، وأبي العالية، وأبي وائل، وسعيد بن جبيرة. في إحدى الروايات - ومجاهد، والضحاك، والسدي نحو ذلك. وروى من طريق السدي، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال: يأكل بثلاث أصابع. ثم قال: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا ابن مهدي، سفيان، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس: ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾، قال: يأكل من ماله، يقوت على يتيمة، حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم. قال: وزوي عن مجاهد وميمون بن مهران في إحدى الروايات والحكم نحو ذلك. وقال عامر الشَّعْبِي: لا يأكل منه إلا أن يضطر إليه، كما يضطر إلى أكل الميتة، فإن أكل منه قضاء. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن وهب: حدثني نافع بن أبي نعيم القاري قال: سألت يحيى بن سعيد الأنصاري وربيعة عن قول الله: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾. فقالا: ذلك في اليتيم، إن كان فقيراً أنفق عليه بقدر فقره، ولم يكن للولي منه شيء. وهذا بعيد من السياق؛ لأنه قال: ﴿وَمَنْ كَانَ عَيْنًا فَلْيَسْتَوْفَّ﴾ يعني: من الأولياء ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: منهم ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بالتقي هو أحسن، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الإسراء: ٣٤]. أي: لا تقربوه إلا مصلحين له، وإن احتجتم إليه أكلتم منه بالمعروف. وقوله: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ يعني: بعد بلوغهم الحلم وإيناس الرشد منهم، فحينئذ سلموهم أموالهم، فإذا دفعتم إليهم أموالهم ﴿فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾، وهذا أمر الله تعالى للأولياء أن يشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم وسلموا إليهم أموالهم؛ لثلا يقع من بعضهم جحود وإنكار لما قبضه وتسلمه. ثم قال: ﴿وَكُلٌّ بِالذِّمَّةِ مَحْشُورٌ﴾ أي: وكفى بالله محاسباً وشهيداً ورقياً على الأولياء في حال نظرهم للأيتام، وحال تسليمهم للأموال: هل هي كاملة موفرة، أو منقوصة منقوصة مدخلة مروج حسابها مدلس أمورها؟ الله عالم بذلك كله. ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمزن على اثنين، ولا تلين مال يتيماً».

﴿لِرِجَالِ صِيَبٍ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ صِيَبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَمَا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نِسِيًّا مَقْرُوضًا﴾ (٧) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٨) وَلْيَسْأَلِ الْيَتِيمَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُ فَاصْبِرْ خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَسْأَلُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ غُلًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠).

قال سعيد بن جبيرة وقتادة: كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئاً، فأنزل الله: ﴿لِرِجَالِ صِيَبٍ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ صِيَبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَمَا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نِسِيًّا مَقْرُوضًا﴾ (٧) أي: الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى، يسترون في أصل الورثة وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله تعالى لكل منهم، بما يدلي به إلى الميت من قرابة، أو زوجية، أو ولاء. فإنه لخمعة كلخمعة النسب. وقد روى ابن مردويه من طريق ابن هُرَاسَة، عن سفيان الثوري، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر قال: جاءت أم كُجَّة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن لي ابنتين، وقد مات أبوهما، وليس لهما شيء، فأنزل الله تعالى: ﴿لِرِجَالِ صِيَبٍ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ الآية، وسيأتي هذا الحديث عند آيتي الميراث بسياق آخر، والله أعلم. وقوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (٨). قيل: المراد: وإذا حضر قسمة الميراث ذوو القربى ممن ليس بوارث واليتامى والمساكين فلْيَرْضَخْ لهم

من التركة نصيب، وأن ذلك كان واجباً في ابتداء الإسلام. وقيل: يستحب. واختلفوا: هل هو منسوخ أم لا؟ على قولين، فقال البخاري: حدثنا أحمد بن حُمد أخبرنا عُبَيْدُ اللَّهِ الْأَشْجَعِيُّ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ الشَّيْبَانِيِّ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقَرْبَى وَالْمَسْكِينُ﴾ قال: هي مُحْكَمَةٌ، وليست بمنسوخة. تابعه سَعِيدٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا عُبَادُ بْنُ الْعَوَّامِ، عَنْ الْحَجَّاجِ، عَنْ الْحَكَمِ، عَنْ مِقْسَمٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قال: هي قائمة بعمل بها. وقال الثوري، عن ابن أبي نُجَيْحٍ، عن مجاهد في هذه الآية، قال: هي واجبة على أهل الميراث، ما طابت به أنفسهم. وهكذا روي عن ابن مسعود، وأبي موسى، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وأبي العالية، والشعبي، والحسن، وابن سيرين، وسعيد بن جُبَيْرٍ، ومكحول، وإبراهيم التَّخَعِيُّ، وعطاء بن أبي رباح، والزهري، ويحيى بن يَعْمَرٍ: أنها واجبة. وروى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشج، عن إسماعيل بن عُثَيْبٍ، عن يونس بن عُبَيْدٍ، عن محمد بن سيرين قال: ولي عبيدة وصية، فأمر بشاة فذبحت، فأطعم أصحاب هذه الآية، وقال: لولا هذه الآية لكان هذا من مالي. وقال مالك، فيما يروى عنه من التفسير في جزء مجموع، عن الزهري: أن عروة أعطى من مال مضعب حين قسم ماله. وقال الزهري: وهي محكمة. وقال مالك، عن عبد الكريم، عن مجاهد قال: هو حق واجب ما طابت به الأنفس.

ذكر من ذهب إلى أن ذلك أمر بالوصية لهم:

قال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جُرَيْجٍ، أخبرني ابن أبي مُلَيْكَةَ: أن أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، والقاسم بن محمد أخبراه: أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر قسم ميراث أبيه عبد الرحمن وعائشة حية قالاً: فلم يدع في الدار مسكيناً ولا ذا قرابة إلا أعطاه من ميراث أبيه. قالاً: وتلا: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقَرْبَى﴾. قال القاسم: فذكرت ذلك لابن عباس فقال: ما أصاب، ليس ذلك له، إنما ذلك إلى الوصية، وإنما هذه الآية في الوصية يريد الميت أن يوصي لهم. رواه ابن أبي حاتم.

ذكر من قال: إن هذه الآية منسوخة بالكلية:

قال سفيان الثوري، عن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ قال: منسوخة. وقال إسماعيل بن مسلم المكي، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال في هذه الآية: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقَرْبَى﴾: نسختها الآية التي بعدها: ﴿يُؤْتِيكَ اللَّهُ فِي الْأَمْوَالِ﴾. وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقَرْبَى﴾: كان ذلك قبل أن تنزل الفرائض، فأنزل الله بعد ذلك الفرائض، فأعطى كل ذي حق حقه، فجعلت الصدقة فيما سُمي المتوفى. رواه ابن مَرْزُوقٍ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج، عن ابن جُرَيْجٍ وعثمان بن عطاء عن عطاء، عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقَرْبَى وَالْمَسْكِينُ﴾: نسختها آية الميراث، فجعل لكل إنسان نصيبه مما ترك الوالدان والأقربون - مما قل منه أو كثر - نصيباً مفروضاً. وحدثنا أسيد بن عاصم، حدثنا سعيد بن عامر، عن همام، حدثنا قتادة، عن سعيد بن المسيب أنه قال: إنها منسوخة، كانت قبل الفرائض، كان ما ترك الرجل من مال أعطى منه اليتيم والفقر والمساكين وذوي القربى إذا حضروا القسمة، ثم نسخ بعد ذلك، نسختها الموارث، فألحق الله بكل ذي حق حقه، وصارت الوصية من ماله، يوصي بها لذوي قرابته حيث يشاء. وقال مالك، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب: هي منسوخة، نسختها الموارث والوصية. وهكذا روي عن عكرمة، وأبي الشعثاء، والقاسم بن محمد، وأبي صالح، وأبي مالك، وزيد بن أسلم، والضحاك، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حَيَّانٍ، وربيعة بن أبي عبد الرحمن: أنهم قالوا: إنها منسوخة. وهذا مذهب جمهور الفقهاء والأئمة الأربعة وأصحابهم. وقد اختار ابن جرير فيها قولاً غريباً جداً، وحاصله: أن معنى الآية عنده ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ أي: وإذا حضر قسمة مال الوصية أولو قرابة الميت ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾. هذا مضمون ما حاوله بعد طول العبارة والتكرار، وفيه نظر، والله أعلم. وقد قال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾: وهي قسمة الميراث. وهكذا قال غير واحد، والمعنى على هذا لا على ما سلكه أبو جعفر بن جرير، رحمه الله، بل المعنى: أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون، واليتامى والمساكين قسمة مال جزيل، فإن أنفسهم تنوق إلى شيء منه، إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ وهم ياتسون لا شيء يعطون، فأمر الله تعالى - وهو الرؤوف الرحيم - أن يُرْضَخَ لهم شيء من الوسط يكون برأ بهم وصدقة عليهم، وإحساناً إليهم، وجبراً لكسرهم. كما قال الله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١] وذم الذين ينقلون المال

خفية؛ خشية أن يطلع عليهم المحاويج وذوو الفاقة، كما أخبر عن أصحاب الجنة ﴿إِذْ أَقْبَمُوا لَمْ يُرْمَوْا بِمُتَيْبِينَ﴾ [الفلم: ١٧]، أي: بليليل. وقال: ﴿تَأْمَلُوا وَهَذَا مِمَّا يَنْفَعُونَ﴾ [١٢] أن لا يبتلوا اليوم عليكم منكم ﴿١٣﴾ [الفلم: ٢٣، ٢٤] ف ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَشْرَافُهَا﴾ [محمد: ١٠] فمن جحد حق الله عليه عاقبه في أعز ما يملكه؛ ولهذا جاء في الحديث: «ما خالطت الصدقة مالا إلا أفسده» أي: منعها يكون سبب محاق ذلك المال بالكلية.

وقوله: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هذا في الرجل يخضره الموت، فيسمعه الرجل يوصي بوصية تضر بورثته، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله، ويوفقه ويسدده للصواب، ولينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيعة. وهكذا قال مجاهد وغير واحد، وثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعوده قال: يا رسول الله، إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: «لا». قال: فالثُّطُر؟ قال: «لا». قال: فالثلث؟ قال: «الثلث، والثلث كثير». ثم قال رسول الله ﷺ: «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس». وفي الصحيح أن ابن عباس قال: لو أن الناس غَضُوا من الثلث إلى الربع فإن رسول الله ﷺ قال: «الثلث، والثلث كثير». قال الفقهاء: إن كان ورثة الميت أغنياء استحب للميت أن يستوفي الثلث في وصيته، وإن كانوا فقراء استحب أن يتفص الثلث. وقيل: المراد بقوله: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: في مباشرة أموال اليتامى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ آبَائِكُمْ أَنْ يَبْغُوا﴾. حكاه ابن جرير من طريق العوفي، عن ابن عباس: وهو قول حسن، يتأيد بما بعده من التهديد في أكل مال اليتامى ظلماً، أي: كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك، فعامل الناس في ذرياتهم إذا وليتهم. ثم أعلمهم أن من أكل مال يتيم ظلماً فإنما يأكل في بطنه ناراً؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [١٤] أي: إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب، فإنما يأكلون ناراً تأجج في بطونهم يوم القيامة. وثبت في الصحيحين من حديث سليمان بن بلال، عن ثور بن زيد، عن سالم أبي الغيث، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبيدة، أخبرنا أبو عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد العمري، حدثنا أبو هاروي العبدي عن أبي سعيد الخدري قال: قلنا: يا رسول الله، ما رأيت ليلة أسري بك؟ قال: «انطلق بي إلى خلتي من خلتي الله كثير، رجال، كل رجل له مشفران كمشفري البعير، وهو موكل بهم رجال يفكون لحاء أحدهم، ثم يُجاء بصخرة من نار فتقذف في في أحدهم حتى يخرج من أسفله لهم خوار وضراخ. قلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً».

وقال السدي: يبعث أكل مال اليتيم يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ومن مسامعه وأنفه وعينه، يعرفه من رآه بأكل مال اليتيم. وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد، حدثنا أحمد بن عمرو، حدثنا عقبة بن مكرم، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا زياد بن المنذر، عن نافع بن الحارث عن أبي برزة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يبيع يوم القيامة القوم من قبورهم تأجج أفواههم ناراً» قيل: يا رسول الله، من هم؟ قال: «المن تر أن الله قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ الآية. رواه ابن أبي حاتم، عن أبي رزعة، عن عقبة بن مكرم، وأخرجه أبو حاتم بن حبان في صحيحه، عن أحمد بن علي بن المثنى، عن عقبة بن مكرم. وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا أحمد بن عاصم، حدثنا أبو عامر العبدي، حدثنا عبد الله بن جعفر الزهري، عن عثمان بن محمد، عن المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أخرج مال الضعيفين: المرأة واليتيم». أي: أوصيكم باجتنب مالهما. وتقدم في سورة البقرة من طريق عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما أنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [١٥]، انطلق من كان عنده يتيم، فعزل طعامه من طعامه، وشربه من شرابه، فجعل يفضل الشيء فيخسب له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَسَيُكَلِّمُكَ عَنْ يَتَمَتُّ قُلُوبُكُمْ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْمَسْجِدِ وَالْمَسْجِدِ مِنَ الْمَسْجِدِ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

﴿يُؤَيِّدُكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِي يَذْكُرُ حَقَّ الْوَعْدِ فَإِنْ كُنْ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِمَّنْهُمَا الشُّدْشُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِمَّنْهُمَا الشُّدْشُ إِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأَبَوَيْنِ الشُّدْشُ مِمَّا تَرَكَ وَلِلْأَبَوَيْنِ يَوْسُ يَ أَوْ دَيْنٍ مِمَّا تَرَكَ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْسًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [١٦].

هذه الآية الكريمة والتي بعدها والآية التي هي خاتمة هذه السورة هن آيات علم الفرائض، وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث، ومن الأحاديث الواردة في ذلك مما هي كالتفسير لذلك، ولندكر منها ما هو متعلق بتفسير ذلك، وأما تقرير المسائل ونصب الخلاف والأدلة، والحجاج بين الأئمة، فموضعه كتاب «الأحكام» فالح المستعان. وقد ورد الترغيب في تعلم الفرائض، وهذه الفرائض الخاصة من أهم ذلك. وقد روى أبو داود وابن ماجة، من حديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي، عن عبد الرحمن بن رافع التنوخي، عن عبد الله بن عمرو، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «العلم ثلاثة، وما سوى ذلك فهو فضل: آية مُحْكَمَةٌ، أو سُنة قائمة، أو فريضة عَادِلَةٌ». وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة، تَعَلَّمُوا الفرائض وعَلِّمُوهُ فإنه نصف العلم، وهو يُنسى، وهو أول شيء يُنتزع من أمتي». رواه ابن ماجة، وفي إسناده ضعف. وقد روي من حديث عبد الله بن مسعود وأبي سعيد، وفي كل منهما نظر. قال سفيان بن عيينة: إنما سُمي الفرائض نصف العلم؛ لأنه يبتلى به الناس كلهم. وقال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام: أن ابن جريج أخبرهم قال: أخبرني ابن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: عাদني رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ماشين، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل شيئاً، فدعا بماء فتوضأ منه، ثم رَشَ عَلَيَّ، فافقت، فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿يُؤَيِّرُكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِي يَمْثُلُ حَظُّ الْأُنثَى﴾. وكذا رواه مسلم والنسائي، من حديث حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جريج به، ورواه الجماعة كلهم من حديث سفيان بن عيينة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر.

حديث آخر عن جابر في سبب نزول الآية: قال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا زكريا بن عدي، حدثنا عبيد الله - هو ابن عمرو الزقي - عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قُتل أبوهما معك في أحد شهيداً، وإن عهدهما أخذ مالهما، فلم يَدْخُ لهما مالاً، ولا يَنْكَحَانِ إلا ولهما مال. قال: فقال: «يَقْضِي اللَّهُ فِي ذَلِكَ». قال: فنزلت آية الميراث، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عهدهما فقال: «أَعْطِ ابْنَتِي سَعْدَ الثَّلَاثِينَ، وَأُمَّهُمَا الثَّمَنَ، وما بقي فهو لك». وقد رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة، من طرق، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، به. قال الترمذي: ولا يعرف إلا من حديثه.

والظاهر أن حديث جابر الأول إنما نزل بسببه الآية الأخيرة من هذه السورة كما سيأتي، فإنه إنما كان له إذ ذاك أخوات، ولم يكن له بنات، وإنما كان يورث كلاله، ولكن ذكرنا الحديث ههنا تبعاً للبخاري، رحمه الله، فإنه ذكره ههنا. والحديث الثاني عن جابر أشبه بنزول هذه الآية، والله أعلم. فقوله تعالى: ﴿يُؤَيِّرُكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِي يَمْثُلُ حَظُّ الْأُنثَى﴾ أي: يأمركم بالعدل فيهم، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث، وفاترت بين الصنفين، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين؛ وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة والكلفة ومعاناة التجارة والتكسب وتجشّم المشقة، فناسب أن يُعْطَى ضعفُ ما تأخذه الأنثى. وقد استنبط بعض الأذكياء من قوله تعالى: ﴿يُؤَيِّرُكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِي يَمْثُلُ حَظُّ الْأُنثَى﴾ أنه تعالى أرحم بخلق من الوالد بولده، حيث أوصى الوالدين بأولادهم، فعلم أنه أرحم بهم منهم، كما جاء في الحديث الصحيح: وقد رأى امرأة من السبي تدور على ولدها، فلما وجدته أخذته فألصقته بصدرها وأرضعته. فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «اتَرُون هَذِهِ طَارِحَةً وَلِدهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ؟» قالوا: لا يا رسول الله: قال: «قَوْلَ اللَّهِ لَهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدِهَا». وقال البخاري ههنا: حدثنا محمد بن يوسف، عن ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن عطاء، عن ابن عباس قال: كان المال للولد، وكانت الوصية للوالدين، فَسَخَّ الله من ذلك ما أحب، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث، وجعل للزوجة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع. وقال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿يُؤَيِّرُكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِي يَمْثُلُ حَظُّ الْأُنثَى﴾ وذلك أنه لما نزلت الفرائض التي فَرَضَ الله فيها ما فرض، للولد الذكر والأنثى والأبوين، كرهها الناس أو بعضهم وقالوا: تُعْطَى المرأة الربع أو الثمن وتعطى البنت النصف. ويعطى الغلام الصغير. وليس أحد من هؤلاء يقاتل القوم، ولا يحوز الغنيمة... استكتوا عن هذا الحديث لعل رسول الله ﷺ ينساه، أو نقول له فيغير، فقال بعضهم: يا رسول الله، نعطي الجارية نصف ما ترك أبوها، وليست تركب الفرس، ولا تقاتل القوم وتُعْطَى الصبي الميراث وليس يُغْنِي شيئاً... وكانوا يفعلون ذلك في الجاهلية، لا يعطون الميراث إلا لمن قاتل القوم، ويعطونه الأكبر فالأكبر. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير أيضاً. وقوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ قال بعض الناس: قوله: ﴿فَوْقَ﴾ زائدة وتقديره: فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً اثْنَتَيْنِ، كما في قوله تعالى: ﴿فَاقْرَأُوا فَوْقَ الْأَحْقَابِ﴾ [الأنفال: ١٧]. وهذا غير مُسَلَّم لا هنا ولا هناك؛ فإنه ليس في القرآن شيء زائد لا فائدة فيه وهذا ممتنع، ثم قوله: ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا

رَزَّكَ لَوْ كَانَ الْمَرَادُ مَا قَالُوهُ لَقَالَ: فَلَهُمَا ثَلَاثَا مَا تَرَكَ. وَإِنَّمَا اسْتَفِيدَ كَوْنُ الثَّلَاثِينَ لِلْبَتْنَيْنِ مِنْ حُكْمِ الْأَخْتَيْنِ فِي الْآيَةِ الْآخِرَةِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى حُكْمُ فِيهَا لِلأَخْتَيْنِ بِالثَّلَاثِينَ. وَإِذَا وَرَثَ الْأَخْتَانِ الثَّلَاثِينَ فَلَانَ يَرِثُ الْبَتْنَانِ الثَّلَاثِينَ بِطَرِيقِ الْأُولَى. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَكَمَ لِابْنَتَيْ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ بِالثَّلَاثِينَ، فَدَلَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَى ذَلِكَ، وَأَيْضاً فَإِنْ قَالَ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾. فَلَوْ كَانَ لِلْبَتْنَيْنِ النِّصْفُ أَيْضاً لَنَصَّ عَلَيْهِ، فَلَمَّا حُكِمَ بِهِ لِلوَاحِدَةِ عَلَى انْفِرَادِهَا دَلَّ عَلَى أَنَّ الْبَتْنَيْنِ فِي حُكْمِ الثَّلَاثِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُؤْيِيهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ وَمَا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُّ﴾ إِلَى آخِرِهِ، الْأَبْوَانُ لَهُمَا فِي الْمِيرَاثِ أَحْوَالٌ:

أَحَدُهَا: أَنْ يَجْتَمِعَا مَعَ الْأَوْلَادِ، فَيُفْرَضُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْمَيِّتِ إِلَّا ابْنَتٌ وَاحِدَةٌ، فُرضَ لَهَا النِّصْفُ، وَلِلْأَبْوَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ، وَأَخَذَ الْأَبُ السُّدُسَ الْآخَرَ بِالتَّعْصِيبِ، فَيُجْمَعُ لَهُ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - بَيْنَ الْفَرْضِ وَالتَّعْصِيبِ.

الْحَالُ الثَّانِي: أَنْ يَفْرُدَ الْأَبْوَانُ بِالمِيرَاثِ، فَيُفْرَضُ لِلْأُمِّ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - الثُّلُثُ وَيَأْخُذُ الْأَبُ الْبَاقِي بِالتَّعْصِيبِ الْمُحْضَرِّ، وَيَكُونُ قَدْ أَخَذَ ضَعْفِي مَا فُرضَ لِلْأُمِّ، وَهُوَ الثَّلَاثَانِ، فَلَوْ كَانَ مَعَهُمَا - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - زَوْجٌ أَوْ زَوْجَةٌ أَخَذَ الزَّوْجُ النِّصْفَ وَالزَّوْجَةُ الرُّبْعَ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ: مَا تَأْخُذُ الْأُمُّ بَعْدَ فَرْضِ الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهَا تَأْخُذُ ثُلُثَ الْبَاقِي فِي الْمَسَالَتَيْنِ؛ لِأَنَّ الْبَاقِي كَانَ جَمِيعَ الْمِيرَاثِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمَا. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهَا نِصْفَ مَا جَعَلَ لِلْأَبِ فَتَأْخُذُ ثُلُثَ الْبَاقِي وَيَأْخُذُ ثُلُثُهُ. وَهُوَ قَوْلُ عُمَرَ وَعُثْمَانَ، وَأَصَحُّ الرَّوَاتِبَيْنِ عَنْ عَلِيٍّ. وَبِهِ يَقُولُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَهُوَ قَوْلُ الْفُقَهَاءِ السَّبْعَةِ، وَالْأُئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ، وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ. وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّهَا تَأْخُذُ ثُلُثَ جَمِيعِ الْمَالِ لِعُمُومِ قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾، فَإِنَّ الْآيَةَ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَعَهَا زَوْجٌ أَوْ زَوْجَةٌ أَوْ لَا. وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَرَوَى عَنْ عَلِيٍّ، وَمَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، نَحْوُهُ. وَبِهِ يَقُولُ شُرَيْحٌ وَدَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ الظَّاهِرِيُّ وَاخْتَارَهُ الْإِمَامُ أَبُو الْحُسَيْنِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ اللَّبَّانِ الْبَصْرِيُّ، فِي كِتَابِهِ «الْإِبْجَازُ فِي عِلْمِ الْفَرَائِضِ». وَهَذَا فِيهِ نَظَرٌ، بَلْ هُوَ ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ إِنَّمَا هُوَ مَا إِذَا اسْتَبَدَّ بِجَمِيعِ التَّرَكَةِ، فَمَا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فَيَأْخُذُ الزَّوْجُ أَوْ الزَّوْجَةُ الْفَرْضَ، وَيَبْقَى الْبَاقِي كَانَ جَمِيعَ التَّرَكَةِ، فَتَأْخُذُ ثُلُثُهُ، كَمَا تَقَدَّمَ. وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ: أَنَّهَا تَأْخُذُ ثُلُثَ جَمِيعِ الْمَالِ فِي مَسْأَلَةِ الزَّوْجَةِ، فَإِنَّهَا تَأْخُذُ الرُّبْعَ وَهُوَ ثَلَاثَةٌ مِنْ اثْنَيْ عَشَرَ، وَتَأْخُذُ الْأُمُّ الثُّلُثَ وَهُوَ أَرْبَعَةٌ، فَيَبْقَى خُمُسَةٌ لِلْأَبِ. وَأَمَّا فِي مَسْأَلَةِ الزَّوْجِ فَتَأْخُذُ ثُلُثَ الْبَاقِي، لِثَلَاثِ تَأْخُذُ أَكْثَرَ مِنَ الْأَبِ لَوْ أَخَذَتْ ثُلُثَ الْمَالِ، فَتَكُونُ الْمَسْأَلَةُ مِنْ سِتَّةٍ: لِلزَّوْجِ النِّصْفُ: ثَلَاثَةٌ، وَلِلْأُمِّ ثُلُثٌ مَا بَقِيَ وَهُوَ سَهْمُ، وَلِلْأَبِ الْبَاقِي بَعْدَ ذَلِكَ وَهُوَ سَهْمَانِ. وَيَحْكِي هَذَا عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَهُوَ قَوْلُ مَرْكَبٍ مِنَ الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ، مُوَافِقٌ كُلًّا مِّنْهُمَا فِي صُورَةٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ أَيْضاً. وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالْحَالُ الثَّالِثُ مِنْ أَحْوَالِ الْأَبْوَيْنِ: وَهُوَ اجْتِمَاعُهُمَا مَعَ الْإِخْوَةِ، وَسِوَاهُ كَانُوا مِنَ الْأَبْوَيْنِ، أَوْ مِنَ الْأَبِ، أَوْ مِنَ الْأُمِّ، فَلِإِنَّهُمْ لَا يَرِثُونَ مَعَ الْأَبِ شَيْئاً، وَلَكِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَحْجِبُونَ الْأُمَّ عَنْ الثُّلُثِ إِلَى السُّدُسِ، فَيُفْرَضُ لَهَا مَعَ وَجُودِهِمُ السُّدُسُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَارِثٌ سِوَاهَا وَسُورَى الْأَبُ أَخَذَ الْأَبَ الْبَاقِي. وَحُكْمُ الْأَخْوَيْنِ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ كَحُكْمِ الْإِخْوَةِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ. وَقَدْ رَوَى الْبَيْهَقِيُّ مِنْ طَرِيقِ شُعْبَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عُثْمَانَ فَقَالَ: إِنَّ الْأَخْوَيْنِ لَا يَرِثَانِ الْأُمَّ عَنْ الثُّلُثِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾. فَالْأَخْوَانُ لَيْسَا بِلِسَانِ قَوْمِكَ إِخْوَةٌ. فَقَالَ عُثْمَانُ: لَا اسْتَطِيعَ تَغْيِيرُ مَا كَانَ قَبْلِي، وَمَضَى فِي الْأَمْصَارِ، وَتَوَارَتْ بِهِ النَّاسُ. وَفِي صَحَّةِ هَذَا الْأَثَرِ نَظَرٌ، فَإِنَّ شُعْبَةَ هَذَا تَكَلَّمَ فِيهِ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، وَلَوْ كَانَ هَذَا صَحِيحاً عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ لَذَهَبَ إِلَيْهِ أَصْحَابُهُ الْأَخْصَاءُ بِهِ، وَالْمَنْقُولُ عَنْهُمْ خِلَافُهُ. وَقَدْ رَوَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ: الْأَخْوَانُ تَسْمَى إِخْوَةٌ، وَقَدْ أَفْرَدْتُ لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ جُزْأً عَلَى حِدَةٍ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ الْمَغِيرَةِ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُّ﴾: أَضْرَبُوا بِالْأُمِّ وَلَا يَرِثُونَ، وَلَا يَحْجِبُهَا الْأَخَ الْوَاحِدَ مِنَ الثُّلُثِ وَيَحْجِبُهَا مَا فَوْقَ ذَلِكَ، وَكَانَ أَمَلُ الْعِلْمِ يَرَوْنَهُمْ إِنَّمَا حَجَبُوا أُمَّهُمْ مِنَ الثُّلُثِ أَنْ أَبَاهُمْ يَلِي إِنْكَاحَهُمْ وَنَفَقَتَهُ عَلَيْهِمْ دُونَ أُمَّهُمْ. وَهَذَا كَلَامُ حَسَنِ. لَكِنْ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ أَنَّهُ كَانَ يَرَى أَنَّ السُّدُسَ الَّذِي حَجَبُوهُ عَنْ أُمَّهُمْ يَكُونُ لَهُمْ، وَهَذَا قَوْلُ شَاذٍ، رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ فَقَالَ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ يَحْيَى، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَقْعَرٌ عَنْ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: السُّدُسُ الَّذِي حَجَبَتْهُ الْإِخْوَةُ لِأُمِّ لَهُمْ، إِنَّمَا حَجَبُوا أُمَّهُمْ عَنْهُ لِيَكُونَ لَهُمْ دُونَ أَبِيهِمْ.

ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهَذَا قَوْلٌ مُخَالَفٌ لِجَمِيعِ الْأُمَّةِ، وَقَدْ حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَخْبَرَنَا سَفْيَانُ، أَخْبَرَنَا عُمَرُو، عَنْ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: الْكَلَالَةُ مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ. وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ بَيْنِ وَبَيْنٍ وَيُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٌ﴾: أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ سَلْفًا وَخَلْفًا: أَنَّ الدَّيْنَ مُقَدَّمٌ عَلَى الْوَصِيَّةِ، وَذَلِكَ عِنْدَ إِمْعَانَ النَّظَرِ يَفْهَمُ مِنْ فَحْوَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ

وأصحاب التفسير، من حديث أبي إسحاق، عن الحارث بن عبد الله الأعور، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إنكم تقرأون ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْسَىٰ يَهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية، وإن أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العلات، يرث الرجل أخاه لأبيه وأمه دون أخيه لأبيه. ثم قال الترمذي: لا نعرفه إلا من حديث الحارث الأعور، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم. قلت: لكن كان حافظاً للفرائض معتنياً بها وبالحساب، فالله أعلم. وقوله: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْسًا﴾ أي: إنما فرضنا للأبواء وللأبناء، وساوينا بين الكل في أصل الميراث على خلاف ما كان عليه الأمر في الجاهلية، وعلى خلاف ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من كون المال للولد، وللوالدين الوصية، كما تقدم عن ابن عباس، إنما نسخ الله ذلك إلى هذا، ففرض لهؤلاء ولهؤلاء بحسبهم؛ لأن الإنسان قد يأتيه النفع الديني - أو الأخروي أو هما - من أبيه ما لا يأتيه من ابنه، وقد يكون بالعكس؛ فلهذا قال: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْسًا﴾ أي: كان النفع متوقع ومرجو من هذا، كما هو متوقع ومرجو من الآخر؛ فلهذا فرضنا لهذا ولهذا، وساوينا بين القسمين في أصل الميراث، والله أعلم. وقوله: ﴿فَرِيضَتُكُمْ مِنْكُمْ﴾ أي: هذا الذي ذكرناه من تفصيل الميراث، وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض - هو فرض من الله حكم به وقضاه، والله عليم حكيم الذي يضع الأشياء في محالها، ويعطي كل ما يستحقه بحسبه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَلَكُمْ يَنْصَفُ مَا كَرِهَ أَرْوَاحُكُمْ إِنْ كُنْ لَكُمْ لَهْرٌ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْسَىٰ يَهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْسَىٰ يَهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْسَىٰ يَهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَاكِ وَصِيَّتِ يَهَا أَوْ دَيْنٍ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٢﴾.

يقول تعالى: ولكم - أيها الرجال - نصف ما ترك أزواجكم إذا مثن عن غير ولد، فإن كان لهن ولد فلكن الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين. وقد تقدم أن الدين مقدم على الوصية، وبعده الوصية ثم الميراث، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، وحكم أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب. ثم قال: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾ إلخ، وسواء في الربع أو الثمن الزوجة والزوجتان الاثنان والثلاث والأربع يشتركن فيه. وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ إلخ، الكلام عليه كما تقدم. وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً﴾ الكلاله: مشتقة من الإكليل، وهو الذي يحيط بالرأس من جوانبه، والمراد هنا: من يرثه من حواشيه لا أصوله ولا فروع، كما روى الشعبي عن أبي بكر الصديق: أنه سئل عن الكلاله، فقال: أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه: الكلاله من لا ولده ولا والد. فلما ولي عمر بن الخطاب قال: إني لأستحي أن أخالف أبا بكر في رأي رآه. رواه ابن جرير وغيره. وقال ابن أبي حاتم، رحمه الله، في تفسيره: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد، حدثنا سفيان، عن سليمان الأحوال، عن طاوس قال: سمعت عبد الله بن عباس يقول: كنت آخر الناس عهداً بعمر بن الخطاب، فسمعت يقول: القول ما قلت، وما قلت، وما قلت. قال: الكلاله من لا ولده ولا والد. وهكذا قال علي بن أبي طالب وابن مسعود، وصح عن غير وجه عن عبد الله بن عباس، وزيد بن ثابت، وبه يقول الشعبي والنخعي، والحسن البصري، وقتادة، وجابر بن زيد، والحكم. وبه يقول أهل المدينة والكوفة والبصرة. وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور السلف والخلف، بل جميعهم. وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد، وورد فيه حديث مرفوع. قال أبو الحسين بن اللبان: وقد روي عن ابن عباس ما يخالف ذلك، وهو أنه لا ولده له. والصحيح عنه الأول، ولعل الراوي ما فهم عنه ما أراد. وقوله: ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أي: من أم، كما هو في قراءة بعض السلف، منهم سعد بن أبي وقاص، وكذا فسرها أبو بكر الصديق فيما رواه قتادة عنه، ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾. وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه، أحدها: أنهم يرثون مع من أدلوا به وهي الأم. الثاني: أن ذكرهم وأنثاهم سواء. الثالث: أنهم لا يرثون إلا إذا كان ميتهم يورث كلاله، فلا يرثون مع أب، ولا جد، ولا ولد، ولا ولد ابن. الرابع: أنهم لا يزدادون على الثلث، وإن كثر ذكورهم وإنثاهم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس، حدثنا ابن وهب، أخبرنا يونس، عن الزهري قال: قضى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أن ميراث الإخوة من الأم بينهم، للذكر مثل الأنثى. قال محمد بن شهاب الزهري: ولا أرى عمر قضى بذلك حتى علم بذلك من رسول الله ﷺ، ولهذه الآية التي قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾.

واختلف العلماء في المسألة المشتركة، وهي: زوج، وأم أو جدة، وإثنان من ولد الأم وواحد أو أكثر من ولد الأبوين. فعلى قول الجمهور: للزوج النصف، وللأم أو الجدة السدس، ولولد الأم الثلث، ويشاركهم فيه ولد الأب والأم بما بينهم من القدر المشترك وهو إخوانة الأم. وقد وقعت هذه المسألة في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فأعطى الزوج النصف، والأم السدس، وجعل الثلث لأولاد الأم، فقال له أولاد الأبوين، يا أمير المؤمنين، هب أن أبانا كان حماراً، ألسنا من أم واحدة؟ فشارك بينهم. وصح التشريك عنه وعن أمير المؤمنين عثمان، وهو إحدى الروايتين عن ابن مسعود، وزيد بن ثابت، وابن عباس، رضي الله عنهم. وبه يقول سعيد بن المسيب، وشریح القاضي، ومسروق، وطاوس، ومحمد بن سيرين وإبراهيم النخعي، وعمر بن عبد العزيز، والثوري، وشريك وهو مذهب مالك والشافعي، وإسحاق بن راهويه. وكان علي بن أبي طالب لا يشرك بينهم بل يجعل الثلث لأولاد الأم، ولا شيء لأولاد الأبوين، والحالة هذه، لأنهم عصبية. وقال وكيع بن الجراح: لم يختلف عنه في ذلك، وهذا قول أبي بن كعب وأبي موسى الأشعري، وهو المشهور عن ابن عباس، وهو مذهب الشعبي وابن أبي لیلی، وأبي يوسف، ومحمد بن الحسن، والحسن بن زياد، وزُفر بن الهذيل، والإمام أحمد بن حنبل، ويحيى بن آدم، ونعيم بن حماد، وأبي ثور، وداود بن علي الظاهري، واختاره أبو الحسين بن اللبان الفريسي، رحمه الله، في كتابه «الإيجاز». وقوله: ﴿مِنْ بَيْنِ وَصِيَّهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَاعَفٍ﴾ أي: لتكون وصيته على العدل، لا على الإضرار والجور والحيف بأن يحرم بعض الورثة، أو ينقصه، أو يزيده على ما قدر الله له من الفريضة فمتى سعى في ذلك كان كمن ضاد الله في حكمته وقسمته؛ ولهذا قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو النضر الدمشقي الفراديسي، حدثنا عُمر بن المغيرة، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «الإضرار في الوصية من الكبائر». وكذا رواه ابن جرير من طريق عُمر بن المغيرة هذا وهو أبو حفص بصري سكن المصيصة، قال أبو القاسم ابن عساكر: ويعرف بمفتي المساكين. وروى عنه غير واحد من الأئمة. وقال فيه أبو حاتم الرازي: هو شيخ. وقال علي بن المديني: هو مجهول لا أعرفه. لكن رواه النسائي في سننه عن علي بن حجر، عن علي بن مُشهر، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، موقوفاً: «الإضرار في الوصية من الكبائر». وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشج، عن عائذ بن حبيب، عن داود بن أبي هند. ورواه ابن جرير من حديث جماعة من الحفاظ، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس موقوفاً. وفي بعضها: ويقراء ابن عباس: «غَيْرَ مُضَاعَفٍ». قال ابن جرير: والصحيح الموقوف. ولهذا اختلف الأئمة في الإقرار للوارث: هل هو صحيح أم لا؟ على قولين: أحدهما: لا يصح لأنه مظنة التهمة أن يكون قد أوصى له بصيغة الإقرار وقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قد أعطى كُلَّ ذِي حَقِّ حَقَّهُ، فلا وصية لوارث». وهذا مذهب أبي حنيفة ومالك، وأحمد بن حنبل، والقول القديم للشافعي، رحمهم الله، وذهب في الجديد إلى أنه يصح الإقرار. وهو مذهب طاوس، وعطاء، والحسن، وعمر بن عبد العزيز. وهو اختيار أبي عبد الله البخاري في صحيحه. واحتج بأن رافع بن خديج أوصى ألا تُكُفَّ الفَرَارِيَّةُ عما أُلْقِيَ عليه بابها قال: وقال بعض الناس: لا يجوز إقراره لسوء الظن به للورثة، وقد قال النبي ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث». وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] فلم يخص وارثاً ولا غيره. انتهى ما ذكره. فمتى كان الإقرار صحيحاً مطابقاً لما في نفس الأمر جَرَى فيه هذا الخلاف، ومتى كان حيلة ووسيلة إلى زيادة بعض الورثة ونقصان بعضهم، فهو حرام بالإجماع وبنص هذه الآية الكريمة ﴿غَيْرَ مُضَاعَفٍ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ثم قال الله:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ هُمْ يُعْطُونَ وَلَهُمْ آلُفٌ مِّنْ دِينَارٍ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النساء: ١٣] وَتَمَّ بِطَعِ اللَّهِ وَرَسُولُهُ يُدْخِلُ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٤﴾ وَتَمَّ بِطَعِ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلُ فِيهَا مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ وَلَهُمْ فِيهَا وَلَكُمُ عَذَابٌ مُّهِمٌ ﴿١٥﴾

أي: هذه الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة بحسب قُرْبِهِمْ من الميت واحتياجهم إليه وفقدهم له عند عدمه، هي حدود الله فلا تعتدوها ولا تجاوزوها؛ ولهذا قال: ﴿وَتَمَّ بِطَعِ اللَّهِ وَرَسُولُهُ﴾ أي: فيها، فلم يزد بعض الورثة ولم ينقص بعضاً بحيلة ووسيلة، بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته ﴿يُدْخِلُهُ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وَتَمَّ بِطَعِ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلُ فِيهَا مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ وَلَهُمْ فِيهَا وَلَكُمُ عَذَابٌ مُّهِمٌ ﴿١٥﴾ أي: لكونه غير ما حكم الله به وضاد الله في حكمه. وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن أيوب، عن أشعث بن عبد الله، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَفْعَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً، فإِذَا أَوْصَى خَافَ

في وصيته، فيختم بشر عمله، فيدخل النار؛ وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة، فيغْدُل في وصيته، فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة. قال: ثم يقول أبو هريرة: «أقرؤوا إن شئتم ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾». وقال أبو داود في باب الإصرار في الوصية من سننه: حدثنا عُبَيْدَةُ بن عبد الله أخبرنا عبد الصمد، حدثنا نصر بن علي الحُدثاني، حدثنا الأشعث بن عبد الله بن جابر الحُدثاني، حدثنا شَهْرُ بن حوشب: أن أبا هريرة حدثه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل أو المرأة بطاعة الله ستين سنة، ثم يحضرهما الموت فيُضَارَانِ في الوصية، فتجب لهما النار» وقال: قرأ علي أبو هريرة من ههنا: ﴿وَمِنَ بَعْدِ وَصِيَّهِ يُوصِي بِهَا أَوْ زَيْنَ غَيْرٍ مُضَاعَفٍ﴾ حتى بلغ: ﴿وَذَلِكَ أَلْفُؤُا عَظِيمٌ﴾. وهكذا رواه الترمذي وابن ماجة من حديث ابن عبد الله بن جابر الحُدثاني به، وقال الترمذي: حسن غريب، وسياق الإمام أحمد أتم وأكمل.

﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَجْشَةُ مِنْ نِسَائِكَ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَنكِحْكُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّهِنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ (١٥) وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَكَاذُوهُمَا قَالَتْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ ثَوَابًا رَحِيمًا﴾ (١٦).

كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا زنت فثبت زناها بالبينّة العادلة، حُبست في بيت فلا تُمكن من الخروج منه إلى أن تموت؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَجْشَةُ﴾ يعني: الزنا ﴿مِنْ نِسَائِكَ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَنكِحْكُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّهِنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ فالسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك. قال ابن عباس: كان الحكم كذلك، حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد، أو الرجم. وكذا زوي عن عكرمة، وسعيد بن جبّير، والحسن، وعطاء الخراساني، وأبي صالح، وقتادة، وزيد بن أسلم، والضحاك: أنها منسوخة. وهو أمر متفق عليه. قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن حطّان بن عبد الله الرقاشي، عن عبادة بن الصامت قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي أثر عليه وكرب لذلك وترّدد وجهه، فأنزل الله ﷻ عليه ذات يوم، فلما سُرّي عنه قال: «خُذُوا عَنِّي، قد جعل الله لَهُنَّ سَبِيلًا: الثَّيْبُ بالثيب، والبَكْرُ بالبكر، الثيب جلدُ مائة، وزَجَمُ بالحجارة، والبكر جلد مائة ثم نَفِي سَنَةٍ». وقد رواه مسلم وأصحاب السنن من طرق عن قتادة عن الحسن عن حطّان، عن عبادة عن النبي ﷺ ولفظه: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لَهُنَّ سَبِيلًا، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم». وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وهكذا رواه أبو داود الطيالسي، عن مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن حطّان بن عبد الله الرقاشي، عن عبادة: أن رسول الله ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي عُرف ذلك في وجهه، فلما أنزلت: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ وارتفع الوحي قال رسول الله ﷺ: «خُذُوا خذوا، قد جعل الله لَهُنَّ سَبِيلًا، البَكْرُ بالبكر جلدُ مائة ونَفِي سنة والثيب بالثيب جلدُ مائة وزَجَمُ بالحجارة». وقد روى الإمام أحمد أيضاً هذا الحديث عن وكيع بن الجراح، حدثنا الفضل بن دَلْهَم، عن الحسن، عن قُبَيْصَةَ بن حُرَيْث، عن سلمة بن المُحَبِّق قال: قال رسول الله ﷺ: «خُذُوا عَنِّي، خذوا عني، قد جعل الله لَهُنَّ سَبِيلًا، البكر بالبكر جلد مائة ونَفِي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم». وكذا رواه أبو داود مطولاً من حديث الفضل بن دلهم، ثم قال: وليس هو بالحافظ، كان قصاباً بواسط. حديث آخر: قال أبو بكر بن مَرْذُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا عباس بن حمدان، حدثنا أحمد بن داود، حدثنا عمرو بن عبد الغفار، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن مسروق، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «البكرُ أن يُجلَدان ويُنفَيان، والثيبان يُجلدان ويُرَجَمان، والشَّيْخَانِ يُرَجَمَانِ». هذا حديث غريب من هذا الوجه. وروى الطبراني من طريق ابن لهيعة، عن أخيه عيسى بن لهيعة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت سورة النساء قال رسول الله ﷺ: «لا حبس بعد سورة النساء». وقد ذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى القول بمقتضى هذا الحديث، وهو الجمع بين الجلد والرجم في حق الثيب الزاني، وذهب الجمهور إلى أن الثيب الزاني إنما يُرجم فقط من غير جلد، قالوا: لأن النبي ﷺ رَجَمَ مَاعِزاً والغامدية واليهوديين، ولم يجلدهم قبل ذلك، فدل على أن الجلد ليس بحتم، بل هو منسوخ على قولهم، والله أعلم. وقوله: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَكَاذُوهُمَا﴾ أي: واللذان يأتيان الفاحشة فأدوهما. قال ابن عباس، وسعيد بن جبّير وغيرهما: أي بالشتم والتعيير، والضرب بالنعال، وكان الحكم كذلك حتى نسخ الله بالجلد أو الرجم. وقال عكرمة، وعطاء، والحسن، وعبد الله بن كثير: نزلت في الرجل والمرأة إذا زنيا. وقال السدي: نزلت في الفتيان قبل أن يتزوجوا. وقال مجاهد: نزلت في الرجلين إذا فعلا، لا يكتفي، وكأنه يريد اللواط، والله أعلم. وقد روى أهل السنن، من حديث عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَيْتُمُوهُ يَغْمَلُ عَمَلٌ قَوْمٍ لَوْ طُفِ فَاقتلوا الفاعِلَ والمفعول به». وقوله: ﴿قَالَتْ تَابَا وَأَصْلَحَا﴾ أي: أقلعا ونزعاً عما كانا عليه، وصُلّحت أعمالهما وحسنت ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ أي: لا تَتَّبِعُوهُمَا بكلام قَبِيح بعد ذلك؛ لأن التائب من

الذنب كمن لا ذنب له ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾. وقد ثبت في الصحيحين «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يترّب عليها» أي: ثم لا يعثرها بما صنعت بعد الحد، الذي هو كفارة لما صنعت.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّرُوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَتُوبُونَ وَهُمْ كَفَارٌ أُولَئِكَ أَغْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٨﴾.

يقول تعالى: إنما يتقبل الله التوبة ممن عمل السوء بجهالة، ثم يتوب ولو قبل معاناة المَلَك لقبض روحه قَبْلَ العَزَّة. قال مجاهد وغير واحد: كل من عصى الله خطأ أو عمدًا فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب. وقال قتادة عن أبي العالية: أنه كان يحدث: أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو بجهالة. رواه ابن جرير. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فأروا أن كل شيء عُصِي به فهو جهالة، عمدًا كان أو غيره. وقال ابن جُرَيْج: أخبرني عبد الله بن كثير، عن مجاهد قال: كل عامل بمعصية الله فهو جاهل حين عملها. قال ابن جريج: وقال لي عطاء بن أبي رباح نحوه. وقال أبو صالح عن ابن عباس: من جهلته عمل السوء. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ قال: ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت، وقال الضحاك: ما كان دون الموت فهو قريب. وقال قتادة والسدي: ما دام في صحته. وهو مروي عن ابن عباس. وقال الحسن البصري: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾: ما لم يُعْزَرَ. وقال عكرمة: الدنيا كلها قريب.

ذكر الأحاديث في ذلك:

قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عيَّاش، وعصام بن خالد، قالا: حدثنا ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن جُبَيْر بن نَفِير، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْزَرَ» ورواه الترمذي وابن ماجة من حديث عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، به. وقال الترمذي: حسن غريب. ووقع في سنن ابن ماجة: عن عبد الله بن عمرو. وهو وهم، إنما هو عبد الله بن عمر بن الخطاب.

حديث آخر: عن ابن عمر: قال أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا عبد الله بن الحسن الخراساني، حدثنا يحيى بن عبد الله البابلتي، حدثنا أيوب بن نهيك الحلبي قال: سمعت عطاء بن أبي رباح قال: سمعت عبد الله بن عمر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ يَتُوبُ قَبْلَ الْمَوْتِ بِشهرٍ إِلَّا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ، وَأَذْنَى مِنْ ذَلِكَ، وَقَبْلَ مَوْتِهِ بِيَوْمٍ وَسَاعَةٍ، يَعْلَمُ اللَّهُ مِنَ التَّوْبَةِ وَالْإِخْلَاصِ إِلَيْهِ إِلَّا قَبِلَ مِنْهُ».

حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، أخبرنا إبراهيم بن ميمون، أخبرني رجل من ملحان - يقال له: أيوب - قال: سمعت عبد الله بن عمر يقول: من تاب قبل موته بعام تيب عليه، ومن تاب قبل موته بشهر تيب عليه، ومن تاب قبل موته بجمعة تيب عليه، ومن تاب قبل موته بيوم تيب عليه، ومن تاب قبل موته بساعة تيب عليه. فقلت له: إنما قال الله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّرُوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ فقال: إنما أخذتك ما سمعت من رسول الله ﷺ. وهكذا رواه أبو داود الطيالسي، وأبو عمر الحَوْضِي، وأبو عامر العَقْدِي، عن شعبة.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا محمد بن مطرف، عن زيد بن أسلم، عن عبد الرحمن بن الَبِيلَمَانِي قال: اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال أحدهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِيَوْمٍ». فقال الآخر: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِنِصْفِ يَوْمٍ» فقال الثالث: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِشُحُو». قال الرابع: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْزَرَ بِنَفْسِهِ». وقد رواه سعيد بن منصور عن الدَّرَاوَزْدِي، عن زيد بن أسلم، عن عبد الرحمن بن الَبِيلَمَانِي، فذكر قريباً منه.

حديث آخر: قال أبو بكر بن مردويه: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد، حدثنا عمران بن عبد الرحيم، حدثنا عثمان بن الهيثم، حدثنا عَوْف، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ عَبْدِهِ مَا لَمْ يُعْزَرَ».

أحق بها، فنزلت: ﴿يَتَأْتِيهَا الذَّيْبَانِ مَأْمُونًا لَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾. وروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الذَّيْبَانِ مَأْمُونًا لَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ قال: كان الرجل إذا مات وترك جارية، ألقى عليها حميمه ثوبه، فمنعها من الناس. فإن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت ذميمة حبسها حتى تموت فيرثها. وروى العوفي عنه: كان الرجل من أهل المدينة إذا مات حميم أحدهم ألقى ثوبه على امرأته، فورث نكاحها ولم ينكحها أحد غيره، وحبسها عنده حتى تفتدي منه بفدية، فأنزل الله: ﴿يَتَأْتِيهَا الذَّيْبَانِ مَأْمُونًا لَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾.

وقال زيد بن أسلم في الآية: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾: كان أهل يثرب إذا مات الرجل منهم في الجاهلية ورث امرأته من يرث ماله، وكان يعضلها حتى يرثها، أو يزوجه من أراد، وكان أهل تهامة يسيء الرجل صحة المرأة حتى يطلقها، ويشترط عليها ألا تنكح إلا من أراد حتى تفتدي منه ببعض ما أعطاه، فنهى الله المؤمنين عن ذلك. رواه ابن أبي حاتم. وقال أبو بكر بن مَرْزُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا موسى بن إسحاق، حدثنا علي بن المنذر، حدثنا محمد بن فضيل، عن يحيى بن سعيد، عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن أبيه قال: لما توفي أبو قيس بن الأسلت أراد ابنه أن يتزوج امرأته، وكان لهم ذلك في الجاهلية، فأنزل الله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾. ورواه ابن جرير من حديث محمد بن فضيل، به. ثم روى من طريق ابن جريج قال: أخبرني عطاء أن أهل الجاهلية كانوا إذا هلك الرجل وترك امرأة، حبسها أهله على الصبي يكون فيهم، فنزلت: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾. قال ابن جريج: وقال مجاهد: كان الرجل إذا توفي كان ابنه أحق بامرأته، ينكحها إن شاء، إذا لم يكن ابنها، أو ينكحها من شاء أخاه أو ابن أخيه. قال ابن جريج: وقال عكرمة: نزلت في كُبَيْشَةَ بنت مَعْنٍ بن عاصم من الأوس، توفي عنها أبو قيس ابن الأسلت، فجنح عليها ابنه، فجاءت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، لا أنا ورثت زوجي، ولا أنا تركت فأنكح، فنزلت هذه الآية. وقال السدي عن أبي مالك: كانت المرأة في الجاهلية إذا مات زوجها، جاء وليه فألقى عليها ثوباً، فإن كان له ابن صغير أو أخ حبسها حتى يتب أو تموت فيرثها، فإن هي انفلتت فأتت أهلها، ولم يلق عليها ثوباً نجت، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾. وقال مجاهد في الآية: كان الرجل يكون في حجره اليتيم هو يلي أمرها، فيحبسها رجاء أن تموت امرأته، فيتزوجها أو يزوجه ابنه. رواه ابن أبي حاتم. ثم قال: وزوي عن الشعبي، وعطاء بن أبي رباح، وأبي مجلز، والضحاك، والزهري، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حَيَّان - نحو ذلك.

قلت: فالآية نعم ما كان يفعله أهل الجاهلية، وما ذكره مجاهد ومن وافقه، وكل ما كان فيه نوع من ذلك، والله أعلم. وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَنَآئِئَهُمْ بِمَعْشَرَ مَا ءَاتَيْتُمُوهُمْ﴾ أي: لا تضاروهن في العشرة لتترك لك ما أصدقتهن أو بعضه أو حقاً من حقوقها عليك، أو شيئاً من ذلك على وجه القهر لها والاضطهاد. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَنَآئِئَهُمْ﴾ ولا تقهروهن ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَنَآئِئَهُمْ﴾ يعني: الرجل تكون له امرأة وهو كاره لصحبته، ولها عليه مهر فيضرها لتفتدي. وكذا قال الضحاك، وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير. وقال ابن المبارك وعبد الرزاق: أخبرنا معمر قال: أخبرني سِمَاك بن الفضل، عن ابن أبي ليلى قال: نزلت هاتان الآيتان إحداهما في أمر الجاهلية، والأخرى في أمر الإسلام. قال عبد الله بن المبارك: يعني قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ في الجاهلية ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَنَآئِئَهُمْ﴾ في الإسلام. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ﴾ قال ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، والشَّعْبِيُّ، والحسن البصري، ومحمد بن سيرين، وسعيد بن جبَّير، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء الخراساني، والضحاك، وأبو قلابة، وأبو صالح، والسَّدي، وزيد بن أسلم، وسعيد بن أبي هلال: يعني بذلك الزنا، يعني: إذا زنت فلنكح أن تسترجع منها الصداق الذي أعطيتها وتضاجرهما حتى تتركه لك وتخالعهما، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُعْطَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُعْطَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٢٩]. وقال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك: الفاحشة المبينة: الشُّمُوزُ والعُضْيَانُ. واختار ابن جرير أنه يعم ذلك كله: الزنا، والعصيان، والنشوز، وبذاء اللسان، وغير ذلك. يعني: أن هذا كله يبيح مضاجرتها حتى تُثْبِرَ من حقها أو بعضه ويفارقها، وهذا جيد، والله أعلم، وقد تقدم فيما رواه أبو داود منفرداً به من طريق يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ ولا تَقْرَبُوا مَنَآئِئَهُمْ بِمَعْشَرَ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ قال: وذلك أنَّ الرجل كان يرث امرأة ذي قرابته، فيعضلها حتى تموت أو ترد إليه صداقها، فأحكم الله عن ذلك، أي نهى عن ذلك.

قال عكرمة والحسن البصري: وهذا يقتضي أن يكون السياق كله كان في أمر الجاهلية، ولكن نُهي المسلمون عن فعله في

الإسلام. قال عبد الرحمن بن زيد: كان الفضل في قريش بمكة، ينكح الرجل المرأة الشريفة فلعلها لا توافقه، فيفارقه على أن لا تزوج إلا بإذنه، فيأتي بالشهود فيكتب ذلك عليها ويشهد، فإذا خطبها الخاطب فإن أعطته وأرضته أذن لها، وإلا غصها. قال: فهذا قوله: ﴿وَلَا تَمْلِكُونَ لِنَفْسِكُمْ أَنْ تُنكِحُوا بِعِصَمِ اللَّهِ﴾ الآية. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَمْلِكُونَ لِنَفْسِكُمْ أَنْ تُنكِحُوا بِعِصَمِ اللَّهِ﴾: هو كالعصل في سورة البقرة. وقوله: ﴿وَعَايِشُوهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: طيبوا أقوالكم لهم، وحسنوا أفعالكم وهياتكم بحسب قدرتهم، كما تحب ذلك منها، فافعل أنت بها مثله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَمْلِكُ الَّذِينَ عَلَى الْعَرْشِ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقال رسول الله ﷺ: «خَيْرَكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي». وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة دائم البشر، يُداعِبُ أهله، وَيَتَلَطَّفُ بهم، وَيُوسِّمُهُمْ نَفَقَتَهُ، وَيُضَاجِلُ نِسَاءَهُ، حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين يَتَوَدَّدُ إليها بذلك. قالت: سَأَلَنِي رسول الله ﷺ فسَبَقْتُهُ، وذلك قبل أن أُحْمِلَ اللَّحْمَ، ثم سَابَقْتُهُ بعد ما حملت اللحم فسَبَقْتِي، فقال: «هَذِهِ بِشَلِّكَ» وبيجتمع نساؤه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله ﷺ، فيأكل معهم العشاء في بعض الأحيان، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها. وكان ينام مع المرأة من نسائه في شعار واحد، يَضَعُ عن كَتِفَيْهِ الرِّدَاءَ وينام بالإزار، وكان إذا صَلَّى العشاء يدخل منزله يَسْمُرُ مع أهله قليلا قبل أن ينام، يُؤانسهم بذلك ﷺ وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الاحزاب: ٢١]. وأحكام عشرة النساء وما يتعلق بتفصيل ذلك موضعه كتاب «الأحكام»، والله الحمد.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ فَمَنْ أَنْ تَكُونُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَبَرًا كَثِيرًا﴾. أي: فَعَسَى أن يكون صبركم مع إمساكمم لهم وكرامتهم فيه، خير كثير لكم في الدنيا والآخرة. كما قال ابن عباس في هذه الآية: هو أن يغطف عليها، فيرزق منها ولداً، ويكون في ذلك الولد خير كثير، وفي الحديث الصحيح: «لَا يَفْرُقُ مَوْءِنٌ مَوْءِنَةً، إِنْ سَخِطَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرًا». وقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِخْدَافَهُمْ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا بِهِمْ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَ بِهِمْ كَمَا وَلَلْنَا بُيُوتَنَا﴾ [٢٢] أي: إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأة ويستبدل مكانها غيرها، فلا يأخذن مما كان أصدق الأولى شيئاً، ولو كان قنطاراً من مال. وقد قدمنا في سورة آل عمران الكلام على القنطار بما فيه كفاية عن إعادته ههنا. وفي هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل، وقد كان عمر بن الخطاب نهى عن كثرة الإصداق، ثم رجع عن ذلك كما قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا سلمة بن علقمة، عن محمد بن سيرين، قال: ثَبُثَ عن أبي العَجْفَاءِ السُّلَمِيِّ قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: ألا لا تُغْلُوا في صَدَاقِ النِّسَاءِ، فإنه لو كانت مَكْرَمَةٌ في الدنيا أو تَقْوَى عند الله كان أولاكم بها النبي ﷺ، ما أَصْدَقَ رسول الله ﷺ امرأة من نسائه، ولا أَصْدَقَتْ امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أُوقِيَةً، وإن كان الرجل لَيُبْتَئِي بِصُدُقَةِ امْرَأَتِهِ حتى يكون لها عداوة في نفسه، وحتى يقول: كَلِيفْتُ إِلَيْكَ عِلْقُ الْقِرْبَةِ، ثم رواه أحمد وأهل السنن من طرق، عن محمد بن سيرين، عن أبي العَجْفَاءِ - واسمه هرم بن مُسَبِّبٍ البصري - وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

طريق أخرى عن عمر: قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو حَنِيفَةَ، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني محمد بن عبد الرحمن، عن المجالد بن سعيد، عن الشعبي، عن مسروق، قال: ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ ثم قال: أيها الناس، ما أكثركم في صَدُقِ النِّسَاءِ وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه وإنما الصَّدَقَاتُ فيما بينهم أربعمئة درهم فما دون ذلك. ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها. فلا أعرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمئة درهم. قال: ثم نزل، فاعترضته امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين، نَهَيْتَ الناس أن يزيدوا النساء صداقهن على أربعمئة درهم؟ قال: نعم. فقالت: أما سمعت ما أنزل الله في القرآن؟ قال: وأي ذلك؟ فقالت: أما سمعت الله يقول: ﴿وَمَا آتَيْتُمُ إِخْدَافَهُمْ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا بِهِمْ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَ بِهِمْ كَمَا وَلَلْنَا بُيُوتَنَا﴾. قال فقال: اللهم غَفْرًا، كُلُّ الناس أَفْقَهُ من عمر. ثم رجع فركب المنبر فقال: إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صداقهن على أربعمئة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب. قال أبو يعلى: وأظنه قال: فمن طابت نفسه فليعمل. إسناده جيد قوي.

طريق أخرى: قال ابن المنذر: حدثنا إسحاق بن إبراهيم عن عبد الرزاق، عن قيس بن ربيع، عن أبي حصين، عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: قال عمر بن الخطاب: لا تغالوا في مهر النساء. فقالت امرأة: ليس ذلك لك يا عمر، إن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا آتَيْتُمُ إِخْدَافَهُمْ قِنْطَارًا فَلَا﴾. قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود: «فلا يحل لكم أن تأخذوا منه شيئاً» فقال عمر: إن امرأة خَاصَمَتْ عمر فَخَصَمَتْهُ.

طريق أخرى: عن عمر فيها انقطاع: قال الزبير بن بكار حدثني عمي مصعب بن عبد الله عن جدي قال: قال عمر بن الخطاب لا تزيدوا في مهر النساء وإن كانت بنت ذِي الْعَصَةِ - يعني يزيد بن الحصين الحارثي - فمن زاد ألقى الزيادة في بيت

المال. فقالت امرأة - من صُفَّة النساء طويلة، في أنفها فُطَس - ما ذاك لك. قال: ولم؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا تَيْسَتْ إِحَدَهُنَّ بِثَنَاءٍ﴾ الآية. فقال عمر: امرأة أصابت ورجل أخطأ. ولهذا قال الله منكرًا: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي: وكيف تأخذون الصداق من المرأة وقد أفضيت إليها وأفضت إليك. قال ابن عباس، ومجاهد، والسدي، وغير واحد: يعني بذلك الجماع. وقد ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال للمتلاعنين بعد فراغهما من تلاعنهما: «الله يعلم أن أحكما كاذب. فهل منكما تائب» ثلاثًا. فقال الرجل: يا رسول الله، مالي - يعني: ما أصدقها - قال: «لا مال لك. إن كنت صدقت عليها فهو بما استحلتت من فرجها، وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها».

وفي سنن أبي داود وغيره عن بصرة بن أكثم: أنه تزوج امرأة بكرًا في خدرها، فإذا هي حامل من الزنا، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له. ففرض لها بالصداق وفرق بينهما، وأمر بجلدها، وقال: «الولد عبد لك». فالصداق في مقابلة البضع، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾. وقوله: ﴿وَأَخَذْتَ مِنْكُمْ بُيُوتًا عِظًا﴾: روي عن ابن عباس ومجاهد، وسعيد بن جبيرة: أن المراد بذلك العقد. وقال سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَخَذْتَ مِنْكُمْ بُيُوتًا عِظًا﴾: قال: قوله: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. قال ابن أبي حاتم: وروي عن عكرمة، ومجاهد، وأبي العالية، والحسن، وقتادة، ويحيى بن أبي كثير، والضحاك والسدي - نحو ذلك. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس في الآية: هو قوله: أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فإن كلمة الله هي التشهد في الخطبة. قال: وكان فيما أعطى النبي ﷺ ليلة أسري به قال له: جعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبيد ورسولي. رواه ابن أبي حاتم. وفي صحيح مسلم، عن جابر في خطبة حجة الوداع: أن رسول الله ﷺ قال فيها: «واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله». وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ بِرَبِّكُمُ النَّسَاءَ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ يُحَرِّمُ تَعَالَى زَوَاجَاتِ آبَاءِ تَكْرِمَةً لَهُمْ، وَإِعْظَامًا وَاحْتِرَامًا أَنْ تَوَطَّأَ مِنْ بَعْدِهِ، حَتَّى إِذَا لَحَرَّمَ عَلَى الْإِبْنِ بِمَجْرَدِ الْعَقْدِ عَلَيْهَا، وَهَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا قيس بن الربيع عن أشعث بن سوار، عن عدي بن ثابت، عن رجل من الأنصار قال: لما توفي أبو قيس - يعني ابن الأسلت - كان من صالحى الأنصار، فخطب ابنه قيس امرأته، فقالت: إنما أغدك ولدًا وأنت من صالحى قومك، ولكن أتى رسول الله ﷺ فاستأمره. فأتى رسول الله ﷺ فقالت: إن أبا قيس توفي. فقال: «خيرًا». ثم قالت: إن ابنه قيسًا خطبني وهو من صالحى قومه. وإنما كنت أعده ولدًا، فما ترى؟ فقال لها: «ارجعي إلى بيتك». قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ بِرَبِّكُمُ النَّسَاءَ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ الآية.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا حسين، حدثنا حجاج، عن ابن جُرَيْج، عن عكرمة في قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ بِرَبِّكُمُ النَّسَاءَ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ الآية. قال: نزلت في أبي قيس ابن الأسلت، خلف على أم عبيد الله بنت صخر، وكانت تحت الأسلت أبيه، وفي الأسود بن خلف، وكان خلف على ابنة أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، وكانت عند أبيه خلف، وفي فاختة ابنة الأسود بن المطلب بن أسد، كانت عند أمية بن خلف، فخلف عليها صفوان بن أمية. وقد زعم السهيلي أن نكاح نساء الآباء كان معمولًا به في الجاهلية؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾. كما قال: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾. قال: وقد فعل ذلك كنانة بن خزيمة، تزوج بامرأة أبيه، فأولدها ابنه النضر بن كنانة قال: وقد قال ﷺ: «وُلِدْتُ مِنْ نِكَاحٍ لَا مِنْ سِفَاحٍ». قال: فدل على أنه كان سافعًا لهم ذلك، فإن أراد أن ذلك كان عندهم يعدونه نكاحًا فيما بينهم، فقد قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله المخرمي، حدثنا قُرَاد، حدثنا ابن عيينة عن عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، إِلَّا امْرَأَةَ الْأَبِ وَالْجَمْعَ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ بِرَبِّكُمُ النَّسَاءَ﴾. ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ وهكذا قال عطاء وقتادة. ولكن فيما نقله السهيلي من قصة كنانة نظر، والله أعلم. على كل تقدير فهو حرام في هذه الأمة، مُبْشِعٌ غَايَةِ التَّبَشُّعِ، ولهذا قال: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِثْمًا﴾ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٣﴾ [الإسراء: ٣٢]. فزاد ههنا: ﴿وَمَقْتًا﴾ أي: بُغْضًا، أي هو أمر كبير في نفسه، ويؤدي إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته، فإن الغالب أن من تزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله؛ ولهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة؛ لأنهن أمهات، لكونهن زوجات النبي ﷺ، وهو كالأب للأمة، بل حقه أعظم من حق الآباء بالإجماع، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه. وقال عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿وَمَقْتًا﴾ أي: يُمَقَّتُ الله عليه ﴿وَسَاءَ﴾

وأم الفضل، وابن الزبير، وسليمان بن يسار، وسعيد بن جبير، رحمهم الله. وقال آخرون: لا يحرم أقل من خمس رضعات، لما ثبت في صحيح مسلم من طريق مالك، عن عبد الله بن أبي بكر، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كان فيما أنزل الله من القرآن: عشر رضعات معلومات يحرم من. ثم نسخت بخمس معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن. وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة نحو ذلك. وفي حديث سهيلة بنت سهيل: أن رسول الله ﷺ أمرها أن ترضع مولى أبي حذيفة خمس رضعات، وكانت عائشة تأمر من يريد أن يدخل عليها أن يرضع خمس رضعات. وبهذا قال الشافعي، رحمه الله تعالى، وأصحابه. ثم ليعلم أنه لا بد أن تكون الرضاعة في سن الصغير دون الحولين على قول الجمهور. وقد قدمنا الكلام على هذه المسألة في سورة البقرة، عند قوله: ﴿يُزَيِّنُ أَوْلَادَهُنَّ خَوَلِينَ كَأُولِ آبٍ لِأَنَّهُمْ أَرْزَقُوا مِنْ دُونِ آبَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. واختلفوا: هل يحرم لبن الفحل، كما هو قول جمهور الأئمة الأربعة وغيرهم؟ أو إنما يختص الرضاع بالأم فقط، ولا ينتشر إلى ناحية الأب كما هو لبعض السلف؟ على قولين، وتحريم هذا كله في كتاب «الأحكام الكبير».

وقوله: ﴿وَأَمَّا هُنَّ فَبِأَنفُسِكُمْ أَشَدُّ مُجْرِمَاتٍ لِّأَنَّهُنَّ كَذَبْنَ بِهِنَّ وَالْأَنفُسُ بِمَا كَانُوا بِهِنَّ فِيكُمْ﴾ [النساء: ٢٣٤]. أما أم المرأة فإنها تحرم بمجرد العقد على ابنتها، سواء دخل بها أو لم يدخل. وأما الربية وهي بنت المرأة فلا تحرم بمجرد العقد على أمها حتى يدخل بها، فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها، ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا هُنَّ فَبِأَنفُسِكُمْ أَشَدُّ مُجْرِمَاتٍ لِّأَنَّهُنَّ كَذَبْنَ بِهِنَّ وَالْأَنفُسُ بِمَا كَانُوا بِهِنَّ فِيكُمْ﴾ [النساء: ٢٣٤]. وقد فهم بعضهم عود الضمير إلى الأمهات والربائب فقال: لا تحرم واحدة من الأم ولا البنت بمجرد العقد على الأخرى حتى يدخل بها؛ لقوله: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبي عدي وعبد الأعلى، عن سعيد، عن قتادة، عن خلّاس بن غفرو، عن علي، رضي الله عنه، في رجل تزوج امرأة فطلقها قبل أن يدخل بها، أيتزوج أمها؟ قال: هي بمنزلة الربية. وحدثنا ابن بشار: حدثنا يحيى بن سعيد، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن زيد بن ثابت قال: إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها فلا بأس أن يتزوج أمها. وفي رواية عن قتادة، عن سعيد، عن زيد بن ثابت؛ أنه كان يقول: إذا ماتت عنده وأخذ ميراثها كره أن يخلف على أمها، فإذا طلقها قبل أن يدخل بها فإن شاء فعل. وقال ابن المنذر: حدثنا إسحاق، عن عبد الرزاق، عن ابن جريج قال: أخبرني أبو بكر بن حفص، عن مسلم بن عويمر الأجدع أن بكر بن كنانة أخبره أن أباه أنكح امرأة بالطائف قال: فلم أجامعها حتى توفي عمي عن أمها، وأمها ذات مال كثير، فقال أبي: هل لك في أمها؟ قال: فسألت ابن عباس وأخبرته الخبر؟ فقال: انكح أمها. قال: فسألت ابن عمر فقال: لا تنكحها. فأخبرت أبي ما قال ابن عباس وما قال ابن عمر، فكتب إلى معاوية وأخبره في كتابه بما قال ابن عمر وابن عباس فكتب معاوية: إني لا أحل ما حرم الله، ولا أحرم ما أحل الله. وأنت وذاك والنساء سواها كثير. فلم يمه ولم يأذن لي، فأنصرف أبي عن أمها فلم ينكحها. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن سيمك بن الفضل، عن رجل، عن عبد الله بن الزبير قال: الربية والأم سواء، لا بأس بها إذا لم يدخل بالمرأة. وفي إسناده رجل مبهم لم يسم. وقال ابن جريج: أخبرني عكرمة بن خالد أن مجاهداً قال له: ﴿وَأَمَّا هُنَّ فَبِأَنفُسِكُمْ أَشَدُّ مُجْرِمَاتٍ لِّأَنَّهُنَّ كَذَبْنَ بِهِنَّ وَالْأَنفُسُ بِمَا كَانُوا بِهِنَّ فِيكُمْ﴾ [النساء: ٢٣٤]. فهذا القول مروى كما ترى عن علي، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، ومجاهد، وابن جبير، وابن عباس، وقد توقف فيه معاوية، وذهب إليه من الشافعية أبو الحسن أحمد بن محمد بن الصابوني، فيما نقله الرافعي عن العبادي. وقد خالفه جمهور العلماء من السلف والخلف، فرأوا أن الربية لا تحرم بمجرد العقد على الأم، وإنها لا تحرم إلا بالدخول بالأم، بخلاف الأم فإنها تحرم بمجرد العقد على الربية.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفر بن محمد بن هارون بن غزرة حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس: أنه كان يقول إذا طلق الرجل امرأة قبل أن يدخل بها أو ماتت لم تحل له أمها، أنه قال: إنها مبهمة، فكرهاها. ثم قال: وروى عن ابن مسعود، وعمران بن حصين، ومسروق، وطاوس، وعكرمة، وعطاء، والحسن، ومكحول، وابن سيرين، وقاتدة، والزهري نحو ذلك. وهذا مذهب الأئمة الأربعة والفقه السبعة، وجمهور الفقهاء قديماً وحديثاً، والله الحمد والمنة.

قال ابن جرير: والصواب، أعني قول من قال: «الأم من المبهمات»؛ لأن الله لم يشترط معهن الدخول كما شرط ذلك مع أمهات الربائب، مع أن ذلك أيضاً إجماع من الحجة التي لا يجوز خلافها فيما جاءت به متفقة عليه. وقد روي بذلك أيضاً عن النبي ﷺ خبر، غير أن في إسناده نظراً، وهو ما حدثني به المثنى، حدثنا حبان بن موسى، حدثنا ابن المبارك، أخبرنا

المثنى بن الصباح، عن عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده عن النبي ﷺ قال: «إذا نكح الرجل المرأة فلا يحل له أن يتزوج أمها، دخل بالبنت أو لم يدخل، وإذا تزوج الأم فلم يدخل بها ثم طلقها، فإن شاء تزوج الابنة». ثم قال: وهذا الخبر، وإن كان في إسناده ما فيه، فإن في إجماع الحجة على صحة القول به مستغنى عن الاستشهاد على صحته بغيره. وأما قوله: ﴿وَرَبِّكُمْ﴾ التي في ﴿حُجُورِكُمْ﴾: فجمهور الأئمة على أن الربية حرام سواء كانت في حجر الرجل أو لم تكن في حجره، قالوا: وهذا الخطاب خرج مخرج الغالب، فلا مفهوم له كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْإِغْيَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ حَصْنًا﴾ [النور: ٣٣]. وفي الصحيحين أن أم حبيبة قالت: يا رسول الله، انكح אחتي بنت أبي سفيان - وفي لفظ لمسلم: عزة بنت أبي سفيان - قال: «أو تحبين ذلك؟» قالت: نعم، لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير אחتي. قال: «فإن ذلك لا يحل لي». قالت: فإننا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة. قال: «بنت أم سلمة؟» قالت: نعم. قال: إنها لو لم تكن ربيتي في حجري ما حلت لي، إنها لبنت أخي من الرضاة، أرضعتني وأبا سلمة ثؤيبه فلا تعرضن علي بناتكن ولا أخواتكن». وفي رواية للبخاري: «إني لو لم أتزوج أم سلمة ما حلت لي». فجعل المناء في التحريم مجرد تزويجه أم سلمة وحكم بالتحريم لذلك، وهذا هو مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة وجمهور الخلف والسلف. وقد قيل بأنه لا تحرم الربية إلا إذا كانت في حجر الرجل، فإذا لم تكن كذلك فلا تحرم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، أنبأنا هشام - يعني ابن يوسف - عن ابن جريج، حدثني إبراهيم بن عبيد بن رفاعه، أخبرني مالك بن أوس بن الحدثان قال: كانت عندي امرأة فتوفيت، وقد ولدت لي، فوجدت عليها، فلقيني علي بن أبي طالب فقال: مالك؟ فقلت: توفيت المرأة. فقال علي: لها ابنة؟ قلت: نعم، وهي بالطائف. قال: كانت في حجرك؟ قلت: لا، هي بالطائف قال: فانكحها. قلت: فأين قول الله ﷻ: ﴿وَرَبِّكُمْ﴾ التي في ﴿حُجُورِكُمْ﴾ قال: إنها لم تكن في حجرك، إنما ذلك إذا كانت في حجرك. هذا إسناد قوي ثابت إلى علي بن أبي طالب، على شرط مسلم، وهو قول غريب جداً، وإلى هذا ذهب داود بن علي الظاهري وأصحابه. وحكاه أبو القاسم الرافعي عن مالك، رحمه الله، واختاره ابن حزم، وحكى لي شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي أنه عَرَضَ هذا الشيخ الإمام تقي الدين ابن تيمية، رحمه الله، فاستشكله، وتوقف في ذلك، والله أعلم. وقال ابن المنذر: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا الأثرم، عن أبي عبيدة قوله: ﴿الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ قال: في بيوتكم.

وأما الربية في ملك اليمين فقد قال الإمام مالك بن أنس، عن ابن شهاب: أن عمر بن الخطاب سئل عن المرأة وبناتها من ملك اليمين توطن إحداهما بعد الأخرى؟ فقال عمر: ما أحب أن أخبرهما جميعاً. يريد أن أطأهما جميعاً بملك يميني. وهذا منقطع. وقال سَئِدُ بن داود في تفسيره: حدثنا أبو الأحوص، عن طارق بن عبد الرحمن عن قيس قال: قلت لابن عباس: أيقع الرجل على امرأة وابنتها مملوكين له؟ فقال: أحلتها آية وحرمتها آية، ولم أكن لأفعله. قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر، رحمه الله: لا خلاف بين العلماء أنه لا يحل لأحد أن يطأ امرأة وابنتها من ملك اليمين، لأن الله حرم ذلك في النكاح، قال: ﴿وَأَمْتُهُنَّ يَسَاءُكُمْ رَبِّكُمْ﴾ التي في ﴿حُجُورِكُمْ﴾ يَسَاءُكُمْ، وملك اليمين هم تبع للنكاح، إلا ما روي عن عمر وابن عباس، وليس على ذلك أحد من أئمة الفتوى ولا من تبعهم. وروى هشام عن قتادة: بنت الربية وبنت ابنتها لا تصلح وإن كانت أسفل ببطون كثيرة. وكذا قال قتادة عن أبي العالية. ومعنى قوله تعالى: ﴿الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ أي: نكحتموهن. قاله ابن عباس وغير واحد. وقال ابن جريج عن عطاء: هو أن تهدي إليه فيكشف ويفتش ويجلس بين رجلها. قلت: أرايت إن فعل ذلك في بيت أهلها. قال: هو سواء، وحسبه قد حُرِّمَ ذلك عليه ابنتها.

وقال ابن جرير: وفي إجماع الجميع على أن خلوة الرجل بامرأته لا يحرم ابنتها عليه إذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها أو قبل النظر إلى فرجها بشهوة، ما يدل على أن معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع. وقوله: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَُمَّلِكُمْ﴾ أي: وحرمت عليكم زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلا بكم، يحترز بذلك عن الأدعياء الذين كانوا يَتَّبِعُونَهُمْ في الجاهلية، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِيَكُنْ لِالْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الاحزاب: ٣٧]. وقال ابن جُرَيْج: سألت عطاء عن قوله: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَُمَّلِكُمْ﴾ قال: كنا نحدث، والله أعلم، أن رسول الله ﷺ لما نكح امرأة زيد، قال المشركون بمكة في ذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَُمَّلِكُمْ﴾ ونزلت: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَائَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الاحزاب: ٤]. ونزلت: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الاحزاب: ٤٠]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا الجرح بن الحارث، عن الأشعث، عن الحسن بن محمد أن هؤلاء الآيات مبهمات: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمْ﴾ و﴿وَأَمْتُهُنَّ يَسَاءُكُمْ﴾ ثم قال: وروي عن طاوس وإبراهيم

والزهري ومكحول نحو ذلك. قلت: معنى مبهمات: أي عامة في المدخول بها وغير المدخول، فتحرم بمجرد العقد عليها، وهذا متفق عليه. فإن قيل: فمن أين تحرم امرأة ابنه من الرضاعة، كما هو قول الجمهور، ومن الناس من يحكيه إجماعاً وليس من صلبه؟ فالجواب من قوله ﷺ: «يُخْرَمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحْرَمُ مِنَ النَّسَبِ».

وقوله: «وَأَنْ تَجَمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَفْوَاً رَحِيماً» أي: وحرم عليكم الجمع بين الأختين معاً في التزويج، وكذا في ملك اليمين إلا ما كان منكم في جاهليتكم فقد عفونا عن ذلك وغفرناه. فدل على أنه لا مشنوية فيما يستقبل ولا استثناء فيما سلف، كما قال: «لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتَةُ إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَى» [الدخان: ٥٦]، فدل على أنهم لا يدقون فيها الموت أبداً. وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة قديماً وحديثاً على أنه يحرم الجمع بين الأختين في النكاح، ومن أسلم وتحت أختان خير، فيمسك أحدهما ويطلق الأخرى لا محالة. قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن لهيعة عن أبي وهب الجيثاني عن الضحاك بن فيروز، عن أبيه قال: أسلمت وعندي امرأتان أختان، فأمرني النبي ﷺ أن أطلق إحداهما. ثم روى الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه، من حديث ابن لهيعة. وأخرجه أبو داود والترمذي أيضاً من حديث يزيد بن أبي حبيب، كلاهما عن أبي وهب الجيثاني. قال الترمذي: واسمه ديلم بن الهوشع، عن الضحاك بن فيروز الديلمي، عن أبيه، به. وفي لفظ للترمذي: فقال النبي ﷺ: «اختر أيتهما شئت». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن. وقد روى ابن ماجه أيضاً بإسناد آخر فقال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، عن أبي وهب الجيثاني عن أبي خراش الرُعيني قال: قدمت على رسول الله ﷺ وعندي أختان تزوجتهما في الجاهلية، فقال: «إِذَا رَجَعْتَ فَطَلِّقْ إِحْدَاهُمَا». قلت: فيحتمل أن أبا خراش هذا هو الضحاك بن فيروز، ويحتمل أن يكون غيره، فيكون أبو وهب قد روى عن اثنين، عن فيروز الديلمي، والله أعلم. وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن يحيى بن محمد بن يحيى، حدثنا أحمد بن يحيى الخولاني، حدثنا هشام بن خارجة، حدثنا يحيى بن إسحاق، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة عن زُرَيْق بن حكيم، عن كثير بن مرة، عن الديلمي قال: قلت: يا رسول الله، إن تحتي أختين؟ قال: «طَلِّقْ أَيَهُمَا شِئْتَ». فالديلمي المذكور أولاً هو الضحاك بن فيروز الديلمي قال أبو زرعة الدمشقي: كان يصحب عبد الملك بن مروان، والثاني هو أبو فيروز الديلمي، رضي الله عنه، وكان من جملة الأمراء باليمن الذين لولا قتل الأسود العنسي المتنبئ لعنه الله. وأما الجمع بين الأختين في ملك اليمين فحرام أيضاً لعموم الآية، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة، عن قتادة، عن عبد الله بن أبي عتبة - أوعبة عن ابن مسعود: أنه سئل عن الرجل يجمع بين الأختين، فكرهه، فقال له - يعني السائل -: يقول الله ﷻ: «إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ». فقال له ابن مسعود: وبغيرك مما ملكت يمينك.

وهذا هو المشهور عن الجمهور والأئمة الأربعة وغيرهم، وإن كان بعض السلف قد توقف في ذلك. قال الإمام مالك، عن ابن شهاب، عن قبيصة بن ذؤيب: أن رجلاً سأل عثمان بن عفان عن الأختين في ملك اليمين، هل يجمع بينهما؟ قال عثمان: أخلتھما آية وخرمتھما آية، وما كنت لأصنع ذلك، فخرج من عنده فلقى رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، فسأله عن ذلك فقال: لو كان لي من الأمر شيء ثم وجدت أحداً فعل ذلك لجعلته نكالاً. قال مالك: قال ابن شهاب: أراه علي بن أبي طالب. قال: وبلغني عن الزبير بن العوام مثل ذلك. قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر الثمري، رحمه الله، في كتابه «الاستدكار»: إنما كنى قبيصة بن ذؤيب عن علي بن أبي طالب، لصحبته عبد الملك بن مروان، وكانوا يستثقلون ذكر علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. ثم قال أبو عمر، رحمه الله: حدثني خلف بن أحمد، رحمه الله، قراءة عليه: أن خلف بن مطرف حدثهم: حدثنا أيوب بن سليمان وسعيد بن سليمان ومحمد بن عمر بن ليابة قالوا: حدثنا أبو زيد عبد الرحمن بن إبراهيم، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، عن موسى بن أيوب الغافقي، حدثني عمي إياس بن عامر قال: سألت علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقلت: إن لي أختين مما ملكت يميني، اتخذت إحداهما سرية فولدت لي أولاداً، ثم رغبت في الأخرى، فما أصنع؟ فقال علي، رضي الله عنه: تعتق التي كنت تطأ الأخرى. قلت: فإن ناساً يقولون: بل تزوجها ثم تطأ الأخرى. فقال علي: أرايت إن طلقها زوجها أو مات عنها أليس ترجع إليك؟ لأن تعتقها أسلم لك. ثم أخذ علي بيدي فقال لي: إنه يخرم عليك مما ملكت يمينك ما يخرم عليك في كتاب الله ﷻ من الحرائر إلا العدد - أو قال: إلا الأربع - ويخرم عليك من الرضاع ما يخرم عليك في كتاب الله من النسب. ثم قال أبو عمر: هذا الحديث رحلة، لو لم يصب الرجل من أقصى المشرق أو المغرب إلى مكة غيره لما خابت رحلته. قلت: وقد روي عن علي نحو ما تقدم عن عثمان، وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن

أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن العباس، حدثني محمد بن عبد الله بن المبارك المخزومي، حدثنا عبد الرحمن بن غزوان، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال لي علي بن أبي طالب: حرمتها آية وأحلتهما آية - يعني الأختين - قال ابن عباس: يحرمهن على قرابتي منهن، ولا يحرمهن على قرابة بعضهن من بعض - يعني الإمام - وكانت الجاهلية يحرمون ما تُحَرِّمون إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، فلما جاء الإسلام أنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ يعني: في النكاح.

ثم قال أبو عمر: روى الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا محمد بن سلمة، عن هشام، عن ابن سيرين، عن ابن مسعود قال: يحرم من الإمام ما يحرم من الحرائر إلا العدد. وعن ابن سيرين والشعبي مثل ذلك. قال أبو عمر، رحمه الله: وقد روي مثل قول عثمان عن طائفة من السلف، منهم: ابن عباس، ولكنهم اختلف عليهم، ولم يلتفت إلى ذلك أحد من فقهاء الأمصار والحجاز ولا بالعراق ولا ما وراءهما من المشرق ولا بالشام ولا المغرب، إلا من شذ عن جماعتهم باتباع الظاهر ونقي القياس، وقد ترك من يعمل ذلك ما اجتمعنا عليه، وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطء، كما لا يحل ذلك في النكاح. وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَصَاتُكُمْ وَكُلَّ نَسَبٍ﴾ إلى آخر الآية: أن النكاح وملك اليمين في هؤلاء كلهن سواء، فكذا يجب أن يكون نظراً وقياساً الجمع بين الأختين وأمهات النساء والريائب. وكذلك هو عند جمهورهم، وهم الحجة المحجوج بها من خالفها وشذ عنها، والله المحمود.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: وحرم عليكم الأجنبية المحصنات وهن المزوجات ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يعني: إلا ما ملكتموهن بالسبي، فإنه يحل لكم وطؤهن إذا استبرأتموهن، فإن الآية نزلت في ذلك. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان - هو الثوري - عن عثمان البتي، عن أبي الخليل، عن أبي سعيد الخدري قال: أصبنا نساء من سبي أوطاس، ولهن أزواج، فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج، فسالنا النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. قال: فاستحللنا بها فروجهن. وهكذا رواه الترمذي عن أحمد بن منيع، عن هشيم، ورواه النسائي من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج، ثلاثتهم عن عثمان البتي، ورواه ابن جرير من حديث أشعث بن سوار عن عثمان البتي، ورواه مسلم في صحيحه من حديث شعبة عن قتادة، كلاهما عن أبي الخليل صالح بن أبي مريم، عن أبي سعيد الخدري، فذكره، وهكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة عن أبي الخليل، عن أبي سعيد، به.

وقد روي من وجه آخر عن أبي الخليل، عن أبي غلقمة الهاشمي، عن أبي سعيد. قال الإمام أحمد: حدثنا ابن أبي عدي، عن سعيد، عن قتادة، عن أبي الخليل، عن أبي غلقمة، عن أبي سعيد الخدري؛ أن أصحاب رسول الله ﷺ أصابوا سبايا يوم أوطاس، لهن أزواج من أهل الشرك، فكان أناساً من أصحاب رسول الله ﷺ كفوا وتأمموا من غشيانهن قال: فنزلت هذه الآية في ذلك: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي من حديث سعيد بن أبي عروبة - زاد مسلم: وشعبة - ورواه الترمذي من حديث همام بن يحيى، ثلاثتهم عن قتادة، بإسناده نحوه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن، ولا أعلم أن أحداً ذكر أبا غلقمة في هذا الحديث إلا ما ذكر همام عن قتادة. كذا قال. وقد تابعه سعيد وشعبة، والله أعلم. وقد روى الطبراني من طريق الضحاك عن ابن عباس: أنها نزلت في سبايا خيبر، وذكر مثل حديث أبي سعيد، وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن بيع الأمة يكون طلاقاً لها من زوجها، أخذاً بعموم هذه الآية. قال ابن جرير: حدثنا ابن مثنى، حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن مغيرة، عن إبراهيم: أنه سُئِلَ عن الأمة تباع ولها زوج؟ قال: كان عبد الله يقول: يبيعها طلاقاً، ويتلو هذه الآية ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. وكذا رواه سفيان عن منصور، ومغيرة والأعمش، عن إبراهيم، عن ابن مسعود قال: يبيعها طلاقاً. وهو منقطع. وقال سفيان الثوري، عن خالد، عن أبي قلابة، عن ابن مسعود قال: إذا بيعت الأمة ولها زوج فسيدها أحق ببيعها. ورواه سعيد، عن قتادة قال: إن أبي بن كعب، وجابر بن عبد الله، وابن عباس قالوا: يبيعها طلاقاً. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عليه، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: طلاق الأمة ست: يبيعها طلاقاً، وعتقها طلاقاً، وهبتها طلاقاً، وبرأها طلاقاً، وطلاق زوجها طلاقاً. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن ابن المسيب قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ قال: هن ذوات الأزواج، حزم الله نكاحهن إلا ما ملكت يمينك، فبيعها طلاقاً. قال معمر: وقال الحسن مثل ذلك.

وهكذا رواه سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ قال: إذا

كان لها زوج فيبعها طلاقها. وقال عوف، عن الحسن: بيع الأمة طلاقها، وبيعه طلاقها. فهذا قول هؤلاء من السلف رحمهم الله، وقد خالفهم الجمهور قديماً وحديثاً، فראوا أن بيع الأمة ليس طلاقها؛ لأن المشتري نائب عن البائع، والبائع كان قد أخرج عن ملكه هذه المنفعة وباعها مسلوقة عنها، واعتمدوا في ذلك على حديث بريرة المخرج في الصحيحين وغيرهما؛ فإن عائشة أم المؤمنين اشترتها ونَجَزَتْ عتقها، ولم يفسخ نكاحها من زوجها مغيب، بل خيرها النبي ﷺ بين الفسخ والبقاء، فاختارت الفسخ، وقصتها مشهورة، فلو كان بيع الأمة طلاقها - كما قال هؤلاء لما خيرها النبي ﷺ، فلما خيرها دل على بقاء النكاح، وأن المراد من الآية المسبيات فقط، والله أعلم. وقد قيل: المراد بقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ يعني: العفاف حرام عليكم حتى تملكوا عصمتهن بنكاح وشهود ومهور وولي واحدة أو اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً. حكاه ابن جرير عن أبي العالية وطاوس وغيرهما. وقال عَمَرُ وعبيدة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾: ما عدا الأربع حرام عليكم إلا ما ملكت أيمانكم. وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: هذا التحريم كتاب كتبه الله عليكم، فالزموا كتابه، ولا تخرجوا عن حدوده، والزموا شرعه وما فرضه. وقد قال عبيدة وعطاء والسدي في قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾: يعني الأربع. وقال إبراهيم: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: ما حرم عليكم. وقوله: ﴿وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَدَّاهُ ذَلِكَ﴾ أي: ما عدا من ذكرن من المحارم من لكم حلال، قاله عطاء وغيره. وقال عبيدة والسدي: ﴿وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَدَّاهُ ذَلِكَ﴾ ما دون الأربع، وهذا بعيد، والصحيح قول عطاء كما تقدم. وقال قتادة: ﴿وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَدَّاهُ ذَلِكَ﴾ يعني: ما ملكت أيمانكم. وهذه الآية هي التي احتج بها من احتج على تحليل الجمع بين الأختين، وقول من قال: أحلتها آية وحرمها آية. وقوله: ﴿أَنْ تَسْتَفْتُوا بِأَمْوَالِكُمْ لِحُضْرَةٍ غَيْرَ مُسْلِمِينَ﴾ أي: تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع أو السراي ما شئتم بالطريق الشرعي؛ ولهذا قال: ﴿لِحُضْرَةٍ غَيْرَ مُسْلِمِينَ﴾. وقوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: كما تستمتعون بهن فآتوهن مهورهن في مقابلة ذلك، كقوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١]، وكقوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ عِلَّةً﴾ [النساء: ٤]، وكقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقد استدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة، ولا شك أنه كان مشروعاً في ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك. وقد ذهب الشافعي وطائفة من العلماء إلى أنه أبيع ثم نسخ، ثم أبيع ثم نسخ، مرتين. وقال آخرون أكثر من ذلك، وقال آخرون: إنما أبيع مرة، ثم نسخ مرة، ثم نسخ ولم يبع بعد ذلك. وقد روي عن ابن عباس وطائفة من الصحابة القول بإباحتها للضرورة، وهو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل، رحمهم الله تعالى. وكان ابن عباس، وأبي بن كعب، وسعيد بن جبيرة، والسدي يقرؤون: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن فريضة». وقال مجاهد: نزلت في نكاح المتعة، ولكن الجمهور على خلاف ذلك، والعمدة ما ثبت في الصحيحين، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: نهى النبي ﷺ عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر. ولهذا الحديث ألفاظ مقررته هي في كتاب «الأحكام». وفي صحيح مسلم عن الربيع بن سبرة عن معبد الجهني، عن أبيه: أنه غزا مع رسول الله ﷺ فتح مكة، فقال: «يا أيها الناس، إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً» وفي رواية لمسلم في حجة الوداع، وله ألفاظ موضعها كتاب «الأحكام». وقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَزَقْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾: من حمل هذه الآية على نكاح المتعة إلى أجل مسمى قال: فلا جناح عليكم إذا انقضى الأجل أن تراضوا على زيادة به وزيادة للجعل. قال السدي: إن شاء أرضاها من بعد الفريضة الأولى - يعني الأجر الذي أعطاهما على تمتعه بها - قبل انقضاء الأجل بينهما، فقال: أتمتع منك أيضاً بكذا، فزاد قبل أن يستبرئ رحمها يوم تقضي المدة، وهو قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَزَقْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾. قال السدي: فإذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل، وهي منه بريئة، وعليها أن تستبرئ ما في رحمها، وليس بينهما ميراث، فلا يرث واحد منهما صاحبه. ومن قال بالقول الأول جعل معناه كقوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ عِلَّةً فَإِنْ طَلَبَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقَا فُكُوهُ حَيْثُ رَزَقَا﴾ [النساء: ٤] أي: إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه، أو عن شيء منه فلا جناح عليك ولا عليها في ذلك. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه قال: زعم الحضرمي أن رجلاً كانوا يفرضون المهر، ثم عسى أن يدرك أحدهم العسرة، فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِيمَا رَزَقْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ يعني: إن وضعت لك منه شيئاً فهو لك سائغ، واختار هذا القول ابن جرير، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَزَقْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ والنراضي أن يؤفها صداقها ثم يخبرها، ويعني في المقام أو الفراق. وقوله: ﴿إِنْ أَرَادَ اللَّهُ كَانَ

عَلَيْهَا حَكِيمًا» مناسب ذكر هذين الوصفين بعد شرع هذه المحرمات العظيمة.

«وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَوِّغَاتٍ وَلَا مُنْجَذَبَاتٍ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَرَ يَنْكِحُوهُنَّ فَلْيَنْكِحْنِ يَصِفْ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنْكَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصِيرُوا خَيْرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾».

يقول تعالى: ومن لم يجد «طَوْلًا» أي: سعة وقدرة «أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ» أي الحرائر. وقال ابن وهب: أخبرني عبد الجبار، عن ربيعة: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ» قال ربيعة: الطول الهوى، ينكح الأمة يعني إذا كان هواه فيها. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. ثم شرع يشنع على هذا القول ويزيده: «فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيَنْكِحُكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ» أي: فتزوجوا من الإماء المؤمنات اللاتي يملكنهن المؤمنون؛ ولهذا قال: «فَمِنْ فَيَنْكِحُكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ» قال ابن عباس وغيره: فليتنكح من إماء المؤمنين، وكذا قال السدي ومقاتل بن حيان. ثم اعترض بقوله: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ» أي: هو العالم بحقائق الأمور وسراثرها، وإنما لكم أيها الناس الظاهر من الأمور. ثم قال: «فَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ أَهْلَهُنَّ» فدل على أن السيد هو ولي أمته لا تزوج إلا بإذنه، وكذلك هو ولي عبده، ليس لعبده أن يتزوج إلا بإذنه، كما جاء في الحديث: «أَيُّمَا عَبْدٍ تَزَوَّجَ بِغَيْرِ إِذْنِ مَوْلَاهُ فَهُوَ عَاهِرٌ» أي زان. فإن كان مالك الأمة امرأة زوجها من يزوج المرأة بإذنها؛ لما جاء في الحديث: «لَا تَزَوِّجُ الْمَرْأَةَ الْمَرْأَةَ، وَلَا الْمَرْأَةَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الزَّانِيَةَ هِيَ الَّتِي تَزَوِّجُ نَفْسَهَا». وقوله: «وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ» أي: وادفعوا مهرهن بالمعروف، أي: عن طيب نفس منكم، ولا تبخسوا منه شيئاً استهانة بهن؛ لكونهن إماء مملوكات. وقوله: «وَالْمُحْصَنَاتُ» أي: عفاف عن الزنا لا يتعاطينه؛ ولهذا قال: «غَيْرَ مُسَوِّغَاتٍ»، وهن الزواني اللاتي لا يمتنعن من أحد أرادهن بالفاحشة. وقوله: «وَلَا مُنْجَذَبَاتٍ أَخْدَانٍ» قال ابن عباس: المسافحات، هن الزواني المعالنتات، يعني الزواني اللاتي لا يمتنعن أحداً أرادهن بالفاحشة. (ومتخذات أخدان) يعني: أخلاء. وكذا روي عن أبي هريرة، ومجاهد، والشعبي، والضحاك، وعطاء الخراساني، ويحيى بن أبي كثير، ومقاتل بن حيان، والسدي، قالوا: أخلاء. وقال الحسن البصري: يعني: الصديق. وقال الضحاك أيضاً: «وَلَا مُنْجَذَبَاتٍ أَخْدَانٍ»: ذات الخليل الواحد المسيس، المقرة به، نهى الله عن ذلك، يعني عن تزويجها ما دامت كذلك. وقوله: «فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَرَ يَنْكِحُوهُنَّ فَلْيَنْكِحْنِ يَصِفْ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنْكَ الْعَذَابِ»: اختلف القراء في «أُحْصِنَ»: فقرأه بعضهم بضم الهمزة وكسر الصاد، مبني لما لم يسم فاعله. وقرأه بفتح الهمزة والصاد فعل لازم ثم قيل: معنى القراءتين واحد. واختلفوا فيه على قولين: أحدهما: أن المراد بالإحصان ههنا الإسلام. روي ذلك عن عبد الله بن مسعود، وابن عمر، وأنس، والأسود بن يزيد، وزر بن حبيش، وسعيد بن جبير، وعطاء، وإبراهيم النخعي، والشعبي، والسدي. وروى نحوه الزهري عن عمر بن الخطاب، وهو منقطع. وهذا هو القول الذي نص عليه الشافعي رحمه الله تعالى في رواية الربيع، قال: وإنما قلنا ذلك استدلالاً بالسنة وإجماع أكثر أهل العلم. وقد روي ابن أبي حاتم في ذلك حديثاً مرفوعاً، قال: حدثنا علي بن الحسين بن الجعيد، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الدمشقي، حدثنا أبي، عن أبيه، عن أبي حمزة، عن جابر، عن رجل، عن أبي عبد الرحمن، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «فَإِذَا أُحْصِنَ» قال: «إحصانها إسلامها وعفافها». وقال: المراد به ههنا التزويج، قال: وقال علي: اجلدوهن. ثم قال ابن أبي حاتم: وهو حديث منكر. قلت: وفي إسناده ضعف، ومنهم من لم يسم، ومثله لا تقوم به حجة. وقال القاسم وسالم: إحصانها: إسلامها وعفافها. وقيل: المراد به ههنا: التزويج. وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وطاوس، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة وغيرهم. ونقله أبو علي الطبري في كتابه «الإيضاح» عن الشافعي، فيما رواه أبو الحكم بن عبد الحكم عنه وقد رواه ليث بن أبي سليم، عن مجاهد أنه قال: إحصان الأمة أن ينكحها الحر، وإحصان العبد أن ينكح الحرة. وكذا روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس، رواهما ابن جرير في تفسيره، وذكره ابن أبي حاتم عن الشعبي والنخعي. وقيل: معنى القراءتين متباين. فمن قرأ «أُحْصِنَ» بضم الهمزة، فمراده التزويج، ومن قرأ «أُحْصِنَ» بفتحها، فمراده الإسلام. اختاره الإمام أبو جعفر بن جرير في تفسيره، وقرره ونصره. والأظهر - والله أعلم - أن المراد بالإحصان ههنا التزويج؛ لأن سياق الآية يدل عليه، حيث يقول سبحانه وتعالى: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيَنْكِحُكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ». والآية الكريمة سياقها كلها في الفتيات المؤمنات، فتعين أن المراد بقوله: «فَإِذَا أُحْصِنَ» أي: تزوجن، كما فسره ابن عباس ومن تبعه. وعلى كل من القولين إشكال على مذهب الجمهور؛ وذلك أنهم يقولون: إن الأمة إذا زنت فعليها خمسون جلدة، سواء كانت مسلمة أو كافرة، مزوجة أو بكراً، مع أن مفهوم الآية يقتضي أنه لا حد على غير المحصنة ممن زنا من الإماء، وقد

اختلفت أجوبتهم عن ذلك، فأما الجمهور فقالوا: لا شك أن المنطوق مقدم على المفهوم. وقد وردت أحاديث عامة في إقامة الحد على الإمام، فقدمناها على مفهوم الآية، فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه، عن علي، رضي الله عنه، أن خطب فقال: يا أيها الناس، أقيموا على أركانكم الحد من أخصن منهم ومن لم يُخصن، فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت فأمرني أن أجلدوها، فإذا هي حديث عهد بنفاس، فخشيت إن جلدتها أن أقتلها، فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال: «أحسنْتَ، اتركها حتى تمأثل».

وعند عبد الله بن أحمد، عن غير أبيه: «إذا تعالت من نفسيها حدّها خمسين». وعن أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها، فليجلدها الحد ولا يُتْرَبَ عليها، ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحد ولا يُتْرَبَ عليها، ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها، فليبعها ولو بِخَبْلٍ من شَعْر». ولمسلم: «إذا زنت ثلاثاً فليبعها في الرابعة». وقال مالك، عن يحيى بن سعيد، عن سليمان بن يسار، عن عبد الله بن عيَّاش بن أبي ربيعة المخزومي قال: أمرني عمر بن الخطاب في فتية من قرش، فجلدنا ولأند من ولائد الإمارة خمسين خمسين في الزنا. الجواب الثاني: جواب من ذهب إلى أن الأمة إذا زنت ولم تحصن فلا حد عليها، وإنما تضرب تأديباً وهو المحكي عن عبد الله بن عباس، رضي الله عنه، وإليه ذهب طائفة وسعيد بن جبَّير، وأبو غُبَيْد القاسم بن سلام، وداد بن علي الظاهري في رواية عنه. وعقدتهم مفهوم الآية وهو من مفاهيم الشرط، وهو حجة عند أكثرهم فهو مقدم على العموم عندهم. وحديث أبي هريرة وزيد بن خالد، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن؟ قال: «إن زنت فحدوها، ثم إن زنت فاجلدوها، ثم يبعوها ولو بضعير»، قال ابن شهاب: لا أدري أبعد الثالثة أو الرابعة. أخرجاه في الصحيحين، وعند مسلم: قال ابن شهاب: الضفير: الجبل. قالوا: فلم يؤت في هذا الحديث عدد كما وقت في المحصنة بنصف ما على المحصنات من العذاب، فوجب الجمع بين الآية والحديث بذلك، والله أعلم. وأصرح من ذلك ما رواه سعيد بن منصور، عن سفيان عن مسعر، عن عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبَّير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس على أمة حد حتى تحصن - أو حتى تزوج - فإذا أحصنت بزواج فعليها نصف ما على المحصنات». وقد رواه ابن خزيمة، عن عبد الله بن عمران العابدي، عن سفيان، به مرفوعاً. وقال: رفعه خطأ، إنما هو من قول ابن عباس. وكذا رواه البيهقي من حديث عبد الله بن عمران، وقال مثل ما قاله ابن خزيمة. قالوا: وحديث علي وعمر رضي الله عنهما قضيا أعيان، وحديث أبي هريرة عنه أجوبة: أحدها: أن ذلك محمول على الأمة المزوجة جمعاً بينه وبين هذا الحديث. الثاني: أن لفظ الحد في قوله: فليجلدها الحد، لفظ مقحم من بعض الرواة، بدليل الجواب الثالث، وهو: أن هذا من حديث صحابييين وذلك من رواية أبي هريرة فقط، وما كان عن اثنين فهو أولى بالتقدم من رواية واحد، وأيضاً فقد رواه النسائي بإسناد على شرط مسلم، من حديث عبَّاد بن تميم، عن عمه - وكان قد شهد بدرًا - أن رسول الله ﷺ قال: «إذا زنت الأمة فاجلدوها، ثم إذا زنت فاجلدوها، ثم إذا زنت فبيعوها ولو بضعير». الرابع: أنه لا يبعد أن بعض الرواة أطلق لفظ الحد في الحديث على الجلد؛ لأنه لما كان الجلد اعتقد أنه حد، أو أن أطلق لفظة الحد على التأديب، كما أطلق الحد على ضرب من زنى من المرضى بمثكال نخل فيه مائة شمراخ، وعلى جلد من زنى بأمة امرأته إذا أذنت له فيها مائة، وإنما ذلك تعزير وتأديب عند من يراه كالإمام أحمد وغيره من السلف، وإنما الحد الحقيقي هو جلد البكر مائة، ورجم الثيب أو اللائط، والله أعلم. وقد روى ابن جرير في تفسيره: حدثنا ابن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبه، عن عمرو بن مرة؛ أنه سمع سعيد بن جبَّير يقول: لا تضرب الأمة إذا زنت ما لم تتزوج. وهذا إسناد صحيح عنه، ومذهب غريب إن أراد أنها لا تضرب أصلاً لا حداً، وكأنه أخذ بمفهوم الآية ولم يبلغه الحديث، وإن كان أراد أنها لا تضرب حداً، ولا ينفي ضربها تأديباً، فهو كقول ابن عباس ومن تبعه في ذلك، والله أعلم. الجواب الثالث: أن الآية دلت على أن الأمة المحصنة تحد نصف حد الحرة، فأما قبل الإحصان فعمومات الكتاب والسنة شاملة لها في جلدتها مائة كقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢٢] وكحديث عبادة بن الصامت: «خُذُوا عَنِّي، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب جلد مائة وزجرها بالحجارة». والحديث في صحيح مسلم وغير ذلك من الأحاديث. وهذا القول هو المشهور عن داود بن علي الظاهري، وهو في غاية الضعف؛ لأن الله تعالى إذا كان أمر بجلد المحصنة من الإمام بنصف ما على الحرة من العذاب وهو خمسون جلدة، فكيف يكون حكمها قبل الإحصان أشد منه بعد الإحصان. وقاعدة الشريعة في ذلك عكس ما قال، وهذا الشارع، عليه السلام، يسأله أصحابه عن الأمة إذا زنت ولم تحصن، فقال: «اجلدوها» ولم يقل: مائة. فلو كان حكمها كما قال داود، لوجب بيان ذلك لهم؛ لأنهم إنما سألوا عن ذلك لعدم بيان حكم جلد المائة بعد الإحصان في الإمام، وإلا فما الفائدة في قولهم: «ولم تحصن» لعدم الفرق بينهما لو لم تكن الآية

نزلت، لكن لما علموا حكم أحد الحكمين سألوا عن حكم الحال الآخر، فبينه لهم. كما ثبت في الصحيحين أنهم لما سألوه عن الصلاة عليه، فذكرها لهم ثم قال: «والسلام ما قد علمتم»، وفي لفظ: لما أنزل الله قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] قالوا: هذا السلام عليك قد عرفناه، فكيف الصلاة عليك؟ وذكر الحديث، وهكذا هذا السؤال.

الجواب الرابع - عن مفهوم الآية - جواب أبي ثور، فإن من مذهبه ما هو أغرب من قول داود من وجوه، ذلك أنه يقول: فإذا أخصن فإن عليهن نصف ما على المحصنات المزوجات وهو الرجم، وهو لا يتناصف، فيجب أن ترجم الأمة المحصنة إذا زنت، وأما قبل الإحصان فيجب جلدتها خمسين. فأخطأ في فهم الآية وخالف الجمهور في الحكم، بل قد قال أبو عبد الله الشافعي، رحمه الله: ولم يختلف المسلمون في أن لا رجم على مملوك في الزنا؛ وذلك لأن الآية دلت على أن عليهن نصف ما على المحصنات من العذاب، والألف واللام في المحصنات للعهد، وهن المحصنات المذكورات في أول الآية: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ والمراد بهن الحرائر فقط، من غير تعرض لتزويج غيره، وقوله: ﴿يُصَفِّ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ يدل على أن المراد من العذاب الذي يمكن تنصيفه، وهو الجلد لا الرجم، والله أعلم. ثم قد روى الإمام أحمد حديثاً نصاً في رد مذهب أبي ثور من رواية الحسن بن سعد عن أبيه أن صفية كانت قد زنت برجل من المحسن، فولدت غلاماً، فادعاه الزاني. فاخصمنا إلى عثمان بن عفان فرفعهما إلى علي بن أبي طالب، فقال علي: أقضي فيهما بقضاء رسول الله ﷺ: «الولد للفراش، وللعاهر الحجر» وجلدهما خمسين خمسين. وقيل: بل المراد من المفهوم التنبيه بالأعلى على الأدنى، أي: أن الإمام على النصف من الحرائر في الحد وإن كن محصنات، وليس عليهن رجم أصلاً، لا قبل النكاح ولا بعده، وإنما عليهن الجلد في الحالتين بالسنة. قال ذلك صاحب الإفصاح عن الشافعي، فيما رواه ابن عبد الحكم، عنه. وقد ذكره البيهقي في كتاب السنن والآثار، وهو بعيد من لفظ الآية؛ لأننا إنما استفدنا تنصيف الحد من الآية لا من سواها، فكيف يفهم منها التنصيف فيما عداها. وقال: بل أريد بأنها في حال الإحصان لا يقيم الحد عليها إلا الإمام، ولا يجوز لسيدتها إقامة الحد عليها والحالة هذه. وهو قول في مذهب الإمام أحمد رحمه الله - فأما قبل الإحصان فله ذلك، والحد في كلا الموضعين نصف حد الحرية، وهذا أيضاً بعيد؛ لأنه ليس في لفظ الآية ما يدل عليه. ولولا هذه لم ندر ما حكم الإمام في التنصيف، ولوجب دخولهن في عموم الآية في تكميل الحد مائة أو رجمهن، كما أثبت في الدليل عليه، وقد تقدم عن علي أنه قال: أيها الناس، أقيموا على أركانكم الحد من أحسن منهم ومن لم يحسن، وعموم الأحاديث المتقدمة ليس فيها تفصيل بين المزوجة وغيرها، لحديث أبي هريرة الذي احتج به الجمهور: «إِذَا زَنَّتْ أُمَةٌ أَحَدَكُمْ فَتَبَيَّنْ زِنَاهَا فَلْيُجْلِدْهَا الْحَدَّ وَلَا يَثْرَبَ عَلَيْهَا». ملخص الآية: أنها إذا زنت أقوال:

أحدها: أنها تجلد خمسين قبل الإحصان وبعده، وهل تُنْفَى؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنها تنفي عنه. والثاني لا تنفي عنه مطلقاً. وهو قول علي وفقهاء المدينة. والثالث: أنها تنفي نصف سنة وهو نصف نفي الحرية. وهذا الخلاف في مذهب الشافعي، وأما أبو حنيفة فعنده أن النفي تعزير ليس من تمام الحد، وإنما هو رأي الإمام، إن شاء فعله وإن شاء تركه في حق الرجال والنساء، وعند مالك أن النفي إنما هو على الرجال، وأما النساء فلا؛ لأن ذلك مضاد لصيانتهم، وما ورد شيء من النفي في الرجال ولا في النساء نعم حديث عبادة وحديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قضى فيمن زنى ولم يحسن بنفي عام وبإقامة الحد عليه. رواه البخاري، وكل ذلك مخصوص بالمعنى، وهو أن المقصود من النفي الصون وذلك مفقود في نفي النساء، والله أعلم.

والثاني: أن الأمة إذا زنت تجلد خمسين بعد الإحصان، وتضرب قبله تأديباً غير محدود بعدد محصور، وقد تقدم ما رواه ابن جرير عن سعيد بن جبير: أنها لا تضرب قبل الإحصان، وإن أراد نفيه فيكون مذهباً بالتأويل، وإلا فهو كالقول الثاني. القول الآخر: أنها تجلد قبل الإحصان مائة وبعده خمسين، كما هو المشهور عن داود، وهو أضعف الأقوال: أنها تجلد قبل الإحصان خمسين وترجم بعده، وهو قول أبي ثور، وهو ضعيف أيضاً. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ حَاشَى أَلَمَتْ مِنْكُمْ﴾ أي: إنما يباح نكاح الإمام بالشروط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنا، وشق عليه الصبر عن الجماع، وعنت بسبب ذلك كله، فعيناً يتزوج الأمة، وإن ترك تزوج الأمة، وجاهد نفسه في الكف عن الزنا، فهو خير له؛ لأنه إذا تزوجها جاء أولاده أرقاء لسيدتها إلا أن يكون الزوج عربياً فلا تكون أولاده منها أرقاء في قول قديم للشافعي، ولهذا قال: ﴿وَأَنْ تَصْرِفُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. ومن هذه الآية الكريمة استدلل جمهور العلماء في جواز نكاح الإمام، على أنه لا بد من عدم الطول لنكاح الحرائر ومن خوف العنت؛ لما في نكاحهن من مفسدة رق الأولاد، ولما فيهن من

الدناءة في العدول عن الحرائر إليهن. وخالف الجمهور أبو حنيفة وأصحابه في اشتراط الأمرين، فقالوا: متى لم يكن الرجل مزوجاً بحرة جاز له نكاح الأمة المؤمنة والكتانية أيضاً، سواء كان واجداً الطول لحرة أم لا، وسواء خاف العنت أم لا، وعمدتهم فيما ذهبوا إليه عموم قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥] أي: العفاف، وهو يعم الحرائر والإماء، وهذه الآية عامة، وهذه أيضاً ظاهرة في الدلالة على ما قاله الجمهور، والله أعلم.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيبَ الَّتِي فِي قُلُوبِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُقِيلُوا مِثْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وِثْرَ الْإِنْسَانِ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾.

يخبر تعالى أنه يريد أن يبين لكم - أيها المؤمنون - ما أحل لكم وحرم عليكم، مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها، ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيبَ الَّتِي فِي قُلُوبِكُمْ﴾ يعني: طرائقهم الحميدة واتباع شرائع التي يحبها ويرضاها ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي من الإثم والمحارم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي في شرعه وقدره وأفعاله وأقواله. وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُقِيلُوا مِثْلًا عَظِيمًا﴾ (٢٧) أي يريد اتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة ﴿أَنْ يُقِيلُوا﴾ يعني: عن الحق إلى الباطل ﴿مِثْلًا عَظِيمًا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ أي: في شرائع وأوامره ونواهيه وما يقدره لكم، ولهذا أباح نكاح الإماء بشروطه، كما قال مجاهد وغيره. ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ فناسبه التخفيف؛ لضعفه في نفسه وضعف عزمه وهيمته. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن ابن طائوس، عن أبيه: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ قال: في أمر النساء. وقال وكيع: يذهب عقله عندهن. وقال موسى الكليم عليه الصلاة والسلام، لبنينا صلوات الله وسلامه عليه، ليلة الإسراء، حين مر عليه راجعاً من عند سُدرة المنتهى، فقال له: ماذا فرض عليكم؟ فقال: «أمرني بخمسين صلاة في كل يوم وليلة». فقال له: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك، فإني قد بلوت الناس قبلك على ما هو أقل من ذلك فعجزوا، وإن أمتك أضعف أسماعاً وأبصاراً وقلوباً. فرجع فوضع عشرة، ثم رجع إلى موسى فلم يزل كذلك حتى بقيت خمساً قال الله ﷻ: «هن خمس وهن خمسون، الحسنه بعشر أمثالها» الحديث.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَحْرَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُضَلِّهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِنْ تَحْتَبَطُوا كَيْفَ مَا تَنْتَهَوْنَ عَنْهُ يُكْفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَرُدُّكُمْ مَدْخَلَكُمْ كَرِيمًا ﴿٣١﴾.

نهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضاً بالباطل، أي: بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية، كأنواع الربا والقمار، وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل، وإن ظهرت في غالب الحكم الشرعي مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا، حتى قال ابن جرير: حدثني ابن المشي، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا داود، عن عكرمة، عن ابن عباس - في الرجل يشتري من الرجل الثوب فيقول: إن رضيته أخذته وإلا رددته ورددت معه درهماً - قال: هو الذي قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا ابن فضيل، عن داود الأودي عن عامر، عن علقمة، عن عبد الله ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ قال: إنها كلمة محكمة، ما نسخت، ولا تنسخ إلى يوم القيامة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: لما أنزل الله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكيف للناس! فأنزل الله بعد ذلك: ﴿لَيْسَ عَلَى الْاَعْمَى حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١] الآية، وكذا قال قتادة بن دعامة. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَحْرَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ قرئ: تجارة بالرفع وبالنصب، وهو استثناء منقطع، كأنه يقول: لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال، لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها وتسبوا بها في تحصيل الأموال. كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وكقوله: ﴿لَا يَذْهَبُ عَنْهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦]. ومن هذه الآية الكريمة احتج الشافعي رحمه الله على أنه لا يصح البيع إلا بالقبول؛ لأنه يدل على التراضي نصاً، بخلاف المعاوضة فإنها قد لا تدل على الرضا ولا بد، وخالف الجمهور في ذلك مالك وأبو حنيفة وأحمد وأصحابهم، فأروا أن الأقوال كما تدل على التراضي، وكذلك الأفعال تدل في بعض المحال قطعاً، فصحبوا بيع المعاوضة مطلقاً، ومنهم من قال: يصح في المحقرات، وفيما يعده الناس بيعاً، وهو احتياط نظر من محقق المذهب، والله أعلم.

قال مجاهد: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَحْرَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ بيعاً أو عطاء يعطيه أحداً أحداً. ورواه ابن جرير ثم قال: وحدثنا ابن

وَكَيْفَ، حدثنا أبي، عن القاسم، عن سليمان الجُعفي، عن أبيه، عن ميمون بن مهران قال: قال رسول الله ﷺ «الْبَيْعُ عَنْ تَرَاضٍ، وَالْخِيَارُ بَعْدَ الصَّفَقَةِ، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَغْشَى مُسْلِمًا». هذا حديث مرسل. ومن تمام التراضي إثبات خيار المجلس، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «الْبَيْعَانُ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا» وفي لفظ البخاري: «إِذَا تَبَاعَ الرَّجُلَانِ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا». وذهب إلى القول بمقتضى هذا الحديث الشافعي، وأحمد بن حنبل، وأصحابهما، وجمهور السلف والخلف. ومن ذلك مشروعية خيار الشرط بعد العقد إلى ثلاثة أيام، كما هو متفق عليه بين العلماء إلى ما هو أزيد من ثلاثة أيام، بحسب ما يتبين فيه مأل البيع، ولو إلى سنة في القرية ونحوها، كما هو المشهور عن مالك، رحمه الله. وصحوا بيع المعاطة مطلقاً، وهو قول في مذهب الشافعي، ومنهم من قال: يصح بيع المعاطة في المحقرات فيما يعده الناس بيعاً، وهو اختيار طائفة من الأصحاب. وقوله: «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ» أي: بارتكاب محارم الله وتعاطي معاصيه وأكل أموالكم بينكم بالباطل «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا» أي: فيما أمركم به، ونهاكم عنه. قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا يزيد بن أبي حبيب، عن عمران بن أبي أنس، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر، عن عمرو بن العاص، رضي الله عنه، أنه قال لما بعثه النبي ﷺ عام ذات السلاسل قال: احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيمنت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، قال: فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: «يَا عَمْرُو، صَلَّيْتَ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ!» قال: قلت: يا رسول الله، إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فذكرت قول الله ﷻ: «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا»، فتيمنت ثم صليت. فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً.

وهكذا رواه أبو داود من حديث يحيى بن أيوب، عن يزيد بن أبي حبيب، به. ورواه أيضاً عن محمد بن أبي سلمة، عن ابن وهب، عن ابن لهيعة وعمرو بن الحارث، كلاهما عن يزيد بن أبي حبيب، عن عمران بن أبي أنس، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر المصري، عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص، عنه، فذكره نحوه. وهذا، والله أعلم، أشبه بالصواب. وقال أبو بكر بن مَرْزُوق: حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن حامد البَلْخِي، حدثنا محمد بن صالح بن سهل البلخي، حدثنا عُبَيْدُ اللَّهِ بن عمر القواريري، حدثنا يوسف بن خالد، حدثنا زياد بن سعد، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن عمرو بن العاص صلى بالناس وهو جُنُبٌ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ ذكروا ذلك له، فدعاه فسأله عن ذلك، فقال: يا رسول الله، خُفْتُ أَنْ يَقْتُلَنِي الْبَرْدُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا» قال: فسكت عنه رسول الله ﷺ. ثم أورد ابن مَرْزُوقِ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنْ حَدِيثِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِخِدْيَةٍ فحْدِيدَةٍ فِي يَدِهِ، يَجَا بِهَا بَطْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مَخْلُودًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِسِمٍ، فَسَمَهُ فِي يَدِهِ، يَتَحَسَاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مَخْلُودًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ مُتَرَدٍّ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مَخْلُودًا فِيهَا أَبَدًا». وهذا الحديث ثابت في الصحيحين، وكذلك رواه أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه، وعن أبي قلابة، عن ثابت بن الضحاك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عَذَّبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وقد أخرجه الجماعة في كتبهم من طريق أبي قلابة. وفي الصحيحين من حديث الحسن، عن جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ بِهِ جُرْحٌ، فَأَخَذَ سَكِينًا تَحَرَّ بِهَا يَدَهُ، فَمَارَقَا الدَّمَ حَتَّى مَاتَ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: عَبْدِي بَادَرَنِي بِنَفْسِهِ، حَرَمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ». ولهذا قال الله تعالى: «وَمَنْ يَقْعَلْ ذَلِكَ عَذَابًا وَظَلَمًا» أي: ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه متعدياً فيه ظالماً في تعاطيه، أي: عالماً بتحريمه متجاسراً على انتهاكه «فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا» وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، فَلْيَحْذَرُ مِنْهُ كُلُّ عَاقِلٍ لِيُبَيِّنَ لِيَبَّيِّنَ مِنَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ شَهِيدٌ.

وقوله: «إِنْ تَحَيَّيْتُمَا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمَا سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ» (٢٦) أي: إذا اجتنبتُم كَبَائِرَ الْآثَامِ الَّتِي نَهَيْتُمْ عَنْهَا كَفَرْنَا عَنْكُمْ صَغَائِرَ الذُّنُوبِ، وَأَدْخَلْنَاكُمْ الْجَنَّةَ؛ ولهذا قال: «وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ». وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا مُؤَمِّلُ بْنُ هِشَامٍ، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا خالد بن أيوب، عن معاوية بن قرة، عن أنس يرفعه: «الَّذِي بَلَّغْنَا عَنْ رَبِّنَا، ﷻ، ثُمَّ لَمْ نَخْرِجْ لَهُ عَنْ كُلِّ أَهْلِ وَمَالٍ أَنْ تَجَاوَزَ لَنَا عَمَّا دُونَ الْكَبَائِرِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنْ تَحَيَّيْتُمَا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمَا سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ» (٢٦)». وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة، فلنذكر منها ما تيسر: قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْمٌ، عن مغيرة، عن أبي معشر، عن إبراهيم، عن قُرْظِ بْنِ الصَّبَّيْ، عن سلمان الفارسي قال: قال لي النبي ﷺ: «أتدري ما يوم الجمعة؟» قلت: هو اليوم الذي جمع الله فيه أباكم. قال: «لكن أدري ما يوم»

الجُمُعَة، لا يتطهر الرجل فيُحسِنُ طَهْرَهُ، ثم يأتي الجُمُعَة فيُنصِت حتى يقضي الإمام صلاته، إلا كان كفارة له ما بينه وبين الجمعة المقبلة، ما اجْتَنِبَ المَقْتَلَة وقد رَوَى البخاري من وجه آخر، عن سلمان نحوه. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني المثنى بن إبراهيم، حدثنا أبو صالح، حدثني الليث، حدثني خالد، عن سعيد بن أبي هلال، عن نعيم المُجَمِّر، أخبرني صهيب مولى العُتُورِي، أنه سمع من أبي هريرة وأبي سعيد يقولان: حَظَبْنَا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «والذي نَفْسِي بِيَدِهِ» - ثلاث مرات - ثم أَكَبَ، فأكب كل رجل منا يَكْبِي، لا ندري على ماذا حلف عليه ثم رفع رأسه وفي وجهه البشر، فكان أحب إلينا من حُمْرِ الثَّعْمِ، فقال ﷺ: «ما من عَبْدٍ يُصَلِّي الصَّلَاةَ الْخَمْسَ، وَيُصُومُ رَمَضَانَ، وَيُخْرِجُ الزَّكَاةَ، وَيَجْتَنِبُ الْكِبَائِرَ السَّيِّئَةَ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، ثم قيل له: ادْخُلْ بِسَلَامٍ». وهكذا رواه النسائي، والحاكم في مستدركه، من حديث الليث بن سعد، رواه الحاكم أيضاً وابن جِبَّان في صحيحه، من حديث عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، به. ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

تفسير هذه السبع:

وذلك بما ثبت في الصحيحين من حديث سليمان بن بلال، عن ثور بن زيد، عن سالم أبي الغيث، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشُّرْكُ بالله، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَالسَّحَرُ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّخْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ». طريق أخرى عنه: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فهد بن عوف، حدثنا أبو عوانة، عن عمرو بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الكِبَائِرُ سَبْعٌ، أولها الإِشْرَاكُ بالله، ثم قَتْلُ النَّفْسِ بغير حقها، وأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ إلى أن يكبر، والفِرَازُ مِنَ الرَّخْفِ، وَرَمْيُ الْمُحْصَنَاتِ، والْإِنْقِلَابُ إلى الْأَعْرَابِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ». فالنص على هذه السبع بأنهن كبائر لا ينفي ما عداهن، إلا عند من يقول بمفهوم اللقب، وهو ضعيف عند عدم القرينة، ولا سيما عند قيام الدليل بالمنطوق على عدم المفهوم، كما سنورده من الأحاديث المتضمنة من الكبائر غير هذه السبع، فمن ذلك ما رواه الحاكم في مستدركه حيث قال: حدثنا أحمد بن كامل القاضي، إملاء، حدثنا أبو قلابة عبد الملك بن محمد، حدثنا معاذ بن هانيء، حدثنا خرب بن شداد، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن عبد الحميد بن يسان، عن عبيد بن عمير، عن أبيه - يعني: عُمَيْرُ بن قتادة - رضي الله عنه، أنه حدثه - وكانت له صحبة - أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: «ألا إن أولياء الله الْمُصَلُّونَ من يُقِيمُ الصَّلَاةَ الْخَمْسَ التي كُتِبَتْ عليه، وَيُصُومُ رَمَضَانَ وَيَحْتَسِبُ صَوْمَهُ، يرى أنه عليه حق، وَيُعْطِي زَكَاةَ مَالِهِ يَحْتَسِبُهَا، وَيَجْتَنِبُ الْكِبَائِرَ التي نهى الله عنها». ثم إن رجلاً سأله فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ فقال: «تسع: الشُّرْكُ بالله، وَقَتْلُ نَفْسٍ مُؤْمِنٍ بغير حق، وفِرَازُ يَوْمِ الرَّخْفِ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَةِ، وعقوق الوالدين المسلمين، واستحلال البيت الحرام قبلتكم أحياء وأمواتاً، ثم قال: لا يموت رجل لا يعمل هؤلاء الكبائر، ويُقِيمُ الصلاة، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، إلا كان مع النبي ﷺ في دار أربابها مصارع من دَقَبَ». وهكذا رواه الحاكم مطولاً، وقد أخرجه أبو داود والترمذي مختصراً من حديث معاذ بن هانيء، به. وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديثه مبسوطاً ثم قال الحاكم: رجاله كلهم يحتاج بهم في الصحيحين إلا عبد الحميد بن سنان. قلت: وهو حجازي لا يعرف إلا بهذا الحديث، وقد ذكره ابن جِبَّان في كتاب الثقات، وقال البخاري: في حديث نظر. وقد رواه ابن جرير، عن سليمان بن ثابت الجحدري، عن سلم بن سلام، عن أيوب بن عتبة، عن يحيى بن أبي كثير، عن عبيد بن عمير، عن أبيه، فذكره. ولم يذكر في الإسناد: عبد الحميد بن سنان، فالله أعلم.

حديث آخر في معنى ما تقدم: قال ابن مَرْدُويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا عبد العزيز بن مسلم بن الوليد، عن المطلب بن عبد الله بن حَظَبٍ عن عبد الله بن عمرو قال: صعد النبي ﷺ المنبر فقال: «لَا أَقْسِمُ، لَا أَقْسِمُ». ثم نزل فقال: «أُبَشِّرُوا، أُبَشِّرُوا، من صَلَّى الصَّلَاةَ الْخَمْسَ، وَاجْتَنَبَ الْكِبَائِرَ السَّيِّئَةَ، نُودِيَ من أَبْوَابِ الْجَنَّةِ: ادْخُلْ». قال عبد العزيز: لا أعلمه إلا قال: «بسلاَم». قال المطلب: سمعت من سأل عبد الله بن عمرو: أسمعت رسول الله ﷺ يذكرهن؟ قال: نعم: «عقوق الوالدين، وإِشْرَاكُ بالله، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، والفِرَازُ مِنَ الرَّخْفِ، وَأَكْلُ الرِّبَا».

حديث آخر في معناه: قال أبو جعفر ابن جرير في التفسير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُليَّة، أخبرنا زياد بن مَخْرَاق عن طيسلة بن مياس قال: كنت مع التَّجْدَاتِ، فأصبت ذنوباً لا أراها إلا من الكبائر، فلقيت ابن عُمر فقلت له: إني أصبت ذنوباً لا

أراها إلا من الكبائر. قال: ما هي؟ قلت: أصبت كذا وكذا. قال: ليس من الكبائر قال - بشيء لم يسمه طَيْسَلَةٌ - قال: هي تسع وسأعدهن عليك: الإشراف بالله، وقتل النفس بغير حقها، والفرار من الزحف، وقذف المحصنة، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم ظلماً، وإلحاد في المسجد الحرام، والذي يستسحر، وبكاء الوالدين المعقوق. قال زياد: وقال طيسلة: لما رأى ابن عمر فرقي قال: أتخاف النار أن تدخلها؟ قلت: نعم. قال: وتحب أن تدخل الجنة؟ قلت: نعم. قال: أحبي والداك؟ قلت: عندي أُمي. قال: فوالله لئن أنت أَلَنْتَ لها الكلام، وأطعمتها الطعام، لتدخلن الجنة ما اجتنبت الموجبات.

طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثنا سليمان بن ثابت الجَحْدَرِي الواسطي، حدثنا سلم بن سلام، حدثنا أيوب بن عتبة، عن طَيْسَلَةَ بن علي النهدي قال: أتيت ابن عمر وهو في ظل أزاة يوم عَرَفَةَ، وهو يصب الماء على رأسه ووجهه، قلت: أخبرني عن الكبائر؟ قال: هي تسع. قلت: ما هي؟ قال: الإشراف بالله، وقذف الْمُحْصَنَةِ - قال: قلت: قبل القتل؟ قال: نعم وَرَغْمًا - وقتل النفس المؤمنة، والفرار من الزحف، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وعقوق الوالدين المسلمين، وإلحاد بالبيت الحرام، قَبْلَتِكُمْ أحياء وأمواتاً.

هكذا رواه من هذين الطريقين موقوفاً، وقد رواه علي بن الجَعْدِي، عن أيوب بن عتبة، عن طيسلة بن علي النهدي قال: أتيت ابن عمر عَشِيَّةَ عَرَفَةَ، وهو تحت ظل أزاة، وهو يصب الماء على رأسه، فسألته عن الكبائر، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هُنَّ سَبْعٌ». قال: قلت: وما هنَّ؟ قال: «الإشراف بالله، وقذف المحصنة - قال: قلت: قبل الدم؟ قال: نعم ورَغْمًا - وقتل النفس المؤمنة، والفرار من الزحف، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وعقوق الوالدين، وإلحاد بالبيت الحرام قَبْلَتِكُمْ أحياء وأمواتاً». وكذا رواه الحسن بن موسى الأشيب، عن أيوب بن عتبة اليماني - وفيه ضعف - والله أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا زكريا بن عَدِي، حدثنا بَقِيَّة، عن تَجِير بن سعد، عن خالد بن مَعْدَان: أن أبا رُحْم السلمي حدثهم، عن أبي أيوب قال: قال رسول الله ﷺ: «من عَبَدَ الله لَا يُشْرِكُ به شيئاً، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وصام رمضان، واجْتَنَبَ الكبائر، فله الجنة - أو دخل الجنة - فسأله رجل: ما الكبائر؟ فقال: «الشرك بالله، وقتل نفس مسلمة، والفرار يوم الزحف». ورواه أحمد أيضاً، والنسائي، من غير وجه، عن بَقِيَّة.

حديث آخر: روى الحافظ أبو بكر ابن مردويه في تفسيره، من طريق سليمان بن داود اليماني - وهو ضعيف - عن الزهري، عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه، عن جده قال: كتب رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن كتاباً فيه الفرائض والسنن والديات، وبعث به مع عمرو بن حزم، قال: وكان في الكتاب: «إن أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة: إشراف بالرب، وقتل النفس المؤمنة بغير حق، والفرار في سبيل الله يوم الزحف، وعقوق الوالدين، وزمى المحصنة، وتعلم السحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم».

حديث آخر: فيه ذكر شهادة الزور، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، حدثني عُبيد الله بن أبي بكر قال: سمعت أنس بن مالك قال: ذكر رسول الله ﷺ الكبائر - أو سئل عن الكبائر - فقال: «الشرك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين». وقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قال: «قول الزور - أو شهادة الزور». قال شعبة: أكبر ظني أنه قال: «شهادة الزور». أخرجاه من حديث شعبة، به. وقد رواه ابن مَرْدُويه من طريقين آخرين غريبين عن أنس، بنحوه.

حديث آخر: أخرجه الشيخان أيضاً من حديث عبد الرحمن بن أبي بَكْرَةَ، عن أبيه قال: قال النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟»، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراف بالله، وعقوق الوالدين» وكان متكئاً فجلس فقال: «ألا وشهادة الزور، ألا وقول الزور». فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

حديث آخر: فيه ذكر قتل الولد، وهو ثابت في الصحيحين، عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ - وفي رواية: أكبر - قال: «أن تجعل الله نداً وهو خلقك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني خلية جارك»، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَمًا﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

حديث آخر: فيه ذكر شرب الخمر. قال ابن أبي حاتم: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، حدثني أبو صخر: أن رجلاً أخذته عن عمارة بن حزم أنه سمع عبد الله بن عمرو بن العاص وهو بالجحر بمكة، وسئل عن الخمر، فقال: والله إن

عظيماً عند الله الشيخ مثلي يكذب في هذا المقام على رسول الله ﷺ، فذهب فسأله، ثم رجع فقال: سألته عن الخمر فقال: «هي أكبر الكبائر، وأم الفواحش، من شرب الخمر ترك الصلاة ووقع على أمه وخالته وعمته». غريب من هذا الوجه.

طريق أخرى: رواها الحافظ أبو بكر بن مَرْذُويه من حديث عبد العزيز بن محمد الدَّرَاوَزِي، عن داود بن صالح، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه: أن أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، وعُمَرُ بن الخطاب وأناساً من أصحاب رسول الله ﷺ، رضي الله عنهم أجمعين، جلسوا بعد وفاة رسول الله ﷺ، فذكروا أعظم الكبائر، فلم يكن عندهم ما ينتهون إليه، فأرسلوني إلى عبد الله بن عمرو بن العاص أسأله عن ذلك، فأخبرني أن أعظم الكبائر شرب الخمر، فأتيتهم فأخبرتهم، فأنكروا ذلك، فوثبوا إليه حتى أتوه في داره، فأخبرهم أنهم تحدثوا عند رسول الله ﷺ أن ملكاً من بني إسرائيل أخذ رجلاً فخير بين أن يشرب خمرأ أو يقتل نفساً، أو يزاني، أو يأكل لحم خنزير، أو يقتله. فاختار شرب الخمر، وإنه لما شربها لم يتمتع من شيء أرادته منه، وإن رسول الله ﷺ قال لنا مجيباً: «ما من أحد يشرب خمرأ إلا لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة، ولا يموت أحد وفي مئائتها منها شيء إلا حَرَّمَ الله عليه الجنة، فإن مات في أربعين ليلة مات ميتة جاهلية». هذا حديث غريب من هذا الوجه جداً، وداود بن صالح هو الثَّمار المدني مولى الأنصار، قال الإمام أحمد: لا أرى به بأساً. وذكره ابن حبان في الثقات، ولم أر أحداً جرحه.

حديث آخر: عن عبد الله بن عمرو وفيه ذكر اليمين الغموس. قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن فراس، عن الشعبي، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال: «أكبر الكبائر الإشراك بالله، وِعُقُوقُ الوالدين، أو قتل النفس - شعبة الشاك - واليمين الغموس» رواه البخاري والترمذي والنسائي من حديث شعبة. زاد البخاري: وشيبان، كلاهما عن فراس، به.

حديث آخر: في اليمين الغموس: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، حدثني الليث بن سعد، حدثنا هشام بن سعد، عن محمد بن زيد بن مهاجر بن قُفُذ التيمي، عن أبي أمامة الأنصاري، عن عبد الله بن أنيس الجهني، عن رسول الله ﷺ قال: «أكبر الكبائر الشرك بالله، وِعُقُوقُ الوالدين، واليمين الغموس، وما خَلَفَ حالف بالله يمين صَبْرٍ فأدخل فيها مثل جَنَاحِ البَعُوضَةِ، إلا كانت وَكُنْتِ في قلبه إلى يوم القيامة». وهكذا رواه الإمام أحمد في مسنده، وعبد بن حميد في تفسيره، كلاهما، عن يونس بن محمد المؤدب، عن الليث بن سعد، به. وأخرجه الترمذي في تفسيره عن عبد بن حميد به. ثم قال: وهذا حديث حسن غريب، وأبو أمامة الأنصاري هذا هو ابن ثعلبة، ولا يعرف اسمه. وقد رَوَى عن النبي ﷺ أحاديث. قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المِزِّي: وقد رواه عبد الرحمن بن إسحاق المدني، عن محمد بن زيد، عن عبد الله بن أبي أمامة، عن أبيه، عن عبد الله بن أنيس. فزاد عبد الله بن أبي أمامة. قلت: هكذا وقع في تفسير ابن مَرْذُويه وصحيح ابن حبان، من طريق عبد الرحمن بن إسحاق، كما ذكره شيخنا، فَسَحَّ الله في أجله.

حديث آخر: عن عبد الله بن عمرو، في التسبب إلى شتم الوالدين. قال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا وكيع، عن مسعر وسفيان، عن سعد بن إبراهيم، عن حميد بن عبد الرحمن، عن عبد الله بن عمرو - رفعه سفيان إلى النبي ﷺ، ووقفه مسعر على عبد الله بن عمرو - قال: «مَنْ الكبائر أن يَشْتُمَ الرجلُ والديه؟» قالوا: وكيف يشتم الرجل والديه؟ قال: «يَسُبُّ الرجلُ أبا الرجل فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمه فيسبُّ أمه». وقد أخرج هذا الحديث البخاري عن أحمد بن يونس، عن إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، عن أبيه، عن عمه حميد بن عبد الرحمن بن عوف، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن يَلْعَنَ الرجلُ والديه». قالوا: وكيف يَلْعَنُ الرجلُ والديه؟! قال: «يَسُبُّ الرجلُ أبا الرجل فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمه فيسبُّ أمه». وهكذا رواه مسلم من حديث سفيان وشعبة وي زيد بن الهاد، ثلاثتهم عن سعد بن إبراهيم، به، مرفوعاً بنحوه. وقال الترمذي: صحيح. وثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سبب المسلم فسوق، وقته كفر».

حديث آخر في ذلك: قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم دُحَيْم، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، حدثنا زهير بن محمد، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «من أكبر الكبائر عِزُّ الرجل المسلم، والسُّبُّ والسَّيِّئَاتُ». هكذا روى هذا الحديث، وقد أخرجه أبو داود في كتاب الأدب في سنته، عن جعفر بن مسافر، عن عمرو بن أبي سلمة، عن زهير بن محمد، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «من أكبر الكبائر استطالة المِرَّةِ في عِزِّ رجل مسلم بغير حق، ومن الكبائر السيئات بالسب». وكذا رواه ابن مَرْذُويه من طريق عبد الله بن العلاء بن زُبَيْر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، فذكر مثله.

حديث آخر: فيه ذكرُ الجمع بين الصلاتين من غير عذر؛ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نُعَيْم بن حماد، حدثنا مُغْتَمِر بن سليمان، عن أبيه، عن حَنْش، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «من جمع بين الصلاتين من غير عذرٍ، فقد أتى باباً من أبواب الكبائر». وهكذا رواه أبو عيسى الترمذي عن أبي سلمة يحيى بن خلف، عن المعتمر بن سليمان، به. ثم قال: حَنْش هو أبو علي الرحبي، وهو حُسَيْن بن قيس، وهو ضعيف عند أهل الحديث، ضعفه أحمد وغيره. وقد روى ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا إسماعيل بن عُليّة، عن خالد الحذاء، عن حميد بن هلال، عن أبي قتادة - يعني العدوي - قال: قرئ علينا كتابُ عمر: من الكبائر جمع بين الصلاتين - يعني بغير عذر - والفراؤ من الرُخْف، والنُّهْبَة. وهذا إسناد صحيح. والغرض أنه إذا كان الوعيد فيمن جمع بين الصلاتين كالظهر والعصر، تقديماً أو تأخيراً، وكذا المغرب والعشاء هما من شأنه أن يجمع بسبب من الأسباب الشرعية، فإذا تعاطاه أحد بغير شيء من تلك الأسباب يكون مرتكباً كبيرة، فما ظنك بمن يترك الصلاة بالكلية؟ ولهذا روى مسلم في صحيحه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة» وفي السنن عنه، عليه السلام، أنه قال: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر». وقال: «من ترك صلاةَ العصر فقد حبطَ عَمَلُهُ». وقال: «من فاتته صلاةُ العصر فكأنما وترَ أهله وماله».

حديث آخر: فيه اليأس من رُوح الله، والأمن من مكر الله. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم النبيل، حدثنا أبي، حدثنا شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ كان متكئاً فدخل عليه رجل فقال: ما الكبائر؟ فقال: «الشُّرك بالله، واليأس من رُوح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، وهذا أكبر الكبائر». وقد رواه البزار، عن عبد الله بن إسحاق العطار، عن أبي عاصم النبيل، عن شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: «الإشراك بالله، واليأس من رُوح الله، والقنوط من رحمة الله ﷻ». وفي إسناده نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً، فقد روى عن ابن مسعود نحو ذلك، قال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا مطرف، عن وَبَرَة بن عبد الرحمن، عن أبي الطفيل قال: قال ابن مسعود: أكبر الكبائر الإشراك بالله، واليأس من رُوح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله. وكذا رواه من حديث الأعمش وأبي إسحاق، عن وَبَرَة، عن أبي الطفيل، عن ابن مسعود، به. ثم رواه من طُرُق عدة، عن أبي الطفيل، عن ابن مسعود. وهو صحيح إليه بلا شك.

حديث آخر: فيه سوء الظن بالله؛ قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن إبراهيم بن بُندار، حدثنا أبو حاتم بكر بن عبدان، حدثنا محمد بن مهاجر، حدثنا أبو حذيفة البخاري، عن محمد بن عجلان، عن نافع، عن ابن عمر أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكبر الكبائر سوء الظن بالله ﷻ». حديث غريب جداً.

حديث آخر: فيه التعرب بعد الهجرة، قد تقدم في رواية عُمرو بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعاً، قال أبو بكر ابن مُردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا أحمد بن رشدين، حدثنا عُمرو بن خالد الحراني، حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب، عن محمد بن سهل بن أبي حُثْمَة، عن أبيه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «الكبائر سبع، ألا تسألوني عنهن؟ الشُّرك بالله، وقَتْلُ النفس، والفِرارُ يوم الرُّخْف، وأكُلُ مال اليتيم، وأكل الربا، وقَذْفُ المحصنة، والتعرب بعد الهجرة». وفي إسناده نظر، ورفع غلط فاحش، والصواب ما رواه ابن جرير: حدثنا تميم بن المنتصر، أخبرنا يزيد، أخبرنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن سهل بن أبي حُثْمَة، عن أبيه قال: إني لفي هذا المسجد - مسجد الكوفة - وعلي، رضي الله عنه، يَخْطُبُ الناسَ على المنبر، فقال: يا أيها الناس، الكبائر سبع. فأصاخ الناسُ، فأعادها ثلاث مرات، ثم قال: لم لا تسألوني عنها؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، ما هي؟ قال: الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرم الله، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والفراؤ يوم الزحف، والتعرب بعد الهجرة. فقلت لأبي: يا أبت، التعرب بعد الهجرة، كيف لحق ههنا؟ قال: يا بني، وما أعظم من أن يهاجر الرجل، حتى إذا وقع سهمه في الفيل، ووجب عليه الجهاد خلع ذلك من عنقه فرجع أعراياً كما كان.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا أبو معاوية - يعني شيبان - عن منصور، عن هلال بن يساف، عن سلمة بن قيس الأشجعي قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «ألا إنما هن أربع: ألا تشرکوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حَرَّمَ الله إلا بالحق، ولا تَزْنُوا، ولا تَسْرِقُوا». قال: فما أنا بأشع عليهن مني، إذ سمعتهن من رسول الله ﷺ. ثم زواه أحمد أيضاً والنسائي وابن مردويه، من حديث منصور، بإسناده مثله.

حديث آخر: تقدم من رواية عُمَر بن المغيرة، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال:

«الإضرار في الوصية من الكبائر». والصحيح ما رواه غيره، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس قوله. قال ابن أبي حاتم: وهو الصحيح عن ابن عباس من قوله.

حديث آخر في ذلك: قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثنا عباد بن عباد، عن جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة، أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ ذكروا الكبائر وهو متكىء، فقالوا: الشرك بالله، وأكل مال اليتيم، وفرار من الزحف، وقذف المحصنة، وعقوق الوالدين، وقول الزور، والغلول، والسحر، وأكل الربا، فقال رسول الله ﷺ: «فأين تجعلون؟ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ يَهْدِي اللَّهُ وَأَيُّهُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا» [آل عمران: ١٧٧]! إلى آخر الآية. في إسناده ضعف، وهو حسن.

ذكر أقوال السلف في ذلك:

قد تقدم ما روي عن أمير المؤمنين عمر وعلي، رضي الله عنهما، في ضمن الأحاديث المذكورة. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَية، عن ابن عَوْن، عن الحسن: أن ناساً سألوا عبد الله بن عمرو بمصر فقالوا: نرى أشياء من كتاب الله، أَمَرُ أَنْ يُعْمَلَ بها، لا يعمل بها، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين في ذلك؟ فقدم وقدموا معه، فلقبه عمر، رضي الله عنه، فقال: متى قدمت؟ فقال: منذ كذا وكذا قال: أبأذن قدمت؟ قال: فلا أدري كيف رد عليه. فقال: يا أمير المؤمنين، إن ناساً لقوني بمصر فقالوا: إنا نرى أشياء من كتاب الله، أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها، فأحبوا أن يلوك في ذلك فقال: اجمعهم لي. قال: فجمعهم له - قال ابن عون: أظنه قال: في بهو - فاخذ أذنهم رجلاً فقال: نشدتك بالله وبحق الإسلام عليك، أقرأت القرآن كله؟ قال: نعم. قال: فهل أحصيته في نفسك؟ قال: اللهم لا. قال: ولو قال: نعم لخصمه. قال: فهل أحصيته في بصرك؟ فهل أحصيته في لفظك؟ هل أحصيته في أمرك؟ ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم. قال: فشكلك عمر أمه. أنكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله؟! قد علم ربنا أنه ستكون لنا سيئات. قال: وتلا: ﴿إِنْ تَحِبَبْتُمْ كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَتَدْخُلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [٢٦]. ثم قال: هل علم أهل المدينة - أو قال: هل علم أحد - بما قدمت؟ قالوا: لا. قال: لو علموا لوعظت بكم. إسناده حسن ومتن حسن، وإن كان من رواية الحسن عن عمر، وفيها انقطاع، إلا أن مثل هذا اشتهر فتكفي شهرته. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو أحمد - يعني الزبيري - حدثنا علي بن صالح، عن عثمان بن المغيرة، عن مالك بن جوين، عن علي، رضي الله عنه، قال: الكبائر الإشراك بالله، وقتل النفس، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، والفرار من الزحف، والتعرب بعد الهجرة، والسحر، وعقوق الوالدين، وأكل الربا، وفرار الجماعة، ونكث الصفة. وتقدم عن ابن مسعود أنه قال: أكبر الكبائر الإشراك بالله، والياس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، ﷺ. وروى ابن جرير، من حديث الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، والأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، كلاهما عن ابن مسعود قال: الكبائر من أول سورة النساء إلى ثلاثين آية منها. ومن حديث سفيان الثوري وشعبة، عن عاصم بن أبي النجود، عن زَرِّ بن حُبَيْش، عن ابن مسعود قال: الكبائر من أول سورة النساء إلى ثلاثين آية منها ثم تلا: ﴿إِنْ تَحِبَبْتُمْ كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَتَدْخُلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [٢٦]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا صالح بن خيان، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: أكبر الكبائر: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، ومنع فضول الماء بعد الري، ومنع طروق الفحل إلا بجعل. وفي الصحيحين، عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يَمْنَعُ فَضْلُ الْمَاءِ لِمَنْعَ بِهِ الْكَلَا». وفيهما عنه ﷺ أنه قال: «ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ: رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِالْفَلَاةِ يَمْنَعُهُ ابْنُ السَّبِيلِ»، وذكر الحديث بتمامه. وفي مسند الإمام أحمد، من حديث غفرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده مرفوعاً: «مَنْ مَنَعَ فَضْلَ الْمَاءِ وَفَضْلَ الْكَلَا، مَنَعَهُ اللَّهُ فَضْلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسين بن محمد بن شَبَّه الواسطي، حدثنا أبو أحمد حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن عائشة، قالت: ما أخذ على النساء من الكبائر. قال ابن أبي حاتم: يعني قوله: ﴿عَلَّ أَنْ لَا يَشْرَكَكَ بِأَقْوَمِ سَبِيلٍ وَلَا يَشْرَفَ وَلَا يَرْبِيَنَّ وَلَا يَفْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِيَنَّ بِبُهِتٍ يَفْتَرِيَهُنَّ بَيْنَ أَيْدِيَّ وَأَرْسُلِهِنَّ وَلَا يَصِينَنَّكَ﴾ الآية [المتحة: ١٢]. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، حدثنا زياد بن مَخْرَاق، عن معاوية بن قُرَّة قال: أتينا أنس بن مالك، فكان فيما حدثنا قال: لم أر مثل الذي بلغنا عن ربنا تعالى، ثم لم نخرج له عن كل أهل ومال. ثم سكت هنية ثم قال: والله لما كلفنا ربنا أهون من ذلك، لقد تجاوز لنا عما دون الكبائر، فما لنا ولها، ثم تلا: ﴿إِنْ تَحِبَبْتُمْ كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَتَدْخُلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [٢٦].

أقوال ابن عباس في ذلك:

روى ابن جرير، من حديث المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن طاوس قال: ذكروا عند ابن عباس الكبائر فقالوا: هي سبع، فقال: هي أكثر من سبع وسبع. قال سليمان: فما أدري كم قالها من مرة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا قبيصة، حدثنا سفيان، عن ليث، عن طاوس قال: قلت لابن عباس: ما السبع الكبائر؟ قال: هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع. ورواه ابن جرير، عن ابن حميد، عن جرير، عن ليث، عن طاوس قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: أ رأيت الكبائر السبع التي ذكرهن الله؟ ما هن؟ قال: هن إلى السبعين أدنى منهن إلى سبع. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن طاوس، عن أبيه قال: قيل لابن عباس: الكبائر سبع؟ قال: هن إلى السبعين أقرب، وكذلك قال أبو العالية الرياحي، رحمه الله. وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن قيس بن سعد، عن سعيد بن جبير، أن رجلاً قال لابن عباس: كم الكبائر؟ سبع؟ قال: هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار. وكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث شبل، به. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ تَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قال: الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أولعنه أو عذاب. ورواه ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا ابن فضيل، حدثنا شبيب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: الكبائر، كل ما وعد الله عليه النار كبيرة. وكذا قال سعيد بن جبير، والحسن البصري. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عليه، أخبرنا أيوب، عن محمد بن سيرين قال: ثبت أن ابن عباس كان يقول: كل ما نهى الله عنه كبيرة. وقد ذكرت الطرفة فيه، قال: هي النظرة. وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن حازم، أخبرنا أبو نعيم، حدثنا عبد الله بن معدان، عن أبي الوليد قال: سألت ابن عباس عن الكبائر؟ فقال: هي كل شيء غصي الله فيه فهو كبيرة.

أقوال التابعين:

قال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علفية، عن ابن عون، عن محمد قال: سألت عبيدة عن الكبائر، فقال: الإشرak بالله، وقتل النفس التي حرم الله بغير حقها، وفرار يوم الرُخف، وأكل مال اليتيم بغير حقه، وأكل الربا، والبهتان. قال: ويقولون: أعرابية بعد هجرة. قال ابن عون: فقلت لمحمد: فالسحر؟ قال: إن البهتان يجمع شرأ كبيراً. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عبيد المحاربي، حدثنا أبو الأحوص سلام بن سليم، عن أبي إسحاق، عن عبيد بن عمير قال: الكبائر سبع، ليس منهن كبيرة إلا وفيها آية من كتاب الله: الإشرak بالله منهن: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الظُّلُمُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ [الحج: ٣١]، و ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠]، و ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، و ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزُومُونَ الْمُصَدِّقَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النور: ٢٣]، والفرار من الزحف: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا قَوْلُهُمُ الْآدْبَارُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، والتعرب بعد الهجرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ [محمد: ٢٥]، وقتل المؤمن: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءُ مِ جَهَنَّمَ حَبْلًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]. وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث أبي إسحاق، عن عبيد، بنحوه. وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن عطاء - يعني ابن أبي رباح - قال: الكبائر سبع: قتل النفس، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، ورمي المحصنة، وشهادة الزور، وعقوق الوالدين، والفرار من الرُخف. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن مغيرة قال: كان يقال شتم أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، من الكبائر. قلت: وقد ذهب طائفة من العلماء إلى تكفير من سب الصحابة، وهو رواية عن مالك بن أنس، رحمه الله: وقال محمد بن سيرين: ما أظن أحداً يتقص أبابكر، وعمر، وهو يحب رسول الله ﷺ. رواه الترمذي. وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عبد الله بن عياش، قال زيد بن أسلم في قول الله ﷻ: ﴿إِنْ تَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾: من الكبائر: الشرك، والكفر بآيات الله ورسله، والسحر، وقتل الأولاد، ومن دعا لله ولداً أو صاحبة، ومثل ذلك من الأعمال، والقول الذي لا يصلح معه عمل، وأما كل ذنب يصلح معه دين، ويقبل معه عمل فإن الله يغفر السيئات بالحسنات. وقال ابن جرير: حدثنا بشر بن معاذ، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة: ﴿إِنْ تَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية: إنما وعد الله المغفرة لمن اجتنب الكبائر. وذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: ﴿اجْتَنِبُوا الْكَبَائِرَ، وَسُدُّوا، وَأَبْشِرُوا﴾.

وقد روى ابن مردويه من طرق عن أنس، وعن جابر مرفوعاً: «شَفَاعَتِي لأهل الكبائر من أمّتي». ولكن في إسناده من جميع طرقه ضعف، إلا ما رواه عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «شَفَاعَتِي لأهل الكبائر من أمّتي». فإنه إسناده صحيح على شرط الشيخين، وقد رواه أبو عيسى الترمذي منفرداً به من هذا الوجه، عن عباس الغنيري، عن عبد الرزاق ثم قال: هذا حديث حسن صحيح. وفي الصحيح شاهد لمعناه، وهو قوله ﷺ بعد ذكر الشفاعة: «أترؤنها للمؤمنين المتقين؟ لا، ولكنها للخاطئين المُتَلَوِّثِينَ». وقد اختلف علماء الأصول والفروع في حد الكبيرة، فمن قائل: هي ما عليه حد في الشرع. ومنهم من قال: هي ما عليه وعيد لخصوصه من الكتاب والسنة. وقيل غير ذلك. قال أبو القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعي، في كتابه الشرح الكبير الشهير، في كتاب الشهادات منه: ثم اختلف الصحابة، رضي الله تعالى عنهم، فمن بعدهم في الكبائر، وفي الفرق بينها وبين الصغائر، ول بعض الأصحاب في تفسير الكبيرة وجوه: أحدها: أنها المعصية الموجبة للحد. والثاني: أنها المعصية التي يلحق صاحبها الرعيد الشديد بنص كتاب أو سنة. وهذا أكثر ما يوجد لهم، وهو إلى الأول أميل، لكن الثاني أوفق لما ذكره عند تفسير الكبائر. والثالث: قال إمام الحرمين في «الإرشاد» وغيره: كل جريمة تنبئ بقلّة اكترات مرتكبها بالدين ورقة الديانة، فهي مبطلّة للعدالة. والرابع: ذكر القاضي أبو سعيد الهروي أن الكبيرة: كل فعل نصّ الكتاب على تحريمه، وكل معصية توجب في جنسها حداً من قتل أو غيره، وترك كل فريضة مأمور بها على الفور، والكذب في الشهادة، والرواية، واليمين. هذا ما ذكره على سبيل الضبط. ثم قال: وفصل القاضي الروياني فقال: الكبائر سبع: قتل النفس بغير الحق، والزنا، واللواط، وشرب الخمر، والسرقة، وأخذ المال غصباً، والقذف. وزاد في «الشامل» على السبع المذكورة: شهادة الزور. وأضاف إليها صاحب العدة: أكل الربا، والإنطار في رمضان بلا عذر، واليمين الفاجرة، وقطع الرحم، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم، والخيانة في الكيل والوزن، وتقديم الصلاة على وقتها، وتأخيرها عن وقتها بلا عذر، وضرب المسلم بلا حق، والكذب على النبي ﷺ عمداً، وسب أصحابه، وكتمان الشهادة بلا عذر، وأخذ الرشوة، والقيادة بين الرجال والنساء، والسعاية عند السلطان، ومنع الزكاة، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع القدرة، ونسيان القرآن بعد تعلمه، وإحراق الحيوان بالنار، وامتناع المرأة من زوجها بلا سبب، والياس من رحمة الله، والأمن من مكر الله، ويقال: الوقية في أهل العلم وحملة القرآن. ومما يعد من الكبائر: الظهار، وأكل لحم الخنزير والميتة إلا عن ضرورة. ثم قال الرافعي: وللتوقف مجال في بعض هذه الخصال. قلت: وقد صنف الناس في الكبائر مصنفات، منها ما جمعه شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي، الذي بلغ نحواً من سبعين كبيرة، وإذا قيل: إن الكبيرة هي ما توعده الشارع عليها بالنار بخصوصها، كما قال ابن عباس، وغيره، وتنبع ذلك، اجتمع منه شيء كثير، وإذا قيل: كل ما نهى الله تعالى عنه فكثير جداً، والله تعالى أعلم.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ وَسَلَّوْا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكْفِي شَوْءً عَالِمًا ۝﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله، يغزو الرجال ولا تغزو، ولنا نصف الميراث. فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾. ورواه الترمذي عن ابن أبي عمر، عن سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن أم سلمة أنها قالت: قلت: يا رسول الله... فذكره، وقال: غريب. ورواه بعضهم عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، أن أم سلمة قالت... ورواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن مردويه، والحاكم في مستدركه، من حديث الثوري، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله، لا نقاتل فنستشهد، ولا نطلع المعرث! فنزلت: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ﴾ ثم نزلت: ﴿إِنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلٌ عَمَلِي بَيْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى﴾ (آل عمران: ١٩٥). ثم قال ابن أبي حاتم: وكذا روى سفيان بن عيينة، يعني عن ابن أبي نجيح بهذا اللفظ. وروي يحيى القطان ووكيع بن الجراح، عن الثوري، وعن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن أم سلمة قالت: قلت: يا رسول الله... وروي عن مقاتل بن حيان وخُصِفَ نحوه ذلك. وروي ابن جرير من حديث ابن جريج، عن عكرمة ومجاهد أنهما قالاً: نزلت في أم سلمة. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن شيخ من أهل مكة قال: نزلت هذه الآية في قول النساء: ليتنا الرجال فنجاهد كما يجاهدون، ونغزو في سبيل الله ﷻ. وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثني أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبي، حدثنا الأشعث بن إسحاق، عن جعفر - يعني ابن أبي المغيرة - عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾

وَاللِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْسَبْتُمْ ۖ قَالَتْ: أَنْتِ امْرَأَةُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ، وشهادة امرأتين برجل، فنحن في العمل هكذا، إن عملت امرأة حسنة كتبت لها نصف حسنة. فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَا تَكْمَنُوا﴾، فإنه عدل مني، وأنا صنعته. وقال السدي: قوله ﴿وَلَا تَكْمَنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فإن الرجال قالوا: نريد أن يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء، كما لنا في السهام سهمان. وقالت النساء: نريد أن يكون لنا أجر مثل أجر الرجال الشهداء، فإننا لا نستطيع أن نقاتل، ولو كتب علينا القتال لقاتلنا فأبى الله ذلك، ولكن قال لهم: سلوني من فضلي قال: ليس بعرض الدنيا.

وقد روي عن قتادة نحو ذلك. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: قوله: ﴿وَلَا تَكْمَنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ قال: ولا يتمنى الرجل فيقول: ليت لو أن لي مال فلان وأهله! فهي الله عن ذلك، ولكن ليسأل الله من فضله. وكذا قال محمد بن سيرين والحسن والضحاك وعطاء نحو ذلك، وهو الظاهر من الآية، ولا يرد على هذا ما ثبت في الصحيح: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلك في الحق، فيقول رجل: لو أن لي مثل ما لفلان لعميلت مثله. فهما في الأجر سواء» فإن هذا شيء غير ما نهت الآية عنه، وذلك أن الحديث حصص على تمنّي مثل نعمة هذا، والآية نهت عن تمنّي غير نعمة هذا، فقال: ﴿وَلَا تَكْمَنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: في الأمور الدنيوية، وكذا الدنيوية أيضاً لحديث أم سلمة، وابن عباس. وهكذا قال عطاء بن أبي رباح: نزلت في النهي عن تمنّي ما لفلان، وفي تمنّي النساء أن يكن رجلاً فيغزون. رواه ابن جرير.

ثم قال: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْسَبْنَ﴾ أي: كل له جزاء على عمله بحسبه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وهو قول ابن جرير. وقيل: المراد بذلك في الميراث، أي: كل يرث بحسبه. رواه الترمذي عن ابن عباس. ثم أرشداهم إلى ما يصلحهم فقال: ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: لا تمنوا ما فضل به بعضكم على بعض، فإن هذا أمر محتوم، والتمني لا يجدي شيئاً، ولكن سلوني من فضلي أعطكم؛ فإني كريم وهاب. وقد روى الترمذي، وابن مردويه من حديث حماد بن واقد: سمعت إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله من فضله؛ فإن الله يحب أن يسأل، وإن أفضل العباد انتظار الفرج». ثم قال الترمذي: كذا رواه حماد بن واقد، وليس بالحافظ، ورواه أبو نعيم، عن إسرائيل، عن حكيم بن جبیر، عن رجل، عن النبي ﷺ، وحديث أبي نعيم أشبه أن يكون أصح. وكذا رواه ابن مردويه من حديث وكيع، عن إسرائيل. ثم رواه من حديث قيس بن الربيع، عن حكيم بن جبیر، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: قال رسول الله: «سلوا الله من فضله، فإن الله يحب أن يسأل، وإن أحب عباده إليه الذي يحب الفرج».

ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: هو عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه منها، وبمن يستحق الفقر فيفقره، وعليم بمن يستحق الآخرة فيقيضه لأعمالها، وبمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير وأسبابه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

﴿وَلِكُلِّ جَمَلًا مَوْءِيًّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلَكِنَّ عَقَدَتْ أَيْتَنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝﴾

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، وأبو صالح، وقتادة، وزيد بن أسلم، والسدي، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وغيرهم في قوله: ﴿وَلِكُلِّ جَمَلًا مَوْءِيًّا﴾ أي: ورثة. وعن ابن عباس في رواية: أي عَصَبَة. قال ابن جرير: والعرب تسمي ابن العم مولى، كما قال الفضل بن عباس:

مَهْلًا بَنِي عَمِّنَا مَهْلًا مَوَالِينَا لَا تُظْهَرْنَ لَنَا مَا كَانَ مَدْفُونًا
قال: ويعني بقوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ من تركه والديه وأقربيه من الميراث، فتأويل الكلام: ولكلهم - أيها الناس - جعلنا عَصَبَة يرثونه مما ترك والداه وأقربوه من ميراثهم له. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْتَنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي: والذين تحالفتم بالآيمان المؤكدة - أنتم وهم - فتأوتهم نصيبهم من الميراث، كما وعدتموهم في الأيمان المغلظة، إن الله شاهد بينكم في تلك العهود والمعاهدات. وقد كان هذا في ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك، وأمروا أن يوفوا لمن عاقدوا، ولا يئنسوا بعد نزول هذه الآية معاقدة. قال البخاري: حدثنا الصلت بن محمد، حدثنا أبو أسامة، عن إدريس، عن طلحة بن مُصَرَف، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ جَمَلًا مَوْءِيًّا﴾ قال: ورثة، ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْتَنُكُمْ﴾: كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري، دون ذوي رحمته؛ للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلِّ جَمَلًا مَوْءِيًّا﴾

نُسخت، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَاصِيَهُمْ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويوصى له. ثم قال البخاري: سمع أبو أسامة إدريس، وسمع إدريس عن طلحة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، حدثنا إدريس الأودي، أخبرني طلحة بن مضر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَاصِيَهُمْ﴾ الآية، قال: كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري، دون ذوي رحمه؛ بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم، فلما نزلت هذه الآية: ﴿وَلِكُلِّي جَمَلْنَا مَوَالِي وَمَا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ نُسخت. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَاصِيَهُمْ﴾. وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج، عن ابن جُرَيْج - وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَاصِيَهُمْ﴾ فكان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل، يقول: ترثني وأرثك وكان الأحياء يتحالفون، فقال رسول الله ﷺ: «كُلِّ جَلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوْ عَقْدٌ أَذْرَكَهُ الْإِسْلَامُ، فَلَا يَزِيدُهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً، وَلَا عَقْدٌ وَلَا جَلْفٌ فِي الْإِسْلَامِ». فنسختها هذه الآية: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَرْكَارُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٧٥]. ثم قال: وروي عن سعيد بن المسيب، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وسعيد بن جبير، وأبي صالح، والشَّعْبِي، وسليمان بن يسار، وعكرمة، والسُّدِّي، والضَّحَّاك، وقتادة، ومقاتيل بن حَيَّان أنهم قالوا: هم الحلفاء. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا شريك، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس - ورفع - قال: «ما كان من جَلْفٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا حِدَةً وَشِدَّةً». وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا، وكيع، عن شريك، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «وَحَدَّثَنَا أَبُو كَرِيب، حَدَّثَنَا مُصْعَبُ بْنُ الْمَقْدَامِ، عَنْ إِسْرَائِيلَ بْنِ يُونُسَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَوْلَى آلِ طَلْحَةَ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا جَلْفٌ فِي الْإِسْلَامِ، وَكُلُّ جَلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَلَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً، وَمَا يَسُرُّنِي أَنْ لِي حُمْزُ التَّعْمِ وَأَنْتِي تَقْعُضُ الْجَلْفَ الَّذِي كَانَ فِي دَارِ التُّدْوَةِ» هَذَا لَفْظُ ابْنِ جُرَيْجٍ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ أَيْضًا: وَحَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا ابْنُ عُثَيْمٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ الزَّهْرِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «شَهِدْتُ جَلْفَ الْمُطَّيِّبِينَ، وَأَنَا غُلَامٌ مَعَ غُمُومَتِي، فَمَا أَحَبُّ أَنْ لِي حُمْزُ التَّعْمِ وَأَنْتِي أَنْكُتُهُ». قَالَ الزَّهْرِيُّ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمْ يُصَبِّ الْإِسْلَامُ جَلْفًا إِلَّا زَادَهُ شِدَّةً». قَالَ: «وَلَا جَلْفٌ فِي الْإِسْلَامِ». وَقَدْ أَلَفَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَالْأَنْصَارِ. وَهَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ بَشَرَ بْنِ الْمُفَضَّلِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ الزَّهْرِيِّ، بِتَمَامِهِ. وَحَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، أَخْبَرَنَا مَغِيرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ شُعْبَةَ بْنِ التَّوَّامِ، عَنْ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ: أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْحَلْفِ، قَالَ: فَقَالَ: «مَا كَانَ مِنْ جَلْفٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَتَمَسَّكُوا بِهِ، وَلَا حَلْفَ فِي الْإِسْلَامِ». وَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَدُ عَنْ هُشَيْمٍ. وَحَدَّثَنَا أَبُو كَرِيبٍ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ ابْنِ جُدْعَانَ، عَنْ جَدِّهِ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا جَلْفَ فِي الْإِسْلَامِ، وَمَا كَانَ مِنْ حَلْفٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً». وَحَدَّثَنَا أَبُو كَرِيبٍ، حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ بَكِيرٍ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ غُفْرُو بْنِ شُعَيْبٍ. عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: لَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَكَّةَ عَامَ الْفَتْحِ قَامَ خَطِيبًا فِي النَّاسِ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَا كَانَ مِنْ جَلْفٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً، وَلَا جَلْفَ فِي الْإِسْلَامِ». ثُمَّ رَوَاهُ مِنْ حَدِيثِ حُسَيْنِ الْمَعْلَمِ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ، عَنْ غُفْرُو بْنِ شُعَيْبٍ، بِهِ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ نَمِيرٍ وَأَبُو أُسَامَةَ، عَنْ زَكْرِيَّا، عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا جَلْفَ فِي الْإِسْلَامِ، وَإِمَّا حَلْفَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً». وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ، وَهُوَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، بِإِسْنَادِهِ، مِثْلَهُ. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ بَشَرَ وَابْنِ نَمِيرٍ وَأَبِي أُسَامَةَ، ثَلَاثَهُمْ عَنْ زَكْرِيَّا - وَهُوَ ابْنُ أَبِي زَائِدَةَ - بِإِسْنَادِهِ، مِثْلَهُ. وَرَوَاهُ ابْنُ جُرَيْجٍ مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ بَشَرَ، بِهِ. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ إِسْحَاقَ بْنِ يُونُسَ الْأَزْرَقِ، عَنْ زَكْرِيَّا، عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ نَافِعِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ، عَنْ أَبِيهِ، بِهِ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، قَالَ: مَغِيرَةُ أَخْبَرَنِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ شُعْبَةَ بْنِ التَّوَّامِ، عَنْ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ: أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْحَلْفِ، فَقَالَ: «مَا كَانَ مِنْ جَلْفٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَتَمَسَّكُوا بِهِ، وَلَا جَلْفَ فِي الْإِسْلَامِ». وَكَذَا رَوَاهُ شُعْبَةُ، عَنْ مَغِيرَةَ - وَهُوَ ابْنُ مِقْسَمٍ - عَنْ أَبِيهِ، بِهِ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْحَصِينِ قَالَ: كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَى أُمِّ سَعْدِ بِنْتِ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، مَعَ ابْنِ ابْنِهَا مُوسَى بْنِ سَعْدٍ - وَكَانَتْ يَتِيمَةً فِي حَجَرِ أَبِي بَكْرٍ - فَقَرَأَتْ عَلَيْهَا: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾. فَقَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾. قَالَتْ: إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ وَابْنِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، حِينَ أَبَى أَنْ يَسْلَمَ، فَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ أَلَا يُوْرَثُهُ، فَلَمَّا أَسْلَمَ حِينَ حَمَلَ عَلَى الْإِسْلَامِ بِالسَّيْفِ أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُؤْتِيَهُ نَاصِيَهُ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَهَذَا قَوْلُ غَرِيبٍ، وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ، وَأَنْ هَذَا كَانَ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ يَتَوَارَثُونَ بِالْحَلْفِ، ثُمَّ نَسَخَ

وبقي تأثير الحلف بعد ذلك، وإن كانوا قد أمروا أن يوفوا بالعقود والعهود، والحلف الذي كانوا قد تعاقده قبل ذلك. وتقدم في حديث جبير بن مطعم وغيره من الصحابة: «لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة».

وهذا نص في الرد على من ذهب إلى التوارث بالحلف اليوم، كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه، ورواية عن أحمد بن حنبل، رحمه الله. والصحيح قول الجمهور ومالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ أي: ورثته من أقربائه من أبويه وأقربيه، هم يرثونه دون سائر الناس، كما ثبت في الصحيحين، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الْجَعْفُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ فَهُوَ لِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرَ» أي: اقسمو الميراث على أصحاب الفروض الذين ذكرهم الله في آيتي الفرائض، فما بقي بعد ذلك فأعطوه العصبه، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ أصحاب الفروض الذين ذكرهم الله في آيتي الفرائض، فما بقي بعد ذلك فأعطوه العصبه، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ أي: قبل نزول هذه الآية فأتوهم نصيبهم، أي: من الميراث، فأما حلف عُقْد بعد ذلك فلا تأثير له. وقد قيل: إن هذه الآية نسخت الحلف في المستقبل، وحكم الماضي أيضاً، فلا توارث به، كما قال ابن أبي حاتم. حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، حدثنا إدريس الأودي، أخبرني طلحة بن مُصَرِّف، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: «فَتَأْتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ» قال: من النصر والنصيحة والزفادة، ويوصى له، وقد ذهب الميراث. ورواه ابن جرير، عن أبي كريب، عن أبي أسامة. وكذا روي عن مجاهد، وأبي مالك، نحو ذلك. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ قال: كان الرجل يعاقد الرجل، أيهما مات ورثه الآخر، فأنزل الله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِكُلِّ آلٍ مِنَ الْأُخْرَىٰ﴾ قال: أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفًا [الاحزاب: ٦]. يقول: إلا أن يوصوا لأوليائهم الذين عاقدوا وصية فهو لهم جائز من ثلث مال الميت، وذلك هو المعروف. وهذا نص غير واحد من السلف: أنها منسوخة بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِكُلِّ آلٍ مِنَ الْأُخْرَىٰ﴾ قال: أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفًا. وقال سعيد بن جبير: «فَتَأْتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ» أي: من الميراث. قال: وعاقده أبو بكر مولى فورته. ورواه ابن جرير. وقال الزهري عن سعيد بن المسيب: أنزلت هذه الآية في الذين كانوا يتبنون رجالاً غير أبنائهم، ويورثونهم، فأنزل الله فيهم، فجعل لهم نصيباً في الوصية، ورد الميراث إلى الموالي في ذي الرحم والعصبه وأبى الله للمدعين ميراثاً ممن ادعاهم وتبناهم، ولكن جعل لهم نصيباً من الوصية. ورواه ابن جرير. وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: «فَتَأْتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ» أي: من النصرة والنصيحة والمعونة، لا أن المراد: فأتوهم نصيبهم من الميراث - حتى تكون الآية منسوخة، ولا أن ذلك كان حكماً ثم نسخ، بل إنما دلت الآية على الوفاء بالحلف المعقود على النصرة والنصيحة فقط، فهي محكمة لا منسوخة. وهذا الذي قاله فيه نظر، فإن من الحلف ما كان على المناصرة والمعاونة، ومنه ما كان على الإرث، كما حكاه غير واحد من السلف، وكما قال ابن عباس: كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه، حتى نسخ ذلك، فكيف يقول: إن هذه الآية محكمة غير منسوخة؟! والله أعلم.

﴿الزَّيَالُ قَوْمٌ عَلَى النَّسَاءِ يَمَّا فَصَلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيَمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَكَفَلَتْكَ حَفِظْتَكَ لِلْعَبِي يَمَّا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّذِينَ تَخَافُونَ تَخَافُونَكُمْ وَأَفْهَرُونَ فِي الْمَصَاحِبِ وَأَفْهَرُونَ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ عَلَيْهِ كَبِيرًا﴾.

يقول تعالى: ﴿الزَّيَالُ قَوْمٌ عَلَى النَّسَاءِ﴾ أي: الرجل قِيم على المرأة، وهو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا اعوجت ﴿يَمَّا فَصَلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: لأن الرجال أفضل من النساء، والرجال خير من المرأة؛ ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال، وكذلك المُلْك الأعظم؛ لقوله ﷺ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ» رواه البخاري من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر، عن أبيه. وكذا منصب القضاء وغير ذلك. ﴿وَيَمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي: من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهن في كتابه وسنة نبيه ﷺ، فالرجل أفضل من المرأة في نفسه، وله الفضل عليها والإفضال، فناسب أن يكون قِيمًا عليها، كما قال الله تعالى: ﴿وَالزَّيَالُ عَلَيْهِمْ ذَرِيَّةٌ﴾ الآية [البقرة: ٢٢٨]. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿الزَّيَالُ قَوْمٌ عَلَى النَّسَاءِ﴾ يعني: أمراء، عليها أن تطيعه فيما أمرها به من طاعته، وطاعته: أن تكون محسنة إلى أهله حافظة لماله. وكذا قال مقاتل، والسدي، والضحاك. وقال الحسن البصري: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ تستعديه على زوجها أنه لطمها، فقال رسول الله ﷺ: «الْقَصَاصُ» فأنزل الله ﷻ: ﴿الزَّيَالُ قَوْمٌ عَلَى النَّسَاءِ﴾ الآية، فرجعت بغير قصاص. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من طرق، عنه. وكذلك أرسل هذا الخير قتادة، وابن جريج والسدي، أورد ذلك كله ابن جرير. وقد أسنده ابن مردويه من وجه آخر فقال: حدثنا أحمد بن علي النسائي، حدثنا محمد بن عبد الله الهاشمي، حدثنا محمد بن محمد الأشعث، حدثنا موسى بن إسماعيل بن موسى بن جعفر بن محمد، حدثني أبي، عن جدي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي قال: أتى النبي ﷺ رجل من الأنصار بامرأة له، فقالت: يا رسول الله، إن زوجها فلان بن فلان الأنصاري،

وإنه ضربها فأثر في وجهها، فقال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ ذَلِكَ لَهُ». فأنزل الله: «الزَّالِمَاتُ قَوَّامَاتٌ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَعَلَ اللَّهُ بِمَعْشَرَ عَلَى بَعْضٍ» أي: قوامون على النساء في الأدب. فقال رسول الله ﷺ: «أَزْدَتْ أَمْرًا وَأَرَادَ اللَّهُ غَيْرَهُ». وقال الشعبي في هذه الآية: «الزَّالِمَاتُ قَوَّامَاتٌ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَعَلَ اللَّهُ بِمَعْشَرَ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَعُوا مِنْ أَمْرِهِمْ» قال: الصداق الذي أعطاهما، ألا ترى أنه لو قَدَّحَهَا لاعتها، ولو قَدَفَتْه جَلِدَتْ. وقوله: «فَالزَّالِمَاتُ عَلَى» أي: من النساء «فَقِينَتُ» قال ابن عباس وغير واحد: يعني مطيعات لأزواجهن «حَفِظْتُ لِقَتِيبٍ». وقال السدي وغيره: أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله. وقوله: «بِمَا حَفِظَ اللَّهُ» أي: المحفوظ من حفظه. قال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا أبو صالح، حدثنا أبو مَعَشَر، حدثنا سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ النِّسَاءِ أَمْرًا إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهَا سَرَتْكَ، وَإِذَا أَمَرْتَهَا أَطَاعَتْكَ، وَإِذَا غَبَّتْ عَنْهَا حَفِظْتَكَ فِي نَفْسِهَا وَمَالِكٍ». قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: «الزَّالِمَاتُ قَوَّامَاتٌ عَلَى النِّسَاءِ» إلى آخرها. ورواه ابن أبي حاتم، عن يونس بن حبيب، عن أبي داود الطيالسي، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، به مثله سواء. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ: أَنَّ ابْنَ قَارِظٍ أَخْبَرَهُ: أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ حَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا؛ وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتَ». تفرد به أحمد من طريق عبد الله بن قارظ، عن عبد الرحمن بن عوف.

وقوله: «وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ» أي: والنساء اللاتي تتخوفون أن ينشزن على أزواجهن. والنشوز: هو الارتفاع، فالمرأة الناشز هي المرتفعة على زوجها، التاركة لأمره، الْمُغْرِضَةُ عنه، الْمُغْبِضَةُ له. فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها وليخوفها عقاب الله في عصيانه فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته، وحرم عليها معصيته لما له عليها من الفضل والإفضال. وقد قال رسول الله ﷺ: «لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَسْجُدُ لِأَمْرِئِ الْمَرْأَةِ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا، مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا» وروى البخاري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ عَلَيْهِ، لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ». ورواه مسلم، ولفظه: «إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ هَاجِرَةً فَرَّاشَ زَوْجِهَا، لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ»، ولهذا قال تعالى: «وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ» وقوله: «وَأَقْبِرُوهُنَّ فِي اللَّعَنَاتِ» قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الهجران: ألا يجامعها، ويضاجعها على فراشها ويوليها ظهره. وكذا قال غير واحد، وزاد آخرون - منهم: السدي، والضحاك، وعكرمة، وابن عباس في رواية -: ولا يكلمها مع ذلك ولا يحذنها. وقال علي بن أبي طلحة أيضاً، عن ابن عباس: يعظها، فإن هي قبلت وإلا هجرها في المضجع، ولا يكلمها من غير أن يذرع نكاحها، وذلك عليها شديد. وقال مجاهد، والشعبي، وإبراهيم، ومحمد بن كعب، ومقسم، وقتادة: الهجرة: هو ألا يضاجعها. وقد قال أبو داود: حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد، عن علي بن زيد، عن أبي حنيفة الرقاشي، عن عمه أن النبي ﷺ قال: «إِنْ جَفَقَتْ نَشُوزُهُنَّ فَافْعُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ». قال حماد: يعني النكاح. وفي السنن والمسند عن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال: يا رسول الله، ما حق امرأة أحدنا؟ قال: «أَنْ تَطْعَمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلَا تَضْرِبَ الْوَجْهَ وَلَا تَقْبَحَ، وَلَا تَهْجُرَ إِلَّا فِي الْبَيْتِ». وقوله: «وَأَضْرِبُوهُنَّ» أي: إذا لم يَزِدْغَنَّ بالموعظة ولا بالهجران، فلنك أن تضربوهن ضرباً غير مبرح، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ: «أَنَّهُ قَالَ فِي حُجَّةِ الْوُدَاعِ: «وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَاثٌ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَلْيُوطْنُ فُرْشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُنَّ، فَإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ». وكذا قال ابن عباس وغير واحد: ضرباً غير مبرح. قال الحسن البصري: يعني غير مؤثر. وقال الفقهاء: هو ألا يكسر فيها عضواً ولا يؤثر فيها شيئاً. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يهجرها في المضجع، فإن أقبلت وإلا فقد أذن الله لك أن تضرب ضرباً غير مبرح، ولا تكسر لها عظيماً، فإن أقبلت وإلا فقد حل لك منها الفدية. وقال سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن عبد الله بن عبد الله بن عمر، عن إياس بن عبد الله بن أبي ذئب قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ». فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: ذُيِّرَتِ النِّسَاءُ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ. فرخص في ضربهن، فأطاف بال رسول الله ﷺ نساء كثير يشكون أزواجهن، فقال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ أَطَافَ بِأَلِ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ، لَيْسَ أَوْلَتْكَ بِخِيَارِكُمْ» رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه. وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود - يعني أبا داود الطيالسي - حدثنا أبو عوانة، عن داود الأودي، عن عبد الرحمن المُسْلِيِّ عن الأشعث بن قيس، قال: ضُمَّتْ عمر، فتناول امرأته فضربها، وقال: يا أشعث، احفظ عني ثلاثاً حفظتهن عن رسول الله ﷺ: لَا تَسَالِ الرَّجُلُ فِيمَ ضَرَبَ امْرَأَتَهُ، وَلَا تَتَمَّ إِلَّا عَلَى وَثَرٍ... ونسي الثالثة. وكذا رواه أبو داود والنسائي وابن

ماجة، من حديث عبد الرحمن بن مهدي، عن أبي عوانة، عن داود الأودي، به. وقوله: ﴿فَإِنْ أَمَلْتُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أي: فإذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريد منها، مما أباحه الله له منها، فلا سبيل له عليها بعد ذلك، وليس له ضربها ولا هجرانها. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب، فإن الله العلي الكبير وليهن، وهو ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْغُوا حَكْمًا مِّنْ أَهْلِهِ. وَحَكْمًا مِّنْ أَهْلِهِمَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّي اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ٣٥﴾.

ذكر تعالى الحال الأول، وهو إذا كان التفور والنشوز من الزوجة، ثم ذكر الحال الثاني وهو: إذا كان التفور من الزوجين فقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْغُوا حَكْمًا مِّنْ أَهْلِهِ. وَحَكْمًا مِّنْ أَهْلِهِمَا﴾. قال الفقهاء: إذا وقع الشقاق بين الزوجين، أسكنهما الحاكم إلى جنب ثقة، ينظر في أمرهما، ويمنع الظالم منهما من الظلم، فإن تفاقم أمرهما وطالت خصومتها، بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة، وثقة من قوم الرجل، ليجتمعا وينظرا في أمرهما، ويفعلا ما فيه المصلحة مما يريانه من التفريق أو التوفيق. وتُشوف الشارع إلى التوفيق؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّي اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أمر الله، ﷻ، أن يبعثوا رجلاً صالحاً من أهل الرجل، ورجلاً مثله من أهل المرأة، فينظران أيهما المسيء، فإن كان الرجل هو المسيء، حجبا عنه امرأته وقصروه على النفقة، وإن كانت المرأة هي المسيئة، قصروها على زوجها ومنعوها النفقة. فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا، فأمرهما جائز. فإن رأيا أن يجمعا، فرضي أحد الزوجين وكره ذلك الآخر، ثم مات أحدهما، فإن الذي رضي يرث الذي كره، ولا يرث الكاره الراضي. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن عكرمة بن خالد، عن ابن عباس قال: بُعثت أنا ومعاوية حكيمين، قال معمر: بلغني أن عثمان بعثهما، وقال لهما: إن رأيتم أن تجمعا جمعتما، وإن رأيتم أن تفرقا فرقتما. وقال أنبأنا ابن جريج، حدثنا ابن أبي مليكة، أن عقيل بن أبي طالب تزوج فاطمة بنت عتبة بن ربيعة فقالت: تصير إلي وأنفق عليك. فكان إذا دخل عليها قالت: أين عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة؟ قال: على يسارك في النار إذا دخلت. فشدت عليها ثيابها فجاءت عثمان، فذكرت له ذلك، فضحك وأرسل ابن عباس ومعاوية، فقال ابن عباس: لأفرقن بينهما. فقال معاوية: ما كنت لأفرق بين شيخين من بني عبد مناف، فأتياهما فوجداهما قد أغلقا عليهما أبوابهما، فرجعا. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة قال: شهدت علياً وجاءته امرأة وزوجها، مع كل واحد منهما فئام من الناس، فأخرج هؤلاء حكماً وهؤلاء حكماً، فقال علي للحكّمين: أتدريان ما عليكما؟ إن عليكما إن رأيتم أن تجمعا، جمعتما. فقالت المرأة: رضيت بكتاب الله لي وعلي. وقال الزوج: أما الفرقة فلا. فقال علي: كذبت، والله لا تبرح حتى ترضى بكتاب الله، ﷻ، لك وعليك. رواه ابن أبي حاتم، ورواه ابن جرير، عن يعقوب، عن ابن علي، عن أيوب، عن ابن سيرين، عن عبيدة، عن علي، مثله. ورواه من وجه آخر، عن ابن سيرين، عن عبيدة، عن علي، به. وهذا مذهب جمهور العلماء: أن الحكّمين إليهما الجمع والتفرقة، حتى قال إبراهيم النخعي: إن شاء الحكّمان أن يفرقا بينهما بطلقة أو طلقتين أو ثلاث فعلاً. وهو رواية عن مالك. وقال الحسن البصري: الحكّمان يحكمان في الجمع ولا يحكمان في التفريق، وكذا قال قتادة، وزيد بن أسلم. وبه قال أحمد بن حنبل، وأبو ثور، وداود، وما أخذهم قوله تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّي اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ ولم يذكر التفريق. وأما إذا كانا وكيلين من جهة الزوجين، فإنه ينفذ حكمهما في الجمع والتفرقة بلا خلاف. وقد اختلف الأئمة في الحكّمين: هل هما منصوبان من عند الحاكم، فيحكمان وإن لم يرض الزوجان، أو هما وكيلان من جهة الزوجين؟ على قولين: فالجمهور على الأول؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَبْغُوا حَكْمًا مِّنْ أَهْلِهِ. وَحَكْمًا مِّنْ أَهْلِهِمَا﴾ فسماهما حكّمين، ومن شأن الحكم أن يحكم بغير رضا المحكوم عليه، وهذا ظاهر الآية، والجديد من مذهب الشافعي، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه. الثاني منهما، بقول علي، رضي الله عنه، للزوج - حين قال: أما الفرقة فلا - كذبت، حتى تقر بما أقرت به، قالوا: فلو كانا حاكّمين لما افتقر إلى إقرار الزوج، والله أعلم. قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر: وأجمع العلماء على أن الحكّمين - إذا اختلف قولهما - فلا عبرة بقول الآخر، وأجمعوا على أن قولهما نافذ في الجمع وإن لم يوكلفهما الزوجان، واختلفوا: هل ينفذ قولهما في التفرق؟ ثم حكى عن الجمهور أنه ينفذ قولهما فيها أيضاً.

﴿وَاَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. وَالَّذِينَ احْسَنُوا وَبَذُوا الْفَرْقَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَخَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَنُوبِ وَالْمَلَاحِي بِالْجَنُوبِ وَأَتَى السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ٣٦﴾.

يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له؛ فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الآفات والحالات، فهو

المستحق منهم أن يوحده، ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته، كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ: «أَتَذَرِي مَا حَقَّ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «أَنْ يُعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً»، ثم قال: «أَتَذَرِي مَا حَقَّ الْعِبَادُ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟ أَلَا يُعَذِّبُهُمْ». ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين، فإن الله، سبحانه، جعلهما سبباً لخروجك من العدم إلى الوجود، وكثيراً ما يقرن الله، سبحانه، بين عبادته والإحسان إلى الوالدين، كقوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ﴾ [لقمان: ١٤]، وكقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا لِيَّاهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. ثم عطف على الإحسان إلى الوالدين الإحسان إلى القربات من الرجال والنساء، كما جاء في الحديث: «الْصَّدَقَةُ عَلَى الْمَسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ». ثم قال: ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ وذلك لأنهم قد فقدوا من يقوم بمصالحهم، ومن ينفق عليهم، فأمر الله بالإحسان إليهم والحنو عليهم. ثم قال: ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ وهم المحاريج من ذوي الحاجات الذين لا يجدون ما يقوم بكفائتهم، فأمر الله بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم وتزول به ضرورتهم. وسيأتي الكلام على الفقير والمسكين في سورة براءة. وقوله: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ يعني الذي بينك وبينه قرابة، ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ الذي ليس بينك وبينه قرابة. وكذا روي عن عكرمة، ومجاهد، وميمون بن مهران، والضحاك، وزيد بن أسلم، ومقاتل بن حيان، وقتادة. وقال أبو إسحاق عن ثورف البجلي في قوله: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾: يعني المسلم ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ يعني اليهودي والنصراني. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. وقال جابر الجعفي، عن الشعبي، عن علي وابن مسعود: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ يعني المرأة. وقال مجاهد أيضاً في قوله: ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ يعني الرفيق في السفر.

وقد وردت الأحاديث بالوصايا بالجار، فنذكر منها ما تيسر، وبالله المستعان:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عمر بن محمد بن زيد: أنه سمع أباه محمداً يحدث، عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه». أخرجه في الصحيح من حديث عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر، به.

الحديث الثاني: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن داود بن شبيب، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه». وروى أبو داود والترمذي نحوه، من حديث سفيان بن عيينة، عن بشير أبي إسماعيل - زاد الترمذي: وداود بن شبيب - كلاهما عن مجاهد، به. ثم قال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه، وقد روي عن مجاهد عن عائشة وأبي هريرة عن النبي ﷺ.

الحديث الثالث عنه: قال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الله بن يزيد، أخبرنا حيوة، أخبرنا شريح بن شريك أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبلي يحدث عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ». ورواه الترمذي عن أحمد بن محمد، عن عبد الله بن المبارك، عن حيوة بن شريح - به، وقال: حديث حسن غريب.

الحديث الرابع: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن أبيه، عن عتبة بن رفاع عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَسْبُحُ الرَّجُلُ دُونَ جَارِهِ». تفرد به أحمد.

الحديث الخامس: قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان، حدثنا محمد بن سعد الأنصاري، سمعت أبا ظبية الكلبي، سمعت المقداد بن الأسود يقول: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ما تقولون في الزنا؟» قالوا: حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَهَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. فقال رسول الله ﷺ: «لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرٍ نِسْوَةً، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بامرأة جاره». قال: «ما تقولون في السرقة؟» قالوا: حَرَّمَهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَهِيَ حَرَامٌ. قال: «لَأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشْرَةِ أَبْيَاتٍ، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جاره». تفرد به أحمد، وله شاهد في الصحيحين من حديث ابن مسعود: قلت: يا رسول الله، أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ». قلت: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يُطْعَمَ مَعَكَ». قلت: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ خَلِيلَةَ جَارِكَ».

الحديث السادس: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا هشام، عن حفصة، عن أبي العالبي، عن رجل من الأنصار قال: خَرَجْتُ مِنْ أَهْلِي أُرِيدُ النَّبِيَّ ﷺ، فَإِذَا بِهِ قَائِمٌ وَرَجُلٌ مَعَهُ مُقْبِلٌ عَلَيْهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ لَهَا حَاجَةً - قَالَ الْأَنْصَارِيُّ: لَقَدْ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَعَلْتُ أَرْثِي لِرَسُولِ اللَّهِ مِنْ طُولِ الْقِيَامِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ قَامَ بِكَ هَذَا الرَّجُلُ حَتَّى

جَعَلْتُ أَزْوَاجِي لَكَ مِنْ طَوْلِ الْقِيَامِ. قَالَ: «وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ؟» قُلْتُ: نعم. قَالَ: «أَتَنْذِرِي مَنْ هُوَ؟» قُلْتُ: لَا. قَالَ: «ذَلِكَ جَبْرِيلُ، مَا زَالَ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُهُ». ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا إِنَّكَ لَوِ سَلَّمْتَ عَلَيْهِ، رَدَّ عَلَيْكَ السَّلَامَ».

الحديث السابع: قال عبد بن حمزة في مسنده: حدثنا يَغْلَى بْنُ عُبَيْدٍ، حدثنا أَبُو بَكْرِ - يعني المَدَنِي - عن جابر بن عبد الله قال: جاء رجل من الْعَوَالِي ورسول الله ﷺ وجَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُصَلِّيَانِ حَيْثُ يُصَلِّي عَلَى الْجَنَازَةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي رَأَيْتَ مَعَكَ؟ قَالَ: «وَقَدْ رَأَيْتُهُ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتَ خَيْرًا كَثِيرًا، هَذَا جَبْرِيلُ مَا زَالَ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى رُئِيتَ أَنَّهُ سَيُورُهُ». فَرَدَّ بِهِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَهُوَ شَاهِدٌ لِلَّذِي قَبْلَهُ.

الحديث الثامن: قال أبو بكر البزار: حدثنا عبيد الله بن محمد أبو الربيع الْحَارِثِيُّ، حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي فُدَيْكٍ، أَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْفَضْلِ، عَنْ عَطَاءِ الْخَرَّاسَانِيِّ، عَنْ الْحَسَنِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْجِرَانُ ثَلَاثَةٌ: جَارٌ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ، وَهُوَ أَثْنَى الْجِرَانِ حَقًّا، وَجَارٌ لَهُ حَقَّانِ، وَجَارُهُ لَثَلَاثَةُ حُقُوقٍ، وَهُوَ أَفْضَلُ الْجِرَانِ حَقًّا. فَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ فَجَارٌ مُشْرِكٌ لَا رَحْمَ لَهُ، لَهُ حَقُّ الْجَوَارِ. وَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقَّانِ فَجَارٌ مُسْلِمٌ، لَهُ حَقُّ الْإِسْلَامِ وَحَقُّ الْجَوَارِ، وَأَمَّا الَّذِي لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ، فَجَارٌ مُسْلِمٌ ذُو رَحِمٍ، لَهُ حَقُّ الْجَوَارِ وَحَقُّ الْإِسْلَامِ وَحَقُّ الرَّحِمِ». قَالَ الْبُزَارُ: لَا نَعْلَمُ أَحَدًا رَوَى عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْفَضْلِ إِلَّا ابْنَ أَبِي فُدَيْكٍ.

الحديث التاسع: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي عمران، عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ عَائِشَةَ: «أَنهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: إِنَّ لِي جَارَيْنِ، فإِلَى أَيِّهِمَا أُهْدِي؟» قَالَ: «إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكَ بَابًا». وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ بِهِ. وَقَوْلُهُ: «وَالصَّاحِبُ بِالْجَنَبِ» قَالَ الثَّوْرِيُّ، عَنْ جَابِرِ الْجُعْفِيِّ، عَنْ الشَّعْبِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَا: هِيَ الْمَرْأَةُ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَرَوَى عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، وَإِبْرَاهِيمَ التَّخَمِي، وَالْحَسَنِ، وَسَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ - فِي إِحْدَى الرِّوَايَاتِ - نَحْوُ ذَلِكَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرَمَةُ، وَقَتَادَةُ: هُوَ الرَّفِيقُ فِي السَّفَرِ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُوَ الرَّفِيقُ الصَّالِحُ. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: هُوَ جَلِيسُكَ فِي الْحَضَرِ، وَرَفِيقُكَ فِي السَّفَرِ. وَأَمَّا «وَأَيُّنَ الْكَيْسِيلِ» فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٍ هُوَ: الضَّيْفُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ، وَأَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ، وَالْحَسَنُ، وَالضُّحَّاكُ، وَمِقَاتِلُ: هُوَ الَّذِي يَمُرُّ عَلَيْكَ مُجْتَازًا فِي السَّفَرِ. وَهَذَا أَظْهَرَ، وَإِنْ كَانَ مُرَادُ الْقَاتِلِ بِالضَّيْفِ: الْمَارُ فِي الطَّرِيقِ، فَهُمَا سَوَاءٌ. وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى أَبْنَاءِ السَّبِيلِ فِي سُورَةِ بَرَاءةٍ، وَبِاللَّهِ الثِّقَةُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانِ. وَقَوْلُهُ: «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» وَصِيَّةٌ بِالْأَرْقَاءِ؛ لِأَنَّ الرَّقِيقَ ضَعِيفُ الْحِيلَةِ أَسِيرٌ فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَلِهَذَا ثَبِتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَعَلَ يُوصِي أُمَّتَهُ فِي مَرَضِ الْمَوْتِ يَقُولُ: «الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ». فَجَعَلَ يُرَدِّدُهَا حَتَّى مَا يَقْبِضُ بِهَا لِسَانَهُ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي الْعَبَّاسِ، حَدَّثَنَا بَقِيعَةُ، حَدَّثَنَا بَحِيرُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، عَنْ الْبُقَعْدَامِ بْنِ مَعْدٍ يَكْرِبُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَطْعَمْتُ نَفْسَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتُ وَلَدَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتُ زَوْجَتَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتُ خَادِمَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ». وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ بَقِيعَةَ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ لِقَهْرَمَانَ لَهُ: هَلْ أُعْطِيتَ الرَّقِيقَ قَوْتَهُمْ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَانْطَلِقْ فَأَعْطِهِمْ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قَوْتَهُمْ». وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لِلْمَمْلُوكِ طَعَامُهُ وَكِسْوَتُهُ، وَلَا يَكْلَفُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا يُطِيقُ». وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا. وَعَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ، فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ، فَلْيَنَالْهُ لِقْمَةً أَوْ لِقْمَتَيْنِ أَوْ أَكْلَةً أَوْ أَكْلَتَيْنِ، فَإِنَّهُ وَلِيَّ حَرْزِهِ وَعِلَاجِهِ». أَخْرَجَاهُ وَلَفْظُهُ لِلْبُخَارِيِّ، وَلِمُسْلِمٍ: «فَلْيَقْعِدْهُ مَعَهُ فَلْيَأْكُلْ، فَإِنْ كَانَ الطَّعَامُ مُشْفُوهًا قَلِيلًا فَلْيَضَعْ فِي يَدِهِ أَكْلَةً أَوْ أَكْلَتَيْنِ». وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «هُمْ إِخْوَانُكُمْ خَوْلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيَطْعَمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تَكْلَفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَفْتُمُوهُمْ، فَأَعِينُوهُمْ». أَخْرَجَاهُ. وَقَوْلُهُ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا» أَي: مُخْتَالًا فِي نَفْسِهِ، مُعْجَبًا مُتَكَبِّرًا، فَخُورًا عَلَى النَّاسِ، يَرَى أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُمْ، فَهُوَ فِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ فَقِيرٌ، وَعِنْدَ النَّاسِ بَغِيضٌ. قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا» يَعْنِي: مُتَكَبِّرًا «فَخُورًا» يَعْنِي: يَغْدُمَا أَعْطَى، وَهُوَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ، يَعْنِي: يَفْخَرُ عَلَى النَّاسِ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنْ نِعْمَةٍ، وَهُوَ قَلِيلُ الشُّكْرِ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي الْقَاسِمُ، حَدَّثَنَا الْحَسَنِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَاقِدٍ أَبِي رَجَاءٍ الْهَزْرِيُّ قَالَ: لَا تَجِدُ سَيِّئَ الْمَلِكَةِ إِلَّا وَجَدْتَهُ مُخْتَالًا فَخُورًا - وَتَلَا: «وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا» وَلَا عَاقِبَ إِلَّا وَجَدْتَهُ جَبَّارًا شَقِيًّا - وَتَلَا: «وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا شَقِيًّا» (مریم: ٣٢). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ الْعَوَامِ بْنِ حَوْشَبٍ، مِثْلَهُ فِي الْمَخْتَالِ الْفَخُورِ. وَقَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو نَعِيمٍ، حَدَّثَنَا الْأَسْوَدُ بْنُ شَيْبَانَ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ قَالَ: قَالَ

مُطَرَفٌ: كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه، فلقينته فقلت: يا أبا ذر، بلغني أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم: «إن الله يحب ثلاثة ويُبغض ثلاثة؟» قال: أجل، فلا إخواني أكذب على خليلي، ثلاثاً. قلت: من الثلاثة الذي يُبغض الله؟ قال: المختال الفخور، أوليس تجدونه عندكم في كتاب الله المنزل؟ ثم قرأ الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]. وحدثننا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا وهيب بن خالد، عن أبي تميم عن رجل من بلهجين قال: قلت: يا رسول الله، أوصني. قال: «إياك وإسبال الإزار، فإن إسبال الإزار من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة».

﴿الَّذِينَ يَبِخُلُونَ بِأَمْوَالِهِمْ الَّتِي مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ أَلَا لِلَّذِينَ هُمْ عَنْهَا مُخْلِصُونَ عَذَابًا مُهِينًا ۖ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقَةً النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ۖ وَمَا عَلَيْنَا لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْنُقَرِّبَ مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ۝﴾.

يقول تعالى ذاماً للذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به - من بر الوالدين، والإحسان إلى الأقارب واليتامى والمساكين، والجار ذي القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، وما ملكت أيمانكم من الأرقاء - ولا يدفعون حق الله فيها، ويأمرون الناس بالبخل أيضاً. وقد قال رسول الله ﷺ: «وأي داء أدوأ من البخل؟». وقال: «إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا». وقوله: ﴿وَيَكْشُرُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فالبخل جحود لنعمة الله عليه لا تظهر عليه ولا تبين، لا في أكله ولا في ملبسه، ولا في إعطائه وبذله، كما قال تعالى: ﴿لَنْ يَكُونَ الْإِسْقَاطُ لِزَيْدٍ لَكَوَدٌ ۖ وَإِنَّكَ عَنْ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ۝﴾ [المائدة: ٦، ٧] أي: بحاله وشماعته، وإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝ [المعيت: ٨] وقال ههنا: ﴿وَيَكْشُرُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. ولهذا توعدهم بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾. والكفر هو الستر والتغطية، فالبخل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجهدها، فهو ككفر لنعم الله عليه. وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَنْعَمَ نِعْمَةً عَلَى عَبْدٍ أَحَبَّ أَنْ يَظْهَرَ أَثَرُهَا عَلَيْهِ». وفي الدعاء النبوي: «واجعلنا شاكرين لنعمتك، مشين بها عليك قابليها - ويروى: قاطليها - وأتممها علينا». وقد حمل بعض السلف هذه الآية على بخل اليهود بإظهار العلم الذي عندهم، من صفة النبي ﷺ وكتمانهم ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾. روله ابن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس. وقاله مجاهد وغير واحد. ولا شك أن الآية محتملة لذلك، والظاهر أن السياق في البخل بالمال، وإن كان البخل بالعلم داخلاً في ذلك بطريق الأولى؛ فإن سياق الكلام في الإنفاق على الأقارب والضعفاء، وكذا الآية التي بعدها، وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقَةً النَّاسِ﴾ فذكر الممسكين المذمومين وهم البخلاء، ثم ذكر الباذلين المرائين الذين يقصدون بإعطائهم السمعة وأن يمدحوا بالكرم، ولا يريدون بذلك وجه الله، وفي الحديث الذي فيه الثلاثة الذين هم أول من تُسَجَّرُ بهم النار، وهم: العالم والغاوي والمنفق، المراءون بأعمالهم، يقول صاحب المال: ما تركت من شيء تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت في سبيلك. فيقول الله: كذبت؛ إنما أردت أن يقال: جواد فقد قيل. أي: فقد أخذت جزاءك في الدنيا وهو الذي أردت بفعلك. وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال لِعِدَّتِي: «إِنَّ أَبْلَاكَ رَأْمٌ أَمْرًا فَبَلِّغْهُ». وفي حديث آخر: أن رسول الله ﷺ سئل عن عبد الله بن جُدعان: هل ينفعه إنفاقه، وإعتاقه؟ فقال: «لا، إنه لم يقل يوماً من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين». ولهذا قال: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ۖ أَيُّ: إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى صَنِيعِهِمْ هَذَا الْقَبِيحَ وَعَدُولَهُمْ عَنْ فِعْلِ الطَّاعَةِ عَلَى وَجْهِهَا الشَّيْطَانُ؛ فَإِنَّهُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ، وَقَارَنَهُمْ فَحَسَّنَ لَهُمُ الْقَبِيحَ ۖ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ۖ وَلِهَذَا قَالَ الشَّاعِرُ:

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلُ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ
فَكُلُّ قَرِينٍ بِالمِقْرَانِ يَفْتَنِي
ثم قال تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ۝﴾ أي: وأي شيء يكرههم لو سلكوا الطريق الحميدة، وعَدَّلُوا عن الرياء إلى الإخلاص والإيمان بالله، ورجاء موعوده في الدار الآخرة لمن أحسن عملاً، وأنفقوا مما رزقهم الله في الوجوه التي يحبها الله ويرضاها. وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ أي: وهو عليم بنياتهم الصالحة والفاسدة، وعليم بمن يستحق التوفيق منهم فيوفقه ويلهمه رشده ويقضيه لعمل صالح يرضى به عنه، وبمن يستحق الخذلان والطرده عن الجناب الأعظم الإلهي، الذي مَنْ طُرِدَ عن بابه، فقد خاب وخسر في الدنيا والآخرة، عياداً بالله من ذلك بلطفه المجزِل.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا دَرَّوْ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُلَ أَنْ تُسْأَلَ يَوْمَ الْآزْمِ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾.

يخبر تعالى أنه لا يظلم عبداً من عباده يوم القيامة مثقال حبة خردل ولا مثقال ذرة، بل يوفى بها به ويضاعفها له إن كانت حسنة، كما قال تعالى: ﴿وَنُصِّمُ الْمُؤْمِنَ الْأَتَّسَطَ يَوْمَ يُقِيمُ فَلَا ظُلْمَ لَكُمْ فَنَسَّ شَيْئًا وَلِنْ كَانَ يُقَالُ حَسَنٌ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنْ بِهَا حَسْبِيكَ﴾ ﴿٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧] وقال تعالى مخبراً عن لقمان أنه قال: ﴿بَشِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُنَادٍ وَمَنْ يَكُنْ لَكَ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٢١﴾ [لقمان: ٢١]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُشْرَوْا بَعْمَلِهِمْ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ﴿٢٣﴾. وفي الحديث الصحيحين، من حديث زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل، وفيه: «فيقول الله ﷻ: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فأخرجوه من النار». وفي لفظ: «أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار، فيخرجون خلقاً كثيراً» ثم يقول أبو سعيد: اقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا دَرَّوْ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٤٠﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عيسى بن يونس، عن هارون بن عترة عن عبد الله بن السائب، عن زاذان قال: قال عبد الله بن مسعود: يؤتى بالعبد والأمة يوم القيامة، فينادي مناد على رؤوس الأولين والآخرين: هذا فلان بن فلان، من كان له حق فليأت إلى حقه. فتفرح المرأة أن يكون لها الحق على أبيها أو أخيها أو زوجها. ثم قرأ: ﴿فَلَا أَكْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، فيغفر الله من حقه ما يشاء، ولا يغفر من حقوق الناس شيئاً، فينصب للناس فينادي: هذا فلان بن فلان، من كان له حق فليأت إلى حقه. فيقول: رَبِّ، فَيُنْتِ الدُّنْيَا، مِنْ أَيْنَ أَوْتِيَهُمْ حَقُّوْقُهُمْ؟ قَالَ: خَذُوا مِنْ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ، فَأَعْطُوا كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ بِقَدْرِ طَلْبَتِهِ فَإِنْ كَانَ وَلِيًّا لِلَّهِ، فَفَضَّلَ لَهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، ضَاعَفَهَا اللَّهُ لَهُ حَتَّى يَدْخُلَهُ بِهَا الْجَنَّةَ، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْنَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا دَرَّوْ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ قَالَ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ؛ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا شَقِيًّا قَالَ الْمَلِكُ: رَبِّ فَنَيْتَ حَسَنَاتِهِ، وَبَقِيَ طَالِبُونَ كَثِيرٌ؟ فيقول: خَذُوا مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَأُضْفِئُوها إِلَى سَيِّئَاتِهِ، ثُمَّ صُكُّوا لَهُ صُكًُّا إِلَى النَّارِ. ورواه ابن جرير من وجه آخر، عن زاذان - به نحوه. ولبعض هذا الأثر شاهد في الحديث الصحيح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا فضيل - يعني ابن مرزوق - عن عطية العوفي، حدثني عبد الله بن عمر قال: نزلت هذه الآية في الأعراب: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]. قال رجل: فما للمهاجرين يا أبا عبد الرحمن؟ قال: ما هو أفضل من ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا دَرَّوْ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٤٠﴾. وحدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني عبد الله بن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ فأما المشرك فيخفف عنه العذاب يوم القيامة، ولا يخرج من النار أبداً. وقد استدلل به بالحديث الصحيح أن العباس قال: يا رسول الله، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعته بشيء؟ قال: «نعم، هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدُّرك الأسفل من النار».

وقد يكون هذا خاصاً بأبي طالب من دون الكفار، بدليل ما رواه أبو داود الطيالسي في سننه: حدثنا عمران، حدثنا قتادة، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً، يثاب عليها الرزق في الدنيا ويُجْزَى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بها في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة لم يكن له حسنة». وقال أبو هريرة، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وقاتدة والضحاك، في قوله: ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني: الجنة. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا سليمان - يعني ابن المغيرة - عن علي بن زيد، عن أبي عثمان قال: بلغني عن أبي هريرة أنه قال: بلغني أن الله تعالى يعطي عبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة. قال: فقضي أني انطلقت حاجاً أو معتمراً، فلقيتُه فقلت: بلغني أنك حديث أنك تقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ بِالْحَسَنَةِ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ﴾ قال أبو هريرة: لا، بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الْفِي أَلْفِ حَسَنَةٍ﴾. ثم تلا: ﴿يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. فمن يقدره قدره. ورواه الإمام أحمد فقال: حدثنا يزيد، حدثنا مبارك بن فضالة، عن علي بن زيد، عن أبي عثمان قال: أتيت أبا هريرة فقلت له: بلغني أنك تقول: إن الحسنة تضاعف ألف ألف حسنة؟ قال: وما أعجبك من ذلك؟ فوالله لقد سمعت - يعني النبي ﷺ - كذا قال أبي - يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لِيُضَاعِفَ الْحَسَنَةَ الْفِي أَلْفِ حَسَنَةٍ﴾. علي بن زيد في أحاديثه نكارة، فالله أعلم. وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ﴿٤١﴾. يقول تعالى - مخبراً عن هول يوم القيامة وشدة أمره وشأنه: فكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة وحين يجيء من كل أمة بشهيد - يعني الأنبياء عليهم السلام؟ كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ

الْأَرْضِ بِشَرِّ نَسَبٍ وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَشَاقَّةَ يَالْيَتِيمَ وَالشُّهَدَاءَ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ [الزمر: ٦٩]. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَبْيَضُّ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدٌ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَزَكَّاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبَيَّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهْدًى وَرَحْمَةً وَفُتْرًا لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

قال البخاري: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ علي» قلت: يا رسول الله، اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «نعم، إني أحب أن أسمع من غيري» فقرأت سورة النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ﴿٤١﴾ قال: «حسبك الآن» فإذا عينا تَذَرَفَان. ورواه هو ومسلم أيضاً من حديث الأعمش، به. وقد روي من طرق متعددة عن ابن مسعود، فهو مقطوع به عنه. ورواه أحمد بن طريق أبي حيان، وأبي رزين، عنه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا، حدثنا الصلت بن مسعود الجحدري، حدثنا فضيل بن سليمان، حدثنا يونس بن محمد بن فضالة الأنصاري، عن أبيه قال: - وكان أبي ممن صحب النبي ﷺ -: إن رسول الله ﷺ أتاهم في بني ظفر، فجلس على الصخرة التي في بني ظفر اليوم، ومعه ابن مسعود ومعاذ بن جبل وناس من أصحابه، فأمر النبي ﷺ قارئاً فقرأ، فأتى على هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ﴿٤١﴾. فبكى رسول الله ﷺ حتى اضطرب لحياه وجنباه، فقال: «يا رب، هذا شهدت على من أنا بين ظهره، فكيف بمن لم أره؟». وقال ابن جرير: حدثني عبد الله بن محمد الزهري، حدثنا سفيان، عن المسعودي، عن جعفر بن عمرو بن حريث عن أبيه عن عبد الله - هو ابن مسعود - «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾: «شاهد عليهم ما دمت فيهم، فإذا توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم». وأما ما ذكره أبو عبد الله القرطبي في «التذكرة» حيث قال: باب ما جاء في شهادة النبي ﷺ على أمته: قال: أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا رجل من الأنصار، عن الجنهال بن عمرو، حدثه أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: ليس من يوم إلا تعرض على النبي ﷺ أمته غداة وعشيّة، فيعرفهم بأسمائهم وأعمالهم، فلذلك يشهد عليهم، يقول الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ﴿٤١﴾ فإنه أثر، وفيه انقطاع، فإن فيه رجلاً مبهماً لم يسم، وهو من كلام سعيد بن المسيب لم يرفعه. وقد قبله القرطبي فقال بعد إيراده: قد تقدم أن الأعمال تعرض على الله كل يوم اثنين وخميس، وعلى الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة. قال: ولا تعارض، فإنه يحتمل أن يخص نبينا بما يعرض عليه كل يوم، ويوم الجمعة مع الأنبياء، عليهم السلام. وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا أَرْسُولَ لَوْ شِئِيَ يَوْمَ الْأَرْضِ﴾ أي: لو انشقت وبلغتهم، مما يرون من أهوال الموقف، وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ، كقوله: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَا وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ ثَرِيًّا﴾ [الباء: ٤٠].

وقوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ أخبر عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه، ولا يكتُمون منه شيئاً. قال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْد، حدثنا حَكَّام، حدثنا عمرو، عن مُطَرِّف، عن الجنهال بن عمرو، عن سعيد بن جُبَيْر قال: أتى رجل ابن عباس فقال: سمعتُ الله، ﷻ، يقول - يعني إخباراً عن المشركين يوم القيامة أنهم قالوا -: ﴿وَاللَّهُ رَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾. فقال ابنُ العباس: أما قوله: ﴿وَاللَّهُ رَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا: تعالوا فلنَجْحَدْ، فقالوا: ﴿وَاللَّهُ رَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. فختم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن رجل، عن الجنهال بن عمرو، عن سعيد بن جُبَيْر قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: أشياء تختلف علي في القرآن. قال: ما هو؟ أشك في القرآن؟ قال: ليس هو بالشك. لكن اختلاف. قال: فهات ما اختلف عليك من ذلك. قال: أسمع الله يقول: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقال: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾؛ فقد كتموا! فقال ابن عباس: أما قوله: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم لما رأوا يوم القيامة أن الله لا يغفر إلا لأهل الإسلام، ويغفر الذنوب ولا يغفر شركاً، ولا يتعاضمه ذنب أن يغفره، جحد المشركون، فقالوا: ﴿وَاللَّهُ رَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؛ رجاء أن يغفر لهم. فختم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، فعند ذلك: ﴿يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا أَرْسُولَ لَوْ شِئِيَ يَوْمَ الْأَرْضِ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ﴿٤١﴾. وقال: ﴿وَاللَّهُ رَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؟ فقال له ابن عباس: إني أحسبك قمت من عند أصحابك فقلت: ألقي على ابن عباس متشابه القرآن. فإذا رجعت إليهم فأخبرهم أن الله جامع الناس يوم القيامة في بقيق واحد. فيقول المشركون: إن الله لا يقبل من أحد شيئاً إلا ممن وحده، فيقولون: تعالوا نُقَلِّ فيسألهم فيقولون: ﴿وَاللَّهُ

رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ». قال: فَيُخْتَمَ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ، وَتُسْتَنْقَطُ جَوَارِحُهُمْ، فَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ جَوَارِحُهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا مُشْرِكِينَ. فعند ذلك تَمُوتُ لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ سَوِيَتْ بِهِمْ ﴿وَلَا يَكْفُرُونَ اللَّهَ حَتَّىٰ﴾. رواه ابن جرير.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَأُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْباً إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَابُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمْ تَمْسُكُمُ الْإِنْسَاءُ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السكر، الذي لا يدري معه المصلي ما يقول، وعن قربان محلها - وهي المساجد - للجنب، إلا أن يكون مجتازاً من باب إلى باب من غير مكث، وقد كان هذا قبل تحريم الخمر، كما دل الحديث الذي ذكرناه في سورة البقرة، عند قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ الآية [البقرة: ٢١٩]؛ فإن رسول الله ﷺ تلاها على عمر، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فلما نزلت هذه الآية، تلاها عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فكانوا لا يشربون الخمر في أوقات الصلوات فلما نزل قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا لَكُمْشَرُ وَالْمَيْمِرِ وَالْأَنصَابِ وَالْأَكْلَامُ بِمَنْ عَمِلَ الشَّيْطَانُ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١] فقال عمر: انتهينا، وفي رواية إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو - وهو ابن شراحيل - عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ في قصة تحريم الخمر، فذكر الحديث وفيه: فنزلت الآية التي في سورة النساء: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَأُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾. فكان منادي رسول الله ﷺ إذا قامت الصلاة ينادي: ألا يقرئين الصلاة سكران. لفظ أبي داود.

وذكروا في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن أبي حاتم:

حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا شُعْبَةُ، أخبرني سِمَاكُ بْنُ حَرْبٍ قال: سمعت مُضْعَبَ بْنَ سَعْدٍ يحدث عن سعد قال: نزلت في أربع آيات: صنع رجل من الأنصار طعاماً، فدعا أناساً من المهاجرين وأناساً من الأنصار، فأكلنا وشربنا حتى سكرنا، ثم افتخرنا فرفع رجل لحي بغير ففزر به أنف سعد، فكان سعد مفزور الأنف، وذلك قبل أن تحرم الخمر، فنزلت: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَأُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ﴾. الآية. والحديث بطوله عند مسلم من رواية شُعْبَةَ. ورواه أهل السُّنَنِ إِلَّا ابْنَ مَاجَةَ، من طُرُقٍ عن سِمَاكٍ به.

سبب آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عَمَّار، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله الدُّشْتُكِيُّ، حدثنا أبو جعفر، عن عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيِّ، عن علي بن أبي طالب قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً، فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدموا فلاناً - قال: فقراً: قل يا أيها الكافرون، ما أعيد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون. قال: فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَأُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾. هكذا رواه ابن أبي حاتم، وكذا رواه الترمذي عن عبد بن حُمَيْدٍ، عن عبد الرحمن الدُّشْتُكِيِّ، به، وقال: حسن صحيح. وقد رواه ابن جرير، عن محمد بن بشار، عن عبد الرحمن بن مَهْدِيٍّ، عن سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن، عن علي: أنه كان هو وعبد الرحمن ورجل آخر شربوا الخمر، فصلى بهم عبد الرحمن فقراً: ﴿قُلْ يَأْتِيهَا الْكَافِرُونَ﴾ فخلط فيها، فنزلت: ﴿لَا تَقْرَأُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ﴾. وهكذا رواه أبو داود والنسائي، من حديث الثوري، به.

ورواه ابن جرير أيضاً، عن ابن حُمَيْدٍ، عن جرير، عن عطاء، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيِّ قال: كان علي في نفر من أصحاب النبي ﷺ في بيت عبد الرحمن بن عوف، فطعموا فأتاهم بخمر فشربوها منها، وذلك قبل أن يحرم الخمر، فحضرت الصلاة فقدموا علياً فقراً بهم: ﴿قُلْ يَأْتِيهَا الْكَافِرُونَ﴾، فلم يقرأها كما ينبغي، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَأُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ﴾. ثم قال: حدثني المثنى، حدثنا الحجاج بن المُنْهَالِ، حدثنا حَمَّاد، عن عطاء بن السائب، عن عبد الله بن حبيب - وهو أبو عبد الرحمن السُّلَمِيِّ: أن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاماً وشراباً، فدعا نفرأ من أصحاب النبي ﷺ فصلى بهم المغرب، فقراً: قل يا أيها الكافرون. أعيد ما تعبدون. وأنتم عابدون ما أعيد. وأنا عابد ما عديتم. لكم دينكم ولي دين. فأنزل الله ﷻ، هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَأُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾. وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَأُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾. وذلك أن رجلاً كانوا يأتون الصلاة وهم سكارى، قبل أن تحرم الخمر، فقال الله: ﴿لَا تَقْرَأُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ﴾ الآية. رواه ابن جرير. وكذا قال أبو رزين

ومُجَاهِدٌ. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قَتَادَةَ: كانوا يجتنبون السُّكْرَ عند حضور الصلوات ثم نسخ في تحريم الخمر. وقال الضَّحَّاكُ في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾: لم يعن بها سُكْرُ الخمر، إنما عني بها سُكْرُ النوم. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. ثم قال ابن جرير: والصواب أن المراد سُكْرُ الشراب. قال: ولم يتوجه النهي إلى السُّكْرَانِ الذي لا يفهم الخطاب؛ لأن ذلك في حكم المجنون، وإنما خُوطِبَ بالنهي الثُّجَلِ الذي يفهم التكليف. هذا حاصل ما قاله. وقد ذكره غير واحد من الأصوليين، وهو أن الخطاب توجه إلى من يفهم الكلام، دون السُّكْرَانِ الذي لا يدري ما يقال له؛ فإن الفهم شرط التكليف. وقد يحتمل أن يكون المراد التعريض بالنهي عن السُّكْرِ بالكلية؛ لكونهم مأمورين بالصلاة في الخمسة الأوقات من الليل والنهار، فلا يتمكن شارب الخمر من أداء الصلاة في أوقاتها دائماً، والله أعلم. وعلى هذا فيكون كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٥٢)، وهو الأمر لهم بالتأهب للموت على الإسلام والمداومة على الطاعة لأجل ذلك. وقوله: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ هذا أحسن ما يقال في حد السُّكْرَانِ: أنه الذي لا يدري ما يقول، فإن المخمور فيه تخليط في القراءة وعدم تدبره وخشوعه فيها، وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبي، حدثنا أيوب، عن أبي قِلَابَةَ، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: إذا نكس أحدكم وهو يصلي، فليتنصرف فليعلم ما يقول. انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم، ورواه هو والنسائي من حديث أيوب، به. وفي بعض ألفاظ الحديث: «فلعله يذهب يستغفر فيسب نفسه». وقوله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَابُوا﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عبد الرحمن الدشتكي، أخبرنا أبو جعفر الرازي، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَابُوا﴾ قال: لا تدخلوا المسجد وأنتم جنب إلا عابري سبيل، قال: تمر به مرأً ولا تجلس. ثم قال: وروى عن عبد الله بن مسعود، وأنس، وأبي عُبَيْدَةَ، وسعيد بن المُسَيَّبِ، وأبي الضَّحَى، وعطاء، ومُجَاهِد، ومسروق، وإبراهيم التَّخَمِي، وزيد بن أسلم، وأبي مالك، وعُمرُو بن دينار، والحكم بن عُثَيْبَةَ، وعِكرِمَةُ، والحسن البصري، ويَحْيَى بن سعيد الأنصاري، وابن شهاب، وقَتَادَةَ، نحو ذلك. وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا أبو صالح، حدثني اللَّيْثُ، حدثني يَزِيدُ بن أبي حَبِيبٍ عن قول الله ﷻ: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾، أن رجلاً من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد، فكانت تصيبهم جنابة ولا ماء عندهم، فيريدون الماء ولا يجدون مراً إلا في المسجد، فأنزل الله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾. ويشهد لصحة ما قاله يزيد بن أبي حَبِيبٍ، رحمه الله، ما ثبت في صحيح البخاري: أن رسول الله ﷺ قال: «سُدُّوا كل خُوَعة في المسجد إلا خُوَعة أبي بكر». وهذا قاله في آخر حياته ﷺ، علماً أنه أن أبا بكر، رضي الله عنه، سيلي الأمر بعده، ويحتاج إلى الدخول في المسجد كثيراً للأمور المهمة فيما يصلح للمسلمين، فأمر بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا بابيه، رضي الله عنه. ومن روى: «إلا باب علي» كما وقع في بعض السنن، فهو خطأ، والصحيح ما ثبت في الصحيح. ومن هذه الآية احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب اللبس في المسجد، ويجوز له المرور، وكذا الحائض والنفساء أيضاً في معناها؛ إلا أن بعضهم قال: يمنع مرورهما لاحتمال التلوّث. ومنهم من قال: إن أمنت كل واحدة منهما التلوّث في حال المرور جاز لهما المرور وإلا فلا. وقد ثبت في صحيح مسلم عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «ناوليني الحُمْرَةَ من المسجد» فقلت: إني حائض. فقال: «إن حيضتك ليست في يدك». وله عن أبي هريرة مثله. ففيه دلالة على جواز مرور الحائض في المسجد، والنفساء في معناها، والله أعلم.

وروى أبو داود من حديث أَفْلَكُ بن خليفة العامري، عن جَسْرَةَ بنت دجاجة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إني لا أحلّ المسجد لحائض ولا جنب». قال أبو مسلم الخطابي: ضُفِّ هذا الحديث جماعة وقالوا: أفلت مجهول. لكن رواه ابن ماجة من حديث أبي الخطاب الهجري، عن مَخْدُوجِ الذهلي، عن جَسْرَةَ، عن أم سلمة عن النبي ﷺ، به. قال أبو زُرْعَةَ الرازي: يقولون: جَسْرَةُ، عن أم سلمة. والصحيح جَسْرَةُ عن عائشة. فأما ما رواه أبو عيسى الترمذي، من حديث سالم بن أبي حفصة، عن عطية، عن أبي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا علي، لا يحل لأحد أن يُجَنَّبَ في هذا المسجد غيري وغيرك». فإنه حديث ضعيف لا يثبت؛ فإن سالمًا هذا متروك، وشيخه عطية ضعيف، والله أعلم.

قول آخر في معنى الآية: قال ابن أبي حاتم: حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرني ابن أبي ليلى، عن المنهال، عن زَرِّ بن حَبِيش، عن علي: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾. قال: لا يقرب الصلاة، إلا أن يكون مسافراً تصيبه الجنابة، فلا يجد الماء فيصلي حتى يجد الماء. ثم رواه من وجه آخر، عن المنهال بن عمرو، عن زَرِّ، عن علي بن

أبي طالب، فذكره. قال: وزوي عن ابن عباس في إحدى الروايات، وسعيد بن جبيرة، والضحاك، نحو ذلك. وقد روى ابن جرير من حديث وكيع، عن ابن أبي ليلى، عن الجثنال، عن عبيد الله أو عن زر بن حبیش - عن علي، فذكره. ورواه من طريق العوفي وأبي مجلز، عن ابن عباس، فذكره. ورواه عن سعيد بن جبيرة، وعن مجاهد، والحسن بن مسلم، والحكم بن عتيبة وزيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن، مثل ذلك، وروى من طريق ابن جريج، عن عبد الله بن كثير قال: كنا نسمع أنه في السفر. ويُستشهد لهذا القول بالحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن، من حديث أبي قلابة، عن عمرو بن بجدان عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «الصعيد الطيب طهور المسلم، وإن لم تجد الماء عشر حجج، فإذا وجدت الماء فأمسسه بشرتك فإن ذلك خير».

ثم قال ابن جرير - بعد حكاية القولين -: والأولى قول من قال: «وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ»: إلا مجتازي طريق فيه. وذلك أنه قد بين حكم المسافر إذا عدم الماء وهو جنب في قوله: «وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَجًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدُكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَنَسْتُمْ إِلَى الْمَاءِ فَلَمْ يَجِدْهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِ حَتَّى تَمْسُوا صَبِيحًا طَيِّبًا» إلى آخره. فكان معلوماً بذلك أن قوله: «وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَمْسُوا صَبِيحًا طَيِّبًا» لو كان معنياً به المسافر، لم يكن لإعادة ذكره في قوله: «وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَجًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ» معنى مفهوم، وقد مضى حكم ذكره قبل ذلك؛ فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد للصلاة معصليين فيها وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون، ولا تقربوها أيضاً جنباً حتى تغتسلوا، إلا عابري سبيل. قال: والعابر السبيل: المجتاز مراً وقطعاً. يقال منه: «عبرت هذا الطريق فانا أعبره عبراً وعبوراً» ومنه قيل: «عبر فلان النهر» إذا قطعه وجاوزه. ومنه قيل للناقة القوية على الأسفار: هي غبر أسفار وعبر أسفار؛ لقوتها على قطع الأسفار. وهذا الذي نصره هو قول الجمهور، وهو الظاهر من الآية، وكأنه تعالى نهى عن تعاطي الصلاة على هيئة ناقصة تناقض مقصودها، وعن الدخول إلى محلها على هيئة ناقصة، وهي الجنابة المباحة للصلاة ولمحلها أيضاً، والله أعلم. وقوله: «حَتَّى تَمْسُوا صَبِيحًا طَيِّبًا» دليل لما ذهب إليه الأئمة الثلاثة: أبو حنيفة ومالك والشافعي: أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد حتى يغتسل أو يتيمم، إن عدم الماء، أو لم يقدر على استعماله بطريقه. وذهب الإمام أحمد إلى أنه متى توضأ الجنب جاز له المكث في المسجد، لما روى هو وسعيد بن منصور في سننه بإسناد صحيح: أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك؛ قال سعيد بن منصور: حدثنا عبد العزيز بن محمد - هو الدراؤزي - عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار قال: رأيت رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يجلسون في المسجد وهم مجنبون إذا توضؤوا وضوء الصلاة، وهذا إسناد على شرط مسلم، فالحق أعلم. وقوله: «وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَجًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدُكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَنَسْتُمْ إِلَى الْمَاءِ فَلَمْ يَجِدْهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِ حَتَّى تَمْسُوا صَبِيحًا طَيِّبًا» أما العرض المبيح للتيمم، فهو الذي يخاف معه من استعمال الماء فوات عضو أو شئنه أو تطويل البرء. ومن العلماء من جَوَزَ التيمم بمجرد المرض لعموم الآية. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل، حدثنا قيس عن خصيف عن مجاهد في قوله: «وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَجًا»، قال: نزلت في رجل من الأنصار، كان مريضاً فلم يستطع أن يقوم فيتوضأ، ولم يكن له خادم فيناله، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فأنزل الله هذه الآية. هذا مرسل. والسفر معروف، ولا فرق فيه بين الطويل والقصير.

وقوله: «أَوْ جَاءَ أَحَدُكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَنَسْتُمْ إِلَى الْمَاءِ فَلَمْ يَجِدْهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِ حَتَّى تَمْسُوا صَبِيحًا طَيِّبًا» الغائط: هو المكان المغطى من الأرض، كنى بذلك عن التغوط، وهو الحدث الأصغر. وأما قوله: «أَوْ لَنَسْتُمْ إِلَى الْمَاءِ فَلَمْ يَجِدْهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِ حَتَّى تَمْسُوا صَبِيحًا طَيِّبًا» فمروي: «لَنَسْتُمْ» و «لَامَسْتُمْ» واختلف المفسرون والأئمة في معنى ذلك، على قولين: أحدهما: أن ذلك كناية عن الجماع؛ لقوله تعالى: «وَإِنْ طَلَقْتُمْوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَرْصَتْ مَا فَرَضْتُمْ» [البقرة: ٢٣٧] وقال تعالى: «يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدُوٍّ تَعْدُوهُنَّ» [الأحزاب: ٤٩]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس في قوله: «أَوْ لَنَسْتُمْ إِلَى الْمَاءِ فَلَمْ يَجِدْهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِ حَتَّى تَمْسُوا صَبِيحًا طَيِّبًا» قال: الجماع. وزوي عن علي، وأبي بن كعب، ومجاهد، وطاوس، والحسن، وعبيد بن عمير، وسعيد بن جبيرة، والشغبني، وقائدة، ومقاتل بن حيان - نحو ذلك. وقال ابن جرير: حدثني حميد بن مسعدة، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبيرة قال: ذكروا اللبس، فقال ناس من الموالي: ليس بالجماع. وقال ناس من العرب: اللبس الجماع. قال: فأثبت ابن عباس فقلت له: إن ناساً من الموالي والعرب اختلفوا في اللبس، فقالت الموالي: ليس بالجماع. وقالت العرب: الجماع. قال: من أي الفريقين كنت؟ قلت: كنت من الموالي. قال: غلب فريق الموالي. إن اللبس والمس والمباشرة: الجماع، ولكن الله يكتفي بما شاء. ثم رواه عن ابن بشار، عن غندر، عن شعبة - به نحوه. ثم رواه من غير وجه عن سعيد بن جبيرة، نحوه. ومثله قال: حدثني يعقوب،

حدثنا هشيم قال: حدثنا أبو بشر، أخبرنا سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: اللمس والمس والمباشرة: الجماع، ولكن الله يكتفي بما يشاء. حدثنا عبد الحميد بن بيان، أنبأنا إسحاق الأزرق، عن سفيان، عن عاصم الأحول، عن بكر بن عبد الله، عن ابن عباس قال: الملامسة: الجماع، ولكن الله كريم يكتفي بما يشاء. وقد صح من غير وجه، عن عبد الله بن عباس أنه قال ذلك. ثم رواه ابن جرير عن بعض من حكاه ابن أبي حاتم عنهم. ثم قال ابن جرير: وقال آخرون: عنى الله بذلك كل لمس، بيد كان أو غيرها من أعضاء الإنسان، وأوجبوا الوضوء على كل من مس بشيء من جسده شيئاً من جسدها مفضياً إليه. ثم قال: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان عن مَخَارِق، عن طارق، عن عبد الله بن مسعود قال: اللمس ما دون الجماع.

وقد رواه من طرق متعددة عن ابن مسعود بمثله. وروى من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: القبلة من المس، وفيها الوضوء. وقال: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عُبَيْدُ اللَّهِ بن عمر، عن نافع: أن ابن عمر كان يتوضأ من قُبْلَةِ المرأة، ويرى فيها الوضوء، ويقول: هي من اللباس. وروى ابن أبي حاتم وابن جرير أيضاً من طريق شُعْبَةَ، عن مَخَارِق، عن طارق، عن عبد الله قال: اللمس ما دون الجماع. ثم قال ابن أبي حاتم: وزُوي عن ابن عمر، وعبيدة، وأبي عثمان التَّهْدِي وأبي عبيدة - يعني ابن عبد الله بن مسعود - وعامر الشَّعْبِي، وثابت بن الحجاج، وإبراهيم التَّخَمِي، وزيد بن أسلم نحو ذلك. قلت: وروى مالك، عن الزهري، عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه أنه كان يقول: قبلة الرجل امرأته وجسده بيده من الملامسة، فمن قَبِلَ امرأته أو جَسَدَها بيده، فعليه الوضوء. وروى الحافظ أبو الحسن الدارقُطْنِي في سننه عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نحو ذلك. ولكن رَوَيْنَا عنه من وجه آخر: أنه كان يقبل امرأته، ثم يصلي ولا يتوضأ. فالرواية عنه مختلفة، فيحمل ما قاله في الوضوء إن صح عنه على الاستحباب، والله أعلم. والقول بوجوب الوضوء من المس هو قول الشافعي وأصحابه ومالك والمشهور عن أحمد بن حنبل، رحمهم الله، قال ناصر هذه المقالة: قد قرئ في هذه الآية ﴿لَمَسْتُمْ﴾ و ﴿لَمَسْتُمْ﴾، واللمس يطلق في الشرع على الجنس باليد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ زَلَّكَ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي رُطَائِسِ فَلَاسُوا بِأَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٧]، أي جسوه. وقال رسول الله ﷺ لماعز - حين أقر بالزنا يعرض له بالرجوع عن الإقرار -: «لعلك قبلت أو لمست». وفي الحديث الصحيح: «واليد زناها للمس». وقالت عائشة، رضي الله عنها: قل يوم إلا ورسولُ الله ﷺ يطوف علينا، فيقبل ويلمس. ومنه ما ثبت في الصحيحين: أنه ﷺ نهى عن بيع الملامسة. وهو يرجع إلى الجنس باليد على كلا التفسيرين قالوا: ويطلق في اللغة على الجنس باليد، كما يطلق على الجماع، قال الشاعر:

وَالْمَسْتُ كَفَيْ كَفَّهُ أَطْلَبُ الْغِنَى

واستأنسوا أيضاً بالحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن مهدي وأبو سعيد قالوا: حدثنا زائدة، عن عبد الملك بن عُثَيْر - وقال أبو سعيد: حدثنا عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن معاذ قال: أتى رسول الله ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، ما تقول في رجل لقي امرأة لا يعرفها، فليس يأتي الرجل من امرأته شيئاً إلا قد أتاه منها، غير أنه لم يجامعها؟ قال: فأنزل الله ﷻ هذه الآية: ﴿وَأَقْبِرَ أَلْسِنَتَهُ لَكَرِّي النَّهَارِ وَذَلَّا مِنْ أَجْلِ إِنْ كُنْتُمْ يَدْرُونَ الشَّيْءَ ذَلِكَ ذَكَرُوا لِلذَّكْرِ﴾ [هود: ١١٤] قال: فقال رسول الله ﷺ: «توضأ ثم صل». قال معاذ: فقلت: يا رسول الله، أله خاصة أم للمؤمنين عامة؟ قال: «بل للمؤمنين عامة». ورواه الترمذي من حديث زائدة، به، وقال: ليس بمتصل. وأخرجه النسائي من حديث شعبة، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى مرسلًا. قالوا: فأمره بالوضوء؛ لأنه لمس المرأة ولم يجامعها. وأجيب بأنه منقطع بين بن أبي ليلى ومعاذ، فإنه لم يلقه، ثم يحتمل أنه إنما أمره بالوضوء والصلاة للتوبة، كما تقدم في حديث الصديق رضي الله عنه: «ما من عبد يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر الله له» الحديث، وهو مذكور في سورة آل عمران عند قوله: ﴿ذَكِّرُوا اللَّهَ فَأَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ وَمَنْ يَعْمُرِ مَنَافِقَ الْأَشْجَارِ إِلَّا اللَّهُ﴾ الآية [آل عمران: ١٣٥]. ثم قال ابن جرير: وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: عنى الله بقوله: ﴿أَوْ لَمَسْتُمْ أَنْسَاءَ﴾ الجماع دون غيره من معاني اللمس؛ لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قَبِلَ بعض نسائه ثم صلى ولم يتوضأ، ثم قال: حدثني بذلك إسماعيل بن موسى السدي قال: أخبرنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن عُرْوَةَ، عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يتوضأ ثم يقبل، ثم يصلي ولا يتوضأ. ثم قال: حدثنا أبو كَرْزِب، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن حبيب، عن عروة، عن عائشة؛ أن النبي ﷺ قَبِلَ بعض نسائه، ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ، قلت: من هي إلا أنت؟ فضحكت. وهكذا رواه أبو داود والترمذي، وابن ماجه، عن جماعة من مشايخهم، عن وكيع، به. ثم قال أبو داود: روي عن الثوري أنه قال: ما حدثنا حبيب

إلا عن عروة المزني، وقال يحيى القطان لرجل: احك عني أن هذا الحديث شبه لا شيء. وقال الترمذي: سمعت البخاري يضعف هذا الحديث وقال: حبيب بن أبي ثابت لم يسمع من عروة. وقد وقع في رواية ابن ماجة: عن أبي بكر بن أبي شيبة وعلي بن محمد الطنافسي، عن وكيع، عن الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن عروة بن الزبير، عن عائشة. وأبلغ من ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، وهذا نص في كونه عروة بن الزبير، ويشهد له قوله: من هي إلا أنت، فضحكت. لكن روى أبو داود، عن إبراهيم بن مخلد الطالقاني، عن عبد الرحمن بن مغراء، عن الأعمش قال: حدثنا أصحاب لنا عن عروة المزني، عن عائشة، فذكره، والله أعلم. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا أبو زيد عمر بن شبة، عن شهاب بن عباد، حدثنا منذل بن علي، عن ليث، عن عطاء، عن عائشة - وعن أبي رزق، عن إبراهيم التيمي، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ ينال مني القبلة بعد الوضوء، ثم لا يعيد الوضوء. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن أبي روق الهذلي، عن إبراهيم التيمي، عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ قبّل ثم صلى ولم يتوضأ. ورواه أبو داود والنسائي من حديث يحيى القطان - زاد أبو داود: وابن مهدي - كلاهما عن سفيان الثوري، به. ثم قال أبو داود، والنسائي: لم يسمع إبراهيم التيمي من عائشة. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا سعيد بن يحيى الأموي، حدثنا أبي، حدثنا يزيد بن سنان، عن عبد الرحمن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ كان يقبلها وهو صائم، ثم لا يفطر، ولا يحدث وضوءاً. وقال أيضاً: حدثنا أبو كريب، حدثنا حفص بن غياث، عن حجاج، عن عمرو بن شعيب، عن زينب السهمية عن النبي ﷺ: أنه كان يقبل ثم يصلي ولا يتوضأ. وقد رواه الإمام أحمد، عن محمد بن فضيل، عن حجاج بن أوطاة، عن عمرو بن شعيب، عن زينب السهمية، عن عائشة، عن النبي ﷺ، به.

وقوله: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ استنبط كثير من الفقهاء من هذه الآية: أنه لا يجوز التيمم لعدم الماء إلا بعد تظلمه، فمتى طلبه فلم يجده جاز له حينئذ التيمم. وقد ذكروا كيفية الطلب في كتب الفروع، كما هو مقرر في موضعه، كما هو في الصحيحين، من حديث عمران بن حصين: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً معتزلاً لم يصل في القوم، فقال: «يا فلان، ما منعك أن تصلي مع القوم؟ ألسنت برجل مسلم؟» قال: بلى يا رسول الله، ولكن أصابني جنابة ولا ماء. قال: «عليك بالصعيد، فإنه يكفيك». ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾. فالتيمم في اللغة هو: القصد. تقول العرب: تيممك الله بحفظه، أي: قصدك. ومنه قول امرئ القيس:

ولما رأته العين التي عند ضارج
وأن الحصى من تحت أقدامها ذام
تيممت العين التي عند ضارج
بفي عليها الفبي عزمضها طام

والصعيد قيل: هو كل ما صعد على وجه الأرض، فيدخل فيه التراب، والرمل، والشجر، والحجر، والنبات، وهو قول مالك. وقيل: ما كان من جنس التراب فيختص التراب والرمل والزرنيخ، والنورة، وهذا مذهب أبي حنيفة. وقيل: هو التراب فقط، وهو مذهب الشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهما، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [الكهف: ٤٠]، أي: تراباً أملس طيباً، وبما ثبت في صحيح مسلم، عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء» وفي لفظ: «وجعلت ترابها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء». قالوا: فخصص الطهورية بالتراب في مقام الامتنان، فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره معه. والطيب ههنا قيل: الحلال. وقيل: الذي ليس بنجس. كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا ابن ماجة، من حديث أبي قلابة عن عمرو بن بجدان، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «الصعيد الطيب طهور للمسلم، وإن لم يجد الماء عشر حجج، فإذا وجده، فليمس به بسترته، فإن ذلك خير». وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه ابن حبان أيضاً، ورواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن أبي هريرة وصححه الحافظ أبو الحسن القطان. وقال ابن عباس: أطيب الصعيد تراب الحرث. رواه ابن أبي حاتم، ورفع ابن مردويه في تفسيره. وقوله: ﴿فَأَتَسَحَّرُوا بِطُحُوتِهِمْ وَأَيُّهُمْ﴾: التيمم بدل عن الوضوء في التطهر به، لا أنه بدل منه في جميع أعضائه، بل يكفي مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع، ولكن اختلف الأئمة في كيفية التيمم على أقوال: أحدها: وهو مذهب الشافعي في الجديد: أنه يجب أن يمسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين؛ لأن لفظ اليمين يصدق إطلاقاً على ما يبلغ المنكبين، وعلى ما يبلغ المرفقين، كما في آية الوضوء، ويطلق ويراد بهما ما يبلغ الكفين، كما في آية السرة: ﴿فَأَقْصَوْا أَيْدِيَكُمْ﴾ [المائدة: ٣٨]. قالوا: وحمل ما أطلق ههنا على ما قيد في آية الوضوء أولى لجامع الطهورية. وذكر بعضهم ما رواه الدارقطني، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «التيمم ضربتان: ضربة للوجه، وضربة لليدين إلى

المرفقين». ولكن لا يصح؛ لأن في أسانيد ضعفاء لا يثبت الحديث بهم. وروى أبو داود عن ابن عمر - في حديث - أن رسول الله ﷺ ضرب بيديه على الحائط ومسح بهما وجهه، ثم ضرب ضربة أخرى فمسح ذراعيه. ولكن في إسناده محمد بن ثابت العبدي، وقد ضعفه بعض الحفاظ، ورواه غيره من الثقات فوقوه على فعل ابن عمر، قال البخاري وأبو زرعة وابن عدي: وهو الصواب. وقال البيهقي: زُفِعَ هذا الحديث منكر. واحتج الشافعي بما رواه عن إبراهيم بن محمد عن أبي الحويرث عبد الرحمن بن معاوية، عن الأعرج، عن ابن الصمة: أن رسول الله ﷺ تيمم فمسح وجهه وذراعيه. وقال ابن جرير: حدثني موسى بن سهل الرملي، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا خارجة بن مضعب، عن عبد الله بن عطاء، عن موسى بن غفبة، عن الأعرج، عن أبي جهم قال: رأيت رسول الله ﷺ يبول، فسلمت عليه، فلم يرد عليّ حتى فرغ، ثم قام إلى الحائط ف ضرب بيديه عليه، فمسح بهما وجهه، ثم ضرب بيديه على الحائط فمسح بهما يديه إلى المرفقين، ثم رد عليّ السلام. والقول الثاني: أنه يجب مسح الوجه واليدين إلى الكفين بضربتين، وهو القول القديم للشافعي. والثالث: أنه يكفي مسح الوجه والكفين بضربة واحدة؛ قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن الحكم، عن ذر، عن ابن عبد الرحمن بن أبزي، عن أبيه؛ أن رجلاً أتى عمر فقال: إني أجنب فلم أجد ماء؟ فقال عمر: لا تصل. فقال عمار: أما تذكر يا أمير المؤمنين إذا أنا وأنت في سرية فأجنبنا فلم نجد ماء، فأما أنت فلم تصل، وأما أنا فتمسكت في التراب فصليت، فلما أتينا النبي ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: «إنما كان يكفيك». وضرب النبي ﷺ بيده الأرض، ثم نفخ فيها ومسح بها وجهه وكفيه. وقال أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا أبان، حدثنا قتادة، عن عذرة، عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزي، عن أبيه، عن عمار؛ أن رسول الله ﷺ قال في التيمم: «ضربة للوجه والكفين».

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد، حدثنا سليمان الأعمش، حدثنا شقيق قال: كنت قاعداً مع عبد الله وأبي موسى فقال أبو موسى لعبد الله: لو أن رجلاً لم يجد الماء لم يصل؟ فقال عبد الله: لا. فقال أبو موسى: أما تذكر إذ قال عمار لعمر: ألا تذكر إذ بعثني رسول الله ﷺ وإياك في إيل، فأصابني جنابة، فتمرغت في التراب؟ فلما رجعت إلى رسول الله ﷺ أخبرته، فضحك وقال: «إنما كان يكفيك أن تقول هكذا»، وضرب بكفيه إلى الأرض، ثم مسح كفيه جميعاً، ومسح وجهه مسحة واحدة بضربة واحدة؛ فقال عبد الله: لا جرم، ما رأيت عمر قنع بذلك قال: فقال له أبو موسى: فكيف بهذه الآية في سورة النساء: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾؟ قال: فما درى عبد الله ما يقول، وقال: لو رخصنا لهم في التيمم لأوشك أحدهم إذا برد الماء على جلده أن يتيمم. وقال تعالى في آية المائدة: ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوْكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٦]، استدلل بذلك الشافعي، رحمه الله تعالى، على أنه لا بد في التيمم أن يكون بتراب طاهر له غبار يعلق بالوجه واليدين منه شيء، كما رواه الشافعي بإسناده المتقدم عن ابن الصمة: أنه مرّ بالنبي ﷺ وهو يبول، فسلم عليه فلم يرد عليه، حتى قام إلى جدار فحتمه بعضا كانت معه، ف ضرب بيده عليه ثم مسح وجهه وذراعيه. وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾، أي: في الدين الذي شرعه لكم ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾، فهذا أباح لكم إذا لم تجدوا الماء أن تعدلوا إلى التيمم بالصعيد ﴿وَلِيُخَيِّمَ عَلَيْكُمْ كَلِمَتَكُمْ لَنُفَكِّرَنَّ﴾. ولهذا كانت هذه الأمة مختصة بشرعية التيمم دون سائر الأمم، كما ثبت في الصحيحين، عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيَ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتَ الصَّلَاةَ فَلْيَصِلْ - وفي لفظ: فعنده طهوره ومسجده - واجلّت لي الغنائم ولم تجلّ لأحد قبلي، وأُعْطِيَ الشَّفَاعَةُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يَبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ وَيَبْعَثُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً. وتقدم في حديث حذيفة عند مسلم: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجداً، وتربتها طهوراً إذا لم نجد الماء». وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوْكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أي: ومن عفوه عنكم وغفره لكم أن شرع التيمم، وأباح لكم فعل الصلاة به إذا فقدتم الماء، توسعة عليكم ورخصة لكم، وذلك أن هذه الآية الكريمة فيها تنزيه الصلاة أن تفعل على هيئة ناقصة من سُكْرِ حتى يصحو المكلف ويعقل ما يقول، أو جنابة حتى يغتسل، أو حدث حتى يتوضأ، إلا أن يكون مريضاً أو عادماً للماء، فإن الله، ﷻ، قد أَرخَصَ في التيمم والحالة هذه، رحمة بعباده ورافة بهم، وتوسعة عليهم، والله الحمد والمنة.

ذكر سبب نزول مشروعية التيمم:

وإنما ذكرنا ذلك ههنا؛ لأن هذه الآية التي في النساء متقدمة النزول على آية المائدة، وبيانه أن هذه نزلت قبل تحت تحريم

الخمر، والخمر إنما حرم بعد أحد، يقال: في محاصرة النبي ﷺ لبني النضير بعد أحد بيسير، وأما المائدة فإنها من أواخر ما نزل، ولا سيما صدرها، فناسب أن يذكر السبب ههنا، وبالله الثقة. قال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا هشام، عن أبيه، عن عائشة: أنها استعارت من أسماء قلادة، فهلك، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً في طلبها فوجدوها، فأدركتهم الصلاة وليس معهم ماء، فصلوا بغير وضوء، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ، فأنزل الله آية التيمم، فقال أسيد بن الحضير لعائشة: جزاك الله خيراً، فوالله ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله لك وللمسلمين فيه خيراً.

طريق أخرى: قال البخاري: حدثنا عبد الله بن يوسف، أنبأنا مالك، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنت في البيداء - أو بذات الجيش - انقطع عقد لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ وبالناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء! فجاء أبو بكر، ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء! قالت عائشة: فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي، ولا يمنعني من التحرك إلا مكاناً رسول الله ﷺ على فخذي، فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم فتييمموا، فقال أسيد بن الحضير: ما هو بأول بركتكم يا آل أبي بكر. قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فوجدنا العقد تحته. وقد رواه البخاري أيضاً عن قتيبة وإسماعيل. ورواه مسلم عن يحيى بن يحيى، عن مالك.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن صالح قال: قال ابن شهاب: حدثنا عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، عن عمار بن ياسر؛ أن رسول الله ﷺ عرس بأولات الجيش ومعه عائشة زوجته، فانقطع عقد لها من جَزَع ظفار، فحبس الناس ابتغاء عقدها، وذلك حتى أضاء الفجر، وليس مع الناس ماء، فأنزل الله ﷻ، على رسول الله ﷺ رخصة التطهر بالصعيد الطيب، فقام المسلمون مع رسول الله ﷺ، فضربوا بأيديهم الأرض، ثم رفعوا أيديهم ولم يقبضوا من التراب شيئاً، فمسحوا بها وجوههم وأيديهم إلى المناكب، ومن بطون أيديهم إلى الأباط. وقد رواه ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا صيفي، عن ابن أبي ذئب، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن أبي اليقظان قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فهلك عقد لعائشة، فأقام رسول الله ﷺ حتى أضاء الفجر، فتغيظ أبو بكر على عائشة رضي الله عنها، فنزلت عليه الرخصة، المسح بالصعيد الطيب. فدخل أبو بكر فقال لها: إنك لمباركة! نزلت فيك رخصة! فضربنا بأيدينا ضربة لوجوها، وضربة لأيدينا إلى المناكب والأباط.

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر بن مزدييه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا الحسن بن أحمد بن الليث حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا العلاء بن أبي سوية، حدثني الهيثم بن زريق المالكي - من بني مالك بن كعب بن سعد، وعاش مائة وسبع عشرة سنة - عن أبيه، عن الأسلع بن شريك قال: كنت أرخل ناقة رسول الله ﷺ، فأصابني جنباً في ليلة باردة، وأراد رسول الله ﷺ الرحلة، فكرهت أن أرخل ناقته وأنا جنب، وخشيت أن أغتسل بالماء البارد فأموت أو أمرض، فأمرت رجلاً من الأنصار فرحلها، ثم رَضَعْتُ أحجاراً فأسخت بها ماء، فاغتسلت. ثم لحقت رسول الله ﷺ وأصحابه فقال: «يا أسلع، مالي أرى رحلتك تغيرت؟» قلت: يا رسول الله، لم أرحلها، رحلها رجل من الأنصار. قال: «ولم؟» قلت: إني أصابني جنباً، فخشيت الفَرَّ على نفسي، فأمرت أن يرحلها، ورضعت أحجاراً فأسخت بها ماء فاغتسلت به، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾. وقد روي من وجه آخر عنه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْرُونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُتَوَلَّوْا السَّبِيلَ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ ۖ وَكَفَىٰ لِلَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ لِلَّهِ نَصِيرًا ۚ﴾^(١٥) مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَمْرٌ غَيْرُ مُسْمِعٍ وَرَعَيْنَا لَكِنَّا بِآيَاتِهِمْ وَلَعْنًا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَمْرٌ وَأَنْظَرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾^(١٦).

يخبر تبارك وتعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتتابة إلى يوم القيامة - أنهم يشترون الضلالة بالهدى، ويُعرضون عما أنزل الله على رسوله، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين عليهم السلام، في صفة محمد ﷺ، ليشتروا به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا، ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُتَوَلَّوْا السَّبِيلَ﴾ أي: يودون لو تكفروا بما أنزل عليكم أيها المؤمنون وتتركون ما أنتم عليه من

الهدى والعلم النافع، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ أي: هو يعلم بهم ويحذرهم منهم ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ وَليًا وَكُنْ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ أي: كفى به وليًا لمن لجأ إليه ونصيراً لمن استنصره. ثم قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ «من هذه لبيان الجنس كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]. وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أي: يتأولون الكلام على غير تأويله، ويفسرونه بغير مراد الله، قصداً منهم وافتراء ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي يقولون: سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه. هكذا فسره مجاهد وابن زيد، وهو المراد، وهذا أبلغ في عنادهم وكفرهم، أنهم يتولون عن كتاب الله بعدما عقلوه، وهم يعلمون ما عليهم في ذلك من الإثم والعقوبة. وقوله: ﴿وَأَسْمِعْ عَذْرَاسْتُمْ﴾ أي: اسمع ما نقول، لا سمعت. رواه الضحاك عن ابن عباس. وقال مجاهد والحسن: واسمع غير مقبول منك. قال ابن جرير: والأول أصح. وهو كما قال. وهذا استهزاء منهم واستهتار، عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. ﴿وَرَعَيْنَا لَئِيَّا لَيْسَنَّهُمْ وَطْعَنَا فِي الَّذِينَ﴾ أي: يوهمون أنهم يقولون: راعنا سمعك بقولهم: «راعنا»، وإنما يريدون الرعونة. وقد تقدم الكلام في هذا عند قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ لَا تَعْلَمُوا رَجْعًا وَفُتُوا أَنْظَرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]. ولهذا قال تعالى عن هؤلاء اليهود الذين يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه: ﴿لَئِيَّا لَيْسَنَّهُمْ وَطْعَنَا فِي الَّذِينَ﴾ يعني: بسبهم النبي ﷺ. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمِعْ وَأَنْظَرْنَا لَكُنَّا عِزًّا لَمْ نَكُنْ لَعْنَةً اللَّهُ يَكْفُرُ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: قلوبهم مطرودة عن الخير مبعدة منه، فلا يدخلها من الإيمان شيء نافع لهم وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨] والمقصود: أنهم لا يؤمنون إيماناً نافعاً.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مَا يُمِئُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْوَيسَ وَجُوهًا فَرَدُّهَا عَلَىٰ أَذْيَارِهَا أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ النَّبِيِّ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (١٧) إِنَّ اللَّهَ لَا يَتَغَيَّرُ بِمَا يَتَغَيَّرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (١٨).

يقول تعالى - أماً أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على عبده ورسوله محمد ﷺ من الكتاب العظيم، الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات، ومتهدداً لهم أن يفعلوا، بقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ «من هؤلاء اليهود الذين يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه» يعني: بسبهم النبي ﷺ. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمِعْ وَأَنْظَرْنَا لَكُنَّا عِزًّا لَمْ نَكُنْ لَعْنَةً اللَّهُ يَكْفُرُ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: قلوبهم مطرودة عن الخير مبعدة منه، فلا يدخلها من الإيمان شيء نافع لهم وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨] والمقصود: أنهم لا يؤمنون إيماناً نافعاً.

يقول تعالى - أماً أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على عبده ورسوله محمد ﷺ من الكتاب العظيم، الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات، ومتهدداً لهم أن يفعلوا، بقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ «من هؤلاء اليهود الذين يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه» يعني: بسبهم النبي ﷺ. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمِعْ وَأَنْظَرْنَا لَكُنَّا عِزًّا لَمْ نَكُنْ لَعْنَةً اللَّهُ يَكْفُرُ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: قلوبهم مطرودة عن الخير مبعدة منه، فلا يدخلها من الإيمان شيء نافع لهم وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨] والمقصود: أنهم لا يؤمنون إيماناً نافعاً.

وقد ذكر أن كعب الأحبار أسلم حين سمع هذه الآية، قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا جابر بن نوح، عن عيسى بن المغيرة قال: تذاكرنا عند إبراهيم إسلام كعب، فقال: أسلم كعب زمان عمر، أقبل وهو يريد بيت المقدس، فمر على المدينة، فخرج إليه عمر فقال: يا كعب، أسلم، قال: أستم تقرأون في كتابكم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خُلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَثَلُ الْإِصْحَارِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا﴾ وأنا قد حملت الثوراة. قال: فتركه عمر. ثم خرج حتى انتهى إلى حمص، فسمع رجلاً من أهلها حزينا، وهو يقول: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مَا يُمِئُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْوَيسَ وَجُوهًا فَرَدُّهَا عَلَىٰ أَذْيَارِهَا﴾ الآية. قال كعب: يا رب آمنت، يا رب، أسلمت، مخافة أن تصيبه هذه الآية، ثم رجع فأتى أهله في اليمن، ثم جاء بهم مسلمين. وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر بلفظ آخر، فقال: حدثنا أبي، حدثنا ابن نَعْلٍ، حدثنا عمرو بن واقد، عن يونس بن حَبَس، عن أبي إدريس عائذ الله الخولاني قال: كان أبو مسلم الجليلي معلم كعب، وكان يلومه في إبطائه عن رسول الله ﷺ قال: فبعثه إليه لينظر أهو هو؟ قال كعب: فركبت حتى أتيت المدينة، فإذا نال يقرأ القرآن، يقول: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مَا يُمِئُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْوَيسَ وَجُوهًا فَرَدُّهَا عَلَىٰ أَذْيَارِهَا﴾ فبادرت الماء فاغتسلت وإني لأمسح وجهي مخافة أن أطمس، ثم أسلمت. وقوله: ﴿أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ النَّبِيِّ﴾ يعني: الذين اعتدوا في سبهم بالحيلة على الاصطياد، وقد مسخوا قردة وخنازير، وسيأتي بسط قصتهم في سورة الأعراف. وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: إذا أمر بأمر، فإنه لا يخالف ولا يمانع.

ثم أخبر تعالى: أنه ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ أي: لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي من الذنوب ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: من عباده. وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة، فلنذكر منها ما تيسر:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا صدقة بن موسى، حدثنا أبو عمران الجوني، عن يزيد بن بابتوس، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدواوين عند الله ثلاثة؛ ديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وديوان لا يترك الله منه شيئاً، وديوان لا يغفره الله. فأما الديوان الذي لا يغفره الله، فالشرك بالله، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّكُمْ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]. وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه، من صوم يوم تركه، أو صلاة تركها؛ فإن الله يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء. وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً، فظلم العباد بعضهم بعضاً؛ القصاص لا محالة. تفرد به أحمد.

الحديث الثاني: قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا أحمد بن مالك، حدثنا زائدة بن أبي الرقاد، عن زياد الثُميري، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «الظلم ثلاثة، فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره الله، وظلم لا يتركه الله؛ فأما الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك، وقال: ﴿إِنَّكَ أَلْيَرْتِكُ لَطْمُ عَظِيمٍ﴾ [لقمان: ١٣]، وأما الظلم الذي يغفره الله، فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم، وأما الظلم الذي لا يتركه، فظلم العباد بعضهم بعضاً، حتى يدين لبعضهم من بعض».

الحديث الثالث: قال الإمام أحمد حدثنا صفوان بن عيسى، حدثنا ثور بن يزيد، عن أبي عؤن، عن أبي إدريس قال: سمعت معاوية يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغفره، إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً». رواه النسائي، عن محمد بن مثنى، عن صفوان بن عيسى، به.

الحديث الرابع: قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا عبد الحميد، حدثنا شهر، حدثنا ابن غنم أن أبا ذر حدثه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقول: يا عبيدي، ما عبدتني ورجوتني فإني غافر لك على ما كان فيك، يا عبيدي، إن لقيتني بقراب الأرض خطيئة ما لم تشرك بي، لقيتك بقرابها مغفرة». تفرد به أحمد من هذا الوجه.

الحديث الخامس: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبي، حدثنا حسين، عن ابن بريدة أن يحيى بن يعمر حدثه، أن أبا الأسود الديلي حدثه، أن أبا ذر حدثه قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال: «ما من عبد قال: لا إله إلا الله. ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإني زنى وإن سرق» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق». ثلاثاً، ثم قال في الرابعة: «على زعم أنف أبي ذر»! قال: فخرج أبو ذر وهو يجر إزاره وهو يقول: وإن زعم أنف أبي ذر. وكان أبو ذر يحدث بهذا بعد ويقول: وإن زعم أنف أبي ذر. أخرجاه من حديث حسين، به.

طريق أخرى عنه: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن أبي ذر قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في حرة المدينة عشاء، ونحن ننظر إلى أحد، فقال: «يا أبا ذر». فقلت: لبيك يا رسول الله، قال: «ما أحب أن لي أحداً ذاك عندي ذهباً أمسى ثالثةً وعندي منه دينار، إلا ديناراً أرصده - يعني لدين - إلا أن أقول به في عباد الله هكذا». وحثنا عن يمينه وبين يديه وعن يساره. قال: ثم مشينا فقال: «يا أبا ذر، إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا». فحثنا عن يمينه ومن بين يديه وعن يساره. قال: ثم مشينا فقال: «يا أبا ذر، كما أنت حتى أتيتك». قال: فانطلق حتى توارى عني. قال: فسمعت لفظاً فقلت: لعل رسول الله ﷺ عرض له. قال: ففهمت أن أتبعه، ثم ذكرت قوله: «لا تبرح حتى أتيتك» فانتظرت حتى جاء، فذكرت له الذي سمعت، فقال: «ذاك جبريل أتاني فقال: من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق». أخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش، به. وقد رواه البخاري ومسلم أيضاً كلاهما، عن قتيبة، عن جرير بن عبد الحميد، عن عبد العزيز بن رُفيع، عن زيد بن وهب، عن أبي ذر قال: خرجت ليلة من الليالي، فإذا رسول الله ﷺ يمشي وحده، ليس معه إنسان، قال: فظننت أنه يكره أن يمشي معه أحد. قال: فجعلت أمشي في ظل القمر، فالتفت فرأيتي، فقال: «من هذا؟» فقلت: أبو ذر، جعلني الله فداك. قال: «يا أبا ذر، تعال». قال: فمشيت معه ساعة فقال: «إن المكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من أعطاه الله خيراً فنفع فيه عن يمينه وشماله، وبين يديه وورائه، وعمل فيه خيراً». قال: فمشيت معه ساعة فقال لي: «اجلس ههنا»، قال: فأجلستني في قاع حوله حجارة، فقال لي: «اجلس ههنا حتى أرجع إليك». قال: فانطلق في الحرة حتى لا أراه، فلبث عني فأطال اللبث، ثم إنني سمعته وهو مقبل، وهو يقول: «وإن سرق وإن زنى». قال: فلما جاء لم أصبر حتى قلت: يا نبي الله، جعلني الله فداك، من تكلم في جانب الحرة؟ ما سمعت أحداً يرجع إليك شيئاً. قال: «ذاك جبريل، عرض لي من جانب الحرة فقال: بشر أمتك أنه من مات لا

يشرك بالله شيئاً دخل الجنة. قلت: يا جبريل، وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم. قلت: وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم. قلت: وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم. قلت: نعم. قلت: نعم.

الحديث السادس: قال عبد بن حميد في مسنده: أخبرنا عبيد الله بن موسى، عن ابن أبي ليلى، عن أبي الزبير، عن جابر قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان؟ قال: «من مات لا يشرك بالله شيئاً وجبت له الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئاً وجبت له النار». وذكر تمام الحديث. تفرد به من هذا الوجه.

طريق أخرى: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن عمرو بن خلاد الحراني، حدثنا منصور بن إسماعيل القرشي، حدثنا موسى بن عبيدة، الزبدي، أخبر عبد الله بن عبيدة، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نفس تموت، لا تشرك بالله شيئاً، إلا حلت لها المغفرة إن شاء الله عذبها، وإن شاء غفر لها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾». ورواه الحافظ أبو يعلى في مسنده، من حديث موسى بن عبيدة، عن أخيه عبد الله بن عبيدة، عن جابر: أن النبي ﷺ قال: «لا تزال المغفرة على العبد ما لم يقع الحجاب». قيل: يا نبي الله، وما الحجاب؟ قال: «الإشراك بالله». قال: «ما من نفس تلقى الله لا تشرك به شيئاً إلا حلت لها المغفرة من الله تعالى، إن يشأ أن يعذبها، وإن يشأ أن يغفر لها غفر لها». ثم قرأ نبي الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

الحديث السابع: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم، حدثنا زكريا، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة». تفرد به من هذا الوجه.

الحديث الثامن: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو قبيس، عن عبد الله بن ناضر من بني سريج قال: سمعت أبا رهم قاص أهل الشام يقول: سمعت أبا أيوب الأنصاري يقول: إن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم إليهم، فقال لهم: «إن ربكم، ﷻ، خيرني بين سبعين ألفاً يدخلون الجنة عفواً بغير حساب، وبين الخبيثة عنده لأمتي». فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله، أيعبأ ذلك ربك؟ فدخل رسول الله ﷺ ثم خرج وهو يكبر، فقال: «إن ربي زادني مع كل ألف سبعين ألفاً والخبيثة عنده» قال أبو رهم: يا أبا أيوب، وما تظن خبيثة رسول الله ﷺ؟ فأكله الناس بأفواههم فقالوا: وما أنت وخبيثة رسول الله ﷺ؟! فقال أبو أيوب: دعوا الرجل عنكم، أخبركم عن خبيثة رسول الله ﷺ كما أظن، بل كالمستيقن. إن خبيثة رسول الله ﷺ أن يقول: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله مصداقاً لسانه قلبه أدخله الجنة».

الحديث التاسع: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا المؤمل بن الفضل الحراني، حدثنا عيسى بن يونس (ح) وأخبرنا هاشم بن القاسم الحراني - فيما كتب إلي - قال: حدثنا عيسى بن يونس نفسه، عن واصل بن السائب الزقاشي، عن أبي سورة ابن أخي أبي أيوب، عن أبي أيوب الأنصاري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن لي ابن أخ لا ينتهي عن الحرام. قال: «وما دينه؟» قال: يصلي ويوحد الله تعالى. قال: «استوهب منه دينه، فإن أبي فابتعه منه». فطلب الرجل ذاك منه فأبى عليه، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: وجدته شحيحاً في دينه. قال: فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

الحديث العاشر: قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا عمرو بن الضحاك، حدثنا أبي، حدثنا مستور أبو همام الهناني، حدثنا ثابت عن أنس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما تركت حاجة ولا ذا حاجة إلا قد أتيت. قال: «أليس تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟» ثلاث مرات. قال: نعم. قال: «فإن ذلك يأتي على ذلك كله».

الحديث الحادي عشر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا عكرمة بن عمار، عن ضمضم بن جؤس اليمامي قال: قال لي أبو هريرة: يا يمامي، لا تقولن لرجل: والله لا يغفر الله لك. أو لا يدخلك الجنة أبداً. قلت: يا أبا هريرة، إن هذه كلمة يقولها أحدنا لأخيه وصاحبه إذا غضب. قال: لا تقلها، فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان في بني إسرائيل رجلان كان أحدهما مجتهداً في العبادة، وكان الآخر مسرفاً على نفسه، وكانا متآخيين، وكان المجتهد لا يزال يرى الآخر على ذنب، فيقول: يا هذا أقصر. فيقول: خلني ورَبِّي! أبعثت علي رقيباً؟ قال: إلى أن رآه يوماً على ذنب استعظمه، فقال له: ويحك! أقصر! قال: خلني ورَبِّي! أبعثت علي رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك - أو لا يدخلك الله الجنة أبداً - قال: فبعث الله إليهما ملكاً فقبض أرواحهما واجتمعا عنده، فقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي. وقال للآخر: أكنيت بي عالماً؟ أكنيت علي ما في يدي قادراً؟ اذهبوا به إلى النار. قال: فوالذي نفس أبي القاسم بيده لتكلم بكلمة أوبقت ديناه وآخرته». ورواه أبو داود، من

حديث عكرمة بن عمار، حدثني ضمضم بن جَوْس، به.

الحديث الثاني عشر: قال الطبراني: حدثنا أبو شيخ عن محمد بن الحسن بن عجلان الأصبهاني، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله ﷻ: من علم أبي ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفر له ولا أبالي، ما لم يشرك بي شيئاً».

الحديث الثالث عشر: قال الحافظ أبو بكر البزار والحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا هُذَيْب - هو ابن خالد - حدثنا سُهَيْل بن أبي خُزَم، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من وعده الله على عمل ثواباً فهو منجزه له، ومن توعده على عمل عقاباً فهو فيه بالخيار». تفردا به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا بحر بن نصر الخولاني، حدثنا خالد - يعني ابن عبد الرحمن الخراساني - حدثنا الهيثم بن جَمَاز، عن سَلَام بن أبي مطيع، عن بكر بن عبد الله المُرَني، عن ابن عمر قال: كنا أصحاب النبي ﷺ لا نشك في قاتل النفس، وأكل مال اليتيم، وقاذف المحصنات، وشاهد الزور، حتى نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، فأسك أصحاب النبي ﷺ عن الشهادة. ورواه ابن جرير من حديث الهيثم بن جَمَاز، به. وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا عبد الملك بن أبي عبد الرحمن المقرئ، حدثنا عبد الله بن عاصم، حدثنا صالح - يعني المُرَني أبو بشر - عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر قال: كنا لا نشك فيمن أوجب الله له النار في الكتاب، حتى نزلت علينا هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾. قال: فلما سمعناها كففتنا عن الشهادة، وأرجينا الأمور إلى الله، ﷻ.

وقال البزار: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا شيبان بن أبي شيبة، حدثنا حرب بن سُرَيْج، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر، حتى سمعنا نبينا ﷺ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾. وقال: أخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع، أخبرني مَجْبَر، عن عبد الله بن عمر أنه قال: لما نزلت: ﴿قُلْ يَكْفِئُ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، قام رجل فقال: والشرك بالله يا نبي الله؟ فكره ذلك رسول الله ﷺ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾ [١٨]. رواه ابن جرير. وقد رواه ابن مَرْذُويه من طُرُق عن ابن عمر. وهذه الآية التي في سورة «تنزيل» مشروطة بالتوبة، فمن تاب من أي ذنب وإن تكرر منه تاب الله عليه؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ يَكْفِئُ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ [الزمر: ٥٣]، أي: بشرط التوبة، ولو لم يكن كذلك لدخل الشرك فيه، ولا يصح ذلك، لأنه، تعالى، قد حكم ههنا بأنه لا يغفر الشرك، وحكم بأنه يغفر ما عداه لمن يشاء، أي: وإن لم يتب صاحبه، فهذه أرجى من تلك من هذا الوجه، والله أعلم. وقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾ كقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وثبت في الصحيحين، عن ابن مسعود أنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندا وهو خلقك...» وذكر تمام الحديث. وقال ابن مَرْذُويه: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد، حدثنا أحمد بن عمرو، حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا مَعْن، حدثنا سعيد بن بَشِير حدثنا قتادة، عن الحسن، عن عمران بن حصين؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أخبركم بأكبر الكبائر: الشرك بالله» ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾، «وعقوق الوالدين». ثم قرأ: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَتْلُونَ قِيلًا﴾ [١٨] أَنْظَرُ كَيْفَ يَتَعَوَّلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُبِينًا ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ آتَوْا نَفْسَهُمْ مِنَ الْكَذِبِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَيَتْلُونَ الْقُرْآنَ وَلَهُمْ أَهْلٌ مِمَّنْ هَؤُلَاءِ يَهْدِي إِلَى الْآيَاتِ أَمْ تَأْمَنُوا سَبِيلًا ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿٢١﴾

قال الحسن وقاتدة: نزلت هذه الآية، وهي قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ في اليهود والنصارى، حين قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَهُ﴾. وقال ابن زيد: نزلت في قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ١٨]، وفي قولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًا﴾ [البقرة: ١١١]. وقال مجاهد: كانوا يقدمون الصبيان أمامهم في الدعاء والصلاة يؤمنونهم، ويزعمون أنهم لا ذنب لهم. وكذا قال عكرمة، وأبو مالك. روى ذلك ابن جرير. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾: وذلك أن اليهود قالوا: إن أبناءنا توفوا وهم لنا قربة، وسيفسعون ويزكوننا، فأنزل الله على محمد ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَتْلُونَ قِيلًا﴾ [١٨] رواه ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبي حدثنا محمد بن مصفى، حدثنا ابن حُمير، عن ابن لهيعة، عن بشير بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت اليهود يقدمون صبيانهم يصلون بهم، ويقرّبون قربانهم ويزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب. وكذبوا. قال الله تعالى: «إني لا أظهر ذا ذنب بأخر لا ذنب له»، وأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾. ثم قال: وروي عن مجاهد، وأبي مالك، والسدي، وعكرمة، والضحاك - نحو ذلك. وقال الضحاك: قالوا: ليس لنا ذنوب، كما ليس لأبنائنا ذنوب. فأنزل الله ذلك فيهم. وقيل: نزلت في ذم التماذج والتزكية. وقد جاء في الحديث الصحيح عند مسلم، عن المقداد بن الأسود قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المذّاحين التراب. وفي الحديث الآخر المخرج في الصحيحين من طريق خالد الحذاء، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يفتني على رجل، فقال: «ويحك. قطعت عنّي صاحبك». ثم قال: «إن كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة، فليقل: أحسبه كذا ولا يركي على الله أحداً». وقال الإمام أحمد: حدثنا مُعْتَمِر، عن أبيه، عن نعيم بن أبي هند قال: قال عمر بن الخطاب: من قال: أنا مؤمن، فهو كافر. ومن قال: هو عالم، فهو جاهل. ومن قال: هو في الجنة، فهو في النار. ورواه ابن مردويه، من طريق موسى بن عبيدة، عن طلحة بن عبيد الله بن كُرَيْز، عن عمر قال: إن أخوف ما أخاف عليكم إعجاب المرء براه، فمن قال: إنه مؤمن، فهو كافر، ومن قال: إنه عالم فهو جاهل، ومن قال: إنه في الجنة، فهو في النار. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة. وحجاج، أنبأنا شعبة، عن سعد بن إبراهيم، عن معبد الجهنّي قال: كان معاوية قلماً يحدث عن النبي ﷺ، قال: وكان قلماً يكاد أن يدع يوم الجمعة هؤلاء الكلمات أن يحدث بهن عن النبي ﷺ، يقول: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإن هذا المال حلّو خضر، فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه، وإياكم والتماذج فإنه الذبح». وروى ابن ماجه منه: «إياكم والتماذج فإنه الذبح» عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن غنّدر، عن شعبة به. ومعبد هذا هو ابن عبد الله بن عويم البصري القدري. وقال ابن جرير: حدثني يحيى بن إبراهيم المسعودي، حدثني أبي، عن أبيه، عن جده، عن الأعمش، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: قال عبد الله بن مسعود: إن الرجل ليغدو بدينه، ثم يرجع وما معه منه شيء، يلقي الرجل ليس يملك له نفعاً ولا ضرراً فيقول له: والله إنك كنت وكنت، فلعلة أن يرجع ولم يخل من حاجته بشيء وقد أسخط الله. ثم قرأ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية. وسباني الكلام على ذلك مطولاً، عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]. ولهذا قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَبْزُكُ مِنْ يَسْكَاةٍ﴾ أي: المرجع في ذلك إلى الله، ﷻ، لأنه عالم بحقائق الأمور وغوامضها. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَطْلُبُونَ حَبِيبًا﴾ أي: ولا يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار الفتيل. قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، والحسن، وقتادة، وغير واحد من السلف: هو ما يكون في شق التواة. وعن ابن عباس أيضاً: هو ما فتلت بين أصابعك. وكلا القولين متقارب. وقوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْضُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَلِمَةَ﴾ أي: في تزكيتهم أنفسهم ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هَودًا أَوْ نَصَارًا﴾ [البقرة: ١١١]، وقولهم: ﴿لَنْ تَسْنَئَا أَنْفُسًا إِلَّا أَنْفُسًا فَتُؤَدُّونَهَا﴾ [البقرة: ٨٠]، واتكالمهم على أعمال آبائهم الصالحة، وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزي عن الأبناء شيئاً، في قوله: ﴿تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَرِكُنَ مَا كَسَبَتْمْ وَلَا تَسْتَفِيدُونَ عَنْهَا كَانُوا يَمْلِكُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

ثم قال: ﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ أي: وكفى بضئعهم هذا كذباً وافتراءً ظاهراً. وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالْطُّغْيَانِ﴾، أما «الجبت» فقال محمد بن إسحاق، عن حسان بن فائد، عن عمر بن الخطاب أنه قال: «الجبت»: السحر، و«الطاغوت»: الشيطان. وهكذا روي عن ابن عباس، وأبي العالية، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن جبّير، والشّعبي، والحسن، والضحاك والسدي. وعن ابن عباس، وأبي العالية، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، وأبي مالك، وسعيد بن جبّير، والشّعبي، والحسن، وعطية: «الجبت»: الشيطان - زاد ابن عباس: بالحيثية. وعن ابن عباس أيضاً: «الجبت»: الشرك. وعنه: «الجبت»: الأصنام. وعن الشعبي: «الجبت»: الكاهن. وعن ابن عباس: «الجبت»: حيي بن أخطب. وعن مجاهد: «الجبت»: كعب بن الأشرف. وقال العلامة أبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري في كتابه «الصحاح»: «الجبت» كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك، وفي الحديث: «الطيرة والعيافة والطُّرُق من الجبت» قال: وهذا ليس من محض العربية؛ لاجتماع الجيم والتاء في كلمة واحدة من غير حرف دَوَلَقِي. وهذا الحديث الذي ذكره، رواه الإمام أحمد في مسنده فقال: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف عن حيان أبي العلاء، حدثنا قطن بن قبيصة، عن أبيه - وهو قبيصة بن مخارق - أنه سمع النبي ﷺ قال: «إن العيافة والطُّرُق والطيرة من الجبت» قال عوف: «العيافة»: زجر الطير، و«الطُّرُق»: الخط، يخط في الأرض، و«الجبت» قال الحسن: إنه الشيطان. وهكذا رواه أبو داود في سننه والنسائي وابن أبي

يقول تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ نَبِيٌّ يَتْلُو آيَاتِي؟﴾ وهذا استفهام إنكار، أي: ليس لهم نصيب من الملك. ثم وصفهم بالبخل فقال: ﴿فَإِذَا لَا يَرَوْنَ أَنَّهُ نَصِيبٌ لَّهُمْ قَالُوا أَإِذَا مَا مِثْلُ النَّدَىٰ﴾ أي: لأنهم لو كان لهم نصيب في الملك والتصرف لما أعطوا أحدا من الناس - ولا سيما محمد ﷺ - شيئا، ولا ما يملأ النفير، وهو النقطة التي في النواة، في قول ابن عباس والأكثرين. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّمَا تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَبِيَّةً بِئِثَابًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] أي: خوف أن يذهب ما بأيديكم، مع أنه لا يتصور نفاذه، وإنما هو من بخلكم وشحكم، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] بخيلا. ثم قال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني بذلك حسدهم النبي ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة، ومنعم من تصديقهم إياه جسدهم له؛ لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل. قال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا يحيى الحماني، حدثنا قيس بن الربيع، عن السدي، عن عطاء، عن ابن عباس قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الآية، قال ابن عباس: نحن الناس دون الناس. قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ أَلَكُتَّابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ ثُلُكًا عَظِيمًا﴾ أي: فقد جعلنا في أسباط بني إسرائيل - الذين هم من ذرية إبراهيم - النبوة، وأزلنا عليهم الكتب، وحكموا فيهم بالسنن - وهي الحكمة - وجعلنا فيهم الملوك، ومع هذا ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِ﴾ أي: بهذا الإتياء وهذا الإنعام ﴿وَوَيْلٌ مِّنْ صَدْعَةٍ﴾ أي: كضر به وأعرض عنه، وسعى في صد الناس عنه، وهو منهم ومن جنسهم، من بني إسرائيل، فقد اختلفوا عليهم، فكيف بك يا محمد ولست من بني

إسرائيل؟ وقال مجاهد: ﴿فَبِمَنْ مِّنْ أَمَانٍ بِهِ﴾ أي: بمحمد ﷺ، ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ﴾، فالكفرة منهم أشد تكذيباً لك، وأبعد عما جنتهم به من الهدى، والحق المبين. ولهذا قال متوعداً لهم: ﴿وَكُنْ بِمِجْهَنِّمْ سَعِيداً﴾ أي: وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نَصَّيْتُمْ جُلُودَهُمْ بَدَلْتَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا يَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَرِيفاً حَكِيمًا ٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنَجْلِيهِمْ نَجْوًى مِّنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّمْ يَمُوتْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنَجْلِيهِمُ ظِلًّا ظَلِيلًا ٥٧﴾. يخبر تعالى عما يعاقب به في نار جهنم من كفر بآياته وصدّ عن رسله، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ الآية، أي ندخلهم ناراً دخولا يحيط بجميع أجزائهم. ثم أخبر عن دوام عقوبتهم ونكالهم، فقال: ﴿كَمَا نَصَّيْتُمْ جُلُودَهُمْ بَدَلْتَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا يَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾، قال الأعمش، عن ابن عمر: إذا أحرقت جلودهم بدلوا جلوداً أيضاً أمثال القراطيس. رواه ابن أبي حاتم. وقال يحيى بن زيد الحضرمي أنه بلغه في قول الله: ﴿كَمَا نَصَّيْتُمْ جُلُودَهُمْ بَدَلْتَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا يَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ قال: يجعل للكافر مائة جلد، بين كل جلدتين لون من العذاب. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا حسين الجعفي، عن زائدة، عن هشام، عن الحسن قوله: ﴿كَمَا نَصَّيْتُمْ جُلُودَهُمْ بَدَلْتَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ الآية. قال: تنصجهم في اليوم سبعين ألف مرة. قال حسين: وزاد فيه فضيل عن هشام عن الحسن: كلما أنصجتهم فأكلت لحومهم قيل لهم: עודوا فعادوا. وقال أيضاً: ذكر عن هشام بن عمار: حدثنا سعيد بن يحيى - يعني سعدان - حدثنا نافع، مولى يوسف السلمي البصري، عن نافع، عن ابن عمر قال: قرأ رجل عند عمر هذه الآية: ﴿كَمَا نَصَّيْتُمْ جُلُودَهُمْ بَدَلْتَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ فقال عمر: أعدها علي، فأعادها، فقال معاذ بن جبل: عندي تفسيرها: تبدل في ساعة مائة مرة. فقال عمر: هكذا سمعت رسول الله ﷺ. وقد رواه ابن مَرْزُوبِهِ، عن محمد بن أحمد بن إبراهيم، عن عُبْدَانَ بن محمد المروزي، عن هشام بن عمار، به. ورواه من وجه آخر بلفظ آخر فقال: حدثنا محمد بن إسحاق، عن عمران، حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحارث، حدثنا شببان بن قُرُوح، حدثنا نافع أبو هُرْمَز، حدثنا نافع، عن ابن عمر قال: تلا رجل عند عمر هذه الآية: ﴿كَمَا نَصَّيْتُمْ جُلُودَهُمْ بَدَلْتَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا يَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ الآية، قال: فقال عمر: أعدها علي - وثم كعب - فقال: يا أمير المؤمنين، أنا عندي تفسير هذه الآية، قرأتها قبل الإسلام، قال: فقال: هاتها يا كعب، فإن جئت بها كما سمعت من رسول الله ﷺ صدقتك، وإلا لم نظل إليها. فقال: إني قرأتها قبل الإسلام: «كلما نصجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها في الساعة الواحدة عشرين ومائة مرة». فقال عمر: هكذا سمعت من رسول الله ﷺ.

وقال الربيع بن أنس: مكتوب في الكتاب الأول أن جلد أحدهم أربعون ذراعاً، وسنه تسعون ذراعاً، ويطنه لو وضع فيه جبل لَوُسَّعه، فإذا أكلت النار جلودهم بدلوا جلوداً غيرها. وقد ورد في الحديث ما هو أبلى من هذا، قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا أبو يحيى الطويل، عن أبي يحيى القنات، عن مجاهد، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «يُعْظَمُ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ، حَتَّى إِنْ بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِ أَحَدِهِمْ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ، وَإِنْ غُلْظُ جِلْدِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعاً، وَإِنْ ضَرْسُهُ مِثْلُ أَحَدٍ». تفرد به أحمد من هذا الوجه. وقيل: المراد بقوله: ﴿كَمَا نَصَّيْتُمْ جُلُودَهُمْ﴾ أي: سراويلهم. حكاه ابن جرير، وهو ضعيف، لأنه خلاف الظاهر. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنَجْلِيهِمْ نَجْوًى مِّنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾. هذا إخبار عن مآل السعداء في جنات عدن، التي تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها ومحالها وأرجائها حيث شأوا وأين أرادوا، وهم خالدون فيها أبداً، لا يحولون ولا يزولون ولا ييغون عنها حولا. وقوله: ﴿لَّمْ يَمُوتْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: من الحيض والنفس والأذى. والأخلاق الرذيلة، والصفات الناقصة، كما قال ابن عباس: مطهرة من الأقدار والأذى. وكذا قال عطاء، والحسن، والضحاك، والنخعي، وأبو صالح، وعطية، والسدي. وقال مجاهد: مطهرة من البول والحيض والنخام والبزاق والمني والولد. وقال قتادة: مطهرة من الأذى والمآثم ولا حيض ولا كلف. وقوله: ﴿وَنَجْلِيهِمُ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي: ظلا عميقاً كثيراً غزيراً طيباً أنيقاً. قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن - وحدثنا ابن المثنى، حدثنا ابن جعفر - قالوا: حدثنا شعبه قال: سمعت أبا الضحاك يحدث، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّكَّابُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، شَجَرَةُ الْخُلْدِ».

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ٥٨﴾. يخبر تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وفي حديث الحسن، عن سَمُرَةَ، أن رسول الله ﷺ قال: «أَذِ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ اتَّعَمَكَ، وَلَا تَخُنْ مِنْ خَانَكَ». رواه الإمام وأهل السنن، وهذا يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله ﷻ،

على عباده، من الصلوات والزكوات، والكفارات والنذور والصيام، وغير ذلك، مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالدوائع وغير ذلك مما يأتئون به بعضهم على بعض من غير اطلاع بينة على ذلك. فأمر الله ﷻ بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة، كما ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدَّ الحقوق إلى أهلها، حتى يقتص للشاء الجَماء من القَرَناة». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن عبد الله بن السائب، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود قال: إن الشهادة تكفر كل ذنب إلا الأمانة، يؤتى بالرجل يوم القيامة - وإن كان قُتل في سبيل الله - فيقال: أذ أمانتك. فيقول وأنى أؤديها وقد ذهبت الدنيا؟ فتمثل له الأمانة في قعر جهنم، فيهوي إليها فيحملها على عاتقه. قال: فتنزل عن عاتقه، فيهوي على أثره أبدا الآبدن. قال زاذان: فاتيت البراء فحدثته فقال: صدق أخي: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾. وقال سفيان الثوري، عن ابن أبي ليلى، عن رجل، عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ قال: هي مبهمة للبر والفاجر. وقال محمد بن الحنفية: هي مُسَجَّلَةٌ للبر والفاجر. وقال أبو العالية: الأمانة ما أمروا به ونهوا عنه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد، حدثنا حفص بن غياث، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: قال أبيّ بن كعب: من الأمانة أن المرأة اثمنت على فرجها. وقال الربيع بن أنس: هي من الأمانات فيما بينك وبين الناس. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ قال: يدخل فيه وعظ السلطان النساء. يعني يوم العيد.

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، واسم أبي طلحة: عبد الله بن عبد العزّي بن عثمان بن عبد الدار بن قُصَي بن كلاب القرشي العبدري، حاجب الكعبة المعظمة، وهو ابن عم شيبه بن عثمان بن أبي طلحة، الذي صارت الحجابة في نسله إلى اليوم، أسلم عثمان هذا في الهدنة بين صلح الحديبية وفتح مكة، هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وأما عمه عثمان بن أبي طلحة، فكان معه لواء المشركين يوم أحد، وقتل يومئذ كافراً. وإنما نبهنا على هذا النسب؛ لأن كثيراً من المفسرين قد يشبه عليهم هذا بهذا، وسبب نزولها فيه لما أخذ منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة يوم الفتح، ثم رده عليه. وقال محمد بن إسحاق في غزوة الفتح: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور، عن صفية بنت شيبه؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس، خرج حتى جاء البيت، فطاف به سبعا على راحلته، يستلم الركن بمحجن في يده، فلما قضى طوافه، دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له، فدخلها، فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكف له الناس في المسجد. قال ابن إسحاق فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يَدعى، فهو تحت قَدَمَيَّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج. وذكر بقية الحديث في خطبة النبي ﷺ يومئذ، إلى أن قال: ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية، صلى الله عليك. فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة؟» فدُعي له، فقال له: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم وقاءٍ وبرٍّ». قال ابن جرير: حدثني القاسم، حدثنا الحسين، عن حجاج، عن ابن جُرَيْج قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾، قال: نزلت في عثمان بن طلحة قبض منه النبي ﷺ مفتاح الكعبة، فدخل به البيت يوم الفتح، فخرج وهو يتلو هذه، فدعا عثمان إليه، فدفع إليه المفتاح، قال: وقال عمر بن الخطاب لما خرج رسول الله ﷺ من الكعبة، وهو يتلو هذه الآية: فداء أبي وأمي، ما سمعته يتلوها قبل ذلك. حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا الزنجي بن خالد، عن الزهري قال: دفعه إليه وقال: أعينوه. وروى ابن مَرْزُوق، من طريق الكلبي، عن أبي صالح عن ابن عباس في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾، قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة دعا عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، فلما أتاه قال: «أرني المفتاح». فأتاه به، فلما بسط يده إليه قام العباس فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، اجمعه لي مع السقاية. فكف عثمان يده. فقال رسول الله ﷺ: «أرني المفتاح يا عثمان». فبسط يده يعطيه، فقال العباس مثل كلمته الأولى، فكف عثمان يده. ثم قال رسول الله ﷺ: «يا عثمان، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فهاتني المفتاح». فقال: هاك بأمانة الله. قال: فقام رسول الله ﷺ ففتح باب الكعبة، فوجد في الكعبة تمثال إبراهيم معه قِداح يُسْتَقْسَمُ بها. فقال رسول الله ﷺ: «ما للمشركين قاتلهم الله. وما شأن إبراهيم وشأن القِداح». ثم دعا بِجَفْةٍ فيها ماء، فأخذ ماء فغمسه فيه، ثم غمس به تلك التماثيل، وأخرج مقام إبراهيم، وكان في الكعبة فالترقه في حائط الكعبة ثم قال: «يا أيها الناس، هذه القبلة». قال: ثم خرج رسول الله ﷺ فطاف بالبيت شوطاً أو شوطين ثم نزل عليه جبريل، فيما

ذكر لنا برد المفتاح، فدعا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾. حتى فرغ من الآية.

وهذا من المشهورات أن هذه الآية نزلت في ذلك، وسواء كانت نزلت في ذلك أو لا، فحكمها عام؛ ولهذا قال ابن عباس ومحمد بن الحنفية: هي للبر والفاجر، أي: هي أمر لكل أحد. وقوله: ﴿وَإِذَا حُكِمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾، أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس؛ ولهذا قال محمد بن كعب وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب: إنما نزلت في الأمراء، يعني الحكام بين الناس. وفي الحديث: «إن الله مع الحاكم ما لم يَجُزْ، فإذا جار وكله الله إلى نفسه». وفي الأثر: عدل يوم كعبادة أربعين سنة. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَنْهَايُ عَنِ الظُّلْمِ﴾ أي: يأمركم به من أداء الأمانات، والحكم بالعدل بين الناس، وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أي: سميعاً لأقوالكم، بصيراً بأفعالكم، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني عبد الله بن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن عتبة بن عامر قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو يُقْرَأُ هذه الآية ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، يقول: بكل شيء بصير. وقد قال ابن أبي حاتم: أخبرنا يحيى بن عبدك القزويني، أنبأنا المقرئ - يعني أبا عبد الرحمن - عبد الله بن يزيد، حدثنا حرمة - يعني ابن عمران التميمي المصري - حدثنا أبو يونس، سمعت أبا هريرة يقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَنْهَايُ عَنِ الظُّلْمِ﴾، يضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه ويقول: هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرأها ويضع إصبعه. قال أبو زكريا: وصفه لنا المقرئ، ووضع أبو زكريا إبهامه اليمنى على عينه اليمنى، والتي تليها على الأذن اليمنى، وأرانا فقال: هكذا وهكذا. رواه أبو داود، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، وابن مَرْدُوَيْهِ في تفسيره، من حديث أبي عبد الرحمن المقرئ بإسناده - نحوه. وأبو يونس هذا مولى أبي هريرة، واسمه سُلَيْم بن جُبَيْر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٥٩).

قال البخاري: حدثنا صدقة بن الفضل، حدثنا حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جُرَيْج، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، قال: نزلت في عبد الله بن خُذَافَةَ بن قيس بن عدي؛ إذ بعثه النبي ﷺ في سرية. وهكذا أخرجه بقية الجماعة إلا ابن ماجة من حديث حجاج بن محمد الأعور، به. وقال الترمذي: حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث ابن جريج. وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن سعيد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن علي قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا وجد عليهم في شيء. قال: فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: اجمعوا لي خطباً، ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها. قال: فَهَمُّ الْقَوْمِ أَنْ يَدْخُلُوهَا. قال: فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها. قال: فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال لهم: «لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً؛ إنما الطاعة في المعروف». أخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش، به. وقال أبو داود: حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا يحيى، عن عبيد الله، حدثني نافع، عن عبد الله بن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: «السمع والطاعة على المرأة المسلمة فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة».

وأخرجاه من حديث يحيى القطان. وعن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في مَشْطَنَانِ ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله. قال: «إلا أن تروا كفراً بواحاً، عندكم فيه من الله بَرْهان». أخرجاه. وفي الحديث الآخر، عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «اسمعوا وأطيعوا، وإن أُمِرَ عليكم عبد حبشي كان رأسه زبيبة». رواه البخاري. وعن أبي هريرة قال: أوصاني خليلي أن أسمع وأطيع، وإن كان عبداً حبشياً مُجَدِّعَ الأطراف. رواه مسلم. وعن أم الحصين أنها سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع يقول: «ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله، اسمعوا له وأطيعوا» رواه مسلم، وفي لفظ له: «عبداً حبشياً مجدوعاً». وقال ابن جرير: حدثني علي بن مسلم الطوسي، حدثنا ابن أبي قُذَيْنِكَ، حدثني عبد الله بن محمد بن عروة، عن هشام بن عروة، عن أبي صالح السمان، عن أبي هريرة؛ أن النبي ﷺ قال: «سيليكم بعدي ولأه، فليكن البر بربه، وليكن الفاجر بفجوره، فاسمعوا لهم وأطيعوا في كل ما وافق الحق، وصلوا وراءهم، فإن أحسنوا فلكم ولهم، وإن أساءوا فلكم وعليهم». وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن

رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون». قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: «أوفوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم». أخرجاه. وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر؛ فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية». أخرجاه. وعن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يداً من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية». رواه مسلم. وروى مسلم أيضاً، عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال: دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة، والناس حوله مجتمعون عليه، فأتيتهم فجلستُ إليه فقال: كنا مع رسول الله ﷺ في سقر، فنزلنا منزلاً فمنا من يضلح خبأه، ومنا من يتنضل، ومنا من هو في جشره، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة. فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، ويذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء فتن يرفق بعضها بعضاً، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه، فمن أحب أن يرحل عن النار ويدخل الجنة فلتأته ميتته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر». قال: فدنوت منه فقلت: أتشدك الله أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه وقال: سمعته أذناي ووعاء قلبي، فقلت له: هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، ونقتل أنفسنا، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ لَا أَنْ تَكُونُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَزَازِينَ﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿١٩﴾ [النساء: ٢٩] قال: فسكت ساعة ثم قال: أطعه في طاعة الله، واعصه في معصية الله.

والأحاديث في هذا كثيرة:

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن الحسين، حدثنا أحمد بن المفضل، حدثنا أسباط، عن السدي: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم». قال: بعث رسول الله ﷺ سرية عليها خالد بن الوليد، وفيها عمار بن ياسر، فساروا قبل القوم الذين يريدون، فلما بلغوا قريباً منهم عرسوا، وأتاهم ذو العيشتين فأخبرهم، فأصبحوا قد هربوا غير رجل. فأمر أهله فجمعوا متاعهم، ثم أقبل يمشي في ظلمة الليل، حتى أتى عسكر خالد، فسأل عن عمار بن ياسر، فأنابه فقال: يا أبا اليقظان، إني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وإن قومي لما سمعوا بكم هربوا، وإنني بقيت، فهل إسلامي نافي غداً، وإلا هربت؟ قال عمار: بل هو ينفعك، فاقم. فأقام، فلما أصبحوا أغار خالد فلم يجد أحداً غير الرجل، فأخذه وأخذ ماله. فبلغ عماراً الخبر، فأتى خالد فقال: خل عن الرجل، فإنه قد أسلم، وإنه في أمان مني. فقال خالد: وفيه أنت تجير؟ فاستبأ وارتفعاً إلى النبي ﷺ، فأجاز أمان عمار، ونهاه أن يجير الثانية على أمير. فاستبأ عند رسول الله ﷺ، فقال خالد: يا رسول الله، أترك هذا العبد الأجدع يسبني؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا خالد، لا تسب عماراً، فإنه من يسب عماراً يسبه الله، ومن يبغضه يبغضه الله ومن يلعن عماراً يلعنه الله». فغضب عمار فقام، فتبعه خالد حتى أخذ بثوبه فاعتذر إليه، فرضي عنه، فأنزل الله ﷻ قوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أَوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. وهكذا رواه ابن أبي حاتم، من طريق عن السدي، مرسلًا. ورواه ابن مردويه من رواية الحكم بن ظهير، عن السدي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، فذكره بنحوه، والله أعلم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «أولى الأمر منكم» يعني: أهل الفقه والدين. وكذا قال مجاهد، وعطاء، والحسن البصري، وأبو العالية: «أولى الأمر منكم» يعني: العلماء. والظاهر - والله أعلم - أن الآية عامة في جميع أولي الأمر من الأمراء والعلماء، كما تقدم. وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَتَّبِعُهُمُ الْفِتْنَةُ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِ الْإِثْمُ وَأَكْلُهُمُ الشَّحْتُ﴾ [المائدة: ٦٣]. وقال تعالى: ﴿فَقَتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وفي الحديث الصحيح المتفق عليه، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصا الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعني، ومن عصا أميرى فقد عصاني».

فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء، ولهذا قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أي: اتبعوا كتابه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي: خذوا بسلته ﴿وَأَطِيعُوا أَوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أي: فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله، كما تقدم في الحديث الصحيح: «إنما الطاعة في المعروف». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن أبي مَرْزَبَةَ، عن

عمران بن حصين، عن النبي ﷺ قال: «لا طاعة في معصية الله». وقوله: «فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ»، قال مجاهد وغير واحد من السلف: أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله. وهذا أمر من الله، ﷻ، بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، فما حكم به كتاب الله وسنة رسوله وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله، فتحاكموا إليها فيما شجر بينكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. فدل على أن من لم يتحاكم في مجال النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك، فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر. وقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله. والرجوع في فصل النزاع إليهما خير ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: وأحسن عاقبة ومآلاً، كما قاله السدي وغير واحد. وقال مجاهد: وأحسن جزاء. وهو قريب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [٥٩] وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَقَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦٠﴾ تَكِيدُ إِذَا أصَبْتَهُمْ خُصْبَةً يَكَا فَرَمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءَهُكَ يَخْلُفُونَ بِاللَّهِ أَنْ تَدْنَكَ إِلَّا إِنْ أَحْسَنْتَ لَهُمْ وَتَوَقَّفْتَ ﴿٦١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْتَمِدُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٢﴾.

هذا إنكار من الله، ﷻ، على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد التحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية: أنها في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد. وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف. وقيل: في جماعة من المنافقين، ممن أظهروا الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية. وقيل غير ذلك، والآية أعم من ذلك كله، فإنها دامة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت ههنا؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَقَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦٠﴾. وقوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ أي: يعرضون عنك إعراضاً كالمستكبرين عن ذلك، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَبِغُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [لقمان: ٢١]، هؤلاء وهؤلاء بخلاف المؤمنين، الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]. ثم قال تعالى في ذم المنافقين: ﴿تَكِيدُ إِذَا أصَبْتَهُمْ خُصْبَةً يَكَا فَرَمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءَهُكَ يَخْلُفُونَ بِاللَّهِ أَنْ تَدْنَكَ إِلَّا إِنْ أَحْسَنْتَ لَهُمْ وَتَوَقَّفْتَ﴾ أي: يعتذرون إليك ويحلفون: ما أردنا بذهابنا إلى غيرك، وتحاكمنا إلى عدك إلا الإحسان والتوفيق، أي: المداراة والمصانعة، لا اعتقاداً منا صحة تلك الحكومة، كما أخبرنا تعالى عنهم في قوله: ﴿فَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْنُزُّهُ أَنْ نُؤَيِّنَ بَآئِرَهُ فَحَسَىٰ لِلَّذِينَ لَا بَأْءَ لِلَّهِ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ يَكِيدُونَ﴾ [المائدة: ٥٢]. وقد قال الطبراني: حدثنا أبو زيد أحمد بن يزيد الخوطيني، حدثنا أبو اليمان، حدثنا صفوان بن عمر، عن عكرمة، عن ابن عباس. قال: كان أبو بزة الأسلمي كاهناً يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه، فتنافروا إليه ناس من المسلمين فأنزل الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. ثم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَكِيدُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: هذا الضرب من الناس هم المنافقون، والله يعلم ما في قلوبهم وسيجزيههم على ذلك، فإنه لا تخفى عليه خافية. فاكثف به يا محمد فيهم، فإن الله عالم بظواهرهم وبواطنهم؛ ولهذا قال له: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تعنفهم على ما في قلوبهم ﴿وَعِظْهُمْ﴾ أي: وانهمم على ما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي: وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رافع لهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا يَدْعُو إِلَى تَطَاعَتِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [٥٨] فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلِمُوا سَلِيمًا﴾ [٥٩].

يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا يَدْعُو إِلَى تَطَاعَتِ اللَّهِ﴾ أي: فُرِضَتْ طاعته على من أرسله إليهم وقوله: ﴿يَدْعُو إِلَى تَطَاعَتِ اللَّهِ﴾، قال

مجاهد: أي لا يطيع أحد إلا بإذني. يعني: لا يطيعهم إلا من وفقته لذلك، كقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ آلَهِ وَغَدَوُكُمْ إِذْ تَسْؤُنَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٧] أي: عن أمره وقدره ومشيتته، وتسليطه إياكم عليهم. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾: يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده، ويسأله أن يستغفر لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم، ولهذا قال: ﴿لَوْجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾. وقد ذكر جماعة منهم: الشيخ أبو نصر بن الضَّبَّاح في كتابه «الشامل» الحكاية المشهورة عن العُتْبَى، قال: كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ، فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾، وقد جئتكم مستغفراً لذنبي، مستشفعاً بك إلى ربي. ثم أنشأ يقول:

يَا خَيْرَ مَنْ ذُلَّتْ بِالْبِقَاعِ اعْظُمُهُ فطاب من طيبهنّ القباع والأكرم
نَفْسِي الْفِدَاءُ لِقَبْرِ أَنْتَ سَاكُنُهُ فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي، فغلبتني عيني، فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: يا عتبي، الحق الأعرابي فيشره أن الله قد غفر له. وقوله: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة: أنه لا يؤمن أحد حتى يُحَكِّمَ الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: إذا حكموك بطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به، ويتقادون له في الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير معانعة ولا مدافعة ولا منازعة، كما ورد في الحديث: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به». وقال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا محمد بن جعفر، أخبرنا مغمّر، عن الزهري، عن غزوة قال: خاصم الزبير رجلاً في شُريح من الحرّة، فقال النبي ﷺ: «اسق يا زبير، ثم أزل الماء إلى جارك» فقال الأنصاري: يا رسول الله، أن كان ابن عمتك؟ فتلّون وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجذر، ثم أرسل الماء إلى جارك»، واستوعى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم، حين أحفظه الأنصاري، وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة. قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية. وهكذا رواه البخاري لهما أعني في كتاب: «التفسير» من صحيحه من حديث معمر. وفي كتاب: «الشرب» من حديث ابن جُرَيْج ومعمار أيضاً، وفي كتاب: «الصلح» من حديث شبيب بن أبي حمزة، ثلاثهم عن الزهري، عن عروة، فذكره، وصورته صورة الإرسال، وهو متصل في المعنى. وقد رواه الإمام أحمد من هذا الوجه فصرح بالإرسال فقال: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني عروة بن الزبير: أن الزبير كان يحدث: أنه كان يخاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بداراً إلى النبي ﷺ في شراج الحرّة، كانا يسقيان بها كلاهما، فقال النبي ﷺ للزبير: «اسق ثم أرسل إلى جارك». فغضب الأنصاري وقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمتك؟ فتلّون وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجذر». فاستوعى النبي ﷺ للزبير حقه، وكان النبي ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأي أراد فيه سعة له وللأنصاري، فلما أحفظ الأنصاري رسول الله ﷺ استوعى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم، قال عروة: فقال الزبير: والله ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٦٠).

هكذا رواه الإمام أحمد، وهو منقطع بين عروة وبين أبيه الزبير؛ فإنه لم يسمع منه، والذي يقطع به أنه سمعه من أخيه عبد الله، فإن أبا محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم رواه كذلك في تفسيره فقال: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، حدثنا الليث ويونس، عن ابن شهاب، أن عروة بن الزبير حدثه، أن عبد الله بن الزبير حدثه، عن الزبير بن العوام: أنه خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بداراً مع رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ في شراج الحرّة، كانا يسقيان به كلاهما النخل، فقال الأنصاري: سرح الماء يُمَر. فأبى عليه الزبير، فقال رسول الله ﷺ: «اسق يا زبير، ثم أرسل إلى جارك»، فغضب الأنصاري وقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمتك؟ فتلّون وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجذر». واستوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأي أراد فيه السعة له وللأنصاري، فلما أحفظ الأنصاري رسول الله ﷺ استوعى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم، فقال الزبير: ما أحسب هذه الآية إلا في ذلك: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ

حَرْجًا مِمَّا فَصَّيْتَ وَيَسْلَمُوا سَلِيمًا ﴿٦٥﴾. وهكذا رواه النسائي من حديث ابن وهب، به. ورواه أحمد والجماعة كلهم من حديث الليث، به. وجعله أصحاب الأطراف في مسند عبد الله بن الزبير، وكذا ساقه الإمام أحمد في مسند عبد الله بن الزبير، والله أعلم. والعجب كل العجب من الحاكم أبي عبد الله النيسابوري، فإنه روى هذا الحديث من طريق ابن أخي ابن شهاب، عن عمه، عن عروة، عن عبد الله بن الزبير، عن الزبير فذكره، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. فإني لا أعلم أحداً قام بهذا الإسناد عن الزهري يذكر عبد الله بن الزبير، غير ابن أخيه، وهو عنه ضعيف. وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن علي أبو دُحَيْم، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا الفضل بن دُكَيْن، حدثنا ابن عُيَيْنَةَ، عن عمرو بن دينار، عن سلمة - رجل من آل أبي سلمة - قال: خاصم الزبير رجلاً إلى النبي ﷺ فقاضى للزبير، فقال الرجل: إنما قضى له لأنه ابن عمته. فنزلت: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ الآية. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا أبو حنيفة، حدثنا سعيد بن عبد العزيز، عن الزُّهْرِيِّ، عن سعيد بن المسيَّب في قوله: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ الآية قال: نزلت في الزبير بن العوام، وحاطب بن أبي بلتعة. اختصما في ماء، فقاضى النبي ﷺ أن يسقي الأعلى ثم الأسفل. هذا مرسل ولكن فيه فائدة تسمية الأنصاري.

ذكر سبب آخر غريب جداً:

قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عبد الله بن لُهيعة، عن أبي الأسود، قال: اختصم رجلان إلى رسول الله ﷺ، فقاضى بينهما، فقال الذي قضى عليه: ردنا إلى عمر بن الخطاب. فقال رسول الله ﷺ: «انطلقا إليه». فلما أتيا إليه قال الرجل يا ابن الخطاب، قضى لي رسول الله ﷺ على هذا، فقال: ردنا إلى عمر. فردنا إليك. فقال أكذلك؟ فقال: نعم. فقال عمر: مَكَانَكُمَا حتى أخرج إليكما فأقضي بينكما. فخرج إليهما مشتملاً على سيفه، فضرب الذي قال ردنا إلى عمر فقتله، وأدبر الآخر فاراً إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، قتل عُمرَ والله صاحبي، ولولا أنني أعجزته لقتلني. فقال رسول الله ﷺ: «ما كنت أظن أن يجترى عُمرَ على قتل مؤمن». فانزل الله: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ الآية فهدر دم ذلك الرجل، ويرى عمر من قتله، ففكر الله أن يسن ذلك بعد، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَا كُنْبَنَّا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا قَمَلُوا إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَمَلُوا مَا يُوعَدُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنِييَةً﴾ [النساء: ٦٦] وكذا رواه ابن مَرْدُويه، من طريق ابن لُهيعة، عن أبي الأسود، به. وهو أثر غريب، وهو مرسل، وابن لُهيعة ضعيف والله أعلم.

طريق أخرى: قال الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن دُحَيْم في تفسيره: حدثنا شُعَيْب بن شعيب، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا عتبة بن ضَمْرَةَ، حدثنا أبي: أن رجلين اختصما إلى النبي ﷺ، فقاضى للمحق على المبطل، فقال المقضي عليه: لا أرضى. فقال صاحبه: فما تريد؟ قال: أن نذهب إلى أبي بكر الصديق. فذهبوا إليه، فقال الذي قضى له: قد اختصمنا إلى النبي ﷺ، فقاضى لي. فقال أبو بكر: فأنتمما على ما قضى به النبي ﷺ. فأبى صاحبه أن يرضى، قال: نأتي عمر بن الخطاب، فأتياه، فقال المقضي له: قد اختصمنا إلى النبي ﷺ، فقاضى لي عليه، فأبى أن يرضى، ثم أتينا أبا بكر، فقال: أنتمما على ما قضى به رسول الله ﷺ، فأبى أن يرضى. فسأله عمر، فقال: كذلك، فدخل عمر منزله وخرج والسيف في يده قد سلَّه، فضرب به رأس الذي أبى أن يرضى، فقتله، فانزل الله: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ إلى آخر الآية.

﴿وَلَوْ أَنَا كُنْبَنَّا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا قَمَلُوا إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَمَلُوا مَا يُوعَدُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنِييَةً﴾ [١١] وَإِنَّا لَآتَيْنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ مِرْطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٨﴾ وَنَبِّئِ اللَّهَ وَأَرْسُولَ قَوْمِكَ مَعَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْقِدِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسِّنْ أَذُنَكَ ذَقِيقًا ﴿١٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عِلْمًا ﴿٢٠﴾.

يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبونه من المناهي لما فعلوه؛ لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر، وهذا من علمه - تبارك وتعالى - بما لم يكن أو كان فكيف كان يكون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا كُنْبَنَّا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا قَمَلُوا إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾. قال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا أبو زهير، عن إسماعيل، عن أبي إسحاق السَّبَّيعِي قال: لما نزلت: ﴿وَلَوْ أَنَا كُنْبَنَّا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا قَمَلُوا إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ الآية، قال رجل: لو أمرنا لفعلنا، والحمد لله الذي عافانا. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «إن من أمتي لرجالاً، الإيمان

أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفر بن منير، حدثنا روح، حدثنا هشام، عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية. قال أناس من أصحاب النبي ﷺ: لو فعل ربنا لفعلنا، فبلغ النبي ﷺ فقال: «الإيمان أثبت في قلوب أهله من الجبال الرواسي». وقال السدي: افتخر ثابت بن قيس بن شماس ورجل من اليهود، فقال اليهودي: والله لقد كتب الله علينا القتل فقتلنا أنفسنا. فقال ثابت: والله لو كتب علينا: ﴿أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ لقتلنا. فأنزل الله هذه الآية. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا بشر بن السري، حدثنا مصعب بن ثابت، عن عمه عامر بن عبد الله بن الزبير قال: لما نزلت ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قال أبو بكر: يا رسول الله، والله لو أمرتني أن أقتل نفسي لفعلت، قال: «صدقت يا أبا بكر». حدثنا أبي، حدثنا محمد بن أبي عمر العدني قال: سئل سفيان عن قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «لو نزلت لكان ابن أم عبد منهم». وحدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن صفوان بن عمرو، عن شريح بن عبيد قال: لما تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ الآية، أشار رسول الله ﷺ بيده إلى عبد الله بن رواحة، فقال: «لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل». يعني: ابن رواحة. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي: ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به، وتركوا ما ينهون عنه ﴿لَكَانَ خَرًا لَهُمْ﴾ أي: من مخالفة الأمر وارتكاب النهي ﴿وَإِشَادَةً تَنْبِيًا﴾، قال السدي: أي: وإشاد تصديقاً. ﴿وَإِذَا لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿آيَاتٌ عَظِيمًا﴾ يعني: الجنة ﴿وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي: في الدنيا والآخرة. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ أي: من عمل بما أمره الله ورسوله، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله، فإن الله ﷻ يسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقاً للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة، وهم الصديقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانياتهم. ثم أثنى عليهم تعالى فقال: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾. وقال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الله بن حوشب، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن عروة، عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من نبي يمرض إلا خُبر بين الدنيا والآخرة» وكان في شكواه الذي قبض فيه، فأخذته بحة شديدة، فسمعتة يقول: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ فعملت أنه خير. وكذا رواه مسلم من حديث شعبة، عن سعد بن إبراهيم، به. وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الآخر: «اللهم في الرفيق الأعلى» ثلاثاً ثم قضى، عليه أفضل الصلاة والتسليم.

ذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة:

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب القمي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبيرة قال: جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ وهو محزون، فقال له النبي ﷺ: «يا فلان، مالي أراك محزوناً؟» قال: يا نبي الله، شيء فكرت فيه؟ قال: «ما هو؟» قال: نحن نغدو عليك ونروح، ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغدا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك. فلم يرد النبي ﷺ عليه شيئاً، فاتاه جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾. فبعث النبي ﷺ فيشره. قد روي هذا الأثر مرسلأ عن مسروق، وعكرمة، وعامر الشُعبي، وقتادة، وعن الربيع بن أنس، وهو من أحسنها سنداً. قال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع، قوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾. قال: إن أصحاب النبي ﷺ قالوا: قد علمنا أن النبي ﷺ له فضل على من آمن به في درجات الجنة ممن اتبعه وصدقته، وكيف لهم إذا اجتمعوا في الجنة أن يرى بعضهم بعضاً؟ فأنزل الله في ذلك - يعني هذه الآية - فقال: يعني رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْأَعْلَى يَنْحَدِرُونَ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَيَجْتَمِعُونَ فِي رِضَايَاهَا، فَيَذْكُرُونَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَيُشْنُونَ عَلَيْهِ، وَيَنْزِلُ لَهُمْ أَهْلُ الدَّرَجَاتِ فَيَسْعَوْنَ عَلَيْهِمْ بِمَا يَشْتَهُونَ وَمَا يَدْعُونَ بِهِ، فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يَجِيرُونَ وَيَتَنَعَّمُونَ فِيهَا». وقد روي مرفوعاً من وجه آخر، فقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم، حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد، حدثنا عبد الله بن عمران، حدثنا فضيل بن عياض، عن منصور، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إلي من نفسي، وأحب إلي من أهلي، وأحب إلي من ولدي، وإنني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى أتيتك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلت الجنة خشيت ألا أراك. فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت

عليه: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ٦٦﴾. وهكذا رواه الحافظ أبو عبد الله المقدسي في كتابه: «صفة الجنة»، من طريق الطبراني، عن أحمد بن عمرو بن مسلم الخلال، عن عبد الله بن عمران العبادي، به. ثم قال: لا أرى بإسناده بأساً. والله أعلم.

وقال ابن مردويه أيضاً: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا العباس بن الفضل الأسفاطي، حدثنا أبو بكر بن ثابت بن عباس المصري، حدثنا خالد بن عبد الله، عن عطاء بن السائب، عن عامر الشعبي، عن ابن عباس؛ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني لأحبك حتى إني لأذكرك في المنزل فيشوق ذلك عليّ، وأحب أن أكون معك في الدرجة. فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ٦٧﴾. وقد رواه ابن جرير، عن ابن حُمَيد، عن جرير، عن عطاء، عن الشعبي، مرسلًا. وثبت في صحيح مسلم من حديث هُقل بن زياد، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال: كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيت به بوضوئه وحاجته، فقال لي: «سَلْ». فقلت: يا رسول الله، أسألك مرافقتك في الجنة. فقال: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟» قلت: هو ذاك. قال: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكثرة السجود». وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا ابن لهيعة، عن عبيد الله بن أبي جعفر، عن عيسى بن طلحة، عن عمرو بن مَرْثَةَ الْجُهَنِيِّ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله شهدت أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، وصليت الخمس، وأديت زكاة مالي، وصمت شهر رمضان. فقال رسول الله ﷺ: «من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا». ونصب إصبعيه - ما لم يعثر والديه - فغرد به أحمد. قال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو سعيد مولى أبي هاشم، حدثنا ابن لهيعة، عن زِيَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ألف آية في سبيل الله كتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، إن شاء الله». وروى الترمذي من طريق سفيان الثوري، عن أبي حمزة، عن الحسن البصري، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء». ثم قال: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأبو حمزة اسمه عبد الله بن جابر شيخ بصري. وأعظم من هذا كله بشارة ما ثبت في الصحاح والمسانيد وغيرهما، من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة: أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم؟ فقال: «المرء مع من أحب» قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث. وفي رواية عن أنس أنه قال: إني أحب رسول الله ﷺ، وأحب أبا بكر وعمر، رضي الله عنهما، وأرجو أن يبعثني الله معهم وإن لم أعمل كعملهم. وقال الإمام مالك بن أنس، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين». أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك ولفظه لمسلم. وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا فزارة، أخبرني فُلَيْح، عن هلال - يعني ابن علي - عن عطاء، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون في الجنة كما تراءون - أو ترون - الكوكب الدري الغابر في الأفق والطلوع في تفاضل الدرجات». قالوا: يا رسول الله، أولئك النبيون؟ قال: «بلى، والذي نفسي بيده، وأقوام آمنوا بالله وصدقوا المرسلين». قال الحافظ الضياء المقدسي: هذا الحديث على شرط البخاري، والله أعلم. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن عمار الموصلي، حدثنا عَفِيف بن سالم، عن أيوب بن عُثْبَةَ، عن عطاء، عن ابن عمر قال: أتى رجل من الحشدة إلى رسول الله ﷺ يسأله، فقال له رسول الله ﷺ: «سَلْ واسْتَفْهِمْ». فقال: يا رسول الله، فُضِّلْتُمْ علينا بالصور والألوان والنبوة، أفرأيت إن آمنت بما آمنت به، وعملت مثل ما عملت به، إني لكائن معك في الجنة؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم، والذي نفسي بيده إنه ليضيء بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام» قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله، كان له بها عهد عند الله، ومن قال: سبحان الله وبحمده، كتب له بها مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة» فقال رجل: كيف نهلك بعدها يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليأتي يوم القيامة بالعمل لو وضع على جبل لأثقله، فنقوم النعمة من نعم الله فتكاد أن تستنفذ ذلك كله، إلا أن يتناول الله برحمته». ونزلت هذه الآيات: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ٦٨﴾ إلى قوله: ﴿يَتَذَكَّرُ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَمَّاكُم مَّنْ يَمْلِكُ كَلِمَةً إِلَّا أَن يُؤْتَى بِهَا أَوْ يَكُونُ لَهُ أَمْرٌ مِّنْ لَّدُنَّا عَظِيمٌ ٦٩﴾ [الإنسان: ١-٢٠]، فقال الحبشي: وإن عيني لترى ما ترى عينك في الجنة؟ فقال النبي ﷺ: «نعم». فاستبكي حتى فاضت نفسه، قال ابن عمر: لقد رأيت رسول الله ﷺ يدليه في حفرة يديه. فيه غرابة ونكارة، وسنده ضعيف.

ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: من عند الله برحمته، هو الذي أهلهم لذلك، لا بأعمالهم. ﴿وَكَفَىٰ يَٰأَهْلَ عِلْيَسَا﴾ أي: هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق.

﴿يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَاتَرَوْا ثِيَابًا أَوْ أَنْفَرُوا جَمِيعًا ۖ﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيْسَ لَهُ ثِيَابٌ فَقَدْ أَمَرْتُكُمْ مُبِيبَةً قَالَتْ قَدْ أَمَرْتُ اللَّهَ عَلَىٰ إِذْ لَرَأَىٰ أَنَّهُمْ شَهِيدًا ۖ وَلَئِنْ أَمَرْتُكُمْ فَقَضَىٰ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَانَ لَمْ تَكُنْ يَتَكُم وَبَيْنَهُمْ مَوَدَّةٌ يَلْبَسُنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُورٌ قَوْرًا عَظِيمًا ﴿٧٢﴾ ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ﴾.

يأمر الله عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد، وتكثير العدد بالنفير في سبيله. ﴿ثِيَابًا﴾ أي: جماعة بعد جماعة، وفرقة بعد فرقة، وسرية بعد سرية، والثبات: جمع ثبة، وقد تجمع الثبة على ثبين. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿فَاتَرَوْا ثِيَابًا﴾ أي: غصبا يعني: سرايا متفرقين ﴿أَوْ أَنْفَرُوا جَمِيعًا﴾ يعني: كلكم. وكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، والسدي، وقائدة، والضحاك، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان، وخُصيف الجزري. وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيْسَ لَهُ ثِيَابٌ﴾ قال مجاهد وغير واحد: نزلت في المنافقين، وقال مقاتل بن حيان: ﴿لَيْسَ لَهُ ثِيَابٌ﴾ أي: ليتخلف عن الجهاد. ويحتمل أن يكون المراد أنه يتباطأ هو في نفسه، ويبطئ غيره عن الجهاد، كما كان عبد الله بن أبي بن سلول - قبحه الله - يفعل، يتأخر عن الجهاد، ويثبت الناس عن الخروج فيه. وهذا قول ابن جرير وابن جبرير؛ لهذا قال تعالى إخباراً عن المنافق أنه يقول إذا تأخر عن الجهاد: ﴿قَدْ أَمَرْتُكُمْ مُبِيبَةً﴾ أي: قتل وشهادة وغلب العدو لكم، لما الله في ذلك من الحكمة ﴿قَالَ قَدْ أَمَرْتُ اللَّهَ عَلَىٰ إِذْ لَرَأَىٰ أَنَّهُمْ شَهِيدًا﴾ أي: إذ لم أحضر معهم وقعة القتال، يعد ذلك من نعم الله عليه، ولم يدر ما فاتته من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قتل. ﴿وَلَئِنْ أَمَرْتُكُمْ فَقَضَىٰ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: نصر وظفر وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ كَانَ لَمْ تَكُنْ يَتَكُم وَبَيْنَهُمْ مَوَدَّةٌ﴾ أي: كأنه ليس من أهل دينكم ﴿يَلْبَسُنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُورٌ قَوْرًا عَظِيمًا﴾، أي: بأن يضرب لي بسهم معهم فأحصل عليه. وهو أكبر قصده وغاية مراده. ثم قال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي: يبيعون دينهم بعرض قليل من الدنيا، وما ذلك إلا لكفرهم وعدم إيمانهم. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: كل من قاتل في سبيل الله - سواء قتل أو غلب وسلب - فله عند الله ثوبة عظيمة وأجر جزيل، كما ثبت في الصحيحين: «وتكفل الله للمجاهد في سبيله، إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة».

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّذِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ۖ﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٣﴾.

يحرّض تعالى عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله، وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة، من الرجال والنساء والصبيان المعترمين بالمقام بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ يعني: مكة، كقوله ﴿وَكَانَ مِنْ قَرْبِهِ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرَيْبِهِ إِلَهٍ أَخْرَجَكَ﴾ [محمد: ١٣] ثم وصفها بقوله: ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ أي: سخر لنا من عندك ولياً وناصرأ. قال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا سفيان، عن عبيد الله قال: سمعت ابن عباس قال: كنت أنا وأمي من المستضعفين. حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة أن ابن عباس تلا: ﴿إِلَّا الْمُتَّصِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ قال: كنت أنا وأمي ممن عذّر الله ﷻ. ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ أي: المؤمنون يقاتلون في طاعة الله ورضوانه، والكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان. ثم هيّج تعالى المؤمنين على قتال أعدائه بقوله: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقْبِضُوا السَّلَاطَةَ وَمَا تَرَوْا زَكَاةً فَلَا كَيْفَ عَلَيْهِمُ الْغَالِ إِذَا رُفِعَ عَنْهُمْ مِنْهُمُ الْغَالِ النَّاسُ كَفَّيَهُ اللَّهُ أَوْ أَشَدَّ حَسْبَهُمْ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْغَالِ لَوْلَا أَخْرَجْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَىٰ الدُّنْيَا قِيلَ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا ظُلْمَ لَكُمْ فَيَلَا ۖ﴾ أَيْنَسًا تَكُونُوا يَذَرِكُمْ أَلَمُ الْوَيْلِ لَكُمْ فِي بُرُوجٍ مُشْتَدَّةٍ وَإِنْ تُصْبِحُ حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصْبِحُ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالَ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكُونُ لَكُمْ يَفْقَهُونَ حَيْثُ ۖ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسَنَةٍ مِنْ حَسَنَةٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ وَأَنْتُمْ لِلنَّاسِ رَسُولُونَ وَكَفَىٰ يَٰأَهْلَ عِلْيَسَا ۖ﴾.

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام - وهم بمكة - مأمورين بالصلاة والزكاة وإن لم تكن ذات الثَّصَب، لكن كانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويوددون لو أمروا بالقتال ليشتموا

من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة، منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداءً لائقاً. فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة، لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار، ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودونه جُزئ بعضهم منه وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لوماً أخرت فرضه إلى مدة أخرى، فإن فيه سفك الدماء، ويُثم الأبناء، وتأييم النساء، وهذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ طاعةٌ وقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ حَرْبًا لَهُمْ ﴿٢١﴾ [محمد: ٢٠، ٢١]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن عبد العزيز بن أبي رزمة وعلي بن زينة قالوا: حدثنا علي بن الحسن، عن الحسين بن واقد، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا نبي الله، كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة: قال: «إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم». فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال، فكفوا. فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ الآية. ورواه النسائي، والحاكم، وابن مَرْزُويه، من حديث علي بن الحسن بن شقيق، به. وقال أسباط، عن السدي: لم يكن عليهم إلا الصلاة والزكاة، فسألوا الله أن يفرض عليهم القتال، فلما كتب عليهم القتال: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ وقالوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ، وهو الموت، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾. وعن مجاهد: إن هذه الآيات نزلت في اليهود. رواه ابن جرير. وقوله: ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾: أي: آخره المتقي خير من دنياء. ﴿وَلَا تَقْلَقُوا قَلِيلًا﴾ أي: من أعمالكم بل توفونها أتم الجزاء. وهذه تسلية لهم عن الدنيا، وترغيب لهم في الآخرة، وتحريض لهم على الجهاد. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقي، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا حماد بن زيد، عن هشام قال: قرأ الحسن: ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ قال: رحم الله عبداً صحبها على حسب ذلك، ما الدنيا كلها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومة، فرأى في منامه بعض ما يحب، ثم انتبه. وقال ابن معين: كان أبو مُسْهِرٍ ينشد:

ولا خير في الدنيا لمن لم يكن له من الله في دار المقام نصيب
فإن تُغيب الدنيا رجلاً فإنها مَنَاعٌ قَلِيلٌ وَالزَّوَالُ قَرِيبٌ
وقوله: ﴿إِنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ أي: أنتم صائرون إلى الموت لا محالة، ولا ينجو منه أحد منكم، كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَإِن يَرَوْهُ وَجْهٌ رَبِّكَ ذُو الْبَلَاءِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِّنْ قَبْلِكَ الْخَلْقِ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. والمقصود: أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة، ولا ينجيه من ذلك شيء، وسواء عليه جاهد أو لم يجاهد، فإن له أجلاً محتوماً، وأمداً مقسوماً، كما قال خالد بن الوليد حين جاءه الموت على فراشه: لقد شهدت كذا وكذا موقفاً، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية، وها أنا أموت على فراشي، فلا نامت أعين الجناء. وقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ أي: حصينة منيعة عالية رفيعة. وقيل: هي بروج في السماء. قاله السدي، وهو ضعيف. والصحيح: أنها المنيعة. أي: لا يغني حذر وتحصن من الموت، كما قال زهير بن أبي سلمى:

وَمَنْ خَافَ أَسْبَابَ الْمَنِيَةِ يَلْقَهَا وَلَوْ زَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بَسُلْمٌ
ثم قيل: «المنية» هي المشيدة كما قال: ﴿وَقَصِّرْ مَشِيدًا﴾ [الحج: ٤٥]. وقيل: بل بينهما فرق، وهو أن المشيدة بالتشديد هي: المطولة، وبالتخفيف هي: المزينة بالشيد وهو الجص. وقد ذكر ابن جرير، وابن أبي حاتم ههنا حكاية مطولة عن مجاهد أنه ذكر: أن امرأة فيمن كان قبلنا أخذها الطلق، فأمرت أجبرها أن يأتيها بنار، فخرج، فإذا هو برجل واقف على الباب، فقال: ما ولدت المرأة؟ فقال: جارية، فقال: أما إنها ستزني بمائة رجل، ثم يتزوجها أجبرها، ويكون موتها بالعنكبوت. قال: فَكَّرَ رَاجِعاً، فبِعَجَ الْجَارِيَةَ بِسَكِينٍ فِي بَطْنِهَا، فَشَقَّ، ثُمَّ ذَهَبَ هَارِباً، وَظَنَّ أَنَّهَا قَدْ مَاتَتْ، فَخَاطَبَتْ أُمُّهَا بِطْنِهَا، فَبَرِثَتْ وَشَبِتْ وَتَرَعَرَعَتْ، وَنَشَأَتْ أَحْسَنَ امْرَأَةً بِبَلَدِهَا، فَذَهَبَ ذَلِكَ الْأَجِيرُ مَا ذَهَبَ، وَدَخَلَ الْبُحُورَ فَاقْتَنَى أَمْوَالاً جَزِيلَةً، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى بَلَدِهِ وَأَرَادَ التَّزْوِيجَ، فَقَالَ لِعَجُوزٍ: أَرِيدُ أَنْ أَتَزَوَّجَ بِأَحْسَنِ امْرَأَةٍ بِهَذِهِ الْبَلَدَةِ. فَقَالَتْ لَهُ: لَيْسَ هُنَا أَحْسَنُ مِنْ فَلَانَةٍ. فَقَالَ: اخْطَبِيهَا

عَلَيَّ. فذهبت إليها فأجابته، فدخل بها فأعجبته إعجاباً شديداً، فسألته عن أمره ومن أين مقدمه؟ فأخبرها خبره، وما كان من أمره في هربه. فقالت: أنا هي. وأرته مكان السكين، فتحقق ذلك فقال: لئن كنت إياها فلقد أخبرتني بآثنتين لا بد منهما، إحداهما: أنك قد زنت بمائة رجل. فقالت: لقد كان شيء من ذلك، ولكن لا أدري ما عددهم؟ فقال: هم مائة. والثانية: أنك تموتين بالعنكبوت. فاتخذ لها قصراً منيعاً شاهقاً، ليحرقها من ذلك، فبينما هم يوماً إذا بالعنكبوت في السقف، فأراها إياها، فقالت: أهذه التي تحذرها علي، والله لا يقتلها إلا أنا، فأنزّلوها من السقف فعمدت إليها فوططتها بإبهام رجلها فقتلتها، فطار من سمها شيء، فوقع بين ظفرها ولحمها، فاسودت رجلها وكان في ذلك أجلها.

ونذكر ههنا قصة صاحب الخضر، وهو «الساطرون»، لما احتال عليه «سابور» حتى حصره فيه، وقتل من فيه بعد محاصرة ستين، وقالت العرب في ذلك أشعاراً منها:

وَأَخُو الْحَضْر إِذْ بَنَاهُ إِذْ دَجَا لَمَّا دَخَلَ عَلَى عِثْمَانَ جَمَلٌ يَحْمَدُ، ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:
شَادَهُ مَزْمَرًا وَجَلَّلَهُ كُلُّ لَمَّا دَخَلَ عَلَى عِثْمَانَ جَمَلٌ يَحْمَدُ، ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:
لَمْ تَهْنُ أَيْدِي الْمَنُونِ فَبَادَ الْ لَمَّا دَخَلَ عَلَى عِثْمَانَ جَمَلٌ يَحْمَدُ، ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

أَرَى الْمَوْتَ لَا يُبْقِي عَزِيزًا وَلَمْ يَدَعْ لَمَّا دَخَلَ عَلَى عِثْمَانَ جَمَلٌ يَحْمَدُ، ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:
يُبَيِّتُ أَهْلَ الْحَضْر وَالْحَصْنَ مَغْلَقَ لَمَّا دَخَلَ عَلَى عِثْمَانَ جَمَلٌ يَحْمَدُ، ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:
وقوله: ﴿وَإِنْ تُبَيِّتْهُمْ حَسَنَةً﴾ أي: خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك هذا، معنى قول ابن عباس وأبي العالية والسدي، ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُبَيِّتْهُمْ سَيِّئَةً﴾ أي: قحط وجذب ونقص في الثمار والزروع أو موت أولاد أو نتاج أو غير ذلك. كما يقوله أبو العالية والسدي. ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: من قبلك وبسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك. كما قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ مُسْتَسْقِئًا قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُبَيِّتْهُمْ سَيِّئَةً يَلُكِّرُوا بِمُؤْمِنٍ وَمِنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١]. وكما قال تعالى: ﴿وَمَنْ آتَاكَ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ لِمَا نَزَّلْنَا بِهِ وَلَئِنْ أَصَابَتْهُ فَسَنَةٌ أُنْفَلَتْ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرٌ لِدُنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الآية: الحج: ١١]. وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا في الإسلام ظاهراً وهم كارهون له في نفس الأمر؛ ولهذا إذا أصابهم شر إنما يسندونه إلى اتباعهم للنبي ﷺ وقال السدي: ﴿وَإِنْ تُبَيِّتْهُمْ حَسَنَةً﴾ قال: والحسنة الخصب، تُشجّ خيولهم وأنعامهم ومواشيهم، ويحسن حالهم وتلد نسائهم الغلمان قالوا: ﴿هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُبَيِّتْهُمْ سَيِّئَةً﴾ والسيئة: الجذب والضرر في أموالهم، وتشاءموا بمحمد ﷺ وقالوا: ﴿هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾، يقولون: بتركنا ديننا واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء، فانزل الله ﷻ: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾. فقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: الجميع بقضاء الله وقدره، وهو نافذ في البر والفاجر، والمؤمن والكافر. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: الحسنة والسيئة. وكذا قال الحسن البصري. ثم قال تعالى منكرأ على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك وريب. وقلة فهم وعلم، وكثرة جهل وظلم: ﴿اللَّهُ قَالَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَقِّيكَ﴾.

ذكر حديث غريب يتعلق بقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا السُّكَنُ بْنُ سَعِيدٍ، حدثنا عمر بن يونس، حدثنا إسماعيل بن حماد، عن مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر وعمر في قبيلتين من الناس، وقد ارتفعت أصواتهما، فجلس أبو بكر قريباً من رسول الله ﷺ، وجلس عمر قريباً من أبي بكر، فقال رسول الله ﷺ: «لم ارتفعت أصواتكما؟» فقال رجل: يا رسول الله، قال أبو بكر: الحسنات من الله والسيئات من أنفسنا. فقال رسول الله ﷺ: «فما قلت يا عمر؟» قال: قلت: الحسنات والسيئات من الله تعالى. فقال رسول الله ﷺ: «إن أول من تكلم فيه جبريل وميكائيل، فقال ميكائيل مقاتلك يا أبا بكر، وقال جبريل مقاتلك يا عمر. فقال: نختلف فيختلف أهل السماء، وإن يختلف أهل السماء يختلف أهل الأرض. فتحاكما إلى إسرائيل، قضى بينهما أن الحسنات والسيئات من الله». ثم أقبل على أبي بكر وعمر فقال: «احفظا قضائي بينكما، لو أراد الله ألا يُغْفَى لِمَ يَخْلُقُ إِبْلِيسَ». قال شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس ابن تيمية: هذا حديث موضوع مختلف باتفاق أهل المعرفة.

ثم قال تعالى - مخاطباً - للرسول ﷺ، والمراد جنس الإنسان ليحصل الجواب: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ﴾ أي: من

فصل الله ومته ولطفه ورحمته ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَرَأَيْتُمْ أَنَّهَا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: فمن قبلك، ومن عملك أنت كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. قال السدي، والحسن البصري، وابن جرير، وابن زيد: ﴿فَرَأَيْتُمْ أَنَّهَا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: بذنبك. وقال قتادة: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَرَأَيْتُمْ أَنَّهَا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾: عقوبة يا ابن آدم بذنبك. قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «لا يصيب رجلاً خذش عود، ولا عشرة قدم، ولا اختلاج عرق، إلا بذنب، وما يعفو الله أكثر». وهذا الذي أرسله قتادة قد روي متصلاً في الصحيح: «والذي نفسي بيده، لا يصيب المؤمن هم ولا حزن، ولا نصب، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياها». وقال أبو صالح: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَرَأَيْتُمْ أَنَّهَا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: بذنبك، وأنا الذي قدرتها عليك. رواه ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا سهل - يعني ابن بكار - حدثنا الأسود بن شيبان، حدثني عقبة بن واصل بن أخي مطرف، عن مطرف بن عبد الله قال: ما تريدون من القدر، أما تكفيكم الآية التي في سورة النساء: ﴿وَرَأَيْتُمْ حَسَنَةً يَقُولُ هَؤُلاءِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَآتٍ﴾ أي: من نفسك، والله ما وكلوا إلى القدر وقد أمروا وإليه يصيرون. وهذا كلام متين قوي، في الرد على القدرية والجبرية أيضاً، ولبسطه موضع آخر. وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ أي: تبلغهم شرائع الله، وما يحبه ويرضاه، وما يكرهه ويأباه. ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: على أنه أرسلك، وهو شهيد أيضاً بينك وبينهم، وعالم بما تبلغهم إياه، وبما يردون عليك من الحق كفراً أو عناداً.

﴿مَنْ يَطْعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ [٨٠] وَيَقُولُوا طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [٨١].

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأنه من أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني». وهذا الحديث ثابت في الصحيحين، عن الأعمش، به. وقوله: ﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ أي: لا عليك منه، إن عليك إلا البلاغ فمن تبعك سعد ونجا، وكان لك من الأجر نظير ما حصل له، ومن تولى عنك خاب وخسر، وليس عليك من أمره شيء، كما جاء في الحديث: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه». وقوله: ﴿وَيَقُولُوا طَاعَةٌ﴾ يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرن الطاعة والبطانة ﴿فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: خرجوا وتواروا عنك ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي: استسروا ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهروه. فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ أي: يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكتابين، الذين هم موكلون بالعباد. يعلمون ما يفعلون. والمعنى في هذا التهديد، أنه تعالى أخبر بأنه عالم بما يضرهم ويسرونه فيما بينهم، وما يتفقون عليه ليلاً من مخالفة الرسول وعصيانه، وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة، وسيجزيهم على ذلك. كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [٤٧] [النور: ٤٧]. وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: اصفح عنهم واحلم عليهم ولا تواخذهم، ولا تكشف أمورهم للناس، ولا تخف منهم أيضاً ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: كفى به ولياً وناصراً ومعيناً لمن توكل عليه وأناب إليه.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [٨٢] وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَحْقَابِ أَذَاعُوا بِهٖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَظِرُونَ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَفُتِنْتُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [٨٣]. يقول تعالى أمراً عباده بتدبر القرآن، ونهاياً لهم عن الإعراض عنه، وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة، ومخبراً لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تضاد ولا تعارض؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد، فهو حق من حق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [٨٣] [محمد: ٢٤] ثم قال: ﴿لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: لو كان مفتعلاً مختلفاً، كما يقوله من يقوله من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم، ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي: اضطراباً وتضاداً كثيراً. أي: وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله. كما قال تعالى مخبراً عن الراسخين في العلم حيث قالوا: ﴿وَمَا كُنَّا بِهٖ عَلَى شَيْءٍ رَوَّافًا﴾ [آل عمران: ٧] أي: محكمه ومتشابهه حق؛ فلماذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه ففقوا؛ ولهذا مدح تعالى الراسخين وذم الزائغين. قال الإمام أحمد: حدثنا أنس بن عياض، حدثنا أبو حازم عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حمر النعم، أقبلت أنا وأخي وإذا

مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ على باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا خجرة، إذ ذكروا آية من القرآن، فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مغضباً حتى احمر وجهه، يرميهم بالتراب، ويقول: «مهلاً يا قوم، بهذا أهلكتم الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً، بل يصدق بعضه بعضاً، فما عرقتهم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عاليه». وهكذا رواه أيضاً عن أبي معاوية، عن داود بن أبي هند، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم، والناس يتكلمون في القدر، فكانوا يُقَفُّوا في وجهه حب الرمان من الغضب، فقال لهم: «ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم». قال: فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله ﷺ ولم أشهده ما غبطت نفسي بذلك المجلس، أني لم أشهده. ورواه ابن ماجة من حديث داود بن أبي هند، به نحوه. وقال أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا حماد بن زيد، عن أبي عمران الجوني قال: كتب إلي عبد الله بن زباج، يحدث عن عبد الله بن عمرو قال: هَجَرْتُ إلى رسول الله ﷺ يوماً، فإنا لجلوس إذ اختلف اثنان في آية، فارتفعت أصواتهما فقال: «إنما هلكت الأمم قبلكم باختلافهم في الكتاب». ورواه مسلم والنسائي، من حديث حماد بن زيد، به. وقوله: «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ» إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها، فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة.

وقد قال مسلم في «مقدمة صحيحه»: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا علي بن حفص، حدثنا شعبة، عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «كفى بالمرء كذباً أن يُحَدِّث بكل ما سمع» وكذا رواه أبو داود في كتاب «الأدب» من سننه، عن محمد بن الحسين بن إشكاب، عن علي بن حفص، عن شعبة مستنداً. ورواه مسلم أيضاً من حديث معاذ بن هشام العبدي، وعبد الرحمن بن مهدي. وأخرجه أبو داود أيضاً من حديث حفص بن عمر النمري، ثلاثتهم عن شعبة، عن خبيب، عن حفص بن عاصم، به مرسلًا. وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة: أن رسول الله ﷺ نهى عن قيل وقيل وقال. أي: الذي يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت، ولا تدبر، ولا تبين. وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «بئس مطية الرجل زعموا عليه». وفي الصحيح: «من حَدَّثَ بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين». ويذكر ههنا حديث عمر بن الخطاب المتفق عليه، حين بلغه أن رسول الله ﷺ طلق نساءه، فجاءه من منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك، فلم يعبر حتى استأذن على رسول الله ﷺ فاستفهمه: «أطلقت نساءك؟ قال: «لا». فقلت: الله أكبر. وذكر الحديث بطوله. وعند مسلم: فقلت: «أطلقتهن؟ فقال: «لا». فقامت على باب المسجد فنادت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه. ونزلت هذه الآية: «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَبْطِئُونَهُ مِنْهُمْ» فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر. ومعنى قوله: (يستنبطونه) أي: يستخرجونه ويستعلمونه من معانده، يقال: استنبط الرجل العين، إذا حفرها واستخرجها من قموها. ومعنى قوله: «لَا تَتَّبِعُوا الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا» قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني المؤمنين. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: «لَا تَتَّبِعُوا الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا» يعني: كلكم. واستشهد من نصر هذا القول. بقول الطرماح بن حكيم، في مدح يزيد بن المهلب:

أَشْهَمَ كَشِيرَ يَدِي النَّوَالِ قَلِيلَ الْمَثَالِبِ وَالْقَادِحَةِ
يعني: لا مثالب له، ولا قاذحة فيه.

﴿فَقَتِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكْفِكَ بِأَسَ الْإِذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ (٨٤) مَن يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَّكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَّكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيبًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِمَ بِبَحْرَيْنِ مَقِيًّا يَحْسَبُهُمَا قَوْمٌ مِّنْهُمَا وَرَدُّهُمَا إِلَى اللَّهِ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَصِيًّا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ لَا يُولُونَ إِلَهَ سِوَهُ وَهُمْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَيًّا ﴿٨٧﴾

يأمر تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ أن يباشر القتال بنفسه، ومن نكل عليه فلا عليه منه؛ ولهذا قال: «لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ». قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عمرو بن نُبَيْح، حدثنا حَكَّام، حدثنا الجراح الكندي، عن أبي إسحاق قال: سألت البراء بن عازب عن الرجل يلقي مائة من العدو، فيقاتل، أيكون ممن يقول الله: «وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ؟» (البقرة: ١٩٥) قال: قد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: «فَقَتِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ». ورواه الإمام أحمد، عن سليمان بن داود، عن أبي بكر بن عيَّاش، عن أبي إسحاق قال: قلت للبراء: الرجل يحمل على المشركين، أهو ممن ألقى

بيده إلى التهلكة؟ قال: لا؛ لأن الله بعث رسوله ﷺ وقال: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ إنما ذلك في النفقة. وكذا رواه ابن مردويه، من طريق أبي بكر بن عياش، وعلي بن صالح، عن أبي إسحاق، عن البراء، به. ثم قال ابن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا أحمد بن النضر العسكري، حدثنا مسلم بن عبد الرحمن الجزمي، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: لما نزلت على النبي ﷺ: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَكُفَّ بِأَسْ أَلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، قال لأصحابه: «قد أمرني ربي بالقتال فقاتلوا» حديث غريب. وقوله: ﴿وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: على القتال ورغبهم فيه وشجعهم عنده كما قال لهم رسول الله ﷺ يوم بدر، وهو يسوي الصفوف: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض». وقد وردت أحاديث كثيرة في الترغيب في ذلك، فمن ذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها» قالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس بذلك؟ فقال: «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتهم الله فأسألوهم الفردوس فإنه أوسط الجنة. وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة». وروى من حديث معاذ وأبي الدرداء وعبد الله بن مسعود الخ. وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا سعيد، من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وجبت له الجنة». قال: فمحبب لها أبو سعيد فقال: أعدها عليّ يا رسول الله. ففعل. ثم قال رسول الله ﷺ: «وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء إلى الأرض». قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». رواه مسلم.

وقوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بِأَسْ أَلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بتحريضك إياهم على القتال تنبئهم همهم على مناجزة الأعداء، ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وأهله، ومقاومتهم ومصابرتهم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسْ وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أي: هو قادر عليهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ قَدْ أُعْطُوا أَجْرَهُمْ﴾ [محمد: ٤]. وقوله: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ أي: من سعى في أمر، فترتب عليه خير، كان له نصيب من ذلك ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سيئة يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ أي: يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيته، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «اشفعوا توجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء». وقال مجاهد بن جبر: نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض. وقال الحسن البصري: قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ﴾ ولم يقل: مَنْ يَشْفَعُ. وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِينًا﴾ قال ابن عباس، وعطاء، وعطية، وقناة، ومطر الوراق: ﴿مُقِينًا﴾ أي: حفيظاً. وقال مجاهد: شهيداً. وفي رواية عنه: حسيباً. وقال سعيد بن جبيرة، والسدي، وابن زيد: قديراً. وقال عبد الله بن كثير: المقيت: الواصب. وقال الضحاك: المقيت: الرزاق. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحيم بن مطرف، حدثنا عيسى بن يونس، عن إسماعيل، عن رجل، عن عبد الله بن رواحة، وسأله رجل عن قول الله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِينًا﴾ قال: يُقِيت كل إنسان على قدر عمله. وقوله: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾ أي: إذا سلم عليكم المسلم، فردوا عليه أفضل مما سلم، أو ردوا عليه بمثل ما سلم به، فالزيادة مندوبة، والمماثلة مفروضة. قال ابن جرير: حدثني موسى بن سهل الرملي، حدثنا عبد الله بن السري الأنطاكي، حدثنا هشام بن لاحق، عن عاصم الأحول، عن أبي عثمان التَّهْدِي، عن سلمان الفارسي قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله. فقال: «وعليك السلام ورحمة الله». ثم أتى آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله. فقال له رسول الله ﷺ: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته». ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته فقال له: «وعليك». فقال له الرجل: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، أتاك فلان وفلان فسلموا عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت علي. فقال: «إنك لم تدع لنا شيئاً، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾ فرددناها عليك».

وهكذا رواه ابن أبي حاتم معلقاً فقال: ذكر عن أحمد بن الحسن الترمذي، حدثنا عبد الله بن السري - أبو محمد الأنطاكي - قال أبو الحسن: وكان رجلاً صالحاً - حدثنا هشام بن لاحق، فذكر بإسناده مثله. ورواه أبو بكر بن مردويه: حدثنا عبد الباقي بن قانع، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبي، حدثنا هشام بن لاحق أبو عثمان، فذكره بمثله، ولم أره في المسند، والله أعلم. وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا زيادة في السلام على هذه الصفة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، إذ لو شرع أكثر من ذلك، لزاده رسول الله ﷺ. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن كثير - أخو سليمان بن كثير - حدثنا

جعفر بن سليمان، عن عوف، عن أبي رجاء العطاردي، عن عمران بن حصين؛ أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم. فرد عليه ثم جلس، فقال: «عَشْرُ». ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله. فرد عليه، ثم جلس، فقال: «عشرون». ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فرد عليه، ثم جلس، فقال: «ثلاثون». وكذا رواه أبو داود، عن محمد بن كثير، وأخرجه الترمذي والنسائي والبيهقي، ثم قال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه، وفي الباب عن أبي سعيد، وعلي، وسهل بن حنيف رضي الله عنهم. وقال البيهقي: قد روي هذا عن النبي ﷺ من وجوه، هذا أحسنها إسناداً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرؤاسي، عن الحسن بن صالح، عن سيمك، عن عكرمة عن ابن عباس قال: من يسلم عليك من خلق الله، فاردد عليه وإن كان مجوسياً؛ ذلك بأن الله يقول: ﴿فَحِوُّ يَأْخَسَ مِنْهُ أَوْ رُدُّهُ﴾. وقال قتادة: ﴿فَحِوُّ يَأْخَسَ مِنْهُ﴾ يعني: للمسلمين ﴿أَوْ رُدُّهُ﴾ يعني: لأهل الذمة. وهذا التنزيل فيه نظر، بل كما تقدم في الحديث من أن المراد أن يرد بأحسن مما حياه به، فإن بلغ المسلم غاية ما شرع في السلام؛ رد عليه مثل ما قال، فأما أهل الذمة فلا يُبَدُّونَ بالسلام ولا يزفون، بل يرد عليهم بما ثبت في الصحيحين، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم: السام عليك فقل: وعليك». وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطربوهم إلى أضيقتهم». وقال سفيان الثوري، عن رجل، عن الحسن البصري قال: السلام تطوع، والرد فريضة. وهذا الذي قاله هو قول العلماء قاطبة: أن الرد واجب على من سلم عليه، فيأثم إن لم يفعل؛ لأنه خالف أمر الله في قوله: ﴿فَحِوُّ يَأْخَسَ مِنْهُ أَوْ رُدُّهُ﴾ وقد جاء في الحديث الذي رواه....

وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبار بتوحيده وتفرده بالإلهية لجميع المخلوقات، وتضمن قسمًا، لقوله: ﴿لَيَمَعَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. وهذه اللام موطئة للقسم، فقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ خير وقسم أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيجازي كل عامل بعمله. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ أي: لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره، ووعد ووعيده، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةً وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (٨٨) ودأوا ولا تكفروا كما كفروا فتكفرون سواء فلا تتخذوا منهم أولية حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً (٨٩) إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثق أو حجة أو حصة صدورهم أن يقتلوا أو يقتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فقتلواكم فإن اعتزلوكم فلم يقتلواكم وألغوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً (٩٠) سجدون ما يريدون أن يأمروكم وأما قومهم كل ما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يتزلزلوا ولقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث تقتضوهم وأوليكم جلتكم عليهم سلطاناً مبيناً (٩١).

يقول تعالى منكرًا على المؤمنين في اختلافهم في المنافقين على قولين. واختلف في سبب ذلك، فقال الإمام أحمد: حدثنا يهز، حدثنا شعبة قال عدي بن ثابت: أخبرني عبد الله بن يزيد، عن زيد بن ثابت: أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: تقتلهم. وفرقة تقول: لا. فأنزل الله ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةً﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إنها طيبة، وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضة». أخرجه في الصحيحين، من حديث شعبة. وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في وقعة أحد أن عبد الله بن أبي بن سلول رجع يومئذ بثلاث الجيش، رجع بثلاثمائة وبقي النبي ﷺ في سبعمائة. وقال العوفي، عن ابن عباس: نزلت في قوم كانوا بمكة، قد تكلموا بالإسلام، كانوا يظهرون المشركين، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم، فقالوا: إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس، وأن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة، قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم، فإنهم يظهرون عليكم عدوكم. وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سبحان الله! أو كما قالوا: أقتلوا قوماً قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به؟ أمين أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم تستحل دماؤهم وأموالهم. فكانوا كذلك ففتن، والرسول عندهم لا ينهى واحداً من الفريقين عن شيء، فأنزل الله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةً﴾. رواه ابن أبي حاتم، وقد روي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم قريب من هذا. وقال زيد بن أسلم، عن ابن لسعد بن معاذ: إنها نزلت في تقاول الأوس والخزرج في شأن عبد الله بن أبي، حين استعذر منه رسول الله ﷺ على المنبر في قضية الإفك. وهذا غريب، وقيل غير ذلك. وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: ردهم وأوقعهم في الخطأ. قال ابن عباس:

﴿أَرْكَسَهُمْ﴾ أي: أوقعهم. وقال قتادة: أهلكهم. وقال السدي: أضلهم. وقوله: ﴿يَمَّا كَسَبُوا﴾ أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل. ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أي: لا طريق له إلى الهدى ولا مخلص له إليه. ثم قال: ﴿وَرَدُّوْا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرْتُمْ فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ أي: هم يودون لكم الضلالة لتستووا أنتم وإياهم فيها، وما ذاك إلا لشدة عداوتهم وبغضهم لكم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: تركوا الهجرة، قاله العوفي عن ابن عباس. وقال السدي: أظهروا كفرهم ﴿فَتُحَذِّوهُمْ وَأَقْبَلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَرِيثًا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: لا توالوهم ولا تستنصروا بهم على الأعداء ما داموا كذلك.

ثم استثنى الله، سبحانه، من هؤلاء فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَيْنٌ﴾ أي: إلا الذين لجؤوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة أو عقد ذمة، فاجعلوا حكمهم كحكمهم. وهذا قول السدي، وابن زيد، وابن جرير. وقد روى ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جذعان، عن الحسن: أن سراقه بن مالك المدلجي حدثهم قال: لما ظهر - يعني النبي ﷺ - على أهل بدر وأخذ، وأسلم من حولهم قال سراقه: بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي - بني مذلج - فأتيته فقلت: أنشدك النعمة. فقالوا: صه. فقال النبي ﷺ: «دعوه، ما تريد؟»، قال: بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي، وأنا أريد أن توادعهم، فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام، وإن لم يسلموا لم تخش قلب قومك عليهم. فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد بن الوليد فقال: «أذهب معه فافعل ما يريد». فصالحهم خالد على ألا يعينوا على رسول الله ﷺ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم، ومن وصل إليهم من الناس كانوا على مثل عهدهم. فأنزل الله ﴿وَرَدُّوْا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرْتُمْ فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ ورواه ابن مردويه من طريق حماد بن سلمة، وقال: فأنزل الله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَيْنٌ﴾ فكان من وصل إليهم كانوا معهم على عهدهم. وهذا أنسب لسياق الكلام. وفي صحيح البخاري في قصة صلح الحديبية: فكان من أحب أن يدخل في صلح قريش وعهدهم، ومن أحب أن يدخل في صلح محمد وأصحابه وعهدهم. وقد روي عن ابن عباس أنه قال: نسخها قوله: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وقوله: ﴿أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا إِلَيْكُمْ أَوْ يُقْبَلُوا إِلَيْكُمْ أَوْ يُقْبَلُوا إِلَيْكُمْ أَوْ يُقْبَلُوا إِلَيْكُمْ﴾ الآية، هؤلاء قوم آخرون من المُستثنين عن الأمر بقتالهم، وهم الذين يجيئون إلى المصاف وهم حصرة صدورهم أي: ضيقة صدورهم مُبغضين أن يقاتلوكم، ولا يهون عليهم أيضاً أن يقاتلوا قومهم معكم، بل هم لا لكم ولا عليكم. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطْنَاهُمْ عَلَيْكُمْ فَفَقَّحْنَاهُمْ﴾ أي: من لطفه بكم أن كفهم عنكم، ﴿فَإِنْ أَعْرَضْتُمْ عَنْكُمْ فَلَمْ يَقْبَلُوا إِلَيْكُمْ وَأَلْفَا إِلَيْكُمْ أَسْلَمْتُمْ﴾ أي: المسالمة ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أي: فليس لكم أن تقتلوهم، مادامت حالهم كذلك، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين، فحضروا القتال وهم كارهون، كالعباس ونحوه، ولهذا نهى النبي ﷺ يومئذ عن قتل العباس وعبر بأسره.

وقوله: ﴿سَتَجِدُونَ كَافِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوا بِكُمْ وَيَأْمَنُوا بِقَوْمِهِمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَبُوا فِيهَا﴾ الآية، هؤلاء في الصورة الظاهرة كمن تقدمهم، ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك، فإن هؤلاء منافقون يظهرون للنبي ﷺ ولأصحابه الإسلام؛ ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم وأموالهم وذرائعهم، ويصنعون الكفار في الباطن، فيعبدون معهم ما يعبدون، ليأمنوا بذلك عندهم، وهم في الباطن مع أولئك، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ [البقرة: ١٤] وقال ههنا: ﴿كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَبُوا فِيهَا﴾ أي: انهمكوا فيها. قال السدي: والفتنة ههنا: الشرك. وحكى ابن جرير، عن مجاهد: أنها نزلت في قوم من أهل مكة، كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قريش فيركسون في الأوثان، يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْزَ لَوْكَ وَلَقَدْ أَلَيْكَ السَّلَامُ وَيَكُونُوا﴾ أي: عن القتال ﴿فَتُحَذِّوهُمْ وَأَقْبَلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أي: أين لقيتموهم ﴿فَتَقَبَّلُوهُمْ وَأُولِيَهُمْ﴾ أي: أولئك عليكم سخطنا حينئذ. أي: بينا واضحا. ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا أَنْ يَقْتُلُوا مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانُوا مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مِنْكُمْ أَوْ مُؤْمِنُونَ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَيْنٌ فَقَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَكُنْ لَمْ يَجِدْ قَبِيصًا مِنْ شَهْرَتَيْنِ مُتَكَابِلَتَيْنِ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَدِّيًا فَجَزَاءُ جَهَنَّمَ خَطَا فِيهَا وَغُصْبٌ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعْنُهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ ﴿٩٣﴾.

يقول تعالى: ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه، كما ثبت في الصحيحين، عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني،

والتارك لدينه المفارق للجماعة». ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث، فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله، وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه. وقوله: ﴿إِلَّا خَطَا﴾ قالوا: هو استثناء منقطع، كقول الشاعر:

من البيض، لم تظعن بعيداً ولم تطأ
على الأرض إلا زبط بُرْد مُرَحَّل
ولهذا شواهد كثيرة. واختلف في سبب نزول هذه الآية، فقال مجاهد وغير واحد: نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخى أبي جهل لأمه. وهي أسماء بنت مُخَرَّبَة - وذلك أنه قتل رجلاً كان يعذبه مع أخيه على الإسلام، وهو الحارث بن يزيد العامري، فأضمر له عياش السوء، فأسلم ذلك الرجل وهاجر، وعياش لا يشعر، فلما كان يوم الفتح رآه، فظن أنه على دينه، فحمل عليه فقتله. فأنزل الله هذه الآية.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: نزلت في أبي الدرداء؛ لأنه قتل رجلاً وقد قال كلمة الإسلام حين رفع السيف، فأهوى به إليه، فقال كلمته، فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ قال: إنما قالها متعوذاً. فقال له: «هلا شققت عن قلبه» وهذه القصة في الصحيح لغير أبي الدرداء. وقوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ إلا أن يَصَدَّقُوا هذان واجبان في قتل الخطأ، أحدهما: الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم، وإن كان خطأ، ومن شرطها أن تكون عتق رقبة مؤمنة فلا تجزئ الكافرة. وحكى ابن جرير، عن ابن عباس، والشعبي، وإبراهيم التَّخَي، والحسن البصري أنهم قالوا: لا يجزئ الصغير حتى يكون قاصداً للإيمان. وروي من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قال: في حرف أبي: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ لا يجزئ فيها صبي. واختار ابن جرير إن كان مولوداً بين أبوين مسلمين أجراً، وإلا فلا. والذي عليه الجمهور: أنه متى كان مسلماً صح عتقه عن الكفارة، سواء كان صغيراً أو كبيراً. وقال الإمام أحمد: أنبأنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزُّهري، عن عبد الله بن عبد الله، عن رجل من الأنصار: أنه جاء بأمّة سوداء، فقال: يا رسول الله، إن عليّ رقبة مؤمنة، فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقتها. فقال لها رسول الله ﷺ: «أتشهدين أن لا إله إلا الله؟» قالت: نعم. قال: «أتشهدين أنني رسول الله؟» قالت: نعم. قال: «أتؤمنين بالبعث بعد الموت؟» قالت: نعم، قال: «أعتقتها». وهذا إسناد صحيح، وجهالة الصحابي لا تضر. وفي موطأ الإمام مالك، ومسندي الشافعي وأحمد، وصحيح مسلم. وسنن أبي داود والنسائي، من طريق هلال بن أبي ميمونة، عن عطاء بن يسار، عن معاوية بن الحكم أنه لما جاء بتلك الجارية السوداء قال لها رسول الله ﷺ: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله ﷺ. قال: «أعتقتها فإنها مؤمنة».

وقوله: ﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ هو الواجب الثاني فيما بين القاتل وأهل القتل، عوضاً لهم عما فاتهم من قريبهم. وهذه الدية إنما تجب أحساساً، كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن، من حديث الحجاج بن أرطاة، عن زيد بن جُبَيْر، عن خُشْف بن مالك، عن ابن مسعود قال: قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ عشرين بنت مخاض، وعشرين بني مخاض ذكوراً، وعشرين بنت لبون، وعشرين جذعة، وعشرين جقة. لفظ النسائي، وقال الترمذي: لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وقد روي عن عبد الله موقوفاً. وكذا روي عن علي وطائفة. وقيل: تجب أرباعاً. وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل، لا في ماله، قال الشافعي، رحمه الله: لم أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة، وهو أكثر من حديث الخاصة. وهذا الذي أشار إليه، رحمه الله، قد ثبت في غير ما حديث، فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: اقتلت امرأتان من هُذَيْل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها، فاحتصموا إلى رسول الله ﷺ، فقضى أن دية جنيها غرة عبد أو أمة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها. وهذا يقتضي أن حكم عمد الخطأ حكم الخطأ المحض في وجوب الدية، لكن هذا تجب فيه الدية أثلاثاً كالعمد، لشبهه به، وفي صحيح البخاري، عن عبد الله بن عمر قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا. فجعلوا يقولون: صباناً صباناً. فجعل خالد يقتلهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فرفع يديه وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد». وبعث علياً فودى قتلاهم وما أتلف من أموالهم، حتى ميلعة الكلب. وهذا الحديث يؤخذ منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ أي: فتجب فيه الدية مسلمة إلى أهل إلا أن يتصدقوا بها فلا تجب.

وقوله: ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مِّنْ نَّارٍ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي: إذا كان القاتل مؤمناً، ولكن أولياؤه من الكفار أهل حرب، فلا دية لهم، وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير. وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مِّنْ نَّارٍ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾

مُؤْمِنًا ﴿الآية، أي: فإن كان القاتل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة، فلهن دية قتيلهم، فإن كان مؤمناً فدية كاملة، وكذا إن كان كافراً أيضاً عند طائفة من العلماء. وقيل: يجب في الكافر نصف دية المسلم، وقيل: ثلثها، كما هو مفصل في كتاب الأحكام، ويجب أيضاً على القاتل تحرير رقبة مؤمنة. ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَاءٌ مِّنْهُنَّ مِثْلَ مَا كَانَ عَلَيْهِ﴾ أي: لا إفتار بينهما، بل يسرد صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير عذر، من مرض أو حيض أو نفاس، استأنف، واختلفوا في السفر: هل يقطع أم لا؟ على قولين: وقوله: ﴿تَوْبَةُ اللَّهِ مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمًا﴾ أي: هذه توبة القاتل خطأ إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين. واختلفوا فيمن لا يستطيع الصيام: هل يجب عليه إطعام ستين مسكينا، كما في كفارة الظهار؟ على قولين؛ أحدهما: نعم. كما هو منصوص عليه في كفارة الظهار، وإنما لم يذكر ههنا؛ لأن هذا مقام تهديد وتخويف وتحذير، فلا يناسب أن يذكر فيه الإطعام لما فيه من التسهيل والترخيص، القول الثاني: لا يعدل إلى الإطعام؛ لأنه لو كان واجباً لما أخر بيانه عن وقت الحاجة. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمًا﴾: قد تقدم تفسيره غير مرة. ثم لما بين تعالى حكم القتل الخطأ، شرع في بيان حكم القتل العمد، فقال: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءُ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا وَعَظِيمٌ عَلَيْهِ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾، وهذا تهديد شديد ووعد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم، الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله، حيث يقول، سبحانه، في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ الآية [الفرقان: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿قُلْ كَلَّا لَوْ أَعْلَمُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ كُنْتُ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَكُمْ قَوْلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]. والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جداً. من ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء». وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو داود، من رواية عمرو بن الوليد بن عبدة المصري، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال المؤمن مهنقاً صالحاً ما لم يصب دماً حراماً، فإذا أصاب دماً حراماً بلع». وفي حديث آخر: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم». وفي الحديث الآخر: «لو أجمع أهل السموات والأرض على قتل رجل مسلم، لأكبهم الله في النار» وفي الحديث الآخر: «من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة، جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله».

وقد كان ابن عباس، رضي الله عنهما، يرى أنه لا توبة للقاتل عمداً لمؤمن. وقال البخاري: حدثنا آدم، حدثنا شعبة، حدثنا مغيرة بن النعمان قال: سمعت ابن جبير قال: اختلف فيها أهل الكوفة، فَرَحَلْتُ إلى ابن عباس فسألته عنها فقال: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءُ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا﴾، هي آخر ما نزل. وما نسخها شيء. وكذا رواه هو أيضاً ومسلم والنسائي من طرق، عن شعبة، به. ورواه أبو داود، عن أحمد بن حنبل، عن ابن مهدي. عن سفيان الثوري، عن مغيرة بن النعمان، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءُ جَهَنَّمَ خَلِيدًا﴾ فقال: لم ينسخها شيء. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار حدثنا ابن أبي عدي حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال: قال عبد الرحمن بن أبيزى: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءُ جَهَنَّمَ﴾ فقال: لم ينسخها شيء. وقال في هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]. قال: نزلت في أهل الشرك. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن منصور حدثني سعيد بن جبير - أو حدثني الحكم، عن سعيد بن جبير - قال: سألت ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءُ جَهَنَّمَ﴾، قال: إن الرجل إذا عرف الإسلام وشرائع الإسلام، ثم قتل مؤمناً متعمداً، فجزاؤه جهنم ولا توبة له. فذكرت ذلك لمجاهد فقال: إلا من ندم. حدثنا ابن حميد، وابن وكيع قالوا: حدثنا جرير، عن يحيى الجابر، عن سالم بن أبي الجعد قال: كنا عند ابن عباس بعد ما كُف بصره، فأتاه رجل فناداه: يا عبد الله بن عباس، ما ترى في رجل قتل مؤمناً متعمداً؟ فقال: ﴿فَجَزَاءُ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا وَعَظِيمٌ عَلَيْهِ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾. قال: أفرأيت إن تاب وعمل صالحاً ثم اهتدى؟ قال ابن عباس: نكلته أمه، وأنا له التوبة والهدى؛ والذي نفسي بيده! لقد سمعت نبيكم ﷺ يقول: «نكلته أمه، قاتل مؤمناً متعمداً، جاء يوم القيامة أخذه بيمينه أو بشماله، تُشَخَّب أوداجه دماً في قُبُل عرش الرحمن، يلزم قاتله بشماله بيده الأخرى، يقول: سل هذا فيم قتلني؟ وأيم الذي نفس عبد الله بيده! لقد أنزلت هذه الآية، فما نسختها من آية حتى قبض نبيكم ﷺ، وما نزل بعدها من برهان.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت يحيى بن المغيرة يحدث عن سالم بن أبي الجعد، عن ابن

عباس؛ أن رجلاً أتاه فقال: أرايت رجلاً قتل رجلاً متعمداً؟ فقال: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَعَصِيبُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَمَنَّهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ قال: لقد نزلت في آخر ما نزل، ما نسخها شيء حتى قبض رسول الله ﷺ، وما نزل وحي بعد رسول الله ﷺ. قال: أرايت إن تاب وأمن وعمل صالحاً ثم اهتدى؟ قال: وأتني له بالتوبة. وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُكَلِّمُهُ أُمُّهُ، رجل قتل رجلاً متعمداً، يجيء يوم القيامة أخذاً قاتله بيمينه أو يسارته. وأخذاً رأسه بيمينه أو بشماله - تشخب أوداجه دماً في قُبُلِ العرش يقول: يا رب، سل عبدك فيم قتلني؟». وقد رواه النسائي عن قتيبة، وابن ماجة عن محمد بن الصباح، عن سفيان بن عيينة، عن عمار الدهني، ويحيى الجابر وثابت الشامي، عن سالم بن أبي الجعد، عن ابن عباس، فذكره. وقد روي هذا عن ابن عباس من طرق كثيرة. وممن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف. زيد بن ثابت، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وعبيد بن عمر، والحسن، وقادة، والضحاك بن مزاحم، نقله ابن أبي حاتم.

وفي الباب أحاديث كثيرة: من ذلك ما رواه أبو بكر بن مردويه الحافظ في تفسيره: حدثنا دَعْلَج بن أحمد، حدثنا محمد بن إبراهيم بن سعيد البوشنجي وحدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا إبراهيم بن فهد قال: حدثنا عبيد بن عبيدة، حدثنا مُعْتَمِر بن سليمان، عن أبيه، عن الأعمش، عن أبي عمرو بن سُرخبيل، عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «يُجِيءُ الْمُقْتُولُ مُتَعَلِّقاً بِقَاتِلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْذاً رَأْسَهُ بِيَدِهِ الْآخَرَى فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي؟» قال: «فَيَقُولُ: قَتَلْتَهُ لَتَكُونَ الْعِزَّةَ لَكَ. فَيَقُولُ: فَإِنِّهَا لِي». قال: «وَيُجِيءُ آخَرٌ مُتَعَلِّقاً بِقَاتِلِهِ فَيَقُولُ: رَبِّ، سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي؟» قال: «فَيَقُولُ قَتَلْتَهُ لَتَكُنَّ الْعِزَّةَ لِفُلَانٍ» قال: «فَإِنِّهَا لَيْسَتْ لَهُ بِؤْ بَائِثِهِ». قال: «فَيُهَوِي فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفاً». وقد رواه النسائي، عن إبراهيم بن المُسْتَمِيرِ العوفي، عن عمرو بن عاصم، عن معتمر بن سليمان، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا ثور بن يزيد، عن أبي عون، عن أبي إدريس قال: سمعت معاوية رضي الله عنه، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا الرَّجُلَ يَمُوتُ كَافِراً، أَوْ الرَّجُلَ يَقْتُلُ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً». وكذا رواه النسائي، عن محمد بن المثنى، عن صفوان بن عيسى، به. وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا سَمُوءُ، حدثنا عبد الأعلى بن مُشهر، حدثنا صَدَقَةُ بن خالد، حدثنا خالد بن دِقْقَان، حدثنا ابن أبي زكريا قال: سمعت أم الدرداء تقول: سمعت أبا الدرداء يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا مَنْ مَاتَ مُشْرِكاً، أَوْ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً». وهذا غريب جداً من هذا الوجه. والمحفوظ حديث معاوية المتقدم، فانه أعلم. ثم روى ابن مردويه من طريق بَقِيَّةِ بن الوليد، عن نافع بن يزيد حدثني ابن جبير الأنصاري، عن داود بن الحُصَيْن، عن نافع، عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً قَدْ كَفَرَ بِاللَّهِ ﷻ». وهذا حديث منكر أيضاً، وإسناده تُكَلِّمُ فِيهِ جَدًّا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا النضر، حدثنا سليمان بن المغيرة، حدثنا حميد قال: أتاني أبو العالية أنا وصاحب لي، فقال لنا: هَلُمَّا فَأَتَمَّا أَشْبَ شَيْئاً مِنِّي، وأوعى للحديث مني، فانطلق بنا إلى بَشْرِ بن عاصم، فقال له أبو العالية: حدث هؤلاء حديثك. فقال: حدثنا عتبة بن مالك الليثي قال: بعث النبي ﷺ سرية، فأغارَت على قوم، فشد من القوم رجل، فاتبه رجل من السرية شاهراً سيفه فقال الشاذ من القوم: إني مسلم. فلم ينظر فيما قال، فضر به فقتله، فَنَتَى الحديث إلى رسول الله ﷺ فقال فيه قولاً شديداً، فبلغ القاتل. فبينما رسول الله ﷺ يخطب، إذ قال القاتل: والله ما قال الذي قال إلا تعوداً من القتل، قال: فأعرض رسول الله ﷺ عنه وعن قبله من الناس، وأخذ من خطبته، ثم قال أيضاً: يا رسول الله، ما قال الذي قال إلا تعوداً من القتل، فأعرض عنه وعن قبله من الناس، وأخذ في خطبته، ثم لم يصبر، فقال الثالثة: والله يا رسول الله ما قال إلا تعوداً من القتل. فأقبل عليه رسول الله ﷺ تُعْرِفُ الْمَسَاءَةَ فِي وَجْهِهِ، فقال: «إِنَّ اللَّهَ أَبَى عَلَى مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً» ثلاثاً. ورواه النسائي من حديث سليمان بن المغيرة.

والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها: أن القاتل له توبة فيما بينه وبين ربه ﷻ، فإن تاب وأناب وخضع وخضع، وعمل عملاً صالحاً، بدل الله سيئاته حسنات، وعرض المقتول من ظلامته وأرضاه عن طلباته. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً مِثْلَ مَا هُوَ يُدْعُونَ أَلَمَ لَهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِهِمْ ظُلُمَاتٌ لَّهُ الْكُذَّابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]، وهذا خبر لا يجوز نسخه. وحمله على المشركين، وحمل هذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر، ويحتاج إلى دليل، والله أعلم. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَكَيْفَ إِذَا لَئِنِ آمَرْتُمُوهُنَّ أَنْ يَنْفُسْنَ مِنْ أَنْفُسِهِنَّ لَا يَخْشَوْنَ اللَّهَ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ جَمِيعاً إِنَّهُمْ هُمُ

الْمَقْتُولُ الرَّجِيمُ ﴿٩٢﴾ [الزمر: ٥٣]. وهذا عام في جميع الذنوب، من كفر وشرك، وشك ونفاق، وقتل وفسق، وغير ذلك: كل من تاب من أي ذلك تاب الله عليه. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك، وهي مذكورة في هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها، لتقوية الرجاء، والله أعلم. وثبت في الصحيحين خبر الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس، ثم سأل عالماً: هل لي من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أرشده إلى بلد يغيب الله فيه، فهاجر إليه، فمات في الطريق، فقبضته ملائكة الرحمة. كما ذكرناه غير مرة، إن كان هذا في بني إسرائيل فلأن يكون في هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأخرى؛ لأن الله وضع عنا الأغلال والآصار التي كانت عليهم، وبعث نبينا بالحنيفية السمحة. فأما الآية الكريمة، هي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَدِّيًا فَجَزَاءُ مِثْلُ مَا قَتَلَ خِلَافًا فِيهَا وَعَصَبَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ ﴿٩٣﴾، فقد قال أبو هريرة وجماعة من السلف: هذا جزاؤه إن جازاه، وقد رواه ابن مردويه مرفوعاً، من طريق محمد بن جامع العطار، عن العلاء بن ميمون العنبري، عن حجاج الأسود، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة مرفوعاً، ولكن لا يصح. ومعنى هذه الصيغة: أن هذا جزاؤه إن جوزي عليه، وكذا كل وعيد على ذنب، لكن قد يكون كذلك مُعارض من أعمال صالحة تمنع وصول ذلك الجزاء إليه، على قول أصحاب الموازنة أو الإحباط. وهذا أحسن ما يسلك في باب الوعيد، والله أعلم بالصواب. ويتقدير دخول القاتل إلى النار، إما على قول ابن عباس ومن وافقه أنه لا توبة له، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحاً ينجوه؛ فليس يخلد فيها أبداً، بل الخلود هو المكث الطويل. وقد تواردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ: أنه يخرج من النار من كان في قلبه أدنى ذرة من إيمان. وأما حديث معاوية: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً: «عسى» للترجي، فإذا انتفى الترجي في هاتين الصورتين لا ينتفي وقوع ذلك في أحدهما، وهو القتل؛ لما ذكرنا من الأدلة. وأما من مات كافراً؛ فالنص أنه لا يُغفر له البتة، وأما مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة فإنه حق من حقوق الآدميين وهي لا تسقط بالتوبة، ولا فرق بين المقتول والمسروق منه، والمغضوب منه، والمقدوف، وسائر حقوق الآدميين، فإن الإجماع منعقد على أنها لا تسقط بالتوبة، ولا بد من أدائها إليهم في صحة التوبة، فإن تعذر ذلك فلا بد من الطلابة يوم القيامة، لكن لا يلزم من وقوع الطلابة وقوع المجازاة، وقد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها، ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة، أو يعوض الله المقتول من فضله بما يشاء، من قصور الجنة ونعيمها، ورفع درجته فيها ونحو ذلك، والله أعلم.

ثم للقتل العمد أحكام في الدنيا وأحكام في الآخرة، أما في الدنيا فتسلط أولياء المقتول عليه، قال الله تعالى ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَقْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيِهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]، ثم هم مخيرون بين أن يقتلوا، أو يعفوا، أو يأخذوا دية مغلفة أثلاثاً: ثلاثون حقة، وثلاثون جذعة، وأربعون خلفة، كما هو مقرر في كتب الأحكام. واختلف الأئمة: هل تجب عليه كفارة عتق رقبة، أو صيام شهرين متتابعين، أو إطعام؟ على أحد القولين، كما تقدم في كفارة الخطأ، على قولين: فالشافعي وأصحابه وطائفة من العلماء يقولون: نعم، يجب عليه؛ لأنه إذا وجبت الكفارة في الخطأ فلا تجب في العمد أولى. وطردها هذا في كفارة اليمين الغموس، واعتضدوا بقضاء الصلوات المتروكة عمداً، كما أجمعوا على ذلك في الخطأ. قال أصحاب الإمام أحمد وآخرون: قتل العمد أعظم من أن يكفر، فلا كفارة فيه، وكذا اليمين الغموس، ولا سبيل لهم إلى الفرق بين هاتين الصورتين وبين الصلاة المتروكة عمداً فإنهم يقولون: بوجوب قضائها وإن تركت عمداً. وقد احتج من ذهب إلى وجوب الكفارة في قتل العمد بما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا عازم بن الفضل، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن إبراهيم بن أبي عبلة، عن العريفي بن عياش، عن واثلة بن الأسقع قال: أتى النبي ﷺ نفر من بني سليم فقالوا: إن صاحبنا لنا قد أوجب. قال: «فليعتق رقبة، يفدي الله بكل عضو منها عضواً منه من النار». وقال أحمد: حدثنا إبراهيم بن إسحاق، حدثنا ضمرة بن ربيعة، عن إبراهيم بن أبي عبلة عن العريفي الديلمي قال: أتينا واثلة بن الأسقع الليثي فقلنا: حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال: أتينا رسول الله ﷺ في صاحب لنا قد أوجب، فقال: «اعتقوا عنه، يُعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار». وكذا رواه أبو داود والنسائي، من حديث إبراهيم بن أبي عبلة، به، ولفظ أبي داود عن العريفي الديلمي قال: أتينا واثلة بن الأسقع فقلنا: حدثنا حديثاً ليس فيه زيادة ولا نقصان. فغضب فقال: إن أحذكم ليقرأ ومصحفه معلق في بيته فيزيد وينقص، قلنا: إنا أردنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، قال: أتينا رسول الله ﷺ في صاحب لنا قد أوجب - يعني النار - بالقتل، فقال: «اعتقوا عنه، يعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا صَرَّيْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّيْنَا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا كَتَبَتْكَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَوَيْدَ اللَّهِ مَكَانَهُ كَثِيرٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ فَمَنْبِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فَتَيَّيْنَا إِنَّكَ اللَّهُ كَانَتْ يَمَّا تَمَلَّكَتُمْ حَيًّا ۝٩٤﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن أبي بكير، وحسين بن محمد، وخلف بن الوليد، قالوا: حدثنا إسرائيل، عن سيمك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ وهو يسوق غنماً له، فسلم عليهم فقالوا: ما سلم علينا إلا ليتعود منا. فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه النبي ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا صَرَّيْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّيْنَا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ إلى آخرها. ورواه الترمذي في التفسير، عن عبد بن حميد، عن العزيز بن أبي رزمة، عن إسرائيل، به. وقال: هذا حديث حسن، وفي الباب عن أسامة بن زيد. ورواه الحاكم من طريق عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، به. ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ورواه ابن جرير من حديث عبيد الله بن موسى وعبد الرحيم بن سليمان، كلاهما عن إسرائيل، به. وقال في بعض كتبه غير التفسير - وقد رواه من طريق عبد الرحمن فقط -: وهذا خبر عندنا صحيح سنده، وقد يجب أن يكون على مذهب الآخرين سقيماً، لعل منها: أنه لا يعرف له مخرج عن سيمك إلا من هذا الوجه، ومنها: أن عكرمة في روايته عندهم نظر، ومنها: أن الذي أنزلت فيه الآية مختلف فيه، فقال بعضهم: أنزلت في مُحَلِّم بن جثامة، وقال بعضهم: أسامة بن زيد: وقيل غير ذلك. قلت: وهذا كلام غريب، وهو مردود من وجوه أحدها: أنه ثابت عن سيمك، حديث به عنه غير واحد من الكبار. الثاني: أن عكرمة محتج به في الصحيح. الثالث: أنه مروى من غير هذا الوجه عن ابن عباس، كما قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ قال: قال ابن عباس: كان رجل في غَنِيْمَةٍ له، فلحقه المسلمون، فقال: السلام عليكم. فقتلوه وأخذوا غَنِيْمَتَهُ فانزل الله ذلك إلى قوله: ﴿تَبَتُّوْكَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: تلك الغنيمة. قرأ ابن عباس: السلام. وقال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن عطاء بن يسار عن ابن عباس قال: لحق المسلمون رجلاً في غَنِيْمَةٍ فقال: السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غَنِيْمَتَهُ فنزلت: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من طريق سفيان بن عيينة، به. وأما قصة محلم بن جثامة فقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن محمد بن إسحاق، حدثني يزيد بن عبد الله بن قُسيط، عن القعقاع بن عبد الله بن أبي حذر عن أبيه عبد الله بن أبي حذر، رضي الله عنه، قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضم، فخرجت في نفر من المسلمين، فيهم: أبو قتادة الحارث بن ربيعة، ومحلم بن جثامة بن قيس، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي، على قَعْدٍ له، معه مَتْنَعٌ ووَطْبٌ من لبن، فلما مر بنا سلم علينا، فأمسكنا عنه، وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله، بشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومَتْنِعَهُ، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ وأخبرناه الخبر، نزل فينا القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا صَرَّيْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّيْنَا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا كَتَبَتْكَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَوَيْدَ اللَّهِ مَكَانَهُ كَثِيرٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ فَمَنْبِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فَتَيَّيْنَا إِنَّكَ اللَّهُ كَانَتْ يَمَّا تَمَلَّكَتُمْ حَيًّا ۝٩٤﴾. تفرد به أحمد. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا جرير، عن ابن إسحاق، عن نافع، أن ابن عمر قال: بعث رسول الله ﷺ مُحَلِّم بن جثامة مبعثاً، فلقبهم عامر بن الأضبط، فحياهم بتحية الإسلام وكانت بينهم حسنة في الجاهلية، فرماه محلم بسهم فقتله، فجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ، فتكلم فيه عيينة والأقرع، فقال الأقرع: يا رسول الله، سُنَّ اليوم وغَيرَ غدا. فقال عيينة: لا والله، حتى تذوق نساؤه من الشُّكْلِ ما ذاق نساتي. فجاء محلم في بردين، فجلس بين يدي رسول الله ﷺ ليستغفر له، فقال رسول الله ﷺ: «لَا غَفَرَ اللَّهُ لَكَ». فقام وهو يتلقى دموعه ببرديه، فما مضت له ساعة حتى مات، ودفنوه، فللفظته الأرض، فجاءوا إلى النبي ﷺ فذكروا ذلك له، فقال: «إِنَّ الْأَرْضَ تَقْبِلُ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْ صَاحِبِكُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يَعْظِمَكُمْ مِنْ جَرْمَتِكُمْ» ثم طرحوه بين صَدْفِي جبل، وألقوا عليه الحجارة، ونزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا صَرَّيْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّيْنَا﴾ الآية.

وقال البخاري: قال حبيب بن أبي غمرة، عن سعيد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ للمقداد: «إذا كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه فقتلته، فكذلك كنت أنت تخفي إيمانك بمكة من قبل». هكذا ذكر البخاري هذا الحديث معلقاً مختصراً، وقد روي مطولاً موصولاً. فقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا حماد بن علي البغدادي، حدثنا جعفر بن سلمة، حدثنا أبو بكر بن علي بن مُقَدِّم، حدثنا حبيب بن أبي غمرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، فيها المقداد بن الأسود، فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا، وبقي رجل له مال كثير لم يبرح فقال:

أشهد أن لا إله إلا الله. وأهوى إليه المقداد فقتله، فقال له رجل من أصحابه: أقتلت رجلاً شهد أن لا إله إلا الله؟ والله لأذكرن ذلك للنبي ﷺ. فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله، فقتله المقداد. فقال: «ادعوا لي المقداد. يا مقداد، أقتلت رجلاً يقول: لا إله إلا الله، فكيف لك بلا إله إلا الله غداً؟». قال: فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا مَرَّتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آَلَقَ إِلَيْكُمْ االسَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَصَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ مَكِينٌ ۖ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ فَرَجِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ تَبَيَّنُوا﴾. فقال رسول الله ﷺ للمقداد: «كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه فقتلته، وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة قبل». وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ مَكِينٌ ۖ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ فَرَجِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ تَبَيَّنُوا﴾ أي: خير مما رغبتم فيه من عرض الحياة الدنيا الذي حملكم على قتل مثل هذا الذي آلى إليكم السلام، وأظهر إليكم الإيمان، فتغافلتم عنه، واتهمتموه بالمصانعة والتقية، لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، فما عند الله من المغامات الحلال خير لكم من مال هذا. وقوله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ فَرَجِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الذي يسر إيمانه ويخفيه من قومه، كما تقدم في الحديث المرفوع آنفاً، وكما قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُتَضَمِّنُونَ فِي الْأَرْضِ تُخَافُونَ أَنَّ أَبِي عَمْرَةَ، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ﴾ تخفون إيمانكم في المشركين.

ورواه عبد الرزاق، عن ابن جريج، أخبرني عبد الله بن كثير، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ﴾ تستخفون بإيمانكم، كما استخفى هذا الراعي بإيمانه. وهذا اختيار ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: وذكر عن قيس، عن سالم، عن سعيد بن جبير قوله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ﴾ تورعون عن مثل هذا. وقال الثوري: عن منصور، عن أبي الضحى، عن مسروق: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ﴾ لم تكونوا مؤمنين ﴿فَرَجَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ تَبَيَّنُوا﴾ وقال السدي: ﴿فَرَجَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: تاب عليكم، فحلف أسامة لا يقتل رجلاً يقول: «لا إله إلا الله» بعد ذلك الرجل، وما لقي من رسول الله ﷺ فيه. وقوله: ﴿تَبَيَّنُوا﴾ تأكيد لما تقدم. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قال سعيد بن جبير: هذا تهديد ووعيد.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الْأَصْرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَعَلَّ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَائِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْخَاسِرَ وَقَتْلَ اللَّهِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَائِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٩٥) دَرَجَتَيْنِ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦).

قال البخاري: حدثنا حفص بن عمر، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: لما نزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ زيدا، فكتبها، فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته، فأنزل الله ﷻ: ﴿غَيْرُ أُولِي الْأَصْرِ﴾. حدثنا محمد بن يوسف، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: لما نزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال النبي ﷺ: «ادع فلانا» فجاءه معه الدواة واللوح والكتف فقال: «اكتب: لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله» وخلف النبي ﷺ ابن أم مكتوم، فقال: يا رسول الله، أنا ضير فتزلت مكانها: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الْأَصْرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. وقال البخاري أيضاً: حدثنا إسماعيل بن عبد الله حدثني إبراهيم بن سعد، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب، حدثني سهل بن سعد الساعدي: أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد، قال: فأقبلت حتى جلست إلى جنبه، فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره: أن رسول الله ﷺ أملى علي: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله». فجاءه ابن أم مكتوم، وهو يملئها علي، قال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت. وكان أعمى - فأنزل الله على رسول الله ﷺ، وفخذه على فخذي، فثقلت علي حتى خفت أن ترض فخذي، ثم سري عنه، فأنزل الله: ﴿غَيْرُ أُولِي الْأَصْرِ﴾. انفرد به البخاري دون مسلم، وقد روي من وجه آخر عن زيد. فقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود، أنبأنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن خارجة بن زيد قال: قال زيد بن ثابت: إني قاعد إلى جنب رسول الله ﷺ، إذ أوجي إليه، قال: وغشيت السكينة، قال: فوقع فخذه على فخذي حين غشيت السكينة. قال زيد: فلا والله ما وجدت شيئاً قط أثقل من فخذي رسول الله ﷺ، ثم سري عنه فقال: «اكتب يا زيد». فأخذت كتفا فقال: «اكتب: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الْأَصْرِ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾». فكتبت ذاك في كتف، فقام حين سمعها ابن أم مكتوم - وكان رجلاً أعمى - فقام حين سمع فضيلة المجاهدين فقال: يا رسول الله، وكيف بمن لا يستطيع الجهاد ممن هو أعمى، وأشباه ذلك؟ قال زيد: فوالله ما مضى كلامه - أو ما هو إلا أن قضى كلامه - حتى غشيت النبي ﷺ السكينة، فوقعت فخذه على فخذي، فوجدت من ثقلها كما وجدت في المرة الأولى، ثم سري عنه فقال: «اقرأ». فقرأت عليه: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون» فقال

النبي ﷺ: ﴿عِدُّ أُولَى الضَّرَرِ﴾ قال زيد: فألحقها، فوالله لكانني أنظر إلى مُلْحَقِهَا عند صدع كان في الكتف. ورواه أبو داود، عن سعيد بن منصور، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه، به نحوه. وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرُ، عن الزهري، عن قبيصة بن ذؤيب، عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ فقال: «اكتب: لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله» فجاء عبد الله بن أم مكتوم فقال: يا رسول الله، إني أحب الجهاد في سبيل الله، ولكن بي من الزمانة ما قد ترى، قد ذهب بصري. قال زيد: فتقلت فخذ رسول الله ﷺ على فخذِي، حتى خشيت أن ترصها، ثم سُري عنه، ثم قال: «اكتب: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عِدُّ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾». ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير. وقال عبد الرزاق: أخبرني ابن جُرَيْج، أخبرني عبد الكريم - هو ابن مالك الجزري - أن مِقْسَمًا مولى عبد الله بن الحارث - أخبره، أن ابن عباس أخبره: لا يستوي القاعدون من المؤمنين عن بدر، والخارجون إلى بدر. انفرد به البخاري دون مسلم. وقد رواه الترمذي من طريق حجاج، عن ابن جُرَيْج، عن عبد الكريم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس قال: لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر عن بدر، والخارجون إلى بدر، لما نزلت غزوة بدر قال عبد الله بن جحش وابن أم مكتوم: إنا أعميان يا رسول الله، فهل لنا رخصة؟ فنزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عِدُّ أُولَى الضَّرَرِ﴾ وفضل الله المجاهدين على القاعدين درجة فهو لاء القاعدون غير أولي الضرر ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ درجات منه على القاعدين من المؤمنين غير أولي الضرر. هذا لفظ الترمذي، ثم قال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. فقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كان مطلقاً، فلما نزل بوحى سريع: ﴿عِدُّ أُولَى الضَّرَرِ﴾ صار ذلك مخرجاً لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد - من العَمَى والعَرَج والمرض - عن مساواتهم للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين على القاعدين، قال ابن عباس: غير أولي الضرر. وكذا ينبغي أن يكون لما ثبت في الصحيح عند البخاري من طريق زهير بن معاوية، عن حُمَيْد، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم من مسير، ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه» قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟ قال: «نعم حبسهم العذر». وهكذا رواه الإمام أحمد عن محمد بن أبي عدي، عن حُمَيْد، عن أنس، به. وعلقه البخاري مجزوماً. ورواه أبو داود، عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن موسى بن أنس بن مالك، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيراً ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه». قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: «حبسهم العذر». لفظ أبي داود. وفي هذا المعنى قال الشاعر:

يا راحلين إلى البيت العتيق لَقَدْ
إِنَّا أَقْمَنَّا عَلَى عُدْرٍ وَعَنْ قُدْرٍ
سَرْتُمُ جُسُوماً وَسَرْنَا نَحْنُ أَرْوَاحاً
وَمَنْ أَقَامَ عَلَى عُدْرٍ فَقَدْ رَاحَا
وقوله: ﴿وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْشِقِ﴾ أي: الجنة والجزاء الجزيل. وفيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين، بل هو فرض على الكفاية. ثم قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، ثم أخبر تعالى بما فضلهم به من الدرجات، في غرف الجنان العاليات، ومغفرة الذنوب والزلات، وحلول الرحمة والبركات، إحساناً منه وتكريماً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَرَجَحْنَاهُ مِنَّا وَنَفَرَهُ وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. وقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض». وقال الأعمش، عن عمرو بن مَرْة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من بلغ بسهم فله أجره درجة» فقال رجل يا رسول الله، وما الدرجة؟ فقال: «أما إنها ليست بعثة أمك، ما بين الدرجتين مائة عامه».

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْغُلَّةَ ظَالِمِينَ أَمْشَرْنَاهُمْ أَفْئِدَةً قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ أَرْضًا مَسْفُوحَةً وَبَعَثْنَا فِيهَا فُلُوكَ مَادُونَهُمْ جَهَنَّمَ وَمَا تَمَّ مَسِيرُهُمْ إِلَّا إِلَى السَّعْيِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِمْلَهُ وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمِثْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَاهًا كَرِيمًا وَسَمِعَ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْوُتُّ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿١٠٠﴾.

قال البخاري: حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا حيوة وغيره قالوا: حدثنا محمد بن عبد الرحمن أبو الأسود قال: قطع على أهل المدينة بعث، فاكتسب فيه، فلقبت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته، فنهاني عن ذلك أشد النهي، ثم قال: أخبرني ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين، يكثرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ، يأتي السهم فيرمى به فيصيب

أحدهم فيقتله، أو يضرب عنقه فيقتل، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ مَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾. رواه الليث عن أبي الأسود. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا أبو أحمد - يعني الزبيري - حدثنا محمد بن شريك المكي، حدثنا عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم بفعل بعض، قال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكبروا، فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ مَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ إلى آخر الآية، قال: فكتب إلى من بقي من المسلمين بهذه الآية: لا عذر لهم. قال: فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٨]. وقال عكرمة: نزلت هذه الآية في شباب من قریش، كانوا تكلموا بالإسلام بمكة، منهم علي بن أمية بن خلف، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو العاص بن منبه بن الحجاج، والحارث بن زئمة. وقال الضحاك: نزلت في ناس من المنافقين، تخلفوا عن رسول الله ﷺ بمكة، وخرجوا مع المشركين يوم بدر، فأصيبوا فممن أصيب، فنزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهرائي المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكناً من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع، وينص هذه الآية حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ مَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: بترك الهجرة: ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي: لم مكنتم ههنا وتركتم الهجرة؟ ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا نقدر على الخروج من البلد، ولا الذهاب في الأرض ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْكَ مَا دُعَيْتُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. وقال أبو داود: حدثنا محمد بن داود بن سفيان، حدثني يحيى بن حسان، أخبرنا سليمان بن موسى أبو داود، حدثنا جعفر بن سعد بن سمرة بن جندب، حدثني خبيب بن سليمان، عن أبيه سليمان بن سمرة، عن سمرة بن جندب: أما بعد، قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله». وقال السدي: لما أسر العباس وعقيل وثؤفل، قال رسول الله ﷺ للعباس: «أفد نفسك وابن أخيك». قال: يا رسول الله، ألم نصل قبلك، ونشهد شهادتك؟ قال: «يا عباس، إنكم خاصمتهم فخصمتهم» ثم تلا عليه هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْكَ مَا دُعَيْتُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿إِلَّا السَّعْثَمَيْنِ بَرَكِ الْإِنْسَاءُ وَالْوَلَدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿٩٨﴾ هذا عذر من الله تعالى لهؤلاء في ترك الهجرة، وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾. قال مجاهد، وعكرمة، والسدي: يعني طريقاً.

وقوله: ﴿قَالُوا لَيْكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَفْعَلَ عَنْهُمْ﴾ أي: يتجاوز عنهم بترك الهجرة، وعسى من الله موجه ﴿وَكَاثَ اللَّهُ عَفْوَ غَوْرًا﴾. قال البخاري: حدثنا أبو نعيم، حدثنا شيبان، عن يحيى، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: بينا النبي ﷺ يصلي العشاء إذ قال: «سمع الله لمن حمده». ثم قال قبل أن يسجد: «اللهم نج عياش بن أبي ربيعة، اللهم نج سلمة بن هشام، اللهم نج الوليد بن الوليد، اللهم نج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو معمر المقرئ، حدثنا عبد الوارث، حدثنا علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ رفع يده بعدما سلم، وهو مستقبل القبلة، فقال: «اللهم خلص الوليد بن الوليد، وعياش بن أبي ربيعة، وسلمة بن هشام، وضعفة المسلمين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً من أيدي الكفار». وقال ابن جرير: حدثنا المنثي، حدثنا حجاج، حدثنا حماد، عن علي بن زيد عن عبد الله - أو إبراهيم بن عبد الله القرشي - عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يدعو في دُبر صلاة الظهر: «اللهم خلص الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، وضعفة المسلمين من أيدي المشركين، الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً». ولهذا الحديث شاهد في الصحيح، من غير هذا الوجه، كما تقدم. وقال عبد الرزاق: أنبأ ابن عيينة، عن عبيد الله بن أبي يزيد قال: سمعت ابن عباس يقول: كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والولدان. وقال البخاري: أنبأنا أبو النعمان، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا السَّعْثَمَيْنِ﴾ قال: كانت أمي ممن عذر الله ﷻ، وقوله: ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَاً كَثِيرًا وَسَعَةً﴾: هذا تحريض على الهجرة، وترغيب في مفارقة المشركين، وأن المؤمن حينما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن فيه، و «المراغم»: مصدر، تقول العرب: راغم فلان قومه مراغماً ومراغمة، قال نابعة بني جعدة:

كَطَوُّوْهُ يُلَادُ بِأَرْكَانِهِ عَزِيزُ الْمُرَاغَمِ وَالْمَهْرِبِ

وقال ابن عباس: «المراغم»: التحويل من أرض إلى أرض. وكذا روي عن الضحاك، والربيع بن أنس، والثوري، وقال مجاهد: «مُرْعَاً كَثِيرًا» يعني: متزحزحاً عما يكره. وقال سفيان بن عيينة: «مُرْعَاً كَثِيرًا» يعني: بروجاً. والظاهر - والله أعلم -

أنه التمتع الذي يُتَحَصَّن به، ويرغم به الأعداء. قوله: ﴿وَسَمِعَ﴾ يعني الرزق. قاله غير واحد، منهم: قتادة، حيث قال في قوله: ﴿يَجِدُ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَمِعًا﴾ أي، والله، من الضلالة إلى الهدى، ومن القلة إلى الغنى. وقوله: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْوُتُّ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾. أي: ومن خرج من منزله بنية الهجرة، فمات في أثناء الطريق، فقد حصل له من الله ثواب من هاجر، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من الصحاح والمسانيد والسنن، من طريق يحيى بن سعيد الأنصاري، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن علقمة بن وقاص الليثي، عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه». وهذا عام في الهجرة وفي كل الأعمال. ومنه الحديث الثابت في الصحيحين، في الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً. ثم أكمل بذلك العابد المائة، ثم سأل عالماً: هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده إلى بلد آخر يعبد الله فيه، فلما ارتحل من بلده مهاجراً إلى البلد الآخر، أدركه الموت في أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقال هؤلاء: إنه جاء تائباً. وقال هؤلاء: إنه لم يصل بغيره. فأمروا أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أقرب كان منها، فأمر الله هذه أن تقرب من هذه، وهذه أن تبعد، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها ببشر، فقبضته ملائكة الرحمة. وفي رواية: أنه لما جاء الموت ناء بصدوره إلى الأرض التي هاجر إليها.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم، عن محمد بن عبد الله بن عتيك، عن أبيه عبد الله بن عتيك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خرج من بيته مهاجراً في سبيل الله - ثم قال بأصابعه هؤلاء الثلاث: الوسطى والسبابة والإبهام، فجمعهم وقال: وأين المجاهدون؟ - فخر عن دابته فمات فقد وقع أجره على الله أو لدغته دابة فمات، فقد وقع أجره على الله، أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله - والله! إنها لكلمة ما سمعتها من أحد من العرب قبل رسول الله ﷺ - ومن قتل قفصاً فقد استوجب المآب». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الملك بن شيبة الحزامي، حدثني عبد الرحمن بن المغيرة الحزامي، عن المنذر بن عبد الله، عن هشام بن عروة، عن أبيه: أن الزبير بن العوام قال: هاجر خالد بن جزام إلى أرض الحبشة، فنهشته حية في الطريق فمات، فنزلت فيه: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْوُتُّ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. قال الزبير: وكنت أتوقعه وأنتظر قدومه وأنا بأرض الحبشة، فما أحزنني شيء حزن وفاته حين بلغني؛ لأنه قل أحد ممن هاجر من قريش إلا معه بعض أهله، أو ذوي رحمه، ولم يكن معي أحد من بني أسد بن عبد العزى، ولا أرجو غيره. وهذا الأثر غريب جداً، فإن هذه القصة مكية، ونزول هذه الآية مدنية. فلعله أراد أنها أنزلت تتم حكمه مع غيره، وإن لم يكن ذلك سبب النزول، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا سليمان بن داود مولى عبد الله بن جعفر، حدثنا سهل بن عثمان، حدثنا عبد الرحمن بن سليمان، عن الأشعث - هو ابن سوار - عن عكرمة، عن ابن عباس قال: خرج ضمرة بن جندب إلى رسول الله ﷺ، فمات في الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ، فنزلت: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْوُتُّ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. وحدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، أنبأنا إسرائيل، عن سالم، عن سعيد بن جبير عن أبي ضمرة بن العيص الزرقني، الذي كان مصاب البصر، وكان بمكة فلما نزلت: ﴿إِلَّا السُّعْتَمِيُّ مِنَ الرِّجَالِ وَالنَّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَيْطِعُونَ حِيلَةً﴾ فقلت: إني لغني، وإني لدو حيلة، قال: فتجهز يريد النبي ﷺ، فأدركه الموت بالتثميم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْوُتُّ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا إبراهيم بن زياد سبلان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا محمد بن إسحاق، عن حميد بن أبي حميد، عن عطاء بن يزيد الليثي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج حاجاً فمات، كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة، ومن خرج معتمراً فمات، كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة، ومن خرج غازياً في سبيل الله فمات، كتب له أجر الغازي إلى يوم القيامة». وهذا حديث غريب من هذا الوجه.

﴿وَلَا مَرَاتٍ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ كُنْتُمْ أَنْ يَفْتِنُكُمْ أَنْ بَيْتَكُمْ أَلَيْنَ كُفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَا مَرَاتٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافرت في البلاد، كما قال تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ رَجُلٌ وَاعْتَدُوا بِمَقَرٍّ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ وَاعْتَدُوا بِمَقَرٍّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [المزمل: ٢٠]. وقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أي: تخففوا فيها، إما من كميتها بأن تجعل الرباعية ثنائية، كما فهمه الجمهور من هذه الآية، واستدلوا بها على قصر الصلاة في السفر، على اختلافهم في ذلك: فمن قائل لا بد أن يكون سفر طاعة، من جهاد، أو حج، أو عمرة، أو طلب علم، أو زيارة، وغير ذلك،

كما هو مروي عن ابن عمر وعطاء، ويحكي عن مالك في رواية عنه نحوه، لظاهر قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْبَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ومن قائل: لا يشترط سفر القرية، بل لا بد أن يكون مباحاً، لقوله: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِيمَانِهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]، أباح له تناول الميتة مع اضطراره إلا بشرط ألا يكون عاصياً بسفره. وهذا قول الشافعي وأحمد وغيرهما من الأئمة. وقد قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، إني رجل تاجر، اختلف إلى البحرين «فأمره أن يصلي ركعتين» وهذا مرسل. ومن قائل: يكفي مطلق السفر، سواء كان مباحاً أو محظوراً، حتى لو خرج لقطع الطريق وإخافة السبيل، تَرَخَّصَ، لوجود مطلق السفر. وهذا قول أبي حنيفة، رحمه الله، والثوري، وداود، لعموم الآية وخالفهم الجمهور. وأما قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْبَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية، فإن في مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام، أو في سرية خاصة، وسائر الأحياء حرب الإسلام وأهله، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له، كقوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْإِغْلَاءِ إِنْ أَرَدْنَ حَصْحَا﴾ [النور: ٣٣]، وكقوله: ﴿وَرَبِّبْنَكُمْ أَلْفِي فِي حُبُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ الآية، [النساء: ٢٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن إدريس، حدثنا ابن جُرَيْج، عن ابن أبي عمار، عن عبد الله بن بابويه عن يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب قلت: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْبَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقد آمن الله الناس؟ فقال لي عمر: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «صَدَقَ تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته». وهكذا رواه مسلم وأهل السنن، من حديث ابن جريج، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمار، به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال علي بن المديني: هذا حديث صحيح من حديث عمر، ولا يحفظ إلا من هذا الوجه، ورجاله معروفون. وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا أبو نعيم، حدثنا مالك بن مغول، عن أبي حنظلة الحذاء قال: سألت ابن عمر عن صلاة السفر فقال: ركعتان. فقلت: أين قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْبَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ونحن آمنون؟ قال: سنة رسول الله ﷺ. وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا عبد الله بن محمد بن عيسى، حدثنا علي بن محمد بن سعيد، حدثنا منجاب، حدثنا شريك، عن قيس بن وهب، عن أبي الودَّاع: سألت ابن عمر عن ركعتين في السفر؟ فقال: هي رخصة، نزلت من السماء، فإن شئتم فردوها. وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا ابن عَوْن، عن ابن سيرين، عن ابن عباس قال: صلينا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة، ونحن آمنون، لا نخاف بينهما، ركعتين ركعتين. وكذا رواه النسائي، عن محمد بن عبد الأعلى، عن خالد الحذاء، عن عبد الله بن عون، به. قال أبو عمر بن عبد البر: وهكذا رواه أيوب، وهشام، ويزيد بن إبراهيم الشُّتْرِي، عن محمد بن سيرين، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، مثله. قلت: وهكذا رواه الترمذي والنسائي جميعاً، عن قتبية، عن هُشَيْم، عن منصور بن رَافِذَان، عن محمد بن سيرين، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ خرج من المدينة إلى مكة، لا يخاف إلا رب العالمين، فصلى ركعتين، ثم قال الترمذي: صحيح. وقال البخاري: حدثنا أبو مَعْمَر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا يحيى بن أبي إسحاق قال: سمعت أنساً يقول: خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة، فكان يصلي ركعتين ركعتين، حتى رجعنا إلى المدينة. قلت: أقمتم بمكة شيئاً؟ قال: أقمنا بها عشراً. وهكذا أخرجه بقية الجماعة من طرق عن يحيى بن أبي إسحاق الحضرمي، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سُفْيَان، عن أبي إسحاق، عن حارثة بن وهب الخُزَاعِي قال: صليت مع النبي ﷺ الظهر والعصر بمكة - أكثر ما كان الناس وأمنه - ركعتين. ورواه الجماعة سوى ابن ماجة من طرق، عن أبي إسحاق الشَّيْبَعِي، عنه، به. ولفظ البخاري: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، أنبأنا أبو إسحاق، سمعت حارثة بن وهب قال: صلى بنا رسول الله ﷺ آمن ما كان بمكة ركعتين. وقال البخاري: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا يحيى، حدثنا عُبيد الله، أخبرنا نافع، عن عبد الله بن عمر قال: صليت مع النبي ﷺ ركعتين، وأبي بكر وعمر، ومع عثمان صدراً من إمارته، ثم أتمها. وكذا رواه مسلم من حديث يحيى بن سعيد القطان الأنصاري، به. وقال البخاري: حدثنا قتبية، حدثنا عبد الواحد، عن الأعمش، حدثنا إبراهيم، سمعت عبد الرحمن بن يزيد يقول: صلى بنا عثمان بن عفان، رضي الله عنه، بمكة أربع ركعات، فقليل في ذلك لعبد الله بن مسعود فاسترجع، ثم قال: صليت مع رسول الله ﷺ بمكة ركعتين، وصليت مع أبي بكر بمكة ركعتين، وصليت مع عمر بن الخطاب بمكة ركعتين، فليت حظي مع أربع ركعات ركعتان متقبلتان. ورواه البخاري أيضاً من حديث الثوري، عن الأعمش، به. وأخرجه مسلم من طرق، عنه. منها عن قتبية كما تقدم. فهذه الأحاديث دالة صريحاً على أن القصر ليس من شرطه وجود الخوف؛ ولهذا قال من قال من العلماء: إن المراد من القصر ههنا إنما هو قصر الكيفية لا الكمية. وهو قول مجاهد، والضحاك، والسدي كما سيأتي بيانه، واعتضدوا أيضاً بما رواه الإمام مالك،

عن صالح بن كيسان، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: فرضت الصلاة ركعتين ركعتين في السفر والحضر، فأقرت صلاة السفر؛ وزيد في صلاة الحضر. وقد روى هذا الحديث البخاري عن عبد الله بن يوسف التميمي، ومسلم عن يحيى بن يحيى، وأبو داود عن الفقهني، والنسائي عن قتيبة، أربعتهم عن مالك، به. قالوا: فإذا كان أصل الصلاة في السفر هي التنتين، فكيف يكون المراد بالقصر ههنا قصر الكمية؛ لأن ما هو الأصل لا يقال فيه: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾؟ وأصرح من ذلك دلالة على هذا، ما رواه الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان - وعبد الرحمن حدثنا سفيان - عن زَيْدِ اليامي، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن عمر، رضي الله عنه. قال: صلاة السفر ركعتان، وصلاة الأضحى ركعتان، وصلاة الفطر ركعتان، وصلاة الجمعة ركعتان، تمام غير قصر، على لسان محمد ﷺ. وهكذا رواه النسائي وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه، من طرق عن زَيْدِ اليامي، به. وهذا إسناد على شرط مسلم. وقد حَكَمَ مسلم في مقدمة كتابه بسماع ابن أبي ليلى، عن عمر. وقد جاء مصرحاً به في هذا الحديث وفي غيره، وهو الصواب إن شاء الله. وإن كان يحيى بن معين، وأبو حاتم، والنسائي قد قالوا: إنه لم يسمع منه. وعلى هذا أيضاً، فقد وقع في بعض طرق أبي يعلى الموصلي، من طريق الثوري، عن زبيد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن الثقة، عن عمر فذكره، وعند ابن ماجة من طريق يزيد بن أبي زياد بن أبي الجعد، عن زَيْدِ، عن عبد الرحمن، عن كعب بن عُجْرة، عن عمر، به، فالله أعلم. وقد روى مسلم في صحيحه، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجة، من حديث أبي عَوَّانة الوضاح بن عبد الله اليشكري - زاد مسلم والنسائي: وأيوب بن عائد، - كلاهما عن بُكير بن الأخنس، عن مجاهد، عن عبد الله بن عباس قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة، هكذا رواه وكيع وروح بن عبادة عن أسامة بن زيد الليثي: حدثني الحسن بن مسلم بن يساف عن طاوس عن ابن عباس قال: فرض الله ورسوله ﷺ الصلاة في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين، فكما يصلى في الحضر قبلها وبعدها، فكذلك يصلى في السفر. ورواه ابن ماجة من حديث أسامة بن زيد، عن طاوس نفسه.

فهذا ثابت عن ابن عباس، رضي الله عنهما، ولا ينافي ما تقدم عن عائشة لأنها أخبرت أن أصل الصلاة ركعتان، ولكن زيد في صلاة الحضر، فلما استقر ذلك صح أن يقال: إن فرض صلاة الحضر أربع، كما قاله ابن عباس، والله أعلم. لكن اتفق حديث ابن عباس وعائشة على أن صلاة السفر ركعتان، وأنها تامة غير مقصورة، كما هو مصرح به في حديث عمر، رضي الله عنه، وإذا كان كذلك، فيكون المراد بقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ قصر الكيفية كما في صلاة الخوف؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْبِضَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾. ولهذا قال بعدها: ﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتُ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنَقُصَّ طَأْفَةً مِنْهُمْ مَتَلِّكُ﴾ الآية، فبين المقصود من القصر ههنا وذكر صفته وكيفيته؛ ولهذا لما عقد البخاري كتاب صلاة الخوف، صَدَّرَهُ بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَمِمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾. وهكذا قال جُوَيْر، عن الضحاك في قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ قال: ذاك عند القتال، يصلي الرجل الراكب تكبيرتين حيث كان وجهه. وقال أسباط، عن السدي في قوله: ﴿وَلَا تَرْتَمِمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ الآية: إن الصلاة إذا صليت ركعتين في السفر فهي تمام، التقصير لا يحل، إلا أن تخاف من الذين كفروا أن يفتنوك عن الصلاة، فالتقصير ركعة. وقال ابن أبي نجيع، عن مجاهد: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ يوم كان النبي ﷺ وأصحابه بعسفان والمشركون بضجنان، فتوافقوا، فصلى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الظهر أربع ركعات، ركوعهم وسجودهم وقيامهم معاً جميعاً، فَهَمَّ بهم المشركون أن يغيروا على أمتعتهم وأنقالهم. روى ذلك ابن أبي حاتم. ورواه ابن جرير، عن مجاهد والسدي، وعن جابر وابن عمر، واختار ذلك أيضاً فإنه قال بعدما حكاه من الأقوال في ذلك: وهو الصواب. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا ابن أبي فُذَيْك، حدثنا ابن أبي ذئب، عن ابن شهاب، عن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد: أنه قال لعبد الله بن عمر: إنا نجد في كتاب الله قصر صلاة الخوف، ولا نجد قصر صلاة المسافر؟ فقال عبد الله: إنا وجدنا نبينا ﷺ يعمل عملاً عملنا به. فقد سمي صلاة الخوف مقصورة، وحمل الآية عليها، لا على قصر صلاة المسافر، وأقره ابن عمر على ذلك، واحتج على قصر الصلاة في السفر بفعل الشارع لا بنص القرآن. وأصرح من هذا ما رواه ابن جرير أيضاً: حدثني أحمد بن الوليد القرشي، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن سِمَاك الحنفي: سألت ابن عمر عن صلاة السفر، فقال: ركعتان تمام غير قصر، إنما القصر صلاة المخافة. فقلت: وما صلاة المخافة؟ فقال: يصلي الإمام بطائفة ركعة، ثم يجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء،

ويجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء، فيصلي بهم ركعة، فيكون للإمام ركعتان، ولكل طائفة ركعة ركعة. ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا بَأْسِيحَتِهِمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ زُرْعَتِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِكُمْ لَيُغْلِبَنَّ عَلَيْكُمْ مَبَلَّةٌ وَاحِدَةٌ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَنْ تَضُمُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۝﴾.

صلاة الخوف أنواع كثيرة، فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة، وتارة يكون في غير صوبها، والصلاة تارة تكون رباعية، وتارة ثلاثية كالمغرب، وتارة ثنائية، كالصبح وصلاة السفر، ثم تارة يصلون جماعة، وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرון على الجماعة، بل يصلون فرادى مستقبلتي القبلة وغير مستقبلتيها، ورجالاً وركباً، ولهم أن يمشوا والحالة هذه ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة. ومن العلماء من قال: يصلون والحالة هذه ركعة واحدة؛ لحديث ابن عباس المتقدم، وبه قال أحمد بن حنبل. قال المنذري في الحواشي: وبه قال عطاء، وجابر، والحسن، ومجاهد، والحكم، وقتادة، وحمام. وإليه ذهب طائوس والضحاك. وقد حكى أبو عاصم العبادي، عن محمد بن نصر المروزي؛ أنه يرى ردّ الصبح إلى ركعة في الخوف وإليه ذهب ابن حزم أيضاً. وقال إسحاق بن راهويه: أما عند المسابقة فيجزيك ركعة واحدة، تسمى بها إيماء، فإن لم تقدر فسجدة واحدة؛ لأنها ذكر الله. وقال آخرون: تكفي تكبيرة واحدة. فعلمه أراد ركعة واحدة، كما قاله أحمد بن حنبل وأصحابه، ولكن الذي حكوه إنما حكوه على ظاهره في الاجتزاء بتكبيرة واحدة، كما هو مذهب إسحاق بن راهويه، وإليه ذهب الأمير عبد الوهاب بن بُخت المكي، حتى قال: فإن لم يقدر على التكبيرة فلا يتركها في نفسه، يعني بالنية، رواه سعيد بن منصور في سننه عن إسماعيل بن عياش، عن شعيب بن دينار، عنه، والله أعلم. ومن العلماء من أباح تأخير الصلاة لعذر القتال والمناجزة، كما أخر النبي ﷺ يوم الأحزاب صلاة العصر، قيل: والظهر، فصلاهما بعد الغروب ثم صلى بعدهما المغرب ثم العشاء. وكما قال بعدها - يوم بني قريظة، حين جهز إليهم الجيش -: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة»، فأدركتهم الصلاة في أثناء الطريق، فقال منهم قائلون: لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل المسير، ولم يرد منا تأخير الصلاة عن وقتها، فصلوا الصلاة لوقتها في الطريق. وأخر آخرون منهم العصر، فصلوها في بني قريظة بعد الغروب، ولم يُعْتَفَ رسول الله ﷺ أحداً من الفريقين. وقد تكلمنا على هذا في كتاب السيرة، وبينا أن الذين صلوا العصر لوقتها أقرب إلى إصابة الحق في نفس الأمر، وإن كان الآخرون معذورين أيضاً، والحجة ههنا في عذرهم في تأخير الصلاة لأجل الجهاد والمبادرة إلى حصار التاكثين للعهد، من الطائفة الملعونة اليهود. وأما الجمهور فقالوا: هذا كله منسوخ بصلاة الخوف، فإنها لم تكن نزلت بعد، فلما نزلت نسخ تأخير الصلاة لذلك، وهذا بين في حديث أبي سعيد الخدري، الذي رواه الشافعي وأهل السنن، ولكن يشكل على هذا ما حكاه البخاري رحمه الله، في صحيحه، حيث قال:

«باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو»: قال الأوزاعي: إن كان تَهَيُّأً للفتح ولم يقدرُوا على الصلاة، صَلُّوا إيماء، كل امرئ لنفسه، فإن لم يقدرُوا على الإيماء أخرُوا الصلاة حتى يتكشف القتال، أو يأمَنُوا فيصلُوا ركعتين. فإن لم يقدرُوا صَلُّوا ركعة وسجدين، فإن لم يقدرُوا لا يجزئهم التكبير، ويؤخرونها حتى يأمَنُوا. وبه قال مكحول، وقال أنس بن مالك: حضرت مناهضة حصن تُشتر عند إضاءة الفجر، واشتد اشتعال القتال، فلم يقدرُوا على الصلاة، فلم نُصَلِّ إلا بعد ارتفاع النهار، فصليناها ونحن مع أبي موسى، فَفُتِحَ لنا، قال أنس: وما يسرني بذلك الصلاة الدنيا وما فيها. انتهى ما ذكره، ثم أتبعه بحديث تأخير الصلاة يوم الأحزاب، ثم بحديث أمره إياهم ألا يصلوا العصر إلا في بني قريظة، وكأنه كالمختار لذلك، والله أعلم. ولمن جنح إلى ذلك له أن يحتج بصنيع أبي موسى وأصحابه يوم فتح تستر فإنه يشتهر غالباً، ولكن كان ذلك في إمارة عمر بن الخطاب، ولم ينقل أنه أنكر عليهم، ولا أحد من الصحابة، والله أعلم. وقال هؤلاء: وقد كانت صلاة الخوف مشروعة في الخندق؛ لأن ذات الرِّقَاع كانت قبل الخندق في قول جمهور علماء السير والمغازي. ومن نص على ذلك محمد بن إسحاق، وموسى بن عقبة، والواقدي، ومحمد بن سعد كاتبه، وخليفة بن خِثَّام وغيرهم. وقال البخاري وغيره: كانت ذات الرِّقَاع بعد الخندق، لحديث أبي موسى وما قدم إلا في خيبر، والله أعلم. والعجب - كل العجب - أن المُزَنِي، وأبا يوسف القاضي، وإبراهيم بن إسماعيل بن عُليَّة ذهبوا إلى أن صلاة الخوف منسوخة بتأخيرها، عليه السلام، الصلاة يوم الخندق. وهذا غريب جداً، وقد ثبتت الأحاديث بعد الخندق بصلاة الخوف، وحمل تأخير الصلاة يومئذ على ما قاله مكحول والأوزاعي أقوى وأقرب، والله أعلم.

فقله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ أي: إذا صليت بهم إماماً في صلاة الخوف وهذه حالة غير الأولى، فإن تلك قصرها إلى ركعة، كما دل عليه الحديث، فرادى ورجالاً وركباناً، مستقبلتي القبلة وغير مستقبلتيها، ثم ذكر حال الاجتماع والالتزام بإمام واحد. وما أحسن ما استدلل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة، حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة، فلو لا أنها واجبة لما ساغ ذلك، وأما من استدلل بهذه الآية على أن صلاة الخوف منسوخة بعد النبي ﷺ لقوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَبَعْدَهُ تَغُوتُ هَذِهِ الصَّفَةِ، فَإِنَّهُ اسْتَدْلَالٌ ضَعِيفٌ، وَيُرَدُّ عَلَيْهِ مِثْلُ قَوْلِ مَانِعِي الزَّكَاةِ الَّذِينَ احْتَجُّوا بِقَوْلِهِ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾﴾ [التوبة: ١٠٣] قالوا: فنحن لا ندفع زكاتها بعده ﷺ إلى أحد، بل نخرجها نحن بأيدينا على من نراه، ولا ندفعها إلا إلى من صلاته، أي: دعاؤه، سكن لنا، ومع هذا ردُّ عليهم الصحابة وأبناء عليهم هذا الاستدلال، وأجبروهم على أداء الزكاة، وقاتلوا من منعها منهم. ولنذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة أولاً قبل ذكر صفتها: قال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا عبد الله بن هاشم، أنبأنا سيف، عن أبي رزق، عن أبي أيوب، عن علي، رضي الله عنه، قال: سأل قوم من بني النجار رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنا نضرب في الأرض، فكيف نصلي؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَرَّتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾. ثم انقطع الوحي، فلما كان بعد ذلك بحول غزا النبي ﷺ فصلى الظهر، فقال المشركون: لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم، هلا شددتم عليهم؟ فقال قائل منهم: إن لهم أخرى مثلها في إثرها. قال: فأنزل الله ﷻ بين الصلاتين: ﴿إِنْ غَشِيَكَ مِنَ الْكُفْرَانِ كَثَرًا وَإِنَّ الْكُفْرَانَ كَانُوا لَكُمُ عَذَابًا مُبِينًا وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ إلى قوله: ﴿أَعِدْ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُبِينًا﴾ فنزلت صلاة الخوف. وهذا سياق غريب جداً، ولكن لبعضه شاهد من رواية أبي عياش الزُّرْقِي، واسمه زيد بن الصامت، رضي الله عنه، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا الثوري، عن منصور، عن مجاهد، عن أبي عياش قال: كنا مع رسول الله ﷺ ببغسفان، فاستقبلنا المشركون، عليهم خالد بن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا النبي ﷺ الظهر، فقالوا: لقد كانوا على حال لو أصبنا غرَّتْهم. ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم. قال: فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾. قال: فحضرت، فأمرهم النبي ﷺ فأخذوا السلاح، قال: فصفتنا خلفه صفين، قال: ثم ركع فركعنا جميعاً، ثم رفع فرفعنا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه والآخرين قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، ثم ركع فركعوا جميعاً، ثم رفع فرفعوا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ والصف الذي يليه، والآخرين قيام يحرسونهم، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا، ثم سلم عليهم، ثم انصرف. قال: فصلاها رسول الله ﷺ مرتين: مرة ببغسفان، ومرة بأرض بني سليم. ثم رواه أحمد، عن عُثْمَر، عن شعبة، عن منصور، به نحوه. وهكذا رواه أبو داود، عن سعيد بن منصور، عن جرير بن عبد الحميد، والنسائي من حديث شعبة وعبد العزيز بن عبد الصمد، كلهم عن منصور، به. وهذا إسناده صحيح، وله شواهد كثيرة، فمن ذلك ما رواه البخاري حيث قال: حدثنا حَيْثُورُ بْنُ شَرِيحٍ، حدثنا محمد بن حرب، عن الزُّبَيْدِيِّ، عن الزُّهْرِيِّ، عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَتَبَةَ، عن ابن عباس قال: قام النبي ﷺ وقام الناس معه، فكبر وكبروا معه، وركع وركع ناس منهم، ثم سجد وسجدوا معه، ثم قام الثانية فقام الذين سجدوا، وحرسوا إخوانهم، وأتت الطائفة الأخرى فركعوا وسجدوا معه، والناس كلهم في الصلاة، ولكن يحرس بعضهم بعضاً. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة عن سليمان الشُّكْرِيِّ: أنه سأل جابر بن عبد الله عن إقصار الصلاة: أي يوم أنزل؟ أو: أي يوم هو؟ فقال جابر: انطلقنا نلتقي عَيْرَ قَرِيشٍ آتِيَةً مِنَ الشَّامِ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِنَحْلٍ، جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ. قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: هَلْ تَخَافُنِي؟ قَالَ: «لَا». قَالَ: فَمَا يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «اللَّهُ يَمْنَعُنِي مِنْكَ». قَالَ: فَسَلَّ السَّيْفُ ثُمَّ تَهَدَّدَ وَأَوْعَدَهُ، ثُمَّ نَادَى بِالْتَّحْرُلِ وَأَخَذَ السَّلَاحَ، ثُمَّ نَوْدِيَ بِالصَّلَاةِ، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِطَائِفَةٍ مِنَ الْقَوْمِ وَطَائِفَةٍ أُخْرَى تَحْرُسُهُمْ. فَصَلَّى بِالَّذِينَ يَلُونَهُ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ تَأَخَّرَ الَّذِينَ يَلُونَهُ عَلَى أَعْقَابِهِمْ فَقَامُوا فِي مِصَافٍ أَصْحَابِهِمْ، ثُمَّ جَاءَ الْآخَرُونَ فَصَلَّى بِهِمْ رَكَعَتَيْنِ وَالْآخَرُونَ يَحْرُسُونَهُمْ، ثُمَّ سَلِمَ. فَكَانَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ، وَالْقَوْمُ رَكَعَتَيْنِ رَكَعَتَيْنِ، فَيَوْمَئِذٍ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي إِقْصَارِ الصَّلَاةِ وَأَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَخْذِ السَّلَاحِ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا سُرَيْجٌ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ أَبِي بَشْرٍ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ قَيْسٍ الشُّكْرِيِّ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَاتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُحَارِبَ خَصْفَةَ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يَقَالُ لَهُ: «غُورْثُ بْنُ الْحَارِثِ» حَتَّى قَامَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالسَّيْفِ فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «اللَّهُ»، فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «وَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟» قَالَ: كُنْ خَيْرَ أَخَذَ. قَالَ: «أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟» قَالَ: لَا،

ولكني أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلى سبيله، فأتى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس. فلما حضرت الصلاة صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف، فكان الناس طائفتين: طائفة بإزاء العدو، وطائفة صلوا مع رسول الله ﷺ. فصلى بالطائفة الذين معه ركعتين، وانصرفوا، فكانوا بمكان أولئك الذين بإزاء عدوهم. وانصرف الذين بإزاء عدوهم فصلوا مع رسول الله ﷺ ركعتين، فكان لرسول الله ﷺ أربع ركعات، وللقوم ركعتين ركعتين. تفرد به من هذا الوجه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو قطن عمرو بن الهيثم، حدثنا المسعودي، عن يزيد الفقير قال: سألت جابر بن عبد الله عن الركعتين في السفر: أقصرهما؟ قال: الركعتان في السفر تمام، إنما القصر واحدة عند القتال، بينما نحن مع رسول الله ﷺ في قتال إذ أقيمت الصلاة، فقام رسول الله ﷺ فصاف طائفة، وطائفة وجهها قِبَل العدو، فصلّى بهم ركعة وسجد بهم سجدتين، ثم الذين خلفوا انطلقوا إلى أولئك فقاموا مقامهم ومكانهم نحوذا، وجاء أولئك فقاموا خلف رسول الله ﷺ فصلّى بهم ركعة وسجد بهم سجدتين، ثم إن رسول الله ﷺ جلس وسلم، وسلم الذين خلفه، وسلم أولئك، فكانت لرسول الله ﷺ ركعتين، وللقوم ركعة ركعة، ثم قرأ: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الحكم، عن يزيد الفقير، عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ صلى بهم صلاة الخوف، فقام صف بين يديه، وصف خلفه، فصلّى بالذي خلفه ركعة وسجدتين، ثم تقدم هؤلاء حتى قاموا في مقام أصحابهم، وجاء أولئك حتى قاموا مقام هؤلاء، فصلّى بهم رسول الله ﷺ ركعة وسجدتين، ثم سلم. فكانت للنبي ﷺ ركعتين ولهم ركعة. ورواه النسائي من حديث شعبة، ولهذا الحديث طرق عن جابر، وهو في صحيح مسلم من وجه آخر بلفظ آخر، وقد رواه عن جابر جماعة كثيرون في الصحيح والسنن والمسند. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ثُمَيْم بن حُمَاد، حدثنا عبد الله بن المبارك، أنبأنا مَعْمَر، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه قال: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ قال: هي صلاة الخوف، صلى رسول الله ﷺ بإحدى الطائفتين ركعة، والطائفة الأخرى مقبلة على العدو، وأقبلت الطائفة الأخرى التي كانت مقبلة على العدو فصلّى بهم رسول الله ﷺ ركعة أخرى، ثم سلم بهم، ثم قامت كل طائفة منهم فصلّت ركعة ركعة. وقد روى هذا الحديث الجماعة في كتبهم من طريق معمر، به. ولهذا الحديث طرق كثيرة عن جماعة من الصحابة، وقد أجاد الحافظ أبو بكر بن مَرْذُويه في سرد طُرُقهِ والفاظه، وكذا ابن جرير، ولنحرره في كتاب «الأحكام الكبير» إن شاء الله، وبه الثقة. وأما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف، فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية، وهو أحد قولي الشافعي ويدل عليه قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذَى مِنْ تَلَافٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخَذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أي: بحيث تكونون على أمانة إذا اجتمعتم إليها ليستموها بلا كلفة: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ يَمِينًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ كِتَابًا مَوْفُوتًا﴾ وَلَا تَهَيَّؤْا فِي آيَتِهِ الْقَوْمَ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَلَا تَهَيَّؤْا يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٣﴾. يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقب صلاة الخوف، وإن كان مشروعا مرغبا فيه أيضا بعد غيرها، ولكن ههنا أكد لما وقع فيها من التخفيف في أركانها، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب وغير ذلك، مما ليس يوجد في غيرها، كما قال تعالى في الأشهر الحرم: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [النور: ٣٦]، وإن كان هذا منها عنة في غيرها، ولكن فيها أكد لشدة حرمتها وعظمتها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ يَمِينًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أي: في سائر أحوالكم. ثم قال: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: فإذا أمنتهم وذهب الخوف، وحصلت الطمأنينة ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: فاتموا وأقيموا كما أمرتم بحدودها، وخشوعها، وسجودها وركوعها، وجميع شؤونها. وقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ كِتَابًا مَوْفُوتًا﴾ قال ابن عباس: أي مفروضا. وكذا روي عن مجاهد، وسالم بن عبد الله، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي، والحسن، ومقاتل، والسدي، وعطية العوفي. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ كِتَابًا مَوْفُوتًا﴾ قال ابن مسعود: إن للصلاة وقتا كوقت الحج. وقال زيد بن أسلم: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ كِتَابًا مَوْفُوتًا﴾ قال: منجما، كلما مضى نجم، جاءتهم يعني: كلما مضى وقت جاء وقت. وقوله: ﴿وَلَا تَهَيَّؤْا فِي آيَتِهِ الْقَوْمَ﴾ أي: لا تضعفوا في طلب عدوكم، بل جدوا فيهم وقاتلوه، واقعدوا لهم كل مرصد: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَلَا تَهَيَّؤْا يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ﴾ أي: كما يصيبكم الجراح والقتل، كذلك يحصل لهم، كما قال: ﴿إِنْ يَسْتَسْكِمُ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ يُشَلُّهُ﴾ [آل عمران: ١٤]. ثم قال: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أي: أنتم ولياهاهم سواء فيما يصيبكم ولياهاهم من الجراح والآلام، ولكن أنتم ترجون من الله المثوبة والنصر والتأييد، وهم لا يرجون شيئا من ذلك، فأنتم أولى بالجهاد منهم، وأشد رغبة في إقامة كلمة الله وإعلانها. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا

حَكِيمًا أَي: هو أعلم وأحكم فيما يقدره ويقضيه، وينفذه ويمضيه، من أحكامه الكونية والشرعية، وهو المحمود على كل حال.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْكَافِرِينَ حَصِيمًا ۝١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ عَنْكَ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١٠٦ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَافًا أَثِيمًا ۝١٠٧ يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَحِيمًا ۝١٠٨ هَتَأَتْهُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُهُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ فَعَنَتِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَم مَّنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝١٠٩﴾

يقول تعالى مخاطباً لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أَي: هو حق من الله، وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه. وقوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ احتج به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان، عليه السلام، له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية، وبما ثبت في الصحيحين من رواية هشام بن عروة، عن أبيه، عن زينب بنت أم سلمة، عن أم سلمة؛ أن رسول الله ﷺ سمع جليلة خصم بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: «ألا إنما أنا بشر، وإنما أقضي بنحو مما أسمع، ولعل أحدكم أن يكون الحق بحجته من بعض، فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من نار فليحملها أوليذرها». وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا أسامة بن زيد، عن عبد الله بن رافع، عن أم سلمة قالت: جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ في مواريث بينهما قد دُرِسَتْ، ليس عندهما بينة، فقال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إلي، وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضي بينكم على نحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه؛ فإنما أقطع له قطعة من النار، يأتي بها إسقاطاً في عتقه يوم القيامة». فبكى الرجلان وقال كل منهما: حقي لأخي. فقال رسول الله ﷺ: «أما إذا قلتما فاذها فافتكما، ثم توخيا الحق، ثم استهما، ثم ليخلل كل واحد منكما صاحبه». وقد رواه أبو داود من حديث أسامة بن زيد، به. وزاد: «إني إنما أقضي بينكما برأي فيما لم ينزل علي فيه». وقد روى ابن مَرْذُويه، من طريق العوفي، عن ابن عباس قال: إن نفرًا من الأنصار غزوا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته، فسرق درع لأحدهم، فأظن بهما رجل من الأنصار، فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال: إن طُعْمَةً بن أبيرق سرق درعي، فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فالتقاها في بيت رجل بريء، وقال لنفر من عشيرته: إني غَيَّبْتُ الدرع والقيتها في بيت فلان، وستوجد عنده. فانطلقوا إلى نبي الله ﷺ ليلاً، فقالوا: يا نبي الله، إن صاحبنا بريء. وإن صاحب الدرع فلان، وقد أحطنا بذلك علماً، فاعذُر صاحبنا على رؤوس الناس وجادل عنه. فإنه إلا يعصمه الله بك يهلك، فقام رسول الله ﷺ فبرأه وعذره على رؤوس الناس، فأنزل الله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْكَافِرِينَ حَصِيمًا ۝١٠٥﴾ يقول: احكم بما أنزل الله إليك في الكتاب، ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ عَنْكَ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَافًا أَثِيمًا ۝١٠٧﴾. ثم قال للذين أتوا رسول الله ﷺ مُسْتَحْفِينَ بالكذب: ﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَحِيمًا ۝١٠٨﴾ هَتَأَتْهُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُهُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ فَعَنَتِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَم مَّنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝١٠٩﴾ يعني: الذين أتوا رسول الله ﷺ مستحفين يجادلون عن الخائنين ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ نَرُّنَا بِسُوءِ اللَّهِ عَفْوَكَ رَحِيمًا ۝١١٠﴾ يعني: الذين أتوا رسول الله ﷺ مستحفين بالكذب، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْذِبْ خَطِئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ رَدَّ يَدَهُ بَرِيئًا فَقَدْ أَخْتَلَّ بِهِنَّ وَآمَنَّا تُبَيِّنًا ۝١١١﴾ يعني: السارق والذين جادلوا عن السارق. وهذا سياق غريب، وكذا ذكر مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدي، وابن زيد وغيرهم في هذه الآية أنها أنزلت في سارق بني أبيرق على اختلاف سياقاتهم، وهي متقاربة.

وقد روى هذه القصة محمد بن إسحاق مطولة، فقال أبو عيسى الترمذي عند تفسير هذه الآية من جامع، وابن جرير في تفسيره: حدثنا الحسن بن أحمد بن أبي شعيب أبو مسلم الحراني، حدثنا محمد بن سلمة الحراني، حدثنا محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عَمَرَ بن قتادة، عن أبيه، عن جده قتادة بن النعمان، رضي الله عنه، قال: كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق: بشر وبشير ومُبَشَّر، وكان بُشَيْر رجلاً منافقاً، يقول الشعر يهجو به أصحاب النبي ﷺ، ثم ينحله بعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، وقال فلان كذا وكذا، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث؟ - أو كما قال الرجل - وقالوا: ابن الأبيرق قالها. قالوا: وكانوا أهل بيت حاجة وفاقه في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة من السام من الدُّزْمَك ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير، فقدمت ضافطة من الشام، فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملاً من

الدرمك فحطه في مشربة له، وفي المشربة سلاح: درع وسيف، فَعُدِّي عليه من تحت البيت، فَتَقُبْتُ المشربة وأخذ الطعام والسلاح. فلما أصبح أتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي، إنه قد عُدِّي علينا في ليلتنا هذه. فَتَقُبْتُ مشربتنا وذَهَبَ بطعامنا وسلاحنا. قال: فنجسنا في الدار وسألنا، فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم. قال: وكان بنو أبيرق قالوا: ونحن نسأل في الدار -: والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل رجلاً مثله صلاح وإسلام. فلما سمع لبيد اختلط سيفه وقال: أنا أسرق؟ والله ليخالطنكم هذا السيف، أو لتبينن هذه السرقة. قالوا: إليك عنا أيها الرجل، فما أنت بصاحبها. فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها. فقال لي عمي: يا ابن أخي، لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له. قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمي رفاعة بن زيد، فَتَقَبُوا مشربة له، وأخذوا سلاحه وطعامه. فَلْيُرِدُوا علينا سلاحنا، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه. فقال النبي ﷺ: «سامرُ في ذلك». فلما سمع بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له: أسير بن عمرو، فكلموه في ذلك، فاجتمع في ذلك أناس من أهل الدار فقالوا: يا رسول الله، إن قتادة بن النعمان وعمه عمداً إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح، يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت. قال قتادة: فأتيت النبي ﷺ فكلمته، فقال: «عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح، ترميهم بالسرقة على غير ثبوت ولا بينة؟» قال: فرجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالي، ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك، فأتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي، ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ، فقال: الله المستعان. فلم نلبث أن نزل القرآن: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْكَافِرِينَ حَكِيمًا ١١٥﴾ بني أبيرق ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ مما قلت لقتادة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا وَلَا تُجِدُ مِنَ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ إِلَهًا لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَافًا أَتِيمًا ١١٦﴾ يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ١١٧﴾ إلى قوله: ﴿رَحِيمًا﴾ أي: لو استغفروا الله لغفر لهم ﴿وَمَنْ يَكْتِيبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْتِيبْهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّمَا يُجِيزُ﴾ قولهم للبيد. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ تُوَفِّيهِ أَثْرًا عَظِيمًا﴾. فلما نزل القرآن أتني رسول الله ﷺ بالسلاح فردّه إلى رفاعة. فقال قتادة: لما أتيت عمي بالسلاح وكان شيخاً، قد عشا أو عسا - الشك من أبي عيسى - في الجاهلية وكنت أرى إسلامه مدخولاً فلما أتيت بالسلاح قال: يا ابن أخي، هو في سبيل الله. فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً، فلما نزل القرآن لحق بشيْرٍ بالمشرّكين، فنزل على سُلَاقَة بنت سعد بن سُمَيَّة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُسْلِمِينَ نُؤْتِهِ مَا يُولَىٰ وَنُصْلِيهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ١١٨﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ. وَيَقْبِضُ مَا يُولَىٰ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ١١٩﴾ فلما نزل على سُلَاقَة رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعره، فأخذت رَحْلَهُ فوضعت على رأسها، ثم خرجت به فَرَمَتْ به في الأبطح، ثم قالت: أهديت لي شِغْرَ حسان؟ ما كنت تأتيني بخير. لفظ الترمذي، ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعلم أحداً أسنده غير محمد بن سلمة الحراني. وروى يونس بن بكير وغير واحد، عن محمد بن إسحاق، عن عاصم بن غُمَر بن قتادة مرسلًا، لم يذكروا فيه عن أبيه عن جده. ورواه ابن أبي حاتم عن هاشم بن القاسم الحراني، عن محمد بن سلمة، به بعبضه. ورواه ابن المنذر في تفسيره: حدثنا محمد بن إسماعيل - يعني الصائغ - حدثنا الحسن بن أحمد بن أبي شعيب الحراني، حدثنا محمد بن سلمة - ذكره بطوله. ورواه أبو الشيخ الأصبهاني في تفسيره عن محمد بن العباس بن أيوب والحسن بن يعقوب، كلاهما عن الحسن بن أحمد بن أبي شعيب الحراني، عن محمد بن سلمة، به. ثم قال في آخره: قال محمد بن سلمة: سمع مني هذا الحديث يحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن إسرائيل. وقد روى الحاكم أبو عبد الله النيسابوري هذا الحديث في كتابه «المستدرک» عن أبي العباس الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار العطاردي، عن يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق - بمعناه أتم منه، وفيه الشعر، ثم قال: وهذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. وقوله: ﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ١١٧﴾ يَتَّبِعُونَ مَا لَا يُرِضِي مِنَ الْقَوْلِ ١١٨﴾ الآية، هذا إنكار على المنافقين في كونهم يستخفون بقبائحهم من الناس لئلا ينكروا عليهم، ويجاهرون الله بها لأنه مطلق على سرائرهم وعالم بما في ضمائرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ ١١٧﴾ يَتَّبِعُونَ مَا لَا يُرِضِي مِنَ الْقَوْلِ ١١٨﴾ وَكَانَ اللَّهُ يَمَّا يَمْلِكُونَ حَكِيمًا ١١٩﴾ تهديد لهم ووعيد. ثم قال: ﴿هَآئِنْتَ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِّلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ١٢٠﴾ أي: هَبْ أَنْ هَؤُلَاءِ انتصروا في الدنيا بما أبدوه أو أبدى لهم عند الحاكم الذين يحكمون بالظاهر - وهم مُتَعَبِدُونَ بذلك - فماذا يكون صنيعهم يوم القيامة بين يدي الله ﷻ، الذي يعلم السر وأخفى؟ ومن ذا الذي يتوكل لهم يومئذ في ترويج دعواهم؟ أي: لا أحد يكون يومئذ لهم وكيلاً، ولهذا قال: ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾.

﴿وَمَنْ يَمَلْ سَوْءًا أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١١٠) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَهُ يَوْمَ بُرَىٰ فَإِنَّمَا أَفْحَمَ اللَّهُ عَيْنَهُ وَإِنَّمَا فِيئْتِنَا (١١٢) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُبْطِلُوكَ وَمَا يُبْطِلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣).

يخير، تعالى، عن كرمه وجوده: أن كل من تاب إليه تاب عليه من أي ذنب كان. فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَمَلْ سَوْءًا أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١١٠). قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، أنه قال في هذه الآية: أخبر الله عباده بحلمه وعفوه وكرمه وسعة رحمته، ومغفرته، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال. رواه ابن جرير. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا محمد بن مثنى، حدثنا محمد بن أبي عدي، عن شعبة، عن عاصم، عن أبي وائل قال: قال عبد الله: كان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنباً أصبح قد كتب كفارة ذلك الذنب على بابهِ، وإذا أصاب البول شيئاً منه قرضه بالمقراض. فقال رجل: لقد أتى الله بني إسرائيل خيراً - فقال عبد الله: ما أتاكم الله خير مما أتاهم، جعل الماء لكم طهوراً، وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ (آل عمران: ١١٣) وقال: ﴿وَمَنْ يَمَلْ سَوْءًا أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١١٠). وقال أيضاً: حدثني يعقوب، حدثنا هُشَيْنٌ، حدثنا ابن عَوْنٍ، عن حبيب بن أبي ثابت قال: جاءت امرأة إلى عبد الله بن مغفل فسألته عن امرأة فُجِّرَتْ فحبلت، فلما ولدت قتلت ولدها؟ قال عبد الله بن مغفل: ما لها؟ لها النار! فانصرفت وهي تبكي، فدعاها ثم قال: ما أرى أمرك إلا أحد أمرين: ﴿وَمَنْ يَمَلْ سَوْءًا أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١١٠). قال: فمسحت عينها، ثم مضت. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا شعبة، عن عثمان بن المغيرة قال: سمعت علي بن ربيعة من بني أسد، يحدث عن أسماء - أو ابن أسماء من بني فزارة - قال: قال علي، رضي الله عنه: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه. وحدثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يذنب ذنباً ثم يتوضأ فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر له». وقرأ هاتين الآيتين: ﴿وَمَنْ يَمَلْ سَوْءًا أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١١٠) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية. وقد تكلمنا على هذا الحديث، وعزيته إلى من رواه من أصحاب السنن، وذكرنا ما في سنده من مقال في مسند أبي بكر الصديق، رضي الله عنه. وقد تقدم بعض ذلك في سورة آل عمران أيضاً. وقد رواه ابن مردويه في تفسيره من وجه آخر عن علي فقال: حدثنا أحمد بن محمد بن زياد، حدثنا إبراهيم بن إسحاق الحربي، حدثنا داود بن مهزيان الدباج، حدثنا عمر بن يزيد، عن أبي إسحاق، عن عبد خير، عن علي قال: سمعت أبا بكر - هو الصديق - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد أذنب فقام فتوضأ فأحسن وضوءه، ثم قام فصلى واستغفر من ذنبه، إلا كان حقا على الله أن يغفر له؛ لأنه يقول: ﴿وَمَنْ يَمَلْ سَوْءًا أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١١٠). ثم رواه من طريق أبان بن أبي عياش، عن أبي إسحاق الشيباني، عن الحارث، عن علي، عن الصديق - بنحوه. وهذا إسناد لا يصح.

وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن علي بن دَحِيم حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا موسى بن مروان الرُّقِّي، حدثنا مُبَشَّر بن إسماعيل الحلبي، عن تمام بن نَجِيج، حدثني كعب بن دُهل الأزدي قال: سمعت أبا الدرداء يحدث قال: كان رسول الله ﷺ إذا جلسنا حوله، وكانت له حاجة فقام إليها وأراد الرجوع، ترك نعليه في مجلسه أو بعض ما عليه، وإنه قام فترك نعليه. قال أبو الدرداء: فأخذ ركوة من ماء فاتبته، فمضى ساعة، ثم رجع ولم يقض حاجته، فقال: «إنه أتاني آت من ربي فقال: إنه: ﴿وَمَنْ يَمَلْ سَوْءًا أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١١٠) فأردت أن أبشر أصحابي». قال أبو الدرداء: وكانت قد شقت على الناس الآية التي قبلها: ﴿مَنْ يَمَلْ سَوْءًا يُجَزَّ بِهٖ﴾ فقلت: يا رسول الله، وإن زنى وإن سرق، ثم استغفر ربه غفر له؟ قال: «نعم» قلت الثانية، قال: «نعم»، قلت الثالثة، قال: «نعم»، وإن زنى وإن سرق، ثم استغفر الله غفر له على رغم أنف عُومِر». قال: فرأيت أبا الدرداء يضرب أنف نفسه بأصبعه. هذا حديث غريب جداً من هذا الوجه بهذا السياق، وفي إسناده ضعف. وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١١١) كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وَلَنْ تَنفَعُ مَفْعَلَةٌ لِّكُلِّ جَلِيلَةٍ لَّا يَحْمِلُ وَثْقَاهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (الآية: [فاطر: ١٨]) يعني أنه لا يجني أحد على أحد، وإنما على كل نفس ما عملت، لا يحمل عنها غيرها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١١٢) أي: من علمه وحكمته، وعدله ورحمته كان ذلك. ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَهُ يَوْمَ بُرَىٰ فَإِنَّمَا أَفْحَمَ اللَّهُ عَيْنَهُ وَإِنَّمَا فِيئْتِنَا﴾ (١١٣)، يعني: كما اتهم بنو أبيرق بصنيعهم

الفيح ذلك الرجل الصالح، وهو لييد بن سهل، كما تقدم في الحديث، أو زيد بن السمين اليهودي على ما قاله الآخرون، وقد كان بريئاً وهم الظلمة الخونة، كما أطلع الله على ذلك رسوله ﷺ. ثم هذا التقرير وهذا التوبيخ عام فيهم وفي غيرهم ممن تصف مثل صفتهم، وارتكب مثل خطيئتهم، فعليه مثل عقوبتهم. وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ﴾. قال الإمام ابن أبي حاتم: أنبأنا هاشم بن القاسم الحراني فيما كتب إلي، حدثنا محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن أبيه، عن جده قتادة بن النعمان - وذكر قصة بني أبيرق، فأنزل الله: ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: أسير بن عروة وأصحابه. يعني بذلك لما أنشأ على بني أبيرق ولأموا قتادة بن النعمان في كونه اتهمهم، وهم صلحاء برآء، ولم يكن الأمر كما أنهوهم إلى رسول الله ﷺ؛ ولهذا أنزل الله فصل القضية وجلاها لرسوله ﷺ. ثم امتن عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال، وعصمته له، وما أنزل عليه من الكتاب، وهو القرآن، والحكمة، وهي السنة: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ أي: من قبل نزول ذلك عليك، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَنَا مِنْ تَمَرِّ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْتَدِي بِهِ مِنْ نُسْأَةٍ مِنْ عِبَادِنَا وَإِلَيْكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥١﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَبَيَّرُ الْأُمُورُ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الفصص: ٤٨٦]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

﴿لَا حَيْزَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مِمَّا أَمَرَ بِصَدَقَتِهِ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحِ بَيْنِ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ آيَتُهُ مَرْضَاتُ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١٦) وَمَن يُسَاقِ الرَّسُولُ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُؤْمِنِينَ لَتُؤْتِيهُ مَا تَوَدَّىٰ وَلَضَلِيلُهُ جَهَنَّمُ وَسَكَتُهُ مَصِيرًا ﴿١١٧﴾ .

يقول تعالى: ﴿لَا حَيْزَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ﴾ يعني: كلام الناس ﴿إِلَّا مِمَّا أَمَرَ بِصَدَقَتِهِ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحِ بَيْنِ النَّاسِ﴾ أي: لا نجوى من قال ذلك، كما جاء في الحديث الذي رواه ابن مَرْذُويه: حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم، حدثنا محمد بن سليمان بن الحارث، حدثنا محمد بن يزيد بن حُثَيْس قال: دخلنا على سفيان الثوري نعوذ - وأومأ إلى دار العطارين - فدخل عليه سعيد بن حسان المخزومي فقال له سفيان الثوري: الحديث الذي كنت حدثني به عن أم صالح اردؤه علي. فقال: حدثني أم صالح، عن صفية بنت شيبة، عن أم حبيبة قالت: قال رسول الله ﷺ: «كلام ابن آدم كله عليه لا له ما خلا امرأ بمعروف أو نهياً عن منكر أو ذكر الله ﷻ»، قال سفيان: فتناشدته، فقال محمد بن يزيد: ما أشد هذا الحديث؟ فقال سفيان: وما شدة هذا الحديث؟ إنما جاءت به امرأة عن امرأة، هذا في كتاب الله الذي أرسل به نبيكم ﷺ أو ما سمعت الله يقول في كتابه: ﴿لَا حَيْزَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مِمَّا أَمَرَ بِصَدَقَتِهِ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحِ بَيْنِ النَّاسِ﴾ فهو هذا بعينه، أو ما سمعت الله يقول: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْفَلَکُ سَفًا لَا يَنْكَلُمُونَ إِلَّا مَن أَدْنَىٰ لَهُ الْإِزْنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (النبا: ٣٨) فهو هذا بعينه، أو ما سمعت الله يقول في كتابه: ﴿وَالصَّيِّرَ ﴿١﴾ إِنَّا الْإِنْسَانَ لَقِي خَسِرَ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَوَصَّوْا بِالْحَقِّ وَوَصَّوْا بِالصَّيِّرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١، ٣]، فهو هذا بعينه. وقد روى هذا الحديث الترمذي وابن ماجة من حديث محمد بن يزيد بن حُثَيْس، عن سعيد بن حسان، به. ولم يذكرنا أقوال الثوري إلى آخرها، ثم قال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن حُثَيْس. وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، حدثنا صالح بن كيسان، حدثنا محمد بن مسلم بن عُبَيْد الله بن شهاب: أن حنيد بن عبد الرحمن بن عوف أخبره، أن أمه أم كلثوم بنت عقبة أخبرته: أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فيُنْيِي خيراً - أو يقول خيراً» وقالت: لم أسمعته يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث: في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها. قال: وكانت أم كلثوم بنت عقبة من المهاجرات اللاتي يابعن رسول الله ﷺ. وقد رواه الجماعة، سوى ابن ماجة، من طرق، عن الزهري، به نحوه. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو بن مَرْة عن سالم بن أبي الجعد، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة، والصيام والصدقة؟» قالوا: بلى. قال: «إصلاح ذات البين» قال: «وفساد ذات البين هي الحالقة».

ورواه أبو داود والترمذي، من حديث أبي معاوية، وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سُريج بن يونس، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر، حدثنا أبي، عن حميد، عن أنس؛ أن النبي ﷺ قال لأبي أيوب: «ألا أدلك على تجارة؟» قال: بلى. قال: «تسعى في صلح بين الناس إذا تفاسدوا، وتُقارب بينهم إذا تباعدوا» ثم قال البزار: وعبد الرحمن بن عبد الله العُمري ثَين، وقد حدث بأحاديث لم يتابع عليها. ولهذا قال: «وَمَنْ كَفَعْلَ ذَلِكَ أَيْتَعَا مَرَضَاتِ اللَّهِ» أي: مخلصاً في ذلك محتسباً ثواب ذلك عند الله ﷻ «فَسَوْفَ يُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا» أي: ثواباً كثيراً.

مُؤْمِنُونَ [سبأ: ٤١]. وقوله: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي: طرده وأبعده من رحمته، وأخرجه من جواره. وقال: ﴿لَا تَجِدَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَفِيًّا مَفْرُوضًا﴾ أي: مُعَيَّنًا مقدراً معلوماً. قال مقاتل بن حيان: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة. ﴿وَلَا تُسَلِّمُوا﴾ أي: عن الحق ﴿وَلَا تُبَيِّنُهُمْ﴾ أي: أزين لهم ترك التوبة، وأعدهم الأمانى، وأمرهم بالتسوية والتأخير، وأغروهم من أنفسهم. وقوله: ﴿وَلَا تُرْهِقُهُمْ نَبِيذًا كَذَابًا﴾ قال قتادة والسدي وغيرهما: يعني تشقيقها، وجعلها سمة وعلامة للبحيرة والسائبة. ﴿وَلَا تُرْهِقُهُمْ فَلْيَعْرِزْكَ خَلَقَ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس: يعني بذلك خصاء الدواب. وكذا روى عن ابن عمر، وأنس، وسعيد بن المسيب، وعكرمة، وأبي عياض، وأبي صالح، وقاتدة، والثوري. وقد رُزِّدَ في حديث النهي عن ذلك. وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: يعني بذلك الوشم. وفي صحيح مسلم النهي عن الوشم في الوجه، وفي لفظ: «لعن الله من فعل ذلك». وفي الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله ﷻ، ثم قال: ألا لعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله ﷻ، يعني قوله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ إِلَّا الرُّسُلُ فَحْدُوهُمَا تَهْنِكُمْ عَنْهُ فَانْتَهَاؤُا﴾ [الحشر: ٧]. وقال ابن عباس في رواية عنه، ومجاهد، وعكرمة أيضاً وإبراهيم النخعي، والحسن، وقاتدة، والحكم، والسدي، والضحاك، وعطاء الخراساني في قوله: ﴿وَلَا تُرْهِقُهُمْ فَلْيَعْرِزْكَ خَلَقَ اللَّهُ﴾ يعني: دين الله ﷻ. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَقْزَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلُ لِصَلَاتِي اللَّهُ﴾ [الروم: ٣٠] على قول من جعل ذلك أمراً، أي: لا تبدلوا فطرة الله، ودعوا الناس على فطرتهم، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جُمعاء، هل يتحسن فيها من جدهاء؟» وفي صحيح مسلم، عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله ﷻ: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحزمت عليهم ما أحللت لهم».

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ أي: فقد خسر الدنيا والآخرة، وتلك خسارة لا جبر لها ولا استدراك لفاتتها. وقوله: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُؤْمِنُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوبًا﴾ [١٢٦]. وهذا إخبار عن الواقع؛ لأن الشيطان يعد أوليائه ويمنيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة، وقد كذب وافتري في ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوبًا﴾، كما قال تعالى مخبراً عن إبليس يوم المعاد: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّكَ اللَّهُ وَكَذَّبَكُمْ وَعَدَّكُمْ وَعَدَّكُمْ فَلَنْفَلَتْنَكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصَوِّرِكُمْ إِنَّكُمْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَنْتُمْ كَائِنُونَ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الْكَافِلِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وقوله: أي: المستحسنون له فيما وعدهم ومناهم ﴿وَمَا لَهُمْ حِجَابٌ﴾ أي: مصيرهم ومآلهم يوم حسابهم ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي: ليس لهم عنها مندوحة ولا مصرف ولا خلاص ولا مناص. ثم ذكر حال السعداء الأتقياء وما لهم في مآلهم من الكرامة التامة، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: صدقت قلوبهم وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات، وتركوا ما نهوا عنه من المنكرات ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: يصرفونها حيث شاءوا وأين شاءوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي: بلا زوال ولا انتقال ﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي: هذا وعد من الله ووعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة، ولهذا أكد بالمصدر الدال على تحقيق الخبر، وهو قوله: ﴿حَقًّا﴾ ثم قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ أي: لا أحد أصدق منه قولاً وخبراً، لا إله إلا هو، ولا رب سواه. وكان رسول الله ﷺ يقول في خطبته: «إن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار».

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ. وَلَا يُجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [١٢٧] وَتَنْتَعِلُ مِنَ الْفَالِحِينَ مِنْ ذِكْرٍ أَوْ أَتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَسْأَلُونَ نَبِيًّا ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ لِبَرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [١٢٨] وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخْبِرًا ﴿١٢٩﴾.

قال قتادة: ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، فنحن أولى بالله منكم. وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم نبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله فأنزل الله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ الآية. فأفالج الله حجة المسلمين على من ناوهم من أهل الأديان. وكذا روى عن السدي، ومسروق، والضحاك وأبي صالح، وغيرهم، وكذا روى العوفي عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: تخاضم أهل الأديان فقال أهل التوراة: كتابنا خير الكتب، ونبينا خير الأنبياء. وقال أهل الإنجيل مثل ذلك. وقال أهل الإسلام: لا دين إلا الإسلام، وكتابنا

نَسَخَ كُلَّ كِتَابٍ، وَبَيْنَا خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وَأَمَرْتُمْ وَأَمَرْنَا أَنْ نُوْمِنَ بِكُتَابِكُمْ وَنَعْمَلَ بِكُتَابِنَا. فَقَضَى اللَّهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾، وَخَيْرَ بَيْنِ الْأَدْيَانِ فَقَالَ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: قَالَتِ الْعَرَبُ: لَنْ نُبْعَثَ وَلَنْ نُعَذَّبَ. وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًا﴾ [البقرة: ١١١]، وَقَالُوا: ﴿لَنْ تَسَنَّا الْكَارَ إِلَّا أَنْكَا مَا مَقْدُودٌ﴾ [البقرة: ١٨٠]. وَالْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ الدِّينَ لَيْسَ بِالتَّحْلِيِّ وَلَا بِالتَّمْنِيِّ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ ادَّعَى شَيْئًا حَصَلَ لَهُ بِمَجْرَدِ دَعْوَاهُ، وَلَا كُلُّ مَنْ قَالَ: «إِنَّهُ هُوَ الْمُحَقِّقُ» سَمِعَ قَوْلَهُ بِمَجْرَدِ ذَلِكَ، حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنَ اللَّهِ بَرَهَانٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أَيِ: لَيْسَ لَكُمْ وَلَا لَهُمُ النِّجَاجَةُ بِمَجْرَدِ التَّمْنِيِّ، بَلِ الْعِبْرَةُ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَاتِّبَاعُ مَا شَرَعَهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ الْكَرَامِ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [٧] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [٨] [الزلزلة: ٧، ٨]. وَقَدْ رَوَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَمَّا نَزَلَتْ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ. قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ تَمِيمٍ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ قَالَ: أَخْبَرْتُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ الصَّلَاحُ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ فَكُلُّ سُوءٍ عَمَلْنَاهُ جَزَيْنَا بِهِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْتَ تَمْرُضُ؟ أَلَسْتَ تَنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تَخْزَنُ؟ أَلَسْتَ تُصَيِّبُ الْلَأْوَاءَ؟» قَالَ: بَلَى. قَالَ: «فَهُوَ مَا تُخْزَوْنَ بِهِ». وَرَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، عَنْ خَلْفِ بْنِ خَلِيفَةَ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ، بِهِ. وَرَوَاهُ ابْنُ حَبَانَ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ أَبِي يَعْلَى، عَنْ أَبِي حَنِئِمَةَ، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ، بِهِ. وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ مِنْ طَرِيقِ سَفِيَانَ الثَّوْرِيِّ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بِهِ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ عَطَاءٍ، عَنْ زِيَادِ الْجَصَّاصِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ فِي الدُّنْيَا». وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْثُودٍ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْشَلٍ عَنْ جُهَيْنَةَ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَبِي طَالِبٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ عَطَاءٍ، حَدَّثَنَا زِيَادُ الْجَصَّاصِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: انْظُرُوا الْمَكَانَ الَّذِي بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ مَصْلُوبًا وَلَا تَمْرُنَّ عَلَيْهِ. قَالَ: فَسَهَا الْغَلَامُ، فَإِذَا ابْنُ عُمَرَ يَنْظُرُ إِلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ فَقَالَ: يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ ثَلَاثًا، أَمَا وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُكَ إِلَّا صَوَامًا قَوَامًا وَصَلَاً لِلرَّحِمِ، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو مَعَ مِثْلِهِ مَا أَصَبْتُ إِلَّا يَعَذِّبُكَ اللَّهُ بَعْدَهَا. قَالَ: ثُمَّ التَفَتَ إِلَيَّ فَقَالَ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا فِي الدُّنْيَا يَجْزَى بِهِ». وَرَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَارِيُّ فِي مُسْنَدِهِ، عَنْ الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ، عَنْ عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ عَطَاءٍ، بِهِ مُخْتَصَرًا. وَقَدْ قَالَ فِي مُسْنَدِ ابْنِ الزُّبَيْرِ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُسْتَمِرِّ الْعُرُوفِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَلِيمٍ بْنُ حَيَّانَ، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ جَدِّي حَيَّانَ بْنِ بَسْطَامٍ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ ابْنِ عُمَرَ، فَمَرَّ بَعْدَ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ وَهُوَ مَصْلُوبٌ، فَقَالَ: رَحِمَكَ اللَّهُ أَبَا حَبِيبٍ، سَمِعْتُ أَبَاكَ - يَعْنِي الزُّبَيْرِ - يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ». ثُمَّ قَالَ: لَا نَعْلَمُهُ يَرُودُ عَنِ الزُّبَيْرِ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْثُودٍ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ كَامِلٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ الْعُوفِيُّ، حَدَّثَنَا رُوحُ بْنُ عَبَادَةَ، حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ عُبَيْدَةَ، حَدَّثَنِي مَوْلَى ابْنِ سَبَاحٍ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ يَحْدُثُ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، هَلْ أَقْرَنَكَ آيَةُ نَزَلَتْ عَلَيَّ؟» قَالَ: قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَأَقْرَنِيهَا فَلَا أَعْلَمُ إِلَّا أَنِّي وَجَدْتُ انْقِصَامًا فِي ظَهْرِي حَتَّى تَمَطَّطْتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَالِكٌ يَا أَبَا بَكْرٍ؟» قُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيْنَا لَمْ يَعْمَلِ السُّوءَ، وَإِنَّا لَمُجْرِمُونَ بِكُلِّ سُوءٍ عَمَلْنَاهُ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ يَا أَبَا بَكْرٍ الْمُؤْمِنُونَ فَتَجْزَوْنَ بِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا حَتَّى تَلْقَوُا اللَّهَ، وَلَيْسَ لَكُمْ ذُنُوبٌ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ فَيَجْمَعُ لَهُمْ ذَلِكَ حَتَّى يَجْزَوْا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ يَحْيَى بْنِ مُوسَى، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، عَنْ رُوحِ بْنِ عَبَادَةَ، بِهِ. ثُمَّ قَالَ: وَمُوسَى بْنُ عُبَيْدَةَ يَضَعُفُ، وَمَوْلَى ابْنِ سَبَاحٍ مَجْهُولٌ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا الْغَلَامُ، حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ، حَدَّثَنَا الْحُجَّاجُ، عَنْ ابْنِ جَرِيرٍ، أَخْبَرَنِي عَطَاءُ بْنُ أَبِي رِيَّاحٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَاءَتْ قَاصِمَةُ الظَّهَرِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا هِيَ الْمَصَابِتُ فِي الدُّنْيَا».

طَرِيقٌ أُخْرَى عَنِ الصَّدِيقِ: قَالَ ابْنُ مَرْثُودٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ إِسْحَاقَ الْعَسْكَرِيِّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَامِرٍ السَّعْدِيُّ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى، حَدَّثَنَا فَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ، عَنْ سَلِيمَانَ بْنِ مِهْرَانَ، عَنْ مُسْلِمٍ بْنِ صُبَيْحٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَشَدَّ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمَصَابِتُ وَالْأَمْرَاضُ وَالْأَحْزَانُ فِي الدُّنْيَا جُزَاء».

طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثني عبد الله بن أبي زياد وأحمد بن منصور قالا: حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنا عبد الملك بن الحسن الحارثي، حدثنا محمد بن زيد بن قُتَيْد، عن عائشة، عن أبي بكر قال: لما نزلت: ﴿مَنْ يَمَلَّ سَوْماً يُجَزَّ بِهِ﴾ قال أبو بكر: يا رسول الله، كل ما نعمل نؤاخذ به؟ فقال: «يا أبا بكر، ليس يصيبك كذا وكذا؟ فهو كفارة».

حديث آخر: قال سعيد بن منصور: أنبأنا عبد الله بن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، أن بكر بن سودة حدثه، أن يزيد بن أبي يزيد حدثه، عن عبيد بن عمير، عن عائشة: أن رجلاً تلا هذه الآية: ﴿مَنْ يَمَلَّ سَوْماً يُجَزَّ بِهِ﴾ فقال: إنا لنجزي بكل عمل؟ هلكتنا إذاً. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «نعم، يجزي به المؤمن في الدنيا، في نفسه، في جسده، فيما يؤذيه».

طريق أخرى: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سلمة بن بشير، حدثنا هُشَيْم، عن أبي عامر، عن ابن أبي مُلَيْكَةَ، عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، إني لأعلم أشد آية في القرآن. فقال: «ما هي يا عائشة؟» قلت: ﴿مَنْ يَمَلَّ سَوْماً يُجَزَّ بِهِ﴾ فقال: «هو ما يصيب العبد المؤمن حتى التَّكْبَةُ يُنْكِبُهَا». ورواه ابن جرير من حديث هشيم، به. ورواه أبو داود، من حديث أبي عامر صالح بن رستم الخزاز، به.

طريق أخرى: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أمية أنها سألت عائشة عن هذه الآية: ﴿مَنْ يَمَلَّ سَوْماً يُجَزَّ بِهِ﴾ فقالت: ما سألتني عن هذه الآية أحد منذ سألت عنها رسول الله ﷺ، سألت رسول الله ﷺ فقال: «يا عائشة، هذه مبايعة الله للعبد، مما يصيبه من الحمى والتَّكْبَةُ والشوكة، حتى البضاعة يضعها في كُمه فيفرغ لها، فيجدها في جيبه، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التَّبرُّ الأحمر من الكبر».

طريق أخرى: قال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا أبو القاسم، حدثنا سُريج بن يونس، حدثنا أبو معاوية، عن محمد بن إسماعيل، عن محمد بن زيد بن المهاجر، عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿مَنْ يَمَلَّ سَوْماً يُجَزَّ بِهِ﴾ قال: «إن المؤمن يؤجر في كل شيء حتى في الفَيْظ عند الموت». وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين، عن زائدة، عن ليث، عن مجاهد، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا كثرت ذنوب العبد، ولم يكن له ما يكفرها، ابتلاه الله بِالْحَزَنِ لِيُكَفِّرَها عنه».

حديث آخر: قال سعيد بن منصور، عن سفيان بن عيينة، عن عمر بن عبد الرحمن بن مُخَيَّصٍ، سمع محمد بن قيس بن مخزومة، يخبر أن أبا هريرة، رضي الله عنه، قال: لما نزلت: ﴿مَنْ يَمَلَّ سَوْماً يُجَزَّ بِهِ﴾ شق ذلك على المسلمين، فقال لهم رسول الله ﷺ: «سَدُّوا وقاربوا، فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يُشَاكُهَا، والتَّكْبَةُ يُنْكِبُهَا». وهكذا رواه أحمد، عن سفيان بن عيينة، ومسلم والترمذي والنسائي، من حديث سفيان بن عيينة، به. ورواه ابن مَرْدُويه من حديث روح ومعتمر كلاهما، عن إبراهيم بن يزيد، عن عبد الله بن إبراهيم، سمعت أبا هريرة يقول: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَمَلَّ سَوْماً يُجَزَّ بِهِ﴾ بكينا وحزنا وقلنا: يا رسول الله، ما أبقت هذه الآية من شيء. قال: «أما والذي نفسي بيده إنها لكما نزلت، ولكن أبشروا وقاربوا وسَدُّوا؛ فإنه لا يصيب أحداً منكم في الدنيا إلا كُفِّرَ الله بها خطيئته، حتى الشوكة يُشَاكُهَا أحدكم في قدمه». وقال عطاء بن يسار، عن أبي سعيد وأبي هريرة: أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «ما يصيب المؤمن من نصب ولا وَصَب ولا سَقَم ولا حَزَن، حتى ألهم يَهْمَهُ، إلا كُفِّرَ به من سيئاته» أخرجه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن سعد بن إسحاق، حدثني زينب بنت كعب بن عُجْزَةَ، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: «أرايت هذه الأمراض التي تصيبنا؟ ما لنا بها؟» قال: «كفارات». قال أبي: وإن قلت؟ قال: «وإن شوكة فما فوقها» قال: فدعا أبي على نفسه أنه لا يفارقه الوُغْكَ حتى يموت، في ألا يشغله عن حج ولا عمرة، ولا جهاد في سبيل الله، ولا صلاة مكتوبة في جماعة، فما مسه إنسان إلا وجد حره، حتى مات، رضي الله عنه. تفرد به أحمد.

حديث آخر: روى ابن مَرْدُويه من طريق حسين بن واقد، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: قيل: يا رسول الله: ﴿مَنْ يَمَلَّ سَوْماً يُجَزَّ بِهِ﴾؟ قال: «نعم، ومن يعمل حسنة يُجَزَّ بها عشرًا. فهلك من غلب واحده عشرًا». وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن: ﴿مَنْ يَمَلَّ سَوْماً يُجَزَّ بِهِ﴾. قال: الكافر، ثم قرأ: ﴿وَهَلْ يُجَزَّى إِلَّا الْكَافِرُ﴾ [سبا: ١٧]. وهكذا روي عن ابن عباس، وسعيد بن جبيرة: أنهما فسرا السوء ههنا بالشرك أيضاً. وقوله: ﴿وَلَا يَحِذُّ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: إلا أن يتوب فيتوب الله عليه. ورواه ابن أبي حاتم. والصحيح أن ذلك عام في جميع الأعمال، لما تقدم من الأحاديث، وهذا اختيار

ابن جرير، والله أعلم. وقوله: ﴿وَمَنْ يَمَلَّ مِنَ الْفَعْلِ يَنْدَهِ وَأَوْ ثَمَّ وَهُوَ يُؤْمِنُ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَبْرًا﴾ (١٢٣) لما ذكر الجزاء على السيئات، وأنه لا بد أن يأخذ مستحقها من العبد إما في الدنيا - وهو الأجود له - وإما في الآخرة - والعياد بالله من ذلك، ونسأله العافية في الدنيا والآخرة، والصفح والعفو والمسامحة - شرح في بيان إحسانه وكرمه ورحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده ذكرانهم وإنائهم، بشرط الإيمان، وأنه سيدخلهم الجنة ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقيير، وهو: النقرة التي في ظهر نواة التمرة، وقد تقدم الكلام على الفتيل، وهو الخيط الذي في شق النواة، وهذا النقيير وهما في نواة التمرة، وكذا القطمير وهو اللقافة التي على نواة التمرة، الثلاثة في القرآن.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾: أخلص العمل لربه، ﷻ، فعمل إيماناً واحتساباً ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: اتبع في عمله ما شرعه الله له، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما، أي: يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله. والصواب أن يكون متبعاً للشريعة فيصح ظاهره بالمطابقة، وباطنه بالإخلاص، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد. فمن فقد الإخلاص كان منافقاً، وهم الذين يراؤون الناس، ومن فقد المطابقة كان ضالاً جاهلاً. ومتى جمعهما فهو عمل المؤمنين: ﴿الَّذِينَ نَقَبَلْتُمُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَنِ الْأَمَانَةِ وَقَدْ أَلْهَبْنَا وَقْدَ الْوَيْدِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحاف: ١٦]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، وهم محمد وأتباعه إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَحِيدُ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوا هَذَا النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَفَّى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُهُ نَبِيًّا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النمل: ١٢٣] والحنيف: هو المائل عن الشرك قصداً، أي تاركاً له عن بصيرة، ومقبل على الحق بكلية، لا يصده عنه صاد، ولا يرد عنه راد. وقوله: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ وهذا من باب الترغيب في اتباعه؛ لأنه إمام يقتدى به، حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له، فإنه انتهى إلى درجة الخلّة التي هي أرفع مقامات المحبة، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه، كما وصفه به في قوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] قال كثيرون من السلف: أي قام بجميع ما أمر به ووفى كل مقام من مقامات العبادة، فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير، ولا كبير عن صغير. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَتَّبِعُ إِبْرَاهِيمَ نَبِيًّا يَكْفُرُونَ فَاتَّخَذَهُ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [شأن: ١٢] شاكراً لأفعاله وأجته وأقربته إلى صراط مستقيم ﷻ وَمَاتَنَّهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَآلَهُ فِي الْآخِرَةِ لَئِنْ الْفَالِغِينَ ﷻ [النحل: ١٢٠-١٢٢]. وقال البخاري: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا شعبه، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن عمرو بن ميمون قال: إن معاذاً لما قدم اليمن صلى الصبح بهم: فقرا: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾. فقال رجل من القوم: لقد قُرّت عين أم إبراهيم. وقد ذكر ابن جرير في تفسيره، عن بعضهم أنه إنما سماه الله خليلاً من أجل أنه أصاب أهل ناحيته جذب، فارتحل إلى خليل له من أهل الموصل - وقال بعضهم: من أهل مصر - ليمتار طعاماً لأهله من قبله، فلم يصب عنده حاجته. فلما قُرب من أهله مرّ بمفازة ذات رمل، فقال: لو ملأت غرّاتي من هذا الرمل، لثلا أغتم أهلي بروجعي إليهم بغير ميرة، وليظنوا أنني أتيتهم بما يحبون. ففعل ذلك، فتحول ما في غرّائه من الرمل دقيقاً، فلما صار إلى منزله نام وقام أهله ففتحو الغرّاء، فوجدوا دقيقاً فعجنوا وخبزوا منه فاستيقظ، فسألهم عن الدقيق الذي منه خبزوا، فقالوا: من الدقيق الذي جثت به من عند خليلك فقال: نعم، هو من خليلي الله. فسماه الله بذلك خليلاً. وفي صحة هذا ووقوعه نظر، وغايته أن يكون خبراً إسرائيلياً لا يُصدّق ولا يُكذب، وإنما سُمّي خليل الله لشدة محبة ربه، ﷻ، له، لما قام له من الطاعة التي يحبها ويرضاها؛ ولهذا ثبت في الصحيحين، من حديث أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ لما خطبهم في آخر خطبة خطبها قال: «أما بعد، أيها الناس، فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله». وجاء من طريق جُنْدُب بن عبد الله البجلي، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ: «إن الله اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً». وقال أبو بكر بن مرزويه: حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم، حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد، حدثنا إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني بمكة، حدثنا عبيد الله الحنفي، حدثنا زُمعة بن صالح، عن سلمة بن وهزام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه، فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذكرون، فسمع حديثهم، وإذا بعضهم يقول: عجباً إن الله اتخذ من خلقه خليلاً فإبراهيم خليله! وقال آخر: ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليماً! وقال آخر: فعيسى روح الله وكلمته! وقال آخر: آدم اصطفاه الله! فخرج عليهم فسلم وقال: «قد سمعت كلامكم وتعجبكم أن إبراهيم خليل الله، وهو كذلك، وموسى كلمه، وعيسى روحه وكلمته، وآدم اصطفاه الله، وهو كذلك

ألا وإني حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع، وأول مشفع ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلق الجنة، يفتح الله فدخلنيها ومعها فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فخر». وهذا حديث غريب من هذا الوجه، ولبعضه شواهد في الصحاح وغيرها. وقال قتادة، وعكرمة، عن ابن عباس أنه قال: أتعجبون من أن تكون الخلّة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. رواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه. وكذا روي عن أنس بن مالك، وغير واحد من الصحابة والتابعين، والأئمة من السلف والخلف. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن عبدك القزويني، حدثنا محمد - يعني ابن سعيد بن سابق - حدثنا عمرو - يعني ابن أبي قيس - عن عاصم، عن أبي راشد، عن عُبَيْد بن عُمَيْر قال: كان إبراهيم عليه السلام يضيف الناس، فخرج يوماً يلتبس إنساناً يضيفه، فلم يجد أحداً يضيفه، فرجع إلى داره فوجد فيها رجلاً قائماً، فقال: يا عبد الله، ما أدخلك داري بغير إذني؟ قال: دخلتها بإذن ربها. قال: ومن أنت؟ قال: أنا ملك الموت، أرسلني ربي إلى عبد من عبادك أبشره أن الله قد اتخذه خليلاً. قال: من هو؟ فوالله إن أخبرتني به ثم كان بأقصى البلاد لآتيته، ثم لا أبرح له جاراً حتى يفرق بيننا الموت. قال: ذلك العبد أنت. قال: أنا؟ قال: نعم. قال: فيم اتخذني الله خليلاً؟ قال: إنك تعطي الناس ولا تسألهم. وحدثنا أبي، حدثنا محمد بن خالد السلمي، حدثنا الوليد، عن إسحاق بن يسار قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً ألقى في قلبه الوجَل، حتى إن كان خفقان قلبه لَيَسْمَع من بعيد، كما يسمع خفقان الطير في الهواء. وهكذا جاء في صفة رسول الله ﷺ: أنه كان يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء. وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملكه وعبيده وخلقه، وهو المتصرف في جميع ذلك، لا راد لما قضى، ولا معقب لما حكم، ولا يسأل عما يفعل، لعظمته وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته. وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: علمه نافذ في جميع ذلك، لا تخفى عليه خافية من عبادك، ولا يغرب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ولا تخفى عليه ذرة لما تراه للناس وما توارى.

﴿وَسَتَقُولُكَ فِي الْيَسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِمْ وَمَا يَتْلُ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتْلَى الْيَسَاءِ الَّذِي لَا تُؤْتُونَهُمْ مَا كُتِبَ لَهُمْ وَرَغِبُونَ أَنْ تَكُونُوا مِنَ الْمُتَنَبِّينَ إِنَّ تَقُولُوا لِيَتْلَى بِأَلْسِنَتِهِمْ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾.

قال البخاري: حدثنا عبيد بن إسماعيل، حدثنا أبو أسامة قال: حدثنا هشام بن عروة، أخبرني أبي، عن عائشة: ﴿وَسَتَقُولُكَ فِي الْيَسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَرَغِبُونَ أَنْ تَكُونُوا مِنَ الْمُتَنَبِّينَ﴾ قالت: هو الرجل تكون عنده البتيمة، هو وليها ووارثها قد شَرِكته في ماله، حتى في العَدَق، فيرغب أن ينكحها، ويكره أن يزوجه رجلاً، فيشركه في ماله بما شركته فيعضلها، فنزلت هذه الآية. وكذلك رواه مسلم، عن أبي كُرَيْب، وعن أبي بكر بن أبي شيبة، كلاهما عن أبي أسامة. وقال ابن أبي حاتم: قرأت على محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يونس، عن ابن شهاب، أخبرني عروة بن الزبير، قالت عائشة: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهم، فأنزل الله: ﴿وَسَتَقُولُكَ فِي الْيَسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِمْ وَمَا يَتْلُ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ الآية، قالت: والذي ذكر الله أنه يتلى عليهم في الكتاب الآية التي قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا كَتَبَ لَكُمْ مِنَ الْيَسَاءِ﴾ [النساء: ٣]. وبهذا الإسناد، عن عائشة قالت: وقول الله ﷻ: ﴿وَرَغِبُونَ أَنْ تَكُونُوا مِنَ الْمُتَنَبِّينَ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمة التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهن عنهن. وأصله ثابت في الصحيحين، من طريق يونس بن يزيد الأيلي، به. والمقصود أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحل له تزويجها، فتارة يرغب في أن يتزوجها، فأمر الله ﷻ أن يمهرا أسوة أمثالها من النساء، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء، فقد وسع الله ﷻ. وهذا المعنى في الآية الأولى التي في أول السورة. وتارة لا يكون للرجل فيها رغبة لِدَمَامَتِهَا عنده، أو في نفس الأمر، فنهى الله ﷻ أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركوه في ماله الذي بينه وبينها، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فِي يَتْلَى الْيَسَاءِ الَّذِي لَا تُؤْتُونَهُمْ مَا كُتِبَ لَهُمْ وَرَغِبُونَ أَنْ تَكُونُوا مِنَ الْمُتَنَبِّينَ﴾ الآية، فكان الرجل في الجاهلية تكون عنده البتيمة، فيلقي عليها ثوبه، فإذا فعل ذلك بها لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً، فإن كانت جميلة وهويها تزوجه وأكل مالها، وإن كانت دميعة منعها الرجال أبداً حتى تموت، فإذا ماتت ورثها. فحَرَّمَ الله ذلك ونهى عنه. وقال في قوله: ﴿وَالْمُتَنَبِّينَ مِنَ الْيَتَامَى﴾: كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات، وذلك قوله: ﴿لَا تُؤْتُونَهُمْ مَا كُتِبَ لَهُمْ﴾، فنهى الله عن ذلك، وبين لكل ذي سهم سهمه، فقال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ مِثْلِ الْأُنثِيَّيْنَ﴾ [النساء: ١١] صغيراً أو كبيراً. وكذا قال سعيد بن جبير وغيره، وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَأَنْتَ تَقُولُوا لِيَتْلَى بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾: كما إذا كانت ذات جمال ومال نكحتها واستأثرت بها، كذلك إذا لم تكن ذات جمال ولا مال فانكحها واستأثرت بها. وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾.

اللَّهُ كَانَ يَوْمَ عَلِيمًا تَهَيَّجًا عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَامْتِنَالِ الْأَمْرِ، وَأَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ عَالَمَ بِجَمِيعِ ذَلِكَ، وَسَيَجْزِي عَلَيْهِ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ وَأَتَمَّهُ.

﴿وَإِنْ أَرَأَيْتُ خَافَتْ مِنْ بَيْلِهَا شُورًا أَوْ إِعْرَاصًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْذِرْتَ أَلَنْفُسُ الشُّحِّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمُنُّ بِمَا قَعَلْتُمْ خَيْرًا﴾ (١٢٨) وَأَنَّ تَسْتَلِيمًا أَنْ تَمْدُلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَكْمِيلُ أَكْلَ الْكَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمَلْعَةِ وَإِنْ ضَلُّوا فَتَقَوُّوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٢٩) وَإِنْ يَفْرَقَا يَتَيْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَكَنٍ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ (١٣٠).

يقول تعالى مخبراً ومشروعاً عن حال الزوجين: تارة في حال نفور الرجل عن المرأة، وتارة في حال اتفاقها معها، وتارة في حال فراقها لها. فالحالة الأولى: ما إذا خافت المرأة من زوجها أن يفر عنها، أو يعرض عنها، فلها أن تسقط حقها أو بعضه، من نفقة أو كسوة، أو مبيت، أو غير ذلك من الحقوق عليه، وله أن يقبل ذلك منها فلا جناح عليها في بذلها ذلك له، ولا عليه في قبوله منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ ثم قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أي: من الفراق. وقوله: ﴿وَأُحْذِرْتَ أَلَنْفُسُ الشُّحِّ﴾ أي الصلح عن المشاحة خير من الفراق؛ ولهذا لما كبرت سودة بنت زمعة عزم رسول الله ﷺ على فراقها، فصالحته على أن يمسكها، وترك يومها لعائشة فقيل ذلك منها وأبقاها على ذلك.

ذكر الرواية بذلك:

قال أبو داود الطيالسي: حدثنا سليمان بن معاذ، عن سيماء بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: خَشِيتُ سَوْدَةَ أَنْ يَطْلُقَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فقالت: يا رسول الله، لا تطلقني واجعل يومي لعائشة. ففعل، ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِنْ أَرَأَيْتُ خَافَتْ مِنْ بَيْلِهَا شُورًا أَوْ إِعْرَاصًا﴾ الآية، قال ابن عباس: فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز. ورواه الترمذي، عن محمد بن المثنى، عن أبي داود الطيالسي، به. وقال: حسن غريب. وقال الشافعي: أخبرنا مسلم، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ توفي عن تسع نسوة، وكان يقسم لثمان. وفي الصحيحين، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة، فكان رسول الله ﷺ يقسم لها بيوم سودة. وفي صحيح البخاري، من حديث الزهري، عن عروة، عن عائشة، نحوه. وقال سعيد بن منصور: أنبأنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن هشام، عن أبيه عروة قال: أنزل الله تعالى في سودة وأشباهها: ﴿وَإِنْ أَرَأَيْتُ خَافَتْ مِنْ بَيْلِهَا شُورًا أَوْ إِعْرَاصًا﴾، وذلك أن سودة كانت امرأة قد أَسْنَتْ، ففرغت أن يفارقها رسول الله ﷺ، وضئت بمكانها منه، وعرفت من حب رسول الله ﷺ عائشة ومنزلتها منه، فوهبت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة، فقيل ذلك النبي ﷺ. قال البيهقي: وقد رواه أحمد بن يونس: عن ابن أبي الزناد، موصولاً. وهذه الطريق رواها الحاكم في مستدركه فقال: حدثنا أبو بكر بن إسحاق الفقيه، أخبرنا الحسن بن علي بن زياد، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: أنها قالت له: يا ابن أخي، كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في مكثه عندنا، وكان قل يوم إلا وهو يطوف علينا، فيدنو من كل امرأة من غير ميسيس، حتى يبلغ إلى من هو يومها فيبيت عندها، ولقد قالت سودة بنت زمعة - حين أسنت وقررت أن يفارقها رسول الله ﷺ -: يا رسول الله، يومي هذا لعائشة. فقيل ذلك رسول الله ﷺ. قالت عائشة: ففي ذلك أنزل الله: ﴿وَإِنْ أَرَأَيْتُ خَافَتْ مِنْ بَيْلِهَا شُورًا أَوْ إِعْرَاصًا﴾. وكذا رواه أبو داود، عن أحمد بن يونس، به. ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه من طريق أبي بلال الأشعري، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، به نحوه. ومن رواية عبد العزيز بن محمد الدراوذي، عن هشام بن عروة، بنحوه مختصراً، والله أعلم. وقال أبو العباس محمد بن عبد الرحمن الدغولي في أول معجمه: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام الدسوقي، حدثنا القاسم بن أبي بزة قال: بعث النبي ﷺ إلى سودة بنت زمعة بطلاقها، فلما أن أتاها جلست له على طريق عائشة، فلما رآته قالت له: أنشدك بالذي أنزل عليك كلامه واصطفاك على خلقه لما راجعتني، فإني قد كبرت ولا حاجة لي في الرجال، لكن أريد أن أبعث مع نسائك يوم القيامة. فراجعها فقالت: إني جعلت يومي وليتي لجة رسول الله ﷺ. وهذا غريب مرسل. وقد قال البخاري: حدثنا محمد بن مقاتل، أخبرنا عبد الله، أخبرنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: ﴿وَإِنْ أَرَأَيْتُ خَافَتْ مِنْ بَيْلِهَا شُورًا أَوْ إِعْرَاصًا﴾ قالت: الرجل تكون عنده المرأة، ليس بمستكثر منها، يريد أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأني في حل. فنزلت هذه الآية. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: ﴿وَإِنْ أَرَأَيْتُ خَافَتْ مِنْ بَيْلِهَا شُورًا أَوْ إِعْرَاصًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ قالت: هذا في المرأة تكون عند الرجل، فلعلة ألا يكون يستكثر منها، ولا يكون لها ولد، ولها صحبة، فتقول: لا تطلقني وأنت في حل من شأني. حدثني المثنى، حدثنا حجاج بن منهال،

حدثنا حماد بن سلمة، عن هشام، عن عروة، عن عائشة في قوله: ﴿وَإِنْ أَمْرَأُكَ خَافَتْ مِنْ بَيْلِهِنَّ شُورًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾، قالت: هو الرجل يكون له المرأتان: إحداهما قد كبرت، أو هي دميمة، وهو لا يستكثر منها، فتقول: لا تطلقني، وأنت في حل من شأني. وهذا الحديث ثابت في الصحيحين، من غير وجه، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة بنحو ما تقدم، والله الحمد والمنة. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْد وابن كعب قالا: حدثنا جرير، عن أشعث، عن ابن سيرين قال: جاء رجل إلى عمر، رضي الله عنه، فسأله عن آية، ففكره ذلك وضربه بالدرة، فسأله آخر عن هذه الآية: ﴿وَإِنْ أَمْرَأُكَ خَافَتْ مِنْ بَيْلِهِنَّ شُورًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ فقال: عن مثل هذا فسلوا. ثم قال: هذه المرأة تكون عند الرجل، قد خلا من سنهها، فيتزوج المرأة الشابة يلمس ولدها، فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسن الهيثمي، حدثنا مُسَدَّد، حدثنا أبو الأحوص، عن يَمَّاك بن حرب، عن خالد بن عَزْرَةَ قال: جاء رجل إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فسأله عن قول الله ﷻ: ﴿وَإِنْ أَمْرَأُكَ خَافَتْ مِنْ بَيْلِهِنَّ شُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ قال علي: يكون الرجل عنده المرأة، فتنبو عيناه عنها من دماستها، أو كبرها، أو سوء خلقها، أو قذوها، ففكره فراقه، فإن وضعت له من مهرها شيئاً حل له، وإن جعلت له من أيامها فلا حرج. وكذا رواه أبو داود الطيالسي، عن شعبة، عن حماد بن سلمة وأبي الأحوص. ورواه ابن جرير من طريق إسرائيل أربعتهم عن يَمَّاك، به. وكذا فسرها ابن عباس، وعبيدة السلماني، ومجاهد بن جَبْر، والشَّعْبِي، وسعيد بن جبيرة، وعطاء، وعطية العوفي ومكحول، والحكم بن عتيبة والحسن، وقتادة، وغير واحد من السلف والأئمة، ولا أعلم في ذلك خلافاً في أن المراد بهذه الآية هذا، والله أعلم. وقال الشافعي: أنبأنا ابن عيينة، عن الزهري، عن ابن المسيب: أن ابنة محمد بن مسلمة كانت ما بدا لك. فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِنْ أَمْرَأُكَ خَافَتْ مِنْ بَيْلِهِنَّ شُورًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ الآية. وقد رواه الحاكم في مستدركه، من طريق عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار بأطول من هذا السياق. وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو سعيد بن أبي عمرو، حدثنا أبو محمد أحمد بن عبد الله المُزَنِي، أنبأنا علي بن محمد بن عيسى، حدثنا أبو اليمان، أخبرني شعيب بن أبي حمزة، عن الزهري، أخبرني سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار: أن السُّنَّة في هاتين الآيتين اللتين ذكر الله فيهما نشوز المرأة وإعراضه عن امرأته في قوله: ﴿وَإِنْ أَمْرَأُكَ خَافَتْ مِنْ بَيْلِهِنَّ شُورًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ إلى تمام الآيتين، أن المرأة إذا نشز عن امرأته وأثر عليها، فإن من الحق أن يعرض عليها أن يطلقها أو تستقر عنده على ما كانت من أثره في القَسَم من ماله ونفسه، فإن استقرت عنده على ذلك، وكرهت أن يطلقها، فلا حرج عليه فيما أثر عليها من ذلك، فإن لم يعرض عليها الطلاق، وصالحها على أن يعطيها من ماله ما ترضاه وتقر عنده على الأثرة في القَسَم من ماله ونفسه، صلح له ذلك، وجاز صلحها عليه، كذلك ذكر سعيد بن المسيب وسليمان الصَّلَح الذي قال الله ﷻ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

وقد ذكر لي أن رافع بن خَدِيج الأنصاري - وكان من أصحاب النبي ﷺ - كانت عنده امرأة حتى إذا كبرت تزوج عليها فتاة شابة، وأثر عليها الشابة، فناشدته الطلاق فطلقها تطليقة، ثم أمهلها، حتى إذا كادت تحل راجعها، ثم عاد فأثر الشابة عليها فناشدته الطلاق فطلقها تطليقة أخرى، ثم أمهلها، حتى إذا كادت تحل راجعها، ثم عاد فأثر الشابة عليها، فناشدته الطلاق فقال لها: ما شئت، إنما بقيت لك تطليقة واحدة، فإن شئت استقررت على ما تَرَيْن من الأثرة، وإن شئت فارقتك، فقالت: لا، بل أستقر على الأثرة. فأمسكها على ذلك، فكان ذلك صلحهما، ولم ير رافع عليه إثمًا حين رضيت أن تستقر عنده على الأثرة فيما أثر به عليها. وهذا رواه بتمامه عبد الرحمن بن أبي حاتم، عن أبيه، عن أبي اليمان، عن شعيب، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار، فذكره بطوله، والله أعلم. وقوله: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني التخيير، أن يخير الزوج لها بين الإقامة والفراق، خير من تمادي الزوج على أثره غيرها عليها. والظاهر من الآية أن صلحهما على ترك بعض حقها للزوج، وقبول الزوج ذلك، خير من المفارقة بالكلية، كما أمسك النبي ﷺ سودة بنت زَمْعَةَ على أن تركت يومها لعائشة، رضي الله عنها، ولم يفارقها بل تركها من جملة نساته، وفعله ذلك لتأسى به أمته في مشروعية ذلك وجوازه، فهو أفضل في حقه عليه الصلاة والسلام. ولما كان الوفاق أحب إلى الله ﷻ من الفراق قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، بل الطلاق بغضض إليه، سبحانه وتعالى، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وابن ماجه جميعاً، عن كثير بن عبيد، عن محمد بن خالد، عن مُعَرَف بن واصل، عن محارب بن دُثَار، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق». ثم رواه أبو داود عن أحمد بن يونس، عن مُعَرَف، عن محارب قال: قال رسول الله ﷺ: «فذكر معناه مرسلًا. وقوله: ﴿وَإِنْ تَحْسَبُوا مُلَأْتُمْ لَكَ اللَّهُ كَاتِبًا يُحْكِمُ لَكُمْ أَيُّكُمْ شَرٌّ وَأَنْ تَتَجَشَّعُوا مُشَقَّةَ الصَّبْرِ عَلَى مِنْ

تكرهون منهم، وتقسموا لهن أسوة أمثالهن، فإن الله عالم بذلك وسيجزىكم على ذلك أوفر الجزاء. وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَقْدُلُوا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي: لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه، فإنه وإن حصل القسم الصوري: ليلة، وليلة، فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع، كما قاله ابن عباس، وعبيدة السلماني، ومجاهد، والحسن البصري، والضحاك بن مزاحم.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا ابن أبي شيبة، حدثنا حسين الجعفي، عن زائدة، عن عبد العزيز بن رُفيع، عن ابن أبي مليكة قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَقْدُلُوا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ في عائشة. يعني: أن النبي ﷺ كان يحبها أكثر من غيرها، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن، من حديث حماد بن سلمة، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن عبد الله بن يزيد، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تمنني فيما تملك ولا أملك» يعني: القلب. لفظ أبي داود، وهذا إسناد صحيح، لكن قال الترمذي: رواه حماد بن زيد وغير واحد، عن أيوب، عن أبي قلابة مرسلًا قال: وهذا أصح. وقوله: ﴿فَلَا تَقْدُلُوا كَلَّ أَتَيْتِلْ﴾ أي: فإذا ملتم إلى واحدة منهم، فلا تبالغوا في الميل بالكلية ﴿فَقَدْ رَوْهَا كَالْمَلَكَةِ﴾ أي فبقى الأخرى معلقة. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان: معناه لا ذات زوج ولا مطلقة. وقد قال أبو داود الطيالسي: أنبأنا همام، عن قتادة، عن النضر بن أنس، عن بشير بن نهيك، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وأحد شِقَّتَيْهِ ساقط». وهكذا رواه الإمام أحمد وأهل السنن، من حديث همام بن يحيى، عن قتادة، به. وقال الترمذي: إنما أسنده همام، ورواه هشام الدستوائي عن قتادة قال: «كان يقال». ولا نعرف هذا الحديث مرفوعًا إلا من حديث همام. وقوله: ﴿وَلَنْ تَقْدُلُوا وَتَقْعُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَدُوًّا رَحِيمًا﴾ أي: وإن أصلحتكم في أموركم، وقسمتم بالعدل فيما تملكون، واتفقتم الله في جميع الأحوال، غفر الله لكم ما كان من ميل إلى بعض النساء دون بعض. ثم قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَفْرَقَا يَحْيَى اللَّهُ كَلَّا مِنْ سَعْيِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَبِشَاءٍ حَكِيمًا﴾ (١٣٢). وهذه هي الحالة الثالثة، وهي حالة الفراق، وقد أخبر تعالى أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيها عنها ويغنيها عنه، بأن يعوضه بها من هو خير له منها، ويعوضها عنه بمن هو خير لها منه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَبِشَاءٍ حَكِيمًا﴾ أي: واسع الفضل عظيم المن، حكيمًا في جميع أفعاله وأقداره وشرعه.

﴿وَلَوْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ (١٣٣) ﴿وَلَوْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ لِلَّهِ عِلْمٌ ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ (١٣٤) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَوَدَّ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيمًا بَصِيرًا﴾ (١٣٥). يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه الحاكم فيهما؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: وصيناكم بما وصيناهم به، من تقوى الله، بعبادته وحده لا شريك له. ثم قال: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾، كما قال تعالى إخبارًا عن موسى أنه قال لقومه: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال: ﴿تَكْفُرُوا وَقُولُوا لَوْلَا وَاسْتَفْتَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦] أي: غني عن عباده، ﴿حَمِيدًا﴾ أي: محمود في جميع ما يقدره ويشعره. وقوله: ﴿وَلَوْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ لِلَّهِ عِلْمٌ ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ (١٣٤) أي: هو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب الشهيد على كل شيء. وقوله: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَمِيدٌ﴾ (١٣٣) أي: هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه، وكما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَقُولُوا لَمْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]. وقال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره! وقال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُدْهِمَكُمْ وَيَأْتِي بِخَلْقٍ غَيْرِكُمْ﴾ (١٣٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٣٧) [إبراهيم: ١٩، ٢٠] أي: ما هو عليه بممتنع. وقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَوَدَّ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: يا من ليس فمه إلا الدنيا، اعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة، وإذا سألته من هذه وهذه أعطاك وأعناك وأفناك، كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلنَّاسِ مِنَ يَكْفُلُ رَبَّنَا مَا لَنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَنَا فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا مَا لَنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَمَا عَذَابُ النَّارِ﴾ (١٣٨) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٣٩) [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ رَدَّ لَمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا فَلْيَفْزِعْ وَمَنْ يَفْزَعْ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ حَرْثَ الدُّنْيَا لِمَنْ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا نَجِيبٌ﴾ (١٤٠) [الشورى: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاقِلَةَ عَجَلًا لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ يُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَمْ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَنُحُورًا﴾ (١٤١) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٤٢) كَلَّا يُدْهِمُكَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَمَلِكُمْ وَمَا

كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْطُورًا ﴿١٣٥﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿١٣٦﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢١]. وقد زعم ابن جرير أن المعنى في هذه الآية: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا» أي: من المنافقين الذين أظهروا الإيمان لأجل ذلك، «وَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا» وهو ما حصل لهم من المغنم وغيرها مع المسلمين. وقوله: «وَالْآخِرَةِ» أي: وعند الله ثواب الآخرة، وهو ما ادخره لهم من العقوبة في نار جهنم. وجعلها كقولهم: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُولٍ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٦﴾» [مروء: ١٥، ١٦]. ولا شك أن هذه الآية معناها ظاهر، وأما تفسيره الآية الأولى بهذا فغيره نظر؛ فإن قوله: «وَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» ظاهر في حضور الخير في الدنيا والآخرة، أي: بيده هذا وهذا، فلا يفتَصِرُ قاصر المهمة على السعي للدنيا فقط، بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة، فإن مرجع ذلك كله إلى الذي بيده الضر والنفع، وهو الله الذي لا إله إلا هو، الذي قد قسم السعادة والشقاوة في الدنيا والآخرة بين الناس، وعدل بينهم فيما علمه فيهم، ممن يستحق هذا، وممن يستحق هذا؛ ولهذا قال: «وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّيِمِينَ يَلْقَظُ شَهَادَةَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَرْتُمْ أَوْ قَاتَلْتُمْ فَأَنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ حَيًّا ﴿١٣٧﴾﴾. يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط، أي: بالعدل، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه. وقوله: «شَهَادَةُ اللَّهِ» كما قال: «وَأَقِمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ» أي: ليكن أداؤها ابتغاء وجه الله، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقاً، خالية من التحريف والتبديل والكتمان؛ ولهذا قال: «وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ» أي: أشهد الحق ولو عاد ضررها عليك وإذا سُئِلْتُ عن الأمر فقل الحق فيه، وإن كان مضرّاً عليك، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً من كل أمر يضيق عليه. وقوله: «أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ» أي: وإن كانت الشهادة على والديك وقربائك، فلا ترأعهم فيها، بل أشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم، فإن الحق حاكم على كل أحد، وهو مقدم على كل أحد. وقوله: «إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا» أي: لا ترعاه لغناه، ولا تشفق عليه لفقره، الله يتولاهما، بل هو أولى بهما منك، وأعلم بما فيه صلاحهما. وقوله: «فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا» أي: فلا يحملنكم الهوى والعصبيّة وبغضة الناس إليكم، على ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أي حال كان، كما قال تعالى: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَاؤُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ» [المائدة: ٨]. ومن هذا القبيل قول عبد الله بن رواحة، لما بعثه النبي ﷺ يخرّص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم، فأرادوا أن يزيشوه ليرفق بهم، فقال: والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليّ، ولأنتم أبغض إليّ من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني خبي إياه وبغضي لكم على ألا أعدل فيكم. فقالوا: «بهذا قامت السموات والأرض». وسياقي الحديث مسنداً في سورة المائدة، إن شاء الله تعالى. وقوله: «وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَرْتُمْ» قال مجاهد وغير واحد من السلف: «تَلَوْا» أي: تحرفوا الشهادة وتغيروها، «وَاللِّي» هو: التحريف وتعمد الكذب، قال الله تعالى: «وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقٌ يَلُونُ أَلَيْسَتْ لَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ أَلْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ أَلْكِتَابٍ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾» [آل عمران: ٧٨]. و«الإعراض» هو: كتمان الشهادة وتركها، قال الله تعالى: «وَمَنْ يَصْنَعْهَا فَإِنَّهُ إِذِمَّ قَلْبُهُ» [البقرة: ٢٨٣]. وقال النبي ﷺ: «خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها». ولهذا توعدهم الله بقوله: «فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ حَيًّا» أي: وسيجازيكم بذلك.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٨﴾﴾. يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقديره وتبنيته والاستمرار عليه. كما يقول المؤمن في كل صلاة: «أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾» [الفاتحة: ٦] أي: بضربنا فيه، وزدنا هدى، وثبتنا عليه. فأمرهم بالإيمان به وبرسوله، كما قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُلِهِ» [الحديد: ٢٨]. وقوله: «وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ» يعني: القرآن «وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ» وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة، وقال في القرآن: «نَزَّلْنَا»؛ لأنه نزل مفرقاً منجماً على الوقائع، بحسب ما يحتاج العباد إليه في معادهم ومعاشهم، وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة؛ ولهذا قال: «وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ» ثم قال: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا

ثم أنطلق معي برجال، معهم حُزَم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار». وفي رواية: «والذي نفسي بيده، لو علم أحدهم أنه يجد عِزًّا سميناً أو مِزَمَاتين حسنتين، لشهد الصلاة، ولولا ما في البيوت من النساء والذرية لحرقت عليهم بيوتهم بالنار». وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمد - هو ابن أبي بكر المقدمي - حدثنا محمد بن دينار، عن إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحسن الصلاة حيث يراه الناس، وأسأها حيث يخلو، فتلك استهانة، استهان بها ربه ﷻ».

وقوله: ﴿وَلَا يَذْكُرُكَ اللَّهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: في صلاتهم لا يشعرون فيها ولا يدرون ما يقولون، بل هم في صلاتهم ساهون لاهون، وعما يراد بهم من الخير معرضون. وقد روى الإمام مالك، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً». وكذا رواه مسلم، والترمذي، والنسائي، من حديث إسماعيل بن جعفر المدني، عن العلاء بن عبد الرحمن، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقوله: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يعني: المنافقين محيرين بين الإيمان والكفر، فلا هم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا مع الكافرين ظاهراً وباطناً، بل ظواهرهم مع المؤمنين، وبواطنهم مع الكافرين. ومنهم من يعتريه الشك، فتارة يميل إلى هؤلاء، وتارة يميل إلى أولئك ﴿كُلَّمَا أَسَآءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَطْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ الآية [البقرة: ٢٠]. قال مجاهد: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يعني: أصحاب محمد ﷺ ﴿وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يعني: اليهود. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تيمر إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة، ولا تدري أيتهما تتبع». تفرد به مسلم. وقد رواه عن محمد بن المثنى مرة أخرى، عن عبد الوهاب، فوقف به على ابن عمر، ولم يرفعه، قال: حدثنا به عبد الوهاب مرتين كذلك. قلت: وقد رواه الإمام أحمد، عن إسحاق بن يوسف عن عبيد الله، به مرفوعاً. وكذا رواه إسماعيل بن عياش وعلي بن عاصم، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر مرفوعاً. وكذا رواه عثمان بن محمد بن أبي شيبة، عن عبدة، عن عبد الله، به مرفوعاً. ورواه حماد بن سلمة، عن عبيد الله - أو عبد الله بن عمر - عن نافع، عن ابن عمر مرفوعاً. ورواه أيضاً صخر بن جويرية، عن نافع عن ابن عمر، عن النبي ﷺ، بمثله. وقال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا الهذيل بن بلال، عن ابن عبيد، عن أبيه: أنه جلس ذات يوم بمكة وعبد الله بن عمر معه، فقال أبي: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل المنافق يوم القيامة كالشاة بين الرِّبَاضِ من الغنم، إن أنت هؤلاء نطحتنا، وإن أنت هؤلاء نطحتنا» فقال له ابن عمر: كذبت. فأثنى القوم على أبي خيراً - أو معروفاً - فقال ابن عمر: لا أظن صاحبكم إلا كما تقولون، ولكنني شاهد نبي الله إذ قال: كالشاة بين الغنمين. فقال: هو سواء. فقال: هكذا سمعته.

وقال أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا المسعودي، عن أبي جعفر محمد بن علي قال: بينما عبيد بن عمير يقص، وعنده عبد الله بن عمر، فقال عبيد بن عمير: قال رسول الله ﷺ: «مثل المنافق كالشاة بين رِبَاضِين، إذا أنت هؤلاء نطحتنا، وإذا أنت هؤلاء نطحتنا». فقال ابن عمر: ليس كذلك قال رسول الله ﷺ، إنما قال رسول الله ﷺ: «كشاة بين غنمين». قال: فاحتفظ الشيخ وغضب، فلما رأى ذلك ابن عمر قال: أما إني لو لم أسمع له لم أرد ذلك عليك.

طريق أخرى: عن ابن عمر، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن عثمان بن بُوْدِيَه، عن يَغْفَر بن زُوْدِي قال: سمعت عبيد بن عمير وهو يقص يقول: قال رسول الله ﷺ: «مثل المنافق كمثل الشاة الرابضة بين الغنمين». فقال ابن عمر: ويلكم. لا تكذبوا على رسول الله ﷺ. إنما قال ﷺ: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: مثل المؤمن والمنافق والكافر مثل ثلاثة نفر انتهوا إلى واد، فدفع أحدهم فجبر، ثم وقع الآخر حتى إذا أتى على نصف الوادي ناداه الذي على شفير الوادي: ويلك. أين تذهب؟ إلى الهلكة؟ أرجع عودك على بدئك، وناداه الذي عبر: هَلَمْ إلى النجاة. فجعل ينظر إلى هذا مرة وإلى هذا مرة، قال: فجاءه سيل فأغرقه، فالذي عبر المؤمن، والذي غرق المنافق: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ والذي مكث الكافر. وقال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا شعبة عن قتادة: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يقول: ليسوا بمؤمنين مخلصين ولا مشركين مصّرّحين بالشرك. قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يضرب مثلاً للمؤمن وللمنافق وللكافر، كمثل رهط ثلاثة دَفَعُوا إلى نهر، فوقع المؤمن فقطع، ثم وقع المنافق حتى إذا كاد يصل إلى المؤمن ناداه الكافر: أن هَلَمْ إلي، فإني أخشى عليك. وناداه المؤمن: أن هَلَمْ إلي، فإني عندي

وعندي؛ يُحصي له ما عنده. فما زال المناقق يتردد بينهما حتى أتى أذى فغزقه. وإن المناقق لم يزل في شك وشبهة، حتى أتى عليه الموت وهو كذلك. قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «مثل المناقق كمثل ثاغية بين غنمين، رأت غنماً على نَشْر فأتتها وشامتها فلم تعرف، ثم رأت غنماً على نَشْر فأتتها وشامتها فلم تعرف». ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أي: ومن صرفه عن طريق الهدى ﴿فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ فإنه: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ والمناقق الذين أضلهم عن سبيل النجاة فلا هادي لهم، ولا منقذ لهم مما هم فيه، فإنه تعالى لا مُعَقِّبَ لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يُسألون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُخْسِلُوا بِكُمْ مَخْلُوعًا شَيْئًا﴾ [١٤٤] إِنَّ الْكُفَّيْنَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾.

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يعني مصاحبتهم ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَسْأَلُوا مِنْهُمْ فَعَنْهُمْ وَنَحْنُ نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ٢٨] أي: يحذركم عقوبته في ارتكابكم نهيه. ولهذا قال ههنا: ﴿أُرِيدُونَ أَنْ يُخْسِلُوا بِكُمْ مَخْلُوعًا شَيْئًا﴾ أي: حجة عليكم في عقوبته إياكم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة عن ابن عباس قوله: ﴿سَلَطْنَا نُنَبِّئُكَ﴾ قال: كل سلطان في القرآن حجة. وهذا إسناد صحيح. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، ومحمد بن كعب القرظي، والضحاك، والسدي، والنضر بن غربي.

ثم أخبر تعالى: ﴿إِنَّ الْكُفَّيْنَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ أي: يوم القيامة، جزاء على كفرهم الغليظ. قال الوالبي عن ابن عباس: ﴿فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ أي: في أسفل النار. وقال غيره: النار دركات، كما أن الجنة درجات. وقال سفيان الثوري، عن عاصم، عن ذكوان أبي صالح، عن أبي هريرة: ﴿إِنَّ الْكُفَّيْنَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قال: في توابيت ترتج عليهم. كذا رواه ابن جرير، عن ابن وكيع، عن يحيى بن يمان، عن سفيان، به. ورواه ابن أبي حاتم، عن المنذر بن شاذان، عن عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: ﴿إِنَّ الْكُفَّيْنَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قال: الدرك الأسفل بيوت لها أبواب تطبق عليهم، فتوقد من تحته ومن فوقهم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كهيل، عن خثيمة، عن عبد الله - يعني ابن مسعود: ﴿إِنَّ الْكُفَّيْنَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قال: في توابيت من نار تطبق عليهم. ورواه ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد الأشج، عن وكيع، عن سفيان، عن سلمة، عن خثيمة، عن ابن مسعود: ﴿إِنَّ الْكُفَّيْنَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قال: في توابيت من حديد مبهمة عليهم، ومعنى قوله: (مبهمة) أي: مغلقة مقفلة لا يهتدى لمكان فتحها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا علي بن يزيد، عن القاسم بن عبد الرحمن: أن ابن مسعود سئل عن المناققين، فقال: يجعلون في توابيت من نار، فتطبق عليهم في أسفل درك من النار. ﴿وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ أي: ينقذهم مما هم فيه، ويخرجهم من أليم العذاب. ثم أخبر تعالى أن من تاب منهم في الدنيا تاب عليه، وقبِلَ ندمه إذا أخلص في توبته وأصلح عمله، واعتصم بربه في جميع أمره، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أي: بذلوا الرباء بالإخلاص، فينفعهم العمل الصالح وإن قل. قال ابن أبي حاتم: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أنبأنا ابن وهب، أخبرني يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن زُحْر، عن خالد بن أبي عمران، عن عمرو بن مرة، عن معاذ بن جبل: أن رسول الله ﷺ قال: «أخلص دينك، يَكْفِكَ القليل من العمل». ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: في زمرة يوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. ثم قال مخبراً عن غناه عما سواه، وأنه إنما يعذب العباد بذنوبهم، فقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ أي: أصلحتم العمل وآمنتُم بالله ورسوله، ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أي: من شكر شكر له ومن آمن قلبه به علمه، وجازاه على ذلك أوفر الجزاء.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَى مِنَ الْقَوْلِ وَلَا مَنْ ظَلَمَ﴾ [١٤٨] إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفَوْهُ أَوْ تَقُولُوا لَنْ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٩﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ يقول: لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد، إلا أن يكون مظلوماً، فإنه قد أرحص له أن يدعو على من ظلمه، وذلك قوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾، وإن صبر فهو خير له. وقال أبو

داود: حدثنا عبد الله بن معاذ، حدثنا أبي، حدثنا سفيان، عن حبيب، عن عطاء، عن عائشة قالت: سُرِق لها شيء، فجعلت تدعو عليه، فقال النبي ﷺ: «لا تُسْبِخِي عنه». وقال الحسن البصري: لا يدع عليه، وليقل: اللهم أعني عليه، واستخرج حقي منه. وفي رواية عنه قال: قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدي عليه. وقال عبد الكريم بن مالك الجزي في هذه الآية: هو الرجل يشتمك فتشتمه، ولكن إن افتري عليك فلا تفتري عليه؛ لقوله: ﴿وَلَمَنْ أَتَمَسَرَ بَدَّ عَلَيْهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [النور: ٤١]. وقال أبو داود: حدثنا القَعْنَبِيُّ، حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «المُسْتَبَيَّنَانِ مَا قَالَا، فعلى الباديء منهما، ما لم يعتد المظلوم». وقال عبد الرزاق: أنبأنا المثنى بن الصباح، عن مجاهد في قوله: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ قال: ضاف رجل رجلاً، فلم يؤد إليه حق ضيافته، فلما خرج أخبر الناس، فقال: «ضفت فلاناً فلم يؤد إليّ حق ضيافتي». فذلك الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم، حين لم يؤد الآخر إليه حق ضيافته. وقال محمد بن إسحاق، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ قال: قال: هو الرجل ينزل بالرجل فلا يحسن ضيافته، فيخرج فيقول: «أساء ضيافتي، ولم يحسن». وفي رواية: هو الضيف المحول رحله، فإنه يجهر لصاحبه بالسوء من القول. وكذا روي عن غير واحد، عن مجاهد، نحو هذا. وقد روى الجماعة سوى النسائي والترمذي، من طريق الليث بن سعد - والترمذي من حديث ابن لهيعة - كلاهما عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير مَرْثَد بن عبد الله، عن عقبة بن عامر قال: قلنا: يا رسول الله، إنك تبعنا فننزل يقوم فلا يقرؤنا، فما ترى في ذلك؟ قال: «إذا نزلتم يقوم فأمرؤا لكم بما ينبغي للضيف، فاقبلوا منهم، وإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت أبا الجودي يحدث، عن سعيد بن المهاجر، عن المقدم أبي كريمة، عن النبي ﷺ أنه قال: «أيما مسلم ضاف قوماً، فأصبح الضيف معزوماً، فإن حقاً على كل مسلم نصره حتى يأخذ بقرى ليلته من زرعه وماله».

تفرد به أحمد من هذا الوجه، وقال أحمد أيضاً: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا شعبة، حدثني منصور، عن الشَّعْبِيِّ عن المقدم أبي كريمة، سمع رسول الله ﷺ يقول: ليلة الضيف واجبة على كل مسلم، فإن أصبح بفئانه محروماً كان ذنباً له عليه، إن شاء اقتضاه وإن شاء تركه. ثم رواه أيضاً عن عُثْمَر عن شعبة. وعن زيادة بن عبد الله البكائي. وعن وكيع، وأبي نعيم، عن سفيان الثوري - ثلاثتهم عن منصور، به. وكذا رواه أبو داود من حديث أبي عوانة، عن منصور، به. ومن هذه الأحاديث وأمثالها ذهب أحمد وغيره إلى وجوب الضيافة، ومن هذا القبيل الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار. حدثنا عمرو بن علي، حدثنا صفوان بن عيسى، حدثنا محمد بن عجلان، عن أبيه، عن أبي هريرة؛ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إن لي جاراً يؤذيني، فقال له: «أخرج متاعك فضعه على الطريق». فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق، فجعل كل من مر به قال: ما لك؟ قال: جاري يؤذيني. فيقول: اللهم العنه، اللهم اعزه! قال: فقال الرجل: ارجع إلى منزلك، وقال: لا أؤذك أبداً.

وقد رواه أبو داود في كتاب الأدب، عن أبي توبة الربيع بن نافع، عن سليمان بن حيان أبي خالد الأحمر، عن محمد بن عجلان به. ثم قال البزار: لا تعلمه يروي عن أبي هريرة إلا بهذا الإسناد، ورواه أبو جَحِيْفَة وهب بن عبد الله، عن النبي ﷺ، ويوسف بن عبد الله بن سلام، عن النبي ﷺ. وقوله: ﴿إِنْ يُدْأَوْ خَيْرًا أَوْ تُخَفَّوْهُ أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [١٦٨] أي: إن تظهروا - أيها الناس - خيراً، أو أخفيتموه، أو عفوتهم عن أساء إليكم، فإن ذلك مما يقربكم عند الله ويجزل ثوابكم لديه، فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم. ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾؛ ولهذا ورد في الأثر: أن حملة العرش يسبحون الله، فيقول بعضهم: سبحانك على حلمك بعد علمك. ويقول بعضهم: سبحانك على عفوك بعد قدرتك. وفي الحديث الصحيح: «ما نقص مال من صدقة، ولا زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله».

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُمِرَّوْا بِآيَةِ اللَّهِ وَرُسُلِهِمْ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَسَلَّوْا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [١٦٩] أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ عَذَابٌ مُهِينٌ [١٧٠] وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِمْ وَلَمْ يُؤْمَرُوا بِأَنْ أَحَلَّ لَهُمْ مِمَّا أَوْلَتْكَ سَوَاءٌ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ أَوْ لَمْ يُؤْتِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا رَحِيمًا [١٧١].

يتوعد تبارك وتعالى الكافرين به وبرسله من اليهود والنصارى، حيث فَرَّقُوا بين الله ورسله في الإيمان، فأمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض، بمجرد التشبه والعادة، وما أُلْفُوا عليه آبائهم، لا عن دليل قادم إلى ذلك، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك بل بمجرد الهوى والعصبية. فاليهود - عليهم لعائن الله - آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرهم محمد ﷺ، والسامرة لا يؤمنون بنبي بعد يوشع خليفة موسى بن عمران، والمجوس يقال:

سورة الأعراف عند قوله: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَدْعُوكَ فِي الْأَسْبَتِ﴾ الآية [الأعراف: ١٦٣] الآية، وسيأتي حديث صفوان بن عسال، في سورة «سبحان» عند قوله: ﴿وَلَقَدْ مَآيَنَّا مُوسَىٰ تَشْعَ مَايَسْتِ يَسْتَتِ﴾ [الإسراء: ١٠١]، وفيه: «عليكم - خاصة يهود - ألا تعدوا في السبت».

﴿فَمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَوَعَلْنَا آلِيَّاهُ بِمَرِيَمَ زَنْبًا عَظِيمًا ١٥٥﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَلَئِنْ لَمْ يَأْخُذُوا بِذِي الشَّكِّ لَئِنْ شَاءَ مَا لَكُمْ بِهِ مِنْ عَلَمٍ ١٥٦﴾ وَلَا إِنِّي لَمَّا عَلِيتُ الْكَلْبَ لَأَكُونَنَّ بِكُمْ ١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَأَلَا يُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا ١٥٩﴾.

وهذه من الذنوب التي ارتكبوها، مما أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى، وهو نقضهم المواثيق والعهود التي أخذت عليهم، وكفرهم بآيات الله، أي: حججه وبراهينه، والمعجزات التي شاهدها على أيدي الأنبياء. عليهم السلام. قوله: ﴿وَوَعَلْنَا آلِيَّاهُ بِمَرِيَمَ زَنْبًا عَظِيمًا ١٥٥﴾، وذلك لكثرة إجرامهم واجترائهم على أنبياء الله، فإنهم قتلوا جماعاً غفيراً من الأنبياء بغير حق عليهم السلام. وقوله: ﴿قَتَلُوا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والسدي، وقادة، وغير واحد: أي في غطاء. وهذا كقول المشركين: ﴿وَقَالُوا قَوْلُنَا فِي أَكْثَرِ مَا دَعَوْنَا إِلَيْهِ وَفِي مَا دَانَا وَقَرَّ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا ١٥٦﴾ [نصت: ٥]. وقيل: معناه أنهم ادعوا أن قلوبهم غُلف للعلم، أي: أوعية للعلم قد حوته وحصلته. رواه الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. وقد تقدم نظيره في سورة البقرة. قال الله تعالى: ﴿بَلْ طَعِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ كُفْرَهُمْ﴾، فعلى القول الأول كأنهم يعتذرون إليه بأن قلوبهم لا تعي ما يقول؛ لأنها في غلف وفي أكنة، قال الله تعالى: بل هو مطبوع عليها بكفرهم. وعلى القول الثاني عكس عليهم ما ادعوه من كل وجه، وقد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة البقرة. ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ١٥٧﴾ أي: مردت قلوبهم على الكفر والطغيان وقلة الإيمان. ﴿وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرِيَمَ زَنْبًا عَظِيمًا ١٥٨﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «يعني أنهم رموها بالزنا». وكذا قال السدي، وجؤبير، ومحمد بن إسحاق وغير واحد. وهو ظاهر من الآية: أنهم رموها وابنها بالعظام، فجعلوها زانية، وقد حملت بولدها من ذلك - زاد بعضهم: وهي حائض - فعليهم لعائن الله المتتابة إلى يوم القيامة. وقولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ١٥٩﴾ أي: هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب قتلناه. وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء، كقول المشركين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَكُمُ الْكِرْكُرُ إِنَّكُمْ لَمَجْنُونُونَ﴾ [الحجر: ٦].

وكان من خبر اليهود - عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه - أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى، حسدوه على ما آتاه الله من النبوة والمعجزات الباهرات، التي كان يرى بها الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ويصور من الطين طائراً ثم ينفخ فيه فيكون طائراً يشاهد طيرانه بإذن الله، ﷺ، إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمها الله بها وأجراها على يديه، ومع هذا كذبوه وخالفوه، وسعوا في آذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل نبي الله عيسى، عليه السلام، لا يسكنهم في بلدة، بل يكثر السباحة هو وأمه، عليهما السلام، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان - وكان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب، وكان يقال لأهل ملته: اليونان - وأنهو إليه: أن يبيت المقدس رجلاً يقن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه. فغضب الملك من هذا، وكتب إلى نائبه بالمقدس أن يحتاط على هذا المذكور، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه، ويكف آذاه على الناس. فلما وصل الكتاب امتثل مثنوئياً بيت المقدس ذلك، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى، عليه السلام، وهو في جماعة من أصحابه، اثنا عشر أو ثلاثة عشر - وقيل: سبعة عشر نفرًا - وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت، فحضره هنالك. فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه، أو خروجه عليهم قال لأصحابه: أياكم يُلقَى عليه شبيهي، وهو رفيقي في الجنة؟ فانتدب لذلك شاب منهم، فكانه استصغره عن ذلك، فأعادها ثانية وثالثة وكل ذلك لا يتدب إلا ذلك الشاب - فقال: أنت هو - وألقى الله عليه شبه عيسى، حتى كأنه هو، وفُتِحَتْ رُوزَنَةُ مَنْ سَقَفَ الْبَيْتِ، وأخذت عيسى عليه السلام سنة من النوم، فرفع إلى السماء وهو كذلك، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوسَىٰ إِنَّهُ مُتَوَلِّيكَ وَرَأَيْكَ إِلَٰكَ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [آل عمران: ٥٥]. فلما رفع خرج أولئك النفر فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى، فأخذوه في الليل وصلبوه، ووضعوا الشوك على رأسه، فأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه وتبجحوا بذلك، وسلم لهم طوائف من النصراري ذلك لجهلم وقلة عقلهم، ما عدا من كان في البيت مع المسيح، فإنهم شاهدوا رفعه، وأما الباقر فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو المسيح ابن مريم، حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت، ويقال: إنه خاطبها، والله أعلم. وهذا كله من امتحان الله عباده؛ لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وقد أوضح الله الأمر وجلاه وبينه وأظهره في

القرآن العظيم، الذي أنزله على رسوله الكريم، المؤيد بالمعجزات والبيّنات والدلائل الواضحات، فقال تعالى - وهو أصدق القائلين، ورب العالمين، المطلع على السرائر والضمائر، الذي يعلم السر في السموات والأرض، العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون -: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي: رأوا شبهه فظنوه إياه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ أَلْبَسُوا لَهُ يَتَابَعًا﴾ أي: لبسوا له ثياباً يشبهه؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي: من أدعى قتله من اليهود، ومن سألهم من جهال النصراني، كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال وسُعر. ولهذا قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي: وما قتلوه متيقنين أنه هو، بل شاكبين متوهمين ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: منيع الجناب لا يرام جنايه، ولا يضام من لا ذنب له، ﴿حَكِيمًا﴾ أي: في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التي يخلقها وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، والسلطان العظيم، والأمر القديم.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج على أصحابه - وفي البيت اثنا عشر رجلاً من الحواريين - يعني: فخرج عليهم من عين في البيت، ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بي اثني عشرة مرة، بعد أن آمن بي. ثم قال: أيكم يُلقَى عليه شهبي، فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدتهم سناً، فقال له: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب، فقال: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا. فقال: أنت هو ذاك. فألقى عليه شبه عيسى. ورفع عيسى من رَوْزَنَةِ في البيت إلى السماء. قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه، ثم صلبوه وكفروا به بعضهم اثني عشرة مرة، بعد أن آمن به، وافترقوا ثلاث فرق، فقالت طائفة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء. وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء، ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء، ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرات على المسلمة، فقتلوا، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ورواه النسائي عن أبي كُرَيْب، عن أبي معاوية، بنحوه. وكذا ذكر غير واحد من السلف أنه قال لهم: أيكم يُلقَى عليه شهبي فيقتل مكاني، وهو رفيقي في الجنة؟ وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب القمي، عن هارون بن عنترة، عن وهب بن مُثَنَّب قال: أتى عيسى وعنده سبعة عشر من الحواريين في بيت وأحاطوا بهم. فلما دخلوا عليه صَوَّرَهُم الله، ﷻ، كلهم على صورة عيسى، فقالوا لهم: سحرتُمونا. ليبرز لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً. فقال عيسى لأصحابه: من يشري نفسه منكم اليوم بالجنة؟ فقال رجل منهم: أنا. فخرج إليهم وقال: أنا عيسى - وقد صورته الله على صورة عيسى - فأخذوه، وقتلوه وصلبوه. فمن ثَمَّ شُبِّهَ لهم، فظنوا أنهم قد قتلوا عيسى، وظنّت النصراني مثل ذلك أنه عيسى، ورفع الله عيسى من يومه ذلك. وهذا سياق غريب جداً. قال ابن جرير: وقد روى عن وهب نحو هذا القول، وهو ما حدثني به المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم، حدثني عبد الصمد بن يعقوب، أنه سمع وهباً يقول: إن عيسى ابن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا، جزع من الموت وشقَّ عليه، فدعا الحواريين فصنع لهم طعاماً، فقال: أحضروني الليلة، فإن لي إليكم حاجة. فلما اجتمعوا إليه من الليل عَشَاهُمْ وقام يخدمهم. فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده، ويمسح أيديهم بشيابه، فتعاضلوا ذلك وتكاهروه، فقال: ألا من رد علي شيئاً الليلة مما أصنع، فليس مني ولا أنا منه. فأقروه، حتى إذا فرغ من ذلك قال: أنا ما صنعت بكم الليلة، ما خدمتكم على الطعام، وغسلت أيديكم بيدي، فليكن لكم بي أسوة، فإنكم ترون أنني خيركم، فلا يتعظّم بعضكم على بعض، وليبذل بعضكم نفسه لبعض، كما بذلت نفسي لكم. وأما حاجتي الليلة التي أستعينكم عليها فتدعون لي الله، وتجتهدون في الدعاء أن يؤخر أجلي. فلما نصبوا أنفسهم للدعاء، وأرادوا أن يجتهدوا، أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء، فجعل يوقظهم ويقول: سبحان الله! أما تصبرون لي ليلة واحدة تعينوني فيها؟ قالوا: والله ما ندرى ما لنا. لقد كنا نُسَمِّرُ فنكثر السَمَر، وما نطيق الليلة سَمراً، وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه. فقال: يُذْهَبُ بالراعي وتفرق الغنم. وجعل يأتي بكلام نحو هذا يعني به نفسه. ثم قال: الحق، ليُكْفَرَنَ بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات، وليبيني أحدكم بdraهم يسيرة، وليأكلن ثمنني، فخرجوا وتفرقوا، وكانت اليهود تطلبه، وأخذوا شمعون أحد الحواريين، وقالوا: هذا من أصحابه. فجحد وقال: ما أنا بصاحبه فتركوه، ثم أخذه آخرون، فجحد كذلك. ثم سَمِعَ صوت ديك فيكي وأحزنه، فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال: ما تجعلون لي إن دَلَلْتُكُمْ على المسيح؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً، فأخذها ودلّهم عليه، وكان شُبِّهَ عليهم قبل ذلك، فأخذوه فاستوثقوا منه، وربطوه بالحبل، وجعلوا يقودونه ويقولون له: أنت كنت تحيي الموتى، وتنهى الشيطان، وتبرئ المجنون، أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل؟ ويصقون عليه،

ويلقون عليه الشوك، حتى أتوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها، فرفعه الله إليه، وصلبوا ما شئ به لهم فمكث سبعاً.

ثم إن أمه والمرأة التي كان يداويها عيسى عليه السلام، فأبرأها الله من الجنون، جاءتا تبكيان حيث المصلوب، ففجأهما عيسى فقال: علام تبكيان؟ فقلنا: عليك. فقال: إني قد رفعتني الله إليه، ولم يصبني إلا خير، وإن هذا شئ به لهم فأمرًا الحواريين يلقونني إلى مكان كذا وكذا. فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر. وفقدوا الذي كان باعه ودل عليه اليهود، فسأل عنه أصحابه فقال: إنه ندم على ما صنع فاختنق، وقتل نفسه فقال: لو تاب لتاب الله عليه. ثم سأله عن غلام كاد يتبعهم، يقال له: يحيى، قال: هو معكم، فانطلقوا، فإنه سيصبح كل إنسان يحدث بلغة قومه، فلينذروهم وليدعهم. سياق غريب جداً. ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق قال: كان اسم ملك بني إسرائيل الذي بعث إلى عيسى ليقنتله رجلاً منهم، يقال له: داود، فلما أجمعوا لذلك منه، لم يقطع عبد من عباد الله بالموت - فيما ذكر لي - فقطع ولم يجزع منه جزعه، ولم يدع الله في صرفه عنه دعاءه، حتى إنه ليقول - فيما يزعمون - «اللهم إن كنت صارفاً هذه الكأس عن أحد من خلقك فاصرفها عني» وحتى إن جلده من كرب ذلك ليتفصد دماً. فدخل المدخل الذي أجمعوا أن يدخلوا عليه فيه ليقنتلوه هو وأصحابه، وهم ثلاثة عشر بعيسى، عليه السلام، فلما أيقن أنهم داخلون عليه قال لأصحابه من الحواريين - وكانوا اثني عشر رجلاً - فطرس ويعقوب بن زبدي ويحس أخو يعقوب، وأنديرايس، وفيلبس، وأبرثلما ومنى وتوماس، ويعقوب بن حلفيا، وتداوسيس، وقثانيا، ويودس زكريا يوطا. قال ابن حميد: قال سلمة، قال ابن إسحاق: وكان فيهم فيما ذكر لي رجل اسمه سرجس، فكانوا ثلاثة عشر رجلاً سوى عيسى، عليه السلام، جحدته النصراني، وذلك أنه هو الذي شئ به لليهود مكان عيسى عليه السلام. قال: فلا أدري ما هو؟ من هؤلاء الإثني عشر، أو كان ثالث عشر، فجحدوه حين أقروا لليهود بصلب عيسى، وكفروا بما جاء به محمد ﷺ من الخبر عنه. فإن كانوا ثلاثة عشر فإنهم دخلوا المدخل حين دخلوا وهم بعيسى أربعة عشر، وإن كانوا اثني عشر، فإنهم دخلوا المدخل حين دخلوا وهم ثلاثة عشر.

قال ابن إسحاق: وحدثني رجل كان نصرانياً فأسلم: أن عيسى حين جاءه من الله: ﴿وَرَأَيْتُكَ إِلًا﴾ [إك عمران: ٥٥]، قال: يا معشر الحواريين، أياكم يحب أن يكون رفيقي في الجنة على أن يشبه للقوم في صورتي، فيقتلوه في مكاني؟ فقال سرجس: أنا، يا روح الله. قال: فاجلس في مجلسي. فجلس فيه، ورفع عيسى عليه السلام، فدخلوا عليه فأخذوه فصلبوه، فكان هو الذي صلبوه وشئ به لهم به، وكانت عدتهم حين دخلوا مع عيسى معلومة، قد رأوهم وأحصوا عدتهم. فلما دخلوا عليه ليأخذوه وجدوا عيسى فيما يُزَوَّن وأصحابه، وفقدوا رجلاً من العدة، فهو الذي اختلّفوا فيه وكانوا لا يعرفون عيسى، حتى جعلوا ليودس زكريا يوطا ثلاثين درهماً على أن يدلهم عليه ويعرفهم إياه، فقال لهم: إذا دخلتم عليه فإني سأقبله، وهو الذي أقبل، فخذوه. فلما دخلوا وقد رفع عيسى، ورأى سرجس في صورة عيسى، فلم يشك أنه عيسى، فأكب عليه فقبله، فأخذوه فصلبوه. ثم إن يودس زكريا يوطا ندم على ما صنع، فاختنق بحبل حتى قتل نفسه، وهو ملعون في النصراني، وقد كان أحد المعدودين من أصحابه، وبعض النصراني يزعم أن يودس زكريا يوطا هو الذي شبه لهم فصلبوه وهو يقول: «إني لست بصاحبكم. أنا الذي دلتكم عليه». والله أعلم أي ذلك كان. وقال ابن جرير، عن مجاهد: صلبوا رجلاً شبهوه بعيسى، ورفع الله، ﷺ، عيسى إلى السماء حياً. واختار ابن جرير أن شبه عيسى ألقي على جميع أصحابه. وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [١٥٩]. قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: ﴿وَلَنْ يَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ يعني: قبل موت عيسى - يُؤَجَّه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة الإسلام الحنفية، دين إبراهيم، عليه السلام.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن أبي حصين، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَلَنْ يَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: قبل موت عيسى ابن مريم. وقال العوفي عن ابن عباس مثل ذلك. وقال أبو مالك في قوله: ﴿إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: ذلك عند نزول عيسى ابن مريم، عليه السلام، لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن به. وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَنْ يَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ يعني: اليهود خاصة. وقال الحسن البصري: يعني النجاشي وأصحابه. ورواهما ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: وحدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيقَة، حدثنا أبو رجاء عن الحسن: ﴿وَلَنْ يَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: قبل موت عيسى. والله إنه الآن حي عند الله، ولكن إذا نزل آمنوا

به أجمعون. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن عثمان اللاحق، حدثنا جويرية بن بشر قال: سمعت رجلاً قال للحسن: يا أبا سعيد، قول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِذَا لُؤِيْمَةً يَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: «قبل موت عيسى. إن الله رفع عيسى إليه، وهو باعته قبل يوم القيامة مقاماً يؤمن به البر والفاجر». وكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد. وهذا القول هو الحق، كما سنبينه بعد بالدليل القاطع، إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان. قال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِذَا لُؤِيْمَةً يَهُ قَبْلَ مَوْتِ الْكَتَابِيِّ﴾. ذكر من كان يُوجه ذلك إلى أنه إذا عاين علم الحق من الباطل؛ لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل في دينه. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِذَا لُؤِيْمَةً يَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى. حدثني المثنى، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجیح، عن مجاهد في قوله: ﴿إِلَّا لُؤِيْمَةً يَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾: كل صاحب كتاب يؤمن بعيسى قبل موته - قبل موت صاحب الكتاب - وقال ابن عباس: لو ضربت عنقه لم تخرج نفسه حتى يؤمن بعيسى. حدثنا ابن حميد، حدثنا أبو ثُمَيْلَةَ يحيى بن واضح، حدثنا حسين بن واقد، عن يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لا يموت اليهودي حتى يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله، ولو عجل عليه بالسلاح. حدثني إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، حدثنا عتاب بن بشير، عن خُصَيْف، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِذَا لُؤِيْمَةً يَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: هي في قراءة أبي: «قبل موتهم» ليس يهودي يموت أبداً حتى يؤمن بعيسى. قيل لابن عباس: أرأيت إن خَرَّ من فوق بيت؟ قال: يتكلم به في الهوي. فقيل: أرأيت إن ضربت عنق أحد منهم؟ قال: يُخْلَجُ بها لسانه. وكذا رَوَى سفيان الثوري عن خُصَيْف، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِذَا لُؤِيْمَةً يَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى، عليه السلام، وإن ضرب بالسيف تكلم به، قال: وإن هَوَى تكلم به وهو يهوي. وكذا رَوَى أبو داود الطيالسي، عن شعبة، عن أبي هارون العَوثي، عن عكرمة، عن ابن عباس. فهذه كلها أسانيد صحيحة إلى ابن عباس، وكذا صَحَّ عن مجاهد، وعكرمة، ومحمد بن سيرين. وبه يقول الضحاک وجُوَيْر، والسدي، وحكاه ابن عباس، ونُقِلَ قراءة أبي بن كعب: «قبل موتهم». وقال عبد الرزاق، عن إسرائيل، عن فرات القزاز، عن الحسن في قوله: ﴿إِلَّا لُؤِيْمَةً يَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: لا يموت أحد منهم حتى يؤمن بعيسى قبل أن يموت. وهذا يحتمل أن يكون مراد الحسن ما تقدم عنه، ويحتمل أن يكون مراده ما أَرَادَهُ هُؤْلَاءُ. قال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتابي.

ذكر من قال ذلك:

حدثني ابن المثنى، حدثنا الحجاج بن منهال، حدثنا حماد، عن حميد قال: قال عكرمة: لا يموت النصراني ولا اليهودي حتى يؤمن بمحمد ﷺ يعني في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِذَا لُؤِيْمَةً يَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾. ثم قال ابن جرير: وأولى هذه الأقوال بالصحة القول الأول، وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى، عليه السلام، إلا آمن به قبل موته، أي قبل موت عيسى، عليه السلام، ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير، رحمه الله هو الصحيح؛ لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبه لهم فقتلوا الشبيه وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفعه إليه، وإنه باق حي، وإنه سينزل قبل يوم القيامة، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة - التي سنوردها إن شاء الله قريباً - فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية - يعني: لا يقبلها من أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف - فأخبرت هذه الآية الكريمة أن يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ، ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِذَا لُؤِيْمَةً يَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي: قبل موت عيسى، الذي زعم اليهود ومن وافقهم من النصارى أنه قتل وصلب. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي: بأعمالهم التي شاهدها منهم قبل رفعه إلى السماء وبعد نزوله إلى الأرض. فاما من فسر هذه الآية بأن المعنى: أن كل كتابي لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمد، عليهما الصلاة والسلام، فهذا هو الواقع، وذلك أن كل أحد عند احتضاره يتجلى له ما كان جاهلاً به، فيؤمن به، ولكن لا يكون ذلك إيماناً نافعاً له، إذا كان قد شاهد الملك، كما قال تعالى في أول هذه السورة ﴿وَلَيْسَ النَّبِيُّ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِنْ كَانَ قَدْ شَهِدَ الْمَوْتَ قَالَ إِنِّي بُدِّئْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّاءُ﴾ الآية (النساء: ١٨)، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمْ وَكُفَّرْنَا بِمَا كُنَّا بِيَهُ مُشْرِكِينَ﴾ (٢٨) فَلَمْ يَكُنْ يَفْقَهُمْ لِمَا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ الآيتين (غافر: ٨٤، ٨٥) وهذا يدل على ضعف ما احتج به ابن جرير في رد هذا القول، حيث قال: ولو كان المراد بهذه الآية هذا،

لكان كل من آمن بمحمد أو بالمسيح، ممن كفر بهما - يكون على دينهما، وحينئذ لا يرثه أقرباؤه من أهل دينه؛ لأنه قد أخبر الصادق أنه يؤمن به قبل موته. فهذا ليس بجيد؛ إذ لا يلزم من إيمانه في حالة لا ينفعه إيمانه أنه يصير بذلك مسلماً، ألا ترى إلى قول ابن عباس: «لو تردى من شاهق أو ضرب بسيف وافترسه شبح، فإنه لا بد أن يؤمن بعيسى» فالإيمان في مثل هذه الحالات ليس بنافع، ولا ينقل صاحبه عن كفره لما قدمناه، والله أعلم. ومن تأمل هذا جيداً وأمعن النظر، اتضح له أن هذا، وإن كان في الواقع، لكن لا يلزم منه أن يكون المراد بهذه الآية هذا، بل المراد بها ما ذكرناه من تقرير وجود عيسى، عليه السلام، وبقاء حياته في السماء، وأنه سينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة؛ ليكذب هؤلاء وهؤلاء من اليهود والنصارى الذين تابيت أقوالهم فيه وتضادات وتعاكست وتناقضت، وخلت عن الحق، ففرط هؤلاء اليهود وأفرط هؤلاء النصارى: تنقصة اليهود بما رموه به وأمه من العظام، وأطراه النصارى بحيث ادعوا فيه بما ليس فيه، فرفعوه في مقابلة أولئك عن مقام النبوة إلى مقام الربوبية، تعالى الله عن قول هؤلاء وهؤلاء علواً كبيراً، وتنزه وتقدس لا إله إلا هو.

ذكر الأحاديث الواردة في نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض من السماء، في آخر الزمان قبل يوم القيامة، وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له:

قال البخاري، رحمه الله، في كتاب ذكر الأنبياء، من صحيحه المتلقي بالقبول: (نزول عيسى ابن مريم - عليه السلام): حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي، عن صالح، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لَيُؤْشِكَنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حَكَمًا عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة خيراً من الدنيا وما فيها». ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: «وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَأَلَا يُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۝١٥٦». وكذا رواه مسلم عن الحسن الخُلَواتي وعبد بن حميد كلاهما، عن يعقوب، به. وأخرجه البخاري ومسلم، أيضاً، من حديث سفيان بن عيينة، عن الزهري، به. وأخرجه من طريق الليث عن الزهري به. ورواه ابن مردويه من طريق محمد بن أبي حفصة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يكون فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، يقتل الدجال، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، ويفيض المال، وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين». وقال أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: «وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَأَلَا يُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ ۝١٥٦» موت عيسى ابن مريم، ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات.

طريق أخرى عن أبي هريرة: قال الإمام أحمد: حدثنا زُوَيْح، حدثنا محمد بن أبي حفصة، عن الزهري، عن حنظلة بن علي الأسلمي، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لَيُهْلَنَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَقْعَ الرُّجَاءِ بِالْحَجِّ أَوْ الْعِمْرَةِ أَوْ لَيْشِيهَما جَمِيعاً». وكذا رواه مسلم منفرداً به من حديث سفيان بن عيينة، والليث بن سعد، ويونس بن يزيد، ثلاثهم عن الزهري به. وقال أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا سفيان - هو ابن حسين - عن الزهري، عن حنظلة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الخنزير، ويمحو الصليب، وتجمع له الصلاة، ويعطى المال حتى لا يقبل، ويضع الخراج، وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجتمعهما». قال: وتلا أبو هريرة: «وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَأَلَا يُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۝١٥٦». فزعم حنظلة أن أبا هريرة قال: يؤمن به قبل موت عيسى، فلا أدري هذا كله حديث النبي ﷺ أو شيء قاله أبو هريرة. وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن أبي موسى محمد بن المثنى، عن يزيد بن هارون، عن سفيان بن حسين عن الزهري، به.

طريق أخرى: قال البخاري: حدثنا ابن بَكَيْر، حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، عن نافع مولى أبي قتادة الأنصاري؛ أن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل فيكم المسيح ابن مريم، وإمامكم منكم؟» تابعه عقيل والأوزاعي. وهكذا رواه الإمام أحمد، عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، وعن عثمان بن عمر، عن ابن أبي ذئب، كلاهما عن الزهري، به. وأخرجه مسلم من رواية يونس والأوزاعي وابن أبي ذئب، به.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا هَمَّام، أنبأنا قتادة، عن عبد الرحمن، عن أبي هريرة؛ أن النبي ﷺ قال: «الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وإنني أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجل مربع إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان مُصَصَّرَان، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بَلَلٌ، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويدعو الناس إلى الإسلام، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك الله

في زمانه المسيح الدجال، ثم تقع الأمانة على الأرض، حتى ترتع الأسود مع الإبل، والتمار مع البقر، والذئب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم، فيمكث أربعين سنة، ثم يَتَوَفَّى ويصلي عليه المسلمون».

وكذا رواه أبو داود، عن هُذَيْفَةَ بن خالد، عن همام بن يحيى. رواه ابن جرير - ولم يورد عند هذه الآية سواه - عن يَشْر بن معاذ، عن يزيد بن هارون، عن سعيد بن أبي عروبة - كلاهما عن قتادة، عن عبد الرحمن بن آدم - وهو مولى أم يُزَيْن - صاحب السقاية، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، فذكر نحوه، وقال: فيقاتل الناس على الإسلام. وقد روى البخاري، عن أبي اليمان، عن شعيب، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم، والأنبياء أولاد علات، ليس بيني وبينه نبي». ثم روى عن محمد بن سنان: عن قُتَيْب بن سليمان، عن هلال بن علي، عن عبد الرحمن بن أبي عُمَرَ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد» وقال إبراهيم بن طهمان، عن موسى بن عقبة، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ.

حديث آخر: قال مسلم في صحيحه: حدثني زُهَيْر بن حرب، حدثنا مُعَلَّى بن منصور، حدثنا سليمان بن بلال، حدثنا سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق - أو يدايق - فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قال الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم. فيقول المسلمون: لا، والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا. فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويُقَتَّل ثلث أفضل الشهداء عند الله ﷻ، ويفتح الثلث لا يفتنون أبداً فيفتحون قسطنطينية، فبينما هم يقسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم. فيخرجون، وذلك باطل. فإذا جاؤوا الشام خرج، فبينما هم يُعَدُّون للقتال: يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم فأمهم فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانداب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيرهم دمه في حُرْبَتِهِ».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم، عن العَوَّام بن حَوْشَب، عن جَبَلَةَ بن سُحَيْم، عن مُؤَثَّر بن عَفَّازة، عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «القيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى، عليهم السلام، فتذكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم، فقال: لا علم لي بها. فردوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا علم لي بها. فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال: أما وجبتنا فلا يعلم بها أحد إلا الله، وفيما عهد إلي ربي - ﷺ - أن الدجال خارج قال: ومعني قضيبان، فإذا رأيته ذاب كما يذوب الرصاص، قال: فيهلكه الله إذا رأيته حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم، إن تحتي كافراً فتعال فاقتله: قال: فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل خَدَب ينسلون، فيطؤون بلادهم، فلا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه، قال: ثم يرجع الناس إلي يشكونهم، فادعوا الله عليهم، فيهلكهم ويميتهم، حتى تَجُوزَ الأرض من نَفث ريحهم، وينزل الله المطر، فيجترف أجسادهم حتى تقذفهم في البحر، ففيما عهد إلي ربي - ﷺ - أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل الميِّم، لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلاً أو نهاراً. ورواه ابن ماجه، عن محمد بن بشار، عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حَوْشَب، به نحوه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي نَضْرَةَ قال: أتينا عثمان بن أبي العاص في يوم جمعة؛ لنعرض عليه مصحفاً لنا على مصحفه، فلما حضرت الجمعة أمرنا فاغتسلنا، ثم أتينا بطيب فطيبنا، ثم جئنا المسجد فجلسنا إلى رجل، فحدثنا الدجال. ثم جاء عثمان بن أبي العاص فقمنا إليه، فجلسنا فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون للمسلمين ثلاثة أمصار: مصر بملتقى البحرين، ومصر بالحيرة، ومصر بالشام. فيفرق الناس ثلاث فزعات، فيخرج الدجال في أعراض الناس، فيهزم من قبل المشرق، فأول مصر يرده المصر الذي بملتقى البحرين، فيصير أهلهم ثلاث فرق: فرقة تُقيم تقول: نُشامه ننظر ما هو وفرقة تلحق بالأعراب، وفرقة تلحق بالمصر الذي يليهم. ومع الدجال سبعون ألفاً عليهم السجبان وأكثر من معه اليهود والنساء، ثم يأتي مصر الذي يليه، فيصير أهله ثلاث فرق: فرقة تقول: نشامه وننظر ما هو؟ وفرقة تلحق بالأعراب، وفرقة تلحق بالمصر الذي يليهم بغرب الشام وينحاز المسلمون إلى عقبه أفيق فيبعثون سرحاً لهم، فيصاب سرحهم، فيشتد ذلك عليهم، وتصيبهم مجاعة شديدة وجهد شديد، حتى إن أحدهم ليحرق وتر قوسه فيأكله، فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من السَّحَر: «يا أيها الناس، أتاكم الغوث ثلاثاً» فيقول بعضهم لبعض: إن هذا لصوت رجل شعبان، وينزل عيسى ابن مريم، عليه السلام، عند صلاة الفجر، فيقول له أميرهم: روح الله، تقدَّم صل. فيقول:



هذه الأمة أمراء، بعضهم على بعض. فيتقدم أميرهم فيصللي، فإذا قضى صلاته أخذ عيسى حُرَّتَه، فيذهب نحو الدجال، فإذا رآه الدجال ذاب كما يذوب الرصاص، فيضع حُرَّتَه بين ثَنَدَوَتِه، فيقتله وينهزم أصحابه، فليس يومئذ شيء يوازي أحداً، حتى إن الشجرة لتقول: يا مؤمن، هذا كافر. ويقول الحجر: يا مؤمن، هذا كافر. تفرد به أحمد من هذا الوجه.

حديث آخر: قال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة في سننه المشهورة: حدثنا علي بن محمد، حدثنا عبد الرحمن المحاربي، عن إسماعيل بن رافع أبي رافع، عن أبي رَزْعة الشيباني يحيى بن أبي عمرو، عن أبي أمامة الباهلي قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فكان أكثر خطبته حديثاً حدثناه عن الدجال، وحذرناه، فكان من قوله أن قال: «لم تكن فتنة في الأرض، منذ ذرأ الله ذرية آدم عليه السلام، أعظم من فتنة الدجال، وإن الله لم يبعث نبياً إلا حذر أمته الدجال. وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم، وهو خارج فيكم لا محالة، فإن يخرج وأنا بين ظَهْرَانِيْكُمْ، فأنا حجيح لكل مسلم، وإن يخرج من بعدي فكل امرئ حجيح نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، وإنه يخرج من خَلَّةِ بين الشام والعراق، فيبعث يميناً وبعيث شمالاً». «ألا يا عباد الله، أيها الناس، فاثبتوا. وإني سأصفه لكم صفة لم يصفها إياه نبي قبلي: إنه يبدأ فيقول: «أنا نبي» فلا نبي بعدي. ثم ينهي فيقول: «أنا ربكم»، ولا ترون ربكم حتى تموتوا. وإنه أعور وإن ربكم، ﷺ، ليس بأعور، وإنه مكتوب بين عينيه: كافر، يقرؤه كل مؤمن، كاتب وغير كاتب. وإن من فتنته أن معه جنة وناراً، فإِنَّهُ جنة وجنَّة نار. فمن ابتلي بناره فليستغث بالله وليقرأ فواتح الكهف، فتكون عليه برداً وسلاماً، كما كانت النار على إبراهيم عليه السلام، وإن من فتنته أن يقول لأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك أتشهد أنني ربك؟ فيقول: نعم. فيمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بني، اتبعه، فإنه ربك. وإن من فتنته أن يُسَلِّطَ على نفس واحدة فيقتلها وينشرها بالمنشار، حتى يُلْقَى شقين ثم يقول: انظروا إلى عبيدي هذا، فإني أبعثه الآن، ثم يزعم أن له رباً غيري. فيبعث الله، فيقول له الخبيث: من ربك، فيقول: ربي الله. وأنت عدو الله، أنت الدجال، والله ما كنت بعد أشد بصيرة بك مني اليوم». قال أبو الحسن الطنَّافسي: فحدثنا المحاربي، حدثنا عبيد الله بن الوليد الوصافي، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ذلك الرجل أرفع أمتي درجة في الجنة». قال: قال أبو سعيد: والله ما كنا نَرَى ذلك الرجل إلا عمر بن الخطاب، حتى مضى لسيِّله. قال المحاربي: ثم رجعنا إلى حديث أبي رافع قال: وإن من فتنته أن يأمر السماء أن تُمَطَّرَ، فتُمَطَّرُ، ويأمر الأرض أن تنبت، فتنبت، وإن من فتنته أن يُمرَّ بالحي فيكذبونه، فلا تبقى لهم سائمة إلا هلك، وإن من فتنته أن يمر بالحي فيصدقونه، فيأمر السماء أن تمطر، فتُمَطَّرُ، ويأمر الأرض أن تنبت، فتنبت. حتى تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمن ما كانت وأعظمه، وأمدّه خواصر، وأدره ضروعاً، وإنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطنه وظهر عليه، إلا مكة والمدينة، فإنه لا يأتيهما من ثقب من نقابهما إلا لقيه الملائكة بالسيف صلته، حتى ينزل عند الطَّيْرِ الأحمر، عند مُنْقَطَعِ السَّبْخَةِ، فترجف المدينة بأهلها ثلاث رَجَفَات، فلا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه، فَتَنْفِي الْحَبَّتِ مِنْهَا كما ينفي الكبير حَبَّتِ الحديد، ويُدعى ذلك اليوم يوم الخلاص. فقالت أم شريك بنت أبي العَكر: يا رسول الله، فأين العرب يومئذ؟ قال: «هم قليل، وجلهم بيت المقدس، وإمامهم رجل صالح، فبينما إمامهم قد تقدم يُصلي بهم الصبح إذ نزل عليهم عيسى ابن مريم، عليه السلام، الصبح، فرجع ذلك الإمام ينكص، يمشي القهقري؛ ليقدم عيسى يصلي بالناس، فيضع عيسى عليه السلام، يده بين كتفيه ثم يقول: تقدم فصل، فإنها لك أقيمت. فيصلي بهم إمامهم، فإذا انصرف قال عيسى، عليه السلام: افتحوا الباب. فيفتح، ووراء الدجال، معه سبعون ألف يهودي، كلهم ذو سيف محلى وساج، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء، وينطلق هارباً، ويقول عيسى عليه السلام: إن لي فيك ضَرْبَةٌ لَنَ تستبقني بها. فيدركه عند باب لَدَ الشَّرقِ، فيقتله، ويهزم الله اليهود، فلا يبقى شيء مما خلق الله تعالى يتوارى به اليهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء، لا حجر، ولا شجر، ولا حائط، ولا دابة - إلا العَرَقْدَةُ فإنها من شجرهم لا تنطق - إلا قال: يا عبد الله المسلم، هذا يهودي، فتعال اقتله. قال رسول الله ﷺ: «وإن أيامه أربعون سنة، السنة كنصف السنة، والسنة كالشهر، والشهر كالجمعة، وآخر أيامه كالشررة، يصبح أحدكم على باب المدينة فلا يبلغ بابها الآخر حتى يمسي». فقيل له: يا نبي الله كيف نصلي، في تلك الأيام القصار؟ قال: «تقدرون فيها الصلاة كما تقدرون في هذه الأيام الطوال ثم صَلُّوا». قال رسول الله ﷺ: «فيكون عيسى ابن مريم في أمتي حكماً عادلاً، وإماماً مُقْسِطاً، يُدَقُّ الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويترك الصدقة، فلا يُسْعَى على شاة ولا بعير، وترتفع الشحناء والتباغض، وتُنَزَّع حُمَةُ كل ذات حمة، حتى يدخل الوليد يده في الحية فلا تضربه، وتُفَرُّ الوليدة الأسد فلا يضرها، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها، وتملأ الأرض من السَّلم كما يُمَلَأُ الإناء من الماء، وتكون الكلمة واحدة، فلا يعبد إلا الله، وتضع الحرب أوزارها، وتسلب قريش ملكها، وتكون الأرض كفائور الفضة تنبت نباتها كعهد آدم، حتى يجتمع النفر

على القُطْف من العنب فيشبعهم، ويجتمع النفر على الرمانة فتشبعهم، ويكون الثور بكذا وكذا، من المال، ويكون الفرس بالدرهيمات. قيل: يا رسول الله، وما يرخص الفرس؟ قال: «لا تركب لحرب أبداً» قيل له: فما يُغلي الثور؟ قال: «تُحرث الأرض كلها». وإن قُبِلَ خروج الدجال ثلاث سنوات شداد، يصيب الناس فيها جوع شديد، يأمر الله السماء في السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلث نباتها، ثم يأمر الله السماء في السنة الثانية فتحبس ثلثي مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلثي نباتها، ثم يأمر الله السماء في السنة الثالثة فتحبس مطرها كله، فلا تَقْطُر قطرة، ويأمر الأرض أن تحبس نباتها كله، فلا تُنبِت خضراء، فلا تبقى ذات ظلف إلا هلكت، إلا ما شاء الله. فقيل: فما يعيش الناس في ذلك الزمان؟ قال: «التهليل والتكير والتسييح والتحميد، ويجري ذلك عليهم مجرى الطعام». قال ابن ماجة: سمعت أبا الحسن الطنّافسي يقول: سمعت عبد الرحمن المحاربي يقول: ينبغي أن يدفع هذا الحديث إلى المؤدب، حتى يعلمه الصبيان في الكتاب. هذا حديث غريب جداً من هذا الوجه، ولبعضه شواهد من أحاديث أخرى؛ ولنذكر حديث التواس بن سمعان ههنا لشبهه بسياقه هذا الحديث، قال مسلم بن الحجاج في صحيحه: حدثنا أبو خَيْثَمَةَ زُهَيْر بن حرب، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثني يحيى بن جابر الطائي قاضي حمص، حدثني عبد الرحمن بن جبير، عن أبيه جبير بن نَفِير الحضرمي أنه سمع التواس بن سمعان الكلّابي (ح) وحدثنا محمد بن مِهْرَان الرازي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن يحيى بن جابر الطائي، عن عبد الرحمن بن جبير، عن أبيه جُبَيْر بن نَفِير، عن التواس بن سَمْعَانَ قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فحَفَضَ فيه ورَقْع، حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحلنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: «ما شأنكم؟» قلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال غداة فحَفَضْتَ فيه ورَقْع حتى ظنناه في طائفة النخل فقال: «غير الدجال أخُونِي عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فانا حَجِيجُهُ دونكم، وإن يَخْرُجْ وليست فيكم فامرؤ حَجِيجٌ نفسه، والله خليفتي على كل مسلم: إنه شاب قُطْطَ عينه طافية، كَأَنِّي أَشْبَهُهُ بعبد العزى بن قُطْن، من أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارجُ خَلَّةٍ بين الشام والعراق، فعاتٍ يميناً وعاتٍ شمالاً. يا عباد الله، فاثبتوا» قلنا: يا رسول الله، وما يُكَيِّتُهُ في الأرض؟ قال: «أربعين يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهْر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم».

قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة أتُكَيِّتُنا فيه صلاة يوم؟ قال: «لا، اقدروا له قدره». قلنا: يا رسول الله، وما إسراره في الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على قوم فيدعوهم، فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء تمطر، والأرض تفتت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذُرَى، وأسبغه ضروعاً، وأمدّه خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم، فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون مُنْحَلِّين ليس بأيديهم شيء من أموالهم. ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك. فتبتعه كنوزها كيما يسبب النخل. ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً، فيضربه بالسيف، فيقطعه جزلّتين رَمِيَّة الغرض، ثم يدعوهُ فَيُقبِلُ ويتهلل وجهه ويضحك. فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، عليه السلام، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مَهْرودَتَيْنِ، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قَطَر، وإذا رفعه تحدّر منه جُمَان كاللؤلؤ، ولا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونَفْسُهُ ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لُدّ، فيقتله. ثم يأتي عيسى، عليه السلام، قوماً قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدّثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله، ﷻ، إلى عيسى أني قد أخرجت عباداً لي لا يَدَانِ لأحد بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور. ويبعث الله ياجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أولهم على بحيرة طَبْرِية، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء. ويُحْصِرُ نبي الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم الثَّغَفَ في رقابهم فيصبحون فَرَسَى كموت نفس واحدة. ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملاء رَمَهُمْ وَنَثَنَهُمْ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البُخْت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله. ثم يرسل الله مطراً لا يَكُنْ منه بيت مَدَر ولا وَبَر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَقَة، ثم يقال للأرض: أخرجي ثَمَرَكَ وَرُذِي بركتك. فيؤمِذُ تَأْكُلُ الْعِصَابَة من الرمانة، ويستظلون بِقُحْفِهَا، ويبارك الله في الرُّسُلِ حتى إن اللُّقْمَة من الإبل لتكفي الفئام من الناس واللُّقْمَة من الفَمِّ لتكفي الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يَتَنَازَعُونَ فيها تَهَارُجَ الحُمُرِ، فعليهم تقوم الساعة». ورواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، به. وسنذكره أيضاً من طريق أحمد، عند قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿حَقٌّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦].

حديث آخر: قال مسلم في صحيحه أيضاً: حدثنا عبيد الله بن معاذ بن معاذ العنبري، حدثنا أبي، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم قال: سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي يقول: سمعت عبد الله بن عمرو - وجاءه رجل فقال -: ما هذا الحديث الذي تُحدث به تقول: إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ فقال: سبحان الله؟! - أو: لا إله إلا الله، أو كلمة نحوها - لقد هممتُ ألا أحدث أحداً شيئاً أبداً، إنما قلت: إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً: يُحرق البيت، ويكون ويكون. ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «يُخرج الدجال في أمتي، فيمكث أربعين، لا أدري أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين عاماً، فيبعث الله عيسى ابن مريم، كأنه عروة بن مسعود، فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير - أو إيمان - إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لَدَخَلْنَه عليه حتى تُقبِضَه» قال: سمعتها من رسول الله ﷺ قال: «فيبقى شرار الناس في حَقَّة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، فيمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبيون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارُ رزقهم، حسن عيشهم. ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليئاً ورفع ليئاً، قال: وأول من يسمعه رجل يُلَوِّط حوض إبله، قال: فَيُصَعَّقُ وَيُصَعَّقُ الناس. ثم يرسل الله - أو قال: ينزل الله - مطراً كأنه الطل - أو قال: الظل - نُعْمَانُ الشاك - فتبت منه أجساد الناس، ثم يُنْفَخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون. ثم يقال: يا أيها الناس، هلموا إلى ربكم، ﴿وَقَفُّوا لَهُمْ مَشْجُورُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]. قال: «ثم يقال: أخرجوا بَعَثُ النار. فيقال: من كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين». قال: ﴿يَحْمِلُ الْوَلَدَانِ يَشْيَا﴾ [المزمل: ١٧]، وذلك ﴿يَوْمَ يُكَفَّفُ عَنْ سَائِي﴾ [القلم: ٤٢]. ثم رواه مسلم والنسائي في تفسيره جميعاً عن محمد بن بشار، عن عُثْمَر، عن شعبة، عن النعمان بن سالم، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عبد الله بن عبيد الله بن ثعلبة الأنصاري، عن عبد الله بن يزيد الأنصاري، عن مُجَمِّع بن جارية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقتل ابن مريم المسيح الدجال بباب لُدّ - أو: إلى جانب لُدّ». ورواه أحمد أيضاً، عن سفيان بن عيينة ومن حديث الليث والأوزاعي، ثلاثهم عن الزهري، عن عبد الله بن عبيد الله بن ثعلبة، عن عبد الرحمن بن يزيد عن عمه مُجَمِّع بن جارية، عن رسول الله ﷺ قال: «يقتل ابن مريم الدجال بباب لُدّ». وكذا رواه الترمذي، عن قتيبة، عن الليث، به. وقال: هذا حديث صحيح. قال: وفي الباب عن عمران بن حصين، ونافع بن عتبة، وأبي بَرَزَةَ، وحذيفة بن أسيد، وأبي هريرة. وكَيْسَان، وعثمان بن أبي العاص، وجابر، وأبي أمامة، وابن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وسُمُرَةُ بن جُنْدَب، والنواس بن سمعان، وعمرو بن عوف، وحذيفة بن اليمان، رضي الله عنهم. ومراده برواية هؤلاء ما فيه ذكر الدجال. وقتل عيسى ابن مريم، عليه السلام، له. فأما أحاديث ذكر الدجال فقط فكثيرة جداً، وهي أكثر من أن تحصر؛ لانتشارها وكثرة رواتها في الصحاح والحسان والمسانيد، وغير ذلك.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن قُرَآت، عن أبي الطُّفَيْل، عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى ترون عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدُّخَان، والدَّابَّة، وخروج يأجوج ومأجوج، ونزول عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خُسُوف: خَسَفَ بالشرق، وخَسَفَ بالمغرب، وخَسَفَ بجزيرة العرب. نار تخرج من قعر عَدَن، تسوق - أو تحشر - الناس، تبيت معهم حيث باتوا، وتَقِيلُ معهم حيث قالوا». وهكذا رواه مسلم وأهل السنن من حديث قُرَآت القزاري به. ورواه مسلم أيضاً من رواية عبد العزيز بن رُفَيْع عن أبي الطفيل عن أبي سَريحة حذيفة بن أَسِيد الغفاري، موقوفاً. والله أعلم. فهذه أحاديث متواترة عن رسول الله ﷺ من رواية أبي هريرة، وابن مسعود، وعثمان بن أبي العاص، وأبي أمامة، والنواس بن سمعان، وعبد الله بن عمرو بن العاص، ومُجَمِّع بن جارية، وأبي سَريحة حذيفة بن أَسِيد، رضي الله عنهم. وفيها دلالة على صفة نزوله ومكانه، من أنه بالشام، بل بدمشق، عند المنارة الشرقية، وأن ذلك يكون عند إقامة الصلاة للصبح، وقد بنيت في هذه الأعصار، في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة منارة للجامع الأمويّ بيضاء، من حجارة منحوتة، عِوضاً عن المنارة التي هدمت بسبب الحريق المنسوب إلى صنيع النصراني - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - وكان أكثر عمارتها من أموالهم، وقويت الظنون أنها هي التي ينزل عليها المسيح عيسى ابن مريم، عليه السلام، فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، فلا يقبل إلا الإسلام كما تقدم في الصحيحين، وهذا إخبار من النبي ﷺ بذلك، وتقرير وتشريع وتسويغ له على ذلك في ذلك الزمان، حيث تنزاح علمهم، وترتفع شبههم من أنفسهم؛ ولهذا كلهم يدخلون في دين الإسلام مُتَابِعَةً لعيسى، عليه السلام، وعلى يديه؛ ولهذا قال تعالى:

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَعَلَّكُمْ لَتَسَاقُوهُ﴾ [الزخرف: ٦١] وقرئ: «عَلَّمَ» بالتحريك، أي إشارة ودليل على اقتراب الساعة، وذلك لأنه ينزل بعد خروج المسيح الدجال، فيقتله الله على يديه، كما ثبت في الصحيح: «إن الله لم يخلق داء إلا أنزل له شفاء». ويبعث الله في أيامه أبجوج ومأجوج، فيهلكهم الله به ببركة دعائه، وقد قال تعالى: ﴿حَقَّقَ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [١٦١] وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ الآية [الأنبياء: ٩٦، ٩٧].

صفة عيسى عليه السلام:

قد تقدم في حديث عبد الرحمن بن آدم، عن أبي هريرة رضي الله عنه: «فلذا رأيتموه فاعرفوه: رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان مصران، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل». وفي حديث النواس بن سمعان: «فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهزودتين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه مثل جحمان اللؤلؤ، ولا يحل لكافر يجرد ريق نفسه إلا مات ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه». وروى البخاري ومسلم، من طريق الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلة أسري بي لقيت موسى»، قال: فَتَعَنَّتْ «فلذا رجل - حسبته قال: - مضطرب، رجل الرأس، كأنه من رجال شنوءة». قال: «ولقيت عيسى» فنعته النبي ﷺ فقال: «زَبْعَةٌ أَحْمَرُ، كأنما خرج من ديماس - يعني الحمام - ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به». الحديث. وروى البخاري، من حديث مجاهد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت موسى وعيسى وإبراهيم، فأما عيسى فأحمر جَعْدٌ عريض الصدر، وأما موسى فآدم جسيم سبط، كأنه من رجال الزط». وله ولمسلم من طريق موسى بن عقبة، عن نافع قال: قال عبد الله بن عمر: ذَكَرَ النبي ﷺ يوماً بين ظَهْرَانِي النَّاسِ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرُ، أَلَا إِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيَمْنَى، كَانَ عَيْنُهُ عَنَبَةً طَافِيَةً وَأَرَانِي اللَّهَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ فِي الْمَنَامِ، فَلِذَا رَجُلٌ آدَمُ، كَأَحْسَنَ مَا تَرَى مِنْ آدَمِ الرِّجَالِ، تَضْرِبُ لِمُنْتَهَى مَنَكِبَيْهِ، رَجُلٌ الشَّعْرُ، يَقْطُرُ رَأْسُهُ مَاءً، وَاضِعاً يَدَيْهِ عَلَى مَنَكِبَيْ رَجُلَيْنِ، وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، ثُمَّ رَأَيْتُ رَجُلًا وَرَاءَهُ جَعْدًا قَطَطًا، أَعْوَرُ عَيْنِ الْيَمْنَى، كَأَشْبَهَ مَا رَأَيْتُ بَابَنَ قَطْنٍ، وَاضِعاً يَدَيْهِ عَلَى مَنَكِبَيْ رَجُلٍ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الْمَسِيحُ الدَّجَالُ». تابعه عبيد الله عن نافع.

ثم رواه البخاري عن أحمد بن محمد المكي، عن إبراهيم بن سعد، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه قال: لا، والله ما قال النبي ﷺ لعيسى عليه السلام: أحمر، ولكن قال: «بينما أنا نائم أطوف بالكعبة، فإذا رجل آدم سَبَطُ الشَّعْرِ، يَتَهَادَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ يَنْطَفِئُ رَأْسُهُ مَاءً - أَوْ يُهْرَاقُ رَأْسُهُ مَاءً - فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: ابْنُ مَرْيَمَ. فَذَهَبَتْ أَلْتَفَتُ، فَلِذَا رَجُلٌ أَحْمَرُ جَسِيمٌ، جَعْدُ الرَّأْسِ، أَعْوَرُ عَيْنِهِ الْيَمْنَى، كَانَ عَيْنُهُ عَنَبَةً طَافِيَةً. قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الدَّجَالُ. وَأَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبْهًا ابْنُ قَطْنٍ». قال الزهري: رجل من خزاعة هلك في الجاهلية. هذه كلها ألفاظ البخاري، رحمه الله، وقد تقدم في حديث عبد الرحمن بن آدم، عن أبي هريرة: أن عيسى، عليه السلام، يمكث في الأرض بعد نزوله أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون. وفي حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم: أنه يمكث سبع سنين، فيحتمل - والله أعلم - أن يكون المراد بلبثه في الأرض أربعين سنة، مجموع إقامته فيها قبل رفعه وبعد نزوله، فإنه رفع وله ثلاث وثلاثون سنة في الصحيح، وقد ورد ذلك في حديث في صفة أهل الجنة: أنهم على صورة آدم وميلاد عيسى ثلاث وثلاثين سنة. وأما ما حكاه ابن عساكر عن بعضهم أنه رُفِعَ وله مائة وخمسون سنة، فشاذ غريب بعيد. وذكر الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في ترجمة عيسى ابن مريم من تاريخه، عن بعض السلف: أنه يدفن مع النبي ﷺ في حجرته، فالله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾، قال قتادة: يشهد عليهم أنه قد بلغهم الرسالة من الله، وأقر بالعبودية لله، ﷻ، وهذا كقوله تعالى في آخر سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَآأَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ امْعُدُوا لِي وَأُنْزِلَ إِلَهُي مِنْ ذَوْنِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [١٦١] مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الْقَرِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [١٦٢] إِنْ تَعَذَّلْتُمْ فَلَأَتَّيْنَنَّ عِبَادَكُمُ وَلَئِنْ تَفَرَّقْتُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [١٦٣]

[المائدة: ١١٦ - ١١٨].

﴿فَيُظْهِرُ مِنَ الذِّبْرِ حَافِئًا حَرَمًا عَلَيْهِمْ مَبْنِيَّاتٌ أَجَلَتْ لَهُمْ وَبَصَرَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ وَأَخَذَهُمُ الزَّبَابُ وَقَدْ هُمُوهَا عَنْهُمْ وَأَكَلَهُمْ آتَمُ النَّاسِ بِالْبَيْتِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا [١٦٤] لَكِنَّ الْإِنْسَانَ فِي أَلْوَمٍ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُسْلِمِينَ الصَّالِحِينَ

بَشَرًا عَلَيْهِمْ - فما تلاها عليهم - يعني على اليهود - وأخبرهم بأعمالهم الخبيثة، جحدوا كل ما أنزل الله، وقالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء، ولا موسى ولا عيسى، ولا على نبي من شيء. قال: فَحَلَّ حُبُوتِهِ، وقال: ولا على أحد. فانزل الله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن مَّوَدٍّ﴾ [الأنعام: ١٩١]. وفي هذا الذي قاله محمد بن كعب القرظي نظر؛ فإن هذه الآية مكية في سورة الأنعام، وهذه الآية التي في سورة النساء مدنية، وهي رد عليهم لما سألو النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرُ مِن ذَلِكَ﴾ [النساء: ١٥٣]، ثم ذكر فضائحهم ومعائبهم وما كانوا عليه، وما هم عليه الآن من الكذب والافتراء. ثم ذكر تعالى أنه أوحى إلى محمد ﷺ كما أوحى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين، فيقال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالذِّكْرِ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ إِزْرَاهِمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَإِنَّا دَاوُدَ ذُرِّيًّا﴾. والزبور: اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود، عليه السلام، وستذكر ترجمة كل واحد من هؤلاء الأنبياء، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام، عند قصصهم في السور الآتية، إن شاء الله، وبه الثقة، وعليه التكلان. وقوله: ﴿وَرَسُولًا قَدْ قُصِّصَتْهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرَسُولًا لَّمْ تَقْصُصْهُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: من قبل هذه الآية، يعني: في السور المكية وغيرها. وهذه تسمية الأنبياء الذين نُصِّصَ على أسمائهم في القرآن، وهم: آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وشعيب، وموسى، وهارون، ويونس، وداود، وسليمان، وإلياس، واليسع، وزكريا، ويحيى، وعيسى عليهم الصلاة والسلام، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين، وسيدهم محمد ﷺ. وقوله: ﴿وَرَسُولًا لَّمْ تَقْصُصْهُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: خلقاً آخرين لم يذكروا في القرآن، وقد اختلف في عدة الأنبياء والمرسلين والمشهور في ذلك حديث أبي ذر الطويل، وذلك فيما رواه ابن مَرْزُوق، رحمه الله، في تفسيره، حيث قال: حدثنا إبراهيم بن محمد، حدثنا جعفر بن محمد بن الحسن، والحسين بن عبد الله بن يزيد قالوا: حدثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، حدثني أبي عن جدي، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً». قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر جَمْعٌ غَيْرٌ». قلت: يا رسول الله، من كان أولهم؟ قال: «آدم». قلت: يا رسول الله، نبي مرسل؟ قال: «نعم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، ثم سَوَّاهُ قَيْلًا». ثم قال: «يا أبا ذر، أربعة سريانين: آدم، وشيث، ونوح، وخُوش - وهو إدريس، وهو أول من خط بقلم - وأربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر، وأول نبي من أنبياء بني إسرائيل موسى، وآخرهم عيسى. وأول النبيين آدم، وآخرهم نبيك».

وقد روى هذا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم بن حبان البستي في كتابه: «الأنواع والتقاسيم» وقد وَصَّاهُ بالصحة، وخالفه أبو الفرج بن الجوزي، فذكر هذا الحديث في كتابه «الموضوعات»، واتهم به إبراهيم بن هشام هذا، ولا شك أنه قد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث، فإله أعلم. وقد روي الحديث من وجه آخر، عن صحابي آخر، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا مُعَانُ بْنُ رُقَاعَةَ، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: قلت: يا نبي الله، كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جَمْعاً غَيْرُ». مُعَانُ بْنُ رُقَاعَةَ السَّلَامِيُّ ضَعِيفٌ، وعلي بن يزيد ضعيف، والقاسم أبو عبد الرحمن ضعيف أيضاً. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أحمد بن إسحاق أبو عبد الله الجوهري البصري، حدثنا مكي بن إبراهيم، حدثنا موسى بن عبيدة الرُّبَيْذِيُّ، عن يزيد الرُّقَاشِي، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «بعث الله ثمانية آلاف نبي، أربعة آلاف إلى بني إسرائيل، وأربعة آلاف إلى سائر الناس». وهذا أيضاً إسناد ضعيف، فيه الرُّبَيْذِيُّ ضعيف، وشيخه الرُّقَاشِي أضعف منه أيضاً، والله أعلم. وقال أبو يعلى: حدثنا أبو الربيع، حدثنا محمد بن ثابت العَدِّي، حدثنا محمد بن خالد الأنصاري، عن يزيد الرُّقَاشِي، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «كان فيمن خلا من إخواني من الأنبياء ثمانية آلاف نبي، ثم كان عيسى ابن مريم، ثم كنت أنا». وقد رويته عن أنس من وجه آخر، فأخبرني الحافظ أبو عبد الله الذهبي، أخبرنا أبو الفضل بن عساكر، أنبأنا الإمام أبو بكر القاسم بن أبي سعيد الصفار، أخبرتنا عمة أبي، عائشة بنت أحمد بن منصور بن الصفار، أخبرنا الشريف أبو السنايك هبة الله بن أبي الصهباء محمد بن حيدر القُرَشِيُّ، حدثنا الإمام الأستاذ أبو إسحاق الإسفَرَيْنِيُّ قال: أخبرنا الإمام أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا أحمد بن طارق، حدثنا مسلم بن خالد، حدثنا زياد بن سعد، عن محمد بن الْمُثَنِّكِير، عن صفوان بن سُلَيْمٍ، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت على إثر من ثلاثة آلاف نبي من بني إسرائيل». وهذا غريب من هذا الوجه وإسناده لا بأس به، رجاله كلهم معروفون إلا أحمد بن طارق

هذا، فإني لا أعرفه بعدالة ولا جرح، والله أعلم.

حديث أبي ذر الغفاري الطويل في عدد الأنبياء عليهم السلام:

قال محمد بن الحسين الآجري: حدثنا أبو بكر جعفر بن محمد بن الفزاري إملاء في شهر رجب سنة سبع وتسعين ومائتين، حدثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، حدثنا أبي، عن جده عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر قال: دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس وحده، فجلست إليه فقلت: يا رسول الله، إنك أمرتني بالصلاة. قال: «الصلاة خير موضوع فاستكثر أو استقل». قال: قلت: يا رسول الله، فأني الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله، وجهاد في سبيله». قلت: يا رسول الله، فأني المؤمنين أفضل؟ قال: «أحسنهم خلقاً». قلت: يا رسول الله، فأني المسلمين أسلم؟ قال: «من سلم الناس من لسانه ويده». قلت: يا رسول الله، فأني الهجرة أفضل؟ قال: «من هجر السيئات». قلت: يا رسول الله، أي الصلاة أفضل؟ قال: «طول القنوت». قلت: يا رسول الله، فأني الصيام أفضل؟ قال: «فَرَضَ مجزئاً وعند الله أضعاف كثيرة». قلت: يا رسول الله، فأني الجهاد أفضل؟ قال: «من غُير جواده وأُفريق ذمّه». قلت: يا رسول الله، فأني الرقاب أفضل؟ قال: «أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها». قلت: يا رسول الله، فأني الصدقة أفضل؟ قال: «جَهْد من مُقِل، وسر إلى فقير». قلت: يا رسول الله، فأني آية ما أنزل عليك أعظم منها؟ قال: «آية الكرسي». ثم قال: «يا أبا ذر، وما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة». قال: قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً». قال: قلت: يا رسول الله، كم الرسل من ذلك؟ قال: «ثلاثمائة، وثلاثة عشر جَم غفير كثير طيب». قلت: فمن كان أولهم؟ قال: «آدم». قلت: أنبي مرسل؟ قال: «نعم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وسوّاه قَبِيلاً». ثم قال: «يا أبا ذر، أربعة سريانيون: آدم، وشيث، وخنوخ - وهو إدريس - وهو أول من خط بقلم - ونوح. وأربعة من العرب: هود، وشعيب، وصالح، ونيبك يا أبا ذر. وأول أنبياء بني إسرائيل موسى، وآخرهم عيسى. وأول الرسل آدم، وآخرهم محمد». قال: قلت: يا رسول الله، كم كتاباً أنزله الله؟ قال: «مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل الله على شيث خمسين صحيفة، وعلى خنوخ ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى من قبل التوراة عشر صحائف والإنجيل والزبور والفرقان». قال: قلت: يا رسول الله، ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «كانت كلها: يا أيها الملك المسلط المبتلي المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم، فإني لا أردّها ولو كانت من كافر. وكان فيها مثال: وعلى العاقل أن يكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكر في صنع الله، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب. وعلى العاقل ألا يكون ضاغناً إلا لثلاث: تزود لمعاد، أو مرّة لمعاش، أو لذة في غير محرم. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه، ومَن حبيب كلامه من عمله قَلّ كلامه إلا فيما يعنيه». قال: قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف موسى؟ قال: «كانت عبراً كلها: عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو يتنصب، وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلّبها بأهلها ثم يطمئن إليها، وعجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم هو لا يعمل». قال: قلت: يا رسول الله، فهل في أيدينا شيء مما في أيدي إبراهيم وموسى، وما أنزل الله عليك؟ قال: «نعم، اقرأ يا أبا ذر: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤَيَّدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَقْبَلُ (١٧) إِنَّ هَذَا لَنَبِيٍّ أَلْحَشَفِ الْأَوَّلَ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَتَوَكَّلْ (١٩)﴾ [الاعلى: ١٤ - ١٩]. قال: قلت: يا رسول الله، فأوصني. قال: «أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس أمرك». قال: قلت: يا رسول الله، زدني. قال: «عليك بتلاوة القرآن، وذكر الله، فإنه ذكر لك في السماء، ونور لك في الأرض». قال: قلت: يا رسول الله، زدني. قال: «إياك وكثرة الضحك. فإنه يميم القلب، ويذهب بنور الوجه». قلت: زدني. قال: «عليك بالجهاد، فإنه رهبانية أمتي». قلت: زدني. قال: «عليك بالصمت، إلا من خير، فإنه مطردة للشيطان، وعون لك على أمر دينك». قلت: زدني. قال: «انظر إلى من هو تحتك، ولا تنظر إلى من هو فوقك، فإنه أجدر لك ألا تزدرى نعمة الله عليك». قلت: زدني. قال: «أحب المساكين وجالسهم، فإنه أجدر ألا تزدرى نعمة الله عليك». قلت: زدني. قال: «صل قربانك وإن قطعوك». قلت: زدني. قال: «قل الحق وإن كان مرأ». قلت: زدني. قال: «لا تخف في الله لومة لائم». قلت: زدني. قال: «يُرَدُّكَ عن الناس ما تعرف عن نفسك، ولا تجِدْ عليهم فيما تحب، وكفى بك عيباً أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك. أو تجد عليهم فيما تحب». ثم ضرب بيده صدره، فقال: «يا أبا ذر، لا عقل كالنذير، ولا وزع كالكف، ولا حسب كحُسن الخلق». وروى الإمام أحمد، عن أبي المغيرة، عن مُعَاذ بن رفاع،

عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة: أن أبا ذر سأل النبي ﷺ، فذكر أمر الصلاة، والصيام، والصدقة، وفضل آية الكرسي، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأفضل الشهداء، وأفضل الرقاب، ونبوة آدم، وأنه مُكَلَّم، وعدد الأنبياء والمرسلين، كنحو ما تقدم. وقال عبد الله بن الإمام أحمد: وجدت في كتاب أبي بخطه: حدثني عبد المتعالي بن عبد الوهاب، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي، حدثنا مُجَالِد عن أبي الودَّاء قال: قال أبو سعيد: هل تقول الخوارج بالدجال؟ قال: قلت: لا. فقال: قال رسول الله ﷺ: «إني خاتم ألف نبي أو أكثر، وما بُعث نبي يُتَّبَع إلا وقد حذر أمته منه، وإني قد بُيِّن لي ما لم يُبيِّن لأحد، وإنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وعينه اليمنى عوراء جاحظة لا تخفى، كأنها نخامة في حائط مُجَصَّص، وعينه اليسرى كأنها كوكب دري، معه من كل لسان، ومعه صورة الجنة خضراء يجري فيها الماء، وصورة النار سوداء تَذَخُن». وقد رويناه في الجزء الذي فيه رواية أبي يعلى الموصلي، عن يحيى بن معين، حدثنا مروان بن معاوية، حدثنا مُجَالِد، عن أبي الودَّاء، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إني آختم ألف ألف نبي أو أكثر، ما بعث الله من نبي إلى قومه إلا حذرهم الدجال...». وذكر تمام الحديث، هذا لفظه بزيادة «ألف» وقد تكون مُفَحَّمة، والله أعلم. وسياق رواية الإمام أحمد أثبت وأولى بالصحة، ورجال إسناده هذا الحديث لا بأس بهم، وروي هذا الحديث من طريق جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا مُجَالِد، عن الشعبي، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لخاتم ألف نبي أو أكثر، وإنه ليس منهم نبي إلا وقد أُنذر قومه الدجال، وإنه قد بُيِّن لي ما لم يُبيِّن لأحد منهم، وإنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور».

وقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾، وهذا تشريف لموسى عليه السلام، بهذه الصفة؛ ولهذا يقال له: الكلم. وقد قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدَوَيْهِ: حدثنا أحمد بن محمد بن سليمان المالكي، حدثنا مَسِيح بن حاتم، حدثنا عبد الجبار بن عبد الله قال: جاء رجل إلى أبي بكر بن عيَّاش فقال: سمعت رجلاً يقرأ: «وكلم الله موسى تكليماً» فقال أبو بكر: ما قرأ هذا إلا كافر، قرأت على الأعمش، وقرأ الأعمش على يحيى بن وثَّاب، وقرأ يحيى بن وثَّاب على أبي عبد الرحمن السُّلَمِي، وقرأ أبو عبد الرحمن، عَلِيُّ بن أبي طالب، وقرأ علي بن أبي طالب على رسول الله ﷺ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾. وإنما اشتد غضب أبي بكر بن عيَّاش، رحمه الله، على من قرأ كذلك؛ لأنه خَرَفَ لفظ القرآن ومعناه، وكان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسى، عليه السلام، أو يكلم أحداً من خلقه، كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ: «وكلم الله موسى تكليماً» فقال له: يا ابن اللُّخَاء، فكيف تصنع بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، يعني: أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل. وقال ابن مَرْدَوَيْهِ: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا أحمد بن الحسين بن بَهْرَام، حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا هانئ بن يحيى، عن الحسن بن أبي جعفر، عن قتادة، عن يحيى بن وثَّاب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كلم الله موسى كان يُبْصِرُ ديباب النمل على الصفا في الليلة الظلماء». وهذا حديث غريب، وإسناده لا يصح، وإذا صح موقوفاً كان جيداً. وقد روى الحاكم في مستدركه وابن مردويه، من حديث حميد بن قيس الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «كان على موسى يوم كلمه ربُّه جبة صوف، وكساء صوف، وسراويل صوف، ونعلان من جلد حمار غير ذكي». وقال ابن مردويه بإسناده عن جُوَيْر، عن الضُّحَّاك عن ابن عباس قال: إن الله ناجى موسى بمائة ألف كلمة وأربعين ألف كلمة، في ثلاثة أيام، وصايا كلها، فلما سمع موسى كلام الآدميين مَقْتَهُم مما وقع في مسامعه من كلام الرب، ﷻ.

وهذا أيضاً إسناده ضعيف، فإن جُوَيْراً ضعيف، والضُّحَّاك لم يدرك ابن عباس، رضي الله عنه. فأما الأثر الذي رواه ابن أبي حاتم وابن مَرْدَوَيْهِ وغيرهما من طريق الفضل بن عيسى الرُّقَاشِي، عن محمد بن المُثَنِّكِير، عن جابر بن عبد الله قال: لما كلم الله موسى يوم الطور، كلمه بغير الكلام الذي كلمه يوم ناداه، فقال له موسى: يا رب، هذا كلامك الذي كلمتني به؟ قال: لا يا موسى، أنا كلمتك بقوة عَشْرَةِ آلاف لسان، ولي قوة الألسنة كلها، وأنا أقوى من ذلك. فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا: يا موسى، صف لنا كلام الرحمن. قال: لا أستطيعه. قالوا: فَنَبِّهْ لَنَا. قال: أَلَمْ تسمعوا إلى صوت الصواعق فإنها قريب منه، وليس به. وهذا إسناده ضعيف، فإن الفضل هذا الرُّقَاشِي ضعيف بمره. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، عن جَزْء بن جابر الخُفَّعِي، عن كعب قال: إن الله لما كلم موسى كلمه بالألسنة كلها سِوَى كلامه، فقال له موسى يا رب، هذا كلامك؟ قال: لا، ولو كلمتك بكلامي لم تَسْتَقِمْ له. قال: يا رب، فهل من خلقك شيء يشبه كلامك؟ قال: لا، وأشد خلقي شَبْهاً بكلامي أشد ما تسمعون من الصواعق. فهذا موقف على كعب الأحبار، وهو

يحكي عن الكتب المتقدمة المشتملة على أخبار بني إسرائيل، وفيها الثَّ وَالشَّمين.

وقوله: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: يبشرون من أطاع الله وأتبع رضوانه بالخيرات، وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب. وقوله: ﴿لَعَلَّكَ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: إنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبيان والندارة، وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه؛ لئلا يبقى لمعتذر عذر، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَفْلَكْنَهُمْ عَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَنَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَبِّعَ مَا يَنْكُرُ مِنْ قَبْلِهِ أَنْ نَبْعَثَ إِلَيْنَا رُسُلًا فَنُتَبِّعَ مَا يَنْكُرُ مِنْ قَبْلِهِ﴾ [طه: ١١٣٤]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ يَأْكُلُوا آبَدِيَهُمْ فَيَقُولُوا لَوْلَا أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَبِّعَ مَا يَنْكُرُ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٤٧] [القصص: ٤٧]. وقد ثبت في الصحيحين، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا أَخَذَ أُغْيَرَ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيَّ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيَّ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ» وفي لفظ: «مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ».

﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِحِلْمِهِ وَاللَّهُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [١٦٦]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [١٦٧]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا أَمْرًا يَنْهَى اللَّهُ عَنْهُ لِيُكَفِّرَ عَنْهُمْ وَلَا يُبَدِّلَ لَهُمْ سُلُوكَهُمْ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [١٦٨]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [١٦٩].

لما تضمن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ [١٦٦] إلى آخر السياق، إثبات نبوته ﷺ، والرد على من أنكر نبوته من المشركين وأهل الكتاب، قال الله تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي: وإن كفر به من كفر به ممن كذبك وخالفك، فالله يشهد لك بأنك رسول الله الذي أنزل عليه الكتاب، وهو القرآن العظيم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجِيهُ مِنَ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [٢٢] [الفصل: ٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿أَنْزَلَهُ بِحِلْمِهِ﴾ أي: فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه، من البينات والهدى والفرقان وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة، التي لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب، إلا أن يُعلمه الله به، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الحسن بن سهل الجعفري وخزرج بن المبارك قالوا: حدثنا عمران بن عيينة، حدثنا عطاء بن السائب قال: أقراني أبو عبد الرحمن السلمي القرآن، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال: قد أخذت علم الله، فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل، ثم يقرأ: ﴿أَنْزَلَهُ بِحِلْمِهِ وَاللَّهُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾. وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُونَ﴾ أي: بصدق ما جاءك وأوحى إليك وأنزل عليك، مع شهادة الله تعالى لك بذلك ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾. وقد قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: دخل على رسول الله ﷺ جماعة من اليهود، فقال لهم: «إني لأعلم الله - أنكم لتعلمون أني رسول الله». فقالوا: ما نعلم ذلك. فأنزل الله ﷻ: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِحِلْمِهِ وَاللَّهُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [١٦٦]. وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [١٦٧] أي: كفروا في أنفسهم، فلم يتبعوا الحق، وسعوا في صد الناس عن اتباعه والافتداء به، قد خرجوا عن الحق وضلوا عنه، وبعدوا منه بعداً عظيماً شاسعاً. ثم أخبر تعالى عن حكمه في الكافرين بآياته وكتابه ورسوله، الظالمين لأنفسهم بذلك، وبالصد عن سبيله وارتكاب مآثمه وانتهاك محارمه، بأنه لا يغفر لهم ﴿وَلَا يُبَدِّلُ لَهُمْ طَرِيقًا﴾ أي: سبيلاً إلى الخير ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ وهذا استثناء منقطع ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾. ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ أي: قد جاءكم محمد - صلوات الله وسلامه عليه - بالهدى ودين الحق، والبيان الشافي من الله، ﷻ، فآمنوا بما جاءكم به واتبعوه يكن خيراً لكم. ثم قال: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: فهو غني عنكم وعن إيمانكم، ولا يتضرر بكفرانكم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [١٦٨] [إبراهيم: ٨]. وقال ههنا: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: بمن يستحق منكم الهداية فيهديه، وبمن يستحق الغواية فيغويه ﴿حَكِيمًا﴾ أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلِبُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْ رَبِّهِ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا نَحْنُ نَحْنُ أَنْتُمْ أَنْتُمْ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدَهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ وَلَهُ لَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [١٦٩].

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا حد التصديق بعيسى، حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه، ممن زعم أنه على دينه، فادَّعَوْا فِيهِمُ الْعَصْمَةَ وَاتَّبَعُوهُمْ فِي كُلِّ مَا قَالُوهُ، سواء كان حقاً أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشداً، أو صحيحاً أو كذباً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ رُءُوسًا مِثْلَ رَأْسِ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [التوبة: ٣١]. وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم قال: زعم الزُّهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس، عن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُظَرُونِي كما أظرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد الله ورسوله». ثم رواه هو وعلي بن المديني، عن سفيان بن عُيَيْنَةَ، عن الزُّهري كذلك. وقال علي بن المديني: هذا حديث صحيح سنده. وهكذا رواه البخاري، عن الحُمَيد، عن سفيان بن عيينة، عن الزُّهري، به. ولفظه: «فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله». وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حُمَادُ بْنُ سَلَمَةَ، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك: أن رجلاً قال: محمد يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا. فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، عليكم بقولكم، ولا يَسْتَهْوِيَكُمْ الشَّيْطَانُ، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله ﷻ». تفرد به من هذا الوجه. وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي: لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولداً - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وتنزه وتقدس وتوحد في سؤده وكبريائه وعظمته - فلا إله إلا هو، ولا رب سواه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي: إنما هو عبد من عباد الله وخلق من خلقه، قال له: كن، فكان، ورسول من رسله، وكلمته ألغها إلى مريم. أي: خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل، عليه السلام، إلى مريم، فنفع فيها من روحه بإذن ربه، ﷻ فكان عيسى بإذن الله، ﷻ وصارت تلك النفخة التي نفخها في جيب ذراعها، فنزلت حتى ولَّجت فرجها بمنزلة لقاح الأب الأم، والجميع مخلوق لله، ﷻ ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها: كن، فكان. والروح التي أرسل بها جبريل، قال الله تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَوَّلُ صِغَرِهِ كَنَانًا يَكْفُلُهُ أَفَلَا تَعْلَمُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي أَحْضَرْتُمْ فَرَجَهَا فَفَعَّلْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا نَفْسًا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]. وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْضَرْنَاهَا فَرَجَهَا فَفَعَّلْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْقَائِلِينَ﴾ [النحريم: ١٢]. وقال تعالى إخباراً عن المسيح: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عِدُوٌّ أُوْعَدَّ عَلَيْهِ وَعَدَّ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الزخرف: ٥٩]. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾، هو كقوله: ﴿كُنْ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فكان وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي قال: سمعت شاذَّ بن يحيى يقول: في قول الله: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ قال: ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى. وهذا أحسن مما ادَّعاه ابن جرير في قوله: ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أي: أعلمها بها، كما زعمه في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥] أي: يعلمك بكلمة منه، ويجعل ذلك كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجَوْنَ أَنْ يُلْقِيَ إِلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦] بل الصحيح أنها الكلمة التي جاء بها جبريل إلى مريم، فنفع فيها بإذن الله، فكان عيسى، عليه السلام. وقال البخاري: حدثنا صَدَقَةُ بْنُ الْفَضْلِ، حدثنا الوليد، حدثنا الأزاعي، حدثني عُمَيْرُ بْنُ هَانِيٍّ، حدثني جُنَادَةُ بْنُ أَبِي أُمِيَّةٍ، عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألغها إلى مريم وروحٌ منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل». قال الوليد: فحدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن عُمَيْرِ بْنِ هَانِيٍّ، عن جُنَادَةَ زَادَ: «من أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء». وكذا رواه مسلم، عن داود بن رُشيد، عن الوليد، عن ابن جابر، به. ومن وجه آخر، عن الأزاعي، به.

فقوله في الآية والحديث: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجن: ١٣] أي: من خلقه ومن عنده، وليست «من» للتبعيض، كما تقولوه النصارى - عليهم لعائن الله المتتابعة - بل هي لابتداء الغاية، كما في الآية الأخرى. وقد قال مجاهد في قوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي: ورسول منه. وقال غيره: ومجبة منه. والأظهر الأول أنه مخلوق من روح مخلوقة، وأضيف الروح إلى الله على وجه التشريف، كما أضيف الناقة والبيت إلى الله، في قوله: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾

[مرد: ٦٤]. وفي قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ يَنْتَظِرْ لِلْعَلَايِينِ﴾ [الحج: ٢٦]، وكما ورد في الحديث الصحيح: «فأدخل على ربي في داره» أضافها إليه إضافة تشريف لها، وهذا كله من قبيل واحد ونمط واحد. وقوله: ﴿فَقَائِمُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي: فصدقوا بأن الله واحد أحد، لا صاحبة له ولا ولد، واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله ورسوله؛ ولهذا قال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ. وَلَا تَقُولُوا لَنَنصُرُنَّهُ أَنْتَهُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [١٧٢] أي: لا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وهذه الآية والتي تأتي في سورة المائدة حيث يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ تَلَذُّونَ مَكَانَ الْإِلَهِ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣]. وكما قال في آخر السورة المذكورة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَحْيَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا أَنْتَ ثَلَاثٌ لِلثَّالِثِ اتَّخِذْ ذِي وَائِي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال في أولها: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]، فالنصارى - عليهم لعنة الله - من جهلهم ليس لهم ضابط، ولا لكفرهم حد، بل أقوالهم وضلالهم منتشر، فمنهم من يعتقد إلهاً، ومنهم من يعتقد شريكاً، ومنهم من يعتقد ولدأ. وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة، وأقوال غير مؤتلفة، ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا على أحد عشر قولاً. ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير، وهو سعيد بن بطريق - بترك الإسكندرية - في حدود سنة أربعمائة من الهجرة النبوية، أنهم اجتمعوا المجمع الكبير الذي عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم، وإنما هي الخيانة الحقيرة الصغيرة، وذلك في أيام قسطنطين باني المدينة المشهورة، وأنهم اختلفوا عليه اختلافاً لا يت ضبط ولا ينحصر، فكانوا أزيد من ألفين أسقفًا، فكانوا أحراباً كثيرة، كل خمسين منهم على مقالة، وعشرون على مقالة، ومائة على مقالة، وسبعون على مقالة، وأزيد من ذلك وأنقص. فلما رأى عصابة منهم قد زادوا على الثلاثمائة بشمانية عشر نفرًا، وقد توافقوا على مقالة، فأخذها الملك ونصرها وأيدها. وكان فيلسوفاً ذا هيئة - ومحقق ما عداها من الأقوال، وانتظم دسئت أولئك الثلاثمائة والثمانية عشر، وبنيت لهم الكنائس، ووضعوا لهم كتباً وقوانين، وأحدثوا الأمانة التي يلقونها الولدان من الصغار - ليعتقدوها - ويُعتمدونهم عليها، وأتباع هؤلاء هم الملكية. ثم إنهم اجتمعوا مجمعاً ثانياً فحدث فيهم اليعقوبية، ثم مجمعاً ثالثاً فحدث فيهم النسطورية. وكل هذه الفرق تثبت الأقاليم الثلاثة في المسيح، ويختلفون في كيفية ذلك وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم! هل اتحدا، أو ما اتحدا، بل امتزجا أو حل فيه؟ على ثلاث مقالات، وكل منهم يكفر بالفرقة الأخرى، ونحن نكفر الثلاثة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْتَهُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: يكن خيراً لكم ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: تعالى وتقدس عن ذلك علواً كبيراً ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: الجميع ملكه وخلقه، وجميع ما فيها عبيده، وهم تحت تدبيره وتصريفه، وهو وكيل على كل شيء، فكيف يكون له منهم صاحبة أو ولد؟ كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَكُنِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ يَكْفِي عَنْهُ عِلْمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [٨٨] لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِعْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ [٨٩] أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [٩٠] وَمَا يَلْبِغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [٩١] إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَتَى الرَّحْمَنُ عِبَادٌ﴾ [٩٢] لَقَدْ تَخَضَّعُوا لَهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [٩٣] وَكُلُّهُمْ مَائِيَّةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ قَرْبًا﴾ [مریم: ٨٨-٩٥].

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَسَخِرْ فَسَخِرْتُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا﴾ [٩٧] قَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِيْهِمْ أُجُورُهُمْ وَزَيَّدْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَغْبَرُوا فَيَعْبُدُهُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ وَالْأَنْبِيَاءُ وَلَا يَخُودُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَحْنُ الْعَبِيدُ﴾ [٩٨].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس قوله: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾، لن يستكبر. وقال قتادة: لن يحتشم ﴿الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾. وقد استدلل بعض من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية حيث قال: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾. وليس له في ذلك دلالة؛ لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح؛ لأن الاستنكاف هو الامتناع، والملائكة أقدر على ذلك من المسيح؛ فلها قال: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل. وقيل: إنما ذكروا؛ لأنهم اتخذوا الهة مع الله، كما اتخذ المسيح، فأخبر تعالى أنهم عبيد من عبيده وخلق من خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُتَكَبِّرُونَ﴾ [٩١] لَا يَسْجُدُونَ لِلْقُلُوبِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَسْمُكُونَ﴾ [٩٢] يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُتَوَقِّفُونَ﴾ [٩٣] وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَنُجْزِيَنَّهُ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [٩٤].

[الأنبياء: ٢٦-٢٩]. ثم قال: ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْرِ فَيْحَرِّمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أي: فيجمعهم إليه يوم القيامة، ويفضل بينهم بحكمه العدل، الذي لا يجوز فيه ولا يحيف؛ ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾. يعني: فيعطيه من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه وسعة رحمته وامتنانه. وقد روى ابن مَرْذُوبٍ من طريق بَقِيَّةٍ، عن إسماعيل بن عبد الله الكندي، عن الأعمش، عن سفيان، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿يُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾. قال: «أجورهم: أدخلهم الجنة». ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾. قال: «الشفاعة فيمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في دنياهم». وهذا إسناد لا يثبت، وإذا روي عن ابن مسعود موقوفاً فهو جيد. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي: امتنعوا من طاعة الله وعبادته واستكبروا عن ذلك ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ مُتَعَدِّلٌ فِي الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٦٠].

أي: صاغرين حقيرين ذليلين، كما كانوا ممتنعين مستكبرين. ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَرْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (١٧٤) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَتِي وَنَتَقَرَّبُ إِلَيْهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٧٥).

يقول تعالى مخاطباً جميع الناس، ومخبراً بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم، وهو الدليل القاطع للعدر، والحجة المزيله للشبهة؛ ولهذا قال: ﴿وَأَرْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ أي: ضياء واضحاً على الحق، قال ابن جرير وغيره: وهو القرآن. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أي: جمعوهم بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم. وقال ابن جرير: آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن. رواه ابن جرير. ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَتِي وَنَتَقَرَّبُ إِلَيْهِمْ﴾ أي: يرحمهم فيدخلهم الجنة ويزيدهم ثواباً ومضاعفة ورفعاً في درجاتهم، من فضله عليهم وإحسانه إليهم ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: طريقاً واضحاً قاصداً قواماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات. وفي حديث الحارث الأعور، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «القرآن صراط الله المستقيم، وحبل الله المتين». وقد تقدم الحديث بتمامه في أول التفسير، والله الحمد والمنة.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ (١٧٥) ﴿إِنْ أَرَادُ مَالًا لَيْسَ لَكَ وَلَدٌ وَلَكِنْ خُلْتُ فَلَهَا يَصْفُ مَا رَزَقَ وَهُوَ رِثَةٌ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتْ أَثْنَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْكَانِ يَمَّا رَزَقَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رَجُلًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ شَرْطُ الْأُنثَيْنِ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَقُولُوا وَاللَّهُ يَكْفِي شَيْءً عَلَيْهِ﴾ (١٧٦).

قال البخاري: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء قال: آخر سورة نزلت: «براءة»، وآخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن محمد بن المنكدر قال: سمعت جابر بن عبد الله قال: دخل عليّ رسول الله ﷺ، وأنا مريض لا أعقل، قال: فتوضأ، ثم صبّ عليّ - أو قال صبوا عليه - فمَقَلْتُ فَقُلْتُ: إنه لا يرثني إلا كلاله، فكيف الميراث؟ قال: فنزلت آية الفرائض. أخرجه في الصحيحين من حديث شعبة، ورواه الجماعة من طريق سفيان بن عيينة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، به. وفي بعض الالفاظ: فنزلت آية الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ الآية. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد، حدثنا سفيان وقال أبو الزبير قال: - يعني جابراً - نزلت في: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾. وكان معنى الكلام - والله أعلم - ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾: عن الكلاله قل: الله يفتيكم فيها، فدل المذكور على الميراث. وقد تقدم الكلام على الكلاله واشتقاقها، وأنها مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه؛ ولهذا فسرها أكثر العلماء: بمن يموت وليس له ولد ولا والد، ومن الناس من يقول: الكلاله من لا ولد له، كما دلت عليه هذه الآية: ﴿إِنْ أَرَادُ مَالًا لَيْسَ لَكَ وَلَدٌ﴾. وقد أشكل حُكْم الكلاله على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كما ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهداً تنتهي إليه: الجد، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن مغدّان بن أبي طلحة قال: قال عمر بن الخطاب: ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألت عن الكلاله، حتى طعن بأضبعه في صدري وقال: «يكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء». هكذا رواه مختصراً وقد أخرجه مسلم مطولاً أكثر من هذا.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم، حدثنا مالك - يعني ابن يغل - سمعت الفضل بن عمرو، عن إبراهيم، عن عمر قال: سألت رسول الله ﷺ عن الكلاله، فقال: «يكفيك آية الصيف». فقال: لأن أكون سألت النبي ﷺ عنها أحب إليّ

من أن يكون لي حُمر الثَّعم. وهذا إسناد جيد إلا أن فيه انقطاعاً بين إبراهيم وبين عُمَر، فإنه لم يدركه. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا أبو بكر، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عن الكلالة، فقال: «يكفيك آية الصيف». وهذا إسناد جيد، رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي بكر بن عيَّاش، به. وكان المراد بآية الصيف: أنها نزلت في فصل الصيف، والله أعلم. ولما أرشد النبي ﷺ إلى تفهمها - فإن فيها كفاية - نسي أن يسأل النبي ﷺ عن معناها؛ ولهذا قال: فلأن أكون سألت رسول الله ﷺ عنها أحب إلي من أن يكون لي حُمر الثَّعم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا جرير عن الشيباني، عن عمرو بن مُرة، عن سعيد بن المسيب قال: سأل عمر بن الخطاب النبي ﷺ عن الكلالة، فقال: «أليس قد بين الله ذلك؟» فنزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ الآية. وقال قتادة: ذُكر لنا أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال في خطبته: ألا إن الآية التي أنزلت في أول «سورة النساء» في شأن الفرائض، أنزلها الله في الولد والوالد. والآية الثانية أنزلها في الزوج والزوجة والإخوة من الأم. والآية التي ختم بها «سورة النساء» أنزلها في الإخوة والأخوات من الأب والأم، والآية التي ختم بها «سورة الأنفال» أنزلها في أولي الأرحام، بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، مما جرتِ الرحمة من العصبية. رواه ابن جرير.

ذكر الكلام على معناها وبالله المستعان، وعليه التكلان:

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَمْرُكَ هَٰذَا﴾ أي: مات، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [التقصص: ٨٨] كل شيء يفنى ولا يبقى إلا الله، ﷻ، كما قال: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَإِن يَشَاءُ يَمُوتُ رَجُلٌ وَرَجُلٌ مِّنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]. وقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ وَلَدٌ﴾ تمسك به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلالة انتفاء الوالد، بل يكفي في وجود الكلالة انتفاء الولد، وهو رواية عن عمر بن الخطاب، رواها ابن جرير عنه بإسناد صحيح إليه. ولكن الذي رجع إليه هو قول الجمهور وقضاء الصديق: أنه من لا ولد له ولا والد، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَلَدٌ أَخْتُ فَلَهَا يَصِفُ مَا تَرَكَ﴾ ولو كان معها أب لم ترث شيئاً؛ لأنه يحجبها بالإجماع، فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن، ولا والد بالنص عند التأمل أيضاً؛ لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد، بل ليس لها ميراث بالكلية. وقال الإمام أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا أبو بكر بن عبد الله، عن مكحول وعطية وحمة وراشد، عن زيد بن ثابت: أنه سئل عن زوج وأخت لأب وأم، فأعطى الزوج النصف والأخت النصف. فكلّم في ذلك، فقال: حضرت رسول الله ﷺ قضى بذلك. تفرد به أحمد من هذا الوجه، وقد نقل ابن جرير وغيره عن ابن عباس وابن الزبير أنهما كانا يقولان في الميت ترك بنتاً وأختاً: إنه لا شيء للأخت لقوله: ﴿إِنْ أَمْرُكَ هَٰذَا لَيْسَ لَكَ وَلَدٌ وَلَدٌ أَخْتُ فَلَهَا يَصِفُ مَا تَرَكَ﴾ قال: فإذا ترك بنتاً فقد ترك ولداً، فلا شيء للأخت، وخالفهما الجمهور، فقالوا في هذه المسألة: للبت النصف بالفرض، وللأخت النصف الآخر بالتعصيب، بدليل غير هذه الآية وهذه نص أن يفرض لها في هذه الصورة، وأما وراثتها بالتعصيب؛ فلما رواه البخاري من طريق سليمان، عن إبراهيم، عن الأسود، قال: قضى فينا معاذ بن جبل على عهد رسول الله ﷺ: النصف للابنة، والنصف للأخت. ثم قال سليمان: قضى فينا ولم يذكر: على عهد رسول الله ﷺ. وفي صحيح البخاري أيضاً عن هزيل بن شرحبيل قال: سئل أبو موسى الأشعري عن ابنة وابنة ابن وأخت، فقال: للابنة النصف، وللأخت النصف، وأثنى ابن مسعود فسيتابعني. فسئل ابن مسعود - وأخبر بقول أبي موسى - فقال: لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين، أقضي فيها بما قضى النبي ﷺ للابنة النصف، ولابنة الابن السدس، تكملة الثلثين، وما بقي فللأخت، فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود، فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحير فيكم. وقوله: ﴿وَقَوْلاً يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ أي: والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلاله، وليس لها ولد، أي: ولا والد؛ لأنه لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئاً، فإن فرض أن معه من له فرض، صرف إليه فرضه؛ كزوج، أو أخ من أم، وصرف الباقي إلى الأخ؛ لما ثبت في الصحيحين، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا أَبْقَتِ لِلْفَرَائِضِ فَلَاؤُكُلِي رَجُلٍ ذَكَرَ». وقوله: ﴿فَإِن كَانَتَا أَثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثَانِ بِمَا تَرَكَ﴾ أي: فإن كان لمن يموت كلاله، أختان، فرض لهما الثلثان، وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما، ومن ههنا أخذ الجماعة حكم البنتين كما استفيد حكم الأخوات من البنات، في قوله: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾. وقوله: ﴿وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾. هذا حكم العصبات من البنين وبنين البنين والإخوة إذا اجتمع ذكورهم وإنثاهم، أعطى الذكر منهم مثل حظ الأنثيين.

وقوله: ﴿يَتِيئُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: يفرض لكم فرائضه، ويحد لكم حدوده، ويوضح لكم شرائعه. وقوله: ﴿أَن تَسْأَلُوا﴾ أي:

لثلا تضلوا عن الحق بعد البيان. ﴿وَاللَّهُ يَكْفِي شَأْنَهُ عَلِيمٌ﴾ أي: هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها وما فيها من الخير لعباده، وما يستحقه كل واحد من القربات بحسب قربه من المتوفى. وقد قال أبو جعفر بن جرير: حدثني يعقوب، حدثني ابن عُلَيْه، أنبأنا ابن عَزُن، عن محمد بن سيرين قال: كانوا في مسير، ورأس راحلة حذيفة عند رذف راحلة رسول الله ﷺ، ورأس راحلة عمر عند رذف راحلة حذيفة. قال: ونزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ فلقاها رسول الله ﷺ حذيفة، فلقاها حذيفة عُمَر، فلما كان بعد ذلك سأل عُمَرُ عنها حذيفة فقال: والله إنك لأحمق إن كنت ظننت أنه لقانيها رسول الله ﷺ فلقيتكها كما لقانيها، والله لا أزيدك عليها شيئاً أبداً قال: فكان عمر رضي الله عنه يقول: «اللهم إن كنت بيتها له فإنها لم تبين لي». كذا رواه ابن جرير: ورواه أيضاً عن الحسن بن يحيى، عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن أيوب، عن ابن سيرين كذلك بنحوه. وهو منقطع بين ابن سيرين وحذيفة، وقد قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو البزار في مسنده: حدثنا يوسف بن حماد المغنّي، ومحمد بن مرزوق قالوا: أخبرنا عبد الأعلى بن عبد الأعلى، حدثنا هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي عبيدة بن حذيفة، عن أبيه: «نزلت الكلاله على النبي ﷺ وهو في مسير له، فوقف النبي ﷺ وإذا هو بحذيفة، وإذا رأس ناقه حذيفة عند مؤتزر النبي ﷺ، فلقاها إياه، فنظر حذيفة فإذا عمر، رضي الله عنه، فلقاها إياه، فلما كان في خلافة عمر نظر عمر في الكلاله، فدعا حذيفة فسأله عنها، فقال حذيفة: لقد لقانيها رسول الله ﷺ فلقيتك كما لقاني، والله إني لصديق، والله لا أزيد على ذلك شيئاً أبداً. ثم قال البزار: وهذا الحديث لا نعلم أحد رواه إلا حذيفة، ولا نعلم له طريقاً عن حذيفة إلا هذا الطريق، ولا رواه عن هشام إلا عبد الأعلى. وكذا رواه ابن مَرْدُويه من حديث عبد الأعلى. وقال عثمان بن أبي شيبة: حدثنا جرير، عن الشَّيباني، عن عمرو بن مَرْة، عن سعيد - هو ابن المسيب - أن عمر سأل رسول الله ﷺ كيف يؤرث الكلاله؟ قال: فأنزل الله ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ الآية، قال: فكان عمر لم يفهم. فقال لحفصة: إذا رأيت من رسول الله ﷺ طيب نفس فسله عنها، فرأت منه طيب نفس فسأله عنها، فقال: «أبوك ذكر لك هذا؟ ما أرى أباك يعلمها». قال: وكان عمر يقول: ما أراني أعلمها، وقد قال رسول الله ﷺ ما قال.

رواه ابن مَرْدُويه، ثم رواه من طريق ابن عيينة، عن عمرو، عن طاوس: أن عمر أمر حفصة أن تسأل النبي ﷺ عن الكلاله، فأملأها عليها في كتف، فقال: «من أملك بهذا؟ أعمر؟ ما أراه يقيمها، أو ما تكفيه آية الصنف؟» قال سفيان: وآية الصنف التي في النساء: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً﴾، فلما سألوا رسول الله ﷺ نزلت الآية التي هي خاتمة النساء، فالتقى عمر الكتف. كذا قال في هذا الحديث، وهو مرسل. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عثام، عن الأعمش، عن قيس بن مُسلم، عن طارق بن شهاب قال: «أخذ عمر كتفاً وجمع أصحاب النبي ﷺ، ثم قال: لأقضي في الكلاله قضاء تُحدث به النساء في خدورهن. فخرجت حينئذ حية من البيت، فنفروا، فقال: لو أراد الله ﷻ، أن يتم هذا الأمر لأتمه. وهذا إسناد صحيح. وقال الحاكم أبو عبد الله النِّسَابُوري: حدثنا علي بن محمد بن عتبة الشَّيباني بالكوفة، حدثنا الهيثم بن خالد، حدثنا أبو نَعْمَان، حدثنا ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، سمعت محمد بن طلحة بن يزيد بن زُكَّانة يحدث عن عمر بن الخطاب قال: لأن أكون سألت رسول الله ﷺ عن ثلاث أحب إلي من حُمُر النَّعَم: من الخليفة بعده؟ وعن قوم قالوا: نُقْرُ في الزكاة من أموالنا ولا نودينا إليك، أيحل قتالهم؟ وعن الكلاله. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. ثم روي بهذا الإسناد إلى سفيان بن عيينة، عن عمرو بن مَرْة، عن مَرْة، عن عمر قال: ثلاث لأن يكون النبي ﷺ يَبْتَهِنُ لنا أحب إلي من الدنيا وما فيها: الخلافة، والكلالة، والربا. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وبهذا الإسناد إلى سفيان بن عيينة قال: سمعت سليمان الأحول يحدث، عن طاوس قال: سمعت ابن عباس قال: كنت آخر الناس عهداً بعمر، فسمعتة يقول: القول ما قلت؟ وما قلت؟ قال قلت: الكلاله، من لا ولد له. ثم قال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه. وهكذا رواه ابن مَرْدُويه من طريق زُفْعَة بن صالح، عن عمرو بن دينار وسليمان الأحول، عن طاوس، عن ابن عباس قال: كنت آخر الناس عهداً بعمر بن الخطاب، قال: اختلفت أنا وأبو بكر في الكلاله، والقول ما قلت. قال: وذكر أن عمر شرك بين الأخوة للآب وللأُم، وبين الأخوة للآم في الثلث إذا اجتمعوا، وخالفه أبو بكر، رضي الله عنهما. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا محمد بن حَمِيد المَقْمَرِي، عن مَعْمَر بن الزُّهْرِي، عن سعيد بن المسيب: أن عمر كتب في الجَدِّ والكلالة كتاباً، فمكث يستخير الله فيه يقول: اللهم إن علمت فيه خيراً فأَمْضِهِ، حتى إذا طعن دعا بكتاب فمضى، ولم يدر أحد ما كتب فيه. فقال: إني كنت كتبت في الجَدِّ والكلالة كتاباً، وكنت استخرت الله فيه، فرأيت أن أترككم على ما كنتم عليه. قال ابن جرير: وقد روي عن عمر، رضي الله عنه، أنه قال: إني لأستحي أن أخالف فيه أباً بكر. وكان أبو بكر، رضي الله عنه، يقول: هو ما عدا الولد

وهى مدنية

قال ابن أبي حاتم: حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا مسعر، حدثني مغن وعوف - أو: أحدهما - أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: اعهد إلي. فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فارتعها سمعتك، فإن خير يأمر به، أو شر ينهى عنه. وقال: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم - دحيم - حدثنا الوليد، حدثنا الأوزاعي، عن الزهري قال: إذا قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فاعلوا، فالنبي ﷺ منهم. وحدثنا أحمد بن سنان، حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن خثيمة قال: كل شيء في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهو في التوراة: «يا أيها المساكين». فأما ما رواه عن زيد بن إسماعيل الصائغ البغدادي، حدثنا معاوية - يعني: ابن هشام - عن عيسى بن راشد، عن علي بن بذيمة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ما في القرآن آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا أن علياً سيدها وشريفها وأميرها، وما من أصحاب النبي ﷺ أحد إلا قد عوتب في القرآن إلا علي بن أبي طالب، فإنه لم يعاتب في شيء منه. فهو أثر غريب، ولفظه فيه نكارة، وفي إسناده نظر. قال البخاري: عيسى بن راشد هذا مجهول، وخبره منكر. قلت: وعلي بن بذيمة - وإن كان ثقة - إلا أنه شيعي غال، وخبره في مثل هذا فيه تهمة فلا يقبل. وقوله: «ولم يبق أحد من الصحابة إلا عوتب في القرآن إلا علياً» إنما يشير به إلى الآية الأمرة بالصدقة بين يدي النجوى، فإنه قد ذكر غير واحد أنه لم يعمل بها أحد إلا علي، ونزل قوله: ﴿وَأَتَقْتُمَ الْكُفْرَ كَثُرًا ۖ وَلَقَدْ رَأَوْهُمُ كَافِرِينَ فَذُكِّرُوا بِالْآيَةِ ۚ وَنُفِّرُوا بَيْنَ يَدَيْ سَخِرْنَا لَكُمُ الْيَوْمَ فِي الدِّينِ وَمَا كَانَ لَكُمْ فِيهِ لُغْزٌ ۚ أُولَٰئِكَ يَنْفَكُونَ مِنْكَ كَمَا تَنْفَكُونَ مِنْهُ ۚ وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا شَاءَ ۚ﴾ الآية [المجادلة: ١٣]، وفي كون هذا عتاباً نظر؛ فإنه قد قيل: إن الأمر كان ندباً لا إيجاباً، ثم قد نسخ ذلك عنهم قبل الفعل، فلم ير من أحد منهم خلافه. وقوله عن علي: «إنه لم

يعاتب في شيء من القرآن» فيه نظر أيضاً؛ فإن الآية التي في الأنفال التي فيها المعاتبة على أخذ الفداء عمت جميع من أشار بأخذه، ولم يسلم منها إلا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فعلم بهذا، وبما تقدم ضَعُفَ هذا الأثر، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا الليث، حدثني يونس قال: قال محمد بن مسلم: قرأت كتاب رسول الله ﷺ الذي كُتِبَ لعمر بن حزم حين بعثه إلى نَجْران، وكان الكتاب عن أبي بكر بن حزم، فيه: هذا بيان من الله ورسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ فكتب الآيات منها حتى بلغ: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه قال: هذا كتاب رسول الله ﷺ عندنا، الذي كتبه لعمر بن حزم، حين بعثه إلى اليمن يُفَقِّه أهلها ويعلمهم السنة، ويأخذ صدقاتهم. فكتب له كتاباً وعهداً، وأمره فيه بأمره، فكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله ورسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ عَهْدٌ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لعمر بن حزم، حين بعثه إلى اليمن، أمره بتقوى الله في أمره كله، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون». قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾: قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني بالعقود: العهود. وحكى ابن جرير الإجماع على ذلك، قال: والعهود: ما كانوا يتعاقدون عليه من الحلف وغيره. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ يعني بالعهود: يعني ما أحل الله وما حرم، وما فرض وما خد في القرآن كله، فلا تغدروا ولا تنكثوا، ثم شدد في ذلك فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ إلى قوله: ﴿سَوْءَ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]. وقال الضحاك: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾: قال: ما أحل وما حرم، وما أخذ الله من الميثاق على من أقر بالإيمان بالنبي ﷺ والكتاب أن يوفوا بما أخذ الله عليهم من الفرائض من الحلال والحرام. وقال زيد بن أسلم: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾: قال: هي ستة: عهد الله، وعقد الحلف، وعقد الشركة، وعقد البيع، وعقد النكاح، وعقد اليمين. وقال محمد بن كعب: هي خمسة، منها: حلف الجاهلية، وشركة المفاوضة. وقد استدلل بعض من ذهب إلى أنه لا خيار في مجلس البيع بهذه الآية: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قال: فهذا يدل على لزوم العقد وثبوته، فيقتضي نفي خيار المجلس، وهذا مذهب أبي حنيفة، ومالك. وخالفهما الشافعي وأحمد بن حنبل والجمهور، والحجة في ذلك ما ثبت في الصحيحين، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الْبَيْعَانُ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا». وفي لفظ للبخاري: «إذا تابع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يفرقا». وهذا صريح في إثبات خيار المجلس المتعقب لعقد البيع، وليس هذا منافياً للزوم العقد، بل هو من مقتضياته شرعاً، فالتزامه من تمام الوفاء بالعقد.

وقوله تعالى: ﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهَيْمَةَ الْاَنْتَمِرِ﴾ هي: الإبل، والبقر، والغنم. قاله الحسن وقتادة وغير واحد. قال ابن جرير: وكذلك هو عند العرب. وقد استدلل ابن عمر، وابن عباس، وغير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وجد ميتاً في بطن أمه إذا ذبحت، وقد ورد في ذلك حديث في السنن، رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، من طريق مجاهد، عن أبي الودَّاع جبر بن نَوْف، عن أبي سعيد، قال: قلنا: يا رسول الله، ننحر الناقة، ونذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين، أنلقيه أم نأكله؟ فقال: «كلوه إن شئتم؛ فإن ذكاته ذكاة أمه». وقال الترمذي حديث حسن. وقال أبو داود: حدثنا محمد بن يحيى بن فارس، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا عَتَّاب بن بشير، حدثنا عبيد الله بن أبي زياد القداح المكي، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله، عن رسول الله ﷺ قال: «ذكاة الجنين ذكاة أمه». تفرد به أبو داود.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا يَتَلَّ عَلَىكُمْ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني بذلك: الميتة، والدَّم، ولحم الخنزير. وقال قتادة: يعني بذلك الميتة، وما لم يذكر اسم الله عليه. والظاهر - والله أعلم - أن المراد بذلك قوله: ﴿حَرَمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَلَحْمُ الْخَنَازِيرِ وَمَا هِيَ إِلَّا نَجَسٌ﴾. فإن هذه وإن كانت من الأنعام إلا أنها تحرم بهذه العوارض؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُحِيَ عَلَى النَّصَبِ﴾ يعني: منها. فإنه حرام لا يمكن استدراكه، وتلاخذه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهَيْمَةَ الْاَنْتَمِرِ إِلَّا مَا يَتَلَّ عَلَىكُمْ﴾ أي: إلا ما سئلت عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال.

وقوله: ﴿غَيْرَ مَحْلٍ الْقَيْدِ وَأَشْمَ حَرَمٍ﴾ قال بعضهم: هذا منصوب على الحال. والمراد من الأنعام: ما يعم الإنسي من الإبل والبقر والغنم، وما يعم الوحشي كالظباء والبقر والحمر، فاستثنى من الإنسي ما تقدم، واستثنى من الوحشي الصيد في حال الإحرام. وقيل: المراد أحللنا لكم الأنعام إلا ما استثنى لمن التزم تحريم الصيد وهو حرام، كقوله: ﴿فَمَنْ أَشْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَاوٍ﴾ أي: أبحننا تناول الميتة للمضطر بشرط أن يكون غير باغ ولا عاد، أي: كما أحللنا الأنعام لكم في جميع الأحوال، فحرموا الصيد في حال الإحرام، فإن الله قد حكم بهذا وهو الحكيم في جميع ما يأمر به وينهى عنه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا

يُرِيدُ ﴿١﴾. ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا سَعْتَكُمْ آلَهُ﴾ قال ابن عباس: يعني بذلك مناسك الحج. وقال مجاهد: الصفا والمروة والهدي والبُدن من شعائر الله. وقيل: شعائر الله محارمه التي حرّمها، أي: لا تحلوا محارم الله التي حرّمها تعالى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا أَشْهَرُ الْحَرَامِ﴾ يعني بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمه، وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه، من الابتداء بالقتال وتأكيد اجتناب المحارم، كما قال تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُكَ عَنِ الْكَرَّارِ قِتَالٍ فِيهِ قُلٌّ فِيهِ كِبِيرٌ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلَاثُ مَتَوَالِيَاتٍ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمَحْرَمِ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشُعْبَانَ﴾. وهذا يدل على استمرار تحريمها إلى آخر وقت، كما هو مذهب طائفة من السلف. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا أَشْهَرُ الْحَرَامِ﴾ يعني: لا تستحلوا قتالاً فيه. وكذا قال مقاتل بن حيان، وعبد الكريم بن مالك الجزري، واختاره ابن جرير أيضاً، وقد ذهب الجمهور إلى أن ذلك منسوخ، وأنه يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم، واحتجوا بقوله: ﴿وَإِذَا نَسَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، قالوا: والمراد أشهر التسيير الأربعة، ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، قالوا: فلم يستثن شهراً حراماً من غيره. وقد حكى الإمام أبو جعفر رحمه الله الإجماع على أن الله قد أحل قتال أهل الشرك في الأشهر الحرم، وغيرها من شهور السنة، قال: وكذلك أجمعوا على أن المشرك لو قلد عنقه أو ذراعيه بلخاء جميع أشجار الحرم، لم يكن ذلك له أماناً من القتل، إذا لم يكن تقدم له عقد ذمة من المسلمين أو أمان. ولهذه المسألة بحث آخر، له موضع أبسط من هذا.

وقوله: ﴿وَلَا الْكُذْبَى وَلَا الْقَلْبِدَى﴾ يعني: لا تتركوا الإهداء إلى البيت؛ فإن فيه تعظيماً لشعائر الله، ولا تتركوا تقليدها في أعناقها لتمييز به عما عداها من الأنعام، وليعلم أنها هدي إلى الكعبة فيجتنبها من يريدها بسوء، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها، فإن من دعا إلى هدي كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً؛ ولهذا لما حج رسول الله ﷺ بات بذي الحليفة، وهو وادي العقيق، فلما أصبح طاف على نسائه، وكن تسعاً، ثم اغتسل وتطيب وصلى ركعتين، ثم أشعر هذيه وقلده، وأهل بالحج والعمرة وكان هديه إبلاً كثيرة تنيف على الستين، من أحسن الأشكال والألوان، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْطَمْ شِكْرٌ مِنْ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٧]. قال بعض السلف: إعظامها: استحسانها واستسمانها. وقال علي بن أبي طالب: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن. رواه أهل السنن. وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَلَا الْقَلْبِدَى﴾: فلا تستحلوا. وكان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم في غير الأشهر الحرم، قلدوا أنفسهم بالشعر والزَّوَر، وتقلد مشركو الحرم من لحاء شجر الحرم، فيأمنون به. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: نسخ من هذه السورة آيتان: آية القلائد، وقوله: ﴿فَإِنْ جَاءَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ يَبْتَغُونَ أَوْ أَتَيْتُمْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢]. وحدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا زكريا بن عدي، حدثنا محمد بن أبي عدي، عن ابن عوف قال: قلت للحسن: نسخ من المائدة شيء؟ قال: لا. وقال عطاء: كانوا يتقلدون من شجر الحرم، فيأمنون، فنهى الله عن قطع شجره. وكذا قال مطرف بن عبد الله. وقوله: ﴿وَلَا يَأْتِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ أي: ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام، الذي من دخله كان آمناً، وكذا من قصده طالباً فضل الله وراغباً في رضوانه، فلا تصدوه ولا تمنعوه ولا تهيجوه. قال مجاهد، وعطاء، وأبو العالية، ومطرف بن عبد الله، وعبد الله بن عبيد بن عمير، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حيان في قوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعني بذلك: التجارة.

وهذا كما تقدم في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]. وقوله: ﴿وَرِضْوَانًا﴾: قال ابن عباس: يترضون الله بحجهم. وقد ذكر عكرمة، والسُّدِّي، وابن جُرَيْج: أن هذه الآية نزلت في الحُطَم بن هند البكري، كان قد أغار على سرح المدينة، فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت، فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا في طريقه إلى البيت، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾. وقد حكى ابن جرير الإجماع على أن المشرك يجوز قتله، إذا لم يكن له أمان، وإن أم البيت الحرام أو بيت المقدس؛ فإن هذا الحكم منسوخ في حقهم، والله أعلم. فأما من قصده بالإلحاد فيه والشرك عنده والكفر به، فهذا يمنع كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بِمَدْعَاهُمْ هَكَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]؛ ولهذا بعث رسول الله ﷺ عام تسع - لما أمر الصديق على الحجيج -

عليّاً، وأمره أن ينادي على سبيل النبابة عن رسول الله ﷺ ببراءة، والأيحج بعد العام مُشرك، ولا يطوفن بالبيت غزيان. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَا تَأْتِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾: يعني من توجه قبل البيت الحرام، فكان المؤمنون والمشركون يحجون البيت الحرام، فنهى الله المؤمنين أن ينعنوا أحداً يحج البيت أو يعرضوا له من مؤمن أو كافر، ثم أنزل الله بعدها: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بِدَعَائِهِمْ هَكَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨] فنهى المشركين من المسجد الحرام. وقال عبد الرزاق: حدثنا مغمّر، عن قتادة في قوله: ﴿وَلَا تَقْلُبُوا وَلَا تَأْتِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ قال: منسوخ، كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج تقلّد من الشجر، فلم يعرض له أحد، وإذا رجع تقلّد قلادة من شعر فلم يعرض له أحد. وكان المشرك يومئذ لا يصد عن البيت، فأمروا ألا يقاتلوا في الشهر الحرام ولا عند البيت، فنسخها قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [التوبة: ١٥]. وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿وَلَا تَقْلُبُوا﴾ يعني: إن تقلّد قلادة من الحرم فامتوه، قال: ولم تزل العرب تعير من أخفر ذلك، قال الشاعر:

أَلَمْ تَفْشَلَا الْحَزَجَيْنِ إِذَا عَمُورَا لَكُمْ يَمْرُانَ الْأَيْدِي اللَّحَاءِ الْمُسْضَفْرَا
وقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أي: إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتم منه، فقد أبحنا لكم ما كان محرماً عليكم في حال الإحرام من الصيد. وهذا أمر بعد الحظر، والصحيح الذي يثبت على السُّنن: أنه يرد الحكم إلى ما كان عليه قبل النهي، فإن كان واجباً رده واجباً، وإن كان مستحباً فمستحب، أو مباحاً فمباح. ومن قال: إنه على الوجوب، ينتقض عليه بآيات كثيرة، ومن قال: إنه للإباحة، يرد عليه آيات أخر، والذي ينظم الأدلة كلها هذا الذي ذكرناه، كما اختاره بعض علماء الأصول، والله أعلم. وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾: ومن القراء من قرأ: «أن صدوكم» بفتح الالف من «أن»، ومعناها ظاهر، أي: لا يحملنكم بغض قوم قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام، وذلك عام الحديبية، على أن تعتدوا في حكم الله فيكم فتقتصوا منهم ظلماً وعدواناً، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في كل أحد. وهذه الآية كما سيأتي من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَوَلَّوْا عَلَى الْآلِ وَالْقَوَى﴾ [المائدة: ٨] أي: لا يحملنكم بغض أقوام على ترك العدل، فإن العدل واجب على كل أحد، في كل أحد، في كل حال. وقال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، والعدل به قامت السموات والأرض. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سهل بن عثمان، حدثنا عبد الله بن جعفر، عن زيد بن أسلم قال: كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صدهم المشركون عن البيت، وقد اشتد ذلك عليهم، فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق، يريدون العمرة، فقال أصحاب النبي ﷺ: نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم. فأنزل الله هذه الآية. والشأن هو: البغض. قاله ابن عباس وغيره، وهو مصدر من شأنه أشنؤه شنائاً، بالتحريك، مثل قولهم: جَمَزَان، وَدَرَجَان وَرَقْلَان، من جمز، ودرج، ورفل. قال ابن جرير: من العرب من يسقط التحريك في شأن، فيقول: شأن. قال: ولم أعلم أحداً قرأ بها، ومنه قول الشاعر:

وَمَا الْعَيْشُ إِلَّا مَا تُحِبُّ وَتُشْتَهِي وَإِنْ لَمْ فِيهِ ذُو الشُّئَانِ وَقَدْ نَدَا
وقوله: ﴿وَتَوَلَّوْا عَلَى الْآلِ وَالْقَوَى وَلَا تَوَلَّوْا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾: يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعونة على فعل الخيرات، وهو البر، وترك المنكرات وهو التقوى، وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم.

قال ابن جرير: الإثم: ترك ما أمر الله بفعله، والعدوان: مجاوزة ما حد الله في دينكم، ومجاوزة ما فرض عليكم في أنفسكم وفي غيركم. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم، حدثنا عبيد الله بن أبي بكر بن أنس، عن جده أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «انصُرْ أَخَاكَ ظالماً أو مظلوماً». قيل: يا رسول الله، هذا نصرتُه مظلوماً، فكيف أنصره إذا كان ظالماً؟ قال: «تحجّزه تمنعه، فإن ذلك نصره». انفرد به البخاري من حديث هُشَيْم به نحوه، وأخرجه من طريق ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «انصُرْ أَخَاكَ ظالماً أو مظلوماً». قيل: يا رسول الله، هذا نصرتُه مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قال: «تمنعه من الظلم، فذاك نصرك إياه». وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا سفيان بن سعيد، عن يحيى بن وثاب، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أعظم أجراً من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم». وقد رواه أحمد أيضاً في مسند عبد الله بن عمر: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة عن الأعمش، عن يحيى بن وثاب، عن شيخ من أصحاب النبي ﷺ، قال الأعمش: هو ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على

أذاهم، خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم». وهكذا رواه الترمذي من حديث شعبة، وابن ماجه من طريق إسحاق بن يوسف، كلاهما عن الأعمش، به. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن محمد، أبو شبة الكوفي، حدثنا بكر بن عبد الرحمن، حدثنا عيسى بن المختار، عن ابن أبي ليلى، عن فضيل بن عمرو، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «الدَّالُّ على الخير كفاعله». ثم قال: لا نعلمه يروى إلا بهذا الإسناد. قلت: وله شاهد في الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً». وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا عمرو بن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء بن زريق الحمصي، حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن الحارث، عن عبد الله بن سالم، عن الزبيدي، قال عباس بن يونس: إن أبا الحسن يُقرآن بن مخمر حدثه أن رسول الله ﷺ قال: «من مشى مع ظالم ليعينه، وهو يعلم أنه ظالم، فقد خرج من الإسلام».

﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالَّذِي وَلَهُ الْيَزِيرُ وَمَا أُولَ الْيَزِيرِ لِلَّهِ بِهِ. وَالْمُتَخَفَّةُ وَالْمَوْفُودَةُ وَالْمَرْدَّةُ وَالنَّطِيعَةُ وَمَا أَكَلَ النَّسِجَ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ وَأَنْ تَسْقُمُوا بِالْأَنْزِلَةِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَسَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَيْنِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاحْشَوْهُمْ وَأَحْشَوْا الْيَوْمَ أَهْلَكْتُ لَكُمْ بَيْنَكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ يَمَقِّي وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامُ دِيْنًا فَمَنْ أَضَلَّ فِي عَقْمَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝﴾.

يخبر تعالى عباده خبراً متضمناً النهي عن تعاطي هذه المحرمات من الميتة، وهي: ما مات من الحيوان خُتِفَ أنفه، من غير ذكاة ولا اصطيد، وما ذاك إلا لما فيها من المضرة، لما فيها من الدم المحتقن، فهي ضارة للبدن ولهذا حرمها الله ﷻ، ويستثنى من الميتة السمك، فإنه حلال سواء مات بتذكية أو غيرها، لما رواه مالك في موطنه، والشافعي وأحمد في مسنديهما، وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه في سننهم، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر، فقال: «هو الطَّهْرُ ماؤه الجَلُّ ميتته». وهكذا الجراد، لما سيأتي من الحديث، وقوله: «وَالْدَّمُ» يعني به: المسفوح؛ لقوله: «(أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا)» [الأنعام: ١٤٥]. قاله ابن عباس وسعيد بن جبّير. قال ابن أبي حاتم: حدثنا كثير بن شهاب المذحجي، حدثنا محمد بن سعيد بن سابق، حدثنا عمرو - يعني ابن قيس - عن سَمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس: أنه سئل عن الطحال فقال: كلوه، فقالوا: إنه دم. فقال: إنما حُرِّمَ عليكم الدم المسفوح.

وكذا رواه حماد بن سلمة، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم، عن عائشة، قالت: إنما نهى عن الدم السافح. وقد قال أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أَجَلٌ لَنَا مِيتَتَانِ وَدَمَانِ، فَأَمَّا الْمِيتَتَانِ فَالْحَوْتِ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ». وكذا رواه أحمد بن حنبل، وابن ماجه، والدارقطني، والبيهقي، من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف. قال الحافظ البيهقي: ورواه إسماعيل بن أبي إدريس، عن أسامة، وعبد الله، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن ابن عمر مرفوعاً. قلت: وثلاثتهم ضعفاء، ولكن بعضهم أصح من بعض. وقد رواه سليمان بن بلال أحد الأثبات، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر، فوقفه بعضهم عليه. قال الحافظ أبو زرعة الرازي: وهو أصح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسن، حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، حدثنا بشير بن سُرَيْج، عن أبي غالب، عن أبي أسامة - وهو صُدِّي بن عجلان - قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى قومي أَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وأعرض عليهم شرائع الإسلام، فأتيتهم، فبينما نحن كذلك إذ جاؤوا بِقَصْعَةٍ مِنْ دَمٍ، فَاجْتَمَعُوا عَلَيْهَا يَأْكُلُونَهَا، قَالُوا: هَلَمْ يَا صُدِّي، فَكُلْ. قال: قلت: ويحكم! إنما أتيتكم من عند مُحَرَّمٍ هَذَا عَلَيْكُمْ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ، قَالُوا: وَمَا ذَاكَ؟ قال: فتلوت عليهم هذه الآية: «﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالَّذِي وَلَهُ الْيَزِيرُ وَمَا أُولَ الْيَزِيرِ لِلَّهِ بِهِ﴾». ورواه الحافظ أبو بكر بن مَرْزُوقٍ من حديث ابن أبي الشوارب بإسناده مثله، وزاد بعد هذا السياق: قال: فجعلت أَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَيَأْبُونَ عَلَيَّ، فَقُلْتُ لَهُمْ: ويحكم، اسقوني شربة من ماء، فإني شديد العطش - قال: وعليّ عباءتي - فقالوا: لا، ولكن ندعك حتى تموت عطشاً. قال: فاغتيمت وضربت برأسي في العباء، ونمت على الرضاء في حر شديد، قال: فأتاني آت في منامي بِقَدَحٍ مِنْ زَجَاجٍ لَمْ يَرِ النَّاسُ أَحْسَنَ مِنْهُ، وَفِيهِ شَرَابٌ لَمْ يَرِ النَّاسُ شَرَاباً أَلْذَّ مِنْهُ، فَأَمَكْنِي مِنْهَا فَشَرَبْتُهَا، فَحَيْثُ فَرَعْتُ مِنْ شَرَابِي اسْتَيْقَظْتُ، فَلَا وَاللَّهِ مَا عَطَشْتُ وَلَا عَرِيتُ بَعْدَ تَيْكِ الشَّرْبَةِ. ورواه الحاكم في مستدركه، عن علي بن حُمَاشَد، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني عبد الله بن سلمة بن عياش العامري، حدثنا صدقة بن هرمز، عن أبي غالب، عن أبي أسامة، قد ذكر نحوه، وزاد بعد قوله: «بعد تَيْكِ الشَّرْبَةِ»: فسمعتهم يقولون: أناكم رجل من سراة قومكم، فلم تَمَجِّعُوهُ بِمَذْقَةٍ، فَأَتُونِي بِمَذْقَةٍ فَقُلْتُ: لا حاجة لي فيها، إن الله أطعمني وسقاني، وأريتهم بطني فأسلموا عن

آخرهم. وما أحسن ما أنشد الأعشى في قصيدته التي ذكرها ابن إسحاق:

وإياك والميتات لا تقربئها ولا تأخذن عظمأ حديدا فتفصدا
أي: لا تفعل كما يفعل الجاهلية، وذلك أن أحدهم كان إذا جاع أخذ شيئا محدداً من عظم ونحوه، فيُقصد به بغيره أو حيواناً من أي صنف كان، فيجمع ما يخرج منه من الدم فيشربه؛ ولهذا حُرِّم الله الدم على هذه الأمة، ثم قال الأعشى:

ودا النَّصْبُ المنصوب لا تأتيه ولا تعبد الأصنام والله فاعبدا

وقوله: ﴿وَلَمْ يَنْزِرْ﴾ يعني: إنسيه ووحشيه، واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم، ولا يحتاج إلى تحذلق الظاهرية في جمودهم ههنا وتعسفهم في الاحتجاج بقوله: ﴿يَنْزِرُ فَلَأُكَلِّمَهُ رَجَسًا أَوْ فِسْقًا﴾ يعنون قوله تعالى: ﴿لَا أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُ دَمًا مَصْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَلَأُكَلِّمَهُ رَجَسًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]، أعادوا الضمير فيما فهموه على الخنزير، حتى يعم جميع أجزائه، وهذا بعيد من حيث اللغة، فإنه لا يعود الضمير إلا إلى المضاف دون المضاف إليه، والأظهر أن اللحم يعم جميع الأجزاء كما هو المفهوم من لغة العرب، ومن العرف المطرد، وفي صحيح مسلم، عن بُرَيْدَةَ بن الحَصْبِيب الأسلمي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من لعب بالنردشير فكأنما صَبَّغَ يده في لحم الخنزير ودمه» فإذا كان هذا التنفير للمجرد للمس، فكيف يكون التهديد والوعيد الأكيد على أكله والتغذي به، وفيه دلالة على شمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره. وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام». فقيل: يا رسول الله، أرايت شحوم الميتة، فإنها تطلى بها السفن، وتدهن بها الجلود، ويستصبغ بها الناس؟ فقال: «لا، هو حرام». وفي صحيح البخاري من حديث أبي سفيان: أنه قال لهرقل ملك الروم: «نهانا عن الميتة والدم».

وقوله: ﴿وَمَا أَهْلٌ لِنَعْرِ اللَّهِ يَدْرِي﴾ أي: ما ذبح فذكر عليه اسم غير الله، فهو حرام؛ لأن الله أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم، فمتى عُدِلَ بها عن ذلك وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك، من سائر المخلوقات، فإنها حرام بالإجماع. وإنما اختلف العلماء في المتروك التسمية عليه، إما عمداً أو نسياناً، كما سيأتي تقريره في سورة الأنعام. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسن الهيثمي، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا ابن فضيل، عن الوليد بن جُمَيْع، عن أبي الطفيل قال: نزل آدم بتحريم أربع: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، وإن هذه الأربعة الأشياء لم تحل قط، ولم تزل حراماً منذ خلق الله السموات والأرض، فلما كانت بنو إسرائيل حرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بذنوبهم، فلما بعث الله عيسى ابن مريم، عليه السلام، نزل بالأمر الأول الذي جاء به آدم عليه السلام، وأحل لهم ما سوى ذلك فكذبوه وعصوه. وهذا أثر غريب.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا ربيعة بن عبد الله قال: سمعت الجارود بن أبي سَبْرَةَ - قال: هو جدي - قال: كان رجل من بني رِيَّاح يقال له: ابن وَثِيل، وكان شاعراً، نافر - غالباً - أبا الفرزدق بماء بظهر الكوفة، على أن يعقر هذا مائة من إبله، وهذا مائة من إبله، إذا وردت الماء، فلما وردت الماء قاما إليها بالسيف، فجعللا يَكْسِفَان عَرَاقِيهَيا. قال: فخرج الناس على الحمرات والبغال يريدون اللحم - قال: وعَلِيَّ بالكوفة - قال: فخرج عليّ على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء وهو ينادي: يا أيها الناس، لا تأكلوا من لحومها فإنما أهل بها لغير الله. هذا أثر غريب، ويشهد له بالصحة ما رواه أبو داود: حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا حماد بن مَسْعُودَة، عن عوف، عن أبي زُرَّحَانَة، عن ابن عباس قال: نهى النبي ﷺ عن مُعَاقَرَة الأعراب. ثم قال أبو داود: محمد بن جعفر - هو عُثْدَر - أوقفه على ابن عباس. تفرد به أبو داود. وقال أبو داود أيضاً: حدثنا هارون بن زيد بن أبي الزرقاء، حدثنا أبي، حدثنا جرير بن حازم، عن الزبير بن خريت قال: سمعت عكرمة يقول: إن رسول الله ﷺ نهى عن طعام المتباريين أن يؤكل. ثم قال أبو داود: أكثر من رواه عن جرير لا يذكر فيه ابن عباس. تفرد به أيضاً.

وقوله: ﴿وَالْمُنْحَقَّةُ﴾ وهي التي تموت بالخنق إما قصداً أو اتفاقاً، بأن تَتَخَبَّلَ في وثاقها فتموت به، فهي حرام. وأما ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ فهي التي تضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت، كما قال ابن عباس وغير واحد: هي التي تضرب بالخشب حتى تُوقَذَ بها فتموت. وقال قتادة: كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصى حتى إذا ماتت أكلوها. وفي الصحيح: أن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إني أرمي بالمِغْرَاض الصيد فأصيب. قال: «إذا رميت بالمِغْرَاض فَخَرَقَ فَكُلْهُ، وإن أصابه بَمِغْرَاضِهِ فَإِنَّمَا هُوَ وَقِيدٌ فَلَا تَأْكُلْهُ». ففرق بين ما أصابه بالسهم، أو بالمِغْرَاض ونحوه بحده فأحله، وما أصابه بعرضه فجعله وقيداً

فلم يحله، وقد أجمع الفقهاء على هذا الحكم ههنا، واختلفوا فيما إذا صدم الجارحة الصيد فقتله بثقله ولم يجرحه، على قولين، هما قولان للشافعي، رحمه الله: أحدهما: أنه لا يحل، كما في السهم، والجامع أن كلاهما ميت بغير جرح فهو وقيد. والثاني: أنه يحل؛ لأنه حكم بإباحة ما صاده الكلب، ولم يستفصل، فدل على إباحة ما ذكرناه؛ لأنه قد دخل في العموم. وقد قررت لهذه المسألة فصلاً فليكتب ههنا.

فصل:

اختلف العلماء، رحمهم الله تعالى، فيما إذا أرسل كلباً على صيد فقتله بثقله ولم يجرحه، أو صدمه، هل يحل أم لا؟ على قولين: أحدهما: أن ذلك حلال؛ لعموم قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَسْكَنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٤]. وكذا عمومات حديث عدي بن حاتم، وهذا قول حكاها الأصحاب عن الشافعي، رحمه الله، وصححه بعض المتأخرين منهم كالنووي والرافعي. قلت: وليس ذلك بظاهر من كلام الشافعي في الأم والمختصر، فإنه قال في كلا الموضوعين: «يحتمل معنيين». ثم وجه كلاً منهما، فحمل ذلك الأصحاب منه فأطلقوا في المسألة قولين عنه، اللهم إلا أنه في بحثه حكايته للقول بالحل رشحه قليلاً، ولم يصرح بواحد منهما ولا جزم به. والقول بذلك، أعني الحل، نقله ابن الصباغ عن أبي حنيفة، من رواية الحسن بن زياد، عنه، ولم يذكر غير ذلك. وأما أبو جعفر بن جرير فحكاه في تفسيره عن سلمان الفارسي، وأبي هريرة، وسعد بن أبي وقاص، وابن عمر. وهذا غريب جداً، وليس يوجد ذلك مصرحاً به عنهم، إلا أنه من تصرفه، رحمه الله ورضي عنه.

والقول الثاني: أن ذلك لا يحل، وهو أحد القولين عن الشافعي، رحمه الله، واختاره المُرْزِي ويظهر من كلام ابن الصباغ ترجيحه أيضاً، والله أعلم. ورواه أبو يوسف ومحمد عن أبي حنيفة، وهو المشهور عن الإمام أحمد بن حنبل، رضي الله عنه. وهذا القول أشبه بالصواب، والله أعلم، لأنه أجرى على القواعد الأصولية، وأمس بالأصول الشرعية. واحتج ابن الصباغ له بحديث رافع بن خديج، قلت: يا رسول الله، إنا لاقو العدو غداً وليس معنا مدى، أفنذبح بالْقَصَب؟ قال: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه». الحديث بتمامه وهو في الصحيحين. وهذا وإن كان وارداً على سبب خاص، فالعبرة بعموم اللفظ عند جمهور من العلماء في الأصول والفروع، كما سئل عليه السلام عن البتع - وهو نبيذ العسل - فقال: «كل شراب أسكر فهو حرام»، أفيقول فقيه: إن هذا اللفظ مخصوص بشراب العسل؟ وهكذا هذا سأله عن شيء من الذكاة فقال لهم كلاماً عاماً يشمل ذاك المسؤول عنه وغيره؛ لأنه عليه السلام قد أوتي جوامع الكلم. إذا تقرر هذا، فما صدمه الكلب أو غمّه بثقله، ليس مما أنهر دمه، فلا يحل لمفهوم هذا الحديث. فإن قيل: هذا الحديث ليس من هذا القبيل بشيء؛ لأنهم إنما سأله عن الآلة التي يذكي بها، ولم يسألوا عن الشيء الذي يذكي؛ ولهذا استثنى من ذلك السن والظفر، حيث قال: «ليس السن والظفر، وسأحدثكم عن ذلك: أما السن فعظم، وأما الظفر فمدى الحبشة». والمستثنى يدل على جنس المستثنى منه، وإلا لم يك متصلاً، فدل على أن المسؤول عنه هو الآلة، فلا يبقى فيه دلالة لما ذكرتم. فالجواب عن هذا: بأن في الكلام ما يشكل عليكم أيضاً، حيث يقول: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه». ولم يقل: «فأذبحوا به»، فهذا يؤخذ منه الحكمان معاً، يؤخذ حكم الآلة التي يذكي بها، وحكم المذكي، وأنه لا بد من إنهار دمه بألة ليست سناً ولا ظفراً. هذا مسلك. والمسلك الثاني: طريقة المُرْزِي، وهي أن السهم جاء التصريح فيه بأنه إن قتل بعرضه فلا تأكل، وإن خَزَقَ فكل. والكلب جاء مطلقاً، فيحمل على ما قيد هناك من الخَزَق؛ لأنهما اشتركا في الموجب، وهو الصيد، فيجب الحمل هنا وإن اختلف السبب، كما وجب حمل مطلق الإعتاق في الظهار على تقييده بالإيمان في القتل، بل هذا أولى. وهذا يتوجه له على من يسلم له أصل هذه القاعدة من حيث هي، وليس فيها خلاف بين الأصحاب قاطبة، فلا بد لهم من جواب عن هذا. وله أن يقول: هذا قتله الكلب بثقله، فلم يحل قياساً على ما قتله السهم بعرضه، والجامع أن كلاهما آلة للصيد، وقد مات بثقله فيهما. ولا يعارض ذلك بعموم الآية؛ لأن القياس مقدم على العموم، كما هو مذهب الأئمة الأربعة والجمهور، وهذا مسلك حسن أيضاً.

مسلك آخر، وهو أن قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَسْكَنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٤] عام فيما قتلن بجرح أو غيره، لكن هذا المقتول على هذه الصورة المتنازع فيها لا يخلو؛ إما أن يكون نطيحاً أو في حكمه، أو منخفقاً أو في حكمه، وأياً ما كان فيجب تقديم حكم هذه الآية على تلك لوجوه: أحدها: أن الشارع قد اعتبر حكم هذه الآية حالة الصيد، حيث يقول لعدي بن حاتم: «وإن أصابه بعرضه فإنما هو وقيد فلا تأكله». ولم نعلم أحداً من العلماء فصل بين حكم وحكم من هذه الآية، فقال: إن الوقيد معتبر حالة الصيد، والنطيح ليس معتبراً، فيكون القول بحل المتنازع فيه خرقاً للإجماع لا قائل به، وهو محظور عند كثير من العلماء.

الثاني: أن تلك الآية: ﴿كُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٤] ليست على عمومها بالإجماع، بل مخصوصة بما صعد من الحيوان المأكول، وخرج من عموم لفظها الحيوان غير المأكول بالاتفاق، والعموم المحفوظ مقدم على غير المحفوظ. المسلك الآخر: أن هذا الصيد والحالة هذه في حكم الميتة سواء؛ لأنه قد احتقن فيه الدماء وما يتبعها من الرطوبات، فلا تحل قياساً على الميتة. المسلك الآخر: أن آية التحريم، أعني قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكَ أَلْبَانُهُ﴾ إلى آخرها، محكمة لم يدخلها نسخ ولا تخصيص، وكذا ينبغي أن تكون آية التحليل محكمة، أعني قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَكُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيْبُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ الآية [المائدة: ٤]، فينبغي ألا يكون بينهما تعارض أصلاً، وتكون السنة جاءت لبيان ذلك، وشاهد ذلك قصة السهم، فإنه ذكر حكم ما دخل في هذه الآية، وهو ما إذا خَزَقَ الجِعْرَاضُ فيكون حلالاً؛ لأنه من الطيبات، وما دخل في حكم تلك الآية، آية التحريم، وهو ما إذا أصابه بعرض فلا يؤكل؛ لأنه وقيد، فيكون أحد أفراد آية التحريم، وهكذا يجب أن يكون حكم هذا سواء، إن كان قد جرحه الكلب فهو داخل في حكم آية التحليل. وإن لم يجرحه بل صدمه أو قتله بثقله فهو نطيح أو في حكمه فلا يكون حلالاً. فإن قيل: فلم لا فصل في حكم الكلب، فقال ما ذكرتم: إن جرحه فهو حلال، وإن لم يجرحه فهو حرام؟ فالجواب: أن ذلك نادر؛ لأن من شأن الكلب أن يقتل بظفره أو نابيه أو بهما معاً، وأما اصطداه هو الصيد فنادر، وكذا قتله إياه بثقله، فلم يحتج إلى الاحتراز من ذلك لندوره أو لظهور حكمه عند من علم تحريم الميتة والمنخقة والموقودة والمتردية والنطيحة. وأما السهم والمعرّاض فتارة يخطيء لسوء رمي راميهِ أو للهواء أو نحو ذلك، بل خطؤه أكثر من إصابته؛ فلهذا ذكر كلاً من حكميه مفصلاً، والله أعلم؛ ولهذا لما كان الكلب من شأنه أنه قد يأكل من الصيد، ذكر حكم ما إذا أكل من الصيد، فقال: «إن أكل فلا تأكل، فإنني أخاف أن يكون أمسك على نفسه»، وهذا صحيح ثابت في الصحيحين وهو أيضاً مخصوص من عموم آية التحليل عند كثيرين، فقالوا: لا يحل ما أكل منه الكلب، حكى ذلك عن أبي هريرة، وابن عباس. وبه قال الحسن، والشعبي، والنخعي. وإليه ذهب أبو حنيفة وصاحباؤه، وأحمد بن حنبل، والشافعي في المشهور عنه. وروى ابن جرير في تفسيره عن علي، وسعد، وسلمان، وأبي هريرة، وابن عمر، وابن عباس: أن الصيد يؤكل وإن أكل منه الكلب، حتى قال سعد، وسلمان، وأبو هريرة وابن عمر، وغيرهم: يؤكل ولو لم يبق منه إلا بضعة. وإلى ذلك ذهب مالك والشافعي في قوله القديم، وأوماً في الجديد إلى قولين، قال ذلك الإمام أبو نصر ابن الصباغ وغيره من الأصحاب عنه.

وقد روى أبو داود بإسناد جيد قوي، عن أبي ثعلبة الحُثَنِيِّ، عن رسول الله ﷺ أنه قال في صيد الكلب: «إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل وإن أكل منه، وكل ما ردت عليك يدك». ورواه أيضاً النسائي من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده؛ أن أعرابياً يقال له: أبو ثعلبة قال: يا رسول الله، فذكره نحوه. وقال محمد بن جرير في تفسيره: حدثنا عمران بن بكّار الكَلَاعِيّ، حدثنا عبد العزيز بن موسى - هو اللاحوني - حدثنا محمد بن دينار - هو الطاحي - عن أبي إياس - وهو معاوية بن قرة - عن سعيد بن المسيب، عن سلمان الفارسي، عن رسول الله ﷺ قال: «إذا أرسل الرجل كلبه على الصيد فأدركه وقد أكل منه، فليأكل ما بقي». ثم إن ابن جرير علله بأنه قد رواه قتادة وغيره عن سعيد بن المسيب، عن سلمان موقوفاً. وأما الجمهور فقدّموا حديث «عدي» على ذلك، وراموا تضعيف حديث أبي ثعلبة وغيره. وقد حمله بعض العلماء على أنه إن أكل بعدما انتظر صاحبه وطال عليه الفصل ولم يجيء، فأكل منه لجوعه ونحوه، فإنه لا بأس بذلك؛ لأنه - والحالة هذه - لا يخشى أنه أمسك على نفسه، بخلاف ما إذا أكل منه أول وهلة، فإنه يظهر منه أنه أمسك على نفسه، والله أعلم. فأما الجوارح من الطير فنص الشافعي على أنها كالكلاب، فيحرم ما أكلت منه عند الجمهور، ولا يحرم عند الآخرين. واختار المزماني من أصحابنا أنه لا يحرم أكل ما أكلت منه الطيور والجوارح، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد، قالوا: لأنه لا يمكن تعليمها كما يعلم الكلب بالضرب ونحوه، وأيضاً فإنها لا تعلم إلا بأكلها من الصيد، فيعفى عن ذلك، وأيضاً فالنص إنما ورد في الكلب لا في الطير. وقال الشيخ أبو علي في «الإفصاح»: إذا قلنا: يحرم ما أكل منه، ففي تحريم ما أكل منه الطير وجهان، وأنكر القاضي أبو الطيب هذا التفرع والترتيب، لنص الشافعي، رحمه الله، على التسوية بينهما، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وأما «وَالْمَرْدَّةُ»: فهي التي تقع من شاهق أو موضع عال فتموت بذلك، فلا تحل. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «وَالْمَرْدَّةُ»: التي تسقط من جبل. وقال قتادة: هي التي تردى في بئر. وقال السدي: هي التي تقع من جبل أو تردى في بئر. وأما «وَالنَّطِيحَةُ»: فهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها، فهي حرام، وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحتها. والنطيحة فعيلة بمعنى مفعولة، أي: منطوحة. وأكثر ما ترد هذه البنية في كلام العرب بدون تاء التأنيث، فيقولون: كَفَّ خضيب، وعينٌ كحيل، ولا يقولون: كف خضيبية، ولا: عين كحيلة؛ وأما هذه فقال بعض النحاة: إنما استعمل فيها تاء

التأنيث؛ لأنها أجريت مجرى الأسماء، كما في قولهم: طريقة طويلة. وقال بعضهم: إنما أتى ببناء التأنيث فيها لتدل على التأنيث من أول وهلة، بخلاف: عين كحيل، وكف خضيب؛ لأن التأنيث مستفاد من أول الكلام.

وقوله: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾ أي: ما عدا عليها أسد، أو فهد، أو نمر، أو ذئب، أو كلب، فأكل بعضها فماتت بذلك، فهي حرام وإن كان قد سال منها الدماء ولو من مذبحتها، فلا تحل بالإجماع. وقد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقرة ونحو ذلك فحرم الله ذلك على المؤمنين. وقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ عائد على ما يمكن عوده عليه، مما انعقد سبب موته فأمكن تداركه بذكاة، وفيه حياة مستقرة، وذلك إنما يعود على قوله: ﴿وَالْمَنْحِقَةَ وَالْمَوْزُونَةَ وَالْمُرْدِيَّةَ وَالنَّطِيحَةَ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾ وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ يقول: إلا ما ذبحتم من هؤلاء وفيه روح، فكلوه، فهو ذكي. وكذا زوي عن سعيد بن جبير، والحسن البصري، والسدي. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، حدثنا جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي قال: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾ إلا ما ذكَّيْتُمْ قال: إن مَصَعَتْ بذنبها، أو رَكَّضَتْ برجلها، أو طَرَقَتْ بعينها فكل. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا هشيم وعباد قالا: حدثنا حجاج، عن حصين، عن الشعبي، عن الحارث، عن علي قال: إذا أدركت ذكاة الموقودة والمتردية والنطيحة، وهي تحرك يداً أو رجلاً، فكلها. وهكذا زوي عن طائوس، والحسن، وقتادة، وعُبيد بن عمير، والضحاك وغير واحد: أن المذكاة متى تحركت بحركة تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح، فهي حلال. وهذا مذهب جمهور الفقهاء، وبه قال أبو حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل. وقال ابن وهب سُئل مالك عن الشاة التي يخرق جوفها السَّبْعُ حتى تخرج أمعاؤها؟ فقال مالك: لا أرى أن تذكى أي شيء يُذَكَّى منها. وقال أشهب: سُئل مالك عن الضبع يعدو على الكيش، فيدق ظهره، أترى أن يذكى قبل أن يموت، فيؤكل؟ قال: إن كان قد بلغ الشجرة، فلا أرى أن يؤكل وإن كان أصاب أطرافه، فلا أرى بذلك بأساً. قيل له: وثبت عليه فدق ظهره؟ فقال: لا يعجبني، هذا لا يعيش منه. قيل له: فالذئب يعدو على الشاة فيشق بطنها ولا يشق الأمعاء؟ فقال: إن شق بطنها فلا أرى أن تؤكل.

هذا مذهب مالك، رحمه الله، وظاهر الآية عام فيما استثناه مالك، رحمه الله، من الصور التي بلغ الحيوان فيها إلى حالة لا يعيش بعدها، فيحتاج إلى دليل مخصص للآية، والله أعلم. وفي الصحيحين: عن رافع بن خديج أنه قال: قلت: يا رسول الله، إنا لاقو العدو غدًا، وليس معنا مدى، أفندبح بالْقَصَبِ؟ فقال: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه، ليس السنُّ والظفر، وسأحدثكم عن ذلك، أما السن فعظم، وأما الظفر فمدى الحبشة» وفي الحديث الذي رواه الدارقطني عن أبي هريرة مرفوعاً، وفيه نظر، وروي عن عمر موقوفاً، وهو أصح: «ألا إن الذكاة في الحلق واللبة، ولا تعجلوا الأنفس أن ترهق». وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد والسنن، من رواية حماد بن سلمة، عن أبي العشاء الدارمي، عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، أما تكون الذكاة إلا من اللبة والحلق؟ فقال: «لو طعنت في فخذها لأجزأ عنك». وهو حديث صحيح، ولكنه محمول على ما لم يقدر على ذبحه في الحلق واللبة. وقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ﴾: قال مجاهد وابن جُرَيْج: كانت النصب حجارة حول الكعبة، قال ابن جريج: وهي ثلاثمائة وستون نصباً، كان العرب في جاهليتها يذبحون عندها، وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب. وكذا ذكره غير واحد، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله في الذبح عند النصب من الشرك الذي حرمه الله ورسوله. وينبغي أن يحمل هذا على هذا؛ لأنه قد تقدم تحريم ما أهل به لغير الله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَسْقِيَهُمْ بِالْأَزْلَامِ﴾ أي: حرم عليكم أيها المؤمنون الاستسقام بالأزلام: واحداً: زَلَمَ، وقد تفتح الزاي، فيقال: زَلَمَ، وقد كانت العرب في جاهليتها يتعاطون ذلك، وهي عبارة عن قدام ثلاثة، على أحدها مكتوب: «افعل» وعلى الآخر: «لا تفعل»، والثالث غُفْل ليس عليه شيء. ومن الناس من قال: مكتوب على الواحد: «أمرني ربي»، وعلى الآخر: «نهاني ربي» والثالث غُفْل ليس عليه شيء، فإذا أجالها فطلع السهم الأمر فعله، أو الناهي تركه، وإن طلع الفارغ أعاد الاستسقام. والاستسقام: مأخوذ من طلب القسم من هذه الأزلام. هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا الحجاج بن محمد، أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿وَأَنْ تَسْقِيَهُمْ بِالْأَزْلَامِ﴾ قال: والأزلام: قدام كانوا يستقسمون بها في الأمور. وكذا روي عن مجاهد، وإبراهيم النخعي، والحسن البصري، ومقاتل بن حَيَّان. وقال ابن عباس: هي القدام، كانوا يستقسمون بها في الأمور. وذكر محمد بن إسحاق وغيره: أن أعظم أصنام قريش صنم كان يقال له: هُبَل، وكان داخل الكعبة، منصوب على بثر فيها، توضع الهدايا

وأموال الكعبة فيه، وكان عنده سبعة أزلام مكتوب فيها ما يتحاكمون فيه، مما أشكل عليهم، فما أخرج لهم منها رجعوا إليه ولم يعدلوا عنه. وثبت في الصحيح: أن النبي ﷺ لما دخل الكعبة، وجد إبراهيم وإسماعيل مصورين فيها، وفي أيديهما الأزلام، فقال: «قاتلهم الله، لقد علموا أنهما لم يستقسما بها أبداً». وفي الصحيح: أن سراقاً بن مالك بن جُعشم لما خرج في طلب النبي ﷺ وأبي بكر، وهما ذاهبان إلى المدينة مهاجرين، قال: فاستقسمت بالأزلام هل أضربهم أم لا؟ فخرج الذي أكره: لا تضربهم، قال: فعصيت الأزلام واتبعتهم، ثم إنه استقسم بها ثانية وثالثة، كل ذلك يخرج الذي يكره: لا تضربهم، وكان كذلك، وكان سراقاً لم يسلم إذ ذاك، ثم أسلم بعد ذلك. وروى ابن مَرْدُويه من طريق إبراهيم بن يزيد: عن رَقِبة، عن عبد الملك بن عُمير، عن رَجاء بن خُبْوة، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يُلج الدرجات من تَكْهَن أو استقسم أو رجع من سفر طائراً». وقال مجاهد في قوله: «وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ» قال: هي سهام العرب، وكعاب فارس والروم، كانوا يتقمارون بها.

وهذا الذي ذكر عن مجاهد في الأزلام أنها موضوعة للقمار، فيه نظر، اللهم إلا أن يقال: إنهم كانوا يستعملونها في الاستخارة تارة، وفي القمار أخرى، والله أعلم. فإن الله سبحانه وتعالى قد فَرَّق بين هذه وبين القمار وهو الميسر، فقال في آخر السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْفَنَاءُ وَالْبَيْعُ وَالْأَصَابُ وَالْأَكْلُ يَمَسُّنَ عَمَلَ الْفَيْطَنِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١]. وهكذا قال ههنا: «وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فَنَاءٌ» أي: تعاطيه فسق وغي وضلال وجهالة وشرك، وقد أمر الله المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم أن يستخبروه بأن يعبدوه، ثم يسأله الخيرة في الأمر الذي يريدونه، كما رواه أحمد والبخاري وأهل السنن، من طرق عن عبد الرحمن بن أبي الموالي، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «إِذَا هُمْ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَعِذُّكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ؛ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ هَذَا الْأَمْرَ - وَيُسَمِّيه بِاسْمِهِ - خَيْرًا فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، فَاقْضُ لِي وَسْئِرَهُ لِي وَبَارِكْ لِي فِيهِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُهُ شَرًّا لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، فَاصْرِفْني عنه، واصْرِفْ عَنِّي، وافْضُزْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضْنِي بِهِ». لفظ أحمد، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي الموالي.

قوله: ﴿الْيَوْمَ يَنْسُ الْيَوْمَ كَفَرُوا بِدِينِكُمْ﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: يشعرون أن يرجعوا دينهم. وكذا زوي عن عطاء بن أبي رباح، والسدي ومقاتيل بن حَيَّان. وعلى هذا المعنى يرد الحديث الثابت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قد يشع أن يعبد المصلون في جزيرة العرب، ولكن بالتخريش بينهم». ويحتمل أن يكون المراد: أنهم يشعرون من مشابهة المسلمين، بما تميز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله؛ ولهذا قال تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يصبروا ويثبتوا في مخالفة الكفار، ولا يخافوا أحداً إلا الله، فقال: ﴿فَلَا تَخَوْفُهُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: لا تخافوا منهم في مخالفتكم إياهم واخشوني، أنصركم عليهم وأبيدهم وأظفركم بهم، وأشف صدوركم منهم، وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكَلَتْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. هذه أكبر نعم الله، ﷻ، على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم، صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا جعله الله خاتماً الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خُلف، كما قال تعالى: ﴿وَكُنْتُ كَلِمَةً نَبِيًّا وَكُنْتُ نَبِيًّا وَكَانَ عَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي، فلما أكمل الدين لهم تمت النعمة عليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكَلَتْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أي: فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي رضي الله وأحبه، وبعث به أفضل رسله الكرام، وأنزل به أشرف كتبه. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكَلَتْ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وهو الإسلام، أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبداً، وقد رضي الله فلا يسخطه أبداً. وقال أسباط عن السدي: نزلت هذه الآية يوم عَرَفَةَ، فلم ينزل بعدها حلال ولا حرام، ورجع رسول الله ﷺ فمات. قالت أسماء بنت عُمَيْس: حَجَّجْتُ مع رسول الله ﷺ تلك الحجة، فبينما نحن نسير إذ تجلَّى له جبريل، فمات رسول الله ﷺ على الراحلة، فلم تطلق الراحلة من ثقل ما عليها من القرآن، فبركت فأتيته فسَجَّيْتُ عليه بُرْدًا كان علي. قال ابن جُرَيْج وغير واحد:

مات رسول الله ﷺ بعد يوم عرفة بأحد وثمانين يوماً. رواه ابن جرير، ثم قال: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا ابن فضيل، عن هارون بن عنترة، عن أبيه قال: لما نزلت ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، وذلك يوم الحج الأكبر، بكى عمر، فقال له النبي ﷺ: «ما يبكيك؟» قال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذ أكمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص. فقال: «صدقت». ويشهد لهذا المعنى الحديث الثابت: «إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً، فطوبى للغرّاء». وقال الإمام أحمد: حدثنا جعفر بن عون، حدثنا أبو العُميس، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنكم تقرؤون آية في كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: وأي آية؟ قال قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، فقال: عمر: والله إنني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ، نزلت عشية عرفة في يوم الجمعة.

ورواه البخاري عن الحسن بن الصباح، عن جعفر بن عون، به. ورواه أيضاً مسلم والترمذي والنسائي، من طرق عن قيس بن مسلم، به. ولفظ البخاري عند تفسير هذه الآية من طريق سفيان الثوري، عن قيس، عن طارق قال: قالت: اليهود لعمر: إنكم تقرؤون آية، لو نزلت فينا لاتخذناها عيداً. فقال عمر: إنني لأعلم حين أنزلت، وأين أنزلت، وأين رسول الله ﷺ حيث أنزلت: يوم عرفة، وإنا والله بعرفة. قال سفيان: وأشك كان يوم الجمعة أم لا: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية. وشك سفيان، رحمه الله، إن كان في الرواية فهو تزويع، حيث شك هل أخبره شيخه بذلك أم لا؟ وإن كان شكاً في كون الوقوف في حجة الوداع كان يوم الجمعة، فهذا ما إخاله يصدر عن الثوري، رحمه الله، فإن هذا أمر معلوم مقطوع به، لم يختلف فيه أحد من أصحاب المغازي والسير ولا من الفقهاء، وقد وردت في ذلك أحاديث متواترة لا يشك في صحتها، والله أعلم، وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن عمر. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُليّة، أخبرنا رجاء بن أبي سلمة، أخبرنا عبادة بن نسي، أخبرنا أميرنا إسحاق - قال أبو جعفر بن جرير: هو إسحاق بن خزيمة - عن قبيصة - يعني ابن ذؤيب - قال: قال كعب: لو أن غير هذه الأمة نزلت عليهم هذه الآية، لنظروا اليوم الذي أنزلت فيه عليهم، فاتخذوه عيداً يجتمعون فيه. فقال عمر: أي آية يا كعب؟ فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. فقال عمر: قد علمت اليوم الذي أنزلت فيه، والمكان الذي أنزلت فيه، نزلت في يوم الجمعة، ويوم عرفة، وكلاهما بحمد الله لنا عيد. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا قبيصة، حدثنا حماد بن سلمة، عن عمار - هو مولى بني هاشم - أن ابن عباس قرأ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. فقال يهودي: لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذنا يومها عيداً. فقال ابن عباس: فإنها نزلت في يوم عيدين اثنين: يوم عيد ويوم الجمعة. وقال ابن مَرْزُوق: حدثنا أحمد بن كامل، حدثنا موسى بن هارون، حدثنا يحيى بن الجثناني، حدثنا قيس بن الربيع، عن إسماعيل بن سلمان، عن أبي عمر البزار، عن ابن الحنفية، عن علي رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ، وهو قائم عشية عرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو عامر إسماعيل بن عمرو السكوني، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا ابن عياش، حدثنا عمرو بن قيس السكوني: أنه سمع معاوية بن أبي سفيان على المنبر ينتزع بهذه الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ حتى ختمها، فقال: نزلت في يوم عرفة، في يوم الجمعة. وروى ابن مَرْزُوق، من طريق محمد بن إسحاق، عن عمر بن موسى بن وجيه، عن قتادة، عن الحسن، عن سَمُرَةَ قال: نزلت هذه الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ يوم عرفة ورسول الله ﷺ واقف على الموقف. فأما ما رواه ابن جرير، وابن مردويه، والطبراني من طريق ابن لهيعة، عن خالد بن أبي عمران، عن حَشَن بن عبد الله الصنعاني، عن ابن عباس قال: ولد نبيكم ﷺ يوم الاثنين، ونبيء يوم الاثنين، وخرج من مكة يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، وأنزلت سورة المائدة يوم الاثنين: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ورفع الذكر يوم الاثنين، فإنه أثر غريب، وإسناده ضعيف. وقد رواه الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن خالد بن أبي عمران، عن حَشَن الصنعاني، عن ابن عباس قال: ولد النبي ﷺ يوم الاثنين، واستنبيء يوم الاثنين، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين، وقدم المدينة يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين، ووضع الحجر الأسود يوم الاثنين. هذا لفظ أحمد، ولم يذكر نزول المائدة يوم الاثنين، فالحق أعلم، ولعل ابن عباس أراد أنها نزلت يوم عيدين اثنين كما تقدم، فاشتبه على الراوي، والله أعلم. وقال ابن جرير: وقد قيل: ليس ذلك بيوم معلوم عند الناس، ثم روى من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ يقول: ليس ذلك بيوم معلوم عند الناس قال: وقد قيل: إنها نزلت على رسول الله ﷺ في مسيره إلى حجة الوداع. ثم رواه من طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس. قلت: وقد روى ابن مَرْزُوق من طريق أبي هارون العبدي، عن أبي

سعيد الخدري؛ أنها أنزلت على رسول الله ﷺ يوم غدير خم، حين قال لعلي: «من كنت مولاه فعلي مولاه» - ثم رواه عن أبي هرير، وفيه: أنه اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، يعني مرجعه عليه السلام من حجة الوداع.

ولا يصح هذا ولا هذا، بل الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية: أنها أنزلت يوم عرفة، وكان يوم الجمعة، كما روى ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وأول ملوك الإسلام معاوية بن أبي سفيان، وترجمان القرآن عبد الله بن عباس، وسُمرة بن جندب، رضي الله عنهم، وأرسله عامر الشعبي، وقتادة بن دعام، وشهر بن حوشب، وغير واحد من الأئمة والعلماء، واختاره ابن جرير الطبري، رحمه الله.

وقوله: «فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخَضَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» أي: فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التي ذكرها تعالى لضرورة الجأته إلى ذلك، فله تناول ذلك، والله غفور رحيم له؛ لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر، وافترقه إلى ذلك، فيتجاوز عنه ويغفر له. وفي المسند وصحيح ابن حبان، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن تؤتى رخصته، كما يكره أن تؤتى مغبته»، لفظ ابن حبان. وفي لفظ لأحمد: «من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة». ولهذا قال الفقهاء: قد يكون تناول الميتة واجباً في بعض الأحيان، وهو ما إذا خاف على مهجته التلف ولم يجد غيرها، وقد يكون مندوباً، وقد يكون مباحاً بحسب الأحوال. واختلفوا: هل يتناول منها قدر ما يسد به الرمق، أو له أن يشبع، أو يشبع ويتزود؟ على أقوال، كما هو مقرر في كتاب الأحكام. وفيما إذا وجد ميتة وطعام الغير، أو صيداً وهو محرم: هل يتناول الميتة، أو ذلك الصيد ويلزمه الجزاء، أو ذلك الطعام ويضمن بدله؟ على قولين، هما قولان للشافعي، رحمه الله. وليس من شرط جواز تناول الميتة أن يمضي عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاماً، كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم بل متى اضطر إلى ذلك جاز له، وقد قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي، حدثنا حسان بن عطية، عن أبي واقد الليثي أنهم قالوا: يا رسول الله، إنا بأرض تصيبنا بها المخمصة، فمتى تحل لنا بها الميتة؟ فقال: «إذا لم تصطبحوها، ولم تفتنوها، ولم تجتفتوها بقلاً فشاكنكم بها». تفرد به أحمد من هذا الوجه، وهو إسناد صحيح على شرط الصحيحين. وكذا رواه ابن جرير، عن عبد الأعلى بن واصل، عن محمد بن القاسم الأسدي، عن الأوزاعي، به. لكن رواه بعضهم عن الأوزاعي، عن حسان بن عطية، عن مسلم بن يزيد، عن أبي واقد، به. ومنهم من رواه، عن الأوزاعي، عن حسان، عن مرثد - أو أبي مرثد - عن أبي واقد، به. ورواه ابن جرير عن هناد بن السري، عن عيسى بن يونس، عن حسان، عن رجل قد سمي له، فذكره. ورواه أيضاً عن هناد، عن ابن المبارك، عن الأوزاعي، عن حسان، مرسلًا. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علقمة، عن عون قال: وجدت عند الحسن كتاب سُمرة، فقرأته عليه، فكان فيه: ويُجزى من الاضطرار غُبُوق أو صَبُوح.

حدثنا أبو كُزَيْب، حدثنا هُشَيْم، عن الخَصْبِ بن زيد التميمي، حدثنا الحسن، أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: إلى متى يحل لي الحرام؟ قال: «إلى متى يَرُوى أهلك من اللبن، أو تَجِيء مِيرْتُهُمْ». حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، حدثنا عمر بن عبد الله بن عروة، عن جده عروة بن الزبير، عن جدته؛ أن رجلاً من الأعراب أتى النبي ﷺ يستفتيه في الذي حرم الله عليه، والذي أحل له، فقال النبي ﷺ: «تَحِلُّ لك الطيبات، وتَحْرُم عليك الخبائث، إلا أن تَفْتَقِرَ إلى طعام لا يحل لك، فتأكل منه حتى تَسْتَفْتِي عنه». فقال الرجل: وما فُقرِي الذي يحل لي؟ وما غناي الذي يغنيني عن ذلك؟ فقال النبي ﷺ: «إذا كنت ترجو نَجَاحاً، فتبلغ بِلُحُومِ ماشيتك إلى نتاجك، أو كنت ترجو غِنًى، تطلبه، فتبلغ من ذلك شيئاً، فأطعم أهلك ما بدا لك حتى تستغني عنه». فقال الأعرابي: ما غناي الذي أدعه إذا وجدته؟ فقال النبي ﷺ: «إذا أرويت أهلك غُبُوقاً من الليل، فاجتنب ما حرم الله عليك من طعام، وأما مالك فإنه ميسور كله، ليس فيه حرام». ومعنى قوله: «ما لم تصطبحوها»: يعني به: الغداء، «وما لم تفتنوها»: يعني به: العشاء، «أو تخففوها بقللاً فشاكنكم بها» أي: فكلوا منها. وقال ابن جرير: يروى هذا الحرف - يعني قوله: «أو تخففوها بقللاً» على أربعة أوجه: «تخففوها» بالهمزة، «وتخففوها» بتخفيف الياء والحاء، «وتخففوها» بتشديد الفاء، «وتخففوها» بالحاء وبالتخفيف، ويحتمل الهمز، كذا ذكره في التفسير.

حديث آخر: قال أبو داود: حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا الفضل بن دُكَيْن، حدثنا عُقْبَةُ بن وَهَب بن عقبة العامري، سمعت أبي يحدث عن الفجيع العامري؛ أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: ما يحل لنا من الميتة؟ قال: «ما طعامكم؟» قلنا: نغتبِق ونصطَبِح. قال أبو نعيم: فُسِّرَ له عقبة: قدح غُدوة، وقدح عَشِيَّة. قال: «ذَلِكَ وأبي الجُوع». وأحل لهم الميتة على هذه الحال. تفرد به أبو داود: وكأنهم كانوا يصطبجون ويغتبِقون شيئاً لا يكفيهم، فأحل لهم الميتة لتسام كفايتهم، وقد يحتج به من يرى جواز الأكل منها حتى يبلغ حد الشبع، ولا يتقيد ذلك بسد الرمق، والله أعلم.

حديث آخر: قال أبو داود: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، حدثنا سماك، عن جابر بن سمرة؛ أن رجلاً نزل الحرّة، ومعه أهله وولده، فقال له رجل: إن ناقة لي ضَلَّتْ، فإن وجدتها فأمسكها، فوجدها ولم يجد صاحبها، فمرضت فقالت امرأته: انحرها، فأبى، فَنَفَقَتْ، فقالت له امرأته: اسلخها حتى تُقَدِّدَ شَحْمَهَا ولحمها فئاكله. فقال: حتى أسأل رسول الله ﷺ، فأتاه فسأله، فقال: «هل عندك غنى يُغْنِيكَ؟» قال: لا. قال: «فكلوها». قال: فجاء صاحبها فأخبره الخبر، فقال: هلا كنت نحرتها؟ قال: استحيت منك. تفرد به. وقد يحتج به من يجوز الأكل والشبع، والتزود منها مدة يغلب على ظنه الاحتياج إليها، والله أعلم.

وقوله: «غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ» أي: غير مُتَعَاظٍ لمعصية الله، فإن الله قد أباح ذلك له وسكت عن الآخر، كما قال في سورة البقرة: «فَمَنْ أَضَلُّ عَنِ بَاطِلٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ» [البقرة: ١٧٣]. وقد استدلل بهذه الآية من يقول بأن العاصي بسفوره لا يترخص بشيء من رخص السفر؛ لأن الرخص لا تنال بالمعاصي، والله أعلم.

«يَسْتَلْزِمُكَ مَاذَا أَحَلَّ لَكُمْ الْكَلْبُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُؤَلِّمُونَهُمْ مَا عَلَّمَ اللَّهُ كَلْبُكُمْ وَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَقُولُوا إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ».

لما ذكر تعالى ما حرمه في الآية المتقدمة من الخبائث الضارة لمتناولها، إما في بدنه، أو في دينه، أو فيهما، واستثنى من استثناءه في حالة الضرورة، كما قال: «وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّتُمْ إِلَيْهِ» [الأنعام: ١١٩]، قال بعدها: «يَسْتَلْزِمُكَ مَاذَا أَحَلَّ لَكُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الْكَلْبُ»، كما قال في سورة الأعراف في صفة محمد ﷺ: أنه «وَحِيلَ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَمُحَرَّمَ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثِ» [الأعراف: ١٥٧]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني عبد الله بن لبيعة، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبّير، عن عدي بن حاتم، وزيد بن المهلهل الطائيين سألا رسول الله ﷺ، فقالا: يا رسول الله، قد حرم الله الميتة، فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت: «يَسْتَلْزِمُكَ مَاذَا أَحَلَّ لَكُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الْكَلْبُ». قال سعيد بن جبّير: يعني: الذبائح الحلال الطيبة لهم. وقال مقاتل بن حيان: في قوله: «قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الْكَلْبُ»، فالطيّبات ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه، وهو الحلال من الرزق. وقد سئل الزهري عن شرب البول للتداوي فقال: ليس هو من الطيبات. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن وهب: سئل مالك عن بيع الطين الذي يأكله الناس. فقال: ليس هو من الطيبات.

وقوله تعالى: «وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ» أي: أحل لكم الذبائح التي ذكر اسم الله عليها والطيّبات من الرزق، وأحل لكم ما اضطدتموه بالجوارح، وهي من الكلاب والفهود والصقور وأشباه ذلك، كما هو مذهب الجمهور من الصحابة والتابعين والأئمة، وممن قال ذلك: علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: «وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ»: وهن الكلاب المعلمة، والبازي، وكل طير يعلم للمصيد، والجوارح: يعني الكلاب الضواري والفهود والصقور وأشباهها. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وروي عن خثيمة، وطاوس، ومجاهد، ومكحول، ويحيى بن أبي كثير، نحو ذلك. وروي عن الحسن أنه قال: الباز والصقر من الجوارح. وروي عن علي بن الحسين مثله. ثم روى عن مجاهد أنه كره صيد الطير كله، وقرا قول الله ﷻ: «وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ». قال: وروي عن سعيد بن جبّير نحو ذلك. ونقله ابن جرير عن الضحاك والسدي، ثم قال: حدثنا هناد، حدثنا ابن أبي زائدة، أخبرنا ابن جُرَيْج، عن نافع، عن ابن عمر قال: أما ما صاد من الطير البزاة وغيرها من الطير، فما أدركت فهو لك، وإلا فلا تطعمه. قلت: والمحكى عن الجمهور أن صيد الطيور كصيد الكلاب؛ لأنها تَكَلِّبُ الصيد بمخالبها، كما تكلبه الكلاب، فلا فرق. وهذا مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم، واختاره ابن جرير، واحتج في ذلك بما رواه عن هناد، حدثنا عيسى بن يونس، عن مجالد، عن الشعبي، عن عدي بن حاتم قال: سألت رسول الله ﷺ عن صيد البازي، فقال: «ما أمسك عليك فكل».

واستثنى الإمام أحمد صيد الكلب الأسود؛ لأنه عنده مما يجب قتله ولا يحل اقتناؤه؛ لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يَقْطَعُ الصَّلَاةَ الْحِمَارُ وَالْمَرْأَةُ وَالْكَلْبُ الْأَسْوَدُ». فقلت: ما بال الكلب الأسود من الأحمر؟ فقال: «الكلب الأسود شيطان». وفي الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب، ثم قال: «ما بالهم وبال الكلاب، اقتلوا منها كل أسود بهيم». وسميت هذه الحيوانات التي يصطاد بهن: جوارح، من الجرح، وهو: الكسب. كما تقول العرب: فلان جرح أهله خيراً، أي: كسبهم خيراً. ويقولون: فلان لا جرح له، أي: لا كاسب له، وقال الله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي يَوْفِقُكُمْ يَأْكُلُ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّارِ» [الأنعام: ٦٠] أي: ما كسبتم من خير وشر. وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية الكريمة الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم: حدثنا حجاج بن حمزة، حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثني موسى بن عبيدة، حدثني أبان بن صالح، عن

الققعاق بن حكيم، عن سلمى أم رافع، عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب، فقتلت، فجاء الناس فقالوا: يا رسول الله، ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ قال: فسكت، فأنزل الله: ﴿يَسْتَأْذِنُكُم مَّا ذَا أَحِلَّ لَكُمْ قُلْ أَجَلٌ لَّكُمْ الْطَّيِّبُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ الآية. فقال رسول الله ﷺ: «إذا أرسل الرجل كلبه وسُمِّي، فأمسك عليه، فليأكل ما لم يأكل». وهكذا رواه ابن جرير، عن أبي كُرَيْب، عن زيد بن الحباب بإسناده، عن أبي رافع قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ ليستأذن عليه، فأذن له فقال: قد أذن لك يا رسول الله. قال: أجل، ولكن لا ندخل بيتاً فيه كلب، قال أبو رافع: فأمرني أن أقتل كل كلب بالمدينة، فقتلت، حتى انتهيت إلى امرأة عندها كلب ينبع عليها، فتركته رحمة لها، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فأمرني، فرجعت إلى الكلب فقتلته، فجاءوا فقالوا: يا رسول الله، ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ، قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿يَسْتَأْذِنُكُم مَّا ذَا أَحِلَّ لَكُمْ قُلْ أَجَلٌ لَّكُمْ الْطَّيِّبُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾. ورواه الحاكم في مستدركه من طريق محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح، به. وقال: صحيح ولم يخرجاه.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا حجاج، عن ابن جُرَيْج، عن عكرمة؛ أن رسول الله ﷺ بعث أبا رافع في قتل الكلاب، حتى بلغ العوالي فدخل عاصم بن عدي، وسعد بن خثيمة، وعويم بن ساعدة، فقالوا: ماذا أحل لنا يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿يَسْتَأْذِنُكُم مَّا ذَا أَحِلَّ لَكُمْ قُلْ أَجَلٌ لَّكُمْ الْطَّيِّبُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ الآية. ورواه الحاكم من طريق سِمَاك، عن عكرمة، وهكذا قال محمد بن كعب القرظي في سبب نزول هذه الآية: إنه في قتل الكلاب. وقوله تعالى: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ يحتمل أن يكون حالاً من الضمير في ﴿عَلَّمْتُمْ﴾ فيكون حالاً من الفاعل، ويحتمل أن يكون حالاً من المفعول وهو ﴿الْجَوَارِحِ﴾ أي: وما علمتم من الجوارح في حال كونهن مكليات للصيد، وذلك أن تقتنصه الجوارح، بمخالبها أو أظفارها. فيستدل بذلك - والحالة هذه - على أن الجارحة إذا قتل الصيد بصدمة أو بمخالبه وظفره أنه لا يحل، كما هو أحد قولي الشافعي وطائفة من العلماء؛ ولهذا قال: ﴿تَلَوْنَهُنَّ يَمَّا عَلَيْكُمْ اللَّهُ﴾ وهو أنه إذا أرسله استرسل، وإذا أشلاه استشلى، وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه ولا يمسه لنفسه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا أَمْرَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فمتى كان الجارحة معلماً وأمسك على صاحبه، وكان قد ذكر اسم الله عند إرساله حل الصيد، وإن قتله بالإجماع. وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، كما ثبت في الصحيحين عن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إني أرسل الكلاب المعلمة وأذكر اسم الله. فقال: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله، فكل ما أمسك عليك». قلت: وإن قتلن؟ قال: «وإن قتلن ما لم يشرکہا كلب ليس منها، فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره». قلت له: فإني أرمي باليعرّاض الصيد فأصيب؟ فقال: «إذا رميت باليعرّاض فخرق فكله، وإن أصابه بعرض فإنه ويّيد، فلا تأكله». وفي لفظ لهما: «إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله، فإن أمسك عليك فأدرّكه حياً فاذبحه، وإن أدرّكه قد قتل ولم يأكل منه فكله، فإن أخذ الكلب ذكاته». وفي رواية لهما: «فإن أكل فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه». فهذا دليل للجمهور، وهو الصحيح من مذهب الشافعي، وهو أنه إذا أكل الكلب من الصيد يحرم مطلقاً، ولم يستفصلوا كما ورد بذلك الحديث. وحكي عن طائفة من السلف أنهم قالوا: لا يحرم مطلقاً.

ذكر الآثار بذلك:

قال ابن جرير: حدثنا هناد، حدثنا وكيع، عن شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب قال: قال سلمان الفارسي: كل وإن أكل ثلثيه - يعني الصيد - إذا أكل منه الكلب. وكذا رواه سعيد بن أبي عروبة، وعمر بن عامر، عن قتادة. وكذا رواه محمد بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن سلمان. ورواه ابن جرير أيضاً عن مجاهد بن موسى، عن يزيد، عن بكر بن عبد الله المزني والقاسم؛ أن سلمان قال: إذا أكل الكلب فكل، وإن أكل ثلثيه. وقال ابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني مخرمة بن بكير، عن أبيه، عن حميد بن مالك بن حننم الدؤلي؛ أنه سأل سعد بن أبي وقاص عن الصيد يأكل منه الكلب، فقال: كل، وإن لم يبق منه إلا جذية - يعني: إلا بضعة. ورواه شعبة، عن عبد ربه بن سعيد، عن بكير بن الأشج، عن سعيد بن المسيب، عن سعد بن أبي وقاص قال: كل وإن أكل ثلثيه. وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود، عن عامر، عن أبي هريرة قال: لو أرسلت كلبك فأكل منه، فإن أكل ثلثيه وبقي ثلثه فكل. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المغيرة قال: سمعت عبيد الله - وحدثنا هناد، حدثنا عبدة، عن عبيد الله بن عمر - عن نافع، عن عبد الله بن عمر قال: إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله، فكل ما أمسك عليك،

أكل أو لم يأكل. وكذا رواه عبيد الله بن عمر وابن أبي ذئب وغير واحد، عن نافع. فهذه الآثار ثابتة عن سلمان، وسعد بن أبي وقاص، وأبي هريرة، وابن عمر. وهو محكي عن علي، وابن عباس. واختلف فيه عن عطاء، والحسن البصري. وهو قول الزهري، وربيعة، ومالك. وإليه ذهب الشافعي في القديم، وأومأ إليه في الجديد. وقد روي من طريق سلمان الفارسي مرفوعاً، فقال ابن جرير: حدثنا عمران بن بكّار الكلابي، حدثنا عبد العزيز بن موسى اللاحوني، حدثنا محمد بن دينار - هو الطاحي - عن أبي إياس معاوية بن قُرة، عن سعيد بن المسيّب، عن سلمان الفارسي، عن رسول الله ﷺ قال: «إذا أرسل الرجل كلبه على الصيد فأدركه، وقد أكل منه، فليأكل ما بقي». ثم قال ابن جرير: وفي إسناد هذا الحديث نظر، وسعيد غير معلوم له سماع من سلمان، والثقات يروونه من كلام سلمان غير مرفوع.

وهذا الذي قاله ابن جرير صحيح، لكن قد روي هذا المعنى مرفوعاً من وجوه آخر، فقال أبو داود: حدثنا محمد بن منهل الضرير، حدثنا يزيد بن زُرّيع، حدثنا حبيب المعلم، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده؛ أن أعرابياً - يقال له: أبو ثعلبة - قال: يا رسول الله، إن لي كلاباً مكّبة، فأفتني في صيدها. فقال النبي ﷺ: «إن كان لك كلاب مكّبة، فكل مما أمسكن عليك». فقال: ذكياً وغير ذكي؟ قال: «نعم». قال: وإن أكل منه؟ قال: «نعم، وإن أكل منه». قال: يا رسول الله، أفتني في قوسي. فقال: «كل ما ردت عليك قوسك». قال: ذكياً وغير ذكي؟ قال: «وإن تغيب عنك ما لم يصل، أو تجد فيه أثر غير سهمك». قال: أفتني في آنية المجوس إذا اضطرونا إليها. قال: «اغسلها وكل فيها». هكذا رواه أبو داود، وقد أخرجه النسائي. وكذا رواه أبو داود، من طريق بُسر بن عبيد الله، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ثعلبة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل، وإن أكل منه، وكل ما ردت عليك يدك». وهذا إسنادان جيدان، وقد روى الثوري، عن سيمك بن حُزب، عن عديّ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما كان من كلب ضار أمسك عليك، فكل». قلت: وإن أكل؟ قال: «نعم». وروى عبد الملك بن حبيب: حدثنا أسد بن موسى، عن ابن أبي زائدة، عن الشعبي، عن عدي، مثله. فهذه آثار دالة على أنه يغتفر إن أكل منه الكلب. وقد احتج بها من لم يحرم الصيد بأكل الكلب وما أشبهه، كما تقدم عن حكيمانه عنهم، وقد توسط آخرون فقالوا: إن أكل عقب ما أمسكه فإنه يحرم لحديث عدي بن حاتم. وللعلة التي أشار إليها النبي ﷺ: «فإن أكل فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه». وأما إن أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه وجاع، فأكل من الصيد لجوعه، فإنه لا يؤثر في التحريم. وحملوا على ذلك حديث أبي ثعلبة الخُشَني، وهذا تفريق حسن، وجمع بين الحديثين صحيح. وقد تمنى الأستاذ أبو المعالي الجويني في كتابه «النهاية» أن لو فصل مفصل هذا التفصيل، وقد حقق الله أمنيته، وقال بهذا القول والتفريق طائفة من الأصحاب منهم، وقال آخرون قولاً رابعاً في المسألة، وهو التفرقة بين أكل الكلب فيحرم لحديث عديّ، وبين أكل الصقور ونحوها فلا يحرم؛ لأنه لا يقبل التعليم إلا بالأكل.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُزَيب، حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا أبو إسحاق الشيباني، عن حماد، عن إبراهيم، عن ابن عباس؛ أنه قال في الطير: إذا أرسلته فقتل فكل، فإن الكلب إذا ضربته لم يَعدُ، وإن تعلّم الطير أن يرجع إلى صاحبه وليس يضرب، فإذا أكل من الصيد ونشف الريش فكل. وكذا قال إبراهيم التَّخَفي، والشعبي، وحماد بن أبي سليمان. وقد يحتج لهؤلاء بما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد، حدثنا المحاربي، حدثنا مُجالد، عن الشعبي، عن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة، فما يحل لنا منها؟ قال: «يحل لكم ما علمتم من الجوارح مكّبين تعلمونهن مما علمكم الله، فكلوا مما أمسكن عليكم، واذكروا اسم الله عليه». ثم قال: «ما أرسلت من كلب وذكرت اسم الله عليه، فكل ما أمسك عليك». قلت: وإن قتل؟ قال: «وإن قتل، ما لم يأكل». قلت: يا رسول الله، وإن خالطت كلابنا كلاب غيرها؟ قال: «فلا تأكل حتى تعلم أن كلبك هو الذي أمسك». قال: قلت: إنا قوم نرمي، فما يحل لنا؟ قال: «ما ذكرت اسم الله عليه وخزفت فكل». فوجه الدلالة لهم أنه اشترط في الكلب ألا يأكل، ولم يشترط ذلك في البزاة، فدل على التفرقة بينهما في الحكم، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: عند الإرسال، كما قال النبي ﷺ لعدي بن حاتم: «إذا أرسلت كلبك المعلم، وذكرت اسم الله، فكل ما أمسك عليك». وفي حديث أبي ثعلبة المخرج في الصحيحين أيضاً: «إذا أرسلت كلبك، فاذكر اسم الله، وإذا رميت بسهمك فاذكر اسم الله»؛ ولهذا اشترط من اشترط من الأئمة كأحمد بن حنبل - في المشهور عنه - التسمية - عند إرسال الكلب والرمي بالسهم لهذه الآية وهذا الحديث، وهذا القول هو المشهور عن الجمهور، أن المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الإرسال، كما قال السُّدِّي وغير واحد. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَادْكُرُوا

أَتَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِ يَقُول: إذا أرسلت جارحك فقل: باسم الله، وإن نسيت فلا حرج. وقال بعض الناس: المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الأكل كما ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ عَلَّمَ رَبِّيه عمر بن أبي سلمة فقال: «سَمِ اللَّه، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ». وفي صحيح البخاري: عن عائشة أنهم قالوا: يا رسول الله، إن قومًا يأتوننا - حديث عهدهم بكفر - بلُحْمَانِ لا ندرى أذكر اسم الله عليها أم لا؟ فقال: «سَمُوا أَنْتُمْ وَكُلُوا».

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا هشام، عن بُذَيْل، عن عبد الله بن عُبيد بن عُمَيْر، عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ كان يأكل الطعام في ستة نفر من أصحابه، فجاء أعرابي فأكله بلقمتين، فقال النبي ﷺ: «أما إنه لو كان ذكر اسم الله لكفاكم، فإذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله، فإن نسي أن يذكر اسم الله أوله فليقل: باسم الله أوله وآخره». وهكذا رواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يزيد بن هارون، به. وهذا منقطع بين عبد الله بن عبيد بن عمير وعائشة، فإنه لم يسمع منها هذا الحديث، بدليل ما رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، أخبرنا هشام - يعني ابن أبي عبد الله الدُّسْتَوَائِي - عن بُذَيْل، عن عبد الله بن عبيد بن عمير؛ أن امرأة منهم - يقال لها: أم كلثوم - حدثته، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يأكل طعاماً في ستة من أصحابه، فجاء أعرابي جائع فأكله بلقمتين، فقال: «أما إنه لو ذكر اسم الله لكفاكم، فإذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله، فإن نسي اسم الله في أوله فليقل: باسم الله أوله وآخره». ورواه أحمد أيضاً، وأبو داود، والترمذي، والنسائي من غير وجه، عن هشام الدُّسْتَوَائِي، به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

حديث آخر: وقال أحمد: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا جابر بن صبح، حدثني المثنى بن عبد الرحمن الخزاعي، وصحبته إلى واسط، فكان يسمى في أول طعامه وفي آخر لقمة يقول: بسم الله أوله وآخره. فقلت له: إنك تسمي في أول ما تأكل، أرأيت قولك في آخر ما تأكل: باسم الله أوله وآخره؟ فقال: أخبرك عن ذلك إن جدي أمية بن مخشي - وكان من أصحاب النبي ﷺ - سمعته يقول: إن رجلاً كان يأكل، والنبي ينظر، فلم يسم، حتى كان في آخر طعامه لقمة، فقال: باسم الله أوله وآخره. فقال النبي ﷺ: «والله ما زال الشيطان يأكل معه حتى سَمَى، فلم يبق شيء في بطنه حتى قاءه». وهكذا رواه أبو داود والنسائي، من حديث جابر بن صبح الراسبي أبي بشر البصري، ووثقه ابن معين والنسائي، وقال أبو الفتح الأزدي: لا تقوم به الحجة.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن خَيْثَمَةَ، عن أبي حذيفة قال أبو عبد الرحمن عبد الله بن الإمام أحمد: واسمه سلمة بن الهيثم بن صهيب - من أصحاب ابن مسعود - عن حذيفة قال: كنا إذا حضرنا مع النبي ﷺ على طعام، لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله ﷺ يضع يده، وإننا حضرنا معه طعاماً فجاءت جارية، كأنما تُدْفَع، فذهبت تضع يدها في الطعام، فأخذ رسول الله ﷺ بيدها، وجاء أعرابي كأنما يُدْفَع، فذهب يضع يده في الطعام، فأخذ رسول الله ﷺ بيده، فقال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يَسْتَحِلُّ الطعام إذا لم يذكر اسم الله عليه، وإنه جاء بهذه الجارية ليستحل بها، فأخذت بيدها، وجاء بهذا الأعرابي ليستحل به، فأخذت بيده، والذي نفسي بيده، إن يده في يدي مع يدهما يعني الشيطان. وكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي، من حديث الأعمش به.

حديث آخر: روى مسلم وأهل السنن إلا الترمذي، من طريق ابن جُرَيْج، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر اسم الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، فإذا لم يذكر اسم الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء». لفظ أبي داود.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا الوليد بن مسلم، عن وَخْشِي بن حَزْب بن وَخْشِي بن حَزْب، عن أبيه، عن جده؛ أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إنا نأكل وما نشبع؟ قال: «فلعلكم تأكلون متفرقين، اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله، يبارك لكم فيه». ورواه أبو داود، وابن ماجه، من طريق الوليد بن مسلم.

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ وَلَقَدْ نَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَخَرَقْنَا لَكُمُ الْغَشْيَ وَالْغَشْيَ مِنْ لَدُنَّا وَأَوْثَرْنَا لَكُمُ الْكُتُبَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا تَأَمَّنْتُمْ أَجُورَهُمْ تَحْمِيْنٌ غَيْرَ مُسْتَفِيْنٍ وَلَا مُنْجِدِيْنَ أَفَدَلُوْا وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيْمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِيْنَ ﴿٥﴾﴾.

لما ذكر تعالى ما حرمه على عباده المؤمنين من الخبائث، وما أحله لهم من الطيبات، قال بعده: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾. ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين من اليهود والنصارى، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ وَأَوْثَرْنَا لَكُمُ الْكُتُبَ﴾. قال ابن عباس، وأبو أمامة،

ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وعطاء، والحسن، ومكحول، وإبراهيم النخعي، والسدي، ومقاتل بن حيان: يعني ذبائحهم. وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء: أن ذبائحهم حلال للمسلمين؛ لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزّه عن قولهم، تعالى وتقدس. وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مَعْقِل قال: ذُلِّي بجرب من شحم يوم خيبر. قال: فاحتضنته وقلت: لا أعطي اليوم من هذا أحداً، والتفت فإذا النبي ﷺ يتبسم. فاستدل به الفقهاء على أنه يجوز تناول ما يحتاج إليه من الأطعمة ونحوها من الغنمة قبل القسمة، وهذا ظاهر. واستدل به الفقهاء الحنفية والشافعية والحنابلة على أصحاب مالك في منعهم أكل ما يعتقد اليهود تحريمه من ذبائحهم، كالشحوم ونحوها مما حرم عليهم. فالمالكية لا يجوزون للمسلمين أكله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ مِنَ الْبُيُوتِ الْغَنِيمَةُ الْكَثِيرَةُ﴾، وقالوا: وهذا ليس من طعامهم. واستدل عليهم الجمهور بهذا الحديث، وفي ذلك نظر؛ لأنه قضية عين، ويحتمل أنه كان شحماً يعتقدون حله، كشحم الظهر والحوايا ونحوهما، والله أعلم. وأجود منه في الدلالة ما ثبت في الصحيح: أن أهل خيبر أهدوا الرسول الله ﷺ شاة مَضْلِيَّةً، وقد سَمَوْا ذراعها، وكان يعجبه الذراع، فتناوله فَتَهَشَّ منه نَهْشَةً، فأخبره الذراع أنه مسموم، فَلَقَّظَهُ وأثر ذلك السم في ثنايا رسول الله ﷺ وفي أنفه، وأكل معه منها بشر بن البراء بن مَعْرُور؛ فمات، فقتل اليهودية التي سمتها، وكان اسمها زينب، فقتلت ببشر بن البراء. ووجه الدلالة منه أنه عزم على أكلها ومن معه، ولم يسألهم هل نزعوا منها ما يعتقدون تحريمه من شحمها أم لا. وفي الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ أضافه يهودي على خبز شعير وإهالة سَنَخَةٍ، يعني: ودكا زنخا. وقال ابن أبي حاتم: قرئ على العباس بن الوليد بن مَزِيد، أخبرنا محمد بن شعيب، أخبرني النعمان بن المنذر، عن مكحول قال: أنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا زَكَّرَ إِلَيْكُمْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١] ثم نسخها الرب، ﷻ، ورحم المسلمين، فقال: ﴿يَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْفَلَيْحُ وَالْمَلَأَ الْأَيُّنَ أَوْثُوا الْكِتَابَ جِلَّ لَكُمْ﴾، فنسخها بذلك، وأحل طعام أهل الكتاب. وفي هذا الذي قاله مكحول رحمه الله، نظر، فإنه لا يلزم من إباحته طعام أهل الكتاب إباحة أكل ما لم يذكر اسم الله عليه؛ لأنهم يذكرون اسم الله على ذبائحهم وقرابينهم، وهم متعبدون بذلك؛ ولهذا لم يبيع ذبائح من عداهم من أهل الشرك ومن شابههم، لأنهم لم يذكروا اسم الله على ذبائحهم، بل ولا يتوقفون فيما يأكلونه من اللحم على ذكاة، بل يأكلون الميتة، بخلاف أهل الكتابين ومن شاكلهم من السامرة والصابئة، ومن تَمَسَّكَ بدين إبراهيم وشيت وغيرهما من الأنبياء، على أحد قولي العلماء، ونصاري العرب كبني تَغْلِبَ وتَنُوحَ وبَهْرَاءَ وَجُدَامَ وَلَحْمَ وَعَامِلَةَ ومن أشبههم، لا تؤكل ذبائحهم عند الجمهور.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُثَيْمَةَ، عن أيوب، عن محمد، عن عبيدة قال: قال علي: لا تأكلوا ذبائح بني تغلب؛ لأنهم إنما يتمسكون من النصرانية بشرب الخمر. وكذا قال غير واحد من الخلف والسلف. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، والحسن؛ أنهما كانا لا يريان بأساً بذبيحة نصاري بني تغلب. وأما المجوس، فإنهم وإن أخذت منهم الجزية تبعاً وإلحاقاً لأهل الكتاب، فإنهم لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نسائهم، خلافاً لأبي ثور إبراهيم بن خالد الكلبي، أحد الفقهاء من أصحاب الشافعي، وأحمد بن حنبل، ولما قال ذلك واشتهر عنه أنكر عليه الفقهاء ذلك، حتى قال عنه الإمام أحمد: أبو ثور كاسمه! يعني في هذه المسألة، وكأنه تمسك بعموم حديث روي مرسلًا عن النبي ﷺ أنه قال: «سَنُوا بِهِمْ سَنَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ»، ولكن لم يثبت بهذا اللفظ، وإنما الذي في صحيح البخاري: عن عبد الرحمن بن عوف؛ أن رسول الله ﷺ أخذ الجزية من مجوس هَجَرَ. ولو سلم صحة هذا الحديث، فعمومه مخصوص بمفهوم هذه الآية: ﴿وَلَكُمْ مِنَ الْبُيُوتِ الْغَنِيمَةُ الْكَثِيرَةُ﴾، فدل بمفهومه - مفهوم المخالفة - على أن طعام من عداهم من أهل الديان لا يحل. وقوله: ﴿وَلَكُمْ مِنَ الْبُيُوتِ الْغَنِيمَةُ الْكَثِيرَةُ﴾ أي: ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم، وليس هذا إخباراً عن الحكم عندهم، اللهم إلا أن يكون خبراً عما أمروا به من الأكل من كل طعام ذكر اسم الله عليه، سواء كان من أهل ملتهم أو غيرها. والأول أظهر في المعنى، أي: ولكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم. وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة، كما ألبس النبي ﷺ ثوبه لعبد الله بن أبي بن سلول حين مات ودفنه فيه، قالوا: لأنه كان قد كسا العباس حين قدم المدينة ثوبه، فجازاه النبي ﷺ ذلك بذلك، فأما الحديث الذي فيه: «لَا تَصْحَبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامُكَ إِلَّا تَقِي» فمحمول على التندب والاستحباب، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: وأحل لكم نكاح الحرائر العفاف من النساء المؤمنات، وذكر هذا توطئة لما بعده، وهو قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْأَيُّنَ أَوْثُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، فقيل: أراد بالمحصنات: الحرائر دون الإماء، وحكاها ابن جرير عن مجاهد. وإنما قال مجاهد: المحصنات: الحرائر، فيحتمل أن يكون أراد ما حكاه عنه، ويحتمل أن يكون أراد بالحررة العفيفة،

كما قاله مجاهد في الرواية الأخرى عنه . وهو قول الجمهور ههنا ، وهو الأشبه ؛ لثلا يجتمع فيها أن تكون ذمية وهي مع ذلك غير عفيفة ، فيفسد حالها بالكلية ، ويتحصل زوجها على ما قيل في المثل : «حَشَفًا وَسَوْءَ كَيْلَةٍ» . والظاهر من الآية أن المراد بالمحصنات : العفيفات عن الزنا ، كما قال في الآية الأخرى : «مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَوِّغَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ» [النساء: ٢٥] . ثم اختلف المفسرون والعلماء في قوله : «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ» : هل يعم كل كتابية عفيفة ، سواء كانت حرة أو أمة ؟ حكاه ابن جرير عن طائفة من السلف ، ممن فسر المحصنة بالعفيفة . وقيل : المراد بأهل الكتاب ههنا الإسرائيليات ، وهو مذهب الشافعي . وقيل : المراد بذلك : الذميات دون الحريات ؛ لقوله : «فَتِلْكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ ذَاكِرُونَ» [البقرة: ٢٩] . وقد كان عبد الله بن عمر لا يرى التزويج بالنصرانية ، ويقول : لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول إن ربها عيسى ، وقد قال الله تعالى : «وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا» الآية [البقرة: ٢٢١] . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن حاتم بن سليمان المؤدب ، حدثنا القاسم بن مالك - يعني المُرزَني - حدثنا إسماعيل بن سميع ، عن أبي مالك الغفاري ، عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : «وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا» [البقرة: ٢٢١] ، قال : فحجز الناس عنهن حتى نزلت التي بعدها : «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ» ، فنكح الناس من نساء أهل الكتاب . وقد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصراني ولم يروا بذلك بأساً ، أخذاً بهذه الآية الكريمة «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ» ، فجعلوا هذه مخصصة للآية التي في البقرة : «وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا» [البقرة: ٢٢١] إن قيل بدخول الكتابيات في عمومها ، وإلا فلا معارضة بينها وبينها ؛ لأن أهل الكتاب قد يُفصل في ذكرهم عن المشركين في غير موضع ، كما قال تعالى : «لَا يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنَافِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْيُسْرَى» [البقرة: ١٠٩] ، وكفوله : «وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمْتُمْ فَقَدْ أَوْفَوْا بِمَا كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» الآية [آل عمران: ٢٠] ، وقوله : «إِذَا تَأْتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ» أي : مهورهن ، أي : كما هن محصنات عفائف ، فابذلوا لهن المهوور عن طيب نفس . وقد أفتى جابر بن عبد الله ، وإبراهيم النخعي ، وعامر الشعبي ، والحسن البصري بأن الرجل إذا نكح امرأة فزنت قبل دخوله بها : أنه يفرق بينه وبينها ، وترد عليه ما بذل لها من المهر . رواه ابن جرير عنهم . وقوله : «مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَوِّغَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ» : فكما شرط الإحصان في النساء - وهي العفة عن الزنا - كذلك شرطها في الرجال وهو أن يكون الرجل أيضاً محصناً عفيفاً ؛ ولهذا قال : «غَيْرَ مُسَوِّغَاتٍ» وهم : الزناة الذين لا يتردعون عن معصية ، ولا يردون أنفسهم عن مجرمهم «وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ» أي : ذوي العشيقات الذين لا يفعلون إلا معهم ، كما تقدم في سورة النساء سواء ؛ ولهذا ذهب الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله ، إلى أنه لا يصح نكاح المرأة البغي حتى يتوب ويقطع عما هو فيه من الزنا ؛ لهذه الآية وللحديث الآخر : «لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله» . وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا أبو هلال ، عن قتادة ، عن الحسن قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لقد هممت ألا أدع أحداً أصاب فاحشة ، في الإسلام أن يتزوج محصنة . فقال له أبي بن كعب : يا أمير المؤمنين ، الشرك أعظم من ذلك ، وقد يقبل منه إذا تاب . وسيأتي الكلام على هذه المسألة مستقصى إن شاء الله تعالى عند قوله : «الَّذِينَ لَا يَنْكِحُوا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» [النور: ٢٣] ؛ ولهذا قال تعالى ههنا : «وَمَنْ يَكْثُرِ بِالْإِثْمِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ» .

«تِلْكَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْلُظْ أَعْيُنَكُمْ وَأُصَوِّغْكُمْ وَأَيِّدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمْ يَجِدْ مَاءً فَامْسَحْ بِمَآئِ الصُّبُرِ فَاصْبُغُوا بِمُسْتَسْقَاةٍ وَأَيِّدِيكُمْ وَتِلْكَ الْأُمَّةُ الَّتِي لَا يَرْضَى اللَّهُ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَحَصَّنُوا فِي دِيَارِهِمْ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» [البقرة: ٢٣٨] . قال كثيرون من السلف : قوله : «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ» : معناه وأنتم مُخِدِّثُونَ . وقال آخرون : إذا قمتم من النوم إلى الصلاة ، وكلاهما قريب . وقال آخرون : بل المعنى أعم من ذلك ، فالآية أمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة ، ولكن هو في حق المحدث على سبيل الإيجاب ، وفي حق المتطهر على سبيل الندب والاستحباب . وقد قيل : إن الأمر بالوضوء لكل صلاة كان واجباً في ابتداء الإسلام ، ثم نسخ . قال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن علقمة بن مرثد ، عن سليمان بن بريدة ، عن أبيه قال : كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة ، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه ، وصلى الصلوات بوضوء واحد . فقال له عمر : يا رسول الله ، إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله ؟ قال : «إني عمداً فعلته يا عمر» . وهكذا رواه مسلم وأهل السنن من حديث سفيان الثوري ، عن علقمة بن مرثد . ووقع في سنن ابن ماجه ، عن سفيان عن محارب بن

دُثَار - بدل علقمة بن مرثد - كلاهما عن سليمان بن بُريدة، به وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عباد بن موسى، أخبرنا زياد بن عبد الله بن الطفيل البكائي، حدثنا الفضل بن المُبَشَّر قال: رأيت جابر بن عبد الله يصلي الصلوات بوضوء واحد، فإذا بال أو أحدث، توضأ ومسح بفضل طهوره الخفين. فقلت: أبا عبد الله، شيء تصنعه برأيك؟ قال: بل رأيت النبي ﷺ يصنعه، فأنا أصنعه، كما رأيت رسول الله ﷺ يصنع. وكذا رواه ابن ماجه، عن إسماعيل بن ثوبة، عن زياد البكائي، به. وقال أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني محمد بن يحيى بن حَبَّان الأنصاري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر قال: قلت له: أرايت وضوء عبد الله بن عمر لكل صلاة طاهراً كان أو غير طاهر، عَمَّن هو؟ قال: حدثته أسماء بنت زيد بن الخطاب؛ أن عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر بن الغسيل حدثها، أن رسول الله ﷺ كان أمر بالوضوء لكل صلاة طاهراً كان أو غير طاهر، فلما شق ذلك على رسول الله ﷺ أمر بالسواك عند كل صلاة ووضوع عنه الوضوء، إلا من حدث. فكان عبد الله يرى أن به قوة على ذلك، كان يفعله حتى مات. وكذا رواه أبو داود، عن محمد بن غَوْف الجُمُصَي، عن أحمد بن خالد الذهبي، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن يحيى بن حَبَّان، عن عبد الله بن عبد الله بن عمر، ثم قال أبو داود: ورواه إبراهيم بن سعد، عن محمد بن إسحاق فقال: عبيد الله بن عبد الله بن عمر، يعني كما تقدم في رواية الإمام أحمد.

وأياً ما كان فهو إسناده صحيح، وقد صرح ابن إسحاق فيه بالتحديث والسماع من محمد بن يحيى بن حَبَّان، فزال محذور التدليس. لكن قال الحافظ ابن عساكر: رواه سلمة بن الفضل وعلي بن مجاهد، عن ابن إسحاق، عن محمد بن طلحة بن يزيد بن زُكَّانة، عن محمد بن يحيى بن حَبَّان، به، والله أعلم. وفي فعل ابن عمر هذا، ومدارمته على إسباغ الوضوء لكل صلاة، دلالة على استحباب ذلك، كما هو مذهب الجمهور. وقال ابن جرير: حدثنا زكريا بن يحيى بن أبي زائدة، حدثنا أَزْهَر، عن ابن عَوْن، عن ابن سيرين: أن الخلفاء كانوا يتوضؤون لكل صلاة. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعْبَة، سمعت مسعود بن علي الشيباني، سمعت عِكْرِمَة يقول: كان علي، رضي الله عنه، يتوضأ عند كل صلاة، ويقرأ هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَ آلَ الْيُوسُفَ إِذَا فَتِنُوا إِذَا فُتِنُوا إِلَى الْكَلْوَةِ﴾ الآية. وحدثنا ابن المثنى، حدثنا وَهْب بن جرير، أخبرنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة، عن النزال بن سيرة قال: رأيت علياً صلى الظهر، ثم قعد للناس في الرحبة، ثم أتى بماء فغسل وجهه ويديه، ثم مسح برأسه ورجليه، وقال: هذا وضوء من لم يُحْدِث. وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْم، عن مغيرة، عن إبراهيم؛ أن علياً اكماز من حُب، فتوضأ وضوءاً فيه تجوز فقال: هذا وضوء من لم يحدث. وهذه طرق جيدة عن علي رضي الله عنه يقوي بعضها بعضاً. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا ابن بَشَّار، حدثنا ابن أبي عَدِي، عن حُمَيْد، عن أنس قال: توضأ عمر بن الخطاب وضوءاً فيه تجوز، خفيفاً، فقال: هذا وضوء من لم يحدث. وهذا إسناده صحيح.

وقال محمد بن سيرين: كان الخلفاء يتوضؤون لكل صلاة. وأما ما رواه أبو داود الطيالسي، عن أبي هلال، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب أنه قال: الوضوء من غير حدث اعتداء. فهو غريب عن سعيد بن المسيب، ثم هو محمول على أن من اعتقد وجوبه فهو معتد، وأما مشروعيته استحباباً فقد دلت السنة على ذلك. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِي، حدثنا سفيان، عن عمرو بن عامر الأنصاري، سمعت أنس بن مالك يقول: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، قال: قلت: فأنتم كيف كنتم تصنعون؟ قال: كنا نصلي الصلوات بوضوء واحد ما لم نحدث. وقد رواه البخاري وأهل السنن من غير وجه عن عَمْرُو بن عامر، به. وقال ابن جرير: حدثني أبو سعيد البغدادي، حدثنا إسحاق بن منصور، عن هُرَيْم، عن عبد الرحمن بن زياد - هو الإفريقي - عن أبي غُطَيْف، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ على طهر كتب له عشر حسنات». ورواه أيضاً من حديث عيسى بن يونس، عن الإفريقي، عن أبي غُطَيْف، عن ابن عمر، فذكره، وفيه قصة. وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه من حديث الإفريقي، به نحوه. وقال الترمذي: وهو إسناده ضعيف. قال ابن جرير: وقد قال قوم: إن هذه الآية نزلت إعلاماً من الله أن الوضوء لا يجب إلا عند القيام إلى الصلاة، دون غيرها من الأعمال؛ وذلك لأنه عليه السلام كان إذا أحدث امتنع من الأعمال كلها حتى يتوضأ. حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا معاوية بن هشام، عن سفيان، عن جابر، عن عبد الله بن أبي بكر بن عَمْرُو بن حزم، عن عبد الله بن عُلَقَمَة بن القَعْوَاء، عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أراق البول نكلمه فلا يكلمنا، ونسلم عليه فلا يرد علينا، حتى نزلت آية الرخصة: ﴿يَتَأْتِيَ آلَ الْيُوسُفَ إِذَا فَتِنُوا إِذَا فُتِنُوا إِلَى الْكَلْوَةِ﴾ الآية. ورواه ابن أبي حاتم عن محمد بن مسلم، عن أبي كُرَيْب، به نحوه. وهو حديث غريب جداً، وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي، ضعفه.

وقال أبو داود: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب، عن عبد الله بن أبي مُلَيْكة، عن عبد الله بن عباس؛ أن رسول الله ﷺ خرج من الخلاء، فقدم إليه طعام، فقالوا: ألا نأتيك بوضوء فقال: «إنما أمرت بالوضوء إذا قمتم إلى الصلاة». وكذا رواه الترمذي عن أحمد بن محمد بن مَنيع والنسائي عن زياد بن أيوب، عن إسماعيل - وهو ابن علي - به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وروى مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن سعيد بن الحويرث، عن ابن عباس قال: كنا عند النبي ﷺ فأتى الخلاء، ثم إنه رجع فأتى بطعام، فقيل: يا رسول الله ﷺ، ألا تتوضأ؟ فقال: «لِمَ؟ أأصلي فأتوضأ؟».

وقوله: «فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ» قد استدل طائفة من العلماء بقوله: «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ» على وجوب النية في الوضوء؛ لأن تقدير الكلام: «إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم لها»، كما تقول العرب: «إذا رأيت الأمير قمم» أي: له. وقد ثبت في الصحيحين حديث: «الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى». ويستحب قبل غسل الوجه أن يذكر اسم الله تعالى على وضوئه؛ لما ورد في الحديث من طرق جيدة، عن جماعة من الصحابة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه». ويستحب أن يغسل كفيه قبل إدخالهما في الإناء، ويتأكد ذلك عند القيام من النوم؛ لما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا استيقظ أحدكم من نومه، فلا يَدْخُلْ يده في الإناء قبل أن يغسلها ثلاثاً، فإن أحدكم لا يَذْري أين باتت يده». وحَدَّ الوجه عند الفقهاء: ما بين منابت شعر الرأس - ولا اعتبار بالصلع ولا بالغَم - إلى منتهى اللحقين والدقن طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً، وفي الثَّرْعَتَيْنِ والتحفيف خلاف، هل هما من الرأس أو الوجه، وفي المسترسل من اللحية عن محل الفرض قولان، أحدهما: أنه يجب إفاضة الماء عليه لأنه تقع به المواجهة. وروي في حديث: أن النبي ﷺ رأى رجلاً مغطياً لحيته، فقال: «اكشفها، فإن اللحية من الوجه». وقال مجاهد: هي من الوجه، ألا تسمع إلى قول العرب في الغلام إذا نبتت لحيته: طلع وجهه. ويستحب للمتوضئ أن يخلل لحيته إذا كانت كثرة، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا إسرائيل، عن عامر بن شقيق بن جَمْرَةَ، عن أبي وائل قال: رأيت عثمان توضأ - فذكر الحديث - وقال: وخلل اللحية ثلاثاً حين غسل وجهه، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل الذي رأيتُموني فعلت. رواه الترمذي، وابن ماجه من حديث عبد الرزاق وقال الترمذي: حسن صحيح، وحسنه البخاري.

وقال أبو داود: حدثنا أبو ثَوْبَةَ الربيع بن نافع، حدثنا أبو المَلِيح، حدثنا الوليد بن زَوْرَانَ، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا توضأ أخذ كفاً من ماء فأدخله تحت حنكه، يخلل به لحيته، وقال: «هكذا أمرني به ربي، ﷺ». تفرد به أبو داود. وقد رُوي هذا من غير وجه عن أنس. قال البيهقي: وروينا في تخليل اللحية عن عمار، وعائشة، وأم سلمة عن النبي ﷺ، ثم عن علي وغيره، وروينا في الرخصة في تركه عن ابن عمر، والحسن بن علي، ثم عن النخعي، وجماعة من التابعين. وقد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه في الصحاح وغيرها: أنه كان إذا توضأ تفضض واستنشق، فاختلف الأئمة في ذلك: هل هما واجبان في الوضوء والغسل، كما هو مذهب أحمد بن حنبل، رحمه الله؟ أو مستحبان فيهما، كما هو مذهب الشافعي ومالك؟ لما ثبت في الحديث الذي رواه أهل السنن وصححه ابن خزيمة، عن رفاعه بن رافع الزُرقي؛ أن النبي ﷺ قال للمسيء في صلاته: «توضأ كما أمرك الله» أو يجبان في الغسل دون الوضوء، كما هو مذهب أبي حنيفة؟ أو يجب الاستنشاق دون المضمضة كما هو رواية عن الإمام أحمد لما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «من توضأ فليستثر» وفي رواية: «إذا توضأ أحدكم فليجعل في منخريره من الماء ثم لينثر» والانتثار: هو المبالغة في الاستنشاق. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سلمة الخزاعي، حدثنا سليمان بن بلال، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس؛ أنه توضأ فغسل وجهه، ثم أخذ غرفة من ماء فتمضمض بها واستنثر، ثم أخذ غرفة ففعل بها هكذا، يعني أضافها إلى يده الأخرى، فغسل بهما وجهه. ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليمنى، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى، ثم مسح رأسه، ثم أخذ غرفة من ماء، ثم رش على رجله اليمنى حتى غسلها، ثم أخذ غرفة أخرى فغسل بها رجله اليسرى، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ، يعني يتوضأ. ورواه البخاري، عن محمد بن عبد الرحيم، عن أبي سلمة منصور بن سلمة الخزاعي، به.

وقوله: «وَأَيِّدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ» أي: مع المرافق، كما قال تعالى: «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّكُمْ كَانَ حُكْمًا كَبِيرًا» [النساء: ٢٩]. وقد روى الحافظ الدارقطني وأبو بكر البيهقي، من طريق القاسم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جده، عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه. ولكن القاسم هذا متروك الحديث، وجده ضعيف، والله أعلم.

ويستحب للمتوضيء أن يشرع في العضد ليفسله مع ذراعيه؛ لما روى البخاري ومسلم، من حديث نعيم المَجْجَر، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِن أَمْتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضوءِ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ». وفي صحيح مسلم: عن قُتَيْبَةَ، عن خَلْفِ بْنِ خَلِيفَةَ، عن أَبِي مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ، عن أَبِي حَازِمٍ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ خَلِيلِي ﷺ يَقُولُ: «تَبْلَغُ الْجَلَّةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضوءُ».

وقوله: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾: اختلفوا في هذه «الباء» هل هي للإلصاق، وهو الأظهر، أو للتبعض؟ وفيه نظر، على قولين. ومن الأصوليين من قال: هذا مجمل فليرجع في بيانه إلى السنة، وقد ثبت في الصحيحين من طريق مالك، عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه؛ أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد بن عاصم - وهو جد عمرو بن يحيى، وكان من أصحاب النبي ﷺ -: هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم، فدعا بوضوء، فأفرغ على يديه، فغسل يديه مرتين مرتين، ثم مضمض واستنشق ثلاثاً، وغسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرتين مرتين إلى المرفقين، ثم مسح يديه، فأقبل بهما وأدير، بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه. وفي حديث عبد خير، عن علي في صفة وضوء رسول الله ﷺ نحو هذا، وروى أبو داود، عن معاوية والمقدام بن معد يكرب، في صفة وضوء رسول الله ﷺ مثله. ففي هذه الأحاديث دلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأس، كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل، لا سيما على قول من زعم أنها خرجت مخرج البيان لما أجمل في القرآن. وقد ذهب الحنفية إلى وجوب مسح ريع الرأس، وهو مقدار الناصية. وذهب أصحابنا إلى أنه إنما يجب ما يطلق عليه اسم مسح، لا يتقدر ذلك بحد، بل لو مسح بعض شعره من رأسه أجزأه. واحتج الفريقان بحديث المغيرة بن شعبة، قال: تخلف النبي ﷺ فتخلفت معه، فلما قضى حاجته قال: «هل معك ماء؟» فأتيته بمطهرة فغسل كفيه ووجهه، ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضاق كم الجبة، فأخرج يديه من تحت الجبة وألقى الجبة على منكبيه، فغسل ذراعيه ومسح بناصرته، وعلى العمامة وعلى خفيه. وذكر باقي الحديث، وهو في صحيح مسلم، وغيره. فقال لهم أصحاب الإمام أحمد: إنما اقتصر على مسح الناصية لأنه كمل مسح بقية الرأس على العمامة، ونحن نقول بذلك، وأنه يقع عن الموقع كما وردت بذلك أحاديث كثيرة، وأنه كان يمسح على العمامة وعلى الخفين، فهذا أولى، وليس لكم فيه دلالة على جواز الاقتصار على مسح الناصية أو بعض الرأس من غير تكميل على العمامة، والله أعلم. ثم اختلفوا في أنه: هل يستحب تكرار مسح الرأس ثلاثاً، كما هو المشهور من مذهب الشافعي، أو إنما يستحب مسحة واحدة، كما هو مذهب أحمد بن حنبل ومن تابعه، على قولين. فقال عبد الرزاق: عن مَعْمَرٍ، عن الزهري، عن عطاء بن يزيد اللبشي، عن حُمُرَانَ بْنِ أَبَانَ قَالَ: رأيت عثمان بن عفان توضأ فأفرغ على يديه ثلاثاً فغسلهما، ثم مضمض واستنشق، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه اليمنى إلى المرفق ثلاثاً، ثم غسل اليسرى مثل ذلك، ثم مسح برأسه، ثم غسل قدمه اليمنى ثلاثاً، ثم اليسرى ثلاثاً مثل ذلك، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا، ثم قال: «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين من طريق الزهري به نحو هذا، وفي سنن أبي داود من رواية عبد الله بن عبيد الله بن أبي مُلَيْكَةَ، عن عثمان في صفة الوضوء: ومسح برأسه مرة واحدة. وكذا من رواية عبد خير، عن علي مثله. واحتج من استحَبَّ تكرار مسح الرأس بعموم الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه، عن عثمان، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ: توضأ ثلاثاً ثلاثاً. وقال أبو داود: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا الضحاك بن مخلد، حدثنا عبد الرحمن بن وَرْذَانَ، حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن، حدثني حمران قال: رأيت عثمان بن عفان توضأ فذكر نحوه، ولم يذكر المضمضة والاستنشاق، قال فيه: ثم مسح رأسه ثلاثاً، ثم غسل رجليه ثلاثاً، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ هكذا وقال: «مَنْ تَوَضَّأَ دُونَ هَذَا كَفَاهُ». تفرد به أبو داود، ثم قال: وأحاديث عثمان الصحاح تدل على أنه مسح الرأس مرة واحدة. وقوله: ﴿وَأَرْبَابَكُمْ إِلَى الْكَمِينِ﴾ قُرِءَ: ﴿وَأَرْبَابَكُمْ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿فَاعْبُدُوا لَهُمْ وَإِيَّائَكُمْ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رُزْغَةَ، حدثنا أبو سلمة، حدثنا وَهْبُ بْنُ خَالِدٍ، عن عِكْرَمَةَ، عن ابن عباس؛ أنه قرأها: ﴿وَأَرْبَابَكُمْ﴾ يقول: رجعت إلى الغسل. وروي عن عبد الله بن مسعود، وعُزْزَةَ، وعطاء، وعكرمة، والحسن، ومجاهد، وإبراهيم، والضحاك، والسُّدِّي، ومقاتل بن حَيَّان، والزهري، وإبراهيم التيمي، نحو ذلك. وهذه قراءة ظاهرة في وجوب الغسل، كما قاله السلف، ومن ههنا ذهب من ذهب إلى وجوب الترتيب، كما هو مذهب الجمهور، خلافاً لأبي حنيفة حيث لم يشترط الترتيب، بل لو غسل قدميه ثم مسح رأسه وغسل يديه ثم وجهه أجزأه ذلك؛ لأن الآية أمرت بغسل هذه الأعضاء، و«الواو» لا تدل على الترتيب. وقد سلك الجمهور في الجواب عن هذا البحث طرقات، فمنهم من قال: الآية دلت

على وجوب غسل الوجه ابتداء عند القيام إلى الصلاة؛ لأنه مأمور به بفناء التعقيب، وهي مقتضية للترتيب، ولم يقل أحد من الناس بوجوب غسل الوجه أولاً ثم لا يجب الترتيب بعده، بل القائل اثنان، أحدهما: يوجب الترتيب، كما هو واقع في الآية. والآخر يقول: لا يجب الترتيب مطلقاً، والآية دلت على وجوب غسل الوجه ابتداء، فوجب الترتيب فيما بعده بالإجماع، حيث لا فارق. ومنهم من قال: لا نسلم أن «الواو» لا تدل على الترتيب، بل هي دالة - كما هو مذهب طائفة من النحاة وأهل اللغة وبعض الفقهاء. ثم نقول - بتقدير تسليم كونها لا تدل على الترتيب اللغوي -: هي دالة على الترتيب شرعاً فيما من شأنه أن يرتب، والدليل على ذلك أنه ﷺ لما طاف بالبيت، خرج من باب الصفا وهو يتلو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّامَةَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ سَعَابِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] ثم قال: «أبدأ بما بدأ الله به» لفظ مسلم، ولفظ النسائي: «ابدؤوا بما بدأ الله به». وهذا لفظ أمر، وإسناده صحيح، فدل على وجوب البدء بما بدأ الله به، وهو معنى كونها تدل على الترتيب شرعاً، والله أعلم.

ومنهم من قال: لما ذكر تعالى هذه الصفة في هذه الآية على هذا الترتيب، فقطع النظر عن النظر، وأدخل الممسوح بين المغسولين، دل ذلك على إرادة الترتيب. ومنهم من قال: لا شك أنه قد روى أبو داود وغيره من طريق عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده؛ أن رسول الله ﷺ توضأ مرة مرة، ثم قال: «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به». قالوا: فلا يخلو إما أن يكون توضأ مرتباً فيجب الترتيب، أو يكون توضأ غير مرتب فيجب عدم الترتيب، ولا قائل به، فوجب ما ذكره.

وأما القراءة الأخرى، وهي قراءة من قرأ: ﴿وَأَرْجُلُكُمْ﴾ بالخفض. فقد احتج بها الشيعة في قولهم بوجوب مسح الرجلين؛ لأنها عندهم معطوفة على مسح الرأس. وقد روي عن طائفة من السلف ما يوهم القول بالمسح، فقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا حُمَيْد قال: قال موسى بن أنس لأنس ونحن عنده: يا أبا حمزة، إن الحجاج خطبنا بالأهواز ونحن معه، فذكر الطهور فقال: اغسلوا وجوهكم وأيديكم، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم، وإنه ليس شيء من ابن آدم أقرب من خبثه من قدميه، فاعسلوا بطونهما وظهورهما عراقيهما. فقال أنس: صدق الله وكذب الحجاج، قال الله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾. قال: وكان أنس إذا مسح قدميه بآلهما. إسناده صحيح إليه. وقال ابن جرير: حدثنا علي بن سهل، حدثنا مؤمل، حدثنا حماد، حدثنا عاصم الأحول، عن أنس قال: نزل القرآن بالمسح، والسنة الغسل. وهذا أيضاً إسناده صحيح. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا محمد بن قيس الخراساني، عن ابن جُرَيْج، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: الوضوء غَسْلَتَانِ ومسحتان. وكذا روى سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبي، حدثنا أبو مَعْمَرٍ المَقْرِي، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾. قال: هو المسح. ثم قال: وروي عن ابن عمر، وعلقمة، وأبي جعفر محمد بن علي، والحسن - في إحدى الروايات - وجابر بن زيد، ومجاهد - في إحدى الروايات - نحوه. وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن علية، حدثنا أيوب، قال: رأيت عكرمة يمسح على رجله، قال: وكان يقوله. وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب، حدثنا ابن إدريس، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي قال: نزل جبريل بالمسح. ثم قال الشعبي: ألا ترى أن «التييم» أن يمسح ما كان غسلاً، ويلغي ما كان مسحاً؟ وحدثنا ابن أبي زياد، حدثنا يزيد، أخبرنا إسماعيل، قلت لعامر: إن ناساً يقولون: إن جبريل نزل بغسل الرجلين؟ فقال: نزل جبريل بالمسح. فهذه آثار غريبة جداً، وهي محمولة على أن المراد بالمسح هو الغسل الخفيف، لما سنذكره من السنة الثابتة في وجوب غسل الرجلين. وإنما جاءت هذه القراءة بالخفض إما على المجاورة وتناسب الكلام، كما في قول العرب: «جَحْرُ ضَبْ خَرْبٍ»، وكقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ يَابُ سُدًى خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان: ٢١] وهذا سائغ ذائع، في لغة العرب شائع. ومنهم من قال: هي محمولة على مسح القدمين إذا كان عليهما الخفان، قاله أبو عبد الله الشافعي، رحمه الله. ومنهم من قال: هي دالة على مسح الرجلين، ولكن المراد بذلك الغسل الخفيف، كما وردت به السنة. وعلى كل تقدير فالواجب غسل الرجلين فرضاً، لا بد منه للآية والأحاديث التي سنوردها. ومن أحسن ما يستدل به على أن المسح يطلق على الغسل الخفيف ما رواه الحافظ البيهقي، حيث قال: أخبرنا أبو علي الروذباري، حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن محمود العسكري، حدثنا جعفر بن محمد القلانسي، حدثنا آدم، حدثنا شعبة، حدثنا عبد الملك بن مَيْسَرَةَ، سمعت الثَّوَالِ بن سَبْرَةَ يحدث عن علي بن أبي طالب؛ أنه صلى الظهر، ثم قعد في حوائج الناس في رَحْبَةِ الكوفة حتى حضرت صلاة العصر، ثم أتى بكوز من ماء، فأخذ منه حفنة واحدة، فمسح بها وجهه ويديه ورأسه ورجليه، ثم قام فشرب فضله وهو قائم، ثم قال: إن ناساً يكرهون الشرب قائماً، وإن رسول الله ﷺ صنع ما صنعت. وقال: «هذا وضوء من لم يحدث». رواه البخاري في الصحيح، عن آدم، ببعض معناه. ومن أوجب من الشيعة

مسحهما كما يمسح الخف، فقد ضل وأضل. وكذا من جوز مسحهما وجوز غسلهما فقد أخطأ أيضاً، ومن نقل عن أبي جعفر بن جرير أنه أوجب غسلهما للأحاديث، وأوجب مسحهما للآية، فلم يحقق مذهبه في ذلك، فإن كلامه في تفسيره إنما يدل على أنه أراد أنه يجب ذلك الرجلين من دون سائر أعضاء الوضوء؛ لأنهما يليان الأرض والطين وغير ذلك، فأوجب ذلكهما ليذهب ما عليهما، ولكنه عبّر عن ذلك بالمسح، فاعتقد من لم يتأمل كلامه أنه أراد وجوب الجمع بين غسل الرجلين ومسحهما، فحكاه من حكاه كذلك؛ ولهذا يستشكله كثير من الفقهاء وهو معذور، فإنه لا معنى للجمع بين المسح والغسل، سواء تقدمه أو تأخر عليه؛ لاندراجيه فيه، وإنما أراد الرجل ما ذكرته، والله أعلم. ثم تأملت كلامه أيضاً فإذا هو يحاول الجمع بين القراءتين، في قوله: ﴿وَأَرْيَاكُمْ﴾ خفضاً على المسح وهو الدلك، ونصباً على الغسل، فأوجبهما أخذاً بالجمع بين هذه وهذه.

ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين وأنه لا بد منه:

قد تقدم في حديث أميري المؤمنين عثمان وعلي، وابن عباس ومعاوية، وعبد الله بن زيد بن عاصم، والمقداد بن معد يكرّب؛ أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين في وضوئه، إما مرة، وإما مرتين، أو ثلاثاً، على اختلاف رواياتهم. وفي حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ توضأ فغسل قدميه، ثم قال: «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به». وفي الصحيحين، من رواية أبي عوانة، عن أبي بشر، عن يوسف بن مالهك، عن عبد الله بن عمرو قال: تَخَلَّفَ عنا رسول الله ﷺ في سفرة سافرتها، فأدركنا وقد أزهقنا الصلاة، صلاة العصر ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فننادى بأعلى صوته: «اسْبِغُوا الْوُضُوءَ وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ». وكذلك هو في الصحيحين عن أبي هريرة. وفي صحيح مسلم عن عائشة، عن النبي ﷺ أنه قال: «اسْبِغُوا الْوُضُوءَ وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ». وروى الليث بن سعد، عن حنيفة بن شريح، عن عُقبة بن مسلم، عن عبد الله بن الحارث بن جزء؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ وَيُطَوَّنُ الْأَقْدَامُ مِنَ النَّارِ». رواه البيهقي والحاكم، وهذا إسناد صحيح. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق: أنه سمع سعيد بن أبي كرب - أو شعيب بن أبي كرب - قال: سمعت جابر بن عبد الله - وهو على جمل - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويل للعراقيب من النار».

وحدثنا أسود بن عامر، أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن أبي كرب، عن جابر بن عبد الله قال: رأى النبي ﷺ في رجل رجل من مثل الدرهم لم يغسله، فقال: «ويل للعقب من النار». ورواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن الأخوص، عن أبي إسحاق، عن سعيد، به نحوه. وكذا رواه ابن جرير من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج وغير واحد، عن أبي إسحاق السبيعي، عن سعيد بن أبي كرب، عن جابر، عن النبي ﷺ، مثله. ثم قال: حدثنا علي بن مسلم، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنا حفص، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر؛ أن رسول الله ﷺ رأى قوماً يتوضؤون، لم يصب أعقابهم الماء، فقال: «وَيْلٌ لِلْعَرَاقِيبِ مِنَ النَّارِ». وقال الإمام أحمد: حدثنا خَلْفَ بن الوليد، حدثنا أيوب بن عُتبة، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن مُعْتَقِبِ قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للأعقاب من النار». تفرد به أحمد. وقال ابن جرير: حدثني علي بن عبد الأعلى، حدثنا المحاربي، عن مُطَرِّحِ بن يزيد، عن عبيد الله بن زُحْر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للأعقاب من النار، ويَل للأعقاب من النار». قال: فما بقي في المسجد شريف ولا وضيع، إلا نظرت إليه يُقَلِّبُ غُرْقُوبِيهِ ينظر إليهما. وحدثنا أبو كريب، حدثنا حسين، عن زائدة، عن ليث، حدثني عبد الرحمن بن سابط، عن أبي أمامة - أو عن أخي أبي أمامة - أن رسول الله ﷺ أبصر قوماً يتوضؤون وفي عَقِبِ أحدهم - أو: كعب أحدهم - مثل موضع الدرهم - أو: موضع الظفر - لم يمسسه الماء، فقال: «ويل للأعقاب من النار». قال: فجعل الرجل إذا رأى في عقبه شيئاً لم يصبه الماء أعاد وضوءه.

ووجه الدلالة من هذه الأحاديث ظاهرة، وذلك أنه لو كان قَرَضَ الرجلين مسحهما، أو أنه يجوز ذلك فيهما لما تَوَعَّدَ على تركه؛ لأن المسح لا يستوعب جميع الرجل، بل يجري فيه ما يجري في مسح الخف، وهكذا وجه الدلالة على الشيعة الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله. وقد روى مسلم في صحيحه، من طريق أبي الزبير، عن جابر، عن عمر بن الخطاب؛ أن رجلاً توضأ فترك موضع ظفر على قدمه، فأبصره النبي ﷺ فقال: «ارجع فأحسن وضوءك». وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا محمد بن إسحاق الصاغانى، حدثنا هارون بن معروف،

حدثنا ابن وهب، حدثنا جرير بن حازم: أنه سمع قتادة بن دعامة قال: حدثنا أنس بن مالك؛ أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ قد توضأ، وترك على قدمه مثل موضع الظفر، فقال له رسول الله ﷺ: «ارجع فأحسن وضوءك». وهكذا رواه أبو داود عن هارون بن معروف، وابن ماجه، عن خزيمة بن يحيى، كلاهما عن ابن وهب، به، وهذا إسناده جيد، رجاله كلهم ثقات، لكن قال أبو داود: وليس هذا الحديث بمعروف، لم يروه إلا ابن وهب. وحدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أخبرنا يونس وحמיד، عن الحسن؛ أن رسول الله ﷺ... بمعنى حديث قتادة. وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن أبي العباس، حدثنا بَقِيَّةُ، حدثني بجير بن سعد، عن خالد بن مغدان، عن بعض أزواج النبي ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يصلي وفي ظهره قدمه لُغْمَةٌ قدر الدرهم لم يصبها الماء، فأمره رسول الله ﷺ أن يعيد الوضوء. ورواه أبو داود من حديث بَقِيَّة، وزاد: «والصلاة». وهذا إسناده جيد قوي صحيح، والله أعلم. وفي حديث حُفْران، عن عثمان، في صفة وضوء النبي ﷺ: أنه خلل بين أصابعه. وروى أهل السنن من حديث إسماعيل بن كثير، عن عاصم بن لقيط بن صبرة، عن أبيه قال، قلت: يا رسول الله، أخبرني عن الوضوء. فقال: «أسبغ الوضوء، وحلّل بين الأصابع، وبالع في الاستنشاق إلا أن تكون صائماً».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد، أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا شداد بن عبد الله الدمشقي قال: قال أبو أمامة: حدثنا عمرو بن عبسة قال: قلت: يا نبي الله، أخبرني عن الوضوء. قال: «ما منكم من أحد يقرب وضوءه، ثم يتمضمض ويستنشق وينثر، إلا خرت خطاياه من فمه وخياشيمه مع الماء حين ينثر، ثم يغسل وجهه كما أمره الله إلا خرت خطاياه وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرت خطاياه يديه من أطراف أنامله، ثم يمسح رأسه إلا خرت خطاياه رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمره الله إلا خرت خطاياه قدميه من أطراف أصابعه مع الماء، ثم يقوم فيحمد الله ويثني عليه بالذي هو له أهل، ثم يركع ركعتين، إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه». قال أبو أمامة: يا عمرو، انظر ما تقول، سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ أيعطى هذا الرجل كله في مقامه؟ فقال عمرو بن عبسة: يا أبا أمامة، لقد كبرت سنّي، ورَّقَ عظمي، واقترب أجلي، وما بي حاجة أن أكذب على الله، وعلى رسول الله ﷺ، ولو لم أسمع من رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً، لقد سمعته منه سبع مرات أو أكثر من ذلك. وهذا إسناده صحيح، وهو في صحيح مسلم من وجه آخر، وفيه: «ثم يغسل قدميه كما أمره الله». فدل على أن القرآن يأمر بالغسل. وهكذا روى أبو إسحاق الشيباني، عن الحارث، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه قال: اغسلوا القدمين إلى الكعبين كما أمرتم. ومن ههنا يتضح لك المراد من حديث عبد خير، عن علي؛ أن رسول الله ﷺ رَشَ على قدميه الماء وهما في التعلين فدلّكهما. إنما أراد غسلاً خفيفاً وهما في التعلين ولا مانع من إيجاد الغسل والرجل في نعلها، ولكن في هذا رد على المتعمقين والمتنتظعين من الموسوسين. وهكذا الحديث الذي أورده ابن جرير على نفسه، وهو من روايته، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن حذيفة قال: أتى رسول الله ﷺ سُبَّاطَةٌ قوم فبال قائماً، ثم دعا بماء فتوضأ، ومسح على نعليه. وهو حديث صحيح. وقد أجاب ابن جرير عنه بأن الثقات الحفاظ رَوَوْه عن الأعمش، عن أبي وائل، عن حذيفة قال: فبال قائماً، ثم توضأ ومسح على خفيه. قلت: ويحتمل الجمع بينهما بأن يكون في رجله خفان، وعليهما نعلان.

وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يحيى عن شُعْبَةَ، حدثني يَغْلَى، عن أبيه، عن أوس بن أبي أوس قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ ومسح على نعليه، ثم قام إلى الصلاة. وقد رواه أبو داود عن مُسَدَّد وعبيد بن موسى كلاهما، عن هُشَيْم، عن يعلى بن عطاء، عن أبيه، عن أوس بن أبي أوس قال: رأيت رسول الله ﷺ أتى سُبَّاطَةٌ قوم فبال، وتوضأ ومسح على نعليه وقدميه. وقد رواه ابن جرير من طريق شعبة ومن طريق هشيم، ثم قال: وهذا محمول على أنه توضأ كذلك وهو غير محدث؛ إذ كان غير جائز أن تكون فرائض الله وسنن رسوله متنافية متعارضة، وقد صح عنه ﷺ الأمر بعموم غسل القدمين في الوضوء بالماء بالنقل المستفيض القاطع عُذْر من انتهى إليه ويلغه. ولما كان القرآن أمراً بغسل الرجلين - كما في قراءة النصب، وكما هو الواجب في حمل قراءة الخفض عليها - توهم بعض السلف أن هذه الآية ناسخة لرخصة المسح على الخفين، وقد روي ذلك عن علي بن أبي طالب، ولكن لم يصح إسناده، ثم الثابت عنه خلافه، وليس كما زعموه، فإنه قد ثبت أن النبي ﷺ مسح على الخفين بعد نزول هذه الآية الكريمة. قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا زياد بن عبد الله بن عُلَّانة، عن عبد الكريم بن مالك الجَزْرِي، عن مجاهد، عن جرير بن عبد الله البَجَلِي قال: أنا أسلمت بعد نزول المائدة، وأنا رأيت رسول الله ﷺ يمسح بعدما أسلمت. تفرد به أحمد. وفي الصحيحين، من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن هَمَّام قال: بال جرير، ثم توضأ ومسح على خفيه، فقيل: تفعل هذا؟ فقال: نعم، رأيت

رسول الله ﷺ بال، ثم توضأ ومسح على خفيه. قال الأعمش: قال إبراهيم: فكان يعجبهم هذا الحديث؛ لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة. لفظ مسلم. وقد ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ مشروعية المسح على الخفين قولاً منه وفعلًا، كما هو مقرر في كتاب «الأحكام الكبير»، وما يحتاج إلى ذكره هناك، من تأقيت المسح أو عدمه أو التفصيل فيه، كما هو مبسوط في موضعه. وقد خالفت الروافض ذلك كله بلا مستند، بل بهجل وضلال، مع أنه ثابت في صحيح مسلم، من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. كما ثبت في الصحيحين عنه، عن النبي ﷺ النهي عن نكاح المتعة وهم يستبيحونها. وكذلك هذه الآية الكريمة دالة على وجوب غسل الرجلين، مع ما ثبت بالتواتر من فعل رسول الله ﷺ على وفق ما دلت عليه الآية الكريمة، وهم مخالفون لذلك كله، وليس لهم دليل صحيح في نفس الأمر، والله الحمد.

وهكذا خالفوا الأئمة والسلف في الكعبين اللذين في القدمين، فعندهم أنهما في ظهر القدم، فعندهم في كل رجل كعب، وعند الجمهور أن الكعبين هما العظمان الثانتان عند مفصل الساق والقدم. قال الربيع: قال الشافعي: لم أعلم مخالفاً في أن الكعبين اللذين ذكرهما الله في كتابه في الوضوء هما الثانتان، وهما مجمع مفصل السابق والقدم. هذا لفظه. فعند الأئمة، رحمهم الله، أن في كل قدم كعبين كما هو المعروف عند الناس، وكما دلت عليه السنة، ففي الصحيحين من طريق خُمران عن عثمان؛ أنه توضأ ففصل رجله اليمنى إلى الكعبين، واليسرى مثل ذلك. وروى البخاري تعليقاً مجزوماً به، وأبو داود وابن خزيمة في صحيحه، من رواية أبي القاسم الحسين بن الحارث الجدلي، عن النعمان بن بشير قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: «أقيموا صفوفكم - ثلاثاً - والله لتقيمن صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم». قال: فرأيت الرجل يلزق كعبه بكعب صاحبه، وركبته بركبة صاحبه، ومُنْكَبِه بمنْكَبِه. لفظ ابن خزيمة. فليس يمكن أن يلزق كعبه بكعب صاحبه إلا والمراد به العظم الثانتان في الساق، حتى يحاذي كعب الآخر، فدل ذلك على ما ذكرناه، من أنهما العظمان الثانتان عند مفصل الساق والقدم كما هو مذهب أهل السنة. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إسماعيل بن موسى، أخبرنا شريك، عن يحيى بن عبد الله بن الحارث التيمي - يعني الجابر - قال: نظرت في قتلى أصحاب زيد، فوجدت الكعب فوق ظهر القدم، وهذه عقوبة عوقب بها الشيعة بعد قتلهم، تنكيلاً بهم في مخالفتهم الحق وإصرارهم عليه. وقوله: «وَأَن كُنتُمْ مَّرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْمَاءِ أَوْ لَسْتُمْ عَلَىٰ نِسَاءٍ فَلَمْ تُحَدِّثُوا مَاءً فَتَمَسَّحُوا بِمِطْبَاطِكُمْ أَوْ بِمِمْسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ يُتَنَّهُ» كل ذلك قد تقدم الكلام عليه في تفسير آية النساء، فلا حاجة بنا إلى إعادته؛ لثلا يطول الكلام. وذكرنا سبب نزول آية التيمم هناك، لكن البخاري روى فيها حديثاً خاصاً بهذه الآية الكريمة، فقال: حدثنا يحيى بن سليمان، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، أن عبد الرحمن بن القاسم حدثه، عن أبيه، عن عائشة: سقطت قلادة لي بالبدياء، ونحن داخلون المدينة، فأناخ رسول الله ﷺ ونزل، ففتى رأسه في حَجْرِي راقداً، أقبل أبو بكر فلكرزني لكزة شديدة، وقال: حَبَسْتُ النَّاسَ فِي قِلَادَةٍ، فَبَيَّ الْمَوْتُ لِمَكَانٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وقد أوجعني، ثم إن النبي ﷺ استيقظ وحضرت الصبح، فالتمس الماء فلم يوجد، فنزلت: «يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمُوا إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْتَسَلُوا وَجُوهَهُمْ» هذه الآية، فقال أسيد بن الحَضِير: لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر، ما أنتم إلا بركة لهم.

وقوله: «مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ» أي: فلهذا سهل عليكم ويسر ولم يعسر، بل أباح التيمم عند المرض، وعند فقد الماء، توسعة عليكم ورحمة بكم، وجعله في حق من شرع الله يقوم مقام الماء إلا من بعض الوجوه، كما تقدم بيانه، وكما هو مقرر في كتاب «الأحكام الكبير».

وقوله: «وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَمَّا كُنتُمْ تَشْكُرُونَ» أي: لعلكم تشكرون نعمته عليكم فيما شرعه لكم من التوسعة والرافقة والرحمة والتسهيل والسماحة، وقد وردت السنة بالحث على الدعاء عقب الوضوء، بأن يجعل فاعله من المتطهرين الداخلين في امتثال هذه الآية الكريمة، كما رواه الإمام أحمد ومسلم وأهل السنن، عن عقية بن عامر قال: كانت علينا رعاية الإبل، فجاءت نوتبي فزوحتنا بعشي، فأدرت رسول الله ﷺ قائماً يحدث الناس، فأدرت من قوله: «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين مُقْبِلاً عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة». قال: قلت: ما أجود هذه! فإذا قاتل بين يدي يقول: التي قبلها أجود منها. فنظرت فإذا عمر، رضي الله عنه، فقال: إني قد رأيتك جثت أنفأ، قال: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو: فيسبغ - الوضوء، يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء». لفظ مسلم. وقال مالك: عن سُهَيْل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ - أَوِ الْمُؤْمِنُ - فَغَسَلَ وَجْهَهُ، خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلِّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ

- أو: مع آخر قطر الماء - فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يده مع الماء - أو: مع آخر قطر الماء - فإذا غسل رجله خرجت كل خطيئة مشتها رجله مع الماء - أو: مع آخر قطر الماء - حتى يخرج نقياً من الذنوب». رواه مسلم عن أبي الطاهر، عن ابن وهب، عن مالك، به. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا معاوية بن هشام، عن سفيان، عن منصور، عن سالم بن أبي الجعد، عن كعب بن مُرَّة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يتوضأ فيغسل يديه - أو: ذراعيه - إلا خرجت خطاياه منهما، فإذا غسل وجهه خرجت خطاياه من وجهه، فإذا مسح رأسه خرجت خطاياه من رأسه، فإذا غسل رجله خرجت خطاياه من رجله». هذا لفظه. وقد رواه الإمام أحمد، عن محمد بن جعفر، عن شعبة، عن منصور، عن سالم، عن مرة بن كعب، أو كعب بن مرة السلمي، عن النبي ﷺ قال: «إذا توضأ العبد فغسل يديه، خرجت خطاياه من بين يديه، وإذا غسل وجهه خرجت خطاياه من وجهه، وإذا غسل ذراعيه خرجت خطاياه من ذراعيه، وإذا غسل رجله خرجت خطاياه من رجله». قال شعبة: ولم يذكر مسح الرأس. وهذا إسناد صحيح. وروى ابن جرير من طريق شُعْبَةَ بن عطية، عن شُعْبَةَ بن خُوْشَب، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء، ثم قام إلى الصلاة، خرجت ذنوبه من سمعه وبصره ويديه ورجليه». وروى مسلم في صحيحه، من حديث يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن سلام، عن جده ممطور، عن أبي مالك الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حُجَّةٌ لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها». وفي صحيح مسلم، من رواية سِمَاك بن حَرْب، عن مُضْعَب بن سعد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقبل الله صدقة من غُلُول، ولا صلاة بغير طهور». وقال ابن داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن قتادة، سمعت أبا المَلِيح الهذلي يحدث عن أبيه قال: كنت مع رسول الله ﷺ في بيت، فسمعت يقول: «إن الله لا يقبل صلاة من غير طهور، ولا صدقة من غُلُول». وكذا رواه أحمد، وأبو داود والنسائي، وابن ماجه، من حديث شعبة.

﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ يَدَاتُ الصُّدُورِ ۝٧﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّيِمَ اللَّهِ شَهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝١٠ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ لَا يَسْتَفْهِمُونَ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١١﴾.

يقول تعالى مذكراً لعباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته على متابعتهم ومناصرته وموازرتهم، والقيام بدينه وإبلاغه عنه وقبوله منه، فقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وهذه البيعة التي كانوا يبایعون رسول الله ﷺ عليها عند إسلامهم، كما قالوا: «بأيضا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله»، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ إِذْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [الحديد: ٨]، وقيل: هذا تذكير لليهود بما أخذ عليهم من الموائيق والعهود في متابعة محمد ﷺ والانقياد لشرعه، رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وقيل: هو تذكير بما أخذ تعالى من العهد على ذرية آدم حين استخرجهم من صلبه وأشهدهم على أنفسهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢]، قاله مجاهد، ومقاتل بن حَيَّان. والقول الأول أظهر، وهو المحكي عن ابن عباس، والسُّدِّي. واختاره ابن جرير. ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تأكيد وتحريض على مواظبة التقوى في كل حال. ثم أعلمهم أنه يعلم ما يتخالف في الضمائر والسرائر من الأسرار والخواطر، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ يَدَاتُ الصُّدُورِ﴾.

وقوله: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّيِمَ اللَّهِ﴾ أي: كونوا قائمين بالحق لله، لا لأجل الناس والسمعة، وكونوا ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل لا بالجور. وقد ثبت في الصحيحين، عن النعمان بن بشير أنه قال: نحلني أبي نَحْلًا، فقالت أمي عمرة بنت رواح: لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ. فجاءه ليشهده على صدقتي فقال: «أكل ولدك نحلث مثله؟» قال: لا. قال: «اتقوا الله، واعدوا لي أولادكم». وقال: «إني لا أشهد على جور». قال: فرجع أبي فرد تلك الصدقة.

وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ أي: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقاً كان أو عدواً؛ ولهذا قال: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه. ودل الفعل على المصدر الذي عاد الضمير عليه، كما في نظائره من القرآن وغيره، كما في قوله: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ

أَتَجْعَلُ فَارِجًا مَّوَدَّعًا لَكُمْ؟ [النور: ٢٨]. وقوله: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾، من باب استعمال أفعال التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْسَحِبْ الْجَنَّةَ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [٢٤] [الفرقان: ٢٤]، وكقول بعض الصحابيَّات لعمر: أنت أظف وأغلظ من رسول الله ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنذَرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: وسيجزيكم على ما علم من أفعالكم التي عملتموها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي: لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهو: الجنة التي هي من رحمته على عباده، لا ينالونها بأعمالهم، بل برحمة منه وفضل، وإن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم، وهو تعالى الذي جعلها أسباباً إلى نيل رحمته وفضله وعفوه ورضوانه، فالكل منه وله، فله الحمد والمنة.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أَزَلْنَاهُمْ أَزْلًا عَظِيمًا﴾ [١٥]، وهذا من عدله تعالى، وحكمته وحُكمه الذي لا يجوز فيه، بل هو الحكم العدل الحكيم القدير. وقوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا يَمَسَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ لَّا يَبْغُضُونَ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، ذكره عن أبي سلمة، عن جابر؛ أن النبي ﷺ نزل منزلاً، وتفرق الناس في العشاء يستظلون تحتها، وعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله ﷺ فأخذه فسله، ثم أقبل على النبي ﷺ فقال: من يمنعك مني؟ قال: «الله»! قال الأعرابي مرتين أو ثلاثاً: من يمنعك مني؟ والنبي ﷺ يقول: «الله»! قال: فقام الأعرابي السيف، فدعا النبي ﷺ أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابي، وهو جالس إلى جنبه ولم يعاقبه - قال معمر: وكان قتادة يذكر نحو هذا، وذكر أن قوماً من العرب أرادوا أن يفتكوا برسول الله ﷺ، فأرسلوا هذا الأعرابي، وتأول: ﴿أَذْكُرُوا يَمَسَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ لَّا يَبْغُضُونَ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ الآية. وقصة هذا الأعرابي - وهو غوث بن الحارث - ثابتة في الصحيح. وقال الغزفي، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا يَمَسَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ لَّا يَبْغُضُونَ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾: وذلك أن قوماً من اليهود صنعوا لرسول الله ﷺ ولأصحابه طعاماً، ليقتلوه، فأوحى الله تعالى إليه بشأنهم، فلم يأت الطعام، وأمر أصحابه فلم يأتوه. رواه ابن أبي حاتم. وقال أبو مالك: نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه، حين أرادوا أن يقدروا بمحمد ﷺ وأصحابه في دار كعب بن الأشرف. رواه ابن أبي حاتم. وذكر محمد بن إسحاق بن يسار، ومجاهد وعكرمة، وغير واحد: أنها نزلت في شأن بني النضير، حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرخى، لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين، ووكلا عمرو بن جحاش بن كعب بذلك، وأمره إن جلس النبي ﷺ تحت الجدار واجتمعوا عنده أن يلقي تلك الرخي من فوقه، فأطلع الله رسوله على ما تمالؤوا عليه، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا يَمَسَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ لَّا يَبْغُضُونَ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَنذَرُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [١٦] ثم أمر رسول الله ﷺ أن يغزو إليهم فحاصرهم، حتى أنزلهم فاجلاهم. وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: من توكل على الله كفاه الله ما أهمه، وحفظه من شر الناس وعصمه.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيًّا وَقَالَ اللَّهُ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَيْتُمُوهُمُ وَقَرِئْتُمْ أَلْفًا مِّنَ الْقُرْآنِ عَمِلْتُمْ سَيِّئَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [١٧] ﴿فَمَا تَعْلَمُهُمْ يَسْتَفْهَمُ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِمْ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَافٍ مِنْهُمْ إِلَّا يَوَلُّوا إِلَيْهِمْ قَاسِفًا وَأَسْفَحَ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُصْنِيعِينَ﴾ [١٨] ﴿وَيَرَى الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ لَنَا مَعَهُمْ أَكْثَرًا يَسْتَفْهَمُ قَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعَزَّنَا فِيهِمُ الْغَدَاةَ وَالْبَعْضَةَ إِلَى يَوْمِ الْيَقِينِ﴾ [١٩] ﴿وَسَوْفَ يُعْطِيهِمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [٢٠].

لما أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه، الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ، وأمرهم بالقيام بالحق والشهادة بالعدل، وذكرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة، فيما هداهم له من الحق والهدى، شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين: اليهود والنصارى، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعناً منه لهم، وطردهم عن بابه وجنابه، وحجاباً لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق، وهو العلم النافع والعمل الصالح، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيًّا﴾ يعني: عرفاه على قبائلهم بالمبايعة والسمع، والطاعة لله، ولرسوله ولكتابه. وقد ذكر ابن عباس ومحمد بن إسحاق وغير واحد أن هذا كان لما توجه موسى، عليه السلام،

لقتال الجبابرة، فأمر بأن يقيم النقيب، من كل سبط نقيب - قال محمد بن إسحاق: فكان من سبط روبيل: «شامون بن زكور»، ومن سبط شمعون: «شافاط بن حُزَي»، ومن سبط يهوذا: «كالب بن يوفنا»، ومن سبط أبن: «فيخايل بن يوسف»، ومن سبط يوسف، وهو سبط أفرايم: «يوشع بن نون»، ومن سبط بنيامين: «فلطمي بن رفون»، ومن سبط زبلون: «جدي بن سودي»، ومن سبط يوسف وهو منشا بن يوسف: «جدي بن سوسي»، ومن سبط دان: «حملاتيل بن جمل»، ومن سبط أسير: «ساطور بن ملكيل»، ومن سبط نفتالي: «نحي بن وفسى»، ومن سبط جاد: «جولاييل بن ميكي». وقد رأيت في السفر الرابع من التوراة تعداد النقباء على أسباط بني إسرائيل وأسماء مخالفة لما ذكره ابن إسحاق، والله أعلم، قال فيها: فعلى بني روبيل: «الصوني بن سادون»، وعلى بني شمعون: «شمواي بن صورشكي»، وعلى بني يهوذا: «يحتشون بن عمبياذاب»، وعلى بني يساخر: «شال بن صاعون»، وعلى بني زبلون: «الياب بن حالوب»، وعلى بني يوسف إفرايم: «منشا بن عمهود»، وعلى بني منشا: «حملاتيل بن يرصون»، وعلى بني بنيامين: «أبيدن بن جدعون»، وعلى بني دان: «جعيزر بن عميشدي»، وعلى بني أسير: «نحاييل بن عجران»، وعلى بني حاز: «السيف بن دعوايل»، وعلى بني نفتالي: «أجزع بن عمينان».

وهكذا لما بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة، كان فيهم اثنا عشر نقيباً، ثلاثة من الأوس وهم: أسيد بن الحَضِير، وسعد بن خَيْثَمَة، ورفاعة بن عبد المنذر - ويقال بدله: أبو الهيثم بن التيهان - رضي الله عنه، وتسعة من الخزرج، وهم: أبو أمامة أسعد بن زُرَّارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورافع بن مالك بن العَجَلان، والبراء بن مَعْرُور، وعبادة بن الصامت، وسعد بن عُبَّادة، وعبد الله بن عَمْرٍو بن حرام، والمنذر بن عَمْرٍو بن حُنَيْس، رضي الله عنهم. وقد ذكرهم كعب بن مالك في شعره، كما أورده ابن إسحاق، رحمه الله. والمقصود أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتذ عن أمر النبي ﷺ لهم بذلك، وهم الذين لوا المبايع والمعاقدة عن قومهم للنبي ﷺ على السمع والطاعة. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن زيد، عن مُجَالِد، عن الشعبي، عن مسروق قال: كنا جلوساً عند عبد الله بن مسعود وهو يقرئنا القرآن، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، هل سألتكم رسول الله ﷺ: كم يملك هذه الأمة من خليفة؟ فقال عبد الله: ما سألتني عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك، ثم قال: نعم، ولقد سألتنا رسول الله ﷺ فقال: «اثنا عشر، كعدة نقباء بني إسرائيل». هذا حديث غريب من هذا الوجه، وأصل هذا الحديث ثابت في الصحيحين من حديث جابر بن سُمْرَة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يزال أمر الناس ما مضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً». ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عَلَيَّ، فسألت أبي: ماذا قال النبي ﷺ؟ قال: «كلهم من قريش». وهذا لفظ مسلم، ومعنى هذا الحديث الإشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحاً، يقيم الحق ويعدل فيهم، ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم، بل قد وجد منهم أربعة على نَسَق، وهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، رضي الله عنهم، ومنهم عمر بن عبد العزيز بلا شك عند الأئمة، وبعض بني العباس. ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة، والظاهر أن منهم المهدي المبشر به في الأحاديث الواردة بذكره: أنه يُواطىء اسمه اسم النبي ﷺ، واسم أبيه اسم أبيه، فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت جوراً وظلماً، وليس هذا بالمنتظر الذي يتوهم الراضية وجوده ثم ظهوره من سرداب «سأمرأ». فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية، بل هو من هَوَس العقول السخيفة، وتَوَهَّم الخيالات الضعيفة، وليس المراد بهؤلاء الخلفاء الاثني عشر الأئمة الاثني عشر الذين يعتقد فيهم الاثنا عشرية من الروافض، لجهلهم وقلة عقلهم. وفي التوراة الإشارة بإسماعيل، عليه السلام، وأن الله يقيم من صُلْبِه اثني عشر عظيماً، وهم هؤلاء الخلفاء الاثنا عشر المذكورون في حديث ابن مسعود، وجابر بن سُمْرَة، وبعض الجهلة ممن أسلم من اليهود إذا اقترن بهم بعض الشيعة يوهمونهم أنهم الأئمة الاثنا عشر، فيتشيع كثير منهم جهلاً وسَفْهاً، لقلة علمهم وعلم من لقنهم ذلك بالسنن الثابتة عن النبي ﷺ.

وقوله تعالى: «وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ» أي: بحفظي وكلاءتي ونصري «لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي» أي: صدقتموهم فيما يجيئونكم به من الوحي «وَعَزَّيْتُمُوهُمْ» أي: نصرتموهم وأزرتموهم على الحق «وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا» وهو: الإنفاق في سبيله وابتغاه مرضاته «لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ» أي: ذنوبكم أمحوها وأسترها، ولا أواخذكم بها «وَلَأُعْطِيَنَّكُمُ جَنَّتِي تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» أي: أدفع عنكم المحذور، وأحصل لكم المقصود. وقوله: «فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ» أي: فمن خالف هذا الميثاق بعد عَقْدِه وتوكيده وشده، وجحدته وعامله معاملة من لم يعرفه، فقد أخطأ الطريق الحق، وعدل عن الهدى إلى الضلال.

ثم أخبر تعالى عما أحل بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ونقضهم عهده، فقال: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ ثَبَتْنَا لَهُمْ﴾ أي: فسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم لعناهم، أي: أبعدهم عن الحق وطردهم عن الهدى، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ أي: فلا يتعظون بموعظة لغفلتها وقساوتها، ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْإِيمَانِ﴾ أي: فسدت فهمهم، وساء تصرفهم في آيات الله، وتأولوا كتابه على غير ما أنزله، وحملوه على غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل، عياداً بالله من ذلك، ﴿وَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: وتركوا العمل به رغبة عنه. قال الحسن: تركوا عَزَى دينهم ووظائف الله التي لا يقبل العمل إلا بها. وقال غيره: تركوا العمل فصاروا إلى حالة رديئة، فلا قلوب سليمة، ولا فطر مستقيمة، ولا أعمال قويمة. ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَافٍ مِنْهُمْ﴾ يعني: مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك. قال مجاهد وغيره: يعني بذلك تمالؤهم على الفتك بالنبي ﷺ. ﴿فَأَعَفَّتْ عَنْهُمْ وَاتَّقُوا﴾ وهذا هو عين النصر والظفر، كما قال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه. وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق، ولعل الله أن يهديهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني به: الصفح عمن أساء إليك. وقال قتادة: هذه الآية ﴿فَأَعَفَّتْ عَنْهُمْ وَاتَّقُوا﴾: منسوخة بقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ مُنْكَرُونَ﴾ [٢٩]. وقوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَكَفْنَا فِتْنَتَهُمْ﴾ أي: ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى يتابعون المسيح ابن مريم، عليه السلام، وليسوا كذلك، أخذنا عليهم العهد والمواثيق على متابعة الرسول ومناصرتة ومؤازرتة واقفاء آثاره، والإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض، أي: ففعلوا كما فعل اليهود، خالفوا المواثيق ونقضوا العهود؛ ولهذا قال: ﴿فَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: فآلقينا بينهم العداوة والتباغض لبعضهم بعضاً، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة. وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين، يكفر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً؛ فكل فرقة تحرم الأخرى ولا تدعها تلج معيها، فالملكية تكفر اليعقوبية، وكذلك الآخرون، وكذلك النسطورية والأريوسية، كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. ثم قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُعْطِيهِمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. وهذا تهديد ووعد أكيد للنصارى على ما ارتكبوه من الكذب على الله وعلى رسوله، وما نسبوه إلى الرب ﷻ، وتعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً، من جعلهم له صاحبة وولداً، تعالى الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ كَثِيرًا قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورًا وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [١٥] يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكَ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَتَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [١٦].

يقول تعالى: مخبراً عن نفسه الكريمة: أنه قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض، عربهم وعجمهم، أميهم وكتابتهم، وأنه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل، فقال تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه، وافتروا على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيره ولا فائدة في بيانه. وقد روى الحاكم في مستدركه، من حديث الحسين بن واقد، عن يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب، قوله: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ فكان الرجم مما أخفوه. ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكَ سُبُلَ السَّلَامِ وَمَنَاجِجَ السَّقَامَةِ ﴿وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَتَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك، فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أنجب الأمور، وينفي عنهم، ويرشدهم إلى أقوم حالة.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ قَسَمَ يَمِينِي إِنَّ اللَّهَ شَهِدَ أَنِّي أَنَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ وَفِي الْأَرْضِ جِجَارًا وَمَا بَيْنَهُمَا يَتْلُو مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٧] وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَتَرَفَّعُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٨]

يقول تعالى مخبراً وحاكماً بكفر النصارى في ادعائهم في المسيح ابن مريم - وهو عبدٌ من عباد الله، وخلق من خلقه - أنه هو الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه: ﴿قُلْ قَمَن يَمْلِكُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: لو أراد ذلك، فمن ذا الذي كان يمنعه؟ أو من ذا الذي يقدر على صرفه عن ذلك؟ ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: جميع الموجودات ملكه وخلقها، وهو القادر على ما يشاء، لا يُسأل عما يفعل، لقدرته وسلطانه، وعدله وعظمته، وهذا رد على النصارى عليهم لعائن الله المتتابة إلى يوم القيامة. ثم قال تعالى راداً على اليهود والنصارى في كذبهم وافتراءهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا اللَّهَ﴾ أي: نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية، وهو يحبنا. ونقلوا عن كتابهم أن الله تعالى قال لعبده إسرائيل: «أنت ابني بكري». فحملوا هذا على غير تأويله، وحرفوه. وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم، وقالوا: هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام، كما نقل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم، يعني: ربي وربكم. ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من البنوة ما ادعوا في عيسى، عليه السلام، وإنما أرادوا بذلك معزتهم لديه وحظوتهم عنده، ولهذا قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه. قال الله تعالى: راداً عليهم: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أي: لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباؤه، فلم أعد لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافتراءكم؟. وقد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء: أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فلم يرد عليه، فلا الصوفي هذه الآية: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾. وهذا الذي قاله حسن، وله شاهد في المسند للإمام أحمد حيث قال: حدثنا ابن أبي عدي، عن حميد، عن أنس قال: مر النبي ﷺ في نفر من أصحابه، وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يُوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني ابني! وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار. قال: فَخَفَضَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فقال: «لا، والله ما يلقي حبيبه في النار». تفرد به. وقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي: لكم أسوة أمثالكم من بني آدم، وهو تعالى هو الحاكم في جميع عبادته ﴿يَعْرِفُ لِمَنِ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: هو فعال لما يريد، لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه، ﴿وَالِإِلَهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب إليه، فيحكم في عبادته بما يشاء، وهو العادل الذي لا يجور. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جببر، عن ابن عباس قال: وأتى رسول الله ﷺ نعمان بن أضاء، وبحري بن عمرو، وشاس بن عدي، فكلموه وكلمهم رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته، فقالوا: ما تخوفنا يا محمد! نحن والله أبناء الله وأحباؤه، كقول النصارى، فانزل الله فيهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا اللَّهَ﴾ إلى آخر الآية. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير. وروى أيضاً من طريق أسباط عن السدي في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا اللَّهَ﴾ أما قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا اللَّهَ﴾ فإنهم قالوا: إن الله أوحى إلى إسرائيل أن ولدك - بكرك من الولد - فيدخلهم النار، فيكونون فيها أربعين ليلة حتى تطهرهم وتاكل خطاياهم، ثم يناد مناد: أن أخرجوا كل مختون من ولد إسرائيل. فأخرجوهم، فذلك قولهم: ﴿لَنْ تَمْسَكَ السُّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [آل عمران: ٢٤].

﴿يَتَأَهَّلُ الْكَتَّابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى قَرَرٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

يقول تعالى مخاطباً أهل الكتاب من اليهود والنصارى: إنه قد أرسل إليهم رسوله محمداً خاتم النبيين، الذي لا نبي بعده ولا رسول، بل هو المعقب لجميعهم؛ ولهذا قال: ﴿عَلَى قَرَرٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم. وقد اختلفوا في مقدار هذه الفترة، كم هي؟ فقال أبو عثمان النهدي وقتادة - في رواية عنه -: كانت ستمائة سنة. ورواه البخاري عن سلمان الفارسي. وعن قتادة: خمسمائة وستون سنة. وقال مفرغ، عن بعض أصحابه: خمسمائة وأربعون سنة. وقال الضحاك: أربعمائة وبضع وثلاثون سنة. وذكر ابن عساكر في ترجمة عيسى، عليه السلام، عن الشعبي أنه قال: ومن رفع المسيح إلى هجرة النبي ﷺ تسعمائة وثلاث وثلاثون سنة. والمشهور هو الأول، وهو أنه ستمائة سنة. ومنهم من يقول: ستمائة وعشرون سنة. ولا منافاة بينهما، فإن القائل الأول أراد ستمائة سنة شمسية، والآخر أراد قمرية، وبين كل مائة سنة شمسية وبين القمرية نحو من ثلاث سنين؛ ولهذا قال تعالى في قصة أصحاب الكهف: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥] أي: قمرية، لتكميل الثلاثمائة الشمسية التي كانت معلومة لأهل الكتاب. وكانت الفترة بين عيسى ابن مريم، آخر أنبياء بني إسرائيل، وبين

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام، فيما ذكر به قومه نعم الله عليهم وآلاءه لديهم، في جمعه لهم خير الدنيا والآخرة لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوُّوا أَدْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ ۖ أَي: كلما هلك نبي قام فيكم نبي، من لدن أبيكم إبراهيم وإلى ما بعده. وكذلك كانوا، لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله ويحذرون نعمته، حتى ختموا بعيسى، عليه السلام، ثم أوحى الله تعالى إلى خاتم الرسل والأنبياء على الإطلاق محمد بن عبد الله، المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم، عليه السلام، وهو أشرف من كل من تقدمه منهم ﷺ. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ مَلَكًا﴾: قال عبد الرزاق، عن الثوري، عن منصور، عن الحكم أو غيره، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ مَلَكًا﴾ قال: الخادم والمرأة البيت. وروى الحاكم في مستدركه، من حديث الثوري أيضاً، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: المرأة والخادم ﴿وَأَنْتُمْ كَأَمَلِ الْعَالَمِينَ﴾ قال: الذين هم بين ظهرانيهم يومئذ، ثم قال

الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وقال ميمون بن مهران، عن ابن عباس قال: كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار، سمي ملكاً. وقال ابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أنبأنا أبو هانيء، أنه سمع أبا عبد الرحمن الحُبلي يقول: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص، وسأله رجل فقال: السنا من فقراء المهاجرين؟ فقال عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. فقال: إن لي خادماً. قال: فأنت من الملوك. وقال الحسن البصري: هل الملك إلا مركب وخادم ودار؟ رواه ابن جرير. ثم روى عن منصور والحكم، ومجاهد، وسفيان الثوري نحوه من هذا. وحكاه ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران. وقال ابن شاذب: كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له منزل وخادم، واستؤذن عليه، فهو ملك. وقال قتادة: كانوا أول من ملك الخدم. وقال السدي في قوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مَلُوكًا﴾ قال: يملك الرجل منكم نفسه وأهله وماله. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن ابن لهيعة، عن ذراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ قال: «كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة، كُتِبَ ملكاً». وهذا حديث غريب من هذا الوجه. وقال ابن جرير: حدثنا الزبير بن بكار، حدثنا أبو ضمرة أنس بن عياض، قال: سمعت زيد بن أسلم يقول: ﴿وَجَعَلَكُمْ مَلُوكًا﴾ فلا أعلم إلا أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له بيت وخادم فهو ملك». وهذا مرسل غريب. وقال مالك: بيت وخادم وزوجة. وقد ورد في الحديث: «من أصبح منكم مغافى في جسده، أمناً في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها».

وقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مَا تَمْ يُؤْتِي آتَاكُمْ﴾ يعني عالمي زمانكم، فكانهم كانوا أشرف الناس في زمانهم، من اليونان والقيط وسائر أصناف بني آدم، كما قال: ﴿لَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْغَنِيِّ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٧٦]، وقال تعالى إخباراً عن موسى لما قالوا: ﴿اجْعَلْ لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، لأن هؤلاء متبرِّون بما هم فيه وَيُطِيعُوا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾ قَالَ أَفَبِعَدْوٍ أُولَٰئِكَ أَتُوعَدُونَ ﴿٢٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَنِ اتَّبَعَ ﴿٢٨﴾ [الأنعام: ٢٦-٢٨]، والأعراف: ١٣٨ - ١٤٠. والمقصود: أنهم كانوا أفضل أهل زمانهم، وإلا فهذه الأمة أشرف منهم، وأفضل عند الله، وأكمل شريعة، وأقوم منهاجاً، وأكرم نبياً، وأعظم ملكاً، وأغزر أرزاقاً، وأكثر أموالاً وأولاداً، وأوسع مملكة، وأدوم عزاً، قال الله ﷻ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّنُكَلِّمَهُمْ بِهِمْ هَذِهِ آيَاتُ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقد ذكرنا الأحاديث المتواترة في فضل هذه الأمة وشرفها وكرمها، عند الله، عند قوله ﷻ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ من سورة آل عمران. وروى ابن جرير عن ابن عباس، وأبي مالك وسعيد بن جبيرة أنهم قالوا في قوله: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مَا تَمْ يُؤْتِي آتَاكُمْ﴾ يعني: أمة محمد ﷺ، وكانهم أرادوا أن هذا الخطاب في قوله: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مَا تَمْ يُؤْتِي آتَاكُمْ﴾ مع هذه الأمة. والجمهور على أنه خطاب من موسى لقومه، وهو محمول على عالمي زمانهم كما قدمنا. وقيل: المراد: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مَا تَمْ يُؤْتِي آتَاكُمْ﴾ يعني بذلك: ما كان تعالى نزله عليهم من المن والسلوى، وتظللهم من الغمام وغير ذلك، مما كان تعالى يخصهم به من خوارق العادات، فالله أعلم.

ثم قال تعالى مخبراً عن تحريض، موسى، عليه السلام، لبني إسرائيل على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس، الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب، لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف، عليه السلام، ثم لم يزلوا بها حتى خرجوا مع موسى عليه السلام فوجدوا فيها قوماً من العمالة الجبارين، قد استحوذوا عليها وتملكوها، فأمرهم رسول الله موسى، عليه السلام، بالدخول إليها، وبقتال أعدائهم، وبشهرهم بالنصرة والظفر عليهم، فَنَكَلُوا وَعَصَوْا وخالفوا أمره، فعمقوا بالذهاب في التيه والتمادي في سيرهم حائرين، لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلى مقصد، مدة أربعين سنة، عقوبة لهم على تفریطهم في أمر الله تعالى، فقال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال: ﴿يَقُولُوا أَذْهَبْنَا إِلَى الْأَرْضِ الْمَقْدَسَةِ﴾ أي: المطهرة. قال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَذْهَبْنَا إِلَى الْأَرْضِ الْمَقْدَسَةِ﴾ قال: هي الطور وما حوله. وكذا قال مجاهد وغير واحد. وقال سفيان الثوري، عن أبي سعيد البقال، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: هي أريحا. وكذا ذكر غير واحد من المفسرين. وفي هذا نظر؛ لأن أريحا ليست هي المقصود بالفتح، ولا كانت في طريقهم إلى بيت المقدس، وقد قدموا من بلاد مصر، حين أهلك الله عدوهم فرعون، اللهم إلا أن يكون المراد بأريحا أرض بيت المقدس، كما قاله السدي - فيما رواه ابن جرير عنه - لا أن المراد بها هذه البلدة المعروفة في طرف النور شرقي بيت المقدس. وقوله تعالى: ﴿إِنِّي كَتَبْتُ لَكُمْ﴾ أي: التي وعدكموها الله

على لسان أبيكم إسرائيل: أنه وراثته من آمن منكم. ﴿وَلَا تَرُدُّوا عَلَىٰ آذَانِكُمْ﴾ أي: ولا تنكسوا عن الجهاد ﴿فَتَنقَلِبُوا خِسِيرِينَ﴾ قالوا يكسبون لأن فيها قوماً جبارين وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ﴿٢٠﴾ أي: اعتذروا بأن في هذه البلدة - التي أمرتنا بدخولها وقتل أهلها - قوماً جبارين، أي: ذوي خلقٍ هائلة، وقوى شديدة، وإننا لا نقدر على مقاومتهم ولا مضاولتهم، ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها دخلناها، وإلا فلا طاقة لنا بهم. وقد قال ابن جرير: حدثني عبد الكريم بن الهميثم، حدثنا إبراهيم بن بشار، حدثنا سفيان قال: قال أبو سعيد، قال عكرمة، عن ابن عباس قال: أمر موسى أن يدخل مدينة الجبارين. قال: فسار موسى بمن معه حتى نزل قريباً من المدينة - وهي أريحا - فبعث إليهم اثني عشر عيناً، من كل سبط منهم عين، ليأتوه بخبر القوم. قال: فدخلوا المدينة فرأوا أمراً عظيماً من هيئتهم وجثثهم وعظيهم، فدخلوا حائطاً لبعضهم، فجاء صاحب الحائط ليجتني الثمار من حائطه، فجعل يجتني الثمار. وينظر إلى آثارهم، فيتبعهم، فكلما أصاب واحداً منهم أخذه فجعله في كفه مع الفاكهة، حتى التقت الاثني عشر كلهم، فجعلهم في كفه مع الفاكهة، وذهب إلى ملكهم فشرهم بين يديه. فقال لهم الملك: قد رأيتم شأننا وأمرنا، فاذهبوا فأخبروا صاحبكم. قال: فرجعوا إلى موسى، فأخبروه بما عاينوا من أمرهم. وفي هذا الإسناد نظر.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: لما نزل موسى وقومه، بعث منهم اثني عشر رجلاً - وهم النقباء الذين ذكر الله، فيبعثهم ليأتوه بخبرهم، فساروا، فلقيهم رجل من الجبارين، فجعلهم في كسائه، فجعلهم حتى أتى بهم المدينة، ونادى في قومه فاجتمعوا إليه، فقالوا: من أنتم؟ قالوا: نحن قوم موسى، بعثنا تأتيه بخبركم. فأعطوهم حبة من عنب تكفي الرجل، فقالوا لهم: اذهبوا إلى موسى وقومه فقولوا لهم: اقدروا قدر فاكهتهم. فلما أتوهم قالوا: يا موسى، ﴿فَأَذْهَبَ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَتِيلُونَ﴾. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا يحيى بن أيوب، عن يزيد بن الهاد، حدثني يحيى بن عبد الرحمن قال: رأيت أنس بن مالك أخذ عصا، فذرع فيها بشيء، لا أدري كم ذرع، ثم قاس بها في الأرض خمسين أو خمسا وخمسين، ثم قال: هكذا طول العماليق. وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا أخباراً من وضع بني إسرائيل، في عظمة خلق هؤلاء الجبارين، وأنه كان فيهم عوج بن عتق، بنت آدم، عليه السلام، وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً وثلاث ذراع، تحرير الحساب! وهذا شيء يستحى من ذكره. ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ وَطَوْلُهُ سِتُونَ ذِرَاعاً، ثُمَّ لَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ﴾. ثم قد ذكروا أن هذا الرجل كان كافراً، وأنه كان ولد زنية، وأنه امتنع من ركوب السفينة، وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته. وهذا كذب وافتراء، فإن الله ذكر أن نوحاً دعا على أهل الأرض من الكافرين، فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيئاً﴾ [نوح: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّكَ الْأَشْوَخِ﴾ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَفْرَقْنَا بَعْدَ الْآيَاتِ ﴿٢٢﴾ [الشعراء: ١١٩، ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعَ﴾ [مرد: ٤٣]، وإذا كان ابن نوح الكافر غرق، فكيف يبقى عوج بن عتق، وهو كافر وولد زنية؟! هذا لا يسوغ في عقل ولا شرع. ثم في وجود رجل يقال له: «عوج بن عتق» نظر، والله أعلم.

وقوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أي: فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ومتابعة رسول الله موسى، عليه السلام، خرضهم رجلان لله عليهما نعمة عظيمة، وهما ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه. وقرأ بعضهم: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي: ممن لهم مهابة وموضع من الناس. ويقال: إنهما «يوشع بن نون» و «كالب بن يوفنا»، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطية، والسدي، والربيع بن أنس، وغير واحد من السلف، والخلف، رحمهم الله، فقالوا: ﴿أَدْخَلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَلَّ اللَّهُ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: متى توكلتم على الله واتبعتم أمره، ووافقتم رسوله، نصركم الله على أعدائكم وأيدكم وظفركم بهم، ودخلتم البلدة التي كتبها الله لكم. فلم ينفع ذاك منهم شيئاً. ﴿قَالُوا يَكُونُ مِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَتِيلُونَ﴾ ﴿٢٤﴾. وهذا نكول منهم عن الجهاد، ومخالفة لرسولهم، وتخلف عن مقاتلة الأعداء. ويقال: إنهم لما نكلوا على الجهاد وعزموا على الانصراف والرجوع إلى بلادهم، سجد موسى وهارون، عليهما السلام، قدام ملا من بني إسرائيل، إعظماً لما هموا به، وشق «يوشع بن نون» و «كالب بن يوفنا» ثيابهما ولأما قومهما على ذلك، فيقال: إنهم رجموهما. وجرى أمر عظيم وخطر جليل. وما أحسن ما أجاب به الصحابة، رضي الله عنهم، يوم بدر رسول الله ﷺ، حين استشارهم في قتال النفير، الذين جاؤوا لمنع العير الذي كان مع أبي سفيان، فلما فات اقتناص العير، واقترب منهم النفير، وهم في جمع ما بين التسعمائة إلى الألف، في الغدة والبيض

وَالْيَلْب، فتكلم أبو بكر، رضي الله عنه، فأحسن، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين، ورسول الله ﷺ يقول: «أشيروا علي أيها المسلمون». وما يقول ذلك إلا ليستعلم ما عند الأنصار؛ لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ. فقال سعد بن معاذ رضي الله عنه: كأنك تعرض بنا يا رسول الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، وما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك. وقال أبو بكر بن مَرْذُويه: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو حاتم الرازي، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثنا حميد عن أنس، أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين، فأشار إليه عمر، ثم استشارهم فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار إياكم يريد رسول الله ﷺ. قالوا: إذا لا نقول له كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ والذي بعثك بالحق لو صرّبت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك. ورواه الإمام أحمد، عن عبيدة بن حميد، عن حميد الطويل، عن أنس، به. ورواه النسائي، عن محمد بن المثنى، عن خالد بن الحارث، عن حميد به، ورواه ابن حبان عن أبي يعلى، عن عبد الأعلى بن حماد، عن معتمر بن سليمان، عن حميد، به.

وقال ابن مَرْذُويه: أخبرنا عبد الله بن جعفر، أخبرنا إسماعيل بن عبد الله، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، حدثنا محمد بن شعيب، عن الحسن بن أيوب، عن عبد الله بن ناسح، عن عتبة بن عبد السلمي قال: قال النبي ﷺ لأصحابه: «ألا تقاتلون؟» قالوا: نعم، ولا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. وكان ممن أجاب يومئذ المقداد بن عمرو الكندي، رضي الله عنه، كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن مخارق بن عبد الله الأحمسي، عن طارق - هو ابن شهاب - أن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر: يا رسول الله، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. هكذا رواه أحمد من هذا الوجه، وقد رواه من طريق أخرى فقال: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا إسرائيل، عن مخارق، عن طارق بن شهاب قال: قال عبد الله - هو ابن مسعود - رضي الله عنه: لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي مما عدل به: أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك، ومن بين يديك ومن خلفك. فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك، وسره بذلك. وهكذا رواه البخاري «في المغازي» وفي «التفسير» من طرق عن مخارق، به. ولفظه في «كتاب التفسير»: عن عبد الله قال: قال المقداد يوم بدر: يا رسول الله، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكن نقول: امض ونحن معك فكأنه سري عن رسول الله ﷺ. ثم قال البخاري: ورواه وكيع، عن سفيان، عن مخارق، عن طارق؛ أن المقداد قال للنبي ﷺ. وقال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم الحديبية، حين صدّ المشركون الهذلي وجيل بينهم وبين مناسكهم: «إني ذاهب بالهذلي فناجرة عند البيت». فقال له المقداد بن الأسود: أما والله لا نكون كالملأ من بني إسرائيل إذ قالوا لنبيهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون. فلما سمعها أصحاب رسول الله ﷺ تابعوا على ذلك. وهذا؛ إن كان محفوظاً يوم الحديبية، فيحتمل أنه كرر هذه المقالة يومئذ كما قاله يوم بدر.

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَتْلُكَ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْرِ الْفَاسِقِينَ﴾ ٢٥ يعني: لما نكل بنو إسرائيل عن القتال غضب عليهم موسى عليه السلام، وقال داعياً عليهم: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَتْلُكَ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ أي: ليس أحد يطيعني منهم فيمثل أمر الله، ويجيب إلى ما دعوت إليه إلا أنا وأخي هارون، ﴿فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْرِ الْفَاسِقِينَ﴾ قال العوفي، عن ابن عباس: يعني اقض بيني وبينهم. وكذا قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وكذا قال الضحاك: اقض بيننا وبينهم، وافتح بيننا وبينهم، وقال غيره: افرق: افصل بيننا وبينهم، كما قال الشاعر:

يَا رَبِّ فَافْرِقْ بَيْنَهُ وَبَيْنِي
أَشَدَّ مَا فَرَّقْتَ بَيْنَ اثْنَيْنِ
وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا هَاهُنَا مُعَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْرِ الْفَاسِقِينَ﴾ ٢٦، لما دعا عليهم موسى، عليه السلام، حين نكلوا عن الجهاد حكم الله عليهم بتحريم دخولها قدراً مدة أربعين سنة، فوقعوا في التيه يسرون

دائماً لا يهتدون للخروج منه، وفيه كانت أمور عجيبة، وخوارق كثيرة، من تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم، ومن إخراج الماء الجاري من صخرة صماء تحمل معهم على دابة، فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عينا تجري لكل شعب عين، وغير ذلك من المعجزات التي أيد الله بها موسى بن عمران. وهناك أنزلت التوراة، وشرعت لهم الأحكام، وعملت قبة العهد، ويقال لها: قبة الزمان. قال يزيد بن هارون، عن أصبغ بن زيد، عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبير: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿فَإِنَّهَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَنْهَوُكُمُ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية. قال: فتأهوا في الأرض أربعين سنة، يصبحون كل يوم يسيرون ليس لهم قرار، ثم ظلل عليهم الغمام في التيه، وأنزل عليهم المن والسلوى وهذا قطعة من حديث «الفتون»، ثم كانت وفاة هارون، عليه السلام، ثم بعده بمدة ثلاث سنين مات موسى الكليم، عليه السلام، وأقام الله فيهم «يوشع بن نون» عليه السلام، نبياً خليفة عن موسى بن عمران، ومات أكثر بني إسرائيل هناك في تلك المدة، ويقال: إنه لم يبق منهم أحد سوى «يوشع» و «كالب»، ومن ههنا قال بعض المفسرين في قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾: هذا وقف تام، وقوله: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ منصوب بقوله: ﴿يَنْهَوُكُمُ فِي الْأَرْضِ﴾. فلما انقضت المدة خرج بهم «يوشع بن نون» عليه السلام، أو بمن بقي منهم ويسائر بني إسرائيل من الجيل الثاني، فقصدهم بيت المقدس فحاصرها، فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر، فلما تَصَيَّفَتِ الشمس للغروب، وخشي دخول السبت عليهم قال: «إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علي»، فحبسها الله تعالى حتى فتحها، وأمر الله «يوشع بن نون» أن يأمر بني إسرائيل، حين يدخلون بيت المقدس، أن يدخلوا بابها سُجَّداً، وهم يقولون: حطّة، أي: حط عنا ذنوبنا، فبدلوا ما أمروا به، فدخلوا يزحفون على استأصمهم، وهم يقولون: حَبّة في شجرة، وقد تقدم هذا كله في سورة البقرة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن أبي عمر العدني، حدثنا سفيان، عن أبي سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس قوله: ﴿فَإِنَّهَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَنْهَوُكُمُ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: فتأهوا أربعين سنة، فهلك موسى وهارون في التيه وكل من جاوز الأربعين سنة، فلما مضت الأربعون سنة ناهضهم «يوشع بن نون»، وهو الذي قام بالأمر بعد موسى، وهو الذي افتتحها، وهو الذي قيل له: «اليوم يوم الجمعة» فَهَمُّوا بِافْتِتَاحِهَا، ودنت الشمس للغروب، فخشي إن دخلت ليلة السبت أن يسبوا، فنادى الشمس: «إني مأمور وإنك مأمورة» فوقفت حتى افتتحها، فوجد فيها من الأموال ما لم ير مثله قط، فقبضه إلى النار فلم تأت فقال: فيكم الغلول، فدعا رؤوس الأسباط، وهم اثنا عشر رجلاً فبايعهم، والتصقت يد رجل منهم بيده، فقال: الغلول عندك، فأخرجه، فأخرج رأس بقرة من ذهب، لها عينان من ياقوت، وأسنان من لؤلؤ، فوضعه مع القربان، فأنت النار فأكلتها.

وهذا السياق له شاهد في الصحيح. وقد اختار ابن جرير أن قوله: ﴿فَإِنَّهَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ هو العامل في «أربعين سنة»، وأنهم مكثوا لا يدخلونها أربعين سنة، وهم تائهون في البرية لا يهتدون لمقصد. قال: ثم خرجوا مع موسى، عليه السلام، ففتح بهم بيت المقدس. ثم احتج على ذلك قال: بإجماع علماء أخبار الأولين أن «عوج بن عنق» قتل موسى، عليه السلام، قال: فلو كان قتله إياه قبل التيه لما رهب بنو إسرائيل من العماليق، فدل على أنه كان بعد التيه. قال: وأجمعوا على أن «بلعام بن باعورا» أعان الجبارين بالدعاء على موسى، قال: وما ذاك إلا بعد التيه؛ لأنهم كانوا قبل التيه لا يخافون من موسى وقومه. هذا استدلاله، ثم قال: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا ابن عطية، حدثنا قيس، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانت عصا موسى عشرة أذرع، ووثبته عشرة أذرع، وطوله عشرة أذرع، فوثب فأصاب كعب «عوج» فقتله، فكان جسراً لأهل النيل سنة. وروى أيضاً عن محمد بن بشار، حدثنا مؤمل، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن ثوف البكالي قال: كان سرير «عوج» ثمانمائة ذراع، وكان طول موسى عشرة أذرع، وعصاه عشرة أذرع، ووثب في السماء عشرة أذرع، فضرب «عوجاً» فأصاب كعبه، فسقط ميتاً، وكان جسراً للناس يمرون عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْفَوَرِ الْتَوَقُّوتِ﴾ تسلية لموسى، عليه السلام، عنهم، أي: لا تتأسف ولا تحزن عليهم فمهما حكمت عليهم به فإنهم يستحقون ذلك. وهذه القصة تضمنت تربع اليهود وبيان فضائحتهم، ومخالفتهم لله ولرسوله وتكولهم عن طاعتهم، فيما أمرهم به من الجهاد، فضعت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم، ومقاتلتهم، مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ وكليمه وصفيه من خلقه في ذلك الزمان، وهو يعدمهم بالنصر والظفر بأعدائهم، هذا وقد شاهدوا ما أحل الله بعبودهم فرعون من العذاب والتكال والغرق له ولجنوده في اليم، وهم ينظرون لثَقَرٍ به أعينهم وما بالعهد من قدم، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلدي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشر المعشار في عدة أهلها وعُددهم، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام، وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل، ولا يسترها الذيل، هذا وهم في جهلهم يعمهون، وفي غيهم يترددون، وهم

البَغْضَاءُ إِلَى اللَّهِ وَأَعْدَاؤِهِ، ويقولون مع ذلك: ﴿عَنْ أَبْنَاءِ اللَّهِ وَأَحِبِّئَهُمْ﴾ [المائدة: ١٨]، فقيح الله وجوهم التي مسخ منها الخزائير والقروء، والزهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود، ويقضي لهم فيها بتأييد الخلود، وقد فعل وله الحمد من جميع الوجود.

﴿وَأَتَىٰ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ آتٍ ۖ يَدْعُوهم إِلَىٰ مَقْعَدِ اللَّهِ بِالنَّارِ ۖ فَذُكِّرُوا كَثِيرًا مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، ﴿وَلَمْ يَنْفَعِلْ مِنْ آلِهِمْ ۖ وَلَمْ يَنْفَعِلْ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [المائدة: ٢٨]، ﴿إِنَّمَا يَنْتَقِلُ اللَّهُ مِنْ الثَّمِينِ إِلَىٰ مَا يَشَاءُ ۖ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ ذَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٢٩]، ﴿فَلَمَّا قُضِيَ الْقَوْلُ لَمْ تَقْلَقْهُمْ لُبًّا أَوْ بَاطِلًا ۖ فَنَادَىٰ ذُو الْقُرْآنِ إِلَىٰ هَؤُلَاءِ ۖ فَذُكِّرُوا كَثِيرًا مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠]، ﴿فَلَمَّا قُضِيَ الْقَوْلُ لَمْ تَقْلَقْهُمْ لُبًّا أَوْ بَاطِلًا ۖ فَنَادَىٰ ذُو الْقُرْآنِ إِلَىٰ هَؤُلَاءِ ۖ فَذُكِّرُوا كَثِيرًا مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

يقول تعالى مبينا وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه - في قول الجمهور - وهما هابيل وقابيل كيف عدا أحدهما على الآخر، فقتله بغياً عليه وحسداً له، فيما وهبه الله من النعمة وتقبل القربان الذي أخلص فيه الله ﷻ، فجاز المقبول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿وَأَتَىٰ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ آتٍ ۖ يَدْعُوهم إِلَىٰ مَقْعَدِ اللَّهِ بِالنَّارِ ۖ فَذُكِّرُوا كَثِيرًا مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، ﴿وَلَمْ يَنْفَعِلْ مِنْ آلِهِمْ ۖ وَلَمْ يَنْفَعِلْ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [المائدة: ٢٨]، ﴿إِنَّمَا يَنْتَقِلُ اللَّهُ مِنْ الثَّمِينِ إِلَىٰ مَا يَشَاءُ ۖ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ ذَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٢٩]، ﴿فَلَمَّا قُضِيَ الْقَوْلُ لَمْ تَقْلَقْهُمْ لُبًّا أَوْ بَاطِلًا ۖ فَنَادَىٰ ذُو الْقُرْآنِ إِلَىٰ هَؤُلَاءِ ۖ فَذُكِّرُوا كَثِيرًا مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠]، ﴿فَلَمَّا قُضِيَ الْقَوْلُ لَمْ تَقْلَقْهُمْ لُبًّا أَوْ بَاطِلًا ۖ فَنَادَىٰ ذُو الْقُرْآنِ إِلَىٰ هَؤُلَاءِ ۖ فَذُكِّرُوا كَثِيرًا مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

ذكر أقوال المفسرين ههنا:

قال السُّدِّي - فيما ذكر - عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مُرَّة، عن ابن مسعود - وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ، أنه كان لا يولد لآدم مولود إلا ولد معه جارية، فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر، حتى ولد له ابنان يقال لهما: قابيل وهابيل، وكان قابيل صاحب زرع، وكان هابيل صاحب ضرع، وكان قابيل أكبرهما، وكان له أخت أحسن من أخت هابيل، وأن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل، فأبى عليه وقال: هي أختي، ولدت معي، وهي أحسن من أختك، وأنا أحق أن أتزوج بها. فأمره أبوه أن يزوجه هابيل، فأبى، وأنهما قربا قربانا إلى الله ﷻ أيهما أحق بالجارية، وكان آدم، عليه السلام، قد غاب عنهما، أتى مكة ينظر إليها، قال الله ﷻ: هل تعلم أن لي بيتاً في الأرض؟ قال: اللهم لا، قال: إن لي بيتاً في مكة فاتته. فقال آدم للسماة: احفظي ولدي بالأمانة، فأبى. وقال للأرض: فأبى. وقال للجبال: فأبى. فقال لقابيل، فقال: نعم، تذهب وترجع وتجد أهلك كما يسرك. فلما انطلق آدم قربا قربانا، وكان قابيل يفخر عليه، فقال: أنا أحق بها منك، هي أختي، وأنا أكبر منك، وأنا وصي والدي. فلما قربا، قرب هابيل جذعة سمنة، وقرب قابيل خزمة سنبل، فوجد فيها سنبله عظيمة، ففركها فأكلها. فنزلت النار فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قابيل، فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي. فقال هابيل: إنما يتقبل الله من المتقين. رواه ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، أخبرني ابن خُثَيْم قال: أقبلت مع سعيد بن جبيرة فحدثني عن ابن عباس قال: نهى أن تنكح المرأة أخاها تزأماً، وأمر أن ينكحها غيره من إخوتها، وكان يولد له في كل بطن رجل وامرأة، فبينما هم كذلك ولد له امرأة وضيفة، وولد له أخرى قبيحة دميمة، فقال أخو الدميمة: أنكحني أختك وأنكحك أختي. قال: لا، أنا أحق بأختي قربا قربانا، فتقبل من صاحب الكيش، ولم يتقبل من صاحب الزرع، فقتله. إسناده جيد. وحدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قوله: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ [المائدة: ٢٧]، ففجاء صاحب الغنم بكيش أعين أقرن أبيض، وصاحب الحرث بضيرة من طعام، فقبل الله الكيش فخره في الجنة أربعين خريفاً، وهو الكيش الذي ذبحه إبراهيم ﷺ. إسناده جيد. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن أبي المغيرة، عن عبد الله بن عمرو قال: إن ابني آدم اللذين قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، كان أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم، وإنهما أمرا أن يقربا قربانا، وإن صاحب الغنم قرب أكرم غنمه

وأسمئها وأحسنها، طيبة بها نفسه، وإن صاحب الحرث قرب أشدَّ حرثه الكودن والزَّوان غير طيبة بها نفسه، وإن الله، ﷻ، تقبل قربان صاحب الغنم، ولم يتقبل قربان صاحب الحرث، وكان من قصتهما ما قص الله في كتابه، قال: وإيم الله، إن كان المقتول لأشدَّ الرجلين، ولكن منعه التَّحرج أن يسط يده إلى أخيه.

وقال إسماعيل بن رافع المدني القاص: بلغني أن ابني آدم لما أمرا بالقربان، كان أحدهما صاحب غنم، وكان أنتج له حَمَل في غنمه، فأحبه حتى كان يؤثره بالليل، وكان يحمله على ظهره من حبه، حتى لم يكن له مال أحب إليه منه. فلما أمر بالقربان قرب به الله، ﷻ، فقبله الله منه، فما زال يرتع في الجنة حتى قُدِّي به ابن إبراهيم، عليه السلام. رواه ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الأنصاري، حدثنا القاسم بن عبد الرحمن، حدثنا محمد بن علي بن الحسين قال: قال آدم، عليه السلام، لهابيل وقابيل: إن ربي عهد إلي أنه كائن من ذرتي من يُقربُ القربان، فقربا قربانا حتى تُقَرَّ عيني إذا تُقُبِّل قربانكما، فقربا. وكان هابيل صاحب غنم فقرب أكولة غنمه، خَيْرَ ماله، وكان قابيل صاحب زرع، فقرب مشاققة من زرع، فانطلق آدم معهما، ومعهما قربانهما، فصعدا الجبل فوضعا قربانهما، ثم جلسوا ثلاثتهم: آدم وهما، ينظران إلى القربان، فبعث الله ناراً حتى إذا كانت فوقهما دنا منها عنق، فاحتمل قربان هابيل وترك قربان قابيل، فانصرفوا. وعلم آدم أن قابيل مسخوط عليه، فقال: ويلك يا قابيل رد عليك قربانك. فقال قابيل: أحبيته فصليت على قربانه، ودعوت له، فتُقبِّل قربانه، ورد علي قرباني. وقال قابيل لهابيل: لأقتلنك فاستريح منك، دعا لك أبوك فصلى على قربانك، فتقبل منك. وكان يتواعده بالقتل، إلى أن احتسب هابيل ذات عشية في غنمه، فقال آدم: يا قابيل، أين أخوك؟ قال: قال: وتعثني له راعياً؟ لا أدري. فقال له آدم: ويلك يا قابيل. انطلق فاطلب أخاك. فقال قابيل في نفسه: الليلة أقتله. وأخذ معه حديدة فاستقبله وهو متقلب، فقال: يا هابيل، تقبل قربانك ورد علي قرباني، لأقتلنك. فقال هابيل: قربتُ أطيب مالي، وقربتُ أنت أحببت مالك، وإن الله لا يقبل إلا الطيب، إنما يتقبل الله من المتقين، فلما قالها غضب قابيل فرفع الحديدة وضربه بها، فقال: ويلك يا قابيل أين أنت من الله؟ كيف يجزيك بعملك؟ فقتله فطرحه في جُوفِ من الأرض، وحشى عليه شيئاً من التراب. وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: إن آدم أمر ابنه قين أن ينكح أخته ثؤامة هابيل، وأمر هابيل أن ينكح أخته ثؤامة قين، فسلم لذلك هابيل ورضي، وأبى ذلك قين وكره، تكربما عن أخت هابيل، ورغب بأخته عن هابيل، وقال: نحن ولادة الجنة، وهما من ولادة الأرض، وأنا أحق بأختي - ويقول بعض أهل العلم بالكتاب الأول: كانت أخت قين من أحسن الناس، فَصَنَّ بها عن أخيه وأرادها لنفسه، فإله أعلم أي ذلك كان - فقال له أبوه: يا بني، إنها لا تحل لك، فأبى قابيل أن يقبل ذلك من قول أبيه. فقال له أبوه: يا بني، قرب قربانا، ويقرب أخوك هابيل قربانا، فأيكما تُقبِّل قربانه فهو أحقُّ بها، وكان قين على بذر الأرض، وكان هابيل على رعاية الماشية، فقرب قين قمحا، وقرب هابيل أبقاراً من أبقار غنمه - وبعضهم يقول: قرب بقرة - فأرسل الله ناراً بيضاء، فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قين، وبذلك كان يُقبِّل القربان إذا قبله. رواه ابن جرير.

وقال العوفي، عن ابن عباس قال: كان من شأنهما أنه لم يكن مسكين يُتَصَدَّق عليه، وإنما كان القربان يقربه الرجل. فبينما ابنا آدم قاعدان إذ قالا: لو قربنا قربانا، وكان الرجل إذا قرب قربانا فرضيه الله، أرسل إليه ناراً فتأكله، وإن لم يكن رضي الله حَبَّت النار، فقربا قربانا، وكان أحدهما راعياً، وكان الآخر حَرَائِثاً، وإن صاحب الغنم قرب خير غنمه وأسمئها، وقرب الآخر بعض زرع، فجاءت النار فتزلت بينهما، فأكلت الشاة وتركت الزرع، وإن ابن آدم قال لأخيه: أتمشي في الناس وقد علموا أنك قَرَبْت قربانا فتُقبِّل منك وَرَدَ علي؟ فلا والله لا ينظر الناس إليك وإلني وأنت خير مني. فقال: لأقتلنك. فقال له أخوه: ما ذنبي؟ إنما يتقبل الله من المتقين. رواه ابن جرير. فهذا الأثر يقتضي أن تقرب القربان كان لا عن سبب ولا عن تداري في امرأة، كما تقدم عن جماعة من تقدم ذكرهم، وهو ظاهر القرآن: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَكَمْ يَبْغِيكَ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. فالسياق يقتضي أنه إنما غضب عليه وحسده لقبول قربانه دونه. ثم المشهور عند الجمهور أن الذي قرب الشاة هو هابيل، وأن الذي قرب الطعام هو قابيل، وأنه تُقبِّل من هابيل شاته، حتى قال ابن عباس وغيره: إنه الكبش الذي فدى به الذبيح، وهو مناسب، والله أعلم، ولم يتقبل من قابيل. كذلك نص عليه غير واحد من السلف والخلف، وهو المشهور عن مجاهد أيضاً، ولكن روى ابن جرير، عنه أنه قال: الذي قرب الزرع قابيل، وهو المتقبل منه، وهذا خلاف المشهور، ولعله لم يحفظ عنه جيداً، والله أعلم.

ومعنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: ممن اتقى الله في فعله ذلك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن العلاء بن زبريق، حدثنا إسماعيل بن عيَّاش، حدثني صفوان بن عمرو، عن تميم، يعني ابن مالك المقرئ، قال:

سمعت أبا الدرداء يقول: لأن أستيقن أن الله قد تقبل مني صلاة واحدة أحب إلي من الدنيا وما فيها، إن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. وحدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن عمران، حدثنا إسحاق بن سليمان - يعني الرازي - عن المغيرة بن مسلم، عن ميمون بن أبي حمزة قال: كنت جالساً عند أبي وائل، فدخل علينا رجل - يقال له: أبو عفيف، من أصحاب معاذ - فقال له شقيق بن سلمة: يا أبا عفيف، ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل؟ قال: بلى، سمعته يقول: يحبس الناس في بقيق واحد، فينادي مناد: أين المتقون؟ فيقومون في كنف من الرحمن، لا يحتجب الله منهم ولا يستتر. قلت: من المتقون؟ قال: قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان، وأخلصوا العبادة، فيمرون إلى الجنة.

وقوله: ﴿لَيْسَ بَطَلَ إِلَيْكَ لِقَاتِي مَا أَتَى بِأَسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٨): يقول له أخوه الرجل الصالح، الذي تقبل الله قربانه لثقواه حين تواعده أخوه بالقتل على غير ما ذنب منه إليه: ﴿لَيْسَ بَطَلَ إِلَيْكَ لِقَاتِي مَا أَتَى بِأَسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَنَّكَ﴾ أي: لا أقبلك على صنعك الفاسد بمثله، فأكون أنا وأنت سواء في الخطيئة، ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: من أن أصنع كما تريد أن تصنع، بل أصبر وأحتسب. قال عبد الله بن عمرو: وإيم الله، إن كان لأشد الرجلين ولكن منعه الترحج، يعني الورع. ولهذا ثبت في الصحيحين، عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار». قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه». وقال الإمام أحمد: حدثنا قُتَيْبَةُ بن سعيد، حدثنا لَيْثُ بن سعد، عن عُبَّاس بن عباس، عن بكير بن عبد الله، عن بُشَيْر بن سعيد؛ أن سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «إنها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي». قال: أفرأيت إن دخل علي بيتي فبسط يده إلي ليقبطني قال: «كن كابن آدم». وكذا رواه الترمذي عن قُتَيْبَةَ بن سعيد وقال: هذا حديث حسن، وفي الباب عن أبي هريرة، وخباب بن الأرت، وأبي بكر، وابن مسعود، وأبي واقد، وأبي موسى، حَرْشَةُ. ورواه بعضهم عن الليث بن سعد، وزاد في الإسناد رجلاً. قال الحافظ ابن عساكر: الرجل هو حسين الأشجعي. قلت: وقد رواه أبو داود من طريقه فقال: حدثنا يزيد بن خالد الرملي، حدثنا المفضل، عن عياش بن عباس، عن بُكَيْر بن سعيد، عن حسين بن عبد الرحمن الأشجعي؛ أنه سمع سعد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ في هذا الحديث قال: فقلت: يا رسول الله، أ رأيت إن دخل علي بيتي وبسط يده ليقبطني؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «كن كابن آدم». وتلا يزيد: ﴿لَيْسَ بَطَلَ إِلَيْكَ لِقَاتِي مَا أَتَى بِأَسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٩). قال أيوب السخيتاني: إن أول من أخذ بهذه الآية من هذه الأمة: ﴿لَيْسَ بَطَلَ إِلَيْكَ لِقَاتِي مَا أَتَى بِأَسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَنَّكَ﴾ (٣٠) لُعْثَمَان بن عفان، رضي الله عنه. رواه ابن أبي حاتم. وقال الإمام أحمد: حدثنا مَرْحُوم، حدثني أبو عمران الجوني، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر قال: ركب النبي ﷺ حماراً وأردفني خلفه، وقال: «يا أبا ذر، أ رأيت إن أصاب الناس جوعٌ شديد لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك، كيف تصنع؟». قال: قال الله ورسوله أعلم. قال: «تعفف». قال: «يا أبا ذر، أ رأيت إن أصاب الناس موت شديد، ويكون البيت فيه بالبعد، يعني القبر، كيف تصنع؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «اصبر». قال: «يا أبا ذر، أ رأيت إن قتل الناس بعضهم بعضاً، يعني حتى تفرق حجارة الزيت من الدماء، كيف تصنع؟». قال: الله ورسوله أعلم. قال: «اقعد في بيتك، وأغلق عليك بابك». قال: فإن لم أترك؟ قال: «فأت من أنت منهم، فكن فيهم». قال: فأخذ سلاحي؟ قال: «إذا تشاركهم فيما هم فيه، ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف، فأتك طرف رءائك على وجهك حتى يبوأ بإثمهم وإثمك». رواه مسلم وأهل السنن سوى النسائي، من طرق عن أبي عمران الجوني، عن عبد الله بن الصامت، به. ورواه أبو داود وابن ماجه، من طريق حماد بن زيد، عن أبي عمران، عن الْمُشَيْثُ بن طريف، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر، بنحوه. قال أبو داود: ولم يذكر المشعث في هذا الحديث غير حماد بن زيد. وقال ابن مَرْذُوقٍ: حدثنا محمد بن علي بن دُحَيْم، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا قُبَيْصَةُ بن عُفَيْة، حدثنا سفيان، عن منصور، عن ربعي قال: كنا في جنازة حذيفة، فسمعت رجلاً يقول: سمعت هذا يقول في ناس: مما سمعت من رسول الله ﷺ: «لئن اقتتلتم لأنظرن إلى أقصى بيت في داري، فلألجئته، فلئن دخل علي فلان لأقولن: ها، بوء بإثمي وإثمك، فأكون كخير ابني آدم.

وقوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْفَاسِقِينَ﴾ (٣١): قال ابن عباس ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، في قوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي: بإثم قلتي وإثمك الذي عليك قبل ذلك. قال ابن جرير: وقال آخرون: يعني ذلك أنني أريد أن تبوء بخطيئتي، فتتحمل وزرها، وإثمك في قتلك إياي. وهذا قول وجده عن مجاهد، وأخشي

أن يكون غلطاً؛ لأن الصحيح من الرواية عنه خلافه، يعني: ما رواه سفيان الثوري، عن منصور، عن مجاهد: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ يَأْتِي﴾ قال: بقتلك إياي، ﴿وَأَنْتَ﴾ قال: بما كان منك قبل ذلك. وكذا روى عيسى عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، مثله. وروى شبل عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ يَأْتِي وَأَنْتَ﴾ يقول: إني أريد أن يكون عليك خطيئتي ودمي، فتبوء بهما جميعاً. قلت: وقد يتوهم كثير من الناس هذا القول، ويذكرون في ذلك حديثاً لا أصل له: ما ترك القاتل على المقتول من ذنب. وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً يشبه هذا، ولكن ليس به، فقال: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا عامر بن إبراهيم الأصبهاني، حدثنا يعقوب بن عبد الله، حدثنا عتبة بن سعيد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «قَتَلَ الصَّبْرُ لَا يَمُرُّ بِذَنْبٍ إِلَّا مَحَاهُ». وهذا بهذا لا يصح، ولو صح فمعناه أن الله يكفر عن المقتول بألم القتل ذنوبه، فأما أن تحمل على القاتل فلا. ولكن قد يتفق هذا في بعض الأشخاص، وهو الغالب، فإن المقتول يطالب القاتل في العَرَصات فيؤخذ له من حسناته بقدر مظلمته، فإن نفدت ولم يستوف حقه أخذ من سيئات المقتول فطُرِحَتْ على القاتل، فربما لا يبقى على المقتول خطيئة إلا وضعت على القاتل. وقد صح الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ في المظالم كلها، والقتل من أعظمها وأشدّها، والله أعلم. وأما ابن جرير فقال: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن تأويله: إني أريد أن تنصرف بخطيئتك في قتلك إياي - وذلك هو معنى قوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ يَأْتِي﴾ وأما معنى ﴿وَأَنْتَ﴾ فهو إثمه بغير قتله، وذلك معصيته الله ﷻ، في أعمال سواه. وإنما قلنا هو الصواب، لإجماع أهل التأويل عليه، وأن الله ﷻ، أخبرنا أن كل عامل فجزاء عمله له أو عليه، وإذا كان هذا حكمه في خلقه، فغير جائز أن تكون آثام المقتول مأخوذاً بها القاتل، وإنما يؤخذ القاتل بإثمه بالقتل المحرم وسائر آثام معاصيه التي ارتكبها بنفسه دون ما ركبته قتيله. هذا لفظه ثم أورد سؤالاً، حاصله: كيف أراد هابيل أن يكون على أخيه قابيل إثم قتله، وإثم نفسه، مع أن قتله له محرم؟ وأجاب بما حاصله أن هابيل أخبر عن نفسه بأنه لا يقاتل أخاه إن قاتله، بل يكف يده عنه، طالباً - إن وقع قتل - أن يكون من أخيه لا منه. قلت: وهذا الكلام متضمن موعظة له لو اتعظ، وزجر له لو انزجر؛ ولهذا قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ يَأْتِي وَأَنْتَ﴾ أي: تتحمل إثمي وإثمك ﴿فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْفَاسِقِينَ﴾. وقال ابن عباس: خوفه النار فلم ينته ولم ينزجر. وقوله تعالى: ﴿فَقُلُوعَتْ لَهُمْ نَفْسُهُمْ قَتَلَ أَخِيهِمْ فَقَتَلَهُمْ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: فحسنت وسوّلت له نفسه، وشجعت على قتل أخيه قتيله، أي: بعد هذه الموعظة وهذا الزجر. وقد تقدم في الرواية عن أبي جعفر الباقر، وهو محمد بن علي بن الحسين: أنه قتله بحديدة في يده. وقال السدي، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن عبد الله، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿فَقُلُوعَتْ لَهُمْ نَفْسُهُمْ قَتَلَ أَخِيهِمْ﴾ فطلبه ليقته، فراغ الغلام منه في رؤوس الجبال، فأناء يوماً من الأيام وهو يرمى غنماً له، وهو نائم فرفع صخرة، فشدخ بها رأسه فمات، فتركه بالعرّاء. رواه ابن جرير.

وعن بعض أهل الكتاب: أنه قتله خنقاً وعضاً، كما تقتل السباع، وقال ابن جرير: لما أراد أن يقتله جعل يلوي عنقه، فأخذ إبليس دابة ووضع رأسها على حجر، ثم أخذ حجراً آخر فضرب به رأسها حتى قتلها، وابن آدم ينظر، ففعل بأخيه مثل ذلك. رواه ابن أبي حاتم. وقال عبد الله بن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: أخذ برأسه ليقته، فاضطجع له، وجعل يغمز رأسه وعظامه ولا يدري كيف يقتله، فجاءه إبليس فقال: أتريد أن تقتله؟ قال: نعم. قال: فخذ هذه الصخرة فاطرحها على رأسه. قال: فأخذها، فلقاها عليه، فشدخ رأسه. ثم جاء إبليس إلى حواء مسرعاً، فقال: يا حواء، إن قابيل قتل هابيل. فقالت له: ويحك. أي شيء يكون القتل؟ قال: لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك. قالت: ذلك الموت. قال: فهو الموت. فجعلت تصيح حتى دخل عليها آدم وهي تصيح، فقال: مالك؟ فلم تكلمه، فرجع إليها مرتين، فلم تكلمه. فقال: عليك الصيحة وعلى بناتك، أنا وبنيتي منها برآء. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، وأني خسارة أعظم من هذه؟. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية ووکیع قالوا: حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْماً، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ». وقد أخرجه الجماعة سوى أبي داود من طرق، عن الأعمش، به. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني حجاج قال: قال ابن جريج: قال مجاهد: غُلِقَتْ إحدى رجلي القاتل بساقها إلى فخذها من يومئذ إلى يوم القيامة، ووجهه في الشمس حيثما دارت دار، عليه في الصيف حظيرة من نار، وعليه في الشتاء حظيرة من ثلج - قال: وقال عبد الله بن عمرو: إنا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار قسمة صحيحة العذاب، عليه شطر عذابهم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْد، حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن حكيم بن حكيم،

أنه حدث عن عبد الله بن عمرو أنه كان يقول: إن أشقى أهل النار رجلاً ابن آدم الذي قتل أخاه، ما سفك دم في الأرض منذ قتل أخاه إلى يوم القيامة، إلا لحق به منه شر، وذلك أنه أول من سنّ القتل. وقال إبراهيم النخعي: ما من مقتول يقتل ظلماً، إلا كان على ابن آدم الأول والشيطان كفّل منه. رواه ابن جرير أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَثُ سَوْءَةُ آخِيهِ قَالَ يَوْتَلِيكَ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرَثَ سَوْءَةُ آخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِيينَ﴾. قال السدي بإسناده المتقدم إلى الصحابة: لما مات الغلام تركه بالعزاء، ولا يعلم كيف يدفن، فبعث الله غرابين أخوين، فاقتلا، فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له ثم حثى عليه. فلما رآه قال: ﴿يَوْتَلِيكَ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرَثَ سَوْءَةُ آخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِيينَ﴾. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: جاء غراب إلى غراب ميت، فبحث عليه من التراب حتى واره، فقال الذي قتل أخاه: ﴿يَوْتَلِيكَ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرَثَ سَوْءَةُ آخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِيينَ﴾. وقال الضحاك. عن ابن عباس: مكث يحمل أخاه في جراب على عاتقه سنة، حتى بعث الله الغرابين، فرأهما يبحثان، فقال: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَيُدْفَنَ أَخَاهُ. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: وكان يحمله على عاتقه مائة سنة ميتاً، لا يدري ما يصنع به، يحمله، ويضعه إلى الأرض، حتى رأى الغراب يدفن الغراب، فقال: ﴿يَوْتَلِيكَ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرَثَ سَوْءَةُ آخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِيينَ﴾. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. وقال عطية العوفي: لما قتله ندم، فضمه إليه حتى أزوخ، وعكفت عليه الطيور والسباع تنتظر متى يرمي به فتأكله. رواه ابن جرير. وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: لما قتله سقط في يديه، ولم يدر كيف يواريه. وذلك أنه كان، فيما يزعمون، أول قتيل في بني آدم وأول ميت ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَثُ سَوْءَةُ آخِيهِ قَالَ يَوْتَلِيكَ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرَثَ سَوْءَةُ آخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِيينَ﴾. قال: وزعم أهل التوراة أن قينا لما قتل أخاه هابيل، قال له الله، يا قين، أين أخوك هابيل؟ قال: قال: ما أدري، ما كنت عليه رقيباً. فقال الله: إن صوت دم أخيك ليناديني من الأرض، والآن أنت ملعون من الأرض التي فتحت فاهها فبلعت دم أخيك من يدك، فإن أنت عملت في الأرض، فإنها لا تعود تعطيك حرثها حتى تكون فرعاً تائها في الأرض. وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِيينَ﴾ قال الحسن البصري: علاه الله بندامة بعد خسران. فهذه أقوال المفسرين في هذه القصة، وكلهم متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه، كما هو ظاهر القرآن، وكما نطق به الحديث في قوله: ﴿إِلا كان على ابن آدم الأول كفّل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل﴾. وهذا ظاهر جلّي، ولكن قال ابن جرير:

حدثنا ابن وكيع، حدثنا سهل بن يوسف، عن عمرو، عن الحسن - هو البصري - قال: كان الرجلان اللذان في القرآن، اللذان قال الله: ﴿وَأَتَىٰ عَلَيْهِمُ نَبَأٌ آتٍ آدَمُ بِالْحَقِّ﴾ من بني إسرائيل، ولم يكونا ابني آدم لصلبه، وإنما كانا القريان في بني إسرائيل، وكان آدم أول من مات. وهذا غريب جداً، وفي إسناده نظر. وقد قال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إن ابني آدم، عليه السلام، ضربا لهذه الأمة مثلاً، فخذوا بالخير منهما﴾. ورواه ابن المبارك عن عاصم الأحول، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إن الله ضرب لكم ابني آدم مثلاً، فخذوا من خيرهم ودعوا الشر﴾. وكذا أرسل هذا الحديث بكر بن عبد الله المزني، روى ذلك كله ابن جرير. وقال سالم بن أبي الجعد: لما قتل ابن آدم أخاه، مكث آدم مائة سنة حزينا لا يضحك، ثم أتى فقيل له: حياك الله وبياك. أي: أضحكك. رواه ابن جرير، ثم قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة، عن غياث بن إبراهيم، عن أبي إسحاق الهمداني قال: قال علي بن أبي طالب: لما قتل ابن آدم أخاه، بكاه آدم فقال:

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا قَلَوُ الْأَرْضُ مُغْتَبِرٌ قَبِيحٌ
تَغَيَّرَ كُلُّ ذِي لَوْنٍ وَطَعْمٍ وَقَلَّ بِشَاشَةِ الْوَجْهِ الْمَلِيحُ
فَأَجِيبْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

أَبَا هَابِيلَ قَدْ قُتِلَ جَمِيعاً وَصَارَ الْحَيُّ كَالْمَيِّتِ الذَّبِيحِ
وَجَاءَ بِشْرَةٌ قَدْ كَانَ مِثْلُهَا عَلَى خَوْفٍ فَجَاءَ بِهَا يَضِيحُ
والظاهر أن قابيل عُوجل بالعقوبة، كما ذكره مجاهد بن جبر أنه علقت ساقه بفخذه يوم قتله، وجعل الله وجهه إلى الشمس حيث دارت عقوبة له وتنكيلاً به. وقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من ذنب أجدر أن يُعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يُدخر لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم». وقد اجتمع في فعل قابيل هذا وهذا، فإنما الله وإننا إليه راجعون.

﴿وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَلسُّرُورُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُجَادُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَيَقْتُلُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلْفٍ أَوْ يُنْفَخُوا مِنَ الْأَرْضِ فِي ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ أَجْلِ﴾ قتل ابن آدم أخاه ظلماً وعدواناً: ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: شرعنا لهم وأعلمناهم ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي: ومن قتل نفساً بغير سبب من قصاص، أو فساد في الأرض، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية، فكأنما قتل الناس جميعاً؛ لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: حرم قتلها واعتقد ذلك، فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار؛ ولهذا قال ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾. وقال الأعمش وغيره، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: دخلت على عثمان يوم الدار فقلت: جئت لأنصرك وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين. فقال: يا أبا هريرة، أيسرك أن تقتل الناس جميعاً وإياي معهم؟ قلت: لا. قال: فإنك إن قتلت رجلاً واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً فانصرفت مأذوناً لك، مأجوراً غير مأزور. قال: فانصرفت ولم أقاتل. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو كما قال الله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾، وإحياؤها: ألا يقتل نفساً حرمها الله، فذلك الذي أحيا الناس جميعاً، يعني: أنه من حرم قتلها إلا بحق، حيي الناس منه جميعاً. وهكذا قال مجاهد: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: كف عن قتلها. وقال العوفي عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ يقول: من قتل نفساً واحدة حرمها الله، فهو مثل من قتل الناس جميعاً. وقال سعيد بن جبیر: من استحل دم مسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعاً، ومن حرم دم مسلم فكأنما حرم دماء الناس جميعاً. هذا قول، وهو الأظهر، وقال عكرمة والعوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ يقول: من قتل نبياً أو إماماً غداً، فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن شذ على غضد نبي أو إمام غداً، فكأنما أحيا الناس جميعاً. رواه ابن جرير. وقال مجاهد في رواية أخرى عنه: من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً؛ وذلك لأنه من قتل النفس فله النار، فهو كما لو قتل الناس كلهم. وقال ابن جريج، عن الأعرج، عن مجاهد في قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾: من قتل النفس المؤمنة متمعداً، جعل الله جزاء جهنم، وغضب الله عليه ولعنه، وأعد له عذاباً عظيماً، يقول: لو قتل الناس جميعاً لم يزد على مثل ذلك العذاب. قال ابن جريج: قال مجاهد: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ قال: من لم يقتل أحداً فقد حيي الناس منه. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: من قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً، يعني: فقد وجب عليه القصاص، فلا فرق بين الواحد والجماعة ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: عفا عن قاتل وليه، فكأنما أحيا الناس جميعاً. وحكى ذلك عن أبيه. رواه ابن جرير. وقال مجاهد - في رواية -: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: أنجاها من غرق أو حرق أو هلكة. وقال الحسن وقتادة في قوله: ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾: هذا تعظيم لتعاطي القتل - قال قتادة: عظم الله وزرها، وعظم الله أجرها. وقال ابن المبارك، عن سلام بن مسكين، عن سليمان بن علي الرضيعي قال: قلت للحسن: هذه الآية لنا يا أبا سعيد، كما كانت لبني إسرائيل؟ فقال: إي والذي لا إله إلا غيره، كما كانت لبني إسرائيل، وما جعل دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دماننا. وقال الحسن البصري: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ قال: وزراً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا حيي بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبلي، عن عبد الله بن عمرو قال: جاء حمزة بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، اجعلني على شيء أعيش به. فقال رسول الله ﷺ: «يا حمزة، نفس تحيها أحب إليك أم نفس تميتها؟» قال: بل نفس أحيها. قال: «عليك بنفسك».

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَلسُّرُورُونَ﴾ وهذا تقريع لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها، كما كانت بنو قريظة والتفسير وغيرهم من بني قنقاع ممن حول المدينة من اليهود، الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج إذا وقعت بينهم الحروب في الجاهلية، ثم إذا وضعت الحروب أوزارها فدوا من أسروهم، وودوا من قتلوه، وقد أنكر الله عليهم ذلك في سورة البقرة، حيث يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُغْرِبُونَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ أَقْرَضْتُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُغْرِبُونَ

يَغْفِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ [البقرة: ٨٤، ٨٥].

قبل أن يقدر عليه لم يمنعه ذلك أن يقام فيه

رسول الله ﷺ ما لقوا من بطونهم، وقد ا

فيشربوا من أبوالها وألبانها، حتى إذا رجعت إليهم ألوانهم وانخمصت بطونهم عدّوا على الراعي فقتلوه، واستاقوا الإبل، فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم، فقطع أيديهم وأرجلهم وسَمَر أعينهم، ثم ألقاهم في الرمضاء حتى ماتوا. فكان الحجاج إذا صعد المنبر يقول: إن رسول الله ﷺ قد قطع أيدي قوم وأرجلهم ثم ألقاهم في الرمضاء حتى ماتوا ليحال دُؤُوم من الإبل، وكان يحتج بهذا الحديث على الناس. وقال ابن جرير: حدثنا علي بن سهل، حدثنا الوليد - يعني ابن مسلم - حدثني سعيد، عن قتادة، عن أنس قال: كانوا أربعة نفر من عرينة، وثلاثة نفر من عُكَل، فلما أتى بهم قطع أيديهم وأرجلهم، وسَمَل أعينهم، ولم يحسمهم، وتركهم يتلقّمون الحجارة بالحرة، فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا أبو مسعود - يعني عبد الرحمن بن الحسن الزجاج - حدثنا أبو سعد - يعني البقال - عن أنس بن مالك قال: كان رهط من عُرَيْنَة أتوا رسول الله ﷺ وبهم جَهْد، مُضْفَرَة ألوانهم، عظيمة بطونهم، فأمرهم أن يلحقوا بالإبل فيشربوا من أبوالها وألبانها، ففعلوا، فصفت ألوانهم وخَمَصَت بطونهم، وسمنوا، فقتلوا الراعي واستاقوا الإبل، فبعث النبي ﷺ في طلبهم، فأتى بهم، فقتل بعضهم، وسَمَر أعين بعضهم، وقطع أيدي بعضهم وأرجلهم، ونزلت: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إلى آخر الآية. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا علي بن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس يسأله عن هذه الآية، فكتب إليه أنس يخبره أن هذه الآية نزلت في أولئك النفر العُرَيْنيين، وهم من بَجِيلَة. قال أنس: فارتدوا عن الإسلام، وقتلوا الراعي، واستاقوا الإبل، وأخافوا السبيل، وأصابوا الفرج الحرام.

وقال حدثنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن أبي الزناد، عن عبد الله بن عبيد الله، عن عبد الله بن عمر - أو: عمرو، شك يونس - عن رسول الله ﷺ بذلك - يعني بقصة العُرَيْنيين - ونزلت فيهم آية المحاربة. ورواه أبو داود النسائي من طريق أبي الزناد، وفيه: «عن ابن عمر» من غير شك. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن خَلَف، حدثنا الحسن بن حماد، عن عمرو بن هاشم، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن إبراهيم، عن جرير قال: قدم على رسول الله ﷺ قومٌ من عُرَيْنَة حُفَاة مضرورين، فأمر بهم رسول الله ﷺ، فلما صحوا واشتدوا قتلوا رَعَاءَ اللقاح، ثم خرجوا باللقاح عامدين بها إلى أرض قومهم. قال جرير: فبعثني رسول الله ﷺ في نفر من المسلمين حتى أدركناهم بعدما أشرفوا على بلاد قومهم، فقدمنا بهم على رسول الله ﷺ، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وسَمَل أعينهم، فجعلوا يقولون: الماء. ورسول الله ﷺ يقول: «النار!» حتى هلكوا. قال: وكره الله، ﷻ، سَمَل الأعين، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إلى آخر الآية. هذا حديث غريب، وفي إسناده الرُبُذَنِي وهو ضعيف، وفيه فائدة، وهو ذكر أمير هذه السرية، وهو جرير بن عبد الله البجلي. وتقدم في صحيح مسلم أن السرية كانوا عشرين فارساً من الأنصار. وأما قوله: «فكره الله سمل الأعين»، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّهُ مَنكَرٌ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّهُمْ سَمَلُوا أَعْيُنَ الرَعَاءِ، فَكَانَ مَا فَعَلَ بِهِمْ قَصَاصاً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْأَسْلَمِيِّ، عَنْ صَالِحِ مَوْلَى التَّوَامَةِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلَانِ مِنْ بَنِي قُرَازَةَ قَدْ مَاتَا هَزْلاً، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى لِقَاحِهِ، فَشَرَبُوا مِنْهَا حَتَّى صَحُوا، ثُمَّ عَمَدُوا إِلَى لِقَاحِهِ فَسَرَقُوهَا، فَطَلَبُوا، فَأَتَى بِهِمُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَرَ أَعْيُنَهُمْ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَبِهِمْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فَتَرَكَ النَّبِيُّ ﷺ سَمَرَ الْأَعْيُنِ بَعْدَ. وَرَوَى مِنْ وَجْهِ آخَرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا الحسين بن إسحاق التُّسْتَرِي، حدثنا أبو القاسم محمد بن الوليد، عن عمرو بن محمد المدني، حدثنا محمد بن طلحة، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن سلمة بن الأكوع قال: كان للنبي غلام يقال له: «يسار»، فنظر إليه يُحَسِّنُ الصَّلَاةَ فَأَعْتَقَهُ، وَبَعَثَهُ فِي لِقَاحٍ لَهُ بِالْحَزَّةِ، فَكَانَ بِهَا، قَالَ: فَأَظْهَرَ قَوْمُ الْإِسْلَامِ مِنْ عُرَيْنَة، وَجَاوَزُوا وَهُمْ مَرْضَى مَوْعُوكُونَ قَدْ عَظُمَتِ بَطُونُهُمْ، قَالَ: فَبَعَثَ بِهِمُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى «يسار» فكانوا يشربون من ألبان الإبل حتى انطوت بطونهم، ثم عدوا على «يسار» فذبحوه، وجعلوا الشوك في عينيه، ثم أطردوا الإبل، فبعث النبي ﷺ في آثارهم خيلاً من المسلمين، أميرهم كُرْزُ بْنُ جَابِرٍ الْفُهْرِي، فَلَحَقَهُمْ فَجَاءَ بِهِمْ إِلَيْهِ، فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ. غريب جداً. وقد روى قصة العُرَيْنيين من حديث جماعة من الصحابة، منهم جابر وعائشة وغير واحد. وقد اعتنى الحافظ الجليل أبو بكر بن مردويه بتطريق هذا الحديث من وجوه كثيرة جداً، فرحمه الله وأثابه. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، سمعت أبي يقول: سمعت أبا حمزة، عن عبد الكريم - وسُئِلَ عَنْ أَبْوَالِ

الإبل - فقال: حدثني سعيد بن جبير عن المحاربين فقال: كان أناس أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: نبايعك على الإسلام. فبايعوه، وهم كذبة، وليس الإسلام يريدون. ثم قالوا: إنا نجتوي المدينة. فقال النبي ﷺ: «هذه اللقاح تغدو عليكم وتروح، فاشربوا من أبوالها وألبانها». قال: فيناهم كذلك، إذ جاءهم الصريح، فصرخ إلى رسول الله ﷺ، فقال: قتلوا الراعي، واستاقوا النعم. فأمر النبي ﷺ فتودى في الناس: أن «يا خيل الله اركبي». قال: فركبوا لا ينتظر فارس فارساً، قال: وركب رسول الله ﷺ على أثرهم، فلم يزالوا يطلبونهم حتى أدخلوهم مأمنهم، فرجع صحابة رسول الله ﷺ وقد أسروا منهم، فأتوا بهم النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية. قال: فكان نفهم: أن نفوهم حتى أدخلوهم مأمنهم وأرضهم، ونفوهم من أرض المسلمين. وقتل نبي الله ﷺ منهم، وصلب، وقطع، وسَمَر الأعين. قال: فما مثل رسول الله ﷺ قبل ولا بعد. قال: ونهى عن المثلة، قال: «ولا تمثلوا بشيء» قال: وكان أنس يقول ذلك، غير أنه قال: أحرقهم بالنار بعدما قتلهم. قال: وبعضهم يقول: هم ناس من بني سليم، ومنهم من عُرينة ناس من بجيلة.

وقد اختلف الأئمة في حكم هؤلاء العُرَينين: هل هو منسوخ أو محكم؟ فقال بعضهم: هو منسوخ بهذه الآية، وزعموا أن فيها عتاباً للنبي ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، ومنهم من قال: هو منسوخ بنهي النبي ﷺ عن المثلة. وهذا القول فيه نظر، ثم صاحبه مطالب ببيان تأخر النسخ الذي ادعاه عن المنسوخ. وقال بعضهم: كان هذا قبل أن تنزل الحدود، قاله محمد بن سيرين، وفي هذا نظر، فإن قصتهم متأخرة، وفي رواية جرير بن عبد الله لقصتهم ما يدل على تأخرها، فإنه أسلم بعد نزول المائدة. ومنهم من قال: لم يسمل النبي ﷺ أعينهم، وإنما عزم على ذلك، حتى نزل القرآن فيمن حكم المحاربين. وهذا القول أيضاً فيه نظر؛ فإنه قد تقدم في الحديث المتفق عليه أنه سَمَلَ - وفي رواية: سمر - أعينهم. وقال ابن جرير: حدثنا علي بن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم قال: ذكرت الليث بن سعد ما كان من سَمَل النبي ﷺ أعينهم، وتركه حَسَمهم حتى ماتوا، قال: سمعت محمد بن عجلان يقول: أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ معاتبته في ذلك، وعلمه عقوبة مثلهم: من القتل والقطع والنفي، ولم يسمل بعدهم غيرهم. قال: وكان هذا القول ذكر لأبي عمرو - يعني الأوزاعي - فأنكر أن يكون نزلت معاتبته، وقال: بل كانت عقوبة أولئك النفر بأعيانهم، ثم نزلت هذه الآية في عقوبة غيرهم ممن حارب بعدهم، ورفع عنهم السمل.

ثم قد احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء في ذهابهم إلى أن المحاربة في الأمصار وفي السبلان على السواء لقوله: ﴿وَسَوَّيْنَا فِي الْأَرْضِ فساداً﴾. وهذا مذهب مالك، والأوزاعي، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، حتى قال مالك - في الذي يقتال الرجل فيخذه حتى يدخله بيتاً فيقتله، ويأخذ ما معه - إن هذا محاربة، ودمه إلى السلطان لا إلى ولي المقتول، ولا اعتبار بعفوه عنه في إنفاذ القتل. وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا تكون المحاربة إلا في الطرقات، فأما في الأمصار فلا؛ لأنه يلحقه الغوث إذا استغاث، بخلاف الطريق لبعده ممن يغيبه ويعينه. والله أعلم. وأما قوله: ﴿أَن يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَوْ يُقْفَرُوا﴾ الآية: قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية قال: من شهر السلاح في قبة الإسلام، وأخاف السبيل، ثم ظفر به وقدر عليه، فإمام المسلمين فيه بالخيار: إن شاء قتله، وإن شاء صلبه، وإن شاء قطع يده ورجله. وكذا قال سعيد بن المسيب، ومجاهد، وعطاء، والحسن البصري، وإبراهيم النخعي، والضحاك. وروى ذلك كله أبو جعفر بن جرير، وحكى مثله عن مالك بن أنس، رحمه الله. ومستند هذا القول أن ظاهر «أو» للتخيير، كما في نظائر ذلك من القرآن، كقوله في جزاء الصيد: ﴿فَجَزَاءُ مِّثْلَ مَا قَاتَلَ مِنَ الْأَنْفِ بِكُمْ بِهِ دَرًا عَدْلًا يَنْتَكُمُ هَذَا بَلَّغَ الْكُتُبَةِ أَوْ كَفَرْتُمْ عَنْكُمْ مَكِيدَةً أَوْ عَدَلْ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥]. وقوله في كفارة الترفة: ﴿فَن كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَأْسِهِ فَذِيئَةً مِّن صِيَامٍ أَوْ مَدَقَّةً أَوْ شُلًّا﴾ [البقرة: ١٧٩]. وكقوله في كفارة اليمين: ﴿إِن لَّمْ تَكُنْ عَشْرَةَ مَسْكِينٍ مِّنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩]. وهذه كلها على التخيير، فكذلك فلتكن هذه الآية. وقال الجمهور: هذه الآية منزلة على أحوال كما قال أبو عبد الله الشافعي رحمه الله: أنبأنا إبراهيم - هو ابن أبي يحيى - عن صالح مولى التوأمة، عن ابن عباس في قطاع الطريق: إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالا نفوا من الأرض. وقد رواه ابن أبي شبيب، عن عبد الرحيم بن سليمان، عن حجاج، عن عطية، عن ابن عباس، بنحوه. وعن أبي مجلز، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، والحسن، وقتادة، والشَّدي، وعطاء الخراساني، نحو ذلك. وهكذا قال غير واحد من السلف والأئمة. واختلفوا: هل يُصَلَّب حياً ويُترك حتى يموت بمرته من الطعام والشراب، أو يقتله برمح ونحوه، أو يقتل أولاً ثم

يصلب تنكيلاً وتشديداً لغيره من المفسدين؟ وهل يصلب ثلاثة أيام ثم ينزل، أو يترك حتى يسيل صديده؟ في ذلك كله خلاف محرر في موضعه، وبالله الثقة وعليه التكلان. ويشهد لهذا التفصيل الحديث الذي رواه ابن جرير في تفسيره - إن صح سنده - فقال: حدثنا علي بن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب؛ أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس بن مالك يسأله عن هذه الآية، فكتب إليه يخبره: أن هذه الآية نزلت في أولئك النفر العُزَيَّين - وهم من بَجيلة - قال أنس: فارتدوا عن الإسلام، وقتلوا الراعي، واستاقوا الإبل، وأخافوا السبيل، وأصابوا الفرج الحرام. قال أنس: فسأل رسول الله ﷺ جبريل، عليه السلام، عن القضاء فيمن حارب، فقال: من سرق وأخاف السبيل فاقطع يده بسرقة، ورجله بإخافته، ومن قتل فاقته، ومن قتل وأخاف السبيل واستحل الفرج الحرام، فاصلبه.

وأما قوله تعالى: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾: قال بعضهم: هو أن يطلب حتى يقدر عليه، فيقام عليه الحد أو يهرب من دار الإسلام. رواه ابن جرير عن ابن عباس، وأنس بن مالك، وسعيد بن جبيرة، والضحاك، والربيع بن أنس، والزهري، والليث بن سعد، ومالك بن أنس. وقال آخرون: هو أن ينفي من بلده إلى بلد آخر، أو يخرج السلطان أو نائبه من معاملته بالكلية، وقال الشعبي: ينفيه - كما قال ابن هبيرة - من عمله كله. وقال عطاء الخراساني: ينفي من جُند إلى جند سنين، ولا يخرج من أرض الإسلام. وكذا قال سعيد بن جبيرة، وأبو الشعثاء، والحسن، والزهري، والضحاك، ومقاتل بن حيان: إنه ينفي ولا يخرج من أرض الإسلام. وقال آخرون: المراد بالنفي ههنا السجن، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، واختار ابن جرير: أن المراد بالنفي ههنا: أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه. وقوله: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: هذا الذي ذكرته من قتلهم، ومن صلبهم، وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ونفيهم - خزي لهم بين الناس في هذه الحياة الدنيا، مع ما ادخر الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة، وهذا قد يتأيد به من ذهب إلى أن هذه الآية نزلت في المشركين، فأما أهل الإسلام فقد ثبت في الصحيح عند مسلم، عن عبادة بن الصامت قال: أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء: ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزن، ولا نقتل أولادنا ولا نغضه بعضنا بعضاً، فمن وثق منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له، ومن ستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له. وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أذنب ذنباً في الدنيا، فعوقب به، فإله أعدل من أن يثني عقوبته على عبده، ومن أذنب ذنباً في الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه، فإله أكرم من أن يعود في شيء قد عفا عنه». رواه الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: «حسن غريب». وقد سئل الحافظ الدارقطني عن هذا الحديث، فقال: روي مرفوعاً وموقوفاً، قال: ورفع صحيح. وقال ابن جرير في قوله: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ يعني: شَرٌّ وَعَارٌ وَكَأَلٌ وَذَلَّةٌ وَعَقُوبَةٌ في عاجل الدنيا قبل الآخرة، ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا - في الآخرة مع الجزء الذي جازيتهم به في الدنيا، والعقوبة التي عاقبتهم بها فيها - ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، يعني: عذاب جهنم.

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَوْا أَنَّهُمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أما على قول من قال: هي في أهل الشرك فظاهر، وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم، فإنه يسقط عنهم انتحام القتل والصلب وقطع الرجل، وهل يسقط قطع اليد أم لا؟ فيه قولان للعلماء. وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع، وعليه عمل الصحابة، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن مجاهد، عن الشعبي قال: كان حارثة بن بدر التميمي من أهل البصرة، وكان قد أفسد في الأرض وحارب، فكلّم رجلاً من قريش منهم: الحسن بن علي، وابن عباس، وعبد الله بن جعفر، فكلّموا علياً، فلم يؤمنه. فأتى سعيد بن قيس الهمداني فخلفه في داره، ثم أتى علياً فقال: يا أمير المؤمنين، أرايت من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً، فقرأ حتى بلغ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ﴾ قال: فكتب له أماناً. قال سعيد بن قيس: فإنه حارثة بن بدر. وكذا رواه ابن جرير من غير وجه، عن مجاهد، عن الشعبي، به. وزاد: فقال حارثة بن بدر:

أَلَا أَبْلَغُنَّ هَمْدَانِ إِذَا لَقِيْتَهَا عَلَى الثَّأِي لَا يَسْلَمُ عَدُو يَعِيْبُهَا
لَعَنَرُ أَيُّهَا إِنْ هَمْدَانُ تَشَقَّى الْـ إِلَهَ وَيَقْضِي بِالْكِتَابِ خَطِيْبُهَا

وروى ابن جرير من طريق سفيان الثوري، عن السدي - ومن طريق أشعث، كلاهما عن عامر الشعبي قال: جاء رجل من مراد إلى أبي موسى، وهو على الكوفة في إمارة عثمان، رضي الله عنه، بعدما صلى المكتوبة فقال: يا أبا موسى، هذا مقام العائذ

بك، أنا فلان بن فلان المرادي، وإني كنت حاربت الله ورسوله وسعيت في الأرض فساداً، وإني تبّت من قبل أن يُقدّر عليّ. فقام أبو موسى فقال: إن هذا فلان بن فلان، وإنه كان حارب الله ورسوله، وسعى في الأرض فساداً، وإنه تاب من قبل أن يُقدّر عليه، فمن لقيه فلا يعرض له إلا بخير، فإن يك صادقاً فسبيل من صدق، وإن يك كاذباً تدركه ذنوبه، فقام الرجل ما شاء الله، ثم إنه خرج فأدركه الله تعالى بذنوبه فقتله. ثم قال ابن جرير: حدثني علي، حدثنا الوليد بن مسلم قال: قال الليث، وكذلك حدثني موسى بن إسحاق المدني، وهو الأمير عندنا: أن علياً الأسدي حارب وأخاف السبيل وأصاب الدم والمال، فطلبه الأئمة والعامّة، فامتنع ولم يُقدّر عليه، حتى جاء ثائباً، وذلك أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية: ﴿قُلْ يَكَيْفَ إِذَا أَمَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْضُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِلَيْهِ اللَّهُ يَقْعُرُ الدُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ الرَّجِيمُونَ﴾ [الزمر: ٥٣]، فوقف عليه فقال: يا عبد الله، أعد قراءتها. فأعادها عليه، فغمد سيفه، ثم جاء ثائباً. حتى قدم المدينة من السحر، فاغتسل، ثم أتى مسجد رسول الله ﷺ فصلى الصبح، ثم قعد إلى أبي هريرة في غمار أصحابه، فلما أسفروا عرفه الناس، فقاموا إليه، فقال: لا سبيل لكم عليّ جئت ثائباً من قبل أن تقدروا عليّ. فقال أبو هريرة: صدق. وأخذ بيده أبو هريرة حتى أتى مروان بن الحكم - وهو أمير على المدينة، في زمن معاوية - فقال: هذا عليّ جاء ثائباً، ولا سبيل لكم عليه ولا قتل. قال: فترك من ذلك كله، قال: وخرج عليّ ثائباً مجاهداً في سبيل الله في البحر، فلقوا الروم، فقبروا سفينته إلى سفينة من سفنهم، فاقتحم على الروم في سفينتهم، فهربوا منه إلى شقها الآخر، فمالت به وبهم، فغرقوا جميعاً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَهَ الْوَسِيلَةِ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لِمَلِكٍ تَقْلِقُونَ﴾ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ تَمَّ
فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا نَقُولُ وَهُمْ يَخْلَعُونَ ﴿٣٦﴾ يُؤْمِنُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا
هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بتقواه، وهي إذا قرنت بالطاعة كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات، وقد قال بعدها: ﴿وَاتَّبِعُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ قال سفيان الثوري، حدثنا أبي، عن طلحة، عن عطاء، عن ابن عباس: أي القربة. وكذا قال مجاهد، وعطاء، وأبو وائل، والحسن، وقتادة، وعبد الله بن كثير، والسدي، وابن زيد. وقال قتادة: أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه. وقرأ ابن زيد: ﴿أَتِلْكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَتَّبِعُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧] وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه، وأنشد ابن جرير عليه قول الشاعر:

إذا عَقَلَ الواثِقون عُذْبًا لَوْضَلًا وَعَادَ الثَّصَافِي بَيْئًا وَالْوَسَائِلَ
وَالْوَسِيلَةَ: هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود، والوسيلة أيضاً: علم على أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلة
رسول الله ﷺ وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش، وقد ثبت في صحيح البخاري، من طريق محمد بن
المُنَكِّدِر، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة
القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعته مقاماً محموداً الذي وعدته، إلا حُلَّتْ له الشفاعة يوم القيامة».

حديث آخر في صحيح مسلم: من حديث كعب بن علقمة، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلّوا عليّ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن ليث، عن كعب، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صليتم علي فسلوا لي الوسيلة». قيل: يا رسول الله، وما الوسيلة؟ قال: «أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا هو». ورواه الترمذي، عن بُنْدَار، عن أبي عاصم، عن سفيان - هو الثوري - عن ليث بن أبي سليم، عن كعب قال: حدثني أبو هريرة، به. ثم قال: غريب، وكعب ليس بمعروف، لا تعرف أحداً روى عنه غير ليث بن أبي سليم.

طريق أخرى: عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال أبو بكر بن مَرْزُويه: حدثنا عبد الباقي بن قانع، حدثنا محمد بن نصر الترمذي، حدثنا عبد الحميد بن صالح، حدثنا أبو شهاب، عن ليث، عن اليعلى، عن محمد بن كعب، عن أبي هريرة رفعه قال: «صَلُّوا عَلَى صَلَاتِكُمْ، وَسَلُّوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ». فسألوه وأخبرهم: «أَنَّ الْوَسِيلَةَ

درجة في الجنة، ليس ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكونه.

حديث آخر: قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: أخبرنا أحمد بن علي الأبار، حدثنا الوليد بن عبد الملك الحراني، حدثنا موسى بن أعين، عن ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله لي الوسيلة، فإنه لم يسألها لي عبد في الدنيا إلا كنت له شهيداً - أو: شفيعاً - يوم القيامة». ثم قال الطبراني: «لم يروه عن ابن أبي ذئب إلا موسى بن أعين». كذا قال، وقد رواه ابن مردويه: حدثنا محمد بن علي بن دحيم، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا عبيد الله بن موسى، حدثنا موسى بن عبيدة، عن محمد بن عمرو بن عطاء، فذكر بإسناده نحوه.

حديث آخر: روى ابن مردويه بإسناده عن عمارة بن غَزِيَّة، عن موسى بن وَرْدَانَ: أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الوسيلة درجة عند الله، ليس فوقها درجة، فسألوا الله أن يوتيني الوسيلة على خلقه».

حديث آخر: روى ابن مردويه أيضاً من طريقين، عن عبد الحميد بن بحر: حدثنا شريك، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي، عن النبي ﷺ قال: «في الجنة درجة تدعى الوسيلة، فإذا سألت الله فسلوا لي الوسيلة». قالوا: يا رسول الله، من يسكن معك؟ قال: «علي وفاطمة والحسن والحسين». هذا حديث غريب منكر من هذا الوجه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الحسن اللشتكي، حدثنا أبو زهير، حدثنا سعد بن طريف، عن علي بن الحسين الأزدي - مولى سالم بن قُوبان - قال: سمعت علي بن أبي طالب ينادي على منبر الكوفة: يا أيها الناس، إن في الجنة لولوتين: إحداهما بيضاء، والأخرى صفراء، أما الصفراء فإنها إلى بطنان العرش، والمقام المحمود من اللؤلؤة البيضاء سبعون ألف غرفة، كل بيت فيها ثلاثة أميال، وغرفها وأبوابها وأسررتها وكأنها من عرق واحد، واسمها الوسيلة، هي لمحمد ﷺ وأهل بيته، والصفراء فيها مثل ذلك، هي لإبراهيم، عليه السلام، وأهل بيته. وهذا أثر غريب أيضاً.

وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات، أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم، التاركين للدين القويم، ورغيبهم في ذلك بالذي أعدّه للمجاهدين في سبيله يوم القيامة، من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التي لا تبديد ولا تحول ولا تزول في الغرف العالية الرفيعة الآمنة، الحسنة منظرها، الطيبة مساكنها، التي من سكنها ينعم لا يباس، ويحيا لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه.

ثم أخبر تعالى بما أعد لأعدائه الكفار من العذاب والنكال يوم القيامة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِوَمِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا يَقْبَلُونَ مِنْهُ وَكَمْ عَذَابُ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أي: لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بمثل الأرض ذهباً، ويمثله ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به، وتيقن وصوله إليه، ما تقبل ذلك منه، بل لا مندوحة عنه ولا محيص له ولا مناص؛ ولهذا قال: ﴿وَكَمْ عَذَابُ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أي: موجه ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَّا النَّارَ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يُخْرِجُوا مِنَّا مِن عَمْرٍ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ الآية [الحج: ٢٢]، فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسه، ولا سبيل لهم إلى ذلك، كلما رفعهم اللهب فصاروا في أعالي جهنم، ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد، فإردوهم إلى أسفلها، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌ﴾ أي: دائم مستمر لا خروج لهم منها، ولا محيد لهم عنها. وقد قال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل من أهل النار، فيقول: يا ابن آدم، كيف وجدت مضجعتك؟ فيقول: شر مضجع، فيقول: هل تفتدي بقراب الأرض ذهباً؟» قال: «فيقول: نعم، يا رب! فيقول: كذبت! قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل: فيؤمر به إلى النار». رواه مسلم والنسائي من طريق حماد بن سلمة، بنحوه. وكذا رواه البخاري ومسلم، من طريق معاذ بن هشام الدستوائي، عن أبيه، عن قتادة، عن أنس، به. وكذا أخرجه من طريق أبي عمران الجوني، واسمه عبد الملك بن حبيب، عن أنس بن مالك، به. ورواه مَعْرُورُ الرَّاقِ، عن أنس بن مالك، ورواه ابن مردويه من طريقه، عنه. ثم رواه ابن مردويه، من طريق المسعودي، عن يزيد بن ضُهَيْبٍ الفقير، عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة». قال: فقلت لجابر بن عبد الله: يقول الله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَّا النَّارَ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ قال: اتل أول الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِوَمِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ الآية، ألا إنهم الذين كفروا. وقد روى الإمام أحمد ومسلم هذا الحديث من وجه آخر، عن يزيد الفقير، عن جابر، وهذا أبسط سائفاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسين بن محمد بن شنية الواسطي، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا مبارك بن فضالة، حدثني يزيد الفقير قال: جلست إلى جابر بن عبد الله، وهو يحدث، فحدث أن أناساً يخرجون من النار - قال: وأنا يومئذ أنكر ذلك، فغضبت وقلت: ما أعجب من الناس، ولكن أعجب منكم يا أصحاب محمد!

تزعمون أن الله يخرج ناساً من النار، والله يقول: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (٣٧). فانتبهني أصحابي، وكان أحلمهم فقال: دعوا الرجل، إنما ذلك للكفار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ حتى بلغ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى قد جمعت قال: أليس الله يقول: ﴿وَمِنْ أَلْيَلٍ فَتَنَاجِدُ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَنَّا أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا تَحْمُودًا﴾ (١٧٩)؟ [الإسراء: ٧٩]، فهو ذلك المقام، فإن الله تعالى يحتبس أقواماً بخطاياهم في النار ما شاء، لا يكلمهم، فإذا أراد أن يخرجهم أخرجهم. قال: فلم أعد بعد ذلك إلى أن أكذب به. ثم قال ابن مردويه: حدثنا دُعْلَجُ بْنُ أَحْمَدَ، حدثنا عمر بن حفص السُّدُوسِي، حدثنا عاصم بن علي، حدثنا العباس بن الفضل، حدثنا سعيد بن المُهَلَّب، حدثني طَلْقُ بْنُ حَبِيبٍ قال: كنت من أشد الناس تكذيباً بالشفاعة، حتى لقيت جابر بن عبد الله، فقرأت عليه كل آية أفندر عليها يذكر الله تعالى فيها خلود أهل النار، فقال: يا طلق، أترك أقرأ لكتاب الله وأعلم بسنة رسول الله ﷺ مني؟ إن الذين قرأت هم أهلها، هم المشركون، ولكن هؤلاء قوم أصابوا ذنوباً فعذبوا، ثم أخرجوا منها، ثم أهوى يديه إلى أذنيه، فقال: صُمْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «يخرجون من النار بعد ما دخلوا». ونحن نقرأ كما قرأت.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٥٨) فَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنْ أَلَّ اللَّهُ عَنَّا عَذَابُ رَحِيمٍ (٥٩) أَلَمْ تَلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيُعْفِي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦٠).

يقول تعالى حاكماً وأمرأً بقطع يد السارق والسارقة، وروى الثوري عن جابر بن يزيد الجعفي، عن عامر بن شراحيل الشعبي؛ أن ابن مسعود كان يقرأها: «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما». وهذه قراءة شاذة، وإن كان الحكم عند جميع العلماء موافقاً لها، لا بها، بل هو مستفاد من دليل آخر. وقد كان القطع معمولاً به في الجاهلية، فقرر في الإسلام وزيدت شروط آخر، كما سنذكره إن شاء الله تعالى، كما كانت القسامة والدية والقراض وغير ذلك من الأشياء التي ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه، وزيادات هي من تمام المصالح. ويقال: إن أول من قطع الأيدي في الجاهلية قريش، قطعوا رجلاً يقال له: «دويك»، مولى لبني مُلَيْحِ بْنِ عَمْرِو بْنِ خُزَاعَةَ، كان قد سرق كنز الكعبة، ويقال: سرقه قوم فوضعه عنده. وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به، سواء كان قليلاً أو كثيراً؛ لعدم هذه الآية: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾. فلم يعتبروا نصاباً ولا جزاءً، بل أخذوا بمجرد السرقة. وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عبد المؤمن، عن نُجْدَةَ الْحَنْفِي قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾: أخاص أم عام؟ فقال: بل عام. وهذا يحتمل أن يكون موافقة من ابن عباس لما ذهب إليه هؤلاء، ويحتمل غير ذلك، فالله أعلم. وتمسكوا بما ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ، يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده». وأما الجمهور فاعتبروا النصاب في السرقة، وإن كان قد وقع بينهم الخلاف في قدره، فذهب كل من الأئمة الأربعة إلى قول علي بن أبي طالب، فعند الإمام مالك بن أنس، رحمه الله: النصاب ثلاثة دراهم مضروبة خالصة، فمتى سرقها أو ما يبلغ ثمنها فما فوقها وجب القطع، واحتج في ذلك بما رواه عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قطع في يمين ثمنه ثلاثة دراهم. أخرجاه في الصحيحين. قال مالك، رحمه الله: وقطع عثمان، رضي الله عنه، في أُنْجَرَةٍ قَوِّمَتْ بثلاثة دراهم، وهو أحب ما سمعت في ذلك. وهذا الأثر عن عثمان، رضي الله عنه، قد رواه مالك عن عبد الله بن أبي بكر، عن أبيه، عن عُمَرَ بنت عبد الرحمن: أن سارقاً سرق في زمان عثمان أنجرة، فأمر بها عثمان أن تقوم، فقَوِّمَتْ بثلاثة دراهم من صرف اثني عشر درهماً بدينار، فقطع عثمان يده.

قال أصحاب مالك: ومثل هذا الصنيع يشتهر، ولم ينكر، فمن مثله يحكي الإجماع السُّكُوتِي، وفيه دلالة على القطع في الثمار خلافاً للحنفية. وعلى اعتبار ثلاثة دراهم خلافاً لهم في أنه لا بد من عشرة دراهم، وللشافعية في اعتبار ربع دينار، والله أعلم. وذهب الشافعي، رحمه الله، إلى أن الاعتبار في قطع يد السارق برقع دينار أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعداً. والحجة في ذلك ما أخرجه الشيخان: البخاري ومسلم، من طريق الزهري، عن عُمَرَ، عن عائشة، رضي الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ قال: «تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعداً». ولمسلم من طريق أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن عُمَرَ، عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً». قال أصحابنا: فهذا الحديث فاضل في المسألة ونص في اعتبار ربع الدينار لا ما سواه. قالوا: وحديث ثمن الممجن، وأنه كان ثلاثة دراهم، لا ينافي هذا؛ لأنه إذ

ذاك كان الدينار باثني عشر درهماً، فهي ثمن ربع دينار، فأمكن الجمع بهذه الطريق. ويروى هذا المذهب عن عُمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنهم. وبه يقول عمر بن عبد العزيز، والليث بن سعد، والأوزاعي، والشافعي، وأصحابه، وإسحاق بن راهويه - في رواية عنه - وأبو ثور، وداد بن علي الظاهري، رحمهم الله. وذهب الإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه - في رواية عنه - إلى أن كل واحد من ربع الدينار والثلاثة دراهم مَرْدٌ شرعي، فمن سرق واحداً منهما، أو ما يساويه، قطع عملاً بحديث ابن عمر، وبحديث عائشة، رضي الله عنهما، ووقع في لفظ عند الإمام أحمد، عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «اقطعوا في ربع دينار، ولا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك». وكان ربع الدينار يومئذ ثلاثة دراهم، والدينار اثني عشر درهماً. وفي لفظ للنسائي: لا تقطع يد السارق فيما دون ثمن المجن. قيل لعائشة: ما ثمن المجن؟ قالت: ربع دينار. فهذه كلها نصوص دالة على عدم اشتراط عشرة دراهم، والله أعلم. وأما الإمام أبو حنيفة وأصحابه: أبو يوسف، ومحمد، وزُفر، وكذا سفيان الثوري، رحمهم الله، فإنهم ذهبوا إلى أن النصاب عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة. واحتجوا بأن ثمن المجن الذي قطع فيه السارق على عهد رسول الله ﷺ، كان ثمنه عشرة دراهم. وقد روى أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا ابن ثُمير وعبد الأعلى، عن محمد بن إسحاق، عن أيوب بن موسى، عن عطاء، عن ابن عباس قال: كان ثمن المجن على عهد النبي ﷺ عشرة دراهم. ثم قال: حدثنا عبد الأعلى، عن محمد بن إسحاق، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقطع يد السارق في دون ثمن المجن». وكان ثمن المجن عشرة دراهم. قالوا: فهذا ابن عباس وعبد الله بن عمرو قد خالفا ابن عمر في ثمن المجن، فالاحتياط الأخذ بالأكثر؛ لأن الحدود تدرأ بالشبهات. وذهب بعض السلف إلى أنه تَقَطُّعُ يَدِ السَّارِقِ في عشرة دراهم، أو دينار، أو ما يبلغ قيمته واحداً منهما، يحكى هذا عن علي، وابن مسعود، وإبراهيم التَّخَمِي، وأبي جعفر الباقر، رحمهم الله تعالى. وقال بعض السلف: لا تقطع الخمس إلا في خمس، أي: في خمسة دنانير، أو خمسين درهماً. وينقل هذا عن سعيد بن جبيرة، رحمه الله. وقد أجاب الجمهور عما تمسك به الظاهرية من حديث أبي هريرة: «يُسَرَّقُ الْبَيْضَةُ فَتَقْطَعُ يَدَهُ، ويسرق الحبل فتقطع يده» بأجوبة: أحدها: أنه منسوخ بحديث عائشة. وفي هذا نظر؛ لأنه لا بد من بيان التاريخ. والثاني: أن مؤول بيضة الحديد وحبل السفن، قاله الأعمش فيما حكاه البخاري وغيره عنه. الثالث: أن هذا وسيلة إلى التدرج في السرقة من القليل إلى الكثير الذي تقطع فيه يده، ويحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الإخبار عما كان الأمر عليه في الجاهلية، حيث كانوا يقطعون في القليل والكثير، فلعن السارق الذي يبذل يده الثمينة في الأشياء المهيئة. وقد ذكروا أن أبا العلاء المَعْرِي، لما قدم بغداد، اشتهر عنه أنه أورد إشكالاً على الفقهاء في جعلهم نصاب السرقة ربع دينار، ونظم في ذلك شعراً دل على جهله، وقلة عقله فقال:

يَذُ بخمس مئين عسجد ودَيْت ما بالها قُطِعَتْ في رُبْع دينار
تُناقض ما لنا إلا السكوت له وأن تُعْذَر بِمَوْلانا من النار

ولما قال ذلك واشتهر عنه تَطَلَّبَ الفقهاء فهرب منهم. وقد أجابه الناس في ذلك، فكان جواب القاضي عبد الوهاب المالكي، رحمه الله، أنه قال: لما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت. ومنهم من قال: هذا من تمام الحكمة والمصلحة وأسرار الشريعة العظيمة، فإنه في باب الجنائيات ناسب أن تعظم قيمة اليد بخمسائة دينار لئلا يُجْنَى عليها، وفي باب السرقة ناسب أن يكون القدر الذي تقطع فيه ربع دينار لئلا يتسارع الناس في سرقة الأموال، فهذا هو عين الحكمة عند ذوي الألباب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿جَزَاءُ يَمَّا كَسَبَا تِلْكَ مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: مجازاة على صنيعهما السيئ في أخذهما أموال الناس بأيديهم، فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك ﴿تِلْكَ مِنْ اللَّهِ﴾ أي: تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: في انتقامه ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: في أمره ونهيه وشرعه وقدره. ثم قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٩) أي: من تاب بعد سرقة وأتاب إلى الله، فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه، فأما أموال الناس فلا بد من ردها إليهم أو بدلها عند الجمهور. وقال أبو حنيفة: متى قطع وقد تلفت في يده، فإنه لا يرد بدلها. وقد روى الحافظ أبو الحسن الدارقطني من حديث محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ أتى بسارق قد سرق شملة فقال: «ما إخاله سرق!» فقال السارق: بلى يا رسول الله. قال: «اذهبوا به فاقطعوه، ثم احسموه، ثم اتئونني به». فقطع فأتى به، فقال: «تب إلى الله». فقال: تبت إلى الله. فقال: «تاب الله عليك». وقد روي من وجه آخر مرسلًا ورجح إرساله علي بن الجديني وابن خزيمة، رحمهما الله، وقد روى ابن ماجه من حديث ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الرحمن بن ثعلبة الأنصاري، عن أبيه؛ أن عمرو بن سُمرة بن حبيب بن عبد شمس جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إني سرت

جمالاً لبني فلان فطهرني! فأرسل إليهم النبي ﷺ، فقالوا: إنا افتقدنا جمالاً لنا. فأمر به فقطعت يده. قال ثعلبة: أنا أنظر إليه حين وقعت يده وهو يقول: الحمد لله الذي طهرني منك، أردت أن تدخلني جسدي النار. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن حبي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو قال: سرت امرأة حلياً، فجاء الذين سرقتهم فقالوا: يا رسول الله، سرقتنا هذه المرأة، فقال رسول الله ﷺ: «اقطعوا يدها اليمنى». فقالت المرأة: هل من توبة؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك!» قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿فَن تَاب مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وقد رواه الإمام أحمد بأبسط من هذا، فقال: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثني حبي بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو: أن امرأة سرت على عهد رسول الله ﷺ، فجاء بها الذين سرقتهم فقالوا: يا رسول الله، إن هذه المرأة سرقتنا! قال قومها: فتحن نفديها، فقال رسول الله ﷺ: «اقطعوا يدها»، فقالوا: نحن نفديها بخمسائة دينار. قال: «اقطعوا يدها». قال: فقطعت يدها اليمنى. فقالت المرأة: هل لي من توبة يا رسول الله؟ قال: «نعم، أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك». فأنزل الله في سورة المائدة: ﴿فَن تَاب مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وهذه المرأة هي المخزومية التي سرت، وحديثها ثابت في الصحيحين، من رواية الزهري، عن غزوة، عن عائشة؛ أن قريشاً أهمهم شأن المرأة التي سرت في عهد النبي ﷺ، في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يتخبر به عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ؟ فأتى بها رسول الله ﷺ، فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال: «أنشع في حد من حدود الله، ﷻ؟» فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله. فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاخطب، فأتى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإنني والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرت لقطع يدها». ثم أمر بتلك المرأة التي سرت فقطعت يدها. قالت عائشة رضي الله عنها: فحسنت توبتها بعد، وتزوجت، وكانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ. وهذا لفظ مسلم وفي لفظ له عن عائشة قالت: كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجده، فأمر النبي ﷺ بقطع يدها. وعن ابن عمر قال: كانت امرأة مخزومية تستعير متاعاً على السنة جاراتها وتجده، فأمر رسول الله ﷺ بقطع يدها. رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي. وهذا لفظه - وفي لفظ له: أن امرأة كانت تستعير الحلبي للناس ثم تمسكه، فقال رسول الله ﷺ: «لنبت هذه المرأة إلى الله ورسوله وترد ما تأخذ على القوم»، ثم قال رسول الله ﷺ: «قم يا بلال فخذ بيدها فاقطعها». وقد ورد في أحكام السرقة أحاديث كثيرة مذكورة في كتاب «الأحكام»، والله الحمد والمنة. ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ أَيْ: هو المالك لجميع ذلك، الحاكم فيه، الذي لا معقب لحكمه، وهو الفعال لما يريد ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَعْفُو لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِغُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّوْنَ لِلْكَذِبِ سَكَّوْنَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِتُوبَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ بَعْدِ مُوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاصْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ أَلْفٍ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِهِمْ فَلَوْبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا جَزَاءُ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ سَكَّوْنَ لِلْكَذِبِ أَصْلَهُ لِّلْحَقِّ فَإِنْ جَاءَكَ فَاعْلَمْ بِهِمْ أَوْ اعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَصُورُكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْقَاسِطِينَ﴾ وَكَفَّ يُحْكَمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْبَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ إِنَّمَا أُنْزِلَتِ التَّوْبَةُ فِيهَا هَذِهِ وَتُؤَرَّ بِحُكْمِكُمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آسَلُمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالزَّيْنَبِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءُ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَاسْتَخَوُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قِيلَ: نَزَلَتْ فِي قَوْمِ الْكُفَرِ﴾.

نزلت هذه الآيات الكريمات في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله، ﷻ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أَيْ: أظهروا الإيمان باللسان، وقلوبهم خراب خاوية منه، وهؤلاء هم المنافقون. ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أعداء الإسلام وأهله. وهؤلاء كلهم ﴿سَكَّوْنَ لِلْكَذِبِ﴾ أَيْ: يستجيبون له، منفعلون عنه ﴿سَكَّوْنَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ﴾ أَيْ: يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد. وقيل: المراد أنهم يتسمعون الكلام، ويُنْهَوْنَ إِلَى أَقْوَامٍ آخَرِينَ مِمَّنْ لَا يَحْضُرُ عِنْدَكَ، مِنْ أَعْدَائِكَ ﴿يَحْزَنُونَ الْكِبَرُ مِنْ بَعْدِ مُوَاضِعِهِ﴾ أَيْ: يتأولونه على غير تأويله، ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاصْذَرُوا﴾. قيل: نزلت في

أقوام من اليهود، قتلوا قتيلًا، وقالوا: تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد، فإن أفتانا بالدية فخذوا ما قال، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه. والصحيح أنها نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، من الأمر برجم من أخصن منهم، فحرفوا واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين. فلما وقعت تلك الكائنة بعد هجرة النبي ﷺ، قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك. وقد وردت الأحاديث بذلك، فقال مالك، عن نافع، عن عبد الله بن عمر أنه قال: إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» فقالوا: نفضحهم ويُجلدون. قال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم. فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك. فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم! فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، فرأيت الرجل يَخني على المرأة يقبها الحجارة. وأخرجاه، وهذا لفظ البخاري. وفي لفظ له: «فقال لليهود: ما تصنعون بهما؟» قالوا: نُسَخِّم وجوههما ونُخْرِبهما. قال: «فَأَتُوا بِالتَّورَةِ فَأَتَلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» [آل عمران: ٩٣]. فجاءوا، فقالوا للرجل منهم ممن يرضون أعور: اقرأ، فقرأ ما موضع منها فوضع يده عليه، قال: ارفع يدك. فرفع، فإذا آية الرجم تلوح، قال: يا محمد، إن فيها آية الرجم، ولكننا نتكاثم بينها. فأمر بهما فرجما.

وعند مسلم: أن رسول الله ﷺ أتى يهودي ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود، فقال: «ما تجدون في التوراة على من زنى؟» قالوا: نُسَوِّد وجوههما ونُحْمِلهما، ونُخَالِف بين وجوههما ويُطَاف بهما، قال: «فَأَتُوا بِالتَّورَةِ فَأَتَلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» قال: فجاءوا بها، فقرؤوها، حتى إذا مر بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها. فقال له عبد الله بن سلام - وهو مع رسول الله ﷺ -: مَرَّه فليرفع يده. فرفع يده، فإذا تحتها آية الرجم. فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما. قال عبد الله بن عمر: كنت فيمن رجمهما، فلقد رأيته يقبها من الحجارة بنفسه. وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن سعيد الهمداني، حدثنا ابن وهب، حدثنا هشام بن سعد، أن زيد بن أسلم حدثه، عن ابن عمر قال: أتى نفر من اليهود، فدعوا رسول الله ﷺ إلى القَفِّ فأتاهم في بيت المِذْرَاس، فقالوا: يا أبا القاسم، إن رجلاً منا زنى بامرأة، فاحكم. قال: ووضعوا الرسول الله ﷺ وسادة، فجلس عليها، ثم قال: «اتنوني بالتوراة». فأتى بها، فنزع الوسادة من تحته، ووضع التوراة عليها، وقال: «أمنت بك وبمن أنزلك». ثم قال: «اتنوني بأعلمكم». فأتى بفتى شاب، ثم ذكر قصة الرجم نحو حديث مالك عن نافع. وقال الزهري: سمعت رجلاً من مُزَيْنَةَ، ممن يتبع العلم ويعيه، ونحن عند ابن المسيب، عن أبي هريرة قال: زنى رجل من اليهود بامرأة، فقال بعضهم لبعض: اذهبوا إلى هذا النبي، فإنه بعث بالتخفيف، فإن أفتانا بِقَتْلَا دون الرجم قبلناها، واحتججنا بها عند الله، قلنا: فتيا نبي من أنبيائك، قال: فأتوا النبي ﷺ وهو جالس في المسجد في أصحابه، فقالوا: يا أبا القاسم، ما تقول في رجل وامرأة منهم زنيا؟ فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مِذْرَاسهم، فقام على الباب فقال: «أشددكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أخصن؟» قالوا: يُخَمِّم، ويُجَبِّه ويُجلد. والتجبية: أن يحمل الزانيان على حمار، وتقابل أفقيتهما، ويطاف بهما. قال: وسكت شاب منهم، فلما رآه رسول الله ﷺ سكت، أَلَطَّ به رسول الله ﷺ التَّشْدَةَ، فقال: اللهم إني نشدنا، فإننا نجد في التوراة الرجم. فقال النبي ﷺ: «فما أول ما ارتخصتم أمر الله؟» قال: زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا، فأخبر عنه الرجم، ثم زنى رجل في أثره من الناس، فأراد رجمه، فحال قومه دونه وقالوا: لا يرجم صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فترجمه! فاصطلحوا هذه العقوبة بينهم، فقال النبي ﷺ: «إني أحكم بما في التوراة» فأمر بهما فرجما. قال الزهري: قبلنا أن هذه الآية نزلت فيهم: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ فكان النبي ﷺ منهم. رواه أحمد، وأبو داود - وهذا لفظه - وابن جرير.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن مَرْثَةَ، عن البراء بن عازب قال: مر على رسول الله ﷺ يهودي محمَّم مجلود، فدعاهم فقال: «أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟» فقالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم فقال: «أشددك بالذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟» فقال: لا، والله، ولولا أنك تُشَدِّدني بهذا لم أخبرك، نجد حد الزاني في كتابنا الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكننا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيمه على الشريف والوضيع، فاجتمعنا على التحميم والجلد. فقال النبي ﷺ: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه». قال: فأمر به فرجم، قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ لَا يَجْرِزُكَ

الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ أُوتِيتُهُ هَذَا فَخَذُّوهُ ﴾ يقولون: اتنوا محمداً، فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، إلى قوله: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ قال: في اليهود إلى قوله: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ قال: في اليهود، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ قال: في الكفار كلها. انفرد بأخراجه مسلم دون البخاري، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من غير وجه، عن الأعمش، به. وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده: حدثنا سفيان بن عيينة، عن مجالد بن سعيد الهمداني، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله قال: زنى رجل من أهل فدك، فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود بالمدينة أن سلوا محمداً عن ذلك، فإن أمركم بالجلد فخذوه عنه، وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه عنه، فسألوه عن ذلك، قال: «أرسلوا إليّ أعلم رجلين فيكم». فجاءوا برجل أعور - يقال له: ابن صوريا - وآخر، فقال لهما النبي ﷺ: «أنتما أعلم من قبلكما؟». فقالا: قد دعانا قوماً لذلك، فقال النبي ﷺ لهما: «أليس عندكما التوراة فيها حكم الله؟» قال: بلى، فقال النبي ﷺ: «فأنشدكم بالذي فلق البحر لبنى إسرائيل، وظلل عليكم الغمام، وأنجاكم من آل فرعون، وأنزل المن والسُّلوى على بني إسرائيل: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» فقال أحدهما للآخر: ما نُشِذْتُ بمثله قط. قال: نجد ترداد النظر زنية والاعتناق زنية، والقبل زنية، فإذا شهد أربعة أنهم راوه بيديهم ويعد، كما يدخل الميل في المُكْحَلَة، فقد وجب الرجم. فقال النبي ﷺ: «هو ذاك». فأمر به فُرْجِمَ، فنزلت: ﴿ فَإِنْ جَاءَكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرَّكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْقَسِيطِينَ ﴾.

ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث مجالد، به نحوه. ولفظ أبي داود عن جابر قال: جاءت اليهود برجل وامرأة منهم زنيا، فقال: «اثنوني بأعلم رجلين منكم». فأثروه بابني صوريا، فنشدهما: «كيف تجدان أمر هذين في التوراة؟» قال: نجد في التوراة إذا شهد أربعة أنهم راوا ذكره في فرجها مثل الميل في المُكْحَلَة رجما، قال: «فما يمنعكم أن ترجموهما؟» قال: ذهب سلطاننا، فكرهنا القتل. فدعا رسول الله ﷺ بالشهود، فجاءوا أربعة، فشهدوا أنهم راوا ذكره في فرجها مثل الميل في المكحلة، فأمر رسول الله ﷺ برجمهما. ثم رواه أبو داود، عن الشعبي وإبراهيم التَّخَعِي، مرسلًا، ولم يذكر فيه: «فدعا بالشهود فشهدوا». فهذه أحاديث دالة على أن رسول الله ﷺ حكم بموافقة حكم التوراة، وليس هذا من باب الإلزام لهم بما يعتقدون صحته؛ لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدي لا محالة، ولكن هذا يوحى خاص من الله، ﷻ، إليه بذلك، وسؤاله إياهم عن ذلك ليقررهم على ما بأيديهم، مما تراضوا على كتمانه وجهده، وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة فلما اعترفوا به مع عملهم على خلافه، بان زيفهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، وعدولهم إلى تحكيم الرسول ﷺ إنما كان عن هوى منهم وشهوة لموافقة آرائهم، لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به لهذا قالوا: ﴿ إِنَّ أُوتِيتُهُ هَذَا ﴾ أي: الجلد والتحميم ﴿ فَخَذُّوهُ ﴾ أي: اقبلوه ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفُتُّوهُ فَأَعْزُّوهُ ﴾ أي: من قبله واتباعه. قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِرَّةً اللَّهُ شَهِيدٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِمْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ أي: الباطل ﴿ أَكْثَلُونَ لِلشَّحْوِ ﴾ أي: الحرام، وهو الرشوة كما قاله ابن مسعود وغير واحد، أي: ومن كانت هذه صفته كيف يظهر الله قلبه؟ وأنى يستجيب له.

ثم قال لنبية: ﴿ فَإِنْ جَاءَكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرَّكَ شَيْئًا ﴾ أي: فلا عليك ألا تحكم بينهم؛ لأنهم لا يقصدون بتحكيمهم إليك اتباع الحق، بل ما وافق هواهم. قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني: هي منسوخة بقوله: ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِمْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ [المائدة: ٤٩]، ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ أي: بالحق والعدل وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْقَسِيطِينَ ﴾. ثم قال تعالى - منكرًا عليهم في آرائهم الفاسدة ومقاصدهم، الزائفة، في تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، الذي يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبداً، ثم خرجوا عن حكمه وعدلوا إلى غيره، مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم - فقال: ﴿ وَكَفَّ بِحُكْمِكَ وَعِذَّكَ التَّوْرَةَ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ بَوَّلُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [١٦]. ثم مدح التوراة التي أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران، فقال: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ أي: لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلونها ولا يحرفونها ﴿ وَالرَّسُولُونَ وَالْأَعْبَادُ ﴾ أي: وكذلك الربايون منهم وهم العباد العلماء، والأخبار وهم العلماء ﴿ بِمَا اسْتَحْضَرُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أي: بما استودعوا من كتاب الله الذي أمروا أن يظهروه ويعملوا به ﴿ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوُا اللَّهَ ﴾ أي: لا تخافوا منهم

وخافوني ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيمَانِكُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فيه قولان سيأتي بيانهما.

سبب آخر لنزول هذه الآيات الكريمة:

قال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن العباس، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بن عبد الله، عن ابن عباس قال: إن الله أنزل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] قال: قال ابن عباس: أنزلها الله في الطائفتين من اليهود، كانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية، حتى ارتضوا أو اصطالحوا على أن كل قتيل قتلته العزيرة من الذليلة فديته خمسون وسقاً، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيرة فديته مائة وسق، فكانوا على ذلك حتى قدم النبي ﷺ المدينة، فذلت الطائفتان كلتاهما، لمقدم رسول الله ﷺ، ويومئذ لم يظهر، ولم يوطئهما عليه، وهو في الصلح، فقتلت الذليلة من العزيرة قتيلاً، فأرسلت العزيرة إلى الذليلة: أن ابعثوا لنا بمائة وسق، فقالت الذليلة: وهل كان هذا في حين قط دينهما واحد، ونسبهما واحد، وبلدهما واحد: دية بعضهم نصف دية بعض. إنما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا، وقرقاً منكم، فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم ذلك، فكادت الحرب تهيج بينهما، ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ بينهم، ثم ذكرت العزيرة فقالت: والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم، ولقد صدقوا، ما أعطونا هذا إلا ضيماً منا وقهراً لهم، فدسوا إلى محمد: من يخبر لكم رايه، إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه وإن لم يعطكم خذتم فلم تحكموه. فدسوا إلى رسول الله ﷺ ناساً من المنافقين ليخبروا لهم رأي رسول الله ﷺ، فلما جاؤا رسول الله ﷺ أخبر الله رسوله ﷺ بأمرهم كله، وما أرادوا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَكِّرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿الْفَاسِقُونَ﴾، ففيهم - والله - أنزل، وإياهم عنى الله، ﷺ. ورواه أبو داود من حديث ابن أبي الزناد، عن أبيه، بنحوه. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا هناد بن السري وأبو كُرَيْب قال: حدثنا يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، حدثني داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن الآيات في «المائدة»، قوله: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ إلى: ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾، إنما أنزلت في الدية في بني النضير وبني قُرَيْظَةَ، وذلك أن قتلى بني النضير، كان لهم شرف، تُؤدَّى الدية كاملة، وأن قريظة كانوا يؤدّون نصف الدية فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله ذلك فيهم، فحملهم رسول الله ﷺ على الحق في ذلك، فجعل الدية في ذلك سواء - والله أعلم أي ذلك كان. ورواه أحمد، وأبو داود، والنسائي من حديث ابن إسحاق. ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن علي بن صالح، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت قريظة والنضير، وكانت النضير أشرف من قريظة، فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلاً من النضير قتل به، وإذا قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة، ودى مائة وسق تمر. فلما بعث رسول الله ﷺ، قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة، فقالوا: ادفعوه إلينا فقالوا: بيننا وبينكم رسول الله ﷺ. فنزلت: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾. ورواه أبو داود والنسائي، وابن حبان، والحاكم في المستدرک، من حديث عبيد الله بن موسى، بنحوه.

وهكذا قال قتادة، ومقاتل بن حبان، وابن زيد وغير واحد. وقد روى العوفي، وعلي بن أبي طلحة الوالبي، عن ابن عباس: أن هذه الآيات نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، كما تقدمت الأحاديث بذلك. وقد يكون اجتماع هذان السببان في وقت واحد، فنزلت هذه الآيات في ذلك كله، والله أعلم. ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ إلى آخرها، وهذا يقوي أن سبب النزول قضية القصاص، والله سبحانه وتعالى أعلم. وقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾: قال البراء بن عازب، وحذيفة بن اليمان، وابن عباس، وأبو مجلز، وأبو رجاء العطاردي، وعكرمة، وعبيد الله بن عبد الله، والحسن البصري، وغيرهم: نزلت في أهل الكتاب - زاد الحسن البصري: وهي علينا واجبة. وقال عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن منصور، عن إبراهيم قال: نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل، ورضي الله لهذه الأمة بها. رواه ابن جرير. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا يعقوب، حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا عبد الملك بن أبي سليمان، عن سلمة بن كهيل، عن علقمة ومسروق: أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة، فقال: من السُّخْتِ قال: فقالوا: وفي الحكم؟ قال: ذاك الكفر! ثم تلا: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. وقال السدي: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يقول: ومن لم يحكم بما أنزلت، فتركه عمداً، أو جار وهو يعلم، فهو من الكافرين به. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: من جحد ما أنزل الله فقد كفر. ومن أقر به ولم يحكم فهو ظالم فاسق. رواه ابن جرير. ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب، أو من جحد حكم الله المنزل

العفو، فأبوا فأتوا رسول الله ﷺ فقال: «القصاص». فقال أخوها أنس بن النضر: يا رسول الله، تكسر ثنية فلانة؟! فقال رسول الله ﷺ: «يا أنس، كتاب الله القصاص». قال: فقال: لا، والذي بعثك بالحق، لا تكسر ثنية فلانة. قال: فرضي القوم، فغفوا وتركوا القصاص، فقال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره». أخرجاه في الصحيحين. وقد رواه محمد بن عبد الله بن المثنى الأنصاري، في الجزء المشهور من حديثه، عن حميد، عن أنس بن مالك؛ أن الرُّبِيع بنت النضر عَمَّتُه لطمت جارية فكسرت ثنيتها فعرضوا عليهم الأرض، فأبوا. فطلبوا الأرض والعفو فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ، فأمرهم بالقصاص، فجاء أخوها أنس بن النضر فقال: يا رسول الله، أتكسر ثنية الربيع؟ والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها. فقال النبي ﷺ: «يا أنس، كتاب الله القصاص». فعفا القوم، فقال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره». رواه البخاري عن الأنصاري. فأما الحديث الذي رواه أبو داود: حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، عن أبي نضرة، عن عمران بن حصين، أن غلاماً لأناس فقراء قطع أذن غلام لأناس أغنياء، فأتى أهله النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنا أناس فقراء، فلم يجعل عليه شيئاً. وكذا رواه النسائي عن إسحاق بن راهويه، عن معاذ بن هشام الدستوائي، عن أبيه عن قتادة، به. وهذا إسناد قوي رجاله كلهم ثقات - فإنه حديث مشكل، اللهم إلا أن يقال: إن الجاني كان قبل البلوغ، فلا قصاص عليه، ولعله تحمل أرض ما نقص من غلام الأغنياء عن الفقراء، أو استعفاهم عنه. وقوله تعالى: ﴿وَالْمُجْرِمَ قِصَاصٌ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: تقتل النفس بالنفس، وتنفق العين بالعين، ويقطع الأنف بالأنف، وتنزع السن بالسن، وتقتص الجراح بالجراح. فهذا يستوي فيه أحرار المسلمين به فيما بينهم، رجالهم ونسأؤهم، إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس، ويستوي فيه العبيد رجالهم ونسأؤهم فيما بينهم إذا كان عمداً، في النفس وما دون النفس، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

قاعدة مهمة:

الجراح تارة تكون في مفصل، فيجب فيه القصاص بالإجماع، كقطع اليد والرجل والكف والقدم ونحو ذلك. وأما إذا لم تكن الجراح في مفصل بل في عظم، فقال مالك، رحمه الله: فيه القصاص إلا في الفخذ وشبهها؛ لأنه مخوف خطر. وقال أبو حنيفة وصاحبه: لا يجب القصاص في شيء من العظام إلا في السن. وقال الشافعي: لا يجب القصاص في شيء من العظام مطلقاً، وهو مروى عن عمر بن الخطاب، وابن عباس. وبه يقول عطاء، والشعبي، والحسن البصري، والزهري، وإبراهيم الثَّعْلَبِي، وعمر بن عبد العزيز. وإليه ذهب سفيان الثوري، والليث بن سعد. وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد. وقد احتج أبو حنيفة، رحمه الله، بحديث الرُّبِيع بنت النضر على مذهبه أنه لا قصاص في عظم إلا في السن. وحديث الربيع لا حجة فيه؛ لأنه ورد بلفظ: «كُسِرَتْ ثَنِيَّةٌ جَارِيَةٌ» وجائز أن تكون سقطت من غير كسر، فيجب القصاص - والحالة هذه - بالإجماع. وتمموا الدلالة. بما رواه ابن ماجه، من طريق أبي بكر بن عَيَّاش، عن دَهْثَم بن قُرَّان، عن نَمْرَانَ بن جارية، عن أبيه جارية بن ظفر الحنفي؛ أن رجلاً ضرب رجلاً على ساعده بالسيف من غير المفصل، فقطعها، فاستعدى النبي ﷺ، فأمر له بالدية، فقال: يا رسول الله، أريد القصاص. فقال: «خذ الدية، بارك الله لك فيها». ولم يقض له بالقصاص. قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر: ليس لهذا الحديث غير هذا الإسناد، ودَهْثَم بن قُرَّان العُكْلِي ضعيف أعرابي، ليس حديثه مما يحتج به، ونمران بن جارية ضعيف أعرابي أيضاً، وأبوه جارية بن ظفر مذكور في الصحابة. ثم قالوا: لا يجوز أن يقتص من الجراحة حتى تُتَذَمَّل جراحة المجني عليه، فإن اقتص منه قبل الاندمال ثم زاد جرحه، فلا شيء له، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن محمد بن إسحاق، فذكر حديثاً، قال ابن إسحاق: وذكر عَمْرُو بن شعيب، عن أبيه، عن جده؛ أن رجلاً طعن رجلاً بقرن في ركبته، فجاء إلى النبي ﷺ فقال: أقدني. فقال ﷺ: «لا تعجل حتى يبرأ جرحك». قال: فأبى الرجل إلا أن يستقيد، فأقاده رسول الله ﷺ منه، قال: فخرج المستقيد وبرأ المستقاد منه، فأتى المستقيد إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله، عرجت وبرأ صاحبي. فقال: «قد نهيتك فعصيتني، فأبعدك الله وبطل عرجك». ثم نهى رسول الله ﷺ أن يقتص من جرح حتى يبرأ صاحبه. تفرد به أحمد.

مسألة: فلو اقتص المجني عليه من الجاني، فمات من القصاص، فلا شيء عليه عند مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين وغيرهم. وقال أبو حنيفة: تجب الدية في مال المقتص. وقال عامر الشعبي، وعطاء، وطاوس، وعمر بن دينار، والحاترث العُكْلِي، وابن أبي ليلى، وحمام بن أبي سليمان، والزهري، والثوري: تجب الدية

على عاقلة المقتص له. وقال ابن مسعود، وإبراهيم النخعي، والحكم بن عتيبة، وعثمان التيمي: يسقط عن المقتص له قدر تلك الجراحة، ويجب الباقي في ماله. وقوله: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ يقول: فمن عفا عنه، وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب، وأجر للطالب. وقال سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ قال: كفارة للجراح، وأجر المجروح على الله ﷻ. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وروي عن خيثمة بن عبد الرحمن، ومجاهد، وإبراهيم - في أحد قوله - وعامر الشعبي، وجابر بن زيد - نحو ذلك الوجه الثاني، ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا حماد بن زاذان، حدثنا حرمي - يعني ابن عمار - حدثنا شعبة، عن عمار - يعني ابن أبي حفصة - عن رجل، عن جابر بن عبد الله، في قول الله ﷻ: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ قال: للمجروح. وروي عن الحسن البصري، وإبراهيم النخعي - في أحد قوله - وأبي إسحاق الهمداني، نحو ذلك. وروي ابن جرير، عن عامر الشعبي وقادة، مثله. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا شعبة، عن قيس - يعني بن مسلم - قال: سمعت طارق بن شهاب يحدث، عن الهيثم أبي العريان النخعي قال: رأيت عبد الله بن عمرو عند معاوية أحمر شبيهاً بالموالي، فسألته عن قول الله ﷻ: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ قال: يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به. وهكذا رواه سفيان الثوري عن قيس بن مسلم. وكذا رواه ابن جرير من طريق سفيان وشعبة. وقال ابن مردويه: حدثني محمد بن علي، حدثنا عبد الرحيم بن محمد المجاشعي، حدثنا محمد بن أحمد بن الحجاج المهري، حدثنا يحيى بن سليمان الجعفي، حدثنا مَعْلَى - يعني بن هلال - أنه سمع أبان بن تغلب، عن أبي العريان الهيثم بن الأسود، عن عبد الله بن عمرو - وعن أبان بن تغلب، عن الشعبي، عن رجل من الأنصار عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ قال: هو الذي تكسر سنه، أو تقطع يده، أو يقطع الشيء منه، أو يجرح في بدنه فيعفو عن ذلك، وقال: فَيُحِطَ عنه قدر خطاياه، فإن كان ربع الدية فربح خطاياه، وإن كان الثلث فثلث خطاياه، وإن كانت الدية حطت عنه خطاياه كذلك.

ثم قال ابن جرير: حدثنا زكريا بن يحيى بن أبي زائدة، حدثنا ابن فضيل، عن يونس بن أبي إسحاق، عن أبي السَّفَر قال: دفع رجل من قريش رجلاً من الأنصار، فاندقت ثنيته، فرفعه الأنصاري إلى معاوية، فلما ألح عليه الرجل قال: شأنك وصاحبك. قال: وأبو الدرداء عند معاوية، فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يصاب بشيء في جسده، فيهبه، إلا رفعه الله به درجة، وحط عنه به خطيئة». فقال الأنصاري: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعته أذناي ووعاء قلبي، فخلى سبيل القرشي، فقال معاوية: مروا له بمال. هكذا رواه ابن جرير، ورواه الإمام أحمد فقال: حدثنا وكيع، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، عن أبي السَّفر قال: كسر رجل من قريش سنَّ رجل من الأنصار، فاستعدي عليه معاوية، فقال القرشي: إن هذا دق سني؟ قال معاوية: إنا سنرضيه. فألح الأنصاري، فقال معاوية: شأنك بصاحبك، وأبو الدرداء جالس، فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يصاب بشيء في جسده، فيتصدق به، إلا رفعه الله به درجة وحط عنه بها خطيئة». فقال الأنصاري: فإني، يعني: قد عفوت. وهكذا رواه الترمذي من حديث ابن المبارك، وابن ماجه من حديث وكيع، كلاهما عن يونس بن أبي إسحاق، به. ثم قال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ولا أعرف لأبي السَّفر سماعاً من أبي الدرداء. وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا دَعْلَج بن أحمد، حدثنا محمد بن علي بن زيد، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا سفيان، عن عمران بن ظبيان، عن عدي بن ثابت؛ أن رجلاً قَتَمَ فمه رجل، على عهد معاوية، رضي الله عنه، فأعطي دية، فأبى إلا أن يقتص، فأعطي ديتين، فأبى، فأعطي ثلاثاً، فأبى، فحدث رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من تصدق بدم فما دونه، فهو كفارة له من يوم ولد إلى يوم يموت». وقال الإمام أحمد: حدثنا سُريج بن النعمان، حدثنا هُثَيْم، عن المغيرة، عن الشعبي؛ أن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يجرح من جسده جراحة، فيتصدق بها، إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق به». ورواه النسائي، عن علي بن حُجْر، عن جرير بن عبد الحميد، ورواه ابن جرير، عن محمود بن خَدَّاش، عن هُثَيْم، كلاهما عن المغيرة، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد القطان، عن مجالد، عن عامر، عن المحرَّر بن أبي هريرة، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «من أصيب بشيء من جسده، فتركه الله، كان كفارة له». وقوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾،

قد تقدم عن طاوس وعطاء أنهما قالا: كُفِّرَ دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق.

﴿وَقَاتِلْهُمْ بَعِيسَى ابْنِ مَرْمٍ مَصْدَقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَمَائِثَةً لِّلْإِنْجِيلِ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ

وَهَذِي مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَيَحْزَنُنَّ أَهْلُ الْإِنجِيلِ يَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي: أتبعنا ﴿عَنْ التَّوْرَةِ﴾ يعني: أنبياء بني إسرائيل عليه السلام ﴿يَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مَصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي: مؤمناً بها حاكماً بما فيها ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَتُورٌ﴾ أي: هدى إلى الحق، ونور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات. ﴿وَمَصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي: متبعاً لها، غير مخالف لما فيها، إلا في القليل مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿وَلَا أُحِلُّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي هُتِمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]؛ ولهذا كان المشهور من قول العلماء أن الإنجيل نسخ بغض أحكام التوراة. وقوله: ﴿وَهَذِي مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: وجعلنا الإنجيل ﴿هَذِي﴾ يهتدى به، ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ أي: وزاجر عن ارتكاب المحارم والمآثم ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه. وقوله: ﴿وَلَيَحْزَنُنَّ أَهْلُ الْإِنجِيلِ يَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ﴾، قرئ: ﴿وَلَيَحْزَنُنَّ﴾ بالنصب على أن اللام لام كي، أي: وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ليحكم أهل ملته به في زمانهم. وقرئ: ﴿وَلَيَحْزَنُنَّ﴾ بالجزم اللام لام الأمر، أي: ليؤمنوا بجميع ما فيه، وليقيموا أمروا به فيه، ومما فيه البشارة ببعثة محمد ﷺ والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَأْهَلُ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَى فَوْقٍ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِالتَّوْرَةِ وَالْإِنجِيلِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٨] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ الَّذِي أُتِيَ بِالْحَقِّ يَتْلُوا مِثْلَ مَا كُنُوا يَكْفُرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤] في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر ويحمل لهم الفريضة ويقيم عليهم الحجة ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴿٥٠﴾ [الأعراف: ١٥٧]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طاعة ربهم، المائلون إلى الباطل، التاركون للحق. وقد تقدم أن هذه الآية نزلت في النصارى، وهو ظاهر السياق.

﴿وَأُنْزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ فَاحِشَ مَا كُنْتُمْ مَعًا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ يَكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمَا رِجَالًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَقِمْ وَالْجَنَّةَ جِئْنَا بِتَنَزُّلٍ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ [١٨] وَإِنْ أَعْمَى بَيْنَهُمْ يَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَلَا تَنْتَهِ أَعْوَاهُمْ وَأَعَزُّهُمْ أَنْ يَقْبُولُوا عَنْ بَعْضِ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاغْلَمَ أَنَّا نُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ دُورِهِمْ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ أَفَتَحْكُمَ بِإِلَهِيَّةٍ يَتُوبُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ .

لما ذكر تعالى التوراة التي أنزلها الله على موسى كليمه عليه السلام، ومدحها وأثنى عليها، وأمر باتباعها حيث كانت سائغة الاتباع، وذكر الإنجيل ومدحه، وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه، كما تقدم بيانه، شرع تعالى في ذكر القرآن العظيم، الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم، فقال: ﴿وَأُنْزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله، ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فكان نزوله كما أخبرت به، مما زادها صدقاً عند حاملها من ذوي البصائر، الذين انقادوا لأمر الله واتبعوا شراعه الله، وصدقوا رسل الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لَدَاقًا سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّكَ إِنَّكَ كَانَتْ رَحْمَةً رَبَّنَا لَمَقْعُولًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] أي: إن كان ما وعدنا الله على السنة الرسل المتقدمين، من مجيء محمد، عليه السلام، ﴿لَمَقْعُولًا﴾ أي: لكائن لا محالة ولا بد. وقوله: ﴿وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ﴾ قال سفيان الثوري وغيره، عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن عباس، أي: مؤتمناً عليه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: المهيم: الأمين، قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله. وروى عن عكرمة، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد، ومحمد بن كعب، وعطية، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني، والسدي، وابن زيد، نحو ذلك، وقال ابن جريج: القرآن أمين على الكتب المتقدمة، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه منها فهو باطل. وعن الوالبي، عن ابن عباس: ﴿وَمُهَيِّئًا﴾ أي: شهيداً. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والسدي. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَمُهَيِّئًا﴾ أي: حاكماً على ما قبله من الكتاب. وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم «المهيم» يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم، الذي أنزله آخر الكتب وخاتمتها، أشملها وأعظمها وأحكمها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره؛ فلماذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها. وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ الرَّزَّاقُ الذِّكْرُ وَلَئِنَّا لَمُخِفَتُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحجر: ٩]. فأما ما حكاه ابن أبي حاتم، عن عكرمة، وسعيد بن جبيرة، وعطاء الخراساني، وابن أبي نجيح عن مجاهد؛ أنهم قالوا في قوله: ﴿وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ﴾ يعني: محمداً ﷺ أمين على القرآن، فإنه صحيح في المعنى، ولكن في تفسير هذا بهذا نظر، وفي تنزيهه عليه من حيث العربية أيضاً نظر. وبالجمله فالصحيح الأول، قال أبو جعفر بن جرير، بعد حكايته له عن مجاهد: وهذا التأويل بعيد من المفهوم في كلام العرب، بل هو خطأ، وذلك أن «المهيم» عطف على «المصدق»، فلا يكون إلا من

صفة ما كان «المصدق» صفة له. قال: ولو كان كما قال مجاهد لقال: «وأنزلنا إليك الكتاب مُصدقاً لما بين يديه من الكتاب مهيمناً عليه». يعني من غير عطف. وقوله: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي: فاحكم يا محمد بين الناس: عربهم وعجمهم، أميهم وكنابهم ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ إليك في هذا الكتاب العظيم، وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه في شرعك. هكذا وجه ابن جرير بمعناه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ مخيراً، إن شاء حكم بينهم، وإن شاء أعرض عنهم. فردهم إلى أحكامهم، فنزلت: ﴿وَأَن أَعْلَمَ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما في كتابنا. وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: آراءهم التي اصطلحوا عليها، وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسوله؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء. وقوله: ﴿لِكُلِّ جَمَلْنَا بَيْنَكُمُ بَرَةٌ وَمِنْهَا إِلَهُكُمْ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن يوسف بن أبي إسحاق، عن أبيه، عن التميمي، عن ابن عباس: ﴿لِكُلِّ جَمَلْنَا بَيْنَكُمُ بَرَةٌ﴾ قال: سبيلاً. وحدثنا أبو سعيد، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن عباس: ﴿وَمِنْهَا إِلَهُكُمْ﴾ قال: وسنة. وكذا روى العوفي، عن ابن عباس: ﴿بَرَةٌ وَمِنْهَا إِلَهُكُمْ﴾: سبيلاً وسنة. وكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، والحسن البصري، وقنادة، والضحاك، والسدي، وأبي إسحاق السبيعي؛ أنهم قالوا في قوله: ﴿بَرَةٌ وَمِنْهَا إِلَهُكُمْ﴾ أي: سبيلاً وسنة. وعن ابن عباس ومجاهد وعطاء الخراساني عكسه: ﴿بَرَةٌ وَمِنْهَا إِلَهُكُمْ﴾ أي: سنة وسبيلاً، والأول أنسب، فإن الشريعة وهي الشريعة أيضاً، هي ما يبتدأ فيه إلى الشيء ومنه يقال: «شرع في كذا» أي: ابتدأ فيه. وكذا الشريعة وهي ما يشرع منها إلى الماء. أما «المنهاج»: فهو الطريق الواضح السهل، والسنن؛ الطرائق، فتفسير قوله: ﴿بَرَةٌ وَمِنْهَا إِلَهُكُمْ﴾ بالسبيل والسنة أظهر في المناسبة من العكس، والله أعلم. ثم هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام، المتفقة في التوحيد، كما ثبت في صحيح البخاري، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات، ديننا واحد». يعني بذلك التوحيد، الذي بعث الله به كل رسول أرسله، وضمنه كل كتاب أنزل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوفَ﴾ الآية [النحل: ٣٦]، وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً ثم يحل في الشريعة الأخرى، وبالعكس، وخفيفاً فيزداد في الشدة في هذه دون هذه. وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكم البالغة، والحجة الدامغة. قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة: قوله: ﴿لِكُلِّ جَمَلْنَا بَيْنَكُمُ بَرَةٌ وَمِنْهَا إِلَهُكُمْ﴾ يقول: سبيلاً وسنة، والسنن مختلفة: هي في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي الفرقان شريعة، يحل الله فيها ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين الذي لا يقبل الله غيره: التوحيد والإخلاص لله، الذي جاءت به الرسل.

وقيل: المخاطب بهذا هذه الأمة، ومعناه: ﴿لِكُلِّ جَمَلْنَا﴾ القرآن ﴿بَيْنَكُمُ﴾ أي: أيتها الأمة ﴿بَرَةٌ وَمِنْهَا إِلَهُكُمْ﴾ أي: هو لكم كلكم، تقتدون به. وحذف الضمير المنصوب في قوله: ﴿لِكُلِّ جَمَلْنَا بَيْنَكُمُ﴾ أي: جعلناه، يعني القرآن، ﴿بَرَةٌ وَمِنْهَا إِلَهُكُمْ﴾ أي: سبيلاً إلى المقاصد الصحيحة، وسنة أي: طريقاً ومسلماً واضحاً بيناً. هذا مضمون ما حكاه ابن جرير عن مجاهد، رحمه الله، والصحيح القول الأول، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فلو كان هذا خطاباً لهذه الأمة لما صح أن يقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وهم أمة واحدة، ولكن هذا خطاب لجميع الأمم، وإخبار عن قدرته تعالى العظيمة التي لو شاء الله لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة، لا ينسخ شيء منها. ولكنه تعالى شرع لكل رسول شرعة على حدة، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمداً ﷺ، الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة، وجعله خاتم الأنبياء كلهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أي: أنه تعالى شرع الشرائع المختلفة، ليعتبر عباده فيما شرع لهم، ويثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله. وقال عبد الله بن كثير: ﴿فِي مَا آتَاكُمْ﴾ يعني: من الكتاب. ثم إنه تعالى نديهم إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها، فقال: ﴿فَأَسْبِقُوا إِلَى الْخَيْرَاتِ﴾ وهي طاعة الله واتباع شرعه، الذي جعله ناسخاً لما قبله، والتصديق بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزل. ثم قال تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: معادكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي: فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق، فيجزئ الصادقين بصدقهم، ويعذب الكافرين

الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّكُمْ فَيَكُنْ بِكُمْ فَإِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قَالَ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ الصَّبَاحِ: حَدَّثَنَا عَثْمَانُ بْنُ عَمْرٍو، أَنَبَانَا ابْنُ عَوْثٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: لَيْتَنِي أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، وَهُوَ لَا يَشْعُرُ. قَالَ: فَظَنَنَاهُ يَرِيدُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّكُمْ فَيَكُنْ بِكُمْ فَإِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. وَحَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجَعِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ فَضِيلٍ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ سئل عَنْ ذُبَانِجِ نَصَارَى الْعَرَبِ، فَقَالَ: كُلُّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّكُمْ فَيَكُنْ بِكُمْ فَإِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. وَرَوَى عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، نَحْوَ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ﴾ أَي: شَكٌّ، وَرَيْبٌ، وَنَفَاقٌ ﴿يُكْسِرُوكَ فِيهِمْ﴾ أَي: يَبَادِرُونَ إِلَى مَوَالِيهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ فِي الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ، ﴿يَقُولُونَ نَحْنُ أَنْ نُصِيبَ دَابِرَهُ﴾ أَي: يَتَأَوَّلُونَ فِي مَوَدَّتِهِمْ وَمَوَالِيهِمْ أَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ أَنْ يَقَعَ أَمْرٌ مِنْ ظَفَرِ الْكُفَرِ بِالْمُسْلِمِينَ، فَتَكُونُ لَهُمْ آيَادٌ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَيَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ، عِنْدَ ذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي فَتَحَ مَكَّةَ. وَقَالَ غَيْرُهُ: يَعْنِي الْقَضَاءُ وَالْفَصْلُ ﴿أَوْ أَمْرٌ مِنْ عِنْدِهِ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي ضَرْبَ الْحِزْبَةِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿فَيُضَيِّعُونَهَا﴾ يَعْنِي: الَّذِينَ وَالُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿عَلَمًا مَا أَسْرَأُ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ مِنَ الْمَوَالَةِ ﴿الْأَنْدِيِّينَ﴾ أَي: عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ، مِمَّا لَمْ يُجِدْ عَنْهُمْ شَيْئًا، وَلَا دَفَعَ عَنْهُمْ مُحْذَرًا، بَلْ كَانَ عَيْنَ الْمَفْسَدَةِ، فَإِنْهُمْ فَضَحُوا، وَأَظْهَرَ اللَّهُ أَمْرَهُمْ فِي الدُّنْيَا لِعِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا مُسْتَوْرِينَ لَا يَدْرِي كَيْفَ حَالُهُمْ. فَلَمَّا انْعَقَدَتِ الْأَسْبَابُ الْفَاضِحَةُ لَهُمْ، تَبَيَّنَ أَمْرُهُمْ لِعِبَادَةِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ، فَتَعَجَّبُوا مِنْهُمْ كَيْفَ كَانُوا يَظْهَرُونَ أَنَّهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَحْلِفُونَ عَلَى ذَلِكَ وَيَتَأَوَّلُونَ، فَيَأْنِ كَذِبُهُمْ وَافْتِرَاؤُهُمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَاصْبِرُوا خَيْرِينَ﴾ ﴿٥٢﴾.

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْقَرَاءَةُ فِي هَذَا الْحَرْفِ، فَقَرَأَهُ الْجُمْهُورُ بِإِثْبَاتِ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ﴾ ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ رَفَعَ ﴿وَيَقُولُ﴾ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، وَمِنْهُمْ مَنْ نَصَبَ عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَمَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٌ مِنْ عِنْدِهِ﴾ تَقْدِيرُهُ «أَنْ يَأْتِيَ» «وَأَنْ يَقُولَ»، وَقَرَأَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِغَيْرِ وَاوٍ وَكَذَلِكَ هُوَ فِي مَصَاحِفِهِمْ عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ، قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿فَمَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٌ مِنْ عِنْدِهِ﴾ حِينَئِذٍ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَاصْبِرُوا خَيْرِينَ﴾ ﴿٥٣﴾. وَاخْتَلَفَ الْمَفْسُورُونَ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ، فَذَكَرَ السُّدِّيُّ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ، قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ بَعْدَ وَقْعَةِ أَحَدٍ: أَمَا أَنَا فَمَاذَا ذَاهَبَ إِلَى ذَلِكَ الْيَهُودِي، فَأَرَى إِلَيْهِ وَأَتَهُودُ مَعَهُ، لَعَلَّهُ يَنْفَعُنِي إِذَا وَقَعَ أَمْرٌ أَوْ حَدَثَ حَدَثٌ! وَقَالَ الْآخَرُ: وَأَمَا أَنَا فَهَذَا بَنَى إِلَى فُلَانِ النَّصْرَانِي بِالشَّامِ، فَأَوَى إِلَيْهِ وَأَنْتَصَرَ مَعَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ الْآيَاتِ. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: نَزَلَتْ فِي أَبِي لُبَابَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُنْذَرِ، حِينَ بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَسَأَلُوهُ: مَاذَا هُوَ صَانِعٌ بِنَا؟ فَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ، أَي: إِنَّهُ الذَّبِيحُ. رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْجٍ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، كَمَا قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ إِدْرِيسَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي، عَنْ عَطِيَّةِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: جَاءَ عِبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، مِنْ بَنِي الْخَزْرَجِ، إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ لِي مَوَالِي مِنْ يَهُودٍ كَثِيرٍ عَدَدَهُمْ، وَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ وَلَايَةِ يَهُودٍ، وَأَتَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي: إِنِّي رَجُلٌ أَخَافُ الدُّوَابَّ، لَا أَبْرَأُ مِنْ وَلَايَةِ مَوَالِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي: «يَا أَبَا الْخُبَابِ، مَا يَخْلُتُ بِهِ مِنْ وَلَايَةِ يَهُودٍ عَلَى عِبَادَةِ بَنِي الصَّامِتِ فَهَؤُلَاءِ دُونَهُ». قَالَ: قَدْ قَبِلْتُ! فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ﴾.

ثُمَّ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: حَدَّثَنَا هَئَذَ، حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا عَثْمَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ: لَمَّا انْهَزَمَ أَهْلُ بَدْرٍ قَالَ الْمُسْلِمُونَ لِأَوْلِيَانِهِمْ مِنْ يَهُودٍ: آمَنُوا قَبْلَ أَنْ يَصِيبَكُمْ اللَّهُ بِيَوْمٍ مِثْلَ يَوْمِ بَدْرٍ! فَقَالَ مَالِكُ بْنُ الصَّيْفِ: أَغْرَكُمْ أَنْ أَصْبَحْتُمْ رَهْطًا مِنْ قُرَيْشٍ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِالْقِتَالِ!! أَمَا لَوْ أَمَرْنَا الْعَزِيمَةَ أَنْ نَسْتَجْمَعَ عَلَيْكُمْ، لَمْ يَكُنْ لَكُمْ يَدٌ بَقَاتِلَانَا. فَقَالَ عِبَادَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ أَوْلِيَانِي مِنَ الْيَهُودِ كَانَتْ شَدِيدَةً أَنْفُسُهُمْ، كَثِيرًا سِلَاحُهُمْ، شَدِيدَةً شَوْكَتُهُمْ، وَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِلَى رَسُولِهِ مِنْ وَلَايَةِ يَهُودٍ، وَلَا مَوْلَى لِي إِلَّا اللَّهُ وَرَسُولُهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي: لَكِنِّي لَا أَبْرَأُ مِنْ وَلَاءِ يَهُودٍ، أَنَا رَجُلٌ لَا بَدْلَ لِي مِنْهُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا الْخُبَابِ أَرَأَيْتَ الَّذِي نَفَسَتْ بِهِ مِنْ وَلَاءِ يَهُودٍ عَلَى عِبَادَةِ بَنِي الصَّامِتِ، فَهَؤُلَاءِ دُونَهُ؟» فَقَالَ: إِذَا أَقْبَلْتُ! قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَمَسُّكُم مِّنْ أَلْقَائِهِ﴾ [المائدة]:

[٦٧]

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: فَكَانَتْ أَوَّلُ قَبِيلَةٍ مِنَ الْيَهُودِ نَقَضَتْ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَنُو قَيْنِقَاعَ. فَحَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عَمْرِو بْنِ قَتَادَةَ قَالَ: فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ، فَقَامَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، حِينَ امْكَنَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَحْسَنُ فِي مَوَالِي. وَكَانُوا حُلَفَاءَ الْخَزْرَجِ، قَالَ: فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَحْسَنُ

في موالي. قال: فأعرض عنه. فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ. فقال له رسول الله ﷺ: «أرسلني». وغضب رسول الله ﷺ حتى رُئي لوجهه ظللاً، ثم قال: «ويحك أرسلني». قال: لا، والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمئة حاسر، وثلاثمئة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؟! إني امرؤ أخشى الدوائر، قال: فقال رسول الله ﷺ: «هم لك». قال محمد بن إسحاق: فحدثني أبي إسحاق بن يسار، عن عباد بن الوليد بن عباد بن الصامت قال: لما حاربت بنو قَيْنَقَاع رسول الله ﷺ، تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي، وقام دونهم، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ، وكان أحد بني عَوْف بن الخزرج، له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أبي، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ، وتبرأ إلى الله ورسوله ﷺ من حلفهم، وقال: يا رسول الله، أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم. ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات في المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَةَ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمُ الْقَائِلُونَ﴾ (٥٦). وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عروة، عن أسامة بن زيد قال: دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي نعوذه، فقال له النبي ﷺ: «قد كنت أنهارك عن حب يهود». فقال عبد الله: فقد أبغضهم أسعد بن زرارة، فمات. وكذا رواه أبو داود، من حديث محمد بن إسحاق.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أُولَئِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَحَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ وَاللَّهُ وَسِعُ الْعِلْمَ﴾ (٥٦) إِنَّا وَلَكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا يُؤِيمُونَ أَكْثَرُ ثَوَابًا وَالزَّكَاةُ وَالزَّكَاةُ وَهُمْ ذَكَاةٌ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمُ الْقَائِلُونَ (٥٦).

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته، فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه، وأشد منعة وأقوم سبيلاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِّلْ قَوْمًا عَرَّكُم مِّنْ لَا يَكُونُوا أُمَّةً لَّكُمْ﴾ (محمد: ٣٨)، وقال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ (النساء: ١٣٣)، وقال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) [إبراهيم: ١٩، ٢٠] أي: بمتنع ولا صعب وقال تعالى ههنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ أي يرجع عن الحق إلى الباطل. قال محمد بن كعب: نزلت في الولاة من قريش. وقال الحسن البصري: نزلت في أهل الردة أيام أبي بكر. ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، قال الحسن: هو والله أبو بكر وأصحابه رضي الله عنهم. رواه ابن أبي حاتم. وقال أبو بكر بن أبي شيبة: سمعت أبا بكر بن عياش يقول في قوله: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾: هم أهل القادسية. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: هم قوم من سبأ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبد الله بن الأجلح، عن محمد بن عمرو، عن سالم، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قوله: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قال: ناس من أهل اليمن، ثم من كِنْدَةَ، ثم من السُّكُون. وحدثنا أبي، حدثنا محمد بن المصفي، حدثنا معاوية - يعني ابن حفص - عن أبي زياد الحلفاني، عن محمد بن المُنْكَدَر، عن جابر بن عبد الله قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قال: «هؤلاء قوم من أهل اليمن، ثم من كِنْدَةَ، ثم من السُّكُون، ثم من تَجِيب». وهذا حديث غريب جداً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن شُبَّة، حدثنا عبد الصمد - يعني ابن عبد الوارث - حدثنا شعبة، عن يَمَّام، سمعت عِيَّاضاً يحدث عن الأشعري قال: لما نزلت: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قال رسول الله ﷺ: «هم قوم هذا». ورواه ابن جرير من حديث شعبة بنحوه. وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ هذه صفات المؤمنين الكامل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه، متعززاً على خصمه وعدوه، كما قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءٌ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح: ٢٩). وفي صفة النبي ﷺ أنه: «الضحك القتال»، فهو ضحك لأوليائه قتال لأعدائه. وقوله تعالى: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَحَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ أي: لا يرددهم عما هم فيه من طاعة الله، وقاتل أعدائه، وإقامة الحدود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يرددهم عن ذلك راد، ولا يصدهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لوم لائم، ولا عذل عاذل. قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا سلام أبو المنذر، عن محمد بن واسع، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر قال: أمرني خليلي ﷺ بسبع، أمرني بحب المساكين والدنو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقني، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت، وأمرني ألا أسأل أحداً شيئاً، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرأى، وأمرني ألا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإِنَّهُنَّ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ. وقال الإمام أحمد:

حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان عن أبي المثنى؛ أن أبا ذر قال: بايعني رسول الله ﷺ خمساً وواثقتني سبعاً، وأشهد الله عليّ تسعاً، أني لا أخاف في الله لومة لائم. قال أبو ذر: فدعاني رسول الله ﷺ فقال: «هل لك إلى بيعة ولك الجنة؟» قلت: نعم، قال: وبسطت يدي، فقال النبي ﷺ: وهو يشترط: على ألا تسأل الناس شيئاً؟ قلت: نعم، قال: «ولا سوطك وإن سقط منك يعني تنزل إليه فتأخذه». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن الحسن، حدثنا جعفر، عن المعلى القرطوسي، عن الحسن، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا لا يمنعن أحدكم رغبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده، فإنه لا يقرب من أجل، ولا يتأعد من رزق أن يقول بحق أو يذكر بعظيم». تفرد به أحمد. وقال أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن زبيد عن عمرو بن مرة، عن أبي البخري، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يخفون أحدكم نفسه أن يرى أمراً لله فيه مقال، فلا يقول فيه، فيقال له يوم القيامة: ما منعك أن تكون قلت في كذا وكذا؟ فيقول: مخافة الناس. فيقول: إياي أحق أن تخاف». ورواه ابن ماجه من حديث الأعمش، عن عمرو بن مرة، به. وروى أحمد وابن ماجه، من حديث عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي طوالة، عن نهار بن عبد الله العبدي المدني، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «إن الله ليسأل العبد يوم القيامة، حتى إنه ليسأله يقول له: أي عبيدي، رأيت منكراً فلم تنكره؟ فإن لقن الله عبداً حجته، قال: أي رب، وثقت بك وخفت الناس». وثبت في الصحيح: «ما ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه»، قالوا: وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟ قال: «يتحمل من البلاء ما لا يطيق». «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» أي: من اتصف بهذه الصفات، فإنما هو من فضل الله عليه، وتوفيقه له، «والله واسع عليم» أي: واسع الفضل، عليم بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه. وقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ليس اليهود بأوليائكم، بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ أي: المؤمنون المتصفون بهذه الصفات، من إقام الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام، وهي له وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين. وأما قوله: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾: فقد توهم بعضهم أن هذه الجملة في موضع الحال من قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: في حال ركوعهم، ولو كان هذا كذلك، لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره؛ لأنه ممدوح، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى، وحتى إن بعضهم ذكر في هذا أثراً عن علي بن أبي طالب: أن هذه الآية نزلت فيه: ذلك أنه مر به سائل في حال ركوعه، فأعطاه خاتمه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الربيع بن سليمان المرادي، حدثنا أيوب بن سويد، عن عتبة بن أبي حكيم في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال: هم المؤمنون وعلي بن أبي طالب. وحدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا الفضل بن ذكوان أبو نعيم الأحول، حدثنا موسى بن قيس الحضرمي، عن سلمة بن كهيل قال: تصدق علي بخاتمه وهو راکع، فنزلت: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾. وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا غالب بن عبيد الله، سمعت مجاهداً يقول في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الآية: نزلت في علي بن أبي طالب، فأعطاه خاتمه. وقال عبد الرزاق: حدثنا عبد الوهاب بن مجاهد، عن أبيه، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الآية: نزلت في علي بن أبي طالب. عبد الوهاب بن مجاهد لا يحتج به. وروى ابن مَرْدُويه، من طريق سفيان الثوري، عن أبي سنان، عن الضحاک، عن ابن عباس قال: كان علي بن أبي طالب قائماً يصلي، فمر سائل وهو راکع، فأعطاه خاتمه، فنزلت: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الآية. الضحاک لم يلق ابن عباس. وروى ابن مَرْدُويه أيضاً من طريق محمد بن السائب الكلبي - وهو متروك - عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد، والناس يصلون، بين راکع وساجد وقائم وقاعد، وإذا مسكين يسأل، فدخل رسول الله ﷺ فقال: «أعطاك أحد شيئاً؟» قال: نعم. قال: «من؟» قال: ذلك الرجل القائم. قال: «على أي حال أعطاك؟» قال: وهو راکع، قال: «وذلك علي بن أبي طالب». قال: فكبر رسول الله ﷺ عند ذلك، وهو يقول: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

وهذا إسناد لا يفرج به. ثم رواه ابن مردويه، من حديث علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، نفسه، وعمار بن ياسر، وأبي رافع. وليس يصح شيء منها بالكلية، لضعف أسانيدها وجهالة رجالها. ثم روى بسنده، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾: نزلت في المؤمنين، وعلي بن أبي طالب أولهم. وقال ابن جرير: حدثنا هناد، حدثنا عتبة، عن عبد الملك، عن أبي جعفر قال: سألت عن هذه الآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ قلنا: من الذين آمنوا؟ قال: الذين آمنوا! قلنا: بلغنا أنها نزلت في علي بن أبي طالب! قال: علي من الذين آمنوا. وقال أسباط، عن السدي: نزلت هذه الآية في جميع المؤمنين، ولكن علي بن أبي طالب مر به سائل وهو راکع في المسجد،

فأعطاه خاتمه . وقال علي بن أبي طلحة الوالبي، عن ابن عباس: من أسلم فقد تولى الله ورسوله والذين آمنوا . رواه ابن جرير . وقد تقدم في الأحاديث التي أوردنا أن هذه الآيات كلها نزلت في عبادة بن الصامت، رضي الله عنه، حين تبرأ من حلف يهود، ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٥٦)، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٥٧) لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنَّا وَيَدَّيْلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَوَضَعْنَا عَنْهُمْ أُولَئِكَ حِزْبَ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُغْلِبُونَ﴾ (٥٨) [المجادلة: ٢١، ٢٢] . فكل من رضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين فهو مفلح في الدنيا والآخرة ومنصور في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال الله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٥٦) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلِبَاءًا مِّنَ الدِّينِ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّا نَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَاللَّهُ مُتَعَبِّلٌ إِنَّهُمُ كَانَتْ تَاءْتِيهِمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلِبَاءًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٥٨) .

وهذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله، من الكتابيين والمشركين، الذي يتخذون أفضل ما يعمله العاملون، وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي، يتخذونها «هُزُؤًا وَلِبَاءًا» يستهزئون بها، «وَلِبَاءًا» يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد، كما قال القائل:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وأقنئ من الفقه السقيم
وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْلُوا الَّذِينَ كَتَبَ مِن قَبْلِكُمُ الْكُفَّارَ﴾ «من» ههنا لبيان الجنس، كقوله: ﴿فَاتَّخِذُوا آلَ إِبْرَاهِيمَ مِنْ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحج: ٣٠]، وقرأ بعضهم: «وَالْكُفَّارَ» بالخفض عطفًا، وقرأ آخرون بالنصب على أنه معمول ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلِبَاءًا مِّنَ الدِّينِ أَوْلِيَاءَ﴾ «هُزُؤًا وَلِبَاءًا مِّنَ الدِّينِ أَوْلُوا الَّذِينَ كَتَبَ مِن قَبْلِكُمُ» تقديره: ولا الكفار أولياء، أي: لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء . والمراد بالكفار ههنا المشركون، وكذلك وقع في قراءة ابن مسعود، فيما رواه ابن جرير: «ولا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والذين أشركوا» . وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء «إِنَّ كُفْرَ مُؤْمِنِينَ» بشرع الله الذي اتخذه هؤلاء هزواً ولعباً، كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ لَّآ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُ تَسْمُرٌ وَرَكُوعٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلِبَاءًا﴾ أي: وكذلك إذا أذنتم داعين إلى الصلاة التي هي أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم من ذوي الألباب «اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلِبَاءًا» أيضاً «هُزُؤًا وَلِبَاءًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ» معاني عبادة الله وشرائعه، وهذه صفات أتباع الشيطان الذي «إذا سمع الأذان أدبر وله خُصَّاص، أي: ضراط، حتى لا يسمع التاذنين، فإذا قضى التاذنين أقبل، فإذا ثُوب بالصلاة أدبر، فإذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء وقلبه، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل إن يدرى كم صلى، فإذا وجد أحدكم ذلك، فليسجد سجدة قبل السلام» . متفق عليه . وقال الزهري: قد ذكر الله تعالى التاذنين في كتابه فقال: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلِبَاءًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٥٨) . رواه ابن أبي حاتم . وقال أسباط، عن السدي، في قوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلِبَاءًا﴾ قال: كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادي ينادي: «أشهد أن محمداً رسول الله» قال: حَزَقَ الكاذب! فدخلت خادمه ليلة من الليالي بنار وهو نائم وأهله نيام، فسقطت شرارة فأحرقت البيت، فأحرق هو وأهله . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم . وذكر محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح، ومعه بلال، فأمره أن يؤذن، وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب بن أسيد: لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه . وقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعتة . فقال أبو سفيان: لا أقول شيئاً، لو تكلمت لأخبرت عني هذا الحصى . فخرج عليهم النبي ﷺ فقال: «قد علمت الذي قلتم»، ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما أطلع على هذا أحد كان معنا، فنقول أخبرك .

وقال الإمام أحمد: حدثنا رُوَح بن عبادة، حدثنا ابن جُرَيج، أخبرنا عبد العزيز بن عبد الملك بن أبي محذورة؛ أن عبد الله بن مُحَيْرِيز أخبره - وكان يتبعاً في حجر أبي محذورة - قال: قلت لأبي محذورة: يا عم، إني خارج إلى الشام،

وأخشي أن أسأل عن تأذنيك. فأخبرني أن أبا محذورة قال له: نعم خرجت في نفر، وكنا ببعض طريق حنين، مقفل رسول الله ﷺ من حُتَيْن، فلقينا رسول الله ﷺ ببعض الطريق، فأذن مؤذن رسول الله ﷺ بالصلاة عند رسول الله ﷺ، فسمعنا صوت المؤذن ونحن متنكبون، فصرخنا نحكيه ونستهزيء به، فسمع رسول الله ﷺ الصوت، فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه، فقال رسول الله ﷺ: «أيكم الذي سمعتُ صوته قد ارتفع؟» فأشار القوم كلهم إلي، وصدقوا، فأرسل كلهم وحسني. وقال: «قم فأذن بالصلاة». فقممت ولا شيء أكره إلي من رسول الله ﷺ، ولا مما يأمرني به، فقممت بين يدي رسول الله ﷺ، فالتقى علي رسول الله ﷺ التأذين هو بنفسه، قال: «قل: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله»، ثم قال لي: «ارجع فامد من صوتك». ثم قال: «أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله». ثم دعاني حين قضيت التأذين، فأعطاني صُرة فيها شيء من فضة، ثم وضع يده على ناصية أبي محذورة، ثم أمرها على وجهه، ثم بين ثدييه، ثم على كبده حتى بلغت يد رسول الله ﷺ سره أبي محذورة، ثم قال رسول الله ﷺ: «بارك الله فيك وبارك عليك». فقلت: يا رسول الله، مُزني بالتأذين بمكة. فقال: «قد أمرتُك به». وذهب كل شيء كان لرسول الله ﷺ من كراهة، وعاد ذلك كله محبة لرسول الله ﷺ. فقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ بمكة فأذنت معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ، وأخبرني ذلك من أدركت من أهلي ممن أدرك أبا محذورة، على نحو ما أخبرني عبد الله بن محيريز. هكذا رواه الإمام أحمد، وقد أخرجه مسلم في صحيحه، وأهل السنن الأربعة من طرق، عن عبد الله بن محيريز، عن أبي محذورة - واسمه: سُمرة بن مغير بن لوذان - أحد مؤذني رسول الله ﷺ الأربعة، وهو مؤذن أهل مكة، وامتدت أيامه، رضي الله عنه وأرضاه.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَقِيْمُوْنَ مَآ إِذَا ۤأَنۢأَمَّاۤ بِٱللَّهِ وَمَا أُنۢزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنۢزِلَ إِلَيْكُم مِّنۢ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقُرۡدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّاغُوتَ ۖ أُوْلَٰٓئِكَ سُرُّ مَكَنَا وَٱضَلُّ عَنۢ سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۖ وَإِذَا جَآءُوكُم قَالُوا۟ ءَآمَنَّا وَقَدۡ نَكَلُوا۟ بِٱلْكَفَرِ وَهُمْ قَدۡ جَرَحُوا۟ بِٱللَّهِ ٱغۡرَۢبًا يَمَآ كَانُوا۟ يَكۡفُرُونَ ۖ وَرَىٰ كَثِيرًا مِّنۡهُمۡ يُسۡرِعُونَ فِي ٱلْإِنۡفِرَادِ ۖ وَأَكۡثِلُهُمُ ٱلشَّحۡتَ لَيْسَ مَا كَانُوا۟ يَمۡكُرُونَ ۖ ۝١١﴾

يقول تعالى: قل يا محمد، لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من أهل الكتاب: ﴿هَلْ تَقِيْمُوْنَ مَآ إِذَا ۤأَنۢأَمَّاۤ بِٱللَّهِ وَمَا أُنۢزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنۢزِلَ إِلَيْكُم مِّنۢ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقُرۡدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّاغُوتَ ۖ أُوْلَٰٓئِكَ سُرُّ مَكَنَا وَٱضَلُّ عَنۢ سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۖ وَإِذَا جَآءُوكُم قَالُوا۟ ءَآمَنَّا وَقَدۡ نَكَلُوا۟ بِٱلْكَفَرِ وَهُمْ قَدۡ جَرَحُوا۟ بِٱللَّهِ ٱغۡرَۢبًا يَمَآ كَانُوا۟ يَكۡفُرُونَ ۖ وَرَىٰ كَثِيرًا مِّنۡهُمۡ يُسۡرِعُونَ فِي ٱلْإِنۡفِرَادِ ۖ وَأَكۡثِلُهُمُ ٱلشَّحۡتَ لَيْسَ مَا كَانُوا۟ يَمۡكُرُونَ ۖ ۝١١﴾. وكقوله: [البروج: ٨]، ﴿وَمَا تَقۡمُوا۟ إِلَّا أَنۢأَغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ وَرُسُلُهُمۡ مِنۢ قَصِيۡدِهِۦ﴾ [التوبة: ٧٤]. وفي الحديث المتفق عليه: «ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فأغناه الله». وقوله: ﴿وَمَا أَكۡثَرُ قَصِيۡدُونَ﴾ معطوف على ﴿أَنۢأَمَّاۤ بِٱللَّهِ وَمَا أُنۢزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنۢزِلَ إِلَيْكُم مِّنۢ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أي: هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنون به؟ وهم أتم الذين هم متصفون بهذه الصفات القصيرة، فقوله: ﴿مَن لَّعَنَ ٱللَّهُ﴾ أي: أبعد من رحمته ﴿وَعَبَدَ عَلَيْهِ﴾ أي: غضباً لا يرضى بعده أبداً، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقُرۡدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾، كما تقدم بيانه في سورة البقرة، وكما سيأتي إيضاحه في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى. وقد قال سفيان الثوري: عن علقمة بن مرثد، عن المغيرة بن عبد الله، عن المعمر بن سُوَيْد، عن ابن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير، أمي مما مسخ الله تعالى؟ فقال: «إن الله لم يهلك قوماً - أو قال: لم يمسح قوماً - فيجعل لهم نسلًا ولا عقباً، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك». وقد رواه مسلم من حديث سفيان الثوري ويُسَمَّر كلاهما، عن مُغْيِرَة بن عبد الله الشكري، به. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا داود بن أبي الفرات، عن محمد بن زيد، عن أبي الأعين العبيدي، عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود قال: سألتنا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير، أمي من نسل اليهود؟ فقال: «لا، إن الله لم يلعن قوماً فيمسحهم فكان لهم نسل، ولكن هذا خلق كان، فلما غضب الله على اليهود فمسحهم، جعلهم مثلهم». ورواه أحمد من حديث داود بن أبي الفرات، به. وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الباقي، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا الحسن بن محبوب، حدثنا عبد العزيز بن المختار، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الحيات مسخ الجن، كما مسخت القردة والخنازير». هذا حديث غريب جداً. وقوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّاغُوتَ ۖ﴾ وقرئ: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّاغُوتَ﴾ على أنه فعل ماض، و«الطاغوت» منصوب به، أي: وجعل منهم من عبد الطاغوت. وقرئ: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّاغُوتَ﴾ بالإضافة على أن المعنى: وجعل منهم خدم الطاغوت، أي: خدامه وعبيده، وقرئ: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّاغُوتَ﴾ على أنه جمع الجمع:

يخبر تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - بأنهم وصفوا الله، ﷻ وتعالى عن قولهم علواً كبيراً، بأنه بخيل. كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء، وعبروا عن البخل بقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَآلُوءَةٌ﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الطهراني، حدثنا حفص بن عمر العدني، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: ﴿مَآلُوءَةٌ﴾ أي: بخيلة.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَقْلُوبَةٌ﴾ قال: لا يعنون بذلك أن يد الله موقفة، ولكن يقولون: بخيل أمسك ما عنده، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وكذا روي عن عكرمة، وقتادة، والسدي، ومجاهد، والضحاك، وقرأ: ﴿وَلَا تَحْمِلْ يَدُكَ مَقْلُوبَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْ كُلَّ الِتْسَاطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] يعني: أنه ينهى عن البخل وعن التبذير، وهو الزيادة في الإنفاق في غير محله، وعبر عن البخل بقوله: ﴿وَلَا تَحْمِلْ يَدُكَ مَقْلُوبَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾. وهذا هو الذي أراد هؤلاء اليهود عليهم لعائن الله. وقد قال عكرمة: إنها نزلت في فتاح اليهودي، عليه لعنة الله. وقد تقدم أنه الذي قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيْرٌ وَتَحَنُّنٌ أَفْوِيْرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١] فضربه أبو بكر الصديق، رضي الله عنه. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رجل من اليهود، يقال له: شاس بن قيس: إن ربك بخيل لا ينفق، فأنزل الله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَقْلُوبَةٌ عَلَتْ أَيْدِيَهُمْ لَوْلَا مَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفِيْضُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾. وقد رد الله، ﷻ، عليهم ما قالوه، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه واتفقوه، فقال: ﴿عَلَتْ أَيْدِيَهُمْ لَوْلَا مَا قَالُوا﴾. وهكذا وقع لهم، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ نَذِيرٌ إِنَّ اللَّهَ يُدْعِي الْإِنْسَانَ بِذُلٍّ كَمَا دَعَىٰ إِبْرَاهِيمَ الْكَتَبَ وَالْكَلْبَ وَالْجَمَلُ وَالْإِنْسَانُ يَكْفُرُ﴾ [النساء: ٥٣-٥٥]، وقال تعالى: ﴿ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أُنْزِلُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ مِنْ أَلْفَيْ مِيلٍ﴾ [النساء: ٥٥]. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفِيْضُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي: بل هو الواسع الفضل، الجزيل العطاء، الذي ما من شيء إلا عنده خزانته، وهو الذي ما بخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له، الذي خلق لنا كل شيء مما نحتاج إليه، في ليلنا ونهارنا، وحضرنا وسفرنا، وفي جميع أحوالنا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَتَيْنَا بِكُم مِّن مِّن شَيْءٍ إِلَّا وَهَبْنَا لَكُمُوهُ وَكَانَ تَقْدِيرُ رَبِّكَ أَتَوَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٦]. والآيات في هذا كثيرة، وقد قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغيض ما في يمينه» قال: «وعرشه على الماء، وفي يده الأخرى القبض، يرفع ويخفض» قال: قال الله تعالى: «أنفق أنفق عليك» أخرجاه في الصحيحين، البخاري في «التوحيد» عن علي بن المديني، ومسلم فيه، عن محمد بن رافع، وكلاهما عن عبد الرزاق، به. وقوله: ﴿وَلِكُلِّ يَدٍ كِفْلٌ مِّنْ مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُفَيْنًا وَكُفْرًا﴾ أي: يكون ما أتاك الله يا محمد من النعمة نفقة في حق أعدائك من اليهود وأشباههم، فكما يزداد به المؤمنون تصديقاً وعملاً صالحاً وعلماً نافعاً، يزداد به الكفرة الحاسدون لك ولأمك ﴿طُفَيْنًا﴾ وهو: المبالغة والمجازاة للحد في الأشياء ﴿وَكُفْرًا﴾ أي: تكذيباً، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَشَارَةٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي مَآذِنِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُّونَ مِنْ مُّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [نصفت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. وقوله: ﴿وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعِدَّةَ وَالْعَهْدَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعني: أنه لا تجتمع قلوبهم، بل العداوة واقعة بين فريقيهم بعضهم في بعض دائماً؛ لأنهم لا يجتمعون على حق، وقد خالفوك وكذبوك. وقال إبراهيم الشَّحْمِي: «وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعِدَّةَ وَالْعَهْدَ» قال: الخصومات والجدال في الدين. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿كَلِمًا أَقْدَمُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْمَأْنَأًا اللَّهُ﴾ أي: كلما عقدوا أسباباً يكيدونك بها، وكلما أبرموا أموراً يحاربونك بها يبطلها الله ويرد كيدهم عليهم، ويحق مكرهم السيء بهم. ﴿وَيَسْمُونَ فِي الْأَرْضِ نِسَاءً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُنْفِسِينَ﴾ أي: من سجيبتهم أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض، والله لا يحب من هذه صفته. ثم قال جل وعلا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي: لو أنهم آمنوا بالله ورسوله، واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المحارم والمأثم ﴿لَكُنَّا عَنْهُمْ سَبِيحِينَ وَكَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ أي: لأزلنا عنهم المحذور ولحصلناهم المقصود. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا تَوْرَتَهُ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَّبِّهِمْ﴾ قال ابن عباس، وغيره: يعني القرآن. ﴿لَأَكْلُوا مِنْ ثَوْبِهِمْ وَمِنْ ثَمَرِ أَرْضِهِمْ﴾ أي: لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء، على ما هي عليه، من غير تحريف ولا تغيير ولا تبديل، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمداً ﷺ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتماً لا محالة.

وقوله: ﴿لَأَكْلُوا مِنْ ثَوْبِهِمْ وَمِنْ ثَمَرِ أَرْضِهِمْ﴾ يعني ذلك: كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والناصب لهم من الأرض. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿لَأَكْلُوا مِنْ ثَوْبِهِمْ﴾ يعني: لأرسل السماء عليهم مدراراً، ﴿وَمِنْ ثَمَرِ أَرْضِهِمْ﴾ يعني: يخرج من الأرض بركاتها. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبیر، وقتادة، والسدي، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْفُرْقَانِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا بِرُحْمَتِنَا مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٦﴾ [الروم: ٤١]. وقال بعضهم: معناه «لَا تَكُونُوا مِنْ قَوْمِهِمْ وَمَنْ تَحَتَّى أَنْجِلَهُمْ» يعني: من غير كد ولا تعب ولا شقاء ولا عناء. وقال ابن جرير: قال بعضهم: معناه: لكانوا في الخير، كما يقول القائل: «هو في الخير من قَرْنَه إلى قدمه». ثم رد هذا القول لمخالفته أقوال السلف. وقد ذكر ابن أبي حاتم، عند قوله: «وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ» حديث علقمة، عن صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه أن رسول الله قال: «يوشك أن يرفع العلم». فقال زياد بن لبيد: يا رسول الله، وكيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبناءنا؟! قال: «ثكلتكم أمك يا ابن لبيد! إن كنت لأراك من أفقه أهل المدينة، أو ليست التوراة والإنجيل بأيدي اليهود والنصارى، فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله» ثم قرأ: «وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ». هكذا أورده ابن أبي حاتم حديثاً معلقاً من أول إسناده، مرسلأ في آخره. وقد رواه الإمام أحمد بن حنبل متصلاً موصولاً، فقال: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد، عن زياد بن لبيد قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً فقال: «وذاك عند ذهاب العلم». قال: قلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونُقرّنه أبناءنا، ونُقرّنه أبناءنا هم إلى يوم القيامة؟ قال: «ثكلتكم أمك يا ابن أم لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيها بشيء». وكذا رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع بإسناده نحوه. وهذا إسناده صحيح. قوله: «مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ» كقوله تعالى: «وَمِنْ قَوْمٍ مُّؤَسَّسٌ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾» [الأعراف: ١٥٩]، وكقوله عن أتباع عيسى: «فَقَاتِلْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ» [الحديد: ٢٧]. فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد، وهو أوسط مقامات هذه الأمة، وفوق ذلك رتبة السابقين، كما في قوله تعالى: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِي اللَّهَ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٦﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا» [فاطر: ٣٢، ٣٣]. والصحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة يدخلون الجنة. وقد قال أبو بكر بن مَرْزُوق: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا أحمد بن يونس الضُّبِّي، حدثنا عاصم بن علي، حدثنا أبو مَعْشَر، عن يعقوب بن زيد بن طلحة، عن زيد بن أسلم، عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «تفرقت أمة موسى على إحدى وسبعين ملة، سبعون منها في النار وواحدة في الجنة، وتفرقت أمة عيسى على ثنتين وسبعين ملة، واحدة منها في الجنة وإحدى وسبعون منها في النار، وتعلو أمتي على الفريقين جميعاً. واحدة في الجنة، وثلثان وسبعون في النار». قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «الجماعات الجماعات». قال يعقوب بن زيد: كان علي بن أبي طالب إذا حدث هذا الحديث عن رسول الله ﷺ، تلا فيه قرآناً: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكُنَّا عَنْهُمْ سَبِيحِينَ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ أَنْ تَقُولُوا سُبْحَانَ اللَّهِ كُلَّ يَوْمٍ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ»، وتلا أيضاً: «وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾» [الأعراف: ١٨١] يعني: أمة محمد ﷺ. وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه وبهذا السياق. وحديث افتراق الأمم إلى بضع وسبعين مَزُوي من طرق عديدة، وقد ذكرناه في موضع آخر. والله الحمد والمنة.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾. يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ باسم الرسالة، وأمرأ له بالإبلاغ بجميع ما أرسله الله به، وقد امتثل صلوات الله وسلامه عليه ذلك، وقام به أتم القيام. قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن إسماعيل، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة قالت: من حَدَّثَك أن محمداً ﷺ كنتم شيئاً مما أنزل عليه فقد كذب، الله يقول: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» الآية. هكذا رواه لها مختصراً، وقد أخرجه في مواضع من صحيحه مطولاً. وكذا رواه مسلم في «كتاب الإيمان»، والترمذي والنسائي في «كتابي التفسير» من سننهما من طرق، عن عامر الشعبي، عن مسروق بن الأجدع، عنها رضي الله عنها. وفي الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت: لو كان محمد ﷺ كاتباً من القرآن شيئاً لكتبتم هذه الآية: «وَتُخْفَى فِي تَفْسِيلِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفَى النَّاسُ وَاللَّهُ أَعْوَى أَنْ تُخْشَى». [الأحزاب: ٣٧]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد، عن هارون بن عترة، عن أبيه قال: كنت عند ابن عباس، فجاء رجل فقال له: إن ناساً يأتوننا فيخبرونا أن عندكم شيئاً لم يبدعه رسول الله ﷺ للناس. فقال: ألم تعلم أن الله تعالى قال: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ»، والله ما ورثنا رسول الله ﷺ سوداء في بياض. وهذا إسناده جيد، وهكذا في صحيح البخاري من رواية أبي جَحِيْفَة وَهْب بن عبد الله السَّوَّائِي قال: قلت لعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه: هل عندكم شيء من

الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فُهِمَ يعطيه الله رجلاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكّك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر. وقال البخاري: قال الزهري: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلىنا التسليم.

وقد شهدت له أمته ببلاغ الرسالة وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل، في خطبته يوم حجة الوداع، وقد كان هناك من الصحابة نحو من أربعين ألفاً، كما ثبت في صحيح مسلم، عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ: «أيها الناس، إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فجعل يرفع إصبعه إلى السماء ويقولها إليهم ويقول: «اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت». وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا فضيل - يعني ابن عَزْزَوَان - عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «يا أيها الناس، أتى يوم هذا؟» قالوا: يوم حرام. قال: «أتى بلد هذا؟» قالوا: بلد حرام. قال: «فأتى شهر هذا؟» قالوا: شهر حرام. قال: «فإن أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا». ثم أعادها مراراً. ثم رفع إصبعه إلى السماء فقال: «اللهم هل بلغت! مراراً». قال: يقول ابن عباس: والله لو صِيتُ إلى ربه ﷻ - ثم قال: «ألا فليبلغ الشاهد الغائب، لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض». وقد روى البخاري عن علي بن المديني، عن يحيى بن سعيد، عن فضيل بن عَزْزَوَان، به نحوه. وقوله: «وَأَن لَّزْتُمْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ» يعني: وإن لم تؤد إلى الناس ما أرسلتك به ﷻ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ؟ أي: وقد علم ما يترتب على ذلك لو وقع. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «وَأَن لَّزْتُمْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ» يعني: إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا قَبِيصَةُ بن عُقْبَةَ، حدثنا سفيان، عن رجل، عن مجاهد قال: لما نزلت: ﴿بَيِّنَاتُ الْاَرْسُولِ يَلِغُ مَا اَنْزَلَ اِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ قال: «يا رب، كيف أصنع وأنا وحدي؟ يجتمعون علي». فنزلت: ﴿وَأَن لَّزْتُمْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾. ورواه ابن جرير، من طريق سفيان - وهو الثوري - به. وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِيكَ مِنَ الْاَنْبِيَاءِ﴾ أي: بلغ أنت رسالتي، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيكَ. وقد كان النبي ﷺ قبل نزول هذه الآية يُخَرِّسُ، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا يحيى، سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يحدث: أن عائشة كانت تحدث: أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة، وهي إلى جنبه، قال: فقلْتُ: ما شأنك يا رسول الله؟ قال: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة؟» قالت: فبينما أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح، فقال: «من هذا؟» فقال: أنا سعد بن مالك. فقال: «ما جاء بك؟» قال: جئت لأحرسك يا رسول الله. قالت: فسمعت غطيظ رسول الله ﷺ في نومه. أخرجاه في الصحيحين من طريق يحيى بن سعيد الأنصاري، به. وفي لفظ: سهر رسول الله ﷺ ذات ليلة مَقْدَمِهِ المدينة. يعني: على أثر هجرته إليها بعد دخوله بعائشة، رضي الله عنها، وكان ذلك في سنة ثنتين منها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا إبراهيم بن مرزوق البصري نزيل مصر، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحارث بن عُبيد - يعني أبا قدامة - عن الجُرَيْري، عن عبد الله بن شقيق، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يُخَرِّسُ حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِيكَ مِنَ الْاَنْبِيَاءِ﴾. قالت: فأخرج النبي ﷺ رأسه من القُبَّة، وقال: «يا أيها الناس، انصرفوا فقد عصمني الله ﷻ». وهكذا رواه الترمذي، عن عبد بن حُمَيْد وعن نصر بن علي الجهضمي، كلاهما عن مسلم بن إبراهيم، به. ثم قال: وهذا حديث غريب. وهكذا رواه ابن جرير والحاكم في مستدركه، من طريق مسلم بن إبراهيم، به. ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وكذا رواه سعيد بن منصور، عن الحارث بن عُبيد أبي قدامة الإيادي، عن الجُرَيْري، عن عبد الله بن شقيق، عن عائشة، به. ثم قال الترمذي: وقد روى بعضهم هذا عن الجُرَيْري، عن ابن شقيق قال: كان النبي ﷺ يحرس. ولم يذكر عائشة. قلت: هكذا رواه ابن جرير من طريق إسماعيل بن عُثَيْبَةَ، وابن مردويه من طريق وَهْبِ بْنِ كَثِيرٍ، كلاهما عن الجُرَيْري، عن عبد الله بن شقيق مرسلًا، وقد روى هذا مرسلًا عن سعيد بن جبير ومحمد بن كعب القُرَظِي، رواهما ابن جرير. والربيع بن أنس رواه ابن مردويه، ثم قال:

حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا أحمد بن رشد بن المصري، حدثنا خالد بن عبد السلام الصَّدْفِي، حدثنا الفضل بن المختار، عن عبد الله بن مَوْهَب، عن عصمة بن مالك الخطمي قال: كنا نحرس رسول الله ﷺ بالليل حتى نزلت: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِيكَ مِنَ الْاَنْبِيَاءِ﴾ فترك الحرس. حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا حمد بن محمد بن حمد أبونصر الكاتب البغدادي، حدثنا كُرْدُوس بن محمد الواسطي، حدثنا معلى بن عبد الرحمن، عن فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري قال: كان العباس عم رسول الله ﷺ فيمن يحرسه، فلما نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِيكَ مِنَ الْاَنْبِيَاءِ﴾ ترك رسول الله ﷺ الحرس. حدثنا

علي بن أبي حامد المدني، حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد، حدثنا محمد بن مفضل بن إبراهيم الأشعري، حدثنا أبي، حدثنا محمد بن معاوية بن عمار، حدثنا أبي قال: سمعت أبا الزبير المكي يحدث، عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ إذا خرج بعث معه أبو طالب من يكلوه، حتى نزلت: ﴿وَاللَّهُ يَصْحَبُكَ مِنَ الْنَّاسِ﴾، فذهب ليعث معه، فقال: «يا عم، إن الله قد عصمني، لا حاجة لي إلى من تبعث». وهذا حديث غريب وفيه نكارة، فإن هذه الآية مدنية، وهذا الحديث يقتضي أنها مكية. ثم قال: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الحميد الجُماني، عن النضر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يحرس، فكان يرسل معه أبو طالب كل يوم رجلاً من بني هاشم يحرسونه، حتى نزلت عليه هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَصْحَبُكَ مِنَ الْنَّاسِ﴾. قال: فأراد عمه أن يرسل معه من يحرسه، فقال: «إن الله قد عصمني من الجن والإنس». ورواه الطبراني عن يعقوب بن غيلان العماني، عن أبي كريب، به. وهذا أيضاً غريب. والصحيح أن هذه الآية مدنية، بل هي من أواخر ما نزل بها، والله أعلم. ومن عصمة الله ﷺ لرسوله حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومُعانديها ومتربفها، مع شدة العداوة والبغضة ونصب المحاربة له ليلاً ونهاراً، بما يخلقه الله تعالى من الأسباب العظيمة بقدره وحكمته العظيمة. فصانه في ابتداء الرسالة بعنه أبي طالب، إذ كان رئيساً مطاعاً كبيراً في قريش، وخلق الله في قلبه محبة طيبة لرسول الله ﷺ لا شرعية، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها، ولكن لما كانت بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه، واحترموه، فلما مات أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيراً، ثم قبض الله ﷺ له الأنصار فبايعوه على الإسلام، وعلى أن يتحول إلى دارهم - وهي المدينة، فلما صار إليها حموه من الأحمر والأسود، فكلما هم أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله ورد كيده عليه، لما كاده اليهود بالسحر حماه الله منهم، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء، ولما سم اليهود ذراع تلك الشاة بخبير، أعلمه الله به، وحماه الله منه؛ ولهذا أشباه كثيرة جداً يطول ذكرها، فمن ذلك ما ذكره المفسرون عند هذه الآية الكريمة: فقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا أبو مغشّر، عن محمد بن كعب القرظي وغيره قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل منزلاً، اختار له أصحابه شجرة ظلييلة فيقبل تحتها. فأتاه أعرابي فاخترط سيفه ثم قال: من يمنعك مني؟ فقال: «الله ﷻ»، فزعدت يد الأعرابي وسقط السيف منه، قال: وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يَصْحَبُكَ مِنَ الْنَّاسِ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا زيد بن الحُباب، حدثنا موسى بن عبيدة، حدثني زيد بن أسلم، عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: لما غزا رسول الله ﷺ أنمار، نزل ذات الرُّقاع بأعلى نخل، فبينما هو جالس على رأس بئر قد دلى رجله، فقال عَوْرَثُ بن الحارث من بني النجار: لأقتلن محمداً. فقال له أصحابه: كيف تقتله؟ قال: أقول له: أعطني سيفك. فإذا أعطانيه قتلت به، قال: فأتاه فقال: يا محمد، أعطني سيفك أشيمه. فأعطاه إياه، فزعدت يده حتى سقط السيف من يده، فقال رسول الله ﷻ: «حال الله بينك وبين ما تريد» فأنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَصْحَبُكَ مِنَ الْنَّاسِ﴾. وهذا حديث غريب من هذا الوجه وقصة «عَوْرَثُ بن الحارث» مشهورة في الصحيح.

وقال أبو بكر بن مَزْدُوَيْه: حدثنا أبو عمرو أحمد بن محمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن عبد الوهاب، حدثنا آدم، حدثنا حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: كنا إذا صحبنا رسول الله ﷺ في سفر تركنا له أعظم شجرة وأظلمها، فينزل تحتها، فنزل ذات يوم تحت شجرة وعلق سيفه فيها، فجاء رجل فأخذه فقال: يا محمد، من يمنعك مني؟ فقال رسول الله ﷻ: «الله يمنعني منك، ضع السيف». فوضعه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يَصْحَبُكَ مِنَ الْنَّاسِ﴾. وكذا رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه، عن عبد الله بن محمد، عن إسحاق بن إبراهيم، عن المؤمل بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت أبا إسرائيل - يعني الجشمي - سمعت جَعْدَةَ - هو ابن خالد بن الصُّمَّة الجشمي - رضي الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ ورأى رجلاً سميناً، فجعل النبي ﷺ يومئ إلى بطنه بيده ويقول: «لو كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك». قال: وأتى النبي ﷺ برجل فقال: هذا أراد أن يقتلك. فقال له النبي ﷻ: «لم تُرْع، لم تُرْع، ولو أردت ذلك لم يسلكك الله علي».

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: بلغ أنت، والله هو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، كما قال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَعَنَّ اللَّهَ يَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال: ﴿فَلَمَّا عَلِكَ الْبَلْعُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].
﴿قُلْ يَاهْدِلْ أَلْكَيْتُمْ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ قَدْ تَقَبَّلْتُمْ الْقُرْآنَ وَالْإِسْلَامَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَزِيدَتْ كَيْدًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طَعَيْنًا

وَكُفْرًا تَلَا تَأْتَى عَلَى الْغَوَرِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّيِّئِينَ وَالصَّنَائِدَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ أَي: من الدين، ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي: حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء، وتعملوا بما فيها ومما فيها الأمر باتباع محمد ﷺ والإيمان ببعثته، والافتداء بشريعته؛ ولهذا قال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني: القرآن العظيم. وقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَيْدَهُمْ مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مُنْجِنًا وَكَفْرًا﴾ تقدم تفسيره ﴿فَلَا تَأْتَى عَلَى الْغَوَرِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: فلا تحزن عليهم ولا يهيدئك ذلك منهم. ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهم: المسلمون ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم: حملة التوراة ﴿وَالصَّيِّئِينَ﴾ - لما طال الفصل حسن العطف بالرفع. والصائبون: طائفة بين النصارى والمجوس، ليس لهم دين. قاله مجاهد، وعنه: بين اليهود والمجوس. وقال سعيد بن جبيرة: بين اليهود والنصارى، وعن الحسن والحكم: إنهم كالمجوس. وقال قتادة: هم قوم يعبدون الملائكة، ويصلون إلى غير القبلة، ويقروون الزبور. وقال وهب بن ميثم: هم قوم يعرفون الله وحده، وليست لهم شريعة يعملون بها، ولم يحدثوا كفراً. وقال ابن وهب: أخبرني ابن أبي الزناد، عن أبيه قال: الصائبون: قوم مما يلي العراق، وهم بكوثي، وهو يؤمنون بالنبيين كلهم، ويصومون كل سنة ثلاثين يوماً، ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات. وقيل غير ذلك. وأما النصارى فمعروفون، وهم حملة الإنجيل. والمقصود: أن كل فرقة آمنت بالله وباليوم الآخر، وهو المعاد والجزاء يوم الدين، وعملت عملاً صالحاً، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقاً للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين فمن اتصف بذلك ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه، ولا على ما تركوا وراء ظهورهم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وقد تقدم الكلام على نظيرتها في سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْتَمَيْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كَلَّمَاهُمْ رَسُولًا بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَنَّ تَكْوِينَ فَتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَبُرَ مَعْصِيَتُهُمْ وَأَلَّاهُ بِصَوْرِهِمْ كَمَا بِصَمَلَتِهِمْ ﴿٧١﴾﴾.

يذكر تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل، على السمع والطاعة لله ولرسوله، فنقضوا تلك العهود والمواثيق، واتبعوا آراءهم وأهواءهم وقدموها على الشرائع، فما وافقهم منها قبلوه، وما خالفهم ردوه؛ ولهذا قال: ﴿كَلَّمَاهُمْ رَسُولًا بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ وَحَسِبُوا أَنَّ تَكْوِينَ فَتْنَةً﴾ أي: وحسبوا ألا يترتب لهم شر على ما صنعوا، فترتب، وهو أنهم عموا عن الحق وصموا، فلا يسمعون حقاً ولا يهتدون إليه، ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: مما كانوا فيه ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا﴾ أي: بعد ذلك ﴿وَصَمُوا كَبُرَ مَعْصِيَتُهُمْ وَأَلَّاهُ بِصَوْرِهِمْ كَمَا بِصَمَلَتِهِمْ﴾ أي: مطلع عليهم وعليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ اقْبَلُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ تَعَالَى فَقَدْ كَذَّبُوا بِمَا لَهُمْ مِنْ بَرَاهِينَ بَيِّنَاتٍ وَلَهُمْ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ لَوْ كَانُوا يَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَتَنَفَّسُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَلَّاهُ بِصَوْرِهِمْ كَمَا بِصَمَلَتِهِمْ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُتُوهُ صِدْقَةٌ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٥﴾ أَنظُرْ أَتَى أَنْ يَفْكَرُوا﴾.

يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى، من الملكية واليعقوبية والنسطورية، ممن قال منهم بأن المسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم وتزهر وتقديس علواً كبيراً. هذا وقد تقدم إليهم المسيح بأنه عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَانَنِي الْكَتَبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، ولم يقل: أنا الله، ولا: ابن الله. بل قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَانَنِي الْكَتَبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٢﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَتَنَفَّسُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَلَّاهُ بِصَوْرِهِمْ كَمَا بِصَمَلَتِهِمْ ﴿٧٣﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُتُوهُ صِدْقَةٌ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٤﴾ أَنظُرْ أَتَى أَنْ يَفْكَرُوا﴾.

يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى، من الملكية واليعقوبية والنسطورية، ممن قال منهم بأن المسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم وتزهر وتقديس علواً كبيراً. هذا وقد تقدم إليهم المسيح بأنه عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَانَنِي الْكَتَبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، ولم يقل: أنا الله، ولا: ابن الله. بل قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَانَنِي الْكَتَبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٢﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَتَنَفَّسُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَلَّاهُ بِصَوْرِهِمْ كَمَا بِصَمَلَتِهِمْ ﴿٧٣﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُتُوهُ صِدْقَةٌ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٤﴾ أَنظُرْ أَتَى أَنْ يَفْكَرُوا﴾.

يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى، من الملكية واليعقوبية والنسطورية، ممن قال منهم بأن المسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم وتزهر وتقديس علواً كبيراً. هذا وقد تقدم إليهم المسيح بأنه عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَانَنِي الْكَتَبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، ولم يقل: أنا الله، ولا: ابن الله. بل قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَانَنِي الْكَتَبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٢﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَتَنَفَّسُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَلَّاهُ بِصَوْرِهِمْ كَمَا بِصَمَلَتِهِمْ ﴿٧٣﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُتُوهُ صِدْقَةٌ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٤﴾ أَنظُرْ أَتَى أَنْ يَفْكَرُوا﴾.

يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى، من الملكية واليعقوبية والنسطورية، ممن قال منهم بأن المسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم وتزهر وتقديس علواً كبيراً. هذا وقد تقدم إليهم المسيح بأنه عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَانَنِي الْكَتَبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، ولم يقل: أنا الله، ولا: ابن الله. بل قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَانَنِي الْكَتَبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٢﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَتَنَفَّسُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَلَّاهُ بِصَوْرِهِمْ كَمَا بِصَمَلَتِهِمْ ﴿٧٣﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُتُوهُ صِدْقَةٌ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٤﴾ أَنظُرْ أَتَى أَنْ يَفْكَرُوا﴾.

فذكر منهم ديواناً لا يغفره الله، وهو الشرك بالله، قال تعالى: ﴿يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾. الحديث في مسند أحمد. ولهذا قال تعالى: إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿إِنَّكُمْ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي: وما له عند الله ناصر ولا معين ولا منقذ مما هو فيه.

وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ تَالِكٌ تَلْنَهُ﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسن الهسنبجاني، حدثنا سعيد بن الحكم بن أبي مريم، حدثنا الفضل، حدثني أبو صخر في قول الله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ تَالِكٌ تَلْنَهُ﴾ قال: هو قول اليهود: ﴿عُزِّرُ ابْنُ اللَّهِ﴾، وقول النصارى: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] فجعلوا الله ثالث ثلاثة. وهذا قول غريب في تفسير الآية: أن المراد بذلك طائفتا اليهود والنصارى. والصحيح: أنها أنزلت في النصارى خاصة، قاله مجاهد وغير واحد. ثم اختلفوا في ذلك ف قيل: المراد بذلك كفارهم في قولهم بالاقانيم الثلاثة، وهو أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، قال ابن جرير وغيره: والطوائف الثلاثة من الملكية واليعقوبية والقسطنطينية تقول بهذه الاقانيم. وهم مختلفون فيها اختلافاً متبايناً ليس هذا موضع بسطه، وكل فرقة منهم تكفر الأخرى، والحق أن الثلاث كافرة. وقال السدي وغيره: نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار، قال السدي: وهي كقوله تعالى في آخر السورة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَحْيَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّبِعُونِي وَأِطِيعُوا إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ الآية [المائدة: ١١٦]. وهذا القول هو الأظهر، والله أعلم. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي: ليس متعدداً، بل هو وحده لا شريك له، إله جميع الكائنات وسائر الموجودات. ثم قال تعالى متوعداً لهم ومتهدداً: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: من هذا الافتراء والكذب ﴿لَيَسْخَرَنَّ اللَّهُ أَلْفُوكَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الآخرة من الأغلال والنكال. ثم قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ فَسْتَفْرِغُوا مِنْهُ وَأَلَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه، مع هذا الذنب العظيم وهذا الافتراء والكذب والإفك، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، فكل من تاب إليه تاب عليه، ثم قال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: له سوية أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه، وأنه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام، كما قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِمَنْ كَفَرَ﴾ [الزخرف: ٥٩]. وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ صِدِّيقَةٌ﴾ أي: مؤمنة به مصدقة له. وهذا أعلى مقاماتها، فدل على أنها ليست نبئية، كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة سارة أم إسحاق، ونبوة أم موسى، ونبوة أم عيسى استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم، ويقولون: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَرْسُلَ مَوْسَى أَنْ أَرْضِعِي﴾ [النقص: ١٧]، قالوا: وهذا معنى النبوة، والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري، رحمه الله، الإجماع على ذلك. وقوله: ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: يحتاجان إلى التغذية به، وإلى خروجه منهما، فهما عبدان كسائر الناس وليسا بإلهين كما زعمت فرق النصارى الجهلة، عليهم لعائن الله المتتابة إلى يوم القيامة. ثم قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ سَيِّئَ كَلَمِ الْآيَاتِ﴾ أي: نوضحها ونظهرها، ﴿ثُمَّ أَنْظِرْ أَنْ يَوْفُكُونَ﴾ أي: ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون؟ وبأي قول يتمسكون؟ وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون؟.

﴿قُلْ أَشْبَدُوتَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [٧٦] قُلْ يَأْهَلِ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي رِيحِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلَحُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ [٧٧].

يقول تعالى منكرأ على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ومبيناً له أنها لا تستحق شيئاً من الإلهية: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم، ودخل في ذلك النصارى وغيرهم: ﴿أَشْبَدُوتَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا يقدر على إيصال ضرر إليكم، ولا إيجاد نفع ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: فلم عدلتم عن أفراد السميع لأقوال عباده، العليم بكل شيء إلى عبادة جَمَادٍ لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئاً، ولا يملك ضراً ولا نفعاً لغيره ولا لنفسه.

ثم قال: ﴿قُلْ يَأْهَلِ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي رِيحِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي: لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه، حتى تخرجه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية، كما صنعتم في المسيح، هو نبي من الأنبياء، فجعلتموه إلهاً من دون الله، وما ذلك إلا لاقتدائكم بشيوخ الضلال، الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً ﴿وَأَصْلَحُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي: وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال، إلى طريق الغواية والضلال. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا

أحمد بن عبد الرحمن، حدثنا عبد الله بن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع بن أنس قال: وقد كان قائم قام عليهم، فأخذ بالكتاب والسنة زماناً، فاتاه الشيطان فقال: إنما تركب أثراً أو أمراً قد عمل قبلك، فلا تجمد عليه، ولكن ابتدع أمراً من قبل نفسك وادع إليه وأجبر الناس عليه، ففعل، ثم أذكر بعد فعله زماناً فأراد أن يتوب فخلع ملأه وسلطانه، وأراد أن يتعبد، فلبث في عبادته أياماً، فأتى فقيل له: لو أنك تبت من خطيئة عملتها فيما بينك وبين ربك عسى أن يتاب عليك، ولكن ضل فلان وفلان وفلان في سببك حتى فارقوا الدنيا وهم على الضلالة، فكيف لك بهداهم، فلا توبة لك أبداً. ففیه سمعنا وفي أشباهه هذه الآية: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ الْكَتَبُ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)﴾.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨)﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) كَثُرُوا كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا أَتَوْا بِمَعَادٍ لَشَدِيدٍ (٨١)﴾ كَثِيرًا مِنْهُمْ قَتِيلُونَ (٨٢)﴾.

يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل، فيما أنزل على داود نبيه، عليه السلام، وعلى لسان عيسى ابن مريم، بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه. قال العوفي، عن ابن عباس: لعنوا في التوراة وفي الإنجيل وفي الزبور، وفي الفرقان. ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم، فقال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)﴾ أي: كان لا ينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المأثم والمحارم، ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يزكب مثل الذي ارتكبوا، فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا يزيد، حدثنا شريك بن عبد الله، عن علي بن بزيمة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي، نهتهم علماءهم فلم ينتهوا، فجالسهم في مجالسهم - قال يزيد: وأحسبه قال: وأسواقهم - وواكلهم وشاربوهم. فغضب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون»، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس فقال: «لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً». وقال أبو داود: حدثنا عبد الله بن محمد الثقفي، حدثنا يونس بن راشد، عن علي بن بزيمة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك. ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ثم قال: «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً - أو تقصرنه على الحق قصرأ». وكذا رواه الترمذي وابن ماجه، من طريق علي بن بزيمة، به. وقال الترمذي: «حسن غريب». ثم رواه هو وابن ماجه، عن بُنْدَار، عن ابن مهدي، عن سفيان، عن علي بن بزيمة، عن أبي عبيدة مرسلاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج وهارون بن إسحاق الهمداني قالا: حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي، عن العلاء بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو بن مَرْءَة، عن سالم الأفطس، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل من بني إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذنب نهاه عنه تعذيراً، فإذا كان من الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريكه - وفي حديث هارون: وشريبه، ثم اتفقا في المتن - فلما رأى الله ذلك منهم، ضرب قلوب بعضهم على بعض، ولعنهم على لسان نبيه داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون». ثم قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد المسيء، ولتأطرنه على الحق أطراً، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض، أو ليلعنكم كما لعنهم»، والسياق لأبي سعيد. كذا قال في رواية هذا الحديث. وقد رواه أبو داود أيضاً، عن خَلْف بن هشام، عن أبي شهاب الخياط، عن العلاء بن المسيب، عن عمرو بن مرة، عن سالم - وهو ابن عجلان الأفطس - عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، عن النبي ﷺ، بنحوه. ثم قال أبو داود: وكذا رواه خالد، عن العلاء، عن عمرو بن مَرْءَة، به. ورواه المحاربي، عن العلاء بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو بن مرة، عن سالم الأفطس، عن أبي عبيدة، عن عبد الله. قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي: وقد رواه خالد بن عبد الله الواسطي، عن العلاء، عن عمرو بن مرة، عن أبي موسى. والأحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جداً، ولنذكر منها ما يناسب هذا المقام. وقد تقدم حديث جرير عند قوله تعالى: ﴿لَوْ لَا يَنْهَاهُمْ كُرْبِيُّونَ﴾

وَالْأَكْبَارُ [المائدة: ٦٣]، وسيأتي عند قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَضُرُّوهُم مِّنْ صَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، حديث أبي بكر الصديق وأبي ثعلبة الخشني رضي الله عنهما. فقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان الهاشمي، أنبأنا إسماعيل بن جعفر، أخبرني عمرو بن أبي عمرو، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهلي، عن حذيفة بن اليمان؛ أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم». ورواه الترمذي عن علي بن حجر، عن إسماعيل بن جعفر، به. وقال: هذا حديث حسن.

وقال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا معاوية بن هشام، عن هشام بن سعد، عن عمرو بن عثمان، عن عاصم بن عمر بن عثمان، عن عروة، عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مروا بالمعروف، وأنهوا عن المنكر، قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم». تفرد به، وعاصم هذا مجهول. وفي الصحيح من طريق الأعمش، عن إسماعيل بن رجا، عن أبيه، عن سعيد - وعن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، عن أبي سعيد الخدري - قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان». رواه مسلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا سيف - هو ابن أبي سليمان - سمعت عدي بن عدي الكندي يحدث عن مجاهد قال: حدثني مولى لنا أنه سمع جدي - يعني: عدي بن عميرة، رضي الله عنه - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يعبذب العامة بعمل الخاصة، حتى يزوا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة». ثم رواه أحمد، عن أحمد بن الحجاج، عن عبد الله بن المبارك، عن سيف بن أبي سليمان، عن عدي بن عدي الكندي، حدثني مولى لنا أنه سمع جدي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول، فذكره. هكذا رواه الإمام أحمد من هذين الوجهين. وقال أبو داود: حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا أبو بكر، حدثنا مغيرة بن زياد الموصلي، عن عدي بن عدي، عن الغرús - يعني ابن عميرة - عن النبي ﷺ قال: «إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها - وقال مرة: فأنكرها - كان كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فريضها كان كمن شهدها». تفرد به أبو داود، ثم رواه عن أحمد بن يونس، عن أبي شهاب، عن مغيرة بن زياد، عن عدي بن عدي، مرسلاً. وقال أبو داود: حدثنا سليمان بن حرب وحفص بن عمر قال: حدثنا شعبة - وهذا لفظه - عن عمرو بن مرة، عن أبي البخري قال: أخبرني من سمع النبي ﷺ - وقال سليمان: حدثني رجل من أصحاب النبي ﷺ؛ أن النبي ﷺ قال: «لن يهلك الناس حتى يغذروا - أو: يغذروا - من أنفسهم». وقال ابن ماجه: حدثنا عمران بن موسى، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا علي بن زيد بن جُدعان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله ﷺ قام خطيباً، فكان فيما قال: «ألا يا أيمن رجالاً هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه». قال: فبكى أبو سعيد وقال: قد - والله - رأينا أشياء، فهتأ. وفي حديث إسرائيل: عن محمد بن جعدة، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر». رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه. وقال ابن ماجه: حدثنا راشد بن سعيد الرملي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبي غالب، عن أبي امامة قال: عرض لرسول الله ﷺ رجل عند الجُمرة الأولى فقال: يا رسول الله، أتى الجهاد أفضل؟ فسكت عنه. فلما رمى الجُمرة الثانية سألته، فسكت عنه. فلما رمى جُمرة العقبة، ووضع رجله في الغرز ليركب، قال: «أين السائل؟» قال: أنا يا رسول الله، قال: «كلمة حق تقال عند ذي سلطان جائر». تفرد به.

وقال ابن ماجه: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عبد الله بن نمير وأبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي البخري، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَخْوَ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ». قالوا: يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: «يرى أمراً لله فيه مَقَال، ثم لا يقول فيه. فيقول الله له يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا وكذا؟ فيقول: خَشْيَةُ النَّاسِ، فيقول: فإياي كنت أحق أن تَخْشَى». تفرد به. وقال أيضاً: حدثنا علي بن محمد، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن أبو طَوَالَة، حدثنا نَهَارُ الْعَبْدِيِّ؛ أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ليسأل العبد يوم القيامة، حتى يقول: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره؟ فإذا لَقِيَ الله عبداً حجته، قال: يا رب، رَجَوْتُكَ وَفَرَّقْتُ مِنَ النَّاسِ». تفرد به أيضاً ابن ماجه، وإسناده لا بأس به. وقال الإمام أحمد: حدثنا عمرو بن عاصم، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن الحسن، عن جُنْدُب، عن حذيفة عن النبي ﷺ قال: «لا ينبغي لمسلم أن يذل نفسه». قيل: وكيف يذل نفسه؟ قال: «يتعرض من البلاء لما لا يطيق». وكذا رواه الترمذي وابن ماجه جميعاً، عن محمد بن بشار، عن عمرو بن عاصم، به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب. وقال ابن ماجه: حدثنا

العباس بن الوليد الدمشقي، حدثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخُزاعي، حدثنا الهيثم بن حميد، حدثنا أبو معبد حفص بن غيلان الرُعيني، عن مكحول، عن أنس بن مالك قال: قيل: يا رسول الله، متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: «إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم». قلنا: يا رسول الله، وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: «المُلك في صغاركم، والفاحشة في كباركم، والعلم في رُذالكُم». قال زيد: تفسير معنى قول النبي ﷺ: «والعلم في رُذالكُم»: إذا كان العلم في الفساق. تفرد به ابن ماجه. وسيأتي في حديث أبي ثعلبة، عند قوله: «لَا يَتْرُكُكُمْ مَنْ صَلَّى إِذَا اهْتَدَيْتُمْ» [المائدة: ١٠٥] شاهد لهذا، إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

وقوله: «كَثُرَ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا»: قال مجاهد: يعني بذلك المنافقين. وقوله: «لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ» يعني بذلك موالاتهم للكافرين، وتركهم موالاة المؤمنين، التي أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم، وأسخطت الله عليهم سخطاً مستمراً إلى يوم معادهم؛ ولهذا قال: «أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» فسر بذلك ما ذمهم به. ثم أخيراً أنهم «وَفِي الْكَذَابِ هُمْ خَلِيلُونَ» يعني يوم القيامة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا مسلمة بن علي، عن الأعمش بإسناده ذكره قال: «يا معشر المسلمين، إياكم والزنا، فإن فيه ست خصال، ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة، فأما التي في الدنيا: فإنه يذهب البهاء، ويورث الفقر، ويُنقص العمر. وأما التي في الآخرة: فإنه يوجب سخط الرب، وسوء الحساب، والخلود في النار». ثم تلا رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْكَذَابِ هُمْ خَلِيلُونَ». هكذا ذكره ابن أبي حاتم، وقد رواه ابن مَرْزُوقٍ من طريق هشام بن عمار، عن مسلمة، عن الأعمش، عن شقيق، عن حذيفة، عن النبي ﷺ - فذكره. وساقه أيضاً من طريق سعيد بن عُفَيْرٍ، عن مسلمة، عن أبي عبد الرحمن الكوفي، عن الأعمش، عن شقيق، عن حذيفة، عن النبي ﷺ، فذكر مثله. وهذا حديث ضعيف على كل حال، والله أعلم. ثم قال تعالى: «وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَا أَغْتَدَوْهُمْ أَوْلِيَاءَ» أي: لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والفرقان لما ارتكبوا ما ارتكبوه من موالاة الكافرين في الباطن، ومعاداة المؤمنين بالله والنبي وما أنزل إليه «وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ» أي: خارجون عن طاعة الله ورسوله، مخالفون لآيات وحيه وتنزيله.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُّكَ ذَلِكَ بَأْسٌ مِنْهُمْ فَأَنْبَسُوا وَأَنْهَضُوا لَمْ يَسْتَكْبِرُوا ۖ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَمَّا قَدْ كُتِبَ لَنَا مِنَ الشَّهَادَةِ ۖ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ۖ فَاتَّبَعَهُمْ اللهُ يَمَّا قَالُوا جَنَّاتُ جَنَّتِي تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۖ﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه، الذين حين تلا عليهم جعفر بن أبي طالب بالحبيشة القرآن بكوا حتى أخضلوا لحاهم. وهذا القول فيه نظر؛ لأن هذه الآية مدنية، وقصة جعفر مع النجاشي قبل الهجرة. وقال سعيد بن جبيرة السدي وغيرهما: نزلت في وفد بعثهم النجاشي إلى النبي ﷺ ليسمعوا كلامه، ويروا صفاته، فلما قرأ عليهم النبي ﷺ القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا، ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه. قال السدي: فهاجر النجاشي فمات في الطريق. وهذا من أفراد السدي؛ فإن النجاشي مات وهو ملك الحبيشة، وصلى عليه النبي ﷺ يوم مات، وأخبر به أصحابه، وأخبر أنه مات بأرض الحبيشة. ثم اختلف في عدة هذا الوفد، ف قيل: اثنا عشر، سبعة قساوسة وخمسة رهبانين. وقيل بالعكس. وقيل: خمسون. وقيل: بضع وستون. وقيل: سبعون رجلاً. والله أعلم. وقال عطاء بن أبي رباح: هم قوم من أهل الحبيشة، أسلموا حين قدم عليهم مهاجرة الحبيشة من المسلمين، وقال قتادة: هم قوم كانوا على دين عيسى ابن مريم، فلما رأوا المسلمين وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلغثموا. واختار ابن جرير أن هذه الآية نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة، سواء أكانوا من الحبيشة أو غيرها.

فقوله تعالى: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا» ما ذاك إلا لأن كفر اليهود عناد وجحود ومباينة للحق، وغمط للناس وتقص بحملة العلم. ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هموا بقتل الرسول ﷺ غير مرة وسحروه، وألبوا عليه أشباههم من المشركين - عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة. وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْزُوقٍ عند تفسير هذه الآية: حدثنا أحمد بن محمد بن الشَّري: حدثنا محمد بن علي بن حبيب الرُّقي، حدثنا سعيد بن العلاف، حدثنا أبو النَّضَر، عن الأشجعي، عن سفيان، عن يحيى بن عبد الله عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما خلا يهودي قط بمسلم

إلا هم بقتله». ثم رواه عن محمد بن أحمد بن إسحاق اليشكري، حدثنا أحمد بن سهل بن أيوب الأهوازي، حدثنا فرج بن عبيد، حدثنا عباد بن العوام، عن يحيى بن عبيد الله، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما خلا يهودي بمسلم إلا حدثت نفسه بقتله». وهذا حديث غريب جداً.

وقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةَ الَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْتُكُمْ﴾ أي: الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم، إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرافة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]، وفي كتابهم: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر. وليس القتال مشروعاً في ملتهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّكُمْ وَأَنَّهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يوجد فيهم القسيسون - وهم خطباؤهم وعلماؤهم، واحدهم: قسيس وقس أيضاً، وقد يجمع على قسوس - والرهبان: جمع راهب، وهو: العابد. مشتق من الرهبة، وهي الخوف، كراكب وركبان، وفارس وفرسان. وقال ابن جرير: وقد يكون الرهبان واحداً وجمعهم رهابين، مثل قربان وقرايين، وجزدان وجزادين، وقد يجمع على رهابنة. ومن الدليل على أنه يكون عند العرب واحداً قول الشاعر:

لَوْ عَايَنْتُ رُهْبَانَ ذَيْرٍ فِي الْقُلَلِ
لَانْحَدَرَ الرُّهْبَانُ يَمُشِي وَنَزَلَ

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا بشر بن آدم، حدثنا نصير بن أبي الأشعث، حدثني الصلت الدهان، عن حامية بن رثاب قال: سألت سلمان عن قول الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّكُمْ وَأَنَّهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ فقال: دع «القسيسين» في البيع والخرب، أفرأني رسول الله ﷻ: «ذلك بأن منهم صديقين ورهبانا». وكذا رواه ابن مردويه من طريق يحيى بن عبد الحميد الحماني، عن نصير بن زياد الطائي، عن صلت الدهان، عن حامية بن رثاب، عن سلمان، به. وقال ابن أبي حاتم: ذكره أبي، حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني، حدثنا نصير بن زياد الطائي، حدثنا صلت الدهان، عن حامية بن رثاب قال: سمعت سلمان وسئل عن قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّكُمْ وَأَنَّهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾. قال: هم الرهبان الذين هم في الصوامع والخرب، فدعوه فيها، قال سلمان: وقرأت على النبي ﷺ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّكُمْ وَأَنَّهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾، فأفرأني: «ذلك بأن منهم صديقين ورهبانا».

فقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّكُمْ وَأَنَّهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع، ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف، فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَمَّا مَا كُنَّا مَعَهُ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به. وقد روى النسائي عن عمرو بن علي الفلاس، عن عمر بن علي بن مقدم، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وفي أصحابه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَمَّا مَا كُنَّا مَعَهُ الشَّاهِدِينَ﴾ [٨٢]. وقال الطبراني: حدثنا أبو شبيب عبيد الله بن عبد الرحمن بن واقد، حدثنا أبي، حدثنا العباس بن الفضل، عن عبد الجبار بن نافع الضبي، عن قتادة وجعفر بن إياس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، في قول الله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ قال: إنهم كانوا كرايين - يعني: فلاحين - قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة، فلما قرأ رسول الله ﷺ عليهم القرآن آمنوا وفاضت أعينهم، فقال رسول الله ﷻ: «ولعلكم إذا رجعتم إلى أرضكم انتقلتم إلى دينكم». فقالوا: لن نتقل عن ديننا. فأنزل الله ذلك من قولهم. وروى ابن أبي حاتم: وابن مردويه، والحاكم في مستدركه، من طريق سماك عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿مَا كُنَّا مَعَهُ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: مع محمد ﷺ، وأمته هم الشاهدون، يشهدون لنبيهم أنه قد بلغ، ولرسل أنهم قد بلغوا. ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْدِ الصَّالِحِينَ﴾ [٨٣]. وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِعَيْدَتِ اللَّهِ شَيْئًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [٨٤]. الآية [١٩٩]، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ۖ إِذَا نُزِّلَ عَلَيْهِمْ قُلُوبًا قَالُوا ءَمَّا بِهِ إِلَهُ الْحَقِّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [٥٧] أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [٥٨] وَإِذَا سَمِعُوا اللَّفْظَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُكُمْ وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَا تَنفِي الْجَنَّةِ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٥]؛ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَأَنذَرْتُهُمْ اللَّهَ يَمَّا قَالُوا جَنَّتْ جَنَّتِي مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَرُ ﴿٨٧﴾ أي: فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ساكنين فيها أبداً، لا يحولون ولا يزولون، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: في اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان، وأين كان، ومع من كان. ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: جحدوا بها وخالفوها ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أي: هم أهلها والداخلون إليها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسُدُّوا بِكُمْ إِلَهَ اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٧) ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ هَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨).

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في رَفْع من أصحاب النبي ﷺ، قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا، ونسبح في الأرض كما يفعل الرهبان. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأرسل إليهم، فذكر لهم ذلك: فقالوا: نعم. فقال النبي ﷺ: «لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأنكح النساء، فمن أخذ بسُنَّتِي فهو مِنِّي، ومن لم يأخذ بسُنَّتِي فليس مِنِّي». رواه ابن أبي حاتم. وروى ابن مردويه عن طريق العوفي، عن ابن عباس نحو ذلك. وفي الصحيحين، عن عائشة، رضي الله عنها؛ أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا أكل اللحم. وقال بعضهم: لا أزوج النساء. وقال بعضهم: لا أنام على فراش. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا، لكنني أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وأكل اللحم، وأزوج النساء، فمن رغب عن سُنَّتِي فليس مِنِّي». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عاصم الأنصاري، حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مُخَلَّد، عن عثمان - يعني ابن سعد - أبحرني عكرمة، عن ابن عباس: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني إذا أكلت اللحم انتشرت للنساء، وإني حَرَمْتُ علي اللحم، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾. وكذا رواه الترمذي وابن جرير جميعاً، عن عمرو بن علي الفلاس، عن أبي عاصم النبيل، به. وقال: حسن غريب. وقد روي من وجه آخر مرسلًا وروي موقوفاً على ابن عباس، فالحق أعلم. وقال سفيان الثوري ووكيع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن عبد الله بن مسعود قال: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ، وليس معنا نساء قلنا: ألا نستخصي؟ فنهانا رسول الله ﷺ عن ذلك، ورخص لنا أن نكح المرأة بالثوب إلى أجل، ثم قرأ عبد الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسُدُّوا بِكُمْ إِلَهَ اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٧). أخرجه من حديث إسماعيل. وهذا كان قبل تحريم نكاح المتعة، والله أعلم.

وقال الأعمش، عن إبراهيم، عن همام بن الحارث، عن عمرو بن شُرْحَبِيل قال: جاء مُعْقِل بن مِقْرَن إلى عبد الله بن مسعود فقال: إني حرمت فراشي. فتلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسُدُّوا بِكُمْ إِلَهَ اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٧). وقال الثوري، عن منصور، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: كنا عند عبد الله بن مسعود، فجاء بضرع، ففتح رجل، فقال له عبد الله: اذن. فقال: إني حرمت أن أكله. فقال عبد الله: ادن فاطعم، وكفر عن يمينك وتلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية. رواه ابن أبي حاتم. وروى الحاكم هذا الأثر الأخير في مستدركه، من طريق إسحاق بن راهويه، عن جرير، عن منصور، به. ثم قال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني هشام بن سعد، أن زيد بن أسلم حدثه: أن عبد الله بن رواحة ضافه ضيف من أهله، وهو عند النبي ﷺ، ثم رجع إلى أهله فوجدهم لم يُطعموا ضَيْفَهُمْ انتظاراً له، فقال لامرأته: حبست ضيفي من أجلي، هو علي حرام. فقالت امرأته: هو علي حرام. وقال الضيف: هو علي حرام. فلما رأى ذلك وضع يده وقال: كلوا باسم الله. ثم ذهب إلى النبي ﷺ فذكر الذي كان منهم، ثم أنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾. وهذا أثر منقطع. وفي صحيح البخاري في قصة الصديق رضي الله عنه مع أضيافه شبيه بهذا. وفيه، وفي هذه القصة دلالة لمن ذهب من العلماء كالشافعي وغيره إلى أن من حرم مأكلاً أو ملبساً أو شيئاً ما عدا النساء أنه لا يحرم عليه، ولا كفارة عليه أيضاً؛ ولقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ ولأن الذي حُرِّمَ اللحم على نفسه - كما في الحديث المتقدم - لم يأمره النبي ﷺ بكفارة. وذهب آخرون منهم الإمام أحمد بن حنبل إلى أن من حرم مأكلاً أو مشرباً أو شيئاً من الأشياء فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين، كما إذا التزم تركه باليمين فكذلك يواخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزاماً له بما التزمه، كما أفتى بذلك ابن عباس، وكما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التحرير: ١) ثم قال: ﴿قَدْ رَضِيَ اللَّهُ لَكُمْ لِحْلَةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ الآية [التحرير: ٢]. وكذلك ههنا لما ذكر هذا الحكم عقبه بالآية المبينة لتكفير اليمين، فدل على أن هذا منزل منزلة اليمين في اقتضاء التكفير، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا حجاج، عن ابن جُرَيج، عن مجاهد قال: أراد رجال، منهم عثمان بن مظعون وعبد الله بن عمرو، أن يَتَّبِعُوا ويخضُوا أنفسهم ويلبسوا المسحوق، فنزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ الْذِينَ أَشْرَبُوا بِهِمْ﴾. قال ابن جريج، عن عكرمة: إن عثمان بن مظعون، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، والمقداد بن الأسود، وسالم المولى أبي حذيفة في أصحاب، تبتلوا، فجلسوا في البيوت، واعتزلوا النساء، ولبسوا المسحوق، وحرّموا طيبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل، وهموا بالإخفاء وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْسَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٨٧). يقول: لا تسبوا بغير سنة المسلمين، يريد: ما حرّموا من النساء والطعام واللباس، وما أجمعوا عليه من قيام الليل وصيام النهار، وما هموا به من الإخفاء، فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال: «إن لأنفسكم حقاً، وإن لأعينكم حقاً، صوموا وأفطروا، وصلوا وناموا، فليس منا من ترك سنتنا». فقالوا: اللهم سلمنا واتبعنا ما أنزلت. وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين مرسله، ولها شاهد في الصحيحين من رواية عائشة أم المؤمنين، كما تقدم ذلك، والله الحمد والمنة. وقال أسباط، عن السدي في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْسَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٨٧): «وذلك أن رسول الله ﷺ جلس يوماً فذكر الناس، ثم قام ولم يزددهم على التخويف، فقال ناس من أصحاب النبي ﷺ، كانوا عشرة منهم علي بن أبي طالب، وعثمان بن مظعون: ما خفنا إن لم نحدث عملاً، فإن النصارى قد حرّموا على أنفسهم، فنحن نحرم. فحرم بعضهم أن يأكل اللحم والودك، وأن يأكل بَهَارَ، وحرم بعضهم النوم، وحرم بعضهم النساء، فكان عثمان بن مظعون ممن حرم النساء وكان لا يدنو من أهله ولا تدنو منه. فأتت امرأته عائشة، رضي الله عنها، وكان يقال لها: الحولاء، فقالت لها عائشة ومن عندها من أزواج النبي ﷺ: ما بالك يا حولاء متغيرة اللون، لا تمتشطين، لا تتطيبن؟ قالت: وكيف امتشط وأنطيب وما وقع علي زوجي وما رفع عني ثوباً، منذ كذا وكذا. قال: فجعلن يضحكن من كلامها، فدخل رسول الله ﷺ وهن يضحكن، فقال: «ما يضحكن؟» قالت: يا رسول الله، إن الحولاء سألتها عن أمرها، فقالت: ما رفع عني زوجي ثوباً منذ كذا وكذا. فأرسل إليه فدعاه، فقال: «مالك يا عثمان؟» قال: إني تركته الله، لكي أتخلّى للعبادة، وقص عليه أمره، وكان عثمان قد أراد أن يُحِبُّ نفسه، فقال رسول الله ﷺ: «أقسمت عليك إلا رجعت فواقعت أهلَكَ». فقال: يا رسول الله، إني صائم. فقال: «أفطر». فأفطر، وأتى أهله، فرجعت الحولاء إلى عائشة زوج رسول الله ﷺ وقد امتشطت واكتحلّت وتطيبت، فضحكت عائشة وقالت: مالك يا حولاء؟ فقالت: إنه أتاها أمس، وقال رسول الله ﷺ: «ما بال أقوام حرّموا النساء والطعام والنوم؟ ألا إني أنام وأفطر وأصوم، وأنكح النساء، فمن رغب عني فليس مني». فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْسَدُوا﴾ يقول لعثمان: «لا تحب نفسك، فإن هذا هو الاعتداء». وأمرهم أن يكفروا بإيمانهم، فقال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُلُوقِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾. رواه ابن جرير. وقوله: ﴿وَلَا تَعْسَدُوا﴾: يحتمل أن يكون المراد منه: ولا تبالغوا في التضييق على أنفسكم في تحريم المباحات عليكم، كما قاله من قاله من السلف. ويحتمل أن يكون المراد: كما لا تحرموا الحلال فلا تعتدوا في تناول الحلال، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم، ولا تتجاوزوا الحد فيه، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١). وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (٧٧) [الفرقان: ٦٧]، فشرع الله عدل بين الغالي فيه والجافي عنه، لا إفراط ولا تفريط؛ ولهذا قال: ﴿لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْسَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾. ثم قال: ﴿وَكُلُوا مِنَّا ذَرَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا﴾ أي: في حال كونه حلالاً طيباً، ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم، واتبعوا طاعته ورضوانه، واتركوا مخالفته وعصيانَه، ﴿الَّذِينَ أَشْرَبُوا بِهِمْ﴾. ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُلُوقِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ فكثرتهم إلهاماً عشرة مسكينين من أوسط ما تقيمون أهلَكُمْ أو كسوتهم أو تحرير ربوة من لَمْ يَجِدْ قِسِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَثْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩).

قد تقدم في سورة البقرة الكلام على لغو اليمين، وأنه قول الرجل في الكلام من غير قصد: لا والله، وبلى والله، وهذا مذهب الشافعي، وقيل: هو في الهزل. وقيل: في المعصية. وقيل: على غلبة الظن وهو قول أبي حنيفة وأحمد. وقيل: في اليمين في الغضب. وقيل: في النسيان. وقيل: هو الحلف على ترك المأكل والمشرب والملبس ونحو ذلك، واستدلوا بقوله: ﴿لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾. والصحيح أنه اليمين من غير قصد؛ بدليل قوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ أي: بما صمتم عليه من الأيمان وقصدتموها، فكفارتها إطعام عشرة مساكين يعني: محاويع من الفقراء، ومن لا يجد ما يكفيه. وقوله: ﴿وَمَنْ

أَوْسَطَ مَا تَطْمُؤُونَ أَهْلِيكُمْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ، وَعَكْرَمَةُ: أَيُّ مَنْ أَعْدَلَ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ. وَقَالَ عَطَاءُ الْخِرَاسَانِيُّ: مَنْ أَمَثَلَ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو خَالِدٍ الْأَحْمَرُ، عَنْ حُجَّاجٍ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ الشَّيْبَعِيِّ، عَنْ الْحَارِثِ، عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: خَبَزَ وَلَيْنَ، خَبَزَ وَسَمْنًا. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: أَبَانَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى قَرَأَ، حَدَّثَنَا سَفْيَانُ بْنُ عَيَّثَةَ، عَنْ سُلَيْمَانَ - يَعْنِي ابْنَ أَبِي الْغُبَرَةِ - عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ يَقُوتُ بَعْضُ أَهْلِهِ قُوتَ دُونٍ وَبَعْضُهُمْ قُوتًا فِيهِ سَعَةً، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْمُؤُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أَيُّ: مِنَ الْخَبْزِ وَالزَّيْتِ. وَحَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجِيُّ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ جَابِرٍ، عَنْ عَامِرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَمَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْمُؤُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قَالَ: مَنْ عَسَرَهُمْ وَيَسَّرَهُمْ. وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَلْفٍ الْجُمَيْصِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ شُعَيْبٍ - يَعْنِي ابْنَ شَابُورٍ - حَدَّثَنَا شَيْبَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ التَّمِيمِيُّ، عَنْ لَيْثِ بْنِ أَبِي سَلِيمٍ، عَنْ عَاصِمِ الْأَحْوَلِ، عَنْ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ، عَنْ ابْنِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: ﴿وَمَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْمُؤُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قَالَ: الْخَبْزُ وَاللَّحْمُ، وَالْخَبْزُ وَالسَّمْنُ، وَالْخَبْزُ وَاللَّبَنُ، وَالْخَبْزُ وَالزَّيْتُ، وَالْخَبْزُ وَالْخَلُّ. وَحَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حَرْبٍ الْمُوَصِّلِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ ابْنِ سِيرِينَ، عَنْ ابْنِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: ﴿وَمَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْمُؤُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قَالَ: الْخَبْزُ وَالسَّمْنُ، وَالْخَبْزُ وَالزَّيْتُ، وَالْخَبْزُ وَالثَّمَرُ، وَمَنْ أَفْضَلَ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ: الْخَبْزُ وَاللَّحْمُ.

ورواه ابن جرير عن هُثَّادِ بْنِ وَكِيعٍ كِلَاهُمَا عَنْ أَبِي مُعَاوِيَةَ. ثُمَّ رَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ عُبَيْدَةَ وَالْأَسَدِ، وَشُرَيْحِ الْقَاضِي، وَمُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، وَالْحَسَنِ، وَالضَّحَّاكَ، وَأَبِي رَزِينٍ: أَنَّهُمْ قَالُوا نَحْوَ ذَلِكَ، وَحَكَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ مَكْحُولٍ أَيْضًا. وَاخْتَارَ ابْنُ جُرَيْرٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْمُؤُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أَيُّ: فِي الْقَلَّةِ وَالْكَثَرَةِ. ثُمَّ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مِقْدَارِ مَا يَطْعَمُهُمْ، فَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو خَالِدٍ الْأَحْمَرُ، عَنْ حُجَّاجٍ، عَنْ حُصَيْنِ الْحَارِثِيِّ، عَنْ الشَّعْبِيِّ، عَنْ الْحَارِثِ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْمُؤُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قَالَ: يَغْدِيهِمْ وَيَعْشِيهِمْ. وَقَالَ الْحَسَنُ وَمُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ: يَكْفِيهِ أَنْ يَطْعَمَ عَشْرَةَ مَسَاكِينَ أَكَلَهُ وَاحِدَةً خَبْزًا وَلَحْمًا، زَادَ الْحَسَنُ: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَخَبْزًا وَسَمْنًا وَلَبَنًا، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَخَبْزًا وَزَيْتًا وَخَلًّا حَتَّى يَشْبَعُوا. وَقَالَ آخَرُونَ: يَطْعَمُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْعَشْرَةِ نِصْفَ صَاعٍ مِنْ بُزٍّ أَوْ تَمْرٍ، وَنَحْوَهُمَا. هَذَا قَوْلُ عَمْرِو بْنِ عَلِيٍّ، وَعَائِشَةَ، وَمُجَاهِدٍ، وَالشَّعْبِيِّ، وَسَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، وَإِبْرَاهِيمَ التَّخَفِيُّ، وَمِيمُونَ بْنُ مِهْرَانَ، وَأَبِي مَالِكٍ، وَالضَّحَّاكَ، وَالْحَكَمُ، وَمَكْحُولُ، وَأَبِي قَلَابَةَ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَبَّانٍ. وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: نِصْفَ صَاعٍ مِنْ بَرٍّ، وَصَاعٍ مِمَّا عَدَاهُ. وَقَدْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْزُوقٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ الْحَسَنِ الثَّقَفِيِّ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ يُونُسَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ، حَدَّثَنَا زِيَادُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الطُّفَيْلِ بْنِ سَخْبَرَةَ ابْنِ أَخِي عَائِشَةَ لَأَمَّهُ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ يَعْلَى، عَنْ الْمُنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَفَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِصَاعٍ مِنْ تَمْرٍ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَنِصْفَ صَاعٍ مِنْ بُزٍّ. وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ، عَنْ الْعَبَّاسِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ زِيَادِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَكَّائِيِّ، عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَعْلَى الثَّقَفِيِّ، عَنْ الْمُنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو، بِهِ. لَا يَصِحُّ هَذَا الْحَدِيثُ لِحَالِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ هَذَا فَإِنَّهُ مُجْمَعٌ عَلَى ضَعْفِهِ، وَذَكَرُوا أَنَّهُ كَانَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ. وَقَالَ الدَّارِقُطَنِيُّ: مَتْرُوكٌ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ إِدْرِيسَ، عَنْ دَاوُدَ - يَعْنِي ابْنَ أَبِي هَنْدٍ - عَنْ عَكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: مُدٌّ مِنْ بَرٍّ - يَعْنِي لِكُلِّ مَسْكِينٍ - وَمَعَهُ إِدَامَةٌ. ثُمَّ قَالَ: وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَمْرِو، وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَمُجَاهِدٍ، وَعَطَاءٍ، وَعَكْرَمَةَ، وَأَبِي الشَّعَاءِ، وَالْقَاسِمَ، وَالسَّالِمَ، وَأَبِي سَلْمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَسُلَيْمَانَ بْنَ يَسَارٍ، وَالْحَسَنَ، وَمُحَمَّدَ بْنَ سِيرِينَ، وَالزَّهْرِيَّ، نَحْوَ ذَلِكَ. وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: الْوَاجِبُ فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ مُدٌّ بِمُدِّ النَّبِيِّ ﷺ لِكُلِّ مَسْكِينٍ. وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِلْأَدَمِ - وَاحْتِجَ بِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ لِلَّذِي جَامَعَ فِي رَمَضَانَ أَنَّ يَطْعَمَ سِتِينَ مَسْكِينًا مِنْ مَكِيلٍ يَسَعُ خَمْسَةَ عَشَرَ صَاعًا لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُدٌّ. وَقَدْ وَرَدَ حَدِيثٌ آخَرُ صَرِيحٌ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْزُوقٍ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحَسَنِ الْمَقْرِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ السَّرَاجِ، حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا النَّضَرُ بْنُ زُرَّارَةَ الْكُوفِيُّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ الْعُمَرِيِّ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عَمْرِو، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقِيمُ كَفَّارَةَ الْيَمِينِ مَدًّا مِنْ حَنْطَةٍ بِالْمَدِّ الْأَوَّلِ. إِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ، لِحَالِ النَّضَرِ بْنِ زُرَّارَةَ بْنِ عَبْدِ الْأَكْرَمِ الذَّهَلِيِّ الْكُوفِيِّ نَزِيلٍ بَلَّغَ، قَالَ فِيهِ أَبُو حَاتِمٍ الرَّازِيُّ: هُوَ مَجْهُولٌ مَعَ أَنَّهُ قَدْ رَوَى عَنْهُ غَيْرُ وَاحِدٍ. وَذَكَرَهُ ابْنُ حَبَّانٍ فِي الثَّقَاتِ وَقَالَ: رَوَى عَنْهُ قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ أَشْيَاءَ مُسْتَقِيمَةٍ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ إِنَّ شَيْخَهُ الْعُمَرِيَّ ضَعِيفٌ أَيْضًا. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: الْوَاجِبُ مُدٌّ مِنْ بَرٍّ، أَوْ مِدَّانٍ مِنْ غَيْرِهِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ كَسَوْتَهُمْ﴾: قَالَ الشَّافِعِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ: لَوْ دَفَعَ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْعَشْرَةِ مَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْكِسْوَةِ مِنْ قَمِيصٍ أَوْ سَرَاوِيلٍ أَوْ إِزَارٍ أَوْ عِمَامَةٍ أَوْ مَقْتَعَةٍ أَجْزَاءَ ذَلِكَ. وَاخْتَلَفَ أَصْحَابُهُ فِي الْقِلَنْسَةِ: هَلْ تَجْزِيءُ أَمْ لَا؟ عَلَى وَجْهَيْنِ، فَمِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ إِلَى الْجَوَازِ، اِحْتِجَاجًا بِمَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجِيُّ،

وعمار بن خالد الواسطي قالاً: حدثنا القاسم بن مالك، عن محمد بن الزبير، عن أبيه قال: سألت عمران بن حصين عن قوله: ﴿أَوْ كَسَوُوهُمْ﴾ قال: لو أن وفداً قدموا على أميركم وكساهم قلتسوة قلتسوة، قلت: قد كُسوا. ولكن هذا إسناد ضعيف؛ لحال محمد بن الزبير هذا، والله أعلم. وهكذا حكى الشيخ أبو حامد الإسفراييني في الخف وجهين أيضاً، والصحيح عدم الإجزاء. وقال مالك وأحمد بن حنبل: لا بد أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلى فيه، إن كان رجلاً أو امرأة، كل بحسبه. والله أعلم. وقال العوفي عن ابن عباس: عباءة لكل مسكين، أو ثُملة. وقال مجاهد: أدناه ثوب، وأعله ما شئت. وقال ليث، عن مجاهد: يجرى في كفارة اليمين كل شيء إلا الثُّبان. وقال الحسن، وأبو جعفر الباقر، وعطاء، وطاوس، وإبراهيم النخعي، وحمام بن أبي سليمان، وأبو مالك: ثوب ثوب. وعن إبراهيم النخعي أيضاً: ثوب جامع كالمحفة والرداء، ولا يرى الدرع والقميص والخمار ونحوه جامعاً. وقال الأنصاري، عن أشعث، عن ابن سيرين، والحسن: ثوبان. وقال الثوري، عن داود بن أبي هند، عن سعيد بن المسيب: عمامة يلف بها رأسه، وعباءة يلتحف بها. وقال ابن جرير: حدثنا هُذَّاد، حدثنا ابن المبارك، عن عاصم الأحول، عن ابن سيرين، عن أبي موسى؛ أنه حلف على يمين، فكسا ثوبين من مُعَقَّدَةِ البحرين. وقال ابن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا أحمد بن المعلى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن مقاتل بن سليمان، عن أبي عثمان، عن أبي عياض، عن عائشة، عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿أَوْ كَسَوُوهُمْ﴾، قال: «عباءة لكل مسكين». حديث غريب.

وقوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبٍ﴾: أخذ أبو حنيفة بإطلاقها، فقال: تجزئ الكافرة كما تجزئ المؤمنة. وقال الشافعي وآخرون: لا بد أن تكون مؤمنة. وأخذ تقييدها بالإيمان من كفارة القتل؛ لاتحاد الموجب وإن اختلف السبب، ولحديث معاوية بن الحكم السلمي، الذي هو في موطأ مالك ومسند الشافعي وصحيح مسلم: أنه ذكر أن عليه عتق رقبة، وجاء معه بجارية سوداء، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله. قال: «أعتقها فإنها مؤمنة». الحديث بطوله. فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين، أيها فعَلُ الحائث أجزأ عنه بالإجماع. وقد بدأ بالأسهل فالأسهل، فالإطعام أيسر من الكسوة، كما أن الكسوة أيسر من العتق، فَرَفِيَ فيها من الأدنى إلى الأعلى. فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كفر بصيام ثلاثة أيام، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾. وروى ابن جرير، عن سعيد بن جبيرة والحسن البصري أنهما قالاً: من وجد ثلاثة دراهم لزمه الإطعام وإلا صام. وقال ابن جرير، حاكياً عن بعض متأخري متفقهيه زمانه أنه قال: جائز لمن لم يكن له فضل عن رأس مال يتصرف به لمعاشه ما يكفر به بالإطعام، أن يصوم إلا أن يكون له كفاية، ومن المال ما يتصرف به لمعاشه، ومن الفضل عن ذلك ما يكفر به عن يمينه. ثم اختار ابن جرير: أنه الذي لا يفضل عن قوته وقوت عياله في يومه ذلك ما يخرج به كفارة اليمين.

واختلف العلماء: هل يجب فيها التتابع، أو يستحب ولا يجب ويجزئ التفريق؟ على قولين: أحدهما أنه لا يجب التتابع، هذا منصوص الشافعي في كتاب «الإيمان»، وهو قول مالك، لإطلاق قوله: ﴿فَصِيَامٌ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ﴾ وهو صادق على المجموعة والمفرقة، كما في قضاء رمضان؛ لقوله: ﴿فَصِيَامٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]. ونص الشافعي في موضع آخر في «الأم» على وجوب التتابع، كما هو قول الحنفية والحنابلة؛ لأنه قد روي عن أبي بن كعب وغيرهم أنهم كانوا يقرؤونها: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات». قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب أنه كان يقرؤها: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات». وحكاها مجاهد، والشعبي، وأبو إسحاق عن عبد الله بن مسعود. وقال إبراهيم: في قراءة عبد الله بن مسعود: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات». وقال الأعمش: كان أصحاب ابن مسعود يقرؤونها كذلك. وهذه إذا لم يثبت كونها قرآناً متواتراً، فلا أقل من أن يكون خبر واحد، أو تفسيراً من الصحابي، وهو في حكم المرفوع. وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن علي، حدثنا محمد بن جعفر الأشعري، حدثنا الهيثم بن خالد القرشي، حدثنا يزيد بن قيس، عن إسماعيل بن يحيى، عن ابن عباس قال: لما نزلت آية الكفارات قال حذيفة: يا رسول الله، نحن بالخيار؟ قال: «أنت بالخيار، إن شئت أعتقت، وإن شئت كسوت، وإن شئت أطعمت، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات». وهذا حديث غريب جداً. وقوله: ﴿ذَلِكَ كَثْرَةُ أَيَّامِنَكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيَّامِنَكُمْ﴾ قال ابن جرير: معناه لا تتركوها بغير تكفير. ﴿كَذَلِكَ يبينُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يوضحها وينشرها ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَعَلْنَا لَكُمُ التَّوْبَةَ وَالْأَصَابَ وَاللَّزْمَ يَجُوزُ مِنْ عَنِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوا لَكُمْ تَلَبُّوْنَ ﴿٩٠﴾ لَكُمُ الْيُسْرَى إِن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْقُرْبَى وَالْيُسْرَى وَبَيْنَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَرَبِّهِ وَالْقَوْلُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْشَرُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ

عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْعُ الْكَبِيرُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَيَّاتِينَ ﴿٩٣﴾

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر، وهو القمار. وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال: الشُّطْرُنَجُ من الميسر. رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن عُبَيْس بن مرحوم، عن حاتم، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وَكِيع، عن سفيان، عن لَيْث، عن عطاء ومجاهد وطاوس - قال سفيان: أو اثنين منهم - قالوا: كل شيء من القمار فهو من الميسر، حتى لعب الصبيان بالجوز. وَرُوي عن راشد بن سعد وحمزة بن حبيب، وقالوا: حتى الكعب، والجوز، والبيض التي تلعب بها الصبيان، وقال موسى بن عتبة، عن نافع، عن ابن عمر قال: الميسر هو القمار. وقال الضحاك، عن ابن عباس قال: الميسر هو القمار، كانوا يتقمارون في الجاهلية إلى مجيء الإسلام، فنهاهم الله عن هذه الأخلاق القبيحة. وقال مالك، عن داود بن الْخَصَنِ: أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: كان ميسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين. وقال الزهري، عن الأعرج قال: الميسر والضرب بالقِدَاح على الأموال والثمار. وقال القاسم بن محمد: كل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة، فهو من الميسر. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا صدقة، حدثنا عثمان بن أبي العاتكة، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا هذه الكُعب الموسومة التي يزرع بها زجر فأنها من الميسر». حديث غريب. وكان المراد بهذا هو الترد، الذي ورد في الحديث به في صحيح مسلم، عن بُرَيْدَةَ بن الْخَصْبِ الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «من لعب بالتردة شير فكأنما صَبَغَ يده في لحم خنزير ودَمه». وفي موطأ مالك ومسنَد أحمد، وسنن أبي داود وابن ماجه، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «من لعب بالترد فقد عصى الله ورسوله». وروي موقوفاً عن أبي موسى من قوله، فإله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا مكِّي بن إبراهيم، حدثنا الْجُعَيْد، عن موسى بن عبد الرحمن الخطمي؛ أنه سمع محمد بن كعب وهو يسأل عبد الرحمن يقول: أخبرني، ما سمعت أباك يقول عن رسول الله ﷺ؟ فقال عبد الرحمن: سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثل الذي يلعب بالترد، ثم يقوم فيصلي، مثل الذي يتوضأ بالقَيْح ودم الخنزير ثم يقوم فيصلي». وأما الشطرنج فقد قال عبد الله بن عمر: إنه شر من الترد. وتقدم عن علي أنه قال: هو من الميسر، ونص على تحريمه مالك، وأبو حنيفة، وأحمد، وكرهه الشافعي، رحمهم الله تعالى.

وأما الأنصاب، فقال ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وغير واحد: هي حجارة كانوا يذبحون قربانهم عندها.

وأما الأزلام فقالوا أيضاً: هي قِدَاح كانوا يستقسمون بها.

وقوله: ﴿يَسِّرْ يَنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي سَخَط من عمل الشيطان. وقال سعيد بن جبيرة: إنهم. وقال زيد بن أسلم: أي شر من عمل الشيطان. ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾: الضمير عائذ على الرجس، أي: اتركوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وهذا ترغيب.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْقَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَبِهُونَ﴾ ﴿٩١﴾ وهذا تهديد وترهيب.

ذكر الأحاديث الواردة في بيان تحريم الخمر:

قال الإمام أحمد: حدثنا سَرِيح، حدثنا أبو مَعْشَر، عن أبي وَهْب مولى أبي هريرة، عن أبي هريرة قال: حرمت الخمر ثلاث مرات، قدم رسول الله ﷺ المدينة، وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما، فأنزل الله: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْعُفٌ لِلنَّاسِ﴾ إلى آخر الآية (البقرة: ٢١٩). فقال الناس: ما حرم علينا، إنما قال: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾. وكانوا يشربون الخمر، حتى كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين، أم أصحابه في المغرب، خلط في قراءته، فأنزل الله عز وجل آية أغلظ منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَءُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ شُرَكَاءُ فِي مَا قُلْتُمْ مَا نَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]. وكان الناس يشربون، حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفيق. ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا لَنَنظُرُ وَالْمَيْسِرَ وَالْأَهْوَاءَ وَالْآزْلَامَ يَسِّرْ يَنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿٩٢﴾ قالوا: انتهينا ربنا. وقال الناس: يا رسول الله، ناس قتلوا

في سبيل الله، وناس ماتوا على سرفهم، كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر، وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ إلى آخر الآية، وقال النبي ﷺ: «لو حرم عليهم لتروكه كما تركتم». انفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافياً. فنزلت هذه الآية التي في البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافياً. فنزلت الآية التي في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى: ألا يقربن الصلاة سكران. فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافياً. فنزلت الآية التي في المائدة، فدعي عمر فقرئت عليه فلما بلغ: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ قال عمر: انتهينا. وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من طرق، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعي وعن أبي ميسرة - واسمه عمرو بن شرحبيل الهمداني - عن عمر، به. وليس له عنه سواه، قال أبو زرعة: ولم يسمع منه. وصحح هذا الحديث علي بن المديني والترمذي.

وقد ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قال في خطبته على منبر رسول الله ﷺ: أيها الناس، إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة: من العنب، والتمر، والعسل، والجثغة، والشعير، والخمر ما خامر العقل. وقال البخاري: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا محمد بن بشر، حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، حدثني نافع، عن ابن عمر قال: نزل تحريم الخمر وإن بالمدينة يومئذ خمسة أشربة ما فيها شراب العنب.

حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا محمد بن أبي حميد، عن المصري - يعني أبا طعمة قارئ مصر - قال: سمعت ابن عمر يقول: نزلت في الخمر ثلاث آيات، فأول شيء نزل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ﴾ الآية [البقرة: ٢١٩] فقيل: حرمت الخمر. فقالوا: يا رسول الله، ننتفع بها كما قال الله تعالى. قال: فسكت عنهم ثم نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ [النساء: ٤٣]. فقيل: حرمت الخمر، فقالوا: يا رسول الله، إنا لا نشربها قرب الصلاة، فسكت عنهم ثم نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْمِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَذُنُكُمْ رِجْسٌ مِمَّنَّ عَمِلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَاجْتَنِبُوهُمْ لَعَلَّكُمْ تَقْلَحُونَ﴾ [١٠١] فقال رسول الله ﷺ: «حرمت الخمر».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يعلى، حدثنا محمد بن إسحاق، عن القعقاع بن حكيم؛ أن عبد الرحمن بن وعلّة قال: سألت ابن عباس عن بيع الخمر، فقال: كان لرسول الله ﷺ صديق من ثقيف - أو: من دوس - فلقبه يوم الفتح براوية خمر يهديها إليه، فقال رسول الله ﷺ: «يا فلان، أما علمت أن الله حرمها؟» فاقبل الرجل على غلامه فقال: اذهب فبيعها. فقال رسول الله ﷺ: «يا فلان، بماذا أمرته؟» فقال: أمرته أن يبيعها. قال: «إن الذي حرم شربها حرم بيعها». فأمر بها فأفرغت في البطحاء. رواه مسلم من طريق ابن وهب، عن مالك، عن زيد بن أسلم. ومن طريق ابن وهب أيضاً، عن سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد كلاهما - عن عبد الرحمن بن وعلّة، عن ابن عباس، به. ورواه النسائي، عن قتيبة، عن مالك، به.

حديث آخر: قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا عبد الحميد بن جعفر، عن شهر بن حوشب، عن تميم الداري أنه كان يهدي لرسول الله ﷺ راوية من خمر، فلما أنزل الله تحريم الخمر جاء بها، فلما رآها رسول الله ﷺ ضحك وقال: «إنها قد حرمت بعدك». قال: يا رسول الله، فأبيعها أنتفع بثمرها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لعن الله اليهود، حرم عليهم شحوم البقر والغنم، فأذا به، وباعوه، والله حرم الخمر وثمرتها». وقد رواه أيضاً الإمام أحمد فقال: حدثنا زوّج، حدثنا عبد الحميد بن بهرام قال: سمعت شهر بن حوشب قال: حدثني عبد الرحمن بن غنم: أن الداري كان يهدي لرسول الله ﷺ كل عام راوية من خمر، فلما كان عام حرمت جاء براوية، فلما نظر إليه ضحك فقال: «أشعرت أنها قد حرمت بعدك؟» فقال: يا رسول الله، ألا أبيعها وأنتفع بثمرها؟ فقال: رسول الله ﷺ: «لعن الله اليهود، انطلقوا إلى ما حرم عليهم من شحم البقر والغنم فأذا به، فباعوا به ما يأكلون، وإن الخمر حرام وثمرتها حرام، وإن الخمر حرام وثمرتها حرام».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لهيعة، عن سليمان بن عبد الرحمن، عن نافع بن كيسان أن أباه أخبره: أنه كان يتجر في الخمر في زمن رسول الله ﷺ، وأنه أقبل من الشام ومعه خمر في الزقاق، يريد بها التجارة، فأتى بها رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني جئت بك بشراب طيب، فقال رسول الله ﷺ: «يا كيسان، إنها قد حرمت بعدك».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن حميد، عن أنس قال: كنت أسقي أبا عبيدة بن الجراح، وأبي بن كعب، وسُهَيْل بن بيضاء، ونقرأ من أصحابه عند أبي طلحة وأنا أسقيهم، حتى كاد الشراب يأخذ منهم، فأتى أت من المسلمين فقال: أما شعرتُم أن الخمر قد حرمت؟ فما قالوا: حتى ننظر ونسأل، فقالوا: يا أنس أكف ما بقي في إنائك، فوالله ما عادوا فيها، وما هي إلا التمر والبسر، وهي خمرهم يومئذ. أخرجاه في الصحيحين - من غير وجه - عن أنس. وفي رواية حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس قال: كنتُ ساقِي القوم يوم حُرِّمَت الخمر في بيت أبي طلحة، وما شربهم إلا الفُضَيْخُ البسرُ والتمرُ، فإذا مناد ينادي، قال: أخرج فانظروا. فإذا مناد ينادي: ألا إن الخمر قد حُرِّمَت، فَجَرَّت في مِصْكِكَ المدينة، قال: فقال لي أبو طلحة: أخرج فأفرقها. ففرقتها، فقالوا - أو: قال بعضهم - قُتِلَ فلان وفلان وهي في بطونهم. قال: فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآية.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرني يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن زحر، عن بكر بن سودة، عن قيس بن سعد بن عبادة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن ربي تبارك وتعالى حرم عليّ الخمر، والكؤبة، والقنتين. وإياكم والغيباء فإنها ثلث خمر العالم».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، عن أبي طعمة - مولاهم - وعن عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أنهما سمعا ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «لعنت الخمر على عشرة وجوه: لعنت الخمر بعينها وشاربها، وساقها، وبانئها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وأكل ثمنها». ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث وكيع، به. وقال أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو طعمة، سمعت ابن عمر يقول: خرج رسول الله ﷺ إلى المريد، فخرجت معه فكننت عن يمينه، وأقبل أبو بكر فتأخرت عنه، فكان عن يمينه وكننت عن يساره. ثم أقبل عمر فتنحيت له، فكان عن يساره. فأتى رسول الله ﷺ المريد، فإذا بزقاق على المريد فيها خمر - قال ابن عمر -: فدعاني رسول الله ﷺ بالمديّة - قال ابن عمر: وما عرفت المديّة إلا يومئذ - فأمر بالزقاق فشقت، ثم قال: «لعنت الخمر وشاربها، وساقها، وبانئها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وأكل ثمنها».

وقال أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا أبو بكر بن أبي مريم، عن صفرة بن حبيب قال: قال عبد الله بن عمر: أمرني رسول الله ﷺ أن آتيه بمديدة وهي الشفرة، فأتيته بها فأرسل بها فأرھفت ثم أعطانيتها وقال: «اغد عليّ بها». ففعلت فخرج بأصحابه إلى أسواق المدينة، وفيها زقاق الخمر قد جلبت من الشام، فأخذ المديدة مني فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته، ثم

أعطانيها وأمر أصحابه الذين كانوا معه أن يمشوا معي وأن يعاونوني، وأمرني أن آتي الأسواق كلها فلا أجد فيها زق خمر إلا شققته، ففعلت، فلم أترك في أسواقها زقاً إلا شققته.

حديث آخر: قال عبد الله بن وهب: أخبرني عبد الرحمن بن شريح، وابن لهيعة، والليث بن سعد، عن خالد بن يزيد، عن ثابت بن يزيد الخولاني أخبره: أنه كان له عم يبيع الخمر، وكان يتصدق، فنهته عنها فلم ينته، فقدمت المدينة فتلقيت ابن عباس، فسألته عن الخمر وثمنها، فقال: هي حرام وثمنها حرام. ثم قال ابن عباس، رضي الله عنه: يا معشر أمة محمد، إنه لو كان كتاب بعد كتابكم، ونبي بعد نبيكم، لأنزل فيكم كما أنزل فيمن قبلكم، ولكن آخر ذلك من أمركم إلى يوم القيامة، ولعمري لهو أشد عليكم، قال ثابت: فلقيت عبد الله بن عمر فسألته عن ثمن الخمر، فقال: سأخبرك عن الخمر، إني كنت عند رسول الله ﷺ في المسجد، فبينما هو محتب حلَّ حُبُونُهُ ثم قال: «من كان عنده من هذه الخمر شيء فليأتنا بها». فجمعوا يأتونه، فيقول أحدهم: عندي راوية. ويقول الآخر: عندي زقٌ أو ما شاء الله أن يكون عنده، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا ببيع كذا وكذا ثم آذنوني». ففعلوا، ثم آذنه فقام وقمت معه، فمشيت عن يمينه وهو متكى عليّ، فألحقنا أبو بكر، رضي الله عنه، فأخبرني رسول الله ﷺ، فجعلني عن شماله، وجعل أبا بكر مكاني. ثم لحقنا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فأخبرني، وجعله عن يساره، فمشى بينهما. حتى إذا وقف على الخمر قال للناس: «أتعرفون هذه؟» قالوا: نعم، يا رسول الله، هذه الخمر. قال: «صدقتم». قال: «فإن الله لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها، وشاربها وساقها، وحاملها والمحمولة إليه، وبائعها ومشتريها وأكل ثمنها». ثم دعا بسكين فقال: «اشحذوها». ففعلوا، ثم أخذها رسول الله ﷺ يخرق بها الزقاق، قال: فقال الناس: في هذه الزقاق منفعة، قال: «أجل، ولكني إنما أفعل ذلك غضباً لله، ﷻ، لما فيها من سخطه». فقال عمر: أنا أكفيك يا رسول الله؟ قال: «لا». قال ابن وهب: وبعضهم يزيد على بعض في قصة الحديث. رواه البيهقي.

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو الحسين بن بشران، أنبأنا إسماعيل بن محمد الصفار، حدثنا محمد بن عبيد الله المنادي، حدثنا وهب بن جرير، حدثنا شعبة، عن سِمَاك، عن مصعب بن سعد، عن سعد، قال: أنزلت في الخمر أربع آيات، فذكر الحديث. قال: وصنع رجل من الأنصار طعاماً، فدعانا فشرينا الخمر قبل أن تحرم حتى انتشينا، فتفاخرنا، فقالت الأنصار: نحن أفضل. وقالت قريش: نحن أفضل. فأخذ رجل من الأنصار لخي جَزُور، فضرب به أنف سعد ففزره، وكان أنف سعد مفزوراً. فنزلت آية الخمر: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَاللَّبِيرُ وَالْأَصَابُ وَالْأَكْزَمُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾، أخرجه مسلم من حديث شعبة.

حديث آخر: قال البيهقي: وأخبرنا أبو نصر بن قتادة، أنبأنا أبو علي الرفاء، حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا حجاج بن منهل، حدثنا ربيعة بن كلثوم، حدثني أبي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار، شربوا فلما أن ثمل القوم عبث بعضهم ببعض، فلما أن صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ورأسه ولحيته، فيقول: صنع بي هذا أخي فلان. وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن، - والله لو كان بي رؤوفاً رحيماً ما صنع هذا بي، حتى وقعت الضغائن في قلوبهم فأنزل الله هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَاللَّبِيرُ وَالْأَصَابُ وَالْأَكْزَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩١) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَاللَّبِيرِ وَيَذِّكُم بِذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ (٩٢) فقال ناس من المتكلفين: هي رجس، وهي في بطن فلان، وقد قتل يوم أحد، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٣). ورواه النسائي في التفسير عن محمد بن عبد الرحيم صاعقة، عن حجاج بن منهل.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثني محمد بن خلف، حدثنا سعيد بن محمد الجزمي، عن أبي ثُمَيْلَةَ، عن سلام مولى حفص أبي القاسم، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: بينا نحن قُعُودٌ على شراب لنا، ونحن زُمَّة، ونحن ثلاثة أو أربعة، وعندنا باطية لنا، ونحن نشرب الخمر حلاً، إذ قمت حتى آتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه، إذ نزل تحريم الخمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَاللَّبِيرُ وَالْأَصَابُ وَالْأَكْزَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩١) ؟ فجئت إلى أصحابي فقرأتها إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ ؟ قال: وبعض القوم شربته في يده، قد شرب بعضها وبقي بعض في الإناء، فقال بالإناء تحت شفته العليا، كما يفعل الحجام، ثم صبوا ما في باطيتهم فقالوا: انتهينا ربنا.

حديث آخر: قال البخاري: حدثنا صَدَقَةُ بن الفضل، أخبرنا ابن عُيَيْنَةَ، عن عمرو، عن جابر قال: صَبَّحَ ناس غداة أحد الخمر، فَقَتَلُوا من يومهم جميعاً شهداء، وذلك قبل تحريمها. هكذا رواه البخاري في تفسيره من صحيحه، وقد رواه الحافظ أبو

بكر البزار في مسنده: حدثنا أحمد بن عتبة، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار سمع جابر بن عبد الله يقول: اصطبح ناس الخمر من أصحاب النبي ﷺ، ثم قتلوا شهداء يوم أحد، فقالت اليهود: فقد مات بعض الذين قتلوا وهي في بطونهم، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ ثم قال: وهذا إسناد صحيح. وهو كما قال، ولكن في سياقه غرابة.

حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب قال: لما نزل تحريم الخمر قالوا: كيف بمن كان يشربها قبل أن تحرم؟ فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآية. ورواه الترمذي عن بُنْدَار، عن عُثْدَر، عن شعبة، به نحوه. وقال: حسن صحيح.

حديث آخر: قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا جعفر بن حميد الكوفي، حدثنا يعقوب القمي، عن عيسى بن جارية، عن جابر بن عبد الله قال: كان رجل يحمل الخمر من خيبر إلى المدينة فيبيعهها من المسلمين، فحمل منها بمال فقدم بها المدينة، فلقبه رجل من المسلمين فقال: يا فلان، إن الخمر قد حُرمت فوضّعها حيث انتهى على تلّ، وسجى عليها بأكسية، ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، بلغني أن الخمر قد حُرمت؟ قال: «أجل». قال: لي أن أردّها على من ابتعتها منه؟ قال: «لا يصلح ردّها». قال: لي أن أهدبها إلى من يكافئني منها؟ قال: «لا». قال: فإن فيها مالاً ليتامي في حجرى! قال: «إذا أتانا مال البحرين فأتنا نعوّض أيتامك من مالهم». ثم نادى بالمدينة، فقال رجل: يا رسول الله، الأوعية نتنفع بها؟ قال: «فحلّوها أو كبتها». فانصبت حتى استقرت في بطن الوادي، هذا حديث غريب.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن السدي، عن أبي هبيرة - وهو يحيى بن عبّاد الأنصاري - عن أنس بن مالك: أن أبا طلحة سأل النبي ﷺ عن أيتام في حجره ورثوا خمرأ، فقال: «أعرقها». قال: أفلا نجعلها خلأ؟ قال: «لا». ورواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، من حديث الثوري، به نحوه.

حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة، حدثنا هلال بن أبي هلال، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو قال: إن هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْمِرُ وَالْأَنسَابُ وَالْأَلَافُ يَجْتَمِعُونَ عَلَى الْفِتَنِ فَاجْتَبُوا لَكُمْ قُلُوبَكُمْ﴾ قال: هي في التوراة: «إن الله أنزل الحق ليذهب به الباطل، ويبطل به اللعب، والمزامير، والزُفَن، والكِبَارَات - يعني البرابط - والزمارات - يعني به الدف - والطنابير والشعر، والخمر مرة لمن طعمها. أقسم الله بيمينه وعزة خيله من شربها بعدما حرمتها لأعطشته يوم القيامة، ومن تركها بعدما حرمتها لأسقيته إياها في حظيرة القدس». وهذا إسناد صحيح.

حديث آخر: قال عبد الله بن وهب: أخبرني عمرو بن الحارث: أن عمرو بن شعيب حدثهم، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ﷺ قال: «من ترك الصلاة سكرأ مرة واحدة، فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسلبها، ومن ترك الصلاة سكرأ أربع مرات، كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال». قيل: وما طينة الخبال؟ قال: «عصارة أهل جهنم». ورواه أحمد، من طريق عمرو بن شعيب.

حديث آخر: قال أبو داود: حدثنا محمد بن رافع، حدثنا إبراهيم بن عمر الصنعاني، قال: سمعت النعمان - هو ابن أبي شيبه الجندى - يقول عن طاوس، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «كل مخمّر خمر، وكل مُسكر حرام، ومن شرب مسكرأ بخست صلاته أربعين صباحاً، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال». وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: «صديد أهل النار، ومن سقاء صغيراً لا يعرف حلاله من حرامه، كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال». تفرد به أبو داود.

حديث آخر: قال الشافعي، رحمه الله: أنبأنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «من شرب الخمر في الدنيا، ثم لم يتب منها حُرّمها في الآخرة». أخرجه البخاري ومسلم، من حديث مالك، به. وروى مسلم عن أبي الربيع، عن حماد بن زيد، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مُسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر فمات وهو يُدَمّنها ولم يتب منها لم يشربها في الآخرة».

حديث آخر: قال ابن وهب: أخبرني عمر بن محمد، عن عبد الله بن يسار: أنه سمع سالم بن عبد الله يقول: قال عبد الله بن عمر: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمُذمّن الخمر، والمثان بما

أعطى». ورواه النسائي، عن عمرو بن علي، عن يزيد بن زُرَيْع، عن عمر بن محمد العُمري، به. وروى أحمد، عن عُثْمَر، عن شعبة، عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة مئان ولا عاق، ولا مُدْمِن خمر». ورواه أحمد أيضاً، عن عبد الصمد، عن عبد العزيز بن مسلم، عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، به. وعن مروان بن شجاع، عن خُصيف، عن مجاهد، به. ورواه النسائي عن القاسم بن زكريا، عن الحسين الجعفي، عن زائدة، عن ابن أبي زياد، عن سالم بن أبي الجعد ومجاهد، كلاهما عن أبي سعيد، به.

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا سفيان، عن منصور، عن سالم بن أبي الجعد، عن جابان، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة عاق، ولا مُدْمِن خمر، ولا مئان، ولا ولد زنية». وكذا رواه عن يزيد، عن همام، عن منصور، عن سالم، عن جابان، عن عبد الله بن عمرو، به. وقد رواه أيضاً عن عُثْمَر وغيره، عن شعبة، عن منصور، عن سالم، عن نُبَيْط بن شَرِيط، عن جابان، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة مئان، ولا عاق والديه، ولا مدمن خمر». ورواه النسائي، من حديث شعبة كذلك، ثم قال: ولا نعلم أحداً تابع شعبة عن نُبَيْط بن شريط. وقال البخاري: لا يعرف لجابان سماع من عبد الله، ولا لسالم من جابان ولا نُبَيْط. وقد روي هذا الحديث من طريق مجاهد، عن ابن عباس - ومن طريقه أيضاً، عن أبي هريرة، فإله أعلم. وقال الزهري: حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، أن أباه قال: سمعت عثمان بن عفان يقول: اجتنبوا الخمر، فإنها أم الخباثت، إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس، فعلقته امرأة غرية، فأرسلت إليه جاريته فقالت: إنا ندعوك لشهادة. فدخل معها، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضئته عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك لشهادة ولكني دعوتك لتقع علي أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب هذا الخمر. فسفته كاساً، فقال: زيدوني، فلم يرم حتى وقع عليها، وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبداً إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه. رواه البيهقي، وهذا إسناد صحيح. وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا في كتابه «ذم المسكر» عن محمد بن عبد الله بن بزيع، عن الفضيل بن سليمان التميمي، عن عمر بن سعيد، عن الزهري، به مرفوعاً. والموقوف أصح، والله أعلم. وله شاهد في الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق سرقة حين يسرقها وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن».

وقال أحمد بن حنبل: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا إسرائيل، عن سيمك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما حرمت الخمر قال أناس: يا رسول الله، أصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها؟ فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآية. قال: ولما حُولت القبلة قال أناس: يا رسول الله، أصحابنا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ لِمِشْكُتِكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقال الإمام أحمد: حدثنا داود بن مهران الدباغ، حدثنا داود - يعني العطار - عن ابن خُفَيْم، عن شهر بن حَوْشَب، عن أسماء بنت يزيد، أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «من شرب الخمر لم يَرْضَ الله عنه أربعين ليلة، إن مات مات كافراً، وإن تاب تاب الله عليه. وإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال». قالت: قلت: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: «صديد أهل النار». وقال الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال لما نزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا﴾ فقال النبي ﷺ: «قيل لي: أنت منهم». وهكذا رواه مسلم، والترمذي، والنسائي، من طريقه. وقال عبد الله بن أحمد: قرأت على أبي، حدثنا علي بن عاصم، حدثنا إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم وهاتان الكعبتان المومتان اللتان تزرعان زجراً، فإنهما ميسر العجم».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ لِلَّهِ خِطَابٌ مِمَّنْ يَبْغُو مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَن أَعَدَّكَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَذَا نَبِغُ الْكَفَرَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعْمًا مِّنْكَ يَوْمَ ذَلِكَ صَبَاً لِّذَوِّ قُلُوبٍ وَبِأَمْرِ اللَّهِ عَا سَلَفٌ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (١٢)

قال الوالبي، عن ابن عباس قوله: ﴿لَبِئْسَ لِلَّهِ خِطَابٌ مِمَّنْ يَبْغُو مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ قال: هو الضعيف من الصيد وصغيره، يبتلي الله به عباده في إحرامهم، حتى لو شأوا ويتناولونه بأيديهم. فنهاهم الله أن يقرّبوه. وقال مجاهد: «تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ» يعني: صغار الصيد وفراخه «وَرِمَاحُكُمْ» يعني: كبارها. وقال مقاتل بن حَيَّان: أنزلت هذه الآية في عُمره الحُدُويَّة، فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم في رحالهم، لم يروا مثله قط فيما خلا، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون. ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ يعني: أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم، يتمكنون من أخذه بأيديهم والرماح سراً وجهراً، ليظهر طاعة من يطيع

منهم في سره وجهه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ تَقْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]. وقوله ههنا: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ﴾ قال السدي وغيره. يعني بعد هذا الإعلام والإنذار والتقدم ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: لمخالفته أمر الله وشرعه.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾. وهذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد في حال الإحرام، ونهي عن تعاطيه فيه. وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول وما يتولد منه ومن غيره، فأما غير المأكول من حيوانات البر، فعند الشافعي يجوز للمحرم قتلها. والجمهور على تحريم قتلها أيضاً، ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت في الصحيحين من طريق الزهري، عن عُرْوَةَ، عن عائشة أم المؤمنين؛ أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فَوَاسِقُ يُقْتَلْنَ فِي الْجَلِّ وَالْحَرَمِ: الْغُرَابُ وَالْحِدَاةُ، وَالْعَقْرَبُ، وَالْفَأْرَةُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ». وقال مالك، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهن جُنَاحٌ: الْغُرَابُ، وَالْحِدَاةُ، وَالْعَقْرَبُ، وَالْفَأْرَةُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ». أخرجه. ورواه أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، مثله. قال أيوب، قلت لنافع: فالحية؟ قال: الحية لا شك فيها، ولا يختلف في قتلها.

ومن العلماء - كمالك وأحمد - من ألحق بالكلب العقور الذئب، والشيء، والثَّور، والفهد؛ لأنها أشد ضرراً منه فله أعلم. وقال سفيان بن عيينة وزيد بن أسلم: الكلب العقور يشمل هذه السباع العادية كلها. واستأنس من قال بهذا بما روي أن رسول الله ﷺ لما دعا على عتبة بن أبي لهب قال: «اللهم سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبَكَ بِالشَّامِ». فأكله السبع بالزرقاء، قالوا: فإن قتل ما عداهن قَدْأها كالضبع والثعلب وهر البر ونحو ذلك. قال مالك: وكذا يستثنى من ذلك صغار هذه الخمس المنصوص عليها، وصغار الملحق بها من السباع العوادي. وقال الشافعي رحمه الله: يجوز للمحرم قتل كل ما لا يؤكل لحمه، ولا فرق بين صغاره وكباره. وجعل العلة الجامعة كونها لا تؤكل. وقال أبو حنيفة: يقتل المحرم الكلب العقور والذئب؛ لأنه كلب بري، فإن قتل غيرهما قَدْأه، إلا أن يصول عليه سبع غيرهما فيقتله فلا فداء عليه. وهذا قول الأوزاعي، والحسن بن صالح بن حيي. وقال زُفَر بن الهذيل: يفدي ما سوى ذلك وإن صال عليه. وقال بعض الناس: المراد بالغراب ههنا الأبقع، وهو الذي في بطنه وظهره بياض، دون الأدرع وهو الأسود، والأعصم وهو الأبيض؛ لما رواه النسائي عن عمرو بن علي القَلَّاس، عن يحيى القَطَّان، عن شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «خمس يقتلن المحرم: الحية، والفأرة، والحداة، والغراب الأبقع، والكلب العقور». والجمهور على أن المراد به أعم من ذلك؛ لما ثبت في الصحيحين من إطلاق لفظه. وقال مالك، رحمه الله: لا يقتل المحرم الغراب إلا إذا صال عليه وآذاه. وقال مجاهد بن جَبْر وطائفة: لا يقتله بل يرميه. ويروى مثله عن علي. وقد روى هُشَيْم: حدثنا يزيد بن أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي نُعْم، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ؛ أنه سئل عما يقتل المحرم، فقال: «الحية، والعقرب، والفَوْسِيفَةُ، ويرمي الغراب ولا يقتله، والكلب العقور، والحداة، والسبع العادي».

رواه أبو داود عن أحمد بن حنبل، والترمذي عن أحمد بن منيع، كلاهما عن هشيم. وابن ماجه، عن أبي كريم، عن محمد بن فضيل، كلاهما عن يزيد بن أبي زياد، وهو ضعيف، به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن عُليَّة، عن أيوب قال: نبئت عن طاوس قال: لا يحكم على من أصاب صيداً خطأ، إنما يحكم على من أصابه متعمداً. وهذا مذهب غريب عن طاوس، وهو متمسك بظاهر الآية. وقال مجاهد بن جبر: المراد بالمتعمد هنا: القاصد إلى قتل الصيد، الناسي لإحرامه. فأما المتعمد لقتل الصيد مع ذكره لإحرامه، فذاك أمره أعظم من أن يكفر، وقد بطل إحرامه. رواه ابن جرير عنه من طريق ابن أبي نَجِيح وليث بن أبي سليم وغيرهما، عنه. وهو قول غريب أيضاً. والذي عليه الجمهور أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه. قال الزهري: دل الكتاب على العامد، وجرت السنة على الناسي، ومعنى هذا أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد وعلى تأنيبه بقوله: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهُ﴾ عَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَنَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ، وجاءت السنة من أحكام النبي ﷺ وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ، كما دل الكتاب عليه في العمد، وأيضاً فإن قتل الصيد إتلاف، والإتلاف مضمون في العمد وفي النسيان، لكن المتعمد ماثوم والمخطئ غير ماثوم. وقوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾: وحكى ابن جرير أن ابن مسعود قرأها: ﴿فَجَزَاؤُهُ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾. وفي قوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ على كل من القراءتين دليل لما ذهب إليه مالك، والشافعي، وأحمد، والجمهور من وجوب الجزاء من مثل ما قتله المحرم، إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي، خلافاً لأبي حنيفة، رحمه الله، حيث أوجب القيمة سواء كان الصيد المقتول مثلياً أو غير مثلي، قال:

وهو مخير إن شاء تصدق بشمته، وإن شاء اشترى به هدياً. والذي حكم به الصحابة في المثل أولى بالاتباع، فإنهم حكموا في النعمة ببذنه، وفي بقرة الوحش ببقرة، وفي الغزال بعنز، وذكر قضايا الصحابة وأسانيدها مقرر في كتاب «الأحكام»، وأما إذا لم يكن الصيد مثلياً فقد حكم ابن عباس فيه بشمته، يحمل إلى مكة. رواه البيهقي.

وقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ يعني أنه يحكم بالجزاء في المثل، أو القيمة في غير المثل، عدلان من المسلمين، واختلف العلماء في القاتل: هل يجوز أن يكون أحد الحكمين؟ على قولين: أحدهما: لا؛ لأنه قد يُتهم في حكمه على نفسه، وهذا مذهب مالك.

والثاني: نعم؛ لعموم الآية. وهو مذهب الشافعي، وأحمد. واحتج الأولون بأن الحاكم لا يكون محكوماً عليه في صورة واحدة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين، حدثنا جعفر - هو ابن بُرقان - عن ميمون بن مهران؛ أن أعرابياً أتى أبا بكر قال: قتلتي صيداً وأنا محرم، فما ترى علي من الجزاء؟ فقال أبو بكر، رضي الله عنه، لأبي بن كعب وهو جالس عنده: ما ترى فيما قال؟ فقال الأعرابي: أتيتك وأنت خليفة رسول الله ﷺ أسألك، فإذا أنت تسأل غيرك؟ فقال أبو بكر: وما تنكر؟ يقول الله تعالى: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قُتِلَ مِنْ أَلْفِهِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فشاورت صاحبي حتى إذا اتفقتا على أمر أمرناك به. وهذا إسناد جيد، لكنه منقطع بين ميمون وبين الصديق، ومثله يحتمل لهما. فبين له الصديق الحكم برفق وثؤدة، لما رآه أعرابياً جاهلاً، وإنما دواء الجهل التعليم، فأما إذا كان المعترض منسوباً إلى العلم، فقد قال ابن جرير: حدثنا هناد وأبو هشام الرقاعي قالا: حدثنا وكيع بن الجراح، عن المسعودي، عن عبد الملك بن عمير، عن قبيصة بن جابر قال: خرجنا حجاجاً، فكنّا إذا صلينا الغداة اقتدنا وواحلنا تنامشي نتحدث، قال: فبينما نحن ذات غداة إذ سنع لنا ظبي - أو: برح - فرماه رجل كان معنا بحجر فما أخطأ حُشَاءً فركب رذعه ميتاً، قال: فَعَطَلْنَا عليه، فلما قدمنا مكة خرجت معي حتى أتينا عمر، رضي الله عنه، قال: فقص عليه القصة قال: وإلى جنبه رجل كان وجهه قلب فضة - يعني عبد الرحمن بن عوف - فالتفت عمر إلى صاحبه فكلمه قال: ثم أقبل على الرجل فقال: أعمدأ قتلته أم خطأ؟ قال الرجل: لقد تعمدت رميه، وما أردت قتله. فقال عمر: ما أراك إلا قد أشركت بين العمد والخطأ، اعمد إلى شاة فاذبها فتصدق بلحمها واستبق إهابها. قال: فقمنا من عنده، فقلت لصاحبي: أيها الرجل، عظم شعائر الله، فما درى أمير المؤمنين ما يفتيك حتى سأل صاحبه: اعمد إلى ناقتك فانحرها، ففعل ذلك. قال قبيصة: ولا أذكر الآية من سورة المائدة: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ قال: فبلغ عمر مقالتي، فلم يفجاناً منه إلا ومعه الذرة. قال: فعلا صاحبي ضرباً بالدرّة، وجعل يقول: أقتلت في الحرم وسفّهت الحكم؟ قال: ثم أقبل عليّ فقلت: يا أمير المؤمنين، لا أحل لك اليوم شيئاً يغرم عليك مني، قال: يا قبيصة بن جابر، إني أراك شاب السن، فسيح الصدر، بين اللسان، وإن الشاب يكون فيه تسعة أخلاق حسنة وخلق سيئ، فيفسد الخلق السيئ الأخلاق الحسنة، فإياك وعثرات الشباب. وقد روى هشيم هذه القصة، عن عبد الملك بن عمير، عن قبيصة، بنحوه. ورواها أيضاً عن حصين، عن الشعبي، عن قبيصة، بنحوه. وذكرها مرسله عن عُمر: بكر بن عبد الله المزني، ومحمد بن يسيرين.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا شعبة، عن منصور، عن أبي وائل، أخبرني أبو جرير البجليّ قال: أصبت ظبياً وأنا محرم، فذكرت ذلك لعمر، فقال: ائت رجلين من إخوانك فليحكما عليك. فأتيت عبد الرحمن وسعداً فحكما عليّ بتيس أعفر. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا ابن عيينة، عن مخارق، عن طارق قال: أوطأ أريد ظبياً فقتلته وهو محرم فأني عمر؛ ليحكم عليه، فقال له عمر: احكم معي، فحكما فيه جدياً، قد جمع الماء والشجر. ثم قال عمر: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾. وفي هذا دلالة على جواز كون القاتل أحد الحكمين، كما قاله الشافعي وأحمد، رحمهما الله.

واختلفوا: هل تستأنف الحكومة في كل ما يصيبه المحرم، فيجب أن يحكم فيه ذوا عدل، وإن كان قد حكم من قبله الصحابة، أو يكتفى بأحكام الصحابة المتقدمة؟ على قولين، فقال الشافعي وأحمد: يتبع في ذلك ما حكمت به الصحابة، وجعله شرعاً مقررّاً لا يعدل عنه، وما لم يحكم فيه الصحابة يرجع فيه إلى عدلين. وقال مالك وأبو حنيفة: بل يجب الحكم في كل فرد فرد، سواء وجد للصحابة في مثله حكم أم لا؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ﴾ أي: واصلاً إلى الكعبة، والمراد وصوله إلى الحرم، بأن يذبح هناك، ويفرق لحمه على مساكن الحرم. وهذا أمر متفق عليه في هذه الصورة. وقوله: ﴿أَوْ كَثْرَةً مِّمَّا مَسَكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ أي: إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال، أو قلنا بالتخيير في هذا المقام من الجزاء والإطعام والصيام، كما هو قول مالك، وأبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد بن الحسن، وأحد قولي الشافعي، والمشهور عن أحمد

رحمهم الله، لظاهر الآية «أو» فإنها للتخيير. والقول الآخر: أنها على الترتيب. فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة، فيقوم الصيد المقتول عند مالك، وأبي حنيفة وأصحابه، وحما، وإبراهيم. وقال الشافعي: يقوم مثله من النعم لو كان موجوداً، ثم يشتري به طعام ويتصدق به، فيصرف لكل مسكين مَدّاً منه عند الشافعي، ومالك، وفقهاء الحجاز، واختاره ابن جرير. وقال أبو حنيفة وأصحابه: يُطعم كل مسكين مُدّين، وهو قول مجاهد. وقال أحمد: مُدّ من حنطة، أو مدان من غيره. فإن لم يجد، أو قلنا بالتخيير، صام عن إطعام كل مسكين يوماً. وقال ابن جرير: وقال آخرون: يصوم مكان كل صاع يوماً. كما في جزاء المترفة بالحلقي ونحوه، فإن الشارع أمر كعب بن عُجْرة أن يطعم فَرَقاً بين ستة، أو يصوم ثلاثة أيام، والفَرَق ثلاثة أصع. واختلفوا في مكان هذا الإطعام، فقال الشافعي: محله الحرم، وهو قول عطاء. وقال مالك: يطعم في المكان الذي أصاب فيه الصيد، أو أقرب الأماكن إليه. وقال أبو حنيفة: إن شاء أطعم في الحرم، وإن شاء أطعم في غيره.

ذكر أقوال السلف في هذا المقام:

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، حدثنا جرير، عن منصور، عن الحكم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَفَّهِ أَوْ كَفَّرَهُ طَعَامًا مَسْكِينٍ أَوْ عَدَلَ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ قال: إذا أصاب المحرم الصيد حكم عليه جزاؤه من النعم، فإن وجد جزاءه، ذبحه فتصدق به. وإن لم يجد نظر كم ثمنه، ثم قوم ثمنه طعاماً، فصام مكان كل نصف صاع يوماً، قال: ﴿أَوْ كَفَّرَهُ طَعَامًا مَسْكِينٍ أَوْ عَدَلَ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ قال: إنما أريد بالطعام الصيام، إنه إذ وجد الطعام وجد جزاؤه. ورواه ابن جرير، من طريق جرير. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَفَّهِ أَوْ كَفَّرَهُ طَعَامًا مَسْكِينٍ أَوْ عَدَلَ ذَلِكَ صِيَامًا﴾: إذا قتل المحرم شيئاً من الصيد، حكم عليه فيه. فإن قتل طلياً أو نحوه، فعليه شاة تذبح بمكة. فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام. فإن قتل إبلأً أو نحوه، فعليه بقرة. فإن لم يجدها أطعم عشرين مسكيناً. فإن لم يجد صام عشرين يوماً. وإن قتل نعاماً أو حمازاً وحشاً أو نحوه، فعليه بدنة من الإبل. فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكيناً. فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وزاد: والطعام مُدٌّ تسبعهم. وقال جابر الجعفي، عن عامر الشعبي وعطاء ومجاهد: ﴿أَوْ عَدَلَ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ قالوا: إنما الطعام لمن لا يبلغ الهدى. رواه ابن جرير. وكذا روى ابن جُرَيْج عن مجاهد، وأسابط عن السدي أنها على الترتيب. وقال عطاء، وعكرمة، ومجاهد - في رواية الضحاك - وإبراهيم النخعي: هي على الخيار. وهو رواية الليث، عن مجاهد، عن ابن عباس. واختار ذلك ابن جرير، رحمه الله تعالى. وقوله: ﴿يَذُوقْ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ أي: أوجبنا عليه الكفارة ليدوق عقوبة فعله الذي ارتكب فيه المخالفة ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ سَلَفٌ﴾ أي: في زمان الجاهلية، لمن أحسن في الإسلام واتباع شرع الله، ولم يرتكب المعصية. ثم قال: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ أي: ومن فعل ذلك بعد تحريمه في الإسلام وبلوغ الحكم الشرعي إليه فينتقم الله منه ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ قال ابن جُرَيْج، قلت لعطاء: ما ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ سَلَفٌ﴾ قال: عما كان في الجاهلية. قال: قلت: وما ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾؟ قال: ومن عاد في الإسلام، فينتقم الله منه، وعليه مع ذلك الكفارة، قال: قلت: فهل في العود حدٌ تعلمه؟ قال: لا. قال: قلت: فترى حقاً على الإمام أن يعاقبه؟ قال: لا، هو ذنب أذنبه فيما بينه وبين الله، ﷻ، ولكن يفتدى. رواه ابن جرير.

وقيل معناه: فينتقم الله منه بالكفارة. قاله سعيد بن جبيرة، وعطاء. ثم الجمهور من السلف والخلف، على أنه متى قتل المحرم الصيد وجب الجزاء، ولا فرق بين الأولى والثانية، وإن تكرر ما تكرر، سواء الخطأ في ذلك والعمد. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: من قتل شيئاً من الصيد خطأ، وهو محرم، يحكم عليه فيه كلما قتله، وإن قتله عمداً يحكم عليه فيه مرة واحدة، فإن عاد يقال له: ينتقم الله منك، كما قال الله، ﷻ. وقال ابن جرير: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا يحيى بن سعيد وابن أبي عدي جميعاً، عن هشام - هو ابن حسان - عن عكرمة، عن ابن عباس فيمن أصاب صيداً فحكم عليه ثم عاد، قال: لا يحكم عليه، ينتقم الله منه. وهكذا قال شُرَيْح، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، والحسن البصري، وإبراهيم النخعي. رواه ابن جرير، ثم اختار القول الأول. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا العباس بن يزيد العبدي، حدثنا الْمُعْتَمِر بن سليمان، عن زيد أبي المعلى، عن الحسن البصري: أن رجلاً أصاب صيداً، فتجوز عنه، ثم عاد فأصاب صيداً آخر، فنزلت نار من السماء فأحرقتة فهو قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾. وقال ابن جرير في قوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ يقول عز ذكره: والله منيع في سلطانه لا يقهره قاهر، ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه، ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع؛ لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، له العزة والمنعة. وقوله: ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ يعني: أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه.

﴿أَجَلٌ لَّكُمْ صَيِّدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتْنًا لَّكُمْ وَلِلْبَيْتَةِ وَحِمٌ عَلَيْكُمْ صَيِّدُ الْبَحْرِ مَا دُمْتُ حُرْمًا وَأَتَقُوا اللَّهَ الْغَوِيَّ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٩٦) ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَفَّيَّةَ الْكِرَامِ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْقَدَى وَالْقَدَى ذَلِكَ لِيَسْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَسْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٩٧) ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩٨) ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (٩٩).

قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس - في رواية عنه - وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وغيرهم في قوله: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ صَيِّدُ الْبَحْرِ﴾ يعني: ما يصطاد منه طرياً ﴿وَطَعَامُهُ﴾: ما يتزود منه مليحاً يابساً. وقال ابن عباس في الرواية المشهورة عنه: صيده ما أخذ منه حياً ﴿وَطَعَامُهُ﴾: ما لفظه ميتاً. وهكذا روي عن أبي بكر الصديق وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر، وأبي أيوب الأنصاري، رضي الله عنهم، وعكرمة، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، وإبراهيم النخعي، والحسن البصري. قال سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن أبي بكر الصديق أنه قال: ﴿وَطَعَامُهُ﴾: كل ما فيه. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن مغيرة، عن سماك قال: حَدَّثْتُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: خُطِبَ أَبُو بَكْرٍ النَّاسَ فَقَالَ: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ صَيِّدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتْنًا لَّكُمْ﴾: وطعامه ما قذف. قال: وحدثننا يعقوب، حدثنا ابن عُليَّة، عن سليمان التيمي، عن أبي مِجْلَز، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ صَيِّدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ قال: ﴿وَطَعَامُهُ﴾: ما قذف. وقال عكرمة، عن ابن عباس قال: ﴿وَطَعَامُهُ﴾: ما لفظ من ميتة. ورواه ابن جرير أيضاً. وقال سعيد بن المسيب: طعامه ما لفظه حياً، أو حسر عنه فمات. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بُشَّار، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا أيوب، عن نافع؛ أن عبد الرحمن بن أبي هريرة سأل ابن عمر فقال: إن البحر قد قذف حيثناً كثيراً ميتاً أفناكله؟ فقال: لا تأكلوه. فلما رجع عبد الله إلى أهله أخذ المصحف فقرأ سورة المائدة، فاتى هذه الآية: ﴿وَطَعَامُهُ مَتْنًا لَّكُمْ وَلِلْبَيْتَةِ﴾ فقال: اذهب فقل له فليأكله، فإنه طعامه. وهكذا اختار ابن جرير أن المراد بطعامه ما مات فيه، قال: وقد روي في ذلك خبر، وإن بعضهم يرويه موقوفاً. حدثنا هناد بن السري قال: حدثنا عبدة بن سليمان، عن محمد بن عمرو، حدثنا أبو سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ صَيِّدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتْنًا لَّكُمْ﴾ قال: «طعامه: ما لفظه ميتاً». ثم قال: وقد وقف بعضهم هذا الحديث على أبي هريرة: حدثنا هناد، حدثنا ابن أبي زائدة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة في قوله: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ صَيِّدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ قال: طعامه: ما لفظه ميتاً.

وقوله: ﴿مَتْنًا لَّكُمْ وَلِلْبَيْتَةِ﴾ أي: منفعة وفوتاً لكم أيها المخاطبون ﴿وَلِلْبَيْتَةِ﴾ وهو جمع سيار. قال عكرمة: لمن كان بحضرة البحر، وللسيارة: السفر. وقال غيره: الطري منه لمن يصطاده من حاضرة البحر، و ﴿وَطَعَامُهُ﴾: ما مات فيه أو اصطيد منه ومُلِحَ وَقُدِّ زَادًا للمسافرين والناتين عن البحر. وقد روي نحوه عن ابن عباس، ومجاهد، والسدي وغيرهم. وقد استدلل جمهور العلماء على حل ميتة البحر، بهذه الآية الكريمة، وبما رواه الإمام مالك بن أنس، عن وَهْبِ بْنِ كَيْسَانَ، عن جابر بن عبد الله قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً قِبَلَ الساحل، فأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح، وهم ثلاثمائة، قال: وأنا فيهم. قال: فخرجنا، حتى إذا كنا ببعض الطريق فني الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش، فجمع ذلك كله، فكان مزودتي تمر، قال: فكان يُقَوِّتُنَا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فني، فلم يكن يصيبنا إلا ثمرة تمر. فقلت: وما تغني ثمرة؟ فقال: فقد وجدنا فقدناها حين فنيتم، قال: ثم انتهينا إلى البحر، فإذا حوت مثل الظرب، فأكل منه ذلك الجيش ثمانين عشرة ليلة. ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا، ثم أمر براحلة فرحلت، ومرت تحتها فلم تصبهما. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين، وله طرق عن جابر.

وفي صحيح مسلم من رواية أبي الزبير، عن جابر: فإذا على ساحل البحر مثل الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا بدابة يقال لها: الغنبر قال: قال أبو عبيدة: ميتة، ثم قال: لا، نحن رسل رسول الله ﷺ وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكلوا قال: فأقمنا عليه شهراً ونحن ثلاثمائة حتى سمننا. ولقد رأيتنا نتغترف من وُجْبِ عينه بالقلال الدهن، ونقتطع منه الفدر كالثور، أو: قَدَّرَ الثور، قال: ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً، فأقعدهم في وُجْبِ عينه، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها، ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من تحتها، وتزودنا من لحمه وشاتق. فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ، فذكرنا ذلك له، فقال: «هو رزق أخرجه الله لكم، هل معكم من لحمه شيء فنطعمونا؟» قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله. وفي بعض روايات مسلم: أنهم كانوا مع النبي ﷺ حين وجدوا هذه السمكة. فقال بعضهم: هي واقعة أخرى، وقال بعضهم: بل هي قضية واحدة، ولكن كانوا أولاً مع النبي ﷺ، ثم بعثهم سرية مع أبي عبيدة، فوجدوا هذه في سريتهم تلك مع أبي عبيدة، والله أعلم.

وقال مالك، عن صفوان بن سليم، عن سعيد بن سلمة - من آل ابن الأزرقي - إن المغيرة بن أبي بردة - وهو من بني عبد

الدار - أخبره، أنه سمع أبا هريرة يقول: سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: «هو الطهور ماؤه الحِلّ ميتته». وقد روى هذا الحديث الإمامان: الشافعي، وأحمد بن حنبل، وأهل السنن الأربعة، وصححه البخاري، والترمذي، وابن خزيمة، وابن جبان، وغيرهم. وقد روى عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ، بنحوه.

وقد روى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من طرق، عن حماد بن سلمة: حدثنا أبو المهزم - هو يزيد بن سفيان - سمعت أبا هريرة يقول: كنا مع رسول الله ﷺ في حج - أو: عمرة - فاستقبلنا رجل جرّاد، فجعلنا نضربهن بعضنا وسيطانا فقتلن، فأسقط في أيدينا، فقلنا: ما نصنع ونحن محرمون؟ فسألنا رسول الله ﷺ، فقال: «لا بأس بصيد البحر». أبو المهزم ضعيف، والله أعلم. وقال ابن ماجه: حدثنا هارون بن عبد الله الحمال، حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا زياد بن عبد الله بن علاثة، عن موسى بن محمد بن إبراهيم، عن أبيه، عن جابر وأنس بن مالك، أن النبي ﷺ كان إذا دعا على الجراد قال: «اللهم أهلك كبار، واقتل صغاره، وأفسد بيضه، واقطع دابره، وخذ بأفواهه عن معاشنا وأرزاقنا، إنك سميع الدعاء». فقال خالد: يا رسول الله، كيف تدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره؟ قال: «إن الجراد نثرة الحوت في البحر». قال هاشم: قال زياد: فحدثني من رأى الحوت يشتره. تفرد به ابن ماجه. وقد روى الشافعي، عن سعيد، عن ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عباس: أنه أنكر على من يصيد الجراد في الحرم. وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من الفقهاء إلى أنه تؤكل دواب البحر، ولم يستثن من ذلك شيئاً. وقد تقدم عن الصديق أنه قال: ﴿وَعَمَّاؤُ﴾ كل ما فيه. وقد استثنى بعضهم الضفادع وأباح ما سواها؛ لما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي من رواية ابن أبي ذئب، عن سعيد بن خالد، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن بن عثمان التيمي؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الضفدع.

وللنسائي عن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع، وقال: نَقِيْهَا تَسْبِيح. وقال آخرون: يؤكل من صيد البحر السمك، ولا يؤكل الضفدع. واختلفوا فيما سواهما، فقيل: يؤكل سائر ذلك، وقيل: لا يؤكل. وقيل: ما أكل شبهه من البر أكل مثله في البحر، وما لا يؤكل شبهه لا يؤكل. وهذه كلها وجوه في مذهب الشافعي، رحمه الله. وقال أبو حنيفة، رحمه الله: لا يؤكل ما مات في البحر، كما لا يؤكل ما مات في البر؛ لعموم قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْيَتُهُ﴾ [المائدة: ٣]. وقد ورد حديث بنحو ذلك، فقال ابن مردويه: حدثنا عبد الباقي - هو ابن قانع - حدثنا الحسين بن إسحاق الشَّيْبَانِيّ وعبد الله بن موسى بن أبي عثمان قالوا: حدثنا الحسين بن زيد الطحان، حدثنا حفص بن غياث، عن ابن أبي ذئب، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما صيدتموه وهو حي فمات فكلوه، وما ألقى البحر ميتاً طافياً فلا تأكلوه». ثم رواه من طريق إسماعيل بن أمية، ويحيى بن أبي أنيسة، عن أبي الزبير عن جابر به. وهو منكر. وقد احتج الجمهور من أصحاب مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، بحديث «العَبْر» المتقدم ذكره، وبحديث: «هو الطهور ماؤه الحِلّ ميتته»، وقد تقدم أيضاً. وروى الإمام أبو عبد الله الشافعي، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أجَلَّتْ لَنَا مَيْتَانِ وَدَمَانِ، فَأَمَّا الْمَيْتَانِ فَالْحَوْتُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ». ورواه أحمد وابن ماجه، والدارقطني والبيهقي. وله شواهد، وروي موقوفاً، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَحُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمَّتْ حُرُمًا﴾ أي: في حال إحرامكم يحرم عليكم الاصطياد. ففيه دلالة على تحريم ذلك، فإذا اصطاد المحرم الصيد متمعداً أثم وغرم، أو مخطئاً غرم وحرم عليه أكله؛ لأنه في حقه كالهيئة، وكذا في حق غيره من المحرمين والمحليين عند مالك والشافعي - في أحد قوليه - وبه يقول عطاء، والقاسم، وسالم، وأبو يوسف، ومحمد بن الحسن، وغيرهم. فإن أكله أو شيئاً منه، فهل يلزمه جزاء؟ فيه قولان للعلماء:

أحدهما: نعم، قال عبد الرزاق، عن ابن جُرَيْج، عن عطاء، قال: إن ذبحه ثم أكله فكفارتان، وإليه ذهب طائفة.

والثاني: لا جزاء عليه بأكله. نص عليه مالك بن أنس.

قال أبو عمر بن عبد البر: وعلى هذا مذاهب فقهاء الأمصار، وجمهور العلماء. ثم وجهه أبو عمر بما لو وطئ ثم وطئ ثم وطئ قبل أن يحد، فإنما عليه حد واحد. وقال أبو حنيفة: عليه قيمة ما أكل. وقال أبو ثور: إذا قتل المحرم الصيد فعليه جزاؤه، وحلال أكل ذلك الصيد، إلا أنني أكرهه للذي قتله، للخبر عن رسول الله ﷺ: «صَيْدُ الْبَرِّ لَكُمْ حَلَالٌ، مَا لَمْ تُصَيْدُوهُ أَوْ يُصَدَّ لَكُمْ». وهذا الحديث سياطي بيانه. وقوله بإباحته للقاتل غريب، وأما لغيره ففيه خلاف، قد ذكرنا المنع عن تقدم. وقال آخرون بإباحته لغير القاتل، سواء المحرمون والمحلون؛ لهذا الحديث. والله أعلم. وأما إذا صاد خلال صيداً فأهداه إلى

محرم، فقد ذهب ذاهبون إلى إباحته مطلقاً، ولم يستفصلوا بين أن يكون قد صاده لأجله أم لا. حكى هذا القول أبو عمر بن عبد البر، عن عمر بن الخطاب، وأبي هريرة، والزبير بن العوام، وكعب الأحبار، ومجاهد، وعطاء - في رواية - وسعيد بن جبيرة. قال: وبه قال الكوفيون. قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا سعيد، عن قتادة، أن سعيد بن المسيب حدثه، عن أبي هريرة؛ أنه سئل عن لحم صيد صاده خلال، أياكله المحرم؟ قال: فأفانهم بأكله. ثم لقي عمر بن الخطاب فأخبره بما كان من أمره، فقال: لو أفنيتهم بغير هذا لأوجعت لك رأسك. وقال آخرون: لا يجوز أكل الصيد للمحرم بالكلية، ومنعوا من ذلك مطلقاً؛ لعموم هذه الآية الكريمة. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن ابن طاوس وعبد الكريم بن أبي أمية، عن طاوس، عن ابن عباس؛ أنه كره أكل لحم الصيد للمحرم، وقال: هي مبهمة. يعني قوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمَّتْ حُرُمَاتُهَا﴾. قال: وأخبرني معمر، عن الزهري، عن ابن عمر؛ أنه كان يكره للمحرم أن يأكل من لحم الصيد على كل حال. قال معمر: وأخبرني أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، مثله. قال ابن عبد البر: وبه قال طاوس، وجابر بن زيد، وإليه ذهب الثوري، وإسحاق بن راهويه - في رواية - وقد روي نحوه عن علي بن أبي طالب، رواه ابن جرير من طريق سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب: أن علياً كره لحم الصيد للمحرم على كل حال.

وقال مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه - في رواية - والجمهور: إن كان الحلال قد قصد المحرم بذلك الصيد، لم يجز للمحرم أكله؛ لحديث الصعب بن جثامة: أنه أهدى للنبي ﷺ حماراً وحشياً، وهو بالأبواء - أو: بؤذان - فردّه عليه، فلما رأى ما في وجهه قال: «إنا لم نرُدّه عليك إلا أنا حُرْمٌ». وهذا الحديث مخرج في الصحيحين، وله ألفاظ كثيرة. قالوا: فوجهه أن النبي ﷺ ظن أن هذا إنما صاده من أجله، فردّه لذلك. فأما إذا لم يقصده بالاصطياد فإنه يجوز له الأكل منه؛ لحديث أبي قتادة حين صاد حماراً وحشاً، كان حلالاً لم يحرم، وكان أصحابه محرمين، فتوقفوا في أكله. ثم سألوا رسول الله ﷺ فقال: «هل كان منكم أحد أشار إليها، أو أعان في قتلها؟» قالوا: لا. قال: «فكلوا». وأكل منها رسول الله ﷺ. وهذه القصة ثابتة أيضاً في الصحيحين بألفاظ كثيرة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سعيد بن منصور وقتيبة بن سعيد قالا: حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن عمرو بن أبي عمرو، عن المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ - وقال قتيبة في حديثه: سمعت رسول الله ﷺ يقول -: «صيد البر لكم حلال - قال سعيد: وأنتم حرم - ما لم تُصيده أو يُصَدِّ لكم». وكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي جميعاً، عن قتيبة. وقال الترمذي: لا نعرف للمطلب سماعاً من جابر. ورواه الإمام محمد بن إدريس الشافعي، من طريق عمرو بن أبي عمرو، عن مولاة المطلب، عن جابر ثم قال: وهذا أحسن حديث روي في هذا الباب وأقرب. وقال مالك، عن عبد الله بن أبي بكر، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: رأيت عثمان بن عفان بالعِزْج، وهو محرم في يوم صائف، قد غطى وجهه بقطيفة أرجوان، ثم أتى بلحم صيد فقال لأصحابه: كلوا، فقالوا: أولاً تأكل أنت؟ فقال: إني لست كهيتكم، إنما صيد من أجلي.

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْكَافِرُ وَالْمُؤْمِنُ وَلَا أُغْنِيكَ كَثْرَةُ الْحَبِثِ فَإِذَا تَوَلَّى الْآلِئِيبُ لَمَلَكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾ يَكَايُهَا الذُّرِّيَّةُ ءَامِنُوا لَا تَسْتَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ سُبُوتٌ وَإِنْ تَسْتَلُوا عَنْهَا مِنْ يَدَيْهِمْ أَلْفَرَاءُ إِنْ بُدِّ لَكُمْ عَنْهَا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ غَفُورٌ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿لَا يَسْتَوِي الْكَافِرُ وَالْمُؤْمِنُ وَلَا أُغْنِيكَ﴾ أي: يا أيها الإنسان ﴿كَثْرَةُ الْحَبِثِ﴾ يعني: أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار، كما جاء في الحديث: «مَا قُلَّ وَكُنِيَ، خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَالْهَيَّ». وقال أبو القاسم البَاقِي في معجمه: حدثنا أحمد بن زهير، حدثنا الحَوَاطِي، حدثنا محمد بن شعيب، حدثنا مَعْنَان بن رِفَاعَة، عن أبي عبد الملك علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة أنه أخبره عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري أنه قال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً. فقال النبي ﷺ: «قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه». ﴿فَاقْتُلُوا اللَّهَ يَتَأَوَّلُ الْآلِئِيبُ﴾ أي: يا ذوي العقول الصحيحة المستقيمة، وتجنبوا الحرام ودعوه، واقنعوا بالحلال واكتفوا به ﴿لَمَلَكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿يَكَايُهَا الذُّرِّيَّةُ ءَامِنُوا لَا تَسْتَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ سُبُوتٌ﴾: هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين، ونهي لهم عن أن يسألوا ﴿عَنْ أَشْيَاءَ﴾ مما لا فائدة لهم في السؤال والتقصي عنها؛ لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءت لهم وشق عليهم سماعها، كما جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَنْبَغِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئاً، إِنْ أَحَبَّ أَنْ أُخْرِجَ إِلَيْكُم وَأَنَا سليم الصدر». وقال البخاري: حدثنا مُنْذِر بن الوليد بن عبد الرحمن الجارودي، حدثنا أبي، حدثنا شعبة، عن موسى بن

أنس، عن أنس بن مالك قال: خطب النبي ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، قال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً». قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم حنين. فقال رجل: من أبي؟ قال: «فلان»، فنزلت هذه الآية: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾.

رواه الثَّضَرُّ وروح بن عباد، عن شعبة، وقد رواه البخاري في غير هذا الموضع، ومسلم، وأحمد، والترمذي، والنسائي طرق عن شعبة بن الحجاج، به. وقال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة في قوله: ﴿يَسْأَلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ الآية، قال: فحدثنا أن أنس بن مالك حدثه: أن رسول الله ﷺ سألوه حتى أحفوه بالمسألة، فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر، فقال: «لا تسألوا اليوم عن شيء إلا بيته لكم». فاشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدي أمر قد خُصِرَ، فجعلت لا التفت يمينا ولا شمالاً إلا وجدت كلاً لا فأسه في ثوبه يبكي، فأنشأ رجل كان يلاحى فيدعى إلى غير أبيه، فقال: يا نبي الله، من أبي؟ قال: «أبوك حذافة». قال: ثم قام عمر - أو قال: فأنشأ عمر - فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، عائذاً بالله - أو قال: أعوذ بالله - من شر الفتن، قال: وقال رسول الله ﷺ: «لم أر في الخير والشر كالיום قط، صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط». أخرجه من طريق سعيد. ورواه مَعْمَرٌ، عن الزهري، عن أنس بنحو ذلك - أو قريباً منه - قال الزهري: فقالت أم عبد الله بن حذافة: ما رأيت ولدأ أعق منك قط، أكنت تأمن أن تكون أمك قد قارفت ما قارفت أهل الجاهلية فتفضحها على رؤوس الناس، فقال: والله لو الحقني بعبد أسود للحقته. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا قيس، عن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ وهو غضبان محمّار وجهه حتى جلس على المنبر، فقام إليه رجل فقال: أين أبي؟ فقال: «في النار» فقام آخر فقال: من أبي؟ فقال: «أبوك حذافة»، فقام عمر بن الخطاب فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وبالقرآن إماماً، إنا يا رسول الله خديشو عهد بجاهلية وشرك، والله أعلم من أبأونا. قال: فسكن غضبه، ونزلت هذه الآية: ﴿يَسْأَلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ إسناده جيد.

وقد ذكر هذه القصة مرسلة غير واحد من السلف، منهم أسباط عن السدي أنه قال في قوله: ﴿يَسْأَلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ قال: غضب رسول الله ﷺ يوماً من الأيام، فقام خطيباً فقال: «سلوني، فإنكم لا تسألوني عن شيء إلا أنباتكم به». فقام إليه رجل من قريش، من بني سهم، يقال له: عبد الله بن حذافة، وكان يُطْعَن فيه، فقال: يا رسول الله، من أبي؟ فقال: «أبوك فلان»، فدعاه لأبيه، فقام إليه عمر بن الخطاب فقبل رجله، وقال: يا رسول الله، رضينا بالله رباً، وبك نبياً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، فاعف عنا عفا الله عنك، فلم يزل به حتى رضي، فيومئذ قال: «الولد للمفراش وللعاهر الحَجَر». ثم قال البخاري: حدثنا الفضل بن سهل، حدثنا أبو الثَّضَرُّ، حدثنا أبو خَيْثَمَةَ، حدثنا أبو الجَوَيرِية، عن ابن عباس قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء، فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تفضل ناقتي: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿يَسْأَلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ حتى فرغ من الآية كلها. تفرد به البخاري.

وقال الإمام أحمد: حدثنا منصور بن وَرْدَانَ الأسدي، حدثنا علي بن عبد الأعلى، عن أبيه، عن أبي البَخْتَرِيِّ - وهو سعيد بن فيروز - عن علي قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] قالوا: يا رسول الله، في كل عام؟ فسكت. فقالوا: أفي كل عام؟ فسكت، قال: ثم قالوا: أفي كل عام؟ فقال: «لا»، ولو قلت: نعم لوجبت، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ إلى آخر الآية. وكذا رواه الترمذي وابن ماجه، من طريق منصور بن وردان، به. وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه، وسمعت البخاري يقول: أبو البختري لم يدرك علياً. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا عبد الرحيم بن سليمان، عن إبراهيم بن مسلم الهَجَرِيِّ، عن أبي عياض، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب عليكم الحج»، فقال رجل: أفي كل عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه، حتى عاد مرتين أو ثلاثاً، فقال: «من السائل؟» فقال: فلان. فقال: «والذي نفسي بيده، لو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت عليكم ما أطقتموه، ولو تركتموه لكفرتم»، فأنزل الله، ﷻ: ﴿يَسْأَلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ حتى ختم الآية. ثم رواه ابن جرير من طريق الحسين بن واقد، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة - وقال: فقام يَخْضَنُ الأسدي - وفي رواية من هذه الطريق: عَكَاشَةُ بن مَخْضَن - وهو أشبه.

وإبراهيم بن مسلم الهجري ضعيف. وقال ابن جرير أيضاً: حدثني زكريا بن يحيى بن إبان المصري قال: حدثنا أبو زيد عبد الرحمن بن أبي الغمر، حدثنا أبو مطيع معاوية بن يحيى، عن صفوان بن عمرو، حدثني سليم بن عامر قال: سمعت أبا أمانة

الباهلي يقول: قام رسول الله ﷺ في الناس فقال: «كتب عليكم الحج». فقام رجل من الأعراب فقال: أفني كل عام؟ قال: فقلق كلام رسول الله ﷺ، وأسكت واستغضب، ومكث طويلاً، ثم تكلم فقال: «من السائل؟» فقال الأعرابي: أنا ذا، فقال: «ويحك، ماذا يؤمنك أن أقول: نعم، والله لو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت لكفرتم، ألا إنه إنما أهلك الذين من قبلكم أئمة الحرج، والله لو أني أحللت لكم جميع ما في الأرض، وحرمت عليكم منها موضع خف، لوقعتم فيه»، قال: فأنزل الله عند ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْوِمٌ﴾ إلى آخر الآية. في إسناده ضعف. وظاهر الآية النهي عن السؤال عن الأشياء التي إذا أعلم بها الشخص ساءته، فالأولى الإعراض عنها وتركها. وما أحسن الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا حجاج قال: سمعت إسرائيل بن يونس، عن الوليد بن أبي هشام مولى الهمداني، عن زيد بن زائد، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لا يبلغني أحد عن أحد شيئاً؛ فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر» الحديث. وقد رواه أبو داود والترمذي، من حديث إسرائيل - قال أبو داود: عن الوليد، وقال الترمذي: عن إسرائيل - عن السدي، عن الوليد بن أبي هاشم، به. ثم قال الترمذي: غريب من هذا الوجه.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا جِئَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ بِدَلَالَةٍ﴾ أي: وإن تسألوا عن هذه الأشياء التي نهيتكم عن السؤال عنها حين ينزل الوحي على الرسول تُبين لكم، وذلك على الله يسير. ثم قال: ﴿عَمَّا اللَّهُ عَنْهَا﴾ أي: عما كان منكم قبل ذلك، ﴿وَاللَّهُ عَوْرُ رَجِيمٌ﴾. وقيل: المراد بقوله: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا جِئَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ بِدَلَالَةٍ﴾ أي: لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها، فلعنهُ قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو توضيح. وقد ورد في الحديث: «أعظم المسلمين جُزماً من سأل عن شيء لم يُحرم فحرم من أجل مسألته». ولكن إذا نزل القرآن بها مجمل فسالتم عن بيانها حينئذ، تبينت لكم لاحتياجكم إليها. ﴿عَمَّا اللَّهُ عَنْهَا﴾ أي: ما لم يذكره في كتابه فهو مما عفا عنه، فاسكنوا أنفسكم عنها كما سكنت عنها. وفي الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ذروني ما تركتكم؛ فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم». وفي الحديث الصحيح أيضاً: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدد حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها».

ثم قال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ أي: قد سأل هذه المسائل المنهي عنها قومٌ من قبلكم، فأجيبوا عنها ثم لم يؤمنوا بها، فأصبحوا بها كافرين، أي: بسببها، أي: بينت لهم ولم ينتفعوا بها لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد، وإنما سألوا على وجه التعت والعباد. قال القوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْوِمٌ﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ أذن في الناس فقال: «يا قوم، كتب عليكم الحج». فقام رجل من بني أسد فقال: يا رسول الله، أفني كل عام؟ فأغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً فقال: «والذي نفسي بيده لو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، وإذا لكفرتم، فاتركوني ما تركتكم، وإذا أمرتكم بشيء فافعلوا، وإذا نهيتكم عن شيء فانتبهوا عنه». فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْوِمٌ﴾، نهاهم أن يسألوا عن مثل الذي سألت النصارى من المائدة، فأصبحوا بها كافرين. فنهى الله عن ذلك وقال: لا تسألوا عن أشياء إن نزل القرآن فيها بغليظ ساءكم ذلك، ولكن انتظروا، فإذا نزل القرآن فإنكم لا تسألون عن شيء إلا وجدتم نبيانه. رواه ابن جرير. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْوِمٌ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا جِئَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ بِدَلَالَةٍ﴾ قال: لما نزلت آية الحج، نادى النبي ﷺ في الناس فقال: «يا أيها الناس، إن الله قد كتب عليكم الحج فحجوا». فقالوا: يا رسول الله، أعاماً واحداً أم كل عام؟ فقال: «لا، بل عاماً واحداً، ولو قلت: كل عام لوجبت، ولو وجبت لكفرتم». ثم قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾. رواه ابن جرير. وقال خفيف، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿لَا تَتَّبِعُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ قال: هي البحيرة والوصيلة والسابعة والحام، ألا ترى أن يقول بعد ذلك: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ﴾، قال: وأما عكرمة فقال: إنهم كانوا يسألونه عن الآيات، فنهوا عن ذلك. ثم قال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾. رواه ابن جرير. يعني عكرمة رحمه الله: أن المراد بهذا النهي عن سؤال وقوع الآيات، كما سألت قريش أن يجري لهم أنهاراً، وأن يجعل لهم الصفا ذهباً وغير ذلك، وكما سألت اليهود أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا مُوسَى الْبَحِيرَةَ فَلَمَّا جَاءَهَا وَمَا تَرْسِلَ إِلَّا تَقِيماً﴾ [الاسراء: ٥٩] وقال تعالى: ﴿وَأَنصَرُوا لِلَّهِ جَهْدَ أَيْدِيهِمْ لَعَلَّكُمْ يَكُونُوا قُلُوبًا غَالِيَةً﴾ [البقرة: ١٩٠] ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْزُّورَ وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُلُوبًا مَا كَانُوا يَعْلَمُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَصْحَرَمُ يَبْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١١].

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَيِّنَةٍ وَلَا مِيسْرَةٍ وَلَا حَافٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَسَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَدَّعْنَا عَلَيْهِ مَآبَةً تَأْوِلُوهُم كَانُوا يَلْمِزُونَ شَيْئًا وَلَا يَسْتَدِينُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

قال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب قال: «البحيرة» التي يُمنَعُ ذَرْهَا للطواغيت، فلا يخلبها أحد من الناس. و «السائبة»: كانوا يسيبونها لألتهن، لا يحمل عليها شيء. قال: وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ عَمْرُوَ بْنَ عَامِرٍ الْخَزَاعِيَّ يُجْزِ قُضْبُهُ فِي النَّارِ، كَانَ أَوَّلَ مَنْ سِيبَ السَّوَابِ». و «الوصيلة»: الناقة البكر، تُبَكَّرُ فِي أَوَّلِ نَتَاجِ الْإِبِلِ، ثُمَّ تُثَقُّ بَعْدَ بَأْنَتِي، وَكَانُوا يَسِيبُونَهَا لَطَوَاغِيَتِهِمْ، إِنْ وَصَلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ. و «الحام»: فحل الإبل يُضْرَبُ الضَّرَبُ المَعْدُود، فإِذَا قُضِيَ ضَرَابُهُ وَدَعُوهُ لِلطَّوَاغِيَتِ، وَأَعْفُوهُ عَنِ الْحَمْلِ، فَلَمْ يُحْمَلْ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَسَقَوَهُ الْحَامِي. وكذا رواه مسلم والنسائي، من حديث إبراهيم بن سعد، به.

ثم قال البخاري: وقال لنا أبو اليمان: أخبرنا شعيب، عن الزهري قال: سمعت سعيداً يخبر بهذا. وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ، نحوه. ورواه ابن الهاد، عن ابن شهاب، عن سعيد، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. قال الحاكم: أراد البخاري أن يزيد بن عبد الله بن الهاد رواه عن عبد الوهاب بن بُخْت، عن الزهري. كذا حكاه شيخنا أبو الحجاج المزي في «الأطراف» وسكت ولم يبنه عليه. وفيما قاله الحاكم نظر، فإن الإمام أحمد وأبا جعفر بن جرير روياه من حديث الليث بن سعد، عن ابن الهاد، عن الزهري نفسه، والله أعلم. ثم قال البخاري: حدثنا محمد بن أبي يعقوب أبو عبد الله الكِزْمَانِي، حدثنا حسان بن إبراهيم، حدثنا يونس، عن الزهري، عن عُرْوَةَ: أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يُحِطُّ بِبَعْضِهَا بَعْضًا، وَرَأَيْتُ عَمْرُوَ يَجْرُ قُضْبُهُ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سِيبَ السَّوَابِ». تفرد به البخاري.

وقال ابن جرير: حدثنا هُثَّاء، حدثنا يونس بن بُكَيْرٍ، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأَكْثَمَ بْنِ الْجَوْنِ: «يَا أَكْثَمُ، رَأَيْتُ عَمْرُوَ بْنَ لُحَيٍّ بِنَ قَمْعَةٍ بَنَ خَنْدَفٍ يَجْرُ قُضْبُهُ فِي النَّارِ، فَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشْبَهَ بِرَجُلٍ مِنْكَ بِهِ، وَلَا بِهِ مِنْكَ». فقال أكثم: تخشى أن يضرني شبهه يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «لَا، إِنَّكَ مُؤْمِنٌ وَهُوَ كَافِرٌ، إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ، وَبِحَرِّ الْبَحِيرَةِ، وَسِيبِ السَّائِبَةِ، وَحُمَى الْحَامِي». ثم رواه عن هناد، عن عبدة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، بنحوه أو مثله. ليس هذان الطريقتان في الكتب.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عمرو بن مُجَمِّع، حدثنا إبراهيم الهَجْرِي، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَوَّلَ مَنْ سِيبَ السَّوَابِ، وَعَبْدُ الْأَصْنَامِ، أَبُو خَزَاعَةَ عَمْرُو بْنُ عَامِرٍ، وَإِنِّي رَأَيْتُهُ يَجْرُ أَمْعَاءُهُ فِي النَّارِ». تفرد به أحمد من هذا الوجه. وقال عبد الرزاق: أَنَبَانَا مَعْمَرٌ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ أَوَّلَ مَنْ سِيبَ السَّوَابِ، وَأَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ». قالوا: مَنْ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «عَمْرُو بْنُ لُحَيٍّ أَخُو بَنِي كَعْبٍ، لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَجْرُ قُضْبُهُ فِي النَّارِ، يُؤْذِي رِيحَهُ أَهْلَ النَّارِ. وَإِنِّي لَأَعْرِفُ أَوَّلَ مَنْ بَحَرَ الْبَحَاثِرَ». قالوا: مَنْ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «رَجُلٌ مِنْ بَنِي مُذَلْجٍ، كَانَتْ لَهُ نَاقَتَانِ، فَجَدَعَ آذَانَهُمَا، وَحَرَّمَ الْبَانِيَهُمَا، ثُمَّ شَرَبَ الْبَانِيَهُمَا بَعْدَ ذَلِكَ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ وَهُمَا يَعْضَانِهِ بِأَفْوَاهِهِمَا وَيَخْبِطَانِهِ بِأَخْفَافِهِمَا». فعمره هذا هو ابن لحي بن قَمْعَةٍ، أَحَدُ رُؤَسَاءِ خَزَاعَةَ، الَّذِينَ وَلُوا الْبَيْتَ بَعْدَ جُزْهِمْ. وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، فَأَدْخَلَ الْأَصْنَامَ إِلَى الْحِجَازِ، وَدَعَا الرِّعَاقَ مِنَ النَّاسِ إِلَى عِبَادَتِهَا وَالتَّقَرُّبِ بِهَا، وَشَرَعَ لَهُمْ هَذِهِ الشَّرَائِعَ الْجَاهِلِيَّةَ فِي الْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا، كَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شِرْكًَا ذُرًّا مِّنَ الْحَكْرِثِ وَالْأَنْكَبِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ فِي ذَلِكَ.

فأما البحيرة، فقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس، فإن كان ذكراً ذبحوه، فأكله الرجال دون النساء. وإن كان أنثى جدعوا آذانها، فقالوا: هذه بحيرة. وذكر السُّدِّيُّ وغيره قريباً من هذا. وأما السائبة، فقال مجاهد: هي من الغنم نحو ما فسر من البحيرة، إلا أنها ما ولدت من ولد بينها وبين ستة أولاد كان على هيئتها، فإذا ولدت السابع ذكراً أو ذكرين، ذبحوه، فأكله رجالهم دون نسايتهم. وقال محمد بن إسحاق: السائبة: هي الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد ليس بينهن ذكر، سُبِّيَتْ فَلَمْ تَرْكَبْ، وَلَمْ يُجْزَ وَبِرْهَا، وَلَمْ يَحْلَبْ لِبَنِيهَا إِلَّا الضَّيْفُ. وقال أبو روق: السائبة: كان الرجل إذا خرج فقصيت حاجته، سَبَّ من ماله ناقة أو غيرها، فجعلها للطواغيت، فما ولدت من شيء كان لها. وقال السُّدِّيُّ: كان الرجل منهم إذا قصيت حاجته أو عوفي من مرض أو كثر ماله سَبَّ شيئاً من ماله للأوثان، فمن عرض له من الناس عُوقِبَ بِعُقُوبَةٍ فِي الدُّنْيَا. وأما الوصيلة، فقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هي الشاة إذا نتجت سبعة أبطن نظروا السابع،

فإن كان ذكراً أو أنثى وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء، وإن كان أنثى استحيوها، وإن كان ذكراً وأنثى في بطن استحيوهما وقالوا: وصلته أخته فحرمته علينا. رواه ابن أبي حاتم. وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب: «وَلَا وَصِيْلَةٌ» قال: فالوصيلة من الإبل، كانت الناقة تبتكر بأنثى، ثم تنثي بأنثى، فيسمونها الوصيلة، ويقولون: وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر، فكانوا يجدهونها لطواغيتهم. وكذا روي عن الإمام مالك بن أنس، رحمه الله. وقال محمد بن إسحاق: الوصيلة من الغنم: إذا ولدت عشر إناث في خمسة أبطن، توأمين توأمين في كل بطن، سميت الوصيلة وتركت، فما ولدت بعد ذلك من ذكر أو أنثى، جعلت للذكور دون الإناث. وإن كانت ميتة اشتركوا فيها. وأما الحام، فقال العوفي، عن ابن عباس قال: كان الرجل إذا لقح فحله عشرأ، قيل: حام، فاتركوه.

وكذا قال أبو روق، وقتادة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: وأما الحام فالفحل من الإبل، إذا وُلد لولده قالوا: حَمَى هذا ظهره، فلا يحملون عليه شيئاً، ولا يجوزون له وبرأ، ولا يمنعون من حمى رعي، ومن حوض يشرب منه، وإن كان الحوض لغير صاحبه. وقال ابن وهب: سمعت مالكا يقول: أما الحام فمن الإبل كان يضرب في الإبل، فإذا انقضى ضرابه جعلوا عليه ريش الطواويس وسيبوه. وقد قيل غير ذلك في تفسير هذه الآية. وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم، من طريق أبي إسحاق السبيعي، عن أبي الأحوص الجُشَمي، عن أبيه مالك بن نضلة قال: أتيت النبي ﷺ في خَلْقَانِ مِنَ الثِيَابِ، فقال لي: «هل لك من مال؟» قلت: نعم. قال: «من أي المال؟» قال: فقلت: من كل المال، من الإبل والغنم والخيل والريق. قال: «فإذا أتاك الله مالاً فَأَيُّرْ عَلَيْكَ». ثم قال: «تنتج إبلك وأفاه أذانه؟» قال: قلت: نعم. قال: «وهل تنتج الإبل إلا كذلك؟» قال: «فعلك تأخذ موسى فتقطع آذان طائفة منها وتقول: هذه بحير، وتشق آذان طائفة منها، وتقول: هذه حرم؟» قلت: نعم. قال: «فلا تفعل، إن كل ما أتاك الله لك حل»، ثم قال: «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَيْعَةٍ وَلَا سَكَاةٍ وَلَا وَصِيْلَةٍ وَلَا حَالٍ»، أما البحية: فهي التي يجدهون أذانه، فلا تنتفع امرأته ولا بناته ولا أحد من أهل بيته بصوفها ولا أوبراها ولا أشعارها ولا لبانها، فإذا ماتت اشتركوا فيها. وأما السائبة: فهي التي يسيبون لأهلهم، ويذهبون إلى أهلهم فيسيبونها، وأما الوصيلة: فالشاة تلد ستة أبطن، فإذا ولدت السابع، جدعت وقطع قرنهما، فيقولون: قد وصلت، فلا يذبحونها ولا تضرب ولا تمنع مهما وردت على حوض. هكذا يذكر تفسير ذلك مدرجاً في الحديث. وقد روي من وجه آخر عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص عوف بن مالك، من قوله، وهو أشبه. وقد روى هذا الحديث الإمام أحمد، عن سفيان بن عيينة، عن أبي الزعراء عمرو بن عمرو، عن عمه أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة، عن أبيه، به. وليس فيه تفسير هذه، والله أعلم.

وقوله: «وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» أي: ما شرع الله هذه الأشياء ولا هي عنده قربى، ولكن المشركون افتروا ذلك، وجعلوه شرعاً لهم وقربة يتقربون بها إليه. وليس ذلك بحاصل لهم، بل هو وبال عليهم. «وَأَمَّا مَا نُنَزِّلُ إِلَى مَا نُنَزِّلُ اللَّهُ إِلَى الرُّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا» أي: إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه وترك ما حرمه، قالوا: يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك، قال الله تعالى: «أَوَلَوْ كَانَ مَا يَصْلُحُونَ شَيْئاً» أي: لا يفهمون حقاً، ولا يعرفونه، ولا يهتدون إليه، فكيف يتبعونهم والحالة هذه؟ لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم، وأضل سبيلاً.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾»

يقول تعالى أمرأ عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم، ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس، سواء كان قريباً منه أو بعيداً. قال العوفي عن ابن عباس عند تفسير هذه الآية: يقول تعالى: إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته به من الحلال والحرام، فلا يضره من ضل بعده، إذا عمل بما أمرته به. وكذا روى الوالبي عنه. وهكذا قال مقاتل بن حيان. فقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» نصب على الإغراء «لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أي: فيجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وليس في الآية مستدلاً على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإذا كان فعل ذلك ممكناً، وقد قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا زهير - يعني ابن معاوية - حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، حدثنا قيس قال: قام أبو بكر، رضي الله عنه، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ» إلى آخر الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ قال: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك الله، ﷻ، أن يُمَهِّمَهُمْ بِعِقَابِهِ». قال: وسمعت أبا بكر يقول: يا أيها الناس، إياكم والكذب، فإن الكذب مجانب الإيمان. وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة، وابن جبان في صحيحه، وغيرهم، من طرق كثيرة عن جماعة كثيرة، عن إسماعيل بن

أبي خالد، به متصلاً مرفوعاً، ومنهم من رواه عنه به موقوفاً على الصديق. وقد رجح رفعه الدارقطني وغيره، وذكرنا طرقه والكلام عليه مطولاً في مسند الصديق، رضي الله عنه.

وقال أبو عيسى الترمذي: حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقاني، وحدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا عتبة بن أبي حكيم، حدثنا عمرو بن جارية اللخمي، عن أبي أمية الشَّعْبَانِي قال: أتيت أبا ثعلبة الخُشَنِي فقلت له: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: آية آية؟ قلت: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَعْتَدْتُمْ﴾ فقال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاطرة نفسك، ودع العوام، فإن من ورائكم أياماً الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم» - قال عبد الله بن المبارك: وزاد غير عتبة: قيل: يا رسول الله، أجر خمسين رجلاً منهم أو منا؟ قال: «بل أجر خمسين منكم».

ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح. وكذا رواه أبو داود من طريق ابن المبارك، ورواه ابن ماجه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عتبة بن أبي حكيم. وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن الحسن أن ابن مسعود سأله رجل عن قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَعْتَدْتُمْ﴾ فقال: إن هذا ليس بزمانها، إنها اليوم مقبولة. ولكنه قد أوشك أن يأتي زمانها، تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا - أو قال: فلا يقبل منكم - فحينئذ ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ﴾. ورواه أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية، عن ابن مسعود في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَعْتَدْتُمْ﴾ الآية، قال: كانوا عند عبد الله بن مسعود جلوساً، فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس، حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه، فقال رجل من جلساء عبد الله: ألا أقوم فأمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر؟ فقال آخر إلى جنبه: عليك بنفسك، فإن الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية. قال: فسمعا ابن مسعود فقال: مه، لم يجيء تأويل هذه بعد. إن القرآن أنزل حيث أنزل، ومنه أي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن، ومنه أي قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ، ومنه أي قد وقع تأويلهن بعد النبي ﷺ، ومنه أي يقع تأويلهن بعد اليوم، ومنه أي يقع تأويلهن عند الساعة على ما ذكر من الساعة، ومنه أي يقع تأويلهن يوم الحساب على ما ذكر من الحساب والجنة والنار. فما دامت قلوبكم واحدة، وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعاً، ولم يذُق بعضكم بأس بعض فأمروا وانهاؤا. فإذا اختلفت القلوب والأهواء، واللبس شيعاً، وذاق بعضكم بأس بعض فأمرؤ ونفسه، عند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية. رواه ابن جرير.

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا شاذان بن سوار، حدثنا الربيع بن صبيح، عن سفيان بن عقال قال: قيل لابن عمر: لو جلست في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه، فإن الله قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَعْتَدْتُمْ﴾؟ فقال ابن عمر: إنها ليست لي ولا لأصحابي، إن رسول الله ﷺ قال: «ألا فليبلغ الشاهد الغائب». فكان نحن الشهود وأنتم الغائب، ولكن هذه الآية لأقوام يحيؤون من بعدنا، إن قالوا لم يقبل منهم. وقال أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر وأبو عاصم قالوا: حدثنا عوف، عن سوار بن شبيب قال: كنت عند ابن عمر، إذ أتاه رجل جليل في العين، شديد اللسان، فقال: يا أبا عبد الرحمن، نفر ستة كلهم قد قرأ القرآن فأسرع فيه، وكلهم مجتهد لا يالو، وكلهم بغض إليه أن يأتي ذناء، وهم في ذلك يشهد بعضهم على بعض بالشرك. فقال رجل من القوم: وأي ذناء تريد أكثر من أن يشهد بعضهم على بعض بالشرك؟ فقال الرجل: إني لست إياك أسأل، إنما أسأل الشيخ. فأعاد على عبد الله الحديث، فقال عبد الله: لعلك ترى، لا أبا لك، أني سأمرك أن تذهب فقتلهم! عظم وانهم، فإن عصوك فعليك نفسك، فإن الله، ﷻ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية.

وقال أيضاً: حدثني أحمد بن المقدام، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبي، حدثنا قتادة، عن أبي مازن قال: انطلقت على عهد عثمان إلى المدينة، فإذا قوم من المسلمين جلوس، فقرأ أحدهم هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ﴾ فقال أكبرهم: لم يجيء تأويل هذه الآية اليوم. وقال: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا ابن فضالة، عن معاوية بن صالح، عن جبير بن نفير قال: كنت في حلقة فيها أصحاب رسول الله ﷺ، وإني لأصغر القوم، فتذاكروا بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقلت أنا: ليس الله يقول في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَعْتَدْتُمْ﴾؟ فأقبلوا علي بلسان واحد وقالوا: تنزع آية من القرآن ولا تعرفها، ولا تدري ما تأويلها!! حتى تمتت أني لم أكن تكلمت، وأقبلوا يتحدثون، فلما حضر قيامهم قالوا: إنك غلام حذت السن، وإنك نزعت بآية ولا تدري ما هي؟ وعسى أن تدرك ذلك الزمان، إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك، لا يضرك من ضل إذا

وقال ابن جرير: اختلف في قوله: ﴿شَهِدَ بَيْنَكُمْ﴾ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَشْنَانٌ دَوَّا عَدْلِي مِنْكُمْ أَوْ أَخْرَانٌ مِنْ غَيْرِكُمْ: .

هل المراد أن يوصي إليهما، أو يشهدهما؟ على قولين:

أحدهما: أن يوصي إليهما، كما قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط قال: سئل ابن مسعود، رضي الله عنه، عن هذه الآية قال: هذا رجل سافر ومعه مال، فأدركه قدره، فإن وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته، وأشهد عليهما عدلين من المسلمين. رواه ابن أبي حاتم وفيه انقطاع.

والقول الثاني: أنهما يكونان شاهدين. وهو ظاهر سياق الآية الكريمة، فإن لم يكن وصي ثالث معهما اجتمع فيهما الوصفان: الوصاية والشهادة، كما في قصة تميم الداري، وعدي بن بداء، كما سيأتي ذكرها آنفاً، إن شاء الله وبه التوفيق. وقد استشكل ابن جرير كونهما شاهدين، قال: لأننا لا نعلم حُكماً يَخْلِفُ فيه الشاهد. وهذا لا يمنع الحكم الذي تضمنته هذه الآية الكريمة، وهو حكم مستقل بنفسه، لا يلزم أن يكون جارياً على قياس جميع الأحكام، على أن هذا حكم خاص بشهادة خاصة في محل خاص، وقد اغتفر فيه من الأمور ما لم يغتفر في غيره، فإذا قامت قرائن الرية حلف هذا الشاهد بمقتضى ما دلت عليه هذه الآية الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿عَبَسُوهُمَا مِنْ بَعْدِ الْكَلْبَةِ﴾ قال العوفي، عن ابن عباس: يعني صلاة العصر. وكذا قال سعيد بن جبيرة، وإبراهيم النخعي، وقتادة، وعكرمة، ومحمد بن سيرين. وقال الزهري: يعني صلاة المسلمين، وقال السدي، عن ابن عباس: يعني صلاة أهل دينهما. والمقصود: أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهما، ﴿فَقِيَمَاَنِ بِاللَّهِ﴾ أي: فيحلفان بالله ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ أي: إن ظهرت لكم منهما ريبة، أنهما قد خانا أو غلا، فيحلفان حينئذ بالله ﴿لَا نَشْتَرِي بِهٖ﴾ أي: بأيماننا. قاله مقاتل بن حيان ﴿مُنْكَأ﴾ أي: لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الغانية الزائلة، ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي: ولو كان المشهود عليه قريباً إلينا لا نحايه، ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾: أضافها إلى الله تشريعاً لها، وتعظيماً لأمرها. وقرأ بعضهم: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ مجروراً على القسم. رواها ابن جرير، عن عامر الشعبي. وحكى عن بعضهم أنه قرأ: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾، والقراءة الأولى هي المشهورة. ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَيُّوِينَ﴾ أي: إنا فعلنا شيئاً من ذلك، من تحريف الشهادة، أو تبديلها، أو تغييرها، أو كتمها بالكلية.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ عُرِ عَنَّا أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ أي: فإن اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين، أنهما خانا أو غلا شيئاً من المال الموصى به إليهما، وظهر عليهما بذلك ﴿فَلَا تَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنْ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَئِينَ﴾: هذه قراءة الجمهور: ﴿اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَئِينَ﴾. وروى عن علي، وأبي، والحسن البصري أنهم قرؤوها: ﴿اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَئِينَ﴾. وقد روى الحاكم في المستدرک من طريق إسحاق بن محمد القزوي، عن سليمان بن بلال، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن عبيد الله بن أبي رافع، عن علي بن أبي طالب؛ أن النبي ﷺ قرأ: ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَئِينَ﴾. ثم قال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وقرأ بعضهم، ومنهم ابن عباس: ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَئِينَ﴾. وقرأ الحسن: ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَئِينَ﴾، حكاه ابن جرير. فعلى قراءة الجمهور يكون المعنى بذلك: أي متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتهم، فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة وليكونا من أولى من يرث ذلك المال ﴿فَقِيَمَاَنِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ أي: لقولنا: إنهما خانا أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ أي: فيما قلنا من الخيانة ﴿إِنَّا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: إن كنا قد كذبنا عليهما. وهذا التحليف للورثة، والرجوع إلى قولهما والحالة هذه، كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهر لوث في جانب القاتل، فيقسم المستحقون على القاتل فيدفع برمته إليهم، كما هو مقرر في باب «القسامة» من الأحكام.

وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسين بن زياد، حدثنا محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن أبي النضر، عن باذان - يعني أبا صالح مولى أم هانئ بنت أبي طالب - عن ابن عباس، عن تميم الداري في هذه الآية: ﴿يَتَابِعَا الْبَيْنَ مِمَّا شَهِدَا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ﴾ قال: برىء الناس منها غيري وغير عدي بن بداء. وكانا نصرانيين، يختلفان إلى الشام قبل الإسلام، فأتيا الشام لتجارتهما وقدم عليهما مولى لبني سهم، يقال له: بدليل بن أبي مريم، بتجارة ومعه جام من فضة يريد به الملك، وهو عظيم تجارته. فعرض فأوصى إليهما، وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله - قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجاه، فبعنا بألف درهم، ثم اقتسمناه أنا وعدي بن بداء. فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا، وفقدوا الجاه فسالونا عنه، فقلنا: ما ترك غير هذا، وما دفع إلينا غيره - قال تميم: فلما أسلمت بعد قدوم النبي ﷺ المدينة تأثمت من ذلك، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر، ودفعت إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها، فوثبوا إليه أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه، فحلف فأنزل الله: ﴿يَتَابِعَا الْبَيْنَ مِمَّا شَهِدَا بَيْنَكُمْ﴾ إلى قوله:

﴿فَقَسَمًا يَلِيهِ لَسَهَدَتْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتِهِمَا﴾. فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم فحلفا، فثُرعت الخمسمائة من عدي بن بَدَاء.

وهكذا رواه أبو عيسى الترمذي وابن جرير كلاهما عن الحسن بن أحمد بن أبي شبيب الحراني، عن محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، به فذكره - وعنده: فأتوا به رسول الله ﷺ فسألهم البينة فلم يجدوا، فأمرهم أن يستحلفوه بما يُعْظَم به على أهل دينه، فحلف فانزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ يَخَالِفُوا أَنْ تَرُدَّ إِلَيْنَا بَعْدَ آيَتِنَاهُمْ﴾، فقام عمرو بن العاص ورجل آخر، فحلفا. فثُرعت الخمسمائة من عدي بن بَدَاء. ثم قال: هذا حديث غريب، وليس إسناده بصحيح، وأبو النضر الذي روى عنه محمد بن إسحاق هذا الحديث هو عندي محمد بن السائب الكلبي، يكنى أبا النضر، وقد تركه أهل العلم بالحديث، وهو صاحب التفسير، سمعت محمد بن إسماعيل يقول: محمد بن السائب الكلبي، يكنى أبا النضر، ثم قال: ولا نعرف لسالم أبي النضر رواية عن أبي صالح مولى أم هانئ، وقد روي عن ابن عباس شيء من هذا على الاختصار من غير هذا الوجه.

حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا يحيى بن آدم، عن ابن أبي زائدة، عن محمد بن أبي القاسم، عن عبد الملك بن سعيد بن جُبَيْر، عن أبيه، عن ابن عباس قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بَدَاء، فمات السهمي بأرض ليس فيها مسلم، فلما قدما بتركته فقدما جأماً من فضة مخصوصاً بالذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ، ووجدوا الجأ بمكة، فقيل: اشتريناه من تميم وعدي. فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما، وإن الجأ لخاصبهم. وفيهم نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ﴾. وكذا رواه أبو داود، عن الحسن بن علي، عن يحيى بن آدم، به. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وهو حديث ابن أبي زائدة. ومحمد بن أبي القاسم، كوفي، قيل: إنه صالح الحديث، وقد ذكر هذه القصة مرسله غير واحد من التابعين منهم: عكرمة، ومحمد بن سيرين، وقتادة. وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر، رواه ابن جرير. وكذا ذكرها مرسله: مجاهد، والحسن، والضحاك. وهذا يدل على اشتهاها في السلف وصحتها.

ومن الشواهد لصحة هذه القصة أيضاً ما رواه أبو جعفر بن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا زكريا، عن الشعبي؛ أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقا، قال: فحضرته الوفاة ولم يجد أحداً من المسلمين يشهده على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب. قال: فقدما الكوفة، فأتيا الأشعري - يعني: أبا موسى الأشعري، رضي الله عنه - فأخبراه، وقدما بتركته ووصيته، فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد النبي ﷺ. قال: فأحلفهما بعد العصر: بالله ما خانا ولا كذبا ولا بَدَلاً ولا كتما ولا غيراً، وإنها لوصية الرجل وتركته. قال: فأمضى شهادتهما. ثم رواه عن عمرو بن علي الفلاس، عن أبي داود الطيالسي، عن شعبة، عن مغيرة الأزرق، عن الشعبي؛ أن أبا موسى قضى بدقوقا. وهذان إسنادان صحيحان إلى الشعبي، عن أبي موسى الأشعري. فقولوه: «هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد رسول الله ﷺ الظاهر - والله أعلم - أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعدي بن بَدَاء، وقد ذكروا أن إسلام تميم بن أوس الداري، رضي الله عنه، كان في سنة تسع من الهجرة فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخراً، يحتاج مدعى نسخه إلى دليل فاصل في هذا المقام، والله أعلم.

وقال أسباط، عن السدي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِمَّنْ فِي السَّفَرِ، وَإِنْ شَرِيتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَثْبِتْكُمْ مِثْلَهُ الْمَوْتُ﴾، هذا الرجل يدركه الموت في سفره، وليس بحضرته أحد من المسلمين، فيدعو رجلين من اليهود والنصارى والمجوس، فيوصي إليهما، ويدفع إليهما ميراثه فيقبلان به، فإن رضي أهل الميت الوصية وعرفوا مال صاحبهم تركوا الرجلين. وإن ارتابوا رفعوهما إلى السلطان. فذلك قوله تعالى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الْفَرَاغِ فَإِنْ أَتَيْنَا بِبَيِّنَةٍ مِنْ بَعْدِهِ لَنْ نَرْتَدَّ إِلَيْهِمَا شَيْءٌ﴾. قال عبد الله بن عباس: كآني أنظر إلى العلج حين أنهي بهما إلى أبي موسى الأشعري في داره، ففتح الصحيفة، فأنكر أهل الميت وخَوَّنوهما. فأراد أبو موسى أن يستحلفهما بعد العصر، فقلت له: إنهما لا يباليان صلاة العصر، ولكن استحلفهما بعد صلاتهما في دينهما، فَيُوقَفُ الرجلان بعد صلاتهما في دينهما، فيحلفان: بالله لا نشترى به ثمناً قليلاً ولو كان ذا قربي، ولا نكتم شهادة الله إننا إذا لمن الأكثمين: أن صاحبهم ليهذا أوصى، وأن هذه لتركته. فيقول لهما الإمام قبل أن يحلفا: إنكما إن كنتم أو خُشْتُمَا فَصَحَّحْتُمَا في قومكما، ولم تجز لكما شهادة، وعاقبتكما. فإذا قال لهما ذلك، فإن ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها. رواه ابن جرير.

وقال ابن جرير: حدثنا الحسين، حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا مغيرة، عن إبراهيم وسعيد بن جبیر، أنهما قالا في هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا شَهِدُوا بَيِّنَاتٍ ۖ قَالُوا: إِذَا حَضَرَ الرَّجُلُ الْوَفَاةَ فِي سَفَرٍ، فَلْيَشْهَدْ رَجُلَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ رَجُلَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَرَجُلَيْنِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَإِذَا قَدِمَا بِرُكْنِهِ، فَإِنْ صَدَقَهُمَا الْوَرِثَةُ قُبِلَ قَوْلُهُمَا، وَإِنْ اتَّهَمَهُمَا أَحَدُهُمَا بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ: بِاللَّهِ مَا كُتِمْنَا وَلَا كَذِبْنَا وَلَا خُفَا وَلَا غَيْرُنَا. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: فَإِنْ ارْتَبَعَ فِي شَهَادَتِهِمَا اسْتَحْلَفَا بَعْدَ الصَّلَاةِ بِاللَّهِ: مَا اشْتَرَيْنَا بِشَهَادَتِنَا ثَمَنًا قَلِيلًا. فَإِنْ اطَّلَعَ الْأَوْلِيَاءُ عَلَى أَنَّ الْكَافِرَيْنِ كَذَبَا فِي شَهَادَتِهِمَا، قَامَ رَجُلَانِ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ فَحَلَفَا بِاللَّهِ: إِنَّ شَهَادَةَ الْكَافِرَيْنِ بَاطِلَةٌ، وَإِنَّا لَمْ نَعْتَدْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ عَمَرَ عَنْهُمَا اسْتَحْلَفَا إِمَّا مَعَهُمَا﴾. قَالَ: إِنَّهُمَا اسْتَحْلَفَا بِاللَّهِ: إِنَّ شَهَادَةَ الْكَافِرَيْنِ بَاطِلَةٌ، وَإِنَّا لَمْ نَعْتَدْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَقَارَعَا يَوْمَئِذٍ مَقَامَهُمَا﴾. يَقُولُ: مِنَ الْأَوْلِيَاءِ، فَحَلَفَا بِاللَّهِ: إِنَّ شَهَادَةَ الْكَافِرَيْنِ بَاطِلَةٌ، وَإِنَّا لَمْ نَعْتَدْ، فَفَرَدَ شَهَادَةُ الْكَافِرَيْنِ، وَتَجَوَّزَ شَهَادَةُ الْأَوْلِيَاءِ. وَهَكَذَا رَوَى الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْجٍ. وَهَكَذَا قَرَّرَ هَذَا الْحَكَمَ عَلَى مُقْتَضَى هَذِهِ الْآيَةِ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنَ أُمَّةِ التَّابِعِينَ وَالسَّلَفِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَهُوَ مَذْهَبُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله: ﴿ذَلِكَ أَذَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾: أَي: شَرِيعَةُ هَذَا الْحَكَمِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ الْمَرْضِيِّ مِنْ تَحْلِيلِ الشَّاهِدِينَ الذَّمِّيِّينَ وَقَدْ اسْتَرِيبَ بِهِمَا، أَقْرَبَ إِلَى إِقَامَتِهِمَا الشَّهَادَةَ عَلَى الْوَجْهِ الْمَرْضِيِّ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ إِلَيْنُ بَعْدَ آيَتِنَا﴾: أَي: يَكُونُ الْحَامِلُ لَهُمْ عَلَى الْإِتْيَانِ بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا، وَهُوَ تَعْظِيمُ الْحَلْفِ بِاللَّهِ وَمِرَاعَاةُ جَانِبِهِ وَإِجْلَالُهُ، وَالْخَوْفُ مِنَ الْفَضِيحَةِ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا رَدَّتْ الْيَمِينُ عَلَى الْوَرِثَةِ، فَيَحْلِفُونَ وَيَسْتَحِقُّونَ مَا يَدْعُونَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ إِلَيْنُ بَعْدَ آيَتِنَا﴾. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾: أَي: فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ ﴿وَأَسْمَعُوا﴾: أَي: وَاطِيعُوا ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. يَعْنِي: الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ وَمَتَابَعَةِ شَرِيعَتِهِ.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ﴾ (١٠٩).

وهذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة، عما أجبوا به من أمهم الذين أرسلهم إليهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ أَزْوَاجَهُمْ بِمَا فِي أَكْفَانِهِمْ فَسَيَكْفُرُوا بِهِمْ بِكُلِّ كَلِمَةٍ وَلَيَنبَغِي لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَنكُحِ عَلَيْهِمْ يُصْعَقُونَ فِيهَا بِغُلَاظٍ مُّجْتَمِعٍ وَسَاءَ لَهَا بَعْثُهُمْ فِيهَا صُعْدَانٍ﴾ [الأعراف: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِمَا يُوعَدُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]. وقول الرسل: ﴿لَا عِلَّةَ لَنَا﴾ قال مجاهد، والحسن البصري، والسدي: إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم. قال عبد الرزاق، عن الثوري، عن الأعمش، عن مجاهد: ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ أَرْسُلَ قَوْمٍ يَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ﴾ فيفزعون فيقولون: ﴿لَا عِلَّةَ لَنَا﴾. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا حَكَّام، حدثنا عُبَيْدَةَ قال: سمعت شيخاً يقول: سمعت الحسن يقول في قوله: ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ أَرْسُلَ﴾ الآية، قال: من هول ذلك اليوم. وقال أسباط، عن السدي: ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ أَرْسُلَ قَوْمٍ يَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ﴾ ذلك: أنهم نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول، فلما سئلوا قالوا: ﴿لَا عِلَّةَ لَنَا﴾، ثم نزلوا منزلاً آخر، فشهدوا على قومهم. رواه ابن جرير. ثم قال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا حجاج، عن ابن جُرَيج قوله: ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ أَرْسُلَ قَوْمٍ يَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ﴾: ماذا عملوا بعدكم؟ وماذا أحدثوا بعدكم؟ قالوا: ﴿لَا عِلَّةَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ أَرْسُلَ قَوْمٍ يَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ﴾ قالوا لا عِلَّةَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿١٥٦﴾، يقولون للرب، ﷻ: لا علم لنا، إلا علم أنت أعلم به منا. رواه ابن جرير. ثم اختاره على هذه الأقوال الثلاثة. ولا شك أنه قول حسن، وهو من باب التأدب مع الرب، ﷻ، أي: لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء، فنحن وإن كنا قد أجبنا وعرفنا من أجابنا، ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره، لا علم لنا بباطنه، وأنت العليم بكل شيء، المطلع على كل شيء. فعلمنا بالنسبة إلى علمك كَلَّا عَلِمَ، فإنك ﴿أَنْتَ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوسَىٰ إِنَّ مَرَمِّي أَذْكَرَ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَيْكَ إِذِ ابْتَدَلْتَ يَرْحَمُ الْقُدُّوسُ نَجْمُ النَّاسِ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمَكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ يَدَوْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَرَىٰ الْأَكْشَمَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ النُّوُورَ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنَّا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَارِثِينَ أَنِ امْضُوا وَرَسُولِيَ آلَ مَرْيَمَ قَالُوا آمَنَّا وَأَتَمَّهَا بِالنَّاسِ مُسْلِمُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

يذكر تعالى ما امتن به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم مما أجراه على يديه من المعجزات وخوارق العادات، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ أي: في خلقي إياك من أم بلا ذكر، وجعلي إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتي على الأشياء ﴿وَوَكَّلْ لَكَ الْإِسْهَاقَ﴾ حيث جعلتك لها برهاناً على براءتها مما نسبته الظالمون الجاهلون إليها من الفاحشة، ﴿إِذْ أَيْدِنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل، عليه السلام، وجعلتك نبياً داعياً إلى الله في صغرك وكبرك، فانطقتك في المهد صغيراً، فشهدت ببراءة أمك من كل عيب، واعترفت لي بالعبودية، وأخبرت عن رسالتي إياك ودعوتك إلى عبادتي؛ ولهذا قال تعالى: ﴿تَكُونُ لِنَاسٍ فِي آيَاتِهِمْ وَكُنْهَآ﴾ أي: تدعو إلى الله الناس في صغرك وكبرك. وضمن

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ : قال السُّدِّيُّ : أي نتخذ ذلك اليوم الذي

نزلت فيه عيذاباً نعظمه نحن وَمَنْ بعدنا، وقال سفيان الثوري: يعني يوماً نصلي فيه، وقال قتادة: أرادوا أن يكون لعقبيهم من بعدهم، وعن سلمان الفارسي: عظة لنا ولمن بعدنا. وقيل: كافية لأولنا وآخرنا. ﴿وَمَا يَذْكُرُكَ إِلَّا دَلِيلًا نَّصَبَهُ عَلَى قَدَرِكَ عَلَى الْأَشْيَاءِ، وَعَلَى إِبْطَالِكَ دَعْوَتِي، فَيَصْدُقُونِي فِيمَا أَبْلَغُهُ عَنْكَ﴾ ﴿وَأَرْزُقَا﴾ أي: من عندك رزقاً هيناً بلا كلفة ولا تعب ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَدِّ مِنْكُمْ أَي: فمن كذب بها من أمته يا عيسى وعاندها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُعَذِّبُوا عَذَابًا إِلَّا أَعَذَّبَهُ أَحَدًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ أَي: من عالمي زمانكم، كقوله: ﴿يَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ أَذْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وكقوله: ﴿إِنَّ الْكُفَّارِينَ فِي الْأَذْخَالِ الْأَشْكَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]. وقد روى ابن جرير، من طريق عوف الأعرابي، عن أبي المغيرة القواس، عن عبد الله بن عمرو قال: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون.

ذكر أخبار رُوِيَتْ عن السلف في نزول المائدة على الحواريين:

قال أبو جعفر بن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني حجاج، عن ثيث، عن عقيل، عن ابن عباس: أنه كان يحدث عن عيسى ابن مريم أنه قال لبني إسرائيل: هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً، ثم تسألوه فيعطيك ما سألتم؟ فإن أجر العامل على من عمل له. ففعلوا، ثم قالوا: يا معلم الخير، قلت لنا: إن أجر العامل على من عمل له وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً، ففعلنا، ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطعمنا حين نَفَرُحُ طعاماً، فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ قال عيسى: ﴿وَأَتَوْا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنهَا وَنَطْمِئَنَ قُلُوبَنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَ وَكَوْنُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَدِّ مِنْكُمْ يَأْتِيْ أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ ﴿١١٥﴾. قال: فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء، عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة، حتى وضعتها بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم. كذا رواه ابن جرير. ورواه ابن أبي حاتم، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن الليث، عن عُقَيْلٍ، عن ابن شهاب، قال: كان ابن عباس يحدث، فذكر نحوه.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا سعد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا أبو زُرْعَةَ وهب الله بن راشد، حدثنا عُقَيْلُ بن خالد، أن ابن شهاب أخبره عن ابن عباس: أن عيسى ابن مريم قالوا له: ادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء، قال: فنزلت الملائكة بمائدة يحملونها، عليها سبعة أحوات، وسبعة أرغفة، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن قُرْظَةَ الباهلي، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادة، عن خلّاس، عن عمار بن ياسر، عن النبي ﷺ قال: «نزلت المائدة من السماء، عليها خبز ولحم، وأمروا ألا يخونوا ولا يرفعوا الغد، فخانوا وادخروا ورفعوا، فمسخوها قردة وخنازير». وكذا رواه ابن جرير، عن الحسن بن قُرْظَةَ ثم رواه ابن جرير، عن ابن بشار، عن ابن أبي عَدِيٍّ، عن سعيد، عن قتادة، عن خلّاس، عن عمار، قال: نزلت المائدة وعليها ثمر من ثمار الجنة، فأمرؤا ألا يخونوا ولا يخبثوا ولا يدخروا. قال: فخان القوم وخبثوا وادخروا، فمسخهم الله قردة وخنازير.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن المشي، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود، عن سِمَاك بن حرب، عن رجل من بني عجل، قال: صليت إلى جنب عمار بن ياسر، فلما فرغ قال: هل تدري كيف كان شأن مائدة بني إسرائيل؟ قال: قلت: لا. قال: إنهم سألو عيسى ابن مريم مائدة يكون عليها طعام يأكلون منه لا ينفد، قال: فقيل لهم: فإنها مقيمة لكم ما لم تخبثوا، أو تخونوا، أو ترفعوا، فإن فعلتم فإني معذبكم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، قال: فما مضى يومهم حتى خبثوا ورفعوا وخانوا، فعذبوا عذاباً لم يعذبه أحد من العالمين. وإنكم - معشر العرب - كنتم تبغون أذناب الإبل والشاة، فبعث الله فيكم رسولا من أنفسكم، تعرفون حسبه ونسبه، وأخبركم أنكم ستظهرون على المعجم، ونهاكم أن تكتننوا الذهب والفضة. وإيم الله، لا يذهب الليل والنهار حتى تكثروهما، ويعذبكم الله عذاباً أليماً. وقال: حدثنا القاسم، حدثنا حسين، حدثني حجاج، عن أبي مَعْشَرٍ، عن إسحاق بن عبد الله: أن المائدة نزلت على عيسى ابن مريم، عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات، يأكلون منها ما شاؤوا. قال: فسرق بعضهم منها وقال: «لعلها لا تنزل غداً». فرفعت. وقال العوفي، عن ابن عباس: نزلت على عيسى ابن مريم والحواريين، جِوان عليه خبز وسمن، يأكلون منه أينما نزلوا إذا شاؤوا. وقال خَصِيف، عن عكرمة ومِقْسَم، عن ابن عباس: كانت المائدة سمكة وأرغفة. وقال مجاهد: هو طعام كان ينزل عليهم حيث نزلوا. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: نزلت المائدة

خبزاً وسمكاً. وقال عطية العوفي: المائدة: سمك فيه طعم كل شيء. وقال وهب بن مُثَنَّب: أنزلها من السماء على بني إسرائيل، فكان ينزل عليهم في كل يوم في تلك المائدة من ثمار الجنة، فأكلوا ما شاؤوا من ضروب شتى، فكان يُقَعَّدُ عليها أربعة آلاف، فإذا أكلوا أبدل الله مكان ذلك لمثلهم. فلبثوا بذلك ما شاء الله، سبحانه. وقال وهب بن مُثَنَّب: نزل عليهم قرصة من شعير وأحوات، وحشا الله بين أضعافهن البركة، فكان قوم يأكلون ثم يخرجون، ثم يجيء آخرون فيأكلون ثم يخرجون، حتى أكل جميعهم وأفضلوا. وقال الأعمش، عن مسلم، عن سعيد بن جبيرة: أنزل عليها كل شيء إلا اللحم. وقال سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن زاذان وميسرة، وجريز، عن عطاء، عن ميسرة قال: كانت المائدة إذا وضعت لبني إسرائيل اختلفت عليهم الأيدي بكل طعام إلا اللحم.

وعن عكرمة: كان خبز المائدة من الأرز. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا جعفر بن علي فيما كتب إلي، حدثنا إسماعيل بن أبي أونس، حدثني أبو عبد الله عبد القدوس بن إبراهيم بن عبيد الله بن مزداس العبدري - مولى بني عبد الدار - عن إبراهيم بن عمر، عن وهب بن منبه، عن أبي عثمان التَّهْلُذِي، عن سلمان الخير؛ أنه قال: لما سأل الحواريون عيسى ابن مريم المائدة، كره ذلك جداً وقال: اقنعوا بما رزقكم الله في الأرض، ولا تسألوا المائدة من السماء، فإنها إن نزلت عليكم كانت آية من ربكم، وإنما هلكتمود حين سألوا نبيهم آية، فابتلوا بها حتى كان بؤارهم فيها. فأبوا إلا أن يأتيهم بها، فلذلك قالوا: ﴿رُبِّدْ أَنْ تَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمِئَنَ قُلُوبُكَ﴾ الآية. فلما رأى عيسى أن قد أبوا إلا أن يدعو لهم بها، قام فألقى عنه الصوف، ولبس الشعر الأسود، وجبة من شعر، وعباءة من شعر، وتوضأ واغتسل، ودخل مصلاه فصلى ما شاء الله، فلما قضى صلاته قام قائماً مستقبلاً القبلة وصف قدميه حتى استويا، فالتصق الكعب بالكعب وحاذى الأصابع، ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره، وغض بصره، وطأطأ رأسه خشوعاً، ثم أرسل عينيه بالكعب، فما زالت دموعه تسيل على خديه وتقطر من أطراف لحيته حتى ابتلت الأرض حيال وجهه من خشوعه، فلما رأى ذلك دعا الله فقال: ﴿أَللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ فأنزل الله عليهم سفرة حمراء بين غماتين: غمامة فوقها وغمامة تحتها، وهم ينظرون إليها في الهواء منقضة من فلك السماء تهوي إليهم، وعيسى يبكي خوفاً للشروط التي اتخذها الله عليهم - فيها: أنه يعذب من يكفر بها منهم بعد نزولها عذاباً لم يعذبه أحد من العالمين - وهو يدعو الله من مكانه ويقول: اللهم اجعلها رحمة، إلهي لا تجعلها عذاباً، إلهي كم من عجيبة سألتك فأعطيتني، إلهي اجعلنا لك شُكَّارِينَ، إلهي أعوذ بك أن تكون أنزلتها غضباً جزاء، إلهي اجعلها سلامة وعافية، ولا تجعلها فتنة ومثلة. فما زال يدعو حتى استقرت السفرة بين يدي عيسى، والحواريين وأصحابه حوله، يجدون رائحة طيبة لم يجدوا فيما مضى رائحة مثلاً قط، وخَرَّ عيسى والحواريون لله سجداً شكرياً بما رزقهم من حيث لم يحتسبوا، وأراهم فيه آية عظيمة ذات عجب وعبرة، وأقبلت اليهود ينظرون فراواً أمراً عجيباً أورثهم كمداً وغماً، ثم انصرفوا بغضب شديد. وأقبل عيسى والحواريون وأصحابه حتى جلسوا حول السفرة، فإذا عليها منديل مغطى. قال عيسى: من أجرونا على كشف المنديل عن هذه السفرة، وأوثقنا بنفسه، وأحسننا بلاءه عند ربه؟ فليكشف عن هذه الآية حتى نراها، ونحمد ربنا، ونذكر باسمه، ونأكل من رزقه الذي رزقنا. فقال الحواريون: يا روح الله وكلمته، أنت أولانا بذلك، وأحقنا بالكشف عنها. فقام عيسى، عليه السلام، واستأنف وضوءاً جديداً، ثم دخل مصلاه فصلى كذلك ركعات، ثم بكى بكاء طويلاً، ودعا الله أن يأذن له في الكشف عنها، ويجعل له ولقومه فيها بركة ورزقاً. ثم انصرف فجلس إلى السفرة وتناول المنديل، وقال: «باسم الله خير الرازقين»، وكشف عن السفرة، فإذا هو عليها سمكة ضخمة مشوية، ليس عليها بواسير، وليس في جوفها شوك، يسيل السمن منها سيلاً، قد نضد حولها بقول من كل صنف غير الكراث، وعند رأسها خل، وعند ذنبها ملح، وحول البقول خمسة أرغفة، على واحد منها زيتون، وعلى الآخر ثمرات، وعلى الآخر خمس رمانات.

فقال شمعون رأس الحواريين لعيسى: يا روح الله وكلمته، أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنة؟ فقال: أما أن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات، وتنتهوا عن تنفير المسائل؟ ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا في سبب هذه الآية! فقال شمعون: وإله إسرائيل ما أردت بها سؤالاً يا ابن الصديقة. فقال عيسى، عليه السلام: ليس شيء مما ترون من طعام الجنة ولا من طعام الدنيا، إنما هو شيء ابتدعه الله في الهواء بالقدرة العالية القاهرة، فقال له: كن. فكان أسرع من طرفه عين، فكلوا مما سألتهم باسم الله، واحمدوا عليه ربكم بمُحَمَّدٍ منه ويَزِدْكم، فإنه بديع قادر شاكِر. فقالوا: يا روح الله وكلمته، إنا نحب أن تُرثينا آية في هذه الآية. فقال عيسى: سبحان الله! أما اكتفيتم بما رأيتم في هذه الآية حتى تسألوا فيها آية أخرى؟ ثم أقبل عيسى، عليه السلام، على السمكة، فقال: يا سمكة، عودي بإذن الله حية كما كنت. فأحيها الله بقدرة، فاضطربت وعادت بإذن الله حية طرية، تَلَمَّظَ

كما يلمظ الأسد، تدور عينها لها بصيص، وعادت عليها بواسيرها. ففرغ القوم منها وانحازوا. فلما رأى عيسى ذلك منهم قال: ما لكم تسألون الآية، فإذا أراكموها ربكم كرهتموها؟ ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا بما تصنعون! يا سمكة، عودي بإذن الله كما كنت. فعادت بإذن الله مشوية كما كانت في خلقها الأول. فقالوا لعيسى: كن أنت يا روح الله الذي تبدأ الأكل منها، ثم نحن بعد. فقال عيسى: معاذ الله من ذلك! يبدأ بالأكل من طلبها. فلما رأى الحواريون وأصحابهم امتناع نبيهم منها، خافوا أن يكون نزولها سَخْطَةً وفي أكلها مَثَلَةٌ، فتحاموها. فلما رأى ذلك عيسى دعا لها الفقراء والزُّمَنِي، وقال: كلوا من رزق ربكم، ودعوة نبيكم، واحمدوا الله الذي أنزلها لكم، فيكون مَهْنُؤُها لكم، وعقوبتها على غيركم، وافتتحوا أكلكم باسم الله، واختموه بحمد الله، ففعلوا، فأكل منها ألف وثلاثمائة إنسان بين رجل وامرأة، يصدرون عنها كل واحد منهم شعبان يتجشأ، ونظر عيسى والحواريون فإذا ما عليها كهيته إذ أنزلت من السماء، لم ينتقص منها شيء، ثم إنها رفعت إلى السماء وهم ينظرون، فاستغنى كل فقير أكل منها، وبرى كل زَمِنٍ أكل منها، فلم يزالوا أغنياء صَحَاحاً حتى خرجوا من الدنيا.

وندم الحواريون وأصحابهم الذين أبوا أن يأكلوا منها ندامة، سالت منها أشفارهم، وبقيت حسرتها في قلوبهم إلى يوم الممات، قال: فكانت المائدة إذا نزلت بعد ذلك أقبلت بنو إسرائيل إليها من كل مكان يسعون يزاحم بعضهم بعضاً: الأغنياء والفقراء، والصغار والكبار، والأصحاء والمرضى، يركب بعضهم بعضاً. فلما رأى ذلك جعلها نواب، تنزل يوماً ولا تنزل يوماً. فلبثوا في ذلك أربعين يوماً، تنزل عليهم غَيًّا عند ارتفاع الضُّحَى، فلا تزال موضوعة يؤكل منها، حتى إذا قاموا ارتفعت عنهم بإذن الله إلى جو السماء، وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض حتى توارى عنهم. قال: فأوحى الله إلى نبيه عيسى، عليه السلام، أن اجعل رزقي المائدة، لليتامى والفقراء والزُّمَنِي دون الأغنياء من الناس، فلما فعل ذلك ارتاب بها الأغنياء من الناس، وعَمَطُوا ذلك، حتى شَكُّوا فيها في أنفسهم وشككوا فيها الناس، وأذاعوا في أمرها القبيح والمنكر، وأدرك الشيطان منهم حاجته، وقذف وسواسه في قلوب المرتابين، حتى قالوا لعيسى: أخبرنا عن المائدة، ونزولها من السماء أحق، فإنه قد ارتاب بها بشر منا كثير؟ فقال عيسى، عليه السلام: هلكنم وإله المسيح! طلبتم المائدة إلى نبيكم أن يطلبها لكم إلى ربكم، فلما أن فعل وأنزلها عليكم رحمة ورزقاً، وأراكم فيها الآيات والعبر كذَّبْتُمُ بها، وشككتُم فيها، فأبشروا بالعذاب، فإنه نازل بكم إلا أن يرحمكم الله. وأوحى الله إلى عيسى: إني أخذ المكذبين بشرطي، فإني معذب منهم من كفر بالمائدة بعد نزولها عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، قال: فلما أمسى المرتابون بها وأخذوا مضاجعهم في أحسن صورة مع نسائهم آمنين، فلما كان في آخر الليل مسخهم الله خنازير، فأصبحوا يتبعون الأقدار في الكناسات. هذا أثر غريب جداً، قَطَعَهُ ابن أبي حاتم في مواضع من هذه القصة، وقد جمعته أنا له ليكون سياقه أتم وأكمل، والله سبحانه وتعالى أعلم. وكل هذه الآثار دالة على أن المائدة نزلت على بني إسرائيل، أيام عيسى ابن مريم، إجابة من الله لدعوته، وكما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنَّي مَزِيلُهَا عَنْكُمْ﴾ الآية.

وقد قال قائلون: إنها لم تنزل. فروى لَيْثُ بن أبي سليم، عن مجاهد في قوله: ﴿أَنزَلْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ قال: هو مثل ضُرب، ولم ينزل شيء. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير. ثم قال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا القاسم - هو ابن سلام - حدثنا حجاج، عن ابن جُرَيْج، عن مجاهد قال: مائدة عليها طعام، أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا، فأبوا أن تُنزل عليهم. وقال أيضاً: حدثنا ابن المنثي، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبه، عن منصور بن زاذان، عن الحسن؛ أنه قال في المائدة: لم تنزل. وحدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: كان الحسن يقول: لما قيل لهم: ﴿فَمَنْ يَكْفُرُ بَدَّ مِنْكُمْ فَإِنِّي أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أَعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قالوا: لا حاجة لنا فيها، فلم تنزل. وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن، وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى وليس هو في كتابهم، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما يتوفر الدواعي على نقله، وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً، ولا أقل من الأحاد، والله أعلم. ولكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت، وهو الذي اختاره ابن جرير، قال: لأنه تعالى أخبر بنزولها بقوله تعالى: ﴿إِنِّي مَزِيلُهَا عَنْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرُ بَدَّ مِنْكُمْ فَإِنِّي أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أَعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قال: ووعد الله ووعده حق وصدق. وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم. وقد ذكر أهل التاريخ أن موسى بن نصير نائب بني أمية في فتوح بلاد المغرب، وجد المائدة هنالك مرصعة باللآلئ وأنواع الجواهر، فبعث بها إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، باني جامع دمشق، فمات وهي في الطريق، فحملت إلى أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعده، فرآها الناس وتعجبوا منها كثيراً لما فيها من اليواقيت النفيسة والجواهر القيمة. ويقال: إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود، عليهما السلام، فאלله أعلم.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كهيل، عن عمران بن الحكم، عن ابن عباس قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك، قال: «وتفعلون؟» قالوا: نعم. قال: فدعا، فاتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة؟ قال: «بل باب التوبة والرحمة». ثم رواه أحمد، وابن مردويه، والحاكم في مستدركه، من حديث سفيان الثوري، به.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۖ مَا نَتَّيْتُ لِّلنَّاسِ اٰنْجِيْذِيْ وَآمِيْ ۙ اِلَٰهِيْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ ۚ قَالَ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُوْنُ لِيْۤ اَنْ اَقُوْلَ مَا لَيْسَ لِيْ بِحَقٍّ ۚ اِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمَ مَا فِيْ نَفْسِيْ وَلَا اَعْلَمُ مَا فِيْ نَفْسِكَ ۚ اِنَّكَ اَنْتَ عَلٰمُ الْغُيُوْبِ ۝۱۱۶ مَا قُلْتُ لَكُمْ اِلَّا مَا اَمَرْتَنِيْ بِهٖۤ اَنْ اَعْبُدُوْا اللَّهَ رَبِّيْ وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيْهِمْ ۚ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِيْ كُنْتُ اَنْتَ اَلْرَّقِيْبَ عَلَيْهِمْ وَاَنْتَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝۱۱۷ اِنْ تَتُوبْهُمْ اِنَّهُمْ لَفِيْ سَبِيْلِكَ ۚ وَلَٰن تَغْفِرَ لَهُمْ فَاِنَّكَ اَنْتَ اَلْغَفُوْرُ الْكَرِيْمُ ۝۱۱۸﴾

هذا أيضاً مما يخاطب الله تعالى به عبده ورسوله عيسى ابن مريم، عليه السلام، قائلًا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۖ مَا نَتَّيْتُ لِّلنَّاسِ اٰنْجِيْذِيْ وَآمِيْ ۙ اِلَٰهِيْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ﴾؟ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقرير على رؤوس الأشهاد. هكذا قاله قتادة وغيره، واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصّٰدِقِيْنَ صِدْقُهُمْ﴾. وقال السُّدِّي: هذا الخطاب والجواب في الدنيا. قال ابن جرير: وهذا هو الصواب، وكان حين رفعه الله إلى سماء الدنيا. واحتج ابن جرير على ذلك بمعنيين: أحدهما: أن لفظ الكلام لفظ الماضي. والثاني: قوله: ﴿اِنْ تَتُوبْهُمْ﴾ و ﴿وَاِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ﴾. وهذان الدليلان فيهما نظر؛ لأن كثيراً من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ الماضي، ليدل على الوقوع والثبوت. ومعنى قوله: ﴿اِنْ تَتُوبْهُمْ﴾ فإنهم عبادك، والآية: التبري منهم ورد المشيئة فيهم إلى الله، وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضي وقوعه، كما في نظائر ذلك من الآيات. والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر، والله أعلم: أن ذلك كائن يوم القيامة ليدل على تهديد النصارى وتقريرهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة. وقد روي بذلك حديث مرفوع، رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبد الله، مولى عمر بن عبد العزيز، وكان ثقة، قال: سمعت أبا بردة يحدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دعي بالأنبياء وأممهم، ثم يُدعى بعيسى فيذكره الله نعمته عليه، فيقر بها، فيقول: ﴿يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۖ اَتُكِّرُ بِمَعْنَى عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ﴾ الآية [المائدة: ١١٠] ثم يقول: ﴿مَا نَتَّيْتُ لِّلنَّاسِ اٰنْجِيْذِيْ وَآمِيْ ۙ اِلَٰهِيْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ﴾؟ فينكر أن يكون قال ذلك، فيؤتى بالنصارى فيسألون، فيقولون: نعم، هو أمرنا بذلك، قال: فيطول شعر عيسى، عليه السلام، فيأخذ كل ملك من الملائكة بشرة من شعر رأسه وجسده، فيجاثيهم بين يدي الله، مقدار ألف عام، حتى ترفع عليهم الحجة، ويرفع لهم الصليب، وينطلق بهم إلى النار، وهذا حديث غريب عزيز.

وقوله: ﴿سُبْحٰنَكَ مَا يَكُوْنُ لِيْۤ اَنْ اَقُوْلَ مَا لَيْسَ لِيْ بِحَقٍّ﴾ هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن طاوس، عن أبي هريرة قال: يلقي عيسى حجته، ولقاه الله في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۖ مَا نَتَّيْتُ لِّلنَّاسِ اٰنْجِيْذِيْ وَآمِيْ ۙ اِلَٰهِيْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ﴾؟ قال أبو هريرة، عن النبي ﷺ: فلقاه الله: ﴿سُبْحٰنَكَ مَا يَكُوْنُ لِيْۤ اَنْ اَقُوْلَ مَا لَيْسَ لِيْ بِحَقٍّ﴾ أي آخر الآية. وقد رواه الثوري، عن مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن طاوس، بنحوه.

وقوله: ﴿اِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ أي: إن كان صدر مني هذا فقد علمته يا رب، فإنه لا يخفى عليك شيء مما قلته ولا أردته في نفسي ولا أضمرته، ولهذا قال: ﴿تَعْلَمَ مَا فِيْ نَفْسِيْ وَلَا اَعْلَمُ مَا فِيْ نَفْسِكَ اِنَّكَ اَنْتَ عَلٰمُ الْغُيُوْبِ﴾. مَا قُلْتُ لَكُمْ اِلَّا مَا اَمَرْتَنِيْ بِهٖۤ ﴿اِنْ اَعْبُدُوْا اللَّهَ رَبِّيْ وَرَبَّكُمْ﴾ أي: ما دعوتهم إلا إلى الذي أرسلتني به وأمرتني بإبلاغه: ﴿اِنْ اَعْبُدُوْا اللَّهَ رَبِّيْ وَرَبَّكُمْ﴾ أي: هذا هو الذي قلت لهم، ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيْهِمْ﴾ أي: كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِيْ كُنْتُ اَنْتَ اَلْرَّقِيْبَ عَلَيْهِمْ وَاَنْتَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

قال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة قال: انطلقت أنا وسفيان الثوري إلى المغيرة بن النعمان فأملأه على سفيان وأنا معه، فلما قام انتسخت من سفيان، فحدثنا قال: سمعت سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة، فقال: «يا أيها الناس، إنكم محشورون إلى الله، حفاة عراة غرلاً، كما بدأنا أول خلق نعيده، وإن أول الخلائق يُكسى إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيْهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِيْ كُنْتُ اَنْتَ اَلْرَّقِيْبَ عَلَيْهِمْ وَاَنْتَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ اِنْ تَتُوبْهُمْ لَآيُنْهُمْ

عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ ﴿١١٩﴾ ، فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم. ورواه البخاري عند هذه الآية عن الوليد، عن أبي شعبة - وعن محمد بن كثير، عن سفيان الثوري، كلاهما عن المغيرة بن النعمان، به.

وقوله: ﴿إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ﴾ ، هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله، فإنه الفعال لما يشاء، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله، وعلى رسوله، وجعلوا لله نداً وصاحبة ولداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وهذه الآية لها شأن عظيم ونباً عجيب، وقد ورد في الحديث: أن رسول الله ﷺ قام بها ليلة إلى الصباح يرددها. قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن فضيل، حدثني فُلَيْتُ العامري، عن جَسْرَةَ العامرية، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: صلى رسول الله ﷺ ليلة فقراً بآية حتى أصبح، يركع بها ويسجد بها: ﴿إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ﴾ ، فلما أصبح قلت: يا رسول الله، ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها؟ قال: «إني سألت ربي، ﷻ، الشفاعة لأمتي، فأعطانيها، وهي نائل إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً».

طريق أخرى وسياق آخر: قال أحمد: حدثنا يحيى، حدثنا قُدَامَةُ بن عبد الله، حدثني جَسْرَةُ بنت دجاجة: أنها انطلقت معتمرة، فانتهت إلى الربرة، فسمعت أبا ذر يقول: قام رسول الله ﷺ ليلة من الليالي في صلاة العشاء، فصلى بالقوم، ثم تخلف أصحاب له يصلون، فلما رأى قيامهم وتخلفهم انصرف إلى رحله، فلما رأى القوم قد أدخلوا المكان رجع إلى مكانه فصلى، فجئت فقممت خلفه، فأومأ إليّ بيمينه، فقممت عن يمينه. ثم جاء ابن مسعود فقام خلفي وخلفه، فأومأ إليه بشماله، فقام عن شماله، فقممتا ثلاثتنا يصلي كل واحد منا بنفسه، ويتلو من القرآن ما شاء الله أن يتلو. وقام بآية من القرآن يرددها حتى صلى الغداة. فلما أصبحنا أومأت إلى عبد الله بن مسعود: أن سله ما أراد إلى ما صنع البارحة؟ فقال ابن مسعود بيده: لا أسأله عن شيء حتى يحدث إليّ، فقلت: بأبي أنت وأمي، قمت بآية من القرآن ومعك القرآن، لو فعل هذا بعضنا لوجدنا عليه، قال: «دعوت لأمتي». قلت: فماذا أجبت؟ - أو ماذا ردّ عليك؟ - قال: «أجبت بالذي لو اطلع عليه كثير منهم طلعة تركوا الصلاة». قلت: أفلا أبشر الناس؟ قال: «بلى». فانطلقت مُغْنَقاً قَرِيباً مِنْ قُدْفَةِ بحجر. فقال عمر: يا رسول الله، إنك إن تبعث إلى الناس بهذا تكلوا عن العبادة. فناداه أن ارجع فرجع، وتلك الآية: ﴿إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ﴾ .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، أن بكر بن سودة حدثه، عن عبد الرحمن بن جبير، عبد الله بن عمرو بن العاص؛ أن النبي ﷺ تلا قول عيسى: ﴿إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ﴾ . رفع يديه فقال: «اللهم أمتي». وبكى، فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فاسأله: ما يبكيه؟ فأتاه جبريل، فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا ابن هُبَيْرَةَ: أنه سمع أبا تميم الجُشَّانِي يقول: حدثني سعيد بن المسيب، سمعت حذيفة بن اليمان يقول: غاب عنا رسول الله ﷺ يوماً فلم يخرج، حتى ظننا أن لن يخرج، فلما خرج سجد سجدة ظننا أن نفسه قد قبضت فيها، فلما رفع رأسه قال: «إن ربي، ﷻ، استشارني في أمتي: ماذا أفعل بهم؟ فقلت: ما شئت أي: رب هم خلقك وعبادك. فاستشارني الثانية، فقلت له كذلك، فقال: لا أخزيك في أمتك يا محمد، وبشرني أن أول من يدخل الجنة من أمتي معي سبعون ألفاً، مع كل ألف سبعون ألفاً، ليس عليهم حساب، ثم أرسل إليّ فقال: ادع ثُجْب، وسل تُغَط. فقلت لرسوله: أو معطي ربي سؤلي؟ قال: ما أرسلني إليك إلا ليعطيك، ولقد أعطاني ربي ولا فخر، وغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، وأنا أمشي حياً صحيحاً، وأعطاني ألا تجوع أمتي ولا تغلب، وأعطاني الكوثر، وهو نهر في الجنة يسيل في حوضي، وأعطاني العز والنصر والعرب يسعى بين يدي أمتي شهراً، وأعطاني أني أول الأنبياء يدخل الجنة، وطيب لي ولأمتي الغنيمة، وأحل لنا كثيراً مما شدد على من قبلنا، ولم يجعل علينا في الدين من حرج».

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿١٢٠﴾ إِلَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢١﴾ .

يقول تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى ابن مريم، فيما أنناه إليه من التبري من النصارى الملحدين، الكاذبين على الله وعلى رسوله، ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه، ﷻ، فعند ذلك يقول تعالى: ﴿هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ . قال الضحاک، عن ابن

عباس يقول: يوم ينفع الموحدين توحيدهم. ﴿لَمْ يَكُنْ لَكَ مِنْ نَحْوِهَا الْآنْهُرُ خَلْقَيْنِ فِيهَا آدَمُ﴾ أي: ما كُتِبَ فيها لا يَحُولُونَ ولا يزولون، رضي الله عنهم ورضوا عنه، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْآيَةُ﴾ [التوبة: ٧٢]. وسيأتي ما يتعلق بتلك الآية من الحديث. وقد روى ابن أبي حاتم ههنا حديثاً فقال: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا المحارب، عن ليث، عن عثمان - يعني ابن عُمَيْر - أبو اليقظان - عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ثم يتجلى لهم الرب تعالى فيقول: سلوني سلوني أعطكم». قال: «فيسألونه الرضا، فيقول: رضي أحلكم داري، وأنا لكم كرامتي، فسلوني أعطكم. فيسألونه الرضا»، قال: «فيشهدهم أنه قد رضي عنهم». وقوله: ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ أي: هذا هو الفوز الكبير الذي لا أعظم منه، كما قال تعالى: ﴿لِيُنْزِلَ هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَى الْغُلَامِ﴾ [الصافات: ٦١]، وكما قال: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. وقوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آي: ١١٢] أي: هو الخالق للأشياء، المالك لها، المتصرف فيها القادر عليها، فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته وفي مشيئته، فلا نظير له ولا وزير، ولا عدل، ولا والد ولا ولد ولا صاحبة، فلا إله غيره ولا رب سواه. قال ابن وهب: سمعت حُيَينَ بن عبد الله يحدث، عن أبي عبد الرحمن الجُبلي، عن عبد الله بن عمرو قال: آخر سورة أنزلت سورة المائدة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه الثقة وما توفيقى إلا بالله تفسير سورة الأنعام

وهي مكية.

قال القوفي وعكرمة وعطاء، عن ابن عباس: أنزلت سورة الأنعام بمكة. وقال الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة، حولها سبعون ألف ملك يجارون حولها بالتسييح. وقال سفيان الثوري، عن ليث، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت: نزلت سورة الأنعام على النبي ﷺ جملة واحدة، وأنا آخذة بزمام ناقة النبي ﷺ، إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة. وقال شريك، عن ليث، عن شهر، عن أسماء قالت: نزلت سورة الأنعام على رسول الله ﷺ وهو في مسير في رَجُلٍ من الملائكة وقد نظمو ما بين السماء والأرض. وقال السُّدي، عن مرة، عن عبد الله قال: نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفاً من الملائكة. وروى نحوه من وجه آخر، عن ابن مسعود.

وقال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب الحافظ، وأبو الفضل الحسن بن يعقوب العدل قالوا: حدثنا محمد بن عبد الوهاب العبد، أخبرنا جعفر بن عَوْن، حدثنا إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدي، حدثنا محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر قال: لما نزلت سورة الأنعام سَبَّحَ رسول الله ﷺ، ثم قال: «لقد شَبَّعَ هذه السورة من الملائكة ما سَدَّ الأفق». ثم قال: صحيح على شرط مسلم. وقال أبو بكر بن مَرْزُوق: حدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا إبراهيم بن دُرْشُوق الفارسي، حدثنا أبو بكر بن أحمد بن محمد بن سالم، حدثنا ابن أبي قُدَيْك، حدثني عمر بن طلحة الرقاشي، عن نافع بن مالك أبي سهيل، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت سورة الأنعام معها مَوْكِبٌ من الملائكة، سَدَّ ما بين الخافقين، لهم رَجُلٌ بالتسييح والأرض بهم تَرْتَجُ»، ورسول الله ﷺ يقول: «سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم». ثم روى ابن مردويه عن الطبراني، عن إبراهيم بن نائلة، عن إسماعيل بن عمرو، عن يوسف بن عطية، عن ابن عَوْن، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت عليّ سورة الأنعام جملة واحدة، وشيئها سبعون ألفاً من الملائكة، لهم رَجُلٌ بالتسييح والتحميد».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّوْثَ ثُمَّ الَّذِي كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَدْلُوكَ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ مَعْمُودُونَ ۝ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَلْمِزُكُمْ وَجَهَرَكُمْ وَيَكْمُنُ مَا تَكْتُمُونَ ۝﴾

يقول تعالى مادحاً نفسه الكريمة، وحامداً لها على خلقه السموات والأرض قراراً لعباده، وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم، فجمع لفظ «الظلمات» ووحد لفظ «النور»؛ لكونه أشرف، كما قال: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: ٤٨]، وكما قال في آخر هذه السورة: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وقوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: ومع هذا كله كفر به بعض عباده، وجعلوا معه شريكاً وعدلاً، واتخذوا له صاحبةً وولداً، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ لَيْنٍ﴾ يعني: أباهم آدم الذي هو أصلهم ومنه خرجوا، فانتشروا في المشرق والمغرب. وقوله: ﴿ثُمَّ قَفَّيْ أَجَلًا وَأَجَّلَ مُسَيِّ عِنْدُكَ﴾ قال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ قَفَّيْ أَجَلًا﴾ يعني: الموت ﴿وَأَجَّلَ مُسَيِّ عِنْدُكَ﴾ يعني: الآخرة. وهكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبّير، والحسن، وقتادة، والضحاك، وزيد بن أسلم، وعطية، والسُّدي، ومقاتيل بن حيان، وغيرهم. وقول الحسن - في رواية عنه: ﴿ثُمَّ قَفَّيْ أَجَلًا﴾ قال: ما بين أن يُخْلَقَ إلى أن يموت ﴿وَأَجَلَ مُسَيِّ عِنْدُكَ﴾: ما بين أن يموت إلى أن يبعث - هو يرجع إلى ما تقدم، وهو تقدير الأجل الخاص، وهو عمر كل إنسان، وتقدير الأجل العام، وهو عمر الدنيا بكمالها ثم انتهائها وانقضائها وزوالها، وانتقالها، والمصير إلى الدار الآخرة. وعن ابن عباس ومجاهد: ﴿ثُمَّ قَفَّيْ أَجَلًا﴾ يعني: مدة الدنيا ﴿وَأَجَلَ مُسَيِّ عِنْدُكَ﴾ يعني: عمر الإنسان إلى حين موته، وكأنه مأخوذ من قوله تعالى بعد هذا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُوَفِّيكُمْ بِالْيَمِينِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّارِ ثُمَّ يَهْدِيكُمْ فِيهِ لِيُقَفَّى أَجَلٌ مُسَيِّ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٦٠]. وقال عطية، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ قَفَّيْ أَجَلًا﴾ يعني: النوم، يقبض فيه الروح، ثم يرجع إلى صاحبه عند اليقظة ﴿وَأَجَلَ مُسَيِّ عِنْدُكَ﴾ يعني: أجل موت الإنسان، وهذا قول غريب. ومعنى قوله: ﴿عِنْدُكَ﴾ أي: لا يعلمه إلا هو، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عَلَّمَهَا عَبْدُ رَبٍّ لَا يُحِيطُ بِلَوْفَاتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وكقوله: ﴿تَتَوَكَّلْ عَلَى النَّاسِ فَإِنَّ مَسَاسِكُهُمْ﴾ [يَم أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ۝٢٣] إِنَّكَ رَبُّكَ مُنْتَبِهًا ۝٢٤﴾ [التازعات: ٤٢- ٤٤]. وقوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُ تَمْوَدُونَ﴾ قال السُّدي وغيره: يعني تشكون في أمر الساعة.

وقوله: ﴿وَمَوْاَّ اللّٰهُ فِى السَّمٰوٰتِ وَفِى الْاَرْضِ يَتْلَمَّ يَرْكَمُ وَجَهْرَكُمْ وَيَتْلَمَّ مَا تَكْسِبُوْنَ ۝٢٨﴾ . اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال، بعد الاتفاق على تخطئة قول الجهمية الأول القائلين بأنه - تعالى عن قولهم علواً كبيراً - في كل مكان؛ حيث حملوا الآية على ذلك، فأصح الأقوال أنه: المدعو الله في السموات وفي الأرض، أي: يعبدوه ويوحده ويفرله بالإلهية من في السموات ومن في الأرض، ويسمونه الله، ويدعونه رغباً ورهباً، إلا من كفر من الجن والإنس، وهذه الآية على هذا القول كقولته تعالى: ﴿وَمَوْاَّ اللّٰهُ فِى السَّمٰوٰتِ وَفِى الْاَرْضِ يَتْلَمَّ ۝٢٨﴾ [الزخرف: ٨٤] أي: هو إله مَنْ في السماء وإله مَنْ في الأرض، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿يَتْلَمَّ يَرْكَمُ وَجَهْرَكُمْ﴾ خبراً أو حالاً. والقول الثاني: أن المراد أن الله الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض، من سر وجهه. فيكون قوله: ﴿يَتْلَمَّ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿فِى السَّمٰوٰتِ وَفِى الْاَرْضِ﴾، تقديره: وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض ويعلم ما تكتسبون. والقول الثالث: أن قوله: ﴿وَمَوْاَّ اللّٰهُ فِى السَّمٰوٰتِ وَفِى الْاَرْضِ يَتْلَمَّ يَرْكَمُ وَجَهْرَكُمْ﴾، وهذا اختيار ابن جرير. وقوله: ﴿وَيَتْلَمَّ مَا تَكْسِبُوْنَ﴾ أي: جميع أعمالهم خيرا وشرا.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿١٠١﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا يَمْسِكُونَ ﴿١٠٢﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُغْنِ لَكَزْ وَارْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِطْرًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ فَآهَلِكْنَاهُمْ يَوْمَ وَاغْتَاْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين المكذبين المعاندين: **إِنَّهُمْ مِمَّا أَنتَهُمُ ﴿٥٠﴾** أي: دالة ومعجزة وحجة، من الدلالات على وحدانية الرب، ﷻ، وصدق رسله الكرام، فإنهم يعرضون عنها، فلا ينظرون فيها ولا يبالون بها، قال الله تعالى: **﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْتَهُمُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** . وهذا تهديد لهم ووعد شديد على تكذيبهم بالحق، بأنه لا بد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب، وليجدن غبه، وليذوقن وبالَه. ثم قال تعالى واعظاً ومحذراً لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حل بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة، وأكثر جمعاً، وأكثر أموالاً وأولاداً واستغلاًلاً للأرض وعمارة لها، فقال: **﴿أَمْ يَرَوْنَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّن قَبْلِهِم مِّن قُرُونٍ مَّكَثَتْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمْكِنْ لَّكُمُ الْإِيَّامُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْأَعْمَارِ، وَالْجَاهِ الْعَرِيضِ، وَالسَّعَةِ الْجَنُودِ، ﴿٥١﴾ وَآرَسْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِزَازًا ﴿٥٢﴾** أي: شيئاً بعد شيء، **﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾** أي: أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض، أي: استدراجاً وإملاء لهم **﴿فَأَمْلَكْنَاهُمْ بُيُوتَهُمْ﴾** أي: بخطاياهم وسيئاتهم التي اجتمعوها، **﴿وَأَنشَأْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ قُرُونًا مَّخْرَجًا ﴿٥٣﴾** أي: فذهب الأولون كأس الذاهب وجعلناهم أحداث، **﴿وَأَنشَأْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ قُرُونًا مَّخْرَجًا ﴿٥٤﴾** أي: جيلاً آخر لنختبرهم، فعملوا مثل أعمالهم، فهلكوا كهلاكهم. فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل

ما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم، لولا لطفه وإحسانه.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَابٍ فَلَسَوْهُ بِإِلْدِيمٍ ۖ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۖ﴾ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَفُتِنَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِ مَا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُوا بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَقَّ بِالَّذِينَ سَجَرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كفر المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباهتتهم ومنازعتهم فيه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَابٍ فَلَسَوْهُ بِإِلْدِيمٍ﴾ أي: عابونه، ورأوا نزوله، وباشروا ذلك ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وهذا كما قال تعالى مخبراً عن مكابرتهم للمحسوسات: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَمْرُجُونَ﴾ ﴿١١﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّشْغُورُونَ﴾ ﴿١٥﴾ (الحجر: ١٤، ١٥) وقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ ﴿٤٤﴾ (الطور: ٤٤).

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَفُتِنَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أي: لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاءهم من الله العذاب، كما قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ ﴿٨﴾ (الحجر: ٨)، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُرْهَانَ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ جِبَرًا مُّجْرَبُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ (الفرقان: ٢٢).

وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِ مَا يَلْبَسُونَ﴾ أي: لو أنزلنا مع الرسول البشري ملكاً، أي: لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكياً، لكان على هيئة رجل لتفهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُوتُ مَطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ ﴿١٥﴾ (الإسراء: ٩٥)، فمن رحمة الله تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم، ليدعو بعضهم بعضاً، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَرُكُوعِهِمْ﴾ الآية (آل عمران: ١٦٤). قال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ الآية. يقول: لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ أي: ولخلطنا عليهم ما يخلطون. وقال الوابي عنه: ولشبهنا عليهم. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُوا بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَقَّ بِالَّذِينَ سَجَرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿١٠﴾، هذا تسلية لرسوله محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، ووعدله وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة. ثم قال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ ﴿١١﴾ أي: فكروا في أنفسكم، وانظروا ما أحل الله بالقرون الماضية الذين كذبوا رسله وعاندوه، من العذاب والنكال، والعقوبة في الدنيا، مع ما أذخر لهم من العذاب الآليم في الآخرة، وكيف نَجَّى رسله وعباده المؤمنين.

﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْفِتْنَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ هُمْ مَن لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٢﴾ وَلَكُم مَّا سَكَنَ فِي الْأَلْبَاءِ وَكَانَ هَٰؤُلَاءِ سَوَاحِلَ الْفِتْنَةِ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ هُمُ الْفٰتِنَةُ وَلَا يُعْلَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٣﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٤﴾ مَن يُعْرِضْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَجِعَهُ وَذَكَرَهُ أَفْوَاحُ الْمَلِئِينَ﴾ ﴿١٥﴾﴾.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ومن فيهن، وأنه قد كتب على نفسه الرحمة المقدسة الرحمة، كما ثبت في الصحيحين، من طريق الأغمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «إن الله لما خلق الخلق كتب كتاباً عنده فوق العرش، إن رحمتي تغلب غضبي». وقوله: ﴿لِيَجْمَعَكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْفِتْنَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، هذه اللام هي الموطنة للقسم، فأقسم بنفسه الكريمة ليجمع عباده لميقات يوم معلوم وهو يوم القيامة، الذي لا ريب فيه ولا شك عند عباده المؤمنين، فأما الجاحدون المكذبون فهم في ريبهم يترددون. وقال ابن مَرْدُودِيَه عند تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا عبيد الله بن أحمد بن عَفَّة، حدثنا عباس بن محمد، حدثنا حسين بن محمد، حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ عَفَّةَ اليماني، عن الزبير بن شَيْبٍ، عن عثمان بن حاضر، عن ابن عباس قال: سئل رسول الله ﷺ عن الوقوف بين يدي رب العالمين، هل فيه ماء؟ قال: «والذي نفسي بيده، إن فيه لماء، إن أولياء الله ليردون حياض الأنبياء، ويبتعث الله تعالى سبعين ألف ملك في أيديهم عصي من نار، يثدودون الكفار عن حياض الأنبياء». هذا حديث غريب.

وفي الترمذي: «إن لكل نبي حوضاً، وإنهم يتباهون بهم أكثر واردة، وأرجو أن أكون أكثرهم واردة». ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ

خَيْرُوا أَنْفُسَهُمْ أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدقون بالمعاد، ولا يخافون شر ذلك اليوم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَأْتِ سَكَنٌ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: كل دابة في السموات والأرض، الجميع عباده وخلقه، وتحت قهره وتدبيره، ولا إله إلا هو، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم. ثم قال لعبيده ورسوله محمد ﷺ، الذي بعثه بالتوحيد العظيم والشرع القويم، وأمره أن يدعو الناس إلى صراطه المستقيم: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أُتخذُ رِبًّا فَاطِرَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كما قال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أُعْبِدَ إِلَهًُا لَمْ يَجْعَلْ لَهَا شَيْئًا يَدْعُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، والمعنى: لا أتخذ ولياً إلا الله وحده لا شريك له، فإنه فاطر السموات والأرض، أي: خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق.

﴿وَهُوَ يُلِيمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي: وهو الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]. وقرأ بعضهم ههنا: ﴿وَهُوَ يُلِيمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ الآية أي: لا يأكل. وفي حديث سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ، قال: فانطلقنا معه، فلما طعم النبي ﷺ وغسل يديه قال: «الحمد لله الذي يطعم ولا يظلم، ومن علينا فهدانا، وأطعمنا وسقانا وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مودع ولا مكافأ ولا مكفور ولا مستغنى عنه، الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام، وسقانا من الشراب، وكسانا من العري، وهدانا من الضلال، وبصّرنا من العمى، وقضينا على كثير ممن خلق تفضيلاً، الحمد لله رب العالمين». ﴿قُلْ إِنَّ أُمُوتَ أَنْ أَكُونَ أَكْزَمَ مَنْ أَسَدَ﴾ أي: من هذه الأمة ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْرِكِينَ﴾ قُلْ إِنَّ أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ يعني: يوم القيامة. ﴿مَنْ يَصْرِفْ عَنْهُ﴾ يعني: العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ يعني: فقد رحمه الله ﴿وَذَلِكَ الْقَوْمُ الْأَمْيَنُ﴾، كما قال: ﴿فَمَنْ رَحِمَ عَنِ الْكَارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [النحل: ١٨]، والغور: هو حصول الربح ونفي الخسارة.

﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بِشَيْءٍ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُسْأَلْكَ بِشَيْءٍ مِمَّا عَجَزَ عَنْ قَوْلِ قَدِيرٍ﴾ ﴿١٧﴾ وهو القاهر فوق عباده. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْقَدِيرُ﴾ ﴿١٨﴾ قُلْ أَتَى قَوْمٌ أَكْثَرَ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُذْهِبَ بِهِ عَنْكُمْ تُشْهَدُونَ أَنْتَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَهُمْ أَفَرَأَيْتَ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُي وَرَبِّي وَإِنِّي بِرُبِّكُمْ شَكَّوْتُ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكُتُبَ بِرُؤُوسِهِمْ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَيْرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَلْفَظَىٰ مَعَ اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْهُ الطَّلِيلُونَ ﴿٢١﴾.

يقول تعالى مخبراً أنه مالك الضر والنفع، وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه: ﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بِشَيْءٍ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُسْأَلْكَ بِشَيْءٍ مِمَّا عَجَزَ عَنْ قَوْلِ قَدِيرٍ﴾ ﴿١٧﴾، كما قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]، وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي: هو الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمته جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت حكمه وقهره. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أي: في جميع ما يفعله ﴿الْقَدِيرُ﴾ بمواضع الأشياء ومحالها، فلا يعطي إلا لمن يستحق ولا يمنع إلا من يستحق.

ثم قال: ﴿قُلْ أَتَى قَوْمٌ أَكْثَرَ شَهَادَةً﴾ أي: من أعظم الأشياء شهادة ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هو العالم بما جنتكم به، وما أنتم قائلون لي: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُذْهِبَ بِهِ عَنْكُمْ تُشْهَدُونَ﴾ أي: وهو نذير لكل من بلغه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [مرد: ١٧]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع وأبو أسامة وأبو خالد، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب في قوله: ﴿وَمَنْ يُلَاحِظْ﴾ قال: من بلغه القرآن فكانما رأى النبي ﷺ - زاد أبو خالد: وكلمه. ورواه ابن جرير من طريق أبي معشر، عن محمد بن كعب قال: من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد ﷺ. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة في قوله: ﴿لَأُذْهِبَ بِهِ عَنْكُمْ﴾ إن رسول الله ﷺ قال: «بَلِّغُوا عَنِ اللَّهِ، فَمَنْ بَلَّغَهُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ بَلَّغَهُ أَمْرَ اللَّهِ». وقال الربيع بن أنس: حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ، وأن ينذر كالذي أنذر. وقوله: ﴿أَيْبُكُمْ تُشْهَدُونَ﴾ أي: أيها المشركون ﴿أَنْتَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَهُمْ أَفَرَأَيْتَ قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠]. ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُي وَرَبِّي وَإِنِّي بِرُبِّكُمْ شَكَّوْتُ﴾. ثم قال مخبراً عن أهل الكتاب: إنهم يعرفون هذا الذي جنتهم به كما يعرفون أبناءهم، بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء، فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمد ﷺ وبعثه وصفته، وبلده ومهاجره، وصفة أمته؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿الَّذِينَ خَيْرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: خسروا كل الخسارة، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الأمر الجلي الظاهر الذي بشرت به الأنبياء، ونوّهت به في قديم الزمان وحديثه.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِجَارًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي سَجَّادٌ وَإِنَّكُمْ لَآتُونَكَ بِلِقَاءِ رَبِّكَ إِكْرَامًا ﴿٢٠﴾﴾ ثُمَّ لَ تَكُنْ فَتَحْشُرُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مِنْكُمْ مِثْلًا ﴿٢١﴾﴾ كَذَّبُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَلَا يَزَالُ كُفًّا دَائِرًا لَا يَفْقَهُوهُ يَا حَتَّىٰ إِذَا كُنَّ أَجْزَاءُ يُجَدِّدُكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٣﴾﴾ وَمَنْ يَهْتِنِ عَنْهُ وَتَتَوَقَّعُ عَنَّهُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَحْشُرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

وقوله: ﴿وَمَنْ يَسْتَعِزَّ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَلَا يَرَوْا كَلِمًا تَأْتِيهِمْ إِلَّا نُفِثَ بِهَا﴾ أي: يجيئوك ليسمعوا قراءتك، ولا تجزي عنهم شيئاً؛ لأن الله جعل ﴿عَنْ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية لتلا يفهموا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صمماً عن السماع النافع، فهم كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْإِنْسِيِّ يَتَقَنَّ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً مِمَّنْ بِكُمْ عَنِ نُفْثٍ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٧٦).

وقوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾ ، وفي معنى ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قولان:

والقول الثاني: رواه سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سمع ابن عباس يقول في قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قال: نزلت في أبي طالب كان ينهى الناس عن النبي ﷺ أن يؤذى. وكذا قال القاسم بن مُخْمِرَةَ، وحبيب بن أبي ثابت، وعطاء بن دينار: إنها نزلت في أبي طالب. وقال سعيد بن أبي هلال: نزلت في عمومة النبي ﷺ، وكانوا عشرة، فكانوا أشد الناس معه في العلانية وأشد الناس عليه في السر. رواه ابن أبي حاتم. وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: ينهون الناس

عن قتله. وقوله: ﴿وَيَتَوَكَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي: يتباعدون منه. ﴿وَلَنْ يَهْلِكُوا إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَسْتَعْمِلُونَ﴾ أي: وما يهلكون بهذا الصنيع، ولا يعود وباله إلا عليهم، وما يشعرون.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَقُولُ عَلَى الْآلِ فَقَالُوا بَلَيْتَنَا تَرَدُّ وَلَا تَكْذِبُ يَا أَيُّهَا رَبَّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُتَّبِعِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأْتُمْ مَا كَانُوا يَحْفَقُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَقُولُ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ الْإِنْسُ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلْ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك قالوا: ﴿بَلَيْتَنَا تَرَدُّ وَلَا تَكْذِبُ يَا أَيُّهَا رَبَّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُتَّبِعِينَ﴾، يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا، ليعملوا عملاً صالحاً، ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين. قال تعالى: ﴿بَلْ بَدَأْتُمْ مَا كَانُوا يَحْفَقُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة، وإن أنكروها، في الدنيا أو في الآخرة، كما قال قبل هذا ببسیر: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَّاهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٧﴾ أَطَّرَ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾. ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءت به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، كما قال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَذِهِ إِلَّا رَبِّيَ السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضَ بَصَائِرَ﴾ الآية [الإسراء: ١٠٢]. قال تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: ﴿وَيَحْمَدُوا بِهَا وَاسْتَغْنَيْنَا أَنْفُسَهُمْ ظُلُمًا وَعُظُمًا﴾ [النمل: ٢٤]. ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين الذين كانوا يظهرون للناس الإيمان ويبطنون الكفر، ويكون هذا إخباراً عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار، ولا ينافي هذا كون هذه السورة مكية، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة مكية وهي العنكبوت، فقال: ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ السَّافِهِينَ ﴿١١﴾﴾ [العنكبوت: ١١]؛ وعلى هذا فيكون إخباراً عن حال المنافقين في الدار الآخرة، حين يعانون العذاب يظهر لهم حينئذ غيب ما كانوا يبطنون من الكفر والشقاق والنفاق، والله أعلم.

وأما معنى الإضراب في قوله: ﴿بَلْ بَدَأْتُمْ مَا كَانُوا يَحْفَقُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ فهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان، بل خوفاً من العذاب الذي عاينوه جزاء على ما كانوا عليه من الكفر، فأسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: في تمنيههم الرجعة رغبة ومحبة في الإيمان. ثم قال مخبراً عنهم: إنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا، لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والمخالفة ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: في قولهم: ﴿بَلَيْتَنَا تَرَدُّ وَلَا تَكْذِبُ يَا أَيُّهَا رَبَّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُتَّبِعِينَ﴾، ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: لعادوا لما نهوا عنه، إنهم لكاذبون ولقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا، ثم لا معاد بعدها؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾. ثم قال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَقُولُ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ أي: أوقفوا بين يديه قال: ﴿الْإِنْسُ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أي: ليس هذا المعاد بحق وليس بباطل كما كنتم تظنون؟ ﴿قَالُوا بَلْ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بما كنتم تكذبون به، فذوقوا اليوم منه ﴿أَفَبِعَمَلِكُمْ لَا تَعْبُرُونَ﴾ [الطور: ١٥].

﴿قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيدُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَبِثٌ وَلَهُوَ الْآخِرُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن خسارة من كذب بلفاء الله وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة، وعن ندامته على ما فرط من العمل، وما أسلف من قبيح الفعال؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾. وهذا الضمير يحتمل عوده على الحياة الدنيا وعلى الأعمال، وعلى الدار الآخرة، أي: في أمرها. وقوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيدُونَ﴾ أي: يحملون. وقال قتادة: يعملون. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن عمرو بن قيس، عن أبي مرزوق قال: ويستقبل الكافر - أو: الفاجر - عند خروجه من قبره كأفبح صورة رآها وأنتن ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أو ما تعرفني؟ فيقول: لا، إلا أن الله قد قبَّح وجهك وتنت ريحك. فيقول: أنا عملك الخبيث، هكذا كنت في الدنيا خبيث العمل منتنه، طالما ركبتني في الدنيا، هلم أركبك، فهو قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيدُونَ﴾. وقال أسباط، عن السدي أنه قال: ليس من رجل ظالم يموت فيدخل قبره إلا جاءه رجل قبيح الوجه، أسود اللون، منتن الرائحة، عليه ثياب دَنَسَة، حتى يدخل معه قبره، فإذا رآه قال: ما أقبح وجهك! قال: كذلك كان عملك قبيحاً! قال: ما أنتن ريحك! قال: كذلك كان عملك منتناً! قال: ما أدنس ثيابك، قال: فيقول: إن عملك كان دنساً. قال له: من أنت؟ قال: أنا عملك! قال: فيكون معه في قبره، فإذا بعث يوم القيامة قال له: إني كنت أحملك في الدنيا بالذات والشهوات، وأنت اليوم تحملي. قال: فيركب على

ظهره فيسوقه حتى يذخله النار، فذلك قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَبِثٌ وَلَهُوَ﴾ أي: إنما غالبها كذلك ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَتَّبِعُ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ (٣٣) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرًا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرُوا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِيِّائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣٤) ﴿وَإِنْ كَانَ كَرَّ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَلَّتْ أَنْ تَتَّبِعَى نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيهِمْ يَأْتِرٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٥) ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتُ يَحْكُمُهُمْ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ رُجُوعُهُمْ﴾ (٣٦).

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ، في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ أي: قد أحطنا علماً بتكذيب قومك لك، وحزنك وتأسفك عليهم، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ (ناظر: ١٨)، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَكَ لَبِثٌ نَّفْسُكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٣) ﴿فَلَمَّا لَبِثَ نَفْسُكَ عَلَى أَنَّهُمْ إِن تَرَوْهُمْ بَدَلًا فَهَذَا الَّذِي كَذَّبْتَ سَقَا﴾ (الكهف: ١٦). وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَتَّبِعُ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ أي: لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَتَّبِعُ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ أي: ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم، كما قال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن ناجية بن كعب، عن علي رضي الله عنه قال: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَتَّبِعُ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ ورواه الحاكم، من طريق إسرائيل، عن أبي إسحاق، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الوزير الواسطي بمكة، حدثنا بشر بن المُبَشَّر الواسطي، عن سلام بن مسكين، عن أبي زيد المدني؛ أن النبي ﷺ لقي أبا جهل فصافحه، فقال له رجل: ألا أراك تصافح هذا الصابىء؟! فقال: والله إني أعلم إنه لنبي، ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعاً؟! وتلا أبو يزيد: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَتَّبِعُ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾.

قال أبو صالح وقناة: يعلمون أنك رسول الله ويجهدون. وذكر محمد بن إسحاق، عن الزهري، في قصة أبي جهل حين جاء يستمع قراءة النبي ﷺ من الليل، هو وأبو سفيان صَخْر بن خَزْب، والأخنس بن شريق، ولا يشعر واحد منهم بالآخر. فاستمعوا إلى الصباح، فلما هَجَمَ الصبح تفرقوا، فجمعتهم الطريق، فقال كل منهم للآخر: ما جاء بك؟ فذكر له ما جاء له، ثم تعاهدوا ألا يعودوا، لما يخافون من علم شباب قريش بهم، لثلاث فتنوا بمجيئهم، فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ظناً منه أن صاحبه لا يجيئان، لما تقدم من العهود، فلما أجمعوا جمعتهم الطريق، فتلاوموا، ثم تعاهدوا ألا يعودوا. فلما كانت الليلة الثالثة جاؤوا أيضاً، فلما أصبحوا تعاهدوا ألا يعودوا لمثلها ثم تفرقوا. فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يُزاد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به. ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه في بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجأنا على الرُّكْب، وكنا كَقَرَسِي رَهَان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء! فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه.

وروى ابن جرير، من طريق أسباط، عن السدي، في قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَتَّبِعُ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ (٣٣): لما كان يوم بدر قال الأخنس بن شريق لبني زهرة: يا بني زهرة، إن محمداً ابن أختكم، فأنتم أحق من كف عنه. فإنه إن كان نبياً لم تقا تلوه اليوم، وإن كان كاذباً كنتم أحق من كف عن ابن أخته، فقوا ههنا حتى ألقى أبا الحكم، فإن غلب محمد رجعتكم سالمين، وإن غلب محمد فإن قومكم لم يصنعوا بكم شيئاً. فيومئذ سُمِّي الأخنس، وكان اسمه «أبي» فالتقى الأخنس وأبو جهل، فخلا الأخنس بأبي جهل فقال: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد: أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ههنا من قريش غيري وغيرك يسمع كلامنا. فقال أبو جهل: ويحك! والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهبت بنو قُصَي باللواء والسقاية والحجاب والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَتَّبِعُ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾. فآيات الله: محمد ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرًا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرُوا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِ اللَّهِ﴾: هذه تسلية للنبي ﷺ وتغزية له فيمن كذبه من قومه، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعد له بالنصر كما نصره، وبالفكر حتى كانت

لهم العاقبة، بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا، كما لهم النصر في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين، كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِبْرَاهِيمَ الْأَمِينِ﴾ ﴿١٧١﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَمُتَّصِرُونَ﴾ ﴿١٧٢﴾ ﴿وَلَقَدْ جَاءَنَا لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ ﴿١٧٣﴾ ﴿وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ اللَّهُ لَإِبْرَاهِيمَ أَنَا وَرَسُولِي﴾ إِنَّ اللَّهَ نَزَّلَ فِي عِزِّهِ﴾ ﴿١٧٤﴾ ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأَمْرِيِّ﴾ ﴿١٧٥﴾ أي: من خبرهم كيف نُصِرُوا وأيدوا على من كذبهم من قومهم، فلك فيهم أسوة بهم قدوة.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي: إن كان شق عليك إعراضهم عنك ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الثَّقَى: السَّزْب، فتذهب فيه ﴿فَتَأْتِيهِمْ بَيَاتِرًا﴾ أو تجعل لك سلماً في السماء فتصعد فيه فتأتيهم بآية أفضل مما أتيتهم به، فافعل. وكذا قال قتادة، والسُّدِّي، وغيرهما. وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْخَالِفِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كَُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُخْرِهُمُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٩٩﴾ (يونس: ٩٩) قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾، قال: إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبر الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة في الذكر الأول.

وقوله: ﴿إِنَّا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي: إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه، كقوله: ﴿يُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحْيِي الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٠٠﴾ (يس: ٢٠٠)، وقوله: ﴿وَالْمَوْقُ يَعْظُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، وهذا من باب التهكم بهم، والإزراء عليهم. ﴿وَقَالُوا لَا تَزِلَّ عَلَيْهِ مَائَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَزِيلَ مَائَةً وَلَكِنْ أَسْأَلُكُمْ لَا يَعْظُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ﴿٢٠١﴾ ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلْمٍ يَلْمِزُ يُجَاحِدُ إِلَّا أُمُّ أَمْثَالِكُمْ مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ لِكَيْ يَبْشُرَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ﴿٢٠٢﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سُوءُ وَبُكْمٍ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشْكُرُ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ عَلَىٰ مِثْلِهِ عَلَىٰ مِثْلِهِ يُسْتَقِيمُ﴾ ﴿٢٠٣﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم كانوا يقولون: ﴿لَوْ لَا نَزَّلَ عَلَيْهِ مَائَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: خارق على مقتضى ما كانوا يريدون، ومما يتعنتون كما قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوتًا﴾ (الإسراء: ٩٠). ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَزِيلَ مَائَةً وَلَكِنْ أَسْأَلُكُمْ لَا يَعْظُمُ اللَّهُ﴾ أي: هو تعالى قادر على ذلك، ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك؛ لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا، لعاجلهم بالعقوبة، كما فعل بالأمم السالفة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآيَاتُنَا نُمُودُ الْآفَاقِ مُبِيرَةٌ فَقُلُوبُهُمْ لَا يَفْقَهُوْنَ إِلَّا تَفْوِيسًا﴾ (الإسراء: ٥٩)، وقال تعالى: ﴿إِنْ شَاءَ نَزَّلَ عَلَيْهِمُ مِنَ السَّمَاءِ مَائَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (الشعراء: ٤).

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلْمٍ يَلْمِزُ يُجَاحِدُ إِلَّا أُمُّ أَمْثَالِكُمْ﴾، قال مجاهد: أي أصناف مُصَنَّفَةٌ تُعَرَّفُ بأسمائها. وقال قتادة: الطير أمة، والإنس أمة، والجن أمة. وقال السُّدِّي: ﴿إِلَّا أُمُّ أَمْثَالِكُمْ﴾ أي: خلق أمثالكم. وقوله: ﴿مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: الجميع علمهم عند الله، ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتديره، سواء كان برياً أو بحرياً، كما قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَرْسُلُ مِنْسُقَهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (مروء: ٦) أي: مُفْصَحُ بِأَسْمَائِهَا وأعدادها ومظانها، وحاصر لحركاتها وسكناتها، وقال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ مَنْ مِّنْ دَابَّةٍ لَا يَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِنَّاكَم وَسِعُ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٠٤﴾ (العنكبوت: ٦٠). وقد قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمد بن المنثي، حدثنا عبيد بن واقد القيسي أبو عباد، حدثني محمد بن عيسى بن كيسان، حدثنا محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: قُلُ الجراد في سنة من بني عمر، رضي الله عنه، التي ولي فيها، فسأل عنه فلم يخبر بشيء، فاعتم لذلك. فأرسل راجباً إلى كذا، وآخر إلى الشام، وآخر إلى العراق يسأل: هل روي من الجراد شيء أم لا؟ فأتاه الراكب الذي من قبل اليمن بقبضة جراد، فألقاها بين يديه، فلما رآها كبر ثلاثاً، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خَلَقَ اللَّهُ، ﷻ، ألف أمة، منها ستمائة في البحر، وأربعمائة في البر». وأول شيء يهلك من هذه الأمم الجَرَاد، فإذا هلكت تابعت مثل النظام إذا قطع سلكه.

وقوله: ﴿ثُمَّ لِكَيْ يَبْشُرَ الْمُشْرِكُونَ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ لِكَيْ يَبْشُرَ الْمُشْرِكُونَ﴾ قال: حَشَرَهَا المَوْتُ. وكذا رواه ابن جرير من طريق إسرائيل عن سعيد، عن مسروق، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: موْتُ البهائم حَشَرُهَا. وكذا رواه العوفي، عنه. قال ابن أبي حاتم:

أَخَذَتْهُمْ بَغْةٌ فَإِذَا هُمْ مُثْلُونَ ﴿٤٦﴾ قال الحسن: مَكَرَ بالقوم ورب الكعبة؛ أَعْطُوا حاجتهم ثم أخذوا. رواه ابن أبي حاتم. وقال قتادة: بَغَتْ القوم أمر الله، وما أخذ الله قوما قط إلا عند سكرتهم وعرثتهم ونعيمهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون. رواه ابن أبي حاتم أيضاً. وقال مالك، عن الزهري: «فَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ» قال: إرخاء الدنيا وسترها.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رُشيد بن - يعني ابن سعد أباً الحجاج المهري - عن خزيمة بن عمران الشجبي، عن عقبة بن مسلم، عن عقبة بن عامر، عن النبي ﷺ قال: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِزْجَارٌ». ثم تلا رسول الله ﷺ: «فَلَمَّا شَاؤَا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُثْلُونَ ﴿٤٧﴾». ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث خزيمة وابن أبي ليثة، عن عقبة بن مسلم، عن عقبة بن عامر، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا عَزَّازُ بْنُ خَالِدٍ بْنِ يَزِيدٍ، حدثني أبي، عن إبراهيم بن أبي عبلة، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَرَادَ بِقَوْمٍ بَقَاءً - أَوْ: نِجَاءً - رَزَقَهُمُ الْقَصْدَ وَالْعِفَافَ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ اقْتِطَاعاً فَتَحَ لَهُمْ - أَوْ: فَتَحَ عَلَيْهِمْ - بَابَ خِيَانَةٍ». ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُثْلُونَ﴾ كما قال: «فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٨﴾».

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنَ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ بِأَيْدِيكُمْ يَوْمَ أَنْظُرَ كَيْفَ تَصْرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذَبُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَمَا تُرْسِلُ الرُّسُلَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ أَمَنَّ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٥١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا بِمَسْئِهِمُ الْعَذَابَ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: قُلْ لِهَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ الْمُعَانِدِينَ: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ﴾ أي: سلبكم إياها كما أعطاكموها فإنه ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ رَجُلًا لَكُمُ السَّمْعُ وَالْأَبْصَرُ وَالْأَفْئِدَةُ قَلْبًا مَا فَتَكُرُونَ﴾ [الملك: ٣٣]. ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما النفع الشرعي؛ ولهذا قال: ﴿وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ كما قال: ﴿أَمَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ [يونس: ٣١]، وقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنعام: ٢٤]. وقوله: ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ بِأَيْدِيكُمْ يَوْمَ﴾ أي: هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم؟ لا يقدر على ذلك أحد سواه؛ ولهذا قال عز شأنه: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ تَصْرَفُ الْآيَاتِ﴾ أي: نبيها ونوضحها ونفسرها دالة على أنه لا إله إلا الله، وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْذَبُونَ﴾ أي: ثم هم مع هذا البيان يعرضون عن الحق، ويصدون الناس عن اتباعه. قال العوفي، عن ابن عباس ﴿يَصْذَبُونَ﴾: يعدلون. وقال مجاهد، وقاتلة: يعرضون؛ وقال السدي: يصدون.

وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ بَغْتَةً﴾ أي: وأنتم لا تشعرون به حتى يبتكم وفجأكم. ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ أي: ظاهراً عياناً ﴿هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: إنما كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله ﷻ، وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

وقوله: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الرُّسُلَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات، ومنذرين من كفر بالله النقات والعقوبات. ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنْ أَمَنَّ وَأَصْلَحَ﴾ أي: فمن آمن قلبه بما جاؤا به وأصلح عمله باتباعه إياهم، ﴿فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بالنسبة إلى ما يستقبلونه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعتها، الله ولهم فيما خلفوه، وحافظهم فيما تركوه.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا بِمَسْئِهِمُ الْعَذَابَ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: ينالهم العذاب بما كفروا بما جاء به الرسل، وخرجوا عن أوامر الله وطاعته، وارتكبوا محارمه ومناهيه وانتهاك حرمة.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنْ مَلَكٌ إِنْ أُنْجِيَ إِلَّا مَا يَوْعَىٰ لَكَ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ لَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُنْسَبُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيُّ وَلَا شَفِيعٌ لَهُمْ يَلْتَمِسُونَ ﴿٥٦﴾ وَلَا تَقْرَأُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْرِ وَالْغَيْبِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَقْرَأَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنْ مَنَ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا مِثْلَ نَبِئٍ مِنْ تَوْفِيقِهِ وَاصْلَحَ فَإِنَّهُ عَفْوَ رَحِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي: لست أملكها ولا أنصرف فيها، ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي: ولا

أقول: إني أعلم الغيب إنما ذاك من علم الله، ﷻ، لا أطلع منه إلا على ما أطلعني عليه، ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي: ولا أدعي أنني ملك، إنما أنا بشر من البشر، يُوحى إلي من الله، ﷻ، شرفني بذلك، وأنعم علي به؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي: لست أخرج عنه قيد شبر ولا أدنى منه. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ أي: هل يستوي من اتبع الحق وفدي إليه، ومن ضل عنه ولم ينقلد له؟ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، وهذه كقوله تعالى: ﴿أَتَنْتَبِهُونَ﴾. ﴿أَتَنْتَبِهُونَ﴾ (الرعد: ١٩).

وقوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ رَبٌّ وَلَا يَسْتَفِيحُونَ﴾ أي: وأنذر بهذا القرآن يا محمد ﴿الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] والذين ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١]. ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: يوم القيامة. ﴿لَيْسَ لَهُمْ رَبٌّ دُونَهُ﴾ أي: يومئذ ﴿مِنْ دُونِهِ رَبٌّ وَلَا يَسْتَفِيحُونَ﴾ أي: لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أراد به، ﴿لَمْ لَهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلا الله، ﷻ، ﴿لَمْ لَهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيعملون في هذه الدار عملاً ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَأُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَاللَّيْلِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفة عنك، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك، كما قال: ﴿وَأَسِيرَ نَفْسِكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَاللَّيْلِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَقْدِرُ عَلَيْكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا يُطِيعُ مَنْ أَغْلَقْنَا قُلُوبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَأَنْشَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. وقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي: يعبدونه ويسألونه ﴿بِالْقُدُورِ وَاللَّيْلِ﴾ قال سعيد بن المسيب، ومجاهد، والحسن، وقاعدة: المراد بذلك الصلوات المكتوبات. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] أي: أتقبل منكم. وقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: يبتغون بذلك العمل وجه الله الكريم، فهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات. وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ كما قال نوح، عليه السلام، في جواب الذين قالوا: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَتَتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ﴾ قال: ﴿وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ١١٢]. ﴿وَمَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء. وقوله: ﴿فَتَقَرَّبَ إِلَهُمُ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: إن فعلت هذا والحالة هذه.

قال الإمام أحمد: حدثنا أسباط - هو ابن محمد - حدثنا أشعث، عن كُرْدُوس، عن ابن مسعود قال: مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ، وعنده: حَبَابٌ، وَصُهَيْبٌ، وَبِلَالٌ، وَعِمَارٌ. فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء؟ فنزل فيهم القرآن: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾. رواه ابن جرير، من طريق أشعث، عن كردوس، عن ابن مسعود قال: مر الملأ من قريش برسول الله ﷺ، وعنده: صُهَيْبٌ، وَبِلَالٌ، وَعِمَارٌ، وَحَبَابٌ، وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا؟ ونحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن تنبعك، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَقْرَأُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَاللَّيْلِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ إلى آخر الآية. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا عمرو بن محمد العنقري، حدثنا أسباط بن نصر، عن السُّدِّي، عن أبي سعيد الأزدي - وكان قارئاً للأزد - عن أبي الكنود، عن حباب في قول الله، ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَأُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَاللَّيْلِ﴾ قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري، فوجدوا رسول الله ﷺ مع صُهَيْبٍ وَبِلَالٍ وَعِمَارٌ وَحَبَابٌ قَاعِدًا فِي نَاسٍ مِنَ الضَّعَفَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فلما رأوهم حول النبي ﷺ حَقَرُوهُمْ، فَأَتَوْهُ فَخَلَوْا بِهِ، وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترائنا العرب مع هذه الأعباء، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت. قال: «نعم». قالوا: فاكذب لنا عليك كتاباً، قال: فدعا بالصحيفة ودعا علياً ليكتب، ونحن قعود في ناحية، فنزل جبريل فقال: ﴿وَلَا تَقْرَأُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَاللَّيْلِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَقَرَّبَ إِلَهُمُ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٧)، فرمى رسول الله ﷺ بالصحيفة، ثم دعانا فأتيناه. ورواه ابن جرير، من حديث أسباط، به. وهذا حديث غريب، فإن هذه الآية مكية، والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر. وقال سفيان الثوري عن المقدم بن شريح، عن أبيه قال: قال سعد: نزلت هذه الآية في ستة من أصحاب النبي ﷺ، منهم ابن مسعود، قال: كنا نسبق إلى النبي ﷺ، وندنو منه ونسمع منه، فقالت قريش: يدني هؤلاء دوننا، فنزلت: ﴿وَلَا تَقْرَأُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَاللَّيْلِ﴾. رواه الحاكم في مستدركه من طريق سفيان، وقال: على شرط الشيخين. وأخرجه ابن حبان في صحيحه من طريق المقدم بن شريح، به.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض ﴿يَقُولُوا أَهْوَآءَ مَنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ كان غالباً من اتبعه في أول البعثة، ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل، كما قال قوم نوح لنوح: ﴿وَمَا تَرْكُكَ أَتَعْلَمُ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِكُلِّ بَرٍّ شِرَآءَ﴾ الآية [هود: ٢٧]، وكما قال هرقل ملك الروم لأبي سفيان حين سألته عن تلك المسائل، فقال له: فهل اتبعه ضعفاء الناس أو أشرافهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال: هم أتباع الرسل. والغرض: أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفاتهم، ويعذبون من يقدرون عليه منهم، وكانوا يقولوا: ﴿أَهْوَآءَ مَنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا﴾؟ أي: ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير - لو كان ما صاروا إليه خيراً - ويدعنا، كما قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الاحقاف: ١١]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا نُنَادِيَنَّهُمْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِآيَتِنَا كَرُهُوا لِلَّذِينَ ءَاتَوْا أَيْ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَآخَسَنَ نَوَآءًا﴾ [مریم: ٧٣].

قال الله تعالى في جواب ذلك: ﴿وَكَذَلِكَ أَفْتَحْنَا قُلُوبَهُمْ مِّن قَوْلِهِمْ أَنَّا نَحْسَنُ ءَاثَنًا وَإِنَّا لَكَاثِمُونَ﴾ [مریم: ٧٤] وقال في جوابهم حين قالوا: ﴿أَهْوَآءَ مَنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أي: اليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم، فيوفقه ويهديهم سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِيْنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْحَمْسِينَ﴾ [المنكوت: ٦٩]. وفي الحديث الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى ألوانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». وقال ابن جرير: حدثنا القاسم: حدثنا الحسين، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، عن عكرمة في قوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ ذِي رَيْبٍ﴾ الآية، قال: جاء عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، ومطعم بن عدي، والحارث بن نوفل، وقرظة بن عمرو بن نوفل، في أشراف من بني عبد مناف من أهل الكفر إلى أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب، لو أن ابن أخيك محمداً يطرد عنه موالينا وحلفاءنا، فإنما هم عبيدنا وعسفاننا، كان أعظم في صدورنا، وأطوع له عندنا، وأدنى لاتباعنا إياه، وتصديقنا له. قال: فأتى أبو طالب النبي ﷺ فحدثه بالذي كلموه، فقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: لو فعلت ذلك، حتى تنظر ما الذي يريدون، وإلى ما يصيرون من قولهم؟ فأنزل الله، ﷻ، هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ ذِي رَيْبٍ لَّيْسَ لَهُمْ دُونُهُ وَلَٰكِن لَّهُمْ مَا يَدْعُونَ بِدِينِهِمْ بِالْقَدَرِ وَالَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾. قال: وكانوا: بلالاً، وعمار بن ياسر، وسالم مولى أبي حذيفة، وصبيحاً مولى أسيد، ومن الحلفاء: ابن مسعود، والمقداد بن عمرو، ومسعود بن القاري، وواقد بن عبد الله الحنظلي، وعمرو بن عبد عمرو، وذو الشمالين، ومزند بن أبي مرثد - وأبو مرثد من غني حليف حمزة بن عبد المطلب - وأشباههم من الحلفاء. ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالي والحلفاء: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ يَقُولُوا أَهْوَآءَ مَنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا﴾ الآية. فلما نزلت، أقبل عمر، رضي الله عنه، فاعتذر من مقالته، فأنزل الله، ﷻ، ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فأكرمهم برد السلام عليهم، وبشّرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم، ولهذا قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي: أوجبها على نفسه الرحمة، تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً ﴿أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمُ سُوًءًا يَّجْهَلْكُمُ﴾، قال بعض السلف: كل من عصى الله، فهو جاهل. وقال معتمر بن سليمان، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة في قوله: ﴿مَن عَمِلَ مِنكُمُ سُوًءًا يَّجْهَلْكُمُ﴾، قال: الدنيا كلها جاهلة. رواه ابن أبي حاتم. ﴿ثُمَّ تَابَ مِن بَيدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ أي: رجع عما كان عليه من المعاصي، وأقلع وعزم على ألا يعود، وأصلح العمل في المستقبل، ﴿فَأَنَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن هَمَام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق، كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي». أخرجه في الصحيحين وهكذا رواه الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة. ورواه موسى بن عقیبة عن الأعرج، عن أبي هريرة. وكذا رواه الليث وغيره، عن محمد بن عجلان، عن أبيه، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بذلك. وقد روى ابن مَرْزُوب، من طريق الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق، أخرج كتاباً من تحت العرش: إن رحمتي سبقت غضبي، وأنا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة أو قبضتين، فيخرج من النار خلقاً لم يعملوا خيراً، مكتوب بين أعينهم: عُنُقَاءُ الله». وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن عاصم بن سليمان، عن أبي عثمان التَّهْدِي، عن سلمان في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ قال: إنا نجد في التوراة عطفيتين: أن الله خلق السموات والأرض، وخلق مائة رحمة - أو: جعل مائة

وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ قال البخاري: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾». وفي حديث عمر رضي الله عنه: أن جبريل حين بُدِّي له في صورة أعرابي فسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان، قال له رسول الله ﷺ فيما قال له: «خمس لا يعلمهن إلا الله»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية القمان:

فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ الدَّرْإُ إِثْمًا تَرَامِي لِلنَّوَاطِرِ أَوْ تَوَارِي
وقوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أي: ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات، ولا سيما
المكلفون منهم من جنهم وإنسهم، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. وقال ابن أبي
حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأخوص، عن سعيد بن مسروق، عن حسان النمري، عن ابن عباس
في قوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ قال: ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وملك موكل بها، يكتب ما يسقط منها.
وقوله: ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِي الْأَرْضِ وَلَا نَبْءٌ وَلَا يَأْبِسُ إِلَّا فِي كِتَابِي مِثْقَلُ ذَرَّةٍ﴾ قال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن النضر، عن أبيه،
سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: إن تحت الأرض الثالثة وفوق الرابعة من الجن ما لو أنهم ظهروا - يعني لكم - لم
تروا معهم نوراً، على كل «زاوية من زوايا الأرض خاتم من خواتيم الله، ﷺ، على كل خاتم مَلَكٌ من الملائكة يبعث الله، ﷻ،
إليه في كل يوم مَلَكاً من عنده: أن احتفظ بما عندك. قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن اليسر
الزهري: حدثنا مالك بن سَعْيَر، حدثنا الأعمش، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث قال: ما في الأرض من
شجرة ولا مغرَزَ إبرة إلا عليها ملك موكل يأتي الله بعلمها: رطوبتها إذا رطبت، وَيَبْسُهَا إذا يبست. وكذا رواه ابن جرير عن أبي
الخطاب زياد بن عبد الله الحساني، عن مالك بن سَعْيَر، به. ثم قال ابن أبي حاتم: ذُكِرَ عن أبي حذيفة، حدثنا سفيان، عن
عمرو بن قيس، عن رجل، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: خلق الله النون - وهي الدواة - وخلق الألواح، فكتب
فيها أمر الدنيا حتى ينقضي ما كان من خلق مخلوق، أو رزق حلال أو حرام، أو عمل بر أو فجور، وقرأ هذه الآية: ﴿وَمَا تَسْقُطُ
مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ إلى آخر الآية.

﴿هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقَاسَ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنْفِخُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَرَسُولُهُ عَلَيْنَكُمْ فَبِعَلَّتُمْ حَقَّهُ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿١١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ أَلَا لَهُ الْخُفْيَةُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿١٢﴾﴾

يخبر تعالى أنه يتوفى عباده في منامهم بالليل، وهذا هو التوفي الأصغر، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَشَأْ فِي مَنَامِهَا فَمِمْسِكَ إِلَيْ قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَرِزْقِهَا وَالْأُخْرَىٰ إِلَيَّ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]، فذكر في هذه الآية الوفايتين: الكبرى والصغرى، وهكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفايتين الصغرى ثم الكبرى، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أي: ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار. وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقهم في ليلهم ونهارهم، في حال سكونهم وفي حال حركتهم، كما قال: ﴿سَوَاءٌ مِّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ جَمَلَ لِّكُلِّ الْتَلْوِ الْأَنْهَارِ لِيُتْلَىٰ عَنْ يَدِهِ﴾ أي: في الليل ﴿وَلِيُتْلَىٰ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النقص: ٧٣]، أي في النهار، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا آيَاتٍ لِّكُلِّ بَلَاءٍ ۖ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ لِنَاسٍ ۚ﴾ [النبا: ١٠، ١١]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أي: ما كسبتم بالنهار ﴿ثُمَّ يَمُنُّكُمْ بِهِ﴾ أي: في النهار. قاله مجاهد، وقتادة، والسُّدِّي. وقال ابن جريج، عن عبد الله بن كثير: أي في المنام. والأول أظهر. وقد روى ابن مَرْزُوبِه بسنده، عن الضحَّاك، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «مع كل إنسان ملك إذا نام أخذ نفسه، ويزد إليه. فإن أذن الله في قبض روحه قبضه، وإلا رد إليه»، فذلك قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾. وقوله: ﴿يُفَقِّحُ أَجَلَ مُّسَمًّى﴾. يعني به: أجل كل واحد من الناس، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ثُمَّ يُنْفِخُكُمْ﴾ أي: فيخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: ويجزيكم على ذلك إن خيراً أو خيراً، وإن شراً فشر.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي: هو الذي قهر كل شيء، وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء. ﴿وَرَسُولٌ عَلَيْكُمْ حَقُّهُ﴾ أي: من الملائكة يحفظون بدن الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مَعِينٌ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ وَمِنْ خَلْقِهِ يُحَافِظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، وحفظة يحفظون عمله ويحفظونه عليه، كما قال: ﴿وَأَنْ عَلَيْكُمْ لَحُفُوظِينَ﴾ ١٠ ﴿كَرَامًا كَبِيرِينَ﴾ ١١ ﴿يَكُونُوا مَا تَقُولُونَ﴾ ١٢ ﴿[الأنفطار: ١٠-١٢] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَيْبَ عَلَيْهِ﴾ ١٣ ﴿قُلْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا نَقُولُ﴾ ١٤ ﴿وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ

أَحَدَكُمْ أَلَمُوتُ» أي: إذا احتضر وحن أجله «فَوَقَّعْتُ رُسُلَنَا» أي: ملائكة موكلون بذلك. قال ابن عباس وغير واحد: لملك الموت أعوان من الملائكة، يخرجون الروح من الجسد، فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿يُنْفِثُ اللَّهُ النَّفِثَاتِ مَأْمُونًا بِالْقَوْلِ الثَّانِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] الأحاديث المتعلقة بذلك، الشاهدة لهذا المروي عن ابن عباس وغيره بالصحة. وقوله: «وَهُمْ لَا يَقْرَءُونَ» أي: في حفظ روح المتوفى، بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله، عنه، إن كان من الأبرار ففي عليين، وإن كان من الفجار في سجين، عباداً بالله من ذلك.

وقوله: «ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمُ الْحَقُّ» قال ابن جرير: «ثُمَّ رُدُّوا» يعني: الملائكة «إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمُ الْحَقُّ». ونذكر ههنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة في ذكر صعود الملائكة بالروح من سماء إلى سماء حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عنه، حيث قال: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَجُ بها إلى السماء فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان. فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عنه. وإذا كان الرجل السوء، قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وعساق، وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء. وترسل من السماء ثم تصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل له في الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول». هذا حديث غريب. ويحتمل أن يكون المراد بقوله: «ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ» يعني: الخلاق كلهم إلى الله يوم القيامة، فيحكم فيهم بعده، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿١١﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ يَوْمِ بَعْدَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقال: ﴿وَحَسْرَتُهُمْ فَمَا تَزَالُ مِنْهُمُ لَسَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ لُحَاكًا﴾ [الكهف: ٤٧-٤٩]؛ ولهذا قال: «مَوْلَهُمُ الْحَقُّ» أَلَا لَهُ الْحَقُّ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ.

﴿قُلْ مَنْ يُنْفِثُكَ مِنْ طَلُوتِ الْوَيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَجَنَّا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٢﴾ قُلِ اللَّهُ يُنْفِثُكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُنْقَرُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُبَدِّلَ بَعْدَكُمْ بَأْسَ بَعْضِ أَنْظَرِ كَيْفَ تَضَرُّعُونَ﴾ [الأنعام: ١٢-١٣].

يقول تعالى ممتناً على عبادته في إنجائه المضطرين منهم «مِنْ طَلُوتِ الْوَيْلِ وَالْبَحْرِ» أي: الحائرين الواقفين في المهامه البرية، وفي اللجج البحرية إذا هاجت الرياح العاصفة، فيحتشد يفردون الدعاء له وحده لا شريك له، كما قال: «وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًُا فَلَمَّا بَلَغَكُمُ الْوَيْلُ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿١٢﴾» [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: «هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكُمْ فِي الْوَيْلِ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَّهْنَ يَوْمَ يَرْجِعُ الْفَيْتُ وَيَوْخُو أَيْ جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْعَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾» [يونس: ٢٢]، وقال تعالى: «أَنْتَ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْوَيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِإِذْنِ يَدَيْ رَبِّهِ أُولَٰئِكَ مَعَ اللَّهِ تَقْدِرُ اللَّهُ عَسَا يَشْرِكُونَ ﴿١٤﴾» [النمل: ٦٣]. وقال في هذه الآية الكريمة: «قُلْ مَنْ يُنْفِثُكُمْ مِنْ طَلُوتِ الْوَيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً» أي: جهراً وسراً «لَئِنْ أَجَنَّا مِنْ هَذِهِ» أي: من هذه الضائقة «لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ» أي: بعدها، قال الله تعالى: «قُلِ اللَّهُ يُنْفِثُكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ» أي: بعد ذلك «تَشْكُرُونَ» أي: تَدْعُونَ معه في حال الرفاهية أَلِهَةٌ أُخْرَى.

وقوله: «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ» لما قال: «ثُمَّ أَنْتُمْ تَشْكُرُونَ» عقبه بقوله: «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ» أي: بعد إنجائه إياكم، كما قال في سورة سبحان: «رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلُوكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَنَفَّسُوا مِنْ فَيْضِهِ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ رَحِيمًا ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًُا فَلَمَّا بَلَغَكُمُ الْوَيْلُ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿١٢﴾ أَفَأَنْتُمْ أَنْ تَصِفَ يُحْيِيكُمْ يَوْمَ تَأْتِيكُمْ سَاعَةُ الْوَيْلِ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكُمْ وُجُوهًا ﴿١٣﴾ أَمْ أُنِشْرَ أَنْ يُعَذِّبَكُمْ فِيهِ نَارُهُ أَوْ يَتَّبِعُكُمْ فَأَصَابًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُفْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكُمْ عَلَيْنَا يَوْمَ يُبْعَثُ ﴿١٤﴾» [الإسراء: ٦٦-٦٩]. قال ابن أبي حاتم: ذكر عن مسلم بن إبراهيم، حدثنا هارون الأعور، عن جعفر بن سليمان، عن الحسن في قوله: «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ» قال: هذه للمشركين. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ

يَعْتَّ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴿٦٣﴾ : لامة محمد ﷺ، فعفا عنهم.

ونذكر هنا الأحاديث الواردة في ذلك والآثار، وبالله المستعان، وعليه التكلان، وبه الثقة. قال البخاري، رحمه الله، في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُرِيَكُمْ بَعْضُ بَأْسٍ بَعْضٌ أَنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَنْبِيَاءَ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴿٦٣﴾﴾ : يَلْبِسَكُمْ : يَخْلِطُكُمْ، من الالتباس، يَلْبِسُوا : يَخْلِطُوا. شِيْعًا : فرقا. حدثنا أبو النعمان، حدثنا حماد بن زيد، عن عمرو بن دينار، عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾، قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك». ﴿أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قال: «أعوذ بوجهك». ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُرِيَكُمْ بَعْضُ بَأْسٍ بَعْضٌ﴾، قال رسول الله ﷺ: «هذا أهون - أو قال: هذا أيسر». وهكذا رواه أيضاً في «كتاب التوحيد» عن قتيبة، عن حماد، به. ورواه النسائي أيضاً في «التفسير»، عن قتيبة، ومحمد بن النضر بن مساور، ويحيى بن حبيب بن عربي، أربعتهم، عن حماد بن زيد، به. وقد رواه الحميدي في مسنده، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، سمع جابراً عن النبي ﷺ، به. ورواه ابن حبان في صحيحه، عن أبي يعلى الموصلي، عن أبي خيثمة، عن سفيان بن عيينة، به. ورواه ابن جرير في تفسيره عن أحمد بن الوليد القرشي وسعيد بن الربيع، وسفيان بن وكيع، كلهم، عن سفيان بن عيينة، به. ورواه أبو بكر بن مَرْدُويه، من حديث آدم بن أبي إياس، ويحيى بن عبد الحميد، وعاصم بن علي، عن سفيان بن عيينة، به. ورواه سعيد بن منصور، عن حماد بن زيد، وسفيان بن عيينة، كلاهما عن عمرو بن دينار، به.

طريق أخرى: قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسيره: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا وقْدَام بن داود، حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا ابن لهيعة، عن خالد بن يزيد، عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما نزلت: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾، قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بالله من ذلك» ﴿أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بالله من ذلك» ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا﴾، قال: «هذا أيسر»، ولو استعاذه لأعاده.

ويتعلق بهذه الآية الكريمة أحاديث كثيرة:

أحدها: قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حدثنا أبو اليمان، حدثنا أبو بكر - هو ابن أبي مريم - عن راشد - هو ابن سعد المقرئ - عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فقال: «أما إنها كائنة، ولم يأت تأويلها بعد». وأخرجه الترمذي، عن الحسن بن عرفة، عن إسماعيل بن عياش، عن أبي بكر بن أبي مريم، به. ثم قال: هذا حديث غريب جداً.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يعلى - هو ابن عبيد - حدثنا عثمان بن حكيم، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ، حتى مررنا على مسجد بني معاوية، فدخل فصلين ركعتين، فصلينا معه، فتأجى ربه، ﷻ، طويلاً، قال: سألت ربي ثلاثاً: «سألته ألا يهلك أمتي بالغرق»، فأعطانيها. «وسألته ألا يهلك أمتي بالنسنة»، فأعطانيها. «وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم»، فمَنَعَنيها. انفرد بإخراجه مسلم، فرواه في «كتاب الفتن» عن أبي بكر بن أبي شيبة، ومحمد بن عبد الله بن تَمِيم، كلاهما عن عبد الله بن نمير - وعن محمد بن يحيى بن أبي عَمْرٍ، عن مروان بن معاوية، كلاهما عن عثمان بن حكيم، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: قرأت على عبد الرحمن بن مَهْدِيٍّ، عن مالك، عن عبد الله بن عبد الله بن جابر بن عتيك، عن جابر بن عتيك، أنه قال: جاءنا عبد الله بن عمر في بني معاوية - قرية من قرى الأنصار - فقال لي: هل تدري أين صلى رسول الله ﷺ في مسجدكم هذا؟ فقلت: نعم. فأشرت إلى ناحية منه، فقال: هل تدري ما الثلاث التي دعا بهن فيه؟ فقلت: نعم. فقال: وأخبرني بهن، فقلت: دعا ألا يُظْهَر عليهم عدواً من غيرهم، ولا يهلكهم بالنسنة، فَأُعْطِيَهُمَا، ودعا بأن لا يجعل بأسهم بينهم، فَمَنَعَهَا. قال: صدقت، فلا يزال الهرج إلى يوم القيامة. ليس هو في شيء من الكتب الستة، وإسناده جيد قوي، والله الحمد والمنة.

حديث آخر: قال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن حكيم بن عباد بن حُثَيْف، عن علي بن عبد الرحمن، أخبرني حذيفة بن اليمان قال: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى حرة بني معاوية، قال: فصلني ثمان ركعات، فأطال فيهن، ثم التفت إلي فقال: حستك؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: إني سألت الله ثلاثاً، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة. سألته ألا يسلط على أمتي عدواً من غيرهم، فأعطاني. وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم، فأعطاني.

فمعتني». رواه ابن مردويه من حديث ابن إسحاق.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبيدة بن حميد، حدثني سليمان الأعمش، عن رجاء الأنصاري، عن عبد الله بن شداد، عن معاذ بن جبل، رضي الله عنه، قال: أتيت رسول الله ﷺ أطلبه فقبل لي: خرج قبل. قال: فجعلت لا أمر بأحد إلا قال: مر قبل. حتى مررت فوجدته قائماً يصلي. قال: فنجت حتى قمت خلفه، قال: فأطال الصلاة، فلما قضى صلاته، قلت: يا رسول الله، لقد صليت صلاة طويلة؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني صليت صلاة رغبة ورهبة، سألت الله، ﷻ، ثلاثاً فأعطاني اثنين، ومنعني واحدة. سألته ألا يهلك أمتي غرقاً، فأعطاني. وسألته ألا يظهر عليهم عدواً ليس منهم، فأعطانيها. وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم، فردها علي». ورواه ابن ماجه في «الفتن» عن محمد بن عبد الله بن نمير، وعلي بن محمد، كلاهما عن أبي معاوية، عن الأعمش، به. ورواه ابن مردويه من حديث أبي عوانة، عن عبد الله بن عُمر، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ، بمثله أو نحوه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا عبد الله بن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن بُكر بن الأشج، أن الضحاك بن عبد الله القرشي حدثه، عن أنس بن مالك أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في سفر صلى سُبْحَةَ الضحى ثمانى ركعات. فلما انصرف قال: «إني صليت صلاة رغبة ورهبة، سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنين ومنعني واحدة: سألته ألا يتلي أمتي بالسنين، ففعل. وسألته ألا يظهر عليهم عدوهم، ففعل. وسألته ألا يلبسهم شيعاً، فأبى علي». رواه النسائي في الصلاة، عن محمد بن سلمة، عن ابن وهب، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب بن أبي حمزة، قال: قال الزهري: حدثني عبد الله بن عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن عبد الله بن خباب، عن أبيه خباب بن الأرت - مولى بني زهرة، وكان قد شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ - أنه قال: راقبت رسول الله ﷺ في ليلة صلاها كلها، حتى كان مع الفجر فسلم رسول الله ﷺ من صلاته، قلت: يا رسول الله، لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت مثلها. فقال رسول الله ﷺ: «أجل، إنها صلاة رَغَبٍ وَرَهَبٍ. سألت ربي، ﷻ، فيها ثلاث خصال، فأعطاني اثنين ومنعني واحدة: سألت ربي، ﷻ، ألا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا، فأعطانيها. وسألت ربي، ﷻ، ألا يظهر علينا عدواً من غيرنا، فأعطانيها. وسألت ربي، ﷻ، ألا يلبسنا شيعاً، فمعتنيها». ورواه النسائي من حديث شعيب بن أبي حمزة، به، ومن وجه آخر. وابن حبان في صحيحه، بإسناديهما عن صالح بن كيسان - والترمذي في «الفتن» من حديث النعمان بن راشد - كلاهما عن الزهري، به. وقال: حسن صحيح.

حديث آخر: قال أبو جعفر بن جرير في تفسيره: حدثني زياد بن عبيد الله المزني، حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، حدثنا أبو مالك، حدثني نافع بن خالد الخزاعي، عن أبيه؛ أن النبي ﷺ صلى صلاة خفيفة تامة الركوع والسجود، فقال: «قد كانت صلاة رَغَبَةٍ وَرَهَبَةٍ، سألت الله، ﷻ، فيها ثلاثاً، أعطاني اثنين ومنعني واحدة. سألت الله ألا يصيبكم بعداب أصاب به من قبلكم، فأعطانيها. وسألت الله ألا يسلط عليكم عدواً يستبج بضتكم، فأعطانيها. وسألته ألا يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض فمعتنيها». قال أبو مالك: فقلت له: أبوك سمع هذا من في رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم، سمعته يحدث بها القوم أنه سمعها من في رسول الله ﷺ.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق قال: قال مَعْمَر: أخبرني أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن أبي أسماء الرَحْبِي، عن شداد بن أوس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زَوَى لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زَوَى لي منها، وإني أعطيت الكنزين الأبيض والأحمر، وإني سألت ربي، ﷻ، ألا يهلك أمتي بسنة بعامه وألا يسلط عليهم عدواً فيهلكهم بعامه، وألا يلبسهم شيعاً، وألا يذيق بعضهم بأس بعض. فقال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يَرُدُّ. وإني قد أعطيتك لأمتك ألا أهلكتهم بسنة بعامه، وألا أسلط عليهم عدواً ممن سواهم فيهلكهم بعامه، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، وبعضهم يقتل بعضاً، وبعضهم يسبي بعضاً». قال: وقال النبي ﷺ: «وإني لا أخاف على أمتي إلا الأئمة المضلين، فإذا وضع السيف في أمتي، لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة». ليس في شيء من الكتب الستة، وإسناده جيد قوي، وقد رواه ابن مردويه من حديث حماد بن زيد، وعبد بن منصور، وقتادة، ثلاثهم عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان، عن رسول الله ﷺ بنحوه، فله أعلم.

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا عبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم الهاشمي، وميمون بن إسحاق بن الحسن الحنفي قالا: حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا محمد بن فضيل، عن أبي مالك الأشجعي، عن نافع بن خالد

الخزاعي، عن أبيه قال - وكان أبوه من أصحاب رسول الله ﷺ، وكان من أصحاب الشجرة -: كان رسول الله ﷺ إذا صلى والناس حوله، صلى صلاة خفيفة تامة الركوع والسجود. قال: فجلس يوماً فأطال الجلوس حتى أوماً بعضنا إلى بعض: أن اسكتوا، إنه ينزل عليه. فلما فرغ قال له بعض القوم: يا رسول الله، لقد أطلت الجلوس حتى أوماً بعضنا إلى بعض: إنه ينزل عليك. قال: «لا»، ولكنها كانت صلاة رغبة ورهبة، سألت الله فيها ثلاثاً فأعطاني اثنين، ومنعني واحدة. سألت الله ألا يعذبكم بعذاب عذب به من كان قبلكم، فأعطانيها. ألا يسلط على أمتي عدواً يستبيحها، فأعطانيها. وسألته ألا يلبسكم شيعاً ولا يذيق بعضكم بأس بعض، فمنعنيها، قال: قلت له: أبوك سمعها من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، سمعته يقول: أنه سمعها من رسول الله ﷺ عدد أصابعي هذه، عشر أصابع.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس - هو ابن محمد المؤدب - حدثنا ليث - هو ابن سعد - عن أبي وهب الخولاني، عن رجل قد سماه، عن أبي بصرة الغفاري صاحب رسول الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «سألت ربي، ﷻ، أربعاً فأعطاني ثلاثاً، ومنعني واحدة. سألت الله ألا يجمع أمتي على ضلالة، فأعطانيها. وسألت الله ألا يظهر عليهم عدواً من غيرهم، فأعطانيها. وسألت الله ألا يهلكهم بالسنين كما أهلك الأمم قبلهم، فأعطانيها. وسألت الله، ﷻ، ألا يلبسهم شيعاً ولا يذيق بعضهم بأس بعض، فمنعنيها». لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة.

حديث آخر: قال الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا مثجاب بن الحارث، حدثنا أبو حذيفة الثعلبي، عن زياد بن علاقة، عن جابر بن سمرّة السوائي، عن علي رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «سألت ربي ثلاث خصال، فأعطاني اثنين، ومنعني واحدة، فقلت: يا رب، لا تهلك أمتي جوعاً فقال: هذه لك. قلت: يا رب، لا تسلط عليهم عدواً من غيرهم - يعني أهل الشرك - فيجتاحهم. قال: ذلك لك. قلت: يا رب، لا تجعل بأسهم بينهم». قال: «فمنعني هذه».

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، عن أحمد بن محمد بن عاصم، حدثنا أبو الدرداء المروزي، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن كيسان، حدثني أبي، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «دعوت ربي، ﷻ، أن يرفع عن أمتي أربعاً، فرفع الله عنهم ثنتين، وأبى عليّ أن يرفع عنهم ثنتين. دعوت ربي أن يرفع الرجم من السماء، والغرق من الأرض، وألا يلبسهم شيعاً، وألا يذيق بعضهم بأس بعض، فرفع الله عنهم الرجم من السماء، والغرق من الأرض، وأبى الله أن يرفع اثنين: القتل، والهرج».

طريق أخرى عن ابن عباس أيضاً: قال ابن مَرْدُويه: حدثني عبد الله بن محمد بن زيد، حدثني الوليد بن أبان، حدثنا جعفر بن مُنيّر، حدثنا أبو بدر شجاع بن الوليد، حدثنا عمرو بن قيس، عن رجل، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ يَنْحِتَ أَرْجُلَكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: فقام النبي ﷺ فتوضأ، ثم قال: «اللهم لا ترسل على أمتي عذاباً من فوقهم، ولا من تحت أرجلهم، ولا تلبسهم شيعاً، ولا تذق بعضهم بأس بعض» قال: فأنه جبريل فقال: يا محمد، إن الله قد أجاز أمتك أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم.

حديث آخر: قال ابن مَرْدُويه: حدثنا أحمد بن محمد بن عبد الله البزار، حدثنا عبد الله بن أحمد بن موسى، حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد، حدثنا عمرو بن محمد العنقري، حدثنا أسباط، عن السُّدِّي، عن أبي المنهال، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «سألت ربي لأمتي أربع خصال، فأعطاني ثلاثاً ومنعني واحدة. سألته ألا تكفر أمتي واحدة، فأعطانيها. وسألته ألا يعذبهم بما عذب به الأمم قبلهم، فأعطانيها. وسألته ألا يظهر عليهم عدواً من غيرهم، فأعطانيها. وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها». ورواه ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد بن يحيى بن سعيد القطان، عن عمرو بن محمد العنقري، به نحوه.

طريق أخرى: وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا زيد بن الحُبَاب حدثنا كثير بن زيد الليثي المدني، حدثني الوليد بن رباح مولى آل أبي ذُبَاب، سمع أبا هريرة يقول: قال النبي ﷺ: «سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني اثنين ومنعني واحدة. سألته ألا يسلط على أمتي عدواً من غيرهم، وسألته ألا يهلكهم بالسنين، فأعطاني. وسألته ألا يلبسهم شيعاً وألا يذيق بعضهم بأس بعض، فمنعني». ثم رواه ابن مردويه بإسناده عن سعد بن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، بنحوه. ورواه البزار من طريق عُمر بن سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، بنحوه.

أثر آخر: قال سفيان الثوري، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: أربعة من هذه الأمة: قد مضت ننتان، وبقيت ننتان: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ قَوْمِكُمْ﴾ قال: الرجم. والخسف. ﴿أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ﴾ قال: الخسف. ﴿أَوْ يَلِيْسَكُمْ شَيْعًا وَيَذِيْقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال سفيان: يعني: الرجم والخسف. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ قَوْمِكُمْ أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلِيْسَكُمْ شَيْعًا وَيَذِيْقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: فهي أربع خلال، منها ننتان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة، ألبسوا شيعة، وذاق بعضهم بأس بعض، وبقيت اثنتان لا بد منهما واقعتان: الرجم والخسف. ورواه أحمد، عن وكيع، عن أبي جعفر. ورواه ابن أبي حاتم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو الأشهب، عن الحسن، في قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ قَوْمِكُمْ أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلِيْسَكُمْ شَيْعًا﴾ الآية، قال: حُبِسَتْ عقوبتها حتى عمل ذنبها، فلما عمل ذنبها أرسلت عقوبتها. وهكذا قال سعيد بن جبيرة، وأبو مالك ومجاهد، والسدي وابن زيد في قوله: ﴿عَذَابًا مِّنْ قَوْمِكُمْ﴾ يعني: الرجم. ﴿أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ﴾ يعني: الخسف. وهذا هو اختيار ابن جرير.

وروى ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ قَوْمِكُمْ أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ﴾ قال: كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يصيح وهو في المجلس - أو على المنبر - يقول: ألا أيها الناس، إنه قد نزل بكم: إن الله يقول: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ قَوْمِكُمْ أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ﴾: لو جاءكم عذاب من السماء، لم يَبْقَ منكم أحدًا ﴿أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ﴾: لو خسف بكم الأرض أهلككم، لم يَبْقَ منكم أحدٌ ﴿أَوْ يَلِيْسَكُمْ شَيْعًا وَيَذِيْقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾: ألا إنه نزل بكم أسوأ الثلاث.

قول ثان: قال ابن جرير وابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، سمعت خَلَادَ بن سليمان يقول: سمعت عامر بن عبد الرحمن يقول: إن ابن عباس كان يقول في هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ قَوْمِكُمْ﴾: فأما العذاب من فوقكم، فائمة السوء ﴿أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ﴾، فخدم السوء. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿عَذَابًا مِّنْ قَوْمِكُمْ﴾ يعني: أمراءكم. ﴿أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ﴾ يعني: عبيدكم وسفلةكم. وحكى ابن أبي حاتم، عن أبي سنان وعمير بن هانئ، نحو ذلك. وقال ابن جرير: وهذا القول وإن كان له وجه صحيح، لكن الأول أظهر وأقوى. وهو كما قال ابن جرير، رحمه الله، ويشهد له بالصحة قوله تعالى: ﴿ءَأَنزَلْنَاهُ مِن قُلُوبِكُمْ أَن يَخْفَىٰ بِكُمْ مِنَ الْآرِضِ فَإِذَا هِيَ تَنُورُ ۚ﴾ ﴿١٦﴾ أَمْ أُنِذِرُ مَن فِي السَّمْعَةِ أَن يُرِيسَ عَلَيْكُمْ حَاسِبًا فَسَتَلْمِزُونَهُ كَيْفَ يَذِيْرُ ۚ﴾ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۚ﴾ ﴿١٨﴾ [الملك: ١٦ - ١٨]، وفي الحديث: «ليكونن في هذه الأمة قَذْفٌ وَخَسْفٌ وَمَسْخٌ» وذلك مذكور مع نظائره في أمارات الساعة وأشراتها وظهور الآيات قبل يوم القيامة، وستأتي في موضعها إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿أَوْ يَلِيْسَكُمْ شَيْعًا﴾ أي: يجعلكم ملتبسين شيعةً فرقا متخالفين. قال الوالبي، عن ابن عباس: يعني: الأهواء. وكذا قال مجاهد وغير واحد. وقد ورد في الحديث المروي من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «فوستغرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة». وقوله: ﴿وَيَذِيْقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعني يسلط بعضهم على بعض بالعذاب والقتل. وقوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَنْبِيَاءَ﴾ أي: نبينها ونوضحها ونقرؤها ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ﴾ أي: يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه. قال زيد بن أسلم: لما نزلت: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ قَوْمِكُمْ أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ﴾ الآية، قال رسول الله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيوف». قالوا: ونحن نشهد أن لا إله إلا الله، وأنتك رسول الله؟ قال: «نعم». فقال بعض الناس: لا يكون هذا أبداً، أن يقتل بعضنا بعضاً ونحن مسلمون، فنزلت: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَنْبِيَاءَ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ۖ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ۚ قُلْ لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ۚ﴾ ﴿١٦﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَلْمِزُونَ ۚ﴾ ﴿١٧﴾. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ۚ قُلْ لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ۚ﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَلْمِزُونَ ۚ﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَاتَّبَعْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِنَّمَا يُغِيثُكَ النَّاصِرُونَ فَلَا تَفْعَدْ بَعْدَ الْكَيْدِ مَعَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ۚ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يُقْتُولُونَ مِنْ جَسَادِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَٰكِنْ ذِكْرُنَ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ۚ﴾ ﴿١٨﴾.

يقول تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ﴾ أي: بالقرآن الذي جنتهم به، والهدى والبيان. ﴿قَوْمُكَ﴾ يعني: قريشاً ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ أي: الذي ليس وراءه حق ﴿قُلْ لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: لست عليكم بحفيظ، ولست بموكل بكم، كقوله: ﴿وَقُلْ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ [الكهف: ٢٩] أي: إنما عليّ البلاغ، وعليكم السمع والطاعة، فمن اتبعني، سعد في الدنيا والآخرة، ومن

خالفني، فقد شقي في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿لِكُلِّ نَبْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾. قال ابن عباس وغير واحد: أي لكل نأ حقيقة، أي لكل خير وقوع، ولو بعد حين، كما قال: ﴿وَلَسَلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ جِيَرٍ﴾ [ص: ٨٨]، وقال: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٧]. وهذا تهديد ووعد أكيد؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أي: بالكذب والاستهزاء ﴿فَافْرَضْ عَنْهُمْ حَقَّ يَحُوضُوا فِي حَدِيثِ غَيْرِهِ﴾ أي: حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب، ﴿وَإِنَّمَا يُبَيِّنُكَ السُّعْطَانُ﴾، والمراد بهذا كل فرد، فرد من آحاد الأمة، ألا يجلسوا مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها، فإن جلس أحد منهم ناسياً ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ﴾ بعد التذكر ﴿مَعَ الْقَوِيهِ الْأَعْلَى﴾. ولهذا ورد في الحديث: «رفع عن أمي الخطأ والسيئان وما استكروها عليه». وقال السدي، عن أبي مالك وسعيد بن جبير في قوله: ﴿وَإِنَّمَا يُبَيِّنُكَ السُّعْطَانُ﴾ قال: إن نسيت فذكرت، فلا تجلس معهم. وكذا قال مقاتل بن حيان. وهذه الآية هي المشار إليها في قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثِ غَيْرِهِ﴾ إِنَّكُمْ إِذَا جُلِيسْتُمْ مَعَهُمْ وَأَقْرَبْتُمُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فقد ساوَيْتُمُوهُمْ في الذي هم فيه.

وقوله: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك، فقد برئوا من عهدهم، وتخلصوا من إثمهم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن السدي، عن أبي مالك وسعيد بن جبير، قوله: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ قال: ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك، أي: إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم. وقال آخرون: بل معناه: وإن جلسوا معهم، فليس عليهم من حسابهم من شيء. وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية، وهي قوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مَنَّاهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]. قاله مجاهد، والسدي، وابن جريج، وغيرهم. وعلى قولهم، يكون قوله: ﴿وَلَكِنْ ذَكَرْنَاهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذٍ تذكيراً لهم عما هم فيه؛ لعلهم يتقون ذلك، ولا يعودون إليه.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُمْ عَذَابُهُمْ الْخَالِدُ﴾ الآية ﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾ أي: أن تبسل نفسٍ بما كَسَبَتْ لَيْسَ مَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَيْ وَلا شَيْعٍ وَإِنْ تَعُدْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُوَعِّدُ مِنْهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَبْغَضُوا يَمَّا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَيْمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠).

يقول تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُمْ عَذَابُهُمْ الْخَالِدُ﴾ الآية ﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾ أي: دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلاً، فإنهم صابرون إلى عذاب عظيم؛ ولهذا قال: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾ أي: وذكر الناس بهذا القرآن، وحذرهم نقمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة. وقوله: ﴿أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: لتلا تبسل. قال الضحاك عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، والسدي: تبسل: تبسل. وقال الوابي، عن ابن عباس: تفضح. وقال قتادة: تحبس. وقال مرة وابن زيد: تؤاخذ. وقال الكلبي: تَجَازَى. وكل هذه العبارات متقاربة في المعنى، وحاصلها الإسلام للهلكة، والحبس عن الخير، والارتهاق عن درك المطلوب، كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَوِيَّةٌ﴾ (٧١) ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ (٧٢) [المائدة: ٢٨، ٢٩]. وقوله: ﴿لَيْسَ مَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَيْ وَلا شَيْعٍ﴾ أي: لا قريب ولا أحد يشفع فيها، كما قال: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلا خَلَّةٌ وَلا شَفَعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. وقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُوَعِّدُ مِنْهُ﴾ أي: ولو بذلت كل مبدول ما قبل منها كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَنْفَعَكَ مِنْ أَعْدِهِمْ ذَلِكَ الْأَرْضُ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَخَرْتَ بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ تَغْيِيرٍ﴾ (٧٣) [ال عمران: ٩١]، وهكذا قال ههنا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَبْغَضُوا يَمَّا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَيْمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتَهِ أَتَيْنَا قُلْ لِمَ هَدَى اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ وَأَمَرْنَا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ السَّلَاطِينِ﴾ (٧٤) ﴿وَأَنْ أَقْبِسُوا الْعَصَاةَ وَالْعَفْوُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٧٥) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ عَلَيْهِمُ الْعَقَبُ وَالْهُدَى وَهُوَ لَعَنَهُمُ الْخَبِيرُ﴾ (٧٦).

قال السدي: قال المشركون للمؤمنين: اتبعوا سبيلنا، واتركوا دين محمد، فأنزل الله، ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ أي: في الكفر ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ فيكون مثلنا مثل الذي ﴿اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾ يقول: مثلكم، إن كفرتم بعد الإيمان، كمثل رجل كان مع قوم على الطريق، فضل الطريق، فحيرته الشياطين، واستهوته في الأرض، وأصحابه على الطريق، فجعلوا يدعونه إليهم يقولون: «انتنا فلاناً على الطريق»، فابى أن يأتيهم. فذلك مثل من يتبعهم بعد

المعرفة بمحمد ﷺ، ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام. رواه ابن جرير. وقال قتادة: ﴿أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾: أضلته في الأرض، يعني: استهوته، مثل قوله: ﴿تَهْوَى إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا إِلَى دُوبِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ الآية. هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها، والدعاة الذين يدعون إلى الله، ﷻ، كممثل رجل ضل عن الطريق تائهاً ضالاً، إذ ناداه مناد: «يا فلان بن فلان، هلم إلى الطريق»، وله أصحاب يدعونه: «يا فلان، هلم إلى الطريق»، فإن اتبع الداعي الأول، انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة. وإن أجاب من يدعو إلى الهدى، اهتدى إلى الطريق. وهذه الداعية التي تدعو في البرية من الغيلان، يقول: مثل من يعبد هذه الآلهة من دون الله، فإنه يرى أنه في شيء حتى يأتيه الموت، فيستقبل الهلكة والندامة. وقوله: ﴿كَأَلَيْهِ أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾، هم «الغيلان»، يدعونه باسمه واسم أبيه وجده، فيتبعها وهو يرى أنه في شيء، فيصبح وقد ألقته في هلكة، وربما أكلته. أو تلقية في مضلة من الأرض، يهلك فيها عطشاً، فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تُعبد من دون الله، ﷻ. رواه ابن جرير.

وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿كَأَلَيْهِ أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾ قال: رجل حيران يدعو أصحابه إلى الطريق، وذلك مثل من يضل بعد أن هدى. وقال العوفي، عن ابن عباس، قوله: ﴿كَأَلَيْهِ أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾ هو الذي لا يستجيب لهدى الله، وهو رجل أطاع الشيطان، وعمل في الأرض بالمعصية، وجار عن الحق وضل عنه، وله أصحاب يدعونه إلى الهدى، ويزعمون أن الذي يأمرونه هدى، يقول الله ذلك لأوليائهم من الإنس، يقول الله: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ وَكُنْزُ اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾، والضلال ما يدعو إليه الجن. رواه ابن جرير، ثم قال: وهذا يقتضي أن أصحابه يدعونه إلى ضلال، ويزعمون أنه هدى. قالت: وهذا خلاف ظاهر الآية؛ فإن الله أخبر أن أصحابه يدعونه إلى الهدى، فغير جائز أن يكون ضلالاً، وقد أخبر الله أنه هدى. وهو كما قال ابن جرير، وكان سياق الآية يقتضي أن هذا الذي استهوته الشياطين في الأرض حيران، وهو منصوب على الحال، أي: في حال حيرته وضلاله وجَهْلِهِ وَجَهْلُهُ، وله أصحاب على المحجة سائرون، فجعلوا يدعونه إليهم وإلى الذهاب معهم على الطريقة المثلى. وتقدير الكلام: فيأبى عليهم ولا يلتفت إليهم، ولو شاء الله لهداه، ولرد به إلى الطريق؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ وَكُنْزُ اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾، كما قال: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَمْ يَنْصُرْهُ﴾ [الزمر: ٢٧]، وقال: ﴿إِن تَحَرَّصَ عَلَى هُدًى مِّنَ اللَّهِ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧]، وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ الرِّبِّيَّ الْمَلَكَيْنِ﴾ أي: نخلص له العبادة وحده لا شريك له.

﴿وَأَن أَيْسِرُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ﴾ أي: وأمرنا بإقامة الصلاة ويتقوا في جميع الأحوال، ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: يوم القيامة. ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، فهو خالقهما ومالكهما، والمدير لهما ولهن فيهما. وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يعني: يوم القيامة، الذي يقول الله: ﴿كُنْ﴾ فيكون عن أمره كلمح البصر، أو هو أقرب. ﴿وَيَوْمَ﴾ منصوب إما على العطف على قوله: ﴿وَأَتَوْهُ﴾، وتقديره: واتقوا يوم يقول كن فيكون، وإما على قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: أي: وخلق يوم يقول كن فيكون. فذكر بدء الخلق وإعادته، وهذا مناسب. وإما على إضمار فعل تقديره: واذكر يوم يقول كن فيكون. وقوله: ﴿قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ جملتان محلها الجر، على أنهما صفتان لرب العالمين.

وقوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ ويحتمل أن يكون ظرفاً لقوله: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ كقوله: ﴿لَمَّا مَلَكَ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَجْدُ الْقَهَّارُ﴾ [غافر: ١٦]، وكقوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، وما أشبه ذلك. واختلف المفسرون في قوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾، فقال بعضهم: المراد بالصور ههنا جمع «صورة» أي: يوم ينفخ فيها فحيحاً. قال ابن جرير: كما يقال: سور - لسور البلد - هو جمع سورة. والصحيح أن المراد بالصور: «القرن» الذي ينفخ فيه إسرافيل، عليه السلام، قال ابن جرير: والصواب عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته، ينتظر متى يؤمر فينفخ». وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا سليمان التيمي، عن أسلم العجلي، عن بشر بن شُعَاف، عن عبد الله بن عمرو قال: قال أعرابي: يا رسول الله، ما الصور؟ قال: «قرن ينفخ فيه».

وقد روينا حديث الصور بطوله، من طريق الحافظ أبي القاسم الطبراني، في كتابه «الطَّوَالَات» قال: حدثنا أحمد بن الحسن المصري الأيلي، حدثنا أبو عاصم النبيل، حدثنا إسماعيل بن رافع، عن محمد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو في طائفة من أصحابه، فقال: «إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض، خلق الصور فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فيه، شاخصاً بصره إلى العرش، ينتظر متى يؤمر». قلت: يا

رسول الله، وما الصور؟ قال: «الْقَرْن». قلت: كيف هو؟ قال: «عظيم، والذي بعثني بالحق، إن عظم دارة فيه كعرض السموات والأرض. ينفخ فيه ثلاث نفخات: النفخة الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين. يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى، فيقول: انفخ، فينفخ نفخة الفزع، فيفزع أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله. ويأمره فيديهما ويطيئها ولا يفتر، وهي كقول الله: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوْاقِ﴾ [ص: ١٥] فيسير الله الجبال، فتمر مر السحاب، فتكون سرايا. ثم ترتج الأرض بأهلها رجة فتكون كالسفينة المرمية في البحر، تضربها الأمواج، تكفأ بأهلها كالقنديل المعلق بالعرش، ترججه الرياح، وهي التي يقول: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجُلَةُ﴾ [٦] ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّاوِدَةُ﴾ [٧] قُلُوبُ يَوْمَئِذٍ وَكِفَّةٌ [٨] [النازعات: ٦-٨]، فيميد الناس على ظهرها، وتذهل المراضع، وتضع الحوامل، وتشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربة من الفزع، حتى تأتئ الأفطار، فتأتيها الملائكة فتضرب وجوهها، فترجع، ويولي الناس مدبرين ما لهم من أمر الله من عاصم، ينادي بعضهم بعضاً، وهو الذي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ النَّارِ﴾ [غافر: ٣٢]. فبينما هم على ذلك، إذا انصدعت الأرض من قطر إلى قطر، فراوا أمراً عظيماً لم يروا مثله، وأخذهم لذلك من الكرب والهول ما الله به عليم، ثم نظروا إلى السماء، فإذا هي كالمهل، ثم انشقت فانتشرت نجومها، وانخسفت شمسها وقمرها. قال رسول الله ﷺ: «الأموات لا يعلمون بشيء من ذلك» قال أبو هريرة: يا رسول الله، من استثنى الله ﷻ، حين يقول: ﴿فَفَزَحَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧] قال: «أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، وهم أحياء عند الله يرزقون، وقامه الله فزع ذلك اليوم، وآمنهم منه، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه»، قال: وهو الذي يقول الله ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقَاتُوا رِيحَكُمْ إِنَّكُمْ زُلْزَلَةٌ الشَّكَاةُ شَوْءٌ عَظِيمٌ﴾ [١] ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَلْيٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢]، فيكونون في ذلك العذاب ما شاء الله، إلا أنه يطول.

ثم يأمر الله إسرافيل بنفخة الصعق، فينفخ نفخة الصعق، فيصعق أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله، فإذا هم قد خمدوا، وجاء ملك الموت إلى الجبار، ﷻ، فيقول: يا رب، قد مات أهل السموات والأرض إلا من شئت. فيقول الله - وهو أعلم بمن بقي -: فمن بقي؟ فيقول: يا رب، بقيت أنت الحي الذي لا تموت، وبقيت حملة العرش، وبقي جبريل وميكائيل، وبقيت أنا. فيقول الله ﷻ: ليمت جبريل وميكائيل. فينطق الله العرش فيقول: يا رب، يموت جبريل وميكائيل!! فيقول: اسكت، فإنني كتبت الموت على كل من كان تحت عرشي، فيموتان. ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار ﷻ فيقول: يا رب، قد مات جبريل وميكائيل. فيقول الله ﷻ: وهو أعلم بمن بقي -: فمن تبقى؟ فيقول: بقيت أنت الحي الذي لا تموت، وبقيت حملة عرشك، وبقيت أنا. فيقول الله ﷻ: ليمت حملة عرشي. فيموتوا، ويأمر الله العرش. فيقبض الصور من إسرافيل، ثم يأتي ملك الموت، فيقول: يا رب، قد مات حملة عرشك. فيقول الله - وهو أعلم بمن بقي -: فمن بقي؟ فيقول: يا رب، بقيت أنت الحي الذي لا تموت، وبقيت أنا. فيقول الله ﷻ: أنت خلق من خلقي، خلقتك لما رأيت، فميت. فيموت. فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، كان آخراً كما كان أولاً، طوى السموات والأرض طي السجل للكتب، ثم دحاهما ثم يلقفهما ثلاث مرات، ثم يقول: أنا الجبار، أنا الجبار، أنا الجبار ثلاثاً. ثم هتف بصوته: ﴿لَيْسَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ﴾، ثلاث مرات، فلا يجيبه أحد، ثم يقول لنفسه: ﴿لِلَّهِ الْكَرِيمِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، يقول الله: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عِبرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، فيسطعها وسطحهما، ثم يمدهما مد الأديم العكايطي ﴿لَا تَرَوْنَ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧]. ثم يزرع الله الخلق زجرة، فإذا هم في هذه الأرض المبدلة مثل ما كانوا فيها من الأولى، من كان في بطنها كان في بطنها، ومن كان على ظهرها كان على ظهرها، ثم ينزل الله ﷻ عليهم ماء من تحت العرش، ثم يأمر الله السماء أن تمطر، فتمطر أربعين يوماً، حتى يكون الماء فوقهم اثني عشر ذراعاً، ثم يأمر الله الأجساد أن تنبت فتنبت كنبات الطرائث - أو: كنبات البقل - حتى إذا تكاملت أجسادهم فكانت كما كانت، قال الله ﷻ: لِيَحْيَا حِمْلُ عُرْشِي، فيحيون. ويأمر الله إسرافيل فيأخذ الصور، فيضعه على فيه، ثم يقول: ليحيا جبريل وميكائيل، فيحييان. ثم يدعو الله الأرواح، فيؤتى بها تتوهج أرواح المسلمين نوراً، وأرواح الكافرين ظلمة، فيقبضها جميعاً ثم يلقها في الصور.

ثم يأمر الله إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث، فينفخ نفخة البعث، فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض، فيقول الله: وعزتي وجلالي، ليرجعن كل روح إلى جسده، فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد، فتدخل في الخياشيم، ثم تمشي في الأجساد كما يمشي السم في اللدغ، ثم تنشق الأرض عنكم، وأنا أول من تنشق الأرض عنه، فتخرجون سراعاً إلى ربكم تنسلون، ﴿مُطَهَّرِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَاذِبُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾ [القمر: ٨] حُفَاةٌ عَرَاةٌ غُلْفًا غُرْلًا، فتقفون موقفاً واحداً مقداره

سبعون عاماً، لا يُنظر إليكم ولا يقضى بينكم، فتكون حتى تنقطع الدموع، ثم تدمعون دماً وتغرّقون حتى يلجكم العرق، أو يبلغ الأذقان، وتقولون: من يشفع لنا إلى ربنا فيقضي بيننا؟ فتقولون: من أحق بذلك من أبيكم آدم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وكلمه قبلاً؟ فيأتون آدم، فيطلبون ذلك إليه فيأبى، ويقول: ما أنا بصاحب ذلك. فيستقرون الأنبياء نبياً نبياً، كلما جاؤوا نبياً، أبى عليهم. قال رسول الله ﷺ: «حتى يأتوني، فأنتقل إلى الفحص فأخبر ساجداً» قال أبو هريرة: يا رسول الله، وما الفحص؟ قال: «قدام العرش حتى يبعث الله إليّ ملكاً فيأخذ بعضدي، فيرفعني، فيقول لي: يا محمد، فأقول: نعم، يا رب. فيقول الله ﷻ: ما شأنك؟ وهو أعلم، فأقول: يا رب، وعدتي الشفاعة فشفعني في خلقك، فاقض بينهم. قال الله: قد شفعتك. أنا أتيتكم أقضي بينكم». قال رسول الله ﷺ: «فأرجع فأقف مع الناس، فيبينما نحن وقوف، إذ سمعنا حساً من السماء شديداً، فها لنا فنزل أهل السماء الدنيا بمثلي من في الأرض من الجن والإنس، حتى إذا دنوا من الأرض، أشرقت الأرض بنورهم، وأخذوا مصافهم، وقلنا لهم: أفيتكم ربنا؟ قالوا: لا، وهو أت. ثم ينزل من أهل السماء الثانية بمثلي من نزل من الملائكة، وبمثلي من فيها من الجن والإنس، حتى إذا دنوا من الأرض، أشرقت الأرض بنورهم، وأخذوا مصافهم، وقلنا لهم: أفيتكم ربنا؟ فيقولون: لا، وهو أت.

ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف، حتى ينزل الجبار، ﷻ، في ظلل من الغمام والملائكة، ويحمل عرشه يومئذ ثمانية - وهو اليوم أربعة - أقدامهم في تخوم الأرض السفلى، والأرض والسموات إلى حُجُزَتهم، والعرش على منابكهم، لهم زجل في تسبيحهم، يقولون: سبحان ذي العرش والجبروت، سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت، سُبح قدوس قدوس قدوس، سبحان ربنا الأعلى، رب الملائكة والروح، سبحان ربنا الأعلى، الذي يميت الخلائق ولا يموت، فيضع الله كرسيه حيث يشاء من أرضه، ثم يهتف بصوته: يا معشر الجن والإنس، إني قد أنصت لكم منذ خلقكم إلى يومكم هذا، اسمع قولكم وأبصر أعمالكم، فأنصتوا إليّ، فإنما هي أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. ثم يأمر الله جهنم، فيخرج منها عُنُقَ مظلم ساطع، ثم يقول: ﴿أَلَمْ نَعْهِدْ إِلَىكُمْ يَبْنَىءَ مَا دَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ٦١﴾ وَأَنْ أَتُؤَدُّوا هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ٦٢﴾ وَلَقَدْ أَمَرْنَا مَكَرَ جِبَلًا كَثِيرًا أَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ٦٣﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ٦٤﴾ - أو: بها تكذبون - شك أبو عاصم - ﴿أَسْأَلُكُمْ الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ٦٥﴾ [بس: ٦٠-٦٤] فيميز الله الناس. وتجتو الأمم. يقول الله تعالى: ﴿وَرَبِّ كُلِّ أُمَّةٍ جَائِةٌ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٨﴾ [الباقية: ٢٨] فيقضي الله ﷻ، بين خلقه، إلا الثقلين الجن والإنس، فيقضي بين الوحش والبهائم، حتى إنه ليقضي للجماء من ذات القرن، فإذا فرغ من ذلك، فلم تبق تبعة واحدة لأخرى قال الله لها: كوني تراباً. فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ رَبًّا﴾ [الباقية: ٤٠].

ثم يقضي الله ﷻ بين العباد، فكان أول ما يقضي فيه الدماء، ويأتي كل قتيل في سبيل الله ﷻ، ويأمر الله ﷻ كل قتيل فيحمل رأسه تشخب أوداجه يقول: يا رب، فيم قتلني هذا؟ فيقول - وهو أعلم -: فيم قتلتم؟ فيقول: قتلتم لتكون العزة لك. فيقول الله له: صدقت. فيجعل الله وجهه مثل نور الشمس، ثم تمر به الملائكة إلى الجنة. ويأتي كل من قُتل على غير ذلك يحمل رأسه تشخب أوداجه، فيقول: يا رب، فيم قتلني هذا؟ فيقول - وهو أعلم -: لم قتلتم؟ فيقول: يا رب، قتلتم لتكون العزة لك ولي. فيقول: تعسست. ثم لا تبقى نفس قتلها إلا قتل بها، ولا مظلمة ظلمها إلا أخذ بها، وكان في مشيئة الله إن شاء عذبه، وإن شاء رحمه. ثم يقضي الله تعالى بين من بقي من خلقه حتى لا تبقى مظلمة لأحد عند أحد إلا أخذها الله للمظلوم من الظالم، حتى إنه ليكلف شائب اللبن بالماء ثم يبيعه إلى أن يخلص اللبن من الماء.

فإذا فرغ الله من ذلك، نادى مناد يسمع الخلائق كلهم: ألا ليلحق كل قوم بالكهتيم وما كانوا يعبدون من دون الله. فلا يبقى أحد عبد من دون الله إلا مثلث له ألّهته بين يديه، ويجعل يومئذ ملك من الملائكة على صورة عَزِير، ويجعل ملك من الملائكة على صورة عيسى ابن مريم. ثم يتبع هذا اليهود وهذا النصارى، ثم قادتهم ألّهتهم إلى النار، وهو الذي يقول تعالى: ﴿لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ أَلِهَةً مَا وَدَّوْهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَائِدُونَ ٢٢﴾ [الأنبياء: ٢٢]. فإذا لم يبق إلا المؤمنون فيهم المنافقون، جاءهم الله فيما شاء من هيئته، فقال: يا أيها الناس، ذهب الناس فالحقوا بالكهتيم وما كنتم تعبدون. فيقولون: والله ما لنا إلّا إلا الله، وما كنا نعبد غيره، فينصرف عنهم، وهو الله الذي يأتيهم فيمكث ما شاء الله أن يمكث، ثم يأتيهم فيقول: يا أيها الناس، ذهب الناس فالحقوا بالكهتيم وما كنتم تعبدون. فيقولون: والله ما لنا إلّا إلا الله وما كنا نعبد غيره، فيكشف لهم عن ساقه، ويتجلى لهم من عظمتهم ما يعرفون أنه ربهم، فيخرون سجداً على وجوههم، ويخر كل منافق على قفاه، ويجعل الله أصلابهم كصياصي البقر. ثم يأذن الله

لهم فيرفعون، ويضرب الله الصراط بين ظهراني جهنم كحد الشفرة - أو: كحد السيف - عليه كالليب وخطاطيف وحسك كحسك السعدان، دون جسر دحض مزلة، فيمرون كطرف العين، أو كلمح البرق، أو كمر الريح، أو كجياذ الخيل، أو كجياذ الركاب، أو كجياذ الرجال. فجاج سالم، وناج مخدوش، ومكرس على وجهه في جهنم.

فإذا أفضى أهل الجنة إلى الجنة، قالوا: من يشفع لنا إلى ربنا فتدخل الجنة؟ فيقولون: من أحق بذلك من أبيكم آدم، عليه السلام، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وكلمه قبلاً؟ فيأتون آدم فيطلبون ذلك إليه، فيذكر ذنباً ويقول: ما أنا بصاحب ذلك، ولكن عليكم بنوح، فإنه أول رسل الله. فيؤتى نوح فيُطلب ذلك إليه، فيذكر ذنباً ويقول: ما أنا بصاحب ذلك، ويقول: عليكم بإبراهيم، فإن الله اتخذ خليلاً. فيؤتى إبراهيم، فيُطلب ذلك إليه، فيذكر ذنباً ويقول: ما أنا بصاحب ذلك، ويقول: عليكم بموسى فإن الله قربه نجياً، وكلمه وأنزل عليه التوراة. فيؤتى موسى، فيطلب ذلك إليه، فيذكر ذنباً ويقول: لست بصاحب ذلك، ولكن عليكم بروح الله وكلمته عيسى ابن مريم. فيؤتى عيسى ابن مريم، فيطلب ذلك إليه، فيقول: ما أنا بصاحبكم، ولكن عليكم بمحمد. قال رسول الله ﷺ: «فيأتوني - ولي عند ربي ثلاث شفاعات وعدنهن - فأنتقل فآتي الجنة، فأخذ بحلقة الباب، فأستفتح فيفتح لي، فأحتي ويرحب بي. فإذا دخلت الجنة فنظرت إلى ربي خرت ساجداً، فيأذن الله لي من حمده وتمجيدته بشيء ما أذن به لأحد من خلقه، ثم يقول: ارفع رأسك يا محمد، واشفع تُشَفَّع، وسل تُعْطَل. فإذا رفعت رأسي يقول الله - وهو أعلم - ما شأنك؟ فأقول: يا رب، وعدتني الشفاعة، فَشَفَّعْنِي في أهل الجنة فيدخلون الجنة، فيقول الله: قد شفعتك وقد أذنت لهم في دخول الجنة».

وكان رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده، ما أنتم في الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم، فيدخل كل رجل منهم على اثنتين وسبعين زوجة، سبعين مما ينشئ الله، ﷻ، واثنتين آدميتين من ولد آدم، لهما فضل على من أنشأ الله، لعبادهما الله في الدنيا. فيدخل على الأولى في غرفة من ياقوته، على سرير من ذهب مكلل بالؤلؤ، عليها سبعون زوجاً من سندس وإستبرق، ثم إنه يضع يده بين كتفها، ثم ينظر إلى يده من صدرها، ومن وراء ثيابها وجلدها ولحمها، وإنه لينظر إلى مَخْ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلك في قصبه الباقوت، كبدها له مرآة، وكبده لها مرآة. فبينما هو عندها لا يعملها ولا تمل، ما يأتيها من مرة إلا وجدها عذراء، ما يَفْتَرُ ذَكَرُها، وما تشتكي قبلها. فبينما هو كذلك إذ نودي: إنا قد عرفنا أنك لا تمل ولا تمل، إلا أنه لا مَنِي ولا مَنِيَة إلا أن لك أزواجاً غيرها. فيخرج فيأتيهن واحدة واحدة، كلما أتى واحدة له قالت: والله ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك، ولا في الجنة شيء أحب إلي منك».

وإذا وقع أهل النار في النار، وقع فيها خلق من خلق ربك أوقفهم أعمالهم، فمنهم من تأخذ النار قدميه لا تجاوز ذلك، ومنهم من تأخذه إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حقويه، ومنهم من تأخذ جسده كله، إلا وجهه حرم الله صورته عليها. قال رسول الله ﷺ: «فأقول: يا رب، من وقع في النار من أمتي. فيقول: أخرجوا من عرفتم، فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد. ثم يأذن الله في الشفاعة فلا يبقى نبي ولا شهيد إلا شفع، فيقول الله: أخرجوا من وجدتم في قلبه زنة الدينار إيماناً. فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد، ثم يشفع الله فيقول: أخرجوا من وجدتم في قلبه إيماناً ثلثي دينار. ثم يقول: ثلث دينار. ثم يقول: ربع دينار. ثم يقول: قيراطاً. ثم يقول: حبة من خردل. فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد، وحتى لا يبقى في النار من عمل الله خيراً قط، ولا يبقى أحد له شفاعاة إلا شفع، حتى إن إبليس ليتناول مما يرى من رحمة الله رجاء أن يشفع له، ثم يقول: بقيت وأنا أرحم الراحمين. فيدخل يده في جهنم فيخرج منها ما لا يحصيه غيره، كأنهم حَمَم، فيلقون على نهر يقال له: نهر الحيوان، فينبئون كما تنبت الحبة في حميل السيل ما يلقى الشمس منها أخضر، وما يلي الظل منها أصفر، فينبئون كنبات الطرائث، حتى يكونوا أمثال الذر، مكتوب في رقابهم: «الْجَهَنَّمِيُّونَ عتقاء الرحمن»، يعرفهم أهل الجنة بذلك الكتاب، ما عملوا خيراً لله قط، فيمكثون في الجنة ما شاء الله، وذلك الكتاب في رقابهم، ثم يقولون: ربنا امح عنا هذا الكتاب، فيمحوه الله، ﷻ، عنهم. هذا حديث مشهور، وهو غريب جداً، ولبعظه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة. تفرد به إسماعيل بن رافع قاص أهل المدينة، وقد اختلف فيه، فمنهم من وثقه، ومنهم من ضعفه، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة، كأحمد بن حنبل، وأبي حاتم الرازي، وعمر بن علي الفلاس، ومنهم من قال فيه: هو متروك. وقال ابن عدي: أحاديثه كلها فيها نظر إلا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء.

قلت: وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة، قد أفردتها في جزء على حدة. وأما سياقه، فغريب جداً، ويقال: إنه جمعه من أحاديث كثيرة، وجعله سياقاً واحداً، فأنكر عليه بسبب ذلك. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي

وثبت في الصحيح: أن إبراهيم يلقى أباه أزد يوم القيامة فيقول له أبوه: يا بني، اليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: أي رب، ألم تعدني أنك لا تخزني يوم يبعثون، وأتي خزي أخرى من أبي الأبعد؟ فيقال: يا إبراهيم، انظر ما وراك. فإذا هو بذخ مثلطخ فيؤخذ بقوائمه، فيلقى في النار. وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ رَأَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: تبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله، ﷻ، في ملكه وخلقهما، وإنه لا إله غيره ولا رب سواه، كقوله: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَا فِي الْأَسْمَانِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نُغَيِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسُطَ عَلَيْهِمْ كُفًّا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنبِتٍ ۖ﴾ [سبا: ٤٩]. فأما حكاية ابن جرير وغيره، عن مجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبّير، والسُّدِّي، وغيرهم قالوا- واللفظ لمجاهد-: فرجت له السموات، فنظر إلى ما فيها، حتى انتهى بصره إلى العرش، وفرجت له الأرضون السبع، فنظر إلى ما فيها- وزاد غيره -: فجعل ينظر إلى العباد على المعاصي فيدعو عليهم، فقال الله له: إني أرحم عبادي منك، لعلهم أن يتوبوا ويُرْجَعُوا. وقد روى ابن مردويه في ذلك حديثين مرفوعين، عن معاذ، وعلى بن أبي طالب، ولكن لا يصح إسنادهما، والله أعلم. وروى ابن أبي

حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ ٧٥، فإنه تعالى جلالة الأمر: سبزه وعلايته، فلم يخف عليه شيء من أعمال الخلاق، فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله: إنك لا تستطيع هذا. فرده الله - كما كان قبل ذلك - فيحتمل أن يكون هذا كشف له عن بصره، حتى رأى ذلك عياناً، ويحتمل أن يكون عن بصيرته حتى شاهده بفضاده وتحققه وعرفه، وعلم ما في ذلك من الحكم الباهرة والدلالات القاطعة، كما رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه في حديث المنام: «أتاني ربي في أحسن صورة فقال: يا محمد، فيم يختصم الملائكة الأعلی؟ فقلت: لا أدري يا رب، فوضع كفه بين كتفي، حتى وجدت برد أنامله بين ثديي، فتجلى لي كل شيء وعرفت...» وذكر الحديث.

وقوله: ﴿وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ قيل: «الواو» زائدة، تقديره: وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٥٥]. وقيل: بل هي على بابها، أي: نريه ذلك ليكون عالماً وموقناً. وقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أي: تغشاه وستره ﴿رَأَى كَوْكَبًا﴾ أي: نجماً، ﴿فَقَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أي: غاب. قال محمد بن إسحاق بن يسار: «الأفعول» الذهاب. وقال ابن جرير: يقال: أفل النجم يافل ويأفل أفولاً وأفلاً: إذا غاب، ومنه قول ذي الرمة.

مصابيح ليست باللواتي ثقلودها نُجُومٌ، ولا بالآفلات السدوالك ويقال: أين أفلت عنا؟ بمعنى: أين غبت عنا؟ قال: ﴿قَالَ لَا أَجِبُ الْآفِلِينَ﴾، قال قتادة: علم أن ربه دائم لا يزوال، ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ أي: طالماً ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ فلما رآه الشمس بازعاً قال هذا ربي. أي: هذا المنير الطالع ربي ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ أي: جرمًا من النجم ومن القمر، وأكثر إضاءة ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ أي: غابت، ﴿قَالَ يَنْفَعُونِي بِئْسَ شُرَكَاءُ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ إِلَى اللَّهِ فَاتَّبَعْنَاهُ أَفَلْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: أخلصت ديني وأفردت عبادتي ﴿يَلْذِي فَطَرُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق. ﴿حَنِيفًا﴾ أي: في حال كوني حنيفاً، أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. وقد اختلف المفسرون في هذا المقام، هل هو مقام نظر أو مناصرة؟ فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير مستدلاً بقوله: ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾. وقال محمد بن إسحاق: قال ذلك حين خرج من السرب الذي ولدته فيه أمه، حين تخوفت عليه النمرود بن كنعان، لما أن قد أخبر بوجود مولود يكون ذهاب ملكك على يديه، فأمر بقتل الغلمان عامئذ. فلما حملت أم إبراهيم به وحن وضعها، ذهب به إلى سرب ظاهر البلد، فولدت فيه إبراهيم وتركته هناك. وذكر أشياء من خوارق العادات، كما ذكرها غيره من المفسرين من السلف والخلف.

والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كان في هذا المقام منظاراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، التي هي صورة الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته، ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه. وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشتري، وزحل، وأشدن إضاءة وأشرفهم عندهم الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة. فبين أولاً أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية؛ لأنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه ميمناً ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة، لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال. ومثل هذه لا تصلح للإلهية. ثم انتقل إلى القمر، فبين فيه مثل ما تقدم في النجم. ثم انتقل إلى الشمس كذلك. فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع، ﴿قَالَ يَنْفَعُونِي بِئْسَ شُرَكَاءُ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ إِلَى اللَّهِ فَاتَّبَعْنَاهُ أَفَلْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: أنا بريء من عبادتهن وموالائهن، فإن كانت آلهة، فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنتظرون، ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ إِلَى اللَّهِ فَاتَّبَعْنَاهُ أَفَلْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إنما أعبد خالق الأشياء ومخترعها ومُسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ رَجَعْتُمْ إِلَى اللَّهِ الْوَحْدَى خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلُ الْهَارَ يَطْلُبُهُ حِينًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ

مُحَرِّزِينَ بِأَمْرِهِ آلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكَيْنِ ﴿٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤]. وكيف يجوز أن يكون إبراهيم الخليل ناظرًا في هذا المقام، وهو الذي قال الله في حقه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ الْقَصَائِدُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ الآيات [الأنبياء: ٥١، ٥٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٧﴾ ثُمَّ أَحْنَيْنَا إِلَيْكَ آوَانِيْعَ مِلَّةٍ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٥ - ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام: ١٣١].

وقد ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة»، وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار: أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: إني خلقت عبادي حنفاء» وقال الله في كتابه العزيز: ﴿فَطَرَتُ اللَّهُ آلَتِي فطَرُ النَّاسَ عَلَيَّهَا لَا يَدْبِلُ لَخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَتَّخَذَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ومعناه على أحد القولين، كقوله: ﴿فَطَرَتُ اللَّهُ آلَتِي فطَرُ النَّاسَ عَلَيَّهَا﴾ كما سيأتي بيانه. فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة، فكيف يكون إبراهيم الخليل - الذي جعله الله ﴿أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٥] - ناظرًا في هذا المقام؟! بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة، والسجدة المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب. ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظرًا لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظرًا قوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلَهُ قَوْمُهُ قَالَ اتَّخَذْتُمُ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا وَلَا آخَافَ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيفَ آخَافَ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَبِذَلِكَ جُعِلَتْ ءَاتِيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَفْعٌ دَرَجَاتٍ مِّنْ شَاءِ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

يقول تعالى: وجادلوه قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وناظروه بشبه من القول، قال: ﴿اتَّخَذْتُمُ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا﴾ أي: تجادلوني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو، وقد بصرني وهداني إلى الحق وأنا على بينة منه؟ فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة؟! وقوله: ﴿وَلَا آخَافَ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أي: ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبت إليه أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئًا، وأنا لا أخافها، ولا أباليها، فإن كان لها صنع، فكيدوني بها جميعاً ولا تنظرون، بل عاجلوني بذلك. وقوله: ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ استثناء منقطع. أي: لا يضر ولا ينفع إلا الله، ﷻ. ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: أحاط علمه بجميع الأشياء، فلا تخفى عليه خافية. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: فيما بينت لكم فتعتبرون أن هذه الآلهة باطلة، فتزجروا عن عبادتها؟ وهذه الحجة نظير ما احتج به نبي الله هود، عليه السلام، على قومه عاد، فيما قص عنهم في كتابه، حيث يقول: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦]، ﴿إِن نَقُولُ إِلَّا أَهْوَاؤُنَا بَعْضُ آلِهَتِنَا يُسَبِّحُ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّكُمْ لَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ تَشْرِكُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [هود: ٥٧]، ﴿مِن دُونِهِ فَيَكِيدُونِ جِمَاعًا ثُمَّ لَا تَنظُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [هود: ٥٨]، ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [هود: ٥٩ - ٥٦].

وقوله: ﴿وَكَيْفَ آخَافَ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ أي: كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدون من دون الله ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾؟ قال ابن عباس وغير واحد من السلف: أي حجة وهذا كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ [النسوة: ٢١]، وقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَرْزَلَهُ اللَّهُ بَيِّنَاتٍ لِّكُمْ﴾ [النجم: ٢٣]. وقوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: فأي الطائفتين أصوب؟ الذي عبد من بيده الضر والنفع، أو الذي عبد ما لا يضر ولا ينفع بلا دليل، أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة؟ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [هود: ٨٢]، أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة.

قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا ابن أبي عدي، عن شعبة، عن سليمان، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: لما نزلت ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قال أصحابه: وأينا لم يظلم نفسه؟ فنزلت: ﴿إِنَّكَ أَشْرَكْتَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على الناس، وقالوا: يا رسول الله، فأينا لا يظلم نفسه؟ قال: «إنه ليس الذي تعنون! ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿يَبْتَغِي لَا تَشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّكَ أَشْرَكْتَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، إنما هو الشرك».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع وابن إدريس، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: لما نزلت: ﴿وَلَوْ يَتَّبِعُونَ بِطُلُوعِ﴾، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس كما تظنون، إنما قال لقمان لابنه: ﴿يَتَّبِعْ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّكَ أَشْرَكَ أَظْلَمُ عَظِيمٌ﴾». وحدثنا عمر بن شبة النمري، حدثنا أبو أحمد، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَلَوْ يَتَّبِعُونَ بِطُلُوعِ﴾، قال: «بشرك». قال: وزوي عن أبي بكر الصديق، وعمر، وأبي بن كعب، وسلمان، وحذيفة، وابن عباس، وابن عمر، وعمرو بن شرحبيل، وأبي عبد الرحمن السُّلَمي، ومجاهد، وعكرمة، والثَّخَفي، والضحاك، وقتادة، والسدي نحو ذلك. وقال ابن مردويه: حدثنا الشافعي، حدثنا محمد بن شداد البُشَمي، حدثنا أبو عاصم، حدثنا سفيان الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَوْ يَتَّبِعُونَ بِطُلُوعِ﴾، قال رسول الله ﷺ: «قيل لي: أنت منهم».

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن يوسف، حدثنا أبو جَنَاب، عن زاذان، عن جرير بن عبد الله قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، فلما برزنا من المدينة، إذا راكب يوضع نحونا، فقال رسول الله ﷺ: «كان هذا راكب إياكم يريد». فأنتهى إلينا الرجل، فسلم فردنا عليه، فقال له النبي ﷺ: «من أين أقبلت؟» قال: من أهلي وولدي وعشيرتي. قال: «فأين تريد؟» قال: أريد رسول الله. قال: «فقد أصبته». قال: يا رسول الله، علمني ما الإيمان؟ قال: «تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت». قال: قد أقررت. قال: ثم إن بعيره دخلت يده في شبكة جُرْدَان، فهوى بعيره وهوى الرجل، فوقع على هامته فمات، فقال النبي ﷺ: «علي بالرجل». فوثب إليه عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان فأقعدها، فقالا: يا رسول الله، قبض الرجل! قال: فأعرض عنهما رسول الله ﷺ، ثم قال لهما رسول الله ﷺ: «أما رأيكما إعراضي عن الرجل، فإني رأيت ملكين يداان في فيه من ثمار الجنة، فعلمت أنه مات جائعاً»، ثم قال رسول الله ﷺ: «هذا من الذين قال الله ﷻ، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَوْ يَتَّبِعُونَ بِطُلُوعِ﴾» ثم قال: «دونكم أحاكم». قال: فاحتملناه إلى الماء فغسلناه وحفظناه وكفناه، وحملناه إلى القبر، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس على شفير القبر فقال: «الحدوا ولا تشقوا، فإن للحد لنا والشق لغيرنا». ثم رواه أحمد عن أسود بن عامر، عن عبد الحميد بن جعفر الفراء، عن ثابت، عن زاذان، عن جرير بن عبد الله، فذكر نحوه، وقال فيه: «هذا ممن عمل قليلاً وأجر كثيراً».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يوسف بن موسى القطان، حدثنا مهران بن أبي عمر، حدثنا علي بن عبد الأعلى، عن أبيه، عن سعيد بن جبَّير، عن ابن عباس قال: كنا مع رسول الله ﷺ في مسير ساره، إذ عرض له أعرابي فقال: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، لقد خرجت من بلادي وتلاذي ومالي لأهتدي بهداك، وأخذ من قولك، وما بلغت حتى ما لي طعام إلا من خَضِر الأرض، فأعرض عليّ. فعرض عليه رسول الله ﷺ، فقبل فازدحمتا حوله، فدخل خف بكَره في بيت جُرْدَان، فتردى الأعرابي، فانكسرت عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «صدق والذي بعثني بالحق، لقد خرج من بلاده وتلاذه وماله ليهتدي بهداي ويأخذ من قلبي، وما بلغت حتى ما له طعام إلا من خضر الأرض، أسمعتم بالذي عمل قليلاً وأجر كثيراً؟ هذا منهم! أسمعتم بالذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون؟ فإن هذا منهم». وروى ابن مردويه من حديث محمد ابن معلى - وكان نزل الري - حدثنا زياد بن خيثمة عن أبي داود عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعطى فشكر ومنع فصبّر وظلم فاستغفر وظلم فغفر» وسكت، قالوا: يا رسول الله ما له؟ قال: «﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾».

وقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُكَ أَتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ أي: وجهنا حجته على قومه. قال مجاهد وغيره: يعني بذلك قوله: ﴿وَكَيْفَ آخَاكَ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَتَى الْفِرْعَوْنِ أَخُو يَأْقِينَ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨١) وقد صدقه الله، وحكم له بالأمن والهداية فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَوْ يَتَّبِعُونَ بِطُلُوعِ﴾ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون (٨٢)، ثم قال بعد ذلك كله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُكَ أَتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ رَفَعَ دَرَجَتِي مِنْ شَأْنِهِ﴾. قرىء بالإضافة وبلا إضافة كما في سورة يوسف، وكلاهما قريب في المعنى. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي: حكيم في أفعاله وأقواله ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بمن يهديه ومن يضلّه، وإن قامت عليه الحجج والبراهين، كما قال: ﴿إِنَّ الْآيَاتِ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٣) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْآلَاءَ (٨٤) (يونس: ٩٦، ٩٧) ولهاذا قال هُنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ

يَجْرَى الْمَحْسِينِ ﴿٨٤﴾ وَذَكَرْنَا وَحْيِي وَإِبْرَاهِيمَ كُلِّ مِنَ الْمَدِينِ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْآخَرِينَ ﴿٨٦﴾ وَنَا آدَمَ وَنُوحًا وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِبْرَاهِيمَ وَآلِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْمُوكَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءُ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيُؤْسَى بِهَا بِكَفِيرٍ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْبَدُ قُلْ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْمَلَايِكَةِ ﴿٩٠﴾

يخبر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق، بعد أن طعن في السن، وأيس هو وامراته «سارة» من الولد، فجاءت الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط، فبشروهما بإسحاق، فتعجبت المرأة من ذلك، وقالت: «قَالَتْ يَتَذَكَّرُ آلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا أَنْصَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكَ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَمِيدٌ تَجِيدٌ ﴿٧٧﴾» [هود: ٧٢، ٧٣]. وبشروه مع وجوده بنبوته، وبأن له نسلًا وعقبًا، كما قال: «وَيُكْرِمُنَا بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١١﴾» [الصافات: ١١٢]، وهذا أكمل في البشارة، وأعظم في النعمة، وقال: «فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ إِسْحَاقُ يَقُوبُ» [هود: ٧١]، أي: ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما، فنقر أعينكما به كما قرئت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يُعقب لضعفه، وقعت البشارة به وبولده باسم «يعقوب»، الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم، عليه السلام، حين اعتزل قومه وتركهم، ونزع عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبًا إلى عبادة الله في الأرض، فعوضه الله، ﷻ، عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه، نَفَرُ بِهِمْ عَيْنُهُ، كما قال تعالى: «فَلَمَّا أَتَاهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾» [مريم: ٤٩]، وقال ههنا: «وَوَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا» . وقوله: «وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ﴿٤٩﴾» أي: من قبله، هديناه كما هديناه، وهبنا له ذرية صالحة، وكل منهما له خصوصية عظيمة، أما نوح، عليه السلام، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به - وهم الذين صحبوه في السفينة - جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذرية نوح، وكذلك الخليل إبراهيم، عليه السلام، لم يبعث الله، ﷻ، بعده نبياً إلا من ذريته، كما قال تعالى: «وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ» الآية [العنكبوت: ٢٧]، وقال تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ» [الحديد: ٢٦]، وقال تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجِبِينَ إِذَا نُنَادِيهِمْ عَلَيْهِمْ مَا يَكُنْ خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحًا ﴿٥٨﴾» [مريم: ٥٨].

وقوله في هذه الآية الكريمة: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ» أي: وهدينا من ذريته «دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ» الآية، وعود الضمير إلى «نوح»؛ لأنه أقرب المذكورين، ظاهر. وهو اختيار ابن جرير، ولا إشكال عليه. وعوده إلى «إبراهيم»؛ لأنه الذي سبق الكلام من أجله حسن، لكن يشكل على ذلك «لوط»، فإنه ليس من ذرية «إبراهيم»، بل هو ابن أخيه مادان بن آزر؛ اللهم إلا أن يقال: إنه دخل في الذرية تغليبا، كما في قوله تعالى: «أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا مَا نَعْبُدُ إِلَّاكَ وَآلَكَ عَابَادُكَ إِزْهِقُوا إِزْهِقُوا وَسُلَيْمَانَ وَإِسْحَاقَ إِلَهِمَا وَنَحْنُ لَمْ مُسْلِمُونَ ﴿٢٢٦﴾» [البقرة: ١٣٣]، فإسماعيل عمه، ودخل في آباءه تغليبا. وكما قال في قوله: «فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ ﴿٣١﴾» [الحجر: ٣٠-٣١] فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسجود، وذم على المخالفة؛ لأنه كان قد تشبه بهم، فعمل معاملتهم، ودخل معهم تغليبا، وكان من الجن وطيعتهم النار والملائكة من نور. وفي ذكر «عيسى»، عليه السلام، في ذرية «إبراهيم» أو «نوح»، على القول الآخر دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجال؛ لأن «عيسى»، عليه السلام، إنما ينسب إلى «إبراهيم»، عليه السلام، بأمه «مريم» عليها السلام، فإنه لا أب له. قال ابن أبي حاتم: حدثنا سهل بن يحيى العسكري، حدثنا عبد الرحمن بن صالح، حدثنا علي بن عباس، عن عبد الله بن عطاء المكي، عن أبي حرب بن أبي الأسود قال: أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال: بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي ﷺ، تجده في كتاب الله، وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده؟ قال: أليس تقرأ سورة الأنعام: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ»، حتى بلغ «وَحْيِي وَعِيسَى»؟ قال: بلى، قال: أليس عيسى من ذرية إبراهيم، وليس له أب؟ قال: صدقت. فلماذا إذا أوصى الرجل لذريته، أو وقف على ذريته أو وهبهم، دخل أولاد البنات فيهم، فأما إذا أعطى الرجل بنيه أو وقف عليهم، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه وبنو بنيه، واحتجوا بقول الشاعر العربي:

بنونا بنو أبنائنا وبنائنا بنوهم أبناء الرجال الأجانب
وقال آخرون: ويدخل بنو البنات فيهم أيضاً، لما ثبت في صحيح البخاري، أن رسول الله ﷺ قال للحسن بن علي: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به فتنتين عظيمتين من المسلمين». فسماه ابناً، فدل على دخوله في الأبناء. وقال الآخرون: هذا تجوز.

وقوله: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانَهُمْ﴾: ذكر أصولهم وفروعهم، وذوي طبقتهم، وأن الهداية والاجتباء شملهم كلهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَخْيَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. ثم قال: ﴿ذَلِكَ هَدَى اللَّهُ هَبْدَى يَوْمَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إليهم، ﴿وَكُلُّكُمْ أَشْرَكُوا لَحِيطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾: تشديد لأمر الشرك، وتغليظ لشأنه، وتعظيم لملاسته، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ رَبِّي قَوْلَ الْإِنِّ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَكَ لَحِيطَ عَنْكَ﴾ الآية (الزمر: ٦٥) وهذا شرط، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾ (الزخرف: ٨١)، وكقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ أَنْ يَنْزِلَ لَأَنزَلْنَا بِسْمَاءٍ مِمَّا يَتَخَلَّى بِهَا فَمَنْهُمُ مَن لَّيْسَ بِأَبِيهِمْ﴾ الآية (الزمر: ١٧) وكقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْزِلَ لَأَنزَلْنَا بِسْمَاءٍ مِمَّا يَتَخَلَّى بِهَا فَمَنْهُمُ مَن لَّيْسَ بِأَبِيهِمْ﴾ الآية (الزمر: ١٧) وكقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْزِلَ لَأَنزَلْنَا بِسْمَاءٍ مِمَّا يَتَخَلَّى بِهَا فَمَنْهُمُ مَن لَّيْسَ بِأَبِيهِمْ﴾ الآية (الزمر: ١٧).

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْفُكْرَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ أي: أنعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم، ولطفاً منا بالخلقة، ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي: بالنبوة. ويحتمل أن يكون الضمير عائداً على هذه الأشياء الثلاثة: الكتاب، والحكم والنبوة. وقوله: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ يعني: أهل مكة. قاله ابن عباس، وسعيد بن المسيب، والضحاك، وقتادة، والسدي: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أي: إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين وكتابين، فقد وكلنا بها قوماً ﴿كَافِرِينَ﴾ يعني: المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة، ﴿لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أي: لا يجحدون شيئاً منها، ولا يردون منها حرفاً واحداً، بل يؤمنون بجميعها محكمها ومتشابهها، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه.

ثم قال تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني: الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباه ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أي: هم أهل الهداية لا غيرهم، ﴿فِيهِدُهُمْ أَفْتَدَى﴾ أي: اقتد واتبع. وإذا كان هذا أمراً للرسول ﷺ، فأمته تبع له فيما يشرعه لهم، ويأمرهم به. قال البخاري عند هذه الآية: حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام، أن ابن جريج أخبرهم قال: أخبرني سليمان الأحول، أن مجاهداً أخبره، أنه سأل ابن عباس: أفي (ص) سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ إلى قوله: ﴿فِيهِدُهُمْ أَفْتَدَى﴾، ثم قال: هو منهم - زاد يزيد بن هارون، ومحمد بن عبيد، وسهل بن يوسف، عن العوام، عن مجاهد قال: قلت لابن عباس، فقال: نبينكم ﷺ ممن أيزر أن يقتدي بهم. وقوله: ﴿قُلْ لَا أَتَنَبَّأُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم هذا القرآن ﴿أَجْرًا﴾ أي: أجرة، ولا أريد منكم شيئاً، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا يَكْفُرُ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: يتذكرون به فيؤشردوا من العمى إلى الهدى، ومن الغي إلى الرشاد، ومن الكفر إلى الإيمان.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ لَعَلَّيْكُمْ تَعْمَلُونَ قِرَاطِيسَ تَبْدُونَهَا وَتَعْمَلُونَ كَثِيرًا وَعِثْنَةً مَا لَر تَقُولُوا أَنَّهُ وَلَا مَا بَأَؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ تَعَالَى فِي خَوْضِهِمْ يَلْعُونُ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كَتَبَ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكًا مُّصَدِّقًا لِّلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَنُنَزِّلَهُ لَمْ نُكَلِّمُ هُمْ سَحَابًا وَلَئِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ يَبُوءُونَ بِالْآخِرَةِ يَكْفُرُونَ بِهَا وَهُمْ عَلَى صَلَاحِهِمْ بِحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

يقول تعالى: وما عظموا الله حق تعظيمه، إذ كذبوا رسله إليهم، قال ابن عباس، ومجاهد، وعبد الله بن كثير: نزلت في قريش. واختاره ابن جرير، وقيل: نزلت في طائفة من اليهود؛ وقيل: في فئحة رجل منهم، وقيل: في مالك بن الصيف. ﴿قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ والأول هو الأظهر؛ لأن الآية مكية، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء، وقريش - والعرب قاطبة - كانوا يبعدون إرسال رسول من البشر، كما قال تعالى: ﴿أَكَا لِّلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَرْحَبَ إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنذِرَ النَّاسَ وَبَشِّرَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (يونس: ٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَشَّرَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩١﴾ قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَشْفَعُ عِنْدَ رَبِّكَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٢﴾﴾ (الاسراء: ٩٤، ٩٥)، وقال لهنا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ؟﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله، في جواب سلبهم العام بإثبات قضية جزئية موجبة: ﴿مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ يعني: التوراة التي قد علمتم - وكل أحد - أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران نوراً وهدى للناس، أي: ليستضاء بها في كشف المشكلات، ويهتدي بها من ظلم الشبهات.

وقوله: ﴿تَعْمَلُونَ قِرَاطِيسَ تَبْدُونَهَا وَتَعْمَلُونَ كَثِيرًا﴾ أي: يجعلها حملتها قراطيس، أي: قطعاً يكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديهم ويحرفون فيها ما يحرفون ويبدلون ويتأولون، ويقولون: ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٧٩) أي: في كتابه المنزل، وما هو من عند الله؛ ولهذا قال: ﴿تَعْمَلُونَ قِرَاطِيسَ تَبْدُونَهَا وَتَعْمَلُونَ كَثِيرًا﴾. وقوله: ﴿وَعِثْنَةً مَا لَر تَقُولُوا أَنَّهُ وَلَا مَا بَأَؤُكُمْ﴾ أي: ومن أنزل القرآن الذي علمكم الله فيه من خير ما سبق، ونبأ ما يأتي ما لم تكونوا تعلمون ذلك أنتم ولا آبائكم. قال قتادة: هؤلاء مشركو العرب. وقال مجاهد: هذه للمسلمين. وقوله: ﴿قُلْ اللَّهُ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي: قل: الله أنزله.

وهذا الذي قاله ابن عباس هو المتعين في تفسير هذه الكلمة، لا ما قاله بعض المتأخرين، من أن معنى ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أي: لا يكون خطابك لهم إلا هذه الكلمة، كلمة: «الله». وهذا الذي قاله هذا القائل يكون أمراً بكلمة مفردة من غير تركيب، واليتيان بكلمة مفردة لا يفيد في لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها. وقوله: ﴿كُنتُمْ دَرَجَتَهُمْ فِي حُجَّتِهِمْ يَلْعُبُونَ﴾ أي: ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون، حتى يأتيهم من الله اليقين فسوف يعلمون: ألهم العاقبة، أم لعباد الله المتقين؟.

وقوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعني: القرآن ﴿أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكًا مُّصَدِّقًا لِّذِي بَيْنِ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ يعني: مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من أحياء العرب، ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُلِ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جِيمًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿لَا تُذَكِّرُكُمْ بِهِ وَمَنْ يَلُغْ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [معد: ١٧]، وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ مَا مَشَرْتُمْ كَفَانَ أَسْمَلُوا فَقَدْ انْقَدُوا وَلَيْتَ تَوَلَّوْا فَكَيْفَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِمِعْرَادِهِمُ الْوَاسِعُ﴾ [آل عمران: ٢٠] وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي» وذكر منهن: «وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعث إلى الناس عامة»؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: كل من آمن بالله واليوم الآخر آمن بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن، ﴿وَمَنْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يقومون بما افترض عليهم، من أداء الصلوات في أوقاتها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْقَوْلِ وَالْمَلَائِكَةُ بِأَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَهُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [١٢] ولَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكَّبْتُمْ مَا حَوَّلْنَاهُ وَرَأَىٰ ظُهُورُكُمْ وَلَآءَ خَلْقِكُمْ وَمَا تَرَىٰ مِنْكُمْ شُعْمَةً أُولَئِكَ الَّذِينَ رَعَضْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ نَفَعَكُمْ بَيْنَكُمْ وَصَلَ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَرْغَبُونَ﴾ [١٣].

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله، فجعل له شريكاً أو ولداً، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يكن أرسله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾. قال عكرمة وقتادة: نزلت في مسيلة الكذاب لعنه الله. ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يعني: ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي مما يفتره من القول، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ لَمَسُّوا فِي أَفْقَانِهِمْ مَا لَمَسُوا مِنْ شَمَاتِهِمْ لَمَسُوهُ فَكَفَىٰ لَهُمْ لَاقُوا وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣١]، قال الله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْقَوْلِ﴾ أي: في سكراته وغمراته وكُرْبَاتِهِ، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بِأَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَهُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: بالضرب كما قال: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِكَ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكُمُ أَيُّدِيهِمْ وَالْيَنَاقُ وَالشَّوْءُ﴾ الآية [المنحة: ٢]. وقال الضحاك، وأبو صالح: ﴿بِأَيْدِيهِمْ أَيُّدِيهِمْ﴾ أي: بالعذاب. وكما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَقَّؤْنَ الْآلِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرُخُونَ وَمُوجُهُهُمْ وَأَذْبَرُهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]؛ ولهذا قال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بِأَيْدِيهِمْ أَيُّدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم؛ ولهذا يقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ﴾، وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والثكال، والأغلال والسلاسل، والجحيم والحميم، وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه في جسده، وتعصي وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: اليوم تهانون غاية الإهانة، كما كنتم تكذبون على الله، وتستكبرون عن اتباع آياته، والانقياد لرسوله. وقد وردت أحاديث متواترة في كيفية احتضار المؤمن والكافر، وهي مقررة عند قوله تعالى: ﴿يُنِثُّ اللَّهُ إِلَيْنَا آمَنَاتُهَا بِالْقَوْلِ الثَّالِثِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وقد ذكر ابن مردويه فيها حديثاً مطولاً جداً من طريق غريبة، عن الضحاك، عن ابن عباس مرفوعاً، فالحق أعلم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: يقال لهم يوم معادهم هذا، كما قال: ﴿وَعَرِّضُونَا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الحجف: ٤٨]، أي: كما بدأناكم أعدناكم، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه، فهذا يوم البعث. وقوله: ﴿وَرَكَّبْتُمْ مَا حَوَّلْنَاهُ﴾ أي: من النعم والأموال التي اقتنيتموها في الدار الدنيا ﴿وَرَأَىٰ ظُهُورُكُمْ﴾، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لمسته فابليت، أو تصدقت فأفضيت، وما سوى ذلك فذهب وتاركه للناس». وقال الحسن البصري: يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بَدَجٌ فيقول الله، ﷻ: له: أين ما جمعت؟ فيقول: يا رب، جمعت وتركته أوفر ما كان، فيقول: فأين ما قدمت لنفسك؟ فلا يراه قَدَمٌ شيئاً، وتلا هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكَّبْتُمْ مَا حَوَّلْنَاهُ وَرَأَىٰ ظُهُورُكُمْ﴾ رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَمَا تَرَىٰ مِنْكُمْ شُعْمَةً أُولَئِكَ الَّذِينَ رَعَضْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾: تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدار الدنيا من

الأنداد والأصنام والأوثان، ظانين أن تلك تصفهم في معاشهم ومعادهم إن كان ثم معاد، فإذا كان يوم القيامة تقطعت الأسباب، وانزاح الضلال، وضل عنهم ما كانوا يفترون، ويناديهم الرب، ﷻ، على رؤوس الخلائق: ﴿أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢] وقيل لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [١٦١] دُونَ اللَّهِ هَلْ يَبْصُرُكُمْ أَوْ يُبْصِرُونَ ﴿١٦٢﴾ [الشعراء: ٩٢، ٩٣]؛ ولهذا قال لهنا: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: في العبادة، لهم فيكم قسط في استحقاق العبادة لهم. ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ﴾: قرئ بالرفع، أي: شملكم، وقرئ بالنصب، أي: لقد انقطع ما بينكم من الوصلات والأسباب والوسائل ﴿وَصَلَّ عَصَكُمْ﴾ أي: وذهب عنكم ﴿مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من رجاء الأصنام، كما قال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [١٦٣] وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِي قَسْبَ بَيْنَهُمْ وَمَا كُنَّا نَدْرِي أَنَّهُمْ يُبْعَدُونَ وَلَا نَدْرِي أَنَّهُمْ يُنْفَخُونَ ﴿١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَلْزِمُونَ﴾ [١٦٥] [المؤمنون: ١٠١]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَتَخَذَرُ مِنَ دُونِ اللَّهِ أَلَّنَا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ لِّمَن تَبِعْتُمْ وَمَا وَدَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَصْمِيمٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ الآية [القصص: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَحْشَرُهُمْ جَمِيعًا تَم نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤]، والآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْثِ﴾ وَالنَّوَىٰ ﴿٢٢﴾ وَالنَّوَىٰ مَخْرُجُ الْغَيْثِ مِنَ الْغَيْثِ مِنْ أَلَيْسَ ذَلِكَ لَكُمْ أَنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْثِ ﴿٢٣﴾ فَالِقُ الْغَيْثِ وَجَعَلَ الْغَيْثَ سَكَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاءَ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾.

يخبر تعالى أنه فالق الحب والنوى، أي: يشقه في الثرى فتنبت الزروع على اختلاف أصنافها من الحبوب، والثمار على اختلاف أشكالها وألوانها وطعومها من النوى؛ ولهذا فسر قوله: ﴿فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَىٰ﴾ بقوله: ﴿يَخْرُجُ الْغَيَّ مِنَ الْغَيْثِ﴾ أي: يخرج النبات الحي من الحب والنوى، الذي هو كالجماد الميت، كما قال: ﴿وَأَيُّهُمُ اللَّهُمَّ الْأَرْضُ الَّتِي تَحْيِيهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا قِنْهُنَّ يَأْكُلُونَ﴾ [٢٢] وَجَعَلَ فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّجِيلٍ وَأَنْجَبَ وَقَرَّبْنَا فِيهَا مِنَ الْعُلُوبِ ﴿٢٣﴾ لِأَكْلِكُمْ مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَايَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ [يس: ٣٣-٣٦]. وقوله: ﴿وَيَخْرُجُ الْغَيْثُ مِنَ الْغَيْثِ﴾ معطوف على ﴿فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَىٰ﴾، ثم فسر له عطف عليه قوله: ﴿وَيَخْرُجُ الْغَيْثُ مِنَ الْغَيْثِ﴾. وقد عبروا عن هذا وهذا بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى، فمن قائل: يخرج الدجاجة من البيضة، والبيضة من الدجاجة، من قال: يخرج الولد الصالح من الكافر، والكافر من الصالح، وغير ذلك من العبارات التي تنظمها الآية وتشملها. ثم قال: ﴿وَاللَّهُمَّ اللَّهُ﴾ أي: فاعل هذه الأشياء هو الله وحده لا شريك له ﴿فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَىٰ﴾ أي: فكيف تصرفون من الحق وتعدلون عنه إلى الباطل فتعبدون مع الله غيره.

وقوله: ﴿فَالِقُ الْغَيْثِ وَجَعَلَ الْغَيْثَ سَكَا﴾ أي: خالق الضياء والظلام، كما قال في أول السورة: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح، فيضيء الوجود، ويستنير الأفق، ويضمحل الظلام، ويذهب الليل بدأته وظلام رواقه، ويجيء النهار بضياهه وإشراقه، كما قال تعالى: ﴿يَعْنِي أَلَيْسَ الْتَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُكَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فبين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة الدالة على كمال عظمتهم وعظيم سلطانه، فذكر أنه فالق الإصباح وقابل ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلَ الْغَيْثَ سَكَا﴾ أي: ساجياً مظلماً تسكن فيه الأشياء، كما قال: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ [١] وَاللَّيْلَ إِذَا جَاءَهَا ﴿٢﴾ وَاللَّيْلَ إِذَا يَسْتَهْبِئُ ﴿٣﴾ وَالنَّهَارَ إِذَا جَاءَهَا ﴿٤﴾ وَاللَّيْلَ إِذَا يَسْتَهْبِئُ ﴿٥﴾ [الشمس: ٣، ٤]. وقال صُهِيبُ الرومي رضي الله عنه لامرأته وقد عاتبته في كثرة سهره: إن الله جعل الليل سكناً إلا لصهيب: إن صهيباً إذا ذكر الجنة طال شوقه، وإذا ذكر النار طار نومه، رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَاءُ﴾ أي: يجريان بحساب مُقْتَنٍ مقدر، لا يتغير ولا يضطرب، بل كل منهما له منازل يسلكها في الصيف والشتاء، فيترب على ذلك اختلاف الليل والنهار طويلاً وقصراً، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِينَ وَالْحِسَابُ﴾ الآية [يونس: ٥]، وكما قال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبُئُ لَهَا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَلَيْسَ سَابِقُ النَّهَارِ وَفِي فَلَاحٍ يَسْبَعُونَ﴾ [١] [يس: ٤٠]، وقال: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْرُورَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقوله: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي: الجميع جار بتقدير العزيز الذي لا يمانع ولا يخالف، العليم بكل شيء، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وكثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر، يختم الكلام بالعبارة والعلم، كما ذكر في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿وَأَيُّهُمُ اللَّهُمَّ أَلَيْسَ تَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾

وعنه أنه رآه بؤفاده مرتين. والمسألة تذكر في أول «سورة النجم» إن شاء الله تعالى. وقال ابن أبي حاتم: ذكر محمد بن مسلم، حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي، حدثنا يحيى بن معين قال: سمعت إسماعيل بن علية يقول في قول الله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ قال: هذا في الدنيا. قال: وذكر أبي، عن هشام بن عبيد الله أنه قال نحو ذلك. وقال آخرون: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أي: جميعها، وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له في الآخرة. وقال آخرون، من المعتزلة بمقتضى ما فهموه من هذه الآية: إنه لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة. فخالفوا أهل السنة والجماعة في ذلك، مع ما ارتكبه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله. أما الكتاب، فبقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ﴾ [الأنعام: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى عن الكافرين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. قال الإمام الشافعي: فدل هذا على أن المؤمنين لا يُحْجَبُونَ عنه تبارك وتعالى. وأما السنة، فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد، وأبي هريرة، وأنس، وجابر، وصُهَيْب، وبلال، وغير واحد من الصحابة عن النبي ﷺ: أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات، وفي روضات الجنات، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه آمين.

وقيل: المراد بقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أي: العقول. رواه ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين، عن الفلاس، عن ابن مَهْدِي، عن أبي الحصين يحيى بن الحصين قارىء أهل مكة أنه قال ذلك. وهذا غريب جداً، وخلاف ظاهر الآية، وكأنه اعتقد أن الإدراك في معنى الرؤية، والله سبحانه وتعالى أعلم. وقال آخرون: لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفي الإدراك، فإن الإدراك أخص من الرؤية، ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم. ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفي، ما هو؟ فقيل: معرفة الحقيقة، فإن هذا لا يعلمه إلا هو وإن رآه المؤمنون، كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته، فالعظيم أولى بذلك وله المثل الأعلى. وقال آخرون: المراد بالإدراك الإحاطة. قالوا: ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِهِ ظِلًّا﴾ [طه: ١١٠]، وفي صحيح مسلم: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك». ولا يلزم من هذا عدم الثناء، فكذلك هذا. قال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ قال: لا يحيط بصر أحد بالملك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة، حدثنا عمرو بن حماد بن طلحة القناد، حدثنا أسباط عن سَمَك، عن عكرمة، أنه قيل له: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾؟ قال: أأنت ترى السماء؟ قال: بلى. قال: فكلها ترى؟ وقال سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادة: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾: هو أعظم من أن تدركه الأبصار. وقال ابن جرير: حدثنا سعد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا خالد بن عبد الرحمن، حدثنا أبو عَرُوبَةَ، عن عطية العوفي في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ﴾ [الأنعام: ٢٢، ٢٣]، قال: هم ينظرون إلى الله، لا تحيط أبصارهم به من عظمتهم، وبصره محيط بهم. فذلك قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾. وقد ورد في تفسير هذه الآية حديث. رواه ابن أبي حاتم ههنا، فقال: حدثنا أبو رزعة، حدثنا منجاب بن الحارث السهمي، حدثنا بشر بن عمار، عن أبي روق، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾، قال: «لو أن الجن والإنس والشياطين والملائكة منذ خلقوا إلى أن قُتِلُوا صُفُوا واحداً، ما أحاطوا بالله أبداً».

غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه، ولم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة، والله أعلم. وقال آخرون في قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ بما رواه الترمذي في جامعه، وابن أبي عاصم في كتاب «السنة» له، وابن أبي حاتم في تفسيره، وابن مردويه أيضاً، والحاكم في مستدركه، من حديث الحكم بن أبان قال: سمعت عكرمة يقول: سمعت ابن عباس يقول: رأى محمد ربه تبارك وتعالى. فقلت: أليس الله يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ الآية؟ فقال لي: «لا أم لك. ذاك نوره، الذي هو نوره، إذا تجلى بنوره لا يدركه شيء». وفي رواية: «لا يقوم له شيء». قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وفي معنى هذا الأثر ما ثبت في الصحيحين، عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور - أو: النار - لو كشفه لأحرقت سُحُبَات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

وفي الكتب المتقدمة: إن الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤية: يا موسى، إنه لا يراني حتى إلا مات، ولا يابس إلا تدهده. أي: تدعشر. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَقًّا فَلَمَّا آفَقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. ونفي هذا الأثر الإدراك الخاص لا ينفي الرؤية يوم القيامة، يتجلى لعباده المؤمنين كما يشاء. فأما

جلاله وعظمته على ما هو عليه - تعالى وتقدس وتنزه - فلا تتركه الأبصار؛ ولهذا كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ثبتت الرؤية في الدار الآخرة وتفيها في الدنيا، وتحتج بهذه الآية: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ فالذي نفته الإدراك الذي هو بمعنى رؤية العظمة والجلال على ما هو عليه، فإن ذلك غير ممكن للبشر، ولا للملائكة ولا شيء. وقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ أي: يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه؛ لأنه خلقها كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَتْلُمَنَّ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المك: ١٤]. وقد يكون عبر بالأبصار عن المبصرين، كما قال السدي في قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾: لا يراه شيء. وهو يرى الخلائق. وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾: اللطيف باستخراجها، الخبير بمكانها. والله أعلم. وهذا كما قال تعالى إخباراً عن لقمان فيما وعظ به ابنه: ﴿يَبْقَىٰ لِلَّهِ إِمَّا إِنْ تَكُ شَاكِرًا لِّمَا آتَاكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ فَتَكُونَ أَفْضَلَ وَلَا إِنْ تَكُ كَاذِبًا فَتَكُونَ أَفْضَلَ وَلَا إِنْ تَكُ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [لقمان: ١٦].

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾ ﴿١٥١﴾ وَكَذَلِكَ نُنْصِفُ الَّذِينَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ رَبِّهِمْ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ لَّا تَحْصِيهَا السَّمَوَاتُ وَلَا الْبَرُّ وَلَا يُنْفِكُوا الْعِلَّافَ ﴿١٥٢﴾

البصائر: هي البينات والحجج التي اشتمل عليها القرآن، وما جاء به الرسول ﷺ ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلْيَنْصُرْ﴾. مثل قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالًا مِمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ لَإِنَّمَا يَقُولُ عَالِمًا﴾ [الاسراء: ١٥]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَلْيَعِزْ﴾، لما ذكر البصائر قال: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَلْيَعِزْ﴾ أي: فإنما يعود وبال ذلك عليه، كقوله: ﴿لَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الْأَفْئِدَةِ﴾ [الحج: ٤٦]. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمُعِزٍّ﴾ أي: بحافظ ولا رقيب، بل أنا مبلغ والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ أَعْيَتْ﴾ أي: وكما فصلنا الآيات في هذه السورة، من بيان التوحيد وأنه لا إله إلا هو، هكذا نوضح الآيات ونفسرها ونبينها في كل موطن لجهالة الجاهلين، وليقول المشركون والكافرون المكذبون: دارست يا محمد من قبلك من أهل الكتاب وقاراتهم وتعلمت منهم. هكذا قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، وغيرهم. وقد قال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا أبي، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عمرو بن كيسان، سمعت ابن عباس يقرأ: «ذَارَسْتُ»: تلوت، خاصمت، جادلت. وهذا كما قال تعالى إخباراً عن كذبهم وعنادهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا هَذَا إِلَّا آفَاكُ أَنتُمْ أَنْتُمُوهٗ وَأَمَانَةُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَّخْرُوءَةٌ فَقَدْ جَاءُو ظُلْمًا وَرُدُّوا ۝١٦ وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأَوَّلُ ۚ اكَتَبَهَا فَعَلَى ثَنِيٍّ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝١٧﴾ [الفرقان: ٥، ٤]، وقال تعالى إخباراً عن زعيمهم وكاذبهم: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا وَعَدًّا ۖ قَلِيلٌ ۙ كَيْفَ تَقْدَرُ ۝١٨ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ تَقْدَرُ ۝١٩ ثُمَّ نَكَرَ ۝٢٠ ثُمَّ عَبَسَ وَسَمَرَ ۝٢١ ثُمَّ قَالَ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا عَلِيمٌ يُوَسِّسُهُ ۝٢٢﴾ [المدر: ١٨ - ٢٥].

وقوله: ﴿وَلْيَبَيِّنْهُ لِقَوْمٍ يَقُولُوت﴾ أي: ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه، والباطل فيجتنبونه. فله تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك، وبيان الحق لهؤلاء. كما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَهُدًى بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ مَا بَقِيَ الْقَاطِلُونَ فَتَنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِلَى الظَّالِمِينَ لَعْنٌ شَقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [الحج: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَثَرِي إِلَّا مَلَكًا وَمَا جَعَلْنَا عَذَابَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَعِينَ الَّذِينَ أَوْفُوا الْكَيْبَ وَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ أَوْفُوا الْكَيْبَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يُضِلُّ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]. وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَرْبُدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الاسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [نصفت: ٤٤] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين، وأنه يضل به من يشاء ويهدي من يشاء، ولهذا قال ههنا: وكذلك نصرف الآيات وليقولوا دارست ولبينته لقوم يعلمون. وقرأ بعضهم: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتُ﴾. قال التميمي، عن ابن عباس: «درست أي: قرأت وتعلمت. وكذا قال مجاهد، والسدي والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، قال الحسن: «وليقلوا دَرَسْتُ»، يقول: تقادمت وانمحت. وقال عبد الرزاق أيضاً: أنبأنا ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، سمعت ابن الزبير يقول: إن صبياناً يقرءون ههنا: «دَرَسْتُ»، وإنما هي: «دَرَسْتُ». وقال شعبة: حدثنا أبو إسحاق الهمداني قال في قراءة ابن مسعود: «دَرَسْتُ» بغير ألف، بنصب السين ووقف على التاء.

وقال ابن جرير: ومعناه انمحت وتقادمت، أي: إن هذا الذي تتلوه علينا قد مر بنا قديماً، وتطاوقت مدته. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة أنه قرأها: «دُرْسَتْ» أي: قُرِئَتْ وتُعْلَمَتْ. وقال مَعْمَر، عن قتادة: «دُرْسَتْ»: قرئت. وفي حرف ابن مسعود «دَرَسَ». وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا حجاج، عن هارون قال: هي في حرف أبي بن كعب وابن مسعود: «وليلقوا»

دَرَسَ. قال: يعنون النبي ﷺ أنه قرأ. وهذا غريب، فقد روي عن أبي بن كعب خلاف هذا، قال أبو بكر بن مَرْزُوقٍ: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا الحسن بن الليث، حدثنا أبو سلمة، حدثنا أحمد بن أبي بَرَّة المكي، حدثنا وهب بن زَمْعَةَ، عن أبيه، عن حميد الأعرج، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: أقرأني رسول الله ﷺ: «وليقولوا دَرَسَتْ». ورواه الحاكم في مستدركه، من حديث وهب بن زَمْعَةَ، وقال: يعني بجزم السين، ونصب التاء، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

﴿أَتَبِعَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَثْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾.

يقول تعالى أمراً لرسوله ﷺ ولمن أتبع طريقته: ﴿أَتَبِعَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: اقتد به، واقتف أثره، واعمل به؛ فإن ما أوحى إليك من ربك هو الحق الذي لا مزية فيه؛ لأنه لا إله إلا هو. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: اعف عنهم واصفح، واحتمل أذاهم، حتى يفتح الله لك وينصرك ويظفرَكَ عليهم. واعلم أن الله حكمة في إضلالهم، فإنه لو شاء لهدى الناس كلهم جميعاً ولو شاء الله لجمعهم على الهدى.

﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَثْرَكُوا﴾ أي: بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ أي: حافظاً تحفظ أعمالهم وأقوالهم ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: موكل على أراقيهم وأمورهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْكَلِمَةُ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ﴿١٠٨﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿١٠٩﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، وقال: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ عَلَيْهِمُ الْقَبْحُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِنْ رَبَّهُمْ مَرْجِعُهُمْ فَيَنْتَبَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١١٠﴾.

يقول تعالى ناهياً لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين، وهو الله لا إله إلا هو. كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: قالوا: يا محمد، لنتنهين عن سبك آلهتنا، أو لنهجون ربك، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم، ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، فيسب الكفار الله عدواً بغير علم، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم، عن السدي أنه قال في تفسير هذه الآية: لما حضر أبا طالب الموت قالت قريش: انطلقوا فلندخل على هذا الرجل، فلنأمره أن ينهي عنا ابن أخيه، فإننا نستحي أن نقتله بعد موته، فتقول العرب: كان يمنعه فلما مات قتله. فانطلق أبو سفيان، وأبو جهل، والنضر بن الحارث، وأمّية وأبي ابنا خلف، وعقبة ابن أبي مِعْيَط، وعمر بن العاص، والأسود بن الْبَحْثَرِي، وبعثوا رجلاً منهم يقال له: «المطلب»، قالوا: استأذن لنا علي أبي طالب، فأتى أبا طالب فقال: هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدخول عليك، فأذن لهم عليه، فدخلوا عليه فقالوا: يا أبا طالب، أنت كبيرنا وسيدنا، وإن محمداً قد آذانا وأذى آلهتنا، فنحن أن تدعوه فتنهائهم عن ذكر آلهتنا، ولنذغعه وإلهه. فدعاه، فجاء النبي ﷺ، فقال له أبو طالب: هؤلاء قومك وبنو عمك. قال رسول الله ﷺ: «ما تريدون؟» قالوا: نريد أن تدعنا وآلهتنا، ولنذغك وإلهك. قال له أبو طالب: قد أنصفك قومك، فاقبل منهم، فقال النبي ﷺ: «أرايتم إن أعطيتكم هذا، هل أنتم معطي كلمة إن تكلمتم بها ملكتم بها العرب، ودانت لكم بها العجم، وأدت لكم الخراج؟» قال أبو جهل: وأبيك لنعطيكها وعشرة أمثالها قال: فما هي؟ قال: «قولوا: لا إله إلا الله». فأبوا واشمأزوا. قال أبو طالب: يا ابن أخي، قل غيرها، فإن قومك قد فزعوا منها. قال: «يا عم، ما أنا بالذي أقول غيرها، حتى يأتوا بالشمس فيضعوها في يدي، ولو أتوا بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها». إرادة أن يؤيسهم، فغضبوا وقالوا: لتكفن عن شتم آلهتنا، أولنشتمنك ونشتم من يأمرك، فذلك قوله: ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

ومن هذا القبيل - وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها - ما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ملعون من سب والديه». قالوا: يا رسول الله، وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: «يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه». أو كما قال، عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أي: وكما زيننا لهؤلاء القوم حب أصنامهم والمحاماة لها والانتصار، كذلك زيننا

لكل أمة من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه، والله الحجة البالغة، والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره. ﴿ثُمَّ لَكُمْ رَيْبٌ مِّنْ فَتْنِهِمْ﴾ أي: معادهم ومصيرهم، ﴿فَيُفْتَنُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: يجازيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ مَّاءٌ لَّيُؤْمِنُوا بِهِمَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْرِكُمْ بِهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنَقُلُوبُ أَفْئِدَتِهِمْ وَأَبْصَرُهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

يقول تعالى إخباراً عن المشركين: إنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، أي: حلفوا إيماناً مؤكدة ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ مَّاءٌ﴾ أي: معجزة وخارق، ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِمَا﴾ أي: ليصدقنها، ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تمتناً وكفراً وعناداً، لا على سبيل الهدى والاسترشاد: إنما مرجع هذه الآيات إلى الله، إن شاء أجايبكم، وإن شاء ترككم، كما قال، قال ابن جرير: حدثنا هناد، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا أبو معشر، عن محمد بن كعب القرظي قال: كلم رسول الله ﷺ قريشاً، فقالوا: يا محمد، تخبرنا أن موسى كان معه عصاً يضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقه، فأتينا من الآيات حتى نصدقك. فقال رسول الله ﷺ: «أي شيء تحبون أن أتاكم به؟» قالوا: تجعل لنا الصفا ذهباً. فقال لهم: «فإن فعلت تصدقوني؟» قالوا: نعم، والله لئن فعلت لتبتعنك أجمعين. فقام رسول الله ﷺ يدعو، فجاءه جبريل، عليه السلام، فقال له: لك ما شئت، إن شئت أصبح الصفا ذهباً، ولئن أرسل آية فلم يصدقوا عند ذلك ليعذبنيهم، وإن شئت فأتكمهم حتى يتوب تائبهم. فقال رسول الله ﷺ: «بل يتوب تائبهم». فأنزل الله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَجْهَلُونَ﴾. وهذا مرسل، وله شواهد من وجوه أخر. وقال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآلَيْهَا ثَمُودُ الْكَافَّةُ فَأَمْجَرَهُ فَنَفَخُوا بَهَا وَمَا يُرْسِلُ إِلَّا الْآيَاتِ إِلَّا نَفَخُهَا﴾ [الاسراء: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْرِكُمْ بِهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قيل: المخاطب بـ ﴿وَمَا يُشْرِكُمْ﴾: المشركون، وإليه ذهب مجاهد كأنه يقول لهم: وما يديركم بصدقكم في هذه الأيمان التي تقسمون بها. وعلى هذا فالقراءة: ﴿إنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ بكسر «إنها» على استئناف الخبر عنهم بنفي الإيمان عند مجيء الآيات التي طلبوها، وقراءة بعضهم: ﴿إنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ بالتاء المثناة من فوق. وقيل: المخاطب بقوله: ﴿وَمَا يُشْرِكُمْ﴾ المؤمنون، أي: وما يديركم أيها المؤمنون، وعلى هذا فيجوز في: ﴿إنها﴾ الكسر كالأول والفتح على أنه معمول يشرككم. وعلى هذا فتكون «لا» في قوله: ﴿إنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ صلة كما في قوله: ﴿مَا مَنَعَنَا إِلَّا أَنْ تَجِدَ إِذْ أُنْزِلَتْ﴾ [الاعراف: ١٢] وقوله: ﴿وَحَرِّمُوا عَلَى قُرَيْبِهِ أَهْلَكُنْهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]. أي: ما منعنا أن تسجد إذ أمرتك وحرام أنهم يرجعون. وتقديره في هذه الآية: وما يديركم - أيها المؤمنون الذين تودون لهم ذلك حرصاً على إيمانهم - أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون. وقال بعضهم: «إنها» بمعنى لعلها. قال ابن جرير: وذكرنا أن ذلك كذلك في قراءة أبي بن كعب. قال: وقد ذكر عن العرب سماعاً: «أذهب إلى السوق أنك تشتري لي شيئاً» بمعنى: لعلك تشتري. قال: وقد قيل: إن قول عدي بن زيد العبادي من هذا:

أعاذل ما يُنذرك أن منيَّتي إلى ساعة في اليوم أو في ضحَى الغد
وقد اختار هذا القول ابن جرير وذكر عليه شواهد من أشعار العرب والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَنَقُلُوبُ أَفْئِدَتِهِمْ وَأَبْصَرُهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء ورُدَّت عن كل أمر. وقال مجاهد: ﴿وَنَقُلُوبُ أَفْئِدَتِهِمْ وَأَبْصَرُهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: ونحول بينهم وبين الإيمان ولو جاءتهم كل آية، فلا يؤمنون، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة. وكذا قال عكرمة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنه قال: أخبر الله ما العباد قاتلون قبل أن يقولوه وعملهم قبل أن يعملوه. قال: ﴿وَلَا يَبْنِيكَ مِثْلَ حَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، وقال: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ [٥١] أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّوِّبِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّكَ لِي كَرِهًا فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزمر: ٥٦-٥٨]، فأخبر سبحانه أنهم لو ردوا لم يقدروا على الهدى، وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال: ﴿وَنَقُلُوبُ أَفْئِدَتِهِمْ وَأَبْصَرُهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قال: لو ردوا إلى الدنيا لحبل بينهم وبين الهدى، كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا. وقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ أي: نتركهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾. قال ابن عباس والسدي: في كفرهم. وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقناة: في ضلالهم. ﴿يَعْمَهُونَ﴾: قال الأعمش: يلعبون. وقال ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية، والربيع، وأبو مالك، وغيره: في كفرهم يترددون.

والإنس؟ قال: يا رسول الله، وهل للإنس من شياطين؟ قال: «نعم، شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعضهم زخرف القول غروراً». فهذه طرق لهذا الحديث، ومجموعها يفيد قوته وصحته، والله أعلم. وقد روى ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو نعيم، عن شريك، عن سعيد بن مسروق، عن عكرمة: «شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ» قال: ليس في الإنس شياطين، ولكن شياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس، وشياطين الإنس يوحون إلى شياطين الجن. قال: وحدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا إسرائيل، عن السدي، عن عكرمة في قوله: «يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا» قال: للإنسي شيطان، وللجني شيطان، فيلقى شيطان الإنس شيطان الجن، فيوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً. وقال أسباط، عن السدي، عن عكرمة في قوله: «يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ» في تفسير هذه الآية: أما شياطين الإنس، فالشياطين التي تضل الإنس، وشياطين الجن الذين يضلون الجن، يلتقيان، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: إني أضللت صاحبي بكذا وكذا، فأضلل أنت صاحبك بكذا وكذا، فيعلم بعضهم بعضاً. ففهم ابن جرير من هذا: أن المراد بشياطين الإنس عند عكرمة والسدي: الشياطين من الجن الذين يضلون الناس، لا أن المراد منه شياطين الإنس منهم. ولا شك أن هذا ظاهر من كلام عكرمة، وأما كلام السدي فليس مثله في هذا المعنى، وهو محتمل، وقد روى ابن أبي حاتم نحو هذا، عن ابن عباس من رواية الضحاك، عنه، قال: إن للجن شياطين يضلونهم مثل شياطين الإنس يضلونهم، قال: فيلتقي شياطين الإنس وشياطين الجن، فيقول هذا لهذا: أضلله بكذا، أضلله بكذا. فهو قوله: «يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا».

وعلى كل حال فالصحيح ما تقدم من حديث أبي ذر: إن للإنس شياطين منهم، وشيطان كل شيء مارد، ولهذا جاء في صحيح مسلم، عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «الكلب الأسود شيطان». ومعناه - والله أعلم -: شيطان في الكلاب. وقال ابن جريج: قال مجاهد في تفسير هذه الآية: كفار الجن شياطين، يوحون إلى شياطين الإنس، كفار الإنس، زخرف القول غروراً. وروى ابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: قدمت على المختار فأكرمني وأزّلني حتى كاد يتعاهد بيّتي بالليل، قال: فقال لي: اخرج إلى الناس فحدث الناس. قال: فخرجت، فجاء رجل فقال: ما تقول في الوحي؟ فقلت: الوحي وحيان، قال الله تعالى: ﴿بِمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣]، وقال الله تعالى: ﴿شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ قال: فهموا بي أن يأخذوني، فقلت: ما لكم ذاك، إني مفتيكم وضيّفكم. فتركوني. وإنما عرّض عكرمة بالمختار - وهو ابن أبي عبيد - قبّحه الله، وكان يزعم أنه يأتيه الوحي، وقد كانت أخته صفية تحت عبد الله بن عمر وكانت من الصالحات، ولما أخبر عبد الله بن عمر أن المختار يزعم أنه يوحى إليه قال: صدق، قال الله تعالى: ﴿وَلَا الشَّيَاطِينُ لِيُؤْخِرُوهُ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقوله تعالى: «يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا» أي: يلقي بعضهم إلى بعض القول المزخرف، وهو المزور الذي يغتر سامعه من الجهلة بأمره. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فُكِّهُوا﴾ أي: وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء. ﴿نَذَرَهُمْ﴾ أي: فدعهم، ﴿وَمَا يَقْتُرُونَ﴾ أي: يكذبون، أي: دع أذاهم وتوكل على الله في عداوتهم، فإن الله كافيك وناصرك عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَصْنَعَنَّ اللَّهُ﴾ أي: ولتعمل إليه - قاله ابن عباس - ﴿أَفْعِدَّةٌ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: قلوبهم وعقولهم وأسماعهم. وقال السدي: قلوب الكافرين، ﴿وَلَيَرْسُوهُ﴾ أي: يحبوه ويريدوه. وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَذَرَنَّهُمْ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَرَاءِ﴾ [١١٦]، ﴿لَا مَنَ لَهُمْ صَالِي الْجَنَّةِ﴾ [١١٧]، [الصفات: ١٦١ - ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَنَاقِلٌ قَوْلِهِمْ خِلَافَ﴾ [٨]، ﴿يُؤْخِرُ عَنْهُمْ مِّنْ آيَةٍ﴾ [٩]، [الذاريات: ٨، ٩]. مكتسبون. وقال السدي، وابن زيد: وليعملوا ما هم عاملون. ﴿أَفَسَرَّ اللَّهُ أَتَيْنِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَرْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَكْفُونَ أَمَّا مَن ذَكَرَ رَبَّهُ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْفَاسِقِينَ﴾ [١٠] وَتَمَّتْ كَيْفَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [١١].

يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين بالله غيره الذين يعبدون غيره: ﴿أَفَسَرَّ اللَّهُ أَتَيْنِي حَكْمًا﴾ أي: بيني وبينكم، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أي: مبيناً، ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: من اليهود والنصارى، يعلمون أنه منزل من ربك بالحق، أي: بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْفَاسِقِينَ﴾، كقوله: ﴿إِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَرْزَلْنَا إِلَيْكَ فَتَنَلِ الَّذِينَ يَفْرُقُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْفَاسِقِينَ﴾ [يونس: ٩٤]، وهذا شرط، والشرط لا يقتضي وقوعه؛ ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أشك ولا أسأل».

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَيْفَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قال قتادة: صدقاً فيما قال، وعدلاً فيما حكم. يقول: صدقاً في الإخبار وعدلاً في الطلب، فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه

لا ينهى إلا عن مفسدة، كما قال: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْعُرْفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ إلى آخر الآية [الاعراف: ١٥٧]. ﴿لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: ليس أحد يعقب حكمه تعالى لا في الدنيا ولا في الآخرة، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحركاتهم وسكناتهم، الذي يجازي كل عامل بعمله.

﴿وَلَنْ تُلَاقَ أَكْثَرَهُمْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَلَوْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم أنه الضلال، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الصافات: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ الْفَاسِقِينَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١١٧﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم في ظنون كاذبة وحسبان باطل، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَلَوْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، فإن الخرص هو الحزر، ومنه خرص النخل، وهو خرز ما عليها من التمر وكذلك كله قدر الله ومشيته، ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فيسره لذلك ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِينَ﴾ فيسره لذلك، وكل ميسر لما خلق له.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ عَلَيْهِ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ آهْوَاءَكُمْ يَغْتَرِ عَلَيْكُمْ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

هذا إباحة من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه، ومفهومه: أنه لا يباح ما لم يذكر اسم الله عليه، كما كان يستبيحه كفار المشركين من أكل الميتات، وأكل ما ذبح على النصب وغيرها. ثم ندب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: قد بين لكم ما حرم عليكم ووضحه. وقرأ بعضهم: ﴿فَصَّلَ﴾ بالتشديد، وقرأ آخرون بالتخفيف، والكل بمعنى البيان والوضوح. ﴿إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: إلا في حال الاضطرار، فإنه يباح لكم ما وجدتم. ثم بين تعالى جهالة المشركين في آرائهم الفاسدة، في استحلالهم الميتات، وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى: فقال ﴿وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ آهْوَاءَكُمْ يَغْتَرِ عَلَيْكُمْ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِينَ﴾ أي: هو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافتراءهم.

﴿وَدَرَّوْا ظُهُرَ الْإِنْتَرِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الْإِنْتَرَ يَكْسِيهِ الْإِثْمُ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٢٠﴾﴾.

قال مجاهد: ﴿وَدَرَّوْا ظُهُرَ الْإِنْتَرِ وَبَاطِنَهُ﴾: معصيته في السر والعلانية - وفي رواية عنه قال: هو ما ينوي مما هو عامل. وقال قتادة: ﴿وَدَرَّوْا ظُهُرَ الْإِنْتَرِ وَبَاطِنَهُ﴾ أي: قلبه وكثيره، سره وعلانيته. وقال السدي: ظاهره: الزنا مع البغايا ذوات الرايات، وباطنه: الزنا مع الخليفة والصدائق والأخذان. وقال عكرمة: ظاهره: نكاح ذوات المحارم. والصحیح أن الآية عامة في ذلك كله، وهي كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَعَثَ فِي الْأَرْوَاحِ وَالْبَغْيَ وَقَاتِلُوا اللَّهَ وَمَا تَزَيَّجَ بَيْنَهُ سُلْطَنًا﴾ الآية [الاعراف: ٣٣]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْتَرَ يَكْسِيهِ الْإِثْمُ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: سواء كان ظاهراً أو خفياً، فإن الله سيجزيهم عليه. قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه، عن النّوّاس بن سميان قال: سألت رسول الله ﷺ عن الإثم فقال: «الإثم ما حاك في صدرك، وكهرت أن تطلع الناس عليه».

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهُ عَلَيْهِ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ يَكُونُ إِنْ أَرَادَ أَنْ يُضِلُّكُمْ وَلَئِنْ أَطَعْتُمُوهُ لَأَكْثُرَنَّ لَكُمْ تَشْرُكًا ﴿١٢١﴾﴾.

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أنه لا تحل الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها، ولو كان الذابح مسلماً، وقد اختلف الأئمة، رحمهم الله، في هذه المسألة على ثلاثة أقوال:

فمنهم من قال: لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة، وسواء متروك التسمية عمداً وسهواً. وهو مروى عن ابن عمر، ونافع مولاه، وعامر الشعبي، ومحمد بن سيرين. وهو رواية عن الإمام مالك، ورواية عن أحمد بن حنبل نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين، وهو اختيار أبي ثور، وداود الظاهري، واختار ذلك أبو الفتوح محمد بن محمد بن علي الطائي، من متأخري الشافعية في كتابه «الأربعين»، واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية، ويقولون في آية الصيد: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَسْكَنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤]. ثم قد أكد في هذه الآية بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَاسْقٌ﴾. والضمير قيل: عائد على الأكل، وقيل: عائد على الذبح لغير الله - وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد، كحديثي عدي بن حاتم وأبي ثعلبة: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك». وهما في الصحيحين، وحديث رافع بن خديج: «ما أنهر الدم وذكر

اسم الله عليه فكلوه». وهو في الصحيحين أيضاً، وحديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال للجن: «لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه». رواه مسلم. وحديث جُنْدَب بن سفيان البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «من ذبح قبل أن يصلي فليذبح مكانها أخرى، ومن لم يكن ذبح حتى صلينا فليذبح باسم الله». أخرجه. وعن عائشة، رضي الله عنها، أن ناساً قالوا: يا رسول الله، إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندرى: أذكر اسم الله عليه أم لا؟ قال: «سموا عليه أنتم وكلوا». قالت: وكانوا حديثي عهد بالكفر. رواه البخاري. ووجه الدلالة أنهم فهموا أن التسمية لا بد منها، وأنهم خشوا ألا تكون وجدت من أولئك، لحدثة إسلامهم، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل، لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح إن لم تكن وجدت، وأمرهم بإجراء أحكام المسلمين على السداد، والله تعالى أعلم.

والمذهب الثاني في المسألة: أنه لا يشترط التسمية، بل هي مستحبة، فإن تركت عمدًا أو نسيانًا لم تضر. وهذا مذهب الإمام الشافعي، رحمه الله، وجميع أصحابه، ورواية عن الإمام أحمد. نقلها عنه حنبل. وهو رواية عن الإمام مالك، ونص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه، وحكي عن ابن عباس، وأبي هريرة، وعطاء بن أبي رباح، والله أعلم.

وحمل الشافعي الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَرَأَيْتُمْ لَفْسُقًا﴾ على ما ذبح لغير الله، كقوله تعالى: ﴿أَوْ يَتَّبِعُوا أَحَدًا مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَى مَا لَمْ يَحْكَمْ بِهِنَّ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وقال ابن جرير، عن عطاء: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قال: ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش عن الأوثان، وينهى عن ذبائح المجوس، وهذا المسلك الذي طرقة الإمام الشافعي رحمه الله قوي، وقد حاول بعض المتأخرين أن يقويه بأن جعل «الواو» في قوله: ﴿وَرَأَيْتُمْ لَفْسُقًا﴾ حالية، أي: لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه في حال كونه فسقًا، ولا يكون فسقًا حتى يكون قد أهل به لغير الله. ثم ادعى أن هذا متعين، ولا يجوز أن تكون «الواو» عاطفة. لأنه يلزم منه عطف جملة إسمية خبرية على جملة فعلية طلبية. وهذا ينتقض عليه بقوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ وَرَدًا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾. فإنها عاطفة لا محالة، فإن كانت «الواو» التي ادعى أنها حالية صحيحة على ما قال؛ امتنع عطف هذه عليها، فإن عطف على الطلبية ورد عليه ما أورد على غيره، وإن لم تكن «الواو» حالية، بطل ما قال من أصله، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، أنبأنا جرير، عن عطاء، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قال: هي الميتة. ثم رواه، عن أبي ذرعة، عن يحيى بن أبي كثير، عن ابن لهيعة، عن عطاء - وهو ابن السائب - به. وقد استدلل لهذا المذهب بما رواه أبو داود في المراسيل، من حديث ثور بن يزيد، عن الصلت السدوسي - مولى سويد بن منجوف، أحد التابعين الذين ذكرهم أبو حاتم بن حبان في كتاب الثقات - قال: قال رسول الله ﷺ: «ذبيحة المسلم خلال ذكر اسم الله أول لم يُذْكَرْ، إنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله». وهذا مرسل يعضد بما رواه الدارقطني عن ابن عباس أنه قال: إذا ذبح المسلم - ولم يذكر اسم الله فليأكل، فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله. واحتج البيهقي أيضاً بحديث عائشة، رضي الله عنها، المتقدم أن ناساً قالوا: يا رسول الله، إن قوماً حديثي عهد بجاهلية يأتوننا بلحم لا ندرى أذكروا اسم الله عليه أم لا؟ فقال: «سموا أنتم وكلوا». قال: فلو كان وجود التسمية شرطاً لم يرخص لهم إلا مع تحققها، والله أعلم.

المذهب الثالث في المسألة: أنه إن ترك البسملة على الذبيحة نسياناً لم يضر، وإن تركها عمدًا لم تحل. هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك، وأحمد بن حنبل، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه، وإسحاق بن راهويه: وهو محكي عن علي، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعطاء، وطاوس، والحسن البصري، وأبي مالك، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وجعفر بن محمد، وربيعة بن أبي عبد الرحمن. ونقل الإمام أبو الحسن المرغيناني في كتابه «الهداية» الإجماع - قبل الشافعي - على تحريم متروك التسمية عمدًا، فلهاذا قال أبو يوسف والمشايع: لو حكم حاكم بجواز بيعه لم ينفذ لمخالفة الإجماع. وهذا الذي قاله غريب جداً، وقد تقدم نقل الخلاف عن قبل الشافعي، والله أعلم. وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: من حرم ذبيحة الناسي، فقد خرج من قول جميع الحجة، وخالف الخبر الثابت عن رسول الله ﷺ في ذلك. يعني ما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو عباس الأصم، حدثنا أبو أمية الطرسوسي، حدثنا محمد بن يزيد، حدثنا معقل بن عبيد الله، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «المسلم يكفيه اسمه، إن نسي أن يسمي حين يذبح، فليذكر اسم الله وليأكله». وهذا الحديث رفعه خطأ، أخطأ فيه معقل بن عبيد الله الجزيري، فإنه وإن كان من رجال مسلم إلا أن سعيد بن منصور، وعبد الله بن الزبير الحميدي رواه عن سفيان بن عيينة، عن عمرو، عن أبي الشعثاء، عن عكرمة، عن ابن عباس، من قوله. فزاد في إسناده «أبا الشعثاء»،

ووقفاً، والله تعالى أعلم. وهذا أصح، نص عليه البيهقي وغيره من الحفاظ.

وقد نقل ابن جرير وغيره عن الشعبي، ومحمد بن سيرين، أنهما كرها متروك التسمية نسياناً، والسلف يطلقون الكراهة على التحريم كثيراً، والله أعلم. إلا أن من قاعدة ابن جرير أنه لا يعتبر قول الواحد ولا الاثنين مخالفاً لقول الجمهور، فيعده إجماعاً، فليعلم هذا، والله الموفق. قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أسامة، عن جهم بن يزيد قال: سئل الحسن، سأل رجل أتيت بطير كزى، فمعه ما قد ذبح فذكر اسم الله عليه، ومنه ما نسي أن يذكر اسم الله عليه، واختلط الطير، فقال الحسن: كله، كله. قال: وسألت محمد بن سيرين فقال: قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾. واحتج لهذا المذهب بالحديث المروي من طرق عند ابن ماجه، عن ابن عباس، وأبي هريرة، وأبي ذر، وعقبة بن عامر، وعبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه». وفيه نظر، والله أعلم. وقد روى الحافظ أبو أحمد بن عدي، من حديث مروان بن سالم القرظساني، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أ رأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمي؟ فقال النبي ﷺ: «اسم الله على كل مسلم». ولكن هذا إسناد ضعيف، فإن مروان بن سالم القرظساني أبا عبد الله الشامي، ضعيف، تكلم فيه غير واحد من الأئمة، والله أعلم. وقد أفردت هذه المسألة على حدة، وذكرت مذاهب الأئمة وما أخذهم وأدلتهم، ووجه الدلالات والمناقضات والمعارضات، والله أعلم.

قال ابن جرير: وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية: هل نسخ من حكمها شيء أم لا؟ فقال بعضهم: لم ينسخ منها شيء وهي محكمة فيما غنيت به. وعلى هذا قول عامة أهل العلم. وروى عن الحسن البصري وعكرمة ما حدثنا به ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، عن الحسين بن واقد، عن عكرمة والحسن البصري قالا: قال الله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ يَاقَانِيَةِ مُؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّكُمْ لَفِ السُّقَى﴾، فنسخ واستثنى من ذلك فقال: ﴿وَلَعَلَّامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥]. وقال ابن أبي حاتم: قرئ على العباس بن الوليد بن يزيد، حدثنا محمد بن شعيب، أخبرني النعمان - يعني ابن المنذر - عن مكحول قال: أنزل الله في القرآن: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، ثم نسخها الرب ورحم المسلمين فقال: ﴿الَّذِينَ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَيِّبَاتُ وَلَعَلَّامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ﴾، فنسخها بذلك وأحل طعام أهل الكتاب. ثم قال ابن جرير: والصواب أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب، وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه. وهذا الذي قاله صحيح، من أطلق من السلف النسخ ههنا فإنما أراد التخصيص، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءَهُمْ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبي إسحاق قال: قال رجل لابن عمر: إن المختار يزعم أنه يوحى إليه؟ قال: صدق، وتلا هذه الآية: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءَهُمْ﴾. وحدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا عكرمة بن عمار، عن أبي رُمَيْل قال: كنت قاعداً عند ابن عباس، وحج المختار بن أبي عبيد، فجاءه رجل فقال: يا ابن عباس، وزعم أبو إسحاق أنه أوحى إليه الليلة؟ فقال ابن عباس: صدق، فنفرت وقلت: يقول ابن عباس صدق؟! فقال ابن عباس: هما وحيان، وحي الله، ووحى الشيطان، فوحى الله عز وجل إلى محمد ﷺ، ووحى الشيطان إلى أوليائه، ثم قرأ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءَهُمْ﴾. وقد تقدم عن عكرمة في قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ نحو هذا. وقوله تعالى: ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عمران بن عيينة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير قال: خاصمت اليهود النبي ﷺ، فقالوا: نأكل مما قتلنا، ولا نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّكُمْ لَفِ السُّقَى﴾. هكذا رواه مرسلاً، ورواه أبو داود متصلاً فقال: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا عمران بن عيينة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: جاءت اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّكُمْ لَفِ السُّقَى﴾. وكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن عبد الأعلى وسفيان بن وكيع، كلاهما عن عمران بن عيينة، به. ورواه البزار، عن محمد بن موسى الحرشي، عن عمران بن عيينة، به. وهذا فيه نظر من وجه ثلاثة:

أحدها: أن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا.

الثاني: أن الآية من الأنعام، وهي مكية.

الثالث: أن هذا الحديث رواه الترمذي، عن محمد بن موسى الحرشي، عن زياد بن عبد الله البكائي، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. ورواه الترمذي بلفظ: أتى ناس النبي ﷺ فذكره وقال: حسن غريب،

وفي صحيح البخاري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «بُعِثَ من خير قُرُونِ بني آدم قُرْنَا قَرْنًا، حتى بُعِثَ من القرن الذي كنت فيه». وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم، عن سفیان، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن المطلب بن أبي وُداعة قال: قال العباس: بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس، فصعد المنبر فقال: «من أنا؟». قالوا: أنت رسول الله. قال: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه،

وجعلهم فرقتين، فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة. وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً؛ صدق صلوات الله وسلامه عليه. وفي الحديث أيضاً المروي عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: قلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلاً أفضل من محمد، وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد بني أب أفضل من بني هاشم». رواه الحاكم والبيهقي.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو بكر، حدثنا عاصم، عن زر بن حبيش، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه فابتعته برسالته. ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيئ. وقال أحمد: حدثنا شجاع بن الوليد قال: ذكر قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن سلمان قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا سلمان، لا تبغضني فتفارق دينك». قلت: يا رسول الله، كيف أبغضك وبك هدانا الله؟ قال: «تبغض العرب فتبغضني».

وذكر ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية: ذكر عن محمد بن منصور الجواز، حدثنا سفيان، عن ابن أبي حسين قال: أبصر رجل ابن عباس وهو يدخل من باب المسجد فلما نظر إليه راعه، فقال: من هذا؟ قالوا: ابن عباس ابن عم رسول الله ﷺ قال: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَحْكُمُ رِسَالَتُهُ».

وقوله تعالى: «سَيُجِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ»، هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد، لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤوا به، فإنه يصيبه يوم القيامة بين يدي الله «صَغَارٌ» وهو الذلة الدائمة، لما أنهم استكبروا أعقبهم ذلك ذلاً كما قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَافِعِينَ» (غافر: ٦٠) أي: صاغرين ذليلين حقيرين. وقوله: «وَعَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ»، لما كان الكبر غالباً وإنما يكون خفياً، وهو التلطف في التحيل والخديعة، قوبلوا بالعذاب الشديد جزاء وفاقاً، «وَلَا يَطْلُرُ رَبُّكَ أَحَدًا» [الكهف: ٤٩]، كما قال تعالى: «يَوْمَ تَكُنُ الْأَشْيَاءُ كَالْهَبِّ» (الطارق: ٩) أي: تظهر المستترات والمكونات والضمائر. وجاء في الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لُؤَاءٌ عِنْدَ اسْتِثْوَايَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، فيقال: هذه غدره فلان ابن فلان. والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفياً لا يطلع عليه الناس، فيوم القيامة يصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل.

«فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرْمًا كَأَنَّمَا يَصْعُدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الْوَيْسَ عَلَى الْآيَاتِ لَا يُؤْمِنُونَ» (١٢٥).

يقول تعالى: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ» أي: يسره له وينشطه ويسهله لذلك، فهذه علامة على الخير، كما قال تعالى: «أَفَنَنْشُرَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَّبِّهِ قَوْلٌ لِّلَّذِينَ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَتْكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» (الزمر: ٢٢)، وقال تعالى: «وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّذِيذُونَ» (الحجرات: ٧). قال ابن عباس: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ» يقول: يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به وكذا قال أبو مالك، وغير واحد. وهو ظاهر. وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن عمرو بن قيس، عن عمرو بن مرة، عن أبي جعفر قال: سئل النبي ﷺ: أي المؤمنين أكيس؟ قال: «أكثرهم ذكراً للموت، وأكثرهم لما بعده استعداداً». قال: وسئل النبي ﷺ عن هذه الآية: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ» وقالوا: كيف يشرح صدره يا رسول الله؟ قال: «نور يُقَدِّفُ فِيهِ، فيشرح له وينفسح». قالوا: فهل لذلك من أمانة يُعرف بها؟ قال: «الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت».

وقال ابن جرير: حدثنا هناد، حدثنا قبيصة، عن سفيان - يعني الثوري - عن عمرو بن مرة، عن رجل يكنى أبا جعفر كان يسكن المدائن، قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ»، فذكر نحو ما تقدم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن إدريس، عن الحسن بن الفرات القزاز، عن عمرو بن مرة، عن أبي جعفر قال: قال رسول الله ﷺ: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ»، قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل الإيمان القلب انفسح له القلب وانشرح». قالوا: يا رسول الله، هل لذلك من أمانة؟ قال: «نعم، الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الموت». وقد رواه ابن جرير عن سوار بن عبد الله العنبري، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبي

يحدث عن عبد الله بن مرة، عن أبي جعفر فذكره. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن عمرو بن قيس، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن اليسر قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ قالوا: يا رسول الله، ما هذا الشرح؟ قال: «نور يقذف به في القلب». قالوا: يا رسول الله، فهل لذلك من أمارة؟ قال: «نعم». قالوا: وما هي؟ قال: «الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الموت».

وقال ابن جرير أيضاً: حدثني هلال بن العلاء، حدثنا سعيد بن عبد الملك بن واقد، حدثنا محمد بن سلمة، عن أبي عبد الرحيم، عن زيد بن أبي أنيسة، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح». قالوا: فهل لذلك من علامة يعرف بها؟ قال: «الإجابة إلى دار الخلود، والتنجي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقي الموت». وقد رواه ابن جرير من وجه آخر، عن ابن مسعود متصلاً مرفوعاً فقال: حدثني ابن سنان القزاز، حدثنا محبوب بن الحسن الهاشمي، عن يونس، عن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عتبة، عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «﴿فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾». قالوا: يا رسول الله، وكيف يُشْرَحْ صدره؟ قال: «يدخل الجنة فينفسح». قالوا: وهل لذلك علامة يا رسول الله؟ قال: «التجافي عن دار الغرور، والإجابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل أن ينزل الموت». فهذه طرق لهذا الحديث مرسله ومتصلة، يشد بعضها بعضاً، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ﴾ قرأه بفتح الضاد وتسكين الياء، والأكثرون: «ضَيِّقًا» بتشديد الياء وكسرهما، وهما لغتان: كَهَيْنَ وَهَيْنَ. وقرأ بعضهم: «حَرَجًا» بفتح الحاء وكسر الراء، قيل: بمعنى آثم. وقال السدي. وقيل: بمعنى القراءة الأخرى «حَرَجًا» بفتح الحاء والراء، وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى، ولا يخلص إليه شيء ما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه. وقد سأل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، رجلاً من الأعراب من أهل البادية من مدلج: ما الحرجة؟ قال: هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية، ولا وحشية، ولا شيء. فقال عمر، رضي الله عنه: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير. وقال العوفي عن ابن عباس: يجعل الله عليه الإسلام ضيقاً، والإسلام واسع. وذلك حين يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ١٧٨]، يقول: ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق. وقال مجاهد والسدي: «ضَيِّقًا حَرَجًا» شاكاً. وقال عطاء الخراساني: «ضَيِّقًا حَرَجًا»: ليس للخير فيه منفذ. وقال ابن المبارك، عن ابن جُرَيْج «ضَيِّقًا حَرَجًا»: بلا إله إلا الله، حتى لا تستطيع أن تدخله، كأنما يصعد في السماء من شدة ذلك عليه. وقال سعيد بن جبير: يجعل صدره «ضَيِّقًا حَرَجًا» قال: لا يجد فيه مسلكاً إلا ضعداً.

وقال السدي: «كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ» من ضيق صدره. وقال عطاء الخراساني: «كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ» يقول: مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد في السماء. وقال الحكم بن أبان عن عكرمة، عن ابن عباس: «كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ» يقول: فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه، حتى يدخله الله قلبه. وقال الأوزاعي: «كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ»، كيف يستطيع من جعل الله صدره ضيقاً أن يكون مسلماً. وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة تضييقه إياه عن وصول الإيمان إليه. يقول: فمثلته في امتناعه من قبول الإيمان وضيقة عن وصوله إليه، مثل امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه عنه؛ لأنه ليس في وسعه وطاقته.

وقال في قوله: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقاً حرجاً، كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله، فيغويه ويصده عن سبيل الله. قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: الرجس: الشيطان. وقال مجاهد: الرجس: كل ما لا خير فيه. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرجس: العذاب.

﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ ﴿٢٢٦﴾ ﴿لَمْ دَارُ السَّكَنِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٢٧﴾

لما ذكر تعالى طريقة الضالين عن سبيله، الصادين عنها، نبه على أشرف ما أُرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، فقال: ﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ منصوب على الحال، أي: هذا الدين الذي شرعناه لك يا محمد بما أوحينا إليك هذا القرآن، وهو صراط الله المستقيم، كما تقدم في حديث الحارث، عن علي رضي الله عنه في نعت القرآن: «هو صراط الله المستقيم، وحبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم». رواه أحمد والترمذي بطوله. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: قد وضحناها وبينناها وفسرناها؛

﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: لمن له فهم ووعي يعقل عن الله ورسوله.

﴿لَهُمْ دَارُ الْآخِرَةِ﴾ وهي: الجنة، ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: يوم القيامة. وإنما وصف الله الجنة ههنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم، المقففي أثر الأنبياء وطرائقهم، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أنفصروا إلى دار السلام. ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ أي: واليهم. وهو الله - وليهم، أي: حافظهم وناصرهم ومؤيدهم، ﴿يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: جزاء على أعمالهم الصالحة تولاهم وأثابهم الجنة، بمنه وكرمه.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشُرَ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَنْتَعْ بَعْضًا يَعْصِ وَيَلْفَنَّا الْجَنَّةَ الْكُلَّ لَنَا قَالِ أَلَمْ تَتَوَكَّلْ خَلْقِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

يقول تعالى: واذكر يا محمد فيما تقصه عليهم وتذكرهم به ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعني: الجن وأولياءهم ﴿مِنَ الْإِنسِ﴾ الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ويعودون بهم ويطيعونهم، ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً. ﴿يَمَعَشُرَ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنسِ﴾ أي: ثم يقول: يا معشر الجن. وسياق الكلام يدل على المحذوف. ومعنى قوله: ﴿قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنسِ﴾ أي: من إضلالهم وإغوائهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْهِدْ لَكُمْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ آيَةً أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [١٦٠-١٦١]. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَمَعَشُرَ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنسِ﴾ يعني: أضللتهم منهم كثيراً. وكذلك قال مجاهد، والحسن، وقتادة. ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَنْتَعْ بَعْضًا يَعْصِ﴾ يعني: أن أولياء الجن من الإنس قالوا مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الأشهب هُوْدَةُ بن خليفة، حدثنا عَوْفٌ، عن الحسن في هذه الآية قال: استكثر ربكم أهل النار يوم القيامة، فقال أولياؤهم من الإنس: ربنا استمتع بعضنا ببعض. قال الحسن: وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت، وعملت الإنس. وقال محمد بن كعب في قوله: ﴿رَبَّنَا اسْتَنْتَعْ بَعْضًا يَعْصِ﴾ قال: الصحابة في الدنيا. وقال ابن جُرَيْج: كان الرجل في الجاهلية ينزل الأرض، فيقول: «أعوذ بكبير هذا الوادي». فذلك استمتاعهم، فاعتذروا يوم القيامة. وأما استمتاع الجن بالإنس فإنه كان - فيما ذكر - ما ينال الجن من الإنس من تعظيمهم إياهم في استعاذتهم بهم، فيقولون: قد سدا الإنسان والجن. ﴿وَيَلْفَنَّا الْجَنَّةَ الْكُلَّ لَنَا﴾ قال السدي، أي الموت.

قال: ﴿أَلَمْ تَتَوَكَّلْ﴾ أي: ما واكم ومنزلكم أنتم وأولياؤكم. ﴿خَلْقِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين مكثاً مخلداً إلا ما شاء الله. قال بعضهم: يرجع معنى هذا الاستثناء إلى البرزخ. وقال بعضهم: هذا رد إلى مدة الدنيا. وقيل غير ذلك من الأقوال التي سيأتي تقريرها إن شاء الله عند قوله تعالى في سورة هود: ﴿خَلْقِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [١٠٧]. وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية من طريق عبد الله بن صالح - كاتب الليث -: حدثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: ﴿أَلَمْ تَتَوَكَّلْ خَلْقِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ قال: إن هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، لا ينزلهم جنة ولا ناراً. ﴿وَكَذَلِكَ نُوْثِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

قال سعيد، عن قتادة في تفسيرها: وإنما يولي الله الناس بأعمالهم، فالمؤمن ولي المؤمن أين كان وحيث كان، والكافر ولي الكافر أينما كان وحيثما كان، ليس الإيمان بالتعني ولا بالتحلي. واختاره ابن جرير. وقال مَعْمَرٌ، عن قتادة في تفسيرها: ﴿نُوْثِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ في النار، يتبع بعضهم بعضاً. وقال مالك بن دينار: قرأت في الزبور: إني أنقم من المنافقين بالنافقين، ثم أنقم من المنافقين جميعاً، وذلك في كتاب الله قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوْثِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُوْثِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ قال: ظالمي الجن وظالمي الإنس، وقرأ: ﴿وَمَنْ يَشَأْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَّهُمْ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُمْ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، قال: ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس. وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الباقي بن أحمد، من طريق سعيد بن عبد الجبار الكراييسي، عن حماد بن سلمة، عن عاصم، عن زُرٍّ، عن ابن مسعود مرفوعاً: «من أعان ظالماً سلطه الله عليه». وهذا حديث غريب، وقال بعض الشعراء:

وَمَا مِنْ يَدٍ إِلَّا يَدُ اللَّهِ فَوْقَهَا وَلَا ظَالِمٍ إِلَّا سَيُّبِلَى بِظَالِمٍ
ومعنى الآية الكريمة: كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن، كذلك نفعل بالظالمين، نسلط بعضهم على بعض، ونهلك بعضهم ببعض، ونتقم من بعضهم ببعض، جزاء على ظلمهم وبغيهم.

﴿يَتَمَتَّعُ الْيَتَّى وَالْإِنْسُ أَنْ يَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ يَنْصُرُونَ عَلَيْكُمْ ءَاتِي وَنُذِرُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ لِقَاءَ الْيَتَّى وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

وهذا أيضاً مما يُقرع الله به سبحانه وتعالى كافر الجن والإنس يوم القيامة، حيث يسألهم - وهو أعلم -: هل بلغتكم الرسل رسالاتها؟ وهذا استفهام تقرير: ﴿يَتَمَتَّعُ الْيَتَّى وَالْإِنْسُ أَنْ يَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ يَنْصُرُونَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: من جملتكم. والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسل، كما قد نص على ذلك مجاهد، وابن جرير، وغير واحد من الأئمة، من السلف والخلف. وقال ابن عباس: الرسل من بني آدم، ومن الجن نُذِر. وحكى ابن جرير، عن الضحاك بن مزاحم: أنه زعم أن في الجن رسلاً، واحتج بهذه الآية الكريمة وفي الاستدلال بها على ذلك نظر؛ لأنها محتملة وليست بصريحة، وهي - والله أعلم - كقوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ يَبْتِغِيَانِ بَرْجًا لَا يُبْقِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾، إلى أن قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا الْفُلُوكُ وَالْمَرْجَاتُ ﴿٢١﴾﴾ [الرحمن: ١٩-٢٢]، ومعلوم أن اللؤلؤ والمرجان إنما يستخرج من الملح لا من الحلو. وهذا واضح، والله الحمد. وقد نص على هذا الجواب بعينه ابن جرير. والدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنعام: ١١٣-١١٤]، وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْكَتَبَ﴾ [النسب: ٢٧]، فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته، ولم يقل أحد من الناس: إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل عليه السلام، ثم انقطعت عنهم ببعثته. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْآسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، ومعلوم أن الجن تبع للإنس في هذا الباب؛ ولهذا قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْيَتَّى يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصُرُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ قَالُوا يَقُولُونَ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى الْحَقِّ وَلَكِ طَبَقٌ مُنْتَقِمٌ ﴿٢٢﴾ يَقُولُونَ لِمَ آتَيْنَا بِكَ اللَّهُ وَمَا نَرَا بِكَ بِتَقْوَى لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَتُجْرَمُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَنْ لَا يُجِيبِ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَزْوَاجٌ أُولَئِكَ فِي سَلَاطِنٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [الاحقاف: ٢٩-٣٢].

وقد جاء في الحديث - الذي رواه الترمذي وغيره - أن رسول الله ﷺ تلا عليهم سورة الرحمن فيها قوله تعالى: ﴿سَنُرِيكُمْ آيَةَ الْقُلُوبِ﴾ [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءْنَاكُمْ بِآيَةٍ قَوْلٍ وَإِنَّا لَنَاصِرُونَ عَلَيْكُمْ ءَاتِي وَنُذِرُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ أي: أقررنا أن الرسل قد بَلَغُونَا رسالاتك، وأنذرونا لقاءك، وأن هذا اليوم كائن لا محالة. قال تعالى: ﴿وَعَرَّبْنَاهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي وقد فرطوا في حياتهم الدنيا، وهلكوا بتكذيبهم الرسل، ومخافتهم للمعجزات، لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها، ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ أي: في الدنيا، بما جاءتهم به الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. ﴿وَلَا يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكٌ أَلْفَرَى يَطْلُرُ وَأَلْهَمَهَا غُفُلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ وَلَكِنِّي دَرَجْتُ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِمُنْغِي عَمَّا يَسْمُكُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَا يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكٌ أَلْفَرَى يَطْلُرُ وَأَلْهَمَهَا غُفُلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: إنما أعدنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب، لئلا يعاقب أحد بظلمه، وهو لم يبلغه دعوة، ولكن أعدنا إلى الأمم، وما عذبنا أحداً إلا بعد إرسال الرسل إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعْذِرِينَ حَتَّى بَعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُنْزِلَ فِيهَا نَوْحٌ سَأَلْتُمُ خَزَنَتَهَا أَلَا يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ ﴿٩﴾ [الملك: ٨، ٩] والآيات في هذا كثيرة. وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: ويحتمل قوله تعالى: ﴿يَطْلُرُ﴾ وجهين:

أحدهما: ذلك من أجل أن ربك مهلك القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه، وهم غافلون، يقول: لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم من ينههم على حجج الله عليهم، وينذرهم عذاب الله يوم معادهم، ولم يكن بالذي يؤاخذهم غفلة فيقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩].

والوجه الثاني: أن ﴿وَلَا يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكٌ أَلْفَرَى يَطْلُرُ﴾ يقول: لم يكن ربك ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعبر، فيظلمهم بذلك، والله غير ظلام لعبيده. ثم شرع يرجع الوجه الأول، ولا شك أنه أقوى، والله أعلم.

وقال: وقوله: ﴿وَلَا يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكٌ أَلْفَرَى يَطْلُرُ﴾ أي: ولكل عامل في طاعة الله أو معصيته منازل ومراتب من عمله يبلغه الله إياها، ويشي به، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. قلت: ويحتمل أن يعود قوله: ﴿وَلَا يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكٌ أَلْفَرَى يَطْلُرُ﴾ أي: من كافر

الجن والإنس، أي: ولكل درجة في النار بحسبه، كقوله تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ذَنْبٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الاعراف: ٣٨]، وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَذَّابُنَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٨٨]. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قال ابن جرير: أي وكل ذلك من عملهم، يا محمد، بعلم من ربك، يحصيها ويثبتها لهم عنده، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومعادهم إليه.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَدْلِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [إِن مَّا تُوعِدُونَ لِآلِهِ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ] ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ لِيْ عَمَلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿الْغَنِيُّ﴾ أي: عن جميع خلقه من جميع الوجوه، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أي: وهو مع ذلك رحيم بهم رؤوف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالْكَافِرِينَ لَزُؤُفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]. ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي: إذا خالفتم أمره ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَدْلِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ أي: قوما آخرين، أي: يعملون بطاعته، ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ أي: هو قادر على ذلك، سهل عليه، يسير لديه، كما أذهب القرون الأول وأتى بالذي بعدها، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ] ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥ - ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَلَئِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]. وقال محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة قال: سمعت أبا بن عثمان يقول في هذه الآية: ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾: الذرية: الأصل، والذرية: النسل.

وقوله تعالى: ﴿إِن مَّا تُوعِدُونَ لِآلِهِ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: أخبرهم يا محمد أن الذي يوعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة، ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: لا تعجزون الله، بل هو قادر على إعادتكم، وإن صرتم تراباً رفاتاً وعظاماً هو قادر لا يعجزه شيء. وقال ابن أبي حاتم في تفسيرها: حدثني أبي، حدثنا محمد بن المصنف، حدثنا محمد بن حمير، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «يا بني آدم، إن كنتم تعملون فعدوا أنفسكم من الموتى. والذي نفسي بيده إنما توعدن لآل وما أنتم بمعجزين».

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ لِيْ عَمَلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد شديد، ووعد أكيد، أي: استمروا على طريقكم وناحياتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى، فانا مستمر على طريقي ومنهجي، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ لِيَأْتِ بِكُمْ عَمَلٌ وَإِنِّي مُنْظِرٌ﴾ [هود: ١٢١، ١٢٢]. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿عَلَى مَكَاتِبِكُمْ﴾ أي: ناحياتكم. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: أنكون لي أولكم. وقد أنجز مواعده له، صلوات الله عليه، فإنه تعالى مكن له في البلاد، وحكمه في نواصي مخالفته من العباد، وفتح له مكة، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناواه، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب، وكذلك اليمن والبحرين، وكل ذلك في حياته. ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته في أيام خلفائه، رضي الله عنهم أجمعين، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلِيَّ إِنَّا أَنَا وَرَسُولُنَا﴾ [المجادلة: ٢٠]، وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنُؤَيِّدُ بِنُفُسِهِمُ الْأَشْهَادَ﴾ [يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ] ﴿[فاطر: ٥١، ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى إخباراً عن رسوله: ﴿قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ] ﴿[إبراهيم: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [التور: ٥٥]، وقد فعل الله تعالى ذلك بهذه الأمة، وله الحمد والمنة أولاً وآخرها، باطناً وظاهراً.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَاصِبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرْغِمِهِمْ وَهَذَا لِنُفُسِنَا كَمَا كَانَتْ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ فَهُوَ بِعَمَلِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ شُرَكَاهُ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً، وجعلوا لله جزءاً من خلقه، وهو خالق كل شيء سبحانه وتعالى عما يشركون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي: مما خلق وبرأ ﴿مِنَ الْحَرْثِ﴾ أي: من الزروع والشمار

قال لي أبو وائل: تدري ما في قوله ﴿وَأَنذَرْتُ حَرَمَ تُلُوهَا وَأَمَرَ لَا يَذْكُرُونَ أَسَرَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾؟ قلت: لا. قال: هي البحيرة، كانوا لا يحجون عليها. وقال مجاهد: كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا في شيء من شأنها، لا إن ركبوا، ولا إن حلبوا، ولا إن حملوا، ولا إن سحبوا، ولا إن عملوا شيئاً. ﴿أَفَرَأَيْتُمْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: على الله، وكذب منهم في إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه؛ فإنه لم يأذن لهم في ذلك ولا رضىه منهم ﴿سَجَرِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْكُرُونَ﴾ أي: عليه، ويُسندون إليه. ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْثَرِ خَالِصَةٌ إِلَيْنَا وَلَهُنَّ مَنَاجِرُ عَالِ الْغُيُوتِ﴾ أي: أرواحنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سَجَرِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلَيْهِ ﴿١٣٩﴾.

قال أبو إسحاق السبيعي، عن عبد الله بن أبي الهذيل، عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْثَرِ خَالِصَةٌ إِلَيْنَا وَلَهُنَّ مَنَاجِرُ عَالِ الْغُيُوتِ﴾ الآية، قال: اللبن. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْثَرِ خَالِصَةٌ إِلَيْنَا وَلَهُنَّ مَنَاجِرُ عَالِ الْغُيُوتِ﴾ الآية: فهو اللبن، كانوا يحرمونه على إناثهم، ويشربه ذكراهم. وكانت الشاة إذا ولدت ولدًا ذكراً ذبحوه، وكان للرجال دون النساء. وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء. فنهى الله عن ذلك. وكذا قال السدي. وقال الشعبي: «البحيرة» لا يأكل من لبنها إلا الرجال، وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء، وكذا قال عكرمة، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْثَرِ خَالِصَةٌ إِلَيْنَا وَلَهُنَّ مَنَاجِرُ عَالِ الْغُيُوتِ﴾ قال: هي السائبة والبحيرة. وقال أبو العالية، ومجاهد، وقتادة في قوله: ﴿سَجَرِيهِمْ وَصَفَهُمْ﴾ أي: قولهم الكذب في ذلك، يعني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّقَوْلِهِمْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ إِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلَحُونَ﴾ ﴿١٤٠﴾ مَنَعَ الآية [النحل: ١١٦، ١١٧]. إنه ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمال عباده من خير وشر، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ﴿١٤١﴾.

يقول تعالى: قد خسر الذين فعلوا هذه الأفعال في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم في أموالهم، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وأما في الآخرة فيصيرون إلى شر المنازل يكذبهم على الله وافتراءهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلَحُونَ﴾ ﴿١٤٠﴾ مَنَعَ فِي الَّذِينَ كَانُوا يَتَّبِعُونَ تِلْكَ آيَاتِهِمُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٤١﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]. وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن أيوب، حدثنا عبد الرحمن بن المبارك، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: إذا سَرَك أن تعلم جهل العرب فاقرا ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام، ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ﴿١٤١﴾. وهكذا رواه البخاري منفرداً في كتاب «مناب قريش» من صحيحه، عن أبي النعمان محمد بن الفضل عارم، عن أبي عوانة - واسمه الوضاح بن عبد الله الشكري - عن أبي بشر - واسمه جعفر بن أبي وخشيته بن إياس، به.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالْزَّيْتُونَ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثَرُهُمُ الْأَنْثَرِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كَلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآثَرُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُشْرَفُوا لَكُمْ فِي حُبِّ السَّرِيرِ﴾ ﴿١٤٢﴾ وَرَبُّ الْأَنْثَرِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كَلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٣﴾.

يقول تعالى بياناً لأنه الخالق لكل شيء، من الزروع والثمار والأنعام التي تصرف فيها المشركون بأرائهم الفاسدة وقسموها وجزّوها، فجعلوا منها حراماً وحلالاً، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾: مسموكات. وفي رواية: «المعروشات»: معروشات ما عرش الناس، ﴿وَعَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾: ما خرج في البر والجبال من الثمرات. وقال عطاء الخرساني، عن ابن عباس: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾: ما عرش من الكرم ﴿وَعَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾: ما لم يعرش من الكرم. وكذا قال السدي. وقال ابن جزي: ﴿مُتَشَكِّبًا وَغَيْرَ مُتَشَكِّبٍ﴾ قال: متشابه في المنظر، وغير متشابه في الطعم. وقال محمد بن كعب: ﴿كَلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ قال: من رطبه وعنبه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا آثَرُ حَقِّهِ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قال ابن جرير: قال بعضهم: هي الزكاة المفروضة. حدثنا عمرو، حدثنا عبد الصمد، حدثنا يزيد بن درهم قال: سمعت أنس بن مالك يقول: ﴿وَمَا آثَرُ حَقِّهِ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قال: الزكاة المفروضة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا آثَرُ حَقِّهِ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ يعني: الزكاة المفروضة، يوم يكال ويعلم كيله. وكذا

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ﴾: فأما الحمولة فالإبل والخيول والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه، وأما الفرش فالغنم. واختاره ابن جرير، قال: وأحسبه إنما سمي فرشاً لدنوه من الأرض. وقال الربيع بن أنس، والحسن، والضحاك، وقتادة: الحمولة: الإبل والبقر، والفرش: الغنم. وقال السدي: أما الحمولة فالإبل، وأما الفرش فالفُضْلان والعجاجيل والغنم، وما حمل عليه فهو حمولة. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الحمولة ما تركبون، والفرش ما تأكلون وتحلبون، شاة لا تحمل، تأكلون لحمها وتتخذون من صوفها لحافاً وفرشاً. وهذا الذي قاله عبد الرحمن في تفسير هذه الآية الكريمة حسن يشهد له قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عِلَاقَ أَيْدِيهِمْ أَنْعَمًا لَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ يس: ٧١، وقال تعالى: ﴿وَلَا لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعْنَةٌ شَفِيفُكُمْ بَيْنَ يَدَيْهِمْ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمٍ لَبَأٌ خَالِصًا سَابِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٧٣﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّجِيلِ وَالْأَعْنَبِ﴾، إلى أن قال: ﴿وَمِنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَوْبَارِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ أَنشَأْنَا وَمَتَّعْنَا بِهَا حَيَاتٍ﴾ [النحل: ٦٦ - ٨٠]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِرَكُوبٍ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٤﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ ﴿٧٥﴾ وَتُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ [غافر: ٧٩ - ٨١].

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ﴾ أي: من الثمار والزروع والأنعام، فكلها خلقها الله تعالى وجعلها رزقاً لكم، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: طرائقه وأوامره، كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم الله، أي: من الثمار والزروع افتراء على الله، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ﴾ أي: إن الشيطان - أيها الناس - لكم ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي: بين ظاهر العداوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالى: ﴿يَتَّبِعُ آدَمَ لَا يَفْقَهُنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا﴾ الآية [الأعراف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ لِلْغَالِبِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]. والآيات في هذا كثيرة في القرآن.

﴿ثُمَّ بَيَّنَّ أَرْوَاحَ النَّفْسَانِ اثْنَتَيْنِ وَمِنَ الْفَرَسَانِ اثْنَتَيْنِ قُلْ لِلَّذِينَ حَرَّمَ أَرِ الْأَنْثَيْنِ أَمَّا اسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ يَتَّبِعُونَ بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٦﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَتَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَتَيْنِ قُلْ لِلَّذِينَ حَرَّمَ أَرِ الْأُنثَيْنِ أَمَّا اسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْنَاهُ اللَّهُ بِهَذَا قَدْ أَظْلَمَ وَمَنْ أَفَرَّى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا يُضِلُّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

وهذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا حرموا من الأنعام، وجعلوها أجزاء وأنواعاً: بحيرة، وسائبة، ووصيلة وحاماً، وغير ذلك من الأنواع التي ابتدعوها في الأنعام والزروع والثمار، فبين أنه تعالى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، وأنه أنشأ من الأنعام حمولة وفرشاً. ثم بين أصناف الأنعام إلى غنم وهو بياض وهو الضأن، وسواد وهو المعز، ذكره وأنثاه، وإلى إبل ذكورها وإنثاءها، وبقر كذلك. وأنه تعالى لم يحرم شيئاً من ذلك ولا شيئاً من أولاده، بل كلها مخلوقة لبني آدم، أكلاً، وركوباً، وحمولة، وحلباً، وغير ذلك من وجوه المنافع، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَنَيْنَةَ أَرْوَاحَ﴾ الآية [الزمر: ٦]. وقوله: ﴿أَمَّا اسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ﴾ رد عليهم في قولهم: ﴿مَا فِي بَطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّلْكَوْنِ وَتَحَرَّمَ عَلَيْهَا أَرْوَاحُهَا﴾. وقوله: ﴿يَتَّبِعُونَ بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: أخبروني عن يقين: كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك؟

وقال العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿ثَمْنَيْنَةَ أَرْوَاحَ النَّفْسَانِ اثْنَتَيْنِ وَمِنَ الْفَرَسَانِ اثْنَتَيْنِ﴾: فهذه أربعة أزواج، ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَتَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَتَيْنِ قُلْ لِلَّذِينَ حَرَّمَ أَرِ الْأُنثَيْنِ﴾ يقول: لم أحرّم شيئاً من ذلك ﴿أَمَّا اسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ﴾ يعني: هل يشمل الرحم إلا على ذكر أو أنثى فلم تحرموا بعضاً وتحلبون بعضاً؟ ﴿يَتَّبِعُونَ بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يقول: كله حلال.

وقوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْنَاهُ اللَّهُ بِهَذَا﴾: تهكم بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله، من تحريم ما حرموه من ذلك، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفَرَّى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا يُضِلُّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: لا أحد أظلم منه، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. وأول من دخل في هذه الآية: عمرو بن لُحَي بن قَمْعَةَ، فإنه أول من غير دين الأنبياء، وأول من سبب السوائب، ووصل الوصيلة، وحمل الحامي، كما ثبت ذلك في الصحيح.

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَازِرٍ فَإِنَّهُ يَجُسَّ أَوْ يَفْسَأُ أَهْلُ لُغِيٍّ اللَّهِ بِهِ مِمَّنْ أَشْطَرُّ عَذَرٍ بَاطِلٌ وَلَا عَادَ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

يقول تعالى أمراً عبده ورسوله محمداً، صلوات الله وسلامه عليه: قل لهؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله: ﴿لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ أي: أكل يأكله. قيل: معناه: لا أجد شيئاً مما حرمتم حراماً سوى هذه. وقيل:

معناه: لا أجد من الحيوانات شيئاً حراماً سوى هذه. فعلى هذا يكون ما ورد من التحريمات بعد هذا في سورة «المائدة»، وفي الأحاديث الواردة، رافعاً لمفهوم هذه الآية. ومن الناس من يسمي ذلك نسخاً، والأكثرون من المتأخرين لا يسمونه نسخاً؛ لأنه من باب رفع مباح الأصل، والله أعلم. قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ يعني: المهرق. قال عكرمة في قوله: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾: لولا هذه الآية لنتبع الناس ما في الغرور، كما تتبعه اليهود. وقال حماد، عن عمران بن حدير قال: سألت أبا مجلز عن الدم، وما يتلخ من الذبح من الرأس، وعن القدر يرى فيها الحمرة، فقال: إنما نهى الله عن الدم المسفوح. وقال قتادة: حرم من الدماء ما كان مسفوحاً، فأما لحم خالطه دم فلا بأس به.

وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا حجاج بن ميثال، حدثنا حماد، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم، عن عائشة: أنها كانت لا ترى بلحوم السباع بأساً، والحمرة والدم يكونان على القدر بأساً، وقرأت هذه الآية. صحيح غريب. وقال الحميدي: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار قال: قلت لجابر بن عبد الله: إنهم يزعمون أن رسول الله ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر، فقال: قد كان يقول ذلك «الحكم بن عمرو» عن رسول الله ﷺ، ولكن أبي ذلك البحر - يعني ابن عباس - وقرأ: ﴿قُلْ لَا آيِدِي فِي مَا أَوْحَى إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ الآية. وهكذا رواه البخاري عن علي بن المديني، عن سفيان، به. وأخرجه أبو داود من حديث ابن جُرَيْج، عن عمرو بن دينار. ورواه الحاكم في مستدركه مع أنه في صحيح البخاري، كما رأيت. وقال أبو بكر بن مَرْزُوقٍ والحاكم في مستدركه: حدثنا محمد بن علي بن دُحَيْم، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا أبو نعيم الفضل بن دُكَيْن، حدثنا محمد بن شريك، عن عمرو بن دينار، عن أبي الشعثاء، عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقدرأ، فبعت الله نبيه وأنزل كتابه، وأحل حلاله وحرم حرامه، فما أحل فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، وتلا هذه الآية: ﴿قُلْ لَا آيِدِي فِي مَا أَوْحَى إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ إلى آخر الآية. وهذا لفظ ابن مَرْزُوقٍ. ورواه أبو داود منفرداً به، عن محمد بن داود بن صَبِيح، عن أبي نعيم، به. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عَوَانَةَ، عن نَيْمَاقِ بْنِ حَرْبٍ، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ماتت شاة لسُودَةَ بنت زَمْعَةَ، فقالت: يا رسول الله، ماتت فلانة - تعني الشاة - قال: «فلم لا أخذتم مسكها؟». قالت: نأخذ مسك شاة قد ماتت؟! فقال لها رسول الله ﷺ: «إنما قال الله: ﴿قُلْ لَا آيِدِي فِي مَا أَوْحَى إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ أَوْ لَحْمَ خَيْزِرٍ»، وإنكم لا تطعمونه، أن تدبغوه فتتغفوا به». فأرسلت فسلخت مسكها فدبغته، فاتخذت منه قربة، حتى تحرقت عندها. ورواه البخاري والنسائي، من حديث الشعبي، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن سودة بنت زمعة، بذلك أو نحوه. وقال سعيد بن منصور: حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن عيسى بن ثُمَيْلَةَ الْفَزَارِيِّ، عن أبيه قال: كنت عند ابن عمر، فسأله رجل عن أكل القنفذ، فقرأ عليه: ﴿قُلْ لَا آيِدِي فِي مَا أَوْحَى إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ أَوْ لَحْمَ خَيْزِرٍ الآية، فقال شيخ عنده: سمعت أبا هريرة يقول: ذكر عند النبي ﷺ فقال: «خبيثة من الخبائث». فقال ابن عمر: إن كان النبي ﷺ قاله فهو كما قال. ورواه أبو داود، عن أبي ثور، عن سعيد بن منصور، به.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضَلُّ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ﴾ أي: فمن أضل إلى أكل شيء مما حُرِّمَ في هذه الآية الكريمة، وهو غير متلبس ببغى ولا عدوان، ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: غفور له، رحيم به. وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية. والمقصود من سياق هذه الآية الكريمة الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه، من تحريم المحرمات على أنفسهم بأرائهم الفاسدة من البجيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك، فأمر الله رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرم، وإنما حُرِّمَ ما ذكر في هذه الآية، من الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به. وما عدا ذلك فلم يحرم، وإنما هو عفو مسكوت عنه، فكيف تزعمون أنتم أنه حرام، ومن أين حرمتوه ولم يحرمه الله؟ وعلى هذا فلا يبقى تحريم أشياء آخر فيما بعد هذا، كما جاء النهي عن لحوم الحمر ولحوم السباع، وكل ذي مخلب من الطير، على المشهور من مذاهب العلماء.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُلْفٍ وَرَبِ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا تَنَتَّلَطَ بِظُلْفٍ ذَلِكَ جَزَاءُهمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾.

قال ابن جرير: يقول تعالى: وحرمنا على اليهود ﴿كُلَّ ذِي ظُلْفٍ﴾، وهو من البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع، كالإبل والنعام والإوز والبط. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُلْفٍ﴾: وهو

البعير والنعامة. وكذا قال مجاهد، والسدي في رواية. وقال سعيد بن جبير: هو الذي ليس بمنفرج الأصابع، وفي رواية عنه: كل شيء متفرق الأصابع، ومنه الديك. وقال قتادة في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلُّ ذِي نَظَرٍ﴾. وكان يقال: البعير والنعامة وأشياء من الطير والحيثان. وفي رواية: البعير والنعامة، وحرم عليهم من الطير: البط وشبهه، وكل شيء ليس بمشقوق الأصابع. وقال ابن جُرَيْج: عن مجاهد: ﴿كُلُّ ذِي نَظَرٍ﴾ قال: النعامة والبعير، شقاً شقاً. قلت للقساسم ابن أبي بزة وحديثه: ما «شقاً شقاً»؟ قال: كل ما لا يفرج من قول البهائم. قال: وما انفرج أكلته اليهود قال: انفرجت قوائم البهائم والعصافير، قال: فيهود تأكلها. قال: ولم تنفرج قائمة البعير، خفه، ولا خف النعامة ولا قائمة الوز، فلا تأكل اليهود الإبل ولا النعام ولا الوز، ولا كل شيء لم تنفرج قائمته، ولا تأكل حمار وخش.

وقوله: ﴿وَبِالنَّعَامِ وَالْخَيْلِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا﴾ قال السدي: يعني: الثَّزْب وشحم الكليتين. وكانت اليهود تقول: إنه حرمه إسرائيل فنحن نحرمه. وكذا قال ابن زيد. وقال قتادة: الثَّزْب وكل شحم كان كذلك ليس في عظم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا مَا حَكَّكَ ظُهُورُهُمَا﴾: يعني: ما علق بالظهر من الشحوم. وقال السدي وأبو صالح: الآية، مما حملت ظهورهما. وقوله: ﴿أَوْ الْحَوَائِجَ﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير: ﴿الْحَوَائِجَ﴾: جمع، واحداها حاوية، وحاوية وحاوية وهو ما تحوى من البطن فاجتمع واستدار، وهي بنات اللبن، وهي «المباعر»، وتسمى «المرابض»، وفيها الأمعاء. قال: ومعنى الكلام: ومن البقر والغنم حرمننا عليهم شحومهما، إلا ما حملت ظهورهما، أو ما حملت الحوايا. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿أَوْ الْحَوَائِجَ﴾: وهي المبعير. وقال مجاهد: ﴿الْحَوَائِجَ﴾: المبعير، والمربض. وكذا قال سعيد بن جبير، والضحاك، وقاتدة، وأبو مالك، والسدي. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿الْحَوَائِجَ﴾: المرابض التي تكون فيها الأمعاء، تكون وسطها، وهي بنات اللبن، وهي في كلام العرب تدعى المرابض. وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا اتَّخَذَ يُنَظِرُ﴾ أي: وإلا ما اختلط من الشحوم بالمعظم فقد أحللتها لهم. وقال ابن جُرَيْج: شحم الآية اختلط بالمضغص، فهو حلال. وكل شيء في القوائم والجنب والرأس والعين وما اختلط بعظم، فهو حلال، ونحوه قال السدي. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ يُقِيمُونَ﴾ أي: هذا التضييق إنما فعلناه بهم وأزمناهم به، مجازاة لهم على بغيتهم ومخالفتهم أوامرنا، كما قال تعالى: ﴿يُنَظِّرُ يَنْ أَلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدْرِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَبِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

وقوله: ﴿وَأَنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أي: وإنا لعادلون فيما جازيناهم به. وقال ابن جرير: وإنا لصادقون فيما أخبرناك به يا محمد من تحريمنا ذلك عليهم، لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذي حرمه على نفسه، والله أعلم. وقال عبد الله بن عباس: بلغ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أن سُمرة باع خمراً، فقال: قاتل الله سُمرة! ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها». أخرجه من حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن طاوس، عن ابن عباس، عن عمر، به. وقال الليث: حدثني يزيد بن أبي حبيب قال: قال عطاء بن أبي رباح: سمعت جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح: «إن الله ورسوله حَرَّمَ بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام». فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنه يدهن بها الجلود ويطلى بها السفن، ويستصيح بها الناس. فقال: «لا، هو حرام». ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «قاتل الله اليهود، إن الله لما حرم عليهم شحومها جَمَلَوْهُ، ثم باعوه وأكلوا ثمنه». رواه الجماعة من طرق، عن يزيد بن أبي حبيب، به. وقال الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قاتل الله اليهود! حرمت عليهم الشحوم، فباعوها وأكلوا ثمنه». ورواه البخاري ومسلم جميعاً، عن عیدان، عن ابن المبارك، عن يونس، عن الزهري، به. وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم، حدثنا إسماعيل بن إسحاق، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا هُثَيْب، حدثنا خالد الحذاء، عن بركة أبي الوليد، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان قاعداً خلف المقام، فرفع بصره إلى السماء فقال: «لعن الله اليهود - ثلاثاً - إن الله حرم عليهم الشحوم، فباعوها وأكلوا ثمنها، إن الله لم يحرم على قوم أكل شيء إلا حرم عليهم ثمنه».

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، أنبأنا خالد الحذاء، عن بركة أبي الوليد، أنبأنا ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ قاعداً في المسجد مستقبلاً الجُحْر، فنظر إلى السماء فضحك، ثم قال: «لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها، وإن الله إذا حرم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه». ورواه أبو داود، من حديث خالد الحذاء. وقال الأعمش، عن جامع بن شَدَّاد، عن كلثوم، عن أسامة بن زيد قال: دخلنا على رسول الله ﷺ وهو مريض نعوذ، فوجدناه نائماً قد غطى وجهه ببرد عَدَنِي، فكشف عن وجهه وقال: «لعن الله اليهود يحرمون شحوم الغنم ويأكلون ثمنها»، وفي رواية:

«حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها».

﴿فَإِنْ كَذَبَكُمْ ذُوْ رَحْمَةٍ وَسِعَ وَلَا يُرْدُ بِأَسْمِ عَنِ الْقَوْرِ الْمُتْرَبِ﴾ (١٤٧).

يقول تعالى: فإن كذبك - يا محمد - مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم، فقل: ﴿ذُوْ رَحْمَةٍ وَسِعَ﴾ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة، واتباع رسوله، ﴿وَلَا يُرْدُ بِأَسْمِ عَنِ الْقَوْرِ الْمُتْرَبِ﴾ ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين. وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَشَدِيدُ الرَّعْبِ﴾ (الآية: ١٦٥)، وقال: ﴿وَلَنْ رَبَّكَ لَذُوْ مَقْفَرٍ لِّتَأْتِيَ عَلَى ظَهِيرَةٍ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الرعد: ٦)، وقال تعالى: ﴿يَنْعَ عِبَادِيْ إِلَيَّ أَنَا الْمَقْفُوْرُ الرَّحِيْمُ﴾ (١٤٩) وَأَنْ عَذَابِيْ هُوَ الْمَذَابُ الْآلِيْمُ (١٥٠) (الحجر: ٤٩، ٥٠)، وقال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيْدُ الْعِقَابِ﴾ (غافر: ٣)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيْدٌ﴾ (١٧٠) إِنَّهُ هُوَ بَدِيْعُ وَبِيْعُ (١٧١) وَهُوَ الْقَوْرُ الْوَدُوْدُ (١٧٢) (البروج: ١٢ - ١٤)، والآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿سَيَقُوْلُ الَّذِينَ أَتَرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْرَكْنَا وَلَا مَبَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَاوُوا بِأَسْمَاءٍ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوْهُ لَوْلَا أَنْتُمْ لَآ ظَنُّوا وَلَا أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُوْنَ﴾ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَكُمْ أَجْمِيْنَ (١٤٩) قُلْ هَلَمْ شَهِدْكُمْ الْوَيْلَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَاقِبَتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَدْبُلُوْنَ﴾ (١٥٠).

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا؛ فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان، أو يحول بيننا وبين الكفر، فلم يغيره، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا مَبَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ (الزخرف: ٢٠)، وكذلك الآية التي في «النحل» مثل هذه سواء، قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء. وهي حجة داحضة باطلة؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه، ودمر عليهم، وأدال عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام. ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بأن الله تعالى راض عنكم فيما أنتم فيه ﴿فَتُخْرِجُوْهُ لَوْلَا﴾ أي: فتظهِروه لنا وتبينوه وتبرزوه، ﴿إِنْ تَتَّبِعُوا إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: الوهم والخيال. والمراد بالظن ههنا: الاعتقاد الفاسد. ﴿وَلَا أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي: تكذبون على الله فيما ادعيتموه. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْرَكْنَا﴾ وقال: ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْرَكُوا﴾ (الأنعام: ١٠٧)، فإنهم قالوا: عبادتنا الآلهة تقربنا إلى الله زُلْفَى، فأخبرهم الله أنها لا تقربهم، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْرَكُوا﴾، يقول تعالى: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَكُمْ أَجْمِيْنَ﴾ (١٤٩)، يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم - يا محمد - ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ أي: له الحكمة التامة، والحجة البالغة في هداية من هدى، وإضلال من أضل، ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَكُمْ أَجْمِيْنَ﴾، وكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويُبغض الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْتُهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ (الأنعام: ١٣٥)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآ مَنَّ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيْعًا﴾ (يونس: ٩٩)، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَمَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُوا مُخْتَلِفِيْنَ﴾ (١٧٠) إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَئِذَاكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمِيْنَ (١٧١) [مرد: ١١٨، ١١٩]. قال الضحاك: لا حجة لأحد عصى الله، ولكن الله الحجة البالغة على عباده.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلَمْ شَهِدْكُمْ﴾ أي: أحضروا شهداءكم ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ أي: هذا الذي حرمتموه وكذبتم وافترستم على الله فيه، ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ أي: لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذباً وزوراً، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَاقِبَتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَدْبُلُوْنَ﴾ أي: يشركون به، ويجعلون له عديلاً.

﴿قُلْ تَسَالَوْا أَنَّى مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تُفَكِّرُوْنَ بِهِ سَبِيْعًا وَيَا أُولَئِيْنَ إِحْسَنَ وَلَا تَقُوْلُوا أُولَئِكَ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْفُقُكُمْ وَإِنَّا هُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَكُمُ مَقُوْلُوْنَ﴾ (١٥١).

قال داود الأودي، عن الشعبي، عن علقمة، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: من أراد أن يقرأ صحيفة رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿قُلْ تَسَالَوْا أَنَّى مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تُفَكِّرُوْنَ بِهِ سَبِيْعًا﴾ إلى قوله: ﴿لَكُمُ مَقُوْلُوْنَ﴾. وقال الحاكم في مستدركه: حدثنا بكر بن محمد الصيرفي بمر، حدثنا عبد الصمد بن الفضل، حدثنا مالك بن

إسماعيل التهدي، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن خليفة قال: سمعت ابن عباس يقول: في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب، ثم قرأ: ﴿قُلْ تَكَاوَلُوا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ بِهِ سَيِّئًا﴾. ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. قلت: ورواه زهير وقيس بن الربيع كلاهما عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن قيس، عن ابن عباس، به. والله أعلم.

وروى الحاكم أيضاً في مستدركه من حديث يزيد بن هارون، عن سفيان بن حسين، عن الزهري، عن أبي إدريس، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم يباعدني على ثلاث؟» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَكَاوَلُوا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾، حتى فرغ من الآيات - فمن وفى فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئاً فادركه الله به في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخر إلى الآخرة فأمره إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه. ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وإنما اتفقا على حديث الزهري، عن أبي إدريس، عن عبادة: «بابعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً» الحديث. قد روى سفيان بن حسين كلا الحديثين، فلا ينبغي أن ينسب إلى الوهم في أحد الحديثين إذا جمع بينهما، والله أعلم.

وأما تفسيرها فيقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: قل يا محمد - لهؤلاء المشركين الذين أشركوا وعبدوا غير الله، وحرّموا ما رزقهم الله، وقتلوا أولادهم وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم، ﴿قُلْ لَهُمْ: ﴿تَكَاوَلُوا﴾ أي: هلموا وأقبلوا: ﴿أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ أي: أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقاً لا تخرساً، ولا ظناً، بل حياً منه وأمرأ من عنده: ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾، وكان في الكلام محذوفاً دل عليه السياق، وتقديره: وأوصاكم ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾، وللهذا قال في آخر الآية: ﴿ذَلِكَ وَمَنْكُمْ يُوَلِّكُمْ لِقَاؤُهُمْ﴾، وكما قال الشاعر:

حَجَّ وَأَوْصَى بِسُلَيْمِ الْأَعْبُدَا أَنْ لَا تَزَى وَلَا تُكَلِّمَ أَحَدَا
وَلَا يَزَلْ شُرَائِبُهَا مُبَرِّدَا

وتقول العرب: أمرتك ألا تقوم. وفي الصحيحين من حديث أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل فبشرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتك، دخل الجنة. قلت: وإن زنا وإن سرق؟ قال: وإن زنا وإن سرق. قلت: وإن زنا وإن سرق؟ قال: وإن زنا وإن سرق. قلت: وإن زنا وإن سرق؟ قال: وإن زنا وإن سرق، وإن شرب الخمر». وفي بعض الروايات أن القائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله ﷺ، وأنه، عليه السلام، قال في الثالثة: «وإن رغم أنف أبي ذر». فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث: وإن رغم أنف أبي ذر. وفي بعض المسانيد والسنن عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني فإني أغفر لك على ما كان منك ولا أبالي، ولو أتيتني بقراب الأرض خطيئة أتيتك بقرابها مغفرة ما لم تشرك بي شيئاً، وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك عَنَانَ السماء ثم استغفرتني، غفرت لك». ولهذا شاهد في القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]. وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود: «من مات لا يشرك بالله شيئاً، دخل الجنة». والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً. وروى ابن مَرْذُوقٍ من حديث عبادة وأبي الدرداء: «لا تشركوا بالله شيئاً، وإن قطعتم أو ضلّتم أو حرّقتم». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عَوْفٍ الجُمُصِي، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا نافع بن يزيد حدثني سيار بن عبد الرحمن، عن يزيد بن قُوْدَر، عن سلمة بن شُرَيْح، عن عبادة بن الصامت قال: أوصانا رسول الله ﷺ بسبع خصال: «ألا تشركوا بالله شيئاً، وإن حرّقتم وقطعتم وصلّيتم».

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِتَّخَذُوا آلَهُمُ الْبُتُونَ﴾ أي: وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحساناً، أي: أن تحسنوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَعَىٰ رَبُّكَ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾. [الإسراء: ٢٣]. وقرأ بعضهم: ﴿ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً». والله تعالى كثيراً ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين، كما قال: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا إِلَهُكَ لَإِن كَانَ جَهَنَّمَ كَعَلَىٰ أَنْ تُشْرَكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤، ١٥]. فأمر بالإحسان إليهما، وإن كانا مشركين بحسبهما، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية [البقرة: ٨٣]. والآيات في هذا كثيرة. وفي الصحيحين عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». قال ابن مسعود: حدثني بهن رسول الله ﷺ، ولو استزدرته لزداني. وروى الحافظ أبو بكر بن مَرْذُوقٍ

بسنده عن أبي الدرداء، وعن عبادة بن الصامت، كل منهما يقول: أوصاني خليلي ﷺ: «أطع والديك، وإن أمراك أن تخرج لهما من الدنيا، فافعل». ولكن في إسناديهما ضعف، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ إِنَّ إِبْنَكُمْ لَأَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾: لما أوصى تعالى ببر الآباء والأجداد، عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ إِنَّ إِبْنَكُمْ لَأَرْزُقُكُمْ﴾، وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سئلت لهم الشياطين ذلك، فكانوا يبدون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خيفة الافتقار؛ ولهذا جاء في الصحيحين، من حديث عبد الله ابن مسعود، رضي الله عنه، قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل الله نذراً وهو خلقك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك». ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ ﴿١٤٨﴾ ﴿الفرقان: ٦٨﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْنَكُمْ لَأَرْزُقُكُمْ﴾ قال ابن عباس، وقتادة، والسدي: هو الفقر، أي: ولا تقتلوه من فقرهم من فقركم الحاصل، وقال في سورة «سبحان»: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِبْنِكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١] أي: خشية حصول فقر، في الآجل؛ ولهذا قال هناك: ﴿وَعَنْ زُرْعَتِهِمْ وَإِيَّاهُمْ﴾، فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي: لا تخافوا من فقركم بسببهم، فرزقهم على الله. وأما في هذه الآية فلما كان الفقر حاصلًا، قال: ﴿وَعَنْ زُرْعَتِهِمْ وَإِيَّاهُمْ﴾؛ لأنه الأهم لهما، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْأَتْمَ وَالْبَتَىٰ يَمْزِيهِ اللَّهُ مَا لَمْ يَمْزِلْ بِهِ سَلْطَنًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. وقد تقدم تفسيرها في قوله: ﴿وَدَرَّوْا ظَهَرَ الْآثَرِ وَيَاظِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وفي الصحيحين، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حُرِّمَ الفواحش ما ظهر منها وما بطن». وقال عبد الملك بن عُمَيْر، عن وَرَّاد، عن مولاة المغيرة قال: قال سعد بن عبادة: لو رأيت مع امرأتي رجلاً لضربته بالسيف غير مُضَفَّح. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أتعجبون من غيرة سعد! فوالله أنا أغير من سعد، والله أغير مني، من أجل ذلك حُرِّمَ الفواحش ما ظهر منها وما بطن». أخرجه. وقال كامل أبو العلاء، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، إنا نغار، قال: «والله إني لأغار، والله أغير مني، ومن غيرته نهى عن الفواحش». رواه ابن مَرْدُويه، ولم يخرج به أحد من أصحاب الكتب الستة، وهو على شرط الترمذي، فقد روي بهذا السند: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، وهذا مما نص تبارك وتعالى على النهي عنه تأكيداً، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فقد جاء في الصحيحين، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة». وفي لفظ لمسلم: «والذي لا إله غيره لا يحل دم رجل مسلم...». وذكره، قال الأعمش: فحدثت به إبراهيم، فحدثني عن الأسود، عن عائشة رضي الله عنها، بمثله. وروى أبو داود، والنسائي، عن عائشة، رضي الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث خصال: زان مُحْصَن يُزْجَم، ورجل قتل رجلاً مُتَمَتِّداً فيقتل، ورجل يخرج من الإسلام حارب الله ورسوله، فيقتل أو يصلب أو ينفى من الأرض». وهذا لفظ النسائي. وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، أنه قال وهو محصور: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه، أو زنا بعد إحصانه، أو قتل نفساً بغير نفس»، فوالله ما زينت في جاهلية ولا إسلام، ولا تمنيت أن لي بدينني بدلاً منه بعد إذ هداني الله، ولا قتلت نفساً، فبم تقتلونني؟ رواه الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وقد جاء النهي والزجر والوعيد في قتل المعاهد - وهو المستامن من أهل الحرب - كما رواه البخاري، عن عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً». وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من قتل معاهداً له ذمة الله وذمة رسوله، فقد أخفر بذمة الله، فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً». رواه ابن ماجه، والترمذي وقال: حسن صحيح. وقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَمَنْكُمْ يَدْعُوا تَلَكُّوا مَوْلَانَكُمْ﴾ أي: هذا ما وصاكم به لعلكم تعقلون عنه أمره ونهيه.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكُفُّ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ قَاعِدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَيَهْدِ اللَّهُ أَوْفُؤًا ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

قال عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما أنزل الله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ و ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتِيمِ ظُلْمًا﴾ الآية (النساء: ١٠)، فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء فيحس له حتى يأكله ويفسد. فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَيَسْتَوِيكَ عَنِ الْيَتِيمِ قُلْ إِصْلَاحٌ لِّمَنْ حَرِّدَ وَإِنْ خَالَطُوهُمْ فَلَوْعَنَّاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، قال: فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم. رواه أبو داود. وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قال الشعبي، ومالك، وغير واحد من السلف: يعني: حتى يحتلم. وقال السدي: حتى يبلغ ثلاثين سنة، وقيل: أربعون سنة، وقيل: ستون سنة. قال: وهذا كله بعيد لهنأ، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾: يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء، كما توعده على تركه في قوله تعالى: ﴿وَبِلِّ الْمِيزَانِ﴾ [الأنعام: ١٠١] الآية إذا أكلوا على الناس يستوفون [١] وإذا كالوهم أو وزوهم يحسرون [٢] أَلَا يَطْلُقُ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْتُؤُونَ [٣] يَوْمَ عَظِيمٍ [٤] يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْغَالِيَةِ [٥] [المطففين: ١-٦]. وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال والميزان. وفي كتاب الجامع لأبي عيسى الترمذي، من حديث الحسين بن قيس أبي علي الرُّحَبي، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لأصحاب الكيل والميزان: «إنكم ولَّيْتُمْ أَمْرًا هَلَكْتَ فِيهِ الْأُمَمُ السَّالِفَةُ قَبْلَكُمْ». ثم قال: لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسين، وهو ضعيف في الحديث، وقد روي بإسناد صحيح عن ابن عباس موقوفاً. قلت: وقد رواه ابن مَرْذُويه في تفسيره، من حديث شريك، عن الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم مَغشَرُ الْمَوَالِي قَدْ بَشُرَكُمْ اللَّهُ بِخَصْلَتَيْنِ بَهَا هَلَكْتَ الْقُرُونُ الْمُتَقَدِّمَةُ: الْمِكْيَالُ وَالْمِيزَانُ».

وقوله تعالى: ﴿لَا تَكُفُّ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: من اجتهد في أداء الحق وأخذه، فإن أخطأ بعد است فراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه. وقد روى ابن مَرْذُويه من حديث بَقِيَّة، عن مَبْشَر بن عبيد، عن عمرو بن ميمون بن مهران، عن أبيه، عن سعيد بن المسيب قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكُفُّ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فقال: «من أوفى على يده في الكيل والميزان، والله يعلم صحة نيته بالوفاء فيها، لم يؤاخذ». وذلك تأويل ﴿وُسْعَهَا﴾. هذا مرسل غريب.

وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ قَاعِدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [المائدة: ٨]، وكذا التي تشبهها في سورة النساء الآية [١٣٥]، يأمر تعالى بالعدل في الفعال والمقال، على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد، في كل وقت، وفي كل حال. وقوله: ﴿وَيَهْدِ اللَّهُ أَوْفُؤًا﴾ قال ابن جرير: يقول بَوْصِيَّةُ اللَّهِ التي أوصاكم بها فأوفوا. وإفاء ذلك: أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله، وذلك هو الوفاء بعهد الله. ﴿ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى: هذا وصاكم به، وأمركم به، وأكد عليكم فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه قبل هذا، وقرأ بعضهم بتشديد «الذال»، وآخرون بتخفيفها.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿فَاتَّبِعُواهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، وقوله: ﴿أَتَّبِعُوا الَّذِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا سَبِيلَهُ﴾ [الشورى: ١٣]، ونحو هذا في القرآن، قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله ونحو هذا. قاله مجاهد، وغير واحد. وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا الأسود بن عامر: شاذان، حدثنا أبو بكر - هو ابن عياش - عن عاصم - هو ابن أبي النجود - عن أبي وائل، عن عبد الله - هو ابن مسعود، رضي الله عنه - قال: خَطَّ رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: «هذا سَبِيلُ اللَّهِ مُسْتَقِيمٌ»، وخط على يمينه وشماله، ثم قال: «هذه السُّبُلُ ليس منها سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ». ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾. وكذا رواه الحاكم، عن الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار، عن أبي بكر بن عياش، به. وقال: صحيح الإسناد، ولم يخبرناه. وهكذا رواه أبو جعفر الرازي، وورقاء وعمرو بن أبي قيس، عن عاصم، عن أبي وائل شقيق بن سلمة، عن ابن مسعود به مرفوعاً نحوه. وكذا رواه يزيد بن هارون ومُسَدَّد والنسائي، عن يحيى بن حبيب بن عربي - وابن جَبَّان، من حديث ابن وَهَب - أربعتهم عن حماد بن زيد، عن عاصم، عن أبي وائل، عن ابن مسعود، به. وكذا رواه ابن جرير، عن العثنى، عن الجماني، عن حماد بن زيد، به. ورواه الحاكم عن أبي بكر بن إسحاق، عن إسماعيل بن

إسحاق القاضي، عن سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، به كذلك. وقال: صحيح ولم يخرجاه. وقد روى هذا الحديث النسائي والحاكم، من حديث أحمد بن عبد الله بن يونس، عن أبي بكر بن عياش، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله بن مسعود. به مرفوعاً. وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مَزْدُوْيه من حديث يحيى الحماني، عن أبي بكر بن عياش، عن عاصم، عن زر، به. فقد صححه الحاكم كما رأيت من الطريقين، ولعل هذا الحديث عن عاصم بن أبي النجود، عن زر، وعن أبي وائل شقيق بن سلمة كلاهما عن ابن مسعود، به، والله أعلم.

قال الحاكم: وشاهد هذا الحديث حديث الشعبي، عن جابر، من وجه غير معتمد. يشير إلى الحديث الذي قال الإمام أحمد، وعبد بن حميد جميعاً. واللفظ لأحمد: حدثنا عبد الله بن محمد. وهو أبو بكر بن أبي شيبة - أنبأنا أبو خالد الأحمر، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ، فخط خطاً هكذا أمامه، فقال: «هذا سبيل الله»، وخطين عن يمينه، وخطين عن شماله، وقال: «هذه سبيل الشيطان». ثم وضع يده في الخط الأوسط، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٦﴾﴾. ورواه ابن ماجه في كتاب السنة من سننه، والبخاري عن أبي سعيد بن عبد الله بن سعيد، عن أبي خالد الأحمر، به. قلت: ورواه الحافظ ابن مَزْدُوْيه من طريقتين، عن أبي سعيد الكندي، حدثنا أبو خالد، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر قال: خط رسول الله ﷺ خطاً، وخط عن يمينه خطاً، وخط عن يساره خطاً، ووضع يده على الخط الأوسط، وتلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾. ولكن العمدة على حديث ابن مسعود، مع ما فيه من الاختلاف إن كان مؤثراً، وقد روي موقوفاً عليه.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن مَعْمَر، عن أَبَانَ؛ أن رجلاً قال لابن مسعود: ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا محمد ﷺ في أذناه، وطره في الجنة، وعن يمينه جَوَادٌ، وعن يساره جَوَادٌ، وثم رجال يدعون من مر بهم. فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهت به إلى الجنة. ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الآية. وقال ابن مَزْدُوْيه: حدثنا أبو عمرو، حدثنا محمد بن عبد الوهاب، حدثنا آدم، حدثنا إسماعيل بن عِيَّاش، حدثنا أَبَانَ بن عياش، عن مسلم بن أبي عمران، عن عبد الله بن عمر: سأل عبد الله عن الصراط المستقيم، فقال له ابن مسعود: تركنا محمد ﷺ في أذناه، وطره في الجنة، وذكر تمام الحديث كما تقدم، والله أعلم. وقد روي من حديث النُّوَّاس بن سَمْعَانَ نحوه، قال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن سَوَّار أبو العلاء، حدثنا لَيْث - يعني ابن سعد - عن معاوية بن صالح؛ أن عبد الرحمن بن جبير بن نفير حدثه، عن أبيه، عن النُّوَّاس بن سَمْعَانَ، عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعن جَنْبَيْهِ الصُّرَاطُ سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً، ولا تتفرجوا، وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك. لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط الإسلام، والصوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم». ورواه الترمذي والنسائي، عن علي بن حُجْر - زاد النسائي - وعمرو بن عثمان، كلاهما عن يَقِيَّة بن الوليد، عن بَحِير بن سعد، عن خالد بن مَعْدَانَ، عن جُبَيْر بن نفير، عن النُّوَّاس بن سَمْعَانَ، به. وقال الترمذي: حسن غريب.

وقوله: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، إنما وحد سبحانه سبيله لأن الحق واحد؛ ولهذا جمع لتفرقها وتشعبها، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الظُّلُمَاتِ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سَيَّان الواسطي، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا سفيان بن حسين، عن الزهري، عن أبي إدريس الخولاني، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم يبايعني على هذه الآيات الثلاثة؟». ثم تلا: ﴿قُلْ تَكَاثُرُوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ﴾، حتى فرغ من ثلاث الآيات، ثم قال: «ومن وفى بهن أجره على الله، ومن انتقص منهن شيئاً أدركه الله في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه، وإن شاء عفا عنه».

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفَصَّلَا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

قال ابن جرير: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ تقديره: ثم قل - يا محمد - مخبراً عنا بأننا آتينا موسى الكتاب، بدلالة قوله: ﴿قُلْ

تَكَالُوا آتَلْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ. قلت: وفي هذا نظر، وثم ههنا إنما هي لعطف الخبر بعد الخبر، لا للترتيب ههنا، كما قال الشاعر:

قُلْ لِمَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ
وههنا لما أخبر الله تعالى عن القرآن بقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَأَتَيْنَاهُ﴾، عطف بمدح التوراة ورسولها، فقال: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾. وكثيراً ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابُ مُصَدِّقٍ لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحزاب: ٣٤]، وقوله في أول هذه السورة: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهَدًى لِبَنَائِمْ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُحْفَوْنَ كَثِيرًا﴾ [الآية: ٩١]، وبعدها: ﴿وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ﴾ [الآية: ٩٢]، وقال تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا فَأُولَئِكَ أَوْفَوْا بِمَا أُوتُوا﴾ [القصص: ٤٨]، وقال تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحزاب: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا عَلَى الْآيَةِ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾ أي: آتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه تماماً كاملاً جامعاً لجميع ما يحتاج إليه في شريعته، كما قال: ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَنْوَاعِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الآية: ١٤٥]، وقوله: ﴿عَلَى الْآيَةِ أَحْسَنَ﴾ أي: جزاء على إحسانه في العمل، وقيامه بأوامرنا وطاعتنا، كقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وكقوله: ﴿وَلَا يَنْفَعُ زَيْجَرَهُمْ يَكُونُونَ فَاتِنَةً قَالِ إِنِّي جَاعِلٌ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٧٤]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدِيكُمْ إِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ثَمَّ عَلَى الْآيَةِ أَحْسَنَ﴾ يقول: أحسن فيما أعطاه الله. وقال قتادة: من أحسن في الدنيا تم له ذلك في الآخرة. واختار ابن جرير أن تقدير الكلام: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ثَمَّ﴾ على إحسانه. فكانه جعل «الذي» مصدريه، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَرَحْنَتْ كَالَّذِي خَشَاؤُهُ﴾ [التوبة: ٦٩] أي: كخوضهم وقال ابن زواحة:

فُتِّبَتِ اللَّيْلُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ فِي الْمُرْسَلِينَ وَنَصَرَا كَالَّذِي نُصِرُوا
وقال آخرون: الذي ههنا بمعنى «الذين». قال ابن جرير: وقد ذكر عن عبد الله بن مسعود، أنه كان يقرؤها: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا عَلَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾. وقال ابن أبي نجيج، عن مجاهد: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا عَلَى الْآيَةِ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾ قال: على المؤمنين والمحسنين، وكذا قال أبو عبيدة. قال البغوي: والمحسنون: الأنبياء والمؤمنون، يعني: أظهرنا فضله عليهم. قلت: كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَمْشُونَ عَلَى الْأُصْطَيْثَاتِ عَلَى الْأَنْبَاسِ يُرْسِلَنَّهُمْ فِيكُمْ وَيَكَلِّمُهُمُ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ولا يلزم اصطفاؤه على محمد ﷺ خاتم الأنبياء والخليل، عليهما السلام لأدلة آخر. قال ابن جرير: وروى أبو عمرو بن العلاء عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرؤها: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا عَلَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾، رفعا، بتأويل: «على الذي هو أحسن»، ثم قال: وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها، وإن كان لها في العربية وجه صحيح. وقيل: معناه: تماماً على إحسان الله إليه زيادة على ما أحسن الله إليه، حكاه ابن جرير والبغوي. ولا منافاة بينه وبين القول الأول، وبه جمع ابن جرير كما بيناه، والله الحمد. وقوله: ﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدًى وَرَحْمَةً﴾: فيه مدح كتابه الذي أنزله الله عليه، ﴿لَقَدْ هَمَّ بِفُلَانٍ رَحْمَةً فَتَنَّا أَهْلَهُ مِنْ كَذَبٍ يَتَّبِعُونَ اللَّهُ وَصَدَقَ عَنْهُ سَجَرِي الْأَيْمَنِ يَصْدُقُونَ عَنْ آيَاتِنَا سَوْءَ الْعَذَابِ يَمَّا كَانُوا يَصْدُقُونَ﴾ [١٥٧].

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِكُمْ﴾ [١٥٦] أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدًى وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَّقَ عَنْهَا سَجَرِي الْأَيْمَنِ يَصْدُقُونَ عَنْ آيَاتِنَا سَوْءَ الْعَذَابِ يَمَّا كَانُوا يَصْدُقُونَ﴾ [١٥٧].
قال ابن جرير: معناه: وهذا كتاب أنزلناه لثلاث يقولوا: ﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾. يعني: لينقطع عذرهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعِ آيَاتِكَ وَتَكُونُ مِنَ الْفَاسِقِينَ﴾ [القصص: ٢٧]، وقوله: ﴿عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هم اليهود والنصارى وكذا قال مجاهد، والسدي، وفتادة، وغير واحد. وقوله: ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِكُمْ﴾ أي: وما كنا نفهم ما يقولون: لأنهم ليسوا بلساننا، ونحن مع ذلك في شغل وغفلة عما هم فيه.
وقوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ أي: وقطعنا تمللكم أن تقولوا: لو أنا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكننا

أهدى منهم فيما أوتوه، كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِنْدَى الْأُمِّيِّ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢]، وهكذا قال ههنا: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ رَبِّكُمْ هُدًى وَرَحْمَةً﴾ يقول: فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ النبي العربي قرآن عظيم، فيه بيان للحلال والحرام، وهدى لما في القلوب، ورحمة من الله بعباده الذين يتبعونه ويفتقون ما فيه. وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَقَ عَنْهَا﴾ أي: لم ينتفع بما جاء به الرسول، ولا اتبع ما أرسل به، ولا ترك غيره، بل صدف عن اتباع آيات الله، أي: صرّف الناس وصدّهم عن ذلك، قاله السدي. وعن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿وَصَدَقَ عَنْهَا﴾: أعرض عنها. وقول السدي ههنا فيه قوة؛ لأنه قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَقَ عَنْهَا﴾، كما تقدم في أول السورة ﴿وَهُمْ يَتُوبُونَ عَنْهُ وَيَتُوبُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الآية: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّقُوا بِمَا عَدَّوْهُمُ اللَّهُ يُدْخِلُهُمْ عَذَابًا قَرِيبًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿سَتَجِدُنَ الَّذِينَ يَصِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصِفُونَ﴾. وقد يكون المراد فيما قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَقَ عَنْهَا﴾ أي: لا آمن بها ولا عمل بها، كقوله تعالى: ﴿فَلَا مَنَعَكَ وَلَا مَكَلَ﴾ [٣٦] ولكن كَذَبَ وَكَوَّلَ ﴿٣٧﴾ [القيامة: ٣٦، ٣٧]، ونحو ذلك من الآيات الدالة على اشتغال الكافر على التكذيب بقلبه، وترك العمل بجوارحه، ولكن المعنى الأول أقوى وأظهر، والله تعالى أعلم.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْثٌ مِّنَ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْثٌ مِّنَ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِنْهَا تَرَىٰ تُكَفِّرُ عَنْكَ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِكَ خَيْرًا قُلْ أَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ [١٥٨].

يقول تعالى متوعداً للكافرين به، والمخالفين رسله والمكذبين بآياته، والصادقين عن سبيله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾، وذلك كائن يوم القيامة. ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْثٌ مِّنَ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْثٌ مِّنَ رَبِّكَ﴾ الآية، وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراطها كما قال البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبد الواحد، حدثنا عمارة، حدثنا أبو رزعة، حدثنا أبو هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها. فذلك حين «لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِنْهَا تَرَىٰ تُكَفِّرُ عَنْكَ مِنْ قَبْلُ»». حدثنا إسحاق، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مغمّر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها» ثم قرأ هذه الآية. هكذا روي هذا الحديث من هذين الوجهين. ومن الوجه الأول أخرجه بقية الجماعة في كتبهم إلا الترمذي، من طرق، عن عمارة بن القُعْقُع بن شُبْرَمَةَ، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة، به. وأما الطريق الثاني: فرواه عن إسحاق، غير منسوب، فقيل: هو ابن منصور الكوسج، وقيل: إسحاق بن نصر والله أعلم. وقد رواه مسلم عن محمد بن رافع النيسابوري، كلاهما عن عبد الرزاق، به. وقد ورد هذا الحديث من طرق أخر عن أبي هريرة، كما انفرد مسلم بروايته من حديث العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب مولى الخرقه، عن أبيه، عن أبي هريرة، به.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا ابن فضيل، عن أبيه، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إذا خرجن «لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِنْهَا تَرَىٰ تُكَفِّرُ عَنْكَ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِكَ خَيْرًا»: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض». ورواه أحمد، عن وكيع، عن فضيل بن غزوان، عن أبي حازم سلمان، عن أبي هريرة، به، وعنده: «والدخان». ورواه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، وزهير بن حرب، عن وكيع. ورواه هو أيضاً والترمذي، من غير وجه، عن فضيل بن غزوان، به. ورواه إسحاق بن عبد الله القُرَوي، عن مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة. ولكن لم يخرج أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه، لضعف القُرَوي، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا شعيب بن الليث، عن أبيه، عن جعفر بن ربيعة، عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت آمن الناس كلهم، وذلك حين «لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِنْهَا تَرَىٰ تُكَفِّرُ عَنْكَ مِنْ قَبْلُ» الآية». ورواه ابن لهيعة، عن الأعرج، عن أبي هريرة، به. ورواه وكيع، عن فضيل بن غزوان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، به. أخرج هذه الطرق كلها الحافظ أبو بكر بن مَرْزُويه في تفسيره. وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن يحيى، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا مغمّر، عن أيوب، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها، قبل منه». لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة.

حديث آخر عن أبي ذر الغفاري: في الصحيحين وغيرهما، من طرق، عن إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر جُذُب بن جُنَادَة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «تَذَرِي أَيْنَ تَذْهَبُ الشَّمْسُ إِذَا غَرِبَتْ؟». قلت: لا أدري، قال: «إِنَّهَا تَنْتَهِي دُونَ الْعَرْشِ، ثُمَّ تَخْرُجُ سَاجِدَةً، ثُمَّ تَقُومُ حَتَّى يُقَالَ لَهَا: ارْجِعِي فَيُوشِكُ يَا أَبَا ذَرٍّ أَنْ يُقَالَ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، وَذَلِكَ حِينَ: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتَابُهَا لَوَ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾».

حديث آخر عن حذيفة بن أسيد أبي سريحة الغفاري، رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا سفيان، عن قُرَات، عن أبي الطُّفَيْل، عن حذيفة بن أَسِيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة، ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالذُّخَانُ، وَالِدَابَّةُ، وَخُرُوجُ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ، وَخُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَالدِّجَالُ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ: خَسَفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسَفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسَفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنَ تَسُوقُ - أَوْ: تَحْشُرُ - النَّاسَ، تَبِيتَ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيلَ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا». وهكذا رواه مسلم وأهل السنن الأربعة، من حديث فرات القَزَّاز، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، عن حذيفة بن أسيد، به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

حديث آخر عن حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه:

قال الثوري، عن منصور، عن ربعي، عن حذيفة قال: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، ما آية طلوع الشمس من مغربها؟ فقال النبي ﷺ: «تَطُولُ تِلْكَ اللَّيْلَةُ حَتَّى تَكُونَ قَدْرَ لَيْلَتَيْنِ، فَبَيْنَمَا الَّذِينَ كَانُوا يَصْلُونَ فِيهَا، يَعْمَلُونَ كَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَبْلُهَا وَالنَّجْمُ لَا تَسْرِي، قَدْ قَامَتْ مَكَانَهَا، ثُمَّ يَرْقُدُونَ، ثُمَّ يَقُومُونَ فَيَصْلُونَ، ثُمَّ يَرْقُدُونَ، ثُمَّ يَقُومُونَ فَيَطْلُعُ عَلَيْهِمْ جَنُوبُهُمْ، حَتَّى يَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ، فَيَفْزَعُ النَّاسُ وَلَا يَصْبَحُونَ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَنْتَظِرُونَ طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَشْرِقِهَا إِذْ طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا، فِإِذَا رَأَاهَا النَّاسُ آمَنُوا، وَلَا يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ». رواه ابن مردويه، وليس في الكتب الستة من هذا الوجه، والله أعلم.

حديث آخر عن أبي سعيد الخدري - واسمه: سعد بن مالك بن سنان - رضي الله عنه وأرضاه:

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا ابن أبي ليلى، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ: «يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ أُمَّتِكَ رُبُّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتَابُهَا». قال: «طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا». ورواه الترمذي، عن سفيان بن وكيع، عن أبيه، به. وقال: غريب، ورواه بعضهم ولم يرفعه. وفي حديث طلوت بن عباد، عن فضال بن جبيرة، عن أبي أمامة صَدِّي بن عَجْلَان قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ آيَاتِ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا». وفي حديث عاصم بن أبي النجود، عن زَرٍّ بن حُبَيْش، عن صفوان بن عَسَّال قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ فَتَحَ بَابًا قَبْلَ الْمَغْرِبِ عَرْضُهُ سَبْعُونَ عَامًا لِلنُّبُوَّةِ»، قال: «لَا يَغْلُقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ». رواه الترمذي وصححه النسائي، وابن ماجه في حديث طويل.

حديث آخر عن عبد الله بن أبي أوفى:

قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن علي بن دَحِيم، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا ضرار بن صُرَد، حدثنا ابن فضيل، عن سليمان بن زَيْد، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ لَيْلَةٌ تَعْدِلُ ثَلَاثَ لَيَالٍ مِنْ لَيَالِيكُمْ هَذِهِ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ يَعْرِفُهَا الْمُتَنَفِّلُونَ، يَقُومُ أَحَدُهُمْ فَيَقْرَأُ حِزْبَهُ، ثُمَّ يَنَامُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيَقْرَأُ حِزْبَهُ، ثُمَّ يَنَامُ. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ صَاحَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ فَقَالُوا: مَا هَذَا؟ فَيَفْزَعُونَ إِلَى الْمَسَاجِدِ، فَإِذَا هُمْ بِالشَّمْسِ قَدْ طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَضَحَّ النَّاسُ ضُجَّةً وَاحِدَةً، حَتَّى إِذَا صَارَتْ فِي وَسْطِ السَّمَاءِ رَجَعَتْ وَطَلَعَتْ مِنْ مَطْلَعِهَا». قال: «حِينَئِذٍ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا». هذا حديث غريب من هذا الوجه، وليس هو في شيء من الكتب الستة.

حديث آخر عن عبد الله بن عمرو:

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا أبو حيان، عن أبي رُزَعة بن عمرو بن جرير قال: جلس ثلاثة نفر من المسلمين إلى مروان بالمدينة فسمعه يقول - وهو يحدث في الآيات -: «إِنْ أَوَّلُهَا خُرُوجُ الدِّجَالِ». قال: فانصرف نفر إلى عبد الله بن عمرو، فحدثه بالذي سمعه من مروان في الآيات، فقال: لم يقل مروان شيئاً، قد حفظت من رسول الله ﷺ في مثل ذلك حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ آيَاتِ خُرُوجِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَخُرُوجِ الدَابَّةِ ضُحًى، فَأَيُّهُمَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالْآخَرَى عَلَى أَثَرِهَا». ثم قال عبد الله - وكان يقرأ الكتب -: «وَأَوَّلُهَا خُرُوجُ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَذَلِكَ أَنَّهَا كَلِمَا غَرِبَتْ أَتَتْ تَحْتَ الْعَرْشِ فَسَجَدَتْ وَاسْتَأْذَنْتْ فِي الرَّجُوعِ فَأُذِنَ لَهَا فِي الرَّجُوعِ، حَتَّى إِذَا

بدا الله أن تطلع من مغربها فعلت كما كانت تفعل: أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع، فلم يرد عليها شيء، ثم تستأذن في الرجوع فلا يرد عليها شيء، ثم تستأذن فلا يرد عليها شيء، حتى إذا ذهب من الليل ما شاء الله أن يذهب، وعرفت أنه إذا أذن لها في الرجوع لم تدرك المشرق، قالت: ربي، ما أبعد المشرق. من لي بالناس. حتى إذا صار الأفق كأنه طوق استأذنت في الرجوع، فيقال لها: من مكانك فاطلعي. فطلعت على الناس من مغربها، ثم تلا عبد الله هذه الآية: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتِنَاهُ إِذْ تَبْتَغَىٰ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ الآية. وأخرجه مسلم في صحيحه، وأبو داود وابن ماجه، في سننهما، من حديث أبي حيان التيمي - واسمه يحيى بن سعيد بن حيان - عن أبي رَزْغَةَ بن عمرو بن جرير، به.

حديث آخر عنه:

قال الطبراني: حدثنا أحمد بن يحيى بن خالد بن حبان الرُّقِّي، حدثنا إسحاق بن إبراهيم - بن زبير بن الحمصي - حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار، حدثنا ابن لهيعة، عن حيي بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبَلِي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال النبي ﷺ: «إذا طلعت الشمس من مغربها خر إبليس ساجداً ينادي ويجهر: إلهي، مُزني أن أسجد لمن شئت». قال: «فيجتمع إليه زبانيته فيقولون: يا سيدهم، ما هذا التضرع؟ فيقول: إنما سألت ربي أن يُنظر إلى الوقت المعلوم، وهذا الوقت المعلوم». قال: «ثم تخرج دابة الأرض من صَدْع في الصفا». قال: «فأول خطوة تضعها بأنطاكية، فتأتي إبليس فتخطمه». هذا حديث غريب جداً وسنده ضعيف، ولعله من الزاملتين اللتين أصابهما عبد الله بن عمرو يوم اليرموك، فأما رفعه فمكرر، والله أعلم.

حديث آخر عن عبد الله بن عمرو، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهم أجمعين:

قال الإمام أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ضَمُصَم بن رَزْغَةَ، عن شُرَيْح بن عبيد يورده إلى مالك بن يُخَامِر، عن ابن السعدي؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل». فقال معاوية، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمرو بن العاص: إن النبي ﷺ قال: «إن الهجرة خصلتان: إحداهما تهجر السيئات، والأخرى تهاجر إلى الله ورسوله، ولا تنقطع ما قبلت التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه، وكفى الناس العمل». هذا الحديث حسن الإسناد، ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة، والله أعلم.

حديث آخر عن ابن مسعود، رضي الله عنه:

قال عوف الأعرابي، عن محمد بن سيرين، حدثني أبو عبيدة، عن ابن مسعود؛ أنه كان يقول: ما ذكر من الآيات فقد مضى غير أربع: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض، وخروج يأجوج ومأجوج. قال: وكان يقول: الآية التي تختتم بها الأعمال طلوع الشمس من مغربها، ألم تر أن الله يقول: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْثُ أَمَّتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتِنَاهُ﴾ الآية كلها، يعني طلوع الشمس من مغربها.

حديث ابن عباس، رضي الله عنهما:

رواه الحافظ أبو بكر بن مَزْدُوْه في تفسيره من حديث عبد المنعم بن إدريس، عن أبيه، عن وَهْب بن مُثَنَّب، عن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً - فذكر حديثاً طويلاً غريباً منكرأ رفعه، وفيه: «أن الشمس والقمر يطلمان يومئذ مقرونين، وإذا نَصَفَا السماء رجعا ثم عادا إلى ما كان عليهما». وهو حديث غريب جداً، بل منكر، بل موضوع، والله أعلم، إن ادعى أنه مرفوع، فأما وقفه على ابن عباس أو وهب بن منبه - وهو الأشبه - فغير مدفوع، والله أعلم. وقال سفيان، عن منصور، عن عامر، عن عائشة رضي الله عنها قالت: إذا خرج أول الآيات، طُرحت الأقلام، وحُبست الحفظة، وشهدت الأجساد على الأعمال. رواه ابن جرير.

فقوله ﷺ: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتِنَاهُ إِذْ تَبْتَغَىٰ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ أي: إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك، فإن كان مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم، وإن كان مخلطاً فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه توبته، كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة، وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ أي: ولا يقبل منها كَسْبُ عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك. وقوله: ﴿قُلْ أَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾: تهديد شديد للكافرين، ووعد أكيد لمن سَوَّف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك. وإنما كان الحكم هذا عند طلوع الشمس من مغربها، لا اقتراب وقت القيامة، وظهور أشرائها كما قال: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا الْكَفَاةَ أَنْ

تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَشْعُرُونَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْتُمُونَ إِيمَانَهُمْ لَكُمْ رَأَوْا بِأَسْمَاءَ سَلَتْ إِلَهُهَ الْكُفْرَ فِي عِبَادَتِهِ وَحَسْرَتُهُ لَكُمْ الْكُفْرُونَ ﴿١٦٠﴾

[غافر: ٨٤، ٨٥].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْتُمُونَ إِيمَانَهُمْ لَكُمْ رَأَوْا بِأَسْمَاءَ سَلَتْ إِلَهُهَ الْكُفْرَ فِي عِبَادَتِهِ وَحَسْرَتُهُ لَكُمْ الْكُفْرُونَ﴾.

قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْتُمُونَ إِيمَانَهُمْ لَكُمْ رَأَوْا بِأَسْمَاءَ﴾، وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل أن يبعث محمد ﷺ، فتنفروا. فلما بعث الله محمداً ﷺ أنزل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْتُمُونَ إِيمَانَهُمْ لَكُمْ رَأَوْا بِأَسْمَاءَ﴾ الآية. وقال ابن جرير: حدثني سعد بن عمرو السكوني، حدثنا يقيته بن الوليد: كتب إلي عباد بن كثير، حدثني ليث، عن طائوس، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في هذه الأمة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْتُمُونَ إِيمَانَهُمْ لَكُمْ رَأَوْا بِأَسْمَاءَ﴾ في حقهم»، وليسوا منك، هم أهل البدع، وأهل الشبهات، وأهل الضلالة، من هذه الأمة. لكن هذا الإسناد لا يصح، فإن عباد بن كثير متروك الحديث، ولم يخلق هذا الحديث، ولكنه وهم في رفعه. فإنه رواه سفيان الثوري، عن ليث - وهو ابن أبي سليم - عن طائوس، عن أبي هريرة، في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْتُمُونَ إِيمَانَهُمْ لَكُمْ رَأَوْا بِأَسْمَاءَ﴾ قال: نزلت في هذه الأمة. وقال أبو غالب، عن أبي أمامة، في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْتُمُونَ إِيمَانَهُمْ لَكُمْ رَأَوْا بِأَسْمَاءَ﴾ قال: هم الخوارج. وروي عنه مرفوعاً، ولا يصح. وقال شعبه، عن مجالد، عن الشعبي، عن شريح، عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لعائشة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْتُمُونَ إِيمَانَهُمْ لَكُمْ رَأَوْا بِأَسْمَاءَ﴾ قال: «هم أصحاب البدع». وهذا رواه ابن مَرْذُويه، وهو غريب أيضاً، ولا يصح رفعه. والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وَكَاثُرًا شَيْعًا﴾ أي: فرقا كأهل الملل والنحل - وهي الأهواء والضلالات - فالله قد برأ رسوله مما هم فيه. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ الآية [الشورى: ١٣]، وفي الحديث: «نحن معاشرة الأنبياء أولاد علأت، ديننا واحد». فهذا هو الصراط المستقيم، وهو ما جاءت به الرسل، من عبادة الله وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء، الرسل برآء منها، كما قال: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾. وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ بِهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]. ثم بين فضله يوم القيامة في حكمه وعدله فقال:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَاءَ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَجْزِي إِلَّا يَنْفَلَهَا وَهُمْ لَا يَحْكُمُونَ﴾.

وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل في الآية الأخرى، وهي قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَاءَ﴾ [النمل: ٨٩]، وقد وردت الأحاديث مطابقة لهذه الآية، كما قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا عفان، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا الجعد أبو عثمان، عن أبي رجاء العطاردي، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ، فيما يروي عن ربه، ﷻ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم، ﷻ، رحيم، من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرة إلى سبعمئة، إلى أضعاف كثيرة. ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له واحدة، أو يمحوها الله، ﷻ، ولا يهلك على الله إلا هالك». ورواه البخاري، ومسلم، والنسائي، من حديث الجعد بن أبي عثمان، به.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا معاوية، حدثنا الأعمش، عن المعمر بن سُوَيْد، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله، ﷻ، من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد. ومن عمل سيئة فجزاؤه مثلها أو أغفر. ومن عمل قُرَاب الأرض خطيئة ثم لقيني لا يشرك بي شيئاً جعلت له مثلها مغفرة. ومن اقترب إلي شيئاً اقتربت إليه ذراعاً، ومن اقترب إلي ذراعاً اقتربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هَرْوَلَةً». ورواه مسلم عن أبي كريب، عن أبي معاوية، به. وعن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع، عن الأعمش، به. ورواه ابن ماجه، عن علي بن محمد الطنافسي، عن وكيع، به. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا شَيْبَان، حدثنا حَمَاد، حدثنا ثابت، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرة. ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب عليه شيء، فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة». واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام: تارة يتركها الله ﷻ، فهذا تكتب له حسنة على كفه عنها الله تعالى، وهذا عمل وثية؛ ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة، كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح: «فإنما تركها من

جرائي»، أي: من أجلي. وتارة يتركها نسياناً وذُهوراً عنها، فهذا لا له ولا عليه؛ لأنه لم ينو خيراً ولا فعل شراً. وتارة يتركها عجزاً وكسلًا بعد السعي في أسبابها والتلبس بما يقرب منها، فهذا ينتزل منزلة فاعلها، كما جاء في الحديث، في الصحيحين: «إذا تَوَاجَهَ المسلمَانِ بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار». قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه».

قال الإمام أبو يعلى الموصلي: حدثنا مجاهد بن موسى، حدثنا علي - وحدثنا الحسن بن الصباح وأبو خَيْثَمَةَ - قالوا: حدثنا إسحاق بن سليمان، كلاهما عن موسى بن عبيدة، عن أبي بكر بن عبيد الله بن أنس، عن جده أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من هم بحسنة كتب الله له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا. ومن هم بسيئة لم تكتب عليه حتى يعملها، فإن عملها كتبت عليه سيئة، فإن تركها كتبت له حسنة. يقول الله تعالى: إنما تركها من مخافتني». هذا لفظ حديث مجاهد - يعني ابن موسى.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِيٍّ، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن، عن الرُّكَيْنِ بن الربيع، عن أبيه، عن عمه فلان بن غبيلة، عن خُزَيْمِ بن فاتك الأسدي؛ أن النبي ﷺ قال: «الناس أربعة، والأعمال ستة. فالناس مُؤَسَّعٌ له في الدنيا والآخرة، وموسع له في الدنيا مُقْتَوِرٌ عليه في الآخرة، ومقتور عليه في الدنيا موسع له في الآخرة، وشقي في الدنيا والآخرة. والأعمال مُوجِبَتَانِ، ومثل بمثل، وعشرة أضعاف، وسبعمائة ضعف؛ فالموجبتان من مات مُسْلِمًا مؤمنًا لا يشرك بالله شيئًا وَجِبَتْ له الجنة، ومن مات كافرًا وَجِبَتْ له النار. ومن هم بحسنة فلم يعملها، فعلم الله أنه قد أشعرها قلبه وَحَرَصَ عليها، كتبت له حسنة. ومن هم بسيئة لم تكتب عليه، ومن عملها كتبت واحدة ولم تضاعف عليه. ومن عمل حسنة كانت عليه بعشرة أمثالها. ومن أنفق نفقة في سبيل الله، ﷻ، كانت له بسبعمائة ضعف». ورواه الترمذي والنسائي، من حديث الرُّكَيْنِ بن الربيع، عن أبيه، عن بشير بن غبيلة، عن خُزَيْمِ بن فاتك، به بضعه. والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري، حدثنا يزيد بن زُرَيْعٍ، حدثنا حبيب المعلم، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «يحضر الجمعة ثلاثة نفر: رجل حضرها بلغوه فهو حَطُّه منها، ورجل حضرها بدعاء، فهو رجل دعا الله، فإن شاء أعطاه، وإن شاء منعه، ورجل حضرها بإنصات وسكوت ولم يَتَحَطَّ رَقَبَةً مسلم ولم يؤذ أحدًا، فهي كفارة له إلى الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام؛ وذلك لأن الله يقول: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَالَيْهَا﴾».

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا هاشم بن مَرْزُدٍ، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثني أبي، حدثني ضَمَضَمُ بن زرعة، عن شُرَيْحِ بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام؛ وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَالَيْهَا﴾». وعن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله». رواه الإمام أحمد - وهذا لفظه - والنسائي، وابن ماجه، والترمذي وزاد: «فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَالَيْهَا﴾ اليوم عشرة أيام»، ثم قال: هذا حديث حسن. وقال ابن مسعود: «﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَالَيْهَا﴾: من جاء بـ «لا إله إلا الله»، «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ» يقول: بالشرك. وهكذا ورد عن جماعة من السلف. وقد ورد فيه حديث مرفوع - الله أعلم بصحته، لكنني لم أراه من وجه يثبت - والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً، وفيما ذكر كفاية، إن شاء الله، وبه الثقة.

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

يقول الله تعالى أمرأه نبيه ﷺ سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم الله به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم، الذي لا أعوجاج فيه ولا انحراف: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أي: قائماً ثابتاً، ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كقوله: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ فَلَا يَسْعَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقوله: ﴿وَيَهْدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ هُودًا وَهُوَ أَجَبَتْكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٦١﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ آتِيَةً بِهَدَاهِ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦٢﴾ وَمَا تَنْتَهَى فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّلَاةُ ﴿١٦٣﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦٤﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٣]. وليس يلزم من كونه عليه السلام أميراً باتباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها؛ لأنه، عليه السلام، قام بها قياماً عظيماً، وأكمل له إكمالاً تاماً لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال؛ ولهذا كان خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرهب إليه الخلق حتى إبراهيم الخليل، عليه السلام.

وقد قال ابن مَرْزُوقٍ: حدثنا محمد بن عبد الله بن حَفْص، حدثنا أحمد بن عصام، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا شعبة، أنبأني سلمة بن كُهَيْل، سمعت ذر بن عبد الله الهَمْداني، يحدث عن ابن أَبْزَى، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «أصبحنا على ملة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين». وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا محمد بن إسحاق، عن داود بن الحُصَيْن، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: «الحنيفية السمحة». وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن هشام بن عُرْزُة، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: وضع رسول الله ﷺ ذقني على منكبه، لأنظر إلى رُفْن الحَبْشَة، حتى كنت التي مللت فانصرفت عنه. قال عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال لي عروة: إن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ يومئذ: «لتعلم يهود أن في ديننا فسحة»، إني أرسلت بِحَنِيفِيَّة سَمْحَة. أصل الحديث مُخَرَّج في الصحيحين، والزيادة لها شواهد من طرق عدة، وقد استقصيت طرقها في شرح البخاري، والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٢): يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه، أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ﴾ (٢). [الكوثر: ٢] أي: أخلص له صلاتك وذبيحتك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمر الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى.

قال مجاهد في قوله: ﴿إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ قال: النسك: الذبح في الحج والعمرة. وقال الثوري، عن الشَّيْبَانِي، عن سعيد بن جبيرة: ﴿وَنُسُكِي﴾ قال: ذبحي. وكذا قال السدي والضحاك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عَفْوَ، حدثنا أحمد بن خالد الوهبي، حدثنا محمد بن إسحاق، عن زيد بن أبي حبيب، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله قال: ضَحَّى رسول الله ﷺ في يوم عيد بِكَبْشَيْنِ وقال حين ذبحهما: «وَجِئْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وما أنا من المشركين، ﴿إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ بُرِّئْتُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا﴾ (١٦٢)».

وقوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال قتادة: أي من هذه الأمة. وهو كما قال، فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ (٢٥). [الأنبياء: ٢٥]، وقد أخبر تعالى عن نوح أنه قال لقومه: ﴿إِنِّي نُوْحٌ مِّنْ آلِ نُوْحٍ قَدْ جَاءَنِي الْوَحْيُ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنِّي أُنذِرُكُم مَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (١٠٩). [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢]، وقال يوسف، عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَتَعَلَّمَنِي مِنَ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلَوْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تُؤْتِنِي مَسَالِكًا وَعَلَفَتِي بِالْمُسْلِمِينَ﴾ (١٠١). [يوسف: ١٠١]، وقال موسى: ﴿يَعْلَمُ إِنَّكُمْ أَعْتَمَدْتُمُ عَلَى الْمَوْتِ وَلَكِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْكَلِمَاتِ﴾ (٨٤). [يونس: ٨٤ - ٨٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ فِيهَا هُدًى وَنُورًا يُخَيِّرُكُمْ بَيْنَ النَّبِيِّاتِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالزَّبَنَاتِ وَالْأَحْبَارِ بِمَا اسْتَحَقُّوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ (٤٤). وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (١١١). [المائدة: ١١١]. فأخبر الله تعالى أنه بعث رسله بالإسلام، ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضاً، إلى أن نسخت بشريعة محمد ﷺ التي لا تنسخ أبد الأبد، ولا تزال قائمة منصوره، وأعلامها مشهورة إلى قيام الساعة؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «نحن معاشر الأنبياء أولاد غلات ديننا واحد». فإن أولاد الغلات هم الإخوة من أب واحد وأمها شتى، فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات، كما أن إخوة الأخياض عكس هذا، بنو الأم الواحدة من آباء شتى، والإخوة الأعيان الأشقاء من أب واحد وأم واحدة، والله أعلم.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله الماجشون، حدثنا عبد الله بن الفضل الهاشمي، عن الأعرج، عن عبيد الله بن أبي رافع، عن علي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان إذا كبر استفتح، ثم قال: «وَجِئْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، ﴿إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ بُرِّئْتُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا﴾ (١٦٢)، اللهم أنت الملك، لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً، لا يغفر الذنوب إلا أنت. واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت. واصرف عني

سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت. تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك». ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله في الركوع والسجود والشهد. وقد رواه مسلم في صحيحه.

﴿قُلْ أَغْنَى اللَّهُ رَبِّيَ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِدُ وَازِدَةً وَذُرْ أُخْرَىٰ ثُمَّ لَكَ رَيْبٌ مِّمَّنْ كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه: ﴿أَغْنَى اللَّهُ رَبِّيَ﴾ أي: أطلب ربا سواه، وهو رب كل شيء، يربطني ويحفظني ويكلوني ويدبر أمري، أي: لا أتوكل إلا عليه، ولا أنيب إلا إليه؛ لأنه رب كل شيء ومليكه، وله الخلق والأمر. هذه الآية فيها الأمر بإخلاص التوكل، كما تضمنت الآية التي قبلها إخلاص العبادة له لا شريك له. وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيراً في القرآن، كما قال تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الْغَنِيُّ عَلَيْنَا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، وقوله: ﴿رَبِّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝﴾ [المزمل: ٩]، وأشباه ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِدُ وَازِدَةً وَذُرْ أُخْرَىٰ﴾ إخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله، أن النفوس إنما تجازى بأعمالها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد. وهذا من عدله تعالى، كما قال: ﴿وَلَنْ نَّعْزِمَنَّهُ إِلَىٰ جَهَنَّمَ إِنْ جِئَهَا لَا يَحْمِلُ مِثْلَهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [ناظر: ١٨]، وقوله: ﴿فَلَا يَحِثُّ عَلَيْنَا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، قال علماء التفسير: فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره، ولا يهضم بأن ينقص من حسناته. وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ إِلَّا أَسْحَبَ الثَّيْنِ ۝﴾ [المدثر: ٣٨، ٣٩]، معناه: كل نفس مرتهنة بعملها السيئ إلا أصحاب اليمين، فإنه قد تعود بركات أعمالهم الصالحة على ذرايعهم، كما قال في سورة الطور: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عِلْمِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ۝﴾ [الطور: ٢١]، أي: ألحقنا بهم ذرياتهم في المنزلة الرفيعة في الجنة، وإن لم يكونوا قد شاركوهم في الأعمال، بل في أصل الإيمان، ﴿وَمَا أَلْتْنَاهُمْ﴾ أي: أنقصنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئاً حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقص منهم منزلة، بل رفعهم تعالى إلى منازل الآباء ببركة أعمالهم، بفضله ومنته، ثم قال: ﴿كُلُّ أُنْفُسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝﴾ [الطور: ٢١]، أي: من شر.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَكَ رَيْبٌ مِّمَّنْ كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي: اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه، فستعرضون ونعرض عليه، وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم، وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا شِئْنَا وَلَا سَمِعْنَا مِمَّا أَلَمْ نَعْمَلْ ۝﴾ [سبا: ٢٥، ٢٦].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَسْأَلَكُمْ فِي مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝﴾.

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ أي: جعلكم تعمرون الأرض جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، وخلفاء بعد سلف. قاله ابن زيد وغيره، كما قال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ فُلَكًا فِي الْأَرْضِ يَخْتَلِفُونَ ۝﴾ [الزخرف: ٦٠]، وكقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۝﴾ [البقرة: ٣٠]، وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيُصَلِّتَنَّكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَقُولُونَ ۝﴾ [الأعراف: ١٢٩]. وقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي: فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان، وله الحكمة في ذلك، كقوله: ﴿نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مِمَّا يَشْتَهُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَاءَ ۝﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا ۝﴾ [الإسراء: ٢١].

وقوله: ﴿لِّيَسْأَلَكُمْ فِي مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي: ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتنحكم به، ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره. وقد روى مسلم في صحيحه، من حديث أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها لينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء». وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْيَقَابِ وَلَآخِرَةُ لَافْقَرٌ رَّحِيمٌ﴾: ترهيب وترغيب، أن حسابه وعقابه سريع ممن عصاه وخالف رسله ﴿وَلَآخِرَةُ لَافْقَرٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن والاه واتبع رسله فيما جاؤا به من خير وطلب. وقال محمد بن إسحاق: يرحم العباد على ما فيهم. رواه ابن أبي حاتم. وكثيراً ما يقرن تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين، كما قال

تعالى: وقوله: ﴿نَحْنُ عِبَادٌ خَالِقُونَ﴾ [١] وَأَنَّ عَذَابَهُ هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٢٥﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠] وقوله: ﴿وَلِئَلَّكَ لَدُوٌّ مَقُورٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦] وغير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها، وتارة بهذا وبهذا لِيَتَجَعَ فِي كُلِّ بِحْسَبِهِ. جَعَلْنَا اللَّهَ مَعَّنِ اطَاعَهُ فِيمَا أَمَرَ، وترك ما عنه نَهَى وَزَجَرَ، وصدقه فيما أخبر، إنه قريب مجيب سميع الدعاء، جواد كريم وهاب. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا زُهَيْرٌ، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بالجنة أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من الجنة أحد، خلق الله مائة رَحْمَةٍ فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها، وعند الله تسعة وتسعون». ورواه الترمذي، عن قُتَيْبَةَ، عن عبد العزيز الدَّرَاوَزِيِّ، عن العلاء به. وقال: حسن صحيح. ورواه مسلم عن يحيى بن يحيى وقتيبة وعلي بن حُجْر، ثلاثهم عن إسماعيل بن جعفر، عن العلاء.

آخر تفسير سورة الأنعام ولله الحمد والمنة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الأعراف

﴿التَّصَّ ﴿١﴾ كُتِبَ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِشُونٍَ بِهِ. وَذَكَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ آمَنُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [١].

قد تقدم الكلام في أول «سورة البقرة» على ما يتعلق بالحروف وبسطه، واختلاف الناس فيه. وقال ابن جرير: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا أبي، عن شريك، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضحى، عن ابن عباس: ﴿التَّصَّ ﴿١﴾﴾: أنا الله أفصل، وكذا قال سعيد بن جببر. قوله: ﴿كُتِبَ أَنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: هذا كتاب أنزل إليك، أي: من ربك، ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ قال مجاهد، وعطاء، وقتادة والسُّدِّيُّ: شُكٌّ منه. وقيل: لا تخرج به في إبلاغه والإنذار به واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل؛ ولهذا قال: ﴿لِيُذَكِّرَ بِهِ﴾ أي: أنزل إليك لتذكر به الكافرين، ﴿وَذَكَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم قال تعالى مخاطباً للعالم: ﴿آمَنُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِّنْ رَّبِّكُمْ﴾ أي: اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل من رب كل شيء ومليكه، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره، فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله: ﴿وَلَنْ تَجْعَلَ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

﴿وَمَن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿١﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُ إِذِ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢﴾ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ فَلَنَقْضِيَ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَالِبِينَ﴾ [٢].

يقول تعالى: ﴿وَمَن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: بمخالفة رسلنا وتكذيبهم، فأعقبهم ذلك خِزْيُ الدنيا موصولاً ببذل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا بِآيَاتِنَا فَكَفَّ فَإِنَّكَ مَجْرُومٌ مِّمَّنْ كَفَرُوا بِمَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَكُلٌّ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْعَثُ لَهَا مِن وَجْهِهَا مُنْقَلَبًا وَنُصْرًا مُّشِيدًا ﴿٤٥﴾﴾ [الحج: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرْتُم مَّيْشَتَهَا فَتِلْكَ مَسْجِدُهُمْ لَوْ تَشْكُرُونَ لَوْ تَدْرُسُونَ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْغَافِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٨]. وقوله: ﴿فَمَا كَانَ بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أي: فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته ﴿بَيِّنًا﴾ أي: ليلاً ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾: من القيلولة، وهي: الاستراحة وسط النهار. وكلا الوقتين وقت غَفْلَةٍ وَلَهْوٍ، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا شَعِيَ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨] وقال: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْبِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُيبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّؤُوفُ ذَرِكُمْ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ٤٥-٤٧]. وقوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُ إِذِ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾﴾

أي: فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم، وأنهم حقيقون بهذا. كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَصْنَا مِنْ قَبْلِهِ كَانَتْ ظُلُمَةً وَأَنفُسًا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَاسِهَا إِذَا هُمْ يَنسِفُهَا يُكْفِّرُهَا ﴿١٢﴾ لَا تَرَكَاهَا وَاَرْجِعُوهَا إِلَيْنَا مَا أَثَرُكُمْ فِيهِ وَمَسْكِكُمْ لَكُمْ تَشْتَوُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَوَدُّونَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَسِيدًا حَاسِدِينَ ﴿١٥﴾ [الأنبياء: ١١-١٥]. وقال ابن جرير: في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ من قوله: «ما هلك قوم حتى يُغذروا من أنفسهم»، حدثنا بذلك ابن حُمَيد، حدثنا جرير، عن أبي سينان، عن عبد الملك بن مَيْسرة الزرّاد قال: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «ما هلك قوم حتى يُغذروا من أنفسهم». قال: قلت لعبد الملك: كيف يكون ذاك؟ قال: فقرأ هذه الآية: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسَاسُهَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿١٥﴾.

وقوله: ﴿فَلَنَسْتَأْذِنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٦٥﴾ [القصص: ٦٥]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأُرْسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ ﴿١٥١﴾ [المائدة: ١٠٩]، فالرُبّ تبارك وتعالى يوم القيامة يسأل الأمم عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته؛ ولهذا قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية: ﴿فَلَنَسْتَأْذِنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَكْثِرَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٦٥﴾ قال: يسأل الله الناس عما أجابوا المرسلين، ويسأل المرسلين عما بلغوا. وقال ابن مَرْذُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن، حدثنا أبو سعيد الكندي، حدثنا المحاربي، عن لَيْث، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام يُسأل عن الرجل، والرجل يسأل عن أهله، والمرأة تسأل عن بيت زوجها، والعبد يسأل عن مال سيده». قال الليث: وحدثني ابن طاوس، مثله، ثم قرأ: ﴿فَلَنَسْتَأْذِنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَكْثِرَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٦٥﴾. وهذا الحديث مُخْرَجٌ في الصحيحين بدون هذه الزيادة.

وقال ابن عباس: ﴿فَلَنَقْصُرَ عَنْهُمْ بَعْلًا وَمَا كُنَّا غَالِبِينَ﴾ ﴿٧﴾: يوضع الكتاب يوم القيامة، فيتكلم بما كانوا يعملون، ﴿وَمَا كُنَّا غَالِبِينَ﴾ يعني: أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا، من قليل وكثير، وجليل وخفير؛ لأنه تعالى شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، ﴿وَمَا نَقْصُرُ عَنْ وَرْقَى إِلَّا بِعَلْمِهَا وَلَا حَبْرَ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ شِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَّا كَانُوا يَنَازِعُونَا يُظْلِمُونَ﴾ ﴿٩﴾.

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَالْوَزْنُ﴾ أي: للأعمال يوم القيامة ﴿الْحَقُّ﴾ أي: لا يظلم تعالى أحداً، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ ثِقَالَ جَبُونٍ مِنْ خَزَائِنِ آبَائِهِمْ هُمْ وَكَفَى بِمَا حَسِبْتُمْ﴾ ﴿١٧﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُظْلِمُ شَيْئًا وَلَئِنْ تَرَكَ حَسَنَةً يَتَّبِعَهَا لَوْ تَوَلَّى مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَرَىٰ أَمْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٩٠﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ﴿٦١﴾ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ﴿٨﴾ فَأَمَّا هَٰكَذَا﴾ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ ﴿١١﴾ [الفارعة: ٦-١١]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٣﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ﴿١٣﴾ [المؤمنون: ١٠١-١٠٣].

فصل

والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل: الأعمال وإن كانت أعراضاً، إلا أن الله تعالى يقبلها يوم القيامة أجساماً. قال البغوي: يروى هذا عن ابن عباس، كما جاء في الصحيح من أن «البقرة» و«آل عمران» يأتیان يوم القيامة كأنهما غماتان - أو: غَيَاتَانِ - أو فِرْقَانِ من طير صَوَافٍ. من ذلك في الصحيح قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظلمات نهارك. وفي حديث البراء، في قصة سؤال القبر: «فيا بني المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عمك الصالح». وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق. وقيل: يوزن كتاب الأعمال، كما جاء في حديث البطاقة، في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل مَدَّ البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها: «لا إله إلا الله» فيقول: يارب، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى: إنك لا تُظَلِّم. فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان. قال رسول الله ﷺ: «فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ، وَثَقُلَتِ الْبَطَاقَةُ». رواه الترمذي بنحو من هذا، وصححه. وقيل: يوزن صاحب العمل، كما في الحديث: «يُؤْتَى يوم القيامة بالرجل السمين، فلا يَزِنُ عند الله جَنَاحَ

بَعُوضَةٍ. ثم قرأ: ﴿فَلَا تَقُمْ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَتَنَاءَ﴾ [الكهف: ١٠٥]. وفي مناقب عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «أتعجبون من دقة ساقته، فوالذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد». وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فثارة توزن الأعمال، وثارة توزن محالها، وثارة يوزن فاعلها، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشٌ فَلَوْلَا مَا تَشْكُرُونَ﴾.

يقول تعالى ممتناً على عبيده فيما مكن لهم من أنه جعل الأرض قراراً، وجعل لها رواسي وأنهاراً، وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً، وأباح منافعها، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها معاش، أي: مكاسب وأسباباً يتجرون فيها، ويتسبون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْسُوا أَنْتُمْ لَا تَعْمَهُوا إِنَّكُمْ إِنْ أَنْتُمْ لَكُمْ كَفَارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وقد قرأ الجميع: ﴿مَعْيِشٌ﴾ بلا همز، إلا عبد الرحمن بن هرمز الأعرج فإنه همزها. والصواب الذي عليه أكثرهم بلا همز، لأن معاش جمع معيشة، من عاش يعيش عيشاً، ومعيشة أصلها مَعْيِشَةٌ فاستثقلت الكسرة على الياء، فنقلت إلى العين فصارت مَعْيِشَةٌ، فلما جمعت رجعت الحركة إلى الياء لزوال الاستئصال، فقليل: معاش. ووزنه مفاعل؛ لأن الياء أصلية في الكلمة. بخلاف مدائن وصحائف وبصائر، جمع مدينة وصحيفة وبصيرة من: مدن وصحف وأبصر، فإن الياء فيها زائدة، ولهذا تجمع على فاعل، وتهمز لذلك، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم، ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس، وما هو منطو عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم، ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَنْثُورٍ﴾ [٧٨] ﴿فَلَمَّا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [٧٩] فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ الآية [الحجر: ٢٨ - ٣٠]، وذلك أنه تعالى لما خلق آدم، عليه السلام، بيده من طين لازب، وصوره بشراً سوياً، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الرب تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا، إلا إبليس لم يكن من الساجدين. وقد تقدم الكلام على إبليس في أول تفسير «سورة البقرة». وهذا الذي قرناه هو اختيار ابن جرير: أن المراد بذلك كله آدم، عليه السلام. وقال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ قال: خلُقوا في أصلاب الرجال، وصُوروا في أرحام النساء. رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. ونقله ابن جرير عن بعض السلف أيضاً: أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم: الذرية. وقال الربيع بن أنس، والسُّدِّي، وقتادة، والضحاك في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي: خلقنا آدم ثم صورنا الذرية. وهذا فيه نظر؛ لأنه قال بعده: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، فدل على أن المراد بذلك آدم، وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر، كما يقول تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ: ﴿وَعَلَلْنَا عَلَيْكُمْ الْقَتَامَ وَأَتَرْنَا عَلَيْكُمْ الْقَتَامَ وَالسَّلَاطِينَ﴾ [البقرة: ٥٧]، والمراد: أبائهم الذين كانوا في زمان موسى عليه السلام، ولكن لما كان ذلك مثلاً على الآباء الذين هم أصل صار كأنه واقع على الأبناء. وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [٧٦] ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْثَةً فِي قَوَارِيرِ مَكِينٍ [٧٧] [المؤمنون: ١٢، ١٣]، فإن المراد منه آدم المخلوق من السلالة، وذريته مخلوقون من نطفة، وصح هذا لأن المراد من خلقنا الإنسان الجنس، لا معيناً، والله أعلم.

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ آلَ آدَمَ إِذْ أَمَرْتُكَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

قال بعض النحاة في توجيه قوله تعالى: ﴿مَا مَنَّكَ آلَ آدَمَ إِذْ أَمَرْتُكَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾: لا ههنا زائدة. وقال بعضهم: زيدت لتأكيد الجحد، كقول الشاعر:

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ

فأدخل «إن»، وهي للنفي، على «ما» النافية؛ لتأكيد النفي، قالوا: وكذلك ههنا: ﴿مَا مَنَّكَ آلَ آدَمَ﴾، مع تقدم قوله: ﴿لَوْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾. حكاهما ابن جرير. وردهما، واختار أن «منعك» تضمن معنى فعل آخر تقديره: ما أحوجك وألزمك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك، ونحو ذلك. وهذا القول قوي حسن، والله أعلم. وقول إبليس لعنه الله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، من العذر الذي هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر بالفاضل بالسجود للمفضول، يعني لعنه الله: وأنا خير منه، فكيف تأمرني بالسجود له؟ ثم بين أنه خير منه، بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقته منه، وهو الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر،

ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نص قوله تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُمْ سَجِينَ﴾ [ص: ٧٧]، فشذ من بين الملائكة بترك السجود؛ فلهذا ألبس من الرحمة، أي: آيس من الرحمة، فأخطأ قبحه الله في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضاً، فإن الطين من شأنه الرزاة والحلم والأناة والتثبت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح. والنار من شأنها الإحراق والطيث والسرعة؛ ولهذا خان إبليس عنصره، ونفع آدم عنصره في الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة.

وفي صحيح مسلم، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتِ الملائكة من نور، وُخِلِقَ إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصِفَ لكم» هكذا رواه مسلم. وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا إسماعيل، عن عبد الله بن مسعود، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهري، عن عُرْوَةَ، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله الملائكة من نور العرش، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصِفَ لكم». قلت لنعيم بن حماد: أين سمعت هذا من عبد الرزاق؟ قال: باليمن. وفي بعض ألفاظ هذا الحديث في غير الصحيح: «وخلقت الحور العين من الزعفران». وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن كثير، عن ابن شَوْذَب، عن مطر الوَرَّاق، عن الحسن في قوله: ﴿خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَنِي مِن لَّيْلِ﴾ قال: قاس إبليس، وهو أول من قاس. إسناده صحيح. وقال: حدثني عمرو بن مالك، حدثني يحيى بن سليم الطائفي، عن هشام، عن ابن سيرين قال: أول من قاس إبليس، وما عُبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس. إسناده صحيح أيضاً.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنَّا لَنَكْبِرُ فِيهَا فَأَخْرِجْكَ مِنْهَا﴾ [١٣] ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَمُوتُونَ﴾ [١٤] ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [١٥].

يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمر قدرتي كوني: ﴿قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: بسبب عصيانك لأمري، وخرجك عن طاعتي، فما يكون لك أن تتكبر فيها. قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائداً على المنزل التي هو فيها في الملكوت الأعلى. ﴿فَأَخْرِجْكَ مِنْهَا﴾ أي: الدليلين الحقيرين، معاملة له بنقيض قصده، مكافأة لمراده بضده، فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين، قال: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَمُوتُونَ﴾ [١٤] ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [١٥]، أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمنع، ولا مُعَقَّبَ لحكمه، وهو سريع الحساب.

﴿قَالَ يَمَّا آوَيْتَنِي لَأَفْقِدَنَّ لَكَ مِرْطَكَ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [١٦] ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [١٧].

يخبر تعالى أنه لما أنذر إبليس ﴿إِلَى يَوْمِ يَمُوتُونَ﴾، واستوثق إبليس بذلك، أخذ في المعاندة والتمرد، فقال: ﴿يَمَّا آوَيْتَنِي لَأَفْقِدَنَّ لَكَ مِرْطَكَ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: كما آوَيْتني. قال ابن عباس: كما أضللتني. وقال غيره: كما أهلكتني لأفقدن لِعبادك - الذين تخلقههم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه - على ﴿مِرْطَكَ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: طريق الحق وسبيل النجاة، ولأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحّدوك بسبب إضلالك إياي. وقال بعض النحاة: الباء ههنا قسمية، كأنه يقول: فلباغوائك إياي لأفقدن لهم صراطك المستقيم. قال مجاهد: ﴿مِرْطَكَ الْمُسْتَقِيمِ﴾ يعني: الحق. وقال محمد بن سوفة، عن عون بن عبد الله: يعني طريق مكة. قال ابن جرير: والصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك كله. قلت: لما روى الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا أبو عَقِيل - يعني الثقيفي عبد الله بن عَقِيل - حدثنا موسى بن المسيب، أخبرني سالم بن أبي الجعد، عن سَبْرَةَ بن أبي فاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه، قعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟». قال: «فعضاه وأسلم». قال: «وقعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول؟ فعضاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، وهو جهاد النفس والمال، فقال: تقاتل فتقتل، فتنتكح المرأة ويقسم المال؟». قال: «فعضاه، فجاهد». قال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو قتل كان حقاً على الله، أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة».

وقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [١٧] قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: أشكركم في آخرتهم، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أرغبهم في دنياهم ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾: أشبه عليهم أمر دينهم ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾: أشهي لهم المعاصي. وقال ابن أبي طلحة في رواية والعوفي، كلاهما عن ابن عباس: أما ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: فمن قبل دنياهم، وأما ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: فأمر آخرتهم، وأما ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾: فمن قبل حسناتهم، وأما ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾:

فمن قبل سيئاتهم. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة: أتاهم ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار ﴿وَمِنْ خَلْقِهِ﴾: من أمر الدنيا فزيتها لهم ودعاهم إليها و ﴿وَعَنْ آيَاتِهِ﴾ من قبل حسناتهم بظاهم عنها ﴿وَعَنْ قَائِلِهِمْ﴾: زين لهم السيئات والمعاصي، ودعاهم إليها، وأمرهم بها. أنك يا ابن آدم من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله.

وكذا روي عن إبراهيم التَّخَمي، والحكم بن عتيبة، والسدي، وابن جرير، إلا أنهم قالوا: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾: الدنيا ﴿وَمِنْ خَلْقِهِ﴾: الآخرة. وقال مجاهد: «من بين أيديهم وعن إيمانهم»: حيث يبصرون، «ومن خلفهم وعن شمائلهم»: حيث لا يبصرون. واختار ابن جرير أن المراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصدهم عنه، والشر يحببه لهم. وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾، ولم يقل: من فوقهم، لأن الرحمة تنزل من فوقهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَحِدْ أَكْثَرَهُمْ شُكْرًا﴾ قال: موحدين. وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم، وقد وافق في هذا الواقع، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِيَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّيهِ الْآخِرَةَ وَتَحْتَهُ هُوَ وَفِيهَا فِي شُكٍّ وَرَيْبٍ عَلَى كُلِّ فَوْهٍ حَفِيطٌ ﴿٢٦﴾ [سبا: ٢٠، ٢١].

ولهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها، كما قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا نصر بن علي، حدثنا عمرو بن مَجْمَع، عن يونس بن خُباب، عن ابن جُبَيْر بن مُطْعِم - يعني نافع بن جبير - عن ابن عباس، وحدثنا عمر بن الخطاب - يعني السجستاني - حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن زيد بن أبي أنيسة، عن يونس بن خباب - عن ابن جبير بن مطعم - عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي، وأهلي ومالي، اللهم استر عورتي، وآمن روعي، واحفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن شمالي، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتي». تفرد به البزار، وحسنه. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا عباد بن مسلم الفزاري، حدثني جُبَيْر بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم، سمعت عبد الله بن عمر يقول: لم يكن رسول الله يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي». قال وكيع: يعني الخسف. ورواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم من حديث عباد بن مسلم، به. وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

﴿قَالَ اتَّخَذَ فِيهَا مَذْهَبًا مَذْهُورًا لَنْ يَمَكَّ مِنْهُمْ لَأَمَلًا جَهَنَّمُ بَيْنَكُمْ أَجْمِينَ﴾.

أكد تعالى اللعنة والطرود والإبعاد والنفي عن محل الملا الأعلى بقوله: ﴿اتَّخَذَ فِيهَا مَذْهُورًا مَذْهُورًا﴾. قال ابن جرير: أما «المذْهُور»، فهو المعيب، والذام غير مشدد: العيب. يقال: «ذامه يذامه ذاماً فهو مذْهُورٌ». ويتركون الهمز فيقولون: «ذمته أذيمه ذيماً وذاماً»، والذام والذيم أبلغ في العيب من الذم. قال: «والمذحور»: المُقْصَى. وهو المبعد المطرود. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما نعرف «المذْهُور» و «المذموم» إلا واحداً. وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن عباس: ﴿اتَّخَذَ فِيهَا مَذْهُورًا مَذْهُورًا﴾ قال: مقبلاً. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: صغيراً مقبلاً. وقال السدي: مقبلاً مطروداً. وقال قتادة: لعيناً مقبلاً. وقال مجاهد: منقياً مطروداً. وقال الربيع بن أنس: مذْهُورٌ: منقياً، والمذحور: المصغر.

وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَمَكَّ مِنْهُمْ لَأَمَلًا جَهَنَّمُ بَيْنَكُمْ أَجْمِينَ﴾. كقوله: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَمَكَّ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ ﴿١٣﴾ وَأَسْتَفْرِزُّ مَنِ اسْتَمَلَّتْ مِنْهُمْ بِصَوْلِكَ وَأَمْلَيْتَ عَلَيْهِمْ بِمِلْكِكَ وَوَجَّعْتَ فِي آفَاقِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَذَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿١٥﴾ [الاسراء: ٦٣ - ٦٥].

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا آلَ زُرَّارٍ أَلَمَّةً فُكَّارًا مِنْ حَيْثُ وَشَّتَا وَلَا تَقْرَأُ هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُ مِنَ الْغَالِيينَ﴾ ﴿١٦﴾ فَوَسَّوْا لَهَا الشَّيْطَانُ لِيُبدِي لَهَا مَا دُورَى عَنْهَا مِنْ سَوَاءٍ فِيهَا وَقَالَ مَا تَهْكُمُا رَبَّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿١٧﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنْ لَكُمَا لَيِّنٌ أَتَّصِيحُ ﴿١٨﴾.

يذكر تعالى أنه أباح لآدم، عليه السلام، ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة. وقد تقدم الكلام على ذلك في «سورة البقرة»، فعند ذلك حسدهما الشيطان، وسعى في المكر والخديعة والوسوسة ليلسبا ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن، وقال كذباً وافتراء: ما نهاكما ربكما عن أكل الشجرة إلا لتكونا ملكين أي: لثلاث تكونا ملكين، أو خالدين

ههنا، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما، كقوله: ﴿قَالَ يَتْلُوا لَكُمْ آيَاتِ اللَّهِ أَنْ يَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْكَرُونَ﴾ [النساء: ١٧٦]، أي: لتلا تكونا ملكين، كقوله: ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَقُولُوا﴾ [النساء: ١٧٦]، أي: لتلا تملوا، ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَايَا أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، أي: لتلا تملد بكم. وكان ابن عباس ويحيى بن أبي كثير يقرآن: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾، بكسر اللام. وقراء الجمهور بفتحها. ﴿وَكَاَسَهُمَا﴾ أي: حلف لهما بالله: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَوِ الْغَيْبِ﴾، فإني من قبلكما ههنا، وأعلم بهذا المكان، وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين، كما قال خالد بن زهير، ابن عم أبي ذؤيب:

وَقَاَسَمَهَا بِاللَّهِ جَهْدًا لَأَنْتُمْ
الَّذِ مِنْ السُّلُوى إِذَا مَا نَشُورَهَا
أي: حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما، وقد يخدع المؤمن بالله، فقال: إني خلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتبعتني أرشدكما. وكان بعض أهل العلم يقول: «من خادعنا بالله خدعنا له».

﴿فَدَلَّيْنِهَا بِرُؤُوسِهِمَا فَمَا تَرَ إِلَّا أَشْجَرَ بَدَتْ لَهَا سَوتَانِهَا وَطُفُوفًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَفَادَيْنَهُمَا رِجْمًا أَوْ أَتَاهُمَا عَنْ يَتْلُوكُمَا الشَّجَرَةَ وَأَقْلَ لَكُمَا إِنَّ الْغَيْبَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [٢٢] قَالَا رَبَّنَا عَلَّمَنَا أَنْفُسَنَا أَنْ لَا نَكْفُرَ لَكَ وَتَرَحَّمْنَا لَنَكُونَ مِنَ الْخَائِرِينَ ﴿٢٣﴾.

قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب، رضي الله عنه، قال: كان آدم رجلاً طَوَّالاً، كأنه نخلة سَحُوق، كثير شعر الرأس. فلما وقع بما وقع به من الخطيئة، بدت له عورته عند ذلك، وكان لا يراها. فانطلق هارباً في الجنة فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة، فقال لها: أرسليني. فقالت: إني غير مرسلتك. فناداه ربه، ﴿يَا آدَمُ، أَمْنِي تَفَرُّ؟ قَالَ: رَبِّ إِنِّي اسْتَحْيَيْتُكَ. وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ مَرْزُوقٍ مِنْ طُرُقٍ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالْمَوْقُوفِ أَصْحَ إِسْنَادًا. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَنْبَأَنَا سَفْيَانُ بْنُ عَيِّنَةَ وَابْنُ الْمُبَارَكِ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عِمَارَةَ، عَنِ الْمُنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَتِ الشَّجَرَةُ الَّتِي نَهَى اللَّهُ عَنْهَا آدَمَ وَزَجَّتَهُ، السَّنْبِلَةُ. فَلَمَّا أَكَلَا مِنْهَا بَدَتْ لِهَمَا سَوَاتِنَهُمَا، وَكَانَ الَّذِي وَارَى عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِنِهِمَا أَظْفَارُهُمَا، وَطُفُوفًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَرَقٌ التِّينِ، يَلْزَقَانِ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ. فَانْطَلَقَ آدَمُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، مُوَلِّياً فِي الْجَنَّةِ، فَتَلَقَّتْ بِرَأْسِهِ شَجَرَةً مِنَ الْجَنَّةِ، فَنَادَاهُ: يَا آدَمُ، أَمْنِي تَفَرُّ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنِّي اسْتَحْيَيْتُكَ يَا رَبِّ. قَالَا: أَمَا كَانَ لَكَ فِيمَا مَنَحْتِكَ مِنَ الْجَنَّةِ وَأَبَحْتِكَ مِنْهَا مَنَدُوحَةٌ عَمَّا حَرَمْتَ عَلَيْكَ. قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، وَلَكِنْ وَعَزَّتْكَ مَا حَسِبْتُ أَنْ أَحْدَا يَحْلِفُ بِكَ كَاذِبًا. قَالَ: وَهُوَ قَوْلُهُ، ﷺ: ﴿وَكَاَسَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَوِ الْغَيْبِ﴾ [٢٢]. قَالَ: فَبِعَزَّتِي لَا أَهْبِطُكَ إِلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ لَا تَنَالُ الْعَيْشَ إِلَّا كَدًّا. قَالَ: فَاهْبِطْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَكَانَا يَأْكُلَانِ مِنْهَا رَغَدًا، فَاهْبِطَ إِلَى غَيْرِ رَغَدٍ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ، فَغَلَّمَ صُنْعَةَ الْحَدِيدِ، وَأَمَرَ بِالْحَرْثِ، فَحَرَثَ وَزَرَعَ ثُمَّ سَقَى، حَتَّى إِذَا بَلَغَ حَصْدًا، ثُمَّ دَاسَهُ، ثُمَّ ذَرَاهُ، ثُمَّ طَحَنَهُ، ثُمَّ عَجَنَهُ، ثُمَّ خَبَزَهُ، ثُمَّ أَكَلَهُ، فَلَمْ يَبْلُغْهُ حَتَّى بَلَغَ مِنْهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَبْلُغَ.

وقال الثوري، عن ابن أبي ليلى، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَطُفُوفًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قَالَ: وَرَقُ التِّينِ. صحيح إليه. وقال مجاهد: جعلا يخصفان عليهما من ورق الجنة كهنية الثوب. وقال وهب بن منبه في قوله: ﴿يَبْرِزُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ قَالَ: كَانَ لِبَاسِ آدَمَ وَحَوَاءَ نُورًا عَلَى فُرُوجِهِمَا، لَا يَرَى هَذَا عَوْرَةَ هَذِهِ، وَلَا هَذِهِ عَوْرَةَ هَذَا. فَلَمَّا أَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ بَدَتْ لِهَمَا سَوَاتِنَهُمَا. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ إِلَيْهِ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ آدَمُ: أَيُّ رَبِّ، أَرَأَيْتَ إِنْ تَبَتِ وَاسْتَغْفَرْتُ؟ قَالَ: إِذَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ. وَأَمَّا إِبْلِيسُ فَلَمْ يَسْأَلْهُ التَّوْبَةَ، وَسَأَلَهُ النَّظْرَةَ، فَأَعْطِي كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الَّذِي سَأَلَهُ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ، حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ، حَدَّثَنَا عَبَادُ بْنُ الْعَوَّامِ، عَنْ سَفْيَانَ بْنِ حُسَيْنٍ، عَنْ يَعْلَى بْنِ مَسْلَمٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا أَكَلَ آدَمُ مِنَ الشَّجَرَةِ قِيلَ لَهُ: وَلِمَ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَيْتُكَ عَنْهَا؟ قَالَ: حَوَاءَ أَمَرْتَنِي. قَالَ: فَإِنِّي قَدْ أَعْقَبْتَهَا أَنْ لَا تَحْمِلَ إِلَّا كَرْهًا، وَلَا تَضَعِ إِلَّا كَرْهًا. قَالَ: فَرُئْتُ عِنْدَ ذَلِكَ حَوَاءَ. فَقِيلَ لَهَا: الرِّئَةُ عَلَيْكَ وَعَلَى وَلَدِكَ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مَرْزُوحٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا عَلَّمَنَا أَنْفُسَنَا أَنْ لَا نَكْفُرَ لَكَ وَتَرَحَّمْنَا لَنَكُونَ مِنَ الْخَائِرِينَ﴾: هِيَ الْكَلِمَاتُ الَّتِي تَلَقَّاهَا آدَمُ مِنْ رَبِّهِ ﷺ.

﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكِنَّ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرًّا وَمَتْنًا وَإِلَى جَنَّاتٍ ۖ قَالَتْ فِيمَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَفِيهَا تَخْرُجُونَ﴾ [٢٤].

قيل: المراد بالخطاب في ﴿أَهْبِطُوا﴾: آدَمَ، وَحَوَاءَ، وَإِبْلِيسَ، وَالْحَيَّةَ. وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَذْكُرِ الْحَيَّةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَالْعَمْدَةُ فِي الْعِدَاوَةِ آدَمَ وَإِبْلِيسَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ «طه» قَالَ: ﴿أَهْبِطَا مِنْهَا بَهِيمًا﴾ [الآية: ١٧٣]، وَحَوَاءَ تَبَعَ لآدَمَ. وَالْحَيَّةَ - إِنْ كَانَ ذِكْرُهَا صَحِيحًا - فَهِيَ تَبَعَ لِإِبْلِيسَ. وَقَدْ ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ الْأَمَاكِنَ الَّتِي هَبَطَ كُلُّ مِنْهُمْ، وَيَرْجِعُ حَاصِلُ تِلْكَ الْأَخْبَارِ إِلَى الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِصَحَّتِهَا. وَلَوْ كَانَ فِي تَعْيِينِ تِلْكَ الْبِقَاعِ فَائِدَةٌ تَعُودُ عَلَى الْمُكَلِّفِينَ فِي أَمْرِ دِينِهِمْ، أَوْ دُنْيَاهُمْ،

لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله ﷺ. وقوله: ﴿وَلَكُنْ فِي الْأَرْضِ مُمْسَقًا وَمَعْنَىٰ إِلَىٰ جَنِّ﴾ أي: قرار وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة، قد جرى بها القلم، وأحصاها القدر، وسطرت في الكتاب الأول. وقال ابن عباس: ﴿مُمْسَقًا﴾: القبور. وعنه: وجه الأرض وتحتها. رواها ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنهَا تُخْرَجُونَ﴾ (٢٦). كقوله تعالى: ﴿وَبَيْنَا خَلَقْتَكُمْ وَفِيهَا نُنَبِّئُكُمْ وَمِنهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ (٥٥). يخبر تعالى أنه جعل الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم، ومنها نشورهم ليوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، ويجازي كلأ بعمله.

﴿بَيْنَىٰ ءَادَمَ قَدْ أَرْكَأَ عَلَيْهِمْ لِبَاسًا يُؤْذِي سَوَءَكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ الْقَوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ (٢٦).

يمتن تبارك وتعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والرياش، فاللباس المذكور لهنها لستر العورات - وهي السوات - والرياش والريش: هو ما يتجمل به ظاهراً، فالأول من الضروريات، والريش من التكميلات والزيادات. قال ابن جرير: «الرياش» في كلام العرب: الأثاث، وما ظهر من الثياب. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس - وحكاها البخاري - عنه: الريش: المال. وكذا قال مجاهد، وعُزْوة بن الزبير، والسُّدِّي والضحاك. وقال العوفي، عن ابن عباس: «الرياش»: اللباس، والعيش، والنعيم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «الرياش»: الجمال. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أصْبَغُ، عن أبي العلاء الشامي قال: لبس أبو أمامة ثوباً جديداً، فلما بلغ تَرْقُوتَهُ قال: الحمد لله الذي كساني ما أوارني به عورتني، وأتجمل به في حياتي. ثم قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله ﷺ: «من استجد ثوباً فلبسه، فقال حين يبلغ ترقوته: الحمد لله الذي كساني ما أوارني به عورتني، وأتجمل به في حياتي، ثم عمد إلى الثوب الذي خُلِقَ أو: ألقى فتصدق به، كان في ذمة الله، وفي جوار الله، وفي كنف الله حياً وميتاً، حياً وميتاً». ورواه الترمذي، وابن ماجه، من رواية يزيد بن هارون، عن أصْبَغ - هو ابن زيد الجهني - وقد وثقه يحيى بن معين وغيره، وشيخه «أبو العلاء الشامي» لا يعرف إلا بهذا الحديث، ولكن لم يخرج به أحد، والله أعلم. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا مختار بن نافع التمار، عن أبي مطر، أنه رأى علياً، رضي الله عنه، أتى غلاماً حدثاً، فاشتري منه قميصاً بثلاثة دراهم، ولبسه إلى ما بين الرسغين إلى الكعبين، يقول ولبسه: الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس، وأوارني به عورتني. فقيل: هذا شيء ترويه عن نفسك أو عن نبي الله ﷺ؟ قال: هذا شيء سمعته من رسول الله ﷺ يقول عند الكسوة: «الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس، وأوارني به عورتني».

وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ الْقَوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾: قرأ بعضهم: ﴿وَلِبَاسُ الْقَوَىٰ﴾، بالنصب. وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء، ﴿وَلِبَاسُ الْقَوَىٰ﴾ خيره. واختلف المفسرون في معناه، فقال عكرمة: يقال: هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة. رواه ابن أبي حاتم. وقال زيد بن علي، والسُّدِّي، وقتادة، وابن جُرَيْج: ﴿وَلِبَاسُ الْقَوَىٰ﴾: الإيمان. وقال العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿وَلِبَاسُ الْقَوَىٰ﴾: العمل الصالح. وقال زياد بن عمرو، عن ابن عباس: هو السميت الحسن في الوجه. وعن عُزْوة بن الزبير: ﴿وَلِبَاسُ الْقَوَىٰ﴾: خشية الله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَلِبَاسُ الْقَوَىٰ﴾: يتقي الله، فيواري عورته، فذلك لباس التقوى. وكل هذه متقاربة، ويؤيد ذلك الحديث الذي رواه ابن جرير حيث قال: حدثني المثنى، حدثنا إسحاق بن الحجاج، حدثنا إسحاق بن إسماعيل، عن سليمان بن أرقم، عن الحسن قال: رأيت عثمان بن عفان، رضي الله عنه، على منبر رسول الله ﷺ عليه قميص قُوهي محلول الزر، وسمعته يأمر بقتل الكلاب، وينهى عن اللعب بالحمام. ثم قال: يا أيها الناس، اتقوا الله في هذه السرائر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفس محمد بيده، ما عمل أحد قط سراً إلا ألبسه الله رداءً علانية، إن خيراً فخير وإن شراً فشر». ثم تلا هذه الآية: ﴿وَرِيشًا﴾ - ولم يقرأ: وریشاً - ﴿وَلِبَاسُ الْقَوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ﴾ قال: «السميت الحسن». هكذا رواه ابن جرير من رواية سليمان بن أرقم، وفيه ضعف. وقد روى الأئمة: الشافعي، وأحمد، والبخاري في كتاب «الأدب» من طرق صحيحة، عن الحسن البصري؛ أنه سمع أمير المؤمنين عثمان بن عفان يأمر بقتل الكلاب وذبح الحمام، يوم الجمعة على المنبر. وأما المرفوع منه، فقد روى الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير له شاهداً من وجه آخر، حيث قال: حدثنا...

﴿بَيْنَىٰ ءَادَمَ لَا يَفْتَنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ هُوَ يَقِيلُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَنَّاتُ النَّعِيمِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٧).

يقول تعالى محذراً بني آدم من إبليس وقبيله، ومبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم، عليه السلام، في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم، إلى دار التعب والعناء، والتسبب في هتك عورتها بعدما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَنَتَّجِدُونَهُ وَذَرَيْتَهُ أُولَئِكَ مِنَ الدُّوَيِّ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿وَإِذَا قُلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا مَاءَآءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّمَا قُلْنَا بِالْحَقِّ أَفَأَنْتُمْ تُخْلِعُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَمْلِكُونَ﴾ (٢٨) ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (٢٩) ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٣٠).

قال مجاهد: كان المشركون يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا. فتضع المرأة على فرجها النشعة، أو الشيء وتقول:

اليوم يبْدُو بعْضُهُ أو كَلَّهُ وما بَدَأَ مِنْهُ فلا أَحْلَهُ
فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا مَاءَآءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ الآية. قلت: كانت العرب - ما عدا قريشاً - لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش - وهم الخمس - يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسي ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يملكه أحد، فمن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسي ثوباً، طاف عرياناً. وربما كانت امرأة تطوف عريانة، فتجعل على فرجها شيئاً يستره بعض الشيء وتقول:

اليوم يبْدُو بعْضُهُ أو كَلَّهُ وما بَدَأَ مِنْهُ فلا أَحْلَهُ
وأكثر ما كان النساء يظفن عراة بالليل، وكان هذا شيئاً قد ابتدعه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا قُلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا مَاءَآءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فقال تعالى ردأ عليهم: ﴿قُلْ أَي: قل يا محمد لمن ادعى ذلك: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَةِ﴾ أي: هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة، والله لا يأمر بمثل ذلك ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أنسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته.

وقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والاستقامة، ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها، وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله تعالى، وما جاؤوا به عنه من الشرائع، وبالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، وأن يكون خالصاً من الشرك. وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ - اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ فقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: يحييكم بعد موتكم. وقال الحسن البصري: كما بدأكم في الدنيا، كذلك تعودون يوم القيامة أحياء. وقال قتادة: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال: بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئاً، ثم ذهبوا، ثم يعيدهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما بدأكم أولاً، كذلك يعيدكم آخرأ. واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير، وأيده بما رواه من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج، كلاهما عن المغيرة بن النعمان، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ ثُمَّ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾» [الأنبياء: ١٠٤]. وهذا الحديث مخرُج في الصحيحين، من حديث شعبة، وفي صحيح البخاري - أيضاً - من حديث الثوري به.

وقال وفاء بن إياس أبو يزيد، عن مجاهد: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال: يبعث المسلم مسلماً، والكافر كافراً. وقال أبو العالية: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: رُدُّوا إلى علمه فيهم. وقال سعيد بن جبيرة: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: كما كتب عليكم تكونون. وفي رواية: كما كنتم تكونون عليه تكونون. وقال محمد بن كعب القرظي في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: من ابتداء الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه، وإن عمل بأعمال أهل السعادة، كما أن إبليس عمل بأعمال أهل السعادة، ثم صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه. ومن ابتدئ على السعادة، صار على ما ابتدئ عليه خلقه، إن عمل بأعمال أهل الشقاوة، كما أن السحرة عملت بأعمال أهل الشقاء، ثم صاروا إلى ما ابتدئوا عليه. وقال السدي: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ يقول: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: كما خلقناكم، فريق مهتدون وفريق ضلال، كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تُوَدُّونَ قَرِيبًا هَدًى وَبَرِيًّا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ قال: إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كُفْرًا وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التباين: ٢٢]، ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأهم، مؤمناً وكافراً. قلت: ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري: «فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع - أو: ذراع - فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع - أو: ذراع - فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخل الجنة». وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا علي بن الجعد، حدثنا أبو غسان، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليعمل - فيما يرى الناس - بعمل أهل الجنة، وإنه من أهل النار. وإنه ليعمل - فيما يرى الناس - بعمل أهل النار، وإنه من أهل الجنة، وإنما الأعمال بالخواتيم». هذا قطعة من حديث رواه البخاري من حديث أبي غسان محمد بن مطرف المدني، في قصة «قُزَمان» يوم أحد. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي ﷺ أنه قال: «تُبْعَتْ كُلُّ نَفْسٍ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ». وهذا الحديث رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه، عن الأعمش، به. ولفظه: «يبعث كل عبد على ما مات عليه». قلت: ولا بد من الجمع بين هذا القول - إن كان هو المراد من الآية - وبين قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وما جاء في الصحيحين، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه».

وفي صحيح مسلم، عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم» الحديث. ووجه الجمع على هذا أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر، في ثاني الحال، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده، والعلم بأنه لا إله غيره، كما أخذ عليهم بذلك الميثاق، وجعله في غرائزهم وفطرتهم، ومع هذا قدر أن منهم شقياً ومنهم سعيداً: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كُفْرًا وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التباين: ٢٢]، وفي الحديث: «كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها». وقد ر الله نافذ في بريته، فإنه هو ﴿الَّذِي قَدَّرَ فَهَنُكَ﴾ [الأعلى: ٣]، و ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، وفي الصحيحين: «فأما من كان منكم من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قَرِيبًا هَدًى وَبَرِيًّا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾، ثم علل ذلك فقال: ﴿لَئِنْهُمْ أَخَذُوا الشَّيْطَانُ أَوْلِيَاءَ يَنْذِرُ اللَّهُ لَهُمْ سَبْعِينَ نَجْمًا فِي السَّمَاءِ﴾. قال ابن جرير: وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها، فيركبها عناداً منه لربه فيها؛ لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل وهو يحسب أنه هاد، وفريق الهدى، فرق. وقد فرق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية الكريمة.

﴿يَنْذِرُ يَوْمَ يَأْتِي السَّمَاءُ دُخَانًا وَيُبْشِرُ بِالنَّارِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآيَاتِ وَالْآيَاتِ الْكُرْمَةِ﴾.

هذه الآية الكريمة رد على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراً، كما رواه مسلم والنسائي وابن جرير - واللفظ له - من حديث شعبة، عن سلمة بن كهيل، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبّير، عن ابن عباس قال: كانوا يطوفون بالبيت عراً، الرجال والنساء: الرجال بالنهار، والنساء بالليل. وكانت المرأة تقول:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَأَ مِنْهُ فَلَا أَجَلَ

فقال الله تعالى: ﴿عُدُّوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿عُدُّوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الآية، قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراً، فأمرهم الله بالزينة - والزينة: اللباس، وهو ما يوارى السوءة، وما سوى ذلك من جَدِّ البَرِّ والمتاع - فأمرُوا أَنْ يَأْخُذُوا زِينَتَهُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ. وكذا قال مجاهد، وعطاء، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبّير، وقتادة، والسُّدِّي، والضحاك، ومالك عن الزهري، وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها: أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عراً. وقد روى الحافظ ابن مَرْدُويه، من حديث سعيد بن بشير والأوزاعي، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً: أنها أنزلت في الصلاة في النعال. ولكن في صحته نظر، والله أعلم.

ولهذه الآية، وما ورد في معناها من السنة، يستحب التجميل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب لأنه من الزينة، والسواك لأنه من تمام ذلك، ومن أفضل الثياب البياض، كما قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، حدثنا

عبد الله بن عثمان بن حُثَيْمٍ، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم، وإن من خير أكحالكم الإثمد، فإنه يجلو البصر، وينبت الشعر». هذا حديث جيد الإسناد، رجاله على شرط مسلم. ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث عبد الله بن عثمان بن حُثَيْمٍ، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وللإمام أحمد أيضاً، وأهل السنن بإسناد جيد، عن سَمُرَةَ بن جُنْدَب قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالثياب البياض فالبسوها؛ فإنها أطهر وأطيب، وكفنوا فيها موتاكم». وروى الطبراني بسند صحيح، عن قتادة، عن محمد بن سيرين: أن تميم الداري اشترى رداءً بألف، فكان يصلي فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾، قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾. وقال البخاري: قال ابن عباس: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: أحل الله الأكل والشرب، ما لم يكن سرفاً أو مخيلة. إسناده صحيح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا بهز، حدثنا هَمَّام، عن قتادة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا، في غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده». ورواه النسائي وابن ماجه، من حديث قتادة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «كلوا وتصدقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة». وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا سليمان بن سليم الكِنَاني، حدثنا يحيى بن جابر الطائي: سمعت المقدم بن معد يكرب الكندي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، خَسْبُ ابن آدم أكلات يَقْمَنُ صُلْبَهُ، فإن كان فاعلاً لا محالة، فثلث طعام، وثلث شراب، وثلث لنفسه». ورواه النسائي والترمذي، من طرق، عن يحيى بن جابر، به. وقال الترمذي: حسن - وفي نسخة: حسن صحيح. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا سُوَيْد بن عبد العزيز، حدثنا بَقِيَّة، عن يوسف ابن أبي كثير، عن نوح بن ذُكْوَان، عن الحسن، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت». ورواه الدارقطني في الأفراد، وقال: هذا حديث غريب تفرد به بقية. وقال السُّدِّي: كان الذين يطوفون بالبيت عراة، يحرمون عليهم الودك ما أقاموا في الموسم؛ فقال الله تعالى لهم: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ يقول: لا تسرفوا في التحريم. وقال مجاهد: أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ يقول: ولا تأكلوا حراماً، ذلك الإسراف. وقال عطاء الخراساني، عن ابن عباس قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾، في الطعام والشراب. وقال ابن جرير: وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ يقول الله: إن الله تعالى لا يحب المتعدين حذَه في حلال أو حرام، الغالين فيما أحل أو حَرَم، بإحلال الحرام وبتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يحلل ما أحل، ويحرم ما حرم، وذلك العدل الذي أمر به.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَعِلُ الْآيَاتِ لِقَوْرِ يَسْمُونَ﴾ ﴿٣٣﴾.

يقول تعالى رداً على من حَرَم شيئاً من المأكَل والمشارب، والملابس، من تلقاء نفسه، من غير شرع من الله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بأرائهم الفاسدة وابتداعهم: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية، أي: هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا، وإن شركهم فيها الكفار حساً في الدنيا، فهي لهم خاصة يوم القيامة، لا يَشْرِكهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرمة على الكافرين. قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو حُصَيْن محمد بن الحسين القاضي، حدثنا يحيى الجُمَاني، حدثنا يعقوب القُشَبي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة، يصفرون ويصَفَقون. فأنزل الله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ فأمروا بالثياب.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَكَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَسْمُونَ﴾ ﴿٣٤﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شَقِيقِ، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله، فلذلك حَرَّمَ الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله». أخرجاه في الصحيحين، من حديث

فيها كلهم، ﴿قَالَتْ أَتَنْهَى أَزْوَاجَهُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ أي: أأمرهم دخولاً - وهم الأتباع - لأزواجهم - وهم المتبوعون - لأنهم أشد جرماً من أتباعهم، فدخلوا قبلهم، فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة؛ لأنهم هم الذين أضلوه عن سواء السبيل، فيقولون: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا يُجْزَاءُ مِنَ النَّارِ﴾ أي: أضعف عليهم العقوبة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَقُفُّ أَرْجُلُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ بَلَّغْنَا آفَاقَنَا اللَّهُ وَأَطَعْنَا أَرْسُولَهُ﴾ ﴿١١﴾ وقالوا رَبَّنَا إِنَّا أَلَمْنَا سَادَتَنَا وَكِرَاهَنَا فَاضْلُمْنَا السَّبِيلَ ﴿١٢﴾ رَبَّنَا عَنِيتُمْ ضَعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَنَا كَيْدًا ﴿١٣﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨]. وقوله: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: قد فعلنا ذلك وجازينا كلَّ بحسبه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَكَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَذَنَّبُهُمْ عَذَابًا قَوْفٍ إِلَافٍ يَوْمَ يُعِيدُونَ﴾ ﴿١٤﴾ [النحل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَجْعَلَنَّ أَقْبَالَهُمْ وَأَقْبَالَ مَعَ أَقْبَالِهِمْ وَلَيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَنَّا كَانُوا يَفْرُتُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [المنكرات: ١٣] وقال: ﴿وَمَنْ أَوَدَّكَ اللَّهُ يَضِلُّونَهُ بِغَيْرِ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيلُونَ﴾ [النحل: ٢٥]. ﴿وَقَالَتْ أَزْوَاجُهُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ أي: قال المتبوعون للأتباع: ﴿فَمَا كَانَتْ لَكُنَّ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ قال السدي: فقد ضللتكم كما ضللتنا. ﴿فَدَعَوْهُمُ الْعَذَابَ يَمَّا كَثُرَتْ نَكْبَاتُهُمْ﴾، وهذا الحال كما أخبر تعالى عنهم في حال محشرهم، في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَتَوْقِفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٦﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَغْفِرُوا أَفَحُكْمَ مَكْدُونِكُمْ عَنِ الْهَدْيِ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمُ بَلْ كَثُرَ تَجْوِينٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرَأُوا أَتَدَامَةُ لِمَا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْقَلَ فِي أَغْنَايِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٨﴾ [سبا: ٣١-٣٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَتَخَذُ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ أَنْ يَدْعُوا لِلْجَنَّةِ حَتَّىٰ يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَرٍّ لِّغِيَاظٍ وَكَذَلِكَ تَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١٩﴾ ثُمَّ يَنْجَنِي مِهَادٌ مِنْ قَوْفِهِمْ غَوَاثٌ وَكَذَلِكَ تَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٠﴾.

قوله: ﴿لَا تَتَخَذُ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ أَنْ يَدْعُوا لِلْجَنَّةِ حَتَّىٰ يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَرٍّ لِّغِيَاظٍ وَكَذَلِكَ تَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ قيل: المراد: لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء. قاله مجاهد، وسعيد بن جبيرة. ورواه العوفي وعلي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وكذا رواه الثوري، عن ليث، عن عطاء، عن ابن عباس. وقيل: المراد: لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء. رواه الضحاك، عن ابن عباس. وقاله السدي وغير واحد، ويؤيده ما قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا أبو بكر بن عباس، عن الأعمش، عن المنهال - هو ابن عمرو - عن زاذان، عن البراء؛ أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر، وأنه يضرعُ بها إلى السماء، قال: «فيصعدون بها، فلا تمر على ملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان، بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون بابها له فلا يفتح له». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَتَخَذُ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ أَنْ يَدْعُوا لِلْجَنَّةِ حَتَّىٰ يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَرٍّ لِّغِيَاظٍ﴾ الآية. هكذا رواه، وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، من طرق، عن المنهال بن عمرو، به.

وقد رواه الإمام أحمد بطوله فقال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن منهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتبهنا إلى القبر ولما يُلْخَد. فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعينوا بالله من عذاب القبر». مرتين أو ثلاثاً ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وخُتُوط من خُتُوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر. ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان». قال: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الخنوط. ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها فلا يمرون - يعني: بها - على ملائكة من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتاب عبيدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى». قال: «فتعاد روحه، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت. فينادي مناد من السماء: أن صدق عبيدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة». «فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره». قال: «ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء

بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي». قال: «وإن العبد الكافر، إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مَدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب». قال: «فَتَفَرَّقَ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يَنْتَزِعُ السُّقُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمَسْوُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ جَيْفَةٍ وَجَدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمْرُونَ بِهَا عَلَى مَلَأَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانِ ابْنِ فَلَانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يَسْمَى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يَفْتَحُ. ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَا تَنْفَعُكُمْ آلُكُمْ وَلَا يَدْعُوكُمُ الْجَنَّةُ حَتَّى يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَرِّ الْخَبَاءِ﴾، فيقول الله، ﷻ: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى. فتطرح روحه طراحاً». ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ كَانَتْ هَوَارَ مِنْهُ السَّمَاءُ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ﴾ [الحج: ٣١]. «فتعماد روحه في جسده. ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاهاه! لا أدري. فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاهاه! لا أدري. فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاهاه! لا أدري. فينادي مناد من السماء: أن كذب، فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار. فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت تعد فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر. فيقول: أنا عملك الخبيث. فيقول: رب لا تقم الساعة».

وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَرٌ، عن يونس بن خَبَّابٍ، عن الينهاال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة، فذكر نحوه. وفيه: «حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وفتحت له أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله، ﷻ، أن يعرج بروحه من قبلهم». وفي آخره: «ثم يقبض له أعمى أصم أبكم، في يده مَرْزِيَّةٌ لو ضرب بها جبل كان تراباً، فيضربه ضربة فيصير تراباً، ثم يعيده الله، ﷻ، كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصير صحيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين». قال البراء: «ثم يفتح له باب من النار، ويمهد له من فرش النار».

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد، والنسائي، وابن ماجه وابن جرير - واللفظ له - من حديث محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس المطمئنة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حَمِيدَةً، وأبشري بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ، ورب غير غضبان، فيقولون ذلك حتى يُعْرَجَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيَسْتَفْتَحُ لَهَا، فَيَقُولُونَ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانٍ. فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ، ورب غير غضبان، فيقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله، ﷻ. وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذَمِيمَةً، وأبشري بِحَمِيمٍ وَغَسَاقٍ، وآخر من شكله أزواج، فيقولون ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها، فيقال: مَنْ هَذَا؟ فيقولون: فَلَانٍ. فيقولون: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لم تفتح لك أبواب السماء، فترسل بين السماء والأرض، فتصير إلى القبر». وقد قال ابن جَرِيحٍ في قوله: ﴿لَا تَنْفَعُكُمْ آلُكُمْ وَلَا تَدْعُوكُمُ الْجَنَّةُ حَتَّى يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَرِّ الْخَبَاءِ﴾ قال: لا تفتح لأعمالهم، ولا لأرواحهم. وهذا فيه جمع بين القولين، والله أعلم.

وقوله: ﴿لَا يَدْعُوكُمُ الْجَنَّةُ حَتَّى يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَرِّ الْخَبَاءِ﴾ هكذا قرأه الجمهور، وفسروه بأنه البعير. قال ابن مسعود: هو الجمل ابن الناقة. وفي رواية: زوج الناقة. وقال الحسن البصري: حتى يدخل البعير في خُرْقِ الإبرة. وكذا قال أبو العالية، والضحاك. وكذا روى علي بن أبي طلحة، والعمري عن ابن عباس. وقال مجاهد، وعكرمة، عن ابن عباس: أنه كان يقرؤها: «حتى يلج الجمل في سم الخيام» بضم الجيم، وتشديد الميم، يعني: الحبل الغليظ في خرم الإبرة. وهذا اختيار سعيد بن جبير. وفي رواية أنه قرأ: «حتى يلج الجمل» يعني: قُلُوسُ السَّفَنِ، وهي الحبال الغلاظ. وقوله: ﴿لَمْ يَنْ جَهَنَّمَ مَهَادٌ وَمِنْ قَوْعِهِمْ غَوَاشٍ﴾ قال محمد بن كعب القرظي: «لَمْ يَنْ جَهَنَّمَ مَهَادٌ» قال: الفرش، «وَمِنْ قَوْعِهِمْ غَوَاشٍ» قال: اللُحْفُ. وكذا قال الضحاك بن مزاحم، والسُّدِّي، وَكَذَلِكَ تَجْرَى الطَّلِيلِينَ».

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا يَكُفُّ عَنْهُمْ إِلَّا وَهُمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَحْنُ مَا فِي سُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا لِمَ هَذَا لِلَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ مِمَّنَّا

يَا لَيْتِي وَنُودُوا أَنْ يُلَکُمْ الْجَنَّةُ أَوْ رِشْتُوها بِمَا كُنتُمْ تَمَلُکُونَ ﴿٤٢﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء، عطف بذكر حال السعداء، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم، ضد أولئك الذين كفروا بآيات الله، واستكبروا عنها. ونبه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل؛ لأنه تعالى قال: ﴿لَا تَكُفَّ نَفْسًا إِلَّا وَسْمَعًا أَوْ لَهْفًا﴾ أَمْسَحَ الْجَنَّةُ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٣﴾ وَرَزَقْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَيْرٍ ﴿٤٤﴾ أي: من حسد وبغضاء، كما جاء في الصحيح للبخاري، من حديث قتادة، عن أبي المتوكل الناجي، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خلس المؤمنون من النار حُسِسُوا على قطرة بين الجنة والنار، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِبُوا ونفوا، أذن لهم في دخول الجنة؛ فوالذي نفسي بيده، إن أحدهم بمنزله في الجنة أدل منه بمسكنه كان في الدنيا». وقال السدي في قوله: ﴿وَرَزَقْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَيْرٍ﴾ أي: تَجَرَّي مِنْ تَحْتِهِمْ أَلْأَنْهَارُ ﴿٤٥﴾ الآية: إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة فبلغوا، وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان، فشربو من إحدهما، فينزح ما في صدورهم من غل، فهو «الشراب الطهور»، واغتسلوا من الأخرى، فجرت عليهم «نضرة النعيم» فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبداً. وقد روى أبو إسحاق، عن عاصم، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب نحواً من ذلك، كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى الَّذِينَ آمَنُوا رَهِيمًا إِلَى الْجَنَّةِ زُجْرًا﴾ [الزمر: ٧٣]، إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

وقال قتادة: قال علي، رضي الله عنه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَرَزَقْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَيْرٍ﴾. رواه ابن جرير. وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة، عن إسرائيل قال: سمعت الحسن يقول: قال علي: فينا والله أهل بدر نزلت: ﴿وَرَزَقْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَيْرٍ﴾. وروى النسائي وابن مَرْزُوبِه - واللفظ له - من حديث أبي بكر بن عياش، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني، فيكون له شكراً. وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني، فيكون له حسرة». ولهذا لما أورشوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا: ﴿أَنْ يُلَکُمْ الْجَنَّةُ أَوْ رِشْتُوها بِمَا كُنتُمْ تَمَلُکُونَ﴾ أي: بسبب أعمالكم نالكم الرحمة فدخلتم الجنة، وتبوأت منازلكم بحسب أعمالكم. وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ: «واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتخلفني الله برحمته منه وفضل».

﴿وَأَذَانٌ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِنَّهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الزمر: ٦٦] الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٦﴾

يخبر تعالى بما يخاطب أهل الجنة أهل النار إذا استقروا في منازلهم، وذلك على وجه التقرير والتوبيخ: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ أي: قالوا لهم: «قد» للتحقيق، و «قد» لهم: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ كما أخبر تعالى في سورة «الصفات» عن الذي كان له قرين من الكفار: ﴿فَأَمْلَأْ فَرَادَ فِي سَوَاءِ الْحَجِيرِ ٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتُ لِأَتُوبَ ٥٦ وَلَوْلَا بَغْضَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّخِذِينَ ٥٧ أَمَّا نَحْنُ بِمَبِيتٍ ٥٨ إِلَّا مَوَلَّتْنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ٥٩﴾ [الصفات: ٥٥-٥٩] أي: ينكر عليه مقالته التي يقولها في الدنيا، ويرقره بما صار إليه من العذاب والنكال، وكذا تفرعهم الملائكة يقولون لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ٦٠﴾ أَسِخِرْ هَذَا أَمْ أَنْتَ لَا تَبْصُرُونَ ٦١ أَسْأَلُوها فَاسْتَبْرَأُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءَ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْجَرُونَ مَا كُنتُمْ تَمَلُکُونَ ٦٢﴾ [الطور: ١٤-١٦]. وكذلك قرع رسول الله ﷺ قتلى القليب يوم بدر، فنادى: «يا أبا جهل بن هشام، ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبه بن ربيعة - وسمى رؤوسهم - هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً». وقال عمر: يا رسول الله، تخاطب قوماً قد جيفوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا».

وقوله: ﴿فَأَذَانٌ مَوْذُونٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: أعلم معلم ونادى مُنَاد: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي: مستقرة عليهم. ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء، ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة، حتى لا يتبعها أحد. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ أي: وهم ببقاء الله في الدار الآخرة كافرون، أي: جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به. فلهذا لا يبالون بما يتون من منكر من القول والعمل؛ لأنهم لا يخافون حساباً عليه، ولا عقاباً فهم شر الناس أعمالاً وأقوالاً.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَكَادُوا أَنْصَبَ الْحَمَّةَ أَنْ سَلِمَ عَلَيْكُمْ لَوْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَلْمُوهُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار، ثبته أن بين الجنة والنار حجاباً، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة. قال ابن جرير: وهو السور الذي قال الله تعالى: ﴿فَصَرَبَ بِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْ يَدْخُلُوا فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَلَهُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]. وهو الأعراف الذي قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾. ثم روى بإسناده عن السدي أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ وهو «السور»، وهو «الأعراف». وقال مجاهد: الأعراف: حجاب بين الجنة والنار، سور له باب. قال ابن جرير: والأعراف جمع «عُرْف»، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى «عُرْفاً»، وإنما قيل لعرف الديك عُرْفاً لارتفاعه. وحدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا ابن عيينة، عن عُبيد الله بن أبي يزيد، سمع ابن عباس يقول: الأعراف: هو الشيء المشرف. وقال الثوري، عن جابر، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: الأعراف: سور كعُرْف الديك. وفي رواية عن ابن عباس: الأعراف، تل بين الجنة والنار، حبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار. وفي رواية عنه: هو سور بين الجنة والنار. وكذلك قال الضحاك وغير واحد من علماء التفسير. وقال السدي: إنما سمي «الأعراف» أعرافاً؛ لأن أصحابه يعرفون الناس. واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم، وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم. نص عليه حذيفة، وابن عباس، وابن مسعود، وغير واحد من السلف والخلف، رحمهم الله. وقد جاء في حديث مرفوع رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْزُوق: حدثنا عبد الله بن إسماعيل، حدثنا عبيد بن الحسين، حدثنا سليمان بن داود، حدثنا النعمان بن عبد السلام، حدثنا شيخ لنا يقال له: أبو عباد، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر بن عبد الله قال: سئل رسول الله ﷺ عن استوت حسناته وسيئاته، فقال: «أولئك أصحاب الأعراف، لم يَدْخُلُوا وَهُمْ يَطْمَعُونَ». وهذا حديث غريب من هذا الوجه، ورواه من وجه آخر، عن سعيد بن سلمة بن أبي الحسام، عن محمد بن المنكدر عن رجل من مزينة قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف، فقال: «إنهم قوم خرجوا عصاة بغير إذن آبائهم، فقتلوا في سبيل الله». وقال سعيد بن منصور: حدثنا أبو مَعْشَر، حدثنا يحيى بن شبيل، عن يحيى بن عبد الرحمن المزني، عن أبيه قال: سئل رسول الله ﷺ عن «أصحاب الأعراف» فقال: «هم ناس قتلوا في سبيل الله بمعصية آبائهم، فمنعهم من دخول الجنة معصية آبائهم ومنعهم النار قتلهم في سبيل الله». هكذا رواه ابن مَرْزُوق، وابن جرير، وابن أبي حاتم من طرق، عن أبي معشر به. وكذلك رواه ابن ماجه مرفوعاً، من حديث ابن عباس وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما، والله أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة وقصاراتها أن تكون موقوفة وفيه دلالة على ما ذكر.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا حصين، عن الشعبي، عن حذيفة؛ أنه سئل عن أصحاب الأعراف، قال: فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة، وخُلِّفَ بهم حسناتهم عن النار. قال: فوقفوا هناك على السور حتى يقضي الله فيهم. وقد رواه من وجه آخر أبسط من هذا فقال: حدثنا ابن حُمَيْد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا يونس بن أبي إسحاق قال: قال الشعبي: أرسل إلي عبد الحميد بن عبد الرحمن - وعنده أبو الزناد عبد الله بن دُكَّوَان مولى قريش - وإذا هما قد ذكرا من أصحاب الأعراف ذكراً ليس كما ذكرا، فقلت لهما: إن شئتما أنبأكما بما ذكر حذيفة، فقالا: هات. فقلت: إن حذيفة ذكر أصحاب الأعراف فقال: هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار، وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة، فإذا صُرفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، فبينما هم كذلك، اطلع عليهم ربك فقال لهم: اذهبوا فادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم.

وقال عبد الله بن المبارك، عن أبي بكر الهذلي قال: قال سعيد بن جبيرة، وهو يحدث ذلك عن ابن مسعود قال: يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار. ثم قرأ قول الله: ﴿مَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِسُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَيْرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣]، ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح، قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف، فوقفوا على الصراط، ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا: سلام عليكم، وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم نظروا أصحاب النار قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، فتعذروا بالله من منازلهم. قال: فأما أصحاب الحسنات، فإنهم يعطون نوراً فيمشون به بين أيديهم وبأيمنهم، ويعطى كل عبد يومئذ نوراً، وكل أمة نوراً، فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة. فلما

رأى أهل الجنة ما لقي المتأفكون قالوا: ﴿رَبَّنَا أَتَيْتُمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحریم: ٨]. وأما أصحاب الأعراف، فإن النور كان في أيديهم فلم ينزع، فهناك يقول الله تعالى: ﴿لَرَّ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَلْمُزُونَ﴾، فكان الطمع دخلاً. قال: وقال ابن مسعود: على أن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة. ثم يقول: هلك من غلبت واحدته أعشاره. رواه ابن جرير، وقال أيضاً: حدثني ابن وكيع وابن حميد قالا: حدثنا جرير، عن منصور، عن حبيب بن أبي ثابت، عن عبد الله بن الحارث، عن ابن عباس قال: «الأعراف»: السور الذي بين الجنة والنار، وأصحاب الأعراف بذلك المكان، حتى إذا بدا الله أن يعافيه، أنطلق بهم إلى نهر يقال له: «الحياة»، حافته قصب الذهب، مكلل بالؤلؤ، ترابه المسك، فالتقوا فيه حتى تصلح ألوانهم، وتبدو في نحورهم بيضاء يعرفون بها، حتى إذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال: تمنوا ما شئتم فيتمنون، حتى إذا انقطعت أميتهم قال لهم: لكم الذي تمنيتم ومثله سبعون ضعفاً. فيدخلون الجنة وفي نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها، يسمون مساكين أهل الجنة. وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن يحيى بن المغيرة، عن جرير، به. وقد رواه سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن مجاهد، عن عبد الله بن الحارث، من قوله. وهذا أصح، والله أعلم. وهكذا روي عن مجاهد والضحاك وغير واحد. وقال سنييد بن داود: حدثني جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي رزعة بن عمرو بن جرير قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف قال: «هم آخر من يفصل بينهم من العباد، فإذا فرغ رب العالمين من فصله بين العباد قال: أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار، ولم تدخلوا الجنة، فأنتم عتائي، فارعوا من الجنة حيث شئتم». وهذا مرسل حسن.

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة «الوليد بن موسى»، عن منبه بن عثمان، عن عروة بن زؤيم، عن الحسن، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ أن مؤمني الجن لهم ثواب وعليهم عقاب، فسألناه عن ثوابهم، فقال: «على الأعراف، وليسوا في الجنة مع أمة محمد ﷺ». فسألناه: وما الأعراف؟ فقال: «حائط الجنة تجري فيه الأنهار، وتنبت فيه الأشجار والثمار». رواه البيهقي، عن ابن بشران، عن علي بن محمد المصري، عن يوسف بن يزيد، عن الوليد بن موسى، به. وقال سفيان الثوري، عن خُصيف، عن مجاهد قال: أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء. وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُليّة، عن سليمان التيمي، عن أبي مجلز في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾ قال: هم رجال من الملائكة، يعرفون أهل الجنة وأهل النار، قال: ﴿وَنَادَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَرَّ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَلْمُزُونَ﴾ وإذا صُرِفَتْ أَبْصَرْتُمْ بِلِقَاءِ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَا أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا فِي السَّارِ يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَفْقَى عَنْكُمْ جَهَنَّمَ وَمَا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ أَهْلُكَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ قَال: فهذا حين دخل أهل الجنة الجنة: ﴿أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. وهذا صحيح إلى أبي مجلز لاحق بن حميد أحد التابعين، وهو غريب من قوله وخلاف الظاهر من السياق: وقول الجمهور مقدم على قوله، بدلالة الآية على ما ذهبوا إليه. وكذا قول مجاهد: إنهم قوم صالحون علماء فقهاء، فيه غرابة أيضاً. والله أعلم. وقد حكى القرطبي وغيره فيهم اثني عشر قولاً منها: أنهم شهدوا أنهم صلحاء تفرعوا من فرع الآخرة، دخلوا يطمعون على أخبار الناس. وقيل: هم أنبياء. وقيل: ملائكة.

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه، وأهل النار بسواد الوجوه. وكذا روى الضحاك، عنه. وقال العوفي، عن ابن عباس: أنزلهم الله بتلك المنزلة، ليعرفوا من في الجنة والنار، وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه، ويتعوزوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين. وهم في ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام، لم يدخلوها، وهم يطمعون أن يدخلوها، وهم داخلوها إن شاء الله. وكذا قال مجاهد، والضحاك، والسدي، والحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال مَعْمَر، عن الحسن: إنه تلا هذه الآية: ﴿لَرَّ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَلْمُزُونَ﴾ قال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم، إلا لكرامة يريدها بهم. وقال قتادة: قد أنباكم الله بمكانهم من الطمع.

وقوله: ﴿وإذا صُرِفَتْ أَبْصَرْتُمْ بِلِقَاءِ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، قال الضحاك، عن ابن عباس: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم، قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. وقال السدي: وإذا مروا بهم - يعني بأصحاب الأعراف - بزمرة يذهب بها إلى النار قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. وقال عكرمة: تحدد وجوههم في النار، فإذا رأوا أصحاب الجنة ذهب ذلك عنهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وإذا صُرِفَتْ أَبْصَرْتُمْ بِلِقَاءِ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وأعينهم مزرقة، وأعينهم مزرقة،

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِبَاكَ لَا يَرْفَعُ رَجُلٌ مِّنَّا مَا أَغْنَىٰ عَنْكَ جَمْعُكَ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهْلُؤَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن تفرغ أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم، يعرفونهم في النار بسيماهم: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ أَي: كثرتكم، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله، بل صرتم إلى ما صرتم فيه من العذاب والنكال.

﴿أَهْلُؤَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: أصحاب الأعراف ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سعد، حدثني أبي، حدثني عمي، حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ الآية، قال: فلما قالوا لهم الذي قضى الله أن يقولوا - يعني أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار - قال الله تعالى لأهل التكبر والأموال: ﴿أَهْلُؤَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. وقال حذيفة: إن أصحاب الأعراف قوم تكافأت أعمالهم، فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة، وقصرت بهم سيئاتهم عن النار، فجعلوا على الأعراف، يعرفون الناس بسيماهم، فلما قضى الله بين العباد أذن لهم في طلب الشفاعة، فأتوا آدم فقالوا: يا آدم، أنت أبونا، فاشفع لنا عند ربك. فقال: هل تعلمون أن أحداً خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وسبقت رحمته إليه غضبه، وسجدت له الملائكة غيري؟ فيقولون: لا. قال: فيقول: ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم، ولكن اتنوا ابني إبراهيم. فيأتون إبراهيم عليه السلام، فيسألونه أن يشفع لهم عند ربهم، فيقول: هل تعلمون من أحد اتخذ الله خليلاً؟ هل تعلمون أن أحداً أحرقة قومه في النار في الله غيري؟ فيقولون: لا. فيقول: ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم. ولكن اتنوا ابني موسى. فيأتون موسى عليه السلام، فيقولون: اشفع لنا عند ربك، فيقول: هل تعلمون من أحد كلمه الله تكليماً وقربه نجياً غيري؟ فيقولون: لا، فيقول: ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم، ولكن اتنوا عيسى. فيأتونه، عليه السلام، فيقولون له: اشفع لنا عند ربك. فيقول: هل تعلمون أحداً خلقه الله من غير أب غيري؟ فيقولون: لا. فيقول: هل تعلمون من أحد كان يرى الأكمة والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله غيري؟ قال: فيقولون: لا. فيقول: أنا حجيج نفسي. ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم. ولكن اتنوا محمداً صلى الله عليه وسلم. فيأتونني، فأضرب بيدي على صدري، ثم أقول: أنا لها. ثم أمشي حتى أقف بين يدي العرش، فأتني ربي صلى الله عليه وسلم، فيفتح لي من الثناء ما لم يسمع السامعون بمثله قط، ثم أسجد فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسي، فأقول: ربي أمتي. فيقول: هم لك. فلا يبقى نبي مرسل، ولا ملك مقرب، إلا غبطني بذلك المقام، وهو المقام المحمود. فأتني بهم الجنة، فاستفتح فيفتح لي ولهم، فيذهب بهم إلى نهر يقال له: نهر الحيوان، حافته قصب مكلل بالؤلؤ، تراه المسك، وحصاؤه الباقوت. فيغتسلون منه، فتعود إليهم ألوان أهل الجنة، وريح أهل الجنة، فيصيرون كأنهم الكواكب الدرية، ويبقى في صدورهم شامات بيض يعرفون بها، يقال لهم: مساكين أهل الجنة.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَيْسَ وَعْرَتُهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا قَالِيزِمٌ نَّسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾.

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شربهم وطعامهم، وأنهم لا يجابون إلى ذلك. قال السدي: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ يعني: الطعام وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: يستطعمونهم ويستسقونهم. وقال الثوري، عن عثمان الثقفي، عن سعيد بن جبيرة في هذه الآية قال: ينادي الرجل أباه أو أخاه فيقول: قد احترقت، افض علي الماء. فيقال لهم: أجيئهم. فيقولون: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. وروي من وجه آخر عن سعيد، عن ابن عباس، مثله سواء. وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يعني: طعام الجنة وشربها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نصر بن علي، أخبرنا موسى بن المغيرة، حدثنا أبو موسى الصغار في دار عمرو بن مسلم قال: سألت ابن عباس - أو: سئل - أي الصدقة أفضل؟ فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفضل الصدقة الماء، ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله». وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن أبي صالح قال: لما مرض أبو طالب قالوا له: لو أرسلت إلى ابن أخيك هذا، فيرسل إليك بعقود من الجنة، لعله أن يشفيك به. فجاءه الرسول وأبو بكر عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال أبو بكر: إن الله حرهما على الكافرين. ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا في اتخاذهم الدين لهواً ولعباً، واغترارهم بالدنيا وزينتها

وزخرفها عما أمروا به من العمل للدار الآخرة.

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أي: نعاملهم معاملة من نسيتهم؛ لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه، كما قال تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَحْصِلُ رَدٌّ وَلَا يَنْصِي﴾ [طه: ٥٢]. وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة، كما قال: ﴿سُئِلُوا اللَّهَ فَنَسِيهُمُ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال: ﴿كَذَلِكَ أَنْتَكَ آيَاتُنَا فَنَسِيهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي﴾ [طه: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكَ كَمَا نَسِيتُ لِقَاءَ يَوْمِكَ هَذَا﴾ [الجنات: ٣٤]. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ قال: نسيتهم الله من الخير، ولم ينسهم من الشر. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: نتركهم، كما تركوا لقاء يومهم هذا. وقال مجاهد: نتركهم في النار. وقال السدي: نتركهم من الرحمة، كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا. وفي الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذكرك تراس وتزنيق؟ فيقول: بلى. فيقول: أظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول الله: فاليوم أنساك كما نسيتني».

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَفَاسَدُوا عَلَى عِلْمٍ مُدَّى وَجَّهَ لِقَوْمِهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ شَرُّوا مِنْ قَبْلِ قَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلٌ مِّنَ اللَّهِ فَآذَوْهُمُ فَأَسَافُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نَنسِفُكَ كَمَا نَسِيتُ لِقَاءَ يَوْمِكَ هَذَا﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال: ﴿كَذَلِكَ أَنْتَكَ آيَاتُنَا فَنَسِيهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي﴾ [طه: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكَ كَمَا نَسِيتُ لِقَاءَ يَوْمِكَ هَذَا﴾ [الجنات: ٣٤]. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ قال: نسيتهم الله من الخير، ولم ينسهم من الشر. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: نتركهم، كما تركوا لقاء يومهم هذا. وقال مجاهد: نتركهم في النار. وقال السدي: نتركهم من الرحمة، كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا. وفي الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذكرك تراس وتزنيق؟ فيقول: بلى. فيقول: أظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول الله: فاليوم أنساك كما نسيتني».

يقول تعالى مخبراً عن إعداده إلى المشركين بإرسال الرسول إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول، وأنه كتاب مفصل مبين، كما قال تعالى: ﴿يَكْتُبُ أَمْرَكَ مَا يَشَاءُ ثُمَّ يُفَصِّلُ مِنْهُ لِقَوْمِهِمْ خَيْرٌ﴾ الآية [مود: ١]. وقوله: ﴿فَصَلَّنَا عَلَى عِلْمٍ﴾ أي: على علم منا بما فصلناه به، كما قال تعالى: ﴿أَنزَلْنَا بِطُورِ سِينَاءٍ﴾ [النساء: ١٦٦]. قال ابن جرير: وهذه الآية مردودة على قوله: ﴿يَكْتُبُ أَمْرَكَ مَا يَشَاءُ ثُمَّ يُفَصِّلُ مِنْهُ لِقَوْمِهِمْ خَيْرٌ﴾ الآية [الأعراف: ٢٧]. ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَفَاسَدُوا عَلَى عِلْمٍ﴾ الآية. وهذا الذي قاله فيه نظر، فإنه قد طال الفصل، ولا دليل على ذلك، وإنما لما أخبر عما صاروا إليه من الخسار في الدار الآخرة، ذكر أنه قد أزاح عنهم في الدار الدنيا، بإرسال الرسل، وإنزل الكتب، كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى بَعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]؛ ولهذا قال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي: ما وعد من العذاب والنكال والجنة والنار. قاله مجاهد وغير واحد. وقال مالك: ثوابه. وقال الربيع: لا يزال يجيء تأويله أمر، حتى يتم يوم الحساب، حتى يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيتم تأويله يومئذ. ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ أي: يوم القيامة، قاله ابن عباس - ﴿يَقُولُ الَّذِينَ شَرُّوا مِنْ قَبْلِ قَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلٌ مِّنَ اللَّهِ فَآذَوْهُمُ فَأَسَافُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نَنسِفُكَ كَمَا نَسِيتُ لِقَاءَ يَوْمِكَ هَذَا﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال: ﴿كَذَلِكَ أَنْتَكَ آيَاتُنَا فَنَسِيهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي﴾ [طه: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكَ كَمَا نَسِيتُ لِقَاءَ يَوْمِكَ هَذَا﴾ [الجنات: ٣٤]. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ قال: نسيتهم الله من الخير، ولم ينسهم من الشر. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: نتركهم، كما تركوا لقاء يومهم هذا. وقال مجاهد: نتركهم في النار. وقال السدي: نتركهم من الرحمة، كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا. وفي الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذكرك تراس وتزنيق؟ فيقول: بلى. فيقول: أظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول الله: فاليوم أنساك كما نسيتني».

﴿إِنَّ رَبَّكَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُبْدِي السَّاعَةَ وَاللَّيْلُ وَالنَّجْمُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْجُودُ مَسْكُونٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٥٣).

يخبر تعالى بأنه خلق هذا العالم: سماواته وأرضه، وما بين ذلك في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة - وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم، عليه السلام. واختلفوا في هذه الأيام: هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان؟ أو كل يوم كالف سنة، كما نص على ذلك مجاهد، والإمام أحمد بن حنبل، ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس؟ فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت، وهو القطع. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال: حدثنا حجاج، حدثنا ابن جريج، أخبرني إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع - مولى أم سلمة - عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل». فقد رواه مسلم بن الحجاج في صحيحه والنسائي من غير وجه، عن حجاج - وهو ابن محمد الأعور - عن ابن جريج به، وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال في ستة أيام؛ ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبي هريرة، عن كعب الأحبار، ليس مرفوعاً، والله أعلم.

وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْوَحْشِ﴾، فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً، ليس هذا موضع بسطها، وإنما يسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه وغيرهم، من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، بل الأمر كما قال الأئمة - منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري -: «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر». وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى. وقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُ آيِلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُ﴾ أي: يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، أي: سريعاً لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، كما قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُمْ آيِلٌ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارُ فَإِذَا هُم مَّظْلُومُونَ﴾ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَقَدَرْتَهُ مِزَازَ حَقٍّ عَادٍ كَالْعُرْوَةِ الْقَدِيرِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آيِلُ سَابِقَ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) يس: ٣٧-٤٠. فقلوه: ﴿وَلَا آيِلُ سَابِقَ النَّهَارِ﴾ أي: لا يفوته بوقت يتأخر عنه، بل هو في أثره لا واسطة بينهما؛ ولهذا قال: ﴿يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُتَحَرِّزَتَيْنِ﴾ - منهم من نصب، ومنهم من رفع، وكلاهما قريب المعنى، أي: الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته؛ ولهذا قال منبهاً: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَلْهَ؟﴾ أي: له الملك والتصرف، ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (٦١) [الفرقان: ٦١]. وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا هشام أبو عبد الرحمن، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، حدثنا عبد الغفار بن عبد العزيز الأنصاري، عن عبد العزيز الشامي، عن أبيه - وكانت له صحبة - قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح، وحمد نفسه، فقد كفر وحبط عمله. ومن زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئاً، فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه؛ لقوله: ﴿وَالْأَلْهَ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. وفي الدعاء المأثور، عن أبي الدرداء - وروي مرفوعاً -: «اللهم لك الملك كله، والحمد كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله».

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ﴾ (٥٥) وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِسْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦).

أرشد سبحانه وتعالى عباده إلى دعائه، الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم، فقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، قيل: معناه: تذلاً واستكانة، و«خفية»، كما قال: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَدُونَ ذَلِكَ مِنَ الْقَوْلِ بِالتَّوَدُّ وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَاعِلِينَ﴾ (٥٥) [الأعراف: ٢٠٥]، وفي الصحيحين، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، ازمتوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إن الذي تدعونه سميع قريب». الحديث. وقال ابن جُرَيْج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس في قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، قال: السر. وقال ابن جرير: ﴿تَضَرُّعًا﴾: تذلاً واستكانة لطاعته. و«خُفْيَةً» يقول: بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه، لا جهاراً ومراءاة. وقال عبد الله بن المبارك، عن المبارك بن فضالة، عن الحسن قال: إن كان الرجل لقد جمع القرآن، وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير، وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزُّور وما يشعرون به. ولقد أدرتنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر، فيكون علانية أبداً. ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ﴾ (٥٥)، وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ يَأْتِيَهُ خَافِيَا﴾ (١٣) [مریم: ١٣]. وقل ابن جُرَيْج: يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء، ويؤمر بالترضع والاستكانة، ثم روى عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ﴾: في الدعاء ولا في غيره. وقال أبو مجليز: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ﴾: لا يسأل منازل الأنبياء.

وقال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا شعبة، عن زياد ابن مخرق، سمعت أبا نعمة، عن مولى لسعد؛ أن سعداً سمع ابنه يدعو وهو يقول: اللهم، إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحواً من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها. فقال: لقد سألت الله خيراً كثيراً، وتعوذت بالله من شر كثير، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء». وقرأ هذه الآية: ﴿أَعُوذُ بِكُمْ نَصْرًا وَخَفِيَّةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٥٥)، وإن بحسبك أن تقول: «اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل».

ورواه أبو داود، من حديث شعبة، عن زياد بن مخراق، عن أبي نَعَمَةَ، عن ابن لسعد، عن سعد، فذكره، والله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا الجريري، عن أبي نَعَمَةَ: أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم، إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: يا بني، سل الله الجنة، وعذبه من النار؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور». وهكذا رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عفان به. وأخرجه أبو داود، عن موسى بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، عن سعيد بن إياس الجريري، عن أبي نَعَمَةَ - واسمه: قيس ابن عباية الحنفي البصري - وهو إسناده حسن لا بأس به، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾: ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أضربه بعد الإصلاح! فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك، كان أضرم ما يكون العباد. فنهى الله تعالى عن ذلك، وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه، فقال: ﴿وَأَعُوذُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفاً مما عنده من وبيل العقاب، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب. ثم قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِمَّنِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: إن رحمته مُزْدَدَةٌ للمحسنين، الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَاسْتَجِبْ لِلَّذِينَ يَدْعُونَكَ إِلَى التَّوْبَةِ وَالَّذِينَ هُمْ بِإِيمَانِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ إِلَى التَّوْبَةِ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]. وقال: ﴿قَرِيبٌ﴾، ولم يقل: «قريبة»؛ لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إلى الله، فلهذا قال: قريب من المحسنين. وقال مطر الوراق: تَنَجَّزُوا موعود الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين، رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيِّنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَثَلَّتْ سَحَابًا بِقَالَا سَقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيْمَنٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُفِخُ الْنُفُوفَ لِمَنَّا تَذَكُّرُونَ﴾ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُفِخُ الْفُتُوحَ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ (٥٨).

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض، وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر، وأرشد إلى دعائه؛ لأنه على ما يشاء قادر. نبه تعالى على أنه الرزاق، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشرا﴾ أي: ناشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، ومنهم من قرأ ﴿بَشْرًا﴾، كقوله: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرِينَ﴾ [الروم: ٤٦]. وقوله: ﴿بَيِّنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: بين يدي المطر، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]. وقال: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ الْأَرْضَ بِعَدَمِ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَمُنْجًى لِّقَوْمٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠]. وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثَلَّتْ سَحَابًا بِقَالَا﴾ أي: حملت الرياح سحاباً ثقالاً، أي: من كثرة ما فيها من الماء، تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل، رحمه الله:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الْمُنْزُنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالًا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالًا

وقوله: ﴿سَقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيْمَنٍ﴾ أي: إلى أرض ميتة، مجدبة لا نبت فيها، كما قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي تَتَّبِعُهَا أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ [يس: ٣٣]. ولهذا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُفِخُ الْفُتُوحَ﴾ أي: كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها، كذلك نحيا الأجساد بعد صيرورتها رَيمًا يوم القيامة، ينزل الله، سبحانه وتعالى، ماء من السماء، فتمطر الأرض أربعين يوماً، فتنبت منه الأجساد في قبورها كما نبت الحب في الأرض. وهذا المعنى كثير في القرآن، يضرب الله مثلاً للقيامة بإحياء الأرض بعد موتها؛ ولهذا قال: ﴿لَمَّا تَذَكَّرُونَ﴾. وقوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي: والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً، كما قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [الاعراف: ١٣٧]. ﴿وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾، قال مجاهد وغيره: كالسباخ ونحوها. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر.

وقال البخاري: حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا حماد بن أسامة، عن بُرَيْد بن عبد الله، عن أبي بردة، عن أبي موسى، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها نفية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا

وزرعوا. وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به». رواه مسلم والنسائي من طرق، عن أبي أسامة حماد بن أسامة، به

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنِكَ فِي صَلَاتِكَ ثِيَابٍ ۖ قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ لَيْسَ فِي صَلَاتِهِ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ٦٠ أُتِلِّفُكُمْ رَسُولِي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٦١﴾

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة، وما يتعلق بذلك ويتصل به، وفرغ منه، شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء، عليهم السلام، الأول فالأول، فابتدأ بذكر نوح، عليه السلام، فإنه أول رسول إلى أهل الأرض بعد آدم، عليه السلام، وهو: نوح بن لامك بن متوشلح بن خنوخ - وهو إدريس النبي عليه السلام - فيما يزعمون، وهو أول من خط بالقلم - ابن برد بن مهليل بن قنن بن يانش بن شيث بن آدم، عليه السلام. هكذا نسبته محمد بن إسحاق وغير واحد من أئمة النسب، قال محمد بن إسحاق: ولم يلق نبي من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبي قتل. وقال يزيد الرقاشي: إنما سمي نوحاً لكثرة ما نوح على نفسه. وقد كان بين آدم إلى زمان نوح، عليهما السلام، عشرة قرون، كلهم على الإسلام، قاله عبد الله بن عباس. قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام، أن قوماً صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صورة أولئك فيها، ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم. فلما طال الزمان، جعلوا تلك الصور أجساداً على تلك الصور. فلما تمدادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين «وداً وسواعاً ويثوث ويثوق ونسراً». فلما تفاقم الأمر بعث الله، سبحانه وتعالى - وله الحمد والمنة - رسوله نوحاً يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال: ﴿يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: من عذاب يوم القيامة إن لم تقبتم الله وأنتم مشركون به ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم: ﴿إِنَّا لَنَرْنِكَ فِي صَلَاتِكَ ثِيَابٍ﴾ أي: في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا. وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ ٦٢﴾ [المطففين: ٣٢]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِمْ فَسَيَرْوُونَ هَٰذَا إِنَّا كَذِبَةٌ ٦٣﴾ [الأحاف: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات.

﴿قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ لَيْسَ فِي صَلَاتِهِ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ٦٠﴾ أي: ما أنا ضال، ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه، ﴿أُتِلِّفُكُمْ رَسُولِي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٦١﴾. وهذا شأن الرسول، أن يكون بليغاً فصيحاً ناصحاً بالله، لا يدرهم أحد من خلق الله في هذه الصفات، كما جاء في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة، وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعاً: «أيها الناس، إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكتها عليهم ويقول: «اللهم اشهد، اللهم اشهد».

﴿أَوْ عَجِزْتَ أَنْ جَاءَكَ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكَ عَلَىٰ رَجُلٍ يَنكِحُ يَسُدُّرَكَمُ وَلِنَقُولَ لَئِنْ رَجَعْتُمْ إِلَى الْفُلْكِ وَاعْرِفْتُمْ أَلَيْسَ كَذِبًا بَيْنَيْنَا إِثْمُكُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ٦٣﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام: أنه قال لقومه: ﴿أَوْ عَجِزْتَ أَنْ جَاءَكَ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكَ عَلَىٰ رَجُلٍ يَنكِحُ يَسُدُّرَكَمُ وَلِنَقُولَ لَئِنْ رَجَعْتُمْ إِلَى الْفُلْكِ وَاعْرِفْتُمْ أَلَيْسَ كَذِبًا بَيْنَيْنَا إِثْمُكُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ٦٣﴾ أي: لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجب أن يوحي الله إلى رجل منكم، رحمة بكم ولطفًا وإحسانًا إليكم، لإنذاركم ولتنقوا نفقة الله ولا تشركوا به، ﴿وَلَنَلَكُمُ رَحْمَةً ۖ﴾

قال الله تعالى: ﴿تَكْذِبُونَ﴾ أي: فتمادوا على تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه منهم إلا قليل، كما نص عليه تعالى في موضع آخر، ﴿فَأَجَبْتُمْ إِلَى الْفُلْكِ﴾، وهي السفينة، كما قال: ﴿فَأَجَبْتُمْ وَأَصْحَبُ السَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥]، ﴿وَاعْرِفْتُمْ أَلَيْسَ كَذِبًا بَيْنَيْنَا﴾ كما قال: ﴿مِمَّا خَطَبْتِهِمْ أَعْرِفُوا فَأَقْبَلُوا تَارًا فَتَرَىٰ بَعْدَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ٦٤﴾ [نوح: ٢٥] وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي: عن الحق، لا يبصرون ولا يهتدون له. فبين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأولياته من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم من الكافرين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ٥٢﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]. وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة، أن العاقبة للمتقين والظفر والغلب لهم، كما أهلك قوم نوح عليه السلام بالغرق ونجى نوحاً وأصحابه المؤمنين. قال

مالك، عن زيد بن أسلم: كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما عذب الله قوم نوح عليه السلام إلا والأرض ملأى بهم، وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز. وقال ابن وهب: بلغني عن ابن عباس: أنه نجا مع نوح عليه السلام في السفينة ثمانون رجلاً، أحدهم «جزهم»، وكان لسانه عربياً. رواه ابن أبي حاتم. وقد روي هذا الأثر الأخير من وجه آخر متصلًا عن ابن عباس، رضي الله عنهما.

﴿وَالَّذِي عَادِلًا لَنَا هُوَذَا قَالَ يَقْتُولُ عَبْدُ اللَّهِ مَا لَكَ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَقَاةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَقْتُولُ لَيْسَ بِي سَقَاةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أَتُفَكِّحُكُمْ رَسُولِي وَيَا لَكُمْ نَاصِحًا أَيْبَى ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجِبْتَ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً، كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً. قال محمد بن إسحاق: هم من ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح. قلت: وهؤلاء هم عاد الأولى، الذين ذكرهم الله تعالى، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمد في البر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ جَعَلْنَا مِنْكُمْ بَنِي إِدَمَ كَانُوا الْقَوَامِ ﴿٧﴾ إِلَيْهِ لَمْ يَخْلُقْ مِنْهَا فِي الْيَلْدِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر: ٦-٨] وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَا أَشَدُّ أَوَّلَ بَرٍّ أَتَى اللَّهُ الْأَرْضَ خَلْقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِبَيْتِنَا لِيَجْهَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [صافات: ١٥]. وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهي جبال الرمل. قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن عبد الله بن أبي سعيد الخزازي، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول لرجل من حضرموت: هل رأيت كثيراً أحمر تخالطه مدرة حمراء ذا أزالك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت، هل رأيته؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. والله إنك لتنتعته نعت رجل قد رآه. قال: لا، ولكني قد حدثت عنه. فقال الحضرمي: وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال: فيه قبر هود، عليه السلام. رواه ابن جرير. وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن، وأن هوداً، عليه السلام، دفن هناك، وقد كان من أشرف قومه نسباً؛ لأن الرسل صلوات الله عليهم إنما يعيثنهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكدياً للحق؛ ولهذا دعاهم هود، عليه السلام، إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعته وتقواه.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ - وَالْمَلَأُ هُمُ: الجمهور والسادة القادة منهم -: ﴿إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَقَاةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أَي: في ضلالة حيث دعوتنا إلى ترك عبادة الأصنام، والإقبال إلى عبادة الله وحده لا شريك له، كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد ﴿فَقَالُوا﴾: ﴿بَلْ أَلِلهُ إِلَهَاتُهَا وَإِنَّمَا هِيَ كَأَنَّهُ لَتَفَكُّبٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥].

﴿قَالَ يَقْتُولُ لَيْسَ بِي سَقَاةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أَي: لست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء، فهو رب كل شيء ومليكه ﴿أَتُفَكِّحُكُمْ رَسُولِي وَيَا لَكُمْ نَاصِحًا أَيْبَى ﴿٦٧﴾﴾ وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغة والنصح والأمانة. ﴿أَوْ عَجِبْتَ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ أَي: لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولا من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه، بل احمداوا الله على ذاكم، ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أَي: واذكروا نعمة الله عليكم إذ جعلكم من ذرية نوح، الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته، لما خالفوه وكذبوه، ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ أَي: زاد طولكم على الناس بسطة، أَي: جعلكم أطول من أبناء جنسكم، كما قال تعالى في قصة طالوت: ﴿وَزَادَهُمْ بَسْطَةً فِي الْوَلَدِ وَالْجَسَدِ﴾ [البقرة: ٢٢٧]. ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أَي: نعمه ومننه عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وآلاء جمع إلي وقيل: إلي.

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَنَحْذَرَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَبْهِي أَبَاءَنَا فَأَنَّا يَمِيزُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْكُفَّارِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْغَايِبِينَ ﴿٧٠﴾﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَيْحٌ وَغَصَبٌ أَتَجِدِلُونِي فَيَنْصَلِحُوا أَسْمَعُوا سَمِعْتُمْ أَنَّهُ وَابِلَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَاتَّبِعُوا لِي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْطَرِقِينَ ﴿٧١﴾﴾ فَأَجِئْتَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ رَحَقُوا مِنَّا وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِبَيْنَانَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود، عليه السلام: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَنَحْذَرَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَبْهِي أَبَاءَنَا فَأَنَّا يَمِيزُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْكُفَّارِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْغَايِبِينَ ﴿٧٠﴾﴾، كما قال الكفار من قريش: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ [الفجر: ٦-٨]، وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره: أنهم كانوا يعبدون أصناماً، فصنم يقال له: ضداء، وآخر يقال له: صمود، وآخر يقال له: الهباء. ولهذا قال هود، عليه السلام:

﴿قَدْ وَفَّعَ عَلَيْكُمْ يَنْ رَبِّكُمْ رَجَسٌ وَغَضَبٌ﴾ أي: قد وجب عليكم بمقاتلتكم هذه من ربحكم رجس وغضب، قيل: هو مقلوب من رجز. وعن ابن عباس: معناه السخط والغضب. ﴿أَتَجِدُلُونِي وَتَأْمَلُونَ سَيِّئُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ﴾ أي: أتحاجوني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وأبائكم آلهة، وهي لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً؛ ولهذا قال: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ يَنْ التَّحْطِيطِ﴾. وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه؛ ولهذا عقب بقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ رِجْمَةً وَّنَارًا وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا يَتَانِيًا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٧٢).

وقد ذكر الله سبحانه، صفة إهلاكهم في أماكن آخر من القرآن، بأنه أرسل عليهم الريح العقيم، ما نذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَمَّا عَادَ أَقْمَلِكُوا بِرِيحٍ مَرْصَرٍ عَالِيَةٍ ﴿٦١﴾ سَحَرَهَا عَلَيْهِمْ سَمِعَ بُيَالٍ وَكُنْيَةٍ آيَاتٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا مَرْعًى كَأَنَّهُمْ أَجْمَارٌ تَلْقَى خَاوِيَةٌ ﴿٧٢﴾ فَهَلْ رَأَى لَهُمْ يَنْ بَلَايَةٍ ﴿٧٣﴾﴾ [الحاقة: ٦١ - ٨]. لما تمردوا وعتوا أهلهم الله بريح عاتية، فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشلق رأسه حتى تبيته من جثته؛ ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أَجْمَارٌ تَلْقَى خَاوِيَةٌ ﴿٧٢﴾﴾. وقال محمد بن إسحاق: كانوا يسكنون باليمن من عمان وحضرموت، وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض وقهروا أهلها، بفضل قوتهم التي آتاهم الله، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله، فبعث الله إليهم هوداً، عليه السلام، وهو من أوسطهم نسباً، وأفضلهم موضعاً، فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلهاً غيره، وأن يكفوا عن ظلم الناس، فأبوا عليه وكذبوه، وقالوا: من أشد منا قوة؟ واتبعه منهم ناس، وهم يسير مكنتمون بإيمانهم، فلما عنت عاد على الله وكذبوا نبيه، وأكثروا في الأرض الفساد وتجبروا، وبنوا بكل ريع آية عينا بغير نفع، كلمهم هود فقال: ﴿أَتَتَّبِعُونَ رِيحَ آيَةٍ تَبْتُثُونَ ﴿٧٣﴾ وَتَنَحَّضُونَ مَصَافٍ لَكُمْ تَعْلُدُونَ ﴿٧٤﴾ وَإِذَا بَلَغْتُهُ لَطَمَتْ بِكُمُ جَبَابٍ ﴿٧٥﴾ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَالْيَوْمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣١]. ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْرَبْكَ بِبَعْضِ آلِهِنَا يَسُوءُ﴾ أي: بجنون ﴿قَالَ إِنِّي أَنشَأْتُ لِلَّهِ رِجْسَةً يَا قَوْمِي وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ آلِهَتِنَا يَا قَوْمِي فَإِنِّي نَسِيتُ آلِهَتَهُمْ فَاعْبُدْ آلِهَتَهُمْ إِنِّي أَخَشَىٰ آلَ رَبِّكَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [هود: ٥٣ - ٥٦]. قال محمد بن إسحاق: فلما أبوا إلا الكفر به، أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين، فيما يزعمون، حتى جهدهم ذلك، قال: وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان، فطلبوا من الله الفرج فيه، إنما يطلبونه بخرمة ومكان بيته، وكان معروفاً عند الملل، وبه العمالق مقيمون، وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وكان سيدهم إذ ذاك رجلاً يقال له: «معاوية بن بكر»، وكانت له أم من قوم عاد، واسمها كلهدة ابنة الخبيري، قال: فبعثت عاد وفداً قريباً من سبعين رجلاً إلى الحرم، ليستسقوا لهم عند الحرم، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه، فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان - قيتان لمعاوية - وكانوا قد وصلوا إليه في شهر، فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه، واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف، عمل شعراً يعرض لهم بالانصراف، وأمر القيتين أن تغنياهم به، فقال:

لعل الله يُضْبَحُ خُأَ عَمَامَا
قَدْ امْسُوا لَا يُبَيِّتُونَ الْكَلَامَا
به الشيخ الكبير ولا الثلاما
فقد أمست نساؤهم عيامي
ولا تخشى لعمادي سهاما
نهاركم وليلكم التماما
ولا لقوا التحية والسلاما

أَلَا يَا قِيلَ وَيْحَكَ قُمْ فَهَيِّنْ
فَيَسْقِي أَرْضَ عَادٍ إِنْ عَادَا
من العطش الشديد فليس نرجو
وقد كائت نساؤهم بخير
وإن الوحش تأتيهم جهاراً
وانتم ههنا فيما اشتتهيتُم
فَقَبِيحٌ وَقَدْ كُفِرْتُمْ

قال: فعند ذلك تنبه القوم لما جازوا له، فنهضوا إلى الحرم، ودعوا لقومهم فدعا داعيهم، وهو: «قيل بن عنز»، فأنشأ الله سبحانه ثلاثاً: بيضاء، وسوداء، وحمراء، ثم ناداه مناد من السماء: «تختر لنفسك - أو: لقومك - من هذا السحاب»، فقال: «اخترت هذه السحابة السوداء، فإنها أكثر السحاب ماء» فناداه مناد: اخترت زماماً ومُدّاً، لا تبقي من عاد أحداً، لا والدك تترك ولا ولداً، إلا جعلته قهداً، إلا بني اللوذية المهندا قال: وبني اللوذية: بطن من عاد مقيمون بمكة، فلم يصيبهم ما أصاب قومهم - قال: وهم من بقي من أنسالهم وذرائعهم عاد الآخرة - قال: وساق الله السحابة السوداء، فيما يذكرون، التي اختارها «قيل بن عنز» بما فيها من النعمة إلى عاد، حتى تخرج عليهم من واد يقال له: «المغيث»، فلما رأوها استبشروا، وقالوا: ﴿هَذَا

عَارِضٌ مُّطِيرًا» يقول: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣﴾ تَدِيرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ٧٤﴾ [الأحاف: ٢٤، ٢٥] أي: تهلك كل شيء مَرَّتَ به، فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح، فيما يذكرون، امرأة من عاد يقال لها: مَهْدَد، فلما تبينت ما فيها صاحت، ثم صُعِقَتْ. فلما أفاقوا قالوا: ما رأيت يا مَهْدَد؟ قالت: ريحاً فيها شُهْبُ النار، أمامها رجال يقودونها. فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، كما قال الله. و «الحسوم»: الدائمة - فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك. واعتزل هود، عليه السلام، فيما ذكر لي، ومن معه من المؤمنين في حظيرة، ما يصيبه ومن معه إلا ما تلين عليه الجلود، وتلتذ الأنفس، وإنها لتمر على عاد الطعن ما بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة. وذكر تمام القصة بطولها، وهو سياق غريب، فيه فوائد كثيرة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَهْلُكَ بِجَنَّتِكَ هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ رِجْعُوا مِنَّا وَجَبَّتْهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ٧٥﴾ [هود: ٥٨].

وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده قريب مما أورده محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله. قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي، حدثنا عاصم بن أبي النجود، عن أبي وائل، عن الحارث البكري قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ، فمررت بالريذة فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت لي: يا عبد الله، إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنت مبلغني إليه؟ قال: فحملتها فأتيت المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد سيف بين يدي رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ فقالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً. قال: فجلست، فدخل منزله. أو قال: رحله - فاستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت فسلمت، قال: هل بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الذبرة عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتنني أن أحملها إليك، وها هي بالباب. فأذن لها، فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً، فأجعل الدهناء. فحميت العجوز واستوفزت، فقالت: يا رسول الله، فإلى أين يضطر مضر؟ قال: قلت: إن مثلي ما قال الأول: «مَغْزَى حَمَلَتْ حَفَنَهَا»، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصماً، أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد! قال: هيه، وما وافد عاد؟ - وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه - قلت: إن عاداً قُحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: «قيل»، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جارتان، يقال لهما: «الجردتان»، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مَهْرَة، فقال: اللهم إنك تعلم أنني لم أجيء إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه. اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه، فمرت به سحابات سود، فنودي منها: «اختر». فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: «خذها رماًداً ومُدداً، لا تبقي من عاد أحداً». قال: فما بلغني أنه بُعث عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا، حتى هلكوا - قال أبو وائل: وصدق - قال: وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: «لا تكن كوافد عاد».

هكذا رواه الإمام أحمد في المسند، ورواه الترمذي، عن عبد بن حميد، عن زيد بن الحباب، به نحوه. ورواه النسائي من حديث سلام أبي المنذر، عن عاصم - وهو ابن يَهْدَلَة - ومن طريقه رواه ابن ماجه أيضاً، عن أبي وائل، عن الحارث بن حسان البكري، به. ورواه ابن جرير عن أبي كُرَيْب عن زيد بن حباب، به. ووقع عنده: «عن الحارث بن يزيد البكري» فذكره، ورواه أيضاً عن أبي كريب، عن أبي بكر بن عياش، عن عاصم، عن الحارث بن يزيد البكري، فذكره، ولم أر في النسخة «أبا وائل»، والله أعلم.

﴿وَلِكِ ثَمُودُ أَنَاثَهُمْ صَالِحاً قَالَ يَنْفَعُوا أَعْبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرِي قَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَسْهَوْا بِسُوءِ قَوْلِكُمْ عَذَابَ إِلَهٍ ٧٦﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَدْوٍ عَادَ وَيَوَّكُم فِي الْأَرْضِ تَخَيَّرْتُمْ مِّنْ شُهُولِكُمْ قُصُورًا وَتَنَجَّيْتُمُ الْجِبَالَ يَبُوتًا فَاذْكُرُوا مَا لَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفِيدِك ٧٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضِيقُوا يَمَنَ مِّنْهُمْ أَتَمَلُوكُم أَنَكُم مَّكَلًا تُرْسِلُ مِن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلُ بِهِ مُؤْمِنُونَ ٧٨﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ٧٩﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَسَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَعْيُنًا بِمَا نَعَدْنَا إِنْ كُنَّا مِنَ الْمُرْسَلِينَ ٨٠﴾ فَاتَّخَذْتُمُ الرِّجْمَةَ قَاتِلِينَ فِي دَارِهِمْ جَبِينَ ٨١﴾

قال علماء التفسير والنسب: ثمود بن عائر بن إرم بن سام بن نوح، وهو أخو جديس بن عائر، وكذلك قبيلة طُسم، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل، عليه السلام، وكانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مر رسول الله ﷺ على قراهم ومساكنهم، وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا صخر بن جُويرية، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا منها

القدور. فأمرهم النبي ﷺ فأهراقوا القدرور، وعلفوا المعجّن الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم». وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم». وأصل هذا الحديث مُخَرَّج في الصحيحين من غير وجه.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا المسعودي، عن إسماعيل بن أوسط، عن محمد بن أبي كَبْشَةَ الأُمَاري، عن أبيه قال: لما كان في غزوة تبوك، تسارع الناس إلى أهل الحجر، يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فنادى في الناس: «الصلاة جامعة». قال: فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسك بعيره وهو يقول: «ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم». فناداه رجل منهم: نعجب منهم يا رسول الله. قال: «أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك: رجل من أنفسكم ينثبكم بما كان قبلكم، وبما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسددوا، فإن الله لا يعاب بعبادكم شيئاً، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً». لم يخرج أحد من أصحاب السنن، وأبو كبشة اسمه: عمر بن سعد، ويقال: عامر بن سعد، والله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق: حدثنا معمر، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات، فقد سألتها قوم صالح فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفج، وتضدّر من هذا الفج، ففتوا عن أمر ربهم ففعلوها، وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً، وفعلوها، فأخذتهم صيحة، أهدم الله من تحت أديم السماء منهم، إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله». فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «أبو رغال. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه». وهذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة، وهو على شرط مسلم.

فقوله تعالى: ﴿وَرَأَى ثَمُودَ أَنَاثَهُمْ صَالِحًا﴾ أي: ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً، ﴿فَقَالَ يَقَوِّرْ عَيْتُهُمْ اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ﴾، جميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَشَّرْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلَاطَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي: قد جاءكم حجة من الله على صدق ما جئتمكم به. وكانوا هم الذين سألو صالحاً أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه أن يخرج لهم من صخرة صماء عتيها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الجبجر، يقال لها: الكاتبة، فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عُشْرَاءَ تَمْخَضُ، فأخذ عليهم صالح اليهود والموائيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه؟ فلما أعطوه على ذلك عهدهم وموائيقهم، قام صالح، عليه السلام، إلى صلاته ودعا الله، ﷻ، فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جَوْفَاءَ وَبَرَاءَ يتحرك جنبها بين جنبها، كما سألو، فعند ذلك آمن رئيس القوم وهو: «جندع بن عمرو» ومن كان معه على أمره، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصددهم «ذؤاب بن عمرو بن لبيد» «والحباب» صاحب أوثانهم، ورباب بن صمعر بن جهلس، وكان ل «جندع بن عمرو» ابن عم يقال له: «شهاب بن خليفة بن مخلدة بن لبيد بن جواس»، وكان من أشراف ثمود وأفاضلها، فأراد أن يسلم أيضاً فنهاه أولئك الرهط، فأطاعهم، فقال في ذلك رجل من مؤمني ثمود، يقال له مهوس بن عنمة بن الدميل، رحمه الله:

وكانت عُضْبَةٌ مِنْ آلِ عَمْرٍو
عَزِيزٌ ثَمُودَ كُلُّهُمْ جَمِيعاً
لأصبحَ صَالِحٌ فِينَا عَزِيزاً
وَلَكِنِ السُّوَاءُ مِنْ آلِ حُجْرٍ
إلى دين النبي دَعَا شُهَاباً
فَهُمْ بِأَنْ يُجِيبَ فُلُو أَجَاباً
وَمَا عَدَلُوا بِصَاحِبِهِمْ ذُؤَاباً
تَوَلَّوْا بَعْدَ رُشْدِهِمْ ذُنَاباً

فأقامت الناقة وفصلها بعدما وضعت بين أظهرهم مدة، تشرب ماء بثرها يوماً، وتدعه لهم يوماً، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها، يحتلبونها فيملؤون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَنَبِّئَهُمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ قِيَمَةُ يَوْمِهِمْ كُلِّ شَيْءٍ يُحْشَرُ﴾ [الفر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ آلِ يَرْبِ وَلَكِنْ يَرْبِ يَوْمَ مَلُوكٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]. وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ترد من فُجٍّ وتصدر من غيره ليسعها؛ لأنها كانت تتضلع من الماء، وكانت - على ما ذكر - خَلْقاً هَائِلاً وَمَنْظَرًا رَائِعًا، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها. فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبي، عليه السلام، عزموا على قتلها،

ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها. قال قتادة: بلغني أن الذي قتل الناقة طاف عليهم كلهم، أنهم راضون بقتلها حتى على النساء في خدورهن، وعلى الصبيان أيضاً. قلت: وهذا هو الظاهر؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشعر: ١٤]، وقال: ﴿وَمَا لَنَا نَعْمَدُ النَّاقَةَ مُبِيرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة، فدل على رضی جميعهم بذلك، والله أعلم.

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله، وغيره من علماء التفسير في سبب قتل الناقة: أن امرأة منهم يقال لها: «عنزة ابنة غنم بن مجلز» وتكنى أم غنم، كانت عجوزاً كافرة، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح، عليه السلام، وكانت لها بنات حسان ومال جزيل، وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود، وامرأة أخرى يقال لها: «صدوف ابنة المحيا بن دهر بن المحيا» ذات حسب ومال وجمال، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود، ففارقته، فكانتا تجعلان لمن التزم لهما يقتل الناقة، فدعت «صدوف» رجلاً يقال له: «الحباب» وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، فأبى عليها. فدعت ابن عم لها يقال له: «مصدع بن مهران بن المحيا»، فأجابها إلى ذلك. ودعت «عنزة بنت غنم» قدار بن سالف بن جثنع، وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً، يزعمون أنه كان ولد ذنية، وأنه لم يكن من أبيه الذي ينسب إليه، وهو سالف، وإنما هو من رجل يقال له: «صهباد»، ولكن ولد على فراش «سالف»، وقالت له: أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة! فعند ذلك، انطلق «قدار بن سالف» ومصدع بن مهران، فاستفزا غواة من ثمود، فاتبعهما سبعة نفر، فصاروا تسعة رهط، وهم الذين قال الله تعالى: ﴿وَكَاذِبٌ فِي الْيَمِينِ يَتَعَمَّ رَهْطٌ يُقِيدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨]، وكانوا رؤساء في قومهم، فاستمالوا القبيلة الكافرة بكمالها، فطاعتهم على ذلك، فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء، وقد كمن لها «قدار» في أصل صخرة على طريقها، وكمن لها «مصدع» في أصل أخرى، فمرت على «مصدع» فرماها بسهم، فانتظم به عضلة ساقها وخرجت «أم غنم عنزة»، وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس وجهاً، فسفرت عن وجهها لقدار وذمرتته فشد على الناقة بالسيف، فكشف عرقوبها، فخرت ساقطة إلى الأرض ورغت رغاء واحدة تحذر سقبتها، ثم طعن في لثتها فنحرها، وانطلق سقها. وهو فصيلها - حتى أتى جبلاً منيعاً، فصعد أعلى صخرة فيه ورغا - فروى عبد الرزاق، عن معمر، عن سمع الحسن البصري أنه قال: يا رب، أين أمي؟ ويقال: إنه رغا ثلاث مرات. وإنه دخل في صخرة فغال فيها، ويقال: بل اتبعوه ففعلوه مع أمه، فالله أعلم.

فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة، بلغ الخبر صالحاً، عليه السلام، فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى وقال: ﴿تَسْتَمُوفِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرٌ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح عليه السلام، وقالوا: إن كان صادقاً عجلناه قبلنا، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته! ﴿قَالُوا نَقَاتُوا بِاللَّهِ لَئِنْ كُنْتُمْ وَاهِلَةً ثَرًا لَنَقُولَنَّ لَوْكُمَا مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِكُمْ وَلَئِنْ أَصْبَحْتُمْ مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَكَمْ لَا يُتَعَمَّرُونَ﴾ [٥٩] فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٦٠﴾ تِلْكَ يَوْمَئِذٍ خَاوِبَةٌ يَتَرَبَّصُونَ بِهَا أَعْيُنُ النَّاسِ لَعَنَ اللَّهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَزَنُوا فَمَا رَأَتْ مِنْ الْعَذَابِ أَطْلَقَتْ رَجُلَاهَا، فقامت تسعى كاسرع شيء، فأتت حياً من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها، ثم استسقتهم من الماء، فلما شربت، ماتت. قال علماء التفسير: ولم يبق من ذرية ثمود أحد، سوى صالح، عليه السلام، ومن اتبعه، رضي الله عنهم، إلا أن رجلاً كان يقال له: «أبو رغال»، كان لما وقعت النعمة بقومه مقيماً في الحرم، فلم يصبه شيء، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحل، جاءه حجر من السماء فقتله.

وقد تقدم في أول القصة حديث «جابر بن عبد الله» في ذلك، وذكروا أن أبا رغال هذا هو والد «ثقيف» الذين كانوا يسكنون الطائف. قال عبد الرزاق: قال معمر: أخبرني إسماعيل بن أمية؛ أن النبي ﷺ مر بقبر أبي رغال فقال: «أتدرون من هذا؟»

فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا قبر أبي رغال، رجل من ثمود، كان في حرم الله، فمنعه حرم الله عذاب الله. فلما خرج أصابه ما أصاب قومه، فدفن ههنا، ودفن معه غصن من ذهب، فنزل القوم فابتدروه بأسيا فمهم، فبحثوا عنه، فاستخرجوا الغصن». وقال عبد الرزاق: قال معمر: قال الزهري: أبو رغال: أبو ثقيف. هذا مرسل من هذا الوجه، وقد روي متصلاً من وجه آخر، كما قال محمد بن إسحاق، عن إسماعيل بن أمية، عن بَجِير بن أبي بَجِير قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول، حين خرجنا معه إلى الطائف، فمررنا بقبر فقال: «هذا قبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم فدفع عنه، فلما خرج منه، أصابته النقرة التي أصابت قومه بهذا المكان، فدفن فيه. وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه، فابتدروه الناس فاستخرجوا منه الغصن». وهكذا رواه أبو داود، عن يحيى بن معين، عن وهب بن جرير بن حازم، عن أبيه، عن ابن إسحاق، به. قال شيخنا أبو الحجاج المزي: وهو حديث حسن عزيز. قلت: تفرد بوصله «بَجِير بن أبي بَجِير» هذا، وهو شيخ لا يعرف إلا بهذا الحديث. قال يحيى بن معين: ولم أسمع أحداً روى عنه غير إسماعيل بن أمية. قلت: وعلى هذا، فيخشى أن يكون وهم في رفع هذا الحديث، وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو، مما أخذه من الزاملتين. قال شيخنا أبو الحجاج، بعد أن عرضت عليه ذلك: وهذا محتمل، والله أعلم. قوله تعالى:

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمَ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِي رَبِّي وَصَّحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ التَّوْبَةَ﴾ (٧٩).

هذا تقرير من صالح، عليه السلام، لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه، وتمردهم على الله، وإبائهم عن قبول الحق، وإعراضهم عن الهدى إلى العمى. قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريراً وتوبيخاً وهم يسمعون ذلك، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر، أقام هناك ثلاثاً، ثم أمر براحله فشدت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها، ثم سار حتى وقف على القلب، قلب بدر، فجعل يقول: «يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبه بن ربيعة، ويا فلان بن فلان: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً». فقال له عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أقوام قد جيفوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون». وفي السيرة أنه، عليه السلام، قال لهم: «بئس عشيرة النبي ﷺ كنتم لنبيكم، كذبتُموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتُموني ونصرني الناس، فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم».

وهكذا صالح، عليه السلام، قال لقومه: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِي رَبِّي وَصَّحْتُ لَكُمْ﴾ أي: فلم تنتفعوا بذلك، لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحاً؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ التَّوْبَةَ﴾. وقد ذكر بعض المفسرين أن كل نبي هلك أمته، كان يذهب فيقيم في الحرم، حرم مكة، فله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا زُفْعَةُ بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما مر رسول الله ﷺ بوادي عُسفان حين حَجَّ قال: «يا أبا بكر، أي وادي هذا؟» قال: هذا وادي عُسفان. قال: «لقد مر به هود وصالح، عليهما السلام، على بكرات خُضر حُطَّماها الليف، أزرهم العباء، وأردتهم التمار، يلبون، يحجون البيت العتيق». هذا حديث غريب من هذا الوجه، لم يخرج أحد منهم.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحْشَاءَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِقُونَ (٨١).

يقول تعالى: ﴿و﴾ قد أرسلنا ﴿وَلَوْطًا﴾، أو تقديره: ﴿و﴾ اذكر ﴿وَلَوْطًا﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحْشَاءَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾. ولوط بن هاران بن أزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم، عليه السلام، وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله تعالى إلى أهل «سُذُوم» وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله، ﷻ ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها، لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور، وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تالفه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل «سُذُوم» عليهم لعائن الله. قال عمرو بن دينار: قوله: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال: ما نرا ذكر علي ذكر، حتى كان قوم لوط. وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي، باني جامع دمشق: لولا أن الله، ﷻ قص علينا خبر لوط، ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً. ولهذا قال لهم لوط، عليه السلام: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَحْشَاءَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ أي: عدلتم عن النساء، وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال، وهذا إسراف منكم وجهل؛ لأنه وضع الشيء في غير محله؛ ولهذا قال لهم في الآية الأخرى: ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَعِلَاءَ﴾ (٨١) [الحجر: ٧١]، فأرشدهم إلى نساتهم،

فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن، ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَفَعَطٌ مَا تُدِي﴾ [مود: ٧٩] أي: لقد علمت أنه لا أرب لنا في النساء، ولا إرادة، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك. وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض، وكذلك نساؤهم كن قد استغنى بعضهن ببعض أيضاً.

﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [٨٧].

أي: ما أجابوا لوطاً إلا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من المؤمنين من بين أظهرهم، فأخرجه الله تعالى سالماً، وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾، قال قتادة، عابوهم بغير عيب. وقال مجاهد: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ من أديار الرجال وأديار النساء. وروي مثله عن ابن عباس أيضاً.

﴿فَانْجَيْنَا وَآهْلَهُ إِلَّا أَسْرَأْتَهُ كَانَتْ مِنِ الْفَاسِقِينَ﴾ [٨٢] وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا قَاتِلًا كَيْفَ كَانَتْ عَذَابُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [٨٢].

يقول تعالى: فأنجينا لوطاً وآهله، ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٣٥] فَأَمْطَرْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ السُّلُوبِ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، إلا امرأته فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، تمالئهم عليه وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم؛ ولهذا لما أمر لوط، عليه السلام، أن يسري بأهله أمر ألا يعلم امرأته ولا يخرجها من البلد. ومنهم من يقول: بل اتبعته، فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم. والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم؛ ولهذا قال ههنا: ﴿إِلَّا أَسْرَأْتَهُ كَانَتْ مِنِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الباقين. ومنهم من فسر ذلك ﴿مِنِ الْفَاسِقِينَ﴾ من الهالكين، وهو تفسير باللائم.

وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ مفسر بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سَيْحِلٍ مُّضَوٍّ﴾ [٨٢] مُسَوِّمَةً عِنْدَ ذَلِكَ وَمَا هِيَ مِنَ الْفُلُوبِ يَغِيْبُ﴾ [٨٢] [مود: ٨٢، ٨٣]، ولهذا قال: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَذَابُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: انظر - يا محمد - كيف كان عاقبة من تجهروا على معاصي الله وكذب رسله. وقد ذهب الإمام أبو حنيفة، رحمه الله، إلى أن اللفظ يلقي من شاطئ، ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط. وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرجم سواء كان محصناً أو غير محصن. وهو أحد قولي الشافعي، رحمه الله، والحجة ما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث الدراوردي، عن عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به». وقال آخرون: هو كالزاني، فإن كان محصناً رجم، وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة. وهو القول الآخر للشافعي. وأما إتيان النساء في الأديار، فهو اللوطية الصغرى، وهو حرام بإجماع العلماء، إلا قولاً واحداً شاذاً لبعض السلف، وقد ورد في النهي عنه أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ، وقد تقدم الكلام عليها في سورة البقرة.

﴿وَلِإِن مَّدِينًا خَبَرًا وَقِيلَ لَهُمْ سَبِّحُوا لِلَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [٨٥].

قال محمد بن إسحاق: هم من سلالة «مدين بن مديان بن إبراهيم». وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر قال: واسمه بالسريانية: «يشرون». قلت: وتطلق مدين على القبيلة، وعلى المدينة، وهي التي بقرب «مغان» من طريق الحجاز، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَدَّ مَاءٌ مَّدِينَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وهم أصحاب الأيكة، كما سنذكره إن شاء الله، وبه الشقة. ﴿قَالَ يَتَقَوَّرُوا عَبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾: هذه دعوة الرسل كلهم، ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: قد أقام الله الحجج والبيانات على صدق ما جئتمكم به. ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان، ولا يبخسوا الناس أشياءهم، أي: لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتديساً، كما قال تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [الأنبياء: ١] إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ [١] وَإِذَا كَالَهُمْ أَوْ وَزَنَهُمْ يَغِيرُونَ﴾ [٢] أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ [٣] لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [٤] يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّهِمُ الْغَالِبِينَ﴾ [المطففين: ١-٤]، وهذا تهديد شديد، وعيد أكيد، نسأل الله العافية منه. ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب، الذي يقال له: «خطيب الأنبياء»، لفصاحة عبارته، وجزالة مواعظه.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُوهَا غَوْجًا وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا تَكْفُرُونَ﴾ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَذَابُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [٨٦] وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [٨٧].

ينهاهم شعيب، عليه السلام، عن قطع الطريق الحسي والمعنوي، بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: توعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم. قال السدي وغيره: كانوا عشارين. وعن ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد وغير واحد: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه. والأول أظهر؛ لأنه قال: ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ وهي الطرق، وهذا الثاني هو قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَتَبْغُونَهَا بَئِيجًا﴾ أي: وتودون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة. ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ﴾ أي: كنتم مستضعفين لقلنتكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك، ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: من الأمم الخالية والقرون الماضية، ما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله.

وقوله: ﴿وَلَمَّا كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ أي: قد اختلفتم عليّ ﴿فَأَصْرُوا﴾ أي: انتظروا حتّى يحكم الله بيننا. أي: يفصل، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾، فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين.

﴿قَالَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ بِشَيْبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قُرَيْشًا أَوْ نَتَّعِدُكَ مِنْ قُرَيْشٍ﴾ ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿قَدْ أَفْرَأْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مِيثَاقًا بَيْنَ يَدَيْهِمَا أَنِ لَئِنْ نَعَدُوكُمْ لَهَا أَن تَعُودُوا فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفَتَحَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْهَرَقِ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَصِيحِينَ﴾.

هذا إخبار من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبي الله شعيباً ومن معه من المؤمنين، في توعدهم إياه ومن معه بالنفي من القرية، أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه. وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة. وقوله: ﴿أُولَئِكَ كَانُوا فِي قُلُوبِهِمْ كِبَرًا﴾ يقول: أو أنتم فاعلوا ذلك ولو كنا كارهين ما تدعوننا إليه؟ فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه، فقد أعظمنا الفرية على الله في جعل الشركاء معه أنداداً. وهذا تعبير منه عن اتباعه. ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾، وهذا رد إلى المشيئة، فإنه يعلم كل شيء علماً، ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: في أمورنا ما نأتي منها وما نذر ﴿رَبَّنَا أَفَتَحَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْهَرَقِ﴾ أي: افصل بيننا وبين قومنا، وانصرنا عليهم، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَصِيحِينَ﴾ أي: خير الحاكمين، فإنك العادل الذي لا يجوز أبداً.

﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا﴾ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَا يَلْقَاؤُنَهُ فِي الْيَوْمِ﴾.

يخبر تعالى عن شدة كفر قوم شعيب وتمردهم وعتوهم، وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليهم قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا: ﴿لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ﴾، فلهذا عقب ذلك بقوله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا﴾، أخبر تعالى فهنا أنهم أخذتهم الرجفة كما أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء، كما أخبر عنهم في سورة هود فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا نَارًا مِنْ شَجَائِهِمْ لَذِيئًا وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِينًا﴾ [هود: ٩٤]. والمناسبة في ذلك - والله أعلم - أنهم لما تهكموا بنبي الله شعيب في قوله: ﴿أَسْأَلُكَ تَأْمُرَكَ أَنْ تَزَالَ مَا يُعْبَدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْكَافِرُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] فجاءت الصيحة أسكتتهم. وقال تعالى إخباراً عنهم في سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلمتهم فيها شر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس وخمدت الأجساد، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿كَانَ لَمْ يَنْتَوُوا فِيهَا﴾ أي: كأنهم لما أصابهم النعمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها. ثم قال مقابلاً لقيهم: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿فَنَزَّلْنَا عَنْهُمْ وَرَقًا يَكُونُ لَكُمْ رِسَالَتِي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آمَنَ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾.

أي: فتولى عنهم «شعيب» عليه السلام بعدما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنعمة والنكال، وقال مفرعاً لهم وموبخاً: ﴿يَكُونُ لَكُمْ رِسَالَتِي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: قد أدبْتُ إليكم ما أُرْسِلْتُ به، فلا أسفة عليكم وقد كفرتم بما جنتكم به، ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ آمَنَ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ؟﴾

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَتَيْنَا أَهْلَهَا بِالنَّاسِ وَالضَّرَّةِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرِعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ لَمِنَ الْمُفْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية، الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء، يعني ﴿بِالنَّاسِ﴾: ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام. ﴿وَالضَّرَّةِ﴾: ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك، ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرِعُونَ﴾ أي: يدعون ويخشعون ويتهللون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم. وتقدير الكلام: أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا، فما فعلوا شيئاً من الذي أراد الله منهم، فقلب الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أي: حولنا الحال من شدة إلى رخاء، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنى، ليشكروا على ذلك، فما فعلوا. وقوله: ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ أي: كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا الشيء إذا كثر، ﴿وَقَالُوا قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ لَمِنَ الْمُفْرِكِينَ﴾ يقول تعالى: ابتلاهم بهذا وهذا، ليتضرعوا ويُنِيبوا إلى الله، فما نَجَّحَ فيهم لا هذا ولا هذا، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا، بل قالوا: قد مسنا من البأساء والضراء، ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آبائنا في قديم الدهر، وإنما هو الدهر تارات وتارات، ولم يتفطنوا لأمر الله فيهم، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين. وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ويصبرون على الضراء، كما ثبت في الصحيحين: «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من السراء والضراء؛ ولهذا جاء في الحديث: «لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقيّاً من ذنوبه، والمنافق مثله كمثل الحمار، لا يدرى فيم يربطه أهله، ولا فيم أرسلوه، أو كما قال، ولهذا عقب هذه الصفة بقوله: ﴿فَلَعَنَّا لَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: أخذناهم بالعقوبة بغتة، أي: على بغتة منهم، وعدم شعور منهم، أي: أخذناهم فجأة كما جاء في الحديث: «موت الفجأة رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر».

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَلَعَنَّا لَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ يَقَابِلُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا سَهْياً وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل، كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لِمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَظَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ [يونس: ٩٨] أي: ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس، فإنهم آمنوا، وذلك بعد ما عاينوا العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْ يَدْعُوا أَنَا رَبُّهُمْ فَأَنذَرْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٧﴾﴾ [الصافات: ١٤٧، ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَالَ مَثُورٌ وَإِنَّمَا بِمَا أَرْسَلْتَهُ بِهِ. كَفَرُوا ﴿٩٨﴾﴾ [سبا: ٣٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي: آمنت قلوبهم بما جاءتهم به الرسل، وصدقت به واتبعته، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات، ﴿فَلَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: قطر السماء ونبت الأرض. قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَلَعَنَّا لَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: ولكن كذبوا رسلهم، فعابناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم.

ثم قال تعالى مخوفاً ومحذراً من مخالفة أوامره، والتجروء على زواجه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾، أي: الكافرة ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا ونكالنا، ﴿بَيِّنًا﴾ أي: ليلاً ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا سَهْياً وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٧﴾﴾ أي: في حال شغلهم وغفلتهم، ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ أي: بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ ولهذا قال الحسن البصري، رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات وهو شفيق وجل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَخْبِتُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قال ابن عباس، رضي الله عنهما، في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾: أو لم نبين، وكذا قال مجاهد والسدي، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أو لم نبين لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم. وقال أبو جعفر بن جرير في تفسيرها: يقول تعالى: أو لم نبين للذين يستخلفون في الأرض من بعد هلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها، فساروا سيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعتوا على ربهم: ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾، يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم، ﴿وَنَخْبِتُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يقول: ونختم على قلوبهم ﴿فَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ موعظة ولا تذكيراً.

قلت: وهكذا قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿طه: ١٢٨﴾، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ يَنْ أَلْمُؤْمِنُونَ يَسْتَكْبِهْمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [السجدة: ٢٦]، وقال: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿١٣٠﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْجِدٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَنَيْنَا لَهُمْ دَلِيلًا لِّكُمُ الْآفَاقَ ﴿١٣١﴾﴾ [إبراهيم: ٤٤، ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ يَوْمَ آسَافُ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿١٣٢﴾﴾ [مریم: ٩٨] أي: هل ترى لهم شخصاً أو تسمع لهم صوتاً؟ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نَكُنْ لَكُم مِّنْ أَمْنٍ يُدْرِكُوا وَجَعَلْنَا الْآفَاقَ بَحْرًا مِّنْ مَّجْمُوعٍ فَالْمُكَتَّلُونَ يَفْزَحُونَ ﴿١٣٣﴾ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ قَرْنًا مَّاخِرِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٦]، وقال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد: ﴿تَذَكَّرْ كُلِّ عَصَىٰ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَسْبِغُوا لَهُمْ صَبْغًا بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٥﴾ وَلَا يُعْطُوا مِنْهُم مِّنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْعَلُونَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُمْ حُجُورًا ﴿١٣٦﴾﴾ [الأحقاف: ٢٥-٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا تَلَفُوا بِمَقَارِ مَا أَتَيْنَاهُمْ وَلَكُونُوا رُسُلًا يَكْفُفُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [سبا: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٣٨﴾﴾ [الملك: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرْنَيْنِ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِّهِنَّ فَجَاءَهُنَّ عَذَابُهُنَّ وَغِيَرٌ مِّمَّنْطَلَعٍ وَقَصِيْرٌ مِّمَّشِيدٍ ﴿١٣٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿١٤٠﴾﴾ [الحج: ٤٥، ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَفْزَيْتُمْ رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فَكَانُوا يَأْتِيكَمْ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام: ١٠] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه، وحصول نعمه لأوليائه؛ ولهذا عقب ذلك بقوله، وهو أصدق القائلين ورب العالمين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي اتَّبَعْتُمْ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاقِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾.

لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم الصلاة والسلام، وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على السنة الرسل، صلوات الله عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي اتَّبَعْتُمْ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاقِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾. وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على السنة الرسل، صلوات الله عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي اتَّبَعْتُمْ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاقِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾. وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على السنة الرسل، صلوات الله عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي اتَّبَعْتُمْ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاقِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾.

وقد قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ ما روى أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العباس، عن أبي بن كعب في قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ قال: كان في علمه تعالى يوم أقروا له بالميثاق، أي: فما كانوا ليؤمنوا لعلم الله منهم ذلك، وكذا قال الربيع بن أنس، واختاره ابن جرير. وقال السدي: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ قال: ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فآمنوا كرهاً. وقال مجاهد في قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾: هذا كقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

﴿ثُمَّ بَشَّرْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مَوْسَى بِآيَاتِنَا إِذْ رُفِعَ وَيْلُهُ فَنُفِّلُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَشَّرْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: الرسل المتقدم ذكرهم، كنوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين. ﴿مَوْسَى بِآيَاتِنَا﴾ أي: بحججنا ودلائلنا البينة إلى ﴿رُفِعَ وَيْلُهُ﴾ وهو ملك مصر في زمان موسى، ﴿وَيُلْفِيهِ﴾ أي: قومه، ﴿فَنُفِّلُوا بِهَا﴾ أي: جحدوا وكفروا بها ظلماً منهم وعناداً، كقوله تعالى: ﴿وَيَحْمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أُنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [النمل: ١٤] أي: الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله، أي: انظر - يا محمد - كيف فعلنا بهم، وأغرقناهم عن آخرهم، برأى من موسى وقومه. وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه، وأشفى لقلوب أولياء الله - موسى وقومه - من المؤمنين به.

﴿وَقَالَ مُوسَى يُفْرِعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٥﴾ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّبِعُوا مَعِيَ بَيِّنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ جِئْتُمْ بِآيَاتٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون، وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يُفْرِعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ أي: أرسلني الذي هو خالق كل شيء وربك ومليكك. ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ فقال بعضهم: معناه: حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق، أي: جدير بذلك وحري به. وقالوا: و «الباء» و «على» يتعاقبان، فيقال: «رमित بالقوس» و «على القوس»، و «جاء على حال حسنة» و «بحال حسنة». وقال بعض المفسرين: معناه: حريص على ألا أقول على الله إلا الحق. وقرأ آخرون من أهل المدينة: ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ﴾ بمعنى: واجب وحق عَلَيَّ ذلك ألا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق، لما أعلم من عز جلاله وعظيم سلطانه. ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: بحجة قاطعة من الله، أعطانيها دليلاً على صدقي فيما جئتكم به، ﴿فَاتَّبِعُوا مَعِيَ بَيِّنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ أي: أطلقهم من أسرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك ووبهم؛ فإنهم من سلالة نبي كريم إسرائيل، وهو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن عليهم صلوات الرحمن. ﴿قَالَ إِنْ كُنْتُمْ جِئْتُمْ بِآيَاتٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ أي: قال فرعون: لست بمصدقك فيما قلت، ولا بمطيعك فيما طلبت، فإن كانت معك حجة فأظهرها لئراها، إن كنت صادقاً فيما ادعيت.

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٠٨﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِ ﴿١٠٩﴾﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾: الحية الذكر. وكذا قال السدي، والضحاك. وفي حديث «الْقُتُون»، من رواية يزيد بن هارون عن الأصبغ بن زيد، عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ﴾ فتحوّلت حية عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون، فلما رأى فرعون أنها قاصدة إليه، اقتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل. وقال قتادة: تحوّلت حية عظيمة مثل المدينة. وقال السدي في قوله: ﴿فَأِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾: والثعبان: الذكر من الحيات، فاتحة فاها، واضعة لحيها، الأسفل في الأرض، والآخر على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه. فلما رآها دعر منها، وثب وأحدث، ولم يكن يُحدث قبل ذلك، وصاح: يا موسى، خذها وأنا أومن بك، وأرسل معك بني إسرائيل. فأخذها موسى، عليه السلام، فعادت عصا. وروي عن عكرمة عن ابن عباس نحو هذا. وقال وَهْب بن مُثَنَّى: لما دخل موسى على فرعون، قال له فرعون: أعرفك؟ قال: نعم، قال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِتْنًا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨]؟ قال: فرد إليه موسى الذي ردّ، فقال فرعون: خذوه، فبادره موسى ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾، فحملت على الناس فانهمزوا منها، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، قتل بعضهم بعضاً، وقام فرعون منهزماً حتى دخل البيت. رواه ابن جرير، والإمام أحمد في كتابه «الزهد»، وابن أبي حاتم. وفيه غرابة في سياقه، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِ ﴿١٠٩﴾﴾ أي: نزعه يده: أخرجها من درعه بعدما أدخلها فيه فخرجت بيضاء تتلألاً من غير برص ولا مرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل: ١٢]. وقال ابن عباس في حديث القتون: أخرج يده من جيبه فأراها بيضاء ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾، يعني: من غير برص، ثم أعادها إلى كفه، فعادت إلى لونها الأول. وكذا قال مجاهد وغير واحد.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١١٠﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَنْصَابِكُمْ فَأَوَدَّ بَوْدُكُمْ وَأَنْتُمْ سَاهُونَ ﴿١١١﴾﴾.

أي: قال الملأ - وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون - موافقين لقل فرعون فيه، بعدما رجع إليه رُوعه، واستقر على سرير مملكته بعد ذلك، قال للملأ حوله -: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾، فوافقه وقالوا كمقالته، وتشاوروا في أمره، وماذا يصنعون في

أمره، وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته، وظهور كذبهم وافتراءهم، وتخوفوا من معرفته أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون، فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم. والذي خافوا منه وقعوا فيه، كما قال تعالى: ﴿وَرِئَیْ فِرْعَوْنَ وَهَمَّكَ وَهْمُهَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِحَدِّكَ﴾ [القصص: ٦٠] فلما تشاوروا في شأنه، واتمروا فيه، اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى:

﴿قَالُوا آتِنَا زُكُوتَنَا وَارْزُقْنَا فِي الدُّنْيَا خَيْرِينَ﴾ [١١١] يَأْتُونَ بِكُلِّ سِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [١١٢].

قال ابن عباس: ﴿آتِنَا﴾: أخره. وقال قتادة: أحبس. ﴿وَارْزُقْنَا﴾: أي: ابعث ﴿فِي الدُّنْيَا﴾: أي: في الأقاليم ومعاملة ملكك، ﴿خَيْرِينَ﴾: أي: من يحسرك لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم. وقد كان السحر في زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً. واعتقد من اعتقد منهم، وأوهم من أوهم منهم، أن ما جاء به موسى، عليه السلام، من قبيل ما تشعبه سحرتهم؛ فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات، كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: ﴿أَفِئْتَنَا لِنُغْرِبَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْؤُوسُ﴾ [١١٣] فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ، فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُغْلِبُكَ عَنْهُ وَلَا أَنْتَ مَكَا سَؤَى [١١٤] قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخْسِرَ الْنَّاسُ مَشِيَّتِي [١١٥] فَتَوَكَّلْ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى [١١٦] ﴿طه: ٥٧ - ٦٠﴾ وقال تعالى ههنا:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ وَرُؤُوسًا قَالُوا إِنَّكَ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [١١٧] قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَيَن الْمُرْقَبِينَ﴾ [١١٨].

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى، عليه السلام: إن غلبوا موسى ليشينهم وليعطينهم عطاءً جزيلاً. فوعدهم ومناهم أنه يعطيهم ما أرادوا، وليجعلهم من جلسائه والمقربين عنده، فلما توثقوا من فرعون لعنه الله.

﴿قَالُوا يَمْؤُوسُ إِنَّا أَنْ تُلْقَى وَإِنَّا أَنْ نَكُونُ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [١١٩] قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [١٢٠].

هذه مبارزة من السحرة لموسى، عليه السلام، في قولهم: ﴿إِنَّا أَنْ تُلْقَى وَإِنَّا أَنْ نَكُونُ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾: أي: قبلك. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَمَّا أَنْ تُلْقَى أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [طه: ٦٥]. فقال لهم موسى، عليه السلام: ﴿أَلْقُوا﴾: أي: أنتم أولاً قبلي. والحكمة في هذا - والله أعلم - ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فرغ من بهرجهم ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلي بعد تطلب له وانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس. وكذا كان. ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [١٢١] أي: خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعِصْيَتُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِمْ يَنْسَوْنَ﴾ [١٢٢] فَاتَّخَذُوا فِي قُلُوبِهِمْ حِجَابًا مُوسَى قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَسَوَّوْا إِنَّمَا صَوَّرُوا كَيْدَ سِحْرِ وَلَا يُفْلِحُ الشَّارِعُ حَيْثُ أَتَى﴾ [١٢٣] ﴿طه: ٦٦ - ٦٩﴾.

قال سفيان بن عُيَيْنَةَ: حدثنا أبو سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس: ألقوا حبلاً غلاظاً وخشياً طويلاً. قال: فأقبلت يُخِيلُ إِلَيْهِ من سحرهم أنها تسعي. وقال محمد بن إسحاق: صَفَ خمسة عشر ألف ساحر، مع كل ساحر حباله وعصيه، وخرج موسى، عليه السلام، معه أخوه يتكىء على عصاه، حتى أتى الجمع، وفرعون في مجلسه معه أشرف أهل مملكته، ثم قال السحرة: ﴿يَمْؤُوسُ إِنَّا أَنْ تُلْقَى وَإِنَّا أَنْ نَكُونُ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [١٢٤] قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعِصْيَتُهُمْ﴾ [طه: ٦٥، ٦٦]، فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد، ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من الحبال والعصي، فإذا حيات كامثال الجبال، قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً. وقال السُّدِّي: كانوا بضعة وثلاثين ألف رجل، ليس رجل منهم إلا ومعه جبل وعصا، ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ يقول: فَرَقَّوْهُمُ أَي: من الفرق. وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُيَيْنَةَ، عن هشام الدستوائي، حدثنا القاسم بن أبي بزة قال: جمع فرعون سبعين ألف ساحر، فألقوا سبعين ألف جبل، وسبعين ألف عصا، حتى جعل يخيل إليه من سحرهم أنها تسعي؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾.

﴿وَأَرْحَبَ إِلَى مُوسَى أَنَّ أَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَلَاثٌ مِثْلُ مَا يَأْكُفُونَ﴾ [١٢٥] وَقَعَّ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١٢٦] فَخَلَبُوا فَخْلًا فَاسْتَرْهَبُوا﴾ [١٢٧] وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَدِيدٍ﴾ [١٢٨] قَالُوا أَمَّا رَبُّ الْمُلْقِينَ﴾ [١٢٩] رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [١٣٠].

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى، عليه السلام، في ذلك الموقف العظيم، الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه، ﴿فَإِذَا هِيَ ثَلَاثٌ مِثْلُ مَا يَأْكُفُونَ﴾: أي: تأكل ﴿مَا يَأْكُفُونَ﴾: أي: ما يلقونه ويوهمون أنه حق، وهو باطل. قال ابن عباس: فجعلت لا تَمُرُّ بشيء من حبالهم ولا من خُشْبِهم إلا التفتته، فعرفت السحرة أن هذا أمر من

السماء، وليس هذا بسحر، فخروا سجداً وقالوا: ﴿أَمَّا رَبِّ الْمَلَكَيْنِ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾. وقال محمد بن إسحاق: جعلت تبتلع تلك الجبال والعصي واحدة واحدة، حتى ما يُرى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى، فإذا هي عصا في يده كما كانت، ووقع السحرة سجداً ﴿قَالُوا أَمَّا رَبِّ الْمَلَكَيْنِ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾، لو كان هذا ساحراً ما غلبنا. وقال القاسم بن أبي بزة: أوحى الله إليه أن ألق عصاك، فآلق عصاه، فإذا هي ثعبان فاغر فاه، يبتلع حبالهم وعصيهم. فالقي السحرة عند ذلك سجداً، فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلها.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أَنْتُمْ بِدِ اللَّهِ إِنَّ هَذَا لَكُذُّبٌ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ [طه: ٧٠]، وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل؛ فإن موسى، عليه السلام، بمجرد ما جاء من «مدين» دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مائدته ملكه ومعاملة سلطته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممن اختار هو والملا من قومه، وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل. وقد كانوا من أحرص الناس على ذلك، وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون، وموسى، عليه السلام، لا يعرف أحداً منهم ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تستراً وتدليساً على رعا ع دولته وجهلته، كما قال تعالى: ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، فإن قوماً صدقوه في قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَخْلَاقُ﴾ [النازعات: ٢٤] من أجل خلق الله وأضلهم. وقال السدي في تفسيره بإسناده المشهور عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ قالوا: التقى موسى، عليه السلام، وأمير السحرة، فقال له موسى: أرايتك إن غلبت أتؤمن بي، وتشهد أن ما جئت به حق؟ قال الساحر: لأتؤمن غداً بسحر لا يغلبه سحر، فوالله لئن غلبتني لأؤمن بك ولأشهد أنك حق. وفرعون ينظر إليهما، قالوا: فلماذا قال ما قال. وقوله: ﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أي: تجتمعوا أنتم وهو، وتكون لكم دولة وصوله، وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والتصرف لكم، ﴿فَسَوَّيْتُمْ لَكُمْ﴾ أي: ما أصنع بكم.

ثم فسر هذا الوعيد بقوله: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْسُلَكُمْ مِنْ خِلْفٍ﴾ يعني: يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس. و ﴿لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وقال في الآية الأخرى: ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي: على الجذوع. قال ابن عباس: وكان أول من صلب، وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف، فرعون. وقول السحرة: ﴿إِنَّا إِيَّاكَ رَبَّنَا مُقْلِبُونَ﴾ أي: قد تحققنا أنا إليه راجعون، وعذابه أشد من عذابك، ونكاله ما تدعوننا إليه، وما أكرهتنا عليه من السحر، أعظم من نكالك، فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله، لما قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا سَبَرًا﴾ أي: عمن بالصبر على دينك، والثبات عليه، ﴿وَوَفَّقَا مُسْلِمِينَ﴾ أي: متابعين لنبيك موسى، عليه السلام. وقالوا لفرعون: ﴿فَأَقِمْ مَا أَنْتَ قَائِمٌ إِنَّهُ نَقِصُ هَذِهِ الْمَلَكَةِ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢] إِنَّا أَمَّا بِرَبِّنَا لَقَفِيرٌ لَنَا خَطِينَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [طه: ٧٣] إِنَّهُمْ مِنْ بَنَاتِ رَبِّهِمْ يَحْزَنْنَ فَإِنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَبُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْنُ [طه: ٧٤] وَمَنْ يَأْتِهِمْ مَوْثِقًا قَدْ عَلِمَ الْأَمْلَاحَ فَلْيَسْأَلْهُمْ فَيُلْحِقُوا لَكُمُ الذَّحْرُوتَ الْأُولَى [طه: ٧٥] فكانوا في أول النهار سحرة، فصاروا في آخره شهداء بررة. قال ابن عباس، وعبيد بن عمير، وقاعدة، وابن جريج: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخره شهداء.

﴿وَقَالَ الْكَلْبُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْدَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَبَذَرَكَ وَالْهَتَكَ قَالَ سَقِيقُ آبَائِهِمْ وَنَسْتَقِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا قَوْمُهُمْ قَهْرُونَ﴾ [طه: ٧٦] قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْمِعُوا يَأْتِيهِمْ وَأَصْمِتُوا إِنْكَ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ بَنَاتِهِ بَيْنَ غَيْبٍ وَالتَّوْبَةُ لِلْمُنْعِقِينَ [طه: ٧٧] قَالُوا أَوَدِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذَابُكُمْ وَسَتَهْلِكُ فِي الْأَرْضِ قِسْطٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ [طه: ٧٨].

يخبر تعالى عما تمألا عليه فرعون وملؤه، وما أظهره لموسى، عليه السلام، وقومه من الأذى والبغضة: ﴿وَقَالَ الْكَلْبُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: لفرعون ﴿أَتَنْدَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ﴾ أي: أتدعهم ليفسدوا في الأرض، أي: يفسدوا أهل رعيته ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك، يا الله للعجب! صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه! ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون، ولكن لا يشعرون؛ ولهذا قالوا: ﴿وَبَذَرَكَ وَالْهَتَكَ﴾، قال بعضهم: «الواو» هنا حالية، أي: أئذره وقومه يفسدون وقد ترك عبادتك؟ وقرأ ذلك أبي بن كعب: ﴿وقد تركوك أن يعبدوك وألهتك﴾، حكاه ابن جرير. وقال آخرون: هي عاطفة، أي: لا تدع موسى يصنع هو

وقومه من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى تركه أهلكتم. وقرأ بعضهم: ﴿إِلَهِتُ﴾ أي: عبادتكم، وروى ذلك عن ابن عباس ومجاهد. وعلى القراءة الأولى قال بعضهم: كان لفرعون إله يعبد. قال الحسن البصري: كان لفرعون إله يعبد في السر. وقال في رواية أخرى: كان له جُمَانَةٌ في عنقه معلقة يسجد لها. وقال السدي في قوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ وَهَّ الْهَيْكُلَ﴾: وأكلته، فيما زعم ابن عباس، كانت البقرة، كانوا إذا راوا بقرة حسنا أمرهم فرعون أن يعبدوها، فلذلك أخرج لهم عجلاً جسداً.

فأجابهم فرعون فيما سألوا بقوله: ﴿سَقِيلُ أَتَأْتُهُمْ وَتَسْتَجِبُ لِمَا يَأْتِيهِمْ﴾ ، وهذا أمر ثان بهذا الصنيع ، وقد كان نكل بهم به قبل ولادة موسى ، عليه السلام ، حذراً من وجوده ، فكان خلاف ما رآه وضد ما قصده فرعون . وهكذا عومل في صنيعه هذا أيضاً ، إنما أراد قهر بني إسرائيل وإذلالهم ، فجاء الأمر على خلاف ما أراد : نصرهم الله عليه وأذله ، وأرغم أنفه ، وأغرقه وجنوده . ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل : ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ ، ووعدهم بالعاقبة ، وأن الدار ستصير لهم في قوله : ﴿إِنَّكَ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلصَّابِرِينَ﴾ قالوا أَوْفِيَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا؟ أي : قد جرى علينا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى ، ومن بعد ذلك . فقال منبهاً لهم على حالهم الحاضرة وما يصيرون إليه في ثاني الحال : ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَذَابُكُمْ بِمَا تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَقُولُونَ﴾ ، وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر ، عند حلول النعم وزوال النقم .

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالْيَمِينِ وَنَعَصْنَا مِنْ أَلْمَرَاتِ لَمَّا لَهُمْ بَدْعُورُنَّ ﴿١٦٦﴾ فَإِذَا جَاءَهُمُ الْحِسَّةُ قَالُوا لَنَا هَٰذَا. وَإِنْ شِئْتُمْ سَنَكُفُّوا عَنْهُ. فَلَمَّا كَفَّتْ لَمَّاسُهَا رَدَّتْ وَأَنقَضَتِ ظُهُورُهَا وَجَاءَتْ بِرَبِّهَا عَلَاقَتٌ كَثِيرَةٌ قَالُوا هَٰذَا نَارُ اللَّهِ مَصْنُوعَةٌ لِّلْإِنسَانِ يَتَلَوَّنَا هِيَ كَأَنَّهُمْ يُفَكِّكُونَ ﴿١٦٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا هَٰلَ رِغَوْنَ﴾ أي: اختبرناهم وامتحانهم وابتليناهم ﴿بِالنَّاسِ﴾ وهي بيني الجوع بسبب قلة الزرع، ﴿وَنَفْثَ مِنَ النَّمْرِ﴾ قال مجاهد: وهو دون ذلك. وقال أبو إسحاق، عن رجاء بن خبيزة: كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ ﴿أَي: من الخصب والرزق﴾ قَالُوا لَٰكِنَّا نَذْكُرُ ﴿أَي: هذا لنا بما نستحقه﴾، وَإِنْ نُسَبِّحُ سُبْحَةً ﴿أَي: جَدْب وَقُحْطُ﴾ بَطَلْنَا بِمُؤْمِنٍ وَمِنْ مَعَهُ ﴿أَي: هذا بسببهم وما جاؤوا به﴾. ﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُمُ عِندَ اللَّهِ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُمُ عِندَ اللَّهِ﴾ يقول: مصائبهم عند الله، قال الله: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرْتُمُ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وقال ابن جُرَيْج، عن ابن عباس قال: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُمُ عِندَ اللَّهِ﴾ قال: إلا من قبل الله.

[illegible]

هذا إخبار من الله، ﷻ، عن تَمرّد قوم فرعون وعتوهم، وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل في قولهم: ﴿هَمَّا نَأْتِيَا بِهِ مِنْ
أَبْرَةٍ لِتَحْسَبَنَا بِهِمَا فَمَا كُنْ لَكَ بِمُؤَيَّدٍ﴾. يقولون: أي آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها، رددناها فلا نقبلها منك، ولا نؤمن بك ولا
بما جئت به، قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾. اختلفوا في معناه، فعن ابن عباس في رواية: كثرة الأمطار المغرقة
المتلفة للزروع والثمار. وبه قال الضحاك بن مُزَاجِم. وقال ابن عباس في رواية أخرى: هو كثرة الموت. وكذا قال عطاء.
وقال مجاهد: ﴿الطُّوفَانُ﴾: الماء، والطاعون على كل حال. وقال ابن جرير: حدثنا أبو هشام الرفاعي، حدثنا يحيى بن
يَمَان، حدثنا الجُنْهَال بن خليفة، عن الحجاج، عن الحكم بن مِيناء، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ:
«الطوفان الموت». وكذا رواه ابن مردويه، من حديث يحيى بن يمان به، وهو حديث غريب. وقال ابن عباس في رواية
أخرى: هو أمر من الله طاف بهم، ثم قرأ: ﴿فَلَاكُ عَنَّا لُمَاتٌ بِنَازِكٍ وَمِنْ أَمْرٍ أَيْمُونٍ ﴿٢٧﴾ فَاصْبِرْ كَاصْبِرِ ﴿٢٨﴾﴾ [القلم: ١٩، ٢٠]. وأما
الجراد فمعروف مشهور، وهو مأكول؛ لما ثبت في الصحيحين عن أبي يعفور قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى عن الجراد،
فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات ناكل الجراد. وروى الشافعي، وأحمد بن حنبل، وابن ماجه من حديث عبد
الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوت والجراد، والكبد
والطحال». ورواه أبو القاسم البغوي، عن داود بن رُشَيْد، عن سُؤَيْد بن عبد العزيز، عن أبي تمام الأيلي، عن زيد بن
أسلم، عن ابن عمر مرفوعاً مثله. وروى أبو داود، عن محمد بن الفرّج، عن محمد بن الزُّبَيْرِ قَان الأهوَازي، عن سليمان
التيمي، عن أبي عثمان، عن سلمان قال: سئل رسول الله ﷺ عن الجراد فقال: «أكثر جنود الله، لا أكله، ولا أحرمه». وإنما
تركه، عليه السلام، لأنه كان يعافه، كما عافت نفسه الشريفة أكل الضب، وأذن فيه.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في جزءه جمعه في الجراد، من حديث أبي سعيد الحسن بن علي العدوي، حدثنا نصر بن يحيى بن سعيد، حدثنا يحيى بن خالد، عن ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ لا يأكل الجراد، ولا الكلوتين، ولا الضب، من غير أن يحرمها. أما الجراد: فرج وعباد. وأما الكلوتان: فلقرههما من البول. وأما الضب فقال: «أتخوف أن يكون مسخاً»، ثم قال: غريب، لم أكتبه إلا من هذا الوجه. وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يشتهيه ويحبه، فروى عبد الله بن دينار، عن ابن عمر: أن عمر سئل عن الجراد فقال: ليت أن عندنا منه قفعة أو قفعتين نأكله. وروى ابن ماجه: حدثنا أحمد بن مَنِيع، عن سفيان بن عيينة، عن أبي سعد سعيد بن المرزبان البقال، سمع أنس بن مالك يقول: كان أزواج النبي ﷺ يَتَهَادَيْنِ الجراد على الأطباق. وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا داود بن رُشَيْد، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، عن ثُمَيْر بن يزيد القُتَيْبِي، حدثني أبي، عن صُدِّي بن عَجَلان، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مريم بنت عمران، عليها السلام، سألت ربها ﷻ، أن يطعمها لحماً لا دم له، فأطعمها الجراد، فقالت: اللهم أعشه بغير رضاع، وتابع بَيْتَهُ بغير شياخ». وقال ثُمَيْر: «الشياخ»: الصوت. وقال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا أبو تقي هشام بن عبد الملك الزَيْتِي، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن صُمَيْم بن زُرْعَةَ، عن شُرَيْح بن عبيد، عن أبي زُهَيْر النميري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقاتلوا الجراد، فإنه جند الله الأعظم». غريب جداً. وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الْطُوفَانَ وَالْجَرَادَ﴾ قال: كانت تأكل مسامير أبوابهم، وتَدْعُ الخشب. وروى ابن عساكر من حديث علي بن زيد الخرائطي، عن محمد بن كثير، سمعت الأوزاعي يقول: خرجت إلى الصحراء، فإذا أنا برجل من جراد في السماء، وإذا برجل راكب على جَرَادَةٍ منها، وهو شاك في الحديد، وكلما قال بيده هكذا، مال الجراد مع يده، وهو يقول: الدنيا باطل باطل ما فيها، الدنيا باطل باطل ما فيها.

وروى الحافظ أبو الفرج المعافى بن زكريا الحريري، حدثنا محمد بن الحسن بن زياد، حدثنا أحمد بن عبد الرحيم، أخبرنا وكيع، عن الأعمش، أنبأنا عامر قال: سئل شُرَيْح القاضي عن الجراد، فقال: قبح الله الجراد. فيها خلقة سبعة جبابرة: رأسها رأس فرس، وعنقها عنق ثور، وصدرها صدر أسد، وجناحها جناح نسر، ورجلاها رجلا جمل، وذنبها ذنب حية، وبطنها بطن عقرب. وقد قدمنا عند قوله تعالى: ﴿أَيُّ لَكُمْ مَصِيدَ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُم مِّنْكُمْ وَالْمَسِيكَةُ﴾ [المائدة: ٩٦] حديث حماد بن سلمة، عن أبي المُهَزَّم، عن أبي هريرة، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في حج أو عمرة، فاستقبلنا رجلُ جراد، فجعلنا نضربه بالعصي، ونحن محرمون، فسألنا رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «لا بأس بصيد البحر». وروى ابن ماجه، عن هارون الحمالي، عن هاشم بن القاسم، عن زياد بن عبد الله بن عُلَائَة، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أنس وجابر رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ؛ أنه كان إذا دعا على الجراد قال: «اللهم اهلك كباره، واقتل صغاره، وأفسد بيضه، واقطع دابره، وخذ بأفواهه عن معاشنا وأرزاقنا، إنك سميع الدعاء». فقال له جابر: يا رسول الله، أتدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره؟ فقال: «إنما هو نثرة حوت في البحر». قال هاشم: أخبرني زياد أنه أخبره من رآه ينثره الحوت قال من حقق ذلك: أن السمك إذا باض في ساحل البحر فتنضب الماء عنه ويدل للشمس، أنه يفتس كله جراداً طياراً. وقد مر عند قوله: ﴿إِلَّا أُمٌّ أَتَيْنَاكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨]، حديث عُمَر، رضي الله عنه: «إن الله خلق ألف أمة، ستمائة في البحر وأربعمائة في البر، وإن أولها هلاكاً الجراد». وقال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا يزيد بن المبارك، حدثنا عبد الرحمن بن قَيْس، حدثنا سالم بن سالم، حدثنا أبو المغيرة الجوزجاني محمد بن مالك، عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ويا مع السيف، ولا نجا مع الجراد». حديث غريب.

وأما ﴿وَالْقُمَّلَ﴾ فعن ابن عباس: هو السوس الذي يخرج من الحنطة. وعنه أنه الدبى - وهو الجراد الصغار الذي لا أجنحة له. وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة. وعن الحسن وسعيد بن جبير: ﴿وَالْقُمَّلَ﴾: دواب سود صغار. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَالْقُمَّلَ﴾: البراغيث. وقال ابن جرير: ﴿القمل﴾: جمع واحدتها «قُمَّلة»، وهي دابة تشبه القمل، تأكلها الإبل، فيما بلغني، وهي التي عنائها الأعشى بقوله:

قوم تـمـالـج قُمَّلاً أبـنـاؤهم
وسلاسلأ أجـداً وباباً مؤصداً
قال: وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يزعم أن القمل عند العرب «الحنان»، واحدتها «حنانة»، وهي صغار القردان فوق القمقامة. وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن حميد الرازي، حدثنا يعقوب القمي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير قال: لما أتى موسى، عليه السلام، فرعون قال له: أرسل معي بني إسرائيل، فأرسل الله

عليهم الطوفان - وهو المطر - فصب عليهم منه شيئاً، خافوا أن يكون عذاباً، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا المطر، فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل. فأنبت لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبت قبل ذلك من الزرع والتمر والكلأ، فقالوا: هذا ما كنا نتمنى. فأرسل الله عليهم الجراد، فسلطه على الكلأ، فلما رأوا أثره في الكلأ، عرفوا أنه لا يبقى الزرع، فقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك ليكشف عنا الجراد فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه، فكشف عنهم الجراد، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فداسوا وأحرقوا في البيوت، فقالوا: قد أحرقنا. فأرسل الله عليهم القمل - وهو السوس الذي يخرج منه - فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحي، فلا يرد منها ثلاثة أقفزة. فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا القمل، فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه، فكشف عنهم، فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل. فبينما هو جالس عند فرعون، إذ سمع نقيق ضفدع، فقال لفرعون: ما تلقى أنت وقومك من هذا؟ قال: وما عسى أن يكون كيد هذا؟ فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى دُفنه في الضفادع، ويهم أن يتكلم فتنب الضفدع في فيه. فقالوا لموسى: ادع ربك يكشف عنا هذه الضفادع، فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه، فكشف عنهم فلم يؤمنوا. وأرسل الله عليهم الدم، فكان ما استقوا من الأنهار والآبار، وما كان في أوعيتهم، وجدوه دماً عبيطاً، فشكوا إلى فرعون، فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم، وليس لنا شراب. فقال: إنه قد سحركم!! فقالوا: من أين سحرنا، ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دماً عبيطاً؟ فأتوه وقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن بك، ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل. وقد روي نحو هذا عن ابن عباس، والسدي، وقادة وغير واحد من علماء السلف.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله: فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مغلولاً، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر، والتمادي في الشر، فتابع الله عليه الآيات، وأخذ بالسنين، فأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم، آيات مفصلات. فأرسل الطوفان - وهو الماء - ففاض على وجه الأرض ثم ركد، لا يقدرון على أن يحرثوا ولا يعملوا شيئاً، حتى جهدوا جوعاً، فلما بلغهم ذلك ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّكَ لَنَا رَسُولٌ حَقٌّ مَا عَمَدَ عِنْدَكَ لَكِنَّ كَشَفْتَ عَنَّا الْجَرَبَ كَتُومَيْنِ لَكَ وَلَنُرِيَنَّكَ مَلَكًا بِنِي إِسْرَءِيلَ﴾، فدعا موسى ربه، فكشف عنهم، فلم يفواله بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الجراد، فأكل الشجر، فيما بلغني، حتى إن كان لياكل مسامير الأبواب من الحديد، حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يفواله بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم القمل، فذكر لي أن موسى، عليه السلام، أمر أن يمشي إلى كتيب حتى يضربه بعصاه، فمشى إلى كتيب أهل عظيم، فضربه بها، فانتال عليهم قملاً، حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرارة، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له، فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يفواله بشيء مما قالوا. فأرسل الله عليهم الضفادع، فملأت البيوت والأطعمة والآنية، فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع، قد غلبت عليه. فلما جهدهم ذلك، قالوا له مثل ما قالوا، فسأل ربه، فكشف عنهم، فلم يفواله بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الدم، فصارت مياه آل فرعون دماً، لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يغترفون من إناء، إلا عاد دماً عبيطاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور المروزي، أنبأنا النضر، أنبأنا إسرائيل، أنبأنا جابر بن يزيد، عن عكرمة، قال عبد الله بن عمرو: لا تقتلوا الضفادع، فإنها لما أرسلت على قوم فرعون، انطلق ضفدع منها فوق في تنور فيه نار، يطلب بذلك مرضاة الله، فأبدلهم الله من هذا أبرد شيء يعلمه من الماء، وجعل نقيقهن التسبيح. وروي من طريق عكرمة، عن ابن عباس، نحوه. وقال زيد بن أسلم: يعني بالدم: الرعاف. رواه ابن أبي حاتم.

﴿فَانْقَمَتْنَا مِنْهُمْ فَاغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ وَأَوْثَقْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَعْمَلُونَ مَسْكِوَاتَ الْأَرْضِ وَمَكْرَهُنَّ إِلَى بُرُوجِكُمْ فَبِمَا كُنْتُمْ تَزْكُوا الْحَقُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فَرَعُونَ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَفْرُسُونَ ﴿١٣٧﴾

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا، مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة، أنه انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم، وهو البحر الذي فرقه لموسى، فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم، ففرقوا عن آخرهم، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها. وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون - وهم بنو إسرائيل - ﴿مَسْكِوَاتَ الْأَرْضِ وَمَكْرَهُنَّ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَرُئِيَ أَنَّ نَارَ عَلَىٰ الْآرِثِ اسْتَضْءُوا فِي الْأَرْضِ وَجَمَلَهُمْ أَيْمَةً وَجَمَلَهُمُ الْوَرِثَةَ﴾ ﴿١٣٨﴾ وَتُكِينُ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَرُئِيَ فَرَعُونَ وَتَمَكَّنَ وَجُودُهُمَا وَنَهْمُ مَا كَانُوا يَحْدَرُونَ ﴿١٣٩﴾

[الفصص: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَجَنَّاتٍ ۖ وَدُرُودٍ وَمَقَارٍ كَثِيرٍ ۖ وَنَسُوا كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ ۖ﴾ [١٣٨] كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١٣٩﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٨]. وعن الحسن البصري وقتادة، في قوله: ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا أَلَيْ بِتَرَكْنَا فِيهَا﴾ يعني: الشام.

وقوله: ﴿وَنَمَتْ كَيْفَتْ رَبِّكَ الْحَسَنُ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ قال مجاهد وابن جرير: وهي قوله تعالى: ﴿وَرِيدُ أَنْ تَمُوتَ عَلَى أَلْبَنٍ أَسْتَقِيمُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجِّلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجِّلَهُمُ الْوَرِثَةَ ۖ﴾ [١٤٠] وَنَجِّلَهُمْ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ وَرِثَةُ فِرْعَوْنَ وَهَمْنٌ وَخُودُهُمَا يَنْهَمُ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿١٤١﴾. وقوله: ﴿وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ أَي: وخرينا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع، ﴿وَمَا كَانُوا يَمْرُسُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: ﴿يَمْرُسُونَ﴾: يبنون.

﴿وَجَوْنَاهُ بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُونُ عَلَى أَسْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَتَمُوسَى أَجْمَلُ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَمْ إِلَهًا قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ۖ﴾ [١٤٢] إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَيَطْلُ مَا كَانُوا يَمْلُكُونَ ﴿١٤٣﴾.

يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى، عليه السلام، حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا، ﴿فَاتَّوَا﴾ أي: فعمروا ﴿عَلَى قَوْمٍ يَمْكُونُ عَلَى أَسْنَانٍ لَهُمْ﴾ قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين. وقيل: كانوا من لخم. قال ابن جريج: وكانوا يعبدون أصناماً على صور البقر، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك، فقالوا: ﴿يَتَمُوسَى أَجْمَلُ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَمْ إِلَهًا قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ﴾ أي: تجهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل. ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: هالك ﴿وَيَطْلُ مَا كَانُوا يَمْلُكُونَ﴾.

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله تفسير هذه الآية من حديث محمد بن إسحاق وعقيل، ومعمر، كلهم عن الزهري، عن سنان بن أبي سنان، عن أبي واقد الليثي: أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين، وكان للكفار سدره يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها: «ذات أنواط»، قال: فمررنا بسدره خضراء عظيمة، قال: فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال: «قلتم والذي نفسي بيده، كما قال قوم موسى لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَمْ إِلَهًا قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَيَطْلُ مَا كَانُوا يَمْلُكُونَ ﴿١٤٣﴾». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن سنان بن أبي سنان الديلي، عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، فمررنا بسدره، فقلت: يا نبي الله، اجعل لنا هذه «ذات أنواط»، كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدره، ويعكفون حولها. فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَمْ إِلَهًا قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ﴾ إِنَّكُمْ تَرَكِبُونَ سَنَنَ مِنْ قَبْلِكُمْ». ورواه ابن أبي حاتم، من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني، عن أبيه، عن جده مرفوعاً.

﴿قَالَ أَعْبَرُ اللَّهُ أَبْيَئَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَصَّلَكُمْ عَلَى الْعَلْيَيْنِ ۖ وَإِذْ أَجْبَعْتَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُوءُكُمْ سَوَاءَ الْعَذَابِ يَفْقَهُونَ إِنَّمَا كُنْتُمْ سَكِينٌ مَوْسَىٰ نَبِيًّا ۖ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ نَلْبِيكَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِمَثَرٍ ۖ فَنَزَلَ فِي ذِي قَعْدٍ ۖ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ۖ﴾ [١٤٤].

يذكرهم موسى، عليه السلام، بنعمة الله عليهم، من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره، وما كانوا فيه من الهوان والذلة، وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم، والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه، وغرقه ودماره. وقد تقدم تفسيرها في سورة البقرة.

﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ نَلْبِيكَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِمَثَرٍ ۖ فَنَزَلَ فِي ذِي قَعْدٍ ۖ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ۖ﴾ [١٤٥].

يقول تعالى محمداً على بني إسرائيل، بما حصل لهم من الهداية، بتكليمه موسى، عليه السلام، وإعطائه التوراة، وفيها أحكامهم وتفصيل شرعهم، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة. قال المفسرون: فصامها موسى، عليه السلام، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة، فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر أربعين. وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي؟ فالأكثر على أن الثلاثين هي ذو القعدة، والعشر عشر ذي الحجة. قاله مجاهد، ومسروق، وابن جريج. وروي عن ابن عباس. فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى، عليه السلام، وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نَبِيًّا ۖ وَرَبِّيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ وَنَبِيًّا﴾ [المائدة: ٣]. فلما تم الميقات عزم موسى على الذهاب إلى الطور، كما قال تعالى: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَفْجَيْتَكُم مِّنْ عَذَابِكُمْ وَوَعَدْتُكُمْ جَلَبَ الطُّورِ الْآيَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٠]، فحينئذ

استخلف موسى على بني إسرائيل أخاه هارون، وأوصاه بالإصلاح وعدم الإفساد. وهذا تنبيه وتذكير، وإلا فهارون، عليه السلام، نبي شريف كريم على الله، وله وجاعة وجلالة، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر الأنبياء.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ لَنُرِيَنَّكَ أَشْأَنَ لَا تُبْصَرُ وَلَٰكِنَّ طَعَنَ إِلَىٰ الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نُرِيَنَّكَ فَلَئَنَّا تَجَلَ رَبُّهُمْ لِلْجَبَلِ جَمَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَوْغًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾.

يخبر تعالى عن موسى، عليه السلام، أنه لما جاء لميقات الله تعالى، وحصل له التكليم من الله تعالى، سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ لَنُرِيَنَّكَ أَشْأَنَ لَا تُبْصَرُ وَلَٰكِنَّ طَعَنَ إِلَىٰ الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نُرِيَنَّكَ فَلَئَنَّا تَجَلَ رَبُّهُمْ لِلْجَبَلِ جَمَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَوْغًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾. وقد أشكل حرف «لن» ههنا على كثير من العلماء؛ لأنها موضوعة لنفي التأييد، فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة. وهذا أضعف الأقوال؛ لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة، كما سنوردها عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُؤْمَرُ تَائِبٌ ﴿١٤٣﴾﴾. وقيل: إنها لنفي التأييد في الدنيا، جمعاً وقوله تعالى إخباراً عن الكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١٤٥﴾﴾. (المطففين: ١٥). وقيل: إنها لنفي التأييد في الدنيا، جمعاً بين هذه الآية، وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية في الدار الآخرة. وقيل: إن هذا الكلام في هذا المقام كالكلام في قوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِيكَ الْآبَسُورُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبَسُورَ وَهُوَ الْأَلْوَيْفُ لَقَدْ ﴿١٤٣﴾﴾. وقد تقدم ذلك في الأنعام (الآية: ١٠٣).

وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى، عليه السلام: «يا موسى، إنه لا يراني حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَئَنَّا تَجَلَ رَبُّهُمْ لِلْجَبَلِ جَمَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَوْغًا﴾. قال أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: حدثنا أحمد بن سَهْلٍ الواسطي، حدثنا قُزَّة بن عيسى، حدثنا الأعمش، عن رجل، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «لما تجلّى ربه للجبل، أشار بإصبعه، فجعله دكاً» وأرانا أبو إسماعيل بإصبعه السبابة. هذا الإسناد فيه رجل مبهم لم يسم، ثم قال: حدثني المثنى، حدثنا حجاج بن مثقال، حدثنا حمّاد، عن ليث، عن أنس؛ أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿فَلَئَنَّا تَجَلَ رَبُّهُمْ لِلْجَبَلِ جَمَلَهُ دَكًّا﴾ قال: «هكذا بإصبعه» ووضع النبي ﷺ إصبعه الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر - فساخ الجبل. هكذا وقع في هذه الرواية «حماد بن سلمة، عن ليث، عن أنس». والمشهور: «حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس»، كما قال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا هُدْبَةُ بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَلَئَنَّا تَجَلَ رَبُّهُمْ لِلْجَبَلِ جَمَلَهُ دَكًّا﴾ قال: وضع الإبهام قريباً من طرف خنصره، قال: فساخ الجبل - قال حميد لثابت: تقول هذا؟ فرفع ثابت يده فضرب صدر حميد، وقال: يقوله رسول الله ﷺ، ويقول أنس، وأنا أكتمه؟ وهكذا رواه الإمام أحمد في مسنده: حدثنا أبو المثنى، معاذ بن معاذ العنبري، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَلَئَنَّا تَجَلَ رَبُّهُمْ لِلْجَبَلِ جَمَلَهُ دَكًّا﴾ قال: قال هكذا - يعني أنه خرج طرف الخنصر - قال أحمد: أرانا معاذ، فقال له حميد الطويل: ما تريد إلى هذا يا أبا محمد؟ قال: فضرب صدره ضربة شديدة وقال: من أنت يا حميد؟! وما أنت يا حميد؟! يحدثني به أنس بن مالك عن النبي ﷺ، فتقول أنت: ما تريد إليه؟!

وهكذا رواه الترمذي في تفسير هذه الآية عن عبد الوهاب بن الحكم الوراق، عن معاذ بن معاذ به. وعن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن سليمان بن حرب، عن حماد بن سلمة، به. ثم قال: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث حماد. وهكذا رواه الحاكم في مستدركه من طرق، عن حماد بن سلمة، به. وقال: هذا صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. ورواه أبو محمد الحسن بن محمد الخلال، عن محمد بن علي بن سُوَيْد، عن أبي القاسم البغوي، عن هدية بن خالد، عن حماد بن سلمة، فذكره وقال: هذا إسناد صحيح لا علة فيه. وقد رواه داود بن المحبر، عن شعبة، عن ثابت، عن أنس مرفوعاً وهذا ليس بشيء، لأن داود بن المحبر كذاب، ورواه الحافظان أبو القاسم الطبراني وأبو بكر، بنحوه. وأسنده ابن مردويه من طريقين، عن سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً بنحوه، وأسنده ابن مردويه من طريق ابن البَيْلَمَانِي، عن أبيه، عن ابن عمر مرفوعاً، ولا يصح أيضاً.

وقال السُّدِّي، عن عكرمة، عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿فَلَئَنَّا تَجَلَ رَبُّهُمْ لِلْجَبَلِ﴾ قال: ما تجلّى منه إلا قدر الخنصر ﴿جَمَلَهُ دَكًّا﴾ قال: تراباً ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَوْغًا﴾ قال: مغشياً عليه. رواه ابن جرير. وقال قتادة: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَوْغًا﴾ قال: ميتاً. وقال سفيان الثوري: ساخ الجبل في الأرض، حتى وقع في البحر فهو يذهب معه. وقال سُئِيد، عن حجاج بن محمد الأعور، عن أبي بكر الهذلي: ﴿فَلَئَنَّا تَجَلَ رَبُّهُمْ لِلْجَبَلِ جَمَلَهُ دَكًّا﴾ انقعر فدخل تحت الأرض، فلا يظهر إلى يوم القيامة. وجاء في بعض الأخبار أنه ساخ في الأرض، فهو يهوي فيها إلى يوم القيامة، رواه ابن مردويه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن شبة، حدثنا محمد بن يحيى أبو غسان الكنانى، حدثنا عبد العزيز بن عمران، عن معاوية بن عبد الله، عن الجبل بن أيوب، عن معاوية بن قرة، عن أنس بن مالك، أن النبي ﷺ قال: «لما تجلّى الله للجبال، طارت لعظمته ستة أجبل، ف وقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة، بالمدينة: أحد، وورقان، ورضوى. ووقع بمكة: حراء، وثبير، وثور». وهذا حديث غريب، بل منكر. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن محمد بن عبد الله بن أبي الثلج، حدثنا الهيثم بن خارجة، حدثنا عثمان بن حصين بن غلاق، عن غزوة بن رويم قال: كانت الجبال قبل أن يتجلّى الله لموسى على الطور ضماً مُلْساً، فلما تجلّى الله لموسى على الطور ذلك، وتفطرت الجبال فصارت الشقوق والكهوف. وقال الربيع بن أنس: «فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا»، وذلك أن الجبل حين كشف الغطاء ورأى النور، صار مثل ذلك من الدكان. وقال بعضهم: «جَعَلَهُ دَكًّا» أي: فته.

وقال مجاهد في قوله: «وَلَكِنْ أَظْهَرَ إِلَى الْجَبَلِ إِنْ أَسْتَقَرَّ مَكَانَهُمْ فَسَوْفَ رَبَّنَا»: فإنه أكبر منك وأشد خلقاً، «فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ» فنظر إلى الجبل لا يتمالك، وأقبل الجبل فدك على أوله، ورأى موسى ما يصنع الجبل، فخر صعباً. وقال عكرمة: «جعله دكاً» قال: نظر الله إلى الجبل، فصار صحراء تراباً. وقد قرأ بهذه القراءة بعض القراء، واختارها ابن جرير، وقد ورد فيها حديث مرفوع، رواه ابن مردويه. والمعروف أن «الصَّعِقَ» هو الغشي ههنا، كما فسره ابن عباس وغيره، لا كما فسره قتادة بالموت، وإن كان ذلك صحيحاً في اللغة، كقوله تعالى: «وَيَفْجَعُ فِي الصُّورِ قَصَبًا مِّنْ فِي السَّمَاءِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يُنْفِخُ فِيهِ نُفُثًا فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ [الزمر: ٦٨]»، فإن هنا قرينة تدل على الموت كما أن هناك قرينة تدل على الغشي، وهي قوله: «فَلَمَّا أَفَاقَ»، والإفاقة إنما تكون من غشي.

«قَالَ سُبْحَنَكَ»: تنزيهاً وتعظيماً وإجلالاً أن يراه أحد في الدنيا إلا مات. وقوله: «بُتَّ إِلَيْكَ» قال مجاهد: أن أسألك الرؤية. «وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ»، قال ابن عباس ومجاهد: من بني إسرائيل. واختاره ابن جرير. وفي رواية أخرى عن ابن عباس: «وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ» أنه لا يراك أحد. وكذا قال أبو العالية: قد كان قبله مؤمنون، ولكن يقول: أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة. وهذا قول حسن له اتجاه. وقد ذكر محمد بن جرير في تفسيره ههنا أثراً طويلاً فيه غرائب وعجائب، عن محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله، وكأنه تلقاه من الإسرائيليات، والله تعالى أعلم.

وقوله: «وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا»، فيه أبو سعيد وأبو هريرة، عن النبي ﷺ: فأما حديث أبي سعيد، فأسنده البخاري في صحيحه ههنا، فقال: حدثنا حمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن عمرو بن يحيى المازني، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لطم وجهه، فقال: يا محمد، إن رجلاً من أصحابك من الأنصار لطم في وجهي. قال: «ادعوه». فدعوه، قال: «لم لطمت وجهه؟» قال: يا رسول الله، إني مررت باليهود فسمعتهم يقول: والذي اصطفى موسى على البشر. قال: قلت: وعلى محمد؟ فأخذتني غضبه، فلطمته، قال: «لا تخبروني من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور». وقد رواه البخاري في أماكن كثيرة من صحيحه، ومسلم في أحاديث الأنبياء من صحيحه، وأبو داود في كتاب «السنن» من سننه من طرق، عن عمرو بن يحيى بن عمار بن أبي الحسن المازني الأنصاري المدني، عن أبيه، عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري، به. وأما حديث أبي هريرة فقال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا أبو كامل، حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثنا ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعبد الرحمن الأعرج، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: استب رجلان: رجل من المسلمين، ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين. وقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فغضب المسلم على اليهودي فلطمه، فأتى اليهودي رسول الله ﷺ، فسأله فأخبره، فدعاه رسول الله ﷺ، فاعترف بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخبروني على موسى؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى ممسكاً بجانب العرش، فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي، أم كان ممن استثناءه الله، ﷻ». أخرجاه في الصحيحين، من حديث الزهري، به.

وقد روى الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا، رحمه الله: أن الذي لطم اليهودي في هذه القضية هو أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، ولكن تقدم في الصحيحين أنه رجل من الأنصار، وهذا هو أصح وأصرح، والله أعلم. والكلام في قوله، عليه السلام: «لا تخبروني على موسى»، كالكلام على قوله: «لا تفضلوني على الأنبياء ولا على يونس بن متى»، قيل: من باب التواضع. وقيل: قبل أن يعلم بذلك. وقيل: نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضب والتعصب. وقيل: على وجه القول بمجرد الرأي

والتشهي، والله أعلم. وقوله: «فإن الناس يصعقون يوم القيامة»، الظاهر أن هذا الصعق يكون في عرصات القيامة، يحصل أمر يصعقون منه، والله أعلم به. وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، وتجلي للخلائق الملك الديان، كما صعق موسى من تجلي الرب، ﷺ، ولهذا قال، عليه السلام: «فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور؟» وقد روى القاضي عياض في أوائل كتابه «الشفاء» بسنده عن محمد بن محمد بن مرزوق: حدثنا قتادة، حدثنا الحسن، عن قتادة، عن يحيى بن وثاب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لما تجلى الله لموسى، عليه السلام، كان يبصر النملة على الصفا في الليلة الظلماء، مسيرة عشرة فراسخ»، ثم قال: «ولا يبعد على هذا أن يختص نبينا بما ذكرناه من هذا الباب، بعد الإسراء والحظوة بما رأى من آيات ربه الكبرى. انتهى ما قاله، وكأنه صحح هذا الحديث، وفي صحته نظر، ولا يخلو رجال إسناده من مجاهيل لا يعرفون، ومثل هذا إنما يقل من رواية العدل الضابط عن مثله، حتى ينتهي إلى منتهاه، والله أعلم.

﴿قَالَ يٰمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَاتِي فَخَذْنَا مِمَّا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا يَهُودُ وَآمَرُوا قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِ سَازِرِكُمْ دَارَ الْفَنَاقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

يذكر تعالى أنه خاطب موسى عليه السلام بأنه اصطفاه على عالمي زمانه برسالاته وبكلامه تعالى، ولا شك أن محمداً ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين؛ ولهذا اختصه الله تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين، التي تستمر شريعته إلى قيام الساعة، وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم، وبعده في الشرف والفضل إبراهيم الخليل، عليه السلام، ثم موسى بن عمران كليم الرحمن، عليه السلام؛ ولهذا قال تعالى له: ﴿فَخَذْنَا مِمَّا آتَيْتُكَ﴾ أي: من الكلام والوحي والمناجاة ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: على ذلك، ولا تطلب ما لا طاقة لك به.

ثم أخبر تعالى أنه كتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، قيل: كانت الألواح من جوهر، وأن الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاماً مفصلة مبينة للحلال من الحرام، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَافِيَةٍ لِلنَّاسِ﴾ [الفصم: ٤٣]. وقيل: الألواح أعطيها موسى قبل التوراة، فالحق أعلم. وعلى كل تقدير كانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومنع منه، والله أعلم. وقوله: ﴿فَخَذَهَا يَهُودُ﴾ أي: بعزم على الطاعة ﴿وَأَمَرُوا قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِ﴾ قال سفيان بن عيينة: حدثنا أبو سعد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أمر موسى - عليه السلام - أن يأخذ بأشد ما أمر قومه. وقوله: ﴿سَازِرِكُمْ دَارَ الْفَنَاقِينَ﴾ أي: سترون عاقبة من خالف أمري، وخرج عن طاعتي، كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب؟ قال ابن جرير: وإنما قال: ﴿سَازِرِكُمْ دَارَ الْفَنَاقِينَ﴾، كما يقول القاتل لمن يخاطبه: «سأريك غداً إلام يصير إليه حال من خالف أمري»، على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره. ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد، والحسن البصري. وقيل: معناه ﴿سَازِرِكُمْ دَارَ الْفَنَاقِينَ﴾ أي: من أهل الشام، وأعطيك إياها. وقيل: منازل قوم فرعون، والأول أولى، والله أعلم؛ لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر، وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه، والله أعلم.

﴿سَافِرُونَ عَن آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْعِقَابِ يُتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿سَافِرُونَ عَن آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: سامعون فهم الحجج والأدلة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي، ويتكبرون على الناس بغير حق، أي: كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُونَ بِهِمْ أَوْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَنَّا زَعَمًا أَنَّ اللَّهَ قُلُوبُهُمْ﴾ [الصف: ٢٥]. وقال بعض السلف: لا ينال العلم حيي ولا مستكبر. وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة، بقي في ذل الجهل أبداً. وقال سفيان بن عيينة في قوله: ﴿سَافِرُونَ عَن آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قال: أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتي. قال ابن جرير: وهذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة. قلت: ليس هذا بلازم؛ لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد في حق كل أمة، ولا فرق بين أحد واحد في هذا، والله أعلم. وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ عَلَىٰ سَبِيلٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٤٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٤٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي: وإن ظهر لهم سبيل الرشd، أي: طريق النجاة لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً. ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا

بَيَّانِينَ أَي: كذبت بها قلوبهم، ﴿وَكَاثُرًا عَنَّا غَنِيًّا﴾ أَي: لا يعملون شيئاً مما فيها. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْشَاهُمُ﴾ أَي: من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات، حبط عمله. وقوله: ﴿هَلْ يُجِزُّونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَي: إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وكما تدين تدان.

﴿وَاتَّخَذُوا قَوْمَ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَمْ خَوَّ أَنْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ ﴿١٤٨﴾ ﴿وَلَا سِقْطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿١٤٩﴾.

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل، الذي اتخذه لهم السامري من حلي القبط، الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلًا، ثم ألقي فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل، عليه السلام، فصار عجلًا جسدًا له خوار، و «الخوار» صوت البقر. وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى عليه السلام لميقات ربه تعالى، وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور، حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَخْلَصْتَ الْبَاقِيَ﴾ ﴿١٥٠﴾ ﴿طه: ٨٥﴾. وقد اختلف المفسرون في هذا العجل: هل صار لحماً ودمًا له خوار؟ أو استمر على كونه من ذهب، إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبحر؟ على قولين، والله أعلم. ويقال: إنهم لما صوت لهم العجل رَقَصُوا حوله وافتننوا به، ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِنَّهٗ مُوسَى فَقَتَى﴾ ﴿طه: ٨٨﴾، فقال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَمِيزُ آلِهَتَهُمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرْفٌ وَلَا نَقَمًا﴾ ﴿١٤٩﴾ ﴿طه: ٨٩﴾. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾، ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل، ودُخُولهم عن خالق السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه، أن عبدوا معه عجلًا له خوار لا يكلمهم، ولا يرشدهم إلى خير. ولكن غَطَّى على أعين بصائرهم عَمَى الجهل والضلال، كما تقدم من رواية الإمام أحمد وأبي داود، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «حبك الشيء يُغمي ويُصم».

وقوله: ﴿وَلَا سِقْطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أَي: ندموا على ما فعلوا، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا، وَقَرَأ بعضهم: ﴿لئن لم ترحمنا بآلاء الميثنة من فوق، ﴿ربنا» منادى، ﴿وتغفر لنا﴾ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أَي: من الهالكين وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله ﷻ.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَفْبًا أَفْكَارًا قَالَ إِنِّي أَتَيْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّي فَأَنْتُمْ تُخْفَتُونِي إِنَّكُمْ لَا تَتَّقُونَ اللَّهَ فَكَذَّبْتُمْ بِالْآيَاتِ لِكَيْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ هَذِهِ الْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلُنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٥١﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوَتِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿١٥٢﴾.

يخبر تعالى أن موسى عليه السلام، رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف. قال أبو الدرداء: «الأسف»: أشد الغضب. ﴿قَالَ إِنِّي أَتَيْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّي فَأَنْتُمْ تُخْفَتُونِي﴾ يقول: بش ما صنعتكم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتمكم. وقوله: ﴿عَاجِلَتُمْ أَمْرِ رَبِّكُمْ﴾؟ يقول: استعجلتم مجيئي إليكم، وهو مقدر من الله تعالى. وقوله: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ قيل: كانت الألواح من زُمُرَد. وقيل: من ياقوت. وقيل: من يَرْد، وفي هذا دلالة على ما جاء في الحديث: «ليس الخبر كالمعاينة». ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقي الألواح غضباً على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً. وروى ابن جرير عن قتادة في هذا قولاً غريباً، لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة، وقد رَدَّه ابن عطية وغير واحد من العلماء، وهو جدير بالرد، وكأنه تَلَفَّاهُ قتادة عن بعض أهل الكتاب، وفيهم كذابون ووضَّاعون وأفَّاكون وزنادقة. وقوله: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ خروفاً أن يكون قد قَصَّر في نهيمهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَّكَ لِي وَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿وَلَا تَتَّبِعُنَّ أَهْوَاءَ قَوْمِهِمْ﴾ ﴿١٨﴾ قَالَ يَنْتَوَمُّ لَا تَأْخُذْ بِهَيْبَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنْ خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي﴾ ﴿١٩﴾ ﴿طه: ٩٢-٩٤﴾، وقال ههنا: ﴿إِنَّ أُمَّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلُنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أَي: لا تُشْمِتْنِي مُسَاقِمَهُمْ، ولا تخلطني معهم. وإنما قال: ﴿إِنَّ أُمَّ؟﴾ لتكون أَرَأَفَ وأنجع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه. فلما تحقق موسى، عليه السلام، براءة ساحة هارون عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَهُوْيَاقِيمَ إِنَّمَا قُيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْوَعْدِ أَنْ تَقْرَأُوا آيَاتِي وَلِيُقَرَّبَ إِلَيْكُمْ آلِهَتُكُمْ فَآيَتُهُمْ وَلِيُطَاعُوا أَمْرِي﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿طه: ٩٠﴾ فعند ذلك قال موسى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوَتِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «يرحم الله موسى، ليس المعاین كالمخبر؛ أخبره ربه، ﷻ، أن قومه فتنوا بعده، فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعانينهم ألقي الألواح».

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الصَّوْتِ سَيِّئًا مِمَّا بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَكَلِمَةً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفْوٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾.

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة، حتى قُتل بعضهم بعضاً، كما تقدم في سورة البقرة: ﴿فَقُولُوا إِنِّي تَابَ إِلَهُكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَكُلُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَذَلِكَ يُضْلِجُ اللَّهُ الْبَغْضَاءَ وَأَمَّا الذِّلَّةُ فَأَعْقِبَهُمْ ذَلِكَ ذُلًّا وَصَغَارًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة، فإن ذل البدعة ومخالفة الرسالة، متصلة من قبله على كتفيه، كما قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على أكتافهم، وإن هملجت بهم البغلات، وطقطقت بهم البراذين. وهكذا روى أبواب السُّخْتِيَانِي، عن أبي قِلَابَةَ الْجَزْمِي، أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ قال: هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة. وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل. ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق؛ ولهذا عقب هذه القصة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفْوٌ رَحِيمٌ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا أبان، حدثنا قتادة، عن عَزْرَةَ، عن الحسن العُرفي، عن عَلْقَمَةَ، عن عبد الله بن مسعود؛ أنه سئل عن ذلك - يعني عن الرجل يزني بالمرأة، ثم يتزوجها - فتلا هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفْوٌ رَحِيمٌ﴾، فتلاها عبد الله عشر مرات، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْفَصْفُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي سُحُفِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِزَيْمِهِمْ يَرْجُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ أي: سكن ﴿عَنْ مُوسَى الْفَصْفُ﴾ أي: غضبه على قومه ﴿أَخَذَ الْأَلْوَحَ﴾ أي: التي كان ألغافها من شدة الغضب على عبادتهم العجل، غيرة لله وغضباً له ﴿وَفِي سُحُفِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾. يقول كثير من المفسرين: إنها لما ألغافها تكسرت، ثم جمعها بعد ذلك؛ ولهذا قال بعض السلف: فوجد فيها هدى ورحمة. وأما التفصيل فذهب، وزعموا أن رضاءها لم يزل موجوداً في خزائن الملوك لبني إسرائيل إلى الدولة الإسلامية، والله أعلم بصحة هذا. وأما الدليل القاطع على أنها تكسرت حين ألغافها، وهي من جوهر الجنة، فقد أخبر الله تعالى أنه لما أخذها بعد ما ألغافها وجد فيها هدى ورحمة. ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِزَيْمِهِمْ يَرْجُونَ﴾: ضمن الربة معنى الخضوع؛ ولهذا عذاها باللام. وقال قتادة: في قوله تعالى: ﴿أَخَذَ الْأَلْوَحَ﴾ قال: رب، إني أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس، يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون - أي آخرون في الخلْق - السابقون في دخول الجنة، رب اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرؤونها - كتابهم - وكان من قبلهم يقرؤون كتابهم نظراً، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا منها شيئاً، ولم يعرفوه. قال قتادة: وإن الله أعطاكم أيتها الأمة من الحفظ شيئاً لم يعطه أحداً من الأمم. قال: رب، اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول، وبالكتاب الآخر، ويقاتلون فصول الضلالة، حتى يقاتلوا الأمور الكذاب، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم، ويؤجرون عليها - وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه، بعث الله عليها ناراً فأكلتها، وإن ردت عليه ثركت، فتأكلها السباع والطير، وإن الله أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقركم - قال: رب، اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بسيرة لم تكتب عليه حتى يعملها، فإذا عملها كتبت عليه سيئة واحدة، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هم المستجيون والمستجاب لهم، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هم المشفقون والمشفوع لهم، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال قتادة: فذكر لنا أن نبي الله موسى عليه السلام نبذ الألواح، وقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد.

﴿وَإِذْ أَخَذَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا رِيبًا قَدْ خَلَتْ عَنْهُمْ الرِّبَّةُ وَالْخُبْرَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَفْلَكُهُمْ مِنْ قَبْلِ وَاسْتِجَابَتْ لِيَأْمُرُنَا بِمَا فَعَلَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ وَإِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَكَتَبْنَا لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا مُلْكُكُمْ﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً، فاختار سبعين رجلاً

فبزم بهم ليدعوا ربهم، فكان فيما دعوا الله قالوا: اللهم أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا، فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة، قال موسى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلَ وَإِنِّي﴾ الآية. وقال السُّدِّي: إن الله أمر موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعداً، فاختار موسى قومه سبعين رجلاً على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا. فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته، فأرنا. فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب، ماذا أقول لبني إسرائيل إذا لقيتهم وقد أهلكت خيارهم؟ ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلَ وَإِنِّي﴾.

وقال محمد بن إسحاق: اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً، الخَيْرَ فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم، وسلّوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا، وطهروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء، لميقات وُثِّه له ربّه. وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم. فقال له السبعون - فيما ذكر لي - حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا معه للقاء ربه، فقالوا لموسى: اطلب لنا نسمع كلام ربنا. فقال: أفعّل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمود الغمام، حتى تَغَشَّى الجبل كله. ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه. فضرب دونه بالحجاب. ودنا القوم، حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سُجُوداً، فسمعوه وهو يكلم موسى، يأمره وينهاه: افعّل، ولا تفعل. فلما فرغ إليه من أمره، انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسى: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة. فأخذتهم الرجفة - وهي الصاعقة - فافلتت أرواحهم، فماتوا جميعاً. فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه، ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلَ وَإِنِّي﴾ قد سفهوا، أفنّهلك من ورثي من بني إسرائيل.

وقال سفيان الثوري: حدثني أبو إسحاق، عن عمارة بن عبد السُّلُولي، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: انطلق موسى وهارون وشبير وشبير، فانطلقوا إلى سفح جَبَل، فنام هارون على سرير، فتوفاه الله، ﷻ. فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا له: أين هارون؟ قال: توفاه الله، ﷻ. قالوا له: أنت قتلت، حَسَدْنَا على خُلُقِهِ ولينه - أو كلمة نحوها - قال: فاختاروا من شئتم. قال: فاختاروا سبعين رجلاً. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾، فلما انتهوا إليه قالوا: يا هارون، من قتلنا؟ قال: ما قتلني أحد، ولكن توفاني الله. قالوا: يا موسى، لن نعصى بعد اليوم. قال: فأخذتهم الرجفة. قال: فجعل موسى، عليه السلام، يرجع يميناً وشمالاً، وقال: يا ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلَ وَإِنِّي أَتْلِبُكَ﴾ يَا فَكَلُ السَّعْهَاءِ مِثًا إِنْ هِيَ إِلَّا فِئْتَنُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ. قال: فأحياهم الله وجعلهم أنبياء كلهم. هذا أثر غريب جداً، وعمار بن عبد هذا لا أعرفه. وقد رواه شعبة، عن أبي إسحاق عن رجل من بني سلول عن علي، فذكره. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جُرَيج: إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزالوا قومهم في عبادتهم العجل، ولا نهوهم، ويتوجه هذا القول بقول موسى: ﴿أَتْلِبُكَ يَا فَكَلُ السَّعْهَاءِ مِثًا﴾.

وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِئْتَنُكَ﴾ أي: ابتلاؤك واختبارك وامتحانك. قاله ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وغير واحد من علماء السلف والخلف. ولا معنى له غير ذلك؛ يقول: إن الأمرُ إلا أمرُك، وإن الحكمُ إلا لك، فما شئت كان، تضل من تشاء، وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت، ولا مُضِلٌّ لمن هَدَيْت، ولا مُعْطِي لما مَنَعْتَ، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر. وقوله: ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾: الغفر هو: الستر، وترك المواخذة بالذنب، والرحمة إذا قرنت مع الغفر، يراد بها ألا يوقعه في مثله في المستقبل. ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ أي: لا يغفر الذنوب إلا أنت، ﴿وَكَتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الذَّنْبِ حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾، هناك الفصل الأول من الدعاء في دفع المحذور، وهذا لتحصيل المقصود ﴿وَكَتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الذَّنْبِ حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة، وقد تقدم تفسير ذلك في سورة البقرة [١٧١: ٢٠١]. ﴿إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ﴾ أي: تبنا ورجعنا وأنبنا إليك. قاله ابن عباس، وسعيد بن جبیر، ومجاهد، وأبو العالية، والضحاك، وإبراهيم التيمي، والسُّدِّي، وقتادة، وغير واحد. وهو كذلك لَعَنَ. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن شريك، عن جابر، عن عبد الله بن نُجَيْي، عن علي رضي الله عنه قال: إنما سميت اليهود لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ﴾. جابر - هو ابن يزيد الجعفي - ضعيف.

﴿قَالَ عَذَابٌ أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمِبُ لِلَّذِينَ يَنْفُونَ رُؤُوسَهُمْ أَنزَكَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِتَابِعِنَا يُؤْمِنُونَ﴾. قال تعالى مجيباً لموسى في قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِئْتَنُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ الآية: ﴿عَذَابٌ أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمِبُ لِلَّذِينَ يَنْفُونَ﴾ أي: أفعّل ما أشاء، وأحكم ما أريد، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك،

سبحانه لا إله إلا هو. وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾: آية عظيمة الشمول والعموم، كقوله إخباراً عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ [غافر: ٧]. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبي، حدثنا الجُريري، عن أبي عبد الله الجُشمي، حدثنا جُذُوب - هو ابن عبد الله البجلي، رضي الله عنه - قال: جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عقّلها ثم صلى خلف رسول الله ﷺ. فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقالها، ثم ركبها، ثم نادى: اللهم، ارحمني ومحمداً، ولا تشرك في رحمتنا أحداً. فقال رسول الله ﷺ: «أتقولون هذا أضل أم بعيره؟ ألم تسمعوا ما قال؟» قالوا: بلى. قال: «لقد خَطَرْتُ رَحْمَةً واسعة؛ إن الله، ﷻ، خلق مائة رحمة، فأنزل رحمة واحدة يتعاطف بها الخلق؛ جنتها وإنساها وبهائمها، وأخرَ عنده تسعاً وتسعين رحمة، أتقولون هو أضل أم بعيره؟». ورواه أبو داود عن علي بن نصر، عن عبد الصمد بن عبد الوارث، به. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يحيى بن سعيد عن سليمان، عن أبي عثمان، عن النبي ﷺ قال: «إن الله، ﷻ، مائة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخر تسعاً وتسعين إلى يوم القيامة». تفرد بإخراجه مسلم، فرواه من حديث سليمان - هو ابن طرخان - وداود بن أبي هند كلاهما، عن أبي عثمان - واسمه عبد الرحمن بن مل - عن سلمان، هو الفارسي، عن النبي ﷺ، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن عاصم بن بهدلة، عن أبي صالح، عن أبي هريرة؛ أن النبي ﷺ قال: «لله مائة رحمة، عنده تسعة وتسعون، وجعل عندكم واحدة تتراحمون بها بين الجن والإنس وبين الخلق، فإذا كان يوم القيامة ضمها إليه». تفرد به أحمد من هذا الوجه. وقال أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لله مائة رحمة، فقسم منها جزءاً واحداً بين الخلق، فيه يتراحم الناس والوحش والطير». ورواه ابن ماجه من حديث أبي معاوية، عن الأعمش، به. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا سعد أبو غيلان الشيباني، عن حماد بن أبي سليمان، عن إبراهيم، عن صلة بن زفر، عن حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ليدخلن الجنة الفاجر في دينه، الأحق في معيشته. والذي نفسي بيده، ليدخلن الجنة الذي قد مَحَشَتِ النار بذنبه. والذي نفسي بيده، ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة يتناول لها إبليس رجاء أن تصيبه». هذا حديث غريب جداً، «وسعد» هذا لا أعرفه.

وقوله: ﴿نَسَاكَتِ اللَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾ الآية، يعني: فسأوجب حصول رحمتي مني وإحساناً إليهم، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]. وقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾ أي: سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات، وهم أمة محمد ﷺ الذين يتقون، أي: الشرك والعظائم من الذنوب. ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قيل: زكاة النفوس. وقيل: زكاة الأموال. ويحتمل أن تكون عامة لهما؛ فإن الآية مكية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِإِيمَانٍ يَتَّبِعُونَ﴾ أي: يصدقون.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَدْعُوهُمْ مَكْنُونًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَرِجُلٌ لَهُمُ الطَّلَبَاتُ وَيَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَ وَبَسَّحَ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَثْلَ الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِمُ قَالِدِينَ أَمَّا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَدْعُوهُمْ مَكْنُونًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾: وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء بشروا أممهم ببعثه، وأمرهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماءهم وأخبارهم كما قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، عن الجُريري، عن أبي صخر العقيلي، حدثني رجل من الأعراب، قال: جليت جُلُوبَةً إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ، فلما فرغت من بيعتي قلت: لألقين هذا الرجل فلا سمعن منه، قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فتبعتهما في أقبائهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشراً التوراة يقرأها، يعزي بها نفسه على ابن له في الموت كأحسن الفتیان وأجمله، فقال رسول الله ﷺ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة، هل تجد في كتابك ذا صفتي ومخرجي؟» فقال برأسه هكذا، أي: لا. فقال ابنه: إي، والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله ﷺ. فقال: «أقيموا اليهودي عن أخيك». ثم ولي كفته والصلاة عليه. هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح، عن أنس.

وقال الحاكم صاحب المستدرک: أخبرنا أبو محمد - عبد الله بن إسحاق البغوي، حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي، حدثنا عبد العزيز بن مسلم بن إدريس، حدثنا عبد الله بن إدريس، عن شُرَحْبِيل بن مسلم، عن أبي أمامة الباهلي، عن هشام بن العاصم الأموي قال: بعثت أنا ورجل آخر إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام، فخرجنا حتى قدما الغوطة - يعني غوطة دمشق - فنزلنا على جيلة بن الأيهم الغساني، فدخلنا عليه، فإذا هو على سرير له، فأرسل إلينا برسول نكلمه، فقلنا: والله لا

نكلم رسولاً، إنما بعثنا إلى الملك، فإن أذن لنا كلمناه، وإلا لم نكلم الرسول. فرجع إليه الرسول فأخبره بذلك، قال: فأذن لنا فقال: تكلموا، فكلمه هشام بن العاص، ودعاه إلى الإسلام، فإذا عليه ثياب سواد، فقال له هشام: وما هذه التي عليك؟ فقال: لبستها وحلفت ألا أنزعها حتى أخرجكم من الشام. قلنا: ومجلسك هذا، والله لناخذنه منك، ولناخذن ملك الملك الأعظم، إن شاء الله، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ. قال: لستم بهم، بل هم قوم يصومون بالنهار، ويقومون بالليل، فكيف صومكم؟ فأخبرناه، فملئ. وجهه سواداً فقال: قوموا. وبعث معنا رسولاً إلى الملك، فخرجنا، حتى إذا كنا قريباً من المدينة، قال لنا الذي معنا: إن دوابكم هذه لا تدخل مدينة الملك، فإن شئتم حملناكم على براذين ويغال؟ قلنا: والله لا ندخل إلا عليها، فأرسلوا إلى الملك أنهم يأبون ذلك. فدخلنا على رواحنا متقلدين سيوفنا، حتى انتهينا إلى غرفة، فأنخنا في أصلها وهو ينظر إلينا، فقلنا: لا إله إلا الله، والله أكبر فإله يعلم لقد تنفّضت الغرفة حتى صارت كأنها عذق تصفقه الرياح، فأرسل إلينا: ليس لكم أن تجهروا علينا بدنيكم. وأرسل إلينا: أن ادخلوا، فدخلنا عليه وهو على فراش له، وعنده بطارقه من الروم، وكل شيء في مجلسه أحمر، وما حوله حمرة، وعليه ثياب من الحمرة، فدنونا منه فضحك، فقال: ما كان عليكم لو حييتموني بتحيتكم فيما بينكم؟ وإذا عنده رجل فصيح بالعربية، كثير الكلام، فقلنا: إن تحيتنا فيما بيننا لا تحل لك، وتحيتك التي تحيي بها لا تحل لنا أن نحيك بها. قال: كيف تحيتكم فيما بينكم؟ قلنا: السلام عليك. قال: وكيف تحيون ملككم؟ قلنا: بها. قال: وكيف يرد عليكم؟ قلنا: بها. قال: فما أعظم كلامكم؟ قلنا: لا إله إلا الله، والله أكبر فلما تكلمنا بها والله يعلم - لقد تنفّضت الغرفة حتى رفع رأسه إليها، قال: فهذه الكلمة التي قلمتموها حيث تنفّضت الغرفة، كلما قلمتموها في بيوتكم تنفّضت عليكم غرفكم؟ قلنا: لا، ما رأيناها فعلت هذا قط إلا عندك. قال: لوددت أنكم كلما قلمتم تنفّض كل شيء عليكم، وأناي خرجت من نصف ملكي. قلنا: لم؟ قال: لأنه كان أيسر لسانها، وأجدر ألا تكون من أمر النبوة، وأنها تكون من حيل الناس. ثم سألتنا عما أراد فأخبرناه. ثم قال: كيف صلاتكم وصومكم؟ فأخبرناه، فقال: قوموا، فقمنا. فأمر لنا بمنزل حسن ونزل كثير، فأقمنا ثلاثاً.

فأرسل إلينا ليلاً فدخلنا عليه، فاستعاد قولنا، فأعدناه. ثم دعا بشيء كهينة الرُبْعَةِ العظيمة مذهبة، فيها بيوت صغار عليها أبواب، ففتح بيتاً وقللاً، فاستخرج حريرة سوداء، فنشرها، فإذا فيها صورة حمراء، وإذا فيها رجل ضخم العينين، عظيم الألتين، لم أر مثل طول عنقه، وإذا ليست له لحية، وإذا له صغيرتان أحسن ما خلق الله. قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا آدم، عليه السلام، وإذا هو أكثر الناس شعراً. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء، وإذا فيها صورة بيضاء، وإذا له شعر ك شعر القطط، أحمر العينين، ضخمة الهامة، حسن اللحية، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا نوح، عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج حريرة سوداء، وإذا فيها رجل شديد البياض، حسن العينين، صُلَتَ الجبين، طويل الخد، أبيض اللحية كأنه يبتسم، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إبراهيم، عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فإذا فيه صورة بيضاء، وإذا - والله - رسول الله ﷺ، فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم، محمد رسول الله ﷺ قال: وبكى. قال: والله يعلم أنه قام قائماً ثم جلس، وقال: والله إنه لهو؟ قلنا: نعم، إنه لهو، كأنك تنظر إليه، فأمسك ساعة ينظر إليها، ثم قال: أما إنه كان آخر البيوت، ولكني عَجَلْتُهُ لَكُمْ لَأَنْظُرَ مَا عِنْدَكُمْ. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء، فإذا فيها صورة آدماء سحماء، وإذا رجل جعد قطط، غائر العينين، حديد النظر، عابس متراكب الأسنان، مقلص الشفة كأنه غضبان، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا موسى، عليه السلام. وإلى جانبه صورة تشبهه، إلا أنه مُدْهَانُ الرَّأْسِ، عريض الجبين، في عينيه قبل، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا هارون بن عمران، عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجل آدم سَبَطَ رُبْعَةً، كأنه غضبان، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا لوط، عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجل أبيض مُشْرَبَ حُمْرَةٍ، أفتى، خفيف العارضين، حسن الوجه، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إسحاق، عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة تشبه إسحاق، إلا أنه على شفته خال، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا يعقوب، عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء، فيها صورة رجل أبيض، حسن الوجه، أفتى الأنف، حسن القامة، يعلو وجهه نور، يعرف في وجهه الخشوع، يضرب إلى الحمرة، قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إسماعيل جد نبيكم، عليهما السلام.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج حريرة بيضاء، فيها صورة كأنها آدم، عليه السلام، كأن وجهه الشمس، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا يوسف، عليه السلام. ثم فتح باباً آخر فاستخرج حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجل أحمر حَمَشَ الساقين، أخفش العينين، ضخمة البطن، رُبْعَةً متقلد سيفاً، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا داود، عليه السلام. ثم فتح باباً

آخر، فاستخرج حريرة بيضاء، فيها صورة رجل ضخم الأليتين، طويل الرجلين، راكب فرساً، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا سليمان بن داود، عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء، فيها صورة بيضاء، وإذا شاب شديد سواد اللحية، كثير الشعر، حسن العينين، حسن الوجه، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا عيسى ابن مريم، عليه السلام. قلنا: من أين لك هذه الصور؟ لأننا نعلم أنها على ما صورت عليه الأنبياء، عليهم السلام، لأننا رأينا صورة نبينا عليه السلام مثله. فقال: إن آدم، عليه السلام، سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده، فأنزل عليه صورهم، فكان في خزنة آدم، عليه السلام، عند مغرب الشمس، فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس فدفعها إلى دانيال. ثم قال: أما والله إن نفسي طابت بالخروج من ملكي، وإنني كنت عبداً لأشركم ملكه، حتى أموت. ثم أجازنا فأحسن جائزتنا، وسرحنا، فلما أتينا أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، فحدثناه بما أَرانا، وبما قال لنا، وما أجازنا، قال: فيكى أبو بكر وقال: مسكين! لو أراد الله به خيراً لفعل. ثم قال: أخبرنا رسول الله ﷺ أنهم اليهود يجدون نعت محمد ﷺ عندهم. هكذا أورده الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي، رحمه الله، في كتاب «دلائل النبوة»، عن الحاكم إجازة، فذكره، وإسناده لا بأس به.

وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا عثمان بن عُمَر، حدثنا قُلَيْب، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال: أجل والله، إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمينين، أنت عبيدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله ويفتح به قلوباً غُلُفاً، وأذاناً صماً، وأعيناً عمياً» قال عطاء: ثم لقيت كعباً فسألته عن ذلك، فما اختلفا حرفاً، إلا أن كعباً قال بلغته، قال: «قلوباً غُلُوفاً وأذاناً صمومياً وأعيناً عمومياً». وقد رواه البخاري في صحيحه، عن محمد بن سنان، عن قُلَيْب، عن هلال بن علي - فذكر بإسناده نحوه، وزاد بعد قوله «ليس بفظ ولا غليظ»: «ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح». ويقع في كلام كثير من السلف إطلاق «التوراة» على كتب أهل الكتاب. وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشبه هذا، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا محمد بن إدريس وُاق الحميدي، حدثنا محمد بن عمر بن إبراهيم - من ولد جبير بن مطعم - قال: حدثني أم عثمان بنت سعيد - وهي جدتي - عن أبيها سعيد بن محمد بن جبير، عن أبيه محمد بن جبير، عن أبيه جبير بن مطعم، قال: خرجت تاجراً إلى الشام، فلما كنت بأدنى الشام، لقيني رجل من أهل الكتاب، فقال: هل عندكم رجل نبياً؟ قلت: نعم. قال: هل تعرف صورته إذا رأيته؟ قلت: نعم. فأدخلني بيتاً فيه صور، فلم أر صورة النبي ﷺ، فبينما أنا كذلك إذ دخل رجل منهم علينا، فقال: فيم أنتم؟ فأخبرناه، فذهب بنا إلى منزله، فساعة ما دخلت نظرت إلى صورة النبي ﷺ، وإذا رجل أخذ يعقب النبي ﷺ، قلت: من هذا الرجل القابض على عقبه؟ قال: إنه لم يكن نبي إلا كان بعده نبي إلا هذا النبي، فإنه لا نبي بعده، وهذا الخليفة بعده، وإذا صفة أبي بكر، رضي الله عنه. وقال أبو داود: حدثنا حفص بن عمر أبو عمر الضرير، حدثنا حماد بن سلمة أن سعيد بن إلياس الجريري أخبرهم، عن عبد الله بن شقيق العقيلي، عن الأقوع مؤذن عمر بن الخطاب قال: بعثني عمر إلى الأسقف، فدعوته، فقال له عمر: هل تجدني في الكتاب؟ قال: نعم. قال: كيف تجدني؟ قال: أجذك قرناً. قال: فرفع عمر الدرة وقال: قرن مه؟ قال: قرن حديد، أمير شديد. قال: فكيف تجد الذي بعدي؟ قال: أجد خليفة صالحاً، غير أنه يؤثر قرابته، قال عمر: يرحم الله عثمان، ثلاثاً. قال: كيف تجد الذي بعده؟ قال: أجد صداً حديد. قال: فوضع عمر يده على رأسه وقال: يا ذفره، يا ذفره! قال: يا أمير المؤمنين، إنه خليفة صالح، ولكنه يُستخلف حين يُستخلف والسيف مسلول، والدم مهراق.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة، وهكذا كان حاله، عليه الصلاة والسلام، لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر، كما قال عبد الله بن مسعود: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأزعمها سمعتك، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه. ومن أهم ذلك وأعظمه، ما بعثه الله تعالى به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوعَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر - هو العقدي عبد الملك بن عمرو - حدثنا سليمان - هو ابن بلال - عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن عبد الملك بن سعيد، عن أبي حميد وأبي أسيد، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعت

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾، وهذا خطاب للأحمر والأسود، والعربي والعجمي، ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: جميعكم، وهذا من شرفه وعظمته أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة، كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأَشْهَدَ بِهِ وَمَنْ يُلْحَقْ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [مرد: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّهِ أَزْوَاجُ الْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ؕ اسْمَعُوا لَهُمْ أَسْمَعُوا فَسَوَىٰ ؕ لَوْ كُنَّا ظَالِمًا لَلِاتَّخِذُوا لِلْبَلَاءِ حَصَنًا ۚ أَلَا عَمْرَأَتُكَ إِذْ أَقْبَلَتْ إِلَيْكَ فَتُطْعِمُهُ بِمَا تُطْعِمُهُمْ وَلِلْغَنَىٰ لِلْغَنَىٰ ۚ﴾ [آل عمران: ٢٠]، والآيات في هذا كثيرة، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه، صلوات الله وسلامه عليه، رسول الله إلى الناس كلهم. قال البخاري، رحمه الله، في تفسير هذه الآية: حدثنا عبد الله، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن وموسى بن هارون قالا: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الله بن العلاء بن زُرَّير، حدثني بسر بن عبيد الله، حدثني أبو إدريس الخولاني قال: سمعت أبا الدرداء، رضي الله عنه، يقول: كانت بين أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فأنصرف عمر عنه مغضباً، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ - فقال أبو الدرداء: ونحن عنده - فقال رسول الله ﷺ: «أما أصحابكم هذا فقد غامر» - أي: غاضب وحاقد - قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ، وقص على رسول الله ﷺ الخبر - قال أبو الدرداء: وغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لانا كنت أظلم، فقال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تاركو لي صاحبي؟» إني قلت: يا أيها الناس، إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلت: كذبت. وقال أبو بكر: صدقت». انفرد به البخاري.

الحسين، حدثنا حجاج، عن ابن جريج قوله: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ أَمَّنَهُ بِرُحْمَةٍ يُدْعُونَ﴾ قال: بلغني أن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم، وكفروا - وكانوا اثني عشر سبطاً - تبرأ سبط منهم مما صنعوا، واعتذروا، وسألوا الله، ﷻ، أن يفرق بينهم وبينهم، ففتح الله لهم نفقاً في الأرض، فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين، فهم هنالك حنفاء مسلمين يستقبلون قبلتنا. قال ابن جريج: قال ابن عباس: فذلك قوله: ﴿وَقُلْنَا يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُتُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَوِيمًا﴾ [الإسراء: ١٠٤]، و «وعد الآخرة»: عيسى ابن مريم - قال ابن جريج: قال ابن عباس: ساروا في السرب سنة ونصفاً. وقال ابن عيينة، عن صدقة أبي الهذيل، عن السدي: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ أَمَّنَهُ بِرُحْمَةٍ يُدْعُونَ﴾ قال: قوم بينكم وبينهم نهر من شهد.

﴿وَقَلَّمْنَاهُمْ ثَمَنَهُ عَشْرَ أَسْبَاطٍ أُمَّةً وَوَاحِدَةً إِنْ مَوْسَىٰ إِذْ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ رَبَّ امْرِئٍ بِمِصْرَافٍ الْحَجَرِ فَأَلْبَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَزَلَّنا عَنْهُمْ الرِّيحَ وَالْعُلَّوْنِ كَلَّوا مِنْ يَلِينٍ مَا رَزَقْنَاهُمْ وَمَا ظَلَمُوا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وإذ قيل لهم اسْكُتُوا هَذِهِ الْقَرْيَةُ وَكَلَّوا مِنْهَا حَيْثُ يَشْتُمُونَ وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَقَرْنَا لَكُمْ حِطَّاتِكُمْ سَبْعِينَ مِائَةً مِّنَ اللَّيْلِ فَظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة، وهي مدنية، وهذا السياق مكِّي، ونبها على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته، والله الحمد والمنة.

﴿وَسَأَلْنَاهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَدْعُونَ فِي اللَّيْلِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَاثُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا تَأْتِيهِمْ إِلَّا جِثَاثُهُمْ كَذَلِكَ يَتْلَوْنَهَا بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي اللَّيْلِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، يقول الله تعالى، لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَسَأَلْنَاهُمْ﴾ أي: وأسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نعمته على صنيعهم واعتدائهم واحتياهم في المخالفة، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي وجدونها في كتبهم؛ لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم. وهذه القرية هي «أيلة»، وهي على شاطئ بحر القلزم. قال محمد بن إسحاق: عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسَأَلْنَاهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قال: هي قرية يقال لها «أيلة» بين مدين والطور. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وقطادة والسدي. وقال عبد الله بن كثير القاري، سمعنا أنها أيلة. وقيل: هي مدين، وهو رواية عن ابن عباس وقال ابن زيد: هي قرية يقال لها «مقنا» بين مدين وعيذوني. وقوله: ﴿إِذْ يَدْعُونَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاية به إذا ذاك. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَاثُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا﴾ قال الضحاک، عن ابن عباس: أي ظاهرة على الماء. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿شُرَعًا﴾: من كل مكان. قال ابن جرير: وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَأْتِيهِمْ إِلَّا جِثَاثُهُمْ﴾ أي: نخبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائه عنهم في اليوم المحلل لهم صيده ﴿كَذَلِكَ يَتْلَوْنَهَا﴾: نخبرهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يقول: بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها. وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله، بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام. وقد قال الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بطة، رحمه الله: حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم، حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل». وهذا إسناد جيد، فإن أحمد بن محمد بن مسلم هذا ذكره الخطيب في تاريخه ووثقه، وباقى رجاله مشهورون ثقات، ويصح الترمذي بمثل هذا الإسناد كثيراً.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَوْذِعًا إِلَىٰ مَعَدَّةِ آلِ زَيْكٍ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَعُونَ﴾ فَلَمَّا سَأَلُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا آلِ زَيْكٍ يَتَوَكَّلُ عَلَى الشَّوْرِ وَأَخَذْنَا الْيَوْمَ ظَلَمَهُمْ بِمِائَةٍ مِّنَ النَّارِ فَتَشْتُمُونَ﴾ فَلَمَّا عَوَّا عَن نَّارِهَا عَنَّا فَلَمَّا لَمْ يَكُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور، واحتالوا على اصطیاد السمك يوم السبت، كما تقدم بيانه في سورة البقرة. وفرقة نهت عن ذلك، وأنكرت واعتزلتهم. وفرقة سكت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للمنكرة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا؟﴾ أي: لم تنهوا هؤلاء، وقد علمتم أنهم هلكوا واستحقوا العقوبة من الله؟ فلا فائدة في نهيكهم إياهم. قالت لهم المنكرة: ﴿مَوْذِعًا إِلَىٰ زَيْكٍ﴾. قرأ بعضهم بالرفع، كأنه على تقديره: هذا

معدرة، وقرأ آخرون بالنصب، أي: نفعل ذلك ﴿مَعْذَرَةً لِّكَ رَبِّكَ﴾ أي: فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَعُونَ﴾ يقولون: ولعل بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه، ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا شَاؤَا مَا دُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: فلما أبى الفاعلون المنكر قبول النصيحة، ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْأَثْوَىٰ وَآخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: ارتكبوا المعصية ﴿بِعَذَابٍ بَينين﴾، فنص على نجاة الناهمين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكين؛ لأن الجزء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيماً فيذموا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم: هل كانوا من الهالكين أو من الناجين؟ على قولين: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ يَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهِلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال: هي قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة، يقال لها: «أيلة» فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم، وكانت الحيتان تأتيتهم يوم سبتهم شرعاً في ساحل البحر، فإذا مضى يوم السبت لم يقدرُوا عليها. فمضى على ذلك ما شاء الله، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم، فنهتهم طائفة وقالوا: تأخذونها وقد حرّمها الله عليكم يوم سبتكم؟ فلم يزدادوا إلا غياً وعتوّاً، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم، فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النّهاء: تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب، ﴿لِمَ يَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهِلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، وكانوا أشد غضباً لله من الطائفة الأخرى، فقالوا: ﴿مَعْذَرَةً لِّكَ رَبِّكَ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَعُونَ﴾، وكل قد كانوا ينهاهم، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا: ﴿لِمَ يَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهِلِكُهُمْ﴾، والذين قالوا: ﴿مَعْذَرَةً لِّكَ رَبِّكَ﴾، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان، فجعلهم قردة. وروى العوفي، عن ابن عباس قريباً من هذا.

وقال حماد بن زيد، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿لِمَ يَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهِلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال: ما أدري أنجا الذين قالوا: «أعطون قوماً الله مهلكهم»، أم لا؟ قال: فلم أزل به حتى عرفت أنه نجوا، فكساني حلة. قال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج، حدثني رجل، عن عكرمة قال: جث ابن عباس يوماً وهو يبكي، وإذا المصحف في حجره، فاعظمت أن أدنو، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست، فقلت: ما يبكيك يا أبا عباس، جعلني الله فداك؟ قال: فقال: هؤلاء الوراق. قال: وإذا هو في «سورة الأعراف»، قال: تعرف أيلة؟ قلت: نعم. قال: فإنه كان بها حي من يهود سبقت الحيتان إليهم يوم السبت، ثم غاصت لا يقدرُون عليها حتى يغوصوا بعد كد ومؤنة شديدة، كانت تأتيتهم يوم السبت شرعاً بيضاً سمناً كأنها الماخض، تتبطح ظهورها لبطونها بأفئيتهم. فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال: إنما نهيتهم عن أكلها يوم السبت، فخذوها فيه، وكلوها في غيره من الأيام. فقالت ذلك طائفة منهم، وقالت طائفة: بل نهيتهم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت. فكانوا كذلك، حتى جاءت الجمعة المقبلة، فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها، واعتزلت طائفة ذات اليمين، وتحتت واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت. وقال الأيمنون: ويلكم، الله، الله ننهاكم أن تعرضوا العقوبة الله. وقال الأيسرون: ﴿لِمَ يَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهِلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؟ قال الأيمنون: ﴿مَعْذَرَةً لِّكَ رَبِّكَ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَعُونَ﴾، إن ينتهوا فهو أحب إلينا ألا يصابوا ولا يهلكوا، وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم. فمضوا على الخطيئة، وقال الأيمنون: فقد فعلتم، يا أعداء الله. والله لا نبايتكم الليلة في مدينتكم، والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب. فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا، فلم يجابوا، فوضعوا سلماً، وأعلوا سور المدينة رجلاً، فالتفت إليهم فقال: أي عباد الله، قردة والله تعاوى لها أذنان. قال: ففتحوا فدخلوا عليهم، فعرفت القروء أنسابها من الإنس، ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة، فجعلت القروء يأتيها نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي، فتقول: ألم ننهكم عن كذا؟ فتقول برأسها، أي نعم. ثم قرأ ابن عباس: ﴿فَلَمَّا شَاؤَا مَا دُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْأَثْوَىٰ وَآخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَينين﴾ قال: فأرى الذين نهوا قد نجوا، ولا أرى الآخرين ذكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها؟ قال: قلت: جعلني الله فداك، ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه، وخالفوهم وقالوا: ﴿لِمَ يَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهِلِكُهُمْ﴾؟ قال: فأمر لي فكسيت ثوبين غليظين. وكذا روى مجاهد، عنه.

وقال ابن جرير: حدثنا يونس، أخبرنا أشهب بن عبد العزيز، عن مالك، قال: زعم ابن رومان أن قوله تعالى: ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعاً وَيَوْمَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ حَتِّهِمْ﴾ قال: كانت تأتيتهم يوم السبت، فإذا كان المساء ذهب، فلا يرى منها شيء إلى يوم السبت الآخر، فاتخذ - لذلك - رجل خيطاً وتوداً، فربط حوتاً منها في الماء يوم السبت، حتى إذا أمسوا ليلة الأحد، أخذه فاشتواه، فوجد الناس ريحه، فأتوه فسألوه عن ذلك، فجحدهم، فلم يزالوا به حتى قال لهم: «فإنه جلد حوت

وجدناه. فلما كان السبت الآخر فعل مثل ذلك - ولا أدري لعله قال: ربط حوتين - فلما أمسى من ليلة الأحد أخذه فاشتواه، فوجدوا رائحة، فجاؤوا فسألوه، فقال لهم: لو شئتم صنعتم كما أصنع. فقالوا له: وما صنعت؟ فأخبرهم، ففعلوا مثل ما فعل، حتى كثر ذلك. وكانت لهم مدينة لها ربح يغلقونها عليهم، فأصابهم من المسخ ما أصابهم. ففدوا عليهم جيرانهم مما كانوا حولهم، يطلبون منهم ما يطلب الناس، فوجدوا المدينة مغلقة عليهم، فنادوا فلم يجيبوهم، فتسوروا عليهم، فإذا هم قردة، فجعل القرء يدنو يتمسح بمن كان يعرف قبل ذلك، ويدنو منه ويتمسح به. وقد قدمنا في سورة «البقرة» من الآثار في خبر هذه القرية ما فيه مقنع وكفاية، والله الحمد والمنة.

القول الثاني: أن الساكتين كانوا من الهالكين. قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أنه قال: ابتدعوا السبت فابتلوا فيه، فحرمت عليهم فيه الحيتان، فكانوا إذا كان يوم السبت، شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر. فإذا انقضى السبت، ذهبت فلم تر حتى السبت المقبل فإذا جاء السبت جاءت شرعاً، فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا كذلك، ثم إن رجلاً منهم أخذ حوتاً فخرم أنفه، ثم ضرب له وتداً في الساحل، وربطه وتركه في الماء. فلما كان الغد، أخذه فشواه فأكله، ففعل ذلك وهم ينظرون ولا يتكرونها، ولا ينهائهم أحد، إلا عصبية منهم نهوه، حتى ظهر ذلك في الأسواق، ففعل علانية. قال: فقالت طائفة للذين ينهونهم: ﴿لِمَ تَنْطَوْن قَوْلًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعْذِيهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ لَّكَ رَبِّكَ﴾، فقالوا: سخط أعمالهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَعُونَ قَالُوا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ إلى قوله: ﴿قَوْلَهُ خَبِيرٌ﴾، قال ابن عباس: كانوا اثلاثاً: ثلث نهوا، وثلث قالوا: ﴿لِمَ تَنْطَوْن قَوْلًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، وثلث أصحاب الخطيئة، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم. وهذا إسناد جيد عن ابن عباس، ولكن رجوعه إلى قول عكرمة في نجاة الساكتين، أولى من القول بهذا؛ لأنه تبين حالهم بعد ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعَدْنَا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابَ بَئِيسٍ﴾: فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا. و «بَئِيسٍ» فيه قراءات كثيرة، ومعناه في قول مجاهد: «الشديد»، وفي رواية: «الليم». وقال قتادة: موجه. والكل متقارب، والله أعلم. وقوله: ﴿خَبِيرٌ﴾ أي: ذليلين حقيرين مهانين.

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكَّتُ لَيْمَتُنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَن يَسْأَلُهُمْ سَوْءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّكَ لَنَجُورٌ رَّجِئٌ﴾. وتأذت: تفعل من الإذ أن: أعلم، قاله مجاهد. وقال غيره: أمر. وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا تُلْقِيَتْ باللام في قوله: ﴿لَيْمَتُنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على اليهود: ﴿إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَن يَسْأَلُهُمْ سَوْءَ الْعَذَابِ﴾ أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتياهم على المحارم. ويقال: إن موسى، عليه السلام، ضرب عليهم الخراج سبع سنين - وقيل: ثلاث عشرة سنة - وكان أول من ضرب الخراج. ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشديانيين والكلدانيين، ثم صاروا في قهر النصارى وإذلالهم وإيابهم، أخذهم منهم الجزى والخراج، ثم جاء الإسلام، ومحمد، عليه أفضل الصلاة والسلام، فكانوا تحت قهره ودمته يؤدون الخراج والجزى. قال العوفي، عن ابن عباس في تفسير الآية قال: هي المسكنة، وأخذ الجزية منهم. وقال علي بن أبي طلحة، عنه: هي الجزية، والذين يسومونهم سوء العذاب: محمد رسول الله ﷺ وأمته، إلى يوم القيامة. وكذا قال سعيد بن جبير، وابن جرير، والسُّدِّي، وقاتدة. وقال عبد الرزاق: عن مَعْمَر، عن عبد الكريم الجزري، عن سعيد بن المسيب قال: يستحب أن تبعث الأنباط في الجزية. قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصار الدجال، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم، عليه السلام، وذلك آخر الزمان.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ أي: لمن عصاه وخالف أمره وشرعه، ﴿وَإِنَّكَ لَنَجُورٌ رَّجِئٌ﴾ أي: لمن تاب إليه وأتاب. وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة، لئلا يحصل اليأس، فيقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب كثيراً؛ لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

﴿وَنُفِثْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمْمًا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاحُ وَبَيْنَهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَنَوْنَهُمْ بِالْحُسْنِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿١٦٨﴾ فَنَفَخَ مِنْ بَعْدِهِمْ عَنُفَ وَرَبُّوا الْكِبْتَ بِالْعُدُوِّ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ بَشَرًا يَأْخُذُوا أَوْ يُؤْخَذَ عَلَيْهِمْ يَمِيقًا الْكُتُبِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالنَّارُ الْآخِرَةُ حَرٌّ لِلْبَرِّ يَنْفُتُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يَمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَمْرَ النَّاصِلِينَ ﴿١٧٠﴾.

يذكر تعالى أنه فرقه في الأرض أَمْمًا، أي: طوائف وفرقاً، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِيَنبَأَ إِسْرَائِيلَ أَتَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ ﴿١٦٨﴾. [الإسراء: ١٠٤]. ﴿وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاحُ وَبَيْنَهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: فيهم الصالح وغير ذلك، كما قال

الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾ [الجن: ١٧١]، ﴿وَيَكُونُهُمْ﴾ أي: اختبرناهم ﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أي: بالرخاء والشدة، والرغبة والرهبة، والعافية والبلاء، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ يَأْخُذُوا﴾، يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح، خلف آخر لا خير فيهم، وقد ورثوا دراسة هذا الكتاب وهو التوراة. وقال مجاهد: هم النصاري. وقد يكون أعم من ذلك، ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ أي: يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا، ويسوفون أنفسهم ويعدون بها بالتوبة، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ يَأْخُذُوا﴾ كما قال سعيد بن جبير: يعملون الذنب، ثم يستغفرون الله منه، فإن عَرَضَ ذلك الذنب أخذوه. وقول مجاهد في قوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ قال: لا يشرف لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه، حلالاً كان أو حراماً، ويتمنون المغفرة، ويقولون: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وإن يجدوا عَرَضاً مثله يأخذوه. وقال قتادة في: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ﴾: أي والله، لخلف سوء، ورثوا الكتاب بعد أنبيائهم ورسولهم، ورثهم الله وعهد إليهم، وقال الله في آية أخرى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَشَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشُّعْرَى﴾ [مريم: ٥٩]، قال: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾، تمنوا على الله أماني، وغرغ يغترون بها، ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ يَأْخُذُوا﴾ لا يشغلهم شيء عن شيء، ولا ينهاهم شيء عن ذلك، كلما هف لهم شيء من أمر الدنيا أكلوه، ولا يبالون حلالاً كان أو حراماً. وقال السدي في قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ قال: كانت بنو إسرائيل لا يستقصون قاضياً إلا ارتضى في الحكم، وإن خيارهم اجتمعوا، فأخذ بعضهم على بعض العهد ألا يفعلوا ولا يرتضى، فجعل الرجل منهم إذا استقصى ارتضى، فيقال له: ما شأنك ترتضى في الحكم، فيقول: «سيفر لي»، يقطع عليه البقية الآخرون من بني إسرائيل فيما صنع، فإذا مات، أو نزع، وجعل مكانه رجل ممن كان يقطع عليه، يرتضى. يقول: وإن يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَخُذْ عَلَيْهِمْ يَتِيقُ الْكِتَابَ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ يقول تعالى منكر عليهم في صنيعهم هذا، مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبين الحق للناس، ولا يكتمونه كقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَقُوا بِوُجْهِهِمْ قَلِيلًا فَيَتَّبِعُونَ مَا يَشْقَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. وقال ابن جرير: قال ابن عباس: ﴿أَلَمْ يَخُذْ عَلَيْهِمْ يَتِيقُ الْكِتَابَ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ قال: فيما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها، ولا يتوبون منها. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّذَارِ الْأَخْرَجَ حَيْرَ اللَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: يرغبهم تعالى في جزيل ثوابه، ويحذرهم من وبيل عقابه، أي: وثوابي وما عندي خير لمن اتقى المحارم، وترك هوى نفسه، وأقبل على طاعة ربه. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يقول: أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندي عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير؟ ثم أتى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ، كما هو مكتوب فيه، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَسَكَّرُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أي: اعتصموا به، واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجره ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِينَ﴾.

﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجِبَلِ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [النساء: ١٥٤]. وقال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: رفعت الملائكة فوق رؤوسهم. وقال القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: ثم سار بهم موسى، عليه السلام، متوجهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعدما سكنت عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمره الله تعالى به أن يبلغهم من الوظائف، فثقلت عليهم وأبوا أن يقربوها حتى يتنق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة، قال: رفعت الملائكة فوق رؤوسهم. رواه النسائي بطوله. وقال سنيد بن داود في تفسيره، عن حجاج بن محمد، عن أبي بكر بن عبد الله قال: هذا كتاب، أتقبلونه بما فيه، فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم، وما أمركم وما نهاكم؟ قالوا: انشر علينا ما فيها، فإن كانت فرائضها يسيرة، وحدودها خفيفة قبلناها. قال: أقبلوها بما فيها. قالوا: لا، حتى نعلم ما فيها، كيف حدودها وفرائضها؟ فراجعوا موسى مراراً، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع فارتفع في السماء، حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء قال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربي، ﷻ؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها، لأرميتكم بهذا الجبل. قال: فحدثني الحسن البصري قال: لما نظروا إلى الجبل خر كل رجل ساجداً على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل، فرقاً من أن يسقط عليه، فكَذَلِكَ ليس اليوم في الأرض يهودي يسجد إلا على حاجبه الأيسر، يقولون: هذه السجدة التي رفعت بها العقوبة. قال أبو بكر: فلما نشر الألواح فيها كتاب الله كتبه بيده، لم يبق على وجه الأرض

جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز، فليس اليوم يهودي على وجه الأرض صغير، ولا كبير، تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونفض لها رأسه. أي: حرك كما قال تعالى: ﴿فَسَيَفْشُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥١] أي يحركونها.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَتَّهَدْتُمْ عَلَيْهِمْ نَفْسَهُمْ وَتَقَرَّبْتُمْ إِلَىٰ نَجْوَىٰ ابْنَيْكُمْ قَالُوا بَيْنَ يَدَيْهِ شَهِدَتَانَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْأَنْبِيَاءَ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكمهم، وأنه لا إله إلا هو. كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجلبهم عليه، قال تعالى: ﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلُ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة - وفي رواية: على هذه الملة - فابواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» وفي صحيح مسلم، عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم». وقال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني السري بن يحيى: أن الحسن بن أبي الحسن حدثهم، عن الأسود بن سريع من بني سعد، قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعدما قتلوا المقاتلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فاشتد عليه، ثم قال: «ما بال أقوام يتناولون الذرية؟» قال رجل: يا رسول الله، أليسوا أبناء المشركين؟ فقال: «إن خياركم أبناء المشركين! إلا أنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فابواها يهودانها أو ينصرانها». قال الحسن: والله لقد قال الله في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية.

وقد رواه الإمام أحمد، عن إسماعيل بن علي، عن يونس بن عبيد، عن الحسن البصري، به. وأخرجه النسائي في سننه من حديث هُشَيْمٍ، عن يونس بن عبيد، عن الحسن قال: حدثنا الأسود، بن سريع، فذكره، ولم يذكر قول الحسن البصري واستحضاره الآية عند ذلك. وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم، عليه السلام، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وإلى أصحاب الشمال، وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم. قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، عن أبي عمران الجوني، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرايت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكننت مفتدياً به؟» قال: «فيقول: نعم». فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم ألا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي». أخرجاه في الصحيحين، من حديث شعبة، به.

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا جرير - يعني ابن حازم - عن كلثوم بن جابر، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم، عليه السلام، بنعمان. يعني: عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه، ثم كلمهم قبلاً، قال: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾». وقد روى هذا الحديث النسائي في كتاب التفسير من سننه، عن محمد بن عبد الرحيم - صاعقة - عن حسين بن محمد المروزي، به. ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث حسين بن محمد، به. إلا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفاً. وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث حسين بن محمد وغيره، عن جرير بن حازم، عن كلثوم بن جبيرة، به. وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبيرة. هكذا قال، وقد رواه عبد الوارث، عن كلثوم بن جبيرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، فوقفه. وكذا رواه إسماعيل بن علي ووكيع، عن ربيعة بن كلثوم، عن جبيرة، عن أبيه، به. وكذا رواه عطاء بن السائب، وحبيب بن أبي ثابت، وعلي بن بزيمة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قوله، وكذا رواه العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس فهذا أكثر وأثبت، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيعة، حدثنا أبي، عن أبي هلال، عن أبي جفرة الضبي، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: أخرج الله ذرية آدم عليه السلام من ظهره كهيئة الذر، وهو في آذي من الماء. وقال أيضاً: حدثنا علي بن سهل، حدثنا ضمرة بن ربيعة، حدثنا أبو مسعود عن جرير قال: مات ابن للضحاك بن مزاحم، وهو ابن ستة أيام. قال: فقال: يا جابر، إذا أنت وضعت ابني في لحده، فأبرز وجهه، وحل عنه عقده، فإن ابني مجلس، ومسؤول. ففعلت به الذي أمر، فلما فرغت قلت: يرحمك الله، عم يسأل ابنك؟ من يسأله إياه؟ قال: يسأل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم. قلت: يا أبا القاسم، وما هذا الميثاق الذي أقر به في صلب آدم؟ قال: حدثني ابن عباس رضي الله عنه: أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة

هو خلقها إلى يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وتكفل بهم بالأرزاق، ثم أعادهم في صلبه. فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذٍ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به، نفعه الميثاق الأول. ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يف به، لم ينفعه الميثاق الأول. ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر، مات على الميثاق الأول على الفطرة. فهذه الطرق كلها مما تقوي وتقف هذا على ابن عباس، والله أعلم.

حديث آخر: وقال ابن جرير: حدثنا عبد الرحمن بن الوليد، حدثنا أحمد بن أبي طيبة، عن سفيان بن سعيد، عن الأجلح، عن الضحاك وعن - منصور، عن مجاهد - عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «وَأَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» قال: «أخذوا من ظهره، كما يؤخذ بالمشط من الرأس، فقال لهم: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى»، قالت الملائكة: «شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ». أحمد بن أبي طيبة هذا هو: أبو محمد الجرجاني قاضي قومس، كان أحد الزهاد، أخرج له النسائي في سننه، وقال أبو حاتم الرازي: يكتب حديثه. وقال ابن عدي: حدث بأحاديث أكثرها غرائب. وقد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان الثوري، عن منصور، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، قوله، وكذا رواه جرير، عن منصور، به. وهذا أصح، والله أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا روح - هو ابن عباد - حدثنا مالك، وحدثنا إسحاق، أخبرنا مالك، عن زيد بن أبي أنيسة: أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، أخبره، عن مسلم بن يسار الجهني: أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية: «وَأَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى» الآية، فقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ، سئل عنها، فقال: «إن الله خلق آدم، عليه السلام، ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون». فقال رجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «إذا خلق الله العبد للجنة، استعمله بأعمال أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة. وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله به النار». وهكذا رواه أبو داود عن القعنبی - والنسائي عن قتيبة - والترمذي، عن إسحاق بن سعيد بن عبد الحميد بن جعفر. وأخرجه ابن حبان في صحيحه، من رواية أبي مصعب الزبيري، كلهم عن الإمام مالك بن أنس، به. قال الترمذي: وهذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع عُمرَ. وكذا قاله أبو حاتم وأبو رزعة. زاد أبو حاتم: وبينهما نُعَيْم بن ربيعة. وهذا الذي قاله أبو حاتم، رواه أبو داود في سننه، عن محمد بن مصفى، عن بَقِيَّة، عن عمر بن جُعْثَم القرشي، عن زيد بن أبي أنيسة، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، عن مسلم بن يسار الجهني، عن نعيم بن ربيعة قال: كنت عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد سئل عن هذه الآية: «وَأَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ»، فذكره. وقال الحافظ الدارقطني: وقد تابع عمر بن جُعْثَم يزيد بن سنان أبو قُرَّة الرهاوي، وقولهما أولى بالصواب من قول مالك، والله أعلم. قلت: الظاهر أن الإمام مالكا إنما أسقط ذكر «نعيم بن ربيعة» عمداً؛ لما جهل حاله ولم يعرفه، فإنه غير معروف إلا في هذا الحديث، وكذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيهم؛ ولهذا يرسل كثيراً من المرفوعات، ويقطع كثيراً من الموصولات، والله أعلم.

حديث آخر: قال الترمذي عند تفسيره هذه الآية: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا أبو نُعَيْم، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله عز وجل آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم ويصبأ من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: أي رب، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك. فرأى رجلاً منهم فأعجبه ويص ما بين عينيه، فقال: أي رب، من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك، يقال له: داود. قال: رب، وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة. قال: أي رب، زده من عمري أربعين سنة. فلما انقضى عمر آدم، جاءه ملك الموت قال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. ورواه الحاكم في مستدركه، من حديث أبي نُعَيْم الفضل بن ذُكَيْن، به. وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره، من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، أنه حدثه عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، فذكر نحو

ما تقدم، إلى أن قال: «ثم عرضهم على آدم فقال: يا آدم، هؤلاء ذريتك. وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى، وأنواع الأسقام، فقال آدم: يا رب، لم فعلت هذا بذريتي؟ قال: كي تشكر نعمتي. وقال آدم: يا رب، من هؤلاء الذين أراهم أظهِرَ الناس نوراً؟ قال: هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك». ثم ذكر قصة داود، كنحو ما تقدم.

حديث آخر: قال عبد الرحمن بن قتادة الضري، عن أبيه، عن هشام بن حكيم، رضي الله عنه، أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أبتدأ الأعمال، أم قد قُضي القضاء؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم، ثم أشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم في كفيه» ثم قال: «هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، فأهل الجنة مُيسرون لعمل أهل الجنة، وأهل النار مُيسرون لعمل أهل النار». رواه ابن جرير، وابن مردويه عن طريقه.

حديث آخر: روى جعفر بن الزبير - وهو ضعيف - عن القاسم - عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله الخلق، وقضى القضية، أخذ أهل اليمين بيمينه وأهل الشمال بشماله، فقال: يا أصحاب اليمين. فقالوا: لبيك وسعديك. قال: ألسنت بربكم؟ قالوا: بلى. قال: يا أصحاب الشمال. قالوا: لبيك وسعديك. قال: ألسنت بربكم؟ قالوا: بلى. ثم خلط بينهم، فقال قائل: يا رب، لم خلطت بينهم؟ قال: لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، ثم ردهم في صلب آدم عليه السلام». رواه ابن مردويه.

أثر آخر: قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب رضي الله عنه في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، الآية والتي بعدها، قال: فجمعهم له يومئذ جميعاً، ما هو كائن منه إلى يوم القيامة، فجعلهم أرواحاً ثم صورهم ثم استنطقهم فتكلموا، وأخذ عليهم العهد والميثاق، وأشهدهم على أنفسهم ألسنت بربكم؟ قالوا: بلى، الآية. قال: فلني أشهد عليكم السموات السبع، والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة: لم نعلم بهذا، اعلما أنه لا إله غيري، ولا رب غيري، فلا تشركوا بي شيئاً، وإني سأرسل إليكم رسلاً يذكرونكم عهدي وميثاقي، وأنزل عليكم كتابي. قالوا: نشهد أنك ربنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك، ولا إله لنا غيرك. فأقرروا له يومئذ بالطاعة، ورفع أباهم آدم فنظر إليهم، فرأى فيهم الغني والفقير، وحسن الصورة ودون ذلك. فقال: يا رب، لو سويت بين عبادك؟ قال: إني أحببت أن أشكر. ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة، فهو الذي يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، وهو الذي يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، ومن ذلك قال: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِمَّنْ أَتَيْنَاهُ الْأَوَّلَ﴾ [النجم: ٥٦]، ومن ذلك قال: ﴿وَمَا يَنْبَغُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا مِمَّنْ قَدَفَا أَعْيُنَهُمْ فَذُرُوا خَلْقَهُمْ فَتَوَلَّوْا حَتَّى تُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣].

فهذه الأحاديث دالة على أن الله ﷻ استخرج ذرية آدم من صلبه، وميز بين أهل الجنة وأهل النار. وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم، فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبر، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان، كما تقدم. ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد، كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع، وقد فسر الحسن البصري الآية بذلك، قالوا: ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾، ولم يقل: «من آدم»، «من ظُهُورِهِمْ»، ولم يقل: «من ظهره» «ذُرِّيَّتَهُمْ» أي: جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآرْضَ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال: ﴿وَجَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال: ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ قَوِيماً﴾ [الأنعام: ١٣٣].

ثم قال: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ أي: أوجدتهم شاهدين بذلك، قائلين له حالاً وقالاً. والشهادة تارة تكون بالقول، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] الآية، وتارة تكون حالاً، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] أي: حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَى ذَلِكَ لَشَيْدٌ﴾ [العاديات: ٧]، كما أن السؤال تارة يكون بالقال، وتارة يكون بالحال، كما في قوله: ﴿وَأَتَانَكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا، أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في

الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قاله، لكان كل أحد يذكره، ليكون حجة عليه. فإن قيل: إخبار الرسول به كاف في وجوده، فالجواب: أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره. وهذا جعل حجة مستقلة عليهم، فدل على أنه على الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ أي: لتلا يقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ أي: عن التوحيد ﴿غَافِلِينَ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا﴾ الآية.

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنشَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلضَّالِّينَ﴾ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَخَبَّرَهُ ٱلْكَذِبُ إِنْ تَجِدَ عَلَيْهِ بَلَهَةً أَوْ تَنَسَّهٖ يَلَهٗتْ ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ بِآيَاتِنَا فَٱقْصِرْ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (١٧٦) مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلُمُونَ﴾ (١٧٧).

قال عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن الأعمش ومنصور، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنشَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ﴾ الآية، قال: هو رجل من بني إسرائيل، يقال له: بلعم بن أبر. وكذا رواه شعبة وغير واحد، عن منصور، به. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو صيفي بن الراهب. قال قتادة: وقال كعب: كان رجلاً من أهل البلقاء، وكان يعلم الاسم الأكبر، وكان مقيماً ببيت المقدس مع الجبارين. وقال العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو رجل من أهل اليمن، يقال له: بلعم، آتاه الله آياته فتركها. وقال مالك بن دينار: كان من علماء بني إسرائيل، وكان مجاب الدعوة، يقدمونه في الشدائد، بعثه نبي الله موسى إلى ملك مدين يدعوهم إلى الله، فاقطعه وأعطاه، فتبع دينه وترك دين موسى، عليه السلام. وقال سفيان بن عيينة، عن حصين، عن عمران بن الحارث، عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو بلعم بن باعر. وكذا قال مجاهد وعكرمة. وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا إسرائيل، عن مغيرة، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هو بلعام. وقالت ثقيف: هو أمية بن أبي الصلت. وقال شعبة، عن يعلى بن عطاء، عن نافع بن عاصم، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا﴾، قال: هو صاحبكم أمية بن أبي الصلت. وقد روي من غير وجه، عنه وهو صحيح إليه، وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبي الصلت يشبهه، فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة، ولكنه لم ينتفع بعلمه، فإنه أدرك زمان رسول الله ﷺ، وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته، وظهرت لكل من له بصيرة، ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه، وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم، ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بلغة، فبحه الله تعالى. وقد جاء في بعض الأحاديث: «أنه ممن آمن لسانه، ولم يؤمن قلبه»؛ فإن له أشعاراً ربانية وحكماً وفصاحة، ولكن لم يشرح الله صدره للإسلام. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن أبي سعيد الأعمش، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنشَلَخَ مِنْهَا﴾ قال: هو رجل أعطي ثلاث دعوات يستجاب له فيهن، وكانت له امرأة له منها ولد، فقالت: اجعل لي منها واحدة. قال: فلك واحدة، فما الذي تريدين؟ قالت: ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل. فدعا الله، فجعلها أجمل امرأة في بني إسرائيل، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه، وأرادت شيئاً آخر، فدعا الله أن يجعلها كلبية، فصارت كلبية، فذهبت دعوتان. فجاء بنوها فقالوا: ليس بنا على هذا قرار، قد صارت أمنا كلبية يعيرنا الناس بها، فادع الله أن يردنا إلى الحال التي كانت عليها، فدعا الله، فعادت كما كانت، فذهبت الدعوات الثلاث، وسميت البسوس. غريب.

وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة، فإنما هو رجل من المتقدمين في زمان بني إسرائيل، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو رجل من مدينة الجبارين، يقال له: «بلعام»، وكان يعلم اسم الله الأكبر. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيره من علماء السلف: كان رجلاً مجاب الدعوة، ولا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه. وأغرب، بل أبعد، بل أخطأ من قال: كان قد أوتي النبوة فأنسلخ منها. حكاه ابن جرير، عن بعضهم، ولا يصح. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: لما نزل موسى بهم - يعني بالجبارين - ومن معه، آتاه - يعني بلعام - آتاه بنو عمه وقومه، فقالوا: إن موسى رجل حديد، ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه. قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه، ذهبت دنياي وأخرتي. فلم يزالوا به حتى دعا عليهم، فسلخه الله ما كان عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَنشَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلضَّالِّينَ﴾. وقال السدي: إن الله لما انقضت الأربعون سنة التي قال الله: ﴿وَإِنَّمَا عَٰمَرْتُمُ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [المائدة: ٢٦]، بعث يوشع بن نون نبياً، فدعا بني إسرائيل، فأخبرهم أنه نبي، وأن الله قد أمره أن يقاتل الجبارين، فبايعوه وصدقوه. وانطلق رجل من بني إسرائيل يقال له: «بلعم»، وكان عالماً، يعلم الاسم

الأعظم المكتوم، فكفر - لعنه الله - وأتى الجبارين وقال لهم: لا ترهبوا بني إسرائيل، فإني إذا خرجتم تقتاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون! وكان عندهم فيما شاء من الدنيا، غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النساء، يعظمهن، فكان ينكح أُنثاهُ له، وهو الذي قال الله تعالى: ﴿فَأَنسَلَخْنَا مِنْهَا﴾.

وقوله: ﴿فَأَتَيْمَةُ النَّفِثِينَ﴾ أي: استحوذ عليه وغلبه على أمره، فمهما أمره امتثل وأطاعه؛ ولهذا قال: ﴿فَكَانَ مِنَ النَّافِثِينَ﴾ أي: من الهالكين الحاثرين البائسين. وقد ورد في معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده حيث قال: حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا محمد بن بكر، عن الصلت بن بهرام، حدثنا الحسن، حدثنا جُنْدُبُ البجلي في هذا المسجد؛ أن حذيفة - يعني ابن اليمان، رضي الله عنه - حدثه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أنتخوف عليكم رجل قرأ القرآن، حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان رذء الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله، انسلخ منه، ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك». قال: قلت: يا نبي الله، أيهما أولى بالشرك: المرمي أو الرامي؟ قال: «بل الرامي». هذا إسناد جيد، والصلت بن بهرام كان من ثقات الكوفيين، ولم يرم بشيء سوى الإرجاء، وقد وثقه الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، وغيرهما.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي: لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناها إياها، ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: مال إلى زينة الدنيا وزهرتها، وأقبل على لذاتها ونعيمها، وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهي. وقال أبو الزاهرية في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ قال: تراءى له الشيطان على غلوة من قطرة بانياس، فسجدت الحمارة لله، وسجد بلعام للشيطان. وكذا قال عبد الرحمن بن جُبَيْر بن نَجْر، وغير واحد.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: وكان من قصة هذا الرجل: ما حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر، عن أبيه: أنه سُئِلَ عن هذه الآية: ﴿وَأَتَتْهُمُ نَبَأُ الْوَيْلِ فَأَتَيْنَهُ الْوَيْلُ فَأَنسَلَخْنَا مِنْهَا﴾، فحدث عن سيار أنه كان رجلاً يقال له بلعام، وكان قد أوتي النبوة وكان مجاب الدعوة، قال: وإن موسى أقبل في بني إسرائيل يريد الأرض التي فيها بلعام - أو قال: الشام - قال: فزُعب الناس منه رعباً شديداً، قال: فاتوا بلعام، فقالوا: ادع الله على هذا الرجل وجيشه! قال: حتى أوامر ربي - أو: حتى أوامر - قال: فوامر في الدعاء عليهم، فقيل له: لا تدع عليهم، فإنهم عبادي، وفيهم نبيهم. قال: فقال لقومه: إني قد وامر ربي في الدعاء عليهم، وإني قد نهيت. فأهدوا له هدية فقبلها، ثم راجعوه فقالوا: ادع عليهم. فقال: حتى أوامر. فوامر، فلم يُخَر إليه شيء. فقال: قد وامر فلم يُخَر إلي شيء! فقالوا: لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك المرة الأولى. قال: فأخذ يدعو عليهم، فإذا دعا عليهم، جرى على لسانه الدعاء على قومه، وإذا أراد أن يدعو أن يفتح لقومه، دعا أن يفتح لموسى وجيشه - أو نحواً من ذا إن شاء الله. قال: ما نراك تدعو إلا علينا. قال: ما يجري على لساني إلا هكذا، ولو دعوت عليه أيضاً ما استجيب لي، ولكن سأدلكم على أمر عسى أن يكون فيه هلاكهم. إن الله يبغض الزنا، وإنهم إن وقعوا بالزنا هلكوا، ورجوت أن يهلكهم الله، فأخرجوا النساء يستقبلنهم؛ فإنهم قوم مسافرون، فعسى أن يزونا فيهلكوا. قال: ففعلوا. قال: فأخرجوا النساء يستقبلنهم. قال: وكان للملك ابنة، فذكر من عظمها ما الله أعلم به! قال: فقال أبوها - أو بلعام -: لا تمكني نفسك إلا من موسى! قال: ووقعوا في الزنا. قال: وأتاها رأس سبط من أسباط بني إسرائيل، قال: فأرادها على نفسه، فقالت: ما أنا بممكنة نفسي إلا من موسى. قال: فقال: إن منزلتي كذا وكذا، وإن من حالي كذا وكذا. قال: فأرسلت إلى أبيها تستأمره، قال: فقال لها: فامكثيه، قال: ويأتيهما رجل من بني هارون ومعه الرمح فيقطعنها. قال: وأيده الله بقوة. فانتظمهما جميعاً، ورفعهما على رمحه، فأرهما الناس - أو كما حدث - قال: وسلط الله عليهم الطاعون، فمات منهم سبعون ألفاً.

قال أبو المعتمر: فحدثني سيار: أن بلعاماً ركب حمارة له حتى أتى العلولى - أو قال: طريقاً من العلولى - جعل يضربها ولا تُقَدِّم، وقامت عليه فقالت: علام تضربني؟ أما ترى هذا الذي بين يديك؟ فإذا الشيطان بين يديه، قال: فنزل وسجد له، قال الله تعالى: ﴿وَأَتَتْهُمُ نَبَأُ الْوَيْلِ فَأَتَيْنَهُ الْوَيْلُ فَأَنسَلَخْنَا مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿لَمَلَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. قال: فحدثني بهذا سيار، ولا أدري لعله قد دخل فيه شيء من حديث غيره. قلت: هو بلعام - ويقال: بلعم - بن باعوراء، ابن أبر. ويقال: ابن باعور بن شهوم بن قوشتم بن ماب بن لوط بن هاران - ويقال: ابن حران - بن آزر. وكان يسكن قرية من قرى البلقاء. قال ابن عساکر: وهو الذي كان يعرف اسم الله الأعظم، فانسلخ من دينه، له ذكر في القرآن. ثم أورد من قصته نحواً مما ذكرنا ههنا، وأورده عن وهب وغيره، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار عن سالم أبي النضر: أنه حدث: أن موسى، عليه السلام، لما نزل في أرض بني كنعان من أرض الشام، أتى قوم بلعام إليه فقالوا له: هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل، قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل، وإنا قومك، وليس لنا منزل، وأنت رجل مجاب الدعوة، فأخرج فادع الله عليهم. قال: ويلكم! نبي الله معه الملائكة والمؤمنون، كيف أذهب أدعو عليهم، وأنا أعلم من الله ما أعلم؟! قالوا له: ما لنا من منزل! فلم يزلوا به يرققونه ويتضرعون إليه، حتى فتنوه فافتتن، فركب حمارة له متوجهاً إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل، وهو جبل حُصْبَان، فلما سار عليها غير كثير، ربضت به، فنزل عنها فضربها، حتى إذا أذلقتها قامت فركبها. فلم تسر به كثيراً حتى ربضت به، فضربها حتى إذا أذلقتها أذن الله لها فكلمته حجة عليه، فقالت: ويحك يا بلعام: أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا؟ أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين لتدعو عليهم؟ فلم ينزع عنها يضربها، فخلى الله سبيلها حين فعل بها ذلك. فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حُصْبَان، على عسكر موسى وبني إسرائيل، جعل يدعو عليهم، ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف به لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل. فقال له قومه: أتدري يا بلعام ما تصنع؟ إنما تدعو لهم، وتدعو علينا! قال: فهذا ما لا أملك، هذا شيء قد غلب الله عليه! قال: واندلع لسانه فوق وقع على صدره، فقال لهم: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلا المكر والحيلة، فسأمر لكم وأحتال، حُجِّلُوا النساء وأعطوهن السلع، ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعثنها فيه، ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كُفِّيتهم، ففعلوا. فلما دخل النساء العسكر، مرت امرأة من الكنعانيين اسمها «كسبي ابنة صور، رأس أمته» برجل من عظماء بني إسرائيل، وهو زمري بن شلوم، رأس سبط سمعان بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم السلام، فقام إليها، فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها، ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى، عليه السلام، فقال: إني أظنك ستقول هذا حرام عليك؟ قال: أجل، هي حرام عليك، لا تقربها. قال: فوالله لا نطيعك في هذا. ثم دخل بها قيته فوق وقع عليها. وأرسل الله، ﷻ، الطاعون في بني إسرائيل، كان فنحاص بن العيزار بن هارون، صاحب أمر موسى، وكان غائباً حين صنع زمري بن شلوم ما صنع، فجاء والطاعون يجوس في بني إسرائيل، فأخبر الخبر، فأخذ حربته، وكانت من حديد كلها، ثم دخل القبة وهما متضاجعان، فانظمتها بحربته، ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء، والحربة قد أخذها بذراعه، واعتمد بمرفقه على خاصرته، وأسند الحربة إلى لحيته. وكان بكر العيزار - وجعل يقول: اللهم هكذا تفعل بمن يعصيك. ورفع الطاعون، فحسب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلى أن قتله فنحاص، فوجده قد هلك منهم سبعون ألفاً - والمقلل لهم يقول: عشرون ألفاً - في ساعة من النهار. فمن هنالك تعطي بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها القبة والذراع واللحي - لاعتماده بالحربة على خاصرته، وأخذه إياها بذراعه، وإسناده إياها إلى لحيته - والبكر من كل أموالهم وأنفسهم؛ لأنه كان بكر أبيه العيزار. ففي بلعام بن باعوراء أنزل الله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرَ فَآتَيْنَاهُ الشَّيْطَانَ﴾ إلى قوله: ﴿لَمَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَقَتَلَهُمُ الْكَفَّابُ إِن تَحِجِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتَرَكَّهُ يَلْهَثْ﴾: اختلف المفسرون في معناه، فأما على سياق ابن إسحاق، عن سالم بن أبي النضر: أن بلعاماً اندلع لسانه على صدره - فتشبيهه بالكلب في لهثه في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك. وقيل: معناه: فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه، وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء، كالكلب في لهثه في حالتيه، إن حملت عليه وإن تركته، هو يلهث في الحالين، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عذمه؛ كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦٠]، ﴿اسْتَفْزِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَفْزِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَفْزِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، ونحو ذلك. وقيل: معناه: أن قلب الكافر والمنافق والضال، ضعيف فارغ من الهدى، فهو كثير الوجيب، فعبّر عن هذا بهذا، نقل نحوه عن الحسن البصري وغيره.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْصَحِ النَّصِصَ لَمَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾: يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَأَنْصَحِ النَّصِصَ لَمَلَّهُمْ﴾ أي: لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام، وما جرى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته، بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه - في تعليمه الاسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطي، وإذا دعي به أجاب - في غير طاعة ربه، بل دعا به على حزب الرحمن، وشعب الإيمان، أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان، كلم الله موسى بن عمران، عليه السلام؛ ولهذا قال: ﴿لَمَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: فيحذروا أن يكونوا مثله؛ فإن الله قد أعطاهم علماً، وميزهم على من عداهم من الأعراب، وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحق الناس بأولاهم باتباعه ومناصرتة ومؤازرته، كما أخبرتهم أنبياءهم بذلك وأمرتهم به؛ ولهذا من

خالف منهم في كتابه وكتبه فلم يعلم به العباد، أحل الله به ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة. وقوله: ﴿سَلَّمَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١٧٧): يقول تعالى: ساء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، أي: ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن خَيْرِ العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه، واتبع هواه، صار شبيهاً بالكلب، وبئس المثل مثله؛ ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء، العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه». وقوله: ﴿وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ما ظلمهم الله، ولكن هم ظلموا أنفسهم، بإعراضهم عن اتباع الهدى، وطاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٧٨).

يقول تعالى: من هداه الله فإنه لا مضل له، ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ ولهذا جاء في حديث ابن مسعود: «إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستعديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله». الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد، وأهل السنن، وغيرهم.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ أَصْلًا أُولَئِكَ هُمُ الْفَاقِقُونَ﴾ (١٧٩).

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي: خلقنا وجعلنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: هبأنهم لها، ويعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق، علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء». وفي صحيح مسلم أيضاً، من حديث عائشة بنت طلحة، عن خالتها عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، أنها قالت: دعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله طوبى له، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه. فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك يا عائشة؟ إن الله خلق الجنة، وخلق لها أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار، وخلق لها أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم». وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «ثم يبعث إليه الملك، فيؤمر بأربع كلمات، فيكتب: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد». وتقدم أن الله تعالى لما استخرج ذرية آدم من صلبه وجعلهم فريقين: أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، قال: «هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي». والأحاديث في هذا كثيرة، ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها.

وقوله تعالى: ﴿هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَنَافُ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يعني: ليس يتفهمون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِّنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحاف: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿هُمْ بِكُمْ عَنْهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٨٠) [البقرة: ١٨]، هذا في حق المنافقين، وقال في حق الكافرين: ﴿هُمْ بِكُمْ عَنْهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، ولم يكونوا صماً بكماً عمياً إلا عن الهدى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّاسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (١٧٢) [الأنفال: ٢٣]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْنَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْنَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال: ﴿وَمَنْ يَشَأْ عَنِ الرَّحْمَنِ نَقِصَ لَهُ سَبِيلُنَا فَهُوَ لَمْ يَرَيْنَ﴾ (١٧٣) وَأَنْتُمْ يَصْطَلِحُونَ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (١٧٤) [الزخرف: ٣٦، ٣٧]. وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَانُوا لَئِيمَةً﴾ أي: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعون ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تنفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يعيشها من ظاهر الحياة الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْآيَةِ النَّبِيِّ بَآءٌ لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاً وَنِدَاً هُمْ بِكُمْ عَنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٧١] أي: ومثلهم - في حال دعائهم إلى الإيمان - كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول؛ ولهذا قال في هؤلاء: ﴿بَلْ هُمْ أَصْلٌ﴾ أي: من الدواب؛ لأن الدواب قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أيسر بها، وإن لم تفقه كلامه، بخلاف هؤلاء؛ ولأن الدواب تفقه ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده، فكفر بالله وأشرك به؛ ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر، كانت الدواب أنتم منه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَانُوا لَئِيمَةً بَلْ هُمْ أَصْلٌ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاقِقُونَ﴾.

﴿وَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْمُنْسَقَاتُ فَادْعُوهُمْ بِهَا وَذُرُوا الَّذِينَ يُبْغِدُونَ فِي أَسْمَائِهِمْ سَيَذَرُونَهَا كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٠).

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر». أخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عنه. رواه البخاري، عن أبي اليمان، عن شعيب بن أبي حمزة، عن أبي الزناد به. وأخرجه الترمذي، عن الجوزجاني، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن شعيب فذكر بسنده مثله، وزاد بعد قوله: «يحب الوتر»: هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، الباري، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكيم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر، المقدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور. ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث. ورواه ابن حبان في صحيحه، من طريق صفوان، به. وقد رواه ابن ماجه في سنته، من طريق آخر، عن موسى بن عقبة، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعاً، فسر الأسماء كنحو ما تقدم بزيادة ونقصان.

والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني، عن زهير بن محمد: أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي: أنهم جمعوها من القرآن كما ورد عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغوي، والله أعلم. ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة في التسعة والتسعين، بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده، عن يزيد بن هارون، عن فضيل بن مرزوق، عن أبي سلمة الجهنني، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أعلمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحاً». فقيل: يا رسول الله، أفلا تتعلمها؟ فقال: «بلى، ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها». وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستي في صحيحه بمثله. وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه: «الأحوذ في شرح الترمذي»؛ أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، فله أعلم. وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَذُرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قال: إلحاد الملحدين: أن دعوا «اللات» في أسماء الله. وقال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿وَذُرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قال: اشتقوا «اللات» من الله، واشتقوا «العزى» من العزيز. وقال قتادة: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ يشركون. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الإلحاد: التكذيب. وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدل عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد في القبر، لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أَنَّهُ يَهْدُونَ يَالْحَقُّ وَيَدُ يَهْدُونَ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا﴾ أي: ومن الأمم «أُمَّة» قائمة بالحق، قولاً وعملاً، ﴿يَهْدُونَ يَالْحَقُّ﴾، يقولونه ويدعون إليه، ﴿وَيَدُ يَهْدُونَ﴾: يعملون ويقضون. وقد جاء في الآثار: أن المراد بهذه الأمة المذكورة في الآية، هي هذه الأمة المحمدية. قال سعيد، عن قتادة في تفسير هذه الآية: بلغنا أن نبي الله ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية: «هذه لكم، وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّؤْمِنٍ أَنَّهُ يَهْدُونَ يَالْحَقُّ وَيَدُ يَهْدُونَ﴾» [الأعراف: ١٥٩]. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أَنَّهُ يَهْدُونَ يَالْحَقُّ وَيَدُ يَهْدُونَ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أمتي قوماً على الحق، حتى ينزل عيسى ابن مريم متى ما نزل». وفي الصحيحين، عن معاوية بن أبي سفيان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى تقوم الساعة». وفي رواية: حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك؛ وفي رواية: وهم بالشام.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدِينُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأَمَّا لَهُمْ إِلَهٌ كَذِبَىٰ مَبِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدِينُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ ومعناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا، حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا شَاؤْنَا مَا دَعَوْنَاهُمْ قَبَحًا عَلَيْهِمْ أَيُّوبَ كُلِّ شَيْءٍ حَقٌّ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿١٨٤﴾ فَفُتِحَ دَاوُدَ الْقَوْمَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَلَمَّا دَعَا رَبُّهُ الْكَافِرِينَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَمَّا لَهُمْ﴾ أي: وسأملئ لهم، أطول لهم ما هم فيه ﴿إِلَهٌ كَذِبَىٰ مَبِينٌ﴾ أي: قوي شديد.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جَحَنَّمَ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿مَا يَصَاحِبُهُمْ﴾ يعني محمدًا - صلوات الله وسلامه عليه، ﴿مِنْ جَحَنَّمَ﴾ أي: ليس به جنون، بل هو رسول الله حقًا دعا إلى حق، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر لمن كان له قلب ولب يعقل به ويعي به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جَحَنَّمَ﴾ [التكوير: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَحْدَةِ اللَّهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خُفٍّ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأُولَٰئِكَ جُحُودٌ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأنعام: ١٨٧]، ﴿وَمَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جَحَنَّمَ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [سبا: ٤٦]، يقول: إنما أطلب منكم أن تقوموا لله قياماً خالصاً لله، ليس فيه تعصب ولا عناد، ﴿مِثْلَ خُفٍّ وَفَرْدَىٰ﴾ أي: مجتمعين ومتفرقين، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ في هذا الذي جاءكم بالرسالة من الله: أبه جنون أم لا؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك، بان لكم وظهر أنه رسول الله حقاً وصدقاً. وقال قتادة بن دعامة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان على الصفا، فدعا قريباً فجعل يخطبهم فخذوا فخذاً: «يا بني فلان، يا بني فلان»، فحذرهم بأس الله وواقع الله، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون. بات يصوت إلى الصباح - أو: حتى أصبح -، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جَحَنَّمَ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٦﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ هَيَاتٍ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا - في ملك الله وسلطانه في السموات والأرض، وفيما خلق الله من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبهة، ومن فعل من لا ينبغي أن تكون العباد والدين الخالص إلا له، فيؤمنوا به، ويصدقوا رسوله، وينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله والليم عقابه. وقوله: ﴿هَيَاتٍ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؟ يقول: فبأي تخويف وتحذير وترهيب - بعد تحذير محمد وترهيبه، الذي آتاهم به من عند الله في أي كتابه - يصدقون، إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد من عند الله، ﷺ؟! وقد روى الإمام أحمد عن حسن بن موسى وعفان بن مسلم وعبد الصمد بن عبد الوارث، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جُدعان، عن أبي الصلت، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي، لَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَنَظَرْتُ فَوْقِي، فَإِذَا أَنَا بِرُعد وبرق وصواعق»، قال: «وَأُنِيتُ عَلَى قَوْمِ بَطْنِهِمْ كَالْبَيُوتِ فِيهَا الْحَيَاتُ تَرَى مِنْ خَارِجِ بَطْنِهِمْ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ أَكَلَةُ الرِّبَا. فَلَمَّا نَزَلْتُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَنَظَرْتُ إِلَى أَسْفَلِ مِنِّي، فَإِذَا أَنَا بِرُجْعٍ وَدُخَانٍ وَأَصْوَاتٍ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذِهِ الشَّيَاطِينُ يُحَرِّفُونَ عَلَى أَعْيُنِ بَنِي آدَمَ أَنْ لَا يَتَفَكَّرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَرَأَوْا الْعَجَائِبَ». علي بن زيد بن جُدعان له منكرات. ثم قال تعالى:

﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ وَلٍ يُدْرِكُهُمْ فِي الْمَغْشَىٰ ضُفُوفٌ ﴿١٨٩﴾﴾

يقول تعالى: من كُتِبَ عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر، فإنه لا يجزي عنه شيئاً، ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُمْ أَلْفٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تَفْقَهُ الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [يونس: ١٠١].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُنَا لَوْحًا إِلَّا هُوَ نَقَلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَنَةٌ يُسَالِفُكُمْ كَأَنَّكُمْ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٣] قيل: نزلت في قريش. وقيل: في نفر من اليهود. والأول أشبه؛ لأن الآية مكية، وكانوا يسألون عن وقت الساعة، استبعاداً لوقوعها، وتكذيباً بوجودها؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣٨]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ إِلَّا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارِئُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٩٣﴾﴾ [السورى: ١٩٨]. وقوله: ﴿أَيَّانَ

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَيٌّ عَنْهُمْ﴾: اختلف المفسرون في معناه، فقيل: معناه كما قال العوفي عن ابن عباس: ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَيٌّ عَنْهُمْ﴾ يقول: كان بينك وبينهم مودة، كأنك صديق لهم. قال ابن عباس: لما سأل الناس محمداً ﷺ عن الساعة، سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفي بهم، فأوحى الله إليه: إنما علمها عنده، استأثر بعلمها، فلم يطلع الله عليها ملكاً مقرباً ولا رسولاً. وقال قتادة: قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة، فأمر إلينا متى الساعة. فقال الله، ﷻ: ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَيٌّ عَنْهُمْ﴾. وكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، وأبي مالك، والسدي، وهذا قول. والصحيح عن مجاهد - من رواية ابن أبي نجيح وغيره -: ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَيٌّ عَنْهُمْ﴾، قال: استخفيت عنها السؤال، حتى علمت وقتها. وكذا قال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَيٌّ عَنْهُمْ﴾ يقول: كأنك عالم بها، لست تعلمها، ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾. وقال معمر، عن بعضهم: ﴿كَأَنَّكَ حَيٌّ عَنْهُمْ﴾: كأنك عالم بها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿كَأَنَّكَ حَيٌّ عَنْهُمْ﴾: كأنك عالم بها، وقد أخفى الله علمها على خلقه، وقرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية (لقمان: ٣٤). ولهذا القول أرجح في المعنى من الأول، والله أعلم؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُحِيطُ بِهَا بَشَرٌ إِلَّا هُوَ يُفَلِّتُ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ لَا يَأْتِيَنَّكَ إِلَّا بَشَرٌ يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَيٌّ عَنْهُمْ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ولهذا لما جاء جبريل، عليه السلام، في صورة أعرابي، يعلم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد، وسأله عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: فمتى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» أي: لست أعلم بها منك ولا أحد أعلم بها من أحد، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية. وفي رواية: فسأله عن أشراط الساعة، ثم قال: «في خمس لا يعلمهن إلا الله». وقرأ هذه الآية، وفي هذا كله يقول له بعد كل جواب: «صدقت»؛ ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدق، ثم لما انصرف قال رسول الله ﷺ: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم». وفي رواية قال: «وما أتاني في صورة إلا عرفته فيها، إلا صورته هذه». وقد ذكرت هذا الحديث بطرقه وألفاظه من الصحاح والحسان والمسانيد، في أول شرح صحيح البخاري، والله الحمد والمنة. ولما سأله ذلك الأعرابي، وناده بصوت جهوري فقال: يا محمد، قال له رسول الله ﷺ: «هاء» - على نحو من صوته - قال: يا محمد، متى

الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «ويحك! إن الساعة آتية، فما أعددت لها؟» قال: «ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام، ولكنني أحب الله ورسوله. فقال له رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب». فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث.

وهذا له طرق متعددة في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «المرء مع من أحب»، وهي متواترة عند كثير من الحفاظ المتقنين. ففيه أنه، عليه السلام، كان إذا سئل عن هذا الذي لا يحتاجون إلى عمله، أرشدهم إلى ما هو الأهم في حقهم، وهو الاستعداد لوقوع ذلك، والتهيؤ له قبل نزوله، وإن لم يعرفوا تعيين وقته. ولهذا قال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قالا: حدثنا أبو أسامة، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ، سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم فقال: «إن يعيش هذا لم يدركه الهرم حتى قامت ساعتكم». يعني بذلك موتهم الذي يفضي بهم إلى الحصول في برزخ الدار الآخرة. ثم قال مسلم: وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا يونس بن محمد، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس؛ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الساعة، وعنده غلام من الأنصار يقال له محمد، فقال رسول الله ﷺ: «إن يعيش هذا الغلام فعسى ألا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة». انفرد به مسلم. وحدثنا حجاج بن الشاعر، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا معبد بن هلال العنزي، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه؛ أن رجلاً سأل النبي ﷺ قال: متى الساعة؟ فسكت رسول الله ﷺ هنيهة، ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزد شنوءة، فقال: «إن عُمُرَ هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة». قال أنس: ذلك الغلام من أتريابي. وقال: حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن أنس قال: مر غلام للمغيرة بن شعبة - وكان من أقراني - فقال النبي ﷺ: «إن يؤخر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة». ورواه البخاري في كتاب «الأدب» من صحيحه، عن عمرو بن عاصم، عن همام بن يحيى، عن قتادة، عن أنس؛ أن رجلاً من أهل البادية قال: يا رسول الله، متى الساعة؟ فذكر الحديث، وفي آخره: «فمر غلام للمغيرة بن شعبة»، وذكره. وهذا الإطلاق في هذه الروايات محمول على التقييد بـ «ساعتكم» في حديث عائشة رضي الله عنها.

وقال ابن جُرَيْج: أخبرني أبو الزبير: أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بشهر، قال: «تسألوني عن الساعة، وإنما علمها عند الله، وأقسم بالله ما على ظهر الأرض اليوم من نفس منقوسة، تأتي عليها مائة سنة» رواه مسلم. وفي الصحيحين، عن ابن عمر مثله، قال ابن عمر: وإنما أراد رسول الله ﷺ انخراط ذلك القرن. وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، أنبأنا العوام، عن جبلة بن سحيم، عن مؤثر بن عَفَاة، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى»، قال: «فتذكروا أمر الساعة»، قال: «فردوا أمرهم إلى إبراهيم، عليه السلام، فقال: لا أعلم لي بها. فردوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا أعلم لي بها. فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال عيسى: أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله، ﷻ، وفيما عهد إلي ربي، ﷻ، أن الدجال خارج»، قال: «ومعي قضييان، فإذا رأيته ذاب كما يذوب الرصاص»، قال: «فيهلكه الله، ﷻ، إذا رأيته، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم، إن تحتي كافراً تعالى فاقته». قال: «فيهلكهم الله، ﷻ، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم»، قال: «فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيطؤون بلادهم، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه»، قال: «ثم يرجع الناس إلي فيشكونهم، فادعوا الله، ﷻ، عليهم فيهلكهم ويميتهم، حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم - أي: تئن - قال: «فينزل الله المطر، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر». قال أحمد: قال يزيد بن هارون: ثم تنسف الجبال، وتمد الأرض مد الأديم - ثم رجع إلى حديث هشيم قال: ففما عهد إلي ربي، ﷻ، أن ذلك إذا كان كذلك، فإن الساعة كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفجأهم بولدها ليلاً أو نهاراً. ورواه ابن ماجه، عن بُنْدَار عن يزيد بن هارون، عن العوام بن خُوْشَب بستنه، نحوه. فهؤلاء أكابر أولي العزم من المرسلين، ليس عندهم علم بوقت الساعة على التعيين، وإنما ردوا الأمر إلى عيسى عليه السلام، فتكلم على أشراطها؛ لأنه ينزل في آخر هذه الأمة منفذاً لأحكام رسول الله ﷺ، ويقتل المسيح الدجال، ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج بركة دعائه، فأخبر بما أعلمه الله تعالى به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا عُبَيْد الله بن إِيَاد بن لَقِيط قال: سمعت أبي يذكر عن حذيفة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال: «علمها عند ربي لا يُجَلِّيهَا لوقتها إلا هو، ولكن سأخبركم بمشاريطها، وما يكون بين يديها: إن بين يديها فتنة وهرجاء، قالوا: يا رسول الله، الفتنة قد عرفناها، فالهرج ما هو؟ قال بلسان الحبشة: «القتل». قال: «وَيُلْقَى بين الناس التَّنَاكُرُ، فلا يكاد أحد يعرف أحداً». لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه. وقال وَكِيع: حدثنا ابن

أبي خالد، عن طارق بن شهاب، قال: كان رسول الله ﷺ لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِمُهَا﴾ [الأنعام: ٤٢]. ورواه النسائي من حديث عيسى بن يونس، عن إسماعيل بن أبي خالد، به. وهذا إسناد جيد قوي. فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم محمد، صلوات الله عليه وسلامه، نبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملحمة، والعاقب والمقفي، والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد، رضي الله عنهما: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها. ومع هذا كله، قد أمره الله تعالى أن يَرُدَّ علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُنَا لَوْ قَالُوا إِلَّا هُوَ ثَلَاثٌ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْضَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَاضِرٌ عِنْدَهُ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَعْمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَعَلَّكُمْ يَخْلُقُونَ إِلَهاً غَيْرُنِي﴾ [الأنعام: ١٠٢].

أمره تعالى أن يفوض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [٢١] إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَنْهَى عَنِ الْفُلُوفِ رِسَالًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]. وقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَاسْتَكْرَهْتَ مِنَ الْعَذَرِ﴾: قال عبد الرزاق، عن الثوري، عن منصور، عن مجاهد. ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَاسْتَكْرَهْتَ مِنَ الْعَذَرِ﴾: قال: لو كنت أعلم متى أموت، لعملت عملاً صالحاً. وكذلك روى ابن أبي نجيح عن مجاهد: وقال مثله ابن جريج. وفيه نظر؛ لأن عمل رسول الله ﷺ كان ديممة. وفي رواية: كان إذا عمل عملاً أثبتته. فجميع عمله كان على منوال واحد، كأنه ينظر إلى الله ﷻ، في جميع أحواله، اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك، والله أعلم. والأحسن في هذا ما رواه الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَاسْتَكْرَهْتَ مِنَ الْعَذَرِ﴾: أي: من المال. وفي رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه، وما مسني السوء، قال: ولا يصيبني الفقر. وقال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدية من المخصبة، ولعرفت الغلاء من الرخص، فاستعددت له من الرخص. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ الشُّوْءُ﴾: قال: لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون، واتقيته. ثم أخبر أنه إنما هو نذير وبشير، أي: نذير من العذاب، وبشير للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْثِي إِلَسَانُكَ إِشْبِيرْ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنَذِيرٌ بِهِ قَوْمًا لُدَّا﴾ [الزمر: ٤٩].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَشَابَهَا حَمَلَتْ حَمْلًا حَافِئًا مَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَفَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَاحِبًا صَلَاحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [٢١] ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا جَمَلًا لَمْ يَرْضَاهُ فَمِمَّا أَنْتَهُمَا قَعَلَ اللَّهُ عَنَّا يَتْرُكُونَ﴾ [٢٢].
 ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم، عليه السلام، وأنه خلق منه زوجة حواء، ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَيْنَهُمَا رِجَالًا كَبِيرًا فَسَاءَ الْآيَةُ﴾ [النساء: ١]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: ليلافها ويسكن بها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فلا ألفة بين زوجين أعظم مما بين الزوجين؛ ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيدِهِ إلى التفرقة بين المرأة وزوجهِه. ﴿فَلَمَّا تَشَابَهَا﴾ أي: وطئها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا حَافِئًا﴾، وذلك أول الحمل، لا تجد المرأة له المأ، إنما هي اللطفة، ثم العلقة، ثم المصغة. وقوله: ﴿مَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال مجاهد: استمرت بحمله. وروي عن الحسن، وإبراهيم النخعي، والسُّدي، نحوه. وقال ميمون بن مهران: عن أبيه استخفته. وقال أيوب: سألت الحسن عن قوله: ﴿مَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال: لو كنت رجلاً عربياً لعرفت ما هي. إنما هي: فاستمرت به. وقال قتادة: ﴿مَمَرَّتْ بِهِ﴾، واستبان حملها. وقال ابن جرير: معناه: استمرت بالماء، قامت به وقعدت. وقال العوفي، عن ابن عباس: استمرت به، فشكت: أحملت أم لا. ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ أي: صارت ذات ثقل بحملها. وقال السدي: كبر الولد في بطنها. ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَاحِبًا سَافِياً﴾ أي: بشراً سواً، كما قال الضحاك، عن ابن عباس: أشفقا أن يكون بهيمة. وكذلك قال أبو البخري وأبو مالك: أشفقا ألا يكون إنساناً. وقال الحسن البصري: لئن آتينا غلاماً. ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا جَمَلًا لَمْ يَرْضَاهُ فَمِمَّا أَنْتَهُمَا قَعَلَ اللَّهُ عَنَّا يَتْرُكُونَ﴾ [٢٢]، ذكر المفسرون ههنا آثاراً وأحاديث ساوردها وأبين ما فيها، ثم نتبع ذلك ببيان الصحيح في ذلك، إن شاء الله وبه الثقة.

قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عمر بن إبراهيم، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سُمرة، عن النبي ﷺ قال: «ولما ولدت حواء طاف بها إبليس - وكان لا يعيش لها ولد - فقال: سَمِّيه عبد الحارث؛ فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث، فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره». وهكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن بشار، عن بُذَار، عن عبد الصمد بن عبد الوارث، به. ورواه الترمذي في تفسيره هذه الآية عن محمد بن المثنى، عن عبد الصمد، به وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، عن قتادة، ورواه بعضهم عن عبد الصمد، ولم يرفعه. ورواه الحاكم في مستدركه، من حديث عبد الصمد مرفوعاً ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره، عن أبي زُرْعَةَ الرازي، عن هلال بن فياض، عن عمر بن إبراهيم، به مرفوعاً. وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مَزْدُوْبِيه في تفسيره من حديث شاذ بن فياض، عن عمر بن إبراهيم، به مرفوعاً. قلت: «وشاذ» هذا، هو: هلال، وشاذ لقبه. والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري، وقد وثقه ابن معين، ولكن قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به. ولكن رواه ابن مَزْدُوْبِيه من حديث المعتمر، عن أبيه، عن الحسن، عن سُمرة، مرفوعاً فإله أعلم.

الثاني: أنه قد روي من قول سُمرة نفسه، ليس مرفوعاً، كما قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر، عن أبيه. وحدثنا ابن عليه، عن سليمان التيمي، عن أبي العلاء بن الشخير، عن سُمرة بن جندب، قال: سمى آدم ابنه «عبد الحارث». الثالث: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سُمرة مرفوعاً، لما عدل عنه.

قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا سهل بن يوسف، عن عمرو، عن الحسن: «جَعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا»، قال: كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم. حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر قال: قال الحسن: عنى بها ذرية آدم، ومن أشرك منهم بعده - يعني: قوله: «جَعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا». وحدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً، فهزّدوا ونَصُرُوا. وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن، رحمه الله، أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ، لما عدل عنه هو ولا غيره، لا سيما مع تقواه لله وَوَرَعِهِ، فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب، من آمن منهم، مثل: كعب أو وهب بن منبه وغيرهما، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، إلا أننا برئتنا من عهدة المرفوع، والله أعلم. فأما الآثار فقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن داود بن الحُصَيْن، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم، عليه السلام، أولاداً فَيُعْبِدُهُمُ اللهُ وَيُسَمِّيهِمْ: «عبد الله» و «عبيد الله»، ونحو ذلك، فيصيبهم الموت فأتاها إبليس وآدم فقال: إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميانه به لعاش، قال: فولدت له رجلاً فسماه «عبد الحارث»، ففيه أنزل الله، يقول الله: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ إِلَى قَوْلِهِ: «جَعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا» إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. وقال العوفي، عن ابن عباس قوله في آدم: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ» إِلَى قَوْلِهِ: «فَمَرَّتْ بِهِ»، شَكَّتْ: أَحْبَلَتْ أَمْ لَا؟ «فَلَمَّا أَتَتْكَ دَعَاَ اللهُ رَبَّهُمَا لَنْ آتَيْتَنِي صَليماً لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ»، فأتاها الشيطان، فقال: هل تديران ما يولد لكما؟ أم هل تديران ما يكون؟ أبهيمة يكون أم لا؟ وزَيْنَ لهما الباطل؛ إنه غوي مبين، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بي، لم يخرج سويّاً، ومات كما مات الأولان، فسمياه ولدهما «عبد الحارث»، فذلك قول الله تعالى: «فَلَمَّا آتَاهُمَا صَليماً جَعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا» الآية.

وقال عبد الله بن المبارك، عن شريك، عن خُصَيْف، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس في قوله: «فَلَمَّا آتَاهُمَا صَليماً جَعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا» قال: قال الله تعالى: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ رَزَقَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ حَبَلَتْ حَبْلاً حَبِيْماً»، فأتاها إبليس - لعنه الله - فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعنني أو لأجعلن قرني له أيل فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن - يخوفهما - فسمياه «عبد الحارث» فأبياه أن يطيعاه، فخرج ميتاً، ثم حملت الثانية، فأتاها أيضاً فقال: أنا صاحبكما الذي فعلت ما فعلت، لتفعلن أو لأفعلن - يخوفهما - فأبياه أن يطيعاه، فخرج ميتاً، ثم حملت الثالثة فأتاها أيضاً، فذكر لهما، فأدركهما حبُّ الولد، فسمياه «عبد الحارث»، فذلك قوله: «جَعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا» رواه ابن أبي حاتم. وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه، كمجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة. ومن الطبقة الثانية: قتادة، والسدي، وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة، وكأنه - والله أعلم - أصله مأخوذ من أهل الكتاب، فإن ابن عباس رواه عن أبي بن كعب، كما رواه ابن أبي

حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجماهر، حدثنا سعيد - يعني ابن بشير - عن عقبة، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: لما حملت حواء أناها الشيطان، فقال لها: أنطيعيني ويسلم لك ولدك؟ سمي «عبد الحارث»، فلم تفعل، فولدت فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك، فلم تفعل. ثم حملت الثالث فجاءها فقال: إن طيعيني يسلم، وإلا فإنه يكون بهيمة، فهبيها فأطاعا. وهذه الآثار يظهر عليها - والله أعلم - أنها من آثار أهل الكتاب، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»، ثم أخبرهم على ثلاثة أقسام: فمنها: ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله. ومنها ما علمنا كذبه، بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً. ومنها: ما هو مسكوت عنه، فهو المأذون في روايته، بقوله، عليه السلام: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» وهو الذي لا يصدق ولا يكذب، لقوله: «فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم». وهذا الأثر: هل هو من القسم الثاني أو الثالث؟ فيه نظر. فاما من حدث به من صحابي أو تابعي، فإنه يراه من القسم الثالث، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري، رحمه الله، في هذا والله أعلم، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته؛ ولهذا قال الله: ﴿فَعَلَى اللَّهِ عَسَى يُشْرِكُونَ﴾، ثم قال:

﴿إِشْرَكُوا مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَدْعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَشْئَانِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَنْتُمْ أَجَلٌ يَمْسُحُونَ يَهُ أَمْ لَهُمْ آيَاتٌ يَبْقُوشُونَ يَهُ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَصِيرُونَ يَهُ أَمْ لَهُمْ مَادَاتٌ يُسْمَعُونَ يَهُ أَمْ أَذْءُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونَ فَلَا تُطْرُونَ ﴿١٩٥﴾ إِنْ وَلِيَ اللَّهُ الْقَوْلَ لَزَلَ الْكَفَكِبُ وَهُوَ بِتَوَكُّلِ الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُطْرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُصِيرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾.

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئاً من الأمر، ولا تضر ولا تنفع، ولا تنصر ولا تنتصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم؛ ولهذا قال: ﴿إِشْرَكُوا مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ أي: أنشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئاً ولا يستطيع ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ مِثْلَ نَسْتَحْيُوا لَهُ إِنْكَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٢﴾﴾ مَا كَذَبُوا اللَّهَ حَقًّا قَدَرُوهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧١﴾﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤]، أخبر تعالى أنه لو اجتمعت آلهتهم كلها، ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو استلبتهم الذبابة شيئاً من حقير المطاعم وطارات، لما استطاعوا إنقاذ ذلك منها، فمن هذه صفته وحاله، كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿١٩٩﴾ وَاللَّهُ خَالِقُهُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

ثم قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرًا﴾ أي: لعابديهم ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ﴾ يعني: ولا لأنفسهم ينصرفون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل، عليه الصلاة والسلام، يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة، كما أخبر تعالى عنه في قوله: ﴿قَرَأَ عَلَيْهِمْ مِثْرًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ فَلَمَّا نَزَلَ عَلَيْهِمْ إِلَهُ يَرْجِعُوكَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء: ٥٨]، وكما كان معاذ بن عمرو ابن الجموح ومعاذ بن جبل، رضي الله عنهما - وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة - فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل، ليعتبر قومهما بذلك، ويرتؤوا لأنفسهم، فكان لعمرو بن الجموح - وكان سيداً في قومه - كان له صنم يعبد به ويطيعه، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه، ويلطخانه بالغبرة، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيفسله ويطيعه ويضع عنده سيفاً، ويقول له: «انصبر». ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضاً، حتى أخذه مرة قفرنا معه جرو كلب ميت، ودلياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، وقال:

نَالَهُ لَوْ كُنْتُ إِلَهًا مُشْنَدَنٌ لَم تَكُ وَالْكَلْبُ جَنْفِيْعاً فِي قَرْنٍ
ثُمَّ أَسْلَمَ فَحَسَنَ إِسْلَامَهُ، وَقَتْلَ يَوْمَ أَحَدٍ شَهِيداً، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ، وَجَعَلَ جَنَّةَ الْفَرْدُوسِ مَأْوَاهُ.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَدْعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾. يعني: أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحها، كما قال إبراهيم: ﴿يَتَّبِعُونَ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]؟

ثم ذكر تعالى أنها عبيد، مثل عابديها، أي: مخلوقات مثلهم، بل الأناسي أكمل منها، لأنها تسمع وتبصر وتبطلش، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك. وقوله: ﴿قُلْ أَذْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونَ﴾ أي: استنصروا بها علي، فلا تؤخروني طرفة عين، واجهدوا جهدكم! ﴿إِنَّ إِلَهِي اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ أي: الله حسبي وكافي، وهو نصيري، وعليه متكلي، وإليه الجأ، وهو وليي في الدنيا والآخرة، وهو ولي كل صالح بعدي. وهذا كما قال هود، عليه السلام، لما قال له قومه: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَآتُهِدُوكُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٤-٥٦]، وكقول الخليل عليه السلام: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [٧٥] أشتر وما تذكركم الأولون [٧٦] فإنتم عدو لي إلا رب العالمين [٧٧] الذي خلقني فهو يهيني [٧٨] والذي هو يطعني ويسقي [٧٩] ولذا مرّضت فهو يشفي [٨٠] الآيات (الشراء: ٧٥-٨٠)، وكقوله لأبيه وقومه: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [١١] إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ [١٢] وجعلها كلمة بآية في عقوبة لهمم يرجعون [١٣] [الزخرف: ٢٦-٢٨]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ إلى آخر الآية، مؤكداً لما تقدم، إلا أنه بصيغة الخطاب، وذلك بصيغة الغيبة؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ﴾. وقوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْكِبُهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [١٤]، كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكَكُمْ وَلَا يَنْفَعُكَ مِنْ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [فاطر: ١٤]. وقوله: ﴿وَتَرْكِبُهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، إنما قال: ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة، وهي جماد؛ ولهذا عاملهم معاملة من يعقل؛ لأنها على صور مصورة كالإنسان، فقال: ﴿وَتَرْكِبُهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ فغير عنها بضمير من يعقل. وقال السدي: المراد بهذا المشركون وروي عن مجاهد نحوه. والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير، وقاله قتادة.

﴿حُذِّ الْقَوُّ وَأَمْرٌ بِالْعَرَفِ وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَهْلِيَّةِ﴾ [١٩٩] وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [٢٠٠].

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿حُذِّ الْقَوُّ﴾ يعني: خذ ما عفا لك من أموالهم، وما أتوك به من شيء فخذ. وكان هذا قبل أن تنزل «براءة» بفرائض الصدقات وتفصيلها، وما انتهت إليه الصدقات. قاله السدي. وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿حُذِّ الْقَوُّ﴾: أنفق الفضل. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: قال: الفضل. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿حُذِّ الْقَوُّ﴾: أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم. واختار هذا القول ابن جرير. وقال غير واحد، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿حُذِّ الْقَوُّ﴾ قال: من أخلاق الناس وأعمالهم بغير تحسس. وقال هشام بن عروة، عن أبيه: أمر الله رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وفي رواية قال: خذ ما عفا لك من أخلاقهم. وفي صحيح البخاري، عن هشام، عن أبيه عروة، عن أخيه عبد الله بن الزبير قال: إنما أنزل: ﴿حُذِّ الْقَوُّ﴾ من أخلاق الناس. وفي رواية لغيره: عن هشام، عن أبيه، عن ابن عمر. وفي رواية: عن هشام، عن أبيه، عن عائشة أنها قالت: مثل ذلك، والله أعلم. وفي رواية سعيد بن منصور، عن أبي معاوية، عن هشام، عن وهب بن كيسان، عن ابن الزبير: ﴿حُذِّ الْقَوُّ﴾ قال: من أخلاق الناس، والله لأخذنه منهم ما صحبتهم. وهذا أشهر الأقوال، ويشهد له ما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم جميعاً: حدثنا يونس حدثنا سفيان - هو ابن عيينة - عن أمي قال: لما أنزل الله، ﷻ، على نبيه ﷺ: ﴿حُذِّ الْقَوُّ وَأَمْرٌ بِالْعَرَفِ وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَهْلِيَّةِ﴾ [١٩٩] قال رسول الله ﷺ: «ما هذا يا جبريل؟» قال: إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك. وقد رواه ابن أبي حاتم أيضاً، عن أبي يزيد القراطيسي كتابة، عن أصبغ بن الفرج، عن سفيان، عن أمي عن الشعبي. نحوه، وهذا - على كل حال - مرسل، وقد روي له شاهد من وجوه آخر، وقد روي مرفوعاً عن جابر وقيس بن سعد بن عباد، عن النبي ﷺ، أسندهما ابن مردويه. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا معاذ بن رفاع، حدثني علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة الباهلي، عن عقبة بن عامر، رضي الله عنه، قال: لقبت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بفواضل الأعمال. فقال: «يا عقبة، صل من قطعك، واعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك». وروى الترمذي نحوه، من طريق عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، به، وقال: حسن. قلت: ولكن «علي بن يزيد» وشيخه «القاسم أبو عبد الرحمن»، فيهما ضعف.

وقال البخاري قوله: ﴿حُذِّ الْقَوُّ وَأَمْرٌ بِالْعَرَفِ وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَهْلِيَّةِ﴾ [١٩٩] «العرف»: المعروف. حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، أن ابن عباس قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس - وكان من النفر الذين يدينهم عمر - وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته - كهولاً كانوا أو شباناً - فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباس:

فاستأذن الحر لعبيته، فأذن له عمر رضي الله عنه، فلما دخل عليه قال: هي يابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، قال الله لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْقَوَاعِدَ وَالْمَرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَهْلِيَّاتِ﴾. وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله، ﷺ. انفراد بإخراجه البخاري.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أخبرنا ابن وهب، أخبرني مالك بن أنس، عن عبد الله بن نافع، أن سالم بن عبد الله بن عمر مر على غير لأهل الشام وفيها جرس، فقال: إن هذا منهي عنه، فقالوا: نحن أعلم بهذا منك، إنما يكره الجلجل الكبير، فأما مثل هذا فلا بأس به. فسكت سالم وقال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَهْلِيَّاتِ﴾. وقول البخاري: «العرف: المعروف» نص عليه عروة بن الزبير، والسدي، وقتادة، وابن جرير، وغير واحد. وحكى ابن جرير أنه يقال: أوليته عرفاً، وعارفاً، وعارفة، كل ذلك بمعنى: «المعروف». قال: وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف، ويدخل في ذلك جميع الطاعات، وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإن كان أمراً لنبيه ﷺ فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم لا بالإعراض عمن جهل الحق الواجب من حق الله، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته، وهو للمسلمين حرب. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله: ﴿خُذِ الْقَوَاعِدَ وَالْمَرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَهْلِيَّاتِ﴾ قال: هذه أخلاق أمر الله ﷺ بها نبيه ﷺ، ودله عليها. وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى، فسبكه في بيتين فيهما جناس فقال:

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِعُفْرِ كَمَا أَمَرْتُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ
وَلَنْ فِي الْكَلَامِ لِكُلِّ الْأَنَامِ قُسْطٌ خَسَنٌ مِنْ دَوِي الْجَاهِلِينَ

وقال بعض العلماء: الناس رجلان: فرجل محسن، فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يجرجه. وإما مسيء، فمعه بالمعروف، فإن تمادى على ضلاله، واستعصى عليك، واستمر في جهله، فأعرض عنه، فلعل ذلك أن يرد كيده، كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيحَةِ عَنْ أَعْلَمَ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (١٩٩) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ (٢٠٠) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُوا بِكَ وَبَعْدُ (٢٠١) [المؤمنون: ٩٦-٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا لِمَا يُغْوِي السَّبِيحَةَ وَلَا السَّبِيحَةَ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٢٠٢) أي هذه الوصية ﴿إِلَّا الَّذِي صَدَقَ وَمَا بَلَغْنَا إِلَّا دُونُ حَقِّ عَظِيمٍ﴾ (٢٠٣) وَإِنَّمَا يَزْعُمُ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْكَلِيمُ (٢٠٤) [نصت: ٣٤-٣٦]، وقال في هذه السورة الكريمة أيضاً: ﴿وَإِنَّمَا يَزْعُمُ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٠٥) فهذه الآيات الثلاث في «الأعراف» و «المؤمنون» و «حم السجدة»، لا رابع لهن، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف والتي هي أحسن، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾. ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان، فإنه لا يكفه عنك الإحسان، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية، فإنه عدو مبين لك ولأهلك من قبلك. قال ابن جرير في تفسير قوله: ﴿وَإِنَّمَا يَزْعُمُ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾: وإما يَغْضِبُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ غَضَبٌ يَصْدُكَ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنِ الْجَاهِلِينَ، ويحكمك على مجازاتهم ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾، يقول: فاستجِر بالله من نزغه ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، يقول: إن الله الذي تستعذ به من نزغ الشيطان سميع لجهل الجاهل عليك، والاستعاذة به من نزغه، ولغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه من شيء، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان، وغير ذلك من أمور خلقه. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما نزل: ﴿خُذِ الْقَوَاعِدَ وَالْمَرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَهْلِيَّاتِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «يا رب، كيف بالغضب؟»، فأنزل الله: ﴿وَإِنَّمَا يَزْعُمُ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٠٦). قلت: وقد تقدم في أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبي ﷺ، فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزغ غضباً، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». فقيل له، فقال: ما بي من جنون. وأصل «النزغ»: الفساد، إما بالغضب أو غيره، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِمَا يَكُونُ أَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَزْعُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]، و «العياذ»: اللجوء والاستناد والاستجارة من الشر، وأما «الملاذ» ففي طلب الخير، كما قال أبو الطيب الحسن بن هانئ المتنبّي:

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُوْمَلُهُ وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أَخَاذُهُ
لَا يَجْبِرُ النَّاسَ عَظْماً أَنْتَ كَاسِرُهُ وَلَا يَهَيِّضُونَ عَظْماً أَنْتَ جَابِرُهُ

وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة في أول التفسير، بما أغنى عن إعادته ههنا.

﴿إِنَّكَ الْبَرُّ إِذَا اتَّعَا إِذَا مَسَّهُمْ كَلِمٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْآلِي تَزِدُّ لَا يُفْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾.

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر، أنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أي: أصابهم ﴿طيف﴾ وقرأ آخرون: ﴿كَلِمٌ﴾، وقد جاء فيه حديث، وهما قراءتان مشهورتان، فقيل: بمعنى واحد. وقيل: بينهما فرق، ومنهم من فسر ذلك بالغضب، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه، ومنهم من فسره بالهم بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب. وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أي: عقاب الله وجزيل ثوابه، ووعده ووعيده، فتأبوا وأنبأوا، واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب. ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ أي: قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه. وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه هنا حديث محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وبها طيف فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يشفيني. فقال: «إن شئت دعوت الله فشفاك، وإن شئت فاصبري ولا حساب عليك». فقالت: بل أصبر ولا حساب علي. ورواه غير واحد من أهل السنن، وعندهم: قالت: يا رسول الله، إني أصرع وأنكشف، فدفع الله أن يشفيني. فقال: «إن شئت دعوت الله أن يشفيك، وإن شئت صبرت ولك الجنة؟» فقالت: بل أصبر، ولي الجنة، ولكن ادع الله ألا أنكشف، فدعا لها، فكانت لا تنكشف. وأخرجه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة «عمرو بن جامع» من تاريخه: أن شاباً كان يتعب في المسجد، فهو يته امرأة، فدعته إلى نفسها، وما زالت به حتى كاد يدخل معها المنزل، فذكر هذه الآية: ﴿إِنَّكَ الْبَرُّ إِذَا اتَّعَا إِذَا مَسَّهُمْ كَلِمٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (٢٠١)، فخر مغشياً عليه، ثم أفاق فأعادها، فمات. فجاء عمر فعزى فيه أباه، وكان قد دفن ليلاً، فذهب فصلى على قبره بمن معه، ثم ناداه عمر فقال: يا فتى، ﴿وَلَمَّا خَفَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (٢٠٢)، وأجابه الفتى من داخل القبر: يا عمر، قد أعطانيهما ربي، ﷺ، في الجنة مرتين.

وقوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ أي: وإخوان الشياطين من الإنس، كقوله: ﴿إِنَّ الْمُبْذِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ (الإسراء: ٢٧)، وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم ﴿يَمُدُّوهُمْ فِي الْآلِي﴾ أي: تساعد الشياطين على فعل المعاصي، وتسهلها عليهم وتحسنها لهم. وقال ابن كثير: المد: الزيادة. يعني: يزيدهم في الغي، يعني: الجهل والسفه. ﴿تَزِدُّ لَا يُفْصِرُونَ﴾ قيل: معناه: إن الشياطين تمد، والإنس لا تقصر في أعمالهم بذلك. كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْآلِي تَزِدُّ لَا يُفْصِرُونَ﴾ (٢٠٢)، قال: لا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئات، ولا الشياطين تمسك عنهم. قيل: معناه كما رواه العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَمُدُّوهُمْ فِي الْآلِي تَزِدُّ لَا يُفْصِرُونَ﴾ قال: هم الجن، يوحون إلى أوليائهم من الإنس ﴿تَزِدُّ لَا يُفْصِرُونَ﴾ يقول: لا يسأمون. وكذا قال السدي وغيره: يعني: أن الشياطين يمدون أوليائهم من الإنس ولا تسأم من إمدادهم في الشر؛ لأن ذلك طبيعة لهم وسجية، لا تفر فيه ولا تبطل عنه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيْطَانِ عَلَى الْكُفْرَيْنَ تَوَسُّمًا أَنَا﴾ (٢٠٣) [مریم: ٨٣] قال ابن عباس وغيره: ترعجهم إلى المعاصي إزعاجاً. ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ يَأْتُوا قَوْلًا لَّوْلَا أَعْتَبْتُمْ قُلُوبَنَا إِنَّا سَمِعْنَا لَكُمْ مِنْ رَبِّ هَذَا بَصِيرًا﴾ (٢٠٤) وَهَذِي رَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٥﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْلَا أَعْتَبْتُمْ قُلُوبَنَا﴾ يقول: لولا تلقيتها. وقال مرة أخرى: لولا أحدثتها فأنشأتها. وقال ابن جرير، عن عبد الله بن كثير، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ يَأْتُوا قَوْلًا لَّوْلَا أَعْتَبْتُمْ قُلُوبَنَا﴾ قال: لولا اقتضيتها، قالوا: تخرجها من نفسك. وكذا قال قتادة، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير. وقال العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿لَوْلَا أَعْتَبْتُمْ قُلُوبَنَا﴾ يقول: تلقيتها من الله، ﷺ. وقال الضحاک: ﴿لَوْلَا أَعْتَبْتُمْ قُلُوبَنَا﴾ يقول: لولا أخذتها أنت فجنحت بها من السماء. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ يَأْتُوا قَوْلًا لَّوْلَا أَعْتَبْتُمْ قُلُوبَنَا﴾ (٢٠٤) [الشعراء: ٤٤]، يقولون للرسول ﷺ: ألا تجهد نفسك في طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها، قال الله تعالى له: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَن تَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ (٢٠٥) أي: أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء، وإنما أتبع ما أمرني به فأمتثل ما يوحى إلي، فإن بعث آية قبلتها، وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها؛ إلا أن يأذن لي في ذلك، فإنه حكيم عليم. ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات، وأبين الدلالات، وأصدق الحجج والبيانات، فقال: ﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٠٦).

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظماً له واحتراماً، لا كما كان يعتد به

كفار قريش المشركون في قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِنَا الْقُرْآنَ وَالْقَوَا فِيهِ لَمَّا كُنْتُمْ تَتْلُونَهُ﴾ (فصلت: ٢٦)، ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة كما ورد الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه، من حديث أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا»، وكذلك رواه أهل السنن من حديث أبي هريرة، وصححه مسلم بن الحجاج أيضاً، ولم يخرج في كتابه. وقال إبراهيم بن مسلم الهجري، عن أبي عياض، عن أبي هريرة قال: كانوا يتكلمون في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾، والآية الأخرى، أمروا بالإنصات. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن عاصم، عن المسيب بن رافع، قال ابن مسعود: كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة: سلام على فلان، و سلام على فلان، فجاء القرآن: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وقال أيضاً: حدثنا أبو كريب، حدثنا المحاربي، عن داود بن أبي هند، عن بشير بن جابر قال: صلى ابن مسعود، فسمع ناساً يقرؤون مع الإمام، فلما انصرف قال: أما أن لكم أن تفهموا؟ أما أن لكم أن تعقلوا؟ ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾، كما أمركم الله. قال: وحدثنى أبو السائب، حدثنا حفص، عن أشعث، عن الزهري قال: نزلت هذه الآية في فتى من الأنصار، كان رسول الله ﷺ كلما قرأ شيئاً قرأه، فنزلت: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾. وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن، من حديث الزهري، عن ابن أكيمة الليثي، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة، فقال: «هل قرأ أحد منكم معي أنفاً؟» قال رجل: نعم يا رسول الله. قال: «إني أقول: ما لي أنزع القرآن؟» قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه رسول الله ﷺ بالقراءة من الصلوات، حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن». وصححه أبو حاتم الرازي.

وقال عبد الله بن المبارك، عن يونس، عن الزهري قال: لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يسمعهم صوته، ولكنهم يقرؤون فيما لا يجهر به سرّاً في أنفسهم، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سرّاً ولا علانية، فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. قلت: هذا مذهب طائفة من العلماء: أن المأموم لا يجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام لا الفاتحة ولا غيرها، وهو أحد قولي الشافعي، وهو القديم كمذهب مالك، ورواية عن أحمد بن حنبل، لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة. وقال في الجديد: يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم. وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: لا يجب على المأموم قراءة أصلاً في السرية ولا الجهرية، لما ورد في الحديث: «من كان له إمام فقرأه له قراءة» وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر مرفوعاً، وهو في موطأ مالك عن وهب بن كيسان، عن جابر موقوفاً، وهذا أصح. وهذه المسألة مبسطة في غير هذا الموضع، وقد أفرد لها الإمام أبو عبد الله البخاري مصنفاً على حدة، واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السرية والجهرية أيضاً، والله أعلم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ يعني: في الصلاة المفروضة. وكذا روي عن عبد الله بن المغفل. وقال ابن جرير: حدثنا حُمَيْد بن مَسْعُود، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا الجريري، عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز قال: رأيت عبيد بن عمير وعطاء بن أبي رباح يتحدثان، والقاص يقص، فقلت: ألا تسمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعود؟ قال: فنظرا إلي، ثم أقبلا على حديثهما. قال: فأعدت، فنظر إلي، وأقبل على حديثهما. قال: فأعدت الثالثة، قال: فنظرا إلي فقالا: إنما ذلك في الصلاة: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾. وقال سفيان الثوري، عن أبي هاشم إسماعيل بن كثير، عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ قال: في الصلاة. وكذا رواه غير واحد عن مجاهد. وقال عبد الرزاق، عن الثوري، عن ليث، عن مجاهد، قال: لا بأس إذا قرأ الرجل في غير الصلاة أن يتكلم. وكذا قال سعيد بن جبير، والضحاك، وإبراهيم النخعي، وقتادة، والشعبي، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن المراد بذلك في الصلاة.

وقال شعبة، عن منصور، سمعت إبراهيم بن أبي حرة يحدث أنه سمع مجاهداً يقول في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ قال: في الصلاة والخطبة يوم الجمعة. وكذا روى ابن جريج، عن عطاء، مثله. وقال مُسْنِم، عن الربيع بن صبيح، عن الحسن قال: في الصلاة وعند الذكر. وقال ابن المبارك، عن بَقِيَّة: سمعت ثابت بن عجلان يقول: سمعت سعيد بن جبير يقول في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ قال: الإنصات يوم الأضحى، ويوم الفطر، ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام من الصلاة. وهذا اختيار ابن جرير أن المراد بذلك الإنصات في الصلاة وفي الخطبة؛ لما

جاء في الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف الإمام وحال الخطبة. وقال عبد الرزاق، عن الثوري، عن ليث، عن مجاهد أنه كره إذا مر الإمام بآية خوف أو بآية رحمة أن يقول أحد من خلفه شيئاً، قال: السكوت. وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن: إذا جلست إلى القرآن، فأنصت له. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عباد بن ميسرة، عن الحسن، عن أبي هريرة، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله، كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة». تفرد به أحمد، رحمه الله.

﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخَفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾.

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَبْذُورُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٢٠٦﴾﴾ [ق: ٣٩]. وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، وهذه الآية مكية. وقال ههنا بالغدو - وهو أوائل النهار -، ﴿وَالْآصَالِ﴾: جمع أصيل، كما أن الإيمان جمع يمين. وأما قوله: ﴿تَضَرَّعًا وَخَفَةً﴾ أي: اذكر ربك في نفسك رهبة ورغبة، وبالقول لا جهراً؛ ولهذا قال: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾. وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداء ولا جهراً بليغاً؛ ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أقرب ربنا فتناجيه أم بعيد فنناديه؟ أنزل الله ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري، قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار، فقال لهم النبي ﷺ: «أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً؛ إن الذي تدعونه سميع قريب». وقد يكون المراد من هذه الآية كما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]، فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سيوه، وسبوا من أنزله، وسبوا من جاء به؛ فأمره الله تعالى ألا يجهر به، لئلا ينال منه المشركون، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعونهم، ولتتخذ سبيلاً بين الجهر والإسرار. وكذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾. وقد زعم ابن جرير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم قبله: أن المراد بهذه الآية: أمر السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة. وهذا بعيد منافق للإنصات المأمور به، ثم المراد بذلك في الصلاة، كما تقدم، أو الصلاة والخطبة، ومعلوم أن الإنصات إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان، سواء كان سراً أو جهراً، فهذا الذي قاله لم يتابعا عليه، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال، لئلا يكونوا من الغافلين؛ ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾. وإنما ذكرهم بهذا ليتشبه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم؛ ولهذا شرع لنا السجود ههنا لما ذكر سجودهم لله ﷻ، كما جاء في الحديث: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها، يتمون الصفوف الأول، ويترأسون في الصف». وهذه أول سجدة في القرآن، مما يشرع لتأليها ومستمعها السجود بالإجماع. وقد ورد في حديث رواه ابن ماجه، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ أنه عدها في سجدة القرآن.

آخر تفسير سورة الأعراف، والله الحمد والمنة



تفسير سورة الأنفال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهي مدنية، آياتها سبعون وست آيات، كلماتها ألف كلمة، وستمائة كلمة، وإحدى وثلاثون كلمة، حروفها خمسة آلاف ومائتان، وأربعة وتسعون حرفاً، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾.

قال البخاري: قال ابن عباس: الأنفال: الغنائم. حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سعيد بن سليمان، أخبرنا هُشَيْمٌ، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر. أما ما علقه عن ابن عباس، فكذلك رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنه قال: «الأنفال»: الغنائم، كانت لرسول الله ﷺ خالصة، ليس لأحد منها شيء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، والضحاك، وقتادة، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حِثَّان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد أنها الغنائم. وقال الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس أنه قال: الأنفال: الغنائم، قال فيها لَيْبِدُ:

إِنْ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرٌ نَقُلْ
وَبِإِذْنِ اللَّهِ رَيْثِي وَعَجَلُ
وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني مالك بن أنس، عن ابن شهاب، عن القاسم بن محمد قال: سمعت رجلاً يسأل ابن عباس عن «الأنفال»، فقال ابن عباس، رضي الله عنهما: الفرس من الثفل، والسلب من النفل. ثم عاد لمسألته، فقال ابن عباس ذلك أيضاً. ثم قال الرجل: الأنفال التي قال الله في كتابه، ما هي؟ قال القاسم: فلم يزل يسأله حتى كاد يُخرجه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا، مثل صَبِيح الذي ضربه عمر بن الخطاب.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن القاسم بن محمد قال: قال ابن عباس: كان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إذا سئل عن شيء قال: لا أمرك ولا أنهاك. ثم قال ابن عباس: والله ما بعث الله نبيه ﷺ إلا زاجراً أمراً مجزئاً محرماً. قال القاسم: فَسَلِّطْ علي ابن عباس رجل يسأله عن الأنفال، فقال ابن عباس: كان الرجل ينفل فرس الرجل وسلاحه. فأعاد عليه الرجل، فقال له مثل ذلك، ثم أعاد عليه حتى أغضبه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا؟ مثل صَبِيح الذي ضربه عمر بن الخطاب، حتى سألت الدماء على عقيبه - أو على رجله - فقال الرجل: أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك.

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس: أنه فسر النفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه، بعد قسم أصل المغنم، وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل، والله أعلم.

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: إنهم سألوا رسول الله ﷺ عن الخمس بعد الأربعة الأخماس، فنزلت: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾. وقال ابن مسعود ومسروق: لا نفل يوم الزحف، إنما النفل قبل التقاء الصفوف. رواه ابن أبي حاتم عنهما. وقال ابن المبارك وغير واحد، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾، قال: يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال، من دابة أو عبد أو أمة أو متاع، فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء. وهذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالقيء، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال. وقال ابن جرير: وقال آخرون: هي أنفال السرايا، حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا علي ابن صالح بن حي قال: بلغني في قوله تعالى: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ قال: السرايا. ويعني هذا: ما ينفله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش، وقد صرح بذلك الشعبي، واختار ابن جرير أنها الزيادات على القسم، ويشهد لذلك ما ورد في سبب نزول الآية، وهو ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا أبو إسحاق الشيباني، عن محمد بن عبد الله الثقفي، عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر، وقتل أخي عُمَيْر، وقتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه، وكان يسمى «ذا الكتيفة»، فأتيت به نبي الله ﷺ، فقال: «اذهب فاطرحه في القبض». قال: فرجعت

وبى ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخى وأخذ سلبى . قال : فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال ، فقال لى رسول الله ﷺ : « اذهب فخذ سيفك » .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا أسود بن عامر ، أخبرنا أبو بكر ، عن عاصم بن أبي النجود ، عن مصعب بن سعد ، عن سعد بن مالك قال : قال : يا رسول الله ، قد شفاني الله اليوم من المشركين ، فهب لى هذا السيف . فقال : « إن هذا السيف لا لك ولا لى ، ضعه » قال : فوضعت ، ثم رجعت ، قلت : عسى أن يعطى هذا السيف اليوم من لا يبلى بلائى ! قال : رجل يدعونى من ورائى ، قال : قلت : قد أنزل الله فى شىء ؟ قال : « كنت سألتنى السيف ، وليس هو لى وإنه قد وهب لى ، فهو لك » قال : وأنزل الله هذه الآية : ﴿ يَتْلُونَكَ عَنِ الْآنْفَالِ قُلِ الْآنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ . ورواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى من طرق ، عن أبى بكر بن عياش ، به . وقال الترمذى : حسن صحيح . وهكذا رواه أبو داود الطيالسى : أخبرنا شعبة ، أخبرنا سماك بن حرب ، قال : سمعت مصعب بن سعد ، يحدث عن سعد قال : نزلت فى أربع آيات : أصبت سيفاً يوم بدر ، فأنيت النبى ﷺ فقلت : تَقْلِبْنِي . فقال : « ضعه من حيث أخذته » . مرتين ، ثم عاودته فقال النبى ﷺ : « ضعه من حيث أخذته » ، فنزلت هذه الآية : ﴿ يَتْلُونَكَ عَنِ الْآنْفَالِ ﴾ . وتام الحديث فى نزول : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِسْلَامَ بِأَخِيهِ هَارُونَ ﴾ [العنكبوت : ٢٨] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كُنْتُمْ لَكَ وَالْيَتَامَى ﴾ [المائدة : ٩٠] ، وآية الوصية . وقد رواه مسلم فى صحيحه ، من حديث شعبة ، به . وقال محمد بن إسحاق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر ، عن بعض بنى ساعدة قال : سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة يقول : أصبت سيف ابن عائد يوم بدر ، وكان السيف يدعى بالمرزبان ، فلما أمر رسول الله ﷺ الناس أن يردوا ما فى أيديهم من النفل ، أقبلت به فألقيته فى النفل ، وكان رسول الله ﷺ لا يمنع شىئاً يسأله ، فرأه الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى ، فسأله رسول الله ﷺ ، فأعطاه إياه . ورواه ابن جرير من وجه آخر .

سبب آخر فى نزول الآية :

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن عبد الرحمن ، عن سليمان بن موسى ، عن مكحول ، عن أبى أمامة قال : سألت عبادة عن الأنفال ، فقال : فىنا - أصحاب بدر - نزلت ، حين اختلطنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فانتزع الله من أيدينا ، وجعله إلى رسول الله ﷺ ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء - يقول : عن سواء . وقال أحمد أيضاً : حدثنا معاوية بن عمرو ، أخبرنا أبو إسحاق ، عن عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش بن أبى ربيعة ، عن سليمان بن موسى ، عن أبى سلام ، عن أبى أمامة ، عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع النبى ﷺ ، فشهدت معه بدرأ ، فالتقى الناس ، فهزم الله تعالى العدو ، فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون ويقتلون ، وأكبت طائفة على العسكر يحوونه ويجمعونه . وأحدثت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها ، فليس لأحد فيها نصيب . وقال الذين خرجوا فى طلب العدو : لستم بأحق به منا ، نحن منعنا عنها العدو وهزمناهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : لستم بأحق منا ، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ ، وخفنا أن يصيب العدو منه غرة ، فاشتغلنا به ، فنزلت : ﴿ يَتْلُونَكَ عَنِ الْآنْفَالِ قُلِ الْآنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَمْلِكُوا ذَاتَ يَمِينِكُمْ ﴾ ، فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين - وكان رسول الله ﷺ إذا غار فى أرض العدو نفل الربع ، فإذا أقبل وكل الناس راجعاً ، نفل الثلث ، وكان يكره الأنفال ويقول : « ليرد قوى المؤمنين على ضعيفهم » . ورواه الترمذى وابن ماجه ، من حديث سفيان الثوري ، عن عبد الرحمن بن الحارث بن عوف ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن . ورواه ابن حبان فى صحيحه ، والحاكم فى مستدركه من حديث عبد الرحمن بن الحارث ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه .

وروى أبو داود والنسائى ، وابن جرير ، وابن مردويه - واللفظ له - وابن حبان ، والحاكم من طرق ، عن داود ابن أبى هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ : « من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا ، فتسارع فى ذلك شبان الرجال ، وبقي الشيوخ تحت الرايات ، فلما كانت المغامم ، جاؤوا يطلبون الذى جعل لهم ، فقال الشيوخ : لا تستأثروا علينا ، فإننا كنا ردة ألكم ، لو انكشفتم لفتتم إلينا . فتنازعا فأنزل الله تعالى : ﴿ يَتْلُونَكَ عَنِ الْآنْفَالِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقال الثوري ، عن الكلبي ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ : « من قتل قتيلاً فله كذا وكذا ، ومن أتى بأسير فله كذا وكذا » . فجاء أبو اليسر بأسيرين ، فقال : يا رسول الله ، وعدتنا ، فقام سعد بن عبادة فقال : يا

رسول الله، إن أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء، وإنه لم يمتنعنا من هذا زهادة في الأجر، ولا جبن عن العدو، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك، نخاف أن يأتوك من ورائك، فتساجروا، ونزل القرآن: ﴿يَتْلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ قال: ونزل القرآن: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّا غَنِمْنَا مِنْ قَتْلِهِ فَكَانَ لِلَّهِ حُكْمُهُ وَالرَّسُولُ﴾ إلى آخر الآية [الأنفال: ٤١].

وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله، في كتاب «الأموال الشرعية وبيان جهاتها ومصاريفها»: أما الأنفال: فهي المغنم، وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب، فكانت الأنفال الأولى إلى النبي ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿يَتْلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولُ﴾ فقسمها يوم بدر على ما أَرَادَهُ اللهُ من غير أن يخمسها على ما ذكرناه في حديث سعد، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس، فنسخت الأولى. قلت: هكذا روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، سواء. وبه قال مجاهد، وعكرمة والسدي. وقال ابن زيد: ليست منسوخة، بل هي محكمة. قال أبو عبيد: وفي ذلك آثار، والأنفال أصلها جمع الغنائم إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب، وجرت به السنة. ومعنى الأنفال في كلام العرب: كل إحسان فعله فاعل تفضلاً من غير أن يجب ذلك عليه، فذلك النفل الذي أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم وإنما هو شيء خَصَّهُمُ اللهُ به تطولاً منه عليهم بعد أن كانت المغنم محرمة على الأمم قبلهم، فنفلها الله هذه الأمة فهذا أصل النفل. قلت: شاهد هذا في الصحيحين عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي» فذكر الحديث، إلى أن قال: «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي»، وذكر تمام الحديث. ثم قال أبو عبيد: ولهذا سمي ما جعل الإمام للمقاتلة نفلاً، وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم، يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الإسلام والتكاية في العدو. وفي النفل الذي ينقله الإمام سنن أربع، لكل واحدة منهن موضع غير موضع الأخرى: فأحدها: في النفل لا خمس فيه، وذلك السلب.

والثانية: في النفل الذي يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس، وهو أن يوجه الإمام السرايا في أرض الحرب، فتأتي بالغنائم فيكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث بعد الخمس.

والثالثة: في النفل من الخمس نفسه، وهو أن تحازز الغنيمة كلها، ثم تخمس، فإذا صار الخمس في يد الإمام نفل منه على قدر ما يرى.

والرابعة: في النفل في جملة الغنيمة قبل أن يخمس منها شيء، وهو أن يعطي الأدلاء ورعاة الماشية والسَّوَّاق لها، وفي كل ذلك اختلاف.

قال الربيع: قال الشافعي: الأنفال: ألا يخرج من رأس الغنيمة قبل الخمس شيء غير السلب.

قال أبو عبيد: والوجه الثاني من النفل هو شيء زيدوه غير الذي كان لهم، وذلك من خمس النبي ﷺ؛ فإن له خمس الخمس من كل غنيمة، فينبغي للإمام أن يجتهد، فإذا كثر العدو واشتدت شوكتهم، وقتل من بلائهم من المسلمين، نفل منه اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ، وإذا لم يكن ذلك لم ينفل. والوجه الثالث من النفل: إذا بعث الإمام سرية أو جيشاً، فقال لهم قبل اللقاء: من غنم شيئاً فله بعد الخمس، فذلك لهم على ما شرط الإمام؛ لأنهم على ذلك غزوا، وبه رضوا. انتهى كلامه. وفيما تقدم من كلامه وهو قوله: «إن غنائم بدر لم تخمس»، تظفر. ويرد عليه حديث علي بن أبي طالب في شارفيه اللذين حصلا له من الخمس يوم بدر، وقد بينت ذلك في كتاب السيرة بياناً شافياً، والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: اتقوا الله في أموركم، وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تساجروا؛ فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: في قسمه بينكم على ما أَرَادَهُ اللهُ، فإنه قسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف. وقال ابن عباس: هذا تحريج من الله على المؤمنين أن يتقوا الله ويصلحوا ذات بينهم. وكذا قال مجاهد. وقال السدي: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: لا تستبوا. ونذكر ههنا حديثاً أورده الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي المثنى الموصلي، رحمه الله، في مسنده، فإنه قال: حدثنا مجاهد بن موسى، حدثنا عبد الله بن بكر، حدثنا عباد بن شيبه الحبطي، عن سعيد بن أنس، عن أنس، رضي الله عنه، قال: بينا رسول الله ﷺ جالس، إذ رأيته ضحك حتى بدت ثناياه، فقال عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ فقال: «رجلان جثيا من أمتي بين يدي رب العزة، تبارك وتعالى، فقال أحدهما: يا رب، خذ لي مظلمتي من أخي. قال الله تعالى: أعط أخاك مظلمتك. قال: يا رب، لم يبق من حسناتي شيء. قال: رب، فليحمل عني من أوزاري» قال: قال: وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء،

ثم قال: «إن ذلك ليوم عظيم، يوم يحتاج الناس إلى من يتحمل عنهم من أوزارهم، فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك فانظر في الجنان، فرفع رأسه فقال: يا رب، أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ، لأي نبي هذا؟ لأي صديق هذا؟ لأي شهيد هذا؟ قال: هذا لمن أعطى الثمن. قال: يا رب، ومن يملك ذلك؟ قال: أنت تملكه. قال: ماذا يا رب؟ قال: تعفو عن أخيك. قال: يا رب، فإني قد عفوت عنه. قال الله تعالى: خذ بيد أخيك فادخله الجنة». ثم قال رسول الله ﷺ: «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة».

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّمْ يَجِدُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَقِيرَةً وَرِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣﴾﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فادأوا فرائضه. ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ يقول: تصديقاً ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول: لا يرجون غيره. وقال مجاهد: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فرقت، أي: فزعت وخافت. وكذا قال السدي وغير واحد. وهذه صفة المؤمن حق المؤمن، الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي: خاف منه، ففعل أوامره، وترك زواجره. كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ ذَنْبًا لَا يَكُنْ لَهُ مِثْرٌ يُمْضَوْنَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْفَوَاحِشِ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] ولهذا قال سفيان الثوري: سمعت السدي يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: هو الرجل يريد أن يظلم - أو قال: يهيم بمعضية - فيقال له: اتق الله فيجل قلبه. وقال الثوري أيضاً: عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قالت: الوجل في القلب إحراق السعفة، أما تجد لها قشعريرة؟ قال: بلى. قالت لي: إذا وجدت ذلك فادع الله عند ذلك، فإن الدعاء يذهب ذلك.

وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، كقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبِشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة: ١٢٤]. وقد استدلل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها، على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكي الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة، كالشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبي عبيد، كما بينا ذلك مستقصى في أول الشرح البخاري، والله الحمد والمنة. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك، وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب؛ ولهذا قال سعيد بن جبيرة: التوكل على الله جماع الإيمان.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢﴾﴾، ينبه بذلك على أعمالهم، بعد ما ذكر اعتقادهم، وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة، وهو حق الله تعالى. وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها، ووضوئها، وركوعها، وسجودها. وقال مقاتل بن حيان: إقامتها: المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي ﷺ، هذا إقامتها. والإنفاق مما رزقهم الله يشمل خراج الزكاة، وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب، والخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه. قال قتادة في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: فأنفقوا مما أعطاكم الله، فإنما هذه الأموال عواري وودائع عندك يا ابن آدم، أوشكت أن تفارقها.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي: المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا أبو كريب، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا ابن لهيعة، عن خالد بن يزيد الشكسكي، عن سعيد بن أبي هلال، عن محمد بن أبي الجهم، عن الحارث بن مالك الأنصاري؛ أنه مر برسول الله ﷺ فقال له: «كيف أصبحت يا حارث؟» قال: أصبحت مؤمناً حقاً. قال: «انظر ماذا تقول، فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟» فقال: عَزَمْتُ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، فَاسْهَرْتُ لَيْلِي، وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزاً، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغَوْنَ فِيهَا، فقال: «يا حارث، عرفت فالزم ثلاثاً. وقال عمرو بن مرة في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾: إنما أنزل القرآن بلسان العرب، كقولك: فلان سيد حقاً، وفي القوم سادة، وفلان تاجر

حقاً، وفي القوم تجار، وفلان شاعر حقاً، وفي القوم شعراء.

وقوله: ﴿لَمْ دَرَجَتْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: منازل ومقامات ودرجات في الجنات، كما قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣]. ﴿وَمَقَرَّةٌ﴾ أي: يغفر لهم السيئات، ويشكر لهم الحسنات. وقال الضحاك في قوله: ﴿لَمْ دَرَجَتْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الذي هو أسفل أنه أفضل عليه أحد. ولهذا جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء»، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا ينالها غيرهم؟ فقال: «بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين». وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الدرجات العلى كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأتمما».

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّا كَلِمَاتُ يَسْأَلُونَ إِلَى التَّوْبَةِ وَهُمْ يَظُنُّونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّكُمْ لَكُمْ وَوَدُّوهُ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّقَ الْحَقَّ يَكْفِيَهُ. وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُخَيِّقَ الْحَقَّ وَيَبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾.

قال الإمام أبو جعفر الطبري: اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه «الكاف» في قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾، فقال بعضهم: شبه به في الصلاح للمؤمنين، اتقاؤهم ربهم، وإصلاحهم ذات بينهم، وطاعتهم الله ورسوله. ثم روى عن عكرمة نحو هذا. ومعنى هذا أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغامات وتشاحتم فيها فانتزعها الله منكم، وجعلها إلى قسمه وقسم رسوله ﷺ، فقسمها على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة - وهم النفيير الذين خرجوا لنصر دينهم، وإحراز غيرهم - فكان عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدره لكم، وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد - رَشْدًا وَهْدًى، ونصرًا وفتحًا، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ على كره من فريق من المؤمنين، كذلك هم كارهون للقتال، فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم، ثم روي نحوه عن مجاهد أنه قال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ قال: كذلك يجادلونك في الحق. وقال السدي: أنزل الله في خروجه إلى بدر ومجادلتهم إياه فقال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ ﴿٥﴾ لطلب المشركين ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّا﴾. وقال بعضهم: يسألونك عن الأنفال مجادلة، كما جادلوك يوم بدر فقالوا: أخرجتنا للغير، ولم تعلمنا قتالًا فنستعذله. قلت: رسول الله ﷺ إنما خرج من المدينة طالباً للغير أبي سفيان، التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام، فيها أموال جزيلة لقريش، فاستنهض رسول الله ﷺ المسلمين من خف منهم، فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في طلبه، فبعث ضَمَضَم بن عمرو نذيراً إلى مكة، فنهضوا في قريب من ألف مُقْتَع، ما بين التسعمائة إلى الألف، وتيامن أبو سفيان بالغير إلى سيف البحر فتجا، وجاء النفيير فوردها ماء بدر، وجمع الله المسلمين والكافرين على غير ميعاد، لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم، والتفرقة بين الحق والباطل، كما سيأتي بيانه. والغرض: أن رسول الله ﷺ لما بلغه خروج النفيير، أوحى الله إليه بعده إحدى الطائفتين: إما العير وإما النفيير، ورغب كثير من المسلمين إلى العير؛ لأنه كسب بلا قتال، كما قال تعالى: ﴿وَوَدُّوهُ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّقَ الْحَقَّ يَكْفِيَهُ. وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾.

قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيْهِ في تفسيره: حدثنا سليمان بن أحمد الطبراني، حدثنا بكر بن سهل، حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أسلم أبي عمران حدثه أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: «إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله يُغْنِمَنَاها؟» فقلنا: نعم، فخرج وخرجنا، فلما سِرْنَا يوماً أو يومين قال لنا: «ما ترون في قتال القوم؟» فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟» فقلنا: لا، والله ما لنا طاقة بقتال العدو، ولكننا أردنا العير، ثم قال: «ما ترون في قتال القوم؟» فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد بن عمرو: إذا لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى: ﴿تَاذِهِبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا مَخَافَتَا فَعُدُّوهُ﴾ [المائدة: ٢٤]، قال: فتمنينا - معشر الأنصار - أن لو قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم،

قال: فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ وذكر تمام الحديث. ورواه ابن أبي حاتم، من حديث ابن لهيعة، بنحوه. ورواه ابن مَرْذُويه أيضاً من حديث محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي، عن أبيه، عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر، حتى إذا كان بالروحاء، خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله، بلغنا أنهم بمكان كذا وكذا. قال: ثم خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال عمر مثل قول أبي بكر. ثم خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله إيانا تريد؟ فوالذي أكرمك بالحق وأنزل عليك الكتاب، ما سلكتها قط ولا لي بها علم، ولئن سرت بنا حتى تأتي «بِرَّك الغماد» من ذي يمن لنسيرن معك، ولا نكون كالذين قالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون، ولعلك أن تكون خرجت لأمر، وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك، فامض له، ففصل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعاد من شئت، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فنزل القرآن على قول سعد: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿٥﴾ الآيات.

وقال العوفي، عن ابن عباس: لما شاور النبي ﷺ في لقاء العدو، وقال له سعد بن عباد ما قال وذلك يوم بدر، أمر الناس فعبثوا للقتال، وأمرهم بالشوكة، ففكره ذلك أهل الإيمان، فأنزل الله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَانُوا يُسَافِرُونَ إِلَى الْتَوْبِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٦﴾ أي: كراهية للقاء المشركين، وإنكار لمسير قريش حين ذكروا لهم. وقال السدي: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ﴾ أي: بعد ما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله به. قال ابن جرير: وقال آخرون: عني بذلك المشركين. حدثني

يونس، أنبأنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَانُوا يُسَافِرُونَ إِلَى الْتَوْبِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٦﴾ قال: هؤلاء المشركون، جادلوه في الحق ﴿كَانُوا يُسَافِرُونَ إِلَى الْتَوْبِ﴾ حين يدعون إلى الإسلام ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ قال: وليس هذا من صفة الآخرين، هذه صفة مبتدأ لأهل الكفر. ثم قال ابن جرير: ولا معنى لما قاله؛ لأن الذي قبل قوله: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ خبر عن أهل الإيمان، والذي يتلوه خبر عنهم، والصواب قول ابن عباس وابن إسحاق أنه خبر عن المؤمنين. وهذا الذي نصره ابن جرير هو الحق، وهو الذي يدل عليه سياق الكلام، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا يحيى بن أبي بكير وعبد الرزاق قالا: حدثنا إسرائيل، عن سيمال، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالغير ليس دونها شيء، فناداه العباس بن عبد المطلب - قال عبد الرزاق: وهو أسير في وثاقه - ثم اتفقا: إنه لا يصلح لك، قال: ولم؟ قال: لأن الله عز وجل إنما وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك. إسناده جيد، ولم يخرج به.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَوَدَّوْكَ أَنَّ عَصِيَ دَانِ الشُّكُوكَ تَكُوتُ لَكَ﴾ أي: يحبون أن الطائفة التي لا حد لها ولا منعة ولا قتال، تكون لهم وهي العير ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّقَ الْحَقَّ بِكَيْدِهِ﴾ أي: هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال، ليظفركم بهم ويظهرهم عليهم، ويظهر دينه، ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله غالباً على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي دبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم، كما قال تعالى: ﴿كَيْبَ عَلَيْكُمْ أَلْقَيْتُ لَهُمْ كُرَّةً وَّكَسَبَ أَنْ تَكْفُرُوا شَيْعًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَصَحَّى أَنْ تُجِيبُوا شَيْعًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال محمد بن إسحاق، رحمه الله: حدثني محمد بن مسلم الزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا، عن عبد الله بن عباس - كل قد حدثني بعض هذا الحديث، فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر - قالوا: لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقيلاً من الشام نذب المسلمين إليهم، وقال: «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها». فانتدب الناس، فخف بعضهم ونقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقي حرباً، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان، تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خيراً من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذِر عند ذلك، فاستأجر ضُمُضَم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى أهل مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضُمُضَم بن عمرو سريعاً إلى مكة، وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى بلغ وادياً يقال له «دَفْرَان»، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل، وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم، فاستشار النبي ﷺ

الناس، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر، رضي الله عنه، فقال فأحسن، ثم قام عمر، رضي الله عنه، فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أمرك الله به، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَوَدُوتُ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتل إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى بئر الغمامة - يعني مدينة الحيشة - لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعاه بخير، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا علي أيها الناس» - وإنما يريد الأنصار - وذلك أنهم كانوا عدداً للناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من إمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة، من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال رسول الله ﷺ ذلك، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجل». قال: فقد آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت. فوالذي بعثك بالحق، إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسير بنا على بركة الله. فسّر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: «سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنني الآن أنظر إلى مصارع القوم». وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا، وكذلك قال السدي، وقادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف والخلف، اختصروا أقوالهم اكتفاءً بسياق محمد بن إسحاق.

﴿إِذْ تَسْتَشِيرُونَ رَبَّكُمْ فَلَسْتَبَّابَ لَكُمْ أَنِّي مُبَدِّدٌ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَوِّفٌ ۖ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلَعَلَّكُمْ يَهْتَفُونَ إِلَيْهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح قُرَاد، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا سماك الحنفي أبو زُمَيْل، حدثني ابن عباس، حدثني عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه، وهم ثلاثمائة وثيق، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، ثم مد يديه، وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «اللهم أين ما وعدتني، اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً»، قال: فما زال يستغيث ربه عز وجل ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا رسول الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَشِيرُونَ رَبَّكُمْ فَلَسْتَبَّابَ لَكُمْ أَنِّي مُبَدِّدٌ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَوِّفٌ ۖ﴾، فلما كان يومئذٍ والتقوا، فهزم الله المشركين، فقتل منهم سبعون رجلاً، وأسر منهم سبعون رجلاً، واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعلياً وعمر، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإنني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قوّة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً، فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تُمكنني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان - أخيه - فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هودة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد - قال عمر - غدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر وهما يبيكان، فقلت: يا رسول الله، أخبرني ما يبيك أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاءً تبكيت لبيكائكما! قال النبي ﷺ: «للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء، قد عرض عليّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة»، وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَتْ لِيِّنِي أَنْ يَكُونَ لَكَ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يَتَخَرَّ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿أَوَلَا كُتِبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقٌ لَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨] من الفداء، ثم أحل لهم الغنائم، فلما كان يوم أحد من العام المقبل، عوقبوا مما صنعوا يوم بدر، من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون، وفر أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ، وكسرت رباعيته، وهُشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَوَلَمَّْا أَصْبَحْتُمْ مُمِيبِينَ قَدْ أَصَبْتُمْ مَقَالِيهَا فَلَمَّ أَنَّ هَذَا قُلٌ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ [آل عمران: ١٦٥]، بأخذكم الفداء. ورواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن جرير، وابن مَرْزُوق، من طرق عن عكرمة بن عمار، به. وصححه علي بن المديني والترمذي، وقالوا: لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار اليماني.

وهكذا رَوَى علي بن أبي طلحة والقوفي، عن ابن عباس: أن هذه الآية الكريمة قوله: ﴿إِذْ سَتَيْثُونُ رَيْبَكُمْ فَلَمَّسَ جَبَابُ لَكُمْ﴾ أنها في دعاء النبي ﷺ وكذا قال يزيد بن يُثَيع، والسُّدي، وابن جريج. وقال أبو بكر بن عياش، عن أبي حُصَيْن، عن أبي صالح قال: لما كان يوم بدر، جعل النبي ﷺ يناشدر به أشد النشدة يدعو، فاتاه عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، بعض يُشَدِّتُكَ، فوالله لَيُفِين الله لك بما وعدك.

وقال البخاري في «كتاب المغازي»، باب قول الله عز وجل: ﴿إِذْ سَتَيْثُونُ رَيْبَكُمْ فَلَمَّسَ جَبَابُ لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَكَرَّكَ اللَّهُ شَيْدُ الْقِيَابِ﴾: حدثنا أبو نُعَيْم، حدثنا إسرائيل، عن مُخَارِق، عن طارق بن شهاب قال: سمعت ابن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به: أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا تقول كما قال قوم موسى لموسى: ﴿كَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره - يعني قوله. وحدثنا محمد بن عبد الله بن خُوشَب، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا خالد الحذاء، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُشَدِّد»، فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك! فخرج وهو يقول: ﴿سَيِّئُكُمْ لِمَجْمَعٍ وَيُرْوَنُ الذُّبُرُ ۝١٥﴾ [الفر: ٤٥]. ورواه النسائي عن بُنْدَار، عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي.

وقوله تعالى: ﴿بِأَنْفٍ مِنْ أَلْمَلِكَةِ مُرَوِّفَةٍ﴾ أي: يُزْدَفُ بعضهم بعضاً، كما قال هارون بن عنترة، عن ابن عباس: ﴿مُرَوِّفَةٍ﴾: متتابعين. ويحتمل أن يكون المراد ﴿مُرَوِّفَةٍ﴾ لكم، أي: نجدة لكم، كما قال القوفي، عن ابن عباس: ﴿مُرَوِّفَةٍ﴾، يقول: المَدَد، كما تقول: اتت الرجل فزده كذا وكذا. وهكذا قال مجاهد، وابن كثير القاري، وابن زيد: ﴿مُرَوِّفَةٍ﴾: مُمَدِّين. وقال أبو كُذَيْبَةَ، عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿سَيِّئُكُمْ بِأَنْفٍ مِنْ أَلْمَلِكَةِ مُرَوِّفَةٍ﴾ قال: وراء كل مُلْك ملك. وفي رواية بهذا الإسناد: ﴿مُرَوِّفَةٍ﴾ قال: بعضهم على أثر بعض. وكذا قال أبو ظُبيَّان، والضحاك، وقتادة. وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا يعقوب بن محمد الزهري، حدثني عبد العزيز بن عمران، عن الزُّمَيعي، عن أبي الحويرث، عن محمد بن جُبَيْر، عن علي، رضي الله عنه، قال: نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي ﷺ وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي ﷺ، وأنا في الميسرة. وهذا يقتضي - لو صح إسناده - أن الألف مردفة بمثلها؛ ولهذا قرأ بعضهم: ﴿مُرَوِّفَةٍ﴾ بفتح الدال، فالله أعلم.

والمشهور ما رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مُجَنَّبَةٍ، وميكائيل في خمسمائة مُجَنَّبَةٍ. وروى الإمام أبو جعفر بن جرير، ومسلم، من حديث عكرمة بن عمار، عن أبي زُمَيْل سِمَاك بن وليد الحنفِي، عن ابن عباس، عن عمر، الحديث المتقدم. ثم قال أبو زُمَيْل: حدثني ابن عباس قال: بينا رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: «أقدم خَيْرُوم» إذ نظر إلى المشرك أمامه، فخر مستلقياً، قال: فنظر إليه، فإذا هو قد حُطِمَ أنفه، وشُقَّ وجهه كضربة السَّوْط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «صدقت، ذلك من مَدَد السماء الثالثة»، فقتلوا يومئذ سبعين وأسرُوا سبعين.

وقال البخاري «باب شهود الملائكة بدرأ»: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا جرير، عن يحيى بن سعيد، عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزُّرقِي، عن أبيه - وكان أبوه من أهل بدر - قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين» - أو كلمة نحوها - قال: وكذلك من شهد بدرأ من الملائكة. انفرد بإخراجه البخاري، وقد رواه الطبراني في المعجم الكبير من حديث رافع بن خَدِيج، وهو خطأ، والصواب رواية البخاري، والله تعالى أعلم. وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره في قتل حاطب بن أبي بلتَعَة: «إنه قد شهد بدرأ، وما يدريك لعل الله قد أطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا وَلَظَمَ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النُّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بُشْرًا، وَلَظَمَ بِهِ قُلُوبُكُمْ؛ وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك، ولهذا قال: ﴿وَمَا النُّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَرَبَّ الرِّقَابُ حَتَّىٰ إِذَا أَفْتَتَشَوْهُمْ فَنُشِدُوا الرِّقَابَ فَإِنَّمَا سَاءَ بَعْدُ وَإِنَّمَا فِتْنَةٌ حَتَّىٰ نَصَّ الْحَرْبَ أَوْرَادَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَنُنَصِّرَ لَهُمْ وَلَكِنْ يَلْبِثُوا بَعْضُكُمْ يَمِينُ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُبَدِّلَ أَعْمَلَانِ ۝١٦ سَيِّئِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بَالَهُمْ ۝١٧ وَيَجْلِبُهُمْ لَعْنَةً عَرَفَهُمْ لَمْ ۝١٨﴾ [محمد: ٤-٦]، وقال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تَذَاوُلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَيَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذُ

مِنْكُمْ شُهَدَاءُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيَتَحَصَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ الْكُفْرَ بِلَا جِهَادٍ الْكُفَّارَ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ لِأَجْلِهَا، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمة المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعاداً الأولى بالذبور، وشمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل، وقوم شعيب بيوم الظلة، فلما بعث تعالى موسى عليه السلام وأهلك عدوه فرعون وقومه بالفرق في اليوم، ثم أنزل على موسى التوراة، شرع فيها قتال الكفار، واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصاص: ٤٣]، وَقَتْلُ الْمُؤْمِنِينَ الْكَافِرِينَ أَشَدَّ إِهَانَةً لِلْكَافِرِينَ، وَأَشْفَى لَصُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة: ﴿قَتِلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ صُودُرَ قَوَرٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]؛ ولهذا كان قتل صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدراهم، أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان. فَقَتْلُ أَبِي جَهْلٍ فِي مَعْرَكَةِ الْقِتَالِ وَحُومَةِ الْوَعْيِ، أَشَدُّ إِهَانَةً لَهُ مِنْ أَنْ يَمُوتَ عَلَى فَرَاشِهِ بِقَارَعَةٍ أَوْ صَاقِقَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، كما مات أبو لهب - لعنه الله - بالعَدَسَةِ بحيث لم يقربه أحد من أقاربه، وإنما غسلوه بالماء قذفاً من بعيد، ورجموه حتى دفنوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: له العزة ولسروله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [٥١] يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار، مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم، بحوله وقوته، سبحانه وتعالى.

﴿إِذْ يَتَّبِعُكُمْ النَّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيَذْهَبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الْفَيْحَانِ وَيَلْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَتُتَبِّعَ بِهِ الْأَقْدَامُ﴾ [١١] إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنْ تَمْسُكِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ آمَنُوا سَالِفِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْمِرُوا قَوْقُ الْأَحْشَاءِ وَاضْمِرُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [١٢] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ سَأَلُوا اللَّهَ وَرُسُلَهُمْ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرُسُلَهُ فَكَانَ اللَّهُ شَدِيدَ الْعِقَابِ﴾ [١٣] ذَلِكَ قَدْ دَفَعُوا وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ [١٤].

يذكرهم الله بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم، أماناً من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدَدٍ أَلْوَنٍ مَاءً نَاصِئاً يَغْسِقُ الْخِصَمَاءَ بِمَاءٍ مِثْلِهِ قَدْ أَعْتَمَتْ أَنْفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مراراً يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه، ولقد نظرت إليهم يميّدون وهم تحت الحَجَفِ. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زُهَيْرٌ، حدثنا ابن مَهْدِيٍّ، عن شعبة، عن أبي إسحاق، عن حارثة بن مُضَرَّبٍ، عن علي، رضي الله عنه، قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأينا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ، يصلي تحت شجرة ويكي حتى أصبح.

وقال سفيان الثوري، عن عاصم عن أبي رَزِينٍ، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، أنه قال: النعاس في القتال أمانة من الله، وفي الصلاة من الشيطان. وقال قتادة: النعاس في الرأس، والنوم في القلب. قلت: أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد، وأمر ذلك مشهور جداً، وأما يوم بدر في هذه الآية الشريفة إنما هي في سياق قصة بدر، وهي دالة على وقوع ذلك أيضاً وكان ذلك كان سحبة للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم أمانة مطمئنة بنصر الله. وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمه عليهم، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [٩٠] ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]؛ ولهذا جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق، رضي الله عنه، وهما يدعوان، أخذت رسول الله سنة من النوم، ثم استيقظ متبسماً فقال: «أبشِر يا أبا بكر، هذا جبريل على ثناياه النقع» ثم خرج من باب العريش، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿سَيَرَمُ الْمُجَمِّعُ وَيُولُونَ الدَّبَرَ﴾ [٩٠] [القمر: ٤٥].

وقوله: ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: نزل النبي ﷺ - يعني: حين سار إلى بدر - والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعصة، فأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ، يوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مجنبين فأمطر الله عليهم مطراً شديداً، فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وانشف الرمل حين أصابه المطر ومشى الناس عليه والدواب، فساروا إلى القوم، وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة مُجَنَّبَةٍ، وميكائيل في خمسمائة مُجَنَّبَةٍ. وكذا قال العوفي عن ابن عباس: إن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير وليقاتلوا عنها، نزلوا على الماء يوم بدر، فغلبوا المؤمنين عليه. فأصاب المؤمنين الظم، فجعلوا يصلون مجنبين محدثين، حتى تعاضوا ذلك في

صدورهم، فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الوادي، فشرب المؤمنون، وملؤوا الأسقية، وسقوا الركاب، واغتسلوا من الجنابة، فجعل الله في ذلك طهوراً، وثبت الأقدام. وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة، فبعث الله المطر عليها، فضربها حتى اشتدت، وثبت عليها الأقدام. ونحو ذلك زوي عن قتادة، والضحاك، والسدي. وقد روي عن سعيد بن المسيب، والشعبي، والزهري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أنه طش أصابهم يوم بدر.

والمعروف أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر، نزل على أدنى ماء هناك أي: أول ماء وجدته، فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال: يا رسول الله، هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزلك الله فليس لنا أن نجاوزه، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة؟ فقال: «بل منزل نزلته للحرب والمكيدة». فقال: يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل، ولكن سر بنا حتى نزل على أدنى ماء يلي القوم ونغور ما وراءه من القلب، ونستقي الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء. فسار رسول الله ﷺ ففعل كذلك. وفي مغازي «الأموي» أن الحباب لما قال ذلك نزل ملك من السماء وجبريل جالس عند رسول الله ﷺ، فقال ذلك الملك: يا محمد، إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن الرأي ما أشار به «الحباب بن المنذر». فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل، عليه السلام، فقال: «هل تعرف هذا؟» فنظر إليه فقال: ما كل الملائكة أعرفهم، وإنه ملك وليس بشيطان. وأحسن ما في هذا ما رواه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب «المغازي»، رحمه الله: حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال: بعث الله السماء - وكان الوادي دهباً - فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشاً ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه. وقال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس، فأطفا بالمطر الغبار، وتلبدت به الأرض، وطابت نفوسهم، وثبتت به أقدامهم.

وقال ابن جرير: حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا مصعب بن المقدام، حدثنا إسرائيل، حدثنا أبو إسحاق، عن حارثة، عن علي، رضي الله عنه، قال: أصابنا من الليل طش من المطر - يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر - فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل تحتها من المطر. ويات رسول الله ﷺ يدعو ربه: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض!» فلما أن طلع الفجر، نادى: «الصلاة، عباد الله»، فجاء الناس من تحت الشجر والحجف، فصلى بنا رسول الله ﷺ، وحرص على القتال.

وقوله: ﴿يُطَهِّرْكُمْ بِهِ﴾ أي: من حدث أصغر أو أكبر، وهو تطهير الظاهر ﴿وَيُذْهِبْ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: من وسوسة أو خاطر سيئ، وهو تطهير الباطن، كما قال تعالى في حق أهل الجنة: ﴿عَلَيْهِمْ يَأْكُفُ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾، فهذا زينة الظاهر ﴿وَسَنُكُنَّهُمْ رِجْسًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] أي: مطهراً لما كان من غل أو حسد أو تباغض، وهو زينة الباطن وطهارته. ﴿وَلَا يَرْسَبُ عَلَيْهِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: بالصبر والإقدام على مجادلة الأعداء، وهو شجاعة الباطن، ﴿وَرَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾، وهو شجاعة الظاهر، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ غَبَرَاتٌ مِّنْ الْأَرْضِ﴾، وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم، ليشكروه عليها، وهو أنه - تعالى وتقدس وتبارك وتمجد - أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين، يوحى إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا. قال ابن إسحاق: وأزروهم. وقال غيره: قاتلوا معهم. وقيل: كثروا سوادهم. وقيل: كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي ﷺ يقول: سمعت هؤلاء القوم - يعني المشركين - يقولون: «والله لئن حملوا علينا لننكشفن»، فيحدث المسلمون بعضهم بعضاً بذلك، فتقوى أنفسهم. حكاة ابن جرير، وهذا لفظه بحروفه.

وقوله: ﴿سَأَلَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبُ﴾ أي: ثبتوا أنتم المسلمين وقوا أنفسهم على أعدائهم، عن أمري لكم بذلك، سألتني الرعب والمذلة والصغار على من خالف أمري، وكذب رسولي. ﴿فَأَخْرَجُوا قَوْقُ الْأَعْنَاقِ وَأَخْرَبُوا مَتَنَّهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي: اضربوا الهام ففلقوها، واحتزوا الرقاب فقطعوها، وقطعوا الأطراف منهم، وهي أيديهم وأرجلهم. وقد اختلف المفسرون في معنى: ﴿قَوْقُ الْأَعْنَاقِ﴾ فقيل: معناه اضربوا الرؤوس. قاله عكرمة. وقيل: معناه: ﴿قَوْقُ الْأَعْنَاقِ﴾ أي: على الأعناق، وهي الرقاب. قاله الضحاك، وعطية العوفي. ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَيْسَ الْأَمْرُ إِلَّا مَعَكُمْ فَخُذُوا الرِّبَاقَ﴾ [محمد: ٤]. وقال وكيع، عن المسعودي، عن القاسم قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لم أبعث لأعذب بعذاب الله، إنما بعث بضرب الرقاب وشد الوثاق». واختار ابن جرير أنها قد تدل على ضرب الرقاب وفلق الهام. قلت: وفي مغازي «الأموي» أن رسول الله ﷺ جعل يمر بين القتلى يوم بدر فيقول: «نُفِّلَقْ هاماً...». فيقول أبو بكر:

... من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلم ما فيتديء رسول الله ﷺ بأول البيت، ويستطعم أبا بكر، رضي الله عنه، إنشاد آخره؛ لأنه كان لا يحسن إنشاد الشعر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩]. وقال الربيع بن أنس: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوا هم بضرب فوق الأعناق، وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به.

وقوله: ﴿وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال ابن جرير: معناه: واضربوا أيها المؤمنون من عدوكم كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم. و «البنان»: جمع بنانة، كما قال الشاعر:

أَلَا لَيْتَنِي قَطَعْتُ مِنْ بَنَانَةٍ وَلَا قَيْتُهُ فِي الْبَنَانِ يَنْقُطَانِ حَاذِرَا

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ يعني بالبنان: الأطراف. وكذا قال الضحاك وابن جريج. وقال السدي: البنان: الأطراف، ويقال: كل مفصل. وقال عكرمة، وعطية العوفي والضحاك - في رواية أخرى -: كل مفصل. وقال الأوزاعي في قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال: اضرب منه الوجه والعين، وارمه بشهاب من نار، فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك. وقال العوفي، عن ابن عباس - فذكر قصة بدر إلى أن قال -: فقال أبو جهل: لا تقتلوهم قتلاً، ولكن خذوهم أخذاً، حتى تعرفوهم الذي صنعوا من طعنهم في دينكم، ورغبتهم عن اللات والعزى. فأوحى الله إلى الملائكة: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَخَيَّرُوا الَّذِينَ مَأْمَرُوا سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا قَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ فقتل أبو جهل لعنه الله، في تسعة وستين رجلاً، وأسر عقبة بن أبي معيط فقتل صبراً، فوفى ذلك سبعين - يعني: قتيلاً. ولذلك قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاؤُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: خالفوهما فساروا في شق، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شق - وهو مأخوذ أيضاً من شق العصا، وهو جعلها فرقتين - ﴿وَمَنْ يَشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَمَا يَكُ اللَّهُ شَكِيذَ الْوَقَابِ﴾ أي: هو الطالب الغالب لمن خالفه وناواه، لا يفوته شيء، ولا يقوم لغضبه شيء، تبارك وتعالى، لا إله غيره، ولا رب سواه. ﴿ذَلِكَ قَدْ دُفِرُوا وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابُ النَّارِ﴾ [١٤]: هذا خطاب للكفار أي: ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا، واعلموا أيضاً أن للكافرين عذاب النار في الآخرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَيْسَ إِلَيْكُمُ الْكَفَرُ رَحَقًا فَلَا تُولَوْهُمْ الْاَدْبَارَ﴾ [١٥] وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمِئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقَائِ أَوْ مَتَحَرِّفًا إِلَيْكَ فَتَوَّ فَقَدْ بَكَءَ يَخْضِبُ رِيحَ اللَّهِ وَمَا وَدَّ جَهَنَّمَ وَيُسَكُّ الْعَوِيَّ﴾ [١٦].

يقول تعالى متوعداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَيْسَ إِلَيْكُمُ الْكَفَرُ رَحَقًا﴾ أي: تقاربتم منهم ودنوتهم إليهم، ﴿فَلَا تُولَوْهُمْ الْاَدْبَارَ﴾ أي: تفروا وتتركوا أصحابكم، ﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمِئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقَائِ﴾ أي: يفر بين يدي قرنه مكيدة؛ ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه، ثم يكر عليه فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك. نص عليه سعيد بن جبير، والسدي. وقال الضحاك: أن يتقدم عن أصحابه ليرى غرة من العدو فيصيبها. ﴿أَوْ مَتَحَرِّفًا إِلَيْكَ فَتَوَّ﴾ أي: فر من ههنا إلى فته أخرى من المسلمين، يعاونهم ويعاونوه، فيجوز له ذلك، حتى ولو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم، دخل في هذه الرخصة.

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا زهير، حدثنا يزيد بن أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ، فحاص الناس حيصة - وكنت فيمن حاص - فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة فبتنا؟ ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ، فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا؟ فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج فقال: «من القوم؟» فقلنا: نحن الفرارون. فقال: «لا، بل أنتم العكَّارون، أنا فنتكم، وأنا فئة المسلمين» قال: فأتيناه حتى قبلنا يده. وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من طرق عن يزيد بن أبي زياد، وقال الترمذي: حسن لا نعرفه إلا من حديثه. ورواه ابن أبي حاتم، من حديث يزيد بن أبي زياد به. وزاد في آخره: وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿أَوْ مَتَحَرِّفًا إِلَيْكَ فَتَوَّ﴾. قال أهل العلم: معنى قوله: «العكَّارون» أي: العطاؤون. وكذلك قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في أبي عبيد لما قتل على الجسر بأرض فارس، لكثرة الجيش من ناحية المجوس، فقال عمر: لو انحاز إلي كنت له فئة. هكذا رواه محمد بن سيرين، عن عمر. وفي رواية أبي عثمان النهدي، عن عمر قال: لما قتل أبو عبيد قال عمر: يا أيها الناس، أنا فنتكم. وقال مجاهد: قال عمر: أنا فئة كل مسلم. وقال عبد الملك بن عُمَيْر، عن عمر: أيها الناس، لا تغرنكم هذه الآية، فإنما كانت يوم بدر، وأنا فئة لكل مسلم.

﴿لَقَدْ تَقَالُوهُمْ وَلَكَ بِاللهِ فَالَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكَ بِاللهِ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾
 ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُؤَنِّ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿٧٧﴾

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر عنهم من خير؛ لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم؛ ولهذا قال: ﴿لَقَدْ تَقَاتُوهُمْ وَلَكَرِهَ اللَّهُ فَلَّهْمُ﴾ أي: ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، أي: بل هو الذي أظفركم بهم ونصركم عليهم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَأَقْبَرُوا اللَّهَ لَكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْثُكُمْ فَلَمْ يُثْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُذْرِبَكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥]، يعلم - تبارك وتعالى - أن النصر ليس عن كثرة العدد، ولا بلبس اللامة والعدد، وإنما النصر من عند الله تعالى، كما قال: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ثم قال لنبيه ﷺ أيضاً في شأن القبضة من التراب، التي حصب بها وجوه المشركين يوم بدر، حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته، فرماهم بها، وقال: «شاهت الوجوه». ثم أمر الصحابة أن يصدقوا الحملة إثرها، ففعلوا، فأوصل الله تلك الحصاة إلى أعين المشركين، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ أي: هو الذي بلغ ذلك إليهم، وكبتهم بها لا أنت. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: رفع رسول الله ﷺ يديه - يعني يوم بدر - فقال: «يا رب، إن تهلك هذه العصاة، فلن تعبد في الأرض أبداً». فقال له جبريل: «خذ قبضة من التراب، فارم بها في وجوههم» فأخذ قبضة من التراب، فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين. وقال السدي: قال رسول الله ﷺ لعلي، رضي الله عنه، يوم بدر: «أعطني حصياً من الأرض». فنأوله حصياً عليه تراب، فرمى به في وجوه القوم، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه من ذلك التراب شيء، ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، وأنزل الله: ﴿لَقَدْ تَقَاتُوهُمْ وَلَكَرِهَ اللَّهُ فَلَّهْمُ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكَرِهَ اللَّهُ رَبُّنَّ﴾.

وقال أبو معشر المدني، عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي قالا: لما دنا القوم بعضهم من بعض، أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب، فرمى بها في وجوه القوم، وقال: «شاهت الوجوه». فدخلت في أعينهم كلهم، وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم ويأسرونهم، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﷺ، فانزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكَرِهَ اللَّهُ رَبُّنَّ﴾. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكَرِهَ اللَّهُ رَبُّنَّ﴾ قال: هذا يوم بدر، أخذ رسول الله ﷺ ثلاث حصيات فرمى بحصاة في مِئْنة القوم، وحصاة في مِئْسة القوم، وحصاة بين أظهرهم، وقال: «شاهت الوجوه»، فانهزموا.

وقد روي في هذه القصة عن عروة بن الزبير، ومُجَاهِدٍ وَعِكْرَمَةَ، وقتادة وغير واحد من الأئمة: أنها نزلت في رمية النبي ﷺ يوم بدر، وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضاً. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا يعقوب بن محمد، حدثنا عبد العزيز بن عمران، حدثنا موسى بن يعقوب بن عبد الله بن زعفة، عن يزيد بن عبد الله، عن أبي بكر بن سليمان بن أبي خثمة، عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر، سمعنا صوتاً وقع من السماء، كأنه صوت حصاة وقعت في طست، ورمى رسول الله ﷺ تلك الرمية، فانهزمنا. غريب من هذا الوجه. ولهننا قولان آخران غريبان جداً:

أحدهما: قال ابن جرير: حدثني محمد بن عوف الطائي، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان بن عمرو، حدثنا عبد الرحمن بن جبير؛ أن رسول الله ﷺ يوم ابن أبي الحقيق بخبير، دعا بقوس، فأني بقوس طويلة، وقال: «جيووني غيرها». فجأؤا بقوس كبداء، فرمى النبي ﷺ الحصن، فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي الحقيق، وهو في فراشه، فانزل الله، ﷻ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكَرِهَ اللَّهُ رَبُّنَّ﴾. وهذا غريب، وإسناده جيد إلى عبد الرحمن بن جبير بن نفيير، ولعله اشتبه عليه، أو أنه أراد أن الآية تعم هذا كله، وإلا فساق الآية في سورة الأنفال في قصة بدر لا محالة، وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم، والله أعلم.

والثاني: روى ابن جرير أيضاً، والحاكم في مستدركه، بإسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب والزهري أنهما قالا: أنزلت في رمية رسول الله ﷺ يوم أحد أبي بن خلف بالحربة وهو في لأمته، فخدشه في ترقوته، فجعل يتدأدأ عن فرسه مراراً، حتى كانت وفاته بها بعد أيام، قاسى فيها العذاب الأليم، موصولاً بعذاب البرزخ، المتصل بعذاب الآخرة. وهذا القول عن هذين الإمامين غريب أيضاً جداً، ولعلهما أراد أن الآية تتناول به عمومها، لا أنها نزلت فيه خاصة كما تقدم، والله أعلم. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير في قوله: ﴿وَلَيْسَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِنَاءٌ فَسَاءٌ﴾ أي: ليعرف المؤمنين من نعمته عليهم، من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم، وقلة عددهم، ليعرفوا بذلك حقه، ويشكروا بذلك نعمته. وهكذا فسر ذلك ابن جرير أيضاً. وفي الحديث: «وكل بلاء حسن أبلانا». وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي:

﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدُ وَإِنْ تَنْقُوا نَنْقُ عَنكُمْ فَبِعِزَّتِكَ لَأَوْ كَذَبْتَ وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾﴾

وقوله: ﴿وَإِنْ تَنْهَوُا﴾ أي: عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله، ﴿فَهُمْ سَوَاءٌ لَكُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿وَإِنْ تَقُولُوا نَحْنُ نَعْتَدُكُمْ عَذَابًا﴾ [الإسراء: ٨] معناه: وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة، نعد لكم بمثل هذه الواقعة. وقال السدي: ﴿وَإِنْ تَقُولُوا﴾ أي: إلى الاستفتاح ﴿نَعْتَدُ﴾ إلى الفتح لمحمد ﷺ، والنصر له، وتظفيره على أعدائه، والاول أقوى. ﴿وَلَنْ تَنفَعَكُمْ عُنُوكُمْ فَتَحْكُمُوا شَيْئًا زَكَاةً كَثْرَتُ﴾ أي: ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا، فإن من كان الله معه فلا غالب له، فإن الله مع المؤمنين، وهم الحزب النبوي، والجناب المصطفوي.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَتَوَلَّوْا عَنَّا كَذِبَ قَوْلِهِمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ مَن ذَلَّلَ عَنَدَ اللَّهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٩﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته و طاعة رسوله، ويزجرهم عن مخالفته و التشبه بالكافرين به المعاندين له؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي: تتركوا طاعته وامتثال أوامره و ترك زواجه، ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي: بعدما علمتم ما دعاكم إليه. ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٦١) قيل: المراد: المشركون. واختاره ابن جرير. وقال ابن إسحاق: هم المنافقون؛ فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا و استجابوا، و ليسوا كذلك. ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق و الخليفة، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُ﴾ أي: عن سماع الحق ﴿الْبُكْمُ﴾ عن فهمه؛ ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ﴾، فهؤلاء شر البرية؛ لأن كل دابة مما سواهم مطيع لله ﷻ فيما خلقها له، و هؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا؛ ولهذا شبههم بالأنعام في قوله: ﴿وَكُلُّ الَّذِينَ كَفَرُوا كَنُزِلٌ إِلَىٰ يُنْفَخُ بِمَا لَا يَسْمَعُ وَلَا دُعَاءَ وَبِدَعَاءِ مُنَّمْ بِكُمْ عَنِّي فَهُمْ لَا يَقُولُونَ﴾ (١٦٢) [البقرة: ١٧١]. وقال في الآية الأخرى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَفْئِدَةِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاقِقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقيل: المراد بهؤلاء المذكورين نُفَرٌ من بني عبد الدار من قريش. روي عن ابن عباس و مجاهد، و اختاره ابن جرير، وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون. قلت: ولا منافاة بين المشركين و المنافقين في هذا؛ لأن كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح، و القصد إلى العمل الصالح. ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح، و لا قصد لهم صحيح، لو فرض أن لهم فهماً، فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ نِيَّتَهُ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: لأفهمهم، و تقدير الكلام: ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم؛ لأنه يعلم أنه ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أي: أفهمهم ﴿تَوَلَّوْا﴾ عن ذلك قصداً و عناداً بعد فهمهم ذلك، ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ عنه.

قَالَ الْبُخَارِيُّ: «أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» : لِمَا يَصْلُحُكُمْ. حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، حَدَّثَنَا رَوْحٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ

خبيب بن عبد الرحمن قال: سمعت حفص بن عاصم يحدث عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي، فمر بي رسول الله ﷺ، فدعاني فلم آت حتى صليت، ثم أتيت فقال: «ما منعك أن تأتيني؟» ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج»، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج، فذكرت له - وقال معاذ: حدثنا شعبة، عن خبيب بن عبد الرحمن، سمع حفص بن عاصم، سمع أبا سعيد رجلاً من أصحاب النبي ﷺ بهذا - وقال: «هي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾»، السبع المثاني». هذا لفظه بحروفه، وقد تقدم الكلام على هذا الحديث بذكر طرقه في أول تفسير الفاتحة. وقال مجاهد في قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: الحق. وقال قتادة: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: هو هذا القرآن، فيه النجاة والثقة والحياة. وقال السدي: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: ففي الإسلام إحيائهم بعد موتهم بالكفر. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن غزوة بن الزبير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل، وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ يَقُولُ بَيْنَ الْمَرَّةِ وَفَلْيَوْمَ﴾ قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان. رواه الحاكم في مستدركه موقوفاً، وقال: صحيح ولم يخرجاه. ورواه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعاً، ولا يصح لضعف إسناده، والموقوف أصح. وكذا قال مجاهد، وسعيد، وعكرمة، والضحاك، وأبو صالح، وعطية، ومقاتل بن حيان، والسدي. وفي رواية عن مجاهد في قوله: ﴿يَقُولُ بَيْنَ الْمَرَّةِ وَفَلْيَوْمَ﴾ حتى تركه لا يعقل. وقال السدي: يحول بين الإنسان وقلبه، فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه. وقال قتادة هو كقوله: ﴿وَعَنْ أَزْوَاجِهِ إِلَى مَا كَانَ مِنَ الْحَبْلِ الْأَوَّلِيِّ﴾ [ق: ١٦]. وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك». قال: فقلنا: يا رسول الله، آمنت بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها». وهكذا رواه الترمذي في «كتاب القدر» من جامعه، عن هناد بن السري، عن أبي معاوية محمد بن حازم الضرير، عن الأعمش - واسمه سليمان بن مهران - عن أبي سفيان - واسمه طلحة بن نافع - عن أنس، ثم قال: حسن. وهكذا روي عن غير واحد عن الأعمش، رواه بعضهم عنه، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي ﷺ، وحديث أبي سفيان عن أنس أصح.

حديث آخر: قال عبد بن حميد في مسنده: حدثنا عبد الملك بن عمرو، حدثنا شعبة، عن الحكم، عن ابن أبي ليلى، عن بلال، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان يدعو: «يا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ». هذا حديث جيد الإسناد إلا أن فيه انقطاعاً. وهو - مع ذلك - على شرط أهل السنن ولم يخرجوه.

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم قال: سمعت ابن جابر يقول: حدثني بسر بن عبد الله الحضرمي: أنه سمع أبا إدريس الخولاني يقول: سمعت النّوّاس بن سَمْعَانَ الكلابي، رضي الله عنه، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاعه». وكان يقول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلوبنا على دينك». قال: «والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه». وهكذا رواه النسائي وابن ماجه، من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، فذكر مثله.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا حماد بن زيد، عن المعلى بن زياد، عن الحسن، أن عائشة قالت: دعوات كان رسول الله ﷺ يدعو بها: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك». قالت: فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر تدعو بهذا الدعاء. فقال: «إن قلب الأدمي بين إصبعين من أصابع الله، فإذا شاء أزاعه، وإذا شاء أقامه».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا عبد الحميد، حدثني شهر، سمعت أم سلمة تحدث: أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه يقول: «اللهم يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك». قالت: فقلت: يا رسول الله، أو إن القلوب لتقلب؟ قال: «نعم، ما خلق الله من بشر من بني آدم إلا أن قلبه بين إصبعين من أصابع الله، ﷻ، فإن شاء أقامه، وإن شاء أزاعه. فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب». قالت: قلت: يا رسول الله، ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: «بلى، قل: اللهم رب النبي محمد، اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن ما أحيتني».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حيوة، أخبرني أبو هانئ، أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبلي أنه

سمع عبد الله بن عمرو؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يُصَرَّف كيف شاء». ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مُصَرِّف القلوب، صَرِّف قلوبنا إلى طاعتك». انفرد بإخراجه مسلم عن البخاري، فرواه مع النسائي من حديث خِيَوَة بن شُرَيْح المصري، به.

﴿وَأَتَقُوا فَتْنَةَ لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَكِيدُ الْعِقَابِ ۝٢٥﴾.

يحذر تعالى عباده المؤمنين ﴿فِتْنَةً﴾ أي: اختباراً ومحنة، يعم بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب، بل يعمهما، حيث لم تدفع وترفع. كما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا شَدَّاد بن سعيد، حدثنا غِيْلَان بن جرير، عن مُطَرِّف قال: قلنا للزبير: يا أبا عبد الله، ما جاء بكم؟ ضيعتم الخليفة الذي قتل، ثم جئتم تطالبون بدمه؟ فقال الزبير، رضي الله عنه: إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، رضي الله عنهم: ﴿وَأَتَقُوا فَتْنَةَ لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾، لم تكن نحسب أنها أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت. وقد رواه البزار من حديث مطرف، عن الزبير، وقال: لا نعرف مطرفاً روى عن الزبير غير هذا الحديث. وقد روى النسائي من حديث جرير بن حازم، عن الحسن، عن الزبير نحو هذا. وروى ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا مبارك بن فضالة، عن الحسن قال: قال الزبير: لقد خوفنا بها، يعني قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا فَتْنَةَ لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ ونحن مع رسول الله ﷺ، وما ظننا أن خصصنا بها خاصة. وكذا رواه حُمَيْد، عن الحسن، عن الزبير، رضي الله عنه. وقال داود بن أبي هند، عن الحسن في هذه الآية قال: نزلت في علي، وعثمان، وطلحة والزبير، رضي الله عنهم. وقال سفيان الثوري عن الصُّلْت بن دينار، عن عقبة بن صُهَبان، سمعت الزبير يقول: لقد قرأت هذه الآية زماناً وما أراها من أهلها فإن نحن المعنيون بها: ﴿وَأَتَقُوا فَتْنَةَ لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَكِيدُ الْعِقَابِ ۝٢٥﴾. وقد روي من غير وجه، عن الزبير بن العوام. وقال السُّدِّي: نزلت في أهل بدر خاصة، فأصابته يوم الجمل، فاقتلوا.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا فَتْنَةَ لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ يعني: أصحاب النبي ﷺ خاصة. وقال في رواية له، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين ألا يقرؤا المنكر بين ظهرانيهم إليهم فيعصمهم الله بالعذاب. وهذا تفسير حسن جداً؛ ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا فَتْنَةَ لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾: هي أيضاً لكم، وكذا قال الضحاك، وزيد بن أبي حبيب، وغير واحد. وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ﴾ [التباين: ١٥]، فأياكم استعاذ فليستعذ بالله من مُضِلَّاتِ الفتن. رواه ابن جرير. والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم - وإن كان الخطاب معهم - هو الصحيح، ويدل على ذلك الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن، ولذلك كتاب مستقل يوضح فيه إن شاء الله تعالى، كما فعله الأئمة وأفردوه بالتصنيف، ومن أخص ما يذكر ههنا ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا أحمد بن الحجاج، أخبرنا عبد الله - يعني ابن المبارك - أنبأنا سيف بن أبي سليمان، سمعت عَدِيَّ بن عَدِيَّ الكندي يقول: حدثني مولى لنا أنه سمع جدي - يعني عدي بن عميرة - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله، ﷻ لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عَذَّبَ الله الخاصة والعامة». فيه رجل مبهم، ولم يخرجوه في الكتب الستة، ولا واحد منهم، والله أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان الهاشمي، حدثنا إسماعيل - يعني ابن جعفر - أخبرني عمرو بن أبي عمرو، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهل، عن حُذَيْفَةَ بن اليمان؛ أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم». ورواه عن أبي سعيد، عن إسماعيل بن جعفر، وقال: «أو ليبعثن الله عليكم قوماً ثم تدعونه فلا يستجيب لكم». وقال أحمد: حدثنا عبد الله بن نُفَيْر، حدثنا زَيْد بن حبيب الجُهَنِي، حدثني أبو الرُّقَاد قال: خرجت مع مولاي، فدفعت إلى حذيفة وهو يقول: إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير منافقاً، وإني لأسمعها من أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات؛ لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتَحَاضُنَّ على الخير، أو لَيَسْتَحْتَكِمَنَّ الله جميعاً بعذاب، أو لَيُؤْمَرَنَّ عليكم شراركم، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد أيضاً: حدثني يحيى بن سعيد، عن زكريا، حدثنا عامر، قال: سمعت النعمان بن بشير، رضي الله عنه، يخطب يقول: - وأوماً بأصبعيه إلى أذنيه - يقول: مثل القائم على حدود الله والواقع فيها - أو المدهن فيها -

كمثل قوم ركبوا سفينة، فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مَزَّوا على من فوقهم فأدوهم، فقالوا: لو خَرَقْنَا نصيبنا خَرَقًا، فاستقينا منه، ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وأمرهم هَلَكُوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجَّزوا جميعاً. انفراد بإخراجه البخاري دون مسلم، فرواه في «الشركة» و «الشهادات»، والترمذي في الفتن من غير وجه، عن سليمان بن يهراَن الأعشى، عن عامر بن شَراحيل الشعبي، به .

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا خَلَف بن خليفة، عن لَيْث، عن عُلَقَمَةَ بن مَرْثَد، عن المعروف بن سُؤَيْد، عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا ظهرت المعاصي في أمتي، عَمَّهم الله بعذاب من عنده». فقلت: يا رسول الله، أما فيهم أناس صالحون؟ قال: «بلى»، قالت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: «يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حُجَّاج بن محمد، أخبرنا شريك، عن أبي إسحاق، عن المنذر بن جرير، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يعملون بالمعاصي، وفيهم رجل أعزَّ منهم وأمنع لا يغيرون، إلا عَمَّهم الله بعقاب - أو: أصابهم العقاب». ورواه أبو داود، عن مُسَدَّد، عن أبي الأخرص، عن أبي إسحاق، به. وقال أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت أبا إسحاق يحدث، عن عُبيد الله بن جرير، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم يُعْمَل فيهم بالمعاصي، هم أعزَّ وأكثر ممن يعمل، لم يغيروه، إلا عَمَّهم الله بعقاب». ثم رواه أيضاً عن وَكِيع، عن إسرائيل - وعن عبد الرزاق، عن مَعْمَر - وعن أسود، عن شريك ويونس - كلهم عن أبي إسحاق السَّيِّعي، به. وأخرجه ابن ماجه، عن علي بن محمد، عن وكيع، به.

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا جامع بن أبي راشد، عن مُنْذِر، عن حسن بن محمد، عن امرأته، عن عائشة تبلغ به النبي ﷺ: «إذا ظهر السوء في الأرض، أنزل الله بأهل الأرض بأسه». قالت: وفيهم أهل طاعة الله؟ قال: «نعم، ثم يصيرون إلى رحمة الله».

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قِلِيلٌ تُسْتَعْفِفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا كُنْتُمْ نَازِلِينَ﴾ (٢٦)

ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثُرهم، ومستضعفين خائفين فقوَّاهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات، واستشكرهم فأطاعوه، وامتثلوا جميع ما أمرهم. وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستحقين مضطرين، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله، من مشرك ومجوسي ورومي، كلهم أعداء لهم لقلتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن لهم في الهجرة إلى المدينة، فأواهم إليها، وقِيضَ لهم أهلها، آووا ونصروا يوم بدر وغيره وآسوا بأموالهم، وبذلوا مُهجهم في طاعة الله وطاعة رسوله. قال قتادة بن دَعَامَةَ السُّدوسي، رحمه الله، في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قِلِيلٌ تُسْتَعْفِفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذُلًّا، وأشقاء عيشًا، وأجوعه بطونًا، وأعره جلودًا، وأبينه ضلالًا، مكعومين على رأس حجر، بين الأسدين فارس والروم، ولا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقيًّا، ومن مات منهم رُدِّي في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قَبِيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشدَّ منزلًا منهم حتى جاء الله بالإسلام فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكًا على رقاب الناس. وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا لله نعمه، فإن ربكم مُتِمِّع يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله تعالى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخَوْفُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَخَوَّفُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَسْلُونَ﴾ (٢٧) وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ وَأَوْلَاكُمْ نَشْنَعُ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٨)

قال عبد الله بن أبي قتادة والزهري: أنزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قُرَيْظَةَ لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك - وأشار بيده إلى حلقه - أي: إنه الذبح، ثم فطن أبو لبابة، ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يذوق ذواقًا حتى يموت أو يتوب الله عليه، وانطلق إلى مسجد المدينة، فربط نفسه في سارية منه، فمكث كذلك تسعة أيام، حتى كان يخر مغشيًّا عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله. فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه من السارية، فحلف لا يحلوه منها إلا رسول الله ﷺ بيده، فحله، فقال: يا رسول الله، إني

كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة، فقال: «يجزيك الثلث أن تصدق به». وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا يونس بن الحارث الطائفي، حدثنا محمد بن عبيد الله أبو عون الثقفي، عن المغيرة بن شعبة قال: نزلت هذه الآية في قتل عثمان، رضي الله عنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْزَنُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ الآية. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا القاسم بن بشر بن معروف، حدثنا شَيْبَانَةُ بن سَوَّار، حدثنا محمد بن المحرم قال: لقيت عطاء بن أبي رباح فحدثني قال: حدثني جابر بن عبد الله: أن أبا سفيان خرج من مكة، فأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال: إن أبا سفيان في كذا وكذا. فقال النبي ﷺ لأصحابه: «إن أبا سفيان في موضع كذا وكذا، فاخرجوا إليه واكتبوا» فكتب رجل من المنافقين إليه: إن محمداً يريدكم، فخذوا حذرکم، فانزل الله عز وجل: ﴿لَا تَحْزَنُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحْزَنُوا أَمْسَتْ كُفُومُ﴾ الآية. هذا حديث غريب جداً، وفي سنده وسياقه نظر.

وفي الصحيحين قصة «حاطب بن أبي بلتعة» أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح، فأطلع الله رسوله على ذلك، فبعث في إثر الكتاب فاسترجعه، واستحضر حاطباً فأقر بما صنع، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين؟ فقال: «دعه، فإنه قد شهد بداراً، ما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». قلت: والصحيح أن الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء، والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَتَحْزَنُوا أَمْسَتْ كُفُومُ﴾: الأمانة الأعمال التي اتتمن الله عليها العباد - يعني الفريضة - يقول: لا تخونوا: لا تنقضوها. وقال في رواية: ﴿لَا تَحْزَنُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ يقول: بترك سنته وارتكاب معصيته. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير في هذه الآية، أي: لا تظهروا لله من الحق ما يرضى به منكم، ثم تخالفوه في السر إلى غيره، فإن ذلك هلاك لأماناتكم، وخيانة لأنفسكم. وقال السدي: إذا خانوا الله والرسول، فقد خانوا أماناتهم. وقال أيضاً: كانوا يسمعون من النبي ﷺ الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: نهاكم أن تخونوا الله والرسول، كما صنع المنافقون.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَنَ اللَّهُ بِكُمْ وَوَدَّ لَكُمْ فَتَنَّهُ﴾ أي: اختبار وامتحان منه لكم؛ إذ أعطاكموها ليعلم أنشكرونها عليها وتطيعونه فيها، أو تشتغلون بها عنه، وتعتاضون بها منه؟ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا آمَنَ اللَّهُ بِكُمْ وَوَدَّ لَكُمْ فَتَنَّهُ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥]، وقال: ﴿وَيَبْلُوكُمْ بِالنَّارِ وَالْخَيْرِ فَتَنَّهُ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [٩] [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُنْ مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَأَصْلَحُوا قُلُوبُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا ضَلَالًا﴾ [١٤] [التغابن: ١٤]. وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يغني عنك شيئاً، والله، سبحانه، هو المتصرف المالك للدينا والآخرة، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة. وفي الأثر يقول الله تعالى: «ابن آدم، اطلبني تجدني، فإن وجدته في كل شيء، وإن فُتئت فأتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء». وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله، ومن كان أن يلقي في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه». بل حب رسول الله ﷺ مقدم على الأولاد والأموال والنفوس، كما ثبت في الصحيح أنه، عليه السلام، قال: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَشَاءُوا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ بِحَمَلِ لَكُمْ قُرْآنًا وَنَكْفِرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [١٦]. قال ابن عباس، والسدي، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، ومقاتل بن حيان: ﴿قُرْآنًا﴾: مخرجاً. زاد مجاهد: في الدنيا والآخرة. وفي رواية عن ابن عباس: ﴿قُرْآنًا﴾: نجاة. وفي رواية عنه: نصرأ. وقال محمد بن إسحاق: ﴿قُرْآنًا﴾ أي: فضلاً بين الحق والباطل. وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم وقد يستلزم ذلك كله؛ فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجه، وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا، وسعادته يوم القيامة، وتكفير ذنوبه - وهو محوها - وغفرها: سترها عن الناس - سبباً لنيل ثواب الله الجزيل، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١٧] [الحديد: ٢٨]. ﴿وَإِذْ يَمَكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْمَكْرِينِ﴾ [١٨].

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿يُخْرِجُوكَ﴾ أي: ليقيدوك. وقال عطاء، وابن زيد: ليعسوك. وقال السدي: «الإثبات»: هو الحبس والوثاق. وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء، وهو مجمع الأقوال، وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء. وقال سفيان، عن حجاج، عن ابن جريج، قال عطاء: سمعت عبيد بن عمير يقول: لما ائتمروا بالنبي ﷺ ليشتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، قال له عمه أبو طالب: هل تدري ما ائتمروا بك؟ قال: «يريدون أن يسحروني أو يقتلوني أو يخرجوني»، فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: «ربي»، قال: نعم الرب ربك، استوص به خيراً فقال: «أنا أستوصي به؟ بل هو يستوصي بي». وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني محمد بن إسماعيل البصري، المعروف بالسواوسي، أخبرنا عبد الحميد بن أبي رواد، عن ابن جريج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن المطلب بن أبي وداعة، أن أبا طالب قال لرسول الله ﷺ: ما يأتربك قومك؟ قال: «يريدون أن يسحروني أو يقتلوني أو يخرجوني». فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: «ربي»، قال: نعم الرب ربك، فاستوص به خيراً. «قال: أنا أستوصي به؟ بل هو يستوصي بي». قال: فنزلت: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُخْرِجُوكَ أَوْ يُقَتِّلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الآية. وذكر أبي طالب في هذا، غريب جداً، بل منكر؛ لأن هذه الآية مدنية، ثم إن هذه القصة واجتماع قريش على هذا الائتمار والمشاورة على الإثبات أو النفي أو القتل، إنما كان ليلة الهجرة سواء، وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين لما تمكنوا منه واجتروا عليه بعد موت عمه أبي طالب، الذي كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه.

والدليل على صحة ما قلنا: ما رواه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب «المغازي» عن عبد الله بن أبي نجيع، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: وحدثني الكلبي، عن باذان مولى أم هانئ، عن ابن عباس؛ أن نفرًا من قريش من أشراف كل قبيلة، اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من نجد، سمعت أنكم اجتمعتم، فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم رأيي ونصحي. قالوا: أجل، ادخل. فدخل معهم فقال: انظروا في شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يوائبكم في أمركم بأمره. قال: فقال قائل منهم: احبسوه في وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء، زهير والنابغة، إنما هو كأحدهم، قال: فصرخ عدو الله الشيخ النجدي فقال: والله ما هذا لكم برأي، والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه، فليوشكن أن يشوا عليه حتى يأخذه من أيديكم، فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجكم من بلادكم قال: فانظروا في غير هذا. قال: فقال قائل منهم: أخرجوه من بين أظهرهم تستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع، إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم، وكان أمره في غيركم، فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حلاوة قوله وطلاوة لسانه، وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم، ثم استعرض العرب، ليجتمعن عليكم، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم. قالوا: صدق الله، فانظروا باباً غير هذا. قال: فقال أبو جهل، لعنه الله: والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم تصرمونه بعد، ما أرى غيره. قالوا: وما هو؟ قال: نأخذ من كل قبيلة غلاماً شاباً وسيطاً نهدأ، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، فلا أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها. فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل، واسترحنا وقطعنا عنا أذاه. قال: فقال الشيخ النجدي: هذا والله الرأي. القول ما قال الفتى لا رأي غيره، قال: فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له. فأتى جبريل النبي ﷺ، فأمره ألا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم. فلم يبت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة «الأنفال» يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُخْرِجُوكَ أَوْ يُقَتِّلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرَ الْمَكْرِينَ﴾ (٢٩)، وأنزل الله في قولهم: «تربصوا به ريب المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء»، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعَرَ نَزَّيْنُ بِهِ رَبِّي أَلَمْ نَكُنْ﴾ (٣٠) [الطور: ٣٠]، وكان ذلك اليوم يسمى «يوم الزحمة»، للذي اجتمعوا عليه من الرأي. وعن السدي نحو هذا السياق، وأنزل الله في إرادتهم إخراجهم قوله تعالى: ﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٣١) [الإسراء: ١٧٦]. وكذا روى العوفي، عن ابن عباس. وروى عن مجاهد، وعروة بن الزبير، وموسى بن عتبة، وقتادة، ومقسم، وغير واحد، نحو ذلك.

وقال يونس بن بكير، عن ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ ينتظر أمر الله، حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت به، وأرادوا به ما أرادوا، أتاه جبريل، عليه السلام، فأمره ألا يبيت في مكانه الذي كان يبيت فيه، فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فأمره أن يبيت على فراشه وأن يتسجى ببرد له أخضر، ففعل. ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه، وخرج معه بحفنة من تراب، فجعل يذرهما على رؤوسهم، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ﷺ وهو يقرأ: ﴿يَسَّ﴾ (٣٢) [الأنفال: ٢٤]، وإلى

قوله: ﴿فَاعْتَبِرْتُمْ لَهُمْ لَا يَصِيرُونَ﴾ [يس: ١- ٩]. قال الحافظ أبو بكر البيهقي: وروي عن عكرمة ما يؤكد هذا. وقد روى أبو حاتم ابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جببر، عن ابن عباس قال: دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك يا بنتي؟» قالت: يا أبت، وما لي لا أبكي، وهؤلاء الملا من قريش في الحجر يتعاقدون باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، لو قدر أروك لقاموا إليك فيقتلوك، وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك. فقال: «يا بنتي، انتني بوضوء». فتوضأ رسول الله ﷺ، ثم خرج إلى المسجد. فلما رآوه قالوا: إنما هو ذا. فطأطأوا رؤوسهم، وسقطت أذقانهم بين أيديهم، فلم يرفعوا أبصارهم. فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها، وقال: «شاهد الوجوه». فما أصاب رجلاً منهم حصاة من حصياته إلا قُتل يوم بدر كافراً. ثم قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ولا أعرف له علة. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، أخبرني عثمان الجزري، عن مفسم مولى ابن عباس أخبره عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾. قال: تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فائتوه بالوثاق - يريدون النبي ﷺ - وقال بعضهم: بل اقتلوه. وقال بعضهم: بل أخرجه. فأطلع الله نبيه على ذلك، فبات علي، رضي الله عنه، على فراش رسول الله ﷺ، وخرج رسول الله ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رآوا علياً ردَّ الله تعالى مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري. فاقصدا أثره، فلما بلغوا الجبل اخطط عليهم، فصعدوا في الجبل فمزوا بالغار، فرأوا على بابهم نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابهم، فمكث فيه ثلاث ليال. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير في قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرُورِينَ﴾ أي: فمكرت بهم بكيدي المتين، حتى خلصتكم منهم.

﴿وَإِذْ تَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ أَنبِيَاؤُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا يَسْمَلْ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَنْظِرْ عَلَيْنَا حِسَابَهُ مِنَ النَّارِ لَوْ أَتَيْنَا بِمَذَاقٍ آخِرٍ﴾ ﴿٢٢﴾ وَمَا كُنَّا اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ﴿٢٣﴾.

يخبر تعالى عن كفر قريش وعَثْوهم وتمزدهم وعنادهم، ودعواهم الباطل عند سماع آياته حين تنلى عليهم أنهم يقولون: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا يَسْمَلْ هَذَا﴾. وهذا منهم قول لا فعل، وإلا فقد تحذوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً. وإنما هذا قول منهم يُعْزَوْنَ به أنفسهم ومن اتبعهم على باطلهم. وقد قيل: إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث - لعنه الله - كما قد نص على ذلك سعيد بن جببر، والسدي، وابن جرير وغيرهم؛ فإنه - لعنه الله - كان قد ذهب إلى بلاد فارس، وتعلم من أخبار ملوكهم رُستم واسفنديار، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله، وهو يتلو على الناس القرآن، فكان إذا قام ﷺ من مجلس، جلس فيه النضر فيحدثهم من أخبار أولئك، ثم يقول: بالله أيهما أحسن قصصاً؟ أنا أو محمد؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر وقع في الأسارى، أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبراً بين يديه، ففعل ذلك، والله الحمد. وكان الذي أسره المقداد بن الأسود، رضي الله عنه، كما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جببر قال: قُتل النبي ﷺ يوم بدر صبراً عُقِبَ بن أبي مُعَيْط وطُعِمَ بن عدي، والنضر بن الحارث. وكان المقداد أسر النضر، فلما أمر بقتله، قال المقداد: يا رسول الله، أسيري. فقال رسول الله ﷺ: «إنه كان يقول في كتاب الله، ﷻ، ما يقول». فأمر رسول الله ﷺ بقتله، فقال المقداد: يا رسول الله، أسيري. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم أغن المقداد من فضلك». فقال المقداد: هذا الذي أردت. قال: وفيه أنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ أَنبِيَاؤُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا يَسْمَلْ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢١﴾. وكذا رواه مُسْنِم، عن أبي بشر جعفر بن أبي وخشيته، عن سعيد بن جببر؛ أنه قال: «المطعم بن عدي» بدل «طعيمة». وهو غلط؛ لأن المطعم بن عدي لم يكن حياً يوم بدر؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ يومئذ: «لو كان المطعم حياً، ثم سألتني في هؤلاء الثثنى، لو هبتهم له» - يعني: الأسارى - لأنه كان قد أجاز رسول الله ﷺ يوم رجع من الطائف.

ومعنى: ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، وهو جمع أسطورة، أي: كتبهم اقتبسها، فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس. وهذا هو الكذب البحت، كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى: ﴿وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَكْسِلًا﴾ ﴿٢٤﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿٢٥﴾ [الفرقان: ٥، ٦] أي: لمن تاب إليه وأناب؛ فإنه يتقبل منه ويصفح عنه.

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقٌّ مِنْ عِنْدِكَ فَأُطِرْ عَلَيْنَا جِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٢): هذا من كثرة جهلهم وغشهم وعنادهم وشدة تكذيبهم، وهذا مما عيَّبوا به، وكان الأولى لهم أن يقولوا: «اللهم، إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا له، ووفقنا لاتباعه». ولكن استفتحوا على أنفسهم، واستعجلوا العذاب، وتقديم العقوبة كما قال تعالى: ﴿وَصَلُّوا عَلَى الْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَقْتَةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٢) [المنكبات: ٥٣]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قُلُوبَنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٥٣) [ص: ١٦]، ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ (١) [الكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ] (٢) ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ (٣) [المعارج: ١-٣]، وكذلك قال الجهلاء من الأمم السالفة، كما قال قوم شعيب له: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٧٧) [الشعراء: ١٨٧]، وقال هؤلاء: ﴿اللَّهُ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقٌّ مِنْ عِنْدِكَ فَأُطِرْ عَلَيْنَا جِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. قال شُعْبَةُ، عن عبد الحميد، صاحب الزبدي، عن أنس بن مالك قال: هو أبو جهل بن هشام قال: ﴿اللَّهُ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقٌّ مِنْ عِنْدِكَ فَأُطِرْ عَلَيْنَا جِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فنزلت: ﴿وَمَا كُنَّا أَنْتُمْ لِيَعْلَمَنَّهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٢٢) الآية. رواه البخاري عن أحمد ومحمد بن النضر، كلاهما عن عُبيد الله بن مُعَاذٍ، عن أبيه، عن شعبة، به. وأحمد هذا هو: أحمد بن النضر بن عبد الوهاب. قاله الحاكم أبو أحمد، والحاكم أبو عبد الله النيسابوري، والله أعلم، وقال الأعمش، عن رجل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقٌّ مِنْ عِنْدِكَ فَأُطِرْ عَلَيْنَا جِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٢) قال: هو النضر بن الحارث بن كلدة، قال: فأنزل الله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ (١) [الكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ] (٢) [المعارج: ١، ٢]، وكذا قال مجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، والسدي: إنه النضر بن الحارث - زاد عطاء: فقال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قُلُوبَنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٥٣) [ص: ١٦] وقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا قُرُوءَهُمْ كَمَا جَعَلْنَاهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ (١) [الكَافِرِينَ] [المعارج: ١، ٢]، قال عطاء: ولقد أنزل فيه بضع عشرة آية من كتاب الله ﷻ. وقال ابن مَرْزُوقٍ: حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثنا الحسن بن أحمد بن الليث، حدثنا أبو غسان حدثنا أبو ثُمَيْلَةَ، حدثنا الحسين، عن ابن بُرَيْدَةَ، عن أبيه قال: رأيت عمرو بن العاص واقفاً يوم أُحُد على فرس، وهو يقول: اللهم، إن كان ما يقول محمد حقاً، فأخسف بي وبفرسي. وقال قتادة في قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقٌّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ الآية، قال: قال ذلك سَفَهَةُ هذه الأمة وَجَهْلَتُهَا، فعاد الله بعائذته ورحمته على سَفَهَةِ هذه الأمة وجهلتها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا أَنْتُمْ لِيَعْلَمَنَّهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٢٢) قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة موسى بن مسعود، حدثنا عكرمة بن عمار، عن أبي رُئَيْمِلٍ سِمَاكُ الْحَنْفِي، عن ابن عباس قال: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك. فيقول النبي ﷺ: «قَدْ قَدْ!» ويقولون: لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. ويقولون: غفرانك، غفرانك، فأنزل الله: ﴿وَمَا كُنَّا أَنْتُمْ لِيَعْلَمَنَّهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٢٢)، قال ابن عباس: كان فيهم أمانان: النبي ﷺ، والاستغفار، فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار. وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا أبو مَعْشَرٍ، عن يزيد بن زُوَمان ومحمد بن قيس قالوا: قالت قريش بعضها لبعض: محمد أكرمه الله من بيننا: ﴿اللَّهُ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقٌّ مِنْ عِنْدِكَ فَأُطِرْ عَلَيْنَا جِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فلما أمسوا ندموا على ما قالوا، فقالوا: غفرانك اللهم! فأنزل الله، ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا أَنْتُمْ لِيَعْلَمَنَّهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٢٢) إلى قوله: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا كُنَّا أَنْتُمْ لِيَعْلَمَنَّهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ يقول: ما كان الله ليعذب قوماً وأنبياءهم بين أظهرهم حتى يخرجهم، ثم قال: ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يقول: وفيهم من قد سبق له من الله الدخول في الإيمان، وهو الاستغفار - يستغفرون، يعني: يصلون - يعني بهذا أهل مكة. وروي عن مجاهد، وعكرمة، وعطية العوفي، وسعيد بن جبير، والسُّدِّيُّ نحو ذلك. وقال الضحاك وأبو مالك: ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يعني: المؤمنين الذين كانوا بمكة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الغفار بن داود، حدثنا النضر بن عَرَبِيٍّ قال: قال ابن عباس: إن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما داموا بين أظهرهم: فأمان قبضه الله إليه، وأمان بقي فيكم، قوله: ﴿وَمَا كُنَّا أَنْتُمْ لِيَعْلَمَنَّهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٢٢). قال أبو صالح عبد الغفار: حدثني بعض أصحابنا، أن النضر بن عربي حدثه هذا الحديث، عن مجاهد، عن ابن عباس. وروى ابن مَرْزُوقٍ وابن جرير، عن

أبي موسى الأشعري نحواً من هذا، وكذا روي عن قتادة وأبي العلاء النحوي المقرئ. وقال الترمذي: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا ابن ثُمَيْر، عن إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر، عن عُبَاد بن يوسف، عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ أَمَانِينَ لَأُمْتِي: ﴿وَمَا كُنْتُ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنْتُ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾﴾، فإذا مضيت، تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة. ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد في مسنده، والحاكم في مستدركه، من حديث عبد الله بن وهب: أخبرني عمرو بن الحارث، عن ذَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتْكَ يَا رَبِّ، لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ. فَقَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَا أُرَازِلُ أَغْفِر لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي». ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا رُشَيْدِينَ - هو ابن سعد - حدثني معاوية بن سعد التَّجِيبِي، عمن حدثه، عن فَصَّالَةَ بن عُبيد، عن النبي ﷺ أنه قال: «العبد آمن من عذاب الله ما استغفر الله، ﷺ».

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولَآئِهِ إِلَّا الضَّالُّونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْكَلْبَةِ إِلَّا مُكَافَءً وَتَصَدِيقَةً فَذَرَوْهُمُ الْقَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٢٥).

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم، ولكن لم يقع ذلك بهم لبركة مقام رسول الله ﷺ بين أظهرهم؛ ولهذا لما خرج من بين أظهرهم، أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقتل صناديدهم وأسرت سراتهم. وأرشدهم تعالى إلى الاستغفار من الذنوب، التي هم متلبسون بها من الشرك والفساد. قال قتادة والسُّدِّي وغيرهما: لم يكن القوم يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون ما عذبوا. واختاره ابن جرير، فلولاً ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين، لأوقع بهم البأس الذي لا يرد، ولكن دفع عنهم بسبب أولئك، كما قال تعالى في يوم الحديبية: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَى مَعَكُمُ أَنْ يُبَلِّغَ مِنْكُمْ وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَبَنَاتٌ مُؤْمِنَاتٌ لَأَسْلَمْتُمْ أَنْ تُطَفِّئُوا نَارَهُمْ فَتُجِيبَكُمْ مِنْهُنَّ مَعْرَءٌ يَعْلَمُ لِكَيْلَ اللَّهُ فِي تَحْمِيهِمْ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَرَكْنَا وَلَهُنَّ الْكُفْرُ لَقَبَضْنَاهُنَّ عَذَابًا لِيَسَاءَ (٢٥)﴾ [الفتح: ٢٥]. قال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْد، حدثنا يعقوب، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن ابن أبيزى قال: كان النبي ﷺ بمكة، فأنزل الله: ﴿وَمَا كُنْتُ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ قال: فخرج النبي ﷺ إلى المدينة، فأنزل الله: ﴿وَمَا كُنْتُ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال: وكان أولئك البقية من المؤمنين الذين بقوا فيها يستغفرون - يعني بمكة - فلما خرجوا، أنزل الله: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ قال: فأذن الله في فتح مكة، فهو العذاب الذي وعدهم. وروى عن ابن عباس، وأبي مالك، والضحاك، وغير واحد نحو هذا. وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله: ﴿وَمَا كُنْتُ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم.

قال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْد، حدثنا يحيى بن واضح، عن الحسين بن واقد، عن يزيد النحوي، عن عكرمة والحسن البصري قالا: قال في «الأنفال»: ﴿وَمَا كُنْتُ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنْتُ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٢٤)، فنسختها الآية التي تليها: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمْ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَذَرَوْهُمُ الْقَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، فاقوتلوا بمكة، فأصابهم فيها الجوع والضر. وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث أبي ثُمَيْلَةَ يحيى بن واضح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج بن محمد، عن ابن جُرَيْج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿وَمَا كُنْتُ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، ثم استثنى أهل الشرك فقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولَآئِهِ إِلَّا الضَّالُّونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٤) أي: وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام أي الذي بيكه، يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة عنده والطواف به؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: هم ليسوا أهل المسجد الحرام، وإنما أهله النبي ﷺ وأصحابه، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٢٧) إِنَّمَا يَسْتَرْسِخُ مَسْجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَتَّخِذْ إِلَّا اللَّهَ فَتَحَ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٢٨)﴾ [التوبة: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَصَدَّقَ سَبِيلَ اللَّهِ وَكَفَّرَ بِهِ. وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَخَرَّجَ أَهْلَهُ. وَهُوَ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفَتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ الآية [البقرة: ٢١٧]. وقال الحافظ أبو بكر بن مَزْدُوب في تفسير هذه الآية: حدثنا سليمان بن أحمد - هو الطبراني - حدثنا جعفر بن إلياس بن صدقة المصري، حدثنا نُعَيْم بن حماد، حدثنا نوح بن أبي مريم، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: سئل رسول الله ﷺ: من ألك؟ قال: «كل تقى»، وتلا

رسول الله ﷺ: ﴿إِنْ أُولَآئِهِمْ إِلَّا الْمُنْفُونَ﴾. وقال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو بكر الشافعي، حدثنا إسحاق بن الحسن، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعه، عن أبيه، عن جده قال: جمع رسول الله ﷺ قريشاً فقال: «هل فيكم من غيركم؟» قالوا: فينا ابن أختنا، وفينا حليفنا، وفينا مولانا. فقال: «حليفنا منا، وابن أختنا منا، ومولانا منا، إن أوليائي منكم المنفون». ثم قال: هذا حديث صحيح، ولم يخرجاه.

وقال عزوة، والسدي، ومحمد بن إسحاق في قوله تعالى: ﴿إِنْ أُولَآئِهِمْ إِلَّا الْمُنْفُونَ﴾ قال: هم محمد ﷺ وأصحابه، رضي الله عنهم. وقال مجاهد: هم المجاهدون، من كانوا، وحيث كانوا. ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام، وما كانوا يعملونه به، فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾: قال عبد الله بن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو رجاء العطاردي، ومحمد بن كعب القرظي، وخجر بن عثس، وثيب بن شُرَيْط، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو الصغير - وزاد مجاهد: وكانوا يدخلون أصابعهم في أفواههم. وقال السدي: المكاء: الصغير على نحو طير أبيض يقال له: «المكاء»، ويكون بأرض الحجاز. والتصدية: التصفيق. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو خلاد سليمان بن خلاد، حدثنا يونس بن محمد المؤدب، حدثنا يعقوب - يعني ابن عبد الله الأشعري - حدثنا جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ قال: كانت قريش تطوف بالكعبة عراة تصفر وتصفق. والمكاء: الصغير، وإنما شبهوا بصغير الطير وتصديه التصفيق. وهكذا روى علي بن أبي طلحة والقفطي، عن ابن عباس. وكذا روي عن ابن عمر، ومجاهد، ومحمد بن كعب، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، والضحاك، وقتادة، وعطية العوفي، وخجر بن عثس، وابن أبي رزي نحو هذا.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا أبو عمر، حدثنا قرة، عن عطية، عن ابن عمر في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ قال: المكاء: الصغير. والتصدية: التصفيق. قال قرة: وحكى لنا عطية فعل ابن عمر، فصر ابن عمر، وأمال خده، وصفق بيديه. وعن ابن عمر أيضاً أنه قال: كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفقون ويصفرون. رواه ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده عنه. وقال عكرمة: كانوا يطوفون بالبيت على الشمال. قال مجاهد: وإنما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلاته. وقال الزهري: يستهزئون بالمؤمنين. وعن سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد: ﴿وَتَصَدِيَةً﴾ قال: صدّهم الناس عن سبيل الله، ﷻ. قوله: ﴿فَذَرُوا الذَّابَّ يَمَّا كَثُرَتْ تَكْفُرُونَ﴾ قال الضحاك، وابن جريج، ومحمد بن إسحاق: هو ما أصابهم يوم يذّر من القتل والسبي. واختاره ابن جرير، ولم يحك غيره. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: عذاب أهل الإقرار بالسيف، وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة.

﴿إِنَّ الْبَيْتَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَتُكْفَرُ عَنْهُمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُكْفَرُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُخْرَجُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَعْمَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكَبُكُمْ جِئَمًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قال محمد بن إسحاق: حدثني الزهري، ومحمد بن يحيى بن جبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحُصَيْن بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر، ورجع فلهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بغيره، مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، في رجال من قريش أصيب آبائهم، وأبنائهم وإخوانهم ببدر، فكلّموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمداً قد وتزكم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا أن ندرك منه ثاراً بمن أصيب منا ففعلوا. قال: ففيهم - كما ذكر عن ابن عباس - أنزل الله، ﷻ: ﴿إِنَّ الْبَيْتَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُخْرَجُونَ﴾. وهكذا روي عن مجاهد، وسعيد بن جبير، والحكم بن عتيبة، وقتادة، والسدي، وابن أبي رزي: أنها نزلت في أبي سفيان ونفقت الأموال في أخذ لقتال رسول الله ﷺ. وقال الضحاك: نزلت في أهل بدر. وعلى كل تقدير، فهي عامة. وإن كان سبب نزولها خاصاً، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليعصوا عن اتباع طريق الحق، فسيفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم، ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: ندامة؛ حيث لم تُجد شيئاً؛ لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله متم نوره ولو كره الكافرون، وناصر دينه، ومغلن كلمته، ومظهر دينه على كل دين. فهذا الخزي لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، فمن عاش منهم، رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوؤه، ومن قُتل منهم أو مات، فإلى الخزي الأبدي

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَكُمْ﴾: قال البخاري: حدثنا الحسن بن عبد العزيز، حدثنا عبد الله بن يحيى، حدثنا خنوة بن شريح، عن بكر بن عمرو، عن بكير، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رجلاً جاءه فقال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿لَكُمْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ الآية [الحجرات: ٢٩]، فما يمنعك ألا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يا ابن أخي، أعير بهذه الآية ولا أقاتل، أحب إلي من أن أعير بالآية التي يقول الله، ﷻ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ إلى آخر الآية [النساء: ٩٣]، قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد النبي ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يُقتل في دينه: إما أن يقتلوه، وإما أن يوثقوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد، قال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال ابن عمر: ما قولي في علي وعثمان؟ أما عثمان فكان الله قد عفا عنه، وكرهتم أن يعفو عنه، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وحُتَنَ - وأشار بيده - وهذه ابنته - أو: بنته - حيث ترون. وحدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا بيان أن وبرة حدثه قال: حدثني سعيد بن جبْرِ قال: خرج علينا - أو: إلينا - ابن عمر، رضي الله عنهما، فقال رجل: كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: وهل تدري ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، وكان الدخول عليهم فتنة، وليس بقتالكم على الملك. هذا كله سياق البخاري، رحمه الله. وقال عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر؛ أنه أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس قد صنعوا ما ترى، وأنت ابن عمر بن الخطاب، وأنت صاحب رسول الله ﷺ، فما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أن الله حرم عليّ دم أخي المسلم. قالوا: أولم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَكُمْ﴾؟ قال: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين كله لله،

وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله. وكذا رواه حمّاد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أيوب بن عبد الله اللخمي قال: كنت عند عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، فأتاه رجل فقال: إن الله يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ فقال ابن عمر: قاتلت أنا وأصحابي حتى كان الدين كله لله، وذهب الشرك ولم تكن فتنة، ولكنك وأصحابك تقاتلون حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله. رواهما ابن مَرْدُويه.

وقال أبو عوانة، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: قال ذو البطين - يعني أسامة بن زيد - لا أقاتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله أبداً. قال: فقال سعد بن مالك: وأنا والله لا أقاتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله أبداً. فقال رجل: ألم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾؟ فقالوا: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين كله لله. رواه ابن مردويه. وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ يعني: حتى لا يكون شرك، وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حَيَّان، وزيد بن أسلم. وقال محمد بن إسحاق: بلغني عن الزهري، عن عُرْوَةَ بن الزبير وغيره من علمائنا: ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾: حتى لا يفتن مسلم عن دينه. وقوله: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: يخلص التوحيد لله. وقال الحسن وقتادة، وابن جُرَيْج: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾: أن يقال: لا إله إلا الله. وقال محمد بن إسحاق: ويكون التوحيد خالصاً لله، ليس فيه شرك، ويخلع ما دونه من الأنداد. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾: لا يكون مع دينكم كفر. ويشهد له ما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله، ﷻ». وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله، ﷻ؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله، ﷻ».

وقوله: ﴿فَإِنِ أَنتَهَوْا﴾ أي: بقتلكم عما هم فيه من الكفر، فكفوا عنه، وإن لم تعلموا بواطنهم، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَمْكُرُونَ بَصِيرٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَاخْرُجْهُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]. وقال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ أَنتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأسامة - لما علا ذلك الرجل بالسيف، فقال: «لا إله إلا الله»، فضربه فقتله، فذكر ذلك لرسول الله، فقال لأسامة -: «أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال: يا رسول الله، إنما قالها تعوداً. قال: «هلا شَقَقْتَ عن قلبه؟»، وجعل يقول ويكرر عليه: «من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال أسامة: حتى تمتيت أني لم أكن أسلمت إلا ذلك اليوم. وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ يَغْنَمُ الْكُوفِيُّ يَغْنَمُ النَّبِيُّ﴾ أي: وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ﴾: سيدكم وناصركم على أعدائكم، فنعم المولى ونعم النصير.

وقال محمد بن جرير: حدثني عبد الوارث بن عبد الصمد، حدثنا أبي، حدثنا أبان العطار، حدثنا هشام بن عُرْوَةَ، عن عروة: أن عبد الملك بن مروان كتب إليه يسأله عن أشياء، فكتب إليه عروة: «سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإنك كتبت إلي تسألني عن مخرج رسول الله ﷺ من مكة، وسأخبرك به، ولا حول ولا قوة إلا بالله. كان من شأن مخرج رسول الله ﷺ من مكة، أن الله أعطاه النبوة، فَنِغَمَ النَّبِيُّ، ونعم السيد، ونعم العشيبة، فجزاه الله خير، وعزّنا وجهه في الجنة، وأحياناً على ملته، وأمانتنا وبعثنا عليها، وإنه لما دعا قومه لما بعثه الله له من الهدى والنور الذي أنزل عليه، لم يبعدوا منه أول ما دعاهم إليه، وكادوا يسمعون منه، حتى ذكر طواغيتهم، وقدم ناس من الطوائف من قريش، لهم أموال، أنكر ذلك عليه الناس واشتدوا عليه وكروهوا ما قال، وأغروا به من أطاعهم، فانصف عنه عامة الناس، فتركوه إلا من حفظه الله منهم، وهم قليل. فمكث بذلك ما قدر الله أن يمكث، ثم اتهمتم رؤوسهم بأن يفتنوا من اتبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم، وقبائلهم، فكانت فتنة شديدة الزلزال، فافتتن من افتتن، وعصم الله من شاء منهم، فلما فعل ذلك بالمسلمين، أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة. وكان بالحبشة ملك صالح يقال له: «النجاشي»، لا يظلم أحد بأرضه، وكان يفتي عليه مع ذلك، وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش، يتجرون فيها، وكانت مَسْكناً لتجارهم، يجدون فيها رفاغاً من الرزق وأمناً ومتجراً حسناً، فأمرهم بها النبي ﷺ، فذهب إليها عامتهم لما قهرها بمكة، وخاف عليهم الفتن. ومكث هو فلم يبرح. فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم. ثم إنه فشا الإسلام فيها، ودخل فيه رجال من أشrafهم ومنعتهم. فلما رأوا ذلك،

قال الضحاك، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا، خُصَّس الغنيمة، فضرب ذلك الخمس في خمسة. ثم قرأ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْلُغَ إِلَيْكُمْ يَوْمَ يُغِيرَنَّ الْوَرِيدُ وَالْيَوْمَ الْجُثَلُ بِالسُّبُحِ الْمُرِيَّةِ الْكَافُرِينَ﴾. وقال: «فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ» مفتاح كلام، الله ما في السموات وما في الأرض، فجعل سهم الله وسهم الرسول واحداً. وهكذا قال إبراهيم التَّخَعِي، والحسن بن محمد بن الحنفية، والحسن البصري، والشعبي، وعطاء بن أبي رباح، وعبد الله بن بريدة، وقتادة، ومغيرة، وغير واحد: أن سهم الله ورسوله واحد. ويؤيد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي بإسناد صحيح، عن عبد الله بن شقيق، عن رجل من بلقين قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو بوادي القرى، وهو يعرض فرساً، فقلت: يا رسول الله، ما تقول في الغنيمة؟ فقال: «الله خمسها، وأربعة أخماس للجيش». قلت: فما أحد أولى به من أحد؟ قال: «لا، ولا السهم تستخرجه من جنبك، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم». وقال ابن جرير: حدثنا عمران بن موسى، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أبان، عن الحسن قال:

أوصى أبو بكر بالخمس من ماله، وقال: ألا أرضى من مالي بما رضي الله لنفسه.

ثم اختلف قائلو هذا القول، فروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس، فأربعة منها بين من قاتل عليها، وخمس واحد يقسم على أربعة: فربع لله وللرسول ولذي القربى - يعني: قرابة النبي ﷺ. فما كان لله وللرسول فهو لقرابة رسول الله ﷺ، ولم يأخذ النبي ﷺ من الخمس شيئاً، والربع الثاني لليتامى، والربع الثالث للمساكين، والربع الرابع لابن السبيل. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو مغفر الجنفري، حدثنا عبد الوارث بن سعيد، عن حسين المعلم، عن عبد الله بن بريدة في قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ قال: الذي لله فلنبيه، والذي للرسول لأزواجه. وقال عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح قال: خمس الله والرسول واحد، يحمل منه ويصنع فيه ما شاء - يعني: النبي ﷺ. وهذا أعم وأشمل، وهو أن الرسول ﷺ يتصرف في الخمس الذي جعله الله له بما شاء ويرده في أمته كيف شاء.

ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، عن أبي سلام الأعرج، عن المقدم بن معد يكرّب الكندي: أنه جلس مع عبادة بن الصامت، وأبي الدرداء، والحارث بن معاوية الكندي، رضي الله عنهم، فتذكروا حديث رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء لعبادة: يا عبادة، كلمات رسول الله ﷺ في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس؟ فقال عبادة: إن رسول الله ﷺ صلى بهم في غزوة إلى بعير من المغنم، فلما سلم قام رسول الله ﷺ فتناول وَبَرَةً بين أنمليته فقال: «إن هذه من غنائمكم، وإنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمخيطة، وأكبر من ذلك وأصغر، ولا تغلوا، فإن الغلول نار وعار على أصحابه في الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناس في الله القريب والبعيد، ولا تبالوا في الله لومة لائم، وأقيموا حدود الله في الحضر والسفر، وجاهدوا في سبيل الله، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم، ينجي به الله من الهم والغم». هذا حديث حسن عظيم، ولم أره في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه. ولكن روى الإمام أحمد أيضاً، وأبو داود، والنسائي، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ نحوه في قصة الخمس والنهي عن الغلول. وعن عمرو بن عَبَسَةَ أن رسول الله ﷺ صلى بهم إلى بعير من المغنم، فلما سلم أخذ وبرة من ذلك البعير ثم قال: «ولا يحل لي من غنائمكم مثل هذه، إلا الخمس، والخمس مردود فيكم». رواه أبو داود والنسائي. وقد كان للنبي ﷺ من المغنم شيء يصطفيه لنفسه عبداً أو أمة أو فرساً أو سيفاً أو نحو ذلك، كما نص على ذلك محمد بن سيرين وعامر الشعبي، وتبعهما على ذلك أكثر العلماء. وروى الإمام أحمد، والترمذي - وحسنه - عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ تنفل سيفه ذا الفقار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد. وعن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كانت صفية من الصّفي. رواه أبو داود في سننه. وروي أيضاً بإسناده، والنسائي أيضاً عن يزيد بن عبد الله قال: كنا باليمزّذ إذ دخل رجل معه قطعة أديم، فقرأناها فإذا فيها: «من محمد رسول الله إلى بني زهير بن أقيش، إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأنتم الصّلى، وآتيتم الزكاة، وأديتم الخمس من المغنم، وسهم النبي وسهم الصّفي، أنتم آمنون بأمان الله ورسوله». فقلنا: من كتب لك هذا؟ فقال: رسول الله ﷺ.

فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرر هذا وثبوتها؛ ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه. وقال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين، كما يتصرف في مال الفيء. وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية، رحمه الله: وهذا قول مالك وأكثر السلف، وهو أصح الأقوال. فإذا ثبت هذا وعلم، فقد اختلف أيضاً في الذي كان يناله عليه السلام من الخمس، ماذا يصنع به من بعده؟ فقال قائلون: يكون لمن يلي الأمر من بعده. روي هذا عن أبي بكر وعلي وقتادة جماعة، وجاء فيه حديث مرفوع. وقال آخرون: يصرف في مصالح المسلمين. وقال آخرون: بل هو مردود على بقية الأصناف: ذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، اختاره ابن جرير. وقال آخرون: بل سهم النبي ﷺ وسهم ذوي القربى مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل. قال ابن جرير: وذلك قول جماعة من أهل العراق. وقيل: إن الخمس جميعه لذوي القربى كما رواه ابن جرير.

حدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا عبد الغفار، حدثنا الميثقال بن عمرو، وسألت عبد الله بن محمد بن علي، وعلي بن الحسين، عن الخمس فقالا: هو لنا. فقلت لعلي: فإن الله يقول: ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ﴾، فقالا: يتامانا ومساكيننا. وقال سفيان الثوري، وأبو نعيم، وأبو أسامة، عن قيس بن مسلم: سألت الحسن بن محمد بن الحنفية، رحمه الله

تعالى، عن قول الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرًا غَيْرَكُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّسُولُ﴾ قال: هذا مفتاح كلام، لله الدنيا والآخرة. ثم اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقال قائلون: سهم النبي ﷺ تسليماً للخليفة من بعده. وقال قائلون: لقرباة النبي ﷺ. وقال قائلون: سهم القرباة لقرباة الخليفة. فاجتمع قولهم على أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعُدَّة في سبيل الله، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما. قال الأعمش، عن إبراهيم: كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبي ﷺ في الكُرَاع والسلاح، فقلت لإبراهيم: ما كان علي يقول فيه؟ قال: كان علي أشدهم فيه. وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء، رحمهم الله. وأما سهم ذوي القربى فإنه يصرف إلى بني هاشم وبني المطلب؛ لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام، ودخلوا معهم في الشعب غضباً لرسول الله ﷺ وحماية له: مسلمهم طاعة لله ولرسوله، وكافرهم حبيبة للعشيرة وأنفة وطاعة لأبي طالب عم رسول الله. وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل - وإن كانوا أبناء عمهم - فلم يوافقهم على ذلك، بل حاربهم وناذبوهم، ومالوا بطون قريش على حرب الرسول، ولهذا كان دُمُّ أبي طالب لهم في قصيدته اللامية أشد من غيرهم، لشدة قريتهم. ولهذا يقول في أثناء قصيدته:

جَزَى الله عَبْدَ شَمْسٍ وَنُوفَلَا عُقُوبَةُ شَرٍّ عَاجِلٍ غَيْرِ أَجَلٍ
بِمِيزَانٍ قَنِطٍ لَا يَخِيْسُ شُعْبِيرَا لَهُ شَاهِدٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرِ عَائِلٍ
لَقَدْ سَفَهَتْ أَحْلَامُ قَوْمٍ تَبَدَّلُوا بَنِي خَلْفٍ قَنِضًا بَنِي الْغِيَاطِلِ
وَنَحْنُ الصُّمَمِيمُ مِنْ ذَوَابَةِ هَاشِمٍ وَأَلْ قُصَصِي فِي الْخُطُوبِ الْأَوَائِلِ

وقال جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل: مشيت أنا وعثمان بن عفان - يعني ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس - إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: يا رسول الله، أعطيت بني المطلب من خمس خبير وتركتنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة، فقال: «إنما بنو هاشم وبنو عبد المطلب شيء واحد». رواه مسلم. وفي بعض روايات هذا الحديث: «إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام». وهذا قول جمهور العلماء أنهم بنو هاشم وبنو المطلب. قال ابن جرير: وقال آخرون: هم بنو هاشم. ثم روي عن خُصَيْفٍ، عن مجاهد قال: علم الله أن في بني هاشم فقراء، فجعل لهم الخمس مكان الصدقة. وفي رواية عنه قال: هم قربة رسول الله ﷺ الذين لا تحل لهم الصدقة. ثم روى عن علي بن الحسين نحو ذلك. قال ابن جرير: وقال آخرون: بل هم قريش كلها. حدثني يونس بن عبد الأعلى، حدثني عبد الله بن نافع، عن أبي معشر، عن سعيد المقبري قال: كتب نَجْدَةُ إلى عبد الله بن عباس يسأله عن «ذي القربى»، فكتب إليه ابن عباس: كنا نقول: إنا هم، فأبى ذلك علينا قوماً، وقالوا: قريش كلها ذوو قربى. وهذا الحديث في صحيح مسلم، وأبي داود، والترمذي، والنسائي من حديث سعيد المقبري عن يزيد بن هرمز أن نجدة كتب إلى ابن عباس يسأله عن ذوي القربى فذكره إلى قوله: «فأبى ذلك علينا قوماً» والزيادة من أفراد أبي معشر نَجِيج بن عبد الرحمن المدني، وفيه ضعف. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن مهدي المصيصي، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن حَنَشٍ، عن عِكْرَمَةَ، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِبْتُ لَكُمْ عَنْ غَسَّالَةِ الْأَيْدِي؛ لَأَنْ لَكُمْ مِنْ خُمْسِ الْخُمْسِ مَا يَغْنِيكُمْ أَوْ يَكْفِيكُمْ». هذا حديث حسن الإسناد، وإبراهيم بن مهدي هذا وثقه أبو حاتم، وقال يحيى بن معين: يأتي بمنكير، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ أي: يتامى المسلمين. واختلف العلماء: هل يختص باليتامى الفقراء، أو يعم الأغنياء والفقراء؟ على قولين. و «وَالْمَسْكِينِ»: هم المحاوِج الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكتهم. «وَأَرْبَ السَّبِيلِ»: هو المسافر، أو المريد للسفر، إلى مسافة تقصر فيها الصلاة، وليس له ما ينفقه في سفره ذلك. وسأني تفسير ذلك في آية الصدقات في سورة «براءة»، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة، وعليه التكلان. وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ أي: امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل على رسوله؛ ولهذا جاء في الصحيحين، من حديث عبد الله بن عباس، في حديث وفد عبد القيس: أن رسول الله ﷺ قال لهم: «وَأَمْرُكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَأَكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: آمَرَكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ ثُمَّ قَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ؟ شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وإِقَامُ الصَّلَاةِ وإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَأَنْ تُوَدُّوا الْخُمْسَ مِنَ الْمَغْنَمِ. . .» الحديث بطوله، فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان، وقد يؤبَّ البخاري على ذلك في «كتاب الإيمان» من صحيحه فقال: (باب أداء الخمس من الإيمان)، ثم أورد حديث ابن عباس هذا، وقد بسطنا الكلام عليه في «شرح البخاري» والله الحمد والمنة. وقال مقاتل بن حيان: «وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ» أي: في القسمة، وقوله: «يَوْمَ أَلْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ

عَلَّ كَلْبِي شَيْءٌ قَدِيرٌ﴾ يَنْبَغِي تَعَالَى عَلَى نِعْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى خَلْقِهِ بِمَا فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بَدْرٌ وَيُسَمَّى «الْفَرَقَان»؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَى فِيهِ كَلِمَةُ الْإِيمَانِ عَلَى كَلِمَةِ الْبَاطِلِ، وَأَظْهَرَ دِينَهُ وَنَصَرَ نَبِيَّهِ وَحَزَبَهُ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَالْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿يَوْمَ الْفَرَقَانِ﴾: يَوْمَ بَدْرٍ، فَرَّقَ اللَّهُ فِيهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ. رَوَاهُ الْحَاكِمُ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَيُقَسَّمُ وَعَبِيدُ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَالضُّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَنَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ الزَّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ الْفَرَقَانِ﴾: يَوْمَ فَرَقَ اللَّهُ فِيهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَهُوَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَهُوَ أَوَّلُ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. وَكَانَ رَأْسُ الْمُشْرِكِينَ عَتَبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، فَالتَقُوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِسَبْعِ عَشْرَةَ - أَوْ: سَبْعِ عَشْرَةَ - مَضَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ ثَلَاثُمِائَةٍ وَيَضَعَةُ عَشْرِ رِجَالًا، وَالْمُشْرِكُونَ مَا بَيْنَ الْأَلْفِ وَالتَّسْعِمِائَةِ. فَهَزَمَ اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ زِيَادَةَ عَلَى السَّبْعِينَ، وَأَسْرَ مِنْهُمْ مِثْلَ ذَلِكَ. وَقَدْ رَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ، مِنْ حَدِيثِ الْأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ الْأَسْوَدِ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ: تَحَرَّوْهَا لِإِحْدَى عَشْرَةِ يَبْقَيْنَ فَإِنْ صَبَّحَتْهَا يَوْمَ بَدْرٍ. وَقَالَ: عَلَى شَرِطِهِمَا. وَرَوَى مِثْلَهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَيْضًا، مِنْ حَدِيثِ جَعْفَرِ بْنِ يُزْقَانَ، عَنْ رَجُلٍ، عَنْهُ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ حَمِيدٍ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ وَاضِحٍ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَعْقُوبَ أَبُو طَالِبٍ، عَنْ ابْنِ عَوْنٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيُّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّلْمِيِّ قَالَ: قَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ: كَانَتْ لَيْلَةُ «الْفَرَقَانِ» يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ لِسَبْعِ عَشْرَةَ مِنْ رَمَضَانَ. إِسْنَادٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ. وَرَوَاهُ ابْنُ مَرْزُوقٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَبِيبٍ، عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: كَانَتْ لَيْلَةُ الْفَرَقَانِ، لَيْلَةُ التَّقَى الْجَمْعَانِ، فِي صَبَّحَتِهَا لَيْلَةُ الْجُمُعَةِ لِسَبْعِ عَشْرَةَ مَضَتْ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ. وَهُوَ الصَّحِيحُ عِنْدَ أَهْلِ الْمَغَازِي وَالسِّيَرِ. وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ إِمَامُ أَهْلِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ فِي زَمَانِهِ: كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ وَلَمْ يَتَابِعْ عَلَى هَذَا، وَقَوْلُ الْجُمْهُورِ مُقَدِّمٌ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْمَدِينَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَنْ بِالْمَدِينَةِ الْقَصُوفِ وَالرَّكْبُ اسْتَقْلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِالْتِمَاسِ فِي الْيَمِينِ وَلَكِنْ لِيَقْنَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَقُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَوْمِ الْفَرَقَانِ: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْمَدِينَةِ الْأَنْبِيَاءِ﴾ أَيْ: إِذْ أَنْتُمْ تُزُولُ بَعْدُ الْوَادِي الدُّنْيَا الْقَرِيبَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، ﴿وَمَنْ﴾ أَيْ: الْمُشْرِكُونَ نُزُولُ ﴿بِالْمَدِينَةِ الْقَصُوفِ﴾ أَيْ: الْبُعِيدَةِ الَّتِي مِنْ نَاحِيَةِ مَكَّةَ، ﴿وَالرَّكْبُ اسْتَقْلَ مِنْكُمْ﴾ أَيْ: الْعَبِيرُ الَّذِي فِيهِ أَبُو سَفْيَانَ بِمَا مَعَهُ مِنَ التَّجَارَةِ ﴿اسْتَقْلَ مِنْكُمْ﴾ أَيْ: مِمَّا يَلِي سَيْفَ الْبَحْرِ ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أَيْ: أَنْتُمْ وَالْمُشْرِكُونَ إِلَى مَكَانٍ ﴿لِالْتِمَاسِ فِي الْيَمِينِ﴾. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ عَنْ مِيعَادٍ مِنْكُمْ وَمِنْهُمْ، ثُمَّ بَلَغَكُمْ كَثْرَةُ عَدَدِهِمْ وَقِلَّةُ عَدَدِكُمْ، مَا لَقِيتُمُوهُمْ، ﴿وَلَكِنْ لِيَقْنَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَقُولًا﴾ أَيْ: لِيَقْضِيَ اللَّهُ مَا أَرَادَ بِقُدْرَتِهِ مِنْ إِعْزَازِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَإِذْلالِ الشُّرْكِ وَأَهْلِهِ، عَنْ غَيْرِ مَلَأَ مِنْكُمْ، فَفَعَلَ مَا أَرَادَ مِنْ ذَلِكَ بِلُطْفِهِ. وَفِي حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ يَرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ، حَتَّى يَجْمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ، حَدَّثَنَا ابْنُ عُثَيْمٍ، عَنْ ابْنِ عَوْنٍ، عَنْ عُمَيْرِ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ: أَقْبَلَ أَبُو سَفْيَانَ فِي الرِّكْبِ مِنَ الشَّامِ، وَخَرَجَ أَبُو جَهْلٍ لِيَمْنَعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، فَالتَقُوا بِبَدْرٍ، لَا يَشْعُرُ هَؤُلَاءُ بِهَؤُلَاءِ، وَلَا هَؤُلَاءُ بِهَؤُلَاءِ، حَتَّى التَّقَى السَّقَاةَ، وَهَذَا النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي السِّيَرَةِ: وَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى وَجْهِهِ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنْ «الْصَفْرَاءِ» بَعَثَ بِسَبْسَبِ بْنِ عَمْرٍو، وَعَدِيٍّ بْنِ أَبِي الزُّرْعَاءِ الْجُهَنِيِّينَ، يَلْتَمِسَانِ الْخَبَرَ عَنْ أَبِي سَفْيَانَ، فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا وَرَدَا بَدْرًا فَأَنَاحَا بِعِيرِهِمَا إِلَى تَلٍّ مِنَ الْبُطْحَاءِ، فَاسْتَقْيَا فِي شَرْنِ لَهْمَا مِنَ الْمَاءِ، فَسَمِعَا جَارِيَتَيْنِ يَخْتَصِمَانِ، تَقُولُ إِحْدَاهُمَا لِصَاحِبَتِهَا: اقْضِيْنِي حَقِّي. وَتَقُولُ الْأُخْرَى: إِنَّمَا تَأْتِي الْعَبِيرَ غَدًا أَوْ بَعْدَ غَدٍ، فَأَقْضِيْكَ حَقَّكَ. فَخَلَّصَ بَيْنَهُمَا مَجْدِيَّ بْنَ عَمْرٍو، وَقَالَ: صَدَقْتَ، فَسَمِعَ ذَلِكَ بِسَبْسَبُ وَعَدِيٍّ، فَجَلَسَا عَلَى بَعِيرِهِمَا، حَتَّى أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَاهُ الْخَبَرَ. وَأَقْبَلَ أَبُو سَفْيَانَ حِينَ وَلِيَا وَقَدْ خَازِرٌ، فَتَقَدَّمَ أَمَامَ عَيْرِهِ وَقَالَ لِمَجْدِيَّ بْنِ عَمْرٍو: هَلْ أَحْسَسْتَ عَلَى هَذَا الْمَاءِ مِنْ أَحَدٍ تَنْكَرُهُ؟ فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ، إِلَّا أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَاكِبِينَ أَنَاحُوا إِلَى هَذَا التَّلِّ، فَاسْتَقْيَا فِي شَرْنِ لَهْمَا، ثُمَّ انْطَلَقَا. فَجَاءَ أَبُو سَفْيَانَ إِلَى مُنَازِحِ بَعِيرِهِمَا، فَأَخَذَ مِنْ أُبْعَارِهِمَا، فَتَنَّهُ، فَإِذَا فِيهِ النَّوَى، فَقَالَ: هَذِهِ وَاللَّهِ عَلَائِفُ يَثْرِبَ. ثُمَّ رَجَعَ سَرِيعًا فَضْرَبَ وَجْهَ عَيْرِهِ، فَانْطَلَقَ بِهَا فَسَاحَلَ حَتَّى إِذَا رَأَى أَنَّ قَدَ أَحْرَزَ عَيْرَهُ بَعَثَ إِلَى قُرَيْشٍ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ نَجَّى عَيْرَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَرِجَالَكُمْ، فَارْجِعُوا. فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: وَاللَّهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَأْتِيَ بَدْرًا - وَكَانَتْ بَدْرُ سَوْقَا مِنْ أَسْوَاقِ الْعَرَبِ - فَتَقِيمُ بِهَا ثَلَاثًا، فَتُطْعَمُ بِهَا الطَّعَامُ، وَتَنْخَرُ بِهَا الْجُزُرُ، وَتُسْقَى بِهَا الْخُمَرُ، وَتَعْرِفُ عَلَيْنَا الْقِيَانِ، وَتَسْمَعُ بِنَا الْعَرَبِ وَبِسِيرِنَا، فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَا بَعْدَهَا أَبَدًا. فَقَالَ الْأَخْنَسُ بْنُ شُرَيْقٍ: يَا مَعْشَرَ بَنِي زُهْرَةَ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ نَجَّى أَمْوَالَكُمْ، وَنَجَّى صَاحِبَكُمْ، فَارْجِعُوا. فَطَاعُوهُ، فَارْجَعَتْ بَنُو زُهْرَةَ، فَلَمْ يَشْهَدُوها وَلَا بَنُو عَدِيٍّ.

قال محمد بن إسحاق: وحدثني يزيد بن رومان، عن عُرْوَةَ بن الزبير قال: وبعث رسول الله ﷺ - حين دنا من بدر - علي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، والزيبر بن العوام، في نفر من أصحابه، يتجسسون له الخبر فأصابوا سَفَاةَ لقريش: غلاماً لبني سعيد بن العاص، وغلاماً لبني الحجاج، فاتوا بهما رسول الله ﷺ، فوجدوه يصلين، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يسألونهما: لمن أنتما؟ فيقولان: نحن سَفَاةُ لقريش، يعثونا نسقيهم من الماء. فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما فلما ذلقوهما قالوا: نحن لأبي سفيان. فتركوهما، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتين، ثم سلم وقال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما. صدقا، والله إنهما لقريش، أخبراني عن قريش». قالوا: هم وراء هذا الكتيب الذي ترى بالعدوة القصوى - والكتيب: العَقَقْل - فقال لهما رسول الله ﷺ: «كم القوم؟» قالوا: كثير. قال: «ما عدتكم؟» قالوا: ما ندري. قال: «كم ينخرون كل يوم؟» قالوا: يوماً تسعاً، ويوماً عشرةً، قال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف». ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشرف قريش؟» قالوا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن جَزَام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطُعَيْمَةُ بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزَمْعَةُ بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمّية بن خلف، وثُبَيْه وابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمر بن عبد ود. فأقبل رسول الله ﷺ وسلم على الناس فقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها». قال محمد بن إسحاق، رحمه الله تعالى: وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم: أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ، لما التقى الناس يوم بدر: يا رسول الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، وثنبخ إليك ركائبك، ونلقى عدونا، فإن أظهرنا الله عليهم وأعزنا فذاك ما نحب، وإن تكن الأخرى فتجلس على ركائبك، وتلحق بمن وراءنا من قومنا، فقد - والله - تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد لك حياء منهم، لو علموا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، ويؤادونك وينصرونك. فأنشئ عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له به. فبُني له عريش، فكان فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر، ما معهما غيرهما.

قال ابن إسحاق: وارتحلت قريش حين أصبحت، فلما أقبلت ورأها رسول الله ﷺ تُصَوَّب من العَقَقْل - وهو الكتيب - الذي جاؤوا منه إلى الوادي قال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بفخرها وخيلائها تُحَادِّثُ وتكذب رسولك، اللهم أحنهم الغداة». وقوله: ﴿لَيْهَآك مِّنْ هَآك عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مِّنْ حَمٍّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾: قال محمد بن إسحاق: أي ليكفر من كفر بعد الحجة، لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك. وهذا تفسير جيد، ويُسَطُّ ذلك أنه تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد، لينصركم عليهم، ويرفع كلمة الحق على الباطل، لبصير الأمر ظاهراً، والحجة قاطعة، والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحيث ﴿لَيْهَآك مِّنْ هَآك﴾ أي: يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل، لقيام الحجة عليه، ﴿وَيَحْيَىٰ مِّنْ حَمٍّ﴾ أي: يؤمن من آمن ﴿عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي: حجة وبصيرة. والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَمْ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقالت عائشة في قصة الإفك: في هلك من هلك أي: قال فيها ما قال من الكذب والبهتان والإفك. وقوله: ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَسِيَّعٌ﴾ أي: لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَتَابِكُمْ قَلِيلًا وَكَثِيرًا لَّيْسَ لَكُم مِّنْ أَلَمِهِ لَقَدْ لَعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَلَئِنَّ اللَّهَ سَكَمٌ إِذْ يَدْعُ أَشْهُدَ ۖ وَلَا يُرِيكُمُوهُمْ إِذْ تَقِفُكُمْ قَلِيلًا مَّغْلُكُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ يَقُولُ اللَّهُ أَمْرًا كَأَن كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ رُجْعُ الْأُمُورِ﴾ [١٤٤].

قال مجاهد: أراه الله إياهم في منامه قليلاً، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك، فكان تثبيتاً لهم. وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد. وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه رآهم بعينه التي ينام بها. وقد روى ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يوسف بن موسى المدبر، حدثنا أبو قتبية، عن سهل السراج، عن الحسن في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَتَابِكُمْ قَلِيلًا﴾ قال: بعينك. وهذا القول غريب، وقد صرح بالمنام لهن، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه. وقوله: ﴿وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ لَقِيلَتْ﴾ أي: لجبتهم عنهم واختلفتم فيما بينكم، ﴿وَلَئِنَّ اللَّهَ سَكَمٌ﴾ أي: من ذلك، بأن أراهم قليلاً: ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِ يَدْعُ أَشْهُدَ﴾ أي: بما تجته الضمائر، وتنطوي عليه الأحشاء، فيعلم خائفة الأعين وما تخفي الصدور.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ إِذْ أَلْقَيْنَا فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾: وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلاً في رأي العين، فيجروهم عليهم، ويطمعهم فيهم. قال أبو إسحق السبيعي، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: لقد قُلِّلُوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جاني: تراهم سبعين؟ قال: لا، بل هم مائة، حتى أخذنا رجلاً منهم فسلأناه، قال: كنا ألفاً. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير. وقوله: ﴿وَيَقْلُكُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا سليمان بن حرب،

حدثنا حماد بن زيد، عن الزبير بن الخزيم، عن عكرمة: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي آيَاتِكُمْ قَلِيلًا مِّنْهُمُ الَّذِينَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قال: حضض بعضهم على بعض. إسناده صحيح. وقال محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه في قوله تعالى: ﴿يَقِظُ اللَّهُ أَمْرًا كَأَنَّهُ مَقُوتٌ﴾ أي: ليلقي بينهم الحرب، للنعمة ممن أراد الانتقام منه. والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته. ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر، وقُلِّله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة. فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعيفه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَ تَأْخُذِ الْعَيْنِ بِغِصَّةٍ يَوْمَهُمْ مِّنْ نَّكَاحٍ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَكِسْفٌ لِّلْأَعْيُنِ﴾ (آل عمران: ١٣). وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلا منهما حق وصدق، والله الحمد والمنة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٨) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِعَاظُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٩).

هذا تعليم الله عباده المؤمنين آداب اللقاء، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾. ثبت في الصحيحين، عن عبد الله بن أبي أوفى، عن رسول الله ﷺ أنه انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ». ثم قام النبي ﷺ وقال: «اللهم، مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانصُرْنَا عَلَيْهِمْ». وقال عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن يزيد، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاثْبُتُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ، فَإِنْ أَجْلَبُوا وَضَجُّوا فَعَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ». وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوي، حدثنا أمية بن بسطام، حدثنا معتمر بن سليمان، حدثنا ثابت بن زيد، عن رجل، عن زيد بن أرقم، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الصَّمْتَ عِنْدَ ثَلَاثٍ: عِنْدَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَعِنْدَ الرُّخْفِ، وَعِنْدَ الْجَنَازَةِ». وفي الحديث الآخر المرفوع يقول الله تعالى: «إِنْ عِبْدِي كُلٌّ لِّعِدي الَّذِي يَذْكُرْنِي وَهُوَ مُنَاجِزُ قَرْنِهِ» أي: لا يشغله ذلك الحال عن ذكري ودعائي واستعائتي. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في هذه الآية، قال: افترض الله ذكره عند أشغل ما تكونون، عند الضراب بالسيف. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدة بن سليمان، حدثنا ابن المبارك، عن ابن جريج، عن عطاء قال: وجب الإنصات والذكر عند الزحف، ثم تلا هذه الآية، قلت: يجهرون بالذكر؟ قال: نعم. وقال أيضاً: قُرئ على يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أخبرني عبد الله بن عياش، عن يزيد بن قوذر، عن كعب الأحبار قال: ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٩). قال الشاعر:

ذَكَرْتِكَ وَالْخَطَى يَخْطُرُ بَيْنَنَا وَقَدْ نَهَلْتُ فِيْنَا الْمُثَقَّفَةَ السُّمُرُ
وقال عتر:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرِّمَاحُ شَوَاجِرُ فِينَا وَبَيْضُ الْهَيْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي
فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لِأَنَّهَا لَمَعَتْ كِبَارِقُ ثَغْرِكَ الْمَتَبِيسِ

فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا يتكلموا ولا يجنبوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه بل يستعينوا به ويتكلوا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك. فما أمرهم الله تعالى به انتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم. ﴿وَذَهَبَ رِعَاظُكُمْ﴾ أي: قوتكم وحدتكم وما كنتم فيه من الإقبال، ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. وقد كان للصحابه - رضي الله عنهم، في باب الشجاعة والانتصار بأمر الله، وامتنال ما أرشدهم إليه - ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم؛ فإنهم ببركة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والخبوش وأصناف السودان والقبط، وطوائف بني آدم، قهروا الجميع حتى علَّت كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك

الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا في زميرهم، إنه كريم وهاب.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِيقَةً أَلْيَسَ النَّاسُ وَمَضُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفَتَاتِ كَتَفَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٤٨﴾ إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ وَبَنُوهُمْ عَلَى اللَّهِ قَائِدٌ أَلَسَ اللَّهُ غَرِبٌ حَكِيمٌ ٤٩﴾.

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم ﴿بَطَرًا﴾ أي: دفعاً للحق، ﴿وَرِيقَةً النَّاسِ﴾، وهو: المفاخرة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل - لما قيل له: إن العير قد نجا فارجعوا - فقال: لا، والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر، وننحر الجُزُر، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبداً، فانعكس ذلك عليه أجمع؛ لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحمام، ورُموا في أطواء بدر مهانين أذلاء، صغرة أشقياء في عذاب سرمدى أبدي؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: عالم بما جاؤوا به وله، ولهذا جازاهم على ذلك شر الجزاء لهم. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِيقَةً أَلَسَ النَّاسُ وَمَضُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ٤٧﴾. قالوا: هم المشركون، الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر. وقال محمد بن كعب: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر، خرجوا بالقيان والدفوف، فانزل الله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِيقَةً أَلَسَ النَّاسُ وَمَضُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ٤٧﴾.

وقوله: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ الآية: حسن لهم - لعنه الله - ما جاؤوا به وما هموا به، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر فقال: أنا جار لكم، وذلك أنه تبدى لهم في صورة سراقَة بن مالك بن جعشم، سيد بني مدلج، كبير تلك الناحية، وكل ذلك منه، كما قال الله تعالى عنه: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ٥٠﴾ [النساء: ١٢٠]. قال ابن جريج: قال ابن عباس في هذه الآية: لما كان يوم بدر سار إبليس برأيه وجنوده مع المشركين، وألقى في قلوب المشركين: أن أحداً لن يغلبكم، وإنني جار لكم. فلما التقوا، ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة، ﴿كَتَفَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ قال: رجع مدبراً، وقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الآية. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين، معه رايته، في صورة رجل من بني مدلج، والشيطان في صورة سراقَة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾. فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين، فولوا مدبرين، وأقبل جبريل، عليه السلام، إلى إبليس، فلما رآه - وكانت يده في يد رجل من المشركين - انتزع يده ثم ولى مدبراً هو وشيعته، فقال الرجل: يا سراقَة، أنت زعم أنك لنا جار؟ فقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وذلك حين رأى الملائكة.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس؛ أن إبليس خرج مع قريش في صورة سراقَة بن مالك بن جعشم، فلما حضر القتال ورأى الملائكة، نكص على عقبيه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾، فتشبت الحارث بن هشام فنخر في وجهه، فخر صعباً، فقيل له: ويلك يا سراقَة، على هذه الحال تدخلنا وتبرأ منا. فقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. وقال محمد بن عمر الواقدي: أخبرني عمر بن عتبة، عن شعبة - مولى ابن عباس - عن ابن عباس قال: لما توافقت الناس أغمى على رسول الله ﷺ ساعة ثم كشف عنه، فبشر الناس بجبريل في جند من الملائكة ميمنة الناس، وميكائيل في جند آخر ميسرة الناس، وإسرافيل في جند آخر ألف. وإبليس قد تصور في صورة سراقَة بن مالك بن جعشم المدلجي، يدبر المشركين ويخبرهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس. فلما أبصر عدو الله الملائكة، نكص على عقبيه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾، فتشبت به الحارث بن هشام، وهو يرى أنه سراقَة لما سمع من كلامه، فضرب في صدر الحارث، فسقط الحارث، وانطلق إبليس لا يرى حتى سقط في البحر، ورفع ثوبه وقال: يا رب، موعدك الذي وعدتني. وفي الطبراني عن رفاعَة بن رافع قريب من هذا السياق وأبسط منه، ذكرناه في السيرة. وقال محمد بن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال: لما أجمعت قريش المسير، ذكرت الذي بيننا وبين بني بكر من الحرب، فكاد ذلك أن يشنيهم، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقَة بن مالك بن جعشم المدلجي - وكان من أشرف بني كنانة -

فقال: أنا جار لكم أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعاً. قال محمد بن إسحاق: فذكر لي أنهم كانوا يرونه في كل منزل في صورة سراقه بن مالك لا ينكرونه، حتى إذا كان يوم بدر والتقى الجمعان، كان الذي رآه حين نكص الحارث بن هشام - أو: عمير بن وهب - فقال: أين، أي سراق؟ ومثل عدو الله فذهب. قال: فأوردتهم ثم أسلمهم - قال: ونظر عدو الله إلى جنود الله، قد أيد الله بهم رسوله والمؤمنين فانتكص على عقبه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾، وصدق عدو الله، وقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وهكذا روي عن السدي، والضحاك، والحسن البصري، ومحمد بن كعب القرظي، وغيرهم، رحمهم الله.

وقال قتادة: وذكر لنا أنه رأى جبريل، عليه السلام، تنزل معه الملائكة، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة فقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾، وكذب عدو الله، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم، وتبرأ منهم عند ذلك. قلت: يعني بعباده لمن أطاعه قوله تعالى: ﴿كَتَبَ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ [الحشر: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنفُسُكُمْ مَا آتَاكُمْ بِمُغْرِبٍ وَمَا أَنَا بِمُغْرِبٍ وَإِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَتْرَقْتُمِينَ مِنْ قَبْلِ أَنْ أَتِيَهُمْ قَوْلُ الْمَلَائِكَةِ قَوْلًا بَاطِلًا﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وقال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، عن بعض بني ساعدة قال: سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة بعدما أصيب بصره يقول: لو كنت معكم الآن ببدر ومعني بصري، لأخبرتكم بالشعب الذي خرجت منه الملائكة لا أشك ولا أتمارى. فلما نزلت الملائكة ورأها إبليس، وأوحى الله إليهم: أني معكم ففتنوا الذين آمنوا، وتثبتهم أن الملائكة كانت تأتي الرجل في صورة الرجل يعرفه، فيقول له: أبشر فإنهم ليسوا بشيء، والله معكم، كروا عليهم. فلما رأى إبليس الملائكة نكص على عقبه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾، وهو في صورة سراقه، وأقبل أبو جهل يحضض أصحابه ويقول: لا يهولنكم خذلان سراقه إياكم، فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه. ثم قال: واللات والعزى لا ترجع حتى نقرن محمداً وأصحابه في الحبال، فلا تقتلهم وخذوهم أخذاً. وهذا من أبي جهل لعنه الله كقول فرعون للسحرة لما أسلموا: ﴿إِنَّ هَذَا لَكُذُّبٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَيْدَانِ لِنُخْرِجَ مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: ١٢٣]، وكقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَكَايِدُونَ لَكَايَةً عَلَيَّ عَلِمْتُكُمْ الْيَتْرُفَ﴾ [طه: ٧١]، وهو من باب البهت والافتراء، ولهذا كان أبو جهل فرعون هذه الأمة. وقال مالك بن أنس، عن إبراهيم بن أبي عبلة، عن طلحة بن عبيد الله بن كريب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ما رؤي إبليس في يوم هوفيه أصغر ولا أحقر ولا أدر ولا أغبط منه في يوم عرفة وذلك مما يرى من تنزل الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رأى يوم بدر». قالوا: يا رسول الله، وما رأى يوم بدر؟ قال: «أما إنه رأى جبريل، عليه السلام، يزع الملائكة». هذا مرسل من هذا الوجه.

وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية قال: لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلل المشركين في أعين المسلمين فقال المشركون: ﴿غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ﴾ وإنما قالوا ذلك من قتلهم في أعينهم، فظنوا أنهم سيهزمونهم، لا يشكون في ذلك، فقال الله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَاتُكِلْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. وقال قتادة: رأوا عصابة من المؤمنين تشددت لأمر الله، وذكر لنا أن أبا جهل عدو الله لما أشرف على محمد ﷺ وأصحابه قال: والله لا يعبدوا الله بعد اليوم، قسوة وعتواً. وقال ابن جزيج في قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ﴾: هم قوم كانوا من المنافقين بمكة، قالوه يوم بدر. وقال عامر الشعبي: كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالإسلام، فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: ﴿غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ﴾. وقال مجاهد في قوله، ﷺ: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ﴾ قال: فئة من قريش: أبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمة بن الأسود بن المطلب، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج، خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياح فحبسهم ارتياحهم، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: ﴿غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ﴾، حتى قدموا على ما قدموا عليه، مع قلة عددهم وكثرة عدوهم. وهكذا قال محمد بن إسحاق بن يسار، سواء. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن مغمفر، عن الحسن في هذه الآية، قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر، فسموا منافقين - قال معمر: وقال بعضهم: هم قوم كانوا أقروا بالإسلام، وهم بمكة فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: ﴿غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ﴾. وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: يعتمد على جنابه، ﴿فَاتُكِلْ اللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: لا يُضَامُ من التجأ إليه، فإن الله عزيز منبع الجناب، عظيم

السلطان، حكيم في أفعاله، لا يضعها إلا في مواضعها، فينصر من يستحق النصر، ويخذل من هو أهل لذلك.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرِيحُ بِهِمْ وَيُذِيقُهُمُ عَذَابَ الْحَرِيقِ ٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٥١﴾.

يقول تعالى: ولو عاينت يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار، لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيماً منكراً؛ إذ يصرّبون وجوههم وأديبارهم، ويقولون لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. قال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿وَأَذْبَرَهُمْ﴾: استأههم، قال: يوم بدر. قال ابن جريج، قال ابن عباس: إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين، ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا ولوا أذركتهم الملائكة فضربوا أديبارهم. قال ابن أبي نجيع، عن مجاهد قوله: ﴿إِذِ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرِيحُ بِهِمْ وَيُذِيقُهُمُ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾: يوم بدر. وقال كعب، عن سفيان الثوري، عن أبي هاشم إسماعيل بن كثير، عن مجاهد، عن شعبة، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبّير: ﴿يَصْرِيحُ بِهِمْ وَيُذِيقُهُمُ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾: قال: واستأههم، ولكن الله يكتفي. وكذا قال عمر مولى عُقْرَة. وعن الحسن البصري قال: قال رجل: يا رسول الله، إني رأيت يظهر أبي جهل مثل الشراك قال: ما ذاك؟ قال: «ضرب الملائكة». رواه ابن جرير، وهو مرسل. وهذا السياق - وإن كان سببه وقعة بدر - ولكنه عام في حق كل كافر؛ ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرِيحُ بِهِمْ وَيُذِيقُهُمُ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ وفي سورة القتال مثلاً، وتقدم في سورة الأنعام عند قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣]. أي: باسطوا أيديهم بالضرب فيهم، يأمرونهم إذا استصعبت أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهراً. وذلك إذ بشروهم بالعذاب والغضب من الله، كما جاء في حديث البراء: إن ملك الموت - إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة - يقول: اخرجني أيتها النفس الخبيثة إلى سُموم وحميم، وظل من يحوم، فتتفرق في بدنه، فيستخرجونها من جسده، كما يخرج السفود من الصوف المبلول فتخرج معها العروق والعصب؛ ولهذا أخبر تعالى أن الملائكة تقول لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. وقوله تعالى: ذلك: ﴿بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا، جزاكم الله بها هذا الجزاء، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: لا يظلم أحداً من خلقه، بل هو الحكم العدل، الذي لا يجوز، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه الغني الحميد؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح عند مسلم، رحمه الله، من رواية أبي ذر، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا. يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصَيْهَا لَكُمْ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»، ولهذا قال تعالى:

﴿كَذَٰبَ آلِ رَعُونَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٥٢﴾.

يقول تعالى: فعل هؤلاء المشركون المكذوبين بما أرسلت به يا محمد، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دأبنا، أي: عادتنا وسنتنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسول، الكافرين بآيات الله. ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب ذنوبهم أهلكتهم، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب.

﴿ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهُ تَعَالَىٰ لِكُلِّ مِثْرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَ عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرَ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٥٣﴾ كَذَٰبَ آلِ رَعُونَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ رَعُونَ وَكُلًّا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾.

يخبر تعالى عن تمام عدله، وقسطه في حكمه، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرَ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله: ﴿كَذَٰبَ آلِ رَعُونَ﴾ أي: كصنعه بال فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته، أهلكتهم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون، وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك، بل كانوا هم الظالمين.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُصُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِنَّمَا تَتَفَنَّنُهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرٌّ بِهِمْ مِّنْ خَلْقِهِمْ لَكَلَّهِمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾.

أخبر تعالى أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهداً نقضوه، وكلما أكدوه

بِالْإِيمَانِ نَكْتُوهُ، ﴿وَقُمْ لَا يَنْقُوتُ﴾ أي: لا يخافون من الله في شيء ارتكبه من الآثام. ﴿فَلَمَّا تَفَقَّهْتُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أي: تغلبهم وتظفر بهم في حرب، ﴿فَفَزَّزَ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي: نكل بهم، قاله: ابن عباس، والحسن البصري، والضحاك، والسدي، وعطاء الخراساني، وابن عبيّنه، ومعناه: غلظ عقوبتهم وأخذهم قتلاً، ليخاف من سواهم من الأعداء، من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾. وقال السدي: يقول: لعلمهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك.

﴿وَلَمَّا تَخَفَّتْ قَوْمِيَّ جُنَادَهُ فَأَلَيُّدَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَائِزِينَ﴾.

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَلَمَّا تَخَفَّتْ قَوْمِيَّ﴾ قد عاهدتهم ﴿جُنَادَهُ﴾ أي: نقضاً لما بينك وبينهم من الموائيق والعهود، ﴿فَأَلَيُّدَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: عهدهم ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك، قال الرازي:

فَاضْرِبْ وَجْهَهُ السُّيُودَ الْأَعْدَاءَ حَتَّى يَجِيبُوكَ إِلَى السَّوَاءِ
وعن الوليد بن مسلم أنه قال في قوله: ﴿فَأَلَيُّدَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي: على مهل، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَائِزِينَ﴾ أي: حتى ولو في حق الكافرين، لا يحبها أيضاً. قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي الفيض، عن سليم بن عامر، قال: كان معاوية يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاها، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر الله أكبر، وفاء لا غدراً، إن رسول الله ﷺ قال: «ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلُّنَّ عقدة ولا يشدها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء» قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع، وإذا الشيخ عمرو بن عبسة، رضي الله عنه. وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسي، عن شعبة وأخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن حبان في صحيحه من طرق عن شعبة، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن عبد الله الزبيري، حدثنا إسرائيل، عن عطاء بن السائب، عن أبي البخترى عن سلمان - يعني الفارسي - رضي الله عنه: أنه انتهى إلى حصن - أو: مدينة - فقال لأصحابه: دعوني أَدْعُوهم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعوهم، فقال: إنما كنت رجلاً منهم، فهداني الله، ﷺ، للإسلام، فإذا أسلمتم فلکم ما لنا وعليکم ما علينا، وإن أبيتم فأدوا الجزية وأنتم صاغرون، فإن أبيتم نابذناکم على سواء، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَائِزِينَ﴾، يفعل بهم ذلك ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِذْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُبْهِتُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلِبُونَ﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ يا محمد ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ أي: فاتونا فلا تقدر عليهم، بل هم تحت قهر قدرتنا وفي قبضة مشيتنا فلا يعجزوننا، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النبوة: ٤٤] أي: يظنون، وقال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَهَنُهمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿لَا يَغْرِبُكَ ثَقَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [مَنْعَ قَلِيلٍ ثُمَّ مَا وَهَنُهمُ جَهَنَّمَ وَيَكْسُ إِلَهُاهُ] [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]. ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: مهما أمكنكم، ﴿مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾. قال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن أبي علي ثمامة بن شُعْبَةَ، أنه سمع عتبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي. رواه مسلم، عن هارون بن معروف، وأبو داود عن سعيد بن منصور، وابن ماجه عن يونس بن عبد الأعلى، ثلاثهم عن عبد الله بن وهب، به. ولهذا الحديث طرق أخر، عن عتبة بن عامر، منها ما رواه الترمذي، من حديث صالح بن كيسان، عن رجل، عنه. وروى الإمام أحمد وأهل السنن، عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ارموا واركبوا، وأن ترموا خير من أن تركبوا».

وقال الإمام مالك، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح السمان، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «الخيال ثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر؛ فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله، فأطال لها في مرج - أو: روضة - فما أصابت في طيلها ذلك من المرج - أو: الروضة - كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت آثارها وأرواؤها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه، ولم يرد أن يسقى به، كان ذلك حسنات له؛ فهي لذلك الرجل أجر. ورجل ربطها تغنياً وتعففاً، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له ستر، ورجل ربطها فخراً ورياءً

ونواة فهي على ذلك وزر». وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال: «ما أنزل الله علي فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفادة: ﴿فَمَنْ يَسْمَلْ وَيُسْكَالْ دَرُّهُ خَيْرٌ يَرَىٰ﴾ (٧) وَمَنْ يَسْمَلْ وَيُسْكَالْ دَرُّهُ شَرٌّ يَرَىٰ﴾ (٨) [الزينة: ٧، ٨]. رواه البخاري - وهذا لفظه - ومسلم، كلاهما من حديث مالك. وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، أخبرنا شريك، عن الرُّكَيْنِ بن الربيع، عن القاسم بن حسان؛ عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «الخيول ثلاثة: ففرس للرحمن، وفرس للشيطان، وفرس للإنسان، فأما فرس الرحمن فالذي يربط في سبيل الله، فعلفه وروثه ويوله، وذكر ما شاء الله. وأما فرس الشيطان فالذي يقامر أو يراهن عليه، وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها، فهي ستر من فقر».

وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل من الرمي، وقول الجمهور أقوى للحديث، والله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج وهشام قالا: حدثنا ليث، حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن ابن شماس: أن معاوية بن حديج مر على أبي ذر، وهو قائم عند فرس له، فسأله ما تعالج من فرسك هذا؟ فقال: إني أظن أن هذا الفرس قد استجيب له دعوته! قال: وما دعاء بهيمة من البهائم؟ قال: والذي نفسي بيده، ما من فرس إلا وهو يدعو كل سحر فيقول: اللهم، أنت خولتني عبداً من عبادك، وجعلت رزقي بيده، فاجعلني أحب إليه من أهله وماله وولده. قال: وحدثنا يحيى بن سعيد، عن عبد الحميد بن جعفر؛ حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن سُؤَيْد بن قيس؛ عن معاوية بن حديج؛ عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليس من فرس عربي إلا يؤذن له مع كل فجر، يدعو بدعوتين، يقول: اللهم، إنك خولتني من خولتني من بني آدم، فاجعلني من أحب أهله وماله إليه» أو «أحب أهله وماله إليه». رواه النسائي، عن عمرو بن علي الفلاس، عن يحيى القطان، به. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا يحيى بن حمزة، حدثنا المطعم بن المقدم الصنعاني، عن الحسن بن أبي الحسن أنه قال لابن الحنظلية - يعني: سهلاً -: حَدَّثَنَا حَدِيثاً سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخيول معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، ومن ربط فرساً في سبيل الله كانت النفقة عليه، كالماد يده بالصدقة لا يقبضها». والأحاديث الواردة في فضل ارتباط الخيل كثيرة. وفي صحيح البخاري، عن عُزُوة بن أبي الجعد البارق: أن رسول الله ﷺ قال: «الخيول معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والمغنم».

وقوله: ﴿تَرْمِيهِمْ﴾ أي: تخوفون ﴿يَوْمَ عَدُوُّ اللَّهِ وَعَدُوُّكُمْ﴾ أي: من الكفار ﴿وَوَآخِرِينَ دُونِهِمْ﴾ قال مجاهد: يعني: قريظة، قال السدي: فارس، وقال سفيان الثوري: قال ابن يمان: هم الشياطين التي في الدور. وقد ورد حديث بمثل ذلك، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عتبة أحمد بن الفرج الحمصي، حدثنا أبو حيوه - يعني: شريح بن يزيد المقرئ - حدثنا سعيد بن سنان، عن ابن عريب - يعني: يزيد بن عبد الله بن عريب - عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ كان يقول في قوله: ﴿وَوَآخِرِينَ دُونِهِمْ لَا تَقْلُوبُهُمْ﴾، قال: «هم الجن». ورواه الطبراني، عن إبراهيم بن دُحَيْم؛ عن أبيه، عن محمد بن شعيب؛ عن سعيد بن سنان، عن يزيد بن عبد الله بن عريب، به، وزاد: قال رسول الله ﷺ: «لا يخيل بيت فيه عتيق من الخيل». وهذا الحديث منكر، لا يصح إسناده ولا متنه. وقال مقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المنافقون. وهذا أشبه الأقوال، ويشهد له قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَىٰ الْإِتْفَاقِ لَا تَقْلُوبُهُمْ تَحَنُّنًا لِّقَوْلِهِمُ الْكَلِمَةَ﴾ [التوبة: ١٠١]. وقوله: ﴿وَمَا تَتَّبِعُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَوْفَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَقْلُوبُونَ﴾ أي: مهما أنفقتم في الجهاد، فإنه يوفى إليكم على التمام والكمال، ولهذا جاء في حديث رواه أبو داود: أن الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَ الَّذِينَ يَتُفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمِثْلِ حَبَّةٍ خَلْتُمْ سَتَابَ كُلِّ صَبْرٍ ثَائِتٍ حَبُّهُ وَكَأَنَّ ثَوَابَهُ يَنْصُفُ لِمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِمُ﴾ [البقرة: ٢٦١]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكي، حدثنا أبي، عن أبيه، حدثنا الأشعث بن إسحاق، عن جعفر، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه كان يأمر ألا يتصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت: ﴿وَمَا تَتَّبِعُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَوْفَ إِلَيْكُمْ﴾، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سأل من كل دين. وهذا أيضاً غريب.

﴿وَأَن جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاتَّجَعْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّيِّعُ الْغَلِيظُ﴾ [١١] وَإِنْ يُرِيدُوا أَن يَخْدُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي إِلَيْكَ يَتَوَكَّلُونَ ﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبُهُمْ لَوْ أَنَّفَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا آَلَفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [١٢]. يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة فانبذ إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على حربك ومنايذتك فقاتلهم، ﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ أي: مالوا ﴿لِلْسَلَامِ﴾ أي: المسالمة والمصالحة والمهادنة، ﴿فَاتَّجَعْ لَهَا﴾ أي: فمل إليها، واقبل منهم ذلك؛ ولهذا لما طلب

المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين؛ أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الآخر. وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي بكر المصدي، حدثنا فضيل بن سليمان - يعني: النعماني - حدثنا محمد بن أبي يحيى، عن إياس بن عمرو الأسلمي، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه سيكون بعدي اختلاف - أو: أمر - فإن استطعت أن يكون السلم، فافعل». وقال مجاهد: نزلت في بني قريظة. وهذا فيه نظر؛ لأن السياق كله في وقعة بدر، وذكرها مكتنف لهذا كله. وقول ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، وعكرمة، والحسن، وقتادة: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في «براءة»: «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ» الآية [التوبة: ٢٩] فيه نظر أيضاً؛ لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إذا كان العدو كثيفاً، فإنه تجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص، والله أعلم. وقوله: «وَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» أي: صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك وناصرك، ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقوا ويستعدوا، «فَاتَّخَذَ اللَّهُ» أي: كافيك وحده. ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار؛ فقال: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ الْقُرْآنَ فِي قُلُوبِهِمْ» أي: جمعها على الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك وموازرتك «لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ» أي: لما كان بينهم من العداوة والبغضاء فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: «وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» [آل عمران: ١٠٣]. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين قال لهم: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضللاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وكتمت متفرقين فأنفكم الله بي» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله آمن. ولهذا قال تعالى: «وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِتْمَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» أي: عزيز الجنب، فلا يخيب رجاء من توكل عليه، حكيم في أفعاله وأحكامه. قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا علي بن بشر الصيرفي القزويني في منزلنا، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن الحسن القنديلي الاسترابادي، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن النعمان الصغار، حدثنا ميمون بن الحكم، حدثنا بكر بن الشروء، عن محمد بن مسلم الطائفي، عن إبراهيم بن ميسرة، عن طاوس، عن ابن عباس قال: قرابة الرحم تقطع، ومنة النعمة تكفر، ولم ير مثل تقارب القلوب؛ يقول الله تعالى: «لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ»، وذلك موجود في الشعر:

إِذَا مَتَّ ذُو الْقُرْبَىٰ إِلَيْكَ بِرَحْمَةٍ فَنَشُكُّكَ وَاسْتَفْئِنِي فَلَيْسَ بِذِي رَحْمٍ
وَلَكِنْ ذَا الْقُرْبَىٰ الَّذِي إِنْ دَعَوْتَهُ أَجَابَ وَمَنْ يَرْمِي الْعَدُوَّ الَّذِي تَرْمِي
قال: ومن ذلك قول القائل:

ولقد صحبت الناس ثم مبرتهم وبلوت ما وصلوا من الأسباب
فلذا القرابة لا تُقَرَّبُ قاطعاً وإذا المودة أَقْرَبُ الأسباب

قال البيهقي: لا أدري هذا موصول بكلام ابن عباس، أو هو من قول من دونه من الرواة؟ وقال أبو إسحاق السبيعي، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، سمعته يقول: «لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ» الآية، قال: هم المتحابون في الله، وفي رواية: نزلت في المتحابين في الله. رواه النسائي والحاكم في مستدركه، وقال: صحيح. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يرحلها شيء، ثم قرأ: «لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ». رواه الحاكم أيضاً. وقال أبو عمرو الأوزاعي: حدثني عبدة بن أبي لبابة، عن مجاهد - ولقيته فأخذ بيدي - فقال: إذا تراءى المتحابان في الله، فأخذ أحدهما بيد صاحبه، وضحك إليه، تحات خطاياهما كما يتحات ورق الشجر. قال عبدة: فقلت له: إن هذا ليسر! فقال: لا تقل ذلك؛ فإن الله تعالى يقول: «لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ»! قال عبدة: فعرفت أنه أفقه مني. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان، عن إبراهيم الخواري، عن الوليد بن أبي مغيث، عن مجاهد قال: إذا التقى المسلمان فتصافحا غفر لهما، قال: قلت لمجاهد: بمصافحة يغفر لهما؟ فقال مجاهد: أما سمعته يقول: «لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ»؟ فقال الوليد لمجاهد: أنت أعلم مني. وكذا روى طلحة بن

مُضَرَّف، عن مجاهد. وقال ابن عون، عن عمير بن إسحاق قال: كنا نحدث أن أول ما يرفع من الناس - أو قال: عن الناس - الألفة. وقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، رحمه الله: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا عبيد الله بن القواريري، حدثنا سالم بن غيلان، سمعت جعداً أبا عثمان، حدثني أبو عثمان النهدي، عن سلمان الفارسي: أن رسول الله ﷺ قال: «إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم، فأخذ بيده، تحاتت عنهما ذنوبهما، كما يتحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما ولو كانت ذنوبهما مثل زيد البحار».

﴿يَأْتِيَا آلَئِيَّ حَتَّىٰ اللَّهُ وَمِنَ النَّبِيِّينَ ﴿٦٤﴾ يَأْتِيَا آلَئِيَّ حَتَّىٰ النَّبِيِّينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَكْرُونَ يَلْبِغُوا مَائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَلْبِغُوا أَلْفًا مِنَ النَّبِيِّينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّكُمْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ مِائَةً يَلْبِغُوا مَائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَلْبِغُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

يحرص تعالى نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران، ويخبرهم أنه حسبهم، أي: كافيههم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم، حدثنا عبيد الله بن موسى، أنبأنا سفيان، عن شاذب، عن الشعبي في قوله: ﴿يَأْتِيَا آلَئِيَّ حَتَّىٰ اللَّهُ وَمِنَ النَّبِيِّينَ ﴿٦٤﴾﴾ قال: حسبك الله، وحسب من شهد معك. قال: وروى عن عطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، مثله. ولهذا قال: ﴿يَأْتِيَا آلَئِيَّ حَتَّىٰ النَّبِيِّينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي: حثهم وذمهم عليه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرص على القتال عند صفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر، حين أقبل المشركون في عددهم وعددهم: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» فقال عمير بن الحُمام: عرضها السموات والأرض؟! فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فقال: بخ، بخ، فقال: «ما يحملك على قولك بخ بخ؟» قال: رجاء أن أكون من أهلها! قال: «فإنك من أهلها» فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتتهن من يده، وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة! ثم تقدم فقاتل حتى قتل، رضي الله عنه.

وقد روي عن سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير: أن هذه الآية نزلت حين أسلم عمر بن الخطاب، وكمل به الأربعون. وفي هذا نظر؛ لأن هذه الآية مدنية، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى أرض الحبشة وقبل الهجرة إلى المدينة، والله أعلم. ثم قال تعالى مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَأَمْرًا: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَكْرُونَ يَلْبِغُوا مَائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَلْبِغُوا أَلْفًا مِنَ النَّبِيِّينَ كَفَرُوا﴾، كل واحد بعشرة. ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة. قال عبد الله بن المبارك: حدثنا جرير بن حازم، حدثني الزبير بن الجريت، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَكْرُونَ يَلْبِغُوا مَائَتَيْنِ﴾، شق ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم ألا يفر واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف، فقال: ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَلْبِغُوا مَائَتَيْنِ﴾، قال: خفف الله عنهم من العدة، ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم. وروى البخاري من حديث ابن المبارك، نحوه. وقال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس في هذه الآية قال: كتب عليهم ألا يفر عشرون من مائتين، ثم خفف الله عنهم، فقال: ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّكُمْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ مِائَةً﴾، فلا ينبغي لمائة أن يفروا من مائتين. وروى البخاري، عن علي بن عبد الله، عن سفيان، به نحوه. وقال محمد بن إسحاق: حدثني ابن أبي نجيح، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين، وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين، ومائة ألفاً، فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى فقال: ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّكُمْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ مِائَةً﴾، فكانوا إذا كانوا على الشطر من العدو لهم لم ينبغ لهم أن يفروا من عدوهم، وإذا كانوا دون ذلك، لم يجب عليهم قتالهم، وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم. وروى علي بن أبي طلحة والوعفي، عن ابن عباس، نحوه ذلك. قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، والضحاك نحوه ذلك. وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه، من حديث المسيب بن شريك، عن ابن عون، عن نافع، عن ابن عمر، رضي الله عنهما: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَكْرُونَ يَلْبِغُوا مَائَتَيْنِ﴾ قال: نزلت فينا أصحاب محمد ﷺ. وروى الحاكم في مستدركه، من حديث أبي عمرو بن العلاء، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّكُمْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ مِائَةً﴾ رفع، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

﴿مَا كَانَتْ لِي أَنْ يَكُونَ لَكُمْ أَمْرٌ حَتَّىٰ يُنْزِلَ فِي الْأَرْضِ رُيُوسٌ وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَكُمْ فِيمَا أَغْدَمْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِنَّمَا غَنِمْتُمْ حَلَالًا وَطَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ عِنْدَ اللَّهِ رَبَّيْكُمْ ﴿٦٩﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، عن حميد، عن أنس، رضي الله عنه، قال: استشار رسول الله ﷺ الناس في

الأسارى يوم بدر، فقال: «إن الله قد أمكنكم منهم» فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس، إن الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس». فقام عمر فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد النبي ﷺ فقال للناس مثل ذلك، فقال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، نرى أن تغفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء. قال: فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم، فغفا عنهم، وقبل منهم الفداء. قال: وأنزل الله، ﷻ: ﴿لَوْلَا كِتَابُ رَبِّكَ لَأَكِيدَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَيَذَرُوهَا كَمَا يَذَرُ الْمَلِكُ مَقَرَّتْهُ يَوْمَ يَدْعُوهُ إِلَى الْعَذَابِ عَظِيمٍ﴾. وقد سبق في أول السورة حديث ابن عباس في صحيح مسلم بنحو ذلك. وقال الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟» قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومك وأهلك، استبقهم واستتبعهم، لعل الله أن يتوب عليهم. قال: وقال عمر: يا رسول الله، أخرجوك، وكذبوك، فقدمهم فاضرب أعناقهم. قال: وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، أنت في واد كثير الحطب، فأضرم الوادي عليهم ناراً، ثم ألقهم فيه. قال: فقال العباس: قطعت رحمك. قال: فسكت رسول الله ﷺ فلم يرد عليهم شيئاً، ثم قام فدخل فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر. وقال ناس: يأخذ بقول عمر. وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم، عليه السلام، قال: ﴿فَتَنِّي فَنِيَّتِي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى، عليه السلام، قال: ﴿إِنْ تَدْبِرْتُمْ فِئَتَهُمْ فَإِنِّي مَعَهُمْ وَإِنْ تُفِرُّوهُمْ فَأَنَا عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٨]، وإن مثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام، قال: ﴿رَبَّنَا آتِنَا عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، وإن مثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام، قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْاَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا﴾ [نوح: ٢٦]، أنتم عالة فلا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق». قال ابن مسعود: قلت: يا رسول الله، إلا سهيل بن بيضاء، فإنه يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيته في يوم أخوف أن تقع علي حجارة من السماء مني في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: «إلا سهيل بن بيضاء» فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنْبِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أُشْرَى﴾ إلى آخر الآية. رواه الإمام أحمد والترمذي، من حديث أبي معاوية، عن الأعمش، والحاكم في مستدركه، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه، عن عبد الله بن عمر، وأبي هريرة، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ نحوه، وفي الباب عن أبي أيوب الأنصاري.

وروى ابن مردويه أيضاً - واللفظ له - والحاكم في مستدركه، من حديث عبيد الله بن موسى: حدثنا إسرائيل، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: لما أسر الأسارى يوم بدر، أسر العباس فيمن أسر، أسره رجل من الأنصار، قال: وقد أوعده الأنصار أن يقتلوه. فبلغ ذلك للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أتم الليل من أجل عمي العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه» فقال له عمر: فأتهم؟ قال: «نعم» فأتى عمر الأنصار فقال لهم: أرسلوا العباس. فقالوا: لا، والله لا نرسله. فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله ﷺ رضى؟ قالوا: فإن كان لرسول الله ﷺ رضى فخذ. فأخذه عمر فلما صار في يده قال له: يا عباس، أسلم، فوالله لأن تسلم أحب إلي من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك، قال: فاستشار رسول الله ﷺ أبا بكر، فقال أبو بكر: عشتبك. فأرسلهم، فاستشار عمر، فقال: اقتلهم، ففاداهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنْبِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أُشْرَى حَتَّى يَشُحَّ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية. قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقال سفيان الثوري، عن هشام - هو ابن حسان - عن محمد بن سيرين، عن عبيدة، عن علي، رضي الله عنه، قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ يوم بدر فقال: خيّر أصحابك في الأسارى: إن شأوا الفداء، وإن شأوا القتل على أن يقتل منهم مقبلاً مثلهم. قالوا: الفداء ويقتل منا. رواه الترمذي، والنسائي، وابن حبان في صحيحه من حديث الثوري، به وهذا حديث غريب جداً. وقال ابن عون عن محمد بن سيرين عن عبيدة، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ في أسارى يوم بدر: «إن شئتم قتلتموهم، وإن شئتم فاديتموهم واستمتعتم بالفداء، واستشهد منكم بعدتهم». قال: فكان آخر السبعين ثابت بن قيس، قتل يوم اليمامة، رضي الله عنه. ومنهم من روى هذا الحديث عن عبيدة مرسلاً، والله أعلم. وقال محمد بن إسحاق، عن ابن أبي نجيح، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنْبِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أُشْرَى﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال: غنائم بدر، قبل أن يحلها لهم، يقول: لولا أني لا أعذب من عصاني حتى أتقدم إليه، لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم. وكذا روى ابن أبي نجيح، عن مجاهد. وقال الأعمش: سبق منه ألا يعذب أحداً شهد بداراً. وروى نحوه عن سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن جبير، وعطاء.

وقال شعبة، عن أبي هاشم، عن مجاهد: ﴿أَوَلَا كُتِبَ مِنَّا اللَّهُ سَبَقٌ﴾ أي: لهم بالمغفرة ونحوه عن سفيان الثوري، رحمه الله. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوَلَا كُتِبَ مِنَّا اللَّهُ سَبَقٌ﴾ يعني: في أم الكتاب الأول أن المغنم والأسارى حلال لكم، ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ﴾ من الأسارى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ الآية. وكذا روى العوفي، عن ابن عباس. وروى مثله عن أبي هريرة، وابن مسعود، وسعيد بن جبير، وعطاء، والحسن البصري، وقناة والأعمش أيضاً: أن المراد ﴿أَوَلَا كُتِبَ مِنَّا اللَّهُ سَبَقٌ﴾ لهذه الأمة بإحلال الغنائم وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله. ويستشهد لهذا القول بما أخرجه في الصحيحين، عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيَتْ خُمْساً، لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه ويبعث إلى الناس عامة». وقال الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لم تحل الغنائم لسود الرؤوس غيرنا». ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء. وقد روى الإمام أبو داود في سننه: حدثنا عبد الرحمن بن المبارك العيشي، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا شعبة، عن أبي العنيس، عن أبي الشعثاء، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة. وقد استقر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء: أن الإمام مخير فيهم: إن شاء قتل - كما فعل ببني قريظة - وإن شاء فادى بمال - كما فعل بأسرى بدر - أو بمن أسر من المسلمين - كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع، حيث ردهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسرى. هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء، وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر في موضعه من كتب الفقه.

﴿يَتْلُوهُنَّ أَنثَىٰ قُلْ لَّيْنِ فِي أَيْدِيكُمْ يَرِثُ الْاَسْرَىٰ إِنَّ يَسْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٧٠ وَلَئِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧١﴾.

قال محمد بن إسحاق: حدثني العباس بن عبد الله بن مغفل، عن بعض أهله، عن عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «إني قد عرفت أن أناساً من بني هاشم وغيرهم، قد أخرجوا كرهاً، لا حاجة لهم بقتلنا، فمن لقي منكم أحداً منهم - أي: من بني هاشم - فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكهاً فقال أبو حذيفة بن عتبة: أنقذ آباءنا وأبنائنا وإخواننا وعشائرتنا ونترك العباس؟! والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف! فبلغت رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب: «يا أبا حفص» - قال عمر: «والله إنه لأول يوم كنتاني فيه رسول الله ﷺ» - «أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف؟» فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فأضرب عنقه، فوالله لقد نافع. فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك: «والله ما آمن من تلك الكلمة التي قلت، ولا أزال منها خائفاً، إلا أن يكفرها الله عني بشهادة. فقتل يوم البعثة شهيداً، رضي الله عنه. وبه، عن ابن عباس قال: لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر، والأسارى محبوسون بالوثاق، بات رسول الله ﷺ ساهراً أول الليل، فقال له أصحابه: يا رسول الله، ما لك لا تنام؟ - وقد أسر العباس رجل من الأنصار - فقال رسول الله ﷺ: «سمعت أنين عمي العباس في وثاقه فأطلقوه، فسكت، فنام رسول الله ﷺ». قال محمد بن إسحاق: وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب، وذلك أنه كان رجلاً مؤسراً فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهباً. وفي صحيح البخاري، من حديث موسى بن عقبة، قال ابن شهاب: حدثني أنس بن مالك أن رجلاً من الأنصار استأذنا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلنتزكك لابن أختنا عباس فداءه. قال: «لا، والله لا تذررون منه درهماً». وقال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، عن يزيد بن زومان، عن عروة - وعن الزهري، عن جماعة سماهم قالوا: - بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول الله، قد كنت مسلماً فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهره فقد كان علينا، فافتد نفسك وابني أخيك: نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو أخي بني الحارث بن فهر» قال: ما ذاك عندي يا رسول الله! قال: «فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلت لها: أن أصيب في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل، وعبد الله، وقثم». قال: والله يا رسول الله، إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني: عشرين أوقية من مال كان معي؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك». ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه، وأنزل الله، ﷻ فيه: ﴿يَتْلُوهُنَّ أَنثَىٰ

قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ يَتَكُ الْأَشْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ . قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبداً، كلهم في يده مال يضرب به، مع ما أرجو من مغفرة الله، ﷺ. وقد روى ابن إسحاق أيضاً، عن ابن أبي نجيج، عن عطاء، عن ابن عباس في هذه الآية بنحو مما تقدم.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا ابن إدريس عن ابن إسحاق عن ابن أبي نجيج، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال العباس: في نزلت: ﴿مَا كَانَتْ لِيَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَشْرَىٰ حَتَّىٰ يُتَخَرَ﴾ في الآزيم، فأخبرت النبي ﷺ بإسلامي، وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي أخذ مني، فأبى، فأبدلني الله بها عشرين عبداً، كلهم تاجر، مالي في يده. وقال ابن إسحاق أيضاً: حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله بن رثاب قال: كان العباس بن عبد المطلب يقول: في نزلت - والله - حين ذكرت رسول الله ﷺ إسلامي - ثم ذكر نحو الحديث كالذي قبله. وقال ابن جريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبُ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ يَتَكُ الْأَشْرَىٰ﴾: عباس وأصحابه. قال: قالوا للنبي ﷺ: آمنا بما جئت به، ونشهد أنك رسول الله، لننصحن لك على قومنا. فأنزل الله: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾، إيماناً وتصديقاً، يخلف لكم خيراً مما أخذ منكم ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ الشرك الذي كنتم عليه. قال: فكان العباس يقول: ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا، وأن لي الدنيا، لقد قال: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾، فقد أعطاني خيراً مما أخذ مني مائة ضعف، وقال: ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾، وأرجو أن يكون غفر لي. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: كان العباس أسير يوم بدر، فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب، فقال العباس حين قرئت هذه الآية: لقد أعطانا الله، ﷺ، خصلتين، ما أحب أن لي بهما الدنيا، إني أسرت يوم بدر ففقدت نفسي بأربعين أوقية. فأتاني أربعين عبداً، وأنا أرجو المغفرة التي وعدنا الله، جل ثناؤه. وقال قتادة في تفسير هذه الآية: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ لما قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفاً، وقد توضع لصلاة الظهر، فما أعطى يومئذ ساكتاً ولا حرم سائلاً، وما صلى يومئذ حتى فرقه، فأمر العباس أن يأخذ منه ويحتشي، فأخذ. قال: فكان العباس يقول: هذا خير مما أخذ منا، وأرجو المغفرة. وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال قال: بعث ابن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ من البحرين ثمانين ألفاً، ما أتاه مال أكثر منه لا قبل ولا بعد. قال: فنشرت على حصير ونودي بالصلاة. قال: وجاء رسول الله ﷺ، فمثل قائماً على المال، وجاء أهل المسجد فما كان يومئذ عدد ولا وزن، ما كان إلا قبضاً، قال: وجاء العباس بن عبد المطلب يحيي في خميصة عليه، وذهب يقوم فلم يستطع، قال: فرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ارفع علي. قال: فتبسم رسول الله ﷺ حتى خرج ضاحكه - أو: نابه - وقال له: «أعذ من المال طائفة، وقم بما تطيق». قال: ففعل، وجعل العباس يقول - وهو منطلق -: أما إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا، وما ندري ما يصنع في الأخرى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبُ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ يَتَكُ الْأَشْرَىٰ﴾ الآية، ثم قال: هذا خير مما أخذ منا، ولا أدري ما يصنع الله في الأخرى، فما زال رسول الله ﷺ ماثلاً على ذلك المال، حتى ما بقي منهم درهم، وما بعث إلى أهله بدرهم، ثم أتى الصلاة فصلى.

حديث آخر في ذلك: قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني أبو الطيب محمد بن محمد بن عبد الله السعدي، حدثنا مخمش بن عصام، حدثنا حفص بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك قال: أتني رسول الله ﷺ بمال من البحرين، فقال: «انثروه في المسجد». قال: وكان أكثر مال أتني به رسول الله ﷺ، فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه. فما كان يرى أحداً إلا أعطاه، إذ جاء العباس فقال: يا رسول الله، أعطني فإني فاديت نفسي، وفاديت عقيلي. فقال له رسول الله ﷺ: «خذ». فحشا في ثوبه، ثم ذهب يلقه فلم يستطع، فقال: مَرُّ بعضهم يرفعه إلي. قال: «لا». قال: فافعه أنت علي. قال: «لا». فنثر منه ثم احتمله على كاهله، ثم انطلق، فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خفي عنه، عَجَباً من جزئه، فما قام رسول الله ﷺ وثم منها درهم. وقد رواه البخاري في مواضع من صحيحه تعليقاً بصيغة الجزم، يقول: «وقال إبراهيم بن طهمان» ويسوقه، وفي بعض السياقات أتم من هذا.

وقوله: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ أي: فيما أظهروا لك من الأقوال، ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل بدر بالكفر به، ﴿فَأَمَّا كُنْتُمْ﴾ أي: بالإسار يوم بدر، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بما يفعله، حكيم فيه. قال قتادة: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح الكاتب حين ارتد، ولحق بالمشركين. وقال ابن جريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس: نزلت في عباس وأصحابه، حين قالوا: لننصحن لك على قومنا. وفسرها السدي على العموم، وهو أشمل وأظهر، والله أعلم.

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قطع الموالاة بينهم وبين الكفار، كما قال الحاكم في مستدركه: حدثنا محمد بن صالح بن هاني، حدثنا أبو سعد يحيى بن منصور الهروي، حدثنا محمد بن أبان، حدثنا محمد بن يزيد وسفيان بن حسين، عن الزهري، عن علي بن الحسين، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة، عن النبي ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافراً، ولا كافر مسلماً»، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِهِمْ أُولَئِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآرْضِ وَفَسَادَ كَثِيرٍ﴾ (٧٤) ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قلت: الحديث في الصحيحين من رواية أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم»، وفي المسند والسنن، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتى»، وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد، عن محمد بن ثور، عن مَعْمَر، عن الزهري: أن رسول الله ﷺ أخذ على رجل دخل في الإسلام فقال: «تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج البيت، وتصوم رمضان، وأنت لا ترى نار مشرك إلا وأنت له حرب». وهذا مرسل من هذا الوجه، وقد روي متصلاً من وجه آخر، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «أنا بريء من كل مسلم بين ظهرائي المشركين»، ثم قال: «لا يترأى ناراهما». وقال أبو داود في آخر كتاب الجهاد: حدثنا محمد بن داود بن سفيان، أخبرني يحيى بن حسان، أنبأنا سليمان بن موسى أبو داود، حدثنا جعفر بن سعد بن سُمرة بن جُنْدُب حدثني خبيب بن سليمان، عن أبيه سليمان بن سمره عن سمره بن جندب: أما بعد، قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله». وقد ذكر الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيْه، من حديث حاتم بن إسماعيل، عن عبد الله بن هرمز، عن محمد وسعيد ابني عبيد، عن أبي حاتم المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض». قالوا: يا رسول الله، وإن كان؟ قال: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه» ثلاث مرات. وأخرجه أبو داود والترمذي، من حديث حاتم بن إسماعيل، به نحوه. ثم روي من حديث عبد الحميد بن سليمان، عن ابن عَجْلان، عن ابن وَثِيمة النَّضري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض». ومعنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَثِيرٌ﴾ أي: إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت الفتنة في الناس، وهو التباس الأمر، واختلاط المؤمن بالكافر، فيقع بين الناس فساد منتشر طويل عريض.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَوَسِّطُونَ حَتَّىٰ لَمَّا مَفَرُوا وَرَزَقَ كَرِيمٌ﴾ (٧٥) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْزَاقِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٥).

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا، عطف بذكر ما لهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان، كما تقدم في أول السورة، وأنه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن ذنوب إن كانت، وبالرزق الكريم، وهو الحسن الكثير الطيب الشريف، دائم مستمر أبداً لا ينقطع ولا ينقضي، ولا يُسَام ولا يُعْل لحسنه وتنوعه. ثم ذكر أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة كما قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالَّذِينَ آتَوْهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٥) [الحشر: ١٠] وفي الحديث المتفق عليه، بل المتواتر من طرق صحيحة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المرء مع من أحب»، وفي الحديث الآخر: «من أحب قوماً حُشِرَ معهم». وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن شريك، عن عاصم، عن أبي وائل، عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض، والطلاق من قرش والعقاة من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة». قال شريك: فحدثنا الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عبد الرحمن بن هلال، عن جرير، عن النبي ﷺ مثله. تفرد به أحمد من هذين الوجهين.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْزَاقِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في حكم الله، وليس المراد بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْزَاقِ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة، الذين لا فرض لهم ولا هم عسبة، بل يُدُلون بوارث، كالخالة، والخال، والعمة، وأولاد البنات، وأولاد الأخوات، ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالأية، ويعتقد ذلك صريحاً في المسألة، بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات. كما نص ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة وغير واحد: على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولاً، وعلى هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص. ومن لم

يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديث: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث»، قالوا: فلو كان ذا حق لكان له فرض في كتاب الله مسمى، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثاً، والله أعلم.

آخر تفسير سورة «الأنفال»، والله الحمد والمنة،
وعليه الثقة والتكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه أستعين وهو حسبي ونعم الوكيل تفسير سورة التوبة

مدنية.

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۝﴾.

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ، كما قال البخاري. حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]، وآخر سورة نزلت براءة. وإنما لا يسلم في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسمة في أولها في المصحف الإمام، والافتداء في ذلك بأمر المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه وأرضاه، كما قال الترمذي: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعد، ومحمد بن جعفر، وابن أبي عدي، وسهل بن يوسف قالوا: حدثنا عوف بن أبي جميلة، أخبرني يزيد الفارسي، أخبرني ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال، وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المثين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ووضعتوها في السبع الطول، ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو يُنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا، فإذا نزلت عليه الآية فيقول: «ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وحسب أنها منها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فوضعتها في السبع الطول. وكذا رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، من طرق آخر، عن عوف الأعرابي، به. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ، لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عاداتهم في ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عراة فكره مخالطتهم، فبعث أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، أميراً على الحج هذه السنة، ليقم للناس مناسكهم، ويعلم المشركين ألا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادي في الناس ببراءة، فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ، لكونه غصبة له، كما سيأتي بيانه. فقوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: هذه براءة، أي: تبرؤ من الله ورسوله ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾. اختلف المفسرون ههنا اختلافاً كثيراً، فقال قائلون: هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر، فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته، مهما كان؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِلَى اللَّهِ عَاهِدُوا لَكُمْ عُذْرُهُمْ إِنَّ اللَّهَ مُخِيبُ الْمُثْقِلِينَ﴾ [التوبة: ٤]. ولما سيأتي في الحديث: «ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهد إلى مدته». وهذا أحسن الأقوال وأقواها، وقد اختاره ابن جرير، رحمه الله، وزوي عن الكلبي ومحمد بن كعب القرظي، وغير واحد.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ قال: حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر، يسبحون في الأرض حيشماً شأوا، وأجل أجل من ليس له عهد،

انسلاخ الأشهر الحرم، من يوم النحر إلى انسلاخ المحرم، فإذا انسلاخ الأشهر الحرم أمره بأن يضع السيف فيمن لا عهد له. وكذا رواه العوفي، عن ابن عباس. وقال الضحاك بعد قوله: فذلك خمسون ليلة: فأمر الله نبيه إذا انسلاخ المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد، يقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام. وأمر ممن كان له عهد إذا انسلاخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلّون من ربيع الآخر، أن يضع فيهم السيف، حتى يدخلوا في الإسلام. وقال أبو معشر المدني: حدثنا محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الموسم سنة تسع، وبعث علي بن أبي طالب بثلاثين آية أو أربعين آية من «براءة» فقرأها على الناس، يؤجل المشركين أربعة أشهر يسبحون في الأرض، فقرأها عليهم يوم عرفة، أجّل المشركين عشرين من ذي الحجة، والمحرم، وصفر، وشهر ربيع الأول، وعشرا من ربيع الآخر، وقرأها عليهم في منازلهم، وقال: «لا يحجن بعد عامنا هذا مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان». وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: «بَرَاءَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» إلى أهل العهد: خزاعة، ومذليج، ومن كان له عهد أو غيرهم. أقبل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ، فأراد رسول الله ﷺ الحج، ثم قال: «إنما يحضر المشركون فيطوفون غزاة، فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك». فأرسل أبا بكر وعلياً، رضي الله عنهما، فطافا بالناس في ذي المجاز وبأمكنتهما التي كانوا يتبايعون بها بالمواسم كلها، فأذنوا أصحاب العهد بأن يأمنوا أربعة أشهر، فهي الأشهر المتواليات: عشرون من ذي الحجة إلى عشر يخلون من ربيع الآخر، ثم لا عهد لهم، وأذن الناس كلهم بالقتال إلا أن يؤمنوا. وهكذا روي عن السدي، وقناة. وقال الزهري: كان ابتداء التأجيل من شوال وآخره سلاخ المحرم. وهذا القول غريب، وكيف يحاسبون بمدة لم يبلغهم حكمها، وإنما ظهر لهم أمرها يوم النحر، حين نادى أصحاب رسول الله ﷺ بذلك، ولهذا قال تعالى:

﴿وَأَذَّنَ رَبُّنَا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَصَيْتُمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّكُمْ كُفَرُوا بِعَدَابِ اللَّهِ﴾ (٣).

يقول تعالى: وإعلام: «مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» وتقدم وإنذار إلى الناس، «يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ»: وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكثرها جمعاً، «أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ» أي: بريء منهم أيضاً. ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال: «فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ» أي: مما أنتم فيه من الشرك والضلال «فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ» أي: استمررتم على ما أنتم عليه «فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَصَيْتُمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»، بل هو قادر، وأنتم في قبضته، وتحت قهره ومشيطته، «وَرَبُّنَا الَّذِي كُفَرُوا بِعَدَابِ اللَّهِ» أي: في الدنيا بالخرزي والتكال، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال. قال البخاري، رحمه الله: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث، حدثني عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرني حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر، رضي الله عنه، في تلك الحجة في المؤذنين، بعثهم يوم النحر، يؤذنون بمنى: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. قال حميد: ثم أرفد النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب، فأمره أن يؤذن ببراءة. قال أبو هريرة: فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر ببراءة وألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. ورواه البخاري أيضاً: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل: «الأكبر»، من أجل قول الناس: «الحج الأصغر»، فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله ﷺ مشرك. وهذا لفظ البخاري في كتاب «الجهاد».

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، في قوله: «بَرَاءَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» قال: لما كان النبي ﷺ زمن حنين، اعتمر من الجعرانة، ثم أمر أبا بكر على تلك الحجة - قال معمر: قال الزهري: وكان أبو هريرة يحدث أن أبا بكر أمر أبا هريرة أن يؤذن ببراءة في حجة أبي بكر. قال أبو هريرة: ثم أتبعنا النبي ﷺ علياً، وأمره أن يؤذن ببراءة، وأبو بكر على الموسم كما هو، أو قال: على هيئته. وهذا السياق فيه غرابة، من جهة أن أمير الحج كان سنة عمرة الجعرانة إنما هو عتّاب بن أسيد، فأما أبو بكر إنما كان أميراً سنة تسع. وقال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن مغيرة، عن الشعبي، عن مَحْزَر بن أبي هريرة، عن أبيه قال: كنت مع علي بن أبي طالب، حين بعث رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ب «براءة»، فقال: ما كنتم تتادون؟ قال: كنا ننادي: ألا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله - أو أمده - إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يحج هذا البيت بعد العام مشرك. قال: فكنت أنادي حتى صُحِّل صوتي. وقال الشعبي: حدثني مَحْزَر بن أبي هريرة، عن أبيه قال: كنت مع ابن أبي طالب، رضي الله عنه، حين بعث رسول الله ﷺ ينادي، فكان إذا صُحِّل ناديت. قلت:

بأي شيء كنتم تنادون؟ قال: بأربع: لا يطوف بالكعبة عريان، ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهد إلى مدته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يحج بعد عامنا مشرك. رواه ابن جرير من غير ما وجه، عن الشعبي. ورواه شعبة، عن مغيرة، عن الشعبي، به إلا أنه قال: ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فعهد إلى أربعة أشهر. وذكر تمام الحديث. قال ابن جرير: وأخشى أن يكون وهما من بعض نقلته؛ لأن الأخبار متظاهرة في الأجل بخلافه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن سماك، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ بعث بـ «براءة» مع أبي بكر، فلما بلغ ذا الحليفة قال: «لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي». فبعث بها مع علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. ورواه الترمذي في التفسير، عن بُذَار، عن عفان وعبد الصمد، كلاهما عن حماد بن سلمة به، ثم قال: حسن غريب من حديث أنس، رضي الله عنه. وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: حدثنا محمد بن سليمان - لؤين - حدثنا محمد بن جابر، عن سماك، عن حنّش، عن علي، رضي الله عنه، قال: لما نزلت عشر آيات من «براءة» على النبي ﷺ، دعا النبي ﷺ أبا بكر، فبعثه بها ليقراها على أهل مكة، ثم دعاني فقال: «أدرك أبا بكر، فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه، فاذهب إلى أهل مكة فاقرأه عليهم». فلحقته بالبحينة، فأخذت الكتاب منه، ورجع أبو بكر إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، نزل في شيء؟ فقال: «لا، ولكن جبريل جاءني فقال: لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك». هذا إسناد فيه ضعف. وليس المراد أن أبا بكر، رضي الله عنه، رجع من فوره، بل بعد قضائه المناسك التي أمره عليها رسول الله ﷺ، كما جاء مبيناً في الرواية الأخرى.

وقال عبد الله أيضاً: حدثني أبو بكر، حدثنا عمرو بن حماد، عن أسباط بن نصر، عن سماك، عن حنّش، عن علي، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ حين بعثه بـ «براءة» قال: يا نبي الله، إني لست باللسن ولا بالخطيب، قال: «ما بد لي أن أذهب بها أنا أو تذهب بها أنت». قال: فإن كان ولا بد فأسأذهب أنا. قال: «انطلق، فإن الله يثبت لسانك ويهدي قلبك». قال: ثم وضع يده على فيه. وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن زيد بن يثيع - رجل من همدان -: سألتنا علياً: بأي شيء بعثت؟ يعني: يوم بعثه النبي ﷺ مع أبي بكر في الحجة، قال: بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فعهد إلى مدته، ولا يحج المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا. ورواه الترمذي عن قلاية، عن سفيان بن عيينة، به، وقال: حسن صحيح. كذا قال، ورواه شعبة، عن أبي إسحاق فقال: عن زيد بن يثيع، وهم فيه. ورواه الثوري، عن أبي إسحاق، عن بعض أصحابه، عن علي، رضي الله عنه. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أسامة، عن زكريا، عن أبي إسحاق، عن زيد بن يثيع، عن علي قال: بعثني رسول الله ﷺ حين أنزلت «براءة» بأربع: ألا يطوف بالبيت عريان، ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة. ثم رواه ابن جرير، عن محمد بن عبد الأعلى، عن أبي ثور، عن مغفر، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي قال: أمرت بأربع. فذكره. وقال إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن زيد بن يثيع قال: نزلت براءة فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر، ثم أرسل علياً، فأخذها منه، فلما رجع أبو بكر قال: نزل في شيء؟ قال: «لا، ولكن أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي». فانطلق إلى أهل مكة، فقام فيهم بأربع: لا يدخل مكة مشرك بعد عامه هذا، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فعهد إلى مدته.

وقال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن حكيم بن عباد بن حُثَيْف، عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي قال: لما نزلت «براءة» على رسول الله ﷺ، وقد كان بعث أبا بكر ليقيم الحج للناس، فقيل: يا رسول الله، لو بعثت إلى أبي بكر. فقال: «لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي». ثم دعا علياً فقال: «أخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى: أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فعهد إلى مدته». فخرج علي، رضي الله عنه، على ناقة رسول الله ﷺ العضاء، حتى أدرك أبا بكر في الطريق، فلما رآه أبو بكر قال: أمير أو مأمور؟ قال: بل مأمور، ثم مضى، فأقام أبو بكر للناس الحج، والعرب إذا ذك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية، حتى إذا كان يوم النحر، قام علي بن أبي طالب فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله ﷺ، فقال: يا أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته. فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطوف بالبيت عريان، ثم قدما على رسول الله ﷺ. فكان هذا من «براءة» فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام، وأهل المدة إلى الأجل المسمى. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أخبرنا أبو زرعة وهب الله بن راشد، أخبرنا حَيَّوَة بن شريح: أخبرنا أبو

صخر: أنه سمع أبا معاوية البجلي من أهل الكوفة يقول: سمعت أبا الصهباء البكري وهو يقول: سألت علي بن أبي طالب عن «يوم الحج الأكبر» فقال: إن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر بن أبي قحافة يقيم للناس الحج، ويعثني معه بأربعين آية من «براءة»، حتى أتى عرفة فخطب الناس يوم عرفة، فلما قضى خطبته التفت إليّ فقال: قم، يا علي، فأذ رسالة رسول الله ﷺ، ففقت فقرأت عليهم أربعين آية من «براءة»، ثم صَدَرْنَا فَأَتَيْنَا مِنِّي، فرميت الجمرة ونحرث البدنة، ثم حلفت رأسي، وعلمت أن أهل الجمع لم يكونوا حضروا كلهم خطبة أبي بكر يوم عرفة، فطفت أتتبع بها الفساطيط أقرؤها عليهم، فمن ثم إخال حسبت أنه يوم النحر ألا وهو يوم النحر، ألا وهو يوم عرفة. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن أبي إسحاق: سألت أبا جَحِيْفَةَ عن يوم الحج الأكبر، قال: يوم عرفة. فقلت: أمِنَ عندك أم من أصحاب محمد ﷺ؟ قال: كل في ذلك.

وقال عبد الرزاق أيضاً، عن جُرَيْجٍ، عن عطاء قال: يوم الحج الأكبر، يوم عرفة. وقال عَمَرُ بن الوليد الشَّيْثِيُّ: حدثنا شهاب بن عباد العَصْرِيُّ، عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: هذا يوم عرفة، هذا يوم الحج الأكبر، فلا يصومنه أحد. قال: فحججت بعد أبي فأتيت المدينة، فسألت عن أفضل أهلها، فقالوا: سعيد بن المسيب، فأتيته فقلت: إني سألت عن أفضل أهل المدينة فقالوا: سعيد بن المسيب، فأخبرني عن صوم يوم عرفة؟ فقال: أخبرك عن هو أفضل مني مائة ضعف عمر - أو: ابن عمر - كان ينهى عن صومه، ويقول: هو يوم الحج الأكبر. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، وهكذا روي عن ابن عباس، وعبد الله بن الزبير، ومجاهد، وعكرمة، وطاوس: أنهم قالوا: يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر. وقد ورد فيه حديث مرسل رواه ابن جُرَيْجٍ: أخبرت عن محمد بن قيس بن مَخْرَمَةَ أن رسول الله ﷺ خطب يوم عرفة، فقال: «هذا يوم الحج الأكبر». وروي من وجه آخر عن ابن جريج، عن محمد بن قيس، عن المشوَر بن مخرمة، عن رسول الله ﷺ، أنه خطبهم بعرفات فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن هذا يوم الحج الأكبر».

والقول الثاني: أنه يوم النحر. قال هُشَيْمٌ، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن علي، رضي الله عنه، قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر. وقال أبو إسحاق السَّيِّعِيُّ، عن الحارث الأعور، سألت علياً، رضي الله عنه، عن يوم الحج الأكبر، فقال: هو يوم النحر. وقال شعبة، عن الحكم: سمعت يحيى بن الجزار يحدث عن علي، رضي الله عنه، أنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبانة، فجاء رجل فأخذ بلجام دابته، فسأله عن الحج الأكبر، فقال: هو يومك هذا، خل سبيلها. وقال عبد الرزاق، عن سفيان وشعبة، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الله بن أبي أوفى أنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر. وروى شعبة وغيره، عن عبد الملك بن عمير، به نحوه. وهكذا رواه هشيم وغيره، عن الشيباني عن عبد الله بن أبي أوفى. وقال الأعمش، عن عبد الله بن سنان قال: خطبنا المغيرة بن شعبة يوم الأضحى على بعير فقال: هذا يوم الأضحى، وهذا يوم النحر، وهذا يوم الحج الأكبر. وقال حماد بن سلمة، عن سِمَاكٍ، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: الحج الأكبر، يوم النحر.

وكذا روي عن أبي جَحِيْفَةَ، وسعيد بن جُبَيْرٍ، وعبد الله بن شداد بن الهاد، ونافع بن جبيرة بن مطعم، والشعبي، وإبراهيم التَّخَفِيُّ، ومجاهد، وعكرمة، وأبي جعفر الباقر، والزهرى، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: يوم الحج الأكبر هو يوم النحر. واختاره ابن جرير. وقد تقدم الحديث عن أبي هريرة في صحيح البخاري: أن أبا بكر بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى، وقد ورد في ذلك أحاديث أخر، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني سهل بن محمد السجستاني، حدثنا أبو جابر الحرمي، حدثنا هشام بن الغاز الجُرْشِيُّ - عن نافع، عن ابن عمر قال: وقف رسول الله ﷺ يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع، فقال: «هذا يوم الحج الأكبر». وهكذا رواه ابن أبي حاتم، وابن مَرْزُوقٍ من حديث أبي جابر - واسمه محمد بن عبد الملك، به، ورواه ابن مردويه أيضاً من حديث الوليد بن مسلم، عن هشام بن الغاز، به. ثم رواه من حديث سعيد بن عبد العزيز، عن نافع، به. وقال شعبة، عن عمرو بن مَرْءَةَ عن مرة الهَمْدَانِي، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ على ناقه حمراء مخضمة، فقال: «أتدرون أي يوم يومكم هذا؟» قالوا: يوم النحر. قال: «صدقت»، يوم الحج الأكبر.

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن المقدم، حدثنا يزيد بن زُرَيْعٍ، حدثنا ابن عون، عن محمد بن سيرين، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه قال: لما كان ذلك اليوم، قعد رسول الله ﷺ على بعير له، وأخذ الناس بخطامه - أو: زمامه - فقال: «أي يوم هذا؟» قال: فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، فقال: «أليس هذا يوم الحج الأكبر». وهذا إسناد صحيح، وأصله مخرج في الصحيح. وقال أبو الأحوص، عن شَيْبٍ بن غَرْقَدَةَ، عن سليمان بن عمرو بن الأحوص، عن أبيه قال: سمعت

رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فقال: «أي يوم هذا؟» فقالوا: اليوم الحج الأكبر. وعن سعيد بن المسيب أنه قال: يوم الحج الأكبر اليوم الثاني من يوم النحر. رواه ابن أبي حاتم. وقال مجاهد أيضاً: يوم الحج الأكبر أيام الحج كلها. وكذا قال أبو عبيد، قال سفيان: «يوم الحج»، و «يوم الجمل»، و «يوم صفين» أي: أيامه كلها. وقال سهل السراج: سئل الحسن البصري عن يوم الحج الأكبر، فقال: ما لكم وللحج الأكبر، ذاك عام حج فيه أبو بكر، الذي استخلفه رسول الله ﷺ فحج بالناس. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أسامة، عن ابن عون: سألت محمداً - يعني ابن سيرين - عن يوم الحج الأكبر فقال: كان يوم وافق فيه حج رسول الله ﷺ حج أهل الوبر.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَيْنَا آلَهُمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُخَيِّتُ الْمُتَّقِينَ ۝﴾.

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر، لمن له عهد مطلق ليس بموقت، فأجله أربعة أشهر، يسبح في الأرض، يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت، فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث: «ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهدته إلى مدته» وذلك بشرط ألا ينقض المعاهد عهده، ولم يظهر على المسلمين أحداً، أي: يمالئ عليهم من سواهم، فهذا الذي يوفى له بدمته وعهده إلى مدته؛ ولهذا حرص الله تعالى على الوفاء بذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُخَيِّتُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: الموفين بعهدهم.

﴿وَإِذَا أَسْلَحَ الْأَمُّهُرُ لَمْ يَرْحَمُوا الْقَاتِلِينَ حَتَّىٰ وَجَدْتُمُوهُمْ وَعَدَدْتُمُوهُمْ وَأَقْبَضُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾.

اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم ههنا، ما هي؟ فذهب ابن جرير إلى أنها الأربعة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَا أَرْبَعَةً حُرْمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ الْيَمِّمْ فَلَا تَقْلُوبُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، قاله أبو جعفر الباقر. لكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقهم المحرم. وهذا الذي ذهب إليه حكاه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وإليه ذهب الضحاك أيضاً، وفيه نظر، والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس في رواية العوفي عنه، وبه قال مجاهد، وعمر بن شعيب، ومحمد بن إسحاق، وقتادة والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها في قوله: ﴿تَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢٧]، ثم قال: ﴿وَإِذَا أَسْلَحَ الْأَمُّهُرُ لَمْ يَرْحَمُوا﴾ أي: إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرما عليكم فيها قتالهم، وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوه؛ لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر؛ ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتي بيان حكمها في آية أخرى بعد في هذه السورة الكريمة.

وقوله: ﴿وَإِذَا أَسْلَحَ الْأَمُّهُرُ لَمْ يَرْحَمُوا حَتَّىٰ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أي: من الأرض. وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله: ﴿وَلَا تَقْلُوبُوا عِنْدَ التَّحَرُّمِ حَتَّىٰ يَجِدُوا قَوْمًا فِيهِ فَنَقْلُوبُهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]. وقوله: ﴿وَعَدَدْتُمُوهُمْ﴾ أي: وأسروهم، إن شئتم قتلاً، وإن شئتم أسراً. وقوله: ﴿وَأَقْبَضُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معارقلهم وحصونهم، والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع، وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. ولهذا اعتمد الصديق، رضي الله عنه، في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهي الدخول في الإسلام، والقيام بأداء واجباته. ونبه بأعلاها على أدائها، فإن أشرف الأركان بعد الشهادة الصلاة، التي هي حق الله، ﷻ، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمهاجرين، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين؛ ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة، وقد جاء في الصحيحين، عن ابن عمر، رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة» الحديث. وقال أبو إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يترك فلا صلاة له. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة، وقال: يرحم الله أبا بكر، ما كان أفقهه. وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا عبد الله بن المبارك، أنبأنا حميد الطويل، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، واستقبلوا قبلتنا، وأكلوا ذبيحتنا، وصلوا صلاتنا، فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم». ورواه البخاري في صحيحه وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث عبد الله بن المبارك، به.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا عبد الأعلى بن واصل الأسدي، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده، وعبادته لا يشرك به شيئاً، فارقها والله عنه راضٍ». قال: وقال أنس: هو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم، قبل هرج الأحاديث، واختلاف الأهواء، وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما أنزل، قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ - قال: توبتهم خلع الأوثان، وعبادة ربهم، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ثم قال في آية أخرى: ﴿إِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ١١]. ورواه ابن مردويه. ورواه محمد بن نصر المروزي في كتاب «الصلاة» له: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أنبأنا حكام بن سلم، حدثنا أبو جعفر الرازي، به سواء. وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم: إنها نسخت كل عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين، وكل عهد، وكل مدة. وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة، منذ نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم، ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل أربعة أشهر، من يوم أذن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في الآية، قال: أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام، ونقض ما كان سمي لهم من العهد والميثاق، وأذهب الشرط الأول. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إسحاق بن موسى الأنصاري قال: قال سفيان: قال علي بن أبي طالب: بعث النبي ﷺ بأربعة أسياف: سيف في المشركين من العرب، قال الله: ﴿تَأْتِلُوا إِلَيْهِ الْمُسْرِكِينَ﴾ - هكذا رواه مختصراً، وأظن أن السيف الثاني هو قتال أهل الكتاب في قوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، والسيف الثالث: قتال المنافقين في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩]، والرابع: قتال الباغيين في قوله: ﴿وَلَنْ تَلْفِتُنَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَفَنَنْتَلُوا فَاسِلِحُورًا بِهِنَّ إِنْ بَقِيَ لِحَدِيثِهِمَا عَلَ الْآخَرَىٰ فَنَقِلُوا إِلَيْهِ تَبَيَّ حَتَّىٰ تَقِيَنَّ إِلَهُ أَمْرَ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]. ثم اختلف المفسرون في آية السيف هذه، فقال الضحاك والسدي: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَنَافِدٌ وَمَا يَفْدَهُ﴾ [محمد: ٤]، وقال قتادة بالعكس.

﴿وَلَنْ أَمُرَّ بِالنَّاسِ أَنْ يَمُوتُوا فَجَرَةً حَتَّىٰ يُسَمِعَ كُلُّهُمْ اللَّهُ ثُمَّ أُفْلِقَهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَلَنْ أَمُرَّ بِالنَّاسِ أَنْ يَمُوتُوا فَجَرَةً حَتَّىٰ يُسَمِعَ كُلُّهُمْ اللَّهُ﴾ أي: القرآن تقرأه عليه وتذكر له شيئاً من أمر وأموالهم، ﴿أَسْتَجَارَكَ﴾ أي: استأمنك، فأجبه إلى طلبته ﴿حَتَّىٰ يُسَمِعَ كُلُّهُمْ اللَّهُ﴾ أي: القرآن تقرأه عليه وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم عليه به حجة الله، ﴿ثُمَّ أُفْلِقَهُ مَأْمَنَهُ﴾ أي: وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمته، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله، وتنتشر دعوة الله في عبادته. وقال ابن أبي نجيع، عن مجاهد، في تفسير هذه الآية، قال: إنسان يأتيك يسمع ما تقول وما أنزل عليك، فهو آمن حتى يأتيك فيسمع كلام الله، وحتى يبلغ مأمته، حيث جاء. ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه، مسترشداً أو في رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم: عروة بن مسعود، ويكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو، وغيرهم واحداً بعد واحد، يترددون في القضية بينه وبين المشركين، فأروا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم. ولهذا أيضاً لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له: «أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟» قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عتقك». وقد قبض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له: ابن النواحة، ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له: إنك الآن لست في رسالة، وأمر به فضربت عنقه، لا رحمه الله ولعنه. والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة، أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، فطلب من الإمام أو نائبه أماناً، أعطي أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمته ووطنه. لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان، عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء، رحمهم الله.

﴿كَتَبَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مَا اسْتَقْبَلُوا لَكُمْ فَاسْتَقْبِلُوهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرتهم إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين تقفوا، فقال تعالى:

﴿كَفَىٰ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ وَأَمَانٌ وَيَتْرَكُونَ فِيهِمْ فِيهِ وَهُمْ مُشْرِكُونَ بِاللَّهِ كَافِرُونَ بِهِ وَرَسُولُهُ، ﴿٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ،﴾ يعني يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّقُوا بِعِلَّةٍ كُفْرًا وَتَوَدَّعُوا عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَىٰ مَكْرُومًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ﴾ الآية [الفتح: ٢٥]، ﴿فَمَا اسْتَقْبَلُوا لَكُمْ فَاسْتَقْبِلُوا لَهُمْ﴾ أي: مهما تمسكوا بما عاهدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينهم وبينهم عشر سنين ﴿فَمَا اسْتَقْبَلُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ بَحِثُ الْمُنَافِقِينَ﴾، وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست، إلى أن نقضت قريش العهد ومالوا وحلفاءهم بني بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، فقتلوه معهم في الحرم أيضاً، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام، ومكنه من نواصبيهم، والله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد الفهر والغلبة عليهم، فسموا الطلقاء، وكانوا قريباً من ألفين، ومن استمر على كفره وفر من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء: منهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

﴿كَفَىٰ وَإِنْ نَظَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَقْبَلُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةٌ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَكَانَ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٩).

يقول تعالى محرضاً للمؤمنين على معاداة المشركين والتبري منهم، ومبيناً أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله وكفرهم برسول الله، ولو أنهم إذ ظهروا على المسلمين وأديلوا عليهم، لم يبقوا ولم يذروا، ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة. قال علي بن أبي طلحة، وعكرمة، والعمري عن ابن عباس: «الإل»: القرابة، «والذمة»: العهد. وكذا قال الضحاك والسدي، كما قال تميم بن مقبل:

أفسد الناس خُلُوفَ خلفوا قطعو الإل وأعراق الرحم
وقال حسان بن ثابت، رضي الله عنه:

وجدناهم كاذباً إلههم وذو الإل والمعهد لا يكذب
وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿لَا يَقْبَلُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا﴾ قال: الله. وفي رواية: لا يقربون الله ولا غيره. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن علية، عن سليمان، عن أبي مجلز في قوله تعالى: ﴿لَا يَقْبَلُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ﴾: مثل قوله: «جبرائيل»، «ميكائيل»، «إسرافيل»، كأنه يقول: يضيف «جبر»، و «ميكاء»، و «إسراف»، إلى «إيل»، يقول عبد الله: ﴿لَا يَقْبَلُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا﴾ كأنه يقول: لا يقربون الله. والقول الأول أشهر وأظهر، وعليه الأكثر. وعن مجاهد أيضاً: «الإل»: العهد. وقال قتادة: «الإل»: الحلف.

﴿اسْتَفْرُوا بِعَيْنِ اللَّهِ تَكُنَا قَلِيلًا فَصَدَرُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِذْهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٠) لَا يَقْبَلُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَعَدُونَ﴾ (١١) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَفَخَوَّكُمُ فِي الَّذِينَ وَتَفَضَّلَ الَّذِينَ يَفُورَ يَفُورَ يَفُورُونَ﴾ (١٢).

يقول تعالى ذمّاً للمشركين وحثاً للمؤمنين على قتالهم: ﴿اسْتَفْرُوا بِعَيْنِ اللَّهِ تَكُنَا قَلِيلًا﴾ يعني: أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهبوا به من أمور الدنيا الخسيسة، ﴿فَصَدَرُوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: منعوا المؤمنين من اتباع الحق، ﴿إِذْهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا يَقْبَلُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ﴾ تقدم تفسيره، وكذا الآية التي بعدها: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ إلى آخرها، تقدمت. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا يحيى بن أبي بكر، حدثنا أبو جعفر الرازي، حدثنا الربيع بن أنس قال: سمعت أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته، لا يشرك به، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، فارقها والله عنه راض، وهو دين الله الذي جاء به الرسل وبلغوه عن ربهم، قبل هزج الأحاديث واختلاف الأهواء». وتصدق ذلك في كتاب الله: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ يقول: فإن خلعوا الأوثان وعبادتها ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَوَّكُمُ فِي الَّذِينَ﴾. ثم قال البزار: آخر الحديث عندي والله أعلم: «فارقها وهو عنه راض»، وباقية عندي من كلام الربيع بن أنس.

﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْمِنُهُمْ مِنْ بَدَىٰ عَهْدِهِمْ وَعَلَمُوا فِي دِينِكُمْ فَتَقَبَّلُوا أَيْمَنَهُ الْكَافِرِ إِنَّهُمْ لَا يَمْنَنَ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ يَنْتَهَوُ﴾ (١٣).

يقول تعالى: وإن نكت هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم، أي: عهودهم ومواثيقهم، ﴿وَعَلَمُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي: عابوه وانتقصوه. ومن ههنا أخذ قتل من سب الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، أو من طعن في دين الإسلام أو ذكره بتقصص، ولهذا قال: ﴿فَتَقَبَّلُوا أَيْمَنَهُ الْكَافِرِ إِنَّهُمْ لَا يَمْنَنَ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ يَنْتَهَوُ﴾ أي: يرجعون عما هم فيه من الكفر

والعناد والضلال. وقد قال قتادة وغيره: أئمة الكفر كأبي جهل، وعتبة، وشيبة، وأمّية بن خلف، وعدد رجالاً. وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال: مر سعد برجل من الخوارج، فقال الخارجي: هذا من أئمة الكفر. فقال سعد: كذبت، بل أنا قاتلت أئمة الكفر. رواه ابن مردويه. وقال الأعمش، عن زيد بن وهب، عن حذيفة أنه قال: ما قاتل أهل هذه الآية بعد. وروي عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، مثله. والصحيح أن الآية عامة، وإن كان سبب نزولها مشركي قريش فهي عامة لهم ولغيرهم، والله أعلم. وقال الوليد بن مسلم: حدثنا صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير: أنه كان في عهد أبي بكر، رضي الله عنه، إلى الناس حين وجههم إلى الشام، قال: إنكم ستجدون قوماً مُحَوَّقة رؤوسهم، فاضربوا معاهد الشيطان منهم بالسيف، فوالله لأن أقتل رجلاً منهم أحب إلي من أن أقتل سبعين من غيرهم، وذلك بأن الله يقول: ﴿فَقَتِّلُوا آيَةَ الْكُفْرِ﴾ رواه ابن أبي حاتم.

﴿أَلَا تَتْلُونَ قَوْمًا نَصَّبُوا آيَتَهُمْ وَكَسَبُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَزْكَ مَرْءٌ مِّنْهُمْ فَتَحْنُوهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَحْنُوهُ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَتِّلُوهُمْ بِمَا ذُنُّهُمْ إِنَّهُمْ يُبْغِضُونَ اللَّهَ بِأَيْدِيكُمْ وَيُغْضِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَنْفِصُ صُدُورُ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَذْهَبُ غِيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

وهذا أيضاً تهيج وتحريض وإغراء على قتال المشركين الناكثين لأيمانهم، الذين هموا بإخراج الرسول من مكة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكَ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَرْتَضُونَ جَهَنَّمَ فِي سَبِيلِ الْإِنْفَةِ مَرْغَبًا﴾ الآية [المنحنة: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء: ٧٦]. وقوله: ﴿وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَزْكَ مَرْءٌ﴾: قيل: المراد بذلك يوم بدر، حين خرجوا لنصر غيرهم، فلما نجت وعلوموا بذلك استمروا على وجوههم طلباً للقتال، بغياً وتكبراً، كما تقدم بسط ذلك. وقيل: المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح، وكان ما كان، والله الحمد. وقوله: ﴿أَتَحْنُوهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَحْنُوهُ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾: يقول تعالى: لا تخشوهم واخشون، فأننا أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوبي، فبيدي الأمر، وما شئت كان، وما لم أشأ لم يكن.

ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين، وبياناً لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده: ﴿قَتِّلُوهُمْ بِمَا ذُنُّهُمْ إِنَّهُمْ يُبْغِضُونَ اللَّهَ بِأَيْدِيكُمْ وَيُغْضِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَنْفِصُ صُدُورُ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ وهذا عام في المؤمنين كلهم. وقال مجاهد، وعكرمة، والسدي في هذه الآية ﴿وَيَنْفِصُ صُدُورُ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني: خزاعة. وأعاد الضمير في قوله: ﴿وَيَذْهَبُ غِيْظُ قُلُوبِهِمْ﴾ عليهم أيضاً. وقد ذكر ابن عساكر في ترجمة مؤذن لعمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، عن مسلم بن يسار، عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ كان إذا غضبت أخذ بأنفها، وقال: «يا عويش، قولي: اللهم، رب النبي محمد، اغفر ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن». ساقه من طريق أبي أحمد الحاكم، عن الباغندي، عن هشام بن عمار، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الجون، عنه. ﴿وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: من عباده، ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بما يصلح عباده، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم الذي لا يجوز أبداً، ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر، بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة.

﴿أَمَرُ حَسْبَتْهُ أَنْ تَتَرَكُوا لَمَّا يَكْلَمُ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَخْذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿أَمَرُ حَسْبَتْهُ﴾ أيها المؤمنون أن تترككم مهملين، لا تختبركم بأمر يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب؟ ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَكْلَمُ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَخْذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ أي: بطانة ودخيلة، بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله، فاكتمى بأحد القسمين عن الآخر، كما قال الشاعر:

وما أدري إذا يسممت أرضاً أريد الخير أيهما يليني

وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَلَمْ حَسِبْ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿أَمَرُ حَسْبَتْهُ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَكْلَمُ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَكْلَمُ الْقَائِدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران: ١٦٢]، وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ

الْعَلِيْبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُنْفِذَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴿١٧﴾ [آل عمران: ١٧٩]. والحاصل أنه تعالى لما شرع الجهاد لعباده، بين أن له فيه حكمة، وهو اختبار عبيده: من يطيعه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؟ فيعلم الشيء قبل كونه، ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولا راد لما قدره وأمضاه.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَسْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شُهَدَاءَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ يَلْعَنُ أَوْلِيَاكَ حِطَّتْ عَنْهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٨﴾﴾ إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَمَنْ أَوْلَيْكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٩﴾﴾. يقول تعالى: ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمرُوا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له ومن قرأ: ﴿مسجد الله﴾ فأراد به المسجد الحرام، أشرف المساجد في الأرض، الذي بني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له. وأسس خليل الرحمن هذا، وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، أي: بحالهم وقالهم، كما قال السدي: لو سألت النصراني: ما دينك؟ لقال: نصراني، واليهودي: ما دينك؟ لقال يهودي، والصابني، لقال: صابئ، والمشرک، لقال: مشرك. ﴿أَوْلَيْكَ حِطَّتْ عَنْهُمْ﴾ أي: بشركتهم، ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولَآئِهِمْ إِلَّا الْمُنْفِقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٤]، ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد، كما قال الإمام أحمد: حدثنا سريج، حدثنا ابن وهب، عن عمرو بن الحارث؛ أن دراجاً أبا السمع حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد، فاشهدوا له بالإيمان؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾». ورواه الترمذي، وابن مردويه، والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن وهب، به. وقال عبد بن حميد في مسنده: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا صالح المري، عن ثابت البناني، عن ميمون بن سيابة، وجعفر بن زيد، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما عمار المساجد هم أهل الله». ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبد الواحد بن غياث، عن صالح بن بشير المري، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما عمار المساجد هم أهل الله» ثم قال: لا نعلم رواه عن ثابت غير صالح. وقد روى الدارقطني في الأفراد من طريق حكام بنت عثمان بن دينار، عن أبيها، عن أخيه مالك بن دينار، عن أنس مرفوعاً: «إذا أراد الله بقوم عاعة، نظر إلى أهل المساجد، فصرف عنهم». ثم قال: غريب. وروى الحافظ البهاء في المستقصى، عن أبيه بسنده إلى أبي أمية الطرسوسي: حدثنا منصور بن صقير، حدثنا صالح المري، عن ثابت، عن أنس مرفوعاً: «يقول الله: وعزتي وجلالي، إني لأهم بأهل الأرض عذاباً، فإذا نظرت إلى عمار بيوتي وإلى المتحابين في، وإلى المستغفرين بالأسحار، صرفت ذلك عنهم». ثم قال ابن عساکر: حديث غريب.

وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا سعيد، عن قتادة، حدثنا العلاء بن زياد، عن معاذ بن جبل؛ أن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان ذئب الإنسان، كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية، فإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة والعامّة والمسجد». وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون الأودي قال: أدركت أصحاب النبي ﷺ وهم يقولون: إن المساجد بيوت الله في الأرض، وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها. وقال المسعودي، عن حبيب بن أبي ثابت وعدي بن ثابت، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: من سمع النداء بالصلاة ثم لم يجب وبأني المسجد ويصلي، فلا صلاة له، وقد عصي الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية، رواه ابن مردويه. وقد روي مرفوعاً من وجه آخر، وله شواهد من وجوه أخر ليس هذا موضع بسطها. وقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أي: التي هي أكبر عبادات البدن، ﴿وَمَا آتَى الزَّكَاةَ﴾ أي: التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق، ﴿وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: ولم يخف إلا من الله تعالى، ولم يخش سواه، ﴿فَمَنْ أَوْلَيْكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، يقول: من وحد الله، وآمن باليوم الآخر يقول: من آمن بما أنزل الله، ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ يعني: الصلوات الخمس، ﴿وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ يقول: لم يعبد إلا الله - ثم قال: ﴿فَمَنْ أَوْلَيْكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾، يقول: إن أولئك هم المفلحون، كقوله لنبيه ﷺ: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإنشراح: ٢٧] يقول: إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً وهي الشفاعة، وكل «عسى» في القرآن فهي واجبة. وقال محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله: و «عسى» من الله حق.

﴿أَجَلَتْمْ سِقَايَةَ الْمَلَأِجِ وَحَدَاةَ الْمَسْجِدِ لِمَزَارِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَحَدَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَتَمُّوا أَمْرَهُمْ وَأَتَمُّوا دِينَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٢﴾﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَتِهِ

مِنْهُ وَرِضْوَانٍ مَّا فِيهَا نَبِيٌّ ثَقِيٌّ ﴿٢٣﴾ خَلِيلٌ ﴿٢٤﴾ إِنَّا اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٥﴾

قال العوفي في تفسيره، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية، قال: إن المشركين قالوا: عمارة بيت الله، وقيام على السقاية، خير ممن آمن وجاهد، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره، فذكر الله استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُثَلِّثُ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَفْئِكُمْ تَنْكِسُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِرُءُوسِهِمْ تَهْجُرُونَ ﴿٢٤﴾ [المؤمنون: ٦٦، ٦٧] يعني: أنهم كانوا يستكبرون بالحرم قال: ﴿بِرُءُوسِهِمْ سَكِرًا﴾، كانوا يسمرون به، ويهجرون القرآن والنبي ﷺ فخير الله الإيمان والجهاد مع نبي الله ﷺ، على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به أن كانوا يعمرن بيته ويخدمونه. قال الله: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: الذين زعموا أنهم أهل العمارة، فسماهم الله «ظالمين» بشركهم، فلم تغن عنهم العمارة شيئاً. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية، قال: نزلت في العباس بن عبد المطلب حين أسرى يوم بدر، قال: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعلم المسجد الحرام، ونسقي الحاج ونفك العاني، قال الله عز وجل: ﴿أَجْعَلْنِي سِقَاةَ الْحَاجِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: أن ذلك كان في الشرك، ولا أقبل ما كان في الشرك. وقال الضحاك بن مزاحم: أقبل المسلمون على العباس وأصحابه، الذين أسروا يوم بدر، ويعيرونهم بالشرك، فقال العباس: أما والله لقد كنا نعلم المسجد الحرام، ونفك العاني، ونحجب البيت، ونسقي الحاج، فأنزل الله: ﴿أَجْعَلْنِي سِقَاةَ الْحَاجِّ وَخِدْمَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية. وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة، عن إسماعيل، عن الشعبي قال: نزلت في علي، والعباس، رضي الله عنهما، تكلما في ذلك.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عن أبي صخر قال: سمعت محمد بن كعب القرظي يقول: افتخر طلحة بن شيبه من بني عبد الدار، وعباس بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، فقال طلحة: أنا صاحب البيت، معي مفتاحه، ولو أشاء بت فيه. وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، ولو أشاء بت في المسجد. فقال علي، رضي الله عنه: ما أدري ما تقولان، لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله، ﷻ: ﴿أَجْعَلْنِي سِقَاةَ الْحَاجِّ؟﴾ الآية كلها. وهكذا قال السدي، إلا أنه قال: افتخر علي، والعباس، وشيبه بن عثمان، وذكر نحوه. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن عمرو، عن الحسن قال: نزلت في علي، وعباس، وعثمان، وشيبه، تكلموا في ذلك، فقال العباس: ما أراني إلا تارك سقايتنا. فقال رسول الله ﷺ: «أقيموا على سقايتكم، فإن لكم فيها خيراً». ورواه محمد بن ثور، عن مَعْمَرٍ، عن الحسن فذكر نحوه. وقد ورد في تفسير هذه الآية حديث مرفوع، فلا بد من ذكره ههنا، قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن يحيى بن أبي كثير، عن رجل عن النعمان بن بشير، رضي الله عنه، أن رجلاً قال: ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد الإسلام، إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: ما أبالي ألا أعمل بعد الإسلام، إلا أن أعمر المسجد الحرام. وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلت. فزجرهم عمر، رضي الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ. وذلك يوم الجمعة - ولكن إذا صليت الجمعة دخلنا عليه. فنزلت: ﴿أَجْعَلْنِي سِقَاةَ الْحَاجِّ وَخِدْمَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

طريق أخرى: قال الوليد بن مسلم: حدثني معاوية بن سلام، عن جده أبي سلام الأسود، عن النعمان بن بشير الأنصاري قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي ألا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلت. فزجرهم عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ. وذلك يوم الجمعة - ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. قال: ففعل، فأنزل الله، ﷻ: ﴿أَجْعَلْنِي سِقَاةَ الْحَاجِّ وَخِدْمَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. رواه مسلم في صحيحه، وأبو داود - وابن جرير وهذا اللفظ - وابن مردويه، وابن أبي حاتم في تفاسيرهم وابن حبان في صحيحه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا آيَاتِهِمْ وَلِخَوْنِكُمْ أُولَئِكَ إِذَا اسْتَعَاذَ الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَنَ يَتَوَلَّوْهُمُ يَنْكُرُوا قَوْلَكُمْ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتٌ كَسَبْتُمْهَا وَإِسْكُنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَزَرَبُوهَا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٢٤﴾.

أمر تعالى بمباينة الكفار به، وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم إذا «استعوا» أي: اختاروا الكفر على الإيمان، وتوعد على ذلك كما قال تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحِهِ وَمَنْ يَنْهَهِمْ عَنْ تَجَوُّرِ يَدَيْهِمْ مِنَ الْكُفْرِ﴾ الآية.

[المجادلة: ٢٢]. وروى الحافظ أبو بكر البيهقي من حديث عبد الله بن شاذب قال: جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله، فأنزل الله فيه هذه الآية: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْفِكُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [المجادلة: ٢٢]. ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرباته وعشيرته على الله وعلى رسوله وجهاد في سبيله، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: اكتسبتموها وحصلتموها ﴿وَبُحُورَةٌ مَخْشَوَةٌ كَسَادًا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا﴾ أي: تحبونها لطيبها وحسنها، أي: إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لَهَيْعَةَ، عن زُهْرَةَ بن مَعْبُدٍ، عن جده قال: كنا مع رسول الله ﷺ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال: والله لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه». فقال عمر: فأنْتَ الآن والله أحب إلي من نفسي. فقال رسول الله ﷺ: «الآن يا عمر». انفرد بإخراجه البخاري، فرواه عن يحيى بن سليمان، عن ابن وهب، عن خَيْثَمَةَ بن شَرِيحٍ، عن أبي عُقَيْلٍ زهرة بن مَعْبُدٍ، أنه سمع جده عبد الله بن هشام، عن النبي ﷺ بهذا. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين». وروى الإمام أحمد، وأبو داود - واللفظ له - من حديث أبي عبد الرحمن الخراساني، عن عطاء الخراساني، عن نافع، عن ابن عمر قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا تابعتهم بالعين، وأخذتهم بأذناب البقر، ورضيتهم بالزرع، وتركتهم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم». وروى الإمام أحمد أيضاً عن يزيد بن هارون، عن أبي جناب، عن شهر بن حوشب أنه سمع عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ ينحو ذلك، وهذا شاهد للذي قبله، والله أعلم.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْهَتْكُمْ لَمْ تَغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَاءٍ رَجِيَّتٍ ثُمَّ لَمْ تُنْقِمْ تُدْرِكُكُمْ﴾ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ حُدُودَ لَهُمْ وَنَزَلَ عَلَيْهِمْ الْغُفْرَانُ فَكَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يُؤْتِي اللَّهُ مِمَّا بَعَدَ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧).

قال ابن جرير، عن مجاهد: هذه أول آية نزلت من سورة «براءة». يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله، وأن ذلك من عنده تعالى، ويتأييده وتقديره، لا بعددهم ولا يقددهم، ونبهم على أن النصر من عنده، سواء قل الجمع أو كثر، فإن يوم حنين أعجبهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ. ثم أنزل الله نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، كما سنبينه إن شاء الله تعالى مفصلاً، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإماده وإن قل الجمع، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله، والله مع الصابرين.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبي، سمعت يونس يحدث عن الزهري، عن عبيد الله، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة». وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن غريب، لا يسنده كبير أحد غير جرير بن حازم، وإنما روي عن الزهري، عن النبي ﷺ مرسلًا. وقد رواه ابن ماجه والبيهقي وغيره، عن أكثم بن الجؤن، عن رسول الله ﷺ، ينحوه. والله أعلم.

وقد كانت وقعة: «حنين» بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة، وذلك لما فرغ عليه السلام من فتح مكة، وتمهدت أمورها، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله ﷺ، فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك بن عوف النضري، ومعه ثقيف بكما لها، وبنو جُشم وبنو سعد بن بكر، وأوزاع من بني هلال، وهم قليل، وناس من بني عمرو بن عامر، وعوف بن عامر، وقد أقبلوا معهم النساء والولدان والشاء والتَّعَم، وجاؤوا بِقَصَصِهِمْ وَقَضِيضِهِمْ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة، وهم الطلقاء في ألفين أيضاً، فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له «حنين»، فكانت فيه الواقعة في أول النهار في غلس الصبح، انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم، ورشقوا بالنبال، وأصلتوا السيوف، وحملوا حملة رجل واحد، كما أمرهم ملكهم. فعند ذلك ولي المسلمون

مدبرين، كما قال الله، ﷻ، وثبت رسول الله ﷺ، وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو، والعباس عمه أخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخذ بركابها الأيسر، يتقلانها لثلاث تسرع السير، وهو ينوء باسمه، عليه الصلاة والسلام، ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول: «أين يا عباد الله؟ إلي أنا رسول الله»، ويقول في تلك الحال:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كُذِّبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

وثبت معه من أصحابه قريب من مائة، ومنهم من قال: ثمانون، فمنهم: أبو بكر، وعمر، رضي الله عنهما، والعباس وعلي، والفضل بن عباس، وأبو سفيان بن الحارث، وأيمن بن أم أيمن، وأسامة بن زيد، وغيرهم، رضي الله عنهم ثم أمر ﷺ عمه العباس - وكان جهير الصوت - أن ينادي بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة - يعني شجرة بيعة الرضوان، التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها، على ألا يفروا عنه - فجعل ينادي بهم: يا أصحاب السمرة، ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون: يا لبيك، يا لبيك، وانعطف الناس فجعلوا يترجعون إلى رسول الله ﷺ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بغيره على الرجوع، لبس درعه، ثم انحدر عنه، وأرسله، ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ. فلما رجعت شزيمة منهم، أمرهم، عليه السلام، أن يصدقوا الحملة، وأخذ قبضة من التراب بعدما دعا ربه واستنصره، وقال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني» ثم رمى القوم بها، فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينه وفمه ما شغله عن القتال، ثم انهزموا، فاتبع المسلمون أقباءهم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقية الناس إلا والأسارى مجذلة بين يدي رسول الله ﷺ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا يعلى بن عطاء، عن عبد الله بن يسار أبي همام، عن أبي عبد الرحمن الفهري - واسمه يزيد بن أسيد، ويقال: يزيد بن أنيس، ويقال: كُرْز - قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة حنين، فسرنا في يوم قانظ شديد الحر، فنزلنا تحت ظلال الشجر، فلما زالت الشمس لبست لأمتي وركبت فرسي، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ وهو في فسطاطه، فقلت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله، حان الرواح؟ فقال: «أجل». فقال: «يا بلال» فثار من تحت سمرة كان ظله ظل طائر، فقال: لبيك وسعديك، وأنا فداؤك، فقال: «أسرج لي فرسي». فأخرج سرجاً دقته من ليف، ليس فيها أشرف ولا بطر. قال: فأسرج، فركب وركبنا، فصاففناهم عشيئنا وليتنا، فتشامت الخيلان، فولى المسلمون مدبرين، كما قال الله، ﷻ: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ﴾. فقال رسول الله ﷺ: «يا عباد الله، أنا عبد الله ورسوله»، ثم قال: «يا معشر المهاجرين، أنا عبد الله ورسوله». قال: ثم اقتحم رسول الله ﷺ عن فرسه، فأخذ كفاً من تراب، فأخبرني الذي كان أدنى إليه مني: أنه ضرب به وجوههم، وقال: «شامت الوجوه». فهزمهم الله ﷻ. قال يعلى بن عطاء: فحدثني أبناءهم، عن آبائهم، أنهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه تراباً، وسمعنا صلصلة بين السماء والأرض، كإمرار الحديد على الطست الجديد. وهكذا رواه الحافظ البيهقي في «دلائل النبوة» من حديث أبي داود الطيالسي، عن حماد بن سلمة، به.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه جابر بن عبد الله قال: فخرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين، فسبق رسول الله ﷺ إليه، فأعدوا وتهيؤوا في مضائق الوادي وأحنائه، وأقبل رسول الله ﷺ وأصحابه، حتى انحط بهم الوادي في عماية الصبح، فلما انحط الناس ثارت في وجوههم الخيل، فاشتدت عليهم، وانكفأ الناس منهزمين، لا يُقْبِلُ أحد عن أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين يقول: «أيها الناس، هلموا إلي أنا رسول الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله» فلا شيء، وركبت الإبل بعضها بعضاً، فلما رأى رسول الله ﷺ أمرت الناس قال: «يا عباس، اصرخ: يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة». فأجابوه: لبيك، لبيك، فجعل الرجل يذهب ليعطف بغيره، فلا يقدر على ذلك، فيقذف درعه في عنقه، ويأخذ سيفه وقوسه، ثم يؤم الصوت، حتى اجتمع إلى رسول الله ﷺ منهم مائة، فاستعرض الناس فاقبلوا، وكانت الدعوة أول ما كانت بالأنصار، ثم جعلت آخراً بالخزرج، وكانوا صُبراً عند الحرب، وأشرف رسول الله ﷺ في ركبائه، فنظر إلى مُجْتَلِدِ القوم، فقال: «الآن حمي الوطيس». قال: فوالله ما راجعه الناس إلا والأسارى عند رسول الله ﷺ مَلْقُون، فَقَتَلَ الله منهم من قتل، وانهزم منهم من انهزم، وأفاء الله على رسوله أموالهم وأبنائهم. وفي الصحيحين من حديث شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب، رضي الله عنهما، أنه قال له رجل: يا أبا عمارة، أفررت من رسول الله ﷺ يوم حنين، فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفِرْ، إن هوازن كانوا قوماً زَمَاة، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهم، فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث أخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، وهو يقول:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كُذِّبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ
قلت: وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، إنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى، وقد انكشف عنه جيشه، هو مع ذلك على بغلة وليست سريعة الجري، ولا تصلح لكر ولا لفر ولا لهرب، وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوهم وينزّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، وما هذا كله إلا ثقة بالله، وتوكلاً عليه، وعلماً منه بأنه سينصره، ويتم ما أرسله به، ويظهر دينه على سائر الأديان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوَّلَ اللَّهُ سَبِيحَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أي: طمأنينته وثباته على رسوله، ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الذين معه، ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّهُ تَرَاهَا﴾ وهم الملائكة، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا القاسم قال: حدثني الحسن بن عرفة قال: حدثني المعتمر بن سليمان، عن عوف - هو ابن أبي جميلة الأعرابي - قال: سمعت عبد الرحمن مولى ابن بُزْثُنْ، حدثني رجل كان من المشركين يوم حنين قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين، لم يقوموا لنا حَلْبَ شاة - قال: فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم، حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو رسول الله ﷺ - قال: فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه، فقالوا لنا: شأهت الوجوه، ارجعوا. قال: فانهزمتنا، وركبوا أكفاننا، فكانت إياها.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، حدثني محمد بن أحمد بن بَالُوَيْه، حدثنا إسحاق بن الحسن الحربي، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الحارث بن خصيرة، حدثنا القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال ابن مسعود، رضي الله عنه: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فولى عنه الناس، وبقيت معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار، قدمنا ولم نولهم الدبر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة. قال: ورسول الله ﷺ على بغلته يعضي قُدْماً، فحاذت بغلته، فمال عن السرج، فقلت: ارتفع رفعك الله. قال: «ناولني كفاً من التراب». فناولته، قال: فضرب به وجوهمهم، فامتلات أعينهم تراباً، قال: «أين المهاجرون والأنصار؟» قلت: هم هناك. قال: «اهتف بهم». فهتفت بهم، فجاءوا وسيوفهم بأيامهم، كأنها الشهب، وولى المشركون أديارهم. ورواه الإمام أحمد في مسنده عن عفان، به نحوه. وقال الوليد بن مسلم: حدثني عبد الله بن المبارك، عن أبي بكر الهذلي، عن عكرمة مولى ابن عباس، عن شيبه بن عثمان قال: لما رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين قد غرى، ذكرت أبي وعمي وقتل علي وحزمة إياهما، فقلت: اليوم أدرك نأري منه - قال: فذهبت لأجيته عن يمينه، فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائماً، عليه درع بيضاء كأنها فضة، يكشف عنها العجاج، فقلت: عَمَهُ وَلَنْ يَخْذَلَهُ - قال: فجثته عن يساره، فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فقلت: ابنُ عمه وَلَنْ يَخْذَلَهُ. فجثته من خلفه، فلم يبق إلا أن أسورة سورة بالسيف، إذ رفع لي شَوَاطِئ من نار بيني وبينه، كأنه برق، فخفت أن تَمَحَّشَنِي، فوضعت يدي على بصري ومشيت الفهقري، فالتفت رسول الله ﷺ وقال: «يا شيب، يا شيب، ادن مني، اللهم أذهب عنه الشيطان». قال: فرفعت إليه بصري، ولهو أحب إلي من سمعي وبصري، فقال: «يا شيب، قاتل الكفار». رواه البيهقي من حديث الوليد، فذكره، ثم روى من حديث أيوب بن جابر، عن صدقة بن سعيد، عن مصعب بن شيبه عن أبيه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، والله ما أخرجني إسلام ولا معرفة به، ولكني أبيت أن تظهر هوازن على قريش، فقلت وأنا واقف معه: يا رسول الله، إني أرى خيلاً بُلُغاً، فقال: «يا شيبه، إنه لا يراها إلا كافر». فضرب بيده في صدري، ثم قال: «اللهم، اهد شيبه»، ثم ضربها الثانية، ثم قال: «اللهم، اهد شيبه»، ثم ضربها الثالثة ثم قال: «اللهم اهد شيبه». قال: فوالله ما رفع يده من صدري في الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله أحب إلي منه، وذكر تمام الحديث، في التقاء الناس وانهزام المسلمين ونداء العباس واستنصار رسول الله ﷺ حتى هزم الله المشركين.

قال محمد بن إسحاق: حدثني والذي إسحاق بن يسار، عن حدثه، عن جبير بن مطعم، رضي الله عنه، قال: إنا لنع رسول الله ﷺ يوم حنين، والناس يقتتلون، إذ نظرت إلى مثل الجاد الأسود يهوي من السماء، حتى وقع بيننا وبين القوم، فإذا نمل منثور قد ملأ الوادي، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فما كنا نشك أنها الملائكة. وقال سعيد بن السائب بن يسار، عن أبيه قال: سمعت يزيد بن عامر السوائي - وكان شهد حينئذ مع المشركين ثم أسلم بعد - فكنا نسأله عن الرعب الذي ألقى الله في قلوب المشركين يوم حنين، فكان يأخذ الحصاة فيرمي بها في الطُغْست فيطن، فيقول: كنا نجد في أجوافنا مثل هذا. وقد تقدم له شاهد من حديث يزيد بن أبي أسيد، فالله أعلم. وفي صحيح مسلم، عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق أنبأنا مَعْمَر، عن هَمَّام قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالرعب، وأوتيت جوامع الكلم». ولهذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ أَوَّلَ اللَّهُ سَبِيحَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّهُ تَرَاهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾

وقوله: ﴿ثُمَّ يُؤْتِ اللَّهُ مِنْ بَدَدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٨): قد تاب الله على بقية هوازن، وأسلموا وقدموا عليه مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعمانة، وذلك بعد الوقعة بقرب من عشرين يوماً، فعند ذلك خيّرهم بين سببهم وبين أموالهم، فاختاروا سببهم، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة، فردّه عليهم، وقسم أموالهم بين الغانمين، ونفل أناساً من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مائة مائة من الإبل، وكان من جملة من أعطى مائة مالك بن عوف النضري، واستعمله على قومه كما كان، فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها:

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ بِمِثْلِ مُحَمَّدٍ
أَوْفَى وَأَعْطَى لِلْجَزِيلِ إِذَا اجْتَدِي وَمَتَى ثَمًّا يُخْبِزُكَ عَمَّا فِي غَدٍ
وَإِذَا الْكِتَابَةُ عَزَدَتْ أَنْبَاءُهَا بِالسُّنْهَرِيِّ وَهَزَبَ كُلُّ مُهْتَدٍ
فَكَأَنَّهُ لَيْثٌ عَلَى أَشْبَالِهِ وَسَطَ الْهَبَاءَةِ خَادِرٌ فِي مَرْصَدٍ

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا الشَّارِكُوتَ نَحْسَ فَلَا يَقْرَأُوا السَّجْدَ الْحَرَامَ بَدَّ عَلَيْهِمْ هَكَذَا وَإِنْ خَفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ شَاءَ إِلَهَ اللَّهِ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ (٢٩) قَالُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾.

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفي المشركين، الذين هم نجس ديناً، عن المسجد الحرام، وألا يقربوه بعد نزول هذه الآية. وكان نزولها في سنة تسع؛ ولهذا بعث رسول الله ﷺ عليّاً صاحباً أبي بكر، رضي الله عنهما، عامئذ، وأمره أن ينادي في المشركين: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. فأتى الله ذلك، وحكم به شرعاً وقدرأ. وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جُرَيج، أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّا الشَّارِكُوتَ نَحْسَ فَلَا يَقْرَأُوا السَّجْدَ الْحَرَامَ بَدَّ عَلَيْهِمْ هَكَذَا﴾: إلا أن يكون عبداً، أو أحداً من أهل الذمة. وقد روي مرفوعاً من وجه آخر، فقال الإمام أحمد: حدثنا حُسين، حدثنا شريك، عن الأشعث - يعني: ابن سَوار - عن الحسن، عن جابر قال: قال النبي ﷺ: «لا يدخل مسجداً بعد عامنا هذا مشرك، إلا أهل العهد وخدمهم». تفرد به أحمد مرفوعاً، والموقوف أصح إسناداً. وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: كتب عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه: أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، وأتبع نهيه قول الله: ﴿إِنَّا الشَّارِكُوتَ نَحْسَ﴾. وقال عطاء: الحرم كله مسجد، لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَأُوا السَّجْدَ الْحَرَامَ بَدَّ عَلَيْهِمْ هَكَذَا﴾. ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما دلت على طهارة المؤمن، ولما ورد في الحديث الصحيح: «المؤمن لا ينجس». وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات؛ لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم. وقال أشعث، عن الحسن: من صافحهم فليتوضأ. رواه ابن جرير.

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: قال ابن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا: لتتقطع عنا الأسواق، ولتهلك التجارة وليذهب ما كنا نصيب فيها من المرافق، فنزلت: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من وجه غير ذلك. ﴿إِنْ شَاءَ إِلَهَ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي: إن هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق، فعوضهم الله بما قطع عنهم من أمر الشرك، ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب، من الجزية. وهكذا روي عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبّير، وقتادة والضحاك، وغيرهم. ﴿إِلَهَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: بما يصلحكم، ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: فيما يأمر به وينهى عنه؛ لأنه الكامل في أفعاله وأقواله، العادل في خلقه وأمره، تبارك وتعالى؛ ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة، فقال: ﴿قَالُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٢٩)، فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل، ولا بما جاؤوا به، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد، صلوات الله عليه، لأن جميع الأنبياء الأقدمين بشروا به، وأمروا باتباعه، فلما جاء وكفروا به، وهو أشرف الرسل، علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله، بل لحظوظهم وأهوائهم، فلماذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء، وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم؛ ولهذا قال: ﴿قَالُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾.

وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب، بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجاً، فلما استقامت جزيرة العرب أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع؛ ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، فأوعبوا معه، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم، وكان ذلك في عام جذب، ووقت قيظ وحر، وخرج، عليه السلام، يريد الشام لقتال الروم، فبلغ تبوك، فنزل بها وأقام على مائها قريباً من عشرين يوماً، ثم استخار الله في الرجوع، فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس، كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله. وقد استدلل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، أو من أشبههم كالمجوس، لما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر. وهذا مذهب الشافعي، وأحمد - في المشهور عنه - وقال أبو حنيفة، رحمه الله: بل تؤخذ من جميع الأعاجم، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين، ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب. وقال الإمام مالك: بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي، ومجوسي، ووثنى، وغير ذلك، ولما أخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿حَتَّى يُطْغَوْا فِي الْجَزْيَةِ﴾ أي: إن لم يسلموا، ﴿عَنْ يَدِي﴾ أي: عن قهر لهم وغلبة، ﴿وَهُمْ صَافِرُونَ﴾ أي: ذليلون حقيرون مهانون. فهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين، بل هم أذلاء صغرة أشقياء، كما جاء في صحيح مسلم، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه». ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ، من رواية عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال: كتبت لعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، حين صالح نصارى من أهل الشام: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائعنا، وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة، ولا قلاية ولا صومعة راهب، ولا نجد ما خرب منها، ولا نحبي منها ما كان خطط المسلمين، ولا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن ينزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم، ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً، ولا نكتم غشاً للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شركاً، ولا ندعو إليه أحداً؛ ولا نمنع أحداً من ذوي قرائتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه، وأن نوقر المسلمين، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم، في قلنسوة، ولا عمامة، ولا نعلين، ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتفي بكنائهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئاً من السلاح، ولا نحمله معنا، ولا ننقش خواتمنا بالعربية، ولا نبيع الخمر، وأن نجزم مقادير رؤوسنا، وأن نلزم زينا حيشما كنا، وأن نشد الزناير على أوساطنا، وألا نظهر الصليب على كنائسنا، وألا نظهر صلبنا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفياً، وألا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعائين ولا باعوثاً، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، وأن نرشد المسلمين، ولا نطلع عليهم في منازلهم. قال: فلما أتيت عمر بالكتاب، زاد فيه: ولا نضرب أحداً من المسلمين، شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وظفنا على أنفسنا، فلا ذمة لنا وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزُّؤُنَا ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَلَمْ يُؤْتِكُونْ﴾ (٣٠) ﴿أَفَكُذَّبُوا أَجَابَهُمْ وَرَفَضْنَهُمْ أَرْكَبَا بَيْنَ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣١).

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال المشركين الكفار من اليهود والنصارى، لمقاتلتهم هذه المقالة الشنيعة، والفريضة على الله تعالى، فأما اليهود فقالوا في العزير: «إنه ابن الله»، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وذكر السدي وغيره أن الشبهة التي حصلت لهم في ذلك، أن العمالة لما غلبت على بني إسرائيل، فقتلوا علماءهم وسبوا كبارهم، بقي العزير يبيكي على بني إسرائيل وذهاب العلم منهم، حتى سقطت جفون عينيه، فبينما هو ذات يوم إذ مرَّ على جبانه، وإذ امرأة تبكي عند قبر وهي تقول: وامطعمناه! واكاسياه! فقال لها: ويحك من كان يطعمك قبل هذا؟ قالت: الله. قال: فإن الله حي لا يموت! قالت: يا عزير

فمن كان يُعلم العلماء قبل بني إسرائيل؟ قال: الله. قالت: فلم تبكي عليهم؟ فعرف أنه شيء قد وُعظ به. ثم قيل له: إذهب إلى نهر كذا فاغتسل منه، ووضّل هناك ركعتين، فإنك ستلقى هناك شيخاً، فما أطعمك فكله. فذهب ففعل ما أمر به، فإذا شيخ فقال له: افتح فمك. ففتح فمه. فألقى فيه شيئاً كهينة الجمرة العظيمة، ثلاث مرات، فرجع غزير وهو من أعلم الناس بالتوراة، فقال: يا بني إسرائيل، قد جئتكم بالتوراة. فقالوا: يا غزير، ما كنت كذاباً. فعمد فربط على أصبع من أصابعه قلماً، وكتب التوراة بأصبعه كلها، فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء، وأخبروا بشأن غزير، فاستخرجوا النسخ التي كانوا أودعوها في الجبال، وقابلوها بها، فوجدوا ما جاء به صحيحاً، فقال بعض جهلته: إنما صنع هذا لأنه ابن الله. وأما ضالّ النصارى في المسيح فظاهر؛ ولهذا كذّب الله سبحانه الطائفتين فقال: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِالْفَوْهَةِ﴾ أي: لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افتراءهم واختلاقهم، ﴿يَضْمَنُونَ﴾ أي: يشابهون ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلهم من الأمم، ضلوا كما ضل هؤلاء، ﴿فَتَكَلَّمُوا اللَّهُ﴾. قال ابن عباس: لعنهم الله، ﴿أَنْتَ يُؤَفِّكُونَ؟﴾ أي: كيف يضلون عن الحق، وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل؟

وقوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ أَجْسَادَهُمْ وَرُفِعَتُهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾: روى الإمام أحمد، والترمذي، وابن جرير من طرق، عن عدي بن حاتم، رضي الله عنه، أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ قرأ إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاهما، فرجعت إلى أخيها، ورعّبت في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عدي المدينة، وكان رئيساً في قومه طيباً، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحذث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿أَتَعْبُدُونَ أَجْسَادَهُمْ وَرُفِعَتُهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾. قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال: «بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم». وقال رسول الله ﷺ: «يا عدي، ما تقول؟ أيفرك أن يقال: الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يفرك؟ أيفرك أن يقال: لا إله إلا الله؟ فهل تعلم من إله إلا الله؟» ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم، وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيت وجهه استشر ثم قال: «إن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون». وهكذا قال حذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، وغيرهما في تفسير: ﴿أَتَعْبُدُونَ أَجْسَادَهُمْ وَرُفِعَتُهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾: إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا. وقال السدي: استنصحو الرجال، وتركوا كتاب الله وراء ظهورهم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَسْرَوْا إِلَّا يَمْسُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ أي: الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله حل، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَٰهَ أَن يَسِفَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَبِإِذْنِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ أي: ما بعث به رسوله من الهدى ودين الحق، بمجرد جدالهم وافتراءهم، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفى شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل الله به رسوله لا بد أن يتم ويظهر؛ ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَٰهَ أَن يَسِفَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾. والكافر: هو الذي يستر الشيء ويغطيه، ومنه سمي الليل «كافراً»؛ لأنه يستر الأشياء، والزارع كافراً؛ لأنه يغطي الحب في الأرض كما قال: ﴿عَجَبَ الْكَافَرُ بِنَآئِهِ﴾ [الحديد: ٢٠].

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَبِإِذْنِ الْحَقِّ﴾: فالهدى: هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع - ودين الحق: هي الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة. ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيلغ ملك أمتي ما زوى لي منها». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن محمد بن أبي يعقوب: سمعت شقيق بن حيان يحدث عن مسعود بن قبيصة - أو: قبيصة بن مسعود - يقول: صلى هذا الحي من «مُحَارِب» الصبح، فلما صلوا قال شاب منهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها، وإنما عمالها في النار، إلا من اتقى الله وأدى الأمانة». وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثنا سليم بن عامر، عن تميم الداري، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدبر ولا وتر إلا

أدخله هذا الدين، بعزّ عزيز، أو يذلّ ذليل، عزّأ يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر»، فكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعزّ، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذل والصغار والحزبة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثني ابن جابر، سمعت سليم بن عامر قال: سمعت المقداد بن الأسود يقول: «لا يبقى على وجه الأرض بيت مَدَر ولا وَبَر، إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعزّ عزيز، أو يذلّ ذليل، إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها، وإما يذلهم فيدينون لها». وفي المسند أيضاً: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن ابن عون، عن ابن سيرين، عن أبي حذيفة، عن عدي بن حاتم سمعه يقول: دخلت على رسول الله ﷺ فقال: «يا عدي، أسلم تسلم». فقلت: إني من أهل دين قال: «أنا أعلم بدينك منك». فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: «نعم، ألتست من الرُّكُوبِيَّةِ، وأنت تأكل مرباع قومك؟». قلت: بلى. قال: «فإن هذا لا يحل لك في دينك». قال: فلم يَعدْ أن قالها فتواضعت لها، قال: «أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام، تقول: إنما اتبعه ضَعْفَةُ الناس ومن لا قوة له، وقد رَمَتْهُمُ العرب، أتعرف الحيرة؟» قلت: لم أرها، وقد سمعت بها. قال: «فوالذي نفسي بيده، ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الطَّعِينَةُ من الحيرة، حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز». قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم، كسرى بن هرمز، وليُذَلَّلَ المال حتى لا يقبله أحد». قال عدي بن حاتم: فهذه الطَّعِينَةُ تخرج من الحيرة، فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده، لتكونن الثالثة؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها. وقال مسلم: حدثنا أبو معن زيد بن يزيد الرِّقَاشِيُّ، حدثنا خالد بن الحارث، حدثنا عبد الحميد بن جعفر، عن الأسود بن العلاء، عن أبي سلمة، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تُعْبَدَ اللَّاتُ والعُزَّى». فقلت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله ﷻ، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾، إلى قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ أن ذلك تام، قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ﷻ، ثم يبعث الله ريحاً طيبة فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حَبَّة خردل من إيمان يبقی من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم».

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ كَثِيرٍ مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْكَفْلِ وَيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْفُرُونَ أَكْذَبُ وَالْفِصَّةُ وَلَا يُفْقَهُنَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَتَرْتَمِهِمْ بِكَذَابِ الْبِرِّ ۖ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَيُطْرَقُونَ هَذَا مَا كَرِهْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٥﴾.

قال السدي: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى. وهو كما قال، فإن الأحبار هم علماء اليهود، كما قال تعالى: ﴿لَوْ لَا يَهْتَمُّ الرَّيْبِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِ الْإِنَّمَا أَكْلَهُمُ الشَّعْتُ﴾ [المائدة: ٦٣]، والرهبان: عباد النصارى، والقسيسون: علماؤهم، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّيْنَهُمْ وَرَحِمْنَاكَ وَأَنَّهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]. والمقصود: التحذير من علماء السوء وعُباد الضلال، كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبادنا كان فيه شبه من النصارى. وفي الحديث الصحيح: «لتركن سنن من كان قبلكم حذو القعدة بالقعدة». قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟». وفي رواية: فارس والروم؟ قال: «ومن الناس إلا هؤلاء؟». والحاصل التحذير من التشبه بهم في أحوالهم وأقوالهم؛ ولهذا قالت تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْكَفْلِ﴾، وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس، يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف، ولهم عندهم خَزَجٌ وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، واستمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم، طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فاطفاها الله بنور النبوة، وسلمهم إياها، وعوضهم بالدلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله. وقوله تعالى: ﴿وَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق، ويلبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير، وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْفُرُونَ أَكْذَبُ وَالْفِصَّةُ وَلَا يُفْقَهُنَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَتَرْتَمِهِمْ بِكَذَابِ الْبِرِّ﴾: هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس، فإن الناس عالة على العلماء، وعلى العباد، وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس، كما قال بعضهم:

وَعَلَّ أَفْسَدَ الدِّينِ إِلَّا الْمَلُوكُ وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرَهَبَانُهَا؟

وأما الكثر فقال مالك، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أنه قال: هو المال الذي لا تؤدي منه الزكاة. وروى الثوري وغيره

عن عُبَيْدِ اللَّهِ، عن نافع، عن ابن عمر قال: ما أَدَّى زَكَاتَهُ فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما كان ظاهراً لا تؤدى زكاته فهو كنز. وقد رُوِيَ هذا عن ابن عباس، وجابر، وأبي هريرة موقوفاً ومرفوعاً، وعمر بن الخطاب، نحوه، رضي الله عنهم: «أيما مال أَدَيْتَ زَكَاتَهُ فليس بكنز، وإن كان مدفوناً في الأرض، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يَكُوى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض». وروى البخاري من حديث الزهري، عن خالد بن أسلم قال: خرجنا مع عبد الله بن عمر، فقال: هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما نزلت جعلها الله طهراً للأموال. وكذا قال عمر بن عبد العزيز، وعزّك بن مالك: نسخها قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]. وقال سعيد بن محمد بن زياد، عن أبي أمامة أنه قال: حلية السيوف من الكنز، ما أحذثكم إلا ما سمعت. وقال الثوري، عن أبي حصين، عن أبي الضحى، عن جَعْدَةَ بن هُبَيْرَةَ، عن علي، رضي الله عنه، قال: أربعة آلاف فما دونها نفقة، فما كان أكثر منه فهو كنز. وهذا غريب. وقد جاء في مدح الثقل من الذهب والفضة وذم التكثير منهما، أحاديث كثيرة؛ ولتنورد منها هنا طرفاً يدل على الباقي، فقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، أخبرني أبو حصين، عن أبي الضحى، ابن جَعْدَةَ بن هبيرة، عن علي، رضي الله عنه، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَتُوبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال النبي ﷺ: «تَبَا لِلذَّهَبِ، تَبَا لِلْفِضَّةِ» يقولها ثلاثاً، قال: فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: فأَيُّ مال نتخذ؟ فقال عمر، رضي الله عنه: أنا أعلم لكم ذلك فقال: يا رسول الله، إن أصحابك قد شق عليهم وقالوا: فأَيُّ مال نتخذ؟ قال: «لساناً ذاكرًا، وقلبًا شاكراً، وزوجة تعين أحدكم على دينه».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، حدثني سالم، حدثني عبد الله بن أبي الهذيل، حدثني صاحب لي أن رسول الله ﷺ قال: «تَبَا لِلذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ». قال: فحدثني صاحبي أنه انطلق مع عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، قولك: «تَبَا لِلذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ»، ماذا ندخر؟ قال رسول الله ﷺ: «لساناً ذاكرًا، وقلبًا شاكراً، وزوجة تعين على الآخرة».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا عبد الله بن عمرو بن مرة، عن أبيه، عن سالم بن أبي الجعد، عن ثوبان قال: لما نزل في الفضة والذهب ما نزل قالوا: فأَيُّ المال نتخذ؟ قال عمر: أنا أعلم ذلك لكم فأوضع على بعير فأدركه، وأنا في أثره، فقال: يا رسول الله، أي المال نتخذ؟ قال: «ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذاكرًا وزوجة تعين أحدكم في أمر الآخرة». ورواه الترمذي، وابن ماجه، من غير وجه، عن سالم بن أبي الجعد. وقال الترمذي: حسن، وحكى عن البخاري أن سالمًا لم يسمعه من ثوبان. قلت: ولهذا رواه بعضهم عنه مرسلاً، والله أعلم.

حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حميد بن مالك، حدثنا يحيى بن يعلى المحاربي، حدثنا أبي، حدثنا غَيْلَان بن جامع المحاربي، عن عثمان أبي اليقظان، عن جعفر بن إياس، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ الآية، كُبر ذلك على المسلمين، وقالوا: ما يستطيع أحد منا أن يترك لولده مالاً يبقى بعده. فقال عمر: أنا أفرج عنكم. فانطلق عمر واتبه ثوبان، فأتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، إنه قد كُبر على أصحابك هذه الآية. فقال نبي الله ﷺ: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم وإنما فرض الموارث من أموال تبقى بعدكم». قال: فكُبر عمر، ثم قال له النبي ﷺ: «ألا أخبرك بخير ما يكثر المرء؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرته، وإذا أسرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته». ورواه أبو داود، والحاكم في مستدركه، وابن مردويه من حديث يحيى بن يعلى، به. وقال الحاكم: صحيح على شرطهما، ولم يخرجاه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا الأوزاعي، عن حسان بن عطية قال: كان شداد بن أوس، رضي الله عنه، في سفر، فنزل منزلاً، فقال لغلامه: اثنا بالشفرة نَعَبْتُ بها. فأنكرت عليه، فقال: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطئها وأزهد غير كلمتي هذه، فلا تحفظونها علي، واحفظوا ما أقول لكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات: اللهم، إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، وأسألك لساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب».

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوهُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [٣٥] أي: يقال لهم هذا الكلام تبيكتنا وتقرئنا وتهكمنا، كما في قوله: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ [٤٨] ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ [٤٩] أي: هذا بذلك، وهو الذي كنتم تكنزون لأنفسكم؛ ولهذا يقال: من

أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله، عُدب به. وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم، عذبوا بها، كما كان أبو لهب، لعنه الله، جاهداً في عداوة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، وامرأته تعينه في ذلك، كانت يوم القيامة عوناً على عذابه أيضاً ﴿فِي جِيدِهَا﴾ أي: في عنقها ﴿حَبْلٌ مِّن نَّسِيمٍ﴾ [المد: ٥] أي: تجمع من الحطب في النار وتلقي عليه، ليكون ذلك أبلغ في عذابه ممن هو أشفق عليه - كان - في الدنيا، كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها، كانت أضرب الأشياء عليهم في الدار الآخرة، فيحرق عليها في نار جهنم، وناهيك بحرهما، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. قال سفيان، عن الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود: والله الذي لا إله غيره، لا يكوى عبد بكنز، فيمس دينار ديناراً، ولا درهم درهماً، ولكن يوسّع جلده، فيوضع كل دينار ودرهم على حذته. وقد رواه ابن مَرْدُويه، عن أبي هريرة مرفوعاً، ولا يصح رفعه، والله أعلم. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرُ، عن ابن طاوس، عن أبيه قال: بلغني أن الكنز يتحول يوم القيامة شجاعاً يتبع صاحبه، وهو يفر منه ويقول: أنا كنزك! لا يدرك منه شيئاً إلا أخذه. وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن مَعْدَانِ بن أبي طلحة، عن ثُوبَانَ بن نبي الله ﷺ كان يقول: «من ترك بعده كنزاً مثلاً له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان، يتبعه، يقول: ويلك ما أنت؟ فيقول: أنا كنزك الذي تركته بعدك! ولا يزال يتبعه حتى يُلْقِمَهُ يده فَيَقْضِيَصْهَا ثم يتبعه سائر جسده». ورواه ابن حبان في صحيحه، من حديث يزيد، عن سعيد به. وأصل هذا الحديث في الصحيحين من رواية أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي صحيح مسلم، من حديث سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل يوم القيامة صفائح من نار يكوى بها جنبه وجبهته وظهره، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين الناس ثم يُرَى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» وذكر تمام الحديث. وقال البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن حُصَيْن، عن زيد بن وهب قال: مررت على أبي ذر بالربذة، فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض؟ قال: كنا بالشام، فقرأت: ﴿وَالَّذِينَ يَكُونُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فقال معاوية: ما هذه فينا، ما هذه إلا في أهل الكتاب. قال: قلت: إنها لفينا وفيهم. ورواه ابن جرير من حديث عبيد بن القاسم، عن حصين، عن زيد بن وهب، عن أبي ذر، رضي الله عنه، فذكره وزاد: فارتفع في ذلك بيني وبينه القول، فكتب إلى عثمان يشكوني، فكتب إليَّ عثمان أن أقبل إليه، قال: فأقبلت، فلما قدمت المدينة ركبني الناس كأنهم لم يروني قبل يومئذ، فشكوت ذلك إلى عثمان، فقال لي: تَنَحَّ قريباً. قلت: والله لن أدع ما كنت أقول. قلت: كان من مذهب أبي ذر، رضي الله عنه، تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال، وكان يفتي الناس بذلك، ويحثهم عليه، ويأمرهم به، ويغلظ في خلافه. فنها معاوية فلم ينته، فخشى أن يضر بالناس في هذا، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان، وأن يأخذه إليه، فاستقدمه عثمان إلى المدينة، وأنزل به بالربذة وحده، وبها مات، رضي الله عنه، في خلافة عثمان. وقد اختبره معاوية، رضي الله عنه، وهو عنده، هل يوافق عمله قوله؟ فبعث إليه بألف دينار، ففرقها من يومه، ثم بعث إليه الذي أتاه بها فقال: إن معاوية إنما بعثني إلى غيرك فأخطأت، فهات الذهب! فقال: ويحك! إنها خرجت، ولكن إذا جاء مالي حاسبناك به. وهكذا روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنها عامة. وقال السدي: هي في أهل القبلة.

وقال الأحنف بن قيس: قدمت المدينة، فبينما أنا في حلقة فيها ملاً من قريش، إذ جاء رجل أخشن الثياب، أخشن الجسد، أخشن الوجه، فقام عليهم فقال: بشر الكانزين برُضف يحرق عليه في نار جهنم، فيوضع على حلمة تُذِي أحدهم حتى يخرج من نُفْخِ كنفه، ويوضع على نُفْخِ كنفه حتى يخرج من حلمة تُذِيه يتزلزل - قال: فوضع القوم رؤوسهم، فما رأيت أحداً منهم رَجَعَ إليه شيئاً - قال: وأدبر فاتبعته حتى جلس إلى سارية، فقلت: ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم. فقال: إن هؤلاء لا يعلمون شيئاً. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: «ما يسرنى أن عندي مثل أحد ذهباً يمر عليه ثالثة وعندني منه شيء، إلا دينار أرسده لدين». فهذا - والله أعلم - هو الذي حدا أبا ذر على القول بهذا. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن سعيد بن أبي الحسن، عن عبد الله بن الصامت، رضي الله عنه، أنه كان مع أبي ذر، فخرج عطاؤه ومعه جارية له، فجعلت تقضي حوائجه، ففضلت معها سبعة، فأمرها أن تشتري به فلساً. قال: قلت: لو ادخرته للحاجة تُثَوِّبُك وللضيف ينزل بك قال: إن خليلي عهد إليَّ أن أيما ذهب أو فضة أوكي عليه، فهو جمر على صاحبه، حتى يفرغه في سبيل الله، ﷺ. ورواه عن يزيد، عن همام، به وزاد: إفراغاً. وقال الحافظ ابن عساكر بسنده إلى أبي بكر الشبلي في ترجمته،

عن محمد بن مهدي: حدثنا عمرو بن أبي سلمة، عن صدقة بن عبد الله، عن طلحة بن زيد، عن أبي فزوة الزهاوي، عن عطاء، عن أبي سعيد، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «القي الله فقيراً ولا تلقه غنياً». قال: يا رسول الله، كيف لي بذلك؟ قال: «ما سُئِلْتُ فلا تمنع، وما رُزِقْتُ فلا تَحْبَأْ»، قال: يا رسول الله، كيف لي بذلك؟ قال رسول الله ﷺ: «هو ذاك وإلا فالنار»، إسناده ضعيف. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا عتيبة، عن يزيد بن أسرم قال: سمعت علياً، رضي الله عنه، يقول: مات رجل من أهل الصُّفَّة، وترك دينارين - أو: درهمين - فقال رسول الله ﷺ: «كَيْتَانِ، صلوا على صاحبكم». وقد روى هذا من طرف آخر. وقال قتادة، عن شُهْر بن حَوْشَب، عن أبي أمامة صُدِّي بن عَجْلان قال: مات رجل من أهل الصُّفَّة، فوجد في مئزره دينار، فقال رسول الله ﷺ: «كَيْة». ثم تُوفي رجل آخر فوجد في مئزره ديناران، فقال رسول الله ﷺ: «كَيْتَانِ». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الفراءديسي، حدثنا معاوية بن يحيى الأطرابلسي، حدثني أوطاة، حدثني أبو عامر الهَوْزَنِي، سمعت ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: ما من رجل يموت وعنده أحمر أو أبيض، إلا جعل الله بكل قيراط صفحة من نار يَكْوِي بها من قدمه إلى ذقنه. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمود بن خِذَّاش، حدثنا سيف بن محمد الثوري، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يوضع الدينار على الدينار، ولا الدرهم على الدرهم، ولكن يُوسَّع جلده فيكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكذبون». سيف - هذا - كذاب، متروك.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرَمٌ ذَلِكَ الْكِتَابُ الْقَدِيمُ فَلَا تَظْلُمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ وَتَقَبَّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَأَنَّهُمْ يَفْقَهُونَ كَلَامَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ٣٦﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، أخبرنا أيوب، أخبرنا محمد بن سيرين، عن أبي بكر، أن النبي ﷺ خطب في حجة، فقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مُضَر الذي بين جُمَادَى وشعبان». ثم قال: «أي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى. ثم قال: «أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى. ثم قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليست البلدة؟» قلنا: بلى. قال: «فإن دماءكم وأموالكم - قال: وأحسبكم - ألا لا ترجعوا بعدي ضللاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ ألا ليلغ الشاهد الغائب منكم، فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من يسمعه». ورواه البخاري في التفسير وغيره، ومسلم من حديث أيوب، عن محمد - وهو ابن سيرين - عن عبد الرحمن ابن أبي بكر، عن أبيه، به. وقد قال ابن جرير: حدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا روح، حدثنا أشعث، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات، ورجب مضرب بين جُمَادَى وشعبان». ورواه البزار، عن محمد بن معمر، به. ثم قال: لا يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه، وقد رواه ابن عَوْن وقرّة، عن ابن سيرين، عن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن أبيه، به. وقال ابن جرير أيضاً: حدثني موسى بن عبد الرحمن المسروقي، حدثنا زيد بن حُبَاب، حدثنا موسى بن عبيدة الربذي، حدثنا صدقة بن يسار، عن ابن عمر قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنى في أوسط أيام التشريق فقال: «أيها الناس، إن الزمان قد استدار، فهو اليوم كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، أولهن رَجَبُ مضرب بين جُمَادَى وشعبان، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم». وروى ابن مَرْذُويه من حديث موسى بن عُيَيْدَةَ، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمرو، مثله أو نحوه.

وقال حماد بن سلمة: حدثني علي بن زيد، عن أبي حُرَّة: حدثني الزقاشي، عن عمه - وكانت له صحبة - قال: كنت أخذاً بزمام ناقة رسول الله ﷺ في أوسط أيام التشريق، أذود الناس عنه، فقال رسول الله ﷺ: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم فلا تظلموا فيهن أنفسكم». وقال سعيد بن منصور: حدثنا أبو معاوية، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: «مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرَمٌ» قال: محرم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة. وقوله ﷺ في الحديث: «إن الزمان قد استدار

كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض»، تقرير منه، صَلَّوات الله وسلامه عليه، وتثبيت للأمر على ما جعله الله تعالى في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نسيء ولا تبديل، كما قال في تحريم مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة»، وهكذا قال ههنا: «إن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض» أي: الأمر اليوم شرعاً كما ابتدأ الله ذلك في كتابه يوم خلق السموات والأرض. وقد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث: إن المراد بقوله: «قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»، أنه اتفق أن حج رسول الله ﷺ في تلك السنة في ذي الحجة، وأن العرب قد كانت نسات النسيء، يحجون في كثير من السنين، بل أكثرها، في غير ذي الحجة، وزعموا أن حجة الصديق في سنة تسع كانت في ذي القعدة، وفي هذا نظر، كما سنبينه إذا تكلمنا على النسيء. وأغرب منه ما رواه الطبراني، عن بعض السلف، في جملة حديث: أنه اتفق حج المسلمين واليهود والنصارى في يوم واحد، وهو يوم النحر، عام حجة الوداع، والله أعلم.

حاشية فصل

ذكر الشيخ علم الدين السخاوي في جزء جمعه سماه «المشهور في أسماء الأيام والشهور»: أن المحرم سمي بذلك لكونه شهراً محرماً، وعندي أنه سمي بذلك تأكيداً لتحريمه؛ لأن العرب كانت تَتَقَلَّبُ به، فتحله عاماً وتحرمه عاماً. قال: ويجمع على محرمات، ومحارم، ومحاريم. صفر: سمي بذلك لخلو بيوتهم منه، حين يخرجون للقتال والأسفار، يقال: «صَفَرَ المكان»: إذا خلا، ويجمع على أصفار كجمل وأجمال. شهر ربيع أول: سمي بذلك لارتباعهم فيه. والارتباع الإقامة في عمارة الرُّبْع، ويجمع على أربعاء كنصيب وأنصاء، وعلى أربعة، كزغيف وأرغفة. ربيع الآخر: كالأول. جُمادى: سمي بذلك لجمود الماء فيه. قال: وكانت الشهور في حسابهم لا تدور. وفي هذا نظر؛ إذ كانت شهورهم منوطة بالأهلة، ولا بد من دورانها، فلعلمهم سموه بذلك، أول ما سمي عند جمود الماء في البرد، كما قال الشاعر:

وَلَيْلَةٍ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ الْيَدِيَّةِ لَا يُبْهِرُ الْعَبْدُ فِي ظُلُمَاتِهَا الطُّنْبَا
لَا يَنْبَحُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ حَشَى يَلْفٌ عَلَى خُرْطُومِهِ الذُّنْبَا
ويُجمع على جُمَاديات، كحبارى وخُبَاريات، وقد يذكر ويؤنث، فيقال: جمادى الأولى والأول، وجمادى الآخر والآخرة. رجب: من الترجيب، وهو التعظيم، ويجمع على أرجاب، ورَجَاب، ورَجَبَات. شعبان: من تشعب القبائل وتفرقها للغارة ويجمع على شُعَابين وشُعَبانات. رمضان: من شدة الرمضاء، وهو الحر، يقال: «رمضت الفصال»: إذا عطشت، ويجمع على رَمَضَانَات ورَمَاضِينَ وأَرْمُضَةٍ قال: وقول من قال: «إنه اسم من أسماء الله»؛ خطأ لا يرجع عليه، ولا يلتفت إليه. قلت: قد ورد فيه حديث؛ ولكنه ضعيف، وبينته في أول كتاب الصيام. شوال: من شالت الإبل بأذنابها للطراق، قال: ويجمع على شواول وشَوَائِل وشَوَالَات. القعدة: بفتح القاف - قلت: وكسرها - لعودهم فيه عن القتال والترحال، ويجمع على ذوات القعدة. الحجة: بكسر الحاء - قلت: وفتحها - سمي بذلك لإيقاعهم الحج فيه، ويجمع على ذوات الحجة.

أسماء الأيام: أولها الأحد ويجمع على آحاد، وأحاد ووحد. ثم يوم الاثنين، ويجمع على أثانين. الثلاثاء: يمد، ويُذَكَّر ويؤنث، ويجمع على ثلاثاوات وأثالث. ثم الأربعاء بالمد، ويجمع على أربعاوات وأرابع. والخميس: يجمع على خمسة وأخماس، ثم الجمعة - بضم الميم، وإسكانها، وفتحها أيضاً - ويجمع على جُمُع وجُمُعَات. السبت: مأخوذ من السَّبْت، وهو القطع؛ لانتفاء العدد عنده. وكانت العرب تسمي الأيام: أول ثم أهون، ثم جُبَار، ثم دبار، ثم مؤنس، ثم العروبة، ثم شيار، قال الشاعر - من العرب العاربة المتقدمين -:

أَرْجُي أَنْ أَعْيِشَ وَأَنْ يَمُوتَ بِي بِأَوَّلِ أَوْ بِأَهْوَنَ أَوْ جُبَارَ
أَوْ السَّيَالِي دُبَارَ فَإِنْ أَفْشَى فَمُؤْنَسَ أَوْ عَسْرِيَّةَ أَوْ شِيَارَ

وقوله تعالى: «وَيَسَّأَلُكَ رَبُّكَ عَنْ هَؤُلَاءِ أَمْ يَحْمِلُونَكَ عَلَى الضُّلَّةِ فَتَحْمِلُهُمْ ظِلْفُهُمْ» : فهذا مما كانت العرب أيضاً في الجاهلية تحرمه، وهو الذي كان عليه جمهورهم، إلا طائفة منهم يقال لهم: «البُشَل»، كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر، تعميقاً وتشديداً. وأما قوله: «ثلاث متواليات»: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، فإنما أضافه إلى مضر، ليبين صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان، لا كما كانت تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال، وهو رمضان اليوم، فبين، عليه الصلاة والسلام، أنه رجب مضر لا رجب ربيعة. وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة، ثلاثة سرَّدَ واحد فرد؛

وقوله: ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ قَالُوا: أَي: هذا هو الشرع المستقيم، من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم، والحَلْو بها على ما سبق في كتاب الله الأول. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَقْلِبُوا فِيهِ تَسْكَمٌ﴾: أي: في هذه الأشهر المحرمة؛ لأنه أكد وأبلغ في الإثم من غيرها، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُدْرِ فِيهِ بِالْعَمَاءِ يُطْلِقُ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ آلِهَةٍ﴾ [الحج: ٢٥]، وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام؛ ولهذا تغلظ فيه الدية في مذهب الشافعي، وطائفة كثيرة من العلماء، وكذا في حَقِّ من قتل في الحرم أو قتل ذا محرم. وقال حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَلَا تَقْلِبُوا فِيهِ تَسْكَمٌ﴾: قال: في الشهور كلها. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ الآية: ﴿فَلَا تَقْلِبُوا فِيهِ تَسْكَمٌ﴾: في كلهن، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حراماً، وعظم حرمتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم. وقال قتادة في قوله: ﴿فَلَا تَقْلِبُوا فِيهِ تَسْكَمٌ﴾: إن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزراً، من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء. قال إن الله اصطفى صَفَايَا من خلقه، اصطفى من الملائكة رسلاً، ومن الناس رسلاً، واصطفى من الكلام ذكره، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلة القدر، فَعَظَّمُوا ما عظم الله، فإنما تُعَظَّم الأمور بما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل. وقال الثوري، عن قيس بن مسلم، عن الحسن بن محمد بن الحنفية: بالآ تحرموهن كحرمتهن. وقال محمد بن إسحاق: ﴿فَلَا تَقْلِبُوا فِيهِ تَسْكَمٌ﴾: أي: لا تجعلوا حرامها حلالاً ولا حلالها حراماً، كما فعل أهل الشرك، فإنما النسيء الذي كانوا يصنعون من ذلك، زيادة في الكفر ﴿يُحْسَلُ بِهِ الْيَتِيمَ كَثْرًا﴾ الآية [التوبة: ٣٧]. وهذا القول اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ أي: جميعكم، ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ أي: جميعهم، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾. وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام: هل هو منسوخ أو محكم؟ على قولين: أحدهما - وهو الأشهر - أنه منسوخ؛ لأنه تعالى قال ههنا: ﴿فَلَا تَقَاتِلُوا فِيهِ أَفْسَاسَكُمْ﴾، وأمر بقتال المشركين وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمراً عاماً، فلو كان محرماً ما في الشهر الحرام لأوشك أن يقيد بانسلاخها؛ ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام - وهو ذو القعدة - كما ثبت في الصحيحين: أنه خرج إلى هوازن في شوال، فلما كسرهم واستفاء أموالهم، ورجع فلهم، فلدجؤوا إلى الطائف - عمد إلى الطائف فحاصرها أربعين يوماً، وانصرف ولم يفتحها فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام. والقول الآخر: أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام، وأنه لم ينسخ تحريم الحرام، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا سَعْيَكُمْ إِلَىٰ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ الآية [المائدة: ٢]، وقال: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتِ وَالْحُرُمَاتُ قِسَاصٌ مِمَّنْ أَعْتَدْنَا عَلَيْهِمْ فَإِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْلُوتُ فَأَنْتَهُنَّ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ الآية [التوبة: ٥٠]. وقد تقدم أنها الأربعة المقررة في كل سنة، لا أشهر التيسير على أحد القولين.

وأما قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله، وأنه حكم مستأنف، ويكون من باب التهيج والتحريض، أي: كما يجتمعون لحربكم إذا حاربكم فاجتمعوا أنتم أيضاً لهم إذا حاربتموهم، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداية منهم، كما قال تعالى: ﴿الْقَهْرُ لِلَّهِ يُالِئْتُمُ الْكُفْرَ وَالْكَرْبَ إِصْرًا﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقِيلُوا عَنْ الْقَسَدِ الْأَزْوَاجِ حَتَّى يَسْجُدَ الْكُفْرَاءُ فِيهِ فَإِنْ فُتِلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ الآية [البقرة: ١٩١]، وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف، واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام، فإنه من تمتة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف، فإنهم هم الذين ابتدؤوا القتال، وجمعوا الرجال، ودعوا إلى الحرب والنزال، فعندها قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم، فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم، فنالوا من المسلمين، وقتلوا جماعة، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريباً من أربعين يوماً. وكان ابتداءه في شهر حلال، ودخل الشهر الحرام، فاستمر فيه أياماً، ثم قفل عنهم لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء، وهذا هو أمر مقرر، وله نظائر كثيرة، والله أعلم. ولنذكر الأحاديث الواردة في ذلك وقد حررنا ذلك في السيرة، والله أعلم.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَ مَا كَانَ لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلِلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْتٌ لَّهُمْ سَوْءٌ أَغْمَلِيهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله، فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أخذوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم وتأخيرهم إلى صفر، فيحلون الشهر الحرام، ويحرمون الشهر الحلال، ليواطئوا عدة الأشهر الأربعة، كما قال شاعرهم - وهو عمير بن - قيس المعروف بجذل الطعان:

لَقَدْ عَلِمْتَ مَفْدٌ أَنْ قَوْمِي كَرَامَ النَّاسِ أَنْ لَهُمْ كِرَاماً
أَشْنَا النَّاسِيْنَ عَلَى مَعَد شُهُورَ الْجِلِّ نَجْعَلُهَا حَرَاماً
فَأَيُّ النَّاسِ لَمْ نُذَكَّ بِوَثْرٍ؟ وَأَيُّ النَّاسِ لَمْ نُغْلَكْ لَجَاماً؟

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ قال: النسيء أن جنادة بن عوف بن أمية الكناني، كان يوافي الموسم في كل عام، وكان يكنى «أبا ثمامة»، فينادي: إلا إن أبا ثمامة لا يحاب ولا يعاب، ألا وإن صفر العام الأول حلال. فيحله للناس، فيحرم صفرأ عاماً، ويحرم المحرم عاماً، فذلك قول الله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿الْكَافِرِينَ﴾. وقوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾، يقول: يتروكون المحرم عاماً، وعاماً يحرمونه. وروى العوفي عن ابن عباس نحوه. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، كان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له، فيقول: يا أيها الناس، إني لا أعاب ولا أحاب، ولا مرز لما أقول، إنا قد حرّمنا المحرم، وأخرنا صفر. ثم يجيء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته، ويقول: إنا قد حرّمنا صفر، وأخرنا المحرم. فهو قوله: ﴿لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾، قال: يعني الأربعة ﴿فَيَحْلِلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾، لتأخير هذا الشهر الحرام. وروي عن أبي وائل، والضحاك، وقتادة نحو هذا. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ الآية، قال: هذا رجل من بني كنانة يقال له: «القلّمس»، وكان في الجاهلية، وكانوا في الجاهلية لا يغيّر بعضهم على بعض في الشهر الحرام، يلقي الرجل قاتل أبيه ولا يمدّ إليه يده، فلما كان هو، قال: اخرجوا بنا. قالوا له: هذا المحرم! قال: ننسئ العام، هما العام صفران، فإذا كان العام القابل قضينا جعلناهما محرّمين. قال: ففعل ذلك، فلما كان عام قابل قال: لا تغزوا في صفر، حرّموه مع المحرم، هما محرمان. فهذه صفة غريبة في النسيء، وفيها نظر؛ لأنهم في عام إنما يحرمون على هذا ثلاثة أشهر فقط، وفي العام الذي يليه يحرمون خمسة أشهر، فأين هذا من قوله تعالى: ﴿يُحْلِلُونَ مَا كَانَ لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾؟. وقد روي عن مجاهد صفة أخرى غريبة أيضاً، فقال عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ الآية، قال: فرض الله، ﷻ، الحج في ذي الحجة. قال: وكان المشركون يسمون الأشهر ذا الحجة، والمحرم، وصفر، وربيع، وربيع، وجمادى، وجمادى، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوالاً، وذا القعدة. وذا الحجة يحجون فيه مرة أخرى ثم يسكتون عن المحرم ولا يذكرونه، ثم يعودون فيسمون صفر صفر، ثم يسمون رجب جمادى الآخرة، ثم يسمون شعبان رمضان، ثم يسمون شوالاً رمضان، ثم يسمون ذا القعدة شوالاً، ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة، ثم يسمون المحرم ذا الحجة، فيحجون فيه، واسمه عندهم ذو الحجة، ثم عادوا بمثل هذه القصة فكانوا يحجون في كل شهر عامين، حتى وافق حجة أبي بكر الآخر من العامين في القعدة، ثم حج النبي ﷺ حجة التي حج، فوافق ذا الحجة، فذلك حين يقول النبي ﷺ في خطبته: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض».

وهذا الذي قال مجاهد فيه نظر أيضاً، وكيف تصح حجة أبي بكر وقد وقعت في ذي القعدة، وأنى هذا؟ وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ لِلَّهِ رَسُولًا إِلَى الْآخِرِينَ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ الآية (التوبة: ٣)، وإنما نودي بذلك في حجة أبي بكر، فلو لم تكن في ذي الحجة لما قال تعالى: ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾، ولا يلزم من فعلهم النسيء هذا الذي ذكره، من دوران السنة عليهم، وحجهم في كل شهر عامين؛ فإن النسيء حاصل بدون هذا، فإنهم لما كانوا يحلون شهر المحرم عاماً يحرمون عوضه صفر، وبعده ربيع وربيع إلى آخر السنة والسنة بحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها، ثم في العام القابل يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه، وبعده صفر، وربيع وربيع إلى آخرها فيحلونه عاماً ويحرمونه عاماً؛ ليواطئوا عدة ما

ثم تواعد تعالى على ترك الجهاد فقال: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب، فثاقلوا عنه، فامسك الله عنهم القطر فكان عذابهم. ﴿وَسَيَبْدِلُ قَوْمًا عَرَضَكُمُ﴾ أي: لنصرة نبيه وإقامة دينه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]. ولا تضرؤهم شيئاً أي: ولا تنصروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد، ونكولكم وثاقلكم عنه، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم. وقد قيل: إن هذه الآية، وقوله: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَعْمَلِكُمُ الدِّينَ وَمَنْ حُكِمَ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَحَفَّلُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠] إنهن منسوخات بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَفْئِدَةٍ تَوَلَّوْا نَعْرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾

[التوبة: ١٢٢]، روي هذا عن ابن عباس، وعكرمة، والحسن، وزيد بن أسلم. ورده ابن جرير وقال: إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الجهاد، فتعين عليهم ذلك، فلو تركوه لعوقبوا عليه. وهذا له اتجاه، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

﴿إِلَّا نُنْصِرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْذَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْغَالِبَةُ﴾.

يقول تعالى: ﴿إِلَّا نُنْصِرُهُ﴾ أي: تنصروا رسوله، فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ﴾ أي: عام الهجرة، لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم هارباً صلبة صديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم، ثم يسيرا نحو المدينة، فجعل أبو بكر، رضي الله عنه، يجزع أن يطّلع عليهم أحد، فيخلص إلى الرسول، عليه السلام، منهم أذى، فجعل النبي ﷺ يسكنه ويثبتته ويقول: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما»، كما قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، أنبأنا ثابت، عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي ﷺ، ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. قال: فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما». أخرجاه في الصحيحين. ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أي: تأييده ونصره عليه، أي: على الرسول في أشهر القولين. وقيل: على أبي بكر، وروي عن ابن عباس وغيره، قالوا: لأن الرسول لم تزل معه سكينه، وهذا لا ينافي بتجدد سكينه خاصة بتلك الحال، ولهذا قال: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي: الملائكة، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْغَالِبَةُ﴾. قال ابن عباس: يعني ﴿كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: الشرك و﴿كَلِمَةَ اللَّهِ﴾: هي: لا إله إلا الله. وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: في انتقامه وانتصاره، منبع الجناب، لا يُضَام من لاذ ببابه، واحتى بالتسك بخطابه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله.

﴿أَنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قال سفيان الثوري، عن أبيه، عن أبي الضحى مسلم بن صبيح: هذه الآية: ﴿أَنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أول ما نزل من سورة براءة. وقال معتمر بن سليمان، عن أبيه قال: زعم خضرمي أنه ذكر له أن ناساً كانوا عسى أن يكون أحدهم عليلاً أو كبيراً، فيقول: إني لا أتم، فأنزل الله: ﴿أَنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ الآية. أمر الله تعالى بالنفير العام مع الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، عام غزوة تبوك، لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وختم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المشط والمكره والعسر واليسر، فقال: ﴿أَنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾. وقال علي بن زيد، عن أنس، عن أبي طلحة: كهولاً وشباباً، ما أسمع الله عذر أحداً، ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قُتل. وفي رواية: قرأ أبو طلحة سورة براءة، فأتى على هذه الآية: ﴿أَنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقال: أرى ربنا يستنفرنا شيوخاً وشباباً، جهزوني يا بني. فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول الله حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك. فأبى، فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفونه فيها إلا بعد تسعة أيام، فلم يتغير، فدفنوه بها. وهكذا روي عن ابن عباس، وعكرمة وأبي صالح، والحسن البصري، وشمر بن عطية، ومقاتل بن حيان، والشعبي وزيد بن أسلم: أنهم قالوا في تفسير هذه الآية: ﴿أَنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قالوا: كهولاً وشباباً. وكذا قال عكرمة والضحاك، ومقاتل بن حيان، وغير واحد. وقال مجاهد: شباباً وشيوخاً، وأغنياء ومساكين. وكذا قال أبو صالح، وغيره. وقال الحكم بن عتيبة: مشاغل وغير مشاغل. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يقول: انفروا نشاطاً وغير نشاط. وكذا قال قتادة. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿أَنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قالوا: فإن فينا الثقيل، وذو الحاجة، والضيعة والشغل، والمتيسر به أمر، فأنزل الله وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا خفافاً وثقالاً وعلى ما كان منهم.

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري أيضاً: في العسر واليسر. وهذا كله من مقتضيات العموم في الآية، وهذا اختيار ابن جرير. وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: إذا كان النفير إلى دُروب الروم نفر الناس إليها خفافاً وركباناً، وإذا كان النفير إلى هذه السواحل نفروا إليها خفافاً وثقالاً، وركباناً ومشاة. وهذا تفصيل في المسألة. وقد روي عن ابن عباس، ومحمد بن كعب، وعطاء الخراساني وغيرهم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ وسيأتي الكلام على ذلك

إن شاء الله. وقال السدي: قوله: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يقول: غنياً وفقيراً، وقوياً وضعيفاً، فجاهه رجل يومئذ، زعموا أنه المقداد، وكان عظيماً سميناً، فشكا إليه وسأله أن يأذن له، فأبى فنزلت يومئذ: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس شأنها فنسخها الله، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُثُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١]. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيبَةَ، حدثنا أيوب، عن محمد قال: شهد أبو أيوب مع رسول الله ﷺ بدرًا ثم لم يتخلف عن غزاة للمسلمين إلا وهو في آخرين إلا عاماً واحداً قال: وكان أبو أيوب يقول: قال الله: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقیلاً. وقال ابن جرير: حدثني سعيد بن عمرو السُّكُونِي، حدثنا بِقِيَّةُ، حدثنا حريز، حدثني عبد الرحمن بن ميسرة، حدثني أبو راشد الخُبْرَانِي قال: وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالساً على تابوت من ثوابيت الصيارفة بحمص، وقد فضل عنها من عظمه، يريد الغزو، فقلت له: لقد أعذر الله إليك فقال: أتت علينا سورة [البحوث]: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾. وبه قال حريز: حدثني حبان بن زيد الشَّرْعِي قال: نَفَرْنَا مع صفوان بن عمرو، وكان والياً على حمص قَبْلَ الْفُسُوسِ، إلى الجراجمة فلقيت شيخاً كبيراً هماً، وقد سقط حاجباه على عينيه، من أهل دمشق، على راحلته، فيمن أغار. فأقبلت إليه فقلت: يا عم، لقد أعذر الله إليك. قال: فرفع حاجبيه فقال: يا ابن أخي، استنفرتنا الله خفافاً وثقالاً، إنه من يحبه الله يبتليه، ثم يعيده الله فيقيه. وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر، ولم يعبد إلا الله، ﷻ.

ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله، وبذل المهج في مرضاته ومرضاه رسوله، فقال: ﴿وَيَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: هذا خير لكم في الدنيا والآخرة، ولأنكم تغرمون في النفقة قليلاً، فيغنيكم الله أموال عدوكم في الدنيا، مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة. كما قال النبي ﷺ: «وَنُكْتَلُ الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرده إلى منزله نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة». ولهذا قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن حميد، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسلم». قال: أجدني كارهاً. قال: «أسلم وإن كنت كارهاً».

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَدَّتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

يقول تعالى موبخاً للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وقعدوا عن النبي ﷺ بعد ما استأذنوه في ذلك، مظهرين أنهم ذوو أعذار، ولم يكونوا كذلك، فقال: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ قال ابن عباس: غنيمة قريبة، ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: قريباً أيضاً، ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾ أي: لكانوا جاؤوا معك لذلك، ﴿وَلَكِنْ بَدَّتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ أي: المسافة إلى الشام، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: لكم إذا رجعت إليهم ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي: لو لم تكن لنا أعذار لخرجنا معكم، قال الله تعالى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الْوَيْلَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [١٣] لَا يَسْتَنْذِرُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ [١٤] إِنَّا يَسْتَنْذِرُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَكَانَتْ قُلُوبُهُمْ قَهْرًا فِي رَبِّهِمْ يَرْدُّوكَ [١٥].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو حصين بن يحيى بن سليمان الرازي، حدثنا سفيان بن عيينة، عن مسعر، عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبه أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبه فقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾. وكذا قال موزق العجلي وغيره. وقال قتادة: عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء: ﴿وَإِذَا اسْتَنْذَرُوكَ لِقَاعِ شَأْنِهِمْ فَأَذْنِ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٧]. وكذا زوي عن عطاء الخراساني. وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا. ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الْوَيْلَ صَدَقُوا﴾ أي: في إبداء الأعدار، ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ يقول تعالى: هلا تركتهم لما استأذنوك، فلم تأذن لأحد منهم في القعود، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه. ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله، فقال: ﴿لَا يَسْتَنْذِرُكَ﴾ أي: في القعود عن الغزو ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾؛ لأن أولئك يرون الجهاد قربة، ولما نذهبهم إليه بادروا وامتنلوا.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُنْفِيَيْنَ﴾ أي: في القعود ممن لا عذر له ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم، ﴿وَأَزَلَّاهُنَّ قُلُوبُهُنَّ﴾ أي: شكت في صحة ما جنتهم به، ﴿فَهُنَّ فِي رَبِّهِنَّ بَرْذَوَاتٌ﴾ أي: يتحiron، يُقدِّمون رجلاً ويؤخرون أخرى، وليست لهم قدم ثابتة في شيء، فهم قوم خيارى هلكى، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضل الله فلن تجد له سبيلًا.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ أَلْمَافَهُمْ فَتَبَطَّهْمُ وَقِيلَ لَهُمْ أَعِدُّوا مَعَ الْقَائِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِىكُمْ زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْصُوا جُلُوكُمْ بِبَعُوثِكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَعَنُونَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ أي: معك إلى الغزو ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أي: لكانوا تاهبوا له، ﴿وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ أَلْمَافَهُمْ﴾ أي: أبغض أن يخرجوا معك قدراً، ﴿فَتَبَطَّهْمُ﴾ أي: أخرهم، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَعِدُّوا مَعَ الْقَائِدِينَ﴾ أي: قدراً. ثم بين الله تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِىكُمْ زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: لأنهم جناء مخدولون، ﴿وَلَأَوْصُوا جُلُوكُمْ بِبَعُوثِكُمْ الْفِتْنَةَ﴾ أي: ولاسرعوا السير والمشى بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة، ﴿وَفِيكُمْ سَعَنُونَ لَكُمْ﴾ أي: مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم، يستنصحنونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي هذا إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير. وقال مجاهد، وزيد بن أسلم، وابن جرير: ﴿وَفِيكُمْ سَعَنُونَ لَكُمْ﴾ أي: عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم. وهذا لا يبقى له اختصاص لخروجهم معهم، بل هذا عام في جميع الأحوال، والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين. وقال محمد بن إسحاق: كان فيما بلغني - من استأذن - من ذوي الشرف منهم: عبد الله بن أبي بن سلول والجعد بن قيس، وكانوا أشرفاً في قومهم، فبططهم الله، لعلمه بهم: أن يخرجوا معه، فيفسدوا عليه جنده. وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه، لشرفهم فيهم، فقال: ﴿وَفِيكُمْ سَعَنُونَ لَكُمْ﴾. ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، فأخبر بأنه يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِىكُمْ زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾، فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا مع هذا ما خرجوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَأَدَّوْا لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خِيراً لَأَسْمَحَهُمْ وَلَوْ أَسْمَحَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُرْضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اقْرَبُوا بِرَبِّكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ لَكَانَ خَبيراً لَكُمْ وَأَشَدُّ تَنْبِيهاً﴾ [٤٨] وَإِذَا كُنْتُمْ فِي لَدُنَّا أَجْزاً عَظِيماً ﴿٤٩﴾ وَلَهْدَيْتُهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيماً ﴿٥٠﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨]، والآيات في هذا كثيرة.

﴿لَقَدْ اتَّخَذَ الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلِ وَكَلَّمُوا لَكَ الْأُمُورَ حَقَّ حِكْمَةٍ وَالْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

يقول تعالى محرضاً لنبيه عليه السلام على المنافقين: ﴿لَقَدْ اتَّخَذَ الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلِ وَكَلَّمُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أي: لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماله مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة رتمه العرب عن قوس واحدة، وحاربه يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته، قال عبد الله بن أبي وأصحابه: هذا أمر قد تَوَجَّه. فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿حَقَّ حِكْمَةً الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَن يَكْفُرُ أَتَدْنُ لِي وَلَا تَنْتَهِي إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك يا محمد: ﴿أَتَدْنُ لِي﴾ في القعود ﴿وَلَا تَنْتَهِي﴾ بالخروج معك، بسبب الجوازي من نساء الروم، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي: قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا. كما قال محمد بن إسحاق، عن الزهري، ويزيد بن زومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قالوا: قال رسول الله ﷺ ذات يوم، وهو في جهازه، للجعد بن قيس أخي بني سلمة: «هل لك يا جعد العام في جلاذ بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر لا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنت لك». ففي الجعد بن قيس نزلت هذه: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَكْفُرُ أَتَدْنُ لِي وَلَا تَنْتَهِي﴾ الآية، أي: إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه، أعظم. وهكذا روي عن ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: أنها نزلت في الجعد بن قيس. وقد كان الجعد بن قيس هذا من أشرف بني سلمة، وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لهم: «من سيدكم يا بني سلمة؟» قالوا: الجعد بن قيس،

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلُوكَ فِي الصَّدَقَاتِ إِن أَعْطُوا مِنْهَا رِشْوَةً وَلَئِن لَّمْ يَظْلُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرِشْوَتُهُ

وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي ومن المنافقين ﴿مَنْ يَلِرُكَ﴾ أي: يعيب عليك ﴿فِي﴾ قَسَمِ ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ إذا فرقتها ويتهكم في ذلك، وهم المتهمون المأبونون، وهم مع هذا لا ينكرون للدين، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم؛ ولهذا إن ﴿أَعْطُوا مِنَّا رِشْوًا وَلَئِنْ لَمْ يَعْطُوا مِنَّا إِذَا هُمْ يَسْتَحْطُونَ﴾ أي: يغضبون لأنفسهم. قال ابن جرير: أخبرني داود بن أبي عاصم قال: أتى النبي ﷺ بصدقة، فقسّمها ههنا وههنا حتى ذهبت. قال: ووراء رجل من الأنصار فقال: ما هذا بالعدل! فنزلت هذه الآية. وقال قتادة في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلِرُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ يقول: ومنهم من يطعن عليك في الصدقات. وذكر لنا أن رجلاً من أهل البادية حديث عهد بأعرابية، أتى رسول الله ﷺ وهو يقسم ذهباً وفضة، فقال: يا محمد، والله لئن كان الله أمرك أن تعدل، ما عدلت. فقال نبي الله ﷺ: «ويلك. فمن ذا يعدل عليك بعدي». ثم قال نبي الله: «احذروا هذا وأشباهه، فإن في أمتي أشباه هذا، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، فإذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم». وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «والذي نفسي بيده، ما أعطيتكم شيئاً ولا أمتعنكموه، إنما أنا خازن». وهذا الذي ذكره قتادة شبيه بما رواه الشيخان من حديث الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي سعيد في قصة ذي الخويصرة - واسمه خزرقوص - لما اعترض على النبي ﷺ حين قسم غنائم حنين، فقال له: اعدل، فإنك لم تعدل. فقال: «لقد خيبت وخسرت إن لم أكن أعدل». ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مقفياً: إنه يخرج من ضيضيء هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين مرقوق السهم من الرميّة، فأبنا لقيتموهم فاقتلوهم، فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء» وذكر بقية الحديث.

ثم قال تعالى مُنْبِئاً لَهُمْ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ لَهُمْ، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ ﴿٦١﴾، فنضمت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسراً شريفاً، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده، وهو قوله: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾. وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول وامتثال أوامره، وترك زواجه، وتصديق أخباره، والاقضاء بآثاره.

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُعْتَزِّلِينَ عَلَيْهِ وَالْمَوْلُفَةِ لِقُلُوبِهِمْ فِي الرِّقَابِ وَالْقَدِيرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٦٢﴾.

لما ذكر الله تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ ولمزههم إياه في قَسَمِ الصدقات، بين تعالى أنه هو الذي قسمها وبين حكمها، وتولى أمرها بنفسه، ولم يكل قسّمها إلى أحد غيره، فجزأها لهؤلاء المذكورين، كما رواه الإمام أبو داود في سننه من حديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم - وفيه ضعف - عن زياد بن نعيم، عن زياد بن الحارث الضّداني، رضي الله عنه، قال: أتيت النبي ﷺ فبايعته، فأتى رجل فقال: أعطني من الصدقة فقال له: «إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو، فجزأها ثمانية أصناف، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك». وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية: هل يجب استيعاب الدفع إليها أو إلى ما أمكن منها؟ على قولين: أحدهما: أنه يجب ذلك، وهو قول الشافعي وجماعة. والثاني: أنه لا يجب استيعابها؛ بل يجوز الدفع إلى واحد منها، ويعطي جميع الصدقة مع وجود الباقي. وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف، منهم: عمر، وحذيفة، وابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جبّير، وميمون بن مهران. قال ابن جرير: وهو قول عامة أهل العلم، وعلى هذا فإنما ذكرت الأصناف ههنا لبيان المصروف لا لوجوب استيعاب الإعطاء ولوجوه الحجاج والمآخذ مكان غير هذا، والله أعلم. وإنما قدم الفقراء ههنا لأنهم أحوج من البقية على المشهور، لشدة فاقهم وحاجتهم، وعند أبي حنيفة أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير، وهو كما قال، قال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُليّة، أنبأنا ابن عَرْن، عن محمد قال: قال عمر، رضي الله عنه: الفقير ليس بالذي لا مال له، ولكن الفقير الأخلق الكسب. قال ابن علية: الأخلق: المحارّف عندنا. والجمهور على خلافه. وروى عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن البصري، وابن زيد. واختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير: هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً، والمسكين: هو الذي يسأل ويطوف ويتبع الناس. وقال قتادة: الفقير: من به زمانة، والمسكين: الصحيح الجسم. وقال الثوري، عن منصور، عن إبراهيم: هم فقراء المهاجرين. قال سفيان الثوري: يعني: ولا يُعْطَى الأعرابُ منها شيئاً. وكذا روى عن سعيد بن جبّير، وسعيد بن عبد الرحمن بن أبزي. وقال عكرمة: لا تقولوا لفقراء المسلمين مساكين، وإنما المساكين مساكين أهل الكتاب. ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية. فأما «الفقراء»، فعن ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني» ولا لذي مِرّة سَوِيٍّ. رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي. ولأحمد أيضاً والنسائي، وابن ماجه عن أبي هريرة، مثله. وعن عبيد الله بن

عدي بن الخيار: أن رجلين أخبراه: أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة، فقلب إليهما البصر، فرأهما جُلدين، فقال: «إن شئتما أعطيتكما، ولا حَظَّ فيها لغني ولا لقوي مكتسب». رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي بإسناد جيد قوي. وقال ابن أبي حاتم في كتاب الجرح والتعديل: أبو بكر العيسى قال: قرأ عمر، رضي الله عنه: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾، قال: هم أهل الكتاب. روى عنه عمر بن نافع، سمعت أبي يقول ذلك. قلت: وهذا قول غريب جداً بتقدير صحة الإسناد، فإن أبا بكر هذا، وإن لم ينص أبو حاتم على جهالته، لكنه في حكم المجهول.

وأما المساكين: فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس، فترده اللقمة واللقمتان، والتمر والتمرتان». قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُقنَطُ له فيصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً». رواه الشيخان: البخاري ومسلم.

وأما العاملون عليها: فهم الجبابة والسعاة يستحقون منها قسطاً على ذلك، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة، لما ثبت في صحيح مسلم عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث: أنه انطلق هو والفضل بن عباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة، فقال: «إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس». وأما المؤلفة قلوبهم، فأقسام: منهم من يعطى ليسلم، كما أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين، وقد كان شهدها مشركاً. قال: فلم يزل يعطيني حتى صار أحب الناس إليّ بعد أن كان أبغض الناس إليّ، كما قال الإمام أحمد: حدثنا زكريا بن عدي، أنا ابن المبارك، عن يونس، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن صفوان بن أمية قال: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين، وإنه لأبغض الناس إليّ، فما زال يعطيني حتى صار وإنه لأحب الناس إليّ. ورواه مسلم والترمذي، من حديث يونس، عن الزهري، به. ومنهم من يُعطى ليحسن إسلامه، ويثبت قلبه، كما أعطى يوم حنين أيضاً جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم: مائة من الإبل، مائة من الإبل، وقال: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه، مخافة أن يَكْبَهُ الله على وجهه في نار جهنم». وفي الصحيحين عن أبي سعيد: أن علياً بعث إلى النبي ﷺ بذَهَبِيَّة في تربتها من اليمن قسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعُيينة بن بدر، وعلقمة بن غُلثة، وزيد الخير، وقال: «أنا لفهم». ومنهم من يُعطى لما يرجى من إسلام نظرائه. ومنهم من يُعطى ليحيي الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن خوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد. ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع، والله أعلم. وهل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبي ﷺ؟ فيه خلاف، فروي عن عمر، وعامر الشعبي وجماعة: أنهم لا يُعطون بعده؛ لأن الله قد أعز الإسلام وأهله، ومكَّن لهم في البلاد، وأذل لهم رقاب العباد. وقال آخرون: بل يُعطون؛ لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم.

وأما الرقاب: فروي عن الحسن البصري، ومقاتل بن حيان، وعمر بن عبد العزيز، وسعيد بن جبير، والثخفي، والزهري، وابن زيد: أنهم المكاتبون، وروي عن أبي موسى الأشعري نحوه، وهو قول الشافعي والليث. وقال ابن عباس، والحسن: لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ومالك، وإسحاق، أي: إن الرقاب أعم من أن يعطى المكاتب، أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالاً. وقد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة، وأن الله يعتق بكل عضو منها عضواً من مُعتقها حتى الفرج بالفرج، وما ذاك إلا لأن الجزء من جنس العمل، ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٩]. وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة حق على الله عونهم: الغازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف». رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا أبا داود. وفي المسند عن البراء بن عازب قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله دلني على عمل يقربني من الجنة ويباعدني عن النار. فقال: «أعتق النسمة وفك الرقبة». فقال: يا رسول الله، أو ليس واحداً؟ قال: «لا، عتق النسمة أن تُفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها».

وأما الغارمون: فهم أقسام: فمنهم من تحمّل حمالة أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بماله، أو غرم في أداء دينه أو في معصية ثم تاب، فهو لا يدفع إليهم. والأصل في هذا الباب حديث قبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك بها». قال: ثم قال: «يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمّل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك. ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلت له المسألة حتى يصيب قوماً من عيش - أو قال: سداداً من عيش - ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه، فيقولون: لقد أصابت فلاناً فاقة فحلت له المسألة، حتى يصيب قوماً من عيش - أو قال: سداداً من عيش - فما سواهن من المسألة سحت، يأكلها صاحبها سحتاً». رواه مسلم.

وعن أبي سعيد قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها، فكثر دينه، فقال النبي ﷺ: «تصدقوا عليه». فتصدق الناس، فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبي ﷺ لغرمائه: «خذوا ما وجدتم، وليس لكم إلا ذلك». رواه مسلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، أنبأنا صدقة بن موسى، عن أبي عمران الجوني، عن قيس بن زيد عن قاضي المصريين، عن عبد الرحمن بن أبي بكر قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعو الله بصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يديه، فيقول: يا ابن آدم، فيم أخذت هذا الدين؟ وفيم ضيعت حقوق الناس؟ فيقول يا رب، إنك تعلم أني أخذته فلم أكل ولم أشرب ولم أضيع، ولكن أتى على يدي إما حرق وإما سرق وإما ضيعة. فيقول الله: صدق عبدي، أنا أحق من قضى عنك اليوم. فيدعو الله بشيء فيضعه في كفة ميزانه، فترجح حسناته على سيئاته، فيدخل الجنة بفضل الله ورحمته».

وأما في سبيل الله: فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان، وعند الإمام أحمد، والحسن، وإسحاق: والحج من سبيل الله، للحديث. وكذلك ابن السبيل: وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره، فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال. وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه. والدليل على ذلك الآية، وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه من حديث مغمر، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: العامل عليها، أو رجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غاز في سبيل الله، أو مسكين تصدق عليه منها فأهدى لغني». وقد رواه السفينان، عن زيد بن أسلم، عن عطاء مرسلاً. ولأبي داود في عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني إلا في سبيل الله، وابن السبيل، أو جار فقير فيهدي لك أو يدعوك». وقوله: ﴿فَرِيضَةً يَبْتَغِيهَا اللَّهُ﴾: أي حكماً مقدراً بتقدير الله وقضيه وقسمه، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: أي: عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباد، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله ويقوله ويشعره ويحكم به، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ يَبُذُّونَ الْكَيْدَ وَيَقُولُونَ هُوَ أَذُنٌ قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْتِي لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَرَهُ الْكُفْرَ وَالَّذِينَ يَبُذُّونَ رَسُولَ اللَّهِ هُمْ عَدَاؤُكُمْ﴾.

يقول تعالى: ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه ويقولون: ﴿هُوَ أَذُنٌ﴾ أي: من قال له شيئاً صدقه، ومن حدثه فيها صدقه، فإذا جئنا وحلفنا له صدقنا. روي معناه عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: هو أذن خير، يعرف الصادق من الكاذب، ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْتِي لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ويصدق المؤمنين، ﴿وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَرَهُ﴾ أي: وهو حجة على الكافرين؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يَبُذُّونَ رَسُولَ اللَّهِ هُمْ عَدَاؤُكُمْ﴾.

﴿يَخْلِفُكَ اللَّهُ لَكُمْ لِيُثْبِتَكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْا بِكُمْ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٦﴾ أَلَمْ يَسْلُكُوا أَمْرًا مِنْ مُكَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَلَقَ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿١٧﴾.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿يَخْلِفُكَ اللَّهُ لَكُمْ لِيُثْبِتَكُمْ﴾ الآية، قال: ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقاً، لهم شر من الحمير. قال: فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق، ولأنت أشر من الحمار. قال: فسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: «ما حملك على الذي قلت؟» فجعل يلتعن، ويحلف بالله ما قال ذلك. وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب. فأنزل الله، ﴿يَخْلِفُكَ اللَّهُ لَكُمْ لِيُثْبِتَكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْا بِكُمْ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٦﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَسْلُكُوا أَمْرًا مِنْ مُكَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَلَقَ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا﴾ أي: ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد الله، أي: شاقه وحاربه وخالفه، وكان في حد الله ورسوله في حد ﴿فَأَلَقَ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا﴾، أي: مهاناً معذباً، ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أي: وهذا هو الذل العظيم، والشقاء الكبير.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزَيُّوا رَبَّكَ اللَّهُ تَحِيَّ مَا تَخَذَرُونَ﴾ ﴿١٨﴾ قال مجاهد: يقولون القول بينهم، ثم يقولون: عسى الله ألا يفشي علينا سرنا هذا. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَتَّكَ بِمَا تُرْمِيكَ بِهِ اللَّهُ وَيقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُهُ اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَسْلُوتُهَا فَتَنُ الْقَوْمِ﴾ [المجادلة: ٨]. وقال في هذه الآية: ﴿قُلِ اسْتَزَيُّوا رَبَّكَ اللَّهُ تَحِيَّ مَا تَخَذَرُونَ﴾ أي: إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به، ويبين له أمركم كما قال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْفَانَهُمْ﴾ ﴿١٩﴾ إلى قوله: ﴿وَلَتَعْلَمَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٢٩،

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَاقُوا رَبَّكُمْ فَبَيِّنُوا لَنَا مَا بَيَّنَّوْا لَهُمْ شَرِيئًا مِنْهُمْ لِيُذْخَرُوا مِنَ الْآثَانِ﴾^(١٦٥) لَا تَعْلَمُونَ أَيَّ نَاسٍ لَكُم بَعْدَ الْيَهُودِ إِنَّهُمْ كَانُوا مُتَعَبِينَ ﴿١٦٦﴾

وقال ابن إسحاق: وقد كان جماعة من المنافقين منهم ودعية بن ثابت، أخو بني أمية بن زيد، من بني عمرو بن عوف، ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له: مُحْشَن بن حُمَيْر يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتَحْسِبُونَ جِلَادَ بَنِي الْأَصْفَرِ قَتْلًا الْعَرَبِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؟ وَاللَّهِ لَكُنَّا بِكُمْ غَدًا مُقَرَّنِينَ فِي الْحِبَالِ، إِرْجَافًا وَتَرْهِيبًا لِلْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ مُحْشَنُ بْنُ حُمَيْرٍ: وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَقَاضِي عَلَى أَنْ يَضْرِبَ كُلُّ رَجُلٍ مِائَةَ جِلْدَةٍ، وَإِنَّمَا تَنْفَلْتُ أَنْ يَنْزِلَ فِينَا قُرْآنُ لِمَقَاتِلِكُمْ هَذِهِ. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: -فِيمَا بَلَغَنِي- لِعَمَارِ بْنِ يَاسِرٍ: «أَدْرَكَ الْقَوْمَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ احْتَرَقُوا، فَسَلِّهِمْ عَمَّا قَالُوا، فَإِنْ أَنْكَرُوا فَقُلْ: بَلَى، قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا». فَاذْطَلِقُوا إِلَيْهِمْ عَمَارَ، فَقَالَ ذَلِكَ لَهُمْ، فَأَتُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ، فَقَالَ وَدِيعَةُ بْنُ ثَابِتٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاقِفْ عَلَى رَاحِلَتِهِ، فَجَعَلَ يَقُولُ وَهُوَ آخِذٌ بِحَقَبِهَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخْوَضُ وَنَلْعَبُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ، ﷻ: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخْوَضُ وَنَلْعَبُ﴾. فَقَالَ مُحْشَنُ بْنُ حُمَيْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَعْدَ بِي اسْمِي وَاسْمَ أَبِي. فَكَانَ الَّذِي عَفَى عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُحْشَنُ بْنُ حُمَيْرٍ، فَتَسْمَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يَقْتُلَ شَهِيدًا لَا يَعْلَمُ بِمَكَانِهِ، فَقَتَلَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ، فَلَمْ يَوْجَدْ لَهُ أَثَرٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخْوَضُ وَنَلْعَبُ﴾. قَالَ: فَبَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَرَكِبَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ يَسِيرُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالُوا: يَظُنُّ هَذَا أَنْ يَفْتَحَ قُصُورَ الرُّومِ وَحُصُونَهَا. هَيِّهَاتَ هَيِّهَاتَ. فَاطَّلَعَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ عَلَى مَا قَالُوا، فَقَالَ: «عَلَيَّ بِهَؤُلَاءِ النَّفَرِ». فَدَعَاهُمْ، فَقَالَ: «قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا». فَحَلَفُوا مَا كُنَّا إِلَّا نَخْوَضُ وَنَلْعَبُ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَفَا عَنْهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْمَعُ آيَةَ أَنَا أَعْنَى بِهَا، تَقْشَعُرُ مِنْهَا الْجُلُودُ، وَتَجِيبُ مِنْهَا الْقُلُوبُ، اللَّهُمَّ، فَاجْعَلْ وَفَاتِي قِتْلًا فِي سَبِيلِكَ، لَا يَقُولُ أَحَدٌ: أَنَا عَسَلْتُ، أَنَا كُنْتُ، أَنَا دَفَنْتُ. قَالَ: فَأَصِيبُ يَوْمَ الْيَمَامَةِ، فَمَا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا وَقَدْ وَجَدَ غَيْرَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَسْتَدِيرُوا فَدَّ كَثَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ﴾: أَيُ: بِهَذَا الْمَقَالِ الَّذِي اسْتَهْزَأَتْ بِهِ «إِنْ نَفَعَ عَنْ طَائِفَتِكُمْ شَرَّ ذِي طَائِفَةٍ»: أَيُ: لَا يُعْفَى عَنْ جَمِيعِكُمْ، وَلَا بَدَلٌ مِنْ عَذَابِ بَعْضِكُمْ، ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا أَجْرَمِينَ﴾: أَيُ: مُجْرِمِينَ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ الْفَاجِرَةِ الْخَاطِئَةِ.

﴿الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ يَافِرُونَ﴾ بِالشُّكْرِ وَيَبْرُونَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَتَّقُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُتَّقِينَ هُمْ
الْفَاسِقُونَ ﴿٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ عَذَابٌ مُؤِيمٌ ﴿٨﴾

يقول تعالى منكرًا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرون بال معروف وينهون عن المنكر، كان هؤلاء «يَأْمُرُونَ بِالْمَنكِرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ» أي: عن الإنفاق في سبيل الله، «سَوَاءٌ اللَّهُ أَيْ: نِسْوَا ذَكَرَ اللَّهُ، «فَقَسِيحٌ» أي: عاملهم معاملة من نسيهم، كقوله تعالى: «وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسُوا كَمَا فِيسَرْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا» [الباقية: ٣٤]، «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» أي: الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة. وقوله: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ» أي: على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم، «خَالِدِينَ فِيهَا» أي: ماكثين فيها مخلصين، هم والكفار، «فِي حَسْبِهِمْ» أي: كفايتهم في العذاب، «وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ»، أي: طردهم وأبعدهم، «وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّؤِيمٌ».

﴿كَذَٰلِكَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَآكَثَرَ أَمْوَالًا وَأَوَّلَادًا فَاسْتَعْتَمُوا عِبَادَهُمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَائِقِكُمْ ۖ كَذَٰلِكَ اسْتَمْتَعَ الْكَافِرُونَ مِنَ

قِيلَ لَكُمْ بَخْلُفَهُمْ وَخَضْتُمْ كَذَابًا وَأُولَئِكَ حِطَّتْ أَوْثَانُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾.

يقول تعالى: أصاب هؤلاء من عذاب الله في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم، وقد كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾: قال الحسن البصري: بدينهم، ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخَضْتُمْ كَذَابًا﴾ أي: في الكذب والباطل، ﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي: بطلت مساعيهم، فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب. قال ابن جرير عن عمر بن عطاء، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآية، قال ابن عباس: ما أشبه الليلة بالبارحة، ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ هؤلاء بنو إسرائيل، شبهنا بهم، لا أعلم إلا أنه قال: «والذي نفسي بيده، لتبتعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتموه». قال ابن جرير: وأخبرني زياد بن سعد، عن محمد بن زيد بن مهاجر، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لتبتعن سنن الذين من قبلكم، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، وباعاً بباع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه». قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ أهل الكتاب؟ قال: «فمه». وهكذا رواه أبو مفسر، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، فذكره وزاد: قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم القرآن: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأُولَئِكَ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ﴾ قال أبو هريرة: الخلاق: الدين. ﴿وَخَضْتُمْ كَذَابًا﴾ قالوا: يا رسول الله، كما صنعت فارس والروم؟ قال: «فهل الناس إلا هم». وهذا الحديث له شاهد في الصحيح.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ يَآئِئْتَنَّهُمْ فَمَا كَانُوا يَظْلِمُهُمْ وَلَكِنَّ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٧٠﴾.

يقول تعالى واعظاً لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسول: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسول ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾، وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض، إلا من آمن بعبدته ورسوله نوح، عليه السلام، ﴿وَعَادَ﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم، لما كذبوا هوداً، عليه السلام، ﴿وَتَمُودَ﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً، عليه السلام، وعقروا الناقة، ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم، وأهلك ملكهم النمرود بن كنعان بن كوش الكنعاني لعنه الله، ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وهم قوم شعيب، عليه السلام، وكيف أصابتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ قوم لوط، وقد كانوا يسكنون في مدائن، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ [النجم: ٥٣]، أي: الأمة المؤتفكة، وقيل: أم قراهم، وهي «سدوم». والغرض: أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطاً، عليه السلام، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين. ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ يَآئِئْتَنَّهُمْ﴾ أي: بالحجج والدلائل القاطعات، ﴿فَمَا كَانُوا يَظْلِمُهُمْ﴾ أي: بإهلاكه إياهم؛ لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل ﴿وَلَكِنَّ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسِخِرُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٧١﴾.

لما ذكر الله تعالى صفات المنافقين الذميمة، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة، فقال: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ﴾ أي: يتناصرون ويتعاضدون، كما جاء في الصحيح: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه. وفي الصحيح أيضاً: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر». وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وقوله تعالى: ﴿يُسِخِرُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه، ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: فيما أمر، وترك ما عنه زجر، ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز، من أطاعه أعزه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ﴿حَكِيمٌ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء، وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإن له الحكمة في جميع ما يفعله، تبارك وتعالى.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِمَّنْ اللَّهُ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾.

يخبر تعالى بما أعدّه للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في ﴿جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبداً، ﴿وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ﴾ أي: حسنة البناء، طيبة القرار، كما جاء في الصحيحين من حديث أبي عمران الجوني، عن أبي بكر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن». وبه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للمؤمن في الجنة لَحْنَمَةً من لؤلؤة واحدة مُجَوَّفَةٌ، طولها ستون ميلاً في السماء، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم، لا يرى بعضهم بعضاً» أخرجاه. وفي الصحيحين أيضاً، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة وصام رمضان، فإن حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها». قالوا: يا رسول الله، أفلا نخبر الناس؟ قال: «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألت الله فاسأله الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تَنْفَجِرُ أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن». وعند الطبراني والترمذي وابن ماجه، من رواية زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن معاذ بن جبل، رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ... فذكر مثله. وللترمذي، عن عباد بن الصامت، مثله.

وعن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون الرُفَّة في الجنة، كما تراءون الكوكب في السماء». أخرجاه في الصحيحين. ثم ليعلم أن أعلى منزلة في الجنة مكانٌ يقال له: «الوسيلة» لقربه من العرش، وهو مسكن رسول الله ﷺ من الجنة، كما قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن نَيْث، عن كعب، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صليت عليّ فسلوا الله لي الوسيلة» قيل: يا رسول الله، وما الوسيلة؟ قال: «أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا هو». وفي صحيح مسلم، من حديث كعب بن علقمة، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر، عن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليّ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة يوم القيامة». وفي صحيح البخاري، من حديث محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، إلّا حلت له الشفاعة يوم القيامة». وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن علي الأبار، حدثنا الوليد بن عبد الملك الحراني، حدثنا موسى بن أعين، عن ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله لي الوسيلة، فإنه لم يسألها لي عبد في الدنيا إلّا كنت له شهيداً - أو شفيعاً - يوم القيامة».

وفي مسند الإمام أحمد، من حديث سعد أبي مجاهد الطائي، عن أبي المذله، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قلنا: يا رسول الله، حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لينة ذهب، ولينة فضة، وملاطها المسك، وحصاؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم لا يبأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفتى شبابه». وروي عن ابن عمر مرفوعاً، نحوه. وعند الترمذي من حديث عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن علي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لُغْرَفاً يرى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها». فقام أعرابي فقال: يا رسول الله، لمن هي؟ فقال: «لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام». ثم قال: حديث غريب. ورواه الطبراني، من حديث عبد الله بن عمرو وأبي مالك الأشعري، كل منهما عن النبي ﷺ، بنحوه، وكل من الإسنادين جيد حسن، وعنده أن السائل هو «أبو مالك»، والله أعلم.

وعن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل مُشْمَرٌ إلى الجنة؟ فإن الجنة لا حَظَرٌ لها، هي - ورب الكعبة - نور يتلألأ، وريحانة تَهْتَزُّ، وقصر مُشِيدٌ، ونهر مُطْرَدٌ، وثمرة تُضَيِّجُ، وزوجة حسناء جميلة، وحُلٌّ كثيرة، ومقام في أبد، في دار سليمة، وفاكهة وخضرة وحبة ونعمة في محلة عالية بهية». قالوا: نعم يا رسول الله، نحن المشمرون لها، قال: «قولوا: إن شاء الله». فقال القوم: إن شاء الله. رواه ابن ماجه. وقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِمَّنْ اللَّهُ أَكْبَرُ﴾ أي: رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم، كما قال الإمام مالك، رحمه الله، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد

الخُدري، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله، ﷻ، يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك يا ربنا وسعديك، والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم نعط أحداً من خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» أخرجه من حديث مالك. وقال أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملي: حدثنا الفضل الرُخامي، حدثنا الفُزْياني، عن سفيان، عن محمد بن المُكْدِر، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله، ﷻ: هل تشتهون شيئاً فأزيدكم؟ قالوا: يا ربنا، ما خير مما أعطيتنا؟ قال: رضواني أكبر». ورواه البزار في مسنده، من حديث الثوري، وقال الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «صفة الجنة»: هذا عندي على شرط الصحيح، والله أعلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهَدُوا الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسِّرُ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ الْغُلُظَّ عَلَيْهِمْ وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَذَا بِمَا لَمْ يَدْرُوا أَنَّ اللَّهَ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ تَتَلَوْنَهَا إِنَّ يَتُوبُوا بَكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَنْ يَتُوبُوا يَعِزَّهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا كَانَ فِي الْأَرْضِ مِنْ قَوْمٍ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾.

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة. وقد تقدم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال: بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف، سيف للمشركين: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]، وسيف للكفار أهل الكتاب: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩]، وسيف للمنافقين: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩]، وسيف للبغاة: ﴿تَقَاتِلُوا الَّذِينَ تَنَبَّوْا بِحَقِّ نَبِيٍِّّ وَلَمْ يَأْمُرُ اللَّهُ﴾ [الحجرات: ٩]. وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيف إذا أظهروا النفاق، وهو اختيار ابن جرير. وقال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ قال: بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فقلبه فإن لم يستطع فليكنه في وجهه. وقال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، وأذهب الفرق عنهم. وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف، واغلظ على المنافقين بالكلام، وهو مجاهدتهم. وعن مقاتل، والربيع مثله. وقال الحسن وقادة: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم. وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا بحسب الأحوال، والله أعلم.

وقوله: ﴿يَغْلُظْ اللَّهُ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ قال قتادة: نزلت في عبد الله بن أبي، وذلك أنه اقتتل رجلان: جُهني وأنصاري، فعلا الجهني على الأنصاري، فقال عبد الله للأنصار: ألا تنصروا أخاكم؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: «سمن كلبك ياكلك»، وقال: ﴿لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]. فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ، فأرسل إليه فسأله، فجعل يحلف بالله ما قاله، فأنزل الله فيه هذه الآية. وروى إسماعيل بن إبراهيم بن عتبة، عن عمه موسى بن عتبة قال: فحدثنا عبد الله بن الفضل، أنه سمع أنس بن مالك، رضي الله عنه، يقول: حزن علي من أصيب بالحزرة من قومي، فكتب إلي زيد بن أرقم، وبلغه شدة حزني، يذكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «اللهم، اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار». وشك ابن الفضل في أبناء أبناء الأنصار - قال ابن الفضل: فسأل أنساً بعض من كان عنده زيد بن أرقم، فقال: هو الذي يقول له رسول الله ﷺ: «أوفى الله له بأذنه» وذلك حين سمع رجلاً من المنافقين يقول - ورسول الله ﷺ يخطب -: «لئن كان هذا صادقاً فنحن شر من الحمير، فقال زيد بن أرقم: فهو والله صادق، ولأنت شر من الحمير». ثم رُفِعَ ذلك إلى رسول الله، فجمده القائل، فأنزل الله هذه الآية تصديقاً لزيد - يعني قوله: ﴿يَغْلُظْ اللَّهُ مَا قَالُوا﴾ الآية. رواه البخاري في صحيحه، عن إسماعيل بن أبي أيس، عن إسماعيل بن إبراهيم بن عتبة، إلى قوله: «هذا الذي أوفى الله له بأذنه». ولعل ما بعده من قول موسى بن عتبة، وقد رواه محمد بن قُتَيْب، عن موسى بن عتبة بإسناده ثم قال: قال ابن شهاب. فذكر ما بعده عن موسى، عن ابن شهاب. والمشهور في هذه القصة أنها كانت في غزوة بني المصطلق، فلعل الراوي وهم في ذكر الآية، وأراد أن يذكر غيرها فذكرها، والله أعلم.

حاشية

قال «الأموي» في مغازيه: حدثنا محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن جده قال: لما قدم رسول الله ﷺ، أخذني قومي فقالوا: إنك امرؤ شاعر، فإن شئت أن تعذر إلى رسول الله ﷺ ببعض العلة، ثم

يكون ذنباً تستغفر الله منه . . وذكر الحديث بطوله، إلى أن قال: وكان ممن تخلف من المنافقين، ونزل فيه القرآن منهم، ممن كان مع النبي ﷺ: الجلاس بن سويد بن الصامت، وكان على أم عمير بن سعد، وكان عمير في حجره، فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل في المنافقين، قال الجلاس: والله لئن كان هذا الرجل صادقاً فيما يقول لنحن شر من الحمير قال: فسمعها عمير بن سعد فقال: والله - يا جلاس - إنك لأحب الناس إلي، وأحسنهم عندي بلاء، وأعزهم علي أن يصله شيء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك ولئن كتمتها لتهلكني، وإلحادهما أهون علي من الأخرى. فمشى إلى رسول الله ﷺ، فذكر له ما قال الجلاس. فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى يأتي النبي ﷺ، فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد، ولقد كذب علي. فأنزل الله، ﷻ، فيه: ﴿يَخْلُفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ إلى آخر الآية. فوقفه رسول الله ﷺ عليها. فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته، ونزع فأحسن النزوع. هكذا جاء هذا «مدرجاً» في الحديث متصلاً به، وكأنه والله أعلم من كلام ابن إسحاق نفسه، لا من كلام كعب بن مالك. وقال عروة بن الزبير: نزلت هذه الآية في الجلاس بن سويد بن الصامت، أقبل هو وابن امرأته مُصعب من قُباء، فقال الجلاس: إن كان ما جاء به محمد حقاً فنحن أشر من حُمُرنا هذه التي نحن عليها. فقال مُصعب: أما والله - يا عدو الله - لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت: فأنيت النبي ﷺ، وخفت أن ينزل في القرآن، أو تصيبني قارعة، أو أن أخطئ بخطيئته، فقلت: يا رسول الله، أقبلت أنا والجلاس من قُباء، فقال كذا وكذا، ولولا مخافة أن أخطئ بخطيئة أو تصيبني قارعة ما أخبرتك. قال: فدعا الجلاس فقال: «يا جلاس، أقلت الذي قاله مصعب؟» فحلف، فأنزل الله: ﴿يَخْلُفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ الآية. وقال محمد بن إسحاق: كان الذي قال تلك المقالة - فيما بلغني - الجلاس بن سويد بن الصامت، فرفعها عليه رجل كان في حجره، يقال له: عمير بن سعيد، فأنكرها، فحلف بالله ما قالها. فلما نزل فيه القرآن تاب ونزع وحسنت توبته، فيما بلغني.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني أيوب بن إسحاق بن إبراهيم، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا إسرائيل، عن سيماء، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال: «إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني الشيطان، فإذا جاء فلا تكلموه». فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «علام تشمتني أنت وأصحابك؟» فانطلق الرجل فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله، ﷻ، ﴿يَخْلُفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ الآية. وذلك يُبَيِّنُ فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب «دلائل النبوة» من حديث محمد بن إسحاق، عن الأعمش عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري، عن حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه، قال: كنت أخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به، وعمار يسوق الناقة - أو أنا، أسوقه، وعمار يقوده - حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا بآثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها، قال: فأنبئت رسول الله ﷺ بهم فصرخ بهم فولوا مدبرين، فقال لنا رسول الله ﷺ: «هل عرفتم القوم؟» قلنا: لا، يا رسول الله، قد كانوا متلثمين، ولكننا قد عرفنا الركاب. قال: «هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة، وهل تدرون ما أرادوا؟» قلنا: لا. قال: «أرادوا أن يزحموا رسول الله ﷺ في العقبة، فيلقوه منها». قلنا: يا رسول الله، أولاً تبعث إلى عشائهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: «لا، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمداً قاتل يقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم»، ثم قال: «اللهم ارمهم بالدبيلة». قلنا: يا رسول الله، وما الدبيلة؟ قال: «شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدكم فيهلك».

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا يزيد، أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع، عن أبي الطفيل قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، أمر منادياً فنادى: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد. فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل فغشوا عماراً وهو يسوق برسول الله ﷺ، وأقبل عمار، رضي الله عنه، يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة: «قد، قد» حتى هبط رسول الله ﷺ، فلما هبط نزل ورجع عمار، فقال: «يا عمار، هل عرفت القوم؟» فقال: قد عرفت عامة الرواحل، والقوم متلثمون. قال: «هل تدري ما أرادوا؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ فيطرحوه». قال: فسار عمار رجلاً من أصحاب النبي ﷺ فقال: نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة؟ قال: أربعة عشر. فقال: إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر. قال: فعذر رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا: والله ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ، وما علمنا ما أراد القوم. فقال عمار: أشهد أن الاثني عشر الباقيين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. وهكذا روى ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة بن الزبير نحو هذا، وأن رسول الله ﷺ أمر أن يمشي الناس في بطن الوادي، وصعد هو وحذيفة وعمار العقبة، فتبعهم هؤلاء النفر الأرذلون، وهم متلثمون، فأرادوا

يقول تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه: لئن أغناهم من فضله ليصدقن من ماله، وليكونن من الصالحين. فما وفى بما قال، ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله ﷻ، يوم القيامة، عياداً بالله من ذلك. وقد ذكر كثير من المفسرين، منهم ابن عباس، والحسن البصري: أن سبب نزول هذه الآية الكريمة في «ثعلبة بن حاطب الأنصاري». وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير لهنا وابن أبي حاتم، من حديث مُعَاذِ بْنِ رِفَاعَةَ، عن علي بن يزيد، عن أبي عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن، مولى عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية، عن أبي أمامة الباهلي، عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري، أنه قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يرزقني مالاً. فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه». قال: ثم قال مرة أخرى، فقال: «أما ترضى أن تكون مثل نبي الله، فوالذي نفسي بيده، لو شئت أن تسير معي الجبال ذهباً وفضة لسارت». قال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً». قال: فاتخذ غنماً، فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة، ففتحت عنها، فنزل وادياً من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة، ويترك ما سواهما. ثم نمت وكثرت، ففتحت حتى ترك الصلوات إلا الجمعة، وهي تنمو كما ينمو الدود، حتى ترك الجمعة. فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة، يسألهم عن الأخبار، فقال

رسول الله ﷺ: «ما فعل ثعلبة؟» فقالوا: يا رسول الله، اتخذ غنماً فضاعت عليه المدينة. فأخبروه بأمره فقال: «يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة». وأنزل الله جل ثناؤه: ﴿حُذِرْنَ أَمْوَالَهُمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ الآية [التوبة: ١٠٣] قال: ونزلت عليه فرائض الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة: رجلاً من جهينة، ورجلاً من سليم، وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين، وقال لهما: «مرا بثعلبة، وبفلان - رجل من بني سليم - فخذوا صدقاتهما». فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة، وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية. ما هذه إلا أخت الجزية. ما أدري ما هذا، انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلي. فانطلقا وسمع بهما السلمي، فنظر إلى خيار أسنان إبله، فغزلها للصدقة، ثم استقبلهما بها فلما رأوها قالوا: ما يجب عليك هذا، وما نريد أن نأخذ هذا منك. قال: بلى، فخذوها، فإن نفسي بذلك طيبة، وإنما هي له. فأخذوها منه. فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرّا بثعلبة، فقال: أروني كتابكما فنظر فيه، فقال: ما هذه إلا أخت الجزية. انطلقا حتى أرى رأيي. فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ، فلما رآهما قال: «يا ويح ثعلبة» قبل أن يكلمهما، ودعا للسلمي بالبركة، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي، فأنزل الله، ﷻ: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَاهُ مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ قال: وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة، فسمع ذلك، فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة. قد أنزل الله فيك كذا وكذا. فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ، فسأله أن يقبل منه صدقته، فقال: «إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك». فجعل يحشو على رأسه التراب، فقال له رسول الله ﷺ: «هذا عملك، قد أمرتك فلم تطعني». فلما أبى أن يقبض رسول الله ﷺ رجع إلى منزله، فقَبِضَ رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً. ثم أتى أبا بكر، رضي الله عنه، حين استخلف، فقال: قد علمت منزلتي من رسول الله، وموضعي من الأنصار، فاقبل صدقتي. فقال أبو بكر: لم يقبلها منك رسول الله ﷺ، وأبى أن يقبلها، فقبض أبو بكر ولم يقبلها. فلما ولي عمر، رضي الله عنه، أتاه فقال: يا أمير المؤمنين، اقبل صدقتي. فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر، وأنا أقبلها منك! فقبض ولم يقبلها؛ ثم ولي عثمان، رضي الله عنه، فأتاه فسأله أن يقبل صدقته، فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر، وأنا أقبلها منك! فلم يقبلها منه، وهلك ثعلبة في خلافة عثمان.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلْهِنُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَالَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَلَّا يَكُونُوا كُفْرًا﴾ أي: أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلالهم الوعد وكذبهم، كما جاء في الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان». وله شواهد كثيرة، والله أعلم. وقوله: ﴿أَلَّا يَكُونُوا أُنَاسًا يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ أُنَاسٍ يَكْتُمُونَ﴾ أي: يخبرهم تعالى أنه يعلم السر وأخفى، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها، فإنه أعلم بهم من أنفسهم؛ لأنه تعالى علام الغيوب، أي: يعلم كل غيب وشهادة، وكل سر ونجوى، ويعلم ما ظهر وما بطن.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَحْدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٩)

وهذه أيضاً من صفات المنافقين: لا يسلم أحد من عيبيهم ولزمهم في جميع الأحوال، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا: هذا مراء، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا. كما قال البخاري: حدثنا عبيد الله بن سعيد، حدثنا أبو النعمان البصري، حدثنا شعبة، عن سليمان، عن أبي وائل، عن أبي مسعود قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مراثي. وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا. فنزلت ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَحْدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الآية. وقد رواه مسلم أيضاً في صحيحه، من حديث شعبة به. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا الجريري، عن أبي السليل قال: وقف علينا رجل في مجلسنا بالبيع فقال: حدثني أبي - أو: عمي - أنه رأى رسول الله ﷺ بالبيع، وهو يقول: «من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة؟» قال: فحللت من عماتي لوثاً أو لوئين، وأنا أريد أن أتصدق بهما، فأدركني ما يدرك ابن آدم، فمعدت على عماتي. فجاء رجل لم أر بالبيع رجلاً أشد سواداً ولا أصغر منه، ولا آدم بيعير ساقه، لم أر بالبيع ناقة أحسن منها، فقال: يا رسول الله، أصدقة؟ قال: «نعم» فقال: دونك هذه الناقة. قال: فلمزه رجل فقال: هذا يتصدق بهذه فوالله لبي خير منه. قال: فسمعها رسول الله ﷺ فقال: «كذبت بل هو خير منك ومنها» ثلاث مرات، ثم قال: «ويل لأصحاب المئين من الإبل» ثلاثاً. قالوا: إلا من يا رسول الله؟ قال: «إلا من قال بالمال هكذا وهكذا»، وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «قد أفلح المزهذ المجهد» ثلاثاً: المزهذ في العيش، المجهد في العبادة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية، وقال: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ وجاءه رجل من الأنصار بصاع من

طعام، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء. وقالوا: إن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع. وقال العوفي، عن ابن عباس: إن رسول الله ﷺ خرج إلى الناس يوماً فنادى فيهم: أن اجمعوا صدقاتكم. فجمع الناس صدقاتهم، ثم جاء رجل من آخرهم بصاع من تمر، فقال: يا رسول الله، هذا صاع من تمرت ليأتي أجره بالجرير الماء، حتى نلت صاعين من تمر، فأمسكت أحدهما، وأتيتك بالآخر. فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات. فسخر منه رجال، وقالوا: إن الله ورسوله لغنيان عن هذا. وما يصنعان بصاعك من شيء. ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ: هل بقي أحد من أهل الصدقات؟ فقال «لا». فقال له عبد الرحمن بن عوف: فإن عندي مائة أوقية من ذهب في الصدقات. فقال له عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: أمجنون أنت؟ قال: ليس بي جنون. قال: فعلت ما فعلت؟ قال: نعم، مالي ثمانية آلاف، أما أربعة آلاف فأقرضها ربي، وأما أربعة آلاف فلي. فقال له رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت». ولمزه المنافقون فقالوا: والله ما أعطى عبد الرحمن عطية إلا رياء. وهم كاذبون، إنما كان به متطوعاً، فأنزل الله، ﷻ، عذره وعذر صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر، فقال تعالى في كتابه: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ الآية. وكذا روي عن مجاهد، وغير واحد.

وقال ابن إسحاق: كان المطووعون من المؤمنين في الصدقات: عبد الرحمن بن عوف، تصدق بأربعة آلاف درهم، وعاصم بن عدي أخا بني العجلان، وذلك أن رسول الله ﷺ رغب في الصدقات، وحض عليها، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف، وقام عاصم فتصدق بمائة وسق من تمر، فلمزوهما وقالوا: ما هذا إلا رياء. وكان الذي تصدق بهجده: أبو عقيل أخو بني أنيف الإراشي حليف بني عمرو بن عوف، أتى بصاع من تمر فأفرغه في الصدقة، فتضاحكوا به وقالوا: إن الله لغني عن صاع أبي عقيل. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا طلوت بن عباد، حدثنا أبو عوانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثاً». قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال: يا رسول الله، عندي أربعة آلاف، ألفين أقرضهما ربي، وألفين لعيالي. فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت، وبارك لك فيما أمسكت». وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر، فقال: يا رسول الله، أصبت صاعين من تمر: صاع أقرضه لربي، وصاع لعيالي. قال: فلمزه المنافقون وقالوا: ما أعطى الذي أعطى ابن عوف إلا رياء! وقالوا: ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا؟ فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ الآية. ثم رواه عن أبي كامل، عن أبي عوانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه مرسلًا. قال: ولم يسنده أحد إلا طلوت. وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا زيد بن الحباب، عن موسى بن عبيدة، حدثني خالد بن يسار، عن ابن أبي عقيل، عن أبيه قال: بت أجرُ الجرير على ظهري، على صاعين من تمر، فانقلبت بأحدهما إلى أهلي يتبأغون به، وجئت بالآخر أتقرب به إلى رسول الله ﷺ، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «انثره في الصدقة». قال: فسخر القوم وقالوا: لقد كان الله غنياً عن صدقة هذا المسكين. فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ الآية. وكذا رواه الطبراني من حديث زيد بن الحباب، به. وقال: اسم أبي عقيل: حباب. ويقال: عبد الرحمن بن عبد الله بن ثعلبة. وقوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾: وهذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين؛ لأن الجزء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر بهم، انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِإِلَهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨٠).

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم، ولو سبعين مرة فإن الله لا يغفر لهم. وقد قيل: إن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها. وقيل: بل لها مفهوم، كما روى العوفي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «اسمع ربي قد رخص لي فيها، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة، لعل الله أن يغفر لهم! فقال الله من شدة غضبه عليهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨١)». [المنافقون: ٦]. وقال الشعبي: لما نزل عبد الله بن أبي، انطلق ابنه إلى النبي ﷺ فقال: إن أبي قد احتضر، فأحب أن تشهده وتصلي عليه. فقال النبي ﷺ: «ما اسمك». قال: الحباب بن عبد الله. قال: «بل أنت عبد الله بن عبد الله، إن الحباب اسم

شيطان». قال: فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عرق، وصلى عليه، فقيل له: أتصلي عليه وهو منافق؟ قال: «إن الله قال: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾، ولا تستغفرون له سبعين وسبعين». وكذا روي عن عُرْوَةَ بن الزبير ومجاهد بن جبير، وقادة بن دَعَامَةَ. رواها ابن جرير بأسانيد.

﴿كَرِهَ الْمُحَلَّلُونَ بِمَعْنَاهُمْ جَلَّفَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرْبِ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِكَيْبُوتٍ﴾. ﴿٨٢﴾

يقول تعالى ذمًا للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا بمقعدهم بعد خروجهم، ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ معه ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرْبِ﴾؛ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر، عند طيب الظلال والثمار، فلهمذا قالوا: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرْبِ﴾، قال الله تعالى لرسوله: ﴿قُلْ لَهُمْ: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها بسبب مخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررت من من الحر، بل أشد حراً من النار، كما قال الإمام مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم التي يوقدون بها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية. قال: «إنها فضلت عليها تسعة وستين جزءاً» أخرجه في الصحيحين من حديث مالك، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد». وهذا أيضاً إسناده صحيح. وقد روى الإمام أبو عيسى الترمذي وابن ماجه، عن عباس الدوري، عن يحيى بن أبي بكير، عن شريك، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء كالليل المظلم». ثم قال الترمذي: لا أعلم أحداً رفعه غير يحيى. كذا قال. وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْزُوقٍ عن إبراهيم بن محمد، عن محمد بن الحسين بن مكرم، عن عبيد الله بن سعد، عن عمه، عن شريك - وهو ابن عبد الله النخعي - به. وروى أيضاً ابن مَرْزُوقٍ من رواية مبارك بن فضالة، عن ثابت، عن أنس قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦]، قال: «أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، وألف عام حتى احمرت، وألف عام حتى اسودت، فهي سوداء كالليل، لا يضيء لهما».

وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث تمام بن نَجِيج - وقد اختلف فيه - عن الحسن، عن أنس مرفوعاً: «لو أن شرارة بالمشرق - أي من نار جهنم - لوجد حرها من المغرب». وروى الحافظ أبو يعلى عن إسحاق بن أبي إسرائيل، عن أبي عبيدة الحداد، عن هشام بن حسان، عن محمد بن شبيب، عن جعفر بن أبي وحشية، عن سعيد بن جبير، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون، وفيهم رجل من أهل النار فتتنفس فأصابهم نفسه، لاحتق المسجد ومن فيه». غريب. وقال الأعمش عن أبي إسحاق، عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لمن له نعلان وشرakaan من نار، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرزجل، لا يرى أحداً من أهل النار أشد عذاباً منه، وإنه أهونهم عذاباً». أخرجه في الصحيحين، من حديث الأعمش. وقال مسلم أيضاً: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا زهير بن محمد، عن سهيل بن أبي صالح، عن النعمان بن أبي عياش، عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار، يغلي دماغه من حرارة نعليه». وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن ابن عجلان، سمعت أبي، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن أدنى أهل النار عذاباً رجل يجعل له نعلان يغلي منهما دماغه». وهذا إسناد جيد قوي، رجاله على شرط مسلم، والله أعلم. والأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة، وقال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَنْفٌ لَّعَنَ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى ﴿١٦﴾﴾ [المعارج: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَصَّبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٧﴾ يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَيَلْهَوُهُمْ ﴿١٨﴾ وَلَهُمْ مَقْعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴿١٩﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحج: ١٩-٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نُصْلِي جُلُودَهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. وقال تعالى في هذه الآية الكريمة الأخرى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحر، ليتقوا به حر جهنم، الذي هو أضعاف أضعاف هذا، ولكنهم كما قال الآخر:

كالمتجبر من الرمضاء بالنار

وقال الآخر:

عُمِرْكَ بِالْحَمِيَّةِ أَقْنَيْتَهُ مَخَافَةَ الْبَارِدِ وَالْحَارِ
وَكَانَ أَوْلَى بِكَ أَنْ تَسْتَقِي مِنْ الْمَعَاصِي خَذَرَ الثَّارِ

ثم قال الله، تعالى جل جلاله، متوعداً لهؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاؤوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله، استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبداً. وكذا قال أبو رزين، والحسن، وقناة، والربيع بن خثيم، وعون العقيلي، وزيد بن أسلم. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عبد الله بن عبد الصمد بن أبي خذاش، حدثنا محمد بن حميد، عن ابن المبارك، عن عمران بن زيد، حدثنا يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس، ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول، حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتفرح العيون. فلو أن سفناً أُرْجِيَتْ فيها لَجَرَتْ». ورواه ابن ماجه من حديث الأعمش، عن يزيد الرقاشي، به. وقال الحافظ أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن العباس، حدثنا حماد الجزري، عن زيد بن رُقَيْع، رفعه قال: «إن أهل النار إذا دخلوا النار بكوا الدموع زماناً، ثم بكوا القيح زماناً» قال: «فتقول لهم الحُرْنة: يا معشر الأشقياء، تركتم البكاء في الدار المرحوم فيها أهلها في الدنيا، هل تجدون اليوم من تستغيثون به؟ قال: فيرفعون أصواتهم: يا أهل الجنة، يا معشر الآباء والأمهات والأولاد، خرجنا من القبور عطاشاً، وكنا طول الموقف عطاشاً، ونحن اليوم عطاش، فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فيذعنون أربعين سنة لا يجيبهم، ثم يجيبهم: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فيأسون من كل خير».

﴿فَإِنْ رَزَمَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَنْذِرْكَ لِلخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقْبِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾.

يقول تعالى أمرًا لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿فَإِنْ رَزَمَكَ اللَّهُ﴾ أي: ردك الله من غزوتك هذه ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ قال قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً، ﴿فَاسْتَنْذِرْكَ لِلخُرُوجِ﴾ أي: معك إلى غزوة أخرى، ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقْبِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ أي: تعزيراً لهم وعقوبة. ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقُلُوبُ أَهْلِيكُمْ فَاقْتَرَبُوا﴾ [الأنعام: ١١٠]، فإن من جزاء السيئة السيئة بعدها كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، كما قال في عمرة الحديبية: ﴿سَمِعُوا الْمُحَافِلُونَ إِذَا أُتْلِفَتْ إِلَيْكَ مَكَائِدُ لِنَاخِدُوا ذُرُوبًا نَتَّبِعُكُمْ بُرِيدُونَ أَنْ يَسْؤُلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥]. وقوله تعالى: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾: قال ابن عباس: أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة. وقال قتادة: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ أي: مع النساء. قال ابن جرير: وهذا لا يستقيم؛ لأن جمع النساء لا يكون بالياء والنون، ولو أريد النساء لقال: فاقعدوا مع الخواف، أو الخالفات، ورجح قول ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾.

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أَنْ يَبْرَأَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَلَا يَصْلِي عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ إِذَا مَاتَ، وَلَا يَقُومُ عَلَى قَبْرِهِ لِيَسْتَغْفِرَ لَهُ أَوْ يَدْعُو لَهُ؛ لَأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَاتُوا عَلَيْهِ. وهذا حكم عام في كل من عُرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، كما قال البخاري: حدثنا عبيد بن إسماعيل، عن أبي أسامة، عن عُبَيْدِ اللَّهِ، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله - هو ابن أبي - جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يَكْفُنُ فِيهِ أَبَاهُ، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: إنما خيرني الله فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، وسأزيده على السبعين. قال: إنه منافق! قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ. فأنزل الله، ﷻ، آية: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾. وكذا رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبه، عن أبي أسامة حماد بن أسامة، به. ثم رواه البخاري عن إبراهيم بن المنذر، عن أنس بن عياض، عن عبيد الله - وهو ابن عمر العمري - به وقال: فصلى عليه، وصلينا معه، وأنزل الله: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ الآية. وهكذا رواه الإمام أحمد، عن يحيى بن سعيد القطان، عن عبيد الله، به.

وقد روي من حديث عمر بن الخطاب نفسه أيضاً بنحو من هذا، فقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن

ابن إسحاق، حدثني الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يقول: لما تُوفي عبد الله بن أبيّ دعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام إليه، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قمت في صدره، فقلت: يا رسول الله، أعلّى عدوّ الله عبد الله بن أبيّ القاتل يوم كذا: كذا وكذا - يُعَدُّ أيامه - قال: ورسول الله ﷺ يتنسم، حتى إذا أكثرث عليه قال: «أخّر عني يا عمر، إني خيّرت فاخترت، قد قيل لي: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾» [التوبة: ٨٠]، لو أعلم أنني إن زدت على السبعين غُفر له لذت». قال: ثم صلى عليه، ومشى معه، وقام على قبره حتى فرغ منه - قال: فَعَجِبْتُ لي وجزأتني على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم! قال: فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُنَّ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَآثِرًا بِهِمْ فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ﴾. فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق، ولا قام على قبره، حتى قبضه الله، ﷺ. وهكذا رواه الترمذي في «التفسير» من حديث محمد بن إسحاق، عن الزهري، به، وقال: حسن صحيح. ورواه البخاري عن يحيى بن بُكَيْر، عن الليث، عن عُقَيْل، عن الزهري، به، فذكر مثله وقال: «أخّر عني يا عمر». فلما أكثرث عليه قال: «إني خيّرت فاخترت، ولو أعلم أنني إن زدت على السبعين يُغفر له لذت عليها». قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف، فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُنَّ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ الآية، فعجبت بعد من جزأتني على رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عبيد، حدثنا عبد الملك، عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما مات عبد الله بن أبيّ، أتى ابنه النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك إن لم تأت لم نزل نُحْيِرُ بهذا. فاتاه النبي ﷺ، فوجده قد أدخل في حفرته، فقال: أفلا قبل أن تدخلوه! فأخرج من حفرته، وتقل عليه من قرنه إلى قدمه، وألبسه قميصه. ورواه النسائي، عن أبي داود الحراني، عن يعلى بن عبيد، عن عبد الملك - وهو ابن أبي سليمان به - وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن عثمان، أخبرنا ابن عُيَيْنَةَ، عن عمرو، سمع جابر بن عبد الله قال: أتى النبي ﷺ عبد الله بن أبيّ بعد ما أدخل في قبره، فأمر به فأخرج، ووضع على ركبتيه، وثقت عليه من ريقه، وألبسه قميصه، والله أعلم. وقد رواه أيضاً في غير موضع مع مسلم والنسائي، من غير وجه، عن سفيان بن عيينة، به. وقال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا يحيى، حدثنا مجالد، حدثنا عامر، حدثنا جابر (ح) وحدثنا يوسف بن موسى، حدثنا عبد الرحمن بن مغراء الدوسي، حدثنا مجالد، عن الشعبي، عن جابر قال: مات رأس المنافقين - قال يحيى بن سعيد: بالمدينة - فأوصى أن يصلي عليه النبي ﷺ، فجاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أبي أوصى أن يكفن في قميصك - وهذا الكلام في حديث عبد الرحمن بن مغراء - قال يحيى في حديثه: فصلى عليه، وألبسه قميصه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُنَّ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾. وزاد عبد الرحمن: وخلع النبي ﷺ قميصه، فأعطاه إياه، ومشى فصلى عليه، وقام على قبره، فاتاه جبريل، عليه السلام، لما ولى قال: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُنَّ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ وهذا إسناد لا بأس به، وما قبله شاهد له.

وقال الإمام أبو جعفر الطبري: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا حماد بن سلمة، عن يزيد الرقاشي، عن أنس: أن رسول الله ﷺ أراد أن يصلي على عبد الله بن أبيّ، فأخذ جبريل بثوبه وقال: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُنَّ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾. ورواه الحافظ أبو يعلى في مسنده، من حديث يزيد الرقاشي، وهو ضعيف. وقال قتادة: أرسل عبد الله بن أبيّ إلى رسول الله ﷺ وهو مريض، فلما دخل عليه قال له النبي ﷺ: «أهلكك حبّ يهود». قال: يا رسول الله، إنما أرسلت إليك لتستغفر لي، ولم أرسل إليك لتؤنّبني! ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه أن يكفن فيه إياه، فأعطاه إياه، وصلى عليه، وقام على قبره، فأنزل الله، ﷻ: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُنَّ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾. وقد ذكر بعض السلف أنه إنما ألبسه قميصه؛ لأن عبد الله بن أبيّ لما قدم العباس طلب له قميص، فلم يُوجد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أبيّ؛ لأنه كان ضخماً طويلاً، ففعل ذلك به رسول الله ﷺ، مكافأة له، فالحق أعلم، ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلي على أحد من المنافقين، ولا يقوم على قبره، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن أبيه، حدثني عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا دعي لجنّازة سأل عنها، فإن أئني عليها خيراً قام فصلى عليها، وإن أئني عليها غير ذلك قال لأهلها: «شأنكم بها»، ولم يصل عليها. وكان عمر بن الخطاب لا يصلي على جنازة من جهل حاله، حتى يصلي عليها حذيفة بن اليمان؛ لأنه كان يعلم أعيان منافقين قد أخبره بهم رسول الله ﷺ؛ ولهذا كان يقال له: «صاحب السر» الذي لا يعلمه غيره أي من الصحابة. وقال أبو عبيد في كتاب «الغريب»، في حديث عُمر أنه أراد أن يصلي على جنازة رجل، فَمَرَّه

خديفة، كأنه أراد أن يصدّه عن الصلاة عليها، ثم حكى عن بعضهم أن «المرز» بلغه أهل اليمامة هو: القَرْصُ بأطراف الأصابع. ولما نهى الله ﷺ، عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم، كان هذا الصنيع من أكبر القُرْبَات في حق المؤمنين، فشرع ذلك. وفي فعله الأجر الجزيل، لما ثبت في الصحاح وغيرها من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من شهد الجنّاة حتى يصلّي عليها فله قيراط، ومن شهدا حتى تدفن فله قيراطان». قيل: وما القيراطان؟ قال: «أصغرهما مثل أحد». وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات فقد قال أبو داود: حدثنا إبراهيم بن موسى الرازي، أخبرنا هشام، عن عبد الله بن بَحِير، عن هانئ - وهو أبو سعيد البربري، مولى عثمان بن عفان - عن عثمان، رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل». انفرد بإخراجه أبو داود، رحمه الله.

﴿وَلَا تُجْنِكَ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٨٥).

قد تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة، والله الحمد.

﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَهِّدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُوا الطُّلُوقِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَائِمِينَ﴾ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَمَحَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَأَهُمْ لَا يَفْقَهُوْنَ﴾ (٨٧).

يقول تعالى منكراً وذاماً للمتخلفين عن الجهاد، الناكِلين عنه مع القدرة عليه، ووجود السعة والطول، واستأذنوا الرسول في القعود، وقالوا: ﴿ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَائِمِينَ﴾، ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء، وهن الخوالف، بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان آمنٌ كانوا أكثر الناس كلاماً، كما قال الله، تعالى، عنهم في الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا جَاءَ لَقُوفُ رِئَسِهِمْ يَقُولُونَ إِنَّكَ تَدُوّ أَعْيُنَهُمْ كَالَّذِي يُغْنِي عَنْهُ مِنَ الْمَوْتِ إِذَا ذَهَبَ لَلْقُوفِ سَلْقُوكُمْ بِاللَّيْلِ جَدَاوٍ﴾ [الأحزاب: ١٩]، أي: علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن، وفي الحرب أجبن شيء، وكما قال الشاعر:

أَفْسَى النَّاسِ أَعْيَاراً جَفَاءً وَغُلْظَةً
وَفِي الْحَرْبِ أَشْبَاهُ النَّسَاءِ الْغَوَارِكِ
وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ضَلَاتٌ مُبِينَةٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ قَالُوا سَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَبَرًا لَّهُمْ﴾ (٨٨) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ الآية [محمد: ٢٠-٢٢]. وقوله: ﴿وَطَمَحَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُوْنَ﴾ أي: لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه.

﴿لَيْكِي الرُّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَهْدُوا بِأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الثَّوَابُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ أَثَرُ النَّفْعِ الْعَظِيمِ﴾ (٩٠).

لما ذكر تعالى ذم المنافقين، بين ثناء المؤمنين، وما لهم في آخرتهم، فقال: ﴿لَيْكِي الرُّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَهْدُوا﴾ إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومالكهم. وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الثَّوَابُ﴾ أي: في الدار الآخرة، في جنات الفردوس والدرجات العلى.

﴿رَبِّةَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ يُوَدُّهُمْ وَقَدْ أَلَيْنَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٩١).

ثم بين تعالى حال ذوي الأعدار في ترك الجهاد، الذين جاؤوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، ويبينون له ما هم فيه من الضعف، وعدم القدرة على الخروج، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة. قال الضحاك، عن ابن عباس: إنه كان يقرأ: ﴿رَبِّةَ الْمُعَذَّرُونَ﴾ بالتخفيف، ويقول: هم أهل العذر. وكذا روى ابن عيينة، عن حميد، عن مجاهد سواء. قال ابن إسحاق: وبلغني أنهم نفر من بني غفار منهم: خُفاف بن إيماء بن رَحْضَة. وهذا القول هو الأظهر في معنى الآية؛ لأنه قال بعد هذا: ﴿وَقَدْ أَلَيْنَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: لم يأتوا فيعتذروا. وقال ابن جُرَيْج عن مجاهد: ﴿رَبِّةَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ قال: نفر من بني غفار، جاؤوا فاعتذروا فلم يُعَذِّرْهم الله. وكذا قال الحسن، وقناة، ومحمد بن إسحاق، والقول الأول أظهر والله أعلم، لما قدمنا من قوله بعده: ﴿وَقَدْ أَلَيْنَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار، ثم أوعدهم بالعذاب الأليم، فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ

عَفْوٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَلَّوْا لِتَحْمِلِهِمْ ثَلَاثَ أَجْدٍ مَا أُحْمِلَكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَتُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُفْقِدُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّكَ السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَنْتَوِيذُونَكَ وَهُمْ أَغْنَاءُ رَشُؤًا إِنَّ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ .

ثم بين تعالى الأعداء التي لا حرج على من قعد فيها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلاء في الجهاد، ومنه العمى والعرج ونحوهما، ولهذا بدأ به. ما هو عارض بسبب مرض عن له في بدنه، شغله عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقره لا يقدر على التجهز للحرب، فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجعوا بالناس، ولم يبتطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا؛ ولهذا قال: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَّحِيمٌ﴾. وقال سفيان الثوري، عن عبد العزيز بن رفيع، عن أبي ثمامة، رضي الله عنه، قال: قال الحواريون: يا روح الله، أخبرنا عن الناصح لله؟ قال: الذي يؤثر حق الله على حق الناس، وإذا حدث له أمران - أو: بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة - بدأ بالذي للآخرة ثم تفرغ للذي للدنيا. وقال الأوزاعي: خرج الناس للاستسقاء، فقام فيهم بلال بن سعد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر من حضر، أستم مقربين بالإساءة؟ قالوا: اللهم نعم. فقال: اللهم، إنا نسمعك تقول: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾، اللهم، وقد أقررنا بالإساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقنا. ورفع يديه ورفعوا أيديهم فُسُوا. وقال قتادة: نزلت هذه الآية في عائذ بن عمرو المزني. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا هشام بن عبيد الله الرازي، حدثنا ابن جابر، عن ابن قزوة، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ، فكنت أكتب «براءة» فإني لو اضغ القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاء أعمى فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرَضِينَ الْآيَةُ. وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن يبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه، فيهم عبد الله بن مغلل المزني، فقالوا: يا رسول الله، احملنا. فقال لهم: «والله لا أجد ما أحملكم عليه». فقولوا ولهم بكاء، وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة ولا محملاً. فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرَضِينَ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا يُجَادُونَ مَا يُفْقِدُونَ حَرْجٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَلَّوْا لِتَحْمِلِهِمْ ثَلَاثَ أَجْدٍ﴾: نزلت في بني مقرة من مزينة. وقال محمد بن كعب: كانوا سبعة نفر، من بني عمرو بن عوف: سالم بن غمير - ومن بني واقف: هزمي بن عمرو - ومن بني مازن بن النجار: عبد الرحمن بن كعب، ويكنى أبا ليلى - ومن بني المغللي: سلمان بن صخر - ومن بني حارثة: عبد الرحمن بن يزيد، أبو عبلة، وهو الذي تصدق بعرضه قبله الله منه ومن بني سلمة: عمرو بن عتبة، وعبد الله بن عمرو المزني.

وقال محمد بن إسحاق في سياق غزوة تبوك: ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ، وهم البكاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، من بني عمرو بن عوف: سالم بن غمير، وعلبة بن زيد أخو بني حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب، أخو بني مازن بن النجار، وعمرو بن الحمام بن الجموح، أخو بني سلمة، وعبد الله بن المغلل المزني؛ وبعض الناس يقول: بل هو عبد الله بن عمرو المزني، وهزمي بن عبد الله، أخو بني واقف، وعزيباض بن سارية الفزاري، فاستحملوا رسول الله ﷺ، وكانوا أهل حاجة، فقال: لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وأعنيهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن الأودي، حدثنا وكيع، عن الربيع، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خلفتم بالمدينة أقواماً، ما أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم وادياً، ولا نلتهم من عدو نبلاً إلا وقد شركوكم في الأجر»، ثم قرأ: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَلَّوْا لِتَحْمِلِهِمْ ثَلَاثَ أَجْدٍ مَا أُحْمِلَكُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية. وأصل هذا الحديث في الصحيحين من حديث أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً، ولا سرتهم مسيراً إلا وهم معكم». قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «نعم، حبسهم العذر». وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خلفتم بالمدينة رجالاً، ما قطعتم وادياً، ولا سلكتم طريقاً إلا شركوكم في الأجر، حبسهم المرض». ورواه مسلم، وابن ماجه، من طرق، عن الأعمش، به. ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأثنى في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال، ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَتَذَكَّرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ فَلَا تَسْتَذِيرُوا أَنْ تَوَيْتُمْ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَنْبَائِكُمْ وَسَرَى اللَّهُ عَنْكُمُ رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَيْهِ عَنِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْزِلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٣﴾ سَيَحْمِلُونَ يَاللَّهُ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ يَقْرَءُوا عَنْهُمْ فَأَقْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآزِنُهُمْ

جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾.

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم، ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لن نصدقكم، ﴿قَدْ تَبَيَّنَ اللَّهُ مِنْ أَنْبَائِكُمْ﴾ أي: قد أعلمنا الله أحوالكم، ﴿وَيَسِّرَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي: سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا، ﴿فَمَنْ تَرَدَّدَتْ إِلَيْكَ عَلَيْهِمُ الْقَسِبَ وَالشَّهَادَةُ فَيَنْتَحِمُوا بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ أي: فيخبركم بأعمالكم، خيرها وشرها، ويجزيكم عليها. ثم أخبر عنهم سيحلفون معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تؤنبوهم، ﴿فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ احتقاراً لهم، ﴿إِنَّهُمْ يَجَسُّوْنَ﴾ أي: خُبشاً نجس بواطنهم واعتقاداتهم، ﴿وَمَا وَدَّعْتُمْ﴾ في آخرتهم ﴿جَهَنَّمَ﴾، ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: من الآثام والخطايا. وأخبر أنهم وإن رضوا عنهم بحلفهم لهم، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله، فإن الفسق هو الخروج، ومنه سميت الفارة «فوسقة» لخروجها من جحرها للإفساد، ويقال: «فسقت الرطبة»: إذا خرجت من أكمامها.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدَّ كُفْرًا وَفَسَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمَنْ الْأَعْرَابُ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُلِّ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ ذِكْرُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنْ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَىٰ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتُ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَىٰ لَهُمْ سُبْحَانَ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾.

أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد، وأجدر، أي: أحرى ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، كما قال الأعمش عن إبراهيم قال: جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند، فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لتريني فقال زيد: ما يريك من يدي؟ إنها الشمال. فقال الأعرابي: والله ما أدري، اليمين يقطعون أو الشمال؟ فقال زيد بن صوحان: صدق الله: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدَّ كُفْرًا وَفَسَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن أبي موسى، عن وهب بن منبه، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن». ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من طرق، عن سفيان الثوري، به. وقال الترمذي: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث الثوري. ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولاً، وإنما كانت البعثة من أهل القرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ (يسف: ١٠٩)، ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ فرد عليه أضعافها حتى رضي، قال: «لقد هممت ألا أقبل هدية إلا من قرشي، أو ثقيفي أو أنصاري، أو ذؤبي»؛ لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن: مكة، والطائف، والمدينة، واليمن، فهم اللطف أخلاقاً من الأعراب: لما في طباع الأعراب من الجفاء.

حديث الأعرابي في تقبيل الولد: قال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قالوا: حدثنا أبو أسامة وابن نمير، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: قَدِمَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: أَتَقْبَلُونَ صَبِيَانَكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالُوا: لَكُنَا وَاللَّهِ مَا نَقْبَلُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَمَلْتُ أَنْ كَانَ اللَّهُ نَزَعَ مِنْكُمْ الرَّحْمَةَ؟». وَقَالَ ابْنُ نَمِيرٍ: «مَنْ قَلْبُكَ الرَّحْمَةُ». وَقَوْلُهُ: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» أي: عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يسأل عما يفعل، لعلمه وحكمته. وأخبر تعالى أن منهم ﴿مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ أي: في سبيل الله ﴿مَغْرَمًا﴾ أي: غرامة وخسارة، ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُلِّ الدَّوَابِّ﴾ أي: ينتظر بكم الحوادث والآفات، ﴿عَلَيْهِمْ ذِكْرُ السَّوْءِ﴾ أي: هي منعكسة عليهم والسوء دائر عليهم، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان. وقوله: ﴿وَمِنْ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَىٰ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتُ الرَّسُولِ﴾: هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قرابة يتقربون بها عند الله، ويتبعون بذلك دعاء الرسول لهم، ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَىٰ لَهُمْ﴾ أي: ألا إن ذلك حاصل لهم، ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَزَقْنَاهُمْ رِزْقًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿١٠٠﴾.

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم. قال الشعبي: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية. وقال أبو موسى الأشعري، وسعيد بن المسيب، ومحمد بن سيرين، والحسن، وقتادة: هم الذين صلوا إلى القبلتين مع

رسول الله ﷺ. وقال محمد بن كعب القرظي: مرَّ عمر بن الخطاب برجل يقرأ: ﴿وَالسَّيِّفُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾، فأخذ عمر بيده فقال: من أقرأك هذا؟ فقال: أبي بن كعب. فقال: لا تفارقني حتى أذهب بك إليه. فلما جاءه قال عمر: أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم. قال: وسمعتها من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، فقال أبي: تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة: ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَنَّا وَلَحِقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [٣]. [الجمعة: ٢٣]، وفي سورة الحشر: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]، وفي الأنفال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَابِجُوا وَجَّهَهُمْ مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ﴾ إلى آخر الآية [الأنفال: ٧٥]، رواه ابن جرير. قال: وذكر عن الحسن البصري أنه كان يقرأها برفع «الأنصار» عطفًا على «وَالسَّيِّفُونَ الْأَوَّلُونَ». فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان: فإي ويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخبرهم وأفضلهم، أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة، رضي الله عنه، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويُبغضونهم ويسبونهم، عيادًا بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن، إذ يسبون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عن رضي الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون.

﴿وَمَنْ حَوْلَكَ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [٣٠].

يخبر تعالى رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون، وفي أهل المدينة أيضاً منافقون ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أي: مروا واستمروا عليه: ومنه يقال: شيطان مريد ومارد، ويقال: تمرد فلان على الله، أي: عتا وتجبر. وقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لا ينافي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَأَرْسَلْنَاكَهُمْ فَلَغَرَقْنَاهُمْ بِسَمِهِمْ وَكَلَّمْنَاهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ الآية، [محمد: ٣٠]؛ لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين. وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً، وإن كان يراه صباحاً ومساءً، وشاهد هذا بالصحة ما رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم، عن رجل، عن جبير بن مطعم، رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة، فقال: «لأتينكم أجوركم ولو كنتم في جحر ثعلب». وأصغى إليَّ رسول الله ﷺ برأسه فقال: «إن في أصحابي منافقين». ومعناه: أنه قد يوبح بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لا صحة له، ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذي سمعه جبير بن مطعم. وتقدم في تفسير قوله: ﴿وَقَالُوا يَمَّا تَرَى يَتْلُوهُ﴾ [التوبة: ٧٤]، أنه عليه السلام أعلم خديفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقاً، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم، والله أعلم. وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة «أبي عمر البيروتي» من طريق هشام بن عمار: حدثنا صدقة بن خالد، حدثنا ابن جابر، حدثني شيخ بيروت يكنى أبا عمر، أظنه حدثني عن أبي الدرداء: أن رجلاً يقال له «حرملة» أتى النبي ﷺ فقال: الإيمان ههنا - وأشار بيده إلى لسانه - والنفاق ههنا - وأشار بيده إلى قلبه ولم يذكر الله إلا قليلاً. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل له لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وارزقه حُبِّي، وحب من يحبني، وصبر أمره إلى خير». فقال: يا رسول الله، إنه كان لي أصحاب من المنافقين وكنت رأساً فيهم، أفلا أتيتك بهم؟ قال: «من أنانا استغفرنا له، ومن أصر على دينه فإله أولى به، ولا تخرقن على أحد سترًا». قال: وكذا رواه أبو أحمد الحاكم، عن أبي بكر الباغندي، عن هشام بن عمار، به.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة في هذه الآية أنه قال: ما بال أقوام يتكلفون علم الناس؟ فلان في الجنة وفلان في النار. فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري! لعمري أنت بنفسك أعلم منك بأحوال الناس، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك. قال نبي الله نوح: ﴿قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢]، وقال نبي الله شعيب: ﴿يَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦]، وقال الله لنبيه ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾. وقال السدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس في هذه الآية قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال: «أخرج يا فلان، فإنك منافق، وأخرج يا فلان فإنك منافق». فأخرج من المسجد ناساً منهم، فضجهم. فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد فاحتبأ منهم حياءً أنه لم يشهد الجمعة، وظن أن الناس قد انصرفوا، واختبئوا هم من عمر، ظنوا أنه قد علم بأمرهم. فجاء عمر فدخل المسجد

فإذا الناس لم يصلوا، فقال له رجل من المسلمين: أبشر يا عمر، قد فضح الله المنافقين اليوم. قال ابن عباس: فهذا العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد، والعذاب الثاني عذاب القبر. وكذا قال الثوري، عن السدي، عن أبي مالك نحو هذا. وقال مجاهد في قوله: ﴿سَعَدَ بِهِمْ مَرَّتَيْنِ﴾ يعني: القتل والسيء، وقال - في رواية - بالجوع، وعذاب القبر، ﴿ثُمَّ يَرُدُّوكَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾. وقال ابن جريج: عذاب الدنيا، وعذاب القبر، ثم يردون إلى عذاب النار. وقال الحسن البصري: عذاب في الدنيا، وعذاب في القبر. وقال عبد الرحمن بن زيد: أما عذاب في الدنيا فالأموال والأولاد، وقرأ قول الله: ﴿فَلَا تُشْجِكُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِمَا فِي الْكَيْفَةِ﴾ [التوبة: ٨٥]، فهذه المصائب لهم عذاب، وهي للمؤمنين أجر، وعذاب في الآخرة في النار ﴿ثُمَّ يَرُدُّوكَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، قال: النار. وقال محمد بن إسحاق: ﴿سَعَدَ بِهِمْ مَرَّتَيْنِ﴾ قال: هو - فيما بلغني - ما هم فيه من أمر الإسلام، وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة، ثم عذابهم في القبور إذا صاروا إليها، ثم العذاب العظيم الذي يُرَدُّونَ إليه، عذاب الآخرة والخلد فيه. وقال سعيد، عن قتادة في قوله: ﴿سَعَدَ بِهِمْ مَرَّتَيْنِ﴾: عذاب الدنيا، وعذاب القبر، ﴿ثُمَّ يَرُدُّوكَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾. ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أسر إلى حذيفة باثني عشر رجلاً من المنافقين، فقال: «سته منهم تكفيكم الذبيلة: سراج من نار جهنم، يأخذ في كتف أحدهم حتى يفضي إلى صدره، وستة يموتون موتاً». وذكر لنا أن عمر قال لحذيفة: أنشدك بالله، أمنهم أنا؟ قال: لا. ولا أومن منها أحداً بعدك.

﴿وَالْآخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

لما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكذيباً وشكاً، شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال: ﴿وَالْآخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم، ولهم أعمال أخر صالحة، خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه. وهذه الآية - وإن كانت نزلت في أناس معينين - إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين المخلصين المتلوئين. وقد قال مجاهد: إنها نزلت في أبي لبابة لما قال لبني قريظة: إنه الذبح، وأشار بيده إلى حلقه. وقال ابن عباس: ﴿وَالْآخِرُونَ﴾: نزلت في أبي لبابة وجماعة من أصحابه، تخلفوا عن غزوة تبوك، فقال بعضهم: أبو لبابة وخمسة معه، وقيل: وسبعة معه، وقيل: وتسعة معه، فلما رجع النبي ﷺ من غزوته، ربطوا أنفسهم بسواري المسجد، وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله ﷺ، فلما أنزل الله هذه الآية: ﴿وَالْآخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾، أطلقهم النبي ﷺ، وعفا عنهم. وقال البخاري: حدثنا مؤمل بن هشام، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عوف، حدثنا أبو رجاء، حدثنا سمره بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ لنا: «أتاني الليلة آتيان فابتنعاني فأتنيتهما إلى مدينة مبنية ببلن ذهب وألبن فضة، فقتلنا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشر كأكبح ما أنت راء، قالوا لهم: اذهبوا فققوا في ذلك النهر. فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالوا لي: هذه جنة عدن، وهذا منزلك. قالوا: أما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشر منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتجاوز الله عنهم». هكذا رواه مختصراً، في تفسير هذه الآية.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣] أَلَمْ يَكْلُمَا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَالَّذِي هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾.

أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكّيهم بها، وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في «أموالهم» إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً؛ ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصاً برسول الله ﷺ، ولهذا احتجوا بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾، وقد ردّ عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد الصديق أبو بكر وسائر الصحابة، وقتلواهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة، كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ، حتى قال الصديق: والله لو منعوني عقلاً - وفي رواية: غناً - يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه. وقوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم واستغفر لهم، كما رواه مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم، فأتاه أبي بصدقة فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى». وفي الحديث الآخر: أن امرأة قالت: يا رسول الله، صل علي وعلى زوجي. فقال: «صلى الله عليك، وعلى زوجك». وقوله: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾ قرأ بعضهم: «صلواتك» على الجمع، وآخرون قرؤوا: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾ على الأفراد. قال ابن عباس: رحمة لهم. وقال قتادة: وقار. وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: لدعائك «عليهم» أي: بمن

يستحق ذلك منك ومن هو أهل له. قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا أبو العُمَيْس، عن أبي بكر بن عمرو بن عتبة، عن ابن لحديفة، عن أبيه؛ أن النبي ﷺ كان إذا دعا لرجل أصابته، وأصابته ولده، وولد ولده. ثم رواه عن أبي نُعَيْم، عن مسعر، عن أبي بكر بن عمرو بن عتبة، عن ابن لحديفة - قال مسعر - وقد ذكره مرة عن حذيفة: إن صلاة النبي ﷺ لشدة الرجل وولده وولد ولده.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾: هذا تهيج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها يحط الذنوب ويمحسها ويمحقها. وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يقبلها بيمينه فيريها لصاحبها، حتى تصير التمرة مثل أحد. كما جاء بذلك الحديث، عن رسول الله ﷺ - كما قال الثوري وكيع، كلاهما عن عباد بن منصور، عن القاسم بن محمد أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيريها لأحدكم، كما يربي أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد»، وتصديق ذلك في كتاب الله، ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ وقوله: ﴿يَمْحُ اللَّهُ الذَّنْبَ عَنْ الْبَرِّ وَالْكَافِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٦]. وقال الثوري والأعمش كلاهما، عن عبد الله بن السائب، عن عبد الله بن أبي قتادة قال: قال عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه: إن الصدقة تقع في يد الله ﷻ قبل أن تقع في يد السائل. ثم قرأ هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾. وقد روى ابن عساکر في تاريخه، في ترجمة عبد الله بن الشاعر السكسكي الدمشقي - وأصله حمصي، وكان أحد الفقهاء، روى عن معاوية وغيره، وحكى عنه حوشب بن سيف السكسكي الحمصي - قال: غزا الناس في زمان معاوية، رضي الله عنه، وعليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فقتل رجل من المسلمين مائة دينار رومية. فلما قفل الجيش ندم وأتى الأمير، فأبى أن يقبلها منه، وقال: قد تفرق الناس ولن أقبلها منك، حتى تأتي الله بها يوم القيامة فجعل الرجل يستقرئ الصحابة، فيقولون له مثل ذلك، فلما قدم دمشق ذهب إلى معاوية ليقبلها منه، فأبى عليه، فخرج من عنده وهو يبكي ويسترجع، فمر بعبد الله بن الشاعر السكسكي، فقال له: ما يبكيك؟ فذكر له أمره، فقال: أمطيعني أنت؟ فقال: نعم، فقال: اذهب إلى معاوية فقل له: أقبل مني خُمسك، فادفع إليه عشرين ديناراً، وانظر الثمانين الباقية فتصدق بها عن ذلك الجيش، فإن الله يقبل التوبة عن عباده، وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم. ففعل الرجل، فقال معاوية، رضي الله عنه: لأن أكون أفتيته بها أحب إلي من كل شيء أملكه، أحسن الرجل.

﴿وَقُلْ أَتَعْلَمُوا مَنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسُودُونَ إِلَى عِلِّيِّهِ وَاللَّهُ يَبْتَلِيكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قال مجاهد: هذا وعيد، يعني من الله تعالى للمخالفين أو أمره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى، وعلى الرسول، وعلى المؤمنين. وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]، وقال: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠] وقد يظهر ذلك للناس في الدنيا، كما قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا ذُراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صحرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان». وقد ورد: أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ، كما قال أبو داود الطيالسي: حدثنا الصلت بن دينار، عن الحسن، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم في قبورهم، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: «اللهم، ألهمهم أن يعملوا بطاعتك». وقال الإمام أحمد: أخبرنا عبد الرزاق، عن سفيان، عن عثمن سمع أنساً يقول: قال النبي ﷺ: «إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم، لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا». وقال البخاري: قالت عائشة، رضي الله عنها: إذا أعجبك حسن عمل امرئ، فقل: ﴿أَتَعْلَمُوا مَنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾. وقد ورد في الحديث شبيه بهذا، قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا حميد، عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا به يخطم له؟ فإن العامل يعمل زماناً من عمره - أو: برهة من دهره - بعمل صالح لو مات عليه لدخل الجنة، ثم يتحول فيعمل عملاً سيئاً، وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيئ، لو مات عليه دخل النار، ثم يتحول فيعمل عملاً صالحاً، وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله قبل موته». قالوا: يا رسول الله وكيف يستعمله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه». تفرد به أحمد من هذا الوجه.

﴿وَأَخْرَجُوا مُرَجُومَ الْإِثْمِ أَنَّ إِثْمَهُمْ وَلَئِنَّا بَلَّغُوكُمُ اللَّهُ عِلْمَهُ حَكِيمٌ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة، والضحاك وغير واحد: هم الثلاثة الذين خلفوا، أي: عن التوبة، وهم مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد، كسلاً وميلاً إلى الدعة والحفظ وطيب الشمار والظلال، لا شكاً ونفاقاً، فكانت منهم طائفة رَبطوا أنفسهم بالسواري، كما فعل أبو لُبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء، وأرجي هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية، وهي قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ الآية [التوبة: ١١٧]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ خَلْفُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ الآية [التوبة: ١١٨]، كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك. وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْزِبُكُمُ اللَّهُ﴾ أي: هم تحت عفو الله، إن شاء فعل بهم هذا، وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه، وهو ﴿عَلَيْكُمْ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، حكيم في أفعاله وأقواله، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا زِينًا وَكُفَرُوا وَتَفَرَّقُوا بِرِيقِ الْمُؤْمِنِينَ وَإِصْرًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِلُنَّ إِنَّ آرِثَنَا إِلَّا الْخُسُفَ وَاللَّهُ يَنْتَهِي إِلَيْهِمْ لِكَيْذُوبٍ﴾ لا نَعْتَمِدُ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْشَرُونَ أَنْ يَبْظَلُّوا وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُظْلِمِينَ﴾.

سبب نزول هذه الآيات الكريمات: أنه كان بالمدينة قبل مقدّم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له: «أبو عامر الراهب»، وكان قد تنصّر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير. فلما قدّم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شرق اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش فألبهم على حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتنحهم الله، وكانت العاقبة للمتقين. وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ، وأصيب ذلك اليوم، فجرح في وجهه وكسرت رِباعيته اليمنى السفلى، وشجّ رأسه، صلوات الله وسلامه عليه. وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا نأمن الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه. فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شر. وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً، فالتة هذه الدعوة. وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل، ملك الروم، يستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومثاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويؤمنهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كُتبه ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج النبي ﷺ إلى تبوك، وجاؤوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلّي في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته، عليه السلام، فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله». فلما قفل، عليه السلام، راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه الوحي بخبر مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء، الذي أسس من أول يوم على التقوى. فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدّمه قبل مقدمه المدينة، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا زِينًا وَكُفَرُوا وَتَفَرَّقُوا بِرِيقِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: وهم أناس من الأنصار، ابنتوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجداً واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فأتي بجند من الروم وأخرج محمداً وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة. فأنزل الله، ﷻ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ إلى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وكذا زوي عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وعروة بن الزبير، وقتادة وغير واحد من العلماء. وقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن الزهري، ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن غمر بن قتادة وغيرهم، قالوا: أقبل رسول الله ﷺ - يعني: من تبوك - حتى نزل بذي أوان - بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار - وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة، والليلة المطيرة، والليلة الشاتية، وإنا نحب أن

تأتينا تفصيلي لنا فيه . فقال : «إني على جناح سفر وحال شغل - أو كما قال رسول الله ﷺ - ولو قد قدمنا إن شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا لكم فيه» . فلما نزل بذي أوان أنه خبر المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدُخْشُم أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي - أو : أخاه عامر بن عدي - أخا بلعجلان فقال : «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهلُه، فاهدماه وحرّقاه» . فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدُخْشُم، فقال مالك لمعن : أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي . فدخل أهله فأخذ سَعْفًا من النخل، فأشعل فيه نارًا، ثم خرجا يَشْتَدَانِ حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرّقاه وهدماه وتفرقوا عنه . ونزل فيهم من القرآن ما نزل : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَآكًا وَكُفْرًا﴾ إلى آخر القصة . وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً : خدام بن خالد، من بني عُيَيْد بن زيد، أحد بني عمرو بن عوف، ومن داره أخرج مسجد الشقاق، وثعلبة بن حاطب من بني عبيد وهو إلى بني أمية بن زيد، ومعتب بن قشير، من بني ضُبَيْعَة بن زيد، وأبو حبيبة بن الأذعر، من بني ضُبَيْعَة بن زيد، وعَبَاد بن حُثَيْف أخو سهل بن حنيف، من بني عمرو بن عوف، وجارية بن عامر، وابناه : مُجَمِّع بن جارية، وزيد بن جارية وَتَيْتَل بن الحارث، وهم من بني ضُبَيْعَة، ويحزج وهو من بني ضُبَيْعَة، ويجاد بن عُثْمَان وهو من بني ضُبَيْعَة، ووديعه بن ثابت، وهو إلى بني أمية رهط أبي لبابة بن عبد المنذر .

وقوله : ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ أي : الذين بنوه ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي : ما أردنا ببنيانه إلا خيراً ورفقاً بالناس، قال الله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي : فيما قصدوا وفيما نَوَّوا، وإنما بنوه ضِرَاراً لمسجد قُبَاء، وكفراً بالله، وتفريقاً بين المؤمنين، وإرساداً لمن حارب الله ورسوله، وهو أبو عامر الفاسق، الذي يقال له : «الراهب» لعنه الله . وقوله : ﴿لَا تَقْرَءُ فِيهِ أَبَدًا﴾ : نهي من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، والأمة تَبِعَ له في ذلك، عن أن يقوم فيه، أي : يصلي فيه أبداً . ثم حثه على الصلاة في مسجد قُبَاء الذي أسس من أول يوم بنائه على التقوى، وهي طاعة الله، وطاعة رسوله، وجمعاً لكلمة المؤمنين ومَعْقلاً ومُوتِلاً للإسلام وأهله؛ ولهذا قال تعالى : ﴿لَتَسْجِدَ آتِسِرَ عَلَى النَّفْثَيْنِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَعُودَ فِيهِ﴾، والسياق إنما هو في معرض مسجد قُبَاء؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «صلاة في مسجد قُبَاء كَعُمْرَةِ» . وفي الصحيح : أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قُبَاء راكباً وماشياً . وفي الحديث : أن رسول الله ﷺ لما بناه وأسس أول قدمه ونزوله على بني عمرو بن عوف، كان جبريل هو الذي عَيَّنَ له جَهَةَ الْقَبْلَةِ، فالله أعلم . وقال أبو داود : حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا معاوية بن هشام، عن يونس بن الحارث، عن إبراهيم بن أبي ميمونة، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال : «نزلت هذه الآية في أهل قُبَاء» : ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحْسِنُونَ أَنْ يَنْظُرُوا﴾ قال : كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم الآية . ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث يونس بن الحارث، وهو ضعيف، وقال الترمذي : غريب من هذا الوجه . وقال الطبراني : حدثنا الحسن بن علي المعمرى، حدثنا محمد بن حميد الرازي، حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحْسِنُونَ أَنْ يَنْظُرُوا﴾، بعث رسول الله ﷺ إلى عُؤَيْم بن ساعدة فقال : «ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم؟» . فقال : يا رسول الله، ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه - أو قال : مقعدته - فقال النبي ﷺ : «هو هذا» . وقال الإمام أحمد : حدثنا حُسَيْن بن محمد، حدثنا أبو أريس، حدثنا شرحبيل، عن عُؤَيْم بن ساعدة الأنصاري : أنه حَدَّثَهُ أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قُبَاء، فقال : «إن الله تعالى قد أحسن عليكم الشاء في الطهور في قصة مسجدهم، فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟» فقالوا : والله - يا رسول الله - ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا . ورواه ابن خزيمة في صحيحه . وقال هشيم، عن عبد الحميد المدني، عن إبراهيم بن إسماعيل الأنصاري : أن رسول الله ﷺ قال لِعُؤَيْم بن ساعدة : «ما هذا الذي أثنى الله عليكم : ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحْسِنُونَ أَنْ يَنْظُرُوا﴾ والله يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ» . قالوا : يا رسول الله، إنا نغسل الأدبار بالماء . وقال ابن جرير : حدثني محمد بن عُمارة الأسدي، حدثنا محمد بن سعد، حدثنا إبراهيم بن محمد، عن شرحبيل بن سعد قال : سمعت خُزَيْمَة بن ثابت يقول : نزلت هذه الآية : ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحْسِنُونَ أَنْ يَنْظُرُوا﴾ والله يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ، قال : كانوا يغسلون أدبارهم من الغائط .

حديث آخر : قال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك - يعني : ابن مَعْوَل - سمعت سياراً أبا الحكم، عن شهر بن حوشب، عن محمد بن عبد الله بن سلام قال : لما قدم رسول الله ﷺ قُبَاء، فقال : «إن الله، ﷻ، قد أثنى عليكم في الطهور خيراً، أفلا تخبروني؟» . يعني : قوله تعالى : ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحْسِنُونَ أَنْ يَنْظُرُوا﴾ والله يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ . فقالوا : يا رسول الله، إنا نجده مكتوباً علينا في التوراة : الاستنجاء بالماء . وقد صرح بأنه مسجد قُبَاء جماعة من السلف، رواه علي بن

أبي طلحة، عن ابن عباس. ورواه عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهري، عن عُرْوَةَ بن الزبير. وقاله عطية العوفي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والشعبي، والحسن البصري، ونقله البغوي عن سعيد بن جبير، وقتادة. وقد ورد في الحديث الصحيح: أن مسجد رسول الله ﷺ الذي هو في جوف المدينة، هو المسجد الذي أسس على التقوى. وهذا صحيح. ولا منافاة بين الآية وبين هذا؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأخرى؛ ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد الله بن عامر الأسلمي، عن عمران بن أبي أنس، عن سهل بن سعد، عن أبي بن كعب: أن النبي ﷺ قال: «المسجد الذي أسس على التقوى مسجدي هذا». تفرد به أحمد.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا ربيعة بن عثمان التيمي، عن عمران بن أبي أنس، عن سهل بن سعد الساعدي قال: اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد رسول الله ﷺ. وقال الآخر: هو مسجد قباء. فأتيا النبي ﷺ فسألاه، فقال: «هو مسجدي هذا». تفرد به أحمد أيضاً.

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ليث، عن عمران بن أبي أنس، عن سعيد بن أبي سعيد الخديري، رضي الله عنه، قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد النبي ﷺ. فقال النبي ﷺ: «هو مسجدي هذا». تفرد به أحمد. طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا ليث، حدثني عمران بن أبي أنس، عن ابن أبي سعيد، عن أبيه أنه قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدي». وكذا رواه الترمذي والنسائي عن قتيبة، عن الليث، وصححه الترمذي، ورواه مسلم كما سيأتي. طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا يحيى، عن أنيس بن أبي يحيى، حدثني أبي قال: سمعت أبا سعيد الخديري قال: اختلف رجلان: رجل من بني خَذْرَةَ، ورجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال الخديري: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال الغمري: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك، فقال: «هو هذا المسجد» لمسجد رسول الله ﷺ، وقال: «في ذاك خير كثير» يعني: مسجد قباء. طريق أخرى: قال أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد. حدثنا حميد الخراط المدني، سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن أبي سعيد فقلت: كيف سمعت أباك يقول في المسجد الذي أسس على التقوى؟ فقال أبي: أتيت رسول الله ﷺ فدخلت عليه في بيت لبعض نساؤه، فقلت: يا رسول الله، أين المسجد الذي أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفاً من حصباء فضرب به الأرض، ثم قال: «هو مسجدكم هذا». ثم قال: فقلت له: هكذا سمعت أباك يذكره؟. رواه مسلم منفرداً به عن محمد بن حاتم، عن يحيى بن سعيد، به. ورواه عن أبي بكر بن أبي شيبة وغيره، عن حاتم بن إسماعيل، عن حميد الخراط، به. وقد قال بأنه مسجد النبي ﷺ جماعة من السلف والخلف، وهو مروى عن عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، وزيد بن ثابت، وسعيد بن المسيب. واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿لَمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رَبِّهِ يَجْعَلُ يَحْيُوتُ أَنْ يَنْظُرُوا وَاللَّهُ يُخَيِّرُ الْمُطَهِّرِينَ﴾: دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع جماعة الصالحين، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء، والتنزه عن ملابس القاذورات. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن عبد الملك بن عمير، سمعت شبيباً أبا روح يحدث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ صَلَّى بِهِمُ الصُّبْحَ فَقَرَأَ بِهِمُ الرُّومَ فَأَوْهَمَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: «إِنَّهُ يَلْبِسُ عَلَيْنَا الْقُرْآنَ، إِنْ أَقْوَاماً مِنْكُمْ يَصْلُونَ معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء». ثم رواه من طريقين آخرين، عن عبد الملك بن عمير، عن شبيب أبي روح من ذي الكَلَّاع: أنه صلى مع النبي ﷺ، فذكره. فدل هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة، ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها. وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُخَيِّرُ الْمُطَهِّرِينَ﴾: إن الطهور بالماء لحسن، ولكنهم المطهرون من الذنوب. وقال الأعمش: التوبة من الذنب، والتطهير من الشرك. وقد ورد في الحديث المروي من طرق، في السنن وغيرها، أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء: «قد أتني الله عليكم في الطهور، فماذا تصنعون؟» فقالوا: نستنجي بالماء. وقد قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عبد الله بن شبيب، حدثنا أحمد بن محمد بن عبد العزيز قال: وجده في كتاب أبي، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحْيُونَ أَنْ يَنْظُرُوا وَاللَّهُ يُخَيِّرُ الْمُطَهِّرِينَ﴾. فسألهم رسول الله ﷺ فقالوا: إنا نَتَّبِعُ الحجارة الماء. ثم قال: تفرد به محمد بن عبد العزيز، عن

الزهري، ولم يرو عنه سوى ابنه. قلت: وإنما ذكرته بهذا اللفظ لأنه مشهور بين الفقهاء، ولم يعرفه كثير من المحدثين المتأخرين، أو كلهم، والله أعلم.

﴿أَمَنَّا أَسْمَأُ بَيْتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَمَسَ بَيْتَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَكَذَا فَلَتَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٩) لَا يَزَالُ بَيْتُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾.

يقول تعالى: لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى الله ورضوان، ومن بنى مسجداً ضراراً وكفرأ وتفرقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، فإنما بنى هؤلاء بنيانهم ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَكَذَا﴾ أي: طرف خفيفة مثاله ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يصلح عمل المفسدين. قال جابر بن عبد الله: رأيت المسجد الذي بنى ضراراً يخرج منه الدخان على عهد النبي ﷺ. وقال ابن جريج: ذكر لنا أن رجلاً حفرأ فوجدوا الدخان يخرج منه. وكذا قال قتادة. وقال خلف بن ياسين الكوفي: رأيت مسجد المنافقين الذي ذكره الله تعالى في القرآن، وفيه جحر يخرج منه الدخان، وهو اليوم مذبلة. رواه ابن جرير، رحمه الله.

وقوله: ﴿لَا يَزَالُ بَيْتُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: شكاً ونفاقاً بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورتهم نفاقاً في قلوبهم، كما أشرب عابدهو العجل حبه.

وقوله: ﴿وَلَا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: بموتهم. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة، وزيد بن أسلم، والسدي، وحبيب بن أبي ثابت، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بأعمال خلقه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في مجازاتهم عنها، من خير وشر.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْلِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْلِلُونَ وَيَقْلِلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنَيْبِكُمُ الَّذِي بَايَعَكُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١١١).

يخبر تعالى أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوا في سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإذا قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده المطيعين له؛ ولهذا قال الحسن البصري وقاتدة: بايعهم والله فأغلى ثمنهم. وقال شمر بن عطية: ما من مسلم إلا والله، ﷺ، في عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، وقى بها أو مات عليها، ثم تلا هذه الآية. ولهذا يقال: من حمل في سبيل الله بايع الله، أي: قبل هذا العقد ووفى به. وقال محمد بن كعب القرظي وغيره: قال عبد الله بن رواحة، رضي الله عنه، لرسول الله ﷺ - يعني ليلة العقبة -: اشترط لربك ولنفسك ما شئت! فقال: «اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم». قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «الجنة». قالوا: ربح البيع، لا نقبل ولا نستقبل، فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ الآية. وقوله: ﴿يُقْلِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْلِلُونَ وَيَقْلِلُونَ﴾ أي: سواء قتلوا أو قتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة؛ ولهذا جاء في الصحيحين: «وتكفل الله لمن خرج في سبيله، لا يخرج إلا جهاد في سبيلي، وتصديق برسلي، بأن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة». وقوله: ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ﴾: تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله في كتبه الكبار، وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: ولا واحد أعظم وفاءً بما عاهد عليه من الله، فإنه لا يخلف الميعاد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَمْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَبِيبًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَمْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيْلًا﴾ [النساء: ١٧٢]؛ ولهذا قال: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِنَيْبِكُمُ الَّذِي بَايَعَكُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: فليستبشروا من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد، بالفوز العظيم، والتعظيم المقيم.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْحَقُّ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١١٢) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْحَقُّ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١٣﴾.

هذا نعت المؤمنين الذين اشتري الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من الذنوب كلها، التاركون للفواحش، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها، وهي الأقوال والأفعال فمن أخص الأقوال الحمد؛ ولهذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ومن أفضل الأعمال الصيام، وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة ههنا؛ ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله تعالى: ﴿سَيَحْبَبْنَ﴾ [التحریم: ٥]، أي:

صائمات، وكذا الركوع والسجود، وهما عبارة عن الصلاة، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ كَانُوا لَا يَتَنَبَّهُونَ﴾، وهم مع ذلك ينفعون خلق الله، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه، علماً وعملاً، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق؛ ولهذا قال: ﴿وَيَتَّبِعُوا الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ﴾، لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به.

بيان أن المراد بالسياحة الصيام:

قال سفيان الثوري، عن عاصم، عن زُرِّ، عن عبد الله بن مسعود قال: ﴿الصَّائِمُونَ﴾ الصائمون. وكذا زوي عن سعيد بن جبيرة، والعمري عن ابن عباس. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: كل ما ذكر الله في القرآن السياحة، هم الصائمون. وكذا قال الضحاك، رحمه الله. وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا إبراهيم بن يزيد، عن الوليد بن عبد الله، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: سياحة هذه الأمة الصيام. وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعطاء، وأبو عبد الرحمن السلمي، والضحاك بن مزاحم، وسفيان بن عيينة وغيرهم: أن المراد بالسائحين: الصائمون. وقال الحسن البصري: ﴿الصَّائِمُونَ﴾: الصائمون شهر رمضان. وقال أبو عمرو العباسي: ﴿الصَّائِمُونَ﴾: الذين يديمون الصيام من المؤمنين. وقد ورد في حديث مرفوع نحو هذا، وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عبد الله بن بزيح، حدثنا حكيم بن حزام، حدثنا سليمان، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «السائحون هم الصائمون». ثم رواه عن بُنْدَار، عن ابن مهدي، عن إسرائيل، عن سليمان الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة أنه قال: ﴿الصَّائِمُونَ﴾: الصائمون. وهذا الموقوف أصح. وقال أيضاً: حدثني يونس، عن ابن وهب، عن عمر بن الحارث، عن عمرو بن دينار، عن عُبَيْد بن غُمَيْر قال: سئل النبي ﷺ عن السائحين فقال: «هم الصائمون». وهذا مرسل جيد. فهذه أصح الأقوال وأشهرها، وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد، وهو ما روى أبو داود في سننه، من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله، ائذن لي في السياحة. فقال النبي ﷺ: «سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله». وقال ابن المبارك، عن ابن لهيعة: أخبرني عُمارة بن غَزِيَّة أن السياحة ذكرت عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أبدلنا الله بذلك الجهاد في سبيل الله، والتكبير على كل شرف». وعن عكرمة أنه قال: هم طلبة العلم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المهاجرون. رواهما ابن أبي حاتم. وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض، والتفرد في شواطئ الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين، كما ثبت في صحيح البخاري، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يكون خير مال الرجل غَنَمٌ يَتَّبِعُهَا شَعَفَ الْجِبَالِ، ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن». وقال العمري وعلي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْمُتَّقُونَ الَّذِينَ كَانُوا يَاسِعُونَ﴾ قال: القائمون بطاعة الله. وكذا قال الحسن البصري، وعنه رواية: ﴿وَالْمُتَّقُونَ الَّذِينَ كَانُوا يَاسِعُونَ﴾ قال: لفرائض الله، وفي رواية: القائمون على أمر الله.

﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ اصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَتْ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن ابن المسيب، عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: «أبي غم، قل لا إله إلا الله. كلمة أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ قال: فلم يزالا يكلمانه، حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب. فقال النبي ﷺ: «لا تستغفرون لك ما لم آت الله عنك». فنزلت: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ اصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ﴿١١٣﴾، قال: ونزلت فيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] أخرجاه. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، أخبرنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي الخليل، عن علي، رضي الله عنه، قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه، وهما مشركان، فقلت: يستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان؟ فقال: أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فنزلت: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾، قال: «لما مات»، فلا أدري قاله سفيان أو قاله إسرائيل، أو هو في الحديث «لما مات». قلت هذا ثابت عن مجاهد أنه قال: لما مات. وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا زهير، حدثنا زيد بن الحارث الياامي، عن محارب بن دثار، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: كنا مع النبي ﷺ، فنزل بنا ونحن

معه قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين، ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرِفان، فقام إليه عمر بن الخطاب وقّده بالآب والأم، وقال: يا رسول الله، مالك؟ قال: «إني سألت ربي، ﷺ، في الاستغفار لأمي، فلم يأذن لي، فدمعت عيناى رحمة لها من النار، وإني كنت نهيتكم عن ثلاث: نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، لتذكركم زيارتها خيراً، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاث، فكلوا وأمسكوا ما شئتم، ونهيتكم عن الأشربة في الأوعية، فاشربوا في أي وعاء ولا تشربوا مسكراً».

وروى ابن جرير، من حديث علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ لما قدم مكة أتى رَسَمَ قبر، فجلس إليه، فجعل يخاطب، ثم قام مستعبراً. فقلنا: يا رسول الله، إنا رأينا ما صنعت. قال: «إني استأذنت ربي في زيارة قبر أُمي، فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي». فما رُوي بأكبر أكثر من يومئذ. وقال ابن أبي حاتم، في تفسيره: حدثنا أبي، حدثنا خالد بن خِدَاش، حدثنا عبد الله بن وهب، عن ابن جُرَيج عن أيوب بن هانئ، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود قال: خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر، فاتبعناه، فجاء حتى جلس إلى قبر منها، ففجأ طويلاً ثم بكى، فبكينا لبكائه ثم قام، فقام إليه عمر بن الخطاب، فدعاه ثم دعانا، فقال: «ما أبكاكم؟» فقلنا: بكينا لبكائك. قال: «إن القبر الذي جلسك عنده قبر أُمّة، وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي»، ثم أوردته من وجه آخر، ثم ذكر من حديث ابن مسعود قريباً منه، وفيه: «وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي، وأنزل علي: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى﴾، فأخذني ما يأخذ الولد للوالدة، وكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تذكر الآخرة».

حديث آخر في معناه: قال الطبراني: حدثنا محمد بن علي المروزي، حدثنا أبو الدرداء عبد العزيز بن منيب، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن كَيْسَانَ، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ لما أقبل من غزوة تبوك واعتصر، فلما هبط من ثنية عُشْفَانِ أمر أصحابه: أن استندوا إلى العقبة حتى أرجع إليكم، فذهب فنزل على قبر أمه، ففجأ رُيّه طويلاً، ثم إنه بكى فاشتد بكاءؤه، وبكى هؤلاء لبكائه، وقالوا: ما بكى نبي الله بهذا المكان إلا وقد أحدث في أمته شيء لا تُطيقه. فلما بكى هؤلاء قام فرجع إليهم، فقال: «ما يبكيكم؟» قالوا: يا نبي الله، بكينا لبكائك، فقلنا: لعله أحدث في أمتك شيء لا تُطيقه، قال: «لا»، وقد كان بعضه، ولكن نزلت على قبر أُمي فدعوت الله أن يأذن لي في شفاعتها يوم القيامة، فأبى الله أن يأذن لي، فرحمته وهي أُمي، فبكيت، ثم جاءني جبريل فقال: «﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾، فتبرأ أنت من أمك، كما تبرأ إبراهيم من أبيه، فرحمته وهي أُمي، ودعوت ربي أن يرفع عن أمتي أربعاً، فرفع عنهم اثنين، وأبى أن يرفع عنهم اثنين: دعوت ربي أن يرفع عنهم الرجم من السماء والعرق من الأرض، وأبى أن يرفع عنهم يلبسهم شيعاً، وألا يذيق بعضهم بأس بعض، فرفع الله عنهم الرجم من السماء، والعرق من الأرض، وأبى الله أن يرفع عنهم القتل والهرج». وإنما عدل إلى قبر أمه لأنها كانت مدفونة تحت كداه، وكانت عُشْفَانِ لهم. وهذا حديث غريب وسياق عجيب، وأغرب منه وأشد نكارة ما رواه الخطيب البغدادي في كتاب «السابق واللاحق» بسند مجهول، عن عائشة في حديث فيه قصة أن الله أحيا أمه فأمنت ثم عادت. وكذلك ما رواه السهيلي في «الروض» بسند فيه جماعة مجهولون: أن الله أحيا له أباه وأمه، فأمن به. وقد قال الحافظ ابن دحية: هذا الحديث موضوع يرد القرآن والإجماع، قال الله تعالى: «﴿وَلَا الَّذِينَ يُمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾» [النساء: ١٨]. وقال أبو عبد الله القرطبي: إن مقتضى هذا الحديث... ورد على ابن دحية في هذا الاستدلال بما حاصله: أن هذه حياة جديدة، كما رجعت الشمس بعد غيوبتها فصلى عليّ العصر، قال الطحاوي: وهو حديث ثابت، يعني: حديث الشمس. قال القرطبي: فليس إحياءهما يمتنع عقلاً ولا شرعاً، قال: وقد سمعت أن الله أحيا عمه أبا طالب، فأمن به. قلت: وهذا كله متوقف على صحة الحديث، فإذا صح فلا مانع منه، والله أعلم.

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: «﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾» الآية، فإن رسول الله ﷺ أراد أن يستغفر لأمه، فنهاه الله عن ذلك، فقال: «فإن إبراهيم خليل الله استغفر لأبيه»، فأنزل الله: «﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾» الآية. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في هذه الآية: كانوا يستغفرون لهم، حتى نزلت هذه الآية، فلما نزلت أمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم، ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا، ثم أنزل الله: «﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾» الآية. وقال قتادة في هذه الآية: ذكر لنا أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا نبي الله، إن من آياتنا من كان يحسن الجوار، ويصل الأرحام، ويثقل العاني، ويوفي بالذم؛ أفلا نستغفر لهم؟ قال: فقال النبي ﷺ: «إلى، والله إني لأستغفر لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه». فأنزل الله: «﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾» حتى بلغ: «﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾»، ثم عذر الله تعالى إبراهيم، فقال: «﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾».

عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴿١١٣﴾ قال: وذكر لنا أن نبي الله قال: «أوحى إلي كلمات، فدخلن في أذني ووقرن في قلبي: أمرت ألا أستغفر لمن مات مشركاً، ومن أعطى فضل ماله فهو خير له، ومن أمسك فهو شر له، ولا يلوم الله على كفاف». وقال الثوري، عن الشيباني، عن سعيد بن جبيرة قال: مات رجل يهودي وله ابن مسلم، فلم يخرج معه، فذكر ذلك لابن عباس فقال: فكان ينبغي له أن يمشي معه ويدفنه، ويدعوه بالصلاح ما دام حياً، فإذا مات وكَّله إلى شأنه ثم قال: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾، لم يدع. قلت: وهذا يشهد له بالصحة ما رواه أبو داود وغيره، عن علي بن أبي طالب قال: لما مات أبو طالب قلت: يا رسول الله، إن عمك الشيخ الضال قد مات. قال: «أذهب قَوَّاره ولا تُحدثن شيئاً حتى تأتيني». وذكر تمام الحديث. ويروى أن رسول الله ﷺ لما مرت به جنازة عمه أبي طالب قال: «وَصَلَّتْكَ رَحِمٌ يَا عَم».

وقال عطاء بن أبي رباح: ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة، ولو كانت حبشية حبلى من الزنا؛ لأنني لم أسمع الله حجب الصلاة إلا على المشركين، يقول الله، ﷻ: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾. وروى ابن جرير، عن ابن وكيع، عن أبيه، عن عصمة بن زامل، عن أبيه قال: سمعت أبا هريرة يقول: رحم الله رجلاً استغفر لأبي هريرة ولأمه. قلت: ولأبيه؟ قال: لا. قال: إن أبي مات مشركاً. وقوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾: قال ابن عباس: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. وفي رواية: لما مات تبين له أنه عدو لله. وكذا قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، وغيرهم، رحمهم الله. وقال عبيد بن عمير، وسعيد بن جبيرة: إنه يتبرأ منه في يوم القيامة حين يلقي أباه، وعلى وجه أبيه العُبرة والفُثرة فيقول: يا إبراهيم، إني كنت أعصيك وإني اليوم لا أعصيك. فيقول: أي ربي، ألم تعدني ألا تخزني يوم يبعثون؟ فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقال: انظر إلى ما وراءك، فإذا هو يذبح متلطح، أي: قد مسخ ضِعْبَانَا، ثم يسحب بقوائمه، ويلقي في النار.

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾، قال سفيان الثوري وغير واحد، عن عاصم بن بهدلة، عن زَرِّ بن حُبَيْش، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: الأواه: الدَّعَاء. وكذا روي من غير وجه، عن ابن مسعود. وقال ابن جرير: حدثني المثنى: حدثنا الحجاج بن ميثال، حدثنا عبد الحميد بن بهرام، حدثنا شهر بن حوشب، عن عبد الله بن شداد بن الهاد قال: بينما رسول الله ﷺ جالس قال رجل: يا رسول الله، ما الأواه؟ قال: «المتضرع»، قال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾. ورواه ابن أبي حاتم من حديث ابن المبارك، عن عبد الحميد بن بهرام، به، قال: المتضرع: الدَّعَاء. وقال الثوري، عن سلمة بن كُهَيْل، عن مسلم البطين عن أبي العبيد بن أبي مسعود عن الأواه، فقال: هو الرحيم. وبه قال مجاهد، وأبو ميسرة عمرو بن شَرْخِيل، والحسن البصري، وقتادة: أنه الرحيم، أي: بعباد الله.

وقال ابن المبارك، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: الأواه: الموقن بلسان الحبشة. وكذا قال العوفي، عن ابن عباس: أنه الموقن. وكذا قال مجاهد، والضحاك. وقال علي بن أبي طلحة، ومجاهد، عن ابن عباس: الأواه: المؤمن - زاد علي بن أبي طلحة عنه: المؤمن التواب. وقال العوفي عنه: هو المؤمن بلسان الحبشة. وكذا قال ابن جُرَيْج: هو المؤمن بلسان الحبشة. وقال أحمد: حدثنا موسى، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح، عن عتبة بن عامر؛ أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له «ذو البجادين»: «إنه أواه»، وذلك أنه رجل كثير الذكر لله في القرآن ويرفع صوته في الدعاء. ورواه ابن جرير. وقال سعيد بن جبيرة، والشعمي: الأواه: المسبَّح. وقال ابن وهب، عن معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن جبيرة بن نفير، عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: لا يحافظ على سبحة الضحى إلا أواه. وقال شُعْبَةُ بن مانع، عن أيوب: الأواه: الذي إذا ذكر خطايا استغفر منها. وعن مجاهد: الأواه: الحفيظ الوجل، يذنب الذنب سراً، ثم يتوب منه سراً. ذكر ذلك كله ابن أبي حاتم، رحمه الله. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا المحاربي، عن حجاج، عن الحكم، عن الحسن بن مسلم بن يناق: أن رجلاً كان يكثر ذكر الله ويسبِّح، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «إنه أواه». وقال أيضاً: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا ابن يمان، حدثنا الميثال بن خليفة، عن حجاج بن أرطاة، عن عطاء، عن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ دفن ميتاً، فقال: «رحمك الله إن كنت لأواهاً»! - يعني: ثلاثة للقرآن. وقال شعبة، عن أبي يونس الباهلي قال: سمعت رجلاً بمكة - وكان أصله رومياً، وكان قاصاً - يحدث عن أبي ذر قال: كان رجل يطوف بالبيت الحرام ويقول في دعائه: «أوه! أوه»، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: إنه أواه. قال: فخرجت ذات ليلة، فإذا رسول الله ﷺ يدفن ذلك الرجل ليلاً ومعه المصباح. هذا حديث غريب رواه ابن جرير ومشاه. وروي عن كعب الأحبار أنه قال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ قال: كان إذا ذكر النار قال: «أوه من النار».

وقال ابن جُرَيْج عن ابن عباس: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾، قال: فقيه. قال الإمام العلم أبو جعفر بن جرير: وأولى الأقوال قول من قال: إنه الدُّعَاءُ، وهو المناسب للسياق، وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدّها إياه، وقد كان إبراهيم كثير الدعاء حليماً عمن ظلمه وأناله مكروهاً؛ ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه في قوله: ﴿أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ الْهَيْقِ يَتَابَرُهُمْ لَيْنَ لَمْ تَنْتَ لَأَرْجُحْكَ وَأَهْجُرْني مَيْتًا﴾ ﴿١١٦﴾ قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رِيقًا إِنَّهُ كَانَتْ فِي حَقِّكَ ﴿١١٧﴾ [مریم: ٤٦، ٤٧]، فحلم عنه مع أذاه له، ودعاه واستغفر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُضِلُّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يَسْتَأْذِنَ لَكُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿١١٨﴾ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿١١٩﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة وحكمه العادل: إنه لا يضل قوماً بعد بلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا تُمُودَ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْمَمَنَ عَلَى الْهَدْيِ﴾ الآية [نصحت: ١٧]. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُضِلُّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يَسْتَأْذِنَ لَكُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾، قال: بيان الله، ﷻ، للمؤمنين في الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه طاعته ومعصيته عامة، فافعلوا أو ذروا. وقال ابن جرير: يقول الله تعالى: وما كان الله ليقتضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلal بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهاي عنه فتتركوا، فأما قبل أن يبين لكم كراهيته ذلك بالنهاي عنه، ثم تتعدوا نهاي إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلal، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، وأما من لم يؤمر ولم يئة فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿١١٩﴾: قال ابن جرير: هذا تحريض من الله لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأن يشقوا بنصر الله مالك السموات والأرض، ولا يرهبوا من أعدائه فإنه لا ولي لهم من دون الله، ولا نصير لهم سواه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن أبي دلامة البغدادي، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن صفوان بن مخرز، عن حكيم بن حزام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شيء. فقال رسول الله ﷺ: «إني لأسمع أطيظ السماء، وما تلام أن تَنطُ، وما فيها من موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم». وقال كعب الأحبار: ما من موضع خربة إبرة من الأرض إلا وملك موكل بها، يرفع علم ذلك إلى الله، وإن ملائكة السماء لأكثر من عدد التراب، وإن حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى مئخه مسيرة مائة عام.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ يَهْمُ رُدُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١٢٠﴾.

قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مُجْدِبة وحر شديد، وعسر من الزاد والماء. قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لَهْبَان الحر، على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان الثمرة بينهما، وكان نفر يتداولون الثمرة بينهم، يمحسها هذا، ثم يشرب عليها، ثم يمحسها هذا، ثم يشرب عليها، ثم يمحسها هذا، ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم. وقال ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن عتبة بن أبي عتبة، عن نافع بن جُبَيْر بن مطعم، عن عبد الله بن عباس؛ أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً، فأصابنا فيه عَطَشٌ، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلمس الماء، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بغيره فيعصر قرته فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله ﷻ، قد عَوَّدَكَ في الدعاء خيراً، فادع لنا. قال: «تحب ذلك؟». قال: نعم! فرفع يديه فلم يرجعهما حتى مالت السماء فأظلمت ثم سكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجد ما جاوزت العسكر. وقال ابن جرير في قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ﴾ أي: من النفقة والظهر والزاد والماء، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: عن الحق ويشك في دين رسول الله ﷺ ويرتاب، بالذي نالهم من المشقة والشدة في سفره وغزوه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم، والرجوع إلى الثبات على دينه، ﴿إِنَّهُمْ يَهْمُ رُدُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَعَلَّ الْكَلْبَةَ الْكَلْبَةَ خَلْفَهُ إِذَا سَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾

قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن أخي الزهري محمد بن عبد الله، عن عمه محمد بن مسلم الزهري، أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، أن عبد الله بن كعب بن مالك - وكان قائد كعب من بني حنظلة - قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غيرها قط إلا في غزوة تبوك، غير أنني كنت تخلفت في غزاة بدر، ولم يعاتب أحد تخلف عنها، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد غير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير معاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة، وكان رسول الله ﷺ قلماً يريد غزوة يغزوها إلا ورى غيرها، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدواً كثيراً، فجئني للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - فقال كعب: قتل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحى من الله، ﷺ. وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظل، وأنا إليها أصعر. فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض من جهازي شيئاً، فأقول لنفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادي بي حتى شمر بالناس الجذ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، وقلت: أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه. فعدوت بعدما فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً من جهازي. ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادي بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم - وليت آتني فعلت - ثم لم يقدر ذلك لي، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفقت فيهم يحزنني ألا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذره الله، ﷺ، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك؟» قال رجل من بني سلمة: حبسه يا رسول الله ﷺ، والنظر في عطفه. فقال له معاذ بن جبل: بشما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه فافلاً من تبوك حضرني نبي، فطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً؟ استعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي. فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلم قادمًا، زاح عني الباطل وعرفت أنني لم أنج منه بشيء أبداً. فأجمعت صدقه، وصبح رسول الله ﷺ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له - وكانوا بضعة وثمانين رجلاً - فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال لي: «تعال»، فجلست أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلفك، ألم تك قد اشتريت ظهرك؟» قال: فقلت: يا رسول الله، إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلاً، ولكنه والله لقد علمت لئن حدثت اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله يسخطك علي، ولئن حدثت بك بصدق تجد علي فيه، إني لأرجو أقرب عقي ذلك عفواً من الله، ﷺ، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفقر ولا أيسر مني حين تخلفت عنك قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك». فقممت وبادرني رجال من بني سلمة واتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنب ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك. قال: فوالله ما زالوا يؤثرونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي. قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان، قالوا ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك. قلت: فمن هما؟ قالوا: مُزارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي. فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا لي فيهما أسوة. قال: فمضيت حين ذكروهما لي، قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا - أيها الثلاثة - من بين من تخلف عنه، فاجتبتنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف

بالأسواق، فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم، وأقول في نفسي: حرك شفثيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، فإذا التفّت نحوه أعرض، حتى إذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي - فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك الله: هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت. قال: فعدت فنشدته فسكت، فعدت فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم. قال: ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار. فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا ببطي من أنباط الشام، ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون له إلي، حتى جاء فدفع إلي كتاباً من ملك غسان، وكنت كاتباً، فإذا فيه: أما بعد، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيق، فالحق بنا نواسك. قال: فقلت حين قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء. قال: فتيمنت به التنوير فسجرت، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربها. قال: وأرسل إلي صاحبي بمثل ذلك. فقلت لامراتي: الحق بأهلك، فكروني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله، إن هلالاً شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربك» قالت: وإنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما يزال يبكي من لدن أن كان من أمرك ما كان إلى يومه هذا. قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وأما أدري ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب؟

قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا: قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر. قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج، فأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبيل صاحبي مبشرون، وركض إلي رجل فرساً، وسعى ساع من أسلم وأوفى على جبل، فكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنى، فترعت ثوبي، فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أوم رسول الله ﷺ، يلقياني الناس فوجاً فوجاً يهنئونني بالتوبة، يقولون: ليهنك توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول، حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك». قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله». قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سُر استار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، حتى يعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله. قال: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك». قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخير. وقلت: يا رسول الله، إنما نجاني الله بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت. قال: فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

قال: وأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُنْصَرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رُدُّوا رَحِيمٌ ١١٨﴾ وَكَذَلِكَ الْكَلِمَةُ الَّتِي كُنْتُمْ تُخْلِقُونَ بِهَا مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَإِنَّمَا يَرْضَى مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَلِّمُونَ عَلَى اللَّهِ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُمْ وَلَا تَحْسَبُوا عَيْنَكُمْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَمَنْ يَحْسَبُ عَيْنَهُمْ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ١١٩﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ فَأَجِبْهُمْ قَالِ إِنَّهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٢٠﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ فَأَجِبْهُمْ قَالِ إِنَّهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٢١﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ فَأَجِبْهُمْ قَالِ إِنَّهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٢٢﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ فَأَجِبْهُمْ قَالِ إِنَّهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٢٣﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ فَأَجِبْهُمْ قَالِ إِنَّهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٢٤﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ فَأَجِبْهُمْ قَالِ إِنَّهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٢٥﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ فَأَجِبْهُمْ قَالِ إِنَّهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٢٦﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ فَأَجِبْهُمْ قَالِ إِنَّهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٢٧﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ فَأَجِبْهُمْ قَالِ إِنَّهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٢٨﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ فَأَجِبْهُمْ قَالِ إِنَّهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٢٩﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ فَأَجِبْهُمْ قَالِ إِنَّهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٣٠﴾

فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله أمرنا، حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّ الْأَلْفَنَّهُ الْأَزِيكَ خُلُقُوا﴾، وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خُلِفْنَا بتخليفنا عن الغزو، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه.

هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته، رواه صاحبنا الصحيح: البخاري ومسلم من حديث الزهري، بنحوه. فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها. وكذا روي عن غير واحد من السلف في تفسيرها، كما رواه الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر بن عبد الله في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّ الْأَلْفَنَّهُ الْأَزِيكَ خُلُقُوا﴾ قال: هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن ربيعة وكلهم من الأنصار. وكذا قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي وغير واحد. وكلهم قال: مُرارة بن ربيعة. وكذا في مسلم: مُرارة بن ربيعة في بعض نسخه، وفي بعضها: مُرارة بن الربيع. وفي رواية عن سعيد بن جبيرة: ربيع بن مُرارة. وقال الحسن البصري: ربيع بن مُرارة، أو: مُرارة بن ربيع. وفي رواية عن الضحاك: مُرارة بن الربيع، كما وقع في الصحيحين، وهو الصواب. وقوله: «فسموا رجلين شهدا بدرًا»، قيل: إنه خطأ من الزهري، فإنه لا يُعْرَفُ شهودُ واحد من هؤلاء الثلاثة بدرًا، والله أعلم. ولما ذكر تعالى ما فُرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب، من هجر المسلمين إياهم نحوًا من خمسين ليلة بأيامها، وضاعت عليهم أنفسهم، وضاعت عليهم الأرض بما رُحِبَتْ، أي: مع سعتها، فسدت عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله، واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر، فعوقبوا على ذلك هذه المدة، ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيرًا لهم وتوبة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، أي: اصْدُقُوا والزمو الصدق تكونوا مع أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجًا من أموركم، ومخرجًا.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن شقيق؛ عن عبد الله، هو ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذابًا». أخرجاه في الصحيحين. وقال شعبة، عن عمرو بن مُرّة، سمع أبا عبيدة يحدث عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، أنه قال: إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، اقرؤوا إن شئتم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾. - هكذا قرأها - ثم قال: فهل تجدون لأحد فيه رخصة. وعن عبد الله بن عمر: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾: مع محمد ﷺ وأصحابه. وقال الضحاك: مع أبي بكر وعمر وأصحابهما. وقال الحسن البصري: إن أردت أن تكون مع الصادقين، فليكن بالزهد في الدنيا، والكف عن أهل الملة.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْآخِرِينَ أَنْ يَخْلُقُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّهُمْ ظَنًّا وَلَا نَصَبًا وَلَا حَقًّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْفُونَ مَوْطِنًا يَخِطُّ الْكُفَّارُ وَلَا يَتَالَوْنَ مِنْ عَذَابٍ نِيلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

يعاتب تعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورجبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل من المشقة، فإنهم نَقَصُوا أنفسهم من الأجر؛ لأنهم ﴿لَا يُحِبُّهُمْ ظَنًّا﴾ وهو: العنقش ﴿وَلَا نَصَبًا﴾ وهو: التعب ﴿وَلَا حَقًّا﴾ وهي: المجاعة ﴿وَلَا يَطْفُونَ مَوْطِنًا يَخِطُّ الْكُفَّارُ﴾ أي: ينزلون منزلاً يُرهبُ عدوهم ﴿وَلَا يَتَالَوْنَ﴾ منه ظفرًا وغلبة عليه إلا كتب الله لهم بهذه الأعمال التي ليست داخلية تحت قدرهم، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم، أعمالًا صالحة وثوابًا جزيلاً، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ١٣٠].

﴿وَلَا يُفْقِرُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطِرُونَ وَادِيًا إِلَّا كَحَبِّ لَمْ يَجْرِبْهُمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَسْتَلُونَ﴾.

يقول تعالى: ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أي: قليلاً ولا كثيراً ﴿وَلَا يَقْطِرُونَ وَادِيًا﴾ أي: في السير إلى الأعداء ﴿إِلَّا كَحَبِّ لَمْ يَجْرِبْهُمْ اللَّهُ أَحْسَنَ﴾ ولم يقل ههنا «به» لأن هذه أفعال صادرة عنهم؛ ولهذا قال: ﴿يَجْرِبْهُمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَسْتَلُونَ﴾. وقد حصل لأمر المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، من هذه الآية الكريمة حظ وافر، ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة، والأموال الجزيلة، كما قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا أبو موسى العنزي، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثني سكن بن المغيرة، حدثني الوليد بن أبي هشام، عن فرقد أبي طلحة،

عن عبد الرحمن بن خباب السلمي قال: خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة، فقال عثمان بن عفان، رضي الله عنه: عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم حث، فقال عثمان: عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم نزل مزاغة من المنبر ثم حث، فقال عثمان بن عفان: عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده هكذا - يحركها، وأخرج عبد الصمد يده كالمتعجب: «ما على عثمان ما عمل بعد هذا». وقال عبد الله أيضاً: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ضمرة، حدثنا عبد الله بن شاذب، عن عبد الله بن القاسم، عن كثير مولى عبد الرحمن بن سمرة، عن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة قال: فصبها في حجر النبي ﷺ، فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول: «ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم». يرددها مراراً. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ﴾ الآية: ما ازداد قوم من أهلهم في سبيل الله بعداً إلا ازدادوا من الله قرباً.

﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيسْمُرُوا كَأَنَّهُ قَوْلَا نَعَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيسْمَعُوهَا فِي الْإِذِينَ وَلِيسْمُرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من تغير الأحياء مع الرسول في غزوة تبوك، فإنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أنه كان يجب التنفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْكَلْبَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]، قالوا: فسخ ذلك بهذه الآية. وقد يقال: إن هذا بيان لمراده تعالى من تغير الأحياء كلها، وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمران في هذا: التنفير المعين وبعده، صلوات الله وسلامه عليه، تكون الطائفة النافرة من الحي إما للتفقه وإما للجهاد؛ فإنه فرض كفاية على الأحياء. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيسْمُرُوا كَأَنَّهُ﴾ يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده، ﴿قَوْلَا نَعَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يعني: عصابة، يعني: السرايا، ولا يتسروا إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ، قالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنًا، وقد تعلمناه. فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: ﴿لِّيسْمَعُوهَا فِي الْإِذِينَ﴾ يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾. وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب محمد ﷺ، خرجوا في البوادي، فأصابوا من الناس معروفًا، ومن الخصب ما ينتفعون به، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا. فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجًا، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ، فقال الله، ﷻ: ﴿قَوْلَا نَعَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يستنصرون الخير، ﴿لِّيسْمَعُوهَا فِي الْإِذِينَ﴾ وليستمعوا ما في الناس، وما أنزل الله بعدهم، ﴿وَلِيسْمُرُوا قَوْمَهُمْ﴾ الناس كلهم ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾. وقال قتادة في هذه الآية: هذا إذا بعث رسول الله ﷺ الجيوش، أمرهم الله ألا يمرؤا نبيّه ﷺ، وتقيم طائفة مع رسول الله تنفقه في الدين، وتنطلق طائفة تدعو قومها، وتحذروهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم.

وقال الضحاك: كان رسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يحل لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه، إلا أهل العذر. وكان إذا أقام فاسترت السرايا لم يحل لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه، فكان الرجل إذا استرى فنزل بعده قرآن، تلاه رسول الله ﷺ على أصحابه القاعدين معه، فإذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله ﷺ: إن الله أنزل بعدكم على نبيّه قرآنًا. فيقرؤونهم ويفقهونهم في الدين، وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيسْمُرُوا كَأَنَّهُ﴾ يقول إذا أقام رسول الله ﷺ ﴿قَوْلَا نَعَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يعني بذلك: أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعاً ونبي الله ﷺ قاعد، ولكن إذا قعد نبي الله ﷺ تسرت السرايا، وقعد معه عظم الناس. وقال علي بن أبي طلحة أيضاً عن ابن عباس: قوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيسْمُرُوا كَأَنَّهُ﴾: فإنها ليست في الجهاد، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مضر بالسنتين أجذبت بلادهم، وكانت القبيلة منهم ثقيل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد، ويعتلوا بالإسلام وهم كاذبون. فضيقوا على أصحاب النبي ﷺ وأجهدوهم. فأنزل الله يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين، فردهم رسول الله ﷺ إلى عشائهم، وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم، فذلك قوله: ﴿وَلِيسْمُرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾. وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة، فيأتون النبي ﷺ، فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم، ويتفقهون في دينهم، ويقولون لنبي الله: ما تأمرنا أن نفعله؟ وأخبرنا ما نقول لعشائنا إذا قدما انطلقنا إليهم. قال: فيأمرهم نبي الله بطاعة الله وطاعة رسوله، ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة. وكانوا إذا أتوا قومهم

نادوا: إن من أسلم فهو منا، ويندرونهم، حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه، وكان رسول الله ﷺ يخبرهم وينذرهم قومهم، فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام ويندرونهم النار ويشرونهم بالجنة.

وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية الشريفة: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يَأْذَنُكُمْ إِلَهُكُمْ﴾ [التوبة: ٣٩]، و﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْإِسْلَامِ أَنْ يَخْتَلِفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]، قال المنافقون: هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه. وقد كان ناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم، فأنزل الله، ﷻ: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيسْفَرُوا كُلَّهُمْ لَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ الآية، ونزلت: ﴿وَالَّذِينَ يُخَاجِرُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ﴾ الآية [الشورى: ١٦]. وقال الحسن البصري: ﴿لَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لَسَفَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ قال: ليتفقه الذين خرجوا، بما يردهم الله من الظهور على المشركين، والنصرة، ويندروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام؛ ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة، والطائف، واليمن واليمامة، وهجر، وخيبر، وحضرموت، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لكونهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس وجذب البلاد وضيق الحال، وكان ذلك سنة تسع من هجرته، عليه السلام. ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجته حجة الوداع. ثم عاجلته المنية، صلوات الله وسلامه عليه، بعد الحجة بأحد وثمانين يوماً، فاختاره الله لما عنده. وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر، رضي الله عنه، وقد مال الدين ميله كاد أن ينجل، فبثته الله تعالى به فوطد القواعد، وثبت الدعائم، ورد شارح الدين وهو راغم. ورد أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطعام، وبين الحق لمن جهله، وأدى عن الرسول ما حمّله. ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصليبان، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنفس كسرى وقبصر ومن أطاعهما من العباد. وأنفق كنوزهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك رسول الإله. وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده، وولي عهده الفاروق الأواب، شهيد المحراب، أبي حفص عمر بن الخطاب، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً. وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقرباً. ففرقها على الوجه الشرعي، والسبيل المرضي. ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار، على خلافة أمير المؤمنين أبي عمرو عثمان بن عفان شهيد الدار. فكسا الإسلام بجلاله رياسة حلة سابعة. وأمدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة، وظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمة الله وظهر دينه. وبلغت الأمة الحثيفة من أعداء الله غاية مآربها، فكلموا علواً أمة انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾، أي: وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً لأخيه المؤمن، غليظاً على عدوه الكافر، كما قال تعالى: ﴿مَتَّوِّفٍ يَأْتِي اللَّهَ بِقُوَّةٍ يُمْهُمْ وَيُخَوِّتُهُ أَذِلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا جَاهِدُوا الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، والنحرير: [٩]، وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا الضُّحُوكُ الْقَتَالُ»، يعني: أنه ضُحُوكُ في وجه وليه، قَتَالُ لهامة عدوه.

وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، أي: قاتلوا الكفار، وتوكلوا على الله، واعلموا أن الله معكم إن اتقيتموه وأطعتموه. وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة، في غاية الاستقامة، والقيام بطاعة الله تعالى، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تنزل الفتوحات كثيرة، ولم تنزل الأعداء في سفال وخسار. ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك، طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها، فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام، فأخذوا من الأطراف بلداناً كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، والله، سبحانه، الأمر من قبل ومن بعد. فكلمنا قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله، وتوكل على الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه، وبقدر ما فيه من ولاية الله. والله المسؤول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين، وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم، إنه جواد كريم.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فمن المنافقين ﴿فَمَنْ يَقُولُ أَيْسَرُ رَدَّتْهُ هَذِهِ إِيَّانَا؟﴾ أي: يقول بعضهم لبعض أيسر زادت هذه السورة إيماناً؟ قال الله تعالى: ﴿فَأَنَّا لِلَّذِينَ آمَنُوا وَأَدْبَتَهُمْ إِيَّانَا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾. وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد، وقد بسط الكلام على هذه المسألة في أول «شرح البخاري» رحمه الله، ﴿وَأَنَّا لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَمٌ وَأَدْبَتَهُمْ رَجَسًا إِيَّانَا﴾ أي: زادتهم شكاً إلى شكهم، وريباً إلى ريبهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لفضلالهم ودمارهم، كما أن سبب المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خيلاً ونقصاً.

يقول تعالى: «أولاً يرى هؤلاء المنافقون ﴿أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَ﴾ أي: يختبرون ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَفُوتُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أي: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة، ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم. قال مجاهد: يختبرون بالسنة والجوع. وقال قتادة: بالغزو في السنة مرة أو مرتين. وقال شريك، عن جابر - هو الجعفي - عن أبي الضحى، عن حذيفة: ﴿أَوَّلَ يَوْمٍ أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ قال: كنا نسمع في كل عام كذبة أو كذبتين، فيضل بها فنام من الناس كثير. رواه ابن جرير. وفي الحديث عن أنس: «لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا يزداد الناس إلا شحاً، وما من عام إلا والذي بعده شر منه»، سمعته من نبيكم ﷺ.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ ﴿١٧٨﴾ إِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ حَسِبَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٧٩﴾﴾.

يقول تعالى مبتدئاً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، أي: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم، عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: منكم وبلغتكم، كما قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته، وذكر الحديث. وقال سفيان بن عيينة، عن جعفر بن محمد، عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، وقال ﷺ: «خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح». وقد وصل هذا من وجه آخر، كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي في كتابه «الفصل بين الراوي والواعي»: حدثنا أبو أحمد يوسف بن هارون بن زياد، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال: أشهد على أبي لحدثني، عن أبيه، عن جده، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي لم يمسن من سفاح الجاهلية شيء». وقوله: ﴿عَزَّزْتُ عَلَيْهِ مَا عَشَرَ﴾ أي: يعز عليه الشيء الذي يغتث أمته ويشق عليها؛

ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة»، وفي الصحيح: «إن هذا الدين يسر»، وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة، يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم. قال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان بن عيينة، عن فطر، عن أبي الطفيل، عن أبي ذر قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكرنا منه علماً - قال: وقال ﷺ: «ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو فطن، حدثنا السعدي، عن الحسن بن سعد، عن عتبة التهدي، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يحرم حُرمة إلا وقد علم أنه سيطلمعها منكم مُطْلَعٌ، ألا وإنني أخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار، كتهافت الفراش، أو الذباب». وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جُدعان، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ أتاه ملكان، فيما يرى النائم، فقعده أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته. فقال: إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة، ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حُلَّة حَبْرَةٍ فقال: أرايتم إن وردت بكم رياضاً معشبة، وحياضاً رواء تتبعوني؟ فقالوا: نعم. قال: فانطلق بهم، فأوردهم رياضاً معشبة، وحياضاً رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا، فقال لهم: ألم ألتكم على تلك الحال، فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني؟ فقالوا: بلى. قال: فإن بين أيديكم رياضاً هي أعشب من هذه، وحياضاً هي أروى من هذه، فاتبعوني. فقالت طائفة: صدق، والله لتتبعه، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه.

وقال البزار: حدثنا سلمة بن شبيب وأحمد بن منصور قالا: حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان حدثنا أبي، عن عكرمة عن أبي هريرة، رضي الله عنه؛ أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ ليستعينه في شيء - قال عكرمة: أراه قال: «في دم» - فأعطاه رسول الله ﷺ شيئاً، ثم قال: «أحسن إليك؟» قال الأعرابي: لا، ولا أجملت. فغضب بعض المسلمين، وهما أن يقوموا إليه، فأشار رسول الله ﷺ إليهم: أن كفوا. فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ إلى منزله، دعا الأعرابي إلى البيت، فقال له: «إنك جئتنا فسألنا فأعطيناك، فقلت ما قلت» فزاده رسول الله ﷺ شيئاً، وقال: «أحسن إليك؟» فقال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. قال النبي ﷺ: «إنك جئتنا تسألنا فأعطيناك، فقلت ما قلت، وفي أنفس أصحابي عليك من ذلك شيء، فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي، حتى يذهب عن صدورهم». قال: نعم. فلما جاء الأعرابي، قال: «إن صاحبكم كان جاعاً فسألنا فأعطيناه، فقال ما قال، وإننا قد دعونا فأعطيناه فزعم أنه قد رضي، كذلك يا أعرابي؟» قال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. فقال النبي ﷺ: «إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة، فشردت عليه، فاتبعها الناس فلم يزيدها إلا نفوراً. فقال لهم صاحب الناقة: خلوا بيني وبين ناقتي، فأنا أرفق بها، وأعلم بها. فتوجه إليها وأخذ لها من قِتام الأرض، ودعاها حتى جاءت واستجابت، وشد عليها رخلها، وإنه لو أعطتكم حيث قال ما قال لدخل النار». ثم قال البزار: لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه. قلت: وهو ضعيف بحال إبراهيم بن الحكم بن أبان، والله أعلم.

وقوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رِءُوفٌ رَجِيمٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَاكَ لِلْإِنْسَانِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٥) فَإِنْ عَصَاكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا قَمَلُوا (١٢٦) وَيُؤَكِّدُ عَلَى الْفَرِيزِ الْكَرِيمِ (١٢٧) [الشعراء: ٢١٥ - ٢١٧] وهكذا أمره تعالى. وهذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة، ﴿فَنُفِّلْ حَسْبَ اللَّهِ﴾ أي: الله كافي، لا إله إلا هو عليه توكلت، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ الْكَثْرِ وَالْقَرَبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (١٢٨) [المزمل: ٤٩]. ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي: هو مالك كل شيء وخالقه، لأنه رب العرش العظيم، الذي هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما بينهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرته الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء، وقدره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل. قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثني محمد بن أبي بكر، حدثنا بشر بن عمر، حدثنا شعبه، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، عن أبي بن كعب قال: آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة. وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا روح بن عبد المؤمن، حدثنا عمر بن شقيق، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب، رضي الله عنه؛ أنهم جمعوا القرآن في مصاحف في خلافة أبي بكر، رضي الله عنه، فكان رجال يكتبون ويملئ عليهم أبي بن كعب، فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة: ﴿ثُمَّ أَصْرَفْنَا مَرْكَهُ قُلُوبِهِمْ فَأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧]، فظنوا أن هذا آخر ما أنزل من

القرآن. فقال لهم أبي بن كعب: إن رسول الله ﷺ أقراني بعدها آيتين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [١٧٠] إلى: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ قال: «هذا آخر ما أنزل من القرآن» قال: ففتح بما فُتح به، بالله الذي لا إله إلا هو، وهو قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] غريب أيضاً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن بحر، حدثنا محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد، عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير، رضي الله عنه، قال: أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى عمر بن الخطاب، فقال: من معك على هذا؟ قال: لا أدري، والله إني لأشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ ووعيتها وحفظتها. فقال عمر: وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ. ثم قال: لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة، فانظروا سورة من القرآن، فضعوها فيها، فوضعوها في آخر براءة. وقد تقدم أن عمر بن الخطاب هو الذي أشار على أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، بجمع القرآن، فأمر زيد بن ثابت فجعله. وكان عمر يحضرهم وهم يكتبون ذلك. وفي الصحيح أن زيداً قال: فوجدت آخر سورة «براءة» مع خزيمة بن ثابت - أو: أبي خزيمة. وقدمنا أن جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عن رسول الله ﷺ، كما قال خزيمة بن ثابت حين ابتدأهم بها، والله أعلم. وقد روى أبو داود، عن يزيد بن محمد، عن عبد الرزاق بن عمر - وقال: كان من ثقات المسلمين من المتعبدين، عن مدرك بن سعد - قال يزيد: شيخ ثقة - عن يونس بن ميسرة، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قال: من قال إذا أصبح وإذا أمسى: حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم، سبع مرات، إلا كفاه الله ما أهمه. وقد رواه ابن عساکر في ترجمة «عبد الرزاق بن عمر» هذا، من رواية أبي رزعة الدمشقي، عنه، عن أبي سعد مذكور بن أبي سعد الفزاري، عن يونس بن ميسرة بن حليس، عن أم الدرداء، سمعت أبا الدرداء يقول: ما من عبد يقول: حسبي الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم، سبع مرات، صادقاً كان بها أو كاذباً، إلا كفاه الله ما همته. وهذه زيادة غريبة. ثم رواه في ترجمة عبد الرزاق أبي محمد، عن أحمد بن عبد الله بن عبد الرزاق، عن جده عبد الرزاق بن عمر، بسنده فرغه، فذكر مثله بالزيادة. وهذا منكر، والله أعلم.

آخر سورة براءة، والحمد لله وحده



تفسير سورة يونس

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [١] أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّكَ هَذَا تُسْخَرُ مِنْهُ [٢].

أما الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدم الكلام عليها مستوفى في أوائل سورة البقرة. وقال أبو الضحى، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الرَّ﴾، أي: أنا الله أرى. وكذا قال الضحاک وغيره. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أي: هذه آيات القرآن المحكم المبين. وقال مجاهد: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [١] قال: التوراة والإنجيل. وقال الحسن: التوراة والزبور. وقال قتادة: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ قال: الكتب التي كانت قبل القرآن. وهذا القول لا أعرف وجهه ولا معناه. وقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، يقول تعالى منكرأ على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر، كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم: ﴿أَبَشِّرْ يَهُودُنَا﴾ [التغابن: ٦]، وقال هود وصالح لقومهما: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣، ٦٤] وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا: ﴿أَعْمَلُ الْآلِهَةِ إِنَّا وَجَدُوا هَذَا كَذِبًا لَّنْزِيلٍ﴾ [ص: ٥]. وقال الضحاک، عن ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً، أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد. قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾. وقوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: اختلفوا فيه، فقال علي بن أبي طلحة،

عن ابن عباس في قوله: ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ مِّدْقِي عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يقول: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ مِّدْقِي عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يقول: أجزأ حسناً، بما قدموا. وكذا قال الضحاك، والربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا كقوله تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ أُنَاسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُنَبِّشَ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الصَّلَاحِ أَنْ لَهُمْ أَجْرٌ كَسَبًا﴾ [٢] مَنَكِبِينَ فِيهِ أَبْداً [٣] [الكهف: ٢، ٣]. وقال مجاهد: ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ مِّدْقِي عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قال: الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسيبهم. وقال عمرو بن الحارث عن قتادة أو الحسن: ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ مِّدْقِي عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، قال: محمد ﷺ شفيع لهم. وكذا قال زيد بن أسلم، ومقاتل بن حيان. وقال قتادة: سلفُ صدق عند ربهم. واختار ابن جرير قول مجاهد - أنها الأعمال الصالحة التي قدموها - قال: كما يقال: «له قدم في الإسلام»، ومنه قول حسان رضي الله عنه:

لَنَا الْقَدَمُ الْعُلْبَا إِلَيْكَ وَخَلْفُنَا لَاؤِلْنَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَابِعُ
وقول ذي الرُّمة:

لَكُمْ قَدَمٌ لَا يُنْكَرُ النَّاسُ أَنَّهَا مَعَ الْحَسَبِ الْعَادِي طَمَّتْ عَلَى الْبَخْرِ
وقوله تعالى: ﴿قَالَ الْكَاذِبُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّثِينٌ﴾ أي: مع أنا بعنا إليهم رسولاً منهم، رجلاً من جنسهم، بشيراً ونذيراً، ﴿قَالَ الْكَاذِبُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّثِينٌ﴾ أي: ظاهر، وهم الكاذبون في ذلك.

﴿إِنْ رَّكَزَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمُورَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذِيَوْمِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [٣].

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام - قيل: كهذه الأيام، وقيل: كل يوم كالف سنة مما تعدون. كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى - ثم استوى على العرش، والعرش أعظم المخلوقات وسفها. قال ابن أبي حاتم: حدثنا حجاج بن حمزة، حدثنا أبو أسامة، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد قال: سمعت سعد الطائي يقول: العرش ياقوته حمراء. وقال وهب بن منبه: خلقه الله من نوره. وهذا غريب. ﴿يُدِيرُ الْأُمُورَ﴾ أي: يدبر أمر الخلق، ﴿لَا يُعَزُّبُ عَنْهُ شَيْءٌ ذَرِيرٌ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبا: ٣] ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه المسائل، ولا يتبرم بالحاح الملحين، ولا يليه تدبير الكبير عن الصغير، في الجبال والبحار والعرمان والقفار، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبينٍ﴾ [مُسرَد: ٦٦]. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَّزْقٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَكْتُبُ فِيهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقال الدراوردي، عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة أنه قال حين نزلت هذه الآية: ﴿إِنْ رَّكَزَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: لفيهم ركب عظيم لا يرون إلا أنهم من العرب، فقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا: من الجن، خرجنا من المدينة، أخرجتنا هذه الآية. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذِيَوْمِهِ﴾، كقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَنْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَكُرِّينَ مَلِكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَنْفِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [النجم: ٢٦]، وقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]. وقوله: ﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أيها المشركون في أمركم، تعبدون مع الله غيره، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق، كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ يَقُولُ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّنِجِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [٨٦] سَعُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَنْفَكُونَ [٨٧] [المؤمنون: ٨٦، ٨٧]، وكذا الآية التي قبلها والتي بعدها.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَّ اللَّهُ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [١].

أخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة، لا يترك منهم أحداً حتى يعيده كما بدأه. ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والجزاء الأوفى، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العقاب، من ﴿سُورٍ وَحِيمٍ﴾ [٨٦] وَطَلَّ مِنْ بَحْمِيرٍ [٨٦] [الواقعة: ٤٢، ٤٣]. ﴿هَذَا قَلْبُ قَوْمٍ حَمِيمٍ وَنَسَاقٌ﴾ [٨٧] وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِمْ [٨٨] [ص: ٥٧، ٥٨]، ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [٨٩] يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ جِوَارِيهَا [٩٠] [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَسْلَمُوا عَدَّةَ الْأَيَّامِ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [٩١] إِنَّ فِي آيَاتِهِ الْآيَاتِ وَالْآيَاتِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ [٩٢].

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء وشعاع القمر نوراً، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لثلاثيشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً، ثم يتزايد نوره وجرمه، حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حاله الأول في تمام شهر، كما قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْوُونِ الْقَدِيرِ ۝٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ بِنَبِيٍّ لِّمَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلُ سَابِقِ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (يس: ٣٩، ٤٠)، وقال: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (الأنعام: ٩٦). وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَدَرْتُمْ﴾ أي: القمر ﴿وَقَدَرْتُ مَنَازِلَ لِيَسْمُوكُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾، فبالشمس تعرف الأيام، وبسیر القمر تعرف الشهور والأعوام. ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك، وحجة بالغة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۝٧٧﴾ (ص: ٢٧)، وقال تعالى: ﴿أَفَحَبِيبَتُهُ أَمَّا خَلَفَتْكُمْ عَبَا وَأَنْتُمْ لَا تُرْجِعُونَ ۝١١٥﴾ فَتَعَلَّىٰ اللَّهُ إِلَهُكَ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْمَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿١١٦﴾﴾ (المؤمنون: ١١٥، ١١٦). وقوله: ﴿فَنَقُصُّ الْآيَاتِ﴾ أي: نبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَلْمِزُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئاً، كما قال تعالى: ﴿يُنَبِّئُ أَيْلُ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حِينًا﴾ (الأعراف: ٥٤)، وقال: ﴿لَا الشَّمْسُ بِنَبِيٍّ لِّمَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلُ سَابِقِ النَّهَارِ﴾ (يس: ٤٠)، وقال تعالى: ﴿فَاللَّيْلِ إِذَا يَجْعَلُ أَيْلُ سَكَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝١١٦﴾ (الأنعام: ٩٦). وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: من الآيات الدالة على عظمته تعالى، كما قال: ﴿وَكُنَّا بَيْنَ يَدَيْهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝١٥٠﴾ (يوسف: ١٥٠) وقال: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُنْفِقُ الْآيَاتِ وَأَنْتُمْ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٥١﴾ (يونس: ١٥١)، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا لَكُمْ مَاءً بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ رَبِّكَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ (سبا: ٤٩)، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٥٢﴾ (آل عمران: ١٩٠) أي: العقول، وقال ههنا: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ أي: عقاب الله، وسخطه، وعذابه.

﴿إِنَّ الْآيَاتِ لَا يَرْجِعُونَ لِقَاءَهُ رَضُوا بِالْمُيُوسِرِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۝٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجون في لقاء الله شيئاً، ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنن إليها أنفسهم. قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها، حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يفكرون فيها، والشرعية فلا ياتمرون بها، بأن ما أوامهم يوم معادهم النار، جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر.

﴿إِنَّ الْآيَاتِ أَمْثُلًا وَمَثَلًا فَتَعْرِفُ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّتِ النَّوَارِ ۝١٥٢﴾ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنِ لَمْ تُدْعُ إِلَهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥٣﴾﴾.

وهذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وامتثلوا ما أمروا، فعملوا الصالحات، بأنه سيهديهم بإيمانهم. يحتمل أن تكون «الباء» ههنا سببية، فتقديره: بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط، حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة. ويحتمل أن تكون للاستعانة، كما قال مجاهد في قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِآيَاتِهِمْ﴾، قال: يكون لهم نوراً يمشون به. وقال ابن جريج في قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِآيَاتِهِمْ﴾، قال: يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره، يعارض صاحبه ويشره بكل خير، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك. فيجعل له نوراً من بين يديه حتى يدخله الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِآيَاتِهِمْ﴾. والكافر يُمَثَّلُ له عمله في صورة سيئة وريح منتنة فيلأزم صاحبه ويلأزه حتى يقذفه في النار. وروي نحوه عن قتادة مرسلأ، فالحق أعلم.

وقوله: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنِ لَمْ تُدْعُ إِلَهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٥٣﴾ أي: هذا حال أهل الجنة. قال ابن جريج: أخبرني أن قوله: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾، قال: إذا مر بهم الطير يشتهونه، قالوا: سبحانك اللهم، وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما يشتهونه، فيسلم عليهم، فيردون عليه، فذلك قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾، قال: فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم، فلذلك قوله: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنِ لَمْ تُدْعُ إِلَهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وقال مقاتل بن حيان: إذا أراد أهل الجنة أن يدعوا بالطعام قال أحدهم: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ قال: فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم، مع كل خادم صحيفة من ذهب، فيها

طعام ليس في الأخرى، قال: فيأكل منهم كلهن. وقال سفيان الثوري: إذا أراد أحدهم أن يدعو بشيء قال: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ وهذه الآية فيها شبه من قوله: ﴿يَحْيِيهِمْ يَوْمَ يَقُولُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ يَٰٓأَيُّهَا لَقَا وَلَا تَأْتِيهِمْ﴾ [٥٥] ﴿لَا قِيْلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الرواقعة: ٢٥، ٢٦]، وقوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ عَلَيْهِمْ يَنْفِرُ﴾ [الباب: ١٦] ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَدَّقْتُمْ قِيمَةَ غَدَاكَ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقوله: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: هذا فيه دلالة على أن الله تعالى هو المحمود أبداً، المعبود على طول المدى؛ ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى: ﴿لَقَدْ يَدْعُو الَّذِينَ أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ٤١]، ﴿لَقَدْ يَدْعُو إِلَىٰ آتِيهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١] إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه المحمود في الأول، وفي الآخر، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، في جميع الأحوال؛ ولهذا جاء في الحديث: «إن أهل الجنة يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ والتَّحْمِيدَ كما يُلْهَمُونَ النَّفْسَ». وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تضاعف نعم الله عليهم، فتكرر وتعاد وتزاد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَلْسِنَ اسْتَجَابَ لَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَذَرُوا الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده: أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم، في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك، فلهاذا لا يستجيب لهم - والحالة هذه - لطفاً ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم وأولادهم بالخير والبركة والنماء؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَلْسِنَ اسْتَجَابَ لَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ﴾ أي: لو استجاب لهم كلما دعوه به في ذلك، لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك، كما جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا يعقوب بن محمد، حدثنا حاتم بن إسماعيل، حدثنا يعقوب بن مجاهد أبو خزيمة، عن عبادة بن الوليد، حدثنا جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم». ورواه أبو داود، من حديث حاتم بن إسماعيل، به. وقال البزار: وتفرد به عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت الأنصاري، لم يشاركه أحد فيه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَوِيلاً﴾ [الإسراء: ١١]. وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: ﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَلْسِنَ اسْتَجَابَ لَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾: وهو قول الإنسان لولده وماله إذا غضب عليه: «اللهم لا تبارك فيه والعنه». فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك، كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم.

﴿وَإِذَا مَنَّ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ لِقَائِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَلْبًا فَلَمَّا كَفَتْنا عَنْهُ صُرُورًا مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ صُرُورٍ مِّثْلِهِ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُتَفَرِّينَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر، كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَوَدَّ دُعَاؤَ عَرِيضٍ﴾ [نمل: ٥١] أي: كثير، وهما في معنى واحد؛ وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها وزوالها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه، وفي جميع أحواله، فإذا فرج الله شدته وكشف كربته، أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء، ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ صُرُورٍ مِّثْلِهِ﴾. ثم ذم تعالى من هذه صفته وطريقته فقال: ﴿كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُتَفَرِّينَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، فاما من رزقه الله الهداية والساد والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [احمد: ١١]، وكقول رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له: إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَرَسُولَهُمْ يَٰئِيلَتِي وَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. يخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية، في تكذيبهم الرسل فيما جاؤهم به من البينات والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم، وأرسل إليهم رسولا لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفي صحيح مسلم من حديث أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فأنظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء». وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا زيد بن عوف أبو ربيعة فهد، حدثنا حماد، عن ثابت البناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى؛ أن عوف بن مالك قال لأبي بكر: رأيت فيما يرى النائم كأن سبياً نلتني

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَرَسُولَهُمْ يَٰئِيلَتِي وَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية، في تكذيبهم الرسل فيما جاؤهم به من البينات والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم، وأرسل إليهم رسولا لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفي صحيح مسلم من حديث أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فأنظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء». وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا زيد بن عوف أبو ربيعة فهد، حدثنا حماد، عن ثابت البناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى؛ أن عوف بن مالك قال لأبي بكر: رأيت فيما يرى النائم كأن سبياً نلتني

من السماء، فانشط رسول الله ﷺ، ثم أعيد، فانشط أبو بكر، ثم دُرِعَ الناس حول المنبر، ففضل عمر بثلاث أذرع إلى المنبر. فقال عمر: دعنا من رؤياك، لا أَرَبَ لنا فيها! فلما استخلف عمر قال: يا عوف، رؤياك! فقال: وهل لك في رؤياي من حاجة؟ أو لم تنتهرني؟ فقال: ويحك! إني: كرهت أن تنعى لخليفة رسول الله ﷺ نفسه! فقص عليه الرؤيا، حتى إذا بلغ: «دُرِعَ الناس إلى المنبر بهذه الثلاث الأذرع»، قال: أما إحداهن فإنه كائن خليفة. وأما الثانية فإنه لا يخاف في الله لومة لائم. وأما الثالثة فإنه شهيد. قال: فقال: يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (١٥)، فقد استخلفت يا ابن أم عمر، فانظر كيف تعمل؟ وأما قوله: «فإني لا أخاف في الله لومة لائم»، فما شاء الله! وأما قوله: إني شهيد فأني لعمر الشهادة والمسلمون مطيفون به.

﴿وَإِذَا تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَاذْكُرُوا أَنَّ إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ۖ فَبِأَيِّ آلَاءِ اللَّهِ تُنْفَكُونَ﴾ (١٦) ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ فَيُضِلَّكُمْ سُبُلًا ۚ وَتَوَلَّوْا وَجْهَ اللَّهِ جَمِيعًا ۚ وَتَذَكَّرُوا أَنَّهُ إِلَهٌُ أَحَدٌ ۚ وَالْهَدَىٰ نِعْمَ الْهَدَىٰ ۚ وَلَئِنَّ أُولَٰئِكَ لَشَرٌّ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٧)

يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين الحق المعرضين عنه، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحججه الواضحة قالوا له: «أَتَيْتَ بِشِرْكَائِنَا غَيْرَ هَذَا؟» أي: رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر، أو بذهله إلى وضع آخر، قال الله لنبيه، صلوات الله عليه وسلامه عليه، ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَ مِن تِلْقَائِي نَفْسًا ۚ أَي: ليس هذا إلي، إنما أنا عبد مأمور، ورسول مبلغ عن الله، ﴿إِنِ اتَّبِعْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ لَأَتَّخِذَ مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّئِن لَّمْ يَكُن لِّلَّهِ الْفَتْحُ وَالْعَزَاجُ لَفَنَافِكُمْ كَذِبًا ۚ﴾ (١٥) ثم قال محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ أي: هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشينته وإرادته، والدليل على أنني لست أنقله من عندي ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله ﷻ، لا تنتقدون علي شيئاً تغصوني به؛ ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبُوا بِكُفْرِهِمْ فَنُفِثُوا﴾ (١٦) أي: أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل؛ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه، فيما سأل من صفة النبي ﷺ، قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت لا - وقد كان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف بالحق:

وَالْفَضْلُ مَا شَهِدْتُ بِهِ الْأَعْدَاءُ

فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله! وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولاً تعرف نسبه وصدقه وأمانته، وقد كانت مدة مقامه، عليه السلام، بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة. وعن سعيد بن المسيب: ثلاثاً وأربعين سنة. والصحيح المشهور الأول.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّكُمْ لَا يُقْلِحُ الْمُتَكِبِينَ﴾ (١٧)

يقول تعالى: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراماً «مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا»، وتقول على الله، وزعم أن الله أرسله، ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرماً ولا أعظم ظُلماً من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء، فكيف يشبه حال هذا بالأنبياء! فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً، فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على بزه أو فجوره ما هو أظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لعنه الله لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى ووقت نصف الليل في حنأس الظلماء، فومن سيما كل منهما وكلامه وفعاله يستدل من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب، وسجاح، والأسود الغنسي. قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس، فكنفت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام». ولما قدم ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله ﷺ فيما قال له: من رفع هذه السماء؟ قال: «الله». قال: ومن نصب هذه الجبال؟ قال: «الله». قال: ومن سطح هذه الأرض؟ قال: «الله». قال: فبالذي رفع هذه السماء، ونصب هذه الجبال، وسطح هذه الأرض: الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: «اللهم نعم» ثم سأل عن الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين، ويحلف رسول الله ﷺ، فقال له: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص. فاكتمى هذا الرجل بمجرد هذا، وقد أيقن بصدقه، صلوات الله وسلامه عليه،

بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه، كما قال حسان بن ثابت:

لَوْلَمْ تُكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ كَانَتْ بِيَدَيْهِ ثُمَّ ثَانِيكَ بِالْخَبَرِ
وأما مسيلمة فمن شاهده من ذوي البصائر، علم أمره لا محالة، بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحة، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة، وكم من فرق بين قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وبين غلاك مسيلمة قبحه الله ولعنه: «يا ضفدع بنت الضفدعين، نقي كما تنقين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين». وقوله - قُبِحَ ولعن -: «لقد أنعم الله على الجبلي، إذ أخرج منها نَسَمَةٌ تسعى، من بين صفاق وحشى». وقوله - حَذَرَهُ الله في نار جهنم، وقد فعل -: «القبيل وما أدراك ما القبيل؟ له زُلْفُومٌ طويل»، وقوله - أبعده الله من رحمته -: «والعاجنات عجنأ، والخابزات خبزأ، والالقامات لقماً، إهالة وسمنأ، إن قريشاً قوم يعتدون» إلى غير ذلك من الهذيان والخرافات التي يأنف الصبيان أن يتلفظوا بها، إلا على وجه السخرية والاستهزاء؛ ولهذا أرغم الله أنفه، وشرب يوم «حديقة الموت» حنفيه، ومَزَقَ شمله، ولعنه صحبه وأهله. وقدموا على الصديق تائبين، وجاؤوا في دين الله راغبين، فسألهم الصديق خليفة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، ورضي الله عنه - أن يقرؤوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة لعنه الله، فسألوه أن يعفيهم من ذلك، فأبى عليهم إلا أن يقرؤوا شيئاً منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس، فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم. فقرؤوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشياه، فلما فرغوا قال لهم الصديق، رضي الله عنه: ويحكم! أين كان يذهب بعقولكم؟ والله إن هذا لم يخرج من آل. وذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة، وكان صديقاً له في الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعد، فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو، ماذا أنزل على صاحبكم - يعني: رسول الله ﷺ - في هذه المدة؟ فقال: لقد سمعت أصحابه يقرؤون سورة عظيمة قصيرة فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِرٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [سورة العصر]، ففكر مسيلمة ساعة، ثم قال: وقد أنزل علي مثله. فقال: وما هو؟ فقال: «يا وئز، إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حقير نفير، كيف ترى يا عمرو؟» فقال له عمرو: «والله إنك لتعلم أنني أعلم أنك لتكذب»، فإذا كان هذا من مشرك في حال شركه، لم يشبهه عليه حال محمد ﷺ وصدقه، وحال مسيلمة - لعنه الله - وكذبه، فكيف بأولي البصائر والنهي، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجى! ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اتَّخَذَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ اللَّهُ شَيْئًا﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اتَّخَذَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ شَيْئًا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]، وكذلك من كَذَبَ بالحق الذي جاءت به الرسل، وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه كما جاء في الحديث: «أعنى الناس على الله رجلٌ قتل نبياً، أو قتل نبي».

﴿وَيَسْتَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَيَضِلُّونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَدْعُونَ اللَّهَ يَمَّا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ شَيْئًا مِمَّا تَدْعُونَ عَمَّا يَشْرِكُونَ﴾ [١٨] وَمَا كَانَ الْكَاشِ إِلَّا أَكْثَرُ وَجْدَةٍ فَاتَّخَذُوا وَلَوْ لَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُيُوا بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تنفع ولا تضر ولا تملك شيئاً، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها، ولا يكون هذا أبداً، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَدْعُونَ اللَّهَ يَمَّا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾. وقال ابن جرير: معناه: أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض؟ ثم نزه نفسه عن شركهم وكفرهم، فقال: ﴿شُحْبَكْتُمْ وَتَعَلَّى عَمَّا يَشْرِكُونَ﴾. ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس، كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد، وهو الإسلام؛ قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس، وعُبدت الأصنام والأنداد والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]. وقوله: ﴿وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُيُوا بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه؛ وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لقضى بينهم فيما فيه اختلفوا، فأسعد المؤمنين، وأعنت الكافرين.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّنَا قُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ السَّاعَةِ﴾ [٢٠].

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَارَةٍ مَسْتَهْمَةٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي مَائِنَانَا فَلْيُفْلِكْ فِي اللَّهِ أَنْتَرُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا نَمْكُرُورُ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي يُبَيِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَخَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ لَيَّيَّةٍ وَوَرَحُوا بِهَا جَاهَتَهَا رِيحُ عَارِصٍ مُرَّةًهُمْ الْوَقْعُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَاُ اللَّهِ عَالِيَيْنَ لَهُ الْيَزِينَ لَيْنَ أَجِينَا مِنْ هَٰذِهِ لَتَكُونُ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا أَخَذْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيَانَا النَّاسُ إِنَّا بَعَثْنَاهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ نَجْعَ الْحِكْمَةِ الْذَّيْنِ ثُمَّ إِنَّا رَجَعْنَاهُمْ فَفَتَحْنَاهُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَمْكُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم، كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجذب، والمطر بعد القحط ونحو ذلك ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي مَائِنَانَا﴾. قال مجاهد: استهزاء وتكذيب. كما قال: ﴿وَإِذَا مَنَّ الْإِسْلَامُ فَكَّرُوا دَعَاُ لِحَيَاتِهِمْ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرُوفَهُ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى شِرْكٍ مُنْتَهَى﴾ [يونس: ١١٢]، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء - مطر - أصابهم من الليل ثم قال: «هل تدرُونَ ماذا قال ربكم الليلة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطَرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرْنَا بِنُوءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ». وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَنْتَرُ مَكْرًا﴾ أي: أشد استدراجاً وإمهالاً، حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه، والكاثبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله، ويحصىونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة، فيجازيه على الحقير والجليل، والتقيير والقُطْمِير.

ثم أخبر تعالى أنه: ﴿هُوَ الَّذِي يُبَيِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: يحفظكم ويكلؤكم بحراسته ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَخَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ لَيَّيَّةٍ وَوَرَحُوا بِهَا جَاهَتَهَا﴾ أي: بسرعة سيرهم رافقين، فبينما هم كذلك إذ ﴿جَاهَتَهَا﴾ أي: تلك السفن ﴿رِيحُ عَارِصٍ﴾ أي: شديدة ﴿وَمَاءَهُمُ الْوَقْعُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: اغتلم البحر عليهم ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي: هلكوا ﴿دَعَاُ اللَّهِ عَالِيَيْنَ لَهُ الْيَزِينَ﴾ أي: لا يدعون معه صنماً ولا وثناً، بل يُفَرِّدونه بالدعاء والابتهال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ الشُّرُفُ بِالْبَحْرِ صَلَّ مَنْ دَعَاُ إِلَى إِلَّا إِلَهُاً فَلَمَّا يَنْتَرِكُ إِلَى الْبَحْرِ أَهْمَهُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال لهنا: ﴿دَعَاُ اللَّهِ عَالِيَيْنَ لَهُ الْيَزِينَ لَيْنَ أَجِينَا مِنْ هَٰذِهِ﴾ أي: هذه الحال ﴿لَتَكُونُ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: لا نشرك بك أحداً، ولنفرذك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء ههنا، قال الله تعالى: ﴿لَمَّا أَخَذْنَاهُمْ﴾ أي: من تلك الورطة ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: كان لم يكن من ذاك شيء، ﴿كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى شِرْكٍ مُنْتَهَى﴾. ثم قال تعالى: ﴿يَأْتِيَانَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَثْنَاهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرون به

أحداً غيركم، كما جاء في الحديث: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يدخر الله لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم». وقوله: ﴿مَتَّعَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ﴿ثُمَّ إِنَّا مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: مصيركم ومآلكم ﴿فَنُنْفِثُكُمْ﴾ أي: فنخرجكم بجميع أعمالكم، ونوفيكهم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىٰهَا أُنْزِلْنَا إِلَيْهَا أَوْ هَرَاكَ فَجَعَلْنَاهَا حَبِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْزِ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ مِرْبَطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

ضرب تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضاءها وزوالها، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بما أنزل من السماء من الماء، مما يأكل الناس من زرع وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من آب وقصب وغير ذلك، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي: زينتها الفانية، ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ أي: حُسنت بما خرج من رُباها من زهور نُضرة مختلفة الأشكال والألوان، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا﴾ الذين زرعوها وغرسوها، ﴿أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىٰهَا﴾ أي: على جذاذها وحصادها، فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة، أو ريح باردة، فأبيست أوراقها، وأتلفت ثمارها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَنبَتْنَا أَمْثَرَآ يَلَا أَوْ هَرَاكَ فَجَعَلْنَاهَا حَبِيدًا﴾ أي: يَبَساً بعد تلك الخضرة والنضارة، ﴿كَأَن لَّمْ تَغْزِ بِالْأَمْسِ﴾ أي: كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك. وقال قتادة: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْزِ﴾: كأن لم تنعم. وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن؛ ولهذا جاء في الحديث: «يوتى بأنعم أهل الدنيا، فيغمس في النار غَمْسَةً ثم يقال له: هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا. ويوتى بأشد الناس عذاباً في الدنيا، فيغمس في النعيم غمسة، ثم يقال له: هل رأيت بؤساً قط؟ فيقول: لا». وقال تعالى إخباراً عن المهلكين: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنِينِينَ كَأَن لَّمْ يَتَذَكَّرُوا﴾ [مؤد: ٩٤، ٩٥]. ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نبين الخُجج والأدلة، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها سريعاً مع اغترارهم بها، وتمكنهم بمواعيدها وثقلاتها منهم، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها، والطلب لمن هرب منها، وقد ضرب الله مثل الحياة الدنيا بنبات الأرض، في غير ما آية من كتابه العزيز فقال في سورة الكهف: ﴿وَأَنْزَلْنَا لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥]، وكذا في سورة الزمر، والحديد يضرب بذلك مثل الحياة الدنيا كماء.

وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال: سمعت مروان - يعني: ابن الحكم - يقرأ على المنبر: «وازيّنت وظن أهلها أنهم قادرون عليها وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها»، قال: قد قرأتها وليست في المصحف فقال عباس بن عبد الله بن عباس: هكذا يقرؤها ابن عباس. فأرسلوا إلى ابن عباس فقال: هكذا أقرأني أبي بن كعب. وهذه قراءة غريبة، وكأنها زيادة للتفسير. وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ الآية: لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة عطيها وزوالها، رَغِبَ في الجنة ودعا إليها، وسماها دار السلام أي: من الآفات، والنقائص والنكبات، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ مِرْبَطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. قال أبووب عن أبي قلابة عن النبي ﷺ قال: «قيل لي: لتنم عيئك، وليعقل قلبك، ولتسمع أذنك، فنامت عيني، وعقل قلبي، وسمعت أذني. ثم قيل: سيّد بَنَى داراً، ثم صنع مأدبة، وأرسل داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار، وأكل من المأدبة، ورضي عنه السيد، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة، ولم يرض عنه السيد، فالله السيد، والدار الإسلام، والمأدبة الجنة، والداعي محمد ﷺ. وهذا حديث مرسل، وقد جاء متصلاً من حديث الليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً. فقال: اسمع سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك، إنما مَثَلُكَ ومثل أمثلك كمثل ملك اتخذ داراً، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مأدبة، ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه، فممنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها» رواه ابن جرير. وقال قتادة: حدثني خُليد العَصْرِي، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم طلعت فيه شمسُه إلا ويَجَنَّبُنيها ملكان يناديان يسمعهما خلق الله كلهم إلا الثقلين: يأبها الناس، هلموا إلى ربكم، إن ما قل وكفى، خير مما كثر وألهي». قال: وأنزل ذلك في القرآن، في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ مِرْبَطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَىٰ وَرِزَادٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح أبدله الحسن في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٢٥﴾﴾ [الرحمن: ٢٦٠]. وقوله: ﴿وَرِزَادٌ﴾: هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وزيادة على ذلك أيضاً، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والخور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضل وبرحمته، وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم، عن أبي بكر الصديق، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، قال البغوي وأبو موسى وعبادة بن الصامت، وسعيد بن المسيب، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم سابط، ومجاهد، وعكرمة، وعامر بن سعد، وعطاء، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسدي، ومحمد بن أحمد: حدثنا عفان، من السلف والخلف. وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة، عن رسول الله ﷺ، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد: حدثنا عفان، أخبرنا حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب؛ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَىٰ وَرِزَادٌ ۖ﴾، وقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه. فيقولون: وما هو؟ ألم يُثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا من النار؟». قال: «فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر لأعينهم». وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة، من حديث حماد بن سلمة، به.

وقال ابن جرير: أخبرنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا شبيب، عن أبان، عن أبي تيمية الهخيمي؛ أنه سمع أبا موسى الأشعري يحدث عن رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي: يا أهل الجنة - بصوت يُسمع أولهم وآخرهم -: إن الله وعدكم الحسنى وزيادة، الحسنى: الجنة. وزيادة: النظر إلى وجه الرحمن ﷻ». ورواه أيضاً ابن أبي حاتم، من حديث أبي بكر الهذلي، عن أبي تيمية الهخيمي، به. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا ابن حميد، حدثنا إبراهيم بن المختار، عن ابن جريج، عن عطاء، عن كعب بن عُجرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَىٰ وَرِزَادٌ ۖ﴾ قال: النظر إلى وجه الرحمن ﷻ. وقال أيضاً: حدثنا ابن عبد الرحيم، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، سمعت زهيراً أعمن سمع أبا العالية، حدثنا أبي بن كعب: أنه سأل رسول الله ﷺ عن قول الله ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَىٰ وَرِزَادٌ ۖ﴾ قال: «الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله ﷻ». ورواه ابن أبي حاتم أيضاً من حديث زهير، به. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ ۖ أَيْ: قِطَامٌ وَسَوَادٌ فِي عَرَصَاتِ الْمُحْشَرِّ، كما يعترى وجه الكفرة الفجرة من القثرة والغبرة، ﴿وَلَا ذِلَّةٌ ۖ﴾ أَيْ: هَوَانٌ وَصَغَارٌ، أَيْ: لَا يَحْصُلُ لَهُمْ إِهَانَةٌ فِي الْبَاطِنِ، وَلَا فِي الظَّاهِرِ، بل هم كما قال تعالى في حقهم: ﴿فَوَقَّهَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَهُ وَسُرُورَهُ ﴿٢٧﴾﴾ [الإنسان: ١١] أَيْ: نَصْرَةً فِي وَجُوهِهِمْ، وَسُرُوراً فِي قُلُوبِهِمْ، جعلنا الله منهم بفضلته ورحمته، آمين.

﴿وَالَّذِينَ كَبُرُوا اللَّيِّنَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَنْتَهِ بِئِنَّهَا وَرَفَعَهُمُ اللَّهُ ذُلَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِّنْ عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قُلُوبًا مِّنْ أَلْبَانٍ مُّظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يُضَاعَفُ لَهُمُ الْحَسَنَاتُ، ويزادون على ذلك، عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر عدله تعالى فيهم، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها، لا يزيدهم على ذلك، ﴿وَرَفَعَهُمُ﴾ أَيْ: ﴿وَرَفَعَهُمُ﴾ أَيْ: تعزيرهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعَهُمُ بِمَرْمَرٍ مِّنْ لَّيْسٍ عَلَيْهِمْ حَبِيرٌ مِّنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِّنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَنَّا يَجْعَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٢٧﴾﴾ مَهْلِكِيَّتٌ مَّقْبِيَةٌ وَسَيِّئَةٌ لَا يَزِيدُ إِلَيْهِمْ طَرْفَهُمْ وَأَقْصَاهُمْ هَوَاءٌ ﴿٢٨﴾ وَأَذِيرُ النَّاسِ يَوْمَ يُأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴿إِبْرَاهِيمَ: ٤٢-٤٤﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ مَلَأَهُمُ مِنَ اللَّهِ عَاصِرٌ ۖ﴾ أَيْ: من مانع ولا واق يقيهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنِّي لَكَفَرٌ ﴿٢٩﴾﴾ لَا رَدَّ وَلَا ذَنْبٌ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ١٠-١٢]. وقوله: ﴿كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قُلُوبًا مِّنْ أَلْبَانٍ مُّظْلِمًا﴾: إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣١﴾﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَيْسَّرَتْ لَهُمْ وُجُوهُهُمْ فَبِمَا رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧]. وكما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُؤْمَرُ بَرِيذٌ مُّشِيرَةٌ ﴿٣٣﴾ حَاجِكَةٌ مُّسْتَشِيرَةٌ ﴿٣٤﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَرُ عَلَيْهَا غَرَّةٌ ﴿٣٥﴾ تَرَفَعُهَا قَدَرَةٌ ﴿٣٦﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَرَّةُ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٨-٤٢].

﴿يَوْمَ تُعْشِرُهُمُ جِبَاةٌ ۖ نَّمُ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَوَيْلٌ لَّكُمْ فَرَحًا بِمَنِّكُمْ وَكَلَّ شُرَكَائِكُمْ مَا كُنْتُمْ إِنَّا نَقْبُدُونَ ﴿٣٨﴾﴾ فَكُلٌّ بِاللَّهِ مُتَبَايِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ عِبَادَ اللَّهِ لَغُلَّابٌ ﴿٤٠﴾﴾ فَتَالِكُ تَبَايَعُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أي: أهل الأرض كلهم، من إنس وجن، وبر وفاجر، كما قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أُعْدًا﴾ [الكهف: ٤٧]. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ﴾ أي: الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَشْرَكُوا إِلَهُاتُ الشُّجَرِ وَتِلْكَ الْغُلُوبُ﴾ [يس: ٥٩]، وقال: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُخَفِّضُ يَدَاكَ يَنْفَرُونَ﴾ [الروم: ١٤]، وفي الآية الأخرى: ﴿يُؤَيِّدُ بَصَدْرَكَ﴾ [الروم: ٤٣] أي: يصيرون صديعين، وهذا يكون إذا جاء الرب تعالى لفصل القضاء؛ ولهذا قيل: ذلك يستشفع المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتي لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا، وفي الحديث الآخر: «نحن يوم القيامة على كؤم فوق الناس». وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة إخباراً عما يأمر به المشركين وأولادهم يوم القيامة: ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَرَلَيْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا كَافِرُونَ﴾، أنكروا عبادتهم، وتبرؤوا منهم، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِرِّهِمْ وَيَكُونُوا عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مریم: ٨٧]. وقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ أُتُوا مِنَ الَّذِينَ أُتُوا﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقال: ﴿وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَمَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفُولُونَ﴾ [وإذا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لِمَ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِبِرِّهِمْ كَافِرِينَ] [الأحاف: ٥، ٦].

وقال في هذه الآية إخباراً عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم: ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [٢١] أي: ما كنا نشعر بها ولا نعلم، وإنما أنتم كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك. وفي هذا تبيك عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ممن لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني عنهم شيئاً، ولم يأمرهم بذلك ولا رضي به ولا أراد، بل تبرأ منهم في وقت أحوج ما يكونون إليه، وقد تركوا عبادة الحي القيوم، السميع البصير، القادر على كل شيء، العليم بكل شيء وقد أرسل رسله وأنزل كتبه، أمرأ بعبادته وحده لا شريك له، ناهياً عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَشَّرْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رُسُلًا أَنْتُمْ أَعْتَدُوا اللَّهُ وَالْخَيْرَ وَالْأَلْفُورُ فَيُنْهَوْنَ مِنْ هَدْيِ اللَّهِ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُولٍ إِلَّا نَحْنُ إِلَهُ اللَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [٢٥] [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿وَمَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَلْنَا مِنْ دُونِ الْحَرَجِ إِلَهُهُمُ يَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٥] [الزخرف: ٢٥]. والمشركون أنواع وأقسام كثيرون، قد ذكرهم الله في كتابه، وبين أحوالهم وأقوالهم، وزد عليهم فيما هم فيه أتم رد.

وقوله: ﴿هَٰذَا كَلَّمَكَ اللَّهُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْأَلَتْ﴾ أي: في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما أسلفت من عملها من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ﴾ [الطارق: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَبْكَو الْبَائِسُونَ يُوسِفُ بِمَا قَدَّمَ وَكَلَّمَ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا﴾ [١٦] اقرأ كِتَابَكَ كُلُّ نَفْسٍ يَوْمَ يُنْفَخُ عَلَيْهَا كِتَابٌ [الإنشراح: ١٣، ١٤]. وقد قرأ بعضهم: ﴿هَٰذَا كَلَّمَكَ اللَّهُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْأَلَتْ﴾، وفسرها بعضهم بالقراءة، وفسرها بعضهم بمعنى تتبع ما قدمته من خير وشر، وفتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت الحديث. وقوله: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ﴾ أي: ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل، ففصلها، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار. ﴿وَسَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: ذهب عن المشركين ﴿مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ أي: ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ النَّفْسَ وَالْأَنْفُسَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ فَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ أَفَلَا نُنْفِذُ ﴿٢١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَدَا بَدَّ الْحَيَّ إِلَّا الْفَالُ قَالُوا نَحْنُ نَحْنُ ﴿٢٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَيْفَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٣﴾.

يحتج تعالى على المشركين باعتبار فهم بوحانيته وربوبيته على وحدانية الإله، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر، فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيئته، فيخرج منها ﴿حَبًّا وَنَبَاتًا وَغُلًّا وَنَخْلًا﴾ [٢١] ﴿وَمَدَائِنَ غُلًّا﴾ [٢٢] ﴿وَفَكَّهُمَ وَالْبَاقِي﴾ [عيس: ٢٧-٣١]، إله مع الله؟ فسيقولون: الله، ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَسْكَبْتُمْ أَفْئِدَةً﴾ [٢١]، وكذلك قوله: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ النَّفْسَ وَالْأَنْفُسَ﴾ [يونس: ٣١]؟ أي: الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء للذهب بها وسلبكم إياها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ رَجَعَلَ لَكُمْ النَّفْسَ وَالْأَنْفُسَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [٢٢] [الملك: ٢٣]، وقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَحَمَلَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِالْهُدَى﴾ [الأنعام: ٤٦]. وقوله: ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ أي: بقدرة العظيمة، ومنته العميمة، وقد تقدم ذكر الخلاف في ذلك، وأن الآية عامة في ذلك كله. وقوله: ﴿وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ أي: من يده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، وهو المتصرف الحاكم الذي لا

معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْغَوِيِّ الَّذِي فِي الْأَفْئِدَةِ﴾ [الرحمن: ٢٩]، فالملك كله الغوي والسفلي، وما فيهما من ملائكة وإنس وجان، فقرون إليه، عبيد له، خاضعون لديه، ﴿فَسَبِّحْوا لِلَّهِ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا﴾ أي: هم يعلمون ذلك ويعترفون به، ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بأرائكم وجهلكم؟.

وقوله: ﴿فَلْيَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَكَفَّ الْفَرَسُ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، أي: فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، ﴿فَمَاذَا بَدَأَ الْحَقُّ إِلَّا الصُّلْبَ﴾ أي: فكل معبود سواه باطل، لا إله إلا هو، واحد لا شريك له. ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي: فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه، وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء، والمتصرف في كل شيء؟. وقوله: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، أي: كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده، الذي بعث رسله بتوحيده؛ فهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار، كقوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا﴾ [الأنعام: ١٣٦]، أي: قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق أكثر من الله؟. ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد، ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا﴾ [الأنعام: ١٣٦]، أي: قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق أكثر من الله؟. ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]. وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد، ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا﴾ [الأنعام: ١٣٦]، أي: قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق أكثر من الله؟. ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]. وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد، ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا﴾ [الأنعام: ١٣٦]، أي: قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق أكثر من الله؟. ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يَقْرَأَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ قَصْدِيقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، أي: قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق أكثر من الله؟. ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتيوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة من مثله، لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وخلوته، واشتماله على المعاني العزیزة للعزیزة، النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا صفاته، ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يَقْرَأَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر، ﴿وَلَكِنْ قَصْدِيقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المتقدمة، ومهيأ عليها، ومبين لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل. وقوله: ﴿وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: بياناً شافياً كافياً حقاً لا مرية فيه من الله رب العالمين، كما تقدم في حديث الحارث الأعور، عن علي بن أبي طالب: «فيه خبر ما قبلكم، ونبا ما بعدكم، وفصل ما بينكم»، أي: خبر عما سلف وعما سيأتي، وحكم فيما بين الناس بالشرع الذي يحبه الله ويرضاه.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَفَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، أي: إن ادعيتهم وافتريتهم وشككتهم في أن هذا من عند الله، وقتلتهم كذباً وميناً: «إن هذا من عند محمد»، فمحمد بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا

القرآن، فاتوا أنتم بسورة مثله، أي: من جنس القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان. وهذا هو المقام الثالث في التحدي، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم، إن كانوا صادقين في دعواهم، أنه من عند محمد، فلتعارضوه بنظير ما جاء به وحده واستعينوا بمن شئتم. وأخبر أنهم لا يقدرُونَ على ذلك، ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِيَمِينِ ظَهْرِكَ ۖ﴾ [الأنعام: ٨٨]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه، فقال في أول سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْقَرْنَا بِسُورِ سُورِ يَسْلُو. مَقَرَّيْنِ وَأَدْعَا مِنْ أَسْتَفْطَرْنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۖ﴾ [هود: ١١٣]، ثم تنازل إلى سورة، فقال في هذه السورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْقَرْنَا بِسُورِ يَسْلُو. وَأَدْعَا مِنْ أَسْتَفْطَرْنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۖ﴾ [هود: ١١٣]، وكذا في سورة البقرة - وهي مدنية - تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً، فقال: ﴿إِنْ أَمَّ قَعْلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ ۖ﴾ الآية [البقرة: ٢٤]. هذا وقد كانت الفصاحة من سجايهم، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا يقِلُّ لأحده، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته، وجزالته وطلاوته، وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به، وأفهمهم له، وأتبعهم له وأشدهم له انقياداً، كما عرف السحرة، لعلمهم بفنون السحر، أن هذا الذي فعله موسى، عليه السلام، لا يصدر إلا عن مؤيد مُسَدِّد مرسل من الله، وأن هذا لا يستطاع لبشر إلا بإذن الله. وكذلك عيسى، عليه السلام، بُعث في زمان علماء الطب ومعالجة المرضى، فكان يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله؛ ولهذا جاء في الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً».

وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِبُّوا يُعْلِمُهُ. وَلَكِنَّهُمْ فِيهِ عَمَلٌ ۖ﴾ يقول: بل كذب هؤلاء بالقرآن، ولم يفهموه ولا عرفوه، ﴿وَلَكِنْ يَأْتِيهِمْ تَأْوِيلُهُ ۖ﴾ أي: ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلاً وسفهاً ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ﴾ أي: من الأمم السالفة ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ۖ﴾ أي: فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلواً، وكفراً وعناداً وجهلاً، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم. وقوله: ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ. وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ۖ﴾ [هود: ١١٣]، أي: ومن هؤلاء الذين بُعث إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن، ويتبع وينتفع بما أرسلت به، ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ۖ﴾، بل يموت على ذلك ويبعث عليه، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ۖ﴾ أي: وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضلّه، وهو العادل الذي لا يجوز، بل يعطي كلا ما يستحقه، تبارك وتعالى وتقدس وتزهر، لا إله إلا هو.

﴿وَإِنْ كَذَّبُوا فَقُلْ لِي عَمَلٌ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ﴾ [هود: ١١٣]، ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ۖ﴾ [هود: ١١٣]، ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ۖ﴾ [هود: ١١٣]، ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ۖ﴾ [هود: ١١٣].

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنْ كَذَّبَكَ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ، فَتَبَرَأْ مِنْهُمْ وَمَنْ عَمَلِهِمْ، فَقُلْ لِي عَمَلٌ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ﴾، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۖ﴾ [١]، ﴿لَا أُعْبِدُ مَا تَعْبُدُونَ ۖ﴾ [٢]، ﴿لَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۖ﴾ [٣]، ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۖ﴾ [٤]، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۖ﴾ [٥] [سورة الكافرون]. وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين: ﴿إِنَّا بَرَاءُكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لَكُمْ ذِكْرًا وَيَتَذَكَّرُ الْأَعْمَىٰ عَلَىٰ آذَانٍ وَأَسْمَعُ الْبَصِيرَ ۖ﴾ [سورة البقرة: ١٧٠]، ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۖ﴾ أي: يسمعون كلامك الحسن، والقرآن العظيم، والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأبدان والأديان، وفي هذا كفاية عظيمة، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم - وهو الأطرش - فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء، إلا أن يشاء الله. ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ۖ﴾ أي: ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التوبة، والسمت الحسن، والخلق العظيم، والدلالة الظاهرة، على نبوتك لأولي البصائر والنهي، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم، ولا يحصل لهم من الهداية شيء مما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوفاق، والكافرون ينظرون إليك بعين الاحتقار، ﴿وَلَا يَأْتِيكَ إِلَّا سَفَهٌ مُّذْمُومٌ وَإِنْ هُمْ إِلَّا سَفَهٌ مُّذْمُومٌ ۖ﴾ [سورة النجم: ٢٨]، ﴿لَنْ يَكُونَ إِلَهُنَا إِلَّا أَنْتَ مَرْبُّنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرْوُونَ أَلْمَدَابَ مِنْ أَصْلٍ سَبِيلًا ۖ﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢]. ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحد شيئاً، وإن كان قد هدى به من هدى من الغي وبصر به من العمى، وفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وأضل به عن الإيمان آخرين، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء، الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ الْنَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۖ﴾ [سورة النحل: ١٦]. وفي الحديث عن أبي ذر، عن النبي ﷺ، فما يرويه عن ربه ﷻ: «يا عبادي، إني حرمت

يقول تعالى مذكراً للناس قيام الساعة وحشرهم من أجدادهم إلى عرصات القيامة: كأنهم يوم يوفونها لم يلبوا في الدنيا ﴿لَا سَاعَةَ مِنَ الْآثَارِ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَانَ يَوْمَ بُورٍ يَوْمًا لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الزمر: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ وَنُفْخَةُ الْمُرْجِينَ يَوْمِزْ ذَٰلِكَ﴾ [١٢٢] يَتَحَفَتُونَ يَتَنَبَّهُونَ إِنْ لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٢٣﴾ تَحْنُ أَتْلَمُ يَمَّا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَتْلُكُمُ لَيْسَ لَهُ إِنْ لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٢٤﴾ ﴿وَلَقَدْ أَلَيْنَ الْأَوَّلَىٰ الْأَوَّلَىٰ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَاقِ فَهَكَذَا يَوْمَ الْبَاقِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦]. وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كما قال: ﴿قَدْ كُنْتُمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدْدَ سِنِينَ﴾ ﴿قَالُوا لَيْفًا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنَّا السَّائِغِينَ﴾ [١٢٥] فَكُلْ إِنْ لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنتُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٦﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤]. وقوله: ﴿يَتَذَكَّرُونَ يَتَنَبَّهُونَ﴾ أي: يعرف الأبناء الآباء، والقربات بعضهم بعضاً، كما كانوا في الدنيا، ولكن كل مشغول بنفسه ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي السُّورِ فَلَا أَنْسَابَ يَتَنَبَّهُ يَوْمَئِذٍ وَلَا يُسْأَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حِمِّيَ حِمِّيًّا﴾ [١٢٧] يَصْرُوهَ يَوْمَ الْمُنْمِزِ لَوْ يَفْنَىٰ مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيزْ ﴿١٢٨﴾ وَصَدَجِيَّتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢٩﴾ وَفَعِيلَاتِهِ أَلَىٰ تَوْبِهِ ﴿١٣٠﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حِمِيًّا ثُمَّ يَبْجُو ﴿١٣١﴾ كَلَّا ﴿١٣٢﴾ [المعارج: ١٠ - ١٥]. وقوله: ﴿قَدْ خَيْرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِفَلَقِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَىٰ الَّذِينَ يُكْفَرُونَ لَشَكَّيْنِ﴾ [١٣٣] [المرسلات: ١٥]، لأنهم خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين. فهذه هي الخسارة العظيمة، ولا خسارة أعظم من خسارة من فُرق بينه وبين أحبته، يوم الحسرة والندامة.

يقول تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ: ﴿وَلَمَّا رُتِكَ بَعْضُ الَّذِي نَوَيْتُمْ﴾ أي: ننتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم، «أَوْ نَوَيْتُمْ فَالْإِنَّا نَرَجُوهُمْ» أي: مصيرهم ومنقلبهم، والله شهيد على أفعالهم بعدك. وقد قال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عقبه بن مكرم، حدثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا داود بن الجارود، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد، عن النبي ﷺ قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ أُمِّي الْبَارِحَةَ لَدَى هَذِهِ الْحَجَرَةِ، أُولَهَا وَآخَرَهَا. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَرَضَ عَلَيْكَ مِنْ خُلُقٍ، فَكَيْفَ مِنْ لَمْ يَخْلُقْ؟ فَقَالَ: «صُورُوا لِي فِي الطَّيْنِ، حَتَّى إِنِّي لَأَعْرِفُ بِالْإِنْسَانِ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدُكُمْ بِصَاحِبِهِ». ورواه عن محمد بن عثمان بن أبي شيبة، عن عقبه بن مكرم، عن يونس بن بكير، عن زياد بن المنذر، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد، به نحوه.

﴿يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي عَمَلًا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَاثِلٌ بَيْنَنَا أَوْ نَحَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أُنْزِلَ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْسَمَ بِهِ ؕ أَتَلْقَوْنَ أَهْلَ لُحُوتٍ يَبْعَثُونَ مَرْسَلًا يَأْتُواكُمْ بِطِينٍ لَّهُمْ فِيهَا خُزُنٌ كَثِيرٌ وَمِنْهَا شَرَابٌ مُسْتَعْمَلٌ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلُودِ هَلْ تَعْبَرُونَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن كُفْر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التحيين، مما لا فائدة فيه لهم، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا مُلْكٌ﴾ [الزورى: ١٨] أي: كائنة لا محالة وواقعة، وإن لم يعلموا وقتها عيناً، ولهذا أرشد رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال: ﴿قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ صُلُوكَ لِيَذَرَ الْفِتْنَةَ﴾ [الزورى: ١٨] أي: لا أقول إلا ما علمنى، ولا أقدر على شيء مما استأثر به إلا أن يُطْلَعْنِي عَلَيْهِ، فانا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبركم

عوف بن مالك بن نضلة - يحدث عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا قَشَفُ الهيئة، فقال: «هل لك مال؟» قال: قلت: نعم. قال: «من أي المال؟» قال: قلت: من كل المال، من الإبل والريق والخيل والغنم. فقال: «إذا أتاك مالا فَلْيَرِّ عَلَيْكَ». وقال: «هل تتج إبل قومك صحاحاً أذائها، فتعتمد إلى موسى فتقطع أذائها، فنقول: هذه بحر وتشققها، أو تشق جلودها وتقول: هذه صُرْم، وتحرمها عليك وعلى أهلِكَ؟» قال: نعم. قال: «فإن ما أتاك الله لك حل، وساعد الله أشد من ساعدك، وموسى الله أحد من موساك» وذكر تمام الحديث. ثم رواه عن سفيان بن عيينة، عن أبي الزعراء عمرو بن عمرو، عن عمه أبي الأحوص، وعن بهز بن أسد، عن حماد بن سلمة، عن عبد الملك بن عمير، عن أبي الأحوص، به. وهذا حديث جيد قوي الإسناد. وقد أنكر الله تعالى على من حَرَّمَ ما أحل الله، أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء، التي لا مستند لها ولا دليل عليها. ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة، فقال: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: ما ظنهم أن يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾: قال ابن جرير: في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا. قلت: ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم، ويضيقون على أنفسهم، فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً. وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم. وقال ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا رباح، حدثنا عبد الله بن سليمان، حدثنا موسى بن الصباح في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ قال: إذا كان يوم القيامة، يؤتى بأهل ولاية الله ﷻ، فيقومون بين يدي الله ﷻ ثلاثة أصناف قال: فيؤتى برجل من الصنف الأول فيقول: عبيدي، لماذا عملت؟ فيقول: يا رب: خلقت الجنة وأشجارها وثمارها وأنهارها، وحوورها ونعيمها، وما أعددت لأهل طاعتك فيها، فأسهرت ليلي وأظلمات نهارى شوقاً إليها. قال: فيقول الله تعالى: عبيدي، إنما عملت للجنة، هذه الجنة فادخلها، ومن فضلي عليك أن أعطتك من النار، ومن فضلي عليك أن أدخلك جنتي، قال: فيدخل هو ومن معه الجنة. قال: ثم يؤتى برجل من الصنف الثاني، قال: فيقول: عبيدي، لماذا عملت؟ فيقول: يا رب، خلقت ناراً وخلقت أغلالها وسعيرها وسمومها ويحومها، وما أعددت لأعدائك وأهل معصيتك فيها فأسهرت ليلي وأظلمات نهارى خوفاً منها. فيقول: عبيدي، إنما عملت ذلك خوفاً من ناري، فإني قد أعطتك من النار، ومن فضلي عليك أن أدخلك جنتي. فيدخل هو ومن معه الجنة. ثم يؤتى برجل من الصنف الثالث، فيقول: عبيدي، لماذا عملت؟ فيقول: رب، حباً لك، وشوقاً إليك، وعزتك لقد أسهرت ليلي وأظلمات نهارى شوقاً إليك وحباً لك، فيقول تبارك وتعالى: عبيدي، إنما عملت حباً لي وشوقاً إلي، فينجلي له الرب جل جلاله، ويقول: ها أنا ذا، انظر إلي. ثم يقول: من فضلي عليك أن أعطتك من النار، وأبيحك جنتي، وأزيرك ملائكتي، وأسلم عليك بنفسي. فيدخل هو ومن معه الجنة.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَمَسُّكَ مِنْ شَيْءٍ فِي الْآرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا اسْمَرٌ مِنْ ذَلِكَ وَلَا آكْرٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

يخبر تعالى نبيه، صلوات الله عليه وسلامه، أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كل ساعة وآن ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين، كقوله: ﴿رَبِّعِدُّوْا مَقَالِيحَ النَّبِيِّ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَسْمَعُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلْيَرٍ يُطِيرُ يُخَاجِدُ إِلَّا أُنْمِ أَمَّا لَكُمْ مَا قَرُنَا مِنَ الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ لَكُمْ بِرَبِّكُمْ يَحْشُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ نَفْسٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [المراد: ٢٦]. وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف يعلمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادات، كما قال تعالى: ﴿وَيَتَوَكَّلْ عَلَى الْغَنِيِّ الْغَنِيِّ﴾ الذي يربك حين تقوم ﴿وَتَقَلِّبْ فِي السَّجْدِ﴾ [الشعراء: ٢١٧ - ٢١٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راؤون سامعون، ولهذا قال، عليه السلام، لما سأله جبريل عن الإحسان قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

﴿إِنَّ أَوَّلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزَّيْتِ] آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٦﴾ لَهُمُ الْبَتْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي

الْآخِرَةَ لَا يَنْدِيلُ لِكَلِمَةٍ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦١﴾

يخبر تعالى أن أوليائه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما فسرهم ربهم، فكل من كان تقياً كان لله ولياً: أنه ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلون من أهوال القيامة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما وراءهم في الدنيا. وقال عبد الله بن مسعود، وابن عباس، وغير واحد من السلف: أولياء الله الذين إذا رُؤوا ذُكر الله. وقد ورد هذا في حديث مرفوع كما قال البزار: حدثنا علي بن حَرْب الرازي، حدثنا محمد بن سعيد بن سابق، حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري - وهو القمي - عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: قال رجل: يا رسول الله، مَنْ أولياء الله؟ قال: «الذين إذا رُؤوا ذُكر الله». ثم قال البزار: وقد روي عن سعيد مرسلًا. وقال ابن جرير: حدثنا أبو هشام الرُّفاعي، حدثنا ابن فضيل، حدثنا أبي، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زُرْعَةَ بن عمرو بن جرير البجلي، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله عباداً يَغِطُهُمُ الْأنبياءُ والشهداء». قيل: من هم يا رسول الله؟ لعلنا نحبهم. قال: «هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب، وجوههم نور على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس». ثم قرأ: ﴿أَلَمْ يَكُنْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٦٢﴾. ثم رواه أيضاً أبو داود، من حديث جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زُرْعَةَ بن عمرو بن جرير، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، بمثله. وهذا أيضاً إسناد جيد، إلا أنه منقطع بين أبي زُرْعَةَ وعمر بن الخطاب، والله أعلم.

وفي حديث الإمام أحمد، عن أبي النضر، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حَوْشَب، عن عبد الرحمن بن غَنَم، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي من أفناء الناس ونوازع القبائل قوم لم تتصل بينهم أرحام متقاربة، تحابوا في الله، وتضافوا في الله، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور، فيجلسهم عليها، يفرح الناس ولا يفرعون، وهم أولياء الله، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون». والحديث متطول. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن الأعمش، عن ذُكْرَانَ أبي صالح، عن رجل، عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، قال: «الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو تُرى له». وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن عطاء بن يسار، عن رجل من أهل مصر، عن أبي الدرداء في قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، قال: قال رجل أبا الدرداء عن هذه الآية، فقال: لقد سألت عن شيء ما سمعت أحداً سأل عنه بعد رجل سأل عنه رسول الله ﷺ، فقال: «هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم، أو تُرى له، بشرها في الحياة الدنيا، وبشرها في الآخرة الجنة». ثم رواه ابن جرير من حديث سفيان، عن ابن المنكدر، عن عطاء بن يسار، عن رجل من أهل مصر، أنه سأل أبا الدرداء عن هذه الآية، فذكر نحو ما تقدم.

وقال ابن جرير: حدثني المثنى: حدثنا الحجاج بن منهال، حدثنا حماد بن زيد، عن عاصم بن بهدلة، عن أبي صالح قال: سمعت أبا الدرداء، وسئل عن: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى، فذكر نحوه سواء. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبان، حدثنا يحيى، عن أبي سلمة، عن عباد بن الصامت؛ أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرايت قول الله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾؟ فقال: «لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد من أمتي - أو: أحد قبلك» قال: «تلك الرؤيا الصالحة، يراها الرجل الصالح أو تُرى له». وكذا رواه أبو داود الطيالسي، عن عمران القطان، عن يحيى بن أبي كثير، به. ورواه الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، فذكره. ورواه علي بن المبارك، عن يحيى، عن أبي سلمة قال: بُشِنَا عن عبادة بن الصامت، سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية، فذكره. وقال ابن جرير: حدثني أبو حميد الجُمَاصِي، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عمر بن عمرو بن عبد الحمُوسِي، عن حميد بن عبد الله المزني قال: أتى رجل عبادة بن الصامت فقال: آية في كتاب الله أسألك عنها، قول الله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؟ فقال عبادة: ما سألني عنها أحد قبلك، سألت عنها نبي الله ﷺ فقال مثل ذلك: «ما سألني عنها أحد قبلك، الرؤيا الصالحة، يراها العبد المؤمن في المنام أو تُرى له». ثم رواه من حديث موسى بن عبيدة، عن أيوب بن خالد بن صفوان، عن عبادة بن الصامت؛ أنه قال لرسول الله ﷺ: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، فقد عرفنا بشرى الآخرة الجنة، فما بشرى الدنيا؟ قال: «الرؤيا الصالحة يراها العبد أو تُرى له، وهي جزء من أربعة وأربعين جزءاً أو سبعين جزءاً من النبوة».

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا بهز، حدثنا حماد، حدثنا أبو عمران، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر؛ أنه قال: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل فيحمله الناس عليه، ويثنون عليه به، فقال رسول الله ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن». رواه

يقول تعالى منكراً على من ادعى أن له ولداً: ﴿سُبْحَنَهُ هُوَ الْحَيُّ﴾ أي: تقدس عن ذلك، هو الغني عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فكيف يكون له ولد مما خلق، وكل شيء مملوك له، عبد له؟! ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ أي: ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان! ﴿اتَّقُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: إنكار

يقول تعالى: ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِ نُوحٍ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ، فَجَاؤُوهُمْ بِالْبِئِّنَاتِ، أَي: بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جَاؤُوهم به، ﴿فَمَا كَانُوا يَتُوبُونَ إِلَيْهَا كَذِبًا مِنْ قَبْلُ﴾ أَي: فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم، بسبب تكذيبهم إياهم

أول ما أرسلوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّْلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]. وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُتَكِبِينَ﴾ أي: كما طبع الله على قلوب هؤلاء، فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الآليم. والمراد: أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل، وأنجي من آمن بهم، وذلك من بعد نوح، عليه السلام، فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم عليه السلام على الإسلام، إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً، عليه السلام؛ ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة: أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. وقال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام. وقال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ رِزْقٍ يَذُّبٍ لِّهَاجِرٍ جِدًّا بِصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧]، وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا بسيد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العقاب والتكال، فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ. يَٰأَيُّهَا مَنَّا نَسْتَكْبِرُوكُمْ وَكَاثِرٌ قَوْمًا تُجِيزِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَيُخْسَرُ مِثْرًا ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَيْخَرُ هَذَا وَلَا يُبْلَغُ السَّخِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُقَلِّبَنَّ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِيرَةُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي: قومه. ﴿يَٰأَيُّهَا مَنَّا نَسْتَكْبِرُوكُمْ وَكَاثِرٌ قَوْمًا تُجِيزِينَ﴾ أي: استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَيُخْسَرُ مِثْرًا﴾ أي: حجبنا وبراھیننا، كأنهم - قبحهم الله - أفسموا على ذلك، ويعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان، كما قال تعالى: ﴿وَمَعَدُوا بِهَا وَأَسْقَيْنَهَا نَفْسَهُمْ ظُلُمًا وُطُورًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [النمل: ١٤]. ﴿قَالَ لَهُمْ مُّوسَىٰ مَنكُرًا عَلَيْهِمْ: ﴿٧٦﴾ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَيْخَرُ هَذَا وَلَا يُبْلَغُ السَّخِرُونَ﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُقَلِّبَنَّ﴾ أي: تنيننا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ أي: الدين الذي كانوا عليه، ﴿وَتَكُونُ لَكُمُ﴾ أي: لك ولهارون ﴿الْكِرَةُ﴾ أي: العظمة والرياسة ﴿فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾. وكثيراً ما يذكر الله تعالى قصة موسى، عليه السلام، مع فرعون في كتابه العزيز؛ لأنها من أعجب القصص، فإن فرعون خذ من موسى كل الحذر، فسخره القدر أن رزى هذا الذي يُحذر منه على فراشه ومائدته بمنزلة الولد، ثم ترعرع وعقد الله له سبباً أخرجه من بين أظهرهم ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، وبعث إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده ويرجع إليه، هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان، فجاءه برسالة الله، وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه السلام، فتمرد فرعون واستكبر وأخذته الحمية، والنفس الخبيثة الأبية، وقوى رأسه وتولى بركنه، وادعى ما ليس له، وتجهرم على الله، وعتا وبغى وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل، والله تعالى يحفظ رسوله موسى وأخاه هارون، ويحوطهما، بعنايته، ويحرسهما بعينه التي لا تنام، ولم تزل المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئاً بعد شيء، ومرة بعد مرة، مما يبهز العقول ويدهش الأبواب، مما لا يقوم له شيء، ولا يأتي به إلا من هو مؤيد من الله، وما تأنيهم من آية إلا هي أكبر من أختها، وصمم فرعون وملؤه - قبحهم الله - على التكذيب بذلك كله، والجحد والعناد والمكابرة، حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين، ﴿فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوِي الَّذِينَ ظَلَمُوا وَلَقَدْ يَلْقَىٰ رَبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَقُولُونَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّثْقَلُونَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُّوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَابِقُكُمُ إِلَهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٨﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكُلِّ مَكْرَهٍ. وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

ذكر تعالى قصة السحرة مع موسى، عليه السلام، في سورة الأعراف، وقد تقدم الكلام عليها هناك. وفي هذه السورة، وفي سورة طه، وفي الشعراء؛ وذلك أن فرعون - لعنه الله - أراد أن يتَّهَجَّجَ على الناس، ويعارض ما جاء به موسى، عليه السلام، من الحق المبين، بزخارف السحرة والمشعوذين، فانعكس عليه النظام، ولم يحصل له ذلك المرام، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام، و ﴿قَالَتِ السَّحَرَةُ سَجِدْ ﴿٧٦﴾ قَالُوا مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ رَبِّنَا الْعَالِينَ ﴿٧٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الشعراء: ٤٦-٤٨] فظن فرعون أن يستنصر بالسحار، على رسول عالم الأسرار، فخاب وخسر الجنة، واستوجب النار. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَقُولُونَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّثْقَلُونَ ﴿٧٧﴾﴾؛ وإنما قال لهم ذلك لأنهم اصطفوا - وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل - ﴿قَالُوا بِمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴿٧٦﴾﴾ [طه: ٦٥، ٦٦]، فأراد موسى أن تكون البداءة منهم، ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم؛ ولهذا لما ﴿أَلْقَوْا سَحَابًا مِّمَّنْ النَّاسِ وَسَقَمُوهُمْ وَجَاءَهُمْ سِحْرُهُ عَظِيمًا﴾ [الأعراف: ١١٦]، ﴿فَأَوَّحَىٰ فِي قَلْبِهِ خِيفَةُ مُوسَىٰ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِلَّا تَخَفَ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٧٨﴾ وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا

صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَیْرٌ وَلَا یُعْلِمُ السَّائِرَ حَيْثُ أَنْ ﴿٨٦﴾ ﴿طه: ٦٧-٦٩﴾. فعند ذلك قال موسى لما القوا: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّيْرُ إِنَّ اللَّهَ سَبِيلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا یُضِلُّ عَمَلُ الْمُفْسِدِينَ وَیُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكُلِّ مِیْنَةٍ وَكَذَرِ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٧﴾﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، حدثنا عبد الرحمن - يعني الدششكي - أخبرنا أبو جعفر الرازي، عن لیث - وهو ابن أبي سليم - قال: بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى، تقرأ في إناء فيه ماء، ثم يصب على رأس المسحور: الآية التي من سورة يونس: ﴿فَلَمَّا أَتَوْا قَالُوا مَوْسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّيْرُ إِنَّ اللَّهَ سَبِيلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا یُضِلُّ عَمَلُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٧﴾ وَیُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكُلِّ مِیْنَةٍ وَكَذَرِ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٨﴾﴾، والآية الأخرى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا یَعْمَلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: ١١٨]، وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَیْرٌ وَلَا یُعْلِمُ السَّائِرَ حَيْثُ أَنْ﴾ [طه: ٦٩].

﴿فَمَا ءَمَنَ لِّیُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّتٌ مِّنْ قَوْمِهِ. عَلَنَ خَوْفٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَأَنَّ الْفِتْنَةَ إِنَّا نَقْتَضُهَا فَلَإِنَّ أَرْضًا لَّيْنٌ لِّلْمُتَّوِّبِينَ ﴿٨٧﴾﴾. يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى، عليه السلام، مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات، إلا قليل من قوم فرعون، من الذرية - وهم الشباب - على وجل وخوف منه ومن مثله، أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر؛ لأن فرعون كان جباراً عنيداً مسرفاً في التمرد والعنق، وكانت له سطوة ومهابة، تخاف رعيته منه خوفاً شديداً. قال العوفي: عن ابن عباس: ﴿فَمَا ءَمَنَ لِّیُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّتٌ مِّنْ قَوْمِهِ. عَلَنَ خَوْفٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَأَنَّ الْفِتْنَةَ إِنَّا نَقْتَضُهَا﴾ قال: فإن الذرية التي آمنت لموسى، من أناس غير بني إسرائيل، من قوم فرعون يسير، منهم: امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه. وروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَمَا ءَمَنَ لِّیُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّتٌ مِّنْ قَوْمِهِ﴾ يقول: بني إسرائيل. وعن ابن عباس، والضحاك، وقتادة (الذرية): القليل. وقال مجاهد في قوله: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّتٌ مِّنْ قَوْمِهِ﴾ يقول: بني إسرائيل. قال: هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى، من طول الزمان، ومات آباؤهم. واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية: أنها من بني إسرائيل لا من قوم فرعون، لعود الضمير على أقرب المذكورين. وفي هذا نظر؛ لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب، وأنهم من بني إسرائيل، فالمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى، عليه السلام، واستشروا به، وقد كانوا يعرفون نعتة وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة، وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه؛ ولهذا لما بلغ هذا فرعون حذر كل الحذر فلم یُجِدْ عنه شيئاً. ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى، و ﴿قَالُوا أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَنِ رَبِّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذَابُكُمْ لَسَنَخْلُقْكُمْ فِي الْأَرْضِ نَظْرًا كَيْفَ نَقْمَلُكُمْ ﴿٩٠﴾﴾ [الأعراف: ١٢٩]. وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى، وهم بنو إسرائيل؟

﴿عَلَنَ خَوْفٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَأَنَّ الْفِتْنَةَ إِنَّا نَقْتَضُهَا﴾ أي: وأشرف قومهم أن يفتنهم، ولم يكن في بني إسرائيل من يخاف منه أن يقتل عن الإيمان سوى قارون، فإنه كان من قوم موسى، فبغى عليهم؛ لكنه كان طاوياً إلى فرعون، متصلاً به، متعلقاً بحباله. ومن قال: إن الضمير في قوله: ﴿وَأَنَّ الْفِتْنَةَ﴾، عائد إلى فرعون، وعظم الملك من أجل اتباعه أو بحذف «آل» فرعون، وإقامة المضاف إليه مقامه - فقد أبعد، وإن كان ابن جرير قد حكاهما عن بعض النحاة. ومما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ یَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَآمِنُونَ بِاللَّهِ فَعَلَّی تَوْكَلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ قَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٢﴾ وَنَحْنُ بِرَبِّكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لبني إسرائيل: ﴿یَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَآمِنُونَ بِاللَّهِ فَعَلَّی تَوْكَلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ أي: فإن الله كاف من توكل عليه، ﴿إِن كُنتُمْ ءَآمِنُونَ بِاللَّهِ فَعَلَّی تَوْكَلُوا﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]. وكثيراً ما يقرن الله بين العبادة والتوكل، كما في قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [معد: ١٧٣]، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَمَّنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿رَبِّ لِّلشَّرِّ لِقَبْرِ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانْذِرْهُ وَكَيْلًا ﴿٩٤﴾﴾ [الزمل: ١٩]، وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٩٥﴾﴾ [الفاتحة: ٢٥]. وقد امثل بنو إسرائيل ذلك، فقالوا: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تضلهم بنا، وتسلطهم علينا، فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل، فيفتنوا بذلك. هكذا روي عن أبي مجلز، وأبي الضحى. وقال ابن أبي نجیح وغير واحد، عن مجاهد: لا تعذبنا بأيدي قوم فرعون، ولا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق ما عذبوا، ولا سلطنا عليهم، فيفتنوا بنا. وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عُيَيْنَةَ، عن ابن نجیح، عن مجاهد: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تسلطهم علينا، فيفتنونا. ﴿وَنَحْنُ بِرَبِّكَ﴾ أي: خلصنا برحمة منك وإحسان، ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: الذين كفروا الحق وستروه، ونحن قد آمنّا بك وتوكلنا عليك.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ ابْنِ نَجْمًا لِّقَوْمِكَ بِمِصْرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُؤْنَسُ قِسْلَهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (٨٧).

يذكر تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه، وكيفية خلاصهم منهم، وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون، عليهما السلام ﴿أَنْ يَبْرُؤَا﴾ أي: يتخذوا لقومهما بمصر بيوتاً. واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، فقال الثوري وغيره، عن خُصَيْف، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قال: أمروا أن يتخذوها مساجد. وقال الثوري أيضاً، عن ابن منصور، عن إبراهيم: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قال: كانوا خائفين، فأمرُوا أن يصلوا في بيوتهم. وكذا قال مجاهد، وأبو مالك، والربيع بن أنس، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأبو زيد بن أسلم. وكان هذا - والله أعلم - لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه، وضيّقوا عليهم، أمروا بكثرة الصلاة، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلصَّاتِرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (البقرة: ١٥٣). وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. أخرجه أبو داود. ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: بالشواب والنصر القريب. وقال العوفي، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية قال: قالت بنو إسرائيل لموسى، عليه السلام: لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة، فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا في بيوتهم، وأمرُوا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة. وقال مجاهد: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، قال: لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا في الكنائس الجامعة، أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلية الكعبة، يصلون فيها سراً. وكذا قال قتادة، والضحاك. وقال سعيد بن جبيرة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: يقابل بعضها بعضاً.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ رِيشَهُ وَأَمَرْنَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُصَلُّوا عَلَىٰ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَقِيمُوا وَلَا تَلَمَّازُوا سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩).

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى، عليه السلام، على فرعون وملئه، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين، ظلموا وعلوا وتكبروا وعتوا، قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ رِيشَهُ﴾ أي: من أثاث الدنيا ومتاعها، ﴿وَأَمَرْنَا﴾ أي: جزيلة كثيرة، ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُصَلُّوا عَلَىٰ سَبِيلِكَ﴾ - بفتح الياء - أي: أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم استدراجاً منك لهم، كما قال تعالى: ﴿لَنُفِثَنَّهُمْ فِيهِ﴾. وقرأ آخرون: ﴿لِيُصَلُّوا﴾ بضم الياء، أي: ليفتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيت هؤلاء هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم. ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد: أي: أهلكها. وقال الضحاك، وأبو العالية، والربيع بن أنس: جعلها الله حجارة منقوشة كهية ما كانت. وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة. وقال محمد بن كعب القرظي: اجعل سُكْرَهُمْ حجارة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا يحيى بن أبي بكير، عن أبي مَعْشَر، حدثني محمد بن قيس: أن محمد بن كعب قرأ سورة يونس على عمر بن عبد العزيز: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ رِيشَهُ﴾ إلى قوله: ﴿اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ إلى آخرها فقال له عمر: يا أبا حمزة، أي شيء الطمس؟ قال: عادت أموالهم كلها حجارة. فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له: اتنني بكيس. فجاءه بكيس، فإذا فيه حمص وبيض، قد قطع حول حجارة. وقوله: ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: قال ابن عباس: أي اطبع عليها، ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾. وهذه الدعوة كانت من موسى، عليه السلام، غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه، الذين تبين له أنه لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء كما دعا نوح، عليه السلام، فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرَنَّهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) [نوح: ٢٦، ٢٧] ولهذا استجاب الله تعالى لموسى، عليه السلام، فيهم هذه الدعوة، التي آمن عليها أخوه هارون، فقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ﴾. قال أبو العالية، وأبو صالح، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي، والربيع بن أنس: دعا موسى وأمن هارون، أي: قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون. وقد يحتج بهذه الآية من يقول: «إن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة يُنْزِلُ منزلة قراءتها؛ لأن موسى دعا وهارون آمن».

وقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَقِيمُوا وَلَا تَلَمَّازُوا سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: كما أجبنا دعوتكما فاستقيما على أمري. قال ابن جرير، عن ابن عباس: ﴿فَاسْتَقِيمُوا﴾: فامضيا لأمري، وهي الاستقامة. قال ابن جريج: يقولون: إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة. وقال محمد بن علي بن الحسين: أربعين يوماً.

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ مَا كُنْتُ إِلَّا لِلَّهِ عَابِدٌ فَلَمَّا كُنْتُ يَدُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٩٠).

وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذاك من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسوله؛ ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قال فرعون: ﴿أَمْسِكْ ائْتَمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا الْوَلَدُ﴾ آمَسْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَءِيلَ»، قال: قال لي جبريل: يا محمد لو رأيته وقد أخذت حالاً من حال البحر، فدسسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة». ورواه الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم في تفاسيرهم، من حديث حماد بن سلمة، به، وقال الترمذي: حديث حسن. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: لو رأيته وأنا أخذ من حال البحر، فادسه في فم فرعون مخافة أن تذكره الرحمة». وقد رواه أبو عيسى الترمذي أيضاً، وابن جرير أيضاً، من غير وجه، عن شعبة، عن عطاء وعدي، عن سعيد، عن ابن عباس، رفعه أحدهما. وكان الآخر لم يرفعه، فאלله المثنى، عن عُثْرَد، عن شعبة، عن عطاء وعدي، عن سعيد، عن ابن عباس، رفعه أحدهما. وكان الآخر لم يرفعه، فאלله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن عمر بن عبد الله بن يعلف الثقفي، عن سعيد بن جبّير، عن ابن عباس قال: لما أغرق الله فرعون، أشار بأصبعه ورفع صوته: ﴿أَمْسِكْ ائْتَمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا الْوَلَدُ﴾ آمَسْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَءِيلَ»، قال: فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه، فجعل يأخذ الحال بجناحه فيضرب به وجهه فيرمسه. وكذا رواه ابن جرير، عن سفيان بن زكيع، عن أبي خالد، به موقوفاً. وقد روي من حديث أبي هريرة أيضاً، فقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا حَكَّام، عن عُثْبَةَ - هو ابن سعيد - عن كثير بن زاذان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: يا محمد، لو رأيته وأنا أغطه وأدس من الحال في فيه، مخافة أن تذكره رحمة الله فيغفر له»، يعني: فرعون. كثير بن زاذان هذا قال ابن معين: لا أعرفه، وقال أبو رُزْغَةَ وأبو حاتم: مجهول، وباقي رجاله ثقات. وقد

أرسل هذا الحديث جماعة من السلف: قتادة، وإبراهيم التيمي، وميمون بن مهران. ونقل عن الضحاك بن قيس: أنه خطب بهذا للناس، فآله أعلم.

وقوله: ﴿قَالُوا نَحْنُ نَحْيِيكَ بِذِكِّكَ لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾: قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون، فأمر الله تعالى البحر أن يلقى به جسده بلا روح، وعليه درعه المعروفة به، على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع، ليتحققوا موته وهلاكه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قَالُوا نَحْنُ نَحْيِيكَ﴾ أي: نرفعك على نُشْر من الأرض، ﴿بِذِكِّكَ﴾. قال مجاهد: بجسدك. وقال الحسن: بجسم لا روح فيه. وقال عبد الله بن شداد: سوباً صحيحاً، أي لم يتعرق ليتحققوه ويعرفوه. وقال أبو صخر: بدرعك. وكل هذه الأقوال لا منافاة بينها، كما تقدم، والله أعلم. وقوله: ﴿لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ أي: لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك، وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء؛ ولهذا قرأ بعض السلف: ﴿لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾، أي: لا يتعظون بها، ولا يعتبرون. وقد كان إهلاك فرعون وملته يوم عاشوراء، كما قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غُثَير، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قدم النبي ﷺ المدينة، واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم، فصوموه».

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَءًا صَدِيقًا ۚ وَذَرَفْنَاهُم مِّنَ الطَّبِئَتِ ۖ فَمَا أَتَخَلَّوْا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْوَعْدُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۖ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية، ف ﴿مَبْرَأٌ صَدَقَ﴾، قيل: هو بلاد مصر والشام، مما يلي بيت المقدس ونواحيه، فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكاملها، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَمُّونَ مَشْرِكَ الْأَمْنِيِّ وَفَكَّرْنَا فِيهَا لَكُمَّنَّ رِزْقًا وَنَجَّيْنَاكُم مِّنَ يَدَيْ فِرْعَوْنَ يَمْسِكُ بِكُمْ بِرِجْلَيْهِ فِرْعَوْنَ﴾ [الاعراف: ١٣٧]، وقال في الآية الأخرى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّنْ جَدَّتِ وَيُؤَيِّنُ ٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَثِيرٍ ٥٨ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ٥٩﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٩]، ولكن استمروا مع موسى، عليه السلام، طالبين إلى بلاد بيت المقدس وهي بلاد الخليل عليه السلام، فاستمر موسى بمن معه طالباً بيت المقدس، وكان فيه قوم من العمالة، فقتل بنو إسرائيل عن قتال العمالة، فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة، ومات فيه هارون، ثم موسى، عليهما السلام، وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون، ففتح الله عليهم بيت المقدس، واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بختنصر حيناً من الدهر، ثم عادت إليهم، ثم أخذها ملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم مدة طويلة.

ويبعث الله عيسى ابن مريم، عليه السلام، في تلك المدة، فاستعانت اليهود - قبحهم الله - على معاداة عيسى، عليه السلام، بملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم، ووشوا عندهم، وأروحا إليهم أن هذا يفسد عليكم الرعايا، فبعثوا من يقض عليه، فرفعه الله إليه، وشبه لهم بعض الحواريين بمشيئة الله وقدره، فأخذوه فصلبوه، واعتقدوا أنه هو، ﴿وَمَا قُلُوهُ يَقِينًا﴾ (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) ﴿ (النساء: ١٥٧، ١٥٨). ثم بعد المسيح، عليه السلام، بنحو من ثلاثمائة سنة، دخل قسطنطين - أحد ملوك اليونان - في دين النصرانية، وكان فيلسوفاً قبل ذلك. فدخل في دين النصارى قيل: تقية، وقيل: حيلة ليفسده، فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة وبدعاً أحدثوها، فبنى لهم الكنائس والبيع الكبار والصغار، والصوامع والهيكل، والمعابد، والقلايات. وانتشر دين النصرانية في ذلك الزمان، واشتهر على ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف، ووضع وكذب، ومخالفة لدين المسيح. ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم إلا القليل من الرهبان، فاتخذوا لهم الصوامع في البراري والمهام والقفار، واستحوذت يد النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم، وبنى هذا الملك المذكور مدينة قسطنطينية، والقمامة، وبيت لحم، وكنائس بلاد بيت المقدس، ومدن خوزان كبُصرى وغيرها من البلدان بنايات هائلة محكمة، وعبدوا الصليب من حيثئذ، وصلوا إلى الشرق، وصوروا الكنائس، وأحلوا لحم الخنزير، وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع في دينهم والأصول، ووضعوا له الأمانة الحقيرة، التي يسمونها الكبيرة، وصنفوا له القوانين، وبسط هذا يطول. والغرض أن يدهم لم تزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها منهم الصحابة، رضي الله عنهم، وكان فتح بيت المقدس على يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، والله الحمد والمنة.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الْمَيْتَةِ﴾ أَي: الحلال، من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً. وقوله: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمْ أَمْرٌ﴾ أَي: ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم، أي: ولم يكن لهم أن يختلفوا، وقد بين الله لهم

وأزال عنهم اللبس. وقد ورد في الحديث: أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة، واستفترق هذه الأمة على ثلاثة وسبعين فرقة، منها واحدة في الجنة، واثنتان وسبعون في النار. قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي». رواه الحاكم في مستدركه بهذا اللفظ، وهو في السنن والمسانيد. ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أي: يفصل بينهم ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ كما كانوا فيه يختلفون ﴿وَمَنْ كَفَرَ فِي شَيْءٍ مِمَّا نَزَّلْنَا إِلَيْكَ فَسَوَّلَ الْيَهُودُ يَمْزُغُونَ صَبْرَهُ لِيُخْرِجُوا مِنْكَ الْحَقَّ وَلِيُكَفِّرَ عَنْكَ الْإِيمَانَ﴾ ولا تكون من الذين كذبوا بآياتي والله فتكوت من العاصين ﴿إِنَّ الْيَهُودَ كَفَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الآليم ﴿٩٧﴾.

قال قتادة بن دعام: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل». وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، والحسن البصري، وهذا فيه تثبيت للأمة، وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ الرَّسُولُ الَّذِي آمَنَّا بِهِ إِذْ يَعِزُّهُمْ مَكُونًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]. ثم مع هذا العلم يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم، يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الْيَهُودَ كَفَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الآليم ﴿٩٧﴾. أي: لا يؤمنون إيماناً ينفعهم، بل حين لا ينفع نفساً إيمانها؛ ولهذا لما دعا موسى، عليه السلام، على فرعون وملئه قال: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي بَنَيْنَا فِيهَا قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية [يونس: ٨٨]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْكِتَابَ وَكَلَّمَهُمُ الْتَوَكُّنَ وَحَرَّصْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُلُوبًا مَا كَانُوا يَؤْمِنُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَصْحَرَتْهُمْ يَمَهِلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، ثم قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يَبُوءُونَ لَنَا مَا نَحْنُ بِكُفَّاتٍ عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾.

يقول تعالى: فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل، بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه، أو أكثرهم كما قال تعالى: ﴿يَحْزَنُونَ عَلَى الْيَسَاءِ مَا يُلْقِيهِمُ رَبُّنَا رَسُولًا إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٢٠]، ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سُلُوبٌ أَوْ يُنَادُّوا نَجْمٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، ﴿كَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى مِثْلِ الَّذِي عَلَيْكَ بُحْتٌ وَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. وفي الحديث الصحيح: «عرض علي الأنبياء، فجعل النبي يمر ومعه الغنم من الناس، والنبي معه الرجل والنبي معه الرجلان، والنبي ليس معه أحد» ثم ذكر كثرة أتباع موسى، عليه السلام، ثم ذكر كثرة أمته، صلوات الله وسلامه عليه، كثرة سدت الخافقين الشرقي والغربي. والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى، إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى، وما كان إيمانهم إلا خوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم، بعدما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به، وتضرعوا لديه، واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم. فعندها رحمهم الله، وكشف عنهم العذاب وأخروا، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمٌ يَبُوءُونَ لَنَا مَا نَحْنُ بِكُفَّاتٍ عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾. واختلف المفسرون: هل كشف عنهم العذاب الآخروي مع الدنيوي؟ أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط؟ على قولين، أحدهما: إنما كان ذلك في الحياة الدنيا، كما هو مفيد في هذه الآية، والقول الثاني فيها لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ آتٍ أَوْ يَبُوءُونَ﴾ ﴿فَأَمَّا قَوْمٌ فَتُخَذِّلُهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٧، ١٤٨]، فأطلق عليهم الإيمان، والإيمان منقاد من العذاب الآخروي، وهذا هو الظاهر، والله أعلم. قال قتادة في تفسير هذه الآية: لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب، فتركت، إلا قوم يونس، لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، فذف الله في قلوبهم التوبة، ولبسوا المسوح، وفترقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عجزوا إلى الله أربعين ليلة. فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم، والتوبة والتدابة على ما مضى منهم كشف الله عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم - قال قتادة: وذكر أن قوم يونس كانوا بنيوي أرض الموصل. وكذا روي عن ابن مسعود، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وغير واحد من السلف، وكان ابن مسعود يقرؤها: «فهلأ كانت قرية آمنت». وقال أبو عمران، عن أبي الجعد قال: لما نزل بهم العذاب، جعل يدور على رؤوسهم كقطع الليل المظلم، فمشوا إلى رجل من علمائهم فقالوا: علمنا دعاء ندعو به، لعل الله يكشف عنا العذاب، فقال: قولوا: يا حيّ حين لا حيّ، يا محيي الموتى، لا إله إلا أنت. قال: فكشفت عنهم العذاب. وتام القصة سيأتي مفصلاً في سورة الصافات إن شاء الله.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جِئْنَا نَكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ اللَّهُ الْحَرَبَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ - يا محمد - لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جنتهم به، فآمَنُوا كلهم، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كما قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١٠١﴾ إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [مرد: ١١٨، ١١٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِنِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكْزُ الْتَكْزُ النَّاسَ﴾ أي: تلزمهم وتلجئهم ﴿حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليس ذلك عليك ولا إلبك، بل إلى الله ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَنْهُمْ حَرْبَةً﴾ [فاطر: ٨]، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿لَمَّا بَلَغَ نَفْسُكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ﴾ [النقص: ٥٦]، ﴿فَأَمَّا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١٠٤﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴿١٠٥﴾﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، الهادي من يشاء، المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ اللَّهُ الْحَرَبَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: حجج الله وأدلته، وهو العادل في كل ذلك، في هداية من هدي، وإضلال من ضل.

﴿قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُنْفِي الْآيَاتِ وَالنُّذُرَ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٦﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا يَأْتِيَهُمُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ ﴿١٠٧﴾ ثُمَّ تَنَجَّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا سُبْحَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

يرشد تعالى عباده إلى التفكير في آلائه وما خلق في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب، مما في السموات من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر، والليل والنهار، واختلافهما، وإيلاج أحدهما في الآخر، حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها، وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزرع والأزاهير، وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب. وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مسخر مذل للسالكين، يحمل سفنهم، ويجري بها برق بتسخير القدير له، لا إله إلا هو، ولا رب سواه. وقوله: ﴿وَمَا تُنْفِي الْآيَاتِ وَالنُّذُرَ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وأي شيء تُجدي الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها، عن قوم لا يؤمنون، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١١٠﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. وقوله: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا يَأْتِيَهُمُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: فهل ينظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النعمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم المكذبة لرسولهم، ﴿قُلْ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ ثُمَّ تَنَجَّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ونهلك المكذبين بالرسول، ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا سُبْحَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حقاً أوجبه تعالى على نفسه الكريمة، كقوله: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، كما جاء في الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي».

﴿قُلْ يَأْتِيَنَّ النَّاسَ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا أَشْهُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُبَشِّرُ أَنَّ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَأَنْ أَقْبِرَ وَجْهَكُمْ لِلَّذِينَ حَبِيبًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ وَإِنْ يَسْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِلَ إِلَهُ يَخْتَرُ فَلَا رَازٍ لِفَضْلِهِ يُخَيِّبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١١٤﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: قل: يا أيها الناس، إن كنتم في شك من ربِّي فلا أشهد الذين تعبدون من دون الله، ولكن أعبد الله الذي يتوفىكم وأبشركم أن تكونوا من المؤمنين. ﴿وَأَنْ أَقْبِرَ وَجْهَكُمْ لِلَّذِينَ حَبِيبًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: أخلص العبادة لله وحده حنيفاً، أي: منحرفاً عن الشرك؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وهو معطوف على قوله: ﴿وَأُبَشِّرُ أَنَّ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقوله: ﴿وَإِنْ يَسْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ إلى آخرها، بيان لأن الخير والشر والنفع والضرب إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه في ذلك أحد، فهو الذي يستحق العبادة وحده، لا شريك له. روى الحافظ ابن عساكر، في ترجمة صفوان بن سليم، من طريق عبد الله بن

وهب: أخبرني يحيى بن أيوب عن عيسى بن موسى، عن صفوان بن سليم، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قال: «اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن الله نفحات من رحمته، يصيب بها من يشاء من عباده، واسألوه أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم». ثم رواه من طريق الليث، عن عيسى بن موسى، عن صفوان، عن رجل من أشجع، عن أبي هريرة مرفوعاً؛ بمثله سواء. وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: لمن تاب إليه وتوكل عليه، ولو من أي ذنب كان، حتى من الشرك به، فإنه يتوب عليه.

﴿قُلْ يَتَابِعُوا الْإِنْسَانَ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ. وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ. وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمُصَوِّلٍ وَاتِّعَ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

يقول تعالى أمراً لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مزية فيه ولا شك، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمُصَوِّلٍ﴾ أي: وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين به، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى. وقوله: ﴿وَاتِّعَ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ﴾ أي: تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس، ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ أي: يفتح بينك وبينهم، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أي: خير الفاتحين بعدله وحكمته.



تفسير سورة هود

وهي مكية. قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا خلف بن هشام البزار، حدثنا أبو الأحوص، عن أبي إسحاق، عن عكرمة قال: قال أبو بكر: سألت رسول الله ﷺ: ما شيبك؟ قال: «شيبني هود، والواقعة، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت». وقال أبو عيسى الترمذي: حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء، حدثنا معاوية بن هشام، عن شيبان، عن أبي إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، قد شيبك؟ قال: «شيبني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت» وفي رواية: «هود وأخواتها». وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا حماد بن الحسن، حدثنا سعيد بن سلام، حدثنا عمر بن محمد، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «شيبني هود وأخواتها: الواقعة، والهاقة، وإذا الشمس كورت» وفي رواية: «هود وأخواتها». وقد روي من حديث ابن مسعود، فقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا أحمد بن طارق الراثي، حدثنا عمرو بن ثابت، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه؛ أن أبا بكر قال: يا رسول الله، ما شيبك؟ قال: «هود، والواقعة». عمرو بن ثابت متروك، وأبو إسحاق لم يدرك ابن مسعود. والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كُنْتُ أَهْلُكُمْ ثُمَّ قُضِيَ بَيْنَ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرَيْتُهُ نَذِيرٌ وَيَنْبَغِي ﴿٢﴾ وَإِنْ أَسْتَفْتُوا رَبَّكَ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُعْطِكُمْ فَتًى حَسَنًا إِلَّا أَهْلَ سَمَىٰ وَوُتِبَ كُلٌّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته لها، وبالله التوفيق. وأما قوله: ﴿أَهْلُكُمْ ثُمَّ قُضِيَ بَيْنَ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ أي: من عند الله الحكيم في أقواله، وأحكامه، والخير بعواقب الأمور. ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، قال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْذِرُوا إِلَهُكُمْ وَأَعْلَفُوا إِلَهُكُمْ﴾ [النحل: ٣٦]. وقوله: ﴿إِنِّي لَكُرَيْتُهُ نَذِيرٌ وَيَنْبَغِي﴾ أي: إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالشواب إن أطعتموه، كما جاء في الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ صعد الصفا، فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا، فقال: «يا معشر قريش، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً تصبحكم، أستم مصدقي؟» فقالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال: «فإني نذير

لكم بين يدي عذاب شديد». وقوله: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكَ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يَبْعَثْكُمْ مَتَا حَسَا إِلَهُ أَجَلٍ مُّسَيَّ وَتُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي: وأمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله ﷻ فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك، ﴿يَبْعَثْكُمْ مَتَا حَسَا﴾ أي: في الدنيا ﴿إِلَهُ أَجَلٍ مُّسَيَّ وَتُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي: في الدار الآخرة، قاله قتادة، كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقد جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لسعد: «وانك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله، إلا أجزت بها، حتى ما تجعل في في امرأتك». وقال ابن جرير: حدثت عن المسيب بن شريك، عن أبي بكر، عن سعيد بن جبير، عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَتُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ قال: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات. فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات. ثم يقول: هلك من غلب آحاده أعشاره. وقوله: ﴿وَأَنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾: هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى، وكذب رسله، فإن العذاب يناله يوم معاده لا محالة، ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: معادكم يوم القيامة، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه، وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب، كما أن الأول مقام ترغيب.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَمُنُّونَ بِصُدُورِهِمْ لَيَسْتَخْفُوا مِنَّا أَلَا جِنَّ يَسْتَعِثُّونَ يَابَهُمْ يَكَلِّمَ مَا يَشْرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتِ الصُّدُورِ ٥﴾.

قال ابن عباس: كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم، وحال وقاعهم، فأنزل الله هذه الآية. رواه البخاري من حديث ابن جريج، عن محمد بن عباد بن جعفر؛ أن ابن عباس قرأ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَنَوَّنِي صُدُورُهُمْ﴾، فقلت: يا أبا عباس، ما تننوني صدورهم؟ قال: الرجل كان يجامع امرأته فيستحي - أو: يتخلى فيستحي فتزلت: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَنَوَّنِي صُدُورُهُمْ﴾. وفي لفظ آخره: قال ابن عباس: أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا، فيفوضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفوضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم. ثم قال: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو قال: قرأ ابن عباس: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَنَوَّنِي صُدُورُهُمْ لَيَسْتَخْفُوا مِنَّا أَلَا جِنَّ يَسْتَعِثُّونَ يَابَهُمْ﴾. قال البخاري: وقال غيره، عن ابن عباس: ﴿يَسْتَعِثُّونَ﴾: يغطون رؤوسهم. وقال ابن عباس في رواية أخرى في تفسير هذه الآية: يعني به الشك في الله، وعمل السيئات، وكذا روي عن مجاهد، والحسن، وغيرهم: أي أنهم كانوا يشنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه، يظنون أنهم يستخفون من الله بذلك، فأعلمهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل، ﴿يَكَلِّمَ مَا يَشْرُونَ﴾ من القول: ﴿وَمَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: يعلم ما تكن صدورهم من النيات والضمائر والسرائر. وما أحسن ما قال زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة:

فَلَا تَكْثُمُنَّ اللَّهَ مَا فِي نَفْسِكُمْ لِيخْفَى، فمهما يُكْتَمُ اللَّهُ يَغْلَمُ
يُؤَخِّرُ فَيُوضِعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخِرُ لِيَوْمِ حِسَابٍ، أَوْ يُجَلِّ فَيُنْقِمُ

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلي بوجود الصانع وعلمه بالجزئيات، وبالمعاد والجزاء، وبكتابة الأعمال في الصحف ليوم القيامة. وقال عبد الله بن شداد: كان أحدهم إذا مر برسول الله ﷺ ثني صدره، وغطى رأسه فأنزل الله ذلك. وعود الضمير على الله أولى؛ لقوله: ﴿أَلَا جِنَّ يَسْتَعِثُّونَ يَابَهُمْ يَكَلِّمَ مَا يَشْرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ﴾. وقرأ ابن عباس: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَنَوَّنِي صُدُورُهُمْ﴾، برفع الصدور على الفاعلية، وهو قريب المعنى.

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ٦﴾.

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات، من سائر دواب الأرض، صغيرها وكبيرها، بحريها، وبريها، وأنه ﴿يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أي: يعلم أين مُنتهى سيرها في الأرض، وأين تأوي إليه من كرها، وهو مستودعها. وقال علي بن أبي طلحة وغيره، عن ابن عباس: ﴿يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أي: حيث تأوي، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾، حيث تموت. وعن مجاهد: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ في الرحم، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ في الصلب، كالتي في الأنعام: وكذا روي عن ابن عباس والضحاك، وجماعة. وذكر ابن أبي حاتم أقوال المفسرين ههنا، كما ذكره عند تلك الآية، فإله أعلم، وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلْمٍ يَظِلُّ يَصَاحِبُ إِلَّا أُمُّ أَسْأَلَكُمْ مَا فَزَعْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ قَوْمٍ ثُمَّ إِلَهُ يَحْكُمُ ٧﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ دَرَكَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبْوٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ٨﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ يَلْعَلُكُمْ إِلَهُكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَعْبُودُونَ مِنْ بَدَلِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَهُ أَنتُمْ مَعْدُودُونَ لَيَقُولَنَّ مَا يُحْيِيهِمْ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْلٌ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَنَحْنُ بِهِمْ قَا كَاثِرًا بِدُيُوتِهِمْ ﴿٨﴾﴾.

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك، كما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن جامع بن شَدَّاد، عن صفوان بن مُخَرِّزٍ، عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «اقبلوا البشرى يا بني تميم». قالوا: قد بشرتنا فأعطنا. قال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن». قالوا: قد قبلنا، فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: «كان الله قبل كل شيء»، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء. قال: فأتاني آت فقال: يا عمران، انحلت ناقتك من عقالها. قال: فخرجت في إثرها، فلا أدري ما كان بعدي. وهذا الحديث مخرج في صحيح البخاري ومسلم بألفاظ كثيرة؛ فمنها: قالوا: جئناك نسالك عن أول هذا الأمر فقال: «كان الله ولم يكن شيء قبله - وفي رواية: غيره - وفي رواية: معه - وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض». وفي صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء». وقال البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أنفق أنفق عليك». وقال: «يد الله ملأى لا يفيضها نفقة، سحاة الليل والنهار» وقال: «أفرايم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يفيض ما في يده، وكان عرشه على الماء، ويده الميزان يخفض ويرفع». وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا حماد بن سلمة، عن يَحْيَى بن عطاء، عن وَكِيع بن عَدْس، عن عمه أبي زَرِين - واسمه لَقِيط بن عامر بن المتفق العُتَيْلِي - قال: قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عَمَاء، ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خلق العرش بعد ذلك». وقد رواه الترمذي في التفسير، وابن ماجه في السنة من حديث يزيد بن هارون به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وقال مجاهد: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» قبل أن يخلق شيئاً. وكذا قال وهب بن مُثَنِّب، وضمرة بن حبيب، وقالة قتادة، وابن جرير، وغير واحد. وقال الربيع بن أنس: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»، فلما خلق السموات والأرض، قسم ذلك الماء قسمين، فجعل نصفاً تحت العرش، وهو البحر المسجور. وقال ابن عباس: إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه. وقال إسماعيل بن أبي خالد، سمعت سعداً الطائي يقول: العرش ياقوتة حمراء. وقال محمد بن إسحاق في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾: فكان كما وصف نفسه تعالى، إذ ليس إلا الماء وعليه العرش، وعلى العرش ذو الجلال والإكرام، والعزة والسلطان، والملك والقدرة، والحلم والعلم، والرحمة والنعمة، الفعال لما يريد. وقال الأعمش، عن المُنْهَال بن عمرو، عن سعيد بن جبيرة قال: سئل ابن عباس عن قول الله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾: على أي شيء كان الماء؟ قال: على متن الريح. وقوله تعالى: ﴿يَلْعَلُكُمْ إِلَهُكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه وحده لا شريك له، ولم يخلق ذلك عبثاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكُمْ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٧٧﴾﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ لَا تُرْجَعُونَ ﴿٧٨﴾﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿٧٩﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا لِمَنْ وَلَا لِمَنْ إِلَّا لِيُعْبَدُوا ﴿٨١﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقوله: ﴿يَلْعَلُكُمْ﴾ أي: ليختبركم ﴿إِلَهُكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ولم يقل: أكثر عملاً، بل ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله ﷻ، على شريعة رسول الله ﷺ. فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين بطل وجب. وقوله: ﴿وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَعْبُودُونَ مِنْ بَدَلِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾: يقول تعالى: ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم، مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [المنكوت: ٦١]، وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة، الذي هو بالنسبة إلى القدرة أمون من البداة، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَالِيَهُ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَمَلِكُمْ إِلَّا كَتَفَرٍ وَجَدُوهُمْ﴾ [القمان: ٢٨] وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: يقولون كفراً وعناداً ما نصدقك على

وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا من سحرته، فهو يتبعك على ما تقول.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَهُ أَتَمَوْا مَعْدُودُوا لَيَقُولُنَّ مَا بَحْبِثُ﴾. يقول تعالى: ولئن أخرنا العذاب عنهم لكانوا معذبين به إلى مدة مضروبة، ليقولن تكذيباً واستعجالاً: ﴿مَا بَحْبِثُ﴾ أي: يؤخر هذا العذاب عنا، فإن سجاياهم قد ألقت التكذيب والشك، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد. «والأمة» تستعمل في القرآن والسنة في معان متعددة، فيراد بها: الأمد، كقوله في هذه الآية: ﴿إِلَهُ أَتَمَوْا مَعْدُودُوا﴾ وقوله في سورة يوسف: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهَا وَأَذْكَرَ بَعْدَ أَتَمَوْا﴾ [يوسف: ٤٥]، وتستعمل في الإمام المقتدى به، كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، وتستعمل في الملة والدين، كقوله إخباراً عن المشركين أنهم قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وتستعمل في الجماعة، كقوله: ﴿وَلَمَّا وَدَّ مَاءٌ مَذْيَبَ رَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّكَاسِ يَسْتَفُونَ﴾ [القصاص: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا كُفْرَهُمْ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ يَظْلُمُونَ﴾ [يونس: ٤٧]. والمراد من الأمة ههنا: الذين بيعت فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم، كما جاء في صحيح مسلم: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار». وأما أمة التابع، فهم المصدقون للرسول، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وفي الصحيح: «فأقول: أمتي أمتي». وتستعمل الأمة في الفرقة والطائفة، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّؤْتَوًى أُمَّةٌ يَهُودُوتَ وَالْحَقُّ بِهِمْ يَقُولُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿يَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَالِمْةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ عَالِمَةَ آلِ إِبْرَاهِيمَ وَهُمْ يَسْتَحْجِدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ كَذِبٌ﴾. وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْبَةٍ مِمَّنْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَنَجٍ مُّجُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾.

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة، إلا من رحمه الله من عباده المؤمنين، فإنه إذا أصابته شدة بعد نعمة، حصل له بأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل، وكفر وجحود لماضي الحال، كأنه لم ير خيراً، ولم يَرَجَ بعد تلك فرجاً. وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة «لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي» أي: يقول: ما بقي ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء، «إِنَّهُ لَنَجٍ مُّجُورٌ» أي: فرح بما في يده، بطرف فخور على غيره. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: في الشدائد والمكاره، «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أي: في الرخاء والعاقبة، «أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ» أي: بما يصيبهم من الضراء، «وَأَجْرٌ كَبِيرٌ» بما أسلفوه في زمن الرخاء، كما جاء في الحديث: «والذي نفسي بيده، لا يصيب المؤمن هم ولا غم، ولا نصب ولا وصب، ولا حزن حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله عنه بها من خطاياهم»، وفي الصحيحين: «والذي نفسي بيده، لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن»، وهكذا قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِآلِهَةٍ وَتَوَّصُوا بِالنَّبِيِّينَ﴾ [سورة العصر]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَلِيمٌ ﴿١﴾ إِذَا سَأَلَ الذُّرُّ جُرُوعًا ﴿٢﴾ وَإِذَا سَأَلَ الْمَخِرُّ مَوْتًا ﴿٣﴾ إِلَّا الصَّالِحِينَ ﴿٤﴾﴾ الآية [المعارج: ١٩ - ٢٢].

﴿فَلَمَّا تَرَأَى بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَاقٍ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُزِّلُ أَفْقَادًا قُلْ فَأَنَّا نَسُورُ سُبُرَ مَقَرِّبَتِنَا وَأَنذَرْنَا مَنِ اسْتَفْتَحْنَا مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ يَعْلَمُ اللَّهُ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿٣﴾﴾.

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ، عما كان يتعنن به المشركون، فيما كانوا يقولونه عن الرسول - كما أخبر تعالى عنهم -: ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْشَىٰ فِي الْأَمْثَلِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُهُ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرٌ ﴿١﴾ أَوْ يُنْفَخُ إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ يَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَكَانَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّشْهُورًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ٧، ٨]. فأمر الله تعالى رسوله، صلوات الله تعالى وسلامه عليه، وأرشده إلى ألا يضيق بذلك منهم صدره، ولا يبهينه ذلك ولا يثنيه عن دعائهم إلى الله ﷻ آتاء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّكُمْ يَتَّبِعُ صَدْرُكُمْ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٢﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٣﴾﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩]، وقال ههنا: ﴿فَلَمَّا تَرَأَى بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَاقٍ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا﴾ أي: لقولهم ذلك، فإنما أنت نذير، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك، فإنهم كذبوا وأودوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله ﷻ. ثم بين تعالى إعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله، ولا بعشر سور من مثله، ولا بسورة من مثله؛ لأن كلام

الرب لا يشبهه كلام المخلوقين، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات، وذاته لا يشبهها شيء، تعالى وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو ولا رب سواه. ثم قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أي: فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتهموهم إليه، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند الله، متضمن علمه وأمره ونهيه، ﴿وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾. **﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نَوْفَ إِلَهُمُ أَقْمَلُهَا فِيهَا وَهُوَ فِيهَا لَا يَخْشَى﴾** (١٥) **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَنَحْبِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** (١٦).

قال العوفي، عن ابن عباس، في هذه الآية: إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا، وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً، يقول: من عمل صالحاً التماس الدنيا، صوماً أو صلاة أو تهجداً بالليل، لا يعمل إلا التماس الدنيا، يقول الله: أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعمل التماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين. وهكذا روي عن مجاهد، والضحاك، وغير واحد. وقال أنس بن مالك، والحسن: نزلت في اليهود والنصارى. وقال مجاهد وغيره: نزلت في أهل الرياء. وقال قتادة: من كانت الدنيا همه وسدومه وطليته ونيته، جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء. وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة. وقد ورد في الحديث المرفوع نحو من هذا. وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَالَةَ عَمَلًا لَمْ يَهْدِهَا لِمَنْ يُرِيدُ نَرُودُهَا لَكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَذْمُورًا﴾ (١٧) **﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾** (١٨) **﴿كُلًّا نُمِيزُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَمَلِهِ رَبُّكَ وَمَا كَانَ عَمَلُ رَبِّكَ عَظُومًا﴾** (١٩) **﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾** (٢٠) [الإسراء: ١٨ - ٢١]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (٢١) [الشورى: ٢٠].

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتَرٍ مِنْ رَبِّهِ. وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ بَيْنِهِ. كَتَبْتُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ. وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ. مِنَ الْأَحْزَابِ فَآلَتُهُ مَوْعِدُهُ. فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٢).

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده، من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جُمعاء، هل تحسبون فيها من جدعاء؟». وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار، عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم، وحَرَّثْتُ عليهم ما أحللت لهم». وفي المسند والسنن: «كل مولود يولد على هذه الملة، حتى يُعَرَّبَ عنه لسانه» الحديث، فالؤمن باق على هذه الفطرة. وقوله: ﴿وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ أي: وجاءه شاهد من الله، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء، من الشرائع المطهرة المُكَمَّلَةُ المعظمة المُخْتَمَتَةُ بشريعة محمد، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. ولهذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو العالية، والضحاك، وإبراهيم النخعي، والسدي، وغير واحد في قوله تعالى: ﴿وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ إنه جبريل عليه السلام. وعن علي، والحسن، وقتادة: هو محمد ﷺ. وكلاهما قريب في المعنى؛ لأن كلا من جبريل ومحمد، صلوات الله عليهما، بلغ رسالة الله تعالى، فجبريل إلى محمد، ومحمد إلى الأمة. وقيل: هو علي. وهو ضعيف لا يثبت له قائل، والأول والثاني هو الحق؛ وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشرعة من حيث الجملة، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة، والفطرة تصدقها وتؤمن بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتَرٍ مِنْ رَبِّهِ. وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ وهو القرآن، بلغه جبريل إلى النبي محمد ﷺ، وبلغه النبي محمد إلى أمته.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ بَيْنِهِ. كَتَبْتُ مُوسَى﴾ أي: ومن قبل هذا القرآن كتاب موسى، وهو التوراة، ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي: أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً لهم، وقدوة يقتدون بها، ورحمة من الله بهم. فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾. ثم قال تعالى متوعداً لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ. مِنَ الْأَحْزَابِ فَآلَتُهُ مَوْعِدُهُ﴾ أي: ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركهم: أهل الكتاب وغيرهم، من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم، ممن بلغه القرآن، كما قال تعالى: ﴿لَا تُؤْذِكُمْ بِهِ. وَمَنْ يُلْغُ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ. مِنَ الْأَحْزَابِ فَآلَتُهُ مَوْعِدُهُ﴾. وفي صحيح مسلم، من حديث شعبة، عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار».

وقال أيوب السخيتاني، عن سعيد بن جبير قال: كنت لا أسمع بحديث عن رسول الله ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه - أو قال: تصديقه - في القرآن، فبلغني أن رسول الله ﷺ قال: «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، ولا يهودي ولا نصراني، فلا يؤمن بي إلا دخل النار». فجعلت أقول: أين مصداقه في كتاب الله؟ قال: «وقلها سمعت عن رسول الله ﷺ إلا وجدت له تصديقاً في القرآن، حتى وجدت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ، مِنَ الْأَحْزَابِ فَإِنَّهُ يَكُفِّرُ بِنَفْسِهِ﴾»، قال: «من الملل كلها».

قوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي رَيْبٍ مِّنْهُ إِنَّهُ لَمَعْنٌ مِّنْ ذِيكُ﴾ أي: القرآن حق من الله، لا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى: ﴿الْأَلِفِ﴾ ﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْمَالِكِينَ﴾ [السجدة: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿الْأَلِفِ﴾ ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢]. وقوله: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ قُلُوبٌ أَكْثَرُ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ فَاتَمِعُوا إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبا: ٢٠].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الذين يصدّون عن سبيل الله ويغوونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون] ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَعِّفُ لَهُمُ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَظِيرُونَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [لا جرم أنتم في الآخرة هم الأسخريون].

يبين تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق؛ من الملائكة، والرسل، والأنبياء، وسائر البشر والجان، كما قال الإمام أحمد: حدثنا بهز وعفان قالا: أخبرنا همام، حدثنا قتادة، عن صفوان بن مخزوم قال: كنت أخذاً بيد ابن عمر، إذ عرض له رجل قال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ﷻ يذني المؤمن، فيضع عليه كتفه، ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: إني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم. ثم يعطى كتاب حسنته، وأما الكفار والمنافقون فيقول: ﴿الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾. أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين، من حديث قتادة به. وقوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْتَوِجُونَ عِجَابًا﴾ أي: يردون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله ﷻ ويجنبوهم الجنة، ﴿وَيَعْتَوِجُونَ عِجَابًا﴾ أي: ويريدون أن يكون طريقهم عوجاً غير معتدلة، ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها. ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: بل كانوا تحت قهره وغلبته، وفي قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة، ولكن ﴿يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وفي الصحيحين: «إن الله ليُعْلِي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَضَعُ لَهُمُ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَظِيرُونَ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [النحل: ٨٨]؛ ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه، وعلى كل نهي ارتكبه؛ ولهذا كان أصح الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة.

قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: خسروا أنفسهم لأنهم دخلوا ناراً حامية، فهم معذبون فيها لا يفتر عنهم من عذابها طرفه عين، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. و ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: ذهب عنهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من دون الله من الأنداد والأصنام، فلم تُجد عنهم شيئاً، بل ضرّتهم كل الضرر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خِبرَ النَّاسُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ لَمْ يَدْعُوا بِآلِهَتِهِمْ كُفْرًا﴾ [الاحقاف: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [كلاً سيكفرون بعبادتهم ويكفرون عنهم ضداً] [مریم: ٨١، ٨٢]، وقال الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَوَأْتَكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ [النسكوت: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَفْتُمْ فِيهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]؛ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسارهم ودمارهم؛ ولهذا قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنْتُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾. يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة؛ لأنهم استبدلوا بالدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنان

بحميم آن، وعن شرب الرحيق المختوم، بسُموم وحميم، وظلٌّ من يحموم، وعن الجور العين بطعام من غُسلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن ورؤيته، بغضب الديان وعقوبته، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْصِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فأمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولاً وفعلًا، من الإتيان بالطاعات وترك المنكرات، وبهذا ورثوا الجنات، المشتملة على الغرف العليات، والسرر المصفوفات، والقطوف الدانيات، والفرش المرتفعات، والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والمأكُل المشتتهات، والمشارب المستلذات، والنظر إلى خالق الأرض والسماوات، وهم في ذلك خالدون، لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون، وينامون ولا يتغطون، ولا يصبغون لا يتمشطون، إن هو إلا رُشْح يسك يعرفون. ثم ضرب الله تعالى مثل الكافرين والمؤمنين، فقال: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: الذين وصفهم أولاً بالشقاء والمؤمنين السعداء، فأولئك كالأعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع. فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا، وفي الآخرة لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجة، فلا يسمع ما ينتفع به، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّاسْمِعَهُمْ وَرَأَوْا أَسْمِعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال: ٢٣]، وأما المؤمن ففطن ذكي لبيب، بصير بالحق، يميز بينه وبين الباطل، فيتبع الخير ويترك الشر، سميع للحجة، يفرق بينها وبين الشبهة، فلا يروج عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تعتبرون وتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الحشر: ٢٠] وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿٢٧﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٨﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢٩﴾﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٣٠﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿٣١﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٣٢﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿٣٣﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر: ١٩-٢٤].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذْ يَأْتِيهِمْ يُفْسِدُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَِّّي خَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٣٦﴾﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا تَرَبَّلَ إِلَّا بَشَرًا نَشِئْنَا وَمَا تَرَبَّلَ إِلَّا اللَّهُ إِنَّكُمْ تُعْلَمُونَ أَنَّهُ يُفْسِدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ كَذِبٌ ﴿٣٨﴾﴾.

يخبر تعالى عن نوح، عليه السلام، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام أنه قال لقومه: ﴿إِنِّي خَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي إن استمررتم على ما أنتم عليه غُذِبكم الله عذاباً أليماً مُوجعاً شاقاً في الدار الآخرة. ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾، والملاهم: السادة والكبراء من الكافرين منهم: ﴿مَا تَرَبَّلَ إِلَّا بَشَرًا نَشِئْنَا﴾ أي: لست بملك، ولكنك بشر، فكيف أوحى إليك من دوننا؟ ثم ما نراك اتبعك إلا أراذلنا كالباعة والحاقة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تَرَوٍّ منهم ولا فكرة ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا تَرَبَّلَ إِلَّا اللَّهُ إِنَّكُمْ تُعْلَمُونَ أَنَّهُ يُفْسِدُونَ﴾ في أول بادي الرأي، ﴿وَمَا رَأَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق ولا خلق، ولا رزق ولا حال، لَمَّا دخلتم في دينكم هذا، ﴿بَلْ تَقُولُونَ كَذِبٌ﴾ أي: فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة، والسعادة في الدار الآخرة إذا صرتم إليها. هذا اعتراض الكافرين على نوح، عليه السلام، وأتباعه، وذلك دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق زُذالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح، وسواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يابونه هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء. ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفتهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي هُمْ يُنذَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف: ٢٣]، ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ، قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل. وقولهم: «بادي الرأي» ليس بمذمة ولا عيب؛ لأن الحق إذا وضع لا يبقى للتروي ولا للفكر مجال، بل لا بد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء، ولا يفكر ويتزوي ههنا إلا عيبي أو غبي، والرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إنما جاؤوا بأمر جلي واضح. وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كُتُوبٌ، غير أبي بكر، فإنه لم يُنْعَلْ» أي: ما تردد ولا تروى لأنه رأى أمراً جلياً عظيماً واضحاً، فبادر إليه وسارع. وقولهم: ﴿وَمَا رَأَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ هم لا يرون ذلك؛ لأنهم غُني عن

الحق، لا يسمعون ولا يبصرون، بل هم في ريبهم يترددون، في ظلمات الجهل يعمهون، وهم الأفاكون الكاذبون، الأقلون الأرذلون، وفي الآخرة هم الأخسرون.

﴿قَالَ يَبْقَرُونَ آيَاتِي إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَتْرُوقٍ مِنْ رَبِّي وَآيَاتِي رَحْمَةً مِنْ عِبَادِي فَمَيِّتْ عَلَيْكَ أَنْزَلْنَاهَا وَأَنْشَدْنَا كَثِيرُونَ ۝﴾

يقول تعالى مخبراً عن نوح ما رد على قومه في ذلك: ﴿آيَاتِي إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَتْرُوقٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي: على يقين وأمر جلي، ونبوة صادقة، وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم، ﴿فَمَيِّتْ عَلَيْكَ﴾ أي: خفيت عليكم، فلم تهتدوا إليها، ولا عرفتم قدرها، بل بادرتم إلى تكذيبها وردها، ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ أي: نفضيكم بقبولها وأنتم لها كارهون.

﴿وَيَتَقَرَّبُونَ لَا أَشْتَكُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أُجِرَىٰ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُثْلِفُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنْ أَنْزَلْنَا قَوْمًا يَهْتَلِكُونَ ۝ وَيَتَقَرَّبُونَ مَنْ يَصْرِفُ مِنْ اللَّهِ إِنْ كَلَّمْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝﴾

يقول لقومه: لا أسألكم على نصحي لكم مالاً؛ أجره أخذها منكم، إنما أبتغي الأجر من الله ﷻ، ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه، احتشاماً ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلساً خاصاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُؤُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقَدُوسِ وَالْمُشْيِ﴾ [الأنعام: ٥٢]، ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقَدُوسِ وَالْمُشْيِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَقْدِرُ عَلَيْهِمْ عَيْنُكَ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيُتْلَوْا أَهْوَاؤَهُمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالْمُتَكِبِينَ ۝﴾ [الأنعام: ٥٣].

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَوِيَّ عَنِتُّمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَيْنَ الظَّالِمِينَ ۝﴾

يخبرهم أنه رسول من الله، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، بإذن الله له في ذلك، ولا يسألهم على ذلك أجراً، بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضيع، فمن استجاب له فقد نجا. ويخبرهم أنه لا يقدر على التصرف في خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بملك من الملائكة، بل بشر مرسل، مؤيد بالمعجزات. ولا أقول عن هؤلاء الذين تحقروهم وتزدرونهم: إنه ليس لهم عند الله ثواب على إيمانهم، الله أعلم بما في أنفسهم، فإن كانوا مؤمنين باطناً، كما هو الظاهر من حالهم، فلهم جزاء الحسنی، ولو قطع لهم أحد بشر بعد ما آمنوا، لكان ظالماً قاتلاً ما لا علم له به.

﴿قَالُوا يَتَّبِعُونَ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْتَرَتْ جِدَلَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَدْعَانَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَا بِأَيْكُمُ يَوْمَ اللَّهِ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُتَّبِعِينَ ۝ وَلَا يَفْعَلُكَ نَصِيحٌ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَصْحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُؤْيِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه، والبلاء موكل بالمنطق: ﴿قَالُوا يَتَّبِعُونَ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْتَرَتْ جِدَلَنَا﴾ أي: حاججتنا فأكثر من ذلك، ونحن لا نتبعك ﴿فَأَيْنَا بِمَا تَدْعَانَا﴾ أي: من النعمة والعذاب، ادع علينا بما شئت، فليأتنا ما تدعو به، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ قال إنما بأيكم يَوْمَ اللَّهِ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُتَّبِعِينَ ﴿إِنْ شَاءَ﴾ أي: إنما الذي يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذي لا يعجزه شيء، ﴿وَلَا يَفْعَلُكَ نَصِيحٌ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَصْحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُؤْيِيَكُمْ﴾ أي: أي شيء يُجدي عليكم إبلاغي لكم وإنذاري إياكم ونصحي، إن كان الله يريد إغواءكم ودماركم، ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: هو مالك أزمة الأمور، والمتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور، له الخلق وله الأمر، وهو المبدئ المعيد، مالك الدنيا والآخرة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْ قُلْ إِنْ اقْرَأْتُمْ فَقُلْ إِجْرَىٰ وَأَنَا بِرَبِّهِمْ وَمَا تُجْرَمُونَ ۝﴾

هذا كلام معترض في وسط هذه القصة، مؤكداً لها ومقرر بشأنها. يقول تعالى لمحمد ﷺ: أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون: اقترى هذا وافعله من عنده ﴿قُلْ إِنْ اقْرَأْتُمْ فَقُلْ إِجْرَىٰ﴾ أي: فإنم ذلك علي، ﴿وَأَنَا بِرَبِّهِمْ وَمَا تُجْرَمُونَ﴾ أي: ليس ذلك مفتعلاً، ولا مفترى، لأنني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه.

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْ نُوْحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَهِشْ يَمَّا كَانُوا يَقُولُونَ ۝ وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ وَاعْنِيتْنَا وَوَحْيَنَا وَلَا تَخْطِئْ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُجْرَمُونَ ۝ وَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرْ عَلَىٰ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ سَخِرُوا مِنَّا فَنَا سَخِرْ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝ فَسَوَّاهُمْ مَلَأُوا مِنْ بَابِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ۝﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نقمة الله بهم وعذابه لهم، فدعا عليهم نوح دعوته التي قال الله تعالى مخبراً عنه أنه قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِبَابًا﴾ [نوح: ٢٦]، ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَلَكُوتٌ فَانصُرْ﴾ [القصص: ١٠]، فعند ذلك أوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنْتُمْ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾، فلا تحزن عليهم ولا يهْمُك أمرهم. ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ يعني:

السفينة ﴿يَأْتِيْنَا﴾ أي: بمرأى منا، ﴿وَوَحْيَنَا﴾ أي: وتعليمنا لك ماذا تصنع، ﴿وَلَا تُخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ﴾. فقال بعض السلف: أمره الله تعالى أن يغرز الخشب ويقطعه ويبيسه، فكان ذلك في مائة سنة، ونجّرها في مائة سنة أخرى، وقيل: في أربعين سنة، فالله أعلم. وذكر محمد بن إسحاق عن الثوراة: أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعاً وعرضها خمسين ذراعاً. وأن يطلي باطنها وظاهرها بالقار، وأن يجعل لها جُجُؤاً أزور يشق الماء. وقال قتادة: كان طولها ثلاثمائة ذراع، في عرض خمسين. وعن الحسن: طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلاثمائة ذراع. وعنه مع ابن عباس: طولها ألف ومائتا ذراع، في عرض ستمائة. وقيل طولها ألفا ذراع، وعرضها مائة ذراع، فالله أعلم. قالوا كلهم: وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعاً، ثلاث طبقات، كل طبقة عشرة أذرع، فالسفلى للدواب والوحوش، والوسطى للإنس، والعليا للطيور. وكان بابها في عرضها، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير أثراً غريباً، من حديث علي بن زيد بن جُدعان، عن يوسف بن مهران، عن عبد الله بن عباس؛ أنه قال: قال الحواريون ليعسى ابن مريم: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها. قال: فانطلق بهم حتى أتى إلى كُثيب من تراب، فأخذ كُفّاً من ذلك التراب بكفه، قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا كعب حام بن نوح. قال: وضرب الكُثيب بعصاه، قال: قم بإذن الله، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه، قد شاب. قال له عيسى، عليه السلام: هكذا هلك؟ قال: لا. ولكنني مت وأنا شاب، ولكنني ظننت أنها الساعة، فمن ثمّ شبت. قال: حدثنا عن سفينة نوح؟ قال: إن طولها ألف ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات، فطبقة فيها الدواب والوحش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير، فلما كثر أرواث الدواب، أوحى الله ﷻ إلى نوح، عليه السلام، أن اغمز ذنب الفيل، فغمزه، فوقع منه خنزير وخنزيرة، فأقبلا على الروث، فلما وقع الفأر بخرّز السفينة يقرضه وحبالها، أوحى إلى نوح؛ أن اضرب بين عيني الأسد، فخرج من منخره سُور وسنورة، فأقبلا على الفأر. فقال له عيسى، عليه السلام: كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر، فوجد جيفة فوقع عليها، فدعا عليه بالخوف، فذلك لا يألّف البيوت قال: ثم بعث الحمامة، فجاءت بورق زيتون بمنقارها، وطين برجليها، فعلم أن البلاد قد غرقت. قال: فطوّقها الخضرة التي في عنقها، ودعا لها أن تكون في أنس وأمان، فمن ثمّ تألف البيوت. قال: فقالوا: يا رسول الله، ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا؟ قال: كيف يتبعكم من لا رزق له؟ قال: فقال له: عد بإذن الله، فعاد تراباً.

وقوله: ﴿وَصَخَّ الْفُتُكُ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أي: يَطْغَرُونَ به ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق، ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وعيد شديد، وتهديد أكيد، ﴿مَنْ يَأْتِيْهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: يهينه في الدنيا، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائم مستمر أبداً.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

هذه مُواعدة من الله تعالى لنوح، عليه السلام، إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة، والهَيَّان الذي لا يُقْلَع ولا يُفْتَر، بل هو كما قال تعالى: ﴿فَقَنَعْنَا آبُوبَ السَّمَاءَ بِمَا تُوَمِّرُ ۖ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَفَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدِيرٍ ۚ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَرْجِ ۖ وَدُشِرَ ۚ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفْرًا﴾ [الزمر: ١١-١٤]. وأما قوله: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾، فعن ابن عباس: التنور: وجه الأرض، أي: صارت الأرض عيوناً تغور، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار، صارت تغور ماء، وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف. وعن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: التنور: فُلُقُ الصبح، وتنوير الفجر، وهو ضياؤه وإشراقه. والأول أظهر. وقال مجاهد والشعبي: كان هذا التنور بالكوفة، وعن ابن عباس: عين بالهند. وعن قتادة: عين بالجزيرة، يقال لها: عين الورد. وهذه أقوال غريبة. فحينئذٍ أمر الله نوحاً، عليه السلام، أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين - من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل: وغيرها من النباتات - اثنين: ذكراً وأنثى، فقيل: كان أول من أدخل من الطيور الدرة، وآخر من أدخل من الحيوانات الحمار، فدخل إليّس متعلقاً بذنبه، فدخل بيده، وجعل يريد أن ينهض فيقله إليّس وهو متعلق بذنبه، فجعل يقول له نوح: مالك؟ ويحك. ادخل. فينهض ولا يقدر، فقال: ادخل وإن كان إليّس معك فدخل في السفينة. وذكر أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود أنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد، حتى ألقى عليه الحمى. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث، حدثني الليث، حدثني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين، قال أصحابه: وكيف يطمئن - أو: تطمئن - المواشي

ومعها الأسد؟ فسلط الله عليه الحمى، فكانت أول حُمى نزلت الأرض، ثم شكوا الفأرة فقالوا: الفُورِسقة تفسد علينا طعمانا ومتاعنا. فأوحى الله إلى الأسد، فعض، فخرجت الهرة منه، فتخبأت الفأرة منها.

وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أي: «واحمل فيها أهلك، وهم أهل بيته وقربته» إلا من سبق عليه القول منهم، ممن لم يؤمن بالله، فكان منهم ابنه «يام» الذي انزل وحده، وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله. وقوله: ﴿وَمَنْ ءَامَنُ﴾ أي: من قومك، ﴿وَمَنْ ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: نذر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم. وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفساً. وقيل: كانوا عشرة. وقيل: إنما كانوا نوح وبنوه الثلاثة سام، وحام، ويافث، وكنائيه الأربع نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام. وقيل: بل امرأة نوح كانت معهم في السفينة، وهذا فيه نظر، بل الظاهر أنها هلكت؛ لأنها كانت على دين قومها، فأصابها ما أصابهم، كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قومها، والله أعلم وأحكم.

﴿وَقَالَ أَتَكُفِّرُونَ﴾ أي: «تأتونكم بغير الله بحريها ومُرْسِنها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَكَانَ فِي مَسَارِلِ يَتَكَبَّرُ فِيهَا مَلَكٌ مِّنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ لَا يُكَلِّمُ الْكَافِرِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ سَتَأَوَىٰ إِلَىٰ جِبَلٍ يَّصْطَلِي مِنْ أَلَمَاءٍ قَالُوا لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّجَعَهُ رَبُّهُ وَمَا يَنتَهُمَا أَلْمُوحُ فَكَانَ مِنَ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٣﴾﴾.

يقول تعالى إخباراً عن نوح، عليه السلام، أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة: ﴿أَتَكُفِّرُونَ﴾ أي: «تأتونكم بغير الله بحريها ومُرْسِنها» أي: باسم الله يكون جزئها على وجه الماء، وباسم الله يكون منتهى سيرها، وهو رُسُوها. وقرأ أبو رجاء القطادي: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مُجْرِيهَا وَمُرْسِيهَا﴾. وقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَوَتْ أَرَادَ أَن يهْبِطَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾﴾ [المومن: ٢٨، ٢٩]؛ ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور: عند الركوب على السفينة وعلى الدابة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ الْفُلْكَ وَالْأَنْتَحِرَ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُسْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤]، وجاءت السنة بالحث على ذلك، والندب إليه، كما سيأتي في سورة «الزخرف»، إن شاء الله وبه الثقة. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوي، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي - وحدثنا زكريا بن يحيى الساجي، حدثنا محمد بن موسى الحرشي - قالوا: حدثنا عبد الحميد بن الحسن الهاللي، عن نهشل بن سعيد، عن الضحاك، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا: بسم الله الملك، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِّيَمِينِهِ سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧]»، ﴿يَسِرُّهُ اللَّهُ بِحَرِيهَا وَمُرْسِنها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ذكر أنه غفور رحيم، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِن تَابٍ مِّنْ رَبِّكَ لَشِئِدُ الْوَقَابِ﴾ [العد: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات التي يقرن فيها بين انتقامه ورحمته.

وقوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أي: السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذي قد طبّق جميع الأرض، حتى طفت على رؤوس الجبال، وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعاً، وقيل: بشمانين ميلاً، وهذه السفينة على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كنفه وعنايته، وحراسته وامتنانه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَّا مَلَأَ الْيَمَّ حَمَلَكُم فِي الْيَابِسَةِ ﴿١١﴾ لِنَبْلُوَكُمْ لَكُمْ نَذِيرًا وَفِيهَا أُنزِلَ الرِّيحُ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ١١، ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْجِ وَنُحْرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ وَلَقَدْ تَنَبَّأُنَا بِمَا هَذَا قَوْلُ رَبِّكَ ﴿١٥﴾﴾ [الفرق: ١٣ - ١٥]. وقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ أَنْتُمْ وَكَانَ فِي مَسَارِلِ يَتَكَبَّرُ فِيهَا مَلَكٌ مِّنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ﴾ هذا هو الابن الرابع، واسمه «يام»، وكان كافراً، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يفرق مثل ما يفرق الكافرون، ﴿قَالَ سَتَأَوَىٰ إِلَىٰ جِبَلٍ يَّصْطَلِي مِنْ أَلَمَاءٍ﴾. وقيل: إنه اتخذ له مركباً من رُجاج، وهذا من الإسرائيليات، والله أعلم بصحته. والذي نص عليه القرآن أنه قال: ﴿سَتَأَوَىٰ إِلَىٰ جِبَلٍ يَّصْطَلِي مِنْ أَلَمَاءٍ﴾، اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجّاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح، عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّجَعَهُ رَبُّهُ﴾ أي: ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله. وقيل: إن عاصماً بمعنى معصوم، كما يقال: «طاعم وكاس»، بمعنى مطعموم ومكسور، ﴿وَمَا يَنتَهُمَا أَلْمُوحُ فَكَانَ مِنَ الْمُنْذَرِينَ﴾.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَيْ مَاءَكَ وَنَسَخْنَا آتِلِي وَغِيصَ الْمَاءِ وَفُوحَ الْأَمْرِ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾﴾.

يخبر تعالى أنه لما غرق أهل الأرض إلا أصحاب السفينة، أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تفلع عن المطر، ﴿وَيَصِرَ السَّفِينَةُ﴾ أي: شرع في النقص، ﴿وَيُفَقِّ الْأَثَرُ﴾ أي: فرغ من أهل الأرض قاطبة، ممن كفر بالله، لم يبق منهم دينار، ﴿وَأَسْتَوَتْ﴾ السفينة بمن فيها ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾، قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة، تشامت الجبال يومئذ من الغرق وتناولت، وتواضع هو الله ﷻ، فلم يغرق، وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام. وقال قتادة: استوت عليه شهراً حتى نزلوا منها، قال قتادة: قد أبقي الله سفينة نوح، عليه السلام، على الجودي من أرض الجزيرة عبدة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة، وكمن من سفينة قد كانت بعدها فهلك، وصارت رماداً. وقال الضحاك: الجودي: جبل بالموصل، وقال بعضهم: هو الطور. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن رافع، حدثنا محمد بن عبيد، عن توبة بن سالم قال: رأيت زب بن حبيش يصلي في الزاوية حين يدخل من أبواب كندة على يمينك، فسألتك لكثير الصلاة ههنا يوم الجمعة! قال: بلغني أن سفينة نوح أرسّت من ههنا. وقال علباء بن أحمد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً، معهم أهلهم، وإنهم كانوا في السفينة مائة وخمسين يوماً، وإن الله وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوماً، ثم وجهها الله إلى الجودي فاستقرت عليه، فبعث نوح الغراب ليأتيه بخبر الأرض، فذهب فوق على الجوف فأبطأ عليه فيبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون، ولطخت رجليها بالطين، فعرف نوح، عليه السلام، أن الماء قد نضب، فهبط إلى أسفل الجودي، فابتنى قرية وسماها ثمانين، فأصبحوا ذات يوم وقد تبللت ألسنتهم على ثمانين لغة، إحداهما اللسان العربي. فكان بعضهم لا يفقه كلام بعض، وكان نوح عليه السلام يُعَبِّرُ عنهم. وقال كعب الأحبار: إن السفينة طافت ما بين المشرق والمغرب قبل أن تستقر على الجودي. وقال قتادة وغيره: ركبوها في عاشر شهر رجب فساووا مائة وخمسين واستقرت بهم على الجودي شهراً، وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم. وقد ورد نحو هذا في حديث مرفوع رواه ابن جرير. وأنهم صاموا يومهم ذاك، فإله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو جعفر، حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدي، عن أبيه حبيب بن عبد الله، عن شبيب، عن أبي هريرة قال: مر النبي ﷺ بأناس من اليهود، وقد صاموا يوم عاشوراء، فقال: ما هذا الصوم؟ قالوا: هذا اليوم الذي نجى الله موسى وبني إسرائيل من الغرق، وغرق فيه فرعون، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي، فصامه نوح وموسى، عليهما السلام، شكر الله ﷻ. فقال النبي ﷺ: «أنا أحق بموسى، وأحق بصوم هذا اليوم». فصام، وقال لأصحابه: «من كان أصبح منكم صائماً فليتم صومه، ومن كان أصاب من غداه أهله، فليتم بقية يومه». وهذا حديث غريب من هذا الوجه، ولبعضه شاهد في الصحيح.

وقوله: ﴿رَبِّكَ بَعْدَ الْتَقْوَى الظَّالِمِينَ﴾ أي: هلاكاً وخساراً لهم، وبعداً من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم، فلم يبق لهم بقية. وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير والحرير أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيريهما، من حديث موسى بن يعقوب الزمعي، عن قائد - مولى عبيد الله بن أبي رافع - أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخبره: أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته: أن النبي ﷺ قال: «لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي»، قال رسول الله ﷺ: «كان نوح، عليه السلام، مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، يعني وغرس مائة سنة الشجر، فعظمت وذهبت كل مذهب، ثم قطعها، ثم جعلها سفينة ويمرون عليه ويسخرون منه ويقولون: تعمل سفينة في البر، فكيف تجري؟ قال: سوف تعلمون. فلما فرغ وتبع الماء وصار في السكك خشيته أم الصبي عليه، وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت إلى الجبل، حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه، فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل، فلما بلغ رقبته رفعت يديها فغرقا، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي». وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وقد روي عن كعب الأحبار، ومجاهد بن جبر قصة هذا الصبي وأمه بنحو من هذا.

﴿وَأَدَّيْ نُوْحٌ رَبِّكَ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي أَتِي مِنْ أَهْلِ دَانَ وَوَدَّكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٥) قَالَ يَسْتَوْحِ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَحْتَسِبَنَّ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ. عِلْمٌ إِنَّهُ اعْطَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (١٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَهْلِكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ. عِلْمٌ وَلَا تَغَيِّرْ لِي وَتَرَحَّمْ أَكُنْ مِنَ الْعَاصِينَ (١٧)﴾.

هذا سؤال استعلام وكشف من نوح، عليه السلام، عن حال ولده الذي غرق، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي أَتِي مِنْ أَهْلِ دَانَ﴾ أي: وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟ ﴿قَالَ يَسْتَوْحِ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الذين وعدت إنجاءهم؛ لأنني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ لعمرو:

٤٨، فكان هذا الولد ممن سَبَقَ عليه القول بالفرق لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحاً، عليه السلام. وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زُئبة، ويحكى القول أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد، والحسن، وعُبيد بن عُمر، وأبي جعفر الباقر، وابن جرير، واحتج بعضهم بقوله: ﴿إِنَّهُ عَلٌّ غَيْرُ مَلِيحٍ﴾، ويقول: ﴿فَعَاثَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، فممن قاله الحسن البصري، احتج بهاتين الآيتين. وبعضهم يقول: كان ابن امرأته. وهذا يحتمل أن يكون أراد ما أراد الحسن، أو أراد أنه نسب إليه مجازاً، لكونه كان ربيباً عنده، فالله أعلم. وقال ابن عباس، وغير واحد من السلف: ما زنت امرأة نبي قط، قال: وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الذين وعدتك نجاتهم. وقول ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه، فإن الله سبحانه أغبر من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة، ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبي ﷺ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ يَنْكُرُوا لَهُمْ لَوْلَا عَصِيئَةُ نَجْدٍ لَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٤]، وإلى قوله: ﴿إِذْ تَلَقَوْا رَسُولَكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١-١٥].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة وغيره، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية. قال عكرمة: في بعض الحروف: ﴿إِنَّهُ عَمِلَ عَمَلًا غَيْرَ صَالِحٍ﴾، والخيانة تكون على غير باب. وقد ورد في الحديث أن رسول الله قرأ بذلك، فقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ﴾، وسمعت يقول: ﴿يَكِيدَانِ الَّذِينَ أَتَرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ولا يبالي ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَوَّورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٢٥]. وقال أحمد أيضاً: حدثنا وكيع، حدثنا هارون النحوي، عن ثابت البناني، عن شهر بن حوشب، عن أم سلمة أن رسول الله قرأها: ﴿إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ﴾. أعاده أحمد أيضاً في مسنده. أم سلمة هي أم المؤمنين، والظاهر - والله أعلم - أنها أسماء بنت يزيد، فإنها تكنى بذلك أيضاً. وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا الثوري وابن عيينة، عن موسى بن أبي عائشة، عن سليمان بن قفة قال: سمعت ابن عباس - سئل - وهو إلى جنب الكعبة - عن قول الله: ﴿فَعَاثَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، قال: أما وإنه لم يكن بالزنا، ولكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنون، وكانت هذه تدل على الأضياف. ثم قرأ: ﴿إِنَّهُ عَلٌّ غَيْرُ مَلِيحٍ﴾. قال ابن عيينة: وأخبرني عمار الدُهْنِي أنه سأل سعيد بن جببر عن ذلك فقال: كان ابن نوح، إن الله لا يكذب! قال تعالى: ﴿وَتَأْتِي نُوحٌ ابْنَهُ﴾، قال: وقال بعض العلماء: ما فجرت امرأة نبي قط. وكذا روي عن مجاهد أيضاً، وعكرمة، والضحاك، وميمون بن مهران وثابت بن الحجاج، وهو اختيار أبي جعفر بن جرير، وهو الصواب الذي لا شك فيه. وقوله:

﴿قِيلَ يَتُوجُّ أَحِبُّطُ يَسْلَمُ مِنَّا وَرَكَعَتْ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمِّهِ مَنَ مَلَكٌ وَأَمَّا سَنَنَهُمْ ثُمَّ بَشَّهْرُ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

يخبر تعالى عما قيل لنوح، عليه السلام، حين أرست السفينة على الجودي، من السلام عليه، وعلى من معه من المؤمنين، وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة، كما قال محمد بن كعب: دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وكذلك في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة. وقال محمد بن إسحاق: ولما أراد أن يكف الطوفان أرسل ريحاً على وجه الأرض، فسكن الماء، وانسدت ينابيع الأرض الغمر الأكبر وأبواب السماء، يقول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَتَّخِذُ الْبَلْبِيُّ مَاءً لَا يَكُنْ مَاءً قَلْبًا وَخُصِيَ الْمَاءُ وَخُصِيَ الْأَمْرُ وَأَسْوَرَتْ عَلَى الْمَوْتِ وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾ [٢٢] فجعل الماء ينقص ويغيب، ويذُبر، وكان استواء الفلك على الجودي، فيما يزعم أهل التوراة، في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه، وفي أول يوم من الشهر العاشر، رُئي رؤوس الجبال. فلما مضى بعد ذلك أربعون يوماً، فتح نوح كوة الفلك التي ركب فيها، ثم أرسل الغراب لينظر له ما صنع الماء، فلم يرجع إليه. فأرسل الحمامة فرجعت إليه، لم تجد لرجليها موضعاً، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها. ثم مضى سبعة أيام، ثم أرسلها لينظر له، فرجعت حين أمست، وفي فيها وَرْقُ زيتون، فعلم نوح أن الماء قد قَلَّ عن وجه الأرض. ثم مكث سبعة أيام، فلم ترجع، فعلم نوح أن الأرض قد بَرَزَتْ، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة، ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنتين، برز وجه الأرض، وظهر اليبس، وكشف نوح غطاء الفلك ورأى وجه الأرض، وفي الشهر الثاني من سنة اثنتين، في سبع وعشرين ليلة منه ﴿قِيلَ يَتُوجُّ أَحِبُّطُ يَسْلَمُ مِنَّا وَرَكَعَتْ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمِّهِ مَنَ مَلَكٌ﴾ إلى آخر الآية.

﴿وَلَكِنْ مِنْ آيَاتِهِ الْقَبْرِ يُجِيبُ إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُ أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٢٣].

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: هذه القصة وأشباهها ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ يعني: من أخبار الغيوب السالفة نوحيتها إليك على وجهها وجليتها، كأنك شاهدها، ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ أي: نعلمك بها وحياً منا إليك، ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أي: لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها، حتى يقول من يكذبك: إنك تعلمتها منه، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك، وأذاهم لك، فإننا سننصرك ونحوطك بعنايتنا، ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، كما فعلنا بإخوانك المرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْرِذُتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ٥٢﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كُتُبُنَا لِعِبَادِنَا الرُّسُلَ ٥٣﴾ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ٥٤﴾ وَلَقَدْ جَاءَكَ لَهُمُ الْغَالِيُونَ ٥٥﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ٥٦﴾.

﴿وَإِلَّا عَادُوا أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقْتُوِرْ عَبْدُ اللَّهِ مَا لَكُمْ يَنْ إِلَهُ غَيْرُهُ إِنْ أَشْرَ إِلَّا مُفْرَوَاتٌ ٥٧﴾ يَقْتُوِرُ لَا أَشْكُرُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَقُولُونَ ٥٨﴾ وَيَقْتُوِرُ اسْتَقْبَلُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَرَزَقَكُمْ قُوًى إِلَى قَوْمِكُمْ وَلَا تَنْوَلُوا عُجْرِيكُمْ ٥٩﴾.

يقول تعالى: ولقد أرسلنا، ﴿وَإِلَّا عَادُوا أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أمراً لهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ناهياً لهم عن عبادة الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجره على هذا النصح والبلاغ من الله، إنما ينبغي ثوابه على ذلك وأجره من الله الذي فطره ﴿أَفَلَا تَقُولُونَ﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجره. ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلون من الأعمال السابقة، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه، وسهل عليه أمره وحفظ عليه شأنه وقوته؛ ولهذا قال: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [نوح: ١١]، وكما جاء في الحديث: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب».

﴿قَالُوا يَتَّبِعُونَ مَا جَشَّتْ بِهِنَّ أُمَّهَاتُهُنَّ عَنْ قَوْلِكِ وَإِنَّا لَمُتَّبِعُونَ ٥٦﴾ إِنَّا نَقُولُ إِلَّا أَفْرَاقُكَ بَعْضُ مَا لَهِنَا يَسُوءُ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ إِلَهَ إِلَهِكُمْ إِلَهُ وَآلِهَتُهُمْ إِلَهُ بَرِيءٌ مِنَّا فَشَرِكُوا ٥٧﴾ مِن دُونِهِ فَكَيْدُونِي جِيئًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ٥٨﴾ إِنِّي نَزَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبَّكَ مَا مِن دَائِي إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِأَصَابِعِنَا إِنْ رُبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٩﴾.

يخبر تعالى إخباراً عن قوم هود أنهم قالوا لنبيهم: ﴿مَا جَشَّتْ بِهِنَّ أُمَّهَاتُهُنَّ﴾ أي: بحجة ولا دالة ولا برهان على ما تدعيه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِ آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكِ﴾ أي: بمجرد قولك: «اتركوهم» نتركهم، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكِ بِمُتَّبِعِينَ﴾ أي: بمصدقين، ﴿إِنَّا نَقُولُ إِلَّا أَفْرَاقُكَ بَعْضُ مَا لَهِنَا يَسُوءُ﴾، يقولون: ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ إِلَهَ إِلَهِكُمْ إِلَهُ وَآلِهَتُهُمْ إِلَهُ بَرِيءٌ مِنَّا فَشَرِكُوا﴾ أي أنتم أيضاً ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنَّا فَشَرِكُوا﴾ من دُونِهِ، يقول: إني بريء من جميع الأنداد والأصنام، ﴿فَكَيْدُونِي جِيئًا﴾ أي: أنتم وآلهتكم إن كانت حقاً، فلذروها تكيدني، ﴿ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾ أي: طرفة عين واحدة.

وقوله: ﴿إِنِّي نَزَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبَّكَ مَا مِن دَائِي إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِأَصَابِعِنَا﴾ أي: هي تحت قهره وسلطانه، وهو الحاكم العادل الذي لا يجوز في حكمه، فإنه على صراط مستقيم. قال الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو، عن أبيع بن عبد الكلاعي أنه قال في قوله تعالى: ﴿مَا مِن دَائِي إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِأَصَابِعِنَا إِنْ رُبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، قال: فيأخذ بنواصي عبادته فيلقى المؤمن حتى يكون له أشفق من الوالد لولده، ويقال للكافر: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَافِرُ﴾ [الانفطار: ٦]. وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، بل هي جَمَاد لا تسمع ولا تبصر، ولا ثوالي ولا تُعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له، الذي بيده الملك، وله التصرف، وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَنَسَخْتُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَقْرُونَهُ شَيْئًا إِنْ رُبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ ٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَثَرُنَا جَنَحْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ رَاحَتِي وَمَا كُنَّا بِمُعْجِزَةٍ مِنْ عَذَابِ غَلِيظٍ ٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَعَلُوا بَنَاتِي رِجَالًا وَعَصَا رُسُلَهُمْ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْآخِرَةِ آلَاءُ كَذَّبُوا رَجَهُمْ آلَاءُ بَعْدَ آلَاءٍ قَوْمٌ هُودٌ ٦٠﴾.

يقول لهم رسولهم هود: فإن تولوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له، فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها، ﴿وَنَسَخْتُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يعيدونه وحده لا يشركون به شيئاً ولا يبالي بكم: فإنكم لا تضرونه بكفركم بل يعود وبآل ذلك عليكم، ﴿إِنْ رُبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ﴾ أي: شاهد وحافظ لأقوال عبادته وأفعالهم ويجزيهم عليها إن

يَنْهَمُ خِيفَةً. قال السدي: لما بعث الله الملائكة لقوم لوط، أقبلت تمشي في صور رجال شبان، حتى نزلوا على إبراهيم فتضيئوه، فلما رآهم إبراهيم أجلمهم، ﴿فَرَأَى إِلَهُ الْآلَمِينَ﴾، فذبحه ثم شواه في الرضف. فهو الحنيد حين شواه وأتاهم به ففقد معهم، وقامت سارة تخدمهم، فذلك حين يقول: «وامراته قائمة وهو جالس» في قراءة ابن مسعود: «فلما قرب به إليهم قال ألا تأكلون قالوا: يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاماً إلا بشئ. قال فإن لهذا ثمناً. قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله، وتحمده على آخره فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال: حق لهذا أن يتخذه ربه خليلاً»، ﴿فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُمْ لَا يَفْعَلُونَ بِنَبَرِهِمْ﴾ يقول: فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم، وأوجس منهم خيفة، فلما نظرت إليه سارة أنه قد أكرمهم وقامت هي تخدمهم، ضحكت وقالت: عجباً لأضيافنا هؤلاء، إنا نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم، وهم لا يأكلون طعامنا. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا نصر بن علي، حدثنا نوح بن قيس، عن عثمان بن مخصن في ضيف إبراهيم قال: كانوا أربعة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ورفائيل. قال نوح بن قيس: فزعم نوح بن أبي شداد أنهم لما دخلوا على إبراهيم، ف قرب إليهم العجل، مسح جبريل بجناحه، فقام يدرج حتى لحق بأمه، وأم العجل في الدار.

وقوله تعالى إخباراً عن الملائكة: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ وَامْرَأَتُكَ قَائِمَةٌ فَصَبَّحْتَ﴾ أي قالوا: لا تخف منا، إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم. فضحكت سارة استبشاراً منها بهلاكهم، لكثرة فسادهم، وغلظ كفرهم وعنادهم، فلهاذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس. وقال قتادة: ضحكت امرأته وعجبت من أن قوماً يأتيهم العذاب وهم في غفلة فضحكت من ذلك وعجبت فبشرناها بإسحاق. وقوله: ﴿وَمِنْ وَرَاءِهِمْ يَمْشِي يَعْقُوبُ﴾: قال العوفي، عن ابن عباس: «فَصَبَّحْتَ» أي: حاضت. وقول محمد بن قيس: إنها إنما ضحكت من أنها ظنت أنهم يريدون أن يعملوا كما يعمل قوم لوط، وقول الكلبي إنها إنما ضحكت لما رأت من الروح بإبراهيم - ضعيفان جداً، وإن كان ابن جرير قد رواهما بسنده إليهما، فلا يلتفت إلى ذلك، والله أعلم. وقال وهب بن ميثبه: إنما ضحكت لما بشرت بإسحاق. وهذا مخالف لهذا السياق، فإن البشارة صريحة مرتبة على ضحكها. ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ يَعْقُوبُ﴾ أي: بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل؛ فإن يعقوب ولد إسحاق، كما قال في آية البقرة: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ ابْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَكُم مَّسْلُوبُونَ﴾ [البقرة: 133] ومن ههنا استدل من استدل بهذه الآية، على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق؛ لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، فيكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده. ووعد الله حق لا خُلف فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعين أن يكون هو إسماعيل وهذا من أحسن الاستدلال وأصح وأبين، والله الحمد. ﴿قَالَتْ يَتُومَلَّى إِلَيَّْ وَاَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾: حكى قولها في هذه الآية، كما حكى فعلها في الآية الأخرى، فلانها ﴿قَالَتْ يَتُومَلَّى إِلَيَّْ وَاَنَا عَجُوزٌ﴾، وفي الذاريات: ﴿فَأَقْبَلَ كُرْأَتَهُمْ فِي صَرٍّ فَصَبَّحَتْ وَبِجْهٍ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: 24]، كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب. ﴿قَالُوا أَمَّحِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ؟﴾ أي: قالت الملائكة لها، لا تعجبي من أمر الله، فإنه إذا أراد شيئاً أن يقول له: «كن» فيكون، فلا تعجبي من هذا، وإن كنت عجوزاً كبيرة عقيماً، وبعلك وهو زوجها الخليل عليه السلام، وإن كان شيخاً كبيراً، فإن الله على ما يشاء قدير. ﴿رَحِمَتْ اللَّهُ وَرَكْنَهُ عَلَيْكَ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَبِيدٌ تَجِدُ﴾ أي: هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله محمود، ممجد في صفاته وذاته؛ ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا: قد علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ قال: قولوا: «اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد».

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُ فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [٧٤] إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ أَوْهٌ مُثَبِّتٌ ﴿٧٥﴾ بِإِبْرَاهِيمَ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أُمَّرُؤَكَ وَإِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ عَزِيزٌ مُؤْتِرٌ ﴿٧٦﴾.

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم، عليه السلام، أنه لما ذهب عنه الروح، وهو ما أوجس من الملائكة خيفة، حين لم يأكلوا، وبشروه بعد ذلك بالولد وطابت نفسه، وأخبروه بهلاك قوم لوط، أخذ يقول كما قال عنه سعيد بن جبير في الآية، قال: لما جاءه جبريل ومن معه، قالوا له: «إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين» [العنكبوت: 31]، قال لهم إبراهيم: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً؟ قالوا: لا. قال: ثلاثون؟ قالوا: لا. حتى بلغ خمسة قالوا: لا. قال: أرايتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا. فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ بِمَن فِينَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ﴾ الآية

[العنكبوت: ٣٢]، فسكت عنهم واطمأنت نفسه. وقال قتادة وغيره قريباً من هذا - زاد ابن إسحاق: أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد؟ قالوا: لا. قال: فإن كان فيها لوط يدفع به عنهم العذاب، قالوا: ﴿تَحْتِ أَعْلَمَ بَيْنَ فِتْيَانٍ لَّنَحْسَبُهُ أَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِيَاتِ﴾ [العنكبوت: ٣٢]. وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (٧٥)، مدح إبراهيم بهذه الصفات الجميلة، وقد تقدم تفسيرها في سورة براءة. وقوله تعالى: ﴿يَا زُرَّاهُمْ أَغْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُمْ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَّبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنَايِبُهُمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ (٧٦) أي:

إنه قد نفذ فيهم القضاء، وحَقَّتْ عليهم الكلمة بالهلاك، وحلول البأس الذي لا يُرد عن القوم المجرمين. ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَ يَوْمَ وَصَّاهُ يَوْمَ ذَرْبًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (٧٧) رَبَّاهُ قَوْمَهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَنَ قُلْ كَأَنَّهُ لَمْ يَعْمَلُونَ الشَّيْءَ قَالَ يَتَفَوَّرُ هَؤُلَاءُ بِبَاقِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي صَبِيحِ الْيَوْمِ الْآلِيسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ (٧٩).

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعدما أعلموا إبراهيم بهلاكهم، وفارقوه وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة. فانطلقوا من عنده، فاتوا لوطاً، عليه السلام، وهو - على ما قيل - في أرض له يعمرها، وقيل: بل كان في منزله، ووردوا عليه وهم في أجمل صورة تكون، على هيئة شبان حسان الوجوه، ابتلاء من الله واختباراً، وله الحكمة والحجة البالغة، فنزلوا عليه فساء شأنهم وضاعت نفسه بسببهم، وخشي إن لم يُصِفْهم أن يُصِفْهم أحد من قومه، فبإلهام بسوء، ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾. قال ابن عباس ومجاهد وقاتدة ومحمد بن إسحاق، وغير واحد من الأئمة: شديد بلاؤه وذلك أنه علم أنه سيدافع قومه عنهم، ويشق عليه ذلك. وذكر قتادة أنهم أتوه وهو في أرض له يعمل فيها، فتضيّفوه فاستحيا منهم، فانطلق أمامهم وقال لهم في أثناء الطريق، كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه: إنه والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء. ثم مشى قليلاً، ثم أعاد ذلك عليهم، حتى كرره أربع مرات قال قتادة: وقد كانوا أمروا ألا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبههم بذلك. وقال السدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط، فبلغوا نهر سدوم نصف النهار، ولقوا بنت لوط تستقي من الماء لأهلها وكانت له ابنتان اسم الكبرى رثيا والصغرى زغرثا، فقالوا لها: يا جارية، هل من منزل؟ فقالت لهم: مكانكم حتى آتيكم، وقرت عليهم من قومها، فأتت أباهما فقالت: يا أبتاه، أدرك فتياناً على باب المدينة، ما رأيت وجوه قوم هي أحسن منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحهم، وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلاً، فقالوا: خل عنا فلنُضيف الرجال. فجاء بهم، فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته، فخرجت امرأته فأخبرت قومها فقالت: إن في بيت لوط رجلاً ما رأيت مثل وجوههم قط، فجاءوا يهرعون إليه.

وقوله: ﴿يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يسرعون ويهرولون في مشيتهم ويجمرون من فرحهم بذلك، وروي في هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي وقاتدة وشمر بن عطية وسفيان بن عيينة. وقوله: ﴿وَنَ قُلْ كَأَنَّهُ لَمْ يَعْمَلُونَ الشَّيْءَ﴾ أي: لم يزل هذا من سجيته إلى وقت آخر حتى أخذوا وهم على ذلك الحال. وقوله: ﴿قَالَ يَتَفَوَّرُ هَؤُلَاءُ بِبَاقِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾: يرشدهم إلى نساءهم، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد للرجال والنساء، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة، كما قال لهم في الآية الأخرى: ﴿اتَّقُوا الذُّكْرَانَ مِنَ الْمَنَائِلِ﴾ (٨٥) وَتَذَرُونَهُ مَا خَلَقَ لَكُمْ زُكْرَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (٨٦) [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]، وقوله في الآية الأخرى: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْمَنَائِلِ﴾ (٨٧) [الحجر: ٧١، ٧٢]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿هَؤُلَاءُ بِبَاقِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ كَثُرَ فَعِيلِينَ ﴿لَمَّا كَانَتْ لَيْلٌ سَكَنَ لَيْسَ سَكَنِهِمْ يَمْتَهُونَ﴾ (٨٨) [الحجر: ٧١، ٧٢]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿هَؤُلَاءُ بِبَاقِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قال مجاهد: لم يكن بناته، ولكن كن من أمته، وكل نبي أبو أمته. وكذا روي عن قتادة، وغير واحد. وقال ابن جرير: أمرهم أن يتزوجوا النساء، لم يعرض عليهم سفاحاً. وقال سعيد بن جبيرة: يعني نساءهم، هن بناته، وهو أب لهم، ويقال في بعض القراءات: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم﴾. وكذا روي عن الربيع بن أنس، وقاتدة، والسدي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم. وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي صَبِيحِ يَوْمٍ﴾ أي: اقبلوا ما أكرمكم به من الاقتصاد على نساءكم، ﴿الْآلِيسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أي: ليس منكم رجل فيه خير، يقبل ما أمره به، ويترك ما نهاه عنه؟ ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: إنك تعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهين، ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي: ليس لنا غرض إلا في الذكور، وأنت تعلم ذلك، فأبي حاجة في تكرار القول علينا في ذلك؟ قال السدي: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾: إنما نريد الرجال.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَاةٌ إِلَى رَبِّي سَدِيدٌ﴾ (٨٩) قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رَمَلْنَاكَ فَاذْهَبْ بِأَهْلِكَ يَقِطْعُ مِنَ الْآلِ وَلَا يَلْتَمِسْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانَكَ إِنَّهُمْ مُصِيبُكَ مَا أَهْلَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ الْآلِيسَ الشُّعْبُ بِرَبِّهِ﴾ (٩٠).

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط، عليه السلام: إن لوطاً توعدهم بقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَاةٌ إِلَى رَبِّي سَدِيدٌ﴾ أي: لكنك

نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل من العذاب والنقمة وإحلال البأس بكم بنفسي وعشيرتي، ولهذا ورد في الحديث، من طريق محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله على لوط، لقد كان يأوي إلى ركن شديد - يعني الله ﷻ - فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه». وروي من حديث الزهري عن أبي سلمة وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة مرفوعاً ومن حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة به، ومن حديث ابن لهيعة عن أبي يونس سمع أبا هريرة به وأرسله الحسن وقتادة. فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه، وبشروه أنهم لا وصول لهم إليه ولا خلوص، ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُشِدُ رَبِّكَ لَ نَبْعِلُوا إِلَيْكَ﴾، وأمره أن يسري بأهله من آخر الليل، وأن يتبع أديارهم، أي: يكون ساقية لأهله، ﴿وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَمَدٌ﴾ أي: إذا سمعت ما نزل بهم، ولا تهولتكم تلك الأصوات المزعجة، ولكن استمروا ذاهبين كما أنتم. ﴿إِلَّا أَمْرًا نَكَّ﴾: قال الأكثرون: هو استثناء من المثبت، وهو قوله: ﴿فَأَنزِلْنَا بِأَهْلِكَ﴾، تقديره: ﴿إِلَّا أَمْرًا نَكَّ﴾. وكذلك قرأها ابن مسعود ونصب هؤلاء امرأتك؛ لأنه من مثبت، فوجب نصبه عندهم. وقال آخرون من القراء والنحاة: هو استثناء من قوله: ﴿وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَمَدٌ﴾، فجوزوا الرفع والنصب، وذكر هؤلاء وغيرهم من الإسرائيليات أنها خرجت معهم، وأنها لما سمعت الوحية التفتت وقالت: واقوما! فجاءها حجر من السماء فقتلها. ثم تزوا له هلاك قومه تبشيراً له؛ لأنه قال لهم: «أهلكوهم الساعة»، فقالوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، هذا وقوم لوط وقوف على الباب وعكوف قد جاؤوا يهرعون إليه من كل جانب، ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه، وهم لا يقبلون منه، بل يتوعدونه، فعند ذلك خرج عليهم جبريل، عليه السلام، فضرب وجوههم بجناحه، فطمس أعينهم، فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَوْا عَنْ صَيْبِهِمْ فَمَسَّتْ أُعْيُنُهُمْ فُؤَادُوا عَلَى وَجْهِهِمْ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَوٍ ﴿٢٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابَ وَثْقٍ﴾ (الفر: ٣٧ - ٣٩).

وقال معمر، عن قتادة، عن حذيفة بن اليمان قال: كان إبراهيم، عليه السلام، يأتي قوم لوط، فيقول: أنهاركم الله أن تعترضوا لعقوبته؟ فلم يطيعوه، حتى إذا بلغ الكتاب أجله لمحل عذابهم وسطوات الرب بهم قال: انتهت الملائكة إلى لوط وهو يعمل في أرض له، فدعاهم إلى الضيافة فقالوا: إنا ضيوفك الليلة، وكان الله قد عهد إلى جبريل ألا يعذبهم حتى يشهد عليهم لوط ثلاث شهادات، فلما توجه بهم لوط إلى الضيافة، ذكر ما يعمل قومه من الشر والدواهي العظام، فمشى معهم ساعة، ثم التفت إليهم فقال: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض شرأ منهم. أين أذهب بكم؟ إلى قومي وهم من أشر خلق الله، فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال: احفظوها، هذه واحدة. ثم مشى معهم ساعة، فلما توسط القرية وأشفق عليهم واستحيا منهم قال: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض أشر منهم، إن قومي أشر خلق الله. فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال: احفظوا، هاتان اثنتان، فلما انتهى إلى باب الدار بكى حياء منهم وشفقة عليهم فقال: إن قومي أشر من خلق الله! أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض أهل قرية شرأ منهم. فقال جبريل للملائكة: احفظوا، هذه ثلاث، قد حق العذاب. فلما دخلوا ذهب عجز السوء فصعدت فلوحت بثوبها، فأتاها الفساق يهرعون سراعاً، قالوا: ما عندك؟ قالت: ضيف لوطاً قوم، ما رأيت قط أحسن وجوهاً منهم، ولا أطيّب ريحاً منهم. فهرعوا يسارعون إلى الباب، فعالجه لوط على الباب، فدافعه طويلاً، هو داخل وهم خارج، يناشدتهم الله ويقول: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فقام الملك فلزّ بالباب - يقول: فسد - واستأذن جبريل في عقوبتهم، فأذن الله له، فقام في الصورة التي يكون فيها في السماء، فنشر جناحه. ولجبريل جناحان، وعليه وشاح من درّ منظوم، وهو براق الثنايا، أجلى الجبين، ورأسه حُبْكُ حُبْكٍ مثل المرجان وهو اللؤلؤ، كأنه الثلج، ورجلاه إلى الخضرة. فقال: يا لوط: ﴿إِنَّا رُشِدُ رَبِّكَ لَ نَبْعِلُوا إِلَيْكَ﴾، امض يا لوط عن الباب ودعني وإياهم، فتنحى لوط عن الباب، فخرج إليهم، فنشر جناحه، فضرب به وجوههم ضربة شلخ أعينهم، فصاروا غُمياً لا يعرفون الطريق ولا يهتدون بيوتهم ثم أمر لوط فاحتمل بأهله في ليكته قال: ﴿فَأَنزِلْنَا بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ آيَاتِنَا﴾. وروي عن محمد بن كعب القرظي، وقتادة، والسدي نحو هذا.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰ سَائِلِهَا أَمْطَرًا عَلَيْهِهَا حِجَابًا رَّشِيدًا ﴿٢٩﴾﴾ شُرُوءًا عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا مِنْ مِّنَ الظَّالِمِينَ يَبْعِدُ ﴿٣٠﴾﴾. يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس، ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهِمَا﴾، وهي قريتهم العظيمة وهي سدوم ومعاملتها ﴿سَائِلِهَا﴾ كقوله: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٣١﴾ فَفَشَّنَا مَا غَشَّى ﴿٣٢﴾﴾ (النجم: ٥٣، ٥٤) أي: أمطرتنا عليها حجارة من «سجيل»، وهي بالفارسية: حجارة من طين، قاله ابن عباس وغيره. وقال بعضهم: أي من «سلك» وهو الحجر، و «كل» وهو الطين، وقد قال في الآية الأخرى: ﴿حِجَابًا مِّنَ طِينٍ﴾ (الذاريات: ٣٣) أي: مستحجرة قوية شديدة. وقال بعضهم: مشوية، وقال بعضهم: مطبوخة.

قوية صلبة، وقال البخاري: «سجبل»: الشديد الكبير. سجبل وسجين واحد، اللام والنون أختان، وقال تميم بن مقبل:

وَزَجَلَةٌ يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ ضَاحِيَةً ضَرْباً تَوَاصَّتْ بِهِ الْأَبْطَالُ يَسْجِينَا

وقوله: «تَضْرِبُونَ»: قال بعضهم: منصودة في السماء، أي: معدة لذلك. وقال آخرون: «تَضْرِبُونَ»: أي: يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم. وقوله: «شَوْنَةً» أي: مُعْلَمَةٌ مختومة، عليها أسماء أصحابها، كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه. وقال قتادة وعكرمة: «شَوْنَةً» أي: مُطَوَّقَةٌ، بها نَضَجٌ من حُمَرَى. وذكروا أنها نزلت على أهل البلد، وعلى المتفرقين في القرى مما حولها، فبينما أحدهم يكون عند الناس يتحدث، إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس، فدمره، فتنبهم الحجارة من سائر البلاد، حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد. وقال مجاهد: أخذ جبريل قوم لوط من سزجهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم، ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم أكفاهم وقال: وكان حملهم على خوافي جناحه الأيمن. قال: ولما قلبها كان أول ما سقط منها شذائنها. وقال قتادة: بلغنا أن جبريل أخذ بعروة القرية الوسطى، ثم ألوى بها إلى جو السماء، حتى سمع أهل السماء ضواغي كلابهم، ثم دمر بعضها على بعض، ثم أتبع شذاذ القوم سُخْرًا. قال: وذكر لنا أنهم كانوا أربع قرى، في كل قرية مائة ألف - وفي رواية: كانوا ثلاث قرى، الكبرى منها سدوم. قال: وبلغنا أن إبراهيم، عليه السلام، كان يشرف على سدوم، ويقول: سدوم، يوم، مآلك؟. وفي رواية عن قتادة وغيره: بلغنا أن جبريل، عليه السلام، لما أصبح نشر جناحه، فانتصف به أرضهم بما فيها من قُصُورها ودوابها وحجارتها وشجرها، وجميع ما فيها، فضمها في جناحه، فحواها وطواها في جوف جناحه، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا، حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب، وكانوا أربعة آلاف ألف، ثم قلبها، فأرسلها إلى الأرض منكوسة، ودمدم بعضها على بعض، فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها حجارة من سجبل. وقال محمد بن كعب القرظي: كانت قرى قوم لوط خمس قريات: «سدوم»، وهي العظمى، و«صعبة» و«صعوة» و«عشرة»، و«دوما»، احتملها جبريل بجناحه، ثم صعد بها، حتى إن أهل السماء الدنيا ليسمعون نايحة كلابها، وأصوات دجاجها، ثم كفأها على وجهها، ثم أتبعها الله بالحجارة، يقول الله تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَاقِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجْلٍ﴾، فأهلكها الله وما حولها من المؤنكات. وقال السدي: لما أصبح قوم لوط، نزل جبريل فاقطلع الأرض من سبع أرضين، فحملها حتى بلغ بها السماء، حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم، وأصوات ديوكهم، ثم قلبها فقتلهم، فذلك قوله: ﴿وَالْمُؤَنَكَتِ أَهْوَى﴾ ﴿٥٣﴾ [النجم: ٥٣]، ومن لم يمت حين سقط للأرض، أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة، ومن كان منهم شاذاً في الأرض يتبعهم في القرى، فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله، فذلك قوله ﷻ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي: في القرى حجارة من سجبل. هكذا قال السدي.

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ مِنَ الظَّالِمِينَ يَبِيرُ﴾ أي: وما هذه النعمة ممن تشبه بهم في ظلمهم، ببعد عنه. وقد ورد في الحديث المروي في السنن، عن ابن عباس مرفوعاً: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به». وذهب الإمام الشافعي في قول عنه وجماعة من العلماء إلى أن اللائط يقتل، سواء كان محصناً أو غير محصن، عملاً بهذا الحديث. وذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله إلى أنه يلقي من شاق، ويتبع بالحجارة، كما فعل الله بقوم لوط، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

﴿وَإِلَّا نَذِّرَ لَأَهْلِهِمْ شَيْئًا قَالِ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ عَذَابٌ يَوْمَ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى مدين - وهم قبيلة من العرب، كانوا يسكنون بين الحجاز والشام، قريباً من بلاد معان، في بلد يعرف بهم، يقال لها «مدين» فأرسل الله إليهم شعبياً، وكان من أشرفهم نسباً. ولهذا قال: ﴿أَهْلَاهُمْ شَيْئًا﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان ﴿إِنِّي أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ بِحَيْرٍ﴾ أي: في معيشتكم ورزقكم فأخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه بانتهاكم محارم الله، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ عَذَابٌ يَوْمَ تُحْشَرُونَ﴾ أي: في الدار الآخرة.

﴿وَيَنْقُورُ أَوَّلُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ يَنْقُورُ وَلَا تَنْقُصُوا الْكَيْلَ وَلَا تَنْقُصُوا الْأَنْزِلَ فِي الْأَرْضِ مُقْسِدِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ يَقِثُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٥٦﴾

ينهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين، ونهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق. وقوله: ﴿يَقِثُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ﴾: قال ابن عباس: رزق الله خير لكم. وقال الحسن: رزق الله خير لكم من بخسكم الناس. وقال الربيع بن أنس: وصية الله خير لكم. وقال مجاهد: طاعة الله خير

﴿قَالُوا بِشَيْعَبٍ مِّمْلُوكٍ أَنْ نَسْأَلَكَ مَا يَعْجُبُ آبَاءَنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْثَلِنَا مَا تَشْتَدُّ أَنْتَ عَلَيَّمُ الرَّشِيقِ﴾ ﴿١٨٧﴾ ﴿١٨٨﴾

﴿قَالَ يَقُولُ أَبُو بَكْرٍ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رُبِّي وَرَزَقْتِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَتَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ﴿١٨٨﴾

ومن هذا القبيل الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا سليمان بن بلال، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن عبد الملك بن سعيد بن سويد الأنصاري قال: سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولان: قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب، فأنأ أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عني تُنكره قلوبكم، وتفر منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم بعيد فأنأ أبعدكم منه». هذا إسناده صحيح، وقد أخرج مسلم بهذا السند حديث: «إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهم، افتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فليقل: اللهم، إني أسألك من فضلك». ومعناه - والله أعلم -: مهما بلغكم عني من خير فأنأ أولاكم به ومهما يكن من مكروه فأنأ أبعدكم منه، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلَأَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ﴾. وقال قتادة، عن عَزْرَةَ، عن الحسن العُزْري، عن يحيى بن الجزار، عن مسروق، أن امرأة جاءت ابن مسعود قالت: أتنتهي عن الواصلة؟ قال: نعم. فقالت المرأة: فاعله في بعض نسائك؟ فقال: ما حفظت إذا وصية العبد الصالح: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلَأَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ﴾. وقال عثمان بن أبي شيبة: حدثنا جرير، عن أبي سليمان العتبي قال:

كانت نجينا كتب عمر بن عبد العزيز فيها الأمر والنهي، فيكتب في آخرها: وما كانت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

﴿وَيَقُولُوا لَا يَحْمِلُنَا شِقَاقُ أَنْ يُصِيبَكُمْ بِئْسَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ لَبِئْسَ مَا يَفْعَلُونَ﴾ (٨٩) ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبَّ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (٩٠).

يقول لهم: ﴿وَيَقُولُوا لَا يَحْمِلُنَا شِقَاقُ﴾ أي: لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط من النعمة والعذاب. قال قتادة: ﴿وَيَقُولُوا لَا يَحْمِلُنَا شِقَاقُ﴾ يقول: لا يحملنكم فراقي. وقال السدي: عداوتي، على أن تتماذوا في الضلال والكفر، فيصيبكم من العذاب ما أصابهم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو محمد بن عوف، حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج، حدثنا ابن أبي غنينة، حدثني عبد الملك بن أبي سليمان، عن أبي ليلى الكندي قال: كنت مع مولاي أمسك دابته، وقد أحاط الناس بعثمان بن عفان؛ إذ أشرف علينا من داره فقال: ﴿وَيَقُولُوا لَا يَحْمِلُنَا شِقَاقُ أَنْ يُصِيبَكُمْ بِئْسَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾، يا قوم، لا تقتلونني، إنكم إن تقتلونني كنتم هكذا، وشبك بين أصابعه. وقوله: ﴿وَمَا قَوْمَ لُوطٍ لَبِئْسَ مَا يَفْعَلُونَ﴾، قيل: المراد في الزمان، كما قال قتادة في قوله: ﴿وَمَا قَوْمَ لُوطٍ لَبِئْسَ مَا يَفْعَلُونَ﴾ يعني: إنما أهلكوا بين أيديكم بالأمس، وقيل: في المكان، ويحتمل الأمران، ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾، أي: استغفروه من سالف الذنوب، وتوبوا فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة، ﴿إِنَّ رَبَّ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ أي: لمن تاب وأناب.

﴿قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَعَهُ كَيْدًا وَمَا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِيزٍ﴾ (٩١) ﴿قَالَ يَقُولُوا أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمْ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٩٢).

يقولون: ﴿يَشْعَبُ مَا نَفَعَهُ كَيْدًا وَمَا نَقُولُ﴾ أي: ما نفهم ولا نعقل كثيراً من قولك، وفي آذاننا وفر، ومن بيننا وبينك حجاب. ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾. قال سعيد بن جبير، والثوري: كان ضرير البصر. قال الثوري: وكان يقال له: خطيب الأنبياء. وقال السدي: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قال: أنت واحد. وقال أبو روق: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ يعنون: ذليلاً؛ لأن عشيرتك ليسوا على دينك، فانت ذليل ضعيف. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي: قومك وعشيرتك؛ لولا معزة قومك علينا لرجمناك، قيل: بالحجارة، وقيل: لسببتك، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِيزٍ﴾ أي: ليس لك عندنا معزة. ﴿قَالَ يَقُولُوا أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ يقول: أتركوني لأجل قومي، ولا تتركوني إعظماً لجانب الله أن تنالوا نبيه بمساءة. وقد اتخذتم جانب الله ﴿وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا﴾ أي: نبذتموه خلفكم، لا تطيعونه ولا تعظمونه، ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيك بها.

﴿وَيَقُولُوا أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَائِكُمْ إِنِّي عَجِلُّ سَوَاءٌ تَعْمَلُونَ مِّنْ بَيْنَ يَدَيْهِ عَذَابٌ مُّخْرِجٌ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ وَقِيتٌ (٩٣) وَلَكِنَّا جَاءَ أَمْرًا غَيَّتَا شُعْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْئَةَ فَاصْبِرُوا فِي دِينِهِمْ جَنِينٌ (٩٤) كَانَ لَرَبِّنَا فِيهَا أَلَا بُدًّا لِّمَنِينَ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٩٥).

لما ينس نبي الله شعيب من استجابة قومه له، قال: يا قوم، ﴿أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَائِكُمْ﴾ أي: على طريقتم، وهذا تهديد ووعد شديد، ﴿إِنِّي عَجِلُّ﴾، على طريقتي ومنهجي ﴿سَوَاءٌ تَعْمَلُونَ مِّنْ بَيْنَ يَدَيْهِ عَذَابٌ مُّخْرِجٌ﴾ أي: في الدار الآخرة، ﴿وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ أي: مني ومنكم، ﴿وَأَرْتَقُوا﴾ أي: انتظروا ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾. قال الله تعالى: ﴿لَكِنَّا جَاءَ أَمْرًا غَيَّتَا شُعْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْئَةَ فَاصْبِرُوا فِي دِينِهِمْ جَنِينٌ﴾، وقوله: ﴿جَنِينٌ﴾ أي: هامدين لا جراك بهم. وذكر ههنا أنهم أتتهم صيحة، وفي الأعراف رجفة، وفي الشعراء عذاب يوم الظلة، وهم أمة واحدة، اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها. وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه، ففي الأعراف لما قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٨]، ناسب أن يذكر هناك الرجفة، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها، وأرادوا إخراج نبيهم منها، وههنا لما أسأوا الأدب في مقالتهن على نبيهم ناسب ذكر الصيحة التي أسكنتهن وأخمدتهن، وفي الشعراء لما قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، قال: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وهذا من الأسرار الغريبة الدقيقة، والله الحمد والمنة كثيراً دائماً. وقوله: ﴿كَانَ لَرَبِّنَا فِيهَا أَلَا بُدًّا لِّمَنِينَ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾، وكانوا جيرانهم قريباً منهم في الدار، وشبيهاً بهم في الكفر وقطع الطريق، وكانوا عرباً شبيهاً بهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحِيَّ بِأَنبِيَائِنَا وَطُغْيَانِي ثِيْبٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتَوْهُ أَتَرَفِ فِرْعَوْنَ وَمَا أَتَرَفِ فِرْعَوْنَ رِيشِي ﴿٩٧﴾ بِقَدَمِ قَوْمِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَقْسُ الزُّورُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَيْتُمَا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَقْسُ الزُّورُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن إرساله موسى، عليه السلام، بآياته وبياناته وحججه ودلائله الباهرة القاطعة إلى فرعون لعنه الله، وهو ملك ديار مصر على أمة القبط، ﴿فَأَتَوْهُ أَتَرَفِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: مسلحه ومنهجه وطريقته في الغي والضلال، ﴿وَمَا أَتَرَفِ فِرْعَوْنَ رِيشِي﴾ أي: ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال، وكفر وعناد، وكما أنهم اتبعوه في الدنيا، وكان مقدّمهم ورئيسهم، كذلك هو مقدّمهم يوم القيامة إلى نار جهنم، فأوردهم إياها، وشربوا من حياض زداها، وله في ذلك الحظ الأوفر، من العذاب الأكبر، كما قال تعالى: ﴿فَمَعْنِ فِرْعَوْنَ الرُّشُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٠١﴾﴾ [الزمل: ١٦]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَ وَعَصَى ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ أَذْرَبَ يَتَرَفِ ﴿١٠٣﴾ فَخَسِرَ فَادَى ﴿١٠٤﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْكَافِرُ ﴿١٠٥﴾ فَلَعَنَهُ اللَّهُ كَلَّالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿١٠٦﴾﴾ [النساء: ٢١-٢٦]، وقال تعالى: ﴿بِقَدَمِ قَوْمِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَقْسُ الزُّورُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٨﴾﴾، وكذلك شأن المتبوعين يكونون مؤفرين في العذاب يوم المعاد، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الاعراف: ٣٨]، وقال تعالى إخباراً عن الكفرة أنهم يقولون في النار: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا سَادَتَا وَكَرَرْنَا فَأَصْلَحْنَا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ رَبَّنَا إِنَّا نَعْتَقِدُ مِنْكَ الْعَذَابَ وَالنَّهْمَ لَبًّا كَبِيرًا ﴿١٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا أبو الجهم، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «امرو القيس حامل لواء شعراء الجاهلية إلى النار».

وقوله: ﴿وَأَتَيْتُمَا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَقْسُ الزُّورُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ أي: أتبعناهم زيادة على ما جازيناهم من عذاب النار لعنة في هذه الحياة الدنيا، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَقْسُ الزُّورُ الْمَرْفُودُ﴾. قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة، فتلك لعنتان. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَقْسُ الزُّورُ الْمَرْفُودُ﴾ قال: لعنة الدنيا والآخرة، وكذا قال الضحاك، وقتادة، وهكذا قوله تعالى: ﴿وَمَعْنَتُهُمْ أَيْمَةً يَكْفُرُونَ إِلَىٰ النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يَصْرُونَ ﴿١٠١﴾ وَأَتَيْتُهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُورِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [القصص: ٤١، ٤٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَا تَرَىٰ يَوْمَ الْفَتْحِ عَذَابًا غَدَوًا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٩٩﴾﴾ [غافر: ٤٦].

﴿وَالَّذِينَ مِنْ آلِهَةٍ أَلْفَرَىٰ نَفْسُهُمْ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِدٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا ظَلَمْتُهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ غَيْرَ تَتَابَعٍ ﴿١٠٤﴾﴾.

لما ذكر تعالى خبر هؤلاء الأنبياء، وما جرى لهم مع أممهم، وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين قال: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ آلِهَةٍ أَلْفَرَىٰ﴾ أي: من أخبارها ﴿نَفْسُهُمْ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِدٌ﴾ أي: عامر، ﴿وَحَصِيدٌ﴾ أي: هالك دائر، ﴿وَمَا ظَلَمْتُهُمْ﴾ أي: إذ أهلكناهم، ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم، ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾ أي: أصنامهم وأوثانهم التي كانوا يعبدونها ويدعونها، ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ما نفعوهم ولا أنقذوهم لما جاء أمر الله بإهلاكهم، ﴿وَمَا زَادُهُمْ غَيْرَ تَتَابَعٍ﴾. قال مجاهد، وقتادة، وغيرهما: أي غير تخسير، وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة وعبادتهم إياها، فلهذا أصابهم ما أصابهم، وخسروا في الدنيا والآخرة.

﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ مِنْ ظِلْمَةٍ إِذْ أَخَذَهُ إِلَهٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾.

يقول تعالى: وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسولنا كذلك فعل بنظائرهم وأشباههم وأمثالهم، ﴿إِنْ أَخَذَهُ إِلَهٌ شَدِيدٌ﴾ وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ مِنْ ظِلْمَةٍ إِذْ أَخَذَهُ إِلَهٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمَعُ لَهُ الْكَافِرُ وَأَمْرُهُمْ يَوْمَ مَشْهُودٍ ﴿١٠٦﴾ وَمَا نُوَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجْلِ مَعْدُودٍ ﴿١٠٧﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَيَنْهَرُ شَرِقٌ وَسَمِيمٌ ﴿١٠٨﴾﴾.

يقول تعالى: إن في إهلاكنا الكافرين وإنجائنا المؤمنين ﴿لَآيَةٌ﴾ أي: عظة واعتباراً على صدق موعودنا في الآخرة، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٨١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ الْفَالِغِينَ ﴿١٢﴾ لَنَسْكُنَنَّكَ الْأَرْضَ مِنْ بَدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَكَانَ وَعِيدٌ ﴿١٤﴾﴾ [إسراء: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمَعُ لَهُ الْكَافِرُ﴾ أي: أولهم وآخرهم، فلا يبقى منهم أحد، كما قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ لَهُمْ أَحَدًا﴾ [الحجف: ٤٧]. ﴿وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ﴾ أي: يوم عظيم تحضره الملائكة كلهم، ويجتمع فيه الرسل جميعهم، وتحشر فيه الخلائق بأسرهم، من الإنس والجن والطيور

والوحوش والدواب، ويحكم فيهم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها. وقوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّددٍ﴾ أي: ما نؤخر إقامة يوم القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله وقضاؤه وقدره، في وجود أناس معدودين من ذرية آدم، وضرب مدة معينة إذا انقضت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم من ذرية آدم، أقام الله الساعة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّددٍ﴾ أي: لمدة مؤقتة لا يزداد عليها ولا ينقص منها، ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِآذِنَةٍ﴾، يقول: يوم يأتي هذا اليوم وهو يوم القيامة، لا يتكلم أحد يومئذ إلا بإذن الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُوذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بِلُقَائِهِمْ كَانُونَ﴾ في حديث الشفاعة الطويل: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم». وقوله: ﴿فَيَنْهَرُ شَقِيًّا وَرَحِيمًا﴾ أي: فمن أهل الجمع شقي ومنهم سعيد، كما قال: ﴿فَرِيقٌ فِي الْمَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٢٧]. وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا موسى بن حيان، حدثنا عبد الملك بن عمرو، حدثنا سليمان بن سفيان، حدثنا عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، عن عمر رضي الله عنه، قال: لما نزلت ﴿فَيَنْهَرُ شَقِيًّا وَرَحِيمًا﴾، سألت النبي ﷺ، قلت: يا رسول الله، علام نعمل؟ على شيء قد فرغ منه، أم على شيء لم يفرغ منه؟ فقال: «على شيء قد فرغ منه يا عمر وجرت به الأقلام، ولكن كل ميسر لما خلق له». ثم بين تعالى حال الأشقياء وحال السعداء، فقال:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنْزَلُونَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَخْلَوْنَ عَنْهَا وَلَا يَخْلُفُهُمْ وَلَا يَشْفَعُ لَهُمْ﴾ [النار: ١٠٦] خَلِيلِيكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾. يقول تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَشَقِيٌّ﴾، قال ابن عباس: الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر أي: تنفسهم زفير، وأخذهم النفس شهيق، لما هم فيه من العذاب، عياداً بالله من ذلك. ﴿خَلِيلِيكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾: قال الإمام أبو جعفر بن جرير: من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت: «هذا دائم دوام السموات والأرض»، وكذلك يقولون: هو باق ما اختلف الليل والنهار، وما سمر ابننا سمر، وما لآلات العفر بأذناها. يعنون بذلك كلمة: «أبداً»، فخطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم، فقال: ﴿خَلِيلِيكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾. قلت: ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض: الجنس؛ لأنه لا بد في عالم الآخرة من سموات وأرض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]؛ ولهذا قال الحسن البصري في قوله: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، قال: تبدل سماء غير هذه السماء، وأرض غير هذه الأرض، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن سفيان بن حسين، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قوله: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، قال: لكل جنة سماء وأرض. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما دامت الأرض أرضاً، والسماء سماءً.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ خَلِيلِيكَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء، على أقوال كثيرة، حكاهما الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه «زاد المسير»، وغيره من علماء التفسير، ونقل كثيراً منها الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله، في كتابه واختار هو ما نقله عن خالد بن معدان، والضحاك، وقتادة، وأبي سنان، ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن أيضاً: أن الاستثناء عائد على القصص من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبين والمؤمنين، حين يشفعون في أصحاب الكبائر، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين، فتخرج من النار من لم يعمل خيراً قط، وقال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله. كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك من حديث أنس، وجابر، وأبي سعيد، وأبي هريرة، وغيرهم من الصحابة، ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها. وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً في تفسير هذه الآية الكريمة. وقد روي في تفسيرها عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وابن عباس، وابن مسعود، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وجابر، وأبي سعيد، من الصحابة. وعن أبي مجلز، والشعبي، وغيرهما من التابعين. وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وإسحاق بن راهويه وغيرهما من الأئمة - أقوال غريبة. وورد حديث غريب في معجم الطبراني الكبير، عن أبي أمامة صُدِّي بن عجلان الباهلي، ولكن سنده ضعيف، والله أعلم. وقال قتادة: الله أعلم بشيئه. وقال السدي: هي منسوخة بقوله: ﴿خَلِيلِيكَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ٥٧].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُدُّوا فَيُجَنَّبُونَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَا غَيْرَ مَحْذُورٍ﴾ [النار: ١٠٧] يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُدُّوا﴾ وهم أتباع الرسل، ﴿فَيُجَنَّبُونَ﴾ أي: فمأواهم الجنة، ﴿خَلِيلِيكَ فِيهَا﴾ أي: ما كثر من مقيمين

فيها أبداً، ﴿مَا دَامَتِ السَّمَكُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾، معنى الاستثناء ههنا: أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم، ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائماً، ولهذا يلهمون التسييح والتحميد كما يلهمون النفس. وقال الضحاك، والحسن البصري: هي في حق عصاة الموحدين الذين كانوا في النار، ثم أخرجوا منها. وعقب ذلك بقوله: ﴿عَلَّاهُ غَيْرَ تَجَدُّوزٍ﴾ أي: غير مقطوع. قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية وغير واحد، لثلاث يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاعاً، أو لبساً، أو شيئاً، بل ختم له بالدوام وعدم الانقطاع. كما بين هنا أن عذاب أهل النار في النار دائماً مردود إلى مشيئته، وأنه بعدله وحكمته عذبهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ قَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [مود: ١٠٧]، كما قال: ﴿لَا يَسْتَلْ عَنَّا يَفْعَلْ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وهنا طيب القلوب وثبت المقصود بقوله: ﴿عَلَّاهُ غَيْرَ تَجَدُّوزٍ﴾. وقد جاء في الصحيحين: «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلّود فلا موت، ويا أهل النار، خلّود فلا موت». وفي الصحيحين أيضاً: «فيقال: يا أهل الجنة، إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهزموا أبداً، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعملوا فلا تأسوا أبداً».

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءُ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَسْتَدُّ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَوْسَىٰ ۖ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفَعِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكُنِي سَكَّ مِنْهُ مَرْسٍ ۖ وَإِنَّا لَنَّا لَيُؤْفِقُهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلُهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۖ﴾.

يقول تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءُ﴾ المشركون، أنه باطل وجهل وضلال، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل، أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات، وسيجزئهم الله على ذلك أتم الجزاء فيعذب كافهم عذاباً لا يعذب أحداً من العالمين، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة. قال سفيان الثوري، عن جابر الجعفي، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَوْسَىٰ﴾، قال: ما وعدوا فيه من خير أو شر. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص. ثم ذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب، فاختلف الناس فيه، فمن مؤمن به، ومن كافر به، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة، فلا يغيظك تكذيبهم لك، ولا يهمنك ذلك. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفَعِيَ بَيْنَهُمْ﴾: قال ابن جرير: لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم، لفعى الله بينهم. ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه، كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، فإنه قد قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكُنَّا لِرَآئِكُمْ وَاَعْلَىٰ مَسْئَىٰ ۖ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٢٩، ١٣٠]. ثم أخبر أن الكافرين في شك - مما جاءهم به الرسول - قوي، فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكُنِي سَكَّ مِنْهُ مَرْسٍ﴾. ثم أخبرنا تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم، ويجزيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فقال: ﴿وَإِنَّا لَنَّا لَيُؤْفِقُهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلُهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۖ﴾ أي: عليم بأعمالهم جميعها، جليلها وحقيقها، صغيرها وكبيرها. وفي هذه الآية قراءات كثيرة، ويرجع معناها إلى هذا الذي ذكرناه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَنَّا جَمِيعٌ أَلَدَيْنَا مَحْشُرُونَ ۖ﴾ [يس: ٣٢].

﴿فَأَنصَبْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْعُوا إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۖ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَنَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۖ﴾.

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد. ونهى عن الطغيان، وهو البغي، فإنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك. وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء. وقوله: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: لا تذهبوا. وقال العوفي، عن ابن عباس: هو الركوب إلى الشرك. وقال أبو العالية: لا ترضوا أعمالهم. وقال ابن جزي، عن ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا وهذا القول حسن، أي: لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتهم بباقي صنيعهم، ﴿فَتَنَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: ليس لكم من دونه من ولي يقدّمكم، ولا ناصر يخلصكم من عذابه.

﴿وَأَنزِلْ السَّلَوةَ طَرَفَ الْآثَارِ وَزُلْغَلًا مِّنَ الْبَلِّ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذَوِّبْنَ الشَّرَّاتِ ذَلِكَ ذِكْرُ لِلَّذِينَ ۖ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۖ﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَأَقْبِرَ الصَّلَاةَ طَرَفَ النَّهَارِ﴾ قال: يعني الصبح والمغرب وكذا قال الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال الحسن - في رواية - وقتادة، والضحاك، وغيرهم: هي الصبح والعصر. وقال مجاهد: هي الصبح في أول النهار، والظهر والعصر من آخره. وكذا قال محمد بن كعب القرظي، والضحاك في رواية عنه. وقوله: ﴿وَرُفِعَ مِنَ الْإِيلِ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغيرهم: يعني صلاة العشاء. وقال الحسن - في رواية ابن المبارك، عن مبارك بن فضالة، عنه: ﴿وَرُفِعَ مِنَ الْإِيلِ﴾ يعني: المغرب والعشاء، قال رسول الله ﷺ: «هَمَّا رُفِعَتَا اللَّيْلُ: الْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ». وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب، وقتادة، والضحاك: إنها صلاة المغرب والعشاء. وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء؛ فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها. وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ في حق الأمة، وثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه أيضاً، في قول، والله أعلم. وقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ الْأَشْيَاءَ﴾، يقول: إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال: كنت إذا سمعتُ من رسول الله ﷺ حديثاً نفعتني الله بما شاء أن ينفعني منه، وإذا حدثني عنه أحد استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، وحدثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يذنب ذنباً، فيتوضأ ويصلي ركعتين، إلا غفر له». وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان: أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله يتوضأ، وقال: «من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». وروى الإمام أحمد، وأبو جعفر بن جرير، من حديث أبي عقيل زُهْرَةَ بن مَعْبُدٍ أنه سمع الحارث مولى عثمان يقول: جلس عثمان يوماً وجلسنا معه، فجاءه المؤذن، فدعا عثمان بماء في إناء أظنه سيكون فيه قدر مَدٍّ فتوضأ، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا، ثم قال: «من توضأ وضوئي هذا، ثم قام فصلى صلاة الظهر، غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَلَاةِ الصُّبْحِ، ثم صلى العصر غفر له ما بينه وبين صلاة الظهر، ثم صلى المغرب غفر له ما بينه وبين صلاة العصر، ثم صلى العشاء غفر له ما بينه وبين صلاة المغرب، ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته، ثم إن قام فتوضأ وصلى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء، وهن الحسنات يذهبن السيئات».

وفي الصحيح عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ بَيَابَ أَحَدِكُمْ نَهراً غَمراً يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئاً؟» قالوا: لا، يا رسول الله. قال: «وكذلك الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الذنوب والخطايا». وقال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو الطاهر وهارون بن سعيد قال: حدثنا ابن وهب، عن أبي صخر: أن عمر بن إسحاق مولى زائدة حدثه عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مُكْفَرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبْتَ الْكِبَائِرَ». وقال الإمام أحمد: حدثنا الحَكَمُ بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ضَمُضَمَ بن زُرْعَةَ، عن شُرَيْحِ بن عبيد، أن أبا رَهم السلمي كان يحدث: أن أبا أيوب الأنصاري حدثه أن النبي ﷺ كان يقول: «إِنَّ كُلَّ صَلَاةٍ تَحَطُّ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا مِنْ خَطِيئَةٍ». وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبي، عن ضَمُضَمَ بن زُرْعَةَ، عن شُرَيْحِ بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «جَعَلْتُ الصَّلَاةَ كَفَّارَاتٍ لِمَا بَيْنَهُنَّ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ الْأَشْيَاءَ﴾». وقال البخاري: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا يزيد بن زُرَيْعٍ، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي، عن ابن مسعود؛ أن رجلاً أصاب من امرأة قُبْلَةً، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿وَأَقْبِرَ الصَّلَاةَ طَرَفَ النَّهَارِ وَرُفِعَ مِنَ الْإِيلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ الْأَشْيَاءَ﴾، فقال الرجل: ألي هذا يا رسول الله؟ قال: «لجميع أمتي كلهم». هكذا رواه في كتاب الصلاة، وأخرجه في التفسير عن مُسَدَّدٍ، عن يزيد بن زُرَيْعٍ، بنحوه. ورواه مسلم، وأحمد، وأهل السنن إلا أبا داود، من طرق عن أبي عثمان النهدي، واسمه عبد الرحمن بن مُلٍّ، به.

وروى الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن جرير - وهذا لفظه - من طَرُقٍ: عن سِمَاك بن حرب: أنه سمع إبراهيم بن يزيد يُحَدِّثُ عَنْ عُلُقَمَةَ وَالْأَسْوَدِ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً فِي بَسْتَانٍ، فَفَعَلْتُ بِهَا كُلَّ شَيْءٍ، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَجَامِعْهَا، قَبَّلْتُهَا وَلَزِمْتُهَا، وَلَمْ أَفْعَلْ غَيْرَ ذَلِكَ، فَافْعَلْ بِي مَا شِئْتَ. فَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئاً، فَذَهَبَ الرَّجُلُ، فَقَالَ عُمَرُ: لَقَدْ سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ، لَوْ سَتَرَ عَلَى نَفْسِهِ. فَأَتْبَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَصَرَهُ ثُمَّ قَالَ: «رَدَّوْهُ عَلَيَّ». فَرَدَّوْهُ عَلَيْهِ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَقْبِرَ الصَّلَاةَ طَرَفَ النَّهَارِ وَرُفِعَ مِنَ الْإِيلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ الْأَشْيَاءَ ذَلِكَ ذِكْرُكَ لِلذَّكْرِ﴾. فقال معاذ - وفي رواية عمر -: يا رسول الله، أله وحده، أم للناس كافة؟ فقال: «بل للناس كافة». وقال

الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا أبان بن إسحاق، عن الصباح بن محمد، عن مَرَّة الهَمْدَانِي، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ولا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب. فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده، لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه». قال: قلنا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: «غشه وظلمه، ولا يكسب عبد مالا حراماً فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زأده إلى النار، إن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكنه يمحو السيء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث». وقال ابن جرير: حدثنا أبو السائب، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم قال: كان فلان بن معتب رجلاً من الأنصار، فقال: يا رسول الله، دخلت على امرأة فبكت منها ما ينال الرجل من أهله، إلا أنني لم أجتمعها فلم يدر رسول الله ﷺ ما يجيبه، حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَأَقْرِصْ أَلْصَوْهُ طَرْفَ الْتَّارِ وَزَلْكَ مِّنَ الْيَلِّ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَ لِلَّذِينَ ذَكَرُوا﴾. فدعاه رسول الله، فقرأها عليه. وعن ابن عباس: أنه عمرو بن غَزِيَّة الأنصاري التمار. وقال مقاتل: هو أبو نفيل عامر بن قيس الأنصاري، وذكر الخطيب البغدادي أنه أبو اليسر: كعب بن عمرو.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس وعفان قالا: حدثنا حماد - يعني: ابن سلمة - عن علي بن زيد، قال عفان: أنبأنا علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، أن رجلاً أتى عمر قال: امرأة جاءت تباعه، فأدخلتها الدولج، فأصببت منها ما دون الجماع، فقال: ويحك. لعلها مُغَيِّبة في سبيل الله؟ قال: أجل. قال: فأتت أبا بكر فأسأله. قال: فاتاه فسأله، فقال: لعلها مُغَيِّبة في سبيل الله؟ فقال مثل قول عمر، ثم أتى النبي ﷺ فقال له مثل ذلك، قال: «فلعلها مُغَيِّبة في سبيل الله». ونزل القرآن: ﴿وَأَقْرِصْ أَلْصَوْهُ طَرْفَ الْتَّارِ وَزَلْكَ مِّنَ الْيَلِّ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ إلى آخر الآية، فقال: يا رسول الله، إلي خاصة أم للناس عامة؟ فضرب - يعني: عمر - صدره بيده وقال: لا، ولا تُعَمِّمَ عين، بل للناس عامة. فقال رسول الله ﷺ: «صدق عمر». وروى الإمام أبو جعفر بن جرير من حديث قيس بن الربيع، عن عثمان بن موهب، عن موسى بن طلحة، عن أبي اليسر كعب بن عمرو الأنصاري قال: أتتني امرأة تبتاع مني بدرهم تمراً، فقلت: إن في البيت تمراً أطيب وأجود من هذا، فدخلت، فأهويت إليها فقبلتها، فأتيت عمر فسألت، فقال: اتق الله، واستر على نفسك، ولا تخبرن أحداً. فلم أصبر حتى أتيت أبا بكر فسألت، فقال: اتق الله، واستر على نفسك، ولا تخبرن أحداً. قال: فلم أصبر حتى أتيت النبي ﷺ، فأخبرته، فقال: «أخلفت رجلاً غازیاً في سبيل الله في أهله بمثل هذا؟» حتى ظننت أنني من أهل النار، حتى تمنيت أنني أسلمت ساعتئذ. فأتى رسول الله ﷺ ساعة، فنزل جبريل، فقال: «أين أبو اليسر؟». فنجت، فقرأ علي: ﴿وَأَقْرِصْ أَلْصَوْهُ طَرْفَ الْتَّارِ وَزَلْكَ مِّنَ الْيَلِّ﴾ إلى ﴿ذَكَرَ لِلَّذِينَ ذَكَرُوا﴾، فقال إنسان: يا رسول الله، أله خاصة أم للناس عامة؟ قال: «للناس عامة». وقال الحافظ أبو الحسن الدارقطني: حدثنا الحسين بن إسماعيل المحاملي، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا جرير، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن معاذ بن جبل، أنه كان قاعداً عند النبي ﷺ فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، ما تقول في رجل أصاب من امرأة لا تحل له، فلم يدع شيئاً يصيبه الرجل من امرأته إلا قد أصاب منها، غير أنه لم يجامعها؟ فقال له النبي ﷺ: «توضاً وضوءاً حسناً، ثم قم فصل». قال: فأنزل الله ﷻ هذه الآية، يعني قوله: ﴿وَأَقْرِصْ أَلْصَوْهُ طَرْفَ الْتَّارِ وَزَلْكَ مِّنَ الْيَلِّ﴾، فقال معاذ: أهي له خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال: «بل للمسلمين عامة». ورواه ابن جرير من طرق، عن عبد الملك بن عمير، به.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا محمد بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن يحيى بن جعدة، أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ذكر امرأة وهو جالس مع رسول الله ﷺ، فاستأذنه لحاجة، فأذن له، فذهب يطلبها فلم يجدها، فأقبل الرجل يريد أن يبشر النبي ﷺ بالمطر، فوجد المرأة جالسة على غدير، فدفع في صدرها وجلس بين رجلها، فصار ذكره مثل الهذبة، فقام نادماً حتى أتى النبي ﷺ فأخبره بما صنع، فقال له: «استغفر ربك، وصل أربع ركعات». قال: وتلا عليه: ﴿وَأَقْرِصْ أَلْصَوْهُ طَرْفَ الْتَّارِ وَزَلْكَ مِّنَ الْيَلِّ﴾ الآية. وقال ابن جرير: حدثني عبد الله بن أحمد بن مَثْبُوبه، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثني عمرو بن الحارث حدثني عبد الله بن سالم، عن الزبيدي، عن سليم بن عامر، أنه سمع أبا أمامة يقول: إن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أقم في حد الله - مرة أو اثنتين - فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم أقيمت الصلاة، فلما فرغ النبي ﷺ من الصلاة قال: «أين هذا الرجل القاتل: أقم في حد الله؟» قال: أنا ذا. قال: «أتتمت الوضوء وصليت معنا أتفا؟» قال: نعم. قال: «فإنك من خطيئتك كما ولدتك أمك، ولا تعد». وأنزل الله على رسول الله ﷺ: ﴿وَأَقْرِصْ أَلْصَوْهُ طَرْفَ الْتَّارِ

وَوَلَّكَ مِنَ الْإِلَهِ أَنْ تَكُونَ مِنْهُ سَائِبَةً ذَلِكَ ذِكْرُ لِلذَّكُورِ ﴿١١٦﴾ . وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أنبأنا علي بن زيد، عن أبي عثمان قال: كنت مع سلمان الفارسي تحت شجرة، فأخذ منها غصناً يابساً فهزه حتى تحاث ورقة، ثم قال: يا أبا عثمان، ألا تسألني لم أفعل هذا؟ فقلت: لم تفعله؟ قال: هكذا فعل بي رسول الله ﷺ وأنا معه تحت شجرة، فأخذ منها يابساً فهزه حتى تحاث ورقة، فقال: «يا سلمان، ألا تسألني: لم أفعل هذا؟». قلت: ولم تفعله؟ فقال: «إن المسلم إذا توضع فأحسن الوضوء، ثم صلى الصلوات الخمس، تحاثت خطاياها كما يتحات هذا الورق. وقال: ﴿وَأَفْرِجْ الْصَّلَاةَ طَرَفِي الْبَاقِ وَوَلَّكَ مِنَ الْإِلَهِ أَنْ تَكُونَ مِنْهُ سَائِبَةً ذَلِكَ ذِكْرُ لِلذَّكُورِ ﴿١١٦﴾﴾» .

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن ميمون بن أبي شبيب، عن معاذ، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال له: «يا معاذ، أتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن». وقال الإمام أحمد، رضي الله عنه: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن حبيب، عن ميمون بن أبي شبيب، عن أبي ذر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن». وقال أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شمر بن عطية، عن أشياخه، عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، أوصني. قال: «إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها». قال: قلت: يا رسول الله، أمن الحسنات: لا إله إلا الله؟ قال: «هي أفضل الحسنات». وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا هذيل بن إبراهيم الجعاني، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الزهري، من ولد سعد بن أبي وقاص، عن الزهري، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قال عَبْدٌ: لا إله إلا الله، في ساعة من ليل أو نهار، إلا طَلَسَتْ ما في الصحيفة من السيئات، حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات». عثمان بن عبد الرحمن، يقال له: الواقسي. فيه ضعف. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا بشر بن آدم وزيد بن أكرم قالوا: حدثنا الضحاك بن مخلد، حدثنا مستور بن عباد، عن ثابت، عن أنس؛ أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما تركت من حاجة ولا داجة، فقال رسول الله ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟». قال: بلى. قال: «فإن هذا يأتي على ذلك». تفرد به من هذا الوجه مستور.

﴿فَقُولَا كَانَ مِنَ الْفُرُوقِ مِنْ قَبْلِكُمْ أَوَّلًا بَقِيَ بَهْتُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ آمَنَّا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٧﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٨﴾﴾ .

يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، يهتدون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض. وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: قد وجد منهم من هذا الضرب قليل، لم يكونوا كثيرًا، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غيظه، وفجأة يقم؛ ولهذا أمر تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَتَتَّكِبُكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وفي الحديث: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَقُولَا كَانَ مِنَ الْفُرُوقِ مِنْ قَبْلِكُمْ أَوَّلًا بَقِيَ بَهْتُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ آمَنَّا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا فِيهِ﴾ أي: استمروا على ما هم فيه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك، حتى فجأهم العذاب، ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾. ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصل: ٤٦].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُ خَلْفُ بَيْنِ النَّاسِ فِي آيَاتِنَاهُمْ وَاعْتِقَادَاتِ مِلَلِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ وَأَرَانَهُمْ﴾ قال عكرمة: ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ في الهدى. وقال الحسن البصري: ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ في الرزق، يُسَخَّرُ بعضهم بعضاً، والمشهور الصحيح الأول. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ أي: إلا المرحومين من أتباع الرسل، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين، أخبرتهم به رسل الله إليهم، ولم يزل ذلك دأبهم، حتى كان النبي ﷺ الأمي خاتم الرسل والأنبياء، فاتبعوه وصدقوه، ونصروه ووازره، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية، كما جاء في الحديث المروي في المسانيد والسنن، من طرق يشد بعضها بعضاً: «إن اليهود افرقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى افرقت على ثنتين وسبعين فرقة، وستفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة واحدة». قالوا: ومن هم يا رسول الله؟

قال: «ما أنا عليه وأصحابي». رواه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة. وقال عطاء: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُخْلِفُونَ﴾ يعني: اليهود والنصارى والمجوس ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ يعني: الحنيفية. وقال قتادة: أهل رحمة الله أهل الجماعة، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فرقة، وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم. وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْخَلْقُ كُلُّهُ﴾: قال الحسن البصري - في رواية عنه -: وللأختلاف خلقهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: خلقهم فريقين، كقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيقٌ وَسَمِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]. وقيل: للرحمة خلقهم. قال ابن وهب: أخبرني مسلم بن خالد، عن ابن أبي نجيح، عن طاوس؛ أن رجلين اختصما إليه فأكثر، فقال طاوس: اختلفتما فأكثرتما! فقال أحد الرجلين: لذلك خلقنا. فقال طاوس: كذبت. فقال: أليس الله يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُخْلِفُونَ﴾؟ قال ابن عباس: نعم. قال: فماذا قال؟ قال: قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ [الشورى: ٥٦]. وقيل: بل المراد: وللرحمة والاختلاف خلقهم، كما قال الحسن البصري في رواية عنه في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُخْلِفُونَ﴾؟ قال: ﴿وَلِلَّهِ الْخَلْقُ كُلُّهُ﴾. قال: الناس مختلفون على أديان شتى، ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾، فمن رحم ربك غير مختلف. قيل له: فلذلك خلقهم؟ قال: خلق هؤلاء لجنته، وخلق هؤلاء لناره، وخلق هؤلاء لرحمته، وخلق هؤلاء لعذابه. وكذا قال عطاء بن أبي رباح، والأعمش. وقال ابن وهب: سألت مالكا عن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُخْلِفُونَ﴾؟ قال: ﴿وَلِلَّهِ الْخَلْقُ كُلُّهُ﴾، قال: فريق في الجنة وفريق في السعير. وقد اختار هذا القول ابن جرير، وأبو عبيدة، والفراء. وعن مالك فيما رواه عنه في التفسير: ﴿وَلِلَّهِ الْخَلْقُ كُلُّهُ﴾ قال: للرحمة، وقال قوم: للاختلاف.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾: يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره، لعلمه التام وحكمته النافذة، أن ممن خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقيلين الجن والإنس، وله الحجة البالغة والحكمة التامة. وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضَعْفَةُ الناس وسَقَطُهُم؟ وقالت النار: أو ثرت بالمتكبرين والمتجبرين. فقال الله ﷻ للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء. وقال للنار: أنت عذابي، أنتقم بك ممن أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما الجنة فلا يزال فيها فضل، حتى ينشئ الله لها خلقاً يسكن فضل الجنة، وأما النار فلا تزال تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع عليها رب العزة قدمه، فنقول: قَطُّ قط، وعزتك».

﴿وَلَا تَقْصُصْ عَلَيْهِ مِنْ آيَاتِ الرُّسُلِ مَا نَبِّئَتْ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [١٢٠].

يقول تعالى: وكل أخبار نقصها عليك، من آيات الرسل المتقدمين قبلك مع أمهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حربه المؤمنين وخذل أعداء الكافرين - كل هذا مما ثبت به فؤادك - يا محمد - أي: قلبك، ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة. وقوله: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: في هذه السورة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وجماعة من السلف. وعن الحسن - في رواية عنه - وقاتلة: في هذه الدنيا. والصحيح: في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف نجَّاهم الله والمؤمنين بهم، وأهلك الكافرين، جاءك فيها قَصَصٌ حق، ونَبَأٌ صدق، وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرة يتوقر بها المؤمنون.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ إِنْ أَعْمَلُوا إِنْ أَمْطَرُوا﴾ [١٢١].

يقول تعالى أمراً رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد: ﴿أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي: على طريقته ومنهجكم، ﴿إِنْ أَعْمَلُوا﴾ أي: على طريقته ومنهجنا، ﴿وَأَمْطَرُوا إِنْ أَمْطَرُوا﴾ أي: فستعملون من تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون. وقد أنجز الله لرسوله وعده، ونصره وأيده، وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَنَّا تَعْمَلُونَ﴾ [١٢٢].

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه إليه المرجع والمآب، وسيؤتي كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر. فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه؛ فإنه كافٍ من توكل عليه وأتاب إليه. وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَنَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة،

وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا زيد بن الحباب، عن جعفر بن سليمان، عن أبي عمران الجوني، عن عبد الله بن رباح، عن كعب قال: خاتمة «التوراة» خاتمة «هود» والله أعلم.

تم تفسير سورة هود



تفسير سورة يوسف

وهي مكية. روى الثعلبي وغيره، من طريق سَلَام بن سلم - ويقال: سليم - المدائني، وهو متروك، عن هارون بن كثير - وقد نصّ على جهالته أبو حاتم - عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبي كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «علموا أرقاءكم سورة يوسف، فإنما أيما مسلم تلاها، أو علمها أهله، أو ما ملكت يمينه، هَوَّنَ الله عليه سكرات الموت، وأعطاه من القوة ألا يحسد مسلماً». وهذا من هذا الوجه لا يصح، لضعف إسناده بالكلية. وقد ساق له الحافظ ابن عساكر متابعا من طريق القاسم بن الحكم، عن هارون بن كثير، به - ومن طريق شَبَابَة، عن مَخْلَد بن عبد الواحد البصري، عن علي بن جدعان - وعن عطاء بن أبيميمونة، عن زر بن حُبَيْش، عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ - فذكر نحوه. وهو منكر من سائر طرقه. وروى البيهقي في «الدلائل» أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة أسلموا لموافقتها ما عندهم. وهو من رواية الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي ۖ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة «البقرة». وقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، ﴿الَّتِي﴾ أي: الواضح الجلي، الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرهما ويبينها. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس؛ فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدى إنزاله في أشرف شهور السنة وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾، بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن. وقد وَرَدَ في سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن جرير: حدثني نصر بن عبد الرحمن الأودي، حدثنا حكام الرازي، عن أيوب، عن عمرو - هو ابن قيس الملائي - عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا؟ فنزلت: ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾. ورواه من وجه آخر، عن عمرو بن قيس مرسلًا. وقال أيضاً: حدثنا محمد بن سعيد العطار، حدثنا عمرو بن محمد، أنبأنا خَلَادُ الصَفَار، عن عمرو بن قيس، عن عمرو بن مَرْة، عن مصعب بن سعد عن سعد قال: أنزل على النبي ﷺ القرآن، قال: فتلا عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا. فأنزل الله ﷻ: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي ۖ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. ثم تلا عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو حدثنا. فأنزل الله ﷻ: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ الآية [الزمر: ٢٣]، وذكر الحديث. ورواه الحاكم من حديث إسحاق بن إِبْرَاهِيمَ، عن عمرو بن محمد القرشي العنقري، به. وروى ابن جرير بسنده، عن المسعودي، عن عَوْن بن عبد الله قال: مَلَّ أصحاب رسول الله ﷺ مَلَّةً، فقالوا: يا رسول الله، حدثنا. فأنزل الله ﷻ: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾، ثم مَلَّوا مَلَّةً أخرى فقالوا: يا رسول الله، حدثنا فوق الحديث ودون القرآن - يعنون القصص - فأنزل الله ﷻ: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي ۖ﴾. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝﴾، فأرادوا الحديث، فدلهم على أحسن الحديث، وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص.

ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة، المشتملة على مدح القرآن، وأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب ما رواه الإمام أحمد: حدثنا سُرَيْج بن النعمان، أخبرنا هُشَيْم، أنبأنا مجالد، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله؛ أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ فغضب وقال: «أمتهم كون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي

نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه، أو بباطل فتصدقونه، والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حياً، لما وسعه إلا أن يتبعني». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن جابر، عن الشعبي، عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني مرت بأخ لي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ. قال عبد الله بن ثابت: فقلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً. قال: فسُرِّي عن النبي ﷺ وقال: «والذي نفس محمد بيده، لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم خطي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين».

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عبد الغفار بن عبد الله بن الزبير، حدثنا علي بن مُسهر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن خليفة بن قيس، عن خالد بن عُرْقُطَةَ قال: كنت جالساً عند عمر، إذ أتني برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس، فقال له عمر: أنت فلان بن فلان العبدى؟ قال: نعم. قال: وأنت النازل بالسوس؟ قال: نعم. فضربه بقناة معه، قال: فقال الرجل: مالي يا أمير المؤمنين؟ فقال له عمر: اجلس. فجلس، فقرأ عليه: ﴿يَسِّرَ اللَّهُ الرِّحْلَيْنِ الرَّجِيمِ﴾ * الرُّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّذِينَ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ تَحْنُ نَفْسُ عَلَيْكَ أَفَصَحَّ الْقَصَصِ﴾ إلى قوله: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْزِلْنَا، وضربه ثلاثاً، فقال له الرجل: مالي يا أمير المؤمنين؟ فقال: أنت الذي نسخت كتاب دانيال! قال: مرني بأمرك أتبعه. قال: انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض، ثم لا تقرأه ولا تقرأه أحدًا من الناس، فلئن بلغني عنك أنك قرأته أو أقرأته أحدًا من الناس لأهتكك عقوبة، ثم قال له: اجلس، فجلس بين يديه فقال: انطلقت أنا فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب، ثم جئت به في أديم، فقال لي رسول الله ﷺ: «ما هذا في يدك يا عمر؟». قال: قلت: يا رسول الله، كتاب نسخته لزداد به علماً إلى علمنا. فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتاه، ثم نودي بالصلاة جامعة، فقالت الأنصار: أغضب نبيكم ﷺ؟ السلاح السلاح. فجاؤوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ، فقال: «يا أيها الناس، إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختصر لي اختصاراً، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تنهؤكوا، ولا يغرنكم المتهوكون». قال عمر: فقمعت فقلت: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبك رسولاً. ثم نزل رسول الله ﷺ. وقد رواه ابن أبي حاتم في تفسيره مختصراً، من حديث عبد الرحمن بن إسحاق، به. وهذا حديث غريب من هذا الوجه. وعبد الرحمن بن إسحاق هو أبو شَيْبَةَ الواسطي، وقد ضعفوه وشيخه. قال البخاري: لا يصح حديثه. قلت: وقد روي له شاهد من وجه آخر، فقال الحافظ أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي: أخبرني الحسن بن سفيان، حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدي، حدثني عمرو بن الحارث، حدثنا عبد الله بن سالم الأشعري، عن الزبيدي، حدثنا سليم بن عامر: أن جُبَيْرَ بن نُفَيْرٍ حَدَّثَهُمْ: أن رجلين كانا يحمص في خلافة عمر، رضي الله عنه، فأرسل إليهما فيمن أرسل من أهل حمص، وكانا قد اكتسبا من اليهود صلاصة فأخذها معهما يستفتيان فيها أمير المؤمنين ويقولون: إن رضيها لنا أمير المؤمنين ازدادنا فيها رغبة، وإن نهانا عنها رفضناها. فلما قدما عليه قالا: إنا بأرض أهل الكتابين، وإننا نسمع منهم كلاماً تشعر منه جلودنا، أفناخذ منه أو نترك؟ فقال: لعلكما كتبتما منه شيئاً. قالا: لا. قال: سأحدثكما، انطلقت في حياة رسول الله ﷺ حتى أتيت خبير، فوجدت يهودياً يقول قولاً أعجبني، فقلت: هل أنت مكتبي ما تقول؟ قال: نعم. فأتيت بأديم، فأخذ يملئ علي، حتى كتبت في الأكرع. فلما رجعت قلت: يا نبي الله، وأخبرته، قال: «أنتني به». فانطلقت أرغب عن المشي رجاء أن أكون أتيت رسول الله ﷺ ببعض ما يحب، فلما أتيت به قال: «اجلس اقرأ علي». فقرأت ساعة، ثم نظرت إلى وجهه فإذا هو يتلون، فتحيرت من الفرق، فما استطعت أجز من حرفاً، فلما رأى الذي بي دفعه، ثم جعل يتبعه رسماً رسماً فيمحوه بريقه، وهو يقول: «لا تتبعوا هؤلاء، فإنهم قد هوكوا وهتوكوا»، حتى محا آخره حرفاً حرفاً. قال عمر، رضي الله عنه: فلو علمت أنكما كتبتما منه شيئاً جعلتكما نكالاً لهذه الأمة! قالا: والله ما نكتب منه شيئاً أبداً. فخرجا بصلاصفتهما، فحفرا لها فلم يألوا أن يعمقا، ودفناها فكان آخر العهد منها. وكذا روى الثوري، عن جابر بن يزيد الجعفي، عن الشعبي، عن عبد الله بن ثابت الأنصاري، عن عمر بن الخطاب، بنحوه. وروى أبو داود في المراسيل، من حديث أبي قِلَابَةَ، عن عمر نحوه. والله أعلم.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدًا ﴿١﴾﴾

يقول تعالى: اذكر لقومك يا محمد في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه، وأبوه هو: يعقوب، عليه السلام، كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «الكریم، ابن الکریم، ابن الکریم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم». انفرد بإخراجه البخاري، فرواه

عن عبد الله بن محمد، عن عبد الصمد به. وقال البخاري أيضاً: حدثنا محمد، أخبرنا عبدة، عن عبيد الله، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أنقاهم». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فمن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم. قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا». ثم قال: تابعه أبو أسامة، عن عبيد الله.

وقال ابن عباس: روي الأنبياء وحي. وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام: أن الأحد عشر كوكباً عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلاً سواه، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه. روي هذا عن ابن عباس، والضحاك، وقتادة، وسفيان الثوري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وذلك حين رفع أبويه على العرش، وهو سريره، وإخوته بين يديه: «وَعَزَّوْا لَهُ سُدُكًا وَقَالَ يَتَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا» [يوسف: ١٠٠]. وقد جاء في حديث تسمية هذه الأحد عشر كوكباً - فقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني علي بن سعيد الكندي، حدثنا الحكم بن ظهير، عن السدي، عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر قال: أتى النبي ﷺ رجل من يهود يقال له: «بستانة اليهودي»، فقال له: يا محمد، أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له، ما أسماؤها؟ قال: فسكت النبي ﷺ ساعة فلم يجبه بشيء، ونزل عليه جبريل، عليه السلام، فأخبره بأسمائها. قال: فبعث رسول الله ﷺ إليه فقال: «هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟» فقال: نعم. قال: «خرتان، والطارق، والذئبال، وذو الكتفات، وقابس، ووثاب، وعمودان، والفيلقي، والمضنب، والضروخ، وذو الفرغ، والضياء، والثور»، فقال اليهودي: إني والله، إنها لأسماؤها. ورواه البيهقي في «الدلائل»، من حديث سعيد بن منصور، عن الحكم بن ظهير. وقد روى هذا الحديث الحافظان أبو يعلى الموصلي وأبو بكر البزار في مسنديهما، وابن أبي حاتم في تفسيره، أما أبو يعلى فرواه عن أربعة من شيوخه عن الحكم بن ظهير، به وزاد: قال رسول الله ﷺ: «لما رآها يوسف قصتها على أبيه يعقوب، فقال له أبوه: هذا أمر منتشر يجمعه الله من بعد؛ قال: والشمس أبوه، والقمر أمه». تفرد به الحكم بن ظهير الفزاري، وقد ضعفه الأئمة، وتركه الأكثرون، وقال الجوزجاني: ساقط، وهو صاحب حديث حسن يوسف.

﴿قَالَ يَبْنَؤُ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (٥).

يقول تعالى مخبراً عن قيل يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا، التي تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً، بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً وإكراماً واحتراماً، فخشي يعقوب، عليه السلام، أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدوه على ذلك، فيبغوا له الفوائل، حسداً منهم له؛ ولهذا قال له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أي: يحتالوا لك حيلة يزدونك فيها. ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به، وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر وليبتل عن يساره ثلاثاً، وليستعد بالله من شرها، ولا يحدث بها أحداً، فإنها لن تضره». وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد، وبعض أهل السنن، من رواية معاوية بن حيدة القشيري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبر، فإذا عُبرَتْ وقعت». ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر، كما ورد في حديث: «استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها، فإن كل ذي نعمة محسود».

﴿وَكَذَلِكَ يَجْهِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ بِمِثْمَارٍ عَلَيْكَ وَهَآءِ مَا تَقْرَبُ كَمَا أَنتَهَا عَلَىٰ أَوَّلِكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٦).

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده يوسف: إنه كما اختارك ربك، وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك، ﴿وَكَذَلِكَ يَجْهِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: يختارك ويصطفيك لنبوته، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾: قال مجاهد وغير واحد: يعني تعبير الرؤيا. ﴿وَيُرِيكَ بِمِثْمَارٍ عَلَيْكَ﴾ أي: بإرسالك والإيحاء إليك؛ ولهذا قال: ﴿كَمَا أَنتَهَا عَلَىٰ أَوَّلِكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو الخليل، ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ ولده، وهو الدبيع في قول، وليس بالرجيح، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: هو أعلم حيث يجعل رسالاته، كما قال في الآية الأخرى.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧) إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبٌ إِنَّ أَنَا لَكُنْ سَكَلَىٰ تِيبِي ﴿٨﴾ أَتَقُولُوا يُونُسَ أَرَأَيْتُمْ أَنزَلْنَا بِهِ لَكُمْ رَحْمَةً أَيْدِيكُمْ وَنَكُونُوا مِنْ عَادِيهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقُولُوا يُونُسَ وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ الْحَبِّ

يَلْقِظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١١﴾

يقول تعالى: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات، أي: عبرة ومواعظ للساثلين عن ذلك، المستخبرين عنه، فإنه خبر عجيب، يستحق أن يستخير عنه. ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا﴾ أي: حلفوا فيما يظنون: والله ليوسف وأخوه - يعنون بنيامين، وكان شقيقه لأمه - ﴿أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة؟ ﴿إِنَّا أَبْنَا لِي سَكَلَى ثُبَيْنَ﴾، يعنون في تقديمهما علينا، ومحبتة إياهما أكثر منا. واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر. ويحتاج مُدعي ذلك إلى دليل، ولم يذكر سوى قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ فَلَيْسَ لَكِنَّةٌ وَلَا تَقُولُ وَالْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وهذا فيه احتمال؛ لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب: قبائل، وللعجم: شعوب؛ يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم، والله أعلم.

﴿أَتَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ أَخَاهُ أَرْضًا بَحَلَّ لَكُمْ وَهِيَ أَيْكَمُ﴾: يقولون: هذا الذي يراحمكم في محبة أبيكم لكم، أعدموه من وجه أبيكم، ليخلو لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه، أو تلقوه في أرض من الأراضي - تستريحوا منه، وتختلوا أنتم بأبيكم، وتكونوا من بعد إعدامه قوماً صالحين. فأضمرنا التوبة قبل الذنب. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾: قال قتادة، ومحمد بن إسحاق: كان أكبرهم واسمه روبيل. وقال السدي: الذي قال ذلك يهوذا. وقال مجاهد: هو شمعون. ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ أي: لا تصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله؛ لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لا بد من إمضائه وإتمامه، من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرههم الله عنه بمقالة روبيل فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الجب، وهو أسفله. قال قتادة: وهي بئر بيت المقدس. ﴿يَلْقِظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي: المارة من المسافرين، فتستريحوا بهذا، ولا حاجة إلى قتله. ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي: إن كنتم عازمين على ما تقولون. قال محمد بن إسحاق بن يسار: لقد اجتمعوا على أمر عظيم، من قطعية الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل، وخطره عند الله، مع حق الوالد على ولده، ليفرقوا بينه وبين ابنه وحبيبه، على كبر سنه، ورفقة عظمه، مع مكانه من الله فيمن أحبه طفلاً صغيراً، وبين أبيه على ضعف قوته وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمراً عظيماً. رواه ابن أبي حاتم من طريق سلمة بن الفضل، عنه.

﴿قَالُوا يَبْنَائَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَمُتَصِحُّونَ﴾ ﴿١٢﴾ أَرْسَلَهُ مَعَا عَدَا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَمُحْفِظُونَ﴾ ﴿١٣﴾

لما تواطؤوا على أخذه وطرحه في البئر، كما أشار عليهم أخوهم الكبير روبيل، جاؤا بأباهم يعقوب، عليه السلام، فقالوا: ﴿يَبْنَائَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَمُتَصِحُّونَ﴾، وهذه توطئة وسلف ودعوى، وهم يريدون خلاف ذلك؛ لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له، ﴿أَرْسَلَهُ مَعَا﴾ أي: ابعته معنا. ﴿عَدَا نَرْتَعُ وَنَلْعَبُ﴾ وقرأ بعضهم بالياء ﴿يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ﴾. قال ابن عباس: يسمى وينشط. وكذا قال قتادة، والضحاك والسدي، وغيرهم. ﴿وَإِنَّا لَمُحْفِظُونَ﴾: يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أهلك.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ ﴿١٤﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَكَاخِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أي: يشق علي مفارقتة مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لقرط محبته له، لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة والكمال في الخلق والخلق، صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾: يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم وزغيتكم فأتية ذنب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين عنها في الساعة الراهنة: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَكَاخِرُونَ﴾، يقولون: لئن عدا عليه الذنب فأكله من بيننا، ونحن جماعة، إنا إذا لهالكون عاجزون.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيِّبَتِ الْجُبِّ وَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ لَتَسْتَفْهَمُ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَمَنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١٦﴾

يقول تعالى: فلما ذهبت به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك، ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيِّبَتِ الْجُبِّ﴾، هذا فيه تعظيم

لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذه من عند أبيه فيما يظهر أنه لإكرامه له، وبسطاً وشرحاً لصدرة، وإدخالاً للسرور عليه، فيقال: إن يعقوب، عليه السلام، لما بعثه معهم ضمه إليه، وقبله ودعا له. قال السدي وغيره: إنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له، إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول، من شتم ونحوه، والفعل من ضرب ونحوه، ثم جاؤوا به إلى ذلك الجب الذي اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلوه فيه، فجعل إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة، فسقط في الماء فغمره، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه، يقال لها: «الراغوفة»، فقام فوقها. قال الله تعالى: ﴿وَأَرْحَنَّا إِلَيْنَا لَنُنَبِّئَهُم بِأَنفُسِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: يقول تعالى ذكراً لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر أنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق، تطيباً لقلبه، وتثبيتاً له: إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم، ويعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع. وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ - قال مجاهد وقتادة: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإيحاء الله إليه. وقال ابن عباس: ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقل، وهم لا يعرفونك، ولا يستشعرون بك، كما قال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا صدقة بن عبادة الأسدي، عن أبيه، سمعت ابن عباس يقول: لما دخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون، قال: جيء بالصواع، فوضعه على يده، ثم نقره فطن، فقال: إنه ليخبرني هذا الجام: أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له «يوسف»، يذنيه دونكم، وأنكم انطلقتم به فألقيتموه في غيابة الجب - قال: ثم نقره فطن - فأتيتم أباكم فقلتم: إن الذئب أكله، وجئتم على قميصه بدم كذب - قال: فقال بعضهم لبعض: إن هذا الجام ليخبره بخبركم. قال ابن عباس، رضي الله عنهما: لا نرى هذه الآية نزلت إلا فيهم: ﴿لَنُنَبِّئَهُم بِأَنفُسِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَنَرْجِعُنَا يَوْشَعَ عِنْدَ مَتْنَعَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعدما ألقوه في غيابة الجب: أنهم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل ليكون ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ويتغمون لأبيهم، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ﴾ أي: نترامي، ﴿وَنَرْجِعُنَا يَوْشَعَ عِنْدَ مَتْنَعَا﴾ أي: ثيابنا وأمتعتنا، ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾، وهو الذي كان قد جزع منه، وحذر عليه. وقولهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾: تلطفت عظيم في تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا - والحالة هذه - لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك، لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا، لغرابية ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا. ﴿وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي: مكذوب مفترى. وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالؤوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلى سخله - فيما ذكره مجاهد، والسدي، وغير واحد - فذبحوها، ولطخوا ثوب يوسف بدمها، موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه، فل هذا لم يرج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من تمالئهم عليه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فأسأبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي قد اتفقت عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه، ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أي: على ما تذكرون من الكذب والمحال. وقال الثوري، عن يسماك، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ قال: لو أكله السبع لخرق القميص. وكذا قال الشعبي، والحسن، وقتادة، وغير واحد. وقال مجاهد: الصبر الجميل: الذي لا جزع فيه. وروى هشيم، عن عبد الرحمن بن يحيى، عن حبان بن أبي جبلة قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، فقال: «صبر لا شكوى فيه» وهذا مرسل. وقال عبد الرزاق: قال الثوري عن بعض أصحابه أنه قال: ثلاث من الصبر: ألا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكي نفسك. وذكر البخاري ههنا حديث عائشة، رضي الله عنها، في الإفك حتى ذكر قولها: والله لا أجدي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْلَاهُ قَالَ إِنبِئْهُمْ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴿١٩﴾ يَمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٠) وَتَرَوْهُ بِعِصْمٍ يَتَخِمُ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِقِينَ ﴿٢١﴾.

يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف، عليه السلام، حين ألقاه إخوته، وتركوه في ذلك الجب فريداً وحيداً، فمكث في البئر ثلاثة أيام، فيما قاله أبو بكر بن عياش. وقال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك، ينظرون ما

يصنع وما يصنع به، فساق الله له سَيَّارة، فنزلوا قريباً من تلك البئر، وأرسلوا واردهم - وهو الذي يتطلب لهم الماء - فلما جاء تلك البئر، وأدلى دلوه فيها، تثبت يوسف، عليه السلام، فيها، فأخرجه واستبشر به، وقال: ﴿يَبْشُرِي هَذَا غُلَامٌ﴾. وقرأ بعض القراء: ﴿يَا يَبْشُرَايَ﴾، فزعم السدي أنه اسم رجل ناداه ذلك الرجل الذي أدلى دلوه، معلماً أنه أنه أصاب غلاماً. وهذا القول من السدي غريب؛ لأنه لم يُسبق إلى تفسير هذه القراءة بهذا إلا في رواية عن ابن عباس، والله أعلم. وإنما معنى القراءة على هذا النحو يرجع إلى القراءة الأخرى، ويكون قد أضاف البشري إلى نفسه، وحذف ياء الإضافة وهو يريد بها، كما تقول العرب: «يا نفس اصبري»، و «يا غلام أقبل»، بحذف حرف الإضافة، ويجوز الكسر حينئذ والرفع، وهذا منه، وتفسرها القراءة الأخرى ﴿يَبْشُرِي﴾، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَسْرُهُ يَصْغَةً﴾ أي: وأسره الواردون من بقية السيارة وقالوا: اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره. قاله مجاهد، والسدي، وابن جرير. هذا قول. وقال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَسْرُهُ يَصْغَةً﴾ يعني: إخوة يوسف، أسروا شأنه، وكنتموا أن يكون أخاهم وكنتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيهقي. فذكره إخوته لوارد القوم، فنأى أصحابه: ﴿يَبْشُرِي هَذَا غُلَامٌ﴾ ببيع، فباعه إخوته. وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَسْمُوكَ﴾ أي: يعلم ما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقدر سابق، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين. وفي هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ، وإعلام له بأني عالم بأذى قومك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكنني سأملئ لهم، ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته.

وقوله: ﴿وَشَرُّهُ يَسْمُ بِحَسَبِ دَرَجَتِهِ مَعْدُودَةٌ﴾، يقول تعالى: وباعه إخوته بثمان قليل، قاله مجاهد وعكرمة. والبخس: هو النقص، كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ يَحْشَا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣] أي: اعتاض عنه إخوته بثمان دون قليل، وكانوا مع ذلك فيه من الزاهدين، أي: ليس لهم رغبة فيه، بل لو سألوه بلا شيء لأجابوا. قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: إن الضمير في قوله: ﴿وَشَرُّهُ﴾ عائد على إخوة يوسف. وقال قتادة: بل هو عائد على السيارة. والأول أقوى؛ لأن قوله: ﴿وَكُنَّا فِيهِ مِنَ الْزَاهِدِينَ﴾، إنما أراد إخوته، لا أولئك السيارة؛ لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه، فيرجع من هذا أن الضمير في ﴿وَشَرُّهُ﴾ إنما هو لأخوته. وقيل: المراد بقوله: ﴿يَحْشَا﴾: الحرام. وقيل: الظلم. وهذا وإن كان كذلك، لكن ليس هو المراد هنا؛ لأن هذا معلوم يعرفه كل أحد أن ثمنه حرام على كل حال، وعلى كل أحد، لأنه نبي ابن نبي، ابن نبي، ابن خليل الرحمن، فهو الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم. وإنما المراد هنا بالبخس الناقص أو الزيوف أو كلاهما، أي: إنهم إخوته، وقد باعوه ومع هذا بأنقص الأثمان؛ ولهذا قال: ﴿دَرَجَتِهِ مَعْدُودَةٌ﴾، فعن ابن مسعود باعوه بعشرين درهماً، وكذا قال ابن عباس، ونُوف البكالي، والسدي، وقاتدة، وعطية العوفي وزاد: اقتسموها درهمين درهمين. وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهماً. وقال محمد بن إسحاق وعكرمة: أربعون درهماً. وقال الضحاك في قوله: ﴿وَكُنَّا فِيهِ مِنَ الْزَاهِدِينَ﴾: وذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند الله ﷻ. وقال مجاهد: لما باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم: استوثقوا منه لا يأتى حتى وقفوه بمصر، فقال: من يبتاعني وليشتر؟ فاشتراه الملك، وكان مسلماً.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ يَمْرِئِ كُفْرِيِّ مَثْوًى عِنْدَ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ؕ إِنَّا إِنَّمَا جَعَلْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٢).

يخبر تعالى باللطافة بيوسف، عليه السلام، أنه قبض له الذي اشتراه من مصر، حتى اعتنى به وأكرمه، وأوصى أهله به، وتوسم فيه الخير والفلاح، فقال لأمراته: ﴿أَكْثَرِي مَثْوًى عِنْدَ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾، وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها، وهو الوزير بها. قال العوفي، عن ابن عباس: وكان اسمه قطفير. وقال محمد بن إسحاق: اسمه إطفير بن روحيب، وهو العزيز، وكان على خزائن مصر، وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد، رجل من العماليق قال: واسم امرأته راعيل بنت رعايل. وقال غيره: اسمها زليخا. وقال محمد بن إسحاق أيضاً، عن محمد بن السائب، عن أبي صالح، عن ابن عباس: كان الذي باعه بمصر مالك ابن دعر بن بويب بن عتقا بن مديان بن إبراهيم، فالله أعلم. وقال أبو إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لأمراته: ﴿أَكْثَرِي مَثْوًى﴾، والمرأة التي قالت لأبيها عن موسى: ﴿يَتَأْتِيَ اسْتَفْجَرُهُ إِنَّكَ خَيْرٌ مَنِ اسْتَفْجَرْتَ الْقَوَى الْأَيْمَى﴾ [القصص: ٢٦] وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب، رضي الله عنهما. يقول تعالى: وكما أنقذنا يوسف من إخوته، ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: بلاد مصر، ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قال مجاهد والسدي: هو تعبير الرؤيا، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي: إذا أراد شيئاً فلا يرد ولا يمانع ولا

يخالف، بل هو الغالب لما سواه. قال سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِأَمْرِهِ﴾ أي: فعال لما يشاء. وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: يقول: لا يدرون حكمته في خلقه، وتلطفه لما يريد.

وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَى: يوسف عليه السلام﴾ أشدُّه. أي: استكمل عقله، وتم خلقه. ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَى: النبوة، إنه حباه بها بين أولئك الأقوام، وكذلك تجزى المحسنين﴾ أي: إنه كان محسناً في عمله، عاملاً بطاعة ربه تعالى. وقد اختلف في مقدار المدة التي بلغ فيها أشده، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ثلاث وثلاثون. وعن ابن عباس: بضع وثلاثون. وقال الضحاك: عشرون. وقال الحسن: أربعون سنة. وقال عكرمة: خمس وعشرون سنة. وقال السدي: ثلاثون سنة. وقال سعيد بن جبير: ثمانين سنة. وقال الإمام مالك، وربيعة، وزيد بن أسلم، والشعبي: الأشد الحلم. وقيل غير ذلك، والله أعلم.

﴿وَرَوَدَتْهُ الْمَرْءُ فَقِيلَ لَهَا: قَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُلَاحِظُ الْعَالَمِينَ﴾.

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وإكرامه ﴿وَرَوَدَتْهُ الْمَرْءُ فَقِيلَ لَهَا: قَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أي: حاولته على نفسه، ودعته إليها، وذلك أنها أحبت حباً شديداً لجمالها وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجعل له، وغلقت عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها، ﴿قَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾، فامتنع من ذلك أشد الامتناع، و ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وكانوا يطلقون «الرب» على السيد والكبير، أي: إن بعلك ربي أحسن مثواي أي: منزلي وأحسن إلي، فلا أقبله بالفاحشة في أهله، ﴿إِنَّهُ لَا يُلَاحِظُ الْعَالَمِينَ﴾ قال ذلك مجاهد، والسدي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم. وقد اختلف القراء في قراءة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، فقرأه كثيرون بفتح الهاء، وإسكان الياء، وفتح التاء. وقال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: معناه: أنها تدعوه إلى نفسها. وقال علي بن أبي طلحة، والعمري، عن ابن عباس: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ تقول: هلم لك. وكذا قال زب بن حبش، وعكرمة، والحسن وقتادة. قال عمرو بن عبّيد، عن الحسن: وهي كلمة بالسرانية، أي: عليك. وقال السدي: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أي: هلم لك، وهي بالقبطية. وقال مجاهد: هي لغة عربية تدعوه بها. وقال البخاري: وقال عكرمة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾: هلم لك بالخوزانية. هكذا ذكر معلقاً، وقد أسنده الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني أحمد بن سُهَيْل الواسطي، حدثنا قُتَيْبَةُ بْنُ سَيْفٍ، حدثنا النضر بن عربي الجزي، عن عكرمة مولى ابن عباس في قوله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ قال: هلم لك. قال: هي بالخورانية. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وكان الكسائي يحكي هذه القراءة - يعني: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ - ويقول: هي لغة لأهل خوزان، وقعت إلى أهل الحجاز، معناها: تعال. وقال أبو عبيد: سألت شيخاً عالمًا من أهل حوران، فذكر أنها لغتهم يعرفها. واستشهد الإمام ابن جرير على هذه القراءة بقول الشاعر لعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه:

أَبْلَغُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَخَا السِّبْغَاتِ إِذَا أَتَيْتَ
إِنَّ السِّبْغَاتِ وَأَفْضَلَهُ عُثُوقَ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتَ

يقول: فتعال واقترّب.

وقرأ ذلك آخرون: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بكسر الهاء والهمزة، وضم التاء، بمعنى: تهيأت لك، من قول القائل: هت للامرأه هَيْتَ، وممن روي عنه هذه القراءة ابن عباس، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو وائل، وعكرمة، وقتادة، وكلهم يفسرها بمعنى: تهيأت لك. قال ابن جرير: وكان أبو عمرو والكسائي ينكران هذه القراءة. وقرأ عبد الله بن إسحاق: ﴿هَيْتَ﴾، بفتح الهاء وكسر التاء. وهي غريبة. وقرأ آخرون، منهم عامة أهل المدينة ﴿هَيْتَ﴾ بفتح الهاء، وضم التاء، وأنشد قول الشاعر:

لَيْسَ قَوْمِي بِالْأَبْسَدِينَ إِذَا مَا قَالَ دَاعٍ مِنَ الْعَشِيرَةِ: هَيْتَ

قال عبد الرزاق: أنبأنا الثوري، عن الأعمش، عن أبي وائل قال: قال ابن مسعود: قد سمعت القراءة فسمعتهم متقاربين، فافروا كما علمتم، وإياكم والتنطع والاختلاف، فإنما هو كقول أحدكم: «هلم» و «تعال» ثم قرأ عبد الله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إن ناساً يقرؤونها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾؟ فقال عبد الله: إني أقرأها كما علمت، أحب إلي. وقال ابن جرير: حدثني ابن وكيع، حدثنا ابن عُيَيْنَةَ، عن منصور، عن أبي وائل قال: قال عبد الله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾. فقال له مسروق: إن ناساً يقرؤونها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾؟ فقال: دعوني، فإني أقرأ كما أقرأ، أحب إلي. وقال أيضاً: حدثني المثنى، حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شعبة، عن شقيق، عن ابن مسعود قال: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بنصب الهاء والتاء ولا بهمز. وقال آخرون: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، بكسر الهاء، وإسكان الياء، وضم التاء. قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: «هيت» لا تنثى ولا تجمع ولا تؤنث، بل

يخاطب الجميع بلفظ واحد، فيقال: هَيْتَ لَكَ، وهَيْتَ لَكَ، وهَيْتَ لَكُمْ، وهَيْتَ لَهْنِ.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْسُفَ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَاهُ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّؤْمَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢٤).

اختلفت أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام، وقد روي عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وطائفة من السلف في ذلك ما ذكره ابن جرير وغيره، والله أعلم. وقال بعضهم: المراد بهم بهما هَمَّ خَطَرَاتِ حَدِيثِ النَّفْسِ. حكاة البغوي عن بعض أهل التحقيق، ثم أورد البغوي ههنا حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن همام، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إذا هَمَّ عبدي بحسنة فاكْتُبْهَا لَهُ حَسَنَةً، فإن عملها فاكْتُبْهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وإن هَمَّ بسيسة فلم يعملها فاكْتُبْهَا حَسَنَةً، فإنما تركها من جزائي، فإن عملها فاكْتُبْهَا بِمِثْلِهَا». وهذا الحديث مخرج في الصحيحين، وله ألفاظ كثيرة، هذا منها. وقيل: هم بضربها. وقيل: تمنأها زوجة. وقيل: ﴿وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَاهُ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أي: فلم يهم بها. وفي هذا القول نظر من حيث العربية، ذكره ابن جرير وغيره. وأما البرهان الذي رآه فيه أقوال أيضاً: فعن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمد بن سيرين، والحسن، وقتادة، وأبي صالح، والضحاك، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم: رأى صورة أبيه يعقوب، عليه السلام، عاضاً على أصبعه بضمه. وقيل عنه في رواية: فضرب في صدر يوسف. وقال العوفي، عن ابن عباس: رأى خيال الملك، يعني: سيده، وكذا قال محمد بن إسحاق، فيما حكاه عن بعضهم: إنما هو خيال إطفير سيده، حين دنا من الباب. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا أبو كُرَيْبٍ، عن أبي مودود، سمعت من محمد بن كعب القرظي قال: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت، فإذا كتاب في حائط البيت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٢٥) [الإسراء: ٣٢]. وكذا رواه أبو مَعْمَرٍ المدني، عن محمد بن كعب. وقال عبد الله بن وهب، أخبرني نافع بن يزيد، عن أبي صخر قال: سمعت القرظي يقول في: «البرهان» الذي رأى يوسف: ثلاث آيات من كتاب الله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ﴾ (٢٥) الآية [الأنفال: ١٠]، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ الآية [يونس: ٦١]، وقوله: ﴿أَفَتَنْفَعُ هُمُ قَاهِرٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ يَنْفَكُ﴾ [الرعد: ٣٣] قال نافع: سمعت أبا هلال يقول مثل قول القرظي، وزاد آية رابعة ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ﴾ [الإسراء: ٣٢]. وقال الأوزاعي: رأى آية من كتاب الله في الجدار تنهأ عن ذلك. قال ابن جرير: والصواب أن يقال: إنه رأى من آيات الله ما زجره عما كان هم به، وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون صورة الملك، وجائز أن يكون ما رآه مكتوباً من الزجر عن ذلك. ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى. قال: وقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّؤْمَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي: كما أريناه برهاناً صرفه عما كان فيه، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره. ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: المجتبتين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿وَأَسْتَفْتَا الْآيَاتِ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْآيَاتِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ يُعَذَّبَ أَلَيْسَ﴾ (٢٥) قَالَ هِيَ زَوَّجْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُمْ مِنْ كَذِبِكُمْ إِنَّ كَيْدَكُمْ عَظِيمٌ﴾ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفَرَ لِذَنْبِكُمْ لَكُمْ كُنتُمْ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (٢٩).

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب، يوسف هارب، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقته في أثناء ذلك، فأمسكت بقميصه من ورائه فَقَدَّتْهُ قَدْأً قَطِيعاً، يقال: إنه سقط عنه، واستمر يوسف هارباً ذاهباً، وهي في إثره، فألفيا سيدها - وهو زوجها - عند الباب، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متصلة وقاذفة يوسف بدائها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ أي: فاحشة، ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ﴾ أي: يحبس، ﴿أَوْ يُعَذَّبَ أَلَيْسَ﴾ أي: يضرب ضرباً شديداً موجعاً. فعند ذلك انتصر يوسف، عليه السلام، بالحق، وتبرأ مما رمت به من الخيانة، وقال بارأً صادقاً: ﴿هِيَ زَوَّجْنِي عَنْ نَفْسِي﴾، وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قادت قميصه، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قُبُلٍ﴾ أي: من قدامه، ﴿فَصَدَقَتْ﴾ أي: في قولها إنه أرادها على نفسها، لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته في صدره، فقدت قميصه، فيصح ما قالت. ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٧)، وذلك يكون كما وقع لما هرب منها، وتطلبت أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها، فقدت قميصه من ورائه. وقد اختلفوا في هذا الشاهد: هل هو صغير أو كبير، على قولين لعلماء السلف، فقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن سيمالك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ قال: ذو لحية. وقال الثوري، عن جابر، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس: كان من خاصة الملك. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق: إنه كان رجلاً. وقال زيد بن أسلم، والسدي: كان ابن عمها. وقال ابن عباس: كان من

خاصة الملك . وقد ذكر ابن إسحاق أن زليخا كانت بنت أخت الملك الريان بن الوليد .

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿رَسَدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قال: كان صبيّاً في المهد . وكذا روي عن أبي هريرة، وهلال بن يساف، والحسن، وسعيد بن جبيرة والضحاك بن مزاحم: أنه كان صبيّاً في الدار . واختاره ابن جرير . وقد ورد فيه حديث مرفوع فقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا عفان، حدثنا حماد - هو ابن سلمة - أخبرني عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «تكلم أربعة وهم صغار»، فذكر فيهم شاهد يوسف . ورواه غيره عن حماد بن سلمة، عن عطاء، عن سعيد، عن ابن عباس؛ أنه قال: تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جُزْنَج، وعيسى ابن مريم . وقال ليث ابن أبي سليم، عن مجاهد: كان من أمر الله، ولم يكن إنسياً . وهذا قول غريب . وقوله: ﴿فَلَمَّا رَاَ قَبِيضَهُ قَدْ يَن دُبُرَ﴾ أي: فلما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به، ﴿قَالَ إِنَّهُ مِّنْ كَذِبِكُمْ﴾ أي: إن هذا البهت واللطح الذي لطحخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن، ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ . ثم قال أمراً ليوسف، عليه السلام، بكتمان ما وقع: يا «يُوسُفُ اعْرِضْ عَنْ هَذَا» أي: اضرب عن هذا الأمر صفحاً، فلا تذكره لأحد، ﴿وَأَسْتَغْفِرِي لِذَلِكِ﴾، يقول لامراته وقد كان لين العريكة سهلاً، أو أنه عذرها؛ لأنها رأت ما لا صبر لها عنه، فقال لها: ﴿وَأَسْتَغْفِرِي لِذَلِكِ﴾ أي: الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب، ثم قذفه بما هو بريء منه، استغفري من هذا الذي وقع منك، ﴿إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ .

﴿وَقَالَ يَسُوْفُ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَقِهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَسْقَمَ وَلَكِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا مَأْمُورٌ لَيْسَ جَنَّتْ وَلَكُنَّ مِّنَ الضَّالِّينَ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ اصْبِرْ صَبْرًا إِنَّهُمَا بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَاعْلَمْ بِأَقْبَبِهِ﴾ ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة، وهي مصر، حتى تحدث الناس به، ﴿وَقَالَ يَسُوْفُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ مثل نساء الأمراء والكبراء، ينكرون على امرأة العزيز، وهو الوزير، ويعين ذلك عليها: ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَقِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: تحاول غلامها عن نفسه، وتدعوه إلى نفسها، ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: قد وصل حبه إلى شغاف قلبها . وهو غلافه . قال الضحاك عن ابن عباس: الشَّغَفُ: الحب القاتل، والشَّغَفُ دون ذلك، والشَّغَاف: حجاب القلب . ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في ضلالتها هذا من حبها فتاها، ومرادوتها إياه عن نفسه . ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ قال بعضهم: بقولهن . وقال محمد بن إسحاق: بل بلغهنَّ حُسن يوسف، فأحببن أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: دعتهن إلى منزلها لتضيفنهن ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ . قال ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد، والحسن، والسدي، وغيرهم: هو المجلس المعد، فيه مفارش ومخاد وطعام، فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه . ولهذا قال تعالى: ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾، وكان هذا مكيدة منها، ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته، ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾، وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر، ﴿فَلَمَّا﴾ خرج و ﴿رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أي: أعظمن شأنه، وأجللن قدره؛ وجعلن يقطعن أيديهن دَهْشاً برؤيته، وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين، والمراد: أنهن حزنن أيديهن بها، قاله غير واحد . وعن مجاهد، وقاتدة: قطعن أيديهن حتى ألقيتهن، فالله أعلم . وقد ذكر عن زيد بن أسلم أنها قالت لهن بعدما أكلن وطابت أنفسهن، ثم وضعت بين أيديهن أترجاً، وآتت كل واحدة منهن سكيناً: هل لكن في النظر إلى يوسف؟ قلن: نعم . فبعثت إليه تأمره أن أخرج إليهن، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن، ثم أمرته أن يرجع فرجع ليرينه مقبلاً ومدبراً، وهن يحزنن في أيديهن، فلما أحسن بالألم جعلن يولولن، فقالت: أأتين من نظرة واحدة فعلتن هكذا، فكيف ألام أنا؟ فقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم، ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد الذي رأينا، لأنهن لم يرين في البشر شبهه ولا قريباً منه، فإنه، صلوات الله عليه وسلم، كان قد أعطي شطر الحسن، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء: أن رسول الله ﷺ مري يوسف، عليه السلام، في السماء الثالثة، قال: «إفذا هو قد أعطي شطر الحسن» . وقال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطي يوسف وأمه شطر الحسن» . وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: أعطي يوسف وأمه ثلث الحسن . وقال أبو إسحاق أيضاً، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: كان وجه يوسف مثل البرق، وكانت المرأة إذا أتته لحاجة غطى وجهه مخافة أن تفتتن به . ورواه الحسن البصري مرسلًا، عن النبي ﷺ أنه قال: «أعطي يوسف وأمه ثلث حسن

أهل الدنيا، وأعطى الناس الثلاثين - أو قال: أعطى يوسف وأمه الثلاثين والناس الثلاث. وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد عن ربيعة الجُرشي قال: قسم الحسن نصفين، فأعطى يوسف وأمه سارة نصف الحسن، والنصف الآخر بين سائر الخلق. وقال الإمام أبو القاسم السهيلي: معناه: أن يوسف كان على النصف من حسن آدم، عليه السلام، فإن الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها، ولم يكن في ذريته من يوازيه في جماله، وكان يوسف قد أعطى شطر حسنه. فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته: ﴿حَسَنَ يَاسَى﴾ قال مجاهد وغير واحد: معاذ الله، ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ وقرأ بعضهم: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ أي: بمشترى.

﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ: تقول هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق بأن يحب لجماله وكماله. ﴿وَلَقَدْ رَوَدْتُهُمْ عَنْ نَفْسِهِمْ فَاسْتَعَصَمَ﴾ أي: فامتنع. قال بعضهم: لما رأين جماله الظاهر، أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن، وهي العفة مع هذا الجمال، ثم قالت تتوعد: ﴿وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا مَأْمُرٌ لَيْسَ بَيْنَ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ﴾، فعند ذلك استعاض يوسف، عليه السلام، من شرهن وكيدهن، وقال: ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ أي: من الفاحشة، ﴿وَالْإِلَٰهَ نَصَرْتُ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَسْبَغُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: إن وكلتني إلى نفسي، فليس لي من نفسي قدرة، ولا أملك لها ضرراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك التكلان، فلا تكلني إلى نفسي. ﴿أَسْبَغُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْغَالِبِينَ﴾ فاستجاب لهم ربه فصرف عنه كيدهن إنهم هو السميع الكريم ﴿٣٦﴾، وذلك أن يوسف، عليه السلام، عصمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال: أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيده، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال، والرياسة ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك، خوفاً من الله ورجاء ثوابه. ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد، إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعت امرأة ذات جمال ومنصب، فقال: إني أخاف الله».

﴿ثُمَّ بَدَأَ لَمْ يَنْبَغِ مَا رَأَوْا الْأَيَّاتِ لَيْسَتْ جُنَّةٌ حَتَّى يَجِيءَ﴾

يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما راوه أنهم يسجنونه إلى حين، أي: إلى مدة، وذلك بعدما عرفوا براءته، وظهرت الآيات - وهي الأدلة - على صدقه في عفته ونزاهته. فكانهم - والله أعلم - إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاماً أن هذا راودها عن نفسها، وأنهم سجنوه على ذلك. ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة، امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة، فلما تقرر ذلك خرج وهو نقي العرض، صلوات الله عليه وسلامه. وذكر السدي: أنهم إنما سجنوه لثلاث يشع ما كان منها في حقه، ويبرأ عرضه فيفضحها.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأٌ بَاطِلٌ إِنَّا رَبُّكَ مِنَ الْمُضِلِّينَ﴾

قال قتادة: كان أحدهما ساقى الملك، والآخر خبازه. قال محمد بن إسحاق: كان اسم الذي على الشراب «نبوا»، والآخر «مجلث». قال السدي: وكان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالأ على سبه في طعامه وشرابه. وكان يوسف، عليه السلام، قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة وصدق الحديث، وحسن السمت وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلامه، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعيادة مرضاهم والقيام بحقوقهم. ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن، تألفا به وأحباها حباً شديداً، وقالاه: والله لقد أحبيناك حباً زائداً. قال: بارك الله فيكما، إنه ما أحبني أحد إلا دخل علي من محبته ضرر، أحببني عمتي فدخل علي الضرر بسببها، وأحبني أبي فأوذيت بسببه، وأحببني امرأة العزيز فكذلك، فقالا: والله ما نستطيع إلا ذلك، ثم إنهما رأيا مناماً، فرأى الساقى أنه يعصر خمرأ - يعني عبأ - وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ عُنْبًا﴾. ورواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن سنان، عن يزيد بن هارون، عن شريك، عن الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود: أنه قرأها: ﴿أَعْصِرُ عُنْبًا﴾. وقال الضحاك في قوله: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ يعني: عبأ. قال: وأهل عمان يسمون العنب خمرأ. وقال عكرمة: رأيت فيما يرى النائم أني غرست حبة من عنب، فنبتت. فخرج فيه عناقيد، فعصرتهن ثم سقيتهن الملك. قال: تمكث في السجن ثلاثة أيام، ثم تخرج فتسقيه خمرأ. وقال الآخر - وهو الخباز -: ﴿إِنِّي أَرَانِي أُحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأٌ بَاطِلٌ إِنَّا رَبُّكَ مِنَ الْمُضِلِّينَ﴾. والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه، وأنهما رأيا مناماً وطلبا تعبيره. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع وابن حميد قالا: حدثنا جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن إبراهيم،

عن عبد الله قال: ما رأى صاحباً يوسف شيئاً، إنما كانا تحالماً ليجربا عليه.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ. قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مَتَا عَلَّمْنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَتَيْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

يخبرهما يوسف، عليه السلام، أنهما مهما رآيا في نومهما من حلم، فإنه عارف بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ. قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾. قال مجاهد: يقول: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ﴾ في نومكما، ﴿إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ. قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾، وكذا قال السدي. وقال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا محمد بن يزيد - شيخ له - حدثنا رشدين، عن الحسن بن ثوبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ما أدرى لعل يوسف، عليه السلام، كان يعتاف وهو كذلك، لأنني أجد في كتاب الله حين قال للرجلين: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ قال: إذا جاء الطعام حلواً أو مرأً اعتاف عند ذلك. ثم قال ابن عباس: إنما علم فلم. وهذا أثر غريب. ثم قال: وهذا إنما هو من تعليم الله إياي؛ لأنني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً في المعاد. ﴿وَأَتَيْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يقول: هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع المرسلين، وأعرض عن طريق الظالمين فإنه يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلمه، ويجعله إماماً يقتدى به في الخير، وداعياً إلى سبيل الرشاد. ﴿مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾: هذا التوحيد - وهو الإقرار بأنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أي: أوحاه إلينا، وأمرنا به ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾، إذ جعلنا دعاء لهم إلى ذلك ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم، بل ﴿يَدُلُّوا بِفَعْمَتِ اللَّهِ كُفْرًا وَأَعْلَوُا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا حجاج، عن عطاء، عن ابن عباس؛ أنه كان يجعل الجد أباً، ويقول: والله فمن شاء لاعناه عند الحجر، ما ذكر الله جداً ولا جدة، قال الله تعالى - يعني إخباراً عن يوسف: ﴿وَأَتَيْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

﴿يَصْخَبُ إِلَيْهِ مَا أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقَتٌ حَبْرٌ أَمَرَ اللَّهُ الْوَحْدَ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَتَشَبُّوهَا أَنْثَى وَاتَّبَاطُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ لِلَّهِ إِلَّا تَنْبُوهُ إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَيْمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

ثم إن يوسف، عليه السلام، أقبل على الفتيتين بالمخاطبة، والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له وخَلَعَ ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما، فقال: ﴿مَا أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقَتٌ حَبْرٌ أَمَرَ اللَّهُ الْوَحْدَ الْقَهَّارُ﴾ أي: الذي ولي كل شيء بجزاله، وعظمته سلطانه. ثم بين لهما أنَّ التي يعبدونها ويسمونها آلهة، إنما هو جهل منهم، وتسمية من تلقاء أنفسهم، تلقاها خلفهم عن سلفهم، وليس لذلك مستند من عند الله؛ ولهذا قال: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: حجة ولا برهان. ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة ألا يعبدوا إلا إياه، ثم قال: ذلك الدين القيم أي: هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله، وإخلاص العمل له، هو الدين المستقيم، الذي أمر الله به وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا كان أكثرهم مشركين. ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. وقد قال ابن جرير: إنما عدل بهم يوسف عن تعبير الرؤيا إلى هذا، لأنه عَرَفَ أنها غشاة لأحدهما، فأحب أن يشغلها بغير ذلك، لئلا يعاودوه فيها، فعادوه، فأعاد عليهم المعوطة. وفي هذا الذي قاله نظر؛ لأنه قد وعدَّهما أولاً بتعبيرها، ولكن جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وُضْعاً وسبباً إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رأى في سجيتهما من قبول الخير والإقبال عليه، والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما، شرع في تعبير رؤياهما، من غير تكرار سؤال فقال: ﴿يَصْخَبُ إِلَيْهِ أَنَا أَعْدُكَ فَيَسْتَقِي رَبِّي حَمْرًا وَمَا الْآخِرُ فَيَصْلُبُ فَتَأْكُلُ الْفَرِيَّةَ مِنْ رَأْيِهِ. فَضَى الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾.

يقول لهما: ﴿يَصْخَبُ إِلَيْهِ أَنَا أَعْدُكَ فَيَسْتَقِي رَبِّي حَمْرًا﴾، وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً، ولكنه لم يعينه لئلا يحزن ذاك، ولهذا أبهمه في قوله: ﴿وَمَا الْآخِرُ فَيَصْلُبُ فَتَأْكُلُ الْفَرِيَّةَ مِنْ رَأْيِهِ﴾، وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً. ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه، وهو واقع لا محالة؛ لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعَبَّرْ، فإذا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ. وقال الثوري، عن عمارة بن القعقاع عن إبراهيم، عن عبد الله قال: لما قال ما قال، وأخبرهما، قال: ما رأينا شيئاً. فقال: ﴿فَضَى

الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ». ورواه محمد بن فضيل، عن عمارة، عن إبراهيم، عن علقمة، عن ابن مسعود به، وكذا فسره مجاهد، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم. وحاصله أن من تحلّم باطل وفسره، فإنه يلزم بتأويله، والله أعلم، وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد، عن معاوية بن حنيفة، عن النبي ﷺ: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبر فإذا عُبرت وقعت». وفي مسند أبي يعلى، من طريق يزيد الرقاشي، عن أنس مرفوعاً: «الرؤيا لأول عابر».

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ اللَّيْلُطُنُّ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَمَّا فِي السَّجْنِ بِعَ سَبْعِينَ ۝٤٢﴾
لما ظن يوسف، عليه السلام، نجاة أحدهما - وهو الساقى - قال له يوسف خفية عن الآخر والله أعلم، لثلا يشعره أنه المصلوب قال له: ﴿اُذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، يقول: اذكر قصتي عند ربك - وهو الملك - فبني ذلك الموصى أن يُذكر مولاه بذلك، وكان من جملة مكاييد الشيطان، لثلا يطلع نبي الله من السجن - هذا هو الصواب أن الضمير في قوله: ﴿فَأَنَسَهُ اللَّيْلُطُنُّ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ عائد على الناجي، كما قال مجاهد، ومحمد بن إسحاق وغير واحد. ويقال: إن الضمير عائد على يوسف، عليه السلام، رواه ابن جرير، عن ابن عباس، ومجاهد أيضاً، وعكرمة، وغيرهم. وأسند ابن جرير ههنا حديثاً فقال: حدثنا ابن وكيع، حدثنا عمرو بن محمد، عن إبراهيم بن يزيد، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «لو لم يقل - يعني: يوسف - الكلمة التي قال: ما لبث في السجن طول ما لبث. حيث يتغي الفرج من عند غير الله». وهذا الحديث ضعيف جداً؛ لأن سفيان بن وكيع ضعيف، وإبراهيم بن يزيد - هو الخواري - أضعف منه أيضاً. وقد روي عن الحسن وقتادة مرسلان عن كل منهما، وهذه المرسلات ههنا لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن، والله أعلم. وأما «الْبُضْعُ»، فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع. وقال وهب بن ميثم: مكث أيوب في البلاء سبعاً ويوسف في السجن سبعاً، وعذاب بختنصر سبعاً. وقال الضحاك، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: فلبث في السجن بضع سنين قال: ثنتا عشرة سنة. وقال الضحاك: أربع عشرة سنة.

﴿وَقَالَ آلِيكَ إِنِّي أُرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُبُلُكَيْ خُضِرٍ وَأَخْرَجَ يَاسِقَاتٍ يَأْكُلْنَ أَلْفَتُونٍ فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُ لِلرُّؤْيَا مَعْرُوفٌ ۝٤٣﴾ قَالُوا أَصْنَعْتَ أَخْلَرٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَرِ بِعِلْمٍ ۝٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِّنْهُمَا وَكَذَرَّ مُوَادَّةَ إِخْوَتِهِ أَنَا أَنْبَأُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ۝٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُبُلُكَيْ خُضِرٍ وَأَخْرَجَ يَاسِقَاتٍ لِّمَنِ الْكَاسُ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَاكًا مَّا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُبُلِيهِ ۝٤٧﴾ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۝٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يَأْكُلُ النَّاسُ مِنِّي يَبْعَثُونَ ۝٤٩﴾

هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسف، عليه السلام، من السجن مُعزّزاً مكرماً، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا، فهالته وتعجب من أمرها، وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة والخزاة وكبراء دولته وأمرائه وقصص عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأن هذه ﴿أَصْنَعْتَ أَخْلَرٌ﴾ أي: أخلاط اقتضت رؤياك هذه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَرِ بِعِلْمٍ﴾ أي: ولو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط، لما كان لنا معرفة بتأويلها، وهو تعبيرها. فعند ذلك تذكّر ذلك الذي نجا من ذنوب الفتيين اللذين كانا في السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف، من ذكر أمره للملك، فعند ذلك تذكر ﴿بَعْدَ أَمْرٍ﴾ أي: مدة - وقرأ بعضهم: ﴿بعد أمرة﴾ أي: بعد نسيان، فقال للملك والذين جمعهم لذلك: ﴿أَنَا أَنْبَأُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: بتأويل هذا المنام، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أي: فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن. ومعنى الكلام: فبعثوا. فجاء. فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾، وذكر المنام الذي رآه الملك، فعند ذلك ذكر له يوسف، عليه السلام، تعبيرها من غير تعنيف لذلك الفتى في نسيانه ما وصاه به، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك، بل قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَاكًا﴾ أي: يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ففسر البقر بالسنين؛ لأنها تثير الأرض التي تُستغل منها الثمرات والزرع، وهن السنبلات الخضراء، ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه في تلك السنين فقال: ﴿مَّا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُبُلِيهِ ۝٤٧﴾ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۝٤٨﴾ أي: مهما استغلتم في هذه السبع السنين الخصب فاخزنوه في سنبله، ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلاً قليلاً لا تسرفوا فيه، لتنتفعوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المُخْلِ التي تعقب هذه السبع متواليات، وهن البقرات العجاف اللاتي يأكلن السَّمان؛ لأن سني الجذب يؤكل فيها ما جمَّعه في سني الخصب، وهن السنبلات اليابسات. وأخبرهم أنهم لا ينبت شيئاً، وما يذروه فلا يرجعون منه إلى شيء؛ ولهذا قال: ﴿يَأْكُلْنَ مَّا قَدَّمْتُمْ لَهَا ۝٤٨﴾ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۝٤٩﴾. ثم بشرهم بعد الجذب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك ﴿عَامٌ فِيهِ يَبْعَثُ النَّاسُ﴾ أي: يأتيهم الغيث، وهو المطر، وتغل البلاد، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عاداتهم، من زيت ونحوه، وسكر ونحوه حتى قال بعضهم: يدخل

فيه حلب اللبن أيضاً. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿وَفِيهِ بَعْمُرُونَ﴾: يحلبون.

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيَنِي بِهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ الْإِنْسَانِ الَّذِي قَطَعَنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَذِبِينَ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَدَدْتَنِي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِي. قُلْتُ حَسْبُ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنِّ حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا رَدَدْتُهُ عَنْ نَفْسِي وَإِنَّهُ لَكِنَّ الْقَدِيرِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ يَعْلَمُ آتِيَنِي أَنَّهُ أَخْتُهُ بِالْقَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالشُّوْءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾.

يقول تعالى إخباراً عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه، التي كان رآها، بما أعجبه وأيقنه، فعرف فضل يوسف، عليه السلام، وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه، وحسن أخلاقه على من يبلده من رعاياه، فقال: ﴿أَتُؤْتِيَنِي بِهِ؟﴾ أي: أخرجوه من السجن وأحضروه. فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته، ونزاهة عرضه، مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه، بل كان ظلماً وعدواناً، قال: ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ الْإِنْسَانِ الَّذِي قَطَعَنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَذِبِينَ عَلِيمٌ﴾. وقد وردت السنة بمدحه على ذلك، والتنبيه على فضله وشرفه، وغلو قدره وصبره، صلوات الله وسلامه عليه، ففي المسند والصحاحين من حديث الزهري، عن سعيد وأبي سلمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أُرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لَيْطُمِينَ عَلَىٰ﴾» [البقرة: ٢٦٠]، ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي». وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَسَأَلَهُ مَا بَالَ الْإِنْسَانِ الَّذِي قَطَعَنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَذِبِينَ عَلِيمٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «لو كنت أنا لأسرعت الإجابة، وما ابتغيت العذر». وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عبيثة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له، حين سُئِلَ عن البقرات العجاف والسَّمان، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أشتري أن يخرجوني. ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له، حين أتاه الرسول، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب، ولكنه أراد أن يكون له العذر». هذا حديث مرسل.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَدَدْتَنِي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِي﴾: إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطباً لهن كلهن - وهو يريد امرأة وزيره، وهو العزيز -: ﴿مَا خَطْبُكُمْ؟﴾ أي: شأنكن وخبركن ﴿إِذْ رَدَدْتَنِي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِي﴾. يعني: يوم الضيافة؟ ﴿قُلْتُ حَسْبُ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ أي: قالت النسوة جواباً للملك: حاش لله أن يكون يوسف مثهما، والله ما علمنا عليه من سوء. فعند ذلك: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنِّ حَصَصَ الْحَقُّ﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: تقول: الآن تبين الحق وظهر وبرز. ﴿أَنَا رَدَدْتُهُ عَنْ نَفْسِي وَإِنَّهُ لَكِنَّ الْقَدِيرِينَ﴾ أي: في قوله: ﴿هُوَ رَدَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾. ﴿ذَلِكَ يَعْلَمُ آتِيَنِي أَنَّهُ أَخْتُهُ بِالْقَيْبِ﴾. تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي، ذلك ليعلم زوجي أنني لم أخنه في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة، فامتنع؛ فلهذا اعترفت ليعلم أنني بريئة، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾، تقول المرأة: ولست أبرئ نفسي، فإن النفس تتحدث وتمنى؛ ولهذا راودته لأنها أماراة بالسوء، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أي: إلا من عصمه الله تعالى، ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام. وقد حكاه الماوردي في تفسيره، وانتدب لنصرة الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية، رحمه الله، فأفرده بتصنيف على حدة. وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف، عليه السلام، من قوله: ﴿ذَلِكَ يَعْلَمُ آتِيَنِي أَنَّهُ أَخْتُهُ﴾ في زوجته ﴿بِالْقَيْبِ﴾ الآيتين أي: إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتي وليعلم العزيز ﴿آتِيَنِي أَنَّهُ أَخْتُهُ﴾ في زوجته ﴿بِالْقَيْبِ﴾، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالشُّوْءِ﴾ الآية، وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم سواه. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما جمع الملك النسوة فسألهن: هل راودتن يوسف عن نفسه؟ ﴿قُلْتُ حَسْبُ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنِّ حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا رَدَدْتُهُ عَنْ نَفْسِي وَإِنَّهُ لَكِنَّ الْقَدِيرِينَ﴾ قال يوسف: ﴿ذَلِكَ يَعْلَمُ آتِيَنِي أَنَّهُ أَخْتُهُ بِالْقَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾، قال: فقال له جبريل، عليه السلام: ولا يوم هممت بما هممت به. فقال: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالشُّوْءِ﴾. وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، وابن أبي الهذيل، والضحاك، والحسن، وقنادة، والسدي. والقول الأول أقوى وأظهر؛ لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف، عليه السلام، عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيَنِي بِهِ؟ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَصِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾.

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف، عليه السلام، ونزاهة عرضه مما نسب إليه، قال: ﴿أَتُونِي بِهِ أَتَنْصَلَهُ لِئَتِيَّ أَي: أجمعه من خاصتي وأهل مشورتي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أي: خاطبه الملك وعرفه، ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خلق وخلق وكمال قال له الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة، فقال يوسف، عليه السلام: ﴿أَتَعْمَلَنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَوِيْطٌ عَلَيْكَ﴾، مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره، للحاجة. وذكر أنه ﴿حَفِيْظٌ﴾ أي: خازن أمين، ﴿عَلَيْكَ﴾ ذو علم وبصر بما يتولا. قال شيبه بن نعام: حفيظ لما استودعته، عليم بسني الجذب. رواه ابن أبي حاتم. وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه، ولما في ذلك من المصالح للناس، وإنما سأل أن يُحْفَلَ على خزائن الأرض، وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلات، لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها، ليتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه، وتكرمة له؛ ولهذا قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَآخِرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر، ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾. قال السُّدِّي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يتصرف فيها كيف يشاء. وقال ابن جرير: يتخذ منها منزلاً حيث يشاء، بعد الضيق والحبس والإسار. ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز؛ فلماذا أعقبه الله ﷻ السلامة والنصر والتأييد، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وَلَآخِرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾، يخبر تعالى أن ما ادخره الله لنبيه يوسف، عليه السلام، في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل، مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا كما قال تعالى في حق سليمان، عليه السلام: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِمِيزَانٍ ﴿٢١﴾ وَإِن لَّمْ يَنْدَ لِرَبِّكَ وَحْنٌ مِّنَ مَّكَّابِ ﴿٢٢﴾﴾ [ص: ٤٠، ٣٩].

والغرض أن يوسف، عليه السلام، ولأهـ ملك مصر الريأ بن الوليد الوزارة في بلاد مصر، مكان الذي اشتراه من مصر زوج التي راودته، وأسلم الملك على يدي يوسف، عليه السلام. قال مجاهد. وقال محمد بن إسحاق لما قال يوسف للملك: ﴿أَتَعْمَلَنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَوِيْطٌ عَلَيْكَ﴾، قال الملك: قد فعلت. فولاه فيما ذكروا عمل إطفير، وعزل إطفير عما كان عليه، يقول الله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ فذكر لي - والله أعلم - أن إطفير هلك في تلك الليالي، وأن الملك الريان بن الوليد زوج يوسف امرأة إطفير: راعيل، وأنها حين دخلت عليه قال: أليس هذا خيراً مما كنت تريد؟ قال: فيزعمون أنها قالت: أيها الصديق، لا تلمني، فإني كنت امرأة كما ترى حسناء جميلة، ناعمة في ملك ودينا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك على ما رأيت، فيزعمون أنه وجدها عذراء، فأصابها فولدت له رجلين: أفراتيم بن يوسف، وميشا بن يوسف. وولد أفراتيم نون، والد يوشع بن نون، ورحمة امرأة أيوب، عليه السلام. وقال الفضل بن عياض: وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق، حتى مر يوسف، فقالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته، والملوك عبيداً بمعصيته.

﴿وَرَجَعَتْ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُونِي بِأَنْعَامِكُمْ لَكُمْ مِنْ أَجْلِكُمْ آلَا تَزِنُ آلَا أَوْفَى الْكَفْلِ وَأَنَا خَيْرٌ مِنَ الْمَزِينِ ﴿٥٩﴾ إِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهٗ أَبْنَاءُ وَإِنَّا لَنَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِصَنَمَتِهِمْ فِي رِحْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

ذكر السُّدِّي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهما من المفسرين: أن السبب الذي أقدم إخوة يوسف بلاد مصر، أن يوسف، عليه السلام، لما باشر الوزارة بمصر، ومضت السبع السنين المخصصة، ثم تلتها سنين الجذب، وعم القحط بلاد مصر بكمالها، ووصل إلى بلاد كنعان، وهي التي فيها يعقوب، عليه السلام، وأولاده. وحينئذ احتاط يوسف، عليه السلام، للناس في غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، وأهراء متعددة هائلة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة. وكان، عليه السلام، لا يشبع نفسه ولا يأكل هو والملك وجنوده إلا أكلة واحدة في وسط النهار، حتى يتكفي الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين. وكان رحمة من الله على أهل مصر. وما ذكره بعض المفسرين من أنه باعهم في السنة الأولى بالأموال، وفي الثانية بالمتاع، وفي الثالثة بكذا، وفي الرابعة بكذا، حتى باعهم بأنفسهم وأولادهم بعدما تملك عليهم جميع ما يملكون، ثم اعتقهم ورد عليهم أموالهم كلها، الله أعلم بصحة ذلك، وهو من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب. والغرض أنه كان في جملة من ورد

للميرة إخوة يوسف، عن أمر أبيهم لهم في ذلك، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يتعاضون بها طعاماً، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوب، عليه السلام، عنده بنيامين شقيق يوسف، عليهما السلام، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف. فلما دخلوا على يوسف، وهو جالس في أبيته ورياسته وسيادته، عرفهم حين نظر إليهم، ﴿وَهُمْ لَمْ تُكْرَهُنَّ﴾ أي: لا يعرفونه؛ لأنهم فارقه وهو صغير حدث فباعوه للسيارة، ولم يدروا أين يذهبون به، ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فلهذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم. فذكر السدي وغيره: أنه شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمكر عليهم: ما أقدمكم بلادى؟ قالوا: أيها العزيز، إنا قدما للميرة. قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله. قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبي الله. قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم، كنا اثني عشر، فذهب أصغرنا، هلك في البرية، وكان أحبنا إلى أبيه، وبقي شقيقه فاحتبس أبوه ليتسلى به عنه. فأمر بإتزالهم وإكرامهم.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: وفاهم كيلهم، وحمل لهم أحمالهم قال: اتنوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم، لأعلم صدقكم فيما ذكرتم، ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْكَاتِرِينَ﴾ يرغبهم في الرجوع إليه، ثم رَهَبَهُمْ فقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ (٦٣) أي: إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية، فليس لكم عندي ميرة، ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ قَالُوا سَرَدُودٌ عَنْهُ آبَاءُ وَإِنَّا لَنَقُولُ﴾ (٦٤) أي: سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولا نبقى مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلناه. وذكر السدي: أنه أخذ منهم رهائن حتى يقدموا به معهم. وفي هذا نظر؛ لأنه أحسن إليهم ورغبهم كثيراً، وهذا لحرصه على رجوعهم. ﴿وَقَالَ لِفَتَاتِهِ﴾ أي: غلماناه ﴿اجْعَلُوا بِضَعَتَكُمْ﴾، وهي التي قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها ﴿فِي رِبَاسِهِمْ﴾ أي: في أمتعتهم من حيث لا يشعرون، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بها. قيل: خشي يوسف، عليه السلام، ألا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها. وقيل: تذمم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن الطعام. وقيل: أراد أن يردهم إذا وجدوها في متاعهم ترحجاً وتورعاً لأنه يعلم ذلك منهم والله أعلم.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَنَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَمُحْفِظُونَ﴾ (٦٥) قَالَ هَلْ أَمَنَّكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنَّاكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٦﴾.

يخير تعالى عنهم أنهم لما رجعوا إلى أبيهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ يعنون بعد هذه المرة، إن لم ترسل معنا آخانا بنيامين، فأرسله معنا نكتل. وقرأ بعضهم: ﴿يَكْتَلُ﴾ بالياء، أي يكتل هو، ﴿وَإِنَّا لَمُحْفِظُونَ﴾ أي: لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك. وهذا كما قالوا له في يوسف: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَقِ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَمُحْفِظُونَ﴾ (١١)؛ ولهذا قال لهم: ﴿هَلْ أَمَنَّكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنَّاكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغيّبونه عني، وتحولون بيني وبينه؟ ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا﴾ وقرأ بعضهم: ﴿حفظاً﴾، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: هو أرحم الراحمين بي، وسيرحم كبري وضعفي ووحدني بولدي، وأرجو من الله أن يرده علي، ويجمع شملتي به، إنه أرحم الراحمين.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبُئُكَ هَذِهِ بَضَعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَبُئُكَ آخَنَانَا وَزَدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٌ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ (٦٧) قَالَ لَنْ أَرْسِلَ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٨﴾.

يقول تعالى: ولما فتح إخوة يوسف متاعهم، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، وهي التي كان أمر يوسف فتياته بوضعها في رحالهم، فلما وجدوها في متاعهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبُئُكَ؟﴾ أي: ماذا نريد؟ ﴿هَذِهِ بَضَعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ كما قال قتادة. ما نبغي وراء هذا؟ إن بضاعتنا ردت إلينا وقد أوفى لنا الكيل. ﴿وَنَبُئُكَ آخَنَانَا﴾ أي: إذا أرسلت آخانا معنا تأتي بالميرة إلى أهلنا، ﴿وَنَحْفَظُ آخَنَانَا وَزَدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٌ﴾ وذلك أن يوسف، عليه السلام، كان يعطي كل رجل حمل بعير. وقال مجاهد: حمل حمار. وقد يسمى في بعض اللغات بعيراً، كذا قال. ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾: هذا من تمام الكلام وتحسينه، أي: إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهما ما يعدل هذا. ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ أي: تحلفون بالعهود والمواثيق، ﴿لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرن على تخليصه. ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أكد عليهم فقال: ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾. قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك؛ لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميرة، التي لا غنى لهم عنها، فبعثهم معهم.

﴿وَقَالَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَدْخُلُوا مِنَّا بَابَ رَجَدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أُبْرَاقٍ مُتَفَوِّتَةٍ وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ رِزْقُ اللَّهِ مِنْ قَوْمٍ إِنَّا لَنَكُنُّمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٦٩) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَنَهَا وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلَيْهِ لَمَّا عَلَنَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ لَنَاسٍ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾.

يقول تعالى، إخباراً عن يعقوب، عليه السلام: إنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيه بنيامين إلى مصر، ألا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه كما قال ابن عباس، ومحمد بن كعب، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي: إنه خشي عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم؛ فإن العين حق، تستنزل الفارس عن فرسه. وروى ابن أبي حاتم، عن إبراهيم التيمي في قوله: ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ قال: علم أنه سيلقى إخوته في بعض الأبواب. وقوله: ﴿وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ رَبُّكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاه؛ فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع، ﴿إِنْ أَمَرْتُكُمْ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا قالوا: هي دفع إصابة العين لهم، ﴿وَلَهُمْ لَذُوٌّ وَلَهُمْ لِمَا عَصَيْتُمْ﴾ قال قتادة والثوري: لذو عمل بعلمه. وقال ابن جرير: لذو علم لتعليمنا إياه، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَاتَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٩).

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين، فادخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والإلطف والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه، وما جرى له، وعرفه أنه أخوه، وقال له: «لا تبتئس» أي: لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وألا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقية عنده، مُعَزِّزاً مكرماً معظماً.

﴿لَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَمَعَ التَّيَّاقَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا الْغَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ (٧٢).

لما جهَّزهم وحمل لهم أبعرتهم طعاماً، أمر بعض فتياته أن يضع «السقاية»، وهي: إناء من فضة في قول الأكثرين. وقيل: من ذهب. قاله ابن زيد. كان يشرب فيه، ويكيل للناس به من عزة الطعام إذ ذاك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد. وقال شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: «صَوَاعَ الْمَلِكِ» قال: كان من فضة يشربون فيه، وكان مثل المكوك، وكان للعباس مثله في الجاهلية، فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى مناد بينهم: «أَتَتْهَا الْغَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ»، فالتفتوا إلى المنادي وقالوا: «مَاذَا تَفْقِدُونَ قَالُوا نَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ» أي: صاعه الذي يكيل به، ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾، وهذا من باب الجعالة، ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾، وهذا من باب الضمان والكفالة.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفِيسَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِيقِينَ﴾ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٧٥) قَدْ أَفْلَحَ بَنُو إِسْرَءِيلَ إِذْ وَفَّىٰ ذِي عِلْقٍ عَلَيْهِمْ﴾ (٧٦).

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة، قال لهم إخوة يوسف: «تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفِيسَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِيقِينَ» أي: لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا، لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة، أننا ما جئنا للفساد في الأرض، وما كنا سارقين، أي: ليست سجاياتنا تقتضي هذه الصفة، فقال لهم الفتيان: «فَمَا جَزَاؤُهُ» أي: السارق، إِنْ كَانَ فِيكُمْ «إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ» أي: أي شيء يكون عقوبته إِنْ وَجَدْنَا فِيكُمْ مِنْ أَخْذِهِ؟ قَالُوا جَزَاؤُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥). وهكذا كانت شريعة إبراهيم: أن السارق يدفع إلى المسروق منه. وهذا هو الذي أراد يوسف، عليه السلام؛ ولهذا بدأ بأرعتهم قبل وعاء أخيه، أي: فنشأ قبله، تورية، ﴿ثُمَّ اسْتَخْرِجْنَا مِنْهُ وَأَخَاهُ﴾، فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم وإلزاماً لهم بما يعتقدونه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ يُوسُفُ﴾، وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة. وقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي: لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر، قاله الضحاك وغيره. وإنما قبض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم؛ ولهذا مدحه تعالى فقال: ﴿وَوَفَّىٰ ذِي عِلْقٍ مِّنْ نَّشَأِهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْفَلَاحَ دَرَجَتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]. ﴿وَوَفَّىٰ ذِي عِلْقٍ عَلَيْهِمْ﴾ قال الحسن البصري: ليس عالم إلا فوّه عالم، حتى ينتهي إلى الله ﷻ. وكذا رَوَى عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن عبد الأعلى الثعلبي، عن سعيد بن جبير قال: كنا عند ابن عباس فتحدث بحديث عجيب، فتعجب رجل فقال: الحمد لله ﴿وَوَفَّىٰ ذِي عِلْقٍ عَلَيْهِمْ﴾ فقال ابن عباس: بشئ ما قلت، الله العليم، وهو فوق كل عالم، وكذا روى سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَوَفَّىٰ ذِي عِلْقٍ عَلَيْهِمْ﴾، قال: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله

فوق كل عالم. وهكذا قال عكرمة. وقال قتادة: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ﴾، حتى ينتهي العلم إلى الله، منه بُدِئ وتعلمت العلماء، وإليه يعود، وفي قراءة عبد الله ﴿وَفَوْقَ كُلِّ عَالَمٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي تَقْيِيهِ. وَلَمْ يَجِدْهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (٧٧).

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصُّلَّاح قد أخرج من متاع بنيامين: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾، يتصلون إلى العزيز من التشبه به، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل، يعنون به يوسف، عليه السلام. قال سعيد بن جبير، عن قتادة: كان يوسف قد سرق صنماً لجده، أبيه، فكسره. وقال محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد قال: كان أول ما دخل على يوسف من البلاء، فيما بلغني، أن عمته ابنة إسحاق، وكانت أكبر ولد إسحاق، وكانت إليها منطقة إسحاق، وكانوا يوارثونها بالكبر، فكان من اختيارها ممن وليها كان له سُلماً لا يَنَازِع فيه، يصنع فيه ما يشاء. وكان يعقوب حين وُلِد له يوسف قد حضنته عمته، فكان منها وإليها، فلم يُحب أحد شيئاً من الأشياء حبها إياه، حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات وقعت نفس يعقوب عليه فأتاها، فقال: يا أُخْتِي، سلمني إلي يوسف، فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة. قالت: فوالله ما أنا بتاركته. ثم قالت: فدعه عندي أياماً أنظر إليه وأسكن عنه، لعل ذلك يسليني عنه. أو كما قالت. فلما خرج من عندها يعقوب، عمدت إلى منطقة إسحاق، فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه، ثم قالت: فقدت منطقة إسحاق، عليه السلام، فانظروا من أخذها ومن أصابها؟ فالتفتت ثم قالت: اكتشفوا أهل البيت. فكشفوهم فوجدوها مع يوسف. فقالت: والله إنه لي لسَلَمٌ، أصنع فيه ما شئت. فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر. فقال لها: أنت وذاك، إن كان فعل ذلك فهو سَلَمٌ لك ما أستطيع غير ذلك. فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت. قال: فهو الذي يقول إخوة يوسف حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾. وقوله: ﴿فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي تَقْيِيهِ﴾ يعني: الكلمة التي بعدها، وهي قوله: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي: تذكرون. قال هذا في نفسه، ولم يبهده لهم، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر، وهو كثير، كقول الشاعر:

جَزَى بَثْوُهُ أَبَا الْغِيلَانِ عَنْ كَبِيرٍ وَحُسْنُ فَعْلٍ كَمَا يُجَزَى سَنَمَارٌ
وله شواهد كثيرة من القرآن والحديث واللغة، في منشورها وأخبارها وأشعارها. قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي تَقْيِيهِ﴾ قال: أسر في نفسه: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٧٨) قَالَ مَكَادَ اللَّهُ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَعَنَا بِهِ إِنْ أَرَادْنَا أَنْ نَلْطَلِسَ بِهِ (٧٩).

لما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم، شرعوا يترققون له ويعطفونه عليهم، ف﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ يعنون: وهو يحبه حباً شديداً ويتسلى به عن ولده الذي فقده، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ أي: بدله، يكون عندك عوضاً عنه، ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: من العادلين المنصفين القابلين للخير. ﴿قَالَ مَكَادَ اللَّهُ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَعَنَا بِهِ﴾ أي: كما قلتم واعترفتم، ﴿إِنَّا إِذَا لَطَلِسْنَا بِهِ﴾ أي: إن أخذنا برئاً بسقيم.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ حَكَمُوا بَيْنَهُمْ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا قَرْنْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ إِلَيَّ أَوْ بِحَكْمِ اللَّهِ إِلَيَّ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٠) أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيْكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَشَكَالَ الْفَرِيزَةَ إِلَيْنَا فَمَا وَالْعِزَّ إِلَيْنَا أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢).

يخبر تعالى عن إخوة يوسف: أنهم لما ينسوا من تخليص أخيه بنيامين، الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه، وعاهدوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك، ﴿حَكَمُوا﴾ أي: انفردوا عن الناس ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يتناجون فيما بينهم. ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ وهو رؤبيل، وقيل: يهوذا، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما هموا بقتله، قال لهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ؟ لَتُرَدَّنَّ إِلَيْهِ، فقد رأيتكم كيف تعذرون عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أي: لن أفارق هذه البلدة، ﴿حَتَّى يَأْذَنَ إِلَيَّ أَوْ بِحَكْمِ اللَّهِ إِلَيَّ﴾ في الرجوع إليه راضياً عني، ﴿أَوْ بِحَكْمِ اللَّهِ إِلَيَّ﴾، قيل: بالسيف. وقيل: بأن يمكنني من أخذ أخي، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾. ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع، حتى يكون عذراً لهم عنده ويتصلوا إليه، ويبرؤوا مما وقع بقولهم. وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ قال عكرمة وقاتة: ما كنا نعلم أن ابنك سرق. وقال عبد الرحمن بن زيد بن

أسلم: ما علمنا في الغيب أنه يسرق له شيئاً، إنما سألنا ما جزاء السارق؟ ﴿وَسَلَّى الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ قيل: المراد مصر. قاله قتادة، وقيل: غيرها، ﴿وَالْيَمِينَ الَّتِي أَقْلَمْنَا فِيهَا﴾ أي: التي رافقناها، عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا، ﴿وَأَنَا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرنا به، من أنه سرق وأخذه بسرقة.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَنِ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٨٧﴾ رَوَّلَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَى يَوْسُفَ وَأَيُّضًا عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَوَاطِبٌ ﴿٨٨﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتَرُونَ تَذَكَّرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونُ حَرَمًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٩﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحْزَنِي إِلَى اللَّهِ وَاعْلَمُوا مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٠﴾.

قال لهم كما قال لهم حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾. قال محمد بن إسحاق: لما جاؤوا يعقوب وأخبروه بما جرى اتهمهم، وظن أنها كفعلتهم بيوسف ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾. وقال بعض الناس: لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول، سُجِبَ حكم الأول عليه، وصح قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾. ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخاه بنيامين، وروبل الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه، إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية؛ ولهذا قال: ﴿عَنِ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وقضائه وقدره. ﴿وَرَوَّلَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَى يَوْسُفَ﴾ أي: أعرض عن بنيه وقال متذكراً حُزْنَ يوسف القديم الأول: ﴿يَأْسَفُ عَلَى يَوْسُفَ﴾، جَدَّدَ له حُزْنَ الابنين الحزن الدفين. قال عبد الرزاق، أخبرنا الثوري، عن سفيان المصفرى، عن سعيد بن جبيرة أنه قال: لم يعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع، ألا تسمعون إلى قول يعقوب، عليه السلام: ﴿يَأْسَفُ عَلَى يَوْسُفَ وَأَيُّضًا عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَوَاطِبٌ﴾ أي: ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق. قاله قتادة وغيره. وقال الضحاك: ﴿فَهُوَ كَوَاطِبٌ﴾: كميد حزين. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حماد بن سلمة حدثنا أبو موسى، عن علي بن زيد، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، أن النبي ﷺ قال: «إن داود، عليه السلام، قال: يا رب، إن بني إسرائيل يسألونك إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فاجعلني لهم رابعاً. فأوحى الله تعالى إليه أن يا داود، إن إبراهيم ألقي في النار بسببي فصبر، وتلك بلية لم تلك، وإن إسحاق بذل مهجة دمه في سببي فصبر، وتلك بلية لم تلك، وإن يعقوب أخذت منه حبيبه حتى أبيضت عيناه من الحزن، فصبر، وتلك بلية لم تلك». وهذا مرسل، وفيه نكارة؛ فإن الصحيح أن إسماعيل هو الذبيح، ولكن علي بن زيد بن جذعان له منكري وخرائب كثيرة، والله أعلم. وأقرب ما في هذا أن يكون قد حكاه الأحنف بن قيس، رحمه الله، عن بني إسرائيل ككعب ووهب ونحوهما، والله أعلم، فإن الإسرائيليين ينقلون أن يعقوب كتب إلى يوسف لما احتبس أخاه بسبب السرقة يتلطف له في رده، ويذكر له أنهم أهل بيت مصابون بالبلاء، فإبراهيم ابتلي بالنار، وإسحاق بالذبح، ويعقوب بفراق يوسف، في حديث طويل لا يصح، والله أعلم، فعند ذلك رق له بنوه، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتَرُونَ تَذَكَّرُ يَوْسُفَ﴾ أي: لا تفارق تذكّر يوسف، ﴿حَتَّى تَكُونُ حَرَمًا﴾ أي: ضعيف الجسم، ضعيف القوة، ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ يقولون: وإن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف. ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحْزَنِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: أجابه عما قالوا بقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحْزَنِي﴾ أي: همي وما أنا فيه ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿وَاعْلَمُوا مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أرجو منه كل خير. وعن ابن عباس: ﴿وَاعْلَمُوا مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني رؤيا يوسف أنها صدق وأن الله لا بد أن يظهرها وينجزها. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَاعْلَمُوا مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أعلم أن رؤيا يوسف صادقة، وأني سوف أسجد له. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا يحيى بن عبد الملك بن أبي غنينة، عن حفص بن عمر بن أبي الزبير، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كان ليعقوب النبي، عليه السلام، أخ مؤاخ له، فقال له ذات يوم: ما الذي أذهب بصرك وقوس ظهرك؟ قال: الذي أذهب بصري البكاء على يوسف، وأما الذي قوس ظهري فالحزن على بنيامين، فأتاه جبريل، عليه السلام، فقال: يا يعقوب، إن الله يقرئك السلام ويقول لك: أما تستحي أن تشكوني إلى غيري؟ فقال يعقوب: إنما أشكو بني وحزني إلى الله. فقال جبريل، عليه السلام: الله أعلم بما تشكو». وهذا حديث غريب، فيه نكارة.

﴿يَتَّبِعُوا آذَانًا مَغَيَّبًا عَنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِيَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ إِلَهًا إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٩١﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَقْلَمْنَا النَّفْسَ وَحَنَّا يَصْغَعُ مُرَحَنَةً فَأَوْنِي لَنَا الْكَلَّ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٩٢﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يعقوب، عليه السلام، أنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض، يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين. والتحسن يكون في الخير، والتجسس يستعمل في الشر. ونهضهم وبشرهم وأمرهم ألا يياسوا من روح الله، أي: لا يقطعوا

رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه، فإنه لا يقطع الرجاء، ويقطع الإياس من الله إلا القوم الكافرون. وقوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ تقدير الكلام: فذهبوا فدخلوا بلد مصر، ودخلوا على يوسف، ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْمَرْيُومُ سَنَا وَأَفَلْنَا الْقُرْهُ﴾ يعنون من الجذب والفحط وقلة الطعام، ﴿وَرَجَعْنَا بِضْعَةَ ثَرْجَةٍ﴾ أي: ومعنا ثمن الطعام الذي تمتاره، وهو ثمن قليل. قاله مجاهد، والحسن، وغير واحد. وقال ابن عباس: الرديء لا يتفق، مثل خلقت الغرارة، والحيل، والشيء، وفي رواية عنه: الدراهم الرديئة التي لا تجوز إلا بنقصان. وكذا قال قتادة، والسدي. وقال سعيد بن جببر وعكرمة: هي الدراهم الفسول. وقال أبو صالح: هو الصنوبر وحبه الخضراء. وقال الضحاك: كاسدة لا تنفق. وقال أبو صالح: جاؤوا بحب البطم الأخضر والصنوبر. وأصل الإزجاء: الدفع لضعف الشيء، كما قال حاتم الطائي:

لَيْبِكَ عَلَى مِلْحَانٍ ضَيْفٌ مُدْفَعٌ وَارْمَلَةَ تُزْجِي مَعَ اللَّيْلِ أَرْمَلًا
وقال أعشى بني ثعلبة:

الْوَاهِبُ الْمَائَةِ الْهَبَاءَ وَعَبِيدَهَا عُدُودًا تُزْجِي خَلْفَهَا أَطْفَالَهَا
وقوله إخباراً عنهم: ﴿فَأَوَّيْنَا لَنَا الْكَيْلَ﴾ أي: أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك. وقرأ ابن مسعود: ﴿فَأَوْزَرَ رُكَابَنَا وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا﴾. وقال ابن جرير: ﴿وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا﴾ وقال سعيد بن جببر والسدي: ﴿وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا﴾، يقولون: تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة، وتجاوز فيها. وسئل سفيان بن عيينة: هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبي ﷺ؟ فقال: ألم تسمع قوله: ﴿فَأَوَّيْنَا لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ رواه ابن جرير عن الحارث، عن القاسم، عنه. وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا القاسم، حدثنا مروان بن معاوية، عن عثمان بن الأسود: سمعت مجاهداً وسئل: هل يكره أن يقول الرجل في دعائه: اللهم تصدق علي؟ فقال: نعم، إنما الصدقة لمن يبتغي الثواب.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُ يُونُسَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتَرْتُمْ جَهْلُوتَ﴾ ﴿١٠٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَكُنْ لَكَ يُونُسَ قَالَ أَنَا يُونُسَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّمَا مِنْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَارَكٌ اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا نَأَلُّهُ لَقَدْ مَاتَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيطِينَ ﴿١١١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَقْبِضُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوسف، عليه السلام: أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجذب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورافة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدره البكاء، فتعرف إليهم، يقال: إنه رفع التاج عن جبهته، وكان فيها شامة، وقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُ يُونُسَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتَرْتُمْ جَهْلُوتَ﴾؟ يعني: كيف فرقوا بينه وبينه ﴿إِذْ أَنتَرْتُمْ جَهْلُوتَ﴾؟ أي: إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه، كما قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل، وقرأ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَهِدُوا الشَّوْةَ بِجَهَنَّمَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا فَتَقَوُّرٌ رَجِيءٌ﴾ [النحل: ١١٩]. والظاهر - والله أعلم - أن يوسف، عليه السلام، إنما تعرف إليهم بنفسه، بإذن الله له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر، فَرَجَّجَ الله تعالى من ذلك الضيق، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مَعَ الْفَرَجِ مِمَّا كُنْتَ مَعِ الْفَرَجِ﴾ [الشرح: ٥، ٦]، فعند ذلك قالوا: ﴿أَوَلَمْ نَكُنْ لَكَ يُونُسَ﴾؟ وقرأ أبي بن كعب: ﴿أَوَأَنْتَ يُونُسَ﴾، وقرأ ابن محيصين: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ يُونُسَ﴾. والقراءة المشهورة هي الأولى؛ لأن الاستفهام يدل على الاستعظام، أي: إنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من ستين وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكنم نفسه، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام: ﴿أَوَلَمْ نَكُنْ لَكَ يُونُسَ قَالَ أَنَا يُونُسَ وَهَذَا أَخِي﴾، ﴿قَدْ مَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد العدة، ﴿إِنَّمَا مِنْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَارَكٌ اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١١٠﴾ قَالُوا نَأَلُّهُ لَقَدْ مَاتَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيطِينَ ﴿١١١﴾ يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخلق والخلق، والسعة والملك، والتصرف والنبوة أيضاً - على قول من لم يجعلهم أنبياء - وأقروا له بأنهم أساءوا إليه وأخطأوا في حقه. ﴿قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ﴾ يقول: لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم، ولا أعيد ذنبكم في حقي بعد اليوم. ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال: ﴿يَقْبِضُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. قال السدي: اعتذروا إلى يوسف، فقال: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ﴾ يقول: لا أذكر لكم ذنبكم. وقال ابن إسحاق والثوري: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ﴾ أي: لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتم ﴿يَقْبِضُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: يستر الله عليكم فيما فعلتم، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأُنْثِرُوا بِأَمْلِكُمْ أَحْمَوِيكَ﴾ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَ الْوَيْلُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنَّا نُنَفِّذُونَ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ ﴿٩٥﴾ .

يقول: اذهبوا بهذا القميص، ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾، وكان قد غمي من كثرة البكاء، ﴿وَأُنْثِرُوا بِأَمْلِكُمْ أَحْمَوِيكَ﴾ أي: بجمع بني يعقوب. ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْوَيْلُ﴾ أي: خرجت من مصر، ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعني: يعقوب، عليه السلام، لمن بقي عنده من بنيه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنَّا نُنَفِّذُونَ﴾: تنسبوني إلى الفئدة والكبر. قال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل، عن أبي سينان، عن عبد الله بن أبي الهذيل قال: سمعت ابن عباس يقول: ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْوَيْلُ﴾ قال: لما خرجت العير، هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنَّا نُنَفِّذُونَ﴾، قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام. وكذا رواه سفيان الثوري، وشعبة، وغيرهما عن أبي سينان، به. وقال الحسن وابن جريج: كان بينهما ثمانون فرسخاً، وكان بينه وبينه منذ افترقا ثمانون سنة. وقوله: ﴿لَوْلَا أَنَّا نُنَفِّذُونَ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وقتادة، وسعيد بن جبيرة: تُسَفِّهُونَ. وقال مجاهد أيضاً، والحسن: تُهْزَمُونَ. وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ قال ابن عباس: لفي خطئك القديم. وقال قتادة: أي من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه، قالوا لوالدهم كلمة غليظة، لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبي الله ﷺ. وكذا قال السدي، وغيره.

﴿لَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ. فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَتَّكِبُ إِنَّا نَعْتَفِرُ لَكَ ذُنُوبًا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَفْتِي لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٩٨﴾ .

قال ابن عباس والضحاك: ﴿الْبَشِيرُ﴾: البريد. وقال مجاهد والسدي: كان يهودا بن يعقوب. قال السدي: إنما جاء به لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب، فأراد أن يغسل ذاك بهذا، فجاء بالقميص فآلقاه على وجه أبيه، فرجع بصيراً. وقال لبيبة عند ذلك: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم أن الله سيرده إلي، وقلت لكم: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنَّا نُنَفِّذُونَ﴾؟ فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفين له: ﴿يَتَّكِبُ إِنَّا نَعْتَفِرُ لَكَ ذُنُوبًا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَفْتِي لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ أي: من تاب إليه تاب عليه. قال ابن مسعود، وإبراهيم التيمي، وعمرو بن قيس، وابن جريج وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السحر. وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب، حدثنا ابن إدريس، سمعت عبد الرحمن بن إسحاق يذكر عن محارب بن ثار قال: كان عمر، رضي الله عنه، يأتي المسجد فيسمع إنساناً يقول: «اللهم دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا السحر فاغفر لي». قال: فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود. فسأل عبد الله عن ذلك فقال: إن يعقوب أخرني به إلى السحر بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَفْتِي لَكُمْ رَبِّي﴾. وقد ورد في الحديث أن ذلك كان ليلة الجمعة، كما قال ابن جرير أيضاً: حدثني المثنى، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن أبو أيوب الدمشقي، حدثنا الوليد، أنبأنا ابن جريج، عن عطاء وعكرمة، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ: ﴿سَوْفَ أَسْتَفْتِي لَكُمْ رَبِّي﴾، يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة، وهو قول أخي يعقوب لبيبة. وهذا غريب من هذا الوجه، وفي رفعه نظر، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَاهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ﴾ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَنِي رُؤْيَى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنَّ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١٠٠﴾ .

يخبر تعالى عن ورود يعقوب، عليه السلام، وقدمه بلاد مصر، لما كان يوسف قد تقدم إلى إخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر، فلما أخبر يوسف، عليه السلام، باقترابهم خرج لتلقيهم، وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقي نبي الله يعقوب، عليه السلام، ويقال: إن الملك خرج أيضاً لتلقيه، وهو الأشبه.

وقد أشكل قوله: ﴿ءَاوَى إِلَيْهِ أَبَوَاهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ﴾ على كثير من المفسرين، فقال بعضهم: هذا من المقدم والمؤخر، ومعنى الكلام: ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ﴾، وآوى إليه أبويه، ورفعهما على العرش. وقد رد ابن جرير هذا. وأجاد في ذلك. ثم اختار ما حكاه عن السدي: أن يوسف آوى إليه أبويه لما تلقاهما، ثم لما وصلوا باب البلد قال: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ﴾. وفي هذا نظر أيضاً؛ لأن الإيواء إنما يكون في المنزل، كقوله: ﴿ءَاوَى إِلَيْهِ أَحِبَّاءُ﴾، وفي الحديث: «من آوى محدثاً وما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وآواهم إليه: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ﴾، وضمنه: اسكنوا مصر» ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ

﴿يُؤَيِّنُ﴾ أي: مما كنتم فيه من الجهد والقحط، ويقال - والله أعلم -: إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجيدة ببركة قدوم يعقوب عليهم، كما رفع بقية السنين التي دعا بها رسول الله ﷺ على أهل مكة حين قال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف»، ثم لما تضرعوا إليه واستشفعوا لديه، وأرسلوا أبا سفيان في ذلك، فدعا لهم، فُرفع عنهم بقية ذلك ببركة دعائه، عليه السلام. وقوله: ﴿ءَاوَيْتَ إِلَيْنَا يَا يُوسُفُ﴾، قال السدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما كان أباه وخالته، وكانت أمه قد ماتت قديماً. وقال محمد بن إسحاق وابن جرير: كان أبوه وأمه يعيشان. قال ابن جرير: ولم يقم دليل على موت أمه، وظاهر القرآن يدل على حياتها. وهذا الذي نصره هو المنصور الذي يدل عليه السياق.

وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: يعني السرير، أي: أجلسهما معه على سريرهِ. ﴿وَجُوعُوا لَهُ سِجْدًا﴾ أي: سجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر رجلاً، ﴿وَقَالَ يَتَكَبَّرُ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: التي كان قصها على أبيه ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: 4]. وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سَلَّمُوا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى، عليه السلام، فحرم هذا في هذه الملة، وجُعِلَ السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى. هذا مضمون قول قتادة وغيره. وفي الحديث أن معاذاً قدم الشام، فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ، فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: «إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحن أن يسجد لك يا رسول الله فقال: «لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها».

وفي حديث آخر: أن سلمان لقي النبي ﷺ في بعض طُرُق المدينة، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنبي ﷺ، فقال: «لا تسجد لي يا سلمان، واسجد للحبي الذي لا يموت». والغرض أن هذا كان جائزاً في شريعتهم؛ ولهذا خروا له سُجْدًا، فعندها قال يوسف: ﴿يَتَكَبَّرُ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رَبِّي حَقًّا﴾ أي: هذا ما آل إليه الأمر، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الاعراف: ٥٣] أي: يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا من خير وشر.

وقوله: ﴿قَدْ جَعَلْنَا رَبِّي حَقًّا﴾ أي: صحيحة صدقاً، يذكر نعم الله عليه، ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْيِ﴾ أي: البادية. قال ابن جرير وغيره: كانوا أهل بادية وماشية. وقال: كانوا يسكنون بالقرى من أرض فلسطين، من غور الشام. قال: وبعض يقول: كانوا بالأولاج من ناحية شعب أسفل من حسمي، وكانوا أصحاب بادية وشاء وإبل. ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ ثم قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ لَمَّا يَكُونُ﴾ أي: إذا أراد أمراً قبض له أسباباً ويسره وقدره، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْكَلِيمُ﴾ بمصالح عباده ﴿الْمَكِيدُ﴾ في أفعاله وأقواله، وقضائه وقدره، وما يختاره ويريده. قال أبو عثمان النهدي، عن سلمان: كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة. قال عبد الله بن شداد: وإليها ينتهي أقصى الرؤيا. رواه ابن جرير. وقال أيضاً: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا عبد الوهاب الثقفي، حدثنا هشام، عن الحسن قال: كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا، ثمانون سنة، لم يفارق الحزن قلبه، ودموعه تجري على خديه، وما على وجه الأرض عبد أحب إلى الله من يعقوب. وقال هُشَيْمٌ، عن يونس، عن الحسن: ثلاث وثمانون سنة. وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن: ألقى يوسف في الحب وهو ابن سبع عشرة سنة، فغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة، فمات وله عشرون ومائة سنة. وقال قتادة: كان بينهما خمس وثلاثون سنة. وقال محمد بن إسحاق: ذكر - والله أعلم - أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثمانين سنة. قال: وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة أو نحوها، وأن يعقوب، عليه السلام، بقي مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة، ثم قبضه الله إليه. وقال أبو إسحاق السبيعي، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: دخل بنو إسرائيل مصر، وهم ثلاثة وستون إنساناً، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً. وقال أبو إسحاق، عن مسروق: دخلوا وهم ثلاثمائة وتسعون من بين رجل وامرأة. والله أعلم. وقال موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القرظي، عن عبد الله بن شداد: اجتمع آل يعقوب إلى يوسف بمصر، وهم ستة وثمانون إنساناً، صغيروهم وكبيروهم، وذكرهم وأنثاهم، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف ونيف.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيُّ الْدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾

هذا دعاء من يوسف الصديق، دعا به ربه ﷻ، لما تمت النعمة عليه، باجتماعه بأبويه وإخوته، وما منَّ الله به عليه من النبوة

والملك، سأل ربه ﷻ، كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه. قاله الضحاك، وأن يلحقه بالصالحين، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف، عليه السلام، قاله عند احتضاره، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة، رضي الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت، ويقول: «اللهم في الرفيق الأعلى، اللهم في الرفيق الأعلى، اللهم في الرفيق الأعلى». ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام وللحق بالصالحين إذا حان أجله، وانقضى عمره؛ لا أنه سأل ذلك منجزاً، كما يقول الداعي لغيره: «أماك الله على الإسلام». ويقول الداعي: «اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين والحقنا بالصالحين». ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً، وكان ذلك سائغاً في ملتهم، كما قال قتادة: قوله: «تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ»: لما جمع الله شمله وأقر عينه، وهو يومئذ مغفور في الدنيا وملكوها وغضارتها، فاشتاق إلى الصالحين قبله، وكان ابن عباس يقول: ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف، عليه السلام. وكذا ذكر ابن جرير، والسدي عن ابن عباس: أنه أول نبي دعا بذلك. وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الإسلام، كما أن نوحاً أول من قال: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِأُولَآئِكَ الَّذِينَ دَخَلُوا مَعِيَ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ» [نوح: ٢٨]، ويحتمل أنه أول من سأل نجاة ذلك، وهو ظاهر سياق قتادة، ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا. قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضرٍ نزل به، فإن كان لا بد متمنياً الموت فليقل: اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي». ورواه البخاري ومسلم، وعندهما: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به إما محسناً فيزداد، وإما مسيئاً فلعله يستعتب، ولكن ليقبل: اللهم، أحييني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا ثعلبة بن رفاع، حدثني علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: جلسنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ورقننا، فبكى سعد بن أبي وقاص فأكثر البكاء، فقال: يا ليتني مت! فقال النبي ﷺ: «يا سعد أعندي تمنى الموت؟» فردّد ذلك ثلاث مرات ثم قال: «يا سعد، إن كنت خلقت للجنة، فما طال عمرك، أو حسن من عملك، فهو خير لك». وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو يونس - هو سليم بن جببر - عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: أنه قال: «لا يتمنين أحدكم الموت ولا يدعون به من قبل أن يأتيه، إلا أن يكون قد وثق بعمله، فإنه إذا مات أحدكم انقطع عنه عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً» تفرد به أحمد. وهذا فيما إذا كان الضر خاصاً به، أما إذا كان فتنة في الدين فيجوز سؤال الموت، كما قال الله تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهددهم بالقتل قالوا: «رَبَّنَا آتِنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ» [الأعراف: ١٢٦]، وقالت مريم لما أجاءها المخاض، وهو الطلق، إلى جذع النخلة «يَلَيْتَنِي مِثْقَالُ ذَرَّةٍ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًا مَنْسِيًّا» [مريم: ٢٣]، لما تعلم من أن الناس يقدفونها بالفاحشة؛ لأنها لم تكن ذات زوج وقد حملت وولدت، فيقول القائل أنى لها هذا؟ ولهذا واجهوها أولاً بأن قالوا: «يَمْرُؤُكُمْ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا فَرِيحًا» [٢٧] يتأخّث هزوة ما كان أولك أمراً سؤو وَمَا كَانَتْ أُمْكُ بِوَيْكَا [مريم: ٢٧، ٢٨] فجعل الله لها من ذلك الحال فرجاً ومخرجاً، وأنطق الصبي في المهد بأنه عبد الله ورسوله، وكان آية عظيمة ومعجزة باهرة صلوات الله وسلامه عليه. وفي حديث معاذ، الذي رواه الإمام أحمد والترمذي، في قصة المنام والدعاء الذي فيه: «وإذا أردت بقوم فتنة، فتوفني إليك غير مفتون».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سلمة، أنا عبد العزيز بن محمد، عن عمرو بن عاصم عن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد؛ أن النبي ﷺ قال: «اثنان يكرههما ابن آدم: الموت، والموت خير للمؤمن من الفتنة، ويكره قلة المال، وقلة المال أقل للحساب». فعند حلول الفتن في الدين يجوز سؤال الموت؛ ولهذا قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في آخر إمارته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له، ولا يزداد الأمر إلا شدة قال: اللهم، خذني إليك، فقد سئمتهم وسئمتوني. وقال البخاري، رحمه الله، لما وقعت له تلك المحن وجرى له ما جرى مع أمير خراسان: اللهم، توفني إليك. وفي الحديث: «إن الرجل ليمر بالقبور - أي في زمان الدجال - فيقول: يا ليتني مكانك»، لما يرى من الفتن والزلازل والبلابل والأمور الهائلة التي هي فتنة لكل مفتون. قال أبو جعفر بن جرير: وذكر أن بني يعقوب الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا، استغفر لهم أبوهم، فتاب الله عليهم وعفا عنهم، وغفر لهم ذنوبهم.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا القاسم، حدثنا الحسن، حدثني حجاج، عن صالح المري، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك قال: إن الله تعالى

لما جمع ليعقوب شمله، وأقر عينه، خلا ولده نجياً، فقال بعضهم لبعض: ألسنتم قد علمتم ما صنعتم، وما لقي منكم الشيخ، وما لقي منكم يوسف؟ قالوا: بلى. قال: فيغزكم عفوهما عنكم، فكيف لكم بربكم؟ فاستقام أمرهم على أن أتوا الشيخ فجلسوا بين يديه، ويوسف إلى جنب أبيه قاعداً، قالوا: يا أبانا، إنا أتيناك في أمر، لم نأتك في مثله قط، ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله. حتى خرُّوكه، والأنبياء، عليهم السلام، أرحم البرية، فقال: ما لكم يا بني؟ قالوا: ألسنتم قد علمت ما كان منا إليك، وما كان منا إلى أخينا يوسف؟ قال: بلى. قالوا: أولسنا قد عَفَوْتما؟ قال: بلى. قالوا: فإن عفوكما لا يغني عنا شيئاً، إن كان الله لم يعف عنا. قال: فما تريدون يا بني؟ قالوا: نريد أن تدعو الله لنا، فإذا جاءك الوحي من الله بأنه قد عفا عما صنعنا قرَّت أعيننا، واطمأنت قلوبنا، وإلا فلا قُرَّة عين في الدنيا أبداً لنا. قال: فقام الشيخ فاستقبل القبلة، وقام يوسف خلف أبيه، وقاموا خلفهما أدلة خاشعين. قال: فدعا وأمن يوسف، فلم يُجِبْ فيهم عشرين سنة - قال صالح المري: يخفيهم - قال: حتى إذا كان رأس العشرين نزل جبريل، عليه السلام، على يعقوب فقال: إن الله بعثني إليك أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك في ولدك، وأنه قد عفا عما صنعوا، وأنه قد اعتقد موافقهم من بعدك على النبوة. هذا الأثر موقوف عن أنس، ويزيد الرقاشي وصالح المري ضعيفان جداً. وذكر السدي: أن يعقوب، عليه السلام، لما حضره الموت، أوصى إلى يوسف بأن يدفن عند إبراهيم وإسحاق، فلما مات صَبَّره وأرسله إلى الشام، فدفن عندهما، عليهم السلام.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ اتَّخَذُوا آمَنَهُمْ وَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَنْتَهِهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا وَكْرٌ لِلْعَالِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

يقول تعالى لعبيده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه، لما قص عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام: هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة، ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ونعلمك به لما فيه من العبرة لك والاعتاظ لمن خالفك، ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ حاضرأ عندهم ولا مشاهدأ لهم ﴿إِذْ اتَّخَذُوا آمَنَهُمْ﴾ أي: على لقائه في الحب، ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ به، ولكننا أعلمناك به وحياً إليك، وإنزالاً عليك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهِمْ أَتَنُكِّلُ مَرِيماً وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِحَايِبِ الْقُرْبَى إِذْ قَضَيْتَ إِلَهُ مُوسَى الْأَثَرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [القصص: ٤٤]. إلى أن قال: ﴿وَمَا كُنْتَ بِحَايِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٤٦]، وقال: ﴿وَمَا كُنْتَ تَأْوِيهِمْ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ وَإِنَّا لَنَكِيدُكَ عَلَى تَرْثِينِكَ﴾ [القصص: ٤٥]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْكِذْبِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنْ يُؤْتِيكَ إِلَهٌ نَبَأً فَإِنَّمَا يَذِيرُ مُبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [ص: ٦٩، ٧٠]. يقرر تعالى أنه رسوله، وأنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم ودنياهم؛ ومع هذا ما آمن أكثر الناس؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾، وقال: ﴿لَنْ تَقُصَّ عَنْكَ الْفِتْنَةُ أَفْهَمُ مِنَ الْقُلُوبِ﴾ [النمل: ١٦]. وقوله: ﴿وَمَا تَنْتَهِهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: وما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر، أي: من جعالة ولا أجرة على ذلك، بل تفعله ابتغاء وجه الله، ونصحاً لخلقه. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَكْرٌ لِلْعَالِينَ﴾ أي: يتذكرون به ويهتدون، وينجون به في الدنيا والآخرة.

﴿وَكَايْنٍ مِنَ الْعِبَادِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْشُونَ عَلَى آبَاءِهِمْ وَهُمْ مَعْرِضُونَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٩﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده، بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيارات وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات وحدائق وجنات وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوانات ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات، في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية ذي الأسماء والصفات. وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٩﴾﴾: قال ابن عباس: من إيمانهم، إذا قيل لهم: من خلق السموات؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: «الله»، وهم مشركون به. وكذا قال مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والشعبي، وقتادة، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهكذا في الصحيحين: أن المشركين كانوا يقولون في تلييتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وفي الصحيح: أنهم كانوا إذا قالوا: «لبيك لا شريك لك» يقول رسول الله ﷺ: «قَدْ قَدْ»، أي حَسْبُ حَسْبُ، لا تزيدوا على هذا. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَكْثَرُكَ أَظْلَمُ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وهذا هو الشرك الأعظم الذي يعبد مع الله غيره، كما في الصحيحين: عن ابن مسعود قلت: يا

رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». وقال الحسن البصري في قوله: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ» ﴿١٠٦﴾ قال: ذاك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس، وهو مشرك بعمله ذاك، يعني قوله تعالى: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ يَخْذِعُونَ لِلَّهِ وَهُمْ خَائِدُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاكِبُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا» ﴿١٠٧﴾ [النساء: ١٤٢]. وثم شرك آخر خفي لا يشعر به غالباً فاعله، كما روى حماد بن سلمة، عن عاصم بن أبي النجود، عن عروة قال: دخل حذيفة على مريض، فرأى في عضده سيراً فقطعه - أو: انتزعه - ثم قال: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ» ﴿١٠٧﴾.

وفي الحديث: «من حلف بغير الله فقد أشرك». رواه الترمذي وحسنه من رواية ابن عمر. وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود وغيره، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرُّقَى والتَّامِيمَ والتَّوَلَةَ شرك». وفي لفظ لهما: «الطَّيْرَةُ شرك وما مثلاً إلا ولكن الله يذهب بالتوكل». ورواه الإمام أحمد بأبسط من هذا فقال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مَرْة، عن يحيى الجزار، عن ابن أخي زينب، عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهية أن يهجم منا على أمر يكرهه، قالت: وإنه جاء ذات يوم فتحنح وعندي عجوز ترقيني من الحُمرة فادخلتها تحت السرير، قالت: فدخل فجلس إلى جانبي، فرأى في عنقي خيطاً، قال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلت: خيط رُقي لي فيه. قالت: فأخذه فقطعه، ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقي والتاميم والتولة شرك». قالت: قلت له: لم تقول هذا وقد كانت عيني تقذف، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقىها، فكان إذا رقاها سكنت، قال: إنما ذاك من الشيطان. كان ينخسها بيده، فإذا رقيتها كف عنها: إنما كان يكفيك أن تقول كما قال رسول الله ﷺ: «أذهب البأس رب الناس، أشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً».

وفي حديث آخر رواه الإمام أحمد، عن وكيع، عن ابن أبي ليلى، عن عيسى بن عبد الرحمن قال: دخلنا على عبد الله بن عكَّيم، وهو مريض نعوذه، فقيل له: «تعلقت شيئاً؟ فقال: أتلقت شيئاً! وقد قال رسول الله ﷺ: «من تعلق شيئاً وكل إليه». ورواه النسائي عن أبي هريرة. وفي مسند الإمام أحمد، من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «من علّق تميمة فقد أشرك» وفي رواية: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلّق ودعة فلا ودع الله له». وعن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، ومن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه». رواه مسلم. وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، ينادي مناد: من كان أشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك». رواه أحمد. وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليث، عن يزيد - يعني: ابن الهاد - عن عمرو، عن محمود بن لبيد، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء». وقد رواه إسماعيل بن جعفر، عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، أنبأنا ابن لهيعة، أنبأنا ابن هُبيرة، عن أبي عبد الرحمن الحُبلي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من رَدَّتْ الطَّيْرَةُ من حاجة، فقد أشرك». قالوا: يا رسول الله، ما كفارة ذلك؟ قال: «أن يقول أحدهم: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان الغزّمي، عن أبي علي - رجل من بني كاهل - قال: خطبنا أبو موسى الأشعري فقال: يا أيها الناس، اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من ديب النمل. فقام عبد الله بن حَزْن وقيس بن المضارب فقالا: والله لتخرجن مما قلت أو لنتأين عمر ماؤنا لئنا أو غير ماؤن، قال: بل أخرج مما قلت، خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «أيها الناس، اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من ديب النمل». فقال له من شاء الله أن يقول: فكيف نتقيه وهو أخفى من ديب النمل يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه». وقد روي من وجه آخر، وفيه أن السائل في ذلك هو الصديق، كما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي، من حديث عبد العزيز بن مسلم، عن ليث بن أبي سليم، عن أبي محمد، عن مَعْقِل بن يَسَار قال: شهدت النبي ﷺ - أو قال: حدثني أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الشرك أخفى فيكم من ديب النمل». فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من دعا مع الله إلهاً آخر؟ فقال رسول الله ﷺ: «الشرك فيكم أخفى من ديب النمل». ثم قال: «ألا أدلك على ما يذهب عنك صغير ذلك وكبيره؟ قل: اللهم أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم». وقد رواه الحافظ أبو القاسم البغوي، عن

شيبان بن قُروخ، عن يحيى بن كثير، عن الثوري، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن أبي بكر الصديق قال: قال رسول الله ﷺ: «الشرك أخفى في أمتي من ديب النمل على الصفا». قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، فكيف النجاة والمخرج من ذلك؟ فقال: «ألا أخبرك بشيء إذا قلته برئت من قليله وكثيره وصغيره وكبيره؟». قال: بلى، يا رسول الله، قال: «قل: اللهم، إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم». قال الدارقطني: يحيى بن كثير هذا يقال له: «أبو النضر»، متروك الحديث.

وقد روى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي وصححه، والنسائي، من حديث يعلى بن عطاء، سمعت عمرو بن عاصم، سمعت أبا هريرة قال: قال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه: يا رسول الله، علمني شيئاً أقوله إذا أصبحت، وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعي. قال: «قل: اللهم، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه». وزاد أحمد في رواية له من حديث ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، عن أبي بكر قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أقول... فذكر هذا الدعاء وزاد في آخره: «وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم».

وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٠٧) ﴿أَي: أَفَأَمِنَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ بِاللَّهِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ أَمْرٌ يَغْشَاهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخَيْفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيلِهِمْ مِمَّا هُمْ بِمُتَعِجِينَ﴾ (١٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٧)﴾ [النحل: ٤٥-٤٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ وَهُمْ لَا يَحْسَبُونَ﴾ (١٧) ﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا سَهْياً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾ (١٨) ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٩)﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩].

﴿قَدْ هَدَوْا سَبِيلَ آدَمَ إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسَخَّرَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَشْرِكِينَ﴾ (١٢٠)﴾.

يقول الله تعالى لعبده ورسوله إلى الثقلين: الإنس والجن، أمره أن يخبر الناس: أن هذه سبيله، أي طريقه ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك، ويقين وبرهان، وهو وكل من اتبعه، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان شرعي وعقلي. وقوله: ﴿وَيَسِّرَ اللَّهُ﴾ (١٢٠) ﴿أَي: وَأَنْزَلَهُ اللَّهُ وَاجِلَهُ وَأَعْظَمَهُ وَأَقْدَسَهُ، عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ نَظِيرٌ أَوْ عَدِيلٌ أَوْ نَدِيدٌ، أَوْ وَلَدٌ أَوْ وَالِدٌ أَوْ صَاحِبَةٌ، أَوْ وَزِيرٌ أَوْ مُشِيرٌ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ عُلُوًّا كَبِيراً، ﴿يُسَبِّحُ لَهُ الثَّوَارُ السَّيِّئَاتِ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (١٢١)﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ بَيَّرْنَا بِكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٢٢)﴾.

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء. وهذا قول جمهور العلماء، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة: أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع. وزعم بعضهم: أن سارة امرأة الخليل، وأم موسى، ومريم أم عيسى نبيات، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، ويقولون: ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكَ أُمَمًا مِنْ أَنْفُسِنَا﴾ [النقص: ١٧]، وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى، عليه السلام، ويقولون تعالى: ﴿وَلَوْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ بَرِّئْنَا مِنْ اللَّهِ أَصْطَفَاكَ وَلَهَّرَكَ وَأَمْطَلَاكَ عَلَى سَكْوَةِ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٣) ﴿يَعْرِضُ أَفْتًى لِرَبِّكَ وَأَسْجُدُ وَأَرْكَبُ مَعَ الرُّكْبَاتِ﴾ (١٢٤)﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣]. وهذا القدر حاصل لهم، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك، فإن أراد القائل بنبوتهم هذا القدر من التشريف، فهذا لا شك فيه، ويبقى الكلام معه في أن هذا: هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرده أم لا؟ الذي عليه أئمة أهل السنة والجماعة، وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم: أنه ليس في النساء نبية، وإنما فيهن صديقات، كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال: ﴿مِمَّا أَلْمِصَّحِ أَتَتْ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ فَقَدِ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ صَدِيقَةً كَانَتْ يَأْكُلُ مِنَ الطَّعَامِ﴾ [المائدة: ٧٥]، فوصفها في أشرف مقاماتها بالصدقية، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام، فهي صديقة بنص القرآن. وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ (١٢٢) ﴿أَي: لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا قُلْتُمْ. وَهَذَا الْقَوْلُ مِنْ ابْنِ عَبَّاسٍ يَعْتَصِدُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ أَلْمُرسَلِينَ إِلَّا أَنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ مِنَ الطَّعَامِ وَيَشْرَبُونَ فِي الْآسْوَاقِ﴾ (١٢٥) الآية [الفرقان: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ حِجَابًا وَلَا يَأْكُلُونَ﴾

الطعام وما كانوا خليلين ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُشْرِكِينَ ﴿٩﴾ [الأنبياء: ٨، ٩]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَايِنِ الرُّسُلِ﴾ الآية [الاحقاف: ٢٩].

وقوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾: المراد بالقرى: المدن، لا أنهم من أهل البوادي، الذين هم أجنى الناس طباعاً وأخلاقاً. وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرق طباعاً، وألطف من أهل سوادهم، وأهل الريف والسواد أقرب حالاً من الذين يسكنون في البوادي؛ ولهذا قال تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَبَغَاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩٧]. وقال قتادة في قوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾: لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمود. وفي الحديث الآخر: أن رجلاً من الأعراب أهدى لرسول الله ﷺ ناقة، فلم يزل يعطيه ويزيده حتى رضي، فقال رسول الله ﷺ: «لقد هممت ألا أتهدب هبة إلا من قرشي، أو أنصاري، أو ثقيفي، أو ذؤبي». وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن يحيى بن وثاب، عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ - قال الأعمش - هو ابن عمر -، عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم». وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: هؤلاء المكذبين لك يا محمد في الأرض، ﴿يَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم المكذبة للرسول، كيف دمر الله عليهم، وللكافرين أمثالها، كقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَلَيْسَ بَأْسًا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فإذا استمعوا خبر ذلك، رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَذَارِ الْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: وكما أنجينا المؤمنين في الدنيا، كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة أيضاً، وهي خير لهم من الدنيا بكثير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَوْمٍ بِمَوْتِهِمْ﴾ [يونس: ٤٥] لا يَنْصُرُ الْعَالَمِيِّينَ مَوَدَّتِهِمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٦﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]. وأضاف الدار إلى الآخرة فقال: ﴿وَلَذَارِ الْأَخِرَةِ﴾، كما يقال: «صلاة الأولى» و «مسجد الجامع» و «عام الأول» و «بارحة الأولى» و «يوم الخميس». قال الشاعر:

أَتَمَذُحُ فُقُوءاً وَتَذَمُّ عُبُوراً
لَوْ أَثَوْتُ عَلَيْكَ دِيَارَ عَنَسٍ
أَلَا اللَّهُ أَمْسَكَ مِنْ فَجْجِ
عَرَفَتِ الذَّلَّ عَرْفَانِ الْيَقِينِ

﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْقَسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَمَنْ يَشَاءُ وَلَا يَرُدُّ بَأْسًا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١١٧]. يخبر تعالى أن نصره ينزل على رسله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله تعالى في أحوال الأوقات إلى ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَدُّرُّوْا حَتَّى يَقُولَ الرُّسُلُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وفي قوله: ﴿كُذِّبُوا﴾ قراءتان، إحداهما بالتشديد: ﴿قَدْ كُذِّبُوا﴾، وكذلك كانت عائشة، رضي الله عنها، تقرأها، قال البخاري: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح، عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير، عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله: ﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْقَسَ الرُّسُلُ﴾، قال: قلت: أكذبوا أم كُذِّبوا؟ فقالت: كُذِّبُوا. قلت: فقد استيقنوا أن قومهم قد كُذِّبوا فما هو بالظن؟ قالت: أجل، لعمرى لقد استيقنوا بذلك. فقلت لها: وظنوا أنهم قد كُذِّبوا؟ قالت: معاذ الله، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها. قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر، ﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْقَسَ الرُّسُلُ﴾ ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كُذِّبوا، جاءهم نصر الله عند ذلك. حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، عن الزهري قال: أخبرنا عروة، فقلت: لعلها قد كُذِّبوا مخففة؟ قالت: معاذ الله. انتهى ما ذكره. وقال ابن جريج: أخبرني ابن أبي مليكة: أن ابن عباس قراها: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ خفيفة، قال عبد الله هو ابن مليكة: ثم قال لي ابن عباس: كانوا بشراً، وتلا ابن عباس: ﴿حَقَّ يَقُولُ الرُّسُلُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، قال ابن جريج: وقال لي ابن أبي مليكة: وأخبرني عروة عن عائشة: أنها خالفت ذلك وأبته، وقالت: ما وعد الله محمداً ﷺ من شيء إلا قد علم أنه سيكون حتى مات، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كُذِّبوا. قال ابن أبي مليكة في حديث عروة: كانت عائشة تقرأها ﴿وظنوا أنهم قد كُذِّبوا﴾ مثقلة، للتكذيب. وقال ابن أبي حاتم: أنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أنا ابن وهب، أخبرني سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال: جاء إنسان إلى القاسم بن محمد فقال: إن محمد بن كعب القرظي يقول هذه الآية: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِّبوا﴾، فقال القاسم: أخبره عني أنني سمعت عائشة زوج النبي ﷺ تقول: ﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْقَسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾، تقول: كذبهم أتباعهم. إسناد صحيح أيضاً. والقراءة الثانية بالتخفيف،

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقدمنا أن كل سورة تبدأ بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب؛ ولهذا قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، وقيل: التوراة والإنجيل. قاله مجاهد وقتادة، وفيه نظر، بل هو بعيد. ثم عطف على ذلك عطف صفات قوله: ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي: يا محمد، ﴿مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ خبر تقدم مبتدؤه، وهو قوله: ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة. واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة أو عاطفة صفة على صفة كما قدمنا، واستشهد بقول الشاعر:

إِلَى الْمَلِكِ الْقَزْمِ وَإِبْنِ الْهُمَامِ وَلَيْتَ الْكِتَابَةَ فِي الْمُرْدَحَمِ
وقوله: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] أي: مع هذا البيان والجلاء والوضوح، لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق.
﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه: أنه الذي ياذنه وأمره رَفَعَ السموات بغير عمد، بل ياذنه وأمره، وتسخيرها رفعها عن الأرض بعداً لا تنال ولا يدرك مداها، فالسما الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام. ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت، وبينها وبينها من البعد مسيرة خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، ثم السماء الثالثة محيطة بالثانية، بما فيها، وبينها وبينها خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، وكذا الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] وفي الحديث: «ما السماوات السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والكرسي في العرش كتلك الحلقة في تلك الفلاة، وفي رواية: «والعرش لا يقدر قدره إلا الله، ﷻ»، وجاء عن بعض السلف أن بعد ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة، وبعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة، وهو من ياقوتة حمراء. وقوله: ﴿يُدِيرُ عَمْدَ تَرَوْنَهَا﴾: روي عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة: أنهم قالوا: لها عمد ولكن لا ترى. وقال إياس بن معاوية: السماء على الأرض مثل القبة، يعني بلا عمد. وكذا روي عن قتادة، وهذا هو اللائق بالسياق. والظاهر من قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ الْكُفَّاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، فعلى هذا يكون قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تأكيداً لنفي ذلك، أي: هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها. هذا هو الأكمل في القدرة. وفي شعر أمية بن أبي الصلت الذي آمن شعره وكفر قلبه، كما ورد في الحديث، ويروى لزيد بن عمرو بن نفيل، رحمه الله ورضي عنه:

وَأَنْتَ الَّذِي مِنْ فَضْلٍ مَنْ وَرَخِمَةً بَعَثْتَ إِلَى مُوسَى رُسُلًا مُنَادِيَا
فَقُلْتَ لَهُ: فَادْعُ وَهَارُونَ فَادْعُوا إِلَى اللَّهِ فَرْعَوْنَ الَّذِي كَانَ طَاغِيَا
وَقُولَا لَهُ: قُلْ أَنْتَ سَوِيَتْ هَذِهِ بَلَا وَتَدَحَّى اطمأننت كَمَا هِيَ
وَقُولَا لَهُ: أَنْتَ رَفَعْتَ هَذِهِ بَلَا عَمَدَ أَزْفَقَ إِذَا بِكَ بَانِيَا
وَقُولَا لَهُ: قُلْ أَنْتَ سَوِيَتْ وَشَطَطَهَا مُنِيرًا إِذَا مَا جُنْتُكَ اللَّيْلُ هَادِيَا
وَقُولَا لَهُ: مَنْ يُزِيلُ الشَّمْسَ غُدُوًةً فَيُصْبِحُ مَا مَسَّتْ مِنَ الْأَرْضِ ضَا حِيَا
وَقُولَا لَهُ: مَنْ يُنَبِّتُ الْحَبَّ فِي الثَّرَى فَيُصْبِحُ مِنْهُ الْعُشْبُ يَهْتَزُّ زَابِيَا
وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّهُ فِي رُؤُوسِهِ فَيُفِي ذَاكَ آيَاتٍ لِمَنْ كَانَ وَاعِيَا

وقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾: تقدم تفسير ذلك في سورة «الأعراف»، وأنه يُمرَّر كما جاء من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علواً كبيراً. وقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨]. وقيل: المراد إلى مستقرهما، وهو تحت العرش مما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر، فإنهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك،

يكونون أبعد ما يكون عن العرش؛ لأنه على الصحيح الذي تقوم عليه الأدلة، قبة مما يلي العالم من هذا الوجه، وليس بمحيط كسائر الأفلاك؛ لأنه له قوائم وحملة يحملونه. ولا يتصور هذا في الفلك المستدير، وهذا واضح لمن تدبر ما وردت به الآيات والأحاديث الصحيحة، والله الحمد والمنة. وذكر الشمس والقمر؛ لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة، التي هي أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سخر هذه، فلأن يدخل في التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأخرى، كما نبه بقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [نمل: ٢٧]. مع أنه قد صرح بذلك بقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُسَخَّرَتَانِ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الاعراف: ٥٤]. وقوله: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما ابتدأ خلقه.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعَوِّمٍ يَنْفَكُونَ﴾ [١] وفي الأرض قطع متجاورات وجنت من أعتاب ورنج ونجيل صنوان وقمر صنوان على بعض في الأكمل إن في ذلك لآيات ليعووم يعقلون ﴿٢﴾.

لما ذكر تعالى العالم العلوي، شرع في ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلي، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ أي: جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرأسها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون لسقي ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح، من كل زوجين اثنين، أي: من كل شكل صنفان. ﴿يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ﴾ أي: جعل كلا منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضاً في الزمان كما تصرف في المكان والسكان. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعَوِّمٍ يَنْفَكُونَ﴾ أي: في آلاء الله وحكمته ودلالته. وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ أي: أراضٍ تتجاور بعضها بعضاً، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به الناس، وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئاً. هكذا روي عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبّير، والضحاك، وغيرهم. وكذا يدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاء الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات. فهذه بصفقتها، وهذه بصفقتها الأخرى، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله: ﴿رَسَّاتٌ مِنْ أَعْتَابٍ وَرَنَجٌ وَنَجِيلٌ﴾: يحتمل أن تكون عاطفة على ﴿وَجَنَّاتٍ﴾، فيكون ﴿رَنَجٌ وَنَجِيلٌ﴾ مرفوعين. ويحتمل أن يكون معطوفاً على أعتاب، فيكون مجروراً؛ ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة. وقوله: ﴿صِنَاوَانٌ وَقَمَرٌ صِنَاوَانٌ﴾: الصنوان: هي الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان والتين وبعض النخيل، ونحو ذلك. وغير الصنوان: ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، ومنه سمي عم الرجل صنو أبيه، كما جاء في الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لعمر: «أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه؟». وقال سفيان الثوري، وشعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء، رضي الله عنه: الصنوان: هي النخلات في أصل واحد، وغير الصنوان: المتفرقات. وقاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقوله: ﴿يُسْقَى يَمَاءٌ وَنَجِيلٌ وَنَجِيلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْمَلِ﴾ قال الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: ﴿وَنَجِيلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْمَلِ﴾ قال: «الدَّقْلُ والفارسي، والحُلُو والحامض». رواه الترمذي وقال: حسن غريب. أي: هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزرع، في أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها. فهذا في غاية الحلاوة وذا في غاية الحموضة، وذا في غاية المرارة وذا عَفِصٌ، وهذا عذب وهذا جمع هذا وهذا، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى. وهذا أصفر وهذا أحمر، وهذا أبيض وهذا أسود وهذا أزرق. وكذلك الزهورات مع أن كلها يستمد من طبيعة واحدة، وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضب، ففي ذلك آيات لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار، الذي بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعَوِّمٍ يَنْفَكُونَ﴾.

﴿وَلَنْ نَجْعَبَ لَكُمْ قَوْلَهُمْ أَوْ كُنَّا نَرْبَاهُمْ أَوْ لَمْ يَخْلُقْ جَدِيدُ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٣﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَلَنْ نَجْعَبَ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بأمر المعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلالته في خلقه على أنه القادر على ما يشاء، ومع ما يعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء، فكونها بعد أن

لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره في أنه سيعيد العالمين خلقاً جديداً، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به، فالعجب من قولهم: ﴿أَوَدَا كُنَّا نَزْبًا أَوْأَنَا لَنِي خَلْقِي جَدِيدٌ﴾، وقد علم كل عالم وعامل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة سهلة عليه، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَتَنَزَّلُ فِي سُبُوحٍ يُتَنَزَّلُ عَلَيْهِ أَنْ يَخْتِجِيَ الْمَوْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الاحقاف: ٢٣]. ثم نعت المكذبين بهذا فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَابُ فِي آَعَنَاتِهِمْ﴾ أي: يُسَحِّبُونَ بها في النار، ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: ما كانوا فيها أبداً، لا يحولون عنها ولا يزولون.

﴿يَسْتَعِجِلُونَ بِالْعَذَابِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُهُورِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

يقول تعالى: ﴿يَسْتَعِجِلُونَ﴾ أي: هؤلاء المكذبون ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ أي: بالعقوبة، كما أخبر عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ لو ما تأتينا بالملئكة إن كنت من الصديقين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ما نزلت بالملئكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين ﴿[الحجر: ٦-٨]﴾ وقال تعالى: ﴿يَسْتَعِجِلُونَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يستعجلونك بالعذاب ولأن جهنم لم تحيط بالكافرين ﴿[المنكسر: ٥٣، ٥٤]﴾ وقال: ﴿يَسْأَلُ سَائِلٌ عَذَابَ رَافِعٍ﴾ [المعارج: ٤١]، وقال: ﴿يَسْتَعِجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ فِيهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ٤٨]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا نَجِدْ لَنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] أي: حسابنا وعقابنا، كما قال مخبراً عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا حَقًّا فَهَذَا الْحَقُّ مِنْ عَذَابِكَ فَأَنْظِرْ عَلَيْنَا حِكْمَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، فكانوا يطلبون من الرسول أن يأتيهم بعذاب الله، وذلك من شدة تكذيبهم وكفرهم وعنادهم. قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ﴾ أي: قد أوقعتنا نقمنا بالأمم الخالية وجعلناهم مثله وعبرة لمن اتعظ بهم. ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه وغفره لعاجلهم بالعقوبة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظُهُورِهِمْ مِنْ ذَنْبِهِمْ﴾ [فاطر: ٤٥]. وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ أي: إنه ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار. ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب، ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا يَرُدُّ بَأْسَهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَشَدِيدُ الرَّجِيمِ﴾ [الاعراف: ١٦٧]، وقال: ﴿يَنْجِي عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ] [الحجر: ٤٩، ٥٠]، إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الرجاء والخوف.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُهُورِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه، ما هنا أحد العيش، ولولا وعيده وعقابه، لا نكل كل أحد». وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن عثمان أبي حسان الزياتي: أنه رأى رب العزة في النوم، ورسول الله ﷺ واقف بين يديه يشفع في رجل من أمته، فقال له: ألم يكفك أني أنزلت عليك في سورة الرعد: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾؟ قال: ثم انتبهت. ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْ شَاءَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْكَ قَوْماً هَادٍ﴾.

يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم يقولون كفراً وعناداً: لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون، كما تمنعوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يزيل عنهم الجبال، ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآيَاتُنَا مُتَوَاتِرَةٌ مُمِيزَةٌ فَلَقَمُوا بِهِمْ وَمَا يُرْسِلُ إِلَّا ظُفُفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ أي: إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ مَهْمَةٌ وَّلَا يَهْدِي مِنَ يَشَاقَةِ﴾ [البقرة: ٢٧٧]. وقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، أي: ولكل قوم داع. وقال العوفي، عن ابن عباس في تفسيرها: يقول الله تعالى: أنت يا محمد منذر، وأنا هادي كل قوم، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، والضحاك. وعن مجاهد: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: أي: نبي. كما قال: ﴿وَلَنْ يَكُنَّ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٢٤]. وبه قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد. وقال أبو صالح، ويحيى بن رافع: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: قائد. وقال أبو العالية: الهادي: القائد، والإمام، والإمام: العمل. وعن عكرمة، وأبي الضحى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قالوا: هو محمد رسول الله ﷺ. وقال مالك: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: من يدعوهم إلى الله، ﷻ. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني أحمد بن يحيى الصوفي، حدثنا الحسن بن الحسين

﴿الْكَبِيرُ﴾ الذي هو أكبر من كل شيء، ﴿الْمُتَعَالَى﴾ أي: على كل شيء، قد أحاط بكل شيء علماً، وقهر كل شيء، فخفضت له الرقاب ودان له العباد، طوعاً وكرهاً.

﴿سَوَاءٌ مَن أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ. وَمَن هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِآلِيلٍ وَسَارٍ بِالْأُنْهَارِ﴾ ﴿١٠﴾ لَمْ مَعْبُوثٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مَن أَمَرَهُ اللَّهُ إِنَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يَبْدُؤَ مَا يَشَاءُ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سَوْماً فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مَن يَأْتِيهِمْ﴾ ﴿١١﴾.

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، سواء منهم من أسر قوله أو جهر به، فإنه يسمعه، لا يخفى عليه شيء كما قال: ﴿وَإِن جَهَرَ بِالقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ ﴿٧﴾ [طه: ٧]، وقال: ﴿وَبَعَثْنَا مِمَّا خَبَوْا وَمَا خَبَرُوا﴾ [النمل: ٢٥]، وقالت عائشة، رضي الله عنها: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وأنا في جنب البيت، وأنه ليخفى علي بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَيْكَ اللَّهُ وَاللَّهُ يَسْمَعُ خَوَائِكُمْ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿١١﴾ [المجادلة: ١١]. وقوله: ﴿وَمَن هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِآلِيلٍ﴾ أي: مختف في قعر بيته في ظلام الليل، ﴿وَسَارٍ بِالْأُنْهَارِ﴾ أي:

ظاهر ماش في بياض النهار وضيائه، فإن كليهما في علم الله على السواء، كما قال تعالى: ﴿أَلَا جِنَّةٌ يَسْتَقْبِلُونَ رِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُبْشِرُونَ وَمَا يُلْتَمِسُونَ﴾ [هود: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَقْصُورُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُؤَيِّسُونَهُمْ وَمَا يُمَسِّرُهُمْ أَنَّكَ مِنْ رَّبِّكَ مَن يَنْقُضُ الذِّمَّةَ وَلَا يَسْمُو وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كَثِيرٍ مُّثَنٍّ﴾ [يونس: ٦١].

وقوله: ﴿لَمْ مَعْبُوثٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مَن أَمَرَهُ اللَّهُ﴾ أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحوادث، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فائنان عن اليمين وعن الشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحداً من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلاً،

حافظان وكتابتان، كما جاء في الصحيح: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أنيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون». وفي الحديث الآخر: «إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع، فاستحيوهم وأكرمهم». وقال

علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَمْ مَعْبُوثٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مَن أَمَرَهُ اللَّهُ﴾: والمعقبات من أمر الله، وهي الملائكة. وقال عكرمة، عن ابن عباس: ﴿يَحْفَظُونَهُ مَن أَمَرَهُ اللَّهُ﴾ قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء

قدر الله خلوا عنه. وقال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك موكل، يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريد إلا قال الملك: ورائك إلا شيء يأذن الله فيه فيصبيه. وقال الثوري عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿لَمْ مَعْبُوثٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ﴾ قال: ذلك ملك من ملوك الدنيا، له حرس من دونه حرس.

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿لَمْ مَعْبُوثٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ﴾ يعني: ولي الشيطان، يكون عليه الحرس. وقال عكرمة في تفسيرها: هؤلاء الأمراء: الموابك من بين يديه ومن خلفه. وقال الضحاك: ﴿لَمْ مَعْبُوثٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مَن أَمَرَهُ اللَّهُ﴾ قال: هو السلطان المحترس من أمر الله، وهم أهل الشرك. والظاهر، والله أعلم، أن مراد ابن عباس وعكرمة

والضحاك بهذا أن حرس الملائكة للعبيد يشبه حرس هؤلاء لملوكهم وأمرائهم. وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير لهنأ حديثاً

غريباً جداً فقال: حدثني المثنى، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام بن صالح الفشيري، حدثنا علي بن جرير، عن حماد بن سلمة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن كنانة العدوي قال: دخل عثمان بن عفان على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله،

أخبرني عن العبد، كم معه من ملك؟ فقال: «ملك على يمينك على حسناتك، وهو أمر على الذي على الشمال، إذا عملت حسنة كتبت عشراً، فإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين: أكتب؟ قال: لا، لعله يستغفر الله ويتوب. فإذا

قال ثلاثاً، قال: نعم، أكتب أراحنا الله منه، فبئس القرين. ما أقل مراقبته لله وأقل استحياءه منا». يقول الله: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [لق: ١٨]، وملكان من بين يديك ومن خلفك، يقول الله: ﴿لَمْ مَعْبُوثٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مَن أَمَرَهُ اللَّهُ﴾، وملك قابض على ناصيتك، فإذا تواضعت لله رفعك، وإذا تجبرت على الله قصصك، وملكان على شفقتك، ليس

يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد ﷺ، وملك قائم على فيك لا يدع الحية أن تدخل في فيك، وملكان على عينيك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي، ينزلون ملائكة الليل على ملائكة النهار؛ لأن ملائكة الليل سوى ملائكة النهار، فهؤلاء عشرون

ملكاً على كل آدمي وإبليس بالنهار وولده بالليل. قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا سفيان، حدثني منصور، عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من

الجن وقرينه من الملائكة». قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي، ولكن أعانني الله عليه، فلا يأمرني إلا بخير». انفرد بإخراجه مسلم.

وقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: قيل: المراد حفظهم له من أمر الله. رواه علي بن أبي طلحة، وغيره، عن ابن عباس. وإليه ذهب مجاهد، وسعيد بن جبیر، وإبراهيم التَّخَمي، وغيرهم. وقال قتادة: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قال: وفي بعض القراءات: ﴿يَحْفَظُونَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ﴾. وقال كعب الأحبار: لو تجلَّى لابن آدم كل سهل وحزن، لرأى كل شيء من ذلك شياطين لولا أن الله وكل بكم ملائكة عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم، إذا نُحِطَفْتُمْ. وقال أبو أمامة: ما من آدمي إلا ومعه ملك يَدُودُه عنه، حتى يسلمه للذي قُدر له. وقال أبو مجلز: جاء رجل من مُراد إلى علي، رضي الله عنه، وهو يصلي، فقال: احترس، فإن ناساً من مراد يريدون قتلك. فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدَّر، فإذا جاء القُدَرُ خَلَّيَا بيْنَهُ وبينه، وإن الأجل جنة حصينة. وقال بعضهم: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: بأمر الله، كما جاء في الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله، أ رأيت رَقَى نسترقى بها، هل ترد من قَدَرِ الله شيئاً؟ فقال: «هي من قَدَرِ الله». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن أشعث، عن جَهْم، عن إبراهيم قال: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل: أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله، إلا تحول لهم مما يحبون إلى ما يكرهون، ثم قال: إن مصداق ذلك في كتاب الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْقَاطِبِينَ مَا يَكُونُ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وقد ورد هذا في حديث مرفوع، فقال الحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتابه «صفة العرش»: حدثنا الحسن بن علي، حدثنا الهيثم بن الأشعث السلمي، حدثنا أبو حنيفة اليمامي الأنصاري، عن عمير بن عبد الله قال: خطبنا علي بن أبي طالب على منبر الكوفة، قال: كنت إذا سكنت عن رسول الله ﷺ ابتدأني، وإذا سألت عن الخبر أنبأني، وإنه حدثني عن ربه، ﷻ، قال: «قال الرب: وعزتي وجلالي، وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهت من معصيتي، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي، إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي». وهذا غريب، وفي إسناده من لا أعره.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آلَكُمْ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِكُمْ﴾ (١٢) وَيَسْخَرُ الرُّعْدُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحُمُولِ (١٣).

يخبر تعالى أنه هو الذي يسخر البرق، وهو ما يرى من النور اللامع ساطعاً من خلل السحاب. وروى ابن جرير أن ابن عباس كتب إلى أبي الجلد يسأله عن البرق، فقال: البرق: الماء. وقوله: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِكُمْ﴾: خوفاً للمسافر، يخاف أذاه ومشتقه، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته، ويطمع في رزق الله. ﴿وَيُرْسِلُ الرُّعْدُ أَفْئَالَ﴾ أي: ويخلقها منشاءً جديدة، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض. قال مجاهد: والسحاب الثقال الذي فيه الماء. ﴿وَيَسْخَرُ الرُّعْدُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَهُمْ جُنُودُهُمْ إِذْ يُسَاحَقُونَ بِالْبَرْقِ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا إبراهيم بن سعد، أخبرني أبي قال: كنت جالساً إلى جنب حُمَيْد بن عبد الرحمن في المسجد، فمر شيخ من بني غفار، فأرسل إليه حميد، فلما أقبل قال: يابن أخي، وسع له فيما بيني وبينك، فإنه قد صَحِبَ رسول الله ﷺ. فجاء حتى جلس فيما بيني وبينه. فقال له حميد: ما الحديث الذي حدثني عن رسول الله ﷺ؟ فقال الشيخ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ينشئ السحاب، فينطق أحسن النطق، ويضحك أحسن الضحك». والمراد - والله أعلم - أن نطقها الرعد، وضحكها البرق. وقال موسى بن عبيدة، عن سعد بن إبراهيم قال: يبعث الله الغيث، فلا أحسن منه مضحكاً، ولا أسس منه منطوقاً، فضحكه البرق، ومنطقه الرعد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عبيد الله الرازي، عن محمد بن مسلم قال: بلغنا أن البرق مَلَكٌ له أربعة وجوه: وجه إنسان، ووجه ثور، ووجه نسر، ووجه أسد، فإذا مَضَعَ بذنبه فذاك البرق. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الحجاج، حدثني أبو مطر، عن سالم، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا سَمِعَ الرعد والصواعق قال: «اللهم، لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك». ورواه الترمذي، والبخاري في كتاب الأدب، والنسائي في اليوم والليلة، والحاكم في مستدركه، من حديث الحجاج بن أرطاة، عن أبي مطر - ولم يسم به -.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا إسرائيل، عن أبيه، عن رجل، عن أبي هريرة، رفع الحديث قال: إنه كان إذا سمع الرعد قال: «سبحان من يُسَخِّرُ الرعد بحمده». وروي عن علي، رضي الله عنه، أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال: سبحان من سَبَّحت له. وكذا روي عن ابن عباس، والأسود بن يزيد، وطاوس: أنهم كانوا يقولون كذلك. وقال الأوزاعي: كان ابن أبي زكريا يقول: من قال حين يسمع الرعد: سبحان الله وبحمده، لم تصبه صاعقة. وعن عبد الله بن

الزبير: أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا لو عيد شديد لأهل الأرض. رواه مالك في الموطأ، والبخاري في كتاب الأدب. وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود الطيالسي، حدثنا صدقة بن موسى، حدثنا محمد بن واسع، عن شئز بن نهار، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال ربكم ﷻ: لو أن عبيدي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولما أسمعتهم صوت الرعد». وقال الطبراني: حدثنا زكريا بن يحيى الساجي، حدثنا أبو كامل الجحدري، حدثنا يحيى بن كثير أبو النضر، حدثنا عبد الكريم، حدثنا عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله؛ فإنه لا يصيب ذاكرة».

وقوله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ أي: يرسلها نعمة ينتقم بها ممن يشاء، ولهذا تكثر في آخر الزمان، كما قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا عمار، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة، حتى يأتي الرجل القوم فيقول: من ضيقت تلكم الغداة؟ فيقولون: ضيقت فلان وفلان وفلان». وقد روي في سبب نزولها ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا إسحاق، حدثنا علي بن أبي سارة الشيباني، حدثنا ثابت، عن أنس: أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً مرة إلى رجل من فراعنة العرب فقال: «أذهب فادعه لي». قال: فذهب إليه فقال: يدعوك رسول الله ﷺ. فقال له: من رسول الله؟ وما الله؟ أمين ذهب هو؟ أم من فضة هو؟ أم من نحاس هو؟ قال: فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنه أعنى من ذلك، قال لي كذا وكذا، فقال: «ارجع إليه الثانية» أراه، فذهب فقال له مثلها. فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنه أعنى من ذلك. قال: «ارجع إليه فادعه». فرجع إليه الثالثة. قال: فأعاد عليه ذلك الكلام. فبينما هو يكلمه، إذ بعث الله ﷻ، سحابة حيال رأسه، فرعدت، فوقعت منها صاعقة، فذهب بيقحف رأسه فأنزل الله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُكِيدُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ اللَّعَابِ﴾. ورواه ابن جرير، من حديث علي بن أبي سارة، به. ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبدة بن عبد الله، عن يزيد بن هارون، عن ديلم بن غزوان، عن ثابت، عن أنس، فذكر نحوه. وقال: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا عفان، حدثنا أبان بن يزيد، حدثنا أبو عمران الجوفي، عن عبد الرحمن بن ضحار العبدي: أنه بلغه أن نبي الله بعثه إلى جبار يدعوه، فقال: أرايتم ربكم، أذهب هو؟ أو فضة هو؟ أو لؤلؤ هو؟ قال: فبينما هو يجادلهم، إذ بعث الله سحابة فرعدت فأرسل عليه صاعقة فذهبت بيقحف رأسه، ونزلت هذه الآية. وقال أبو بكر بن عياش، عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد قال: جاء يهودي فقال: يا محمد، أخبرني عن ربك، من أي شيء هو، من نحاس هو؟ من لؤلؤ؟ أو ياقوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته، وأنزل الله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾. وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً أنكر القرآن، وكذب النبي ﷺ، فأرسل الله صاعقة فأهلكته وأنزل: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ الآية.

وذكروا في سبب نزولها قصة عامر بن الطفيل وأريد بن ربيعة لما قدما على رسول الله ﷺ المدينة، فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر فأبى عليهما رسول الله ﷺ، فقال له عامر بن الطفيل - لعنه الله -: أما والله لأملأنها عليك خيلاً جرداً ورجلاً مرذاً. فقال له رسول الله ﷺ: يأبى الله عليك ذلك وأبناء قبيلة، يعني: الأنصار، ثم إنهما هما بالفتك بالنبي ﷺ، وجعل أحدهما يخاطبه، والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه، فحماه الله منهما وعصمه، فخرجا من المدينة فانطلقا في أحياء العرب، يجعلان الناس لحربه، عليه السلام، فأرسل الله على أريد سحابة فيها صاعقة فأحرقته. وأما عامر بن الطفيل فأرسل الله عليه الطاعون، فخرجت فيه غدة عظيمة، فجعل يقول: يا آل عامر، غدة كغدة البكر، وموت في بيت سلولية؟ حتى ماتا، لعنهما الله، وأنزل الله في مثل ذلك: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾، وفي ذلك يقول لبيد بن ربيعة، أخو أريد يرثيه:

أَخْشَى عَلَى أَزْدِ الْخُثُوفِ وَلَا
فَجَعَنِي الرَّغْدُ وَالصَّوَاعِقُ بِالْ

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا مسعدة بن سعد العطار، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي، حدثني عبد العزيز بن عمران، حدثني عبد الرحمن وعبد الله ابنا زيد بن أسلم، عن أبيهما، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس، أن أريد بن قيس بن جزء بن جليل بن جعفر بن كلاب، وعامر بن الطفيل بن مالك، قدما المدينة على رسول الله ﷺ، فأنهيا إليه وهو جالس، فجلسا بين يديه، فقال عامر بن الطفيل: يا محمد، ما تجعل لي إن أسلمت؟ فقال رسول الله ﷺ: «لك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم». قال عامر بن الطفيل: أتجعل لي الأمر إن أسلمت من بعدك؟ قال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك لك ولا لقومك،

ولكن لك أعنة الخيل». قال: أنا الآن في أعنة خيل نجد، اجعل لي الوبر ولك المذَر. قال رسول الله: «لا». فلما قفلا من عنده قال عامر: أما والله لأملأها عليك خيلاً ورجالاً، فقال له رسول الله ﷺ: «يمنعك الله». فلما خرج أريد وعامر، قال عامر: يا أريد، أنا أشغل عنك محمداً بالحديث، فاضربه بالسيف، فإن الناس إذا قتلت محمداً لم يزدوا على أن يرضوا بالدية، ويكروها الحرب، فنعطيهم الدية. قال أريد: أفعل. فأقبلا راجعين إليه، فقال عامر: يا محمد، قم معي أكلمك. فقام معه رسول الله ﷺ، فجلسا إلى الجدار، ووقف معه رسول الله ﷺ يكلمه، وسَلَّ أريدُ السيف، فلما وضع يده على السيف يبست يده على قائم السيف، فلم يستطع سَلَّ السيف، فأبطأ أريد على عامر بالضرب، فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أريد، وما يصنع، فانصرف عنهما. فلما خرج عامر وأريد من عند رسول الله ﷺ حتى إذا كانا بالحرّة، حرّة واقم نزلا، فخرج إليهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فقالا: اشخصا يا عدوَي الله، لعنكما الله. فقال عامر: من هذا يا سعد؟ قال: هذا أسيد بن حضير الكذاب. فخرجا حتى إذا كانا بالرقم، أرسل الله على أريد صاعقة قتلته، وخرج عامر حتى إذا كان بالخريم، أرسل الله فرجة فأخذته، فأدركه الليل في بيت امرأة من بني سلول، فجعل يمس فرحته في حلقه ويقول: عُذّة كغذّة الجمل في بيت سلولية ترغب أن يموت في بيتها! ثم ركب فرسه فأحضره حتى مات عليه راجعاً، فأنزل الله فيهما: ﴿اللَّهُ يَتَكَلَّمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَحْمِلُ الْأَرْحَامُ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾ [الرعد: ٨-١١] قال: المعقبات من أمر الله يحفظون محمداً ﷺ، ثم ذكر أريد وما قتله به، فقال: ﴿وَرُسُلُ الصَّوَرِ قَصِيْبٌ بِهَا مَن نَّسَاءُ﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَمُتَّجِدِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ أي: يَشْكُون في عظمته، وأنه لا إله إلا هو، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾. قال ابن جرير: شديدة ماحلته في عقوبة من طغى عليه وعَنَّا وتمادى في كفره. وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَمَمْرُوتٌ﴾ ٥١ فَنَظَّرَ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمِينَ ﴿٥١﴾ [النمل: ٥٠، ٥١] وعن علي، رضي الله عنه: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ أي: شديد الأخذ. وقال مجاهد: شديد القوة.

﴿لَمْ دَعَوْهُ لَمَقًى وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٌ كَتَبَهُ إِلَى الْمَاءِ يَنْتَعِ فَأَءٌ وَمَا هُوَ بِيَلْفِيعٍ﴾ وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ .

قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: ﴿لَمْ دَعَوْهُ لَمَقًى﴾ قال: التوحيد. رواه ابن جرير. وقال ابن عباس، وقتادة، ومالك عن محمد بن المنكدر: ﴿لَمْ دَعَوْهُ لَمَقًى﴾ قال: لا إله إلا الله. ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله. ﴿كَبْسِطٌ كَتَبَهُ إِلَى الْمَاءِ يَنْتَعِ فَأَءٌ﴾: قال علي بن أبي طالب: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبداً بيده، فكيف يبلغ فاه؟ وقال مجاهد: ﴿كَبْسِطٌ كَتَبَهُ﴾: يدعو الماء بلسانه، ويشير إليه بيده، فلا يأتيه أبداً. وقيل: المراد: قفابض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شيء، كما قال الشاعر:

فَإِنِّي وَإِيَّاكُمْ وَشَوْقًا إِلَيْكُمْ
وَقَالَ الْآخَرُ:

فَأَصْبَحْتُ مِمَّا كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهَا مِنْ الْوُدِّ مِثْلَ الْقَابِضِ الْمَاءِ بِالْيَدِ
ومعنى الكلام: أن هذا الذي يبسط يده إلى الماء، إما قابضاً وإما متناً أولاً له من بعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى
فيه، الذي جعله محلاً للشرب، فكذا هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره، لا ينتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في
الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي فهر كل شيء، ودان له كل شيء. ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين، وكرهاً من المشركين، ﴿وَلَهُمْ فِي النَّارِ﴾ أي: البكر، والأصال، وهو جمع أصيل وهو آخر النهار، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِهِمْ يَفْتَنُوا أَظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ [الحل: ٤٨].

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ شَيْءٍ قَدِ انْقَادُ لَهُ أَفَإِنَّ لِلَّذِينَ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ لا يَكُونُونَ لِأَنْفُسِهِمْ قُدْرَةً وَلَا مَعْلُومَةً قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ شَيْءٍ قَدِ انْقَادُ لَهُ أَفَإِنَّ لِلَّذِينَ هُمْ يَكْفُرُونَ

وَالَّذِينَ هُمْ يَكْفُرُونَ أَمْ جَاءَهُمْ شُرَكَاءُ خَلَقُوا كَمَا خَلَقَهُمْ نَسْتَبِيهِمُ الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الرَّزِيقُ الْغَنِيُّ ﴿٥١﴾ .

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو؛ لأنهم معترفون أنه هو الذي خلق السموات والأرض، وهو ربها ومديرتها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لنفسها ولا لعبديها بطريق الأولى ﴿ثُمَّ لَا تَخْلُفُ عَلَيْهِمْ شَيْئًا﴾ أي: لا تحصل منفعة، ولا تدفع مضرة. فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له، وهو على نور من ربه؟ ولهذا قال: ﴿قُلْ

هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ سَوَوِ الْأُمْلَةَ وَالْفُقْرَةَ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره؟ أي: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله، ولا ندله ولا عدله، ولا وزير له، ولا ولد ولا صاحبة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم يعترفون أنها مخلوقة له عبيد له، كما كانوا يقولون في تليبتهم: لييك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وكما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا إِلَهُ إِلَهُكُمْ﴾ [الزمر: ٢٣]، فأنكر تعالى ذلك عليهم، حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يُشْفَعُ عنده أحداً إلا بإذنه، ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]، ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُنْفَعُ شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٧٦]، وقال: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا فِي الرَّحْمَنِ عَبْدٌ﴾ [٢٧]، ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [٢٨]، ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [٢٩] [مریم: ٩٣-٩٥]، فإذا كان الجميع عبيداً، فلم يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع؟ ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تترجمهم عن ذلك، وتنهاهم عن عبادة من سِوَى الله، فكذبوهم وخالفوهم، فحققت عليهم كلمة العذاب لا محالة، ﴿وَلَا يَطُوعُ رَبُّكَ أُمُلَّاكُ﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ نَارٍ يُنْقَلِبُ اللَّهُ الْأَشْوَاعَ﴾ [١٧]

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: مطراً، فسالت أودية بقدرها أي: أخذ كل واحد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء، وهذا صغير قوسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علماً كثيراً، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيّق عنها، ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ أي: فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زَبَدٌ عال عليه، هذا مثل، وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾، هذا هو المثل الثاني، وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ﴿ابْتِغَاءَ نَارٍ﴾ أي: ليجعل حلية نحاس أو حديد، فيجعل متاعاً فإنه يعلوه زَبَدٌ منه، كما يعلو ذلك زبد منه. ﴿كَذَلِكَ يَصْرَفُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أي: إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب ونحوه مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ أي: لا يتنفع به، بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح. وكذلك حَبَثَ الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب، لا يرجع منه شيء، ولا يبقى إلا الماء، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به؛ ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَبْتَغِي النَّاسُ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَصْرَفُ اللَّهُ الْأَشْوَاعَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَشْوَاعُ يُصْرَفُهَا لِلنَّارِ وَمَا يَقُولُهَا إِلَّا الْقَوْلُ﴾ [النسكوت: ٢٤٣]. قال بعض السلف: كنت إذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَقُولُهَا إِلَّا الْقَوْلُ﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾: هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله. وهو قوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾، وهو الشك، ﴿وَأَمَّا مَا يَبْتَغِي النَّاسُ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ﴾، وهو اليقين، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار؛ فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك.

وقال العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ يقول: احتمل السيل ما في الوادي من عود ودمته ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾، فهو الذهب والفضة والحلية والتمتع والنحاس والحديد، فللنحاس والحديد حَبَثٌ، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبئت. فجعل ذلك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيئ يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، فكذلك الهدى والحق جاء من عند الله، فمن عمل بالحق كان له، ويبقى كما يبقى ما ينفع الناس في الأرض. وكذلك الحديد لا يستطيع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار فتأكل خبثه، ويخرج جوده فينتفع به. كذلك يضمحل الباطل إذا كان يوم القيامة، وأقيم الناس، وعرضت الأعمال، فيزيع الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق. وكذلك روي في تفسيرها عن مجاهد، والحسن البصري، وعطاء، وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف. وقد ضرب الله، سبحانه وتعالى، في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين نارياً ومائياً، وهو قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ الآية [البقرة: ١٧]، ثم قال: ﴿أَوْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ الآية [البقرة: ١٧]. وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مثلين، أحدهما: قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أََعْمَالُهُمْ كَرَثِيمَةٍ يَرِيمُونَ يُحِصِبُهُ ظَهْمَانٌ مَاءً﴾ الآية [النور: ٢٣٩]، والسراب إنما يكون في شدة الحر؛ ولهذا جاء في الصحيحين: «فيقال

وعد أخلف، وإذا أوتمن خان» وفي رواية: «وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». ولهذا قال: ﴿أَتُنَبِّئُكَ لِمَ أَتَيْنَاكَ﴾ وهي الإبعاد عن الرحمة، ﴿وَلِمَ سَوَّيْنَاكَ﴾ وهي سوء العاقبة والمآل، ومأواهم جهنم وبئس القرار. وقال أبو العالية في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْذُلُونَ عَنْهُمُ اللَّهُ﴾ الآية، قال: هي ست خصال في المنافقين إذا كان فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اتتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض. وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اتتمنوا خانوا.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَّعٌ ۚ﴾.

يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء، ويقتره على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدل. وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا في الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالاً، كما قال تعالى: ﴿يَتَسَبَّحُونَ أَنَّمَا تُنْذِرُ بِهِ مِنْ تَالِئِ يَوْمٍ ۖ ۝٥٥﴾ شاكحاً لهم في كُفْرِهِمْ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ (المؤمنون: ٥٥، ٥٦). ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما آذره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَّعٌ﴾، كما قال: ﴿ثُمَّ لَمَّا دَخَلُوا فِيهَا يَبْتَغُونَ فِيهَا دَرَاهِمَ خَالِدَةً فِيهَا وَمَا الْمَتَاعُ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا ذُلٌّ ۚ﴾ (النساء: ٧٧)، وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۖ﴾ (الأعلى: ١٦، ١٧). وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا: حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس، عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع» وأشار بالسبابة. ورواه مسلم في صحيحه. وفي الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ مر بجذبي أسك ميت - والأسك: الصغير الأذنين - فقال: «والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه».

﴿وَقَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّي. قُلْ إِنَّكَ اللَّهُ يُعِزُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنَاقِبُ ۚ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۚ﴾ (الأنبياء: ١٠٨) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا تَنَاقَبُ ۚ﴾.

يخبر تعالى عن قبل المشركين: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ كما قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بَيِّنَاتٌ كَمَا أُنْزِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ (الأنبياء: ٥)، وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وإن الله قادر على إجابة ما سألوا. وفي الحديث: أن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهباً، وأن يجري لهم ينبوعاً، وأن يزيح الجبال من حول مكة فيصير مكانها مروج وبساتين: إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك، فإن كفروا فإني أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: «بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة»؛ ولهذا قال لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّكَ اللَّهُ يُعِزُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنَاقِبُ﴾ أي: هو المفضل والهادي، سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا، أو لم يجههم إلى سؤالهم؛ فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه، كما قال: ﴿وَمَا تَنْفِي الْأَيْدِي وَكَانَ زَرْعٌ وَلَا يَقْمُوتُونَ﴾ (يونس: ١٠١)، وقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ حَفَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يَقْمُوتُونَ ۖ ۝١١﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۖ﴾ (يونس: ٩٦، ٩٧). وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا زُلْزَلْنَا إِلَهُمُ الْكَفَّةَ لَطَمَتُهَا لَنَفَّيْنَا عَنْهَا آلَافَ مَوْجٍ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۚ﴾ (الأنعام: ١١١)؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّكَ اللَّهُ يُعِزُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنَاقِبُ﴾ أي: ويهدي من أناب إلى الله، ورجع إليه، واستعان به، وتضرع لديه. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً؛ ولهذا قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي: هو حقيق بذلك.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا تَنَاقَبُ ۚ﴾، قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: فرح وثرة عين. وقال عكرمة: نعم ما لهم. وقال الضحاك: غبطة لهم. وقال إبراهيم النخعي: خير لهم. وقال قتادة: هي كلمة عربية، يقول الرجل: «طوبى لك»، أي: أصبت خيراً. وقال في رواية: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾: حسنى لهم. ﴿وَحَسُنَ مَا تَنَاقَبُ﴾ أي: مرجع. وهذه الأقوال شيء واحد لا منافاة بينها. وقال سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾، قال: هي أرض الجنة بالحشيشة. وقال سعيد بن مسروق: طوبى اسم الجنة بالهندية. وكذا روى السدي، عن عكرمة: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ أي: الجنة. وبه قال مجاهد. وقال العوفي، عن ابن عباس: لما خلق الله الجنة وفرغ منها قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا تَنَاقَبُ ۚ﴾، وذلك حين أعجبه. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب، عن جعفر، عن شهر بن حوشب قال: ﴿طُوبَى﴾ شجرة في الجنة، كل شجر الجنة منها، أغصانها من وراء سور الجنة. وهكذا روي عن أبي هريرة، وابن عباس، ومعن بن سمي، وأبي إسحاق السبيعي وغير واحد من السلف: أن طوبى شجرة في الجنة، في كل دار منها غصن منها.

وذكر بعضهم أن الرحمن، تبارك وتعالى، عَزَّسَهَا بيده من حبة لؤلؤة، وأمرها أن تمتد، فامتدت إلى حيث يشاء الله تبارك وتعالى، وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة، من غسل وخمر وماء ولبن. وقد قال عبد الله بن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث، أن ذَرَجَا أَبَا السَّمُوحِ حدثه، عن أَبِي الهيثم، عن أَبِي سعيد الخدري، رضي الله عنه، مرفوعاً: «طوبى: شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها». وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، سمعت عبد الله بن أبيه، حدثنا ذَرَجَا أَبُو السَّمُوحِ، أن أَبَا الهيثم حدثه، عن أَبِي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ: «أن رجلاً قال: يا رسول الله، طوبى لمن رآك وآمن بك. قال: «طوبى لمن رآني وآمن بي، ثم طوبى، ثم طوبى، ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني». قال له رجل: وما طوبى؟ قال: «شجرة في الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها». وروى البخاري ومسلم جميعاً، عن إسحاق بن راهويه، عن مغيرة المخزومي، عن وهيب، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها» قال فَحَدَّثْتُ به النعمان بن أبي عياش الزَّرْقِي، فقال: حدثني أبو سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجِوَادُ المضْمَرُ السريع مائة عام لا يقطعها».

وفي صحيح البخاري، من حديث يزيد بن زُرَيْع، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله: ﴿وَبَشِّرِ الصَّادِقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٧]، قال: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها». وقال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيْج، حدثنا ثَلَاثُخ، عن هلال بن علي، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، اقرؤوا إن شئتم ﴿وَبَشِّرِ الصَّادِقِينَ﴾». أخرجه في الصحيحين. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالوا: حدثنا شعبة، سمعت أبا الضحاک يحدث عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين - أو: مائة - سنة هي شجرة الخلد».

وقال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر، رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ، وذكر سدرة المنتهى، قال: «يسير في ظل الفتن منها الراكب مائة سنة - أو قال: يستظل في الفتن منها مائة راکب -، فيها قرأش الذهب، كأن ثمرها القلال». رواه الترمذي. وقال إسماعيل بن عياش، عن سعيد بن يوسف، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلام الأسود قال: سمعت أبا أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا انطلق به إلى طوبى، فتفتح له أكمامها، فيأخذ من أي ذلك شاء، إن شاء أبيض، وإن شاء أحمر، وإن شاء أصفر، وإن شاء أسود، مثل شقائق النعمان وأرق وأحسن». وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن مَعْمَر، عن أشعث بن عبد الله، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: طوبى شجرة في الجنة، يقول الله لها: «تَقْنَقِي لعبدي عَمَّا شَاءَ؛ فتفتق له عن الخيل بسروجها ولجمها، وعن الإبل بأزمته، وعما شاء من الكسوة».

وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه لهذا أثرأ غريباً عجيباً، قال وهب، رحمه الله: إن في الجنة شجرة يقال لها: «طوبى»، يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، زهرها رباط، وورقها برود، وقضبانها عنبر، وبطحاًها ياقوت، وترايبها كافور، ووحلها مسك، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل، وهي مجلس لأهل الجنة، فيينا هم في مجلسهم إذ انتهت ملائكة من ربهم يقودون نجياً مزومة بسلاسل من ذهب وجوهها كالمصابيح حسناً، ووبرها كخز المزعزي من لينه، عليها رحال ألواحها من ياقوت، ودوفوها من ذهب، وثيابها من سندس وإستريق، فينخونها ويقولون: إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه قال: فيركبونها، فهي أسرع من الطائر، وأوطأ من الفرائش، نجياً من غير مهنة، يسير الرجل إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه، لا تصيب أذن راحلة منها أذن الأخرى، ولا برك راحلة برك الأخرى، حتى إن شجرة لتتنحى عن طريقهم، لتلا تفرق بين الرجل وأخيه. قال: فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه، فإذا رآوه قالوا: اللهم، أنت السلام ومنك السلام، وحق لك الجلال والإكرام. قال: فيقول تعالى عند ذلك: «أنا السلام ومني السلام، وعليكم حق رحمتي ومحبتي، مرحباً بعبادي الذين خشوني بغيث وأطاعوا أمري». قال: فيقولون: ربنا لم نعبدك حق عبادتك، ولم نقدرك حق قدرك، فأذن لنا في السجود قدامك قال: فيقول الله: «إنها ليست بدار نصب ولا عبادة، ولكنها دار ملك ونعيم، وإنني قد رفعت عنكم نَصَبَ العبادة، فسلوني ما شئتم، فإن لكل رجل منكم أميته» فيسألونه، حتى إن أقصرهم أمية ليقول: رب، تنافس أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوا فيها، رب فأنتي مثل كل شيء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا. فيقول الله تعالى:

نصرناهم، وجعلنا العاقبة لهم ولاتباعهم في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ أي: هذه الأمة التي بعثناك فيها يكفرون بالرحمن، لا يقرون به؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم؛ ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم» وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم. قاله قتادة، والحديث في صحيح البخاري، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن». «قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» أي: هذا الذي تكفرون به أنا مؤمن به، معترف مقر له بالربوبية والإلهية، هو ربي لا إله هو، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: في جميع أموري، ﴿وَالَيْهِ مَتَابٌ﴾ أي: إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ خَلِّ بِمُؤْمِنٍ إِلَى اللَّهِ الْآخِرُ جَمِيعًا فَلَنَجِئَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ (٣١).

يقول تعالى مادحاً للقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ، ومفضلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ أي: لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق، أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك؛ لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهو لاء المشركون كافرون به، جاحدون له، ﴿بَلْ لِلَّهِ الْآخِرُ جَمِيعًا﴾ أي: مرجع الأمور كلها إلى الله ﷻ، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن يضل فلا هادي له، ومن يهد الله فلا مضل له. وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة؛ لأنه مشتق من الجميع، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خُفِّفَتْ عَلَى دَاوُدَ الْقِرَاءَةُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَابْتِهِ أَنْ تُسْرَجَ، فَكَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُسْرَجَ دَابْتُهُ، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ». انفرد بإخراجه البخاري. والمراد بالقرآن هنا الزبور.

وقوله: ﴿فَلَنَجِئَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا ﴿أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾، فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في النفوس والعقول من هذا القرآن، الذي لو أنزله الله على جبل لرأيت خاشعاً متصدعاً من خشية الله. وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي إلا وقد أوتي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». معناه: أن معجزة كل نبي انقضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشيع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة، حدثنا منجاب بن الحارث، أنبأنا بشر بن عمار، حدثنا عمر بن حسان، عن عطية العوفي قال: قلت له: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ الآية، قالوا لمحمد ﷺ: لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرق فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحيت لنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه، فأنزل الله هذه الآية. قال: قلت: هل تروون هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبي ﷺ؟ قال: نعم، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ. وكذا روى ابن عباس، والشعبي، وقتادة، والثوري، وغير واحد في سبب نزول هذه الآية، فالحق أعلم. وقال قتادة: لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم، فُعل بقرآنكم.

وقوله: ﴿بَلْ لِلَّهِ الْآخِرُ جَمِيعًا﴾: قال ابن عباس: أي لا يصنع من ذلك إلا ما يشاء، ولم يكن ليفعل، رواه ابن إسحاق بسنده عنه، وقاله ابن جرير أيضاً. وقال غير واحد من السلف في قوله: ﴿فَلَنَجِئَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: أفلم يعلم الذين آمنوا. وقرأ آخرون: ﴿أَفَلَمْ يَتَّبِعِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾. وقال أبو العالية: قد يشك الذين آمنوا أن يهدوا، ولو يشاء الله لهدى الناس جميعاً. وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي: بسبب تكذيبهم، لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا، أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ مَا هَوَّلَكُم مِّنْ الْقُرْآنِ وَصَرَافًا أَلَيْنَ لَكُمْ يَرْجُونَ﴾ [الاحقاف: ٢٧]، وقال: ﴿أَفَلَا يَرْجِعُونَ أَنَّا تَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَابِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤]. قال قتادة، عن الحسن: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي: القارعة. وهذا هو الظاهر من السياق. قال أبو داود الطيالسي: حدثنا المسعودي، عن قتادة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ قال: سرية، ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ قال: محمد ﷺ، ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ﴾ قال: فتح مكة. وهكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد، في رواية. قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ قال: عذاب من السماء ينزل

عليهم ﴿أَوْ تَحُلَّ قِربًا مِن دَارِهِمْ﴾ يعني: نزول رسول الله ﷺ بهم وقاتله إياهم. وكذا قال مجاهد، وقتادة، وقال عكرمة في رواية عنه، عن ابن عباس: ﴿قَارِعَةً﴾ أي: نكبة. وكلهم قال: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ يعني: فتح مكة. وقال الحسن البصري: يوم القيامة. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ أي: لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولاتباعهم في الدنيا والآخرة، ﴿فَلَا تَحْزَنَ اللَّهُ تَخْلِفَ وَعْدَهُ وَرُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧].

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رُسُلُ مِن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا تَمَّ أَخَذَتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [٣٢].

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رُسُلُ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: فلك فيهم أسوة، ﴿فَأَمَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: انظرتهم وأجلتهم، ﴿تَمَّ أَخَذَتَهُمْ﴾ أخذه رابية، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم؟ كما قال تعالى: ﴿وَكَايْنِ مِن قِربَةٍ أَمَلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ تَمَّ أَخَذَتَهَا وَلِيَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨]، وفي الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُل سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَبْلُغُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْدُوهُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ النَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ [٣٣].

يقول تعالى: ﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: حفيظ عليم رقيب على كل نفس منغوسة، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا يخفى عليه خافية، ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن رَّزْقَةٍ إِلَّا أَلَمَتْهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَسْلُبُهَا مَسَافَرَةً وَسَوَافَةً كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، وقال: ﴿سَوَاءٌ يَنْصُرُكَ مِن نَّسْرِ الْقَوْلِ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَن هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأُتْبُعٍ وَاسْرِيٍّ بِأَلْقَارٍ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال: ﴿يَعْلَمُ الْغَيْبُ وَاسْمُ اللَّهِ﴾ [طه: ٧]، وقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] أفمن هو هكذا كالأصنام التي يعبدونها، لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ولا تملك نفعاً لأنفسها ولا لعباديتها، ولا كشف ضرر عنها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاءً بدلالة السياق عليه، وهو قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي: عبدوها معه، من أصنام وأنداد وأوثان. ﴿قُل سَمُّوهُمْ﴾ أي: أعلمونا بهم، واكشفوا عنهم حتى يعرفوا، فإنهم لا حقيقة لهم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَبْلُغُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا وجود له؛ لأنه لو كان له وجود في الأرض لعلمها؛ لأنه لا تخفى عليه خافية. ﴿أَمْ يَبْدُوهُ مِنَ الْقَوْلِ﴾ قال مجاهد: بظن من القول. وقال الضحاك وقتادة: بباطل من القول. أي: إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر، وسميتوها آلهة، ﴿إِن هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَمَا أَوْفَرُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِن رَبِّهِمْ الْفُتْحُ﴾ [النجم: ٢٣]. ﴿بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ﴾: قال مجاهد: قولهم، أي: ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه أثناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿وَقَفَّسْنَا لَهُمُ الْقُرْآنَ فَرَسُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْغَيِّ وَالْإِنشَاءِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَبِيرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥]. ﴿وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾: من قرأها بفتح الصاد، معناه: أنهم لما زين لهم ما فيه وأنه حق، دَعُوا إليه وصدوا الناس عن اتباع طريق الرسل. ومن قرأها وصدَّوا. أي: بما زين لهم من صحة ما هم عليه، صدَّوا به عن سبيل الله؛ ولهذا قال: ﴿وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾، كما قال: ﴿وَمَن يُرِيدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِن اللَّهِ شَيْئاً﴾ [المائدة: ٤١]، وقال: ﴿إِن تَحَرَّصَ عَلَى هُدْيَتِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧].

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِلْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن رَّافِعٍ﴾ [٣٤] ﴿نَسُتُ الْجَنَّةَ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُمَاتُهَا لَيْلٌ وَسُفْحُهَا كَالْكَافُورِ أَتَارُ﴾ [٣٥].

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار: فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً، ﴿وَلِلْآخِرَةِ﴾ أي: المذخر لهم، مع هذا الخزي في الدنيا، ﴿أَشَقُّ﴾ أي: من هذا بكثير، كما قال رسول الله ﷺ للملأعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة». وهو كما قال، صلوات الله وسلامه عليه، فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذلك دائم أبداً في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفاً، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يَعْذُبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ [٢٥] ولا يؤثِّرُ وَاقِعُهُ أَحَدًا﴾ [٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَعَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالْحَقِّ سَؤِيرًا﴾ [١١] إذا رأتهم مِن تَكَاثُرٍ يَبِيرُ جَعُومًا لَّمَّا تَبَيَّنَ زُجُورُكَ﴾ [١٢] وَإِلَّا أَفْعَا مِنْهَا مَكَّانًا سَبِيحًا مُّقْرَنَيْنِ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [١٣]

لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخَالِدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَمَعِيرًا ﴿١٥﴾ [الفرقان: ١١ - ١٥]. ولهذا قرن هذا بهذا؛ فقال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: صفتها ونعتها، ﴿يَتَرَى مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارَ﴾ أي: سارحة في أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها، يفجرونها تفجيراً، أي: يصرفونها كيف شاؤوا وأين شاؤوا، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِ الثَّمَرَاتِ وَمَعْقَرَةٌ مِنْ زَيْتٍ كُنْ هُوَ خَلِيلٌ فِي الْأَنْهَارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاهُمْ﴾ ﴿١٥﴾ [محمد: ١٥].

وقوله: ﴿أَكُلُوا دَائِمًا وَظِلُّوا﴾ أي: فيها المطاعم والفواكه والمشارب، لا انقطاع لها ولا فناء. وفي الصحيحين، من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف، وفيه قالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا، ثم رأيناك تكفكت فقال: «إني رأيت الجنة - أو: أريت الجنة - فتناولت منها عتقوداً، ولو أخذته لأكلت من ما بقيت الدنيا». وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو حنيفة، حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا عبيد الله، حدثنا أبو عقيل، عن جابر قال: بينما نحن في صلاة الظهر، إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا، ثم تناول شيئاً ليأخذه ثم تأخر. فلما قضى الصلاة قال له أبي بن كعب: يا رسول الله، صنعت اليوم في الصلاة شيئاً ما رأيناك كنت تصنعه. فقال: «إني عرضت علي الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت منها قطفاً من عنب لآتيكم به، فحيل بيني وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا يتقصونه». وروى مسلم من حديث أبي الزبير، عن جابر، شاهداً لبعضه. وعن عتبة بن عبد السلمي: أن أعرابياً سأل النبي ﷺ عن الجنة، فقال: فيها عنب؟ قال: «نعم». قال: فما عظم العتقود؟ قال: «مسيرة شهر للغراب الأبقع ولا يفتّر». رواه أحمد. وقال الطبراني: حدثنا معاذ بن المشي، حدثنا علي بن المديني، حدثنا ربحان بن سعيد، عن عباد بن منصور، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى». وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يأكل أهل الجنة ويشربون، ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون، طعامهم جُشاء كريح المسك، ويلهمون التسبيح والتفديس كما يلهمون النفس». رواه مسلم. وروى الإمام أحمد والنسائي، من حديث الأعمش، عن ثمامة بن عتبة، سمعت زيد بن أرقم قال: جاء رجل من أهل الكتاب فقال: يا أبا القاسم، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال: «نعم، والذي نفس محمد بيده، إن الرجل من أهل الجنة ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة». قال: فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة، وليس في الجنة أذى؟ قال: «حاجة أحدهم رشح يفيض من جلودهم، كريح المسك، فيضمر بطنه». وقال الحسن بن عرفة: حدثنا خلف بن خليفة، عن حميد الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة، فيخر بين يديك مشوياً». وجاء في بعض الأحاديث: أنه إذا فُرج منه عاد طائراً كما كان بإذن الله تعالى. وقد قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُمْ كَثِيرٌ لَّا يَفْقَهُوْنَ وَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣]. وقال: ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ ظُلُمَاتُهَا وَذَلَّلْنَا ظُلُمَاتُهَا لَنَزِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤]. وكذلك ظله لا يزول ولا يقلص، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَمُوتْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ﴾ [النساء: ٥٧]. وقد تقدم في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة، يسير الراكب المجد الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها»، ثم قرأ: ﴿وَبِظِلِّهَا تَبْدُونَ﴾ [الواقعة: ٣٠]. وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار، ليرغب في الجنة ويحذر من النار؛ ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر، قال بعده: ﴿تِلْكَ عِشَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعِشَى الْكَافِرِينَ الْأَنَارُ﴾، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]. وقال بلال بن سعد خطيب دمشق في بعض خطبه: عباد الله، هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئاً من عبادتكم تُقبلت منكم، أو أن شيئاً من خطاياكم غفرت لكم؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. والله لو عُجل لكم الثواب في الدنيا لاستقللتم كلكم ما افترض عليكم، أو ترغبون في طاعة الله لتعجيل دنياكم، ولا تنافسون في جنة ﴿أَكُلُوا دَائِمًا وَظِلُّوا تِلْكَ عِشَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعِشَى الْكَافِرِينَ الْأَنَارُ﴾. رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ بِقُرْصَاتٍ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ الْآخِرَاتِ مِنْ يُكْرٍ بَعْضُهُمْ قُلْ إِنَّمَا أُنْزِلَتْ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكُ بِهِ إِلَهِي أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَقَابُ﴾ [١٦] وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْلَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَحْيِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿١٧﴾.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ﴾ وهم قائلون بمقتضاه ﴿بِقُرْصَاتٍ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ بِتِلْكَ الْوَحْيِ الَّتِي كُتِبَتْ بِهِ مِنْ يَمِينِهِمْ وَأَنْزَلَ إِلَيْكَ الْوَحْيَ فَوَلِّيكَ هُمْ الْغَائِبِينَ﴾ [البقرة: ١٢١]. وقال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لَدَاقِ سَجْدًا﴾ [١٧].

وَقَوْلُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٣٨﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] أي: إن كان ما وعدنا الله به في كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقاً وصدقاً مفعولاً لا محالة، وكائناتاً، فسبحانه ما أصدق وعده، فله الحمد وحده، ﴿وَيَحْشُرُونَ لِلْآدَمِيِّاتِ يَتَكُونَنَّ وَيَزِيدُهُنَّ حُشُوعًا﴾ ﴿١٣٩﴾ [الإسراء: ١٠٩]. وقوله: ﴿وَمِنَ الْآخَرَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ أي: ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك. وقال مجاهد: ﴿وَمِنَ الْآخَرَابِ﴾: اليهود والنصارى، من ينكر بعض ما جاءك من الحق. وكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْرُونَ بَيِّنَاتٍ مِنَ اللَّهِ فَتَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]. ﴿قُلْ إِنَّمَا أُرِيتُ أَنَّ أُعْبَدَ اللَّهُ وَلَا أَشْرَكَ بِهِ﴾ أي: إنما بعثت لعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلي، ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ أي: إلى سبيله أَدْعُو الناس، ﴿وَالِلَّهِ مَقَابِلُ﴾ أي: مرجعي ومصيري.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي: وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكمًا معرباً، شرفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [نمل: ٢٢]. وقوله: ﴿وَلَيْنِ أَتَيْتُ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: آراءهم، ﴿بَعْدَ مَا جَاءَهُ مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: من الله تعالى ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ ذِي وَلَا وَاقٍ﴾ أي: من الله تعالى. وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبيل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية، على ما جاء بها أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرُسُلِنَا أَنْ يَأْتِيَ بِعَائِدَةٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ ﴿٣٨﴾ يَمْحُو مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلناك، يا محمد، رسولاً بشرياً كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشراً يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية، وقد قال الله تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]. وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا فاعصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأكل الدسم وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني». وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أنبأنا الحجاج بن أرطاة عن مكحول قال: قال أبو أيوب: قال رسول الله ﷺ: «أربع من سنن المرسلين: التعطر، والنكاح، والسواك، والحناء». وقد رواه أبو عيسى الترمذي، عن سفيان بن وكيع عن حفص بن غياث، عن الحجاج، عن مكحول، عن أبي الشمال، عن أبي أيوب... فذكره، ثم قال: وهذا أصح من الحديث الذي لم يذكر فيه أبو الشمال. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرُسُلِنَا أَنْ يَأْتِيَ بِعَائِدَةٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ أي: لم يكن يأتي قومته بخارق إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه، بل إلى الله، ﷻ، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكل مدة مضرورية كتاب مكتوب بها، وكل شيء عنده بمقدار، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]. وكان الضحاک بن مزاحم يقول في قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكل كتاب أجل يعني لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضرورية عند الله ومقدار معين، فلهذا يمحو ما يشاء منها ويثبت، يعني حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله، صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾: اختلف المفسرون في ذلك، فقال الثوري، ووكيع، وهشيم، عن ابن أبي ليلي، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبّير، عن ابن عباس: يدبر أمر السنة، فيمحو ما يشاء، إلا الشقاء والسعادة، والحياة والموت. وفي رواية: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾، قال: كل شيء إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة فإنهما قد فرغ منهما. وقال مجاهد: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة، فإنهما لا يتغيران. وقال منصور: سألت مجاهداً فقلت: رأيت دعاء أحدهما يقول: اللهم، إن كان اسمي في السعداء فأثبتته فيهم، وإن كان في الأشقياء فامحه عنهم واجعله في السعداء. فقال: حسن. ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر، فسأله عن ذلك، فقال: ﴿إِنَّمَا أُنْزِلَتْهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ ﴿٣٩﴾ فيها يُفَرِّقُ كُلَّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤٠﴾ [الدخان: ٣، ٤]، قال: يقضي في ليلة القدر ما يكن في السنة من رزق أو مصيبة، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، فأما كتاب الشقاوة والسعادة فهو ثابت لا يتغير. وقال الأعمش، عن أبي وائل شقيق بن سلمة: إنه كان يكثر أن يدعو بهذا الدعاء: اللهم، إن كنت كتبنا أشقياء فامحه، واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب. رواه ابن جرير. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن أبي حكيمة عِصْمَةَ، عن أبي عثمان التُّهْدِي، أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال وهو يطوف بالبيت وهو يبكي: اللهم، إن كنت كتبت علي شقوة أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة.

وقال حماد عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة عن ابن مسعود أنه كان يدعو بهذا الدعاء أيضاً. ورواه شريك، عن هلال بن حميد، عن عبد الله بن عكيم، عن ابن مسعود، بمثله. وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا حجاج، حدثنا خفاف، عن أبي حمزة، عن إبراهيم؛ أن كعباً قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، لولا آية في كتاب الله لأبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة. قال: وما هي؟ قال: قال الله تعالى: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾. ومعنى هذه الأقوال: أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء، وقد يستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، وهو الثوري، عن عبد الله بن عيسى، عن عبد الله بن أبي الجعد، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنوب يُصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر». ورواه النسائي وابن ماجه، من حديث سفيان الثوري، به.

وثبت في الصحيح أن صلة الرحم تزيد في العمر، وفي الحديث الآخر: «إن الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض». وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سهل بن عسكر، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: إن الله لو حأ محفوظاً مسيرة خمسمائة عام، من درة بيضاء لها دَفَنَانِ من ياقوت - والدفتان: لوحان - لله، ﷻ، كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة، يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب. وقال الليث بن سعد، عن زيادة بن محمد، عن محمد بن كعب القرظي، عن فضالة بن عبيد، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يفتح الذكر في ثلاث ساعات يَبْقَيْنِ من الليل، في الساعة الأولى منها ينظر في الذكر الذي لا ينظر فيه أحد غيره، فيمحو ما يشاء ويثبت». وذكر تمام الحديث. رواه ابن جرير. وقال الكلبي: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ قال: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه. فقيل له: من حدثك بهذا؟ فقال: أبو صالح، عن جابر بن عبد الله بن رثاب، عن النبي ﷺ. ثم سئل بعد ذلك عن هذه الآية فقال: يكتب القول كله، حتى إذا كان يوم الخميس، طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب، مثل قولك: أكلت وشربت، دخلت وخرجت ونحوه من الكلام، وهو صادق، ويثبت ما كان فيه الثواب، وعليه العقاب. وقال عكرمة، عن ابن عباس: الكتاب كتابان: فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يقول: هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة، فهو الذي يمحو - والذي يثبت: الرجل يعمل بمعصية الله، وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله، فهو الذي يثبت. وروي عن سعيد بن جبير: أنها بمعنى: ﴿فَيَقْفَرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَعْرِضُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾، يقول: يبدل ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله، ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يقول: وجملة ذلك عنده في أم الكتاب، الناسخ، والمنسوخ، وما يبدل وما يثبت كل ذلك في كتاب. وقال قتادة في قوله: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾: كقوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْهِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ يُلْغِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد في قوله: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ قال: قالت كفار قريش حين أنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: ما نراك يا محمد تملك من شيء، ولقد فرغ من الأمر. فأنزلت هذه الآية تخويفاً، ووعيداً لهم: إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا، ونحدث في كل رمضان، فنمحو ونثبت ما نشاء من أرزاق الناس ومصائبهم، وما نعطيهم، وما نقسم لهم. وقال الحسن البصري: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ قال: من جاء أجله، قَدْ هَبَ، ويثبت الذي هو حي يجري إلى أجله. وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير، رحمه الله.

وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال: الحلال والحرام. وقال قتادة: أي جملة الكتاب وأصله. وقال الضحاك: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال: كتاب عند رب العالمين. وقال سَنَدُ بن داود، حدثني معتمر، عن أبيه، عن سَيَّار، عن ابن عباس؛ أنه سأل كعباً عن «أم الكتاب»، فقال: عليم الله، ما هو خالق، وما خَلَقَهُ عاملون، ثم قال لعلمه: «كن كتاباً» فكانا كتاباً. وقال ابن جرير، عن ابن عباس: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال: الذكر، والله أعلم.

﴿وَإِنْ مَا يُرِيدُكَ بَعْضُ الَّذِينَ يَدْعُهُمْ أَوْ نَوَيْتُكَ فَلَمَّا عَلَيَكَ الْبَلَاءُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ ٤٠ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ٤١.

يقول تعالى لرسوله: ﴿وَإِنْ مَا يُرِيدُكَ بَعْضُ الَّذِينَ يَدْعُهُمْ﴾ أي: يا محمد ﴿بَعْضُ الَّذِينَ يَدْعُهُمْ﴾ أي: نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا، ﴿أَوْ نَوَيْتُكَ﴾ أي: قبل ذلك، ﴿فَلَمَّا عَلَيَكَ الْبَلَاءُ﴾ أي: إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله وقد بلغت ما أمرت به، ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ أي: حسابهم وجزاؤهم، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ٢١ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ٢٢ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ٢٣ فَيُعَذِّبُهُ

هذا من لطفه تعالى بخلقه: أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم، كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن عمر بن ذر قال: قال مجاهد: عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يبعث الله، ﷺ، نبياً إلا بلغه قومه». وقوله: «فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» أي: بعد البيان وإقامة الحجة عليهم يضل تعالى من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق، «وَهُوَ الْعَزِيزُ» الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، «الْحَكِيمُ» في أفعاله، فيضل من

يستحق الإضلال، ويهدي من هو أهل لذلك. وقد كانت هذه سنة الله في خلقه: أنه ما بعث نبياً في أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمد بن عبد الله رسول الله بعموم الرسالة إلى سائر الناس، كما ثبت في الصحيحين عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيتم خساً لم يُعطَ من الأنبياء قبلي: نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي ﷺ يبعث إلى قومه، ويبعث إلى الناس عامة». وله شواهد من وجوه كثيرة، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ مِنِّي رِسَالِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب، لتخرج الناس كلهم، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى في بني إسرائيل بآياتنا. قال مجاهد: وهي التسع الآيات: ﴿أَنْتَ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ أي: أمرناه قائلين له: ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: ادعهم إلى الخير، ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان. ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بأياديه ونعمه عليهم، في إخراجهم إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه، وإنجائهم إياهم من عدوهم، وقلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من النعم. قال ذلك مجاهد، وقتادة، وغير واحد. وقد ورد فيه الحديث المرفوع الذي رواه عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل في مسند أبيه حيث قال: حدثني يحيى بن عبد الله مولى بني هاشم، حدثنا محمد بن أبان الجعفي، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا﴾، قال: «بنعم الله تبارك وتعالى». ورواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث محمد بن أبان، به. ورواه عبد الله ابنه أيضاً موقوفاً، وهو أشبه. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهيمن، لعبرة لكل صَبَّارٍ، أي: في الضراء، شكور، أي: في السراء، كما قال قتادة: نعم العبد، عبد إذا ابتلي صَبَّرَ، وإذا أعطي شَكَرَ. وكذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أمر المؤمن كله عَجَبٌ، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له».

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ مَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَدَيُّكُمْ أَنْتَاهُمْ وَنَسْتَعِينُ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رُجُومُكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُورَكُمْ أَنْتُمْ مِنَ الْآرِضِ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ لَنَفِي حَيْدٍ ﴿٨﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى، حين ذكر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حين كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم، فأنقذ الله بني إسرائيل من ذلك، وهذه نعمة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها. وقيل: وفيما كان يصنع بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿بَلَاءٌ﴾ أي: اختبار عظيم. ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿وَيَكُونُ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ بِالْمِسْئَلِ وَالْشَّيْءِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُجُومُكُمْ﴾ أي: آذنتكم وأعلمكم بوعده لكم. ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وألى بعزته وجلاله وكبريائه كما قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُجُومُكُمْ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٧]. وقوله: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها، ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ﴾ أي: كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها، ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها. وقد جاء في الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه». وفي المسند: أن رسول الله ﷺ مرَّ به سائل فأعطاه تمرة، فتمسَّخها ولم يقبلها، ثم مرَّ به آخر فأعطاه إياها، فقبلها وقال: تمرة من رسول الله ﷺ، فأمر له بأربعين درهماً، أو كما قال. قال الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا عمارة الصبلياني، عن ثابت، عن أنس قال: أتى النبي ﷺ سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها - أو: وحش بها - قال: وأناه آخر فأمر له بتمرة، فقال: سبحان الله! تمرة من رسول الله ﷺ. فقال للجارية: «اذهبي إلى أم سلمة، فأعطيه الأربعين درهماً التي عندها». تفرد به الإمام أحمد. وعمارة بن زاذان وثقه ابن حبان، وأحمد، ويعقوب بن سفيان. وقال ابن معين: صالح. وقال أبو زرعة: لا بأس به. وقال أبو

حاتم: يكتب حديث ولا يحتج به، ليس بالمعتن. وقال البخاري: ربما يضطرب في حديثه. وعن أحمد أيضاً أنه قال: روى عنه أحاديث منكرة. وقال أبو داود: ليس بذلك. وضعفه الدارقطني، وقال ابن عدي: لا بأس به ممن يكتب حديثه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَلَنَكَلِفَنَّ اللَّهُ ثَمَرًا﴾ أي: هو غني عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود، وإن كفره من كفره، كما قال: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَلَنَكَلِفَنَّ اللَّهُ ثَمَرًا عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَآمَنَّا بِاللهِ وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ﴾ [النبا: ٦٦]. وفي صحيح مسلم، عن أبي ذر، عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه، ﷻ، أنه قال: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر». فسبحانه وتعالى الغني الحميد.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَنَافِلُ شَيْءٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مَرْيَمُ﴾.

قال ابن جرير: هذا من تمام قيل موسى لقومه. يعني: وتذكاره إياهم بأيام الله، بانتقامه من الأمم المكذبة للرسل. وفيما قال ابن جرير نظراً، والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة، فإنه قد قيل: إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقصه عليهم ذلك فلا شك أن تكون هاتان القصتان في «التوراة»، والله أعلم. وبالجمله فالله تعالى قد قص علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل، مما لا يحصى عددهم إلا الله ﷻ أنتهم رسلهم بالبينات، أي: بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات. وقال ابن إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله أنه قال في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾: كذب النسابون. وقال عروة بن الزبير: ما وجدنا أحداً يعرف ما بعد معد بن عدنان. وقوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾: اختلف المفسرون في معناه، فقيل: معناه: أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل بأمروهم بالسكوت عنهم، لما دعوهم إلى الله، ﷻ. وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم. وقيل: بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل. وقال مجاهد، ومحمد بن كعب، وقتادة: معناه: أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم. قال ابن جرير: وتوجيهه أن «في» هاهنا بمعنى «الباء»، قال: وقد سمع من العرب: «أدخلك الله بالجنة» يعنون: في الجنة، وقال الشاعر:

وَأَزْعَبُ فِيهَا عَنْ لَقِيْطٍ وَرِفْطِهِ عَنْ يَثْرِبَيسَ لَسْتُ أَزْغِبُ
يريد: أرغب بها. قلت: ويؤيد قول مجاهد تفسير ذلك بتمام الكلام: ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَنَافِلُ شَيْءٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مَرْيَمُ﴾، فكان هذا والله أعلم تفسير لمعنى «رد أيديهم في أفواههم». وقال سفيان الثوري، وإسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله في قوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾: قال: عضوا عليها غيظاً. وقال شعبة، عن أبي إسحاق، عن هُبَيْرَةَ ابْنِ مَرْيَمَ، عن عبد الله أنه قال ذلك أيضاً. وقد اختاره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وجهه ابن جرير مختاراً له، بقوله تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَٰلَمَكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْقَبْلِ﴾ [آل عمران: ١١٩]. وقال العوفي، عن ابن عباس: لما سمعوا كتاب الله عجبوا، ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم. وقالوا: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَنَافِلُ شَيْءٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مَرْيَمُ﴾ يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به؛ فإن عدنان فيه شكاً قوياً.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِيعُوا أَمْرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَتَوَكَّلْ لَكُمْ مِن دُونِكُمْ وَيُخَوِّجْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَدُ آبَائِنَا فَاثُونًا يَسْطَرُّنَ مِثْلَهُ﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ هُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَهَلِ اللَّهُ فَعَلْتُكَ الْفُلُوسُ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصِيرَنَّ عَلَىٰ مَا نَدْعُبُ مَوْجِدًا وَهَلِ اللَّهُ فَعَلْتُكَ الْفُلُوسَ ﴿١٢﴾.

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أمهم لما واجهوهم بالشك فيما جاؤوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿أَفِى اللَّهِ شَكٌّ؟﴾ وهذا يحتمل شيئين، أحدهما: أفي وجوده شك، فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومحولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، ففتحناج إلى النظر في الدليل الموصول إلى وجوده؛ ولهذا قالت لهم الرسل ترشدكم إلى طريق معرفته بأنه ﴿فَأَطِيعُوا أَمْرَ السَّمَوَاتِ

الابتهاال إلى ربها العزيز المقتدر. وقوله: ﴿يَنْزِلُ رَبُّنَا فِي هَئِهِمْ﴾ و «وراء» ههنا بمعنى «أمام»، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ مُلْكًا يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، وكان ابن عباس يقرؤها: ﴿وكان أمامهم ملك﴾. أي: من وراء الجبار العنيد جهنم، أي: هي له بالمرصاد، يسكنها مخلدًا يوم المعاد، ويعرض عليها غدوًا وعشيا إلى يوم التناد.

﴿رَسَقَ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ أي: في النار ليس له شراب إلا من حميم أو غساق، فهذا في غاية الحرارة، وهذا في غاية البرد والتشنج، كما قال: ﴿هَذَا قَيْدُوقُ جَبَرٍ وَعَسَاقُ ٥٧ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجُ ٥٨﴾ [ص: ٥٧، ٥٨]. قال مجاهد، وعكرمة: الصديد: من القيح والدم. وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده. وفي رواية عنه: الصديد: ما يخرج من جوف الكافر، قد خالط القيح والدم. وفي حديث شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: قلت: يا رسول الله، ما طينة الخبال؟ قال: «صديد أهل النار» وفي رواية: «عصارة أهل النار». وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا عبد الله، أنا صفوان بن عمرو، عن عبيد الله بن بَرٍّ، عن أبي أمامة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿رَسَقَ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ يَجْرَعُهُمْ﴾، قال: «يَقْرُبُ إِلَيْهِ فَيَتَكْرَهُهُ، فإذا أدنى منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره. يقول الله تعالى: ﴿وَمِمَّا مَاءٌ حَمِيمٌ فَقُلْعُ أَمْعَاءُهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، ويقول: ﴿وَلَنْ يَسْتَنِيحُوا بِهَؤُلَاءِ مِثْلَ لَمْهَلٍ يَشْوِي أَلْوَجُوهُ يَشْكُ الشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩]. وهكذا رواه ابن جرير، من حديث عبد الله بن المبارك، به. ورواه هو وابن أبي حاتم: من حديث بَقِيَّةَ بن الوليد، عن صفوان بن عمرو، به. وقوله: ﴿يَجْرَعُهُمْ﴾ أي: يتغصصه ويتكرهه، أي: يشربه قهراً وقسراً، لا يضعه في فيه حتى يضره الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ مَقْنَعٍ مِنْ حَدِيدٍ ٦١﴾ [الحج: ٢١]. ﴿وَلَا يَكَاذُ يَشِيرُهُ﴾ أي: يزدرد له لسوء لونه وطعمه وريحه، وحرارته أو برده الذي لا يستطيع.

﴿وَيَأْتِيهِمُ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: يآلم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه. قال ميمون بن مِهْرَان: من كل عظم، وعرق، وعصب. وقال عكرمة: حتى من أطراف شعره. وقال ابن جرير: ﴿وَيَأْتِيهِمُ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: من أمامه وورائه، وعن يمينه وشماله، ومن فوقه ومن تحت أرجله، ومن سائر أعضاء جسده. وقال الضحاک، عن ابن عباس: ﴿وَيَأْتِيهِمُ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال: أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم، وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت، ولكن لا يموت؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَا يَقْنَنُ عَلَيْهِمْ قَبْرُهُمْ وَلَا يَحْتَفُ عَلَيْهِمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ يُجْزَى كُلُّ كَفِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦]. ومعنى كلام ابن عباس، رضي الله عنه: أنه ما من نوع من هذه الأنواع من هذا العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال؛ ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِيهِمُ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِسَيِّئٍ﴾. وقوله: ﴿وَيَنْزِلُ رَبُّنَا فِي هَئِهِمْ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: وله من بعد هذا الحال عذاب آخر غليظ، أي: مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر. وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿إِنَّمَا شَجَرَةُ الزَّقْمِ فِي أَسْفَلِ الْجَحِيمِ ١٦ طَلْحُهَا كَالنَّارِ زُؤُمُ الشَّيْبِلِ ١٧ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُ فِيهَا قَالُونَ مِمَّا الْبَطُونَ ١٨ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَتَوْنًا يَنْزِلُ مِنْ جِوَارِ ١٩ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ ٢٠﴾ [الصافات: ٦٤ - ٦٨]، فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم، وتارة في شرب حميم، وتارة يردون إلى الجحيم، عباداً بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُكْفِرُونَ ٤٢ يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ جِوَارِ ٤٣﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقْمِ ١٢ طَلْحُهَا الْأَثِيرُ ١٣ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبَطُونَ ١٤ كَتَلِ الْجَحِيمِ ١٥ عَذْوُهُمْ فَاغْتُلُّوا إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ١٦ ثُمَّ صَبُّوا فِي رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ ١٧ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَذِيبُ الْكَرِيمُ ١٨ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ١٩﴾ [الدخان: ٤٣ - ٥٠]، وقال: ﴿وَأَصْحَابُ الْفِئَالِ مَا أَصْحَابُ الْفِئَالِ ٢١ فِي سَوَاءٍ رَجِيمٍ ٢٢ وَبَيْنَ يَدَيْهِمْ جِوَارِ ٢٣ لَا يَبْرُونَ وَلَا كَرِيمٍ ٢٤﴾ [الزمر: ٤١ - ٤٤]، وقال تعالى: ﴿هَذَا وَارِكُ اللَّطِينِ لَشَرِّ مَتَابِ ٥٥ جَهَنَّمُ يَصْطَوِي فِيهَا الْهَادُ ٥٦ عَذَابُ قَيْدُوقُ جَبَرٍ وَعَسَاقُ ٥٧ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجُ ٥٨﴾ [ص: ٥٥ - ٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكاله، مما لا يحصىه إلا الله، ﷻ، جزاءً وفاقاً، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [نصلت: ٤٦].

﴿تَنْتَلِ الْأَنْفُسُ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَغْنَتْهُمْ كَرَمَاتُ أَشْتَدَّتْ بِهِ الْأَنْفُسُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَافُ الْأَعْيِدُ ١٨﴾.

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا مع الله غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح؛ فانهارت وغدِمُوها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿تَنْتَلِ الْأَنْفُسُ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَغْنَتْهُمْ كَرَمَاتُ أَشْتَدَّتْ بِهِ الْأَنْفُسُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ، فلم يجدوا شيئاً، ولا ألفوا حاصلًا إلا كما يتحصل القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم على شيء، فلم يجدوا شيئاً، ولا ألفوا حاصلًا إلا كما يتحصل

من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي: ذي ريح عاصفة قوية، فلا يقدرّون على شيء من أعمالهم التي كسبوها في الدنيا إلا كما يقدرّون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْإَةً مِّنْهُنَّ﴾ ﴿٢٣﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ مَرْجَاقَ طَبَقٍ مِّنْهُنَّ فَأَمْلَأَتْهُنَّ مِنَّا وَاللَّيْلِ الَّذِينَ يَمْشُونَ فِي الْأَرْضِ لَا يُبْطِلُوا صِدْقَتَكُمْ بِاللَّيْلِ وَاللَّيْلِ كَالَّذِي يَنْفَعُ مَالَهُ رِيَّتُهُ لَبِيسًا وَلَا يُؤْنِسُ اللَّهَ وَاللَّيْلِ الْأَخَرُ مَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَفَرَغَهُ مَسَدًا لَا يَذُرُّونَ عَلَى قَوْمٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ [البقرة: ٢٤]. وقال في هذه الآية: ﴿ذَلِكَ هُوَ الصَّلْدُ الْبَيْدُ﴾ أي: سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما هم إليه، ﴿ذَلِكَ هُوَ الصَّلْدُ الْبَيْدُ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ نَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾. يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، أنليس الذي قدر على خلق هذه السموات، في ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات، والحركات المختلفة، والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهاد وواد وأوتاد، وبراري وصحارى وقفار، وبحار وأشجار، ونبات وحيوان، على اختلاف أصنافها ومنافعها، وأشكالها وألوانها؛ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لَهُنَّ بَدِيلًا يَنْتَظِرُ عَنِ النَّارِ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢١﴾ [الاحقاف: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٧٧﴾ وَصَرَّبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِزُّ الْعَظِيمَ وَهِيَ رَيْبٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُعِزُّهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُؤْفَقُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَتَسْمِعُنَ الَّذِي يَسْمِعُ مَلَائِكَتُهُ كُلِّ قَوْمٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ [يس: ٧٧ - ٨٣]. وقوله: ﴿إِنْ نَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ﴿٢٠﴾ أي: بعظيم ولا ممتنع، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره، أن يذهبكم ويأت بآخرين على غير صفتكم، كما قال تعالى: ﴿يَتَابِعُ الْبَاقِيَ أَتَمُّ الْفَرَاقَةِ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿١٥﴾ إِنْ نَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ [طه: ١٥ - ١٧]، وقال: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِّلْ قَوْمًا فَعَرَّكَ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، وقال: ﴿يَتَابِعُ الَّذِينَ آمَنُوا مِن رَّبِّدْ مِنْكُمْ عَنْ رَيْبِهِمْ قَوْمًا يَأْتِ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿إِنْ نَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ ﴿١٣٣﴾ [النساء: ١٣٣].

﴿وَيَرْزُقُوا يَوْمَ حِسَابِهِمُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّثْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهَ لَهْدَيْنَكُمُ سَوَاءً عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَوَّيْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّجِيبٍ﴾ ﴿١١﴾. يقول: ﴿وَيَرْزُقُوا يَوْمَ﴾ أي: برزت الخلائق كلها، برها وفاجرها لله وحده الواحد القهار، أي: اجتمعوا له في براز من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحداً. ﴿فَقَالَ السَّمْعَوِيُّ﴾ وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل، فقالوا لهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَا﴾ أي: مهما أمرتمونا اتهمنا وفعلنا، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّثْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟﴾ أي: فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا؟ فقالت القادة لهم: ﴿لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهَ لَهْدَيْنَكُمُ﴾، ولكن حق علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله، وحقت كلمة العذاب على الكافرين.

﴿سَوَاءً عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَوَّيْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّجِيبٍ﴾ أي: ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بكمائهم وتضرعهم إلى الله، تعالوا نيك وتضرعوا إلى الله، فبكوا وتضرعوا، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: تعالوا، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر، تعالوا حتى نصبر، فصبروا صبراً لم ير مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا: ﴿سَوَاءً عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَوَّيْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّجِيبٍ﴾. قلت: والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَتَذَكَّرُونَ فِي النَّارِ يَقُولُوا السَّمْعَوِيُّ لَلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّثْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ ﴿١٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدَّ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿١٨﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]، وقال تعالى: ﴿قَالَ أَتَدْعُونِي فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لِّمَنَّا مُبْتَلًى إِذَا أَتَاكُمُ فِيهَا جِيْمًا قَالَتْ لَأَنزِلُنَّهُمْ لَأُولُنَّهُمْ رَبُّنَا فَهُوَ مُنْكَرٌ فَكَلِمَةً مِّنَ النَّارِ قَالَتْ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَقُولُونَ﴾ ﴿١٩﴾ وَقَالَتْ لَأَنزِلُنَّهُمْ فَمَا كُنَّا لَكُمْ عَلَيْهِنَ مِنْ فَضْلٍ فَنُفِّرُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾ [الأعراف: ٣٩، ٣٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَقُفُّ أَرْجُلُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ بَلَّغْنَا أَلْمَنًا اللَّهُ وَأَلْمَنَّا الرَّسُولَ﴾ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَلْمَنَّا سَادَتَنَا وَكِبَرَتَنَا فَأَلْزَمْنَا الشَّيْئَلا

﴿١٧﴾ رَبَّنَا آتِنَا مِن مَّنْ عَذَابِكُمْ لَمَّا كَانَتْ هَذِهِ حَالًا ۖ ذُنُوبُنَا ذُنُوبٌ كَثِيرَةٌ وَلَٰكِنَّا نَسْتَغْفِرُكَ ۚ ﴿١٨﴾ وَأَمَّا تَخَاصُمُ فِي الْمَحْشَرِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْتُواهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَغْفِرُوا أَفَنُصَدِّقُكَ عَنِ الْمَلَكِ بَعْدَ إِذْ جَاءَكَ بِهِ كُتُبُ غَيْرِهِمْ؟ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرَأُ أَتَدَامُ لَنَا زُرَّاءُ الْمَلَكَاتِ وَنَحْنُ أَغْلَلٌ فِي أَصْحَابِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿سبأ: ٣١-٣٣﴾.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْ مَوْا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُخْرِجِكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَتْرَكْتُم مِّن قَبْلِ إِنْ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٢٣﴾ وَأُذِخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَجَلُوا لِلْفَلَاحَةِ جَنَّتْ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحِبُّهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ ﴿٢٤﴾.

يخبر تعالى عما خطب به إبليس لعنه الله أتباعه، بعد ما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس - لعنه الله - حينئذ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم، وغنياً إلى غنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ أي: على السنة رسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً، وخبراً صادقاً، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم، كما قال الله تعالى: ﴿يَذُفُّهُمْ وَيُخَيِّبُهُمْ وَمَا يَدْعُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ﴿١٥﴾ [النساء: ١٧٠].

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي: ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به، ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بمجرد ذلك، وهذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به، فخالفتهم فصرتم إلى ما أنتم فيه، ﴿فَلَا تَلُمُونِي﴾ اليوم، ﴿وَلَوْ مَوْا أَنفُسَكُمْ﴾، فإن الذنب لكم، لكونكم خالفتهم الحجج واتبعتهم بمجرّد ما دعوتكم إلى الباطل، ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بنافعي بأنقادي مما أنا فيه من العذاب والنكال، ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَتْرَكْتُم مِّن قَبْلِ﴾ قال قتادة: أي بسبب ما أشركتهم من قبل. وقال ابن جرير: يقول: إني جحدت أن أكون شريكاً لله، وهذا الذي قاله هو الراجح، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ ﴿٥﴾ وَإِنَّا خَيْرُ الْأَشْيَاءِ كَانُوا لَهُمْ أَفْعَاءَ وَكَانُوا بِعَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ ﴿٦﴾ [الأحاف: ٥، ٦]، وقال: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ﴿٧﴾ [مريم: ٨٢].

وقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. والظاهر من سياق الآية: أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار، كما قدمنا. ولكن قد ورد في حديث رواه ابن أبي حاتم - وهذا لفظه - وابن جرير من رواية عبد الرحمن بن زياد: حدثني دحّين الحنجري، عن عقبة بن عامر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين، فقصى بينهم، ففرغ من القضاء، قال المؤمنون: قد قضى بيننا ربنا، فمن يشفع لنا؟ فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم - وذكر نوحاً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى - فيقول عيسى: أدلكم على النبي الأمي. فيأتوني، فيأذن الله لي أن أقوم إليه فيثور من مجلسي من أطيب ريح شمها أحد قط، حتى آتي ربي فيشفعني، ويجعل لي نوراً من شعر رأسي إلى ظفر قدمي، ثم يقول الكافرون هذا: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليس هو الذي أضلنا، فيأتون إبليس فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فقم أنت فاشفع لنا، فإنك أنت أضللتنا. فيقوم فيثور من مجلسه من أتت ريح شمها أحد قط، ثم يعظم نحيبهم، ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْ مَوْا أَنفُسَكُمْ﴾. وهذا سياق ابن أبي حاتم، ورواه ابن المبارك عن رشدين بن سعد، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، عن دحّين عن عقبة، به مرفوعاً. وقال محمد بن كعب القرظي، رحمه الله: لما قال أهل النار: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّجِيرٍ﴾ قال لهم إبليس: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ الآية، فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم، فنودوا: ﴿لَعَنَتِ اللَّهُ أَكْثَرَ مِن مَّقَاتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠]. وقال عامر الشعبي: يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤوس الناس، يقول الله لعيسى ابن مريم: «أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ آمِنُونِي وَإِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِ اللَّهِ»، إلى قوله: ﴿قَالَ اللَّهُ هَلْ يَبْعَثُ الْغَافِلِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٩]، قال: ويقوم إبليس - لعنه الله - فيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ الآية. ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والشكال، وأن خطيبهم إبليس، عطف بحال السعداء وأنهم يدخلون يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، ماكين أبداً لا يحولون ولا يزولون. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحِبُّهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ وَنُفِخَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد: ٢٣].

٢٣، ٢٤، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَرَّبْنَا فِيهَا خَبِيرَةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقال: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيتُهمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَمْرٌ دَعَوْنَهُمْ أَنْ لِمَسَدًا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٢٦) ﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَعْرِيبُ اللَّهُ الْإِنْسَانَ لِمَا هُمْ يَتَنَكَّرُونَ﴾ (٢٥) ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (٢٦).

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: «ومثل كلمة طيبة»: شهادة أن لا إله إلا الله، «كشجرة طيبة» وهو المؤمن، «أصلها ثابت» يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن، «وفروعها في السماء» يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء. وهكذا قال الضحاك، وسعيد بن جبير، وعكرمة وقتادة وغير واحد: إن ذلك عبارة عن المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كالشجرة من النخل، لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت، وصباح ومساء. وهكذا رواه السدي، عن مرة، عن ابن مسعود قال: هي النخلة. وشعبة، عن معاوية بن قرة، عن أنس: هي النخلة. وحمام بن سلمة، عن شعيب بن الحبحاب، عن أنس: أن رسول الله ﷺ أتى بقتاع بئر فقال: «ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة» قال: «هي النخلة». وروي من هذا الوجه ومن غيره، عن أنس موقوفاً. وكذا نص عليه مسروق، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة وغيرهم. وقال البخاري: حدثنا غبيرة بن إسماعيل، عن أبي أسامة، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبروني عن شجرة تشبه - أو: كالرجل - المسلم، لا يتحات ورقها ولا، ولا، تؤتي أكلها كل حين». قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلن، فلما لم يقولوا شيئاً، قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة». فلما قمنا قلت لغمر: يا أبتا، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة. قال: ما منعك أن تكلم؟ قال: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلن أو أقول شيئاً. قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا. وقال أحمد: حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: صحبت ابن عمر إلى المدينة، فلم أسمعهم يحدث عن رسول الله ﷺ إلا حديثاً واحداً - قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأتاني بجمار. فقال: «من الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم». فأردت أن أقول: هي النخلة، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم، فسكت، فقال رسول الله ﷺ: «هي النخلة» أخرجاه. وقال مالك وعبد العزيز، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه: «إن من الشجر شجرة لا يطرح ورقها، مثل المؤمن». قال: فوقع الناس في شجر البوادي، ووقع في قلبي أنها النخلة فاستحييت، حتى قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة». أخرجاه أيضاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبان - يعني ابن يزيد العطار - حدثنا قتادة: أن رجلاً قال: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور! فقال: «أرايت لو عمد إلى متاع الدنيا، فركب بعضها على بعض أكان يبلغ السماء؟ أفلا أخبرك بعمل أصله في الأرض وفرعه في السماء؟». قال: ما هو يا رسول الله؟ قال: «تقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله»، عشر مرات في دبر كل صلاة، فذاك أصله في الأرض وفرعه في السماء. وعن ابن عباس: «كشجرة طيبة» قال: هي شجرة في الجنة. وقوله: ﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾: قيل: غداة وعشيماً. وقيل: كل شهر. وقيل: كل شهرين. وقيل: كل ستة أشهر. وقيل: كل سبعة أشهر. وقيل: كل سنة. والظاهر من السياق: أن المؤمن مثله كمثل شجرة، لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي: كاملاً حسناً كثيراً طيباً، «ويعريب الله الإنسان لما هم يتنكرون».

وقوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾: هذا مثل كفر الكافر، لا أصل له ولا ثبات، وشبه بشجرة الحنظل، ويقال لها: «الشریان». رواه شعبة، عن معاوية بن قرة، عن أنس بن مالك: أنها شجرة الحنظل. وقال أبو بكر البزار الحافظ: حدثنا يحيى بن محمد بن السكن، حدثنا أبو زيد سعيد بن الربيع، حدثنا شعبة، عن معاوية بن قرة، عن أنس - أحسبه رفعه - قال: «مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة، قال: هي النخلة، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾، قال: هي الشريان». ثم رواه عن محمد بن المثنى، عن غندر، عن شعبة، عن معاوية، عن أنس موقوفاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد - هو ابن سلمة - عن شعيب بن الحبحاب عن أنس بن مالك، أن النبي ﷺ قال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي الحنظلة. فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: هكذا كنا نسمع. ورواه ابن جرير، من حديث حماد بن سلمة، به. ورواه أبو يعلى في مسنده بأبسط من هذا فقال: حدثنا غسان، عن حماد، عن شعيب، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ أتى

بقناع عليه بُسُر، فقال: ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء. تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها فقال: «هي النخلة» **﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾** (٢٦)، قال: «هي الحنظل». قال شعيب: فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: كذلك كنا نسمع. وقوله: **﴿اجْتُثَّتْ﴾** أي: استوصلت **﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾** أي: لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يَقْبَلُ منه شيء. **﴿يُنِثُّ اللَّهُ الذَّرِيعَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الْقَلِيلِينَ وَيَقَعُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾** (٢٧).

قال البخاري: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، أخبرني علقمة بن مرثد قال: سمعت سعد بن عُبَيْدة، عن البراء بن عازب، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: **﴿يُنِثُّ اللَّهُ الذَّرِيعَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾**». ورواه مسلم أيضاً وبقية الجماعة كلهم، من حديث شعبة، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فأنتهينا إلى القبر ولما يُلحَد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود يثكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعبدوا بالله من عذاب القبر»، مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وخُط من خُطوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر. ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان». قال: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الخُطوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها، فلا يمرون بها. يعني بها - على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبيدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى». قال: «فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فأمنت به وصدقت. فينادي مناد من السماء: أن صدق عبيدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة. قال: فيأتيه من رزقها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره. ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت تُوعَد. فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عمالك الصالح. فيقول: رب، أقم الساعة. رب، أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي».

قال: «وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسحوق، فجلسوا منه مد البصر. ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سَخَط من الله وغَضَب». قال: «فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السُفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسحوق. ويخرج منها كأثمن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له». ثم قرأ رسول الله ﷺ: **﴿لَا تَقْعُ لَمْ يُؤْتِ السَّمَاءَ وَلَا يَدْخُلُونَ السَّمَاءَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾** (الأعراف: ٤٠)، فيقول الله: اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى، فتطرح روحه طراحاً. ثم قرأ: **﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَلَّفَهُ الطُّيُورُ أَوْ تَهَوَّى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ﴾** (الحج: ٣١). «فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فينادي مناد من السماء: أن كذب فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار. فيأتيه من حرها وسمومها، وَيُضَيَّقُ عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت تُوعَد. فيقول: ومن أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر. فيقول: أنا عمالك الخبيث، فيقول: رب، لا تقم الساعة». ورواه أبو داود من حديث الأعمش، والنسائي وابن ماجه من حديث المنهال بن عمرو، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن يونس بن خباب، عن الميثال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب، رضي الله عنه، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة، فذكر نحوه. وفيه: «حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وفتح أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله، ﷻ، أن يعرج بروحه من قبلهم». وفي آخره: «ثم يقبض له أعمى أصم أبكم، وفي يده مرزبة لو ضرب بها جبل لكان تراباً، فيضربه ضربة فيصير تراباً. ثم يعيده الله، ﷻ، كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين». قال البراء: ثم يفتح له باب إلى النار، ويمهد من فرش النار. وقال سفيان الثوري، عن أبيه، عن خثيمة، عن البراء في قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: عذاب القبر.

وقال المسعودي، عن عبد الله بن مَخَارِق، عن أبيه، عن عبد الله قال: إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره، فيقال له: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ فيشته الله، فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ. وقرأ عبد الله: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾. وقال الإمام عبد بن حميد، رحمه الله، في مسنده: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن، عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمع قرع نعالهم». قال: «فيا ترى ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟» قال: «فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله». قال: «فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة». قال نبي الله ﷺ: «فيراها جميعاً». قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً، ويملاً عليه خضراً إلى يوم القيامة. رواه مسلم عن عبد بن حميد، به. وأخرجه النسائي من حديث يونس بن محمد المؤدب، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن ابن جُرَيْج، أخبرني أبو الزبير، أنه سأل جابر بن عبد الله عن ثنائي القبر فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن هذه الأمة تُبْتَلَى في قبورها، فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه، جاء ملك شديد الانتهاز، فيقول له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول المؤمن: أقول: إنه رسول الله وعبيده. فيقول له الملك: انظر إلى مقعدك الذي كان لك في النار، قد أنجأك الله منه، وأبدلك بمقعدك الذي ترى من النار مقعدك الذي ترى من الجنة، فيراها كليهما. فيقول المؤمن: دعوني أبشر أهلي. فيقال له: اسكن. وأما المنافق فيقعد إذا تولى عنه أهله، فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، أقول كما يقول الناس. فيقال له: لا ذَرَيْتَ، هذا مقعدك الذي كان لك في الجنة، قد أبدلت مكانه مقعدك من النار». قال جابر: فسمعت النبي ﷺ يقول: «يبعث كل عبد في القبر على ما مات، المؤمن على إيمانه، والمنافق على نفاقه». إسناده صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا عباد بن راشد، عن داود بن أبي هند، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ جنازة، فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، إن هذه الأمة تُبْتَلَى في قبورها، فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابه، جاءه ملك في يده مطراق فأقمعه، قال: ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمناً قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، فيقول له: صدقت. ثم يفتح له باباً إلى النار، فيقول: هذا كان منزلك لو كفرت بربك، فأما إذ آمنْتَ فهذا منزلك. فيفتح له باباً إلى الجنة، فيريد أن ينهض إليه، فيقول له: اسكن. ويفسح له في قبره». «وإن كان كافراً أو منافقاً يقول له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً. فيقول: لا ذَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ ولا اعتديت. ثم يفتح له باباً إلى الجنة، فيقول له: هذا منزلك لو آمنت بربك، فأما إذ كفرت به فإن الله، ﷻ، أبدلك به هذا. فيفتح له باباً إلى النار، ثم يَقْمَعُه قَمْعَةً بالمطراق يسمعها خلق الله، ﷻ، كلهم غير الثقلين». فقال بعض القوم: يا رسول الله، ما أحد يقوم عليه ملك في يده مطراق إلا هيل عند ذلك. فقال رسول الله ﷺ: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾. وهذا أيضاً إسناده لا بأس به، فإن عباد بن راشد، التميمي روى له البخاري مقروناً، ولكن ضعفه بعضهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، عن ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس المطمئنة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان». قال: «فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَجُ بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان. فيقولون: مرحباً بالروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان» قال: «فلا يزال يقال لها ذلك، حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله ﷻ. وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري

بحميم وعَسَاق، وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا تفتح لك أبواب السماء. فيرسل من السماء، ثم يصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول. ورواه النسائي وابن ماجه، من طريق ابن أبي ذئب بنحوه.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: إذا خرجت روح العبد المؤمن، تلقاها ملكان يصعدان بها. قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك. قال: ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قِبَل الأرض، صَلَّى الله عليك وعلى جَسَد كنت تُغْمِرني، فَيُنْطَلَقُ به إلى ربه ﷻ، فيقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل. وإن الكافر إذا خرجت روحه، قال حماد: وذكر من نثها وذكر مَقْتاً، ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قِبَل الأرض. قال: فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل. قال أبو هريرة: فرَدَّ رسول الله ﷺ رُبَّةً كانت عليه على أنفه، هكذا. وقال ابن حبان في صحيحه: حدثنا عمر بن محمد الهمداني، حدثنا زيد بن أحمز، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن قتادة، عن قسامة بن زهير، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن إذا قُبِض، أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي إلى روح الله. فتخرج كأطيب ريح مسك، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً يشمونهم حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون: ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من قِبَل الأرض؟ ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فلهُم أشد فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم، فيقولون: ما فعل فلان؟ فيقولون: دعوه حتى يستريح، فإنه كان في غَمٍّ! فيقول: قد مات، أما أتاكم؟ فيقولون: ذهب به إلى أمه الهاوية. وأما الكافر فأتية ملائكة العذاب بمرسح فيقولون: اخرجي إلى غضب الله، فتخرج كأنتن ريح جيفة، فَيُذْهَبُ به إلى باب الأرض. وقد روي أيضاً من طريق هَمَّام بن يحيى، عن قتادة، عن أبي الجوزاء، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه. قال: «فَيَسْأَلُ: ما فعل فلان، ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة؟» قال: «وأما الكافر فإذا قُبِضت نفسه، وذُهِبَ بها إلى باب الأرض تقول خزنة الأرض: ما وجدنا ريحاً أنتن من هذه. فَيُنْطَلَقُ بها الأرض السفلى». قال قتادة: وحدثني رجل، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو قال: أرواح المؤمنين تجمع بالجاية، وأرواح الكفار تجمع ببرهوت، سبعة بحضرموت.

وقال الحافظ أبو عيسى الترمذي، رحمه الله: حدثنا يحيى بن خلف، حدثنا بشر بن المفضل، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قبر الميت - أو قال: أحكم - أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما: المنكر، والآخر: النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا. ثم يُنْشَرُ له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين. ثم ينزّل فيه، ثم يقال له: نَمْ. فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم؟ فيقولان: نَمْ نومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهل إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك. وإن كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون قُلْتُ مثلهم، لا أدري. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التثمي عليه، فتلتثم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وقال حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يُنْثَرُ اللهُ الْزَّيْتُ أَمْتًا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ». قال: «ذاك إذا قيل له في القبر: من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، جاءنا بالبينات من عند الله، فأمنت به وصدقت. فيقال له: صَدَقْتَ، على هذا عشت، وعليه مت، وعليه تُبْعَثُ». وقال ابن جرير: حدثنا مجاهد بن موسى والحسن بن محمد قالوا: حدثنا يزيد، أنبأنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: «إن الميت ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه مدبرين، فإذا كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه، والزكاة عن يمينه، والصيام عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجله، فيؤتى من عند رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخلٌ، فيؤتى من عن يمينه فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، فيؤتى عن يساره فيقول الصيام: ما قبلي مدخل. فيؤتى من عند رجله فيقول فعل الخيرات: ما قبلي مدخل. فيقال له: اجلس. فيجلس، قد تمثلت له الشمس، قد دنت للغروب، فيقال له: أخبرنا عما نسألك. فيقول: دعوني حتى أصلي. فيقال: إنك ستفعل، فأخبرنا عما نسألك. فيقول: وَعَمَّ نَسْأَلُونِي؟ فيقال: أرايت هذا الرجل الذي كان فيكم، ماذا تقول فيه، وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: أمحمد؟ فيقال له: نعم. فيقول: أشهد أنه رسول الله، وأنه جاءنا بالبينات من عند الله، فصدقناه. فيقال له: على ذلك حَيِّيتُ، وعلى ذلك مِتَ، وعلى ذلك تَبِعْتَ إن شاء الله. ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً وَيُنْزَرُ له فيه، ويفتح له باب إلى الجنة، فيقال

له: انظر إلى ما أعد الله لك فيها. فيزداد غبطة وسروراً، ثم يجعل نسمة في التسم الطيب، وهي طير خضر تعلق بشجر الجنة، ويعاد الجسد إلى ما يديء منه من التراب»، وذلك قول الله: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾. ورواه ابن حبان، من طريق المعتمر بن سليمان، عن محمد بن عمرو، وذكر جواب الكافر وعذابه.

وقال البزار: حدثنا سعيد بن بحر القراطيسي، حدثنا الوليد بن القاسم، حدثنا يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة - أحسبه رفعه - قال: «إن المؤمن ينزل به الموت، ويعاين ما يعاين، فيؤدّ لو خرجت - يعني نفسه - والله يحب لقاءه، وإن المؤمن يصعد بروحه إلى السماء، فتأتيه أرواح المؤمنين، فتستخبره عن معارفهم من أهل الأرض، فإذا قال: تركت فلاناً في الأرض، أعجبهم ذلك. وإذا قال: إن فلاناً قد مات، قالوا: ما جئ به إلينا. وإن المؤمن يجلس في قبره، فيسأل: من ربك؟ فيقول: ربي الله. ويسأل: من نبيك؟ فيقول: محمد نبيي. فيقال: ماذا دينك؟ قال: ديني الإسلام. فيفتح له باب في قبره، فيقول: أو: يقال: - انظر إلى مجلسك. ثم يرى القبر فكأنما كانت رَقْدَةً. وإذا كان عدو الله نزل به الموت وعائين ما عاين، فإنه لا يحب أن تخرج روحه أبداً، والله يبغيض لقاءه، فإذا جلس في قبره - أو: أجلس - يقال له: من ربك؟ فيقول: لا أدري. فيقال: لا ذريت. فيفتح له باب من جهنم، ثم يضرب ضربة يسمعاها كل دابة إلا الثقلين، ثم يقال له: نم كما ينم المنهوش». قلت لأبي هريرة: ما المنهوش؟ قال: الذي تنهشه الدواب والحيات، ثم يضيق عليه قبره. ثم قال: لا نعلم رواه إلا الوليد بن القاسم.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا حَجَّان بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون، عن محمد بن المنكدر قال: كانت أسماء - يعني بنت الصديق - رضي الله عنها، تحدث عن النبي ﷺ قالت: قال: «إذا دخل الإنسان قبره، فإن كان مؤمناً أخَفَّ به عمله: الصلاة والصيام»، قال: «فيأتيه الملك من نحو الصلاة فترده، ومن نحو الصيام فيرده»، قال: «فينادي به: اجلس. فيقول له: ماذا تقول في هذا الرجل؟ يعني النبي ﷺ، قال: من؟ قال: محمد. قال: أشهد أنه رسول الله، قال: يقول: وما يدريك؟ أدركته؟ قال: أشهد أنه رسول الله. قال: يقول: على ذلك عشت، وعليه مت، وعليه تبعث. وإن كان فاجراً أو كافراً، جاءه الملك ليس بينه وبينه شيء يَرُدُّه، فأجلسه يقول: اجلس، ماذا تقول في هذا الرجل؟ قال: أي رجل؟ قال: محمد. قال: يقول: والله ما أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته. قال له الملك: على ذلك عشت، وعليه مت، وعليه تبعث. قال: وتسَلِّط عليه دابة في قبره، معها سوط تمرته جمرته مثل غَرْب البعير، تضربه ما شاء الله، صماء لا تسمع صوته فترحمه».

وقال العوفي، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، في هذه الآية قال: إن المؤمن إذا حَضَرَه الموت شهدته الملائكة، فسلموا عليه وبشروه بالجنة، فإذا مات مَشُوا مع جنازته، ثم صَلُّوا عليه مع الناس، فإذا دفن أجلس في قبره فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقال له: من رسولك؟ فيقول: محمد ﷺ. فيقال له: ما شهادتك؟ فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. فيوسع له في قبره مد بصره. وأما الكافر فتتزل عليه الملائكة، فيسبون أيديهم - والبسط: هو الضرب - يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت. فإذا أدخل قبره أقعد، فقيل له: من ربك؟ فلم يرجع إليهم شيئاً، وأنساء الله ذكر ذلك. وإذا قيل: من الرسول الذي بُعث إليك؟ لم يهتد له، ولم يرجع إليه شيئاً، كذلك يضل الله الظالمين. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم الأودي، حدثنا شريح بن مسلمة حدثنا إبراهيم بن يوسف، عن أبيه، عن أبي إسحاق، عن عامر بن سعد البجلي، عن أبي قتادة الأنصاري في قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ الآية، قال: إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره، فيقال له: من ربك؟ فيقول: الله. فيقال له: من نبيك؟ فيقول: محمد بن عبد الله. فيقال له في ذلك مرات. ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك في النار لو رُغِت. ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك من الجنة إذ ثبت. وإذا مات الكافر أجلس في قبره، فيقال له: من ربك؟ من نبيك؟ فيقول: لا أدري، كنت أسمع الناس يقولون. فيقال له: لا دريت. ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك لو ثبت، ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك إذ زغت، فذلك قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن ابن طاووس، عن أبيه: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: لا إله إلا الله، ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾: المسألة في القبر. وقال قتادة: أما الحياة الدنيا فيبثهم بالخير والعمل الصالح، ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ في القبر. وكذا روي عن غير واحد من السلف.

وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذي في كتابه «نوادير الأصول»: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن نافع، عن ابن أبي فديك، عن عبد الرحمن بن عبد الله، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن بن سُمرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم، ونحن

في مسجد المدينة، فقال: «إني رأيت البارحة عجباً، رأيت رجلاً من أمتي جاءه ملك الموت ليقبض روحه، فجاءه برؤه بالديه فرد عنه. ورأيت رجلاً من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر، فجاءه وضوءه فاستنقذه من ذلك. ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب، فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم. ورأيت رجلاً من أمتي يلهث عطشاً، كلما ورد حوضاً منع منه، فجاءه صياحه فسقاه وأرواه. ورأيت رجلاً من أمتي والنيبون قعود حلقاً حلقاً، وكلما دنا لحلقة طردوه، فجاءه اغتساله من الجنابة، فأخذ بيده فأقعده إلى جنبتي. ورأيت رجلاً من أمتي من بين يديه ظلمة، ومن خلفه ظلمة، وعن يمينه ظلمة، وعن شماله ظلمة، ومن فوقه ظلمة، ومن تحته ظلمة، فهو متحير فيها، فجاءته حجته وعمرته، فاستخرجه من الظلمة وأدخله النور، ورأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين فلا يكلمونه، فجاءته صلة الرحم، فقالت: يا معشر المؤمنين، كلموه، فكلموه. ورأيت رجلاً من أمتي يتقي وهج النار أو شررها بيده عن وجهه، فجاءته صدقته فصارت سترأ على وجهه وظلاً على رأسه. ورأيت رجلاً من أمتي قد أخذته الزبانية من كل مكان، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فاستنقذه من أيديهم، وأدخله مع ملائكة الرحمة. ورأيت رجلاً من أمتي جائياً على ركبتيه، بينه وبين الله حجاب، فجاءه حسن خلقه، فأخذ بيده فأدخله على الله، ﷻ. ورأيت رجلاً من أمتي قد هوت صحيفته من قبل شماله، فجاءه خوفه من الله فأخذ صحيفته، فجعلها في يمينه. ورأيت رجلاً من أمتي قد خف ميزانه، فجاءته أفراده فثقلوا ميزانه، ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على شفير جهنم، فجاءه وجله من الله، فاستنقذه من ذلك ومضى. ورأيت رجلاً من أمتي هوى في النار، فجاءته دموعه التي بكى من خشية الله في الدنيا فاستخرجته من النار، ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على الصراط يرعد كما ترعد السعفة، فجاء حسن ظنه بالله، فسكن رغبته، ومضى. ورأيت رجلاً من أمتي على الصراط يزحف أحياناً ويحبو أحياناً، فجاءته صلاته علي، فأخذت بيده فأقامته ومضى على الصراط. ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة، فغلقت الأبواب دونه، فجاءته شهادة: أن لا إله إلا الله، ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة». قال القرطبي بعد إيراده هذا الحديث من هذا الوجه: هذا حديث عظيم، ذكر فيه أعمالاً خاصة تنجي من أهوال خاصة. أورده هكذا في كتابه «التذكرة».

وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلي في هذا حديثاً غريباً مطولاً فقال: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن إبراهيم الثوري، حدثنا محمد بن بكر البرساني أبو عثمان، حدثنا أبو عاصم الحبطي - وكان من خيار أهل البصرة، وكان من أصحاب حزم، وسلام بن أبي مطيع - حدثنا بكر بن خنيس، عن ضرار بن عمرو، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك، عن تميم الداري، عن النبي ﷺ قال: «يقول الله، ﷻ، لملك الموت: انطلق إلى وليي فأنني به، فإني قد ضربته بالسراة والضراء، فوجدته حيث أحب. انتني به فلا رychه. فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة، معهم أكفان وخُوط من الجنة، ومعهم ضيائر الریحان، أصل الریحانة واحد وفي رأسها عشرون لوناً، لكل لون منها ريح سوى ريح صاحبه، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك الأذفر. فيجلس ملك الموت عند رأسه، وتحف به الملائكة. ويضع كل ملك منهم يده على عضو من أعضائه ويَبْسُط ذلك الحرير الأبيض والمسك الأذفر تحت ذقنه، ويفتح له باب إلى الجنة، فإن نفسه لتَعْلَل عند ذلك بطرف الجنة تارة، وبأزواجاها مرة ومرة بكسواتها ومرة بشمارها، كما يَعْلَل الصبي أهله إذا بكى». قال: «وإن أزواجه ليبتهشن عند ذلك ابتهاشاً». قال: «وتنزرو الروح». قال البرساني: يريد أن تخرج من العجل إلى ما تحب. قال: «ويقول ملك الموت: اخرجي يا أيتها الروح الطيبة، إلى سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب». قال: «ولملك الموت أشد به لطفاً من الوالدة بولدها، يعرف أن ذلك الروح حبيب لربه، فهو يلتمس بلطفه تحبباً لديه رضاء للرب عنه، فتسل روحه كما تسلم الشعرة من العجين». قال: «وقال الله، ﷻ: ﴿الَّذِينَ تَوْفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ لَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٢]» وقال: «فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَحُتَّتْ لَيِّبِينَ ﴿١٨٩﴾» [الواقعة: ٨٨، ٨٩]. قال: «روح من جهة الموت، وريحان يتلقى به، وجنة نعيم تقابله». قال: «فإذا قبض ملك الموت روحه، قال الروح للجسد: جزاك الله عني خيراً، فقد كنت سريعاً بي إلى طاعة الله، بطيئاً بي عن معصية الله، فقد نجيت وأنجيت». قال: «ويقول الجسد للروح مثل ذلك». قال: «وتبكي عليه بقاع الأرض التي كان يطيع الله فيها، وكل باب من السماء يصعد منه عمله. وينزل منه رزقه أربعين ليلة». قال: «فإذا قبض ملك الموت روحه، أقامت الخمسمائة من الملائكة عند جسده، فلا يقبله بنو آدم لشق إلا قلبته الملائكة قبلهم، وغسلته وكفنته بأكفان قبل أكفان بني آدم، وخُوط قبل حنوط بني آدم، ويقوم من بين باب بيته إلى باب قبره صفان من الملائكة، يستقبلونه بالاستغفار، فيصيح عند ذلك إبليس صيحة تصدع منها عظام جسده». قال: «ويقول لجنوده: الويل لكم. كيف خلص هذا العبد منكم، فيقولون إن هذا كان عبداً معصوماً». قال: «فإذا صعد ملك الموت بروحه، يستقبله جبريل في سبعين ألفاً من الملائكة، كل يأتيه ببشارة من ربه سوى بشارة

صاحبه». قال: «فإذا انتهى ملك الموت بروحه إلى العرش، حَزَّ الروح ساجداً». قال: «يقول الله، ﷻ، لملك الموت: انطلق بروح عبدي فضعه في سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب». قال: «فإذا وضع في قبره، جاءته الصلاة فكانت عن يمينه، وجاءه الصيام فكان عن يساره، وجاء القرآن فكان عند رأسه، وجاء مشيه إلى الصلاة فكان عند رجله، وجاء الصبر فكان ناحية القبر». قال: «فبيعت الله، ﷻ، عُقُفاً من العذاب». قال: «فَيَأْتِيهِ عن يمينه» قال: «فتقول الصلاة: وراءك والله ما زال دائباً عمره كله وإنما استراح الآن حين وضع في قبره». قال: «فَيَأْتِيهِ عن يساره، فيقول الصيام مثل ذلك». قال: «ثم يأتيه من عند رأسه، فيقول القرآن والذكر مثل ذلك». قال: «ثم يأتيه من عند رجله، فيقول مشيه إلى الصلاة مثل ذلك. فلا يأتيه العذاب من ناحية يلتمس هل يجد مساعاً إلا وجد ولي الله قد أخذ جنته». قال: «فينقمع العذاب عند ذلك فيخرج». قال: «ويقول الصبر لسائر الأعمال: أما إنه لم يمنعني أن أباشر أنا بنفسي إلا أنني نظرت ما عندكم، فإن عجزتم كنت أنا صاحبه، فأما إذ أجزأتم عنه فأنا له ذخِر عند الصراط والميزان». قال: «وبيعت الله ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف، وأصواتهما كالرعد القاصف، وأنيابهما كالصيافي، وأنفاسهما كاللهب، يطآن في أشعارهما، بين مَنكِب كل واحد مسيرة كذا وكذا، وقد نزعتهما الرفاة والرحمة، يقال لهما: منكر ونكير، في يد كل واحد منهما مطرقة، لو اجتمع عليهما ربعة ومضر لم يَقْلُوها». قال: «فيقولان له: اجلس». قال: «فيجلس فيستوي جالساً». قال: «وتقع أكفانه في حقويه». قال: «فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟». قال: قالوا: يا رسول الله ومن يطيق الكلام عند ذلك، وأنت تصف من المَلَكِين ما تصف؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «﴿يَبْتَغِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُؤْتِلَهُ اللَّهُ الْفُتُلَيْنِ وَيُفَعِّلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾». قال: «فيقول ربي الله وحده لا شريك له، ودينني الإسلام الذي دانت به الملائكة، ونبيي محمد خاتم النبيين». قال: «فيقولان: صدقت». قال: «فيدفعان القبر، فيوسعان من بين يديه أربعين ذراعاً، وعن يمينه أربعين ذراعاً، وعن شماله أربعين ذراعاً، ومن خلفه أربعين ذراعاً، ومن عند رأسه أربعين ذراعاً، ومن عند رجله أربعين ذراعاً». قال: «فيوسعان له مائتي ذراع».

قال البرساني: فأحسبه: وأربعين ذراعاً تحاط به. قال: «ثم يقولان له: انظر فورك، فإذا باب مفتوح إلى الجنة». قال: «فيقولان له: ولي الله، هذا منزلك إذا أطعت الله». فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، إنه يصل إلى قلبه عند ذلك فرحة، ولا ترتد أبداً، ثم يقال له: انظر تحتك». قال: «فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار قال: «فيقولان: ولي الله نجوت آخر ما عليك». قال: فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد أبداً». قال: فقالت عائشة: يفتح له سبعة وسبعون باباً إلى الجنة، يأتيه ريحها وبردها، حتى يبعثه الله، ﷻ. وبالإسناد المتقدم إلى النبي ﷺ قال: «ويقول الله تعالى لملك الموت: انطلق إلى عدوي فأنتي به، فإنني قد بسطت له رزقي، ويسرت له نعمتي، فأبى إلا معصيتي، فأنتي به لأنقم منه». قال: «فينطلق إليه ملك الموت في أكره صورة ما رآها أحد من الناس قط، له اثنتا عشرة عيناً، ومعه سفود من النار كثير الشوك، ومعه خمسمائة من الملائكة، معهم نحاس وجحر من جمر جهنم، ومعهم سياط من نار، لينها لين السياط وهي نار تأجج». قال: «فيضربه ملك الموت بذلك السفود ضربة يغيب كل أصل شوكه من ذلك السفود في أصل كل شعرة وعرق وظفر». قال: «ثم يلويه لياً شديداً». قال: «فيتزع روحه من أظفار قدميه». قال: «فيلقيها» في عقبه ثم يسكر عند ذلك عدو الله سكرة، فيرفقه ملك الموت عنه». قال: «وتضرب الملائكة وجهه وذُبره بتلك السياط». قال: «فيشده ملك الموت شدة، فينزع روحه من عقبه، فيلقيها في ركبتيه، ثم يسكر عدو الله عند ذلك سكرة، فيرفقه ملك الموت عنه». قال: «وتضرب الملائكة وجهه وذُبره بتلك السياط». قال: «كذلك إلى صدره، ثم كذلك إلى حلقه». قال: «ثم تبسط الملائكة ذلك النحاس وجمر جهنم تحت ذقنه». قال: «ويقول ملك الموت: اخرجني أينها الروح اللعينة الملعونة إلى سَعْمٍ وحميم، وظل من يحمم، لا بارد ولا كريم». قال: «فإذا قبض ملك الموت روحه قال الروح للجسد: جزاك الله عني شراً، فقد كنت سريعاً بي إلى معصية الله، بطيئاً بي عن طاعة الله، فقد هلكت وأهلك» قال: «ويقول الجسد للروح مثل ذلك، وتلعنه بقاع الأرض التي كان يعصي الله عليها، وتنطلق جنود إبليس إليه فيبشرونه بأنهم قد أوردوا عبداً من ولد آدم النار».

قال: «فإذا وضع في قبره ضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، حتى تدخل اليمنى في اليسرى، واليسرى في اليمنى» قال: «وبيعت الله إليه أفاعي دهماً كأعناق الإبل يأخذن بأرنبته وإبهامي قدميه فيقرضنه حتى يلتقيان في وسطه». قال: «وبيعت الله

ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف، وأصواتهما كالرعد القاصف، وأنبياهما كالصياصي، وأنفاسهما كاللهب، يطآن في أشعارهما، بين منكبي كل واحد منهما مسيرة كذا وكذا، قد نزعتهما الرفاة والرحمة يقال لهما: منكر ونكير، في يد كل واحد منهما مطرقة، لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يقلوها». قال: «فيقولان له: اجلس». قال: «فيستوي جالساً» قال: «وتقع أكفانه في حقويه» قال: «فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: لا أدري. فيقولان: لا دريت ولا تليت». قال: «فيضربانه ضربة يتطاير شررها في قبره، ثم يعودان». قال: «فيقولان: انظر فوقك. فينظر، فإذا باب مفتوح من الجنة، فيقولان: هذا - عدو الله - منزلك لو أطعت الله». قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبداً». قال: «فيقولان له: انظر تحتك فينظر تحته، فإذا باب مفتوح إلى النار، فيقولان: عدو الله، هذا منزلك إذ عصيت الله». قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبداً». قال: «وقالت عائشة: ويفتح له سبعة وسبعون باباً إلى النار، يأتيه من حرها وسمومها حتى يبعثه الله إليها. هذا حديث غريب جداً، وسياق عجيب، ويزيد الرقاشي - رواه عن أنس - له غرائب ومنكرات، وهو ضعيف الرواية عند الأئمة، والله أعلم. ولهذا قال أبو داود: حدثنا إبراهيم بن موسى الرازي، حدثنا هشام - هو ابن يوسف - عن عبد الله بن بحير، عن هانيء مولى عثمان، عن عثمان، رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له بالثبث، فإنه الآن يسأل». انفرد به أبو داود. وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْفَٰكِلِمُونِ فِي غَمَرَاتِ الْكَوْنِ وَالْمَلَكِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣] حديثاً مطولاً جداً، من طريق غريب، عن الضحاک، عن ابن عباس مرفوعاً، وفيه غرائب أيضاً.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَمْلَأُوهَا مِنۢ بَنِيهِمْ وَيَتَذَكَّرُونَ أَنَّهَا لَهُمْ آتٌ ۚ﴾ [البقرة: ٢٤٣]

قال البخاري: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا﴾: ألم تعلم؟ كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا﴾ [البقرة: ٢٤٣]، البوار: الهلاك، بار يبور بوزاً، و ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨، الفتح: ١٧]: هالكين. حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عطاء سمع ابن عباس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا﴾ قال: هم كفار أهل مكة. وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: هو جيلة بن الأيهم، والذين اتبعوه من العرب، فلحقوا بالروم. والمشهور الصحيح عن ابن عباس هو القول الأول، وإن كان المعنى يعم جميع الكفار؛ فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين، ونعمة للناس، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردّها وكفرها دخل النار. وقد روي عن علي نحو قول ابن عباس الأول، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا شعبة، عن القاسم بن أبي بزة، عن أبي الطفيل: أن ابن الكواء سأل علياً عن ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ قال: كفار قريش يوم بدر. حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا بسام - هو الصيرفي - عن أبي الطفيل قال: جاء رجل إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين، من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار؟ قال: منافقو قريش.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نفيل قال: قرأت على مغفل، عن ابن أبي حسين قال: قام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقال: ألا أحد يسألني عن القرآن، فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم مني به وإن كان من وراء البحار لأتيته. فقام عبد الله بن الكواء فقال: من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار؟ فقال: مشركو قريش، أنتهم نعمة الله: الإيمان، فبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار. وقال العدوي في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا﴾ الآية، ذكر مسلم المستوفى عن علي أنه قال: هما الأفجران من قريش: بنو أمية، وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فأحلوا قومهم دار البوار يوم بدر، وأما بنو أمية فأحلوا قومهم دار البوار يوم أحد. وكان أبو جهل يوم بدر، وأبو سفيان يوم أحد. وأما دار البوار فهي جهنم. وقال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا الحارث بن منصور، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن مرة قال: سمعت علياً قرأ هذه الآية: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ قال: هما الأفجران من قريش: بنو أمية وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فاهلكوا يوم بدر، وأما بنو أمية فمتمتعوا إلى حين. ورواه أبو إسحاق، عن عمرو بن مرة، عن علي، نحوه، وروي من غير وجه عنه. وقال سفيان الثوري، عن علي بن زيد، عن يوسف بن سعد، عن عمر بن الخطاب، في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا﴾ قال: هما الأفجران من قريش: بنو المغيرة وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية فتمتعوا إلى حين. وكذا رواه حمزة الزيات، عن عمرو بن مرة قال: قال ابن عباس لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، هذه الآية: ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾، قال: هم الأفجران من قريش:

أخوالي وأعمامك فاما أخوالي فاستأصلهم الله يوم بدر، وأما أعمامك فأملئ الله لهم إلى حين. وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقادة بن زيد: هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر وكذا رواه مالك في تفسيره عن نافع، عن ابن عمر.

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: جعلوا له شركاء عبدوهم معه، ودَعَوُا الناس إلى ذلك. ثم قال تعالى مهدداً لهم ومتوعداً لهم على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُلْ تَمَتُّوا قَانَ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أي: مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا، فمهما يكن من شيء ﴿قَانَ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أي: مرجعكم وموئلكم إليها، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَبْلِغُكُمْ قِلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۖ﴾ [القصص: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثَمَرًا لِّئَلَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَبْلِغُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۖ﴾ [يونس: ٧٠].

﴿قُلْ لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُحْسِنُوا الصَّلَاةَ وَيُخْلِفُوا بِمَا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبْعُ فِيهِ وَلَا خِلَلٌ ۖ﴾. يقول تعالى أمرأ العباد بطاعته والقيام بحقه، والإحسان إلى خلقه، بأن يقيموا الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات، والنفقة على القربات والإحسان إلى الأجانب. والمراد بإقامتها هو: المحافظة على وقتها وحدودها، وركوعها وخشوعها وسجودها. وأمر تعالى بالإتفاق مما رزق في السر، أي: في الخفية، والعلانية وهي: الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة، وهو يوم ﴿لَا يَبْعُ فِيهِ وَلَا خِلَلٌ﴾ أي: لا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه، كما قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْخَذُ بِكُم بِذِيَّةٍ وَلَا يَمُنُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥]. وقوله: ﴿وَلَا خِلَلٌ﴾ قال ابن جرير: ليس هناك مُخَالَة خليل، فيصفح عمن استوجب العقوبة، عن العقاب لمُخَالَته، بل هنالك العدل والقسط، فالخلال مصدر، من قول القائل: «خاللت فلاناً، فانا أخاله مُخَالَته وخالاً»، ومنه قول امرئ القيس:

صَرَفْتُ الْهَوَىٰ عَنْهُمْ مِّنْ خَشْيَةِ الرَّذَىٰ
وَلَسْتُ بِمُفْلِي الْخِلَالِ وَلَا قَالِ
وقال قتادة: إن الله قد علم أن في الدنيا بيوعاً وخالاً يتخالون بها في الدنيا، فينظر رجل من يخالل وعلام صاحب، فإن كان الله فليداوم، وإن كان لغير الله فسيقطع عنه. قلت: والمراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحداً بيع ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده، ولا ينفع صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذ لقي الله كافراً، قال الله تعالى: ﴿وَأَقْبُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلَ مِنهَا عَدْلٌ وَلَا نَفْعُهَا شَفَعَةً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۖ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا يَفْقَهُوا مِنَّا رَزَقْنَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبْعُ فِيهِ وَلَا خِلَلٌ وَلَا شَفَعَةً وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۖ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۖ﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَلِيلَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۖ﴾ ﴿وَأَتَيْنَكُم مِّن كُلِّ مَاءٍ سَائِطِيَّةً وَإِنْ تُنْكِرُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ۖ﴾. يفتي آيِلُ النَّهَارِ وَيُطْلِمُ حَيْثَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالشُّجُومُ سَخَّرَتْ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْحَقُّ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ [الأعراف: ٥٤]، فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار عارضان، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصّر، ﴿يُطْلِمُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُؤْلِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَكُونُ آيِلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ الْفَكَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٥].

وقوله: ﴿وَأَتَيْنَكُم مِّن كُلِّ مَاءٍ سَائِطِيَّةً﴾: يقول: هيا لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم ممن تسألونه بحالكم وقالكم. وقال بعض السلف: من كل ما سألتوه وما لم تسألوه. وقرأ بعضهم: ﴿وَأَتَيْنَكُم مِّن كُلِّ مَاءٍ سَائِطِيَّةً﴾. وقوله: ﴿وَإِنْ تُنْكِرُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾: يخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب، رحمه الله: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن

يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين.

وفي صحيح البخاري: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم، لك الحمد غير مكفوفي ولا مودع، ولا مستغنى عنه ربنا». وقال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا داود بن المحبر، حدثنا صالح المري عن جعفر بن زيد العبدي، عن أنس، عن النبي ﷺ أنه قال: «يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين، ديوان فيه العمل الصالح، وديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه النعم من الله تعالى عليه، فيقول الله لأصغر نعمه - أحسبه. قال: في ديوان النعم -: خذي ثمنك من عمله الصالح، فتستوعب عمله الصالح كله، ثم تتخى وتقول: وعزتك ما استوفيت. وتبقى الذنوب والنعم فإذا أراد الله أن يرحم قال: يا عبدي، قد ضاعفت لك حسناتك وتجاوزت عن سيئاتك - أحسبه قال: ووهبت لك نعمي». غريب، وسنده ضعيف. وقد روي في الأثر: أن داود، عليه السلام، قال: يا رب، كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك علي؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود، أي: حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم. وقال الشافعي، رحمه الله: الحمد لله الذي لا يؤدي شكر نعمة من نعمه، إلا بنعمة توجب على مؤدي ماضي نعمه بأدائها، نعمة حادثة توجب عليه شكره بها. وقال القائل في ذلك:

لو كل جارحة مئى لها لفة تُثني عليك بما أوليت من حسن
لكان ما زاد شكري إذ شكرت به إليك أبلغ في الإحسان والمنين
﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ٣٥﴾ رَبِّ إِنِّي أَخْلَعُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَخْلَعْنِي مِنِّي
وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣٦﴾.

يذكر تعالى في هذا المقام محتجاً على مشركي العرب، بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه، أهلة تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾. وقد استجاب الله له، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَسَخَطْنَا النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ١٢٥﴾ فيه آية بنت مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال في هذه القصة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾، فعرّفه كأنه دعا به بعد بنائها؛ ولهذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة، فإنه دعا أيضاً فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، كما ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصى مطولاً. وقال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته. ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلافت من الناس وأنه بريء ممن عبدها، ورد أمرهم إلى الله، إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم، كما قال عيسى، عليه السلام: ﴿إِن قُلُوبُهُمْ فَلَا تَعْقِلُ عِبَادَتَهُ وَإِنْ تَقَرَّرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٧٨﴾ [المائدة: ١٧٨]، وليس في هذا أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى، لا تجويز وقوع ذلك. قال عبد الله بن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث، أن بكر بن سودة حدثه، عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخْلَعُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَخْلَعْنِي مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣٦﴾، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن قُلُوبُهُمْ فَلَا تَعْقِلُ عِبَادَتَهُ وَإِنْ تَقَرَّرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٧٨﴾ ورفع يديه، ثم قال: «اللهم أمّتي، اللهم أمّتي، اللهم أمّتي»، ويكي فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - وسله ما يبيحك؟ فأتاه جبريل، عليه السلام، فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، قال: فقال الله: اذهب إلى محمد، فقل له: إنا سرضيك في أمّتك ولا نسووك.

﴿وَرَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ١٢٧﴾.

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه، تأكيداً ورغبة إلى الله ﷻ، ولهذا قال: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾. وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: قال ابن جرير: هو متعلق بقوله: ﴿الْمُحَرَّمِ﴾ أي: إنما جعلته محرماً ليمكن أهله من إقامة الصلاة عنده. ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: لو قال: «أفئدة الناس» لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: ﴿مِّنَ النَّاسِ﴾ فاختص به المسلمون. وقوله: ﴿وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك وكما أنه ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ فاجعل لهم ثماراً يأكلونها. وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحِيطَ

إِلَيْهِ نَمُرَتْ كُلُّ شَيْءٍ وَرَقًا مِّنْ لَّدُنَّا» [القصص: ٥٧]، وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته: أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مشمرة، وهي تجبي إليها ثمرات ما حولها، استجابة لخليله إبراهيم، عليه الصلاة والسلام.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُخْفِي عَلَيْنَا مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [الحج: ٢٨] الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْهُ مِيقَدَ صَلَاتِي وَمِنْ دُرَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَهُ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾.

قال ابن جرير: يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليله أنه قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُخْفِي عَلَيْنَا﴾ أي: أنت تعلم قصدي في دعائي وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، ولا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء. ثم حمد ربه، ﷻ، على ما رزقه من الولد بعد الكبر، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحج: ٢٨]، أي: إنه ليستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد. ثم قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْهُ مِيقَدَ صَلَاتِي﴾ أي: محافظاً عليها مقيماً لحدودها ﴿وَمِنْ دُرَّتِي﴾ أي: واجعلهم كذلك مقيمين الصلاة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَهُ﴾ أي: فيما سألتك فيه كله. ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾: وقرأ بعضهم: ﴿ولوالدي﴾، على الأفراد وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله، ﷻ، وللمؤمنين ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أي: يوم تحاسب عبادك فتجزئهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، والله أعلم.

﴿وَلَا تَحْزَنْ أَللَّهُ عَفِيفٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٣١] وَمَا يُؤْمِرُكُمْ لِيَوْمِ تَنْخَسُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿١٣٢﴾ مُهْطِعِينَ مُنْقِبِينَ رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْقِدْتُمْ هَؤُلَاءِ ﴿١٣٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ.

يقول تعالى شأنه: ﴿وَلَا تَحْزَنْ أَللَّهُ عَفِيفٌ عَلِيمٌ﴾ يا محمد ﴿عَفِيفًا عَلَمًا يَعْلَمُ الْغُلُوبُونَ﴾ أي: لا تحسب إذ أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك عليهم ويعدّه عدّاً، أي: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَتَلَّصَّ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: من شدة الأحوال يوم القيامة. ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم ومجيئهم إلى قيام المحشر فقال: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين، كما قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَاذِبُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾ [الفر: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ فَتَبْصُرُونَ الْأَشْجَارُ لَا عِجَابَ لَهَا وَتَحْشَرُ الْأَشْجَارُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [الحج: ١٨] إلى قوله: ﴿وَعَنَتِ الْأُخُودُ لِلْوَعْدِ الْفَقِيرِ وَقَدْ خَابَ مَن حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١٠٨ - ١١١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ مِنَ الْأَشْجَارِ يَرْكَبُهَا كَأَنَّهُمْ إِلَهٌ تُسَبِّحُونَ﴾ [الحج: ١٣]، [المعارج: ٤٣]. وقوله: ﴿مُنْقِبِينَ رُؤُوسِهِمْ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد: رافعي رؤوسهم. ﴿يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: بل أبصارهم طائفة شاحصة، يديمون النظر لا يطفرون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة، لما يحل بهم، عياداً بالله العظيم من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَفْقِدْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ أي: وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الفزع والوجل والخوف. ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفقدتهم خالية لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف. وقال بعضهم: ﴿هَؤُلَاءِ﴾: خراب لا تعي شيئاً. ولشدة ما أخبر الله تعالى به عنهم، قال لرسوله: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾

﴿يَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِبْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَشِيعَ الرُّسُلُ أَوَلَمْ نَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ ذَوَالِ﴾ [الأنعام: ١١] وَكَسَبْتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَصَرَبْنَا لَكُمْ الْآثَانَ ﴿١٢﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿١٣﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قيل الذين ظلموا أنفسهم، عند معاينة العذاب: ﴿رَبَّنَا أَخْرِبْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَشِيعَ الرُّسُلُ﴾، كما قال تعالى: ﴿حَقًّا إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١١﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ تُرَدُّنَّهَا إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١﴾ وَأَتَقُوا مَن بَيْنَ يَدَيْكَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ يَقُولُ رَبِّ لَوْلَا تَرْجِي إِلَيَّ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢﴾﴾ [المنافقون: ٩، ١٠]، وقال تعالى مخبراً عنهم في حال محشرهم: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا اصْرِفْ رَأْسَنَا فَانْجِعْنَا تَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ وَقَعُوا عَلَى الْأَعْدَاءِ فَقَالُوا بَلَيْتُمْ تَرَوْهُ وَلَا تَكْذِبُ يَا أَيُّهَا رَبَّنَا وَكَفُورًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأْتُمْ تَا كَلُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَمَدُّوا لِمَا نَبُؤُوا عَنْهُ وَلَهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِفُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا تَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ الْأَنْذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧]. وقال تعالى راداً عليهم في قولهم هذا: ﴿أَوَلَمْ نَكُونُوا

أَنْتُمْ يَنْ قَبْلَ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٧﴾ أي: أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحال: أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء، فذوقوا هذا بذاك. قال مجاهد وغيره: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ أي: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كما أخبر عنهم تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨].

﴿وَسَكُنْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّعَ لَكُمْ كَيْفَ مَعَنَّا يَهُمْ وَصَرَّفْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ ﴿٤٨﴾ أي: قد رأيتم وبلغكم ما أحللتنا بالأمم المكذبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم مزدجر لكم ﴿حِكْمَةً بَلِغَةً فَمَا تَتَنَذَّرُونَ﴾ [الزمر: ٥٠]. وقد روى شعبة، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن داود، عن علي، رضي الله عنه، قال في هذه الآية: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرَهُمْ لِيَرْزُلُوا مِنْهُ الْجِبَالَ﴾ قال: أخذ ذلك الذي حاج إبراهيم في ربه تسرين صغيرين، فرباهما حتى استغلظا واستعلجا وشبا. قال: فأرثق رجل كل واحد منهما بوتد إلى تابوت، وجوعهما، وقعد هو ورجل آخر في التابوت قال: - ورفع في التابوت عصا على رأسه اللحم - قال: فطارا قال: وجعل يقول لصاحبه: انظر، ما ترى؟ قال: أرى كذا وكذا، حتى قال: أرى الدنيا كلها كأنها ذباب. قال: فقال: صَوَّبَ الْعَصَا، فَصَوَّبَهَا، فَهَبَطَا. قال: فهو قول الله، ﷻ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرَهُمْ لِيَرْزُلُوا مِنْهُ الْجِبَالَ﴾. قال أبو إسحاق: وكذلك هي في قراءة عبد الله: ﴿وَإِنْ كَادَ مَكْرَهُمْ﴾.

قلت: وكذا زوي عن أبي بن كعب، وعمر بن الخطاب، رضي الله عنهما، أنهما قرآ: ﴿وَإِنْ كَادَ﴾، كما قرأ علي. وكذا رواه سفيان الثوري، وإسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن أذنان، عن علي، فذكر نحوه. وكذا زوي عن عكرمة أن سياق هذه القصة للتمرد ملك كنعان: أنه رام أسباب السماء بهذه الحيلة والمكر، كما رام ذلك بعده فرعون ملك القبط في بناء الصرح، فعجزوا وضعفا، وهما أقل وأحقر، وأصغر وأدحر. وذكر مجاهد هذه القصة عن بختنصر، وأنه لما انقطع بصره عن الأرض وأهلها، نودي: أيها الطاغية: أين تريد؟ ففرق، ثم سمع الصوت فوقه فصوب الرماح، فصوبت النصور، ففزعت الجبال من هذتها، وكادت الجبال أن تزول من حس ذلك، فذلك قوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرَهُمْ لِيَرْزُلُوا مِنْهُ الْجِبَالَ﴾. ونقل ابن جريج عن مجاهد أنه قرأها: ﴿لَتَرْزُلَا مِنْهُ الْجِبَالَ﴾، بفتح اللام الأولى، وضم الثانية. وروى العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرَهُمْ لِيَرْزُلُوا مِنْهُ الْجِبَالَ﴾ يقول: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال. وكذا قال الحسن البصري، ووجه ابن جرير بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من كفرهم بالله وشركهم به، ما ضر ذلك شيئا من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك على أنفسهم. قلت: ويشبه هذا إذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفِسْ فِي الْأَرْضِ مَرَمًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَكَانَ تَبْلَغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]. والقول الثاني في تفسيرها: ما رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرَهُمْ لِيَرْزُلُوا مِنْهُ الْجِبَالَ﴾: يقول: شركهم، كقوله: ﴿تَكَاذُ الشَّكْوَتُ يَنْفَكِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشُقُّ الْأَرْضُ وَتُغَيِّرُ الْجِبَالَ هَذَا﴾ ﴿٤٩﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَكَا﴾ [المریم: ٩٠، ٩١]، وهكذا قال الضحاك، وقَتَادَةَ.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ تَخْلِفُ وَعْدَهُ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ﴿٥٠﴾ يَوْمَ يُبَدِّلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ﴿٥١﴾. يقول تعالى مقررًا لوعده ومؤكداً: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ تَخْلِفُ وَعْدَهُ رُسُلَهُ﴾ أي: من نصرته في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. ثم أخبر أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أراد، ولا يغالب، وذو انتقام ممن كفر به وجحدته ﴿قَوْلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿٥١﴾ [الطور: ٥١]؛ ولهذا قال: ﴿يَوْمَ يُبَدِّلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾ أي: وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء في الصحيحين، من حديث أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يبحر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كفرصة الثقي، ليس فيها معلّم لأحد». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن داود، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿يَوْمَ يُبَدِّلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ﴿٥١﴾، قالت: قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط». رواه مسلم منفرداً به دون البخاري، والترمذي، وابن ماجه، من حديث داود بن أبي هند، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. ورواه أحمد أيضاً، عن عفان، عن وهيب، عن داود، عن الشعبي، عنها. ولم يذكر مسروقاً. وقال قتادة، عن حسان بن بلال المزني، عن عائشة، رضي الله عنها، أنها سألت رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿يَوْمَ يُبَدِّلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾ قال: قالت: يا رسول الله، فأين الناس يومئذ؟ قال: «لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد من أمتي، ذاك أن الناس على جسر جهنم». وروى الإمام أحمد، من حديث حبيب بن أبي عمرة، عن مجاهد، عن ابن عباس، حدثني عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَبِينًا مَبْجُوعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ يَبْسُجُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «هم على متن جهنم».

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن، حدثنا علي بن الجعد، أخبرني القاسم، سمعت الحسن قال: قالت عائشة: يا رسول الله، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾، فأين الناس يومئذ؟ قال: «إن هذا شيء ما سألتني عنه أحد»، قال: «على الصراط يا عائشة». ورواه أحمد، عن عفان، عن القاسم بن الفضل، عن الحسن، به. وقال الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه: حدثني الحسن بن علي الخلواني، حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد - يعني: أخاه - أنه سمع أبا سلام، حدثني أبو أسماء الرخبي: أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ حدثه قال: كنت قائماً عند رسول الله ﷺ، فجاءه خبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد. فدفعته دفعة كاد يُصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول الله؟! فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سمَّاه به أهله! فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي». فقال اليهودي: جئت أسألك. فقال رسول الله ﷺ: «أينفعك شيء إن حدثتك؟» فقال: أسمع بأذني. فنكت رسول الله ﷺ يعود معه، فقال: «سل». فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر». قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: فقال: «فقراء المهاجرين». قال اليهودي: فما تُخفَّتْهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون» قال: فما غذاؤهم في أثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها». قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسيلاً». قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان. قال: «أينفعك إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد. قال: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعوا فعَلَا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله - تعالى - وإذا علا مني المرأة مني الرجل أثنا بإذن الله». قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي. ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألتني هذا عن الذي سألتني عنه، وما لي علم بشيء منه، حتى أتاني الله به».

وقال أبو جعفر بن جرير الطبري: حدثني ابن عوف، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا سعيد بن ثوبان الكلاعي، عن أبي أيوب الأنصاري، قال: أتى النبي ﷺ خبر من اليهود فقال: أرايت إذ يقول الله في كتابه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾، فأين الخلق عند ذلك؟ فقال: «أضياف الله، فلن يعجزهم ما لديه». ورواه ابن أبي حاتم، من حديث أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، به. وقال شعبة: أخبرنا أبو إسحاق، سمعت عمرو بن ميمون - وربما قال: قال عبد الله، وربما لم يقل - فقلت له: عن عبد الله؟ فقال: سمعت عمرو بن ميمون يقول: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ قال: أرض كالفضة البيضاء نقية، لم يسفك فيها دم، ولم يعمل عليها خطيئة، ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعي، حفاة عراة كما خلقوا. قال: أراه قال: قياماً حتى يُلْجِمَهُم العرق. وروي من وجه آخر عن شعبة وعن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن ابن مسعود، بنحوه. وكذا رواه عاصم، عن زر، عن ابن مسعود، به. وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، لم يخبر به. أورد ذلك كله ابن جرير. وقد قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الله بن عُبَيْد بن عَقِيل، حدثنا سهل بن حماد أبو عَثَاب، حدثنا جرير بن أيوب، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله، عن النبي ﷺ في قول الله، ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ قال: «أرض بيضاء لم يسقط عليها دم، ولم يعمل عليها خطيئة». ثم قال: لا نعلم رفعه إلا جرير بن أيوب، وليس بالقوي. ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا معاوية بن هشام، عن سنان، عن جابر الجعفي، عن أبي جُبَيْر، عن زيد قال: «أرسلت إليهم أسألهم عن قول الله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾، إنها تكون يومئذ بيضاء مثل الفضة». فلما جاؤوا سألهم فقالوا: تكون بيضاء مثل الثقي. وهكذا روي عن علي، وابن عباس، وأنس بن مالك، ومجاهد بن جبير: أنها تبدل يوم القيامة بأرض من فضة. وعن علي، رضي الله عنه، أنه قال: تصير الأرض فضة، والسماوات ذهباً.

وقال الربيع: عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: تصير السماوات جناناً. وقال أبو معشر، عن محمد بن كعب القرظي، أو عن محمد بن قيس في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾، قال: تبدل خبزة يأكل منها المؤمنون من تحت أقدامهم. وكذا زَوَى وكيع، عن عمر بن بشير الهمداني، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ قال: تبدل خبزة بيضاء، يأكل المؤمن من تحت قدميه. وقال الأعمش، عن خَيْثَمَةَ قال: قال عبد الله - هو ابن مسعود -: الأرض كلها يوم القيامة نار، والجنة من ورائها ترى كواعبها وأكوابها، ويلجَمُ الناس العرق، أو يبلغ منهم العرق، ولم يبلغوا الحساب. وقال الأعمش أيضاً، عن المِثْنَال بن عمرو، عن قيس بن السكن قال: قال عبد الله: الأرض كلها نار يوم القيامة، والجنة من ورائها، ترى أكوابها وكواعبها، والذي نفس عبد الله بيده، إن الرجل ليفيض عرقاً حتى ترسخ في الأرض قدمه، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه، وما مسه

الحساب. قالوا: مم ذاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: مما يرى الناس يلقون. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن كعب في قوله: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾، قال: تصير السموات جناناً، ويصير مكان البحر ناراً، وتبدل الأرض غيرها. وفي الحديث الذي رواه أبو داود: «لا يركب البحر إلا غاز أو حجاج أو معتمر، فإن تحت البحر ناراً - أو: تحت النار بحراً». وفي حديث الصور المشهور المروي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «تبدل الأرض غير الأرض والسموات، فيسطها ويمدها مد الأديم العكاظي، لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً، ثم يزجر الله الخلق زجرة، فإذا هم في هذه المبدلة». وقوله: ﴿وَيَبْرَزُوا لِلَّهِ آيٍ﴾ خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿الْوَحِيدَ الْقَهَّارَ﴾ أي: الذي قهر كل شيء وغلبه، ودانت له الرقاب، وخضعت له الأبواب.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ (١١) سَرَابِلُهُمْ مِّنْ ظُرُرٍ وَتَفْتَنُ أَوْتَهُمْ النَّارُ ﴿٥١﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ تَقْوٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥٢﴾.

يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾، وتبرز الخلائق لديانها، ترى يا محمد يومئذ المجرمين، وهم الذين أجروا بكفرهم وفسادهم، ﴿مُقْرَّنِينَ﴾ أي: بعضهم إلى بعض، قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم، كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْهُمْ غَلَاظُ مَا لَهُمْ فِي الْأَفْئِدَةِ﴾ (الصافات: ٢٢)، وقال: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (التكوير: ٧)، وقال: ﴿وَلَا أَلْقَا وَنَهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقْرَّنِينَ دَعَا هُنَا لَكَ ثُبُورًا﴾ (الفرقان: ١٣)، وقال: ﴿وَالْقَلِيلَ كُلِّ بَلَاءٍ وَعَوَاسٍ﴾ (التكوير: ٢٧) وَمَا خَيْرٌ مِّنْ مَّقَرٍّ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٥٢﴾ (ص: ٣٧، ٣٨). والأصفاد: هي القيود، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، والأعشى، وعبد الرحمن بن زيد. وهو مشهور في اللغة، قال عمرو بن كلثوم:

قَابُوا بِالشَّيَابِ وَبِالسَّبَايَا وَأُبْنَا بِالْمُلُوكِ مُصَفَّدِينَ

وقوله: ﴿سَرَابِلُهُمْ مِّنْ ظُرُرٍ﴾ أي: ثيابهم التي يلبسونها عليهم من قطران، وهو الذي ثنها به الإبل، أي: تطلي، قاله قتادة. وهو الصق شيء بالنار. ويقال فيه: «قطران»، يفتح القاف وكسر الطاء، ويفتح القاف وتسكين الطاء، وبكسر القاف وتسكين الطاء، ومنه قول أبي النجم:

كَأَنَّ قَطْرَانًا إِذَا تَلَامَا تَزْمِي بِهِ الزَّبْحَ إِلَى مَجْرَاهَا

وكان ابن عباس يقول: القَطْرَانُ هو: النحاس المذاب، وربما قرأها: ﴿سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ﴾ أي: من نحاس حار قد انتهى حره. وكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقاتدة. وقوله: ﴿تَفْتَنُ أَوْتَهُمْ النَّارُ﴾، كقوله: ﴿تَلَفَّحَ وَجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠٤). وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا يحيى بن إسحاق، أنبأنا أبان بن يزيد، عن يحيى بن أبي كثير، عن زيد، عن أبي سلام، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من أمر الجاهلية لا يتركن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة، والنائحة إذا لم تنب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودزع من جرب». انفرد بإخراجه مسلم. وفي حديث القاسم، عن أبي أمامة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «النائحة إذا لم تنب، توقف في طريق بين الجنة والنار، وسرابيلها من قطران، وتغشى وجهها النار».

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ أي: يوم القيامة، كما قال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ (النجم: ٣١). ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: يحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء: ١١)، ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع الشَّجَاز؛ لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿مَّا خَلَقَكُمْ وَلَا بِمَشْأَمِكُمْ إِلَّا كَفَتْنِيسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (القمان: ٢٨)، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: إحصاء. ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين، والله أعلم.

﴿هَذَا يَلْعَنُ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَيَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٥٢).

يقول تعالى: هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿لِيُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ يَلْعَنُ﴾ (الأنعام: ١٩) أي: هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجان، كما قال في أول السورة: ﴿إِنَّا كُنَّا نُرْسِلُ إِلَيْكَ لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾. ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ أي: ليتعظوا به، ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو، ﴿وَلِيَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي: ذوو العقول.

تفسير سورة الحجر

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تَلَكَّ أَلَيْسَ الْكِتَابِ وَفَرَّانِ شَيْئٍ ۖ ﴿١﴾ رَبِّمَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَعُمْ يَأْكُلُوا وَيَسْتَمَعُوا وَلَهُمْ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ ﴿٣﴾﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور.

وقوله: ﴿رَبِّمَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾: إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا مع المسلمين في الدار الدنيا. ونقل السدي في تفسيره بسنده المشهور عن ابن عباس، وابن مسعود، وغيرهما من الصحابة: أن الكفار لما عُرِضُوا على النار، تمنوا أن لو كانوا مسلمين. وقيل: المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمناً. وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُفْعَلُ عَلَى النَّارِ فَأَقُولُ يُكَلِّمُنَا رَبُّهُ وَلَا تَنْكُزُ رَبَّنَا وَتَكُونُ مِنَّا أَلَقِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]. وقال سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن أبي الزعراء، عن عبد الله في قوله: ﴿رَبِّمَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾: قال: هذا في الجهنميين إذا رأوهم يخرجون من النار. وقال ابن جرير: حدثنا المشني، حدثنا مسلم، حدثنا القاسم، حدثنا ابن أبي قزوة العبدي؛ أن ابن عباس وأنس بن مالك كانا يتأولان هذه الآية: ﴿رَبِّمَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، يتأولانها: يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار. قال: فيقول لهم المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون في الدنيا. قال: فيغضب الله لهم بفضل رحمته، فيخرجهم، فذلك حين يقول: ﴿رَبِّمَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾. وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن حماد، عن إبراهيم، عن خصيف، عن مجاهد قال: يقول أهل النار للموحدين: ما أغنى عنكم إيمانكم؟ فإذا قالوا ذلك. قال: أخرجوا من كان في قلبه مثقال ذرة. قال: فعند ذلك قوله: ﴿رَبِّمَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾. وهكذا روي عن الضحاك، وقتادة، وأبي العالية، وغيرهم.

وقد ورد في ذلك أحاديث مرفوعة، فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن العباس، هو الأخرم، حدثنا محمد بن منصور الطوسي، حدثنا صالح بن إسحاق الجهيد، دلي عليه يحيى بن معين، حدثنا مُعَرِّفُ بن واصل، عن يعقوب بن أبي نبانة، عن عبد الرحمن الأغر، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ناساً من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم، فيقول لهم أهل اللات والعزى: ما أغنى عنكم قولكم: لا إله إلا الله وأنتم معنا في النار؟. فيغضب الله لهم، فيخرجهم، فيلقيهم في نهر الحياة، فيبرؤون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه، فيدخلون الجنة، ويسمّون فيها الجهنميين». فقال رجل: يا أنس، أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فقال أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كذب علي متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار». نعم، أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا. ثم قال الطبراني: تفرد به الجهيد.

الحديث الثاني: وقال الطبراني أيضاً: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبو الشعثاء علي بن الحسن الواسطي، حدثنا خالد بن نافع الأشعري، عن سعيد بن أبي بردة، عن أبيه، عن أبي موسى، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل النار في النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام! فقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها. فسمع الله ما قالوا، فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا، فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا». قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، ﴿الرَّ تَلَكَّ أَلَيْسَ الْكِتَابِ وَفَرَّانِ شَيْئٍ ۖ ﴿١﴾ رَبِّمَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾. ورواه ابن أبي حاتم، من حديث خالد بن نافع، به، وزاد فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم)، عوض الاستعاذة.

الحديث الثالث: وقال الطبراني أيضاً: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا إسحاق بن راهويه قال: قلت لأبي أسامة: أحدثكم أبو روق - واسمه عطية بن الحارث -: حدثني صالح بن أبي طريف قال: سألت أبا سعيد الخدري فقلت له: هل سمعت

رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ١؟ قال: نعم، سمعته يقول: «يُخرج الله ناساً من المؤمنين من النار بعدما يأخذ نقمته منهم»، وقال: «لما أدخلهم الله النار مع المشركين قال لهم المشركون: تزعمون أنكم أولياء الله في الدنيا، فما بالكم معنا في النار؟ فإذا سمع الله ذلك منهم، أذن في الشفاعة لهم فتشفع الملائكة والنبيون، ويشفع المؤمنون، حتى يخرجوا بإذن الله، فإذا رأى المشركون ذلك، قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين، فندركنا الشفاعة، فنخرج معهم». قال: «فذلك قول الله: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ٢»، فيسمون في الجنة الجهنميين، من أجل سواد في وجوههم، فيقولون: يا رب، أذهب عنا هذا الاسم، فيأمرهم فيغتسلون في نهر الجنة، فيذهب ذلك الاسم عنهم، فأقر به أبو أسامة، وقال: نعم.

الحديث الرابع: وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا العباس بن الوليد الرسي، حدثنا مسكين أبو فاطمة، حدثني اليمان بن يزيد، عن محمد بن جعفر، عن محمد بن علي، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «منهم من تأخذه النار إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه، على قدر ذنوبهم وأعمالهم، ومنهم من يمكث فيها شهراً ثم يخرج منها، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها، وأطولهم فيها مئثناً بقدر الدنيا منذ يوم خلقت إلى أن تفتي، فإذا أراد الله أن يخرجوا منها قالت اليهود والنصارى ومن في النار من أهل الأديان والأوثان، لمن في النار من أهل التوحيد: آمنتم بالله وكتبه ورسله، فنحن وأنتم اليوم في النار سواء، فيغضب الله لهم غضباً لم يغضبه لشيء فيما مضى، فيخرجهم إلى عين في الجنة، وهو قوله: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ٣».

وقوله: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبُوا﴾: تهديد لهم شديد، ووعد أكيد، كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَتَّبِعُوا فَإِنَّ صَيْبَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٢٠]، وقوله: ﴿كُلُوا وَشَبَبُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ ٤ [المرسلات: ٤٦]؛ ولهذا قال: ﴿وَلِيَهُمُ الْأَمَلُ﴾ أي: عن التوبة والإنابة، ﴿فَسَوْفَ يَلْمُونَ﴾ أي: عاقبة أمرهم.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَوْمٍ إِلَّا وَلَمَّْا كَانَتْ مَلُومًا﴾ ٥ مَا تَسْبِيحٌ مِنْ أُمَّةٍ أَمَلَهَا وَمَا يَسْتَنْخِرُونَ ٦.

يقول تعالى: إنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها، وإنه لا يؤخر أمة حان هلاكها عن ميقاتها ولا يتقدمون عن مدتهم. وهذا تنبيه لأهل مكة، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم فيه من الشرك والعناد والإلحاد، الذي يستحقون به الهلاك. ﴿وَقَالُوا يَأْتِيَنَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ ٧ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٨ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ٩ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ١٠.

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم وعنادهم في قولهم: ﴿يَأْتِيَنَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي: الذي يدعى ذلك ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: في دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا. ﴿لَوْ مَا﴾ أي: هلاً ﴿تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ﴾ أي: يشهدون لك بصحة ما جئت به ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، كما قال فرعون: ﴿قُلْ لَأَنْزِلَنِي اللَّهُ بِسُورَةٍ مِنْ دُونِ الذِّكْرِ﴾ [الزخرف: ٥٣]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكَةُ أَوْ لَنَرِي رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ ١١ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَكَةَ لَا بُدَّ مِنْهُمْ مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَعْجُورًا ١٢ [الفرقان: ٢١، ٢٢]. وكذا قال في هذه الآية: ﴿مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ ٩. وقال مجاهد في قوله: ﴿مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: بالرسالة والعذاب. ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل الذكر، وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل. ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى: ﴿لَمْ لَحَافِظُونَ﴾ على النبي ﷺ، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَصْحَبُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] والمعنى الأول أولى، وهو ظاهر السياق، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ١٣ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ١٤ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ١٥ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ١٦﴾.

يقول تعالى مسلماً لرسوله في تكذيب من كذب من كفار قريش: أنه أرسل من قبله في الأمم الماضية، وأنه ما أتى أمة رسول إلا كذبوه واستهزؤوا به، ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى. قال أنس، والحسن البصري: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ١٥: يعني: الشرك. وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار، وكيف أنجى الله الأنبياء واتباعهم في الدنيا والآخرة. ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَلَظَلُوا فِيهِ يَعْزِفُونَ﴾ ١٦ لَقَالُوا إِنَّمَا سَكِرَاتُ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ١٧.

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق: أنه لو فتح لهم باباً من السماء، فجعلوا يصعدون فيه، لما صدقوا

بذلك، بل قالوا: ﴿سَكِرَتْ أَبْصَارُنَا﴾. قال مجاهد وابن كثير، والضحاك: سدت أبصارنا. وقال قتادة، عن ابن عباس: أخذت أبصارنا. وقال العوفي عن ابن عباس: شُبه علينا، وإنما سحرنا. وقال الكلبي: غميت أبصارنا. وقال ابن زيد: ﴿سَكِرَتْ أَبْصَارُنَا﴾، السكران الذي لا يعقل.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَوَزَعْنَا فِيهَا الْقَنَاطِيرَ ۝١٦ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مِنْ أَسْفَلِ السَّمَاءِ قَائِمَةٌ فِيهَا ثِيَابٌ ۝١٨ وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسٍ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ ۝١٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشَ وَمَنْ لَكُمْ لَكُمْ بِرِزْقِنَا ۝٢٠﴾.

يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها وما زُيّنها به من الكواكب الثواب، وكرر النظر فيها، يرى فيها من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه. ولهذا قال مجاهد وفتادة: البروج ههنا هي: الكواكب. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا يَزِيدًا وَكَفَرًا شُدُودًا﴾ [الفرقان: ٦١]. ومنهم من قال: البروج هي: منازل الشمس والقمر. وقال عطية العوفي: البروج ههنا: هي قصور الحرس. وجعل الشهب حرساً لها من مَرَدَةِ الشياطين، لئلا يسمعوها إلى الملاء الأعلى، فمن تمرد منهم وتقدم لاستراق السمع، جاءه ﴿يَهَابٌ ۝٢١﴾ فأتلفه، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه، فياخذها الآخر، ويأتي بها إلى وليه، كما جاء مصرحاً به في الصحيح، كما قال البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عكرمة، عن أبي هريرة، يبلغ به النبي ﷺ، قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاعاً لقوله كأنه سلسلة على صفوان». قال علي، وقال غيره: صفوان يَفْذُهُمْ ذلك، فإذا فُزِعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الذي قال: الحق، وهو العلي الكبير. فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع، هكذا واحد فوق آخر - ووصف سفيان بيده فَفَرَجَ بين أصابع يده اليمنى، نُصِبَها بعضها فوق بعض - فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يَزِمِي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يَزِمِي بها إلى الذي يليه، إلى الذي هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض - وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض فتلقى على فم الساحر - أو: الكاهن - فيكذب معها مائة كذبة، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فوجدناه حقاً؟ للكلمة التي سمعت من السماء.

ثم ذكر، تعالى، خلقه الأرض، ومدّه إياها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسي، والأودية والأراضي والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة. وقال ابن عباس: ﴿يَنْزِلُ فِيهَا ثَمَرٌ ۝٢٢﴾ أي: معلوم. وكذا قال سعيد بن جبير، وعكرمة، وأبو مالك، ومجاهد، والحكم بن عُتَيْبَةَ، والحسن بن محمد، وأبو صالح، وفتادة. ومنهم من يقول: مقدر بقدر. وقال ابن زيد: من كل شيء يُوزَنُ ويقدر بقدر. وقال ابن زيد: ما ترزاه أهل الأسواق. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشَ وَمَنْ لَكُمْ لَكُمْ بِرِزْقِنَا ۝٢٠﴾: يذكر، تعالى، أنه صرفهم في الأرض في صنوف من الأسباب والمعاش، وهي جمع معيشة. وقوله: ﴿وَمَنْ لَكُمْ لَكُمْ بِرِزْقِنَا ۝٢٠﴾: قال مجاهد: وهي الدواب والأنعام. وقال ابن جرير: هم العبيد والإماء والدواب والأنعام. والقصد أنه، تعالى، يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعاش، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورزقهم على خالقهم لا عليهم فلمهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى. وقوله:

﴿وَإِنْ يَنْزِلُ السَّمَاءُ سَاحِبٌ ۝٢٣ وَمَا نُظِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝٢٤ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ الْفَاحِشَةَ فَنَزَّلْنَا مَاءً فَالْتَبَسَكُمْ وَمَا أَنْشَرَكُمْ لَمْ يَحْزَنْكُمْ ۝٢٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ غَنِيٌّ ۝٢٦ وَتَبَيَّنَ الْوَرْدُونَ ۝٢٧ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُتَفِينِينَ ۝٢٨ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُتَفِينِينَ ۝٢٩ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِعَمَلِكُمْ حَكِيمٌ ۝٣٠﴾.

يخبر، تعالى، أنه مالك كل شيء، وأن كل شيء سهل عليه، يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف، ﴿وَمَا نُظِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾، كما يشاء وكما يريد، ولما لهُ في ذلك من الحكمة البالغة، والرحمة بعباده، لا على وجه الوجوب، بل هو كتب على نفسه الرحمة. قال يزيد بن أبي زياد، عن أبي جحيفة، عن عبد الله: ما من عام بأمر من عام، ولكن الله يقسمه حيث شاء، عاماً ههنا، و عاماً ههنا. ثم قرأ: ﴿وَإِنْ يَنْزِلُ السَّمَاءُ سَاحِبٌ ۝٢٣ وَمَا نُظِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝٢٤﴾. رواه ابن جرير. وقال أيضاً: حدثنا القاسم، حدثنا الحسن، حدثنا هشيم، أخبرنا إسماعيل بن سالم، عن الحكم بن عُتَيْبَةَ في قوله: ﴿وَمَا نُظِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾: قال: ما عام بأكثر مطراً من عام ولا أقل، ولكنه يُمطر قوم ويحرم آخرون وربما كان في البحر. قال: وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم، يُحْضُونَ كل قطرة حيث تقع وما تنبت. وقال البزار: حدثنا داود - وهو ابن بكر الشُّثري - حدثنا جبان بن أغلب بن تميم، حدثني أبي، عن هشام، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خزائن الله الكلام، فإذا أراد شيئاً قال له: كن، فكان». ثم قال: لا يرويه إلا

أغلب، ولم يكن بالقوي، وقد حدث عنه غير واحد من المتقدمين، ولم يروه عنه إلا ابنه.

وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفٍ﴾ أي: تلعق السحاب فتدبر ماء، وتلعق الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها. هذه «الرياح» ذكرها بصيغة الجمع، ليكون منها الإنتاج، بخلاف الريح العقيم فإنه أفردا، ووصفها بالعقيم، وهو عدم الإنتاج؛ لأنه لا يكون إلا من شيتين فصاعداً. وقال الأعمش، عن اليثقال بن عمرو، عن قيس بن السكن، عن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفٍ﴾ قال: ترسل الريح، فتحمل الماء من السماء، ثم تمر مر السحاب، حتى تدر كما تدر اللقحة. وكذا قال ابن عباس، وإبراهيم النخعي، وقتادة. وقال الضحاك: يبعثها الله على السحاب، فتلقحها، فيمتلىء ماء. وقال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المباشرة فتقوم الأرض فَمَا ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر، ثم تلا: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفٍ﴾. وقد روى ابن جرير، من حديث عبيس بن ميمون، عن أبي المهزوم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «الريح الجنوب من الجنة، وهي الريح اللواقح، وهي التي ذكر الله في كتابه، وفيها منافع للناس». وهذا إسناد ضعيف. وقال الإمام أبو بكر بن الزبير الحميدي في مسنده: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، أخبرني يزيد بن جعذبة الليثي: أنه سمع عبد الله بن يخزاق، يحدث عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق في الجنة ريحاً بعد الريح بسبع سنين، وإن من دونها باباً مغلقاً، وإنما يأتيكم الريح من ذلك الباب، ولو فتح لأذرت ما بين السماء والأرض من شيء، وهي عند الله الأزيب، وهي فيكم الجنوب». وقوله: ﴿فَلْيَسْكُنُوا﴾ أي: أنزلناه لكم عذاباً يُمكنكم أن تشربوا منه، ولو نشاء لجعلناه أجاباً. كما ينه الله على ذلك في الآية الأخرى في سورة «الواقعة»، وهو قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّامَةَ الَّتِي تَشْرَبُونَ﴾ (٧٨) «أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهَا مِنَ السَّمَاءِ أَمْ غَنَّا السَّمَرُونَ﴾ (٧٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجْلَبًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ (٨٠) [الواقعة: ٦٨-٧٠]، وفي قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ ثَمِيرٌ﴾ (٨١) [النحل: ١٠]. وقوله: ﴿وَمَا أَنْشَأْنَاهُ لَكُمْ يَخْرَجِينَ﴾: قال سفيان الثوري: بمانعين. ويحتمل أن المراد: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم، ونجعله معيناً وبنائيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذاباً، وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك، ليقبى لهم في طول السنة، يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم.

وقوله: ﴿وَأَنَّا لَنَحْنُ غَنِيٌّ﴾ وثبت: إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع. وأخبر أنه، تعالى، يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

ثم قال مخبراً عن تمام علمه بهم، أولهم وآخرهم: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِرِينَ﴾ (٨٢) قال ابن عباس، رضي الله عنهما: المستقدمون: كل من هلك من لدن آدم، عليه السلام، والمستأخرون: من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة. وروي نحوه عن عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، ومحمد بن كعب، والشعبي، وغيرهم. وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن رجل، عن مزوان بن الحكم أنه قال: كان أناس يستأخرون في الصفوف من أجل النساء فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِرِينَ﴾ (٨٣). وقد ورد في هذا حديث غريب جداً، فقال ابن جرير: حدثني محمد بن موسى الحرشي، حدثنا نوح بن قيس، حدثنا عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: كانت تصلي خلف رسول الله ﷺ امرأة - قال ابن عباس: لا والله ما إن رأيت مثلاً قط -، وكان بعض المسلمين إذا صلوا استقدموا - يعني: لثلا يراها - وبعض يستأخرون، فإذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم!! فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِرِينَ﴾ (٨٤). وكذا رواه أحمد وابن أبي حاتم في تفسيره، والترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننهما، وابن ماجه من طرق عن نوح بن قيس الخُداني. وقد وثقه أحمد وأبو داود وغيرهما، وحكي عن ابن معين تضعيفه، وأخرج له مسلم وأهل السنن. وهذا الحديث فيه نكارة شديدة، وقد رواه عبد الرزاق، عن جعفر بن سليمان، عن عمرو بن مالك وهو النكري أنه سمع أبا الجوزاء يقول في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِينَ مِنْكُمْ﴾، في الصفوف في الصلاة و ﴿الْمُسْتَقْبِرِينَ﴾. فالظاهر أنه من كلام أبي الجوزاء فقط، ليس فيه لابن عباس ذكر. وقد قال الترمذي: هذا أشبه من رواية نوح بن قيس، والله أعلم. وهكذا روى ابن جرير عن محمد بن أبي معشر، عن أبيه: أنه سمع عون بن عبد الله يذكر محمد بن كعب في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِرِينَ﴾ (٨٥)، وأنها في صفوف الصلاة، فقال محمد بن كعب: ليس هكذا، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِينَ مِنْكُمْ﴾: الميت والمقتول و ﴿الْمُسْتَقْبِرِينَ﴾: من يخلق بعد، ﴿وَأَنَّ رَبَّكَ هُوَ بِمَشْرِعِهِمْ عَلِيمٌ﴾ (٨٦)، فقال عون بن عبد الله: وفقك الله وجزاك خيراً.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (٨٧) وَكَلَّمَا تَخَلَّقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ تَابِرِ السَّمَاءِ﴾ (٨٨).

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: المراد بالصلصال ههنا: التراب اليابس. والظاهر أنه كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥]. وعن مجاهد أيضاً: الصلصال: المتن. وتفسير الآية بالآية أولى. وقوله: ﴿مِنْ حَمَلٍ مُّسْتَوِينَ﴾ أي: الصلصال من حمأ، وهو: الطين. والمستون: الأملس، كما قال الشاعر:

ثُمَّ خَاصَرْتَهَا إِلَى السُّقْبَةِ الْخَضْءِ رَاءَ تَمَشُّشِي فِي مَزْمَرٍ مُّسْتَوِينَ

أي: أملس صقيل. ولهذا روي عن ابن عباس أنه قال: هو التراب الرطب. وعن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك أيضاً: أن الحمأ المستون هو المتن. وقيل: المراد بالمستون ههنا: المصبوب. وقوله: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلِ﴾ أي: من قبل الإنسان ﴿مِنْ نَّارِ الشَّوْرِ﴾ قال ابن عباس: هي السموم التي تقتل. وقال بعضهم: السموم بالليل والنهار. ومنهم من يقول: السموم بالليل، والحرور بالنهار. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: دخلت على عمرو الأصم أعوده، فقال: ألا أحدثك حديثاً سمعته من عبد الله بن مسعود، يقول: هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من السموم التي خلق منها الجان، ثم قرأ: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَّارِ الشَّوْرِ﴾ (٢٧). وعن ابن عباس: أن الجان خلق من لهب النار، وفي رواية: من أحسن النار. وعن عمرو بن دينار: من نار الشمس، وقد ورد في الصحيح: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَتِ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ بَنُو آدَمَ مِمَّا وَصِفَ لَكُمْ» ومقصود الآية: التنبيه على شرف آدم، عليه السلام، وطيب عنصره، وطهارة مَخْدَهُ.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مُّسْتَوٍ ﴿١٥﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿١٦﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَتْمُونَ ﴿١٧﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ إِنَّهُ كَانَ بَكُونًا مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ يَبْتَغِشَ مَا لَكَ أَنْ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مُّسْتَوٍ ﴿٢٠﴾﴾.

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إياه بأمره الملائكة بالسجود له. ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة، حسداً وكفراً، وعناداً واستكباراً، وافتخاراً بالباطل، ولهذا قال: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مُّسْتَوٍ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. وقوله: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أُوَدِّعَ إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَأُحْبِبَنَّكَ دُرَيْتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]. وقد روى ابن جرير ههنا أثراً غريباً عجيباً، من حديث شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما خلق الله الملائكة قال: إني خالق بشرأ من طين، فإذا سويته فاسجدوا له. قالوا: لا نفعل. فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم، ثم خلق ملائكة فقال لهم مثل ذلك، فقالوا: لا نفعل. فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم. ثم خلق ملائكة أخرى فقال: إني خالق بشرأ من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له، فأبوا، فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم. ثم خلق ملائكة فقال: إني خالق بشرأ من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له. قالوا: سمعنا وأطعنا، إلا إبليس كان من الكافرين الأولين. وفي ثبوت هذا عنه بعد، والظاهر أنه إسرائيلي، والله أعلم.

﴿قَالَ فَخَرَجْنَا مِنْهَا فَلَيْتَ الْفَلَكِ ﴿٢١﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِنْ يَوَّرَ الْيَمِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٢٤﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٢٥﴾﴾.

يقول امرأ لإبليس امرأ كونيأ لا يخالف ولا يمانع، بالخروج من المنزل التي كان فيها من الملائكة الأعلى، وإنه ﴿رَجِيمٌ﴾ أي: مرجوم. وإنه قد أتبعه لعنة لا تزال متصلة به، لاحقة له، متواترة عليه إلى يوم القيامة. وعن سعيد بن جبيرة أنه قال: لما لعن الله إبليس، تغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورن رنة، فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة منها. رواه ابن أبي حاتم. وإنه لما تحقق الغضب الذي لا مَرَدَّ له، سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث، وأنه أجيب إلى ذلك استدراجاً له وإمهالاً، فلما تحقق النظرة قبحه الله:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٢٩﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْءَجَةٌ مُّجْمِعِينَ ﴿٣٠﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْشُورٌ ﴿٣١﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾: قال بعضهم: أقسم بإغواء الله له. قلت: ويحتمل أنه بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ أي: لذرية آدم، عليه السلام ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أحب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها، وأؤزهم إليها، وأزعجهم إزعاجاً، ﴿وَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: كما أغويتني وتذرت على ذلك، ﴿أَجْمَعِينَ﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٧﴾، كما قال: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أُوَدِّعَ إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَأُحْبِبَنَّكَ دُرَيْتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

قال الله تعالى له متهدداً ومتوعداً: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: مرجعكم كلكم إلي، فأجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِيَالْمَرِّسَاتِ﴾ [الفجر: ١٤]. وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى، وإليه تنتهي. قاله مجاهد، والحسن، وقتادة كما قال: ﴿وَكَلَّ اللَّهُ قَبْضَ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]. وقرأ قيس بن عباد، ومحمد بن سيرين، وقتادة: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾، كقوله: ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ [الأنبياء: ٢١]. الذي قدر لهم الهداية، فلا سبيل لك عليهم، ولا وصول لك إليهم، إلا ما أتتك من العباد. استثناء منقطع. وقد أورد ابن جرير ههنا من حديث عبد الله بن المبارك، عن عبد الله بن موهب، حدثنا يزيد بن قسيط قال: كانت الأنبياء يكون لهم مساجد خارجة من قراهم، فإذا أراد النبي أن يستنبيه ربه عن شيء، خرج إلى مسجده فصلى ما كتب الله له، ثم سأل ما بدا له، فبينما نبي في مسجده إذ جاء عدو الله - يعني: إبليس - حتى جلس بينه وبين القبلة، فقال النبي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. فقال عدو الله: أرايت الذي تعوذ منه؟ فهو هو. فقال النبي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم قال: فرد ذلك ثلاث مرات، فقال عدو الله: أخبرني بأي شيء تنجو مني؟ فقال النبي: بل أخبرني بأي شيء تغلب ابن آدم؟ مرتين، فأخذ كل واحد منهما على صاحبه، فقال النبي: إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَشَرٌّ لَكَ عَلَيْهِمْ شُلُطَنٌ إِلَّا مَنْ آتَيْنَا مِنَ الْغَايِبِ﴾ [١٣٠]. قال عدو الله: قد سمعت هذا قبل أن تولد. قال النبي: ويقول: ﴿وَلَمَّا يَزُولَنَّ مِنَ الشَّيْطَانِ تَنَزَّاعٌ فَاسْتَوَيْدَ بِاللَّهِ إِلَهُ سُبْحَانَ إِلَهُكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وإني والله ما أحسست بك قط إلا استعذت بالله منك. قال عدو الله: صدقت، بهذا تنجو مني. فقال النبي: «أخبرني بأي شيء تغلب ابن آدم؟» قال: أخذه عند الغضب والهوى.

وقوله: ﴿وَلَا يَجْنَى جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَتَمٌّ﴾ [١٣٠] أي: جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، كما قال عن القرآن: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَنَّ آثَارَهُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [مرد: ١٧]. ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ أي: قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه، لا محيد لهم عنه - أجازنا الله منها - وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في ذلك بقدر فعله. قال إسماعيل بن علية وشعبة كلاهما، عن أبي هارون العنوني، عن حطان بن عبد الله أنه قال: سمعت علي بن أبي طالب وهو يخطب قال: إن أبواب جهنم هكذا - قال أبو هارون: أطباقاً بعضها فوق بعض. وقال إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن هبيرة بن يريم، عن علي، رضي الله عنه، قال: أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلئ الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، حتى تملأ كلها. وقال عكرمة: ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: سبعة أطباق. وقال ابن جريج: ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم سعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. وروى الضحاك عن ابن عباس، نحوه. وكذا روي عن الأعمش بنحوه أيضاً. وقال قتادة: ﴿لَمَّا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [١٣٠]: وهي والله منازل بأعمالهم. رواه ابن جرير. وقال جويبر، عن الضحاك: ﴿لَمَّا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [١٣٠]: قال: باب لليهود، وباب للنصارى، وباب للصابئين، وباب للمجوس، وباب للذين أشركوا - وهم كفار العرب - وباب للمنافقين، وباب لأهل التوحيد، فأهل التوحيد يُرجى لهم ولا يرجى لأولئك أبداً. وقال الترمذي: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا عثمان بن عمر، عن مالك بن مغول، عن جندب، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «لجهنم سبعة أبواب: باب منها لمن سلّ السيف على أمي - أو قال: على أمة محمد». ثم قال: لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عباس بن الوليد الخلال، حدثنا زيد - يعني: ابن يحيى - حدثنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبي نضرة، عن سمره بن جندب، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [١٣٠]: قال: «إن من أهل النار من تأخذه النار إلى كعبه، وإن منهم من تأخذه النار إلى حجزته، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه، منازل بأعمالهم، فذلك قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾».

﴿إِنَّ الشَّقِيَّ فِي جَهَنَّمَ وَبُيُوتِهِمْ﴾ [١٣٠] أَتَوْهُمَا بِسَكْرٍ عَظِيمٍ [١٣١] وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى شُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ [١٣٢] لَا يَسْمَعُ فِيهَا نَفْسٌ وَلا هُمْ يَنْبَأُ بَشَرِهِمْ [١٣٣] إِنَّ عِبَادَةَ أَنَا أَلْغَوْرُ الرَّجِيمِ [١٣٤] وَأَنَّا عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ [١٣٥].

لما ذكر تعالى حال أهل النار، عطف على ذكر أهل الجنة، وأنهم في جنات وعيون. وقوله: ﴿أَتَوْهُمَا بِسَكْرٍ عَظِيمٍ﴾ أي: سالمين من الآفات، مسلماً عليكم، ﴿بِإِيمَانٍ﴾ من كل خوف وفزع، ولا تخشوا من إخراج، ولا انقطاع، ولا فناء. وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى شُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [١٣٢]: روى القاسم، عن أبي أمامة قال: يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء والضغائن، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غل، ثم قرأ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾. هكذا في هذه الرواية، والقاسم بن عبد الرحمن - في روايته عن أبي أمامة - ضعيف. وقد روى شيد في تفسيره: حدثنا ابن فضالة، عن لقمان، عن أبي أمامة قال: لا يدخل مؤمن الجنة حتى ينزع الله ما في صدورهم من غل، حتى

ينزع منه مثل السبع الضاري. وهذا موافق لما في الصحيح، من رواية قتادة، حدثنا أبو المتوكل الناجي: أن أبا سعيد الخدري حدثهم: أن رسول الله ﷺ قال: «يُخْلَصُ المؤمنون من النار، فيُحْبَسُونَ على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقْتَصَّرُ لبعضهم من بعضهم، مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِبُوا وتُقُوا، أُذِنَ لهم في دخول الجنة».

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا هشام، عن محمد - هو ابن سيرين - قال: استأذن الأشرع على علي، رضي الله عنه، وعنده ابن طلحة، فحبسه ثم أذن له. فلما دخل قال: إني لأراك إنما احتبستني لهذا؟ قال: أجل. قال: إني لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستني؟ قال: أجل، إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧). وحدثنا الحسن: حدثنا أبو معاوية الضري، حدثنا أبو مالك الأشجعي، عن أبي حبيبة - مولى لطلحة - قال: دخل عمران بن طلحة على علي، رضي الله عنه، بعدما فرغ من أصحاب الجمل، فرحب به وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧). قال: ورجلان جالسان على ناحية البساط، فقالا: الله أعدل من ذلك، تقتلهم بالأمس، وتكونون إخواناً! فقال علي، رضي الله عنه: قوما أبعد أرض وأسحقها! فمن هو إذاً إن لم أكن أنا وطلحة، وذكر أبو معاوية الحديث بطوله. وروى وكيع، عن أبيان بن عبد الله البجلي، عن نعيم بن أبي هند، عن ربيعة بن خراش، عن علي، نحوه، وقال فيه: فقام رجل من همدان فقال: الله أعدل من ذلك يا أمير المؤمنين. قال: فصاح به علي صيحة، فظننت أن القصر تدهذه لها، ثم قال: إذا لم تكن نحن فمن هو؟ وقال سعيد بن مسروق، عن أبي طلحة - وذكره - فيه: فقال الحارث الأعور ذلك، فقام إليه علي، رضي الله عنه، فضربه بشيء كان في يده في رأسه، وقال: فمن هم يا أعور إذا لم تكن نحن؟ وقال سفيان الثوري: عن منصور، عن إبراهيم قال: جاء ابن جرموز قاتل الزبير يستأذن على علي، رضي الله عنه، فحجبه طويلاً، ثم أذن له، فقال له: أما أهل البلاء فتجفؤهم. فقال علي: بفيك التراب، إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير، ممن قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧). وكذا روى الثوري، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي، بنحوه. وقال سفيان بن عيينة، عن إسرائيل، عن أبي موسى، سمع الحسن البصري يقول: قال علي: فينا والله - أهل بدر - نزلت هذه الآية: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧). وقال كثير النواء: دخلت على أبي جعفر محمد بن علي فقلت: وليي وليكم، وسلمي سلمكم، وعدوي عدوكم، وحربي حربكم. إني أسألك بالله: أنبرأ من أبي بكر وعمر؟ فقال: ﴿قَدْ صَلَّيْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْهَوَاتِيِّ﴾ [الأنام: ٥٦]، تولهما يا كثير، فما أدركك فهو في رقتي هذه، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧) أبو بكر، وعمر، وعلي، رضي الله عنهم أجمعين. وقال الثوري، عن رجل، عن أبي صالح في قوله: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾، قال: هم عشرة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن مسعود، رضي الله عنهم أجمعين.

وقوله: ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ قال مجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض. وفيه حديث مرفوع، قال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن عبدك القزويني، حدثنا حسان بن حسان، حدثنا إبراهيم بن بشير، حدثنا يحيى بن معين، عن إبراهيم القرشي، عن سعيد بن شرحبيل، عن زيد بن أبي أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، فتلا هذه الآية: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾، في الله، ينظر بعضهم إلى بعض. وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ يعني: المشقة والأذى، كما جاء في الصحيحين: «إن الله أمرني أن أبشر خديجة بيت في الجنة من نَصَبٍ، لا صخب فيه ولا نصب». وقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِتَنَائِفٍ﴾، كما جاء في الحديث: «يقال: يا أهل الجنة، إن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبداً»، وقال الله تعالى: ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا لَا يَبْغُؤْنَ عَنْهَا حِوْلاً﴾ (١٠٨). [الكهف: ١٠٨].

وقوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْمَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠). أي: أخبر يا محمد عبادي أنني ذو رحمة وذو عقاب أليم. وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة، وهي دالة على مقام الرجاء والخوف، وذكر في سبب نزولها ما رواه موسى بن عبيدة عن مصعب بن ثابت قال: مر رسول الله ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون، فقال: «اذكروا الجنة، واذكروا النار». فنزلت: ﴿يَوْمَ يَكُونُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْمَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠). رواه ابن أبي حاتم. وهو مرسل. وقال ابن جرير، حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، أخبرنا ابن المكي، أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا مصعب بن ثابت، حدثنا عاصم بن عبيد الله، عن ابن أبي رباح، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبه، فقال: «ألا أراكم تضحكون؟» ثم أدبر، حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا القهقري، فقال: «إني لما

خرجت جاء جبريل، عليه السلام، فقال: يا محمد، إن الله يقول: لم تقنط عبادي؟ ﴿٤٩﴾ نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ١. وقال سعيد، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿٤٩﴾ نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام، ولو يعلم قدر عقابه لبخع نفسه».

﴿وَيَنْتَهُمُ عَنْ ضَيِّفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوَيْلَ إِنَّا يُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَشَرُّنُمُو عَلَى أَنْ مَسَّيَ الْكَبِيرَ فَبَدَأَ بُنْيُنُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشِّرْكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ ٢. يقول تعالى: وخبرهم يا محمد عن قصة ﴿ضَيِّفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ والضيف: يطلق على الواحد والجمع، كالزور والسفر - وكيف ﴿دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: خائفون. وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه لهم ضيافة، وهو العجل السمين الحنيد. ﴿قَالُوا لَا تَوَيْلَ﴾ أي: لا تخف، ﴿وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ﴾ [الذاريات: ٢٨] وهو إسحاق، عليه السلام، كما تقدم في سورة هود. ثم قال متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد: ﴿أَبَشِّرْنُمُو عَلَى أَنْ مَسَّيَ الْكَبِيرَ فَبَدَأَ بُنْيُنُونَ﴾، فاجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة، ﴿قَالُوا بَشِّرْكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ وقرأ بعضهم: ﴿القنطين﴾ - فاجابهم بأنه ليس يقنط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسئت امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَا لُوطٌ إِنَّا لَمَنُجُّوهُمْ أجمعين ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَانَهُ فَرَدَّزْنَا إِنَّمَا لَيْسَ الْغَيْبُ ﴿٦٠﴾ ٣.

يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم، عليه السلام، لما ذهب عنه الروح وجاءته البشري: إنه شرع يسألهم عما جاؤوا له، فقالوا: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾، يعنون: قوم لوط. وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من المهلكين؛ ولهذا قالوا: ﴿إِلَّا أَمْرَانَهُ فَرَدَّزْنَا إِنَّمَا لَيْسَ الْغَيْبُ﴾ ﴿٦٠﴾ أي: الباقين المهلكين.

﴿لَمَّا جَاءَ مَا لُوطُ الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ شَاكِرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَيْنَتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَمَكِيدُونَ ﴿٦٤﴾ ٤.

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه، فدخلوا عليه داره، قال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ شَاكِرُونَ﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ يعنون: بعدابهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم، وحلوله بساحتهم، ﴿وَأَيْنَتِكَ بِالْحَقِّ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَا نَزَّلْنَا الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨]. وقوله: ﴿وَأَيْنَا لَمَكِيدُونَ﴾: تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به، من نجاته وإهلاك قومه، والله أعلم.

﴿فَأَنشَأَ بِأَمْلِكٍ يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ وَأَنبَغِ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَوِي سَكْرُ أَحَدٍ وَأَتَمُّوا حَيْثُ تَوَمَّرُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ وَقَفَّيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرُ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ٥.

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل، وأن يكون لوط، عليه السلام، يمشي وراءهم، ليكون أحفظ لهم. وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزاة بما كان يكون ساقية، يُزجي الضعيف، ويحمل المنقطع. وقوله: ﴿وَلَا يَلْتَوِي سَكْرُ أَحَدٍ﴾ أي: إذا سمعتم الصبيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم، وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال، ﴿وَأَتَمُّوا حَيْثُ تَوَمَّرُونَ﴾، كأنه كان معهم من يهديهم السبيل. ﴿وَقَفَّيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرُ﴾ أي: تقدمنا إليه في هذا ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ أي: وقت الصباح، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [مود: ٨١].

﴿رَمَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزَنُوا ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَتْلُكْ عَنْ الْمَلَائِكَةِ قَوْلًا ﴿٧٠﴾ هَؤُلَاءِ بَنَاتُ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَمَرَكْ إِنْهُمْ لَيْسَ سَكْرَتُهُمْ بِمَعُونٍ ﴿٧٢﴾ ٦.

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم، وأنهم جاؤوا مستبشرين بهم فرحين، ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزَنُوا ﴿٦٩﴾. وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم بأنهم رسل الله كما في سياق سورة هود، وأما ههنا فتقدم ذكر أنهم رسل الله، وعطف بذكر مجيء قومه ومحتاجته لهم. ولكن الواو لا تقتضي الترتيب، ولا سيما إذا دل دليل على خلافه، فقالوا له مجيبين: ﴿أَوَلَمْ نَتْلُكْ عَنْ الْمَلَائِكَةِ﴾ أي: أو ما نهيناك أن تضيف أحداً؟ فأرشدهم إلى نسايتهم، وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة. وقد تقدم أيضاً القول في ذلك، بما أغنى عن إعادته. هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم، وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يُصحبهم من العذاب المستقر؛ ولهذا قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَمَرَكْ إِنْهُمْ لَيْسَ سَكْرَتُهُمْ بِمَعُونٍ﴾

يَعْمَهُونَ ﴿٧٣﴾ ، أقسم تعالى بحياة نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم، ومقام رفيع وجاه عريض. قال عمرو بن مالك الثُّكْرِي، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس، أنه قال: ما خلق الله وما ذراً وما براً نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى: ﴿لَمَّا تَرَاكَ لَيْسَ سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿٧٣﴾ يقول: وحياتك وعمرك وبقاتك في الدنيا إنهم لفي سكرتهم يعمهون، رواه ابن جرير. وقال قتادة: ﴿لَيْسَ سَكْرَتِهِمْ﴾ أي: في ضلالتهم، ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: يلعبون. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَمَّا تَرَاكَ﴾: لعيشك، ﴿لَيْسَ سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال: يَتَحَيَّرُونَ.

﴿فَأَنذَرْتَهُمْ مَتَرِينَ ﴿٧٤﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِمَارًا مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّا لَنَسِيبُ لَّيْلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٧﴾﴾

يقول: ﴿فَأَنذَرْتَهُمْ مَتَرِينَ﴾، وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس، وهو طلوعها، وذلك مع رفع بلادهم إلى غنان السماء ثم قلبها، وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السجيل عليهم. وقد تقدم الكلام على السجيل في سورة هود بما فيه كفاية. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ أي: إن آثار هذه النقم ظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد في قوله: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: المفسرين. وعن ابن عباس، والضحاك: للناظرين. وقال قتادة: للمعتبرين. وقال مالك عن بعض أهل المدينة: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: للمتأملين. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا محمد بن كثير العبدي، عن عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بَنُورَ اللَّهِ». ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧٥﴾. رواه الترمذي، وابن جرير، من حديث عمرو بن قيس الملائي، وقال الترمذي: لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقال ابن جرير أيضاً: حدثني أحمد بن محمد الطوسي، حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا الفرات بن السائب، حدثنا ميمون بن مهران، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْظُرُ بَنُورَ اللَّهِ». وقال ابن جرير: حدثني أبو شريحيل الجهمي، حدثنا سليمان بن سلمة، حدثنا المؤمل بن سعيد بن يوسف الرُّحْبِي، حدثنا أبو المعلى أسد بن وداعة الطائي، حدثنا وهب بن مُثَنَّى، عن طاوس بن كَيْسَانَ، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «احذروا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بَنُورَ اللَّهِ وينطق بتوفيق الله». وقال أيضاً: حدثنا عبد الأعلى بن واصل، حدثنا سعيد بن محمد الجرهمي، حدثنا عبد الواحد بن واصل، حدثنا أبو بشر المزلق، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ». ورواه الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا سهل بن بحر، حدثنا سعيد بن محمد الجرهمي، حدثنا أبو بشر - يقال له: ابن المزلق، قال: وكان ثقة - عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ».

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَسِيبُ لَّيْلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ أي: وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب الصوري والمعنوي، والقذف بالحجارة، حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة بطريق مهيح مسالكة، مستمرة إلى اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُ لَكُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الَّذِينَ هُمْ يُصَيِّرُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ وَيَأْتِي أَمَّا تَقُولُ ﴿٧٧﴾﴾ [الصفات: ١٣٧، ١٣٨]. وقال مجاهد، والضحاك: ﴿وَإِنَّا لَنَسِيبُ لَّيْلٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٧٦﴾ قال: مُعْلَم. وقال قتادة: بطريق واضح. وقال قتادة أيضاً: بصقع من الأرض واحد. وقال السدي: بكتاب مبین، يعني كقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، ولكن ليس المعنى على ما قال ههنا، والله أعلم. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ أي: إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطاً وأهله، لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله.

﴿وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمُ الْآتِيكَ لَطَّالِيلٍ ﴿٧٨﴾ فَأَنقَضْنَا مِنْهُمْ لِيَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾.

أصحاب الآية: هم قوم شعيب. قال الضحاك، وفتادة، وغيرهما: الآية: الشجر الملتف. وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان. فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط، بَدَّعَهُم في الزمان، ومسامتين لهم في المكان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا لِيَامٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٧٩﴾ أي: طريق مبین. قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: طريق ظاهر؛ ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في نذارته إياهم: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ يَنْتَهُمُ بِعَيْبِهِ﴾ [مرد: ٨٩].

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمَجِزِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَإِنَّهُمْ مَأِينًا فَكَاوُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَتَحَوَّنَ مِّنَ الْإِبَالِ يَوْمًا هَازِلِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَنذَرْتَهُمُ النَّصِيحَةَ مُصَيِّرِينَ ﴿٨٣﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

أصحاب الحجر هم: ثمود الذين كذبوا صالحاً نبيهم، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين؛ ولهذا أطلق

عليهم تكذيب المرسلين. وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء فكانت تسرح في بلادهم، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم. فلما عثروا وعقروها قال لهم: ﴿تَمَتُّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [مرد: ٢٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا نُمُودٌ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَبَحُوا الْقَمَرَ عَلَى الْغَيْظِ﴾ [نفلت: ١٧]. وذكر تعالى: أنهم ﴿وَكَاوُوا يَتَجَوَّنَ مِنَ الْبَلَاءِ يَبُوءُوا مَا بَيْنَكَ﴾ [٨٧] أي: من غير خوف ولا احتياج إليها، بل أشراً وبطراً وعبثاً، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر، الذي مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك فقتل رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت القوم المعذيين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبيكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم». وقوله: ﴿فَاخَذَتْهُمْ السَّيِّئَةُ مُصِيبًا﴾ [٨٧] أي: وقت الصباح من اليوم الرابع، ﴿فَمَا أَفْقَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [٨٧] أي: ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضُتُّوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها لثلاث تضيق عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال، ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَبْ صَافِحَ الْجَمِيلِ﴾ [٨٥] إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ [٨٦]. يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، ﴿يَخْبِرُ الَّذِينَ اسْتَغَايَا عِلْمًا يَعْلَمُوا بِمَا خَلَقُوا الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْمَنْشَقِ﴾ [النجم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَعْلًا ذَلِكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وقال: ﴿أَفَحَبِشْتُمْ أَنْمَا خَلَقْتُمْ عَبَسًا وَأَنْكُمْ لَا تُرْجَعُونَ﴾ [١١٥] فَمَعْلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْمَرْشِ الْكَوْبِرِ [١١٦]، [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. ثم أخبر نبيه بقيام الساعة، وإنها كائنه لا محالة، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين، في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به، كما قال تعالى: ﴿فَاَصْفَعْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩]. وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال. وهو كما قال، فإن هذه مكية، والقتال إنما شرع بعد الهجرة. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [٨٦] تقرير للمعاد، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة، فإنه الخلاق الذي لا يعجزه خلق ما يشاء، وهو العليم بما تمزق من الأجساد، وتفرق في سائر أقطار الأرض، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ يَنْفَلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [٨٦] إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [٨٧] فَسَيَحْنُ الَّذِي يَرِيدُ مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ وَلِلَّهِ تُرْجَعُونَ [٨٧] [يس: ٨١ - ٨٣].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [٨٧] لَا تَدْعُ عِيْلَكَ إِلَّا مَا مَتَّعْنَا يَدَ الْأَوَّلَا جَا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ [٨٨].

يقول تعالى لنبيه: كما آتيناك القرآن العظيم، فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه، فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزناً عليهم في تكذيبهم لك، ومخالفتهم دينك. ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِإِنِّ أَبْعَدَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٨٨] [الشعراء: ٢١٥] أي: ألن لهم جانبك، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وقد اختلف في السبع المثاني: ما هي؟ فقال ابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، والضحاك وغير واحد: هي السبع الطول. يعنون: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، نض عليه ابن عباس، وسعيد بن جبیر. وقال سعيد: بين فيهن الفرائض، والحدود، والقصص، والأحكام. وقال ابن عباس: بين الأمثال والحبر والغير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر قال: قال سفيان: «المثنى»: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال وبراءة سورة واحدة. قال ابن عباس: ولم يُغَطَّن أحد إلا النبي ﷺ، وأعطى موسى منهن ثنتين. رواه هشيم، عن الحجاج، عن الوليد بن العيزار، عن سعيد بن جبیر عنه. وقال الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: أوتي النبي ﷺ سبعا من المثاني الطول، وأوتي موسى، عليه السلام، ستاً، فلما ألقى الألواح ارتفع اثنتان وبقيت أربع. وقال مجاهد: هي السبع الطول. ويقال: هي القرآن العظيم. وقال خُصِيف، عن زياد بن أبي مريم في قوله تعالى: ﴿سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ﴾ قال: أعطيتك سبعة أجزاء: أمر، وأنهى، وأبشر، وأنذر، وأضرب الأمثال، وأعد النعم، وأبنتك نبأ القرآن. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. والقول الثاني: أنها الفاتحة، وهي سبع آيات. روي ذلك عن عمر وعلي، وابن مسعود، وابن عباس. قال ابن عباس: والبسملة هي الآية السابعة، وقد خصكم الله بها. وبه قال إبراهيم النخعي، وعبد الله بن عبيد بن عمير، وابن أبي مليكة، وشهر بن حوشب، والحسن البصري، ومجاهد. وقال قتادة: ذكر لنا أنهم

فاتحة الكتاب، وأنهن يثنين في كل قراءة. وفي رواية: في كل ركعة مكتوبة أو تطوع. واختاره ابن جرير، واحتج بالأحاديث الواردة في ذلك، وقد قدمناها في فضائل سورة «الفاتحة» في أول التفسير، والله الحمد. وقد أورد البخاري، رحمه الله، ههنا حديثين:

أحدهما: قال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غُذَر، حدثنا شعبة، عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المعلى قال: مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتيت فقال: «ما منعك أن تأتيني؟». فقلت: كنت أصلي. فقال: «ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ألا أعلمكم أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟» فذهب النبي ﷺ ليخرج، فذكرته فقال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾» [الفاتحة: ٢]، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته.

والثاني: قال: حدثنا آدم، حدثنا ابن أبي ذئب، حدثنا المقبري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي: السبع المثاني والقرآن العظيم». فهذا نص في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم، ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطول بذلك، لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ تَزَكَّى أَحْسَنَ الْكَلِمَاتِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا﴾ [الزمر: ٢٣]، فهو مثاني من وجه، ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً، كما أنه، عليه السلام، لما سُئل عن المسجد الذي أسس على التقوى، فإشاراً إلى مسجده، والآية نزلت في مسجد قباء، فلا تنافي، فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عده إذا اشتركا في تلك الصفة، والله أعلم.

وقوله: ﴿لَا تَدْعُ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعَنَا بِهِ زُفْرًا يَنْهَرُ﴾ أي: استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية. ومن ههنا ذهب ابن عيينة إلى تفسير الحديث الصحيح: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»، إلى أنه يستغنى به عما عده، وهو تفسير صحيح، ولكن ليس هو المقصود من الحديث، كما تقدم في أول التفسير. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن وكيع بن الجراح، حدثنا موسى بن عبيدة، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن أبي رافع صاحب النبي ﷺ قال: أضاف النبي ﷺ ضيف، ولم يكن عند النبي ﷺ شيء يصلحه، فأرسل إلى رجل من اليهود: يقول لك محمد رسول الله: أسلفني دقيقتاً إلى هلال رجب. قال: لا، إلا برفن. فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: «أما والله إني لأمين من في السماء وأمين من في الأرض، ولئن أسلفني أو باعني لأؤدين إليه». فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَدْعُ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعَنَا بِهِ زُفْرًا يَنْهَرُ زَهْرَةً لَعِينَةٍ أَذْيًا﴾ إلى آخر الآية (طه: ١٣١). كأنه يعزبه عن الدنيا. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿لَا تَدْعُ عَيْنُكَ﴾ قال: نهى الرجل أن يتعنى مال صاحبه. وقال مجاهد: ﴿إِنْ مَا مَتَّعَنَا بِهِ زُفْرًا يَنْهَرُ﴾: هم الأغنياء.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْبَشِيرُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمُقْسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِشِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَّكَ لِنَسْتَلْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَنَّا كَاثِرًا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

يأمر تعالى نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، أن يقول للناس: إنه «النذير البشير»، البين النذارة، نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسولها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام. وقوله: ﴿الْمُقْسِمِينَ﴾ أي: المتحالفين، أي: تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كما قال تعالى إخباراً عن قوم صالح أنهم: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل: ٤٩]، أي: نقتلهم ليلاً، قال مجاهد: تقاسموا: تحالفوا. «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَيْنِهِمْ» [النحل: ٣٨]، «أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ» [إبراهيم: ٤٤]، «أَفَتُؤَلُّوا الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ» [الأعراف: ٤٩]، فكانهم كانوا لا يكذبون بشيء إلا أقسموا عليه، فسموا مقتسمين. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المقتسمون أصحاب صالح، الذين تقاسموا بالله لنبئته وأهله. وفي الصحيحين، عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء! فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا، وانطلقوا على مهلهم فنجا، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق».

وقوله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِشِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: جَرَّوْا كتبهم المنزل عليهم، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض. قال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشيم، أنبأ أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِشِينَ﴾ قال: هم

أهل الكتاب، جَزَّوْهُ أجزاء، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه.

حدثنا عبيد الله بن موسى، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس: ﴿كَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمُفْسِيَيْنِ ٩٥﴾ قال: آمنوا ببعض، وكفروا ببعض: اليهود والنصارى. قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، والضحاك، مثل ذلك. وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ٩٦﴾ قال: السحر. وقال عكرمة: العضة: السحر بلسان قريش، تقول للساحرة: إنها العاضة. وقال مجاهد: عضوه أعضاء، قالوا: سحر، وقالوا: كهانة، وقالوا: أساطير الأولين. وقال عطاء: قال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: مجنون. وقال بعضهم كاهن. فذلك العضين. وكذا روي عن الضحاك وغيره. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس: أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا شرف فيهم، وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً. فقالوا: وأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقم لنا رأياً نقول به. قال: بل أنتم قولوا لاسمع. قالوا: نقول: «كاهن». قال: ما هو بكاهن. قالوا: فنقول: «مجنون». قال: ما هو بمجنون! قالوا: فنقول: «شاعر». قال: ما هو بشاعر! قالوا: فنقول: «ساحر». قال: ما هو بساحر! قالوا: فماذا نقول؟ قال: والله إن لقوله حلالة، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِفَ أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا: هو ساحر. ففترقوا عنه بذلك، وأنزل الله فيهم: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ٩٦﴾: أصنافاً، ﴿فَوَرَيْكَ لَتَشْتُلَهُنَّ آجُمِينَ ٩٧﴾ عَنَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٩٨﴾، ذُوْنِكَ النَّفَرُ الَّذِينَ قَالَوا: ذلك لرسول الله. وقال عطية العوفي، عن ابن عمر في قوله: ﴿لَتَشْتُلَهُنَّ آجُمِينَ ٩٧﴾ عَنَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٩٨﴾ قال: عن لا إله إلا الله. وقال عبد الرزاق: أنبأنا الثوري، عن ليث - هو ابن أبي سليم - عن مجاهد، في قوله: ﴿لَتَشْتُلَهُنَّ آجُمِينَ ٩٧﴾ عَنَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٩٨﴾ قال: عن لا إله إلا الله. وقد روى الترمذي، وأبو يعلى الموصلي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث شريك القاضي، عن ليث بن أبي سليم، عن بشير بن نهيك، عن أنس، عن النبي ﷺ: ﴿فَوَرَيْكَ لَتَشْتُلَهُنَّ آجُمِينَ ٩٧﴾ قال: عن لا إله إلا الله. ورواه ابن إدريس، عن ليث، عن بشير، عن أنس موقوفاً. وقال ابن جرير: حدثنا أحمد، حدثنا أبو أحمد، حدثنا شريك، عن هلال، عن عبد الله بن عكيم قال: قال عبد الله - هو ابن مسعود -: والذي لا إله غيره، ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة، كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، فيقول: ابن آدم، ماذا عرك مني بي؟ ابن آدم، ماذا عملت فيما علمت؟ ابن آدم، ماذا أجبت المرسلين؟. وقال أبو جعفر: عن الربيع، عن أبي العالية: قال: يسأل العباد كلهم عن خُلَّتَيْن يوم القيامة، عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين. وقال ابن عيينة: عن عملك، وعن مالك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الخواري، حدثنا يونس الحذاء، عن أبي حمزة الشيباني، عن معاذ بن جبل قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا معاذ، إن المؤمن ليسأل يوم القيامة عن جميع سعيه، حتى كحل عينيه، وعن فتات الطينة بأصبعيه، فلا ألفينك يوم القيامة، وأحد أسعد بما أتى الله منك». وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَوَرَيْكَ لَتَشْتُلَهُنَّ آجُمِينَ ٩٧﴾ عَنَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٩٨﴾، ثم قال: ﴿فَوَرَيْكَ لَا يَشْكُلُ عَنْ دُيُوعِهِ إِشْرَ وَلَا جَبَانٌ ٩٩﴾ [الرحمن: ٢٩] قال: لا يسألهم: هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟

﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُفْرِكِينَ ٩٩﴾ إِنَّا كُنْزُكَ الْمُشْتَرِينَ ١٠٠﴾ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَآخِرُ سَوَافٍ يَلْمُوكَ ١٠١﴾ وَلَقَدْ تَنَبَّأَكَ بِعِيشِ مَدْيَنَ بِمَا تَقُولُونَ ١٠٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ١٠٣﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ١٠٤﴾.

يقول تعالى أمرأ رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بإبلاغ ما بعث به وبإفادته والصدع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عباس: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ٩٩﴾ أي: أمضه. وفي رواية: افعل ما تؤمر. وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة. وقال أبو عبيدة، عن عبد الله بن مسعود: ما زال النبي ﷺ مستخفياً، حتى نزلت ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ٩٩﴾، فخرج هو وأصحابه. وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُفْرِكِينَ ٩٩﴾ إِنَّا كُنْزُكَ الْمُشْتَرِينَ ١٠٠﴾ أي: بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله. ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ دِهْنَهُنَّ ١٠١﴾ [القلم: ٩٩]، ولا تخفهم؛ فإن الله كافيك إياهم، وحافظك منهم، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ يَلُوكَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنَّ لَكَ فَعْلًا مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَبْصِرُكَ مِنَ النَّاسِ ١٠٢﴾ [الملك: ١٠٢]. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يحيى بن محمد بن السكن، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا عون بن كهمس، عن يزيد بن درهم، قال: سمعت أنساً يقول في هذه الآية: ﴿إِنَّا كُنْزُكَ الْمُشْتَرِينَ ١٠٠﴾ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَآخِرُ ١٠١﴾ قال: مر رسول الله ﷺ، فغمزه بعضهم، فجاء جبريل - أحسبه قال: فغمزهم فوقه في أجسادهم - كهينة الطعنة حتى ماتوا.

وقال محمد بن إسحاق: كان عظماء المستهزئين - كما حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير - خمسة نفر، كانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم، من بني أسد بن عبد العزى بن قصي: الأسود بن المطلب أبو زمعة، كان رسول الله ﷺ - فيما بلغني - قد دعا عليه، لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه به، فقال: اللهم، أعم بصره، وأثكله ولده. ومن بني زهرة: الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة. ومن بني مخزوم: الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. ومن بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي: العاص بن وائل بن هشام بن سعيّد بن سعد. ومن خزاعة: الحارث بن الطلائع بن عمرو بن الحارث بن عبد عمرو بن ملكان - فلما تبادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء، أنزل الله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعِضْ عَنِ الشُّرِكِينَ﴾ (٩٤) ﴿إِنَّا كَفَيْتَكَ الْمُسْتَهْزِينَ﴾ (٩٥) إلى قوله: ﴿فَتَوَقَّ بِمَأْمُونٍ﴾. وقال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، أو غيره من العلماء، أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه، فمر به الأسود بن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء، فعمي، ومر به الأسود بن عبد يغوث، فأشار إلى بطنه، فاستسقى بطنه، فمات منه جنباً، ومر به الوليد بن المغيرة، فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله - كان أصابه قبل ذلك بسنتين وهو يجر إزاره، وذلك أنه مر برجل من خزاعة يريش نبلاً له، فتعلق سهم من نبلة بإزاره، فخدش رجله ذلك الخدش، وليس بشيء، فانتفض به فقتله. ومر به العاص بن وائل، فأشار إلى أخصص قدمه، فخرج على حمار له يريد الطائف، فربض على شبرقة فدخلت في أخصص رجله منها شوكة فقتلته. ومر به الحارث بن الطلائع، فأشار إلى رأسه، فامتخط قيحاً، فقتله. قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن رجل، عن ابن عباس قال: كان رأسهم الوليد بن المغيرة، وهو الذين جمعهم. وهكذا روى عن سعيد بن جبير وعكرمة، نحو سياق محمد بن إسحاق، عن يزيد، عن عروة، بطوله، إلا أن سعيداً يقول: الحارث بن غيطة، وعكرمة يقول: الحارث بن قيس. قال الزهري: وصدقاً، هو الحارث بن قيس، وأمه غيطة. وكذا روى عن مجاهد، ومقسم، وقتادة، وغير واحد، أنهم كانوا خمسة. وقال الشعبي: كانوا سبعة. والمشهور الأول.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ بِمَعْلُومٍ مَعَ اللَّهِ إِنَّهَا آخِرُ فَنَافٍ بِمَعْلُومٍ﴾ (٩٦): تهديد شديد، ووعد أكيد، لمن جعل مع الله معبوداً آخر. وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعَّمْنَاكَ بِبُيُوتٍ مَدْرَكَةٍ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (٩٧) ﴿فَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (٩٨) أي: وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك انقباض وضيق صدر. فلا يهيدنك ذلك، ولا يشيننك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل على الله فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميدِهِ وتسبيحِهِ وعبادته التي هي الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن كثير بن مرة، عن نعيم بن همار، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: يا ابن آدم، لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره». رواه أبو داود، من حديث مكحول، عن كثير بن مرة، بنحوه. ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. وقوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (٩٩): قال البخاري: قال سالم: الموت. وسالم هذا هو: سالم بن عبد الله بن عمر، كما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، عن سفيان، حدثني طارق بن عبد الرحمن، عن سالم بن عبد الله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (٩٩) قال: الموت. وهكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيره. والدليل على ذلك قوله تعالى إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿لَوْ نَكُنَّا مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ (٩٤) ﴿لَوْ نَكُنَّا مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ (٩٤) وفي الصحيح من حديث الزهري، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء - امرأة من الأنصار - أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون - وقد مات - قلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمهم؟» فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله، فمن؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير». ويستدل من هذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (٩٩) - على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً فيصلي بحسب حاله، كما ثبت في صحيح البخاري، عن عمران بن حصين، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب». ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم. وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء، عليهم السلام، كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة. وإنما المراد باليقين ههنا الموت، كما قدمناه.

والله الحمد والمنة، والحمد لله على الهداية، وعليه الاستعانة والتوكل، وهو المسؤول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها فإنه جواد كريم.

وحسبنا الله ونعم الوكيل

بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقي إلا بالله تفسير سورة النحل

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَنَّهُ أَمْرٌ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرَكُونَ﴾.

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة كما قال تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، وقال: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَشَقُّ الْقَرَصُ﴾ [القدر: ١]. وقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي: قرب ما تباعد فلا تستعجلوه. يحتمل أن يعود الضمير على الله، ويحتمل أن يعود على العذاب، وكلاهما متلازم، كما قال تعالى: ﴿وَسَتَجْلُوكَ بِالعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَكَ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة النحل: ٢٧] يستجلوك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين [المكتوب: ٥٣، ٥٤]. وقد ذهب الضحاك في تفسير هذه الآية إلى قول عجيب، فقال في قوله: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ اللَّهِ﴾ أي: فرائضه وحدوده. وقد رده ابن جرير فقال: لا نعلم أحداً استعجل الفرائض والشرائع قبل وجودها، بخلاف العذاب فإنهم استعجلوه قبل كونه، استبعاداً وتكذيباً. قلت: كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا لَمُؤَلَّىٰ آلَ الْإِذِينَ يُمَارُؤُونَ فِي السَّاعَةِ لَمَّا صَلَیٰ بَعِيدٌ﴾ [الشورى: ١٨]. وقال ابن أبي حاتم: وذكر عن يحيى بن آدم، عن أبي بكر بن عياش، عن محمد بن عبد الله - مولى المغيرة بن شعبة - عن كعب بن علقمة، عن عبد الرحمن بن حجيبة، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس، فما تزال ترتفع في السماء، ثم ينادي مناد فيها: يا أيها الناس. فيقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم؟ فمتهم من يقول: نعم. ومنهم من يشك. ثم ينادي الثانية: يا أيها الناس. فيقول الناس بعضهم لبعض: هل سمعتم؟ فيقولون: نعم. ثم ينادي الثالثة: يا أيها الناس، أتى أمر الله فلا تستعجلوه. قال رسول الله ﷺ: «فوالذي نفسي بيده، إن الرجلين لينشران الثوب فما يطويانه أبداً، وإن الرجل ليمدن حوضه فما يسقي فيه شيئاً أبداً، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبداً. قال - ويشغل الناس. ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة، قال: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرَكُونَ﴾.

﴿يَرْزُقُ الْمَلٰٓئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾. يقول تعالى: ﴿يَرْزُقُ الْمَلٰٓئِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ أي: الوحي كما قال تعالى: ﴿وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَنَا مِنْ تَرَفِّعَاتِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتٰبُ وَلَا الْإِيمٰنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. وقوله: ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم الأنبياء، كما قال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال: ﴿اللَّهُ يَصْطَلِيٰ مِنْكَ الْمَلٰٓئِكَةُ مُسَلِّمًا وَمِنْكَ النَّاسُ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْزِلَ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ الْبَيِّنٰتَ يَوْمَ تُبْرٰوْنَ عَلَىٰ نَفْسِهِمْ شُرُكُ الْإِلٰهِ الْوٰجِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٥، ١٦]. وقوله: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا﴾ أي: لينذروا ﴿أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنَا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيْنَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنَا﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال في هذه الآية: ﴿فَاتَّقُونِ﴾ أي: فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري.

﴿خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرَكُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢] خلق الإنسان من طينة فإذا هو خبيث ثين [٢٣].

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي وهو السموات، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث، بل ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسٰؤُا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١] ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره من الأصنام التي لا تخلق شيئاً وهم يخلقون فكيف ناسب أن يعبد معه غيره، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلماذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له. ثم نبه على خلق جنس الإنسان ﴿مِنْ طِينَةٍ﴾ أي: ضعيفة مهينة، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى

ويكذبه، ويحارب رسله، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضداً، كما قال تعالى: ﴿رَبُّهُ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَنَسَبًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥١ وَيَسْتَدِينُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ۝٥٢﴾ [الفرقان: ٥١، ٥٢]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝٥٣ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٥٤ قُلْ يُعْطِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾ [يس: ٥١-٥٥]. وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجه: عن بشر بن جَحَاش قال: بصق رسول الله في كفه، ثم قال: «يقول الله: ابن آدم، أتني تُعْجِزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: أتصدق، وأني أوان الصدقة؟».

﴿وَالَّذِينَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفًا وَمَنْفَعًا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥٦ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَعُونَ وَبِئْسَ تَرْجُومًا ۝٥٧﴾ [النحل: ٥٦، ٥٧].

يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع، من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَعُونَ﴾ وهو وقت رجوعها عشيّاً من المرعى، فإنها تكون أمده خواصر، وأعظمه ضروعا، وأعلاه أسنمة، ﴿وَبِئْسَ تَرْجُومًا﴾ أي: عُذوة حين تبعثونها إلى المرعى. ﴿وَتَحْمِيلٌ أَنفَالَكُمْ﴾ وهي الأحمال المثقلة التي تُعْجِزُونَ عن نقلها وحملها، ﴿إِلَّا بَلَدًا لَّيْسَ بِكُنُوزٍ إِلَّا بِنِيقِ الْأَنْفُسِ﴾ وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة، وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها في أنواع الاستعمال، من ركوب وتحميل، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ لَكُمْ فِي الْأَنْفُسِ لِمَ لَكُمْ فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥٨ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ ۝٥٩﴾ [المؤمنون: ٢١، ٢٢]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْفُسَ لِرِكَابٍ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٦٠ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُلُوبِكُمْ وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ ۝٦١ وَرَبُّكُمْ مَلَكُوتُهُ فَأَيُّ الْفَالِكِ اللَّهُ تُشْكِرُونَ ۝٦٢﴾ [غافر: ٧٩-٨١]؛ ولهذا قال ههنا بعد تعداد هذه النعم: ﴿إِنَّ﴾ أي: ربكم الذي قبض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّمَ عِجَلًا أَيْدِينَ أَتَشْكُرُونَ ۝٦٣ وَلَكِنَّهَا لَمَمٌ فَبِتَابِكُمْ لَكُمْ فِيهَا رُكُوبٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٦٤﴾ [يس: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ الْفَالِكِ وَالْأَنْفُسَ مَا تَرْكَبُونَ ۝٦٥ لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝٦٦ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُسْقِلُونَ ۝٦٧﴾ [الزخرف: ١٢-١٤]. قال ابن عباس: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفٌ﴾ أي: ثياب، والمنافع: ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة. وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن سِمَاك، عن عِكْرَمَةَ، عن ابن عباس: ﴿دِفٌ وَمَنْفَعٌ﴾: نسل كل دابة. وقال مجاهد: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفٌ﴾ قال: لباس ينسج، ومنافع تُرْكَبُ، ولحم ولبن. وقال قتادة: ﴿دِفٌ وَمَنْفَعٌ﴾ يقول: لكم فيها لباس، ومنفعة، وبُلْغَةٌ. وكذا قال غير واحد من المفسرين، بالفاظ متقاربة.

﴿وَاللَّيْلَ وَالْيَوْمَ وَالْحَمِيرَ لِرِكَابٍ وَرَبَّةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٨﴾.

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده، يمتن به عليهم، وهو: الخيل والبغال والحمير، التي جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فصلها من الأنعام وأفردها بالذكر استدلت من العلماء - ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل - بذلك على ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبي حنيفة، رحمه الله، ومن وافقه من الفقهاء؛ لأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير، وهي حرام، كما ثبتت به السنة النبوية، وذهب إليه أكثر العلماء. وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُثَيْمٍ، أنبأنا هشام الدستوائي، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن مولى نافع بن علقمة، أن ابن عباس كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير، وكان يقول: قال الله: ﴿وَالَّذِينَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥٦﴾ فهذه للأكل، ﴿وَاللَّيْلَ وَالْيَوْمَ وَالْحَمِيرَ لِرِكَابٍ﴾ فهذه للركوب. وكذا روي من طريق سعيد بن جبيرة وغيره، عن ابن عباس، بمثله. وقال مثل ذلك الحكم بن عتيبة، رضي الله عنه، أيضاً، واستأنسوا بحديث رواه الإمام أحمد في مسنده: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، حدثنا ثور بن يزيد، عن صالح بن يحيى بن المقدم بن معد يكرب، عن أبيه، عن جده، عن خالد بن الوليد، رضي الله عنه، قال: نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل، والبغال، والحمير. وأخرجه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من حديث صالح بن يحيى بن المقدم - وفيه كلام - به.

ورواه أحمد أيضاً من وجه آخر بأبسط من هذا وأدل منه فقال: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا محمد بن حرب، حدثنا سليمان بن سليم، عن صالح بن يحيى بن المقدم، عن جده المقدم بن معد يكرب قال: غزونا مع خالد بن الوليد الصائفة،

فَقَرِّمُوا أَصْحَابَنَا إِلَى اللَّحْمِ، فَسَالُونِي رَمَكَةً، فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهِمْ فَحَبَلُوهَا وَقُلْتُ: مَكَانَكُمْ حَتَّى آتِيَ خَالِدًا فَاسْأَلْهُ. فَأَتَيْتُهُ فَسَأَلْتُهُ: فَقَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَزْوَةَ خَيْبَرَ، فَاسْرَعَ النَّاسُ فِي حِطَائِرِ يَهُودَ، فَأَمَرَنِي أَنْ أُنَادِيَ: «الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مُسْلِمٌ» ثُمَّ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ قَدْ أَسْرَعْتُمْ فِي حِطَائِرِ يَهُودَ، أَلَا تَحُلُّ أَمْوَالُ الْمُعَاهِدِينَ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَرَامٌ عَلَيْكُمْ لَحُومُ الْأَتَنِ الْأَهْلِيَّةِ وَخَيْلِهَا وَبِغَالِهَا، وَكُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ، وَكُلُّ ذِي مَخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ». وَالرَّمَكَةُ: هِيَ الْجَنْجَرَةُ. وَقَوْلُهُ: حَبَلُوهَا، أَي: أَوْثَقُوهَا فِي الْحَبْلِ لِيَذْبَحُوهَا. وَالْحِطَائِرُ: الْبَسَاتِينُ الْقَرِيبَةُ مِنَ الْعِمْرَانِ. وَكَانَ هَذَا الصَّنِيعُ وَقَعَ بَعْدَ إِعْطَانِهِمُ الْعَهْدَ وَمُعَامَلَتِهِمْ عَلَى الشُّطْرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. فَلَوْ صَخَّ هَذَا الْحَدِيثُ لَكَانَ نَصًّا فِي تَحْرِيمِ لَحُومِ الْخَيْلِ، وَلَكِنْ لَا يَقَاوِمُ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ لَحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ، وَأُذُنٍ فِي لَحُومِ الْخَيْلِ. وَرواه أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَإِسْنَادَيْنِ، كُلُّ مَنِهْمَا عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: ذَبَحْنَا يَوْمَ خَيْبَرَ الْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحُمَيْرَ، فَهَئَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ الْبِغَالِ وَالْحُمَيْرِ، وَلَمْ يَنْهِنَا عَنِ الْخَيْلِ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَتْ: نَحَرْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَسًا فَأَكَلْنَاهُ وَنَحَنَّا بِالْمَدِينَةِ. فَهَذَا أَدْلُ وَأَقْوَى وَثَبَتَ، وَإِلَى ذَلِكَ صَارَ جِهْمُورُ الْعُلَمَاءِ: مَالِكٌ، وَالشَّافِعِيُّ، وَأَحْمَدُ، وَأَصْحَابُهُمْ، وَأَكْثَرُ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَنْبَأَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ، عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَتِ الْخَيْلُ وَحْشِيَّةً، فَذَلَّلَهَا اللَّهُ لِإِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. وَذَكَرَ وَهْبُ بْنُ مَنْبِهِ فِي إِسْرَائِيلِيَّاتِهِ: أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَيْلَ مِنْ رِيحِ الْجَنُوبِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. فَقَدْ دَلَّ النَّصُّ عَلَى جَوَازِ رُكُوبِ هَذِهِ الدُّوَابِّ، وَمِنْهَا الْبِغَالُ. وَقَدْ أَهْدَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَغْلَةً، فَكَانَ يَرْكَبُهَا، مَعَ أَنَّهُ قَدْ نَهَى عَنْ إِنْزَاءِ الْحُمُرِ عَلَى الْخَيْلِ لِنَلَا يَنْقُطِعُ النَّسْلُ. قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ أَلْ حَذِيفَةَ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ ذُخْيَةَ الْكَلْبِيِّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أَحْمِلُ لَكَ حِمَارًا عَلَى فَرَسٍ، فَتَنْتِجَ لَكَ بَغْلًا، فَتَرْكَبُهَا؟ قَالَ: «إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ».

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَفَدَنَّاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مِنَ الْحَيَوَانَاتِ مَا يُسَارُّ عَلَيْهِ فِي السَّبِيلِ الْحَسِيَّةِ، نَبِهَ عَلَى الطَّرِيقِ الْمَعْنُويَةِ الدِّينِيَّةِ، وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ فِي الْقُرْآنِ الْعَبُورُ مِنَ الْأُمُورِ الْحَسِيَّةِ إِلَى الْأُمُورِ الْمَعْنُويَةِ النَّافِعَةِ الدِّينِيَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَكَرُودُوا لَنَابِكَ خَيْرَ الزَّادِ الْقَوِيُّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وَقَالَ: ﴿يَنْتَقِ أَهْلًا مَدَامَ قَدْ أَزَلْنَا عَنْكُمْ لِيَأْسَ يَزِي سَوَاءَ يَكُمُ وَرَدْنَا وَلِيَأْسَ الْقَوِيُّ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]. وَلَمَّا ذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْحَيَوَانَاتِ مِنَ الْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا، الَّتِي يَرْكَبُونَهَا وَيَبْلُغُونَ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِهِمْ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَهُمْ إِلَى الْبِلَادِ وَالْأَمَاكِنِ الْبَعِيدَةِ وَالْأَسْفَارِ الشَّاقَةِ - شَرَعَ فِي ذِكْرِ الطَّرِيقِ الَّتِي يَسْلُكُهَا النَّاسُ إِلَيْهِ، فَبَيَّنَ أَنَّ الْحَقَّ مِنْهَا مَا هِيَ مُوصِلَةٌ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، كَمَا قَالَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ السُّبُلِ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وَقَالَ: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحجر: ٤١]. قَالَ مُجَاهِدٌ: فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قَالَ: طَرِيقُ الْحَقِّ عَلَى اللَّهِ. وَقَالَ السَّيِّدِي: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قَالَ: الْإِسْلَامُ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ يَقُولُ: وَعَلَى اللَّهِ الْبَيَانُ، أَي: تَبَيَّنَ الْهَدْيُ وَالضَّلَالُ. وَكَذَا رَوَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْهُ. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ. وَقَوْلُ مُجَاهِدٍ هُنَا أَقْوَى مِنْ حَيْثُ السِّيَاقُ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّ ثَمَّ طَرِيقًا تَسْلُكُ إِلَيْهِ، فَلَيْسَ يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْهَا إِلَّا طَرِيقُ الْحَقِّ، وَهِيَ الطَّرِيقُ الَّتِي شَرَعَهَا وَرَضِيَهَا وَمَا عَدَاهَا مَسْدُودَةٌ، وَالْأَعْمَالُ فِيهَا مُرْدُودَةٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهَا جَايِزٌ﴾ أَي: حَائِذٌ مَائِلٌ زَائِفٌ عَنِ الْحَقِّ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: هِيَ الطَّرِيقُ الْمُخْتَلَفَةُ، وَالْأَرَاءُ وَالْأَهْوَاءُ الْمُتَفَرِّقَةُ، كَالْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَالْمَجُوسِيَّةِ، وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: ﴿وَمِنْكُمْ جَائِزٌ﴾. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ كَانَتْ عَنْ قُدْرَتِهِ وَمَشِيتِهِ، فَقُلْتُ: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَفَدَنَّاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وَقَالَ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [١٧٧]، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِلَّهِ خَلْقُهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمَلَانِ لِمَنْ هُوَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ أَجْمَعِينَ﴾ [١٧٨]، [عبد: ١١٨، ١١٩].

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ ﴿١٥﴾ يُثْبِتُ لَكُمْ فِي الزَّرْعِ وَالزَّرْتُونِ وَالْخَيْلِ وَالْأَعْنَبِ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

لَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالْأَعْنَابِ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ، فِي أَنْزَالِ الْمَطَرِ مِنَ السَّمَاءِ - وَهُوَ الْعُلُو - مِمَّا لَهُمْ فِيهِ بُلْغَةٌ وَمَتَاعٌ لَهُمْ وَلِأَنْعَامِهِمْ، فَقَالَ: ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ أَي: جَعَلَهُ عَذْبًا زَلَالًا، يَسُوغُ لَكُمْ شَرَابَهُ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِلْحًا أَجَابًا. ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أَي: وَأَخْرَجَ لَكُمْ بِهِ شَجَرًا تَرْعُونَ فِيهِ أَنْعَامَكُمْ. كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعُكْرَمَةُ وَالضَّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أَي: تَرْعُونَ. وَمِنْهُ الْإِبِلُ السَّائِمَةُ، وَالسُّومُ: الرَّعْيُ. وَرَوَى ابْنُ مَاجَةٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنِ السُّومِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ. وَقَوْلُهُ: ﴿يُثْبِتُ لَكُمْ فِي الزَّرْعِ وَالزَّرْتُونِ وَالْخَيْلِ وَالْأَعْنَبِ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾

أي: يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَوَلَيْسَ بِاللهِ بِهِ قَوْمٌ يَعْبُدُونَ﴾ [النمل: ٦٠] ثم قال تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُ سَخَّرَتْ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [١٢] ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنَهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [١٣].

يبني تعالى عباده على آياته العظام، ومنته الجسم، في تسخير الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات، في أرجاء السموات نوراً وضياء للمهتدين بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مقدرة، لا يزيد عليها ولا ينقص منها. والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسييره، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلُ أَظْلُمًا حِينًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الاعراف: ٥٤]؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لدلالات على قدرته الباهرة وسلطانه العظيم، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه. وقوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنَهُ﴾: لما نبه سبحانه على معالم السموات، نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة، من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواص ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: آلاء الله ونعمه فيشكرونها.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَجَارِبَ الْبَحْرِ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُ مِنْهُ حَبًا تَلْسُونَهَا وَرَبَّكَ الْفَلَكِ مَوَازِيرَ فِيهِ وَلَيْسَتَعْرَأَ مِنْ قَضَائِهِ وَلَكُمْ فِي شُكْرِكُمْ﴾ [١٤] ﴿وَالْفَرْقِ فِي الْأَرْضِ رَوَاسٍ أَنْ تُبِيدَ بِكُمْ وَاتَّقُوا لِلَّهِ لَمَّا كُنْتُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [١٥] وَعَلَيْكُمْ وَالْجَنِّ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [١٦] أَمَّنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [١٧] وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَشَفِيرٌ رَجِيمٌ﴾ [١٨].

يخبر تعالى عن تسخير البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم، وتيسيرهم للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها، في الحل والإحرام، وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجها من قرارها حلية يلبسونها، وتسخير البحر لحمل السفن التي تمخره، أي: تشقه. وقيل: تمخر الرياح. وكلاهما صحيح، بجوئها - وهو صدرها المسنم - الذي أرشد العباد إلى صنعها، وهداهم إلى ذلك، إرثاً عن أبيهم نوح، عليه السلام؛ فإنه أول من ركب السفن، وله كان تعليم صنعها، ثم أخذها الناس عنه قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، يسبون من قطر إلى قطر، وبلد إلى بلد، وإقليم إلى إقليم، تجلب ما هنا إلى هنالك، وما هنالك إلى هنا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتَعْرَأَ مِنْ قَضَائِهِ وَلَكُمْ فِي شُكْرِكُمْ﴾ أي: نعمه وإحسانه. وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: وجدت في كتابي عن محمد بن معاوية البغدادي: حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة رفعه قال: كلم الله هذا البحر الغربي، وكلم البحر الشرقي، فقال للبحر الغربي: إني حامل فيك عبداً من عبادي، فكيف أنت صانع فيهم؟ قال: أغرقهم. قال: بأسك في نواحيك. وأحملهم على يدي. وخزمت الحلية والصيد. وكلم هذا البحر الشرقي فقال: إني حامل فيك عبداً من عبادي، فما أنت صانع بهم؟ فقال: أحملهم على يدي، وأكون لهم كالوالدة لولدها. فأثابه الحلية والصيد. ثم قال البزار: لا نعلم من رواه عن سهيل غير عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر، وهو منكر الحديث. وقد رواه سهيل عن النعمان بن أبي عياش، عن عبد الله بن عمرو موقوفاً.

ثم ذكر تعالى الأرض، وما جعل فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات، لتقر الأرض ولا تميد، أي: تضطرب بما عليها من الحيوان فلا ينها لهم عيش بسبب ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَالْجِبَالِ أَرْسًا﴾ [الزمر: ٢٢] وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرٌ، عن قتادة، سمعت الحسن يقول: لما خلقت الأرض كانت تميد، فقالوا: ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً، فأصبحوا وقد خلقت الجبال، لم تدر الملائكة من خلقت الجبال. وقال سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن قيس بن عباد: أن الله تعالى لما خلق الأرض، جعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً، فأصبحت صباحاً وفيها رواسيها. وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا حجاج بن منهل، حدثنا حماد، عن عطاء بن السائب، عن عبد الله بن حبيب، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: لما خلق الله الأرض قمصت وقالت: أي رب، تجعل علي بني آدم يعملون علي الخطايا ويجعلون علي الخبث؟ قال: فأرسي الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون، فكان إقرارها كاللحم يترجرج.

وقوله: ﴿وَأَنْتَزَعْنَا سُبُلًا﴾ أي: وجعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخر، رزقاً للعباد، ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفار، ويخترق الجبال والأكام، فيصل إلى البلد الذي سُخِّرَ لأهله. وهي سائرة في الأرض يمناً ويسرة، وجنوباً وشمالاً، وشرقاً وغرباً، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حيناً وتقطع في وقت، وما بين نبع وجمع، وقوي السير وبطيئه، بحسب ما أراد وقدر، وسخر ويسر فلا إله إلا هو، ولا رب سواه. وكذلك جعل في الأرض سبلاً، أي: طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد، حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء: ٣١].

وقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ﴾ أي: دللنا من جبال كبار وأكام صغار، ونحو ذلك، يستدل بها المسافرون برأ ويحراً إذا ضلوا الطريق بالنهار. وقوله: ﴿وَيَا لَتَجْمَعُنَّ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ عَنْ عَصَاهِنَّ﴾ أي: في ظلام الليل، قاله ابن عباس. وعن مالك في قوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ﴾: يقولون: النجوم، وهي الجبال. ثم قال تعالى منبهاً على عظمتها، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان، التي لا تخلق شيئاً بل هم يخلقون؛ ولهذا قال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [١٧]. ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم، فقال: ﴿وَإِنْ تَدُورُوا فِي الْأَرْضِ فَسَوْفَ يَأْتِيَكُمُ الْوَيْلُ مِنَ الْبَرِّ يَوْمَ يَقُومُ الْحُشْبُ عَنْكُمْ﴾ [١٨]. أي: يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضغفتم وتركتم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير، ويجازي على اليسير. وقال ابن جرير: يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك، إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته، ﴿رَحِيمٌ﴾ يكم أن يعذبكم، أي: بعد الإنابة والتوبة.

﴿وَاللَّهُ يَسِّرُ مَا يَشَاءُ وَمَا يُشْرِكُونَ﴾ [١٩] وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ [٢٠] أَتُوتُ غَيْرَ آخِرٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ [٢١].

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزئ كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، كما قال الخليل: ﴿أَتَشْكُرُونَ مَا تَنْتَحُونَ﴾ [٩٥] وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ [٩٦]. [الصافات: ٩٥، ٩٦]. وقوله: ﴿أَتُوتُ غَيْرَ آخِرٍ﴾ أي: هي جمادات لا أرواح فيها، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يرتجى ذلك من الذي يعلم كل شيء، وهو خالق كل شيء.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا أَكْثَرُ ظُلْمٍ﴾ [٢٢] وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ [٢٣] أَتُوتُ غَيْرَ آخِرٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ [٢٤] وَاللَّهُ يَسِّرُ مَا يَشَاءُ وَمَا يُشْرِكُونَ [٢٥].

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك: ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْإِنسَانِ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ مِمَّا لَمْ يُدْعُوا إِلَهاً فَوَيْلٌ لِلنَّاسِ يَوْمَ يَقُومُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [٢٦] وَإِذَا ذُكِرَ إِلَهِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ [٢٧] [الزمر: ٢٥]. وقوله: ﴿وَهُمْ يُشْكِرُونَ﴾ أي: عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَلِيلِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. ولهذا قال ههنا: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقاً. ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُشْرِكُونَ وَمَا يُشْلُونَ﴾ أي: وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء، ﴿إِنَّهُمْ لَا يَحِثُّ الشُّكْرُ﴾ [٢٨].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَرَأَيْتُمْ لِكُلِّ أَطْغَىٰ أَتْلَسٍ أَلَرَأَيْتُمْ أَنَّ الْأَرْضَ لَكُمْ وَإِنَّا لَأَرْثُهَا قَوْمٌ غَيْرٌ﴾ [٢٩] وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ [٣٠] أَتُوتُ غَيْرَ آخِرٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ [٣١].

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين: ﴿مَاذَا أَرَأَيْتُمْ لِكُلِّ أَطْغَىٰ أَتْلَسٍ﴾ [٢٩] معرضين عن الجواب: ﴿أَلَرَأَيْتُمْ أَنَّ الْأَرْضَ لَكُمْ وَإِنَّا لَأَرْثُهَا قَوْمٌ غَيْرٌ﴾ [٣٠] أي: مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَتُطِيعُونَ الْأَوْثَانَ﴾ [٣١] أَلَرَأَيْتُمْ أَنَّ الْأَرْضَ لَكُمْ وَإِنَّا لَأَرْثُهَا قَوْمٌ غَيْرٌ [٣٢] [الفرقان: ٥]. أي: يفترون على الرسول، ويقولون فيه أقوالاً مختلفة متضادة، كلها باطلة، كما قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ صَرَفُوا إِلَيْنَا أَمْثَلًا نَفْسُلًا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [٣٣] [الفرقان: ٩]. وذلك أن كل من خرج عن الحق فهمما قال خطأ، وكانوا يقولون: ساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون. ثم استقر أمرهم إلى ما اختلعه لهم شيخهم الوحيد المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي، لما ﴿فَكَرَّ وَفَدَّرَ﴾ [٣٤] فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ [٣٥] ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ [٣٦] ثُمَّ نَظَرَ [٣٧] ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ [٣٨] ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ [٣٩] فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا عَرَبٌ يُوَدِّرُ [٤٠] [المدثر: ١٨ - ٢٤] أي: ينقل ويحكي، فتفردوا عن قوله ورايه، قبحهم الله.

قال الله تعالى: ﴿لِيَحْلِلُوا أَوْرَاقَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْرَاقِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [٤١] أي: إنما قدرنا عليهم أن يقولوا

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ فِيهَا مَا يَشَاءُ اللَّهُ يَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَوْفَقْنَاهُمْ لَمَلِكِهِمْ لِيَقْضِيَ إِلَيْهِمْ أَهْلَهُمْ فَبَاقٍ عَلَيْهِمْ أَلَمْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

هذا خير عن السعداء، بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قبل لهم: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾، فقالوا معرضين عن الجواب: لم ينزل شيئاً، إنما هذا أساطير الأولين. وهؤلاء ﴿قَالُوا خَيْرٌ﴾ أي: أنزل خيراً، أي: رحمة وبركة وحسناً لمن اتبعه وآمن به. ثم أخبروا عما وعد الله به عباده فيما أنزله على رسله فقالوا: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ وَأُنْفِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]، أي: من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة. ثم أخبروا بأن دار الآخرة خير، أي: من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أنتم من الجزاء في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَارِثُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ [النقص: ٨٠] وقال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٩٨] وقال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٣٧﴾﴾ [الاعلى: ١٧]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴿١﴾﴾ [الصفي: ١٤]. ثم وصفوا الدار الآخرة فقالوا: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ﴾: بدل من قوله: ﴿دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: لهم في الدار الآخرة ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ﴾ أي: إقامة يدخلونها ﴿يَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: بين أشجارها وقصورها، ﴿فَمَنْ فِيهَا مَا يَشَاءُ اللَّهُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا كَالْخَلَائِدِ﴾ [الزخرف: ٧١]، وفي الحديث: «إن السحابة لتمر بالملا من أهل الجنة وهم جلوس على شراهم، فلا يشتهي أحد منهم شيئاً إلا أمطرته عليهم، حتى إن منهم لمن يقول: أمطرينا كواعب أتراباً، فيكون ذلك». ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله. ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار، أنهم طيبون، أي: مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَغْفُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَتُسَبِّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ الَّتِي كُنْتُمْ تُسَبِّحُونَ ﴿٣٠﴾ تَحْمَدُ الْأَلْوَانُ فِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ تَزَلُّونَ فِي عُرْوَةِ رَجِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [نصل: ٣٠ - ٣٢]. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى: ﴿يُنْفِثُ اللَّهُ النَّفْسَ الَّتِي نَفَخَ فِي الصُّلْبِ وَنَافِثَاتٍ فِي الْغُصْنِ وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الْقَلِيلِينَ وَيَعْلَمُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧].

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَثَرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ نَعْلَمُ الْقُلُوبَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمْ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى متهدداً للمشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا: هل ينتظر هؤلاء إلا تأتيهم الملائكة أن تأتيهم بقبض أرواحهم، قاله قتادة. ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَثَرُ رَبِّكَ﴾ أي: يوم القيامة وما يعاينونه من الأحوال. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَعْلَمُ الْقُلُوبَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله، وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾؛ لأنه تعالى أعذر إليهم، وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاؤوا به، فلها أصابهم عقوبة الله على ذلك، ﴿وَسَاءَ بِهِمْ﴾ أي: أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿مَا كَانُوا يَوْمَ يَسْتَعْبِدُونَ﴾ أي: يستخرون من الرسل إذا توعدهم بعقاب الله؛ فلها يقال يوم القيامة: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ١٤].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَنْزَلْنَا لَكَ آيَاتٍ لَا تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ هُمْ يَكْفُرُونَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرَكَ لَهُ وَكَانَ كَيْدُكَ أَكْبَرًا ﴿٣٥﴾﴾

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الشرك واعتذارهم محتجين بالقدر، في قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مَا نَحْنُ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلْغُ الْأَمِينُ ﴿٣٥﴾﴾ ولقد بنينا في كُتُبِنا أَنَّ رُسُلَنَا آتَوْا أَتَيْتُهُمُ اللَّهُ وَاجْتَبَيْنَاهُ الظُّلُمَاتِ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَمِنْهُمْ فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرُهُمْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ إن تحريص على هديهم فإن الله لا يهدي من يشاء وما لهم من نصيب ﴿٣٦﴾

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الشرك واعتذارهم محتجين بالقدر، في قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مَا نَحْنُ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلْغُ الْأَمِينُ ﴿٣٥﴾﴾ ولقد بنينا في كُتُبِنا أَنَّ رُسُلَنَا آتَوْا أَتَيْتُهُمُ اللَّهُ وَاجْتَبَيْنَاهُ الظُّلُمَاتِ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَمِنْهُمْ فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرُهُمْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ إن تحريص على هديهم فإن الله لا يهدي من يشاء وما لهم من نصيب ﴿٣٦﴾

يعيره عليكم ولم ينكره، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه أكد النهي، وبعث في كل أمة رسولا، أي: في كل قرن من الناس وطائفة رسولا، وكلهم يدعو إلى عبادة الله، وينهى عن عبادة ما سواه: ﴿أَبِئْذٍ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوتَ﴾، فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك، منذ حدث الشرك في بني آدم، في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشرق والمغرب، وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَتَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَعْمَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ [الزخرف: ٢٩]، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوتَ﴾، فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، فمشيئته تعالى الشرعية منتفية؛ لأنه نهاهم عن ذلك على السنة رسله، وأما مشيئته الكونية، وهي تمكينهم من ذلك قدرا، فلا حجة لهم فيها؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة. ثم إنه تعالى قد أخبر أنه غير عليهم، وأنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل؛ فلماذا قال: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَكَى اللَّهَ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ فَنُيِّرُوا فِي الْأَرْضِ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُ الْمُكْذِبِينَ﴾ أي: اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف **دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا** [محمد: ١٠]، **وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ** ﴿٣٨﴾ [الملك: ١٨].

ثم أخبر تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم، إذا كان الله قد أراد إضلالهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]، وقال نوح لقومه: ﴿وَلَا تَقْعُوكُمْ نَفْسِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيِّ هَادٍ لَمْ يَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١٨﴾ [الأعراف: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ **وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى بَرَزُوا لِلْعَذَابِ الْأَلِيمِ** ﴿٣٣﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. فقلوه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ أي: شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فلماذا قال: ﴿لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ أي: من أضله فمن الذي يهديه من بعد الله؟ أي: لا أحد **وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ** أي: ينفذونهم من عذابه وناقه، **أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ** [الأعراف: ٥٤].

﴿وَأَسْمِعُوا يَأَنَّهُ جَهْدَ آيَتِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلْ وَعَدَ عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ **يَسْتَبِينَ لَهُمُ الَّذِي يُخَلِّفُونَ فِيهِ وَيَلْعَنُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ** ﴿٣٩﴾ **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴿٤٠﴾.

يقول تعالى مخبرا عن المشركين: أنهم حلفوا فاقسموا **يَأَنَّهُ جَهْدَ آيَتِهِمْ** أي: اجتهدوا في الحلف وغلظوا الإيمان على أنه **لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ** أي: استبعدوا ذلك، فكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه. فقال تعالى مكذبا لهم ورادا عليهم: ﴿بَلَى﴾ أي: بلى سيكون ذلك، **وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا** أي: لا بد منه، **وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** أي: فليجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر. ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: ﴿يَسْتَبِينَ لَهُمُ الَّذِي يُخَلِّفُونَ فِيهِ﴾ أي: من كل شيء، و **لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَّا عَلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْمَسْئَةِ** [النجم: ٣١]، **وَيَلْعَنُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ** أي: في إيمانهم وأقسامهم: لا يبعث الله من يموت؛ ولهذا يدعون يوم القيامة إلى نار جهنم دعاء، ويقول لهم الزبانية: **هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ يَمَّا تَكْذِبُونَ** ﴿١٤﴾ **أَفَيْسَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصِرُونَ** ﴿١٥﴾ **أَصَلَوْا فَأَصْبَحُوا أَوْ لَا تَبْصِرُونَ سَوَاءَ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزِنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴿١٦﴾ [الطور: ١٤ - ١٦]. ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له: «كن»، فيكون، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء، كما قال: **وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ** ﴿٥٠﴾ [الفرق: ٥٠]، وقال: **وَمَا خَلَقَكُمْ وَلَا نَعْسَكُمْ إِلَّا كَفْئِينَ وَاحِدَةً** [لقمان: ٢٨]، وقال في هذه الآية الكريمة: **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴿٤٠﴾ [النحل: ٤٠] أي: أن يأمر به دفعة واحدة فإذا هو كائن، كما قال الشاعر:

إذا ما أراد الله أمراً فلانمما يقول له: «كن»، فولة فيكون

أي: أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف، لأنه هو الواحد القهار العظيم، الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء، فلا إله إلا هو ولا رب سواه. وقال ابن أبي حاتم: ذكر الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، أخبرني عطاء: أنه سمع أبا هريرة يقول: قال الله تعالى: **سُبَّحْنَى ابْنِ آدَمَ** ولم يكن ينبغي له أن

يسبني، وكذبني ولم يكن ينبغي له أن يكذبني، فأما تكذيبه إياي فقال: ﴿وَأَنفَسُوا بِأَلَّهِ جَهْدَ أُنْفُسِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾، قال: وقلت: ﴿بَلْ وَعَدْنَا عَلَىٰ حَقٍّ وَلَكِنَّا أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وأما سبه إياي فقال: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ تَالِكَ تَلْدُشُهُ﴾ [المائدة: ١٧٣]، وقلت: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَكَ كُفُودٌ ۝ لَمْ يَكُنْ لَكَ كُفُودٌ أَحَدٌ ۝﴾ [سورة الإخلاص]. هكذا ذكره موقوفاً، وهو في الصحيحين مرفوعاً، بلفظ آخر.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنُؤِنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝﴾ الَّذِينَ صَدَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٦﴾.

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان، رجاء ثواب الله وجزائه. ويحتمل أن يكون سبب نزول هذه الآية الكريمة في مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة، ليتمكنوا من عبادة ربهم، ومن أشرافهم: عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ وجعفر بن أبي طالب، ابن عم الرسول، وأبو سلمة بن عبد الأسد في جماعة قريب من ثمانين، ما بين رجل وامرأة، صديق وصديقة، رضي الله عنهم وأرضاهم. وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿لَنُؤِنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال ابن عباس والشعبي، وقتادة: المدينة. وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد. ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيراً منها في الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه، وكذلك وقع فإنهم مكن الله لهم في البلاد وحكمهم على رقاب العباد، فصاروا أمراء حكاماً، وكل منهم للمؤمنين إماماً، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا، فقال: ﴿وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ﴾ أي: مما أعطيتهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله؛ ولهذا قال مُشْتِمٌ، عن العوام، عمن حدثه: أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول: خذ، بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ادخر لك في الآخرة أفضل، ثم قرأ هذه الآية: ﴿لَنُؤِنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم وصفهم تعالى فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝﴾ أي: صبروا على أقل من آذاهم من قومهم، متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْنَا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧﴾.

قال الضحاك، عن ابن عباس: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً، أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً. فأنزل الله: ﴿أَكَاذِبُ لِلنَّاسِ عَجَبًا إِنَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَلِمًا تَتْلُو مِنْهُ﴾ [يونس: ٢]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْنَا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾ [١٧]، يعني: أهل الكتب الماضية: أبشر كانت الرسل التي أتتكم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً؟ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾، ليسوا من أهل السماء كما قلتم. وهكذا روي عن مجاهد، عن ابن عباس، أن المراد بأهل الذكر: أهل الكتاب. وقاله مجاهد، والأعمش. وقول عبد الرحمن بن زيد - الذكر: القرآن، واستشهد بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَافِعُونَ ۝﴾ [الحجر: ٩] - صحيح، ولكن ليس هو المراد له هنا؛ لأن المخالف لا يرجع في إثباته بعد إنكاره إليه. وكذا قول أبي جعفر الباقر: «نحن أهل الذكر» - ومراده أن هذه الأمة أهل الذكر - صحيح، فإن هذه الأمة أعلم من جميع الأمم السالفة، وعلماء أهل بيت الرسول، عليهم السلام والرحمة، من خير العلماء إذا كانوا على السنة المستقيمة، كعلي، وابن عباس، وبنو علي: الحسن والحسين، ومحمد بن الحنفية، وعلي بن الحسين زين العابدين، وعلي بن عبد الله بن عباس، وأبي جعفر الباقر - وهو محمد بن علي بن الحسين - وجعفر ابنه، وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم، ممن هو متمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم، وعرف لكل ذي حق حقه، ونزل كل المنزل الذي أعطاه الله ورسوله واجتمع إليه قلوب عباده المؤمنين. والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرتنا أن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشراً كما هو بشر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۝﴾ [١٦]، وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٧﴾ [الإسراء: ٩٣، ٩٤] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْآسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۝﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمِنْ نَصَائِهِمْ وَاعْلَمْنَاهُمُ الْفُتُورِينَ ﴿١٨﴾.

[الأنبياء: ٨، ٩]، وقال: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدَعَايَ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الاحقاف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].
ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشرًا، إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا: هل كان أنبياءهم بشرًا أو ملائكة؟ ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالدلائل والحجج، ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهي الكتب. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم. والزرير: جمع زبور، تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبه، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ مَن قَسَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۖ﴾ [الفر: ٥٢]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ رِثْقَا عِبَادِي الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. ثم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يعني: القرآن، ﴿لِّنُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من ربهم، أي: لعلمك بمعنى ما أنزل عليك، وحرصك عليه، واتباعك له، لعلمنا بأنك أفضل الخلاق وسيد ولد آدم، ففصل لهم ما أجمل، وتبين لهم ما أشكل، ﴿وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِغُفْرَتٍ﴾ أي: ينظرون لأنفسهم فيهدنون، فيفوزون بالنجاة في الدارين.
﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْبِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [١٠٦] أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيلِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [١٠٧] أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّؤُوفُ رَحِيمٌ﴾ [١٠٨].

يخبر تعالى عن حلمه وإمهاله وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على ﴿أَن يَخْبِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كما قال تعالى: ﴿أَمَأَمِنْتُمْ مِّنَ السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ﴾ [١١] أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنَ السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦، ١٧]، وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيلِهِمْ﴾ أي: في تقلبهم في المعاش واشتغالهم بها، من أسفار ونحوها من الأشغال الملهية. قال قتادة والسدي: ﴿تَقْلِيلِهِمْ﴾ أي: أسفارهم. وقال مجاهد، والضحاك: ﴿فِي تَقْلِيلِهِمْ﴾ في الليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ يَقُولُونَ غَبَابٌ﴾ [١٧] أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُجًى وَهُمْ يَصْطَكِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨]. وقوله: ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: لا يُعْجِزُونَ الله على أي حال كانوا عليه.
وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أي: أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد حالة الأخذ؛ فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد؛ ولهذا قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك. وكذا روي عن مجاهد، والضحاك، وقتادة وغيرهم. ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّؤُوفُ رَحِيمٌ﴾ أي: حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، كما ثبت في الصحيحين: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيه»، وفي الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [مرد: ١٠٢] وقال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قُرْبَىٰ أَسْتَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَعِيرِ﴾ [الحج: ٤٨].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ نَفْسٍ يَنْفَعِيهَا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [١٠٩] وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنَ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [١١٠] يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قُوفِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [١١١].

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جمادها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفياً ذات اليمين وذات الشمال، أي: بكرة وعشياً، فإنه ساجد بظله لله تعالى. قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله ﷻ. وكذا قال قتادة، والضحاك، وغيرهم. وقوله: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: صاغرون. وقال مجاهد أيضاً: سجد كل شيء فيه. وذكر الجبال قال: سجودها فيها. وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلاته. ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم. ثم قال: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾، كما قال: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَلَهُمَا وَكُرْكُرًا وَلَهُنَّ الْوُدُورُ وَالْأَمَالُ﴾ [الرعد: ١٥]، وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْكُرُونَ﴾ أي: تسجد لله أي غير مستكبرين عن عبادته، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قُوفِهِمْ﴾ أي: يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: مثابرين على طاعته تعالى، وامتنال أوامره، وترك زواجه.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُوا لِلَّذِينَ نَزَّلْنَا مِنَّا هُوَ إِلَهُكُمْ وَحِيدٌ فَانْتَبِهُوا فَلَمَّ يَوْمَئِذٍ فَالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ وَاِصْبَا أَفَرَّ اللَّهُ نَفْعُونَ﴾ [١١٢] وَمَا يَكُم مِّن يَمَعَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا سَكَتُمُ الْمُعْزَ فَإِنَّهُ يَخْتَرُونَ﴾ [١١٣] ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الْعَمْرُ عَنْكُمْ إِذَا فِرْقٌ مِّنكُمْ يَرِيهِمْ يَشْكُرُونَ﴾ [١١٤] يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَسْمَعُوا سَوَاقٍ قَلِيلُونَ﴾ [١١٥].

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ فإنه مالك كل شيء وخالقه ورب. ﴿وَلَهُ الَّذِينَ

وَأَمَّا بَنُو إِسْرَءِيلَ: قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وميمون بن مهران، والسدي، وقتادة، وغير واحد: أي دائماً. وعن ابن عباس أيضاً: واجباً. وقال مجاهد: خالصاً. أي: له العبادة وحده ممن في السموات والأرض، كقوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]. هذا على قول ابن عباس وعكرمة، فيكون من باب الخبر، وأما على قول مجاهد فإنه يكون من باب الطلب، أي: ارهبوا أن تشركوا به شيئاً، وأخلصوا له الطلب، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الْكَلَامُ الْغَالِبُ﴾ [الزمر: ٢٣]. ثم أخبر أنه مالك النفع والضر، وأن ما بالعبد من رزق، ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليه، وإحسانه إليه، ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ أي: لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجؤون إليه، وتسألونه وتلحون في الرغبة مستغيثين به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُه فَلَمَّا نَجَّكَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنشَاءَ كُفْرًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال ههنا: ﴿ثُمَّ إِذَا كُفِيَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [٥٦] ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾. قيل: «اللام» ههنا لام العاقبة. وقيل: لام التعليل، بمعنى: قيصنا لهم ذلك ليكفروا، أي: يستروا ويحمدوا نعم الله عليهم، وأنه المسدي إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم. ثم توعدهم قاتلاً: ﴿فَتَتَّبِعُوا﴾ أي: اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: عاقبة ذلك.

﴿وَيَعْلَمُونَ لِمَا لَا يَحْكُمُونَ نَفْسًا بِمَا رَزَقْتَهُمُ اللَّهُ لَسْتَ لَكُمْ عَمَّا كُنتُمْ تَفْعَلُونَ﴾ [٥٦] ﴿وَيَعْلَمُونَ لِلَّهِ الْكَلَامَ الْغَالِبَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [٥٧] ﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [٥٨] ﴿يَتَوَكَّرُ مِنَ الْكَافِرِ مِنْ شَوْءٍ مَا يُبَشِّرُ بِهِ أَتَيْتَكُمْ عَلَىٰ هُوبٍ أَمْ يُدْشِمُ فِي الْغُرَابِ آلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [٥٩] ﴿لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [٦٠].

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد، وجعلوا لها نصيباً مما رزقهم الله، فقالوا: ﴿هَذَا لِلَّهِ بِرْغِمِهِمْ وَهَذَا لِسُرْكَائِهِمَا فَكَانَ لِكُلِّ شِرْكائِهِمْ كَلَامٌ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٣٦] أي: جعلوا لألهتهم نصيباً مع الله وفضلوه أيضاً على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألهم عن ذلك الذي افتروه، وانتفكوه، وليقابلتهم عليه وليجازيهم أوفر الجزاء في نار جهنم، فقال: ﴿وَاللَّهُ لَسْتَ لَكُمْ عَمَّا كُنتُمْ تَفْعَلُونَ﴾. ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات الله، وعبدوها معه، فأخطؤوا خطأ كبيراً في كل مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً، ولا ولد له! ثم أعطوه أحسن القسمين من الأولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: ﴿الَّذِينَ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ [٦١] ﴿إِنَّكَ إِذَا أَنشَأْتَ يَتِيمًا﴾ [النجم: ٢١، ٢٢] وقال ههنا: ﴿وَيَعْلَمُونَ لِلَّهِ الْكَلَامَ الْغَالِبَ﴾ أي: عن قولهم وإفكهم، ﴿أَلَا إِنَّمَا يَنْفَعُ الْفُلُوكَ لِقَوْلِهِمْ﴾ [٦٢] ﴿وَلَدَ اللَّهُ وَلَهُمْ لَكِبُؤُنَ﴾ [٦٣] أَصْلَى الْكَلَامِ عَلَى الْبَشَرِ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [٦٤] [الصافات: ١٥١ - ١٥٤]. وقوله: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي: يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوا إلى الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، فإنه ﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أي: كئيباً من الهم، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن، ﴿يَتَوَكَّرُ مِنَ الْكَافِرِ﴾ أي: يكره أن يراه الناس ﴿مِنْ شَوْءٍ مَا يُبَشِّرُ بِهِ أَتَيْتَكُمْ عَلَىٰ هُوبٍ أَمْ يُدْشِمُ فِي الْغُرَابِ﴾ أي: إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها، ولا يعتني بها، ويفضل أولاده الذكور عليها، ﴿أَمْ يُدْشِمُ فِي الْغُرَابِ﴾ أي: يتدها، وهو: أن يدفنها فيه حية، كما كانوا يصنعون في الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله؟ ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بش ما قالوا، وبش ما قسموا، وبش ما نسبوا إليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧]، وقال ههنا: ﴿لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أي: النقص إنما ينسب إليهم، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: الكمال المطلق من كل وجه، وهو منسوب إليه، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَاخِرٍ وَلَٰكِنَّ يُؤْخِرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَفْرِغُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [٦٥] ﴿وَيَعْلَمُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَنَصَفَ آيَاتِنَاهُ الْكُتُبَ أَنَّ لَهُمُ لَبْسًا لَا جَرَمَ أَنَّ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [٦٦].

يخبر تعالى عن حلمه بخلقهم مع ظلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة، أي: لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بني آدم، ولكن الرب، جل جلاله، يحلم ويستر، وينظر ﴿إِلَّا أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: لا يعاجلهم بالعقوبة، إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقي أحداً. قال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص أنه قال: كاد الجعل أن يعذب بذنب بني آدم، وقرأ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَاخِرٍ﴾. وكذا روى الأعمش، عن أبي إسحاق، عن أبي غبيدة قال: قال عبد الله: كاد الجعل أن يهلك في جحره بخطيئة بني آدم. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنى، حدثنا إسماعيل بن حكيم الخزاعي، حدثنا محمد بن جابر الحنفي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة قال: سمع

وقوله: ﴿وَيَحْمِلُونَ فِيهِ مَا بُرْهِنُوا﴾ أي: من البنات ومن الشركاء الذين هم من عبیده، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله. وقوله: ﴿وَيَصِفُ أَلْسِنَهُمُ الْكُذِبَ إِنَّ لَهُمْ لَلْأَلْسِنَ﴾: إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنی فی الدنيا، وإن كان ثم معاد ففيه أيضاً لهم الحسنی، وإخبار عن قبل من قال منهم، كقوله: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَاوُوسٌ كَاوُورٌ﴾ [١] ولکن أذقناه رحمة بعد صراره مسته ليقول ذهاب السينات عني إنه لفرج محور [٢] [مسرود: ١، ٩]، وكقوله: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ صَرَارِهِ مَنَسْتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَطُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَازِلَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَّا عَمَلُوا وَلَنَذِيقَنَّهُمْ بِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [٣] [فصلت: ٥٠]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّلَوْلَا الَّذِي آتَىٰكَ الْقِيَامَ أَوْ آخِذٌ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [٤] [مریم: ٧٧، ٧٨] وقال إخباراً عن أحد الرجلين: أنه ﴿وَوَحَلَّ جَنَّتُمْ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَطُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ [٥] وَمَا أَطُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَى رَبِّي لَأُجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [٦] [الكهف: ٣٥، ٣٦] - فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمني الباطل، بأن يجازوا على ذلك حسناً وهذا مستحيل، كما ذكر ابن إسحاق: أنه وجد حجر في أساس الكعبة حين نقضوها ليجدوها مكتوب عليه حكيم ومواعظ، فمن ذلك: تعملون السينات ويجزون الحسنات؟ أجل كما يجتنى من الشوك العنب. وقال مجاهد، وقتادة: ﴿وَيَصِفُ أَلْسِنَهُمُ الْكُذِبَ إِنَّ لَهُمْ لَلْأَلْسِنَ﴾ أي: الغلمان. وقال ابن جرير: ﴿إِنَّ لَهُمُ لَلْأَلْسِنَ﴾ أي: يوم القيامة، كما قدمنا بيانه، وهو الصواب، والله الحمد. ولهذا قال الله تعالى راداً عليهم في تمنيههم ذلك: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقاً لا بد منه ﴿أَنَّهُمْ لَمَّا نَارًا﴾ أي: يوم القيامة، وأنتهم مُقَرَّبُونَ. قال مجاهد، وسعيد بن جبیر، وقتادة وغيرهم: منسبون فيها مضيعون. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسْفَطُ النَّارَ﴾ [٧] [الأعراف: ٥١]. وعن قتادة أيضاً: ﴿مُقَرَّبُونَ﴾ أي: معجلون إلى النار، من القَرَط وهو السابق إلى الورد ولا منافاة لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار، وينسون فيها، أي: يخلدون.

﴿ثُمَّ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فِيهِ تَحْتِ الْعُقُوبَةِ وَالنِّكَالِ، وَالشَّيْطَانُ وَلِيَهُمْ، وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ خَلَصًا، وَلَا صَرِيحَ لَهُمْ، وَلَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ . ثم قال تعالى لرسوله : إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه ، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ، ﴿وَهَذَىٰ﴾ أي : للقلوب ، ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي : لمن تمسك به ، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ . وكما جعل تعالى القرآن حياة للقلوب الميمنة بكفرها ، كذلك يحيي الله الأرض بعد موتها بما ينزل عليها من السماء من ماء ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي : يفهمون الكلام ومعناه .

﴿وَلَنْ لَكَ فِي الْأَمْرِ لَعْنَةٌ نَسِيكَ بِنَا فِي بُلُوغِهِ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمِ آبَا خَالِصًا سَابِقًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتَجِدُونَهُ مِنْ شَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَلْعَظِيمَ يَعْقِلُونَ ﴿٣٧﴾﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا لَنَفْعًا﴾ أيها الناس ﴿فِي الْأَنْعَامِ﴾ وهي: الإبل والبقر والغنم، ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: لآية ودلالة على قدرة خالقها وحكمته ولطفه ورحمته، ﴿تُفَكِّرُ﴾ تَمَّا فِي بَطُونِهِ، وأفرد لهنّ الضمير عوداً على معنى النعم، أو الضمير عائد على الحيوان؛ فإنّ الأنعام حيوانات، أي: نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان. وفي الآية الأخرى: ﴿فِيمَا فِي بَطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١]، ويجوز هذا وهذا، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَنْتُمْ تُذَكَّرُونَ﴾ [٥٤] ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ [المذ: ٥٤، ٥٥]، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مُرْسِلَتِهِ أُلَهِيمُ بِهِذِهِ فَاسْتَبْرَأْ يَوْمَ يَرْجِعُ الْكُرْسِيُّ﴾ [٢٥] ﴿فَلَمَّا جَاءَ شُعْبَانَ﴾ [النمل: ٣٥، ٣٦] أي: الصال. وقوله: ﴿مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَرٍ لَبَّا خَالِصًا﴾ أي: يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كلُّ إلى موطنه، إذا نضج الغذاء في معدته تصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه

بعد انفصاله عنه، ولا يتغير به. وقوله: ﴿لَيْسَ خَالِصًا سَائِبًا لِلشَّارِبِينَ﴾ أي: لا يغص به أحد. ولما ذكر اللب أن الله تعالى جعله شراباً للناس سائغاً، ثنى بذكر ما يتخذ الناس من الأشربة، من ثمرات النخيل والأعناب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه؛ ولهذا امتن به عليهم فقال: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾، دل على إباحته شرعاً قبل تحريمه، ودل على التسوية بين السكر المتخذ من العنب، والمتخذ من النخل كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك، وليس هذا موضع بسط ذلك، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾، قال: السكر: ما حرم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما. وفي رواية: السكر حرامه، والرزق الحسن حلاله. يعني: ما ييسر منهما من تمر وزبيب، وما عمل منهما من طلاء - وهو الدبس - وخل ونبيذ، حلال يشرب قبل أن يشتد، كما وردت السنة بذلك. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّعَمَلٍ بِقَوْلٍ﴾: ناسب ذكر العقل ههنا، فإنه أشرف ما في الإنسان؛ ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٢٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٥﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ مِمَّا تَتَبَتِ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يس: ٢٤ - ٢٦].

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّعَمَلٍ بِقَوْلٍ﴾ [يس: ٢٨].

المراد بالوحي ههنا: الإلهام والهداية والإرشاد إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر، ومما يعرشون. ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها وورصها، بحيث لا يكون بينها خلل. ثم أذن لها تعالى إذناً قديراً تسخيراً أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى لها مذللة، أي: سهلة عليها حيث شاءت في هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى موضعها وبيتها، لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع من أجنتها، وتقوي العسل من فيها، وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها. وقال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾، أي: مطبوعة. فجعلها حالاً من السالكة. قال ابن زيد: وهو كقول الله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لِمَنِ قَمَنَتْ رُكُومُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس: ٧٦] قال: ألا ترى أنهم يقلون النحل من بيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم. والقول الأول أظهر، وهو أنه حال من الطريق، أي: فاسلكيها مذللة لك، نص عليه مجاهد. وقال ابن جرير: كلا القولين صحيح. وقد قال أبو يعلى الموصلي: حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا سكين بن عبد العزيز، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «عُمُرُ الذباب أربعون يوماً، والذباب كله في النار إلا النحل».

وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ أي: ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة، على اختلاف مراعيها ومأكليها منها. وقوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ أي: في العسل شفاء للناس من أدواء تعرض لهم. قال بعض من تكلم على الطب النبوي: لو قال: «فيه الشفاء للناس» لكان دواء لكل داء، ولكن قال ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ أي: يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار، والشيء يداوى بضده. وقال مجاهد بن جبر في قوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ يعني: القرآن. وهذا قول صحيح في نفسه، ولكن ليس هو الظاهر ههنا من سياق الآية؛ فإن الآية إنما ذكر فيها العسل، ولم يتابع مجاهد على قوله ههنا، وإنما الذي قاله ذكره في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً حَرًّا فَفَجَّرْنَا فِيهِ نَسْرًا وَسَخَّرْنَا لِقَاءَ الْيَوْمِ أَعْيُنُهُمْ أَفْلَاحًا﴾ [الأنعام: ٨٢]. وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ [النحل: ٦٨] يعني: القرآن. وهذا قول صحيح في نفسه، ولكن ليس هو الظاهر ههنا من سياق الآية؛ فإن الآية إنما ذكر فيها العسل، ولم يتابع مجاهد على قوله ههنا، وإنما الذي قاله ذكره في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً حَرًّا فَفَجَّرْنَا فِيهِ نَسْرًا وَسَخَّرْنَا لِقَاءَ الْيَوْمِ أَعْيُنُهُمْ أَفْلَاحًا﴾ [الأنعام: ٨٢].

تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ هو العسل - الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، من رواية قتادة، عن أبي المتوكل علي بن داود الناجي، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه. فقال: «اسقه عسلاً». فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله، سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً قال: «أذهب فاسقه عسلاً». فذهب فسقاه، ثم جاء فقال: يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقاً! فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله، وكذب بطن أخيك! أذهب فاسقه عسلاً». فذهب فسقاه فبرىء. قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلاً وهو حار تحللت، فأسرعت في الاندفاع، فزاد إسهاله، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فزاد التحليل والدفع، ثم سقاه فكذلك، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه، وصلاح مزاجه، واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

وفي الصحيحين، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الخلواء

والعسل. هذا لفظ البخاري. وفي صحيح البخاري: من حديث سالم الأفلطس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشفاء في ثلاثة: في شُرْطَةِ مِخْجَمٍ، أو شُرْبَةِ عَسَلٍ، أو كَيْتَةِ بَنَارٍ، وأنهى أمتي عن الكي». وقال البخاري: حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد الرحمن بن العَيسِل، عن عاصم بن عمر بن قتادة، سمعت جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كان في شيء من أدويتكم، أو يكون في شيء من أدويتكم خير: ففي شُرْطَةِ مِخْجَمٍ، أو شُرْبَةِ عَسَلٍ، أو لَذْعَةِ بَنَارٍ تَوَافَقَ الدَّاءُ، وما أحب أن أكتوي». ورواه مسلم من حديث عاصم بن عمر بن قتادة، عن جابر، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا عبد الله، أنبأنا سعيد بن أبي أيوب، حدثنا عبد الله بن الوليد، عن أبي الخير، عن عتبة بن عامر الجُهَنِي قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إن كان في شيء شفاء: فشرْطَةُ مِخْجَمٍ، أو شُرْبَةُ عَسَلٍ، أو كَيْتَةُ تَصِيبَ أَلْمَأَ، وأنا أكره الكي ولا أحبه». ورواه الطبراني عن هارون بن مَلُول المصري، عن أبي عبد الرحمن المقرئ، عن حيوة بن شريح عن عبد الله بن الوليد، به. ولفظه: «إن كان في شيء شفاء: فشرْطَةُ مِخْجَمٍ... وذكره وهذا إسناد صحيح، ولم يخرجوه.

وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن زيد بن ماجه القزويني في سننه: حدثنا علي بن سلمة - هو اللبقي - حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا سفيان عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن». وهذا إسناد جيد، تفرد بإخراجه ابن ماجه مرفوعاً، وقد رواه ابن جرير، عن سفيان بن وكيع، عن أبيه، عن سفيان - هو الثوري - به موقوفاً - ولَهُو أشبه. وروينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه قال: إذا أراد أحدكم الشفاء فليكتب آية من كتاب الله في صُحْفَةٍ، وليغسلها بماء السماء، وليأخذ من امرأته درهماً عن طيب نفس منها، فليشتر به عسلاً فليشربه بذلك، فإنه شفاء. أي: من وجوه، قال الله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَاءً شِيفًا﴾ [الأنعام: ١٠١] وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْكَرًا﴾ [ق: ٩] وقال: ﴿إِن طِبَّ لَكُمْ عَنْ قَوْمٍ مِّنْ فَسَادٍ فَمَكُوا فَمِنْكُمْ﴾ [النساء: ٤]، وقال في العسل: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾. وقال ابن ماجه أيضاً: حدثنا محمود بن خِذَاش، حدثنا سعيد بن زكريا القرشي، حدثنا الزبير بن سعيد الهاشمي، عن عبد الحميد بن سالم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لَعِقَ العسل ثلاثَ عَدَوَاتٍ في كل شهر، لم يصبه عظيم من البلاء». الزبير بن سعيد متروك. وقال ابن ماجه أيضاً: حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف بن سَرْح الفريابي، حدثنا عمرو بن بكر السُّكْسُكي، حدثنا إبراهيم بن أبي غَبْلَةَ. سمعت أبا أيوب بن أم حَرْام - وكان قد صلى القبلتين - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عليكم بالسَّئِ والسُّتُوت، فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام». قيل: يا رسول الله، وما السام؟ قال: «الموت». قال عمرو: قال ابن أبي عبله: «السُّتُوت»: الشُّبْتُ. وقال آخرون: بل هو العسل الذي يكون في زَقَاقِ السمن، وهو قول الشاعر:

هُمُ السَّمْنُ بِالسُّتُوتِ لَا أَلَسَ فِيهِمْ وَهُمْ يَمْنُونُ الْجَارَ أَنْ يُقَرَّدَا
كذا رواه ابن ماجه. وقوله: «لَا أَلَسَ فِيهِمْ» أي: لا خلط. وقوله: «يَمْنَعُونَ الْجَارَ أَنْ يُقَرَّدَا»، أي: يضطهد ويظلم. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك في هذه المهام والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل، وهو من أطيب الأشياء، ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر، الحكيم العليم، الكريم الرحيم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ فَذَلِكُمْ أَكْثَرُ لَكُمْ أَنْ تَقُولُوا لِمَنْ يَرِيهِ أَوْلَى بِالْإِيمَانِ مِنْ اللَّهِ قَالَ اللَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾.

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم، ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهَرَم - وهو الضعف في الخلقة - كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْقَوْمِ﴾ [الروم: ٥٤]. وقد روي عن علي، رضي الله عنه، في أرذل العمر قال: خمس وسبعون سنة. وفي هذا السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم؛ ولهذا قال: ﴿لَيْسَ لَا يَمْلِكُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي: بعد ما كان عالماً أصبح لا يدري شيئاً من الفَنَد والخرف؛ ولهذا روى البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا هارون بن موسى أبو عبد الله الأعور، عن شُعَيْب، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أعوذ بك من البخل والكسل، والهَرَم وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفننة الدجال، وفننة المحيا والممات». ورواه مسلم، من حديث هارون الأعور، به. وقال زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة:

سَمِعْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ، وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ عَامًا - لَا أَبَالَكَ - يَنَامُ زَائِتُ الْمَنَابِيا خَبِطَ عَشَوَاهُ مِنْ تَعَبٍ تَمِثُهُ وَمَنْ تُخْطِئَ يُعْمَزُ فَيَهْرَمُ ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكَ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الْإِنْسَانُ لَفَظِيلًا يَرَىٰ رِزْقَهُ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُوَ بِهِ سَوَاءً أَقْنِمَتَهُ اللَّهُ يَحْمَدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء، وهم يعترفون أنها عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبياتهم في حجهم: «إليك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك». فقال تعالى منكرأ عليهم: إنكم لا ترضون أن تساوا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيده له في الإلهية والتعظيم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَقَافُونَهُمْ كَيْفَ يَكْفِيكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ الآية (الروم: ٢٨). قال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: يقول: لم يكونوا يشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني، فذلك قوله: ﴿أَقْنِمَتَهُ اللَّهُ يَحْمَدُونَ﴾. وقال في الرواية الأخرى، عنه: فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم. وقال مجاهد في هذه الآية: هذا مثل للآلهة الباطلة. وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله، فهل منكم من أحد شارك مملوكه في زوجته وفي فراشه، فتعدلون بالله خلقه وعباده؟ فإن لم ترض لنفسك هذا، فالله أحق أن يتره منك. وقوله: ﴿أَقْنِمَتَهُ اللَّهُ يَحْمَدُونَ﴾ أي: إنهم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فحججوا نعمته، وأشركوا معه غيره. وعن الحسن البصري قال: كتب عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، هذه الرسالة إلى أبي موسى الأشعري: واقنع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن فَضَّلَ بعض عباده على بعض في الرزق، بل يتلي به كلاً، فيتلي من بَسَطَ له، كيف شكره الله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوله؟ رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِكُمْ فِيهَا مَحَلٌّ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنَ وَحَدَّةٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَلَيْسَ لِلطَّيِّبَاتِ يُؤْمِنُونَ وَيَنْصِتُ اللَّهُ لَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

يذكر تعالى نعمه على عبيده، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم وزينهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر لما حصل اتلاف ومودة ورحمة. ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواجاً للذكور. ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة، وهم أولاد البنين. قاله ابن عباس، وعكرمة، والحسن، والضحاك، وابن زيد. قال شعبه، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿بَيْنَ وَحَدَّةٍ﴾: هم الولد وولد الولد. وقال سُنَيْدٌ: حدثنا حجاج عن أبي بكر، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: بنوك حين يحفدونك ويرفدونك ويعينونك ويخدمونك، قال جميل:

حَفَدَ الْوَلَادُ حَوْلَهُنَّ وَأَسْلَمَتْ بَأَكْفَفُهُنَّ أَزْوَاجُ الْأَجْمَالِ

وقال مجاهد: ﴿بَيْنَ وَحَدَّةٍ﴾: ابنه وخادمه. وقال في رواية: الحفدة: الأنصار والأعوان والخدام. وقال طائوس: الحفدة: الخدم. وكذا قال قتادة، وأبو مالك، والحسن البصري. وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرٌ، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة أنه قال: الحفدة: مَنْ خَدَمَكَ من ولدك وولد ولدك. قال الضحاك: إنما كانت العرب يخدمها بنوها. وقال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنَ وَحَدَّةٍ﴾ يقول: بنو امرأة الرجل، ليسوا منه. ويقال: الحفدة: الرجل يعمل بين يدي الرجل، يقال: فلان يحفد لنا قال: ويزعم رجال أن الحفدة أَخْتَانُ الرجل. وهذا القول الأخير الذي ذكره ابن عباس قاله ابن مسعود، ومسروق، وأبو الضُّحَى، وإبراهيم التَّخَمِي، وسعيد بن جُبَيْر، ومجاهد، والقُرْظِي. ورواه عكرمة، عن ابن عباس. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هم الأصهار. قال ابن جرير: وهذه الأقوال كلها داخلة في معنى: «الحفدة» وهو الخدمة، الذي منه قوله في القنوت: «إليك نسعى ونحفد»، ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والأصهار والخدم، فالنعمه حاصلة بهذا كله، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنَ وَحَدَّةٍ﴾. قلت: فمن جعل «وَحَدَّةً» متعلقاً بأزواجكم، فلا بد أن يكون المراد الأولاد، وأولاد الأولاد، والأصهار، لأنهم أزواج البنات، وأولاد الزوجة، كما قال الشعبي والضحاك، فإنهم غالباً يكونون تحت كنف الرجل وفي حجره وفي خدمته. وقد يكون هذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام في حديث بَصْرَةَ بن أَكْثَم: «والولد عبد لك» رواه أبو داود. وأما من جعل الحفدة هم الخدم فعنده أنه معطوف على قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: وجعل لكم الأزواج والأولاد. ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المطاعم والمشارب. ثم قال تعالى منكرأ على من أشرك في عبادة المنعم غيره: ﴿أَلَيْسَ لِلطَّيِّبَاتِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهم: الأصنام والأنداد، ﴿وَيَنْصِتُ اللَّهُ لَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره. وفي الحديث الصحيح: «إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ممثلاً عليه: ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتزع؟».

﴿وَيَسْأَلُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٧٣) ﴿فَلَا تَقْرَأُوا لِلَّهِ الْأَنْشَاءَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧٤).

يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عبدوا معه غيره، مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ أي: لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك، أي: ليس لهم ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَقْرَأُوا لِلَّهِ الْأَنْشَاءَ﴾ أي: لا تجعلوا له أنداداً وأشباهاً وأمثالاً، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا الله، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.

﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الِاحْتِدَاءُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥).

قال العوفي، عن ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن: وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير. والعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر والمرزوق الرزق الحسن، فهو ينفق منه سرّاً وجهراً، هو المؤمن. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: هو مثل مضروب للوثن والحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا؟ ولما كان الفرق ما بينهما بيناً واضحاً ظاهراً لا يجهله إلا كل غبي، قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ثم قال تعالى:

﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا زَجَلَيْنِ أَحَدَهُمَا أَنْتُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٦).

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى، يعني: أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء، ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال، ولا فعال، وهو مع هذا ﴿كَلٌّ﴾ أي: عيال وكلفة على مولاه، ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ﴾ أي: بعثه ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ولا ينجح مسعاه، ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ من هذه صفاته، ﴿وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أي: بالقسط، فقال له حق وفعاله مستقيمة، ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وبهذا قال السدي، وفتادة وعطاء الخراساني. واختار هذا القول ابن جرير. وقال العوفي، عن ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً، كما تقدم. وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن الصباح البزار، حدثنا يحيى بن إسحاق، السيلحيني، حدثنا حماد، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن إبراهيم، عن عكرمة، عن يعلی بن أمية، عن ابن عباس في قوله: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾: نزلت في رجل من قريش وعبدته. وفي قوله: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا زَجَلَيْنِ أَحَدَهُمَا أَنْتُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، قال هو: عثمان بن عفان. قال: والأبكم الذي أينما يوجهه لا يأت بخير قال هو: مولى لعثمان بن عفان، كان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المئونة، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيها.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْثِ الْأَعْمَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧٧) ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨) ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧٩).

يخبر تعالى عن كماله وقدرته على الأشياء، في علمه غيب السموات والأرض، واختصاصه بذلك، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه الله تعالى على ما يشاء. وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمنع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن، فيكون، كما قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَنَفْثِ الْأَعْمَرِ﴾ [الفر: ٥٠] أي: فيكون ما يريد كطرف العين. وهكذا قال ههنا: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْثِ الْأَعْمَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، كما قال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَثْمِكُمْ إِلَّا كَفْئِينَ وَجِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]. ثم ذكر تعالى مثته على عباده، في إخراجهم إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرفعهم تعالى السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار اللاتي بها يحسون المرئيات، والأفئدة - وهي العقول - التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها. وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدرج قليلاً قليلاً، كلما كبر زيد في سمعه وبصره وقوي عقله حتى يبلغ أشده. وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان، ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارية وعضو وقوة على طاعة مولاه، كما جاء في صحيح البخاري، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه. ولا يزال عبدي

وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: بعد هذا البيان وهذا الامتحان، فلا عليك منهم، ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾، وقد أدبته إليهم. ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ أي: يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك، وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك، ويعبدون معه غيره، ويسندون النصر والرزق إلى غيره، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ أَكْفَارُونَ﴾ - كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن مجاهد؛ أن أعرابياً أتى رسول الله ﷺ فسأله، فقرأ عليه رسول الله ﷺ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾، قال الأعرابي: نعم. قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ

طَعْنَكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾، قال الأعرابي: نعم. ثم قرأ عليه، كل ذلك يقول الأعرابي: نعم، حتى بلغ: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ فِتْنَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِتُونَ﴾، فأنزل الله: ﴿يَعْرِضُونَ فِتْنَتَهُ اللَّهُ ثُمَّ يُكْفِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٢).
 ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٨٣) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يَخَفَتْ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٥) وَأَلْقَا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلََّةَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨٦) الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَذَنْهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٧).

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً، وهو نبياها، يشهد عليها بما أجاثته فيما بلغها عن الله تعالى، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: في الاعتذار؛ لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، كما قال: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطُرُونَ﴾ (٨٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيُتَذَرُونَ (٨٦). ولهذا قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا ﴿الْعَذَابَ فَلَا يَخَفَتْ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يفتر عنهم ساعة واحدة، ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي: لا يؤخر عنهم، بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب، فإنه إذا جيء بهجهم تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فيشرف عُنُقُ منها على الخلائق، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد، الذي جعل مع الله إلهاً آخر، وبكذا وكذا، وتذكر أصنافاً من الناس، كما جاء في الحديث. ثم تنطوي عليهم وتلقطهم من الموقف كما تلتقط الطائر الحب، قال الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ تَبَيَّنَ يُبَيِّنُ لِمَا نَفَعُوا لَمَّا تَتَبَّطَّ وَذِكْرُ﴾ (٨٧) وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا (٨٨) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (٨٩)﴾ [الفرقان: ١٢-١٤]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجُوهُمُ النَّارَ فَطَقُوا أَهْلَهُمْ مُوْأَفِعُوهُمَا وَكَرَّمُوا حُدُودَهُمْ مَصْرُفًا﴾ (٩٠) [الكهف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُونُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُعْمَرُونَ﴾ (٩١) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدًّا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٩٢)﴾ [الأنبياء: ٣٩، ٤٠].

ثم أخبر تعالى عن تبرىء الله منهم منهم أحوج ما يكونون إليها، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أي: الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: قالت لهم الآلهة: كذبتم، ما نحن أمرناكم بعبادتنا. كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَهٌ إِلَهٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ (٩٣) وَإِذَا حُجِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٩٤)﴾ [الأحقاف: ٦، ٥] وقال تعالى: ﴿وَأَقْبَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَٰهَةً يُكْرَهُ لَهُمْ عِبَادَتُهُمْ﴾ (٩٥) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٩٦)﴾ [مریم: ٨١، ٨٢]. وقال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَمَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَسُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَهُمْ عَلَىٰ تَوْبَقٍ﴾ (٩٧) [الكهف: ٥٢] والآيات في هذا كثيرة. وقوله: ﴿وَأَلْقَا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلََّةَ﴾ - قال قتادة، وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذ، أي: استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع، كما قال: ﴿أَتَمِيعَ يَوْمٍ وَاتَّيَرَ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مریم: ٣٨] أي: ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ! وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَاتَّجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (٩٨) [الحج: ١٢]، وقال: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ لَكُمُ الْفِتْنَةُ﴾ [طه: ١١١] أي: خضعت وذلت واستكانت وأنايت واستسلمت. ﴿وَأَلْقَا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلََّةَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (٩٩) أي: ذهب واضمححل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير. ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَذَنْهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ (١٠٠) أي: عذاباً على كفرهم، وعذاباً على صدهم الناس عن اتباع الحق، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَبْهَتُونَ عَنْهُ وَيَتَنَوَّعُونَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦] أي: يبهون الناس، عن اتباعه، ويتعدون هم منه أيضاً ﴿وَلَنْ يَهْدِيَهُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَنْصُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦]. وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأمراء: ٣٨]. وقد قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سريج بن يونس، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، عن عبد الله في قول الله: ﴿يَذَنْهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قال: زيدوا عقارب أنبيائها كالنخل الطوال. وحدثنا سريج بن يونس، حدثنا إبراهيم بن سليمان، حدثنا الأعمش، عن الحسن، عن ابن عباس أنه قال: ﴿يَذَنْهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قال: هي خمسة أنهار فوق العرش يعذبون ببعضها بالليل وبعضها بالنهار.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَنُذُرًا لِلْمُذِلِّينَ﴾ (١٠١).

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنة، ويندب إلى الإحسان، كما قال تعالى: ﴿وَلْيَنْعَمِ اللَّهُ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُ النَّاسُ لَهَا وَرَهُ فَجَعَلْنَا لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [النحل: ١٧٦]، وقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ نَّظِيرُهَا فَمَنْ عَمَا وَأَمْسَحَ نَلْزَمُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال: ﴿وَالْجَوْرُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا، من شرعية العدل والندب إلى الفضل. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله. وقال سفيان بن عيينة: العدل في هذا الموضع: استواء السرية والعلاية من كل عامل لله عملاً. والإحسان: أن تكون سريرته أحسن من علانيته. والمنكر: أن تكون علانيته أحسن من سريرته. وقوله: ﴿وَلْيَتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: يأمر بصلة الأرحام، كما قال: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ لَهُمْ وَآلِ السَّيِّئِينَ وَلَا يَذَّكَّرُ لَهُمْ﴾ [الإسراء: ٢٦]. وقوله: ﴿وَيَتَعَنَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾: فالفواحش: المحرمات. والمنكرات: ما ظهر منها من فاعلها، ولهذا قال في الموضع الآخر: ﴿قَدْ لِمَّا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَبَاطِنَهَا﴾ [الأعراف: ٣٣]. وأما البيغي فهو: العدوان على الناس. وقد جاء في الحديث: «ما من ذنب أجدر أن يجعل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة، من البيغي وقطيعة الرحم». وقوله: ﴿يُعْظَمُكُمْ﴾ أي: يأمركم بما يأمركم به من الخير، وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر، ﴿لَمَّا لَكُمْ تَذَكُّرٌ﴾. قال الشعبي، عن شتير بن شَكل: سمعت ابن مسعود يقول: إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية. رواه ابن جرير. وقال سعيد عن قتادة: قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية، ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنون إلا أمر الله به، وليس من خلق سيئ كانوا يتعابرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه. وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها. قلت: ولهذا جاء في الحديث: «إن الله يحب معالي الأخلاق، ويكره سفاسفها». وقال الحافظ أبو نعيم في كتابه «كتاب معرفة الصحابة»: حدثنا أبو بكر محمد بن الفتح الحنبلي، حدثنا يحيى بن محمد مولى بني هاشم، حدثنا الحسن بن داود المثنديري، حدثنا عمر بن علي المقدمي، عن علي بن عبد الملك بن عمير عن أبيه قال: بلغ أكرم بن صيفي مخرج النبي ﷺ، فأراد أن يأتيه، فأبى قومه أن يدعوه وقالوا: أنت كبيرنا، لم تكن لتخف إليه! قال: فليأته من يبلغه عني ويبلغني عنه. فانتدب رجلان فأتيا النبي ﷺ فقالا: نحن رسل أكرم بن صيفي، وهو يسألك: من أنت؟ وما أنت؟ فقال النبي ﷺ: «أما من أنا فأننا محمد بن عبد الله، وأما أنا فأننا عبد الله ورسوله». قال: ثم تلا عليهم هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَلِيَنَافِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَتَعَنَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَمَّا لَكُمْ تَذَكُّرٌ﴾ [١٦٩]، قالوا: اردد علينا هذا القول فردده عليهم حتى حفظوه. فأتيا أكرم فقالا: أبى أن يرفع نسبه، فسلنا عن نسبه، فوجدناه زاكى النسب، واسطفا في مضمر، وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها، فلما سمعهم أكرم قال: إني قد أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملاتها، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً، ولا تكونوا فيه أذناباً.

وقد ورد في نزول هذه الآية الكريمة حديث حسن، رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد، حدثنا شهر، حدثني عبد الله بن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته جالس، إذ مر به عثمان بن مظعون، فكشر إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «ألا تجلس؟» فقال: بلى. قال: فجلس رسول الله ﷺ، فبينما هو يحدثه إذ شخص رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فنظر ساعة إلى السماء فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينته في الأرض، فتحرف رسول الله ﷺ عن جلسه عثمان إلى حيث وضع بصره فأخذ ينفض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له، وابن مظعون ينظر فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له، شخص بصر رسول الله ﷺ إلى السماء كما شخص أول مرة. فأتبعه بصره حتى توارى في السماء. فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى فقال: يا محمد، فيم كنت أجالسك؟ ما رأيك تفعل كفعلك الغداة! قال: «وما رأيته فعلت؟» قال: رأيك شخص بصرك إلى السماء ثم وضعته حيث وضعت على يمينك، فتحرفت إليه وتركتني، فأخذت تنفض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك. قال: «وفطنت لذلك؟» فقال عثمان: نعم. قال رسول الله ﷺ: «أتاني رسول الله ﷻ أتفا وأنت جالس». قال: رسول الله ﷻ؟ قال: «نعم». قال: فما قال لك؟ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْغَبَىٰ يُعْطِكُمْ لَكُمْ تَذَكُّرًا﴾ (٩١). قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي، وأحببت محمداً ﷺ. إسناده جيد متصل حسن، قد بين فيه السماع المتصل. ورواه ابن أبي حاتم، من حديث عبد الحميد بن بهرام مختصراً.

حديث آخر: عن عثمان بن أبي العاص الثقفي في ذلك، قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا هُرَيْم، عن لَيْث، عن شهر بن حوشب، عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالساً، إذ شخص بصره فقال: «أتاني جبريل، فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْغَبَىٰ يُعْطِكُمْ لَكُمْ تَذَكُّرًا﴾ (٩١)». وهذا إسناده لا بأس به، ولعله عند شهر بن حوشب من الوجهين، والله أعلم.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَيْدًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَقَذَّرُوا عَنْهَا فَرَوَّاهَا مِنْ عِدَّةٍ لَكُمْ لَعَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ قَدْ أَفْسَدُوا مَا جَعَلَهُ اللَّهُ بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَلَا يَشْعُرُونَ (٩٢).

وهذا مما يأمر الله تعالى به، وهو: الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان المؤكدة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾. ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْشَكُمْ أَنْ تَتَّبِعُوا وَمَنْ تَتَّبِعُوا فَتُفْسِدُوا بِهِ سَبِيلَ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٢٤) وبين قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَثْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاعْفُوا عَنْهُمْ سَبْعًا﴾ (المائدة: ٨٩) أي: لا تتركوها بلا تكفير، وبين قوله، عليه السلام، فيما ثبت عنه في الصحيحين: «إني والله إن شاء الله، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها، إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها». وفي رواية: «وكفرت عن يميني» لا تعارض بين هذا كله، ولا بين الآية المذكورة ههنا وهي قوله: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَيْدًا﴾؛ لأن هذه الأيمان، المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع؛ ولهذا قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يعني: الحلف، أي: حلف الجاهلية؛ ويؤيده ما رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن محمد - هو ابن أبي شيبه - حدثنا ابن نمير وأبو أسامة، عن زكريا - هو ابن أبي زائدة - عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه، عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة». وكذا رواه مسلم، عن ابن أبي شيبه، به. ومعناه: أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه. وأما ما ورد في الصحيحين، عن عاصم الأحول، عن أنس، رضي الله عنه، أنه قال: حلف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا - فمعناه: أنه أخی بينهم، فكانوا يتوارثون به، حتى نسخ الله ذلك، والله أعلم. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عمار الأسدي، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا ابن أبي ليلى، عن مزينة في قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ قال: نزلت في بيعة النبي ﷺ، كان من أسلم بايع النبي ﷺ على الإسلام، فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾، هذه البيعة التي بايعتم على الإسلام، ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ البيعة، لا يحملنكم قلة محمد وأصحابه وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي تابيعتم على الإسلام.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا صخر ابن جويرية، عن نافع قال: لما خلع الناس يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر

بنيه وأهله، ثم تشهد، ثم قال: أما بعد، فإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الغادر يُنصب له لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غدره فلان، وإن من أعظم الغدر - إلا أن يكون الإشراك بالله - أن يبيع رجل رجلًا على بيع الله ورسوله، ثم ينكث بيعته، فلا يخلعن أحد منكم ولا يسرفن أحد منكم في هذا الأمر، فيكون صليماً بيني وبينه». المرفوع منه في الصحيحين. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا حجاج، عن عبد الرحمن بن عباس، عن أبيه، عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شرط لأخيه شرطاً، لا يريد أن يفي له به، فهو كالمدلي جاره إلى غير مئة». وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد وعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَرْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا﴾ قال عبد الله بن كثير، والسدي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة، كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه. وقال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده. وهذا القول أرجح وأظهر، وسواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا. وقوله: ﴿أَنْكَا﴾: يحتمل أن يكون اسم مصدر؛ نقضت غزلها أنكاً، أي: أنقاضاً. ويحتمل أن يكون بدلاً عن خبر كان، أي: لا تكونوا أنكاً، جمع نكث من ناكث؛ ولهذا قال بعده: ﴿تَنْجِدُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي: خديعة ومكرًا، ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: يحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنون إليكم فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم. فنهى الله عن ذلك، لينبه بالأدنى على الأعلى؛ إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه، فلان ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى. وقد قدمنا - والله الحمد - في سورة «الأنفال» قصة معاوية لما كان بينه وبين ملك الروم أمدة، فسار معاوية إليهم في آخر الأجل، حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم، أغار عليهم وهم غارون لا يشعرون، فقال له عمرو بن عَبْسَةَ: الله أكبر يا معاوية، وفاء لا غدرًا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عُقْدَةً حتى ينقضي أمدها». فرجع معاوية بالجيش، رضي الله عنه وأرضاه. قال ابن عباس: ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: أكثر. وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء، فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز. فنهوا عن ذلك. وقال الضحاک، وقتادة، وابن زيد نحوه. وقوله: ﴿إِنَّمَا يَلْوُكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ قال سعيد بن جبیر: يعني بالكثرة. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: أي بأمره إياكم بالوفاء والعهد. ﴿وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، فيجازي كل عامل بعمله، من خير وشر.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُبَيِّنُ مَن يَشَاءُ وَلِيَهْدِيَ مَن يَشَاءُ وَلِيُضِلَّ مَن يَشَاءُ وَلِيُعَذِّبَ مَن يَشَاءُ وَلَا تَشْفَعُونَ عِندَهُ إِلَّا مَن كَانَ عِنْدَ اللَّهِ بِرٌّ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَضَتْ غَرْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا﴾ قال عبد الله بن عباس: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَمَا كَانَ بِأَن يَفْعَلَ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِهِ﴾. ﴿وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٩٥) ما عذركم بئذ وما عند الله باقي ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون (٩٦).

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَوَأَمَنَّ فِي الْآرْضِ كُفَّهً جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] أي: لوفق بينكم. ولما جعل اختلافًا ولا تباعض ولا شحنا ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١٠٣) إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقْتُهُمْ [مرد: ١١٨، ١١٩]، وهكذا قال ههنا: ﴿وَلَكِنْ يُبَيِّنُ مَن يَشَاءُ وَلِيَهْدِيَ مَن يَشَاءُ﴾، ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم، فيجازيكم عليها على الفتل والقتل والنقيير والقطمير. ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلاً، أي: خديعة ومكرًا، لئلا تزل قدم بعد ثبوتها: مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزل عن طريق الهدى، بسبب الأيمان الحائنة المشتملة على الصد عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿وَتَذَرُوا الشَّوْءَ بِمَا سَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا تعاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه، وحفظ عهده رجاء موعوده؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَحِبُّونَ مَا عِدَّتْ بَيْدٌ﴾ أي: يفرغ وينقضي، فإنه إلى أجل معدود محصور بمقدر ممتناه، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بِاقٍ﴾ أي: وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاذ له فإنه دائم لا يحول ولا يزول، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: قسم من الرب ﷻ متلقى باللام، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم، أي: ويتجاوز عن سيئها. ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧).

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً - وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه، من ذكر أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله - بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة. والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت. وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها

بالرزق الحلال الطيب. وعن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه فسرها بالقناعة. وكذا قال ابن عباس، وعكرمة، وهب بن منه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، أنها: السعادة. وقال الحسن، ومجاهد، وقناة: لا يطيب لأحد الحياة إلا في الجنة. وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا، وقال الضحاك أيضاً: هي العمل بالطاعة والانصراف بها. والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني شرحبيل بن شريك، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ووزق كفافاً، وقَّعه الله بما آتاه». ورواه مسلم، من حديث عبد الله بن يزيد المقرئ، به. وروى الترمذي والنسائي، من حديث أبي هانئ، عن أبي علي الجبني عن فضالة بن عبيد؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قد أفلح من هُدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً، وقَّع به». وقال الترمذي: هذا حديث صحيح. وقال الإمام أحمد، حدثنا يزيد، حدثنا هُمام، عن يحيى، عن قناة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة وأما الكافر فيعطيه حسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً». انفرد بإخراجه مسلم.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

هذا أمر من الله لعباده على لسان نبيه ﷺ: إذا أرادوا قراءة القرآن، أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم. وهو أمر نذير ليس بواجب، حكى الإجماع على ذلك الإمام أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الاستعاذة مبسطة في أول التفسير، والله الحمد والمنة. والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة، لثلاث يلبس على القارئ قراءته ويخلط عليه، ويمنعه من التدبر والتفكير، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة، وحكي عن حمزة، وأبي حاتم السجستاني: أنها تكون بعد التلاوة، واحتجوا بهذه الآية. ونقل النووي في شرح المذهب مثل ذلك عن أبي هريرة أيضاً، ومحمد بن سيرين، وإبراهيم النخعي. والصحيح الأول، لما تقدم من الأحاديث الدالة على تقدمها على التلاوة، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾: قال الثوري: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه. وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم. وقال آخرون: كقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ (ص: ١٨٣). ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ﴾: قال مجاهد: يطيعونه. وقال آخرون: اتخذوه ولياً من دون الله. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾: أي: أشركوه في عبادة الله تعالى. ويحتمل أن تكون الباء سببية، أي: صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى. وقال آخرون: معناه: أنه شركهم في الأموال والأولاد.

﴿وَإِذَا بَلَغْنَا آيَةَ مَكَاتٍ ءَايَةُ اللَّهِ أَعْلَمُ بِمَا يَتَزَكَّى قَالُوا لَئِنَّا أَنتَ مُقَرَّبٌ بِأَكْثَرِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُّوسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا للرسول: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُقَرَّبٌ﴾ أي: كذاب. وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. وقال مجاهد: ﴿بَلَّغْنَا آيَةَ مَكَاتٍ ءَايَةُ اللَّهِ﴾ أي: رفعناها وأثبتنا غيرها. وقال قناة: هو كقوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]. فقال تعالى مجيباً لهم: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُّوسِ﴾ أي: جبريل، ﴿مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق والعدل، ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فيصدقوا بما نزل أولاً وثانياً وتثبت له قلوبهم، ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وجعله هادياً مهدياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله.

﴿وَلَقَدْ نَزَّلَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِثُونَ إِلَيْهِ أُعْجِبْتَ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ ثَبِثْ ﴿١٠٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت: إن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش، وكان يباعاً يبيع عند الصفا، فربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذلك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يترد جواب الخطاب فيما لا بد منه؛ فهذا قال تعالى راداً عليهم في افتراءهم ذلك: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِثُونَ إِلَيْهِ أُعْجِبْتَ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ ثَبِثْ﴾ يعني: القرآن، أي: فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن، في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة

الشاملة، التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبي أرسل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟! لا يقول هذا من له أدنى مُشْكَة من العقل. قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: كان رسول الله ﷺ - فيما بلغني - كثيراً ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني يقال له جبر، عبد لبعض بني الحضرمي، فكانوا يقولون: والله ما يُعلم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر النصراني، غلام بني الحضرمي فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبُكُمْ وَهَذَا لِسَانُ عَزِيزٍ مُّبِينٍ﴾. وكذا قال عبد الله بن كثير: وعن عكرمة وقتادة: كان اسمه يعيش. وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن محمد الطوسي، حدثنا أبو عامر، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن مسلم بن عبد الله الملائي، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعلم قيناً بمكة، وكان اسمه بلغام، وكان أعجمي اللسان، وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده، قالوا: إنما يعلمه بلغام، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبُكُمْ وَهَذَا لِسَانُ عَزِيزٍ مُّبِينٍ﴾. وقال الضحّاك بن مزاحم: هو سلمان الفارسي، وهذا القول ضعيف؛ لأن هذه الآية مكية، وسلمان إنما أسلم بالمدينة. وقال عبيد الله بن مسلم: كان لنا غلامان روميان يقرآن كتاباً لهما بلسانهما، فكان النبي ﷺ يمر بهما، فيقوم فيسمع منهما فقال المشركون: يتعلم منهما، فأنزل الله هذه الآية. وقال الزهري، عن سعيد بن المسيب: الذي قال ذلك من المشركين رجل كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فارتد بعد ذلك عن الإسلام، وافتري هذه المقالة، قبحه الله!

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَلَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إِنَّمَا يَقْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٠٤﴾.

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره وتغافل عما أنزل على رسوله، ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله في الدنيا، ولهم عذاب اليم موجه في الآخرة. ثم أخبر تعالى أن رسوله ليس بمغتر ولا كذاب؛ لأنه ﴿إِنَّمَا يَقْتَرِي الْكَذِبَ﴾ على الله وعلى رسوله شراً الخلق، ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ من الكفرة والملحدّين المعروفين بالكذب عند الناس. والرسول محمد ﷺ، كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً، معروفاً بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد؛ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله ﷺ، كان فيما قال له: أو كنتم تنهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. فقال هرقل: فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله ﷻ.

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَمَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَتَسْمِعُهُمْ وَأُصْرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٠٦﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٧﴾.

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمان به: أنه قد غضب عليه، لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم وشبّتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم فلا يعقلون بها شيئاً ينفعهم وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا اغنت عنهم شيئاً، فهم غافلون عما يراد بهم. ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: لا بد ولا عجب أن هذه صفته، ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: الذين خسروا أنفسهم وأهاليهم يوم القيامة. وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾: فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهاً لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يابى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله. وقد روى العوفي عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر، حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، وهكذا قال الشعبي، وأبو مالك، وقتادة. وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن مَعْمَرٍ، عن عبد الكريم الجَزْرِيّ، عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعدبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئناً بالإيمان، قال النبي ﷺ: «إن عادوا فعدوا فعد». ورواه البيهقي بأبسط من ذلك، وفيه أنه سب النبي ﷺ وذكر ألهتهم بخير! قال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئناً بالإيمان. قال: «إن عادوا فعد». وفي ذلك أنزل الله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾.

تاب منهم إليه تاب عليه، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَدَلُوا الشُّوْءَ بِمَقَدَّارٍ﴾. قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل. ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أي: أقبلوا عما كانوا فيه من المعاصي، وأقبلوا على فعل الطاعات، ﴿إِنَّكَ رَبُّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: تلك الفعلية والذلة ﴿لَمَغْفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَكَرَّ بَيْتَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٢١﴾ ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ إِحْسِنْتَهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿١٢٢﴾ ﴿وَمَا يَتَّبِعُهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَهُ فِي الْآخِرَةِ لِنَصِيبٍ﴾ ﴿١٢٣﴾ ثُمَّ أُوحِيََا إِلَيْكَ أَنْ أَنْعِمَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٤﴾.

يمدح تبارك وتعالى عبده ورسوله وخليفه إبراهيم، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء، ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾، فأما «الأمّة»، فهو الإمام الذي يقتدى به. والقانت: هو الخاشع المطيع. والحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وَكَّرَّ بَيْتَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. قال سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن مسلم البطين، عن أبي العبيدين: أنه سأل عبد الله بن مسعود عن الأمّة القانت، فقال: الأمّة: معلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله. وعن مالك قال: قال ابن عمر: الأمّة الذي يعلم الناس دينهم. وقال الأعمش، عن الحكم بن يحيى بن الجزار، عن أبي العبيدين: أنه جاء إلى عبد الله فقال: مَنْ نَسَأَلْ إِذَا لَمْ نَسَأَلْكَ؟ فكان ابن مسعود رقيقاً، فقال: أخبرني عن الأمّة، فقال: الذي يعلم الناس الخير. وقال الشعبي: حدثني فروة بن نوفل الأشجعي قال: قال ابن مسعود: إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً، فقلت في نفسي: غلط أبو عبد الرحمن، إنما قال الله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾، فقال: أتدري ما الأمّة وما القانت؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: الأمّة الذي يعلم الناس الخير. والقانت: المطيع لله ورسوله. وكذلك كان معاذ معلم الخير، وكان مطيعاً لله ورسوله. وقد روي من غير وجه، عن ابن مسعود؛ حرره ابن جرير. وقال مجاهد: ﴿أُمَّةً﴾ أي: أمة وحده، والقانت: المطيع. وقال مجاهد أيضاً: كان إبراهيم أمة، أي: مؤمناً وحده، والناس كلهم إذ ذاك كفار. وقال قتادة: كان إمام هدي، والقانت: المطيع لله.

وقوله: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ أي: قائماً بشكر نعم الله عليه، كما قال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ ﴿١٢٥﴾ ﴿[النجم: ٣٧]، أي: قام بجميع ما أمره الله تعالى به. وقوله: ﴿إِحْسِنْتَهُ﴾ أي: اختاره واصطفاه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَلَىٰ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿[الأنبياء: ٥١]، ثم قال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضي. وقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة، ﴿وَلَهُ فِي الْآخِرَةِ لِنَصِيبٍ﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: لسان صدق.

وقوله: ﴿ثُمَّ أُوحِيََا إِلَيْكَ أَنْ أَنْعِمَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه، أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء: ﴿أَنْ أَنْعِمَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، كما قال في «الأنعام»: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُهُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٦١﴾، ثم قال تعالى منكراً على اليهود: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿١٧٢﴾.

لا شك أن الله شرع في كل ملة يوماً من الأسبوع، يجتمع الناس فيه للعبادة، فشرع تعالى لهذه الأمّة يوم الجمعة؛ لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة، واجتمعت الناس فيه وتمت النعمة على عباده. ويقال: إنه تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى، فعدّلوا عنه واختاروا السبت؛ لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات الذي كمل خلقها يوم الجمعة، فالزهم تعالى به في شريعة التوراة، ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه، مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه. وأخذهم مواعيدهم وعهودهم على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾. قال مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة. ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به، حتى بعث الله عيسى ابن مريم، فيقال: إنه حوّلهم إلى يوم الأحد. ويقال إنه: لم يترك شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها وإنه لم يزل محافظاً على السبت حتى رفع، وإن النصراني بعده في زمان قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد، مخالفة لليهود، وتحولوا إلى الصلاة شرقاً عن الصخرة، والله أعلم. وقد ثبت في الصحيحين، من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن همام، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالتاس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غد». لفظ البخاري. وعن أبي هريرة، وحذيفة، رضي الله عنهما، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد،

فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة، والمقضي بينهم قبل الخلائق». رواه مسلم، والله أعلم.

﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْ لَهُم بِآيَاتِي مِنْ أَحْسَنِ إِذَا رَأَيْتَهُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صُلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْهَكِينَ﴾ (١٢٥).
يقول تعالى أمراً رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله ﴿بِالْحُكْمِ﴾. قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة
﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها، ليحذروا بأس الله تعالى. وقوله: ﴿وَحَدِّثْ لَهُم بِآيَاتِي مِنْ أَحْسَنِ﴾ أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كما قال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [المعكوت: ٤٦] فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر موسى وهارون، عليهما السلام، حين بعثهما إلى فرعون فقال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَكُمَا بِدَعْوَى شَيْءٍ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صُلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْهَكِينَ﴾ أي: قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلى الله، ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات، فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير، عليك البلاغ، وعلينا الحساب، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، و ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ صَبَرْتُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (١٢٨).
يأمر تعالى بالعدل في الاقتصاد والمماثلة في استيفاء الحق، كما قال عبد الرزاق، عن الثوري، عن خالد، عن ابن سيرين:
أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾: إن أخذ منك رجل شيئاً، فخذ منه مثله. وكذا قال مجاهد، وإبراهيم، والحسن البصري، وغيرهم. واختاره ابن جرير. وقال ابن زيد: كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين، فأسلم رجال ذوو منعة، فقالوا: يا رسول الله، لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب! فنزلت هذه الآية، ثم نسخ ذلك بالجهاد. وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة «النحل» كلها بمكة، وهي مكة إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أحد، حيث قتل حمزة، رضي الله عنه، ومثل به، فقال رسول الله ﷺ: «لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بثلاثين رجلاً منهم» فلما سمع المسلمون ذلك قالوا: والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط. فأنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ إلى آخر السورة. وهذا مرسل، وفيه رجل مبهم لم يسم، وقد روي هذا من وجه آخر متصل، فقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا الحسن بن يحيى، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا صالح المري، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان، عن أبي هريرة، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبد المطلب، رضي الله عنه، حين استشهد، فنظر إلى منظر لم ينظر أوجع للقلب منه - أو قال: لقلبه منه -، فنظر إليه وقد مثل به فقال: «رحمة الله عليك، إن كنت - لما علمت - لوصولاً للرحم، فعولاً للخيرات، والله لولا حزن من بعدك عليك، لسرني أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع - أو كلمة نحوها - أما والله على ذلك، لأمثلهن بسبعين كمثلتك». فنزل جبريل، عليه السلام، على محمد ﷺ بهذه السورة، وقرأ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ إلى آخر الآية، فكفر رسول الله ﷺ - يعني: عن يمينه - وأمسك عن ذلك. وهذا إسناد فيه ضعف؛ لأن صالحاً - هو ابن بشير المري - ضعيف عند الأئمة، وقال البخاري: هو منكر الحديث. وقال الشعبي وابن جريج: نزلت في قول المسلمين يوم أحد فيمن مثل بهم: لنمثلن بهم. فأنزل الله فيهم ذلك. وقال عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه: حدثنا هديّة بن عبد الوهاب المروزي، حدثنا الفضل بن موسى، حدثنا عيسى بن عبيد، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالقة، عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد، قتل من الأنصار ستون رجلاً، ومن المهاجرين ستة، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لثربين عليهم. فلما كان يوم الفتح قال رجل: لا تعرف قريش بعد اليوم. فنادى مناد: إن رسول الله ﷺ آمن الأسود والأبيض إلا فلاناً وفلاناً - ناساً سماهم - فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ صَبَرْتُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٢٦) فقال رسول الله ﷺ: «نصبر ولا نعاقب».

وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل، كما في قوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، ثم قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَمْلَحَ غَلْبَهُ عَلَى آلِهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال: ﴿وَالْجُورُ قِسَاصٌ﴾، ثم قال: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾، ثم قال: ﴿وَلَكِنْ صَبَرْتُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾.

ومكذبهم، البصير بهم فيعطي كلاً ما يستحقه في الدنيا والآخرة.

ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء

رواية أنس بن مالك:

قال الإمام أبو عبد الله البخاري: حدثني عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا سليمان - هو ابن بلال - عن شريك بن عبد الله قال: سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة: إنه جاءه ثلاثة نفر، قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم. فكانت تلك الليلة فلم يرههم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه، وتنام عيناه ولا ينام قلبه - وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم - فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم، فتولاه منهم جبريل، فشق جبريل ما بين نحره إلى لبتة حتى فرغ من صدره وجوفه، فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه، ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشواً إيماناً وحكمة، فحشا به صدره ولغاديدته - يعني عروق حلقه - ثم أطبقه. ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فضرب باباً من أبوابها، فناداه أهل السماء: من هذا؟ فقال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: معي محمد. قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قالوا: مرحباً به وأهلاً به، يستبشر به أهل السماء لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به في الأرض حتى يُعَلِّمهم. ووجد في السماء الدنيا آدم، فقال له جبريل: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلم عليه، وردّ عليه آدم فقال: مرحباً وأهلاً بابني، نعم الابن أنت، فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال: «ما هذان النهران يا جبريل؟» قال: هذا النيل والفرات عنصرهما، ثم مضى به في السماء، فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب يده فإذا هو مسك أذفر فقال: «ما هذا يا جبريل؟» قال: هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك.

ثم عرج إلى السماء الثانية، فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الأولى: مَنْ هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قالوا: مرحباً وأهلاً وسهلاً. ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية. ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فقالوا له مثل ذلك. ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فقالوا له مثل ذلك. ثم عرج به إلى السماء السادسة فقالوا له مثل ذلك. ثم عرج به إلى السماء السابعة، فقالوا له مثل ذلك. كل سماء فيها أنبياء قد سماهم، قد وعيت منهم إدريس في الثانية وهارون في الرابعة، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه، وإبراهيم في السادسة، وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله. فقال موسى: «رب لم أظن أن يرفع عليّ أحداً» ثم علا به فوق ذلك، بما لا يعلمه إلا الله ﷻ، حتى جاء سيّدة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله إليه فيما يوحى: خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة. ثم هبط به حتى بلغ موسى، فاحتبسه موسى فقال: «يا محمد، ماذا عهد إليك ربك؟» قال: «عهد إليّ خمسين صلاة كل يوم وليلة» قال: إن أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم. فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل كأنه يستشير في ذلك، فأشار إليه جبريل: أن نعم، إن شئت. فعلا به إلى الجبار تعالى، فقال وهو في مكانه: «يا رب، خفف عنا، فإن أمتي لا تستطيع هذا» فوضع عنه عشر صلوات، ثم رجع إلى موسى فاحتبسه، فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات. ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال: «يا محمد، والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا، فضعفوا فتركوه، فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً، فارجع فليخفف عنك ربك» كل ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه، ولا يكره ذلك جبريل، فرفعه عند الخامسة فقال: «يا رب، إن أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم فخفف عنا» فقال الجبار: يا محمد، قال: «ليبك وسعديك» قال: إنه لا يبدل القول لديّ، كما فرضت عليك في أم الكتاب: «كل حسنة بعشر أمثالها، فهي خمسون في أم الكتاب وهي خمس عليك»، فرجع إلى موسى فقال: «كيف فعلت؟» فقال: «خفف عنا، أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها» قال موسى: «قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه، فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضاً». قال رسول الله ﷺ: «يا موسى قد - والله - استحييت من ربي مما اختلف إليه» قال: «فاهبط باسم الله»، فاستيقظ وهو في المسجد الحرام.

هكذا ساقه البخاري في «كتاب التوحيد»، ورواه في «صفة النبي ﷺ»، عن إسماعيل بن أبي أويس عن أخيه أبي بكر عبد الحميد، عن سليمان بن بلال. ورواه مسلم، عن هارون بن سعيد، عن ابن وهب، عن سليمان قال: «فزاد ونقص، وقدم وأخر». وهو كما قاله مسلم، رحمه الله، فإن شريك بن عبد الله بن أبي نعيم اضطرب في هذا الحديث، وساء حفظه ولم يضبطه، كما سيأتي بيانه في الأحاديث الأخر. ومنهم من يجعل هذا مناماً توطئة لما وقع بعد ذلك، والله أعلم. وقال البيهقي:

في حديث «شريك» زيادة تفرد بها، على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى ربه، يعني قوله: «ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى» قال: وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل - أصح. وهذا الذي قاله البيهقي هو الحق في هذه المسألة، فإن أبا ذر قال: يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ قال: «نور أتى أراه». وفي رواية «رأيت نوراً». أخرجه مسلم، رحمه الله.

وقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨]، إنما هو جبريل، عليه السلام، كما ثبت ذلك في الصحيحين، عن عائشة أم المؤمنين، وعن ابن مسعود، وكذلك هو في صحيح مسلم عن أبي هريرة، رضي الله عنهم، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة في تفسير هذه الآية بهذا. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت. فأتاني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن. قال جبريل: أصبت الفطرة» قال: «ثم عرج بي إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب ودعالي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى، فرحبا بي ودعوا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ فقال: محمد. فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بـيوسف، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب ودعالي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: قد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح الباب، فإذا أنا بإدريس، فرحب ودعالي بخير. ثم قال: يقول الله ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧].

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ فقال: محمد. فقيل: قد أرسل إليه؟ فقال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بهارون، فرحب ودعالي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بموسى فرحب ودعالي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه.

ثم ذهب بي إلى سدة المنتهى، فإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال. فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت، فما أحد من خلق الله، تعالى، يستطيع أن يصفها من حسنها. قال: «فأوحى الله إلي ما أوحى، وفرض علي في كل يوم وليلة خمسين صلاة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى». قال: «ما فرض ربك علي أمتك؟» قال: «قلت: خمسين صلاة في كل يوم وليلة». قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا تطيق ذلك، وإنني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم». قال: «فرجعت إلى ربي، فقلت: أي رب، خفف عن أمتي، فحط عني خمسا. فرجعت إلى موسى فقال: ما فعلت؟ قلت: قد حط عني خمسا. قال: «إن أمتك لا تطيق ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال: «فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى، ويحط عني خمسا خمسا حتى قال: يا محمد، هي خمس صلوات في كل يوم وليلة، بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت عشرا. ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب، فإن عملها كتبت سيئة واحدة. فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فإن أمتك لا تطيق ذلك». فقال رسول الله ﷺ: «لقد رجعت إلى ربي حتى استحييت». ورواه مسلم عن شيبان بن فروخ، عن حماد بن سلمة بهذا السياق، وهو أصح من سياق شريك.

قال البيهقي: وفي هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أسري به، عليه الصلاة والسلام، من مكة إلى بيت المقدس.

وهذا الذي قاله هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن قتادة، عن أنس، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ أتى بالبراق ليلة أسري به مُسْرَجاً ملجماً ليركبه، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: ما يحملك على هذا؟ فوالله ما ركبك قط أكرم على الله منه. قال: فارفض عرقاً. ورواه الترمذي عن إسحاق بن منصور، عن عبد الرزاق، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديثه. وقال أحمد أيضاً: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثني راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جبير، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي ربي، ﷺ، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم». وأخرجه أبو داود، من حديث صفوان بن عمرو، به. ومن وجه آخر ليس فيه أنس، فالله أعلم.

وقال أيضاً: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن سليمان التيمي، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أسري بي على موسى، عليه السلام، قائماً يصلي في قبره». ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة، عن سليمان بن طرخان التيمي وثابت البناني، كلاهما عن أنس. قال النسائي: وهذا أصح من رواية من قال: سليمان عن ثابت، عن أنس. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا وهب بن بَقِيَّة، حدثنا خالد، عن التيمي، عن أنس قال: أخبرني بعض أصحاب النبي ﷺ: أن النبي ﷺ ليلة أسري به مرَّ على موسى وهو يصلي في قبره. وقال أبو يعلى: حدثنا إبراهيم بن محمد بن عَزْرَةَ، حدثنا معتمر، عن أبيه قال: سمعت أنساً: أن النبي ﷺ ليلة أسري به مرَّ بموسى وهو يصلي في قبره. قال أنس: ذكر أنه حمل على البراق. فأوثق الدابة - أو قال: الفرس - قال أبو بكر: صفها لي. فقال رسول الله ﷺ، وذكر كلمة فقال: أشهد أنك رسول الله، وكان أبو بكر، رضي الله عنه، قد رآها. وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو البزار في مسنده: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا الحارث بن عبيد، عن أبي عمران الجوني، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بيننا أنا قاعد إذ جاء جبريل، عليه السلام، فوكر بين كتفي، فقممت إلى شجرة فيها كوكري الطير، فقع في أحدهما وقعدت في الآخر فسمت وارتفعت حتى سدت الخافقين وأنا أقلب طرفي، ولو شئت أن أمس السماء لمست، فالتفت إلي جبريل، عليه السلام، كأنه جلّس لاط، فعرفت فضل علمه بالله علي، وفتح لي باب من أبواب السماء فرأيت النور الأعظم، وإذا دون الحجاب رفرف الدر والياقوت، وأوحى إليّ ما شاء الله أن يوحى» ثم قال: هذا الحديث لا نعلم رواه إلا أنس، ولا نعلم رواه عن أبي عمران الجوني إلا الحارث بن عبيد، وكان رجلاً مشهوراً من أهل البصرة.

ورواه الحافظ البيهقي في «الدلائل» عن أبي بكر القاضي، عن أبي جعفر محمد بن علي بن دُحَيْم، عن محمد بن الحسين بن أبي الخثّين، عن سعيد بن منصور، فذكر بسنده مثله، ثم قال: وقال غيره في الحديث في آخره: «ولطّ دوني» أو قال: دون الحجاب - رفرف الدر والياقوت. ثم قال: هكذا رواه الحارث بن عبيد. ورواه حماد بن سلمة، عن أبي عمران الجوني، عن محمد بن عمير بن عطارد: أن النبي ﷺ كان في ملا من أصحابه، فجاءه جبريل، فنكت في ظهره، فذهب به إلى الشجرة وفيها مثل وكري الطير، فقع في أحدهما وقعد جبريل في الآخر، فنشأت بنا حتى بلغت الأفق، فلو بسطت يدي إلى السماء لئلها، فدلي بسبب وهبط النور، فوقع جبريل مغشياً عليه كأنه جلّس، فعرفت فضل خشيته على خشيتي. فأوحى إليّ: نبياً ملكاً أو نبياً عبداً وإلى الجنة؟ ما أنت؟ فأومأ إليّ جبريل وهو مضطجع: أن تواضع. قال: قلت لا. بل نبياً عبداً. قلت: وهذا إن صح يقتضي أنها واقعة غير ليلة الإسراء، فإنه لم يذكر فيها بيت المقدس، ولا الصعود إلى السماء، فهي كائنة غير ما نحن فيه، والله أعلم. وقال البزار أيضاً: حدثنا عمرو بن عيسى، حدثنا أبو بحر، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس، رضي الله عنه، أن محمداً ﷺ رأى ربه، ﷻ، هذا غريب.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا يونس، حدثنا عبد الله بن وهب، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن الزهري، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، عن أنس بن مالك قال: لما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بالبراق فكأنها أمّرت ذنبها، فقال لها جبريل: مه يا براق، فوالله إن ركبك مثله. وسار رسول الله ﷺ، فإذا هو بمعجوز على جانب الطريق، فقال: «ما هذه يا جبريل؟» قال: سر يا محمد. قال: فسار ما شاء الله أن يسير، فإذا شيء يدعو متحياً عن الطريق يقول: هلم يا محمد. فقال له جبريل: سر يا محمد. فسار ما شاء الله أن يسير، قال: فلقبه خلق من الخلق فقالوا: السلام عليك يا أول، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر، فقال له جبريل: اردد السلام يا محمد. فرد السلام، ثم لقبه الثانية فقال له مثل مقالته الأولى، ثم الثالثة كذلك، حتى انتهى إلى بيت المقدس. فعرض عليه الماء والخمر واللبن، فتناول رسول الله ﷺ اللبن، فقال له جبريل: أصبت الفطرة، ولو شربت الماء لغرقت وغرقت أمتك، ولو شربت الخمر لغويت ولغوت أمتك. ثم بعث له آدم فمن دونه من

الأنبياء، عليهم السلام، فأثهم رسول الله ﷺ تلك الليلة. ثم قال له جبريل: أما العجوز التي رأيت على جانب الطريق، فلم يبق من الدنيا إلا ما بقي من عمر تلك العجوز، وأما الذي أراد أن تميل إليه، فذاك عدو الله إبليس أراد أن تميل إليه، وأما الذين سلموا عليك إبراهيم وموسى وعيسى، عليهم الصلاة والسلام. وهكذا رواه الحافظ البيهقي في «دلائل النبوة» من حديث ابن وهب، وفي بعض ألفاظه نكارة وغبابة.

طريق أخرى عن أنس بن مالك:

وفيها غرابة ونكارة جداً، وهي في سنن النسائي المجتبى، ولم أرها في الكبير قال: أخبرنا عمرو بن هشام، حدثنا مَخْلَدٌ - هو ابن الحسين - عن سعيد بن عبد العزيز، حدثنا يزيد بن أبي مالك، حدثنا أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: «أُتيت بداية فوق الحمار ودون البغل، خطوها عند منتهى طرفها، فركبت ومعني جبريل، عليه السلام، فسرت فقال: انزل فصل. فصليت، فقال: أتدري أين صليت؟ صليت بطيبة وإليها المهاجر، ثم قال: انزل فصل. فصليت، فقال: أتدري أين صليت؟ صليت بيت لحم، حيث ولد عيسى، سينا، حيث كلم الله موسى، ثم قال: انزل فصل. فصليت، فقال: أتدري أين صليت؟ صليت بيت أمتهم ثم صعد بي إلى السماء عليه السلام، ثم دخلت بيت المقدس فجمع لي الأنبياء عليهم السلام، فقدمني جبريل حتى أمتهم ثم صعد بي إلى السماء الدنيا، فإذا فيها آدم، عليه السلام. ثم صعد بي إلى السماء الثانية، فإذا فيها ابن الخالة: عيسى ويحيى، عليهما السلام. ثم صعد بي إلى السماء الثالثة، فإذا فيها يوسف عليه السلام. ثم صعد بي إلى السماء الرابعة، فإذا فيها هارون، عليه السلام. ثم صعد بي إلى السماء الخامسة، فإذا فيها إدريس عليه السلام. ثم صعد بي إلى السماء السادسة، فإذا فيها موسى، عليه السلام، ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فإذا فيها إبراهيم عليه السلام، ثم صعد بي فوق سبع سموات وأُتيت سدة المنتهى، فغشيتني ضبابه فخررت ساجداً فقيل لي: إني يوم خلقت السموات والأرض، فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فقم بها أنت وأمتك. فرجعت إلى إبراهيم فلم يسألني عن شيء. ثم أتيت موسى فقال: كم فرض الله عليك وعلى أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: فإنك لا تستطيع أن تقوم بها، لا أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فرجعت إلى ربي فخفف عني عشراً. ثم أتيت موسى فأمرني بالرجوع، فرجعت فخفف عني عشراً، ثم ردت إلى خمس صلوات. قال: فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإنه فرض على بني إسرائيل صلاتين، فما قاموا بهما. فرجعت إلى ربي، فسألته التخفيف، فقال: إني يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فخمس بخمسين، فقم بها أنت وأمتك. فعرفت أنها من الله ﷻ صرئ، فرجعت إلى موسى، عليه السلام، فقال: ارجع، فعرفت أنها من الله صرئ - يقول: أي حتم - فلم أرجع».

طريق أخرى:

وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا خالد بن يزيد بن أبي مالك، عن أبيه، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: لما كان ليلة أسري برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، أتاه جبريل بداية فوق الحمار ودون البغل، حمله جبريل عليها، ينتهي خلفها حيث ينتهي طرفها. فلما بلغ بيت المقدس وبلغ المكان الذي يقال له: «باب محمد ﷺ» أتى إلى الحجر الذي ثمة، فغمزه جبريل بأصبعه فثقبه، ثم ربطها. ثم صعد فلما استويا في صَرْحَةِ المسجد، قال جبريل: يا محمد، هل سألت ربك أن يريك الحور العين؟ فقال: نعم. فقال: فانطلق إلى أولئك النسوة، فسلم عليهن وهن جلوس عن يسار الصخرة، قال: فأتيتهن فسلمت عليهن، فرددن علي السلام، فقلت: من أنتن؟ فقلن: نحن خيرات حسان، نساء قوم أبرار، نقوا فلم يدنونا، وأقاموا فلم يظعنوا، وخلدوا فلم يموتوا». قال: «ثم انصرفت، فلم ألث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذن مؤذن، وأقيمت الصلاة». قال: «فقمنا صفوفاً ننتظر من يؤمنا، فأخذ بيدي جبريل، عليه السلام، فقدمني فصليت بهم. فلما انصرفت قال جبريل: يا محمد، أتدري من صلى خلفك؟» قال: «قلت لا». قال: صلى خلفك كل نبي بعثه الله ﷻ».

قال: «ثم أخذ بيدي جبريل فصعد بي إلى السماء، فلما انتهينا إلى الباب استفتح فقالوا: من أنت؟ قال: أنا جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم». قال: «فتحوا له وقالوا: مرحباً بك وبمن معك». قال: «فلما استوى على ظهرها إذا فيها آدم، فقال لي جبريل: يا محمد، ألا تسلم على أبيك آدم؟» قال: «قلت بلى. فأتيته فسلمت عليه، فرد علي وقال: مرحباً بابني والنبي الصالح». قال: «ثم عرج بي إلى السماء الثانية فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم». «فتحوا له وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها عيسى وابن خالته يحيى عليهما السلام». قال: «ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال:

محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم. «فتفتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها يوسف، عليه السلام، ثم عرج بي إلى السماء الرابعة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم. فتفتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك. فإذا فيها إدريس، عليه السلام. قال: «عرج بي إلى السماء الخامسة، فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم. فتفتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها هارون، عليه السلام. قال: «ثم عرج بي إلى السماء السادسة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم. فتفتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها موسى، عليه السلام. ثم عرج بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم. فتفتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها إبراهيم، عليه السلام. فقال جبريل: يا محمد، ألا تسلم على أبيك إبراهيم؟ قال: قلت: بلى. فأتيته فسلمت عليه، فرد عليّ السلام وقال: مرحباً بك يا بني والنبي الصالح.

ثم انطلق بي عليّ ظهر السماء السابعة، حتى انتهى بي إلى نهر عليه خيام الياقوت واللؤلؤ والزبرجد، وعليه طير خضر أنعم طير رأيت. فقلت: يا جبريل، إن هذا الطير لناعم قال: يا محمد، أكله أنعم منه، ثم قال: يا محمد، أتدري أي نهر هذا؟ قال: «قلت: لا. قال: هذا الكوثر الذي أعطاك الله إياه. فإذا فيه آنية الذهب والفضة، يجري على رضراض من الياقوت والزمرّد، ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن» قال: «فأخذت منه آنية من الذهب، فاغترفت من ذلك الماء فشربت، فإذا هو أحلى من العسل، وأشدّ رائحة من المسك. ثم انطلق بي حتى انتهيت إلى الشجرة، فغشيتني سحابة فيها من كل لون، فرفضني جبريل، وخررت ساجداً لله، ﷻ فقال الله لي: يا محمد، إني يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فقم بها أنت وأمتك. قال: «ثم انجلت عني السحابة وأخذ بيدي جبريل، فانصرفت سريعاً فأتيته على إبراهيم فلم يقل لي شيئاً، ثم أتيت على موسى فقال: ما صنعت يا محمد؟ فقلت: فرض ربي عليّ وعلى أمتي خمسين صلاة. قال: فلن تستطيعها أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك. فرجعت سريعاً حتى انتهيت إلى الشجرة، فغشيتني السحابة، ورفضني جبريل، وخررت ساجداً، وقلت: رب، إنك فرضت عليّ وعلى أمتي خمسين صلاة، ولن أستطيعها أنا ولا أمتي، فخفف عنا. قال: قد وضعت عنكم عشراً. قال: ثم انجلت عني السحابة، وأخذ بيدي جبريل وانصرفت سريعاً، حتى أتيت على إبراهيم فلم يقل لي شيئاً، ثم أتيت على موسى، فقال لي: ما صنعت يا محمد؟ فقلت: وضع ربي عني عشراً، فقال: أربعون صلاة! لن تستطيعها أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنكم. فذكر الحديث كذلك إلى خمس صلوات، وخمس بخمسين ثم أمره موسى أن يرجع فيسأل التخفيف، فقلت: «إني قد استحييت منه تعالى».

قال: ثم انحدر، فقال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما لي لم آت على سماء إلا رحبوا بي وضحكوا إليّ، غير رجل واحد، فسلمت عليه فردّ عليّ السلام فرحب بي ولم يضحك إليّ. قال: يا محمد، ذاك مالك خازن جهنم لم يضحك منذ خلق، ولو ضحك إلى أحد لضحك إليك». قال: ثم ركب منصرفاً، فبينما هو في بعض طريقته مرّ بغير لقريش تحمل طعاماً، منها جمل عليه غرارتان: غرارة سوداء، وغرارة بيضاء، فلما حاذى بالغير نفرت منه واستدارت، وصرع ذلك البعير وانكسر. ثم إنه مضى فأصبح، فأخبر عما كان، فلما سمع المشركون قوله أتوا أبا بكر فقالوا: يا أبا بكر هل لك في صاحبك؟ يخبر أنه أتى في ليلته هذه مسيرة شهر، ثم رجع في ليلته. فقال أبو بكر، رضي الله عنه: إن كان قاله فقد صدق، وإننا لنصدقه فيما هو أبعد من هذا، نصدقه على خبر السماء. فقال المشركون لرسول الله ﷺ: ما علامة ما تقول؟ قال: «مررت بغير لقريش، وهي في مكان كذا وكذا، فنفرت العير منا واستدارت، وفيها بغير عليه غرارتان: غرارة سوداء، وغرارة بيضاء، فصرع فانكسر». فلما قدمت العير سألوهم، فأخبروهم الخبر على مثل ما حدثهم النبي ﷺ، ومن ذلك سمي أبو بكر الصديق. وسألوهم وقالوا: هل كان معك فيمن حضر موسى وعيسى؟ قال: «نعم». قالوا: فصفهم. قال: «نعم، أما موسى فرجل آدم، كأنه من رجال أزد عمان، وأما عيسى فرجل ربعة، سَبَط، تعلوه حمرة كأنما يتحادر من شعره الجمان». هذا سياق فيه غرائب عجبية.

رواية أنس، رضي الله عنه، عن مالك بن صُغَصَة:

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، قال: سمعت قتادة يحدث عن أنس بن مالك: أن مالك بن صُغَصَة حدثه: أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به، قال: «بينما أنا في الحطيم - وربما قال قتادة: في الحجر - مضطجعاً إذ أتاني آت - فجعل

يقول لصاحبه: الأوسط بين الثلاثة؟ قال: «فأتاني فقدّ - وسمعت قتادة يقول: فشقّ - ما بين هذه إلى هذه». وقال قتادة: فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرتة، وقد سمعته يقول: من قصّته إلى شِعْرَتِهِ قال: «فاستخرج قلبي». قال: «فأتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً وحكمة فغسل قلبي ثم حشي، ثم أعيد. ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض». قال: فقال الجارود: وهو البراق يا أبا حمزة؟ قال: نعم، يقع خطوه عند أقصى طرفه. قال: «فحملت عليه، فانطلق بي جبريل، عليه السلام، حتى أتى بي إلى السماء الدنيا، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. فقيل: مرحباً به، ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح، فلما خلصت، فإذا فيها آدم، عليه السلام، فقال: هذا أبوك آدم، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح. ثم صعد حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء»، قال: «ففتح، فلما خلصت، فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة. قال: هذا يحيى وعيسى، فسلم عليهما. قال: فسلمت فردا السلام ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح، فلما خلصت، فإذا يوسف، عليه السلام، قال: هذا يوسف». قال: «فسلمت عليه، فرد السلام ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح فلما خلصت فإذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلم عليه». قال: «فسلمت عليه. فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح». قال: «ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح، فلما خلصت، فإذا هارون، عليه السلام، قال: هذا هارون فسلم عليه. قال: فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ والنبي الصالح».

قال: «ثم صعد حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء. ففتح، فلما خلصت، فإذا أنا بموسى قال: هذا موسى، عليه السلام، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح». قال: «فلما تجاوزته بكى. قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي، يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي».

قال: «ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح، فلما خلصت، فإذا إبراهيم، عليه السلام، فقال: هذا إبراهيم، فسلم عليه». قال: «فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح».

قال: «ثم رفعت إلى سدة المنتهى، فإذا نبقتها مثل قلال حجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، فقال: هذه سدة المنتهى». قال: «وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات». قال: ثم رفع إلى البيت المعمور. قال قتادة: وحدثني الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون فيه. ثم رجع إلى حديث أنس قال: «ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل». قال: «فأخذت اللبن، قال: هذه الفطرة وأنت عليها وأمتك». قال: «ثم فرضت الصلاة خمسين صلاة كل يوم». قال: «فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، قال: ما فرض ربك على أمتك؟ قال: قلت: «خمسین صلاة كل يوم. إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف عن أمتك». قال: «فرجعت فوضع عني عشرأ، قال: فرجعت إلى موسى، فقال: بم أمرت؟ قلت: بأربعين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فوضع عني عشرأ آخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: بأربعين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع لعشرين صلاة كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك،

وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فوضع عني عشرين أثراً، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بعشر صلوات في كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع لعشر صلوات كل يوم، وإنني قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع لخمس صلوات كل يوم وإنني قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك». قال: «قلت: لقد سألت ربي ﷻ حتى استحيت، ولكن أرضى وأسلم، فنفدت، فناداني مناد: قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي». وأخرجاه في الصحيحين من حديث قتادة، بنحوه.

رواية أنس عن أبي ذر:

قال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر، رضي الله عنه، يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئاً حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه. ثم أخذ بيدي فخرج بي إلى السماء، فلما جئت إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء: افتح. قال: من هذا؟ قال: جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معي محمد. قال: أرسل إليه؟ قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا وإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى. فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم. وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نَسَمَ بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار. فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى.

«ثم عرج بي إلى السماء الثانية فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال له الأول، ففتح». قال أنس: فذكر أنه وجد في السموات آدم، وإدريس، وموسى، وعيسى، وإبراهيم، ولم يثبت كيف منازلهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة. قال أنس: فلما مرّ جبريل بالنبي ﷺ بإدريس قال: «مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. فقلت: من هذا؟ فقال: هذا إدريس. ثم مررت بموسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: موسى. ثم مررت بعيسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: عيسى ابن مريم، ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم». قال الزهري: فأخبرني ابن حزم: أن ابن عباس وأبا حنيفة الأنصاري كانا يقولان: قال النبي ﷺ: «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام». قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «فرض الله على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض الله على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها. فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فرجعت فوضع شطرها. فرجعت إليه فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعته فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لدي. فرجعت إلى موسى: فقال: ارجع إلى ربك. قلت: قد استحيت من ربي. ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جانبذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك». هذا لفظ البخاري في «كتاب الصلاة»، ورواه في ذكر بني إسرائيل، وفي الحج، وفي أحاديث الأنبياء من طرق آخر، عن يونس، به. ورواه مسلم في صحيحه في «كتاب الإيمان» منه، عن حزملة، عن ابن وهب، عن يونس به نحوه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسأله. قال: وما كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأى ربه؟ فقال: إني قد سأله فقال: «إني قد رأيته نوراً أنى أراه».

هكذا قد وقع في رواية الإمام أحمد. وأخرجه مسلم في صحيحه، عن أبي بكر بن أبي شيبه، عن وكيع، عن يزيد بن إبراهيم، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه». وعن محمد بن بشير، عن معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسأله. فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت فقال: «رأيت نوراً».

رواية أنس عن أبي بن كعب الأنصاري، رضي الله عنه:

قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا محمد بن إسحاق بن محمد بن المسيبي، حدثنا أنس بن عياض، عن يونس بن يزيد قال: قال ابن شهاب: قال أنس بن مالك: كان أبي بن كعب يحدث: أن رسول الله ﷺ قال: «فرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري، ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغها في صدري ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فخرج بي إلى السماء. فلما جاء السماء فافتتح فقال: من هذا؟ قال: جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معي محمد. قال: أرسل إليه؟ قال: نعم، فافتح. فلما علونا السماء الدنيا إذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى قال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح». قال: «قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسَم بنيه، فأهل اليمين هم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله هم أهل النار. فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى».

قال: «ثم عرج بي جبريل حتى أتى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا ففتح له». قال أنس: فذكر أنه وجد في السموات: آدم، وإدريس، وموسى، وعيسى، وإبراهيم، ولم يثبت لي كيف منازلهم؟ غير أنه ذكر أنه وجد آدم، عليه السلام، في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة. قال أنس: فلما مر جبريل عليه السلام ورسول الله ﷺ بإدريس قال: «مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح». قال: «قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا إدريس»، قال: «ثم مررت بموسى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. فقلت: من هذا؟ قال: هذا موسى، ثم مررت بعيسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى ابن مريم». قال: «ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم».

قال ابن شهاب: وأخبرني ابن حزم: أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان: قال رسول الله ﷺ: «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع صريف الأقلام». قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «فرض الله على أمتي خمسين صلاة». قال: «فرجعت بذلك حتى أمر على موسى، فقال موسى: ماذا فرض ربك على أمتك؟ قلت: فرض عليهم خمسين صلاة. فقال لي موسى: راجع ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك». قال: «فراجعت ربي. فوضع شرطها، فرجعت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لدي». قال: «فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك. فقلت: قد استحييت من ربي». قال: «ثم انطلق بي حتى أتى سدرة المنتهى». قال: «فغشيها ألوان ما أدري ما هي؟» قال: «ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك». هكذا رواه عبد الله بن الإمام أحمد في مسنده أبيه. وليس هو في شيء من الكتب الستة، وقد تقدم في الصحيحين من طريق يونس، عن الزهري، عن أبي ذر، مثل هذا السياق سواء، فالله أعلم.

رواية بريدة بن الحبيب الأسلمي:

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عبد الرحمن بن المتوكل ويعقوب بن إبراهيم - واللفظ له - قالوا: حدثنا أبو نُمَيْلة، أخبرنا الزبير بن جنادة، عن عبد الله بن بُرَيْدة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كان ليلة أسري به قال: فأتى جبريل الصخرة التي بيت المقدس، فوضع إصبعه فيها فخرقها فشد بها البراق». ثم قال البزار: لا نعلم رواه عن الزبير بن جنادة إلا أبو نُمَيْلة، ولا نعلم هذا الحديث يروى إلا عن بريدة. وقد رواه الترمذي في التفسير من جامعه، عن يعقوب بن إبراهيم الدُّوزِّي به وقال: غريب.

رواية جابر بن عبد الله، رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن صالح، عن ابن شهاب قال: قال أبو سلمة: سمعت جابر بن عبد الله يحدث: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس، قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه». أخرجاه في الصحيحين من طرق، عن الزهري، به. وقال البيهقي: أخبرنا أحمد بن الحسن القاضي، حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس بن محمد الدوري، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: إن رسول الله ﷺ حين انتهى إلى بيت المقدس، لقي فيه إبراهيم وموسى وعيسى، وإنه أتى بقدرين: قدح من لبن وقدح خمر، فنظر إليهما، ثم أخذ قدح اللبن. فقال

جبريل: أصبت، هديت للفطرة، لو اخترت الخمر لغوت أمتك. ثم رجع رسول الله ﷺ إلى مكة، فأخبر أنه أسري به، فافتتن ناس كثير كانوا قد صلوا معه. قال ابن شهاب: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: فتجهز - أو كلمة نحوها - ناس من قريش إلى أبي بكر فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس ثم رجع إلى مكة في ليلة واحدة! فقال أبو بكر: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: فأشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: فتصدقه بأن يأتي الشام في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني أصدقه بأبعد من ذلك أصدقه بخير السماء. قال أبو سلمة: فيها سمي أبو بكر: الصديق. قال أبو سلمة: فسمعت جابر بن عبد الله يحدث أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس، قمّت في الحجر، فجلّى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه».

رواية حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد: ثنا أبو النضر، ثنا شيبان، عن عاصم، عن زُرِّ بن حُبَيْش قال: أتيت حذيفة بن اليمان وهو يحدث عن ليلة أسري بمحمد ﷺ، وهو يقول: «فانطلقنا حتى أتينا بيت المقدس». فلم يدخلا. قال: قلت: بل دخله رسول الله ﷺ ليلتذّ وصلى فيه. قال: ما اسمك يا أصلع؟ فإني أعرف وجهك ولا أدري ما اسمك؟ قال: قلت: أنا زر بن حُبَيْش. قال: فما علمك بأن رسول الله ﷺ صلى فيه ليلتذّ؟ قال: قلت: القرآن يخبرني بذلك. قال: من تكلم بالقرآن فليج، اقرأ. قال: فقلت: «سُبْحَنَ الَّذِي أُنْزِلَتْ بِهِ الْقُرْآنُ، لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا». قال: يا أصلع، هل تجد «صلى فيه»؟ قلت: لا. قال: والله ما صلى فيه رسول الله ﷺ ليلتذّ، ولو صلى فيه لكتب عليكم صلاة فيه، كما كتب عليكم صلاة في البيت العتيق، والله ما زابلا البراق حتى فتحت لهما أبواب السماء، فرأيا الجنة والنار ووعدا الآخرة أجمع، ثم عادا عودهما على بدنهما. قال: ثم ضحك حتى رأيت نواجذه. قال: وتحدثوا أنه ربطه لا يفر منه، وإنما سخره له عالم الغيب والشهادة. قلت: أبا عبد الله، أي دابة البراق؟ قال: دابة أبيض طويل هكذا، خطوه مد البصر.

ورواه أبو داود الطيالسي، عن حماد بن سلمة، عن عاصم، به. ورواه الترمذي والنسائي في التفسير من حديث عاصم - وهو ابن أبي النجود - به، وقال الترمذي: حسن صحيح. وهذا الذي قاله حذيفة، رضي الله عنه، نفي، وما أثبتته غيره عن رسول الله ﷺ من ربط الدابة بالحلقة ومن الصلاة بالبيت المقدس، مما سبق وما سيأتي مقدّم على قوله، والله أعلم بالصواب.

رواية أبي سعيد - سعد بن مالك بن سنان الخدري:

قال الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب «دلائل النبوة»: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أبو بكر يحيى بن أبي طالب، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، أخبرنا أبو محمد راشد الحماني، عن أبي هارون العبدى، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال له أصحابه: يا رسول الله، أخبرنا عن ليلة أسري بك فيها، قال: قال الله عز وجل: «سُبْحَنَ الَّذِي أُنْزِلَتْ بِهِ الْقُرْآنُ، لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا لَهُ قُدْرًا لِنُرِيَهُ مِنَ الْآيَاتِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» ﴿١٧١﴾، قال: فأخبرهم فقال: «فبينما أنا نائم عشاء في المسجد الحرام، إذ أتاني آت فأيقظني، فاستيقظت فلم أرس شيئاً، وإذا أنا بكهينة خيال، فاتبعته بصري حتى خرجت من المسجد، فإذا أنا بدابة أدنى في شبهه بدوابكم هذه، بغالكم هذه، مضطرب الأذنين يقال له: البراق. وكانت الأنبياء تركبه قبلي، يقع حافره عند مدّ بصره، فركبته، فبينما أنا أسير عليه، إذ دعاني داع عن يميني: يا محمد، انظرني أسألك يا محمد، انظرني أسألك، فلم أجبه ولم أقم عليه، فبينما أنا أسير عليه، إذ دعاني داع عن يساري: يا محمد انظرني أسألك، فلم أجبه ولم أقم عليه، فبينما أنا أسير، إذ أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها، وعليها من كل زينة خلقها الله، فقالت: يا محمد، انظرني أسألك. فلم ألثفت إليها ولم أقم عليها. حتى أتيت بيت المقدس، فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء توثقها بها. فأتاني جبريل، عليه السلام، بإناءين: أحدهما خمر، والآخر لبن، فشربت اللبن، وترك الخمر، فقال جبريل: أصبت الفطرة فقلت: الله أكبر، الله أكبر. فقال جبريل: ما رأيت في وجهك هذا؟ قال: «فقلت: بينما أنا أسير، إذ دعاني داع عن يميني: يا محمد، انظرني أسألك. فلم أجبه ولم أقم عليه. قال: ذاك داعي اليهود، أما إنك لو أجبتهم - أو: وقفت عليه - لتهودت أمتك» قال: «فبينما أنا أسير، إذ دعاني داع عن يساري قال: يا محمد، انظرني أسألك. فلم ألثفت إليه ولم أقم عليه. قال: ذاك داعي النصارى، أما إنك لو أجبتهم لتنصرت أمتك». قال: «فبينما أنا أسير إذا أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها وعليها من كل زينة خلقها الله تقول: يا محمد، انظرني أسألك. فلم أجبه ولم أقم عليها. قال: تلك الدنيا، أما إنك لو أجبتها أو أقمّت عليها، لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة».

قال: «ثم دخلت أنا وجبريل بيت المقدس، فصلّى كل واحد منا ركعتين. ثم أنيت بالمعراج الذي تخرج عليه أرواح بني آدم، فلم ير الخلائق أحسن من المعراج، أما رأيت الميت حين يشق بصره طامحاً إلى السماء، وإنما يشق بصره طامحاً إلى السماء عجب به بالمعراج». قال: «فصعدت أنا وجبريل، فإذا أنا بملك يقال له: إسماعيل. وهو صاحب السماء الدنيا وبين يديه سبعون ألف ملك، مع كل ملك جُنْدُه مائة ألف ملك». قال: «وقال الله: ﴿وَمَا يَكْفُرُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾» [المدر: ٣١] فاستفتح جبريل باب السماء، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد بعث إليه؟ قال: نعم. فإذا أنا بآدم كهيته يوم خلقه الله ﷻ على صورته، هو تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين، فيقول: روح طيبة، ونفس طيبة، اجعلوها في عليين، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار فيقول: روح خبيثة، ونفس خبيثة، اجعلوها في سجين.

ثم مضيت هنية، فإذا أنا بأخونة عليها لحم مشرح ليس يقر بها أحد، وإذا أنا بأخونة أخرى عليها لحم قد أروح وأنتن، عندها أناس يأكلون منها، قلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك يتركون الحلال ويأتون الحرام».

قال: «ثم مضيت هنية، فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت، كلما نهض أحدهم خر يقول: اللهم، لا تقم الساعة»، قال: «وهم على سابلة آل فرعون». قال: «فتجئ السابلة فتطوهم». قال: «فسمعتهم يضحون إلى الله ﷻ». قال: «قلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك ﴿الَّذِينَ يَكُلُونَ الزَّيْتَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾» [البقرة: ٢٧٥].

قال: «ثم مضيت هنية، فإذا أنا بأقوام مشافهم كمشافر الإبل». قال: «فتفتح على أفواههم ويلقمون من ذلك الجمر، ثم يخرج من أسافلهم. فسمعتهم يضحون إلى الله ﷻ، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء من أمتك ﴿الَّذِينَ يَكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾» [النساء: ١٠].

قال: «ثم مضيت هنية، فإذا أنا بنساء يعلقن بشديهن فسمعتهن يضحجن إلى الله ﷻ، قلت: يا جبريل، من هؤلاء النساء؟ قال: هؤلاء الزناة من أمتك». قال: «ثم مضيت هنية فإذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم، فيلقمونه، فيقال له: كل كما كنت تأكل من لحم أخيك. قلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الهمازون من أمتك للمازون». قال: «ثم صعدنا إلى السماء الثانية، فإذا أنا برجل أحسن ما خلق الله ﷻ، قد فضل الناس في الحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب، قلت: يا جبريل، من هذا؟ قال: هذا أخوك يوسف ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم علي. ثم صعدت إلى السماء الثالثة، فإذا أنا بيحيى وعيسى، عليهما السلام، ومعهما نفر من قومهما، فسلمت عليهما وسلم علي. ثم صعدت إلى السماء الرابعة، فإذا أنا بإدريس قد رفعه الله مكاناً علياً، فسلمت عليه وسلم علي».

قال: «ثم صعدت إلى السماء الخامسة، فإذا أنا بهارون ونصف لحيته بيضاء ونصفها سوداء، تكاد لحيته تصيب سرتة من طولها، قلت: يا جبريل، من هذا؟ قال: هذا المحجب في قومه، هذا هارون بن عمران، ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم علي. ثم صعدت إلى السماء السادسة، فإذا أنا بموسى بن عمران، رجل آدم كثير الشعر، لو كان عليه قميصان لنفذ شعره دون القميص، فإذا هو يقول: يزعم الناس أنني أكرم على الله من هذا، بل هذا أكرم على الله تعالى مني». قال: «قلت: يا جبريل، من هذا؟ قال: هذا أخوك موسى بن عمران، عليه السلام، ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم علي».

ثم صعدت إلى السماء السابعة، فإذا أنا بأبينا إبراهيم خليل الرحمن ساند ظهره إلى البيت المعمور كأحسن الرجال، قلت: يا جبريل، من هذا؟ قال: هذا أبوك خليل الرحمن ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم علي، وإذا أنا بأمتي شطرين: شطر عليهم ثياب بيض كأنها القراطيس، وشطر عليهم ثياب رُمد. قال: «فدخلت البيت المعمور ودخل معي الذين عليهم الثياب البيض، وحجب الآخرون الذين عليهم ثياب رمد، وهم على خير. فصليت أنا ومن معي في البيت المعمور، ثم خرجت أنا ومن معي». قال: «والبيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون فيه إلى يوم القيامة». قال: «ثم دفعت لي سدرة المنتهى، فإذا كل ورقة منها تكاد أن تغطي هذه الأمة، وإذا فيها عين تجري يقال لها: سلسبيل، فينشق منها نهران، أحدهما: الكوثر، والآخر يقال له: نهر الرحمة. فاغتسلت فيه، فغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر. ثم إنني دفعت إلى الجنة، فاستقبلتني جارية، فقلت: لمن أنت يا جارية؟ فقالت: لزيد بن حارثة، وإذا أنا بأنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى، وإذا رمانها كأنه الدلاء عظماً، وإذا أنا بطيرها كأنها بختيكم هذه».

فقال عندها ﷻ: «إن الله تعالى قد أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

قال: «ثم عرضت علي النار، فإذا فيها غضب الله وزجره ونقمة، لو طرح فيها الحجارة والحديد لاكلتها، ثم أغلقت دوني. ثم إنني دفعت إلى سدرة المنتهى، فتغشاني فكان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى». قال: «ونزل على كل ورقة ملك من

الملائكة». قال: «وفرضت علي خمسون وقال: لك بكل حسنة عشر، إذا هممت بالحسنة فلم تعملها كتبت لك حسنة، فإذا عملتها كتبت لك عشرًا، وإذا هممت بالسئنة فلم تعملها لم يكتب عليك شيء، فإن عملتها كتبت عليك سيئة واحدة. ثم دفعت إلى موسى فقال: بم أمرك ربك؟ قلت: بخمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، ومتى لا تطيقه تكفر. فرجعت إلى ربي ﷻ فقلت: يا رب، خفف عن أمتي، فإنها أضعف الأمم. فوضع عني عشرًا، وجعلها أربعين. فما زلت أختلف بين موسى وربي، كلما أتيت عليه قال لي مثل مقالته، حتى رجعت إليه فقال لي: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بعشر صلوات. قال: ارجع إلى ربك ﷻ فاسأله التخفيف لأمتك. فرجعت إلى ربي سبحانه وتعالى فقلت: أي رب، خفف عن أمتي، فإنها أضعف الأمم. فوضع عني خمسًا، وجعلها خمسًا، فناداني ملك عندها: تمتت فريضتي، وخففت عن عبادي، وأعطيتهم بكل حسنة عشر أمثالها.

ثم رجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: بخمس صلوات. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإنه لا يؤوده شيء، فاسأله التخفيف لأمتك». «فقلت: رجعت إلى ربي حتى استحييته» ثم أصبح بمكة يخبرهم بالأعاجيب: «إني أتيت البارحة بيت المقدس، وعرج بي إلى السماء، ورأيت كذا وكذا». فقال أبو جهل - يعني ابن هشام -: ألا تعجبون مما يقول محمد؟ يزعم أنه أتى البارحة بيت المقدس، ثم أصبح فينا. وأحدنا يضرب مطيته مصعدة شهرًا، ومقفلة شهرًا، فهذا مسيرة شهرين في ليلة واحدة! قال: فأخبرهم بغير لقريش: «لما كنت في مصعدي رأيته في مكان كذا وكذا، وأنها نفرت، فلما رجعت رأيته عند العقبة». وأخبرهم بكل رجل وبغيره كذا وكذا، ومتاعه كذا وكذا. فقال أبو جهل: يخبرنا بأشياء. فقال رجل من المشركين: أنا أعلم الناس ببيت المقدس، وكيف بناؤه؟ وكيف هيته؟ وكيف قربه من الجبل؟ فإن بك محمد صادقًا فسأخبركم، وإن بك كاذبًا فسأخبركم. فجاء ذلك المشرك فقال: يا محمد، أنا أعلم الناس ببيت المقدس، فأخبرني كيف بناؤه؟ وكيف هيته؟ وكيف قربه من الجبل. قال: فرفع لرسول الله ﷺ بيت المقدس من مقعده، فنظر إليه كنظر أحدنا إلى بيته: بناؤه كذا وكذا، وهيته كذا وكذا، وقربه من الجبل كذا وكذا. فقال الآخر: صدقت. فرجع إلى أصحابه فقال: صدق محمد فيما قال أو نحو هذا الكلام.

وكذا رواه الإمام أبو جعفر بن جرير بطوله، عن محمد بن عبد الأعلى، عن محمد بن ثور، عن معمر، عن أبي هارون العبدى، وعن الحسن بن يحيى، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن أبي هارون العبدى، به. ورواه، أيضاً، من حديث محمد بن إسحاق: حدثني روح بن القاسم، عن أبي هارون، به نحو سياقه المتقدم. ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن أحمد بن عتبة، عن أبي عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد، عن أبي هارون العبدى، عن أبي سعيد الخدري، فذكره بسياق طويل حسن أنيق، أجود مما ساقه غيره، على غرابته وما فيه من النكارة. ثم ذكره البيهقي، أيضاً، من رواية نوح بن قيس الحُدثاني وهُشَيْم ومعمر، عن أبي هارون العبدى - واسمه عمارة بن جوين وهو مضعف عند الأئمة. وإنما سقنا حديثه ههنا لما في حديثه من الشواهد لغيره، ولما رواه البيهقي: أخبرنا الإمام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن، أنبأنا أبو نعيم أحمد بن محمد بن إبراهيم البزاز، حدثنا أبو حامد بن بلال، حدثنا أبو الأزهر، حدثنا يزيد بن أبي حكيم قال: رأيت في النوم رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، رجل من أمتك يقال له: «سفيان الثوري» لا بأس به؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا بأس به»، حدثنا عن أبي هارون العبدى، عن أبي سعيد الخدري، عنك ليلة أسري بك، قلت: «رأيت في السماء» فحدثته بالحديث؟ فقال لي: «نعم». فقلت له: يا رسول الله، إن ناساً من أمتك يحدثون عنك في السرى بعجائب؟ فقال لي: «ذلك حديث القصاص».

رواية شداد بن أوس:

قال الإمام أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذي: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء بن الضحاك الزبيدي، حدثنا عمرو بن الحارث، عن عبد الله بن سالم الأشعري، عن محمد بن الوليد بن عامر الزبيدي، حدثنا الوليد بن عبد الرحمن، عن جبير بن نفير: حدثنا شداد بن أوس قال: قلنا: يا رسول الله، كيف أسري بك؟ قال: «صليت لأصحابي صلاة العتمة بمكة معتمًا». قال: «فأتاني جبريل، عليه السلام، بدابة أبيض - أو قال: بياض - فوق الحمار ودون البغل، فقال: اركب. فاستصعبت علي، فرازها بأذننها، ثم حملني عليها. فانطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها، حتى بلغنا أرضاً ذات نخل فأنزلني فقال: صل. فصليت، ثم ركبنا فقال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم. قال: صليت يثرب صليت بطيبة.

فانطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها. ثم بلغنا أرضاً فقال: انزل. فنزلت ثم قال: صل. فصليت، ثم ركبنا: فقال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم. قال: صليت بمدين، صليت عند شجرة موسى. ثم انطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها، ثم بلغنا أرضاً، بدت لنا قصور، فقال: انزل. فنزلت، فقال: صل. فصليت ثم ركبنا فقال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم. قال: صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى المسيح ابن مريم. ثم انطلق بي حتى دخلنا المدينة من بابها اليماني، فأثني قبلة المسجد، فربط فيه دابته، ودخلنا المسجد من باب فيه تميل الشمس والقمر، فصليت من المسجد حيث شاء الله، وأخذني من العطش أشد ما أخذني، فأثني ببناءين، في أحدهما لبن وفي الآخر عسل، أرسل إليّ بهما جميعاً، فعدلت بينهما، ثم هداني الله ﷻ، فأخذت اللبن فشربت حتى قرعت به جبيني، وبين يدي شيخ متكئ على منواة له، فقال: أخذ صاحبك الفطرة، إنه ليهدي. ثم انطلق بي حتى أتينا الوادي الذي فيه المدينة، فإذا جهنم تنكشف عن مثل الزرابي، قلت: يا رسول الله، كيف وجدتها؟ قال: مثل الحمة السخنة. ثم انصرف بي فمررنا بغير لقريش بمكان كذا وكذا، قد أضلوا بغيراً لهم، قد جمعه فلان، فسلمت عليهم، فقال بعضهم: هذا صوت محمد. ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة، فأتاني أبو بكر، رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، أين كنت الليلة؟ فقد التمسك في مظانك. فقال: «علمت أنني أتيت بيت المقدس الليلة؟». فقال: يا رسول الله، إنه مسيرة شهر، فصفه لي. قال: «افتح لي صراط كأنني أنظر إليه لا يسألني عن شيء إلا أنبأته عنه». قال أبو بكر: أشهد أنك رسول الله. فقال المشركون: انظروا إلى ابن أبي كُثَبة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة! قال: فقال: «إن من آية ما أقول لكم أنني مررت بغير لكم بمكان كذا وكذا، قد أضلوا بغيراً لهم، فجمعه فلان، وإن مسيرهم ينزلون بكذا ثم بكذا، ويأتونكم يوم كذا وكذا، يقدمهم جمل آدم، عليه مسح أسود وغاراتان سوداوان». فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حتى كان قريب من نصف النهار حتى أقبل العير يقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه رسول الله ﷺ.

هكذا رواه البيهقي من طريقين عن أبي إسماعيل الترمذي، به. ثم قال بعد تمامه: «هذا إسناد صحيح، وروى ذلك مفرقاً في أحاديث غيره، ونحن نذكر من ذلك إن شاء الله ما حضرنا». ثم ساق أحاديث كثيرة في الإسراء كالشاهد لهذا الحديث. وقد روى هذا الحديث عن شداد بن أوس بطوله الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره، عن أبيه، عن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدي، به. ولا شك أن هذا الحديث - أعني الحديث المروي عن شداد بن أوس - مشتمل على أشياء منها ما هو صحيح كما ذكره البيهقي، ومنها ما هو منكر، كالصلاة في بيت لحم، وسؤال الصديق عن نعت بيت المقدس، وغير ذلك. والله أعلم.

رواية عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما:

قال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جرير، عن قابوس، عن أبيه قال: حدثنا ابن عباس قال: ليلة أسري بنبي الله ﷺ دخل الجنة، فسمع في جانبها وجساً فقال: «يا جبريل، ما هذا؟» قال: «هذا بلال المؤذن». فقال رسول الله ﷺ حين جاء إلى الناس: «قد أفلح بلال، قد رأيت له كذا وكذا». قال: فلقية موسى، عليه السلام، فرحب به، وقال: «مرحباً بالنبي الأمي»، قال: «وهو رجل آدم طويل، سبط شعره مع أذنيه أو فوقهما»، فقال: «من هذا يا جبريل؟» قال: «هذا موسى». قال: فمضى، فلقية عيسى فرحب به، وقال: «من هذا يا جبريل؟» قال: «هذا عيسى». قال: فمضى فلقية شيخ جليل منتهب فرحب به وسلم عليه وكلهم يسلم عليه، قال: «من هذا يا جبريل؟» قال: «هذا أبوك إبراهيم»، قال: ونظر في النار، فإذا قوم يأكلون الجيف، قال: «من هؤلاء يا جبريل؟» قال: «هؤلاء الذين يأكلون لحم الناس»، ورأى رجلاً أحمر أزرق جداً، قال: «من هذا يا جبريل؟» قال: «هذا عاقر الناقة»، قال: فلما أتى رسول الله ﷺ المسجد الأقصى قام يصلي، فالتفت ثم التفت فإذا النبيون أجمعون يصلون معه. فلما انصرف جيء بقدرين، أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال، في أحدهما لبن وفي الآخر عسل، فأخذ اللبن فشرب منه، فقال الذي كان معه القدر: أصبت الفطرة. إسناد صحيح ولم يخرجوه.

طريق أخرى:

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ثابت أبو زيد، حدثنا هلال، حدثني عكرمة، عن ابن عباس قال: أسري بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره وبعلامة بيت المقدس وبغيرهم، فقال ناس: نحن لا نصدق محمداً بما يقول!

فارتدوا كفاراً، فضرب الله رقابهم مع أبي جهل وقال أبو جهل: يخوفنا محمد بشجرة الزقوم، هاتوا تمراً وزيداً فترقموا، ورأى الدجال في صورته رؤيا عين ليس برؤيا منام، وعيسى وموسى وإبراهيم. فسل النبي ﷺ عن الدجال فقال: «رأيت فيلماً نياً أقمر هجاناً، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب دري، كان شعر رأسه أغصان شجرة. ورأيت عيسى أبيض، جعد الرأس، حديد البصر، مبطن الخلق. ورأيت موسى أسحم آدم، كثير الشعر، شديد الخلق. ونظرت إلى إبراهيم فلم أنظر إلى إرب منه إلا نظرت إليه مني، حتى كأنه صاحبكم. قال جبريل: سلم على مالك فسلمت عليه». ورواه النسائي من حديث أبي زيد ثابت بن يزيد عن هلال - وهو ابن خباب - به، وهو إسناد صحيح.

طريق أخرى:

وقال البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو بكر الشافعي، أنبأنا إسحاق بن الحسن، حدثنا الحسين بن محمد، حدثنا شيبان، عن قتادة، عن أبي العالية قال: حدثنا ابن عم نبيكم ﷺ ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران، رجلاً طوالاً جعداً، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس». وأري مالكا خازن جهنم والدجال، في آيات أراهن الله إياه، قال: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ [السجدة: ٢٣] فكان قتادة يفسرها: أن نبي الله ﷺ قد لقي موسى عليه السلام ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُنَا لَبِئْسَ لِبَئْسَ مَوْسَمًا لِلْقَائِمِينَ﴾ قال: جعل الله موسى هدى لبني إسرائيل. رواه مسلم في الصحيح عن عبد بن حميد، عن يونس بن محمد، عن شيبان. وأخرجه من حديث شعبة عن قتادة مختصراً.

طريق أخرى:

قال البيهقي: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان، أنبأنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا دُيَيْسُ المُعَدَّل، حدثنا عفان قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أسري بي، مرت بي رائحة طيبة، فقلت: ما هذه الرائحة؟ قالوا: ماشطة بنت فرعون وأولادها، سقطت مُشْطُهَا من يدها فقالت: باسم الله. فقالت ابنة فرعون: أبي؟ قالت: ربي وربك ورب أبيك. قالت: أو لك رب غير أبي؟ قالت: نعم، ربي وربك ورب أبيك الله». قال: «فدعاها فقال: ألك رب غيري؟ قالت: نعم ربي وربك الله، ﷻ». قال: «فأمر بنقرة من نحاس فأحميت، ثم أمر بها لتلقى فيها، قالت: إن لي إليك حاجة. قال: ما هي؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولدي في موضع، قال: ذاك لك، لما لك علينا من الحق»، قال: «فأمر بهم فآلقوا واحداً واحداً، حتى بلغ رضيعاً فيهم، فقال: يا أمه، تعي ولا تقاعسي، فإنك على الحق». قال: «وتكلم أربعة وهم صغار: هذا، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم، عليه السلام». إسناد لا بأس به، ولم يخرجوه.

طريق أخرى:

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر وروح المعنى قالوا: حدثنا عوف، عن زُرَّارة بن أوفى، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كان ليلة أسري بي وأصبحت بمكة، فطلعت بأمرى وعرفت أن الناس مكذبي» ففقد معتزلاً حزناً فمر به عدو الله أبو جهل فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزىء: هل كان من شيء؟ فقال له رسول الله ﷺ: «نعم» قال: وما هو؟ قال: «إني أسري بي الليلة». قال: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس» قال: ثم أصبحت بين ظهراني؟ قال: «نعم». قال: فلم يره أنه يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إن دعا قومه إليه، فقال: رأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتني؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم». قال: هيا معشر بني كعب بن لؤي، قال: فانتفضت إليه المجالس وجأوا حتى جلسوا إليهما. قال: حدث قومك بما حدثتني. فقال رسول الله ﷺ: «إني أسري بي الليلة». فقالوا: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس» قالوا: ثم أصبحت بين ظهراني؟ قال: «نعم». قال: فمن بين مصفق، ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب - زعم - قالوا: وتستطيع أن نتعت لنا المسجد - وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد - قال رسول الله ﷺ: «فذهبت أنت، فما زلت أنت حتى التبس علي بعض النعت» قال: «فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه، حتى وضع دون دار عقيل - أو عقال - ففتته وأنا أنظر إليه». قال: وكان مع هذا نعت لم أحفظه - يقول عوف -: قال: فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب. وأخرجه النسائي من حديث عوف بن أبي جميلة - وهو الأعرابي - به. ورواه البيهقي من حديث النضر بن شميل وهوذة، عن عوف وهو ابن أبي جميلة الأعرابي، أحد الأئمة الثقات، به.

رواية عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه:

قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب، حدثنا السري بن خزيمة، حدثنا يوسف بن بهلول، حدثنا عبد الله بن نمير، عن مالك بن مغول، عن الزبير بن عدي، عن طلحة بن مضر، عن مرة الهمداني، عن عبد الله بن مسعود قال: لما أسري برسول الله ﷺ، فانتبهى إلى سدره المنتهى، وهي في السماء السادسة، وإليها ينتهي ما يصعد به حتى يقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها حتى يقبض منها، ﴿إِذْ يَنْتَهِى السُّدْرَةُ مَا يَنْتَهِى﴾ [النجم: ١٦] قال: غشيها فراش من ذهب، وأعطى رسول الله ﷺ الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله المقحّمات، يعني الكبائر. ورواه مسلم في صحيحه، عن محمد بن عبد الله بن نمير وزهير بن حرب، كلاهما عن عبد الله بن نمير، به. ثم قال البيهقي: «وهذا الذي ذكره عبد الله بن مسعود طرف من حديث المعراج، وقد رواه أنس بن مالك، عن مالك بن صفصعة، عن النبي ﷺ، ثم عن أبي ذر، عن النبي ﷺ، ثم رواه مرة مرسلًا دون ذكرهما»، ثم إن البيهقي ساق الأحاديث الثلاثة كما تقدم.

قلت: وقد روي عن ابن مسعود بأبسط من هذا، وفيه غرابة، وذلك فيما رواه «الحسن بن عرفة» في جزئه المشهور. حدثنا مروان بن معاوية، عن قنان بن عبد الله النهمي، حدثنا أبو ظبيان الجنبلي قال: كنا جلوساً عند أبي عبيدة بن عبد الله - يعني ابن مسعود - ومحمد بن سعد بن أبي وقاص، وهما جالسان، فقال محمد بن سعد لأبي عبيدة: حدثنا عن أبيك ليلة أسري بمحمد ﷺ. فقال أبو عبيدة: لا، بل حدثنا أنت عن أبيك. فقال محمد: لو سألتني قبل أن أسألك لفعلت! قال: فأنشأ أبو عبيدة يحدث يعني عن أبيه كما سئل قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل بدابة فوق الحمار ودون البغل، فحملني عليه، ثم انطلق يهوي بنا، كلما صعد عقبة استوت رجلاه كذلك مع يديه، وإذا هبط استوت يده مع رجليه، حتى مررنا برجل طوال سبط آدم، كأنه من رجال أزد شنوءة، وهو يقول - فيرفع صوته يقول - أكرمه وفضلته». قال: «فدفعنا إليه فسلمنا عليه فرد السلام، فقال: من هذا معك يا جبريل؟ قال: هذا أحمد، قال: مرحباً بالنبي الأمي العربي، الذي بلغ رسالة ربه، ونصح لأمرته». قال: «ثم اندفعنا فقلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا موسى بن عمران». قال: «قلت: ومن يعاتب؟ قال: يعاتب ربه فيك! قلت: فيرفع صوته على ربه؟! قال: إن الله ﷻ قد عرف له حذته». قال: «ثم اندفعنا حتى مررنا بشجرة كأن ثمرها الشرج تحتها شيخ وعياله». قال: «فقال لي جبريل: اعمد إلى أبيك إبراهيم. فدفعنا إليه فسلمنا عليه فرد السلام، فقال إبراهيم: من هذا معك يا جبريل؟ قال: هذا ابنك أحمد». قال: «فقال: مرحباً بالنبي الأمي الذي بلغ رسالة ربه ونصح لأمرته، يا بني، إنك لاق ربك الليلة، وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها، فإن استطعت أن تكون حاجتك أو جلاها في أمتك فافعل». قال: «ثم اندفعنا حتى انتهينا إلى المسجد الأقصى، فنزلت فربطت الدابة بالحلقة التي في باب المسجد التي كانت الأنبياء تربط بها. ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين من بين راعق وقائم وساجد». قال: «ثم أتيت بكاسين من غسل ولبن فأخذت اللبن فشربت فضر جبريل، عليه السلام، منكبي وقال: أصبت الفطرة ورب محمد». قال: «ثم أقيمت الصلاة فأممتهم، ثم انصرفنا فأقبلنا. إسناد غريب ولم يخرجوه، فيه من الغرائب: سؤال الأنبياء عنه عليه السلام ابتداء، ثم سؤاله عنهم بعد انصرافه. والمشهور في الصحاح كما تقدم: أن جبريل عليه السلام كان يعلمهم بهم أولاً ليسلم عليهم سلام معرفة. وفيه أنه اجتمع بالأنبياء عليهم السلام قبل دخوله المسجد، والصحيح أنه إنما اجتمع بهم في السموات، ثم نزل إلى بيت المقدس ثانياً وهم معه، وصلى بهم فيه، ثم إنه ركب البراق وكرّ راجعاً إلى مكة، والله أعلم.

طريق أخرى:

قال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، أخبرنا العوام، عن جبلة بن سحيم، عن موثر بن عفارة، عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى، فذاكروا أمر الساعة» قال: «فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام فقال: لا علم لي بها. فردوا أمرهم إلى موسى. فقال: لا علم لي بها فردوا أمرهم إلى عيسى فقال: أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله ﷻ، وفيما عهد إلي ربي أن الدجال خارج». قال: «ومعي قضيبان، فإذا رأيته ذاب كما يذوب الرصاص». قال: «فيهلكه الله إذا رأيته، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم، إن تحتي كافراً، فتعال فاقتله» قال: «فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم». قال: «فبعد ذلك يخرج بأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطؤون بلادهم، فلا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه» قال: «ثم يرجع الناس إلي فيشكونهم. فادعوا الله عليهم، فيهلكهم ويميتهم حتى

تجوى الأرض من تنن ريجهم - أي: تنتن - قال: «فينزل الله المطر، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر. ففيما عهد إلي ربي: أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم، لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادها، ليلاً أو نهاراً». وأخرجه ابن ماجه، عن بُنْدَار، عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب.

رواية عبد الرحمن بن قرط، أخي عبد الله بن قرط الثمالي:

قال سعيد بن منصور: حدثنا مسكين بن ميمون - مؤذن مسجد الرملة - حدثني عُروة بن رُوَيْم، عن عبد الرحمن بن قُرط، أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان بين زمزم والمقام، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فطارا به حتى بلغ السموات العلى، فلما رجع قال: «سمعت تسبيحاً في السموات العلى مع تسبيح كثير، سبحت السموات العلى من ذي المهابة مشفقاً من ذي العلو بما علا، سبحان العلي الأعلى، سبحانه وتعالى». ويذكر هذا الحديث عند قوله تعالى من هذه السورة: ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ أَكْثَرُ النَّفْثَاتِ الَّتِي لَا تَلْمِزُ﴾ الآية [الإسراء: ٤٤].

رواية عمر بن الخطاب، رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبي سنان، عن عبيد بن آدم وأبي مريم وأبي شعيب، أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كان بالجابية، فذكر فتح بيت المقدس قال: قال أبو سلمة: فحدثني أبو سنان، عن عبيد بن آدم قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لكعب: أين ترى أن أصلي؟ قال: إن أخذت عني صليت خلف الصخرة، فكانت القدس كلها بين يديك، فقال عمر، رضي الله عنه: ضاهيت اليهودية، لا ولكن أصلي حيث صلى رسول الله ﷺ فتقدم إلى القبلة، فصلّى ثم جاء فبسط رداءه وكنس الكناسة في رداءه، وكنس الناس. فلم يعظم الصخرة تعظيماً يصلي وراءها وهي بين يديه، كما أشار كعب الأحبار وهو من قوم يعظمونها حتى جعلوها قبلتهم. ولكن من الله عليه بالإسلام، فهدي إلى الحق، ولهذا لما أشار بذلك قال له أمير المؤمنين: ضاهيت اليهودية، ولا أهانها إهانة النصارى الذين كانوا قد جعلوها مزبلة من أجل أنها قبله اليهود، ولكن أمأت الأذى، وكنس عنها الكناس برداءه. وهذا شبيه بما جاء في صحيح مسلم عن أبي مرثد الغنوي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجلسوا على القبور، ولا تصلّوا إليها».

رواية أبي هريرة، رضي الله عنه:

وهي مطولة جداً، وفيها غرابة. قال الإمام أبو جعفر بن جرير في تفسير «سورة سبحان»: حدثنا علي بن سهل، حدثنا حجاج، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية الرياحي، عن أبي هريرة أو غيره - شك أبو جعفر - في قول الله ﷻ: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَمْرُهُ بِعَيْنِهِ لَيْلًا نَّوْمَ النَّسِيمِ الْحَكِيمِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِإِبْرَاهِيمَ مِنْ بَيْنَانٍ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ ومعه ميكائيل، فقال جبريل لميكائيل: انتن بطست من ماء زمزم، كيما أظهر قلبه وأشرح له صدره. قال: فشق عنه بطنه، ففسله ثلاث مرات، واختلف إليه ميكائيل بثلاث طساس من ماء زمزم، فشرح صدره ونزع ما كان فيه من غلٍّ، وملاه حلاًماً وعلماً، وإيماناً و يقيناً وإسلاماً، وختم بين كتفيه بخاتم النبوة. ثم أتاه بفرس فحمل عليه، كل خطوة منه منتهى بصره - أو: أقصى بصره - قال: فسار وسار معه جبريل عليهما السلام قال: فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال النبي ﷺ: «يا جبريل، ما هذا؟» قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله، تضاعف لهم الحسنه بسبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه، وهو خير الرازقين.

ثم أتى على قوم تُرَضِّخ رؤوسهم بالصخر، كلما رُضِّخت عادت كما كانت، ولا يفتر عنهم من ذلك شيء، فقال: «ما هؤلاء يا جبريل؟» قال: هؤلاء الذين تتشاكل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة. ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاوع وعلى أدبارهم رقاوع، يسرحون كما تسرح الإبل والنعم، ويأكلون الضريع والزقوم ورَضِف جهنم وحجارتها، قال: «ما هؤلاء يا جبريل؟» قال: هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم، وما ظلمهم الله شيئاً وما الله بظلام للعبيد. ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدر ولحم آخر نيء في قدر خبيث، فجعلوا يأكلون من النيء الخبيث ويدعون النضيج الطيب، فقال: «ما هؤلاء يا جبريل؟» فقال: هذا الرجل من أمتك، تكون عنده المرأة الحلال الطيبة، فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً، فتأتي رجلاً خبيثاً فتبيت معه حتى تصبح. قال: ثم أتى على خشبة على الطريق، لا يمر بها ثوب إلا شقته، ولا شيء إلا خرقة، قال: «ما هذا يا جبريل؟» قال: هذا مثل أقوام من أمتك، يقعدون على الطريق يقطعونهم، ثم تلا ﴿وَلَا تَقْعُدُوا

يَكُنِّي جَبْرِيلُ ثَوْعِدُونُ وَصُدُّوتُ عَنْ سَكِيلِ اللَّهِ ﴿[الأعراف: ٨٦].

قال: ثم أتى على رجل قد جمع حزمة حطب عظيمة لا يستطيع حملها، وهو يزيد عليها، فقال: «ما هذا يا جبريل؟» فقال: هذا الرجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها. ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاهم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت، لا يفتر عنهم من ذلك شيء، قال: «ما هؤلاء يا جبريل؟» قال: هؤلاء خطباء الفتنة. ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج، فلا يستطيع، فقال: «ما هذا يا جبريل؟» فقال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة، ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردّها.

ثم أتى على واد فوجد ريحاً طيبة باردة، وريح مسك، وسمع صوتاً، فقال: «يا جبريل، ما هذه الريح الطيبة الباردة؟ وما هذا المسك؟ وما هذا الصوت؟» قال: هذا صوت الجنة، تقول: يا رب آتني ما وعدتني، فقد كثرت غرقي، وإستبرقي وحريري وسندسي، وعقبيري ولؤلؤي ومرجاني، وفضتي وذهي وأكوابي وصحافي، وأباريقي ومراكبي، وعسلي ومائي، وخمري ولبني فأنتني ما وعدتني. فقال: لك كل مسلم ومسلمة، ومؤمن ومؤمنة، ومن آمن بي وبرسلي وعمل صالحاً ولم يشرك بي، ولم يتخذ من دوني أنداداً، ومن خشيني فهو آمن، ومن سألني أعطيته، ومن أقرضني جزيته، ومن توكل عليّ كفيته، إني أنا الله لا إله إلا أنا، لا أخلف الميعاد، وقد أفلح المؤمنون، وتبارك الله أحسن الخالقين، قالت: قد رضيت. قال: «ثم أتى على واد فسمع صوتاً منكراً، ووجد ريحاً متنتة، فقال: «ما هذه الريح يا جبريل؟ وما هذا الصوت؟» فقال: هذا صوت جهنم تقول: يا رب آتني ما وعدتني، فقد كثرت سلاسل وأغلالي، وسعيري وحميمي، وضريعي، وغساقبي وعذابي، وقد بعد قعري، واشتد حري، فأنتني كل ما وعدتني، فقال: لك كل مشرك ومشركة، وكافر وكافرة، وكل خبيث وخبيثة، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب. قالت: قد رضيت.

قال: ثم سار حتى أتى بيت المقدس، فنزل فربط فرسه إلى صخرة، ثم دخل فصلى مع الملائكة، فلما قضيت الصلاة قالوا: يا جبريل، من هذا معك؟ قال: محمد ﷺ. قالوا: أوقد أرسل محمد؟ قال: نعم. قالوا: حيّاه الله من أخ ومن خليفة، فنعّم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المعجى جاء.

قال: ثم لقي أرواح الأنبياء، فأنثوا على ربهم، فقال إبراهيم: الحمد لله الذي اتخذني خليلاً، وأعطاني ملكاً عظيماً، وجعلني أمة قائماً يؤتم بي، وأنقذني من النار، وجعلها عليّ برداً وسلاماً. ثم إن موسى، عليه السلام، أثنى على ربه، ﷻ، فقال: الحمد لله الذي كلمني تكليماً، وجعل هلاك آل فرعون ونجاة بني إسرائيل على يدي، وجعل من أمتي قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون. ثم إن داود، عليه السلام، أثنى على ربه ﷻ فقال: الحمد لله الذي جعل لي ملكاً عظيماً، وعلمني الزبور، وألأن لي الحديد، وسخر لي الجبال يسبحن والطير، وأعطاني الحكمة وفصل الخطاب. ثم إن سليمان، عليه السلام، أثنى على ربه ﷻ فقال: الحمد لله الذي سخر لي الرياح، وسخر لي الشياطين يعملون لي ما شئت من محاريب وتمائيل، وجفان كالجواب وقدور راسيات، وعلمني منطق الطير، وآتاني من كل شيء فضلاً، وسخر لي جنود الشياطين والإنس والطير، وفضلني على كثير من عباده المؤمنين، وآتاني ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعدي، وجعل ملكي ملكاً طيباً ليس فيه حساب. ثم إن عيسى، عليه السلام، أثنى على ربه، عز وجل، فقال: الحمد لله الذي جعلني كلمته، وجعل مثلي مثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له: «كن» فيكون، وعلمني الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وجعلني أخلق من الطين كهنية الطير، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وجعلني أبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذنه، ورفعتني وطهرتني، وأعاذني وأمي من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان علينا سبيل. قال: ثم إن محمداً ﷺ أثنى على ربه، ﷻ، فقال: «فكلكم أثنى على ربه، وإني مثن على ربي ﷻ» فقال: «الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل عليّ الفرقان فيه بيان لكل شيء، وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس، وجعل أمتي أمة وسطاً، وجعل أمتي هم الأولين وهم الآخرين، وشرح لي صدري، ووضع عني وزري، ورفع لي ذكري، وجعلني فاتحاً وخاتماً» فقال إبراهيم عليه السلام: بهذا فضلكم محمد ﷺ. قال أبو جعفر الرازي: خاتم النبوة، فاتح بالشفاعة يوم القيامة.

ثم أتى بآية ثلاثة مغطاة أفواهها، فأتى بإناء منها فيه ماء فقيل: اشرب. فشرب منه يسيراً، ثم دفع إليه إناء آخر فيه لبن، فقيل له: اشرب، فشرب منه حتى روي. ثم دفع إليه إناء آخر فيه خمر فقيل له: اشرب فقال: «لا أريد» قد رويت». فقال له جبريل عليه السلام: أما إنها ستحرم على أمتك، ولو شربت منها لم يتبعك من أمتك إلا قليل. قال: ثم صعد به إلى السماء فاستفتح، فقيل: من هذا يا جبريل؟ فقال: محمد، قالوا: أوقد أرسل؟ قال: نعم. قالوا: حيّاه الله من أخ ومن خليفة، فنعّم الأخ ونعم الخليفة،

ونعم المجيء جاء. فدخل فإذا هو برجل تام الخلق لم ينقص من خلقه شيء كما ينقص من خلق الناس، عن يمينه باب يخرج منه ريح طيبة، وعن شماله باب يخرج منه ريح خبيثة، إذا نظر إلى الباب الذي عن يمينه ضحك واستبشر، وإذا نظر إلى الباب الذي عن يساره بكى وحزن، فقلت: «يا جبريل، من هذا الشيخ التام الخلق الذي لم ينقص من خلقه شيء؟ وما هذان البابان؟» فقال: هذا أبوك آدم عليه السلام، وهذا الباب الذي عن يمينه باب الجنة، إذا نظر إلى من يدخل من ذريته ضحك واستبشر، والباب الذي عن شماله باب جهنم، إذا نظر إلى من يدخله من ذريته بكى وحزن.

ثم صعد به جبريل إلى السماء الثانية فاستفتح، فقبل: من هذا معك؟ فقال: محمد رسول الله. قالوا: أو قد أرسل محمد؟ قال: نعم. قالوا: حيّاه الله من أخ ومن خليفة، فلنعم الأخ ولنعم الخليفة ونعم المجيء جاء. قال: فدخل فإذا هو بشابين فقال: «يا جبريل، من هذان الشابان؟» قال: هذا عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا، ابنا الخالة عليهما السلام. قال: فصعد به إلى السماء الثالثة فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل؟ قال: نعم. قالوا: حيّاه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. قال: فدخل فإذا هو برجل قد فضل على الناس في الحسن، كما فضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، قال: «من هذا يا جبريل الذي قد فضل على الناس في الحسن؟» قال: هذا أخوك يوسف، عليه السلام. قال: ثم صعد به إلى السماء الرابعة فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل؟ قال: نعم. قالوا: حيّاه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. قال: فدخل، فإذا هو برجل، قال: «من هذا يا جبريل؟» قال: هذا إدريس، رفعه الله تعالى مكاناً علياً.

ثم صعد به إلى السماء الخامسة فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حيّاه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. ثم دخل فإذا هو برجل جالس وحوله قوم يقص عليهم، قال: «من هذا يا جبريل؟ ومن هؤلاء حوله؟» قال: هذا هارون المحبب في قومه وهؤلاء بنو إسرائيل. ثم صعد به إلى السماء السادسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد، قالوا: أو قد أرسل؟ قال: نعم. قالوا: حيّاه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء. فإذا هو برجل جالس، فجأوزه فبكى الرجل، فقال: «يا جبريل، من هذا؟» قال: موسى، قال: «فما باله يبكي؟» قال: زعم بنو إسرائيل أنني أكرم بني آدم على الله، وهذا رجل من بني آدم قد خلفني في دنيا، وأنا في أخرى، فلو أنه بنفسه لم أبال، ولكن مع كل نبي أمته.

قال: ثم صعد به إلى السماء السابعة فاستفتح، فقبل له: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حيّاه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. قال: فدخل فإذا هو برجل أشمط جالس عند باب الجنة على كرسي، وعنده قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس، وقوم في ألوانهم شيء، فقام هؤلاء الذين في ألوانهم شيء فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلصت ألوانهم فصارت مثل ألوان أصحابهم، فجأؤوا فجلسوا إلى أصحابهم، فقال: «يا جبريل من هذا الأشمط؟ ثم من هؤلاء البيض الوجوه؟ ومن هؤلاء الذين في ألوانهم شيء؟ وما هذه الأنهار التي دخلوا فيها فجأؤوا وقد صفّت ألوانهم؟» قال: هذا أبوك إبراهيم عليه السلام أول من شمس على الأرض. وأما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم. وأما هؤلاء الذين في ألوانهم شيء، فقوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتابوا فتاب الله عليهم. وأما الأنهار فأولها رحمة الله، والثاني نعمة الله، والثالث سقاهم ربهم شرباً طهوراً.

قال: ثم انتهى إلى السدرة فقبل له: هذه السدرة ينتهي إليها كل أحد خلا من أمتك على سبتك، فإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وهي شجرة يسير الراكب في ظلها سبعة أيام لا يقطعها. والورقة منها مغطية للامة كلها. قال: فغشيها نور الخلاق، ﷻ وغشيتها الملائكة أمثال الغربان حين يقعن على الشجرة قال: فكلّمه الله تعالى عند ذلك، قال له: سل، قال: «إنك اتخذت إبراهيم خليلًا، وأعطيت ملكاً عظيماً، وكلمت موسى تكليماً، وأعطيت داود ملكاً عظيماً، وأنت له الحديد، وسخرت له الجبال، وأعطيت سليمان ملكاً عظيماً، وسخرت له الجن والإنس والشياطين، وسخرت له الرياح، وأعطيت له ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل، وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذنك، وأعدته وأمه من الشيطان

الرجيم، فلم يكن للشيطان عليهما سبيل». فقال له ربه ﷻ: وقد اتخذتك خليلاً - وهو مكتوب في التوراة: حبيب الرحمن - وأرسلتك إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وشرحت لك صدرك، ووضعت عنك وزرك، ورفع لك ذكرك، فلا أذكر إلا ذكرت معي، وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس، وجعلت أمتك أمة وسطاً، وجعلت أمتك هم الأولين والآخرين، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي، وجعلت من أمتك أقواماً قلوبهم أناجيلهم، وجعلت أول النبيين خلقاً، وآخرهم بعثاً، وأولهم يقضى له، وأعطيتك سبعاً من المثاني لم يعطها نبي قبلك، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبياً قبلك، وأعطيتك الكوثر، وأعطيتك ثمانية أسهم: الإسلام، والهجرة، والجهاد، والصدقة، والصلاة، وصوم رمضان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلتك فاتحاً وخاتماً. فقال النبي ﷺ: «فضلني ربي بست: أعطاني فواتح الكلام وخواتيمه وجوامع الحديث، وأرسلني إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وقذف في قلوب عدوي الرعب من مسيرة شهر، وأحلّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض كلها طهوراً ومسجداً».

قال: وفرض عليه خمسين صلاة، فلما رجع إلى موسى قال: بم أمرت يا محمد؟ قال: «بخمسين صلاة» قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، فقد لقيت من بني إسرائيل شدة، قال: فرجع النبي ﷺ إلى ربه، فسأله التخفيف، فوضع عنه عشرين. ثم رجع إلى موسى فقال: بكم أمرت؟ قال: «بأربعين» قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بني إسرائيل شدة، قال: فرجع النبي ﷺ إلى ربه، فسأله التخفيف، فوضع عنه عشرين، ثم رجع إلى موسى فقال: بكم أمرت؟ قال: «بثلاثين»، فقال له موسى: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بني إسرائيل شدة، قال: فرجع إلى ربه، فسأله التخفيف، فوضع عنه عشرين، ثم رجع إلى موسى فقال: بكم أمرت؟ قال: «بأربعين» قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بني إسرائيل شدة، قال: فرجع إلى ربه، فسأله التخفيف، فوضع عنه خمسا. فرجع إلى موسى فقال: بكم أمرت؟ قال: «بأربعين» قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بني إسرائيل شدة، قال: فرجع إلى ربه، فسأله التخفيف، فوضع عنه خمسا. فرجع إلى موسى فقال: بكم أمرت؟ قال: «بأربعين» قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بني إسرائيل شدة، قال: «قد رجعت إلى ربي حتى استحييت، فما أنا براجع إليه»، قيل: أما إنك كما صبرت على نفسك على خمس صلوات، فإنهن يجزين عنك خمسين صلاة، فإن كل حسنة بعشر أمثالها. قال: فرضي محمد ﷺ كل الرضا، قال: وكان موسى، عليه السلام، من أشدهم عليه حين مر به وخيرهم له حين رجع إليه.

ثم رواه ابن جرير، عن محمد بن عبيد الله، عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية أو غيره - شك أبو جعفر - عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ فذكره بمعناه. وقد رواه الحافظ أبو بكر البيهقي، عن أبي سعيد الماليني، عن ابن عدي، عن محمد بن الحسن السكوني الباسي بالرملة، حدثنا علي بن سهل، فذكر مثل ما رواه ابن جرير عنه، وذكر البيهقي أن الحاكم أبا عبد الله رواه عن إسماعيل بن محمد بن الفضل بن محمد الشعرائي، عن جده، عن إبراهيم بن حمزة الزبير، عن حاتم بن إسماعيل، حدثني عيسى بن ماهان - يعني أبا جعفر الرازي - عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، فذكره. وقال ابن أبي حاتم: ذكر أبو زرعة، حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا عيسى بن عبد الله التميمي - يعني: أبا جعفر الرازي - عن الربيع بن أنس البكري، عن أبي العالية أو غيره - شك عيسى - عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: ﴿مُشَبَّحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ لَيْلًا مِّنَ اللَّسَجِدِ الْكَرَامِ إِلَى اللَّسَجِدِ الْأَقْصَا» فذكر الحديث بطوله كنحو مما سقناه.

قلت: «أبو جعفر الرازي» قال فيه الحافظ أبو زرعة: «الرازي يهيم في الحديث كثيراً» وقد ضعفه غيره أيضاً، ووثقه بعضهم، والأظهر أنه سيء الحفظ فصيما تفرد به نظر. وهذا الحديث في بعض ألفاظه غرابة ونكارة شديدة، وفيه شيء من حديث المنام من رواية سمرة بن جندب في المنام الطويل عند البخاري، ويشبه أن يكون مجموعاً من أحاديث شتى، أو منام أو قصة أخرى غير الإسراء، والله أعلم.

وقد روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرٌ، عن الزهري، أخبرني سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ حين أسري به: «لقيت موسى» قال: فنتعت فإذا رجل - حسبته قال: - مضطرب، رجل الرأس، كأنه من رجال شنوءة. قال: «ولقيت عيسى» - فنتعت النبي ﷺ - ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس - يعني حمام. قال: «ورأيت

إبراهيم، وأنا أشبه ولده به». قال: «وأنتين بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر، قيل لي: خذ أيهما شئت، فأخذت اللبن، فشربت، فقيل لي: هذيت الفطرة - أو: أصبت الفطرة - أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك». وأخرجاه من وجه آخر عن الزهري - به نحوه.

وفي صحيح مسلم، عن محمد بن رافع، عن حُجَّين بن المثنى، عن عبد العزيز بن أبي سلمة، عن عبد الله بن الفضل الهاشمي، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي، فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كريباً ما كربت مثله قط، فرفعه الله لي أنظر إليه، ما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، وإذا موسى قائم يصلي، وإذا هو رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى ابن مريم قائم يصلي أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم - يعني نفسه - فحانت الصلاة فأمتهم، فلما فرغت قال قاتل: يا محمد، هذا مالك صاحب النار، فسلم عليه فالتفت إليه فبدأنى بالسلام».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي الصلت، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي لما انتهينا إلى السماء السابعة، فنظرت فوق فإذا رعد وبرق وصواعق». قال: «وأنت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا، فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل مني فإذا أنا برَّهَج ودخان وأصوات، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين يحرفون على أعين بني آدم ألا يتفكروا في ملكوت السموات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب». ورواه الإمام أحمد عن حسن وعفان، كلاهما عن حماد بن سلمة، به. ورواه ابن ماجه من حديث حماد، به.

رواية جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ممن تقدم وغيرهم:

قال الحافظ البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله - يعني الحاكم - أخبرنا عبدان بن يزيد بن يعقوب الدقاق بهمدان، حدثنا إبراهيم بن الحسين الهمداني، حدثنا أبو محمد هو إسماعيل بن موسى الفزاري، حدثنا عمر بن سعد النصري من بني نصر بن قُعين، حدثني عبد العزيز، وليث بن أبي سليم وسليمان الأعمش، وعطاء بن السائب - بعضهم يزيد في الحديث على بعض - عن علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس - ومحمد بن إسحاق بن يسار، عن حدثه عن ابن عباس - وعن سليم بن مسلم العقيلي، عن عامر الشعبي، عن عبد الله بن مسعود - وجويبر، عن الضحاك بن مزاحم قالوا: كان رسول الله ﷺ في بيت أم هانئ راقداً، وقد صلى العشاء الآخرة. قال أبو عبد الله الحاكم: قال لنا هذا الشيخ... وذكر الحديث، فكتب المتن من نسخة مسموعة منه، فذكر حديثاً طويلاً، يذكر فيه عدد الدرج والملائكة وغير ذلك مما لا ينكر شيء منها في قدرة الله إن صحت الرواية.

قال البيهقي: فيما ذكرنا قبل في حديث أبي هارون العبدى في إثبات الإسراء والمعراج كفاية، وبالله التوفيق. قلت: وقد أرسل هذا الحديث غير واحد من التابعين وأئمة المفسرين، رحمة الله عليهم أجمعين.

رواية عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها:

قال الإمام البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني مكرم بن أحمد القاضي، حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي، حدثنا محمد بن كثير الضنجان، حدثنا معمر بن راشد، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، رضي الله عنها، قال: لما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى، أصبح يحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس! فقال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني لأصدق بما هو أبعد من ذلك، أصدق به خبر السماء في غداة أو رَوْحة. فلذلك سمي أبو بكر: الصديق، رضي الله عنه.

رواية أم هانئ بنت أبي طالب، رضي الله عنها:

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح ياذان، عن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها في مسرى رسول الله ﷺ أنها كانت تقول: ما أسري برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي، نائم عندي تلك الليلة، فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله ﷺ فلما صلى الصبح وصليتنا معه قال: «يا أم هانئ، لقد صليت

معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترون». الكلبى: متروك بمرة ساقط، لكن رواه أبو يعلى في مسنده عن محمد بن إسماعيل الأنصاري، عن ضَمْرَةَ بن ربيعة، عن يحيى بن أبي عمرو السيباني، عن أبي صالح، عن أم هانئ بأبسط من هذا السياق، فليكتب ههنا.

وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث عبد الأعلى بن أبي المساور، عن عكرمة، عن أم هانئ قالت: بات رسول الله ﷺ ليلة أسري به في بيتي، ففقدته من الليل، فامتنع مني النوم مخافة أن يكون عرض له بعض قریش، فقال رسول الله ﷺ «إن جبريل، عليه السلام، أتاني فأخذ بيدي فأخرجني، فإذا على الباب دابة دون البغل وفوق الحمار، فحملني عليها، ثم انطلق حتى انتهى بي إلى بيت المقدس، فأراني إبراهيم يشبه خلقه خلقي، ويشبه خلقي خلقه، وأراني موسى آدم طويلاً سبط الشعر، شبهته برجال أزد شنوءة، وأراني عيسى ابن مريم رُبْعَة أبيض يضرب إلى الحمرة، شبهته بعروة بن مسعود الثقفي، وأراني الدجال ممسوح العين اليمنى، شبهته بَقَطْن بن عبد العزى» قال: «وأنا أريد أن أخرج إلى قریش فأخبرهم بما رأيت». فأخذت بثوبه فقلت: إني أذكرك الله، إنك تأتي قوماً يكذبونك وينكرون مقاتلتك، فأخاف أن يسطروا بك. قالت: فضرب ثوبه من يدي، ثم خرج إليهم فاتأهم وهم جلوس، فأخبرهم ما أخبرني، فقام جبير بن مطعم فقال: يا محمد لو كنت شاباً كما كنت، ما تكلمت بما تكلمت به وأنت بين ظهرائنا. فقال رجل من القوم: يا محمد، هل مررت ببابل لنا في مكان كذا وكذا؟ قال: «نعم، والله قد وجدتهم أضلوا بعيداً لهم فهم في طلبه». قال: فهل مررت ببابل لبني فلان؟ قال: «نعم، وجدتهم في مكان كذا وكذا، وقد انكسرت لهم ناقة حمراء، وعندهم قصعة من ماء، فشربت ما فيها». قالوا: فأخبرنا عدتها وما فيها من الرعاة. قال: «قد كنت عن عدتها مشغولاً». فنام فأوتى بالبابل فعدها وعلم ما فيها من الرعاة ثم أتى قریشاً فقال لهم: «سألتهموني عن إبل بني فلان، فهي كذا وكذا، وفيها من الرعاة فلان وفلان، وسألتهموني عن إبل بني فلان، فهي كذا وكذا، وفيها من الرعاة ابن أبي قحافة فلان وفلان، وهي مصبحتكم من الغداة على الثنية». قال: ففعدوا على الثنية ينظرون أصدقهم ما قال؟ فاستقبلوا الإبل فسألوه: هل ضل لكم بعير؟ قالوا: نعم. فسألوا الآخر: هل انكسرت لكم ناقة حمراء؟ قالوا: نعم. قالوا: فهل كان عندكم قصعة؟ قال أبو بكر: أنا والله وضعتها فما شربها أحد، ولا أهرأقه في الأرض. فصَدَّقَهُ أبو بكر رضي الله عنه وآمن به، فسمي يومئذ الصديق.

فصل

وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مرة واحدة، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء، عليهم السلام. ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسرءات متعددة فقد أبعد وأغرب، وهرب إلى غير مهرب ولم يحصل على مطلب. وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه، عليه السلام، أسري به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلى السماء فقط، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء. وفرح بهذا المسلك، وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات. وهذا بعيد جداً، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف، ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي ﷺ أمته، ولنقلته الناس على التعدد والتكرار. قال موسى بن عقبة، عن الزهري: كان الإسرء قبل الهجرة بسنة. وكذا قال عروة. وقال السدي: بستة عشر شهراً.

والحق أنه، عليه السلام، أسري به بقظة لا مناماً من مكة إلى بيت المقدس، ركباً البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب، ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين. ثم أتى المعراج - وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها - فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فتلقاها من كل سماء مقربوها، وسلم عليه الأنبياء عليهم السلام الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مرَّ بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتهما ﷺ وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام: أي: أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدره المنتهى، وغشيتها من أمر الله، تعالى، عظمة عظيمة، من فراش من ذهب، وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هنالك جبريل على صورته، وله ستمائة جناح، ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه، لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة. ورأى

الجنة والنار، وفرض الله ﷺ عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس، رحمة منه ولطفاً بعباده. وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها. ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء فصلّى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ. ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء. والذي تظاهرت به الروايات أنه بيت المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه. والظاهر أنه بعد رجوعه إليه، لأنه لما مرّ بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق، لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله، تعالى. ثم لما فرغ من الذي أريد به، اجتمع هو وإخوانه من النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له في ذلك. ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل، أو اللبن والخمر، أو اللبن والماء، أو الجميع - فقد ورد أنه في بيت المقدس، وجاء أنه في السماء. ويحتمل أن يكون ههنا وههنا، لأنه كالضيافة للقادِم، والله أعلم. ثم اختلف الناس: هل كان الإسراء ببدنه عليه السلام وروحه؟ أو بروحه فقط؟ على قولين، فالأكثر من العلماء على أنه أسري ببدنه وروحه يقظة لا مناماً، ولا ينكر أن يكون رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك مناماً، ثم رآه بعده يقظة؛ لأنه عليه السلام كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، والدليل على هذا قوله ﷺ: ﴿سَبَّحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِمَبْدِيهِ﴾، فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، ولو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء ولم يكن مستغظاً، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم. وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقد قال عز شأنه: ﴿أَسْرَى بِمَبْدِيهِ. لَيْلًا﴾. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا آيَاتِنَا الَّتِي أُرْسِلَتْكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، والشجرة الملعونة: شجرة الزقوم. رواه البخاري. وقال تعالى: ﴿مَا نَزَّلَ الْبَصُرَ وَمَا كُنَّا﴾ [النجم: ١٧]، والبصر من آلات الذات لا الروح. وأيضاً فإنه حمل على البراق، وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح، لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه، والله أعلم.

وقال آخرون: بل أسري برسول الله ﷺ بروحه لا بجسده. قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس، أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ قال: كانت رؤيا من الله صادقة. وحدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة كانت تقول: ما فقد جسد رسول الله ﷺ، ولكن أسري بروحه. قال ابن إسحاق: فلم ينكر ذلك من قولها، لقول الحسن: إن هذه الآية نزلت: ﴿وَمَا جَعَلْنَا آيَاتِنَا الَّتِي أُرْسِلَتْكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾، ولقول الله في الخبر عن إبراهيم: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظَرُ مَاذَا رَزَمْتُ﴾ [الصافات: ١٠٢]، ثم مضى على ذلك. فعرفت أن الوحي يأتي للأنبياء من الله أيقاظاً ونياماً. فكان رسول الله ﷺ يقول: «نتام عينا، وقلبي يقظان» فله أعلم أي ذلك كان قد جاء، وعالين فيه من الله ما عاين، على أي حالته كان، نائماً أو يقظان، كل ذلك حق وصدق. انتهى كلام ابن إسحاق. وقد تعقبه أبو جعفر بن جرير في تفسيره بالرد والإنكار والتشنيع، بأن هذا خلاف ظاهر سياق القرآن، وذكر من الأدلة على رده بعض ما تقدم، والله أعلم.

فائدة حسنة جليلة:

روى الحافظ أبو نُعَيْم الأصبهاني في كتاب «دلائل النبوة» من طريق محمد بن عمر الواقدي: حدثني مالك بن أبي الرجال، عن عمرو بن عبد الله، عن محمد بن كعب القرظي، قال: بعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة إلى قيصر - فذكر وروده عليه وقدمه إليه. وفي السياق دلالة عظيمة على وقور عقل هرقل - ثم استدعى من بالشام من التجار، فجاء بأبي سفيان صخر بن حرب وأصحابه، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم، كما سيأتي بيانه، وجعل أبو سفيان يجهد أن يحقر أمره ويصغره عنده. قال في هذا السياق عن أبي سفيان: والله ما يمتعني أن أقول عليه قولاً أسقطه من عينه إلا أنني أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها عليّ، ولا يصدقني بشيء. قال: حتى ذكرت قوله ليلة أسري به قال: فقلت: أيها الملك، ألا أخبرك خبراً تعرف أنه قد كذب؟ قال: وما هو؟ قال: قلت: إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا - أرض الحرم - في ليلة فجاء مسجداً هذا - مسجد إيلياء، ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح. قال: وبَطَرِيْقُ إيلياء عند رأس قيصر، فقال بَطَرِيْقُ إيلياء: قد علمت تلك الليلة، قال: فنظر قيصر، وقال: وما علمك بهذا؟ قال: إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كان تلك الليلة

فائدة:

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَحَمَلْنَاهُ إِهْدَىٰ لِقَوْمٍ إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً ﴿٢﴾ ذُرِّيَّتَهُ مَن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾

قال الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن أبي حصين، عن عبد الله بن سنان، عن سعد بن مسعود الثقفي قال: إنما سمي نوح عبداً شكوراً؛ لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو أسامة، حدثنا زكريا بن أبي زائدة، عن سعيد بن أبي بزة، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها». وهكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي من طريق أبي أسامة، به. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: كان يحمد الله على كل حال. وقد ذكر البخاري هنا حديث أبي زُرعة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة - بطوله، وفيه -: فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك» وذكر الحديث بكامله.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿١﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَئِنَا بَشَأًا عَلَيْهِمْ عِبَادًا لَنَا أَتَوُلُّ أُولَئِينَ شَدِيدُ مَقَاسُوا جُنُلَ الذِّيَابِ وَكَانَتْ ﴿٢﴾ قُدْرَتُنَا لَكُمْ الْكَوْنَةَ عَلَيْهِمْ وَأَنزَلْنَا بِأَمْوَالِ وَيَسٍ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٣﴾ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنَ لَأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسُوتُوا رُشُوقَهُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَوَّأُوا مَأْوَاهُمْ لِيُقِيمُوا فِيهَا رِجْلَهُمْ وَلِيَذُكَّرُوا عَنْهُمْ وَأُولَئِكَ جَحِيمُ صَبْرًا ﴿٥﴾﴾

يقول تعالى: إنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب، أي: تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ويعلمون علواً كبيراً، أي: يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس كما قال تعالى: ﴿وَصَبَّأْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرُ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِرِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] أي: تقدمنا إليه وأخبرناه بذلك وأعلمناه به.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَقْدُ أُولَئِهِمَا﴾ أي: أولى الإفسادتين ﴿بَشَأَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولى بأس شديد، أي: قوة وعدة وسلطة شديدة ﴿فَتَنَاسُوا بَيْنَهُمَا﴾ أي: تملكوا ببلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أي: بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحداً ﴿وَكَاكَ وَقْدًا مَفْعُولًا﴾. وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم: من هم؟ فمن ابن عباس وقتادة: أنه جالوت الجزري وجنوده، سلط عليهم أولاً، ثم أدبلوا عليه بعد ذلك. وقتل داود جالوت، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾. وعن سعيد بن جبير: أنه ملك الموصل سنجاريب وجنوده. وعنه أيضاً، وعن غيره: أنه بختنصر ملك بابل. وقد ذكر ابن أبي حاتم له قصة عجيبة في كيفية ترقية من حال إلى حال، إلى أن ملك البلاد، وأنه كان فقيراً مقعداً ضعيفاً يستعطي الناس ويستطعمهم، ثم آل به الحال إلى ما آل، وأنه سار إلى بلاد بيت المقدس، فقتل بها خلقاً كثيراً من بني إسرائيل.

وقد روى ابن جرير في هذا المكان حديثاً أسنده عن حذيفة مرفوعاً مطولاً، وهو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث! والعجب كل العجب كيف راج عليه مع إمامته وجلالة قدره! وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزي، رحمه الله، بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب. وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها؛ لأن منها ما هو موضوع، من وضع بعض زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحاً، ونحن في غنى عنها، والله الحمد. وفيما قص الله تعالى علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم. وقد أخبر الله تعالى أنهم لما بغوا وطغوا سلط الله عليهم عدوهم، فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد، فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء.

وقد روى ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: ظهر بختنصر على الشام، فخرّب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق فوجد بها دماً يغلي على كبا، فسألهم: ما هذا الدم؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا، وكلما ظهر عليه الكبا ظهر. قال: فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم، فسكن. وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهذا هو المشهور، وأنه قتل أشرفهم وعلماءهم، حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ معه خلقاً منهم أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها. ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه، لجاز كتابته وروايته، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ أَسْنَدْتُمْ أَحْسَنَتْ لَأُنْفِكَرَنَّ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي: فعلينا، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ﴾ [نص: ٤٦]. وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَقْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي: المرة الآخرة، أي: إذا أفسدتم المرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿لِيَسْخَرُوا مِنِّي وَمِنْكُمْ﴾ أي: يهينوكم ويقهروكم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ أي: بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: في التي جاسوا فيها خلال الديار ﴿وَلِيَسْخَرُوا﴾ أي: يدمروا ويخربوا ﴿مَا عَلَوْا﴾ أي: ما ظهروا عليه ﴿تَنْبِيْرًا عَنِّي رِزْقًا أَنْ يَرْحَمَكُم﴾ أي: فيصرفهم عنكم ﴿وَلَنْ عُدَّتُمْ عِدًّا﴾ أي: متى عدتم إلى الإفساد ﴿عِدًّا﴾ إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي: مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد لهم عنه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿حَصِيرًا﴾ أي: سجناً. وقال مجاهد: يحصرون فيها. وكذا قال غيره. وقال الحسن: فراش ومهاد. وقال قتادة: قد عاد بنو إسرائيل، فسلط الله عليهم هذا الحي، محمد ﷺ وأصحابه، يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُمْ أَقْرَبُ وَيُنَبِّئُ الْمُؤْمِنِينَ أَلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٥﴾.

يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن، بأنه يهدي لأقوم الطرق، وأوضح السبل ﴿وَيُنَبِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ به ﴿أَلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ على مقتضاه ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢٦].

﴿وَيَبْعَثُ الْإِنْسَانَ إِلَىٰ ذُنُوبِهِ وَالْأُولَىٰ﴾ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١٦﴾.

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان، ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله ﴿يَبْعَثُ﴾ أي: بالموت أو الهلاك والدمار واللعة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَسْرَارَهُمْ لَظَهَرَ لَهُمُ الْخَيْرُ لَقُصِيَ

إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴿١١﴾، وكذا فسره ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وقد تقدم في هذا الحديث: «لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم، أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها». وإنما يحمل ابن آدم على ذلك عجلته وقلقه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ نَجْوًا﴾. وقد ذكر سلمان الفارسي وابن عباس - رضي الله عنهما - ههنا قصة آدم، عليه السلام، حين هم بالنهوض قائماً قبل أن تصل الروح إلى رجليه، وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه، فلما وصلت إلى دماغه عطس، فقال: الحمد لله. فقال الله: يرحمك ربك يا آدم. فلما وصلت إلى عينيه فتحهما، فلما سرت إلى أعضائه وجسده جعل ينظر إليه ويعجبه، فهم بالنهوض قبل أن تصل إلى رجليه فلم يستطع، وقال: يا رب عجل قبل الليل.

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ مَّحْوَرَاتٍ فَوَحَاً بِآيَةِ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ النَّيِّينَ وَالْحَسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴿١٢﴾﴾.

يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار، ليسكنوا في الليل وينتشروا في النهار للمعاش والصناعات والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجازات وغير ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: في معاشكم وأسفاركم ونحو ذلك ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ النَّيِّينَ وَالْحَسَابِ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً وأسلوباً متساوياً لما عرف شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً لَّنِ لَّيْلٍ قَنِيذَةً مِّنْ لَّيْلَةٍ غَرَّ أَنَّ اللَّهَ بَأْتِيكُمْ بِيضَاءً أَوْ لَئِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً لَّنِ لَّيْلٍ قَنِيذَةً مِّنْ لَّيْلَةٍ غَرَّ أَنَّ اللَّهَ بَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ فَنَكُودَةٍ فِيهِ أَفَلَا تَعْبَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ وَمَنْ رَّحِمْنَاهُ جَعَلْنَا لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِسَكُونٍ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الفصل: ٧١-٧٣]. وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا يَرَبَكُمَا وَسُجُوداً وَمُعَرَاباً ﴿١٥﴾﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴿١٦﴾﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَيْنَاكَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [المؤمنون: ٨٠]، وقال: ﴿يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَنِيُّ﴾ [الزمر: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَنَّى يُؤْتَى الْإِنْسَانُ بِأَلْهَامٍ ﴿١٧﴾﴾ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لَّهُمَّ اللَّيْلُ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَمَاذَا هُمْ مُنْظَرُونَ ﴿١٩﴾﴾ وَالشَّمْسُ تَحْرِي لِيُسْتَقَرَّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [يس: ٣٧، ٣٨].

ثم إنه تعالى جعل لليل آية، أي: علامة يعرف بها وهي الظلام وظهور القمر فيه، وللنهار علامة، وهي النور وظهور الشمس النيرة فيه، وفاوت بين ضياء القمر وبرهان الشمس ليعرف هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ النَّيِّينَ وَالْحَسَابِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿لَا تَكُن مِّنَ الْقَوْمِ يَسْتَوْفُونَ﴾ [يونس: ٦٠، ٦١]، كما قال تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ لَكُمْ فِيهِ مَوْعِظٌ لِلنَّاسِ وَالْحَكْمُ﴾ الآية [البقرة: ١٨٩]. قال ابن جريج، عن عبد الله بن كثير في قوله: ﴿فَوَحَاً بِآيَةِ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ قال: ظلمة الليل وسُدفة النهار. وقال ابن جريج عن مجاهد: الشمس آية النهار، والقمر آية الليل ﴿فَوَحَاً بِآيَةِ اللَّيْلِ﴾ قال: السواد الذي في القمر، وكذلك خلقه الله تعالى. وقال ابن جريج: قال ابن عباس: كان القمر يضيء كما تضيء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية النهار ﴿فَوَحَاً بِآيَةِ اللَّيْلِ﴾: السواد الذي في القمر.

وقد روى أبو جعفر بن جرير من طرق متعددة جيدة: أن ابن الكواء سأل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فقال: يا أمير المؤمنين، ما هذه اللطخة التي في القمر؟ فقال: ويحك. أما تقرأ القرآن؟ ﴿فَوَحَاً بِآيَةِ اللَّيْلِ﴾ فهذه محوه. وقال قتادة في قوله: ﴿فَوَحَاً بِآيَةِ اللَّيْلِ﴾: كنا نحدث أن محو آية الليل سواد القمر الذي فيه، وجعلنا آية النهار مبصرة، أي: منيرة، خلق الشمس أنور من القمر وأعظم. وقال ابن أبي نجيع عن ابن عباس: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ﴾ قال: ليلاً ونهاراً، كذلك خلقهما الله، ﷻ.

﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَمَّتْهُ طَسْفَرٌ فِي عُنُقِهِ وَخَرَجَ لَو يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَيْتًا لَّقَنَّهُ نَشُورًا ﴿١٢﴾﴾ أَفَرَأَى كَيْتَكَ كَمَنْ يَنْفَسُكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا ﴿١٣﴾﴾.

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَمَّتْهُ طَسْفَرٌ فِي عُنُقِهِ﴾ وطائره: هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: من خير وشر، يلزم به ويجازى عليه ﴿فَمَنْ يَمَسُّ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَفَعَال دَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿١٤﴾﴾ وَمَنْ يَمَسُّ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿١٥﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿عَنِ الْبَيْنِ رَحَى الْيَاسْتِ قَيْدٌ ﴿١٦﴾﴾ مَا يَلْفُظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَبِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [ق: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٨﴾﴾ كِرَامًا كَثِيرِينَ ﴿١٩﴾﴾ يَمْشُونَ مَا نَحْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ وَأَنَّ الْفَجَارَ لَفِي نَجِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفطار: ١٠-١٤]، قال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، وقال: ﴿مَنْ يَمَسُّ شَوْءًا يُجْزَى بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]. والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه، قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً. وقال الإمام

أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي الزبير، عن جابر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَطَّائِرُ كُلِّ إِنْسَانٍ فِي عُنُقِهِ». قال ابن لهيعة: يعني الطيرة. وهذا القول من ابن لهيعة في تفسير هذا الحديث، غريب جداً، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ أي: نجمع له عمله كله في كتاب يعطاه يوم القيامة، إما يمينه إن كان سعيداً، أو بشماله إن كان شقيماً ﴿مَنشُورًا﴾ أي: مفتوحاً يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ﴿يُنْفِخُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ ﴿١٣﴾ بِلِ الْإِنْسَانِ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُ مَعَاذِيرُهُ ﴿١٥﴾ [القيامة: ١٣-١٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَرَأَى كِتَابَكَ كَفَىٰ نَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا﴾ ﴿١٦﴾ أي: إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك غير ما عملت، لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمي. وقوله تعالى: ﴿الزَّيْنَةُ طَلَبُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ إنما ذكر العنق؛ لأنه عضو لا نظير له في الجسد، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه، كما قال الشاعر:

أذهب بها أذهب بها طوقتها طرق الحمامة

قال قتادة، عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، عن نبي الله ﷺ أنه قال: «لَا عَذْوَى وَلَا طِيرَةَ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَانَهُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ». كذا رواه ابن جرير. وقد رواه الإمام عبد بن حميد، رحمه الله، في مسنده متصلاً، فقال: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي الزبير، عن جابر [رضي الله عنه] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طير كل عبد في عنقه».

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا عبد الله، حدثنا ابن لهيعة، حدثني يزيد: أن أبا الخير حدثه: أنه سمع عقبة بن عامر رضي الله عنه يحدث عن النبي ﷺ قال: «ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: يا ربنا، عبدك فلان، قد حبسته؟ فيقول الرب جل جلاله: احتموا له على مثل عمله، حتى يبرأ أو يموت». إسناده جيد قوي، ولم يخرجوه. وقال معمر، عن قتادة: ﴿الزَّيْنَةُ طَلَبُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ قال: عمله. ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال: نخرج ذلك العمل ﴿كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ قال معمر: وتلا الحسن البصري ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قِيدَ﴾ [ق: ١٧] يا ابن آدم، بسطت لك صحيفة، ووكلك بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك والآخر عن يسارك، فاما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مئت طويت صحيفةك فجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ﴿أَفَرَأَى كِتَابَكَ كَفَىٰ نَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا﴾ ﴿١٦﴾ قد عدل - والله - عليك من جعلك حسب نفسك. هذا من حسن كلام الحسن، رحمه الله.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشِّمَالِ قِيدَ مِائَةٍ﴾ وَمَا كُنَّا مُؤَيَّدِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾.

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى آثار النبوة، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ﴿وَمَنْ سَلَ﴾ أي: عن الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجني على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه. ثم قال: ﴿وَلَا نَزْرَ وَارِزَةً وَنَزْرَ أَخْرَ﴾ أي: لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جان إلا على نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَنفَعُ مَغْفَلَةً لِّكَ جَهْلُكَ لَا يَحْمِلُ مَنَّهُ مَنٌّ﴾ [فاطر: ١٨]. ولا منافاة بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَتَقَالُوا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يَضِلُّونَهُمْ يَغِيْرِ عَلَيْهِ﴾ [النحل: ٢٥]، فإن الدعاة عليهم إثم ضلالهم في أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحملوا عنهم شيئاً. وهذا من عدل الله ورحمته بعباده. وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُؤَيَّدِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يذنب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَلِيقَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُنَا آلَ رَنْبٍ كَذِبٌ قَالُوا بَلْ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن قُنٍّ إِنَّ أَشَدَّ إِلَّا فِي سَكَلٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٨، ٩]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَقَوْمٌ بَطَرُوا فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَلَاتًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ وَهَآءُ كَلِمَاتُ الَّذِينَ كَذَبُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه، ومن ثم طعن جماعة من العلماء في اللفظة التي جاءت مقحمة في صحيح البخاري عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

حدثنا عبد الله بن سعد، حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن صالح بن كيسان، عن الأعرج بإسناده إلى أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «اختصمت الجنة والنار» فذكر الحديث إلى أن قال: «وأما الجنة فلا يظلم الله من خلقه أحداً، وإنه ينشئ للنار خلقاً

فيلقون فيها، فتقول: هل من مزيد؟ ثلاثاً، وذكر تمام الحديث. فإن هذا إنما جاء في الجنة لأنها دار فضل، وأما النار فإنها دار عدل، لا يدخلها أحد إلا بعد الإعذار إليه وقيام الحجة عليه. وقد تكلم جماعة من الحفاظ في هذه اللفظة وقالوا: لعله انقلب على الراوي بدليل ما أخرجه في الصحيحين واللفظ للبخاري من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن همام، عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «تحتاج الجنة والنار»، فذكر الحديث إلى أن قال: «فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع فيها قدمه، فتقول: قط، فهناك تمتلئ» ويزوي بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحداً، وأما الجنة فينشئ الله لها خلقاً.

بقي هنا مسألة قد اختلف الأئمة، رحمهم الله تعالى، فيها قديماً وحديثاً وهي: الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآبائهم كفار، ماذا حكمهم؟ وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف، ومن مات في الفترة ولم تبلغه الدعوة. وقد ورد في شأنهم أحاديث أنا ذكروا لك بعون الله تعالى وتوفيقه ثم نذكر فصلاً ملخصاً من كلام الأئمة في ذلك، والله المستعان.

فالحديث الأول: عن الأسود بن سريع:

قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، عن الأحنف بن قيس، عن الأسود بن سريع رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل مَرَم، ورجل مات في فترة، فأما الأصم فيقول: رب، قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: رب، لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالعر، وأما الهرم فيقول: رب، لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب، ما أتاني لك رسول. فيأخذ مواعيقهم ليطيعته فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً».

وبالإسناد عن قتادة، عن الحسن، عن أبي رافع، عن أبي هريرة، مثل هذا الحديث غير أنه قال في آخره: «من دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن لم يدخلها يسحب إليها». وكذا رواه إسحاق بن راهويه، عن معاذ بن هشام، ورواه البيهقي في كتاب الاعتقاد، من حديث حنبل بن إسحاق، عن علي بن عبد الله المديني، به. وقال: هذا إسناد صحيح، وكذا رواه حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي رافع، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعة كلهم يدلي على الله بحجة» فذكر نحوه. ورواه ابن جرير، من حديث مَعْمَرٍ، عن همام، عن أبي هريرة، فذكره موقوفاً، ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبَيَّنَ رَسُولُكَ﴾. وكذا رواه معمر بن عبد الله بن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة موقوفاً.

الحديث الثاني: عن أنس بن مالك:

قال أبو داود الطيالسي: حدثنا الربيع، عن يزيد بن أبان قال: قلنا لأنس: يا أبا حمزة، ما تقول في أطفال المشركين؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكن لهم سيئات فيعذبوا بها فيكونوا من أهل النار، ولم يكن لهم حسنات فيجازوا بها فيكونوا من ملوك أهل الجنة هم من خدم أهل الجنة».

الحديث الثالث: عن أنس أيضاً:

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا جرير، عن ليث، عن عبد الوارث، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأربعة يوم القيامة: بالمولود، والمعتوه، ومن مات في الفترة، والشيخ الفاني الهم، كلهم يتكلم بحجته، فيقول الرب تبارك وتعالى لعنق من النار: ابرز. ويقول لهم: إني كنت أبعث إلى عبادي رسلاً من أنفسهم، وإني رسول نفسي إليكم: ادخلوا هذه. قال: فيقول من كتب عليه الشقاء: يا رب، أتى ندخلها ومنها كنا نفر؟ قال: ومن كتبت عليه السعادة يمضي فيقتحم فيها مسرعاً، قال: فيقول الله تعالى: أنتم لرسلنا أشد تكذيباً ومعصية، فيدخل هؤلاء الجنة، وهؤلاء النار». وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار، عن يوسف بن موسى، عن جرير بن عبد الحميد، بإسناده مثله.

الحديث الرابع: عن البراء بن عازب، رضي الله عنه:

قال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده أيضاً: حدثنا قاسم بن أبي شيبه، حدثنا عبد الله - يعني ابن داود - عن عمر بن ذر، عن يزيد بن أمية، عن البراء قال: سُئل رسول الله ﷺ عن أطفال المسلمين قال: «هم مع آبائهم». وسئل عن أولاد المشركين فقال: «هم مع آبائهم». فقيل: يا رسول الله، ما يعملون؟ قال: «الله أعلم بهم». ورواه عمر بن ذر، عن يزيد بن أمية، عن رجل، عن البراء، عن عائشة، فذكره.

الحديث الخامس: عن ثوبان:

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا ربحان بن سعيد، حدثنا عباد بن منصور، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان؛ أن النبي ﷺ عظم شأن المسألة، قال: «إذا كان يوم القيامة، جاء أهل الجاهلية يحملون أوثانهم على ظهورهم فيسألهم ربهم، فيقولون: ربنا لم ترسل إلينا رسولا، ولم يأتنا لك أمر، ولو أرسلت إلينا رسولا لكانا أطوع عبادك، فيقول لهم ربهم: أرايتم إن أمرتكم بأمر تطيعوني؟ فيقولون: نعم، فيأمرهم أن يعمدوا إلى جهنم فيدخلوها، فينطلقون حتى إذا دنوا منها وجدوا لها تغيطاً وزفيراً، فرجعوا إلى ربهم فيقولون: ربنا أخرجنا - أو: أجزنا - منها، فيقول لهم: ألم تزعموا أني إن أمرتكم بأمر تطيعوني؟ فيأخذ على ذلك مواعيقهم. فيقول: اعمدوا إليها، فادخلوها. فينطلقون حتى إذا رأوها فَرَقُوا ورجعوا، فقالوا: ربنا فَرَقْنَا منها، ولا نستطيع أن ندخلها. فيقول: ادخلوها داخرين». فقال نبي الله ﷺ: «لو دخلوها أول مرة كانت عليهم برداً وسلاماً». ثم قال البزار: ومتن هذا الحديث غير معروف إلا من هذا الوجه، لم يروه عن أيوب إلا عباد، ولا عن عباد إلا ربحان بن سعيد. قلت: وقد ذكره ابن حبان في ثقاته، وقال يحيى بن معين والنسائي: لا بأس به، ولم يرضه أبو داود. وقال أبو حاتم: شيخ لا بأس به يكتب حديثه ولا يحتج به.

الحديث السادس: عن أبي سعيد - سعد بن مالك بن سنان الخدري:

قال الإمام محمد بن يحيى الذهلي: حدثنا سعيد بن سليمان، عن فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الهالك في الفترة والمعتوه والمولود؛ يقول الهالك في الفترة: لم يأتني كتاب، ويقول المعتوه: رب، لم تجعل لي عقلاً أعقل به خيراً ولا شراً، ويقول المولود: رب لم أدرك العقل. فترفع لهم نار فيقال لهم: رُدُّوها قال: فيردها من كان في علم الله سعيداً لو أدرك العمل، ويمسك عنها من كان من علم الله شقياً لو أدرك العمل، فيقول: إياي عصيت، فكيف لو أن رسلي أتتكم؟». وكذا رواه البزار، عن محمد بن عمر بن هنيح الكوفي، عن عبيد الله بن موسى، عن فضيل بن مرزوق، به. ثم قال: لا يعرف من حديث أبي سعيد إلا من طريقه، عن عطية عنه، وقال في آخره: «فيقول الله، إياي عصيت فكيف برسلي بالغيب؟».

الحديث السابع: عن معاذ بن جبل، رضي الله عنه:

قال هشام بن عمار ومحمد بن المبارك الصوري: حدثنا عمر بن واقد، عن يونس بن حليس، عن أبي إدريس الخولاني، عن معاذ بن جبل، عن نبي الله ﷺ قال: «يؤتى يوم القيامة بالممسوخ عقلاً، وبالهالك في الفترة، وبالهالك صغيراً. فيقول الممسوخ: يا رب، لو آتيتني عقلاً ما كان من آتيته عقلاً بأسعد مني - وذكر في الهالك في الفترة والصغير نحو ذلك - فيقول الرب ﷻ: إني أمرتك بأمر فتطيعوني؟ فيقولون: نعم، فيقول: اذهبوا فادخلوا النار - قال: ولو دخلوها ما ضرتهم - فتخرج عليهم قوابص، فيظنون أنها قد أهلك ما خلق الله من شيء، فيرجعون سراعاً، ثم يأمرهم الثانية فيرجعون كذلك، فيقول الرب ﷻ: قبل أن أخلقكم علمت ما أنتم عاملون، وعلى علمي خلقتكم، وإلى علمي تصيرون، ضميمهم، فتأخذهم النار».

الحديث الثامن: عن أبي هريرة، رضي الله عنه:

قد تقدم روايته مندرجة مع رواية الأسود بن سريع، رضي الله عنه. وفي الصحيحين، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه ويُنصرانه ويُمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟». وفي رواية قالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت، عن عطاء بن قُرَّة، عن عبد الله بن ضمرة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: فيما أعلم، شك موسى - قال: «ذاري المسلمين في الجنة، يكفلهم إبراهيم عليه السلام». وفي صحيح مسلم، عن عياض بن حمار، عن رسول الله ﷺ، عن الله، ﷻ، أنه قال: «إني خلقت عبادي حنفاء». وفي رواية لغيره «مسلمين».

الحديث التاسع: عن سمرة، رضي الله عنه:

رواه الحافظ أبو بكر البرقاني في كتابه «المستخرج على البخاري» من حديث عوف الأعرابي، عن أبي رجاء العطاردي، عن سمرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فناداه الناس: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ قال: «وأولاد المشركين». وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عقبه بن مكرم الضبِّي، عن عيسى بن شعيب، عن

عباد بن منصور، عن أبي رجاء، عن سمرة قال: سألنا رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال: «هم خدم أهل الجنة».

الحديث العاشر: عن عم حسناء:

قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق، يعني الأزرق، أخبرنا رَوْح، حدثنا عوف، عن حسناء بنت معاوية من بني صريم قالت: حدثني عمي قال: قلت: يا رسول الله، من في الجنة؟ قال: «النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والوئيد في الجنة». فمن العلماء من ذهب إلى التوقف فيهم لهذا الحديث، ومنهم من جزم لهم بالجنة، لحديث سمرة بن جندب في صحيح البخاري: أنه عليه الصلاة والسلام قال في جملة ذلك المنام، حين مر على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان، فقال له جبريل: هذا إبراهيم، عليه السلام، وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين، قالوا: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ قال: «نعم، وأولاد المشركين». ومنهم من جزم لهم بالنار، لقوله عليه السلام: «هم مع آبائهم». ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة في العَرَصات، فمن أطاع دخل الجنة وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة، ومن عصى دخل النار داخراً، وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة. وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرح به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض. وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، رحمه الله، عن أهل السنة والجماعة، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في «كتاب الاعتقاد» وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ النقاد.

وقد ذكر الشيخ أبو عمر بن عبد البر الثَّمَرِي بعد ما تقدم من أحاديث الامتحان، ثم قال: وأحاديث هذا الباب ليست قوية، ولا تقوم بها حجة وأهل العلم ينكرونها؛ لأن الآخرة دار جزاء وليست دار عمل ولا ابتلاء، فكيف يكلفون دخول النار وليس ذلك في وسع المخلوقين، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها؟! والجواب عما قال: أن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح، كما قد نص على ذلك غير واحد من أئمة العلماء، ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف يقوى بالصحيح والحسن. وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متعاضدة على هذا النمط، أفادت الحجة عند الناظر فيها، وأما قوله: «إن الآخرة دار جزاء»، فلا شك أنها دار جزاء، ولا ينافي التكليف في عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار، كما حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري عن مذهب أهل السنة والجماعة، من امتحان الأطفال، وقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيَذْعَبُونَ إِلَى الْجُودِ﴾ [ن: ٤٢]، وقد ثبتت السنة في الصحاح وغيرها: أن المؤمنين يسجدون لله يوم القيامة، وأما المنافق فلا يستطيع ذلك ويعود ظهراً طبقاً واحداً كلما أراد السجود خرّ لفقاه.

وفي الصحيحين في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجا منها أن الله يأخذ عهوده ومواثيقه ألا يسأل غير ما هو فيه، ويتكرر ذلك مراراً، ويقول الله تعالى: يا ابن آدم، ما أغدرك! ثم يأذن له في دخول الجنة. وأما قوله: «وكيف يكلفهم دخول النار، وليس ذلك في وسعهم؟» فليس هذا بمنع من صحة الحديث، فإن الله يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط، وهو جسر على جهنم أخذ من السيف وأدق من الشعرة، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم، كالبرق، والريح، وكأجاويد الخيل والركاب، ومنهم الساعي ومنهم الماشي، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم المكدوش على وجهه في النار، وليس ما ورد في أولئك بأعظم من هذا بل هذا أطم وأعظم. وأيضاً فقد ثبتت السنة بأن الدجال يكون معه جنة ونار، وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذي يرى أنه نار، فإنه يكون عليه برداً وسلاماً، فهذا نظير ذلك، وأيضاً فإن الله تعالى قد أمر بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم، فقتل بعضهم بعضاً حتى قتلوا فيما قيل في غداة واحدة سبعين ألفاً، يقتل الرجل أباه وأخاه وهم في عمية غمامة أرسلها الله عليهم، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل، وهذا أيضاً شاق على النفوس جداً لا يتقاصر عما ورد في الحديث المذكور، والله أعلم.

فصل

فإذا تقرر هذا، فقد اختلف الناس في ولدان المشركين على أقوال:

أحدها: أنهم في الجنة، واحتجوا بحديث سَمُرَةَ أنه، عليه السلام، رأى مع إبراهيم أولاد المسلمين وأولاد المشركين وبما تقدم في رواية أحمد عن حسناء، عن عمها أن رسول الله ﷺ قال: «المولود في الجنة». وهذا استدلال صحيح، ولكن أحاديث الامتحان أخص منه. فمن علم الله ﷻ أنه يطيع جعل روحه في البرزخ مع إبراهيم وأولاد المسلمين الذين ماتوا على الفطرة، ومن علم منه أنه لا يجيب، فأمره إلى الله تعالى، ويوم القيامة يكون في النار كما دلت عليه أحاديث الامتحان، ونقله

الأشعري عن أهل السنة والجماعة، ثم من هؤلاء القائلين بأنهم في الجنة من يجعلهم مستقلين فيها، ومنهم من يجعلهم خدماً لهم، كما جاء في حديث علي بن زيد، عن أنس، عن أبي داود الطيالسي. وهو ضعيف، والله أعلم.

القول الثاني: أنهم مع آبائهم في النار، واستدل عليه بما رواه الإمام أحمد بن حنبل عن أبي المغيرة حدثنا عتبة بن ضمرة بن حبيب، حدثني عبد الله بن أبي قيس مولى غطفان، أنه أتى عائشة فسألها عن ذراري الكفار فقالت: قال رسول الله ﷺ: «هم تبع لآبائهم». فقلت: يا رسول الله، بلا عمل؟ فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». وأخرجه أبو داود من حديث محمد بن حرب، عن محمد بن زياد الألهاني، سمعت عبد الله بن أبي قيس، سمعت عائشة تقول، سألت رسول الله ﷺ عن ذراري المؤمنين قال: «هم من آبائهم». قلت: فذراري المشركين؟ قال: «هم مع آبائهم» قلت: بلا عمل؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». ورواه الإمام أحمد أيضاً، عن وكيع، عن أبي عقيل يحيى بن المتوكل - وهو متروك - عن مولاته بُهَّية عن عائشة؛ أنها ذكرت لرسول الله ﷺ أطفال المشركين فقال: «إن شئت أسمعتك تضاعفهم في النار».

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، عن محمد بن فضيل بن غزوان، عن محمد بن عثمان، عن زاذان عن علي، رضي الله عنه، سألت خديجة رسول الله ﷺ عن ولدين لها ماتا في الجاهلية فقال: «هما في النار». قال: فلما رأى الكراهية في وجهها قال: «لو رأيت مكانهما لأبغضتهما». قالت: فولدي منك؟ قال: قال: «في الجنة». قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار» ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١]. وهذا حديث غريب؛ فإن محمد بن عثمان هذا مجهول الحال، وشيخه زاذان لم يدرك علياً، والله أعلم.

وروى أبو داود من حديث ابن أبي زائدة، عن أبيه، عن الشعبي قال: قال رسول الله ﷺ: «الوائدة والموودة في النار». ثم قال الشعبي: حدثني به علقمة، عن أبي وائل، عن ابن مسعود. وقد رواه جماعة عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن علقمة، عن سلمة بن قيس الأشجعي قال: أتيت أنا وأخي النبي ﷺ فقلنا: إن أمنا ماتت في الجاهلية، وكانت تقرّي الضيف وتصل الرحم، وإنها وأدت أختاً لنا في الجاهلية لم تبلغ الحنث. فقال: «الوائدة والموودة في النار، إلا أن تدرك الوائدة الإسلام، فتسلم». وهذا إسناد حسن.

والقول الثالث: التوقف فيهم، واعتمدوا على قوله ﷺ: «الله أعلم بما كانوا عاملين». وهو في الصحيحين من حديث جعفر بن أبي إياس، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». وكذلك هو في الصحيحين، من حديث الزهري، عن عطاء بن يزيد، وعن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: أنه سئل عن أطفال المشركين، فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف، وهذا القول يرجع إلى قول من ذهب إلى أنهم من أهل الجنة؛ لأن الأعراف ليس دار قرار، ومآل أهلها إلى الجنة كما تقدم تقرير ذلك في «سورة الأعراف»، والله أعلم.

فصل

وليعلم أن هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء كما حكاه القاضي أبو يعلى بن الفراء الحنبلي، عن الإمام أحمد أنه قال: لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة. وهذا هو المشهور بين الناس، وهو الذي نقطع به إن شاء الله، ﷻ. فأما ما ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر، عن بعض العلماء: أنهم توقفوا في ذلك، وأن الولدان كلهم تحت مشيئة الله، ﷻ. قال أبو عمر: ذهب إلى هذا القول جماعة من أهل الفقه والحديث منهم: حماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، وإسحاق بن راهويه وغيرهم قالوا: وهو يشبه ما رسم مالك في موطنه في أبواب القدر، وما أورده من الأحاديث في ذلك، وعلى ذلك أكثر أصحابه. وليس عن مالك فيه شيء منصوص، إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلى أن أطفال المسلمين في الجنة وأطفال المشركين خاصة في المشيئة. انتهى كلامه وهو غريب جداً. وقد ذكر أبو عبد الله القرطبي في كتاب «التذكرة» نحو ذلك أيضاً، والله أعلم.

وقد ذكروا في ذلك حديث عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين قالت: دعي النبي ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه، فقال: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم». رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه. ولما كان الكلام في هذه المسألة يحتاج إلى دلائل صحيحة جيدة، وقد يتكلم فيها من لا علم عنده

عن الشارع، كره جماعة من العلماء الكلام فيها، روي ذلك عن ابن عباس، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، ومحمد بن الحنفية وغيرهم. وأخرج ابن حبان في صحيحه، عن جرير بن حازم: سمعت أبا رجاء العطاردي، سمعت ابن عباس وهو على المنبر يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال أمر هذه الأمة موافقاً - أو مقارباً - ما لم يتكلموا في الولدان والقدرة». قال ابن حبان: يعني أطفال المشركين. وهكذا رواه أبو بكر البزار من طريق جرير بن حازم، به. ثم قال: وقد رواه جماعة عن أبي رجاء، عن ابن عباس موقوفاً.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۝﴾

اختلف القراء في قراءة قوله: ﴿أَمَرْنَا﴾ فالمشهور قراءة التخفيف، واختلف المفسرون في معناها، فقيل: معناها أمرنا مترفينا ففسقوا فيها أمراً قديراً، كقوله تعالى: ﴿أَتَيْنَاهُمْ أَهْلًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤]، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، قالوا: معناها: أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب. وقيل: معناها: أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة. رواه ابن جريج، عن ابن عباس، وقاله سعيد بن جبيرة أيضاً. وقال ابن جرير: وقد يحتمل أن يكون معناها جعلناهم أمراء. قلت: إنما يجيء هذا على قراءة من قرأ ﴿أَمَرْنَا﴾ ﴿مُتْرَفِيهَا﴾ قال علي بن طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم بالعذاب، وهو قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ يَمْشُونَ فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وكذا قال أبو العالية ومجاهد والربيع بن أنس. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ يقول: أكثرنا عددهم، وكذا قال عكرمة، والحسن، والضحاك، وقتادة، وعن مالك عن الزهري: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾: أكثرنا.

وقد استشهد بعضهم بالحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا روح بن عبادة، حدثنا أبو نعامه العدوي، عن مسلم بن يزيد، عن إياس بن زهير، عن سؤيد بن هبيرة، عن النبي ﷺ قال: «خير مال امرئ له مهرة مأمورة أو سكة مأبورة». قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله، في كتابه «الغريب»: المأمورة: كثيرة النسل. والسكة: الطريقة المصطفة من النخل، والمأبورة: من التأبير، وقال بعضهم: إنما جاء هذا متناسباً كقوله: «مازورات غير مأجورات».

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ رَيْكَ يَذُنُّبِ عِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا ۝﴾

يقول تعالى منذراً كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ بأنه قد أهلك أمماً من المكذبين للرسول من بعد نوح، ودل هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام، كما قاله ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. ومعناه: أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم، وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى. وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ رَيْكَ يَذُنُّبِ عِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ أي: هو عالم بجميع أعمالهم، خيرها وشرها، لا يخفى عليه منها خافية سبحانه وتعالى.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْغَالِيَةَ عَلَّمْنَا لَمْ يَهْدِهَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَرْيُدْ ثُمَّ جَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِسْلَامِ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا ۝﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۝﴾

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد الله ما يشاء. وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات فإنه قال: ﴿عَلَّمْنَا لَمْ يَهْدِهَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَرْيُدْ ثُمَّ جَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِسْلَامِ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا﴾ أي: في الآخرة ﴿يَصْلَاهَا﴾ أي: يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ﴿مَذْمُومًا﴾ أي: في حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه، إذ اختار الغاني على الباقي ﴿مَذْهُورًا﴾: مبعداً مقصياً حقيراً ذليلاً مهاناً. قال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا زيد، عن أبي إسحاق، عن زرعة، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له». وقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ أي: أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: وقلبه مؤمن، أي: مصدق بالثواب والجزاء ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾

﴿كَلَّا تُبَدِّلُ مَوَاقِدَ هَٰؤُلَاءِ مِنْ عَمَلِهِمْ رِيًا كَانَتْ عَمَلَهُمْ خَطُورًا ۝﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَٰئِذَا الْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ۝﴾

يقول تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة، نمدهم فيما هم فيه ﴿مِنْ عَمَلِهِمْ رِيًا﴾ أي: هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور، فيعطي كل ما يستحقه من الشقاوة والسعادة ولا راد لحكمه ولا مانع لما أعطى، ولا

مغير لما أراد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ عَقْلَهُ رَبِّكَ مُحْطِوًّا﴾ أي: ممنوعاً، أي: لا يمنعه أحد ولا يرده راد. قال قتادة: ﴿وَمَا كَانَ عَقْلَهُ رَبِّكَ مُحْطِوًّا﴾ أي: منقوصاً. وقال الحسن وابن جريج وابن زيد: ممنوعاً. ثم قال تعالى: ﴿أَنْتَظِرُ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ في الدنيا، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك، والحسن والقيبح وبين ذلك، ومن يموت صغيراً، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً، وبين ذلك ﴿وَلَا أَكْفَرُ أَكْبَرَ دَرَجَتِي وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي: ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا؛ فإن منهم من يكون في الدرجات في جهنم وسلاسلها وأغلالها، ومنهم من يكون في الدرجات العلوى ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدرجات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. وفي الصحيحين: «إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا أَكْفَرُ دَرَجَتِي وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّا رَ فَنَقَعْدَ مَذْمُومًا مَحْدُولًا﴾.

يقول تعالى: والمراد المكلفون من الأمة، لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكاً ﴿فَنَقَعْدَ مَذْمُومًا﴾ على إشراكك ﴿مَحْدُولًا﴾ لأن الرب تعالى لا ينصرك، بل يكلك إلى الذي عبدت معه، وهو لا يملك لك ضرراً ولا نفعاً؛ لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا بشير بن سلمان، عن سيّار أبي الحكم، عن طارق بن شهاب، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى، إما أجل عاجل وإما غنى عاجل». ورواه أبو داود، والترمذي من حديث بشير بن سلمان، به. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

﴿وَقَفَّيْ رَبِّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِنَّمَا يُلْفَنَ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَمَّا أَتَى وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾.

يقول تعالى أمرآ بعبادته وحده لا شريك له؛ فإن القضاء ههنا بمعنى الأمر. قال مجاهد: ﴿وَقَفَّيْ﴾ يعني: وصى، وكذا قرأ أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، والضحاك بن مزاحم: «ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه» ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: وأمر بالوالدين إحساناً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنْ أَشْكُرْ لِي وَلَوْلَايَكَ لَأَلْقَيْتُكَ فِي النَّارِ﴾. وقوله: ﴿إِنَّمَا يُلْفَنَ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَمَّا أَتَى﴾ أي: لا تسمعهما قولاً سيئاً، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ أي: ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ أي: لا تنفض يدك على والديك. ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن فقال: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: لبناً طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم. ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: تواضع لهما بفعلك ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمَهُمَا﴾ أي: في كبرهما وعند وفاتهما ﴿كَأَنَّيَ صَيْرًا﴾.

قال ابن عباس: ثم أنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى﴾ [التوبة: ١١٣]. وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة، منها الحديث المروي من طرق عن أنس وغيره: أن رسول الله ﷺ لما صعد المنبر قال: «آمين آمين آمين». فقالوا: يا رسول الله، علام أمنت؟ قال: «أتاني جبريل فقال: يا محمد، رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل عليك، فقل: آمين. فقلت: آمين. رغم أنف امرئ دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يغفر له، قل: آمين. فقلت: آمين. رغم أنف امرئ أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخله الجنة، قل: آمين. فقلت: آمين».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا علي بن زيد، أخبرنا زُرَّارة بن أَوْفَى، عن مالك بن الحارث - رجل منهم - أنه سمع النبي ﷺ يقول: «من ضمَّ يتيماً بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يستغني عنه، وجبت له الجنة البتة، ومن أعتق امرأ مسلماً كان فكاكه من النار، يجزي بكل عضو منه عضواً منه». ثم قال: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت علي بن زيد - فذكر معناه، إلا أنه قال: عن رجل من قومه يقال له: مالك أو ابن مالك، وزاد: «ومن أدرك والديه أو أحدهما فدخل النار، فأبعده الله».

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا علي بن زيد، عن زرارة بن أَوْفَى، عن مالك بن عمرو القشيري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أعتق رقبة مسلمة فهي فداؤه من النار، مكان كل عظم من عظامه مُحَرَّرَه بعظم من عظامه، ومن أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له، فأبعده الله ﷻ، ومن ضمَّ يتيماً بين أبوين مسلمين إلى طعامه

وشرا به حتى يغنيه الله، وجبت له الجنة».

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج ومحمد بن جعفر قالوا: حدثنا شعبة، عن قتادة، سمعت زرارة بن أوفى يحدث عن أبي بن مالك القشيري قال: قال النبي ﷺ: «من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك، فأبعده الله وأسحقه». ورواه أبو داود الطيالسي عن شعبة به. وفيه زيادات أخرى.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، حدثنا سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف رجل أدرك والديه أحدهما أو كلاهما عند الكبير ولم يدخل الجنة». صحيح من هذا الوجه، ولم يخرج سوى مسلم، من حديث أبي عوانة وجريير وسليمان بن بلال، عن سهيل به.

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا ربعي بن إبراهيم - قال أحمد: وهو أخو إسماعيل بن عُلَيَّة، وكان يفضل على أخيه - عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي! ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان، فأنسلخ قبل أن يغفر له! ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبير فلم يدخله الجنة» قال ربعي: لا أعلمه إلا قال: «أحدهما». ورواه الترمذي، عن أحمد بن إبراهيم الدؤقي، عن ربعي بن إبراهيم، ثم قال: غريب من هذا الوجه.

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا عبد الرحمن بن الغسيل، حدثنا أسيد بن علي، عن أبيه علي بن عبيد، عن أبي أسيد وهو مالك بن ربيعة الساعدي، قال: بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، هل بقي علي من برّ أبيي شيء بعد موتهما أيرهما به؟ قال: «نعم، خصال أربع: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقيهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما، فهو الذي بقي عليك بعد موتهما من برهما». ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث عبد الرحمن بن سليمان - وهو ابن الغسيل - به.

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا ابن جريج، أخبرني محمد بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن معاوية بن جهممة السلمي؛ أن جهممة جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أردت الغزو، وجئتك أستشيرك؟ فقال: «فهل لك من أم؟» قال: نعم. فقال: «الزمها». فإن الجنة تحت رجليها» ثم الثانية، ثم الثالثة في مقاعد شتى، كمثل هذا القول. ورواه النسائي وابن ماجه، من حديث ابن جريج، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا ابن عياش، عن بَجِير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن المقدم بن معد يكرب الكندي، عن النبي ﷺ قال: «إن الله يوصيكم بآبائكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بالآقرب فالآقرب». وقد أخرجه ابن ماجه، من حديث عبد الله بن عياش، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا أبو عوانة، عن الأشعث بن سليم، عن أبيه، عن رجل من بني يربوع قال: أتيت النبي ﷺ فسمعتة وهو يكلم الناس يقول: «يد المعطي العليا أمك وأباك وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك».

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده: حدثنا إبراهيم ابن المستمر العُروقي، حدثنا عمرو بن سفيان، حدثنا الحسن بن أبي جعفر، عن ليث بن أبي سليم، عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بُريدة، عن أبيه: أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها، فسأل النبي ﷺ: هل أدبت حقها؟ قال: «لا، ولا بزفرة واحدة» أو كما قال. ثم قال البزار: لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه. قلت: والحسن بن أبي جعفر ضعيف، والله أعلم.

﴿ذِكْرُ أَفْئِدَةٍ بِمَا فِي نَفْسِكَ إِنْ تَكُونُ مَسْلُوبًا فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ عَقُورًا﴾ (٢٥).

قال سعيد بن جبیر: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبيه، وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به - وفي رواية: لا يريد إلى الخير بذلك - فقال: ﴿ذِكْرُ أَفْئِدَةٍ بِمَا فِي نَفْسِكَ﴾. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ عَقُورًا﴾ قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة. وعن ابن عباس: المسيحين. وفي رواية عنه: المطيعين المحسنين. وقال بعضهم: هم الذين يصلون بين العشاءين. وقال بعضهم: هم الذين يصلون الضحى. وقال شعبة، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب في قوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ عَقُورًا﴾ قال: الذي يصيب الذنب ثم يتوب، ويصيب الذنب ثم يتوب. وكذا رواه عبد الرزاق، عن الثوري ومعمّر، عن يحيى بن سعيد، عن

ابن المسيب نحوه، وكذا رواه الليث وابن جريج، عن يحيى بن سعيد، عن ابن المسيب، به. وكذا قال عطاء بن يسار. وقال مجاهد، وسعيد بن جبير: هم الراجعون إلى الخير. وقال مجاهد عن عبيد بن عمير في قوله: ﴿فَلَا تُبْذِرُوا مَالَكُمْ﴾ قال: هو الذي إذا ذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر الله منها. ووافقه على ذلك مجاهد. وقال عبد الرزاق: أخبرنا محمد بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن عبيد بن عمير، في قوله: ﴿فَلَا تُبْذِرُوا مَالَكُمْ﴾ قال: كنا نعد الأبواب الحفيظ، أن يقول: اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا. وقال ابن جرير: والأولى في ذلك قول من قال: هو الثابت من الذنب، الراجع عن المعصية إلى الطاعة، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه. وهذا الذي قاله هو الصواب؛ لأن الأبواب مشتق من الأبواب وهو الرجوع، يقال: آب فلان إذا رجع، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا إِلَيْنَا يَأْتِيهِمْ﴾ [الغاشية: ٢٥]، وفي الحديث الصحيح، أن رسول الله ﷺ كان إذا رجع من سفر قال: «أبيون تائبون عابدون، لربنا حامدون».

﴿وَمَاتَ ذَا الْقَرْيَةِ حَقًّا وَالْمُسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَلَا تُبْذِرُوا مَالَكُمْ﴾ [٢٦] إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِنَّمَا تَرْضَوْنَهُمْ أَنِيَّةً رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ تَرْجُوهُمْ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّنْسُورًا ﴿٢٨﴾.

لما ذكر تعالى بر الوالدين، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام، كما تقدم في الحديث: «أملك وأباك، ثم أدناك أدناك» وفي رواية: «ثم الأقرب فالأقرب». وفي الحديث: «من أحب أن ييسط له رزقه وينسأ له في أجله، فليصل رحمه». وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن يعقوب، حدثنا أبو يحيى التيمي، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَمَاتَ ذَا الْقَرْيَةِ حَقًّا﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة فأعطاهما «فدك». ثم قال: لا نعلم حدث به عن فضيل بن مرزوق إلا أبو يحيى التيمي، وحفيد بن حماد بن أبي الخوار. وهذا الحديث مشكل لو صح إسناده؛ لأن الآية مكية، وفدك إنما فتحت مع خير سنة سبع من الهجرة فكيف يلتزم هذا مع هذا؟!

وقد تقدم الكلام على المساكين وابن السبيل في «سورة براءة» بما أغنى عن إعادته ههنا. قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْذِرُوا مَالَكُمْ﴾ لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطاً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]. ثم قال منفراً عن التبذير والسرف: ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: أشباههم في ذلك. وقال ابن مسعود: التبذير: الإنفاق في غير حق. وكذا قال ابن عباس. وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق، لم يكن مبذراً، ولو أنفق مداً في غير حقه كان تبذيراً. وقال قتادة: التبذير: النفقة في معصية الله تعالى، وفي غير الحق وفي الفساد. وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا ليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن أنس بن مالك أنه قال: أتى رجل من بني تميم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني ذو مال كثير، وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرني كيف أنفق وكيف أصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: «تخرج الزكاة من مالك، فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقبائك، وتعرف حق السائل والجار والمسكين». فقال: يا رسول الله، أقلل لي؟ فقال: ﴿وَمَاتَ ذَا الْقَرْيَةِ حَقًّا وَالْمُسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَلَا تُبْذِرُوا مَالَكُمْ﴾. فقال: حسبي يا رسول الله، إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله وإلى رسوله؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، إذا أديتها إلى رسولي فقد برئت منها، فلك أجرها، وإثمها على من بدلها». وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: في التبذير والسفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أي: جحوداً؛ لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته؛ بل أقبل على معصيته ومخالفته.

وقوله تعالى: ﴿وَأِنَّمَا تَرْضَوْنَهُمْ أَنِيَّةً رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ تَرْجُوهُمْ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّنْسُورًا﴾ [٢٨] أي: وإذا سألك أقاربك ومن أمرنا بإعطائهم وليس عندك شيء، وأعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّنْسُورًا﴾ أي: عدهم وعداً بسهولة، ولين إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله، هكذا فسر قوله ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّنْسُورًا﴾ بالوعد: مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقاتدة وغير واحد.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [٢٩] إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّكَ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾.

يقول تعالى أمراً بالاقتصاد في العيش ذاماً للبلخ ناهياً عن السرف: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي: لا تكن بخيلاً منوعاً، لا تعطي أحداً شيئاً، كما قالت اليهود عليهم لعائن الله: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] أي نسبوه إلى البخل، تعالى وتقدس الكريم الوهاب. وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ أي: ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتقعد

ملوماً محسوراً. وهذا من باب اللف والنشر أي: فتقعد إن بخلت ملوماً، يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك كما قال زهير بن أبي سلمى في المعلقة:

ومن كان ذا مال ويبخل بماله على قومه يستغن عنه ويذمم

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسیر، وهو: الدابة التي قد عجزت عن السير، فوقفت ضعفاً وعجزاً، فإنها تسمى الحسیر، وهو مأخوذ من الكلال، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَوَابِغٍ يَلْبِغُ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَقْوَى فَاتَّجِجَ الْبَصَرُ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۚ ثُمَّ أَتِجِجَ الْبَصَرُ كَرِهْتَ يَتَقَلَّبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِبًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝﴾ [الملك: ٣، ٤] أي: كليل عن أن يرى عيباً. هكذا فسر هذه الآية - بأن المراد هنا البخل والسرف - ابن عباس والحسن وقتادة وابن جريج وابن زيد وغيرهم.

وقد جاء في الصحيحين، من حديث أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مثل البخيل والمنفق، كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثدييهما إلى تراقيهما. فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت - أو: وفرت - على جلده، حتى تُخفي بنانه وتعفو أثره. وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع». هذا لفظ البخاري في الزكاة.

وفي الصحيحين من طريق هشام بن عروة، عن زوجته فاطمة بنت المنذر، عن جدتها أسماء بنت أبي بكر قالت: قال رسول الله ﷺ: «أنفقي هكذا وهكذا وهكذا، ولا توعي فيوعي الله عليك، ولا توكي فيوكي الله عليك» وفي لفظ: «ولا تُحصي فيحصي الله عليك». وفي صحيح مسلم من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال لي: أنفق أنفق عليك». وفي الصحيحين من طريق معاوية بن أبي سفيان، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما: اللهم أعط متفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً».

وروى مسلم، عن قتبية، عن إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعاً: «ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله». وفي حديث أبي كثير، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا». وروى البيهقي من طريق سعدان بن نصر، عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن ابن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يخرج رجل صدقة، حتى يفك لُحْيَ سبعين شيطاناً». وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبيدة الحداد، حدثنا سكين بن عبد العزيز، حدثنا إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عال من اقتصد». وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ إخبار أنه تعالى هو الرزاق، القابض الباسط، المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء، بما له في ذلك من الحكمة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ بِمَاؤُهُمْ خَيْرًا بِصِيرًا﴾ أي: خير بصير بمن يستحق الغنى ومن يستحق الفقر، كما جاء في الحديث: «إن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه». وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجاً، والفقر عقوبة عياداً بالله من هذا وهذا.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ تَرْتُفُهُمْ وَإِذَا كُنْ أَوْلَادُكُمْ قَتْلَ الْوَالِدِ فَإِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ۝﴾

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم عباده من الوالد بولده؛ لأنه ينهى تعالى عن قتل الأولاد، كما أوصى بالأولاد في الميراث، وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لثلاث تكثر عيلته، فهي الله تعالى عن ذلك فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ تَرْتُفُهُمْ﴾ أي: خوف أن تفتقروا في ثاني الحال؛ ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال: ﴿تَرْتُفُهُمْ وَإِذَا كُنْ أَوْلَادُكُمْ قَتْلَ الْوَالِدِ فَإِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ أي: من فقر ﴿تَرْتُفُهُمْ وَإِذَا كُنْ أَوْلَادُكُمْ قَتْلَ الْوَالِدِ فَإِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ أي: ذنباً عظيماً. وقرأ بعضهم: «كان خطأ كبيراً» وهو بمعناه. وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني بحليلة جارك».

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ فِي حَسْرَةٍ وَسَاءَ سَبِيلًا ۝﴾

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا وعن مقارنته، وهو مخالطة أسبابه ودواعيه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ فِي حَسْرَةٍ﴾ أي: ذنباً عظيماً

﴿وَسَاءَ سَيِّئًا﴾ أي: وبئس طريقاً ومسلكاً. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا جرير، حدثنا سليم بن عامر، عن أبي أمامة قال: إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا. فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه. فقال: «ادنه». فدنا منه قريباً، فقال: «اجلس». فجلس، قال: «أتحبه لأهلك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم». قال: «أفتحبه لابتنتك؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم»، قال: «أتحبه لأختك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لعلماتهم»، قال: «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم»، قال: «أفتحبه لخالتك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم». قال: فوضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحسن فرجه». قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا عمار بن نصر، حدثنا بقیة، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن الهيثم بن مالك الطائي، عن النبي ﷺ قال: «ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له». ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنْ كَانَ مَضْرُورًا﴾ (١٣٢).

يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعي، كما ثبت في الصحيحين، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة». وفي السنن: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مسلم». وقوله: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا﴾ أي: سلطة على القاتل، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قوداً، وإن شاء عفا عنه على الدية، وإن شاء عفا عنه مجاناً، كما ثبتت السنة بذلك. وقد أخذ الإمام الحبر ابن عباس من عموم هذه الآية الكريمة ولاية معاوية السلطنة، وأنه سيملك؛ لأنه كان ولي عثمان، وقد قتل عثمان مظلوماً، رضي الله عنه، وكان معاوية يطالب علياً، رضي الله عنه، أن يسلمه قتله حتى يقتص منهم؛ لأنه أموي، وكان علي، رضي الله عنه، يستمهل في الأمر حتى يتمكن ويفعل ذلك، ويطلب علي من معاوية أن يسلمه الشام فيأبى معاوية ذلك حتى يسلمه القتلة، وأبى أن يبايع علياً هو وأهل الشام، ثم مع المطالبة تمكن معاوية وصار الأمر إليه كما تفاءل ابن عباس واستنبط من هذه الآية الكريمة. وهذا من الأمر العجيب، وقد روى ذلك الطبراني في معجمه حيث قال:

حدثنا يحيى بن عبد الباقي، حدثنا أبو عمير بن النحاس، حدثنا ضمره بن ربيعة، عن ابن شاذب، عن مطر الوراق، عن زهذم الجرمي قال: كنا في سمر ابن عباس فقال: إني محدثكم حديثاً ليس بسر ولا علانية؛ إنه لما كان من أمر هذا الرجل ما كان - يعني عثمان - قلت لعلي: اعتزل، فلو كنت في جحر طلبت حتى تستخرج، فعصاني، وإيم الله ليتأمرن عليكم معاوية، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ الآية وليحملنكم قريش على سنة فارس والروم وليقيمن عليكم النصارى واليهود والمجوس، فمن أخذ منكم يومئذ بما يُغَرِّف نجا، ومن ترك وأنتم تاركون، كنتم كقرون من القرون، هلك فيمن هلك. وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ قالوا: معناه: فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل. وقوله: ﴿إِنْ كَانَ مَضْرُورًا﴾ أي أن الولي منصور على القاتل شرعاً، وغالباً قدراً. ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَاتِبٌ مَشْقُوعٌ﴾ (١٢٩) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسَاسِ أَلْتَفِفْتُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (١٣٥).

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: لا تنصرفوا له إلا بالغبطة ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ الَّتِي أَمْوَالُكُمْ لِلَّهِ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢] ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِمْرًاكَ وَبَدَارًا أَنْ يَكْفُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٢٦]. وقد جاء في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً، وإنني أحب لك ما أحب لنفسي: لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم». وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ أي: الذي تعاهدون عليه الناس والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَاتِبٌ مَشْقُوعٌ﴾ أي: عنه. وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أي: من غير تطفيف، ولا تبخسوا الناس أشياءهم. ﴿وَزِنُوا بِالْقِسَاسِ﴾ قرأه بضم القاف وكسرهما، كالقسطاس وهو الميزان. وقال مجاهد: هو العدل بالرومية. وقوله: ﴿أَلْتَفِفْتُمْ﴾ أي: الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب. ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: لكم في معاشكم ومعادكم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: مآلاً ومنقلباً في آخرتكم. قال سعيد، عن قتادة: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: خير ثواباً وعاقبة. وأما ابن عباس كان يقول: يا معشر الموالي، إنكم وليتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم: هذا المكيال،

وهذا الميزان. قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «لا يقدر رجل على حرام ثم يده، ليس به إلا مخافة الله، إلا أبدله الله في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك».

﴿وَلَا تَقْعُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يقول: لا تقبل. وقال العوفي عنه: لا تزم أحداً بما ليس لك به علم. وقال محمد بن الحنفية: يعني شهادة الزور. وقال قتادة: لا تقبل: رأيت، ولم تر، وسمعت، ولم تسمع، وعلمت، ولم تعلم، فإن الله سائلك عن ذلك كله. ومضمون ما ذكره: أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿أَتَحْسِبُ أَنَّكَ مِنْ آلِ كَافِرٍ إِنَّكَ أَنْتَ الظَّالِمُ﴾ [الحجرات: ١٢]، وفي الحديث: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث». وفي سنن أبي داود: «بش مطية الرجل: زعموا»، وفي الحديث الآخر: «إن أفرى القري أن يري عينيه ما لم تريا». وفي الصحيح: «من تحلم حلماً كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين، وليس بعاقده». وقوله: ﴿كُلُّ أُولَئِكَ﴾ أي: هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد: ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ أي: سيسأل العبد عنها يوم القيامة، وتُسأل عنه وعما عمل فيها. ويصح استعمال «أولئك» مكان «تلك»، كما قال الشاعر:

ذُمُّ الْمَنَازِلِ بِغَدِّ مَنَزَلَةِ الْوَلِيِّ وَالْمِيشِ بِغَدِّ أَوْلَئِكَ الْأَيَّامِ
﴿وَلَا تَشِدْ فِي الْأَرْضِ مَرَمًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَكَانَ بَلْعُ الْإِيمَانِ طَوْلًا﴾ [٣٧] كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُومًا ﴿٣٨﴾.

يقول تعالى ناهياً عباده عن التَّجَبُّرِ والتَّبَخُّرِ في المشية: ﴿وَلَا تَشِدْ فِي الْأَرْضِ مَرَمًا﴾ أي: متبخراً متميلاً مشي الجبارين ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ أي: لن تقطع الأرض بمشيكتك، قاله ابن جرير، واستشهد عليه بقول رؤية بن العجاج:

وقاتم الأعماق خاوي المُخْرِقِ

وقوله تعالى: ﴿وَكُنْ تَلْعُ الْإِيمَانِ طَوْلًا﴾ أي: بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده. كما ثبت في الصحيح: «بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم، وعليه بُزْدَانٌ يتبختر فيهما، إذ خُفِصَ به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة». وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه في زينته، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض، وفي الحديث: «من تواضع لله رفعه الله، فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير، ومن استكبر وضعه الله، فهو في نفسه كبير وعند الناس حقير، حتى لهو أبغض إليهم من الكلب أو الخنزير». وقال أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب «الخمور والتواضع»: حدثنا أحمد بن إبراهيم بن كثير، حدثنا حجاج بن محمد، عن أبي بكر الهذلي قال: بينما نحن مع الحسن، إذ مر عليه ابن الأهمم - يريد المنصور - وعليه جباب خَزَرٌ قد نُصِدَ بعضها فوق بعض على ساقه، وانفرج عنها قباؤه، وهو يمشي ويتبختر، إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال: أف أف، شامخ بأنفه، ثان عطفه، مصرع خده، ينظر في عطفه، أي حُمَيْقٍ ينظر في عطفه في نَعَمٍ غير مشكورة ولا مذكورة، غير المأخوذ بأمر الله فيها، ولا المؤدي حق الله منها! والله إن يمشي أحدهم طبيعته يتلجلج لتلجلج المجنون، في كل عضو منه نعمة، وللشيطان به لعنة، فسمعه ابن الأهمم فرجع يعتذر إليه، فقال: لا تعتذر إلي، وتب إلى ربك، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَشِدْ فِي الْأَرْضِ مَرَمًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَكَانَ بَلْعُ الْإِيمَانِ طَوْلًا﴾ [٣٧].

ورأى البخترى العابد رجلاً من آل علي يمشي وهو يخطر في مشيته، فقال له: يا هذا، إن الذي أكرمك به لم تكن هذه مشيته! قال: فتركها الرجل بعد. ورأى ابن عمر رجلاً يخطر في مشيته، فقال: إن للشياطين إخواناً. وقال خالد بن معدان: إياكم والخطر، فإن الرجل يده من سائر جسده. رواهما ابن أبي الدنيا. وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا خلف بن هشام البزار، حدثنا حماد بن زيد، عن يحيى، عن سعيد، عن يَحْسَنَ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مشيت أمتي المطيطاء، وخدمتهم فارس والروم سلط بعضهم على بعض».

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُومًا﴾ [٣٨] أما من قرأ: ﴿سَيِّئَةٌ﴾ أي: فاحشة. فمعناه عنده: كل هذا الذي نهينا عنه، من قوله: ﴿وَلَا تَقْلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ إلى ههنا، فهو سيئة مؤاخذ عليها ﴿مَكْرُومًا﴾ عند الله، لا يحبه ولا يرضاه. وأما من قرأ ﴿سَيِّئُهُ﴾ على الإضافة فمعناه عنده: كل هذا الذي ذكرناه من قوله: ﴿وَقَعْنَ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إلى ههنا فسيئته، أي: فقيبه مكرهه عند الله، وهكذا وجه ذلك ابن جرير، رحمه الله.

﴿ذَلِكَ وَمِمَّا أَرْحَمَ إِلَافِكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ [٣٩].

يقول تعالى: هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به

الناس. ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ أي: تلومك نفسك وتلومك الله والخلق. ﴿تَذُكُّرًا﴾: قال ابن عباس وقتادة: مطروداً. والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم.

﴿أَفَأَصْفَكَ رِيشًا بَالِيَيْنَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكَ لَنَقُولُ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ (٤٠).

يقول تعالى راداً على المشركين الكاذبين الزاعمين - عليهم لعائن الله - أن الملائكة بنات الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إنثاً، ثم ادَّعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطوا في كل من المقامات الثلاث خطأ عظيماً، قال تعالى منكراً عليهم: ﴿أَفَأَصْفَكَ رِيشًا بَالِيَيْنَ﴾ أي: خصصكم بالذكور ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا﴾ أي: اختار لنفسه على زعمكم البنات؟ ثم شدد الإنكار عليهم فقال: ﴿إِنَّكَ لَنَقُولُ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أي: في زعمكم لله ولداً، ثم جعلكم ولده الإنث التي تأنفون أن يكن لكم، وربما قتلتموهن بالواد، فتلك إذا قسمة ضيزى. قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٤١) ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّعَوتُ يَنْفَكَّرُونَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَغَرُّ اللَّبَلِ هَذَا﴾ (٤٢) ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ (٤٣) ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (٤٤) ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا بِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (٤٥) ﴿لَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَدَا﴾ (٤٦) ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ (٤٧) ﴿مريم: ٨٨-٩٥﴾.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلْذِّكْرِ﴾ أي: صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبيّنات والمواعظ، فينزجروا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك، ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي: عن الحق، وبعداً منه.

﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَغُوا إِلَيْنَ الذِّكْرَ سَبِيحًا﴾ (٤٨) ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ (٤٩) ﴿كَبِيرًا﴾ (٥٠).

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن الله شريكاً من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفى: لو كان الأمر كما تقولون، وأن معه آلهة تُعبد لتقرب إليه وتشفع لديه - لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويتغنون إليه الوسيلة والقرية، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبد من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه. وقد نهى عن ذلك على السنة جميع رسله وأنبيائه. ثم نزه نفسه الكريمة وقّدها فقال: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: هؤلاء المشركون المعتقدون الظالمون في زعمهم أن معه آلهة أخرى ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي: تعالياً كبيراً، بل هو الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿سُبْحَنَ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا عَوْرًا﴾ (٥١).

يقول تعالى: تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن، أي: من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتجلّه وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته.

﴿فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ﴾ ﴿تَذُكُّرًا﴾ (٥٢) ﴿لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٥٣) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٥٤) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٥٥) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٥٦) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٥٧) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٥٨) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٥٩) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦٠) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦١) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦٢) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦٣) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦٤) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦٥) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦٦) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦٧) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦٨) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦٩) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٧٠) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٧١) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٧٢) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٧٣) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٧٤) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٧٥) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٧٦) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٧٧) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٧٨) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٧٩) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٨٠) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٨١) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٨٢) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٨٣) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٨٤) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٨٥) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٨٦) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٨٧) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٨٨) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٨٩) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٩٠) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٩١) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٩٢) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٩٣) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٩٤) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٩٥) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٩٦) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٩٧) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٩٨) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٩٩) ﴿وَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ (١٠٠).

وقوله ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغتكم. وهذا عام في الحيوانات والنبات والجماد، وهذا أشهر القولين، كما ثبت في صحيح البخاري، عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل.

وفي حديث أبي ذر: أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات، فسمع لهن تسبيح كحنين النحل، وكذا يد أبي بكر وعمر وعثمان، رضي الله عنهم أجمعين، وهو حديث مشهور في المسانيد. وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن لهيعة، حدثنا زبّان، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه مرّ على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل، فقال لهم: «اركبوها سالمة، ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فربّ مركوبة خير من راكبها، وأكثر

ذكر الله تعالى منه». وفي سنن النسائي عن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع، وقال: «نفقها تسبيح». وقال قتادة، عن عبد الله بن بابي، عن عبد الله بن عمرو: أن الرجل إذا قال: «لا إله إلا الله»، فهي كلمة الإخلاص التي لا يقبل الله من أحد عملاً حتى يقولها. وإذا قال: «الحمد لله» فهي كلمة الشكر التي لم يشكر الله عبد قط حتى يقولها، وإذا قال: «الله أكبر» فهي تملأ ما بين السماء والأرض، وإذا قال: «سبحان الله»، فهي صلاة الخلائق التي لم يدع الله أحداً من خلقه إلا قرّره بالصلاة والتسبيح. وإذا قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، قال: أسلم عبدي واستسلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبي، سمعت الصّفْعَب بن زهير يحدث عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو قال: أتى النبي ﷺ أعرابي عليه جبة من طيالة مكفوفة بدبيح - أو: مزورة بدبيح - فقال: إن صاحبكم هذا يريد أن يرفع كل راع ابن راع، ويضع كل رأس ابن رأس. فقام إليه النبي ﷺ مغضباً، فأخذ بمجامع جيبه فاجتذبه، فقال: «لا أرى عليك ثياب من لا يعقل». ثم رجع رسول الله ﷺ فجلس فقال: «إن نوحاً، عليه السلام، لما حضرته الوفاة، دعا ابنه فقال: إني قاضٌ عليكم الوصية: أمركما بآئيتين وأنهاكما عن آئيتين: أنهاكما عن الشرك بالله والكبر، وأمركما بلا إله إلا الله، فإن السموات والأرض وما بينهما لو وضعت في كفة الميزان، ووضعت «لا إله إلا الله» في الكفة الأخرى، كانت أرجح، ولو أن السموات والأرض كانتا حلقة، فوضعت «لا إله إلا الله» عليهما لفصمتها أو لقصمتها. وأمركما بسبحان الله ويحمده، فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق كل شيء».

ورواه الإمام أحمد، أيضاً، عن سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، عن الصّفْعَب بن زهير، به أطول من هذا. تفرد به. وقال ابن جرير: حدثني نصر بن عبد الرحمن الأودي، حدثنا محمد بن يعلی، عن موسى بن عبيدة، عن زيد بن أسلم، عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه؟ إن نوحاً، عليه السلام، قال لابنه: يا بني، أمر أن تقول: «سبحان الله»، فإنها صلاة الخلق وتسبيح الخلق، وبها يرزق الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكَ شَيْءٌ إِلَّا بِسَبْحٍ بِحَمْدِهِ﴾. إسناده فيه ضعف، فإن الربذي ضعيف عند الأكثرين. وقال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكَ شَيْءٌ إِلَّا بِسَبْحٍ بِحَمْدِهِ﴾. قال: الأسطوانة تسبح، والشجرة تسبح - الأسطوانة: السارية. وقال بعض السلف: إن صرير الباب تسبيحه، وخيرير الماء تسبيحه، قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكَ شَيْءٌ إِلَّا بِسَبْحٍ بِحَمْدِهِ﴾ وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن إبراهيم قال: الطعام يسبح. ويشهد لهذا القول آية السجدة أول سورة الحج. وقال آخرون: إنما يسبح ما كان فيه روح. يعنون من حيوان أو نبات. وقال قتادة في قوله: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكَ شَيْءٌ إِلَّا بِسَبْحٍ بِحَمْدِهِ﴾ قال: كل شيء فيه الروح يسبح من شجر أو شيء فيه.

وقال الحسن، والضحاك في قوله: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكَ شَيْءٌ إِلَّا بِسَبْحٍ بِحَمْدِهِ﴾ قال: كل شيء فيه الروح. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن حميد، حدثنا يحيى بن واضح وزيد بن حباب قال: حدثنا جرير أبو الخطاب قال: كنا مع يزيد الرقاشي، ومعه الحسن في طعام، فقدموا الخوان، فقال يزيد الرقاشي: يا أبا سعيد، يسبح هذا الخوان؟ فقال: كان يسبح مرة. قلت: الخوان هو المائدة من الخشب. فكان الحسن، رحمه الله، ذهب إلى أنه لما كان حياً فيه خضرة، كان يسبح، فلما قطع وصار خشبة يابسة انقطع تسبيحه. وقد يستأنس لهذا القول بحديث ابن عباس، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال: إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة». ثم أخذ جريدة رطبة، فشققها نصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة، ثم قال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا». أخرجاه في الصحيحين. قال بعض من تكلم على هذا الحديث من العلماء: إنما قال: «ما لم ييبسا» لأنهما يسبحان ما دام فيهما خضرة، فإذا يبسا انقطع تسبيحهما، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَانَتْ عَلِيماً غَوْرًا﴾ أي: أنه تعالى لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر، كما جاء في الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ مِنْ ظِلْمَةٍ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ الآية [مرد: ١٠٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَكَايْنِ يَنْ قَرِيْبَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى النَّصِيْبِ﴾ [الحج: ٤٨]. ومن أفلح عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله وتاب إليه، تاب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَمَلْ سَوْءًا أَوْ يَطْلَمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرَ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيْمًا﴾ [النساء: ١١٠]. وقال ههنا: ﴿إِنَّكَ كَانَتْ عَلِيماً غَوْرًا﴾ كما قال في آخر فاطر: ﴿لَنْ يَخْذَ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَكَ عَلَى ظَهْرِكَ مِنْ دَآبِقَةٍ وَلَكِنْ يُوْخِذُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يُمْسِكُهُمْ فَكَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَبْسُوَ بِهِمْ﴾ [فاطر: ٤١ - ٤٥].

﴿وَلَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَمَلًا يَنْتَكِرُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ جَمَلًا مُّسْتَوْرًا﴾ [١٥] وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوْا وَفِي أَعَانِهِمْ وَقُرْآنًا وَإِذَا ذُكِّرَتْ

رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّثَنَا وَلَوْ أَنَّ آدِرْبَرَهُ نُورًا ﴿٤٥﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وإذا قرأت - يا محمد - على هؤلاء المشركين القرآن، جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً. قال قتادة، وابن زيد: هو الأكمة على قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْمَةٍ مِمَّا نَدْعُوهُ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [نصت: ٥] أي: مانع حائل أن يصل إلينا مما تقول شيء. وقوله: ﴿حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ أي: بمعنى ساتر، كميون ومشووم، بمعنى: يامن وشائم؛ لأنه من يمتهم وشأمهم. وقيل: مستوراً عن الأبصار فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى، ومال إلى ترجيحه ابن جرير، رحمه الله. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أبو موسى الهروي إسحاق بن إبراهيم، حدثنا سفيان، عن الوليد بن كثير، عن يزيد بن تدرس، عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها، قالت: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يُدَا إِلَى لَهْمٍ وَتَبَّ﴾ [سورة المسد] جاءت العوراء أم جميل ولها ولولة، وفي يدها فُهر وهي تقول: مُدَّمَا أُنِينَا - أو: أُنِينَا، قال أبو موسى: الشك مني - ودينه قُلِينَا، وأمره عصينا. ورسول الله جالس، وأبو بكر إلى جنبه - أو قال: معه - قال: فقال أبو بكر: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: «إنها لن تراني»، وقرأ قرأتاً اعتصم به منها: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنَ الْقُرْآنِ جَمَلًا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [٤٥] قال: فجاءت حتى قامت على أبي بكر، فلم تر النبي ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، بلغني أن صاحبك هجاني. فقال أبو بكر: لا ورب هذا البيت ما هجاك. قال: فانصرفت وهي تقول: لقد علمت قريش أني بنت سيدها. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾: جمع «كنان»، الذي يغشى القلب ﴿أَنْ يَقْهَرُوهُ﴾ أي: لئلا يفهموا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون به. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّثَنَا﴾ أي: إذا تحدثت الله في تلاوتك، وقلت: «لا إله إلا الله» ﴿وَلَوْ أَنَّ﴾ أي: أدبروا راجعين ﴿عَلَى آدِرْبَرَهُ نُورًا﴾ ونفور: جمع نافر، كقعود جمع قاعد، ويجوز أن يكون مصدراً من غير الفعل، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ أَشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَوْ أَنَّ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَشِيرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]. قال قتادة في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّثَنَا وَلَوْ أَنَّ آدِرْبَرَهُ نُورًا﴾: إن المسلمين لما قالوا: «لا إله إلا الله»، أنكر ذلك المشركون، وكبرت عليهم، وضاقها إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يمضيها وينصرها ويقلجها ويظهرها على من ناوأها، إنها كلمة من خاصم بها فلج، ومن قاتل بها نصر، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين، التي يقطعها الراكب في ليال قلائل، ويسير الدهر في فثام من الناس، لا يعرفونها ولا يقرون بها.

قول آخر في الآية:

وروي ابن جرير: حدثني الحسين بن محمد الذارع، حدثنا روح بن المسيب أبو رجاء الكلبي، حدثنا عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّثَنَا وَلَوْ أَنَّ آدِرْبَرَهُ نُورًا﴾: هم الشياطين. هذا غريب جداً في تفسيرها، وإلا فالشياطين إذا قرء القرآن، أو نودي بالأذان، أو ذكر الله، انصرفوا.

﴿تَحْنُ أَمْزٍ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَحْوُكَ إِذْ يَقُولُ الْغَالِيُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [٤٦] أَنْظَرُ كَيْفَ حَرَبُوا لَكَ الْأَنْتَالَ فَعَلُوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيكَ ﴿٤٦﴾.

يخبر تعالى نبيه - صلوات الله وسلامه عليه - بما تناجي به رؤساء كفار قريش، حين جاؤوا يستمعون قراءة رسول الله ﷺ سراً من قومهم، بما قالوا من أنه رجل مسحور، من السحر على المشهور، أو من «السحر»، وهو الرثة، أي: إن تتبعون - إن اتبعتم محمداً - ﴿إِلَّا بَشَرًا﴾ يأكل ويشرب، كما قال الشاعر:

فإن تسألينا فيم نخن فإلينا عصفابير من هذا الأتام المسحور
وقال الرازي:

ونُسحر بالطعام وبالشرب

أي: نُغذى. وقد صوب هذا القول ابن جرير، وفيه نظر؛ لأنهم إنما أرادوا ههنا أنه مسحور له رثي يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه. ومنهم من قال: «شاعر»، ومنهم من قال: «كاهن» ومنهم من قال: «مجنون»، ومنهم من قال: «ساحر»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْظَرُ كَيْفَ حَرَبُوا لَكَ الْأَنْتَالَ فَعَلُوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيكَ﴾ [٤٦] أي: فلا يهتدون إلى الحق، ولا يجدون إليه مخلصاً.

قال محمد بن إسحاق في السيرة: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف ابن زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ،

وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. حتى إذا جمعتهم الطريق، فتلاموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقفتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. حتى إذا جمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا. فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الرُكب، وكنا كقرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدق. قال: فقام عنه الأخنس وتركه.

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا عِظَمًا مِّمَّنْ دَعَانَا لَكُنْمُوتُونَ خَلَقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلَقًا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَيَقُولُونَ مِمَّا يُبْدِيئَانَا أَفَلَا يَفْقَهُونَ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُقْضَىٰ إِلَيْكَ رُءُوسُهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِ اللَّهِ فَتَقُولُونَ إِنْ لَيْتَنَّا إِنَّا لَغُلَا ﴿٥٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستعبدين وقوع المعاد، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك: ﴿لَوْ كُنَّا عِظَمًا مِّمَّنْ دَعَانَا﴾ أي: تواباً. قاله مجاهد. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: غباراً. ﴿لَوْ كُنَّا لَكُنْمُوتُونَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿خَلَقًا جَدِيدًا﴾ أي: بعد ما بلينا وصرنا عدماً لا يذكر. كما أخبر عنهم في الموضع الآخر: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كُنَّا لَنَرُدُّوهُنَّ فِي الْمَفَارِجِ ﴿٤٩﴾ لَوْ كُنَّا عِظَمًا مِّمَّنْ دَعَانَا﴾ أي: تواباً. ﴿إِذَا كُرِّرَتْ خَيْرٌ ﴿٥٠﴾﴾ (النازعات: ١٠-١٢)، قال تعالى: ﴿وَصَرِّفْنَا لَكُمُ الْمَالَ وَنَحْنُ خَلَقْنَا قَالَمَ مَنْ يَحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ فَتَقْضِيهَا أَلَدَيْكَ أَنْشَاءً أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]. وهكذا أمر رسوله ههنا أن يجيبهم فقال: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حِيدًا ﴿٥٠﴾﴾ وهما أشد امتناعاً من العظام والرفات ﴿أَوْ خَلَقًا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾. قال ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: سألت ابن عباس عن ذلك فقال: هو الموت. وروى عطية، عن ابن عمر أنه قال في تفسير هذه الآية: لو كنتم موتى لأحييتكم. وكذا قال سعيد بن جبير، وأبو صالح، والحسن، وقتادة، والضحاك. ومعنى ذلك: أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم موتاً الذي هو ضد الحياة، لأحياكم الله إذا شاء، فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أَرَادَهُ. وقد ذكر ابن جرير ما هنا حديث: «يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كئيب أملح، فيوقف بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة، أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. ثم يقال: يا أهل النار، أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلود بلا موت، وبلا أهل النار، خلود بلا موت».

وقال مجاهد: ﴿أَوْ خَلَقًا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يعني: السماء والأرض والجبال. وفي رواية: ما شئتم فكُنُونَا؛ فسيعيدكم الله بعد موتكم. وقد وقع في التفسير المروي عن الإمام مالك، عن الزهري في قوله: ﴿أَوْ خَلَقًا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال: النبي ﷺ، قال مالك: ويقولون: هو الموت. وقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُونَ مِمَّا يُبْدِيئَانَا﴾ أي: من يعيدنا؛ إذا كنا حجارة أو حديد أو خلقاً آخر شديداً ﴿قُلْ أَلَيْسَ فَطَرَكُمُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ثم صرتم بَشَرًا تنتشرون؛ فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ إِلَيْكَ رُءُوسُهُمْ﴾: قال ابن عباس وقتادة: يحركونها استهزاء. وهذا الذي قاله هو الذي تفهمه العرب من لغاتها؛ لأن الإنغاض هو: التحرك من أسفل إلى أعلى، أو من أعلى إلى أسفل، ومنه قيل للظلم - وهو ولد النعمة -: تنغاض؛ لأنه إذا مشى عجل في مشيته وحرك رأسه. ويقال: تَغَضَّتْ سَهْلٌ إِذَا تَحَرَّكَ وَارْتَفَعَتْ مِنْ مَنَبَتِهَا؛ قال الرازي:

وَتَغَضَّتْ مِنْ هَرَمِ أَسْنَانِهَا

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ إخبار عنه بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الملك: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]. وقوله: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي: احذروا ذلك، فإنه قريب إليكم، سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آتٍ. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ أي: الرب تعالى:

وقوله: ﴿وَأَنبَأَ دَاوُدَ بِرَبِّهِ﴾ تنبيه على فضله وشرفه. قال البخاري: حدثنا إسحاق بن نصر، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا مفعمر، عن همام، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «خُفَّ على داود القرآن، فكان يأمر بدابته لتُسرج، فكان يقرأ قبل أن يُفرغ». يعني القرآن.

﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ. فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾ .

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد، فارغبوا إليهم، فإنهم ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾ أي: بالكلية، ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أي: أن يحولوه إلى غيركم. والمعنى: أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر. قال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ. فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦﴾ قال: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً، وهم الذين يدعون، يعني الملائكة والمسيح وعزيراً. وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾. روى البخاري، من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر، عن عبد الله في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: نزلت في نفر من العرب، كانوا يعبدون نفعراً من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم. وقال قتادة، عن معبد بن عبد الله الزماني، عن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن مسعود في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: نزلت في نفر من العرب، كانوا يعبدون نفعراً من الجن، فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، فنزلت هذه الآية.

وفي رواية عن ابن مسعود: كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم: الجن، فذكره. وقال السدي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ قال: عيسى وأمه، وعزير. وقال مغيرة، عن إبراهيم: كان ابن عباس يقول في هذه الآية: هم عيسى، وعزير، والشمس والقمر. وقال مجاهد: عيسى، والعزير، والملائكة. واختار ابن جرير قول ابن مسعود؛ لقوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، وهذا لا يعبر به عن الماضي، فلا يدخل فيه عيسى والعزير. قال: والوسيلة هي القرية، كما قال قتادة؛ ولهذا قال: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾. وقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَ رَبِّكَ﴾ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المناهي، وبالرجاء ينبعث على الطاعات. وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي: ينبغي أن يحذر منه، ويخاف من وقوعه وحصوله، عياداً بالله منه.

﴿وَلَنْ يَنْفَعَكَ إِلاَّ عَنْ مَوْلَاكَ قَوْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مَعْدُومًا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝٥٨﴾ .

هذا إخبار من الله بأنه قد حتم وقضى بما قد كتبه عنده في اللوح المحفوظ: أنه ما من قرية إلا سيهلكها، بأن يبید أهلها جميعهم أو يعذبهم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال عن الأمم الماضية: ﴿وَمَا ظَلَمْتُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]. وقال تعالى: ﴿وَكُنْ مِنْ قَرِيبٍ عِنْتُ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَمَا سَتَبْتَهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْتُهَا عَذَابًا نَكِرًا ۝٥٩ فَذَاقَتْ وَكَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبَهَا أَمْرًا حَسْرًا ۝٦٠﴾ [الطلاق: ٨، ٩].

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآلَيْنَا نُمُودَ الْآفَاقَةِ مُبِيرًا فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا تُرِيدُ إِلاَّ الْغَوِيَةَ ۝٥٩﴾ .

قال سئيد، عن حماد بن زيد، عن أيوب، عن سعيد بن جبیر قال: قال المشركون: يا محمد، إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء، فممنهم من سُخِّرَتْ له الريح، ومنهم من كان يحيي الموتى، فإن سَرَك أن نؤمن بك ونصدقك، فادع ربك أن يكون لنا الصفا ذهباً. فأوحى الله إليه: «إني قد سمعت الذي قالوا، فإن شئت أن تفعل الذي قالوا، فإن لم يؤمنوا نزل العذاب؛ فإنه ليس بعد نزول الآية مناظرة، وإن شئت أن نستأنى بقومك استأنيت بهم؟» قال: «يا رب، استأن بهم». وكذا قال قتادة، وابن جريج، وغيرهما. قال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا، فقبل له: إن شئت أن نستأنى بهم، وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من كان قبلهم من الأمم. قال: «لا، بل استأن بهم». وأنزل الله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآلَيْنَا نُمُودَ الْآفَاقَةِ مُبِيرًا﴾. رواه النسائي من حديث جرير، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كهيل، عن عمران أبي الحكم، عن ابن عباس قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً، ونؤمن بك. قال: «وتفعلون؟» قالوا: نعم. قال: فدعا، فأنابه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح الصفا لهم ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة. فقال: «بل باب التوبة والرحمة».

وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا محمد بن إسماعيل بن علي الأنصاري، حدثنا خلف بن تميم المصيصي، عن

عبد الجبار بن عمار الأيلي، عن عبد الله بن عطاء بن إبراهيم، عن جدته أم عطاء مولاة الزبير بن العوام قالت: سمعت الزبير يقول: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صاح رسول الله ﷺ على أبي قبيس: «يا آل عبد مناف، إني نذير! فجاهته قريش فحذروهم وأنذروهم، فقالوا: تزعم أنك نبي يوحى إليك، وأن سليمان سخر له الريح والجبال، وأن موسى سخر له البحر، وأن عيسى كان يحيي الموتى، فادع الله أن يسير عنا هذه الجبال، ويفجر لنا الأرض أنهاراً، فتتخذها محارث فنزرع ونأكل، وإلا فادع الله أن يحيي لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا، وإلا فادع الله أن يصير لنا هذه الصخرة التي تحتك ذهباً، فنفتح منها، وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف، فإنك تزعم أنك كهيتهم! قال: فبينما نحن حوله، إذ نزل عليه الوحي، فلما سري عنه قال: «والذي نفسي بيده، لقد أعطاني ما سألتهم، ولو شئت لكان، ولكنه خيّرني بين أن تدخلوا باب الرحمة، فيؤمن مؤمنكم، وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم، فتضلّوا عن باب الرحمة، فلا يؤمن منكم أحد، فاخترت باب الرحمة، فيؤمن مؤمنكم. وأخبرني أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم، أنه يعذبكم عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين» ونزلت: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ وحتى قرأ ثلاث آيات ونزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ خُمِيَ بِهِ الْأَمْوَالُ﴾ [الرعد: ٣١]. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ أي: نبعث الآيات ونأتي بها على ما سأل قومك منك، فإنه سهل علينا يسير لدينا، إلا أنه قد كذب بها الأولون بعدما سألوها، وجرت سنتنا فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إذا كذبوا بها بعد نزولها، كما قال الله تعالى في المائدة: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسِلٌ عَلَيْكُمْ مَن يَكْفُرُ بَعْدَ مَنكُم فَأَيُّ آيَةٍ لَهُ أُعْذِرُ أَتَدْرِكُونَ أَتَدْرِكُونَ﴾ [المائدة: ١١٥]. وقال تعالى عن ثمود، حين سألوا آية: ناقة تخرج من صخرة عيثرها، فدعا صالح ربه، فأخرج له منها ناقة على ما سألوا ﴿فَقُلُّوا إِنَّا لَنَرَاهَا كَفُتْ بِهَا﴾ أي: كفروا بمن خلقها، وكذبوا رسوله وعقروا الناقة فقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [معد: ٦٥]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا إِنَّا لَنُؤَدِّي لَكُمْ﴾ أي: دالة على وحدانية من خلقها وصدق الرسول الذي أجيب دعاؤه فيها ﴿فَقُلُّوا إِنَّا لَنَرَاهَا كَفُتْ بِهَا﴾ أي: كفروا بها ومنعوا شربها وقتلوا، فأبادهم الله عن آخرهم، وانتقم منهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وقوله: ﴿وَمَا تَرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا نَحْنُ بِهَا﴾ قال قتادة: إن الله خوف الناس بما يشاء من آياته لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون، ذكرنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود فقال: يا أيها الناس، إن ربكم يستعقبكم فأعتبروه. وهكذا روي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب مرات، فقال عمر: أحدثتم، والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن. وكذا قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله، ﷻ، يرسلهما يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره». ثم قال: «يا أمة محمد، والله ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً».

﴿وَلَا قَنَا لَكَ إِن رَّكَتَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ وَمَا جَعَلْنَا الرَّيَّا إِلَهَ أَرْتَنَّاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْفُرْقَانِ وَنَحْنُ لَهُمْ فَمَا يَرِيهِمْ إِلَّا طَائِفَتَا كَيْدٍ﴾ [١٦].

يقول تعالى لرسوله ﷺ محزناً له على إبلاغ رسالته، ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس، فإنه القادر عليهم، وهم في قبضته وتحت قهره وغلبته. قال مجاهد، وعروة بن الزبير، والحسن، وقتادة، وغيرهم في قوله: ﴿وَلَا قَنَا لَكَ إِن رَّكَتَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: عصمك منهم. وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرَّيَّا إِلَهَ أَرْتَنَّاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرَّيَّا إِلَهَ أَرْتَنَّاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْفُرْقَانِ﴾ شجرة الزقوم.

وكذا رواه أحمد، وعبد الرزاق، وغيرهما، عن سفيان بن عيينة به، وكذا رواه العوفي، عن ابن عباس، وهكذا فسر ذلك بليلة الإسراء: مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، ومسروق، وإبراهيم، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد، وغير واحد. وقد تقدمت أحاديث الإسراء في أول السورة مستقصاة، والله الحمد والمنة. وتقدم أن ناساً رجعوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق؛ لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجعل الله ذلك ثباتاً ويقيناً لآخرين؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ أي: اختباراً وامتحاناً. وأما «الشجرة الملعونة»، فهي شجرة الزقوم، كما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم، فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل لعنه الله بقوله: هاتوا لنا تمرأ وزبداً، وجعل يأكل هذا بهذا ويقول: تَزَقَّمُوا، فلا نعلم الزقوم غير هذا. حكى ذلك ابن عباس، ومسروق، وأبو مالك، والحسن البصري، وغير واحد، وكل من قال: إنها ليلة الإسراء، فسر ذلك بشجرة الزقوم. وقد قيل: المراد بالشجرة الملعونة: بنو أمية. وهو غريب ضعيف. قال ابن

جرير: حدثت عن محمد بن الحسن بن زبالة، حدثنا عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد، حدثني أبي عن جدي قال: رأى رسول الله ﷺ بني فلان ينزون على منبره نَزْو القُرود، فساء ذلك، فما استجمع ضاحكاً حتى مات. قال: وأنزل الله في ذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا آثَافًا إِلَٰهَ آثَافِكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ الآية. وهذا السند ضعيف جداً؛ فإن «محمد بن الحسن بن زبالة» متروك، وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية. ولهذا اختار ابن جرير: أن المراد بذلك ليلة الإسراء، وأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم، قال: لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، أي: في الرؤيا والشجرة. وقوله: ﴿وَنُحِيقُهُمْ﴾ أي: الكفار بالوعيد والعذاب والنكال ﴿فَمَا يَرِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ أي: تمادياً فيما هم فيه من الكفر والضلال. وذلك من خذلان الله لهم. وَرَدْنَا لَنَّا لِلنَّاسِ كَيْدًا أَسْجُدًا لَا دَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَٰذَا الْآلِیُّ كَرَّمْتَ عَلَىٰ لَبَنٍ أَخْرَجْتَنِي إِلَيْنِ يَوْمَ الْفِتْنَةِ لَأَخْذِيَنَّكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾.

يذكر تعالى عذارة إبليس - لعنه الله - لآدم، عليه السلام، وذريته، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود، فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له؛ افتخاراً عليه واحتقاراً له ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا خَرَجْنَاهُ مِن نَّارٍ وَخَلَقْنَاهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. وقال أيضاً: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ يقول للرب جراءة وكفراً، والرب يحلم وينظر ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ هَٰذَا الْآلِیُّ كَرَّمْتَ عَلَىٰ لَبَنٍ أَخْرَجْتَنِي إِلَيْنِ يَوْمَ الْفِتْنَةِ لَأَخْذِيَنَّكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٦٢﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: لاستولين على ذريته إلا قليلاً. وقال مجاهد: لأحتوين. وقال ابن زيد: لأضلنهم. وكلها متفاربة، والمعنى، أنه يقول: أرايتك هذا الذي شرفته وعظمته علي، لئن أنظرتني لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم! ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ بَيْنَهُمَا فَبِئْسَ جَهَنَّمَ جَزَاءُكَ جَزَاءُ مَوْفُورًا﴾ ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَعْلَمَتْ بَيْنَهُم بِصَوْتِكَ وَأَلْبَيْتَ عَلَيْهِمْ بِحَيْكَةِ وَرَبِّكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَبْدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾. لما سأل إبليس عليه اللعنة النظرة قال الله له: ﴿أَذْهَبَ﴾ فقد أنظرتك. كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ فَبِئْسَ الْكَثِيرِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ إِلَيْنِ يَوْمَ يُؤْتَى الْقَوْتِ الْقَتْلُورُ ﴿٦٨﴾ [الحجر: ٢٧، ٢٨] ثم أوعده ومن تبعه من ذرية آدم جهنم، فقال: ﴿فَمَنْ يَبْعَكَ بَيْنَهُمَا فَبِئْسَ جَهَنَّمَ جَزَاءُكَ﴾ أي: على أعمالكم ﴿جَزَاءُ مَوْفُورًا﴾. قال مجاهد: وافرأ. وقال قتادة: مَوْفُورٌ عليكم، لا ينقص لكم منه. وقوله: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَعْلَمَتْ بَيْنَهُم بِصَوْتِكَ﴾ قيل: هو الغناء. قال مجاهد: باللهو والغناء، أي: استخفهم بذلك. وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَعْلَمَتْ بَيْنَهُم بِصَوْتِكَ﴾ قال: كل داع دعا إلى معصية الله، ﷻ، وقاله قتادة، واختاره ابن جرير. وقوله: ﴿وَأَلْبَيْتَ عَلَيْهِمْ بِحَيْكَةِ وَرَبِّكَ﴾ يقول: واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم؛ فإن «الرجل» جمع «راجل»، كما أن «الركب» جمع «راكب» و«صحب» جمع «صاحب». ومعناه: تسلط عليهم لكل ما تقدر عليه. وهذا أمر قدرتي، كما قال تعالى: ﴿أَلَّا تَرَىٰ أَنَّ أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَفْتَنُوهُمْ أَتَىٰ﴾ [مريم: ٨٣] أي: نزعهم إلى المعاصي إزعاجاً وتسوقهم إليها سوقاً. وقال ابن عباس، ومجاهد في قوله: ﴿وَأَلْبَيْتَ عَلَيْهِمْ بِحَيْكَةِ وَرَبِّكَ﴾ قال: كل راكب وماش في معصية الله. وقال قتادة: إن له خيلاً ورجالاً من الجن والإنس، وهم الذين يطيعونه. وتقول العرب: «أجلب فلان على فلان»: إذا صاح عليه. ومنه: «نهى في المسابقة عن الجلب والجنب» ومنه اشتقاق «الجلبة»، وهي ارتفاع الأصوات.

وقوله: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله. وقال عطاء: هو الربا. وقال الحسن: هو جمعها من خبيث، وإنفاقها في حرام. وكذا قال قتادة. وقال العوفي، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: أما مشاركته إياهم في أموالهم، فهو ما حرموه من أنعامهم، يعني: من البحائر والسوابب ونحوها. وكذا قال الضحاك وقاتدة. ثم قال ابن جرير: والأولى أن يقال: إن الآية تعم ذلك كله. وقوله: ﴿وَالْأَوْلَادِ﴾ قال العوفي عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: يعني أولاد الزنا. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهاً بغيز علم. وقال قتادة، عن الحسن البصري: قد والله شاركهم في الأموال والأولاد مجسوا وهودوا ونصروا وصبغوا غير صبغة الإسلام، وجزؤوا من أموالهم جزءاً للشياطين، وكذا قال قتادة سواء. وقال أبو صالح، عن ابن عباس: هو تسميتهم أولادهم «عبد الحارث» و«عبد شمس»، و«عبد فلان». قال ابن جرير: وأولى الأقوال بالصواب أن يقال: كل مولود ولدته أنثى، عصي الله فيه، بتسميته ما يكرهه الله، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله، أو بالزنا بأمه، أو بقتله ووأده، وغير ذلك من الأمور التي يعصى الله بفعله به أو فيه، فقد دخل في مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك الولد له أو منه؛ لأن الله لم يخص بقوله: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ معنى الشركة فيه بمعنى دون معنى، فكل ما عصي الله فيه - أو به، وأطيع فيه الشيطان - أو به، فهو مشاركة. وهذا الذي قاله مُتَّجِه، وكل من السلف، رحمهم الله، فسر بعض المشاركة، فقد ثبت في صحيح مسلم، عن

عياض بن حمار، أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله ﷻ: إني خلقت عبادي خفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم، وحزمت عليهم ما أحللت لهم». وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدهم إذا يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك، لم يضره الشيطان أبداً».

وقوله: ﴿وَعِدَهُمْ مَا يُغْنِيهِمْ إِلَّا غُرُورًا﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول إذا حصص الحق يوم يقيض بالحق: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَتَوَسَّوْا لَهُمْ وَأَقْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُمْ وَتَوَسَّيْتُمْ لِيَ فَلَآ تُلْوَُمُونِ وَلَوْ مَوَّأَ أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخَتِ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢]. وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَشَرٌّ لَّكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾: إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين، وحفظه إياهم، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرِّكَ وَكَيْلًا﴾ أي: حافظاً ومؤيداً وناصراً. وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن موسى بن رزاذن، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن ليُنْضِي شياطينه، كما ينضي أحدكم بعيره في السفر». ينضي، أي: يأخذ بناصيته ويقهره.

﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزِي لَكُمْ أَفْئَلَكُمْ فِي الْبَحْرِ لِيَتَفَعَّلُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَاتِبٌ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخير له عباده الفلك في البحر، وتسهيلها لمصالح عباده، لا ابتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَاتِبٌ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي: إنما فعل هذا بكم، من فضله عليكم، ورحمته بكم.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ صَلَّ مَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ إِلَّا يَأْتِ إِلَّا مَا تَشْكُرُونَ إِلَى اللَّهِ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾.

يخبر تعالى أنه إذا مس الناس ضر، دعوهم منيبين إليه، مخلصين له الدين؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ صَلَّ مَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فاراً من رسول الله ﷺ حين فتح مكة، فذهب هارباً، فركب في البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده. فقال عكرمة في نفسه: والله لئن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك علي عهد، لئن أخرجتني منه لأذهبن فأضعن يدي في يديه، فلا جدنه رؤوفاً رحيماً. فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه، رضي الله عنه وأرضاه. وقوله: ﴿فَلَا تَجْنُرُوا إِلَى اللَّهِ أَعْرِضْتُمْ﴾ أي: نسيت ما عرفتم من توحيده في البحر، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ أي: سجيته هذا، ينسى النعم ويجهدها، إلا من عصم الله.

﴿أَفَأَنْتُمْ أَنْ تَحْيِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكَيْلًا﴾.

يقول تعالى: أفحسبتم أن نخرجكم إلى البر أمتم من انتقامه وعذابه! ﴿أَنْ تَحْيِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ وهو: المطر الذي فيه حجارة. قاله مجاهد، وغير واحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ حَظَّهُمْ بِحَسْرَةٍ﴾ [النمر: ٣٤] وقد قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [مرد: ٨٢]، وقال: ﴿مَا أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ تَحْيِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَنْوَرُ﴾ [١١] أم أنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فتستعجلون كيف تدبر [١٧] [الملك: ١٦، ١٧]. وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكَيْلًا﴾ أي: ناصرأ يرد ذلك عنكم، ويتقدمكم منه والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿أَمْ أَنْتُمْ أَنْ يُبْعِدَكُمْ فِيهِ نَارَةٌ أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِبًا مِنْ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلِيًّا يَوْمَ يَأْتِي﴾.

يقول تعالى: ﴿أَمْ أَنْتُمْ﴾ أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر، وخرجوا إلى البر ﴿أَنْ يُبْعِدَكُمْ﴾ في البحر مرة ثانية ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِبًا مِنْ الرِّيحِ﴾ أي: يقصف الصواري ويغرق المراكب. قال ابن عباس وغيره: القاصف: ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها. وقوله: ﴿فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي: بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى. وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلِيًّا يَوْمَ يَأْتِي﴾ قال ابن عباس: نصيراً. وقال مجاهد: نصيراً ثائراً، أي: يأخذ بثأركم بعدكم. وقال قتادة: ولا تخاف أحداً يتبعنا بشيء من ذلك.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْآلِ وَالْأَحْزَانِ وَرَفَعْنَاهُمْ مِنْ الطِّبْيَةِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [٧٠].

يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم، وتكريمه إياهم، في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها، كما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] أي: يمشي قائماً منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه - وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفيه - وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً، يفقه بذلك كله ويتنفع به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدنيوية والدينية. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْآلِ﴾ أي: على الدواب من الأنعام والخيول والبغال، وفي ﴿وَالْأَحْزَانِ﴾ أيضاً على السفن الكبار والصغار. ﴿وَرَفَعْنَاهُمْ مِنَ الطِّبْيَةِ﴾ أي: من زروع وثمار، ولحوم والبان، من سائر أنواع الطعوم والألوان، المشتهة اللذيذة،

والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي. ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات. وقد استدل بهذه الآية على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة، قال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن زيد بن أسلم قال: قالت الملائكة، يا ربنا، إنك أعطيت بني آدم الدنيا، يأكلون منها وينعمون، ولم تعطنا ذلك فأعطنا في الآخرة. فقال الله: «وعزتي وجلالي لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي، كمن قلت له: كن فكان». وهذا الحديث مرسل من هذا الوجه، وقد روي من وجه آخر متصلًا. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة البغدادي، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي، حدثنا حجاج بن محمد، حدثنا أبو غسان محمد بن مطرف، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة قالت: يا ربنا، أعطيت بني آدم الدنيا، يأكلون فيها ويشربون ويلبسون، ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة. قال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي، كمن قلت له: كن، فكان».

وقد روى ابن عساكر من طريق محمد بن أيوب الرازي، حدثنا الحسن بن علي بن خلف الصيدلاني، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن، حدثني عثمان بن حصن بن عبيدة بن علاق، سمعت عروة بن رؤيم اللخمي، حدثني أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الملائكة قالوا: ربنا، خلقتنا وخلقت بني آدم، فجعلتهم يأكلون الطعام، ويشربون الشراب، ويلبسون الثياب، ويتزوجون النساء، ويركبون الدواب، ينامون ويستريحون، ولم تجعل لنا من ذلك شيئًا، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة. فقال الله ﷻ: لا أجعل من خلقت بيدي، ونفخت فيه من روحي، كمن قلت له: كن، فكان». وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا عمر بن سهل، حدثنا عبيد الله بن تمام، عن خالد الحذاء، عن بشر بن شغاف عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ما شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم». قيل: يا رسول الله، ولا الملائكة؟ قال: «ولا الملائكة، الملائكة مجبوروں بمنزلة الشمس والقمر». وهذا حديث غريب جدًا.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِم مِّنْ أَوْفَىٰ كِتَابِهِ يَتَّبِعُهُمْ فَتَلْمِزُهُمْ بِقُرْءَانِهِمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَنِيْلًا﴾ (٧١) وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَنَ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَنَ وَأَصْلُ سَيِّدِكَ ﴿٧٢﴾.

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة: أنه يحاسب كل أمة بإمامهم. وقد اختلفوا في ذلك، فقال مجاهد وقادة: أي بنبيهم. وهذا كقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رُسُلَهُمْ فَوُتِيَ بَيْنَهُمُ الْفِتْنَةُ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٧) [يونس: ٤٧]. وقال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث؛ لأن إمامهم النبي ﷺ. وقال ابن زيد: بكتابتهم الذي أنزل على نبيهم، من التشريع. واختاره ابن جرير، وروي عن ابن أبي نجیح، عن مجاهد أنه قال: بكتبهم. فيحتمل أن يكون أراد هذا، وأن يكون أراد ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِم﴾ أي: بكتاب أعمالهم، وكذا قال أبو العالية، والحسن، والضحاك. وهذا القول هو الأرجح؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَرُوضِ الْكِتَابِ فَتَرَى الْمُتَجَرِّمِينَ مُشْقِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُبْدِلْنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَايِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَيْنَاهُ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاسِرًا وَلَا يَظِلُّ رُتُوكَ أَحَدًا﴾ (١٩) [الكهف: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿وَرَبِّي كُلُّ شَيْءٍ جَانِبَهُ كُلُّ شَيْءٍ يُدْعَىٰ إِلَيْهِ كَيْتَ الْيَوْمِ يُخْرَجُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ [الباقية: ٢٨، ٢٩]، وهذا لا ينافي أن يجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته، فإنه لا بد أن يكون شاهداً عليها بأعمالها، كما قال: ﴿وَأَمَّا رُتُوكَ الْأَرْضِ فَتُورِ رُبَّهَا وَرُوضِ الْكِتَابِ وَجَانِبِ الْيَمِينِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الزمر: ٦٩]، وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (٤١) [النساء: ٤١]. ولكن المراد ههنا بالإمام هو كتاب الأعمال؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِم مِّنْ أَوْفَىٰ كِتَابِهِ يَتَّبِعُهُمْ فَتَلْمِزُهُمْ بِقُرْءَانِهِمْ﴾ أي: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤه ويحب قراءته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابِهِ يَتَّبِعُهُمْ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَوْفَىٰ كِتَابِهِ﴾ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبَاءُ ﴿٢٠﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابِهِ يَتَّبِعُهُمْ فَيَقُولُ يَتَّبِعُنِي لَرَأَيْتُكَ أَوْفَىٰ كِتَابِهِ﴾ (٢٠) وَلَرَأَيْتُكَ أَوْفَىٰ كِتَابِهِ﴾ (٢٠) [الباقية: ١٩-٢٠].

وقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَنِيْلًا﴾ قد تقدم أن «الفيل» هو الخيط المستطيل في شق النواة. وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً في هذا فقال: حدثنا محمد بن يَغْمَرٌ، ومحمد بن عثمان ابن كرامة قالوا: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن السدي، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قول الله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِم﴾ قال: «يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويمد له في جسمه، ويُبَيِّضُ وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة تتلألأ، فينطلق إلى أصحابه فيروونه من بعيد، فيقولون: اللهم اتتنا بهذا، وبارك لنا في هذا. فيأتيهم فيقول لهم: أبشروا، فإن لكل رجل منكم مثل هذا. وأما الكافر

فَيُسَوِّدُ وَجْهَهُ، وَيَمْدُدُ لَهُ فِي جَسَمِهِ، وَيَرَاهُ أَصْحَابُهُ فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ هَذَا - أَوْ: مِنْ شَرِّ هَذَا - اللَّهُمَّ لَا تَأْتِنَا بِهِ. فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ اخْزِهِ. فيقول: أبعِدكم الله، فإن لكل رجل منكم مثل هذا. ثم قال البزار: لا يروى إلا من هذا الوجه. وقوله: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَصْلُ سَيِّئًا﴾ (٧٦) قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَيْ: فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ﴿أَعْمَى﴾ عن حجج الله وآياته وبيناته ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ أي: كذلك يكون ﴿وَأَصْلُ سَيِّئًا﴾ أي: وأصل منه كما كان في الدنيا، عياداً بالله من ذلك.

﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَقْتُلَنَّكَ عَنْ آلِيكَ أَرْحَمًا إِلَيْكَ لِنَفْتَرِي عَلَيْنَا عَذْرًا وَإِذَا لَتَأْخُذَنَّكَ حِيلًا﴾ (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ سَيِّئًا فَلَوْلَا إِذَا لَأَذْنُوكَ خِمْفَ الْحَبْوَةِ وَضَعَفَ الْمَمَاتُ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (٧٥).

يخبر تعالى عن تأييد رسوله، صلوات الله عليه وسلامه، وتبتيته، وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه، في مشارق الأرض ومغاربها، ﷺ تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ يُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْفُتُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٧٤) سُنَّةٌ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِنُسُوتِنَا مَخْرُوجًا﴾ (٧٧).

قيل: نزلت في اليهود، إذ أشاروا على رسول الله ﷺ بسكنى الشام بلاد الأنبياء، وترك سكنى المدينة. وهذا القول ضعيف؛ لأن هذه الآية مكية، وسكنى المدينة بعد ذلك. وقيل: إنها نزلت بتيوك. وفي صحته نظر. قال البيهقي، عن الحاكم، عن الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار العطاردي، عن يونس بن بكير، عن عبد الحميد بن بهرام، عن سُفْهِرِ بْنِ خَوْشَب، عن عبد الرحمن بن عَثَم، أن اليهود أتوا رسول الله ﷺ يوماً فقالوا: يا أبا القاسم، إن كنت صادقاً أنك نبي، فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء. فصدق ما قالوا، فغزا غزوة تيوك، لا يريد إلا الشام. فلما بلغ تيوك، أنزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعد ما ختمت السورة: ﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ يُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿تَحْوِيلًا﴾ فأمره الله بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك، ومنها تبعث. وفي هذا الإسناد نظر. والأظهر أن هذا ليس بصحيح، فإن النبي ﷺ لم يغز تيوك عن قول اليهود، إنما غزاها امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]. وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. وغزاها ليقصص وينتقم ممن قتل أهل مودة، من أصحابه، والله أعلم. ولو صح هذا لحمل عليه الحديث الذي رواه الوليد بن مسلم، عن عُقْبَرِ بْنِ مَعْدَانَ، عن سُلَيْمِ بْنِ عامر، عن أبي أمامة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل القرآن في ثلاثة أمكنة: مكة، والمدينة، والشام». قال الوليد: يعني بيت المقدس. وتفسير الشام بتيوك أحسن مما قال الوليد: إنه بيت المقدس والله أعلم.

وقيل: نزلت في كفار قريش، هموا بإخراج الرسول من بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً. وكذلك وقع، فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم، بعد ما اشتد أذاهم له، إلا سنة ونصف. حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرفهم، وسبى سراتهم، ولهذا قال: ﴿سُنَّةٌ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أي: هكذا عادتنا في الذين كفروا برسولنا وأدوهم: يخرج الرسول من بين أظهرهم، ويأتيهم العذاب. ولولا أنه عليه الصلاة والسلام رسول الرحمة، لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٧٢) [الأنفال: ٣٣].

﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُذْهِبْ أَلْهَاتِكُمْ الْغَنَى وَالْفَخْرُ إِنَّ أَوَّلَ الْفَخْرِ كَانَتْ مَشْهُودًا﴾ (٧٨) وَمَنْ أَوَّلَ فَتَهِجْدٍ بِهِ نَافِلَةٌ لَكَ عَنْكَ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ (٧٩).

يقول تعالى لرسوله ﷺ أمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها: ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُذْهِبْ أَلْهَاتِكُمْ الْغَنَى وَالْفَخْرُ﴾ قيل: لغروبها. قاله ابن مسعود، ومجاهد، وابن زيد. وقال مُشَيْم، عن مغيرة، عن الشعبي، عن ابن عباس: «دلوكها»: زوالها. ورواه نافع، عن ابن عمر. ورواه مالك في تفسيره، عن الزهري، عن ابن عمر. وقاله أبو بَرَزَةَ الأسلمي وهو رواية أيضاً عن ابن مسعود، ومجاهد. وبه قال الحسن، والضحاك، وأبو جعفر الباقر، وقتادة. واختاره ابن جرير، ومما استشهد عليه ما رواه عن ابن حميد، عن الحكم بن بشير، حدثنا عمرو بن قيس، عن ابن أبي ليلى، عن رجل، عن جابر بن عبد الله قال: دعوت رسول الله ﷺ ومن

شاء من أصحابه فطعموا عندي، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج النبي ﷺ فقال: «أخرج يا أبا بكر، فهذا حين دلكت الشمس». ثم رواه عن سهل بن بكار، عن أبي عوانة، عن الأسود بن قيس، عن نبيح العنزي، عن جابر عن رسول الله ﷺ، نحوه. فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلاة الخمسة فمن قوله: ﴿يَذْكُرُكَ أَشْمِسُ إِلَّا غَشِيَ اللَّيْلُ﴾ وهو: ظلامه، وقيل: غروب الشمس، أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ يعني: صلاة الفجر. وقد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله، بتفاصيل هذه الأوقات، على ما عليه عمل أهل الإسلام اليوم، مما تلقوه خلفاً عن سلف، وقرناً بعد قرن، كما هو مقرر في مواضعه، والله الحمد. ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال الأعمش، عن إبراهيم، عن ابن مسعود - وعن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في هذه الآية: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار». وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، عن أبي سلمة - وسعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر». ويقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا أسباط، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ - وحدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: «تشهده ملائكة الليل، وملائكة النهار».

ورواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، ثلاثهم عن عبيد بن أسباط بن محمد، عن أبيه، به، وقال الترمذي: حسن صحيح. وفي لفظ في الصحيحين، من طريق مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة الليل وملائكة النهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر، فيعزج الذين باتوا فيكم فيسألهم - وهو أعلم بكم - كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون». وقال عبد الله بن مسعود: يجتمع الحرسان في صلاة الفجر، فيصعد هؤلاء ويقم هؤلاء. وكذا قال إبراهيم النخعي، ومجاهد، وقتادة، وغير واحد في تفسير هذه الآية. وأما الحديث الذي رواه ابن جرير ههنا - من حديث الليث بن سعد، عن زيادة، عن محمد بن كعب القرظي، عن فضالة بن عبيد، عن أبي الدرداء، عن رسول الله ﷺ، فذكر حديث النزول وأنه تعالى يقول: «من يستغفرني أغفر له، من يسألني أعطه، من يدعني فأستجيب له حتى يطلع الفجر». فلذلك يقول: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ فيشهده الله، وملائكة الليل، وملائكة النهار - فإنه تفرد به زيادة، وله بهذا حديث في سنن أبي داود.

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ، نَافِلَةً لَّكَ﴾: أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة، كما ورد في صحيح مسلم، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، أنه سئل: أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: «صلاة الليل». ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل، فإن التهجّد: ما كان بعد نوم. قاله علقمة، والأسود، وإبراهيم النخعي، وغير واحد وهو المعروف في لغة العرب. وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول الله ﷺ: أنه كان يتهجّد بعد نومه، عن ابن عباس، وعائشة، وغير واحد من الصحابة، رضي الله عنهم، كما هو مبسوط في موضعه، والله الحمد والمنة. وقال الحسن البصري: هو ما كان بعد العشاء. ويحمل على ما بعد النوم. واختلف في معنى قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فقيل: معناه أنك مخصص بوجوب ذلك وحلك، فجعلوا قيام الليل واجباً في حقه دون الأمة. رواه العوفي عن ابن عباس، وهو أحد قولي العلماء، وأحد قولي الشافعي، رحمه الله، واختاره ابن جرير. وقيل: إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التي عليه، قاله مجاهد، وهو في المسند عن أبي أمامة الباهلي، رضي الله عنه. وقوله: ﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أي: افعل هذا الذي أمرتك به، لتقيمك يوم القيامة مقاماً يحسدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم، تبارك وتعالى.

قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يقوم به ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليربحهم وبهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم. ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن صلة بن زفر، عن حذيفة قال: يجمع الناس في صعيد واحد، يسمعون الداعي وينفذهم البصر، حفاة غرّة كما خلقوا قياماً، لا تكلم نفس إلا بإذنه، ينادي: يا محمد، فيقول: «ليبك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك، والمهدي من هذبت، وعبدك بين يديك، وبك وإليك، لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحانك رب البيت». فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله ﷻ.

ثم رواه عن بُنْدَار، عن غُنْدَر، عن شعبة، عن أبي إسحاق، به. وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر والثوري، عن أبي إسحاق، به. وقال ابن عباس: هذا المقام المحمود مقام الشفاعة. وكذا قال ابن أبي نَجِيج، عن مجاهد. وقاله الحسن البصري. وقال قتادة: هو أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع، وكان أهل العلم يرون أن المقام المحمود الذي قال الله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾. قلت: لرسول الله ﷺ تسليماً تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد، وتشريفات لا يساويه فيها أحد؛ فهو أول من تنشق عنه الأرض، ويبعث ركباً إلى المحشر، وله اللواء الذي آدم فمن ذُوْنَه تحت لوائه، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثر وارداً منه، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق، وذلك بعد ما يسأل الناس آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، فكل يقول: «لست لها» حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول: «أنا لها، أنا لها» كما سنذكر ذلك مفصلاً في هذا الموضع، إن شاء الله تعالى. ومن ذلك أنه يشفع في أقوام قد أمر بهم إلى النار، فيردون عنها. وهو أول الأنبياء يقضي بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأمته. وهو أول شفيع في الجنة، كما ثبت في صحيح مسلم. وفي حديث الصور: أن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته. وهو أول داخل إليها وأمه قبل الأمم كلهم. ويشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم. وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة، لا تليق إلا له. وإذا أذن الله تعالى في الشفاعة للعصاة شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه في ذلك، وقد بسطت ذلك مستقصى في آخر كتاب «السيرة» في باب الخصائص، والله الحمد والمنة.

ولنذكر الآن الأحاديث الواردة في المقام المحمود، وبالله المستعان:

قال البخاري: حدثنا إسماعيل بن أبان، حدثنا أبو الأحوص، عن آدم بن علي، سمعت ابن عمر يقول: إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاً، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً. ورواه حمزة بن عبد الله، عن أبيه، عن النبي ﷺ. قال ابن جرير: حدثني محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا شعيب بن الليث، حدثني الليث، عن عبيد الله بن أبي جعفر أنه قال: سمعت حمزة بن عبد الله بن عمر يقول: سمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فيبئسهم كذلك استغاثوا بآدم، فيقول: لست صاحب ذلك، ثم بموسى فيقول كذلك، ثم بمحمد فيشفع بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة باب الجنة، فيؤمئذ يبعثه الله مقاماً محموداً». يحمده أهل الجنة كلهم. وهكذا رواه البخاري في «الزكاة» عن يحيى بن بكير، وعبد الله بن صالح، كلاهما عن الليث بن سعد، به. وزاد: «فيؤمئذ يبعثه الله مقاماً محموداً، يحمده أهل الجمع كلهم». قال البخاري: وحدثنا علي بن عيَّاش، حدثنا شعيب بن أبي حمزة، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة». انفرد به دون مسلم.

حديث أبي:

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر الأزدي، حدثنا زهير بن محمد، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة، كنت إمام الأنبياء وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم غير قَخر». وأخرجه الترمذي، من حديث أبي عامر عبد الملك بن عمرو القَعْدِي، وقال: «حسن صحيح». وابن ماجه من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل به. وقد قدمنا في حديث: «أبي بن كعب» في قراءة القرآن على سبعة أحرف، قال رسول الله ﷺ في آخره: «فقلت: اللهم، اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي في الخلق، حتى إبراهيم عليه السلام».

حديث أنس بن مالك:

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبَة، حدثنا قتادة، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيلهمون ذلك فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فأراحنا من مكاننا هذا. فيأتون آدم فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا. فيقول لهم آدم: لست هناك، ويذكر ذنبه الذي أصاب، فيستحيي ربه، ﷻ، من ذلك، ويقول: ولكن اتنوا نوحاً، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. فيأتون نوحاً فيقول: لست هناك، ويذكر خطيئة سؤاله ربه ما ليس له به علم، فيستحيي ربه من ذلك، ولكن اتنوا إبراهيم خليل الرحمن. فيأتونه فيقول: لست هناك، ولكن اتنوا موسى، عبداً كلمه الله، وأعطاه التوراة.

فيأتون موسى فيقول: لست هناك، ويذكر لهم النفس التي قتل بغير نفس، فيستحيي ربه من ذلك، ولكن اتنوا عيسى عبد الله ورسوله، وكلتمه وروحه، فيأتون عيسى فيقول: لست هناك، ولكن اتنوا محمداً عبداً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتوني».

قال الحسن هذا الحرف: «فأقوم فأمشي بين سباطين من المؤمنين». قال أنس: «حتى استأذن على ربي، فإذا رأيت ربي وقعت له - أو: خررت - ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني». قال: «ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، واشفع تشفع، وسل تعطه. فأرفع رأسي، فأحمده بتحميد يُعْلَمُنِيهِ، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود إليه الثانية فإذا رأيت ربي وقعت - أو: خررت - ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني. ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يُعْلَمُنِيهِ، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود في الثالثة، فإذا رأيت ربي وقعت - أو: خررت - ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يُعْلَمُنِيهِ، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة. ثم أعود الرابعة فأقول: يا رب، ما بقي إلا من حبسه القرآن». فحدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «فيخرج من النار من قال: «لا إله إلا الله» وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: «لا إله إلا الله» وكان في قلبه من الخير ما يزن بُرَّةً، ثم يخرج من النار من قال: «لا إله إلا الله» وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة». أخرجاه في الصحيح من حديث سعيد، به. وهكذا رواه الإمام أحمد، عن عفان، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بطوله.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حرب بن ميمون أبو الخطاب الأنصاري، عن النضر بن أنس، عن أنس قال: حدثني نبي الله ﷺ قال: «إن لقائم أنتظر أمتي تعبر الصراط، إذ جاءني عيسى، عليه السلام، فقال: هذه الأنبياء قد جاءتك يا محمد يسألون - أو قال: يجتمعون إليك - ويَدْعُونَ الله أن يفرق بين جميع الأمم إلى حيث يشاء الله، لغم ما هم فيه، فالخلق مُلْجَمُونَ بالعرق، فأما المؤمن فهو عليه كالزكمة، وأما الكافر فيغشاه الموت، فقال: انتظر حتى أرجع إليك. فذهب نبي الله ﷺ فقام تحت العرش، فلقي ما لم يلق ملك مصطفى ولا نبي مرسل. فأوحى الله ﷻ، إلى جبريل: أن اذهب إلى محمد، وقل له: ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فشفعت في أمتي: أن أخرج من كل تسعة وتسعين إنساناً واحداً. فما زلت أتردد إلى ربي، ﷻ، فلا أقوم منه مقاماً إلا شفعت، حتى أعطاني الله من ذلك، أن قال: يا محمد، أدخل من أمتك من خلق الله، ﷻ، من شهد أن لا إله إلا الله يوماً واحداً مخلصاً ومات على ذلك».

حديث بريدة، رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا الأسود بن عامر، أخبرنا أبو إسرائيل، عن الحارث بن حصيرة، عن ابن بُرَيْدَةَ، عن أبيه: أنه دخل على معاوية، فإذا رجل يتكلم، فقال بريدة: يا معاوية، تأذن لي في الكلام؟ فقال: نعم - وهو يرى أنه يتكلم بمثل ما قال الآخر - فقال بريدة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني لأرجو أن أشفع يوم القيامة عدد ما على الأرض من شجرة ومدرّة» قال: فترجوها أنت يا معاوية، ولا يرجوها عليّ، رضي الله عنه؟!!

حديث ابن مسعود:

قال الإمام أحمد: حدثنا عارم بن الفضل، حدثنا سعيد بن زيد، حدثنا علي بن الحكم البتاني، عن عثمان، عن إبراهيم، عن علقمة والأسود، عن ابن مسعود قال: جاء ابننا مُلَيْكَةَ إلى النبي ﷺ فقالا: إن أمتنا كانت تكرم الزوج، وتعطف على الولد - قال: وذكر الضيف - غير أنها كانت وأدت في الجاهلية؟ فقال: «أمكما في النار». قال: فأدبرا والسوء يرى في وجوههما، فأمر بهما فَرَجَعَا والسرور يرى في وجوههما، رجاء أن يكون قد حدث شيء، فقال: «أمي مع أمكما». فقال رجل من المنافقين: وما يغني هذا عن أمه شيئاً ونحن نطأ عقبيه. فقال رجل من الأنصار - ولم أر رجلاً قط أكثر سؤالاً منه -: يا رسول الله، هل وعدك ربك فيها أو فيهما؟ قال: فظن أنه من شيء قد سمعه، فقال: «ما شاء الله ربي، وما أطمعني فيه، وإني لأقوم المقام المحمود يوم القيامة». فقال الأنصاري: يا رسول الله، وما ذاك المقام المحمود؟ قال: «ذاك إذا جيء بكم حفاة عراة غرلاً، فيكون أول من يكسى إبراهيم، عليه السلام، فيقول: اكسوا خليلي. فيؤتى بريطين بيضاوين، فيلبسهما ثم يقعده مستقبل العرش، ثم أوتى بكسوتي فالبسها، فأقوم عن يمينه مقاماً لا يقومه أحد، فيبغطني فيه الأولون والآخرون. ويفتح نهر من الكوثر إلى الحوض». فقال المنافقون: إنه ما جرى ماء قط إلا على حال أو رضراض. فقال رسول الله ﷺ: «حاله المسك،

ورضراضه الثوم». قال المنافق: لم أسمع كاليوم. قلما جرى ماء قط على حال أو رضراض، إلا كان له نبتة. فقال الأنصاري: يا رسول الله، هل له نبت؟ قال: «نعم، قضبان الذهب». قال المنافق: لم أسمع كاليوم، فإنه قلما نبت قضيب إلا أورك، وإلا كان له ثمر! قال الأنصاري: يا رسول الله، هل له ثمرة؟ قال: «نعم، ألوان الجوهر، وماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، من شرب منه شربة لا يظلم بعده، ومن حرمه لم يزو بعده».

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا يحيى بن سلمة بن كهيل، عن أبيه، عن أبي الزغراء، عن عبد الله قال: ثم يأذن الله، ﷻ، في الشفاعة، فيقوم روح القدس جبريل، ثم يقوم إبراهيم خليل الله، ثم يقوم عيسى أو موسى - قال أبو الزغراء: لا أدري أيهما - قال: ثم يقوم نبيكم ﷺ رابعاً، فيشفع لا يشفع أحد بعده أكثر مما شفّع، وهو المقام المحمود الذي قال الله ﷻ: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾.

حديث كعب بن مالك، رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا محمد بن حرب، حدثنا الزبيدي، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث الناس يوم القيامة، فأكون أنا وأمتي على تل، ويكسوني ربي، ﷻ، حلة خضراء. ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود».

حديث أبي الدرداء، رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الرحمن بن جبير، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه، فانظر إلى ما بين يدي، فأعرف أمتي من بين الأمم، ومن خلفي مثل ذلك، وعن يميني مثل ذلك، وعن شمالي مثل ذلك». فقال رجل: يا رسول الله، كيف تعرف أمتك من بين الأمم، فيما بين نوح إلى أمتك؟ قال: «هم غرّ محجلون، من أثر الوضوء، ليس أحد كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يؤثون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم تسعى بين أيديهم ذريتهم».

حديث أبي هريرة، رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا أبو حيان، حدثنا أبو زرعة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة، قال: أتى رسول الله ﷺ بلحم، فزُفِعَ إليه الذراع - وكانت تعجبه - فَتَهَسَ منها تَهَسَةً، ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون ممّ ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، يُسْمِعُهُم الداعي وينفخهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون. فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون إلى ما أنتم فيه؟ ألا ترون إلى ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ﷻ؟ فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم! فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك؛ فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي، نفسي، نفسي! اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لي دعوة على قومي، نفسي، نفسي، نفسي! اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم».

فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله وخليه من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، فذكر كذباته، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى.

فيأتون موسى فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، اصطفاك الله برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنني قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه - قال: هكذا هو - وكلمت الناس في المهد، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم

يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد. فيأتوني فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقوم فأتني تحت العرش، فأقع ساجداً لربي، ﷺ، ثم يفتح الله عليّ، ويلهمني من محامده وحسن الشاء عليه ما لم يفتحني على أحد قبلي. فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأقول: يا رب، أمتي أمتي، يا رب أمتي أمتي، يا رب، أمتي أمتي! فيقال: يا محمد: أَدْخِلْ مِنْ أَمَتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيهَا سِوَاهِ مِنَ الْأَبْوَابِ. ثم قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَمَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مِصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبَحْرٍ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى». أخرجاه في الصحيحين.

وقال مسلم، رحمه الله: حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا هِشْلُ بْنُ زِيَادٍ، عَنْ الْأَوْزَاعِيِّ، حَدَّثَنِي أَبُو عِمَارٍ، حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ فَرُّوخَ، حَدَّثَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشْفَعٍ». وقال ابن جرير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ يَزِيدَ الزَّعَاferي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا»، سئل عنها فقال: «هِيَ الشَّفَاعَةُ». رواه الإمام أحمد عن وكيع وعن محمد بن عبيد، عن داود، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾، قَالَ: «هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي أَشْفَعُ لَأَمَتِي فِيهِ». وقال عبد الرزاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزَّهْرِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَدَّ اللَّهُ الْأَرْضَ مَدَّ الْأَدِيمِ، حَتَّى لَا يَكُونَ لِبَشَرٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَوْضِعُ قَدَمِهِ». قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَدْعَى، وَجَبْرِيلُ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ وَاللَّهُ مَا رَأَاهُ قَبْلَهَا، فَأَقُولُ: رَبِّ، إِنَّ هَذَا أَخْبَرَنِي أَنَّكَ أَرْسَلْتَهُ إِلَيَّ. فيقول الله تبارك وتعالى: صدق، ثم أشفع. فأقول: يا رب عبادك عبدوك في أطراف الأرض». قال: «فَهُوَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ»، وَهَذَا حَدِيثٌ مَرْسُولٌ.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٨١).

قال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ قَابُوسَ بْنِ أَبِي ظَلْيَانَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَكَّةَ ثُمَّ أَمَرَ بِالْهَجْرَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (٨٠). وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية: إِنْ كَفَرَ أَهْلُ مَكَّةَ لَمَّا اتَّهَمُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِقَتْلِهِ أَوْ يَطْرُدُوهُ أَوْ يُوْتِقُوهُ، وَأَرَادَ اللَّهُ قِتَالَ أَهْلِ مَكَّةَ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَهُوَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾. وقال قتادة: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يعني: المدينة ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يعني: مكة. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا القول هو أشهر الأقوال. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يعني: الموت ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يعني: الحياة بعد الموت. وقيل غير ذلك من الأقوال. والأول أصح، وهو اختيار ابن جرير. وقوله: ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ قال الحسن البصري في تفسيرها: وَعَدَهُ رَبُّهُ لِيَنْزِعَ مَلِكًا فَارِسًا، وَعَزَّ فَارِسًا، وَلِيَجْعَلَنَّهُ لَهُ، وَمَلِكًا الرُّومِ، وَعَزَّ الرُّومَ، وَلِيَجْعَلَنَّهُ لَهُ. وقال قتادة فيها: إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ، عَلِمَ الْأَطَاقَةَ لَهُ بِهَذَا الْأَمْرِ إِلَّا بِسُلْطَانٍ، فَسَأَلَ سُلْطَانًا نَصِيرًا لِكِتَابِ اللَّهِ، وَلِحُدُودِ اللَّهِ، وَلِفَرَاغِ اللَّهِ، وَلِإِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ، فَإِنَّ السُّلْطَانَ رَحِمَةً مِنَ اللَّهِ جَعَلَهُ بَيْنَ أَظْهَرِ عِبَادِهِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأَغَارَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَأَكْلَ شَدِيدُهُمْ ضَعِيفَهُمْ. قال مجاهد: ﴿سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾: حجة بينة.

واختار ابن جرير قول الحسن و قتادة، وهو الأرجح؛ لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَرْسَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ لَيَنْزِعُ بِالْإِسْلَامِ مَا لَا يَنْزِعُ بِالْقُرْآنِ» أي: لِيَمْنَعَ بِالسُّلْطَانِ عَنْ ارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ وَالْأَقَامِ، مَا لَا يَمْتَنِعُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ، وَمَا فِيهِ مِنَ الرَّعِيدِ الْأَكِيدِ، وَالتَّهْدِيدِ الشَّدِيدِ، وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ.

وقوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٨١) تهديد ووعيد لكفار قريش؛ فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع. وزهق باطلهم، أي: اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿بَلْ تَقِفْ بِأَعْيُنِكَ عَلَى الْبَاطِلِ فَأِدِّمْغَهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]. وقال البخاري: حَدَّثَنَا الْحَمِيدِيُّ، حَدَّثَنَا سَفِيانٌ، عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مَجَاهِدٍ، عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ وَحَوْلَ الْبَيْتِ سِتُونَ وَثَلَاثُمِائَةَ نَضَبٍ، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بَعْدَ فِي يَدِهِ، وَيَقُولُ: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، جَاءَ

﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٧).

﴿وَإِذَا أَعْلَمَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِلَّا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٢﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٣﴾﴾

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٨٥﴾

وهذا السياق يقتضى فيما يظهر بادي الرأي : أن هذه الآية مدنية ، وأنها إنما نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة ، مع أن

السورة كلها مكية . وقد يجاب عن هذا : بأنه قد يكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك ، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيهم عما سألو بالآية المتقدم إنزالها عليه ، وهي هذه الآية : ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما قال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا يحيى بن زكريا ، عن داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قالت قريش ليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل . فقالوا : سلوه عن الروح . فسألوه ، فنزلت : ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْإِلَهِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥ ﴾ قالوا : أوتينا علماً كثيراً ، أوتينا التوراة ، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً . قال : وأنزل الله : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ يَدَاكَ لَكُلِّيتَ رَبِّي لَقَدْ أَلْبَحَرُ قَبْلَ أَنْ تَفِدَّ كُلُّنَا رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِبِخْلِهِ مَدَدًا ۝٨٦ ﴾ [الكهف: ١٠٩] . وقد روى ابن جرير ، عن محمد بن المثنى ، عن عبد الأعلى ، عن داود ، عن عكرمة قال : سأل أهل الكتاب رسول الله ﷺ عن الروح ، فأنزل الله : ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْإِلَهِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥ ﴾ فقالوا : يزعم أنا لم نوت من العلم إلا قليلاً ، وقد أوتينا التوراة ، وهي الحكمة ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۝٨٥ ﴾ [البقرة: ٢٧٩] قال : فنزلت : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ [القلم: ٢٧] . قال : ما أوتيتم من علم ، فنجاكم الله به من النار ، فهو كثير طيب وهو في علم الله قليل . وقال محمد بن إسحاق ، عن بعض أصحابه ، عن عطاء بن يسار قال : نزلت بمكة : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْإِلَهِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، أتاه أحبار يهود . وقالوا : يا محمد ، ألم يبلغنا عنك أنك تقول : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْإِلَهِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أفعتيننا أم عنيت قومك ؟ فقال : « كلا قد عنيت » . قالوا : إنك تتلو أنا أوتينا التوراة ، وفيها بيان كل شيء ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هي في علم الله قليل ، وقد أتاكم ما إن عملتم به استقمتم » ، وأنزل الله : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٨٦ ﴾ [القلم: ٢٧] .

وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا على أقوال :

أحدها : أن المراد بالروح : أرواح بني آدم . قال العوفي ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ الآية ، وذلك أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : أخبرنا عن الروح ؟ وكيف تعذب الروح التي في الجسد ، وإنما الروح من الله ؟ ولم يكن نزل عليه فيه شيء ، فلم يُجِبْ إليهم شيئاً . فأتاه جبريل فقال له : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْإِلَهِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فأخبرهم النبي ﷺ بذلك ، فقالوا : من جاءك بهذا ؟ فقال : « جاءني به جبريل من عند الله » فقالوا له : والله ما قاله لك إلا عدولنا . فأنزل الله : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ الآية [البقرة: ٩٧] . وقيل : المراد بالروح ههنا : جبريل ، قاله قتادة ، قال : وكان ابن عباس يكتمه . وقيل : المراد به ههنا : ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها . قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قوله : ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ يقول : الروح : ملك . وقال الطبراني : حدثنا محمد بن عبد الله بن غزس المصري ، حدثنا وهب بن رزق أبو هريرة ، حدثنا بشر بن بكر ، حدثنا الأوزاعي ، حدثنا عطاء ، عن عبد الله بن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله ملكاً ، لو قيل له : اتقم السموات السبع والأرضين بلقمة واحدة لفعل ، تسبيحه : سبحانك حيث كنت » . وهذا حديث غريب ، بل منكر .

وقال أبو جعفر بن جرير ، رحمه الله : حدثني علي ، حدثنا عبد الله ، حدثني أبو نمران يزيد بن سمرّة صاحب قيسارية ، عن حدثه عن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، أنه قال في قوله : ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ قال : هو ملك من الملائكة ، له سبعون ألف وجه ، لكل وجه منها سبعون ألف لسان ، لكل لسان منها سبعون ألف لغة ، يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها ، يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة . وهذا أثر غريب عجيب ، والله أعلم . وقال السهيلي : روي عن علي أنه قال : هو ملك ، له مائة ألف رأس ، لكل رأس مائة ألف وجه ، في كل وجه مائة ألف فم ، في كل فم مائة ألف لسان ، يسبح الله تعالى بلغات مختلفة . قال السهيلي : وقيل : المراد بذلك : طائفة من الملائكة على صور بني آدم . وقيل : طائفة يرون الملائكة ولا تراهم ، فهم للملائكة كالملائكة لبني آدم .

وقوله : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ أي : من شأنه ، ومما استأثر بعلمه ، دونكم ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْإِلَهِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي : وما أطلعكم من علمه إلا على القليل ، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى .

والمعنى : أن علمكم في علم الله قليل ، وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح ما استأثر به تعالى ، ولم يطلعكم عليه ، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى . وسيأتي إن شاء الله في قصة موسى والخضر : أن الخضر نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة ، فنقر في البحر نقرة ، أي : شرب منه بمنقاره ، فقال : يا موسى ، ما علمي وعلمك وعلم الخلاقي في علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر . أو كما قال صلوات الله وسلامه عليه ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْإِلَهِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

فقال رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن بعثني إليكم رسولا، وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصير إليكم عينا، حتى يحكم الله بيني وبينكم». أو كما قال رسول الله ﷺ تسليما. فقالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيقت منا بلادا، ولا أقل مالا، ولا أشد عيشا منا، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليسيط لنا بلادنا، وليفجر فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضي من آبائنا، ولكن فيمن يبعث لنا قضي بن كلاب، فإنه كان شيخا صدوقا، فنسألهم عما تقول، حتى هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك، صدقتك، وعرفنا منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول! فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلغتكم ما أرسلت به، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصير إليكم عينا، حتى يحكم الله بيني وبينكم». قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، فاسأل ربك أن يبعث ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لك جنانا، وكنوزا وقصورا من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبغي، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتبس المعاش كما نلتسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك، إن كنت رسولا كما تزعم. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعث إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصير لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم». قالوا: فأسقط السماء، كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك، فإننا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك».

فقالوا: يا محمد، أما علم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليامة، يقال له: الرحمن، وإننا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا، فقد أعذرتنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلا. فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته، ابن عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا، فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورا يعرفوا بها منزلتك من الله، فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أؤمن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر حتى تأتيها، وتأتي معك بنسخة منشورة، معك أربعة من الملائكة، يشهدون أنك كما تقول. وإيم الله، لو فعلت ذلك لظننت أنني لا أضدقك. ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينا أسفا لما فاتته، مما كان طمع فيه من قومه حين دعوهم، ولما رأى من مبادعتهم إياه.

وهكذا رواه زياد بن عبد الله البكائي، عن ابن إسحاق، حدثني بعض أهل العلم، عن سعيد بن جبير وعكرمة، عن ابن عباس، فذكر مثله سواء. وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له، لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشادا لأجيوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفرا وعنادا، ف قيل للرسول: إن شئت أعطيتهم ما سألوا فإن كفروا عذبهم عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: «بل فتحت عليهم باب التوبة والرحمة» كما تقدم ذلك في حديثي ابن عباس والزبير بن العوام أيضا، عند قول الله تعالى: ﴿وَمَا تَنْبَغِي مِنَ الْإِنْسَانِ لِيَأْتِيَ بِمَا كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَمَا تَنْبَغِي مِنَ الْإِنْسَانِ لِيَأْتِيَ بِمَا كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الاسراء: ٥٩] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْتَشِي فِي الْإِنْسَانِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرٌ﴾ [٧] أَوْ يُنْزِلَ إِلَيْهِ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٨﴾ أَمْ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَجَعَلْنَاهُ كِتَابًا كَرِيمًا ﴿٩﴾ وَإِنْ شَاءَ جَعَلْ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَجَعَلَ لَكَ فُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ [الفرقان: ٧-١١].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَفْجَرَنَا مِنْ الْأَرْضِ يَنْبُوءًا﴾ البنيوع: العين الجارية، سألوه أن يجري لهم عينا معينة في أرض الحجاز ههنا وههنا، وذلك سهل يسير على الله تعالى، لو شاء لفعله ولا جأههم إلى جميع ما سألوا وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ حَفَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١١] وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٢﴾ [يونس: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زُلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلِئِكَةُ وَالْمُسُحَّرَةُ لَقُلُّوا قَوْلًا مِمَّا كَانُوا يَلْعَنُونَ﴾ [١٣] وَإِنْ شَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ

أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ [الأنعام: ١١١]. وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءَ كَمَا زَسَمْتَ﴾ أي: أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء وتهب، وتدلي أطرافها، فعجل ذلك في الدنيا، وأسقطها كسقا أي: قطعاً، كقولهم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ أَلْحَقٌ مِنْ عَذَابِكَ فَأَنْطِلْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ أَلْسِنَةِ أَوْ أَتَيْنَا بِمَذَآبٍ أَلِيرٍ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢]، وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الْكَادِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]. فعاقبهم الرب بعذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم. وأما نبي الرحمة، ونبي التوبة المبعوث رحمة للعالمين، فسأل إنظارهم وتأجيلهم، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد له لا يشرك به شيئاً. وكذلك وقع، فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتى «عبد الله ابن أبي أمية» الذي تبع النبي ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلاماً تاماً، وأنا ب إلى الله عز وجل.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ ذُرِّيَّتٍ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: هو الذهب. وكذلك هو في قراءة ابن مسعود: «أو يكون لك بيت من ذهب»، ﴿أَوْ تَرَفُّقَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: تصعد في سلم ونحن ننظر إليك ﴿وَلَنْ تُؤْمِنَ لِرَفِيقِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا تُفَرِّقُ﴾ قال مجاهد: أي مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة: هذا كتاب من الله لفلان ابن فلان، تصبح موضوعة عن رأسه. وقوله ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ أي: سبحانه وتعالى وتقديس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء، إن شاء أجابكم إلى ما سألتهم، وإن شاء لم يجبكم، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم، وقد فعلت ذلك، وأمركم فيما سألتهم إلى الله عز وجل.

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا ابن المبارك، حدثنا يحيى بن أبيوب، عن عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «عرض ربي عز وجل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يا رب، ولكن أشيع يوماً، وأجوع يوماً - أو نحو ذلك - فإذا جُعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك». ورواه الترمذي في «الزهد» عن سؤيد بن نصر، عن ابن المبارك، به. وقال: هذا حديث حسن. وعلي بن يزيد يَضَعُفُ في الحديث.

﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿١١٢﴾ قُلْ أَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَنْشُورُ مُطَاعِينَ لَزَلْنَا عَلَيْهِنَّ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿١١٣﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ﴾ أي: أكثرهم ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ ويتابعوا الرسل، إلا استعجابهم من بعثه البشر رسلاً، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رُسُلِهِمْ أَنْ نَبُشِّرْهُم بِالْآيَاتِ وَنُخَوِّفَهُم بِالْآيَاتِ وَمَا أَسْمَاءُ﴾ [يونس: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرًا يَهْدُونَنَا فَكُفُّوا وَقُولُوا وَاسْتَفْتَى اللَّهُ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿١١٤﴾﴾ [التين: ٦]، وقال فرعون وملؤه: ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ بِبَشَرٍ نَحْنُ عُزْبَتُهُمْ لَنَا عَيْدُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [الزمر: ٢٧]، وكذلك قالت الأمم لرسولهم: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَدُؤُنَا آبَاءُنَا قَاتِلُونَا فَاسْلُطْ عَلَيْنَا سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [إبراهيم: ١٠]، والآيات في هذا كثيرة. ثم قال تعالى منهاها على لطفه ورحمته بعباده: أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم، ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَلِيْلَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَكُونُونَ قَابِضٌ ذَوِي فَؤَادٍ ﴿١١٦﴾﴾ فاذكروني أذكركم وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢] ولهذا قال ههنا: ﴿أَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَنْشُورُ مُطَاعِينَ﴾ أي: كما أنتم فيها ﴿لَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ أي: من جنسهم، ولما كنتم أنتم بشراً، بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفاً ورحمة.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِبَيِّنَاتٍ لِيُبَيِّنَ﴾ ﴿١١٨﴾.

يقول تعالى مرشداً نبيه إلى الحجة على قومه، في صدق ما جاءهم به: أنه شاهد علي وعليكم، عالم بما جنتكم به، فلو كنت كاذباً عليه انتقم مني أشد الانتقام، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَفَرْنَا عَلَيْنَا بَعَثْنَا الْأَقَابِلَ ﴿١١٩﴾﴾ لَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٢٠﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْآثِينَ ﴿١٢١﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]. وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِبَيِّنَاتٍ لِيُبَيِّنَ﴾ أي: عليهم بهم بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية، ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاعة؛ ولهذا قال:

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ فَانْصُرْهُ إِنَّهُ يَكُونُ مِنْ دُونِهِمْ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وَجْهِهِمْ عَذَابًا وَسَاءَ مَا لَهُمْ بِهِمْ جَهَنَّمَ كَمَا خَبَرْتَ رَبَّنَا عَنْ سَعِيدٍ ﴿١٢٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه في خلقه، ونفوذ حكمه، وأنه لا معقب له، بأنه من يهده فلا مضل له ﴿وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: يهدونهم، كما قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ وَكِيلًا مُرْثِدًا﴾ ﴿الكهف: ١٧﴾. وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ﴾ قال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا إسماعيل عن ثقيف قال: سمعت أنس بن مالك يقول: قيل: يا رسول الله، كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم». وأخرجه في الصحيحين. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يزيد، حدثنا الوليد بن جُمَيْع القرشي، عن أبيه، حدثنا أبو الطفيل عامر بن واثلة، عن حذيفة بن أسيد قال: قام أبو ذر فقال: يا بني غفار، قولوا ولا تحلفوا، فإن الصادق المصدوق حدثني: أن الناس يحشرون على ثلاثة أفواج: فوج راكبين طاعمين كاسين، وفوج يمشون ويسعون، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم إلى النار. فقال قائل منهم: هذان قد عرفناهما، فما بال الذين يمشون ويسعون؟ قال: يلقي الله، ﷻ، الأفة على الظهر حتى لا يبقى ظهر، حتى إن الرجل لتكون له الحديقة المعجبة، فيعطيهها بالشارف ذات القتب، فلا يقدر عليها. وقوله: ﴿عُيَا﴾ أي: لا يبصرون ﴿وَبُكَاءُ﴾ يعني: لا ينطقون ﴿وَسَمًا﴾: لا يسمعون. وهذا يكون في حال دون حال جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكماء وعمياً وصماً عن الحق فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ أي: منقلبهم ومصيرهم ﴿جَهَنَّمَ كُنَّا بَنَاتٍ﴾ قال ابن عباس: سكنت. وقال مجاهد: طفئت ﴿وَزِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: لهاً ووجهاً وجرماً، كما قال: ﴿قَدْ ذُوقُوا فَلَنْ نَرِيَكُم إِلَّا عَذَابًا﴾ ﴿النبا: ٣٠﴾.

﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا زُرْقًا أَوْنَا لَسَعُوتُونَ خَلَقًا جَدِيدًا﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنَّ الظَّالِمِينَ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿٩٩﴾.

يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم به، من البعث على العمى والبكم والصمم، جزاؤهم الذي يستحقونه؛ لأنهم كذبوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: بأدلتنا وحججنا، واستبعدوا وقوع البعث ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا زُرْقًا أَوْنَا لَسَعُوتُونَ خَلَقًا جَدِيدًا﴾ أي: بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك، والتفريق والذهاب في الأرض نعاد مرة ثانية؟. فاحتج تعالى عليهم، ونبيههم على قدرته على ذلك، بأنه خلق السموات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك كما قال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ لَيْفًا يَخْلُقْهُنَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يُخْلِقَ مِثْلَهُمْ بَلْ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٨١﴾ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدِيرُ مَلَكُوتَهُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٣﴾. وقال ههنا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى، ويعيدهم كما بدأهم. وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لا بد من انقضاءها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا لِلْجَلِ مَعْدُودٍ﴾ ﴿نور: ١٠٤﴾. وقوله: ﴿فَأِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: بعد قيام الحجة عليهم ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾: إلا تمادياً في باطلهم وضلالهم.

﴿قُلْ لَوْ أَنَّهُمْ تَمَلَّكُوا خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ ﴿١٠٠﴾.

يقول تعالى لرسوله صلوات الله عليه وسلامه: قل لهم يا محمد: لو أنكم - أيها الناس - تملكون التصرف في خزائن الله، لأمسكتم خشية الإنفاق. قال ابن عباس، وقادة: أي الفقر أي: خشية أن تذهبوها، مع أنها لا تفرغ ولا تنفذ أبداً؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ قال ابن عباس، وقادة: أي بخيلاً منوعاً. وقال الله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ تَبِيحٌ مِنَ الثَّمَنِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ قَبُولًا﴾ ﴿النساء: ٥٢﴾. أي: لو أن لهم نصيباً في ملك الله لما أعطوا أحداً شيئاً، ولا مقدار نقيراً، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وهداه، فإن البخل والجور والهلع صفة له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ ﴿١٠٠﴾ ﴿إِلَّا الْفَصِيلَ﴾ ﴿المعارج: ١٩-٢٢﴾. ولهذا نظرنا كثيرة في القرآن العزيز، ويدل هذا على كرمه وجوده وإحسانه، وقد جاء في الصحيحين: «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغيض ما في يمينه».

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ نِسْجَ ثِيَابٍ مِّمَّنْ يَنْسِجُ فَمَلَأْنَا بِغِيظِكُمْ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَكُونُ مَسْحُورًا﴾ ﴿١٠١﴾ ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنتَ لَهْكَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرٌ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِغِيظِ رَبِّكَ مَسْحُورًا﴾ ﴿١٠٢﴾ ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَحِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ ﴿١٠٣﴾ ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِيَنبِيَ إِبْرَاهِيمَ اسْكُنْ الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكَ لَيفًا﴾ ﴿١٠٤﴾.

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عن أرسله إلى فرعون، وهي: العصا، واليد، والسنين، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات. قاله ابن عباس.

وقال محمد بن كعب: هي اليد، والعصا، والخمس في الأعراف، والطفسة والحجر. وقال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، وعكرمة والشعبي، وقتادة: هي يده، وعصاه، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي. وجعل الحسن البصري «السنين ونقص الثمرات» واحدة، وعنده أن التاسعة هي: تلقف العصا ما يافكون. ﴿فَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] أي: ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها، كفروا بها وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً، وما نجعت فيهم، فكذلك لو أجبتا هؤلاء الذين سألوها منك سألوها، وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَكَ حَتَّى تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله، كما قال فرعون لموسى - وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات -: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مُّسَوِّحًا﴾ قيل: بمعنى ساحر. والله تعالى أعلم. فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المرادة ههنا، وهي المعنية في قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي عَصَاكَ لَمَّا رَمَاكَ تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدِرًّا وَلَمْ يَمُوبًا يَمْشُونَ لَا يَخَفُ إِنِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا الَّذِي رُسِّيَتْ إِلَيَّ الْأَمْثِلُونَ﴾ [١٦] إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسًّا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي عَنْقُرُودٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ يَدًّا مِثْلَ الْأَوَّلَىٰ مَوْسَىٰ فِي سِحْرِ مُّائِكَةٍ بِأَنَّهُ بَدَّلَ الْيَدَيْنِ عَنْهُمَا فَنَزَلَ الْأَيْدِي بِأَنَّهُ يَدَايَ يَبْتِغِي الْيَدَيْنِ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مُّسَوِّحًا﴾ [النمل: ١٠-١٢]. فذكر هاتين الآيتين: العصا واليد، وبين الآيات الباقيات في «سورة الأعراف» وفضلها.

وقد أوتي موسى، عليه السلام، آيات أخر كثيرة، منها ضربته الحجر بالعصا، وخروج الأنهار منه، ومنها تظليلهم الغمام، وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر ههنا التسع الآيات التي شاهدتها فرعون وقومه من أهل مصر، وكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا شعبة، عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن سلمة يحدث، عن صفوان بن عسال المرادي، رضي الله عنه، قال: قال يهودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي ﷺ حتى نسأله عن هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ سِتْرَ الْأَيْدِي﴾ فقال: لا تقل له: نبي فإنه لو سمعك لصارت له أربع أعين. فسأله، فقال النبي ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تشموا بيريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تقذفوا محصنة - أو قال: لا تفروا من الزحف - شعبة الشاك - وأنتم يا يهود، عليكم خاصة ألا تعدوا في السبت. فقبلا يديه ورجليه، وقال: نشهد أنك نبي. قال: «فما يمنعكما أن تتبعاني؟» قال: لأن داود، عليه السلام، دعا ألا يزال من ذريته نبي، وإننا نخشى إن أسلمنا أن تقتلنا يهود. فهذا الحديث رواه هكذا الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير في تفسيره من طرق عن شعبة بن الحجاج، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وهو حديث مشكل، وعبد الله بن سلمة في حفظه شيء، وقد تكلموا فيه، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات، فإنها وصايا في التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون، والله أعلم. ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاطِرٍ﴾ أي: حججاً وأدلة على صدق ما جئتكم به ﴿وَأِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مُّشْبِرًا﴾ أي: هالكاً. قاله مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس: ملعوناً. وقال أيضاً هو والضحاك: ﴿مُشْبِرًا﴾ أي: مغلوباً. والهالك - كما قال مجاهد - يشمل هذا كله، قال عبد الله بن الزبيري:

إِذَا جَارِيَ الشَّيْطَانُ فِي سَنَنِ الْغَرِّ يَوْمَ تَمُنَّ مَالٌ مِّنْهُ مَثْبُورٌ

بمعنى هالك. وقرأ بعضهم برفع التاء من قوله: ﴿عَلِمْتَ﴾ وروي ذلك عن علي بن أبي طالب. ولكن قراءة الجمهور بفتح التاء على الخطاب لفرعون، كما قال تعالى: ﴿لَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُّجِيبَةً قَالُوا هَذَا سُحْرُ أَبِي هِيرَةَ﴾ [١٧] وَصَحُّوْا بِهَا وَاسْتَفْتَنَاهُ أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٣، ١٤]. فهذا كله مما يدل على أن المراد بالتسع الآيات إنما هي مما تقدم ذكره من العصا، واليد، والسنين، ونقص من الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. التي فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه، وخوارق ودلائل على صدق موسى ووجود الفاعل المختار الذي أرسله. وليس المراد منها كما ورد في هذا الحديث، فإن هذه الوصايا ليس فيها حجج على فرعون وقومه، وأي مناسبة بين هذا وبين إقامة البراهين على فرعون؟ وما جاء هذا الوهم إلا من قبل «عبد الله بن سلمة» فإن له بعض ما يُتُّكَّر. والله أعلم. ولعل ذينك اليهوديين إنما سألا عن العشر الكلمات، فاشتبه على الراوي بالتسع الآيات، فحصل وهم في ذلك، والله أعلم. وقوله: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَزِعَهُمْ مِنْ الْأَرْضِ﴾ أي: يخليهم منها ويزيلهم عنها ﴿فَأَعْرَضْنَاهُ وَمَنْ مِّمَّنَّ جِئًا وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِيَنِيَ إِتْرَيجُ أَتُكُونُوا الْأَرْضَ﴾ وفي هذا بشارة

لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن هذه السورة نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع؛ فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا كَانُوا لِيُخْرِجُوهُ مِنْ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوهُ مِنْهَا وَلَئِنْ لَا يَنْتَوِيكَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ سَنَّةً مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِحُكْمِنَا عُقُوبًا ۗ﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧]؛ ولهذا أورد الله رسوله مكة، فدخلها غثوة على أشهر القولين، وقهر أهلها، ثم أطلقهم حلاًماً وكرماً، كما أورد الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأمواهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ وَقَالَ هِنَا: ﴿وَقُلْنَا يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۗ﴾ [١١٢] أي: جميعكم أنتم وعدوكم. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: ﴿لَفِيفًا﴾ أي: جميعاً.

﴿وَلَمَّا نَزَّلْنَاهُ وَلَمَّا نَزَّلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۗ﴾ ﴿وَمَا كُنَّا نَقْرَأُ عَلَى الْكَافِرِينَ عَلَى مَكِّهِ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيرًا ۗ﴾ [١١٣].

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وهو القرآن المجيد، أنه بالحق نزل، أي: متضمناً للحق، كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِأَلْفٍ شَهِيدًا ۗ﴾ [النساء: ١٣٦] أي: متضمناً علم الله الذي أراد أن يُطليعكم عليه، من أحكامه وأمره ونهيه. وقوله: ﴿وَلَمَّا نَزَّلَ﴾ أي: ووصل إليك - يا محمد - محفوظاً محروساً، لم يُشب بغيره، ولا زيد فيه ولا نقص منه، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القوى، القوي الأمين المكين المطاع في الملا الأعلى. وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أي: يا محمد ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعك من المؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك من الكافرين. وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا نَقْرَأُ﴾ أما قراءة من قرأ بالتخفيف، فمعناه: فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفزقاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة. قاله عكرمة عن ابن عباس. وعن ابن عباس أيضاً أنه قال: ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ بالتشديد، أي: أنزلناه آية آية، مبيناً مفسراً؛ ولهذا قال: ﴿لِنَقْرَأُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: لتبلغه الناس وتتلوه عليهم ﴿عَلَى مَكِّهِ﴾ أي: مهله ﴿وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيرًا﴾ أي: شيئاً بعد شيء.

﴿قُلْ مَا يَأْتِيهِمْ أَوْ لَا تَأْتِيهِمْ إِنْ لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ أُولُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسْأَلُ عَنْهُمْ يَحْزَنُونَ لِأَذْقَانِ سُجَّدًا ۗ﴾ ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۗ﴾ ﴿وَيَحْزَنُونَ لِأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۗ﴾ [١١٤].

يقول تعالى لنبية ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جنتهم به من هذا القرآن العظيم: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ أَوْ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ أي: سواء أمنتهم به أم لا، هو حق في نفسه، أنزله الله ونوّه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُولُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: من صالح أهل الكتاب الذين يُمَسِّكون بكتابتهم وقيمونه، ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿إِذَا يُسْأَلُ عَنْهُمْ﴾ هذا القرآن، ﴿يَحْزَنُونَ لِأَذْقَانِ﴾ جمع ذقن، وهو أسفل الوجه ﴿سُجَّدًا﴾ أي: لله، شكراً على ما أنعم به عليهم، من جعله إياهم أهلاً، إن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب؛ ولهذا يقولون: ﴿سُبْحَنَ رَبِّنَا﴾ أي: تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد ﷺ؛ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾. وقوله: ﴿وَيَحْزَنُونَ لِأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ أي: خضوعاً لله عز وجل وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله، ويزيدهم الله خشوعاً، أي: إيماناً وتسليماً كما قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَآذَرُوا هُذًى وَآذَرَهُمْ قَتْلَهُمْ قَتْلَهُمْ ۗ﴾ [محمد: ٢٧]. وقوله: ﴿وَيَحْزَنُونَ﴾ عطف صفة على صفة لا عطف سجود على سجود، كما قال الشاعر:

إِلَى الْمَلِكِ الْقَزْمِ وَإِبْنِ الْهُمَامِ
وَلَيْتَ الْكَتِيبَةَ فِي الْمُرْزَقِ
﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۗ﴾ ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلْجِ إِلَىٰ شَيْءٍ مِّنْ شَيْءٍ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَوْنَهُ كَبِيرًا ۗ﴾ [١١٥].

يقول تعالى: قل يا محمد، لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله، ﷻ، المانعين من تسميته بالرحمن: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: لا فرق بين دعائكم له باسم «الله» أو باسم «الرحمن»، فإنه ذو الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْقَنُوتُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۗ﴾ [١١٦] إلى أن قال: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤]. وقد روى مكحول: أن رجلاً من المشركين سمع النبي ﷺ وهو يقول في سجوده: «يا رحمن يا رحيم»، فقال: إنه يزعم أنه يدعو واحداً، وهو يدعو اثنين. فأنزل الله هذه الآية. وكذا روي عن ابن عباس، رواهما ابن جرير. وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾ الآية، قال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية وهو متوار بمكة ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾

قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن، وسبوا من أنزله، ومن جاء به. قال: فقال الله تعالى لنبيه: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾. أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي بشر جعفر بن إياس، به. وكذا روى الضحاك عن ابن عباس، وزاد: «فلما هاجر إلى المدينة، سقط ذلك، يفعل أي ذلك شاء». وقال محمد بن إسحاق: حدثني داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا جهر بالقرآن وهو يصلي، تفرقوا عنه وأبوا أن يستمعوا منه، فكان الرجل إذا أراد أن يستمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو وهو يصلي، استرق السمع دونهم فرقا منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع، ذهب خشية أذاهم فلم يستمع، فإن خفض صوته ﷺ لم يستمع الذين يستمعون من قراءته شيئا، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيتفرقوا عنك ﴿وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾ فلا تسمع من أراد أن يسمعه ممن يسترق ذلك دونهم، لعله يروى إلى بعض ما يسمع، فينتفع به ﴿وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾.

وهكذا قال عكرمة، والحسن البصري، وقناة: نزلت هذه الآية في القراءة في الصلاة.

وقال شعبة عن أشعث بن أبي سليم عن الأسود بن هلال، عن ابن مسعود: لم يُخَافَ بها مَنْ أسمع أذنيه. قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُثَيْمٍ، عن سلمة بن علقمة، عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته، وأن عمر كان يرفع صوته، فقيل لأبي بكر: لم تصنع هذا؟ قال: أناجي ربي، ﷺ، وقد علم حاجتي. فقيل: أحسنت. وقيل لعمر: لم تصنع هذا؟ قال: أطرد الشيطان، وأوقظ الوسنان. قيل: أحسنت. فلما نزلت: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ قيل لأبي بكر: ارفع شيئا، وقيل لعمر: اخفض شيئا. وقال أشعث بن سوار، عن عكرمة، عن ابن عباس: نزلت في الدعاء. وهكذا روى الثوري، ومالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: نزلت في الدعاء. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو عياض، ومكحول، وعروة بن الزبير. وقال الثوري عن ابن عباس العامري، عن عبد الله بن شداد قال: كان أعراب من بني تميم إذا سلم النبي ﷺ قالوا: اللهم ارزقنا إبلا وولدا. قال: فنزلت هذه الآية ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾.

قول آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو السائب، حدثنا حفص بن غياث، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها: نزلت هذه الآية في التشهد: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾. وبه قال حفص، عن أشعث بن سوار، عن محمد بن سيرين، مثله.

قول آخر: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾ قال: لا تصل مراعاة الناس، ولا تدعها مخافة الناس. وقال الثوري، عن منصور، عن الحسن البصري: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾ قال: لا تحسن علانيتها وتسي سريرتها. وكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن الحسن به. وشمس، عن عوف، عنه به. وسعيد، عن قتادة، عنه كذلك.

قول آخر: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ قال: أهل الكتاب يخافتون، ثم يجهر أحدهم بالحرف فيصيح به، ويصيحون هم به وراءه، فنهأ أن يصيح كما يصيح هؤلاء، وأن يخافت كما يخافت القوم، ثم كان السبيل الذي بين ذلك، الذي سن له جبريل من الصلاة.

وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَنْبَغِدْ لَكُمْ﴾ لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى، نزه نفسه عن النقائص فقال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَنْبَغِدْ لَكُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ بل هو الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ أي: ليس بذليل فيحتاج أن يكون له ولي أو وزير أو مشير، بل هو تعالى شأنه خالق الأشياء وحده لا شريك له، ومقدرها ومديرها بمشيئته وحده، لا شريك له. قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾: لم يحالف أحدا ولا يبتغي نصر أحد. ﴿وَكَبِيرَةٌ تَعْجَبُ﴾ أي: عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علوا كبيرا. قال ابن جرير: حدثني يونس، أبنا ابن وهب، أخبرني أبو صخر، عن القرظي أنه كان يقول في هذه الآية: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَنْبَغِدْ لَكُمْ﴾ الآية، قال: إن اليهود والنصارى قالوا: اتخذ الله ولدا، وقال العرب: لبيك لبيك، لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك. وقال الصابئون والنجوس: لولا أولياء الله لذل. فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَنْبَغِدْ لَكُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرَةٌ تَعْجَبُ﴾. وقال أيضا: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة: ذكر لنا أن النبي ﷺ كان يعلم أهله هذه الآية ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَنْبَغِدْ لَكُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرَةٌ تَعْجَبُ﴾ الصغير من أهله

والكبير . قلت : وقد جاء في حديث أن رسول الله ﷺ سماها آية العز . وفي بعض الآثار : أنها ما قرئت في بيت في ليلة فيصبيه سرق أو آفة . والله أعلم .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا بشر بن سيحان البصري ، حدثنا حرب بن ميمون ، حدثنا موسى بن عبيدة الرندي ، عن محمد بن كعب القرظي ، عن أبي هريرة قال : خرجت أنا ورسول الله ﷺ ، ويدي في يده ، فأتى على رجل رث الهيئة ، فقال : «أي فلان ، ما بلغ بك ما أرى؟» . قال : السقم والضّر يا رسول الله . قال : «ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضّر؟» قال : لا ، قال : ما يسرنى بها أن شهدت معك بدرأ أو أحداً . قال : فضحك رسول الله ﷺ وقال : «وهل يدرك أهل بدر وأهل أحد ما يدرك الفقير القانع؟» . قال : فقال أبو هريرة : يا رسول الله ، إياي فعلمني . قال : فقل يا أبا هريرة : «توكلت على الحي الذي لا يموت ، الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الدّل ، وكبره تكبيراً» . قال : فأتى عليّ رسول الله ﷺ وقد حسّنت حالي ، قال : فقال لي : «مهنيم» . قال : قلت : يا رسول الله ، لم أزل أقول الكلمات التي علمتني . إسناده ضعيف وفي منته نكارة . والله أعلم .



بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

تفسير سورة الكهف

وهي مكية .

ذكر ما ورد في فضلها ، والعشر الآيات من أولها وآخرها ، وإنها عصمة من الدجال :

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبي إسحاق قال : سمعت البراء يقول : قرأ رجل الكهف ، وفي الدار دابة ، فجعلت تنفر ، فنظر فإذا ضبابة - أو : سحابة - قد غشيت ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : «اقرأ فلان ، فإنها السكينة تنزلت عند القرآن ، أو تنزلت للقرآن» . أخرجه في الصحيحين ، من حديث شعبة ، به . وهذا الرجل الذي كان يتلو هو : أشيد بن الحَضِير ، كما تقدم في تفسير البقرة . وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا همام بن يحيى ، عن قتادة ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن معدان بن أبي طلحة ، عن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ قال : «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف ، عُصِمَ من الدجال» . رواه مسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، والترمذي من حديث قتادة ، به . ولفظ الترمذي : «من حفظ الثلاث الآيات من أول الكهف» ، وقال : حسن صحيح .

طريق أخرى : قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا شعبة ، عن قتادة : سمعت سالم بن أبي الجعد يحدث عن معدان ، عن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ قال : «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصِمَ من فتنة الدجال» . ورواه مسلم أيضاً والنسائي ، من حديث قتادة ، به . وفي لفظ النسائي : «من قرأ عشر آيات من الكهف» ، فذكره .

حديث آخر : وقد رواه النسائي في «اليوم والليلة» عن محمد بن عبد الأعلى ، عن خالد ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن ثوبان عن رسول الله ﷺ أنه قال : «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف ، فإنه عصمة له من الدجال» . فيحتمل أن سالماً سمعه من ثوبان ومن أبي الدرداء . وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا زبّان بن فايد ، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني ، عن أبيه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «من قرأ أول سورة الكهف وآخرها ، كانت له نوراً من قدمه إلى رأسه ، ومن قرأها كلها كانت له نوراً ما بين الأرض إلى السماء» انفرد به أحمد ولم يخرجوه . وروى الحافظ أبو بكر بن مرزويه في تفسيره ، بإسناد له غريب ، عن خالد بن سعيد بن أبي مريم ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة ، سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء ، يضيء له يوم القيامة ، وغُفِرَ له ما بين الجمعتين» . وهذا الحديث في رفعه نظر ، وأحسن أحواله الوقف .

وهكذا روى الإمام : «سعيد بن منصور» في سننه ، عن هُثَيْم بن بشير ، عن أبي هاشم ، عن أبي مجلز ، عن قيس بن عباد ، عن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، أنه قال : من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة ، أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق . هكذا وقع موقوفاً ، وكذا رواه الثوري ، عن أبي هاشم ، به . من حديث أبي سعيد الخدري . وقد أخرجه الحاكم في مستدركه ، عن أبي بكر محمد بن المؤمل ، حدثنا الفضيل بن محمد الشَّعْرَانِي ، حدثنا نُعَيْم بن حَمَاد ، حدثنا هُثَيْم ، حدثنا أبو

هاشم، عن أبي مجلز، عن قيس بن عباد، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين»، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في سننه، عن الحاكم، ثم قال البيهقي: ورواه يحيى بن كثير، عن شعبة، عن أبي هاشم بإسناده أن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الكهف كما أنزلت كانت له نوراً يوم القيامة». والله أعلم. وفي «المختارة» للحافظ الضياء المقدسي من حديث عبد الله بن مصعب بن منظور بن زيد بن خالد الجهني، عن علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي مرفوعاً: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة، فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة، وإن خرج الدجال عصم منه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رب واقني

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَوْ يَحْمِلُ ثَمَرًا عَصَا ﴿١﴾ قَتَا لَئِنْ شِئْنَا بِمَأْسَا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ أَفَلْيَحْيِيَنَّا إِنْ لَّهُمْ أَمْرٌ حَسَنًا ﴿٢﴾ نَكْبِتُ فِيهِ آيَةً ﴿٣﴾ وَمُذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

قد تقدم في أول التفسير أنه تعالى يحمد نفسه المقدسة عند فواتح الأمور وخواتيمها، فإنه المحمود على كل حال، وله الحمد في الأولى والآخرة، ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد، صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض، إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيف، بل يهدي إلى صراط مستقيم، بيناً واضحاً جلياً، نذيراً للكافرين وبشيراً للمؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يَحْمِلُ ثَمَرًا عَصَا﴾ أي: لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زيفاً ولا ميلاً، بل جعله معتدلاً مستقيماً، ولهذا قال: ﴿قَتَا﴾ أي: مستقيماً. ﴿لَئِنْ شِئْنَا بِمَأْسَا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ﴾ أي: لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به، ينذره بأساً شديداً، عقوبة عاجلة في الدنيا وآجلة في الآخرة ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾ أي: من عند الله الذي لا يُعَذِّبُ عذابه أحد، ولا يوتق وثاقه أحد. ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بهذا القرآن الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿إِنَّ لَهُمْ أَمْرًا حَسَنًا﴾ أي: مثوبة عند الله جميلة ﴿نَكْبِتُ فِيهِ﴾ في ثوابهم عند الله، وهو الجنة، خالدين فيه ﴿آيَةً﴾ دائماً لا زوال له ولا انقضاء. ﴿وَمُذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ قال ابن إسحاق: وهم مشركو العرب في قولهم: نحن نعبد الملائكة، وهم بنات الله. ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بهذا القول الذي افتروه وانتفكوه من علم ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ أي: أسلافهم. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾: نصب على التمييز، تقديره: كبرت كلمتهم هذه كلمة. وقيل: على التعجب، تقديره: أعظم بكلمتهم كلمة، كما تقول: أكرم يزيد رجلاً، قاله بعض البصريين. وقرأ ذلك بعض قراء مكة: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾، كما يقال: عظم قولك، وكبر شأنك. والمعنى على قراءة الجمهور أظهر؛ فإن هذا تشبيح لمقالتهم واستعظام لإفكهم، ولهذا قال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافترائهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

وقد ذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه السورة الكريمة، فقال: حدثني شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي مُعَيْط، إلى أجباز اليهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله؛ فلإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجوا حتى قدما المدينة، فسألوا أجباز يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالوا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. قال: فقالت لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن، فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوْلٌ فروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فلإنهم قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح، ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش، فقالوا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أجباز يهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا. فسألوهم عما أمرهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم غداً بما سألتهم عنه». ولم يستثن، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة، لا يُحدث الله إليه في ذلك حياً، ولا يأتيه جبريل، عليه السلام، حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها، لا يُخبرنا بشيء عما سألناه

عنه. وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل، عليه السلام، من عند الله، ﷻ، بسورة أصحاب الكهف، فيها معانيه إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف، وقول الله ﷻ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْكِتَابِ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾ [الإسراء: ٨٥].

﴿فَلَمَّا بَلَغَ نَفْسَكَ عَلَى ءَاثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَنَجْعَلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا ۝﴾.

يقول تعالى مسلماً رسول الله ﷺ في حزنه على المشركين، لتركه الإيمان وبعدهم عنه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحمل: ١٢٧]، وقال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ نَفْسَكَ عَلَى ءَاثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ ۝﴾، يعني: القرآن. ﴿أَسَفًا﴾ يقول: لا تهلك نفسك أسفاً. قال قتادة: قَاتِلْ نَفْسَكَ غَضَبًا وَحُزْنًا عَلَيْهِمْ. وقال مجاهد: جزعاً. والمعنى متقارب، أي: لا تأسف عليهم، بل أبلغهم رسالة الله، فمن امتدى لنفسه، ومن ضل فلإنما يضل عليها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات. ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية مَرْيُتَةً بِزِينَةٍ زائلة. وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝﴾. قال قتادة، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ الدُّنْيَا خُضْرَةٌ حُلْوَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلَفُكُمْ فِيهَا فَنَظَرُ مَاذَا تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النَّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنَى إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ». ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها، وفراغها وانقضائها، وذهابها وخرابها، فقال: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا ۝﴾ أي: ولنا لمصيرها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فنجعل كل شيء عليها هالكاً ﴿صَعِيدًا جُرًّا﴾: لا يُثْبِت ولا يتنفع به، كما قال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا ۝﴾ يقول: يهلك كل شيء عليها ويبعد. وقال مجاهد: ﴿صَعِيدًا جُرًّا﴾: بِلْعَاءٍ. وقال قتادة: الصعيد: الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات. وقال ابن زيد: الصعيد: الأرض التي ليس فيها شيء، ألا ترى إلى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَاهُ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَفُتِحَتْ بِهِ ذَرْبًا فَتَكَلَّمُوا بِمَنْعِهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ۝﴾ [السجدة: ٢٧]. وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا ۝﴾ يعني الأرض، إن ما عليها لفان وباند، وإن المرجع لآلى الله، فلا تأس ولا يحزنك ما تسمع وترى.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا ۝﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رِزْقًا وَبَعِّثْ لَنَا مِنْ أَفْرَأَ رَسُولًا ۝﴾ فَفَرَّصْنَا عَلَى ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِتْرًا عَدَدًا ۝ ثُمَّ بَشَّرْنَاهُمْ بِإِنَّمَا أَتَى لِلْمُرْتَبِئِينَ بِشَأْنِهِمْ لَمَّا كَانُوا فِي الْكَهْفِ ۝﴾.

هذا إخبار عن قصة أصحاب الكهف والرقيم، على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ يعني: يا محمد ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا﴾ أي: ليس أمرهم عجباً في قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر، ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف والرقيم كما قال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا ۝﴾ يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك! وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا ۝﴾ يقول: الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب، أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم. وقال محمد بن إسحاق: ما أظهرت من حججي على العباد، أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم. وأما «الكهف» فهو: الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون. وأما «الرقيم» فقال العوفي، عن ابن عباس: هو واد قريب من أيلة. وكذا قال عطية العوفي، وقاتدة. وقال الضحاك: أما «الكهف» فهو: غار الوادي، و«الرقيم»: اسم الوادي. وقال مجاهد: «الرقيم»: كان بنيانهم، ويقول بعضهم: هو الوادي الذي فيه كهفهم. وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: «الرقيم»، قال: يزعم كعب أنها القرية. وقال ابن جريج، عن ابن عباس: «الرقيم»: الجبل الذي فيه الكهف. وقال ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نجيع، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: اسم ذلك الجبل بنجلوس. وقال ابن جريج: أخبرني وهب بن سليمان، عن شعيب الجبائي: أن اسم جبل الكهف بنجلوس، واسم الكهف حيزم، والكلب حمران.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: القرآن أعلمه إلا خائناً، والأواه، والرقيم. وقال ابن جريج: أخبرني عمرو بن دينار، أنه سمع عكرمة يقول: قال ابن عباس: ما أدري ما الرقيم؟ أكتاب أم بنيان؟ وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الرقيم: الكتاب. وقال سعيد بن جبيرة: الرقيم: لوح من حجارة، كتبوا فيه قصص

أصحاب الكهف، ثم وضعوه على باب الكهف. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرقيم: الكتاب. ثم قرأ: ﴿كُتِبَ مَرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٩]. وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيار ابن جرير قال: «الرقيم» فعيل بمعنى مرقوم، كما يقال للمقتول: قَتِيل، وللمجروح: جريح. والله أعلم.

وقوله: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝﴾ : يخبر تعالى عن أولئك الفتية، الذين فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنهم عنه، فهربوا منهم فاجزؤا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۝﴾ أي: هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي: وقدر لنا من أمرنا هذا رشداً، أي: اجعل عاقبتنا رشداً، كما جاء في الحديث: «وما قضيت لنا من قضاء، فاجعل عاقبته رشداً»، وفي المسند من حديث بَشْر بن أَبِي أرطاة، عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو: «اللهم، أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة». وقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمُ الْكَهْفَ سِنِينَ عَدَدًا ۝﴾ أي: ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين كثيرة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي: من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم بدرهم معه ليشترى لهم بها طعاماً يأكلونه، كما سيأتي بيانه وتفصيله، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَبْلُوَ أَيُّ الْمُبْتَلِينَ﴾ أي: المختلفين فيهم ﴿أَحْسَنَ لِمَا يَسْتَوْفُونَ﴾ قيل: عدداً، وقيل: غاية، فإن الأمد الغاية كقوله:

سَبَقَ الْجَوَادِ إِذَا اسْتَوْلَى عَلَى الْأَمَدِ

﴿عَمَّنْ نَقَضَ عَلَيْكَ بَيْأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرِذْوَتُهُمْ هُدًى﴾ [١٦] وَرِيطَيْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ الْأَرْضِ لَن نَّدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ إِنَّهَا لَفَتْ قُلُوبَنَا فَانْقَادُوا مِنْ دُونِهِ إِلَيْهِ لَوْلَا بَأْتُنَا عَلَيْهِمْ بِطَلُوتٍ بَيِّنٍ قَمَنَ أَطْلَمَ مِنِّي أَفَرَأَيْتَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [١٧] وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوَّاها إِلَى الْكَهْفِ بِشَرِّ لَكُمْ رَبِّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ. وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِزْقًا﴾ [١٨].

من ههنا شرع في بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية - وهم الشباب - وهم أقبيل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ، الذين قد عتوا وعسوا في دين الباطل؛ ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله ﷺ شباباً. وأما المشايخ من قريش، فعامتهم بقوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل. وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً. قال مجاهد: بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطلة يعني: الحَلَقَ فألهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم. فأمنوا بربهم، أي: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو. ﴿وَرِذْوَتُهُمْ هُدًى﴾: استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة البخاري وغيره، ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَرِذْوَتُهُمْ هُدًى﴾ كما قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَكَفَّرَهُمْ قُورُبُهُمْ﴾ [١٧] [محمد: ١٧]، وقال: ﴿فَأَمَّا الْأَوَّلُ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

وقد ذكر أنهم كانوا على دين عيسى ابن مريم، عليه السلام، والله أعلم - والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنه لو كانوا على دين النصرانية، لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم، لمباينتهم لهم. وقد تقدم عن ابن عباس: أن قريشاً بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ، فبعثوا إليهم أن يسألوا عن خبر هؤلاء، وعن خبر ذي القرنين، وعن الروح، فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب، وأنه متقدم على دين النصرانية، والله أعلم. وقوله: ﴿وَبَيَّلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول تعالى: وصبرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرجوا يوماً في بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له: «دقيانوس»، وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه. فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها، لا ينبغي إلا لله الذي خلق السموات والأرض. فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه، وينحاز منهم، ويتبرز عنهم ناحية. فكان أول من جلس منهم وحده أحدهم، جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر، وجاء الآخر، وجاء الآخر، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان، كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقاً، من حديث يحيى بن سعيد، عن عمرة، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث

سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

والناس يقولون: الجنسية علة الضم. والغرض أنه جعل كل أحد منهم يكتف ما هو فيه عن أصحابه، خوفاً منهم، ولا يدري أنهم مثله، حتى قال أحدهم: تعلمون - والله يا قوم - أنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم، إلا شيء فليظهر كل واحد منكم ما بأمره. فقال آخر: أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه، فعرفت أنه باطل، وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيء هو الله الذي خلق كل شيء: السموات والأرض وما بينهما. فقال الآخر: وأنا والله وقع لي كذلك. وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا يداً واحدة وإخوان صدق، فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم، فوشوا بأمرهم إلى ملكهم، فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه، فأجابوه بالحق، ودعوه إلى الله ﷻ، ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا وَلَنْ لِنُفِي التَّائِيدِ، أَي: لا يقع منا هذا أبداً؛ لأننا لم فعلنا ذلك لكان باطلاً؛ ولهذا قال عنهم: ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا أَي: باطلاً وكذباً وبهتاناً. ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا بَأْتُنَا عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أَي: هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً؟! ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اتَّخَذَ عَلَى اللَّهِ كُذْبًا﴾ يقولون: بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك، فيقال: إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله، أبى عليهم، وتهذهم وتوعدهم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم، وأجلهم لينظروا في أمرهم، لعلهم يرجعون دينهم الذي كانوا عليه. وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه، والفرار بدينهم من الفتنة. وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس، أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه، كما جاء في الحديث: «يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنماً يتبع بها شفع الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن» ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع.

فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم، واختار الله تعالى لهم ذلك، وأخبر عنهم بذلك في قوله: ﴿وَإِذْ أَقْرَبْتُنَّوْمَ وَمَا يَسْبُودُونَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أَي: وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضاً بأبدانكم ﴿قَالُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أَي: ييسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم ﴿وَيَهَيِّئْ لَكَ مِنْ أَمْرِكَ﴾ أَي: الذي أنتم فيه، ﴿مَرَجًا﴾ أَي: أمراً ترفقون به. فعند ذلك خرجوا هرباً إلى الكهف، فأروا إليه، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم، وتطلبهم الملك، فيقال: إنه لم يظفر بهم، وعنى الله عليه خبرهم، كما فعل بنبيه محمد ﷺ وصاحبه الصديق، حين لجأ إلى غار ثور، وجاء المشركون من قريش في الطلب، فلم يهتدوا إليه مع أنهم يعبرون عليه، وعندها قال النبي ﷺ حين رأى جزع الصديق في قوله: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا، فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»، وقد قال تعالى: ﴿إِلَّا نُنصِرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَالِثًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠] فقصه هذا الغار أشرف وأجل وأعظم من قصة أصحاب الكهف، وقد قيل: إن قومهم ظفروا بهم، وقفوا على باب الغار الذي دخلوه، فقالوا: ما كنا نريد منهم من العقوبة أكثر مما فعلوا بأنفسهم. فأمر الملك بدم بابيه عليهم ليهلكوا مكانهم، ففعل لهم ذلك. وفي هذا نظر، والله أعلم؛ فإن الله تعالى قد أخبر أن الشمس تدخل عليهم في الكهف بكرة وعشية، كما قال تعالى:

﴿وَرَى السَّمَاءَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَائِرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ اللَّيْلِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ مَكْرِهِ اللَّهُ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فِتْنًا لَمْ يَكُنْ لَكَ شِرْكًا﴾ (١٧).

هذا دليل على أن باب هذا الكهف من نحو الشمال؛ لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ذَاتَ اللَّيْلِ﴾ أَي: يتقلص الفيء يمتد، كما قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة: ﴿تَرَائِرُ﴾ أَي: تميل؛ وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ﴾ أَي: تدخل إلى غارهم من شمال بابيه، وهو من ناحية المشرق، فدل على صحة ما قلناه، وهذا بين لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة، وسير الشمس والقمر والكواكب، وبيانه: أنه لو كان باب الغار من ناحية المشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة لما دخله منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب، ولا تزاور الفيء يمتد ولا شمالاً، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع، بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب. فتعين ما ذكرناه والله الحمد.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ﴿تَقَرَّبُ مِنْهُمْ﴾: تركهم. وقد أخبر الله تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره، ولم يخبرنا بمكان هذا

وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا: ﴿تَأْتِمُرُوا بِحَدِّكُمْ يَوْمَكُمْ﴾ أي: فضتكم هذه. وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فنصدقوا منها وبقي منها، فلماذا قالوا: ﴿تَأْتِمُرُوا بِحَدِّكُمْ يَوْمَكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ أي: مدينتكم التي خرجتم منها والألف واللام للعهد. ﴿فَلْيَنْظُرِ إِنَّمَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ أي: أطيب طعاماً، كقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ لَعَمْرُؤُا﴾ [النور: ٢١] وقوله: ﴿وَاللَّهُ مِنْ تَرَكِّهِ﴾ [الاعلى: ١٤]، ومنه الزكاة التي تطيب المال وتطهره. وقيل: أكثر طعاماً، ومنه زكا الزرع إذا كثر، قال الشاعر:

فَبَائِلُنَا سَبْعٌ وَأَنْتُمْ ثَلَاثَةٌ وَلِلْسَبْعِ أَزْكَى مِنْ ثَلَاثٍ وَأَطْيَبُ
والصحيح الأول؛ لأن مقصودهم إنما هو الطيب الحلال، سواء كان قليلاً أو كثيراً. وقوله: ﴿وَلْيَنْظُرِ﴾ أي: في خروجه وذهابه، وشرائه وإيابه، يقولون: وَلْيَنْظُرِ كُلُّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ ﴿وَلَا يَسْؤَرَنَّ﴾ أي: يعلمن ﴿بِكُمْ أَحَدًا﴾ [١٨] إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ أي: إن علموا بمكانكم، ﴿يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُبْدِيكُمْ فِي يَدَيْهِمْ﴾ يعنون أصحاب دقيانوس، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها أو يموتوا، وإن وآتوهم على العود في الدين فلا فلاح لكم في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَكْبَا﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَفْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَمْلَأُوا أَنْتَ وَعَدَ اللَّهُ حَقُّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَبَّ فِيهَا إِذْ يَنْشَرُغُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَأَيْتُمْ أَفَلَمْ يَهْتَفِ قَالَ أَلَا لَيْتَ عَلَوْا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ [٢١].

يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَفْتَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: أطلعنا عليهم الناس ﴿لِيَمْلَأُوا أَنْتَ وَعَدَ اللَّهُ حَقُّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَبَّ فِيهَا﴾. ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث وفي أمر القيامة. وقال عكرمة: كان منهم طائفة قد قالوا: تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد. فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك. وذكروا أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة، في شراء شيء لهم ليأكلوه، تنكر وخرج يشمي في غير الجادة، حتى انتهى إلى المدينة، وذكروا أن اسمها دقوس، وهو يظن أنه قريب العهد بها، وكان الناس قد تبدلوا قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، وتغيرت البلاد ومن عليها، كما قال الشاعر:

أَمَا الدِّيَارُ فَلِإِنَّهَا كَدِيَارِهِمْ وَأَرَى رَجَالَ الْحَيِّ غَيْرَ رَجَالِهِ
فجعل لا يرى شيئاً من معالم البلد التي يعرفها، ولا يعرف أحداً من أهلها، لا خواصها ولا عوامها، فجعل يتحير في نفسه ويقول: لعل بي جنونا أو مساً، أو أنا حالم، ويقول: والله ما بي شيء من ذلك، وإن عهدي بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة. ثم قال: إن تعجيل الخروج من ههنا لأولى لي. ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام، فدفع إليه ما معه من النقعة، وسأله أن يبيعه بها طعاماً. فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضررها، فدفعها إلى جاره، وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون: لعل هذا قد وجد كنزاً. فسألوه عن أمره، ومن أين له هذه النقعة؟ لعله وجدها من كنز. ومن أنت؟ فجعل يقول: أنا من أهل هذه المدينة، وعهدي بها عشية أمس وفيها دقيانوس. ففسبوه إلى الجنون، فحملوه إلى ولي أمرهم، فسأله عن شأنه وعن أمره حتى أخبرهم بأمره، وهو متحير في حاله، وما هو فيه. فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف: مُتَوَلِّي البلد وأهلها، حتى انتهى بهم إلى الكهف، فقال: دعوني حتى أتقدمكم في الدخول لأعلم أصحابي، فيقال: إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه، وأخفى الله عليهم خبره، ويقال: بل دخلوا عليهم، ورأوهم وسلم عليهم الملك واعتنقهم، وكان مسلماً فيما قيل، واسمه تيدوسيس، ففرحوا به وآتسوه الكلام، ثم ودعوه وسلموا عليه، وعادوا إلى مضاجعهم، وتوفاهم الله، ﷻ، فآله أعلم.

قال قتادة: غزا ابن عباس مع حبيب بن مسلمة، فمروا بكهف في بلاد الروم، فرأوا فيه عظاماً، فقال قائل: هذه عظام أهل الكهف؟ فقال ابن عباس: لقد بليت عظامهم من أكثر من ثلاثمائة سنة. رواه ابن جرير. وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَفْتَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: كما أرفدناهم وأيقظناهم بهياتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿لِيَمْلَأُوا أَنْتَ وَعَدَ اللَّهُ حَقُّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَبَّ فِيهَا إِذْ يَنْشَرُغُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ﴾ أي: في أمر القيامة، فمن مثبت لها ومن منكر، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَأَيْتُمْ أَفَلَمْ يَهْتَفِ قَالَ أَلَا لَيْتَ عَلَوْا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾. حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين: أحدهما: أنهم المسلمون منهم. والثاني: أهل الشرك منهم، فآله أعلم. والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ. ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر، لأن النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم ومضاجهم مساجد» يحذر ما فعلوا. وقد روينا عن أمير المؤمنين

عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه لما وجد قبر دانيال في زمانه بالعراق، أمر أن يخفى عن الناس، وأن تدفن تلك الرقعة التي وجدوها عنده، فيها شيء من الملاحم وغيرها.

﴿سَيَقُولُونَ نَحْنُ الْمُهْتَدُونَ وَيَقُولُونَ كَذِبٌ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ بِآيَاتِ الْكِتَابِ وَهُمْ يُكْفَرُونَ سَبْعَةً وَثَلَاثِينَ نَفْسًا يُكْفَرُونَ بِهَا وَمَا يُدْرِي أُولَئِكَ قَوْلَهُمْ قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا يَكْفُرُونَ﴾

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف، فحكى ثلاثة أقوال، فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضعف القولين الأولين بقوله: ﴿رَبَّنَا بِالْقَلْبِ﴾ أي: قول بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصاب فبلا قصد، ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله: ﴿وَنَامُوا سَبْعِينَ نَفْسًا﴾ دل على صحته، وأنه هو الواقع في نفس الأمر. وقوله: ﴿قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا يَكْفُرُونَ﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا اطلعنا على أمر قلنا به، وإلا وقفنا حيث وقفنا. وقوله: ﴿مَا يَكْفُرُونَ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: من الناس. قال قتادة: قال ابن عباس: أنا من القليل الذي استثنى الله ﷺ، كانوا سبعة. وكذا روى ابن جريج، عن عطاء الخراساني عنه، أنه كان يقول: أنا ممن استثنى الله، ويقول: عدتهم سبعة. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا إسرائيل، عن سيمك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿مَا يَكْفُرُونَ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال: أنا من القليل، كانوا سبعة. فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس: أنهم كانوا سبعة، وهو موافق لما قدمناه. وقال محمد بن إسحاق بن يسار عن عبد الله بن أبي نجیح، عن مجاهد قال: لقد حدثت أنه كان على بعضهم من حدائة سنة وضع الورق. قال ابن عباس: فكانوا كذلك ليلهم ونهارهم في عبادة الله، ويكون ويستغيثون بالله، وكانوا ثمانية نفر: مكسلمينا، وكان أكبرهم وهو الذي كلم الملك عنهم، ومجسيميلينا وتمليخا، ومرطونس، وكشطونس، وبيرونس، وديموس، ويطونس قالوش. هكذا وقع في هذه الرواية، ويحتمل هذا من كلام ابن إسحاق، أو من بينه وبينه، فإن الصحيح عن ابن عباس أنهم كانوا سبعة، وهو ظاهر الآية. وقد تقدم عن شعيب الجبائي أن اسم كلهم حمران. وفي تسميتهم بهذه الأسماء واسم كلهم نظر في صحته، والله أعلم، فإن غالب ذلك متلقى من أهل الكتاب، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تُكْفِرُوا فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظَهَرَ﴾ أي: سهلاً هيناً؛ فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب، من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُشْفَىٰ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً ۚ إِنَّمَا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّيَ لِأَفْرَبَ مِنْ هَذَا رَحَدًا﴾.

هذا إرشاد من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل، أن يرد ذلك إلى مشيئة الله ﷻ، علام الغيوب، الذي يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة. وفي رواية تسعين امرأة. وفي رواية: مائة امرأة. تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله، فقبل له - وفي رواية: فقال له الملك - قل: إن شاء الله. فلم يقل، فطاف بهن فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان»، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو قال: «إن شاء الله» لم يحنث، وكان ذكراً لحاجته»، وفي رواية: «ولفأتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون». وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول النبي ﷺ، لما سئل عن قصة أصحاب الكهف: «غداً أجيبكم». فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً، وقد ذكرناه بطوله في أول السورة، فأغنى عن إعادته. وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قيل: معناه: وإذا نسيت الاستثناء، فاستثنى عند ذكرك له. قاله أبو العالية، والحسن البصري. وقال هشيم، عن الأعشى، عن مجاهد، عن ابن عباس في الرجل يحلف؟ قال: له أن يستثنى ولو إلى سنة، وكان يقول: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ في ذلك. قيل للأعشى: سمعته من مجاهد؟ قال: حدثني به ليث بن أبي سليم، يرى ذهب كسائي هذا. ورواه الطبراني من حديث أبي معاوية، عن الأعشى، به.

ومعنى قول ابن عباس: «أنه يستثنى ولو بعد سنة» أي: إذا نسي أن يقول في حلفه أو كلامه «إن شاء الله» وذكر ولو بعد سنة، فالسنة له أن يقول ذلك، ليكون آتياً بسنة الاستثناء، حتى لو كان بعد الحنث، قاله ابن جرير، رحمه الله، ونص على ذلك، لا أن يكون ذلك رافعاً لحنث اليمين ومسقطاً للكفارة. وهذا الذي قاله ابن جرير، رحمه الله، هو الصحيح، وهو الأقرب بحمل كلام ابن عباس، والله أعلم. وقال عكرمة: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي: إذا غضبت. وهذا تفسير باللازم. وقد قال الطبراني: حدثنا أحمد بن يحيى الخلواني، حدثنا سعيد بن سليمان، عن عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم،

عن جابر بن زيد، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايَءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَبْدًا ۖ﴾ (٢٥) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادَّكُرَ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ ۖ أَنْ تَقُولَ: إن شاء الله. وهذا تفسير باللازم. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن الحارث الجبيلي، حدثنا صفوان بن صالح، حدثنا الوليد بن مسلم، عن عبد العزيز بن حصين، عن ابن أبي نجيع، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايَءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَبْدًا ۖ﴾ (٢٥) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادَّكُرَ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ ۖ أَنْ تَقُولَ: إن شاء الله. وروى الطبراني، أيضاً، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَادَّكُرَ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ ۖ﴾ الاستثناء، فاستثنى إذا ذكرت. وقال: هي خاصة برسول الله ﷺ، وليس لأحد منا أن يستثنى إلا في صلة من يمينه. ثم قال: تُقَرَّدُ به الوليد، عن عبد العزيز بن الحصين. ويحتمل في الآية وجه آخر، وهو أن يكون الله، ﷻ، قد أرشد من نسي الشيء في كلامه إلى ذكر الله تعالى، لأن النسيان منشؤه من الشيطان، كما قال فتى موسى: ﴿وَمَا أَسْتَشِيرُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَ﴾ [الكهف: ٦٣]، وذكر الله تعالى يطرد الشيطان، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان، فذكر الله تعالى سبب للذكر، ولهذا قال: ﴿وَادَّكُرَ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ ۖ﴾. وقوله: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ أي: إذا سئلت عن شيء لا تعلمه، فاسأل الله فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك، وقيل غير ذلك في تفسيره، والله أعلم.

﴿وَلِيُثْبِتْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَارْدَاؤُا نِتْمًا ۖ﴾ (٢٦) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيَتُوَّا لَمْ غِيبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَاسْمِعَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ. مِنْ وَلِيِّ وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۖ﴾ (٢٧).

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم الله إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة وتسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة بالقمريّة إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال بعد الثلاثمائة: ﴿وَارْدَاؤُا نِتْمًا ۖ﴾. وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيَتُوَّا لَمْ غِيبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: إذا سئلت عن ليثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله، ﷻ، فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيَتُوَّا لَمْ غِيبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: لا يعلم ذلك إلا هو أو من أطلع الله عليه من خلقه، وهذا الذي قلناه، عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد، وغير واحد من السلف والخلف. وقال قتادة في قوله: ﴿وَلِيُثْبِتْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَارْدَاؤُا نِتْمًا ۖ﴾ (٢٦): هذا قول أهل الكتاب، وقد رده الله تعالى بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيَتُوَّا﴾ قال: وفي قراءة عبد الله: ﴿وقالوا: وليثوا﴾، يعني أنه قاله الناس. وهكذا قال - كما قال قتادة - مطرّف بن عبد الله. وفي هذا الذي زعمه قتادة نظر، فإن الذي بأيدي أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة من غير تسع، يعنون بالشمسية، ولو كان الله قد حكى قولهم لما قال: ﴿وَارْدَاؤُا نِتْمًا ۖ﴾ وظاهر الآية إنما هو من إخبار الله، لا حكاية عنهم. وهذا اختيار ابن جرير، رحمه الله. ورواية قتادة قراءة ابن مسعود منقطعة، ثم هي شاذة بالنسبة إلى قراءة الجمهور فلا يحتج بها، والله أعلم. وقوله: ﴿أَبْصَرَ بِهِ وَاسْمِعَ﴾ أي: إنه بصير بهم سميع لهم. قال ابن جرير: وذلك في معنى المبالغة في المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه، وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء. ثم روى عن قتادة في قوله: ﴿أَبْصَرَ بِهِ وَاسْمِعَ﴾ فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع. وقال ابن زيد: ﴿أَبْصَرَ بِهِ وَاسْمِعَ﴾: يرى أعمالهم، ويسمع ذلك منهم سمياً بصيراً. وقوله: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ. مِنْ وَلِيِّ وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أي: إنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر، الذي لا معقب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير، تعالى وتقدس.

﴿وَأَنْتَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ. وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۖ﴾ (٢٧) وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَالَّتِي يَرْيُدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زَيْتَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُلْعَبْ مِنْ أَغْلَاظِ قُلُوبِهِمْ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبِعْ هُودَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قَرِيبًا ۖ﴾ (٢٨).

يقول تعالى أمراً رسوله عليه الصلاة والسلام بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ أي: لا مغير لها ولا محرف ولا مؤول. وقوله: ﴿وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾: عن مجاهد: ﴿مُلْتَحَدًا﴾ قال: ملجأ. وعن قتادة: ولياً ولا مولى. قال ابن جرير: يقول: «إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحى إليك من كتب ربك، فإنه لا ملجأ لك من الله». كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَكَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنْ أَلْقَى قُرْصٌ فَهُوَ لِلَّهِ الْفَرَادِ كَرَأْدِكَ إِنَّكَ مَعَاذُ﴾ [القصص: ٨٥] أي: سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة. وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَالَّتِي يَرْيُدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه، ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه، ويسألونه بكرة وعشياً من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء. يقال: إنها نزلت في أشرف قريش، حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة. فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَالَّتِي يَرْيُدُونَ﴾ [الأنعام: ٢٥٢]، وأمره أن

يُصْبِرُ نَفْسَهُ فِي الْجُلُوسِ مَعَ هَؤُلَاءِ، فَقَالَ: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورَةِ وَالَّتِي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. قال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن عبد الله الأسدي، عن إسرائيل، عن المقدم بن شريح، عن أبيه، عن سعد - هو ابن أبي وقاص - قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا! قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان نسيت اسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَأُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورَةِ وَالَّتِي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي الثَّيَّاح قال: سمعت أبا الجعد يحدث عن أبي أمامة قال: خرج رسول الله ﷺ على قاص يقص، فأمسك، فقال رسول الله ﷺ: «قص، فلأن أقعد غدوة إلى أن تشرق الشمس، أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب». وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا هاشم، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن مَيْسَرَةَ قال: سمعت كُرْثُومَ بن قيس - وكان قاص العامة بالكوفة - يقول: أخبرني رجل من أصحاب بدر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لأن أقعد في مثل هذا المجلس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب». قال شعبة: فقلت: أي مجلس؟ قال: كان قابساً. وقال أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثنا محمد، حدثنا يزيد بن أبان، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أجالس قوماً يذكرون الله من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، ولأن أذكر الله من صلاة العصر إلى غروب الشمس أحب إلي من أن أعتق ثمانية من ولد إسماعيل دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفاً». فحسبنا دياتهم ونحن في مجلس أنس، فبلغت ستة وتسعين ألفاً، وههنا من يقول: «أربعة من ولد إسماعيل» والله ما قال إلا ثمانية، دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفاً.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا عمرو بن ثابت، عن علي بن الأقرم، عن الأغر أبي مسلم - وهو الكوفي - أن رسول الله ﷺ مر برجل يقرأ سورة الكهف، فلما رأى النبي ﷺ سكت، فقال رسول الله ﷺ: «هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم». هكذا رواه أبو أحمد، عن عمرو بن ثابت، عن علي بن الأقرم، عن الأغر مرسلاً. وحدثنا يحيى بن المولى، عن منصور، حدثنا محمد بن الصلت، حدثنا عمرو بن ثابت، عن علي بن الأقرم، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي هريرة وأبي سعيد قال: جاء رسول الله ﷺ، ورجل يقرأ سورة الحجر أو سورة الكهف، فسكت، فقال رسول الله ﷺ: «هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون المرثي، حدثنا ميمون بن سبياه، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم اجتمعوا يذكر الله، لا يريدون بذلك إلا وجهه، إلا ناداهم مناد من السماء: أن قوموا مغفوراً لكم، قد بُدِّلَتْ سيئاتكم حسنات». تفرد به أحمد، رحمه الله.

وقال الطبراني: حدثنا إسماعيل بن الحسن، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، عن أسامة بن زيد، عن أبي حازم، عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال: نزلت على رسول الله ﷺ، وهو في بعض أبياته: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورَةِ وَالَّتِي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، فخرج يلتمسهم، فوجد قوماً يذكر الله، منهم ثائر الرأس، وجافي الجدل، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمي من أمرني الله أن أصبر نفسي معهم». عبد الرحمن هذا، ذكره أبو بكر بن أبي داود في الصحابة. وأما أبوه فمن سادات الصحابة، رضي الله عنهم. وقوله: ﴿وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال ابن عباس: ولا تجاوزهم إلى غيرهم، يعني: تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة. ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ دِينِنَا﴾ أي: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ أي: أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياح، ولا تكن مطيعاً له ولا محباً لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعَتْ بِهِ آتُونَا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَبَاقٍ﴾ [طه: ١٣١].

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَهَنَ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشَوِي الْوُجُوهَ يَتَسَحَّرُونَ الشَّرَابَ وَسَاءَتْ مُرْتَقَقًا﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: «وقل يا محمد للناس: هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أي: أرصدنا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي: سورها. قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «للسرادق النار أربعة جُدر، كثافة كل جدار مثل مسافة أربعين سنة». وأخرجه الترمذي في «صفة النار» وابن جرير في تفسيره، من حديث دراج أبي السَّمَح به. وقال

ابن جريج: قال ابن عباس: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ شُرَادُفُهُمْ﴾، قال: حائط من نار. قال ابن جرير: حدثني الحسين بن نصر والعباس بن محمد قالوا: حدثنا أبو عاصم، عن عبد الله بن أمية، حدثني محمد بن حبي بن يعلى، عن صفوان بن يعلى، عن يعلى بن أمية قال: قال رسول الله ﷺ: «البحر هو جهنم» قال: فقيل له: كيف ذلك؟ فثلا هذه الآية - أو: قرأ هذه الآية -: ﴿ثَارَ أَحَاطَ بِهِمْ شُرَادُفُهُمْ﴾، ثم قال: «والله لا أدخلها أبداً - أو: ما دمت حياً - ولا تصيبني منها قطرة».

وقوله: ﴿وَلَنْ يَسْتَغِيثُوا يَغَاثُوا يَمَاوُ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ يَنْسُ الْثَرَابُ وَيَسَّاتُ مَرْتَفَقًا﴾ قال ابن عباس: «المهل»: ماء غليظ مثل دردي الزيت. وقال مجاهد: هو كالدم والقيح. وقال عكرمة: هو الشيء الذي انتهى حره. وقال آخرون: هو كل شيء أذيب. وقال قتادة: أذاب ابن مسعود شيئاً من الذهب في أخدود، فلما انما وأزبد قال: هذا أشبه شيء بالمهل. وقال الضحاك: ماء جهنم أسود، وهي سوداء وأهلها سود. وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود منتن غليظ حار، ولهذا قال: ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ أي: من حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه، شواه حتى يسقط جلد وجهه فيه، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد بإسناده المتقدم في شُرَادِقِ النار عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ماء كالمهل». قال: «عكس الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه»، وهكذا رواه الترمذي في «صفة النار» من جامعه، من حديث رشدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن دراج، به. ثم قال: لا نعرفه إلا من حديث «رشدين»، وقد تكلم فيه من قبل حفظه، هكذا قال، وقد رواه الإمام أحمد كما تقدم عن حسن الأشيب، عن ابن لهيعة، عن دراج، والله أعلم. وقال عبد الله بن المبارك، وبقية بن الوليد، عن صفوان بن عمرو، عن عبد الله بن بسر، عن أبي أمامة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَيُسْوِي مَنَاوُ صَدِيدٍ﴾ [١١] ﴿يَنْجَرَعُهُ﴾ [١٢] [إبراهيم: ١٦، ١٧] قال: «يقرب إليه فينكره»، فإذا قرب منه شوي وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه، يقول الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَسْتَغِيثُوا يَغَاثُوا يَمَاوُ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ يَنْسُ الْثَرَابُ﴾. وقال سعيد بن جبیر: إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم، فلو أن ما زأ من بهم يعرفهم، لعرف جلود وجوههم فيها. ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون. فيغاثون بماء كالمهل، وهو الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود. ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة: ﴿يَنْسُ الْثَرَابُ﴾ أي: ينس هذا الشراب، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَسَقُوا مَاءً جَمِماً فَفَقَّعَ أَفْئَادَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿تَشَقَّى مِنْ عَيْنٍ وَابِئَةٍ﴾ [الغاشية: ٥] أي: حارة، كما قال: ﴿وَبَيْنَ جَمِيمٍ مَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]. ﴿وَسَّاتُ مَرْتَفَقًا﴾ أي: وسأت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نَنْصِفُ أَمْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [١٣] ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَنَّتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يَمْشُونَ فِيهَا مِنْ دُونِ الْحُلِيِّمِ﴾ [١٤] ﴿وَلَا يَلْبَسُونَ فِيهَا كِبَارًا وَلَا يَلْبَسُونَ فِيهَا حُرِيرًا﴾ [١٥] ﴿وَلَا يَلْبَسُونَ فِيهَا ثِيَابًا خُفْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ فَالْسُّنْدُسُ وَالْإِسْتَبْرَقُ الْقَمِيصَانِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا، وَأَمَّا الْإِسْتَبْرَقُ فغليظ الديباج وفيه بريق. وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾: الالتكاء قيل: الاضطجاع. وقيل: التربع في الجلوس. وهو أشبه بالمراد ها هنا ومنه الحديث في الصحيح: «أما أنا فلا أكل متكئاً» فيه القولان. والأرائك: جمع أريكة، وهي السرير تحت الحجلة، والحجلة كما يعرفه الناس في زماننا هذا بالباشخاناه، والله أعلم. قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ قال: هي الحجال. قال معمر، وقال غيره: السرر في الحجال. وقوله: ﴿يَنْسُ الْثَرَابُ وَيَسَّاتُ مَرْتَفَقًا﴾ أي: نعمت الجنة ثواباً على أعمالهم ﴿وَحَسَنَتْ مَرْتَفَقًا﴾ أي: حسنت منزلاً ومقيلاً ومقاماً، كما قال في النار: ﴿يَنْسُ الْثَرَابُ وَيَسَّاتُ مَرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]. وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [١٦] [الفرقان: ٦٦]، ثم ذكر صفات المؤمنين فقال: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرَّةَ بِمَا كَسَبُوا وَلِلَّهِ فِيهَا حَبَّةٌ وَسَلَكًا﴾ [١٧] ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [١٨] [الفرقان: ٧٥، ٧٦].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ مِثْلُ خَلْقٍ مِمَّنْ سَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي صُغُرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَبُرُوا فِي الْعِزَّةِ وَمُنُوا بِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا آلَهُمُ الْبَشَرِ خُلَافًا وَكَفَرُوا بِهِمْ ثُمَّ أُولَئِكَ يُسَمَّى الْإِنْسَانُ الْأَكْفَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي كَفَرَ بِهِمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ الْعَظِيمُونَ﴾ [١٩] ﴿وَلَا يَلْبَسُونَ فِيهَا ثِيَابًا خُفْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ فَالْسُّنْدُسُ وَالْإِسْتَبْرَقُ الْقَمِيصَانِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا، وَأَمَّا الْإِسْتَبْرَقُ فغليظ الديباج وفيه بريق. وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾: الالتكاء قيل: الاضطجاع. وقيل: التربع في الجلوس. وهو أشبه بالمراد ها هنا ومنه الحديث في الصحيح: «أما أنا فلا أكل متكئاً» فيه القولان. والأرائك: جمع أريكة، وهي السرير تحت الحجلة، والحجلة كما يعرفه الناس في زماننا هذا بالباشخاناه، والله أعلم. قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ قال: هي الحجال. قال معمر، وقال غيره: السرر في الحجال. وقوله: ﴿يَنْسُ الْثَرَابُ وَيَسَّاتُ مَرْتَفَقًا﴾ أي: نعمت الجنة ثواباً على أعمالهم ﴿وَحَسَنَتْ مَرْتَفَقًا﴾ أي: حسنت منزلاً ومقيلاً ومقاماً، كما قال في النار: ﴿يَنْسُ الْثَرَابُ وَيَسَّاتُ مَرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]. وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [١٦] [الفرقان: ٦٦]، ثم ذكر صفات المؤمنين فقال: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرَّةَ بِمَا كَسَبُوا وَلِلَّهِ فِيهَا حَبَّةٌ وَسَلَكًا﴾ [١٧] ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [١٨] [الفرقان: ٧٥، ٧٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا بكر بن عيسى، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بلج، عن عمرو بن ميمون قال: قال أبو هريرة: قال لي نبي الله ﷺ: «يا أبا هريرة، أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش^{٤٩}». قال: قلت: نعم، فذاك أبي وأمي. قال: «أن تقول

لا قوة إلا بالله». قال أبو بلج: وأحسب أنه قال: «فإن الله يقول: أسلم عبدي واستسلم». قال: فقلت لعمرؤ - قال أبو بلج: قال عمرو: قلت لأبي هريرة: لا حول ولا قوة إلا بالله؟ فقال: لا، إنها في سورة الكهف: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾. وقوله: ﴿فَقَسَىٰ رَبِّ أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿وَرُبِّيَلْ عَلَيْهَا﴾ أي: على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبعد ولا تفنى ﴿حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، ومالك عن الزهري: أي عذاباً من السماء. والظاهر أنه مطر عظيم مزعج، يقطع زرعها وأشجارها؛ ولهذا قال: ﴿فَنُصِصَ صَوْبَهَا لَمَّا هَزَلَّتْ﴾ أي: بلقاً تراباً أملاًس، لا يثبت فيه قدم. وقال ابن عباس: كالجزر الذي لا ينبت شيئاً. وقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ أي: غائراً في الأرض، وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ (٢٠) [الملك: ٣٠] أي: جارٍ وسائح. وقال ههنا: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ (١١) والغور: مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه، كما قال الشاعر:

تَظَلَّ جِيَادُهُ نَزْحاً عَلَيْهِ تَقَلَّدَهُ أَعْنُهَا صُفُوفاً
بمعنى: ناحت عليه.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا بَنِيَّ لَن أَشْرَكَ بِرَبِّ أَحَدًا﴾ (١٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَصْذُوقُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِيراً (١٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ (١٤).

يقول تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾: بأمواله، أو بشماره على القول الآخر. والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر، مما خوفه به المؤمن من إرسال الحسبان على جنته، التي اغتر بها وألتهته عن الله، ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ قال قتادة: يصفق كفيه متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها ﴿وَيَقُولُ يَا بَنِيَّ لَن أَشْرَكَ بِرَبِّ أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ﴾ أي: عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم واستعز ﴿يَصْذُوقُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِيراً هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾: اختلف القراء ههنا، فمنهم من يقف على قوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنْصِيراً هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك الموطن الذي حل به عذاب الله، فلا منقذ منه، ويبتدىء بقوله ﴿الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾، ومنهم من يقف على ﴿وَمَا كَانَ مُنْصِيراً﴾ ويبتدىء بقوله: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾. ثم اختلفوا في قراءة ﴿الْوَلَايَةُ﴾ فمنهم من فتح الواو، فيكون المعنى: هنالك الموالاة لله، أي: هنالك كل أحد من مؤمن أو كافر، يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَسَكَرْنَا بِمَا كُنَّا يَوْمَ مَشْرِكِينَ﴾ (٨٤) [غافر: ٨٤]، وكقوله إخباراً عن فرعون: ﴿حَتَّىٰ إِذَا دُرِّكُوا الْغَرَقُوا قَالَ آَمَسْتُ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَسْتُ يَوْمَ إِنشِرَافِ وَنَا مِنَ الْمُشْلِينَ﴾ (٩٠) [النمل: ٩٠] وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) [يونس: ٩٠، ٩١]. ومنهم من كسر الواو من ﴿الْوَلَايَةُ﴾ أي: هنالك الحكم لله الحق. ثم منهم من رفع ﴿وَالْحَقِّ﴾ على أنه نعت للولاية، كقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَوْمِزُ الْحَقِّ لِلزَّهْنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ (٦٦) [الفرقان: ٦٦]. ومنهم من خفض القاف، على أنه نعت لله ﷻ كقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحُسُوبِ﴾ (١٧) [الأنعام: ١٧]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي: جزاء ﴿وَحَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: الأعمال التي تكون لله، ﷻ ثوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة، كلها خير.

﴿وَأَضْرِبْ لَهم مَثَلًا لِّلْحَيٰوةِ الدُّنْيَا كَمَآ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَطَ بِهِ نَبَاتٌ اَلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَيۡبَمَآ نُدَّوۡهُ الرِّیۡحُ وَكَانَ اَللّٰهُ عَلَىٰ كُلِّ شَیۡءٍ مُّقۡدِرًا﴾ (١٥) اَلْمَالُ وَاَلنَّسۡوُۡةُ رِیۡةُ اَلْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَاَلْبَقِیَّةُ الصَّٰلِحٰتِ خَیۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَیۡرٌ اَمَلًا﴾ (١٦).

يقول تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهم مَثَلًا لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها ﴿كَمَآ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَطَ بِهِ نَبَاتٌ اَلْأَرْضِ﴾ أي: ما فيها من الحب، فشب وحسن، وعلاه الزهر والنور والنضرة ثم بعد هذا كله ﴿فَأَصْبَحَ هَيۡبَمَآ﴾ يابساً ﴿نُدَّوۡهُ الرِّیۡحُ﴾ أي: تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال ﴿وَكَانَ اَللّٰهُ عَلَىٰ كُلِّ شَیۡءٍ مُّقۡدِرًا﴾ أي: هو قادر على هذه الحال، وهذه الحال، وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَآ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَطَ بِهِ نَبَاتٌ اَلْأَرْضِ يَمَا يَأْكُلُ النَّاسُ وَاَلْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ اَلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ الآية [يونس: ٢٤]، وقال في سورة الزمر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اَللّٰهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُمۡ رِیۡطٌ مِّنۡهُ فَاخۡرَجَ بِهِ رِیۡثًا كَثِیۡفًا وَرَبُّهُمۡ يَعۡلَمُ خُسْرَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرًا لِّذِیۡقِیۡنَ اَلْأَوَّلِیِّیۡنَ﴾ (٢١) [الزمر: ٢١]. وقال في سورة الحديد: ﴿اعۡلَمُوا أَنَّمَا اَلْحَيٰوةُ الدُّنْيَا لَٰغِبٌ وَهُوَ ذِیۡقِیۡنَ وَتَقَارَّرُ بَیۡنَکُمۡ وَتَکَاۡفُرٌ فِیۡ اَلْأُمۡوَالِ وَاَلْأَنۡفُسِ کَثِیۡلٌ مِّمَّا عِبۡتَ اَلْكَفَّارُ بِآَنَہُ ثُمَّ یُجِیۡعُ مَرۡتَبُهُۥ مَصۡفَرًا ثُمَّ یَكُونُ حُطۡلًا وَفِیۡ الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِیۡدٌ وَمَغۡفِرَةٌ مِّنَ اَللّٰهِ وَرِضۡوَنٌ وَمَا لِّلْحَيٰوةِ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعٌ قَلِیۡلٌ﴾ (٢٦) [الحديد: ٢٠]. وفي الحديث الصحيح: «الدنيا حلوة خضرة».

وقوله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، كقولہ: ﴿رَبِّنَا لِلْأَشْيَاءِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ الدِّينِ وَالْعُزَّةِ وَالْمُتَعَلِّقَاتِ مِنَ الدُّهْبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَبْلِ الْمُسَوَّمِ وَالْأَنْفَرِ وَالْعَرَبِ ذَلِكَ مَنَعَهُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَأَوَلَدْتُكُمْ فِتْنَةً وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٥] أي: الإقبال عليه والتفرغ لعبادته، خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا فَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [التغابن: ١٥]، وقال عطاء بن أبي رباح، وسعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا فَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، عن: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا فَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ما هي؟ فقال: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. رواه الإمام أحمد.

حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا حيوة، أنبأنا أبو عقيل، أنه سمع الحارث مولى عثمان، رضي الله عنه، يقول: جلس عثمان يوماً وجلسنا معه، فجاءه المؤذن، فدعا بقاءه في إناء، أظنه أنه سيكون فيه مد، فتوضأ ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا، ثم قال: «من توضأ وضوئي هذا، ثم قام فصلّى صلاة الظهر، غُفر له ما كان بينها وبين الصبح، ثم صلى العصر غفر له ما بينها وبين الظهر، ثم صلى المغرب غُفر له ما بينها وبين العصر، ثم صلى العشاء غُفر له ما بينها وبين المغرب، ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته، ثم إن قام فتوضأ وصلى صلاة الصبح، غُفر له ما بينها وبين صلاة العشاء وهي الحسنات يذهبن السيئات» قالوا: هذه الحسنات فما الباقيات الصالحات يا عثمان؟ قال: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. تفرد به. وروى مالك، عن عمارة بن عبد الله بن صياد، عن سعيد بن المسيب قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا فَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وقال محمد بن عجلان، عن عمارة قال: سألتني سعيد بن المسيب عن ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا فَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فقلت: الصلاة والصيام. قال: لم تصب. فقلت: الزكاة والحج. فقال: لم تصب، ولكنهن الكلمات الخمس: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال ابن جريج: أخبرني عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن نافع بن سرجس، أنه أخبره أنه سأل ابن عمر عن: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا فَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. قال ابن جريج: وقال عطاء بن أبي رباح مثل ذلك. وقال مجاهد: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا فَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مغم، عن الحسن وقتادة في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا فَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، هُنَّ الباقيات الصالحات. قال ابن جرير: وجدت في كتابي عن الحسن بن الصباح البزار، عن أبي نصر التمار، عن عبد العزيز بن مسلم، عن محمد بن عجلان، عن سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، من الباقيات الصالحات». قال: وحدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو بن الحارث أن دراجاً أبا السمح حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات». قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الملة». قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «التكبير، والتهليل، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله». وهكذا رواه أحمد، من حديث دراج، به.

وبه قال ابن وهب: أخبرني أبو صخر أن عبد الله بن عبد الرحمن، مولى سالم بن عبد الله حدثه قال: أرسلني سالم إلى محمد بن كعب القرظي، فقال: قل له: القني عند زاوية القبر، فإن لي إليك حاجة. قال: فالتقيا، فسلم أحدهما على الآخر، ثم قال سالم: ما تعد الباقيات الصالحات؟ فقال: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. فقال له سالم: متى جعلت فيها «لا حول ولا قوة إلا بالله»؟ فقال: ما زلت أجعلها. قال: فراجع مرتين أو ثلاثاً، فلم ينزع، قال: فأثبت. قال سالم: أجل فأثبت، فإن أبا أيوب الأنصاري حدثني أنه سمع رسول الله ﷺ وهو يقول: «عرج بي إلى السماء فأريت إبراهيم عليه السلام، فقال: يا جبريل، من هذا معك؟ فقال: محمد. فرحب بي وسهّل، ثم قال: مرأيتك فلتكثر من غراس الجنة، فإن تربتها طيبة وأرضها واسعة. فقلت: وما غراس الجنة؟ قال: لا حول ولا قوة إلا بالله. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن يزيد، عن العوام، حدثني رجل من الأنصار، من آل النعمان بن بشير، عن النعمان بن بشير، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن في المسجد بعد صلاة العشاء، فرفع بصره إلى السماء ثم خفض، حتى ظننا أنه قد حدث في السماء شيء، ثم قال: «أما إنه سيكون بعدي أمراء، يكذبون ويظلمون، فمن صدقهم بكذبهم ومالهم على ظلمهم، فليس مني ولا أنا

وقال الإمام أحمد: حدثنا زَوْج، حدثنا الأوزاعي، عن حسان بن عطية قال: كان شداد بن أوس، رضي الله عنه، في سفر فنزل منزلاً، فقال لغلامه: «اتنبا بالشُّرفة نعبث بها». فأنكرت عليه، فقال: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطئها وأزعمها غير كلمتي هذه. فلا تحفظوها علي، واحفظوا ما أقول لكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، وأسألك لساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفر لك ما تعلم، إنك أنت علام الغيوب». ثم رواه أيضاً والنسائي، من وجه آخر عن شداد، بنحوه. وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا محمد بن سعد العوفي، حدثني أبي، حدثنا عمر بن الحسين، عن يونس بن نفع الجدي، عن سعد بن جناد، رضي الله عنه، قال: كنت في أول من أتى النبي ﷺ من أهل الطائف، فخرجت من أهلي من السراة غدوة، فأتيت منى عند العصر، فتصاعدت في الجبل ثم هبطت، فأتيت النبي ﷺ فأسلمت، وعلمني: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ﴿وَإِذَا زُلْزِلَتْ﴾، وعلمني هؤلاء الكلمات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وقال: «هن الباقيات الصالحات». وبهذا الإسناد: «من قام من الليل فتوضأ ومضمض فاه، ثم قال: سبحان الله مائة مرة، والحمد لله مائة مرة، والله أكبر مائة مرة، ولا إله إلا الله مائة مرة، غفرت ذنوبه إلا الدماء فإنها لا تبطل». وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال: هي ذكر الله، قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام، والصلاة، والحج، والصدقة، والعق، والجهاد، والصلة، وجميع أعمال الحسنات. وهن الباقيات الصالحات، التي تبقى لأهلها في الجنة، ما دامت السموات والأرض. وقال العوفي، عن ابن عباس: هُنَّ الكلام الطيب. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي الأعمال الصالحة كلها. واختاره ابن جرير، رحمه الله.

يُخِيرُ تَعَالَى عَنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الْعَظَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَمُوتُ أُنثَىٰ مَوْتًا﴾ (١) وَتَبِيرُ الْجِبَالِ سِيرًا﴾ (٢) [الطور: ٩، ١٠] أَيْ: تَذْهَبُ مِنْ أَمَاكِنِهَا وَتَزُولُ، كَمَا قَالَ: ﴿وَرَى الْجِبَالِ تَحْسَبًا جَايِدَةً وَهِيَ تَمُوتُ مَرَّةً ثَانِيَةً﴾ (النمل: ٨٨)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَكُونُ الْأَجْسَالُ كُلُّهَا لَآلِهَةٍ أَمْنُوشٍ﴾ (٣) [القارعة: ٥٠]، وَقَالَ: ﴿وَتَكُونُكَ عَنِ الْجِبَالِ قَتْلٌ يَلِيْمُهُا رَقِي سَمًا﴾ (٤) ﴿فَيَكْرِهَهَا قَاغًا صَفْصَفًا﴾ (٥) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ (٦) [طه: ١٠٥-١٠٧]. يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّهُ تَذْهَبُ الْجِبَالُ، وَتَتَسَاوَى الْمَهَادُ، وَتَبْقَى الْأَرْضُ ﴿قَاغًا صَفْصَفًا﴾ أَيْ: بَادِيَةً ظَاهِرَةً، لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ وَلَا مَكَانٌ يُوَارِي أَحَدًا، بَلِ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ ضَاكُونَ قَالِ تَعَالَى: ﴿وَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أَيْ: بَادِيَةً ظَاهِرَةً، قَالِ مَجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ: ﴿وَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ لَا خَمَرٌ فِيهَا وَلَا غَيْبَةٌ. قَالِ قَتَادَةُ: لَا بِنَاءَ وَلَا لَرِبَهُمْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ. قَالِ مَجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ: ﴿وَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ لَا خَمَرٌ فِيهَا وَلَا غَيْبَةٌ. قَالِ قَتَادَةُ: لَا بِنَاءَ وَلَا شَجَرٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَسَرَّنَتْهُمْ فَلَمْ يَتَذَكَّرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أَيْ: وَجَمَعْنَاهُمْ، الْأَوَّلِينَ مِنْهُمْ وَالْآخِرِينَ، فَلَمْ تَنْتَرِكْ مِنْهُمْ أَحَدًا، لَا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا، كَمَا قَالَ: ﴿فَلَيْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ (٧) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٨) [الزمر: ٤٩، ٥٠]، وَقَالَ: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمَعُ كُلُّ الْأَنْفُسِ لِيَوْمٍ مَّشْهُودٍ﴾ (٩) [معد: ١٠٣].

وقوله: ﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾: يحتمل أن يكون المراد: أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفاً واحداً، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَاللَّيْكُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨]، يحتمل أنهم يقومون صفوفاً صفوفاً، كما قال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]. وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمُو أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: هذا تقرير للمنكرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد؛ ولهذا قال مخاطباً لهم: ﴿بَلْ رَعَيْتُمُ أَنَّ تَجْعَلَ لِكُلِّ تَوْبَةٍ أُي: ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أن هذا كائن. وقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي: كتاب الأعمال، الذي فيه الجليل والحقير، والفتيل والقطمير،

والصغير والكبير ﴿فَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي: من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة، ﴿وَيَقُولُونَ يَوَلِّتُنَا﴾ أي: يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا ﴿مَا لَ هَذَا الصَّكْتِ لَا يُقَادِرُ صَمِيرَةً وَلَا كِبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي: لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً وإن صغر ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي: ضبطها، وحفظها.

وروى الطبراني، بإسناده المتقدم في الآية قبلها، إلى سعد بن جنادة قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حُتَيْنَ، نزلنا قفراً من الأرض، ليس فيه شيء، فقال النبي ﷺ: «اجمعوا» من وجد غوداً فليأت به، ومن وجد حطباً أو شيئاً فليأت به. قال: فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركاماً، فقال النبي ﷺ: «أترون هذا؟ فكَذَلِكَ تُجْمَعُ الذُّنُوبُ عَلَى الرَّجُلِ مِنْكُمْ كَمَا جُمِعْتُمْ هَذَا. فليقتل الله رجلاً ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة، فإنها مُحْصَاةٌ عَلَيْهِ». وقوله: ﴿وَجَعَدُوا مَا عَمِلُوا حَاشِرًا﴾ أي: من خير أو شر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْصَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ شَرٍّ قَوَّةٌ لَوْ أَنَّ يَبْهَتُهُ وَيَبْهَتُهُ أَمدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يَبْهَتُونَ أَتَقَبَلُونَ بِمَا قَدَّمُوا وَآخَرُ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْلُ التَّارِكِينَ﴾ [الطارق: ٩] أي: تظهر المحببات والضماير.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، عن ثابت، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به». أخرجاه في الصحيحين، وفي لفظ: «يُرْفَعُ لكل غادر لواء يوم القيامة عند أسفه بقدر غدرته، يقال: هذه غَدْرَةُ فلان بن فلان».

وقوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي: فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً، ولا يظلم أحداً من خلقه، بل يغفر ويصفح ويرحم ويعذب من يشاء، بقدرته وحكمته وعدله، ويملا النار من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرون، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا وَلَئِنْ تَكُنْ حَسَنَةً يَصْنَعُهَا وَيُوْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَئِنْ كُنْتَ تَرَى أَنَّ نَفْسًا يَهْدَى وَكَفَى بِهَا حَسِيبًا﴾ [الأنبياء: ٤٧] والآيات في هذا كثيرة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا همام بن يحيى، عن القاسم بن عبد الواحد المكي، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ، فاشترت بغيراً ثم شددت عليه رجلي، فسرت عليه شهراً، حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبد الله بن أنيس فقلت للباب: قل له: جابر على الباب. فقال: ابن عبد الله؟ فقلت: نعم. فخرج يداً توبه، فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعته فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله، ﷻ، الناس يوم القيامة - أو قال: العباد - غُرَّةً غُرَّةً لَا يَهْمَا؟ قلت: وما بهما؟ قال: «ليس معهم شيء». ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد، كما يسمعه من قُرب. أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار، وله عند أحد من أهل الجنة حق، حتى أقصه منه حتى اللطمة. قال: قلنا: كيف، وإنما نأتي الله، ﷻ، غُرَّةً غُرَّةً لَا يَهْمَا؟ قال: «بالحسنات والسيئات». وعن شعبة، عن العوام بن مَرَّاح، عن أبي عثمان، عن عثمان بن عفان، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الجماء لتقتص من القرآن يوم القيامة». رواه عبد الله بن الإمام أحمد وله شواهد من وجوه آخر، قد ذكرناها عند قوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وعند قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَمْرٌ أَتَيْنَاكُمْ مَا فرطنا في الكُتُبِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ رَبَّكُمْ لَخَبِيرٌ﴾ [الأنعام: ٣٨].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ يَسْئَلُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾.

يقول تعالى منبهاً بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومقرعاً لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه، الذي أنشأه وابتداه، وبالطاف رزقه غذاءه، ثم بعد هذا كله وإلى إبليس وعادى الله، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ لجميع الملائكة، كما تقدم تقريره في أول سورة «البقرة». ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أي: سجود تشريف وتكريم وتعظيم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَنْشُورٍ﴾ [٧٨] ﴿إِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩]. وقوله: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي: خانه أصله، فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَارجٍ مِنْ نارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وَصَفَ لَكُمْ». فعند الحاجة نضج كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه كان قد توسم بأفعال الملائكة وتشبه بهم، وتعبد وتنسك، فلهذا دخل في خطابهم، وعصى بالمخالفة. وبه تعالى ههنا

على أنه ﴿مِنَ الْجِنَّ﴾ أي: إنه خُلِقَ من نار، كما قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢، وص: ١٧]. قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم، عليه السلام، أصل البشر. رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه. وقال الضحاك، عن ابن عباس: كان إبليس من حي من أحياء الملائكة، يقال لهم: الجن، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة - قال: وكان اسمه الحارث، وكان خازناً من خزان الجنة، وُخِّلَت الملائكة من نور غير هذا الحي - قال: وخلق الجن الذين ذُكروا في القرآن من مارج من نار. وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهب. وقال الضحاك أيضاً، عن ابن عباس: كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة، وكان خازناً على الجنان، وكان له سلطان السماء الدنيا ولسطان الأرض، وكان مما سولت له نفسه، من قضاء الله أنه رأى أن له بذلك شرفاً على أهل السماء، فوقع من ذلك في قلبه كبر لا يعلمه إلا الله. فاستخرج الله ذلك الكبر منه حين أمره بالسجود لآدم فاستكبر، وكان من الكافرين. قال ابن عباس: وقوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنَّ﴾ أي: من خزان الجنان، كما يقال للرجل: مكبي، ومدني، وبصري، وكوفي. وقال ابن جريج، عن ابن عباس، نحو ذلك.

وقال سعيد بن جبّير، عن ابن عباس قال: هو من خزان الجنة، وكان يدبر أمر السماء الدنيا، رواه ابن جرير من حديث الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد، به. وقال سعيد بن المسيب: كان رئيس ملائكة سماء الدنيا. وقال ابن إسحاق، عن خلّاد بن عطاء، عن طاوس، عن ابن عباس قال: كان إبليس - قبل أن يركب المعصية - من الملائكة، اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض. وكان من أشد الملائكة اجتهداً وأكثرهم علماً. فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حي يسمون جناً. وقال ابن جُرّيج، عن صالح مولى التّوأمة وشريك بن أبي نَير، أحدهما أو كلاهما عن ابن عباس قال: إن من الملائكة قبيلة من الجنّ، وكان إبليس منها، وكان يسوس ما بين السماء والأرض. فعصى، فسخط الله عليه، فمسخه شيطاناً رجيماً - لعنه الله - ممسوخاً؛ قال: وإذا كانت خطيئة الرجل في كبر فلا تزجّه، وإذا كانت في معصية فارجه. وعن سعيد بن جبّير أنه قال: كان من الجنّانين، الذين يعملون في الجنة.

وقد رُوي في هذه آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها. ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بأيدينا، وفي القرآن عُنِيَتْ عن كل ما عدها من الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقين الذين يَتَفَوَّن عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة العلماء، والسادة الأتقياء والأبرار النجباء، من الجهابذة النقاد، والحفاظ الجياد، الذين دونوا الحديث وحرروه، وبيّنوا صحيحه من حسنه، من ضعيفه، من منكره وموضوعه، ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانة للجناب النبوي والمقام المحمدي، خاتم الرسل، وسيد البشر عليه أفضل التحيات والصلوات والتسليمات، أن ينسب إليه كذب، أو يحدث عنه بما ليس منه، فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فَعَلَ.

وقوله: ﴿فَفَقَّ عَنِ أَتَرٍ رَبِّهِ﴾ أي: فخرج عن طاعة الله؛ فإن الفسق هو الخروج، يقال: فسقت الرُّطبة: إذا خرجت من أكمامها، وفسقت الفأرة من جحرها: إذا خرجت منه للعيث والفساد. ثم قال تعالى مفرعاً وموبخاً لمن اتبعه وأطاعه: ﴿أَنذَرْتُهُمْ وَذُرِّثَتْهُ أَوْلِيَاكَ مِنْ دُونِ﴾ أي: بدلاً عني؛ ولهذا قال: ﴿يَقْسُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾. وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهلها ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء في سورة يس: ﴿وَأَنذَرْنَا أَوَّلَ مَا أَنَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَتَيًّا مَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿٥٦﴾ وَإِنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَلَمْتُمْ تَتَكَلَّمُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ [يس: ٥٩ - ٦٧].

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿

يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبدي أمثالكم، لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خلقي للسماوات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها، ومدبرها ومقدرها وحدي، ليس معي في ذلك شريك ولا وزير، ولا مشير ولا نظير، كما قال: ﴿قُلْ أَدْعُوَ إِلَيْكَ رَبِّعْمَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّ فِيهِمَا مِنْ شَيْءٍ وَإِن لَّمْ يَكُنْ مَعَهُ مِنْ عِلْمٍ شَيْءٌ﴾ (٢٧) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أُوْذِيَ لَهُ ﴿٢٨﴾ الآية (سبا: ٢٧، ٢٨)؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتُمْ مَتَّحِدِينَ الصَّالِحِينَ عِندَهُ﴾ قال مالك: أعواناً.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٦﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِقُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يُخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريراً لهم وتوبيخاً: ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي: في دار الدنيا، ادعوه اليوم، ينقذونكم مما أنتم فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمُنَا حَافِئِينَ ۚ وَرَأَىٰ مَلَكُومُ شُفَعَاءَهُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۖ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤]. وقوله: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ كما قال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَئْتِدُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [القصص: ٦٤]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَّاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٩٥﴾﴾ وإذا خسر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴿٩٦﴾﴾ [الحق: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿وَالْتَحَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا يَسْتَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مریم: ٨١، ٨٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ قال ابن عباس، وقناة، وغير واحد: مهلكاً. وقال قتادة: ذكر لنا أن عمر البكالي حدث عن عبد الله بن عمرو قال: هو واد عميق، فُرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة. وقال قتادة: ﴿مَوْبِقًا﴾: وادياً في جهنم. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سنان القزاز، حدثنا عبد الصمد، حدثنا يزيد بن درهم سمعت أنس بن مالك يقول في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ قال: واد في جهنم، من قبح ودم. وقال الحسن البصري: ﴿مَوْبِقًا﴾: عداوة. والظاهر من السياق ههنا: أنه المهلك، ويجوز أن يكون وادياً في جهنم أو غيره، إلا أن الله تعالى أخبر أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين، ولا وصول إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهو عظيم وأمر كبير. وأما إن جعل الضمير في قوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عائداً إلى المؤمنين والكافرين، كما قال عبد الله بن عمرو: إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به، فهو كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الروم: ١٤]، وقال: ﴿يَوْمَ يُصَدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْهَا الْفُجُورَ ﴿٩٦﴾﴾ [يس: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِجَاءً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَحْبُونَ ﴿٩٨﴾ فَكُنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَيْبٍ لِّغَيْبِكُمْ ﴿٩٩﴾ فَتَالِكَ تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَشْلَفَتْ وَرَدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس: ٢٨-٣٠].

وقوله: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِقُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٦﴾﴾ أي: إنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فإذا رأى المجرمون النار، تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها، ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه، عذاب ناجز. ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي: ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ولا بد لهم منها. قال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن ذراج عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الكافر يرى جهنم، فيظن أنها مواقعه من مسيرة أربعين سنة». وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا ذراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ينصب للكافر مقدار خمسين ألف سنة، كما لم يعمل في الدنيا، وإن الكافر ليرى جهنم، ويظن أنها مواقعه من مسيرة أربعين سنة».

﴿وَلَقَدْ مَرْفَقًا فِي هَذَا الْقَرْعَانِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٧﴾﴾.

يقول تعالى: ولقد بينا للناس في هذا القرآن، ووضحنا لهم الأمور، وفصلناها، كيلا يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى. ومع هذا البيان وهذا الفرقان، الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني علي بن الحسين، أن حسين بن علي أخبره، أن علي بن أبي طالب أخبره، أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة، فقال: «ألا تصليان؟» فقلت: يا رسول الله، إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا. فانصرف حين قلت ذلك، ولم يرجع إلي شيئاً، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾. أخرجه في الصحيحين.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَهُمْ يُسْتَفْهِمُونَ رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ فُبُلًّا ﴿٥٨﴾ وَمَا تَرِيدُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيَجْعَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ يُدْعِمُوا بِهِ لِقَاءَ وَأُتُوا هَزْأًا ﴿٥٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديثه، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والآثار والدلالات الواضحات، وأنه ما منهم من أتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً، كما قال أولئك لنبيهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وآخرون قالوا: ﴿أَنفِثْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، وقالت قريش: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِّنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنْفِثْنَا بِعَذَابِ الْبَرِّ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وَقَالُوا يَأْتِيهَا الْبَرْقُ نَزْلًا عَلَيْهِ أَلَّا تُرَى إِلَهُكَ لَمَجْنُونًا ﴿٦١﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٧﴾ [الحجر: ٦، ٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك. ثم قال: ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْآلَافِ﴾ من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ فُبُلًّا﴾ أي: يروونه عياناً مواجهة ومقابلة، ثم قال: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الرِّسَالِ إِلَّا بُشْرًا وَمُنْذِرًا وَيَحْدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِثُوا بِهِ الْقَوْلَ وَيَتَّخِذُوا عَآلِيَّيْنِ وَمَا أُنذِرُوا هُمُومًا﴾ [٦٢] أي: قبل العذاب مبشرين من صدقهم وآمن بهم، ومنذرين من كذبهم وخالفهم. ثم أخبر عن الكفار بأنهم يجادلون بالباطل ﴿يُدْحِثُوا بِهِ﴾ أي: ليضعفوا به ﴿لَقَوْلِ﴾ الذي جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم. ﴿وَيَتَّخِذُوا عَآلِيَّيْنِ وَمَا أُنذِرُوا هُمُومًا﴾ أي: اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿هُمُومًا﴾ أي: سخروا منهم في ذلك، وهو أشد التكذيب.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [٦٣] وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجِلَ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ. وَمَوْلَا ﴿٦٤﴾ وَتِلْكَ الْأَفْرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٦٥﴾.

يقول تعالى: وأي عباد الله أظلم ممن ذكر بآيات الله فأعرض عنها، أي: تناساها وأعرض عنها، ولم يصنع لها، ولا ألقى إليها بالاً، ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدُهُ﴾ أي: من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قلوب هؤلاء ﴿أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية وغشاوة، ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لتلا يفهموا هذا القرآن والبيان، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صمم معنوي عن الرشاد، ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾. وقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أي: ربك - يا محمد - غفور ذو رحمة واسعة، ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجِلَ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾، كما قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكْنَا عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَاتِكُمْ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِّنَّاسٍ عَلَى ظُهُورِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]. والآيات في هذا كثيرة. ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر، وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشاد، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد، وتضع كل ذات حمل حملها؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ. وَمَوْلَا﴾ أي: ليس لهم عنه محيد ولا محيص ولا معدل. وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَفْرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي: الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ أي: جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معلوم معين، لا يزيد ولا ينقص، أي: وكذلك أنتم أيها المشركون، احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتم أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي ونذر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْلِهِ لَا أَتَّبِعُكَ حَتَّىٰ أَتَّبِعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [٦٦] فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا بَيَّسَا حُورَهُمَا فَأَنخَضُوا سَيْلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتْلِهِ إِينَا عَدَاؤُنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٨﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَّيْتُنَا إِلَى الصَّخَرَةِ فَإِنِّي تَبَيَّثُ الْخَوَاتِ وَمَا أُنشِئُهَا إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَ وَأَنخَضُوا سَيْلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٩﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٧٠﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَالِيَنَّهُ رَحْمَةً مِّنْ عَيْنِنَا وَعِلْمَةً مِّنْ لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٧١﴾.

سبب قول موسى عليه السلام لفته - وهو: يُوشع بن نون - هذا الكلام: أنه ذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين، عنده من العلم ما لم يحيط به موسى، فأحب الذهاب إليه، وقال لفته ذلك: ﴿لَا أَتَّبِعُكَ حَتَّىٰ أَتَّبِعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي لا أزال سائراً حتى أبلغ هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين، قال الفرزدق:

فَمَا بَرَّخُوا حَتَّىٰ تَهَادَثَ نَسَاؤُهُمْ بِبَطْحَاءِ ذِي قَارِ عِيَابِ اللَّطَائِمِ
قال قتادة وغير واحد: وهما بحر فارس مما يلي المشرق، وبحر الروم مما يلي المغرب. وقال محمد بن كعب القرظي: مجمع البحرين عند طنجة، يعني في أقصى بلاد المغرب، فالله أعلم. وقوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أي: ولو أني أسير حقباً من الزمان. قال ابن جرير، رحمه الله: ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحُقْبُ في لغة قيس: سنة. ثم قدرى عن عبد الله بن عمرو أنه قال: الحُقْبُ ثمانون سنة. وقال مجاهد: سبعون خريفاً. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله:

﴿أَوْ امْكُتْ حُتًيًا﴾ قال: دهرأ. وقال قتادة، وابن زيد، مثل ذلك. وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَبَيًّْا حُوتَهُمَا﴾، وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه، وقيل له: متى فقدت الحوت فهو ثمة. فسارا حتى بلغا مجمع البحرين، وهناك عين يقال لها: «عين الحياة»، فناما هنالك، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء، فاضطرب، وكان في مكنل مع يوشع عليه السلام، وطُفِر من المكنل إلى البحر، فاستيقظ يوشع، عليه السلام، وسقط الحوت في البحر وجعل يسير فيه، والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده، ولهذا قال: ﴿وَأَتَّخَذَ سَيِّلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي: مثل السرب في الأرض. قال ابن جريج: قال ابن عباس: صار أثره كأنه حجر. وقال العوفي، عن ابن عباس: جعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة. وقال محمد- هو بن إسحاق- عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ حين ذكر حديث ذلك: «ما انجاب ماء منذ كان الناس غيره، ثبت مكان الحوت الذي فيه، فانجاب كالكوّة حتى رجع إليه موسى فرأى مسلكه»، فقال: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبُغُ﴾. وقال قتادة: سرب من البر، حتى أفضى إلى البحر، ثم سلك فيه فجعل لا يسلك فيه طريقاً إلا جعل ماء جامداً. وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أي: المكان الذي نسيا الحوت فيه، ونُسب النسيان إليهما وإن كان يوشع هو الذي نسيه، كقوله تعالى: ﴿يَمْحُجُّ بَيْنَهُمَا الْأَلُوفُ وَالْمَرِيَّاتُ﴾ (الرحمن: ٢٧)، وإنما يخرج من المالح في أحد القولين. فلما ذهب عن المكان الذي نسيه فيه مرحلة ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِقَتْنَهُ إِنَّا غَدَاةً نَأْتِيهِمْ لَنَذِبَنَآ مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ أي: الذي جاوزا فيه المكان ﴿نَصَبًا﴾ يعني: تعباً. ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتِينَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَبِئْتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ قال قتادة: وقرأ ابن مسعود: «وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان، ولهذا قال: ﴿وَأَتَّخَذَ سَيِّلَهُ﴾ أي: طريقه ﴿فِي الْبَحْرِ عَجَبًا قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبُغُ﴾ أي: هذا الذي نطلب ﴿فَارْتَدَّا﴾ أي: رجعا ﴿عَلَى آثَارِهِمَا﴾ أي: طريقهما ﴿فَمَضَا﴾ أي: يقصان أثر مشيها، ويقفوان أثرهما.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتِيَهُ رَحْمَةً مِنْ عِزْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (١٥) وهذا هو الخضر، عليه السلام، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ. بذلك قال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، أخبرني سعيد بن جبيرة قال: قلت لابن عباس: إن نوحاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل. قال ابن عباس: كذب عذو الله، حدثنا أبي بن كعب، رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فُسِّل: أي الناس أعلم؟ قال: أنا فعتب الله عليه إذ لم يَزِدْ العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. فقال موسى: يا رب، وكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً، تجعله بمكنل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم. فأخذ حوتاً، فجعله بمكنل، ثم انطلق وانطلق معه بفناه يوشع بن نون عليهما السلام، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكنل، فخرج منه، فسقط في البحر واتخذ سبيله في البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق. فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا ببقية يومهما وليلتها، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفته: ﴿إِنَّا غَدَاةً نَأْتِيهِمْ لَنَذِبَنَآ مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوزا المكان الذي أمره الله به. قال له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتِينَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَبِئْتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَأَتَّخَذَ سَيِّلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قال: «فكان للحوت سرباً ولموسى وفناه عجباً، فقال: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبُغُ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾. قال: «فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مُسَجًى بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأتى بأرضك السلام! قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علّمت رشداً. ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْلُطَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (١٧)، يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه، لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه. فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قال له الخضر: ﴿فَإِنِ ابْتِغَيْتَ فَلَ تَسْتَلِمْ عَنْ شَيْءٍ حَتَّى تُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلهم أن يحملوه، فعرفوا الخضر، فحملوه بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يبق إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قد حملونا بغير نول فعمدت إلى سفيتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئاً إمرأ. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْلُطَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (١٧) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَبِئْتُ وَلَا تَرْهَقْنِي مِنْ أَمْرِ عَصْرًا (١٨) قال: وقال رسول الله ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسياناً». قال: وجاء عصفور فنزل على حرف السفينة ففقر البحر نقرة، أو نقرتين، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: ﴿أَفَلَيْتَ نَقَسًا رَكِيئَةً يَغْيِرُ نَفْسِي لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (١٩) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْلُطَ مَعِيَ صَبْرًا (٢٠) ؟! قال: «وهذه أشد من الأولى»، ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتَهُ عَنْ شَيْءٍ بَدَّهَا فَلَا تَصْبِرْهُ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ (٢١) فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قريّة اسْتَظَمُوا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ

يَنْفَضُّ قَالَ: مائل. فقال الخضر بيده: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا دِينَ أَبِي بَكْرٍ﴾ فقال موسى: قوم أتيناكم فلم يطعمونا ولم يضيفونا، ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَلَخَّدْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا إِذَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَائِمُكَ﴾ يَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾. فقال رسول الله ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما».

قال سعيد بن جبیر: كان ابن عباس يقرأ: ﴿وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا﴾، وكان يقرأ: ﴿وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين﴾. ثم رواه البخاري عن قتبية، عن سفيان بن عيينة... فذكر نحوه، وفيه: «فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون، ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة، فنزلا عندها - قال: فوضع موسى رأسه فنام - قال سفيان: وفي حديث غير عمرو قال: وفي أصل الصخرة عين يقال لها: الحياة، لا يصيب من مائها شيء إلا حيي، فأصاب الحوت من ماء تلك العين، قال: فتحرك وانسل من المكث، فدخل البحر، فلما استيقظ قال موسى لفتاه: ﴿إِنِّي آتِيَا غَدَاةً نَا﴾. كذا قال، وساق الحديث. ووقع عصفور على حرف السفينة، فغمس منقاره في البحر، فقال الخضر لموسى: ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره وذكر تمامه بنحوه.

وقال البخاري أيضاً: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف، أن ابن جُرَيْج أخبرهم قال: أخبرني يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار، عن سعيد بن جبیر - يزيد أحدهما على صاحبه - وغيرهما قد سمعته يحدث عن سعيد بن جبیر قال: إنا لعند ابن عباس في بيته، إذ قال: سلوني. فقلت: أي أبا عباس، جعلني الله فداك، بالكوفة رجل قاص، يقال له: «نوف» يزعم أنه ليس بموسى بنى إسرائيل - أما عمرو فقال لي: قال: كذب عدو الله! وأما يعلى فقال لي: قال ابن عباس: حدثني أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «موسى رسول الله، ذكر الناس يوماً، حتى إذا فاضت العيون، وركت القلوب، ولّى، فأدركه رجل فقال: أي رسول الله، هل في الأرض أحد أعلم منك؟ قال: لا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله، قيل: بلى. قال: أي رب، وأين؟ قال: بمجمع البحرين. قال: أي رب، اجعل لي علماً أعلم ذلك به». قال لي عمرو: قال: حيث يفارقك الحوت، وقال لي يعلى: خذ حوتاً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح. فأخذ حوتاً فجعله في مكث، فقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرني حيث يفارقك الحوت، قال: ما كلفت كبيراً. فذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ يوشع بن نون، ليست عند سعيد بن جبیر، قال: «فبينما هو في ظل صخرة في مكان ثريان، إذ تَضَرَّبَ الحوت وموسى نائم، فقال فتاه: لا أوقظه، حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره، وتَضَرَّبَ الحوت حتى دخل البحر، فأمسك الله عنه جزية الماء حتى كان أثره في حجر». قال: فقال لي عمرو: هكذا كان أثره في حجر، وحلق بين إبهاميه والتي تليهما: ﴿لَقَدْ لَبِثْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ قال: «وقد قطع الله عنك النصب» ليست هذه عن سعيد - أخبره، فرجعا فوجدا خضراً. قال: قال عثمان بن أبي سليمان: على طَنْفَسَةِ خضراء على كبد البحر. قال سعيد بن جبیر: مُسَجَى بثوب، قد جعل طرفه تحت رجليه، وطرفه تحت رأسه، فسلم عليه موسى، فكشف عن وجهه، وقال: هل بأرض من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم. قال: فما شأنك؟ قال: جئتكم لتعلمني مما علمت رشداً. قال: يكفيك التوراة بيدك، وأن الوحي يأتيك! يا موسى، إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه. فأخذ طائر بمنقاره من البحر فقال: والله ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر، حتى إذا ركبا في السفينة وجدا معابر صفاراً تحمل أهل هذا الساحل إلى هذا الساحل الآخر عرفوه، فقالوا: عبيد الله الصالح؟ قال: فقلنا لسعيد: خضر؟ قال: نعم. لا نحمله بأجر. فخرقها، ورتدَّ فيها وتدا. قال موسى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الْغُرَىٰ أَخَلَّهَا لِقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾. قال مجاهد: منكر. قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ كانت الأولى نسياناً، والوسطى شرطاً، والثالثة عمداً ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذُنِي بِمَا نَجِيتُ وَلَا تُرَفِّقْ بَيْنَ أَتْرَافِي﴾ ﴿٧٩﴾ فَأَنْطَلَقَا حتى لقيا غلاماً فقتله. قال يعلى: قال سعيد، وجد غلاماً يلعبون، فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه، ثم ذبحه بالسكين، فقال: ﴿أَنْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ لم تعمل بالحنث. وابن عباس قرأها ﴿زَكِيَّةً﴾ ﴿زَاكِئَةً﴾: مسلمة، كقولك: غلاماً زكياً. فانطلقا، فوجدا جداراً يريد أن ينقض فأقامه، قال سعيد بيده هكذا، ورفع يده فاستقام - قال يعلى: حسبك أن سعيداً قال: فمسحه بيده فاستقام - قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَلَخَّدْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ قال سعيد: أجراً نأكله ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ وكان أمامهم، قرأها ابن عباس: ﴿أمامهم ملك﴾ يزعمون عن غير سعيد أنه هُذُؤٌ بن بُذْدَ، والغلام المقتول اسمه - يزعمون - جيسور ﴿مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ فأردت إذا هي مرت به أن يدعها بعبيها، فإذا جاوزها أصلحوها فانتفعوا بها. ومنهم من يقول: سدوها بقارورة. ومنهم من يقول: بالقار. ﴿فَكَانَ أَبُوهُمَا مُؤْمِنِينَ﴾ وكان كافراً، ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾. أن يحملهما حُبّه على أن يتابعاه على دينه ﴿فَأَرَادَا أَنْ يَبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْ ذَٰلِكَ﴾ كقوله: ﴿أَنْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾، ﴿وَأَقْرَبَ رَحْمًا﴾. هما به أرحم منهما بالأول الذي قتل خضر. وزعم غير سعيد بن جبیر أنهما أبدا

جارية . وأما داود بن أبي عاصم فقال عن غير واحد : إنها جارية .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَرٌ ، عن أبي إسحاق ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : خطب موسى ، عليه السلام ، بني إسرائيل فقال : ما أحد أعلم بالله وبأمره مني . فأمر أن يلقى هذا الرجل . فذكر نحو ما تقدم بزيادة ونقصان ، والله أعلم .

وقال محمد بن إسحاق ، عن الحسن بن عمار ، عن الحكم بن عتيبة ، عن سعيد بن جبير قال : جلست عند ابن عباس وعنده نفر من أهل الكتاب فقال بعضهم : يا أبا العباس ، إن نوحاً بن امرأة كعب ، يزعم عن كعب أن موسى النبي الذي طلب العالم إنما هو موسى بن ميثا؟ قال سعيد : فقال ابن عباس : أنوف يقول هذا؟ قال سعيد : فقلت له : نعم ، أنا سمعت نوحاً يقول ذلك . قال : أنت سمعته يا سعيد؟ قال : قلت : نعم . قال : كذب نوح . ثم قال ابن عباس : حدثني أبي بن كعب ، عن رسول الله ﷺ : إن موسى بن إسرائيل سأل ربه فقال : أي رب ، إن كان في عبادك أحد هو أعلم مني ، فدلني عليه . فقال له : نعم ، في عبادي من هو أعلم منك . ثم نعت له مكانه وأذن له في لقيه . فخرج موسى ومعه فتاه ، ومعه حوت مليح ، قد قيل له : إذا حيي هذا الحوت في مكان ، فصاحبك هنالك ، وقد أدركت حاجتك . فخرج موسى ومعه فتاه ، ومعه ذلك الحوت يحملانه ، فسار حتى جهده السير ، وانتهى إلى الصخرة وإلى ذلك الماء ، وذلك الماء ماء الحياة ، من شرب منه خلد ، ولا يقاربه شيء ميت إلا حيي . فلما نزلا ومس الحوت الماء حيي ﴿ فَأَخَذَ سَيْلَهُ فِي الْيَمِّ سَرًّا ﴾ فانطلقا فلما جاوز مُثْقَلِيهِ قال موسى لفتاه : ﴿ إِنَّا عَدَوْنَا لِقَدِّ لَيْسَانَ مِن سَعِينَا هَذَا صَبَا ﴾ ، قال الفتى - وذكر - : ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الصَّخَرَةِ فَإِنِّي كُنَّا فِي الْكُفِّ وَآخِذِينَ سَيْلَهُ فِي الْيَمِّ مَجْجًا ﴾ . قال ابن عباس : فظهر موسى على الصخرة حتى إذا انتهيا إليها ، فإذا رجل متلفف في كساء له ، فسلم موسى ، فردَّ عليه العالم ثم قال له : ما جاء بك إن كان لك في قومك لشغل؟ . قال له موسى : جئتكم لتعلمني مما علمت رشداً ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْمَعُ مِنِّي صَبْرًا ﴾ ٥٧ - وكان رجلاً يعلم علم الغيب قد عُلِّمَ ذلك - فقال موسى : بلى . قال : ﴿ وَكَيْفَ صَبْرٌ عَلَى مَا لَمْ يُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ ٥٨ ؟ أي : إنما تعرف ظاهر ما ترى من العدل ، ولم تحط من علم الغيب بما أعلم . ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ ٥٩ . وإن رأيت ما يخالفني ، قال : ﴿ فَإِن تَتَّبِعَنِي فَلَا تَتَّبِعَنِي عَنْ شَيْءٍ ﴾ وإن أنكرته ﴿ حَتَّى أَتُخْبِرَكَ بِمَا مَنَعَهُ ﴾ ٦٠ : فانطلقا يمشيان على ساحل البحر يتعرَّضان الناس ، يتلمسان من يحملهما ، فحملوهما ، فلما اطمانا فيها ولججت بهما مع أهلها ، أخرج متقاراً له ومطرقة ، ثم عمد إلى ناحية منها فضرب فيها بالمنقار حتى خرقتها . ثم أخذ لوحاً فطبقه عليها ، ثم جلس عليها يرقعها ، فقال له موسى - ورأى أمراً أفضح به - : ﴿ أَهْرَقْتَ لِلْغُرُقِ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْمَعُ مِنِّي صَبْرًا ﴾ ٦١ قَالَ لَا تُؤْخِذْنِي بِمَا نَبِئْتُ ﴿ أَي : بما تركت من عهدك ، ﴿ وَلَا تَوَهِّتْ مِن أَمْرِي عَسْرًا ﴾ . ثم خرجا من السفينة فانطلقا ، حتى أتيا أهل قرية ، فإذا غلمان يلعبون خلفها ، فيهم غلام ليس في الغلمان غلام أَظْرَفُ منه ولا أَثَرِي ولا أَوْضَا منه ، فأخذه بيده ، وأخذ حجراً فضرب به رأسه حتى دمغه فقتله ، قال : فرأى موسى أمراً فظيماً لا صبر عليه ، صبي صغير قتله لا ذنب له قال : ﴿ أَفَلَيْتَ نَفْسًا رَّكِبَةً ﴾ أي : صغيرة ﴿ بِمِثْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا ثَكُورًا ﴾ ٦٢ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْمَعُ مِنِّي صَبْرًا ﴾ ٦٣ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصْبِحْنِي فَدَبَلْتُ مِن لَدُنِّي عَذْرًا ﴾ ٦٤ أي : قد أعذرت في شأني . ﴿ فَأَنطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَا أُمَّةً قَرْيَةً اسْتَظَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ ﴾ ، فهدهم ثم قعد بينه ، فضجر موسى مما يراه يصنع من التكليف ، وما ليس عليه صبر ، قال : ﴿ لَوْ شِئْتُ لَنَقَذْتُ عَلَيْهِ آجْرًا ﴾ أي : قد استطعمناهم فلم يطعمونا ، وضفناهم فلم يضيّفونا ، ثم قعدت تعمل من غير صنعة ، ولو شئت لأعطيت عليه أجراً في عمله؟ قال : ﴿ هَذَا رَأَى بَنِي وَبَنَاتِكَ سَائِلَتُكَ بِأَوَّلِ مَا لَمْ تَسْمَعْ عَلَيْهِ صَبْرًا أَمَا السَّيِّئَةُ فَكَأَنَّهُ لَمُسْكِينٌ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلَكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ ٦٥ - وفي قراءة أبي بن كعب : ﴿ كل سفينة صالحة - وإنما عبتا لأرده عنها ، فسلمت حين رأى العيب الذي صنعت بها . ﴿ وَأَمَّا الْفُلُّ فَكَانَ آيَةً لِّمُؤْمِنِينَ فَخَبَّرْنَاهُ أَنَّ رِبْقَهُمَا طُفِينَا وَكُنَّا كُنَّا قَارِدَيْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ دَكُّوهُ وَأَقْرَبَ مِنْهُمَا ﴾ ٦٦ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا قُلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ﴾ أي : ما فعلته عن نفسي ، ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْمَعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ ٦٧ وكان ابن عباس يقول : ما كان الكثر إلا علماً .

وقال العوفي ، عن ابن عباس قال : لما ظهر موسى وقومه على مصر ، أنزل قومه ، فلما استقرت بهم الدار ، أنزل الله : أن ذكّرهم بأيام الله . فخطب قومه ، فذكر ما آتاهم الله من الخير والنعمة ، وذكّرهم إذ نجاهم الله من آل فرعون ، وذكّرهم هلاك عدوهم ، وما استخلفهم الله في الأرض ، وقال : كلم الله نبيكم تكليماً ، واصطفاني لنفسه ، وأنزل عليّ محبة منه ، وآتاكم الله من كل ما سألتموه ؛ فنيبكم أفضل أهل الأرض ، وأنتم تقرؤون التوراة ، فلم يترك نعمة أنعمها عليهم إلا وعرفهم إياها . فقال له

رجل من بني إسرائيل: هم كذلك يا نبي الله، قد عرفنا الذي تقول، فهل على الأرض أحد أعلم منك يا نبي الله؟ قال: لا. فبعث الله جبرائيل إلى موسى، عليهما السلام، فقال: إن الله ﷻ يقول: وما يدريك أين أضع علمي؟ بلى، إن على شط البحر رجلاً هو أعلم منك - قال ابن عباس: هو الخضر - فسأل موسى ربه أن يريه إياه، فأوحى إليه: أن اتب البحر، فإنك تجد على شط البحر حوتاً، فخذ فادفعه إلى فتاك، ثم الزم شط البحر، فإذا نسيت الحوت وهلك منك، فثم تجد العبد الصالح الذي تطلب. فلما طال سفر موسى نبي الله ونصب فيه، سأل فتاه عن الحوت، فقال له فتاه وهو غلامه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَبَّيْتُ الْحَوْتَ وَمَا أُنْسِينَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ لك، قال الفتى: لقد رأيت الحوت حين اتخذ سبيله في البحر سرباً فأعجب ذلك موسى، فرجع حتى أتى الصخرة، فوجد الحوت، فجعل الحوت يضرب في البحر ويتبعه موسى، وجعل موسى يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء يتبع الحوت، وجعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يمس، حتى يكون صخرة، فجعل نبي الله يعجب من ذلك، حتى انتهى به الحوت إلى جزيرة من جزائر البحر، فلقي الخضر بها فسلم عليه، فقال الخضر: وعليك السلام، وأناى يكون السلام بهذه الأرض؟ ومن أنت؟ قال: أنا موسى. فقال الخضر: أصحاب بني إسرائيل؟ قال: نعم. فرحب به وقال: ما جاء بك؟ قال: جئتكم ﴿عَلَّ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ يقول: لا تطيق ذلك. قال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قال: فانطلق به، وقال له: لا تسألني عن شيء أصنعته حتى أبين لك شأنه، فذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ أَحَدِثَ لَكَ مِنهُ ذِكْرًا﴾.

وقال الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس: أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى، فقال ابن عباس: هو خضر. فمر بهما أبي بن كعب، فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبى هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقائه، فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بيننا موسى في ملا من بني إسرائيل، إذ جاءه رجل فقال: تعلم مكان رجل أعلم منك؟ قال: لا، فأوحى الله إلى موسى: بلى، عبدنا خضر. فسأل موسى السبيل إلى لقائه، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فهو ثمة فارجع، فإنك ستلقاه. فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر. فقال فتى موسى لموسى: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَبَّيْتُ الْحَوْتَ﴾. قال موسى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبُغِ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ أَعْقَابِهِمَا خُضْرًا﴾ فوجدا عبدنا خضراً، فكان من شأنهما ما قص الله في كتابه.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِط بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْخِفْ عَنِّي وَحَتَّىٰ أَحَدِثَ لَكَ مِنهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾.

يخبر تعالى عن قبل موسى، عليه السلام، لذلك الرجل العالم، وهو الخضر، الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر، ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْتَكَ﴾ سؤال بتلطف، لا على وجه الإلزام والإجبار. وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم. وقوله: ﴿أَتَيْتَكَ﴾ أي: أصحبك وأرافقك، ﴿عَلَّ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ أي: مما علمك الله شيئاً، أسترشد به في أمري، من علم نافع وعمل صالح. فعندما ﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي: أنت لا تقدر أن تصاحبني، لما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك، لأنني على علم من علم الله، ما علمك الله، وأنت على علم من علم الله، ما علمنيه الله، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحتبي. ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِط بِهِ خُبْرًا﴾ ﴿٦٨﴾، فانا أعرف أنك ستترك علي ما أنت معذور فيه، ولكن ما اطلعت على حكمته ومصلحته الباطنة التي اطلعت أنا عليها دونك ﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ أي: على ما أرى من أمورك، ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ أي: ولا أخالفك في شيء. فعند ذلك شارطه الخضر ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْخِفْ عَنِّي﴾ أي: ابتداء ﴿حَتَّىٰ أَحَدِثَ لَكَ مِنهُ ذِكْرًا﴾ أي: حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني.

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب، عن هارون بن عنترة، عن أبيه، عن ابن عباس قال: سأل موسى ربه، ﷻ، فقال: رب، أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني. قال: فأني عبادك أقضى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى. قال: أي رب، أي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه، عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى، أو ترده عن ردى. قال: أي رب، فهل في أرضك أحد أعلم مني؟ قال: نعم. قال: فمن هو؟ قال: الخضر. قال: فأين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة، التي ينفلت عندها الحوت. قال: فخرج موسى يطلبه، حتى كان ما ذكر الله، وانتهى موسى إليه عند الصخرة، فسلم كل واحد منهما على صاحبه. فقال له موسى: إني أريد أن تصحبني. قال: إنك لن تطيق صحتبي. قال: بلى.

قال: فإن صحبتني ﴿فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُخْبِرَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ قال: فسار به في البحر حتى انتهى إلى مجمع البحور، وليس في الأرض مكان أكثر ماء منه. قال: وبعث الله الخفاف، فجعل يستقي منه بمنقاره، فقال لموسى: كم ترى هذا الخفاف رزاً من هذا الماء؟ قال: ما أقل ما رزاً! قال: يا موسى، فإن علمي وعلمك في علم الله كقذُر ما استقى هذا الخفاف من هذا الماء. وكان موسى قد حدث نفسه أن ليس أحد أعلم منه، أو تكلم به، فمن ثم أمر أن يأتي الخضر. وذكر تمام الحديث في خرق السفينة، وقتل الغلام، وإصلاح الجدار، وتفسيره له ذلك.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِ عُسْرٍ ﴿٧٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه، وهو الخضر، أنهما انطلقا لما توافقا واصطجبا، واشترط عليه ألا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه، فركبا في السفينة. وقد تقدم في الحديث كيف ركبا في السفينة، وأنهم عرفوا الخضر، فحملوهما بغير نول - يعني بغير أجرة - تكرامة للخضر. فلما استقلت بهم السفينة في البحر، ولججت، أي: دخلت اللجة، قام الخضر فخرقها، واستخرج لوحاً من ألواحها، ثم رقعها. فلم يملك موسى، عليه السلام، نفسه أن قال منكراً عليه: ﴿أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾. وهذه اللام العاقبة لا لام التعليل، كما قال الشاعر:

لَدُوا لِلْمَوْتِ وَإِنُّوَا لِلْخَرَابِ

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾: قال مجاهد: منكراً. وقال قتادة: عجباً. فعندها قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يعني: وهذا الصنيع فعلته قصداً، وهو من الأمور التي اشترطت معك ألا تنكر علي فيها، لأنك لم تحط بها خبراً، ولها داخل هو مصلحة، ولم تعلمه أنت. ﴿قَالَ﴾ أي موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِ عُسْرٍ﴾ أي: لا تضيق علي وتشد علي؛ ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كانت الأولى من موسى نسياناً».

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَبَيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا رَكِبْتُمْ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصبحني قد بلغت من لدني عذراً ﴿٧٥﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا﴾ أي: بعد ذلك، ﴿حَتَّى إِذَا لَبَيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾. وقد تقدم أنه كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرى، وأنه عمد إليه من بينهم، وكان أحسنهم وأجملهم وأوضاهم، فقتله، فروي أنه احتز رأسه، وقيل: رضخه بحجر. وفي رواية: اقتطفه بيده. والله أعلم. فلما شاهد موسى، عليه السلام، هذا أنكره أشد من الأول، ويادر فقال: ﴿أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا رَكِبْتُمْ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَمْ تَعْمَلِ الْحَنْثَ، وَلَا حَمَلْتَ إِثْمًا بَعْدَ، فقتلته؟!﴾ أي: بغير مستند لقتله ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ أي: ظاهر النكارة. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٤﴾﴾ فأكد أيضاً في التذكار بالشرط الأول، فلهاذا قال له موسى: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي: إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصِحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ أي: قد أعذرت إلي مرة بعد مرة. قال ابن جرير: حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا حجاج بن محمد، عن حمزة الزيات، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: كان النبي ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له، بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: «رحمة الله علينا وعلى موسى، لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب ولكنه قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً» مثقلة.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَلْعَمَ أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَمَدَدْت عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٦﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَبَيْحًا بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عنهما: إنهما انطلقا بعد المرتين الأوليين ﴿حَتَّى إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾، روى ابن جرير، عن ابن سيرين أنها الأيلة، وفي الحديث: «حتى إذا أتى أهل قرية لثاماً» أي: بخلاء ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ إسناده الإرداة هنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة، فإن الإرادة في المحدثات بمعنى الميل. والانتقاض هو: السقوط. وقوله: ﴿فَأَقَامَهُ﴾ أي: فردّه إلى حالة الاستقامة، وقد تقدم في الحديث أنه رده بيديه، ودعّمه حتى رذّ ميله. وهذا خارق، فعند ذلك قال موسى له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَمَدَدْت عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: لأجل أنهم لم يضيفونا كان ينبغي ألا تعمل لهم مجاناً ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي: لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني، فهو فراق بيني وبينك، ﴿سَبَيْحًا بِتَأْوِيلِ﴾ أي: بتفسير ﴿مَا لَمْ تَسْطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْتَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدْتُ أَنْ أُعِيبَهَا وَكَانَ وَرَثَتُكَ بِأَيْدِي كُلِّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٨﴾﴾.

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى، عليه السلام، وما كان أنكر ظاهره وقد أظهر الله الخضر، عليه السلام، على باطنه فقال: إن السفينة إنما خرقناها لأعيبها لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿يَأْخُذْ كُلُّ سَفِينَةٍ﴾ صالحة، أي: جيدة ﴿عَصَبًا﴾ فأردت أن أعيبها، لأرده عنها لعبيها، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها. وقد قيل: إنهم أيتام. وقد روى ابن جريج عن وهب بن سليمان، عن شعيب الجبائي، أن اسم ذلك الملك هُذُدُ بن بُدَدُ، وقد تقدم أيضاً في رواية البخاري، وهو مذكور في التوراة في ذرية «العيسى بن إسحاق» وهو من الملوك المنصوص عليهم في التوراة، والله أعلم.

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ يُؤْمِنُ فَخَبَيْنَا أَنْ يُوقَظَ طِفْلًا وَكُفِّرَ﴾ ﴿٨١﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَوَةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ ﴿٨٢﴾.

قد تقدم أن هذا الغلام كان اسمه جيسور. وفي الحديث عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً». رواه ابن جرير من حديث ابن إسحاق، عن سعيد، عن ابن عباس، به؛ ولهذا قال: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَبَيْنَا أَنْ يُوقَظَ طِفْلًا وَكُفِّرَ﴾ أي: يحملهما حبه على متابعتة على الكفر. قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد، وحزننا عليه حين قتل، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب. وصح في الحديث: «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له». وقال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وقوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَوَةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ ﴿٨٢﴾ أي: ولداً أذكى من هذا، وهما أرحم به منه، قاله ابن جريج. وقال قتادة: أبر بالديه. وقد تقدم أنهما بدلا جارية. وقيل: لما قتله الخضر كانت أمه حاملاً بغلام مسلم. قاله ابن جريج.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا كُنَّا نَمُرُّ بِكَ أَشْيًى ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ ﴿٨٣﴾.

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة؛ لأنه قال أولاً: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ [الكهف: ٧٧] وقال ههنا: ﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَكَايْنِ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجَكَ﴾ [محمد: ١٣]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ﴿٢١﴾ [الزخرف: ٢١] يعني: مكة والطائف. ومعنى الآية: أن هذا الجدار إنما أصلحه لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما. قال عكرمة، وقاتدة، وغير واحد: كان تحته مال مدفون لهما. وهذا ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله. وقال العوفي عن ابن عباس: كان تحته كنز علم. وكذا قال سعيد بن جبير، وقال مجاهد: صحف فيها علم، وقد ورد في حديث مرفوع ما يقوي ذلك، قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده المشهور: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا بشر بن المنذر، حدثنا الحارث بن عبد الله التميمي، عن عياش بن عباس القتياني، عن ابن حُجْبِرَةَ، عن أبي ذر، رضي الله عنه، رفعه قال: «إن الكنز الذي ذكر الله في كتابه: لوح من ذهب مصمت مكتوب فيه: عجب لمن أيقن بالقدر لم نصب؟ وعجب لمن ذكر النار لم ضحك؟ وعجب لمن ذكر الموت لم غفل؟ لا إله إلا الله، محمد رسول الله». بشر بن المنذر هذا يقال له: قاضي المصيصة. قال الحافظ أبو جعفر العجلي: في حديثه وهم. وقد روي في هذا آثار عن السلف، فقال ابن جرير في تفسيره: حدثني يعقوب، حدثني الحسن بن حبيب بن نديبة، حدثنا سلمة، عن نعيم العنبري - وكان من جلساء الحسن - قال: سمعت الحسن - يعني البصري - يقول في قوله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ قال: لوح من ذهب مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجب لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن؟ وعجب لمن يوقن بالموت كيف يفرح؟ وعجب لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟ لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

وحدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عبد الله بن عياش، عن عُمَرُ مولى عُفْرَةَ قال: إن الكنز الذي قال الله في السورة التي يذكر فيها الكهف: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ قال: كان لوحاً من ذهب مُصَمَّتٌ مكتوباً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجب لمن عرف النار ثم ضحك! عجب لمن أيقن بالقدر ثم نصب! عجب لمن أيقن بالموت ثم آمن! أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. وحدثني أحمد بن حازم الغفاري، حدثنا هُثَّاء بنت مالك الشيبانية قالت: سمعت صاحبني حماد ابن الوليد الثقفي يقول: سمعت جعفر بن محمد يقول في قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ قال: سطران ونصف لم يتم الثالث: عجب للمؤمن بالرزق كيف يتعب؟ وتعجب للمؤمن بالحساب كيف يغفل؟ وعجب للمؤمن بالموت كيف يفرح؟ وقد قال تعالى: ﴿وَلَنْ كُنَّا مِنْ خَزَائِكُمْ أَبَدًا﴾ [الأنبياء: ٤٧] قالت: وذكر أنهما حفظا

بصلاح أبيهما، ولم يذكر منهما صلاح، وكان بينهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة آباء، وكان ناسجاً. وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة، وورد به الحديث المتقدم وإن صح، لا ينافي قول عكرمة: إنه كان مالا، لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب، وفيه مال جزيل، أكثر ما زادوا أنه كان مودعاً فيه علم، وهو حكم ومواعظ، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة، بشفاعته فيهم ورفع درجاتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن ووردت السنة به. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاح، وتقدم أنه كان الأب السابغ. فله أعلم.

وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾: ههنا أسند الإرادة إلى الله تعالى؛ لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله، وقال في الغلام: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا كَانُا﴾ وقال في السفينة: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، فله أعلم. وقوله: ﴿رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا قَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي﴾ أي: هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدي الغلام، وولدي الرجل الصالح، ﴿وَمَا قَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي﴾، لكني أمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبرة الخضر، عليه السلام، مع ما تقدم من قوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَالِيَهُ رَحْمَةً مِّنْ عَيْنِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ (١٥). وقال آخرون: كان رسولاً. وقيل: بل كان ملكاً. نقله الماوردي في تفسيره. وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبياً، بل كان ولياً. فله أعلم. وذكر ابن قتيبة في المعارف أن اسم الخضر بلياً بن ملكان بن فالغ بن غابر بن شالغ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، عليه السلام. قالوا: وكان يكنى أبا العباس، ويلقب بالخضر، وكان من أبناء الملوك، ذكره النووي في تهذيب الأسماء، وحكى هو وغيره في كونه باقياً إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولين، ومال هو وابن الصلاح إلى بقاءه، وذكروا في ذلك حكايات وآثاراً عن السلف وغيرهم وجاء ذكره في بعض الأحاديث. ولا يصح شيء من ذلك، وأشهرها أحاديث التعزية، وإسناده ضعيف. ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّكَ قَبْلِكَ الْخَلْدَ﴾ [الأنبياء: ٢٤] ويقول النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة، لا تعبد في الأرض». ويأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حضر عنده، ولا قاتل معه. ولو كان حياً لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه؛ لأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى جميع الثقلين: الجن والإنس، وقد قال: «لو كان موسى وعيسى حيتين ما وسعهما إلا اتباعي»، وأخبر قبل موته بقليل: أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف، إلى غير ذلك من الدلائل.

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا ابن المبارك، عن مَعْمَرٍ، عن همام بن مَثَبٍ، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في الخضر قال: «إنما سمي خضراً؛ لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تحته تهتز خضراء». ورواه أيضاً عن عبد الرزاق. وقد ثبت أيضاً في صحيح البخاري، عن همام، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إنما سمي الخضر؛ لأنه جلس على فَرْوَةٍ، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء». والمراد بالفروة ههنا: الحشيش اليابس، وهو الهشيم من النبات، قاله عبد الرزاق وقيل: المراد بذلك وجه الأرض.

وقوله: ﴿ذَلِكَ نَأْوِيهِ لَكَ تَسْلَعُ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي: هذا تفسير ما ضقت به ذرعاً، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء، ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال: ﴿مَا لَكَ تَسْلَعُ﴾ وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقیلاً فقال: ﴿سَأَوِيكَ نَأْوِيهِ لَكَ تَسْلَعُ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، كما قال تعالى: ﴿فَمَا اسْأَلْتُمْ عَنْ بَظَرِهِمْ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه، ﴿وَمَا اسْأَلْتُمْ عَنْ لَمَعِهِ﴾ [الكهف: ٩٧]، وهو أشق من ذلك، فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى، والله أعلم. فإن قيل: فما بال فتى موسى ذكر في أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك؟ فالجواب: أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر وذكر ما كان بينهما، وفتى موسى معه تبع، وقد صرح في الأحاديث المتقدمة في الصحاح وغيرها إنه يوشع بن نون، وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى، عليهما السلام. وهذا يدل على ضعف ما أورده ابن جرير في تفسيره حيث قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة، حدثني ابن إسحاق، عن الحسن بن عمار، عن أبيه، عن عكرمة قال: قيل لابن عباس: لم نسمع لفتى موسى يذكر من حديث وقد كان معه؟ فقال ابن عباس فيما يذكر من حديث الفتى قال: شرب الفتى من الماء فخلد، فأخذ العالم، فطابق به سفينة ثم أرسله في البحر، فإنها تموج به إلى يوم القيامة؛ وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب. إسناده ضعيف، والحسن متروك، وأبوه غير معروف.

﴿وَتَتْلُوهُ عَنْ ذِي الْقُرْآنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (٨٣) إِنَّا مَكَّنَا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَمَا آتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤).

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَسَلِّوْا لَهُ﴾ يا محمد ﴿عَنْ ذِي الْقَرْبَيْنِ﴾ أي: عن خبره. وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحنون به النبي ﷺ، فقالوا: سلوه عن رجل طواف في الأرض، وعن فتية لا يدري ما صنعوا، وعن الروح، فنزلت سورة الكهف. وقد أورد ابن جرير ههنا، والأموي في مغازيه، حديثاً أسنده وهو ضعيف، عن عقبة بن عامر، أن نفراً من اليهود جاؤوا يسألون النبي ﷺ عن ذي القرنين، فأخبرهم بما جاؤوا له ابتداء، فكان فيما أخبرهم به: «أنه كان شاباً من الروم، وأنه بنى الإسكندرية، وأنه علا به ملك في السماء، وذهب به إلى السد، ورأى أقواماً وجوههم مثل وجوه الكلاب». وفيه طول ونكارة، ورفع لا يصح، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بني إسرائيل. والعجب أن أبا رزعة الرازي، مع جلالة قدره، ساقه بتمامه في كتابه دلائل النبوة، وذلك غريب منه، وفيه من النكارة أنه من الروم، وإنما الذي كان من الروم الإسكندر الثاني ابن فيليب المقدوني، الذي توارخ به الروم، فأما الأول فقد ذكره الأزرق وغيره أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل، عليه السلام، أول ما بناه وآمن به واتبعه، وكان معه الخضر، عليه السلام. وأما الثاني، فهو إسكندر بن فيليب المقدوني اليوناني، وكان وزيره أرسطاطاليس الفيلسوف المشهور، والله أعلم. وهو الذي توارخ به من مملكته ملة الروم. وقد كان قبل المسيح، عليه السلام، بنحو من ثلثمائة سنة، فأما الأول المذكور في القرآن فكان في زمن الخليل، كما ذكره الأزرق وغيره، وأنه طاف مع الخليل بالبيت العتيق لما بناه إبراهيم، عليه السلام، وقرب إلى الله قرباناً، وقد ذكرنا طرفاً من أخباره في كتاب «البدية والنهاية»، بما فيه كفاية، والله الحمد.

قال وهب بن منبه: كان ملكاً، وإنما سمي ذا القرنين لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس، قال: وقال بعض أهل الكتاب: لأنه ملك الروم وفارس. وقال بعضهم: كان في رأسه شبه القرنين، وقال سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي الطفيل قال: سئل علي، رضي الله عنه، عن ذي القرنين، فقال: كان عبداً ناصح الله فناصره، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنيه فمات، فأحياه الله، فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنيه فمات، فسمي ذا القرنين. وكذا رواه شعبة، عن القاسم بن أبي بزة عن أبي الطفيل، سمع علياً يقول ذلك. ويقال: إنما سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ المشرق والمغرب، من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب. وقوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أعطيناه ملكاً عظيماً متمكناً، فيه له من جميع ما يؤتي الملوك، من التمكين والجنود، وآلات الحرب والحصارات؛ ولهذا ملك المشرق والمغرب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم، من العرب والعجم؛ ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها. وقوله: ﴿وَأَنبَأْنِيهِ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبِيحًا﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والسدي، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: يعني علماً. وقال قتادة أيضاً في قوله: ﴿وَأَنبَأْنِيهِ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبِيحًا﴾ قال: منازل الأرض وأعلامها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَأَنبَأْنِيهِ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبِيحًا﴾ قال: تعليم الألسنة، كان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم. وقال ابن لهيعة: حدثني سالم بن غيلان، عن سعيد بن أبي هلال، أن معاوية بن أبي سفيان قال لكعب الأحبار: أنت تقول: إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثرى؟ فقال له كعب: إن كنت قلت ذلك، فإن الله تعالى قال: ﴿وَأَنبَأْنِيهِ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبِيحًا﴾. وهذا الذي أنكره معاوية، رضي الله عنه، على كعب الأحبار هو الصواب، والحق مع معاوية في الإنكار؛ فإن معاوية كان يقول عن كعب: «إن كنا لنبلو عليه الكذب» يعني: فيما ينقله، لا أنه كان يتعمد نقل ما ليس في صحيفته، ولكن الشأن في صحيفته أنها من الإسرائيليات التي غالبها مبدل مصحف محرف مختلق، ولا حاجة لنا مع خبر الله ورسول الله ﷺ إلى شيء منها بالكلية، فإنه دخل منها على الناس شر كثير، وفساد عريض. وتاويل كعب قول الله: ﴿وَأَنبَأْنِيهِ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبِيحًا﴾ واستشهاده في ذلك على ما يجده في صحيفته من أنه كان يربط خيله بالثرى غير صحيح ولا مطابق؛ فإنه لا سبيل للبشر إلى شيء من ذلك، ولا إلى الترقى في أسباب السموات. وقد قال الله في حق بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّا تَشَاءُ﴾ [النمل: ٢٣] أي: مما يؤتى مثلها من الملوك، وهكذا ذو القرنين يسر الله له الأسباب، أي: الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرستاق والبلاد والأراضي وكسر الأعداء، وبيت ملوك الأرض، وإذلال أهل الشرك. قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سبباً، والله أعلم. وفي «المختارة» للحافظ الضياء المقدسي، من طريق قتيبة، عن أبي عوانة، عن سماك بن حرب، عن حبيب بن حماز قال: كنت عند علي، رضي الله عنه، وسأله رجل عن ذي القرنين: كيف بلغ المشرق والمغرب؟ فقال: سبحان الله سخر له السحاب، وقدر له الأسباب، وبسط له اليد.

﴿تَأْتِي سَبِيحًا﴾ (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَرْبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَرْجُو فِي عَرَبٍ حَمَاقٍ وَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا الْقَارِئِينَ إِنَّمَا أَنْتَ مُنَادٍ وَلَوْ أَنَّ نَجَّحَ فِيهِمْ حُسْبًا قَالَ أَمَّا مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ مَكَّنَّا لَهُ الثَّرَىٰ ثُمَّ رَدَّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَعَزَّاهُ عَذَابًا نَّكَرًا (٨٦) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَجَعَلَ صَاحِبًا فَلَهُ أَجْرًا أَتَتْهُ وَاسْتَقْبَلَ لَمْ يَنْفَرًا (٨٧) ﴿٨٨﴾

قال ابن عباس: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلًا﴾ يعني: بالسبب المنزل. وقال مجاهد: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلًا﴾ منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب. وفي رواية عن مجاهد: ﴿سَبِيلًا﴾ قال: طريقاً في الأرض. وقال قتادة: أي اتبع منازل الأرض ومعالمها. وقال الضحاك: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلًا﴾ أي: المنازل. وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلًا﴾ قال: علماً. وهكذا قال عكرمة وعبيد بن يعلى، والسدي. وقال مطر: معالم وأثار كانت قبل ذلك. وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَقْرَبَ النَّفْسِ﴾ أي: فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب، وهو مغرب الأرض. وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فممتعذر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مدة والشمس تغرب من ورائه فشيء لا حقيقة له. وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب، واختلاق زنادقتهم وكذبهم. وقوله: ﴿وَبَدَعًا تَقَرَّبُ فِي عَقَبِ حِمَّةٍ﴾ أي: رأى الشمس في منظرة تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه. والحممة مشتقة على إحدى القراءتين من «الحمأة» وهو الطين، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلَاسَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْتُورٍ﴾ [الحجر: ٢٨] أي: طين أمّلس. وقد تقدم بيانه. وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، حدثني نافع بن أبي نعيم، سمعت عبد الرحمن الأعرج يقول: كان ابن عباس يقول: ﴿فِي عَقَبِ حِمَّةٍ﴾ ثم فسرها: ذات حمأة. قال نافع: وسئل عنها كعب الأحبار فقال: أنتم أعلم بالقرآن مني، ولكنني أجدها في الكتاب تغيب في طينة سوداء. وكذا روى غير واحد عن ابن عباس، وبه قال مجاهد وغير واحد. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا محمد بن دينار، عن سعد بن أوس، عن مضع، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، أن النبي ﷺ أقرأه ﴿حِمَّةٍ﴾. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «وجدتها تغرب في عين حامية» يعني: حارة. وكذا قال الحسن البصري. وقال ابن جرير: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان، فإيهما قرأ القاريء فهو مصيب. قلت: ولا منافاة بين معنييهما، إذ قد تكون حارة لمجاورتها ونهج الشمس عند غروبها، وملاقاتها الشعاع بلا حائل و ﴿حِمَّةٍ﴾ في ماء وطين أسود، كما قال كعب الأحبار وغيره.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا العوام، حدثني مولى لعبد الله بن عمرو، عن عبد الله قال: نظر رسول الله ﷺ إلى الشمس حين غابت، فقال: «في نار الله الحامية في نار الله الحامية، لولا ما يزعها من أمر الله، لأحرقت ما على الأرض». قلت: ورواه الإمام أحمد، عن يزيد بن هارون. وفي صحة رفع هذا الحديث نظر، ولعله من كلام عبد الله بن عمرو، من زاملتيه اللتين وجدتهما يوم اليرموك، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا حجاج بن حمزة، حدثنا محمد - يعني ابن بشر - حدثنا عمرو بن ميمون، أنبأنا ابن حاصر، أن ابن عباس ذكر له أن معاوية بن أبي سفيان قرأ الآية التي في سورة الكهف «تغرب في عين حامية» قال ابن عباس لمعاوية: ما نقرأها إلا ﴿حِمَّةٍ﴾ فسأل معاوية عبد الله بن عمرو كيف تقرأها؟ فقال عبد الله: كما قرأتها. قال ابن عباس: فقلت لمعاوية: في بيتي نزل القرآن؟ فأرسل إلى كعب فقال له: أين تجد الشمس تغرب في التوراة؟ فقال له كعب: سل أهل العربية، فإنهم أعلم بها، وأما أنا فإني أجد الشمس تغرب في التوراة في ماء وطين. وأشار بيده إلى المغرب. قال ابن حاصر: لو أني عندكما أفدتك بكلام تزداد فيه بصيرة في حمته. قال ابن عباس: وإذا ما هو؟ قلت: فيما يؤثر من قول نوح، فيما ذكر به ذا القرنين في تخلقه بالعلم واتباعه إياه:

بَلَغَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ يَسْتَفِي
أَسْبَابَ أَمْرِ مِنْ حَكِيمٍ مُّزْشَد
فَرَأَى مَغِيبَ الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا
فِي عَيْنِ ذِي خُلْبٍ وَثَاطَ حَزْمٌ

قال ابن عباس: ما الخُلب؟ قلت: الطين بكلامهم. يعني بكلام حمير. قال: ما الشاط؟ قلت: الحمأة. قال: فما الحزم؟ قلت: الأسود. قال: فدعا ابن عباس رجلاً أو غلاماً فقال: اكتب ما يقول هذا الرجل. وقال سعيد بن جبير: بينا ابن عباس يقرأ سورة الكهف فقرأ: ﴿وَبَدَعًا تَقَرَّبُ فِي عَقَبِ حِمَّةٍ﴾ فقال كعب: والذي نفس كعب بيده ما سمعت أحداً يقرأها كما أنزلت في التوراة غير ابن عباس، فإننا نجدتها في التوراة: تغرب في مدرة سوداء. وقال أبو يعلى الموصلي: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا هشام بن يوسف قال: في تفسير ابن جريج ﴿وَبَدَعًا تَقَرَّبُ فِي عَقَبِ حِمَّةٍ﴾ قال: مدينة لها اثنا عشر ألف باب، لولا أصوات أهلها لسمع الناس وجوب الشمس حين تجب. وقوله: ﴿وَبَدَعًا تَقَرَّبُ فِي عَقَبِ حِمَّةٍ﴾ أي: أمة من الأمم، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم. وقوله: ﴿فَلَمَّا يَدْعَا الْقَرَيْنَ لِمَا أَنْ تَقَرَّبَ وَلَمَّا أَنْ تَلْجِدَ فِيهِمْ حَسَبًا﴾ معنى هذا: أن الله تعالى مكّنه منهم، وحكمه فيهم، وأظفروهم وخيروه: إن شاء قتل وسبى، وإن شاء من أوفدى. فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه في قوله: ﴿أَنَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أي: من استمر على كفره وشركه بربه ﴿فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ﴾ قال قتادة: بالقتل. وقال السدي: كان يحمي لهم بقر النحاس ويضعهم فيها حتى يذوبوا. وقال وهب بن منبه: كان يسلط الظلمة، فتدخل أفواههم ويوتهم، وتغشاهم من جميع جهاتهم، والله أعلم.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَرْدُّ لَكَ رَبُّكَ فَأَعْدِدْ عَذَابًا لِّكَ﴾ أي: شديدًا بليغًا وجيعاً أليماً. وفيه إثبات المعاد والجزاء. وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ﴾ أي: تابعا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ أَتَتْهُ﴾ أي: في الدار الآخرة عند الله، ﴿وَسَيَقُولُ لَمْ يَنْ أَتَىٰ يَتْرَ﴾ قال مجاهد: معروفاً.

﴿ثُمَّ أَتَىٰ سَبَّ﴾ (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ النَّجْمِ وَجَدَا تَطْلُعَ عَلَىٰ قَوْرٍ لَّهُمْ دُونَهَا سَبَّ (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْ خَيْرًا (٩١). يقول: ثم سلك طريقاً فصار من مغرب الشمس إلى مطلعها، وكان كلما مرَّ بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله ﷻ، فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آنانهم، واستباح أموالهم، وأمتعهم واستخدم من كل أمة ما يستعين به مع جيوشه على أهل الإقليم المتاخمين لهم. وذكر في أخبار بني إسرائيل أنه عاش ألفاً وستمئة سنة يجوب الأرض طولها والعرض، حتى بلغ المشارق والمغارب. ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال تعالى: ﴿وَجَدَا تَطْلُعَ عَلَىٰ قَوْرٍ﴾ أي: أمة ﴿لَهُمْ دُونَهَا سَبَّ﴾ أي: ليس لهم بناء يكتنهم، ولا أشجار تظلمهم وتستريحهم من حر الشمس. قال سعيد بن جببر: كانوا حُمراً قصاراً، مساكنهم الغيران، أكثر معيشتهم من السمك. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا سهل بن أبي الصلت، سمعت الحسن وسئل عن قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دُونَهَا سَبَّ﴾ قال: إن أرضهم لا تحمل البناء، فإذا طلعت الشمس تغروا في المياه، فإذا غربت خرجوا يتراعون كما ترعى البهائم. قال الحسن: هذا حديث سمرة. وقال قتادة: ذكر لنا أنهم بأرض لا تنبت لهم شيئاً، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب، حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعاشهم. وعن سلمة بن كهيل أنه قال: ليس لهم أكنان، إذا طلعت الشمس طلعت عليهم، فلا حدهم أذن أن يفترش إحداهما ويلبس الأخرى. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: ﴿وَجَدَا تَطْلُعَ عَلَىٰ قَوْرٍ لَّهُمْ دُونَهَا سَبَّ﴾ قال: هم الزنج. وقال ابن جريج في قوله: ﴿وَجَدَا تَطْلُعَ عَلَىٰ قَوْرٍ لَّهُمْ دُونَهَا سَبَّ﴾ قال: لم يبنوا فيها بناء قط، ولم يبن عليهم فيها بناء قط، كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسراباً لهم حتى تزول الشمس، أو دخلوا البحر، وذلك أن أرضهم ليس فيها جبل، جاءهم جيش مرة فقال لهم أهلها: لا تطلعن عليكم الشمس وأنتم بها. قالوا: لا نبرح حتى تطلع الشمس، ما هذه العظام؟ قالوا: هذه جيفُ جيش طلعت عليهم الشمس ههنا فماتوا. قال: فذهبوا هاربين في الأرض. وقوله: ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْ خَيْرًا﴾ (٩١) قال مجاهد، والسدي: علماً، أي: نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه، لا يخفى علينا منها شيء، وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض، فإنه تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (ال عمران: ٥).

﴿ثُمَّ أَتَىٰ سَبَّ﴾ (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا بِنْدَا الْقَرْيَتَيْنِ إِنَّ بَأْسَجَ وَمَلْجَ مُمِدُّونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ يَجْعَلُ لَكَ خَرْبًا عَلَا أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَيْشُونِي يَفْقَهُوا لَجْعَلُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) أَتَأْتُونَ زَيْرَ لَكَيْدٍ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَّيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلْنَا نَارًا قَالَا مَا أَتَيْنَا أَفْرَغَ عَلَيْهِ قَطْرًا (٩٦).

يقول تعالى مخبراً عن ذي القرنين ﴿ثُمَّ أَتَىٰ سَبَّ﴾ (٩٢) أي: ثم سلك طريقاً من مشارق الأرض ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ وهما جبلان متناوحيان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيشون فيهم فساداً، ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم، عليه السلام، كما ثبت في الصحيحين: «إن الله تعالى يقول: يا آدم. ليبيك وسعديك. فيقول: ابعد بغيث النار. فيقول: وما بغيث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة؟ فيحيتيذ شيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فيقال: إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتا: يأجوج ومأجوج». وقد حكى النووي، رحمه الله، في شرح «مسلم» عن بعض الناس: أن يأجوج ومأجوج خلقوا من مني خرج من آدم فاختلط بالتراب، فخلقوا من ذلك، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم، وليسوا من حواء. وهذا قول غريب جداً، ثم لا دليل عليه لا من عقل ولا من نقل، ولا يجوز الاعتماد ههنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب، لما عندهم من الأحاديث المقتعلة، والله أعلم. وفي مسند الإمام أحمد، عن سُمرة، أن رسول الله ﷺ قال: «وَلَدُ نُوحٍ ثَلَاثَةٌ: سَامُ أَبُو الْعَرَبِ، وَحَامُ أَبُو السُّودَانِ، وَيَافَثُ أَبُو التُّرْكِ». فقال بعض العلماء: هؤلاء من نسل يافث أبي الترك، قال: إنما سماؤ هؤلاء تركاً؛ لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة، وإلا فهم أقرباء أولئك، ولكن كان في أولئك بغي وفساد وجراءة. وقد ذكر ابن جرير ههنا عن وهب بن منبه أثراً طويلاً عجباً في سير ذي القرنين، وبنائه السد، وكيفية ما جرى له، وفيه طول وغرابة ونكارة في أشكالكهم وصفاتهم، وطولهم وقصر بعضهم، وأذانهم. وروى ابن أبي حاتم أحاديث غريبة في ذلك لا تصح أسانيدها، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي: لاستعجاب كلامهم وبعدهم عن الناس. ﴿قَالُوا بِنْدَا الْقَرْيَتَيْنِ إِنَّ بَأْسَجَ وَمَلْجَ مُمِدُّونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ يَجْعَلُ لَكَ خَرْبًا﴾ قال ابن جريج عن عطاء، عن ابن عباس: أجراً عظيماً، يعني: أنهم أرادوا أن يجمعوا

له من بينهم ما لا يعطونه إياه، حتى يجعل بينهم وبينهم سداً. فقال ذو القرنين بعة وديانة وصلاح وقصد للخير: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿أَشِدُّوا نَظْرَكُمْ يَوْمَ لَا يَكُنُ لَكُمْ مَوْلَىٰ وَأَنْتُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٢٦]. وهكذا قال ذو القرنين: الذي أنا فيه خير من الذي تبدلونه، ولكن ساعدوني ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعملكم وآلات البناء، ﴿أَعْمَلْ بَيْنَكُمُ وَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ ﴿أَتَوَيْتُمْ زُرَّارَ الْحَبِيدِ﴾، والزير: جمع زُبُرَة، وهي القطعة منه، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وهي كاللبنه، يقال: كل لبنه زنة قطار بالدمشقي، أو تزيد عليه. ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَتْ بَيْنَ الْعِذَّةِ﴾ أي: وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً. واختلفوا في مساحة عرضه وطوله على أقوال. ﴿قَالَ أَنْفَعُوا﴾ أي: أجمع عليه النار حتى صار كله ناراً، ﴿قَالَ أَتَوَيْتُمْ أَفْرَغَ عَلَيْهِ وَقَطَرًا﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، والسدي: هو النحاس. وزاد بعضهم: المذاب. ويستشهد بقوله تعالى: ﴿وَأَسْلَمْنَا لَمَّ عَيْنُ الْقَاطِرِ﴾ [سبا: ١٢] ولهذا يشبه بالبرد المحبر. قال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً قال: يا رسول الله، قد رأيت سد يأجوج ومأجوج، قال: «انتهت لي» قال: كالبرد المحبر، طريقة سوداء، وطريقة حمراء. قال: «قد رأيته». هذا حديث مرسل.

وقد بعث الخليفة الواثق في دولته بعض أمرائه، ووجه معه جيشاً سرية، لينظروا إلى السد ويعاينوه ويعتوه له إذا رجعوا. فتوصلوا من بلاد إلى بلاد، ومن مُلْك إلى مُلْك، حتى وصلوا إليه، ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيه باباً عظيماً، وعليه أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللبن والعمل في برج هناك. وأن عنده حرساً من الملوك المتاخمة له، وأنه متين عال شامق، لا يستطيع ولا ما حوله من الجبال. ثم رجعوا إلى بلادهم، وكانت غيبتهم أكثر من سنتين، وشاهدوا أهوالاً وعجائب. ثم قال الله تعالى:

﴿مَّا أَصْطَفَوْا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَمْ نَبْقَ﴾ ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْقٍ وَنُفِخَ فِي السُّورِ لِمَجْمَعَتِهِمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قدروا على أن يصعدوا فوق هذا السد ولا قدروا على نقيه من أسفله. ولما كان الظهور عليه أسهل من نقيه قابل كلاً بما يناسبه فقال: ﴿مَّا أَصْطَفَوْا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَمْ نَبْقَ﴾ ﴿٩٧﴾ وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقيه، ولا على شيء منه. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، حدثنا أبو رافع، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً فيعودون إليه كاشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله. ويستثني، فيعودون إليه وهو كهيبته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فينشقون المياه، ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرون بسهامهم إلى السماء، فترجع وعليها هيئة الدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء. فيبعث الله عليهم نغفاً في أقبانهم، فيقتلهم بها. قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إن دواب الأرض لتسمن، وتشكر شكراً من لحومهم ودمائهم». ورواه أحمد أيضاً عن حسن - هو ابن موسى الأشيب - عن سفيان، عن قتادة، به. وكذا رواه ابن ماجه، عن أزهر بن مروان، عن عبد الأعلى، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة قال: حدث أبو رافع. وأخرجه الترمذي، من حديث أبي عوانة، عن قتادة. ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وهذا إسناد قوي، ولكن في رفعه نكارة؛ لأن ظاهر الآية يقتضي أنهم لم يتمكنوا من ارتفاعه ولا من نقيه، لإحكام بنائه وصلابته وشدته. ولكن هذا قد روي عن كعب الأحبار: أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل، فيقولون: غداً نفتحه. فيأتون من الغد وقد عاد كما كان، فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل، فيقولون كذلك، ويصبحون وهو كما كان، فيلحسونه ويقولون: غداً نفتحه. ويلهمون أن يقولوا: «إن شاء الله»، فيصبحون وهو كما فارقه، فيفتحونه. وهذا مُتَّجِه، ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب. فإنه كثيراً ما كان يجالسه ويحدثه، فحدث به أبو هريرة، فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع، فرفعه، والله أعلم.

ويؤكد ما قلناه - من أنهم لم يتمكنوا من نقيه ولا نقب شيء منه، ومن نكارة هذا المرفوع - قول الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن الزهري، عن عروة، عن زينب بنت أبي سلمة، عن حبيبة بنت أم حبيبة، بنت أبي سفيان، عن أمها أم حبيبة، عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ - قال سفيان: أربع نسوة - قالت: استيقظ النبي ﷺ من نومه، وهو محمر وجهه، وهو يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب! فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا». وحلَّق. قلت: يا رسول الله، أنهلك وفيها

الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث». هذا حديث صحيح، اتفق البخاري ومسلم على إخرجه، من حديث الزهري، ولكن سقط في رواية البخاري ذكر حبيبة، وأثبتها مسلم. وفيه أشياء عزيزة نادرة قليلة الوقوع في صناعة الإستاذ، منها رواية الزهري عن عروة، وهما تابعيان ومنها اجتماع أربع نسوة في سنده، كلهن يروي بعضهن عن بعض. ثم كل منهن صحابية، ثم ثنتان ربيتان وثنان زوجتان، رضي الله عنهن. وقد روي نحو هذا عن أبي هريرة أيضاً، فقال الزوار: حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا وهيب، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «فُتِحَ اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا» وعقد التسعين. وأخرجه البخاري ومسلم من حديث وهيب، به.

وقوله: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ أي: لما بناه ذو القرنين ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ أي: بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العيث في الأرض والفساد. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَقْدٌ وَقْدٌ﴾ أي: إذا اقترب الوعد الحق ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي: ساواه بالأرض. تقول العرب: ناقة دكاء: إذا كان ظهرها مستوياً لا سنام لها. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ رُبُّهُمُ الْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي: مساوياً للأرض. وقال عكرمة في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَقْدٌ وَقْدٌ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قال: طريقاً كما كان. ﴿وَكَانَ وَقْدٌ وَقْدٌ حَقًّا﴾ أي: كائناً لا محالة. وقوله: ﴿وَرَزَّكَ بَعْضُ يَوْمِيذٍ يُؤْمِرُ بِبَعْضٍ﴾ أي: الناس يومئذ أي: يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم، وهكذا قال السدي في قوله: ﴿وَرَزَّكَ بَعْضُ يَوْمِيذٍ يُؤْمِرُ بِبَعْضٍ﴾ قال: ذاك حين يخرجون على الناس. وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى عند قوله: ﴿حَقٌّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦، ٩٧] وهكذا قال ههنا: ﴿وَرَزَّكَ بَعْضُ يَوْمِيذٍ يُؤْمِرُ بِبَعْضٍ وَفُتِحَ فِي أَسْوَغٍ فَتَمَّتْهُمْ جَمًّا﴾ [٤٩] قال ابن زيد في قوله: ﴿وَرَزَّكَ بَعْضُ يَوْمِيذٍ يُؤْمِرُ بِبَعْضٍ﴾ قال: هذا أول يوم القيامة، ﴿وَفُتِحَ فِي أَسْوَغٍ﴾ على أثر ذلك ﴿فَتَمَّتْهُمْ جَمًّا﴾. وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿وَرَزَّكَ بَعْضُ يَوْمِيذٍ يُؤْمِرُ بِبَعْضٍ﴾ أي: يوم القيامة يختلط الإنسان والجن. روى ابن جرير، عن محمد بن حميد، عن يعقوب القمي، عن هارون بن عترة، عن شيخ من بني فزارة في قوله: ﴿وَرَزَّكَ بَعْضُ يَوْمِيذٍ يُؤْمِرُ بِبَعْضٍ﴾ قال: إذا ماج الإنسان والجن قال إبليس: أنا أعلم لكم علم هذا الأمر. فيظعن إلى المشرق فيجد الملائكة قد بطنوا الأرض، ثم يظعن إلى المغرب فيجد الملائكة بطنوا الأرض، فيقول: «ما من محيص». ثم يظعن يمينا وشمالاً إلى أقصى الأرض فيجد الملائكة بطنوا الأرض فيقول: «ما من محيص». فبينما هو كذلك، إذ عرض له طريق كالشراك، فأخذ عليه هو وذريته، فبينما هم عليه إذ هجموا على النار، فأخرج الله خازناً من خزان النار، فقال: يا إبليس، ألم تكن لك المنزلة عند ربك؟! ألم تكن في الجنان؟! فيقول: ليس هذا يوم عتاب، لو أن الله فرض عليّ فريضة لعبده فيها عبادة لم يعبدته مثلها أحد من خلقه. فيقول: فإن الله قد فرض عليك فريضة. فيقول: ما هي؟ فيقول: يأمرك أن تدخل النار. فيتكأ عليه، فيقول به وبذريته بجناحيه فيقذفهم في النار. فتزفر النار زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا لركبته.

وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث يعقوب القمي به. رواه من وجه آخر عن يعقوب، عن هارون بن عترة، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿وَرَزَّكَ بَعْضُ يَوْمِيذٍ يُؤْمِرُ بِبَعْضٍ﴾ قال: الجن والإنس، يموج بعضهم في بعض. وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس الأصفهاني، حدثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا المغيرة بن مسلم، عن أبي إسحاق، عن وهب بن جابر، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معاشهم، ولن يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً، وإن من ورائهم ثلاث أمم: تاويل، وتاميس، ومنسك». هذا حديث غريب، بل منكر ضعيف. وروى النسائي من حديث شعبة عن النعمان بن سالم، عن عمرو بن أوس، عن أبيه، عن جده أوس بن أبي أوس مرفوعاً: «إن يأجوج ومأجوج لهم نساء، يجامعون ما شاؤوا، وشجر يلقحون ما شاؤوا، ولا يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً».

وقوله: ﴿وَفُتِحَ فِي أَسْوَغٍ﴾: والصور كما جاء في الحديث: «قرن ينفخ فيه» والذي ينفخ فيه إسرافيل، عليه السلام، كما قد تقدم في الحديث بطوله، والأحاديث فيه كثيرة. وفي الحديث عن عطية، عن ابن عباس وأبي سعيد مرفوعاً: «كيف أنعم، وصاحب القرن قد التقم القرن، وحني جبهته واستمع متى يؤمر». قالوا: كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا». وقوله: ﴿فَتَمَّتْهُمْ جَمًّا﴾ أي: أحضرنا الجميع للحساب، ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ [٤٩] لَمَجْبُوعُونَ إِلَى مِقْدَاتِ يَوْمِ تَعْلَمُونَ [٥٠] [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أُعْدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا﴾ [٥١] الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَلَاظٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا [٥٢] أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا

يَعَادِي مِنْ دُونِ آلِيَاءَ إِنَّا أَعَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نَزْلًا ﴿١٠٣﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة: أنه يعرض عليهم جهنم، أي: يبرزها لهم ويظهرها، ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم.

وفي صحيح مسلم، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها».

ثم قال مخبراً عنهم: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَلَاظٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ أي: تعاملوا وتغافلوا وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَّهُمْ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقال ههنا: ﴿وَكَاثُرًا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي: لا يعقلون عن الله أمره ونهيه. ثم قال: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ آلِيَاءَ﴾ أي: اعتقدوا أنهم يصح لهم ذلك، وينتفعون بذلك؟ ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]؛ ولهذا أخبر أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلاً.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الَّذِينَ سَلَ سَبَّهْمُ فِي لِقَاؤِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ شُعْمًا] ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَطَبَعَتْ أَعْيُنُهُمْ فَلَا يَقْصِرُونَ عَنْ يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُولًا ﴿١٠٥﴾ .

قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عمرو، عن مُضْعَب قال: سألت أبي - يعني سعد بن أبي وقاص -: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [١٠٥]: أهم الحرورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى كفروا بالجنة، وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب. والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه. وكان سعد رضي الله عنه، يسميهم الفاسقين. وقال علي بن أبي طالب، والضحاك، وغير واحد: هم الحرورية. ومعنى هذا عن علي، رضي الله عنه: أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هي أعم من هذا؛ فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل وجود الخوارج بالكلية، وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية بحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿وَجُودٌ بِرَحْمَةٍ خَلِيقَةٍ﴾ [١٠٦] عَائِلَةً نَائِيَةً ﴿٢﴾ تَصَلُّوا نَارًا حَابِيَةً ﴿٣﴾ [الغاشية: ٢-٤] وقوله تعالى: ﴿وَقَوْمًا إِلَى مَا جَاءُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ سَبَكَةً مَسْهُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَذَرًا بِقِيَمَةِ حَسَبِهِ أَلْظَمَتَانِ مَاءٌ حَرٌّ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ سَيْكًا﴾ [النور: ٢٩]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: نخبركم ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾؟ ثم فسرهم فقال: ﴿الَّذِينَ سَلَ سَبَّهْمُ فِي لِقَاؤِ الدُّنْيَا﴾ أي: عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ شُعْمًا﴾ أي: يعتقدون أنهم على شيء، وأنهم مقبولون محبوبون. وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ﴾ أي: جحدوا آيات الله في الدنيا، وبراهينه التي أقام على وحدانيته، وصدق رسله، وكذبوا بالدار الآخرة، ﴿فَلَا يَقْصِرُونَ عَنْ يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَذَلِكَ﴾ أي: لا تنقل موازينهم؛ لأنها خالية عن الخير.

قال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا سعيد بن أبي مريم، أخبرنا المغيرة، حدثني أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة» وقال: «اقرأوا إن شئتم: ﴿فَلَا يَقْصِرُونَ عَنْ يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَذَلِكَ﴾». وعن يحيى بن بكير، عن مغيرة بن عبد الرحمن، عن أبي الزناد، مثله. هكذا ذكره عن يحيى بن بكير معلقاً. وقد رواه مسلم عن أبي بكر محمد بن إسحاق، عن يحيى بن بكير، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «يؤتى بالرجل الأكل الشروب العظيم، فيوزن بحبة فلا يزنها». قال: وقرأ: ﴿فَلَا يَقْصِرُونَ عَنْ يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَذَلِكَ﴾. وكذا رواه ابن جرير، عن أبي كريب، عن أبي الصلت، عن ابن أبي الزناد، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، مرفوعاً فذكره بلفظ البخاري سواء. وقال أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار: حدثنا العباس بن محمد، حدثنا عون بن عُمارة، حدثنا هشام بن حسان، عن واصل، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فأقبل رجل من قريش يخطر في حلة له. فلما قام على النبي ﷺ قال: «يا بريدة، هذا ممن لا يقيم الله له يوم القيامة وزناً». ثم قال: تفرد به واصل مولى أبي عنبسة وعون بن عُمارة، وليس بالحافظ، ولم يتابع عليه. وقد قال ابن جرير أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن شمر، عن أبي يحيى، عن كعب قال: يؤتى يوم القيامة برجل عظيم

طويل، فلا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرؤوا: ﴿فَلَا تَعْلَمُ لَمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَنَا﴾

وقوله: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِهِمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ أي: إنما جازيناهم بهذا الجزاء جهنم، بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسوله هزواً، استهزؤا بهم، وكذبوهم أشد الكذب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَدْخُلُونَهَا جَوْلًا ﴿١٠٨﴾﴾

يخبر تعالى عن عباده السعداء، وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وصدقوهم فيما جاؤوا به بأن لهم جنات الفردوس. قال مجاهد: الفردوس هو: البستان بالرومية. وقال كعب، والسدي، والضحاك: هو البستان الذي فيه شجر الأعناب. وقال أبو أمامة: الفردوس: سرّة الجنة. وقال قتادة: الفردوس: ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها. وقد روي هذا مرفوعاً من حديث سعيد بن بشير، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، عن النبي ﷺ: «الفردوس: ربوة الجنة، أوسطها وأحسنها». وهكذا رواه إسماعيل بن مسلم، عن الحسن، عن سمرة مرفوعاً. وروى عن قتادة، عن أنس بن مالك مرفوعاً بنحوه. وقد نقله ابن جرير، رحمه الله. وفي الصحيحين: «إذا سألتهم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تُفجر أنهار الجنة». وقوله: ﴿نُزُلًا﴾ أي: ضيافة، فإن النزول هو الضيافة. وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين ساكنين فيها، لا يظعنون عنها أبداً، ﴿لَا يَدْخُلُونَهَا جَوْلًا﴾ أي: لا يختارون غيرها، ولا يحبون سواها، وكما قال الشاعر:

فَحَلْتُ سُودَا الْقَلْبِ لَا آتَا بَاغِيَا
سَوَاهَا وَلَا عَنْ حُبِّهَا أَتَحَوَّلُ
وفي قوله: ﴿لَا يَدْخُلُونَهَا جَوْلًا﴾ تنبيه على رغبتهم فيها، وحبهم لها، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائماً أنه يسأله أو يمله، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي، لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا انتقالاً ولا ظعنأ ولا رحلة ولا بدلاً.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِثْقَالَ رَيْبٍ لَأَخَذْتُ مِنَ الْبَحْرِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَلَوْ جِئْتُ بِمِثْلِهِ مَدًّا ﴿١٠٩﴾﴾

يقول تعالى: قل يا محمد: لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي تكتب به كلمات ربي وحكمه وآياته الدالة عليه، ﴿لَأَخَذْتُ مِنَ الْبَحْرِ﴾ أي: لفرغ البحر قبل أن يفرغ من كتابة ذلك ﴿وَلَوْ جِئْتُ بِمِثْلِهِ﴾ أي: بمثل البحر آخر، ثم آخر، وهلم جرا، بحور تمدده ويكتب بها، لما نفذت كلمات الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [لقمان: ٢٧]. قال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله قطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِثْقَالَ رَيْبٍ لَأَخَذْتُ مِنَ الْبَحْرِ قَلِيلًا لَنَفَعْتُ النَّاسَ وَلَوْ جِئْتُ بِمِثْلِهِ مَدًّا ﴿١٠٩﴾﴾. يقول: لو كان البحر مداداً لكلمات الله، والشجر كله أقلام، لانكسرت الأقلام وفني ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يشي عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يشي على نفسه، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة كحبة من خردل في خلال الأرض كلها.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَلَمْ تَلِدْ﴾

روى الطبراني من طريق هشام بن عمار، عن إسماعيل بن عياش، عن عمرو بن قيس الكوفي، أنه سمع معاوية بن أبي سفيان أنه قال: هذه آخر آية أنزلت. يقول لرسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ فمن زعم أنني كاذب، فليأت بمثل ما جئت به، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي، عما سألتهم من قصة أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين، مما هو مطابق في نفس الأمر، لولا ما أطلعني الله عليه، وأنا أخبركم ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَى عِبَادَتِهِ﴾، ﴿إِلَهُ وَحْدَهُ﴾ لا شريك له، ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي: ثوابه وجزاءه الصالح، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وهو ما كان موافقاً لشرع الله، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَلَمْ تَلِدْ﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل لا بد أن يكون خالصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ. وقد روى ابن أبي حاتم من حديث معمر، عن عبد الكريم الجذري، عن طاوس قال: قال رجل: يا رسول الله، إني أقف المواقف أريد وجه الله، وأحب أن يرى موطني. فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً. حتى نزلت هذه الآية: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَلَمْ تَلِدْ﴾. وهكذا أرسل هذا مجاهد، وغير واحد. وقال الأعمش: حدثنا حمزة أبو عمارة مولى بني هاشم، عن شهر بن حوشب قال: جاء رجل إلى عبادة بن الصامت فقال: أنبئني عما أسألك عنه: أرايت رجلاً يصلي، ويتغني وجه الله، ويحب أن يُحمد، ويصوم ويتغني وجه الله، ويحب أن يحمد، ويتصدق ويتغني وجه الله، ويحب أن يحمد، ويحب أن يتغني وجه الله، ويحب أن يحمد، فقال:

عبادة: ليس له شيء، إن الله تعالى يقول: «أنا خير شريك، فمن كان له معي شريك فهو له كله، لا حاجة لي فيه».

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير، ثنا كثير بن زيد، عن ربيع بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه، عن جده قال: كنا نتناوب رسول الله ﷺ، فنبيت عنده، تكون له الحاجة، أو يطرقه أمر من الليل، فيبعثنا. فكثير المحتسبون وأهل الثوب، فكنا نتحدث، فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «ما هذه النجوى؟ ألم أنهكم عن النجوى؟». قال: فقلنا: تبنا إلى الله، أي نبي الله، إنما كنا في ذكر المسيح، وفرقنا منه، فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندي؟» قال: قلنا: بلى. قال: «الشرك الخفي، أن يقوم الرجل يصلي لمكان الرجل». وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد - يعني ابن بهزيم - قال: قال شهر بن حوشب: قال ابن غنم: لما دخلنا مسجد الجابية أنا وأبو الدرداء، لقينا عبادة بن الصامت، فأخذ يميني بشماله، وشمال أبي الدرداء بيمينه، فخرج يمشي بيننا ونحن نتناجي، والله أعلم بما نتناجي به، فقال عبادة بن الصامت: إن طال بكما عمر أحدكما أو كليكما، لتوشكان أن تريا الرجل من ثبج المسلمين - يعني من وسط - قرأ القرآن على لسان محمد ﷺ فأعاده وأبداه، وأحل حلاله وحرم حرامه، ونزل عند منزله، لا يخور فيكم إلا كما يخور رأس الحمار الميت. قال: فبينما نحن كذلك، إذ طلع شداد بن أوس، رضي الله عنه، وعوف بن مالك، فجلسا إلينا، فقال شداد: إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس لما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من الشهوة الخفية والشرك». فقال عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء: اللهم غفرأ. أولم يكن رسول الله ﷺ قد حدثنا أن الشيطان قد يشن أن يعبد في جزيرة العرب. وأما الشهوة الخفية فقد عرفناها، هي شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها، فما هذا الشرك الذي تخوفنا به يا شداد؟ فقال شداد: أرايتكم لو رأيتم رجلاً يصلي لرجل، أو يصوم لرجل، أو تصدق له، أترون أنه قد شرك؟ قالوا: نعم، والله إنه من صلى لرجل أو صام له أو تصدق له، لقد أشرك. فقال شداد: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك» فقال عوف بن مالك عند ذلك: أفلا يعمد الله إلى ما ابتغي به وجهه من ذلك العمل كله، فيقبل ما خلس له ويدع ما أشرك به؟ فقال شداد عن ذلك: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بي، من أشرك بي شيئاً فإن حشده عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به، وأنا عنه غني».

طريق أخرى لبعضه: قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني عبد الواحد بن زياد، أخبرنا عبادة بن نسي، عن شداد بن أوس، رضي الله عنه، أنه بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: شيء سمعته من رسول الله ﷺ يقول فذكرته فأبكاني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أتخوف على أمتي الشرك والشهوة الخفية». قلت: يا رسول الله، أتشرك أمتك من بعدك؟ قال: «نعم، أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً، ولا حجراً ولا وثناً، ولكن يراؤون بأعمالهم، والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه». ورواه ابن ماجه من حديث الحسن بن ذكوان، عن عبادة بن نسي به. وعبادة فيه ضعف وفي سماعه من شداد نظر.

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا الحسين بن علي بن جعفر الأحمر، حدثنا علي بن ثابت، حدثنا قيس بن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله يوم القيامة: أنا خير شريك، من أشرك بي أحداً فهو له كله». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت العلاء يحدث عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، يرويه عن ربه، ﷻ أنه قال: «أنا خير الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري، فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك». تفرد به من هذا الوجه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليث، عن يزيد - يعني ابن الهاد - عن عمرو، عن محمود بن لبيد: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، أخبرنا عبد الحميد - يعني ابن جعفر - أخبرني أبي، عن زياد بن ميناء، عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري - وكان من الصحابة - أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة ليوم لا ريب فيه، نادى مناد: من كان أشرك في عمل عمله الله أحداً، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك». وأخرجه الترمذي وابن ماجه، من حديث محمد بن بكر وهو البرساني، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا بكار، حدثني أبي - يعني عبد العزيز بن أبي بكرة - عن أبي بكرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من سَمِعَ سَمِعَ الله به، ومن رأى رأى الله به». وقال الإمام أحمد:

حدثنا معاوية، حدثنا شيبان، عن فراس، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ قال: «من يراني يراني الله به، ومن يسمع يسمع الله به».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة، حدثني عمرو بن مرة، قال: سمعت رجلاً في بيت أبي عبيدة؛ أنه سمع عبد الله بن عمرو يحدث ابن عمر، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من سَمِعَ الناسَ بعمله سَمِعَ الله به، سامع خلقه وصغره وحقره» قال: فذرفت عينا عبد الله. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن يحيى الأيلي، حدثنا الحارث بن غسان، حدثنا أبو عمران الجوني، عن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «تعرض أعمال بني آدم بين يدي الله، ﷻ، يوم القيامة في صحف مختومة، فيقول الله: ألقوا هذا، واقبلوا هذا، فتقول الملائكة: يا رب، والله ما رأينا منه إلا خيراً. فيقول: إن عمله كان لغير وجهي، ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهي». ثم قال الحارث بن غسان: روى عنه جماعة وهو بصري ليس به بأس.

وقال ابن وهب: حدثني يزيد بن عياض، عن عبد الرحمن الأعرج، عن عبد الله بن قيس الخزاعي، أن رسول الله ﷺ قال: «من قام رياء وسمعة، لم يزل في مقت الله حتى يجلس». وقال أبو يعلى: حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا محمد بن دينار، عن إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص، عن عوف بن مالك، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو، فتلك استهانة استهان بها ربه، ﷻ». وقال ابن جرير: حدثنا أبو عامر إسماعيل بن عمرو السكوني، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا ابن عياش، حدثنا عمرو بن قيس الكندي؛ أنه سمع معاوية بن أبي سفيان تلا هذه الآية: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ لَعَلَّاهُ﴾، وقال: إنها آخر آية نزلت من القرآن. وهذا أثر مشكل، فإن هذه الآية هي آخر سورة الكهف. والكهف كلها مكية، ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها ما ينسخها ولا يغير حكمها، بل هي مثبتة محكمة، فاشتبه ذلك على بعض الرواة، فروى بالمعنى ما فهمه، والله أعلم. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، حدثنا النضر بن شميل، حدثنا أبو قُرَّة، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ في ليلة: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ لَعَلَّاهُ﴾، كان له من نور، من عدن أبين إلى مكة حشوه الملائكة». غريب جداً.

آخر تفسير سورة الكهف

وله الحمد



تفسير سورة مريم عليها السلام

وهي مكية. وقد روى محمد بن إسحاق في السيرة من حديث أم سلمة، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود، في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة: أن جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كَهِنَسَ ۝ ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ يَدَّاهُ خِفْيَا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْفُؤَادُ مِنِّي وَأَشْتَمَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْتِ مِن دَوْلَىٰ وَكَانَتِ أُمْرَآئِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا ۝ يَرْبُّنِي ذَرِكْ مِن مَّالِ يَعْقُوبَ ۝ وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَسِيًّا ۝﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة. وقوله: ﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أي: هذا ذكر رحمة الله بعبد زكريا. وقرأ يحيى بن يعمر ﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ۝﴾. و ﴿زَكَرِيَّا﴾ يمد ويقصر قراءتان مشهورتان. وكان نبياً عظيماً من أنبياء بني إسرائيل. وفي صحيح البخاري: أنه كان نجاراً، أي: كان يأكل من عمل يديه في التجارة. وقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ يَدَّاهُ خِفْيَا ۝﴾: قال بعض المفسرين: إنما أخفى دعاءه، لثلا ينسب في طلب الولد إلى الرعونة لكبره. حكاه الماوردي. وقال آخرون: إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله. كما قال قتادة في هذه الآية: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ يَدَّاهُ خِفْيَا ۝﴾: إن الله يعلم القلب التقى، ويسمع الصوت الخفي. وقال بعض السلف: قام من الليل، عليه السلام، وقد نام أصحابه، فجعل يهتف

بريه يقول خفية: يا رب، يا رب، يا رب فقال الله: ليبيك، ليبيك، ليبيك. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي: ضعفت وخارت القوى، ﴿وَأَسْتَعْلُ الرَّأْسَ شَيْئًا﴾ أي: اضطرم المشيب في السواد، كما قال ابن دُرَيْدٍ في مقصورته:

إِنَّمَا تَرَنِّي رَأْسِي خَاكِي لَوْنُهُ طُرَّةٌ صُبُحَ تَحْتِ أَذْيَالِ الدُّجَى
وَأَسْتَعْلُ الْمُبْيَضَ فِي مَشْوَدِهِ بِمِثْلِ اسْتِعَالِ الثَّارِ فِي جَمْرِ الْقَضَا

والمراد من هذا: الإخبار عن الضعف والكبر، ودلائله الظاهرة والباطنة. وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي: ولم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء، ولم تردني قط فيما سألتك. وقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْتِ مِن دَوْلَى﴾: قرأ الأكثرون بنصب «الياء» من ﴿الْمَوْتِ﴾ على أنه مفعول، وعن الكسائي أنه سكن الياء، كما قال الشاعر:

كَأَنَّ أَيْدِيَهُنَّ فِي الْقَاعِ الْفُرْقِ أَيْدِي جَوَارٍ يَسْتَطَاطِينَ الْوَرَقِ
وقال الآخر:

فَتَى لَوْ يُبَارِي الشَّمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا أَوْ الْقَمَرَ السَّارِيَ لَأَلْقَى الْمَقَالِدَا
ومنه قول أبي تمام حبيب بن أوس الطائي:

تَغَايِرَ الشُّعْرِ فِيهِ إِذَا سَهَرَتْ لَهُ حَتَّى ظَنَنْتُ قُوفَانِيهِ سَتَقْتَتِلُ

وقال مجاهد، وقتادة، والسدي: أراد بالموالي العصبية. وقال أبو صالح: الكلاله. وروي عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، أنه كان يقرأها: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْتِ مِن دَوْلَى﴾ بتشديد «الفاء» بمعنى: قلت عصباتي من بعدي. وعلى القراءة الأولى، وجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفاً سيئاً، فسأل الله ولداً، يكون نبياً من بعده، ليسوسهم بنبوته وما يوحى إليه. فأجيب في ذلك، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده أن يأنف من وراثته عصبته له، ويسأل أن يكون له ولد، فيحوز ميراثه دونه دونهم. هذا وجه.

الثاني: أنه لم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجاراً يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالاً ولا سيما الأنبياء، عليهم السلام، فإنهم كانوا أزهّد شيء في الدنيا.

الثالث: أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه: أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تُورَثُ، ما تركنا فهو صدقة». وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: «نحن معشر الأنبياء لا نورث». وعلى هذا فتعين حمل قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرْثُنِي﴾ على ميراث النبوة؛ ولهذا قال: ﴿يَرْثُنِي مِن آلِ يَعْقُوبَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَوَيْتَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦] أي: في النبوة؛ إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فولوا أنها وراثه خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويشبهه ما صح في الحديث: «نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة». قال مجاهد في قوله: ﴿يَرْثُنِي وَيَرْثُ مِن آلِ يَعْقُوبَ﴾ قال: كان وراثته علماً وكان زكريا من ذرية يعقوب. وقال هشيم: أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح في قوله: ﴿يَرْثُنِي وَيَرْثُ مِن آلِ يَعْقُوبَ﴾ قال: قد يكون نبياً كما كانت أباه أنبياء. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، عن الحسن، يورث نبوته وعلمه. وقال السدي: يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب. وعن مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿يَرْثُنِي مِن آلِ يَعْقُوبَ﴾ قال: نبوتهم. وقال جابر بن نوح ويزيد بن هارون، كلاهما عن إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح في قوله: ﴿يَرْثُنِي وَيَرْثُ مِن آلِ يَعْقُوبَ﴾ قال: يرث مالي، ويرث من آل يعقوب النبوة. وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة: أن رسول الله ﷺ قال: «يرحم الله زكريا، وما كان عليه من ورثة، ويرحم الله لوطاً، إن كان ليأوي إلى ركن شديد». وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا جابر بن نوح، عن مبارك - هو ابن فضالة - عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أخي زكريا، ما كان عليه من ورثة ماله حين يقول: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرْثُنِي وَيَرْثُ مِن آلِ يَعْقُوبَ﴾». وهذه مراسلات لا تعارض الصحاح، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَجْمَلُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي: مرضياً عندك وعند خلقك، تحبه وتحببه إلى خلقك في دينه وخلقه.

﴿يَرْكَرِكُنَا إِنَّا نُنِيرُكَ بِعُلَمٍ أَسْمُ بَيِّنٍ كَمْ جَعَلَ لَمْ مِنْ قَبْلِ سَيِّئًا﴾.

هذا الكلام يتضمن محذوفاً، وهو أنه أجيب إلى ما سأل في دعائه فقيل له: ﴿يَرْكَرِكُنَا إِنَّا نُنِيرُكَ بِعُلَمٍ أَسْمُ بَيِّنٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [٢٨] فَدَافَعَهُ الْمَلَكُ وَهُوَ قَائِمٌ يُسَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُنِيرُكَ بِعِلْمٍ مُّصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ [٢٩] قال عمران: ٣٨، ٣٩. وقوله: ﴿كَمْ جَعَلَ لَمْ مِنْ قَبْلِ سَيِّئًا﴾.

سَيِّئًا: قال قتادة، وابن جريج، وابن زيد: أي لم يسم أحد قبله بهذا الاسم، واختاره ابن جرير، رحمه الله. وقال مجاهد: ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَّهُ مِنْ قَبْلُ سَيِّئًا﴾ أي: شبيهاً. أخذه من معنى قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِحُكْمِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَيِّئًا﴾ [مريم: ٦٥] أي: شبيهاً. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي لم تلد العواقر قبله مثله. وهذا دليل على أن زكريا، عليه السلام، كان لا يولد له، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها، بخلاف إبراهيم وسارة، عليهما السلام، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق على كبرهما لا لعقرهما؛ ولهذا قال: ﴿أَنْشُرُثُومِي عَلَى أَنْ مَسَّكَ الْكَبِيرُ فِيمَ ثُبُرُونُ﴾ [الحجر: ٥٤] مع أنه كان قد ولد له قبله، إسماعيل بثلاث عشرة سنة وقالت امرأته: ﴿يُولَدُ لِي وَلَدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ أَلَوْ أَتَمَّعْتَيْنِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَرَكْنَتُمْ عَلَيْكُمُ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حِيدٌ بَحِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [مرد: ٧٢، ٧٣].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي بَكُورٌ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾.

هذا تعجب من زكريا، عليه السلام، حين أجيب إلى ما سأل، وبُشِّرَ بالولد، وفرحاً شديداً، وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها، ومع أنه قد كبر وعتا، أي عسا عظمه ونحل ولم يبق فيه لقاح ولا جماع. تقول العرب للعود إذا يبس: ﴿عَتَا يَغْتَوِ عِتْيًا وَعُثْوًا﴾ وعسا يَغْسُو عُسْرًا وعسياً. وقال مجاهد: ﴿عِتْيًا﴾ بمعنى: نحول العظم. وقال ابن عباس وغيره: ﴿عِتْيًا﴾ يعني: الكبر. والظاهر أنه أخص من الكبر. وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا هشيم، أخبرنا حصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لقد علمت السنة كلها، غير أنني لا أدري أكان رسول الله ﷺ يقرأ في الظهر والعصر أم لا؟ ولا أدري كيف كان يقرأ هذا الحرف: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أو ﴿عِتْيًا﴾. ورواه الإمام أحمد عن سُرَيْج بن النعمان، وأبو داود، عن زياد بن أيوب، كلاهما عن هشيم، به. ﴿قَالَ﴾ أي الملك محبباً لزكريا عما استعجب منه: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ أي: إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها ﴿هَيْنٌ﴾ أي: يسير سهل على الله. ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان: ١٠].

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١١﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعِيتًا ﴿١٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن زكريا، عليه السلام، أنه ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً﴾ أي: علامة ودليلاً على وجود ما وعدتني، لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني كما قال إبراهيم، عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ قَالَ بَلْ وَلَكِنْ لِيُطَمِّنَنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]. ﴿قَالَ آيَتُكَ﴾ أي: علامتك ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي: أن تجلس لسانك عن الكلام ثلاث ليال وأنت صحيح سوي من غير مرض ولا علة. قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وهب بن منبه، والسدي وقاتدة وغير واحد: اعتقل لسانه من غير مرض. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي: متتابعات. والقول الأول عنه وعن الجمهور أصح، كما قال تعالى في أول آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالنَّيْتِ وَالْإِنْكَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ٤١]. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ من غير خرس. وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها ﴿إِلَّا رَمْرًا﴾ أي: إشارة؛ ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أي: الذي بشر فيه بالولد، ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ أي: أشار إشارة خفية سريعة: ﴿أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعِيتًا﴾ أي: موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله، وشكراً لله على ما أولاه. قال مجاهد: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ أي: أشار. وبه قال وهب، وقاتدة. وقال مجاهد في رواية عنه: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ أي: كتب لهم في الأرض. كذا قال السدي.

﴿يَبْتَغِيْ حَيْثُ الْكَسْبُ بِقُوَّةٍ وَمَا يَنْتَهِ إِلَيْكُمْ مِّمَّا صَبَّأْ وَحَسَاوِنَ لَدْنَا وَذِكْرًا وَكَاتِ تَفِيًّا ﴿١٤﴾ وَبَرًّا بِلَدَيْنِهِ وَلَمْ يَكُنْ جَنَازًا عَاصِيًّا ﴿١٥﴾﴾.

وهذا أيضاً تضمن محذوفاً، تقديره: أنه وجد هذا الغلام المبشر به، وهو يحيى، عليه السلام، وأن الله علمه الكتاب، وهو التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والريانيون والأخبار. وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً، فلماذا نوه بذكره، وبما أنعم به عليه وعلى والديه، فقال: ﴿يَبْتَغِيْ حَيْثُ الْكَسْبُ بِقُوَّةٍ﴾ أي: تعلم الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي:

بجد وحرص واجتهاد ﴿وَأَتَيْنَهُ الْمَلَكُ مَيِّتًا﴾ أي: الفهم والعلم والجهد والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه وهو صغير حديث السن. قال عبد الله بن المبارك: قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب. قال: ما للعب خلقت، قال: فلهذا أنزل الله: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْمَلَكُ مَيِّتًا﴾.

وقوله: ﴿وَحَنَانًا يِّنَ لَّدُنَّا﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَحَنَانًا يِّنَ لَّدُنَّا﴾ يقول: ورحمة من عندنا. وكذا قال عكرمة، وقتادة، والضحاك وزاد: لا يقدر عليها غيرنا. وزاد قتادة: رُجِم بها زكريا. وقال مجاهد: ﴿وَحَنَانًا يِّنَ لَّدُنَّا﴾: وتعطفاً من ربه عليه. وقال عكرمة: ﴿وَحَنَانًا يِّنَ لَّدُنَّا﴾ قال: محبة عليه. وقال ابن زيد: أما الحنان فالمحبة. وقال عطاء بن أبي رباح: ﴿وَحَنَانًا يِّنَ لَّدُنَّا﴾، قال: تعظيماً من لدنا. وقال ابن جريج: أخبرني عمرو بن دينار، أنه سمع عكرمة عن ابن عباس قال: لا والله ما أدري ما حناناً. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن منصور: سألت سعيد بن جبيرة عن قوله: ﴿وَحَنَانًا يِّنَ لَّدُنَّا﴾، فقال: سألت عنها ابن عباس، فلم يحرف فيها شيئاً. والظاهر من هذا السياق أن: ﴿وَحَنَانًا يِّنَ لَّدُنَّا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْمَلَكُ مَيِّتًا﴾ أي: وأتيته بالحكم وحناناً، ﴿وَزَكَاةً﴾ أي: وجعلناه ذا حنان وزكاة، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل كما تقول العرب: حنت الناقة على ولدها، وحنن المرأة على زوجها. ومنه سميت المرأة «حَنَّةً» من الحَنَّة، وحن الرجل إلى وطنه، ومنه التعطف والرحمة، كما قال الشاعر:

تَحَنُّنٌ عَلَىٰ مَذَاكِ الْمَلِكِ فَإِنْ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالَا
وفي المسند للإمام أحمد، عن أنس، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يبقى رجل في النار ينادي ألف سنة: يا حنان يا منان». وقد يُثني، ومنهم من يجعل ما ورد من ذلك لغة بذاتها، كما قال طرفة:

أَنَا مُنْذِرُ أَفْنِيَّتٍ فَاسْتَبِقْ بَغْضًا حَتَّىٰ نَبْغِضَ الشَّرَّ أَفْهُونُ مِنْ بَغْضِ
وقوله: ﴿وَزَكَاةً﴾ معطوف على ﴿وَحَنَانًا﴾ فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب. وقال قتادة: الزكاة العمل الصالح. وقال الضحاك وابن جريج: العمل الصالح الزكي. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَزَكَاةً﴾ قال: بركة ﴿وَكَاةً نَقِيًّا﴾: طهر، فلم يعمل بذنوب. وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَوْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾: ﴿١٦﴾ لما ذكر تعالى طاعته لربه، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقى، عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبة عقوقهما، قولاً وفعلًا وأمرًا ونهيًا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾. ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ ﴿١٧﴾ أي: له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال. وقال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن: يوم يولد، فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث، فيرى نفسه في محشر عظيم. قال: فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلام عليه، فقال: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ ﴿١٧﴾. رواه ابن جرير عن أحمد بن منصور المروزي عن صدقة بن الفضل عنه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة، في قوله: ﴿جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، قال: كان ابن المسيب يذكر قال: قال النبي ﷺ: «ما من أحد يلقى الله يوم القيامة إلا إذا ذنب، إلا يحيى بن زكريا». قال قتادة: ما أذنبت ولا هم بامرأة، مرسل. وقال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، حدثني ابن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب، إلا ما كان من يحيى بن زكريا». ابن إسحاق هذا مدلس، وقد عنعن هذا الحديث، فالله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أخبرنا علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ، أو هم بخطيئة، ليس يحيى بن زكريا، وما ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى». وهذا أيضاً ضعيف؛ لأن علي بن زيد بن جدعان له منكرات كثيرة، والله أعلم. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة: أن حسن قال: إن يحيى وعيسى، عليهما السلام، التقيا، فقال له عيسى: استغفر لي، أنت خير مني. فقال له الآخر: استغفر لي فأنت خير مني. فقال له عيسى: أنت خير مني، سلمت على نفسي، وسلم الله عليك، فَعَرَفَ والله فضلها.

﴿وَأَكْذَرُ فِي الْكِتَابِ مَرَمَ إِذْ أَنْبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ ﴿١٨﴾ فَأَخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ إِنَّيَأُوعِدُ بِالْحَمْنِ مِنْكَ إِن كُنْتُ نَبِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿٢١﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ نَبِيًّا ﴿٢٢﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَئِنَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَاتَ أَمْرًا تَقْبِضِينَ ﴿٢٣﴾
لما ذكر تعالى قصة زكريا، عليه السلام، وأنه أوجد منه، في حال كبره وعقم زوجته، ولدًا زكيًا طاهرًا مباركاً - عطف بذكر قصة

مريم في إيجاده ولدها عيسى، عليهما السلام، منها من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة؛ ولهذا ذكرهما في آل عمران وهما وفي سورة الأنبياء، يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى، ليدل عباده على قدرته وعظمته سلطانه، وأنه على ما يشاء قادر، فقال: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ وهي مريم بنت عمران، من سلالة داود، عليه السلام، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل. وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها في «آل عمران»، وأنها نذرتها محررة، أي: تخدم مسجد بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَلْبَسَهَا ثِيَابًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة والتبذل والدؤوب، وكانت في كفالة زوج أختها - وقيل: خالتها - زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم، الذي يرجعون إليه في دينهم. ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَوْجَهَا الْغُرَابُ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنَزَّلُ إِلَيْهِ لُتَّى لَبَّيْ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] فذكر أنه كان يجد عندها ثمر الشتاء في الصيف وثمر الصيف في الشتاء، كما تقدم بيانه في «آل عمران». فلما أراد الله تعالى - وله الحكمة والحجة البالغة - أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى، عليه السلام، أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام، ﴿أَنْبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أي: اعترلتهم وتنحت عنهم، وذهبت إلى شرق المسجد المقدس. قال السدي: لحيض أصابها. وقيل لغير ذلك. قال أبو كذبة، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه، وما صرفهم عنه إلا قيل ربك: ﴿أَنْبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾، قال: خرجت مريم مكاناً شرقياً، فصلوا قبل مطلع الشمس. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا إسحاق بن شاهين، حدثنا خالد بن عبد الله، عن داود، عن عامر، عن ابن عباس قال: إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبله؛ لقول الله تعالى: ﴿أَنْبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ واتخذوا ميلاد عيسى قبله. وقال قتادة: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾: شاسعاً متنجساً. وقال محمد بن إسحاق: ذهبت بقلتها تستقي من الماء. وقال نوف البكالي: اتخذت لها منزلاً تتعبد فيه. فله أعلم. وقوله: ﴿فَأَنْخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي: استترت منهم وتوارت، فأرسل الله تعالى إليهم جبريل، عليه السلام، ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي: على صورة إنسان تام كامل. قال مجاهد، والضحاك، وقاتة وابن جريج، وهب بن منبه، والسدي في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ يعني: جبريل، عليه السلام.

وهذا الذي قالوه هو ظاهر القرآن؛ فإنه تعالى قد قال في الآية الأخرى: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ﴾ [١٣٦] عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: إن روح عيسى، عليه السلام، من جملة الأرواح التي أخذ عليها العهد في زمان آدم، وهو الذي تمثل لها بشراً سوياً، أي: روح عيسى، فحملت الذي خاطبها وحل في فيها. وهذا في غاية الغرابة والنكارة، وكأنه إسرائيلي. ﴿قَالَتْ إِنَّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا﴾ [١٧] أي: لما تبدي لها الملك في صورة بشر، وهي في مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب، خافته وظنت أنه يريد على نفسها، فقالت: ﴿إِنَّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا﴾ أي: إن كنت تخاف الله. تذكير له بالله، وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل، فخوفته أولاً بالله، ﷻ. قال ابن جرير: حدثني أبو كريب، حدثنا أبو بكر، عن عاصم قال: قال أبو وائل - وذكر قصة مريم - فقال: قد علمت أن التقى ذو نهيّة حين قالت: ﴿إِنَّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّي﴾ أي: فقال لها الملك مجيباً لها ومزيلاً ما حصل عندها من الخوف على نفسها: لست مما تظنين، ولكني رسول ربك، أي: بعثني إليك، ويقال: إنها لما ذكرت الرحمن انتفض جبريل فرقاً وعاد على هيئته وقال: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّي لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾. هكذا قرأ أبو عمرو بن العلاء أحد مشهوري القراء. وقرأ الآخرون: ﴿لِيَأْهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾. وكلا القراءتين له وجه حسن، ومعنى صحيح، وكل تستلزم الأخرى. ﴿قَالَتْ أَنِّي بَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [١٨] أي: فتعجبت مريم من هذا وقالت: كيف يكون لي غلام؟ أي: على أي صفة يوجد هذا الغلام مني، ولست بذات زوج، ولا بتصور مني الفجور؛ ولهذا قالت: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾. والبغي: هي الزانية؛ ولهذا جاء في الحديث نهي عن مهر البغي. ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ﴾ أي: فقال لها الملك مجيباً لها عما سألت: إن الله قد قال: إنه سيوجد منك غلاماً، وإن لم يكن لك بعمل ولا توجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر؛ ولهذا قال: ﴿وَلَنَجْعَلَ لَكَ لَآئِينَ﴾ أي: دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم، الذي نوع في خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه فلا إله غيره ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ أي: ونجعل هذا الغلام رحمة من الله نبياً من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِخَيْرٍ مِّمَّا يَكْتُمُونَ إِنَّهُ آتِيكِ بِغُلَامٍ مِّنْ أَهْلِ الْمَعِينِ﴾ [٢١] (آل عمران: ٤٥، ٤٦) أي: يدعو إلى عبادة الله ربه في مهده وكهولته. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحيم بن إبراهيم - دُحَيْمٌ - حدثنا مروان، حدثنا العلاء بن الحارث الكوفي، عن مجاهد قال: قالت مريم: عليها السلام: كنت إذا خلوت حدثني عيسى وكلمني وهو في بطني، وإذا كنت مع الناس سُبِّحَ في بطني وكثير.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم، يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى وقدره ومشيته. ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأنه كنى بهذا عن النفخ في فرجها، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّاهُ عَنْ عَذْرَاءٍ مَّكَانًا مَّقْصُودًا﴾ [الرحيم: ١٢]، وقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا فَفَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]. قال محمد بن إسحاق: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: أن الله قد عزم على هذا، فليس منه بد، واختار هذا أيضاً ابن جرير في تفسيره، ولم يحك غيره، والله أعلم.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهَا مَكَانًا قُصِيًّا﴾ [٢٢] فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَنَاحِ النَّخْلِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ فَبَلْ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا﴾ [٢٣] يقول تعالى مخبراً عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال، أنها استسلمت لقضاء الله تعالى. فذكر غير واحد من علماء السلف أن الملك - وهو جبريل عليه السلام - عند ذلك نفخ في جيب درعها، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج، فحملت بالولد بإذن الله تعالى. فلما حملت به ضاقت ذرعاً به، ولم تدر ماذا تقول للناس، فأنها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم به، غير أنها أفشت سرها وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا. وذلك أن زكريا، عليه السلام، كان قد سأل الله الولد، فأجيب إلى ذلك، فحملت امرأته، فدخلت عليها مريم فقامت إليها فاعتقتها، وقالت: أشعرت يا مريم أني حبل؟ فقالت لها مريم: وهل علمت أيضاً أني حبل؟ وذكرت لها شأنها وما كان من خبرها وكانوا بيت إيمان وتصديق، ثم كانت امرأة زكريا بعد ذلك إذا واجهت مريم تجد الذي في جوفها يسجد للذي في بطن مريم، أي: يعظمه ويخضع له، فإن السجود كان في ملتهم عند السلام مشروعاً، كما سجد ليوسف أبواه وإخوته، وكما أمر الله الملائكة أن تسجد لآدم، عليه السلام، ولكن حرم في ملتنا هذه تكميلاً لتعظيم جلال الرب تعالى. قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين قال: قرئ على الحارث بن مسكين وأنا أسمع، قال: أخبرنا عبد الرحمن بن القاسم قال: قال مالك، رحمه الله: بلغني أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة، وكان حملهما جميعاً معاً، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم: إني أرى أن ما في بطني يسجد لما في بطنك. قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى، عليه السلام؛ لأن الله جعله يحيى الموتى ويرى الأكمه والأبرص.

ثم اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى، عليه السلام، فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر. وقال عكرمة: ثمانية أشهر. قال: ولهذا لا يعيش ولد لثمانية أشهر. وقال ابن جريج: أخبرني المغيرة بن عثمان بن عبد الله الثقفي، سمع ابن عباس وسئل عن حبل مريم، قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت. وهذا غريب، وكأنه أخذه من ظاهر قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهَا مَكَانًا قُصِيًّا﴾ [٢٢] فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَنَاحِ النَّخْلِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ فَبَلْ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا﴾ [٢٣] كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾ [١٧] ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْلَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [١٨] خَلَقْنَا نَفْلَةً عُلْفَةً فَخَلَقْنَا الْعُلْفَةَ مَضْجَعًا فَخَلَقْنَا الْمَضْجَعَةَ عِظْمًا﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]، فهذه الغاء للتعقيب بحسبها. وقد ثبت في الصحيحين: أن بين كل صفتين أربعين يوماً. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ مَوْحِيًا مَّا تُصَوِّغُ الْأَرْضَ مَخَضَرَةً﴾ [الحج: ٦٣]. فالمشهور الظاهر - والله على كل شيء قدير - أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن؛ ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل عليها وكان معها في المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها البيت المقدس، يقال له: يوسف النجار، فلما رأى ثقل بطنها وكبره، أنكر ذلك من أمرها، ثم صرفه ما يعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها، ثم تأمل ما هي فيه، فجعل أمرها يجوس في فكره، لا يستطيع صرفه عن نفسه، فحمل نفسه على أن عرض لها في القول، فقال: يا مريم، إني سائلك عن أمر فلا تعجلي علي. قالت: وما هو؟ قال: هل يكون قط شجر من غير حب؟ وهل يكون زرع من غير بذر؟ وهل يكون ولد من غير أب؟ فقالت: نعم - فهمت ما أشار إليه - أما قولك: «هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر؟» فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر، «وهل خلق يكون من غير أب؟» فإن الله قد خلق آدم من غير أب ولا أم. فصدقها، وسلم لها حالها. ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريبة، انتبذت منهم مكاناً قصياً، أي: قاصياً منهم بعيداً عنهم، لئلا تراههم ولا يروها. قال محمد بن

إسحاق: فلما حملت به وملأت قلتها ورجعت، استمسك عنها الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والترحم وتغير اللون، حتى فطّر لسانها، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا، وشاع الحديث في بني إسرائيل، فقالوا: «إنما صاحبها يوسف»، ولم يكن معها في الكنيسة غيره، وتوارت من الناس، واتخذت من دونهم حجاباً، فلا يراها أحد ولا تراه.

وقوله: ﴿فَلَمَّا هَا آتَمَخَاضٌ إِلَى يَمْنَعِ النَّحْلَةِ﴾ أي: فاضطرها والجأها الطلق إلى جذع النخلة. وهي نخلة في المكان الذي تحت إليه. وقد اختلفوا فيه، فقال السدي: كان شرقي محرابها الذي تصلي فيه من بيت المقدس. وقال وهب بن منبه: ذهبت هاربة، فلما كانت بين الشام وبلاد مصر، ضربها الطلق. وفي رواية عن وهب: كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس، في قرية هناك يقال لها: «بيت لحم». قلت: وقد تقدم في حديث الإسراء، من رواية النسائي عن أنس، رضي الله عنه، والبيهقي عن شدّاد بن أوس، رضي الله عنه: أن ذلك ببيت لحم. فالله أعلم، وهذا هو المشهور الذي تلقاه الناس بعضهم عن بعض، ولا تشك فيه النصارى أنه ببيت لحم، وقد تلقاه الناس. وقد ورد به الحديث إن صح. وقوله تعالى إخباراً عنها: ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًا مَنْسِيًا﴾، فيه دليل على جواز تمنّي الموت عند الفتنة؛ فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتنع بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها في خيرها، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، فقالت: ﴿يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا﴾ أي: قبل هذا الحال، ﴿وَكُنْتُ نَسِيًا مَنْسِيًا﴾ أي: لم أخلق ولم أك شيئاً. قاله ابن عباس. وقال السدي: قالت وهي تطلق من الحبل - استحياء من الناس: يا ليتني مت قبل هذا الكرب الذي أنا فيه، والحزن بولادتي المولود من غير بغل ﴿وَكُنْتُ نَسِيًا مَنْسِيًا﴾ نسيي فترك طلبه، كجَزَقَ الحيض التي إذا أقيمت وطرح لم تطلب ولم تذكر. وكذلك كل شيء نسيي وترك فهو نسيي. وقال قتادة: ﴿وَكُنْتُ نَسِيًا مَنْسِيًا﴾ أي: شيئاً لا يعرف، ولا يذكر، ولا يدري من أنا. وقال الربيع بن أنس: ﴿وَكُنْتُ نَسِيًا مَنْسِيًا﴾ وهو السقط. وقال ابن زيد: لم أكن شيئاً قط. وقد قدمنا الأحاديث الدالة على النهي عن تمنّي الموت إلا عند الفتنة، عند قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ يوسف: ١٠١.

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٢٤ وَهَرَىٰ إِلَيْكِ يَمْنَعُ النَّحْلَةَ لَشَقِيقَ عَلَيْكَ رَبُّكَ جَنَّاتٍ ۝٢٥ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَرَقَىٰ عَيْنًا ۝٢٦ فَمِمَّا تَرَىٰ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّبِّ غِيَاً صَوْمًا فَلَنُؤْكِمَنَّ الْيَوْمَ إِسْبِيًّا ۝٢٧﴾.

قرأ بعضهم: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ بمعنى: الذي تحتها. وقرأ آخرون: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ على أنه حرف جر. واختلف المفسرون في المراد بذلك من هو؟ فقال العوفي وغيره، عن ابن عباس: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾: جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها. وكذا قال سعيد بن جبيرة، والضحاك، وعمرو بن ميمون، والسدي، وقاتدة: إنه الملك جبريل، عليه الصلاة والسلام، أي: ناداها من أسفل الوادي. وقال مجاهد: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ قال: عيسى ابن مريم. وكذا قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قال: قال الحسن: هو ابنها. وهو إحدى الروایتين عن سعيد بن جبيرة: أنه ابنها، قال: أو لم تسمع الله يقول: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ لمريم: ٢٩ واختاره ابن زيد، وابن جرير في تفسيره. وقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ أي: ناداها قاتلاً: لا تحزني، ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قال سفيان الثوري وشعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قال: الجدول. وكذا قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: السري: النهر. وبه قال عمرو بن ميمون: نهر تشرب منه. وقال مجاهد: هو النهر بالسريانية. وقال سعيد بن جبيرة: السري: النهر الصغير بالنبطية. وقال الضحاك: هو النهر الصغير بالسريانية. وقال إبراهيم النخعي: هو النهر الصغير. وقال قتادة: هو الجدول بلغة أهل الحجاز. وقال وهب بن منبه: السري: هو ربيع الماء. وقال السدي: هو النهر. واختار هذا القول ابن جرير. وقد ورد في ذلك حديث مرفوع، فقال الطبراني: حدثنا أبو شعيب الخزازي: حدثنا يحيى بن عبد الله البابلي، حدثنا أيوب بن نهيك، سمعت عكرمة مولى ابن عباس يقول: سمعت ابن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن السري الذي قال الله لمريم: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾: نهر أخرجه الله لتشرب منه». وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه. وأيوب بن نهيك هذا هو الحبلي، قال فيه أبو حاتم الرازي: ضعيف. وقال أبو رزعة: منكر الحديث. وقال أبو الفتح الأزدي: متروك الحديث.

وقال آخرون: المراد بالسري: عيسى، عليه السلام. وبه قال الحسن، والربيع بن أنس، ومحمد بن عبيد بن جعفر. وهو إحدى الروایتين عن قتادة، وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والقول الأول أظهر؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَهَرَىٰ إِلَيْكِ يَمْنَعُ النَّحْلَةَ﴾ أي: وخذي إليك بجذع النخلة. قيل: كانت يابسة، قاله ابن عباس. وقيل: مشمرة. قال مجاهد: كانت عجوة. وقال الثوري، عن أبي داود نفعي الأعمى: كانت صرْقَانَةً. والظاهر أنها كانت شجرة، ولكن لم تكن في إبان ثمرها، قاله وهب بن منبه؛ ولهذا امتن عليها بذلك، أن جعل عندها طعاماً وشراباً، فقال: ﴿لَشَقِيقَ عَلَيْكَ رَبُّكَ جَنَّاتٍ ۝٢٥ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَرَقَىٰ عَيْنًا﴾ أي: طيبي

نفساً؛ ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا شيبان، حدثنا مسرور بن سعيد التميمي، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الأزاعي، عن غزوة بن زؤم، عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرموا عمتكم النخلة، فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم، عليه السلام، وليس من الشجر شيء يُلْقَح غيرها». وقال رسول الله ﷺ: «أطعموا نساءكم الولد الرطب، فإن لم يكن رطب فتمر، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران». هذا حديث منكر جداً، ورواه أبو يعلى، عن شيبان، به.

وقرأ بعضهم قوله: «سَقَطَ» بتشديد السين، وآخرون بتخفيفها. وقرأ أبو نهيك: «سَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا خَيْبًا»، وروى أبو إسحاق عن البراء، أنه قرأها: «سَقَطَ» أي: الجذع، والكل متقارب. وقوله: «فَأَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا» أي: مهما رأيت من أحد، «فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا»، المراد بهذا القول: الإشارة إليه بذلك. لا أن المراد به القول اللفظي، لثلاثين في: «لَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا». قال أنس بن مالك في قوله: «إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا» أي: صمتاً. وكذا قال ابن عباس، والضحاك. وفي رواية عن أنس: «صوما وصمتاً»، وكذا قال قتادة وغيرهما. والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام، نص على ذلك السدي، وقاتدة، وعبد الرحمن بن زيد. وقال أبو إسحاق، عن حارثة قال: كنت عند ابن مسعود، فجاء رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر، فقال: ما شأنك؟ قال أصحابه: حلف ألا يكلم الناس اليوم. فقال عبد الله بن مسعود: كَلِّم الناس وسلم عليهم، فإنما تلك امرأة علمت أن أحداً لا يصدقها أنها حملت من غير زوج - يعني بذلك مريم، عليها السلام - ليكون عذراً لها إذا سئلت. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، رحمهما الله. وقال عبد الرحمن بن زيد: لما قال عيسى لمريم: «الْأَحْزَنُ»، قالت: وكيف لا أحزن وأنت معي؟! لا ذات زوج ولا مملوكة، أي شيء عذري عند الناس؟ يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، قال لها عيسى: أنا أكفيك الكلام: «فَأَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا»، قال: هذا كله من كلام عيسى لأمه. وكذا قال وهب.

«فَأَنَّتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَبْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا قَرِيبًا» ﴿٧٧﴾ يَتَّخِذُ هُنُورًا مَا كَانَ أَبُوهُ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَيْتًا ﴿٧٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي آلِهَةٍ صَبِيًّا ﴿٧٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ مَنَّانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي بَيْتًا ﴿٨٠﴾ وَجَعَلَنِي مَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْعَلَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٨١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٨٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٨٣﴾.

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك، وألا تكلم أحداً من البشر، فإنها ستكفي أمرها ويقام بحجتها، فسلمت لأمر الله ﷻ، واستسلمت لقضائه، وأخذت ولدها «فَأَنَّتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ»، فلما راوها كذلك، أعظموا أمرها واستنكروه جداً، وقالوا: «يَبْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا قَرِيبًا» أي: أمراً عظيماً. قاله مجاهد، وقاتدة، والسدي، وغير واحد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا سيار، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا أبو عمران الجوني، عن نوف البكالي قال: وخرج قومها في طلبها، وكانت من أهل بيت نبوة وشرف. فلم يحسوا منها شيئاً، فأروا راعي بقر فقالوا: رأيت فتاة كذا وكذا نَعَثُها؟ قال: لا، ولكن رأيت الليلة من بقري ما لم أره منها قط. قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيتها سَجْدًا نحو هذا الوادي. قال عبد الله بن أبي زياد: وأحفظ عن سيار أنه قال: رأيت نوراً ساطعاً. فتوجهوا حيث قال لهم، فاستقبلتهم مريم، فلما رأتهم قعدت وحملت ابنها في حجرها، فجاءوا حتى قاموا عليها، «قَالُوا يَبْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا قَرِيبًا» أمراً عظيماً. «يَتَّخِذُ هُنُورًا» أي: يا شبيهة هارون في العبادة «مَا كَانَ أَبُوهُ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَيْتًا» أي: أنت من بيت طيب طاهر، معروف بالصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك؟ قال علي بن أبي طلحة، والسدي: قيل لها: «يَتَّخِذُ هُنُورًا» أي: أخي موسى، وكانت من نسله، كما يقال للتميمي: يا أخا تميم، وللمضري: يا أخا مضر. وقيل: نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون، فكانت تقاس به في العبادة، والزهادة. وحكى ابن جرير عن بعضهم: أنهم شبهوها برجل فاجر كان فيهم، يقال له: هارون. ورواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير. وأغرب من هذا كله ما رواه ابن أبي حاتم. حدثنا علي بن الحسين الهشجاني، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا المفضل بن فضالة، حدثنا أبو صخر، عن القُرظي في قول الله ﷻ: «يَتَّخِذُ هُنُورًا»، قال: هي أخت هارون لأبيه وأمه، وهي أخت موسى أخي هارون التي قُصِتْ أثر موسى، «فَصُرَّتْ بِهِ عَنْ جُثِّي وَهَمَّ لَا يَشْعُرُونَ» [القصة: ١١]. وهذا القول خطأ محض؛ فإن الله تعالى قد ذكر في كتابه أنه قَتَلَ يعيسى بعد الرسل، فدل على أنه آخر الأنبياء بعثاً وليس بعده إلا محمد صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا ثبت في الصحيح عند البخاري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا أولى الناس بابن مريم، إلا أنه ليس بيني وبينه نبي» ولو كان الأمر كما زعم محمد بن كعب

القرظي، لم يكن متأخراً عن الرسل سوى محمد. وكان قبل سليمان وداود؛ فإن الله قد ذكر أن داود بعد موسى، عليهما السلام، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى آلِ ثَمُودَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَدُو مُؤَمَّنٍ إِذْ قَالُوا لِنَجِيِّ لَهُمْ آتَيْتَ لَنَا مَلَكًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦] فذكر القصة إلى أن قال: ﴿وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، والذي جراً القرظي على هذه المقالة ما في التوراة بعد خروج موسى وبني إسرائيل من البحر، وإغراق فرعون وقومه، قال: وكانت مريم بنت عمران أخت موسى وهارون النبيين، تضرب بالدف هي والنساء معها يسبحن الله ويشكرنه على ما أنعم به على بني إسرائيل. فاعتقد القرظي أن هذه هي أم عيسى. وهي هفوة وغلطة شديدة، بل هي باسم هذه، وقد كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحهم، كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن إدريس، سمعت أبي يذكره عن سَمَاك، عن علقمة بن وائل، عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران، فقالوا: أرأيت ما تقرؤون: ﴿يَتَأَخَّثُ هَرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يَتَسَمَّونَ بالأنبياء والصالحين قبلهم؟». انفرد بإخراجه مسلم، والترمذي، والنسائي، من حديث عبد الله بن إدريس، عن أبيه، عن سَمَاك، به، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُثَيْم، عن سعيد بن أبي صدقة، عن محمد بن سيرين قال: ثُبَّتْ أن كعباً قال: إن قوله: ﴿يَتَأَخَّثُ هَرُونَ﴾: ليس بهارون أخي موسى. قال: فقالت له عائشة: كذبت، قال: يا أم المؤمنين، إن كان النبي ﷺ قاله، فهو أعلم وأخبر، وإلا فلاني أجد بينهما ستمائة سنة. قال: فسكت. وفي هذا التاريخ نظير. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قوله: ﴿يَتَأَخَّثُ هَرُونَ مَا كَانَ أَوْلَىٰ أَمْرًا سَوَوْ وَمَا كَانَتْ أُمْلَكُ بَيْتًا﴾ [١٨٨] قال: كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح، ولا يعرفون بالفساد، ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به، وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدون به. وكان هارون مصلحاً محبباً، في عشيرته، وليس بهارون أخي موسى، ولكنه هارون آخر، قال: وذكر لنا أنه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفاً، كلهم يسمون هارون، من بني إسرائيل.

وقوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [١٨٩] أي: إنهم لما استرابوا في أمرها واستكروا قضيتها، وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامته، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متوهمين بها، ظانين أنها تزدرى بهم وتلعب بهم: ﴿كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا؟﴾ قال ميمون بن مهران: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾، قالت: كلموه. فقالوا: على ما جاءت به من الداهية تأمرنا أن نكلم من كان في المهد صبيّاً! وقال السدي: لما أشارت إليه غضبوا، وقالوا: لَسُخْرِئُهَا بَنَّا حِينَ تَأْمُرُنَا أَنْ نَكَلِّمَ هَذَا الصَّبِيَّ أَشَدَّ عَلَيْنَا مِنْ زَنَاها. ﴿قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا؟﴾ أي: من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره، كيف يتكلم؟ قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى، وبرأ الله عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه. وقوله: ﴿ءَاتَيْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾: تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة. قال نوف الكالبي: لما قالوا لأمه ما قالوا، كان يرتضع ثدي، فترع الثدي من فمه، واتكأ على جنبه الأيسر، وقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَيْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، إلى قوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾. وقال حماد بن سلمة، عن ثابت البناني: رفع إصبعه السبابة فوق منكبه، وهو يقول: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَيْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ الآية. وقال عكرمة: ﴿ءَاتَيْنِي الْكِتَابَ﴾ أي: قضى أنه يؤتيني الكتاب فيما قضى. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن المصنف، حدثنا يحيى بن سعيد، عن عبد العزيز بن زياد، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: كان عيسى ابن مريم قد درس الإنجيل وأحكمه في بطن أمه فذلك قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَيْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾. يحيى بن سعيد العطار الحمصي: متروك.

وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾، قال مجاهد، وعمر بن قيس، والثوري: وجعلني معلماً للمخير. وفي رواية عن مجاهد: نَقَاعاً. وقال ابن جرير: حدثني سليمان بن عبد الجبار، حدثنا محمد بن يزيد بن حُنَيْسٍ المخزومي، سمعت وهيب بن الورد مولى بني مخزوم قال: لقي عالم عالماً هو فوقه في العلم، فقال له: يرحمك الله، ما الذي أعلن من عملي؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإنه دين الله الذي بعث به أنبياءه إلى عباده، وقد أجمع الفقهاء على قول الله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾، وقيل: ما بركته؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أينما كان.

وقوله: ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ كقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَأَعِذْ رَبِّكَ حَتَّىٰ بِأَيِّكَ الْآفَاقُ﴾ [الحجر: ٩٩]. وقال عبد الرحمن بن القاسم، عن مالك بن أنس في قوله: ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾، قال: أخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت، ما أثبتها لأهل القدر. وقوله: ﴿وَبِئْرٍ يُؤَيِّنُ﴾ أي: وأمرني ببر والدي، ذكره بعد طاعة الله ربه؛ لأن الله

تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَصَّ رَبُّكَ إِلَّا قَبْدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَإِلَّا تَزِدَّ لِلْكَافِرِينَ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَى الْأَبْصِيرِ﴾ [النعمان: ١٤]. وقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي: ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والدتي، فأشقى بذلك. قال سفيان الثوري: الجبار الشقي: الذي يقبل على الغضب. وقال بعض السلف: لا تجد أحداً عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً، ثم قرأ: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْنِيَّ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [٢٣]، قال: ولا تجد سيئاً للملكة إلا وجدته مختلاً فخوراً، ثم قرأ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِثُّ مَنْ كَانَ مُحْتَاكاً فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]. وقال قتادة: ذكر لنا أن امرأة رأت ابن مريم يحيي الموتى ويرى الأكمه والأبرص، في آيات سلطه الله عليهن، وأذن له فيهن، فقالت: طوبى للبطن الذي حملك والثدي الذي أرضعت به، فقال نبي الله عيسى، عليه السلام، يجيبها: طوبى لمن تلا كلام الله، فاتبع ما فيه ولم يكن جباراً شقياً.

وقوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [٢٣]: إثبات منه لعبوديته الله عز وجل، وأنه مخلوق من خلق الله يحيى، ويموت ويبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [٢٤] مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَنْجِدَ مِنْ وَلِيِّهِ سُبْحَتَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٦﴾ فَأَخْلَفَ الْآخَرَاءُ مِنْ بَنِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ذلك الذي قصصنا عليك من خبر عيسى، ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به؛ ولهذا قرأ الأكثرون: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ برفع قول. وقرأ عاصم، وعبد الله بن عامر: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾. وعن ابن مسعود أنه قرأ: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾، والرفع أظهر إعراباً، ويشهد له قوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [٢٥] قال عمران: [٦٠]. ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً، نزه نفسه المقدسة فقال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَنْجِدَ مِنْ وَلِيِّهِ سُبْحَتَهُ﴾ أي: عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علواً كبيراً، ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: إذا أراد شيئاً فإنما يأمرك به، فيصير كما يشاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [٥٩] الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ قال عمران: [٥٩، ٦٠].

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [٢٦] أي: ومما أمر عيسى به قومه وهو في مهده، أن أخبرهم إذا ذك أن الله ربهم وربهم، وأمرهم بعبادته، فقال: ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: هذا الذي جنتكم به عن الله صراط مستقيم، أي: قويم، من اتبعه رشد وهدى، ومن خالفه ضلّ وغوى. وقوله: ﴿فَأَخْلَفَ الْآخَرَاءُ مِنْ بَنِيهِمْ﴾ أي: اختلفت أقوال أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فضممت طائفة - وهم جمهور اليهود، عليهم لعائن الله - على أنه ولد زنيّة، وقالوا: كلامه هذا سحر. وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم الله. وقال آخرون: هو ابن الله. وقال آخرون: ثالث ثلاثة. وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله. وهذا هو قول الحق، الذي أرشد الله إليه المؤمنين. وقد روي نحو هذا عن عمرو بن ميمون، وابن جريج، وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف. قال عبد الرزاق: أخبرنا مغمّر، عن قتادة في قوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [٢٤]، قال: اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر، أخرج كل قوم عالمهم، فامتروا في عيسى حين رفع، فقال أحدهم: هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا، وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء - وهم اليعقوبية. فقال الثلاثة: كذبت. ثم قال اثنان منهم للثالث: قل أنت فيه. قال: هو ابن الله - وهم النسطورية. فقال الاثنان: كذبت. ثم قال أحد الاثنين للآخر: قل فيه. قال: هو ثالث ثلاثة: الله إله، وهو إله، وأمه إله - وهم الإسرانيّة ملوك النصارى، عليهم لعائن الله. قال الرابع: كذبت، بل هو عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته، وهم المسلمون. فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قالوا، فافتتلوا فظهر على المسلمين، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَيَسْتَلْزِمُونَ الَّذِينَ يُبْشِرُونَ بِالنَّارِ وَالْقُرْآنِ﴾ [٢١] وقال قتادة: وهم الذين قال الله: ﴿فَأَخْلَفَ الْآخَرَاءُ مِنْ بَنِيهِمْ﴾، قال: اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً.

وقد روى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، وعن عروة بن الزبير، وعن بعض أهل العلم، قريباً من ذلك. وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم: أن قسطنطين جمعهم في محفل كبير من مجامعهم الثلاثة المشهورة عندهم، فكان جماعة الأساقفة منهم ألفين ومائة وسبعين أسقفاً، فاختلّفوا في عيسى ابن مريم، عليه السلام، اختلافاً متبايناً، فقالت كل شُرذمة فيه قولاً، فمائة تقول فيه قولاً، وسبعون تقول فيه قولاً آخر، وخمسون تقول فيه شيئاً آخر، ومائة وستون تقول شيئاً، ولم يجتمع

على مقالة واحدة أكثر من ثلاثمائة وثمانية منهم، اتفقوا على قول وصمّموا عليه، ومال إليهم الملك، وكان فيلسوفاً، فقدمهم ونصرهم وطردهم من عداهم، فوضعوا له الأمانة الكبيرة، بل هي الخيانة العظيمة، ووضعوا له كتب القوانين، وشرعوا له أشياء، وابتدعوا بدءاً كثيرة، وخرّفوا دين المسيح، وغيروه، فابتنى حينئذ لهم الكنائس الكبار في مملكته كلها: بلاد الشام، والجزيرة، والروم، فكان مبلغ الكنائس في أيامه ما يقارب اثنتي عشرة ألف كنيسة، وبنت أمه هيلانة قمامة على المكان الذي صلب فيه المصلوب الذي تزعم اليهود والنصارى أنه المسيح، وقد كذبوا، بل رفعه الله إلى السماء.

وقوله: ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: تهديد ووعد شديد لمن كذب على الله، وافتري، وزعم أن له ولداً. ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة وأجلهم حلماً وثقة بقدرة عليهم؛ فإنه الذي لا يجعل على من عصاه، كما جاء في الصحيحين: «إن الله ليملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ عَظِيمٌ﴾ [١٠٢]. وفي الصحيحين أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أدنى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيه». وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَاذِبٌ مِّنْ قَوْلِهَا وَلَئِنْ كُنَّا إِلَّا لَنَنصِفَنَّ﴾ [الحج: ٤٨] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَنِ الَّذِينَ يَقُولُ أَلَمْ نَنصُرْهُمْ يَوْمَ أُخْرِجُوا مِنَ الْمَكَّةِ بِأَوَّلِ نَبِيِّهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وللهذا قال هاهنا: ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: يوم القيامة. وقد جاء في الحديث الصحيح المتفق على صحته، عن عبادة بن الصامت، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

﴿أَتَمَّ يَوْمَ تَأْتِي سَأَلَكَ السَّائِلُونَ أَيُّومَ فِي سَكَنٍ مِّنَ الْأَرْضِ وَمِنْ غُلْفٍ﴾ [١٠٣] وأئذ يذوقون يومئذ ألمهم في سَكَنٍ مِّنَ الْأَرْضِ وَمِنْ غُلْفٍ. ﴿إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [١٠٤].

يقول تعالى مخبراً عن الكفار يوم القيامة أنهم أسمع شيء وأبصره كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [١٠٥] [السجدة: ١٧] أي: يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدي عنهم شيئاً، ولو كان هذا قبل معاينة العذاب، لكان نافعاً لهم ومنقذاً من عذاب الله؛ لهذا قال: ﴿أَتَمَّ يَوْمَ تَأْتِي سَأَلَكَ السَّائِلُونَ أَيُّومَ فِي سَكَنٍ مِّنَ الْأَرْضِ وَمِنْ غُلْفٍ﴾ [١٠٦] أي: لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك. ثم قال تعالى: ﴿وَأَذِذْهُمْ يَوْمَ النَّصْرَةِ أَيُّومَ﴾ [١٠٧] أي: أنذر الخلائق يوم الحسرة، ﴿إِذْ فُتِحَ الْأَمْرُ﴾ [١٠٨] أي: فصل بين أهل الجنة وأهل النار، ودخل كل إلى ما صار إليه مخلداً فيه، ﴿وَمَنْ﴾ أي: اليوم ﴿فِي غُلْفٍ﴾ عما أنذروا به ﴿وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ﴾ أي: لا يصدقون به.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟» قال: «فيشربون فينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت». قال: «فيقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟» قال: «فيشربون فينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت». قال: «فيؤمر به فيذبح» قال: «ويقال: يا أهل الجنة، خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت» قال: «ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَذِذْهُمْ يَوْمَ النَّصْرَةِ إِذْ فُتِحَ الْأَمْرُ وَمَنْ فِي غُلْفٍ﴾ وأشار بيده. قال: «أهل الدنيا في غلظة الدنيا». هكذا رواه الإمام أحمد وقد أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما، من حديث الأعمش، به. ولفظهما قريب من ذلك. وقد روى هذا الحديث الحسن بن عرفة: حدثني أسباط بن محمد، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً، مثله. وفي سنن ابن ماجه وغيره، من حديث محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، بنحوه. وهو في الصحيحين عن ابن عمر. ورواه ابن جريج قال: قال ابن عباس: فذكر من قبله نحوه. ورواه أيضاً عن أبيه أنه سمع عبيد بن عمير يقول في قصصه: يؤتى بالموت كأنه دابة، فيذبح والناس ينظرون. وقال سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، حدثنا أبو الزعراء، عن عبد الله - هو ابن مسعود - في قصة ذكرها، قال: فليس نفس إلا وهي تنظر إلى بيت في الجنة وبيت في النار، وهو يوم الحسرة. فيرى أهل النار البيت الذي كان قد أعده الله لهم لو آمنوا، فيقال لهم: لو آمنتم وعملتُم صالحاً، كان لكم هذا الذي ترونه في الجنة. فتأخذهم الحسرة. قال: ويرى أهل الجنة البيت الذي في النار، فيقال: لولا أن من الله عليكم...

وقال السدي، عن زياد، عن زر بن حبیش، عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَأَذِذْهُمْ يَوْمَ النَّصْرَةِ إِذْ فُتِحَ الْأَمْرُ﴾ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، أتى بالموت في صورة كبش أملح، حتى يوقف بين الجنة والنار، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة،

هذا الموت الذي كان يُعْمِتُ الناس في الدنيا، فلا يبقى أحد في أهل عليين ولا في أسفل درجة في الجنة إلا نظر إليه، ثم ينادى: يا أهل النار، هذا الموت الذي كان يعميت الناس في الدنيا، فلا يبقى أحد في ضحضاح من نار ولا في أسفل درك من جهنم، إلا نظر إليه، ثم يذبح بين الجنة والنار، ثم ينادى: يا أهل الجنة، هو الخلود أبدأ الأبد، ويا أهل النار، هو الخلود أبدأ الأبد، فيفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحد ميتاً من فرح ماتوا، ويشق أهل النار شقة لو كان أحد ميتاً من شقة ماتوا، فذلك قوله: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾. يقول: إذا ذبح الموت. رواه ابن أبي حاتم في تفسيره. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾: من أسماء يوم القيامة، عظمه الله وحذره عباده. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾: قال: يوم القيامة، وقرأ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِكَ عَلَى مَا قَرَرْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾: يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف، وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو، تعالى وتقدس ولا أحد يدعي ملكاً ولا تصرفاً، بل هو الوارث لجميع خلقه، الباقي بعدهم، الحاكم فيهم، فلا تظلم نفس شيئاً ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة. قال ابن أبي حاتم: ذكر هدبة بن خالد القيسي: حدثنا حزم بن أبي حزم القطعي قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن صاحب الكوفة: أما بعد، فإن الله كتب على خلقه حين خلقهم الموت، فجعل مصيرهم إليه، وقال فيما أنزل من كتابه الصادق الذي حفظه بعلمه، وأشهد ملائكته على خلقه: أنه يرث الأرض ومن عليها، وإليه يرجعون.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَاحِبَ نَبِيًّا﴾ [١١] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَتَّبِعُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُفْقِئُ عَنْكَ شَيْئاً [١٢] يَتَّبِعُ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْإِلَهِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْلَكَ مِرْطاً سَوِيًّا [١٣] يَتَّبِعْ لَا تَتَّبِعِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا [١٤] يَتَّبِعْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُسَبِّحَكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا [١٥].

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: واذكر في الكتاب إبراهيم وأتله على قومك، هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، واذكر لهم ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن الذين هم من ذريته، ويدعون أنهم على ملته، وهو كان صديقاً نبياً - مع أبيه - كيف نهاه عن عبادة الأصنام، فقال: ﴿يَتَّبِعْ لِمَ تَتَّبِعُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُفْقِئُ عَنْكَ شَيْئاً﴾ أي: لا يفعل ولا يدفع عنك ضرراً. ﴿يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْإِلَهِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾: يقول: فإن كنت من صلبك وترى أنني أصغر منك، لأنني ولدك، فاعلم أنني قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ولا جاءك بعد، ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْلَكَ مِرْطاً سَوِيًّا﴾ أي: طريقاً مستقيماً موثقاً إلى نيل المطلوب، والنجاة من المروء. ﴿يَتَّبِعْ لَا تَتَّبِعِ الشَّيْطَانَ﴾ أي: لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام، فإنه هو الداعي إلى ذلك، والراضي به، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَعِظْكُمْ بِبَنِي مَادَمَ أَنْ لَا تَتَّبِعُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠] وقال: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْسَانًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا سَيِّئًا مَرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧]. وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ أي: مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه، فطرده وأبعده، فلا تتبعه تصر مثله. ﴿يَتَّبِعْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُسَبِّحَكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ﴾ أي: على شركك وعصيانك لما أمرك به، ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ يعني: فلا يكون لك مولى ولا ناصر ولا مغنياً إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، بل اتبعك له موجب لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوَّلَهُ لِيَوْمٍ وَلَمْ تَجِدْ لَهُ مِثْلًا يُغْنِي عَنْكَ﴾ [النحل: ٦٣].

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِكَ يَكْفُرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَتْ فِي حَقِّكَ وَأَعْرَضَ عَنْكَ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَشْءًا أَلَا أَكُونُ بِدَعْوَةِ رَبِّي سَوِيًّا﴾ [١٦].

يقول تعالى مخبراً عن جواب أبي إبراهيم لولده إبراهيم فيما دعا إليه أنه قال: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِكَ يَكْفُرُ لَكَ رَبِّي﴾ يعني: إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها، فاته عن سبها وشتمها وعبها، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمت وسببتك، وهو قوله: ﴿لَا تَرْجِعْ﴾، قاله ابن عباس، والسدي، وابن جريج، والضحاك، وغيرهم. وقوله: ﴿وَأَعْرَضَ عَنْكَ﴾: قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، ومحمد بن إسحاق: يعني دهرأ. وقال الحسن البصري: زماناً طويلاً. وقال السدي: ﴿وَأَعْرَضَ عَنْكَ﴾: قال: أبدأ. وقال علي بن أبي طلحة، والعوفي، عن ابن عباس: ﴿وَأَعْرَضَ عَنْكَ﴾: قال: سواً سالماً، قبل أن تصيبك مني عقوبة. وكذا قال الضحاك، وقناة وعطية الجذلي وأبو مالك، وغيرهم، واختاره ابن جرير. فعندها قال إبراهيم لأبيه: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾ كما قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وَلَا حَاطَةَ لَهُمْ الْجَنَّةُ قَالُوا سَلِّمُوا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْمِعُوا لِلنَّفَرِ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْنَتُكُمْ وَلَكُمْ أَعْنَتُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْنِيَنَّ الْجَاهِلِينَ﴾ [الفص: ٥٥] ومعنى قول إبراهيم لأبيه: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾ يعني: أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى، وذلك لحرمة الأبوة، ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ رَبِّي﴾ أي: ولكن سأسأل الله تعالى فيك أن

﴿فَلَمَّا اعْتَرَلَ خَلِيلُ أَبَاهُ وَقَوْمُهُ فِي اللَّهِ، أَبَدَلَهُ اللَّهُ مِنْهُ خَيْرَ مَنْهُمْ، وَوَهَبَ لَهُمُ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمُ إِبْرَاهِيمَ صِدْقٍ عَلَيْهِ﴾. يقول: فلما اعتزل خليل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خير منهم، ووهب له إسحاق ويعقوب، يعني ابنه وابن إسحاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَعْقُوبُ نَافِلَةٌ﴾ [الأنبياء: ٧٢]، وقال: ﴿وَمِنْ ذَٰلِكَ إِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ﴾ [هود: ٧١]. ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب، وهو نص القرآن في سورة البقرة: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنِّي بِنَدَىٰ قَالَوا تَعْبُدُونَ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِنِ زَمِعْتُمْ إِلَّا ظَهْرًا فَأَسْمِعُ لَكُمْ نِجْمَ اللَّيْلِ إِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. ولهذا إنما ذكر هاهنا إسحاق ويعقوب، أي: جعلنا له نسلاً وعقباً أنبياء، أقر الله بهم عينه في حياته؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾، فلو لم يكن يعقوب قد نبىء في حياة إبراهيم، لما اقتصر عليه، ولذكر ولده يوسف، فإنه نبي أيضاً كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته، حين سئل عن خير الناس، فقال: «يوسف نبي الله، ابن يعقوب نبي الله، ابن إسحاق نبي الله، ابن إبراهيم خليل الله». وفي اللفظ الآخر: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم». وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمُ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمُ إِبْرَاهِيمَ صِدْقٍ عَلَيْهِ﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني الثناء الحسن. وكذا قال السدي، ومالك بن أنس. وقال جرير: إنما قال: ﴿عَلَيْكَ﴾؛ لأن جميع الملل والأديان يشنون عليهم ويمدحونهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه، عطف بذكر الكليم، فقال: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ قرأ بعضهم بكسر اللام، من الإخلاص في العبادة. قال الثوري، عن عبد العزيز بن رُفيع، عن أبي لبابة قال: قال الحواريون: يا روح الله، أخبرنا عن المخلص لله. قال: الذي يعمل لله، لا يحب أن يحمده الناس. وقرأ الآخرون بفتحها، بمعنى أنه كان مصطفى، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى الْآلَاءِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]. ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾، جُمِعَ له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة، وهم: نوح وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين.

وقوله: ﴿وَنَدَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ﴾ أي: الجبل ﴿الْأَيْمَنِ﴾ أي: من جانبه الأيمن من موسى حين ذهب يبتغي من تلج النار جذوة، رآها تلوح فقصدها، فوجدها في جانب الطور الأيمن منه، عند شاطئ الوادي. فكلّمه الله تعالى، ناداه وقرّبه ونجاه. قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى - هو القطان - حدثنا سفيان، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَرَفَعَهُ نَجَاةً﴾ قال: أذني حتى سمع صريف القلم. وهكذا قال مجاهد، وأبو العالية، وغيرهم. يعنون صريف القلم بكتابة التوراة. وقال السدي: ﴿وَرَفَعَهُ نَجَاةً﴾ قال: أدخل في السماء فكلّم، وعن مجاهد نحوه. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ﴿وَرَفَعَهُ نَجَاةً﴾ قال: نجا بصدقه. قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الجبار بن عاصم، حدثنا محمد بن سلمة الحراني، عن أبي الوصل، عن شهر بن حَوْشَب، عن عمرو بن معد يكرب قال: لما قرب الله موسى نجياً بطور سيناء، قال: يا موسى، إذا خلقت لك قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وزوجة

تعين على الخير، فلم أخزن عنك من الخير شيئاً، ومن أخزن عنه هذا فلم أفتح له من الخير شيئاً.
 وقوله: ﴿وَوَعَيْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ٥٤﴾ أي: وأجينا سؤاله وشفاعته في أخيه، فجعلناه نبياً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْضَلُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْنَا مِنِّي رِجَالًا بِأَصْحَابِي لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُ أَن يَبْسُطُوا صُلُوحَهُمْ فَلَنُبْتَلِيَهُمْ فِيهَا فَمَا هَيَّؤْنَا لَهُمْ إِلَّا صُلُوحَهُمْ فَكَلَبْنَا هَارُونَ أَن يُقَرِّبَهُمْ إِلَى الْعَاكِفِينَ لَنَنْبِتَهُمْ فِي الْأَرْضِ لَئِن كَانُوا إِلَّا لِقَوْمٍ فَاسِقِينَ ٥٥﴾ وقال: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٣٦]، وقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَىٰ هَارُونَ ٥٦﴾ وَلَمْ عَلَىٰ ذَلِكَ فَخَافَ أَن يَقْتُلُوهُ ٥٧﴾ [الشعراء: ١٣، ١٤]؛ ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحد في أحد شفاعته في الدنيا أعظم من شفاعته موسى في هارون أن يكون نبياً، قال الله تعالى: ﴿وَوَعَيْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ٥٤﴾. قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُلَيْيَةَ، عن داود، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قوله ﴿وَوَعَيْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ٥٤﴾، قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد: وهب له نبوته. وقد ذكره ابن أبي حاتم معلقاً، عن يعقوب وهو ابن إبراهيم الدورقي، به.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥٥﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ٥٦﴾.

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه ﴿كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾. قال ابن جريج: لم يعد ربه عدة إلا أنجزها، يعني: ما التزم قط عبادة بنذر إلا قام بها، ووفأها حقها. وقال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، أن سهل بن عقيل حدثه، أن إسماعيل النبي، عليه السلام، وعد رجلاً مكاناً أن يأتيه، فجاء ونسي الرجل، فظل به إسماعيل ويات حتى جاء الرجل من الغد، فقال: ما برحت من ههنا؟ قال: لا. قال: إني نسيت. قال: لم أكن لأبرح حتى تأتيني. فلذلك ﴿كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾. وقال سفيان الثوري: بلغني أنه أقام في ذلك المكان ينتظره حولاً حتى جاءه. وقال ابن شوذب: بلغني أنه اتخذ ذلك الموضع سكناً. وقد روى أبو داود في سننه، وأبو بكر محمد بن جعفر الخراطي في كتابه «مكارم الأخلاق» من طريق إبراهيم بن طهمان، عن عبد الله بن ميسرة، عن عبد الكريم - يعني: ابن عبد الله بن شقيق - عن أبيه، عن عبد الله بن أبي الحمساء قال: بايعت رسول الله ﷺ قبل أن يبعث فبقيت له علي بقية، فوعده أن آتية بها في مكانه ذلك، قال: فنسيت يومي والغد، فأتيته في اليوم الثالث وهو في مكانه ذلك، فقال لي: «يا فتى، لقد شققت علي، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك» لفظ الخراطي، وساق آثاراً حسنة في ذلك. ورواه ابن منده أبو عبد الله في كتاب «معرفة الصحابة» بإسناده عن إبراهيم بن طهمان، عن بذيّل بن ميسرة، عن عبد الكريم، به. وقال بعضهم: إنما قيل له: ﴿صَادِقَ الْوَعْدِ﴾؛ لأنه قال لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْقَدِيرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فصدق في ذلك. فصدق الوعد من الصفات الحميدة، كما أن خلفه من الصفات الذميمة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ ٥٦﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ ٥٧﴾ [الصف: ٢، ٣]، وقال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان».

ولما كانت هذه صفات المنافقين، كان التلبس بضعدها من صفات المؤمنين، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضاً، لا يعد أحداً شيئاً إلا وفى له به، وقد أثنى على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب، فقال: «حدثني فصدقني، ووعدي فوفى لي». ولما توفي النبي ﷺ قال الخليفة أبو بكر الصديق: من كان له عند رسول الله ﷺ عذة أو دين فليأتني أنجز له، فجاء جابر بن عبد الله، فقال: إن رسول الله ﷺ كان قال: «لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا»، يعني: ملء كفيه، فلما جاء مال البحرين أمر الصديق جابراً، فغرف بيديه من المال، ثم أمره بغيره، فإذا هو خمسمائة درهم، فأعطاه مثليها معها.

وقوله: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥٥﴾: في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق؛ لأنه إنما وصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة. وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل...» وذكر تمام الحديث، فدل على صحة ما قلناه.

وقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ٥٥﴾: هذا أيضاً من الثناء الجميل، والصفة الحميدة، والخلة السديدة، حيث كان مثابراً على طاعة ربه أمراً بها لأهله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُ رِزْقًا عَنْ رِزْقِكَ وَالْغَنِيمَةُ الْأَثْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ﴾ [التحریم: ٦] أي: مروهم بالمعروف، وانهمهم عن المنكر، ولا تدعوهم هملاً فتأكلهم النار يوم القيامة، وقد جاء في الحديث، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى، وأيقظ امرأته، فإن أبت نصح

على وجهها الماء. رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت، وأيقظت زوجها، فإن أبي نضحت في وجهه الماء» أخرجه أبو داود، وابن ماجه. وعن أبي سعيد، وأبي هريرة، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته، فصليا ركعتين، كتب من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات». رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، واللفظ له.

﴿وَذَكِّرْ فِي الْكِتَابِ إِذِمْ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ٥٦ رَفَعْتَهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾.

وهذا ذكر إدريس، عليه السلام، بالثناء عليه، بأنه كان صديقاً نبياً، وأن الله رفعه مكاناً علياً. وقد تقدم في الصحيح: أن رسول الله ﷺ مر به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة.

وقد روى ابن جرير ههنا أثراً غريباً عجيباً، فقال: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أخبرني جرير بن حازم، عن سليمان الأعمش، عن شمر بن عطية، عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعباً، وأنا حاضر، فقال له: ما قول الله - ﷻ لإدريس: ﴿رَفَعْتَهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ فقال كعب: أما إدريس فإن الله أوحى إليه أني أرفع لك كل يوم مثل عمل جميع بني آدم، فأحب أن يزداد عملاً، فأتاه خليل له من الملائكة فقال: إن الله أوحى إليّ كذا وكذا، فكلم لي ملك الموت، فليؤخرني حتى أزداد عملاً. فحملة بين جناحيه، حتى صعد به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة تلقاهم ملك الموت منحدراً، فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس، فقال: وأين إدريس؟ فقال: هو ذا على ظهري. قال ملك الموت: فالحمد! بعثت وقيل لي: اقبض روح إدريس في السماء الرابعة. فجعلت أقول: كيف أقبض روحه في السماء الرابعة، وهو في الأرض؟ فقبض روحه هناك، فذلك قول الله: ﴿رَفَعْتَهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾. هذا من أخبار كعب الأخبار الإسرائيلية، وفي بعضه نكارة، والله أعلم. وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر، عن ابن عباس: أنه سأل كعباً، فذكر نحوه ما تقدم، غير أنه قال لذلك الملك: هل لك أن تسأله - يعني: ملك الموت - كم بقي من أجلي لكي أزداد من العمل؟ وذكر باقيه، وفيه: أنه لما سأله عما بقي من أجله، قال: لا أدري حتى أنظر. ثم نظر، قال: إنك تسألني عن رجل ما بقي من عمره إلا طرفة عين، فنظر الملك تحت جناحه إلى إدريس، فإذا هو قد قبض، عليه السلام، وهو لا يشعر به. ثم رواه من وجه آخر عن ابن عباس: أن إدريس كان خياطاً، فكان لا يفرغ إبرة إلا قال: «سبحان الله»، فكان يمسي حين يمسي، وليس في الأرض أحد أفضل عملاً منه. وذكر بقيته كالذي قبله، أو نحوه. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿رَفَعْتَهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ قال: إدريس رفع ولم يمت، كما رفع عيسى. وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿رَفَعْتَهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ قال: رفع إلى السماء الرابعة. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿رَفَعْتَهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ قال: رفع إلى السماء السادسة فمات بها. وهكذا قال الضحاك بن مزاحم. وقال الحسن، وغيره، في قوله: ﴿رَفَعْتَهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ قال: الجنة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَابْنَةَ إِبْرَاهِيمَ إِنَّا نُنْزِلُ عَلَيْهِم مَّائِدَتَ الرِّحْمَىٰ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكُوا ٥٨﴾.

يقول تعالى: هؤلاء النبيون - وليس المراد هؤلاء المذكورين في هذه السورة فقط، بل جنس الأنبياء، عليهم السلام، استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس - ﴿الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ الآية. قال السدي وابن جرير، رحمه الله: فالذي عنى به من ذرية آدم: إدريس، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح: إبراهيم، والذي عنى به من ذرية إبراهيم: إسحاق ويعقوب وإسماعيل، والذي عنى به من ذرية إسرائيل: موسى، وهارون، وزكريا، ويحيى وعيسى ابن مريم. قال ابن جرير: ولذلك فرق أنسابهم، وإن كان يجمع جميعهم آدم؛ لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة، وهو إدريس، فإنه جد نوح. قلت: هذا هو الأظهر أن إدريس في عمود نسب نوح، عليهما السلام. وقد قيل: إنه من أنبياء بني إسرائيل، أخذاً من حديث الإسراء، حيث قال في سلامه على النبي ﷺ: «مرحباً بالنبي الصالح، والأخ الصالح»، ولم يقل: «والولد الصالح»، كما قال آدم وإبراهيم، عليهما السلام. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الله بن محمد أن إدريس أقدم من نوح بعثه الله إلى قومه، فأمرهم أن يقولوا: «لا إله إلا الله»، ويعملوا ما شاؤوا فأبوا، فأهلكهم الله ﷻ.

ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنس الأنبياء، أنها كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَيْكَ حُجَّتُنَا إِنِّي كُنَّا مِنَ الْإِنسَانِ عَلَىٰ آلِهَةٍ مُّكَذِّبِينَ ٦٢﴾. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الْمُصْلِحِينَ ٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ

وَالْيَسَّ وَبُوشَ وَلُومًا وَكَلًّا فَصَلَّنَا عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴿٥٩﴾ وَمِن مَّا يَأْتِيهِمْ دُخْرُهُمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَأَجْنِبَتُهُمْ وَهَدَّيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٠﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْسَدُ قَدْ لَّا أَسْتَلْكُمْ عَلَيْهِمْ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٨٣-٩٠] وقال تعالى: ﴿وَيَنْهَاهُمْ مِّنْ قَصَصِنَا عَلَيْكَ وَيُنْهَاهُمْ مِّنْ لَّمْ تَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]. وفي صحيح البخاري، عن مجاهد: أنه سأل ابن عباس: أفي «ص» سجدة؟ قال: نعم، ثم تلا هذه الآية: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْسَدُ﴾، فنبهكم ممن أُمِرَ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ، قال: وهو منهم، يعني داود. وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّا نُنَالُ عَلَيْكُمْ آيَاتِ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ إِذَا سَمِعُوا كَلَامَ اللَّهِ المتضمن حُجَّجِه ودلائله وبراهينه، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة، وحمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة. والبُكْي: جمع باك، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود هاهنا، اقتداء بهم، واتباعاً لمنوالهم. قال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي مَعْمَرٍ قال: قرأ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، سورة مريم، فسجد وقال: هذا السجود، فأين البُكْي؟ يريد البكاء. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وسَقَطَ من روايته ذكر «أبي معمر» فيما رأيت، والله أعلم.

﴿خَلَفَ مِنْ بَيعِهِمْ خَلْفٌ أَصَاغُوا الصَّلَاةَ وَآتَبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَبْلُغُونَ فِيهَا حَسَبًا ﴿٦٠﴾﴾.

لما ذكر تعالى حزب السعداء، وهم الأنبياء، عليهم السلام، ومن اتبعهم، من القائمين بحدود الله وأوامره، المؤدبين فرائض الله، التاركين لزواجه. ذكر أنه ﴿خَلَفَ مِنْ بَيعِهِمْ خَلْفٌ﴾ أي: قرون آخر، ﴿أَصَاغُوا الصَّلَاةَ﴾ - وإذا أصاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع؛ لأنها عماد الدين وقوامه، وخير أعمال العباد - وأقبلوا على شهوات الدنيا وملذاتها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهؤلاء سيلقون غيًّا، أي: خَسَاراً يوم القيامة. وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة هاهنا، فقال قائلون: المراد بإضاعتها تَرْكُهَا بالكليّة، قاله محمد بن كعب القرظي، وابن زيد بن أسلم، والسدي، واختاره ابن جرير. ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو المشهور عن الإمام أحمد، وقول عن الشافعي إلى تكفير تارك الصلاة، للحديث: «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة»، والحديث الآخر: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر». وليس هذا محل بسط هذه المسألة. وقال الأوزاعي، عن موسى بن سليمان، عن القاسم بن مخيمرة في قوله: ﴿خَلَفَ مِنْ بَيعِهِمْ خَلْفٌ أَصَاغُوا الصَّلَاةَ﴾، قال: إنما أصاعوا المواقيت، ولو كان تركاً كان كفراً. وقال وكيع، عن المسعودي، عن القاسم بن عبد الرحمن، والحسن بن سعد، عن ابن مسعود أنه قيل له: إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهَوْنَ ﴿٥٩﴾﴾ و﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ و﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ يَخْلِفُونَ﴾؟ قال ابن مسعود: على مواقيتها. قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك؟ قال: ذاك الكفر. وقال مسروق: لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس، فيكتب من الغافلين، وفي إفراطهن الهلكة، وإفراطهن: إضاعتهم عن وقتهن. وقال الأوزاعي، عن إبراهيم بن يزيد: أن عمر بن عبد العزيز قرأ: ﴿خَلَفَ مِنْ بَيعِهِمْ خَلْفٌ أَصَاغُوا الصَّلَاةَ وَآتَبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾، ثم قال: لم تكن إضاعتهم تركها، ولكن أصاعوا الوقت. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿خَلَفَ مِنْ بَيعِهِمْ خَلْفٌ أَصَاغُوا الصَّلَاةَ وَآتَبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ قال: عند قيام الساعة، وذهاب صالحي أمة محمد ﷺ، ينزو بعضهم على بعض في الأزقة، وكذا روى ابن جرير، عن مجاهد، مثله. وروى جابر الجعفي، عن مجاهد، وعكرمة، وعطاء بن أبي رباح: أنهم من هذه الأمة. يعنون في آخر الزمان.

وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا الحسن الأشيب، حدثنا شريك، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد: ﴿خَلَفَ مِنْ بَيعِهِمْ خَلْفٌ أَصَاغُوا الصَّلَاةَ وَآتَبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾، قال: هم في هذه الأمة، يتركون تراكب الأنعام والحرر في الطرق، لا يخافون الله في السماء، ولا يستحيون الناس في الأرض. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا حيوة، حدثنا بشير بن أبي عمرو الخولاني: أن الوليد بن قيس حدثه، أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون خلف بعد ستين سنة، أصاعوا الصلاة واتباعوا الشهوات، فسوف يلقون غيًّا. ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم. ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وفاجر». قال بشير: قلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المؤمن مؤمن به، والمنافق كافر به، والفاجر يأكل به. وهكذا رواه أحمد عن أبي عبد الرحمن المقرئ، به. وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثني أبي، حدثنا إبراهيم بن موسى، أنبأنا عيسى بن يونس، حدثنا عبيد الله بن عبد الرحمن بن مَوْقَب، عن مالك، عن أبي الرجال؛ أن عائشة كانت ترسل بالشيء صدقة لأهل الصُّفَّة، وتقول: لا تعطوا منه بربرياً ولا بربرية، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هم الخلف الذين قال الله تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَيعِهِمْ خَلْفٌ أَصَاغُوا الصَّلَاةَ﴾». هذا حديث غريب. وقال أيضاً: حدثني أبي، حدثنا عبد الرحمن بن الضحاك، حدثنا الوليد، حدثنا خريز، عن شيخ من أهل المدينة؛ أنه سمع

محمد بن كعب القرظي يقول في قوله: ﴿خَلَفَ مِنْ بَينِهِمْ خَلْفٌ﴾ الآية، قال: هم أهل الغرب، يملكون وهم شر من ملك.
وقال كعب الأحبار: والله إني لأجد صفة المنافقين في كتاب الله ﷺ: شرايين للقهوات تراكين للصلوات، لعابيين بالكعبات، رقادين عن العتمة، مفترطين في الغدوات، تراكين للجمعات، قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿خَلَفَ مِنْ بَينِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾. وقال الحسن البصري: عطلوا المساجد، ولزموا الضيعات. وقال أبو الأشهب العطاردى: أوحى الله - تعالى - إلى داود: يا داود، حذر وأندر أصحابك كل الشهوات؛ فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة، وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدي إذا أثر شهوة من شهواته علي أن أحرمه طاعتي. وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب حدثنا أبو السمع التميمي، عن أبي قبيل، أنه سمع عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أخاف على أمتي اثنتين: القرآن واللبن، أما اللبن فيتبعون الريف، ويتبعون الشهوات ويتركون الصلوات، وأما القرآن فيتعلمه المنافقون، فيجادلون به المؤمنين». ورواه عن حسن بن موسى، عن ابن لهيعة، حدثنا أبو قبيل، عن عقبة، به مرفوعاً بنحوه تفرد به. وقوله: ﴿فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ أي: خساراً. وقال قتادة: شراً. وقال سفيان الثوري، وشعبة، ومحمد بن إسحاق، عن أبي إسحاق السبيعي، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود: ﴿فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ قال: واد في جهنم، بعيد القعر، خبيث الطعم. وقال الأعمش، عن زياد، عن أبي عياض في قوله: ﴿فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ قال: واد في جهنم من قبح ودم. وقال الإمام أبو جعفر ابن جرير: حدثني عباس بن أبي طالب، حدثنا محمد بن زياد بن زيان، حدثنا شريقي بن قطامي، عن لقمان بن عامر الخزاعي قال: جثت أبا أمامة صُدي بن عجلان الباهلي فقلت: حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، قال: فدعا بطعام، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن صخرة زنة عشر أواق قذف بها من سفير جهنم، ما بلغت قعرها خمسين خريفاً، ثم تنتهي إلى غي وآثام». قال: قلت: وما غي وآثام؟ قال: «بئران في أسفل جهنم، يسيل فيهما صديد أهل النار، وهما اللتان ذكر الله في كتابه: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ وقوله في «الفرقان»: ﴿وَلَا يَزِيدُكَ وَمَنْ يَعْمَلْ ذَلِكَ يَقْلُ آثَامًا﴾. هذا حديث غريب ورفعه منكراً.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾، أي: إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات، فإن الله يقبل توبته، ويحسن عاقبته، ويجعله من ورثة جنة النعيم؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾، وذلك؛ لأن التوبة تجب ما قبلها. وفي الحديث الآخر: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»؛ ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئاً، ولا قولوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها؛ لأن ذلك ذهب هدرًا وترك نسيًا، وذهب مجاناً، من كرم الكريم، وحلم الحليم. وهذا الاستثناء ههنا كقوله في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ ﴿٧٨﴾ يَضَعُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَجْزِيهِ يَوْمَئِذٍ مَكْرَهُمَا ﴿٧٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿٨٠﴾ الفرقان: ٦٨ - ٧٠.

﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُمْ كَانُوا غَافِلِينَ﴾ ﴿١١﴾ لَا يَدْخُلُوهَا فِيهَا لَوْ إِلَّا سَلَمًا وَلَهُمْ فِيهَا زُكُورٌ وَعِشَاءٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾.

يقول تعالى: الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم هي ﴿جَنَّتِ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ﴾ بظهر الغيب، أي: هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه؛ وذلك لشدة إيمانهم وقوة إيمانهم. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا غَافِلِينَ﴾، تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره؛ فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله، كقوله: ﴿كَانُوا غَافِلِينَ﴾ ﴿المزمل: ١٨﴾ أي: كانوا لا محالة. وقوله ههنا: ﴿مَائِيًّا﴾ أي: العباد صائرون إليه، وسيائون. ومنهم من قال: ﴿مَائِيًّا﴾ بمعنى: آتياً؛ لأن كل ما أتاك فقد أنته، كما تقول العرب: أنت علي خمسون سنة، وأنت على خمسين سنة، كلاهما بمعنى واحد.

وقوله: ﴿لَا يَدْخُلُوهَا فِيهَا لَوْ إِلَّا سَلَمًا﴾ أي: هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له، كما قد يوجد في الدنيا. وقوله: ﴿إِلَّا سَلَمًا﴾ استثناء منقطع، كقوله: ﴿لَا يَدْخُلُوهَا فِيهَا لَوْ إِلَّا تَائِبًا﴾ ﴿١٥﴾ إِلَّا قِيْلَ سَلَمًا سَلَمًا ﴿١٦﴾ ﴿الواقعة: ٢٥، ٢٦﴾. وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا زُكُورٌ وَعِشَاءٌ﴾ أي: في مثل وقت البُكرات ووقت العشيات، لا أن هناك ليلاً أو نهاراً، ولكنهم في أوقات تتعاقب، يعرفون مضيقها بأضواء وأنوار، كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صُورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يتمخضون فيها، ولا يتغوطون، أنبيهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى من

ساقيهما من وراء اللحم؛ من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيا». أخرجه في الصحيحين، من حديث معمر به. وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني الحارث بن فضيل الأنصاري، عن محمود بن لبيد الأنصاري، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهداء على بارق نهر يباب الجنة، في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا» تفرد به أحمد من هذا الوجه. وقال الضحاك، عن ابن عباس: «وَلَمْ يَرْزُقْهُمْ فِيهَا بَكْرَةً وَعَشِيًّا» قال: مقادير الليل والنهار. وقال ابن جرير: حدثنا علي بن سهم، حدثنا الوليد بن مسلم قال: سألت زهير بن محمد، عن قول الله تعالى: «وَلَمْ يَرْزُقْهُمْ فِيهَا بَكْرَةً وَعَشِيًّا» قال: ليس في الجنة ليل، هم في نور أبداً، ولهم مقدار الليل والنهار، يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب، ويفتح الأبواب. وبهذا الإسناد عن الوليد بن مسلم، عن خَلِيد، عن الحسن البصري، وذكر أبواب الجنة، فقال: أبواب يرى ظاهرها من باطنها، فتكلم وتكلم، فَتَهْتَمُّهُمْ انفتحي انغلقي، فتفعل. وقال قتادة في قوله: «وَلَمْ يَرْزُقْهُمْ فِيهَا بَكْرَةً وَعَشِيًّا»: فيها ساعتان: بكرة وعشي: ليس ثم ليل ولا نهار، وإنما هو ضوء ونور. وقال مجاهد ليس فيها بكرة ولا عشي، ولكن يُؤْتُونَ به على ما كانوا يشتبهون في الدنيا. وقال الحسن، وقاتدة، وغيرهما: كانت العرب، الأتَم فيهم، من يتغذى ويتعشى، ونزل القرآن على ما في أنفسهم من النعيم، فقال تعالى: «وَلَمْ يَرْزُقْهُمْ فِيهَا بَكْرَةً وَعَشِيًّا». وقال ابن مهدي، عن حماد بن زيد، عن هشام، عن الحسن: «وَلَمْ يَرْزُقْهُمْ فِيهَا بَكْرَةً وَعَشِيًّا» قال: البكور يرد على العشي، والعشي يرد على البكور، ليس فيها ليل. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا سليم بن منصور بن عمار، حدثني أبي، حدثنا محمد بن زياد قاضي أهل شَمَشَاط عن عبد الله بن جرير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما من غداة من غدوات الجنة، وكل الجنة غدوات، إلا أنه يزف إلى ولي الله فيها زوجة من الحور العين، أدناهن التي خلقت من الزعفران». قال أبو محمد: هذا حديث منكر.

وقوله تعالى: «تِلْكَ أَمْثَلُ الَّذِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا» (١٦) أي: هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين، وهم المطيعون لله - ﷻ - في السراء والضراء، والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس، وكما قال تعالى في أول سورة المؤمنين: «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)» إلى أن قال: «أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يُرِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)» [المؤمنون: ١-١١].

«وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (١٦) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاسْجُدْ لِيُذْهِبَ عَنْكَ لَعْنَةُ رَبِّكَ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ سِيًّا (١٧)».

قال الإمام أحمد: حدثنا يَغْلَى ووكيع قال: حدثنا عمر بن دَرَّ، عن أبيه، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» قال: فنزلت «وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» إلى آخر الآية. انفرد بإخراجه البخاري، فرواه عند تفسير هذه الآية عن أبي نعيم، عن عمر بن دَرَّ، به. ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير، من حديث عمر بن دَرَّ، به. وعندهما زيادة في آخر الحديث: فكان ذلك الجواب لمحمد ﷺ. وقال العوفي، عن ابن عباس: احتبس جبريل عن رسول الله ﷺ، فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وخزن، فأتاه جبريل وقال: يا محمد، «وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (١٦)». وقال مجاهد: لبث جبريل عن محمد ﷺ اثنتي عشرة ليلة، ويقولون قُلِّي، فلما جاءه قال: يا جبريل، لقد رُثْتُ علي، حتى ظن المشركون كل ظن. فنزلت «وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (١٦)» قال: وهذه الآية كالتي في «الضحى». وكذلك قال الضحاك بن مُزَاحِم، وقاتدة، والسدي، وغير واحد: إنها نزلت في احتباس جبريل. وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: أبطأ جبريل النزول على رسول الله ﷺ أربعين يوماً، ثم نزل، فقال له النبي ﷺ: «ما نزلت حتى اشتقت إليك». فقال له جبريل: بل أنا كنت إليك أشوق، ولكن مأمور، فأوجي إلى جبريل أن قل له: «وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» الآية. رواه ابن أبي حاتم، رحمه الله، وهو غريب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مجاهد قال: أبطأت الرسل على النبي ﷺ، ثم أتاه جبريل فقال له: ما حبسك يا جبريل؟ فقال له جبريل: وكيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم، ولا تُنْثَقُونَ براجمكم، ولا تأخذون شواربكم، ولا تستاكون؟ ثم قرأ: «وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» إلى آخر الآية. وقد قال الطبراني: حدثنا أبو عامر النهوي، حدثنا محمد بن إبراهيم الصوري، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي حدثنا إسماعيل بن عياش، أخبرني ثعلبة بن مسلم، عن أبي كعب مولى ابن عباس، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ؛ أن جبريل أبطأ

عليه، فذكر ذلك له، فقال: وكيف أنتم لا تستنون، ولا تفلّمون أظفاركم، ولا تقصون شواربكم، ولا تثقون رواجبكم. وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي اليمان، عن إسماعيل بن عياش، به نحوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا سيار، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا المغيرة بن حبيب - ختن مالك بن دينار - حدثني شيخ من أهل المدينة، عن أم سلمة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «أصلحي لنا المجلس، فإنه ينزل ملك إلى الأرض، لم ينزل إليها قط».

وقوله: ﴿لَمْ يَأْكُلْ آتِيًّا وَمَا خَلَفْنَا﴾ قيل: المراد: ما بين أيدينا: أمر الدنيا، وما خلفنا: أمر الآخرة، ﴿وَمَا يَكُنْ ذَلِكَ﴾: ما بين النفتختين. هذا قول أبي العالية، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، في رواية عنهما، والسدي، والربيع بن أنس. وقيل: ﴿مَا يَكُنْ آتِيًّا﴾: ما نستقبل من أمر الآخرة، ﴿وَمَا خَلَفْنَا﴾: أي: ما مضى من الدنيا، ﴿وَمَا يَكُنْ ذَلِكَ﴾: أي: ما بين الدنيا والآخرة. يروى نحوه عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة، وابن جريج، والثوري. واختاره ابن جرير أيضاً، والله أعلم. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ شَيْئًا﴾: قال مجاهد والسدي: معناه: ما نسيك ربك. وقد تقدم عنه أن هذه الآية كقولها: ﴿وَالشَّيْءُ﴾ ① وأقبل إذا سعى ② مَا وَدَّكَ رَبُّكَ وَمَا قُلْ ③ [الضحى: ١-٣]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يزيد بن محمد بن عبد الصمد الدمشقي، حدثنا محمد بن عثمان - يعني أبا الجماهر - حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة، عن أبيه، عن أبي الدرداء يرفعه قال: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ شَيْئًا﴾.

وقوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: خالق ذلك ومدبره، والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه، ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ واسْطَلِّ لِمُذْنَبِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَيِّئًا: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هل تعلم للرب مثلاً أو شيئاً. وكذلك قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن جريج وغيرهم. وقال عكرمة، عن ابن عباس: ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى، وتقدس اسمه.

[illegible]

وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْزَنْهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أقسم الرب، تبارك وتعالى، بنفسه الكريمة، أنه لا بد أن يحشرهم جميعاً وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله، ﴿ثُمَّ لَنَضْرِبَهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَّةً﴾. قال العوفي، عن ابن عباس: يعني: قعوداً، كقوله: ﴿وَرَزَقْنَا كُلَّ اثْنَتَيْ خَمْسَةِ﴾ [البقرة: ٢٨]. وقال السدي في قوله: ﴿ثُمَّ لَنَضْرِبَهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَّةً﴾: يعني قياماً، وروى عن مرة، عن ابن مسعود مثله. وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ يعني: من كل أمة. قاله مجاهد، «أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا». قال الثوري، عن علي بن الأقرع، عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود قال: يحبس الأول على الآخر، حتى إذا تكاملت العدة، أتاهم جميعاً، ثم بدأ بالأكابر، فالأكابر جرماً، وهو قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ (١٦). وقال قتادة: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ (١٧). وكذا قال ابن جريج، وغير واحد من السلف. وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ ادْعُوا فِي أُمُورٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْبَشَرِ الْأَوَّلِينَ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ آتَةٌ لَكُمْ أَخْبَأْتُمْ حَتَّى إِذَا أَذَارَكُوا فِيهَا جِيئًا قَالَتْ لَأُولَئِهِمْ رَبَّنَا مُهْلِكٌ فَدَعَوْا الْقَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ هَاتُوا بُرْهَانَ رَبِّنَا أَتَاهُم مِّنْ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَضِلُّونَ (١٨)﴾ (١٨) وقال: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ (١٩). وقاله: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ (٢٠). وقاله: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ (٢١). وقاله: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ (٢٢).

أَخْبَرَهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُوكُنَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا يُنْفَخُ مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾

﴿وَلَيْنَ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتًّا مَقْضِيًّا﴾ (٧١) ثُمَّ تَبَيَّنَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَتَذَرُ الضَّالِّينَ فِيهَا جِثًّا ﴿٧٢﴾

قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا خالد بن سليمان، عن كثير بن زياد البرساني، عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورد، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن. وقال بعضهم: يدخلونها جميعاً، ثم ينجي الله الذين اتقوا. فلقيت جابر بن عبد الله، فقلت له: إنا اختلفنا في الورد، فقال: يردونها جميعاً. وقال سليمان مرةً خلونها جميعاً - وأهوى بأصبعه إلى أذنيه، وقال: ضمتنا، إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا، ويذر الظالمين فيها جثياً». غريب ولم يخرجوه. وقال الحسن بن عرفة: حدثنا مروان بن معاوية، عن بكار بن أبي مروان، عن خالد بن مغذان قال: قال أهل الجنة بعد ما دخلوا الجنة: ألم يعدنا ربنا الورد على النار؟ قال: قد مررتم عليها وهي خادمة. وقال عبد الرزاق، عن ابن عينة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم قال: كان عبد الله بن رزاة واضعاً رأسه في حجر امرأته، فبكت، فبكت امرأته فقال: ما يبكيك؟ فقالت: رأيتك تبكي فبكت. قال: إني ذكرت قول الله ﷻ: «وَلَيْنَ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدُهَا»، فلا أدري أنجو منها أم لا؟ وفي رواية: وكان مريضاً. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان، عن مالك بن مغول، عن أبي إسحاق: كان أبو مسيرة إذا أوى إلى فراشه قال: يا ليت أُمِّي لم تلدني ثم يبكي، فقيل: ما يبكيك يا أبا مسيرة؟ فقال: أخبرنا أنا واردوها، ولم نُخبر أنا صادرون عنها. وقال عبد الله بن المبارك، عن الحسن البصري قال: قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم. قال: فهل أتاك أنك صادر عنها؟ قال: لا. قال: فقيم الضحك؟ قال: فما زُني ضاحكاً حتى لحق بالله. وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا ابن عيينة، عن عمرو، أخبرني من سمع ابن عباس يخاصم نافع ابن الأزرق، فقال ابن عباس: الورد: الدخول؟ فقال نافع: لا، فقرأ ابن عباس: «إِنَّكُمْ وَمَنْ تَقْبَلُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَسْبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ» (٧١) [الأنبياء: ٩٨]، وقال: «يَقْدُمُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأُورِدَهُمُ النَّارَ» [مرد: ٩٨]، أورد هو أم لا؟ أما أنا وأنت فستدخلها، فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مخرج منها بتكذيبك، فضحك نافع. وروى ابن جريج، عن عطاء قال: قال أبو راشد الحزوري - وهو نافع بن الأزرق -: «لَا يَسْمَعُونَ حَبْسَهَا» [الأنبياء: ١٠٢]، فقال ابن عباس: ويلك! أمجنون أنت؟ أين قوله: «يَقْدُمُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأُورِدَهُمُ النَّارَ» [مرد: ٩٨]، «وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَارِدًا» [مريم: ٨٦]، «وَلَيْنَ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدُهَا»؟ والله إن كان دعاء من مضى: اللهم أخرجني من النار سالماً، وأدخلني الجنة غانماً.

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عبيد المحاربي، حدثنا أسباط، عن عبد الملك، عن عبيد الله، عن مجاهد قال: كنت عند ابن عباس، فاتاه رجل يقال له: أبو راشد، وهو نافع بن الأزرق، فقال له: يا ابن عباس، أرأيت قول الله: «وَلَيْنَ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتًّا مَقْضِيًّا» (٧١)؟ قال: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها، فانظر: هل نصدر عنها أم لا. وقال أبو داود الطيالسي: قال شعبة، أخبرني عبد الله بن السائب، عن سمع ابن عباس يقرأها كذلك: «وإن منهم إلا واردة». يعني: الكفار. وهكذا روى عمرو بن الوليد الشنئي، أنه سمع عكرمة يقرأها كذلك: «وإن منهم إلا واردة»، قال: وهم الظلمة. كذلك كنا نقرأها. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. وقال العوفي، عن ابن عباس قوله: «وَلَيْنَ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتًّا مَقْضِيًّا» (٧١) يعني: البر الفاجر، ألا تسمع إلى قول الله لفرعون: «يَقْدُمُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأُورِدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَاءَلُونَ الْمُرُودَ الْمُرُودَ» (٧٢) «وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَارِدًا» (٨٦)، فسمى الورد في النار دخلاً، وليس بصادر. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن إسرائيل، عن السدي، عن مرة، عن عبد الله - هو ابن مسعود - «وَلَيْنَ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدُهَا»: قال رسول الله ﷺ: «يرد الناس النار كلهم، ثم يصدرون عنها بأعمالهم». ورواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن عبيد الله، عن إسرائيل، عن السدي به. ورواه من طريق شعبة، عن السدي، عن مرة، عن ابن مسعود موقوفاً.

هكذا وقع هذا الحديث ههنا مرفوعاً. وقد رواه أسباط، عن السدي، عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال: يرد الناس جميعاً الصراط، وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعدو الرجل، حتى إن آخرهم مرأ رجل نوره على موضعي إبهامي قدميه، يمر يتكفاً به الصراط، والصراط دَخُضْ مَزَلَّةٌ، عليه حَسَكٌ كَحَسَكِ الْقَتَادِ، حافته ملائكة، معهم كلاليب من نار، يختطفون بها الناس. وذكر تمام الحديث. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: حدثنا خلاد بن أسلم، حدثنا النضر، حدثنا إسرائيل، أخبرنا أبو إسحاق، عن أبي الأحوص عن عبد الله: قوله: «وَلَيْنَ يَنْكُرُ إِلَّا

وَأَرَادُهَا قَالَ: الصراط على جهنم مثل حد السيف، فتمر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم يمرون والملائكة يقولون: اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ. ولهذا شواهد في الصحيحين وغيرهما، من رواية أنس، وأبي سعيد، وأبي هريرة، وجابر، وغيرهم، من الصحابة، رضي الله عنهم. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن غُلَيْثٍ عن الجُرَيْرِي، عن أبي السليل، عن غُثَيْمِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ: ذَكَرُوا وَرُودَ النَّارِ، فَقَالَ كَعْبٌ: تَمَسَّكَ النَّارُ لِلنَّاسِ كَأَنَّهَا مَتْنٌ إِهَالَةٌ حَتَّى يَسْتَوِي عَلَيْهَا أَقْدَامُ الْخَلَائِقِ، بِرُحْمٍ وَفَاجِرِهِمْ، ثُمَّ يَنَادِيهَا مَنَادٌ: أَنْ أَمْسِكِي أَصْحَابَكَ، وَدَعِي أَصْحَابِي. قَالَ: فَتَخَسَّفَ بِكُلِّ وَلِيٍّ لَهَا، وَلَهِيَ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنَ الرَّجُلِ بَوْلَدِهِ، وَيُخْرِجُ الْمُؤْمِنُونَ نَدِيَّةً ثِيَابَهُمْ. قَالَ كَعْبٌ: مَا بَيْنَ مَنَكِبَيْ الْخَازِنِ مِنْ خَزْنَتِهَا مَسِيرَةُ سَنَةٍ، مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَمُودٌ ذُو شُعْبَتَيْنِ، يَدْفَعُ بِهِ الدَّفْعَ فَيَصْرَعُ بِهِ فِي النَّارِ سَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن أم مُبَشَّرٍ، عن حفصة قالت: قال رسول الله ﷺ «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - أَحَدُ شَهِيدٍ بَدْرًا وَالحَدِيدِيَّةِ» قالت: فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَلَنْ يَنْفَكُوا مِنْهَا وَلَا يُرِيدُهَا﴾؟ قالت: فسمعتنه يقول: ﴿ثُمَّ نَتَّبِعُ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَنْزِلُ الْفَلَّاحِينَ فِيهَا حِينًا﴾. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا ابن إدريس، حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن أم مبشر - امرأة زيد بن حارثة - قالت: كان رسول الله ﷺ في بيت حفصة، فقال: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ شَهِيدٌ بَدْرًا وَالحَدِيدِيَّةِ» قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿وَلَنْ يَنْفَكُوا مِنْهَا وَلَا يُرِيدُهَا﴾؟ فقال رسول الله ﷺ «ثُمَّ نَتَّبِعُ الَّذِينَ اتَّقَوْا». وفي الصحيحين، من حديث الزهري، عن سعيد، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «لَا يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ تَمَسُّهُ النَّارُ، إِلَّا تَحَلَّتْ الْقِسْمَ». وقال عبد الرزاق: قال معمر: أخبرني الزهري، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة؛ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ مَاتَ لَهُ ثَلَاثَةٌ لَمْ تَمَسَّهُ النَّارُ إِلَّا تَحَلَّةَ الْقِسْمِ» يعني الورد. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا زُفْعَةُ، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ، تَمَسُّهُ النَّارُ إِلَّا تَحَلَّةَ الْقِسْمِ». قال الزهري: كأنه يريد هذه الآية: ﴿وَلَنْ يَنْفَكُوا مِنْهَا وَلَا يُرِيدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتًّا مَقْضِيًّا﴾. ﴿٧١﴾

وقال ابن جرير: حدثنا عمران بن بكار الكلاعي، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن تميم، حدثنا إسماعيل بن عبيد الله، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: خرج رسول الله ﷺ يعود رجلاً من أصحابه وعكاً، وأنا معه، ثم قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: هِيَ نَارِي أَسْلَطْتُهَا عَلَى عَبْدِي الْمُؤْمِنِ؛ لِتَكُونَ حَظَّهُ مِنَ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ» غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه. وحدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان، عن عثمان بن الأسود، عن مجاهد قال: الحمى حظ كل مؤمن من النار، ثم قرأ: ﴿وَلَنْ يَنْفَكُوا مِنْهَا وَلَا يُرِيدُهَا﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا زُبَّانُ بْنُ فَاذٍ، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حَتَّى يَخْتُمَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ، بَنَى اللَّهُ لَهُ قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ». فقال عمر: إِذَا نَسْتَكْتَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «لَهُ أَكْثَرُ وَأَطْيَبُ». وقال رسول الله ﷺ «مَنْ قَرَأَ أَلْفَ آيَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كُتِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَحَسَنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَمَنْ حَرَسَ مِنْ وَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَتَطَوِّعًا لَا بِأَجْرٍ سُلْطَانٍ، لَمْ يَرِ النَّارَ بَعِينِيهِ إِلَّا تَحَلَّةَ الْقِسْمِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَنْفَكُوا مِنْهَا وَلَا يُرِيدُهَا﴾. وَإِنَّ الذِّكْرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُضَعَّفُ فَوْقَ الثَّفَقَةِ بِسَبْعُمِائَةِ ضِعْفٍ. وَفِي رِوَايَةٍ: «بِسَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ ضِعْفٍ». وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ، عَنْ أَبِي الطَّاهِرِ، عَنْ ابْنِ وَهْبٍ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَيُّوبَ وَسَعِيدِ بْنِ أَبِي أَيُّوبَ كِلَاهُمَا عَنْ زُبَّانٍ، عَنْ سَهْلٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «إِنَّ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالذِّكْرَ تَضَاعَفَ عَلَى الثَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِسَبْعُمِائَةِ ضِعْفٍ». وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ قَوْلِهِ: ﴿وَلَنْ يَنْفَكُوا مِنْهَا وَلَا يُرِيدُهَا﴾ قَالَ: هُوَ الْمَمَرُ عَلَيْهَا. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَلَنْ يَنْفَكُوا مِنْهَا وَلَا يُرِيدُهَا﴾ قَالَ: وَرُودُ الْمُسْلِمِينَ الْمُرُورُ عَلَى الْجِسْرِ بَيْنَ ظَهْرِيهَا، وَرُودُ الْمُشْرِكِينَ: أَنْ يَدْخُلُوهَا، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «الزَّلَوْنَ وَالزَّالَاتِ يَوْمُنْذُ كَثِيرٍ، وَقَدْ أَحَاطَ بِالْجِسْرِ يَوْمُنْذُ سَيِّطَانٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، دَعَاؤُهُمْ: يَا اللَّهُ سَلِّمْ سَلِّمْ». وقال السدي، عن مرة، عن ابن مسعود في قوله: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتًّا مَقْضِيًّا﴾ قَالَ: قَسَمًا وَاجِبًا. وقال مجاهد: حَتْمًا، قَالَ: قَضَاءٌ. وَكَذَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ.

وقوله: ﴿ثُمَّ نَتَّبِعُ الَّذِينَ اتَّقَوْا أَي: إِذَا مَزَّ الْخَلَائِقُ كُلَّهُمْ عَلَى النَّارِ، وَسَقَطَ فِيهَا مِنْ سَقَطٍ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْعَصَاةِ ذَوِي الْمَعَاصِي، بِحَسْبِهِمْ، نَجَّى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ. فَجَوَّزَهُمْ عَلَى الصِّرَاطِ وَسَرَعَتْهُمْ بِقَدْرِ أَعْمَالِهِمْ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ يَشْفَعُونَ فِي أَصْحَابِ الْكِبَائِرِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَيُشْفَعُ الْمَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ وَالْمُؤْمِنُونَ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَكَلَتْهُمْ النَّارُ، إِلَّا دَارَاتِ وَجُوهَهُمْ - وَهِيَ مَوَاضِعُ السُّجُودِ - وَخَرَجَهُمْ إِيَّاهُمْ مِنَ النَّارِ بِحَسَبِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ، فَيُخْرِجُونَ أَوْلَى

من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه حتى يخرجوا من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى ذرة من إيمان ثم يخرج الله من النار من قال يوماً من الدهر: «لا إله إلا الله» وإن لم يعمل خيراً قط، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود، وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَتَّبِعُ الَّذِينَ أَقْعَوْا وَقَدْ نَزَّلَ الْفُلَيْمِيقَ فِيهَا جُنُودًا﴾.

﴿وَإِذَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ الْمَائِيقَةُ يَأْتِيهِمْ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ ﴿٧٣﴾ وَكَرَّ أَهْلُكُمَا قَبْلَهُمْ بَيْنَ قَرِينٍ هُمْ أَحْسَنُ أَتَانَا وَرَبِّكَ﴾ ﴿٧٤﴾.

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان: أنهم يصدون عن ذلك، ويعرضون ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم: ﴿خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي: أحسن منازل وأرفع دوراً وأحسن ندياً، وهو مجمع الرجال للحديث، أي: ناديهم أجمع وأكثر وارداً وطارقاً، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل، وأولئك الذين هم مختفون مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدور على الحق؟ كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْكَ﴾ [الحافات: ١١]. وقال قوم نوح: ﴿أَتُؤْتِينَا لَكَ تَلَكَّ الْآزْدَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]؛ ولهذا قال تعالى راداً عليهم شبهتهم: ﴿وَكَرَّ أَهْلُكُمَا قَبْلَهُمْ بَيْنَ قَرِينٍ﴾ أي: وكمن من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم، ﴿هُمُ أَحْسَنُ أَتَانَا وَرَبِّكَ﴾ أي: كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً وأمتعة ومناظر وأشكالاً. وقال الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس: ﴿خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ قال: المقام: المنزل، والندي: المجلس، والأثاث: المتاع، والرائي: المنظر. وقال العوفي، عن ابن عباس: المقام: المسكن، والندي: المجلس والنعمة والبهجة التي كانوا فيها، وهو كما قال الله لقوم فرعون حين أهلكهم وقص شأنهم في القرآن: ﴿كَرَّ تَرْكُؤًا مِنْ جَنَّتٍ وَعُيُودًا﴾ ﴿٧٥﴾ وَزُودًا وَمَقَامًا كَرِيمًا﴾ [الدخان: ٢٥، ٢٦]، فالمقام: المسكن والنعيم، والندي: المجلس والمجمع الذي كانوا يجتمعون فيه، وقال الله فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط: ﴿وَتَأْتُونَ فِي كَذَابِكُمْ الْمُتَكَرِّرَ﴾ [النكبت: ٢٩]، والعرب تسمي المجلس: النادي. وقال قتادة: لما رأوا أصحاب محمد ﷺ في عيشهم خشونة، وفيهم قسافة، تعرّض أهل الشرك بما تسمعون: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾. وكذا قال مجاهد، والضحاك. ومنهم من قال في الأثاث: هو المال. ومنهم من قال: المتاع. ومنهم من قال: الثياب، والرئي: المنظر كما قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد. وقال الحسن البصري: يعني الصور. وكذا قال مالك: ﴿أَتَانَا وَرَبِّكَ﴾: أكثر أموالاً وأحسن صوراً. والكل متقارب صحيح.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَبْذُذْ آلَ الرَّحْمَنِ مَنًّا حَقًّا إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِنَّا الْكَذَّابُ وَإِنَّا لَنَاصَةٌ مَسْبُوعُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَقَامًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين بربههم، المدعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل: ﴿مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ أي: منا ومنكم، ﴿فَلْيَبْذُذْ آلَ الرَّحْمَنِ مَنًّا﴾ أي: فأملهه الرحمن فيما هو فيه، حتى يلقي ربه وينقضي أجله، ﴿إِنَّا الْكَذَّابُ﴾ يصيبه، ﴿وَرَبَّنَا لَنَاصَةٌ﴾ بغتة تأتيه، ﴿مَسْبُوعُونَ﴾ حينئذ من هو شَرٌّ مَقَامًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا. أي: في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندي. قال مجاهد في قوله: ﴿فَلْيَبْذُذْ آلَ الرَّحْمَنِ مَنًّا﴾: فليدعه الله في طغيانه. هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير، رحمه الله. وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه، كما ذكر تعالى مباهلة اليهود في قوله: ﴿قُلْ يَكْفُرُ الْإِبْرَاهِيمُ هَادُوا إِنْ رَزَقْتُمْ أَنْتُمْ أُولَئِكَ اللَّهُ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦] أي: ادعوا على المبطل منا ومنكم بالموت إن كنتم تدعون أنكم على الحق، فإنه لا يضركم الدعاء، فنكلوا عن ذلك، وقد تقدم تقرير ذلك في سورة «البقرة» مبسوطاً، والله الحمد. وكما ذكر تعالى المباهلة مع النصاري في سورة «آل عمران» حين صمموا على الكفر، واستمروا على الطغيان والغلو في دعواهم أن عيسى ولد الله، وقد ذكر الله حُجَجَهُ وبراهينه على عبودية عيسى، وأنه مخلوق كآدم، قال بعد ذلك: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَدُوٍّ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَيْلِ فَقُلْ تَقَالُوا نَحْنُ أَبْنَاءُكَ وَأُبْنَاءُكَ وَنِسَاءُكَ وَأُنْسَاءُكَ وَأَنْفُسُكُمْ ثُمَّ نَبْتَلِ فَنَجْعَلُ لَكَ لَنْتَ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] فنكلوا أيضاً عن ذلك.

﴿وَبَرِّدْ اللَّهُ الْآلِيكَ أَهْدُوا هُدًى وَالْبَرِّدَتْ أَهْلِيكَ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ نَدِيًّا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾.

لما ذكر الله تعالى إمداد من هو في الضلالة فيما هو فيه وزيادته على ما هو عليه، أخبر بزيادة المهتدين هدى كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هُدًى إِمَانًا قَالُوا الْآلِيكَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٦] وَأَمَّا الْآلِيكَ فِي

قُلُوبِهِمْ مَرَمَزٌ فَرَادَتْهُمْ رَجَسًا إِلَى رَجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٧٧﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: قد تقدم تفسيرها، والكلام عليها، وإيراد الأحاديث المتعلقة بها في سورة «الكهف». ﴿خَبَرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ذُنُوبًا﴾ أي: جزاء ﴿وَمَنْ مَرَدًّا﴾ أي: عاقبة ومردًا على صاحبها. وقال عبد الرزاق: أخبرنا عمر بن راشد، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: جلس رسول الله ﷺ بيذات يوم، فأخذ عوداً يابساً فحطَّ ورقة ثم قال: «إن قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، تحط الخطايا كما تحط ورق هذه الشجرة الريح، خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن، هن الباقيات الصالحات، وهن من كنوز الجنة». قال أبو سلمة: فكان أبو الدرداء، إذا ذكر هذا الحديث قال: لأهللن الله، ولأكرن الله، ولأسبحن الله، حتى إذا رآني الجاهل حسب أنني مجنون. وهذا ظاهره أنه مرسل، ولكن قد يكون من رواية أبي سلمة، عن أبي الدرداء، والله أعلم. وهكذا وقع في سنن ابن ماجه، من حديث أبي معاوية، عن عمر بن راشد، عن يحيى، عن أبي سلمة، عن أبي الدرداء، فذكر نحوه.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٧٨﴾ أَطْلَعَ النَّبِيُّ أَرَأَيْتَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٩﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَنصُرُ لَمْ يَنْ أَلْعَدَابِ مَدًّا ﴿٨٠﴾ وَنَزَّلْنَاهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨١﴾﴾

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن خباب بن الارت قال: كنت رجلاً قيناً، وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيتُه أتقاضاه. فقال: لا، والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا، والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث. قال: فإني إذا مت ثم بعثت جنتي ولي ثم مال وولد، فأعطيتك. فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٧٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أخرجه صاحبنا الصحيح وغيرهما، من غير وجه، عن الأعمش به، وفي لفظ البخاري: كنت قيناً بمكة، فعملت للعاص بن وائل سيفاً، فجئت أتقاضاه. فذكر الحديث، وقال: ﴿أَرَأَيْتَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: موثقاً. وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: قال خباب بن الارت: كنت قيناً بمكة، فكنت أعمل للعاص بن وائل، قال: فاجتمعت لي عليه دراهم، فجئت لأتقاضاه، فقال لي: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث. قال: فإذا بعثت كان لي مال وولد. قال: فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٧٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾

وقال العوفي عن ابن عباس: إن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون العاص بن وائل السهمي بدين، فأتوه يتقاضونه، فقال: ألستم تزعمون أن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً، ومن كان الثمرات؟ قالوا: بلى. قال: فإن موعدكم الآخرة، فوالله لأوتين مالا وولداً، ولأوتين مثل كتابكم الذي جئتم به. فضرب الله مثله في القرآن فقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ وهكذا قال مجاهد، وقتادة، وغيرهم: إنها نزلت في العاص بن وائل. وقوله: ﴿لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾ قرأ بعضهم بفتح «الواو» من «ولداً» وقرأ آخرون بضمها، وهو بمعناه، قال رؤبة:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَزِيزِ زُوداً لَمْ يَتَّخِذْ مِنْ وَلَدٍ شَيْءٍ وَلُوداً
وقال الحارث بن حذرة:

وَلَقَدْ رَأَيْتُ مَعَاشِرًا قَدْ تَمَرُّوا مَالاً وَوُلْدًا
وقال الشاعر:

فَلَيْتَ فُلَاناً كَانَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَلَيْتَ فُلَاناً كَانَ وَلَدِ جِمَارٍ
وقيل: إن «الولد» بالضم جمع، «والولد» بالفتح مفرد، وهي لغة قيس، والله أعلم. وقوله: ﴿أَطْلَعَ النَّبِيُّ﴾ إنكار على هذا القائل، ﴿لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾ يعني: يوم القيامة، أي: أعلم ماله في الآخرة حتى تألى وحلف على ذلك، ﴿أَرَأَيْتَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك؟ وقد تقدم عند البخاري: أنه الموثق. وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿أَطْلَعَ النَّبِيُّ أَرَأَيْتَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: لا إله إلا الله، فيرجو بها. وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿أَرَأَيْتَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، ثم قرأ: ﴿أَرَأَيْتَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾

وقوله: ﴿كَلَّا﴾ هي حرف زفع لما قبلها، وتأکید لما بعدها، ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي: من طلبه ذلك وحكمه لنفسه بما تمناه، وكفره بالله العظيم، ﴿وَنَنصُرُ لَمْ يَنْ أَلْعَدَابِ مَدًّا﴾ أي: في الدار الآخرة، على قوله ذلك، وكفره بالله في الدنيا، ﴿وَنَزَّلْنَاهُ مَا يَقُولُ﴾ أي: من مال وولد، نسلبه منه، عكس ما قال: إنه يؤتى في الدار الآخرة مالا وولداً، زيادة على الذي له في الدنيا، بل في

الآخرة يُسَلَّب مِن الذي كان له في الدنيا؛ ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي: من المال والولد. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قال: نرثه. وقال مجاهد: ﴿وَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ ما عنده، وهو قوله: ﴿لَأُوتِيَنَّكَ مَا لَا وِلْدًا﴾ وفي حرف ابن مسعود: ﴿ونرثه ما عنده﴾ وقال قتادة: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ لا مال له، ولا ولد. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قال: ما جمع من الدنيا، وما عمل فيها، قال: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ فرداً من ذلك، لا يتبعه قليل ولا كثير.

﴿وَأَخَذُوا مِن دُوبِ اللَّهِ مَالَهُمْ لِيَكُونُوا لِمَن عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُمُهُمْ أَيَّامًا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَجْعَلُ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾﴾

يخبر تعالى عن الكفار المشركين برهبهم: أنهم اتخذوا من دونه آلهة، لتكون تلك الآلهة ﴿عِزًّا﴾ يعتززون بها ويستصرونها. ثم أخبر أنه ليس الأمر كما ظنوا فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَهًا يَوْمَ يُدْعَوْنَ عَنْ دَعْوَاهُمْ﴾ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُجِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِبِعَادِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٦، ٥]. وقرأ أبو نهيك: ﴿كل سيكفرون بعبادتهم﴾ وقال السدي: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادِهِمْ﴾ أي: بعبادة الأوثان. وقوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي: بخلاف ما رَجَّوْا منهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: أعواناً. قال مجاهد: عوناً عليهم، تُخَاصِمُهُمْ وتُكَذِّبُهُمْ. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: قراء. وقال قتادة: قراء في النار، يلعن بعضهم بعضاً، ويكفر بعضهم ببعض. وقال السدي: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: الخصماء الأشداء في الخصومة. وقال الضحاك: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: أعداء. وقال ابن زيد: الضد: البلاء. وقال عكرمة: الضد: الحسرة.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُمُهُمْ أَيَّامًا﴾ ﴿٨٢﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: تغويهم إغواء. وقال العوفي عنه: تعرضهم على محمد وأصحابه. وقال مجاهد: تُشْلِيهِمْ إشلاء. وقال قتادة: تزعجهم إزعاجاً إلى معاصي الله. وقال سفيان الثوري: تغريهم إغراء وتستعجلهم استعجالاً. وقال السدي: تطغيهم طغياناً. وقال عبد الرحمن بن زيد: هذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَشَأْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَّهُمْ سَيُطْعَنُوا فَهَوَّ كَمْ قَرِينٌ ﴿٦١﴾﴾ [الزخرف: ٦١]. وقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ ﴿٨٣﴾ أي: لا تجعل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم، ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ أي: إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَافِيًا عَمَّا أَظْلَمُوا﴾ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیُؤْتِيَهُمْ فِيهِمُ الْآخِزَةَ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢]، ﴿قَوْلِ الْكَافِرِينَ إِنَّا لَهُمْ رُزُقًا ﴿٧٧﴾﴾ [الطارق: ٧٧]، ﴿إِنَّمَا نُكَلِّمُ لَهُمْ لِيُؤَدِّدُوا إِسْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، ﴿تُؤْتِيَهُمْ فَيَلَاكُم مِّنْ فَطَرَتِهِمْ إِلَهٌ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿٧٦﴾﴾ [لقمان: ٧٦]، ﴿قُلْ تَتَّبِعُوا فَإِنَّ صِدْقَكُمْ إِلَى الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]. قال السدي: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ السنين، والشهور، والأيام، والساعات. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ قال: نعد أنفاسهم في الدنيا.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الشُّجْرَيْنِ إِلَى جَهَنَّمَ وَفْدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن أَفْعَدَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين، الذين خافوه في الدار الدنيا، واتبعوا رسله وصدقوه فيما أخبروهم، وأطاعوه فيما أمرهم به، وابتعدوا عما عنه زجروهم: أنه يحشرهم يوم القيامة وفداً إليه. والوفد: هم القادمون ركباً، ومنه الوفود وركوبهم على نجائب من نور، من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه، إلى دار كرامته ورضوانه. وأما المجرمون المكدبون للرسل المخالفون لهم، فإنهم يساقون عنفاً إلى النار، ﴿وَرَدًّا﴾ عطاشاً، قاله عطاء، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وغير واحد. وههنا يقال: «أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ رُزُقًا» [مريم: ٧٣]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن خالد، عن عمرو بن قيس الملائي، عن ابن مرزوق: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ ﴿٨٥﴾ قال: يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها، وأطيبها ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أما تعرفني؟ فيقول: لا، إلا أن الله قد طيب ريحك وحسن وجهك. فيقول: أنا عمك الصالح، وهكذا كنت في الدنيا، حسن العمل طيبه، فطالما ركبكت في الدنيا، فهلم اركبني. فيركبه، فذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ ﴿٨٥﴾ وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ ﴿٨٥﴾ قال: ركبناً. وقال ابن جرير: حدثني ابن المشي، حدثنا ابن مهدي، عن شعبة، عن إسماعيل، عن رجل، عن أبي هريرة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ ﴿٨٥﴾ قال: على الإبل. وقال ابن جريج: على النجائب. وقال الثوري: على الإبل النوق. وقال قتادة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ ﴿٨٥﴾ قال: إلى الجنة.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه: حدثنا سُؤد بن سعيد، أخبرنا علي بن مُسهر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، حدثنا النعمان بن سعد قال: كنا جلوساً عند علي، رضي الله عنه، فقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ قال: لا، والله ما على أرجلهم يحشرون، ولا يحشر الوفد على أرجلهم، ولكن بنوق لم ير الخلاق مثلاً، عليها رحائل من ذهب، فيركبون عليها، حتى يضربوا أبواب الجنة. وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، من حديث عبد الرحمن بن إسحاق المدني، به. وزاد: «عليها رحائل الذهب، وأزمتها الزبرجد» والباقي مثله. وروى ابن أبي حاتم ههنا حديثاً غريباً جداً مرفوعاً، عن علي، فقال: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النهدي، حدثنا مسلمة بن جعفر البجلي، سمعت أبا معاذ البصري قال: إن علياً كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ فقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ فقال: ما أظن الوفد إلا الركب يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون - أو: يؤتون - بنوق بيض لها أجنحة، وعليها رحال الذهب، شُرْك نعالهم نور يتلألأ، كل خطوة منها مد البصر، فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان، فيشربون من إحداهما، فتغسل ما في بطونهم من دنس، ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبداً، وتجرى عليهم نضرة النعيم، فينتهون أو: فيأتون باب الجنة، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، فيضربون بالحلقة على الصفيحة فيسمع لها طنين يا علي، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل، فتبعث قيمها فيفتح له، فإذا رآه خر له - قال مسلمة: أراه قال: ساجداً - فيقول: ارفع رأسك، إنما أنا قيمك، وكلت بأمرك. فيتبعه ويقفو أثره، فتستخف الحوراء العجلة فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتقه، ثم تقول: أنت جيتي، وأنا حبك، وأنا الخالدة التي لا أموت، وأنا الناعمة التي لا أبأس، وأنا الراضية التي لا أسخط، وأنا المقيمة التي لا أظعن، فيدخل بيتاً من أمته إلى سقفه مائة ألف ذراع، بناؤه على جندل اللؤلؤ طرائق: أصفر وأحمر وأخضر، ليس منها طريقة تشاكل صاحبته. وفي البيت سبعون سريراً، على كل سرير سبعون حشية، على كل حشية سبعون زوجة، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من وراء الحلل، يقضي جماعها في مقدار ليلة من لياليكم هذه. الأنهار من تحتها تتردد، أنهار من ماء غير آسن - قال: صافٍ لا كدر فيه - وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، لم يخرج من ضرور الماشية، وأنهار من خمر لذة للشاربين، لم يعتصرها الرجال بأفدامهم، وأنهار من عسل مصفى لم يخرج من بطون النحل، فيستحلي الثمار، فإن شاء أكل قائماً، وإن شاء قاعداً، وإن شاء متكئاً، ثم تلا: ﴿وَدَانِيَّ عَلَيْهِمُ الظُّلُمَاتُ وَذَلَّتْ ظُلُومُهَا ذَلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤]، فيشتهي الطعام، فيأتيه طير أبيض، وربما قال: أخضر، فترفع أجنحتها، فيأكل من جنوبها أي الألوان شاء، ثم تطير فتذهب، فيدخل الملك فيقول: سلام عليكم: ﴿وَبَلَّغْ لِكُلِّ نَفْسٍ إِلَيْهِ أَوْرَثَتُوهَا بِمَا كَسَبَتْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، ولو أن شعرة من شعر الحوراء وقعت لأهل الأرض، لأضاءت الشمس معها سواد في نور». هكذا وقع في هذه الرواية مرفوعاً، وقد رويناه في المقدمات من كلام علي، رضي الله عنه، بنحوه، وهو أشبه بالصحة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَسَوْفَ الْمُتَّقِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَفْدًا﴾ أي: عطاءشاً، ﴿لَا يَلِكُونَ الشَّقَّةَ﴾ أي: ليس لهم من يشفع لهم، كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض، كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿فَمَا لَنَا بِنُوحٍ عَلَيْهِمْ وَلَا سُلَيْمٍ عَلَيْهِمْ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾: هذا استثناء منقطع، بمعنى: لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والقيام بحقوقها. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: العهد: شهادة أن لا إله إلا الله، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة، ولا يرجو إلا الله، ﷻ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عثمان بن خالد الواسطي، حدثنا محمد بن الحسن الواسطي، عن المسعودي، عن عون بن عبد الله، عن أبي فاختة، عن الأسود بن يزيد قال: قرأ عبد الله - يعني ابن مسعود - هذه الآية: ﴿إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾، ثم قال: اتخذوا عند الله عهداً، فإن الله يقول يوم القيامة: «من كان له عند الله عهد فليقم» قالوا: يا أبا عبد الرحمن، فَعَلِمْنَا. قال: قولوا: اللهم، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أنك إن تكلني إلى عمل تقربني من الشر وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهداً تؤدِّيه إلي يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد. قال المسعودي: فحدثني زكريا، عن القاسم بن عبد الرحمن، أخبرنا ابن مسعود: وكان يُلْحِقُ بهن: خائفاً مستجيراً مستغفراً، رهاباً راغباً إليك. ثم رواه من وجه آخر، عن المسعودي، بنحوه.

﴿وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ٨٨ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ ٨٩ ﴿تَكَادَ السَّمَوَاتُ يَتَطَفَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ اللَّهِ هَٰذَا أَمْ أَنْ دَعَا﴾ ٩٠ ﴿لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ ٩١ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ٩٢ ﴿إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا فِي الرَّحْمَنِ عِنْدًا﴾ ٩٣ ﴿لَقَدْ أَهْمَمْتُمْ وَعَدَّهْمُ﴾ ٩٤

عَدَا ۝ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۝

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى، عليه السلام، وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً وتعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً - فقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ بِأَيٍّ فِي قَوْلِكُمْ هَذَا، شَيْئًا إِذَا﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومالك: أي عظيماً. ويقال: ﴿إِذَا﴾ بكسر الهمزة وفتحها، ومع مذهبنا أيضاً، ثلاث لغات، أشهرها الأولى.

وقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِعْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَعْرِزُ لِبَيْتٍ هَذَا ۝﴾ أن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝ أي: يكاد يكون ذلك عند سماعهم هذه المقالة من فجرة بني آدم، إعظماً للرب وإجلالاً؛ لأنهم مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له، ولا نظير له، ولا ولداً له، ولا صاحبة له، ولا كفء له، بل هو الأحد الصمد:

وفِي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ ۝ نَذُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاجِدٌ ۝ قال ابن جرير: حدثني علي، حدثنا عبد الله، حدثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس، في قوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِعْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَعْرِزُ لِبَيْتٍ هَذَا ۝﴾ أن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝ قال: إن الشرك فرغت منه السموات والأرض والجبال، وجميع الخلائق إلا الثقلين، فكادت أن تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين، وقال رسول الله ﷺ: «لَقِنَا مَوْتَائِمَ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَهَا عِنْدَ مَوْتِهِ وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ». قالوا: يا رسول الله، فمن قالها في صحته؟ قال: «تِلْكَ أَوْجِبُ وَأَوْجِبُ». ثم قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ جِئْتُ بِالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَيْنِ وَمَا فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُنَّ، وَمَا تَحْتَهُنَّ، فَوَضَعْنِ فِي كِفَةِ الْمِيزَانِ، وَوَضَعْتَ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي الْكِفَةِ الْأُخْرَى، لَرَجَحْتُ بِهِنَّ». هكذا رواه ابن جرير، ويشهد له حديث البطاقة، والله أعلم. وقال الضحاك: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِعْنَ مِنْهُ ۝﴾ أي: يتشققن فرقاً من عظمة الله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ۝﴾ أي: غضباً لله، عز وجل. ﴿وَتَعْرِزُ لِبَيْتٍ هَذَا ۝﴾ قال ابن عباس: هدماً. وقال سعيد بن جبيرة: ﴿هَذَا ۝﴾ ينكسر بعضها على بعض متتابعات. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن سُوَيْدٍ المَقْبَرِي، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا سَعْرٌ، عن عون بن عبد الله قال: إن الجبل لينادي الجبل باسمه: يا فلان، هل مر بك اليوم ذاك؟ الله ﷻ فيقول: نعم، ويستبشر. قال عون: لهي للخير أسمع، أفيسمع الزور والباطل إذا قيل ولا يسمع غيره، ثم قرأ: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِعْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَعْرِزُ لِبَيْتٍ هَذَا ۝﴾ أن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝ وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا هُوَ، حدثنا عوف، عن غالب بن عَجْرَد، حدثني رجل من أهل الشام في مسجد مَيِّ قال: بلغني أن الله لما خلق الأرض وخلق ما فيها من الشجر، لم يكن في الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعة - أو قال: كان لهم فيها منفعة - ولم تزل الأرض والشجر بذلك، حتى تكلم فجرة بني آدم بتلك الكلمة العظيمة، قولهم: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۝﴾ فلما تكلموا بها اقشعرت الأرض، وشكاك الشجر. وقال كعب الأحبار: غضبت الملائكة، واستعرت النار، حين قالوا ما قالوا. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن سعيد بن جبيرة، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن أبي موسى، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَىٰ أَذَى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ، إِنَّهُ يَشْرِكُ بِهِ، وَيَجْعَلُ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يَعْافِيهِمْ وَيُدْفَعُ عَنْهُمْ، وَيَرْزُقُهُمْ». أخرجه في الصحيحين. وفي لفظ: «إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيَعْافِيهِمْ». وقوله: ﴿وَمَا يَلْبِغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝﴾ أي: لا يصلح له، ولا يليق به لجلاله وعظمته؛ لأنه لا كفء له من خلقه؛ لأن جميع الخلائق عبيد له؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا فِي الرَّحْمَنِ عِبَادٌ ۝﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّاهُمْ عَدًّا ۝ أي: قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ذكرهم وأثامهم، وصغيرهم وكبيرهم، ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۝﴾ أي: لا ناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم في خلقه بما يشاء، وهو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، ولا يظلم أحداً.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ أَحَدٌ ۝ وَاعْبُدُوا وَاعْبُدُوا الصَّالِحِينَ سَمِعْتُمْ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وَكَأَنَّ ۝﴾ فَلَمَّا يَسْرَرَتْهُ بِإِسْلَامِكَ لِتَشِيرَ بِهِ التَّوْبَةُ وَتَذِيرَ بِهِ قَوْلًا لَكَ ۝ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُخْشِئُ مِنْهُمْ مِنْ أَمْرٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۝

يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهي الأعمال التي ترضي الله، ﷻ لمتابعتها الشريعة المحمدية - يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين مودة، وهذا أمر لا بد منه، ولا محيد عنه. وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ بمن غير وجه. قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عَوَانَةَ، حدثنا سُهَيْلٌ، عن أبيه، عن أبي

هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل، إني أحب فلاناً فأحبه. قال: فيحبه جبريل». قال: «ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً». قال: «فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل، إني أبغض فلاناً فأبغضه». قال: «فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه». قال: «فيبغضه أهل السماء، ثم يوضع له البغضاء في الأرض». ورواه مسلم من حديث سهيل. ورواه أحمد والبخاري، من حديث ابن جُرَيْج، عن موسى بن عتبة، عن نافع مولى ابن عمر، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، بنحوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون أبو محمد المرثي، حدثنا محمد بن عباد المخزومي، عن ثوبان، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليلتمس مرضاة الله، فلا يزال كذلك فيقول الله، ﷻ، لجبريل: إن فلاناً عبدي يلتمس أن يرضيني؛ ألا وإن رحمتي عليه، فيقول جبريل: «رحمة الله على فلان»، ويقولها حملة العرش، ويقولها من حولهم، حتى يقولها أهل السموات السبع، ثم يهبط إلى الأرض». غريب، ولم يخرجوه من هذا الوجه. وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شريك، عن محمد بن سعد الواسطي، عن أبي ظبية، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقعة من الله - قال شريك: هي المحبة - والصيت من السماء، فإذا أحب الله عبداً قال لجبريل، عليه السلام: إني أحب فلاناً، فينادي جبريل: إن ربكم يمتق - يعني: يحب - فلاناً، فأحبه - وأرى شريكاً قد قال: فتنتل له المحبة في الأرض - وإذا أبغض عبداً قال لجبريل: إني أبغض فلاناً فأبغضه»، قال: «فينادي جبريل: إن ربكم يبغض فلاناً فأبغضوه». قال: أرى شريكاً قد قال: «فيجري له البغض في الأرض». غريب ولم يخرجوه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو داود الحفري، حدثنا عبد العزيز - يعني ابن محمد، وهو الدراوذي - عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة؛ أن النبي ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إني قد أحببت فلاناً، فأحبه، فينادي في السماء، ثم ينزل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قول الله، ﷻ: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ أَحَدٌ وَوَحْدَهُ عَظِيمٌ﴾». رواه مسلم والترمذي كلاهما عن قتيبة، عن الدراوذي، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَكُمْ الْآرْحَنَ وَدًّا﴾ قال: حباً. وقال مجاهد، عنه: ﴿سَيَجْعَلُ لَكُمْ الْآرْحَنَ وَدًّا﴾ قال: محبة في الناس في الدنيا. وقال سعيد بن جبير، عنه: يحبهم ويحبهم، يعني: إلى خلقه المؤمنين. كما قال مجاهد أيضاً، والضحاك وغيرهم. وقال العوفي، عن ابن عباس أيضاً: الود من المسلمين في الدنيا، والرزق الحسن، واللسان الصادق.

وقال قتادة: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ أَحَدٌ﴾ مَأْتُوا وَكَلِمَاتُ الْفَلَيْحَةِ سَيَجْعَلُ لَكُمْ الْآرْحَنَ وَدًّا ﴿٩٦﴾ : إني والله، في قلوب أهل الإيمان، ذكر لنا أن هَرَمَ بن حَيَّان كان يقول: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم. وقال قتادة: وكان عثمان بن عفان، رضي الله عنه، يقول: ما من عبد يعمل خيراً، أو شراً، إلا كساه الله، ﷻ، رداء عمله. وقال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن الربيع بن صبيح، عن الحسن البصري، رحمه الله قال: قال رجل: والله لأعبدن الله عبادة أذكر بها، فكان لا يرى في حين صلاة إلا قائماً يصلي، وكان أول داخل إلى المسجد وآخر خارج، فكان لا يعظم، فمكث بذلك سبعة أشهر، وكان لا يمر على قوم إلا قالوا: «انظروا إلى هذا المرثي»، فأقبل على نفسه فقال: لا أراني أذكر إلا بِشَرٍّ، لأجعلن عملي كله لله، ﷻ، فلم يزد على أن قلب نيته، ولم يزد على العمل الذي كان يعمل، فكان يمر بعد بالقوم، فيقولون: رحم الله فلاناً الآن، وتلا الحسن: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ أَحَدٌ﴾ مَأْتُوا وَكَلِمَاتُ الْفَلَيْحَةِ سَيَجْعَلُ لَكُمْ الْآرْحَنَ وَدًّا ﴿٩٦﴾ . وقد روى ابن جرير أثراً أن هذه الآية نزلت في هجرة عبد الرحمن بن عوف. وهو خطأ، فإن هذه السورة بتامها مكية لم ينزل منها شيء بعد الهجرة، ولم يصح سند ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ﴾ يعني: القرآن، ﴿يَسْأَلُكَ﴾ أي: يا محمد، وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل، ﴿يُنَبِّئُكَ بِهِ الْغُنُوبَ﴾ أي: المستجيبين لله المصدقين لرسوله، ﴿وَيُنذِرُ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ أي: عوجاً عن الحق مائلين إلى الباطل. وقال ابن أبي نجيع، عن مجاهد: ﴿قَوْمًا لَّدَا﴾ : لا يستقيمون. وقال الثوري: عن إسماعيل - وهو الشَّذِّي - عن أبي صالح: ﴿وَيُنذِرُ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ : عوجاً عن الحق. وقال الضحاك: هو الخصم. وقال القرظي: الألد: الكذاب. وقال الحسن البصري: ﴿قَوْمًا لَّدَا﴾ : صماً. وقال غيره: صم آذان القلوب. وقال قتادة: ﴿قَوْمًا لَّدَا﴾ : يعني قريشاً. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿قَوْمًا لَّدَا﴾ : فجاراً. وكذا روى ليث بن أبي سليم عن مجاهد. وقال ابن زيد: الألد: الظلوم، وقرأ قول الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي الْخَصَاةَ﴾ [البقرة: ٢٤٠].

وقوله: ﴿وَكَذَرْنَا قُلُوبَهُمْ بَيْنَ قَرْنٍ﴾ أي: من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله، ﴿هَلْ تُحِشُّ بِتَنَمُّ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أي:

هل ترى منهم أحداً، أو تسمع لهم ركزاً. قال ابن عباس، وأبو العالية، وعكرمة، والحسن البصري، وسعيد بن جبيرة، والضحاك، وابن زيد: يعني: صوتاً. وقال الحسن، وقتادة: هل ترى عيناً، أو تسمع صوتاً. والركز في أصل اللغة: هو الصوت الخفي، قال الشاعر:

فَتَوَجَّسْتُ رَجَزَ الْأَنْبِيسِ فَرَاغَهَا عَنْ ظَهْرِ غَيْبِ الْأَنْبِيسِ سَقَامُهَا

آخر تفسير «سورة مريم» والله الحمد والمنة.

ويتلوه إن شاء الله تعالى

تفسير «سورة طه» والحمد لله.



تفسير سورة طه

وهي مكية. روى إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة في كتاب «التوحيد»، عن زياد بن أيوب، عن إبراهيم بن المنذر الجزامي، حدثنا إبراهيم بن مهاجر بن مسمار، عن عمر بن حفص بن ذكوان، عن مولى الخرقه - يعني عبد الرحمن بن يعقوب - عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قرأ «طه» و«يس» قبل أن يخلق آدم بألف عام، فلما سمعت الملائكة قالوا: طوبى لأمة ينزل عليهم هذا، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لآلسن تكلم بهذا». هذا حديث غريب، وفيه نكارة، وإبراهيم بن مهاجر وشيخه تكلم فيها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طه﴾ مَا أُنزِلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن يَخْشَى ﴿٢﴾ تَزِيلًا وَمِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَاسْتَوَاتَ الْمُلُكُ ﴿٣﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَرَثَ اسْتَوَى ﴿٤﴾ لَمَّا فِي السَّنَابِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا يَنْبَغِي وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٥﴾ وَإِنْ يُجْهَرُ بِأَقْوَالٍ فَإِنَّهُ يَمْلِكُ الْاِثْرَ وَآخِى ﴿٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ لِلشَّقَى ﴿٧﴾

تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة «البقرة» بما أغنى عن إعادته. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسين بن محمد بن شعبة الواسطي، حدثنا أبو أحمد - يعني: الزبيري - أنبأنا إسرائيل عن سالم الأفيطس، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: طه: يا رجل. وهكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وعطاء، ومحمد بن كعب، وأبي مالك، وعطية العوفي، والحسن، وقتادة، والضحاك، والسدي، وابن أبيزيم أنهم قالوا: «طه» بمعنى: يا رجل. وفي رواية عن ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، والثوري: أنها كلمة بالنبطية معناها: يا رجل. وقال أبو صالح: هي مُعَرَّبَةٌ. وأسند القاضي عياض في كتابه «الشفاء» من طريق عبد بن حميد في تفسيره: حدثنا هاشم بن القاسم عن ابن جعفر، عن الربيع بن أنس قال: كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله تعالى ﴿طه﴾، يعني: طأ الأرض يا محمد، ﴿مَا أُنزِلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾. ثم قال: ولا خفاء بما في هذا من الإكرام وحسن المعاملة.

وقوله: ﴿﴿مَا أُنزِلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾﴾ قال جوبير، عن الضحاك: لما أنزل الله القرآن على رسوله، قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى! فأنزل الله تعالى: ﴿﴿طه﴾﴾ مَا أُنزِلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن يَخْشَى ﴿٢﴾. فليس الأمر كما زعمه المبطلون، بل من آتاه العلم فقد أراد به خيراً كثيراً، كما ثبت في الصحيحين، عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين». وما أحسن الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني في ذلك حيث قال: حدثنا أحمد بن زهير، حدثنا العلاء بن سالم، حدثنا إبراهيم الطالقاني، حدثنا ابن المبارك، عن سفيان، عن سيمك بن حرب، عن ثعلبة بن الحكم قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة إذا قُعد على كرسيه لقضاء عبادته: إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم، ولا أبالي». إسناده جيد وثعلبة بن الحكم هذا هو الليثي ذكره أبو عمر في استيعابه، وقال: نزل البصرة، ثم تحول إلى الكوفة، وروى عنه سيمك بن حرب. وقال مجاهد في قوله: ﴿﴿مَا أُنزِلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾﴾: هي كقوله: ﴿﴿فَاقْرَءُوا مَا يَنْتَزِعُ مِنْهُ﴾﴾ [المزمل: ٢٠]، وكانوا يعلقون الحبال بصدرهم في الصلاة. وقال

شيئاً، وضعفه أبو حاتم الرازي، وقال ابن عدي: لا يعرف.

قلت: وقد خلط في هذا الحديث، ودخل عليه شيء في شيء، وحديث في حديث. وقد يُحتمل أنه تَعَمَّد ذلك، أو أدخل عليه فيه، فالله أعلم.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (٧) أي: أنزل هذا القرآن الذي خلق الأرض والسموات العلى، الذي يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٦) [الفرقان: ٦]. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال: السر ما أسر ابن آدم في نفسه، ﴿وَأَخْفَى﴾: ما أخفى على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه الله يعلم ذلك كله، فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقي عِلْم واحد، وجميع الخلاق في ذلك عنده كنفس واحدة، وهو قوله: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْشَكُم إِلَّا كُنُفُسٌ وَّجِدُوا﴾ [لقمان: ٢٨]. وقال الضحاك: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال: السر: ما تحدث به نفسك، وأخفى: ما لم تحدث به نفسك بعد. وقال سعيد بن جبیر: أنت تعلم ما أسر اليوم، ولا تعلم ما أسر غداً، والله يعلم ما أسر اليوم، وما أسر غداً. وقال مجاهد: ﴿وَأَخْفَى﴾ يعني: الوسوسة. وقال أيضاً هو وسعيد بن جبیر: ﴿وَأَخْفَى﴾ أي: ما هو عامله مما لم يحدث به نفسه.

وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (٨) أي: الذي أنزل القرآن عليك هو الله الذي لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى. وقد تقدم بيان الأحاديث الواردة في الأسماء الحسنى في أواخر سورة «الأعراف» الله الحمد والمنة.

﴿وَقُلْ أَنتَكَ حَيُّثُ مُوسَى﴾ (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ أُجِدُّ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) من هنا شرع، تبارك وتعالى، في ذكر قصة موسى عليه السلام، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه، وذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم وسار بأهله، قيل: قاصداً بلاد مصر، بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأصل الطريق، وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال، في برد وشتاء، وسحاب وظلام وضباب، وجعل يقدح بزند معه ليُوري نارا، كما جرت له العادة به، فجعل لا يقدح شيئاً، ولا يخرج منه شرر ولا شيء. فبينما هو كذلك، إذ آنس من جانب الطور نارا، أي: ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يمشروهم: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ أُجِدُّ عَلَى النَّارِ﴾ [الفصل: ٢٩]، وهي: الجمر الذي معه لهب، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [الفصل: ٢٩]، دل على وجود البرد، وقوله: ﴿بَقَيْسٍ﴾ دل على وجود الظلام.

وقوله: ﴿أَوْ أُجِدُّ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ (١٠) أي: من يهديني الطريق، دل على أنه قد تاه عن الطريق، كما قال الثوري، عن أبي سعد الأعمور، عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوْ أُجِدُّ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ قال: من يهديني إلى الطريق. وكانوا شاتين وضلوا الطريق، فلما رأى النار قال: إن لم أجد أحداً يهديني إلى الطريق أتكم بنار توقدون بها.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ بِمُوسَى﴾ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَمَلِكْ إِنَّكَ بِأَلْوَابِ الْمُقَدَّسِينَ طُورِي (١٢) وَأَنَا أَنْزَلْتُكَ فَاسْتَجِبْ لَنَا يُوحَى (١٣) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُخْرِجَنَّ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٥)

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أي: النار واقترب منها، ﴿نُودِيَ بِمُوسَى﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿أَتَتْهَا نُودِيَ مِنْ شَطِئِ الْأَوَابِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْغُنُورَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنِ بِمُوسَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّكَ﴾ [القصص: ٣٠]، وقال هاهنا ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ أي: الذي يكلمك ويخاطبك، ﴿فَاخْلَعْ نَمَلِكْ﴾ قال علي بن أبي طالب، وأبو ذر، وأبو أيوب، وغير واحد من السلف: كانتا من جلد حمار غير ذكي. وقيل: إنما أمره بخلع نعليه تعظيماً للبقعة. قال سعيد بن جبیر: كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل الكعبة. وقيل: ليطأ الأرض المقدسة بقدميه حافياً غير متعل. وقيل غير ذلك، والله أعلم. وقوله: ﴿طُورِي﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو اسم للوادي. وكذا قال غير واحد، فعلى هذا يكون عطف بيان. وقيل: عبارة عن الأمر بالوطء بقدميه. وقيل: لأنه قدس مرتين، وطوى له البركة وكررت. والأول أصح، كقوله: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْأَوَابِ الْمُقَدَّسِينَ طُورِي﴾ [النازعات: ١٦].

وقوله: ﴿وَأَنَا أَنْزَلْتُكَ﴾ كقوله: ﴿إِنِّي أَسْطَلِّبُكَ عَلَى الثَّلَاسِ بِرِسْلَتِي وَبِكَلِمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] أي: على جميع الناس من الموجودين في زمانه. وقد قيل: إن الله تعالى قال: يا موسى، أتدري لم خصصتك بالتكليم من بين الناس؟ قال: لا. قال: لأنني لم يتواضع لي أحد تواضعك. وقوله: ﴿فَاسْتَجِبْ لَنَا يُوحَى﴾ أي: اسمع الآن ما أقول لك وأوحيه إليك ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾: هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله، وحده لا شريك له. وقوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ أي: وخدني وقم بعبادتي من

غير شريك، ﴿وَأَقْرَبَ الْمَلَكُوتَ لِلْكَرِيِّ﴾ قيل: معناه: صَلِّ لتذكرني. وقيل: معناه: وأقم الصلاة عند ذكرك لي. ويشهد لهذا الثاني ما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا المثنى بن سعيد، عن قتادة، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «إِذَا رَقَدَ أَحَدُكُمْ عَنِ الصَّلَاةِ، أَوْ غَفَلَ عَنْهَا، فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَأَقْرَبَ الْمَلَكُوتَ لِلْكَرِيِّ﴾. وفي الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَامَ عَنِ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا، فَكَفَّارَتُهَا أَنْ يُصَلِّيَهَا إِذَا ذَكَرَهَا، لَا كَفَّارَةَ لَهَا إِلَّا ذَلِكَ».

وقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ أي: قائمة لا محالة، وكائنة لا بد منها. وقوله: ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس: أنه كان يقرأها: ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا مِنْ نَفْسِي﴾، يقول: لأنها لا تخفى من نفس الله أبداً. وقال سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: من نفسه. وكذا قال مجاهد، وأبو صالح، ويحيى بن رافع. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ يقول: لا أطلع عليها أحداً غيري. وقال السدي: ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا قد أخفى الله عنه علم الساعة، وهي في قراءة ابن مسعود: ﴿إِنِّي أَكَادُ أَخْفِيهَا مِنْ نَفْسِي﴾، يقول: كتمتها من الخلاق، حتى لو استطعت أن أكتنها من نفسي لفعلت. وقال قتادة: ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ وهي في بعض القراءة أخفيها من نفسي، ولعمري لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين، من الأنبياء والمرسلين. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَمْلِكُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال: ﴿فَنُفِثَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَأْتِيكُمُ الْبَقَاءُ إِلَّا بِنُؤْنِ﴾ [الاعراف: ١٨٧] أي: نفل علمها على أهل السموات والأرض. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة حدثنا ميثجاب، حدثنا أبو نميلة، حدثني محمد بن سهل الأسدي، عن وقاء قال: أقرأنيها سعيد بن جبیر: ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾، يعني: بنصب الألف وخفض الفاء، يقول: أظهرها، ثم قال: أما سمعت قول الشاعر:

ذَابَ شَهْرَيْنِ، ثُمَّ شَهْرًا ذَوِيكَأ
بَارِيكَيْنِ يَخْفِيَانِ غَمِيرَا
وقال الأسدي: الغمير: نبت رطب، ينبت في خلال ييس. والأريكين: موضع، والدميك: الشهر التام. وهذا الشعر لكعب بن زهير.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَنْزِلُ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، أي: أقيمها لا محالة، لأجزئ كل عامل بعمله، ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ يَتَقَالَ دَرُّوْ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَمْلِكُ يَتَقَالَ دَرُّوْ شَرًّا يَرَهُ (٨) [الزلزلة: ٧، ٨]، و ﴿إِنَّمَا يُجِزُونَ مَا كَثُرَ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

وقوله: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ (١٦)، المراد بهذا الخطاب أحاد المكلفين، أي: لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة، وأقبل على ملاذه في دنياه، وعصى مولاها، واتبع هواه، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر ﴿فَتَرْدَى﴾ أي: تهلك وتعطب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْفَعُ عَنْهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ١١].

﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَتُومُنُ﴾ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَقْبَضْتُ بِهَا عَلَى عَنِي وَفِي فِيهَا مَنَارِبُ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَتَيْهَا يَتُومُنُ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْتَ سَتِيرَتِهَا الْأُولَى (٢١)

هذا برهان من الله تعالى لموسى، عليه السلام، ومعجزة عظيمة، وخرق للعادة باهر، دال على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله ﷻ وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل، وقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَتُومُنُ﴾ (١٧)، قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإناس له. وقيل: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي: أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها، فستري ما نصنع بها الآن، ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَتُومُنُ﴾ (١٧) استفهام تقرير. ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ أي: أعتمد عليها في حال المشي ﴿وَأَقْبَضْتُ بِهَا عَلَى عَنِي﴾ أي: أهر بها الشجرة ليسقط ورقها، لترعا غنمي. قال عبد الرحمن بن القاسم، عن الإمام مالك: والهش: أن يضع الرجل المخجن في الغصن، ثم يحركه حتى يسقط ورقه وقمره، ولا يكسر العود، فهذا الهش، ولا يخط. وكذا قال ميمون بن مهران أيضاً. وقوله: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَقْبَضْتُ بِهَا عَلَى عَنِي وَفِي فِيهَا مَنَارِبُ أُخْرَى﴾ (١٨) أي: مصالح ومتافع وحاجات آخر غير ذلك. وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المنارِب التي أبهت، فقيل: كانت تضيء له بالليل، وتحرس له الغنم إذا نام، ويغرسها فتصير شجرة تظله، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة. والظاهر أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى صيورتها ثعباناً، فما كان يفر منها هارباً، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية، وكذا قول بعضهم: إنها كانت لأدم، عليه السلام. وقول الآخر: إنها هي الدابة التي تخرج قبل يوم القيامة. وروي عن ابن عباس أنه قال: كان اسمها ماشا. والله أعلم بالصواب.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَيْهَا يَتُومُنُ﴾ (١٩) أي: هذه العصا التي في يدك يا موسى، ألقها ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ (٢٠) أي: صارت في الحال حَيَّةً عظيمة، ثعباناً طويلاً، يتحرك حركة سريعة، فإذا هي تهتز كأنها جان، وهو أسرع الحيات حركة، ولكنه

صغير، فهذه في غاية الكبر، وفي غاية سرعة الحركة، ﴿تَسْتَفْ﴾ أي: تمشي وتضطرب. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبيدة، حدثنا حفص بن جُمَيْع، حدثنا سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿فَالْقَنَاءُ إِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْتَفْ﴾: ولم تكن قبل ذلك حية، فمرت بشجرة فأكلتها، ومرت بصخرة فابتلعها، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة في جوفها، فولى مديراً، فنودي أن: يا موسى، خذها. فلم يأخذها، ثم نودي الثانية أن: خذها ولا تخف. فقيل له في الثالثة: إنك من الآمنين. فأخذها. وقال وهب بن مُثَنَّب في قوله: ﴿فَالْقَنَاءُ إِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْتَفْ﴾ قال: فآلقها على وجه الأرض، ثم حانت نظرة فإذا أعظم ثعبان نظر إليه الناظرون، فذُت يلتمس كأنه يبتغي شيئاً يريد أخذه، يمر بالصخرة مثل الخَلْفَةِ من الإبل فيلتقمها، ويطعن بالناب من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فيجتثها، عيناه توددان نارا، وقد عاد المخجن منها عرفاً. قيل: شعر مثل النيازك، وعاد الشعبان منها مثل القلب الواسع، فيه أضرار وأنياب، لها صريف، فلما عاين ذلك موسى ولى مديراً ولم يُعَقِّب، فذهب حتى أمعن، ورأى أنه قد أعجز الحية، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه، ثم نودي: يا موسى أن: ارجع حيث كنت. فرجع موسى وهو شديد الخوف، فقال: ﴿خُذْهَا﴾ بيمينك ﴿وَلَا تَخَفْ سَيُعِيدُكَ سِيرَتُهَا الْأُولَى﴾، وعلى موسى حينئذ مذبذبة من صوف، فدخلها بخلال من عيدان، فلما أمره بأخذها أدلى طرف المدرعة على يده، فقال له ملك: رأيت يا موسى، لو أذن الله بما تحاذر أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً؟ قال: لا، ولكنني ضعيف، ومن صَغَف خلقت. فكشف عن يده ثم وضعها على فم الحية، حتى سمع حس الأضرار والأنياب، ثم قبض فإذا هي عصاه التي عهدا، وإذا يده في موضعها الذي كان يضعها إذا توكأ بين الشعبين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سَيُعِيدُكَ سِيرَتُهَا الْأُولَى﴾ أي: إلى حالها التي تعرف قبل ذلك.

﴿وَأَضْمُ بِذَلِكَ إِلَيْ جَنَاحِكَ فَخَرَجَ بَيِّنَةً مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ مَا لَمْ تَرَى﴾ لِيُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿أَذْهَبَ إِلَيْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ قَالَ رَبِّ آتِنِي فِي صَدْرِي ﴿وَبَرِّزْ لِي آتِرِي﴾ وَأَعْلَلْ عَقْدَةَ بَيْنَ لِسَانِي ﴿بِقَهْوَرٍ قَوْلِي﴾ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿هَؤُلَاءِ أَهْلِي﴾ أَشَدُّ يَوْمَ أَزْرِي ﴿وَأَذْرِكُ لِي آتِرِي﴾ كَيْ سَيُعَذِّبُكَ كَيْبَرًا ﴿وَنَذْرِكُ كَيْبَرًا﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَعِيرًا ﴿٢٥﴾.

وهذا برهان ثانٍ لموسى، عليه السلام، وهو أن الله أمره أن يدخل يده في جيبه، كما صرح به في الآية الأخرى، وهاهنا عبر عن ذلك بقوله: ﴿وَأَضْمُ بِذَلِكَ إِلَيْ جَنَاحِكَ﴾، وقال في مكان آخر: ﴿وَأَضْمُ بِذَلِكَ إِلَيْ جَنَاحِكَ مِنْ أَرْقَبٍ فَنَذَرُكَ بَرَهَانَيْنِ مِنْ رَبِّكَ إِلَيْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [الفصل: ٣٢]. وقال مجاهد: ﴿وَأَضْمُ بِذَلِكَ إِلَيْ جَنَاحِكَ﴾: كفه تحت عضده. وذلك أن موسى، عليه السلام، كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها، تخرج تتلألاً كأنها فلقة قمر. وقوله: ﴿فَخَرَجَ بَيِّنَةً مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ أي: من غير بَرَص ولا أذى، ومن غير شين. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، والسدي، وغيرهم. وقال الحسن البصري: أخرجها - والله - كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد قد لقي ربه ﷻ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِيُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾. وقال وهب: قال له ربه: أذنه: فلم يزل يدينه حتى شد ظهره بجذع الشجرة، فاستقر وذهبت عنه الرعدة، وجمع يده في العصا، وخضع برأسه وعنقه.

وقوله: ﴿أَذْهَبَ إِلَيْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ أي: أذهب إلى فرعون ملك مصر، الذي خَرَجَتْ فَارَأَمُهُ وهارباً، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومرة فُلِّيْحِينَ إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبغى، وآثر الحياة الدنيا، ونسي الرب الأعلى. قال وهب بن مُثَنَّب: قال الله لموسى: انطلق برسالتني فإنك بعيني وسمعي، وإني معك أيدي ونُضْرِي، وإني قد البستك جُثَّةً من سلطاني لتستكمل بها القوة في أمري، فانت جند عظيم من جندي، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقي، بظر نعمتي، وأمن مكري، وغرته الدنيا عني، حتى جَحَدَ حقِّي، وأنكر ربوبيتي، وزعم أنه لا يعرفني، فإني أقسم بعزتي، لولا القدر الذي وضعت بيني وبين خلقي، لبطشت به بطشة جبار، يغضب لغضبه السموات والأرض، والجبال والبحار، فإن أمرت السماء حصيته، وإن أمرت الأرض ابتلعته، وإن أمرت الجبال دمرته، وإن أمرت البحار غرقته، ولكنه هان عليّ، وسقط من عيني، ووسعه حلمي، واستغفنت بما عندي، وحقني إني أنا الغني لا غني غيري، فبلغه رسالتي، وادعه إلى عبادتي وتوحيدي وإخلاصي، وذكره أيامي، وحذره نعمتي وباسي، وأخبره أنه لا يقوم شيء لغضبي، وقل له فيما بين ذلك قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى، وخبره أنني إلى العفو والمغفرة أسرع مني إلى الغضب والعقوبة، ولا يروعنك ما البسته من لباس الدنيا، فإن ناصيته بيدي، ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس إلا بإذني. وقل له: أجب ربك فإنه واسع المغفرة، وقد أمهلك أربعمئة سنة، في كلها أنت مبارزه بالمحاربة، تسبه وتمثل به وتصد عباده عن سبيله وهو يطر عليك السماء، وينبت لك الأرض، ولم تسقم ولم تهرم ولم تفقر ولم تغلب ولو شاء أن يعجل لك العقوبة لفعل، ولكنه ذو أناة وحلم عظيم. وجاهده بنفسك وأخيك وأنتما تحتسبان بجهاده. فإني لو شئت أن آتيه بجنود لا قبل له بها لفعلت، ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف الذي قد أعجبت نفسه وجموعه أن الفئة القليلة - ولا قليل مني

هذه إجابة من الله لرسوله موسى، عليه السلام، فيما سأل من ربه ﷻ، وتذكير له بنعمه السالفة عليه، فيما كان ألهم أمه حين

فانتهى الماء به حتى أوفى به عند فُرْصَةِ مستقى جوارى امرأة فرعون، فلما رأيته أخذته فهممن أن يفتحن التابوت، فقال بعضهن: إن في هذا مالا، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدناه فيه، فحملته كهيئته لم يخرج منه شيئا حتى رفعنه إليها. فلما فتحته رأت فيه غلاما، فالتقى عليه منها محبة لم يلق منها على أحد قط. وأصبح فؤاد أم

موسى فارغاً من ذكر كل شيء، إلا من ذكر موسى.

فلما سمع الذباحون بأمره، أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه، وذلك من الفتون بابن جبير، فقالت لهم: أفروه، فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل حتى آتي فرعون فاستويه منه، فإن وهبه لي كنتم قد أحستتم وأجملتم، وإن أمر يذبحه لم ألتكم. فأتت فرعون فقالت: ﴿قُرْتُ مَيِّنَ لِي وَكَأَنَّ﴾ [القصاص: ٢٩] فقال فرعون: يكون لك، فأما لي فلا حاجة لي فيه. فقال رسول الله ﷺ: «والذي يُخَلِّفُ به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له، كما أقرت امرأته، لهداه الله كما هداها، ولكن حرمة ذلك».

فأرسلت إلى من حولها، إلى كل امرأة لها لبن لتختار له ظئراً، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت، فأحزنها ذلك، فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس، ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها، فلم يقبل، وأصبحت أم موسى والهأ، فقالت لأخته: قضى أثره واطلبيه، هل تسمعين له ذكراً، أحيى ابني أم قد أكلته الدواب؟ ونسيت ما كان الله وعددا فيه، فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون. والجُنُب: أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد، وهو إلى جنبه، وهو لا يشعر به. فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤرات: أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون. فأخذوها فقالوا: ما يدريك؟ ما نصحهم له؟ هل يعرفونه؟ حتى شكوا في ذلك، وذلك من الفتون بابن جبير. فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في ظؤرة الملك، ورجاء منفعة الملك. فأرسلوها فانطلقت إلى أمها، فأخبرتها الخير. فجاءت أمه، فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصته، حتى امتلأ جنباه رياً، وانطلق البشراء إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئراً. فأرسلت إليها. فأتت بها وبه، فلما رأت ما يصنع بها قالت: امكثي ترضعي ابني هذا، فإني لم أحب شيئاً حبه قط. قالت أم موسى: لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي، فيكون معي لا أكله خيراً فعلت، وإلا فإني غير تاركة بيتي وولدي. وذكرت أم موسى ما كان الله وعددا فيه، فتعاسرت على امرأة فرعون، وأيقنت أن الله منجز وعده، فرجعت به إلى بيتها من يومها، وأنبته الله نباتاً حسناً وحفظه لما قد قضى فيه.

فلم يزل بنو إسرائيل، وهم في ناحية القرية، ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم، فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لام موسى: أتريني ابني؟ فَوَعَدَتْهُا يوماً تريه إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظؤرها وقهارتها: لا يبين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك، وأنا باعثة أميناً يحصي ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والنحل والكرامة تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها نحلته وأكرمته، وفرحت به، ونحلت أمه لحسن أثرها عليه، ثم قالت: لآتين به فرعون فَلْيَنْحَلْهُ وليكرمه، فلما دخلت به عليه جعله في حجره، فتناول موسى لحية فرعون يمدّها إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون: ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه، إنه زعم أن يرثك ويعطوك ويصرعك، فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه. وذلك من الفتون بابن جبير بعد كل بلاء ابتلي به، وأريد به.

فجاءت امرأة فرعون فقالت: ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟ فقال: ألا تريه يزعم أنه يصرعني ويعطوني! فقالت: اجعل بيني وبينك أمراً يعرف فيه الحق، انت بجمرتين ولؤلؤتين، فْقَرْنَهُنَّ إليه، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين فاعرف أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين، علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل. ففقر إلى فتناول الجمرتين، فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده، فقالت المرأة: ألا ترى؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان قد هم به، وكان الله بالغاً فيه أمره.

فلما بلغ أشده وكان من الرجال، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة، حتى امتنعوا كل الامتناع، فبينما موسى، عليه السلام، يمشي في ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان، أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فغضب موسى غضباً شديداً؛ لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل وحفظه لهم، لا يعلم الناس إلا أنما ذلك من الرضاع، إلا أم موسى، إلا أن يكون الله سبحانه أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره. فوكر موسى الفرعوني فقتله، وليس يراهما أحد إلا الله ﷻ والإسرائيلي، فقال موسى حين قتل الرجل: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [القصاص: ١٥]. ثم قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصاص: ١٦] فأصبح في المدينة خائفاً يترقب الأخبار، فأتى فرعون، فقيل له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون فخذلنا بحقنا ولا ترخص لهم. فقال: ابغوني قاتله، ومن يشهد عليه، فإن الملك وإن كان صفوة مع قومه لا يستقيم له أن يقيد بغير بيعة ولا ثبت، فاطلبوا لي علم ذلك آخذ لكم بحقكم. فبينما هم يطوفون ولا يجدون ثبناً، إذا بموسى من الغد قد رأى ذلك

الإسرائيلي يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فصادف موسى قد ندم على ما كان منه وكره الذي رأى، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم: ﴿إِنَّكَ لَتَوَيْتُ مَيِّتٌ﴾. فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني، فخاف أن يكون بعد ما قال له: ﴿إِنَّكَ لَتَوَيْتُ مَيِّتٌ﴾ [النقص: ١٨] أن يكون إياه أراد، ولم يكن أراد، وإنما أراد الفرعوني. فخاف الإسرائيلي وقال: ﴿يَتَوَيْتُ أَزِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [النقص: ١٩] وإنما قاله مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقته، فتتاركا، وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول: ﴿أَزِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾. فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هيتهم يطلبون موسى، وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعه موسى من أقصى المدينة، فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى، فأخبره. وذلك من الفتون يابن جبير.

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين، لم يلق بلاء قبل ذلك، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه ﷻ، فإنه قال: ﴿عَسَىٰ رَوْتُ أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ النَّجْلِ وَلَمَّا رَزَمَهُ مَدِينٌ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْكُوتُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ أَمْرًا يُنْذِرُ﴾ [النقص: ٢٢، ٢٣] يعني بذلك حابستين غنمهما، فقال لهما: ما خطبكما معترلتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا: ليس لنا قوة نزاحم القوم، إنما ننتظر فضول حياضهم. فسقى لهما، فجعل يغترف في الدلو ماء كثيراً، حتى كان أول الرعاء، فانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما، وانصرف موسى، عليه السلام، فاستظل بشجرة، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [النقص: ٢٤]. واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حُلُلاً بطاناً فقال: إن لكما اليوم لساناً، فأخبرتهما بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأنت موسى فدعته، فلما كلمه قال: ﴿لَا تَخَفْ جَمَعْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [النقص: ٢٥]. ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ولسنا في مملكته، فقالت إحداهما: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْكَافِرَةُ إِنِّي لَسْتُ بِمِنِ الْكَافِرِينَ﴾ [النقص: ٢٦] فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته؟ وما أماته؟ فقالت: أما قوته، فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا، لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه، وأما الأمانة فإنه نظر إلي حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أنني امرأة صوّب رأسه فلم يرفعه، حتى بلغته رسالتك. ثم قال لي: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق. فلم يفعل هذا إلا وهو أمين، فسري عن أبيهما وصدقها، وظن به الذي قالت.

فقال له: هل لك ﴿أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَىٰ ابْنَتَيْ هَازِلَ بْنِ تَاجِرٍ﴾ [النقص: ٢٧] ففعل، فكانت على نبي الله موسى ثماني سنين واجبة، وكانت ستان عدة منه، ففضى الله عنه عدته فأنتمها عشرأ. قال سعيد - وهو ابن جبير -: فلقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم قال: هل تدري أيّ الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا. وأنا يومئذ لا أدري. فلقيت ابن عباس، فذكرت له ذلك، فقال: أما علمت أن ثمانياً كانت على نبي الله واجبة، لم يكن لنبي الله أن ينقص منها شيئاً، ويعلم أن الله كان قاضياً عن موسى عدته التي وعده فإنه قضى عشر سنين. فلقيت النصراني فأخبرته ذلك، فقال: الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك. قلت: أجل، وأولى.

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قص الله عليك في القرآن، فشكا إلى الله تعالى ما يتخوف من آل فرعون في القتل وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون، يكون له رداءً، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه. فأتاه الله سؤله، وحل عقدة من لسانه، وأوحى الله إلى هارون وأمره أن يلقاه. فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون، عليهما السلام. فانطلقا جميعاً إلى فرعون، فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد، فقالا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]. قال: فمن ربكما؟ فأخبره بالذي قص الله عليك في القرآن. قال: فما تريدان؟ وذكره القتل، فاعتذر بما قد سمعت. قال: أريد أن تؤمن بالله، وترسل معي بني إسرائيل. فأبى عليه وقال: ﴿قَاتِلْ يَاقَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]. فألقى عصاه فإذا هي حية تسعى عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون. فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها، فاقترحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه. ففعل، ثم أخرج يده من جيبه فأراها بيضاء من غير سوء - يعني من غير برص - ثم ردها فعادت إلى لونها الأول.

فاستشار الملاء حوله فيما رأى، فقالوا له: هذان ساحران ﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرَفَيْكَ﴾ [طه: ٦٣]، يعني: ملكهم الذي هم فيه والعيش، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب، وقالوا له: اجمع السحرة، فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما. فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم، فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعمل هذا الساحر؟ قالوا: يعمل بالحيات. قالوا: فلا والله ما أحد في الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصي الذي نعمل. وما أجرنا إن نحن غلبنا؟ قال لهم: أنتم أقاربى وخاصتي، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببت،

فتواعدوا يوم الزينة، وأن يحشر الناس ضحى.

قال سعيد بن جبیر: فحدثني ابن عباس: أن يوم الزينة الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة، هو يوم عاشوراء. فلما اجتمعوا في صعيد واحد قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا فلنحضر هذا الأمر، ﴿لَمَّا نَسَبْنَا نَجَسَ السَّحَرَةِ إِنْ كَانُوا هُمْ الْقَلِيلِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠]، يعنون موسى وهارون استهزاء بهما، فقالوا: يا موسى - لقدرتهم بسحرهم - ﴿إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]، ﴿قَالَ بَلْ أَلْقَوُا﴾ [طه: ٦٦]، ﴿قَالُوا جَاهِلْمُ وَبَعْصَنَهُمْ وَقَالُوا بَعْرُ فِرْعَوْنَ إِنَّمَا لَنَحْنُ الْقَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]، فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة فأوحى الله إليه أن ألْقِ عصاك، فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيمة فاغرة فاهاً، فجعلت العصي تلتبس بالجمال حتى صارت جَزْراً إلى الثعبان، تدخل فيه، حتى ما أبقت عصاً ولا حبلاً إلا ابتلعتها، فلما عرفت السحرة ذلك قالوا: لو كان هذا سحراً لم يبلغ من سحرنا كل هذا، ولكنه أمر من الله ﷻ، آمنا بالله وبما جاء به موسى، ونتوب إلى الله مما كنا عليه. فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه، وظهر الحق، وبطل ما كانوا يعملون ﴿فَقِيلُوا هَٰذَا كَذِبٌ وَأَكْثَبُوا مَكْرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٩] وأمرأة فرعون بارزة متبذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه، وإنما كان حزنها وهمها لموسى. فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة، كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا مضت أخلف موعده وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا؟ فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه، ويوائمه على أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا كف ذلك أخلف موعده، ونكث عهده. حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل في المدائن حاشرين، فتنبعه بجنود عظيمة كثيرة، وأوحى الله إلى البحر: إذا ضربك عبيدي موسى بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة، حتى يجوز موسى ومن معه، ثم التق على من بقي بَعْدَ من فرعون وأشياعه. ففسي موسى أن يضرب البحر بالعصا وانتهى إلى البحر وله قَصِيف، مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصياً لله.

فلما تراءى الجمعان وتقاربا، قال أصحاب موسى: إنا لمدركون، افعل ما أمرك به ربك، فإنه لم يكذب ولم تكذب. قال: وعدني أن إذا أتيت البحر انفلق اثنتي عشرة فرقة، حتى أجازه. ثم ذكر بعد ذلك العصا ف ضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى، فانفلق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى، فلما أن جاز موسى وأصحابه كلهم البحر، ودخل فرعون وأصحابه، التقى عليهم البحر كما أمر، فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه: إنا نخاف ألا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه. فدعا ربه فأخرجه له بيده حتى استيقنوا بهلاكه.

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿قَالُوا يَتَّبِعُونَ أَصْنَامَهُمْ عَلَىٰ أَصْنَامِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩]. قد رأيت من العبر وسمعتكم ما يكفيكم ومضى. فأنزلهم موسى منزلاً وقال: أطيعوا هارون، فإني قد استخلفته عليكم، فإني ذاهب إلى ربي. وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها، فلما أتى ربه وأراد أن يكلمه في ثلاثين يوماً وقد صامهن، ليلهن ونهارهن، وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم، فتناول موسى من نبات الأرض شيئاً فمضغه، فقال له ربه حين أتاها: لم أفطرت؟ وهو أعلم بالذي كان، قال: يارب، إني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح. قال: أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب من ريح المسك، ارجع فصم عشراً ثم اتني. ففعل موسى. عليه السلام، ما أمر به، فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم في الأجل، ساءهم ذلك. وكان هارون قد خطبهم وقال: إنكم قد خرجتم من مصر، ولقوم فرعون عندكم عواري وودائع، ولكم فيهم مثل ذلك وأنا أرى أنكم تحتسبون ما لكم عندهم، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية، وللسنا براذين إليهم شيئاً من ذلك ولا ممسكية لأنفسنا، فحفر حفيراً، وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقدفوه في ذلك الحفير، ثم أوقد عليه النار فأحرقه، فقال: لا يكون لنا ولا لهم.

وكان السامري من قوم يعبدون البقر، جيران لبني إسرائيل ولم يكن من بني إسرائيل، فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا، ففسي له أن رأى أثراً فقبض منه قبضة، فمر بهارون، فقال له هارون، عليه السلام: يا سامري، ألا تلقي ما في يدك؟ وهو قابض عليه، لا يراه أحد طوال ذلك، فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر، ولا ألقيتها لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقىتها أن يكون ما أريد. فألقاها، ودعا له هارون، فقال: أريد أن يكون عجلاً. فاجتمع ما كان في الحفيرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد، فصار عجلاً أجوف، ليس فيه روح، وله خوار. قال ابن عباس: لا والله، ما كان له صوت قط،

إنما كانت الريح تدخل في دبره وتخرج من فيه، فكان ذلك الصوت من ذلك.

فتفرق بنو إسرائيل فرقاً، فقالت فرقة: يا سامري ما هذا؟ وأنت أعلم به. قال: هذا ربكم ولكن موسى أضل الطريق. وقالت فرقة: لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى، فإن كان ربنا لم تكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأيناه، وإن لم يكن ربنا فلنا تتبع قول موسى. وقالت فرقة: هذا عمل الشيطان، وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل، وأعلنوا التكذيب به، فقال لهم هارون: ﴿يَقُولُوا إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ [طه: ٩٠] قالوا: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً ثم أخلفنا، هذه أربعون يوماً قد مضت؟ وقال سفهاؤهم: أخطأ ربه فهو يطلبه ويتبعه. فلما كلم الله موسى وقال له ما قال، أخبره بما لقي قومه من بعده، ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [طه: ٨٩]، فقال لهم ما سمعتم في القرآن، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وألقى الألواح من الغضب، ثم إنه عذر أخاه بعذره، واستغفر له وانصرف إلى السامري فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: قبضت قبضة من أثر الرسول، وفطنت لها وعُمت عليكم فكدفتها ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: ٩١] فقال قَادَهِبْ فَإِنَّكَ لَكِ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مَسَاسَ وَإِنَّكَ لَكِ مَوْعِدًا لَنْ تُغْلَبُوا وَتَنْتَظِرُ إِلَيْكَ إِلَهُكَ الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَآكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْبِفَنَّ فِي أَكْثَرِ مَسَاجِدَ الْإِنْسَانِ ﴿طه: ٩٦، ٩٧﴾، ولو كان إلهاً لم يخلص إلى ذلك منه. فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واغضب الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى، سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها، فيكفر عنا ما عملنا. فاختار موسى قومه سبعين رجلاً لذلك، لا يالو الخير، خيار بني إسرائيل، ومن لم يشرك في العجل، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة، فرجفت بهم الأرض، فاستحيا نبي الله من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل فقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلِ وَائْتِي أَتِلْكَ مَا هَلَكَ أُنْثَاهُ وَمَا﴾ [الاعراف: ١٥٥] وفيهم من كان اطلع الله منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به، فلذلك رجفت بهم الأرض، فقال: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتَسِبُ لِلَّذِينَ يُقُونَ دُورُوتِ الزَّكَاةِ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي الْتَوَارِثِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الاعراف: ١٥٦، ١٥٧]. فقال: يا رب، سألتك التوبة لقومي، فقلت: إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي، هلا أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحومة؟ فقال له: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقي من والد ولد، فيقتله بالسيف، ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن، وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها، وفعلوا ما أمروا، وغفر الله للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسى، عليه السلام، متوجهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكنت عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمر به أن يبلغهم من الوظائف، فتقل ذلك عليهم، وأبوا أن يقرؤا بها، فتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم فأخذوا الكتاب بأيامهم وهم مصفون ينظرون إلى الجبل، والكتاب بأيديهم، وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم. ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون خَلَفَهُمْ خَلَقَ مَكْرٍ - وذكروا من ثمارهم أمراً عجيباً من عظمها - فقالوا: يا موسى إن فيها قوماً جبارين، لا طاقة لنا بهم، ولا ندخلها داموا فيها، فإن يخرجوا منها فإننا داخلون. قال رجلان من الذين يُخَافُونَ - قيل ليزيد: هكذا قرأه؟ قال: نعم من الجبارين - أمنا بموسى، وخرجنا إليه، فقالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم، فإنهم لا قلوب لهم ولا مَنَّةَ عندهم، فادخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون - ويقول أناس: إنهم من قوم موسى. فقال الذين يخافون، بنو إسرائيل: ﴿قَالُوا يَكُونُ إِنَّكَ لَن تَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا قَادَهِبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَغَنِيكَ إِنَّا هَهُنَا قَوْلُوتُكَ﴾ [المائدة: ٢٤]، فأغضبوا موسى، فدعا عليهم وسماهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك، لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ فاستجاب الله له وسماهم كما سماهم فاسقين، فحرماهم عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض، يصبحون كل يوم فيسيرون، ليس لهم قرار، ثم ظلل عليهم الغمام في التيه، وأنزل عليهم المن والسوى، وجعل لهم ثياباً لا تبلى ولا تتسخ، وجعل بين ظهرانيهم حجراً مريعاً، وأمر موسى فضربه بعصاه. فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، في كل ناحية ثلاث أعين، وأعلم كل سبب عينهم التي يشربون منها، فلا يرتحلون من مَنَقَلَةٍ إلا وجدوا ذلك الحجر معهم بالمكان الذي كان فيه بالأمس. رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبي ﷺ، وصَدَّقَ ذلك عندي أن معاوية سمع ابن عباس يحدث هذا الحديث، فأنكر عليه أن يكون الفرعوني الذي أفشى على موسى أمر القتل الذي قتل، فقال: كيف يُفْشى عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلي الذي حضر ذلك؟ فغضب ابن عباس، فأخذ بيد معاوية فانطلق به إلى سعد بن مالك الزهري، فقال له: يا أبا إسحاق، هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتل موسى الذي قتل من آل فرعون؟ الإسرائيلي الذي أفشى عليه أم الفرعوني؟ قال: إنما أفشى عليه الفرعوني، بما سمع من الإسرائيلي الذي شهد على ذلك وحضره. هكذا رواه الإمام النسائي في السنن الكبرى، وأخرجه أبو جعفر بن جرير وابن أبي حاتم في تفسيريهما، كلهم من

حديث يزيد بن هارون به، وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عباس، رضي الله عنه، مما أبيع نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، والله أعلم. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك أيضاً.

﴿إِذْ نَسِيْنَا لَهٗ قَوْلَآ هَلْ أَتٰكُم مِّنْ يَّكْفُلُهُ فَرَجَتِكُمْ إِلَآ أَنِكُمْ كَىٰ نَقَرَّ عَنِّي وَلَا تَحَرَّوْا وَقَلَّتْ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَكْنَا قَوْلًا وَلَقِيْنَا سَيِّئِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يُّؤْمِنُونَ ﴿٤٠﴾ وَأَسْمَطْتُمْ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنتَ وَلَوْ كُنَّا بِبَابِكَ وَلَا بَيِّنًا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبًا إِلَآ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقَوْلًا لَّهُ قَوْلًا لِّئَلَّا نَمْلِكُ بِذِكْرِكَ أَوْ يَحْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾.

يقول تعالى مخاطباً لموسى، عليه السلام: إنه لبث مقيماً في أهل «مدین» فأرأ من فرعون وملئه، يرفع على صهره، حتى انتهت المدة وانقضى الأجل، ثم جاء موافقاً لقدر الله وإرادته من غير معاد، والأمر كله لله تبارك وتعالى، وهو المسير عباده وخلقه فيما يشاء؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يُّؤْمِنُونَ﴾ قال مجاهد: أي على موعد. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة في قوله: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يُّؤْمِنُونَ﴾ قال: على قدر الرسالة والنبوة. وقوله: ﴿وَأَسْمَطْتُمْ لِنَفْسِي﴾ أي: اصطفتك واجتبتك رسولاً لنفسي، أي: كما أريد وأشاء. وقال البخاري عند تفسيرها: حدثنا الصُّلْتُ بن محمد، حدثنا مهدي بن ميمون، حدثنا محمد بن سيرين عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «التقى آدم وموسى، فقال موسى: أنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة؟ فقال آدم: وأنت الذي اصطفاك الله برسائه واصطفاك لنفسه، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم. قال: فوجدته قد كتب عليّ قبل أن يخلقني؟ قال: نعم. فحج آدم موسى» أخرجاه. «أَذْهَبَ أَنتَ وَلَوْ كُنَّا بِبَابِكَ﴾ أي: بحججي وبراهيني ومعجزاتي، ﴿وَلَا بَيِّنًا فِي ذِكْرِي﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لا بُطْنَا. وقال مجاهد، عن ابن عباس: لا تُضْمَفَا. والمراد أنهم لا يفترون في ذكر الله، بل يذكرون الله في حال مواجهة فرعون، ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له، كما جاء في الحديث: «إن عبدي كل عبدي للذي يذكرني وهو مُتَاجِرُ قَرْنِهِ». «أَذْهَبًا إِلَآ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾»، أي: تمرد وعتا وتجهنم على الله وعصاه، ﴿فَقَوْلًا لَّهُ قَوْلًا لِّئَلَّا نَمْلِكُ بِذِكْرِكَ أَوْ يَحْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾، هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، كما قال يزيد الرقاشي عند قوله: ﴿فَقَوْلًا لَّهُ قَوْلًا لِّئَلَّا﴾: يا من يتحجب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاّه ويناديه؟ وقال وهب بن منبه: قولاً له: إني إلى العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة. وعن عكرمة في قوله ﴿فَقَوْلًا لَّهُ قَوْلًا لِّئَلَّا﴾، قال: لا إله إلا الله، وقال عمرو بن عبيد، عن الحسن البصري: ﴿فَقَوْلًا لَّهُ قَوْلًا لِّئَلَّا﴾: أعذرا إليه، قولاً له: إن لك رباً ولك معاداً، وإن بين يديك جنة ناراً. وقال بَقِيَّةُ، عن علي بن هارون، عن رجل، عن الضحّاك بن مُزَاحِمٍ، عن الثَّوَالِ بن سَبْرَةَ، عن علي في قوله: ﴿فَقَوْلًا لَّهُ قَوْلًا لِّئَلَّا﴾ قال: كُتِبَ. وكذا روى عن سفيان الثوري: كُتِبَ بِأَبِي مُرَّةٍ.

والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل، ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْخَسَنَةِ وَجِدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الآية [النحل: ١٢٥]. قوله: ﴿لَمْلَمٌ يَذْكُرُ أَوْ يَحْشَى﴾ أي: لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة، ﴿أَوْ يَحْشَى﴾ أي: يوجد طاعة من خشية ربه، كما قال تعالى: «للمن أراد أن يذكر أو يخشى» فالتذكر: الرجوع عن المحذور، والخشية: تحصيل الطاعة. وقال الحسن البصري في قوله: ﴿لَمْلَمٌ يَذْكُرُ أَوْ يَحْشَى﴾ يقول: لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون: أهلكه قبل أن أعذر إليه. وهاهنا نذكر شعر زيد بن عمرو بن نفيل، ويروى لأمية بن أبي الصُّلْتُ فيما ذكره ابن إسحاق:

بعثت إلى موسى رسولا مناديا
إلى الله فرعون الذي كان باغيا
بلا وتد حتى استقلت كما هيا
بلا عمدا؟ أرفق إذن بك بانيا
منيرا إذا ما جئته الليل هاديا
فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا
فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ففي ذاك آيات لمن كان واعيا

وأنت الذي من فضل من ورحمة
فقلت له يا اذهب وهارون فادعوا
فقلولا له هل أنت سويت هذه
وقلولا له آنت زعمت هذه
وقلولا له آنت سويت وسطها
وقلولا له من يخرج الشمس بكرة
وقلولا له من ينبت الحب في الثرى
ويخرج منه حبه في رؤوسه

كل شيء ما ينبغي له من النكاح، وهنالك كل شيء على ذلك، ليس شيء منها يشبه شيئاً من أفعاله في الخلق والرزق والنكاح. وقال بعض المفسرين: ﴿أَقْطَلَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ ﴿٣﴾ [الأعلى: ٣] أي: قدر قدراً، وهدى الخلائق إليه، أي: كتب الأعمال والأجال والأرزاق، ثم الخلائق ماشون على ذلك، لا يحيدون عنه، ولا يقدر أحد على الخروج منه. يقول: ربنا الذي خلق الخلق، وقدر القدر، وجعل الخليقة على ما أراد. ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ ﴿٥١﴾: أصح الأقوال في معنى ذلك: أن فرعون لما أخبر موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرن الأولى، أي: الذين لم يعبدوا الله، أي: فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول، لم يعبدوا ربك، بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى في جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم، وسيجزئهم بعملهم في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال، ﴿لَا يَعْصِي لِرَبِّي وَلَا لِنَاسٍ﴾، أي: لا يشذ عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئاً. يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً، تبارك وتعالى وتقدس، فإن علم المخلوق يعتره نقصانان أحدهما: عدم الإحاطة بالشيء، والآخر نسيانه بعد علمه، فزده نفسه عن ذلك.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَوَسَّلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا وَآزَلَّ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَالَخُرُوجَ بِهِ ذُرُوبًا مِّنْ بَنَاتِ شَقٍّ ﴿٥٦﴾ كَلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّعْيِ ﴿٥٧﴾﴾ ﴿يَا خَلْقَنَكُمْ مِنَّا نُيِّدُكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٨﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ءَايَاتِنَا كُلَّهَا مَكْدُوبًا وَإِنِّي ﴿٥٩﴾﴾

هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه، ﷺ، حين سأله فرعون عنه، فقال: ﴿الَّذِي أَطْعَمَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾، وفي قراءة بعضهم: «مهاداً» أي: قراراً تستقرون عليها وتقومون وتنامون عليها وتسافرون على ظهرها، ﴿وَسَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: جعل لكم طرقاً تمشون في منابجها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّكُلِّ أُمَّةٍ يَنْتَدُونَ﴾ [الانبيا: ٣١]. ﴿وَآزَلَّ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَالَخُرُوجَ بِهِ ذُرُوبًا مِّنْ بَنَاتِ شَقٍّ﴾ أي: من ألوان النباتات من زروع، وثمار، من حامض وحلو، وسائر الأنواع. ﴿كَلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: شيء لطعامكم وفاكهتكم، وشيء لأنعامكم لأفواتها خضراً وباساً. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: لدلالات وحججاً وبراهين ﴿لِّأُولِي النَّعْيِ﴾ أي: لذوي العقول السليمة المستقيمة، على أنه لا إله إلا الله، ولا رب سواه. ﴿يَا خَلْقَنَكُمْ مِنَّا نُيِّدُكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٨﴾﴾ أي: من الأرض مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض، ﴿وَفِيهَا نُيِّدُكُمْ﴾ أي: وإليها تصيرون إذا متم وبليتم، ومنها نخرجكم تارة أخرى. ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِمَحْمُودٍ وَتَنْتَوْنُ إِن لَّيْسَ لَكُم لَّا قِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [الاسراء: ٥٢]. وهذه الآية قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرِجُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الاعراف: ٢٥]. وفي الحديث الذي في السنن أن رسول الله ﷺ حضر جنازة، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر ثم قال: ﴿مِنْهَا خَلَقَنَكُمْ﴾ ثم أخذ أخرى وقال: ﴿وَفِيهَا نُيِّدُكُمْ﴾ ثم أخذ أخرى وقال: ﴿وَمِنْهَا تُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ءَايَاتِنَا كُلَّهَا مَكْدُوبًا وَإِنِّي ﴿٥٩﴾﴾، يعني: فرعون، أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات، وعابن ذلك وأبصره، فكذب بها وأبأها كُفراً وعناداً وبغياً، كما قال تعالى: ﴿وَمَعْدُودًا بِمَا وَاسْتَفْتَنَهَا أَنْفُسُهَا ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ أَجْعَلْنَا لِنْفِرْحَا مِنْ أَرْضِكَ يَمْوَسَىٰ﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿فَلَا أَتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ مَضَىٰ﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهي إلقاء عصاه فصارت ثعباناً عظيماً ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء فقال: هذا سحر، جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس، فيتبعونك وتكاثروا بهم، ولا يتم هذا ملك، فإن عندنا سحراً مثل سحرِكَ، فلا يغرُنكَ ما أنت فيه ﴿فَاجْعَلْ لَنَا رَبّاً وَيَنْبَغْ لَنَا مَوْعِدًا﴾ أي: يوماً نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان معين ووقت معين فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ وهو يوم عيدهم ونوروزهم وتفرغهم من أعمالهم واجتماعهم جميعهم؛ ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء، ومعجزات الأنبياء، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية، ولهذا قال: ﴿وَأَنْ يَحْشُرَ النَّاسُ﴾ أي: جميعهم ﴿صُحُفٍ﴾ أي: ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم واضح، بين، ليس فيه خفاء ولا ترويع؛ ولهذا لم يقل «ليلاً» ولكن نهراً ضحى. قال ابن عباس: وكان يوم الزينة يوم عاشوراء. وقال السدي، وقتادة، وابن زيد: كان يوم عيدهم. وقال سعيد بن جبيرة: يوم سوفهم. ولا منافاة. قلت: وفي مثله أهلك الله فرعون وجنوده، كما ثبت في الصحيح. وقال وهب بن منبه: قال فرعون: يا موسى، اجعل بيننا وبينك أجلاً ننظر فيه. قال موسى: لم أؤمر بهذا، إنما أمرت بمناجرتك، إن أنت لم تخرج دخلت إليك. فأوحى الله إلى موسى أن اجعل بينك وبينه أجلاً وقل له أن يجعل هو. قال فرعون: اجعله إلى

أربعين يوماً. ففعل. وقال مجاهد، وقتادة: ﴿مَكَانًا سَوِيًّا﴾: مَنْصَفًا. وقال السدي: عدلاً. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿مَكَانًا سَوِيًّا﴾: مستوي يتبين الناس ما فيه، لا يكون صَوْب ولا شيء يتغيب بعض ذلك عن بعض مستوي حتى يرى.

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ ٦٠ ﴿قَالَ لَهُهُ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِرَكُمْ بِدَلَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ أَفْتَرَى﴾ ٦١ ﴿فَنَنْزِعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَنَرَاهُمْ فَتَنُجُونَ﴾ ٦٢ ﴿قَالُوا إِن هَٰذَا لَسِحْرٌ بَرِيدٌ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَ بِطَرِيقِكُمُ النَّارُ﴾ ٦٣ ﴿فَاتَّجَمُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَنتَوُا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ ٦٤.

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه لما تواعد هو بموسى، عليه السلام، إلى وقت ومكان معلومين، تولى، أي: شرع في جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من ينسب إلى سحر في ذلك الزمان. وقد كان السحر فيهم كثيراً نافقاً جداً، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ غِيلٍ﴾ [يونس: ٧٩]. ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ أي: اجتمع الناس لِمِيقَات يوم معلوم وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا بمنة ورسرة وأقبل موسى، عليه السلام، يتوكأ على عصاه، ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدي فرعون صفوفاً، وهو يحرضهم ويحثهم، ويرغبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم، ويتمنون عليه، وهو يعدهم ويمنيهم، فيقولون: ﴿إِن لَّنَا لَأَجْرٌ إِن كُنَّا مَعَهُ الْفَالِغِينَ﴾ ٦٠ ﴿قَالَ تَمَنَّوْا إِنَّمَا لِمَنِ الْمَقْرَبِينَ﴾ ٦١ [الشعراء: ٤١، ٤٢]. ﴿قَالَ لَهُهُ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا تخيلوا للناس بأعمالكم إبداع أشياء لا حقائق لها، وأنها مخلوقة، وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتم على الله، ﴿فَيُسْحِرَكُمْ بِدَلَابٍ﴾ أي: يهلككم بعقوبة هلاكاً لا بقية له، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ أَفْتَرَى فَنَنْزِعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ قيل: معناه: أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقاتل يقول: ليس هذا بكلام ساحر، إنما هذا كلام نبي. وقاتل يقول: بل هو ساحر. وقيل غير ذلك، والله أعلم. وقوله: ﴿وَنَرَاهُمْ فَتَنُجُونَ﴾ أي: تناجوا فيما بينهم ﴿قَالُوا إِن هَٰذَا لَسِحْرٌ بَرِيدٌ﴾ هذه لغة لبعض العرب، جاءت هذه القراءة على إعرابها، ومنهم من قرأ ﴿إِن هَٰذِينَ لَسَاحِرُونَ﴾، وهذه اللغة المشهورة، وقد توسع النحاة في الجواب عن القراءة الأولى بما ليس هذا موضعه.

والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون أن هذا الرجل وأخاه - يعنون: موسى وهارون - ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر، يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده، فينتصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم. وقوله: ﴿وَيَذْهَبَ بِطَرِيقِكُمُ النَّارُ﴾ أي: ويستبدا بهذه الطريقة، وهي السحر، فإنهم كانوا معظمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون: إذا غلب هذان أهلناكم وأخرجاكم من الأرض، وتفردا بذلك، وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم. وقد تقدم في حديث الفتون عن ابن عباس قال في قوله: ﴿وَيَذْهَبَ بِطَرِيقِكُمُ النَّارُ﴾ يعني: ملكهم الذي هم فيه والعيش. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا هُشَيْم، عن عبد الرحمن بن إسحاق، سمع الشعبي يحدث عن علي في قوله: ﴿وَيَذْهَبَ بِطَرِيقِكُمُ النَّارُ﴾ قال: يصرفا وجوه الناس إليهما.

وقال مجاهد: ﴿وَيَذْهَبَ بِطَرِيقِكُمُ النَّارُ﴾ قال: أولي الشرف والعقل والأسنان. وقال أبو صالح: ﴿بَطَرِيقِكُمُ النَّارُ﴾ أشرفكم وسرواكم. وقال عكرمة: بخيركم. وقال قتادة: وطريقتهن المثلث يومئذ بنو إسرائيل، كانوا أكثر القوم عدداً وأموالاً، فقال عدو الله: يريدان أن يذهبا بها لأنفسهما. وقال عبد الرحمن بن زيد: ﴿بَطَرِيقِكُمُ النَّارُ﴾، بالذي أنتم عليه. وقوله: ﴿فَاتَّجَمُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَنتَوُا صَفًّا﴾ أي اجتمعوا كلكم صفّاً واحداً، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة، لتبهروا الأبصار، وتغلبوا هذا وأخاه، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ أي: منا ومنه، أما نحن فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل، وأما هو فينال الرياسة العظيمة.

﴿قَالُوا يَمُوتُ إِنَّمَا أَنْ تَلْقَى وَلَئِنَّا لَكُونُ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ ٦٥ ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِئَالَهُمْ وَعَصِيْبُهُمْ يَخْلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ إِنَّمَا تَنَقَّى﴾ ٦٦ ﴿فَأَرَجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى﴾ ٦٧ ﴿لَقَدْ لَا تَحْفَ إِنَّكَ أَنْتَ الْآخِزُ﴾ ٦٨ ﴿وَأَلْقَى مَا فِي بَيْتِكَ تَلَقَّفَ مَا صَعَوْا إِنَّمَا صَعَوْا كَيْدَ سِحْرِ وَلَا يُفْلِحُ الشَّارِعُ حَيْثُ أَتَى﴾ ٦٩ ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرًا قَالُوا مَا مَنَّا بِرَبِّ هَٰؤُلَاءِ وَمُوسَى﴾ ٧٠.

يقول تعالى مخبراً عن السحرة حين توافقوا هم وموسى: عليه السلام، أنهم قالوا لموسى: ﴿إِنَّمَا أَنْ تَلْقَى﴾ أي: أنت أولاً ﴿إِنَّمَا أَنْ تَلْقَى وَلَئِنَّا لَكُونُ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ أي: أنتم أولاً ليرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر للناس جلية أمرهم، ﴿فَإِذَا جِئَالَهُمْ وَعَصِيْبُهُمْ يَخْلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ إِنَّمَا تَنَقَّى﴾. وفي الآية الأخرى أنهم لما ألقوا ﴿وَقَالُوا بِعَزَّةٍ فِرْعَوْنُ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤] وقال تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَجِيزٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال هاهنا ﴿فَإِذَا جِئَالَهُمْ وَعَصِيْبُهُمْ يَخْلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ إِنَّمَا تَنَقَّى﴾. وذلك أنهم أودعوا من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد، بحيث يخيل للناس أنها تسعي باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جمّاً غفيراً وجمّاً كبيراً، فألقى كل منهم عصاً وجلاً، حتى صار الوادي ملأ من حيات يركب

بعضها بعضاً. وقوله: ﴿فَأَوْحَىٰ فِي نَفْسِهِ جِئْنَاكَ مَوْتًى﴾ (٧١) أي خاف على الناس أن يفتتنوا بسحرهم ويغفروا بهم قبل أن يلقي ما في يمينه، فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة أن ﴿وَأَنذِرْ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ يعني: عصاه، فإذا هي ﴿لَنَلْقَىٰ مَا سَخَّرْنَا﴾ وذلك أنها صارت تبتاً عظيماً هائلاً ذا عيون وقوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي حتى لم تبق منها شيئاً إلا تلففته وابتلعت، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عياناً جَهْرَةً، نهراً أضحوه. فقامت المعجزة، واتضح البرهان، وبطل ما كانوا يعملون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا سَخَّرْنَا مَا سَخَّرْنَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَّ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن موسى الشيباني، حدثنا حماد بن خالد، حدثنا ابن معاذ - أحسبه الصائغ - عن الحسن، عن جُنْدُب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ «إذا أخذتم - يعني: الساحر - فاقتلوه»، ثم قرأ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَّ﴾ قال: «لا يؤمن به حيث وجد». وقد روى أصله الترمذي موقوفاً ومرفوعاً.

فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه، علموا علم اليقين أن هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سُجْدًا لله وقالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَالَمِينَ﴾ (٧٢) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٧٣﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨]. ولهذا قال ابن عباس، وعُبَيْد بن عُمَيْر: كانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة. قال محمد بن كعب: كانوا ثمانين ألفاً، وقال القاسم بن أبي بزة: كانوا سبعين ألفاً. وقال السدي: بضعة وثلاثين ألفاً. وقال الثوري عن عبد العزيز بن رُفَيْع، عن أبي ثمامة: كان سحرة فرعون تسعة عشر ألفاً. وقال محمد بن أبي إسحاق: كانوا خمسة عشر ألفاً. وقال كعب الأحبار: كانوا اثني عشر ألفاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن علي بن حمزة، حدثنا علي بن الحسين بن واقد، عن أبيه، عن يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت السحرة سبعين رجلاً، أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا المسيب بن واضح بمكة، حدثنا ابن المبارك قال: قال الأوزاعي: لما خُرَّ السحرة سُجْدًا رُفِعَتْ لهم الجنة حتى نظروا إليها. قال: وذكر عن سعيد بن سلام: حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن سليمان، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبيرة قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَالَمِينَ﴾ قال: رأوا منازلهم تبني لهم وهم في سجودهم. وكذا قال عكرمة والقاسم بن أبي بزة.

﴿قَالَ مِمَّنْ لَمْ تَلَمْ يَأْتِكُمْ أَلِهَةٌ مِّمَّا تَدْعُونَ﴾ (٧٤) إِنَّكُمْ لِكَيْدِكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأُنْزِلُكُمْ مِنْ جُودِ النَّخْلِ وَقَتْلُكُمْ أَشَدَّ عَذَابًا وَأَنذِرْ لَكُمْ يَوْمَ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَةِ وَالَّذِي كَفَرْنَا بِهِ قَدَفَتْهُ الْأُحَادِثُ وَالَّذِي كَفَرْنَا بِهِ قَدَفَتْهُ الْأُحَادِثُ ﴿٧٥﴾ إِنَّا مِمَّنْ يَرْثُ يُغْفِرُ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وعنده وبغيه ومكابرته الحق بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم وغلب كل الغلب - شرع في المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جأه وسلطانه في السحرة، فتهددهم وأوعدهم، وقال ﴿مِمَّنْ لَمْ يَأْتِكُمْ أَلِهَةٌ مِّمَّا تَدْعُونَ﴾ (٧٤) أي: صدقتموه ﴿قَدْ أَتَىٰكُمْ الْآيَةُ﴾ وما أمرتكم بذلك وافتمم علي في ذلك. وقال قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بهت وكذب: ﴿إِنَّكُمْ لَكَيْدِكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أي: أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى، وافتممتم أنتم وإياه علي وعلى ريعتي، لتظهروه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَذَا لَكَيْدٌ مِّمَّا كَرِهْتُمْ﴾ (٧٥) فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾ [الأعراف: ١٢٣]. ثم أخذ يتهددهم فقال: ﴿فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأُنْزِلُكُمْ مِنْ جُودِ النَّخْلِ وَقَتْلُكُمْ أَشَدَّ عَذَابًا وَأَنذِرْ لَكُمْ يَوْمَ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَةِ وَالَّذِي كَفَرْنَا بِهِ قَدَفَتْهُ الْأُحَادِثُ وَالَّذِي كَفَرْنَا بِهِ قَدَفَتْهُ الْأُحَادِثُ﴾ (٧٥) إِنَّا مِمَّنْ يَرْثُ يُغْفِرُ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٦﴾. قال ابن عباس: فكان أول من فعل ذلك. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ أَنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أي: أنتم تقولون: إني وقومي على ضلالة، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى. فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه. فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم، هانت عليهم أنفسهم في الله ﷻ و ﴿قَالُوا أَن لَّكُمُ الْآيَةُ﴾ (٧٦) إِنَّا مِمَّنْ يَرْثُ يُغْفِرُ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٧﴾. قال ابن عباس: فأمروا أن يعلموا السحر بالقرآن، وقال: علموهم تعليماً لا يعلمه أحد في الأرض. قال ابن عباس: فهم من الذين آمنوا بموسى، وهم من الذين قالوا: ﴿إِنَّا مِمَّنْ يَرْثُ يُغْفِرُ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (٧٦).

أَكْرَهْنَا عَلَيْهِ يَنْ أَلَيْخَرُ. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَيَرَّ وَأَنقَرُ﴾ أي: خير لنا منك ﴿وَأَنقَرُ﴾ أي: أدوم ثواباً مما كنت وعدتنا ومنيتنا. وهو رواية عن ابن إسحاق، رحمه الله. وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ أي: لنا منك إن أطيع، ﴿وَأَنقَرُ﴾ أي: منك عذاباً إن عصي. وروي نحوه عن ابن إسحاق أيضاً. والظاهر أن فرعون - لعنه الله - صمم على ذلك وفعله بهم، رحمه الله؛ ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة، وأمسوا شهداء.

﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۚ﴾ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْأَعْلَىٰ ۖ حَتَّىٰ يَدْعُوَ تَحْمِي مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ۚ﴾ ﴿٧٥﴾.

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نعمة الله وعذابه الدائم السرمدي، ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد، فقالوا: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ أي: يلقي الله يوم القيامة وهو مجرم، ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ كقوله: ﴿لَا يَفْضَحْنَ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [طهر: ٣٦]، وقال: ﴿وَنَجْزِي الْأَتَقِينَ ۚ﴾ ﴿١١﴾ الَّذِي يَصِلُ أَثَارُ الْكِبَرِ ۚ﴾ ﴿٧٦﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۚ﴾ ﴿٧٧﴾ [الأعلى: ١١-١٣]، وقال تعالى: ﴿وَوَدَّاعُوا يَكُونُوا يَفْضَحْنَ عَلَيْكَ رَبُّكَ قَالَ إِنَّكَ تُكْذِبُ ۚ﴾ ﴿٧٨﴾ [الزخرف: ٧٧]. وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا إسماعيل، أخبرنا سعيد بن يزيد، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن الناس تصيبهم النار بذنوبهم، فتميتهم إمامة، حتى إذا صاروا فحماً، أذن في الشفاعة، جيء بهم ضباط، ضباط، فبُتُوا على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل» فقال رجل من القوم: كان رسول الله ﷺ كان بالبادية. وهكذا أخرجه مسلم في كتابه الصحيح من رواية شعبة وبشر بن المفضل، كلاهما عن أبي مَسْلَمَةَ سعيد بن يزيد به. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن عبد الوارث بن عبد الصمد بن عبد الوارث قال: حدثنا أبي، حدثنا حيَّان، سمعت سليمان الثني، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد؛ أن رسول الله ﷺ خَطَبَ فأتى على هذه الآية: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۚ﴾ ﴿٧٤﴾، قال النبي ﷺ: «أما أهلها الذين هم أهلها، فلا يموتون فيها ولا يحيون، وأما الذين ليسوا من أهلها، فإن النار تسهم، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون، فتجعل الضباط، فيؤتى بهم نهراً يقال له: الحياة - أو: الحيوان - فينبتون كما ينبت القثاء في حميل السيل». وقوله: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي: ومن لقي ربه يوم المعاد مؤمن القلب، قد صدق ضميره بقوله وعمله، ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والمسكن الطيبات. قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، أنبأنا همام، حدثنا زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: «الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج الأنهار الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس». ورواه الترمذي، من حديث يزيد بن هارون، عن همام، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، أخبرنا خالد بن يزيد ابن أبي مالك، عن أبيه قال: كان يقال: الجنة مائة درجة، في كل درجة مائة درجة، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فيهن الياقوت والحلي، في كل درجة أمير، يرون له الفضل والسودد. وفي الصحيحين: «أن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء، لتفاضل ما بينهم». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين». وفي السنن: «وإن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعم». وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَدْعُو تَحْمِي﴾ أي: إقامة وهو يدل من الدرجات العلى، ﴿تَحْمِي مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ما كثرين أبداً، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: طهر نفسه من الدنس والخبث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له، وصدق المرسلين فيما جاؤوا به من خَيْرٍ وطلب.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعَاذِي فَأَسْرَبَ لَمْ يَرْجِعْ فِي الْبَحْرِ يَسَّىٰ لَّا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ۚ﴾ ﴿٧٦﴾ فَأَتَيْنَاهُمُ رُغُونَ يَحْمِلُونَهُمْ فَنَاقِلُهُمْ مِّنَ الْكَلْبِ مَا غَيَّبَهُمْ ۚ﴾ ﴿٧٧﴾ وَأَصْلُ رُغُونَ قَوْمٌ وَمَا هَٰذِهِ ۚ﴾ ﴿٧٨﴾.

يقول تعالى مخبراً أنه أمر موسى، عليه السلام، حين أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل، أن يسري بهم في الليل، ويذهب بهم من قبضة فرعون. وقد بسط الله هذا المقام في غير هذه السورة الكريمة. وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب، فغضب فرعون غضباً شديداً وأرسل في المدائن حاشرين، أي: من يجمعون له الجند من بلدانه وزناتيقه، يقول: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرَازِمَةٌ قَلِيلُونَ ۚ﴾ ﴿٨١﴾ وَلَٰكِنَّمَا لَنَا لَفَاطُونَ ۚ﴾ ﴿٨٢﴾ [الشعراء: ٥٤، ٥٥] ثم لما جمع جنده واستوسق له جيشه، ساق في طلبهم ﴿فَأَتَيْنَاهُمُ مُّثْرَفِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ [الشعراء: ٦٠] أي: عند طلوع الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَاكَ الْجِنَانَ﴾ أي: نظر كل من

الفرقيين إلى الآخر ﴿قَالَ اسْحَبْ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَزِيلُ ﴿٦٢﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢]، ووقف موسى ببني إسرائيل، البحر أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه أن ﴿فَأَنْزَلْنَا لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾، فضرب البحر بعصاه، وقال: «انفلق بإذن الله»، ﴿فَأَتَقَوْا فَكَانَ كُلُّ فَزْقٍ كَنَفٍ مَوْجٍ كَالْعِظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] أي: الجبل العظيم. فأرسل الله الريح على أرض البحر فلفحته حتى صار يابساً كوجه الأرض؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنْزَلْنَا لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا أَيْ: من فرعون، وَلَا تَخَفُ﴾ يعني: من البحر أن يغرق قومك. ثم قال تعالى: ﴿فَأَنْبَتَهُمْ رَعْدٌ يَجُودُوهُ فَفُتِحَتْ مِنْ أَيْمٍ﴾ أي: البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي: الذي هو معروف ومشهور. وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤَيَّدَاتُكَ أَمْرًا﴾ ﴿٥٣﴾ فَتَشْنَاهَا مَا غَشَى ﴿٥٤﴾ [النجم: ٥٣، ٥٤]، وكما قال الشاعر:

أَنَا أَبُو النُّجْمِ وَشِغْرِي شِغْرِي

أي: الذي يعرف، وهو مشهور. وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم في اليم فأضلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد، كذلك ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْأَوْرَدُ الْمَوْرَدُ﴾ [معد: ٩٨].

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَيْتَنَّاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ حَيْبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَوَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْيَمْنَ وَالسَّلَوى﴾ ﴿٨٥﴾ كَلُوا مِنْ طَيْبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿٨٦﴾ وَإِلَى لَقَاءِ رَبِّكَ تَابَ وَامَنَّ وَرَجَلْ سَلَامًا ثُمَّ أَهْتَدَى ﴿٨٧﴾.

يذكر تعالى نعمة على بني إسرائيل العظام، ومنته الجسم، حيث نجاهم من عدوهم فرعون، وأقر أعينهم منه، وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا في صبيحة واحدة، لم ينج منهم أحد، كما قال تعالى: ﴿وَأَعْرَفْنَا أَنَّا نَرْقُونَ وَنُظَرُّونَ﴾ [البقرة: ٥٠]. وقال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا روح بن عباد، حدثنا شعبة، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة واليهود تصوم عاشوراء، فسألهم فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى على فرعون، فقال: «نحن أولى بموسى فصوموه» رواه مسلم أيضاً في صحيحه. ثم إنه تعالى وأعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هناك. وفي غُضُونِ ذَلِكَ عَبْدُ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْعَجَل، كما يقصه تعالى قريباً. وأما المن والسلوى، فقد تقدم الكلام على ذلك في سورة «البقرة» وغيرها. فالمن: حُلُوْى كانت تنزل عليهم من السماء. والسلوى: طائر يسقط عليهم، فيأخذون من كل، قدر الحاجة إلى الغد، لطفاً من الله، ورحمة بهم، وإحساناً إليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَلُوا مِنْ طَيْبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي: كلوا من هذا الرزق الذي رزقناكم، ولا تَطْغَوْا في رزقي، فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما أكرمكم به، ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي: أغضب عليكم ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي: فقد شقي. وقال شُعْبَةُ بْنُ مَاتِعٍ: إن في جهنم قصراً يرمى الكافر من أعلاه، فيهوي في جهنم أربعين خريفاً قبل أن يبلغ الصلصال، وذلك قوله: ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَإِلَى لَقَاءِ رَبِّكَ تَابَ وَامَنَّ وَرَجَلْ سَلَامًا﴾ أي: كل من تاب إلي تبت عليه من أي ذنب كان، حتى إنه تعالى تاب على من عبد العجل من بني إسرائيل. وقوله ﴿تَابَ﴾ أي: رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو نفاق أو معصية. وقوله: ﴿وَمَنَّ﴾ أي: بقلبه، ﴿وَرَجَلْ سَلَامًا﴾ أي: بجوارحه. وقوله: ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي: ثم لم يشكك. وقال سعيد بن جبير: ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ أي: استقام على السنة والجماعة. وروي نحوه عن مجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف. وقال قتادة: ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ أي: لزم الإسلام حتى يموت. وقال سفيان الثوري: ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ أي: علم أن لهذا ثواباً. وثم ها هنا ترتيب الخبر على الخبر، كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَةِ﴾ ﴿١٧﴾ [البلد: ١٧].

﴿وَمَا أَصْحَابُكَ عَنْ قَوْمِكَ بِمُوسَى﴾ ﴿٨٨﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءُ عَلَى أَمْرٍ وَوَعَدْتُ إِلَيْكَ رَبِّي لِتَرَى ﴿٨٩﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَسْلَمْنَا السَّامِرِيُّ ﴿٩٠﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَيَسَ قَالَ يُغَيِّرُ أَلَمُ يَدَيْكُمْ رَبَّكُمْ وَعَدًّا خَسِئًا أَطْعَالُ عَلَيْكُمْ الْقَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُ مَوْعِدِي ﴿٩١﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ وَلَكِنَّا خَلَّيْنَا أَرْزَاقًا بَيْنَ زِينَةِ الْقَوْرِ فَقَدَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَتَى السَّامِرِيُّ ﴿٩٢﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَمْ خُورُوا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٩٣﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ بَرَجَ إِلَهُهُمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٩٤﴾

لما سار موسى، عليه السلام، ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون، وافوا ﴿عَلَى قَوْرِ يَمْكُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَشْمُوسُ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ﴾ ﴿٩٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَيَكِلُ مَا كَانُوا يَمْلِكُونَ ﴿٩٤﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩] وواعد ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها له شعراً، فتمت له أربعين ليلة، أي: يصومها ليلاً ونهاراً. وقد تقدم في حديث «الفنون» بيان ذلك. فسارع

موسى، عليه السلام، مبادراً إلى الطور، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ (٨٢) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي ﴿أي: قادمون ينزلون قريباً من الطور، وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ أي: لتزداد عني رضا، ﴿قَالَ فَإِنَّا فَدَتْ قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلُّمُ السَّامِرِيُّ﴾ (٨٥) أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل، وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك السامري. وفي الكتب الإسرائيلية: أنه كان اسمه هارون أيضاً، وكتب الله تعالى له في هذه المدة الألواح المتضمنة التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَكُتِبَتْ لَكَ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ تَوْعِظَةٌ وَتَفْصِيلٌ لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا يَمُوسَى وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِ سَائِرِكُمْ ذَكَرَ الْقَتِيقُونَ﴾ (٨٦) [الأعراف: ١٤٥] أي: عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمري. وقوله: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَيْفَاءً﴾ أي: بعد ما أخبره تعالى بذلك، في غاية الغضب والحق عليهم، هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم، وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم، وفيها شرف لهم. وهم قوم قد عبدوا غير الله ما يعلم كل عاقل له لب وحزم بطلان ما هم فيه وسخافة عقولهم وأذهانهم؛ ولهذا رجع إليهم غضبان أسفاً، والأسف: شدة الغضب. وقال مجاهد: ﴿غَضْبَانَ أَيْفَاءً﴾ أي: جزعاً. وقال قتادة، والسدي: ﴿أَيْفَاءً﴾ أي: حزناً على ما صنع قومه من بعده. ﴿قَالَ يَقُولُ آلَمَ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾ أي: أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة، وحسن العاقبة كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم، وإظهاركم عليه، وغير ذلك من أياديه عندهم؟ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾، أي: في انتظار ما وعدكم الله، ونسيان ما سلف من نعمه، وما بالعهد من قدم. ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ «أم هاهنا بمعنى «بل»، وهي للإضراب عن الكلام الأول، وعدول إلى الثاني، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم ﴿فَأَخْلَقْتُمْ مُوسَى قَالُوا﴾ أي: بنو إسرائيل في جواب ما أنبههم موسى وقرعهم: ﴿مَا أَخْلَقْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا﴾ أي: عن قدرتنا واختيارنا. ثم شرعوا يعتذرون بالعدو البارد، يخبرونه عن تورعهم كما كان بأيديهم من خلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم، حين خرجوا من مصر، ﴿فَقَدَّوْنَهَا﴾ أي: ألقيناها عنا. وقد تقدم في حديث «الفتون» أن هارون، عليه السلام، هو الذي كان أمرهم بإلقاء الحلي في حفيرة فيها نار. وفي رواية السُدِّي، عن أبي مالك، عن ابن عباس: إنما أراد هارون أن يجتمع الحلي كله في تلك الحفيرة، ويجعل حجراً واحداً. حتى إذا رجع موسى يرى فيه ما يشاء. ثم جاء بعد ذلك السامري فألقى عليها تلك القبضة التي أخذها من أثر الرسول، وسأل هارون أن يدعو الله أن يستجيب له في دعوته، فدعا له هارون - وهو لا يعلم ما يريد - فأجيب له، فقال السامري عند ذلك: أسأل الله أن يكون عجلاً، فكان عجلاً له خوار، أي: صوت، استدراجاً وإمهالاً ومحنة واختباراً؛ ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبَكَ آلَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خَوَارٌ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عباد بن البخترى، حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا حماد عن سماك، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: أن هارون مَرَّ بالسامري وهو ينحت العجل، فقال له: ما تصنع؟ فقال: أصنع ما يضر ولا ينفع. فقال هارون: اللهم أعطه ما سأل على ما في نفسه، ومضى هارون، فقال السامري: اللهم إني أسألك أن يخوز، فخار، فكان إذا خار سجدوا له، وإذا خار رفعوا رؤوسهم. ثم رواه من وجه آخر عن حماد وقال: أعمل ما ينفع ولا يضر. وقال السدي: كان يخوز ويمشي. فقالوا - أي: الضلّال منهم، الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه - ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى قَتِيقٌ﴾ أي: نسيه هاهنا، وذهب يتطلبه. كذا تقدم في حديث «الفتون» عن ابن عباس. وبه قال مجاهد.

وقال يسماك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿قَتِيقٌ﴾ أي: نسي أن يذكرهم أن هذا إلهكم. وقال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن جبيرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس فقالوا: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾، قال: فَعَكفُوا عَلَيْهِ وَأَجْبَوْهُ حَباً لَمْ يَحْبُوا شَيْئاً قَطْ يَعْنِي مِثْلَهُ، يَقُولُ اللَّهُ: ﴿قَتِيقٌ﴾ أي: ترك ما كان عليه من الإسلام، يعني: السامري. قال الله تعالى رداً عليهم، وتقريعاً لهم، وبياناً لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ رِجْعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ سَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (٨٨) أي: العجل ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أنه لا يجيبهم إذا سألوه، ولا إذا خاطبوه، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ سَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: في دنياهم ولا في آخرهم. قال ابن عباس، رضي الله عنه: لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح في دبره فيخرج من فيه، فيسمع له صوت. وقد تقدم في متون الحديث عن الحسن البصري: أن هذا العجل اسمه بهموت. وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط، فألقوها عنهم، وعبدوا العجل. فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما جاء في الحديث الصحيح عن ابن عمر: أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب - يعني: هل يصلى فيه أم لا؟ - فقال ابن عمر، رضي الله عنه: انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ - يعني: الحسين - وهم يسألون عن دم البعوض؟

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَتَقَوَّيْزُ إِنَّمَا فَتَنَّتُمْ بِهِ. وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ﴿٩١﴾﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِيفَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩٢﴾﴾.

يخبر تعالى عما كان من نهي هارون، عليه السلام، لهم عن عبادة العجل، وإخباره إياهم: إنما هذا فتنة لكم ﴿وَأَنَّ رَبَّكَمُ الرَّحْمَنُ﴾ الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً، ذو العرش المجيد، الفعال لما يريد ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أي: فيما أأمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه. ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِيفَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ ﴿٩١﴾ أي: لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه. وخالفوا هارون في ذلك، وحاربوه، وكادوا أن يقتلوه.

﴿قَالَ يَهْرُثُ مَا مَنَّكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٣﴾﴾ أَلَا تَتَذَكَّرُ أَمْصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٤﴾﴾ قَالَ يَبْنَؤُكُمْ لَا تَأْخُذْ يَلْبَحَنِي وَلَا يَرَأُونِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي ﴿٩٥﴾﴾.

يقول مخبراً عن موسى، عليه السلام، حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم، فامتلاً عند ذلك غيظاً، وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وقد قدمنا في «الأعراف» بسط ذلك، وذكرنا هناك حديث: «ليس الخير كالمعانيئة». وشرع يلوم أخاه هارون فقال: ﴿مَا مَنَّكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَا تَتَذَكَّرُ﴾ أي: فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع، ﴿أَمْصَيْتَ أَمْرِي﴾ أي: فيما كنت تقدمت إليك، وهو قوله: ﴿أَخْلَقْنِي فِي قَوْمٍ وَأَصْلَحَ وَلَا تَنْفَعُ سَبِيلَ الْمُنْصَرِّينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. قال: ﴿يَبْنَؤُكُمْ﴾ تَرْفُقُ له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه؛ لأن ذكر الأم ها هنا أرق وأبلغ، أي: في الحنو والعطف؛ ولهذا قال: ﴿يَبْنَؤُكُمْ لَا تَأْخُذْ يَلْبَحَنِي وَلَا يَرَأُونِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي﴾. هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه، حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم، قال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لي: لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ﴿وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي﴾ أي: وما راعيت ما أمرت بك به حيث استخلفتك فيهم. قال ابن عباس: وكان هارون هائباً له مطيعاً.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسَيرِي ﴿٩٦﴾﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ. فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٧﴾﴾ قَالَ فَادَّبَ فَإِنَّكَ لَكَ مِنَ الْعَجُوزِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْبِفَنَّ فِي أَتْرَابِهِ سَنَّاتًا ﴿٩٨﴾﴾ إِنْ كُنَّا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٩﴾﴾.

يقول موسى، عليه السلام، للسامري: ما حملك على ما صنعت؟ وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت؟ قال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان السامري رجلاً من أهل باجرؤما، وكان من قوم يعبدون البقر، وكان حُبَّ عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام مع بني إسرائيل. وكان اسم السامري: موسى بن ظفر. وفي رواية عن ابن عباس: إنه كان من كرمان. وقال قتادة: كان من قرية اسمها سامرا. ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أي: رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أي: من أثر فرسه. وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، أخبرنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا إسرائيل، عن السدي، عن أبي بن عمار، عن علي، رضي الله عنه، قال: إن جبريل، عليه السلام، لما نزل فصعد بموسى إلى السماء، بصره السامري من بين الناس، فقبض قبضة من أثر الفرس قال: وحمل جبريل موسى خلفه، حتى إذا دنا من باب السماء، صعد وكتب الله الألواح وهو يسمع صرير الأقلام في الألواح. فلما أخبره أن قومه قد فتنوا من بعده قال: نزل موسى، فأخذ العجل فأحرقه. غريب. وقال مجاهد: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ قال: من تحت حافر فرس جبريل، قال: والقبضة ملء الكف، والقبضة بأطراف الأصابع. قال مجاهد: نبذ السامري، أي: ألقي ما كان في يده على حلية بني إسرائيل، فانسبك عجلًا جسداً له خوار حفيف الريح فيه، فهو خواره.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن يحيى، أخبرنا علي بن المديني، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، حدثنا عمار، حدثنا عكرمة؛ أن السامري رأى الرسول، فألقى في روعه أنك إن أخذت من أثر هذا الفرس قبضة فآلقتها في شيء، فقلت له: «كن» فكان، فقبض قبضة من أثر الرسول، فيست أصابعه في القبضة، فلما ذهب موسى للميقات وكان بنو إسرائيل استعاروا حلي آل فرعون، فقال لهم السامري: إنما أصابكم من أجل هذا الحلي، فاجمعوه. فجمعوه، فأوقدوا عليه، فذاب، فراه السامري فألقى في روعه أنك لو قذفت هذه القبضة في هذه فقلت: «كن»، كان. فقذف القبضة وقال: «كن»، فكان عجلًا له خوار، فقال: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِنَّهُ مُوسَى﴾. ولهذا قال: ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: ألقيتها مع من ألقى،

﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي: حسنته وأعجبها إذ ذاك، ﴿فَقَالَ قَادَهُبَ فَإِنَّكَ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي: كما أخذت ومسست ما لم يكن أخذه ومسه من أثر الرسول، فعقوبتك في الدنيا أن تقول: «لا مساس»، أي: لا تماس الناس ولا يمسونك. ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: يوم القيامة، ﴿أَنْ تُخْلَفَهُ﴾ أي: لا محيد لك عنه. وقال قتادة: «أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ» قال: عقوبة لهم، وبقيامهم اليوم يقولون: لا مساس. وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا أَنْ تُخْلَفَهُ﴾ قال الحسن، وقتادة، وأبو نعيم: لن تغيب عنه. وقوله: ﴿وَأَنْتَظِرُ إِنَّكَ إِلَهُكَ﴾ أي: معبودك، ﴿الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: أقمت على عبادته، يعني: العجل ﴿لَتُحَرِّقَنَّهُ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس، والسدي: سحله بالمبارد، وألقاه على النار. وقال قتادة: استحال العجل من الذهب لحماً ودماً، فحرقه بالنار، ثم ألقاه، أي: رماده في البحر؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَنَسْفَقُنَّ فِي النَّارِ نَسْفًا﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، أنبأنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمارة بن عبد وأبي عبد الرحمن، عن علي، رضي الله عنه، قال: إن موسى لما تعجل إلى ربه، عمد السامري فجمع ما قدر عليه من حلي نساء بني إسرائيل، ثم صورته عجلاً، قال: فعمد موسى إلى العجل، فوضع عليه المبارد، فبرده بها، وهو على شط نهر، فلم يشرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب. فقالوا لموسى: ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضاً. وهكذا قال السدي. وقد تقدم في تفسير سورة البقرة، ثم في حديث الفتون بسط ذلك. وقوله: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، يقول لهم موسى، عليه السلام: ليس هذا إلهكم، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو، أي: لا يستحق ذلك على العباد إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له، فإن كل شيء فقير إليه، عبد لربه. وقوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ نصب على التمييز، أي: هو عالم بكل شيء، ﴿أَمَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الطلاق: ١٧]، ﴿وَأَمَّا كُلُّ شَيْءٍ عَدًّا﴾ [الحج: ٢٨]، فلا ﴿يَعْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبا: ٢٣]، ﴿وَمَا تَشْقَىٰ مِنْ ذَرَّةٍ إِلَّا يَأْمُرُهَا وَيَكْفُرُهَا وَمَا يَشَقُّكَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُزِيلُ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَمَسُّهُ إِلَّا فِي كِتَابٍ ثَبِيرٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَرْزُقُهَا مِنْ غَيْرِهِ مَسْفُوفًا وَمُسَوَّدَةً كُلٌّ فِي كِتَابٍ ثَبِيرٍ﴾ [مرد: ٦] والآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿كَذَلِكَ نُنْشِئُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [٩٩] ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ [١٠٠] ﴿خَلِيلَيْنِ بِهِ وَسَاءَ لَمُتْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ جَلَدٌ﴾ [١٠١].

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: كما قصصنا عليك خبر موسى، وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية والأمر الواقع، كذلك نقص عليك الأخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص، هذا ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا﴾ أي: عندنا ﴿ذِكْرًا﴾، وهو القرآن العظيم، الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجُلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، الذي لم يعط نبي من الأنبياء منذ بعثوا إلى أن ختموا، بمحمد ﷺ تسليماً، كتاباً مثله ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن، وحكم الفصل بين الناس منه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي: كذب به وأعرض عن اتباعه أمراً وطلباً، وابتغى الهدى في غيره، فإن الله يضلّه ويهديه إلى سواء الجحيم؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ [١٠٠] أي: إثمًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [مرد: ١٧]. وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم، أهل الكتاب وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يُؤْذِرُكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع، فمن اتبعه هدي، ومن خالفه وأعرض عنه ضلّ وشقي في الدنيا، والنار موعده يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ [١٠٠] ﴿خَلِيلَيْنِ بِهِ﴾ أي: لا محيد لهم عنه ولا انفكاك، ﴿وَسَاءَ لَمُتْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ جَلَدٌ﴾ أي: بشس الحمل حملهم.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرًّا﴾ [١٠١] ﴿يَخْخَفُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [١٠٢] ﴿ثُمَّ نَأْتِيَهُمْ بِمِثْلِهِمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا بِرُوحَةٍ﴾ [١٠٣].

ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور، فقال: ﴿قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ﴾. وقد جاء في حديث الصور من رواية أبي هريرة: أنه قرن عظيم، الدارة منه بقدر السموات والأرض، ينفخ فيه إسرافيل، عليه السلام. وجاء في الحديث: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحني جبهته، وانتظر أن يؤذنا له» فقالوا: يا رسول الله، كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا». وقوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرًّا﴾ قيل: معناه رُزق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال. ﴿يَخْخَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ قال ابن عباس: يتسازون بينهم، أي: يقول بعضهم لبعض: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي: في الدار الدنيا، لقد كان لبثكم فيها قليلاً، عشرة أيام أو نحوها. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نَأْتِيَهُمْ بِمِثْلِهِمْ طَرِيقَةً﴾ أي: في حال تناحيهم بينهم، ﴿إِذْ يَقُولُ

أَتَنَلَّهُمْ طَرِيقَةً أَي: العاقل الكامل فيهم، ﴿إِنْ لَيْسَ إِلَّا يَوْمًا﴾ أي: لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد؛ لأن الدنيا كلها وإن تكررت أوقاتها وتعاقت لياليها وأيامها وساعاتها كأنها يوم واحد؛ ولهذا تستقصر مدة الحياة الدنيا يوم القيامة: وكان غرضهم في ذلك درء قيام الحجة عليهم، لقصر المدة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُسْأَلُنَا عَنْ سَعَاتِنَا كَذَلِكَ كَانُوا يَقُولُونَ﴾ وقال الذين أوتوا العلم واللين: ﴿لَقَدْ لَبِثْنَا فِي أُمَمٍ شَرٍّ فَلَيْسَ﴾ أي: لا نعلم ما يذكركم ما يذكركم فيه من تذكركم التذير فذوقوا فما للظالمين من نصيب ﴿١٠٦﴾ [فاطر: ٥٥، ٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ الْأَرْضَ يَنْدَكُّ مِنْ قِوَامِ يَوْمٍ فَلَا تُغْنِي عَنْكُمْ كُنُفُهُمْ سِوَىٰ ذَٰلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤] أي: إنما كان لبثكم فيها قليلاً، لو كنتم تعلمون لأثرتم الباقي على الفاني، ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف، قدّمتم الحاضر الفاني على الدائم الباقي.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْغَيْثِ فَقُلْ يَعْلَمُهُ رَبِّي سَمَاءٌ﴾ ﴿١٠٧﴾ ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ﴿١٠٨﴾ ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِصْيًا وَلَا أُفْتًا﴾ ﴿١٠٩﴾ ﴿يَوْمَ يُغَيِّرُ اللَّهُ الظِّلَّ لَا رَوْحَ لَهُ وَخَسِفَ الْكَوْكُبَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ ﴿١١٠﴾.

يقول تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْغَيْثِ﴾ أي: هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ ﴿فَقُلْ يَعْلَمُهَا رَبِّي سَمَاءٌ﴾ أي: يذهبها عن أماكنها ويمحها ويسيرها تسييراً، ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي: بساطاً واحداً. والقاع: هو المستوي من الأرض. والصفصف تأكيد لمعنى ذلك، وقيل: الذي لا نبات فيه. والأول أولى، وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم؛ ولهذا قال: ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِصْيًا وَلَا أُفْتًا﴾ أي: لا ترى في الأرض يومئذ وادياً ولا رابية، ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، كذلك قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن البصري، والضحاك، وقتادة، وغير واحد من السلف. ﴿يَوْمَ يُغَيِّرُ اللَّهُ الظِّلَّ لَا رَوْحَ لَهُ﴾ أي: يوم يروون هذه الأحوال والأهوال، يستجيبون مسارعين إلى الداعي، حيثما أمروا بادروا إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم، ولكن حيث لا ينفعهم، كما قال تعالى: ﴿أَتَمِيعُ يَوْمَ تَأْتِيهِمْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مریم: ٣٨]، وقال: ﴿مُتَّعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَاذِبُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾ [الفر: ٨].

قال محمد بن كعب القرظي: يحشر الله الناس يوم القيامة في ظلمة، وتطوى السماء، وتنشأ النجوم، وتذهب الشمس والقمر، وينادي مناد، فيتبع الناس الصوت فيأتونه، فذلك قوله: ﴿يَوْمَ يُغَيِّرُ اللَّهُ الظِّلَّ لَا رَوْحَ لَهُ﴾. وقال قتادة: ﴿لَا رَوْحَ لَهُ﴾ لا يميلون عنه. وقال أبو صالح: ﴿لَا رَوْحَ لَهُ﴾ لا عوج عنه. وقوله: ﴿وَخَسِفَ الْكَوْكُبَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾: قال ابن عباس: سكنت. وكذا قال السدي. ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾: قال سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: يعني: وطء الأقدام. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، والربيع بن أنس، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾: الصوت الخفي. وهو رواية عن عكرمة، والضحاك. وقال سعيد بن جبیر: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾: الحديث، وسره، ووطء الأقدام. فقد جمع سعيد كلا القولين وهو محتمل، أما وطء الأقدام فالمراد سعي الناس إلى المحشر، وهو مشيهم في سكون وخضوع. وأما الكلام الخفي فقد يكون في حال دون حال، فقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُفُهٌ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

﴿يَوْمَ يُغَيِّرُ اللَّهُ الظِّلَّ لَا رَوْحَ لَهُ﴾ ﴿١١١﴾ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْغَيْثِ فَقُلْ يَعْلَمُهَا رَبِّي سَمَاءٌ﴾ ﴿١١٢﴾ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْغَيْثِ فَقُلْ يَعْلَمُهَا رَبِّي سَمَاءٌ﴾ ﴿١١٣﴾.

يقول تعالى: ﴿يَوْمَ يُغَيِّرُ اللَّهُ الظِّلَّ لَا رَوْحَ لَهُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ أي: عنده ﴿لَا رَوْحَ لَهُ﴾ أي: لا عوج عنه. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْغَيْثِ فَقُلْ يَعْلَمُهَا رَبِّي سَمَاءٌ﴾ أي: يذهبها عن أماكنها ويمحها ويسيرها تسييراً، ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي: بساطاً واحداً. والقاع: هو المستوي من الأرض. والصفصف تأكيد لمعنى ذلك، وقيل: الذي لا نبات فيه. والأول أولى، وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم؛ ولهذا قال: ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِصْيًا وَلَا أُفْتًا﴾ أي: لا ترى في الأرض يومئذ وادياً ولا رابية، ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، كذلك قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن البصري، والضحاك، وقتادة، وغير واحد من السلف. ﴿يَوْمَ يُغَيِّرُ اللَّهُ الظِّلَّ لَا رَوْحَ لَهُ﴾ أي: يوم يروون هذه الأحوال والأهوال، يستجيبون مسارعين إلى الداعي، حيثما أمروا بادروا إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم، ولكن حيث لا ينفعهم، كما قال تعالى: ﴿أَتَمِيعُ يَوْمَ تَأْتِيهِمْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مریم: ٣٨]، وقال: ﴿مُتَّعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَاذِبُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾ [الفر: ٨].

يُحِطُّونَ بِهِ، عَلِمًا، كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقوله: ﴿وَعَسَىٰ أَنزَالُ الْوَحْيِ لِلَّهِ الْفَتِيرُ﴾ قال ابن عباس، وغير واحد: خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت، القيوم: الذي لا ينام، وهو قيم على كل شيء، يديره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الذي كل شيء فقير إليه، لا قوام له إلا به. وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي: يوم القيامة، فإن الله سيؤدي كل حق إلى صاحبه، حتى يقتص للشاء الجَمَاء من الشاء القرناء. وفي الحديث: «يقول الله تعالى: وعزتي وجلالي، لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم». وفي الصحيح: «إياكم والظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة». والخيبة كل الخيبة لمن لقي الله وهو مشرك به؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّكَ أَكْثَرُكَ لَظْلُمًا عَظِيمًا﴾ [النمل: ١٣]. وقوله: ﴿وَمَنْ يَمْلِكْ مِنَ الْأَشْيَاطِ وَهُوَ مُؤَيَّدٌ فَلَا تَخَافُ عُلَمًا وَلَا هَضَمًا﴾ [١١٣]: لما ذكر الظالمين ووعيدهم، ثنى بالمتقين وحكمهم، وهو أنهم لا يظلمون ولا يهضمون، أي: لا يزداد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وقادة، وغير واحد. فالظلم: الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره، والهضم: النقص.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَوَرَقًا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [١١٤] ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقَدْ رَزَقَ رَبِّيَ عِلْمًا﴾ [١١٥].

يقول: ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعاً لا محالة، أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً، بلسان عربي مبين فصيح، لا لبس فيه ولا عني، ﴿وَوَرَقًا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتركون المآثم والمحارم والفواحش، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات، ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي: تنزه وتقدس الملك الحق، الذي هو حق، ووعدته حق، ووعيده حق، وورسله حق، والجنة حق، والنار حق، وكل شيء منه حق. وعدله تعالى ألا يعذب أحداً قبل الإنذار وبعثة الرسل والإعذار إلى خلقه؛ لتلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة. وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، كقوله تعالى في سورة «أقسام بيوم القيامة»: ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُجَاجِلَ بِهِ﴾ [١١٦] ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [١١٧] ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [١١٨] ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [١١٩] [القيامة: ١٦-١٩]، وثبت في الصحيح عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدة، فكان مما يحرك لسانه، فأنزل الله هذه الآية. يعني: أنه، عليه السلام، كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه، من شدة حرصه على حفظ القرآن، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه؛ لتلا يشق عليه. فقال: ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُجَاجِلَ بِهِ﴾ [١١٦] ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [١١٧] ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [١١٨] ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [١١٩] وقال في هذه الآية: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي: بل أنصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقراه بعده، ﴿وَقَدْ رَزَقَ رَبِّيَ عِلْمًا﴾ أي: زدني منك علماً. قال ابن عيينة، رحمه الله: ولم يزل ﷺ في زيادة من العلم، حتى توفاه الله ﷻ. ولهذا جاء في الحديث: «إن الله تابع الوحي على رسوله، حتى كان الوحي أكثر ما كان يوم توفى رسول الله ﷺ». وقال ابن ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عبد الله بن نعيم، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن ثابت، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم، انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً، والحمد لله على كل حال». وأخرجه الترمذي، عن أبي كريب، عن عبد الله بن نعيم، به. وقال: غريب من هذا الوجه. ورواه البزار عن عمرو بن علي الفلاس، عن أبي عاصم، عن موسى بن عبيدة، به، وزاد في آخره: «وأعوذ بالله من حال أهل النار».

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلِ نَنفِثَ وَكَمْ عَزَمْنَا﴾ [١٢٠] ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ [١٢١] ﴿فَقُلْنَا يَتَدَمَّرُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِرِجْلِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَفْخَقُ﴾ [١٢٢] ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [١٢٣] ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَقُ﴾ [١٢٤] ﴿فَوَسَّوْا لِلَّهِ السَّيْطَانَ قَالَ يَتَدَمَّرُ هَلْ أَتَاكَ عَلَىٰ شَجَرَةٍ ظِلَالٍ وَمُتْلِكْ لَا يَبَلَّ﴾ [١٢٥] ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يُمسِقَانِ عَلَيْهِمَا مِن زُرِّي لَحْمَةٍ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [١٢٦] ﴿ثُمَّ أَوَّحَىٰ رَبُّهُ فَأَبَىٰ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [١٢٧].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: إنما سمي الإنسان لأنه عهد إليه فَنَسِيَ. وكذا رواه علي بن أبي طلحة، عنه. وقال مجاهد والحسن: ترك. وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه، وما فضله به على كثير ممن خلق تفضيلاً. وقد تقدم الكلام على هذه القصة في سورة «البقرة»، وفي «الأعراف»، وفي «الحجر»، والكهف»، وسيأتي في آخر سورة ص إن شاء الله تعالى. يذكر فيها تعالى خلق آدم وأمره الملائكة بالسجود له تشريفاً وتكريماً، وبين عدواة إبليس لبني آدم ولأيهم قديماً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ أي: امتنع واستكبر، ﴿فَقُلْنَا يَتَدَمَّرُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِرِجْلِكَ﴾ يعني: حواء، عليهما السلام،

﴿فَلَا يَحْزَنُكَ مِنَ الْخَنَةِ فَتَقَشَّقْ﴾ أي: إياك أن يسعى في إخراجك منها، فتتعب وتغنى وتشقى في طلب رزقك، فإنك ههنا في عيش رغيد هنيء، لا كلفة ولا مشقة. ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾: إنما قرن بين الجوع والعري؛ لأن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر. ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَقُ﴾: وهذان أيضاً متقابلان، فالظما: حر الباطن، وهو العطش. والضحى: حر الظاهر. وقوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ إِنَّكَ مَلَكٌ أُولَىٰ شَجَرَةٍ مُّطَهَّرَةٍ وَلَكُمْ لَآ بَيْتَ﴾: قد تقدم أنه ﴿قَدْ لَبِثْتُهَا بَرْزُورًا﴾ [الأعراف: ٢٢]؛ ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكَا لَمِنَ النَّاصِيكِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]. وقد تقدم أن الله تعالى أوحى إلى آدم وزوجته أن يأكلا من كل الثمار، ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة. فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها، وكانت شجرة الخلد. يعني: التي من أكل منها خلد ودام مكثه.. وقد جاء في الحديث ذكر شجرة الخلد، فقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة عن أبي الضحاك، سمعت أبا هريرة يحدث، عن النبي ﷺ قال: ﴿إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام، ما يقطعها وهي شجرة الخلد. ورواه الإمام أحمد. وقوله: ﴿فَأَكْثَلًا فِيهَا قَدْ تَلَمَّسُوا نَهْمًا﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن إشكاب، حدثنا علي بن عاصم، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إن الله خلق آدم رجلاً طولاً، كثير شعر الرأس، كأنه نخلة سحوق. فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته. فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة، فأخذت شعره شجرة، فنازعها، فنادى الرحمن: يا آدم، مني تفر؟ فلما سمع كلام الرحمن قال: يارب، لا، ولكن استحياء، أرايت إن تبت ورجعت، أعاندي إلى الجنة؟ قال: نعم﴾ فذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾. وهذا منقطع بين الحسن وأبي بن كعب، فلم يسمعه منه، وفي رفعه نظر أيضاً. وقوله: ﴿وَطُفُفًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن رُّوْقِ الْخُلَّةِ﴾: قال مجاهد: يرفعان كهيفة الثوب. وكذا قال قتادة، والسدي. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفر، عن عون، حدثنا سفيان، عن ابن أبي ليلى، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَطُفُفًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن رُّوْقِ الْخُلَّةِ﴾ قال: ينزعان ورق التين، فيجعلانه على سواتهما. وقوله: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ ثم لَبِثْتُهُ رَبُّهُ فَأَنبَأَ عَلَيْهِ وَهَذَىٰ﴾، قال البخاري: حدثنا قتيبة، حدثنا أيوب بن النجار، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: ﴿حاج موسى آدم، فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر قد كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني - أو: قدره الله عليّ قبل أن يخلقني - قال رسول الله ﷺ: ﴿فحج آدم موسى. وهذا الحديث له طرق في الصحيحين، وغيرهما من المسانيد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني أنس بن عياض، عن الحارث بن أبي ذئب، عن يزيد بن هرمز قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: ﴿حَجَّ آدَمُ وَمُوسَىٰ عِنْدَ رَبِّهِمَا، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَىٰ، قَالَ مُوسَىٰ: أَنْتَ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَأَسْكَنْكَ فِي جَنَّتِهِ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ إِلَى الْأَرْضِ بِخَطِيئَتِكَ؟ قَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَكَلَامِهِ، وَأَعْطَاكَ الْأَلْوَحَ فِيهَا تَبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا، فَبِكُمْ وَجَدْتَ اللَّهُ كَتَبَ التَّوْرَةَ قَبْلَ أَنْ أَخْلُقَ؟ قَالَ مُوسَى: بَارِعِينَ عَامًّا. قَالَ آدَمُ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ قال: نعم. قال: أفتلومني على أن عملتُ عملاً كتب الله عليّ أن أعمله قبل أن يخلقني بَارِعِينَ سَنَةً. قال رسول الله ﷺ: ﴿فحج آدم موسى. قال الحارث: وحدثني عبد الرحمن بن هرمز بذلك، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ.

﴿قَالَ أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَلِمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَصِلْ وَلَا يَشْقَ﴾ [١٢٣] وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [١٢٤] قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ [١٢٥] قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتَانَا فَسَيِّبْنَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْفَخُ﴾ [١٢٦].

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس: اهبطوا منها جميعاً، أي: من الجنة كلكم. وقد بسطنا ذلك في سورة «البقرة». ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: قال: آدم وذريته، وإبليس وذريته. وقوله: ﴿فَلَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾، قال أبو العالية: الأنبياء والرسل والبيان. ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَصِلْ وَلَا يَشْقَ﴾: قال ابن عباس: لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أي: خالف أمري، وما أنزلته على رسولي أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداً، ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق خرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد. فهذا من ضنك المعيشة. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ قال: الشقاء. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، قال: كل مال أعطيته عبداً من عبادي، قل أو كثر، لا يثقيني فيه، فلا خير فيه، وهو الضنك في المعيشة. ويقال: إن

قوماً ضلّالاً، أعرضوا عن الحق، وكانوا في سعة من الدنيا متكبرين، فكانت معيشتهم ضنكاً؛ وذلك أنهم كانوا يرون أن الله ليس مخلقاً لهم معاشهم، من سوء ظنهم بالله والتكذيب، فإذا كان العبد يكذب بالله، وسيء الظن به والثقة به اشتدت عليه معيسته، فذلك الضنك. وقال الضحاك: هو العمل السيء، والرزق الخبيث، وكذا قال عكرمة، ومالك بن دينار. وقال سفيان بن عيينة، عن أبي حازم، عن أبي سلمة، عن أبي سعيد في قوله: ﴿مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ قال: يضيق عليه قبره، حتى تختلف أضلاعه فيه. قال أبو حاتم الرازي: النعمان بن أبي عياش: يكنى أبا سلمة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لهيعة، عن دُرّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله ﷻ: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ قال: «ضمة القبر». الموقوف أصح. وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج أبو السمح، عن ابن حُجيرة - اسمه عبد الرحمن - عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «المؤمن في قبره في روضة خضراء، ويرحب له في قبره سبعون ذراعاً، وينور له قبره كالقمر ليلة البدر، أتدرون فيم أنزلت هذه الآية: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾؟ أتدرون ما المعيشة الضنك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «عذاب الكافر في قبره، والذي نفسي بيده، إنه ليسلط عليه تسعة وتسعون ثقيلاً، أتدرون ما الثنين؟ تسعة وتسعون حية، لكل حية سبعة رؤوس، ينفخون في جسمه، ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم يبعثون». رفعه منكر جداً. وقال البزار: حدثنا محمد بن يحيى الأزدي، حدثنا محمد بن عمرو، حدثنا هشام بن سعد، عن سعيد بن أبي هلال، عن أبي حُجيرة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قول الله ﷻ: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ قال: «المعيشة الضنك الذي قال الله تعالى: أنه يسلط عليه تسعة وتسعون حية، ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة». وقال أيضاً: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا أبو الوليد، حدثنا حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ قال: «عذاب القبر». إسناده جيد. وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾: قال مجاهد، وأبو صالح، والسدي: لا حجة له. وقال عكرمة: عُمّي عليه كل شيء إلا جهنم. ويحتمل أن يكون المراد: أنه يُحشَر أو يبعث إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضاً، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمِيَ وَإِنَّا نَؤْتِيهِمْ جَهَنَّمَ كُلًّا خَبَتْ زَوْنُهُمْ سَوعًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. ولهذا يقول: ﴿رَبِّ لِي حَسْرَتِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ أي: في الدنيا، ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى﴾ [١٢٨]. أي: لما أعرضت عن آيات الله، وعاملتها معاملة من لم يذكرها، بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها، كذلك نعاملك اليوم معاملة من ينسأك، ﴿فَالْيَوْمَ نَسْفَعُكُمْ كُلًّا نَسْوَ لَكُمَ الْيَوْمَ يَوْمَهُمُ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١] فإن الجزء من جنس العمل. فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلًا في هذا الوعيد الخاص، وإن كان مُتَوَعِّداً عليه من جهة أخرى، فإنه قد وردت السنة بالنهي الأكيد، والوعيد الشديد في ذلك، قال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا خالد، عن يزيد بن أبي زياد، عن عيسى بن فائد، عن رجل، عن سعد بن عباد، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل قرأ القرآن نفسه، إلا لقي الله يوم يلقاه وهو أجزم». ثم رواه الإمام أحمد من حديث يزيد بن أبي زياد، عن عيسى بن فائد، عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ، فذكر مثله سواء.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَلَمٌ﴾.

يقول تعالى: وهكذا نجازي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤] ولهذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَلَمٌ﴾ أي: أشد ألمًا من عذاب الدنيا، وأدوم عليهم، فهم مخلدون فيه؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ للملاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة».

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [١٢٩] ﴿وَلَوْلَا كَيْفَةُ سَفَتٍ مِن رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَاجِبًا﴾ [١٣٠] ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [١٣١].

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ لهؤلاء المكذبين بما جتتهم به يا محمد: كم أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسول قبلهم، فبادوا فليس لهم بقية ولا عين ولا أثر، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلفهم فيها، يمشون فيها، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: العقول الصحيحة والالباب المستقيمة، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال في سورة «آلم السجدة»: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِن الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [السجدة: ٢٦]. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَيْفَةُ سَفَتٍ مِن رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَاجِبًا مُّسًى﴾ [١٣٠]. أي: لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة، لجاءهم العذاب بغتة؛ ولهذا قال لنبيه مسلماً له:

﴿فَاسْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: من تكذيبهم لك، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يعني: صلاة الفجر، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني: صلاة العصر، كما جاء في الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي، رضي الله عنه، قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا»، ثم قرأ هذه الآية. وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان بن عيينة، عن عبد الملك بن عمير، عن عمارة بن رؤبة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا». رواه مسلم من حديث عبد الملك بن عمير، به. وفي المسند والسنن، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة، ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أذناه، وإن أعلاهم منزلة لَمَنْ يَنْظُرُ إِلَى اللَّهِ ﷻ فِي الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ». وقوله: ﴿وَمَنْ آتَاكَ اللَّيْلُ فَسَبِّحْ﴾ أي: من ساعاته فتسجد به. وحمله بعضهم على المغرب والعشاء، ﴿وَأَطْرَافِ النَّهَارِ﴾ في مقابلة آناء الليل، ﴿لَمَّا كَانَ الرَّحْمَنُ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَىٰ﴾ ﴿الفص: ٥٠﴾. وفي الصحيح: «يقول الله: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: إني أعطيتكم أفضل من ذلك. فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً». وفي الحديث الآخر يقال: «يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن يُتَجَزَّأَهُ». فيقولون: وما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويزحزحنا عن النار، ويدخلنا الجنة؟ فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه، وهي الزيادة.

﴿لَا تَمُدَّدَ عَيْنُكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعَا بِهِمُ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ زُرْقُكَ رَبُّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ ﴿١٣١﴾ وَأَمَّا أَهْلُكَ وَالصَّلَاةُ وَالصَّطِيرُ عَلَيْهَا لَا تَشْأَلُكَ رِزْقًا عَنْ زُرْقِكَ وَالْعَنَقَةُ لِلْعُقَىٰ﴾ ﴿١٣٢﴾

يقول تعالى لنبية محمد، صلوات الله وسلامه عليه: لا تنظر إلى هؤلاء المترفين وأشباههم ونظرانهم، وما فيه من النعم، فإنما هو زهرة زائلة، ونعمة حائلة، لنختبرهم بذلك، وقليل من عبادي الشكور. وقال مجاهد: ﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ يعني: الأغنياء، فقد أتاك الله خيراً مما آتاهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبَإً مِنَ النَّخْلِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿لَا تَمُدَّدَ عَيْنُكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِمُ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٨﴾ [الحجر: ٨٧، ٨٨]، وكذلك ما ادخره تعالى لرسوله في الدار الآخرة أمر عظيم لا يُحَدُّ ولا يوصف، كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَىٰ﴾ ﴿الفص: ٥٠﴾ ولهذا قال: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾. وفي الصحيح: أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه، حين ألى منهن، فراه متوسداً مضطجعاً على رمال حصير. وليس في البيت إلا صُبْرَةٌ من قُرْظٍ، وأنب معلقة، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال رسول الله ﷺ «ما يبكيك؟» فقال: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه؟ فقال: «أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عَجَلَتْ طيبتهم في حياتهم الدنيا». فكان، صلوات الله وسلامه عليه، أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا، في عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئاً لغد. قال ابن أبي حاتم: أنبأنا يونس، أخبرني ابن وهب، أخبرني مالك، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم، ما يفتح الله من زهرة الدنيا». قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: «بركات الأرض». وقال قتادة والسدي: زهرة الحياة الدنيا، يعني: زينة الحياة الدنيا. وقال قتادة: ﴿لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ﴾ لنبتيهم. وقوله: ﴿وَأَمَّا أَهْلُكَ وَالصَّلَاةُ وَالصَّطِيرُ عَلَيْهَا﴾ أي: استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة، واصطبر أنت على فعلها، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه: أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده أنا ويزُفًا، وكان له ساعة من الليل يصلي فيها، فربما لم يقم، فنقول: لا يقوم الليلة كما كان يقوم، وكان إذا استيقظ أقام - يعني: أهله - وقال: ﴿وَأَمَّا أَهْلُكَ وَالصَّلَاةُ وَالصَّطِيرُ عَلَيْهَا﴾. وقوله: ﴿لَا تَشْأَلُكَ رِزْقًا عَنْ زُرْقِكَ﴾ يعني: إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ ﴿٥١﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٢﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْكَلِيمِ ﴿٥٣﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨] ولهذا قال: ﴿لَا تَشْأَلُكَ رِزْقًا عَنْ زُرْقِكَ﴾ وقال الثوري: ﴿لَا تَشْأَلُكَ رِزْقًا﴾ أي: لا نكلفك الطلب. وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن هشام، عن أبيه، أنه كان إذا دخل على أهل الدنيا، فرأى من دنياهم طرفاً فإذا رجع إلى أهله، فدخل الدار قرأ: ﴿وَلَا تَمُدَّدَ عَيْنُكَ﴾ إلى قوله: ﴿عَنْ زُرْقِكَ﴾ ثم يقول: الصلاة الصلاة، رحمكم الله. وقال ابن أبي

حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي زياد القَطَوَانِي، حدثنا سَيَّار، حدثنا جعفر، عن ثابت قال: كان النبي ﷺ إذا أصابه خصاصة نادى أهله: «يا أهلاه، صلوا، صلوا». قال ثابت: وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر، فزعموا إلى الصلاة.

وقد روى الترمذي وابن ماجه، من حديث عمران بن زائدة، عن أبيه، عن أبي خالد الوالبي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، تَفَرَّغْ لعبادتي آملاً صدرك غنى، وأسد فقرك، وإن لم تفعل ملأث صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك». وروى ابن ماجه من حديث الضحاک، عن الأسود، عن ابن مسعود: سمعت نبيكم ﷺ يقول: «مَنْ جَعَلَ الهوموم همّاً واحداً، همّ المعاد، كفاه الله همّ دنياه. ومن تشعبت به الهوموم في أحوال الدنيا، لم يبال الله في أي أوديته هلك». وروى أيضاً من حديث شعبة، عن عُمر بن سليمان، عن عبد الرحمن بن أبان، عن أبيه، عن زيد بن ثابت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كانت الدنيا همّاً، فزق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتبت له. ومن كانت الآخرة نيته، جمع له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة». **﴿وَالْغَنِيَّةُ لِلْفَقِيِّ﴾** أي: وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وهي الجنة، لمن اتقى الله. وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «رايت الليلة كأنما في دار عقبة بن رافع، وأنا أتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولت ذلك أن العاقبة لنا في الدنيا والرفعة، وأن ديننا قد طاب».

﴿وَقَالُوا لَوْلَا آيَاتُنَا بِآيَاتِهِ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ نَأْتِهِمْ بَيِّنَةً مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتِّجَ أَيْنِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَتُخْزَنَ **﴿١٣٣﴾** قُلْ كُلُّ مُتَرَفِّعٍ فَسْتَعْلِمُونَ مَنْ أَصْحَبَ الصِّرَاطَ السَّوِيَّ وَمَنْ أَهْتَدَى **﴿١٣٤﴾**.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار في قولهم: **﴿إِسْرَافَ وَلَا﴾** أي: هلا **﴿بِآيَاتِنَا﴾** محمد **﴿بِآيَاتِهِ مِنْ رَبِّهِ﴾** أي: بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله؟ قال الله تعالى: **﴿أَوَلَمْ نَأْتِهِمْ بَيِّنَةً مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾** يعني: القرآن العظيم الذي أنزله عليه الله، وهو أمي، لا يحسن الكتابة، ولم يدرس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين، بما كان منهم في سالف الدهور، بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها؛ فإن القرآن مهيمن عليها، يُصدق الصحيح، ويُبَيِّن خطأ المكذوب فيها وعليها. وهذه الآية كقوله تعالى في سورة «العنكبوت»: **﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾** **﴿١٣٥﴾** **﴿وَقُلْ يَكْفِيكُمْ إِنَّمَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ فِي ذَٰلِكَ رُحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾** **﴿١٣٦﴾** [العنكبوت: ٥٠، ٥١] وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». وإنما ذكر هاهنا أعظم الآيات التي أعطيها، عليه السلام، وهو القرآن، وله من المعجزات ما لا يحصى ولا يحصر، كما هو مودع في كتبه، ومقرر في مواضعه. ثم قال تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾** قبل أن تهلكنا، حتى نؤمن به ونتبعه؟ كما قال: **﴿فَنُتِّجَ أَيْنِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَتُخْزَنَ﴾**، يبين تعالى أن هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون لا يؤمنون **﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾** **﴿١٣٧﴾** [يونس: ٩٧]، كما قال تعالى: **﴿وَهَذَا كَذِبٌ أَزْلَمُهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾** **﴿١٣٨﴾** **﴿إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِكُ﴾** **﴿١٣٩﴾** **﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾** **﴿١٤٠﴾** [الأنعام: ١٥٥-١٥٧] وقال: **﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِمْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا تَفَوُّرًا﴾** **﴿١٤١﴾** [نمل: ٤٢] وقال: **﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْرِكُمْ بِهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾** **﴿١٤٢﴾** **﴿وَقُلْ أَفَلَيْسَ لَهُمْ بَيِّنَاتٌ بِمَا يَكْفُرُونَ﴾** **﴿١٤٣﴾** [الأنعام: ١٠٩، ١١٠] ثم قال تعالى: **﴿قُلْ﴾** أي: يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وعناده **﴿كُلُّ مُتَرَفِّعٍ﴾** أي: منا ومنكم **﴿فَتَرْصَرًا﴾** أي: فانتظروا، **﴿فَسْتَعْلِمُونَ مَنْ أَصْحَبَ الصِّرَاطَ السَّوِيَّ﴾** أي: الطريق المستقيم، **﴿وَمَنْ أَهْتَدَى﴾** إلى الحق وسبيل الرشاد، وهذا كقوله تعالى: **﴿وَسَوْفَ يَكْمُلُوكَ جِبَرَتٌ يُؤْتِي الْكِتَابَ مِنْ أَصْلُ سَبِيلًا﴾** [الفرقان: ٤٢]، وقوله: **﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنْ الْكَذَّابُ الْأَلِيمُ﴾** **﴿١٤٤﴾** [الفر: ٢٦].

آخر تفسير سورة طه، والله الحمد والمنة.



سورة الأنبياء

وهي مكية. قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غنّدر، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق: سمعت عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله قال: قال بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هن من العتاق الأول، وهن من تلاميذ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ١ ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَقْبَحُونَ﴾ ٢ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَاتَّبِعْ أَمْرَهُ لَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْوَدَّاعَةَ﴾ ٣ ﴿وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَالْشَّجَرَ تَجِيبُونَ﴾ ٤ ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ٥ ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَقْرَبَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِزْنَا نَبَأَهُ كَمَا أُنْزِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ ٦ ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَهْمَ يَقُولُونَ﴾ ٧

هذا تنبيه من الله، ﷻ، على اقتراب الساعة ودنوها، وأن الناس في غفلة عنها، أي: لا يعملون لها، ولا يستعدون من أجلها. وقال النسائي: حدثنا أحمد بن نصر، حدثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسي، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ: ﴿فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ قال: «في الدنيا»، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَمُرَ الْإِنْسَانَ فَلَا تَمْشِمْهُوَ﴾ [النحل: ١]، وقال تعالى: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ وَأَشَقُّ الْقَمَرِ﴾ ١ ﴿وَلَنْ يَرَوْا آيَةً يُرْسِلُهَا يُسْرًا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتَبٌ﴾ ٢ [القم: ١، ٢]. وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن هانئ أبي نواس الشاعر أنه قال: أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية حيث يقول:

الْأَسَاسُ فِي غَفْلَاتِهِمْ وَرَحَا الْمَنْزِيَةِ نَطْحُنُ

ف قيل له: من أين أخذ هذا؟ قال: من قوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ١. وروى في ترجمة «عامر بن ربيعة»، من طريق موسى بن عبيدة الأمدي، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه، عن عامر بن ربيعة: أنه نزل به رجل من العرب، فأكرم عامر مثواه، وكلم فيه رسول الله ﷺ فجاءه الرجل فقال: «إني استقطعت من رسول الله ﷺ وادياً في العرب، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك. فقال عامر: لا حاجة لي في قطيعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ١. ثم أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار، فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ﴾ أي: جديد إنزاله ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ كما قال ابن عباس: ما لكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرقوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرؤونه محضاً لم يشب. ورواه البخاري بنحوه. وقوله: ﴿وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: قائلين فيما بينهم خفية ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ يعنون رسول الله ﷺ يستبعدون كونه نبياً؛ لأنه بشر مثلهم، فكيف اختص بالوحي دونهم؛ ولهذا قال: ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَالْشَّجَرَ تَجِيبُونَ﴾؟ أي: أفتستبعونه فتكونون كمن أتى السحر وهو يعلم أنه سحر. فقال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: الذي يعلم ذلك، لا يخفى عليه خافية، وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، إلا الذي يعلم السر في السموات والأرض. وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوالكم، العليم بأحوالكم. وفي هذا تهديد لهم ووعد. وقوله: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَقْرَبَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِزْنَا نَبَأَهُ كَمَا أُنْزِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ ٦. وهذا إخبار عن تعنت الكفار والحادهم، واختلافهم فيما يصفون به القرآن، وحيرتهم فيه، وضلالهم عنه. فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه شعراً، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مفتري، كما قال: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ ٧ [الإسراء: ٤٨، والفرقان: ٩]. وقوله: ﴿فَلْيَأْنِزْنَا نَبَأَهُ كَمَا أُنْزِلَ الْأَوَّلُونَ﴾: يعنون ناقة صالح، وآيات موسى وعيسى. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ يَا الْأَوَّلُونَ وَمَا أَتَيْنَا بِمِثْرَةٍ فَعَلِمُوا يٰهَا﴾ الآية [الإسراء: ٥٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَهْمَ يَقُولُونَ﴾ ٧. أي: ما أتينا قرية من القرى الذين بعث فيهم الرسل آية على يدي نبيها فامتنوا بها، بل كذبوا، فأهلكناهم بذلك، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟ كلا، بل ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا كَذَّبُوا عَنْكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ٨

قال ابن أبي حاتم، رحمه الله: ذكر عن زيد بن الحباب، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا الحارث بن زيد الحضرمي، عن علي بن رباح اللخمي، حدثني من شهد عبادة بن الصامت، يقول: كنا في المسجد ومعنا أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، يُقْرَأُ بعضنا بعضاً القرآن، فجاء عبد الله بن أبي بن سلول، ومعه نُزْرُقَةُ وَزْرِيَّةُ، فوضع واتكأ، وكان صبيحاً فصيحاً جداً، فقال: يا أبا بكر، قل لمحمد يائناً بأية كما جاء الأولون؟ جاء موسى بالألواح، وجاء داود بالزبور، وجاء صالح بالناقة، وجاء عيسى بالإنجيل وبالعائلة. فبكى أبو بكر، رضي الله عنه، فخرج رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: قوموا إلى رسول الله ﷺ نستغيث به من هذا المنافق. فقال رسول الله ﷺ: «إنه لا يقام لي، إنما يقام لله ﷻ». فقلنا: يا رسول الله، إنا لقينا من هذا المنافق. فقال: «إن جبريل قال لي: أخرج فأخبر بنعم الله التي أنعم بها عليك، وفصيلته التي فضّلت بها، فبشرني أني بعثت إلى الأحمر والأسود، وأمرني أن أنذر الجن، وآتاني كتابه وأنا أني، وغفر ذنبي ما تقدم وما تأخر، وذكر اسمي في الأذان وأيدني بالملائكة، وآتاني النصر، وجعل الرعب أمامي، وآتاني الكوثر، وجعل حوضي من أعظم الحياض يوم القيامة، ووعدني المقام المحمود والناس مهطعون مقنعو رؤوسهم، وجعلني في أول زمرة تخرج من الناس، وأدخل في شفاعتي سبعين ألفاً من أمتي الجنة بغير حساب، وآتاني السلطان والملك، وجعلني في أعلى غرفة في الجنة في جنات النعيم، فليس فوقني أحد إلا الملائكة الذين يحملون العرش، وأحل لي الغنائم، ولم تحل لأحد كان قبلا». وهذا الحديث غريب جداً.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كُنُوزًا مِنْ ذِكْرِكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١١) وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ كَانَتْ ظِلَالُهُ وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَاسِهَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكَبُونَ ﴿١٣﴾ لَا تَرْكَبُوا وَأْتِجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكَنِكُمْ فَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا يَبُولْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٥﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خِلْدِينَ ﴿١٦﴾ ﴿١٧﴾

يقول تعالى منها على شرف القرآن، ومحرضاً لهم على معرفة قدره: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، قال ابن عباس: شرفكم. وقال مجاهد: حديثكم. وقال الحسن: دينكم. ﴿وَإِنَّا لَذِكْرُ لَكَّ وَلَقَدْ لَكُمُ الْوَعْدُ﴾ ﴿٤٤﴾ [الزخرف: ٤٤]. وقوله: ﴿وَكَمْ قَوْمٍ كَانَتْ ظِلَالُهُمْ﴾: هذه صيغة تكثير، كما قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَنِي نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]. وقال

تعالى: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا تَارِيسٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِهَا ثَمَلَةٌ وَصَفِي مُبِيدٌ﴾ [الحج: ٤٥]. وقوله: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أي: أمة أخرى بعدهم ﴿فَلَمَّا أَحْسَنُوا بَأْسَنَا﴾ أي: تيقنوا أن العذاب واقع بهم، كما وعدهم نبيهم، ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكَبُونَ﴾ أي: يفرّون هاربين، ﴿لَا تَرْكَبُوا وَأْتِجِعُوا إِلَيْكَ مَا أَثَرَكُمْ فِيهِ وَمَسْكِكُمْ﴾: هذا تهكم بهم نزرأ أي: قيل لهم نزرأ: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور، والعيشة والمساكن الطيبة. قال قتادة: استهزاء بهم. ﴿لَمَلَكُمْ تَتَلَوْنَ﴾ أي: عما كنتم فيه من أداء شكر النعمة. ﴿قَالُوا يَوَلَّيْنَا لَنَا كَمَا طَلَّيْنَا﴾ [١٦]، اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك، ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَبِيدًا خَائِدِينَ﴾ [١٧]، أي: ما زالت تلك المقالة، وهي الاعتراف بالظلم، هجيراهم حتى حصدناهم حصداً، وخدمت حركاتهم وأصواتهم خموداً.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ [١٨] لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَا لَتَخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ [١٩] بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ قِدْمَهُ فَإِذَا هُوَ رَاقٍ وَلَكِنَّ الْوَيْلَ لِمَا نَعْمُونَ [٢٠] وَلَكِنْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَنَا لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ [٢١] يُسَبِّحُونَ أَكْبَلُ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ [٢٢].

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق، أي: بالعدل والقسط، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْأَفُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْمَقْصُودِ﴾ [النجم: ٣١]، وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِلَهْلَ ذَلِكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَا لَتَخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [١٧]: قال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَا لَتَخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ يعني: من عندنا، يقول: وما خلقنا جنة ولا ناراً، ولا موتاً، ولا بعثاً، ولا حساباً. وقال الحسن، وقاتدة، وغيرهما: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَا لَتَخَذْتَهُ﴾ اللهو: المرأة بلسان أهل اليمن. وقال إبراهيم النخعي: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَا لَتَخَذْتَهُ﴾ من الحور العين. وقال عكرمة والسدي: المراد باللهو هاهنا: الولد. وهذا والذي قبله متلازمان، وهو كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَلَفَ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ﴾ [الزمر: ٢٤]، فنزه نفسه عن اتخاذ الولد مطلقاً، لا سيما عما يقولون من الإفك والباطل، من اتخاذ عيسى، أو العزيز، أو الملائكة، ﴿سُبْحَنَهُ وَقَالُوا عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣]. وقوله: ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾: قال قتادة، والسدي، وإبراهيم النخعي، ومغيرة بن مفسم، أي: ما كنا فاعلين. وقال مجاهد: كل شيء في القرآن «إن» فهو إنكار. وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ أي: نبين الحق فيدحض الباطل؛ ولهذا قال: ﴿فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ رَاقٍ﴾ أي: ذاهب مضمحل، ﴿وَلَكِنَّ الْوَيْلَ﴾ أي: أيها القائلون: لله ولد، ﴿وَمَا نَعْمُونَ﴾ أي: تقولون وتفترون. ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له، ودأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً، فقال: ﴿وَلَكِنْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَنَا لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أي: لا يستنكفون عنها، كما قال: ﴿لَنْ يَسْتَكْبِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْبِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُ مِنْ حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١٧٢]. وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾ أي: لا يتعبون ولا يملون، ﴿يُسَبِّحُونَ أَكْبَلُ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [٢٢]، فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً، مطيعون قصداً وعملاً، قادرون عليه، كما قال تعالى: ﴿لَا يَصْصُونَ اللَّهُ مَا أَمَرَهُمْ وَيَقْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن أبي ذلامه البغدادي، أنبأنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن صفوان بن مُحَرِّز، عن حكيم بن جزام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه، إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شيء. فقال رسول الله ﷺ: «إني لأسمع أطيظ السماء، وما تلام أن تنطق، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم». غريب ولم يخرجوه. ثم رواه ابن أبي حاتم من طريق يزيد بن زُرَيْع، عن سعيد، عن قتادة مرسلأ. وقال أبو إسحاق، عن حسان بن مخارق، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: جلست إلى كعب الأحبار وأنا غلام، فقلت له: أرايت قول الله للملائكة: ﴿يُسَبِّحُونَ أَكْبَلُ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [٢٢]، أما يشغلهم عن التسبيح الكلام والرسالة والعمل؟ فقال: فمن هذا الغلام؟ فقالوا: من بني عبد المطلب، قال: فقبل رأسي، ثم قال لي: يا بني، إنه جعل لهم التسبيح، كما جعل لكم النفس، أليس تتكلم وأنت تتنفس وتمشي وأنت تتنفس؟

﴿أَوِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ؟﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبَّحَنَّا اللَّهُ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَفْعَلُونَ [٢٣] لَا يَسْتَلْ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُنْتَلَوْنَ [٢٤].

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة، فقال: بل ﴿اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ؟﴾ أي: أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟ أي: لا يقدرّون على شيء من ذلك، فكيف جعلوها له نداً وعبدوها معه. ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفست السموات والأرض، فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ أي: في السماء والأرض، كقوله تعالى: ﴿وَمَا

أَتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدِهِ وَمَا كُنَّا مَعَهُ مِنْ الْإِلَهِ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ لَدٍّ يَمَّا خَلَقَ وَلَمَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُعْبَثُونَ ﴿١١﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال هاهنا: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ أَرْضِي عَنَّا يَعْفُونَ﴾ أي: عما يقولون إن له ولداً أو شريكاً، سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذين يفترون ويأفكون علواً كبيراً. وقوله: ﴿لَا يَسْأَلُ عَنَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ أي: هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد، لعظمته وجلاله وكبريائه، وعلوه وحكمته وعدله ولطفه، ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ أي: وهو سائل خلقه عما يعملون، كقوله: ﴿تَوَرَّكْ لِنَشْأَنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُحْجِزُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

﴿أَوِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ رَبِّي وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْفِتْنَةَ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٣٥﴾.

يقول تعالى: بل ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ﴾ أي: دليلكم على ما تقولون، ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ رَبِّي﴾ يعني: القرآن، ﴿وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ يعني: الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولون وتزعمون، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل، ناطق بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق، فأنتم معرضون عنه؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٣٥﴾ كما قال: ﴿وَسَيُتْلَى مِنْ أَمْرِنَا أَمْرًا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَهُ يُعْبَدُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ [الزخرف: ٤٥] وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوعَ﴾ [النحل: ٣٦]، فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا يبرهان لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَنْظُرُونَ إِلَّا لِإِنْ أَرَادْنَاهُمْ مِنْ خَشْيَةٍ مُتَشَفِّعِينَ ﴿٣٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَنُجْزِيَنَّهُمْ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾.

يقول تعالى رداً على من زعم أن له - تعالى وتقدس - ولداً من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بنات الله، فقال: ﴿سُبْحَانَ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ أي: الملائكة عباد الله مكرمون عنده، في منازل عالية ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلًا ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ أي: لا يتقدمون بين يديه بأمر، ولا يخالفونه فيما أمر به، بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علمه محيط بهم، فلا يخفى عليه منهم خافية، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾. وقوله: ﴿وَلَا يَنْظُرُونَ إِلَّا لِإِنْ أَرَادْنَاهُ﴾ كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أُوْتِيَ لَّهُ﴾ [سبا: ٢٣]، في آيات كثيرة في معنى ذلك. ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾ أي: من خوفه ورهبته ﴿مُتَشَفِّعُونَ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من ادعى منهم أنه إله من دون الله، أي: مع الله، ﴿فَنَجْزِيَنَّهُمْ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: كل من قال ذلك، وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَادِينَ﴾ ﴿٤١﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله: ﴿لَنْ أَشْرَكَكَ بِحُطْنٍ عَلَيْكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَبِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَكُمْ هَبْتَدُونَ ﴿٤٣﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفًّا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ ﴿٤٤﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَالنَّهَارَ وَاللَّيْلَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٥﴾.

يقول تعالى منبهاً على قدرته التامة، وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء، وقهره لجميع المخلوقات، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الجاحدون للإلهية، العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق، المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يعبد غيره أو يشرك به ما سواه، ألم يروا ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ أي: كان الجميع متصلاً ببعضه بعض متلاصق مترام، بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه. فجعل السموات سبعاً، والأرض سبعاً، وفصل بين سماء الدنيا والأرض بالهواء، فامطرت السماء وأنبتت الأرض؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً، وذلك دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء:

فَلَمَّا سَأَلَ كُلُّ شَيْءٍ لَهٗ آيَةً ثَبُتَ عَلَى آيَتِهِ وَاحِدٌ
قال سفيان الثوري، عن أبيه، عن عكرمة قال: سئل ابن عباس: الليل كان قبل أو النهار؟ فقال: أرايتم السموات والأرض حين

كانتا رتقاً، هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن أبي حمزة، حدثنا حاتم، عن حمزة بن أبي محمد، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر؛ أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض ﴿كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ ؟ قال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعال فأخبرني بما قال لك. قال: فذهب إلى ابن عباس فسأله. فقال ابن عباس: نعم، كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت. فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات. فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتي في القرآن علماً، صدق - هكذا كانت. قال ابن عمر: قد كنت أقول: ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه قد أوتي في القرآن علماً. وقال عطية العوفي: كانت هذه رتقاً لا تمطر، فأمطرت. وكانت هذه رتقاً لا تنبت، فأنبتت. وقال إسماعيل بن أبي خالد: سألت أبا صالح الحنفي عن قوله: ﴿الْأَرْضَ وَالْأَرْضُ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا﴾، قال: كانت السماء واحدة، ففتق منها سبع سموات، وكانت الأرض واحدة ففتق منها سبع أرضين. وهكذا قال مجاهد، وزاد: ولم تكن السماء والأرض متماسكتين. وقال سعيد بن جبيرة: بل كانت السماء والأرض ملتزقتين، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض، كان ذلك فتقهما الذي ذكر الله في كتابه. وقال الحسن، وقادة، كانا جميعاً، ففصل بينهما بهذا الهواء.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي: أصل كل الأحياء منه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجماهر، حدثنا سعيد بن بشير، حدثنا قتادة عن أبي ميمونة، عن أبي هريرة أنه قال: يا نبي الله، إذا رأيتك قرت عيني، وطابت نفسي، فأخبرني عن كل شيء، قال: «كل شيء خلق من ماء». وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا همام، عن قتادة، عن أبي ميمونة، عن أبي هريرة قال: قلت: يا رسول الله، إني إذا رأيتك طابت نفسي، وقرت عيني، فأنبئتني عن كل شيء. قال: «كل شيء خلق من ماء» قال: قلت: أنبئتني عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة. قال: «أفش السلام، وأطعم الطعام، وصل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنة بسلام». ورواه أيضاً عبد الصمد وعفان وبهز، عن همام. تفرد به أحمد، وهذا إسناد على شرط الصحيحين، إلا أن أبا ميمونة من رجال السنن، واسمه سليم، والترمذي يصحح له. وقد رواه سعيد ابن أبي عروبة، عن قتادة مرسلاً، والله أعلم. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي: جبلاً أرسى الأرض بها وقررها وثقلها؛ لئلا تميد بالناس، أي: تضطرب وتتحرك، فلا يحصل لهم عليها قرار لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع، فإنه باد للهواء والشمس، ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات، والحكم والدلالات؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي: لئلا تميد بهم. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِجَالًا مَّسْكُوكًا﴾ أي: نغراً في الجبال، يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد في الأرض، يكون الجيل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوة - ثغرة - ليسلك الناس فيها من هاهنا إلى هاهنا؛ ولهذا قال: ﴿لَمَسَّكُمْ فِي ذَلِكَ﴾. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفَافًا﴾ أي: على الأرض وهي كالقبة عليها، كما قال: ﴿وَالْقُلُوبَ يَنْتَظِرُهَا بِأَبْصَارِهِمْ وَلَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ لُحُوبٌ لَّكَافُوتٌ﴾ [الذريات: ٤٧]، وقال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَمَّا بَهَا﴾ [الشمس: ٥]، ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ قُوتُهُمْ كَيْفَ يَبْنِيهَا وَيَرْسُخُهَا وَتَمَازُ مِنْ فَوْقِهَا﴾ [ق: ٦]، والبناء هو نصب القبة، كما قال رسول الله ﷺ: «بُني الإسلام على خمس» أي: خمس دعائم، وهذا لا يكون إلا في الخيام، على ما تعهده العرب. ﴿تَحْقُوطًا﴾ أي: عالياً محروساً أن يُنال. وقال مجاهد: مرفوعاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدُّشْتُكي، حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعث - يعني ابن إسحاق القُمي - عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال رجل: يا رسول الله، ما هذه السماء، قال: «موج مكفوف عنكم» إسناده غريب. وقوله: ﴿وَهُمْ عَنْ عَائِنِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾، كقوله: ﴿وَكَلَّانَ يَنْزِعُ عَائِينَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ يَمْزُوتُ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥] أي: لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم، والارتفاع الباهر، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلها، وفي نهارها من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكماله في يوم وليلة فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الذي قدرها وسخرها وسيرها. وقد ذكر ابن أبي الدنيا، رحمه الله، في كتابه «التفكير والاعتبار»: أن بعض عباد بني إسرائيل تعبد ثلاثين سنة، وكان الرجل منهم إذا تعبد ثلاثين سنة أظلمت غمامة، فلم ير ذلك الرجل شيئاً مما كان يرى لغيره، فشكى ذلك إلى أمه، فقالت له: يا بني، فلعلك أذنبت في مدة عبادتك هذه، فقال: لا والله ما أعلم، قالت: فلعلك هممت؟ قال: لا، ولا هممت. قالت: فلعلك رفعت بصرك إلى السماء ثم رددته بغير فكر؟ فقال: نعم، كثيراً. قالت: فمن هاهنا آيت.

ثم قال منها على بعض آياته: ﴿وَمَوْءَاظٍ يَخْلُقُ الْإِنَّاسَ وَالنَّجَارَ﴾ أي: هذا في ظلامه وسكونه، وهذا بضياؤه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى، وعكسه الآخر. ﴿وَالشَّشَّ وَالْقَمَرَ﴾، هذه لها نور يخصصها، وفلك بذاته، وزمان على حدة، وحركة وسير

خاص، وهذا بنور خاص آخر، وفلك آخر، وسير آخر، وتقدير آخر، ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، أي: يدورون. قال ابن عباس: يدورون كما يدور المغزل في الفلكة. وكذا قال مجاهد: فلا يدور المغزل إلا بالفلكة، ولا الفلكة إلا بالمغزل، كذلك النجوم والشمس والقمر، لا يدورون إلا به، ولا يدور إلا بهن، كما قال تعالى: ﴿قَالِقُ الْأَمْشَاجِ وَجَمَلُ أَيْدٍ سَكَنَ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

﴿وَمَا جَعَلْنَا لَشِرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَبَدَيْنَ مِنْهُمْ لَتُخْلَدُونَ﴾ [٢٦] كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالنَّارِ وَالنَّارِ فَتَنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ [٢٧].
يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لَشِرِّ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: يا محمد، ﴿الْخَلْدَ﴾ أي: في الدنيا، بل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [٢٦] وَبَيْنَ يَدَيْهِ رُجُوكُمْ لِلْمَلِكِ لِأَلِكِ [٢٧] [الرحمن: ٢٦، ٢٧]. وقد استدلل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر، عليه السلام، مات وليس بحي إلى الآن؛ لأنه بشر، سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لَشِرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ﴾. وقوله: ﴿أَفَأَنْ مَتَّ﴾ أي: يا محمد، ﴿فَهُمْ لَتُخْلَدُونَ﴾؟! أي: يؤملون أن يعيشوا بعدك، لا يكون هذا، بل كل إلى فناء؛ ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، وقد روي عن الشافعي، رحمه الله، أنه أنشد واستشهد بهذين البيتين:

تَمْنَى رَجَالٌ أَنْ أَمُوتَ، وَإِنْ أَمُتَ قَتَلَتْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَزْهَدَ
فَعَلْتُ لِلَّذِي يُبْغِي خِلَافَ الَّذِي مَضَى: نَهْيًا لِأُخْرَى مِثْلَهَا فَكَانَ قَدْ

وقوله: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالنَّارِ وَالنَّارِ فَتَنَةً﴾ أي: نخبركم بالمصائب تارة، وبالنعم أخرى، لننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَنَبْلُوكُمْ﴾، يقول: نبليكم بالشكر والخير فتنة، بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية والهدى والضلال. وقوله: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: فنجازيكم بأعمالكم.

﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَجْعَلُونَ كَذَبًا كَرِيمًا﴾ [٢٨] ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: كفار قريش كآبي جهل وأشباهه ﴿إِنْ يَجْعَلُونَ كَذَبًا كَرِيمًا﴾ أي: يستهزئون بك ويتقصونك، يقولون: ﴿أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: كفار قريش كآبي جهل وأشباهه ﴿إِنْ يَجْعَلُونَ كَذَبًا كَرِيمًا﴾ أي: يستهزئون بك ويتقصونك، يقولون: ﴿أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: كفار قريش كآبي جهل وأشباهه ﴿إِنْ يَجْعَلُونَ كَذَبًا كَرِيمًا﴾.

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه، ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: كفار قريش كآبي جهل وأشباهه ﴿إِنْ يَجْعَلُونَ كَذَبًا كَرِيمًا﴾ أي: يستهزئون بك ويتقصونك، يقولون: ﴿أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: كفار قريش كآبي جهل وأشباهه ﴿إِنْ يَجْعَلُونَ كَذَبًا كَرِيمًا﴾.

وقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] أي: في الأمور. قال مجاهد: خلق الله آدم بعد كل شيء من آخر النهار، من يوم خلق الخلاق، فلما أحيا الروح عينية ولسانه ورأسه، ولم يبلغ أسفله قال: يا رب، استعجل بخلقى قبل غروب الشمس. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا محمد بن علقمة بن وقاص الليثي، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة، وفيه أهبط منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها مؤمن يصلي - وقبض أصابعه قلأها - فسأل الله خيراً، إلا أعطاه إياه». قال أبو سلمة: فقال عبد الله بن سلام: قد عرفت تلك الساعة، وهي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة، وهي التي خلق الله فيها آدم، قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [٢٨] ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَجْعَلُونَ كَذَبًا كَرِيمًا﴾ [٢٩] ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَجْعَلُونَ كَذَبًا كَرِيمًا﴾ [٣٠] ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَجْعَلُونَ كَذَبًا كَرِيمًا﴾ [٣١] ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَجْعَلُونَ كَذَبًا كَرِيمًا﴾ [٣٢] ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَجْعَلُونَ كَذَبًا كَرِيمًا﴾ [٣٣] ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَجْعَلُونَ كَذَبًا كَرِيمًا﴾ [٣٤] ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَجْعَلُونَ كَذَبًا كَرِيمًا﴾ [٣٥] ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَجْعَلُونَ كَذَبًا كَرِيمًا﴾ [٣٦] ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَجْعَلُونَ كَذَبًا كَرِيمًا﴾ [٣٧] ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَجْعَلُونَ كَذَبًا كَرِيمًا﴾ [٣٨] ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَجْعَلُونَ كَذَبًا كَرِيمًا﴾ [٣٩] ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَجْعَلُونَ كَذَبًا كَرِيمًا﴾ [٤٠].

﴿وَيَقُولُ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٢٨] ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُونُونَ عَنْ وَجْهِهِمْ النَّارَ وَلَا عَنْ طُغْيَانِهِمْ وَلَا عَنْ غُرُورِهِمْ﴾ [٢٩] ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدًّا وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [٣٠].

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم، تكذيباً وجحوداً وكفراً وعناداً واستبعاداً، فقال: ﴿وَيَقُولُ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٢٨]، قال الله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُونُونَ عَنْ وَجْهِهِمْ النَّارَ وَلَا عَنْ طُغْيَانِهِمْ وَلَا عَنْ غُرُورِهِمْ﴾ [٢٩] أي: لو يتقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا، ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن

تحت أرجلهم، ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَنَجْوَاهُمْ فِيهَا﴾ [الزمر: ١٦]، ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ قَوْفِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال في هذه الآية: ﴿حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ وقال: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ يُفْشَى وَوُجُوهُهُمْ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم، ﴿وَلَا هُمْ يُصْرَفُونَ﴾ أي: لا ناصر لهم كما قال: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ رَافٍ﴾ [الرعد: ٣٤]. وقوله: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْةٌ﴾ أي: تأتيهم النار بغتة، أي: فجأة ﴿تَبْهَتُهُمْ﴾ أي: تذهرهم فيستسلمون لها حائرين، لا يدرون ما يصنعون، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي: ليس لهم حيلة في ذلك، ﴿وَلَا هُمْ يُظْرَرُونَ﴾ أي: ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة.

﴿وَلَقَدْ أَسْنَبْنَا يُرُشْلِيمَ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [١١] ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [١٢] أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [١٣].

يقول تعالى مسلماً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب: ﴿وَلَقَدْ أَسْنَبْنَا يُرُشْلِيمَ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [١١] يعني: من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَّوْا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَيْفَتِ اللَّهُ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأَمْرِيِّينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]. ثم ذكر تعالى نعمته على عبده في حفظه لهم بالليل والنهار، وكلاءته وحراسته لهم بعينه التي لا تنام، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ؟﴾ أي: بدل الرحمن بمعنى غيره كما قال الشاعر:

جَارِيَةٌ لَمْ تَلْبَسِ الْمُرْقُوقَا وَلَمْ تَذُقْ مِنَ الْبُقُولِ الْفُسْنُوقَا
أي: لم تذوق بدل البقول الفسوق. وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي: لا يعترفون بنعمة الله عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه، ثم قال: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا؟﴾ استفهام إنكار وتقرع وتوبيخ، أي: ألهم آلهة تمنعهم وتكفلهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا ولا كما زعموا؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم. وقوله: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [١٣] قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي: يجارون، وقال قتادة: لا يصحبون من الله بخير، وقال غيره: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾. يمتعون.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ نَارَ الْأَرْضِ تَنفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [١٤] ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [١٥] وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لِتَقُولُوا لِنَارِكُمْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [١٦] وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [١٧].
يقول تعالى مخبراً عن المشركين: إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال، أنهم تمتعوا في الحياة الدنيا، ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء. ثم قال واعظاً لهم: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ نَارَ الْأَرْضِ تَنفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا؟﴾، اختلف المفسرون في معناه، وقد أسلفناه في سورة الرعد، وأحسن ما فسر بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْإِكْبَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [٢٧] [الأحقاف: ٢٧].

وقال الحسن البصري: يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر. والمعنى: أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه للأمم المكذبة والقرى الظالمة، وإنجائه لعباده المؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿أَفَهُمُ الْغَافِلُونَ﴾ يعني: بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأدزلون. وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ أي: إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذركم به من العذاب والنكال، ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إلي، ولكن لا يجدي هذا عن أعمى الله بصيرته، وختم على سمعه وقلبه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾. وقوله: ﴿لَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لِتَقُولُوا لِنَارِكُمْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [١٦] أي: ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله، ليعترفن بذنوبهم، وأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدنيا. وقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي: ونضع الموازين العدل ليوم القيامة. الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه. وقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُعْذِرْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] وقال لقمان: ﴿يَبْنِيْ إِيَّاهُ إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّكُونِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]. وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن إسحاق الطالقاني، حدثنا ابن المبارك، عن ليث بن سعد، حدثني عامر بن يحيى، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مد البصر، ثم يقول أنتكر من هذا شيئاً؟ أظلمت كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب، قال: أفلك عذر، أو حسنة؟ قال: فيبته الرجل فيقول: لا، يا رب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك. فيخرج له بطاقة فيها: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله» فيقول: أحضروه، فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، قال: «فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة»، قال: «فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» قال: «ولا يثقل شيء» بسم الله الرحمن الرحيم». ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث الليث بن سعد، به، وقال الترمذي: حسن غريب. وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لُبيبة، عن عمرو بن يحيى، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل، فيوضع في كفة، فيوضع ما أحصى عليه، فتمايل به الميزان» قال: «فيعبث به إلى النار» قال: فإذا أدبر به إذا صاح من عند الرحمن ﷻ يقول: «لا تعجلوا، فإنه قد بقي له، فيؤتى ببطاقة فيها «لا إله إلا الله» فتوضع مع الرجل في كفة، حتى يعيل به الميزان».

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو نوح فراد، أنبأنا ليث بن سعد، عن مالك بن أنس، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة؛ أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، جلس بين يديه، فقال: يا رسول الله، إن لي مملوكين، يكذبونني، ويخونونني، ويعصونني، وأضر بهم وأشتهم، فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: «يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، إن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم، كان فضلاً لك عليهم، وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم، كان كفافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم، اقتص لهم منك الفضل الذي يبقى قبلك». فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: «ماله أما يقرأ كتاب الله؟» «وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَلَيْسَ بِهَا وَكَفٌّ بِنَا حَسِيرَتٍ ﴿٤٧﴾». فقال الرجل: يا رسول الله، ما أجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء - يعني عبيده - إني أشهدك أنهم أحرار كلهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضَيْكَةً وَذَكَرَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُخْفَوْنَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكُ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَمْ تَكُونُوا ﴿٥٠﴾﴾.

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهما، وبين كتابيهما؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾. قال مجاهد: يعني: الكتاب. وقال أبو صالح: التوراة، وقال قتادة: التوراة، حلالها وحرامها، وما فرق الله بين الحق والباطل. وقال ابن زيد: يعني: النصر. وجامع القول في ذلك: أن الكتب السماوية تشتمل على التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام، وعلى ما يحصل نوراً في القلوب، وهداية وخوفاً وإنابة وخشية؛ ولهذا قال: ﴿الْفُرْقَانَ وَضَيْكَةً وَذَكَرَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: تذكيراً لهم وعظة. ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾، كقوله: ﴿مَنْ خِىَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَكَلِمَةً يَنْفُسُ ثَيْبٍ ﴿١٣﴾﴾ [ق: ٣٣]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الملك: ١٧]، ﴿وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُخْفَوْنَ﴾ أي: خائفون وجلون. ثم قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكُ أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعني: القرآن العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ﴿أَفَأَنْتُمْ لَمْ تَكُونُوا﴾ أي: أفتكفرون وهو في غاية الجلاء والظهور؟

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ الصَّائِلُ إِلَيْهِ أُنْتُ لَهُمْ عَلَيْكُمُ الْبَارِئُ وَبَارِئُكُمْ فِي صَافٍ مُبِينٍ ﴿٥٢﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ اللَّعِينِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ بَلْ زَكَّرْتُ رَبِّي السَّوَابِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرْنَاهُ وَمَا عَلَا ذِكْرُكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن خليفه إبراهيم، عليه السلام، أنه أتاه رشده من قبل، أي: من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وما يذكر من الأخبار عنه في إدخال أبيه له في السرب، وهو رضيع، وأنه خرج به بعد أيام، فنظر إلى الكواكب والمخلوقات، فتبصر فيها، وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم - فعامتها

أحاديث بني إسرائيل - فما وافق منها الحق بما بأيدينا عن المعصوم قبلناه لموافقة الصحيح، وما خالف شيئاً من ذلك ردناه، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدقه ولا نكذبه، بل نجعله وقفاً، وما كان من هذا الضرب منها فقد ترخص كثير من السلف في روايتها، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه، ولا حاصل له مما يتنفع به في الدين. ولو كانت فيه فائدة تعود على المكلفين في دينهم لبيتته هذه الشريعة الكاملة الشاملة. والذي نسلكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية، لما فيه من تضییع الزمان، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم، فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة. والمقصود هنا: أن الله تعالى أخبر أنه قد أتى إبراهيم رشده من قبل، أي: من قبل ذلك، وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَلِيمِينَ﴾ أي: وكان أهلاً لذلك. ثم قال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقُوبِهِ مَا هَذِهِ التَّائِيلُ الَّتِي أَنْتَ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ (٥٧) هذا هو الرشد الذي أوتيته من صغره، الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله، فقال: ﴿مَا هَذِهِ التَّائِيلُ الَّتِي أَنْتَ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ أي: محتكفون على عبادتها. قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد الصباح، حدثنا أبو معاوية الضرير، حدثنا سعد بن طريف، عن الأصمعي بن نبانة، قال: مر علي، على قوم يلعبون بالشرطنج، فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ لا يمس صاحبكم جمرأ حتى يطفأ خير له من أن يمسها. ﴿قَالُوا وَيَدَّنا مَبَاطَنا لَهَا عَاكِفُونَ﴾ (٥٨) لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال، ولهذا قال: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالقلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم. فلما سفه أحلامهم، وضلل آباءهم، واحترق ألهمهم ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾ (٥٩) يقولون: هذا الكلام الصادر عنك تقوله لأعباً أم محققاً فيه؟ فإننا لم نسمع به قبلك. ﴿قَالَ بَلْ رَكَّبُوا رَبَّ التُّورِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ﴾ أي: ربكم الذي لا إله غيره، هو الذي خلق السموات والأرض وما حوت من المخلوقات الذي ابتدأ خلقهن، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿وَأَنَا عَلَى ذِكْرِ رَبِّ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: وأنا أشهد أنه لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ (٦٠) فجعلهم جُذْأً إِلَّا كَبِيرًا ثُمَّ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٣﴾ قَالُوا فَأَتَوْا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦٤﴾ قَالُوا أَأَتَتْكَ قُلُوبُ هَؤُلَاءِ بِآيَاتِنَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٦٥﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٦٦﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٦٧﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٦٨﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٦٩﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٧٠﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٧١﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٧٢﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٧٤﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٧٥﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٧٦﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٧٧﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٧٨﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٧٩﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٨٠﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٨١﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٨٢﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٨٣﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٨٤﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٨٥﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٨٦﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٨٧﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٨٨﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٨٩﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٩٠﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٩١﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٩٢﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٩٣﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٩٤﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٩٥﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٩٦﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٩٧﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٩٨﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿٩٩﴾ قَالُوا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ نَسُوا ﴿١٠٠﴾

ثم أقسم الخليل قسماً أسمع بعض قومه ليكيدن أصنامهم، أي: ليحرصن على أذهام وتكسيهم بعد أن يولوا مدبرين، أي: إلى عيدهم. وكان لهم عيد يخرجون إليه. قال السدي: لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه: يا بني، لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا! فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض. وقال: إني سقيم، فجعلوا يمزون عليه وهو صريع، فيقولون: مه! فيقول: إني سقيم، فلما جاز عامتهم وبقي ضعفاؤهم قال: ﴿وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ﴾ فسمعه أولئك. وقال أبو إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: لما خرج قوم إبراهيم، إلى عيدهم مروا عليه فقالوا: يا إبراهيم ألا تخرج معنا؟ قال: إني سقيم. وقد كان بالأمس قال: ﴿وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ (٦٠) فسمعه ناس منهم. وقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذْأً﴾ أي: حطاماً كسرهما كلها ﴿إِلَّا كَبِيرًا ثُمَّ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ يعني: إلا الصنم الكبير عندهم كما قال: ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ سُرَّةً بِالْيَمِينِ﴾ (٦١) [الصافات: ٩٣]. وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾: ذكروا أنه وضع القدم في يد كبيرهم، لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار، فكسرها. ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾ وعلى سخافة عقول عابديها ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٦٢) أي: في صنيعه هذا ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦٣) أي: قال من سمعه يحلف أنه ليكيدنهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى﴾ أي: شاباً ﴿يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا جرير بن عبد الحميد، عن قابوس عن أبيه، عن ابن عباس قال: ما بعث الله نبياً إلا شاباً، ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب، وتلا هذه الآية: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦٣). وقوله: ﴿قَالُوا فَأَتَوْا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أي: على رؤوس الأشهاد في الملأ الأكبر بحضرة الناس كلهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم أن يبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضرراً ولا تملك لها نصراً، فكيف يطلب منها شيء من ذلك؟ ﴿قَالُوا أَأَتَتْكَ قُلُوبُ هَؤُلَاءِ بِآيَاتِنَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٦٤) قال بل فكلهم كبرهم هذا، يعني: الذي تركه لم يكسره ﴿فَتَتَلَوْنَهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظُرُونَ﴾ (٦٥) وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم، فيعترفوا أنهم لا ينطقون، فإن هذا لا يصدر عن هذا الصنم؛ لأنه جماد.

وفي الصحيحين من حديث هشام بن حسان عن محمد بن سيزين، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم عليه السلام، لم يكذب غير ثلاث: ثنتين في ذات الله، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، قال: «وبينا هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة، إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار رجل، فقال: إنه قد نزل بأرضك رجل معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاء، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: هي أختي. قال: فاذهب فأرسل بها إلي، فانطلق إلى سارة فقال: إن هذا الجبار سألتني عنك فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، وأنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي. فلما أن دخلت عليه فرأها أهوى إليها، فتناولها، فأخذ أخذاً شديداً، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت له فأرسل، فأهوى إليها فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد. ففعل ذلك الثالثة فأخذ، فذكر مثل المرتين الأولين، فقال: ادعي الله فلا أضرك. فدعت له فأرسل، ثم دعا أدنى حجاب، فقال: إنك لم تأتني بإنسان، وإنما أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر، فأخرجت وأعطيت هاجر، فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته، قال: مَهَيْم؟ قالت: كفى الله كيد الكافر الفاجر، وأخذمني هاجر» قال محمد بن سيرين: وكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال: فذلك أمكم يا بني ماء السماء.

﴿فَرَجَعُوا إِلَيْهِمْ فَعَلُوا أَتْيَهُمْ أَنْتُمْ أَظْلَمُونَ﴾ ٦٦ ثُمَّ يُكْسِرُ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْفِقُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴿٦٨﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْتُمْ أَتْيَهُمْ أَنْتُمْ أَظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ثُمَّ يُكْسِرُ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْفِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴿٧١﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْتُمْ أَتْيَهُمْ أَنْتُمْ أَظْلَمُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ يُكْسِرُ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْفِقُونَ ﴿٧٣﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴿٧٤﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْتُمْ أَتْيَهُمْ أَنْتُمْ أَظْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ثُمَّ يُكْسِرُ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْفِقُونَ ﴿٧٦﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴿٧٧﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْتُمْ أَتْيَهُمْ أَنْتُمْ أَظْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ثُمَّ يُكْسِرُ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْفِقُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴿٨٠﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْتُمْ أَتْيَهُمْ أَنْتُمْ أَظْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ يُكْسِرُ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْفِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴿٨٣﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْتُمْ أَتْيَهُمْ أَنْتُمْ أَظْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ يُكْسِرُ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْفِقُونَ ﴿٨٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴿٨٦﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْتُمْ أَتْيَهُمْ أَنْتُمْ أَظْلَمُونَ ﴿٨٧﴾ ثُمَّ يُكْسِرُ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْفِقُونَ ﴿٨٨﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴿٨٩﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْتُمْ أَتْيَهُمْ أَنْتُمْ أَظْلَمُونَ ﴿٩٠﴾ ثُمَّ يُكْسِرُ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْفِقُونَ ﴿٩١﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴿٩٢﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْتُمْ أَتْيَهُمْ أَنْتُمْ أَظْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ثُمَّ يُكْسِرُ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْفِقُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴿٩٥﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْتُمْ أَتْيَهُمْ أَنْتُمْ أَظْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ثُمَّ يُكْسِرُ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْفِقُونَ ﴿٩٧﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْتُمْ أَتْيَهُمْ أَنْتُمْ أَظْلَمُونَ ﴿٩٩﴾ ثُمَّ يُكْسِرُ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْفِقُونَ ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال: ﴿فَرَجَعُوا إِلَيْهِمْ فَعَلُوا أَتْيَهُمْ أَنْتُمْ أَظْلَمُونَ﴾ أي: بالملامة في عدم احترازهم وحرصاتهم لألهمتهم، فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمْ أَظْلَمُونَ﴾ أي: في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها، ﴿ثُمَّ يُكْسِرُ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: ثم أطرقوا في الأرض فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْفِقُونَ﴾ قال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْفِقُونَ﴾. وقال السدي: ﴿ثُمَّ يُكْسِرُ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: في الفتنة. وقال ابن زيد: أي في الرأي. وقول قتادة أظهر في المعنى؛ لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزاً؛ ولهذا قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْفِقُونَ﴾، فكيف تقول لنا: سلوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطق، فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ أي: إذا كانت لا تنطق، وهي لا تضر ولا تنفع، فلم تعبدونها من دون الله ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْتُمْ أَتْيَهُمْ أَنْتُمْ أَظْلَمُونَ﴾ أي: أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ، الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر؟ فأقام عليهم

الحجة، وألزمهم بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ حُجَّتًا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]. ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ٦٦ قُلْنَا يَبْنَؤُا كُونِي بَرَا وَسَلَّمَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٧﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٦٨﴾

لما دحضت حجتهم، وبان عجزهم، وظهر الحق، واندفع الباطل، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾. فجمعوا خطباً كثيراً جداً. قال السدي: حتى إن كانت المرأة تمرض، فتنذر إن عوفيت أن تحمل خطباً لحريق إبراهيم - ثم جعلوه في جوبة من الأرض، وأضرموها ناراً، فكان لها شر عظيم ولهب مرتفع، لم توقد قط نار مثلها، وجعلوا إبراهيم، عليه السلام، في كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد - قال شُعَيْب الجبائي: اسمه هيزن - فحسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، فلما ألقوه قال: «حسبي الله ونعم الوكيل»، كما رواه البخاري، عن ابن عباس أنه قال: «حسبي الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم حين ألقى في النار، وقالها محمد حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكَ فَاغْلِبْهُمْ فَرَادَةً﴾ ٦٨ ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا ابن هشام، حدثنا إسحاق بن سليمان، عن أبي جعفر، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما ألقى إبراهيم عليه السلام في النار قال: اللهم إنك في السماء واحد، وأنا في الأرض واحد أعبدك». ويروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال: لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد، ولك الملك، لا شريك لك. وقال شعيب الجبائي: كان عمره ست عشرة سنة. فإله أعلم. وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو في الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما من الله فبلى. وقال سعيد بن جبيرة - ويروى عن ابن عباس أيضاً - قال: لما ألقى إبراهيم جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله؟ قال: فكان أمر الله أسرع من أمره، قال الله ﷻ: ﴿يَبْنَؤُا كُونِي بَرَا وَسَلَّمَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال: لم يبق نار في الأرض إلا لطفنت. وقال كعب الأحبار: لم ينتفع أحد يومئذ بنار، ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه. وقال الثوري، عن الأعمش، عن شيخ، عن علي بن أبي طالب: ﴿قُلْنَا يَبْنَؤُا كُونِي بَرَا وَسَلَّمَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ٦٨

قال: بَرَدَتْ عَلَيْهِ حتى كادت تقتله، حتى قيل: ﴿وَسَلَّمَا﴾، قال: لا تضربه. وقال ابن عباس: وأبو العالية: لولا أن الله ﷻ قال: ﴿وَسَلَّمَا﴾ لأدَّى إبراهيم بَرْدَهَا. وقال جُوَيْر، عن الضحاك: ﴿كُوفِي بَرْدًا وَسَلَّمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال: صنعوا له حظيرة من خُطْب جَزَل، وأشعلوا فيه النار من كل جانب، فأصبح ولم يصبه منها شيء حتى أخمدها الله. قال: ويدكرون أن جبريل كان معه يمسح وجهه من العرق، فلم يُصِبْهُ منها شيء غير ذلك. وقال السدي: كان معه فيها ملك الظل. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا مِهْرَان، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن المِهْثَال بن عمرو قال: أخبرني أن إبراهيم أُلْقِيَ في النار، فقال: كان فيها إما خمسين وإما أربعين، قال: ما كنت أياماً وليالي قط أطيّب عيشاً إذ كنت فيها، وددت أن عيشي وحياتي كلها مثل عيشي إذ كنت فيها. وقال أبو زُرْعَةَ بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة قال: إن أحسن شيء قال أبو إبراهيم - لما رفع عنه الطبق وهو في النار، وجده يرشح جبينه - قال عند ذلك: نَعَمْ الرَّبُّ ربك يا إبراهيم. وقال قتادة: لم يأت يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار، إلا الْوَزْغُ. وقال الزهري: أمر النبي ﷺ بقتله وسماه فويسقاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثني عمي، حدثنا جرير بن حازم، أن نافعاً حدثه قال: حدثني مولاة الفاكه بن المغيرة المخزومي قالت: دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحاً. فقلت: يا أم المؤمنين، ما تصنعين بهذا الرمح؟ فقالت: نقتل به هذه الأوزاغ، إن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حين أُلْقِيَ في النار، لم يكن في الأرض دابة إلا تطفئ النار، غير الْوَزْغ، فإنه كان ينفخ على إبراهيم»، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله.

وقوله: ﴿وَأَرَادُوا بِوَيْدٍ كَيْدًا فَفَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ﴾ (٧١) أي: المغلوبين الأسفلين؛ لأنهم أرادوا بني الله كيداً، فكادهم الله ونجاه من النار، فغلبوا هنالك. وقال عطية العوفي: لما أُلْقِيَ إبراهيم في النار، جاء ملكهم لينظر إليه فطارت شرارة فوقعت على إبهامه، فأحرقته مثل الصوفة.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (٧٢) وَوَعَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَلَا جَمْعًا صَلَاحِينَ (٧٣) وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَةً ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ﴾ (٧٤) وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَرَيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْكَتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥).

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم، أنه سلمه الله من نار قومه، وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام، إلى الأرض المقدسة منها، كما قال الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب في قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ قال: الشام، وما من ماء عذب إلا يخرج من تحت الصخرة. وكذا قال أبو العالية أيضاً. وقال قتادة: كانا بأرض العراق، فأنجيا إلى الشام، وكان يقال للشام: عماد دار الهجرة، وما نقص من الأرض زيد في الشام وما نقص في الشام زيد في فلسطين. وكان يقال: هي أرض المحشر والمنشر، وبها ينزل عيسى ابن مريم، عليه السلام، وبها يهلك المسيح الدجال. وقال كعب الأحبار في قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾: إلى حران. وقال السدي: انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام، فلقي إبراهيم سارة، وهي ابنة ملك حران، وقد طعنت على قومها في دينهم، فتزوجها على ألا يغيرها. رواه ابن جرير، وهو غريب. والمشهور أنها ابنة عمه، وأنه خرج بها مهاجراً من بلاده. وقال العوفي، عن ابن عباس: إلى مكة؛ ألا تسمع قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩١) [آل عمران: ٩٦].

وقوله: ﴿وَوَعَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قال عطاء، ومجاهد: عطية. وقال ابن عباس، وقاتدة، والحكم بن عتيبة: النافلة ولد الولد، يعني: أن يعقوب ولد إسحاق، كما قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَكَلٍ وَإِسْحَاقَ يَتَعَقِبُ﴾ [مرد: ٧١]. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: سأل واحداً فقال: ﴿زَيْدٌ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ (١٥٠) [الصفات: ١٠٠]، فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة. ﴿وَكَلَّا جَمْعًا صَلَاحِينَ﴾ أي: الجميع أهل خير وصلاح، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَةً﴾ أي: يقتدى بهم، ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يدعون إلى الله بإذنه؛ ولهذا قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ من باب عطف الخاص على العام، ﴿وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ﴾ أي: فاعلين لما يأمرون الناس به.

ثم عطف بذكر لوط - وهو لوط بن هاران بن آزر - كان قد آمن بإبراهيم، واتبعه، وهاجر معه، كما قال تعالى: ﴿فَتَمَنَّيْ لَوْ لَوْ قَالَ إِنِّي مِن هَاجِرٍ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [النكبت: ٢٦]، فاتاه الله حكماً وعلماً، وأوحى إليه، وجعله نبياً، وبعثه إلى سُدُوم وأعمالها، فخالقوه وكذبوه، فاهلكهم الله ودمر عليهم، كما قص خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز؛ ولهذا قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَرَيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْكَتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥).

﴿وَمَا إِذْ كَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح، عليه السلام، حين دعا على قومه لما كذبوه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿٧٦﴾﴾ [القم: ١٠]، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٧٦﴾﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُبْسِلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِجَارًا كَفَّارًا ﴿٧٧﴾﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ كَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي: الذين آمنوا به كما قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]. قوله: ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي: من الشدة والتكذيب والأذى، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله ﷻ، فلم يؤمن به منهم إلا القليل، وكانوا يقصدون لأذاه، ويتواصلون قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل على خلافه. وقوله: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ أي: ونجيناه وخلصناه منتصراً من القوم ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: أهلكهم الله بعمامة، ولم يبقِ على وجه الأرض منهم أحداً؛ إذ دعا عليهم نبيهم.

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْغَرِيِّ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكَانَ لِحُكْمِهِمْ شَاهِدٌ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمَا بَيْنَهُمَا حُكْمًا وَعَلَّمَا سَخِرَانَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكَانَ غُلَامًا مُّذْنَبًا ﴿٧٩﴾ وَكَانَتْ صُنُفٌ لَّهُمْ لَوْ لَمْ يَلْحَقْنِيكَ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي أَمْرَهُ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكَانَ كَيْدُ شَيْءٍ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُّونَ لَمْ يَغْمُزْ لَكَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكَانَ لَهُمْ حَقِيقَتٌ ﴿٨٢﴾﴾.

قال أبو إسحاق، عن مرة، عن ابن مسعود: كان ذلك الحرث كرمًا قد تَبَثَّ عناقيده. وكذا قال شريح. قال ابن عباس: الثَّفَشُ: الرعي. وقال شريح، والزهرى، وقتادة: الثَّفَشُ بالليل. زاد قتادة: والهمْلُ بالنهار. قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ وهارون بن إدريس الأصم قال: حدثنا المحاربي، عن أشعث، عن أبي إسحاق، عن مرة، عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْغَرِيِّ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ قال: كرم قد أنبت عناقيده، فأفسدته. قال: فقاضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله! قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾. وهكذا روى العوفي، عن ابن عباس. وقال حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، حدثنا خليفة، عن ابن عباس قال: فحكم داود بالغنم لأصحاب الحرث، فخرج الرعاء معهم الكلاب، فقال لهم سليمان: كيف قضى بينكم؟ فأخبروه، فقال: لو وليت أمركم لقضيت بغير هذا! فأخبر بذلك داود، فدعاه فقال: كيف تقضي بينهم؟ قال: أدفع الغنم إلى صاحب الحرث، فيكون له أولادها وألبانها وسلاؤها ومنافعها ويؤثر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم، فإذا بلغ الحرث الذي كان عليه أخذ أصحاب الحرث الحرث وردوا الغنم إلى أصحابها.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا خُذَيْج، عن أبي إسحاق، عن مرة، عن مسروق قال: الحرث الذي نفشت فيه الغنم إنما كان كرمًا نفشت فيه الغنم، فلم تدع فيه ورقة ولا عنقوداً من عنب إلا أكلته، فأتوا داود، فأعطاهم رقابها، فقال سليمان: لا، بل تؤخذ الغنم فيعطاهم أهل الكرم، فيكون لهم لبنها ونفعها، ويعطى أهل الغنم الكرم فيصلحوه ويعمروه حتى يعود كالذي كان ليلة نفشت فيه الغنم، ثم يعطى أهل الغنم غنمهم، وأهل الكرم كرمهم. وهكذا قال شريح، ومرة، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد وغير واحد.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن أبي زياد، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا إسماعيل، عن عامر، قال: جاء رجلان إلى شريح، فقال أحدهما: إن شاة هذا قطعت غزلاً لي، فقال شريح: نهاراً أم ليلاً؟ فإن كان نهاراً فقد برىء صاحب الشاة، وإن كان ليلاً ضامن، ثم قرأ: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْغَرِيِّ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ﴾ الآية. وهذا الذي قاله شريح شبيه بما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، من حديث الليث بن سعد، عن الزهرى، عن حزام بن مُخَصَّصَة؛ أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطاً، فأفسدت فيه، فقاضى رسول الله ﷺ على أهل الحوائط حفظها بالنهار، وما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها. وقد غُلِّلَ هذا الحديث، وقد بسطنا الكلام عليه في كتاب «الأحكام» وبالله التوفيق.

وقوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمَا بَيْنَهُمَا حُكْمًا وَعَلَّمَا﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن حميد؛ أن إياس بن معاوية لما استقضى آتاه الحسن فبكى، قال: ما يبكيك؟ قال: يا أبا سعيد، بلغني أن القضاة:

رجل اجتهد فأخطأ، فهو في النار، ورجل مال به الهوى فهو في النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة. فقال الحسن البصري: إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان، عليهما السلام، والأنبياء حكماً يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم، قال الله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي مِحْكَانٍ لَّذُنْفَرْتَنَ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾، فأنسى الله على سليمان ولم يذم داود. ثم قال - يعني: الحسن -: إن الله اتخذ على الحكماء ثلاثاً: لا يشتركون به ثمناً قليلاً، ولا يتبعون فيه الهوى، ولا يخشون فيه أحداً، ثم تلا: ﴿يَتَذَكَّرُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ النَّاسِ لَفَظٍ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٧٦] وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْا الْكَاسَ وَآخُسُورَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿وَلَا تَشْرَبُوا بِقَاتِنِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة: ٤٤].

قلت: أما الأنبياء، عليهم السلام، فكلهم معصومون مؤيدون من الله ﷻ. وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف، وأما من سواهم فقد ثبت في صحيح البخاري، عن عمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»، فهذا الحديث يرد نصاً ما توهمه «إياس» من أن القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار، والله أعلم. وفي السنن: «القضاة ثلاثة: قاض في الجنة، وقاضيان في النار؛ رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه، فهو في النار. وقريب من هذه القصة المذكورة في القرآن ما رواه الإمام أحمد في مسنده، حيث قال: حدثنا علي بن خنص، أخبرنا وزّقاء عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابنان لهما، جاء الذئب فأخذ أحد الابنين، فتحاكما إلى داود، ففضى به للكبرى، فخرجتا. فدعاها سليمان فقال: هاتوا السكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها، لا تشقه، ففضى به للصغرى». وأخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما وبوّب عليه النسائي في كتاب القضاء: (باب الحاكم يوم خلاف الحكم ليستعلم الحق).

وهكذا القصة التي أوردها الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في ترجمة «سليمان عليه السلام» من تاريخه، من طريق الحسن بن سفيان، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس - فذكر قصة مطولة ملخصها -: أن امرأة حسنة في زمان بني إسرائيل، راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم، فامتنعت على كل منهم، فاتفقوا فيما بينهم عليها، فشهدوا عليها عند داود، عليه السلام، أنها مكنت من نفسها كلباً لها، قد عودته ذلك منها، فأمر برجمها. فلما كان عشية ذلك اليوم، جلس سليمان، واجتمع معه ولدان، مثله، فانتصب حاكماً وتزيا أربعة منهم بزي أولئك، وآخر بزي المرأة، وشهدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كلباً، فقال سليمان: فرقوا بينهم. فقال لأولهم: ما كان لون الكلب؟ فقال: أسود. فعزله، واستدعى الآخر فسأله عن لونه، فقال: أحمر. وقال الآخر: أغبش. وقال الآخر: أبيض. فأمر بقتلهم، فحكى ذلك لداود، فاستدعى من فوره بأولئك الأربعة، فسألهم متفرقين عن لون ذلك الكلب، فاختلّفوا عليه، فأمر بقتلهم. وقوله: ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَاللَّيْلُ وَكُنَّا مُنْظِرِينَ﴾: وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا ترنّم به تقف الطير في الهواء، فتجاوبه، وترد عليه الجبال تأويهاً؛ ولهذا لما مرّ النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري، وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب جداً، فوقف واستمع لقراءته، وقال: «لقد أوتي هذا من مزامير آل داود». قال: يا رسول الله، لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً. وقال أبو عثمان النهدي: ما سمعت صوت صَنْجٍ ولا بربط ولا مزمار مثل صوت أبي موسى، رضي الله عنه، ومع هذا قال: لقد أوتي مزاميراً من مزامير آل داود.

وقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤٍ لَّكَمٍ لِتُحْصِيَنَّهُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ يعني صنعة الدروع. قال قتادة: إنما كانت الدروع قبله صفائح، وهو أول من سردها حلقاً. كما قال تعالى: ﴿لَهُ الْمُدِيدُ أَنْ أَتَمَّلَ سَيْفَتَيْ وَفَدَّرَ فِي السَّرِّ﴾ [سبأ: ١٠، ١١] أي: لا توسع الحلقة فتقلق المسمار، ولا تغلظ المسمار فتقذّ الحلقة؛ ولهذا قال: ﴿لِتُحْصِيَنَّهُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ يعني: في القتال، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ أي: نعم الله عليكم، لما ألهم به عبده داود، فعلمه ذلك من أجله. وقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أي: وسخرنا لسليمان الريح العاصفة، ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا﴾ يعني أرض الشام، ﴿وَكُنَّا يَكْفِي عَنْ عِبَادِهِ﴾. وذلك أنه كان له بساط من خشب، يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة، والخيول والجمال والخيام والجند، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته، ثم تحمله فترفعه وتسير به، وتظله الطير من الحر، إلى حيث يشاء من الأرض، فينزل وتوضع آلاته وخشبه، قال الله تعالى: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُكَّاءَ حَيْثُ أَسَآبَ﴾ [ص: ٣٦]، وقال: ﴿عُدُوهُمْ سَهَرٌ وَوَلَّاهُمَا سَهَرٌ﴾ [سبأ: ١٧]. قال ابن أبي حاتم: ذكر عن سفيان بن عيينة، عن أبي سنان، عن سعيد بن جبيرة قال: كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي، فيجلس مما يليه مؤمنو الإنسان، ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن، ثم يأمر الطير فتظلمهم، ثم يأمر الريح فتحمله ﷻ. وقال عبد الله بن

عُبَيْد بن عمير: كان سليمان يأمر الريح، فتجتمع كالطُود العظيم، كالجيل، ثم يأمر بفراشه فيوضع على أعلى مكان منها، ثم يدعو بفُرس من ذوات الأجنحة، فترتفع حتى تصعد على فراشه، ثم يأمر الريح فترتفع به كل شَرْف دون السماء، وهو مطأطء رأسه، ما يلتفت يمينا ولا شمالاً، تعظيماً لله ﷻ وشكراً لما يعلم من صغره ما هو فيه في ملك الله تعالى حتى تضعه الريح حيث شاء أن تضعه.

وقوله: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يُوْصَوْنَ لَهُ أَي: في الماء يستخرجون اللآلئ وغير ذلك. ﴿وَيَسْمَلُونَ عَلَا دُونَ ذَلِكَ أَي: غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلٌّ بَنَاءُ وَعَوَاسٍ ﴿وَالْآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٢٨﴾﴾ (ص: ٣٧، ٢٨). وقوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِيَيْنَ﴾ أي: يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء، بل كل في قبضته وتحت قهره لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه، بل هو مُحْكَم فيهم، إن شاء أطلق، وإن شاء حبس منهم من يشاء؛ ولهذا قال: ﴿وَالْآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٢٨﴾﴾. ﴿وَأَنْذِرْ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَلَيْسَ لِي بِمَقَرٍّ أَفْشَرُ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا يَوْمُهُ مِنَ الضَّرِّ وَكَانَتْهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَثَلُهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَمِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ لِلْعَمِيدِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

يذكر تعالى عن أيوب، عليه السلام، ما كان أصابه من البلاء، في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير، وأولاد كثيرة، ومنازل مرضية. فابتلي في ذلك كله، وذهب عن آخره، ثم ابتلي في جسده - يقال: بالجذام - في سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر بهما الله ﷻ حتى عافه الجليس، وأقرذ في ناحية من البلد، ولم يبق من الناس أحد يحنو عليه سوى زوجته، كانت تقوم بأمره، ويقال: إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله، وقد قال النبي ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل» وفي الحديث الآخر: «يتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه». وقد كان نبي الله أيوب، عليه السلام، غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك. وقال يزيد بن ميسرة: لما ابتلى الله أيوب، عليه السلام، بذهاب الأهل والمال والولد، ولم يبق له شيء، أحسن الذكر، ثم قال: أحمدك رب الأرباب، الذي أحسنت إلي، أعطيتني المال والولد، فلم يبق من قلبي شعبة، إلا قد دخله ذلك، فأخذت ذلك كله مني، وفرغت قلبي، ليس يحول بيني وبينك شيء، لو يعلم عدوي إبليس بالذي صنعت، حسدني. قال: فلقى إبليس من ذلك منكراً. قال: وقال أيوب، عليه السلام: يا رب، إنك أعطيتني المال والولد، فلم يبق علي بابي أحد يشكوني لظلم ظلماته، وأنت تعلم ذلك. وأنه كان يوطأ لي الفراش فأتركها وأقول لنفسي: يا نفس، إنك لم تخلقي لوطه القرش، ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك. رواه ابن أبي حاتم. وقد ذكر عن وهب بن منبه في خبره قصة طويلة، ساقها ابن جرير وابن أبي حاتم بالسند عنه، وذكرها غير واحد من متأخري المفسرين، وفيها غرابة تركناها لحال الطول.

وقد روي أنه مكث في البلاء مدة طويلة، ثم اختلفوا في السبب المهيج له على هذا الدعاء، فقال الحسن وقتادة: ابتلى أيوب، عليه السلام، سبع سنين وأشهرًا، ملقى على كُتاسة بني إسرائيل، تختلف الدواب في جسده ففرج الله عنه، وعظم له الأجر، وأحسن عليه الثناء. وقال وهب بن منبه: مكث في البلاء ثلاث سنين، لا يزيد ولا ينقص.

وقال السدي: تساقط لحم أيوب حتى لم يبق إلا العصب والعظام، فكانت امرأته تقوم عليه وتأتيه بالزاد يكون فيه، فقالت له امرأته لما طال وجعه: يا أيوب، لو دعوت ربك يفرج عنك؟ فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحاً، فهل قليل الله أن أصبر له سبعين سنة؟ ففرجت من ذلك فخرجت، فكانت تعمل للناس بأجر وتأتيه بما تصيب فتطعمه، وإن إبليس انطلق إلى رجلين من فلسطين كانا صديقين له وآخرين، فأتاهما فقال: أخوكما أيوب أصابه من البلاء كذا وكذا، فأتياه وزوراه واحملا معكما من خمر أَرْضِكُما، فإنه إن شرب منه بَرَأ. فأتياه، فلما نظرا إليه بكيا، فقال: من أنتم؟ فقالا: نحن فلان وفلان! فرحب بهما وقال: مرحباً بمن لا يحفوني عند البلاء، فقالا: يا أيوب، لعلك كنت تُسر شيئاً وتظهر غيره، فلذلك ابتلاك الله؟ فرفع رأسه إلى السماء ثم قال: هو يعلم، ما أسرت شيئاً أظهرت غيره. ولكن ربي ابتلاني لينظر أم أصبر أم أجزع، فقالا له: يا أيوب، اشرب من خمرنا فإنك إن شربت منه بَرَأْتَ. قال: ففضب وقال: جاءكما الخبيث فأمركما بهذا؟ كلامكما وطعامكما وشرابكما عليّ حرام. فقاما من عنده، وخرجت امرأته تعمل للناس فخبزت لأهل بيت لهم صبي، فجعلت لهم قرصاً، وكان ابنهم نائماً، فكروهوا أن يوقظوه، فوهبهوا لها. فأتت به إلى أيوب، فأنكره وقال: ما كنت تأتيني بهذا، فما بالك اليوم؟ فأخبرته الخبر. قال: فلعل الصبي قد استيقظ، فطلب القرص فلم يجده فهو يبكي على أهله. فانطلق به إليه. فأقبلت حتى بلغت درجة القوم، فنطحها شاة لهم، فقالت: تمس أيوب الخطاء! فلما صعدت وجدت الصبي قد استيقظ وهو يطلب القرص، ويبكي على أهله، لا يقلب منهم شيئاً غيره، فقالت: رحم الله أيوب. فدفعت القرص إليه ورجعت. ثم إن إبليس أتاه في صورة طبيب، فقال لها: إن زوجك قد

طال سُقمه، فإن أراد أن ييرا فليأخذ ذباباً فليذبحه باسم صنم بني فلان فإنه ييرا ويتوب بعد ذلك. فقالت ذلك لأيوب، فقال: قد أتاك الخبيث. الله علي إن برأت أن أجلك مائة جلد. فخرجت تسعى عليه، فحظر عنها الرزق، فجعلت لا تأتي أهل بيت فيريدونها، فلما اشتد عليها ذاك وخافت على أيوب الجوع حلفت من شعرها قرناً فباعته من صبية من بنات الأشراف، فأعطوها طعاماً كثيراً فأتت به أيوب، فلما رآه أنكره وقال: من أين لك هذا؟ قالت: عملت لأناس فاطعموني. فأكل منه، فلما كان الغد خرجت فطلبت أن تعمل فلم تجد فحلقت أيضاً قرناً فباعته من تلك الجارية، فأعطوها من ذلك الطعام، فأتت به أيوب، فقال: والله لا أطعمه حتى أعلم من أين هو؟ فوضعت خمارها، فلما رأى رأسها محلوفاً جزع جزعاً شديداً، فعند ذلك دعا ربه ﷻ: ﴿إِنِّي مَسْنِي الْعُرْ وَانْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، حدثنا أبو عمران الجوني، عن نَوْف البَكالي؛ أن الشيطان الذي عرج في أيوب كان يقال له: «سوط»، قال: وكانت امرأة أيوب تقول: «ادع الله فيشفيك»، فجعل لا يدعو، حتى مر به نفر من بني إسرائيل، فقال بعضهم لبعض: ما أصابه ما أصابه إلا بذنوب عظيم أصابه، فعند ذلك قال: «ربي إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين». وحدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا جرير بن حازم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: كان لأيوب، عليه السلام، أخوان فجاء يوماً، فلم يستطيعا أن يدنوا منه، من ريحه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما للآخر: لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا؟ فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع من شيء قط، فقال: اللهم، إن كنت تعلم أنني لم أبت ليلة قط شبهان وأنا أعلم مكان جانح، فصدقني. فصدق من السماء وهما يسمعان. ثم قال: اللهم، إن كنت تعلم أنني لم يكن لي قميصان قط، وأنا أعلم مكان عار، فصدقني. فصدق من السماء وهما يسمعان. اللهم بعزتك، ثم خر ساجداً، ثم قال: اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبداً حتى تكشف عني. فما رفع رأسه حتى كشف عنه. وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر مرفوعاً بنحو هذا فقال: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب أخبرني نافع بن يزيد، عن عُقَيْل، عن الزهري، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانين عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه، كانا من أخص إخوانه، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تَعْلَمُ - والله - لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين. فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمانين عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به. فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب، عليه السلام: لا أدري ما تقول، غير أن الله ﷻ يعلم أنني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي فأكثر عنهما، كراهة أن يذكر الله ﷻ إلا في حق. قال: وكان يخرج في حاجته، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه، فأوحى إلى أيوب في مكانه: أن اركض برجلك، هذا مغتسل بارد وشراب». رفع هذا الحديث غريب جداً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أخبرنا علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، قال: وألبسه الله حلة من الجنة، فتحنى أيوب فجلس في ناحية، وجاءت امرأته، فلم تعرفه، فقالت: يا عبد الله، أين ذهب المبتلى الذي كان هاهنا؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب، فجعلت تكلمه ساعة، فقال: ويحك! أنا أيوب! قالت: أتسخر مني يا عبد الله؟ فقال: ويحك! أنا أيوب، قد ردَّ الله علي جسدي. وبه قال ابن عباس: ورد عليه ماله وولده عياناً، ومثلهم معهم. وقال وهب بن منبه: أوحى الله إلى أيوب: قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم، فاغتسل بهذا الماء، فإن فيه شفاك، وقرب عن صاحبك قرباناً، واستغفر لهم، فإنهم قد عصوني فيك. رواه ابن أبي حاتم. وقال أيضاً: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا همام، عن قتادة، عن النضر بن أنس، عن بشير بن نُهَيْك، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لما عافى الله أيوب، أمطر عليه جراداً من ذهب، فجعل يأخذ بيده ويجعله في ثوبه». قال: «فقيل له: يا أيوب، أما تشيع؟ قال: يا رب، ومن يشيع من رحمتك». أصله في الصحيحين، وسيأتي في موضع آخر.

وقوله: ﴿وَأَكْبَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُ مِثْمَهُ﴾: قد تقدم عن ابن عباس أنه قال: ردوا عليه بأعينهم. وكذا رواه العوفي، عن ابن عباس أيضاً. وروي مثله عن ابن مسعود ومجاهد، وبه قال الحسن وقاتدة. وقد زعم بعضهم أن اسم زوجته رحمة، فإن كان أخذ ذلك من سياق الآية فقد أبعد التَّجَعُّف، وإن كان أخذه من نقل أهل الكتاب، وصح ذلك عنهم، فهو مما لا يصدق ولا يكذب. وقد سماها ابن عساكر في تاريخه - رحمه الله تعالى - قال: ويقال: اسمها ليا ابنة مِثْثَا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، قال: ويقال: ليا بنت يعقوب، عليه السلام، زوجة أيوب كانت معه بأرض البَّتَيْتَةِ. وقال مجاهد: قيل له: يا أيوب، إن أهلك لك في الجنة، فإن شئت أتيناك بهم، وإن شئت تركناهم لك في الجنة، وعوضناك مثلهم. قال: لا بل

اتركهم لي في الجنة. فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيا. وقال حماد بن زيد، عن أبي عمران الجوني، عن نواف البجلي قال: أوتي أجرهم في الآخرة، وأعطى مثلهم في الدنيا. قال: فحدثت به مطرفاً، فقال: ما عرفت وجهها قبل اليوم. وهكذا روي عن قتادة، والسدي، وغير واحد من السلف، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَنَحْنُ بَيْنَ يَدَيْكَ أَي: فعلنا به ذلك رحمة من الله به، ﴿وَوَكَّرْنَا لِّلْمُتَّيِّدِينَ﴾ أي: وجعلناه في ذلك قدوة، لئلا يظن أهل البلاء إنما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا، وليتأسوا به في الصبر على مقدرات الله وابتلائه لعباده بما يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك.

﴿وَلَنَسْجِدَ لِإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كَذِّبَ بَيْنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدَّخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

أما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وقد تقدم ذكره في سورة مريم، وكذلك إدريس، عليه السلام. وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي. وقال آخرون: إنما كان رجلاً صالحاً، وكان ملكاً عادلاً، وحكماً مقسطاً، وتوقف ابن جرير في ذلك، فانه أعلم. وقال ابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ قال: رجل صالح غير نبي، تكفل لبني قومه أن يكفيه أمر قومه وقيمهم له ويقضي بينهم بالعدل، ففعل ذلك، قُسمي: ذا الكفل، وكذا روى ابن أبي نجیح، عن مجاهد أيضاً. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عفان، حدثنا وُقيب، حدثنا داود، عن مجاهد قال: لما كبر اليسع قال: لو أني استخلفت رجلاً على الناس يعمل عليهم في حياتي، حتى أنظر كيف يعمل؟ فجمع الناس، فقال: من يتقبل مني بثلاث: أستخلفه يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب. قال: فقام رجل تزدريه العين، فقال: أنا. فقال: أنت تصوم النهار، وتقوم الليل، ولا تغضب؟ قال: نعم، قال: فردهم ذلك اليوم، وقال مثلها في اليوم الآخر، فسكت الناس، وقام ذلك الرجل وقال: أنا. فاستخلفه، قال: وجعل إبليس يقول للشياطين: عليكم بفلان. فأعياهم ذلك، قال: دعوني وإياه، فأتاه في صورة شيخ كبير فقير، فأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة. وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النومة. فدخل الباب، فقال: من هذا؟ قال: شيخ كبير مظلوم. قال: فقام ففتح الباب، فجعل يقص عليه، فقال: إن بيني وبين قومي خصومة، وإنهم ظلموني، وفعلوا بي وفعلوا. وجعل يطول عليه حتى حصر الرواح وذهبت القائلة، فقال: إذا رحت فأنتي أخذ لك بحقك. فانطلق، وراح. فكان في مجلسه، فجعل ينظر هل يرى الشيخ؟ فلم يره، فقام يتبعه، فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس، وينتظره ولا يراه، فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه، أتاه فدخل الباب، فقال: من هذا؟ قال: الشيخ الكبير المظلوم. ففتح له فقال: ألم أقل لك إذا قعدت فأنتي؟ قال: إنهم أخبث قوم، إذا عرفوا أنك قاعد قالوا: نحن نعطيك حقك. وإذا قمت جحدوني. قال: فانطلق، فإذا رحت فأنتي. قال: ففاته القائلة، فراح فجعل ينتظره ولا يراه، وشق عليه الناس، فقال لبعض أهله: لا تدعن أحداً يقرب هذا الباب حتى أنام، فإني قد شق عليّ النوم. فلما كان تلك الساعة أتاه فقال له الرجل: وراءك وراءك؟ فقال: إني قد أتيتك أمس، فذكرت له أمري، فقال: لا، والله لقد أمرنا ألا ندع أحداً يقربه. فلما أعياه نظر فرأى كوة في البيت، فتسور منها، فإذا هو في البيت، وإذا هو يدق الباب من داخل، قال: فاستيقظ الرجل فقال: يا فلان، ألم أمرك؟ فقال: أما من قبلي والله فلم توت، فانظر من أين أتيت؟ قال: فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه، وإذا الرجل معه في البيت، فعرفه، فقال: أعدو الله؟ قال: نعم، أعيتني في كل شيء، ففعلت ما تَرَى لأغضبك. فسماه الله ذا الكفل؛ لأنه تكفل بأمر، فوفى به. وهكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث زهير بن إسحاق، عن داود، عن مجاهد، بمثله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن مسلم، قال: قال ابن عباس: كان قاض في بني إسرائيل، فحضره الموت، فقال: من يقوم مقامي على ألا يغضب؟ قال: فقال رجل: أنا. فسمي ذا الكفل. قال: فكان ليلة جميعاً يصلي، ثم يصبح صائماً فيقضي بين الناس. قال: وله ساعة يقبليها. قال: فكان كذلك، فأتاه الشيطان عند نومه، فقال له أصحابه: ما لك؟ قال: إنسان مسكين، له على رجل حق، وقد غلبني عليه. قالوا: كما أنت حتى يستيقظ. قال: وهو فوق نائم. قال: فجعل يصيح عمداً حتى يوقظه، قال: فسمع، فقال: ما لك؟ قال: إنسان مسكين، له على رجل حق. قال: اذهب فقل له يعطيك. قال: قد أبى. قال: اذهب أنت إليه. قال: فذهب، ثم جاء من الغد، فقال: ما لك؟ قال: ذهب إليه فلم يرفع بكلامك رأساً. قال: اذهب إليه فقل له يعطيك حقك، قال: فذهب، ثم جاء من الغد حين قال، قال: فقال له أصحابه: اخرج، فمل الله بك، تجيء كل يوم حين ينام، لا تعده ينام؟. فجعل يصيح: من أجل أني إنسان مسكين، لو كنت غنياً؟ قال: فسمع أيضاً، فقال: ما لك؟ قال: ذهبت إليه فضربني. قال: امش حتى أجيء معك. قال: فهو ممسك بيده، فلما رآه ذهب معه نثر يده منه ففر.

وهكذا روي عن عبد الله بن الحارث، ومحمد بن قيس، وابن حُجيرة الأكبر، وغيرهم من السلف، نحو من هذه القصة، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجماهر، أخبرنا سعيد بن بشير، حدثنا قتادة، عن أبي كنانة بن الأخنس قال: سمعت الأشعري وهو يقول على هذا المنبر: ما كان ذو الكفل نبياً، ولكن كان - يعني: في بني إسرائيل - رجل صالح يصلي كل يوم مائة صلاة، فتكفل له ذو الكفل من بعده، فكان يصلي كل يوم مائة صلاة، فسمي ذا الكفل. وقد رواه ابن جرير من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة قال: قال أبو موسى الأشعري: ... فذكره منقطعاً، والله أعلم. وقد روى الإمام أحمد حديثاً غريباً فقال: حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله، عن سعد مولى طلحة، عن ابن عمر قال: سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين - حتى عد سبع مرات - ولكن قد سمعته أكثر من ذلك، قال: «كان الكفل من بني إسرائيل، لا يتوزع من ذنب عمله، فأنته امرأة فأعطاهما ستين ديناراً، على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته، أرعدت وبكت، فقال: ما يبكيك؟ أكرهتك؟ قالت: لا، ولكن هذا عمل لم أعمله قط، وإنما حُملني عليه الحاجة. قال: فتفعلين هذا ولم تفعليه قط؟ فَنَزَلَ فقال: اذهبي فالدنانير لك. ثم قال: والله لا يعصي الله الكفل أبداً. فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابه: قد غفر الله للكفل». وهكذا وقع في هذا الرواية «الكفل»، من غير إضافة، فالله أعلم. وهذا الحديث لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة، وإسناده غريب، وعلى كل تقدير فلفظ الحديث إن كان «الكفل»، ولم يقل: «ذو الكفل»، فلعله رجل آخر، والله أعلم.

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا فَلَمْ أَلَمْ أَنْ نَقْدِرْ عَلَيْهِ فَنَكَّاهُ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنْ الْفَرَىٰ وَكَذَٰلِكَ نُنشِئُ النَّوْهِيْنَ ﴿٨٨﴾﴾.

هذه القصة مذكورة هاهنا وفي سورة «الصافات»، وفي سورة «ن» وذلك أن يونس بن متى، عليه السلام، بعثه الله إلى قرية «نينوى»، وهي قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث. فلما تحققوا من ذلك، وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادهما، ثم تضرعوا إلى الله ﷻ، وجأروا إليه، ورجت الإبل وفضلاتها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحملاتها، فرفع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَتْهُمْ إِمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَنَأَمَّنُوا كَمَا نَفَعْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَنصَحُكَ إِلَىٰ جِبْرِيلَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس: ٩٨]. وأما يونس، عليه السلام، فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة فلججت بهم، وخافوا أن يغرقوا. فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخفون منه، فوقعت القرعة على يونس، فأبوا أن يلقيه، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضاً، فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، قال الله تعالى: ﴿فَنَاقَهُ فَكَاةٌ مِنَ الْمُتَحَيَّرِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الصافات: ١٤١]، أي: وقعت عليه القرعة، فقام يونس، عليه السلام، وتجرد من ثيابه، ثم ألقى نفسه في البحر، وقد أرسل الله، سبحانه وتعالى، من البحر الأخضر - فيما قاله ابن مسعود - حوتاً يشق البحار، حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة، وأوحى الله إلى ذلك الحوت ألا تأكل له لحماً، ولا تهشم له عظماً؛ فإن يونس ليس لك رزقاً، وإنما بطنك له يكون سجناً.

وقوله: ﴿وَذَا النُّونِ﴾ يعني: الحوت، صحت الإضافة إليه بهذه النسبة. وقوله: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا﴾: قال الضحاك: لقومه، ﴿فَلَمْ أَلَمْ أَنْ نَقْدِرْ عَلَيْهِ﴾ أي: نصيق عليه في بطن الحوت. يروى نحو هذا عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم، واختاره ابن جرير، واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَدِرْ عَلَيْهِ رِقْمٌ فَلْيَبْقِ بِمَا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يَكِلُهُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا ءَاتَاهُ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عَذَابٍ مُّثَرًا﴾ [الطلاق: ٤٧]. وقال عطية العوفي: ﴿فَلَمْ أَنْ نَقْدِرْ عَلَيْهِ﴾، أي: نقضي عليه، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير، فإن العرب، تقول: قدر وقدر بمعنى واحد، وقال الشاعر:

فَلَا عَائِدَ ذَاكَ الزَّمَانُ الَّذِي مَضَىٰ تَبَارَكَتْ مَا تَقْدِرُ يَكُنْ، فَلَيْكَ الْأَمْرُ
ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَى الْمَلَأَةُ عَلَىٰ أَمْرِ قَدِيرٍ﴾ [الفر: ١٢]، أي: قدر. وقوله: ﴿فَنَكَّاهُ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل. وكذا روي عن ابن عباس، وعمرو بن ميمون، وسعيد بن جبيرة، ومحمد بن كعب، والضحاك، والحسن، وقاتدة. وقال سالم بن أبي الجعد: ظلمة حوت في بطن حوت، في ظلمة البحر. قال ابن مسعود، وابن عباس وغيرهما: وذلك أنه ذهب به الحوت في البحار يشقها، حتى انتهى به إلى قرار البحر، فسمع يونس تسبيح الحصى في قراره، فعند ذلك وهنالك قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ﴾.

وقال عوف: لما صار يونس في بطن الحوت، ظن أنه قد مات، ثم حرك رجله فلما تحركت سجد مكانه، ثم نادى: يا رب، اتخذت لك مسجداً في موضع ما اتخذته أحد. وقال سعيد بن الحسن البصري: مكث في بطن الحوت أربعين يوماً. رواهما ابن جبير. وقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن حدثه، عن عبد الله بن رافع - مولى أم سلمة - سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت أن خذه، ولا تخدش لحماً ولا تكسر عظماً، فلما انتهى به إلى أسفل البحر، سمع يونس حساً، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه، وهو في بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر، قال: فسبح وهو في بطن الحوت، فسمع الملائكة تسبيحه فقالوا: يا ربنا، إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة، قال: ذلك عبدي يونس، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر. قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم. قال: فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه في الساحل، كما قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ سَاقٍ﴾ [الصفات: ١٤٥].

ورواه ابن جرير، ورواه البزار في مسنده، من طريق محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هريرة، فذكره بنحوه، ثم قال: لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد، وروى ابن عبد الحق من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن سلمة، عن علي مرفوعاً: لا ينبغي لعبد أن يقول: «أنا خير من يونس بن متى»؛ سبح الله في الظلمات. وقد روي هذا الحديث بدون هذه الزيادة، من حديث ابن عباس، وابن مسعود، وعبد الله بن جعفر، وسيأتي أسانيدنا في سورة «ن». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن بن أخي ابن وهب، حدثنا عمي: حدثني أبو صخر: أن يزيد الرقاشي حدثه قال: سمعت أنس بن مالك - ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ - أن يونس النبي، عليه السلام، حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت، قال: «اللهم، لا إله إلا أنت، سيحانك، إني كنت من الظالمين». فأقبلت هذه الدعوة تحف بالعرش، فقالت الملائكة: يا رب، صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذاك؟ قالوا: لا، يا رب، ومن هو؟ قال: عبدي يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يُرْفَع له عمل متقبل، ودعوة مجابة؟ قال: نعم. قالوا: يا رب، أولاً ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه في العراق.

وقوله: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَجَجْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أي: أخرجناه من بطن الحوت، وتلك الظلمات، ﴿وَكَذَلِكَ نُنْشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إذا كانوا في الشدائد ودَعَوْنَا مَبِينِينَ إِلَيْنَا، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء، فقد جاء الترغيب في الدعاء بها عن سيد الأنبياء، قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن عُمر، حدثنا يونس بن أبي إسحاق الهمداني، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد، حدثني والدي محمد عن أبيه سعد، - وهو ابن أبي وقاص - قال: مررت بعثمان بن عفان، رضي الله عنه، في المسجد، فسلمت عليه، فعلاً عينيه مني ثم لم يردّد عليّ السلام، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين، هل حدث في الإسلام شيء؟ مرتين، قال: لا، وما ذاك؟ قلت: لا، إلا أنني مررت بعثمان آنفاً في المسجد، فسلمت عليه، فعلاً عينيه مني، ثم لم يردّد عليّ السلام. قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما منعك ألا تكون ردّدت عليّ أخيك السلام؟ قال: ما فعلت. قال سعد: قلت: بلى. حتى حلف وحلفت، قال: ثم إن عثمان ذكر فقلت: بلى، وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بي آنفاً وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ لا والله ما ذكرت قط إلا تُعَشِّي بصري وقلبي غشاوة. قال سعد: فأنا أنبئك بها، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ثم جاء أعرابي فشغله، حتى قام رسول الله ﷺ فأتبعته، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض، فالتفت إليّ رسول الله ﷺ فقال: «من هذا؟ أبو إسحاق؟» قال: قلت: نعم، يا رسول الله. قال: «فمه؟» قلت: لا والله، إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك. قال: «نعم، دعوة ذي النون، إذ هو في بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له». ورواه الترمذي، والنسائي في «اليوم والليلة»، من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد، عن أبيه، عن سعد، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن كثير بن زيد، عن المطلب بن حنطب - قال أبو خالد: أحسبه عن مصعب، يعني: ابن سعد - عن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا بدعاء يونس، استجيب له». قال أبو سعيد: يريد به ﴿وَكَذَلِكَ نُنْشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقال ابن جرير: حدثني عمران بن بكّار الكلاعي، حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن، حدثني بشر بن منصور، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد بن مالك - وهو ابن أبي وقاص - يقول: سمعت

رسول الله ﷺ يقول: «اسم الله الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى، دعوة يونس بن متى». قال: قلت: يا رسول الله، هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هي ليونس بن متى خاصة وللمؤمنين عامة، إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله ﷻ: ﴿تَسَاءَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ لِي إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنَّا كُنْثَىٰ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَبَيَّنَّا لَهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. فهو شرط من الله لمن دعاه به». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي سريج، حدثنا داود بن المحبر بن قحذم المقدسي، عن كثير بن معبد قال: سألت الحسن، قلت: يا أبا سعيد، اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى؟ قال: ابن أخي، أما تقرأ القرآن؟ قول الله: ﴿وَذَا التَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغْنِيًا إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿التَّوْنِينَ﴾ ابن أخي، هذا اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَفَّيْنَاهُ لِمَا يَحْتَوِي وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْئِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعَةً﴾.

يخبر تعالى عن عبده زكريا، حين طلب أن يهبه الله ولدا، يكون من بعده نبياً. وقد تقدمت القصة ميسورة في أول سورة «مريم» وفي سورة «آل عمران» أيضاً، وما هنا أخصر منهما؛ ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ أي: خفية عن قومه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا أَي: لا ولدي ولا وارث يقوم بعدي في الناس، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ دعاء وثناء مناسب للمسألة.

قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَفَّيْنَاهُ لِمَا يَحْتَوِي وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أي: امرأته. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: كانت عاقراً لا تلد، فولدت. وقال عبد الرحمن بن مهدي، عن طلحة بن عمرو، عن عطاء: كان في لسانها طول فأصلحها الله. وفي رواية: كان في خلقها شيء فأصلحها الله. وهكذا قال محمد بن كعب، والسدي. والأظهر من السياق الأول. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْئِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: في عمل القربات وفعل الطاعات، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قال الثوري: ﴿رَغَبًا﴾ فيما عندنا، و ﴿رَهَبًا﴾ مما عندنا، ﴿وَكَانُوا لَنَا خَشِيعَةً﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي مصدقين بما أنزل الله. وقال مجاهد: مؤمنين حقاً. وقال أبو العالية: خائفين. وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب، لا يفارقه أبداً. وعن مجاهد أيضاً ﴿خَشِيعَةً﴾ أي: متواضعين. وقال الحسن، وقتادة، والضحاك: ﴿خَشِيعَةً﴾ أي: متذللين لله ﷻ وكل هذه الأقوال متقاربة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطَّنَافِسي، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق بن عبد الله القرشي، عن عبد الله بن حكيم قال: خطبنا أبو بكر، رضي الله عنه، ثم قال: أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله، وثبوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرغبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله ﷻ أنشئ على زكريا وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْئِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعَةً﴾.

﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَحَصَّهَا فَفَتَحْنَا بِهَا مِنْ زُجْجَا وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

هكذا قرآن تعالى قصة مريم وابنها عيسى، عليه السلام، بقصة زكريا وابنه يحيى، عليهما السلام، فيذكر أولاً قصة زكريا، ثم يتبعها بقصة مريم؛ لأن تلك مؤطرة لهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد في حال شبابها، ثم يذكر قصة مريم وهي أعجب، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر. وهكذا وقع في سورة «آل عمران» وفي سورة «مريم»، وما هنا ذكر قصة زكريا، ثم أتبعها بقصة مريم، فقوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَحَصَّهَا﴾ يعني: مريم، عليها السلام، كما قال في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْتَ فَحَصَّهَا فَفَتَحْنَا فِيهِ مِنْ زُجْجَا﴾ [التحريم: ١٢]. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: دلالة على أن الله على كل شيء قدير، وأنه يخلق ما يشاء، و ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٨٢]. وهذا كقوله: ﴿وَلَنَجْجِجَنَّ بِهَا آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن علي، حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد، عن شبيب - يعني: ابن بشر - عن عكرمة، عن ابن عباس، في قوله: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ قال: العالمين: الجن والإنس.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهَةٍ رَجِعَتْ إِلَىٰ قَوْمِهَا﴾ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدٍ﴾ ﴿وَلَنَا لَهُ كَبِيرُونَ﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، يقول: دينكم دين واحد. وقال الحسن البصري: في هذه الآية: بين لهم ما يتقون وما يأتون ثم قال: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً

وَجِدَّةٌ ﴿٩٥﴾ أَي: ستتكم سنة واحدة. فقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾: إن واسمها، و﴿أُنْتُمْ﴾: خبر إن، أي: هذه شريعتكم التي بينت لكم ووضحت لكم، وقوله: ﴿أَنْتَ وَجِدَّةٌ﴾: نصب على الحال؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ﴿٩٦﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُنْتُمْ وَجِدَّةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٩٧﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢]، وقال رسول الله ﷺ: «نحن معشر الأنبياء أولاد علاتٍ ديننا واحد»، يعني: أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَمَلًا مِنْكُمْ يَرْعَىٰ ذِمَّتَهُ وَهُوَ جَاهِلٌ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقوله: ﴿وَنَقُطِعْ أَرْهَامَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾: أي: اختلفت الأمم على رسلها، فمن بين مصدق لهم ومكذب؛ ولهذا قال: ﴿كُلُّ إِلَهٍ لِّنَا رَجُومٌ﴾: أي: يوم القيامة، فيجازى كل بحسب عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؛ ولهذا قال: ﴿فَمَنْ يَحْمِلُ مِنَ الصَّالِحِينَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: أي: قلبه مصدق، وعمل عملاً صالحاً، ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ﴾، كقوله: ﴿إِنَّا لَا نَسْبِغُ أَكْثَرَ مَنْ أَكْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]؛ أي: لا يُكْفَرُ سَعِيدُهُ، وهو عمله، بل يُشْكِرُ، فلا يظلم مثقال ذرة؛ ولهذا قال: ﴿وَأِنَّا لَمُ كَذِبُونَ﴾: أي: يُكْتَبُ جميع عمله، فلا يضيع عليه منه شيء.

﴿وَحَرَمٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٩٨﴾ حَقٌّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٩﴾ وَأَقْرَبَ آوَعَدَ الْحَقُّ إِذَا هِيَ شِخْمَةٌ أَصْبَرُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْهَلُونَ قَدْ كُنَّا فِي عَقْلٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٠٠﴾.

يقول تعالى: ﴿وَحَرَمٌ عَلَى قَرْيَةٍ﴾: قال ابن عباس: وجب، يعني: قدراً مقدراً أن أهل كل قرية أهلوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة. هكذا صرح به ابن عباس، وأبو جعفر الباقر، وقتادة، وغير واحد. وفي رواية عن ابن عباس: «أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ»: أي: لا يتوبون. والقول الأول أظهر، والله أعلم. وقوله: ﴿حَقٌّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾: قد قدمنا أنهم من سلالة آدم، عليه السلام، بل هم من نسل نوح أيضاً، من أولاد يافث أبي الترك، والترك شُرذمة منهم، تركوا من وراء السد الذي بناه ذو القرنين. وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي إِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَمَلٌ دَكَّ وَكَّانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ ﴿٩٨﴾ وَتَرْكَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَفُتِحَ فِي الْأَشْوَارِ بَعْضُهُمْ جَمًّا ﴿٩٩﴾ [الكهف: ٩٨، ٩٩]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿حَقٌّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ ﴿٩٩﴾: أي: يسرعون في المشي إلى الفساد. والحَدَبُ: هو المرتفع من الأرض، قاله ابن عباس، وعكرمة، وأبو صالح، والثوري وغيرهم، وهذه صفتهم في حال خروجهم، كان السامع مشاهد لذلك، ﴿وَلَا يَبْتَئِثُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ [فاطر: ١٤]. هذا إخبار عالم ما كان وما يكون، الذي يعلم غيب السموات والأرض، لا إله إلا هو. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن مثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عبيد الله بن أبي يزيد قال: رأى ابن عباس صبيانا يترنوا بعضهم على بعض، يلعبون، فقال ابن عباس: هكذا يخرج ياجوج وماجوج.

وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية:

فالحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، عن عاصم بن عُمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، فيخرجون كما قال الله ﷻ: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾»، فيغشون الناس، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربون مياه الأرض، حتى إن بعضهم ليمر بالنهر، فيشربون ما فيه حتى يتركوه ييسا، حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول: قد كان هنا ماء مرة، حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أخذ في حصن أو مدينة قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض، قد فرغنا منهم، بقي أهل السماء. قال: «ثم يهزأ أحدهم حرته، ثم يرمي بها إلى السماء، فترجع إليه مَخْتَضِبَةً دُمًا؛ للبلاء والفتنة. فبينما هم على ذلك إذ بعث الله ﷻ دوداً في أعناقهم كَتَفَ الجراد الذي يخرج في أعناقه، فيصبحون موتى لا يُسَمِعُ لهم جس، فيقول المسلمون: ألا رجل يُشْري نفسه، فينظر ما فعل هذا العدو؟» قال: «فيتجرّد رجل منهم محتسباً نفسه، قد أوطنها على أنه مقتول، فينزل فيجدهم موتى، بعضهم على بعض، فينادي: يا معشر المسلمين، ألا أبشروا، إن الله ﷻ قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويُسْرَحُونَ مواشيهم، فما يكون لها رعي إلا لحومهم، فَتَشْكُرُ عنه كَأَحْسَنَ ما شَكَرْتَ عن شيء من النبات أصابته قط. ورواه ابن ماجه، من حديث يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، به.

الحديث الثاني: قال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا الوليد بن مسلم أبو العباس الدمشقي، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثني يحيى بن جابر الطائي - قاضي حمص - حدثني عبد الرحمن بن جُبَيْر بن نُفَيْر الحضرمي، عن أبيه، أنه سمع الثَّوَالِيسَ بن سَمْعَانَ الكلابي قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فَخَفِضَ فيه وَزَعَهُ، حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رُحْنَا إليه

عرف ذلك في وجوهنا، فسألناه فقلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال الغداة، فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل . فقال: «غير الدجال أخوفني عليكم، فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم: إنه شاب جعد قَطَط عينه طافية، وإنه يخرج خَلَّة بين الشام والعراق، فعات يميناً وشمالاً، يا عباد الله اثبتوا». قلنا: يا رسول الله، ما لبثه في الأرض؟ قال: «أربعين يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم». قلنا: يا رسول الله، فذاك اليوم الذي هو كسنة، أتكنينا فيه صلاة يوم وليلة؟ قال: «لا، اقدروا له قدره». قلنا: يا رسول الله فما إسرعه في الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح». قال: «فيمر بالحي فيدعوهم فيستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبث، وتروح عليهم سارحتهم وهي أطول ما كانت دُرَى، وأمدّه خواصر، وأسبغه ضروعاً. ويمر بالحي فيدعوهم فيردون عليه قوله، فتتبعه أموالهم، فيصبحون مُفحلين، ليس لهم من أموالهم. ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيما سيب النحل».

قال: «ويأمر برجل فيُقتل، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رَمِيَّة العَرَض، ثم يدعو فيقبل إليه يتهلل وجهه. فبينما هم على ذلك، إذ بعث الله ﷺ المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء، شرقي دمشق، بين مَهْرُودَتَيْن واضعاً يَدَهُ على أجنحة ملكين، فيتبعه فيدركه، فيقتله عند باب لُد الشرقي». قال: «فبينما هم كذلك، إذ أوحى الله ﷻ إلى عيسى ابن مريم: أني قد أخرجت عبداً من عبادي لا يَدَانِ لك بقتالهم، فَحَوَزَ عبادي إلى الطور، فيبعث الله ﷻ ياجوج ومأجوج، وهم كما قال الله: ﴿مِن كُلِّ حَذَبٍ يَسْلُوكُ﴾، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله ﷻ، فيرسل الله عليهم نَفْثاً في رقابهم، فيصبحون فَرَسَى، كموت نفس واحدة. فيهيط عيسى وأصحابه، فلا يجدون في الأرض بيتاً إلا قد ملأه زَهْمُهُم وتَنَنَّهُم، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل عليهم طيراً كاعناق البُحْت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله». قال ابن جابر: فحدثني عطاء بن يزيد السُكْسَكِي، عن كعب - أو غيره - قال: فتطرحهم بالمُهَيْل. قال ابن جابر: فقلت: يا أبا يزيد، وأين المُهَيْل؟ قال: مطلع الشمس.

قال: «ويرسل الله مطراً لا يَكُنْ منه بيت مَدَر ولا وَبَر أربعين يوماً، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَقَةِ، ويقال للأرض: أنبئي ثمرتك، وُردي بركتك». قال: «فيومئذ يأكل النفر من الرمانة ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرَّمْل، حتى إن اللَّفْحَةَ من الإبل لتكفي الفِئَامَ من الناس، واللَّفْحَةَ من البقر تكفي الفخذ، والشاة من الغنم تكفي أهل البيت». قال: «فبينما هم على ذلك، إذ بعث الله ﷻ ريحاً طيبة تحت آباطهم، فقبض روح كل مسلم - أو قال: كل مؤمن - ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمير، وعليهم تقوم الساعة». انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري، فرواه مع بقية أهل السنن من طرق، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

الحديث الثالث: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا محمد بن عمرو، عن ابن خزيمة، عن خالته قالت: خطب رسول الله ﷺ وهو عاصب أصبعه من لدغة عَقْرَب، فقال: «إنكم تقولون: لا عدو، وإنكم لا تزالون تقاتلون عدواً، حتى يأتي ياجوج ومأجوج عراض الوجوه، صغار العيون، ضُهَبُ الشَّعَاف، من كل حَذَب ينسلون، كأن وجوههم المَجَانِ المَطْرَقَة». وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث محمد بن عمرو، عن خالد بن عبد الله بن خزيمة المدلجي، عن خالته له، عن النبي ﷺ، فذكره مثله.

الحديث الرابع: قد تقدم في تفسير آخر سورة الأعراف من رواية الإمام أحمد، عن هُثَيْنٍ، عن العَوَام، عن جبلة ابن سُحَيْم، عن مؤثر بن عَفَّازَة، عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى، عليهم السلام، قال: فتذكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم، فقال: لا علم لي بها، فردوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا علم لي بها. قال: فتذكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال: أما وَجِبَتْهَا فلا يعلم بها أحد إلا الله، وفيها عهد إلى ربي أن الدجال خارج». قال: «ومعي قضيبان، فإذا رأيته ذاب كما يذوب الرصاص» قال: «فيهلكه الله إذا رأيته، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم إن تحتي كافرأ، فتعال فاقتله». قال: «فيهلكهم الله ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم». قال: «فبعد ذلك يخرج ياجوج ومأجوج وهم من كل حَذَب ينسلون، فيطوون بلادهم، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه». قال: «ثم يرجع الناس إلي يشكونهم، فادعو الله عليهم، فيهلكهم ويميتهم، حتى تجوى الأرض من ثَن ريحهم، وينزل الله المطر فيجترف أجسادهم، حتى يقدفهم في البحر. ففيما عهد إلي ربي أن ذلك إذا كان كذلك، أن الساعة كالحامل المَيِّم، لا يدري أهلها متى تَفْجُؤُهُمْ بولادها ليلاً أو نهاراً». ورواه ابن ماجه، عن محمد بن بشار، عن يزيد بن هارون، عن العَوَام بن حَوْشَب، به، نحوه

وزاد: «قال العَوَّام، ووجد تصديق ذلك في كتاب الله ﷻ: ﴿حَقَّقْ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾». ورواه ابن جرير ها هنا من حديث جبلة، به. والأحاديث في هذا كثيرة جداً، والآثار عن السلف كذلك.

وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث مَعْمَر، عن غير واحد، عن حميد بن هلال، عن أبي الصَّيْف قال: قال كعب: إذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج، حفروا حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل قالوا: نجيء غداً فنخرج، فيعيده الله كما كان. فيجيئون من الغد فيجدونه قد أعاده الله كما كان، فيحفرون حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم بقول: نجيء غداً فنخرج إن شاء الله. فيجيئون من الغد فيجدونه كما تركوه، فيحفرون حتى يخرجوا. فتمر الزمرة الأولى بالبحيرة، فيشربون ماءها، ثم تمر الزمرة الثانية فيلحسون طينها، ثم تمر الزمرة الثالثة فيقولون: قد كان ها هنا مرة ماء، ويفر الناس منهم، فلا يقدم لهم شيء. ثم يرمون بسهامهم إلى السماء فترجع إليه مُخَضَّبَةً بالدماء فيقولون: غلبنا أهل الأرض وأهل السماء. فيدعو عليهم عيسى ابن مريم، عليه السلام، فيقول: «اللهم، لا طاقة ولا يدين لنا بهم، فاكفناهم بما شئت»، فيسلط الله عليهم دوداً يقال له النغف، فيفرس رقابهم، ويبعث الله عليهم طيراً تأخذهم بمنابرهم فتلقبهم في البحر، ويبعث الله عيناً يقال لها: «الحياة» يطهر الله الأرض وينبتها، حتى إن الرمانة ليشع منها السُكُنُ». قيل: وما السُكُنُ يا كعب؟ قال: أهل البيت. قال: «فبينما الناس كذلك إذ أتاهم الصُّرَيْخُ أن ذا السُّوَيْقَتَيْنِ يريد. قال: فيبعث عيسى ابن مريم طليعة سبعمائة، أو بين السبعمائة والثمانمائة، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله ريحاً يمانية طيبة، فيقبض فيها روح كل مؤمن، ثم يبقى عَجَاجُ الناس، فيستافدون كما تَسَافَدُ البهائم، فَتُثَلُّ الساعة كمثل رجل يطيف حول فرسه ينتظرها متى تضع؟ قال كعب: فمن تكلف بعد قولي هذا شيئاً - أو بعد علمي هذا شيئاً - فهو المتكلف. هذا من أحسن سياقات كعب الأحبار، لما شهد له من صحيح الأخبار. وقد ثبت في الحديث أن عيسى ابن مريم يحج البيت العتيق، وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عمران، عن قتادة، عن عبد الله بن أبي عُبَيْة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لِيَحْجُرَنَّ هذا البيت، وَلْيُخَمَّرَنَّ بعد خروج يأجوج ومأجوج». انفرد بإخراجه البخاري. وقوله: «وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ» يعني: يوم القيامة، إذا وجدت هذه الأحوال والزلازل والبلابل، أزت الساعة واقتربت، فإذا كانت وقعت قال الكافرون: «هَذَا يَوْمٌ غَيْرٌ» [القم: ٢٨]. ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شُخْصَةٌ أَبْتَسَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام: ﴿يَوَلَّوْا﴾ أي: يقولون: ﴿يَوَلَّوْا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ أي: في الدنيا، ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، يعترفون بظلمهم لأنفسهم، حيث لا ينفعهم ذلك.

﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَودُونَ﴾ (٩٨) لَوْ كَانَتْ هَذِهِ آيَةً لَمَا وَدَّعَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَّهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا أَنتَبَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى مخاطباً لأهل مكة من مشركي قريش، ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام والأوثان: ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، قال ابن عباس: أي وقودها، يعني كقوله: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦٦]. وقال ابن عباس أيضاً: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ بمعنى: شجر جهنم. وفي رواية قال: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ يعني: حطب جهنم، بالزنجية. وقال مجاهد، وعكرمة، وقتادة: حطبها. وهي كذلك في قراءة علي وعائشة رضي الله عنهما. وقال الضحاك: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: ما يرمى به فيها. وكذا قال غيره. والجميع قريب. وقوله: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَودُونَ﴾ أي: داخلون، ﴿لَوْ كَانَتْ هَذِهِ آيَةً لَمَا وَدَّعَا﴾ يعني: لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آية صحيحة لما وردوا النار، ولما دخلوها، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: العابدون ومعبوداتهم، كلهم فيها خالدون، ﴿لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ﴾، كما قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦]، والزفير: خروج أنفاسهم، والشهيق: ولوج أنفاسهم، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطَّنَافِسي، حدثنا ابن فضيل، حدثنا عبد الرحمن - يعني: المسعودي - عن أبيه قال: قال ابن مسعود: إذا بقي من يخلد في النار، جُعلوا في توابيت من نار، فيها مسامير من نار، فلا يرى أحد منهم أنه يعذب في النار غيره، ثم تلا عبد الله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾. ورواه ابن جرير، من حديث حجاج بن محمد، عن المسعودي، عن يونس بن خَبَاب، عن ابن مسعود فذكره.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾: قال عكرمة: الرحمة. وقال غيره: السعادة، ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله، عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسله، وهم الذين سبقت لهم من الله

السعادة، وأسفلوا الأعمال الصالحة في الدنيا، كما قال: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَىٰ ذُكِّرُوا﴾ [يونس: ٢٦]، وقال: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٤٠]، فكما أحسنوا العمل في الدنيا، أحسن الله مآلهم وثوابهم، فنجاهم من العذاب، وحصل لهم جزيل الثواب، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَيِّسَهَا﴾ أي: حريقها في الأجساد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبيه، عن الجريري، عن أبي عثمان: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَيِّسَهَا﴾، قال: حيات على الصراط تلسعهم، فإذا لسعتهم قال: حَسَّ حَسَّ.

وقوله: ﴿وَعَمَّ فِي مَا آسَنَتْهُمُ أَنْفُسُهُمْ خَلِيدُونَ﴾: فسلمهم من المعذور والمرهوب، وحصل لهم المطلوب والمحبوب. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي سُرَيْج، حدثنا محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني، عن ليث بن أبي سليم، عن ابن عم النعمان بن بشير، عن النعمان بن بشير قال- وسَمَرُ مع علي ذات ليلة، فقرا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [١٢١]، قال: أنا منهم، وعمر منهم، وعثمان منهم، والزبير منهم، وطلحة منهم، وعبد الرحمن منهم- أو قال: سعد منهم- قال: وأقيمت الصلاة فقام، وأظنه يجر ثوبه، وهو يقول: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَيِّسَهَا﴾. وقال شعبة، عن أبي بشر، عن يوسف المكي، عن محمد بن حاطب قال: سمعت علياً يقول في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ قال: عثمان وأصحابه. ورواه ابن أبي حاتم أيضاً، ورواه ابن جرير من حديث يوسف بن سعد- وليس بابن مالهك- عن محمد بن حاطب، عن علي، فذكره ولفظه: عثمان منهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ قال: فأولئك أولياء الله يعمرون على الصراط مراً هو أسرع من البرق، ويبقى الكفار فيها جيئاً. فهذا مطابق لما ذكرناه، وقال آخرون: بل نزلت استثناء من المعبودين، وخرج منهم غُزَيْرُ والمسيح، كما قال حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جريج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، ثم استثنى فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾، فيقال: هم الملائكة، وعيسى، ونحو ذلك مما يعبد من دون الله ﷻ. وكذا قال عكرمة، والحسن، وابن جريج.

وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ قال: نزلت في عيسى ابن مريم وغُزَيْر، عليهما السلام. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسين بن عيسى بن مَيْسَرَةَ، حدثنا أبو زُهَيْر، حدثنا سعد بن طريف، عن الأصمغ، عن علي في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ قال: كل شيء يعبد من دون الله في النار إلا الشمس والقمر وعيسى ابن مريم. إسناده ضعيف. وقال ابن أبي نجيع، عن مجاهد: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، قال: عيسى، وغُزَيْر، والملائكة. وقال الضحاك: عيسى، ومريم، والملائكة، والشمس، والقمر. وكذا روي عن سعيد بن جبَّير، وأبي صالح وغير واحد. وقد روى ابن أبي حاتم في ذلك حديثاً غريباً جداً، فقال: حدثنا الفضل بن يعقوب الرُّخَّانِي، حدثنا سعيد بن مسلمة بن عبد الملك، حدثنا الليث بن أبي سليم، عن مُغَيْث، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [١٢١]، قال: عيسى، وغُزَيْر، والملائكة.

وذكر بعضهم قصة ابن الزُّبَيْرِ ومناظرة المشركين، قال أبو بكر بن مَرْزُوب: حدثنا محمد بن علي بن سهل، حدثنا محمد بن حسن الأنماطي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن عَزْرَةَ، حدثنا يزيد بن أبي حكيم، حدثنا الحكم- يعني: ابن أبان- عن عكرمة، عن ابن عباس قال: جاء عبد الله بن الزُّبَيْرِ إلى النبي ﷺ فقال: تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [١٢١]، فقال ابن الزُّبَيْرِ: قد عُبِدَت الشمس والقمر والملائكة، وغُزَيْر وعيسى ابن مريم، كل هؤلاء في النار مع ألهتنا؟ فنزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنهُ يَصِيدُونَ﴾ [٥٧] وَقَالُوا مَالَهُمْ خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَلَّالٌ بَلْ هُوَ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [٥٨]، ثم نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [١٢١]. رواه الحافظ أبو عبد الله في كتابه «الأحاديث المختارة». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا قَبِيصَةُ بن عُبَيْة، حدثنا سفيان- يعني: الثوري- عن الأعمش، عن أصحابه، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [١٢١] قال المشركون: فالملائكة، وغُزَيْر، وعيسى يُعْبَدُونَ من دون الله؟ فنزلت: ﴿لَوْ كَانَتْ هَذِهِ آِلَٰهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾، الآلهة التي يعبدون، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وروي عن أبي كُدَيْبَةَ، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبَّير، عن ابن عباس مثل ذلك، وقال فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [١٢١].

وقال الإمام محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله، في كتاب «السيرة»: وجلس رسول الله- فيما بلغني- يوماً مع الوليد بن

المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المسجد غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، وتلا عليه وعليهم ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ (١٠٤) إلى قوله: ﴿وَقَدْ يَمُرُّ بِهَا يَسْمَعُ﴾، ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزبير السهمي حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبير: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب أنفًا ولا قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم. فقال عبد الله بن الزبير: أما والله لو وجدته لأخصمته، فسلوا محمداً: كل ما يُعبد من دون الله في جهنم مع عبده، فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيزاً، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم؟ فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس، من قول عبد الله بن الزبير، ورأوا أنه قد احتج وخاصم.

فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «كل من أحب أن يُعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمرتهم بعبادته». وأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُعَذَّوْنَ ﴿١٠٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَلِيدُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ أي: عيسى وعزير ومن عبدوا من الأبحار والرهبان، الذين مضوا على طاعة الله، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله. ونزل فيما يذكرون، أنهم يعبدون الملائكة، وأنهم بنات الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ عِشَادٌ مُّكْرَمَةٌ ﴿١٠٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَقْمَلُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَنُجْزِيَنَّهُ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩]، ونزل فيما ذكر من أمر عيسى، وأنه يعبد من دون الله، وعجب الوليد ومن حضره من حُجته وخصومته: ﴿وَلَمَّا شَرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَلَكًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿١٠٩﴾ وَقَالُوا الْمَلَأْنَا خَيْرَ أَمْرٍ هُوَ مَا شَرِبُوهُ لَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ بِهِ فَمُرُّوا قَوْمٌ يَخْشَوْنَ ﴿١١٠﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَلَكًا يُوقِنُ ﴿١١١﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ مِنْكُمْ مَلَكًا فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿١١٢﴾ وَإِنَّ لَكُمْ لَلسَّاعَةَ فَلَا تَعْلَمُونَ بِهَا﴾ [الزخرف: ٥٧-٦١] أي: ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلاً على علم الساعة، يقول: ﴿فَلَا تَعْلَمُونَ بِهَا وَأَنْتُمْ يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٦١]. وهذا الذي قاله ابن الزبير خطأ كبير، لأن الآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جماد لا تعقل، ليكون ذلك تقريباً وتوبيخاً لعبديها؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، فكيف يورد على هذا المسيح والعزير ونحوهما، ممن له عمل صالح، ولم يرض عبادة من عبده. وعول ابن جرير في تفسيره في الجواب على أن «ما» لما لا يعقل عند العرب. وقد أسلم عبد الله بن الزبير بعد ذلك، وكان من الشعراء المشهورين. وكان يهاجي المسلمين أولاً، ثم قال معتزلاً:

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ، إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَفْتُ إِذْ آتَا بُورُ
إِذْ أَجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ النَّبِيِّ وَمَنْ مَالٌ مَيْلُهُ مَثْبُورُ
وقوله: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾: قيل المراد بذلك الموت. رواه عبد الرزاق، عن يحيى بن ربيعة عن عطاء. وقيل: المراد بالفزع الأكبر: النفخة في الصور. قاله العوفي عن ابن عباس، وأبو سنان سعيد بن سنان الشيباني، واختاره ابن جرير في تفسيره. وقيل: حين يُؤمر بالعبد إلى النار. قاله الحسن البصري. وقيل: حين تُطبق النار على أهلها. قاله سعيد بن جبير، وابن جريج. وقيل: حين يُدبَح الموت بين الجنة والنار. قاله أبو بكر الهذلي، فيما رواه ابن أبي حاتم، عنه. وقوله: ﴿وَنَلَقْنَاهُمْ أَلْتَلَكُمُ هَذَا يَوْمَكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾، يعني: تقول لهم الملائكة، تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم: ﴿هَذَا يَوْمَكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي: قابلوا ما يسركم.

﴿يَوْمَ نَقُولُ الْمَلَائِكَةُ أَلْتَلَكُمُ الْيَوْمَ الْيَوْمَ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَتٌ بَيْنَ يَدَيْهِ سُبْحَانَ مَنْ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] وقد قال البخاري:

حدثنا مُقَدِّم بن محمد، حدثني عمي القاسم بن يحيى، عن عُبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ، قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين، وتكون السموات بيمينه». انفرد به من هذا الوجه البخاري، رحمه الله. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن أحمد بن الحجاج الرُّقِّي، حدثنا محمد بن سلمة، عن أبي الواصل، عن أبي المليح الأزدي، عن أبي الجوزاء الأزدي، عن ابن عباس قال: يطوي الله السموات السبع بما فيها من الخليفة والأرضين السبع بما فيها

من الخليفة، يطوي ذلك كله بيمينه، يكون ذلك كله في يده بمنزلة خردلة.

وقوله: ﴿كَلَّمَكَ الْإِسْحَاقَ لِلْكَثْبِ﴾: قيل: المراد بالسجل الكتاب. وقيل: المراد بالسجل هاهنا: ملك من الملائكة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا يحيى بن يمان، حدثنا أبو الوفاء الأشجعي، عن أبيه، عن ابن عمر في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَلِّمَ الْإِسْحَاقَ لِلْكَثْبِ﴾: قال: السجل: ملك، فإذا صعد بالاستغفار قال: اكتبها نوراً. وهكذا رواه ابن جرير، عن أبي كُرَيْب، عن ابن يمان، به. قال ابن أبي حاتم: وروي عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين أن السجل ملك. وقال السدي في هذه الآية: السجل: ملك موكل بالصحف، فإذا مات الإنسان رفع كتابه إلى السجل فطواه، ورفعاه إلى يوم القيامة. وقيل: المراد به اسم رجل صحابي، كان يكتب للنبي ﷺ الوحي. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا نصر بن علي الجهضمي، حدثنا نوح بن قيس، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَلِّمَ الْإِسْحَاقَ لِلْكَثْبِ﴾، قال: السجل: هو الرجل.

قال نوح: وأخبرني يزيد بن كعب - هو القَوْذِي - عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: السجل كاتب للنبي ﷺ. وهكذا رواه أبو داود والنسائي عن قتيبة بن سعيد، عن نوح بن قيس، عن يزيد بن كعب، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس، قال: السجل كاتب للنبي ﷺ. ورواه ابن جرير عن نصر بن علي الجهضمي، كما تقدم. ورواه ابن عدي من رواية يحيى بن عمرو بن مالك الثُّكْرِي عن أبيه، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: كان للنبي ﷺ كاتب يسمى السجل وهو قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَلِّمَ الْإِسْحَاقَ لِلْكَثْبِ﴾، قال: كما يطوي السجل الكتاب، كذلك نطوي السماء، ثم قال: وهو غير محفوظ. وقال الخطيب البغدادي في تاريخه: أنبأنا أبو بكر البرقاني، أنبأنا محمد بن محمد بن يعقوب الحجاجي، أنبأنا أحمد بن الحسن الكرخي، أن حمدان بن سعيد حدثهم، عن عبد الله بن نمير، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر، قال: السجل: كاتب للنبي ﷺ. وهذا منكر جداً من حديث نافع عن ابن عمر، لا يصح أصلاً، وكذلك ما تقدم عن ابن عباس، من رواية أبي داود وغيره، لا يصح أيضاً. وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه - وإن كان في سنن أبي داود - منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المِزِّي، فَسَحَّ الله في عمره، ونَسَأَ في أجله، وختم له بصالح عمله، وقد أفردت لهذا الحديث جزءاً على حدة، والله الحمد. وقد تصدى الإمام أبو جعفر بن جرير للإنكار على هذا الحديث، ورده أتم رد، وقال: لا يُعْرَفُ في الصحابة أحد اسمه السجل، وكتاب النبي ﷺ معروفون، وليس فيهم أحد اسمه السجل، وَصَدَّقَ رحمه الله في ذلك، وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث. وأما من ذكر في أسماء الصحابة هذا، فإنما اعتمد على هذا الحديث، لا على غيره، والله أعلم. والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة، قاله علي بن أبي طلحة والعمري، عنه. ونص على ذلك مجاهد، وقادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير؛ لأنه المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَلِّمَ الْإِسْحَاقَ لِلْكَثْبِ﴾ أي: على هذا الكتاب، بمعنى المكتوب، كقوله: ﴿كَلَّمَا أَتَيْنَا نَارَ الْإِسْحَاقِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، أي: على الجبين، وله نظائر في اللغة، والله أعلم.

وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ ثُمِّدُمْ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يعني: هذا كائن لا محالة، يوم يعيد الله الخلق خلقاً جديداً، كما بدأهم هو القادر على إعادتهم، وذلك واجب الوقوع، لأنه من جملة وعد الله الذي لا يخلف ولا يبدل، وهو القادر على ذلك. ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وابن جعفر المعني، قالوا: حدثنا شعبة، عن المغيرة بن النعمان، عن سعيد بن جبَّير، عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «إنكم محشورون إلى الله ﷻ حفاة عراة غُرْلًا». ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ ثُمِّدُمْ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾، وذكر تمام الحديث، أخرجه في الصحيحين من حديث شعبة. ورواه البخاري عند هذه الآية في كتابه. وقد روى ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، عن عائشة عن النبي ﷺ نحو ذلك. وقال القَوْفِي، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ ثُمِّدُمْ﴾ قال: نهلك كل شيء، كما كان أول مرة.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [١٠٥] إِنَّ فِي هَذَا لَلْبَاطِلِ قُوَّةً عَكِيدَةً ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾.

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين، من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثه الأرض في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الاعراف: ١٧٨]. وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غانر: ٥١]. وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا يَكْفُرُوا وَلَيُكْفِلُنَّهَا لِيَسْتَنْفِذَهُمْ فِي الْأَرْضِ

كَمَا اسْتَخْلَفَ الذِّكْرَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴿١٠٥﴾ الآية [النور: ٥٥]. وأخير تعالى أن هذا مكتوب مسطور في الكتب الشرعية والقدرية فهو كائن لا محالة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾، قال الأعمش: سألت سعيد بن جبيرة عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ فقال: الزبور التوراة والإنجيل والقرآن. وقال مجاهد: الزبور: الكتاب. وقال ابن عباس، والشعبي، والحسن، وقتادة، وغير واحد: الزبور: الذي أنزل على داود، والذكر: التوراة، وعن ابن عباس: الزبور: القرآن. وقال سعيد بن جبيرة: الذكر: الذي في السماء. وقال مجاهد: الزبور: الكتب بعد الذكر، والذكر: أم الكتاب عند الله. واختار ذلك ابن جرير رحمه الله، وكذا قال زيد بن أسلم: هو الكتاب الأول. وقال الثوري: هو اللوح المحفوظ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الزبور: الكتب التي نُزِلَتْ على الأنبياء، والذكر: أم الكتاب الذي يكتب فيه الأشياء قبل ذلك. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أخبر الله سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض، أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض ويدخلهم الجنة، وهم الصالحون.

وقال مجاهد، عن ابن عباس: ﴿أَنْتَ الْآخِرُ بَرُّنَهَا عِبَادِي الْمَكِينُونَ﴾ قال: أرض الجنة. وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، والشعبي، وقتادة، والسدي، وأبو صالح، والربيع بن أنس، والثوري رحمهم الله تعالى. وقوله: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَلنَّامَةِ لَعَذَابَ كَبِيرٍ﴾ أي: إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لنبلاغا؛ لمنفعة وكفاية لقوم عابدين، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾: يخبر تعالى أن الله جعل محمداً ﷺ رحمة للعالمين، أي: أرسله رحمة لهم كلهم، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة، سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردّها وجحدّها خسر في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَلَّوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْآلِوَارِ ﴿٧٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنْكُرُ الْقُرْآنَ ﴿٧٩﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]، وقال الله تعالى في صفة القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبُشْرَىٰ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًّ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصل: ٤٤].

وقال مسلم في صحيحه: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا مروان الفزاري، عن يزيد بن كيسان، عن ابن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين، قال: «إني لم أبعث لئاناً، وإنما بُعثت رحمة». انفرد بإخراجه مسلم. وفي الحديث الآخر: «إنما أنا رحمة مهداة». رواه عبد الله بن أبي عرابة، وغيره، عن وكيع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً. قال إبراهيم الحربي: وقد رواه غيره عن وكيع، فلم يذكر أبا هريرة. وكذا قال البخاري، وقد سئل عن هذا الحديث، فقال: كان عند حفص بن غياث مرسلاً. قال الحافظ ابن عساكر: وقد رواه مالك بن شعير بن الخمس، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً. ثم ساقه من طريق أبي بكر بن المقرئ وأبي أحمد الحاكم، كلاهما عن بكر بن محمد بن إبراهيم الصوفي: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، عن أبي أسامة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة». ثم أورده من طريق الضُّلَّت بن مسعود، عن سفيان بن عيينة، عن يسعر، عن سعيد بن خالد، عن رجل، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله بعثني رحمة مهداة، بُعثت برفع قوم وخفض آخرين».

قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن محمد بن نافع الطحان، حدثنا أحمد بن صالح قال: وجدت كتاباً بالمدينة عن عبد العزيز الدراوردي وإبراهيم بن محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف، عن محمد بن صالح التمار، عن ابن شهاب، عن محمد بن جبيرة بن مطعم، عن أبيه قال: قال أبو جهل حين قدم مكة منصرفه عن حَفْزَة: يا معشر قريش، إن محمداً نزل يشرب وأرسل طلائعته، وإنما يريد أن يصيب منكم شيئاً، فاحذروا أن تمرؤا طريقه أو تقاربوه، فإنه كالأسد الضاري؛ إنه حينئذ عليكم؛ لأنكم نفيتموه نفي القُرْدَان عن المناسم، والله إن له لسحرة، ما رأيته قط ولا أحداً من أصحابه إلا رأيت معهم الشيطان، وإنكم قد عرفتم عداوة ابني قَيْلَة - يعني: الأوس والخزرج - لهو عدو استعان بعدو، فقال له مطعم بن عدي: يا أبا الحكم، والله ما رأيت أحداً أصدق لساناً، ولا أصدق موعداً، من أخيك الذي طردتم، وإذ فعلتم الذي فعلتم فكونوا أكف الناس عنه. قال أبو سفيان بن الحارث: كونوا أشد ما كنتم عليه، إن ابني قَيْلَة إن ظفروا بكم لم يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة، وإن أطمعنوني الجأتموهم خير كتابة، أو تخرجوا محمداً من بين ظهرانيهم، فيكون وحيداً مطروداً، وأما ابنا قَيْلَة فوالله ما هما وأهل ذلك في المدة إلا سواء وساكفيكم حدهم، وقال:

سَأْمُنَّجُ جَانِباً مِّنِّي عَلِيْظاً عَلى مَا كَانَ مِنْ قُرْبٍ وَبُغْدَ رَجَالِ الْخَزْرَجِيَّةِ أَهْلُ ذَلِكَ إِذَا مَا كَانَ مُزْلَ بَغْدَ جَدِ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «والذي نفسي بيده، لأقتلنهم ولأصلبئنهم ولأهدينهم وهم كارهون، إني رحمة بعثني الله، ولا يتوقاني حتى يظهر الله دينه، لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحي الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب». وقال أحمد بن صالح: أرجو أن يكون الحديث صحيحاً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، حدثني عمرو بن قيس، عن عمرو بن أبي قرة الكندي قال: كان حذيفة بالمداين، فكان يذكر أشياء قالها رسول الله ﷺ، فجاء حذيفة إلى سلمان فقال سلمان: يا حذيفة، إن رسول الله ﷺ كان يغضب فيقول، ويرضى فيقول: لقد علمت أن رسول الله ﷺ خطب فقال: «أيما رجل من أمتي سبني سبة في غصبي أو لعنته لعنة، فإنما أنا رجل من ولد آدم، أغضب كما يغضبون، وإنما بعثني رحمة للعالمين، فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة». ورواه أبو داود، عن أحمد بن يونس، عن زائدة. فإن قيل: فأني رحمة حصلت لمن كفر به؟ فالجواب ما رواه أبو جعفر بن جرير: حدثنا إسحاق ابن شاهين، حدثنا إسحاق الأزرق، عن السعودي، عن رجل يقال له: سعيد، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٧) قال: من آمن بالله واليوم الآخر، كتبت له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف. وهكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث السعودي، عن أبي سعد - وهو سعيد بن المرزبان البقال - عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، فذكره بنحوه، والله أعلم. وقد رواه أبو القاسم الطبراني عن عبدان بن أحمد، عن عيسى بن يونس الرُّملي، عن أيوب بن سويد، عن السعودي، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٧) قال: من تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يتبعه عوفي مما كان يتلى به سائر الأمم من الخسف والقذف.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ ءَاذَنَّاكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرَأْتَ أَرْحَبُ أَمَّ بَعِيدٌ مَّا تُؤْعَدُونَ﴾ (١٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ بِمَا تَقُولُونَ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ (٢٠) وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّكُمْ فَتَنَةً لِّكُرٍّ وَمَتَّعٌ إِلَيَّ جِنَّةٍ﴾ (٢١) قُلْ رَبِّ أَعْمُرْ بِالْحَقِّ وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (٢٢).

يقول تعالى أمرأ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، أن يقول للمشركين: ﴿إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: متبعون على ذلك، مستسلمون متقادون له. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: تركوا ما دعوتهم إليه، ﴿فَقَدْ ءَاذَنَّاكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: أعلمتكم أنني خرب لكم، كما أنكم خرب لي، بريء منكم كما أنكم برءاء مني، كقوله: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٤١) [يونس: ٤١]. وقال: ﴿وَلَئِنَّا تَخَافَتُمْ مِنْ قَوْمٍ خِشَانَةً فَانْذَرُوهُمْ إِنَّا لَمُؤْتِكُمْ سَوَاءً﴾ [الأنفال: ٥٨]: ليكن علمكم وعلمهم بنيد العهود على السواء، وهكذا ها هنا، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ ءَاذَنَّاكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: أعلمتكم ببراءتي منكم، وبراءتكم مني؛ لعلمي بذلك.

وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرَأْتَ أَرْحَبُ أَمَّ بَعِيدٌ مَّا تُؤْعَدُونَ﴾ أي: هو واقع لا محالة، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده، ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ بِمَا تَقُولُونَ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ (٢٠) أي: إن الله يعلم الغيب جميعه، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في أجهارهم وأسرارهم، وسيجزئهم على ذلك، على القليل والجليل. وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّكُمْ فَتَنَةً لِّكُرٍّ وَمَتَّعٌ إِلَيَّ جِنَّةٍ﴾ (٢١) أي: وما أدري لعل هذا فتنة لكم ومتاع إلى حين. قال ابن جرير: لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم، ومتاع إلى أجل مسمى. وحكاه عون، عن ابن عباس، والله أعلم.

﴿قُلْ رَبِّ أَعْمُرْ بِالْحَقِّ﴾ أي: افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق. قال قتادة: كان الأنبياء، عليهم السلام، يقولون: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَلِّتْ حَبْرَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك. وعن مالك، عن زيد بن أسلم: كان رسول الله ﷺ إذا شهد قتالاً قال: ﴿رَبِّ أَعْمُرْ بِالْحَقِّ﴾. وقوله: ﴿رَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (٢٢) أي: على ما يقولون ويفترون من الكذب، ويتنوعون في مقامات التكذيب والإفك، والله المستعان عليكم في ذلك.

تفسير سورة الحج

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًا رِيكُمُ إِنَّكَ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ نَحْنُ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرْوَنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾.

يقول تعالى أمراً عباده بتقواه، ومخبراً لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها. وقد اختلف المفسرون في زلزلة الساعة: هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى غرضات القيامة؟ أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجدائهم؟ كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ [الزلزلة: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٥﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٦﴾﴾ [الحاقة: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِذَا رَجَّعَتِ الْأَرْضُ رِجًّا ﴿١﴾ وَصُفَّتِ الْجِبَالُ صُفًّا ﴿٢﴾ فَكَانَتْ هَبَاةً مُتَكِنًا ﴿٣﴾﴾ [الواقعة: ٤-٦]. فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا، وأول أحوال الساعة. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة في قوله: ﴿إِنَّكَ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ نَحْنُ عَظِيمٌ﴾، قال: قبل الساعة. ورواه ابن أبي حاتم من حديث الثوري، عن منصور والأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، فذكره. قال: وروي عن الشعبي، وإبراهيم، وعبيد بن عمير، نحو ذلك. وقال أبو كذينة، عن عطاء، عن عامر الشعبي: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًا رِيكُمُ﴾ الآية، قال: هذا في الدنيا قبل يوم القيامة.

وقد أورد الإمام أبو جعفر بن جرير مستنداً من قال ذلك في حديث الصور، من رواية إسماعيل بن رافع قاضي أهل المدينة، عن يزيد بن أبي زياد، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب القرظي، عن رجل، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور، فأعطاه إسرافيل، فهو واضع في فيه، شاخص ببصره إلى العرش، ينتظر متى يؤمر». قال أبو هريرة: يا رسول الله، وما الصور؟ قال: «قرن» قال: فكيف هو؟ قال: «قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات، الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول: انفخ نفخة الفزع. فيفزع أهل السموات وأهل الأرض، إلا من شاء الله، ويأمره فيمدها ويطولها ولا يفتّر، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾ [ص: ١٥] فيسير الله الجبال، فتكون سراباً وترج الأرض بأهلها رجاً، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّابِيعَةُ ﴿٦﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّاوِدَةُ ﴿٧﴾ فَلَوْبُ يَوْمَئِذٍ وَاجِعَةٌ ﴿٨﴾﴾ [النازعات: ٦-٨]، فتكون الأرض، كالسفينة الموبقة في البحر، تضربها الأمواج تكفوها بأهلها، وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح. فيمتد الناس على ظهرها، فتذهل المراضع، وتضع الحوامل، ويشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربة، حتى تأتي الأقطار، فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها، وترجع، ويولي الناس مدبرين، ينادي بعضهم بعضاً، وهو الذي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ النَّفَاثُ ﴿٢٦﴾ يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ مَّا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَنَحْنُ مُصِلِلُ اللَّهِ قَالُوا لَمْ يَنْفَعْنَا اللَّهُ قَالُوا ﴿٢٧﴾﴾ [غافر: ٢٢، ٢٣] فبينما هم على ذلك إذ انصدعت الأرض من قطر إلى قطر، فأزوا أمراً عظيماً، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به، ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالمهل، ثم خسف شمسها وخسف قمرها، وانتشرت نجومها، ثم كُشِطت عنهم، قال رسول الله ﷺ: «والأموات لا يعلمون بشيء من ذلك» قال أبو هريرة: فمن استثنى الله حين يقول: ﴿فَنُفِخَ فِي فِي السَّمَكِ وَفِي فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَكَةَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]؟ قال: أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون، وقامهم الله شر ذلك اليوم وأمنهم، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه، وهو الذي يقول الله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًا رِيكُمُ إِنَّكَ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ نَحْنُ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرْوَنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾.

وهذا الحديث قد رواه الطبراني، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وغير واحد، مطولاً جداً. والغرض منه أنه دل على أن هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة، وأضيفت إلى الساعة لقربها منها، كما يقال: أشرط الساعة، ونحو ذلك، والله أعلم. وقال

آخرون: بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال، كائن يوم القيامة في العرصات، بعد القيام من القبور. واختار ذلك ابن جرير. واحتجوا بأحاديث:

الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن هشام، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن عمران ابن حصين؛ أن رسول الله ﷺ قال وهو في بعض أسفاره، وقد تفاوت بين أصحابه السير، رفع يهاتين الآيتين صوته: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُولُ رَبِّكُمْ إِنَّكَ زَلَّزَلَةُ السَّاعَةِ شَقٌّ عَظِيمٌ﴾ ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾، فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطي، وعرفوا أنه عند قول يقوله، فلما تاشبوا حوله قال: «أتدرون أي يوم ذاك؟ يوم ينادي آدم، عليه السلام، فيناديه ربه ﷻ، فيقول: يا آدم، ابعث بعثك إلى النار. فيقول: يا رب، وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون في النار، وواحد في الجنة». قال: فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى ذلك قال: «أبشروا واعملوا، فوالذي نفس محمد بيده، إنكم لمع خليقتين ما كنا مع شيء قط إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج، ومن هلك من بني آدم وبني إيليس» قال: فسُرِّي عنهم، ثم قال: اعملوا وأبشروا، فوالذي نفس محمد بيده، ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعيرة، أو الرقعة في ذراع الدابة». وهكذا رواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننهما، عن محمد بن بشار، عن يحيى - وهو القطان - عن هشام - وهو الدستوائي - عن قتادة، به بنحوه. وقال الترمذي: حسن صحيح.

طريق أخرى لهذا الحديث: قال الترمذي: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا ابن جُدعان، عن الحسن، عن عمران بن حصين؛ أن النبي ﷺ قال: لما نزلت: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُولُ رَبِّكُمْ إِنَّكَ زَلَّزَلَةُ السَّاعَةِ شَقٌّ عَظِيمٌ﴾ ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾، قال: أنزلت عليه هذه، وهو في سفر، فقال: «أتدرون أي يوم ذلك؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذلك يوم يقول الله لأدم: ابعث بعث النار. قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة» فأنشأ المسلمون ييكون، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسددوا، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية» قال: «فيؤخذ العدد من الجاهلية، فإن تمت ولا كملت من المتأففين، وما مثلكم والأمم إلا كمثل الرقعة في ذراع الدابة، أو كالشامة في جنب البعير» ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ربيع أهل الجنة» فكبروا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة» فكبروا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة» فكبروا، ولا أدري أقال الثلثين أم لا؟ وكذا رواه الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة، ثم قال الترمذي أيضاً: هذا حديث حسن صحيح. وقد روي عن سعيد بن أبي عروبة عن الحسن، عن عمران بن الحصين. وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن والعلاء بن زياد العدوي، عن عمران بن الحصين، فذكره. وهكذا روى ابن جرير عن بُذَار، عن عُثْدَر، عن عوف، عن الحسن قال: بلغني أن رسول الله ﷺ لما قفل من غزوة المُسَرَّة ومعه أصحابه بعدما شارف المدينة قرأ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُولُ رَبِّكُمْ إِنَّكَ زَلَّزَلَةُ السَّاعَةِ شَقٌّ عَظِيمٌ﴾ وذكر الحديث، فذكر نحو سياق ابن جُدعان، فالحق أعلم.

الحديث الثاني: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا ابن الطَّبَّاع، حدثنا أبو سفيان - يعني المعمرى - عن مَعْمَر، عن قتادة، عن أنس قال: نزلت: ﴿إِنَّكَ زَلَّزَلَةُ السَّاعَةِ شَقٌّ عَظِيمٌ﴾ وذكر - يعني: نحو سياق الحسن عن عمران - غير أنه قال: «ومن هلك من كفره الجن والإنس». رواه ابن جرير بطوله، من حديث معمر.

الحديث الثالث: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد - يعني ابن العوام - حدثنا هلال بن خباب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية فذكر نحوه، وقال فيه: «إني لأرجو أن تكونوا ربيع أهل الجنة»، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة»، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة» ففرحوا، وزاد أيضاً: «وإنما أنتم جزء من ألف جزء».

الحديث الرابع: قال البخاري عند هذه الآية: حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثنا أبو صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك. فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار. قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف - أراه قال - تسعمائة وتسعة وتسعين. فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، ﴿وَرَى النَّاسُ سُكْرَى وَمَا هُمْ بِسُكْرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، قال النبي ﷺ: «من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين، ومنكم واحد، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لأرجو أن تكونوا ربيع أهل الجنة»

فكبرنا، ثم قال: «ثلث أهل الجنة»، فكبرنا، ثم قال: «شطر أهل الجنة» فكبرنا. وقد رواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع، ومسلم، والنسائي في تفسيره، من طرق، عن الأعمش، به.

الحديث الخامس: قال الإمام أحمد: حدثنا عمار بن محمد - ابن أخت سفيان الثوري - وعبيدة المعني، كلاهما عن إبراهيم بن مسلم، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة متنادياً ينادي: يا آدم، إن الله يأمرك أن تبعث بعثاً من ذريتك إلى النار، فيقول آدم: يا رب، من هم؟ فيقال له: من كل مائة تسعة وتسعين». فقال رجل من القوم: من هذا التاجي منا بعد هذا يا رسول الله؟ قال: «هل تدرون ما أنتم في الناس إلا كالشامة في صدر البعير». انفرد بهذا السند وهذا السياق الإمام أحمد.

الحديث السادس: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن حاتم بن أبي صغيرة، حدثنا ابن أبي مليكة؛ أن القاسم بن محمد أخبره، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «إنكم تحشرون يوم القيامة خفاة عراة غرلاً». قالت عائشة: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة، إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاك». أخرجه في الصحيحين.

الحديث السابع: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن خالد بن أبي عمران، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة؟ قال: «يا عائشة، أما عند ثلاث فلا، أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف، فلا. وأما عند تطاير الكتب فإما يعطى يمينه أو يعطى شماله، فلا. وحين يخرج عُنُق من النار فينطوي عليهم، ويتغيظ عليهم، ويقول ذلك العنق: وكلت بثلاثة، وكلت بثلاثة، وكلت بثلاثة: وكلت بمن ادعى مع الله إلهاً آخر، وكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب، وكلت بكل جبار عنيد» قال: «فينطوي عليهم، ويرميهم في غمرات، ولجهنم جسر أدق من الشعر وأحد من السيف، عليه كلاليب وحسك يأخذون من شاء الله، والناس عليه كالطرف والبرق والريح، وكأجاويد الخيل والركاب، والملائكة يقولون: رب، سلم، سلم. فجاج مسلم، ومخدوش مسلم، ومكثور في النار على وجهه».

والأحاديث في أهوال يوم القيامة والآثار كثيرة جداً، لها موضع آخر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَقٌّ عَظِيمٌ﴾ أي: أمر كبير، وخطب جليل، وطارق مقطع، وحادث هائل، وكائن عجيب. والزلزال: هو ما يحصل للنفوس من الفزع والربح، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا لَآبَتِلَىٰ الْمُوتُورِ زَلْزَلًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١]. ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْوُهَا﴾: هذا من باب ضمير الشأن؛ ولهذا قال مفسراً له: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أي: تشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها، والتي هي أشفق الناس عليه، تدهش عنه في حال إرضاعها له؛ ولهذا قال: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾، ولم يقل: «مرضع» وقال: ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أي: عن رضيعها قبل فطامه. وقوله: ﴿وَنَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: قبل تمامه لشدة الهول، و﴿وَرَزَىٰ النَّاسُ سُكْرِيَّ﴾ وقرئ: ﴿سَكْرِيَّ﴾ أي: من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه قد دهشت عقولهم، وغابت أذهانهم، فمن رآهم حسب أنهم سُكْرَى، ﴿وَمَا هُمْ بِسُكْرَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَتَجَلَّىٰ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ كُتُبٌ كَثِيرٌ مِّنْ تِلْكَ فَأَنَّهُ يُصِلُهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾

يقول تعالى ذاماً لمن كذب بالبعث، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، معرضاً عما أنزل الله على أنبيائه، متبعاً في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مريد، من الإنس والجن، وهذا حال أهل الضلال والبدع، المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، يترون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء، ولهذا قال في شأنهم وأشباههم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: علم صحيح، ﴿وَتَتَجَلَّىٰ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ كُتُبٌ كَثِيرٌ﴾ قال مجاهد: يعني الشيطان، يعني: كتب عليه كتابة قدرية ﴿أَنَّهُ مِّنْ تِلْكَ﴾ أي: اتبعه وقلده، ﴿فَأَنَّهُ يُصِلُهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: يضلّه في الدنيا ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحار المولم المزعج المقلق.

وقد قال السدي، عن أبي مالك: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث. وكذلك قال ابن جريج. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن سلم البصري، حدثنا عمرو بن المحرم أبو قتادة، حدثنا المعمر، حدثنا أبو كعب المكي قال: قال خبيث من خبثاء قريش: أخبرنا عن ربكم، من ذهب هو، أو من فضة هو، أو من نحاس هو؟ فقعقت السماء قعقة - والقعقة في كلام العرب: الرعد - فإذا يخف رأسه ساقط بين يديه. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: جاء يهودي فقال: يا محمد، أخبرني عن ربك: من أي شيء هو؟ من در أم من ياقوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْآيَةِ فَاذْكُرُوا مَا خَلَقْنَا لَكُمْ فِي الْأَوَّلِ لعلَّكُمْ تُعْلَمُونَ﴾ ﴿٥﴾ وَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ يُعْلِمُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦﴾ وَإِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ فِي الْفُتُورِ ﴿٧﴾

لما ذكر تعالى المخالف للبعث، المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد، بما يشاهد من بدئه للخلق، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْآيَةِ﴾ أي: في شك ﴿مِّنَ الْآيَةِ﴾ وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة ﴿فَاذْكُرُوا مَا خَلَقْنَا لَكُمْ فِي الْأَوَّلِ﴾ أي: أصل بركته لكم من تراب، وهو الذي خلق منه آدم، عليه السلام ﴿لعلَّكُمْ تُعْلَمُونَ﴾ أي: ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين، ﴿وَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ يُعْلِمُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة، مكثت أربعين يوماً كذلك، يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقه حمراء بإذن الله، فتمكث كذلك أربعين يوماً، ثم تستحيل فنصير مضغة - قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط - ثم يشرع في التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس ويدان، وصدر وبطن، وفخذان ورجلان، وسائر الأعضاء. فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقىها وقد صارت ذات شكل وتخطيط؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ يُعْلِمُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ كما تشاهدونها، ﴿لعلَّكُمْ تُعْلَمُونَ﴾ أي: كما تشاهدونها، ﴿وَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ يُعْلِمُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: وتارة تستقر في الرحم لا تلقىها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ يُعْلِمُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قال: هو السقط مخلوق وغير مخلوق. فإذا مضى عليها أربعون يوماً، وهي مضغة، أرسل الله تعالى إليها ملكاً فنفخ فيها الروح، وسواها كما يشاء الله ﷻ من حسن وقبح، وذكر وأنثى، وكتب رزقها وأجلها، وشقي أو سعيد، كما ثبت في الصحيحين، من حديث الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن خلق أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات: يكتب عمله وأجله ورزقه، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح».

وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن علقمة، عن عبد الله قال: النطفة إذا استقرت في الرحم، أخذها ملك بكفه قال: يا رب، مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قيل: «غير مخلقة» لم تكن نسمة، وقذفها الأرحام دماً. وإن قيل: «مخلقة»، قال: أي رب، ذكر أم أنثى؟ شقي أو سعيد؟ ما الأجل؟ وما الأثر؟ وبأي أرض يموت؟ قال: فيقال للنطفة: من ربك؟ فنقول: الله. فيقال: من رازقك؟ فنقول: الله. فيقال له: اذهب إلى أم الكتاب، فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة. قال: فتخلق فتعيش في أجلاها، وتأكُل رزقها، وتطأ أثرها، حتى إذا جاء أجلها ماتت، فدفنت في ذلك المكان، ثم تلا عامر الشعبي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْآيَةِ فَاذْكُرُوا مَا خَلَقْنَا لَكُمْ فِي الْأَوَّلِ لعلَّكُمْ تُعْلَمُونَ﴾ ﴿٥﴾ وَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ يُعْلِمُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦﴾ وَإِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ فِي الْفُتُورِ ﴿٧﴾

نكست في الخلق. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد - يبلغ به النبي ﷺ قال: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين، فيقول: أي رب، أشقي أم سعيد؟ فيقول الله، ويكتبان، فيقول: أذكر أم أنثى؟ فيقول الله ويكتبان، ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله، ثم تطوى الصحف، فلا يزداد على ما فيها ولا ينقص». ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة، ومن طرق آخر، عن أبي الطفيل، بنحو معناه.

وقوله: ﴿وَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ يُعْلِمُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: ضعيفاً في بدنه، وسمعه وبصره وحواسه، ويطشه وعقله. ثم يعطيه الله القوة شيئاً فشيئاً، ويلطف به، ويحسن عليه والديه في آناه الليل وأطراف النهار؛ ولهذا قال: ﴿وَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ يُعْلِمُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: يتكامل القوى ويتزايد، ويصل إلى عتوان الشباب وحسن المنظر. ﴿وَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ يُعْلِمُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: في حال شبابه وقواه، ﴿وَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ يُعْلِمُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: لا يتأخر بعد عِلْمَ شَيْئاً. كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ ﴿٥٤﴾ [الروم: ٥٤]. وقد قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المشي الموصلي في مسنده: حدثنا منصور بن أبي مزاحم، حدثنا خالد الزيات، حدثني داود أبو سليمان، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم الأنصاري، عن أنس بن مالك - رفع الحديث - قال: «المولود حتى يبلغ الحنث، ما عمل من حسنة، كتبت لوالده أو لوالدته، وما عمل من سيئة لم تكتب عليه ولا على والديه، فإذا بلغ الحنث جرى الله عليه القلم أمر الملكان اللذان معه

أن يحفظا وأن يشددا، فإذا بلغ أربعين سنة في الإسلام أمته الله من البلياء الثلاث: الجنون، والجذام، والبرص. فإذا بلغ الخمسين، خفف الله حسابه. فإذا بلغ ستين رزقه الله الإنابة إليه بما يحب، فإذا بلغ السبعين أحبه أهل السماء، فإذا بلغ الثمانين كتب الله حسناته وتجاوز عن سيئاته، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشفعه في أهل بيته، وكان أسير الله في أرضه، فإذا بلغ أرذل العمر ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، كتب الله له مثل ما كان يعمل في صحته من الخير، فإذا عمل سيئة لم تكتب عليه. هذا حديث غريب جداً، وفيه نكارة شديدة.

ومع هذا قد رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده مرفوعاً وموقوفاً فقال: حدثنا أبو النضر، حدثنا الفرج، حدثنا محمد بن عامر، عن محمد بن عبد الله العامري، عن عمرو بن جعفر، عن أنس قال: إذا بلغ الرجل المسلم أربعين سنة، أمته الله من أنواع البلياء، من الجنون والجذام والبرص، فإذا بلغ الخمسين كُتِبَ الله حسابه، وإذا بلغ الستين رزقه الله إنابة يحبه عليها، وإذا بلغ السبعين أحبه الله، وأحبه أهل السماء، وإذا بلغ الثمانين تقبل الله حسناته، ومحا عنه سيئاته، وإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمي أسير الله في الأرض، وشفع في أهله. ثم قال: حدثنا هشام، حدثنا الفرج، حدثني محمد بن عبد الله العامري، عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ، مثله.

ورواه الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أنس بن عياض، حدثني يوسف بن أبي ذرة الأنصاري، عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري، عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من معمر يعمر في الإسلام أربعين سنة، إلا صرف الله عنه ثلاثة أنواع من البلاء: الجنون والجذام والبرص...» وذكر تمام الحديث، كما تقدم سواء.

ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبد الله بن شبيب، عن أبي شيبة، عن عبد الله بن عبد الملك، عن أبي قتادة الغفري، عن ابن أخي الزهري، عن عمه، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يعمر في الإسلام أربعين سنة، إلا صرف الله عنه أنواعاً من البلاء: الجنون والجذام والبرص، فإذا بلغ خمسين سنة لين الله له الحساب، فإذا بلغ ستين سنة رزقه الله الإنابة إليه بما يحب، فإذا بلغ سبعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمي أسير الله، وأحبه أهل السماء، فإذا بلغ الثمانين تقبل الله منه حسناته وتجاوز عن سيئاته، فإذا بلغ التسعين غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمي أسير الله في أرضه، وشفع في أهل بيته».

وقوله: ﴿وَوَرَى الْأَرْضَ الْوَيْدَ﴾: هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يحيي الأرض الميتة الهامدة، وهي الفحلة التي لا نبت فيها ولا شيء. وقال قتادة: غرباء متهمسة. وقال السدي: ميتة. ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْبَرَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ﴾ أي: فإذا أنزل الله عليها المطر ﴿اهْبَرَّتْ﴾ أي: تحركت وحييت بعد موتها، ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبت ما فيها من الألوان والفنون، ومن ثمار وزروع، وأشادت النباتات في اختلاف ألوانها وطعومها، وروائحها وأشكالها ومنافعها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ﴾ أي: حسن المنظر طيب الريح. وقوله: ﴿ذَلِكَ يَأْنِ أَنْتَ هُوَ لَمُتْ﴾ أي: الخالق المدبر الفعال لما يشاء، ﴿وَأَنْتَ بَيْنَ يَدَيْهِ السَّوْتُ﴾ أي: كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَحْيَاكَ لَتَبَيْنَا السَّوْتُ﴾، ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصل: ٣٩] ذ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٨٧﴾ [يس: ٨٢].

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: كائنة لا شك فيها ولا مرية، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي: يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم رمماً، ويوجد لهم بعد العدم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَنَا مِثْلًا مَنْ يُبْعَثُ خَلَقَهُ قَالُوا مَنْ يَنْبِئُ بِالْعَظْمِ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُبْعَثُ الَّذِينَ أَنْشَأَهَا أَوَّلَ سَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ أَلَيْسَ جَمَلٌ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ تَارًا إِذَا أَثَرَتْ مِنْهُ ثُؤُودُونَ ﴿٨٠﴾ [يس: ٧٨-٨٠] والآيات في هذا كثيرة. وقال الإمام أحمد: حدثنا بهز، حدثنا حماد بن سلمة قال: أنبأنا يعلى عن عطاء، عن وكيع بن حُدُس، عن عمه أبي زرين العقيلي - واسمه لقيط بن عامر - أنه قال: يا رسول الله، أكلنا يرى ربك يوم القيامة؟ وما آية ذلك في خلقه؟ فقال رسول الله ﷺ: «اليس كلكم ينظر إلى القمر مُخْلِياً به؟» قلنا: بلى. قال: «فالله أعظم». قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى، وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «أما مررت بوادي أهلك محلاً؟» قال: بلى. قال: «ثم مررت به يهتز خضراً؟» قال: بلى. قال: «فكذلك يحيي الله الموتى، وذلك آيته في خلقه».

ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث حماد بن سلمة، به. ثم رواه الإمام أحمد أيضاً: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن سليمان بن موسى، عن أبي زرين العقيلي قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ قال: «أمرت بأرض من أرضك مُجْدِبَةٌ، ثم مررت بها مخصبة؟» قال: نعم.

قال: «كذلك النشور». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا غيبس بن مرحوم، حدثنا بكير بن أبي الشميط، عن قتادة، عن أبي الحجاج، عن معاذ بن جبل قال: من علم أن الله هو الحق المبين، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور - دخل الجنة. والله أعلم.

﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾ تَأْتِي عَظِيمُهُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يَظْلِمُ لِلْعَبِيدِ﴾

لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلدين في قوله: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَبَشَعَ كُلَّ شَيْطَانٍ مُرِيدٍ﴾ ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع، فقال: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأي والهوى. وقوله: ﴿تَأْتِي عَظِيمُهُ﴾ قال ابن عباس وغيره: مستكبراً عن الحق إذا دعي إليه. وقال مجاهد، وقاتدة، ومالك عن زيد بن أسلم: ﴿تَأْتِي عَظِيمُهُ﴾ أي: لاوي عقه، وهي رقبته، يعني: يعرض عما يدعى إليه من الحق رقبته استكباراً، كقوله تعالى: ﴿وَقِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْتَهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ يَشُكِّلُ فِيهِ ثَمِينًا ﴿٢٨﴾ فَكَرَّ يَرْكَبُهُ وَقَالَ سَجَرٌ أَوْ جَبَلٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الذاريات: ٢٨، ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَقَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُتَفِينِينَ يُعْصِدُونَ عَنْكَ صُدُوكًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء: ٦٦]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَقَالَوْا يَسْتَفْتِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ أَفُلَا تُؤْمِنُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النساء: ٦٧]، وقال لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ حَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨] أي: تميله عنهم استكباراً عليهم، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَادَّ عَادُوْنَا وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ سُلْطَانٌ وَلَا كِتَابٌ وَكَانَ لَكُمْ آيَاتٌ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن الصباح، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام، عن الحسن قال: بلغني أن أحدهم يحرق في اليوم سبعين ألف مرة.

وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال بعضهم: هذه لام العاقبة؛ لأنه قد لا يقصد ذلك، ويحتمل أن تكون لام التعليل. ثم إما أن يكون المراد بها المعاندين، أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جبلناه على هذا الخلق الذي يجعله ممن يضل عن سبيل الله. ثم قال تعالى: ﴿لَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهو الإهانة والذل، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لقاء الله المذلة في الدنيا، وعاقبه فيها قبل الآخرة؛ لأنها أكبر همّه ومبلغ علمه، ﴿وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ذلك بما قَدَّمْتَ يَدَاكَ أي: يقال له هذا تقرّباً وتوبيخاً، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يَظْلِمُ لِلْعَبِيدِ﴾ كقوله تعالى: ﴿عَذُّوهُ فَاعْتَبِرْهُ إِلَىٰ سَوَاءٍ الْحَبِيرِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَبِيرِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان: ٤٧ - ٥٠]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن الصباح، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام، عن الحسن قال: بلغني أن أحدهم يحرق في اليوم سبعين ألف مرة.

﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُعَادُّ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرٌ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ ﴿١٠﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَمَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا لَمَنْ سَرَّهُمْ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِمْ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَمِيرُ ﴿١٢﴾﴾

قال مجاهد، وقاتدة، وغيرهما: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ على شك. وقال غيرهم: على طرف. ومنه حرف الجبل، أي: طرفه، أي: دخل في الدين على طرف، فإن وجد ما يحبه استقر، وإلا انشمر. وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن الحارث، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا إسرائيل، عن أبي حصين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُعَادُّ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاماً، وتنجت خيله، قال: هذا دين صالح. وإن لم تلد امرأته، ولم تنج خيله قال: هذا دين سوء. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثنا أبي، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق القمي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم، فإن وجدوا عام جدية و عام غيث و عام خصب و عام ولاد حسن، قالوا: «إن ديننا هذا لصالح، فتمسكوا به». وإن وجدوا عام جدية و عام ولاد سوء و عام قحط، قالوا: «ما في ديننا هذا خير». فأنزل الله على نبيه: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُعَادُّ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾

وقال العوفي، عن ابن عباس: كان أحدهم إذا قدم المدينة، وهي أرض ويثة، فإن صح بها جسمه، وتنجت فرسه مهراً حسناً، وولدت امرأته غلاماً، رضي به واطمأن إليه، وقال: «ما أصبت منذ كنت على ديني هذا إلا خيراً». وإن أصابته فتنة - والفتنة: البلاء - أي: وإن أصابه وجع المدينة، وولدت امرأته جارية، وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت

على دينك هذا إلا شراً. وذلك الفتنة. وهكذا ذكر قتادة، والضحاك، وابن جريج، وغير واحد من السلف، في تفسير هذه الآية. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو المنافق، إن صلحت له دنياه أقام على العادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت، انقلب فلا يقيم على العادة إلا لئلا يصلح من دنياه، فإن أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق، ترك دينه ورجع إلى الكفر. وقال مجاهد في قوله: ﴿انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي: ارتد كافراً.

وقوله: ﴿خَيْرَ الدِّينِ وَالْآخِرَةِ﴾ أي: فلا هو حصل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَسَادُ الْكَبِيرُ﴾ أي: هذه هي الخسارة العظيمة، والصفقة الخاسرة. وقوله: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَمَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، يستغيث بها ويستنصرها ويستترزقها، وهي لا تنفعه ولا تضره، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَسَادُ الْكَبِيرُ﴾ يدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ، أي: ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن. وقوله: ﴿لَيْسَ أَلْمُوكَ وَلَيْسَ أَلْمَشِيرُ﴾ قال مجاهد: يعني الوثن، يعني: ينس هذا الذي دعا به من دون الله مولى، يعني: ولياً وناصراً، ﴿وَلَيْسَ أَلْمَشِيرُ﴾ وهو المخالط والمعاشر. واختار ابن جرير أن المراد: لبس ابن العم والصاحب من يعبد الله على حرف، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾. وقول مجاهد: إن المراد به الوثن، أولى وأقرب إلى سياق الكلام، والله أعلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْعُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَحْلِلُ الْأَرْوَاحَ الَّتِي فِي الْأَنْفُسِ الَّتِي فِي الْأَنْفُسِ الَّتِي فِي الْأَنْفُسِ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء، عطف بذكر الأبرار السعداء، من الذين آمنوا بقلوبهم، وصدقوا إيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات، وتركوا المنكرات، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات، في روضات الجنات. ولما ذكر أنه أضل أولئك، وهدى هؤلاء، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿مَنْ كَانَ يَظُنْ أَنْ لَنْ يَمُرَّ بِهِ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبِّهِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَنْقَضْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَكِيدُ ۚ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾.

قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ في الدنيا والآخرة، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبِّهِ﴾ أي: بحبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: سماء بيته، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ يقول: ثم ليختنق به. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وأبو الجوزاء، وقتادة، وغيرهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبِّهِ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: ليتوصل إلى بلوغ السماء، فإن النصر إنما يأتي محمداً من السماء، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ ذلك عنه، إن قدر على ذلك. وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى، وأبلغ في التهكم؛ فإن المعنى: من ظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ۚ﴾ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ أَلْسِنَةٌ وَلَهُمْ سُوِّ الدَّارِ﴾ (غافر: ٥١، ٥٢)؛ ولهذا قال: ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَكِيدُ﴾. قال السدي: يعني: من شأن محمد ﷺ. وقال عطاء الخراساني: فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي: القرآن ﴿آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ﴾ أي: واضحات في لفظها ومعناها، حجة من الله على الناس ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ أي: يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وله الحكمة التامة والحجة القاطعة في ذلك، ﴿لَا يَسْتَلْ عَنَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُنْتَلَوْنَ﴾ (الأنبياء: ٢٣)، أما هو فلحكمته ورحمته وعدله، وعلمه وقهره وعظمته، لا مقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجُوسَ وَالنُّصَارَى وَالَّذِينَ أَتْرَكُوا لَرَأَى اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١٧).

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين، ومن سواهم من اليهود والصابئين - وقد قدمنا في سورة «البقرة» التعريف بهم، واختلاف الناس فيهم - والنصارى والمجوس، والذين أشركوا فعبدوا غير الله معه؛ فإنه تعالى: ﴿يَقِيلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، ويحكم بينهم بالعدل، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم، وما تكن ضمائرهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ الَّذِينَ لَا يَذْكُرُونَ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (١٨).

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً وسجود كل شيء مما يختص به،

كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ نَفْسِهِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَرَبُّهُمُ الرَّحْمَنُ﴾ [النحل: ٤٨]. وقال هاهنا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: من الملائكة في أقطار السموات، والحيوانات في جميع الجهات، من الإنس والجن والدواب والطير، ﴿وَلَيْنَ تَقُولُوا لَا يَنْصَحُكُمْ بِهِمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾: إنما ذكر هذه على التنقيص؛ لأنها قد عُبِدَت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [نعل: ٣٧].

وفي الصحيحين عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدري أين تذهب هذه الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت». وفي المسند وسنن أبي داود، والنسائي، وابن ماجه، في حديث الكسوف: «إن الشمس والقمر خَلَقَانِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، وإِنَّمَا لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ﷻ إِذَا تَجَلَّى لشيءٍ مِنْ خَلْقِهِ خَشَعَ لَهُ». وقال أبو العالية: ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر، إلا يقع لله ساجداً حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعته.

وأما الجبال والشجر فسجودهما بغير ظلّ لهما عن اليمين والشمال. وعن ابن عباس قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، إني رأيتني الليلة وأنا نائم، كأني أصلي خلف شجرة، فسجدت فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: اللهم، اكتب لي بها عندك أجراً، وضع عني بها وزراً، واجعلها لي عندك ذكراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود. قال ابن عباس: فقرأ النبي ﷺ سجدة ثم سجد، فسمعتة وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة. رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه.

وقوله: ﴿وَالذَّوَابُ﴾ أي: الحيوانات كلها. وقد جاء في الحديث عن الإمام أحمد: أن رسول الله ﷺ نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر. فرب مركوب خير وأكثر ذكراً لله من ركبها. وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِنْ الْآبَاءِ﴾ أي: يسجد لله طوعاً مختاراً متعبداً بذلك، ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أي: ممن امتنع وأبى واستكبر، ﴿وَمَنْ مِنْهُمْ لَمْ يَكُفِّرْ إِنْ اللَّهَ فَعَلَّ مَا يَشَاءُ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن شيبان الرملي، حدثنا القداح، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي قال: قيل لعلي: إن هاهنا رجلاً يتكلم في المشيئة. فقال له علي: يا عبد الله، خلقك الله كما يشاء أو كما شئت؟ قال: بل كما شاء. قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء؟ قال: بل حيث يشاء. قال: والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عيناك بالسيف.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله. أمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت، فلي النار» رواه مسلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم وأبو عبد الرحمن المقرئ قالا: حدثنا ابن لهيعة، حدثنا مَشْرَحُ بْنُ هَاعَانَ أَبُو مُصْعَبٍ المَعَاوِي قال: سمعت عقبة بن عامر يقول: قلت يا رسول الله، أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجديتين؟ قال: «نعم»، فمن لم يسجد بهما فلا يقرأهما. ورواه أبو داود والترمذي، من حديث عبد الله بن لهيعة، به. وقال الترمذي: «ليس بقوي» وفي هذا نظر؛ فإن ابن لهيعة قد صرح فيه بالسمع، وأكثر ما تَقَمَّوا عليه تدليس.

وقد قال أبو داود في المراسيل: حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح، أنبأ ابن وهب، أخبرني معاوية بن صالح، عن عامر بن جَشِيب، عن خالد بن مَعْدَانَ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلَت سورة الحج على القرآن بسجديتين». ثم قال: أبو داود: وقد أسند هذا، يعني: من غير هذا الوجه، ولا يصح. وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلي: حدثنا ابن أبي داود، حدثنا يزيد بن عبد الله، حدثنا الوليد، حدثنا أبو عمرو، حدثنا حفص بن عَنَّان، حدثني نافع، حدثني أبو الجهم: أن عمر سجد سجديتين في الحج، وهو بالجابية، وقال: إن هذه فضلت بسجديتين. وروى أبو داود وابن ماجه، من حديث الحارث بن سعيد الغنقي، عن عبد الله بن مُثَنَّى، عن عمرو بن العاص؛ أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن، منها ثلاث في الْمُفْصَل، وفي سورة الحج سجدتان. فهذه شواهد يَشُدُّ بعضها بعضاً.

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمَا فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ تَنْ تَارُ يُصَبُّ مِنْ قَوْفِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [١٩] يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بَطُونِهِمْ وَلَيْكُلُودُ [٢٠] وَلَقَدْ تَقَفَّعَ مِنْ حَيْبِ [٢١] كَلَمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرِجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا وَدُفِعُوا عَذَابَ الْخَرِيقِ [٢٢].

ثبت في الصحيحين، من حديث أبي مجلز، عن قيس بن عباد، عن أبي ذر؛ أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ

أَخْصَصُوا فِي رِيَّيْمٍ نَزَلَتْ فِي حَمْزَةٍ وَصَاحِيهِ، وَعَتَبَةُ وَصَاحِيهِ، يَوْمَ بَرَزُوا فِي بَدْرٍ. لَفْظُ الْبَخَارِيِّ عِنْدَ تَفْسِيرِهَا، ثُمَّ قَالَ الْبَخَارِيُّ: حَدَّثَنَا الْحِجَاجُ بْنُ مِثْقَالٍ، حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، سَمِعْتُ أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو مِجْلَزٍ عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ قَالَ: أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَجْتُو بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ لِلْخُصُومَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قَالَ قَيْسٌ: وَفِيهِمْ نَزَلَتْ ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَصُوا فِي رِيَّيْمٍ﴾، قَالَ: هُمَ الَّذِينَ بَارَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ: عَلِيٌّ وَحَمْزَةُ وَعَبِيدَةُ، وَشَيْبَةُ بْنُ رَيْبَعَةَ وَعَتَبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدُ بْنُ عَتَبَةَ. انْفَرَدَ بِهِ الْبَخَارِيُّ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَصُوا فِي رِيَّيْمٍ﴾ قَالَ: اخْتَصِمَ الْمُسْلِمُونَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ، فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ: نَبِينَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ، وَكُتَابُنَا قَبْلَ كِتَابِكُمْ، فَنَحْنُ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْكُمْ. وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: كُتَابُنَا يَقْضِي عَلَى الْكِتَابِ كُلِّهَا، وَنَبِينَا خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، فَنَحْنُ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْكُمْ. فَأَفْلَجَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ عَلَى مَنْ نَآوَاهُ، وَأَنْزَلَ: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَصُوا فِي رِيَّيْمٍ﴾. وَكَذَا رَوَى الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَالَ شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَصُوا فِي رِيَّيْمٍ﴾ قَالَ: مُصَدِّقٌ وَمَكْذَبٌ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: مَثَلُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ اخْتِصَامًا فِي الْبَعْثِ. وَقَالَ - فِي رِوَايَةٍ: هُوَ عَطَاءٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ -: هُمَ الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُونَ.

وَقَالَ عِكْرَمَةُ: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَصُوا فِي رِيَّيْمٍ﴾ قَالَ: هِيَ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، قَالَتِ النَّارُ: اجْعَلْنِي لِلْعُقُوبَةِ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: اجْعَلْنِي لِلرَّحْمَةِ. وَقَوْلُ مُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ: إِنْ الْمُرَادُ بِهَذَا الْكَافِرُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ، يَشْمَلُ الْأَقْوَالَ كُلِّهَا، وَيَنْتَظِمُ فِيهِ قِصَّةُ يَوْمِ بَدْرٍ وَغَيْرِهَا؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرِيدُونَ نَصْرَةَ دِينِ اللَّهِ، وَالْكَافِرُونَ يَرِيدُونَ إِطْفَاءَ نُورِ الْإِيمَانِ وَخِذْلَانِ الْحَقِّ وَظُهُورِ الْبَاطِلِ. وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ، وَهُوَ حَسَنٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ أَيُّ: فَصَلَتْ لَهُمْ مَقَطَعَاتُ مِنْ نَارٍ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: مِنْ نَحَاسٍ وَهُوَ أَشَدُّ الْأَشْيَاءِ حَرَارَةً إِذَا حَمِيَ. ﴿يُصَبُّ مِنْ قَوْفِ رُؤُسِهِمْ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ (٢٣) أَيُّ: إِذَا صَبَّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ، وَهُوَ الْمَاءُ الْحَارُّ فِي غَايَةِ الْحَرَارَةِ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: هُوَ النَّحَاسُ الْمَذَابُ، أَذَابَ مَا فِي بُطُونِهِمْ مِنَ الشَّحْمِ وَالْأَمْعَاءِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ، وَغَيْرُهُمْ. وَكَذَلِكَ تَذَوَّبَ جُلُودُهُمْ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ: تَسَاقَطَ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ أَبُو إِسْحَاقَ الطَّالِقَانِي، حَدَّثَنَا ابْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أَبِي السَّمْحِ، عَنْ ابْنِ حُجْرَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْحَمِيمَ لَيُصَبُّ عَلَى رُؤُوسِهِمْ، فَيَنْفَذُ الْجَمْعَةَ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى جَوْفِهِ، فَيَسْلُتُ مَا فِي جَوْفِهِ، حَتَّى يَبْلُغَ قَدَمَيْهِ، وَهُوَ الصَّهْرُ، ثُمَّ يَعَادُ كَمَا كَانَ». وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ الْمُبَارَكِ، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي نَعِيمٍ، عَنْ ابْنِ الْمُبَارَكِ، بِهِ ثُمَّ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْخَوَّارِيِّ، سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الشَّرِيحِيِّ قَالَ: يَأْتِيهِ الْمَلِكُ يَحْمِلُ الْإِنَاءَ بِكَلْبَتَيْنِ مِنْ حَرَارَتِهِ، فَإِذَا أَذْنَاهُ مِنْ وَجْهِهِ تَكَرَّهَ، قَالَ: فَيَفْرِغُ مَقْمَعَةً مَعَهُ فَيَضْرِبُ بِهَا رَأْسَهُ، فَيَفْرِغُ دِمَاغَهُ، ثُمَّ يُفْرِغُ الْإِنَاءَ مِنْ دِمَاغِهِ، فَيَصِلُ إِلَى جَوْفِهِ مِنْ دِمَاغِهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ (٢٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَهُمْ مَقْمِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ (٢٤)، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا حَسَنُ بْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهْيَعَةَ، حَدَّثَنَا دَرَّاجٌ، عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ مَقْمَعًا مِنْ حَدِيدٍ وَضِعَ فِي الْأَرْضِ، فَاجْتَمَعَ لَهُ الثَّقَلَانِ مَا أَقْلَوْهُ مِنَ الْأَرْضِ». وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ دَاوُدَ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهْيَعَةَ، حَدَّثَنَا دَرَّاجٌ، عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «لَوْ ضُرِبَ الْجَبَلُ بِمَقْمَعٍ مِنْ حَدِيدٍ، لَتَفَتَّتْ ثُمَّ عَادَ كَمَا كَانَ، وَلَوْ أَنَّ دُلُومًا مِنْ عَسَاقٍ يَهْرَاقُ فِي الدُّنْيَا لَأَنْتَنَ أَهْلُ الدُّنْيَا». وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَهُمْ مَقْمِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ (٢٤) قَالَ: يَضْرِبُونَ بِهَا، فَيَقَعُ كُلُّ عَضْوٍ عَلَى حِيَالِهِ، فَيَدْعُونَ بِالْبُثُورِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا﴾. قَالَ الْأَعْمَشُ، عَنْ أَبِي ظَبْيَانَ، عَنْ سُلَيْمَانَ قَالَ: النَّارُ سُودَاءُ مُظْلَمَةٌ، لَا يَضِيءُ لَهَا وَلَا جَمْرُهَا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا﴾. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا﴾. قَالَ: بَلَّغْنِي أَنَّ أَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ لَا يَتَنَفَّسُونَ. وَقَالَ الْفَضْلِيُّ بْنُ عِيَّاضٍ: وَاللَّهِ مَا طَمَعُوا فِي الْخُرُوجِ، إِنَّ الْأَرْجُلَ لَمُقْبِدَةً، وَإِنَّ الْأَيْدِيَ لَمَوْثِقَةٌ، وَلَكِنْ يَرْفَعُهُمْ لَهَا، وَتَرُدُّهُمْ مَقَامِعَهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَدُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ دُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠] وَمَعْنَى الْكَلَامِ: أَنَّهُمْ يَهَانُونَ بِالْعَذَابِ قَوْلًا وَفِعْلًا.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُكَلِّفُ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (٢٥) وَهَذَا إِلَى الْكَلْبِ مِنْ الْقَوْلِ وَهَذَا إِلَى صِرَاطِ الْقَيْدِ (٢٥)

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار، عباداً بالله من حالهم، وما هم فيه من العذاب والثكال والحريق والأغلال، وما أعد لهم من الشيا من النار، ذكر حال أهل الجنة - نسال الله من فضله وكرمه أن يدخلنا الجنة - فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: تتخَرَّق في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وتحت أشجارها وقصورها، يصرفونها حيث شاؤوا وأين شاؤوا، ﴿يُحْكَمُونَ فِيهَا﴾ من الحلية، ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أي: في أيديهم، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «تبلغ الجنة من المؤمن حيث يبلغ الضوء» وقال كعب الأحبار: إن في الجنة ملكاً لو شئت أن أسميه لسميته، يصوغ لأهل الجنة الحلي منذ خلقه الله إلى يوم القيامة، لو أبرز قلب منها - أي: سوار منها - لرد شعاع الشمس، كما ترد الشمس نور القمر.

وقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾: في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير، إستبرقه وسندسه، كما قال: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُفَرٌ وَاسْتَبْرَقٌ وَحُلَاءُ أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَمَهُمْ وَهُمْ مُسْتَبْرَقُونَ﴾ (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا (٢٢) [الإنسان: ٢١، ٢٢]، وفي الصحيح: «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج في الدنيا، فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة». قال عبد الله بن الزبير: ومن لم يلبس الحرير في الآخرة، لم يدخل الجنة، قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

وقوله: ﴿وَمُدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، كقوله: ﴿وَأَدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يَحْتَسِبُ فِيهَا سَلَامٌ﴾ (٢٣) [إبراهيم: ٢٣]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٢٤) سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا فِيمَ عَقَى الدَّارِ (٢٥) [الرعد: ٢٣، ٢٤] وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْيِيمًا﴾ (٢٦) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب، ﴿وَيُلْقَوْنَ فِيهَا زَوْجَةً وَكَانَتْ سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يُزَوِّعون بها ويقرعون به، يقال لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وقوله: ﴿وَمُدُّوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم، على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسده إليهم، كما جاء في الصحيح: «إنهم يلهمون التسبيح والتحميد، كما يلهمون الثَّقَس». وقد قال بعض المفسرين في قوله: ﴿وَمُدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: القرآن. وقيل: لا إله إلا الله. وقيل: الأذكار المشروعة، ﴿وَمُدُّوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: الطريق المستقيم في الدنيا. وكل هذا لا ينافي ما ذكرناه، والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَتَلَّوْا الْحِكْمَ الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنَكَ فِيهِ وَالْبَاطِلُ وَمَنْ بُرِّدَ فِيهِ بِالْحَكْمِ يَظْلَمُونَ نُفُوقَهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٧)

يقول تعالى منكرًا على الكفار في صَدِّهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام، وقضاء مناسكهم فيه، ودعواهم أنهم أولياؤه: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْتِفُؤُنَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]. وفي هذه الآية دليل على أنها مدنية، كما قال في سورة «البقرة»: ﴿يَتَكَلَّمُونَ عَنْ الثَّغْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلٌ يَقَالُ فِيهِ كِبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْثَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال هاهنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَتَلَّوْا الْحِكْمَ الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنَكَ فِيهِ وَالْبَاطِلُ وَمَنْ بُرِّدَ فِيهِ بِالْحَكْمِ يَظْلَمُونَ نُفُوقَهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الرعد: ٢٨] أي: ومن صفتهم أنهم تظمن قلوبهم بذكر الله.

وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنَكَ فِيهِ وَالْبَاطِلُ﴾ أي: يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله شرعاً سواء، لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه، ﴿سَوَاءً الْعَنَكَ فِيهِ وَالْبَاطِلُ﴾ ومن ذلك استواء الناس في رباح مكة وسكنائها، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿سَوَاءً الْعَنَكَ فِيهِ وَالْبَاطِلُ﴾ قال: ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام. وقال مجاهد في قوله: ﴿سَوَاءً الْعَنَكَ فِيهِ وَالْبَاطِلُ﴾: أهل مكة وغيرهم فيه سواء في المنازل. وكذا قال أبو صالح، وعبد الرحمن بن سابط، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة: سواء فيه أهله وغير أهله.

وهذه المسألة اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهويه بمسجد الخيف، وأحمد بن حنبل حاضر أيضاً، فذهب الشافعي، رحمه الله، إلى أن رباح مكة تملك وتورث وتؤجر، واحتج بحديث الزهري، عن علي بن الحسين، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة بن زيد قال: قلت: يا رسول الله، أتزل غداً في دارك بمكة؟ فقال: «وهل ترك لنا عقيل من رباح». ثم قال: «لا يرث

الكافر المسلم، ولا المسلم الكافر». وهذا الحديث مُخْرَج في الصحيحين وبما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية داراً بمكة، ففعلها سجناً بأربعة آلاف درهم. وبه قال طاوس، وعمر بن دينار. وذهب إسحاق بن راهويه إلى أنها تورث ولا تُوجر. وهو مذهب طائفة من السلف، ونص عليه مجاهد وعطاء، واحتج إسحاق بن راهويه بما رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عيسى بن يونس، عن عُمر بن سعيد بن أبي حُسَيْن، عن عثمان بن أبي سليمان، عن علقمة بن نضلة قال: تُوفي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وما تدعى رباغ مكة إلا السوائب، من احتاج سكن، ومن استغنى أسكن. وقال عبد الرزاق عن ابن مجاهد، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو أنه قال: لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها. وقال أيضاً عن ابن جريج: كان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم، وأخبرني أن عمر بن الخطاب كان ينهى أن تُبَوَّ دور مكة؛ لأن ينزل الحاج في غَرَصاتها، فكان أول من بَوَّ داره سُهَيْل بن عمرو، فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك، فقال: أنظرنِي يا أمير المؤمنين، إني كنت امرأة تاجراً، فأردت أن أتخذ بابين يجلسان لي ظهري قال: فذلك إذاً.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن منصور، عن مجاهد؛ أن عمر بن الخطاب قال: يا أهل مكة، لا تتخذوا الدوركم أبواباً لينزل البادي حيث يشاء. قال: وأخبرنا مَعْمَر، عن سمع عطاء يقول في قوله: ﴿سَوَاءٌ لَّكَ فِيهِ وَآلَاؤُ﴾، قال: ينزلون حيث شاؤوا. وروى الدارقطني من حديث ابن أبي نَجِيج، عن عبد الله بن عمرو موقوفاً: من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً. وتوسط الإمام أحمد فيما نقله صالح ابنه فقال: تملك وتورث ولا تُوجر، جمعاً بين الأدلة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُدْرِ فِيهِ بِالْحَكَايِ يُظْلَمُ نَفْسُهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾: قال بعض المفسرين من أهل العربية: الباء هاهنا زائدة، كقوله: ﴿تَنْتَبُحُ بِالْفَنِّ﴾ [المومنون: ٢٠] أي: تَنْتَبُحُ الدهن، وكذا قوله: ﴿وَمَنْ يُدْرِ فِيهِ بِالْحَكَايِ﴾ تقديره إلحاداً، وكما قال الأعشى: ضَمَّتْ بِرِزْقِ عِيَالِنَا أَزْمَاخُنَا بَيْنَ الْمَرَاجِلِ، والضريح الأجرد وقال الآخر:

بِوَادِ يَمَانٍ يُثَبِّتُ الثُّبْتَ صَنْدُوهَ وَأَشْفَلُهُ بِالْمَرْخِ وَالشُّبْهَانِ والأجود أنه ضمن الفعل هاهنا معنى «يَهْمُ»، ولهذا عدها بالياء، فقال: ﴿وَمَنْ يُدْرِ فِيهِ بِالْحَكَايِ يُظْلَمُ﴾ أي: يَهْمُ فيه بامر فظيع من المعاصي الكبار. وقوله: ﴿يُظْلَمُ﴾ أي: عامداً قاصداً أنه ظلم ليس بمتأول، كما قال ابن جريج، عن ابن عباس: هو التعمد. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يُظْلَمُ﴾: بشرك. وقال مجاهد: أن يعبد فيه غير الله. وكذا قال قتادة، وغير واحد. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿يُظْلَمُ﴾: هو أن تستحل من الحرام ما حَرَّمَ الله عليك من لسان أو قتل، فتظلم من لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك، فإذا قُتِلَ ذلك فقد وَجِبَ له العذاب الأليم. وقال مجاهد: ﴿يُظْلَمُ﴾: يعمل فيه عملاً سيئاً. وهذا من خصوصية الحرم أن يعاقب البادي فيه الشر، إذا كان عازماً عليه، وإن لم يوقعه، كما قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أحمد بن سِتَّان، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا شعبة، عن السُّدِّي: أنه سمع مُرَّة يحدث عن عبد الله - يعني: ابن مسعود - في قوله: ﴿وَمَنْ يُدْرِ فِيهِ بِالْحَكَايِ يُظْلَمُ﴾ قال: لو أن رجلاً أراد فيه بإلحاد بظلم، وهو بَعْدَنَ أبين، أذاقه الله من العذاب الأليم. قال شعبة: هو رفعه لنا، وأنا لا أرفعه لكم. قال يزيد: هو قدره، ورواه أحمد، عن يزيد بن هارون به.

قلت: هذا الإسناد صحيح على شرط البخاري، ووقفه أشبه من رفعه؛ ولهذا صم شعبة على وقفه من كلام ابن مسعود. وكذلك رواه أسباط، وسفيان الثوري، عن السدي، عن مُرَّة، عن ابن مسعود موقوفاً، والله أعلم. وقال الثوري، عن السدي، عن مُرَّة، عن عبد الله قال: ما من رجل يهيم بسيئة فتكتب عليه، ولو أن رجلاً بَعْدَنَ أبين هَمَّ أن يقتل رجلاً بهذا البيت، لأذاقه الله من العذاب الأليم. وكذا قال الضحاك بن مُزاحم. وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن مجاهد «إلحاد فيه»، لا والله، وبلى والله. وروى عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، مثله. وقال سعيد بن جُبَيْر: شتم الخادم ظلم فما فوقه. وقال سفيان الثوري، عن عبد الله بن عطاء، عن ميمون بن مِهْرَان، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ يُدْرِ فِيهِ بِالْحَكَايِ يُظْلَمُ﴾ قال: تجارة الأمير فيه. وعن ابن عمر: بيع الطعام بمكة إلحاد. وقال حبيب بن أبي ثابت: ﴿وَمَنْ يُدْرِ فِيهِ بِالْحَكَايِ يُظْلَمُ﴾ قال: المحتكر بمكة. وكذا قال غير واحد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن إسحاق الجوهري، أنبأنا أبو عاصم، عن جعفر بن يحيى، عن عمه عمارة بن ثوبان، حدثني موسى بن باذان، عن يعلى بن أمية؛ أن رسول الله ﷺ قال: «احتكار الطعام بمكة إلحاد».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رُزَعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بَكَيْر، حدثنا ابن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، حدثني

سعيد بن جبيرة قال: قال ابن عباس في قول الله: ﴿وَمَنْ يُدْرِ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُطْلَقُ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن أنيس، أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين، أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار، فافتخروا في الأنساب، فغضب عبد الله بن أنيس، فقتل الأنصاري، ثم ارتد عن الإسلام، وهرب إلى مكة، فنزلت فيه: ﴿وَمَنْ يُدْرِ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُطْلَقُ﴾ يعني: من لجأ إلى الحرم بالحاد يعني يعمل عن الإسلام.

وهذه الآثار، وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكن هو أعم من ذلك، بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها، ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن يَسْبِيلٍ﴾ ﴿جَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٤، ٥]، أي: دمرهم وجعلهم عبدة ونكالا لكل من أراد بسوء؛ ولذلك ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «يغزو هذا البيت جيش، حتى إذا كانوا ببداء من الأرض خيف بأولهم وآخرهم» الحديث. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن كُثَّاسة، حدثنا إسحاق بن سعيد، عن أبيه قال: أتى عبد الله بن عمر عبد الله بن الزبير، فقال: يا ابن الزبير، إياك والإلحاد في حرم الله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيلحد فيه رجل من قريش، لو تَوَزَّنْ ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت»، فانظر لا تكن هو. وقال أيضاً في مسند عبد الله بن عمرو بن العاص: حدثنا هاشم، حدثنا إسحاق بن سعيد، حدثنا سعيد بن عمرو قال: أتى عبد الله بن عمر عبد الله بن الزبير، وهو جالس في الحجر فقال: يا ابن الزبير، إياك والإلحاد في الحرم، فإني أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحلها ويحل به رجل من قريش، ولو وُزِنَ ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها». قال: فانظر لا تكن هو. ولم يخرججه أحد من أصحاب الكتب من هذين الوجهين.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتَ الْلَقَائِمِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعَ الشُّجُودَ﴾ [١٦] ﴿وَإِذْ فِي النَّارِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِيكُم مِّن كُلِّ فُجٍّ عَيْنِي﴾ [١٧].

هذا فيه تقرير وتوبيخ لمن عبد غير الله، وأشرك به من قريش، في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت، أي: أرشده إليه، وسلمه له، وأذن له في بناءه. واستدل به كثير ممن قال: «إن إبراهيم، عليه السلام، هو أول من بنى البيت العتيق، وأنه لم يبن قبله»، كما ثبت في الصحيح عن أبي ذر قلت: يا رسول الله، أي مسجد وُضِعَ أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أي؟ قال: «بيت المقدس». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة». وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [١٦] ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَعْبُدُونَهُ إِنَّهُ يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقد قدما ذكر ما ورد في بناء البيت من الصحاح والآثار، بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقال تعالى هاهنا: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي﴾ أي: ابنه على اسمي وحدي، ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ قال مجاهد وقتادة: من الشرك، ﴿لِلْقَائِمِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعَ الشُّجُودَ﴾ أي: اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له. فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها، ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ أي: في الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿وَالرُّكَّعَ الشُّجُودَ﴾، فقرن الطواف بالصلاة؛ لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده، والصلاة إليه في غالب الأحوال، إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة وفي الحرب، وفي النافلة في السفر، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَإِذْ فِي النَّارِ بِالْحَجِّ﴾ أي: نادى في الناس داعياً لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه. فذكر أنه قال: يا رب، وكيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ فقيل: ناد وعلينا البلاغ. فقام على مقامه، وقيل: على الحجر، وقيل: على الصفا، وقيل: على أبي قُبَيْس، وقال: يا أيها الناس، إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدبر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة: «إليك اللهم ليك». هذا مضمون ما روي عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وغير واحد من السلف، والله أعلم. أوردها ابن جرير، وابن أبي حاتم مطولة.

وقوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِيكُم مِّن كُلِّ فُجٍّ عَيْنِي﴾: قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشياً، لمن قدر عليه، أفضل من الحج راكباً؛ لأنه قدمهم في الذكر، فدل على الاهتمام بهم وقوة همهم وشدة عزمهم، والذي عليه الأكثر أن الحج راكباً أفضل؛ اقتداء برسول الله ﷺ، فإنه حج راكباً مع كمال قوته، عليه السلام. وقوله: ﴿يَأْتِيكُم مِّن كُلِّ فُجٍّ عَيْنِي﴾ يعني: طريق، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَبَالًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء: ٣١]. وقوله: ﴿عَيْنِي﴾ أي: بعيد. قاله

مجاهد، وعطاء، والسدي، وقتادة، ومقاتل بن حيان، والثوري، وغير واحد. وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبراهيم، حيث قال في دعائه: ﴿فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مِنِّي أَلَسَ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

﴿لِيَسْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَثَارِ مَقْلُوبَتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْسَمَةِ الْإِنْفَعِ فَكُلُوا مِنْهَا وَلَطِمُوا بِأَلْسِنَةِ الْفَقِيرِ﴾ [البقرة: ١٧٨].

قال ابن عباس: ﴿لِيَسْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ قال: منافع الدنيا والآخرة؛ أما منافع الآخرة فريضات الله، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البُدن والريح والتجارات. وكذا قال مجاهد، وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة، كقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٨]. وقوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَثَارِ مَقْلُوبَتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْسَمَةِ الْإِنْفَعِ﴾، قال شعبة وهشيم عن أبي بشر عن سعيد عن ابن عباس: الأيام المعلومات: أيام العشر، وعلقه البخاري عنه بصيغة الجزم به. ويروى مثله عن أبي موسى الأشعري، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني، وإبراهيم التخعي. وهو مذهب الشافعي، والمشهور عن أحمد بن حنبل. وقال البخاري: حدثنا محمد بن عَزْرَةَ، حدثنا شعبة، عن سليمان، عن مسلم النبطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل، يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء». ورواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه. وقال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح. وفي الباب عن ابن عمر، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وجابر. قلت: وقد تقتضيت هذه الطرق، وأفردت لها جزءاً على حدته، فمن ذلك ما قال الإمام أحمد: حدثنا عُفَّان، أنبأنا أبو عَوَّانَةَ، عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن، من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد» وروى من وجه آخر، عن مجاهد، عن ابن عمر، بنحوه. وقال البخاري: وكان ابن عمر، وأبو هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر، فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما. وقد روى أحمد عن جابر مرفوعاً: أن هذا هو العشر الذي أقسم الله به في قوله: ﴿وَالْفَقْرِ﴾ [البقرة: ١٧٨] وقال بعض السلف: إنه المراد بقوله: ﴿وَأَتَمَمْتَهَا بِعَشْرِ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. وفي سنن أبي داود: أن رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر. وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة الذي ثبت في صحيح مسلم عن أبي قتادة قال: سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة، فقال: «أحتسب على الله أن يكفر السنة الماضية والآتية».

ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر، وقد ورد في حديث أنه أفضل الأيام عند الله. وبالجمله، فهذا العشر قد قيل: إنه أفضل أيام السنة، كما نطق به الحديث، ففضله كثير على عشر رمضان الأخير؛ لأن هذا يشرع فيه ما يشرع في ذلك، من صيام وصلاة وصدقة وغيره، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه. وقيل: ذاك أفضل لاشتغاله على ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر. وتوسط آخرون فقالوا: أيام هذا أفضل، وليالي ذاك أفضل. وبهذا يجتمع شمل الأدلة، والله أعلم.

قول ثان في الأيام المعلومات: قال الحكم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس: الأيام المعلومات: يوم النحر وثلاثة أيام بعده. ويروى هذا عن ابن عمر، وإبراهيم التخعي، وإليه ذهب أحمد بن حنبل في رواية عنه.

قول ثالث: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن المديني، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا ابن عَجْلان، حدثني نافع؛ أن ابن عمر كان يقول: الأيام المعلومات والمعدودات من جميعهن أربعة أيام، فالأيام المعلومات يوم النحر ويومان بعده، والأيام المعدودات ثلاثة أيام يوم النحر. هذا إسناد صحيح إليه، وقاله السدي. وهو مذهب الإمام مالك بن أنس، ويعضد هذا القول والذي قبله قوله تعالى: ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْسَمَةِ الْإِنْفَعِ﴾ يعني به: ذكر الله عند ذبحها.

قول رابع: أنها يوم عرفة، ويوم النحر، ويوم آخر بعده. وهو مذهب أبي حنيفة. وقال ابن وهب: حدثني ابن زيد بن أسلم، عن أبيه أنه قال: المعلومات يوم عرفة، ويوم النحر، وأيام التشريق.

وقوله: ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْسَمَةِ الْإِنْفَعِ﴾ يعني: الإبل والبقر والغنم، كما فصلها تعالى في سورة الأنعام، وأنها ﴿فَقَنِينَةٌ أَرْوَجَ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٣]. وقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَلَطِمُوا بِأَلْسِنَةِ الْفَقِيرِ﴾ استدلل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأضاحي وهو قول غريب، والذي عليه الأكثر أنه من باب الرخصة أو الاستحباب، كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ، فأكل من لحمها، وحسا من مرقها. وقال عبد الله بن وهب: قال لي مالك: أحب أن يأكل من أضحيته؛

لأن الله يقول: ﴿كُلُوا مِنهَا﴾. قال ابن وهب: وسألت الليث، فقال لي مثل ذلك. وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن إبراهيم: ﴿كُلُوا مِنهَا﴾. قال: كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين، فمن شاء أكل، ومن شاء لم يأكل. وروي عن مجاهد، وعطاء نحو ذلك. قال هُشَيْن، عن حُصَيْن، عن مجاهد في قوله: ﴿كُلُوا مِنهَا﴾: هي كفولة: ﴿وَإِذَا حُلَلْتُمْ فَاسْكُدُوا﴾ [المائدة: ٢٧]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]. وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره، واستدل من نصر القول بأن الأصاحي يتصدق منها بالنصف بقوله في هذه الآية: ﴿كُلُوا مِنهَا وَلَطِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾، فجزأها نصفين: نصف للمضحى، ونصف للفقراء. والقول الآخر: أنها تجزأ ثلاثة أجزاء: ثلث له، وثلث يهديه، وثلث يتصدق به؛ لقوله في الآية الأخرى: ﴿كُلُوا مِنهَا وَلَطِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٣٦] وسيأتي الكلام عليها عندها، إن شاء الله، وبه الثقة. وقوله: ﴿الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾، قال عكرمة: هو المضطر الذي عليه البؤس، والفقير: المتعفف. وقال مجاهد: هو الذي لا ييسط يده. وقال قتادة: هو الزمين. وقال مقاتل بن حيان: هو الضرير.

وقوله: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَشَهُُّمَهُمْ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو وضع الإحرام، من حلق الرأس وليس الثياب وقص الأظفار، ونحو ذلك. وهكذا روى عطاء ومجاهد، عنه. وكذا قال عكرمة، ومحمد بن كعب القرظي. وقال عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَشَهُُّمَهُمْ﴾. قال: التفت: المناسك. وقوله: ﴿وَلْيُقِضُوا نَذْرُهُمْ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: نحر ما نذر من أمر البدن. وقال ابن أبي نجيع، عن مجاهد: ﴿وَلْيُقِضُوا نَذْرُهُمْ﴾: نذر الحج والهدي وما نذر الإنسان من شيء يكون في الحج. وقال إبراهيم بن ميسرة، عن مجاهد: ﴿وَلْيُقِضُوا نَذْرُهُمْ﴾. قال: الذبائح. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وَلْيُقِضُوا نَذْرُهُمْ﴾: كل نذر إلى أجل. وقال عكرمة: ﴿وَلْيُقِضُوا نَذْرُهُمْ﴾، قال: حجهم. وكذا روى الإمام ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان في قوله: ﴿وَلْيُقِضُوا نَذْرُهُمْ﴾. قال: نذر الحج، فكل من دخل الحج فعليه من العمل فيه: الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة، وعرفة، والمزدلفة، ورمي الجمار، على ما أمروا به. وروي عن مالك نحو هذا.

وقوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: قال مجاهد: يعني: الطواف الواجب يوم النحر. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن أبي حمزة قال: قال لي ابن عباس: أنقرأ سورة الحج؟ يقول الله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، فإن آخر المناسك الطواف بالبيت. قلت: وهكذا صنع رسول الله ﷺ، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ يرمي الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه، وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت. وفي الصحيح عن ابن عباس أنه قال: أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض. وقوله: ﴿وَالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: فيه مستدل لمن ذهب إلى أنه يجب الطواف من وراء الحجر؛ لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيم، وإن كانت قريش قد أخرجه من البيت، حين قصرت بهم النفقة؛ ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحجر، وأخبر أن الحجر من البيت، ولم يستلم الركنين الشاميين؛ لأنهما لم يتمما على قواعد إبراهيم العتيقة؛ ولهذا قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر العَدَنِي، حدثنا سفيان، عن هشام بن حُجْر، عن رجل، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، طاف رسول الله ﷺ من ورائه. وقال قتادة، عن الحسن البصري في قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾. قال: لأنه أول بيت وضع للناس. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وعن عكرمة أنه قال: إنما سمي البيت العتيق؛ لأنه أعتق يوم الغرق زمان نوح. وقال خُصَيْف: إنما سمي البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبار قط. وقال ابن أبي نجيع وليث عن مجاهد: أعتق من الجبابرة أن يسلطوا عليه. وكذا قال قتادة. وقال حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن بن مسلم، عن مجاهد: لأنه لم يرد أحد بسوء إلا هلك. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهري، عن ابن الزبير قال: إنما سمي البيت العتيق؛ لأن الله أعتقه من الجبابرة. وقال الترمذي: حدثنا محمد بن إسماعيل وغير واحد، حدثنا عبد الله بن صالح، أخبرني الليث، عن عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب، عن محمد بن عروة، عن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سمي البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبار». وكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن سهل النجاري، عن عبد الله بن صالح، به. وقال: إن كان صحيحاً. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، ثم رواه من وجه آخر عن الزهري، مرسلًا.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ خُرُوجَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ. وَأُجِّلَتْ لَكُمْ أَلْفَتُمْ إِلَّا مَا يَنْتَلِ عَلَيْكُمْ فَاجْتَبُوا إِلَيْكُمْ مِنْ الْأَوْتَانِ وَاجْتَبُوا قَوْلَ الْأَوْتَرِ ﴿٢٠﴾ حُفَاةَ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ. وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَلَّفَهُ الطُّيُورُ أَوْ تَهَوَّى فِي الْبَحْرِ فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى: هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك، وما لفاعلها من الثواب الجزيل. ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتَ اللَّهِ﴾ أي: ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ويكون ارتكابها عظيماً في نفسه، ﴿فَهُوَ حَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي: فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل. فكما على فعل الطاعات ثواب جزيل وأجر كبير، وكذلك على ترك المحرمات واجتناب المحظورات. قال ابن جريج: قال مجاهد في قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتَ اللَّهِ﴾ قال: الحرمة: مكة والحج والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها. وكذا قال ابن زيد. وقوله: ﴿وَأَجَلْتُ لَكُمْ الْأَتَمَّ إِلَّا مَا يَشَاءُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أحللتنا لكم جميع الأنعام، وما جعل الله من بحيرة، ولا ساقية، ولا وصيلة، ولا حام. وقوله: ﴿إِلَّا مَا يَشَاءُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: من تحريم: ﴿الْبَيْتَةِ وَالْأَمِّ وَالنَّمْرِ الْغَزِيرِ وَمَا أَهْلُ لَبَدٍ لَحْمٌ بِهِ إِلَّا نَجْسٌ وَمَا تَلَوْنَاهُ وَالْمَرْيُوتُ وَالنَّطِيعَةُ وَمَا أَكَلَ السَّيِّئُ إِلَّا مَا ذُكِّرْتُمْ﴾ الآية [المائدة: ٣]، قال ذلك ابن جريج، وحكاها عن قتادة. وقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾: «من» هاهنا لبيان الجنس، أي: اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان. وقرن الشرك بالله بقول الزور، كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِتَوْبَةٍ أَلْقَىٰ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ أَشْهُدُكُمْ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ومنه شهادة الزور. وفي الصحيحين عن أبي بكره قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى، يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين». وكان متكئاً فجلس، فقال: «لا وقول الزور، ألا وشهادة الزور». فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت. وقال الإمام أحمد: حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، أنبأنا سفيان بن زياد، عن فاتك بن فضالة، عن أيمن بن خريم قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً فقال: «يا أيها الناس، عدلت شهادة الزور إشراكاً بالله» ثلاثاً، ثم قرأ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾.

وهكذا رواه الترمذي، عن أحمد بن منيع، عن مروان بن معاوية، به. ثم قال: «غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد. وقد اختلف عنه في رواية هذا الحديث، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبي ﷺ». وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا سفيان العُصْفَرِيُّ، عن أبيه، عن حبيب بن النعمان الأسدي، عن خريم بن فاتك الأسدي قال: صلى رسول الله ﷺ الصبح، فلما انصرف قام قائماً فقال: «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله، ﷺ»، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾. وقال سفيان الثوري، عن عاصم بن أبي النجود، عن وائل بن ربيعة، عن ابن مسعود أنه قال: تعدل شهادة الزور بالشرك بالله، ثم قرأ هذه الآية. وقوله: ﴿حُفَاءَ لِلَّهِ﴾ أي: مخلصين له الدين، منحرفين عن الباطل قصداً إلى الحق؛ ولهذا قال ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾. ثم ضرب للمشرك مثلاً في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى فقال: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: سقط منها، ﴿فَتَنَطَّقُهُ الطَّيْرُ﴾، أي: تقطعه الطيور في الهواء، ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ﴾ أي: بعيد مهلك لمن هوى فيه؛ ولهذا جاء في حديث البراء: «إن الكافر إذا توفته ملائكة الموت، وصعدوا بروحه إلى السماء، فلا تفتح له أبواب السماء، بل تطرح روحه طرْحاً من هناك». ثم قرأ هذه الآية، وقد تقدم الحديث في سورة «إبراهيم» بحروفه وألفاظه وطرقه. وقد ضرب الله تعالى للمشرك مثلاً آخر في سورة «الأنعام»، وهو قوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَقْبِنَا قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَمَا لَهُدَىٰ وَإِذَا أَرَادْنَا لِيُصَلِّمَ لِرَبِّ الْفَلَكِ﴾ [الأنعام: ٧١]. ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقَوَّى الْقُلُوبِ﴾ [٢٢] لَكُمْ فِيهَا مَنْفَعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ يَحْمِلُهَا إِلَىٰ آيَاتٍ عَلِيَّةٍ ﴿٢٣﴾.

يقول تعالى: هذا ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ﴾ أي: أوامره، ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقَوَّى الْقُلُوبِ﴾ ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن، كما قال الحكم، عن مفسم، عن ابن عباس: تعظيمها: استسمانها واستحسانها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن ابن أبي ليلى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ﴾ قال: الاستسمان والاستحسان والاستعظام. وقال أبو أمامة بن سهل: كنا نسمن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يُسمنون. رواه البخاري. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «دم غفراء أحب إلى الله من دم سوداوين». رواه أحمد، وابن ماجه. قالوا: والغفراء هي البيضاء بياضاً ليس بتناصع، فالبيضاء أفضل من غيرها، وغيرها يجزئ أيضاً؛ لما ثبت في صحيح البخاري، عن أنس: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين. وعن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن فحبل يأكل في سواد، وينظر في سواد، ويمشي في سواد. رواه أهل السنن، وصححه الترمذي، أي: بكبش أسود في هذه الأماكن.

وفي سنن ابن ماجه، عن أبي رافع: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوءين. قيل: هما الحَصِيَّان. وقيل: اللذان رُضَّ خضيهما، ولم يقطعهما، والله أعلم. وكذا روى أبو داود وابن ماجه عن جابر: ضحى

رسول الله ﷺ بكبشين أقرنين أملحين موجودين. والموجودين قيل: هما الخصيين. وعن علي رضي الله عنه، قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن، وألا نضحى بمقابلة، ولا مدابرة، ولا شرقاء، ولا خرقاء. رواة أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذي. ولهم عنه، قال: نهى رسول الله ﷺ أن نضحى بأعضب القرن والأذن. وقال سعيد بن المسيب: الأعضب: النصف فأكثر. وقال بعض أهل اللغة: إن كُسِرَ قرنُها الأعلى فهي قصماء، فأما العَضْبُ فهو كسر الأسفل، وأعضب الأذن قطع بعضها. وعند الشافعي أن التضحية بذلك مجزئة، لكن تكروه. وقال الإمام أحمد: لا تجزئ الأضحية بأعضب القرن والأذن؛ لهذا الحديث. وقال مالك: إن كان الدم يسيل من القرن لم يجزئ، وإلا أجزأ، والله أعلم. وأما المقابلة: فهي التي قطع مقدم أذنها، والمدابرة: من مؤخر أذنها. والشرقاء: هي التي قطعت أذنها طولاً، قاله الشافعي. والخرقاء: هي التي خَرَقَتْ السَّمةَ أذنها خرقاً مُدَوِّراً، والله أعلم.

وعن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع لا تجوز في الأضاحي: العوراء البين عورها، والمريضة البين مَرَضُها، والعرجاء البين ظَلْعُها، والكسيرة التي لا تُنْقِي». رواة أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذي. وهذه العيوب تنقص اللحم، لضعفها وعجزها عن استكمال الرعي؛ لأن الشاء يسبقونها إلى المرعى، فلهذا لا تجزئ التضحية بها عند الشافعي وغيره من الأئمة، كما هو ظاهر الحديث. واختلف قول الشافعي في المريضة مرضاً يسيراً، على قولين. وروى أبو داود، عن غُثبة بن عبد السَّلمى؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن المُضَفَّرَةِ، والمستأصلة، والبَخْقَاء، والمشيمة والكسراء. فالمصفرة قيل: الهزيمة. وقيل: المستأصلة الأذن. والمستأصلة: المكسورة القرن. والبخقاء: هي العوراء. والمشيمة. هي التي لا تزال تُشْبِعُ خَلْفَ الغنم، ولا تُتَبَّعُ لضعفها. والكسراء: العرجاء. فهذه العيوب كلها مائعة من الإجزاء، فإن طرأ العيب بعد تعيين الأضحية فإنه لا يضر عيبه عند الشافعي خلافاً لأبي حنيفة. وقد روى الإمام أحمد، عن أبي سعيد قال: اشترت كبشاً أضحي به، فعدا الذئب فأخذ الألية. فسألت النبي ﷺ، فقال: «ضَحَّ به». ولهذا جاء في الحديث: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن. أي: أن تكون الهدية أو الأضحية سميحة حسنة ثمينة، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود، عن عبد الله بن عمر قال: أهدى عمر نجيباً، فأعطي بها ثلاثمائة دينار، فأثنى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أهديت نجيباً، فأعطيْتُ بها ثلاثمائة دينار، فأبيعها وأشتري بثمانها بذناً؟ قال: «لا، انحرها بإياها».

وقال الضحَّاك، عن ابن عباس: البدن من شعائر الله. وقال محمد بن أبي موسى: الوقوف ومزدلفة والجمار والرمي والبدن والحلق: من شعائر الله. وقال ابن عمر: أعظم الشعائر البيت.

وقوله: ﴿لَكَرَ فِيهَا مَنَئِعٌ﴾ أي: لكم في البدن منافع، من لبنها، وصوفها وأوبارها وأشعارها، وركوبها. ﴿إِنَّ أَجَلَ مُسَمًّى﴾ قال مَقْسَمٌ، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَكَرَ فِيهَا مَنَئِعٌ إِنَّ أَجَلَ مُسَمًّى﴾ قال: ما لم يُسَمَّ بُدْنًا. وقال مجاهد في قوله: ﴿لَكَرَ فِيهَا مَنَئِعٌ إِنَّ أَجَلَ مُسَمًّى﴾، قال: الركوب واللبن والولد، فإذا سُمِّيت بدنةً أو هدياً، ذهب ذلك كله. وكذا قال عطاء، والضحاك، وقتادة، ومقاتل وعطاء الخراساني، وغيرهم. وقال آخرون: بل له أن ينتفع بها وإن كانت هدياً، إذا احتاج إلى ذلك، كما ثبت في الصحيحين عن أنس: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنةً، قال: «اركبها». قال: إنها بدنة. قال: «اركبها، ويحك»، في الثانية أو الثالثة. وفي رواية لمسلم، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها». وقال شعبة، عن زهير بن أبي ثابت الأعمى، عن المغيرة بن حذاف، عن علي؛ أنه رأى رجلاً يسوق بدنةً ومعها ولدها، فقال: لا تشرب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها، فإذا كان يوم النحر فاذبحها وولدها.

وقوله: ﴿ثُمَّ جِئَها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي: مجل الهدى وانتهاؤه إلى البيت العتيق، وهو الكعبة، كما قال تعالى: ﴿هَذَا بَلَدٌ بَلِغٌ أَلَكَبِيرُ﴾ (المائدة: ٩٥)، وقال: ﴿وَالْمَدَى مَكْرُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلْمًا﴾ [الفتح: ٢٥]. وقد تقدم الكلام على معنى «البيت العتيق» قريباً، والله الحمد. وقال ابن جُرَيج، عن عطاء: كان ابن عباس يقول: كل من طاف بالبيت، فقد حل، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئَها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا يُذَكِّرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ كَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا آصَابَهُمْ وَالْقَائِمِينَ أَلْسِنَهُ وَكَأَنَّ رَزَقَهُمْ يُفْقَدُونَ ﴿٢٥﴾.

يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا﴾ قال: عيداً. وقال عكرمة: ذبحاً. وقال زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا

مَسَكًا: إنها مكة، لم يجعل الله لامة قط منسكاً غيرها. وقوله: ﴿يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين، فسَمَى وكبر، ووضع رجله على صفاحهما. وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا سلام بن مسكين، عن عائذ الله المجاشعي، عن أبي داود - وهو ثَقِيف بن الحارث - عن زيد بن أرقم قال: قلت - أو: قالوا -: يا رسول الله، ما هذه الأضاحي؟ قال: «سنة أبيكم إبراهيم». قالوا: ما لنا منها؟ قال: «بكل شعرة حسنة» قالوا: فالصوف؟ فقال: «بكل شعرة من الصوف حسنة». وأخرجه الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه من سننه، من حديث سلام بن مسكين، به.

وقوله: ﴿فَاللَّهُمَّ إِنَّكَ لَإِلَهُ وَحْدٌ فَلَهُ اسْتَلِمُوا﴾ أي: معبودكم واحد، وإن تنوعت شرائع الأنبياء ونسخ بعضها بعضاً، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده، لا شريك له، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلٍ إِلَّا فُوحِيَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢١٠]. ولهذا قال: ﴿فَالَهُ اسْتَلِمُوا﴾ أي: اخلصوا واستسلموا لحكمه وطاقته. ﴿وَيَنْتَبِهُ الْمُسْلِمِينَ﴾: قال مجاهد: المظمتين، وقال الضحاك، وقتادة: المتواضعين. وقال السدي: الوجلين. وقال عمرو بن أوس: المختبتون: الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا. وقال الثوري: ﴿وَيَنْتَبِهُ الْمُسْلِمِينَ﴾: قال: المظمتين الراضين بقضاء الله، المستسلمين له. وأحسن ما يفسر بما بعده وهو قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ مَدَّ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت منه قلوبهم، ﴿وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ أي: من المصائب. قال الحسن البصري: والله لصبرن أو لتهلكن. ﴿وَالْمُحْسِنِينَ الصَّالِحِينَ﴾: قرأ الجمهور بالإضافة. السبعة، وبقية العشرة أيضاً. وقرأ ابن السَّمِيع: ﴿وَالْمُحْسِنِينَ الصَّالِحِينَ﴾ بالنصب. وقال الحسن البصري: ﴿وَالْمُحْسِنِينَ الصَّالِحِينَ﴾، وإنما حذف النون هاهنا تخفيفاً، ولو حذف للإضافة لوجب خفض الصلاة، ولكن على سبيل التخفيف فنصبت. أي: المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه، ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي: وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأرقاتهم وقرباتهم، وفقرائهم ومحاوليهم، ويحسنون إلى خلق الله مع محافظتهم على حدود الله. وهذه بخلاف صفات المنافقين، فإنهم بالعكس من هذا كله، كما تقدم تفسيره في سورة «براءة» فله الحمد والمنة.

﴿وَالَّذِينَ جَعَلْنَا لَكَ مِنْ شَعِيرٍ اللَّهُ لَكَ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا رَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَائِلَ وَالْمَعْرُوفَ كَذَلِكَ سَخَّرْنَا لَكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [١٣١].

يقول تعالى معتناً على عباده فيما خلق لهم من البدن، وجعلها من شعائره، وهو أنه جعلها تهدي إلى بيته الحرام، بل هي أفضل ما يهدي إلى بيته الحرام، كما قال تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آيَاتِ الْحُرَامِ يَنْفِقُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ [الأنعام: ١٣١]. قال ابن جرير: قال عطاء في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَعَلْنَا لَكَ مِنْ شَعِيرٍ اللَّهُ﴾، قال: البقرة، والبعير. وكذا روي عن ابن عمر، وسعيد بن المسيب، والحسن البصري. وقال مجاهد: إنما البدن من الأبل. قلت: أما إطلاق البدنة على البعير فمفتق عليه، واختلفوا في صحة إطلاق البدنة على البقرة، على قولين، أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعاً كما صح في الحديث. ثم جمهور العلماء على أنه تجزئ البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، كما ثبت به الحديث عند مسلم، من رواية جابر بن عبد الله وغيره، قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الأضاحي، البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة.

وقال إسحاق بن راهويه وغيره: بل تجزئ البقرة عن سبعة، والبعير عن عشرة. وقد ورد به حديث في مسند الإمام أحمد، وسنن النسائي، وغيرهما، فالحق أعلم.

وقوله: ﴿لَكَ فِيهَا خَيْرٌ﴾، أي: ثواب في الدار الآخرة. وعن سليمان بن يزيد الكعبي، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «ما عجل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من هزاة دم، وإنه ليأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان، قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفساً». رواه ابن ماجه، والترمذي وخسنه. وقال سفيان الثوري: كان أبو حاتم يستدين ويسوق البدن، ف قيل له: تستدين وتسوق البدن؟ فقال: إني سمعت الله يقول: ﴿لَكَ فِيهَا خَيْرٌ﴾. وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنفقت الورق في شيء أفضل من نحيرة في يوم عيد». رواه الدارقطني في سننه. وقال مجاهد: ﴿لَكَ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قال: أجر ومنافع. وقال إبراهيم النخعي: يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها.

وقوله: ﴿فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾: وعن المطالب بن عبد الله بن حنطب، عن جابر بن عبد الله قال: صليت مع

رسول الله ﷺ عِذَ الْأَضْحَى، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه، فقال: «باسم الله والله أكبر، اللهم هذا عني وعن لم يُضَحَّ من أمتي». رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي. وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبي حبيب، عن ابن عباس، عن جابر قال: ضحى رسول الله ﷺ بكبشين في يوم عيد، فقال حين وجههما: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً، وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك، وعن محمد وأمه». ثم سَمَّى الله وكبَّر وذبح.

وعن علي بن الحسين، عن أبي رافع؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين، فإذا صلى وخطب الناس أتى بأحدهما وهو قائم في مصلاه فذبحه بنفسه بالمدينة، ثم يقول: «اللهم، هذا عن أمتي جميعها، مَنْ شهد لك بالتحديد وشهد لي بالبلاغ». ثم يُؤْتَى بالآخر فيذبحه بنفسه، ثم يقول: «هذا عن محمد وآل محمد» فيطعمهما جميعاً المساكين، ويأكل هو وأهله منهما. رواه أحمد، وابن ماجه. وقال الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾، قال: قياماً على ثلاث قوائم، معقولة يدها اليسرى، يقول: «باسم الله والله أكبر، اللهم منك ولك». وكذلك روى مجاهد، وعلي بن أبي طلحة، والعوفي، عن ابن عباس، نحو هذا. وقال ليث، عن مجاهد: إذا عُقِلَت رجلها اليسرى قامت على ثلاث. ورَوَى ابن أبي نَجِيج، عنه، نحوه. وقال الضحاك: تُعْقَل رجل واحدة فتكون على ثلاث. وفي الصحيحين عن ابن عمر: أنه أتى على رجل قد أنْخَ بَذَنته وهو ينحرها، فقال: ابعتها قياماً مقيدة سنة أبي القاسم ﷺ.

وعن جابر: أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البُذْنَ معقولة اليسرى، قائمة على ما بقي من قوائمها. رواه أبو داود. وقال ابن لهيعة: حدثني عطاء بن دينار، أن سالم بن عبد الله قال لسليمان بن عبد الملك: قف من شقها الأيمن، وانحر من شقها الأيسر. وفي صحيح مسلم، عن جابر، في صفة حجة الرِّدَاق، قال فيه: فنحر رسول الله ﷺ بيده ثلاثاً وستين بَذَنَةً، جعل يَطْعُنُهَا بِحَبْرَةٍ فِي يَدِهِ. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن قتادة قال: في حرف ابن مسعود: ﴿صَوَافَّ﴾، أي: مُعَقَّلَةٌ قِيَاماً. وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن مجاهد: مَنْ قَرَأَهَا ﴿صَوَافَّ﴾ قال: معقولة. ومن قَرَأَهَا ﴿صَوَافَّ﴾، قال: تصف بين يديها. وقال طاوس، والحسن، وغيرهما: ﴿فاذكروا اسم الله عليها صوافي﴾ يعني: خالصة لله ﷻ. وكذا رواه مالك، عن الزهري. وقال عبد الرحمن بن زيد: ﴿صَوَافَّ﴾: ليس فيها شرك كشرك الجاهلية لأصنامهم.

وقوله: ﴿فَإِذَا وَجَّهَ جُنُوبًا﴾ قال ابن أبي نَجِيج، عن مجاهد: يعني: سقطت إلى الأرض. وهو رواية عن ابن عباس، وكذا قال مقاتل بن حيان. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَإِذَا وَجَّهَ جُنُوبًا﴾ يعني: نحرته. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَإِذَا وَجَّهَ جُنُوبًا﴾ يعني: ماتت. وهذا القول هو مُرَادُ ابن عباس ومجاهد، فإنه لا يجوز الأكل من البَذَنَةِ إِذَا نُحِرَتْ حَتَّى تَمُوتَ وَتَبْرُدَ حَرَكَتُهَا. وقد جاء في حديث مرفوع: «وَلَا تُعْجِلُوا النُّفُوسَ أَنْ تَرْتَهَقَ». وقد رواه الثوري في جامعه، عن أيوب، عن يحيى ابن أبي كثير، عن فرافصة الحنفي، عن عمر بن الخطاب؛ أنه قال ذلك. ويؤيده حديث شُذَاد بن أوس في صحيح مسلم: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِخْ ذُبَيْحَتَهُ». وعن أبي واقد الليثي قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا قُطِعَ مِنَ الْبَيْهَمَةِ وَهِيَ حَيَّةٌ، فَهُوَ مَيْتَةٌ». رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي وصححه.

وقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِمْؤُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ قال بعض السلف: قوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أمر بإباحة. وقال مالك: يستحب ذلك. وقال غيره: يَجِبُ. وهو وَجْهٌ لبعض الشافعية. واختلف في المراد بالقانع والمعتَر، فقال العوفي، عن ابن عباس: القانع: المستغني بما أعطيته، وهو في بيته. والمعتَر: الذي يتعرض لك، وَيَلْمُ بِكَ أَنْ تَعْطِيَهُ مِنَ اللَّحْمِ، وَلَا يَسْأَلُ. وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب القُرْظِيُّ. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: القانع: المتعفف. والمعتَر: السائل. وهذا قول قتادة، وإبراهيم النَّخَعِيِّ، ومجاهد في رواية عنه. وقال ابن عباس، وزيد بن أسلم وعكرمة، والحسن البصري، وابن الكلبي، ومُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ، ومالك بن أنس: القانع: هو الذي يَقْتَنِعُ إِلَيْكَ وَيَسْأَلُكَ. والمعتَر: الذي يَعتَرِكُ، يتضرع ولا يسألك. وهذا لفظ الحسن. وقال سعيد بن جبيرة: القانع: هو السائل، ثم قال: أما سمعت قول الشُّمَّاحِ:

لَمَّا لَ الْمَرْءُ يُضْلِحُهُ فَيُفْئِنِّي مَفَاقِرَهُ، أَعَفُ مِنَ الْقُئُوعِ

قال: يعني من السؤال، وبه قال ابن زيد. وقال زيد بن أسلم: القانع، المسكين الذي يطوف. والمعتَر: الصديق والضعيف الذي يزور. وهو رواية عن عبد الله بن زيد أيضاً. وعن مجاهد أيضاً: القانع: جارك الغني الذي يبصر ما يدخل بيتك.

والمعتر: الذي يعترك من الناس. وعنه، أن القانع: هو الطامع. والمعتر: هو الذي يفتّر بالبدن من غني أو فقير. وعن عكرمة نحوه، وعنه القانع: أهل مكة. واختار ابن جرير أن القانع: هو السائل؛ لأنه من أقتع بيده إذا رفعها للسؤال، والمعتر من الاعتزار، وهو: الذي يتعرض لأكل اللحم. وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الأصحية ثلثاً ثلاثة أجزاء: ثلث لصاحبها يأكله منها، وثلث يهديه لأصحابه، وثلث يتصدق به على الفقراء؛ لأنه تعالى قال: ﴿كُلُوا مِنَّا وَلَطْعَمُوا أَقْنَانِ وَالْمَعْرُ﴾. وفي الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال للناس: «إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأصاحي فوق ثلاث، فكلوا وادخروا ما بدا لكم». وفي رواية: «فكلوا وادخروا وتصدقوا». وفي رواية: «فكلوا وأطعموا وتصدقوا».

والقول الثاني: أن المضحي يأكل النصف ويتصدق بالنصف، لقوله في الآية المتقدمة: ﴿كُلُوا مِنَّا وَلَطْعَمُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ﴾ [الحج: ٢٨]، ولقوله في الحديث: «فكلوا وادخروا وتصدقوا». فإن أكل الكل فقيل: لا يضمن شيئاً. وبه قال ابن سريج من الشافعية. وقال بعضهم: يضمنها كلها بمثلها أو قيمتها. وقيل: يضمن نصفها. وقيل: ثلثها. وقيل: أدنى جزء منها. وهو المشهور من مذهب الشافعي. وأما الجلود، ففي مسند أحمد عن قتادة بن النعمان في حديث الأصاحي: «فكلوا وتصدقوا، واستمتعوا بجلودها، ولا تبيعوها». ومن العلماء من رخص في ذلك، ومنهم من قال: يقاسم الفقراء ثمنها، والله أعلم.

مسألة: عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما نبأ به في يومنا هذا أن نصلي، ثم نرجع فنحمر. فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم عجله لأهله، ليس هو من النسك في شيء» أخرجاه. فهذا قال الشافعي وجماعة من العلماء: إن أول وقت الأضحية إذا طلعت الشمس يوم النحر، ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين. زاد أحمد: وأن يذبح الإمام بعد ذلك، لما جاء في صحيح مسلم: «وإذا تذببحوا حتى يذبح الإمام». وقال أبو حنيفة: أما أهل السواد من القرى ونحوهم، فلمهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر، إذ لا صلاة عيد عنده لهم. وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتى يصلي الإمام، والله أعلم. ثم قيل: لا يشرع الذبح إلا يوم النحر وحده. وقيل: يوم النحر لأهل الأمصار، لتيسر الأصاحي عندهم، وأما أهل القرى فيوم النحر وأيام التشريق بعده، وبه قال سعيد بن جبير. وقيل: يوم النحر، ويوم بعده للجميع. وقيل: ويومان بعده، وبه قال أحمد. وقيل: يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده، وبه قال الشافعي؛ لحديث جبير بن مطعم: أن رسول الله ﷺ قال: «وأيام التشريق كلها ذبح». رواه أحمد وابن حبان. وقيل: إن وقت الذبح يمتد إلى آخر ذي الحجة، وبه قال إبراهيم النخعي، وأبو سلمة بن عبد الرحمن. وهو قول غريب.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَخَرْنَا لَكُم لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: يقول تعالى: من أجل هذا ﴿سَخَرْنَا لَكُم﴾ أي: ذللناها لكم، أي: جعلناها منقادة لكم خاضعة، إن شئتم ركبتهم، وإن شئتم حلبتم، وإن شئتم ذبحتم، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ نَزَّلْنَاهُمْ هُمْ فِيهَا رَكُوعًا وَمِمَّا يَدُورُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ نَزَّلْنَاهُمْ هُمْ فِيهَا رَكُوعًا وَمِمَّا يَدُورُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ نَزَّلْنَاهُمْ هُمْ فِيهَا رَكُوعًا وَمِمَّا يَدُورُونَ﴾ وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿كَذَلِكَ سَخَرْنَا لَكُم لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا يَمَاقُهَا وَلَكِنَّ بَنَاءَهُ الْقَرَىٰ يَنْكُم كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُم لِشُكْرِكُمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَيَتَرَّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

يقول تعالى: إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا، لتذكروا عند ذبحها، فإنه الخالق الرازق لا أنه يناله شيء من لحومها ولا دماؤها، فإنه تعالى هو الغني عما سواه. وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لألهتهم وضعوا عليها من لحوم قربانهم، ونضحوا عليها من دماؤها، فقال تعالى: ﴿لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا يَمَاقُهَا﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن أبي حماد، حدثنا إبراهيم بن المختار، عن ابن جريج قال: كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودماؤها، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فنحن أحق أن ننضح، فأنزل الله: ﴿لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا يَمَاقُهَا وَلَكِنَّ بَنَاءَهُ الْقَرَىٰ يَنْكُم﴾ أي: يتقبل ذلك ويجزي عليه. كما جاء في الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» وما جاء في الحديث: «إن الصدقة لتقع في يد الرحمن قبل أن تقع في يد السائل، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض» كما تقدم الحديث. رواه ابن ماجه، والترمذي وحسنه عن عائشة مرفوعاً. فمعناه: أنه سيق لتحقيق القبول من الله لمن أخلص في عمله، وليس له معنى يتبادر عند العلماء المحققين سوى هذا، والله أعلم. وقال وكيع، عن يحيى بن مسلم أبي الضحاك: سألت عامراً الشعبي عن جلود الأصاحي، فقال: ﴿لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا يَمَاقُهَا﴾، إن شئت فبيع، وإن شئت فأمسك، وإن شئت فتصدق.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُم﴾ أي: من أجل ذلك سخر لكم البدن، ﴿لِشُكْرِكُمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَيَتَرَّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: لتعظموه كما هداكم

المستعمل المعروف في كلام العرب. وقال بعض العلماء: هذا تَرَقَّى من الأقل إلى الأكثر إلى أن ينتهي إلى المساجد، وهي أكثر عماراً وأكثر عباداً، وهم ذوو القصد الصحيح.

وقوله: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ يَآمَنُوا إِن تَصُرُوا اللَّهَ يَصُرْكُمْ وَيَتَّيْتِ أَقَامَكُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَا لَكُمْ وَأَسَلْ أَهْلَهُمْ ۖ﴾ [محمد: ٧، ٨]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وَصَفَ نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديراً، ويعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شيء ذليل لديه، فقير إليه. ومن كان القوي العزيز ناصرَه فهو المنصور، وعدوه هو المقهور، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كُفُّنَا لِمِائِدَاتِ الرِّسَالَيْنِ ۚ إِنَّهُمْ لُمُ الْمُصْضُورِينَ ۚ وَلَوْ جُنَدًا لَمْ يَلْقَوْا ۖ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣] وقال الله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَكْفِيَنَّكَ إِنَّا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۖ﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿الَّذِينَ إِن مَنَّكُنْهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عِيقَةُ الْأُمُورِ ۖ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الربيع الزهراني، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب وهشام، عن محمد قال: قال عثمان بن عفان: فينا نزلت: ﴿الَّذِينَ إِن مَنَّكُنْهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ﴾، فأخرجنا من ديارنا بغير حق، إلا أن قلنا: «ربنا الله»، ثم مكثنا في الأرض، فأقمنا الصلاة، وآتينها الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، والله عاقبة الأمور، فهي لي ولأصحابي. وقال أبو العالية: هم أصحاب محمد ﷺ. وقال الصباح بن سودة الكندي: سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول: ﴿الَّذِينَ إِن مَنَّكُنْهُمْ فِي الْأَرْضِ ۖ﴾ الآية، ثم قال: إلا أنها ليست على الوالي وحده، ولكنها على الوالي والمولى عليه، ألا أنبئكم بما لكم على الوالي من ذلكم، وبما للوالي عليكم منه؟ إن لكم على الوالي من ذلكم أن يؤاخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتي هي أقوم ما استطاع، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبروزة ولا المستكرهة، ولا المخالفة سرها علانيتها. وقال عطية العوفي: هذه الآية كقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَوَّلِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥]. وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عِيقَةُ الْأُمُورِ ۖ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَالْعِيقَةُ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ [القصاص: ٨٣]. وقال زيد بن أسلم: ﴿وَلِلَّهِ عِيقَةُ الْأُمُورِ ۖ﴾: وعند الله ثواب ما صنعوا.

﴿وَلَن يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمٌ مَّوجٌ وَعَادٌ وَنُوحٌ وَقَوْمٌ لُوطٌ ۖ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۚ﴾ [فَكَانَ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِشَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَثُرُ مُطْعَلَةٌ وَقَصْرٌ مِّمَشِيدٌ ۖ أَفَلَا يَسِيرُونَ فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَأَنَّىٰ لَا تَعْلَمَ الْآخِصَةَ وَلَكِن تَمْنَى الْفُلُوبُ أَلَنَّىٰ فِي الشُّعْرِ ۖ﴾.

يقول تعالى مسلماً بنبيه محمد ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه: ﴿وَلَن يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمٌ مَّوجٌ﴾ إلى أن قال: ﴿وَكَذَّبَ مُوسَىٰ﴾، أي: مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الواضحات. ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: أنظرتهم وأخرتهم، ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۚ أي: فكيف كان إنكاري عليهم، ومعاقبتي لهم؟! ذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ أَتَعْلَمُونَ﴾ [النزعات: ٢٤]، وبين إهلاك الله له أربعون سنة. وفي الصحيحين عن أبي موسى، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرْقَنَ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ لِّأَن تَأْخُذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ ۖ﴾ [هود: ١٠٢].

ثم قال تعالى: ﴿فَكَانَ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: كم من قرية أهلكناها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: مكذبة لرسولها، ﴿فِيهَا خَاوِشَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ قال الضحاك: سقوفها، أي: قد خربت منازلها وتعطلت حواضرها. ﴿وَيَثُرُ مُطْعَلَةٌ﴾ أي: لا يستقى منها، ولا يَرُدُّها أحد بعد كثرة واردتها والازدحام عليها. ﴿وَقَصْرٌ مِّمَشِيدٌ﴾: قال عكرمة: يعني المبييض بالجبص. وروي عن علي بن أبي طالب، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جببر، وأبي المليح، والضحاك، نحو ذلك. وقال آخرون: هو المنيف المرتفع. وقال آخرون: الشديد المنيع الحصين. وكل هذه الأقوال متقاربة، ولا منافاة بينها، فإنه لم يَحْمِ أهله شدة بنائه ولا ارتفاعه، ولا إحكامه ولا حصانته، عن حلول بأس الله بهم، كما قال تعالى: ﴿أَيَنَّمَا تَكُونُوا يَدُوكُمْ لَمَوْتِكُمْ وَلَوْ كُنتُمْ فِي رَيْحٍ مُّشِيدَةٍ ۖ﴾ [النساء: ٧٨].

وقوله: ﴿أَفَلَا يَسِيرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بأبدانهم ويفكرهم أيضاً، وذلك كاف، كما قال ابن أبي الدنيا في كتاب «التفكر والاعتبار»: حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا سيار، حدثنا جعفر، حدثنا مالك بن دينار قال: أوحى الله تعالى إلى موسى، عليه السلام، أن يا موسى، اتخذ نعلين من حديد وعصا، ثم سيخ في الأرض، واطلب الآثار والعبر، حتى تتخرق النعلان وتكسر العصا. وقال ابن أبي الدنيا: قال بعض الحكماء: أخي قلبك بالمواعظ، ونوره بالفكر، وموته بالزهد، وقوه باليقين،

وَذَلَّلَهُ بِالْمَوْتِ، وَقَرَّزَهُ بِالْفَنَاءِ، وَبَصَّرَهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا، وَخَذَّرَهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ وَفَحْشَ تَقَلُّبِ الْأَيَّامِ، وَاعْرَضَ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ، وَذَكَرَهُ مَا أَصَابَ مِنْ كَانَ قَبْلَهُ، وَبَيَّنَّ فِي دِيَارِهِمْ وَأَثَرِهِمْ، وَانْظُرْ مَا فَعَلُوا، وَأَيْنَ خَلُّوا، وَعَمَّ انْقِلَبُوا. أَي: فَانْظُرُوا مَا حَلَّ بِالْأُمَمِ الْمَكْدُوبَةِ مِنَ النِّقَمِ وَالنَّكَالِ، ﴿فَتَكُونُ لَمْ قُلُوبٌ يَقُولُونَ يَهَا أَوْ هَاذَا يَسْمَعُونَ يَهَا﴾ أَي: فَيَعْتَبِرُونَ بِهَا، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الْأَسْدُسِ﴾ أَي: لَيْسَ الْعَمَى عَمَى الْبَصَرِ، وَإِنَّمَا الْعَمَى عَمَى الْبَصِيرَةِ، وَإِنْ كَانَتْ الْقُوَّةُ الْبَاصِرَةُ سَلِيمَةً فَإِنَّهَا لَا تَنْفُذُ إِلَى الْعَبْرِ، وَلَا تَدْرِي مَا الْخَبِيرُ. وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَهُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ فِي هَذَا الْمَعْنَى - وَهُوَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ سَارَةَ الْأَنْدَلُسِيِّ الشُّتْرِينِيِّ، وَقَدْ كَانَتْ وَفَاتِهِ سَنَةُ سَبْعِ عَشْرَةٍ وَخَمْسِمِائَةٍ:

يَا مَنْ يُصَيِّخُ إِلَى دَاعِي الثُّقَاءِ، وَقَدْ نَازَى بِهِ النَّعَاطِيَانِ: الشَّيْبُ وَالْكَبِيرُ
إِنْ كُنْتَ لَا تَسْمَعُ الذُّكْرَى، فَفِيمَ تُرَى فِي رَأْسِكَ الْوَاعِيَانِ: السَّمْعُ وَالْبَصَرُ؟
لَيْسَ الْأَصْمُ وَلَا الْأَعْمَى سِوَى رَجُلٍ لَمْ يَهْدِهِ الْهَادِيَانِ: الْعَيْنُ وَالْأَنْزُ
لَا الدَّهْرُ يَبْقَى وَلَا الدُّنْيَا، وَلَا الْفَلَكُ إِلَّا أَعْلَى وَلَا الثُّيَرَانِ: الثُّنْمُ وَالْقَمَرُ
لَيَزْعَلَنَّ عَنِ الدُّنْيَا، وَإِنْ كَرِهَا فَرَأَاهَا، الشَّوَابِيَانِ: الْبَدْوُ وَالْحَضَرُ
﴿وَيَسْتَجْلِبُكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَئِكَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَآلِفٌ سَنَوٌ وَمِمَّا تَعْدُونَ﴾ (٤٧) وَكَأَنَّ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَمَلْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ
ثُمَّ أَخَذَتْهَا وَلِئِذَا الْكَصِيْبُ﴾ (٤٨).

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَيَسْتَجْلِبُكَ بِالْعَذَابِ﴾ أَي: هَؤُلَاءِ الْكَفَّارُ الْمَلْحُدُونَ الْمَكْدُوبُونَ بِاللَّهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَنْظِرْ عَلَيْنَا حِكْمَةً مِنْ أَلْسِنَتِهِ أَوْ أَتَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٢) [الأنفال: ٣٢]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِتْلًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (١٦) [ص: ١٦].

وقوله: ﴿وَلَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أَي: الَّذِي قَدْ وَعَدَ، مِنْ إِقَامَةِ السَّاعَةِ وَالْإِنْتِقَامِ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَالْإِكْرَامِ لِأَوْلِيَائِهِ. قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ، فَجَاءَ عَمْرٍو بْنُ عُبَيْدٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَمْرٍو، وَهَلْ يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ؟ فَقَالَ: لَا. فَذَكَرَ آيَةَ وَعِيدِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَمِنَ الْعَجْمُ أَنْتَ؟ إِنْ الْعَرَبُ تَعُدُّ الرَّجُوعَ عَنِ الْوَعْدِ لَوْمًا، وَعَنِ الْإِبْعَادِ كَرَمًا، أَوْ مَا سَمِعْتَ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

لَا يُزْهِبُ ابْنَ الْعَمِّ مَنِي سَطْوَتِي وَلَا أَخْتَنِي مِنْ سَطْوَةِ الْمُتَهَذِّدِ
فَلَأْتِي وَإِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ لَمْخْلِفٌ لِإِعَادِي وَمُتَجَرِّمٌ مَوْعِدِي

وقوله: ﴿وَإِذَا يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَآلِفٌ سَنَوٌ وَمِمَّا تَعْدُونَ﴾ أَي: هُوَ تَعَالَى لَا يَعْجَلُ، فَإِنْ مَقْدَارُ أَلْفِ سَنَةٍ عِنْدَ خَلْقِهِ كَيَوْمٍ وَاحِدٍ عِنْدَهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى حُكْمِهِ، لَعَلَّمَهُ بِأَنَّهُ عَلَى الْإِنْتِقَامِ قَادِرٌ، وَأَنَّهُ لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ، وَإِنْ أَجَلٌ وَأَنْظَرُ وَأَمَلِي، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا: ﴿وَكَأَنَّ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَمَلْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذَتْهَا وَلِئِذَا الْكَصِيْبُ﴾ (٤٨). قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَرَفَةَ، حَدَّثَنِي عُبَيْدَةُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَدْخُلُ فَقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ، خَمْسِمِائَةِ عَامٍ».

ورواه الترمذي والنسائي، مِنْ حَدِيثِ الثَّوْرِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو، بِهِ. وَقَالَ الترمذي: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَوْقُوفًا، فَقَالَ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ، حَدَّثَنِي ابْنُ عُثَيْمٍ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ الْجُرَيْرِيُّ، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، عَنْ سُمَيْرِ بْنِ نَهَارٍ قَالَ: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: يَدْخُلُ فَقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِمَقْدَارِ نِصْفِ يَوْمٍ. قُلْتُ: وَمَا نِصْفُ يَوْمٍ؟ قَالَ: أَوْ مَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: ﴿وَإِذَا يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَآلِفٌ سَنَوٌ وَمِمَّا تَعْدُونَ﴾. وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ فِي آخِرِ كِتَابِ الْمَلَاحِمِ مِنْ سَنَتِهِ: حَدَّثَنَا عَمْرٍو بْنُ عُثْمَانَ، حَدَّثَنَا أَبُو الْمَغِيرَةِ، حَدَّثَنَا صَفْوَانُ، عَنْ شُرَيْحِ بْنِ عُبَيْدٍ، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تُعْجِزَ أُمَّتِي عِنْدَ رَبِّهَا، أَنْ يُؤَخَّرَ عَنْهَا نِصْفُ يَوْمٍ». قِيلَ لِسَعْدٍ: وَمَا نِصْفُ يَوْمٍ؟ قَالَ: خَمْسِمِائَةُ سَنَةٍ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سَنَانَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ سَيْمَاقٍ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَإِذَا يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَآلِفٌ سَنَوٌ وَمِمَّا تَعْدُونَ﴾. قَالَ: مِنَ الْأَيَّامِ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ بَشَّارٍ، عَنْ ابْنِ مَهْدِيٍّ. وَبِهِ قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعِكْرَمَةُ، وَنَصَّ عَلَيْهِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي كِتَابِ «الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ». وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ: ﴿يُبَيِّرُ الْأَمْرَ مِنَ الْأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَوٍ وَمِمَّا تَعْدُونَ﴾ (٥) [السجدة: ٥].

وقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَارِمٌ - مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ - حَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ يَحْيَى بْنِ عَتِيقٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَسْلَمَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ﴿وَإِذَا يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَآلِفٌ

سَنَفَوْا يَوْمًا تَعْدُونَ»، وجعل أجل الدنيا ستة أيام، وجعل الساعة في اليوم السابع، ﴿وَلَيْكَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَنفِ سَنَفَوْا يَوْمًا تَعْدُونَ»، فقد مضت السنة الأيام، وأنتم في اليوم السابع. فمثل ذلك كمثل الحامل إذا دخلت شهرها، في أية لحظة ولدت كان تماماً.

﴿قُلْ يَكُنْ لِلنَّاسِ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿١٨﴾ فَأَلْزِمْتَ أَمَانًا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِمَ تَغْفِرُ وَيَزْفِي كَرِيمٌ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي مَآيِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٢٠﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وقُوع العذاب، واستعجلوه به: ﴿قُلْ يَكُنْ لِلنَّاسِ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿١٨﴾ أي: إنما أرسلني الله إليكم نذيراً لكم بين يدي عذاب شديد، وليس إلي من حسابكم من شيء، أمركم إلى الله، إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار، و ﴿لَا مَعْجُزَ لِمَكِيدِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١] و ﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ فَأَلْزِمْتَ أَمَانًا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم، ﴿لِمَ تَغْفِرُ وَيَزْفِي كَرِيمٌ﴾ أي: مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم. وقال محمد بن كعب القرظي: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَيَزْفِي كَرِيمٌ﴾ فهو الجنة.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي مَآيِنَا مُعْجِزِينَ﴾: قال مجاهد، يُسَبِّطُونَ النَّاسَ عَنْ مَتَابَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ وكذا قال عبد الله بن الزبير: مشطين. وقال ابن عباس: ﴿مُعْجِزِينَ﴾: مراغمين. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾: وهي النار الحارة الموجعة الشديدة عذابها ونكالها، أجازنا الله منها. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَذَّهَبُهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٢٨].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَوَلَّى الشَّيْطَانُ فِي أَهْنِيَّتِهِم فَيَسْخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحَكِّمُ اللَّهُ أَمَانَتَهُ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ ﴿٢١﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَائِسَةِ قُلُوبُهُمْ وَلِأَنَّ الظَّالِمِينَ لَمْ يَشَاقُوا بِعَمَلِهِمْ ﴿٢٢﴾ وَلِيَعْلَمَ أُولَئِكَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيَتَّقُوا بِهِ فَتَحَتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٣﴾.

قد ذكر كثير من المفسرين ما هنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا. ولكنها من طرق كلها مرسله، ولم أرها مستندة من وجه صحيح، والله أعلم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة «النجم» فلما بلغ هذا الموضع: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ﴿١١﴾ وَنَوَّارَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ﴾ ﴿١٢﴾ قال: فالقى الشيطان على لسانه: «تلك الغرانيق العلى. وإن شفاعتني ترتجى». قالوا: ما ذكر ألهتنا بخير قبل اليوم. فسجد وسجدوا، فأنزل الله ﷻ هذه الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَوَلَّى الشَّيْطَانُ فِي أَهْنِيَّتِهِم فَيَسْخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحَكِّمُ اللَّهُ أَمَانَتَهُ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ ﴿٢١﴾. رواه ابن جرير، عن بُنْدَار، عن عُثْر، عن شعبة، به نحوه، وهو مرسل، وقد رواه البزار في مسنده، عن يوسف بن حماد، عن أمية بن خالد، عن شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - فيما أحسب، الشك في الحديث - أن النبي ﷺ قرأ بمكة سورة «النجم»، حتى انتهى إلى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ﴿١١﴾، وذكر بقيقته. ثم قال البزار: لا يروى متصلاً إلا بهذا الإسناد، تفرد بوصله أمية بن خالد، وهو ثقة مشهور. وإنما يروى هذا من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. ثم رواه ابن أبي حاتم، عن أبي العالية، وعن السدي، مرسلًا. وكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي، ومحمد بن قيس، مرسلًا أيضاً.

وقال قتادة: كان النبي ﷺ يصلي عند المقام إذ نَسَسَ، فالقى الشيطان على لسانه «وإن شفاعتني لترتجى. وإنها لمع الغرانيق العلى»، فحفظها المشركون. وأجرى الشيطان أن نبي الله قد قرأها، فزلت بها السنتهم، فأنزل الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَوَلَّى الشَّيْطَانُ فِي أَهْنِيَّتِهِم فَيَسْخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحَكِّمُ اللَّهُ أَمَانَتَهُ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ ﴿٢١﴾. فذخر الله الشيطان. ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا موسى بن أبي موسى الكوفي، حدثنا محمد بن إسحاق المُسَبِّبِي، حدثنا محمد بن قُتَيْبٍ، عن موسى بن عتبة، عن ابن شهاب قال: أنزلت سورة النجم، وكان المشركون يقولون: لو كان هذا الرجل يذكر ألهتنا بخير أقرئناه وأصحابه، ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر ألهتنا من الشتم والشر. وكان رسول الله ﷺ قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم، وأحزنه ضلالهم، فكان يمتنى هُذَاهُمْ، فلما أنزل الله سورة «النجم» قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ﴿١١﴾ وَنَوَّارَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ﴾ ﴿١٢﴾ أَلَمْ أَذْكُرْ وَلَكُ الْأُنْثَىٰ﴾ ﴿١٣﴾، ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت، فقال: «وإنهن لهن الغرانيق العلى. وإن شفاعتني لهي

التي ترجى». وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته، ف وقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة، وزلت بها ألسنتهم، وتباشروا بها، وقالوا: إن محمداً، قد رجع إلى دينه الأول، ودين قومه. فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر النجم، سجد وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك. غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلاً كبيراً، فرفع على كفه تراباً، فسجد عليه. فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم في السجود، لسجود رسول الله ﷺ. فأما المسلمون فمحبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين - ولم يكن المسلمون سمعوا الآية التي ألقى الشيطان في مسامع المشركين - فاطمأنت أنفسهم لما ألقى الشيطان في أمنية رسول الله ﷺ، وحديثهم به الشيطان أن رسول الله ﷺ قد قرأها في السورة، فسجدوا لتعظيم ألهتهم. ففتشت تلك الكلمة في الناس، وأظهرها الشيطان، حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين، عثمان بن مظعون وأصحابه، وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم، وصلوا مع رسول الله ﷺ، وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفه، وخذثوا أن المسلمين قد آمنوا بمكة فأقبلوا سراعاً وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته، وحفظه من الفرية، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥١﴾ لِيَحْكُمَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فَسِنَّةٌ لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ٥٢﴾، فلما بين الله قضاءه، وبراه من سجع الشيطان، انقلب المشركون بضلالهم وعداوتهم المسلمين، واشتدوا عليهم. وهذا أيضاً مرسل. وفي تفسير ابن جرير عن الزهري، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، نحوه. وقد رواه الإمام أبو بكر البيهقي في كتابه «دلائل النبوة» فلم يَجْزْ به موسى بن عقبة، ساقه في مغازيه بنحوه، قال: وقد رويناه عن ابن إسحاق هذه القصة. قلت: وقد ذكرها محمد بن إسحاق في السيرة بنحو من هذا، وكلها مراسلات ومنقطعات، فالله أعلم. وقد ساقها البيهقي في تفسيره مجموعة من كلام ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي، وغيرهما بنحو من ذلك، ثم سأل هاهنا سؤالاً: كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه؟ ثم حكى أجوبة عن الناس، من ألطفها: أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك، فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ، وليس كذلك في نفس الأمر، بل إنما كان من صنيع الشيطان لا من رسول الرحمن ﷺ، والله أعلم. وهكذا تنوعت أجوبة المتكلمين عن هذا بتقدير صحته. وقد تعرض القاضي عياض، رحمه الله، في كتاب «الشفاء» لهذا، وأجاب بما حاصله.

وقوله: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، هذا فيه تسلية له، صلوات الله وسلامه عليه، أي: لا يهيدتك ذلك، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء. قال البخاري: قال ابن عباس: ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، يقول: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه. وقال مجاهد: ﴿إِنَّا تَمَنَّى﴾، يعني: إذا قال. ويقال: ﴿أُمْنِيَّتِهِ﴾: قراءته، ﴿إِلَّا آمَانٍ﴾ [البقرة: ٧٨]، يقولون ولا يكتبون. قال البيهقي: وأكثر المفسرين قالوا: معنى قوله: ﴿تَمَنَّى﴾ أي: تلا وقرأ كتاب الله، ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي: في تلاوته، قال الشاعر في عثمان حين قتل:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ وَآخِرَهَا لَأَقَى حَمَامَ الْمَقَادِرِ
وقال الضحاك: ﴿إِنَّا تَمَنَّى﴾: إذا تلا. قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام. وقوله: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾، حقيقة النسخ لغة: الإزالة والرفع. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي فيبطل الله - سبحانه وتعالى - ما ألقى الشيطان. وقال الضحاك: نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته. وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: بما يكون من الأمور والحوادث، لا تخفى عليه خافية، ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: في تقديره وخلقه وأمره، له الحكمة التامة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿لِيَحْكُمَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فَسِنَّةٌ لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شك وشرك وكفر ونفاق، كالمشركين حين فرحوا بذلك، واعتقدوا أنه صحيح، وإنما كان من الشيطان. قال ابن جريج: ﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هم: المنافقون ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: المشركون. وقال مقاتل بن حيان: هم الكافرون اليهود. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: في ضلال ومخالفة وعناد بعيد، أي: من الحق والصواب.

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُورُوا أَلَمَهُ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي: وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل، المؤمنون بالله ورسوله، أن ما أوحينا إليك هو الحق من ربك، الذي أنزله بعلمه وحفظه وحرسه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب حكيم، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ٥٣﴾ [فصلت: ٤٢]. وقوله: ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي: يصدقوه وينقادوا له، ﴿فَتَحِبَّتْ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تخضع وتذل، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الَّذِي آمَنُوا لَكِ صَرِيحٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: في

الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوقفهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي رِيْبِهِمْ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ أَلَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ مَعَكُمْ يَوْمَ مَا أَتَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار: أنهم لا يزالون في مرية، أي: في شك وريب من هذا القرآن، قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير. وقال سعيد بن جبیر، وابن زيد: ﴿بَغْتَةً﴾ أي: مما ألقى الشيطان. ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾: قال مجاهد: فجأة. وقال قتادة: ﴿بَغْتَةً﴾، بغت القوم أمر الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون. وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾: قال مجاهد: قال أبي بن كعب: هو يوم بدر، وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبیر، وقاتدة وغير واحد. واختاره ابن جرير. وقال عكرمة، ومجاهد في رواية عنهما: هو يوم القيامة لا ليلة له. وكذا قال الضحاك، والحسن البصري. وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به، لكن هذا هو المراد؛ ولهذا قال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ مَعَكُمْ يَوْمَ مَا أَتَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾. كقوله: ﴿مَنْ لَكَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ مَعَهُمْ لَبِئْسَ لِلزَّكَاتِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا﴾ [الفرقان: ٢٦]. ﴿فَأُولَٰئِكَ أَمَاتُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: أمنت قلوبهم، وصدقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علموا، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم. ﴿فِي جَنَّةٍ النَّعِيمِ﴾ أي: لهم النعيم المقيم، الذي لا يحول ولا يزول ولا يبيد.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: كفرت قلوبهم بالحق، وجحدوا به وكذبوا به، وخالفوا الرسل، واستكبروا عن اتباعهم ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: مقابلة استكبارهم وإعراضهم عن الحق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أي: صاغرين.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَوْ مَا تَرْزُقُنَّهُمْ اللَّهُ رَزَقًا حَسَنًا وَلَكِنَّ اللَّهَ لَهُمْ خَيْرٌ مِنَ الرَّزْقِ﴾ [البقرة: ٢١٧] ﴿لِيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلَ رِضْوَانِهِ وَلَئِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [٢١٨] ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصَرِفَ إِلَيْكَ اللَّهُ لَعَفُوهٗ﴾ [٢١٩].

يخبر تعالى عن من خرج مهاجراً في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وطلباً لما عنده، وترك الأوطان والأهلين والجلان، وفارق بلاده في الله ورسوله، ونصرة لدين الله ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَوْ مَا تَرْزُقُنَّهُمْ﴾ أي: في الجهاد ﴿أَوْ مَا تَرْزُقُنَّهُمْ﴾ أي: حثف أنفسهم، أي: من غير قتال على فرشهم، فقد حصلوا على الأجر الجزيل، والثناء الجميل، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْوُثْقُ فَقَدْ مَدَّ يَدَهُ عَلَىٰ أَثَرِهِ﴾ [النساء: ١٠٠]. وقوله: ﴿لِيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رَزَقًا حَسَنًا﴾ أي: ليُجْزِينَ عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ لَهُمْ خَيْرٌ مِنَ الرَّزْقِ لِيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلَ رِضْوَانِهِ﴾ أي: الجنة. كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٢١٨﴾ قَرَّبَ رِزْقًا وَجَعَلَ يَمِينُ ﴿٢١٩﴾﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩] فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة نعيم، كما قال هاهنا: ﴿لِيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رَزَقًا حَسَنًا﴾، ثم قال: ﴿لِيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلَ رِضْوَانِهِ وَلَئِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ أي: بمن يهاجر ويجاهد في سبيله، وبمن يستحق ذلك، ﴿حَلِيمٌ﴾ أي: يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه، وتوكلهم عليه. فأما من قتل في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه حي عند ربه يرزق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ أَلِ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَالُهُمْ كُلُّهَا حَتَّى يَرْزُقَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ١٦٩]، والأحاديث في هذا كثيرة، كما تقدم، وأما من توفي في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه، وعظيم إحسان الله إليه. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا المسيب بن واضح، حدثنا ابن المبارك، عن عبد الرحمن بن شريح، عن ابن الحارث - يعني: عبد الكريم - عن ابن عتبة - يعني: أبا عبيدة بن عتبة - قال: حدثنا شريح بن السطط: طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم، فمر بي سلمان - يعني: الفارسي - رضي الله عنه، فقال: إني سمعت رسول الله يقول: «من مات مرابطاً، أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر، وأجرى عليه الرزق، وأمن من الفئتين» وقرأوا إن شئتم: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَوْ مَا تَرْزُقُنَّهُمْ اللَّهُ رَزَقًا حَسَنًا وَلَكِنَّ اللَّهَ لَهُمْ خَيْرٌ مِنَ الرَّزْقِ لِيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلَ رِضْوَانِهِ وَلَئِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [٢١٨].

وقال أيضاً: حدثنا أبو زرعة، حدثنا زيد بن بشر، أخبرني همام، أنه سمع أبا قبيل وربيعه بن سيف المعافري يقولان: كنا برودس، ومعنا فضالة بن عبيد الأنصاري - صاحب رسول الله ﷺ - فمر بجنازتين، إحداهما قتيل والأخرى متوفى، فمال

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم بما في أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب وإن صغر، لا يخفى عليه

﴿أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٧٠).

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيط بما في السموات وما في الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ، كما ثبت في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء». وفي السنن، من حديث جماعة من الصحابة: أن رسول الله ﷺ قال: «أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن. فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة، حدثنا ابن بكير، حدثنا ابن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، حدثني سعيد بن جبيرة قال: قال ابن عباس: خلق الله اللوح المحفوظ مسيرة مائة عام، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق - وهو على العرش تبارك وتعالى -: اكتب. قال القلم: وما أكتب؟ قال: علمي في خلقي إلى يوم تقوم الساعة. فجرى القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيامة. فذلك قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾. وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها، وقدرها وكتبها أيضاً، فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك، على الوجه الذي يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره، وهذا يعصي باختياره، وكتب ذلك عنده، وأحاط بكل شيء علماً، وهو سهل عليه، يسير لديه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَمْ يَكُنْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (٧١) وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ نَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَكْرَ الْكَادِبَ بِكَادِبَتِ يَسْطُونُ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ تَشْكُرُونَ ذَلِكَ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ النَّصِيرِ (٧٢).

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما جهلوا وكفروا، وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً، يعني: حجة وبرهاناً، كقوله: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً مآخَرَ لَا بَرَهَانَ لَهُمْ﴾ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٧٣) [المومن: ١١٧]. ولهذا قال هاهنا: ﴿مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَمْ يَكُنْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: ولا علم لهم فيما اختلقوه واتفكروه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا حجة، وأصله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم؛ ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أي: من ناصر ينصرهم من الله، فما يحل بهم من العذاب والنكال. ثم قال: ﴿وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسله الكرام حق وصدق، ﴿بِكَادِبَتِ يَسْطُونُ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أي: يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويسطون إليهم أيديهم والسنتهم بالسوء! ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء: ﴿أَفَأَنْتُمْ تَشْكُرُونَ ذَلِكَ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأظم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تتلونون منهم، إن نلتهم بزعمتكم وإرادتكم. وقوله: ﴿وَبَشِّرِ النَّصِيرِ﴾ أي: وبشّر النار منزلاً ومقيلاً ومرجعاً وموتلاً ومقاماً، ﴿إِنَّمَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَعِمْوْا لَهُمْ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُمْ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِئُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (٧٤) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَعَزِيزٌ (٧٥).

يقول تعالى منبهاً على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مَثَلٌ﴾ أي: لما يعيده الجاهلون بالله المشركون به، ﴿فَاسْتَعِمْوْا لَهُمْ﴾ أي: انصتوا وتفهموا، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُمْ﴾ أي: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك. كما قال الإمام أحمد. حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شريك، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي رزعة، عن أبي هريرة - رفع الحديث - قال: «ومن أظلم ممن خلق خلقاً كخلفي؟ فليخلقوا مثل خلقي ذرة، أو ذبابة، أو حبة». وأخرجه صاحبها الصحيح، من طريق عمارة، عن أبي رزعة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: قال الله ﷻ: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟ فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة». ثم قال تعالى أيضاً: ﴿وَلَنْ يَسْلُبَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِئُوهُ مِنْهُ﴾ أي: هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه، لما قدرت على ذلك. هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ولهذا قال: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾. قال ابن عباس: الطالب: الصنم، والمطلوب:

الذباب. واختاره ابن جرير، وهو ظاهر السياق. وقال السدي وغيره: الطالب: العابد، والمطلوب: الصنم.

ثم قال: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره، من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿إِنَّ بَلَدَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [١٦] ﴿إِنَّهُ هُوَ بَدِيعُ رَبِّهِ﴾ [١٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [٥٨] [الذاريات: ٥٨]. وقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ أي: قد عز كل شيء فقهره وغلبه، فلا يمانع ولا يغالب، لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار.

﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُؤْسًا وَيَنزِلُ إِلَيْكَ إِلَهًا سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [٧٥] يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ [٧٦].

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شرعه وقدره، ومن الناس لإبلاغ رسالاته، ﴿إِلَى اللَّهِ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي: سميع لأقوال عباده، بصير بهم، عليم بمن يستحق ذلك منهم، كما قال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَمْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [٧٦] أي: يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به، فلا يخفى عليه من أمورهم شيء، كما قال: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدٌ﴾ [٦١] ﴿إِلَّا مَن رَّزَقَ مِن رَّسُولِي فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [٧٧] لَيْسَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَتِي رَبِّيمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [٧٨] [الجن: ٢٦-٢٨]، فهو سبحانه رقيب عليهم، شهيد على ما يقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنايبهم؛ ﴿يُنَادِي السُّورُوتُ بِمَا نَزَّلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ الآية [المائدة: ٦٧].

﴿يُنَادِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا أَزْكَمُوا وَأَسْجَدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْكَلُوا الْخَبَرَ لَمَلَكُم مِّنْ قَبْلُ خُبْرَةٌ﴾ [٧٧] وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ بَلَّةَ أَيْكُمْ لِزَهْرِهِمْ هُوَ سَتْنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا الرَّسُولِ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [٧٨].

اختلف الأئمة، رحمهم الله، في هذه السجدة الثانية من سورة الحج: هل هي مشروع السجود فيها أم لا؟ على قولين. وقد قدمنا عند الأولى حديث عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ: «فُضِّلَتْ سُورَةُ الْحَجِّ بِسَجْدَتَيْنِ، فَمَنْ لَمْ يَسْجُدْهُمَا فَلَا يقرأهما».

وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أي: يا هذه الأمة، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول، وأكمل شرع. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء فشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً، فالصلاة - التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين - تجب في الحضر أربعاً وفي السفر تقصر إلى اثنتين، وفي الخوف يصلحها بعض الأئمة ركعة، كما ورد به الحديث، وتُصَلَّى رجالاً وركباناً، مستقبلين القبلة وغير مستقبلين. وكذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها، والقيام فيها يسقط بعذر المرض، فيصليها المريض جالساً، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات، في سائر الفرائض والواجبات؛ ولهذا قال، عليه السلام: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»، وقال لمعاذ وأبي موسى، حين بعثهما أميرين إلى اليمن: «بَشِّرُوا وَلَا تَنْفَرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُعْسِرُوا». والأحاديث في هذا كثيرة؛ ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يعني: من ضيق.

وقوله: ﴿بَلَّةَ أَيْكُمْ لِزَهْرِهِمْ﴾: قال ابن جرير: نصب على تقدير: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: من ضيق، بل وسعه عليكم كلمة أبيكم إبراهيم. قال: ويحتمل أنه منصوب على تقدير: الزموا ملة أبيكم إبراهيم. قلت: وهذا المعنى في هذه الآية كقوله: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِسَمًا بَلَّةَ لِّزَهْرِهِمْ حَنِيفًا﴾ الآية [الأنعام: ١٦١]. وقوله: ﴿هُوَ سَتْنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا﴾: قال الإمام عبد الله بن المبارك، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس في قوله: ﴿هُوَ سَتْنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ﴾ قال: الله ﷻ. وكذا قال مجاهد، وعطاء، والضحاك، والسدي، وقتادة، ومقاتل بن حيان. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿هُوَ سَتْنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا﴾ يعني: إبراهيم، وذلك لقوله: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]. قال ابن جرير: وهذا لا وجه له؛ لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يسم هذه الأمة في القرآن مسلمين، وقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ سَتْنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا﴾ قال مجاهد: الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة وفي الذكر، ﴿وَفِي هَذَا﴾ يعني: القرآن. وكذا قال غيره.

قلت: وهذا هو الصواب؛ لأنه تعالى قال: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة بما نوه به من ذكرها والثناء عليها في سالف الدهر وقديم الزمان، في كتب الأنبياء، يتلى على الأحيار والرهبان، فقال: ﴿هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْإِسْلَامُ مِنْ قِبَلِكُمْ﴾، وقد قال النسائي عند تفسير هذه الآية: أنبأنا هشام بن عمار، حدثنا محمد بن شعيب، أنبأنا معاوية بن سلام، أن أخاه زيد بن سلام أخبره، عن أبي سلام أنه أخبره قال: أخبرني الحارث الأشعري، عن رسول الله ﷺ قال: «من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثي جهنم». قال رجل: يا رسول الله، وإن صام وصلى؟ قال: «نعم، وإن صام وصلى، فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنین عباد الله». وقد قدمنا هذا الحديث بطوله عند تفسير قوله: ﴿يَأْتِيَكُمُ الْإِسْلَامُ مِنْ قِبَلِكُمْ﴾، من سورة البقرة [الآية: ٢١]؛ ولهذا قال: ﴿يَكُونُ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: إنما جعلناكم هكذا أمة وسطاً عدولاً خياراً، مشهوداً بعدالتكم عند جميع الأمم، لتكونوا يوم القيامة ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها؛ فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة، في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك. وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وذكرنا حديث نوح وأمه بما أغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿فَاقْبَلُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: قابلوها هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها، وأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض، وطاعة ما أوجب، وترك ما حرم. ومن أهم ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وهو الإحسان إلى خلق الله، بما أوجب للفقير على الغني، من إخراج جزء نزر من ماله في السنة للضعفاء والمحاريج، كما تقدم بيانه وتفصيله في آية الزكاة من سورة «التوبة». وقوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ﴾ أي: اعتضدوا بالله، واستعينوا به، وتوكلوا عليه، وتأيدوا به، ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم، ﴿فَيَقَعِ الْمَوْتُ يَفْعَهُ الْغَيْبُ﴾ يعني: نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء. قال وهيب بن الورد: يقول الله تعالى: ابن آدم، اذكرني إذا غضبت أذكرك إذا غضبت، فلا أمحقك فيمن أمحق، وإذا ظلمت فاصبر، وارض بنصرتي، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك. رواه ابن أبي حاتم.

والله تعالى أعلم وله الحمد والمنة، والثناء الحسن والنعمة، وأسأله التوفيق والعصمة، في سائر الأفعال والأقوال.

هذا آخر تفسير سورة «الحج»، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم
وشرف وكرم، ورضي الله تعالى عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين



تفسير سورة المؤمنون

مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَائِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغوِّ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) مَنِ ابْتَنَىٰ ذِكْرًا فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لَا يُخْشَوْنَ غَيْرَهُمْ وَعَهْدُهُمْ رُحُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْوَرْدَ وَالْأَنْبِيَاءَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرني يونس بن سليم قال: أملى علي يونس بن يزيد الأيلي، عن ابن شهاب، عن عروة بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عبد القاري قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي، يسمع عند وجهه كدوي النحل فمكثنا ساعة، فاستقبل القبلة ورفع يديه، فقال: «اللهم، زنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنأ، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا»، ثم قال: «لقد أنزلت علي عشر آيات، من أقامهن دخل الجنة»، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) حتى ختم العشر. وكذا روى الترمذي في تفسيره، والنسائي في الصلاة، من حديث عبد الرزاق، به. وقال الترمذي: منكر، لا نعرف أحداً رواه غير يونس بن سليم، ويونس لا نعرفه. وقال النسائي في تفسيره:

أنبأنا قُتَيْبَةُ بن سعيد، حدثنا جعفر، عن أبي عمران عن يزيد بن بابئوس قال: قلنا لعائشة: يا أم المؤمنين، كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلقُ رسول الله ﷺ القرآن، فقرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، حتى انتهت إلى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، قالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ.

وقد روي عن كعب الأحبار، ومجاهد، وأبي العالية، وغيرهم: لَمَّا خَلَقَ اللهُ جَنَّةَ عَدْنٍ، وغرسها بيده، نظر إليها وقال لها: تكلمي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. قال كعب الأحبار: لَمَّا أَعَدَّ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْكَرَامَةِ. وقال أبو العالية: فأنزل الله ذلك في كتابه. وقد روي ذلك عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً، فقال أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا المغيرة بن سلمة، حدثنا وهيب، عن الجُريري، عن أبي نُضْرَةَ، عن أبي سعيد قال: خلق الله الجنة، لَبْنَةً من ذهب ولبنة من فضة، وغرسها، وقال لها: تكلمي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، فدخلتها الملائكة فقالت: طوبى لك، منزل الملوك! ثم قال: وحدثنا بشر بن آدم، وحدثنا يونس بن عبيد الله العمري، حدثنا عدي بن الفضل، حدثنا الجُريري، عن أبي نُضْرَةَ، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «خلق الله الجنة، لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وملاطها المسك». قال أبو بكر: ورأيت في موضع آخر في هذا الحديث: «حائط الجنة، لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وملاطها المسك». فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. فقالت الملائكة: طوبى لك، منزل الملوك! ثم قال البزار: لا نعلم أحداً رفعه إلا عدي بن الفضل، وليس هو بالحافظ، وهو شيخ متقدم الموت.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن علي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا بَقِيَّةُ، عن ابن جُرَيْجٍ، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ جَنَّةَ عَدْنٍ، خلق فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». ثم قال لها: تكلمي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. بَقِيَّةُ عن الحجازيين ضعيف. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا مُنْجَابُ بن الحارث، حدثنا حماد بن عيسى العنسي، عن إسماعيل السُّدِّي، عن أبي صالح، عن ابن عباس - يرفعه - : «لَمَّا خَلَقَ اللهُ جَنَّةَ عَدْنٍ بيده، ودلَّى فيها ثمارها، وشق فيها أنهارها، ثم نظر إليها فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾». قال: وعزتي لا يجاورني فيك بخيل.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن المثنى البزار، حدثنا محمد بن زياد الكلبي، حدثنا يعيش بن حسين، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله جنة عدن بيده، لبنة من ذرة بيضاء، ولبنة من ياقوتة حمراء، ولبنة من زَبَرَجَدَ خضراء، ملاطها المسك، وحضابها اللؤلؤ، وحشيشها الزعفران، ثم قال لها: انطقي. قالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾»، فقال الله: وعزتي، وجلالي، لا يجاورني فيك بخيل». ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَنَنْبُؤٌ شَرِيعٌ نَقِيصٌ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩). فقله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿خَاشِعُونَ﴾: خائفون ساكنون. وكذا روي عن مجاهد، والحسن، وقاتدة، والزهري. وعن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: الخشوع، خشوع القلب. وكذا قال إبراهيم اللخمي. وقال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخَفَضُوا الجناح. وقال محمد بن سيرين: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿﴾ خَفَضُوا أبصارهم إلى موضع سجودهم. وقال ابن سيرين: وكانوا يقولون: لا يجاوز بصره مُضَلًّا، فإن كان قد اعتاد النظر فليَغِيضْ. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. ثم روى ابن جرير عنه، وعن عطاء بن أبي رباح أيضاً مرسلًا: أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك، حتى نزلت هذه الآية. والخشوع في الصلاة إنما يحصل بمن قَرَّغَ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقوة عين، كما قال النبي ﷺ، في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي، عن أنس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حَبَّبَ إِلَيَّ الطَّيِّبُ وَالنِّسَاءُ، وجعلت قرعة عيني في الصلاة». وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا مسعر، عن عمرو بن مرة، عن سالم بن أبي الجعد، عن رجل من أسلم، أن رسول الله ﷺ قال: «يا بلال، أرحنا بالصلاة». وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا إسرائيل، عن عثمان بن المغيرة، عن سالم بن أبي الجعد، أن محمد بن الحنفية قال: دخلت مع أبي على صهر لنا من الأنصار، فحَضَرَت الصلاة، فقال: يا جارية، اثنتي بوضوء لعلني أصلي فاستريح. فرأنا أنكرنا عليه ذلك، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قم يا بلال، فأرحنا بالصلاة».

وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أي: عن الباطل، وهو يشمل: الشرك - كما قاله بعضهم - والمعاصي - كما قاله آخرون - وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْوُوا بِاللَّغْوِ حَرَمًا﴾ [الفرقان: ٧٢]. قال قتادة: أتاهم والله من أمر الله ما وقَّدهم عن ذلك.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾: الأكثرون على أن المراد بالزكاة ما هنا زكاة الأموال، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة. والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات النصب والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ﴾ [الأنعام: ١٦١]. وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا: زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠] وكقوله: ﴿وَيَلْبِسُ ثِيَابَ زَكَاتٍ﴾ [التكوير: ٦، ٧]، على أحد القولين في تفسيرها. وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال؛ فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يتعاطى هذا وهذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾: أي: الذين قد حفظوا فروجهم من الحرام، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا أو لواط، ولا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم، وما ملكت أيمانهم من السراي، ومن تعاطى ما أحله الله فلا لوم عليه ولا حرج؛ ولهذا قال: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: غير الأزواج والإماء، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: المعتدون. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا سعيد، عن قتادة، أن امرأة اتخذت مملوكها، وقالت: تأولت آية من كتاب الله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، قال: فأتني بها عمر بن الخطاب، فقال له ناس من أصحاب النبي ﷺ: تأولت آية من كتاب الله على غير وجهها. قال: فَعَرَّبَ الْعَبْدَ وَجَزَّ رَأْسَهُ، وقال: أنت بعده حرام على كل مسلم. هذا أثر غريب منقطع، ذكره ابن جرير في أول تفسير سورة المائدة، وهو هاهنا أليق، وإنما حرمها على الرجال معاملة لها بنقيض قصدها، والله أعلم. وقد استدلل الإمام الشافعي، رحمه الله، ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [١٠]، قال: فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين، وقد قال: ﴿فَمَنْ أَتَقَى وَزَكَ ذَاكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [٧]. وقد استأنسوا بحديث رواه الإمام الحسن بن عرفة في جزئه المشهور حيث قال: حدثني علي بن ثابت الجعفي، عن مسلمة بن جعفر، عن حسان بن حميد، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا يجمعهم مع العاملين، ويدخلهم النار أول الداخلين، إلا أن يتوبوا، فمن تاب تاب الله عليه: ناكح يده، والفاعل، والمفعول به، ومدمن الخمر، والضارب والديه حتى يستغيث، والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه، والناكح حليلة جاره». هذا حديث غريب، وإسناده فيه من لا يُعْرَفُ؛ لجهالة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْثَلِهِمْ مَوْعِدُهُمْ وَعَقْدُهُمْ﴾ [٨] أي: إذا أؤتمنوا لم يخونوا، بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاهدوا أوفوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان».

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [٩] أي: يواظبون عليها في مواقيتها، كما قال ابن مسعود: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». أخرجه في الصحيحين. وفي مستدرک الحاكم قال: «الصلاة في أول وقتها». وقال ابن مسعود، ومسروق في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [٩]، يعني: مواقيت الصلاة. وكذا قال أبو الضحى، وعلقمة بن قيس، وسعيد بن جبير، وعكرمة. وقال قتادة: على مواقيتها وركوعها وسجودها. وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة، فدل على أفضليتها، كما قال رسول الله ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن».

ولما وصفهم الله تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [١٠] أُولَئِكَ يَرْثُونَ الْفَرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [١١]. وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تَجَرَّأَ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وفوقه عرش الرحمن». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان:

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعني: نقله من حال إلى حال، إلى أن خرج طفلاً، ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم، ثم صار شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً، ثم هرمًا. وعن قتادة، والضحاك نحو ذلك. ولأن منافاة، فإنه من ابتداء نفخ الروح فيه شرع في هذه التنقلات والأحوال. والله أعلم. قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم ليُجمع خلقه في بطن أمه في أربعين يوماً، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغاً مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وهل هو شقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها». أخرجاه من حديث سليمان بن وهبان الأعمش.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن خثيمة قال: قال عبد الله - يعني: ابن مسعود -: «إن النطفة إذا وقعت في الرحم، طارت في كل شعر وظفر، فتمكث أربعين يوماً، ثم تتحدّر في الرحم فتكون علقه».

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا حسين بن الحسن، حدثنا أبو كذينة، عن عطاء بن السائب، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله قال: مرّ يهودي برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه، فقالت قريش: يا يهودي، إن هذا يزعم أنه نبي. فقال: لأسأله عن شيء لا يعلمه إلا نبي. قال: فجاءه حتى جلس، فقال: يا محمد، مِمّ يخلق الإنسان؟ فقال: «يا يهودي، من كل يُخلق، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة، فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعصب، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدم» فقام اليهودي فقال: هكذا كان يقول من قبلك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان عن عمرو، عن أبي الطفيل، حُذِفَتْ بن أسيد الغفاري قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين ليلة، فيقول: يا رب، ماذا؟ أشقي أم سعيد؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله، فيكتبان. فيقولان: ماذا؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله ﷻ، فيكتبان ويكتب عمله، وأثره، ومصيبته، ورزقه، ثم تطوى الصحيفة، فلا يُزاد على ما فيها ولا ينقص». وقد رواه مسلم في صحيحه، من حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو - وهو ابن دينار - به نحوه. ومن طُرُق أخرى، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، عن حذيفة بن أسيد أبي سريحة الغفاري بنحوه، والله أعلم. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن عتبة، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عبيد الله بن أبي بكر، عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله وكل بالرحم ملكاً فيقول: أي رب، نطفة. أي رب، علقه، أي رب، مضغة. فإذا أراد الله خلقها قال: يا رب، ذكر أو أنثى؟ شقي أو سعيد؟ فما الرزق والأجل؟» قال: «فذلك يكتب في بطن أمه». أخرجاه في الصحيحين من حديث حماد بن زيد به. وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ يعني: حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النطفة من حال إلى حال، وشكل إلى شكل، حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوّي الكامل الخلق، قال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا علي بن زيد، عن أنس، قال: قال عمر - يعني: ابن الخطاب رضي الله عنه -: وافقت ربي ووافقني في أربع: نزلت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلُوكٍ مِنْ طِينٍ﴾ (٧٧) الآية، قلت أنا: فتبارك الله أحسن الخالقين. فنزلت: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شيبان، عن جابر الجعفي، عن عامر الشعبي، عن زيد بن ثابت الأنصاري قال: أُملي عليّ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلُوكٍ مِنْ طِينٍ﴾ (٧٧) إلى قوله: ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾، فقال معاذ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، فضحك رسول الله ﷺ. فقال له معاذ: مم ضحكك يا رسول الله؟ قال: «بها ختمت ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾».

جابر بن يزيد الجعفي ضعيف جداً، وفي خبره هذا نكارة، وذلك أن هذه السورة مكية، وزيد بن ثابت إنما كتب الوحي بالمدينة، وكذلك إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة أيضاً، فالله أعلم.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ بِمَدَنِكَ لَنَسَوْتُمْ﴾ (١٥) يعني: بعد هذه النشأة الأولى من العدم تُصيرون إلى الموت، ﴿ثُمَّ إِنَّكَ بِمَدَنِكَ لَنَسَوْتُمْ﴾ (١٦) يعني: النشأة الآخرة، ﴿ثُمَّ إِنَّكَ بِمَدَنِكَ لَنَسَوْتُمْ﴾ (١٧) يعني: يوم المعاد، وقيام الأرواح والأجساد، فيحاسب الخلاق، ويوفي كلّ عامل عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِفٍ وَمَا كُنَّا عَنْ الْفَلَقِ غَافِلِينَ﴾ (١٧).

لما ذكر تعالى خَلَقَ الإنسان، عطف بذكر خلق السموات السبع، وكثيراً ما يذكر تعالى خَلَقَ السموات والأرض، مع خلق الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وهكذا في أول ﴿الْأَنزِلِ﴾ السجدة، التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها في صبيحة يوم الجمعة، في أولها خَلَقَ السموات والأرض، ثم بيان خلق الإنسان من سلاله من طين، وفيها أمر المعاد والجزاء، وغير ذلك من المقاصد.

فقوله: ﴿سَبِّحْ طَرَائِقَ﴾: قال مجاهد: يعني السموات السبع، وهذه كقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ﴾ [الأنعام: ٥٩]. ﴿الْإِسْرَافِ: [٤٤]، ﴿أَلَمْ نَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَنزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِنُعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. وهكذا قال هاهنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [٧] أي: ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهو معكم أينما كنتم، والله بما تعملون بصير. وهو - سبحانه - لا يحجب عنه سماء سماء، ولا أرض أرضاً، ولا جبل إلا يعلم ما في وغره، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال، والبحار والقفار والأشجار، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرْدَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ مِنْ تَرْتِيلٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَكْنَا فِي الْأَرْضِ وَرَبَّاءَ عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَدْ يَرْوُونَ﴾ [٨] فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبَ لَكُمْ فِيهَا فَوْرَكُهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [٩] وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سِينَاءَ تُبْتُتُ بِالذَّهْنِ وَصِنَعَ لِلْأَكْثَرِينَ﴾ [١٠] وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنَبِّحُوا بِهَا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [١١] وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [١٢].

يذكر تعالى نعمه على عبده التي لا تعد ولا تحصى، في إنزاله القطر من السماء ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: بحسب الحاجة، لا كثيراً فيفسد الأرض وال عمران، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضي التي تحتاج ماء كثيراً لزروعها ولا تحتمل دُمُنتها أنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، كما في أرض مصر، ويقال لها: «الأرض الجزز»، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها، فيأتي الماء يحمل طيناً أحمر، فيسقي أرض مصر، ويقر الطين على أرضهم ليزدروا فيه، لأن أرضهم سباح يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور.

وقوله: ﴿فَأَنشَكْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابلية له، تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى. وقوله: ﴿وَرَبَّاءَ عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَدْ يَرْوُونَ﴾ أي: لو شئنا ألا تمطر لفعلنا، ولو شئنا لصفناه عنكم إلى السباح والبراري والبحار والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاباً لا ينتفع به لشرب ولا لسقي لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض، بل ينجر على وجهها لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تتفجعون به لفعلنا. ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذباً فرائاً زلالاً، فيسكنه في الأرض ويسلكه ينابيع في الأرض، فيفتح العيون والأنهار، فيسقي به الزروع والثمار، وتشربون منه ودوابكم وأنعامكم، وتغتسلون منه وتطهرون وتنظفون، فله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبَ﴾ يعني: فأخرجنا لكم بما أنزلنا من الماء ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين وحدائق ذات بهجة، أي: ذات منظر حسن. وقوله: ﴿مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبَ﴾ أي: فيها نخيل وأعناب. وهذا ما كان يألف أهل الحجاز، ولا فرق بين الشيء وبين نظيره، وكذلك في حق كل أهل إقليم، عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره. وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوْرَكُهُ كَثِيرَةٌ﴾ أي: من جميع الثمار، كما قال: ﴿يُبْتُتُ لَكُمْ بِهِ الزَّيْتُونُ وَالزَّيْتُونُ وَالنَّخِيلُ وَالْأَعْنَبُ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١١]. وقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كأنه معطوف على شيء مقدر، تقديره: تنظرون إلى حسنه ونضجه، ومنه تأكلون.

وقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سِينَاءَ﴾ يعني: الزيتون. والطور: هو الجبل. وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عرى عنها سمي جبلاً لا طوراً، والله أعلم. وطور سيناء: هو طور سينين، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران، عليه السلام، وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون. وقوله: ﴿تُبْتُتُ بِالذَّهْنِ﴾ قال بعضهم: الباء زائدة، وتقديره: تبتت الدهن، كما في قول العرب: ألقى فلان بيده، أي: يده. وأما على قول من يضمن الفعل فتقديره: تخرج بالدهن، أو تأتي بالدهن، ولهذا قال: ﴿وَصِنَعَ﴾ أي: أدم، قاله قتادة. ﴿لِلْأَكْثَرِينَ﴾ أي: فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ، كما قال الإمام

وقوله: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَاحِ فَقُلْ نُحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي بَعَثَنَا مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ (١٧)، كما قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَاحِ وَالْآخِرَةِ مَا تَرْضَوْنَ﴾ (١٨) لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٩﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرف: ١٢-١٤]. وقد امتثل نوح، عليه السلام، هذا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَمِيعًا مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٤١]. فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْزُقْنِي مِزْلًا مِّبَارَكًا وَأَنْتَ سَبُّ الْمُتَزَيِّرِينَ﴾ (٢١). وقوله: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: إن في هذا الصنيع - وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين - ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: لحجبا ودلالات

واضحات علمي صدق الأنبياء فيما جاؤوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء، وقادر على كل شيء، عليم بكل شيء. وقوله: ﴿وَلَوْ كُنَّا لَبْتَائِينَ﴾ أي: لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ أَقْبِدُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ فَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِهِ الْآخِرَةِ ۖ وَأَلْفَتْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَدَيْنَا إِلَّا بَشْرًا مِثْلَكُمُ يَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِهِمْ وَمَا يَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُونَ مِنْ مَشْرَبِهِمْ ۚ وَلَئِنْ أَلْمَعْتُمْ بَشْرًا مِثْلَكُمْ إِلَّا نُكْرُوا بِكُمْ وَإِنَّا لَنُخْرِجُهُمْ مِنْكُمْ وَإِنَّا نَعْلَمُ مَا تُوعَدُونَ (٣٣) إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ أَخَذَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٥) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتُ (٣٦) قَلِيلًا يُصْبِحُنَّ نَادِيَيْنَ (٣٧) فَأَعَذَّتْهُمُ الْمَنِيَّةُ ۖ وَالْحَقُّ فَعَلَلْنَاهُمْ عُسَّةً فَجَعَلْنَا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٣٨)

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرونًا آخرين - قيل: المراد بهم عاد، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم - وقيل: المراد بهؤلاء ثمود؛ لقوله: ﴿فَأَعَذَّتْهُمُ الْمَنِيَّةُ بِالْحَقِّ﴾ - وأنه تعالى أرسل فيهم رسولاً منهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له. فكذبوه وخالفوه، وأبوا من اتباعه لكونه بشراً مثلهم، واستنكفوا عن اتباع رسول بشري، فكذبوا بلقاء الله في القيامة، وأنكروا المعاد الجسماني، وقالوا: ﴿أَيُّدُّكُمْ أَكْثَرُ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنْتُمْ تُخْرِجُونَ﴾ (٣٥) ﴿هَيَّاتْ هَيَّاتْ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ (٣٦) أي: بعيد ذلك. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ أَخَذَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: فيما جاءكم به من الرسالة والنذارة والإخبار بالمعاد. ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتُ (٣٦) أي: استفتح عليهم الرسول واستنصر ربه عليهم، فأجاب دعاءه، ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلًا لَيُصْبِحُنَّ نَادِيَيْنَ﴾ (٣٧) أي: بمخالفتك وعنادك فيما جنتهم به، ﴿فَأَعَذَّتْهُمُ الْمَنِيَّةُ بِالْحَقِّ﴾ أي: وكانوا يستحقون ذلك من الله لكفرهم وطغيانهم. والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصّصر العاصف القوي الباردة، ﴿تُذَكِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا سَسَكُهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٥]. وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ عُسَّةً﴾ أي: صرعى هلكى كغشاء السيل، وهو الشيء الحقيقير النافه الهالك الذي لا يتفجع بشيء منه. ﴿فَجَعَلْنَا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، كقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦] أي: بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ (٣١) مَا تَتَّبِعُونَ مِنْ أُمَّةٍ آجِلًا وَمَا يَسْتَفْهِرُونَ (٣٢) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةً رَسُولًا كَذَّبُوا فَاتَّبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ آحَادِيثَ فَجَعَلْنَا الْقَوْمَ لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣)

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ (٣١) أي: أممًا وخلائق، ﴿مَا تَتَّبِعُونَ مِنْ أُمَّةٍ آجِلًا وَمَا يَسْتَفْهِرُونَ﴾ (٣٢) يعني: بل يؤخذون حسب ما قدر لهم تعالى في كتابه المحفوظ وعلمه قبل كونهم، أمة بعد أمة، وقرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وخلفاً بعد سلف.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ قال ابن عباس: يعني يتبع بعضهم بعضاً. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْحَبُوا الصُّلُوحَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وقوله: ﴿كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةً رَسُولًا كَذَّبُوا﴾ يعني: جمهورهم وأكثرهم، كقوله تعالى: ﴿يَحْضَرُهُ عَلَى الْآيَاتِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٢٣]. وقوله: ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا﴾ أي: أهلكتهم، كقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آحَادِيثَ﴾ أي: أخباراً وأحاديث للناس، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ آحَادِيثَ وَمَرَقْنَاهُمْ كُلَّ مِرْقَةٍ﴾ [الآية: سبأ: ١٩] ﴿فَجَعَلْنَا الْقَوْمَ لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (٤٥) إِنْ فَرَعُونَ مَلَأْنَاهُمْ كَذِبًا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَلَهُمَا كَرْتَ غَيْرُ اللَّهِ شَرًّا (٤٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَكُنَّا مِنَ الْغَالِبِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩)

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى، عليه السلام، وأخاه هارون إلى فرعون وملئه، بالآيات والحجج الدامغات، والبراهين القاطعات، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما، والالقياد لأمرهما، لكونهما بشرين كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر، تشابهت قلوبهم، فأهلك الله فرعون وملأه، وأغرقهم في يوم واحد أجمعين، وأنزل على موسى الكتاب - وهو التوراة - فيها أحكامه وأوامره ونواهي، وذلك بعد ما قصم الله فرعون والقبط، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر؛ وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامه، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]. ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى ذِي الْقُرْبَىٰ ذَاتِ قُرْبَىٰ وَوَعَيْنَ﴾ (٥٠).

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم، عليهما السلام، أنه جعلهما آية للناس: أي حجة قاطعة على قدرته على

ما يشاء، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى. وقوله: ﴿وَأَنْتَهُمَا إِلَٰكُ زَبُورَ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾. قال الضحاك، عن ابن عباس: الربوة: المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وقتادة. قال ابن عباس: وقوله ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ يقول: ذات خصب ﴿وَمَعِينٍ﴾ يعني: ماء ظاهراً. وقال مجاهد: ربوة مستوية. وقال سعيد بن جبيرة: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾: استوى الماء فيها. وقال مجاهد، وقتادة: ﴿وَمَعِينٍ﴾: الماء الجاري.

ثم اختلف المفسرون في مكان هذه الربوة في أي أرض الله هي؟ فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ليس الربى إلا بمصر. والماء حين يرسل يكون الربى عليها القرى، ولولا الربى غرقت القرى. وروي عن وهب بن مثنىة نحو هذا، وهو بعيد جداً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَهُمَا إِلَٰكُ زَبُورَ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: هي دمشق. قال: وزوي عن عبد الله بن سلام، والحسن، وزيد بن أسلم، وخالد بن معدان نحو ذلك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن سيماء، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: أنهار دمشق. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وَأَنْتَهُمَا إِلَٰكُ زَبُورَ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾. قال: عيسى ابن مريم وأمّه، حين أوىا إلى غوطة دمشق وما حولها. وقال عبد الرزاق، عن بشر بن رافع، عن أبي عبد الله ابن عم أبي هريرة، قال: سمعت أبا هريرة يقول في قوله: ﴿إِلَٰكُ زَبُورَ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: هي الرملة من فلسطين. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف الفريابي، حدثنا زوّاد بن الجراح، حدثنا عباد بن عبد الخواص أبو عتبة، حدثنا السيباني، عن ابن وغلّة، عن كُزَيْبِ السُّحُولِي، عن مَرْثَةَ الْبَهْرِي قال: سمعت النبي ﷺ يقول لرجل: «إنك ميت بالربوة» فمات بالرملة. وهذا حديث غريب جداً.

وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه القوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنْتَهُمَا إِلَٰكُ زَبُورَ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: المعين الماء الجاري، وهو النهر الذي قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلْنَا لَكَ ذِكْرًا لَكَ سَكِينًا﴾ (مريم: ٢٤). وكذا قال الضحاك، وقتادة: ﴿إِلَٰكُ زَبُورَ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾: هو بيت المقدس. فهذا والله أعلم هو الأظهر؛ لأنه المذكور في الآية الأخرى. والقرآن يفسر بعضه بعضاً. وهو أولى ما يفسر به، ثم الأحاديث الصحيحة، ثم الآثار.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ وَإِنَّ هَذِهِ أَشْجُرَةُ إِلَٰهٍ وَجِدَهُ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ۝ تَتَّقُلُوا أَنْفُسَهُمْ رَبُّكُمْ كُلُّ جَزٍ بِمَا لَدَيْهِمْ قَرِينٌ ۝ تَذَكَّرُ فِي عَزَّتِهِمْ حَقٌّ جِنٌّ ۝ أَحْسَنُونَ أَمَّا تُؤَدُّهُمْ يَوْمَ مِنْ قَالِي وَيَوْمَ ۝ شَارِعٌ لَمْ فِي لَقِيَتْ بَلْ لَا يَتَّقُونَ ۝﴾.

يأمر تعالى عباده المرسلين، عليهم الصلاة والسلام أجمعين، بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء، عليهم السلام، بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل خير، قولاً وعملاً ودلالة ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً. قال الحسن البصري في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال: أما والله ما أمروا بأصفركم ولا أحمركم، ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه. وقال سعيد بن جبيرة، والضحاك: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني: الحلال. وقال أبو إسحاق السبيعي، عن أبي ميسرة بن شُرَيْبيل: كان عيسى ابن مريم يأكل من غزل أمه. وفي الصحيح: «ما من نبي إلا رعى الغنم». قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم»، كنت أرباعها على قراريط لأهل مكة. وفي الصحيح: أن داود، عليه السلام، كان يأكل من كسب يده. وفي الصحيحين: «إن أحب الصيام إلى الله صيام داود، وأحب القيام إلى الله قيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يقر إذا لاقى».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع، حدثنا أبو بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب، أن أم عبد الله، أخت شداد بن أوس بعثت إلى النبي ﷺ بقدر لبن عند فطره وهو صائم، وذلك في أول النهار وشدة الحر، فرد إليها رسولها: أتى كانت لك الشاة؟ فقالت: اشتريتها من مالي، فشرب منه، فلما كان الغد أنه أم عبد الله أخت شداد فقالت: يا رسول الله، بعث إليك بلبن مرثية لك من طول النهار وشدة الحر، فرددت إلي الرسول فيه؟ فقال لها: «بذلك أمرت الرسل، ألا تأكل إلا طيباً، ولا تعمل إلا صالحاً».

وقد ثبت في صحيح مسلم، وجامع الترمذي، ومسنَد الإمام أحمد - واللفظ له - من حديث فضيل بن مرزوق، عن عدي بن

ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يأبها الناس، إن الله طَيَّبَ لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٥١)». قال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ» (البقرة: ١٧٢). ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، يمد يده إلى السماء: يا رب، يا رب، فأني يستجاب لذلك». وقال الترمذي: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث فضيل بن مرزوق.

وقوله: ﴿وَلَا يَذَّكَّرُ عَنْهُ أُنَّةٌ وَجِدَةٌ﴾ أي: دينكم - يا معشر الأنبياء - دين واحد، وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ ولهذا قال: «وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ»، وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة «الأنبياء»، وأن قوله: «أُنَّةٌ وَجِدَةٌ» منصوب على الحال.

وقوله: ﴿تَنَقَّلُوا الْأَرْضَ آمَنَ تَنَقُّلاً﴾ أي: الأمم الذين بُعث إليهم الأنبياء، ﴿كُلٌّ فِي أَفْئَةٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فِرَاحُونَ﴾ أي: يفرحون بما هم فيه من الضلال؛ لأنهم يحسبون أنهم مهتدون؛ ولهذا قال متهدداً لهم ومتوعداً: ﴿فَذَرُّهُمْ فِي عَنَزَتِهِمْ﴾ أي: في غيهم وضلالهم ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغُوا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى حين حينهم ومهلكهم، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ أَكْفَرُوا أَنِيَّهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ (١٧) ﴿الطارق: ١٧﴾، وقال تعالى: ﴿ذَرَّهُمْ بَاكِلًا وَرَمَتْهُمُ أَلْمَلُ فَسَقَ بَعَثُوا﴾ (الحجر: ٣).

وقوله: ﴿إِنَّمَا تُدْرِكُهُمُ يَوْمَئِذٍ آتَانٌ مِّن مَّالٍ وَبَيْنَ ٥٥ شَاخٍ لَّهُمْ فِي النَّفَرِ بَل لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥١) يعني: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟! كلا، ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿تَحَنَّنْ آمُولًا وَأُولَدًا وَمَا تَحَنَّنْ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (سبا: ٣٥)، لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما فعل بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاء؛ ولهذا قال: ﴿بَل لَا يَشْعُرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُفْجِكُمْ آمُولُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٥٥)، وقال تعالى: ﴿أَنَّمَا تُحِلُّ لَهُمْ كَيْفَ حَبَرَ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٧٨)، وقال تعالى: ﴿تَذَرِّي وَنَّ يَكُذِّبُ بِهَذَا الْحَيَاةِ سَنَدِيحُهُمْ بَيْنَ حَيْثُ لَا يَمْلِكُونَ ٤٤ وَأَتَىٰ لَهُمْ إِذْ كِيدِي يَتِيئُ ٤٥﴾ (القصص: ٤٤، ٤٥)، وقال: ﴿ذَرِّي وَمَنْ خَلَقْتَ وَجِداً ١١ وَجَعَلْتَ لَهُ مَا لَا مَمْدُودَ ١٢ وَبَيْنَ شُهُودَا ١٣ وَمَهَّدْتَ لَهُ تَهِيْدَا ١٤ ثُمَّ بَلَغَهُ أَنْ أُولَىٰ ١٥ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِأَكْبَارًا عَيْنِيَا ١٦﴾ (المدثر: ١١ - ١٦) وقال تعالى: ﴿وَمَا آمُولُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُ عَيْنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن مَّانَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ أَجْرٍ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْفُرْقَتِ مَامُونُونَ﴾ (سبا: ٢٧) والآيات في هذا كثيرة. قال قتادة في قوله: ﴿إِنَّمَا تُدْرِكُهُمُ يَوْمَئِذٍ آتَانٌ مِّن مَّالٍ وَبَيْنَ ٥٥ شَاخٍ لَّهُمْ فِي النَّفَرِ بَل لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥١) قال: مكر والله بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم، فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا أبيان بن إسحاق، عن الصباح بن محمد، عن مرة الهمداني، حدثنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قَسَمَ بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده، لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه - قالوا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: غشمه وظلمه - ولا يكسب عبد مالاً من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يترك خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكن يمحو السيء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث».

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ٥٧ وَالَّذِينَ هُمْ يَدْعُونَ بِهِمْ يُؤْثِرُونَ ٥٨ وَالَّذِينَ هُمْ يُرِيهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ٥٩ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ٦٠ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي النَّفَرِ وَهُمْ لَمَّا سَبَقُونَ ٦١﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ (٥٧) أي: هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمناء.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَدْعُونَ بِهِمْ يُؤْثِرُونَ﴾ (٥٨) أي: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخباراً عن مريم، عليها السلام: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْيًا﴾ (التحريم: ١٢)، أي: أيقنت أن ما كان فإنما هو عن قدر الله وقضائه، وما شرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهياً فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُرِيهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٩) أي: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نظير له ولا كفه له.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاؤُا وَقُلُوبُهُمْ وَجْهَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (٦٢) أي: يعطون العطاء وهم خائفون ألا يتقبل منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الإعطاء. وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك بن مغول، حدثنا عبد الرحمن بن سعيد بن وهب، عن عائشة؛ أنها قالت: يا رسول الله، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاؤُا وَقُلُوبُهُمْ وَجْهَةٌ﴾، هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله ﷻ؟ قال: «لا يابنت أبي بكر، يابنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله ﷻ». وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم، من حديث مالك بن مغول، به بنحوه. وقال: «لا يابنت الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون، وهم يخافون ألا يقبل منهم، ﴿أُولَٰئِكَ يَسْرِعُونَ فِي الْفَعْلِ﴾». قال الترمذي: وروى هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن سعيد، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ نحو هذا. وهكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي، والحسن البصري في تفسير هذه الآية. وقد قرأ آخرون هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاؤُا وَقُلُوبُهُمْ وَجْهَةٌ﴾ أي: يفعلون ما يفعلون وهم خائفون، وروى هذا مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قرأ كذلك.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا صخر بن جُزَير، حدثنا إسماعيل المكي، حدثني أبو خلف مولى بني جُمَح: أنه دخل مع عُبيد بن عُمَيْر على عائشة، رضي الله عنها، فقالت: مرحباً بأبي عاصم، ما يمنعك أن تزورنا - أو: تلم بنا؟ - فقال: أخشى أن أمُلك. فقالت: ما كنت لتفعل؟ قال: جئت لأسأل عن آية في كتاب الله ﷻ، كيف كان رسول الله ﷺ يقرأها؟ قالت: آية آية؟ فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاؤُا﴾ أو ﴿الَّذِينَ يَأْتُونَ مَا آتَاؤُا﴾؟ فقالت: أيتهما أحب إليك؟ فقلت: والذي نفسي بيده، لإحادهما أحب إلي من الدنيا جميعاً - أو: الدنيا وما فيها - قالت: وما هي؟ فقلت: ﴿الَّذِينَ يَأْتُونَ مَا آتَاؤُا﴾ فقالت: أشهد أن رسول الله ﷻ كان يقرأها، وكذلك أنزلت، ولكن الهجاء حرف. إسماعيل بن مسلم المكي، وهو ضعيف. والمعنى على القراءة الأولى - وهي قراءة الجمهور: السبعة وغيرهم - أظهر؛ لأنه قال: ﴿أُولَٰئِكَ يَسْرِعُونَ فِي الْفَعْلِ وَمَا سَيَقُولُونَ﴾ (٦٣)، فجعلهم من السابقين. ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك ألا يكونوا من السابقين، بل من المقتصدين أو المقصرين، والله تعالى أعلم.

﴿وَلَا تَكُنْ لَكَ آيَةٌ إِلَّا وَسْمٌ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (٦٤) بل قُلُوبُهُمْ فِي غَرْفٍ مِنْ هَذَا وَلَمْ أَهْتَلْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عِلُونَ ﴿٦٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتَفِيقِهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿٦٦﴾ لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ لَكُمْ بُعْدًا يُكْفَرُونَ لَكُمْ لَوْلَا أَنَّكُمْ كُنْتُمْ عَلَىٰ أَفْقَارٍ تُحْبَرُونَ ﴿٦٧﴾ سَتَكُونُ يَوْمَ سَمِيرًا تَهَجُرُونَ ﴿٦٨﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عذله في شرعه على عباده في الدنيا: أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، أي: إلا ما تطيق حمله والقيام به، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء؛ ولهذا قال: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ يعني: كتاب الأعمال، ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يبخسون من الخير شيئاً، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين.

ثم قال منكرأ على الكفار والمشركين من قريش: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَرْفٍ﴾ أي: غفلة وضلالة ﴿مِنْ هَذَا﴾ أي: القرآن الذي أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ. وقوله: ﴿وَلَمْ أَهْتَلْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عِلُونَ﴾: قال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَلَمْ أَهْتَلْ﴾ أي: سبحة من دون ذلك، يعني: الشرك، ﴿هُم لَهَا عِلُونَ﴾ قال: لا بد أن يعملوها. وكذا روي عن مجاهد، والحسن، وغير واحد. وقال آخرون: ﴿وَلَمْ أَهْتَلْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عِلُونَ﴾ أي: قد كتب عليهم أعمال سيئة لا بد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة، لتحقق عليهم كلمة العذاب. وروى نحو هذا عن مقاتل بن حيان والسُّدِّي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهو ظاهر قوي حسن. وقد قدمنا في حديث ابن مسعود: «فوالذي لا إله غيره، إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها».

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتَفِيقِهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ﴾ (٦٦) يعني: حتى إذا جاء مترفيهم - وهم السعداء المتعمون في الدنيا - عذاب الله وبأسه ونقمته بهم ﴿إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ﴾ أي: يصرخون ويستغيثون، كما قال تعالى: ﴿وَدَرَجَاتٍ وَالْمُكَذِّبِينَ أَزْوَاجًا وَمُتَكَلِّمِينَ قِيلًا﴾ (٦٧) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴿٦٨﴾ وَلَكُلَّمَا دَاخَعُوا وَعْدَآئَهُمَا إِلَيْنَا ﴿٦٩﴾ [المزمل: ١١-١٣]، وقال تعالى: ﴿كَرَّهْنَا لَكَ مِنْ قَبْلِهِمْ بَيْنَ قَرِينٍ فَتَادَا وَكَانَ جَيْنَ مَنَاسِي﴾ (٧٠) [ص: ٢٣].

وقوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ لَكُمْ بُعْدًا يُكْفَرُونَ لَكُمْ لَوْلَا أَنَّكُمْ كُنْتُمْ عَلَىٰ أَفْقَارٍ تُحْبَرُونَ﴾ (٦٧) أي: لا نجبركم مما حل بكم، سواء جأرتكم أو سكتم، لا محيد ولا مناص ولا

وَرَزَّ لَزِمَ الْأَمْرَ وَوَجِبَ الْعَذَابُ. ثُمَّ ذَكَرَ أَكْبَرَ ذُنُوبِهِمْ فَقَالَ: ﴿فَكَانَتْ آيَاتِي تَنْتَلِعُ عَلَيْكُمْ فَكَثُرَتْ عَلَيَّ أَغْلِقُكُمْ نَكْحُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ أي: إذا دعيتم أبيتكم، وإن طلبتكم امتنعتم؛ ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْتُمِعْ إِلَيْكُمْ أَلَكُمُ الْكِبَرُ﴾ ﴿٦٩﴾ [غافر: ١٢].

وقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمَرَ تَهْجُرُونَ﴾ ﴿٧٠﴾: في تفسيره قولان، أحدهما: أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإيائهم إياه، استكباراً عليه واحتقاراً له ولاهله، فعلى هذا الضمير في ﴿بِهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الحرم بمكة، ذموا لأنهم كانوا يسمرون باللهجر من الكلام.

والثاني: أنه ضمير القرآن، كانوا يسمرون ويذكرون القرآن باللهجر من الكلام: «إنه سحر، إنه شعر، إنه كهانة» إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة.

والثالث: أنه محمد ﷺ، كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة، ويضربون له الأمثال الباطلة، من أنه شاعر، أو كاهن، أو ساحر، أو كذاب، أو مجنون. وكل ذلك باطل، بل هو عبد الله ورسوله، الذي أظهره الله عليهم، وأخرجهم من الحرم صاغرين أدلاء. وقيل: المراد بقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أي: بالبيت، يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه، وليسوا بهم، كما قال النسائي في التفسير من سننه: أخبرنا أحمد بن سليمان، أخبرنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن عبد الأعلى، أنه سمع سعيد بن جبيرة يحدث عن ابن عباس أنه قال: إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمَرَ تَهْجُرُونَ﴾ ﴿٧٠﴾، فقال: مستكبرين بالبيت، يقولون: نحن أهله، ﴿سِمَرَ﴾ قال: يتكبرون ويسمرون فيه، ولا يعمرونه، ويهجرونه. وقد أظن ابن أبي حاتم هاهنا بما ذا حاصله.

﴿أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٧١﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ يَكُونُوا ﴿٧٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِهِ كَذِبُونَ ﴿٧٣﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ لَحَقُّ أَهْوَاءِهِمْ لَقَدْ كَذَّبُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَنْتَهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٤﴾ أَمْ تَتْلُوهُمْ حَرُوفًا فَخَرَجَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ سَخِرَ مِنْهُمْ سَخِرَ مِنْهُمْ وَهُمْ خَيْرَ الْآزِفِينَ ﴿٧٥﴾ وَلَئِنْ لَمْ تَنْتَفِعُوا مِنْهُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٦﴾ وَلَئِنْ لَمْ تَنْتَفِعُوا مِنْهُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٧﴾ وَلَئِنْ لَمْ تَنْتَفِعُوا مِنْهُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٨﴾ وَلَئِنْ لَمْ تَنْتَفِعُوا مِنْهُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٩﴾ وَلَئِنْ لَمْ تَنْتَفِعُوا مِنْهُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٠﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في عدم تفهمهم للقرآن العظيم، وتدبرهم له وإعراضهم عنه، مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف، لا سيما وآياهم الذين ماتوا في الجاهلية، حيث لم يبلغهم كتاب ولا آتاهم نذير، فكان اللاتق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله إليهم بقبولها، والقيام بشكرها وتفهمها، والعمل بمقتضاها آتاء الليل وأطراف النهار، كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، ورضي عنهم. وقال قتادة: ﴿أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ﴾: إذا والله يجدون في القرآن زاجراً عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه، ولكنهم أخذوا بما تشابه، فهلكوا عند ذلك.

ثم قال منكراً على الكافرين من قريش: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ يَكُونُوا﴾ ﴿٧٢﴾ أي: أفهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيائنه التي نشأ بها فيهم، أفقدرون على إنكار ذلك والمباينة فيه؟ ولهذا قال جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، للنجاشي ملك الحبشة: أيها الملك، إن الله بعث إلينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته. وهكذا قال المغيرة بن شعبه لثائب كسرى حين بارزهم، وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل، حين سأله وأصحابه عن صفات النبي ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفارا لم يسلموا، ومع هذا ما أمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾: يحكي قول المشركين عن النبي ﷺ أنه تقول القرآن، أي: افتراه من عنده، أو أن به جنونا لا يدري ما يقول. وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به، وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن، فإنه قد آتاهم من كلام الله ما لا يُطاق ولا يدافع، وقد تحذاهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله، فما استطاعوا ولا يستطيعون أبد الأبدان؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِهِ كَذِبُونَ﴾: يحتمل أن تكون هذه جملة حالية، أي: في حال كراهة أكثرهم للحق، ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفة، والله أعلم. وقال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ لقي رجلاً فقال له: «أسلم» فقال الرجل: إنك لتدعوني إلى أمر أنا له كاره. فقال نبي الله ﷺ: «وإن كنت كارهاً». وذكر لنا أنه لقي رجلاً فقال له: «أسلم» فتصعده ذلك وكبر عليه، فقال له نبي الله: «أرأيت لو كنت في طريق وغر وعت، فلقيت رجلاً تعرف وجهه، وتعرف نسبه، فعداك إلى طريق واسع سهل، أكنت متبعه؟» قال: نعم. فقال: «فوالذي نفس محمد بيده، إنك لفي أوعر من ذلك الطريق لو قد كنت عليه، وإني لأدعوك إلى أسهل

من ذلك لو دعيت إليه. وذكر لنا أن نبي الله ﷺ لقي رجلاً، فقال له: «أسلم» فقصَّعه ذلك، فقال له نبي الله ﷺ: «أرأيت فتيتك، أحدهما إذا حدثك صدقك، وإذا ائتمنته أدى إليك أو أحب إليك، أم فتاك الذي إذا حدثك كذبك وإذا ائتمنته خانك؟». قال: بل فتاي الذي إذا حدثني صدقي، وإذا ائتمنته أدى إلي. فقال النبي ﷺ: «كذلكم أنتم عند ربكم».

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَتَّخِذَ الْحَقُّ أَوْلَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾: قال مجاهد، وأبو صالح والسدي: الحق هو الله ﷻ، والمراد: لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى، وشرع الأمور على وفق ذلك ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ أي: لفساد أحوالهم واختلافها، كما أخبر عنهم في قولهم: ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾، ثم قال: ﴿أَمَّا يَتَقَشِّمُونَ بِرَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّهُمْ تَمَلَّكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَنُورًا﴾ [الاسراء: ١٠٠] وقال: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمْ نَبِيٌّ مِنَ الْغَالِبِينَ إِذًا لَا يُؤْمِنُونَ النَّاسُ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣]، ففي هذا كله تبیین عجز العباد واختلاف آرائهم وأحوالهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، وتديره لخلقه، تعالى وتقدس، فلا إله غيره، ولا رب سواه. ثم قال: ﴿بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ يعني: القرآن، ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ».

وقوله: ﴿أَمَّا فَتْكُهُمْ حَتْمًا﴾: قال الحسن: أجراً. وقال قتادة: جعلاً ﴿فَتَكُّهُمْ رَبِّكَ حَبْرٌ﴾ أي: أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلاً ولا شيئاً على دعوتك إياهم إلى الهدى، بل أنت في ذلك تحسب عند الله جزيل ثوابه، كما قال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبا: ٤٧]، وقال: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجَرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمَسْأَلِينَ﴾ [ص: ٨٦]، وقال: ﴿قُلْ لَا أَتْلُوهُ عَلَى أَجْرٍ إِلَّا أَلْمُودَةُ فِي الْأَفْئِدَةِ﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَلَّةٌ مِنَ الْأَقْصَا الْمَلَكُوتُ لَوْلَا يُسْمِعُ قَالَ يُكَفِّرُهُمُ اللَّهُ مِنَ الذَّنُوبِ﴾ [التيسير: ٢٠، ٢١].

وقوله: ﴿وَلَوْلَا لَدَعُوهُمْ إِلَى مَرْحَلٍ شَنْقِيرٍ﴾ [٧٣] وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَرُوا [٧٤] قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جُدعان، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ أتاه - فيما يرى النائم - ملكان، فقعده أحدهما عند رجليه، والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته. فقال: إن مثله ومثل أمته، كمثل قوم سُفِّرَ انتهوا إلى رأس مفَاة، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفَاة ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة، فقال: أرأيتم إن وردت بكم رياضاً معشبة، وحياضاً رواء تتبعوني؟ فقالوا: نعم. قال: فانطلق، فأوردهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم: ألم ألفتكم على تلك الحال، فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني؟ قالوا: بلى. قال: فإن بين أيديكم رياضاً أعشب من هذه، وحياضاً هي أروى من هذه، فاتبعوني. قال: فقالت طائفة: صدق والله، لتتبعنه. وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا زهير، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري، حدثنا حفص بن حميد، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني ممسك بحجركم: هَلُمَّ عن النار، هلم عن النار، وتغلبوني وتقاومون فيها تقاضم الفراش والجنادب، فأوشك أن أرسل حجركم وأنا قَرَطُكم على الحوض، فتدرون علي معاً وأشتاتاً، أعرفكم بسيماكم وأسماكنم، كما يعرف الرجل الغريب من الإبل في إبله، فيُذَهَبُ بكم ذات اليمين وذات الشمال، فأنشد فيكم رب العالمين: أي رب، قومي، أي رب أمتي. فيقال: يا محمد، إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم كانوا يمشون بعدك القهقري على أعقابهم، فلأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء، ينادي: يا محمد، يا محمد. فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد بلغت. ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل بعبيراً له رغاء، ينادي: يا محمد، يا محمد. فأقول: لا أملك شيئاً، قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل فرساً لها حمحة، فينادي: يا محمد، يا محمد. فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل سقاء من آدم، ينادي: يا محمد، يا محمد. فأقول: لا أملك لك شيئاً قد بلغت».

وقال علي بن المديني: هذا حديث حسن الإسناد، إلا أن حفص بن حميد مجهول، لا أعلم روى عنه غير يعقوب بن عبد الله الأشعري القمي. قلت: بل قد روى عنه أيضاً أشعث بن إسحاق، وقال فيه يحيى بن معين: صالح. ووثقه النسائي وابن حبان.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَرُوا﴾ [٧٤] أي: لعادلون جاثرون منحرفون. تقول العرب: نكب فلان عن الطريق: إذا زاغ عنها. وقوله: ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكُنَّا بِهُمْ مِنْ مُرٍّ لَلَّجُوا فِي مُتَعَبِهِمْ يَمْشُونَ﴾ [٧٥]: يخبر تعالى عن

غلظهم في كفرهم بأنه لو أراح عَٰلَهُمْ وأفهمهم القرآن، لما انقادوا له ولا استمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] وقال: ﴿وَلَوْ رَفَعُوا عَنَّا الْآثَرَ فَقَالُوا يَلَنَّا كَرْدٌ وَلَا تُكْذِبُ يَدَايَ رَبِّنَا لَكُنَّا مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [بل بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلٍ وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا إِنَّمَا هُؤُلَاءِ عَلَيْهِمْ لَغْوُكَ تَعَالَىٰ لِفِئْتَاهُمْ قَوْلًا لَّا يَأْتِيَنَّكَ الْأَثَرُ وَلَا يَخَافُنَا ذَنْبُهُمْ خَوْفٌ وَلَا يُهِنُنَا كُفْرُهُمْ إِنَّ هِي إِلَّا جِبَاةٌ أَلْفٌ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٩] فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون، لو كان كيف يكون. وقال الضحاک، عن ابن عباس: كل ما فيه «لو»، فهو مما لا يكون أبداً.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَعَاذُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضَعِعُونَ﴾ [٧٦] حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَكَ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُعْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَؤَدَّبُنَا أَوْدًا وَثَنًا وَكُنَّا تَرَاكٍ وَعِظْنَا أَوْثًا لَّيْسَ لَكُم مَّعْنَىٰ شَيْءٌ هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا سَطِيرٌ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ أي: ابتليناهم بالمصائب والشدائد، ﴿فَمَا اسْتَعَاذُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضَعِعُونَ﴾، أي: فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة، بل استمروا على ضلالهم وغييهم. ﴿فَمَا اسْتَعَاذُوا﴾ أي: ما خشعوا، ﴿وَمَا يَضَعِعُونَ﴾ أي: ما دعوا، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَمَكُوتُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن حمزة المروزي، حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبي، عن يزيد - يعني: النحوي - عن عكرمة، عن ابن عباس، أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أنشدك الله والرحم، فقال أكلنا العلهز - يعني: الوبر والدم - فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَعَاذُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضَعِعُونَ﴾ [٧٦]. وهكذا رواه النسائي عن محمد بن عقيل، عن علي بن الحسين، عن أبيه، به. وأصل هذا الحديث في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسيع يوسف».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا عبد الله بن إبراهيم بن عمر بن كيسان، عن وهب بن عمر بن كيسان قال: حُبِسَ وهب بن منبه، فقال له رجل من الأبناء: ألا أنشدك بيتاً من شعرا يا أبا عبد الله؟ فقال وهب: نحن في طرف من عذاب الله، والله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَعَاذُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضَعِعُونَ﴾ [٧٦]. قال: وصام وهب ثلاثاً متواصلة، فقيل له: ما هذا الصوم يا أبا عبد الله؟ قال: أحدث لنا فأحدثنا. يعني: أحدث لنا الحبس، فأحدثنا زيادة عبادة.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [٧٦] أي: حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة وأخذهم من عقاب الله ما لم يكونوا يحتسبون، فعند ذلك أبلسوا من كل خير، وأيسوا من كل راحة، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم. ثم ذكر تعالى نعمته على عباده في أن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وهي العقول والفهوم، التي يدركون بها الأشياء، ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى، وأنه الفاعل المختار لما يشاء.

وقوله ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [٧٨] أي: وما أقل شكركم الله على ما أنعم به عليكم، كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر، في بَرَزَةِ الخليفة وذرته لهم في سائر أقطار الأرض، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم، فلا يترك منهم صغيراً ولا كبيراً، ولا ذكراً ولا أنثى، ولا جليلاً ولا حقيراً، إلا أعاده كما أبداه؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [٧٩] أي: يحيي الرمم ويميت الأمم، ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [٨٠] أي: وعن أمره تسخير الليل والنهار، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، يتعاقبان لا يفتران، ولا يفترقان بزمان غيرهما، كقوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبُتُ لَهَا أَنْ تَذُرَّكَ الْقَمَرُ وَلَا أَيْلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [٤٠]. [يس: ٤٠]. وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [٨١] أي: أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم، الذي قد قهر كل شيء، وعز كل شيء، وخضع له كل شيء.

ثم قال مخبراً عن منكري البعث، الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ [٨١] قَالُوا أَؤَدَّبُنَا أَوْثًا لَّيْسَ لَكُم مَّعْنَىٰ شَيْءٌ هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا سَطِيرٌ الْأَوَّلِينَ﴾ [٨٢] يعني: يستبعدون وقوع ذلك بعد صبرورثهم إلى البلى، ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَوَعَاوَنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا سَطِيرٌ الْأَوَّلِينَ﴾ [٨٢] يعني: أن الإعادة محال، إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلاقهم. وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿أَوَدَّا كُنَّا عِظْمًا خَفَرَةً﴾ [٧٦] قَالُوا يَلَاك إِذَا كَرَّةٌ خَايِرَةٌ﴾ [٧٧] لَقَدْ هِيَ زَجْرَةٌ وَجْدَةٌ﴾ [٧٢] فَإِذَا هُمْ

بِالْآخِرَةِ ﴿٨٤﴾ [النازعات: ١١-١٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَظْفَةٍ قَالِدًا هُوَ حَاصِبٌ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ لَنَا مَنَازِلُ ۖ وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمُهُ وَهُوَ يُعْجِبُهَا أَلَيْسَ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٨٥﴾﴾ [يس: ٧٧-٧٩].

﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٩﴾ قُلْ مَنْ يَلْبِسُ ثَوْبًا زَهْرًا وَيَتَغَيَّرُ بِهَا لَبِاسٌ مِمَّا يَخْلُقُ ۖ فَيَلْبَسُهُ وَفِي يَدَيْهِ أَسْفُلٌ وَمَا يَشَاءُ يَفْعَلُهُ ۚ إِنَّكُمْ لَعِنْدَهُ لَكَنُذِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

يقرر تعالى وحدانيته، واستقلاله بالخلق والتصرف والملك، ليرشد إلى أنه الذي لا إله إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره، المعترفين له بالربوبية، وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية، فعبدا وغيره معه، مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئا، ولا يملكون شيئا، ولا يستبدون بشيء، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣]، فقال: ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ أي: من مالها الذي خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمار، وسائر صنوف المخلوقات ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان ذلك ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لا تذكرون أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرازق لا لغيره.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ أي: من هو خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات، والملائكة الخاضعين له في سائر الأنظار منها والجهات، ومن هو رب العرش العظيم، يعني: الذي هو سقف المخلوقات، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «شأن الله أعظم من ذلك، إن عرشه على سمواته هكذا» وأشار بيده مثل القبة. وفي الحديث الآخر: «ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن الكرسي بما فيه بالنسبة إلى العرش كمثل الحلقة في تلك الفلاة». ولهذا قال بعض السلف: إن مسافة ما بين قطري العرش من جانب إلى جانب مسيرة خمسين ألف سنة، وارتفاعها عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة. وقال الضحاك، عن ابن عباس: إنما سمي عرشاً لارتفاعه. وقال الأعمش عن كعب الأحبار: إن السموات والأرض في العرش، كالتنديل المعلق بين السماء والأرض. وقال مجاهد: ما السموات والأرض في العرش إلا كحلقة في أرض فلاة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا العلاء بن سالم، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان الثوري، عن عمار الدهني، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: العرش لا يقدر أحد قدره. وفي رواية: إلا الله ﷻ. وقال بعض السلف: العرش من ياقوته حمراء. ولهذا قال هاهنا: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ يعني: الكبير: وقال في آخر السورة: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ أي: الحسن البهي. فقد جمع العرش بين العظمة في الاتساع والعلو، والحسن الباهر، ولهذا قال من قال: إنه من ياقوته حمراء. وقال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه.

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: إذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم، أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه، في عبادتكم معه غيره وإشراككم به؟ قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي في كتاب «التفكير والاعتبار»: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا عبد الله بن جعفر، أخبرني عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدث عن امرأة كانت في الجاهلية على رأس جبل، معها ابن لها يرعى غنماً، فقال لها ابنها: يا أمه، من خلقتك؟ قالت: الله. قال: فمن خلق أبي؟ قالت: الله. قال: فمن خلقتني؟ قالت: الله. قال: فمن خلق السماء؟ قالت: الله. قال: فمن خلق الأرض؟ قالت: الله. قال: فمن خلق الجبل؟ قالت: الله. قال: فمن خلق هذه الغنم؟ قالت: الله. قال: فإني أسمع الله شأناً ثم ألقى نفسه من الجبل فتقطع. قال ابن عمر: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدثنا هذا الحديث. قال عبد الله بن دينار: كان ابن عمر كثيراً ما يحدثنا بهذا الحديث. قلت: في إسناده عبد الله بن جعفر المديني، والدة الإمام علي بن المديني، وقد تكلموا فيه، فالله أعلم.

﴿قُلْ مَنْ يَلْبِسُ ثَوْبًا زَهْرًا وَيَتَغَيَّرُ بِهَا لَبِاسٌ مِمَّا يَخْلُقُ ۖ فَيَلْبَسُهُ وَفِي يَدَيْهِ أَسْفُلٌ وَمَا يَشَاءُ يَفْعَلُهُ ۚ إِنَّكُمْ لَعِنْدَهُ لَكَنُذِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ أي: بيده الملك، ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِأَمِيرَتِهَا﴾ [مرد: ٥٦]، أي: متصرف فيها. وكان رسول الله ﷺ يقول: «لا، والذي نفسي بيده»، وكان إذا اجتهد في اليمين قال: «لا، ومقلب القلوب»، فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف، ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً، لا يُخَفَّرُ في جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه، لئلا يفتات عليه، ولهذا قال الله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه، الذي له الخلق والأمر، ولا معقب لحكمه، الذي لا يمانع ولا يخالف، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن،

وقال الله: ﴿لَا يَسْتَلْ عَنَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُنْتَلَوْنَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، أي: لا يستل عما يفعل؛ لعظمته وكبريائه، وقهره وغلبته، وعزته وحكمته، والخلق كلهم يسألون عن أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَبِّكَ لَنَسْتَلْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٩١] عَنَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٢﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

وقوله: ﴿سَيُؤْتُونَكَ﴾ أي: سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجبر ولا يجار عليه، هو الله تعالى، وحده لا شريك له، ﴿قُلْ فَأَن تَشْرَحُوا﴾ أي: فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾، وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك، ﴿وَلَهُمْ لَكِنُودُونَ﴾ أي: في عبادتهم مع الله غيره، ولا دليل لهم على ذلك، كما قال في آخر السورة: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [٩٧]، فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال، وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لأبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال، كما قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مَنَاقِبٍ عَلَيْنَا مَنَاقِبِهِمْ مُتَقَدِّمُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِن وَلِيٍّ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ لَئِمٍ مِّمَّا خَلَقَ وَلَلَّا بِعَصْفِهِمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مُّبْحَنٍ اللَّهُ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [٩٨] عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٩﴾.

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك، فقال: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِن وَلِيٍّ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ لَئِمٍ مِّمَّا خَلَقَ وَلَلَّا بِعَصْفِهِمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: لو قدر تعدد الآلهة، لانفرد كل منهم بما يخلق، فما كان ينتظم الوجود. والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض، في غاية الكمال، ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾ [الملك: ٣] ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعمل بعضهم على بعض. والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل الثمانع، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً، فأراد واحد تحريك جسم وأراد الآخر سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والواجب لا يكون عاجزاً، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد. وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد، فيكون محالاً، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الواجب، والآخر المغلوب ممكناً، لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً؛ ولهذا قال: ﴿وَلَلَّا بِعَصْفِهِمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مُّبْحَنٍ اللَّهُ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً. ﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه، ﴿فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تقدس وتنزه تعالى و﴿عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاهِدُونَ﴾.

﴿قُلْ رَبِّ إِنَّمَا رُفِعَ صَوْنِي بِنُوحٍ إِيَّاهُ وَمَا يُعْذِرُكَ مَا يَدْعُهُمْ لَقَدْ رَدُّنَا عَنْكَ وَعِظُوا بِعَذَابِنَا إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [١٠٠] وَأَدْعَىٰ إِلَيْنِي مِنْ أَحْسَنِ الْكَسْبِ نَحْنُ أَكْبَرُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿١٠١﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿١٠٢﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِي ﴿١٠٣﴾.

يقول تعالى أمرأ نبيه محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النعم: ﴿رَبِّ إِنَّمَا رُفِعَ صَوْنِي بِنُوحٍ إِيَّاهُ وَمَا يُعْذِرُكَ مَا يَدْعُهُمْ لَقَدْ رَدُّنَا عَنْكَ وَإِنِّي عَاقِبَتُهُمْ - وَإِنِّي شَهِدْتُ ذَلِكَ - فلا تجعلني فيهم، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي - وصححه -: «إذا أردت بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون».

وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيدَ مَا يَدْعُهُمْ لَقَدْ رَدُّنَا عَنْكَ﴾ [١٠٠] أي: لو شئنا لأريناك ما نحل بهم من النعم والبلاء والمحن. ثم قال مرشداً له إلى التزيق النافع في مخالطة الناس، وهو الإحسان إلى من يسيء، ليستجلب خاطره، فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة، فقال: ﴿أَدْعَىٰ إِلَيْنِي مِنْ أَحْسَنِ الْكَسْبِ﴾، وهذا كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَدْعَىٰ إِلَيْنِي مِنْ أَحْسَنِ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [٢٤] وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَلَوًا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَقٍّ عَظِيمٍ ﴿٢٥﴾ [نصفت: ٣٤، ٣٥] أي: ما يلهم هذه الوصية أو الخصلة أو الصفة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَلَوًا﴾ أي: على أذى الناس، فعاملوهم بالجميل مع إسدانهم إليهم القبيح، ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَقٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ [١٠٢] أي: أمره أن يستعذ من الشياطين، لأنهم لا تنفع معهم الحيل، ولا ينقادون بالمعروف. وقد قدمنا عند الاستعاذة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفسه».

وقوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِي﴾ [١٠٣] أي: في شيء من أمري؛ ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور - وذلك مطردة للشياطين - عند الأكل والجماع والذبح، وغير ذلك من الأمور؛ ولهذا روى أبو داود أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إني

أعوذ بك من الهَرَم، وأعوذ بك من الهَذَم ومن الغرق، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت». وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا محمد بن إسحاق، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم، من الفزع: «باسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» قال: فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها، كتبها له، فعلقها في عنقه. ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث محمد بن إسحاق، قال الترمذي: حسن غريب.

﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا زَكَّيْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت، من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى، وقيلهم عند ذلك، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا، ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِي لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا زَكَّيْتُ كَلَّا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَنفَعُوا مِنْ مَا رَزَقْنَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَلْتَمِزَنِي إِلَهَ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَلَمَّا زَكَّيْتُ فَاسْتَمَدْتُ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٥﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المنافقون: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ أَجَلٍ قَرِيبٍ مُجِبٌ دَعْوَتِكَ فَيَكُونُ الْأَوَّلُ نَكُورًا أَفَسْتَأْذِنُ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ ذِكْرٍ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم: ١٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ شَرُّوا مِنْ قَبْلِ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنَّا بِالْحَقِّ فَقَدِ اسْتَمَدُوا مِنَّا أَوْ شَرُّوا فَتَعْمَلُ بَعْدَ ذَلِكَ كَمَا تَعْمَلُ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُضْمِرُونَ تَاكُودًا رُّؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذَا وَقَرِّبْنَا لِنَا أَوْ تَفَعَّلْ بَعْدَ ذَلِكَ مَا تَعْمَلُ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَرَىٰ الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُ هَلْ لَّنَا مَرَجٌ مِّنْ سَبِيلِ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَتَيْنَا نَسِيبًا أَتَيْنَا نَسِيبًا وَاسْمِعْنَا فَنُصَلِّ عَلَىٰ صَالِحًا إِذَا مَوْتُنَا ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُؤْمِنُونَ إِذَا نُفِثَ لَمَّا نُفِثُوا عَلَى الْآثَرِ فَقَالُوا ذَلِيلًا نُّرَدُّ وَلَا تَكُودُ بِهَا نَفْسٌ وَلَا تُكُونُ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [بل بَدَأْنَاهُمْ مَا كَانُوا يَحْكُمُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَىٰ الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُ هَلْ لَّنَا مَرَجٌ مِّنْ سَبِيلِ ﴿٢٤﴾﴾ [الشورى: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَتَيْنَا نَسِيبًا أَتَيْنَا نَسِيبًا وَاسْمِعْنَا فَنُصَلِّ عَلَىٰ صَالِحًا إِذَا مَوْتُنَا ﴿٢٥﴾﴾ [غافر: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَعَمَّ يَتَسَلَّطُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ وَجَاءَكُمُ الْآزِفُ فَذُقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٢٦﴾﴾ [فاطر: ٢٦]، فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة، فلا يجابون، عند الاحتضار، ويوم النشور ووقت العرض على الجبار، وحين يعرضون على النار، وهم في غمرات عذاب الجحيم.

وقوله: هاهنا: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾: كلا: حرف ردع وزجر، أي: لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه.

وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أي لا بد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم. ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله: «كلا»، أي: لأنها كلمة، أي: سؤاله الرجوع ليعمل صالحاً هو كلام منه، وقول لا عمل معه، ولو رد لما عمل صالحاً، وكان يكذب في مقالته هذه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٣﴾﴾. وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا زَكَّيْتُ كَلَّا﴾ قال: فيقول الجبار: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾. وقال عمر بن عبد الله مولى عُفْرَةَ: إذا سمعت الله يقول: ﴿كَلَّا﴾، فإنما يقول: كذب. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾: قال: كان العلاء بن زياد يقول: لينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت، فاستقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله ﷻ. وقال قتادة: والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فانظروا أمانة الكافر المفرط فاعملوا بها، ولا قوة إلا بالله. وعن محمد بن كعب القرظي نحوه.

وقال محمد بن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن يوسف، حدثنا فضيل - يعني: ابن عياض - عن نَيْث، عن طلحة بن مُصَرِّف، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: إذا وضع - يعني: الكافر - في قبره، فيرى مقعده من النار. قال: فيقول: رب، ارجعوني أتوب وأعمل صالحاً. قال: فيقال: قد عُمرت ما كنت مُعَمَّراً. قال: فيضيق عليه قبره، قال: فهو كالمنهوش، ينام ويفزع، تهوي إليه هَوَامُ الأرض وحياتها وعقاربها. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن علي، حدثني سلمة بن تمام، حدثنا علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن عائشة، أنها قالت: ويل لأهل المعاصي من أهل القبور!! تدخل عليهم في قبورهم حيات سود - أو: دُهم - حية عند رأسه، وحية عند رجله، يقرصانه حتى يلتقي في وسطه، فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. وقال أبو صالح وغيره في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ﴾: يعني: أمامهم. وقال مجاهد: البرزخ: الحاجز ما بين الدنيا والآخرة. وقال محمد بن كعب: البرزخ: ما بين الدنيا والآخرة، ليسوا مع

أهل الدنيا يأكلون ويشربون، ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم. وقال أبو صخر: البرزخ: المقابر، لا هم في الدنيا، ولا هم في الآخرة، فهم مقيمون إلى يوم يبعثون. وفي قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِم بِرَزْخٌ﴾: تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ، كما قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِم جَهَنَّمُ﴾ [الجنانية: ١٠] وقال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِم عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]. وقوله: ﴿إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ﴾ أي: يستمر به العذاب إلى يوم البعث، كما جاء في الحديث: «فلا يزال معذباً فيها»، أي: في الأرض.

﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١٠١) ﴿مَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (١٠٣) تَلَفَحَ وَجُوهُهُمْ لَكَأْزٍ وَهُمْ فِيهَا كَالْمُحْرَقِينَ﴾ (١٠٤).

يخبر تعالى أنه نفخ في الصور نفخة النشور، وقام الناس من القبور، ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لا تنفع الأنساب يومئذ، ولا يرثي والدولده، ولا يلوي عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيٌّ حِمِيًّا﴾ (١٠٢) يَصْرُوهُمْ﴾ [المعارج: ١٠، ١١] أي: لا يسأل القريب قريبه وهو يبصره، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره، وهو أعز الناس عليه - كان - في الدنيا، ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَى الْمَلَائِكَةُ مِنْ أَتَيْهِ﴾ (٣٤) وَأَتَيْهِ وَأَبْيَهُ﴾ (٣٥) وَصَحْبَهُ وَيَتَّبِعُهُ﴾ (٣٦) لِكُلِّ أَمْرٍ فِيهِمْ يَوْمَئِذٍ نَّاسٌ يَنْتَبِهُونَ﴾ (٣٧) [عبس: ٣٤-٣٧]. وقال ابن مسعود: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد: ألا من كان له مظلمة فليجيء فليأخذ حقه. قال: فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيراً، ومصداق ذلك في كتاب الله: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١٠١) رواه ابن أبي حاتم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد - مولى بني هاشم - حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا أم بكر بنت المسور بن مخزومة، عن عبيد الله بن أبي رافع، عن المسور - هو ابن مخزومة - رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: فاطمة بضعة مني، يقبضني ما يقبضها، ويشتطني ما يشتطها، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي وسببي وصهري. هذا الحديث له أصل في الصحيحين عن المسور أن رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بضعة مني، يريني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها». وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا زهير، عن عبد الله بن محمد، عن حمزة بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على هذا المنبر: «ما بال رجال يقولون: إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومه؟ بلى، والله إن رحمي موصولة في الدنيا والآخرة، وإني - أيها الناس - فرط لكم، إذا جثتم» قال رجل: يا رسول الله، أنا فلان بن فلان، وقال أخوه: أنا فلان بن فلان فأقول لهم: «أما النسب فقد عرفت، ولكنكم أحدثتم بعدي وارتدتم القهقري».

وقد ذكرنا في مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، من طرق متعددة عنه، رضي الله عنه: أنه لما تزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، قال: أما - والله - ما بي إلا أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل سبب ونسب فإنه منقطع يوم القيامة، إلا سببي ونسبي». رواه الطبراني، والبخاري، والبيهقي، والحافظ الضياء في «المختارة» وذكرنا أنه أصداقها أربعين ألفاً؛ إعظماً وإكراماً، رضي الله عنه؛ فقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي العاص بن الربيع - زوج زينب بنت رسول الله ﷺ - من طريق أبي القاسم البغوي: حدثنا سليمان بن عمر بن الأقطع، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام، عن إبراهيم بن يزيد، عن محمد بن عباد بن جعفر، سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري». وروى فيها من طريق عمار بن سيف، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «سألت ربي ﷻ ألا أتزوج إلى أحد من أمتي، ولا يتزوج إلي أحد منهم، إلا كان معي في الجنة، فأعطاني ذلك»، ومن حديث عمار بن سيف، عن إسماعيل، عن عبد الله بن عمرو.

وقوله: ﴿مَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٢) أي: من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة، قاله ابن عباس. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة. وقال ابن عباس: أولئك الذين فازوا بما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا. ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: ثقلت سيئاته على حسنات، ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: خابوا وهلكوا، وبأوا بالصفة الخاسرة. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا داود بن المحبر، حدثنا صالح المُرِّي، عن ثابت البناني وجعفر بن زيد ومنصور بن زاذان، عن أنس بن مالك يرفعه قال: «إن الله ملكاً موكلاً بالميزان، فيؤتي بابل آدم، فيوقف بين كفتي الميزان، فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق: شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً». إسناده ضعيف، فإن داود بن المحبر متروك.

ولهذا قال: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أي: ماكثون، دائمون مقيمون لا يظعنون. ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتَنَشَقُّ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُصْغَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا قزوة بن أبي المغيرة، حدثنا محمد بن سلمان بن الأصهباني، عن أبي سنان ضَرَّار بن مَرْة، عن عبد الله بن أبي الهذيل، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «إن جهنم لما سبق إليها أهلها يلقاهم لهبها، ثم تلفحهم لفحة، فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب». وقال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى الفَرَّاز، حدثنا الخضر بن علي بن يونس القطان، حدثنا عمر بن أبي الحارث بن الخضر القطان، حدثنا سعد بن سعيد المقبري، عن أخيه، عن أبيه، عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾، قال: «تلفحهم لفحة، فتسيل لحومهم على أعقابهم». وقوله: ﴿وَعَمَّ فِيهَا كُيُوتٌ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني عابسون. وقال الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود: ﴿وَعَمَّ فِيهَا كُيُوتٌ﴾، قال: ألم تر إلى الرأس والمُشَيِّط الذي قد بدا أسنانه وقُلصت شفتاه. وقال الإمام أحمد، رحمه الله: أخبرنا علي بن إسحاق، أخبرنا عبد الله - هو ابن المبارك، رحمه الله - أخبرنا سعيد بن يزيد، عن أبي السَّمْع، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخُدري، عن النبي ﷺ قال: ﴿وَعَمَّ فِيهَا كُيُوتٌ﴾، قال: «تَشْوِيهِ النَّارِ فَتَقْلَصُ شَفْتَهُ الْعُلْيَا حَتَّى تَبْلُغَ وَسَطَ رَأْسِهِ، وَتَسْتَرْخِي شَفْتَهُ السُّفْلَى حَتَّى تُضْرِبَ سُرَّتَهُ». ورواه الترمذي، عن سُؤَيْد بن نَصْر، عن عبد الله بن المبارك، به. وقال: حسن غريب.

﴿أَلَمْ تَكُنْ مِّنَ الَّذِينَ تَتْلُو عَلَىٰ نَبِيِّكَ فَكَفَرْتَ بِمَا تَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا عَلَّيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾

هذا تقرير من الله تعالى لأهل النار، وتوبيخ لهم على ما ارتكبوا من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم، التي أوبقتهم في ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مِّنَ الَّذِينَ تَتْلُو عَلَىٰ نَبِيِّكَ فَكَفَرْتَ بِمَا تَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٠٥﴾ أي: قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت الكتب، وأزلت شهكم، ولم يبق لكم حجة تدلون بها كما قال: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ يَمُوتَ رَسُولٌ﴾ [الإسراء: ١٥٠]، وقال: ﴿كُلَّمَا أَلِيقَ فِيهَا وَجْحٌ سَأَلْتُم مَّا نَزَّلْنَا بِهِ مِنَ الْكِتَابِ فَلَيْسَ بِهِ خَبْرٌ مَّا يَدْعُونَ فَلَمَّا أُنزِلَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ مِنْهُ إِذَا أَشْتَدَّ إِلَىٰ فِي صَلَاتِهِمْ كَيْدٌ ﴿١٠٦﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠٧﴾ فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَحَقًّا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠٨﴾﴾ [الملك: ٨-١١]، ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا عَلَّيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أي: قد قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن نقاد لها وننبعها، فَضَلَّلْنَا عَنْهَا وَلَمْ نَرْزُقْهَا.

ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ﴿١٠٧﴾ أي: رُدُّنَا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا، فَإِنْ عُدْنَا إِلَى مَا سَلَفَ مِنَّا، فَنَحْنُ ظَالِمُونَ مُسْتَحِقُونَ لِلْعُقُوبَةِ، كما قالوا: ﴿فَأَعْرِضْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ ﴿١٠٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ قُوتُوا فَلَعْنَكُمْ إِلَهُ السَّعِيرِ الْكَبِيرِ ﴿١٠٩﴾﴾ [غافر: ١١، ١٢] أي: لا سبيل إلى الخروج؛ لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون.

﴿قَالَ اخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ كَانَ قَوْلُ مَن يَخَافُ يَقُولُ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١١﴾ فَأَعْزَمُوا صِغْرًا حَتَّىٰ أَتَوْكُم بِذِكْرٍ مِّنكُمْ وَكُنْتُمْ تَنصَحُونَ ﴿١١٢﴾ إِلَىٰ حَزِينَةٍ الْيَوْمَ بِمَا صَدَقُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٣﴾﴾

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار، يقول: ﴿اخْشَوْا فِيهَا﴾ أي: امكثوا فيها صاغرين مُهَانِينَ أَذْلَاء. ﴿وَلَا تُكَلِّمُوا﴾ أي: لا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا جواب لكم عندي. قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿اخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾ قال: هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدة بن سليمان المروزي، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو قال: إن أهل جهنم يدعون مالكا، فلا يجيبهم أربعين عاماً، ثم يرد عليهم: إنكم ماكثون. قال: هانت دعوتهم - والله - على مالك ورب مالك. ثم يدعون ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا عَلَّيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ﴿١٠٧﴾ قال: فيسكت عنهم قَدْرُ الدُّنْيَا مَرَّتَيْنِ، ثم يرد عليهم: ﴿اخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾. قال: والله ما تَبَسَّ الْقَوْمُ بعدها بكلمة واحدة، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم. قال: فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير، أولها زفير وآخرها شهيق. وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِي، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كهيل، حدثنا أبو الزُّعْرَاء، قال: قال عبد الله بن مسعود: إذا أراد الله ألا يخرج منهم أحداً - يعني: من جهنم - غير وجوههم والوانهم، فيجيء الرجل من المؤمنين، فيشفع فيقول: يا رب. فيقول: من عرف أحداً فليخرجه. فيجيء الرجل فينظر فلا يعرف أحداً فيقول: أنا فلان. فيقول: ما أعرفك. قال: فعند ذلك يقول: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ﴿١٠٧﴾، فعند ذلك يقول: ﴿اخْشَوْا فِيهَا

وَلَا تَكْفُرِينَ ﴿١١٢﴾. وإذا قال ذلك، أطبقت عليهم فلا يخرج منهم بشر.

ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم في الدنيا، وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه، فقال: ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ يَوْمَ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٣﴾ فَأَعْتَدْنَا لَهُمْ جَهَنَّمَ أَي: فسخرت منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إلي، حَتَّىٰ أَنْزَلْنَاهُ دُرِّي ﴿١١٤﴾ أَي: حملكم بغضهم على أن نسيتم معاملتي ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَيِّحُونَ﴾ أَي: من صنيعهم وعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَنْزَلْنَاهُمْ لَكُلًّا مِنْ قَبْلِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١١٥﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [المطففين: ٢٩، ٣٠] أَي: يلمزونهم استهزاء. ثم أخبر عما جازى به أوليائه وعباده الصالحين، فقال: ﴿إِنِّي حَرَّضْتُهُمْ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أَي: على أذاكم لهم واستهزائكم منهم، ﴿وَأَنَّهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ أَي: جعلتهم هم الفاترين بالسعادة والسلامة والجنة، الناجين من النار.

﴿قُلْ كَمْ لِيَشْفِي فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٨﴾ قَالُوا لَيْسَ بِوَقْتٍ يَوْمَ قَسَمَ الْغَائِيينَ ﴿١١٩﴾ قُلْ إِنْ لَيْسَ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٠﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١٢١﴾ تَعَالَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَوْبَرِ ﴿١٢٢﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده، ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أوليائه المتقون، ﴿قُلْ كَمْ لِيَشْفِي فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ أَي: كم كانت إقامتكم في الدنيا؟ ﴿قَالُوا لَيْسَ بِوَقْتٍ يَوْمَ قَسَمَ الْغَائِيينَ ﴿١١٩﴾﴾ أَي: الحاسبين ﴿قُلْ إِنْ لَيْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَي: مدة يسيرة على كل تقدير ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَي: لما أثرتم الفاني على الباقي، ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيء، ولا استحققت من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة، ولو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته - كما فعل المؤمنون - لفزتم كما فازوا.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الوزير، حدثنا الوليد، حدثنا صفوان، عن أبي نعيم بن عبد الكلاعي؛ أنه سمعه يخطب الناس فقال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، قال: يا أهل الجنة، كم لبستم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبشنا يوماً أو بعض يوم. قال: لنعم ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم: رحمتي ورضواني وجنتي، امكثوا فيها خالدين مخلدين. ثم يقول: يا أهل النار، كم لبستم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبشنا يوماً أو بعض يوم. فيقول: بش ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم: ناري وسخطي، امكثوا فيها خالدين مخلدين».

وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أَي: أفظننتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ أَي: لا تعودون في الدار الآخرة، كما قال: ﴿يَحْسِبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿١٢٣﴾﴾ [القيامة: ٣٦]، يعني هملًا.

وقوله: ﴿تَعَالَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أَي: تقدس أن يخلق شيئاً عبثاً، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَوْبَرِ﴾، فذكر العرش؛ لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم، أَي: حسن المنظر بهي الشكل، كما قال تعالى: ﴿فَأَنبَأْنَا فِيهَا مِنْ كَثَرٍ نَقِيعٍ كَرِيمٍ﴾ [القمان: ١٠]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا علي بن محمد الطنابغسي، حدثنا إسحاق بن سليمان - شيخ من أهل العراق - أنبأنا شعيب بن صفوان، عن رجل من آل سعيد بن العاص قال: كان آخر خطبة خطب عمر بن عبد العزيز أن حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنكم لم تخلقوا عبثاً، ولن تتركوا سدى، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله، وحرمت جنة عرضها السموات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يأمن غداً إلا من حذر هذا اليوم وخافه، وباع نافداً بياق، وقليلاً بكثير، وخوفاً بأمان، ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين، وسيكون من بعدكم الباقيين، حتى تردون إلى خير الوارثين؟ ثم إنكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله ﷻ، قد قضى نجهه، وانقضى أجله، حتى تغيبوه في صدع من الأرض، في بطن صدع غير معهد ولا موسد، قد فارق الأحباب وياشر التراب، وواجه الحساب، مُرْتَهَنٌ بعمله، غني عما ترك، فقير إلى ما قدّم. فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء مواعيده، ونزول الموت بكم. ثم جعل طرف رده على وجهه، فبكى وأبكى من حوله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن نصر الخولاني، حدثنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن أبي هُبَيْرَةَ عن حَشَن بن عبد الله؛ أن رجلاً مصاباً مر به عبد الله بن مسعود، فقرأ في أذنه هذه الآية: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١٢١﴾ تَعَالَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾، حتى ختم السورة قُبْرًا، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بماذا قرأت في أذنه؟» فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو أن رجلاً موقناً قرأها على جبل لزال».

وروى أبو نعيم من طريق خالد بن زيار، عن سفيان بن عيينة، عن محمد بن المنكدر، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن أبيه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا

لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ قال: فقرأناها فغنمنا وسلمنا.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا إسحاق بن وهب الغلاف الواسطي، حدثنا أبو المسيب سلمة بن سلام، حدثنا بكر بن خنيس، عن نهشل بن سعيد، عن الضحاك بن مزاحم، عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن: باسم الله الملك الحق، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَقَعْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿الزمر: ٦٧﴾، ﴿يَسِّرْ اللَّهُ مَجْرِمَهَا وَمُزْسَلَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١].
﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾.

يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره، وعبد معه سواه، ومخبراً أن من أشرك بالله ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ﴾ أي: لا دليل له على قوله. فقال: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾، وهذه جملة معترضة، وجواب الشرط في قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي: الله يحاسبه على ذلك. ثم أخير: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١١٧﴾ أي: لديه يوم القيامة، لا فلاح لهم ولا نجاة.
قال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال لرجل: «ما تعبد؟» قال: أعبد الله، وكذا وكذا. حتى عد أصناماً، فقال رسول الله ﷺ: «فأتيتهم إذا أصابكم ضرر فدعوتهم، كشف عنك؟» قال: الله ﷻ. قال: «فأتيتهم إذا كانت لك حاجة فدعوتهم أعطاكها؟» قال: الله ﷻ. قال: «فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه؟» قال: أردت شكره بعبادة هؤلاء معه أم حسبت أن يغلب عليه. فقال رسول الله ﷺ: «تعلمون ولا تعلمون» قال الرجل بعد ما أسلم: لقيت رجلاً خصمني. هذا مرسل من هذا الوجه، وقد روى أبو عيسى الترمذي في جامعه مسنداً عن عمران بن الحصين، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ نحو ذلك.
وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿١١٨﴾: هذا إرشاد من الله إلى هذا الدعاء، فالغفر - إذا أطلق - معناه محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة معناها: أن يسدده ويوفقه في الأقوال والأفعال.

آخر تفسير سورة المؤمنون



تفسير سورة النور

وهي مدنية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةُ النُّورِ أُنزِلَتْهَا وَرَوَّضَتْهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لَكُمُ اللَّكُّورَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاصْلَحُوا كُلَّ وَجْهِ نَجْمًا يَا نَجْمًا وَلَا تَأْكُلُوا رِيقًا يَوْمَ رَأَىٰ اللَّهُ إِنْ كُنتُمْ قَائِلِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَنَّا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

يقول تعالى: هذه ﴿سُورَةُ أُنزِلَتْهَا﴾، فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفي ما عداها. ﴿وَرَوَّضَتْهَا﴾: قال مجاهد وقاتدة: أي بينا الحلال والحرام، والأمر والنهي، والحدود. وقال البخاري: ومن قرأ «فَرَضْنَاهَا» يقول: فرضنا عليكم وعلى من بعدكم. ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ﴾ أي: مفسرات واضحات، ﴿لَكُمُ اللَّكُّورَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاصْلَحُوا كُلَّ وَجْهِ نَجْمًا يَا نَجْمًا وَلَا تَأْكُلُوا رِيقًا﴾: هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع؛ فإن الزاني لا يخلو إما أن يكون بكرًا، وهو الذي لم يتزوج. أو محصناً، وهو الذي وطئ في نكاح صحيح، وهو حر بالغ عاقل. فأما إذا كان بكرًا لم يتزوج، فإن حده مائة جلدة، كما في الآية، ويزاد على ذلك أن يُغْرَبَ عاماً عن بلده عند جمهور العلماء، خلافاً لأبي حنيفة، رحمه الله، فإن عنده أن التغريب إلى رأي الإمام، إن شاء غُرِبَ وإن شاء لم يغْرَب. وحجة الجمهور في ذلك ما ثبت في الصحيحين، من رواية الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني، في الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: يا رسول الله، إن ابني كان عسيفاً - يعني: أجيراً - على هذا، فزني بامرأته، فافتدت ابني منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم، فأخبروني أن على ابني مائة تغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لأقضي بينكما بكتاب الله: الوليدة والغنم رد عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام. واغد يا أنيس - لرجل من أسلم - إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها». فغدا عليها، فاعترفت، فرجمها. ففي هذا دلالة على تغريب الزاني مع جلد مائة

إذا كان بكرة لم يتزوج، فأما إن كان محصناً فإنه يرجم، كما قال الإمام مالك: حدثني ابن شهاب، أخبرنا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، أن ابن عباس أخبره، أن عمر، رضي الله عنه، قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإن الله بعث محمداً بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناها ووعظناها، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشي أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى، إذا أحصن، من الرجال والنساء، إذا قامت البينة، أو الحبل، أو الاعتراف.

أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك مطولاً، وهذا قطعة منه، فيها مقصودنا ها هنا. وروى الإمام أحمد عن هشيم، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس: حدثني عبد الرحمن بن عوف؛ أن عمر بن الخطاب خطب الناس فسمعه يقول: ألا وإن أناساً يقولون: ما بال رجم؟ في كتاب الله الجلد. وقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده. ولولا أن يقول قائلون: أو يتكلم متكلمون. أن عمر زاد في كتاب الله ما ليس منه، لأثبتها كما نزلت. وأخرجه النسائي، من حديث عبيد الله بن عبد الله، به. وقد روى أحمد أيضاً عن هشيم، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: خطب عمر بن الخطاب فذكر الرجم فقال: لا تأخذن عنه، فإنه حد من حدود الله، ألا إن رسول الله ﷺ قد رجم ورجمنا بعده، ولولا أن يقول قائلون: زاد عمر في كتاب الله ما ليس فيه، لكتبت في ناحية من المصحف: وشهد عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وفلان وفلان: أن رسول الله ﷺ قد رجم ورجمنا بعده. ألا وإنه سيكون من بعدكم قوم يكذبون بالرجم وبالرجال وبالشفاعة وبعدذاب القبر، ويقوم يخرجون من النار بعد ما امتحشوا. وروى أحمد أيضاً عن يحيى القطان، عن يحيى الأنصاري، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب: إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم. الحديث رواه الترمذي، من حديث سعيد بن عُمَرَ، وقال: صحيح. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، حدثنا ابن عَوْن، عن محمد - هو ابن سيرين - قال: بُنِيتُ عن كثير بن الصلت قال: كان عند مروان وفيما زيد، فقال زيد: كنا نقرأ: «والشيخ والشيخة فارجموهما البتة». قال مروان: ألا كتبتها في المصحف؟ قال: ذكرنا وفيما عمر بن الخطاب، فقال: أنا أشفيكم من ذلك. قال: قلنا: فكيف؟ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، قال: فذكر كذا وكذا، وذكر الرجم، فقال: يا رسول الله، أكتنيت آية الرجم؟ قال: «لا أستطيع الآن». هذا أو نحو ذلك.

وقد رواه النسائي عن محمد بن العثني، عن عُثْمَر، عن شعبة، عن قتادة، عن يونس بن جُبَيْر، عن كثير بن الصلت، عن زيد بن ثابت، به. وهذه طرق كلها متعددة، ودالة على أن آية الرجم كانت مكتوبة ففسخ تلاوتها، وبقي حكمها معمولاً به، والله الحمد. وقد أمر رسول الله ﷺ بـرجم هذه المرأة، وهي زوجة الرجل الذي استأجر الأجير لما زنت مع الأجير. ورجم النبي ﷺ ماعزاً والغامدية. وكل هؤلاء لم يُنقل عن رسول الله ﷺ أنه جلداهم قبل الرجم. وإنما وردت الأحاديث الضحاح المتعددة الطرق والألفاظ، بالانقصار على رجمهم، وليس فيها ذكر الجلد؛ ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء، وإليه ذهب أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، رحمهم الله. وذهب الإمام أحمد، رحمه الله، إلى أنه يجب أن يجمع على الزاني المحصن بين الجلد للآية، والرجم للسنة، كما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه لما أتى بشرافة، وكانت قد زنت وهي مُحْسَنَةٌ، فجلدها يوم الخميس، ورجمها يوم الجمعة، ثم قال: جلدتها بكتاب الله، ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ. وقد روى الإمام أحمد ومسلم، وأهل السنن الأربعة، من حديث قتادة، عن الحسن، عن جَطَّان بن عبد الله الرقاشي، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً: البكر بالبكر جلد مائة وتغريب سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم». وقوله: «وَلَا تَأْخُذْكَ بِهَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ» أي: في حكم الله. لا ترجموهما وترأفوا بهما في شرع الله، وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية ألا تكون حاصلة على ترك الحد، وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد، فلا يجوز له ذلك. قال مجاهد: «وَلَا تَأْخُذْكَ بِهَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ» قال: إقامة الحدود، إذا رفعت إلى السلطان، فتقام ولا تعطل. وكذا روي عن سعيد بن جُبَيْر، وعطاء بن أبي رباح، وقد جاء في الحديث: «تعافوا الحدود فيما بينكم، فما بلغني من حدٍ فقد وجب». وفي الحديث الآخر: «لَحْدٌ يَقَامُ فِي الْأَرْضِ، خَيْرٌ لِأَهْلِهَا مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحاً». وقيل المراد: «وَلَا تَأْخُذْكَ بِهَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ»: فلا تقيموا الحد كما ينبغي، من شدة الضرب الزاجر عن المأثم، وليس المراد الضرب المبرح. قال عامر الشعبي: «وَلَا تَأْخُذْكَ بِهَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ» قال: رحمة في شدة الضرب. وقال عطاء: ضرب ليس بالمبرح. وقال سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن حماد بن أبي سليمان، يجلد القاذف وعليه ثيابه، والزاني تخلع ثيابه، ثم تلا: «وَلَا تَأْخُذْكَ بِهَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ»، فقلت: هذا في الحكم؟ قال: هذا في الحكم والجلد - يعني في إقامة الحد، وفي شدة الضرب. وقال ابن أبي

حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا وكيع، عن نافع، عن ابن عمر، عن أبي مليكة، عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر: أن جارية لابن عمر زنت، فضرب رجلها - قال نافع: أراه قال: وظهرها - قال: قلت: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهَا رَأْفَةُ﴾ في دين الله؟ قال: يا بني، ورأيتني أخذتني بها رافة؟ إن الله لم يأمرني أن أقتلها، ولا أن أجعل جلدًا في رأسها، وقد أوجعت حيث ضربت. وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: فافعلوا ذلك: أقيموا الحدود على من زنى، وشددوا عليه الضرب، ولكن ليس مبرحاً؛ ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك. وقد جاء في المسند عن بعض الصحابة أنه قال: يا رسول الله، إنني لأذبح الشاة وأنا أرحمها، فقال: ﴿ولك في ذلك أجر﴾.

وقوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جلدوا بحضرة الناس، فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما، وأنجع في ردعهما، فإن في ذلك تقريباً وتوبيخاً وفضيحة إذا كان الناس حضوراً. قال الحسن البصري في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: علانية. ثم قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، الطائفة: الرجل فما فوقه. وقال مجاهد: الطائفة: رجل إلى الألف. وكذا قال عكرمة؛ ولهذا قال الإمام أحمد: إن الطائفة تصدق على واحد. وقال عطاء بن أبي رباح: اثنان. وبه قال إسحاق بن راهويه. وكذا قال سعيد بن جبير: ﴿طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: يعني: رجلين فصاعداً. وقال الزهري: ثلاثة نفر فصاعداً. وقال عبد الرزاق: حدثني ابن وهب، عن الإمام مالك في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: الطائفة: أربعة نفر فصاعداً؛ لأنه لا يكون شهادة في الزنا دون أربعة شهداء فصاعداً. وبه قال الشافعي. وقال ربيعة: خمسة. وقال الحسن البصري: عشرة. وقال قتادة: أمر الله أن يشهد عذابها طائفة من المؤمنين، أي: نفر من المسلمين؛ ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن عثمان، حدثنا بقية قال: سمعت نصر بن علقمة في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: ليس ذلك للفضيحة، إنما ذلك ليدعى الله تعالى لهما بالتوبة والرحمة.

﴿الَّذِينَ لَا يَنْكِحُوا إِلَّا زَوَاجَهُمْ وَالزَّوْجَةَ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يبط إلا زانية أو مشركة. أي: لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية أو مشركة، لا ترى حرمة ذلك، وكذلك: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ أي: عاص بزناه، ﴿أَوْ مُشْرِكٌ﴾ لا يعتقد تحريره. قال سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: ﴿الَّذِينَ لَا يَنْكِحُوا إِلَّا زَوَاجَهُمْ أَوْ مُشْرِكَةً﴾ قال: ليس هذا بالنكاح، إنما هو الجماع، لا يزني بها إلا زانٍ أو مشرك. وهذا إسناد صحيح عنه، وقد روي عنه من غير وجه أيضاً. وقد روي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وغزوة بن الزبير، والضحاك، ومكحول، ومقاتل بن حيان، وغير واحد، نحو ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تعاطيه والتزويج بالبغايا، أو تزويج العفاف بالفجار من الرجال. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا قيس، عن أبي حصين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: حرم الله الزنا على المؤمنين. وقال قتادة، ومقاتل بن حيان: حرم الله على المؤمنين نكاح البغايا، وتقدم في ذلك فقال: ﴿وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَالْمَعْرُوفُ مُحْصَنَتِي غَيْرَ مُسَفَحَتِي وَلَا مُتَجَدِّثَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥]، وقوله: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفَحَاتٍ وَلَا مُتَجَدِّثَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [الآية المائدة: ٥]. ومن هنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله، إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتى تستتاب، فإن تابت صح العقد عليها وإلا فلا، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح، حتى يتوب توبة صحيحة، لقوله تعالى: ﴿وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا مَعْتَمِر بن سليمان قال: قال أبي: حدثنا الحضرمي، عن القاسم بن محمد، عن عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما، أن رجلاً من المسلمين استأذن رسول الله ﷺ في امرأة - يقال لها: «أم مهزول» - كانت تسافح، وتشرط له أن تنفق عليه - قال: فاستأذن رسول الله ﷺ - أو: ذكر له أمرها - قال: فقراً عليه رسول الله ﷺ: ﴿الَّذِينَ لَا يَنْكِحُوا إِلَّا زَوَاجَهُمْ أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقال النسائي: أخبرنا عمرو بن علي، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن الحضرمي، عن القاسم بن محمد، عن عبد الله بن عمرو قال: كانت امرأة - يقال لها: «أم مهزول» - وكانت تسافح، فأراد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن يتزوجها، فأنزل الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ لَا يَنْكِحُوا إِلَّا زَوَاجَهُمْ أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقال الترمذي: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا روح بن عبادة بن عبيد الله بن الأخنس، أخبرني عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده قال: كان رجل يقال له «مرثد» بن أبي مرثد، وكان رجلاً يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة. قال: وكانت

امراً بغي بمكة يقال لها «عناق»، وكانت صديقة له، وأنه واعد رجلاً من أسارى مكة يحمله. قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، قال: فجاءت «عناق» فأبصرت سواد ظلي تحت الحائط، فلما انتهت إلي عرفنتي، فقالت: مَرْتَدٌّ؟ فقلت: مرتد. فقالت: مرحباً وأهلاً، هلم فبت عندنا الليلة. قال: فقلت: يا عناق، حرم الله الزنا. فقالت: يا أهل الخيام، هذا الرجل يحمل أسراكم. قال: فتبعني ثمانية ودخلت الحنمة، فانتهيت إلى غار - أو كهف - فدخلت فيه، فجاؤوا حتى قاموا على رأسي فبالوا، فظل بولهم على رأسي، فأعماهم الله عني. قال: ثم رجعوا، فرجعت إلى صاحبي فحملته، وكان رجلاً ثقيلاً، حتى انتهيت إلى الإذخر، ففككت عنه أكبله، فجعلت أحمله ويعينني، حتى أتيت به المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أنكح عناقاً؟ أنكح عناقاً؟ مرتين - فأمسك رسول الله ﷺ، فلم يرد علي شيئاً، حتى نزلت: ﴿الَّذِينَ لَا يَنْكُحُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِسْنَاءَهُمْ أَوْ مُنْكَحَهُمْ أَوْ إِسْنَاءَهُمْ أَوْ بَنَاتَهُمْ أَوْ إِسْنَاءَهُمْ أَوْ بَنَاتَهُمْ أَوْ إِسْنَاءَهُمْ أَوْ بَنَاتَهُمْ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «يا مرثد لا نعرفه إلا من هذا الوجه». وقد رواه أبو داود والنسائي، في كتاب النكاح من سنتهما، من حديث عبيد الله بن الأخنس، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مُسَدَّدُ أَبُو الْحَسَنِ، حدثنا عبد الوارث، عن حبيب المعلم، حدثني عمرو بن شعيب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله». وهكذا أخرجه أبو داود في سننه عن مسدد وأبي معمر - عبد الله بن عمرو - كلاهما عن عبد الوارث، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا عاصم بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن أخيه عمر بن محمد، عن عبد الله بن يسار - مولى ابن عمر - قال: أشهد لسمعت سالماً يقول: قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة، ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمرأة المترجلة - المتشبهة بالرجال - والديوث. وثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، ومُذْمَنُ الخمر، والمثان بما أعطى». ورواه النسائي عن عمرو بن علي الفلاس، عن يزيد بن زريع، عن عُمر بن محمد العُمري، عن عبد الله بن يسار، به. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، حدثنا الوليد بن كثير، عن قطن بن وهب، عن غُوَيْرِ بْنِ الْأَجْدَعِ، عن حدثه، عن سالم بن عبد الله بن عمر قال: حدثني عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة حرم الله عليهم الجنة: مدمن الخمر، والعاق والذَّيْوثُ الذي يقر في أهله الخبث». وقال أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثنا شعبة، حدثني رجل - من آل سهل بن حَنْفٍ - عن محمد بن عَمَّار، عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة ديوث». يستشهد به لما قبله من الأحاديث. وقال ابن ماجه: حدثنا هشام بن عمار، حدثنا سلام بن سَوَّار، حدثنا كثير بن سُلَيْم، عن الضحَّاك بن مَرْحَم: سمعت أنس بن مالك يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أراد أن يلقى الله طاهراً مُطَهَّراً، فليتزوج الحرائر». في إسناده ضعف. قال الإمام أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري في كتاب «الصحيح في اللغة»: الذَّيْوثُ الْفُتْدُوعُ وهو الذي لا غيرة له. فأما الحديث الذي رواه الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في كتاب «النكاح» من سننه: أخبرنا محمد بن إسماعيل بن عُثَيْبٍ، عن يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة وغيره، عن هارون بن رثاب، عن عبد الله بن عبيد بن عمير - وعبد الكريم، عن عبد الله بن عُبيد بن عمير، عن ابن عباس - عبد الكريم رفعه إلى ابن عباس، وهارون لم يرفعه - قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن عندي امرأة هي من أحب الناس إلي، وهي لا تمنع يد لأمس. قال: «طلقها». قال: لا صبر لي عنها. قال: «استمتع بها». ثم قال النسائي: هذا الحديث غير ثابت، وعبد الكريم ليس بالقوي، وهارون أثبت منه، وقد أرسل الحديث وهو ثقة، وحديثه أولى بالصواب من حديث عبد الكريم. قلت: وهو ابن أبي المخارق البصري المؤدب تابعي ضعيف الحديث، وقد خالفه هارون بن رثاب، وهو تابعي ثقة من رجال مسلم، فحديثه المرسل أولى كما قال النسائي. لكن قد رواه النسائي في كتاب «الطلاق»، عن إسحاق بن راهويه، عن النضر بن شميل، عن حماد بن سلمة، عن هارون بن رثاب، عن عبد الله بن عُبيد بن عمير، عن ابن عباس مستنداً، فذكره بهذا الإسناد، رجاله على شرط مسلم، إلا أن النسائي بعد روايته له قال: «وهذا خطأ، والصواب مرسل». ورواه غير النضر على الصواب.

وقد رواه النسائي أيضاً وأبو داود، عن الحسين بن حُرَيْث، أخبرنا الفضل بن موسى، أخبرنا الحسين بن واقد، عن عَمَّارَةَ بن أبي حفصة، عن عكرمة، عن ابن عباس عن النبي ﷺ فذكره. وهذا إسناد جيد. وقد اختلف الناس في هذا الحديث ما بين مُضَعَّفٍ له، كما تقدم عن النسائي، وكما قال الإمام أحمد: هو حديث منكر. وقال ابن قتيبة: إنما أراد أنها سخية لا تمنع سائلاً. وحكاها النسائي في سننه عن بعضهم فقال: وقيل: «سخية تعطي»، ورُدَّ هذا بأنه لو كان المراد لقال: لا تَرُدُّ يد ملتمس.

وقيل: المراد أن سجيبتها لا تَرُدُّ يد لأمس، لا أن المراد أن هذا واقع منها، وأنها تفعل الفاحشة؛ فإن رسول الله ﷺ لا يأذن في مصاحبة من هذه صفتها. فإن زوجها - والحالة هذه - يكون ذبوثاً، وقد تقدم الوعيد على ذلك. ولكن لما كانت سجيبتها هكذا ليس فيها معانعة ولا مخالفة لمن أرادها لو خلا بها أحد، أمره رسول الله ﷺ بفراقها. فلما ذكر أنه يحبها أباح له البقاء معها؛ لأن محبته لها محققة، ووقوع الفاحشة منها متوهم، فلا يُصار إلى الضرر العاجل لتوهم الآجل، والله، سبحانه وتعالى، أعلم. قالوا: فأما إذا حصلت توبة فإنه يحل التزويج، كما قال الإمام أبو محمد بن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن ابن أبي ذئب، قال: سمعت شعبة - مولى ابن عباس، رضي الله عنه - قال: سمعت ابن عباس وسأله رجل قال: إني كنت ألم بامرأة آتت منها ما حرم الله، ﷻ، عليّ فرزق الله، ﷻ، من ذلك توبة، فأردت أن أتزوجها، فقال أناس: إن الزاني لا ينكح إلا زانية. فقال ابن عباس: ليس هذا في هذا، انكحها فما كان من إثم فعلي. وقد ادعى طائفة آخرون من العلماء أن هذه الآية منسوخة، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: ذكر عنده ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾، قال: كان يقال: نسختها الآية التي بعدها: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، قال: كان يقال الأيامي من المسلمين. وهكذا رواه الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب «الناسخ والمنسوخ»، له، عن سعيد بن المسيب. ونص على ذلك أيضاً الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، رحمه الله.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُ الْفَحْشَىٰ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِإِثْمٍ شَهَدُوا بِمَا بَدَّ لَهُمْ شَهِدَتِ عَلَيْهِمْ أَزْوَاجُهُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَبَنَاتُهُمْ وَمَنْ بَدَّ مِنْكُمْ شَيْئًا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ﴾.

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة، وهي الحرة البالغة العفيفة، فإذا كان المقذوف رجلاً فكذلك يجلد قاذفه أيضاً، وليس في هذا نزاع بين العلماء. فأما إن أقام القاذف بيته على صحة ما قاله، رُدَّ عنه الحد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُ الْفَحْشَىٰ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِإِثْمٍ شَهَدُوا بِمَا بَدَّ لَهُمْ شَهِدَتِ عَلَيْهِمْ أَزْوَاجُهُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَبَنَاتُهُمْ وَمَنْ بَدَّ مِنْكُمْ شَيْئًا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ﴾، فأوجب على القاذف إذا لم يقم بيته على صحة ما قاله ثلاثة أحكام: أحدها: أن يجلد ثمانين جلدة. الثاني: أنه ترد شهادته دائماً. الثالث: أن يكون فاسقاً ليس بعدل، لا عند الله ولا عند الناس. ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَعْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، اختلف العلماء في هذا الاستثناء: هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط فترفع التوبة الفسق فقط، ويبقى مردود الشهادة دائماً وإن تاب، أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة؟ أما الجلد فقد ذهب وانقضى، سواء تاب أو أصر، ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف. فذهب الإمام مالك والشافعي وأحمد بن حنبل إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته، وارتفع عنه حكم الفسق. ونص عليه سعيد بن المسيب - سيد التابعين - وجماعة من السلف أيضاً. وقال الإمام أبو حنيفة: إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط، فيرتفع الفسق بالتوبة، ويبقى مردود الشهادة أبداً. ومن ذهب إليه من السلف القاضي - شريح، وإبراهيم النخعي، وسعيد ابن جبيرة، ومكحول، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال الشعبي والضحاك: لا تقبل شهادته وإن تاب، إلا أن يعترف على نفسه بأنه قد قال البهتان، فحينئذ تقبل شهادته، والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدُوا بِأَنَّهُمْ شَهِدَتِ عَلَيْهِمْ أَزْوَاجُهُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَبَنَاتُهُمْ وَمَنْ بَدَّ مِنْكُمْ شَيْئًا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ﴾.

هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج وزيادة مخرج، إذا قذف أحدهم زوجته وتعرض عليه إقامة البيعة، أن يلاعنها، كما أمر الله، ﷻ، وهو أن يحضرها إلى الإمام، فيدعي عليها بما رماها به، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء، ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الْكَذِبِينَ﴾ أي: فيما رماها به من الزنا، ﴿وَالْفَوَسَةُ أَنَّ لَعَنَتُ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾. فإذا قال ذلك، بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وحرمت عليه أبداً، ويعطى مهرها، ويتوجه عليها حد الزنا، ولا يدرأ عنها إلا أن تلاعن، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، أي: فيما رماها به، ﴿وَالْفَوَسَةُ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِذَا كَانَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾. ولهذا قال: ﴿وَيَذَرُهَا عَنِ الْعَذَابِ﴾ يعني: الحد، ﴿أَنْ تَقْذِفَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَذِبِينَ﴾ ﴿٨﴾ ﴿وَالْفَوَسَةُ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِذَا كَانَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾. فخصها بالغضب، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور، وهي تعلم صدقه فيما رماها به. ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها. والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه. ثم ذكر تعالى لطفه بخلقه، ورأفته بهم، وشرعاً لهم الفرج

أحمد بن منصور الزياتي، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا صالح - وهو ابن عمر - حدثنا عاصم - يعني: ابن كليب - عن أبيه، حدثني ابن عباس قال: جاء رجل إلى رسول الله، فرمى امرأته برجل، ففكر ذلك رسول الله ﷺ، فلم يزل يُرَدِّده حتى أنزل الله ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾، فقرأ حتى فرغ من الآيتين، فأرسل إليهما فدعاهما، فقال: «إن الله، ﷻ، قد أنزل فيكما». فدعا الرجل فقرأ عليه، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين. ثم أمر به فأمسك على فيه فوعظه، فقال له: «كل شيء أهون عليه من لعنة الله». ثم أرسله فقال: ﴿لَعَنَتُ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، ثم دعا بها، فقرأ عليها، فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، ثم أمر بها فأمسك على فيها فوعظها، وقال: «ويحك. كل شيء أهون من غضب الله». ثم أرسلها، فقالت: «غَضَبَ اللَّهِ عَلَيَّ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ». فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأقضي بينكما قضاء فصلاً». قال: فولدت، فما رأيت مولوداً بالمدينة أكثر غاشية منه، فقال: «إن جاءت به لكذا وكذا فهو كذا، وإن جاءت به لكذا وكذا فهو لكذا». فجاءت به يشبه الذي قُذِفَتْ به.

وقال الإمام أحمد: حدثني يحيى بن سعيد، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان قال: سمعت سعيد بن جبير قال: سُئِلْتُ عن المتلاعنين أيفرق بينهما - في إماره ابن الزبير؟ فما دَرَيْتُ ما أقول، فقممت من مكاني إلى منزل ابن عمر فقلت: أبا عبد الرحمن، المتلاعنان أيفرق بينهما؟ فقال: سبحانه الله، إن أول من سأل عن ذلك فلان بن فلان فقال: يا رسول الله، أرايت الرجل يرى امرأته على فاحشة فإن تكلم تكلم بأمر عظيم، وإن سكت سكت على مثل ذلك. فسكت فلم يجبه، فلما كان بعد ذلك أتاه فقال: الذي سألتك عنه قد ابتليت به. فأنزل الله ﷻ هذه الآيات في سورة النور: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾، حتى بلغ: ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيَّ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. فبدأ بالرجل فوعظه وذكره، وأخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فقال: والذي بعثك بالحق ما كذبتك. ثم ثنى بالمرأة فوعظها وذكرها، وأخبرها أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فقالت: والذي بعثك بالحق، إنه لكاذب. قال: فبدأ بالرجل، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. ثم ثنى بالمرأة فشهدت أربع شهادات بالله لمن الكاذبين، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ثم فُورق بينهما. رواه النسائي في التفسير، من حديث عبد الملك بن أبي سليمان، به. وأخرجه في الصحيحين من حديث سعيد بن جبير، عن ابن عباس. وقال الإمام أحمد: حدثني يحيى بن حماد، حدثنا أبو عوانة، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: كنا جلوساً عشية الجمعة في المسجد، فقال رجل من الأنصار: أهدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً فقتله قتلتموه، وإن تكلم جلدتموه، وإن سكت سكت عن غيظ؟ والله لئن أصبحت صالحاً لأسألن رسول الله ﷺ. قال: فسأله. فقال: يا رسول الله، إن أهدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً فقتله قتلتموه، وإن تكلم جلدتموه، وإن سكت سكت على غيظ؟ اللهم احكم. قال: فأنزل آية اللعان، فكان ذلك الرجل أول من ابتلي به. انفرد بإخراجه مسلم، فرواه من طُورق، عن سليمان بن مهران الأعمش، به.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو كامل: حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثنا ابن شهاب، عن سهل بن سعد، قال: جاء عويمر إلى عاصم بن عدي فقال: سأل رسول الله ﷺ: أرايت رجلاً وجد رجلاً مع امرأته فقتله، أيقبل به أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ، فعاب رسول الله ﷺ المسائل. قال: فلقبه عويمر فقال: ما صنعت؟ قال: ما صنعت! إنك لم تأتني بخير؛ سألت رسول الله ﷺ فعاب المسائل. فقال عويمر: والله لآتين رسول الله ﷺ فلا سأله. فأتاه فوجده أنزل عليه فيها. قال: فدعا بهما فلاعن بينهما. قال عويمر: لئن انطلقت بها يا رسول الله لقد كذبت عليها. قال: ففارقتها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ، فصارت سنة المتلاعنين، فقال رسول الله ﷺ: «أبصروها، فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الألتين، فلا أراه إلا قد صدق، وإن جاءت به أحيمر كأنه وحره فلا أراه إلا كاذباً». فجاءت به على النعت المكروه. أخرجه في الصحيحين وبقية الجماعة إلا الترمذي، من طرق، عن الزهري، به.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إسحاق بن الصيف، حدثنا النضر بن شميل، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، عن أبيه، عن زيد بن يُثَيع، عن حذيفة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «لو رأيت مع أم رومان رجلاً ما كنت فاعلاً به؟ قال: كنت والله فاعلاً به شراً. قال: «فأنت يا عمر؟». قال: كنت والله فاعلاً، كنت أقول: لعن الله الأعجز، وإنه خبيث. قال: فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾. ثم قال: لا نعلم أحداً أسنده إلا النضر بن شميل، عن يونس بن أبي إسحاق، ثم رواه من حديث الثوري عن أبي أبي إسحاق، عن زيد بن يُثَيع مرسلاً، فانه أعلم. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا مسلم بن أبي مسلم الجزمي، حدثنا مُخَلَّدُ بن الحسين، عن هشام، عن ابن سيرين، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال:

لأول لعان كان في الإسلام أن شريك بن سَحْمَاء قذفه هلال بن أمية بامرأته، فرفعه إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «أربعة شهود وإلا فحد في ظهره». فقال: يا رسول الله، إن الله يعلم أنني لصادق، ولينزلن الله عليك ما يبرىء به ظهري من الجلد. فأنزل الله آية اللعان: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْزَنَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَسْوَغُونَ لَهَا بِهَا عَمَلًا غَيْرَ الْكُفْرِ يَسُوغُونَ﴾ إلى آخر الآية. قال: فدعاه النبي ﷺ فقال: «اشهد بالله إنك لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا» فشهد بذلك أربع شهادات، ثم قال له في الخامسة: «ولعنة الله عليك إن كنت من الكاذبين فيما رميتها به من الزنا» ففعل. ثم دعاها رسول الله ﷺ فقال: «قومي فاشهدي بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماك به من الزنا». فشهدت بذلك أربع شهادات، ثم قال لها في الخامسة: «وغضب الله عليك إن كان من الصادقين فيما رماك به من الزنا»، فقالت: فلما كانت الرابعة أو الخامسة سكنت سكتة، حتى ظنوا أنها ستعترف، ثم قالت: لا أفصح قومي سائر اليوم. فمضت على القول، ففرق رسول الله ﷺ بينهما، وقال: «انظروا، فإن جاءت به جعداً حَمْشُ الساقين، فهو لشريك بن سَحْمَاء، وإن جاءت به أبيض سبطاً فضياً العينين فهو لهلال بن أمية». فجاءت به آدم جعداً حَمْشُ الساقين، فقال رسول الله ﷺ: «لولا ما نزل فيهما من كتاب الله، لكان لي ولها شأن».

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ يَنْكُرُونَ لَكُمْ بَلْ هُوَ خَبْرٌ لَكُم مِّنْ أَمْرِ يَنْتَهُم مَّا آكُتِبَ مِنَ الْإِثْمِ وَلَئِنْ كَبُرُوا يَنْتَهُم لَمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التي غار الله تعالى لها ولنبيه، صلوات الله وسلامه عليه، فأنزل الله ﷻ ليعبرها صيانة لعرض الرسول، عليه أفضل الصلاة والسلام، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة منكم، يعني: ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة، فكان المقدم في هذه اللعنة عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، فإنه كان يجمعه ويستوشيه، حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين، فتكلموا به، وجوزوه آخرون منهم، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر، حتى نزل القرآن، وسياق ذلك في الأحاديث الصحيحة. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري قال: أخبرني سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعلقمة بن وقاص، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن حديث عائشة زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله، وكلهم قد حدثني بطائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت اقتصاصاً، وقد وعيت عن كل واحد منهم الحديث الذي حدثني، وبعض حديثهم يصدق بعضاً: ذكروا أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، وخرجت مع رسول الله ﷺ، وذلك بعدما أنزل الحجاب، فأنأ حمل في هودجني وأنزل فيه مسيرنا، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوة وقفل ودنونا من المدينة، أذن ليلة بالرحيل، فقممت حين أذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدري، فإذا عقد من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتصمت عقدي، فحبسني ابتغاؤه. وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب - وهم يحسبون أنني فيه - قالت: وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يَهْلِيَهُنَّ ولم يغشن اللحم، إنما يأكلن الغلقة من الطعام. فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فبحثت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فقيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إلي. فبينما أنا جالسة في منزلي، غلبتني عيني فتمت - وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش - فاذلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رأيته. وقد كان يراني قبل أن يضرب عليّ الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمّرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موعرين في نحر الظهيرة. فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي بن سلول. فقدمت المدينة فاشتكت حين قدمنا شهراً، والناس يُقَيِّضُونَ في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يرييني في وجعي أنني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم، ثم يقول: «كيف تيكُم؟» فذلك يرييني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعد ما نهضت وخرجت معي أم مسطح قبل المناصب - وهو مَتَبَّرُزْنَا - ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نَحْذُ الْكَثْفَ قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه، وكنا نتأذى بالكثف أن نتخذها في بيوتنا. فانطلقت أنا وأم مسطح - وهي ابنة أبي رُهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة ضخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن

أثانة بن عباد بن المطلب - فأقبلت أنا وابنة أبي رهم قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: «تس مسطح». فقلت لها: بشما قلت. تسبين رجلاً قد شهد بدرًا؟ قالت: أي هتاه، ألم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي. فلما رجعت إلى بيتي فدخل علي رسول الله ﷺ فسلم، ثم قال: «كيف تيكُم؟» قلت: أئاذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما - فأذن لي رسول الله ﷺ، فبحثت أبوي فقلت لأمي: يا أمته، ما يتحدث الناس؟ فقالت: أي بئته، هوئي عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضئته، عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها. قالت: فقلت: سبحان الله أوقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي. فدعا رسول الله ﷺ علياً، وأسامة بن زيد حين استلبت الوحي، يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فاما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه له من الود، فقال: يا رسول الله، هم أهلك، ولا نعلم إلا خيراً. وأما علي بن أبي طالب فقال: لم يضيّق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدّقك الخبر. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريدة، فقال: «أي بريدة، هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟» فقالت له بريدة: والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قط أغمضه عليها، أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله، فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلؤل. قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي». فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرک منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج، أمرتنا ففعلنا أمرک. قالت: فقام سعد بن عبادة - وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية - فقال لسعد بن معاذ: لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله. فقام أسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد بن معاذ - فقال لسعد بن عبادة: كذبت! لعمر الله لقتلته، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فتناور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر. فلم يزل رسول الله ﷺ يخفّضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله ﷺ، قالت: وبكيت يومي ذلك، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فائق كبدي. قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، استأذنت علي امرأة من الأنصار، فأذنْتُ لها، فجلست تبكي معي، فبينما نحن على ذلك، إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس - قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء - قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: أما بعد يا عائشة، فإني قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرك الله، وإن كنت أَلَمْتَ بذنب فاستغفري الله ثم توبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب، تاب الله عليه. قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قَلَصَ دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ. فقال: والله ما أدري ما أقول للرسول. فقلت لأمي: أجيبني عني رسول الله. فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله. قالت: فقلت - وأنا جارية حديثة السن، لا أحفظ كثيراً من القرآن -: إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا، حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئة - والله يعلم إني بريئة - لا تصدقوني بذلك. ولئن اعترفت لكم بأمر والله ﷻ يعلم أنني بريئة تصدقوني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٢١٨]. قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله حينئذ أعلم أنني بريئة، وأن الله مَبْرُئني ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى. ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها. قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ من مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد، حتى أنزل الله على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي، حتى إنه لينحدر منه مثل الحُمَان من العرق في اليوم الثاني، من نقل القول الذي أنزل عليه. قالت: فلما سُرِّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، كان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أبشري يا عائشة، أما الله فقد بَرَأكَ». فقالت لي أُمي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله ﷻ، وهو الذي أنزل براءتي، وأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ يَنْكُرُ﴾ عشر آيات. فأنزل الله هذه الآيات براءتي قالت: فقال أبو بكر، رضي الله عنه - وكان ينفق على مسطح لقربائه منه وفقره -: «والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة. فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ أُولَ الْأَفْهَالِ يَنْكُرُ وَالسَّعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا شُعْبَةُ أَنْ يَقُولَ اللَّهُ لَكَ﴾ [النور: ٢٢]، فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه. وقال: لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش - زوج النبي ﷺ - عن أمري: يا زينب، ما علمت، أو: ما رأيت أو ما

بلغك؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمتُ إلا خيراً. قالت عائشة: وهي التي كانت تُساميني من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله تعالى بالورع. وطفقت أختها حمنة بنت جحش تُحارب لها، فهلكت فيمن هلك. قال ابن شهاب: فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط. أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، من حديث الزهري. وهكذا رواه ابن إسحاق، عن الزهري كذلك، قال: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عائشة. وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، عن عمرة، عن عائشة بنحو ما تقدم، والله أعلم.

ثم قال البخاري: وقال أبو أسامة، عن هشام بن عروة قال: أخبرني أبي، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: لما ذكر من شأني الذي ذكر وما علمتُ به، قام رسول الله ﷺ في خطيباً، فتشهد فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، أشيروا عليّ في أناس أبثوا أهلي، وإيّم الله ما علمت على أهلي من سوء، وأبثوهم بمن والله ما علمتُ عليه من سوء قط، ولا يدخل بيتي قط إلا وأنا حاضر، ولا غبت في سفر إلا غاب معي». فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: ائذن يا رسول الله أن نضرب أعناقهم، فقام رجل من الخزرج - وكانت أم حسان بن ثابت من رهط ذلك الرجل - فقال: كذبت، أما والله لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تُضرب أعناقهم. حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شرٌّ في المسجد، وما علمتُ. فلما كان مساء ذلك اليوم، خرجت لبعض حاجتي ومعني أم مسطح، فعثرت فقالت: تمس مسطح، فقلت: أي أم، أتسبين ابنك؟ وسكتت، ثم عثرت الثانية فقالت: تمس مسطح. فقلتُ لها: أي أم، تسبين ابنك؟ ثم عثرت الثالثة فقالت: تمس مسطح. فانتهرتها فقالت: والله ما أسبه إلا فيك، فقلت: في أي شأني؟ قالت: فبقرت لي الحديث. فقلت: وقد كان هذا؟ قالت: نعم والله. فرجعتُ إلى بيتي كان الذي خرجت له لا أجد منه قليلاً ولا كثيراً، ووعكت، وقلت لرسول الله ﷺ: أرسلني إلى بيت أبي. فأرسل معي الغلام، فدخلت الدار، فوجدت أم رومان في السفلى، وأبا بكر فوق البيت يقرأ، فقالت لي أُمي: ما جاء بك يا بنية؟ فأخبرتها، وذكرت لها الحديث، وإذا هو لم يبلغ منها مثل ما بلغ مني، فقالت: يا بنية، خُفّضي عليك الشأن؛ فإنه - والله - لقلّما كانت امرأة حسناء، عند رجل يحبها، لها ضرائر إلا حسدنها، وقبل فيها وإذا هو لم يبلغ ما بلغ مني، فقلت: وقد علم به أبي؟ قالت: نعم. قلت: ورسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، ورسول الله ﷺ. فاستعبرتُ وبكيت، فسمع أبو بكر صوتي، وهو فوق البيت يقرأ، فنزل فقال لأُمي: ما شأنها؟ قالت: بلغها الذي ذكر من شأنها. ففاضت عيناه وقال: أقسمت عليك - أي بنية - إلا رجعت إلى بيتك. فرجعتُ، ولقد جاء رسول الله ﷺ بيتي، فسأل عني خادمي، فقالت: لا، والله ما علمت عليها عيباً، إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها - أو: عجينة - وانتهرها بعض أصحابه فقال اصدقي رسول الله ﷺ، حتى أسقطوا لها به، فقالت: سبحان الله. والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر. وبلغ الأمر ذلك الرجل الذي قيل له، فقال: سبحان الله. والله ما كشفتُ كَتَفَ أنثى قط - قالت عائشة: فقتل شهيداً في سبيل الله - قالت: وأصبح أبواي عندي، فلم يزا إلا حتى دخل علي رسول الله ﷺ وقد صلى العصر، ثم دخل وقد اكتفني أبواي عن يعيني وعن شمالي، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد يا عائشة، إن كنت قارفت سوءاً أو ظلمت فتوبتي إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده». قالت: وقد جاءت امرأة من الأنصار، فهي جالسة بالباب، فقلت: ألا تستحي من هذه المرأة أن تذكر شيئاً؟ فوعظ رسول الله ﷺ، فالتفت إلى أبي، فقلت له: أجه. قال: فماذا أقول؟ فالتفتُ إلى أُمي فقلت: أجيبي. قالت: أقول ماذا؟ فلما لم يجيبها، تَشَهَّدْتُ فحمدتُ الله وأثنيت عليه بما هو أهله، ثم قلت: أما بعد، فوالله لئن قلت لكم إنني لم أفعل - والله ﷻ يشهد إنني لصادقة - ما ذاك بنافعي عندكم، لقد تكلمتم به، وأشربته قلوبكم، وإن قلت، إنني قد فعلت - والله يعلم أنني لم أفعل - لتقولن: قد بادت به على نفسها، وإنني - والله - ما أجد لي ولكم مثلاً والتمسكت اسم يعقوب فلم أقدر عليه - إلا أبا يوسف حين قال: «فَصَبْرٌ جَبِيلٌ وَاللَّهِ أَكْثَرُ النَّاسِ عَنْ مَا قَوْمُهُمْ» [يوسف: ١٨]، وأنزل الله على رسوله ﷺ من ساعته، فسكتنا، فزُفِعَ عنه وإنني لأتبين السرور في وجهه، وهو يمسح جبينه ويقول: «أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك»، قالت: وكنت أشد ما كنتُ غضباً، فقال لي أبواي: قومي إليه. فقلت: لا، والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمده، ولكن أحمد الله الذي أنزل براءتي، لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه، وكانت عائشة تقول: أما زينب بنت جحش فقد عصمها الله بدنيها، فلم تقل إلا خيراً. وأما أختها حمنة بنت جحش، فهلكت فيمن هلك. وكان الذي يتكلم به مسطح وحسان بن ثابت. وأما المناق عبد الله بن أبي بن سلول فهو الذي كان يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره منهم هو وحمنة. قالت: وحلف أبو بكر ألا ينفع مسطحاً بنافعة أبداً فأنزل الله: «وَلَا يَأْتِي أُولَ الْفَصْلِ يَنْكُرُ وَالسَّعَةَ» إلى آخر الآية، يعني: أبا بكر، «وَالسَّعَةَ أَنْ يُؤْتَى أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ» يعني: مسطحاً، إلى قوله: «وَلَا يَحِبُّونَ أَنْ يَقْرِؤُا اللَّهَ لَكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» [النور: ٢٢]. فقال أبو بكر: بلى والله يا ربنا، إنا لَنُحِبُّ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا وَعَادَ لَه بِمَا كَانَ يَصْنَعُ.

هكذا رواه البخاري من هذا الوجه مُعَلَّقاً بصيغة الجزم، عن أبي أسامة حماد بن أسامة أحد الأئمة الثقات. وقد رواه ابن جرير في تفسيره عن سفيان بن وكيع، عن أبي أسامة، به مطولاً، مثله أو نحوه. ورواه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشج، عن أبي أسامة، ببعضه. وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، أَخْبَرَنَا عُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَ عُذْرِي مِنَ السَّمَاءِ، جَاءَنِي النَّبِيُّ ﷺ فَأَخْبَرَنِي بِذَلِكَ، فَقُلْتُ: نَحْمَدُ اللَّهَ لَا نَحْمَدُكَ. وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، عَنْ عُمَرَ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَ عُذْرِي قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ، وَتَلَا الْقُرْآنَ، فَلَمَّا نَزَلَ أَمَرَ بِرَجُلَيْنِ وَامْرَأَةٍ فَضَرَبُوا حُدُومَهُمْ. وَأَخْرَجَهُ أَهْلُ السَّنَنِ الْأَرْبَعَةَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَوَقَعَ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ تَسْمِيَّتُهُمْ: حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَمُسْطَحُ بْنُ أَثَاثَةَ، وَحُمَيْمَةُ بِنْتُ جَحْشٍ. فَهَذِهِ طَرُقٌ مُتَعَدِّدَةٌ عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فِي الْمَسَانِيدِ وَالصَّحَاحِ وَالسَّنَنِ وَغَيْرِهَا. وَقَدْ رُوِيَ مِنْ حَدِيثِ أُمِّهَا أُمِّ رُومَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَاصِمٍ، أَخْبَرَنَا حُصَيْنُ بْنُ وَائِلٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ أُمِّ رُومَانَ قَالَتْ: بَيْنَا أَنَا عِنْدَ عَائِشَةَ، إِذْ دَخَلَتْ عَلَيْهَا امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَتْ: فَعَلَ اللَّهُ -بَابِنَهَا- وَفَعَلَ. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: وَلَمْ؟ قَالَتْ: إِنَّهُ كَانَ فِيمَنْ حَدَّثَ الْحَدِيثَ. قَالَتْ عَائِشَةُ: وَأَيُّ حَدِيثٍ؟ قَالَتْ: كَذَا وَكَذَا. قَالَتْ: وَقَدْ بَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، وَبَلَغَ أَبُو بَكْرٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَخَرْتُ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، مَغْشِياً عَلَيْهَا، فَمَا أَفَاقَتْ إِلَّا وَعَلَيْهَا حُمَى بِنَافِضٍ. قَالَتْ: قَعَمْتُ فَدَثَرْتُهَا، قَالَتْ: وَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَا شَأْنُ هَذِهِ؟» قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخَذَتْهَا حُمَى بِنَافِضٍ. قَالَ: فَلَعَلَّهُ فِي حَدِيثٍ تُحَدِّثُ بِهِ». قَالَتْ: فَاسْتَوْتُ لَهُ عَائِشَةُ قَاعِدَةً فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَئِنْ حَلَفْتُ لَكُمْ لَا تَصْدُقُونِي، وَلَئِنْ اعْتَذَرْتُ إِلَيْكُمْ لَا تُعَذِّرُونِي، فَمَثَلِي وَمِثْلُكُمْ كَمَثَلِ يَعْقُوبَ وَبَنِيهِ ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا هُمُوعُونَ﴾ [يوسف: ١٨]. قَالَتْ: وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَذْرَهَا، فَجَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، فَدَخَلَ فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَنْزَلَ عَذْرَكَ». فَقَالَتْ: بِحَمْدِ اللَّهِ لَا بِحَمْدِكَ. فَقَالَ لَهَا أَبُو بَكْرٍ: تَقُولِينَ هَذَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَتْ: فَكَانَ فِيمَنْ حَدَّثَ هَذَا الْحَدِيثَ رَجُلٌ كَانَ يَعْوَلُهُ أَبُو بَكْرٍ، فَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ أَلَّا يَصْلَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ. ﴿وَلَا يَأْتِي أَوْلَاؤُا الْفَضْلِ يَنْكُرُوا وَالسَّعَةِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [النور: ٢٢]، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى. فَوَصَلَهُ.

تفرد به البخاري دون مسلم، من طريق حُصَيْنٍ. وقد رواه البخاري عن موسى بن إسماعيل عن أبي عوانة -وعن محمد بن سلام- عن محمد بن فضيل، كلاهما عن حُصَيْنٍ، به. وفي لفظ أبي عوانة: حَدَّثَنِي أُمُّ رُومَانَ. وهذا صريح في سماع مسروق منها، وقد أنكر ذلك جماعة من الحفاظ، منهم الخطيب البغدادي، وذلك لما ذكره أهل التاريخ أنها ماتت في زمان النبي ﷺ، قال الخطيب: وقد كان مسروق يرسله فيقول: «سئلت أُمَّ رُومَانَ»، ويسوقه، فلعل بعضهم كتب «سئلت» بآلف، فاعتقد الراوي أنها «سألت»، فظنه متصلاً. قال الخطيب: «وقد رواه البخاري كذلك، ولم تظهر له علته». كذا قال، والله أعلم. فقولُه: ﴿إِنَّ أَلَيْنَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ أي: بالكذب والبهت والافتراء، ﴿عَصِيَّةٌ﴾ أي: جماعة منكم، ﴿لَا تَحْصِيهِ شُرَكَاءُكُمْ﴾ أي: يا آل أبي بكر، ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، لسان صدق في الدنيا ورفعة منازل في الآخرة، وإظهار شرف لهم باعته الله بعائشة أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، حيث أنزل الله تعالى براءتها في القرآن العظيم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجُلٌ مِّنْ حَكِيمٍ كَبِيرٍ﴾ [فصلت: ٤٢]؛ ولهذا لما دخل عليها ابن عباس، رضي الله عنه، وهي في سياق الموت، قال لها: أبشري، فإنك زوجة رسول الله ﷺ، وكان يحبك، ولم يتزوج بكراً غيرك، وأنزل براءتك من السماء. وقال ابن جرير في تفسيره: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَثْمَانَ الْوَاسِطِي، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ عَوْنٍ، عَنْ الْمَعْلِيِّ بْنِ عُرْفَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ قَالَ: تَفَاخَرَتْ عَائِشَةُ وَزَيْنَبُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَالَتْ زَيْنَبُ: أَنَا الَّتِي نَزَلَ تَزْوُجِي مِنَ السَّمَاءِ، قَالَ: وَقَالَتْ عَائِشَةُ: أَنَا الَّتِي نَزَلَ عُذْرِي فِي كِتَابِهِ، حِينَ حَمَلَنِي ابْنُ الْمَعْلُوطِ عَلَى الرَّاحِلَةِ. فَقَالَتْ لَهَا زَيْنَبُ: يَا عَائِشَةُ، مَا قُلْتَ حِينَ رَكَبْتِهَا؟ قَالَتْ: قُلْتُ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنَعَمْ الْوَكِيلُ. قَالَتْ: قُلْتُ كَلِمَةَ الْمُؤْمِنِينَ. وَقَوْلُهُ: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ إِلَيْنَا مَّا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ أي: لكل من تكلم في هذه القضية ورمى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، بِشَيْءٍ مِنَ الْفَاحِشَةِ، نَصِيبٌ عَظِيمٌ مِنَ الْعَذَابِ. ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبَاسُ﴾: قِيلَ: ابْتَدَأَ بِهِ. وَقِيلَ: الَّذِي كَانَ يَجْمَعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ وَيَذِيعُهُ وَيَشِيعُهُ، ﴿لَمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: على ذلك. ثم الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أبي بن سلُول -بحقه الله ولعنه- وهو الذي تقدم النص عليه في الحديث، وقال ذلك مجاهد وغير واحد. وقيل: بل المراد به حسان بن ثابت، وهو قول غريب، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يدل على ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة، فإنه من الصحابة الذين كان لهم فضائل ومناقب ومآثر، وأحسن محاسنه أنه كان يَذَّبُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِشَعْرِهِ، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ: «هاجهم وجبريل معك». وقال الأعمش: عن أبي الضَّحَى، عن مسروق قال: كُنْتُ عِنْدَ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَدَخَلَ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ، فَأَمَرْتُ فَالْتَقَى لَهُ وَسَادَةٌ، فَلَمَّا خَرَجَ قُلْتُ لِعَائِشَةَ: مَا تَصْنَعِينَ بِهَذَا؟ يَعْنِي: يَدْخُلُ عَلَيْكَ -وَفِي

رواية قيل لها: أتأذنين لهذا يدخل عليك، وقد قال الله: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؟ قالت: وأي عذاب أشد من العمی - وكان قد ذهب بصره - لعل الله أن يجعل ذلك هو العذاب العظيم. ثم قالت: إنه كان يُنافخ عن رسول الله ﷺ. وفي رواية أنه أنشدتها عندما دخل عليها شعراً يمتدحها به، فقال:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيْبَةٍ وَتُصْبِحُ غَزْزَى مِنْ لَحُومِ الْغَوَافِلِ
فَقَالَتْ: أما أنت فلست كذلك. وفي رواية: لكنك لست كذلك. وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن قزعة، حدثنا سلمة بن علقمة، حدثنا داود، عن عامر عن عائشة أنها قالت: ما سمعت بشيء أحسن من شعر حسان، ولا تمثلت به إلا رجوت له الجنة، قوله لأبي سفيان - يعني ابن الحارث ابن عبد المطلب :-

هَجَرْتُ مُحَمَّدًا، فَاجِبْتُ عَنْهُ وَعَنْنَدَ اللَّهُ فِي ذَاكَ الْجَزَاءِ
فَلِإِنْ أَبِي وَوَالِدِهِ وَعَرْضِي لِعَرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءِ
أَتَشْتُمُهُ، وَلَسْتُ لَهُ بِكَفٍّ؟ فَشَرَكُمَا لَخَيْرِكُمَا الْفِدَاءِ
لِسَانِي صَارَ لَا عَيْبَ فِيهِ وَيَخْرِي لَا تُكَذِّرُهُ الدَّلَاءِ

فقيل: يا أم المؤمنين، أليس هذا لغوا؟ قالت: لا، إنما اللغو ما قيل عند النساء. قيل: أليس الله يقول: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، قالت: أليس قد أصابه عذاب عظيم؟ أليس قد ذهب بصره وكُتِبَ بالسيف؟ تعني: الضربة التي ضربه إياها صفوان بن المعطل السلمي، حين بلغه عنه أنه يتكلم في ذلك، فعلاه بالسيف، وكاد أن يقتله.

﴿ثَوَلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ أَنْفُسَهُمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴿١٢﴾ ثَوَلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شَهَادَةٍ فَاذَّ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾.

هذا تأديب من الله للمؤمنين في قضية عائشة، رضي الله عنها، حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السيئ، وما ذكر من شأن الإفك، فقال: ﴿ثَوَلَا﴾ بمعنى: هلا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي: ذلك الكلام، أي: الذي رمت به أم المؤمنين ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ أَنْفُسَهُمْ خَيْرًا﴾ أي: قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأخرى. وقد قيل: إنها نزلت في أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته، رضي الله عنهما، كما قال الإمام محمد بن إسحاق بن يسار، عن أبيه، عن بعض رجال بني النجار، أن أبا أيوب خالد بن زيد قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب، أما تسمع ما يقول الناس في عائشة، رضي الله عنها؟ قال: نعم، وذلك الكذب. أكننت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا، والله ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك. قال: فلما نزل القرآن ذكر الله، ﷻ من قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ [النور: ١١]، وذلك حسان وأصحابه، الذين قالوا ما قالوا، ثم قال: ﴿ثَوَلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية، أي: كما قال أبو أيوب وصاحبه. وقال محمد بن عمر الواقدي: حدثني ابن أبي حبيبة، عن داود بن الحصين، عن أبي سفيان، عن أفلح مولى أبي أيوب، أن أم أيوب قالت لأبي أيوب: ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أفكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك؟ قالت: لا والله. قال: فعائشة والله خير منك: فلما نزل القرآن، وذكر أهل الإفك، قال الله، ﷻ: ﴿ثَوَلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ أَنْفُسَهُمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ يعني: أبا أيوب حين قال لأم أيوب ما قال. ويقال: إنما قالها أبي بن كعب. وقوله: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ أَنْفُسَهُمْ خَيْرًا﴾ أي: هلا ظنوا الخير، فإن أم المؤمنين أهله وأولى به، هذا ما يتعلق بالباطن، ﴿وَقَالُوا﴾ أي: بالسنتهم: ﴿هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ أي: كذب ظاهر على أم المؤمنين، فإن الذي وقع لم يكن ريبة، وذلك أن مجيء أم المؤمنين رابية جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة، والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسول الله ﷺ أظهرهم، لو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة، ولا كانا يُقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان يكون هذا - لو قدر - خفية مستورا، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت، والقول الزور، والزعمونة الفاحشة الفاجرة، والصفقة الخاسرة. قال الله تعالى: ﴿ثَوَلَا﴾ أي: هلا ﴿جَاءُوا عَلَيْهِ﴾ أي: على ما قالوه ﴿بِأَرْبَعَةٍ شَهَادَةٍ﴾ يشهدون على صحة ما جاؤوا به، ﴿فَاذَّ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ أي: في حكم الله كذبة فاجرون.

﴿ثَوَلَا فَصَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَخَمَّرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَسْتُ فِي مَا أَفْسَحْتُ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ يَاأَوَّاهُ كَمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيَّا وَهَوَّ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

يقول: الله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أيها الخائفون في شأن عائشة، بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة، ﴿لَمَسَّكَ فِي مَآ أَفْسَرْتُمْ فِيهِ﴾، من قضية الإفك، ﴿عَلَّابٌ عَظِيمٌ﴾. وهذا فيمن عنده إيمان رزقه الله بسببه التوبة إليه، كسسطح، وحسان، وحمنة بنت جحش، أخت زينب بنت جحش. فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي بن سلول وأضرابه، فليس أولئك مرادين في هذه الآية؛ لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه. وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين، يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة، أو ما يقابله من عمل صالح يوازئه أو يرجح عليه. ثم قال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾: قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة: أي: يرويه بعضكم عن بعض، يقول هذا: سمعته من فلان، وقال فلان كذا، وذكر بعضهم كذا. وقرأ آخرون ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسُّنَنِ﴾. وفي صحيح البخاري عن عائشة: أنها كانت تقرأها كذلك. وتقول: هو من وَلَقِيَ القول. يعني: الكذب الذي يستمر صاحبه عليه، تقول العرب: وَلَقِيَ فلان في السير: إذا استمر فيه. والقراءة الأولى أشهر، وعليها الجمهور، ولكن الثانية مَرْوِيَّة عن أم المؤمنين عائشة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن نافع بن عمر، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة أنها كانت تقرأ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾، وتقول: إنما هو وَلَقِيَ القول - والْوَلَقُ: الكذب. قال ابن أبي مليكة: هي أعلم به من غيرها.

وقوله: ﴿وَتَقُولُونَ مَا يَأْتِيهِكُمْ مَّا يَكُنْ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: تقولون ما لا تعلمون. ثم قال تعالى: ﴿وَتَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أي: تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين، وتحسبون ذلك سيراً سهلاً، ولولم تكن زوجة النبي ﷺ لما كان هيناً، فكيف وهي زوجة النبي الأمي، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، فعظيم عند الله أن يقال في زوجة رسوله ما قيل! الله يغار لهذا، وهو سبحانه وتعالى، لا يُقَدَّر على زوجة نبي من أنبيائه ذلك، حاشا وكلا، ولما لم يكن ذلك، فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء، وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة؟! ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾، وفي الصحيحين: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يدرى ما تَبْلُغُ، يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض». وفي رواية: «لا يلقى لها بالا».

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُدُّوا لِيُنِيلَهُ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَيَسِّرُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

هذا تأديب آخر بعد الأول: الأمر بالظن خيراً، أي إذا ذكر ما لا يليق من القول في شأن الخيرة، فأولى ينبغي الظن بهم خيراً، ولا يشعر نفسه سوى ذلك، ثم إن علق بنفسه شيء من ذلك - وسوسة أو خيالاً - فلا ينبغي أن يتكلم به، فإن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها، ما لم تقل أو تعمل». أخرجاه في الصحيحين. وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ أي: ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ أي: سبحانه الله أن يقال هذا الكلام على زوجة نبيه ورسوله وحليلة خليله. ثم قال تعالى: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُدُّوا لِيُنِيلَهُ أَبَدًا﴾ أي: ينهاكم الله متوعداً أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً، أي: فيما يستقبل. فلهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه، وتعظمون رسوله ﷺ، فأما من كان متصفاً بالكفر فذاك له حكم آخر. ثم قال: ﴿وَيَسِّرُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ أي: يوضح لكم الأحكام الشرعية والحكم القدريّة، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي عليم بما يصلح عباده، حكيم في شرعه وقدره.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الْأَيَّامِ أَمْثَلُهُمْ عَذَابُ آلِمٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. وهذا تأديب ثالث لمن سمع شيئاً من الكلام السيئ، فقام بذنه منه شيء، وتكلم به، فلا يكثر منه ويشيعه ويذيعه، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الْأَيَّامِ أَمْثَلُهُمْ عَذَابُ آلِمٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، أي: بالحد، وفي الآخرة بالعذاب، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: فردوا الأمور إليه ترضدوا. وقال الإمام أحمد، حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون بن أبي محمد المرثي، حدثنا محمد بن عباد المخزومي، عن ثوبان، عن النبي ﷺ قال: «لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم، ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم، طلب الله عورته، حتى يفضحه في بيته».

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَةِ وَالنَّكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ لَدُنْ لَدُنْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي: لولا هذا لكان أمر آخر، ولكنه تعالى رؤوف

عباده، رحيم بهم. فتاب على من تاب إليه من هذه القضية، وظهر من ظهر منهم بالحد الذي أقيم عليه. ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ يعني: طرائقه ومسالكه وما يأمر به، ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَى وَالنَّكَرِ﴾: هذا تنفير وتحذير من ذلك، بأفصح العبارة وأوجزها وأبلغها وأحسنها. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ عمله. وقال عكرمة: نزغاته. وقال قتادة: كل معصية فهي من خطوات الشيطان. وقال أبو مجلز: النذور في المعاصي من خطوات الشيطان. وقال مسروق: سأل رجل ابن مسعود فقال: إني حرمت أن أكل طعاماً؟ فقال: هذا من نزغات الشيطان، كفر عنيمينك، وكل. وقال الشعبي في رجل نذر ذبح ولده: هذا من نزغات الشيطان، وأفتاه أن يذبح كبشاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حسان بن عبد الله المصري، حدثنا الشُّرَيُّ بن يحيى، عن سلمان التيمي، عن أبي رافع قال: غضبت على امرأتي فقالت: هي يوماً يهودية، ويوماً نصرانية، وكل مملوك لها حر، إن لم تطلق امرأتك. فأتيت عبد الله بن عمر فقال: إنما هذه من نزغات الشيطان. وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة، وهي يومئذ أمة امرأة بالمدينة، وأتيت عاصم بن عمر، فقال مثل ذلك. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي: لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه، ويزكي النفوس من شركها وفجورها ودسها وما فيها من أخلاق رديئة، كل بحسبه، لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيراً، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ أي: من خلقه، ويضل من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغي. وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع لأقوال عباده، ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم، من يستحق منهم الهدى والضلال.

﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ أُولُو الْأَلْفِافِ الْفَضْلَ يَنْكَرُ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْلَمُوا وَلَيَشْعُرُوا أَلَّا يَحْسَبُونَ أَنَّ غَفْرَ اللَّهِ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ﴾ من الآئنة، وهي: الحلف، أي: لا يحلف ﴿أُولُو الْأَلْفِافِ يَنْكَرُ﴾ أي: الطول والصدقة والإحسان ﴿وَالسَّعَةِ﴾ أي: الجدة، ﴿أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: لا تحلفوا إلا تصلوا قراياتكم المساكين والمهاجرين. وهذه في غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام؛ ولهذا قال: ﴿وَلْيَعْلَمُوا وَلَيَشْعُرُوا﴾ أي: عما تقدم منهم من الإساءة والأذى، وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقهم مع ظلمهم لأنفسهم. وهذه الآية نزلت في الصديق، حين حلف ألا ينفع مسطح بن أثانة بنافعة بعدما قال في عائشة ما قال، كما تقدم في الحديث. فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأقيم الحد على من أقيم عليه - شرع تبارك وتعالى، وله الفضل والمنة، يعطف الصديق على قريبه ونسيبه، وهو مسطح بن أثانة، فإنه كان ابن خالة الصديق، وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر، رضي الله عنه، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد وثق وثقة تاب الله عليه منها، وضرب الحد عليها. وكان الصديق، رضي الله عنه، معروفاً بالمعروف، له الفضل والأيدى على الأقارب والأجانب. فلما نزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿أَلَّا يَحْسَبُونَ أَنَّ غَفْرَ اللَّهِ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، أي: فإن الجزء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك تغفر لك، وكما تصفح نصفحك عنك. فعند ذلك قال الصديق: بلى، والله إنا نحب - يا ربنا - أن تغفر لنا. ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً، في مقابلة ما كان قال: والله لا أنفعه بنافعة أبداً، فلماذا كان الصديق هو الصديق رضي الله عنه وعن بته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ أَتَيْنَاهُمُ الْأَيَّاتِ وَالْآخِرَةِ وَلَكُمُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٢) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ الْبُيُوتُ عَنْهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَلَمَّهُمْ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (٢٤).

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات - خُرج مخرج الغالب - المؤمنات. فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة، ولا سيما التي كانت سبب النزول، وهي عائشة بنت الصديق، رضي الله عنهما. وقد أجمع العلماء، رحمهم الله، قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورمأها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية، فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن. وفي بقية أمهات المؤمنين قولان: أصحهما أنهن كهي، والله أعلم. وقوله: ﴿لَعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَكُمُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً﴾ (٥٧) [الأحزاب: ٥٧]. وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبد الله بن خراش، عن العوام، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ أَتَيْنَاهُمُ الْأَيَّاتِ وَالْآخِرَةِ وَلَكُمُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال: نزلت في عائشة خاصة. وكذا قال سعيد بن جبیر ومقاتل بن حيان، وقد ذكره ابن جرير عن عائشة فقال: حدثنا أحمد بن عتبة الضبي، حدثنا أبو عوانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه قال: قالت عائشة: رُميت بما رميت به وأنا غافلة، فبلغني بعد ذلك. قالت: فبينما رسول الله ﷺ جالس عندي، إذ أوحى إليه.

قالت: وكان إذا أوحى إليه أخذه كهيئة الشُّبَاب، وإنه أوحى إليه وهو جالس عندي، ثم استوى جالساً يمسح على وجهه، وقال: «يا عائشة، أبري». قالت: قلت: بحمد الله لا بحمدك. فقرا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاحِشَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾، حتى قرأ: ﴿أُولَئِكَ مَرْءُونَ وَمَا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦]. هكذا أوردته، وليس فيه أن الحكم خاص بها، وإنما فيه أنها سبب النزول دون غيرها، وإن كان الحكم يعمها كغيرها، ولعله مراد ابن عباس ومن قال كقوله، والله أعلم. وقال الضحاك، وأبو الجوزاء، وسلمة بن نُبَيْط: المراد بها أزواج النبي خاصة، دون غيرهن من النساء. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاحِشَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية: يعني أزواج النبي ﷺ، رماهن أهل النفاق، فأوجب الله لهم اللعنة والغضب، وباؤوا بسخط من الله، فكان ذلك في أزواج النبي ﷺ ثم نزل بعد ذلك: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَدْرِمَةٍ مُّثَلِّةٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فأنزل الله الجلد والتوبة، فالتوبة تقبل، والشهادة تُرد.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا هُثَيْم، أخبرنا العوام بن حوشب، عن شيخ من بني أسد، عن ابن عباس - قال: فسر سورة النور، فلما أتى على هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاحِشَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية - قال: في شأن عائشة، وأزواج النبي ﷺ، وهي مبهمة، وليست لهم توبة، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَدْرِمَةٍ مُّثَلِّةٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا﴾ الآية [النور: ٤، ٥]، قال: فجعل لهؤلاء توبة، ولم يجعل لمن قذف أولئك توبة، قال: فهم بعض القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه، من حسن ما فسر به سورة النور. فقله: «وهي مبهمة»، أي: عامة في تحريم قذف كل محصنة، ولعنته في الدنيا والآخرة. وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذا في عائشة، ومن صنع مثل هذا أيضاً اليوم في المسلمات، فله ما قال الله، ﷻ، ولكن عائشة كانت إمام ذلك. وقد اختار ابن جرير عمومها، وهو الصحيح، ويعضد العموم ما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن - ابن أخي ابن وهب - حدثنا عمي، حدثنا سليمان بن بلال، عن ثور بن زيد، عن أبي الغيث، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات». قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل ما يتييم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». أخرجاه في الصحيحين، من حديث سليمان بن بلال، به.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عمرو بن خالد الحذاء الحراني، حدثني أبي، (ح) وحدثنا أبو شعيب الحراني، حدثنا جدي أحمد بن أبي شعيب، حدثنا موسى بن أعين، عن ليث، عن أبي إسحاق، عن صلة بن زُفَر، عن حذيفة، عن النبي ﷺ قال: «قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة». وقوله: ﴿يَوْمَ تَنْهَضُ عَلَيْهِمُ أَلْيَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٢٢]، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو يحيى الرازي، عن عمرو بن أبي قيس، عن مُطَرَف، عن المنهال، عن سعيد بن جبَّير، عن ابن عباس قال: إنهم - يعني: المشركين - إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، قالوا: تعالوا حتى نجحد. فيجحدوا فيختم الله على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم، ولا يكتُمون الله حديثاً. وقال ابن جرير، وابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن دُرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة، عُرف الكافر بعمله، فيجحد ويخاصم، فيقال له: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك. فيقول: كذبوا. فيقول: أهلك وعشيرتك. فيقول: كذبوا، فيقول: احلفوا. فيحلفون، ثم يُصمَّتهم الله، فتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم، ثم يدخلهم النار». وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبو شيبه إبراهيم بن عبد الله بن أبي شيبه الكوفي، حدثنا مُنْجَاب بن الحارث التميمي، حدثنا أبو عامر الأسدي، حدثنا سفيان، عن عبيد المُكْتَب، عن قُضَيْل بن عمرو الفُتَيْمي، عن الشعبي، عن أنس بن مالك قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: «أتدرون مم أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: يا رب، ألم تُجزني من الظلم؟ فيقول: بلى. فيقول: لا أجز عليّ شاهداً إلا من نفسي. فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام عليك شهدوا. فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتطلق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعداً لَكُنْ وسُخْفاً، فنعنُّ كُنْ أناضل». وقد رواه مسلم والنسائي جميعاً، عن أبي بكر بن أبي النضر، عن أبيه، عن عُبيد الله الأشجعي، عن سفيان الثوري، به. ثم قال النسائي: لا أعلم أحداً روى هذا الحديث عن سفيان الثوري غير الأشجعي، وهو حديث غريب، والله أعلم. هكذا قال. وقال قتادة: ابن آدم، والله إن عليك لشهوداً غير متهمه في بدنك، فراقبهم واتق الله في شرك وعلايتك، فإنه لا يخفى عليه خافية، الظلمة عنده ضوء، والسر عنده علانية، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن، فليفعل ولا قوة إلا بالله. وقوله: ﴿يَوْمَ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ ذِيَهُمْ أَلْحَقٌ﴾، قال ابن عباس: ﴿وِيَهُمْ﴾ أي: حسابهم، وكل ما في القرآن ﴿وِيَهُمْ﴾ أي: حسابهم. وكذا قال غير واحد. ثم إن قراءة

الجمهور بنصب ﴿الْحَقُّ﴾ على أنه صفة لدينهم، وقرأ مجاهد بالرفع، على أنه نعت الجلالة. وقرأها بعض السلف في مصحف أبي بن كعب: «يومئذ يوفيه الله الحق دينهم». وقوله: ﴿وَيَسْمَعُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْقَائِمُ﴾ أي: وعده ووعيدته وحسابه هو العدل، الذي لا جور فيه.

﴿لَقَدْ بَيَّنَّتُ لِلْخَيْرِينَ وَالْخَيْرِثُونَ لِلْخَيْرِينَ وَالْطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبِينَ أُولَئِكَ مَرْغُوبٌ وَمِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

قال ابن عباس: الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول. والطيبات من القول، للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من القول. قال: ونزلت في عائشة وأهل الإفك. وهكذا روي عن مجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، والشعبي، والحسن بن أبي الحسن البصري، وحبيب بن أبي ثابت، والضحاك. واختاره ابن جرير، ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس، فما نسبته أهل النفاق إلى عائشة هم أولى به، وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم؛ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ مَرْغُوبٌ وَمِمَّا يَقُولُونَ﴾. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء. وهذا - أيضاً - يرجع إلى ما قاله أولئك باللائم، أي: ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة؛ لأنه أطيب من كل طيب من البشر، ولو كانت خبيثة لما صلحت له، لا شرعاً ولا قدراً؛ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ مَرْغُوبٌ وَمِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: هم بعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي: بسبب ما قيل فيهم من الكذب، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: عند الله في جنات النعيم. وفيه وعد بأن تكون زوجة النبي ﷺ في الجنة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن مسلم، حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن يزيد بن عبد الرحمن، عن الحكم، عن يحيى بن الجزار قال: جاء أسير بن جابر إلى عبد الله فقال: لقد سمعت الوليد بن عقبة اليوم تكلم بكلام أعجبني. فقال: عبد الله: إن الرجل المؤمن يكون في قلبه الكلمة الطيبة تتجلجل في صدره ما تستقر حتى يلفظها، فيسمعها رجل عنده يثقلها فيضعها إليه. وإن الرجل الفاجر يكون في قلبه الكلمة الطيبة تتجلجل في صدره ما تستقر حتى يلفظها، فيسمعها الرجل الذي عنده يثقلها فيضعها إليه، ثم قرأ عبد الله: ﴿لَقَدْ بَيَّنَّتُ لِلْخَيْرِينَ وَالْخَيْرِثُونَ لِلْخَيْرِينَ وَالطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبِينَ﴾. وبشبه هذا ما رواه الإمام أحمد في المسند مرفوعاً: «مثل الذي يسمع الحكمة ثم لا يحدث إلا بشر ما سمع، كمثل رجل جاء إلى صاحب غنم، فقال: أجزرني شاة. فقال: اذهب فخذ بأذن أيها شئت. فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم». وفي الحديث الآخر: «الحكمة ضالة المؤمن، حيث وجدها أخذها».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ غَيْرِ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُذَكَّرُونَ﴾ (٢٦) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ تَرْتَدَّوْنَ فَلَا تَرْجِعُوا فِيهَا مُقَدِّمِينَ وَلَا مُخْتَلِفِينَ وَأَنْتُمْ خَارِجُونَ فِيهَا فَتَطْهَرُوا فَإِنْ تَسَاءَلْتُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا فَيُخْبَرَكُمْ عَنْهُ يُخْبَرُ وَأَنْتُمْ سَامِعُونَ﴾ (٢٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتَ غَيْرِ سَكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٨).

هذه آداب شرعية، أذب الله بها عباده المؤمنين، وذلك في الاستئذان، وأمر الله المؤمنين ألا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأمنوا، أي: يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده. وينبغي أن يستأذن ثلاثاً، فإن أذن له، وإلا انصرف، كما ثبت في الصحيح: أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً، فلم يؤذن له، انصرف. ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له. فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما رجعت؟ قال: إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً، فلم يؤذن له، فليانصرف». فقال: لتأتين على هذا بيينة وإلا أوجعتك ضرباً. فذهب إلا ملا من الأنصار، فذكر لهم ما قال عمر، فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا. فقام معه أبو سعيد الخدري فأخبر عمر بذلك، فقال: أللهاني عنه الصَّفْقُ بالأسواق. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن ثابت، عن أنس - أو: غيره - أن رسول الله ﷺ استأذن على سعد بن عبادَةَ فقال: «السلام عليك ورحمة الله». فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله ولم يسمع النبي ﷺ حتى سلم ثلاثاً. ورد عليه سعد ثلاثاً ولم يُسمعه. فرجع النبي ﷺ، واتبعه سعد فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما سلمت تسليمة إلا وهي بأذني، ولقد ردَّدْتُ عليك ولم أسمعك، وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة. ثم أدخله البيت، فقرَّبَ إليه زبيباً، فأكل نبي الله. فلما فرغ قال: «أكل طعامكم الأبرار، وصَلَّتْ عليكم الملائكة، وأفطر عندكم الصائمون».

وقد روى أبو داود والنسائي، من حديث أبي عمرو الأوزاعي: سمعت يحيى بن أبي كثير يقول: حدثني محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة، عن قيس بن سعد - هو ابن عبادَةَ - قال: زارنا رسول الله ﷺ في منزلنا، فقال: «السلام عليكم

ورحمة الله»، فرد سعد رداً خفيفاً، قال قيس: فقلت ألا تأذن لرسول الله ﷺ؟ فقال: ذره يكثر علينا من السلام. فقال رسول الله ﷺ: «السلام عليكم ورحمة الله»، ثم قال رسول الله ﷺ: «السلام عليكم ورحمة الله»، ثم رجع رسول الله ﷺ، واتبعه سعد فقال: يا رسول الله، إني كنت أسمع تسليمك، وأرد عليك رداً خفيفاً، لتكثر علينا من السلام. قال: فانصرف معه رسول الله ﷺ، فأمر له سعد بغسل، فاغتسل، ثم ناوله ملخفاً مصبوغاً بزعفران - أو: ورس - فاشتعل بها، ثم رفع رسول الله ﷺ يديه وهو يقول: «اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عباد». قال: ثم أصاب رسول الله ﷺ من الطعام، فلما أراد الانصراف قَرَّبَ إليه سعد حماراً وطأ عليه بقطيفة، فركب رسول الله ﷺ، فقال سعد: يا قيس، اصحب رسول الله ﷺ. قال قيس: فقال رسول الله ﷺ: «اركب». فأبيت، فقال: «إما أن تركب وإما أن تنصرف». قال: فانصرفت. وقد روى هذا من وجه آخر، فهو حديث جيد قوي، والله أعلم. ثم لِيُعلم أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل ألا يقف تلقاء الباب بوجهه، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره؛ لما رواه أبو داود: حدثنا مؤمل بن الفضل الحراني - في آخرين - قالوا: حدثنا بَقِيَّة، حدثنا محمد بن عبد الرحمن، عن عبد الله بن بسر، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم، لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: «السلام عليكم، السلام عليكم». وذلك أن الدور لم يكن عليها يؤمنذ ستور. تفرد به أبو داود. وقال أبو داود أيضاً: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، (ح) قال أبو داود: وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا حفص، عن الأعمش، عن طلحة، عن هُزَيْل قال: جاء رجل - قال عثمان: سعد - فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن، فقام على الباب - قال عثمان: مستقبل الباب - فقال له النبي ﷺ: «هكذا عنك - أو: هكذا - فإنما الاستئذان من النظر». وقد رواه أبو داود الطيالسي، عن سفيان الثوري، عن الأعمش، عن طلحة بن مُصَرِّف، عن رجل، عن سعد عن النبي ﷺ. رواه أبو داود من حديثه.

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن امرأاً اطلع عليك بغير إذن فخذفته بحصاة، ففقت عينه، ما كان عليك من جُنَاح». وأخرج الجماعة من حديث شعبة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: أتيت النبي ﷺ في دين كان على أبي، فدفقت الباب، فقال: «من ذا؟» قلت: أنا. قال: «أنا، أنا، كأنه كرهه. وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يُعرف صاحبها حتى يُفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها، وإلا، فكل أحد يُعبر عن نفسه بـ «أنا»، فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان، الذي هو الاستئناس بالمأمور به في الآية. وقال العوفي، عن ابن عباس: الاستئناس: الاستئذان. وكذا قال غير واحد. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا﴾ قال: إنما هي خطأ من الكاتب، «حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا». وهكذا رواه هُشَيْم عن أبي بشر - وهو جعفر بن إياس - به. وروى معاذ بن سليمان، عن جعفر بن إياس، عن سعيد، عن ابن عباس، بمثله، وزاد: وكان ابن عباس يقرأ: «حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا»، وكان يقرأ على قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه. وهذا غريب جداً عن ابن عباس. وقال هُشَيْم: أخبرنا مغيرة، عن إبراهيم قال: في مصحف ابن مسعود: «حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا». وهذا أيضاً رواية عن ابن عباس، وهو اختيار ابن جرير.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا زَوْح، حدثنا ابن جُرَيْج، أخبرني عمرو بن أبي سفيان: أن عمرو بن أبي صفوان أخبره، أن كَلْدَةَ بن الحنبل أخبره، أن صفوان بن أمية بعثه في الفتح بلداً وجداً وضغائيس، والنبي ﷺ بأعلى الوادي. قال: فدخلت عليه ولم أسلم ولم أستأذن، فقال النبي ﷺ: «ارجع فقل: السلام عليكم، أَدْخِلْ؟»، وذلك بعدما أسلم صفوان. ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث ابن جريج، به. وقال الترمذي: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديثه. وقال أبو داود: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو الأحوص، عن منصور، عن ربعي قال: حدثنا رجل من بني عامر استأذن على النبي ﷺ، وهو في بيته، فقال: أَلِج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: «اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان، فقل له: قل: السلام عليكم، أَدْخِلْ؟» فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم، أَدْخِلْ؟ فأذن له النبي ﷺ، فدخل. وقال هُشَيْم: أخبرنا منصور، عن ابن سيرين - وأخبرنا يونس بن عبيد، عن عمرو بن سعيد الثقفي - أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال: أَلِج - أو: أنلج؟ - فقال النبي ﷺ لأمة له، يقال لها روضة: «قومي إلى هذا فعلميه، فإنه لا يحسن يستأذن، فقول له يقول: السلام عليكم أَدْخِلْ». فسمعها الرجل، فقالها، فقال: «ادْخُلْ». وقال الترمذي: حدثنا الفضل بن الصباح، حدثنا سعيد بن زكريا، عن عَنَسَةَ بن عبد الرحمن، عن محمد بن زاذان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «السلام قبل الكلام». ثم قال الترمذي: عنسة ضعيف الحديث ذاهب، ومحمد بن زاذان مُنْكَر الحديث. وقال هُشَيْم: قال مغيرة: قال مجاهد: جاء ابن

عمر من حاجة، وقد آذاه الرضا، فأتى قسطنطام امرأة من قریش، فقال: السلام عليكم، أأدخل؟ قالت: ادخل بسلام. فأعاد، فأعاد، وهو يُروى بين قدميه، قال: قولي: ادخل. قالت: ادخل، فدخل.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو نعيم الأحول، حدثنا خالد بن إياس، حدثني جدي أم إياس قالت: كنت في أربع نسوة نستأذن على عائشة فقلت: ندخل؟ قالت: لا، قلن لصاحبتكم: تستأذن. فقالت: السلام عليكم، أندخل؟ قالت: ادخلوا، ثم قالت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُكَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ الآية. وقال هشيم: أخبرنا أشعث بن سوار، عن كُرْدُوس، عن ابن مسعود قال: عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم. قال أشعث، عن عدي بن ثابت، إن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله، إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني أحد عليها، والد ولا ولد، وإنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي، وأنا على تلك الحال؟ قال: فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُكَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾. وقال ابن جريج: سمعت عطاء بن أبي رباح يخبر عن ابن عباس، رضي الله عنه، قال: ثلاث آيات جحدتها الناس: قال الله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، قال: ويقولون: إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتاً. قال: والإذن كله قد جحدته الناس. قال: قلت: أستأذن على أخواتي أيتام في حجري، معي في بيت واحد؟ قال: نعم. فرددت ليرخص لي، فأبى. قال: تحب أن تراها عريانة؟ قلت: لا. قال: فاستأذن. قال: فراجعتهم أيضاً، فقال: أتحب أن تطيع الله؟ قلت: نعم. قال: فاستأذن. قال ابن جريج: وأخبرني ابن طائوس عن أبيه قال: ما من امرأة أكره إلي أن أرى عريتها من ذات محرم. قال: وكان يشدد في ذلك. وقال ابن جريج، عن الزهري: سمعت هزيل بن شرحبيل الأودي الأعمى، أنه سمع ابن مسعود يقول: عليكم الإذن على أمهاتكم. وقال ابن جريج: قلت لعطاء: أستأذن الرجل على امرأته؟ قال: لا. وهذا محمول على عدم الوجوب، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا القاسم، قال حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن حازم، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن يحيى بن الجزار، عن ابن أخي زينب - امرأة عبد الله بن مسعود - عن زينب، رضي الله عنها، كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهمى إلى الباب، تنتحنج وبزق، كراهية أن يهجم منا على أمر يكرهه. إسناده صحيح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي هُبَيْرَةَ قال: كان عبد الله إذا دخل الدار استأنس - تكلم ورفع صوته. وقال مجاهد: ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ قال: تنتحنجوا - أو: تَنَحَّمُوا. وعن الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله، أنه قال: إذا دخل الرجل بيته، استحجب له أن ينتحنج، أو يحرك نعليه. ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً - وفي رواية: ليلاً يتخونهم. وفي الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ تقدم المدينة نهراً، فأنافح بظاهرها، وقال: «انتظروا حتى تدخل عشاء - يعني: آخر النهار - حتى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة».

وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبي، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عبد الرحمن بن سليمان، عن واصل بن السائب، حدثني أبو سورة ابن أخي أبي أيوب، عن أبي أيوب قال: قلت: يا رسول الله، هذا السلام، فما الاستئناس؟ قال: «يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتمجيدة، ويتنحج فيؤذن أهل البيت». هذا حديث غريب. وقال قتادة في قوله: ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ قال: هو الاستئذان. قال: وكان يقال: الاستئذان ثلاث، فمن لم يؤذن له فيهن، فليرجع. أما الأولى: فليسمع الحي، وأما الثانية: فليأخذوا حذرهم، وأما الثالثة: فإن شأوا أذنوا وإن شأوا ردوا. ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم؛ فإن للناس حاجات ولهم أشغال، والله أولى بالعذر. وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُكَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه، لا يسلم عليه، ويقول: حُيِّت صباحاً وحييت مساءً، وكان ذلك تحية القوم بينهم. وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم، ويقول: قد دخلت. فيشق ذلك على الرجل، ولعله يكون مع أهله، فغير الله ذلك كله، في ستر وعفة، وجعله نقياً نزهاً من الدنس والقذر والدرن، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُكَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾. وهذا الذي قاله مقاتل حسن، ولهذا قال: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني: الاستئذان خير لكم، بمعنى: هو خير للطرفين: للمستأذن ولأهل البيت، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. وقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ وذلك لما فيه من التصرف في ملك الغير بغير إذنه، فإن شاء أذن، وإن شاء لم يأذن ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آتِجُوا فَاتِجُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ أي: إذا ردوك من الباب قبل الإذن أو بعده، ﴿فَاتِجُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ أي: رجوعكم أزكى لكم وأطهر، ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَمَلُّونَ عَلَيْهِ﴾ وقال قتادة: قال بعض المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها: أن أستأذن على بعض إخواني، فيقول لي: «ارجع»، فأرجع وأنا مغتبط لقوله: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آتِجُوا فَاتِجُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا

تَمَلُّوْنَ عَلَيْهِ. وقال سعيد بن جبیر: ﴿وَأَن قِيلَ لَكُمْ أَرَجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ أي: لا تقفوا على أبواب الناس. وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُدْرِكُونَ وَمَا تَكْشُرُونَ﴾ (٢٦): هذه الآية الكريمة أحص من التي قبلها، وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد، إذا كان له فيها متاع، بغير إذن، كالبيت المعد للضيف، إذا أذن له فيه أول مرة، كفى. قال ابن جريج: قال ابن عباس: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾، ثم نسخ واستثنى فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾. وكذا روي عن عكرمة، والحسن البصري. وقال آخرون: هي بيوت التجار، كالحانات، ومنازل الأسفار، وبيوت مكة، وغير ذلك. واختار ذلك ابن جرير، وحكاه عن جماعة. والأول أظهر، والله أعلم.

وقال مالك عن زيد بن أسلم: هي بيوت الشعير.

﴿قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَنْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٢٧).

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على مُحَرَّمٍ من غير قصد، فليصرف بصره عنه سريعاً، كما رواه مسلم في صحيحه، من حديث يونس بن عبيد، عن عمرو بن سعيد، عن أبي رزقة بن عمرو بن جرير، عن جده جرير بن عبد الله البجلي، رضي الله عنه، قال: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة، فأمرني أن أصرف بصري. وكذا رواه الإمام أحمد، عن هُثَيْم، عن يونس بن عبيد، به. ورواه أبو داود والترمذي والنسائي، من حديثه أيضاً. وقال الترمذي: حسن صحيح. وفي رواية لبعضهم: فقال: «أطرق بصرك»، يعني: انظر إلى الأرض. والصرف أعم؛ فإنه قد يكون إلى الأرض، وإلى جهة أخرى، والله أعلم. وقال أبو داود: حدثنا إسماعيل بن موسى الفزاري، حدثنا شريك، عن أبي ربيعة الإيادي، عن عبد الله بن يزيد، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا علي، لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة». ورواه الترمذي من حديث شريك، وقال: غريب، لا نعرفه إلا من حديثه. وفي الصحيح عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والجلوس على الطرقات» قالوا: يا رسول الله، لا بد لنا من مجالسنا، نتحدث فيها. فقال رسول الله ﷺ: «إن أبيتم، فأعطوا الطريق حقاً». قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر». وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا طالوت بن عباد، حدثنا فضل بن جبیر: سمعت أبا أمامة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اكفوا لي بست أكل لكم بالجنة: إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا أوتن فلا يخن، وإذا وعد فلا يخلف. وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم، واحفظوا فروجكم». وفي صحيح البخاري: «من يكفل لي ما بين لحييه وما بين رجليه، أكفل له الجنة». وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن أيوب، عن ابن سيرين، عن عبيدة قال: كل ما غصي الله به، فهو كبيرة. وقد ذكر الطرفين فقال: ﴿قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَنْصَارِهِمْ﴾. ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب، كما قال بعض السلف: «النظر سهام سم إلى القلب»، ولذلك أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك، فقال: ﴿قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَنْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾. وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ (٢٨) إلا على أزواجه أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين (٢٩) [المعارج: ٢٩، ٣٠] وتارة يكون بحفظه من النظر إليه، كما جاء في الحديث في مسند أحمد والسنن: «احفظ عورتك، إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك». ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ أي: أظهر لقلوبهم وأنقى لدينهم، كما قيل: «من حفظ بصره، أوره الله نوراً في بصيرته». وروى: «في قلبه».

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عتاب، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة أول مرة، ثم يغض بصره، إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها». وروي هذا مرفوعاً عن ابن عمر، وحذيفة، وعائشة، رضي الله عنهم، ولكن في إسناده ضعف، إلا أنها في الترغيب، ومثله يتسامح فيه. وفي الطبراني من طريق عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة مرفوعاً: «التغضن أبصاركم، ولتحفظن فروجكم، ولتقيمن وجوهكم - أو: لتكسفن وجوهكم». وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن زهير الشُّشْرِيُّ قال: قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضرير المقرئ، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا هُرَيم بن سفيان، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم، من تركه مخافتي، أبدلت إيماناً يجد حلاوته في قلبه». وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (٢٩) [غافر: ١٩]. وفي الصحيح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب على ابن آدم حظ من الزنا، أدرك ذلك لا محالة».

فزنا العينين: النظر. وزنا اللسان: النطق. وزنا الأذنين: الاستماع. وزنا اليدين: البطش. وزنا الرجلين: الخطى. والنفس تمتى وتشتهي، والفرج يُصدّق ذلك أو يكذبه. رواه البخاري تعليقاً، ومسلم مسنداً من وجه آخر، بنحو ما تقدم. وقد قال كثير من السلف: إنهم كانوا يهونون أن يحد الرجل بصره إلى الأمرد. وقد شدد كثير من أئمة الصوفية في ذلك، وحرّمه طائفة من أهل العلم، لما فيه من الافتتان، وشدّد آخرون في ذلك كثيراً جداً. وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا أبو سعيد المدني، حدثنا عمر بن سهل المازني، حدثني عمر بن محمد بن ضُبَّان، حدثني صفوان بن سليم، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عين باكية يوم القيامة، إلا عيناً غَضَّتْ عن محارم الله، وعيناً سهرت في سبيل الله، وعيناً يخرج منها مثل رأس الذباب، من خشية الله، ﷻ».

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَتَّقُضْنَ مِنْ أَنْصُرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوَاتِقِ أَلْسِنَةٍ وَلَا يُصْرِقْنَ وَأَرْمِلُهُنَّ يَعْلَمْنَ مَا يَتَّقِينَ مِنَ زِينَتِهِنَّ وَتُؤَيِّرْنَ إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً إِنَّهُ السَّمُّوعُ السَّمِيعُ ﴿٣١﴾﴾.

هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات، وغيره منه لأزواجهن، عباده المؤمنين، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات. وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان قال: بلغنا - والله أعلم - أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدث: أن أسماء بنت مُرْسَدَةَ كانت في محل لها في بني حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير مُتَأَذَّرات فيبدو ما في أرجلهن من الخلاخل، وتبدو صدورهن وذوائبهن، فقالت أسماء: ما أفتيح هذا. فأنزل الله: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَتَّقُضْنَ مِنْ أَنْصُرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ الآية. فقله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَتَّقُضْنَ مِنْ أَنْصُرِهِنَّ﴾ أي: عما حرّم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن. ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه: لا يجوز للمرأة أن تنظر إلى الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلاً. واحتج كثير منهم بما رواه أبو داود والترمذي، من حديث الزهري، عن نبهان - مولى أم سلمة - أنه حدث: أن أم سلمة حدثته: أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة، قالت: فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم، فدخل عليه، وذلك بعدما أمرنا بالحجاب، فقال رسول الله ﷺ: «احتجبا منه». فقلت: يا رسول الله، اليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أو عَمِيَاوَانِ أَمْتَا؟ أَلَسْتَا تَبْصِرَانِ». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة، كما ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد، وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من وراءه: وهو يسترها منهم حتى ملّت ورجعت.

وقوله: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾: قال سعيد بن جبّير: عن الفواحش. وقال قتادة وسفيان: عما لا يحل لهن. وقال مقاتل: عن الزنا. وقال أبو العالية: كل آية أنزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج، فهو من الزنا، إلا هذه الآية: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ ألا يراها أحد. وقال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: ولا يُظْهَرْنَ شيئاً من الزينة للأجانب، إلا ما لا يمكن إخفاؤه. وقال ابن مسعود: كالرداء والثياب: يعني: على ما كان يتعاناها نساء العرب، من المقنعة التي تُجَلُّ ثيابها، وما يبدو من أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه؛ لأن هذا لا يمكن إخفاؤه. ونظيره في زي النساء ما يظهر من إزارها، وما لا يمكن إخفاؤه. وقال بقول ابن مسعود: الحسن، وابن سيرين، وأبو الجوزاء، وإبراهيم التَّخَمِي، وغيرهم. وقال الأعمش، عن سعيد بن جبّير، عن ابن عباس: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: وجهها وكفيها والخاتم. وروى عن ابن عمر، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن جبّير، وأبي الشعثاء، والضحاك، وإبراهيم التَّخَمِي، وغيرهم - نحو ذلك. وهذا يحتمل أن يكون تفسيراً للزينة التي نهين عن إبدائها، كما قال أبو إسحاق السَّبَّيحي، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾: الزينة القُرْطُ والمُزَلَّجُ والخلاخل والقلادة. وفي رواية عنه بهذا الإسناد قال: الزينة زينتتان: فزينة لا يراها إلا الزوج: الخاتم والسوار، وزينة يراها الأجانب، وهي الظاهر من الثياب. وقال الزهري: لا يبدو لهؤلاء الذين سمى الله ممن لا تحل له إلا الأسورة والأخمرة والأقربة من غير حسر، وأما عامة الناس فلا يبدو منها إلا الخواتم. وقال مالك، عن الزهري: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: الخاتم والخلاخل. ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين، وهذا هو المشهور عند الجمهور، ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود في سننه: حدثنا يعقوب بن كعب الإنطاكي ومُؤَمِّل بن الفضل الحُراني قالا: حدثنا الوليد، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن خالد بن ذَرِيك عن عائشة، رضي الله عنها؛ أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها وقال: «يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها

وروي سعيد: حدثنا جرير، عن ليث، عن مجاهد قال: لا تضع المسلمة خمارها عند مشركة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿أَوِ اسْكُنُوهَا﴾، فليست من نسائهن. وعن مكحول وعبادة بن نسي: أنها كرها أن تقبل النصرانية واليهودية والمجوسية المسلمة. فأما ما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو عمير، حدثنا ضمرة قال: قال ابن عطاء، عن أبيه: ولما قدم

أصحاب النبي ﷺ بيت المقدس، كان قوايل نسايتهم اليهوديات والنصرانيات فهذا - إن صح - محمول على حال الضرورة، أو أن ذلك من باب الامتهان، ثم إنه ليس فيه كشف عورة ولا بد، والله أعلم. وقوله: ﴿أَوَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهَا﴾ قال ابن جريج: يعني: من نساء المشركين، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها وإن كانت مشركة؛ لأنها أمتها. وإليه ذهب سعيد بن المسيب. وقال الأكثرون. بل يجوز لها أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء، واستدلوا بالحديث الذي رواه أبو داود: حدثنا محمد بن عيسى، حدثنا أبو جميع سالم بن دينار، عن ثابت، عن أنس، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها. قال: وعلى فاطمة ثوب إذا قُتعت به رأسها لم يبلغ رجلها، وإذا غطت به رجلها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال: «إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلارك». وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه في ترجمة حُذَيْجِ الْحَصَنِيِّ - مولى معاوية - أن عبد الله بن مسعدة الفزاري كان أسود شديد الأدمة، وأنه قد كان النبي ﷺ وهبه لابنته فاطمة، فربته ثم أعتقه، ثم قد كان بعد ذلك كله مع معاوية أيام صفين، وكان من أشد الناس على علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان بن غيبة، عن الزهري، عن نُبَهِان، عن أم سلمة، ذكرت أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان لإحداكن مَكَّاب، وكان له ما يؤدي، فلتحتجب منه» ورواه أبو داود، عن مُسَدَّد، عن سفيان، به. وقوله: ﴿أَوِ الْكُنَافَتَيْنِ﴾ عَنِّي أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ يعني: كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء، وهم مع ذلك في عقولهم وله وخوث، ولا هم لهم إلى النساء ولا يشتبهونهن. قال ابن عباس: هو المغفل الذي لا شهوة له. وقال مجاهد: هو الأبله. وقال عكرمة: هو المخنث الذي لا يقوم ذُبه. وكذلك قال غير واحد من السلف. وفي الصحيح من حديث الزهري، عن عُرْوَةَ، عن عائشة؛ أن مخنثاً كان يدخل على أهل رسول الله ﷺ، وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة، فدخل النبي ﷺ وهو ينعت امرأة: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمان. فقال رسول الله ﷺ: «ألا أرى هذا يعلم ما هنا، لا يدخلن عليكن» فأخرجه، فكان بالبيداء يدخل يوم كل جمعة يستطعم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا هشام بن عُرْوَةَ، عن أبيه، عن زينب بنت أبي سلمة، عن أم سلمة قالت: دخل عليها رسول الله ﷺ وعندها مخنث، وعندها أخوها عبد الله بن أبي أمية والمخنث يقول لعبد الله: يا عبد الله بن أبي أمية، إن فتح الله عليكم الطائف غداً، فليكن بابنة غيلان، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان. قال: فسمعه رسول الله ﷺ فقال لأم سلمة: «لا يدخلن هذا عليكن». أخرجاه في الصحيحين، من حديث هشام بن عروة، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَرُ عن الزهري، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كان رجل يدخل على أزواج النبي ﷺ مخنث، وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة، فدخل النبي ﷺ يوماً وهو عند بعض نسايتهم، وهو ينعت امرأة. فقال: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمان. فقال النبي ﷺ: «ألا أرى هذا يعلم ما هنا؟ لا يدخلن عليكم هذا»، فحجبه. ورواه مسلم، وأبو داود، والنسائي من طريق عبد الرزاق، به. وقوله: ﴿أَوِ الْطِفْلِ الَّذِي تَرَى يُظْهِرُكَ عَنْ عَوْرَتِ الْنِسَاءِ﴾ يعني: لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم، وتعطفهن في المشية وحركاتهن، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك، فلا بأس بدخوله على النساء. فأما إن كان مراهقاً أو قريباً منه، بحيث يعرف ذلك ويدريه، ويفرق بين الشواء والحساء، فلا يمكن من الدخول على النساء. وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إياكم والدخول على النساء». قالوا: يا رسول الله، أفرأيت الحمؤ؟ قال: «الحمؤ الموت». وقوله: ﴿وَلَا يَصْرِيحْنَ بِأَرْجُلَيْهِ لِيُعْلَمَ مَا يَخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾: كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت - لا يسمع صوته - ضربت برجلها الأرض، فيعلم الرجال طينته، فهي الله المؤمنات عن مثل ذلك. وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستوراً، فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي، دخل في هذا النهي، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَصْرِيحْنَ بِأَرْجُلَيْهِ لِيُعْلَمَ مَا يَخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾. ومن ذلك أيضاً تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ليشتم الرجال طيبها، فقد قال أبو عيسى الترمذي:

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد القطان، عن ثابت بن عُمَارِ الحنفي، عن عُثَيْمِ بْنِ قَيْسٍ، عن أبي موسى، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كل عين زانية، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا» يعني زانية. قال: وفي الباب عن أبي هريرة، وهذا حسن صحيح. رواه أبو داود: حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا سفيان، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبيد مولى أبي رُهم، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: لقيته امرأة وجد منها ريح الطيب، ولذليها إعصار فقال: يا أمة الجبار، جئت من المسجد؟ قالت: نعم. قال لها: وله تطيبت؟ قالت: نعم. قال: إني سمعت حبي أبا القاسم يقول: «لا يقبل الله صلاة امرأة تطيبت لهذا المسجد، حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة». ورواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن سفيان - هو ابن عيينة - به. وروى الترمذي أيضاً من حديث موسى بن عبيدة، عن أيوب بن خالد، عن ميمونة بنت سعد؛ أن رسول الله ﷺ

قال: «الرافلة في الزينة في غير أهلها، كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها». ومن ذلك أيضاً أنهم يُنهين عن المشي في وسط الطريق؛ لما فيه من التبرج. قال أبو داود: حدثنا القُتَيْبِيُّ، حدثنا عبد العزيز - يعني: ابن محمد - عن أبي اليمان، عن شداد بن أبي عمرو بن حماس، عن أبيه، عن حمزة بن أبي أسيد الأنصاري، عن أبيه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو خارج من المسجد - وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق - فقال رسول الله ﷺ للنساء: «استأخرن، فإنه ليس لكن أن تحققن الطريق، عليكم بحافات الطريق»، فكانت المرأة تلتصق بالجدار، حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار، من لصوقها به. وقوله: ﴿وَتُؤْتُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْتُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى عنه، والله تعالى هو المستعان وعليه التكلان.

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَ مِنَ الَّذِينَ يَكُونُوا فَرَقَةً يُعْنِيهِمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٢) وَلَسْتَ تَصِفُ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ يَكَلًا حَتَّى يُعْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْنُونَ الْكُنُبَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَبِّرُوهُمْ إِن عِلَّمْتُمْ خَيْرًا وَآتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِن أَرَدْنَ حَصْحَصَ لِّتَنْكِحُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَن يَكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ يَنصُرُ عَفْوَهُمْ عَفْوَرٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣٣) وَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكَ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٤).

اشتملت هذه الآيات الكريمات المبينة على جمل من الأحكام المحكمة، والأوامر المبرمة، فقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَ مِنَ الَّذِينَ يَكُونُوا فَرَقَةً يُعْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٢) واحتجوا بظاهر قوله ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء». أخرجاه من حديث ابن مسعود. وجاء في السنن - من غير وجه - أن رسول الله ﷺ قال: «تَزَوُّجُوا، توالدوا، تناسلوا، فإني مُبَاهِ بِكُمْ الأمم يوم القيامة». وفي رواية: «حتى بالسقط». الأيما: جمع أيم، ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها، وللرجل الذي لا زوجة له. وسواء كان قد تزوج ثم فارق، أو لم يتزوج واحد منهما، حكاها الجوهري عن أهل اللغة، يقال: رجل أيم وامرأة أيم أيضاً. وقوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا فَرَقَةً يُعْنِيهِمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: رغبهم الله في التزويج، وأمر به الأحرار والعبيد، ووعدهم عليه الغنى، فقال: ﴿إِن يَكُونُوا فَرَقَةً يُعْنِيهِمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمود بن خالد الأزرق، حدثنا عمر بن عبد الواحد، عن سعيد - يعني: ابن عبد العزيز - قال: بلغني أن أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، قال أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح، ينجز لكم ما وعدكم من الغنى، قال: ﴿إِن يَكُونُوا فَرَقَةً يُعْنِيهِمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾. وعن ابن مسعود: التمسوا الغنى في النكاح، يقول الله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا فَرَقَةً يُعْنِيهِمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾. رواه ابن جرير، وذكر البيهقي عن عمر بنحوه. وعن الليث عن محمد بن عجلان، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله». رواه الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

وقد زوج رسول الله ﷺ ذلك الرجل الذي لم يجد إلا إزاره، ولم يقدر على خاتم من حديد، ومع هذا فزوجه بتلك المرأة، وجعل صداقها عليه أن يعلمها ما يحفظه من القرآن. والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه وإياها ما فيه كفاية له ولها. فأما ما يورده كثير من الناس على أنه حديث: «تزوجوا فقراء يغنكم الله»، فلا أصل له، ولم أره بإسناد قوي ولا ضعيف إلى الآن، وفي القرآن غنية عنه، وكذا هذا الحديث الذي أورده، والله الحمد. وقوله: ﴿وَلَسْتَ تَصِفُ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ يَكَلًا حَتَّى يُعْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾: هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً بالتعفف عن الحرام، كما قال - عليه الصلاة والسلام -: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء». وهذه الآية مطلقة، والتي في سورة النساء أخص منها، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحِ الْفَتَاةَ الْمُؤْمِنَاتِ فَيَن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِن فَتَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾، إلى أن قال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء: ٢٥]، أي صبركم عن تزويج الإماء خير؛ لأن الولد يجيء رقيقاً، ﴿وَاللَّهُ عَفْوَرٌ رَّحِيمٌ﴾. قال عكرمة في قوله: ﴿وَلَسْتَ تَصِفُ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ يَكَلًا﴾: قال: هو الرجل يرى المرأة فكانه يشتبه، فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقض حاجته منها، وإن لم يكن له امرأة فليتنظر في ملكوت السموات والأرض حتى يغنيه الله. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْنُونَ الْكُنُبَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَبِّرُوهُمْ إِن عِلَّمْتُمْ خَيْرًا﴾. هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب منهم عبيدهم الكتابة أن يكتبوا، بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدي إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه. وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمرٌ إرشاد واستحباب، لا أمر تحتّم وإيجاب،

بل السيد مخير، إذا طلب منه عبده الكتابة إن شاء كاتبه، وإن شاء لم يكتبه. وقال الثوري، عن جابر، عن الشعبي: إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكتبه.

وقال ابن وهب، عن إسماعيل بن عياش، عن رجل، عن عطاء بن أبي رباح: إن يشأ يكتبه وإن لم يشأ لم يكتبه وكذا قال مقاتل بن حيان، والحسن البصري. وذهب آخرون إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبده ذلك، أن يجيبه إلى ما طلب؛ أخذاً بظاهر هذا الأمر: قال البخاري: وقال روح، عن ابن جريج قلت لعطاء: أوجب علي إذا علمت له مالاً أن أكتبه؟ قال: ما أراه إلا واجباً. وقال عمرو بن دينار: قلت لعطاء: أثأثره عن أحد؟ قال: لا. ثم أخبرني أن موسى بن أنس أخبره، أن سيرين سأل أنساً المكاتبة - وكان كثير المال، فأبى. فانطلق إلى عمر بن الخطاب فقال: كاتبه. فأبى، فضربه بالذرة، وبتلو عمر، رضي الله عنه: ﴿فَكَاتِبُهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، فكاتبه. هكذا ذكره البخاري تعليقاً، ورواه عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج قال: قلت لعطاء: أوجب علي إذا علمت له مالاً أن أكتبه؟ قال: ما أراه إلا واجباً. وقال عمرو بن دينار، قال: قلت لعطاء: أثأثره عن أحد؟ قال: لا. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن بكر، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن أنس بن مالك: أن سيرين أراد أن يكتبه، فتلأ على، فقال له عمر: لتكاتبته. إسناد صحيح. وقال سعيد بن منصور: حدثنا هُشَيْمُ بْنُ جَوْبَرٍ، عن الضحاک قال: هي عزمة. وهذا هو القول القديم من قولي الشافعي، رحمه الله، وذهب في الجديد إلى أنه لا يجب؛ لقوله، عليه الصلاة والسلام: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب من نفسه». وقال ابن وهب: قال مالك: الأمر عندنا أن ليس على سيد العبد أن يكتبه إذا سأله ذلك، ولم أسمع أحداً من الأئمة أكره أحداً على أن يكتب عبده. قال مالك: وإنما ذلك أمر من الله، وإذن منه للناس، وليس بواجب. وكذا قال الثوري، وأبو حنيفة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم. واختار ابن جرير قول الوجوب لظاهر الآية. وقوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، قال بعضهم: أمانة. وقال بعضهم: صدقاً. وقال بعضهم: مالاً. وقال بعضهم: حيلة وكسباً. وروى أبو داود في كتاب المراسيل، عن يحيى بن أبي كثير قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿فَكَاتِبُهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾» قال: «إن علمتم فيهم حرفة، ولا ترسلوهم كلاً على الناس» وقوله: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاهُمْ﴾، اختلف المفسرون فيه، فقال قائلون: معناه اطرحوها لهم من الكتابة بعضها، ثم قال بعضهم: مقدار الربع. وقيل: الثلث. وقيل: النصف. وقيل: جزء من الكتابة من غير واحد. وقال آخرون: بل المراد من قوله: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاهُمْ﴾: هو النصيب الذي فرض الله لهم من أموال الزكوات. وهذا قول الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأبيه، ومقاتل ابن حيان. واختاره ابن جرير.

وقال إبراهيم التيمي في قوله: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاهُمْ﴾ قال: حث الناس عليه، مولاه وغيره. وكذلك قال يزيد بن الحبيب الأسلمي، وقاتدة. وقال ابن عباس: أمر الله المؤمنين أن يعينوا في الرقاب. وقد تقدم في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة حق على الله عونهم»: فذكر منهم المكاتب يريد الأداء، والقول الأول أشهر. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا وكيع، عن ابن شبيب، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن عمر: أنه كاتب عبد له، يكنى أبا أمية، فجاء بنجمه حين حل، فقال: يا أبا أمية، اذهب فاستعن به في مكاتبك. قال: يا أمير المؤمنين، لو تركته حتى يكون من آخر نجم؟ قال: أخاف ألا أدرك ذلك. ثم قرأ: ﴿فَكَاتِبُهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاهُمْ، قال عكرمة: كان أول نجم أذي في الإسلام. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا هارون بن المغيرة، عن عنبسة، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبيرة قال: كان ابن عمر إذا كاتب مكاتبه لم يضع عنه شيئاً من أول نجمه، مخافة أن يعجز فترجع إليه صدقته. ولكنه إذا كان في آخر مكاتبته، وضع عنه ما أحب. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاهُمْ﴾ قال: يعني: ضمعوا عنهم من مكاتبته. وكذلك قال مجاهد، وعطاء، والقاسم بن أبي بزة، وعبد الكريم بن مالك الجزري، والسدي. وقال محمد بن سيرين في قوله: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاهُمْ﴾: كان يعجبهم أن يدع الرجل لمكاتبه طائفة من مكاتبته. وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا الفضل بن شاذان المقرئ، أخبرنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام ابن يوسف، عن ابن جريج، أخبرني عطاء بن السائب: أن عبد الله بن جندب أخبره، عن علي، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ربيع الكتابة». وهذا حديث غريب، ورفع منكر، والأشبه أنه موقوف على علي، رضي الله عنه، كما رواه عنه أبو عبد الرحمن السلمي، رحمه الله. وقوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيْنَكُمْ عَلَى الْقَتْلِ إِنْ أَرَدْتُمْ نَجْصًا لِنَفْسِكُمْ فَتَنُفُوا عَنْهُمْ أَلَيَّ الدُّنْيَا﴾ الآية: كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة، أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت. فلما جاء الإسلام، نهى الله المسلمين عن ذلك. وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة - فيما ذكره غير واحد من المفسرين، من السلف والخلف - في شأن عبد الله بن أبي بن سلول المنافق،

فإنه كان له إمام، فكان يكرهن على البغاء طلباً لخراجهن، ورغبة في أولادهن، ورياسة منه فيما يزعم قبحه الله ولعنه.

ذكر الآثار الواردة في ذلك:

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، رحمه الله، في مسنده: حدثنا أحمد بن داود الواسطي، حدثنا أبو عمرو اللخمي - يعني: محمد بن الحجاج - حدثنا محمد بن إسحاق، عن الزهري قال: كانت جارية لعبد الله بن أبي بن سلول، يقال لها: معاذة، يكرهها على الزنا، فلما جاء الإسلام نزلت: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَكُمْ عَلَى إِلَافَةٍ﴾، إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقال الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر في هذه الآية: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَكُمْ عَلَى إِلَافَةٍ﴾ قال: نزلت في أمة لعبد الله بن أبي بن سلول يقال لها: مُسَبِّكَة، كان يكرهها على الفجور - وكانت لا بأس بها - فتأبى. فأنزل الله، ﷺ، هذه الآية إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وروى النسائي، من حديث ابن جُرَيْج، عن أبي الزبير، عن جابر نحوه. وقال الحافظ: أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا علي بن سعيد، حدثنا الأعمش، حدثني أبو سفيان، عن جابر قال: كان لعبد الله بن أبي بن سلول جارية يقال لها: مسكية، وكان يكرهها على البغاء، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَكُمْ عَلَى إِلَافَةٍ﴾، إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. صرح الأعمش بالسماح من أبي سفيان طلحة بن نافع، فدل على بطلان قول من قال: لم يسمع منه، إنما هو صحيفة حكاة البزار.

قال أبو داود الطيالسي، عن سليمان بن معاذ، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن جارية لعبد الله بن أبي كانت تزني في الجاهلية، فولدت أولاداً من الزنا، فقال لها: ما لك لا تزنين؟ قالت: لا، والله لا أزني. فضربها، فأنزل الله، ﷺ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَكُمْ عَلَى إِلَافَةٍ إِنْ أَرَدْتُمْ مَحْصَنًا﴾. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري: أن رجلاً من قريش أسرى يوم بدر، وكان عند عبد الله بن أبي أسيراً، وكانت لعبد الله بن أبي جارية يقال لها: معاذة، وكان القرشي الأسير يريد بها على نفسها، وكانت مسلمة، وكانت تتمتع منه لإسلامها، وكان عبد الله بن أبي يكرهها على ذلك ويضربها، رجاء أن تحمل للقرشي، فيطلب فداء ولده، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَكُمْ عَلَى إِلَافَةٍ إِنْ أَرَدْتُمْ مَحْصَنًا﴾.

وقال السدي: أنزلت هذه الآية الكريمة في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، وكانت له جارية تدعى معاذة، وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليوافقها، إرادة الثواب منه والكرامة له. فأقبلت الجارية إلى أبي بكر، رضي الله عنه، فشكت إليه ذلك، فذكره أبو بكر للنبي ﷺ، فأمره بقبضها. فصاح عبد الله بن أبي: من يغدرني من محمد، يغلبنا على مملوكتنا؟ فأنزل الله فيهم هذا. وقال مقاتل بن حيان: بلغنا - والله أعلم - أن هذه الآية نزلت في رجلين كانا يكرهان أمتين لهما، إحداهما اسمها مُسَبِّكَة، وكانت للانصاري، وكانت أممية أم مسيكة لعبد الله بن أبي، وكانت معاذة وأروى بتلك المنزل، فأنت مسيكة وأمها النبي ﷺ، فذكرنا ذلك له، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَكُمْ عَلَى إِلَافَةٍ﴾ يعني: الزنا. وقوله: ﴿إِنْ أَرَدْتُمْ مَحْصَنًا﴾: هذا خرج مخرج الغالب، فلا مفهوم له. وقوله: ﴿لِيُبْنِيَ عَرْشَ الْفِتْرِ الدُّنْيَا﴾ أي: من خراجهن ومهورهن وأولادهن. وقد نهى رسول الله ﷺ عن كسب الحجام، ومهر البغي وخلوان الكاهن - وفي رواية: «مهر البغي خبيث، وكسب الحجام خبيث، وثمن الكلب خبيث». وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: لهن، كما تقدم في الحديث عن جابر. وقال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: فإن فعلتم فإن الله لهن غفور رحيم وإثمهن على من أكرهن: وكذا قال مجاهد، وعطاء الخراساني، والأعمش، وقتادة. وقال أبو عبيد: حدثني إسحاق الأزرق، عن عوف، عن الحسن في هذه الآية: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال: لهن والله. لهن والله. وعن الزهري قال: غفور لهن ما أكرهن عليه. وعن زيد بن أسلم قال: غفور رحيم للمكرهات. حكاها ابن المنذر في تفسيره بأسانيد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله، حدثني ابن لهيعة، حدثني عطاء، عن سعيد بن جبيرة قال: في قراءة عبد الله بن مسعود: «فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ لهن غفور رحيم» وإثمهن على من أكرهن. وفي الحديث المرفوع عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه».

ولما فصل تعالى هذه الأحكام وبينها قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ يعني: القرآن فيه آيات واضحة مفسرات، ﴿وَمَثَلًا لِلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: خبراً عن الأمم الماضية، وما حل بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦]. ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ أي: زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: لمن اتقى الله وخافه. قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في صفة القرآن: فيه حكم ما بينكم، وخبر ما قبلكم، ونبا ما بعدكم،

وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله. ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كِشْفُوهَا يَكْشِفُ مَا يَصْطَرِحُ فِيهَا يَصْلَحُ الْيَصْلَاحُ فِي رُجَاةِ الرَّجَاءِ كَأَنَّا كَوْنُ دُرٍّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرٍ مُبَارَكٍ زَيْتُونُهُ لَا يَسْقُوهُ وَلَا غَرْبَهُ وَلَا غَرْبَهُ بَكَادُ رَبَّنَا يَقِيهِ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَصَرِّفْتُ اللَّهُ الْأَمْثَلُ لِلثَّانِينَ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول: هادي أهل السموات والأرض. وقال ابن جريج: قال مجاهد وابن عباس في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: يدبر الأمر فيهما، نجومهما وشمسهما وقمرهما. وقال ابن جريج: حدثنا سليمان بن عمر بن خالد الرقي، حدثنا وهب بن راشد، عن فرقد، عن أنس بن مالك قال: إن إلهي يقول: نوري هادي. واختار هذا القول ابن جرير، رحمه الله. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب في قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: هو المؤمن الذي جعل الله الإيمان والقرآن في صدره، فضرب الله مثله فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فبدأ بنور نفسه، ثم ذكر نور المؤمن فقال: مثل نور من آمن به. قال: فكان أبي بن كعب يقرؤها: «مثل نور من آمن به»، فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره. وهكذا قال سعيد بن جبيرة، وقيس بن سعد، عن ابن عباس أنه قرأها كذلك: «نور من آمن بالله». وقرأ بعضهم: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ». وعن الضحاك: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

وقال السدي في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: فبنوره أضاءت السموات والأرض. وفي الحديث الذي رواه محمد بن إسحاق في السيرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال في دعائه يوم آذاه أهل الطائف: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل بي غضبك أو ينزل بي سخطك، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك». وفي الصحيحين عن ابن عباس: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول: «اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن» الحديث. وعن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه. وقوله: ﴿مِثْلُ نُورِهِ﴾: في هذا الضمير قولان: أحدهما: أنه عائد إلى الله، ﷻ، أي: مثل هداية في قلب المؤمن، قاله ابن عباس ﴿كِشْفُوهَا﴾. والثاني: أن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دل عليه سياق الكلام: تقديره: مثل نور المؤمن الذي في قلبه، كمشكاة. فشبه قلب المؤمن وما هو مغطور عليه من الهدى، وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مغطور عليه، كما قال تعالى: ﴿أَفَنَنْتَ كَانَ عَلَى يَدَيْهِ أَنْ يُصَدِّقَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ شَهِيدٌ﴾ [نور: ١٧]، فشبه قلب المؤمن في صفائه في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل، الذي لا كدر فيه ولا انحراف. فقلوه: ﴿كِشْفُوهَا﴾: قال ابن عباس: ومجاهد، ومحمد بن كعب، وغير واحد: هو موضع الفتيلة من القنديل. هذا هو المشهور؛ ولهذا قال بعده: ﴿فِيهَا يَصْلَحُ﴾، وهو الذبالة التي تضيء. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كِشْفُوهَا يَكْشِفُ مَا يَصْطَرِحُ فِيهَا يَصْلَحُ﴾: وذلك أن اليهود قالوا لمحمد ﷺ: كيف يخلص نور الله من دون السماء؟ فضرب الله مثل ذلك لنوره، فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ﴾. والمشكاة: كوة في البيت - قال: وهو مثل ضربه الله لطاعته. فسمى الله طاعته نوراً، ثم سماها أنواعاً شتى. وقال ابن أبي نجيج، عن مجاهد: الكوة بلغة الحبشة. وزاد غيره فقال: المشكاة: الكوة التي لا منفذ لها. وعن مجاهد: المشكاة: الحداث التي يعلق بها القنديل. والقول الأول أولى، وهو: أن المشكاة هي موضع الفتيلة من القنديل، ولهذا قال: ﴿فِيهَا يَصْلَحُ﴾، وهو النور الذي في الذبالة.

قال أبي بن كعب: المصباح: النور، وهو القرآن والإيمان الذي في صدره. وقال السدي: هو السراج. ﴿الْيَصْلَاحُ فِي رُجَاةِ﴾ أي: هذا الضوء مشرق في رجاء صافية. قال أبي بن كعب وغير واحد: وهي نظير قلب المؤمن. ﴿الرَّجَاءُ كَأَنَّا كَوْنُ دُرٍّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرٍ مُبَارَكٍ﴾: قرأ بعضهم بضم الدال من غير همزة، من الدر، كأنها كوكب من دُرٍّ. وقرأ آخرون: «دُرَّى» و«دُرَّى» بكسر الدال وضمها مع الهمز، من الدرء وهو الدفع؛ وذلك أن النجم إذا رمي به يكون أشد استنارة من سائر الأحوال، والعرب تسمى ما لا يعرف من الكواكب دراري. قال أبي بن كعب: كوكب مضيء. وقال قتادة: مضيء مبين ضخم. ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرٍ مُبَارَكٍ﴾: أي: يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة ﴿زَيْتُونُهُ لَا يَسْقُوهُ وَلَا غَرْبَهُ وَلَا غَرْبَهُ﴾: أي: ليست في شرقي بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار، ولا في غربيها فيتقلص عنها الفيء قبل الغروب، بل هي في مكان وسط، تفرعه الشمس من أول النهار إلى آخره، فيجيء زيتها معتدلاً صافياً مشرقاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار قال: حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن سعد، أخبرنا عمرو بن أبي قيس، عن سماك بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿زَيْتُونُهُ لَا يَسْقُوهُ وَلَا غَرْبَهُ وَلَا غَرْبَهُ﴾.

عَرَبِيَّةٌ ۖ قَالَ: شجرة بالصحراء، لا يظلمها جبل ولا شجر ولا كهف، ولا يواربها شيء، وهو أجود لزيتها. وقال يحيى بن سعيد القطان، عن عمران بن حدير، عن عكرمة، في قوله: ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ قال: هي بصحراء، وذلك أصفى لزيتها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا عمر بن فروخ، عن حبيب بن الزبير، عن عكرمة - وسأله رجل عن: ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ قال: تلك زيتونة بأرض فلاة، إذا أشرقت الشمس أشرقت عليها، وإذا غربت غربت عليها فذاك أصفى ما يكون من الزيت. وقال مجاهد في قوله: ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ قال: ليست بشرقية، لا تصيبها الشمس إذا غربت، ولا غربية لا تصيبها الشمس إذا طلعت، ولكنها شرقية وغربية، تصيبها إذا طلعت وإذا غربت. وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ قال: هو أجود الزيت. قال: إذا طلعت الشمس أصابتها من صوب المشرق، فإذا أخذت في الغروب أصابتها الشمس، فالشمس تصيبها بالغداة والعشي، فتلك لا تعد شرقية ولا غربية. وقال السدي في قوله: ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ يقول: ليست بشرقية يحوزها المشرق، ولا غربية يحوزها المغرب دون المشرق، ولكنها على رأس جبل، أو في صحراء، تصيبها الشمس النهار كله. وقيل: المراد بقوله: ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾: إنها في وسط الشجر، وليست بادية للمشرق ولا للمغرب.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب، في قوله تعالى: ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ قال: فهي خضراء ناعمة، لا تصيبها الشمس على أي حال كانت، لا إذا طلعت ولا إذا غربت. قال: فذلك هذا المؤمن، قد أجبر من أن يصيبه شيء من الفتن، وقد ابتلي بها فيشته الله فيها، فهو بين أربع خلال: إن قال صدق، وإن حكم عدل، وإن ابتلي صبر، وإن أعطي شكر، فهو في سائر الناس كالرجل الحي يمشي في قبور الأموات. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا مسدد قال: حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ قال: هي وسط الشجر، لا تصيبها الشمس شرقاً ولا غرباً. وقال عطية العوفي: قال: هي شجرة في موضع من الشجر، يرى ظل ثمرها في ورقها، وهذه من الشجر لا تطلع عليها الشمس ولا تغرب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عبد الرحمن الدشنتكي، حدثنا عمرو بن أبي قيس، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، في قوله تعالى: ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾: ليست شرقية ليس فيها غرب، ولا غربية ليس فيها شرق، ولكنها شرقية وغربية. وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ قال: هي القبلية. وقال زيد بن أسلم: ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ قال: الشام. وقال الحسن البصري: لو كانت هذه الشجرة في الأرض لكانت شرقية أو غربية، ولكنه مثل ضربه الله لنوره. وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿يُؤْتِي مِنَ الشَّجَرِ مُبْرَكَةً﴾ قال: رجل صالح، ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ قال: لا يهودي ولا نصراني. وأولى هذه الأقوال القول الأول، وهو أنها في مستوى من الأرض، في مكان فسيح بارز ظاهر ضاح للشمس، تفرعه من أول النهار إلى آخره، ليكون ذلك أصفى لزيتها والطف، كما قال غير واحد ممن تقدم؛ ولهذا قال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني: لضوء إشراق الزيت. وقوله: ﴿ثَوْرٌ عَلَى ثَوْرٍ﴾ قال العوفي، عن ابن عباس: يعني بذلك إيمان العبد وعمله. وقال مجاهد، والسدي: يعني نور النار ونور الزيت. وقال أبي بن كعب: ﴿ثَوْرٌ عَلَى ثَوْرٍ﴾: فهو يتقلب في خمسة من النور، فكلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى النور يوم القيامة إلى الجنة. وقال شمر بن عطية: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال: حدثني عن قول الله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ قال: يكاد محمد يبين للناس، وإن لم يتكلم، أنه نبي، كما يكاد ذلك الزيت أن يضيء. وقال السدي في قوله: ﴿ثَوْرٌ عَلَى ثَوْرٍ﴾ قال: نور النار ونور الزيت، حين اجتماع أضاء، ولا يضيء واحد بغير صاحبه كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتماع، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه. وقوله: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يرشد الله إلى هدايته من يختاره، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا إبراهيم بن محمد الفزاري، حدثنا الأوزاعي، حدثني ربيعة بن يزيد، عن عبد الله بن الدليمي، عن عبد الله بن عمرو، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ، فمن أصاب يومئذ من نوره اهتدى، ومن أخطأ ضل. فلذلك أقول: جف القلم على علم الله، ﷻ». طريق أخرى عنه: قال البزار: حدثنا أيوب بن سُوَيْد، عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني، عن أبيه، عن عبد الله بن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، فألقى عليهم نوراً من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأ ضل». ورواه البزار عن عبد الله بن عمرو من طريق آخر، بلفظه وحروفه. وقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَظِيمًا﴾:

لما ذكر تعالى هذا مثلاً لنور هداة في قلب المؤمن، ختم الآية بقوله: ﴿وَضَرِبَ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَكُلِّ شَيْءً عَلَيْهِ﴾ أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر: حدثنا أبو معاوية - يعني شيبان - عن ليث، عن عمرو ابن مرة، عن أبي البخترى، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهو، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مُضْفَع: فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن، سراج فيه نوره. وأما القلب الأغلف فقلب الكافر. وأما القلب المنكوس فقلب المنافق، عرف ثم أنكر. وأما القلب المُضْفَع فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يُمَدُّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القُرحة يُمَدُّها القيح والدم، فأَي المديتين غلبت على الأخرى غلبت عليه». إسناده جيد ولم يخرجه.

﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۖ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۚ لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَزِيَدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَاللَّهُ بِزُرْقَتِهِ أَتَّعَدُ حِسَابًا ۖ﴾
لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن، وما فيه من الهدى والعلم، بالمصباح في الزجاج الصافية المتوقد من زيت طيب، وذلك كالقنديل، ذكر محلها وهي المساجد، التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض، وهي بيوت التي يعبد فيها ويؤخذ، فقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ أي: أمر الله تعالى برفعها، أي: بتطهيرها من الدنس واللغو، والأفعال والأقوال التي لا تليق فيها، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية الكريمة: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ قال: نهى، الله سبحانه، عن اللغو فيها. وكذا قال عكرمة، وأبو صالح، والضحاك، ونافع بن جبير، وأبو بكر بن سليمان بن أبي حشمة، وسفيان بن حسين، وغيرهم من علماء المفسرين. وقال قتادة: هي هذه المساجد، أمر الله، سبحانه، ببنائها ورفعها، وأمر بعمارتها وتطهيرها. وقد ذكر لنا أن كعباً كان يقول: إن في التوراة مكتوباً: «ألا إن بيوتي في الأرض المساجد، وإنه من تواضاً فأحسن وضوءه، ثم زارني في بيتي أكرمته، وحق على المزور كرامة الزائر». رواه عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره. وقد وردت أحاديث كثيرة في بناء المساجد، واحترامها وتوقيرها، وتطيبها وتبخيرها. وذلك له محل مفرد يذكر فيه، وقد كتبت في ذلك جزءاً على حدة، والله الحمد والمنة. ونحن بعون الله تعالى نذكرها هنا طرفاً من ذلك، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان: فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من بنى مسجداً يتغني به وجهه الله، بنى الله له مثله في الجنة». أخرجه في الصحيحين. وروى ابن ماجه، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من بنى مسجداً يذكر فيه اسم الله، بنى الله له بيتاً في الجنة». وللنسائي عن عمرو بن عَبَسَةَ مثله. والأحاديث في هذا كثيرة جداً. وعن عائشة، رضي الله عنها، قالت: أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور، وأن تنظف وتطيب. رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائي. ولأحمد وأبي داود، عن سُمرة بن جُنْدَب نحوه. وقال البخاري: قال عمر: ابن للناس ما يكنهم، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس. وروى ابن ماجه عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ساء عمل قوم قط إلا زخرفوا مساجدهم». وفي إسناده ضعف. وروى أبو داود عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أُمِرْتُ بتشديد المساجد». قال ابن عباس: لَتَزَخَرَفَتْهَا كَمَا زَخَرَفَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى. وعن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد». رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذي. وعن بُرَيْدَةَ أَنَّ رَجُلًا أُنْشِدَ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: مَنْ دَعَا إِلَى الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لا وجدت، إنما بُنِيَتِ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ». رواه مسلم. وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: نهى رسول الله ﷺ عن البيع والابتاع وعن تناشد الأشعار في المساجد. رواه أحمد وأهل السنن، وقال الترمذي: حسن.

وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد، فقولوا: لا أربح الله تجارتك. وإذا رأيتم من يُنْشَدُ ضالة في المسجد، فقولوا: لا رد الله عليك». رواه الترمذي، وقال: حسن غريب. وقد روى ابن ماجه وغيره، من حديث ابن عمر مرفوعاً، قال: «خصال لا تتبغي في المسجد لا يتخذ طريقاً، ولا يُشهر فيه سلاح، ولا يُنبض فيه بقوس، ولا يثر فيه نبل، ولا يُعْمَرُ فيه بلحم نبيء: ولا يُضْرَبُ فيه حَدٌّ، ولا يقتص فيه من أحد، ولا يُتَّخَذُ سَوْقاً». وعن واثلة بن الأسقع، عن رسول الله ﷺ قال: «جئوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم، وشراءكم وبيعكم، وخصوماتكم ورفع أصواتكم، وإقامة حدودكم وسل سيفوكم، واتخذوا على أبوابها المطاهر، وجمروها في الجُمُع». ورواه ابن ماجه أيضاً، وفي إسنادهما ضعف. أما أنه: «لا يتخذ طريقاً»، فقد كره بعض العلماء المرور فيه إلا لحاجة إذا وجد مندوحة عنه. وفي الأثر: «إن الملائكة لتتعجب من الرجل يمر بالمسجد لا يصلي فيه». وأما أنه «لا يشهر فيه سلاح، ولا ينبض فيه بقوس، ولا يثر فيه نبل»، فلما

يخشى من إصابة بعض الناس به، لكثرة المصلين فيه؛ ولهذا أمر رسول الله ﷺ إذا مر أحد بسهام أن يقبض على نصالها؛ لئلا يؤدي أحداً، كما ثبت في الصحيح. وأما النهي عن المرور باللحم النبیء فيه، فلما يخشى من تقاطر الدم منه، كما نهيت الحائض عن المرور فيه إذا خافت التلوّث. وأما أنه «لا يضرب فيه حد أو يقتص»، فلما يخشى من إيجاد نجاسة فيه من المضروب أو المقطوع. وأما أنه «لا يتخذ سوقاً»، فلما تقدم من النهي عن البيع والشراء فيه، فإنه إنما بني لذكر الله والصلاة كما قال النبي، عليه الصلاة والسلام، لذلك الأعرابي الذي بال في طائفة المسجد: «إن المساجد لم تبَن لهذا، إنما بنيت لذكر الله والصلاة فيها». ثم أمر بسجل من ماء، فأهريق على بوله. وفي الحديث الثاني: «جئوا مساجدكم صبيانكم»؛ وذلك لأنهم يلعبون فيه ولا يناسبهم، وقد كان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إذا رأى صبياناً يلعبون في المسجد، ضربهم بالمخفقة - وهي الدرة - وكان يُعَسّ المسجد بعد العشاء، فلا يترك فيه أحداً. و«مجانينكم» يعني: لأجل ضعف عقولهم، وسخر الناس بهم، فيؤدي إلى اللعب فيها، ولما يخشى من تذكيرهم المسجد، ونحو ذلك. «وبيعكم وشراءكم»، كما تقدم. «وخصوماتكم» يعني: التحاكم والحكم فيه؛ ولهذا نص كثير من العلماء على أن الحاكم لا يتصب لفصل الأفضية في المسجد، بل يكون في موضع غيره؛ لما فيه من كثرة الحكومات والتشاجر والعياط الذي لا يناسبه؛ ولهذا قال بعده: «ورفع أصواتكم».

وقال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا الجُعَيْد بن عبد الرحمن قال: حدثني يزيد بن خَصِيْفَة، عن السائب بن يزيد الكندي قال: كنت قائماً في المسجد، فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب، فقال: اذهب فائتني بهذين. فجئت بهما، فقال: من أنتما؟ أو: من أين أنتما؟ قالاً: من أهل الطائف. قال: لو كنتما من أهل البلد لأرجعتكما. ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ. وقال النسائي: حدثنا سُوَيْد بن نصر، عن عبد الله بن المبارك، عن شعبة، عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: سمع عمر صوت رجل في المسجد فقال: أتدري أين أنت؟ وهذا أيضاً صحيح. وقوله: «وإقامة حدودكم، وسل سيفوكم»: تقدماً. وقوله: «واتخذوا على أبوابها المطاهر»، يعني: المراحيض التي يستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة. وقد كانت قريباً من مسجد رسول الله ﷺ أبار يستقون منها، فيشربون ويتطهرون، ويتوضؤون وغير ذلك. وقوله: «وجمروها في الجُمُع» يعني: بخروها في أيام الجُمُع لكثرة اجتماع الناس يومئذ. وقد قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عبيد الله، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن عبد الله بن عمر، عن نافع عن ابن عمر؛ أن عمر كان يُجَمِّر مسجد رسول الله ﷺ كل جمعة. إسناده حسن لا بأس به، والله أعلم. وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «صلاة الرجل في الجماعة تُصَغِّف على صلاته في بيته وفي سوقه، خمساً وعشرين ضعفاً. وذلك أنه إذا توضأ فأحسن وضوءه، ثم خرج إلى المسجد، لا يخرج إلا للصلاة، لم يخطئ خطوة إلا رُفِع له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مُصَلَّاه: اللهم صل عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة». وعند الدارقطني مرفوعاً: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد». وفي السنن: «بشر المشائين إلى المساجد في الظلم بالنور التام يوم القيامة». والمستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى، وأن يقول كما ثبت في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا دخل المسجد قال: «أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم» قال: أقط؟ قال: نعم. قال: فإذا قال ذلك قال الشيطان: حُفَظَ مِنِّي سائر اليوم. وروى مسلم بسنده عن أبي حميد - أو: أبي أسيد - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك». ورواه النسائي عنهما، عن النبي ﷺ مثله.

وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد، فليسلم على النبي ﷺ وليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك. وإذا خرج فليسلم على النبي ﷺ وليقل: اللهم اعصمني من الشيطان الرجيم». ورواه ابن ماجه، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا ثيَاب بن أبي سليم، عن عبد الله بن حسن، عن أمه فاطمة بنت حسين، عن جدتها فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم، ثم قال: «اللهم، اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك». وإذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال: «اللهم، اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب فضلك». ورواه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن وإسناده ليس بم متصل؛ لأن فاطمة بنت الحسين الصغرى لم تدرك فاطمة الكبرى. فهذا الذي ذكرناه، مع ما تركناه من الأحاديث الواردة في ذلك لحال الطول، كله داخل في قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذُنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ﴾. وقوله: ﴿وَيَذْكُرُ فِيهَا أَسْمَاءُ﴾ أي: اسم الله، كقوله: ﴿يَبْنِي مَادَمَ عُدُو زَيْنَتُكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾

[الأعراف: ٢٩]، وقوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الحج: ١٨]. قال ابن عباس: ﴿وَيَذْكُرُ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ يعني: يتلى فيها كتابه. وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي: في البُكُرات والعِشَاء. والآصال: جمع أصيل، وهو آخر النهار. وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: كل تسبيح في القرآن هو الصلاة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني بالغدو: صلاة الغداة، ويعني بالآصال: صلاة العصر، وهما أول ما افترض الله من الصلاة، فأحب أن يذكُرهما وأن يذكُر بهما عباده. وكذا قال الحسن، والضحاك: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ يعني: الصلاة. ومن قرأ من القراءة: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ - بفتح الباء من «يُسَبِّح» على أنه مبني لما لم يسم فاعله - وقف على قوله: ﴿وَالْآصَالِ﴾ وقفاً تاماً، وابتدأ بقوله: ﴿رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي الْمَيِّتَ وَلَا يَمُوتُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ وكأنه مُفسِّر للفاعل المحذوف، كما قال الشاعر:

لِيُبَيِّنَكَ يَزِيدُ، ضَارِعٌ لِحُضُومَةٍ وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطْبِيعُ الطَّوَائِفُ
كانه قال: من يبكيه؟ قال: هذا يبكيه. وكأنه قيل: من يسبح له فيها؟ قال: رجال. وأما على قراءة من قرأ: ﴿يُسَبِّحُ﴾ - بكسر الباء - فجعله فعلاً، وفاعله: ﴿الرَّبِّكَ﴾، فلا يحسن الوقف إلا على الفاعل؛ لأنه تمام الكلام. فقوله: ﴿الرَّبِّكَ﴾ فيه إشعار بهمهم السامية، ونياتهم وعزائمهم العالية، التي بها صاروا عُماراً للمساجد، التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطن عبادته وشكره، وتوحيده وتنزيهه، كما قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. فأما النساء فصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن؛ لما رواه أبو داود، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها». وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رشدين، حدثني عمرو، عن أبي السمح، عن السائب - مولى أم سلمة - عن أم سلمة، رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خير مساجد النساء قمر بيوتهن». وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا هارون، أخبرني عبد الله بن وهب، حدثنا داود بن قيس، عن عبد الله بن سُوَيْد الأنصاري، عن عمته أم حميد - امرأة أبي حميد الساعدي - أنها جاءت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إني أحب الصلاة معك قال: «قد علمت أنك تحبين الصلاة معي، وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك، وصلاتك في حُجْرَتِكَ خير من صلاتك في دارك، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي». قال: فأمرت فبني لها مسجد في أقصى بيت من بيوتها وأظلمه، فكانت تصلي فيه حتى لقيت الله، ﷻ. لم يخرجوه.

هذا ويجوز لها شهود جماعة الرجال، بشرط ألا تؤذي أحداً من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب، كما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله». رواه البخاري ومسلم، ولأحمد وأبي داود: «بيوتهن خير لهن»، وفي رواية: «وليخرجن وهن ثغلات» أي: لا ريح لهن. وقد ثبت في صحيح مسلم، عن زينب - امرأة ابن مسعود - قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: «إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً». وفي الصحيحين عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: كان نساء المؤمنین يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ، ثم يرجعن متلفعات بُمُروطهن، ما يُغْرِقُن من الغلس. وفي الصحيحين أيضاً عنها أنها قالت: لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن المساجد، كما مُنعت نساء بني إسرائيل. وقوله: ﴿رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي الْمَيِّتَ وَلَا يَمُوتُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩]. يقول تعالى: لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذ بيعها، وربحها، عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم، والذين يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم؛ لأن ما عندهم ينفذ وما عند الله باق؛ ولهذا قال: ﴿لَا تُلْهِكُمْ يَوْمَ الْبَيْعِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِلَى الصَّلَاةِ وَإِنَّكُمْ أَلْفُكُمْ﴾ أي: يقدمون طاعته ومُرادَه ومحبتَه على مرادهم ومحبتهم. قال هشيم: عن سيار: قال حدثت عن ابن مسعود أنه رأى قوماً من أهل السوق، حيث نودي بالصلاة، تركوا بيعاتهم ونهضوا إلى الصلاة، فقال عبد الله: هؤلاء من الذين ذكر الله في كتابه: ﴿رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي الْمَيِّتَ وَلَا يَمُوتُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾. وهكذا روى عمرو بن دينار القُتْرَمَانِي، عن سالم، عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة، فألقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد، فقال ابن عمر: فيهم نزلت: ﴿رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي الْمَيِّتَ وَلَا يَمُوتُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن بكر الصنعاني، حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عبد الله بن بُجَيْر، حدثنا أبو عبد رب قال: قال أبو الدرداء، رضي الله عنه: إني قمت على هذا الدرج أبايع عليه، أربع كل يوم ثلاثمائة دينار،

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار ، كما ضرب للمنافقين في أول «البقرة» مثلين نارياً ومائياً ، وكما ضرب لما يقر في القلوب من الهدى والعلم في سورة «الرعد» مثلين مائياً ونارياً ، وقد تكلمنا على كل منها في موضعه بما أغنى عن إعادته ، والله الحمد والمنة . فاما الأول من هذين المثلين : فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم ، الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات ، وليسوا في نفس الأمر على شيء ، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى فيه القيعان من الأرض عن بعد كأنه بحر طام . والقيعة : جمع قاع ، كجار وجيرة . والقاع أيضاً : واحد القيعان ، كما يقال : جار وجيران . وهي : الأرض المستوية المتسعة المنبسطة ، وفيه يكون السراب ، وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار . وأما الآل فإنما يكون أول النهار ، يرى كأنه ماء بين السماء والأرض ، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء ، حسبه ماء فقصده ليشرب منه ، فلما انتهى إليه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ ، فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملاً ، وأنه قد حصل شيئاً ، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ، ونوقش على أفعاله ، لم يجد له شيئاً بالكلية قد قُبل ، إما لعدم الإخلاص ، وإما لعدم سلوك الشرع ، كما قال تعالى : ﴿وَقَوْمًا إِلَىٰ مَا مَعَلُّوا مِنْ عَمَلٍ فَعَمِلَتْهُ أَلْفُ مَثْرَإٍ﴾ [الفرقان : ٢٣] . وقال ها هنا : ﴿وَرَجَعْنَا إِلَهُ عِندَ قَوْمِهِمْ لِيَنصَحُوا﴾ . وهكذا زوي عن أبي بن

ثم يأخذ من هذا في هذا، فيطول الذي كان قصيراً، ويقصر الذي كان طويلاً. والله هو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾: لدليل على عظمته تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَتَنَزُّلِ الْأَنْبِيَاءِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٦٦). وما بعدها من الآيات الكريمات.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّنْ ثَلَاثِينَ يَوْمًا وَعَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْ يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَنَّ يَدْعُوا بِأَسْمَائِهِمْ وَأَنَّ يَدْعُوا بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٦٧). ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١٦٨).

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم، في خلقه أنواع المخلوقات، على اختلاف أشكالها وألوانها، وحركاتها وسكناتها، من ماء واحد، ﴿فِيهِمْ مَّنْ يَبْشَىٰ عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ كالحية وما شاكلها، ﴿وَبَيْنَهُمْ مَّنْ يَبْشَىٰ عَلَىٰ رِجْلَيْهِ﴾ كالإنسان والطير، ﴿وَبَيْنَهُمْ مَّنْ يَبْشَىٰ عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات؛ ولهذا قال: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: بقدرته؛ لأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿لَقَدْ أُنزِلَتْ آيَاتٍ مُّتَّبِعِينَ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (١٦٩).

يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحكم والأمثال البينة المحكمة، كثيراً جداً، وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولي الأبواب والبصائر والنهى؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٠). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧١). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٢). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٣). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٤). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٥). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٦). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٧). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٨). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٩). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٨٠).

يخبر تعالى عن صفات المنافقين، الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، يقولون قولاً بالاستسهم: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٠). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧١). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٢). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٣). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٤). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٥). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٦). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٧). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٨). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٩). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٨٠).

وقوله: ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٠). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧١). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٢). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٣). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٤). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٥). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٦). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٧). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٨). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٧٩). ﴿وَلَمَّا تَوَلَّوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١٨٠).

وقوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْأَمِينُ﴾ كقوله: ﴿تَوَفَّنَاكَ فَأَمَّا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]. وقال وهب بن منبه: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل - يقال له: شعيب -: أن قم في بني إسرائيل فلاني سأطلق لسانك بوحي. فقام فقال: يا سماء اسمعي، ويا أرض أنصتي، فإن الله يريد أن يقضي شأناً ويدبر أمراً هو منفذه، إنه يريد أن يحول الريف إلى الفلاة، والآجام في الغيطان، والأنهار في الصحارى، والنعمة في الفقراء، والملك في الرعاة، ويريد أن يبعث أمياً من الأميين، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، لو يمر إلى جنب السراج لم يطفئه من سكينته، ولو يمشي على القصب اليابس لم يسمع من تحت قدميه. أبعته مبشراً ونذيراً، لا يقول الخنا، أفتح به أعينا غميّاً، وأذانا صمّاً، وقلوباً غلفاً، وأسدده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة منطقته، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به من الجهالة، وأزقّه به بعد الخمالة، وأعرف به بعد الثكرة، وأكثر به بعد القلة وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأولف به بين أمم متفرقة، وقلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأستنقذ به فثاماً من الناس عظيماً من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، موحدون مؤمنين مخلصين، مصدقين بما جاءت به رُسلي، رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَبْرَارَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [٥٥].

هذا وعد من الله لرسوله ﷺ، بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي: أئمة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتضع

لهم العباد، وليبدلن بعد خوفهم من الناس أمنا وحكما فيهم، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك، وله الحمد والمنة، فإنه لم يمت رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكما لها. وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية - وهو المقوقس - وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة، الذي تملك بعد أصحمة، رحمه الله وأكرمه. ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فلم شعث ما وهي عند موته، عليه الصلاة والسلام، وأطد جزيرة العرب ومهداها، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد، رضي الله عنه، ففتحوا طرفاً منها، وقتلوا خلقاً من أهلها. وجيشاً آخر صحبة أبي عبيدة، رضي الله عنه، ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثاً صحبة عمرو بن العاص، رضي الله عنه، إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليقها من بلاد حوران وما والاها، وتوفاه الله ﷻ، واختار له ما عنده من الكرامة. ومن على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق، فقام في الأمر بعده قياماً تاماً، لم يدرك الفلك بعد الأنبياء عليهم السلام على مثله، في قوة سيرته وكمال عدله. وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكما لها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان، وتقهر إلى أقصى مملكته، وقصر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلى قسطنطينية، وأنفق أموالها في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة.

ثم لما كانت الدولة العثمانية، امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك: الأندلس، وقبرص، وبلاد القيروان، وبلاد سبته مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى، وباد ملكه بالكلية. وفتحت مدائن العراق، وخراسان، والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جداً، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجبى الخراج من المشرق والمغرب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه. وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن؛ ولهذا ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيلغ ملك أمتي ما زوي لي منها». فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، فنسأل الله الإيمان به، وبرسوله، والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا. قال الإمام مسلم بن الحجاج: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يزال أمر الناس ما ضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً». ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عني فسألت أبي: ماذا قال رسول الله ﷺ؟ فقال: «كلهم من قريش». ورواه البخاري من حديث شعبة، عن عبد الملك بن عمير، به. وفي رواية لمسلم أنه قال ذلك عشية رجم معاذ بن مالك، وذكر معه أحاديث أخر.

وهذا الحديث فيه دلالة على أنه لا بد من وجود اثني عشر خليفة عادلاً، وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثني عشر فإن كثيراً من أولئك لم يكن إليهم من الأمر شيء؛ فأما هؤلاء فإنهم يكونون من قريش، يلون فيعدلون. وقد وقعت البشارة بهم في الكتب المتقدمة، ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين، بل يكون وجودهم في الأمة متتابعاً ومتفرقاً، وقد وجد منهم أربعة على الولاء، وهم: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، رضي الله عنهم. ثم كانت بعدهم فترة، ثم وجد منهم ما شاء الله، ثم قد يوجد منهم من بقي في وقت يعلمه الله. ومنهم المهدي الذي يطابق اسمه اسم رسول الله ﷺ، وكنيته كنيته، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت جوراً وظلماً. وقد روى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث سعيد بن جهمان، عن سفيانة - مولى رسول الله ﷺ - قال: قال رسول الله ﷺ: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم يكون ملكاً عضوضاً». وقال الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُ فِي الْأَرْضِ حَكَمًا مِّنْهُم مَّن يَشَاءُ﴾ من قَوْلِهِمْ وَلَيَكُنَّ لَهُمْ يَوْمَ ذَلِكَ أَمْرٌ يَشَاءُونَ، قال: كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين، يدعون إلى الله وحده، وعبادته وحده لا شريك له سرّاً وهم خائفون، لا يؤمرون بالقتال، حتى أمروا بعد الهجرة إلى المدينة، فقدموا المدينة، فأمرهم الله بالقتال، فكانوا بها خائفين يُنسُون في السلاح ويصبحون في السلاح، فغزوا بذلك ما شاء الله. ثم إن رجلاً من أصحابه قال: يا رسول الله، أهد الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا فيه السلاح؟ فقال رسول الله ﷺ: «لن تغربوا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم مُحْتَبِياً ليست فيهم حديدة». وأنزل الله هذه الآية، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب، فأمنوا ووضعوا السلاح. ثم إن الله ﷻ، قبض نبيه ﷺ، فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا، فأدخل الله عليهم الخوف فاتخذوا الحجزة والشرط وغيرهم. وقال

بعض السلف: خلافة أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، حق في كتابه، ثم تلا هذه الآية. وقال البراء بن عازب: نزلت هذه الآية، ونحن في خوف شديد.

وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ فَتَأْتُوا أَنْ يَنْصَلِفَكُمْ النَّاسُ فِتَاوَنَكُمْ وَأَيْدِيكُمْ يُضْهِرُهُمْ وَرِزْقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لِمَا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦]. وقوله: ﴿كَمَا أَسْتَخْلَفَ الْيَتِيمَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كما قال تعالى عن موسى، عليه السلام، أنه قال لقومه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذَابُكُمْ فَتَسْتَظِلَّكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَرُئِدَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَى الْيَتِيمِ اسْتَضْعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجَّاهُمْ أَيْمَةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [٥] ﴿وَتُكْنِ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرِثَةً وَرِثَتُهُمْ وَسَبْعُونَ وَنَحْنُ بِمُحْسِنِي دَعْوَاهُمْ إِنَّهُمْ تَأْكُلُوا بِحَدِّكَ﴾ [٦] [القصاص: ٥، ٦]. وقوله: ﴿وَلْيُمَكِّنْ لَهُمُ اللَّهُ رِثَتَهُمْ وَرِثَتَهُمْ وَلْيَعِزَّهُمْ رَبُّهُمُ أَخَوْتَهُمْ﴾ كما قال رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم، حين وفد عليه: «أتعرف الحيرة؟» قال: لم أعرفها، ولكن قد سمعت بها. قال: «فوالذي نفسي بيده، ليؤمنن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعن من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولتفتح كنوز كسرى بن هرمز». قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم، كسرى بن هرمز، وليؤذنن المال حتى لا يقبله أحد». قال عدي بن حاتم: فهذه الظعن تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده، لتكونن الثالثة؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن أبي سلمة، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسَّاءِ والرفعة، والدين والنصر، والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة نصيب». وقوله: ﴿يَعْبُدُونِي لَا يَشْكُرُونَ بِي شَيْئًا﴾، قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا قتادة عن أنس، أن معاذ بن جبل حدثه قال: بينا أنا رديف رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخرة الرُّحْل، قال: «يا معاذ»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: ثم سار ساعة ثم قال: «يا معاذ بن جبل»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: «هل تدري ما حق الله على العباد»، قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً». قال: ثم سار ساعة. ثم قال: «يا معاذ بن جبل»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: «فهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟»، قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن حق العباد على الله ألا يعذبهم». أخرجاه في الصحيحين من حديث قتادة.

وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك، فقد فسق عن أمر ربه وكفى بذلك ذنباً عظيماً. فالصحابه، رضي الله عنهم، لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله، ﷻ، وأطوعهم لله - كان نصرهم بحسبهم، وأظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيدهم تأييداً عظيماً، وتحكموا في سائر العباد والبلاد. ولما قُضِرَ الناس بعدهم في بعض الأوامر، نقص ظهورهم بحسبهم، ولكن قد ثبت في الصحيحين، من غير وجه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى اليوم القيامة». وفي رواية: «حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك». وفي رواية: «حتى يقاتلوا الدجال». وفي رواية: «حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم ظاهرون». وكل هذه الروايات صحيحة، ولا تعارض بينها.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَالْيَسِّرَ إِلَى الرِّسَالِ لَكُمْ رَحْمَةٌ لَا تَحْصِي الدِّينَ كَفَرُوا مُعْجِزَاتٍ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَهُمْ إِلَّا نَارٌ وَلَيْسَ الْعَصِيرُ﴾ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى أمرأه عباده المؤمنين بإقام الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة، وهي: الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم، وأن يكونوا في ذلك مطيعين للرسول، صلوات الله وسلامه عليه، أي: سالكين وراءه فيما به أمرهم، وتاركين ما عنه زجرهم، لعل الله يرحمهم بذلك. ولا شك أن من فعل ذلك أن الله سيرحمهم، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: 71]. وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾، أي: لا تظن يا محمد ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: خالفوك وكذبوك ﴿مُخْرِجِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا يعجزون الله، بل الله قادر عليهم، وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿أَنَّا نُرْزِقُكَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بش المال مآل الكافرين، وبش القرار وبش المهادر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْتَوُوا الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ وَالَّذِينَ أُولُوا الْأَلْحَامُ مِنْكُمْ وَلَا تَعْلَمُوا أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ يَوْمَ الْفَتْحِ نِعْمَةٌ إِذْ أَخْرَجْتُمُوهُمُ مِنَ الْمَدِينَةِ فَأَتَتْكُمْ حُمُوحُهُمْ ذَلِكُمْ يَوْمَ تَبَايَعْتُمْ وَأَسْفَلْتُمْ فِي الْمَوَاقِفِ وَالْأَكْثَرُ مِنْكُمْ أَهْلُ الْغُلُوبِ﴾

حَكِيمٌ ﴿٥٦﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ يَدَهُنَّ عَنْ شَتْرَاجَتَيْ رِيشَتِهِمْ وَأَنْ يَسْتَغْفِنَ عَنْهُنَّ لَهُنَّ وَرَبُّهُنَّ سَعِيدٌ عَلِيمٌ ﴿٥٧﴾.

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض . وما تقدم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض . فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيماهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال: الأول من قبل صلاة الغداة؛ لأن الناس إذا ذاك يكونون نياماً في فرشهم، ﴿وَيَسْأَلُونَ بِأَنبَاءِ الَّذِينَ هَلَكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في وقت القيلولة، لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله، ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾؛ لأنه وقت النوم، فيؤمر الخدم والأطفال ألا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال، لما يخشى من أن يكون الرجل على أهله، ونحو ذلك من الأعمال؛ ولهذا قال: ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي: إذا دخلوا في حال غير هذه الأحوال فلا جناح عليكم في تمكينكم إياهم من ذلك، ولا عليهم إن رأوا شيئاً في غير تلك الأحوال؛ لأنه قد أذن لهم في الهجوم، ولأنهم ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ عليكم، أي: في الخدمة وغير ذلك، ويغتفر في الطوافين ما لا يغتفر في غيرهم؛ ولهذا روى الإمام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن أن رسول الله ﷺ قال في الهرة: «إنها ليست بنجس؛ إنها من الطوافين عليكم - أو - والطوافات». ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشيء، وكان عمل الناس بها قليلاً جداً، أنكر عبد الله بن عباس ذلك على الناس، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني عبد الله بن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس: ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنُوا الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَالَّذِينَ تَرَ يُطْعَمُونَ﴾ مَكْرُوكَاتٍ مَرَّةً إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، والآية التي في سورة النساء: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقَوْمَ أُولُو الْقَرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ [النساء: ٨]، والآية التي في الحجرات: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَرُّوْا﴾ [الحجرات: ١٣]. وروى أيضاً من حديث إسماعيل بن مسلم - وهو ضعيف - عن عمرو بن دينار، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: غلب الشيطان الناس على ثلاث آيات، فلم يعملوا بهن: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنُوا الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ إلى آخر الآية.

وقال أبو داود: حدثنا ابن الصباح بن سفيان وابن عبدة - وهذا حديثه - أخبرنا سفيان، عن عبد الله بن أبي يزيد، سمع ابن عباس يقول: لم يؤمن بها أكثر الناس - آية الإذن - وإنني لأمر جارتي هذه تستأذن علي. قال أبو داود: وكذلك رواه عطاء، عن ابن عباس يأمر به. وقال الثوري، عن موسى بن أبي عائشة سألت الشعبي: ﴿لِيَسْتَأْذِنُوا الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، قال: لم تنسخ قلت: فإن الناس لا يعملون بها. فقال: الله المستعان. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا ابن وهب، أخبرنا سليمان بن بلال، عن عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة عن ابن عباس؛ أن رجلين سألاه عن الاستئذان في الثلاث عورات التي أمر الله بها في القرآن، فقال ابن عباس: إن الله سثير يحب السترة، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حجال في بيوتهم، فربما فاجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيمة في حجره، وهو على أهله، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سئى الله. ثم جاء الله بعد بالستور، فبسط الله عليهم الرزق، فاتخذوا الستور واتخذوا الحجال، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ورواه أبو داود، عن القَعْنَبِيِّ، عن الدَّرَاوَزِيِّ، عن عمرو بن أبي عمرو، به، وقال السُّدِّي: كان أناس من الصحابة، رضي الله عنهم، يحبون أن يواقعوا نساءهم في هذه الساعات ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة، فأمرهم الله أن يأمروا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن.

وقال مقاتل بن حيان: بلغنا - والله أعلم - أن رجلاً من الأنصار وامرأته أسماء بنت مُرشد صنعا للنبي ﷺ طعاماً، فجعل الناس يدخلون بغير إذن، فقالت أسماء: يا رسول الله، ما أقبح هذا! إنه ليدخل على المرأة وزوجها وهما في ثوب واحد، غلامهما بغير إذن! فأنزل الله في ذلك: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنُوا الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَالَّذِينَ تَرَ يُطْعَمُونَ﴾ مَكْرُوكَاتٍ مَرَّةً. ومما يدل على أنها محكمة لم تنسخ، قوله: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني: إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون في العورات الثلاث، إذا بلغوا الحلم، وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال، يعني بالنسبة إلى أجنابهم وإلى الأحوال التي يكون الرجل على امرأته، وإن لم يكن في الأحوال الثلاث. قال الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، إذا كان الغلام رباعياً فإنه يستأذن في العورات الثلاث على أبويه، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال. وهكذا قال سعيد بن جبير. وقال في قوله: ﴿كََمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني: كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه. وقوله: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾: قال سعيد بن جبير، ومقاتل بن حيان، وقتادة، والضحاك، هن اللواتي انقطع عنهن الحيض ويشن من الولد، ﴿الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لم يبق لهن تشوف إلى

ظاهر. وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، كما هو مذهب الإمام أبي حنيفة والإمام أحمد بن حنبل، في المشهور عنهما.

وأما قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاحِشُهُ﴾: فقال سعيد بن جبّير، والسدي: هو خادم الرجل من عبد وقهرمان، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف. وقال الزهري، عن عروة، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كان المسلمون يرغبون في النغير مع رسول الله ﷺ، فيدفعون مفاتحهم إلى ضمّانهم، ويقولون: قد أحللتنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه. فكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا أن نأكل؛ إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم، وإنما نحن أمناء. فأنزل الله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاحِشُهُ﴾. وقوله: ﴿أَوْ حَبِيبِكُمْ﴾: أي: بيوت أصدقائكم وأصحابكم، فلا جناح عليكم في الأكل منها، إذا علمتم أن ذلك لا يشقّ عليهم ولا يكرهون ذلك. وقال قتادة: إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه. وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: وذلك لما أنزل الله: ﴿يَأْكُلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩]، قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل من الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد. فكف الناس عن ذلك، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَشْمَنِ﴾، إلى قوله: ﴿أَوْ حَبِيبِكُمْ﴾. وكانوا أيضاً يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده، حتى يكون معه غيره، فرخص الله لهم في ذلك، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾. وقال قتادة: وكان هذا الحي من بني كنانة، يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده في الجاهلية، حتى إن كان الرجل ليسوق الذود الحفل وهو جائع، حتى يجد من يؤاكله ويشاربه، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾. فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده، ومع الجماعة، وإن كان الأكل مع الجماعة أفضل وأبرك، كما رواه الإمام أحمد:

حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا الوليد بن مسلم، عن وحشي بن حرب، عن أبيه، عن جده؛ أنّ رجلاً قال للنبي ﷺ: إنا نأكل ولا نشبع. قال: «فلعلكم تأكلون متفرقين، اجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله يُبارك لكم فيه». ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث الوليد بن مسلم، به. وقد روى ابن ماجه أيضاً، من حديث عمرو بن دينار القهرماني، عن سالم، عن أبيه، عن عمر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كلوا جميعاً ولا تفرقوا، فإن البركة مع الجماعة». وقوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾: قال سعيد بن جبّير، والحسن البصري، وقاتدة، والزهري: فليسلم بعضهم على بعض. وقال ابن جريج: حدثنا أبو الزبير: سمعت جابر بن عبد الله يقول: إذا دخلت على أهلك، فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة. قال: ما رأيته إلا يوجهه. قال ابن جريج: وأخبرني زياد، عن ابن طاوس أنه كان يقول: إذا دخل أحدكم بيته، فليسلم. قال ابن جريج: قلت لعطاء: أوجب إذا خرجت ثم دخلت أن أسلم عليهم؟ قال: لا، ولا أثر وجوبه عن أحد، ولكن هو أحب إلي، وما أدعه إلا نائياً. وقال مجاهد: إذا دخلت المسجد فقل: السلام على رسول الله. وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. وروى الثوري، عن عبد الكريم الجزري، عن مجاهد: إذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: بسم الله، والحمد لله، السلام علينا من ربنا، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. وقال قتادة: إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد، فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. فإنه كان يؤمر بذلك، وحدثنا أن الملائكة ترد عليه.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن العثني، حدثنا عؤبد بن أبي عمران الجوني، عن أبيه، عن أنس قال: أوصاني النبي ﷺ بخمس خصال، قال: «يا أنس، أسبغ الوضوء يرد في عمرك، وسلم على من لقيك من أمتي تكثر حسناتك، وإذا دخلت - يعني: بيتك - فسلم على أهل بيتك، يكثر خير بيتك، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك. يا أنس، ارحم الصغير، ووقر الكبير، تكن من رفقائي يوم القيامة». وقوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ حَيَّةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: قال محمد بن إسحاق: حدثني داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه كان يقول: ما أخذت التشهد إلا من كتاب الله، سمعت الله يقول: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ حَيَّةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، فالتشهد في الصلاة: التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. ثم يدعو لنفسه ويسلم. هكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث ابن إسحاق. والذي في صحيح مسلم، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ يخالف هذا، والله أعلم. وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: لما ذكر تعالى ما في هذه السورة الكريمة من الأحكام المحكمة والشرائع المتقنة المبرمة، نبه تعالى على أن يبين

لعباده الآيات بياناً شافياً، ليتدبروها ويتعقلوها.

﴿إِنَّمَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا الْإِنَّ يَسْتَأْذِنُكَ أَتَيْتُكَ الَّذِينَ يَوْمُنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِيَعِزَّ شَأْنُهُمْ فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٦٢).

وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف - لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة، أو اجتماع لمشورة ونحو ذلك - أمرهم الله تعالى ألا ينصرفوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته. وإن من يفعل ذلك فهو من المؤمنين الكاملين. ثم أمر رسوله - صلوات الله وسلامه عليه - إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له، إن شاء؛ ولهذا قال: ﴿فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقد قال أبو داود: حدثنا أحمد بن حنبل ومُسَدَّد، قالا: حدثنا بشر - هو ابن المفضل - عن عجلان عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة». وهكذا رواه الترمذي والنسائي، من حديث محمد بن عجلان، به. وقال الترمذي: حسن.

﴿لَا تَجْمَعُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لِيُحَذِّرَ الَّذِينَ يَخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ يُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٦٣).

قال الضحك، عن ابن عباس: كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله ﷺ، عن ذلك، إعظاماً لنبية، صلوات الله وسلامه عليه. قال: فقالوا: يا رسول الله، يا نبي الله. وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة. وقال قتادة: أمر الله أن يهاب نبيه ﷺ، وأن يجبل وأن يعظم وأن يسود. وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿لَا تَجْمَعُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾. يقول: لا تسموه إذا دعوتوه: يا محمد، ولا تقولوا: يا ابن عبد الله، ولكن شرفوه فقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله. وقال مالك، عن زيد بن أسلم في قوله: ﴿لَا تَجْمَعُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾. قال: أمرهم الله أن يشرفوه. هذا قول. وهو الظاهر من السياق، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رِيْعًا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَاسْمِعُوا﴾ (البقرة: ٢١٠)، وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٢). إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَادُونَكَ مِنْ وَجْهِكَ الْمُبْتَدِعِينَ لَا تَقُولُ لَهُمْ أَعْزَافًا﴾ (١). رَوَى أَنَّهُمْ صَدَّقُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ (الحجرات: ٢-١٥). فهذا كله من باب الأدب في مخاطبة النبي ﷺ والكلام معه وعنده كما أمرنا بتقديم الصدقة قبل مناجاته. والقول الثاني في ذلك أن المعنى في: ﴿لَا تَجْمَعُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ أي: لا تمتدقوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره، فإن دعاءه مستجاب، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا. حكاه ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، والحسن البصري، وعطية العوفي، والله أعلم. وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لِيُحَذِّرَ الَّذِينَ يَخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِمْ﴾. قال مقاتل بن حيان: هم المنافقون، كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة - ويعني بالحديث الخطبة - فيلذون ببعض الصحابة - أصحاب محمد ﷺ - حتى يخرجوا من المسجد، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبي ﷺ في يوم الجمعة، بعدما يأخذ في الخطبة، وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بإصبعه إلى النبي ﷺ، فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل؛ لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبي ﷺ يخطب، بطلت جمعته. قال السدي كانوا إذا كانوا معه في جماعة، لأذ بعضهم ببعض، حتى يتغيبوا عنه، فلا يراهم. وقال قتادة في قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لِيُحَذِّرَ الَّذِينَ يَخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِمْ﴾. يعني: لو أذن عن نبي الله وعن كتابه.

وقال سفيان: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لِيُحَذِّرَ الَّذِينَ يَخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِمْ﴾. قال: من الصف. وقال مجاهد في الآية: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لِيُحَذِّرَ الَّذِينَ يَخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِمْ﴾. أي: عن أمر رسول الله ﷺ، سبيله هو ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قبل، وما خالفه فهو مَرْدُودٌ على قائله وفاعله، كأنه من كان، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردة». أي فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطناً أو ظاهراً ﴿أَنْ يُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الدنيا، بقتل، أو حد، أو حبس، أو نحو ذلك. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولها، جعل الفراش وهذه الدواب اللاتي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبهن ويتخمن فيها»: قال: «فذلك مثلي ومثلكم، أنا أخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار، فتغلبوني وتقتحمون فيها». أخرجاه من حديث عبد الرزاق.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَشْرَعْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنْظَرُ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ يَكْلِفُ شَيْءٌ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه عالم غيب السموات والأرض، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم، فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَشْرَعْتُمْ عَلَيْهِ﴾، وقد للتحقيق، كما قال قبلها: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لِرَادَّ﴾، وقال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّنِينَ مِنْكُمُ الْقَائِلِينَ لِيُخْرِجَهُمْ هَلْ لَنَا﴾ [الاحزاب: ١٨]. وقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْتَعْتَابُ عَنْكُمْ كَمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِعَ عَصِيَّةَ بَيْعِشَ ﴿١﴾﴾ [المجادلة: ١]. وقال: ﴿قَدْ تَعْلَمُ أَنْتُمْ لِحَرْكَةِ اللَّهِ الَّتِي يُقُولُونَ إِنَّمَا يَأْتِيهِمْ لَا يَكُونُ لَكُمُ الْغُلَبَاءُ يَأْتِيهِ اللَّهُ يَجْعَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٣]. وقال: ﴿قَدْ رَأَى تَلَفَتْ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوْلَا لَسْنَا بِمَلَكٍ رَحْمَتُهَا﴾ [البقرة: ١٤٤]. فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بل قد، كما يقول المؤذن تحقيقاً وثبوتاً: «قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة»: فقولته تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَشْرَعْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: هو عالم به، مشاهد له، لا يعزب عنه مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿وَقَوَّلَ عَلَى الْمُرْزِقِ الرَّحِيمِ ﴿١٧﴾ الَّذِي يَرِيكَ حِينَ تَقُومُ ﴿١٨﴾ وَتَقْلَبُكَ فِي السَّجَدِ ﴿١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٠﴾﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠]. وقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفْعَلُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ شَيْءٍ نَقَالُ ذَرَّةً فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْفَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [يونس: ٦١]. وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَاهِرٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] أي: هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر. وقال تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَفْتُونَ يَشَاهُرُ يَعْلَمُ مَا يُفْرَضُونَ وَمَا يُثَلَّثُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يُدَاتُ الشُّدُورُ ﴿٥﴾﴾ وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكَ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٍ بِالنَّبِيِّ وَسَارٍ بِالنَّارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ نَافِثَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [هود: ٦١]. وقال: ﴿يَعْنِدُ مَقَاصِصَ النَّبِيِّ لَا يَمْلِكُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ زَرْقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ مِنْ ظِلْمَتٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا تَطْرُقُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]. والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً. وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: ويوم ترجع الخلائق إلى الله - وهو يوم القيامة - ﴿فَيُنْظَرُ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: يخبرهم بما فعلوا في الدنيا، من جليل وحقيق، وصغير وكبير، كما قال تعالى: ﴿يُنْفِخُ الْبُوقَ بَنِيَّ بِنَا قَدْ قَدَّمَ وَأَنزَلَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: ١٣]. وقال: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِنْهُ فِيهِ وَيَقُولُونَ بَلْ لَنَنصُرَنَّ مَالَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَيْنَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ لَمَلًا ﴿١٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]. ولهذا قال ها هنا: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنْظَرُ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ يَكْلِفُ شَيْءٌ عَلِيمٌ﴾ والحمد لله رب العالمين، ونسأله التمام.



تفسير سورة الفرقان

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ نَجْدٌ وَكَدًّا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكَ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ رَمَقَهُ نَذِيرًا ﴿٢﴾﴾.

يقول تعالى حامداً نفسه الكريمة على ما نزل على رسوله الكريم من القرآن العظيم، كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَمْ عِوَجًا ﴿١﴾ يَمَازُكَ يُشِيرُ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُنَشِّرُ الْمُتَوَسِّينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مُتَكَيِّفِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف: ١-٣]. وقال ها هنا: ﴿تَبَارَكَ﴾، وهو تفاعل من البركة المستمرة الدائمة الثابتة ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ نزل: فعل، من التكرار، والتكثير، كما قال: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]. لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل متجماً مفزقاً مفصلاً، آيات بعد آيات، وأحكاماً بعد أحكام، وسوراً بعد سور، وهذا أشد وأبلغ، وأشد اعتناءً بمن أنزل عليه كما قال في أثناء هذه السورة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٢٧﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَنُصْنُ قَسِيماً ﴿٢٨﴾﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨]. ولهذا سماه ها هنا الفرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام. وقوله: ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾: هذه صفة مدح وثناء؛ لأنه أضافه إلى عبوديته، كما وصفه بها في أشرف أحواله، وهي ليلة الإسراء، فقال:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالَاتِ هُمْ فِي صَفْوَةٍ ۖ وَمِنْهُمْ قُلُوبٌ يَلْقَوْنَ الْكَرَامَ ۖ وَيَتْلَوْهُوا بِحَمْدِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَكْبَرُ ۚ وَمِنْهُمْ أُولُو أَلْبَابٍ يُوقِنُونَ أَنَّ اللَّهَ قَائِمٌ بِذِكْرِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۚ﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ الْأَقْدَمِ وَأَنَّهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُجْرًا﴾ ﴿١١﴾ ﴿وَقَالُوا أَأَسْطُفُ الْأَوَّلِينَ كَتَبَهَا فِيهِمْ شَرًّا عَلَيْهِمْ بُكْرَةً وَأَجِيلًا﴾ ﴿١٢﴾ ﴿قُلْ أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى الْبَرِّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَوْرًا حَجِيمًا﴾ ﴿١٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهلاء من الكفار، في قولهم عن القرآن: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ﴾ أي: كذب، ﴿أَقْرَبُ﴾ يعنون النبي ﷺ، ﴿وَأَعْلَمُ عَلَيْهِ قَوْمٌ﴾ أي: واستعان على جمعه يقوم آخرون. قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَهُ ظُلُمَاتُ وَجْهِهِ﴾ أي: فقد افتروا هم قولاً باطلاً، هم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما يزعمون. ﴿وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأَبْلَاقُ أَكْتَبَهَا﴾ يعنون: كتب الأوائل استنسخها، ﴿فَبَيَّنَّا تَشْوِيلَ عَلَيْهِ﴾ أي: تقرأ عليه ﴿بُكْرَةً وَأَخِيلًا﴾ أي: في أول النهار وآخره. وهذا الكلام -لسخافته وكذبه وبهته منهم- كل أحد يعلم بطلانه، فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة: أن محمداً رسول الله لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة، لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه، وبره وأمانته ونزاهته من الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم لم يكونوا يسمونه في صغره إلى أن بعث إلا الأمين، لما يعلمون من صدقه وبره. فلما أكرمه الله بما أكرمه به، نصبوا له العداوة، ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحاروا ما يقذفونه به، فتارة من إنكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: كذاب، قال الله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ صَرَّفُوا لَكَ الْأَنْثَالَ فَضْلًا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيكَ﴾ [الإسراء: ٤٨]. وقال تعالى في جواب ما عاندوا هنا وافتروا: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْإِثْرَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع في الخارج، ماضياً ومستقبلاً ﴿أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْإِثْرَ﴾ أي: الله الذي يعلم غيب السموات والأرض، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر. وقوله: ﴿إِنْكُمْ كَانُمْ عَنْوَرًا زَجِبًا﴾: دعاء لهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن رحمته واسعة، وأن حلمه عظيم، وأن من تاب إليه تاب عليه. فهو لا مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتهم وكفرهم وعنادهم، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا، يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ تَلْفِظُهُ وَكَانَ إِلَهُهُ وَاحِدًا وَإِنْ لَمْ يَنْهَهُمُ عَمَّا

وقال الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن سعيد بن جبير، «السَّعِيرُ»: واد من قبح جهنم. وقوله: ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ﴾ أي: جهنم ﴿مِّنْ تَحْتِ بَيْبَرٍ﴾ يعني: في مقام المحشر. قال السدي: من مسيرة مائة عام ﴿يَمُوتُوا مَمَاتًا وَفِيهَا﴾ أي: حنقاً عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَيْعًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ ﴿كَأَذْوَانِ مِنَ الْفَيْطِ﴾ [الملك: ٧، ٨] أي: يكاد ينفصل بعضها من بعض؛ من شدة غيظها على من كفر بالله. قال ابن أبي حاتم: حدثنا إدريس بن حاتم بن الأخيف الواسطي: أنه سمع محمد بن الحسن الواسطي، عن أصبغ بن زيد، عن خالد بن كثير، عن خالد بن ذؤنك، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من يقل عليّ ما لم أقل، أو ادعى إلى غير والديه، أو انتمى إلى غير مواليه، فليتبوأ مقعده من النار». وفي رواية: «فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً». قيل: يا رسول الله، وهل لها من عينين؟ قال: «أما سمعتم الله يقول: ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ مِّنْ تَحْتِ بَيْبَرٍ﴾» الآية. ورواه ابن جرير، عن محمد بن خدّاش، عن محمد بن يزيد الواسطي، به. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطَّنَافسي، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن عيسى بن سليم، عن أبي وائل قال: خرجنا مع عبد الله - يعني: ابن مسعود - ومعنا الربيع بن خثيم فمروا على حداد، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار، ونظر الربيع بن خثيم إليها فتمايل ليسقط، فمر عبد الله على أتون على شاطئ الفرات، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية: ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ مِّنْ تَحْتِ بَيْبَرٍ سَمِعُوا لَهَا شَيْعًا وَفِيهَا﴾ فصق - يعني: الربيع بن خثيم - فحملوه إلى أهل بيته، وربطه عبد الله إلى الظَّهْر فلم يبق، رضي الله عنه. وحدثنا أبي: حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا إسرائيل، عن أبي يحيى، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: إن العبد ليجر إلى

النار، فتشبه إلى شبهة البغلة إلى الشعير، ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف. هكذا رواه ابن أبي حاتم مختصراً، وقد رواه الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا أحمد بن إبراهيم الدؤزقي، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا إسرائيل، عن أبي يحيى، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: إن الرجل ليجر إلى النار، فتنزوي وتنقبض بعضها إلى بعض، فيقول لها الرحمن: مالك؟ قالت: إنه يستجير مني. فيقول: أرسلوا عبدي. وإن الرجل ليُجَزَّ إلى النار، فيقول: يا رب، ما كان هذا الظن بك؟ فيقول: فما كان ظنك؟ فيقول: أن تسعني رحمتك. فيقول: أرسلوا عبدي. وإن الرجل ليُجَزَّ إلى النار، فتشبه إلى شبهة البغلة إلى الشعير، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف. وهذا إسناد صحيح.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن منصور، عن مجاهد، عن عبيد بن عمير في قوله: ﴿يَعْمُرُ لَهَا وَزَيَّارًا﴾ قال: إن جهنم تزفر زفرة، لا يبقى ملك ولا نبي إلا خرَّ ترعداً فرائصه، حتى إن إبراهيم، عليه السلام، ليحسوا على ركبته ويقول: رب، لا أسألك اليوم إلا نفسي. وقوله: ﴿وَأَذِ الْأَوَّلَىٰ مَكَانًا حَسَنًا﴾ قال قتادة: عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو قال: مثل الزج في الرمح، أي: من ضيقه. وقال عبد الله بن وهب: أخبرني نافع بن يزيد، عن يحيى بن أبي أسيد - يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ - أنه سئل عن قول الله: ﴿وَأَذِ الْأَوَّلَىٰ مَكَانًا حَسَنًا مَّقَرَّيْنِ﴾ قال: «والذي نفسي بيده، إنهم ليشكرهون في النار، كما يستكره الود في الحائط». وقوله: ﴿مَقَرَّيْنِ﴾ قال أبو صالح: يعني مكتفين: ﴿وَعَزَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي: بالويل والحسرة والخيبة، ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أول من يكسى حلّة من النار إبليس، فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه، وذريته من بعده، وهو ينادي: يا ثوراه. وينادون: يا ثورهم. حتى يقفوا على النار، فيقول: يا ثوراه، ويقولون: يا ثورهم. فيقال لهم: لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً، وادعوا ثبوراً كثيراً». لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة، ورواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن سنان، عن عفان، به: ورواه ابن جرير، من حديث حماد بن سلمة به. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ (١٤) أي: لا تدعوا اليوم ويلاً واحداً، وادعوا ويلاً كثيراً. وقال الضحاك: الثبور: الهلاك. والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار، كما قال موسى لفرعون: ﴿وَلَيْ لَأَظُنَّكَ بِفِرْعَوْنٍ مُّسَبِّحًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] أي: هالكا. وقال عبد الله بن الزبير:

إِذْ أَجَارَى الشَّيْطَانُ فِي سَنَنِ النَّارِ
يَوْمَ تَنْزِلُ مَنَازِلُهُ مَثْبُورُ
﴿قُلْ أَذَلَّكَ خَيْرٌ أَمْ حَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَصِيْرًا﴾ (١٥) ثُمَّ فِيهَا مَا يَشْكُرُونَ خَلْقِيْنَ كَانَتْ عَلَى رَيْكَ وَعَدَا مَثُورًا (١٦).

يقول تعالى: يا محمد، هذا الذي وصفناه من حال أولئك الأشقياء، الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم، فتتلقاهم بوجه عبوس وبغيظ وزفير، ويُلْقُونَ في أماكنها الضيقة مقرّنين، لا يستطيعون حراكاً، ولا انتصاراً ولا فكاكاً مما هم فيه: - هذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده، التي أعدها لهم، وجعلها لهم جزاء على ما أطاعوه في الدنيا، وجعل مآلهم إليها. ﴿ثُمَّ فِيهَا مَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: من الملاذ: من مآكل ومشارب، وملابس ومسكن، ومراكب ومناظر، وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد، وهم في ذلك خالدون أبداً دائماً سرمداً بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء، لا ييغون عنها حولاً. وهذا من وعد الله الذي تفصل به عليهم، وأحسن به إليهم. ولهذا قال: ﴿كَانَتْ عَلَى رَيْكَ وَعَدَا مَثُورًا﴾ أي لا بد أن يقع وأن يكون، كما حكاه أبو جعفر بن جرير، عن بعض علماء العربية أن معنى قوله: ﴿وَعَدَا مَثُورًا﴾ أي: وعداً واجباً. وقال ابن جرير، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿كَانَتْ عَلَى رَيْكَ وَعَدَا مَثُورًا﴾ يقول: سلوا الذي واعدتكم - أو قال: واعدناكم - نُنجِزْ. وقال محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿كَانَتْ عَلَى رَيْكَ وَعَدَا مَثُورًا﴾: إن الملائكة تسأل لهم ذلك: ﴿رَبَّنَا وَأَنْجِزْ خَبْرَ عَبْدِكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ﴾ [غافر: ٨]. وقال أبو حازم: إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون: ربنا عملنا لك بالذي أمرتنا، فأنجز لنا ما وعدتنا. فذلك قوله ﴿وَعَدَا مَثُورًا﴾. وهذا المقام في هذه السورة من ذكر النار، ثم التنبيه على حال أهل الجنة، كما ذكر تعالى في سورة «الصفات» حال أهل الجنة، وما فيها من النضرة والحسور، ثم قال: ﴿أَذَلَّ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّوْفَرِ﴾ (١٧) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فَنَاءً لِلْأَعْدَالِيِّينَ (١٨) إِنَّمَا شَجَرَةُ زَوْفَرٍ فِي أَمَلٍ الْجَنِيِّ (١٩) طَلْمُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٢٠) فَإِنَّهُمْ لَأَكَلُونَ مِنْهَا فَأَلْوَنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٢١) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حِمِيرٍ (٢٢) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَكُلٌّ لِّلْجِيمِ (٢٣) إِنَّهُمْ أَقْوَامٌ فَرَّ سَالِكِينَ (٢٤) فَهُمْ عَلَى عَائِدَةٍ يَرْجِعُونَ (٢٥) [الصفات: ٦٢ - ٧٠].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَسْتُرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَقُولُ مَا أَنتُمْ أَتَمُّنْتُمْ عَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ سَلَكَ السَّيْلَ (٢٦) قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَلْبِسُ لَنَا

أَنْ تَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْنَاهُمْ وَءَاثَمَهُمْ حَتَّى نُسَاقِ الذُّكْرَ وَكَأَنَّا قَوْمٌ بِوِرَاءٍ ﴿٢٠﴾ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَظِرُّونَ صَرَفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ نَفْسَهُ يَرْجُ أَنْ يَكُونَ كَافِرًا ﴿٢١﴾

يقول تعالى مخبراً عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم من عبدوا من دون الله، من الملائكة وغيرهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ رَبُّهُمْ وَمَنْ يَتَدَّبَّرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، قال مجاهد: عيسى، والعزيز، والملائكة. ﴿فَيَقُولُ مَا أَنتُمْ بِعِيسَى هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ صَلَوَاتُ الْمَآئِيْنِ﴾ أي: فيقول الرب تبارك وتعالى للمعبودين أنتم دعوتهم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم، من غير دعوة منكم لهم؟ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُوحَىٰ إِيَّاهُ إِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ قَدْ كُنْتَ كَافِرًا فَلَمَّا تَلَّمَّ مَا فِي نَفْسِهِ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ قَالَ قَدْ عَلِمْتُ إِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ قَدْ عَلِمْتُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا آخِرَ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ قَدْ عَلِمْتُ مَا كُنْتُ أَتَّبِعُ لَأَنْ تَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ من قوله: ﴿تَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك، لا نحن ولا هم، فنحن دعوانهم إلى ذلك، بل هم قالوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن برآء منهم ومن عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ يُعْبُدُونَ فَلَا يَحْشُرُهُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ وَمَا يُدْرِي أَهَؤُلَاءِ مِنْ دُونِهِمْ لَنْ يَخْلُقَ إِلَهًُا مِثْلَهُمْ سَاعَةً مِنْ الْقُرْآنِ﴾ وقالوا: ﴿وَلَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَأْتِيَنَا رِسَالًا فَتُلَوِّحْ بِهَا مَوَاقِبَ لَنُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ سَاعَةً وَلَا نَبْغِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: ما ينبغي لأحد أن يعبدنا، فإن عبيدك، فقراءك، وهي قرية المعنى من الأولى. ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْنَاهُمْ وَءَاثَمَهُمْ﴾ أي: طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر، أي: نسوا ما أنزلته إليهم على السنة رسلك، من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك. ﴿وَكَأَنَّا قَوْمٌ بِوِرَاءٍ﴾ قال ابن عباس: أي هلكى. وقال الحسن البصري، ومالك عن الزهري، أي لا خير فيهم. وقال ابن الزبير حين أسلم:

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَفْتُ إِذْ أَنَا بُورُ
إِذْ أَجَارَى الشَّيْطَانُ فِي سَنَنِ الْقَدِّ فِي وَمِنْ مَالٍ مِثْلِهِ مِثْلُورُ

قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: فقد كذبكم الذين عبدتم فيما زعمتم أنهم لكم أولياء، وأنكم اتخذتموهم قرباناً يقربونكم إليه زلفى، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ بَدْعَايَا دُونِ اللَّهِ مِنْ لَدُنْكَ يُسْتَعِيبُ لَكَ إِلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ وَإِذَا حُيِّرُوا وَقَالُوا لَمْ يَأْتِكُمْ أَوَّلُ الْآيَةِ وَقَالُوا بِمِثْلِ مَا كُنْتُمْ تُنَادُونَ كُفْرًا ﴿٢١﴾ [الأحزاب: ٦٠]. وقوله: ﴿فَمَا تَسْتَظِرُّونَ صَرَفًا وَلَا نَصْرًا﴾ أي: لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم، ﴿وَمَنْ يَظْلِمِ نَفْسَهُ﴾ أي: يشرك بالله، ﴿يَرْجُ أَنْ يَكُونَ كَافِرًا﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْفُلُكِ الْبَحْرَ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

يقول تعالى مخبراً عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين: أنهم كانوا يأكلون الطعام، ويحتاجون إلى التغذية به ﴿وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي: للتكسب والتجارة، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم؛ فإن الله جعل لهم من السمات الحسنة، والصفات الجميلة، والأقوال الفاضلة، والأعمال الكاملة، والخوارق الباهرة، والأدلة القاهرة، ما يستدل به كل ذي لب سليم، وبصيرة مستقيمة، على صدق ما جاؤوا به من الله ﷻ. ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ﴾ [يسوف: ١٠٩]. ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِينَ﴾ [الأنبياء: ٨]. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْفُلُكِ الْبَحْرَ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: اخترنا بعضكم ببعض، وبلونا بعضكم ببعض، لنعلم من يطيع ممن يعصي؛ ولهذا قال: ﴿أَنْصُرُوهُ وَكَانَ نَصْرُكَ نَصْرًا﴾ أي: بمن يستحق أن يوحى إليه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به، ومن لا يستحق ذلك. وقال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْفُلُكِ الْبَحْرَ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: يقول الله: لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يخالفون، لفعلت، ولكني قد أردت أن أبتلي العباد بهم، وأبتليهم بهم. وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار، عن رسول الله ﷺ: «يقول الله: إني مُبْتَلِيكَ وَمُبْتَلَى بِكَ». وفي المسند عن رسول الله ﷺ: «لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة»، وفي الصحيح أنه - عليه أفضل الصلاة والسلام - خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَأُنْزِلَ عَلَيْنَا لَوْلَا رَأَيْنَا أَنَّكُمْ كَذِبُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

السدي: قدمنا: عملنا. وبعضهم يقول: أتينا عليه. وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَّةً مَّنْثُورًا﴾: قال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي، رضي الله عنه، في قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَّةً مَّنْثُورًا﴾، قال: شعاع الشمس إذا دخل في الكوة. وكذا روي من غير هذا الوجه عن علي. وروي مثله عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد، ابن جبير، والسدي، والضحاك، وغيرهم. وكذا قال الحسن البصري: هو الشعاع في كوة أحدهم، ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿هَبَّةً مَّنْثُورًا﴾ قال: هو الماء المهرق. وقال أبو الأحوص، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي: ﴿هَبَّةً مَّنْثُورًا﴾ قال: الهباء رجع الدواب وروي مثله عن ابن عباس أيضاً، والضحاك، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال قتادة في قوله: ﴿هَبَّةً مَّنْثُورًا﴾ قال: أما رأيت يبيس الشجر إذا ذرته الريح؟ فهو ذلك الورق. وقال عبد الله بن وهب: أخبرني عاصم بن حكيم، عن أبي سريح الطائي، عن يعلى بن عبيد قال: وإن الهباء الرماد. وحاصل هذه الأقوال التنبية على مضمون الآية، وذلك أنهم عملوا أعمالاً اعتقدوا أنها شيء، فلما عرضت على الملك الحكيم العدل الذي لا يجور ولا يظلم أحداً، إذا إنها لا شيء بالكلية. وشبهت في ذلك بالشئ النافه الحقيق المتفرق، الذي لا يقدر منه صاحبه على شيء بالكلية، كما قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَواتُ الْيَبِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْغُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُبْذِرُ مَالَهُ رِيًا لِلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَكَفَّلَهُ كَمِثْلِهِ هَبْوَانٍ عَلَيْهِ رَبُّهُ فَاصْبِرْ وَاصْبِرْ سَلَامًا وَلَا يَبْغُضُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ يَفِيضٍ يَخْسِبُ الظَّمْآنَ مَاءً حَوْثٍ إِذَا جَاءَهُمْ لَرَّ يَحْدَهُمْ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]. وتقدم الكلام على تفسير ذلك، والله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [٢٠] أي: يوم القيامة: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، وذلك لأن أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات، والغرفات الآمات، فهو من مقام أمين، حسن المنظر، طيب المقام، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُّسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦]، وأهل النار يصيرون إلى الدركات السافلات، والحسرات المتتابعات، وأنواع العذاب والعقوبات، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُّسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦] أي: بش المنزل منظرًا وبئس المقيلاً مقامًا؛ ولهذا قال: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [٢٠] أي: بما عمله من الأعمال المتقبلة، نالوا ما نالوا، وصاروا إلى ما صاروا إليه، بخلاف أهل النار فإنه ليس لهم عمل واحد يقتضي لهم دخول الجنة والنجاة من النار، فنبه - تعالى - بحال السعداء على حال الأشقياء، وأنه لا خير عندهم بالكلية، فقال: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [٢٠]. قال الضحاك، عن ابن عباس: إنما هي ضحوة، فيقبل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين، ويقبل أعداء الله مع الشياطين مقرنين. وقال سعيد بن جبير: يفرغ الله من الحساب نصف النهار، فيقبل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، قال الله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [٢٠]. وقال عكرمة: إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار: هي الساعة التي تكون في الدنيا عند ارتفاع الضحى الأكبر، إذا انقلب الناس إلى أهلهم للقلولة، فينصرف أهل النار إلى النار، وأما أهل الجنة فينطلق بهم إلى الجنة، فكانت قبلوتهم في الجنة وأطعموا كبد حوت، فأشبعهم ذلك كلهم، وذلك قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [٢٠] وقال سفيان، عن مسيرة، عن المنهال، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود، أنه قال: لا يتصف النهار حتى يقبل هؤلاء وهؤلاء ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [٢٠] وقرأ: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨].

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [٢٠] قال: قالوا في الغرف من الجنة، وكان حسابهم أن عرضوا على ربهم عرضة واحدة، وذلك الحساب السيسر، وهو مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَرَادَ كَثِيرًا مِّنْ بَيْنِهِمْ﴾ [٧] ﴿فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَّعْبُرُ﴾ [٨] ﴿وَنَقُوبُ إِلَهِ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [٩] [الانشقاق: ٧-٩]. وقال قتادة في قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [٢٠] أي: مأوى ومنزلًا - قال قتادة: وحدث صفوان بن محرز أنه قال: يجاء يوم القيامة برجلين، أحدهما كان ملكاً في الدنيا - إلى الحمرة والبياض فيحاسب، فإذا عبد، لم يعمل خيراً فيؤمر به إلى النار. والآخر كان صاحب كساء في الدنيا، فيحاسب فيقول: يا رب، ما أعطيتني من شيء فتحاسنني به. فيقول: صدق عبيدي، فأرسلوه. فيؤمر به إلى الجنة، ثم يترك ما شاء الله. ثم يدعى صاحب النار، فإذا هو مثل الحُممة السوداء، فيقال له: كيف وجدت؟ فيقول: شر مقيلاً. فيقال له: عد. ثم يدعى بصاحب الجنة، فإذا هو مثل القمر ليلة البدر، فيقال له: كيف وجدت؟ فيقول: رب، خير مقيلاً. فيقال له: عد. رواها ابن أبي حاتم كلها. وقال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أنبأنا

عمرو بن الحارث، أن سعيداً الصواف حدثه، أنه بلغه: أن يوم القيامة يقصّر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وأنهم ليقبلون في رياض الجنة حتى يفرغ من الناس، وذلك قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ٢٥﴾.

﴿يَوْمَ تَشْفَقُ السَّمَاءُ بِأَلْفَمِهِمْ ٢٥﴾ وَرَبُّ الْمَلَائِكَةِ تَنزِيلًا ٢٥ ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْغَنِيُّ الرَّحِيمُ ٢٦﴾ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا ٢٦ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ الظَّالِمُ عَلَى بَنِيهِ يَكُولُ يَلْتَمِسُنِي أَنْتَحِثُ مَعَ الرُّسُلِ سَبِيلًا ٢٧﴾ يَوْمَئِذٍ لَّيِّنَىٰ لَهُ أَفْعَادُ فَلَا تَأْكُلُهَا ٢٨ ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّقِيُّ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ٢٩﴾.

يخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمعناها انشقاق السماء وتفتطرها وانفراجها بالغنم، وهو ظلل النور العظيم الذي يبهّر الأبصار، ونزول ملائكة السموات يومئذ، فيحيطون بالخالق في مقام المحشر. ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء. قال مجاهد: وهذا كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُمٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُنَّ أَكْثَرُ ٢٥﴾ [البقرة: ٢١٠]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الحارث، حدثنا مؤمل، حدثنا حماد بن سلمة، عن ابن زيد، عن يوسف بن مهزيان، عن ابن عباس، أنه قرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَشْفَقُ السَّمَاءُ بِأَلْفَمِهِمْ ٢٥﴾ وَرَبُّ الْمَلَائِكَةِ تَنزِيلًا ٢٥ ﴿قال ابن عباس: يجمع الله الخلق يوم القيامة في صعيد واحد، الجن والإنس والبهائم والسباع والطيور وجميع الخلق، فتتشق السماء الدنيا، فينزل أهلها - وهم أكثر من الجن والإنس ومن جميع الخلاق - فيحيطون بالجن والإنس وجميع الخلق. ثم تشق السماء الثانية فينزل أهلها، وهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن جميع الخلق فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم والجن والإنس وجميع الخلق ثم تشق السماء الثالثة، فينزل أهلها، وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدنيا ومن جميع الخلق، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم، وبالجن والإنس وجميع الخلق. ثم كذلك كل سماء، حتى تشق السماء السابعة، فينزل أهلها وهم أكثر ممن نزل قبلهم من أهل السموات ومن الجن والإنس ومن جميع الخلق. ثم كذلك كل سماء، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السموات، وبالجن والإنس وجميع الخلق، وينزل ربنا عز وجل في ظلل من الغمام، وحوله الكروبيون، وهم أكثر من أهل السموات السبع والجن والإنس وجميع الخلق، لهم قرون كأعقب القنا، وهم تحت العرش، لهم رَجُلٌ بالتسييح والتهليل والتقدیس لله ﷻ، ما بين إخص قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام، وما بين كعبه إلى ركبته مسيرة خمسمائة عام، وما بين ركبته إلى حُجْزته مسيرة خمسمائة عام وما بين حُجْزته إلى ترقوته مسيرة خمسمائة عام، وما بين ترقوته إلى موضع القُرط مسيرة خمسمائة عام. وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام، وجهنم مجنبتة، هكذا رواه ابن أبي حاتم بهذا السياق.

وقال ابن جرير، حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا الحجاج، عن مبارك بن فضالة، عن علي بن زيد بن جُدعان، عن يوسف بن مهزيان، أنه سمع ابن عباس يقول: إن هذه السماء إذا انشقت نزل منها من الملائكة أكثر من الجن والإنس، وهو يوم التلاق، يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض، فيقول أهل الأرض: جاء ربنا؟ فيقولون: لم يجيء، وهو أت. ثم تشق السماء الثانية، ثم سماء سماء على قدر ذلك من التضعيف إلى السماء السابعة. فينزل منها الملائكة أكثر من جميع من نزل من السموات ومن الجن والإنس. قال: فتنزل الملائكة الكروبيون، ثم يأتي ربنا في حملة العرش الثمانية، بين كعب كل ملك وركبته مسيرة سبعين سنة، وبين فخذه ومنكبه مسيرة سبعين سنة. قال: وكل ملك منهم لم يتأمل وجه صاحبه، وكل ملك منه واضح رأسه بين يديه يقول: سبحان الملك القدوس. وعلى رؤوسهم شيء مبسوط كأنه القباء، والعرش فوق ذلك. ثم وقف، فمداره على علي بن زيد بن جُدعان، وفيه ضعف، وفي سياقاته غالباً نكارة شديدة. وقد ورد في حديث الصور المشهور قريب من هذا، والله أعلم. وقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ١٥﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ١٦ ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ١٧﴾ [الحاقة: ١٥ - ١٧]، قال شهر بن حوشب: حملة العرش ثمانية، أربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك. وأربعة يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرك، رواه ابن جرير عنه. وقال أبو بكر بن عبد الله: إذا نظر أهل الأرض إلى العرش يهبط عليهم من فوقهم، شخصت إليه أبصارهم، ورجفت كلاًهم في أجوافهم، وطارت قلوبهم من مقرها من صدورهم إلى حناجرهم. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا معتمر بن سليمان، عن عبد الجليل، عن أبي حازم، عن عبد الله بن عمرو قال: يهبط الله حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب، منها النور والظلمة، فَيُصَوِّرُ الماء في تلك الظلمة صَوْتًا تَنخَلُجُ منه القلوب. وهذا موقف على عبد الله بن عمرو من كلامه، ولعله من الزامتين، والله أعلم. وقوله تعالى:

﴿لَنُنَبِّئَنَّ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَفَعْنَاهُ نَزِيلًا﴾: قال قتادة: وبيناه تبييناً. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: وفسرناه تفسيراً. ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: بحجة وشبهة ﴿إِلَّا يَحْتَسِبُكَ بِالْعَقَىٰ وَأَحْسَنَ تَقْيِيرًا﴾ أي: ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق، إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر، وأبين وأوضح وأفصح من مقالهم. قال سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول ﴿إِلَّا يَحْتَسِبُكَ بِالْعَقَىٰ وَأَحْسَنَ تَقْيِيرًا﴾ أي: إلا نزل جبريل من الله بجوابهم. ثم في هذا اعتناء كبير؛ لشرف الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، حيث كان يأتيه الوحي من الله بالقرآن صباحاً ومساءً، ليلاً ونهاراً، سفيراً وحضراً، فكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة، فهذا المقام أعلى وأجل، وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله، ومحمد، صلوات الله وسلامه عليه، أعظم نبي أرسله الله وقد جمع الله تعالى للقرآن الصفتين معاً، ففي الملا الأعلى أنزل جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك إلى الأرض منجماً بحسب الوقائع والحوادث. قال أبو عبد الرحمن النسائي: أخبرنا أحمد بن سليمان، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا داود، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا يَحْتَسِبُكَ بِالْعَقَىٰ وَأَحْسَنَ تَقْيِيرًا﴾، وقوله: ﴿وَقَوْمًا كَذَّبُوا فَقَدْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغُلَّيْلَ﴾ [الاسراء: ١٠٦]. ثم قال تعالى مخبراً عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم، في أسوأ الحالات وأقبح الصفات: ﴿الَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ أَنَّ الْجَاهِلِيَّةَ مِنْهُمُ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أَوْلَىٰ بِكُمْ مِمَّا كَانُوا مَكَانًا وَأَنْسَلُ سَبِيلًا﴾. وفي الصحيح، عن أنس: أن رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «إن الذي أمشاه على رجله قادر أن يُمشيَّه على وجهه يوم القيامة». وهكذا قال مجاهد، والحسن، وقاتدة، وغير واحد من المفسرين، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَحَفَّتَا مَمَّهٖ عَنْهُ هُتُوتٌ وَزَيْرًا﴾ [٣٥] فَقَلَّ أَنْهَبًا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَرَزْنَاهُمْ نَوْمًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمٌ لَّمَّا كَذَبُوا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ نَارُ الْغُلَّيْلِ ﴿٣٧﴾ وَأَعْتَدْنَا لِلْغُلَّيْلِ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٨﴾ وَعَادًا وَقَوْمًا وَفَرُونَ بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٩﴾ وَكَلَّا صَبَّآ لَهُ الْأَنْثَلُ وَكَلَّا تَبَرَّآ تَنْبِيرًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا عَلَى الْقُرَيْشِ الْوَيْلَ أَنْطَرَتْ مَطَرُ السَّوَةِ أَفْكَمَ يَكُونُوا يَكُونُهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجِعُونَ فُتُورًا ﴿٤١﴾.

يقول تعالى متوعداً من كذب رسوله محمداً، صلوات الله وسلامه عليه، من مشركي قومه ومن خالفه، ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه، مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله، فبدأ بذكر موسى، عليه السلام، وأنه ابتعثه وجعل معه أخاه هارون وزيراً، أي: نبياً موازراً ومؤيداً وناصراً، فكذبهما فرعون وجنوده، فدَّمرَ الله عليهم وللكافرين أنثالاً [محمد: ١٠]. وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحاً، عليه السلام، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل؛ إذ لا فرق بين رسول ورسول، ولو فرض أن الله بعث إليهم كل رسول فإنهم كانوا يكذبونه؛ ولهذا قال: ﴿وَقَوْمٌ نُوْحٌ لَّمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ﴾، ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله، ويحذرهم نقمه، فما آمن معه إلا قليل. ولهذا أغرقهم الله جميعاً، ولم يبق منهم أحد، ولم يبق على وجه الأرض من بني آدم سوى أصحاب السفينة فقط. ﴿وَحَفَّتَا مَمَّهٖ عَنْهُ هُتُوتٌ وَزَيْرًا﴾ أي: عبرة يعتبرون بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَّا مَلَكًا مَلَكًا حَمَلَكُوْا فِي الْبَارِيَةِ﴾ [يونس: ١٠١] لِنَجْلَهُمْ لَكُمُ نَذْرًا وَفِيهَا أَذَىٰ رَّعِيَّةٍ [الحاقة: ١١، ١٢]. أي: وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لُجج البحار، لتذكروا نعمة الله عليكم في إنجائكم من الغرق، وجعلكم من ذرية من آمن به وصدق أمره. وقوله: ﴿وَعَادًا وَقَوْمًا﴾ قد تقدم الكلام على قصتيهما في غير ما سورة، منها في سورة «الأعراف» بما أغنى عن الإعادة. وأما أصحاب الرس فقال ابن جريج، عن ابن عباس: هم أهل قرية من قرى ثمود. وقال ابن جريج: قال عكرمة: أصحاب الرس بقلج وهم أصحاب يس. وقال قتادة: فلج من قرى اليمامة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم النبيل، حدثنا الضحاك بن مخلد أبو عاصم، حدثنا شبيب بن بشر، حدثنا عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَحْصَىٰ آرَئِينَ﴾ قال: بشر بأذربيجان. وقال سفيان الثوري عن أبي بكير، عن عكرمة: الرس بئر رسوا فيها نبيهم. أي دفنوه بها.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود، وذلك أن الله - تعالى وتبارك - بعث نبياً إلى أهل قرية، فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود، ثم إن أهل القرية عدوا على النبي، فحفروا له بئراً فألقوه فيها، ثم أطبقوا عليه بحجر ضخيم» قال: «فكان ذلك العبد يذهب فيحطب على ظهره، ثم يأتي بحطبه فيبيعه، ويشترى به طعاماً وشراباً، ثم يأتي به إلى تلك البئر، فيرفع تلك الصخرة، ويعينه الله عليها، فيدلي إليه طعامه وشرابه، ثم يردها كما كانت». قال: «فكان كذلك ما شاء الله أن يكون، ثم إنه ذهب يوماً يحطب كما كان يصنع، فجمع

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿١٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿١٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِأَسَاسًا وَالنَّوْمَ سَبَاقًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿١٧﴾﴾

من ها هنا شرع تعالى في بيان الأدلة الدالة على وجوده، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ؟﴾ قال ابن عباس، وابن عمر، وأبو العالية، وأبو مالك، ومسروق، ومجاهد، وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي، والضحاك، والحسن البصري، وقتادة، والسدي، وغيرهم: هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي: دائماً لا يزول، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَوْيَسِّرُ لَكُمْ أَسْيَرَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢]. وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الظِّلَّ دَلِيلًا﴾ أي: لولا أن الشمس تطلع عليه، لما عرف، فإن الضد لا يعرف إلا بضده. وقال قتادة: والسدي: دليلاً يتلوه ويتبعه حتى يأتي عليه كله. وقوله: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [٦١] أي: الظل. وقيل: الشمس ﴿يَسِيرًا﴾ أي: سهلاً. قال ابن عباس: سريعاً. وقال مجاهد: خفيفاً. وقال السدي: قبضاً خفيفاً، حتى لا يبقى في الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة، وقد أظلت الشمس ما فوقه. وقال أيوب بن موسى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [٦١] أي: قليلاً قليلاً. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْيَلَّ الْيَاسًا﴾ أي: يلبس الوجود ويُعْشيه، كما قال: ﴿وَالْيَلَّ إِذَا يَتَقَى﴾ [الليل: ١] وقال: ﴿وَالْيَلَّ إِذَا يَتَقَى﴾ [الشمس: ٤]. ﴿وَاللَّيْلُ سَبَاطًا﴾ أي: قطعاً للحركة لراحة الأبدان، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة في الانتشار بالنهار في المعاش، فإذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات، فاستراحت فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معاً. ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ تَشْوِيرًا﴾ أي: ينشر الناس فيه لمعاشهم ومكاسبهم وأسبابهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ رَضَعْتَهُ يَجْعَلْ لَكُمْ الْيَلَّ الْيَلَّ وَالنَّهَارَ لِيَتَسَكَّرُوا فِيهِ وَلِتَلْبَغُوا مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُثْرًا يَنْفُثُ بِهَا رَحْمَتَهُ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [٦٨] لِنُغَيِّثَ بِهِ بَلَدًا مَيِّتًا وَتُغَيِّثُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْبِيَاءَ كَثِيرًا ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَلَّا أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٧٠﴾.

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات، أي: بمجيء السحاب بعدها، والرياح أنواع، في صفات كثيرة من التسخير، فمنها ما يثير السحاب، ومنها ما يحمله، ومنها ما يسوقه، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشراً، ومنها ما يكون قبل يثْم الأرض، ومنها ما يلقي السحاب ليمطر؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ أي: آلة يتطهر بها، كالسحور والوقود وما جرى مجراه. فهذا أصح ما يقال في ذلك. وأما من قال: إنه فعول بمعنى فاعل، أو: إنه مبني للمبالغة أو التعدي، فعلى كل منهما إشكالات من حيث اللغة والحكم، ليس هذا موضع بسطها، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، عن أبي جعفر الرازي، حدثني حميد الطويل، عن ثابت البناني قال: دخلت مع أبي العالية في يوم مطير، وطرق البصرة قدرة، فصلى، فقلت له، فقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾، قال: طهره ماء السماء. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا وهيب، عن داود، عن سعيد بن المسيب في هذه الآية: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ قال: أنزله الله ماء طاهراً لا ينجسه شيء. وعن أبي سعيد قال: قيل: يا رسول الله، أنزواً من بثر بضاعة؟ - وهي بثر يُلقى فيها الثن ولحوم الكلاب - فقال: «إن الماء طهور لا ينجسه شيء». رواه الشافعي، وأحمد وصححه، وأبو داود، والترمذي، وحسنه، والنسائي. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الأشعث، حدثنا معتمر، سمعت أبي يحدث عن سيّار، عن خالد بن يزيد، قال: كان عند عبد الملك بن مروان، فذكروا الماء، فقال خالد بن يزيد: منه من السماء، ومنه ما يسقيه الغيم من البحر فيغذيه الرعد والبرق. فأما ما كان من البحر، فلا يكون له نبات، فأما النبات فمما كان من السماء. وروي عن عكرمة قال: ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عشباً أو في البحر لؤلؤة. وقال غيره: في البربر، وفي البحر دُرّ. وقوله: ﴿لِنُغَيِّثَ بِهِ بَلَدًا مَيِّتًا﴾ أي: أرضاً قد طال انتظارها للغيث، فهي هامدة لا نبات فيها ولا شيء. فلما جاءها الحيا عاشت واكتست رباها أنواع الأزهار والألوان، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَرَتْ وَرَبَّتْ وَكَانَتْ مِنَ كَلْبٍ رَاقٍ بَهِيحٍ﴾ [الحج: ٥]. ﴿وَتُغَيِّثُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْبِيَاءَ كَثِيرًا﴾ أي: وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسي محتاجين إليه غاية الحاجة، لشربهم وزروعهم وثمارهم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَاسِدٍ مَا قَطَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْغَوِيُّ الْغَوِيُّ﴾ [الشورى: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى ثَأْنِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُغِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنَى الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا﴾ أي: أمطرتنا هذه الأرض دون هذه، وسقنا السحاب فمر على الأرض وتعداها وجاوزها إلى الأرض الأخرى، فأمطرتها وكفيتها فجعلناها عذقاً، والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة من ماء، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة. قال ابن مسعود وابن عباس: ليس عام بأكثر مطراً من عام، ولكن الله يصرفه كيف يشاء، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ

صَرَفْتَهُ يَتِيمَ لِيَذْكُرُوا فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا كُفُورًا ﴿٥٠﴾. أي: ليذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات. أو: ليذكر من منع القطر أنما أصابه ذلك بذنب أصابه، فيقلع عما هو فيه. وقال عُمَرُ مولى عُفْرَةَ: كان جبريل، عليه السلام، في موضع الجنائز، فقال له النبي ﷺ: «يا جبريل، إني أحب أن أعلم أمر السحاب؟» قال: فقال جبريل، يا نبي الله، هذا ملك السحاب فسله. فقال: تأتينا صكاك مُحْتَمَةٌ: اسق بلاد كذا وكذا، وكذا وكذا قطرة. رواه ابن حاتم، وهو حديث مرسل. وقوله: ﴿فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا كُفُورًا﴾: قال عكرمة: يعني: الذين يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا. وهذا الذي قاله عكرمة كما صح في الحديث المخرج في صحيح مسلم، عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوماً، على أثر سماء أصابته من الليل: «أتدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب. وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذاك كافر بي، مؤمن بالكوكب.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَسْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا يُلَاحِظُ الْكَافِرِينَ وَجَهَنَّمَ بِهِ جَهَنَّمَ كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا يَمِلُحٌ لَّحَاجٍ رَجَمَلٌ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ وَجِجَرٌ تَحْجُرًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَسْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾﴾: يدعوه إلى الله ﷻ ولكن خصصناك - يا محمد - بالبعثة إلى جميع أهل الأرض، وأمرناك أن تبلغ الناس هذا القرآن، ﴿لَا نَذِيرُكَ بِهِ وَمَنْ يَلْعَلْ﴾ [الأنعام: ١٩]، ﴿وَمَنْ يَكْثُرُ بِهِ مِنَ الْآخِرِينَ فَالْأَنَارُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [محد: ١٧]، ﴿وَلَنُنَبِّئُ أُمَّ الْكُفْرِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]، ﴿ثَلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وفي الصحيحين: «بعثت إلى الأحمر والأسود». وفيهما: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا يُلَاحِظُ الْكَافِرِينَ وَجَهَنَّمَ بِهِ﴾ يعني: بالقرآن، قاله ابن عباس «جهنم كَبِيرًا»، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّارُ جَهَنَّمَ الْكَفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَكَافِلًا عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ١٩]. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا يَمِلُحٌ لَّحَاجٍ﴾ أي: خلق الماءين: الحلو والملح، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار، وهذا هو البحر الحلو الفرات العذب الزلال. قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير، وهذا الذي لا شك فيه، فإنه ليس في الوجود بحر ساكن وعو عذب فرات. والله سبحانه إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه، فالبحر العذب هو هذا السراح بين الناس، فرقه تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهاراً وعيوناً في كل أرض بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم.

وقوله: ﴿وَهَذَا يَمِلُحٌ لَّحَاجٍ﴾ أي: مالح مَزْعَاقٍ لا يستساغ، وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغارب: البحر المحيط وما يتصل به من الزقاق وبحر القلزم، وبحر اليمن، وبحر البصرة، وبحر فارس وبحر الصين والهند وبحر الروم وبحر الخزر، وما شاكلها وشابها من البحار الساكنة التي لا تجري، ولكن تتموج وتضطرب وتغتمل في زمن الشتاء وشدة الرياح، ومنها ما فيه مد وجزر، ففي أول كل شهر يحصل منها مد وفيض، فإذا شرع الشهر في النقصان جزرت، حتى ترجع إلى غايتها الأولى، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت في المد إلى الليلة الرابعة عشرة ثم تشرع في النقص، فأجرى الله سبحانه وتعالى - وله القدرة التامة - العادة بذلك. فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله سبحانه وتعالى مالحة الماء، لئلا يحصل بسببها تنن الهواء، فيفسد الوجود بذلك، ولئلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان. ولما كان ماؤها ملحاً كان هواؤها صحيحاً وميتها طيبة؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «قد سنل عن ماء البحر: أنتوضأ به؟ فقال: «هو الطهور ماؤه، الحل ميتته». رواه الأئمة: مالك، والشافعي، وأحمد، وأهل السنن بإسناد جيد. وقوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجَرًا تَحْجُرًا﴾ أي: بين العذب والمالح ﴿بَرْزَخًا﴾ أي: حاجزاً، وهو اليبس من الأرض، ﴿وَجِجَرًا تَحْجُرًا﴾ أي: مانعاً أن يصل أحدهما إلى الآخر، كما قال: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ بَيْنَيَانِ ﴿٥١﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبِغِيَانِ ﴿٥٢﴾ فَإِنِّي مَالِكٌ بِرَبِّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٥٣﴾﴾ [الرحمن: ١٩-٢١]، وقال تعالى: ﴿أَنْتَ جَعَلْتَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَافَهَا أَثْهَرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النمل: ٦١]. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ أي: خلق الإنسان من نطفة ضعيفة، فسواه وعذله، وجعله كامل الخلق، ذكراً أو أنثى، كما يشاء، ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾، فهو في ابتداء أمره ولد نسيب، ثم يتزوج فيصير صهراً، ثم يصير له أصهار وأختان وقربات. وكل ذلك من ماء مهين؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

﴿وَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٧﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَهًا دُونَ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٨﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُشْرَى عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَبِّحْ لَهُ بِحَمْدِهِ خَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَلَئِنْ قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦١﴾﴾.

يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام، التي لا تملك لهم نفعاً ولا ضرراً، بلا دليل قادم إلى ذلك، ولا حجة أدتهم إليه، بل بمجرد الآراء، والتشهي والأهواء، فهم يوالونهم ويقاتلون في سبيلهم، ويعادون الله ورسوله والمؤمنون فيهم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ أي: عوناً في سبيل الشيطان على حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّهُمْ يُسَبِّحُونَ﴾ [٧٦] لَا يَسْتَطِيعُونَ قَسْرَتَهُمْ وَهُمْ لَمَّ يَجِدْ كُفْرَهُمْ كُفْرًا ﴿٧٥﴾ [يس: ٧٥، ٧٤] أي: آلهتهم التي اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصراً، وهؤلاء الجهلة للأصنام جند محضرون يقاتلون عنهم، ويذبون عن حوزتهم، ولكن العاقبة والنصرة لله ولرسوله في الدنيا والآخرة. قال مجاهد: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ قال: يظهر الشيطان على معصية الله، يعينه. وقال سعيد بن جبيرة: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ يقول: عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك. وقال زيد بن أسلم: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ قال: موالياً. ثم قال تعالى لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [٥١] أي: بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، مبشراً بالجنة لمن أطاع الله، ونذيراً بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله. ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَثَرٍ﴾ أي: على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم، وإنما أفعال ذلك ابتغاء وجه الله، ﴿لَئِن شَكَتُمُ إِلَىٰ رَبِّكُمْ أَسْتَجِبْ لَهُمْ﴾ [التكوير: ٢٨]، ﴿إِنَّمَا مَن شَكَتْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَيَكُنْ أَرْتَبًا وَمَسْئَلًا وَمَنْجَبًا يَفْتَدِي فِيهَا بِمَا جَنَّتْ بِهِ﴾. ثم قال: ﴿وَوَكَّلْ عَلَىٰ آلِيَّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أي: في أموركم كلها كن متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت أبداً، الذي هو ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، الدائم الباقي السرمدي الأبدى، الحي القيوم رب كل شيء ومليكه، اجعله دُخْرِك وملجأك، وهو الذي يتوكل عليه ويفزع إليه، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عبد الله بن محمد بن علي بن نَعْلٍ قال: قرأت على مَعْقِل - يعني ابن عبيد الله - عن عبد الله بن أبي حسين، عن شهر بن حَوْشَب قال: لقي سلمان رسول الله ﷺ في بعض فجاج المدينة، فمسجد له، فقال: «لا تسجد لي يا سلمان، واسجد للحي الذي لا يموت». وهذا مرسل حسن. وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ بِحَبِيبِهِ﴾ أي: اقرن بين حمده وتسبيحه؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك» أي: أخلص له العبادة والتوكل، كما قال تعالى: ﴿رَبِّكَ لِلشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ كِبْرًا﴾ [الزمر: ٩]. وقال: ﴿فَاتَّبِعْهُ وَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [مرد: ١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ مَتَّعًا بِهِمْ وَتَوَلَّوْا وَتَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]. وقوله: ﴿وَكُنْ بِمِ يَدَيْهِ عِوَاوَةً حَبِيرًا﴾ أي: لعلمه التام الذي لا يخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة. وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: هو الحي الذي لا يموت، وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه، خلق بقدرته وسلطانه السموات السبع في ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع في سفولها وكثافتها، ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾، أي: يدبر الأمر، ويقضي الحق، وهو خير الفاضلين. وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَتَنَّا بِهِ حَبِيرًا﴾ أي: استعلم عنه من هو خبير به عالم به فاتبعه واقتد به، وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه، على سيد ولد آدم على الإطلاق، في الدنيا والآخرة، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى - فما قاله فهو حق، وما أخبر به فهو صدق، وهو الإمام المحكم الذي إذا تنازع الناس في شيء وجب ردّ نزاعهم إليه، فما يوافق أقواله، وأفعاله فهو الحق، وما يخالفها فهو مردود على قائله وفاعله، كأننا من كان، قال الله تعالى: ﴿إِن لَّنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ مِّنْهُ قُوَّةً إِلَى اللَّهِ وَالرُّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿رَزَقَتْ كُلَّمَا رَزَقَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقاً في الإخبار وعدلاً في الأوامر والنواهي؛ ولهذا قال: ﴿فَتَنَّا بِهِ حَبِيرًا﴾ قال مجاهد في قوله: ﴿فَتَنَّا بِهِ حَبِيرًا﴾ قال: ما أخبرتك من شيء فهو كما أخبرتك. وكذا قال ابن جريج. وقال شمر بن عطية في قوله: ﴿فَتَنَّا بِهِ حَبِيرًا﴾ قال: هذا القرآن خبير به. ثم قال تعالى منكرأ على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ أَيْ: لا نعرف الرحمن. وكانوا ينكرون أن يُسمى الله باسمه الرحمن، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي ﷺ للكاتب: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم، ولكن اكتب كما كنت تكتب: باسمك اللهم؛ ولهذا أنزل الله: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْمُسَمَّيَاتُ﴾ [الإسراء: ١١٠] أي: هو الله وهو الرحمن. وقال في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ أَيْ: لا نعرفه ولا نقر به؟﴾ ﴿فَتَجَدَّ لِمَا نَأْمُرُكَ﴾ أي: لمجرد قولك؟ ﴿وَرَدَّاهُمْ تَقَرُّوْا﴾، أما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم، ويُفَرِّدونه بالإلهية ويسجدون له. وقد

اتفق العلماء - رحمهم الله - على أن هذه السجدة التي في الفرقان مشروع السجود عندها لقارئها ومستمعها، كما هو مقرر في موضعه، والله أعلم.

﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَمَعَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا يَرَبَكُمَا وَقَصَرَ ثُبُورًا ۝٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ الْيَلَّ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾.

يقول تعالى ممجداً نفسه، ومعظماً على جميل ما خلق في السماء من البروج - وهي الكواكب العظام - في قول مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبي صالح، والحسن، وقتادة. وقيل: هي قصور في السماء للحرس، يروى هذا عن علي، وابن عباس، ومحمد بن كعب، وإبراهيم النخعي، وسليمان بن مهران الأعمش. وهو رواية عن أبي صالح أيضاً، والقول الأول أظهر. اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هي قصور للحرس، فيجتمع القولان، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَزَقْنَاهُ الذِّينَ يَصْنَعُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]؛ ولهذا قال: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَمَعَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا يَرَبَكُمَا﴾ وهي الشمس المنيرة، التي هي كالسراج في الوجود، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا يَرَبَكُمَا وَقَلْبًا ۝٦٢﴾ [النبا: ١٣]. ﴿وَقَصَرَ ثُبُورًا أَي: مضياً مشرقاً بنور آخر ونوع وفن آخر، غير نور الشمس، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَمَعَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، وقال مخبراً عن نوح، عليه السلام، أنه قال لقومه: ﴿أَوَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۝٦٣﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ يَرَبَكُمَا ۝٦٤﴾ [نوح: ١٥، ١٦]. ثم قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ الْيَلَّ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ۝٦٥﴾ أي: يخلف كل واحد منهما الآخر، يتعاقبان لا يفتران. إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب ذلك، كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْيَلَّ وَالنَّهَارَ ۝٦٦﴾ [إبراهيم: ٣٣]، وقال: ﴿يَقْنِيهِ الْيَلَّ الْنَّهَارَ يَطْلُبُهُ حِينًا وَالْقَمَرُ وَالنَّجْمُ مَسْفُوحِينَ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْيَلُّ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٦٧﴾ [يس: ٤٠]. وقوله: ﴿لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي: جعلهما يتعاقبان، توقيفاً لعبادة عباده له، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل. وقد جاء في الحديث الصحيح: «إن الله تعالى ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل». قال أبو داود الطيالسي: حدثنا أبو حرة، عن الحسن: أن عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى، فقيل له: صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه؟ فقال: إنه بقي علي من وردي شيء، فأحببت أن أتبه - أو قال: أقضيه - وتلا هذه الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ الْيَلَّ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ الْيَلَّ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ يقول: من فاته شيء من الليل أن يعمل، أدركه بالنهار، أو من النهار أدركه بالليل. وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير. والحسن. وقال مجاهد، وقتادة: ﴿خِلْفَةً أَي: مختلفين، هذا بسواده، وهذا بضياه.

﴿وَيَسَّادُ الرَّحْمَنُ الَّذِيكَ يَشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبْشُرُونَ بِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾.

هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿الَّذِيكَ يَشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: بسكينته وقار من غير جبرية ولا استكبار، كما قال: ﴿وَلَا تَشِ فِي الْأَرْضِ مَرَمًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ لِبَالًا طُولًا ۝٦٧﴾ [الإسراء: ٣٧]. فاما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح، ولا أشر، ولا بطر، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصانع تصنعاً وزياء، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صيب، وكأنما الأرض تطوى له. وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع، حتى روي عن عمر أنه رأى شاباً يمشي زويداً، فقال: ما بالك؟ أنت مريض؟ قال: لا، يا أمير المؤمنين. فعلاه بالدرة، وأمره أن يمشي بقوة. وإنما المراد بالهون ها هنا السكينة والوقار، كما قال رسول الله ﷺ: «إذا أتيت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فاتموا».

وقال عبد الله بن المبارك، عن مَعْمَر، عن يحيى بن المختار، عن الحسن البصري في قوله: ﴿وَيَسَّادُ الرَّحْمَنُ الَّذِيكَ يَشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ قال: إن المؤمنين قوم ذُلُّ، ذلت منهم - والله - الأسماع والأبصار والجوارح، حتى تحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض، وإنهم لأصحاء، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة، فقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن. أما والله ما أحزنهم حزن الناس، ولا تعاضم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة، أبكاهم الخوف من النار، وإنه من لم يتعز بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات، ومن لم ير الله نعمة إلا في مطعم أو في مشرب، فقد قل علمه وحضر عذابه. وقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ أي: إذا سفه عليهم الجهال بالسيء، لم يقابلوهم عليه بمثل، بل يعفون

ويفصحون، ولا يقولون إلا خيراً، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حِلماً، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ

الْفُكْرَ عَنْهُمْ عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا عُنْكَ وَأَنْتُمْ عَلَيْنَا لَعَلَّكُمْ تَكُونُونَ﴾ [النجم: ٥٥]. وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبي خالد الوالبي، عن النعمان بن مقرن المزني قال: قال رسول الله ﷺ وسب رجل رجلاً عنده، قال: فجعل الرجل المسبوب يقول: عليك السلام. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما إن ملكاً بينكما يذب عنك، كلما شتمك هذا قال له: بل أنت وأنت أحق به. وإذا قال له: عليك السلام، قال: لا، بل عليك، وأنت أحق به». إسناده حسن، ولم يخرجوه. وقال مجاهد: ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ يعني: قالوا: سداداً. وقال سعيد بن جبير: ردوا معروفاً من القول. وقال الحسن البصري: ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ قال: حلماء لا يجهلون، وإن جهل عليهم حلموا. يصاحبون عباد الله نهارهم بما تسمعون. ثم ذكر أن ليلهم خير ليل. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ زِينَةً دُنْيَا وَفِتْنَةً﴾ [النجم: ٦١] أي: في عبادته وطاعته، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ قُلُوبٌ لَا يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ وَمَا يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النجم: ٦١] وقال: ﴿لَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَصَائِحِ يَدْعُونَ لَهُمْ خُوفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦] وقال: ﴿أَمَنْ هُوَ فَنَسَّ مَائَةً أَلَيْلٍ سَلِيمًا وَقَالِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ﴾ [الزمر: ٢٩]، ولهذا قال: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: ملازماً دائماً، كما قال الشاعر:

إِنْ يُعَذَّبَ يَكُنْ غَرَامًا، وَإِنْ يُعْطَ طَ جَزِيلًا، فَلِإِنَّهُ لَا يُبَالِي

ولهذا قال الحسن في قوله: ﴿إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام، وإنما الغرام اللازم ما دامت السموات والأرض. وكذا قال سليمان التيمي. وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ يعني: ما نعموا في الدنيا، إن الله سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه، فأغرمهم فأدخلهم النار. ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [النجم: ٦١] أي: بش المنزل منظرًا، وبش المقييل مقامًا. وقال ابن أبي حاتم عند قوله: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [النجم: ٦١]: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش، عن مالك بن الحارث قال: إذا طُرح الرجل في النار هوى فيها، فإذا انتهى إلى بعض أبوابها قيل له: مكانك حتى تتحف، قال: فيسقى كأساً من سُمِّ الأسود والعقارب، قال: فيميز الجلد على حدة، والشعر على حدة، والعصب على حدة، والعروق على حدة. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن الأعمش، عن مجاهد، عن عبيد بن عمير قال: إن في النار لجباباً فيها حيات أمثال البخت، وعقارب أمثال البغال الدلثم، فإذا قذف بهم في النار خرجت إليهم من أوطانها فأخذت بشفاهم وأبشارهم وأشعارهم، فكشطت لحومهم إلى أقدامهم، فإذا وجدت النار رجعت. وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا سلام - يعني ابن مسكين - عن أبي ظلال، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إن عبداً في جهنم لينادي ألف سنة: يا حنان، يا منان. فيقول الله لجبريل: اذهب فأتني بعبد هذا. فينطلق جبريل فيجد أهل النار مُنكبين يبكون، فيرجع إلى ربه ﷻ فيخبره، فيقول الله ﷻ: أتني به فإنه في مكان كذا وكذا. فيجيء به فيوقفه على ربه ﷻ، فيقول له: يا عبدي، كيف وجدت مكانك ومقيلك؟ فيقول: يا رب شر مكان، شر مقيل. فيقول: ردوا عبدي. فيقول: يا رب، ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تردني فيها! فيقول: دعوا عبدي.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [النجم: ٦٧] أي: ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهلهم فيقصرون في حقهم فلا يكتفون، بل عذلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا، ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾، كما قال: ﴿وَلَا يَجْعَلْ يَدَكَ مَرْغُولًا إِنَّ عَفْوَكَ كَلِّ الْأَسَاطِيرِ فَنَقَعْدُ مَلُومًا مُحْسَرًا﴾ [الإسراء: ٢٩]. وقال الإمام أحمد: حدثنا عصام بن خالد، حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني، عن ضمرة، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «من فقه الرجل رفقه في معيشته. ولم يخرجوه. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو عبيدة الحداد، حدثنا سُكَيْنُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْعُبَيْدِي، حدثنا إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عال من اقتصد». ولم يخرجوه. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن يحيى، حدثنا إبراهيم بن محمد بن ميمون، حدثنا سعيد بن حكيم، عن مسلم بن حبيب، عن بلال - يعني العبيسي - عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحسن القصد في الغنى، وأحسن القصد في الفقر، وأحسن القصد في العباداة». ثم قال: لا نعرفه يروى إلا من حديث حذيفة رضي الله عنه. وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله فهو سرف. وقال غيره: السرف النفقة في معصية الله. وقال الحسن البصري: ليس النفقة في سبيل الله سرف والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهْكًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الذنب أكبر؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قال: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قال: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك». قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾.

وهكذا رواه النسائي عن هناد بن السري، عن أبي معاوية، به. وقد أخرجه البخاري ومسلم، من حديث الأعمش ومنصور - زاد البخاري: وواصل - ثلاثتهم عن أبي وائل، شقيق بن سلمة، عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل، عن ابن مسعود، به، فالحق أعلم، ولفظهما عن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ الحديث. طريق قريب: وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي، حدثنا عامر بن مذكّر، حدثنا السري - يعني ابن إسماعيل - حدثنا الشعبي، عن مسروق قال: قال عبد الله: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم فاتبعته، فجلس على نَشْر من الأرض، وقعدت أسفل منه، ووجهي حيال ركبتيه، واغتنمت خلوته وقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أي الذنوب أكبر؟ قال: «أن تدعو الله نداً وهو خلقك». قلت: ثم مه؟ قال: «أنت تقتل ولدك كراهية أن يطعم معك». قلت: ثم مه؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك». ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾. إلى آخر الآية. وقال النسائي: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا جرير، عن منصور، عن هلال بن يساف، عن سلمة بن قيس قال: قال رسول الله ﷺ: لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا. وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن المديني، رحمه الله، حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان، حدثنا محمد بن سعد الأنصاري، سمعت أبا طيبة الكلاعي، سمعت المقداد بن الأسود، رضي الله عنه، يقول: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ما تقولون في الزنا؟» قالوا: حرمه الله ورسوله، فهو حَرَام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لأن يزني الرجل بعشر نساء أسير عليه من أن يزني بامرأة جاره». قال: «ما تقولون في السرقة؟» قالوا: حرمها الله ورسوله، فهي حرام. قال: «لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أسير عليه من أن يسرق من جاره». وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا عمار بن نصر، حدثنا بقية، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن الهيثم بن مالك الطائي عن النبي ﷺ: قال: «ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رَحِم لا يحل له». وقال ابن جرير: أخبرني يعلى، عن سعيد بن جبيرة أنه سمعه يحدث عن ابن عباس: أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، ولو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾، ونزلت: ﴿قُلْ يَجِبَاؤُا الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر: ٥٣]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا بن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن أبي فاختة قال: قال رسول الله ﷺ لرجل: «إن الله ينهك أن تعبد المخلوق وتدع الخالق، وينهك أن تقتل ولدك وتغذو كلبك، وينهك أن تزني بحليلة جارك». قال سفيان: وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾. وقوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾: روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال: «أثاماً»: واد في جهنم. وقال عكرمة: «يَلْقَ أَثَامًا»: أودية في جهنم يعذب فيها الزناة. وكذا روي عن سعيد بن جبيرة، ومجاهد. وقال قتادة: «يَلْقَ أَثَامًا»: نكالا، كنا نحدث أنه واد في جهنم. وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول: يا بني، إياك والزنا، فإنه أوله مخافة، وآخره ندامة. وقد ورد في الحديث الذي رواه ابن جرير وغيره، عن أبي أمامة الباهلي - موقوفاً ومرفوعاً -: أن «غيا» و «أثاماً» بثران في قعر جهنم. أجازنا الله منها بمنه وكرمه. وقال السدي: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾: جزاء. وهذا أشبه بظاهر الآية؛ ولهذا فسره بما بعده مبدلاً منه، وهو قوله: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يكرر عليه ويغلظ، ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهْكًا﴾ أي: حقيقاً ذليلاً. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ أي: جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ في الدنيا إلى الله من جميع ذلك، فإن الله يتوب عليه. وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل، ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٩٣] فإن هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة، فتحمل على من

لم يتب، لأن هذه مقيدة بالتوبة، ثم قد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَعْرِفُ مَا تَدُونُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقد ثبتت السنة الصحيحة، عن رسول الله ﷺ بصحة توبة القاتل، كما ذكر مقررًا من قصة الذي قتل مائة رجل ثم تاب، وقبل منه، وغير ذلك من الأحاديث. وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قولان: أحدهما: أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قال: هم المؤمنون، كانوا من قبل إيمانهم على السيئات، فرغب الله بهم عن ذلك فحولهم إلى الحسنات، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات. وروى مجاهد، عن ابن عباس أنه كان ينشد عند هذه الآية:

بُذِّلْنَ بَغْدَ خَرَّةٍ خَرِيفًا وَبَغْدَ طُولِ الثُّفَسِ الْوَجِيفًا
يعني: تغيرت تلك الأحوال إلى غيرها.

وقال عطاء بن أبي رباح: هذا في الدنيا، يكون الرجل على هيئة قبيحة، ثم يبده الله بها خيراً. وقال سعيد بن جبير: أبدلهم بعبادة الأوثان عبادة الله، وأبدلهم بقتال المسلمين قتلاً مع المسلمين للمشركين، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات. وقال الحسن البصري: أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح، وأبدلهم بالشرك إخلاصاً، وأبدلهم بالفجور إحصاناً وبالكفر إسلاماً. وهذا قول أبي العالية، وقاتدة، وجماعة آخرين. والقول الثاني: أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصح حسنات، وما ذاك إلا أنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار. فيوم القيامة وإن وجده مكتوباً عليه لكنه لا يضره وينقلب حسنة في صحيفته، كما ثبتت السنة بذلك، وصحت به الآثار المروية عن السلف، رحمهم الله تعالى. وهذا سياق الحديث - قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المعرور بن سُوَيْد، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار، وآخر أهل الجنة دخولاً إلى الجنة: يوتي برجل فيقول: نَحْنُ أَكْبَارُ ذُنُوبِهِ وَسَلْوُهُ عَنْ صَغَارِهَا، قال: فيقال له: عملت يوم كذا وكذا كذا، وعملت يوم كذا وكذا كذا؟ فيقول: نعم - لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئاً - فيقال: فإن لك بكل سيئة حسنة. فيقول: يا رب، عملت أشياء لا أراها ها هنا». قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه. وانفرد به مسلم. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا هاشم بن يزيد، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبي، حدثني ضَمُضَمٌ بن رُزْمَةَ، عن شُرَيْحِ بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نام ابن آدم قال الملك للشیطان: أعطني صحيفتك. فيعطيه إياها، فما وجد في صحيفته من حسنة محابها عشر سيئات من صحيفة الشيطان، وكتبهن حسنات، فإذا أراد أن ينام أحدهم فليكتب ثلاثاً وثلاثين تكبيرة، ويحمد أربعاً وثلاثين تحميدة، ويسبح ثلاثاً وثلاثين تسبيحة، فتلك مائة». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة وعارم قالا: حدثنا ثابت - يعني: ابن يزيد أبو زيد - حدثنا عاصم، عن أبي عثمان، عن سلمان قال: يعطي رجل يوم القيامة صحيفة فيقرأ أعلاها، فإذا سيئاته، فإذا كاد يسوء ظنه نظر في أسفلها فإذا حسناته، ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قد بدلت حسنات. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا سليمان بن موسى الزهري أبو داود، حدثنا أبو العتَّاس، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: لبيأتني الله ﷻ بأناس يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات، قيل: من هم يا أبا هريرة؟ قال: الذين يبذل الله سيئاتهم حسنات. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا سيار، حدثنا جعفر، حدثنا أبو حمزة، عن أبي الضيف - وكان من أصحاب معاذ بن جبل - قال: يدخل أهل الجنة الجنة على أربعة أصناف: المتقين، ثم الشاكرين، ثم الخائفين، ثم أصحاب اليمين. قلت: لم سما أصحاب اليمين؟ قال: لأنهم عملوا الحسنات والسيئات، فأعطوا كتبهم بأيمانهم، فقرأوا سيئاتهم حرفاً حرفاً - قالوا: يا ربنا، هذه سيئاتنا، فأين حسناتنا؟ فعند ذلك محا الله السيئات وجعلها حسنات، فعند ذلك قالوا: هاؤم اقرأوا كتابيه، فهم أكثر أهل الجنة. وقال علي بن الحسين بن زين العابدين: ﴿يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قال: في الآخرة. وقال مكحول: يغفرها لهم فيجعلها حسنات: رواهما ابن أبي حاتم، وروى ابن جرير، عن سعيد بن المسيب مثله. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا أبو جابر، أنه سمع مكحولاً لا يحدث قال: جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه، فقال: يا رسول الله، رجل غدر وفجر، لم يدع حاجة ولا داجة إلا أقطعها يمينه، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم، فهل له من توبة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «أسلمت؟» قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. فقال النبي ﷺ: «فإن الله غافر لك ما كنت كذلك، ومبدل سيئاتك حسنات». فقال: يا

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن، أنهم: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾. قيل: هو الشرك وعبادة الأصنام. وقيل: الكذب، والفسق، واللغو، والباطل. وقال محمد بن الحنفية: هو اللغو والغناء. وقال أبو العالية، وطاوس، ومحمد بن سيرين، والضحاك، والربيع بن أنس، وغيرهم: هي أعياد المشركين. وقال عمرو بن قيس: هي مجالس السوء والخنا. وقال مالك، عن الزهري: شرب الخمر لا يحضرونه ولا يرغبون فيه، كما جاء في الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر». وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: شهادة الزور، وهي الكذب متعمداً على غيره، كما ثبت في الصحيحين عن أبي بكره قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر» ثلاثاً، قلنا: بلى، يا رسول الله، قال: «الشرك بالله، وعقوق الوالدين». وكان متكئاً فجلس، فقال: «ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور ألا وقول الزور وشهادة الزور». فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت. والأظهر من السياق أن المراد: لا يشهدون الزور، أي: لا يحضرونه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا مَرَأُوا بِالْقَوْمِ مَرْوًا كَرَامًا﴾ أي: لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء؛ ولهذا قال: ﴿مَرْوًا كَرَامًا﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو الحسين العجلي، عن محمد بن مسلم، أخبرني إبراهيم بن ميسرة، أن ابن مسعود مر بلهو معرضاً، فقال النبي ﷺ: «لقد أصبح ابن مسعود، وأمسى كريماً». وحدثنا الحسن بن محمد بن سلمة النحوي، حدثنا حبان، أنا عبد الله، أنا محمد بن مسلم، أخبرني ابن ميسرة قال: بلغني أن ابن مسعود مر بلهو معرضاً لم يقف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً»، ثم تلا إبراهيم بن ميسرة: ﴿وَإِذَا مَرَأُوا بِالْقَوْمِ مَرْوًا كَرَامًا﴾. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ ﴿٧٣﴾ وهذه من صفات المؤمنين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ ﴿٧٤﴾، بخلاف الكافر، فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه لا ينقص عما كان عليه، بل يبقى مستمراً على كفره وطغيانه وجهله وضلاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمَزٌ فَرَادَتْهُمْ إِلَىٰ يَجْهَرُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ [النسوة: ١٧٤، ١٧٥].

فقروله: ﴿لَرَّ يَحْزُرُوا عَلَيْهَا سُمًّا وَعَيْنَانَا﴾ أي: بخلاف الكافر الذي ذكر آيات ربه، فاستمر على حاله، كأن لم يسمعها أصم أعمى. قال مجاهد: قوله: ﴿لَرَّ يَحْزُرُوا عَلَيْهَا سُمًّا وَعَيْنَانَا﴾: لم يسمعوا ولم يبصروا، ولم يفقهوا شيئاً. وقال الحسن البصري: كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم أعمى.

وقال قتادة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَرَّ يَحْزُرُوا عَلَيْهَا سُمًّا وَعَيْنَانَا﴾ (٧٦)، يقول: لم يصموا عن الحق ولم يصموا فيه، فهم - والله - قوم عقلوا عن الله وانتفعوا بما سمعوا من كتابه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أسيد بن عاصم، حدثنا عبد الله بن حُمران، حدثنا ابن عَوْن قال: سألت الشعبي قلت: الرجل يرى القوم سجوداً ولم يسمع ما سجدوا، أيسجد معهم؟ قال: فتلا هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَرَّ يَحْزُرُوا عَلَيْهَا سُمًّا وَعَيْنَانَا﴾ (٧٦) يعني: أنه لا يسجد معهم لأنه لم يتدبر آية السجدة، فلا ينبغي للمؤمن أن يكون إمعة، بل يكون على بصيرة من أمره، ويقين واضح بَيِّن. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْزَاقِنَا وَزِينَتِنَا فَسَرَّاهُمْ﴾ يعني: الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له. قال ابن عباس: يعنون من يعمل بالطاعة، فتقر به أعينهم في الدنيا والآخرة. وقال عكرمة: لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالاً، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين. وقال الحسن البصري - وسئل عن هذه الآية - فقال: أن يري الله العبد المسلم من زوجته، ومن أخيه، ومن حميمه طاعة الله. لا والله ما شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولداً، أو ولد ولد، أو أخا، أو حميماً مطيعاً لله ﷻ. وقال ابن جُرَيْج في قوله: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَرْزَاقِنَا وَزِينَتِنَا فَسَرَّاهُمْ﴾ قال: يعبدونك ويحسنون عبادتك، ولا يجرون علينا الجرائر. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني: يسألون الله لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام. وقال الإمام أحمد: حدثنا يَغْمَر بن بشر، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا صفوان بن عمرو، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً، فمر به رجل فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ! لوددنا أنا رأينا ما رأيت، وشهدنا ما شهدت. فاستغضب، فجعلت أعجب، ما قال إلا خيراً! ثم أقبل إليه فقال: ما يحمل الرجل على أن يتمنى مَخْضَرًا غَيْبَهُ الله عنه، لا يدري لو شهد كيف كان يكون فيه؟ والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام أكْبَهُهم الله على مناخرهم في جهنم، لم يجيبوه ولم يصدقوه، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين لما جاء به نبيكم، قد كُفِّتُم البلاء بغيركم؟ لقد بعث الله النبي ﷺ على أشد حال بعث عليها نبياً من الأنبياء في فترة من جاهلية، ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان. فجاء بقران فرقَ به بين الحق والباطل، وفرقَ بين الوالد وولده، حتى إن كان الرجل ليرى والده وولده، أو أخاه كافراً، وقد فتح الله قُلُوبَ قلوبهم للإيمان، يعلم أنه إن هلك دخل النار، فلا تفر عينيه وهو يعلم أن حبيبه في النار، وأنها التي قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْزَاقِنَا وَزِينَتِنَا فَسَرَّاهُمْ﴾. وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه.

وقوله: ﴿وَأَجَعَلْنَا لِلنَّفَّاثِينَ إِمَامًا﴾: قال ابن عباس، والحسن، وقاتدة، والسدي، والربيع بن أنس: أئمة يقتدي بنا في الخير. وقال غيرهم: هداة مهتدين ودعاة إلى الخير، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم، وأن يكون هداهم متعدياً إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثر ثواباً، وأحسن مآباً؛ ولهذا ورد في صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده، أو صدقة جارية».

﴿أُولَئِكَ يَجْزِيكَ الْفَرْكَ بِمَا سَبَّحُوا وَيَقُولُونَ فِيهَا حِجَّةً وَسَلَامًا﴾ (٧٥) خَلِيلِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا بَعَثُوا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧).

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من هذه الصفات الجميلة، والأفعال والأقوال الجليلة - قال بعد ذلك كله: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: المتصفون بهذه ﴿يَجْزِيكَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿الْفَرْكَ﴾ وهي الجنة. قال أبو جعفر الباقر، وسعيد بن جبير، والضحاك، والسُّدِّي: سميت بذلك لارتفاعها. ﴿بِمَا سَبَّحُوا﴾ أي: على القيام بذلك ﴿وَيَقُولُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿حِجَّةً وَسَلَامًا﴾ أي: يُتَبَدَّرُونَ فيها بالتحية والإكرام. ويلقون فيها التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، فإن الملائكة يدخلون عليها من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار. وقوله: ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين، لا يظعنون ولا يَحُولُونَ ولا يموتون، ولا يزولون عنها ولا يبعثون عنها حولاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُوعِدُوا فَنِي الْجَنَّةِ خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَكُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاةٌ غَيْرُ مَجْذُوفٍ﴾ (١٥٨). وقوله: ﴿حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي: حسنت منظراً وطابت مَقِيلًا ومنزلاً. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مَا بَعَثُوا بِكُمْ رَبِّي﴾ أي: لا يبالي ولا يكثر بكم إذا لم تعبدوه؛ فإنه إنما خلق الخلق

ليعبده ويوحده ويسبحوه بكرة وأصيلا. وقال مجاهد، وعمرو بن شعيب: ﴿مَا يَسْبُؤُا بِكَرِّي رَبِّي﴾ يقول: ما يفعل بكم ربي. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ مَا يَسْبُؤُا بِكَرِّي رَبِّي لَوْلَا إِيْمَانُكُمْ، وأخبر الله الكفار أنه لا حاجة لهم بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين، ولو كان له بهم حاجة لحبب الإيمان كما حبه إلى المؤمنين. وقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أي: أيها الكافرون ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: فسوف يكون تكذيبكم لزاما لكم، يعني: مقتضيا لهلاككم وعذابكم ودماركم في الدنيا والآخرة، ويدخل في ذلك يوم بدر، كما فسره بذلك عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، ومحمد بن كعب القرظي، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم. وقال الحسن البصري: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ يعني: يوم القيامة. ولا منافاة بينهما. والله أعلم.



تفسير سورة الشعراء

وهي مكية. ووقع في تفسير مالك المروي عنه تسميتها: سورة الجامعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿مَسَرَّةً ۙ يَكْذِبُ ۙ الْكِتَابَ ۖ النَّبِيُّ ۙ لَمَّا كَذَّبَ ۖ بِنَبِيِّهِ ۚ إِنَّكَ لَمَلَاحُظٌ ۙ لِّمَا يَكُونُ ۚ مُؤْمِنِينَ ۙ﴾ (١) ﴿إِنْ شَأْنُ نَزْلِ عَلَيْنَا مِنْ أَسْمَاءَ ۖ فَطَلَّكَ أَغْنَيْنَا عَنْهُمْ ۖ لَمَّا خَصَّيْنَا ۙ وَمَا بَالِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ عُنْدَ ۙ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۙ﴾ (٢) ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ كَانُوا بِهِ ۖ يَسْتَهْزِئُونَ ۙ﴾ (٣) ﴿وَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرًا ۖ ائْتَيْنَاهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ صَبَاحٍ مُجِيدٍ ۙ﴾ (٤) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۙ﴾ (٥) ﴿وَلَيْكَ رَبِّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۙ﴾ (٦).

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تكلمنا عليه في أول تفسير سورة البقرة. وقوله: ﴿يَكْذِبُ ۙ الْكِتَابَ ۖ النَّبِيُّ ۙ لَمَّا كَذَّبَ ۖ بِنَبِيِّهِ ۚ إِنَّكَ لَمَلَاحُظٌ ۙ لِّمَا يَكُونُ ۚ مُؤْمِنِينَ ۙ﴾ أي: هذه آيات القرآن المبين، أي: البين الواضح، الذي يفصل بين الحق والباطل، والغي والرشاد. وقوله: ﴿لَمَلَاحُظٌ ۙ لِّمَا يَكُونُ ۚ مُؤْمِنِينَ ۙ﴾ أي: مهلك ﴿فَسَاءَ لَهُمْ﴾ أي: مما تحرص عليهم وتحزن عليهم ﴿يَوْمَ كَانُوا بِهِ ۖ يَسْتَهْزِئُونَ ۙ﴾، وهذه تسليية من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ فَنَسَكَ عَلَيْنِهِمْ حَبْرَتِي﴾ [فاطر: ٨٨]، وقال: ﴿فَلَمَّا كَذَّبَ بِنَبِيِّهِمْ عَلَيْنَا لَأَمْلَأَنَّ مِنْهُم مَّا نَحْنُ بِمُؤْمِنُونَ بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۙ﴾ [الكهف: ٦]. قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، وعطية، والضحاك: ﴿لَمَلَاحُظٌ ۙ لِّمَا يَكُونُ ۚ مُؤْمِنِينَ ۙ﴾ أي: قاتل نفسك. قال الشاعر:

أَلَا أَيْهَذَا الْبَاخِعُ الْحُزْنَ نَفْسَهُ لشيء نخشع عن يديه المفاذر

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنْ شَأْنُ نَزْلِ عَلَيْنَا مِنْ أَسْمَاءَ ۖ فَطَلَّكَ أَغْنَيْنَا عَنْهُمْ ۖ لَمَّا خَصَّيْنَا ۙ وَمَا بَالِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ عُنْدَ ۙ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۙ﴾ (٢) أي: لو شئنا لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهراً، ولكننا لا نفعل ذلك؛ لأننا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري؛ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمْعًا ۚ أَمَّا نَتُوبُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۙ﴾ [يونس: ٩٩]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَمَعَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۙ﴾ (٣) ﴿إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ ۖ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ۙ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، فنفذ قدره، ومضت حكمته، وقامت حجة البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم. ثم قال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۙ﴾ (٤) أي: كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس، كما قال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ مُعْرِضِينَ ۙ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال: ﴿يَحْضَرُهُ عَلَى الْأَمْسَاءِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۙ﴾ (٥) [يس: ٣٠] وقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا ۚ كُلًّا مَّا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُنَا كَذَّبُوا فَاتَيْنَا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ۚ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبِمَا لَقِوْا لَا يُؤْمِنُونَ ۙ﴾ (٦) [المؤمنون: ٤٤]، ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ كَانُوا بِهِ ۖ يَسْتَهْزِئُونَ ۙ﴾ (٣) أي: فقد كذبوا بما جاءهم من الحق، فسيعلمون نباء هذا الكتاب بعد حين، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ۙ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]. ثم نبه تعالى على عظمتها في سلطانه وجلالة قدره وشأنه، الذين اجتروا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه، وهو القاهر العظيم القادر، الذي خلق الأرض وأنبث فيها من كل زوج كريم، من زروع وثمار وحيوان. قال سفيان الثوري، عن رجل، عن الشعبي: الناس من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۙ﴾ أي: دلالة على قدرة الخالق للأشياء، الذي بسط الأرض ورفع بناء السماء، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، بل كذبوا به وبرزلوه وكتبه، وخالفوا أمره وارتكبوا زواجره. وقوله: ﴿وَلَيْكَ رَبِّكَ هُوَ الْعَزِيزُ ۙ﴾ أي: الذي عز كل شيء وقهره وغلبه، ﴿الرَّحِيمُ ۙ﴾

أي: بخلقه، فلا يعجل على من عصاه، بل ينظره ويؤجله ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر. قال أبو العالية، وقتادة، والربيع بن أنس، ومحمد بن إسحاق: العزيز في نعمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره. وقال سعيد بن جبیر: الرحيم بمن تاب إليه وأتاب.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنِ اتَّبِعْ أَتْلُوبُكَ﴾ ﴿١٧﴾ قَوْمَ وَرَعُونَ أَتْلُوبُكَ ﴿١٨﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلُونِي ﴿١٩﴾ فَنُصِيبُ صَدْرِي وَلَا يَبْقَىٰ لِي سُلْطَانٌ ﴿٢٠﴾ فَأَنزِلْ إِلَيَّ مَائِدَةً ﴿٢١﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَكَ دَلِيلٌ أَنَّكَ تَأْتِيهِمْ ﴿٢٢﴾ قَالَ لَا فَأَذْهَبَ وَإِلَيْنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَعْمِرُونَ ﴿٢٣﴾ فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٤﴾ أَنْ أُنزِلَ مَعَنَا بَنُو إِسْرَءِيلَ ﴿٢٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتُمْ إِنِّي وَلِيدَا وَلَيْسَتْ بَيْنَا مِنْ عُرْكِ سِنَّينَ ﴿٢٦﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَنكَ الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ فَطَهَّرْنَا إِذَا وَكُنَّا مِنْ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ فَفَرَزْتُ بِكُمْ لَنَا جُفُفَكُمْ هَوْبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَحَسَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٩﴾ وَتِلْكَ بَعْثُهُمْ نَبَأًا عَلَىٰ أَنْ عُدَّتْ بِنُو إِسْرَءِيلَ ﴿٣٠﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران، صلوات الله وسلامه عليه، حين ناداه من جانب الطور الأيمن، وكلمه وناجاه، وأرسله واصطفاه، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ أَتَى الْقَوْمَ الْفَٰلِثِينَ قَوْمٌ فَرَعَوْنَ أَلَا بَنُوهُمْ﴾ [١١] ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [١٢] ﴿يَحْسِبُ صَدْرِي وَلَا يَطْلُقُ لِسَاقِي فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ [١٣] ﴿وَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [١٤]. هذه أعداء سأل من الله إزاحتها عنه، كما قال في سورة طه: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [٢٥] ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [٢٦] ﴿وَأَحْلِلْ غَدَقَةً مِن لِسَانِي﴾ [٢٧] ﴿يَقْفُوهُ أَوَّلِي﴾ [٢٨] ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ [٢٩] ﴿ثُمَّ لِي ذُرِّيَّةٌ مُّؤْتَمِنَةٌ﴾ [٣٠] ﴿أَشَدُّ دُخَانًا مِنْ دُخَانِ الْكَافِرِينَ﴾ [٣١] ﴿وَأَتَرِكُ فِي أَمْرِي﴾ [٣٢] ﴿كَيْفَ شِئْتُكَ كَيْفًا﴾ [٣٣] ﴿وَتَذَكَّرَكَ كَيْفًا﴾ [٣٤] ﴿وَاللَّهُ كُنْتُ بِمَا بَصِيرًا﴾ [٣٥] ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يٰمُوسَىٰ﴾ [٣٦] ﴿طه: ٢٥-٣٦﴾ وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [١٤] أي: بسبب ما كان من قتل ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر. ﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي: قال الله له: لا تخف من شيء من ذلك كما قال: ﴿قَالَ سَتَدُعُّ عَصَدَكَ بِأُخْيَكُ وَتَجْعَلُ لَكَ سُلْطٰنًا﴾ أي: برهاناً ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ﴾ يَأْتِيَانَا أَتَيْنَا وَمِنْ أَتَيْتُكَ الْفَلِيلُونَ [القصص: ٢٥]. ﴿فَآذِهَا بِمَا بَيْنَتَا إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] أي: إني معكم بحفظي وكلائي ونصري وتأيدي. ﴿فَأَتَيْنَا فَرَعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١١]، وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] أي: كل منا رسول الله إليك، ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَا بَيْنَٰهُمَا شِرْكَ﴾ [١٢] أي: أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك، فإنهم عباد الله المؤمنون، وحزبه المخلصون، وهم معك في العذاب المهين. فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون عما هنالك بالكلية، ونظر بعين الازدراء والغمص فقال: ﴿أَلَمْ تَرْكِبْ فِينَا وَلِيدًا وَلَيْسَتْ فِينَا مِنْ عُرْلِكَ سَيِّئَةٍ وَقَعَلْتَ فَعَلْتَكَ أَتَىٰ فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [١٣] أي: أما أنت الذي ربينا فينا، وفي بيتنا وفي فراشنا وغذينا، وأنعمنا عليه مدة من السنين، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة، أن قتلت منا رجلاً، وجحدت نعمتنا عليك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [١٣] أي: الجاحدين. قاله ابن عباس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير. ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا﴾ أي: في تلك الحال، ﴿وَأَنَا مِنَ الْفٰلِثِينَ﴾ [١٤] أي: قبل أن يوحى إلي وينعم الله علي بالرسالة والنبوة. قال ابن عباس، رضي الله عنهما، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: ﴿وَأَنَا مِنَ الْفٰلِثِينَ﴾ أي: الجاهلين. قال ابن جرير: وهي كذلك في قراءة عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه. ﴿فَفَرَّقْنَا مِنْكُمْ لَنَا خِفَتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَخَلَوْتُ مِنَ الْمُزَٰلِمِينَ﴾ [١٥] أي: الحال الأول انفصل وجاء أمر آخر، فقد أرسلني الله إليك، فإن أطمعته سلمت، وإن خالفته عطيت. ثم قال موسى: ﴿وَلَكَّ يَمَنَةٌ تَشْتَبِي عَلَىٰ نَاصِيَةٍ عَبْدٌ بَيْنَٰهُمَا وَشَاقُ رَعِيَّتِكَ﴾ [١٦] أي: وما أحسنت إلي وربيتني مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل، فجعلتهم عبيداً وخداماً، تصرفهم في أعمالك ومشاق رعيّتك، أفيني إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم؟ أي: ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٧) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿١٩﴾ قَالَ رَبُّكُمْ الْوَاحِدُ ﴿٢٠﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَنَجْوَئِكُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَفِيهِمَا أَنْتُمْ وَالْغَرْبُ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُتَّقِلِينَ ﴿٢١﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون، وتمرده وطفيفانه وجحوده، في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾؟ وذلك أنه كان يقول لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٢٨]، ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وكانوا يجحدون الصانع - تعالى - ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون، فلما قال له موسى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦]، قال له: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف، حتى قال السدي: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُبْسِتُونَ﴾ (٢١) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) [طه: ٤٩، ٥٠]. ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم؛ أن هذا سؤال عن الماهية، فقط غلط؛ فإنه لم يكن مقراً بالصانع حتى يسأل عن الماهية، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر، وإن كانت

الحجج والبراهين قد قامت عليه، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَسْمُورِينَ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: خالق جميع ذلك ومالكة، والمتصرف فيه وإلهه، لا شريك له، هو الله الذي خلق الأشياء كلها، العالم العلوي وما فيه من الكواكب الثابت والسيارات النيرات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار، وجبال وأشجار، وحيوان ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطيور، وما يحتوي عليه الجو، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أي: إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة. فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملكه ورؤساء دولته قائلاً لهم، على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله: ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ألا تعجبون مما يقول هذا في زعمه: أن لكم إلهاً غيري؟ فقال لهم موسى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا الْكَيْدُ أَلَيْسَ فِيكُمْ﴾ أي: خالفكم وخالف آباءكم الأولين، الذين كانوا قبل فرعون وزمانه. ﴿قَالَ﴾ أي: فرعون لقومه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أَنْتَبِئْتُمْ بِكَ لَكَاؤُنَّ﴾ أي: ليس له عقل في دعواه أن ثم رباً غيري. ﴿قَالَ﴾ أي: موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة، فأجاب موسى بقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُقُولِينَ﴾ أي: هو الذي جعل المشرق مشرقاً وتطلع منه الكواكب، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب، ثوابتها وسياراتها، مع هذا النظام الذي سخرها فيه وقدرها، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقا فليعكس الأمر، وليجعل المشرق مغرباً، والمغرب مشرقاً، كما أخبر تعالى عن ﴿الَّذِي حَلَّجَ إِبْرَاهِيمَ فِي رَيْبِهِ أَنْ يَأْتِيَهُ اللَّهُ الْمَلَكُ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّیْ الذَّكَیْ یُحییْ وَیُمِیتُ قَالَ أَنَا أَنَبِیْ وَأَمِیتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَارْکُ اللَّهُ یَأْتِی بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَبْیَ مِنَ الْمَغْرِبِ فَهَبَتْ أَلْذِیْ کَفَرُوا وَاللَّهُ لَا یَهْدِی الْقَوْمَ الْغَافِلِینَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]؛ ولهذا لما غلب فرعون وانقطعت حجته، عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ في موسى، عليه السلام، فقال ما أخبر الله تعالى عنه:

﴿قَالَ لَنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرَ لَأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْمُورِينَ﴾ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأَبِیْ بِهِ إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَشَیْءٌ لِلنَّظِيرِ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلَیْكُمْ (٣٤) مُبْدِ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأُمِّتْ فِي الدَّائِنِ حَتَّى نَحْمِلَ مِنْكَ سَوْرَ السَّحَرِ (٣٦) یَا أَوَّلَکَ یَکْفِی سَحَارَ عَلَیْهِمْ (٣٧).

لما قامت على فرعون الحجة بالبيان والعقل، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه، وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال فقال: ﴿لَنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرَ لَأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْمُورِينَ﴾. فعند ذلك قال موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ببرهان قاطع واضح، ﴿قَالَ فَأَبِیْ بِهِ إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣١) فألقى عصاه فإذا هي ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) أي: ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح والعظمة، ذات قوائم وفم كبير، وشكل هائل مزعج، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَشَیْءٌ لِلنَّظِيرِ﴾ أي: تتلأأ كقطعة من القمر. فبادر فرعون - بشقائه - إلى التكذيب والعناد، فقال للملأ حوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلَیْكُمْ﴾ أي: فاضل بارع في السحر. فروج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة، ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته، والكفر به. فقال: ﴿مُبْدِ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (٣٥)؟ أي: أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم، فيأخذ البلاد منكم، فاشيروا علي في ماذا أصنع به؟ ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأُمِّتْ فِي الدَّائِنِ حَتَّى نَحْمِلَ مِنْكَ سَوْرَ السَّحَرِ﴾ (٣٦) یَا أَوَّلَکَ یَکْفِی سَحَارَ عَلَیْهِمْ (٣٧) أي: أخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحر عليهم يقابلونه، ويأتون بنظير ما جاء به، فتغلبه أنت وتكون لك النصر والتأييد. فأجابهم إلى ذلك. وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك، ليجمع الناس في صعيد واحد، ولتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهره.

﴿فَمِمْسَكِ السَّحَرِ لِيَقْبَضَ بِرَبِّهِمْ مَقْلُومٌ﴾ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَمَّا نَبَّحَ النَّحْرُ إِنْ كَانُوا هُمْ الْقَلِيلُ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرُ قَالُوا لِيَرْجِعْ أَيْنَ لَا لُجْأَ لَنَا لَكُنَّا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْقَلِيلُ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَلَكُمْ إِنْ كُنَّا لَمِنَ الْقَرِيبِ (٤٢) قَالَ هُمْ مُوسَى أَقْرَبُ مَا أَنْتُمْ مُقْلُونَ (٤٣) فَأَلْقَا جِلْمَهُمْ وَعَصَاهُمْ وَقَالُوا بِعَرَفَرَةٍ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْقَلِيلُ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُلَّةٌ مِمَّا يَلَکُونُ (٤٥) فَأَلْقَى السَّحَرُ سَجْدِينَ (٤٦) قَالُوا أَمَّا رَبُّ الْمَلِیْنِ (٤٧) رَبِّ مَوْسَى وَهَارُونَ (٤٨).

ذكر الله تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى والقيط في «سورة الأعراف» وفي «سورة طه»، وفي هذه السورة: وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولم يكره الكافرون. وهذا شأن الكفر والإيمان، ما تواجهها وتقابلا إلا غلبه الإيمان، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْقُلُوبِ عَلَى الْبَاطِلِ قِدْمَهُمْ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا كَفَرْتُمْ﴾ [الأنبياء: ١٧]، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ولهذا لما جاء السحرة، وقد جمعهم من أقاليم بلاد مصر، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخيلاً في ذلك، وكان السحرة جمعاً كثيراً، وجمعاً غفيراً، قيل: كانوا اثني عشر ألفاً. وقيل: خمسة عشر ألفاً. وقيل: سبعة عشر ألفاً وقيل: تسعة عشر ألفاً. وقيل: بضعة وثلاثين ألفاً. وقيل: ثمانين ألفاً. وقيل غير ذلك، والله

صالح، حدثنا ابن فضيل، عن عبد الله بن أبي إسحاق، عن ابن أبي بردة، عن أبيه، عن أبي موسى قال: نزل رسول الله ﷺ بأعرابي فأكرمه، فقال له رسول الله ﷺ: تعاهدنا. فأتاه الأعرابي فقال له رسول الله ﷺ: «ما حاجتك؟» قال: ناقة برحلتها وأعنز يحتلبها أهلي، فقال: «أعجزت أن تكون مثل عجوز بني إسرائيل؟» فقال له أصحابه: وما عجوز بني إسرائيل يا رسول الله؟ قال: «إن موسى لما أراد أن يسير ببني إسرائيل أضل الطريق، فقال لبني إسرائيل: ما هذا؟ فقال له علماء بني إسرائيل: نحن نحدثك أن يوسف، عليه السلام، لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً من الله ألا نخرج من مصر حتى نقل تابوته معنا، فقال لهم موسى: فأيكم يدري أين قبر يوسف؟ قالوا: ما يعلمه إلا عجوز لبني إسرائيل. فأرسل إليها فقال لها: دليني على قبر يوسف. فقالت: والله لا أفعل حتى تعطيني حكمي. قال لها: وما حكمك؟ قالت: حكمي أن أكون معك في الجنة. فكانه نقل عليه ذلك، فقيل له: أعطها حكمها. قال: فانطلقت معهم إلى بحيرة - مستنقع ماء - فقالت لهم: انضبوا هذا الماء. فلما أنضبوه قالت: احفروا، فلما احتفروا استخرجوا قبر يوسف، فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار». هذا حديث غريب جداً، والاقرب أنه موقوف، والله أعلم. فلما أصبحوا وليس في ناديم داع ولا مجيب، غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بني إسرائيل؛ لما يريد الله به من الدمار، فأرسل سريعاً في بلاده حاشرين، أي: من يحشر الجند ويجمعه، كالنقباء والحجّاب، ونادى فيهم: ﴿إِنَّ مَكْرَدَ﴾ - يعني: بني إسرائيل - ﴿لَشِرْذِمَةً قَلِيلَةٍ﴾ أي: لطائفة قليلة، ﴿وَلَهُمْ لَنَا لَقَائُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ أي: كل وقت يصل لنا منهم ما يغيطان، ﴿وَلَنَا جَمِيعٌ حَرَدُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ أي: نحن كل وقت نحذر من غائلتهم وإني أريد أن أستاصل شافتهم، وأبهد خضراءهم. فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم، قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَبُيُوتٍ كَثُورٍ وَنَقَارٍ كَافٍ﴾ ﴿٥٧﴾ أي: فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر في الدنيا، ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿٥٨﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرَدَهَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكُنْتَ رَكْبَ الْخَشَعِ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ يَمَاسُوكَ وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَسْطِغُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يُعْرِشُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ وقال تعالى: ﴿وَرُئِيَ أَنْ تَمَنَّٰ عَلَىٰ الَّذِينَ اسْتَفْسَفُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً وَجَعَلْنَاهُمْ الْوَرْدَ﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿وَمَنْ كَانَ فِي الْأَرْضِ يُرَىٰ فِرْعَوْنُ وَمَنْ دَخَلْنَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ ﴿٦١﴾ [القصص: ٥، ٦].

﴿فَأَتَيْنَاهُمْ ثَمْرَهُمْ﴾ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا تَرَوْا الْجَمْعَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَنَدْرُكُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ لَئِنْ مَنَىٰ رَبِّي سَبِيلِي ﴿٦٤﴾ فَأَوْرَثْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أُضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْعَوْنَ كَالظُّلُمِ الْعَظِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا نَمُ الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَأَجَعْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ تَمَنَّىٰ أَجْمِينَ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ أَفْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِدٌ لِّلرَّجِئِ ﴿٧٠﴾.

ذكر غير واحد من المفسرين: أن فرعون خرج في جحفل عظيم وجمع كبير، وهو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه، أولى الحل والعقد والدول، من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود، فأما ما ذكره غير واحد من الإسرائيليات، من أنه خرج في ألف ألف وستمئة ألف فارس، منها مائة ألف على خيل دهم، وقال كعب الأحبار: فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم - ففي ذلك نظر. والظاهر من مجازفات بني إسرائيل، والله، سبحانه وتعالى، أعلم. والذي أخبر به هو النافع، ولم يعين عدتهم؛ إذ لا فائدة تحته، إلا أنهم خرجوا بأجمعهم. ﴿فَأَتَيْنَاهُمْ ثَمْرَهُمْ﴾ ﴿٦٢﴾ أي: وصلوا إليهم عند شروق الشمس، وهو طلوعها: ﴿فَلَمَّا تَرَوْا الْجَمْعَ﴾ ﴿٦٣﴾ أي: رأى كل من الفريقين صاحبه، فعند ذلك ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَنَدْرُكُونَ﴾، وذلك أنه انتهى بهم السير إلى سيف البحر، وهو بحر القلزم، فصار أمامهم البحر، وفرعون قد أدركهم بجنوده، فلهاذ قالوا: ﴿إِنَّا لَنَدْرُكُونَ قَالَ لَئِنْ مَنَىٰ رَبِّي سَبِيلِي﴾ ﴿٦٤﴾ أي: لا يصل إليكم شيء مما تحذرون، فإن الله، سبحانه، هو الذي أمرني أن أسير ههنا بكم، وهو لا يخلف الميعاد. وكان هارون، عليه السلام، في المقدمة، ومعه يوشع بن نون، ومؤمن آل فرعون وموسى، عليه السلام، في الساقة، وقد ذكر غير واحد من المفسرين: أنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون، وجعل يوشع بن نون، أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى، عليه السلام: يا نبي الله، ههنا أمرك الله أن تسير؟ فيقول: نعم، واقترب فرعون وجنوده، ولم يبق إلا القليل. فعند ذلك أمر الله نبيه موسى أن يضرب بعصاه البحر، فضربه، وقال: انفلق بإذن الله. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان بن صالح، حدثنا الوليد، حدثنا محمد بن حمزة بن محمد بن يوسف بن عبد الله بن سلام: أن موسى، عليه السلام، لما انتهى إلى البحر قال: يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء، والكائن قبل كل شيء، اجعل لنا مخرجاً. فأوحى الله إليه: ﴿أَوْضِرْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾. وقال قتادة: أوحى الله تلك الليلة إلى البحر: أن إذا ضربك موسى بعصاه فاسمع له وأطع، فبات البحر تلك الليلة، وله اضطراب، ولا يدري من أي جانب يضربه موسى، فلما انتهى إليه موسى قال له فتاه يوشع بن نون: يا نبي الله، أين أمرك ربك؟ قال: أمرني أن أضرب البحر. قال: فاضربه. وقال محمد بن إسحاق: أوحى الله - فيما ذكر لي - إلى البحر:

أن إذا ضربك موسى بعضاه فانفلق له. قال: فبات البحر يضرب بعضه بعضاً، فرقا من الله تعالى، وانتظاراً لما أمره الله، وأوحى الله إلى موسى: ﴿أَوْ اضْرِبْ بِصَاحِكِ الْبَحْرِ﴾، فضربه بها، وفيها سلطان الله الذي أعطاه، فانفلق. وذكر غير واحد أنه كناه فقال: انفلق عليّ أبا خالد بحول الله.

قال الله تعالى: ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي: كالجبل الكبير. قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومحمد بن كعب، والضحاك، وقتادة، وغيرهم. وقال عطاء الخراساني: هو الفج بين الجبلين. وقال ابن عباس: صار البحر اثني عشر طريقاً، لكل سبط طريق - وزاد السدي: وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض، وقام الماء على حيله كالحيطان، وبعث الله الريح على قعر البحر فلفحته، فسار بيساً كوجه الأرض، قال الله تعالى: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا عَجًا﴾ [طه: ٧٧]، وقال في هذه القصة: ﴿وَأَرْزُقْنَا﴾ أي: هنالك ﴿الْآخِرِينَ﴾. قال ابن عباس، وعطاء الخراساني، وقتادة، والسدي: ﴿وَأَرْزُقْنَا﴾ أي: قربنا فرعون وجنوده من البحر وأدنيناهم إليه. ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ [١٥] ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ [١٦] أي: أنجينا موسى وبني إسرائيل ومن معهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد، وأغرق فرعون وجنوده، فلم يبق منهم رجل إلا هلك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا شبابة، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله - هو ابن مسعود - أن موسى، عليه السلام، حين أسرى ببني إسرائيل بلغ فرعون ذلك، فأمر بشاة فذبحت، ثم قال: لا، والله لا يفرغ من سيلها حتى يجتمع إلي ستمائة ألف من القبط. فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر، فقال له: انفرق. فقال البحر: لقد استكبرت يا موسى، وهل انفرقت لأحد من ولد آدم فانفرق لك؟ قال: ومع موسى رجل على حصان له، فقال له ذلك الرجل: أين أمرت يا نبي الله؟ قال: ما أمرت إلا بهذا الوجه يعني: البحر، فأقحم فرسه، فسبح به فخرج، فقال: أين أمرت يا نبي الله؟ قال: ما أمرت إلا بهذا الوجه. قال: والله ما كذبت ولا كُذبت. ثم اقتحم الثانية فسبح، ثم خرج فقال: أين أمرت يا نبي الله؟ قال: ما أمرت إلا بهذا الوجه؟ قال: والله ما كذبت ولا كُذبت. قال: فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فضربه موسى بعضاه، فانفلق، فكان فيه اثنا عشر طريقاً، لكل سبط طريق يترأون، فلما خرج أصحاب موسى وتأم أصحاب فرعون، التقى البحر عليهم فأغرقهم. وفي رواية إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله قال: فلما خرج آخر أصحاب موسى، وتكامل أصحاب فرعون، اضطم عليهم البحر، فما رئي سواد أكثر من يومئذ، وغرق فرعون لعنه الله. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين؛ للدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [١٧] تقدم تفسيره.

﴿وَأَنذَرْتَهُمْ نَارَ إِزْهِيمٍ﴾ [١٨] إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوِيهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿١٩﴾ قَالُوا تَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَلَيْكِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُوهُمْ ﴿٢١﴾ أَوْ يَبْصُرُونَكَ أَوْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٤﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليفه إبراهيم إمام الحنفاء، أمر الله رسوله محمداً، صلوات الله وسلامه عليه، أن يتلوه على أمته، ليقننوا به في الإخلاص والتوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له، والتبري من الشرك وأهله، فإن الله تعالى أتى إبراهيم رشده من قبل، أي: من صغره إلى كبره، فإنه من وقت نشأ وشب، أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله، ﷻ، فقال: ﴿لِأَيُّهِ وَقَوِيهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [١٩]؟ أي: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ ﴿قَالُوا تَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَلَيْكِينَ﴾ [٢٠] أي: مقيم على عبادتها ودعائها، ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُوهُمْ﴾ [٢١] أَوْ يَبْصُرُونَكَ أَوْ يَعْلَمُونَ [٢٢] قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ [٢٣] يعني: اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك، وإنما رأوا آباهم كذلك يفعلون، فهم على آثارهم يهرعون. فعند ذلك قال لهم إبراهيم: ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ﴾ [٢٤] فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ [٢٥] أي: إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير، فلتخلص إلي بالمساءة، فلاني عدو لها لا أباليها ولا أفكر بها. وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح، عليه السلام. ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]، وقال هود، عليه السلام: ﴿إِنْ قُلْتُ إِلَّا أَغْرَيْتُكَ بِمَعْشَرَ الْيَتِيمَاتِ يَسُوهُنَّ فَإِنَّ أَشْهَدَ اللَّهُ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [٩١] مِنْ دُونِهِ فَيَكْذِبُونَ جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ [٩٥] إني نَوَّكْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبَّكُمْ مَا بَيْنَ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ عَاجِزٌ يَتَّبِعُنِي إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [٩٦] ﴿مرد: ٥٤-٥٦﴾. وهكذا تبرأ إبراهيم من ألهمتهم وقال: ﴿وَكَيْفَ أَتَى مَا أَتَرْتُم مِّنْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّهُمُ أَمْشَرُكُمْ وَاللَّهُ مَا لَمْ يَرْزُقْ يَدُوكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ [الأنعام: ٨١]. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ كَانَتْ لَكُمْ أَسْرَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِزْهِيمٍ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لَقَوْمِهِمْ إِنَّا بِرَبِّكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَرِهْنَا لَكُمْ وَمِمَّا يَنْتَهِى وَيَنْتَهِى

الْعَذْوَةُ وَالْبُغْصَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿٧٨﴾ [المتحنة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٧٩﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨]، يعني: لا إله إلا الله.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَلْطَمَ أَنفَاقِي بِغَيْرِ لِي خَلِيقَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾.

يعني: لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء، ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ أي: هو الخالق الذي قدر قدرًا، وهدى الخلائق إليه، فكل يجري على ما قدر، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء. ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾ أي: هو خالقي ورازقي، بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق المُرْنُ، وأنزل الماء، وأحيا به الأرض، وأخرج به من كل الشمرات رزقًا للعباد، وأنزل الماء عذبًا زلالًا ﴿وَشَقِيقُهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْفَكًا وَلَأَنفَكُ كَثِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الفرقان: ٤٩]. وقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ أسند المرض إلى نفسه، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه، ولكن أضافه إلى نفسه أدبًا، كما قال تعالى أمرًا للمصلي أن يقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] فأسند الإنعام إلى الله، سبحانه وتعالى، والغضب حذف فاعله أدبًا، وأسند الضلال إلى العبيد، كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَوِيدٌ يَمُنُّ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ١٠]، ولهذا قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ أي: إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره، بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه، ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ أي: هو الذي يحيي ويميت، لا يقدر على ذلك أحد سواه، فإنه هو الذي يبدى ويعيد ﴿وَالَّذِي أَلْطَمَ أَنفَاقِي بِغَيْرِ لِي خَلِيقَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ أي: هو الذي لا يقدر على غفر الذنوب في الدنيا والآخرة، إلا هو، ومن يغفر الذنوب إلا الله، وهو الفعال لما يشاء.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْجَنَّةَ وَالْجَنَّةَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرَةِ ﴿٨٤﴾ وَتَجَنَّبْ مِنِّي رَوْحَ حَقِّ النَّبِيِّ ﴿٨٥﴾ وَافْغِرْ لِي يَا إِلَهَ كَانِ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

وهذا سؤال من إبراهيم، عليه السلام، أن يؤتبه ربه حكمًا. قال ابن عباس: وهو العلم. وقال عكرمة: هو اللب. وقال مجاهد: هو القرآن. وقال السدي: هو النبوة. وقوله: ﴿وَالْجَنَّةَ وَالْجَنَّةَ﴾ أي: اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة، كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار: «اللهم الرفيق الأعلى» قالها ثلاثًا. وفي الحديث في الدعاء: «اللهم أحيينا مسلمين، وأممتنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مبديلين». وقوله: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرَةِ ﴿٨٤﴾﴾ أي: واجعل لي ذكرًا جميلًا بعدي أذكر به، ويقندى بي في الخير، كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ ﴿١٣٨﴾ سَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٣٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الصافات: ١٠٨-١١٠]. قال مجاهد، وقتادة: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرَةِ ﴿٨٤﴾﴾ يعني: الشناء الحسن. قال مجاهد: وهو كقوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَنَّهُ أَشْرَفَ فِي الدُّنْيَا وَلِئَمَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المنكوت: ٢٧]، وكقوله: ﴿وَرَأَيْتَنَّهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنًا وَلِئَمَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل: ١٢٢]. قال ليث بن أبي سليم: كل ملة تحبه وتتولاها. وكذا قال عكرمة. وقوله: ﴿وَتَجَنَّبْ مِنِّي رَوْحَ حَقِّ النَّبِيِّ ﴿٨٥﴾﴾ أي: أنعم علي في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي، وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم. وقوله: ﴿وَافْغِرْ لِي يَا إِلَهَ كَانِ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ كقوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وهذا مما رجع عنه إبراهيم، عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴿١١٤﴾﴾ [النوبة: ١١٤]. وقد قطع الله تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه قال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُشْوَاهُ حَسَنَةً فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِ إِنَّا قَالَُوا بِكُمْ وَمِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُرْهِكُمْ وَبِمَا يَنبَغِي وَيَنْبَغِي لَكُمْ أُشْوَاهُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ وَمَا أَمْرُكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴿١٤﴾﴾ [المتحنة: ١٤].

وقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: أجرني من الخزي يوم القيامة ويوم بيعت الخلائق أولهم وآخرهم. قال البخاري في قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾. وقال إبراهيم بن طهمان، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه العبرة والفترة». حدثنا إسماعيل، حدثنا أخي، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه، فيقول: يا رب، إنك وعدتني أنك لا تخزني يوم يعثون. فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين». هكذا رواه عند هذه الآية. وفي أحاديث الأنبياء بهذا الإسناد بعينه منفرد به، ولفظه: يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر فترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني ألا تخزني يوم

يعثون، فأى خزي أخزى من أبى الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجلحك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطح، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار. وقال أبو عبد الرحمن النسائي في التفسير من سننه الكبير قوله: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٨٧): أخبرنا أحمد بن حفص بن عبد الله، حدثني أبي، حدثني إبراهيم بن طهمان، عن محمد بن عبد الرحمن، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه العبرة والفترة، وقال له: قد نهيتك عن هذا فعصيتني. قال: لكنني اليوم لا أعصيك واحدة. قال: يا رب، وعدتني ألا تخزيني يوم يعثون، فإن أخزيت أباه فقد أخزيت الأبعد. قال: يا إبراهيم، إني حرمتها على الكافرين. فأخذ منه، قال: يا إبراهيم، أين أبوك؟ قال: أنت أخذته مني. قال: انظر أسفل منك. فنظر فإذا ذيخ يتمرغ في ننته، فأخذ بقوائمه فألقى في النار». هذا إسناد غريب، وفيه نكارة.

والذيخ: هو الذكر من الضباع، كأنه حول آذر إلى صورة ذيخ متلطح بعذرتة، فيلقى في النار كذلك. وقد رواه البزار من حديث حماد بن سلمة، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، وفيه غرابة. ورواه أيضاً من حديث قتادة، عن جعفر بن عبد الغافر، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ، بنحوه. وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨): أي: لا يقي المرء من عذاب الله ماله، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ ولو افتدى بمن في الأرض جميعاً، ولا ينفق يومئذ إلا الإيمان بالله، وإخلاص الدين له، والتبري من الشرك؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٩): أي: سالم من الدنس والشرك. قال محمد بن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في قبور. وقال ابن عباس: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٩): حيي يشهد أن لا إله إلا الله. وقال مجاهد، والحسن، وغيرهما: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ يعني: من الشرك. وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم: هو القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض، قال الله: ﴿وَفِ قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]. وقال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب الخالي من البدعة، المظمن على السنة.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَنِينَ﴾ (٩٠) وَزَيَّنَتِ الْجَنَّةُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّمَا مَا كُنْتُمْ تَصَدَّقُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصُدُّكُمْ أَوْ يَنْصِرُكُمْ ﴿٩٣﴾ فَكَبِكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَخُودٌ يُلَاحِظُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَأْتُوهُمُ الْغُلَامُ مِنْ دُونِكُمْ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٩٧﴾ وَمَا أَصْلَاقُ إِلَّا الْمَجْرُومُونَ ﴿٩٨﴾ قَالُوا لَنَا مِنْ شَيْعَيْنِ ﴿٩٩﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠٠﴾ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ لَكُمْ كُفْرًا فَكُفْرًا فَكُفْرًا ﴿١٠١﴾ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَئِنْ رَأَيْتَهُمْ تُرْجَىٰ تُرْجَىٰ ﴿١٠٣﴾

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ أي: قريت الجنة وأدنت من أهلها يوم القيامة مزخرفة مزينة لناظرها، وهم المتقون الذين رغبوا فيها، وعملوا لها عملها في الدنيا. ﴿وَزَيَّنَتِ الْجَنَّةُ لِلْغَاوِينَ﴾ (٩١): أي: أظهرت وكشفت عنها، وبدت منها غنى، فزفرت زفرة بلغت منها القلوب إلى الحناجر، وقيل لأهلها تقريباً وتوبيخاً: ﴿إِنَّمَا مَا كُنْتُمْ تَصَدَّقُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصُدُّكُمْ أَوْ يَنْصِرُكُمْ﴾ (٩٢): أي: ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله، من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئاً، ولا تدفع عن أنفسها؛ فإنكم وإياها اليوم حصب جهنم أنتم لها واردون. وقوله: ﴿فَكَبِكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ (٩٤): قال مجاهد: يعني: فذهبوا فيها. وقال غيره: كبوا فيها. والكاف مكررة، كما يقال: صرصر. والمراد: أنه ألقى بعضهم على بعض، من الكفار وقادتهم الذين دعواهم إلى الشرك، ﴿وَيُحِثُّوهُمُ إِلَىٰ الْجَنَّةِ﴾ (٩٥): أي: القوا فيها عن آخرهم. ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ (٩٦): تألفوا إن كنا لقي ضلالتهم بين (٩٧) إذ سؤيتكم رب السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٩٨﴾ أي: يقول الضعفاء الذين استكبروا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَبَلَّغْ أَمْرًا مُّغْتَوًى عَنَّا نَفِيًا بَرَكَ النَّارُ﴾ [غافر: ٤٧]. ويقولون وقد عادوا على أنفسكم بالملامة: ﴿تَأْتُوهُمُ الْغُلَامُ مِنْ دُونِكُمْ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٩٧): أي: نجعل أمركم مطاعاً كما يطاع أمر رب العالمين، وعبدناكم مع رب العالمين، ﴿وَمَا أَصْلَاقُ إِلَّا الْمَجْرُومُونَ﴾ (٩٩): أي: ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون، ﴿قَالُوا لَنَا مِنْ شَيْعَيْنِ﴾ (١٠٠): قال بعضهم: يعني من الملائكة، كما يقولون: ﴿قَالَ لَنَا مِنْ شَيْعَةٍ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣] وكذا قالوا: ﴿قَالُوا لَنَا مِنْ شَيْعَيْنِ﴾ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ أي: قريب. قال قتادة: يعلمون - والله - أن الصديق إذا كان صالحاً نفع، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع. ﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ لَكُمْ كُفْرًا فَكُفْرًا﴾ (١٠١) وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ وذلك أنهم يتمنون أنهم يردون إلى الدار الدنيا، ليعملوا بطاعة ربهم - فيما يزعمون - وهو، سبحانه وتعالى، يعلم أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون. وقد أخبر تعالى عن تخاصم أهل النار في سورة «ص»، ثم قال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (ص: ٦٤). ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨). أي: إن في محاجة إبراهيم لقومه وإقامته الحجج عليهم في التوحيد آية ودلالة واضحة جلية على أنه لا إله إلا الله، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَلَئِنْ رَأَيْتَهُمْ تُرْجَىٰ تُرْجَىٰ﴾ (١٠٣).

﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٤٥) إِذْ قَالَ لَهُمُ أُهْمُكُمْ هُجٌّ أَلَّا تَنْتَوُوا ﴿١٤٦﴾ إِلَىٰ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْيَعْقُوبَ ﴿١٤٨﴾ وَآسَأَلَكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَنْبَاءِ
إِنْ أَنْبَأَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْمَالِيَيْنِ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْيَعْقُوبَ ﴿١٥٠﴾ ﴿١٥١﴾

هذا إخبار من الله ﷻ، عن عبده ورسوله نوح، عليه السلام، وهو أول رسول بعث إلى الأرض بعد ما عبدت الأصنام والأنداد، بعثه الله ناهياً عن ذلك، ومحذراً من وبيل عقابه، فكذب قومه واستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم، ويتنزل تكذيبهم له بمنزلة تكذيب جميع الرسل؛ ولهذا قال: ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ نُوحٌ أَنَا رَسُولُ اللَّهِ فَأَتُوا اللَّهَ فَمَا يُطِيعُونَ؟ ﴿آي: لَا تَخَافُونَ اللَّهَ فِي عِبَادَتِكُمْ غَيْرَهُ؟ إِنَّ لَكُمْ رَسُولًا أَمِينًا﴾ (١٧٦) آي: أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، آمين فيما بعثني به، أبلغكم رسالة الله لا أزيد فيها ولا أنقص منها، ﴿فَأَقْبُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَبَّكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ (١٧٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنَّا نَجْعَىٰ لِمَنِ عَلَيْنَا ﴿آي: لَا أَسْأَلُكُمْ مِنْكُمْ جَزَاءً عَلَىٰ نَصْحِي لَكُمْ، بَلْ أَخَذْتُ ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (١٧٩) ﴿فَأَقْبُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَبَّكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ فقد وضع لكم وبان صدقي ونصحي وأمانتي فيما بعثني به واتممتي عليه.

﴿١١٥﴾ قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَتَتَّبِعَكَ الْأَرْدَلُونَ ﴿١١٦﴾ قَالُوا وَمَا عَلَيْنَا مِثْلَ بَاطِلِهِمْ ﴿١١٧﴾ إِنَّ حَسَابَهُمْ إِلَىٰ عَلَىٰ رَبِّي لَوَ تَشْعُرُونَ ﴿١١٨﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٢٠﴾

يقولون: نؤمن بك ونتبعك، ونساوى في ذلك بهؤلاء الأراذل الذين اتبعوك وصدقوك، وهم أراذلنا، ولهذا قالوا: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَأَتَّبِعُكَ الْأَرْدَلُونَ قَالَ وَمَا عَلِمَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١١٧) ؟ أي: وأي شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي، ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه لا يلزمني التنقيب عنه والبحث والفحص، إنما علي أن أقبل منهم تصديقهم لي، وأكل سرائرهم إلى الله، ﷻ، ﴿إِنْ جَاءَهُمْ إِلَّا عَنِّي بَلَدٌ لَوْ تَشَاءُونَ﴾ (١١٨) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْفُتُونِيِّينَ (١١٩)، كأنهم سألوا منه أن يعدم عنه ليتابعوه، فأبى عليهم ذلك، وقال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْفُتُونِيِّينَ﴾ (١٢٠) إِنَّ أَكْثَرَ بَلَدٍ مُّثْنٍ (١٢١) أي: إنما بعثت نذيراً، فمن أطاعني واتبعني وصدقني كان مني وكنت منه، سواء كان شريفاً أو وضعياً، أو جليلاً أو حقيراً.

[illegible]

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، وجهاً وإسراءاً، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ، والامتناع الشديد، وقالوا في الآخر: ﴿لَيْزَ لَرُ نَتْنَهْ﴾ أي: عن دعوتك إيانا إلى دينك يا نوح ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي: لتُرجَمَنَّ. فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَبُوا قَاتِلَتِ بَنِي وَيَسْتَهْمُ فَتَمَّا وَيَجَنِّي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٨)، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ (١٣٩) فَقَتَلْنَا أَبَوَيْ السَّلَامَةِ بِأَوِّ مَتَهَرِ (١٤٠) وَقَفَرْنَا الْأَرْضَ عُبُونَا فَاتَّقَى الْمَلَأَ عَلَى أَمْرِ قَدْ مَدَّرَ (١٤١) وَحَلَّتْهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْبَاجِ وَدُسِّرَ (١٤٢) تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤٣) [الفسر: ١٠-١٤]، وقال ههنا: ﴿وَأَخِيَّائِي مَوْسَى وَمَنْ مَعَهُ أَمْجِينَ (١٤٤) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (١٤٥)﴾ . والمشحون: هو المملوء بالأمته والأزواج التي حمل فيه من كل زوجين اثنين، أي: نجيناها ومن معه كلهم، وأغرقتنا من كذبه وخالف أمره كلهم، ﴿إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٤٦) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٧)﴾ .

﴿ كَتَبَ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ نُوحُمْ هَؤُلَاءِ لَا تَعْبُدُوا ﴿١٢٤﴾ لِي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِيرٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْيَعْقُونَ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَعْرَىٰ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَشْتَكُونَ ﴿١٢٨﴾ كُلَّ يَوْمٍ يَخْتِفُ مِنْكُمْ خَفَايَا ﴿١٢٩﴾ وَتَقُولُونَ مَسَاحِكٌ لَّهُمْ لَعَلَّكُمْ تَهْلِكُونَ ﴿١٣٠﴾ وَإِنَّا بِكُمْ لَبِظُونَ ﴿١٣١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْيَعْقُونَ ﴿١٣٢﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدُّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٣﴾ أَمَدُّكُمْ بِأَعْيُنِنَا ﴿١٣٤﴾ وَنَحْنُ بِعُشْرِهِمْ ﴿١٣٥﴾ لِي آخِافَ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٦﴾ ۝

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود، عليه السلام، أنه دعا قومه عاداً، وكانوا قوماً يسكنون الأحقاف، وهي: جبال الرمل قريباً من بلاد حضرموت متاخمة لبلاد اليمن، وكانوا زمانهم بعد قوم نوح، كما قال في «سورة الأعراف»: ﴿يَسْكُنُوا أَذْكُورًا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْآلِطِيِّ بَعْضَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]، وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب، والقوة والبطش الشديد، والطول المديد، والأرزاق الدارة، والأموال والجنات والعيون، والأبناء والزروع والثمار، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه، فبعث الله إليهم رجلاً منهم رسولاً وبشيراً ونذيراً فدعاهم إلى الله وحده، وحذرهم نقمته وعذابه في مخالفته، فقال لهم كما قال نوح لقومه، إلى أن قال: ﴿أَتُنْبِئُكُمْ بِكُلِّ رَيْعٍ مَائَةٍ تَبْتَئُونَ ﴿١٧٦﴾﴾، اختلف المفسرون في الريع بما حاصله: أنه المكان المرتفع عند جواز الطرق المشهورة. تبئون هنالك بناء محكم بأهرأ هائلاً؛ ولهذا قال: ﴿أَتُنْبِئُكُمْ بِكُلِّ رَيْعٍ

مَآءٌ ﴿١٣٦﴾ أَي: معلماً بناء مشهوراً، تعبثون، وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا لاحتياج إليه؛ بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة؛ ولهذا أنكر عليهم نبههم، عليه السلام، ذلك؛ لأنه تضییع للزمان وإتعاث للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة. ثم قال: ﴿وَتَتَخَذُونَ مِصَاجَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ﴿١٣٧﴾، قال مجاهد المصانع: البروج المشيدة، والبنیان المخلد. وفي رواية عنه: بروج الحمام. وقال قتادة: هي مأخذ الماء. قال قتادة: وقرأ بعض القراء: «وتتخذون مصانع كأنكم خالدون». وفي القراءة المشهورة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ﴿١٣٨﴾ أي: لكي تقيموا فيها أبداً، وليس ذلك بحاصل لكم، بل زائل عنكم، كما زال عمن كان قبلكم. وقال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا أبي، حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا الوليد، حدثنا ابن عجلان، حدثني عَوْْنُ بن عبد الله بن عتبة، أنا أبا الدرداء، رضي الله عنه، لما رأى ما أحدث المسلمون في العُوطَة من البنیان ونصب الشجر، قام في مسجدهم فنأدى: يا أهل دمشق، فاجتمعوا إليه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ألا تستحيون! ألا تستحيون! تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون، إنه كانت قبلكم قرون، يجمعون فيرعون، ويبنون فيوثقون، ويأملون فيطيلون، فأصبح ألمهم غروراً، وأصبح جمعهم بوراً، وأصبحت مساكنهم قبوراً، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً، فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين؟ وقوله: ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ ﴿١٣٩﴾ وصفهم بالقوة والغلبة والجبروت، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿١٤٠﴾ أي: اعبدوا ربكم، وأطيعوا رسولكم. ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال: ﴿وَأَنقَرُوا﴾ ﴿١٤١﴾ أَمَذَرُوا مِمَّا قَلَّمْتُمْ ﴿١٤٢﴾ أَنَذَرُوا بِأَنفُسِهِمْ وَبَيْنَ ﴿١٤٣﴾ رَعْنَتِ وَيُجَيِّدُونَ ﴿١٤٤﴾ إِنَّ أَخَافَ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٤٥﴾ أي: إن كذبتهم وخالفتم، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب، فما نفع فيهم.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَصْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿١٤٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٤٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٤٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَنْ نَبْقِيَ لَهُمُ الْقَرْيَةَ أَبَدًا ﴿١٥٠﴾.

يقول تعالى مخبراً عن جواب قوم هود له، بعدما حذرهم وأنذرهم، ورعيتهم ورهيبهم، وبين لهم الحق ووضحه. ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَصْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿١٤٦﴾ أي: لا نرجع عما نحن فيه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٤٧﴾. وهكذا الأمر؛ فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٤٨﴾ [البقرة: ٦]؛ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٤٩﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ نَّجَاةً لَبَدَّلُوا بِهَا الْآيَةَ ﴿١٥٠﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. وقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٤٧﴾: قرأ بعضهم: «إن هذا إلا خلق» بفتح الخاء وتسكين اللام. قال ابن مسعود، والوعوفي عن عبد الله بن عباس، وعلقمة، ومجاهد: يعنون ما هذا الذي جئتنا به إلا أخلاق الأولين. كما قال المشركون من قريش: ﴿وَقَالُوا أَأُتِيتُمْ بَشِيرًا وَأُنذِرْتُمْ فَكُنْ حَتَّى تُلَاقُوا نَارَ الْآلَةِ﴾ ﴿١٤٨﴾ [الفرقان: ٥]، وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِلَهٌ أَتَيْنَاهُ وَأَنَّهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا وَزُكُورًا﴾ ﴿١٤٩﴾ [الفرقان: ٤، ٥]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا آلُوتِ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٤٩﴾ [النحل: ٢٤]. وقرأ آخرون: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٤٧﴾ - بضم الخاء واللام - يعنون دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأوائل من الآباء والأجداد. ونحن تابعون لهم، سالكون وراءهم، نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا معاد؛ ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ ﴿١٤٨﴾. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٤٧﴾ يقول: دين الأولين. وقال عكرمة، وعطاء الخراساني، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير.

قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ ﴿١٤٨﴾ أي: فاستمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده، فأهلكهم الله، وقد بين سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية، أي: ريحاً شديدة الهبوب ذات برد شديد جداً، فكان إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعنى شيء وأجبره، فسلط الله عليهم ما هو أعنى منهم وأشد قوة، كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ قَعَلْ رَبُّكَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٤٩﴾ [الفجر: ٦، ٧]، وهم عاد الأولى، كما قال: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ ﴿١٥٠﴾ [النجم: ٥٠]، وهم من نسل إرم بن سام بن نوح. ﴿فَكَانَ الْفَلَمَادُ﴾ ﴿١٤٩﴾ أي: الذين كانوا يسكنون العمدة، ومن زعم أن «إرم» مدينة، فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب ووهب، وليس لذلك أصل أصيل. ولهذا قال: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ بَيْتُهُمْ فِي الْآلَةِ﴾ ﴿١٤٨﴾ [الفجر: ٨]، أي لم يخلق مثل هذه القبيلة في قوتهم وشدتهم وجبروتهم، ولو كان المراد بذلك مدينة لقال: التي لم يكن مثلها في البلاد، وقال: ﴿فَمَا عَادَ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ فَغَوَّاهُمْ فَأَنذَرْتَهُمْ فَوَقَّاهُمْ فَذَرَوْهُم مَّا هُمْ بِعَائِدِينَ﴾ ﴿١٥٠﴾ [فصلت: ١٥]. وقد قدمنا أن الله تعالى لم يرسل عليهم من الريح إلا بمقدار أنف الثور، عتت على الخزنة، فأذن الله لها في ذلك، وسلكت وحصبت بلادهم، فحصب كل شيء لهم، كما قال تعالى: ﴿تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا

يُرْجَعُ إِلَّا سَكَنَهُمْ ﴿١٤١﴾ الآية [الأحاف: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا عَادَ أَقْمَلِكُمْ بِرِيحٍ مَرْمَرٍ عَائِيَةٍ ﴿١٤٢﴾ سَحَرَهَا عَلَيْهِمْ سَنَجَ لَيَالٍ وَكُنُيَّةَ أَيَّامٍ حُسُونًا ﴿١٤٣﴾﴾ [الحاقة: ٦، ٧]، أي: كاملة، ﴿فَرَزَقَ الْقَوْمَ فِيهَا صَرَخَ كَانْتُمْ أَعْبَادُ غُلٍّ حَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، أي: بقوا أبداناً بلا رؤوس؛ وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فقتلته وترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشده دماغه، وتكسر رأسه، وتلقيه، كأنهم أعجاز نخل منقعر. وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم، فلم يغن عنهم ذلك من أمر الله شيئاً، ﴿إِنَّ لِمَلَّ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴿١٤٤﴾﴾ [نوح: ٢٤]؛ ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَعْلَنَهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٦﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الطَّرِيقَ ﴿١٤٧﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴿١٤٨﴾ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ إني لكم رسول أمين ﴿١٥٠﴾ فَأَتَوْا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥١﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥٢﴾﴾.

وهذا إخبار من الله، ﷻ، عن عبده ورسوله صالح، عليه السلام: أنه بعثه إلى قوم ثمود، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحجر، التي بين وادي القرى وبلاد الشام، ومساكنهم معروفة مشهورة. وقد قدمنا في «سورة الأعراف» الأحاديث المروية في مرور رسول الله ﷺ بهم حين أراد غزو الشام، فوصل إلى تبوك، ثم عاد إلى المدينة ليتأهب لذلك. وقد كانوا بعد عاد وقبل الخليل، عليه السلام. فدعاهم نبيهم صالح إلى الله، ﷻ، أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه. فأخبرهم أنه لا يتبغي بدعوتهم أجراً منهم، وإنما يطالب ثواب ذلك من الله، ﷻ، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال:

﴿أَتَذْكُرُونَ فِي مَا هُنَا مَآيِمَ ﴿١٥٣﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥٤﴾ وَزُرُوعٍ وَغُلٍّ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٥٥﴾ وَتَنَجُّوتَ مِنْ أَلْجَالٍ بِرُؤَا قُرَيْهِ ﴿١٥٦﴾ فَأَتَوْا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٧﴾ وَلَا تَطْلُبُوا أَمْرَ الشَّرَفِ ﴿١٥٨﴾ الَّذِينَ يَقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

يقول لهم واعظاً لهم ومحذراً إياهم نعم الله أن تحل بهم، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة، وجعلهم في أمن من المحذورات. وأنبأ لهم من الجنات، وأنعم لهم من العيون الجارية، وأخرج لهم من الزروع والثمرات؛ ولهذا قال: ﴿وَنَحْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾. قال العوفي، عن ابن عباس: أينع وبلغ، فهو هضيم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَنَحْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ يقول: معشبة. وقال إسماعيل بن أبي خالد، عن عمرو بن أبي عمرو - وقد أدرك الصحابة - عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَنَحْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قال: إذا رطب واسترخى. رواه ابن أبي حاتم، قال: وروى عن أبي صالح نحو هذا. وقال أبو إسحاق، عن أبي العلاء: ﴿وَنَحْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قال: هو المذن من الرطب. وقال مجاهد: هو الذي إذا كبس تهشم وتفتت وتناثر. وقال ابن جريج: سمعت عبد الكريم أبا أمية، سمعت مجاهد يقول: ﴿وَنَحْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قال: حين يطلع تقبض عليه فتهضمه، فهو من الرطب الهضيم، ومن اليابس الهضيم، تقبض عليه فتهشمه. وقال عكرمة، وقتادة: الهضيم: الرطب اللين. وقال الضحاك: إذا كثر حمل الشمرة، وركب بعضه بعضاً، فهو هضيم. وقال مرة: هو الطلع حين ينفرد ويخضر. وقال الحسن البصري: هو الذي لا نوى له. وقال أبو صخر: ما رأيت الطلع حين يُشَقُّ عنه الكم، فترى الطلع قد لصق بعضه ببعض، فهو الهضيم، وقوله: ﴿وَتَنَجُّوتَ مِنْ أَلْجَالٍ بِرُؤَا قُرَيْهِ ﴿١٥٦﴾﴾ قال ابن عباس، وغير واحد: يعني: حاذقين. وفي رواية عنه: شريين أشربين. وهو اختيار مجاهد وجماعة. ولا منافاة بينهما؛ فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً وطرراً وعبثاً، من غير حاجة إلى سكنها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم؛ ولهذا قال: ﴿فَأَتَوْا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٨﴾﴾ أي: أقبلوا على عمل ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة، من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتوحده وتعبدوه وتسبحوه بكرة وأصيلاً، ﴿وَلَا تَطْلُبُوا أَمْرَ الشَّرَفِ ﴿١٥٩﴾ الَّذِينَ يَقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ يعني: رؤساءهم وكبراهم، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر، ومخالفة الحق.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأَبِ يَدَايَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٦٢﴾ قَالَ هَٰذَا نَارُ قَدْ ثَلَاثُ يَوْمٍ تَتَلَوْنَهَا ﴿١٦٣﴾ وَلَا تَسْهَوْنَ يَوْمَ يَأْتُكُمُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦٤﴾ مَقْرُوءًا فَأَصْبَحُوا نَدِيبِينَ ﴿١٦٥﴾ فَأَعْلَنَهُمُ الْعَذَابُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَتْ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن ثمود في جوابهم لنبيهم صالح، عليه السلام، حين دعاهم إلى عبادة ربهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٦١﴾﴾. قال مجاهد، وقتادة: يعنون من المسحورين. وروى أبو صالح، عن ابن عباس: ﴿مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾: يعني من المخلوقين، واستشهد بعضهم على هذا القول بما قال الشاعر. يعني الذين لهم سُحُور، والسُحر: هو الرثة. والأظهر

في هذا قول مجاهد وقتادة: أنهم يقولون: إنما أنت في قولك هذا مسحور لا عقل لك. ثم قالوا: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ يعني: فكيف أوحى إليك دوننا؟ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿أَلَمْ يَلِكُ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ (١٦٠). [الفر: ٢٥، ٢٦]. ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها، ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم فطلبوا منه - وقد اجتمع ملؤهم - أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة عندهم - ناقة عُشراء من صفتها كذا وكذا. فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق، لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به، وليصدقن، وليتبعن، فأنعموا بذلك. فقام نبي الله صالح، عليه السلام، فصلى، ثم دعا الله، ﷻ، أن يجيبهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عُشراء، على الصفة التي وصفوها. فأمن بعضهم وكفر أكثرهم، ﴿قَالَ مَوْلَايَ نَاقَةٌ لَهَا يَوْمَ يُدْعَى النَّاسُ يُدْعَى يَوْمَ الْآزِمِ﴾ (١٦١) يعني: ترد ماءكم يوماً، ويوماً تردونه أنتم، ﴿وَلَا تَسْخَمُوا بِسُوءِ قِيَادِكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ (١٦٢) فحذرهم نعمة الله إن أصابوها بسوء، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ترد الماء، وتاكل الورق والمرعى، ويستفعون بلبنها، يحتلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً، فلما طال عليهم الأمد وحضر شقاؤهم، تمالؤوا على قتلها وعقرها، ﴿فَمَقْرُومًا قَاسِمًا نَتَذَرُ﴾ (١٦٣) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ. وهو أن أرضهم زلزلت زلزلاً شديداً، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب عن محالها، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون، فأصبحوا في ديارهم جائعين، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٦٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٦٥).

﴿كَذَّبَ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٦٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ نُوحُومُ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٦٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي الْعَلِيمِ (١٧٠).

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط، عليه السلام، وهو: لوط بن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم، وكانوا يسكنون «سدوم» وأعمالها التي أهلها الله بها، وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة، وهي مشهورة ببلاد الغور، متاخمة لجبال البيت المقدس، بينها وبين بلاد الكرك والشوبك. فدعاهم إلى الله، ﷻ، أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله إليهم، ونهاهم عن معصية الله، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم، فما لم يسبقهم الخلائق إلى فعله، من إتيان الذكران دون الإناث؛ ولهذا قال تعالى:

﴿اتَّقُوا الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (١٧١) وَتَذَكَّرُوا مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٧٢) قَالُوا لَيْنَ لَوْ تَسَوَّاهُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخَلَّيْنِ (١٧٣) قَالَ إِنِّي لَمَلِكٌ مِنَ الْقَالِينَ (١٧٤) رَبِّ يَحْنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٧٥) فَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٦) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ (١٧٧) ثُمَّ دَرَجَاتٍ الْآخِرِينَ (١٧٨) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٩) إِذْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٨٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٨١).

لما نهاهم نبي الله عن إتيانهم الفواحش، وغشيانهم الذكور، وأرشدهم إلى إتيان نسايتهم اللاتي خلقهن الله لهم - ما كان جواب قومه له إلا أن قالوا: ﴿لَيْنَ لَوْ تَسَوَّاهُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخَلَّيْنِ﴾ أي: نفيك من بين أظهرنا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (١٨٢) [الاعراف: ٨٢]، فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمررون على ضلالتهم، تبرأ منهم فقال: ﴿قَالَ إِنِّي لَمَلِكٌ مِنَ الْقَالِينَ﴾ (١٨٣) أي: المُبغضين، لا أحبه ولا أرضى به؛ فأنا بريء منكم. ثم دعا الله عليهم قال: ﴿رَبِّ يَحْنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٨٤) قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ (١٨٥) أي: كلهم، ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ﴾ (١٨٦). وهي امرأته، وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع من بقي من قومها، وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم في «سورة الأعراف» و«هود»، وكذا في «الحجر» حين أمره الله أن يسري بأهله إلا امرأته، وأنهم لا يلتفتون إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه، فصبروا لأمر الله واستمروا، وأنزل الله على أولئك العذاب الذي عَمَّ جميعهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ دَرَجَاتٍ الْآخِرِينَ﴾ (١٨٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٨٨) إِذْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٨٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩٠).

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمِرْثَلِ﴾ (١٩١) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٩٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٩٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٩٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي الْعَلِيمِ (١٩٥).

هؤلاء - أعني أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح. وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة. وقيل: شجر ملتف كالغيضة، كانوا يعبدونها؛ فلهذا لما قال: كذب أصحاب الأيكة المرسلين، لم يقل: «إذ قال لهم أخوهم شعيب»، وإنما قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾، فقطع نسبة الأخوة بينهم؛

للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسباً. ومن الناس من لم يتفطن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيباً، عليه السلام، بعثه الله إلى امتين، ومنهم من قال: ثلاث أسم. وقد روى إسحاق بن بشر الكاهلي - وهو ضعيف - حدثني ابن السدي، عن أبيه - وذكريا بن عمر، عن خصيف، عن عكرمة قال: ما بعث الله نبياً مرتين إلا شعيباً، مرة إلى مدين فأخذهم الله بالصيحة، ومرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم الله بعداب يوم الظلة. وروى أبو القاسم البغوي، عن هذبة، عن هشام، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾. وقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾. [ق: ١٤] قوم شعيب. قال إسحاق بن بشر: وقال غير جُوَيْر: أصحاب الأيكة ومدين هما واحد. والله أعلم. وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة «شعيب»، من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة، عن أبيه، عن معاوية بن هشام، عن هشام بن سعد، عن سعيد بن أبي هلال، عن ربيعة بن سيف، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان، بعث الله إليهما شعيباً النبي، عليه السلام». وهذا غريب، وفي رفعه نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً. والصحيح أنهم أمة واحدة، وصفوا في كل مقام بشيء؛ ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان، كما في قصة مدين سواء بسواء، فدل ذلك على أنهم أمة واحدة.

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ ﴿وَزِيدُوا بِالْقُسْطِاسِ السَّقِيمِ﴾ ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْنَطُوا فِي الْأَرْضِ مُبْسِدِينَ﴾ ﴿وَأَقْبُوا إِلَىٰ خَلْقِكُمْ وَالْجِلَّةِ الْأُولَىٰ﴾.

يأمرهم تعالى بإيفاء المكيال والميزان، وينهاهم عن التطفيف فيهما، فقال: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ أي: إذا دفعتم إلى الناس فكمّلوا الكيل لهم، ولا تخسروا الكيل فتعطوه ناقصاً، وتأخذوه - إذا كان لكم - تاماً وافيّاً، ولكن خذوا كما تعطون، واعطوا كما تأخذون. ﴿وَزِيدُوا بِالْقُسْطِاسِ السَّقِيمِ﴾ والقسطاس: هو الميزان، وقيل: القبان. قال بعضهم: هو معرب من الرومية. وقال مجاهد: القسطاس المستقيم: العدل - بالرومية. وقال قتادة: القسطاس: العدل. وقوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي: تنقصوهم أموالهم، ﴿وَلَا تَقْنَطُوا فِي الْأَرْضِ مُبْسِدِينَ﴾ يعني: قطع الطريق، كما في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَقْنَطُوا يَكْفُلُ صِرَاطَ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَن مَّاتَ بِهِمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]. وقوله: ﴿وَأَقْبُوا إِلَىٰ خَلْقِكُمْ وَالْجِلَّةِ الْأُولَىٰ﴾: يخوفهم بأس الله الذي خلقهم وخلق آباءهم الأوائل، كما قال موسى، عليه السلام: ﴿رَبِّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولَىٰ﴾ [الصافات: ١٢٦]. قال ابن عباس، ومجاهد، والسدي، وسفيان بن عيينة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَالْجِلَّةِ الْأُولَىٰ﴾ يقول: خلق الأولين. وقرأ ابن زيد: ﴿وَلَقَدْ أَسْلَٰمَ نَكْرًا جِلَّةً كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢].

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَطَّلُكَ لَئِنْ الْكَذِبِينَ﴾ ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِنْ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبِّيَ عَلَّمَ مِمَّا تَمَلَّكُونَ﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْ أَعْلَمُ الرَّحِيمَ﴾.

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها - تشابهت قلوبهم - حيث قالوا: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ يعنون: من المسحورين، كما تقدم. ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَطَّلُكَ لَئِنْ الْكَذِبِينَ﴾ أي: تتعمد الكذب فيما تقوله، لا أن الله أرسلك إلينا، ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِنْ السَّمَاءِ﴾: قال الضحاك: جانباً من السماء. وقال قتادة: قطعاً من السماء. وقال السدي: عذاباً من السماء. وهذا شبيه بما قالت قُرَيْش فيما أخبر الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الشعراء: ١٧٧]، إلى أن قالوا: ﴿أَوْ تَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيَامًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٢]. وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا حَقٌّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَنْزِلْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ١٣٢]، وهكذا قال هؤلاء الكفرة الجهلة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِنْ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. ﴿قَالَ رَبِّيَ عَلَّمَ مِمَّا تَمَلَّكُونَ﴾ يقول: الله أعلم بكم، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به غير ظالم لكم، وكذلك وقع بهم كما سألوا، جزاء وفاقاً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. وهذا من جنس ما سألوا، من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله، سبحانه وتعالى، جعل عقوبتهم أن أصابهم حر شديد جداً مدة سبعة أيام لا يكتفهم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلمتهم، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شراً من نار، ولهباً ووهجاً عظيماً، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة عظيمة أزهدت أرواحهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق، ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين؛ وذلك لأنهم قالوا: ﴿لَتُخْرِجَنَاكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَوْمِنَا أَوْ تَتُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾

[الأعراف: ٨٨]، فأرجفوا بنبي الله ومن اتبعه، فأخذتهم الرجفة. وفي سورة هود قال: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: ٩٤]؛ وذلك لأنهم استهزؤوا بنبي الله في قولهم: ﴿أَمَلْنَا نَكُنْ نَكْرًا أَنْ تَنْتَهِكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْثَلِ مَا نَحْنُ أَتَىٰكَ لَأَتِ الْخَلِيفَةُ الْأَوَّلُ﴾ [هود: ٨٧]. قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء، فانسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم، فقال: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾. وهنا قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿١٩٢﴾ على وجه التعنت والعناد، فانسب أن يحق عليهم ما استبعدوا وقوعه: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. قال قتادة: قال عبد الله بن عمر، رضي الله عنه: إن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلمهم منه شيء، ثم إن الله أنشأ لهم سحابة، فانطلق إليها أحدهم واستظل بها، فأصاب تحتها برداً وراحة، فأعلم بذلك قومه، فاتوا جميعاً، فاستظلوا تحتها، فأججت عليهم ناراً. وهكذا روي عن عكرمة، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وقتادة، وغيرهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، بعث الله إليهم الظلة، حتى إذا اجتمعوا كلهم، كشف الله عنهم الظلة، وأحمى عليهم الشمس، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقل. وقال محمد بن كعب القرظي: إن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب: أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها، فلما خرجوا منها أصابهم فرع شديد، ففرقوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقط عليهم، فأرسل الله عليهم الظلة، فدخل تحتها رجل فقال: ما رأيت كالיום ظلاً أطيب ولا أبرد من هذا. هلموا أيها الناس. فدخلوا جميعاً تحت الظلة، فصاح بهم صيحة واحدة، فماتوا جميعاً. ثم تلا محمد بن كعب: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثني الحسن، حدثني سعيد بن زيد - أخو حماد بن زيد - حدثني حاتم بن أبي صغيرة، حدثني يزيد الباهلي: سألت ابن عباس عن هذه الآية: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قال: بعث الله عليهم ومدة وحرّاً شديداً، فأخذ بأنفاسهم فدخلوا البيوت فدخل عليهم أجواف البيوت، فأخذ بأنفاسهم، فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرية، فبعث الله سحابة فأظلمت من الشمس، فوجدوا لها برداً ولذة، فنادى بعضهم بعضاً، حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسلها الله عليهم ناراً. قال ابن عباس: فذلك عذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٩٣﴾ وَلَئِنَّكَ لَهوَ الْغَايِبِ ﴿١٩٤﴾ أَي: العزيز في انتقامه من الكافرين، الرحيم بعباده المؤمنين.

﴿وَلَقَدْ لَنَبِّئُكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٩٥﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٦﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٧﴾ بِلِسَانٍ عَرَفٍ مُّبِينٍ ﴿١٩٨﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَلَقَدْ نَزَّلَ﴾ أي: القرآن الذي تقدم ذكره في أول السورة في قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ يَخْتَلِفُ عَلَيْهِ﴾ الآية. ﴿لَنَبِّئُكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أنزله الله عليك وأوحاه إليك، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ وهو جبريل، عليه السلام، قاله غير واحد من السلف: ابن عباس، ومحمد بن كعب، وقتادة، وعطية العوفي، والسدي، والضحاك، والزهرري، وابن جريج. وهذا ما لا نزاع فيه. قال الزهرري: وهذه كقوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٩٧]. وقال مجاهد: من كلمه الروح الأمين لا تاكله الأرض. ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي: نزل به ملك كريم أمين، ذو مكانة عند الله، مطاع في الملأ الأعلى، ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ يا محمد، سالماً من الدنس والزيادة والنقص؛ ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي: لتنذره بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، وتبشر به المؤمنين المتبعين له. وقوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَفٍ مُّبِينٍ﴾ أي: هذا القرآن الذي أنزلناه إليك أنزلناه بلسانك العربي الفصيح الكامل الشامل، ليكون بيناً واضحاً ظاهراً، قاطعاً للعدر، مقيماً للحجة، دليلاً إلى المحجة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي بكر العتكي، حدثنا عباد بن عباد المهلب، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه في يوم دجن إذ قال لهم: «كيف ترون بواسقها؟» قالوا: ما أحسنها وأشد تراكمها. قال: «فكيف ترون قواعدها؟» قالوا: ما أحسنها وأشد تمكنا. قال: «فكيف ترون جوفها؟» قالوا: ما أحسنها وأشد استدارتها. قال: «فكيف ترون برقعها، أوميض أم خفوف أم يشق شقاً؟» قالوا: بل يشق شقاً. قال: «الحياء الحياء إن شاء الله». قال: فقال رجل: يا رسول الله، بأبي وأمي ما أفصحك، ما رأيت الذي هو أعرب منك. قال: فقال: «حق لي، وإنما أنزل القرآن بلساني، والله يقول: ﴿بِلِسَانٍ عَرَفٍ مُّبِينٍ﴾». وقال سفيان الثوري: لم ينزل وحي إلا بالعربية، ثم ترجم كل نبي لقومه، واللسان يوم القيامة بالسريانية، فمن دخل الجنة تكلم بالعربية. رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَلَقَدْ لَمِيَ نَارُ الْآزَلِينَ﴾ ﴿١٩٩﴾ أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ نَارٌ أَنْ يَلْمَهُمْ عَلِمُوا بِحَقِّ إِسْمِهِمْ ﴿٢٠٠﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى مَعْشَرٍ مِّنَ الْأَعْجَمِينَ ﴿٢٠١﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٠٢﴾.

يقول تعالى: وإن ذكر هذا القرآن والتنبؤ به لموجود في كتب الأولين الماثورة عن أنبيائهم، الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك، حتى قام آخرهم خطيباً في ملته بالنبوة بأحمد: ﴿وَأَقَالَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِمَا بَعَثَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ وَهُوَ جَمْعُ زُبُورَ، وكذلك الزبور، وهو كتاب داود. وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي التَّزْوِيرِ ۝٥٧﴾ [الفرق: ٥٧] أي: مكتوب عليهم في صحف الملائكة. ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ نَذِيرٌ أَن يَدْعُوهُمُ عَلَىٰ إِسْرَءِيلَ ۝٥٨﴾ أي: أو ليس يكفهم من الشاهد الصادق على ذلك: أن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها؟ والمراد: العدول منهم، الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمه، كما أخبر بذلك من آمن منهم كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، عمن أدركه منهم ومن شاكلهم. وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُونًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ۝١٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٧]. ثم قال تعالى مخبراً عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن؛ أنه لو أنزل على رجل من الأعاجم، ممن لا يدري من العربية كلمة، وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته، لا يؤمنون به؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ۝١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٨] فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهٖ مُؤْمِنِينَ ۝١٥٩﴾، كما أخبر عنهم في الآية الأخرى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَمْرُؤُونَ ۝١٦٠﴾ [الحجر: ١٥٩، ١٦٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ التَّلَافُوتَ وَلَكِنَّمَا أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ فَرَجَاهُمْ مَا ظَنَّنَا بِهِ ۝١٦١﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٦٢﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَا فِي قُلُوبِ الْمُتَكِبِينَ ۝١٦٣﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهٖ حَقَّ بَرَأَ الْعَذَابُ الْآلِيمَ ۝١٦٤﴾ قِيَّاتِهِمْ بَعْتَهُ وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ۝١٦٥﴾ قِيلُوا هَلْ تَحْنُ مَطْرُونَ ۝١٦٦﴾ أَوَلَمْ يَكُنَّا يَسْتَمِعُونَ ۝١٦٧﴾ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۝١٦٨﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ۝١٦٩﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنُونَ ۝١٧٠﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ۝١٧١﴾ وَكَرِّرْنَا وَمَا كُنَّا مُنْذِرِينَ ۝١٧٢﴾.

يقول تعالى: كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد، أي: أدخلناه في قلوب المجرمين، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهٖ﴾ أي: بالحق، ﴿حَقَّ بَرَأَ الْعَذَابُ الْآلِيمَ﴾ أي: حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار، ﴿قِيَّاتِهِمْ بَعْتَهُ﴾ أي: عذاب الله بعتة، ﴿وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾ أي: يمتنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلاً ليعملوا من فزعهم بطاعة الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَذِّنِ لِلنَّاسِ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ أَجْلِ قُرْبِ جُثِّ دَعْوَتِكَ وَتَنَجِّ الْأَرْسَلَ أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ۝١٧٣﴾ [إبراهيم: ١٧٣]، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته، ندم ندماً شديداً هذا فرعون لما دعا عليه الكليم بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَاكَ بِزُحُوتٍ وَمَلَأْنَا زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُصَلِّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَقَّ بَرَأَ الْعَذَابُ الْآلِيمَ ۝١٧٤﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتْلُوا سُبْحَانَ الْآلِينَ لَا يَمْلَكُونَ ۝١٧٥﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]، فآثرت هذه الدعوة في فرعون، فما آمن حتى رأى العذاب الإليم، ﴿حَقَّ إِذَا أَدْرَكَهُ الْفَرْقُ قَالَ مَا مَسَّتْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الْآلِيَّةُ مَا مَسَّتْ بِهٖ بَرَأَ إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ السُّلَاطِينِ ۝١٧٦﴾ مَا لَقْنِي وَفَدَّ عَصِيَّتَ قَبْلُ وَكُنْتُ مِنَ الْكٰفِرِينَ ۝١٧٧﴾ [يونس: ٩٠، ٩١]، وقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝١٧٨﴾ فَلَمَّا يَكُ يَنْفَعُهُمْ يُبْغِضُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا ۝١٧٩﴾ الآية [غافر: ٨٤، ٨٥]. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنَّا يَسْتَمِعُونَ ۝١٨٠﴾: إنكار عليهم، وتهديد لهم؛ فإنهم كانوا يقولون للرسول تكديماً واستبعاداً: ﴿أَفَتَأْتِيَا بِعَذَابِ اللَّهِ ۝١٨١﴾ [العنكبوت: ٢٩]، كما قال تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُوكَ بِالْعَذَابِ ۝١٨٢﴾ [الأنعام: ٥٣]. ثم قال ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۝١٨٣﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ۝١٨٤﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنُونَ ۝١٨٥﴾ أي: لو أخرناهم وأنظرناهم، وأملينا لهم برهة من الزمان وحيناً من الدهر وإن طال، ثم جاءهم أمر الله، أي شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعم، ﴿كَانَهُمْ يَوْمَ يَوْمِي لَوْ يَبْقَاوْنَ إِلَّا عِيَةً أَوْ مَهْجَةً ۝١٨٦﴾ [الزمر: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ أَهْلَهُمُ لَوْ يَمُوتُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزْعِجِهِمْ مِّنَ الْعَذَابِ أَنْ يَمُوتَ ۝١٨٧﴾ [البقرة: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنْفَعِي عَنْهُ مَا لَهُ إِذَا تَرَدَّدَ ۝١٨٨﴾ [الليل: ١١]؛ ولهذا قال: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنُونَ ۝١٨٩﴾. وفي الحديث الصحيح: «يؤتى بالكافر فيغمس في النار غمسة، ثم يقال له: هل رأيت خيراً قط؟ هل رأيت نعيماً قط؟ فيقول: لا والله يارب. ويؤتى بأشد الناس بؤساً كان في الدنيا، فيصغ في الجنة صبغة، ثم يقال له: هل رأيت بؤساً قط؟ فيقول: لا والله يارب» أي: ما كان شيئاً كان. ولهذا كان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه يمثّل بهذا البيت:

كَأَنَّكَ لَمْ تُؤْتِرْ مِنَ الدَّفْرِ لَيْلَةً إِذَا أَنْتَ أَذْرَكْتَ الَّذِي كُنْتَ تَطْلُبُ

ثم قال الله تعالى مخبراً عن عدله في خلقه: أَنَّهُ مَا أَهْلَكَ أُمَّةً مِّنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعْدَ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ، والإنذار لهم وبعثة الرسل إليهم وقيام الحجج عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ۝١٩٠﴾ وَكَرِّرْنَا وَمَا كُنَّا مُنْذِرِينَ ۝١٩١﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا

النار، يا معشر بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار. يا فاطمة بنت محمد، أنقذي نفسك من النار، فإني - والله - ما أملك لكم من الله شيئاً، إلا أن لكم رحماً سأبُلها ببلالها». ورواه مسلم والترمذي، من حديث عبد الله بن عمير، به. وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه. ورواه النسائي من حديث موسى بن طلحة مرسلاً، لم يذكر فيه أبا هريرة. والموصول هو الصحيح. وأخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري، عن سعيد بن المسيب، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا محمد - يعني ابن إسحاق - عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب، اشتروا أنفسكم من الله. يا صفية عمة رسول الله، ويا فاطمة بنت رسول الله، اشتريا أنفسكما من الله، لا أغني عنكما من الله شيئاً، سلاني من مالي ما شئتما». تفرد به من هذا الوجه، وتفرد به أيضاً، عن معاوية، عن زائدة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه. ورواه أيضاً عن الحسن، ثنا ابن لهيعة، عن الأعرج: سمعت أبا هريرة مرفوعاً. وقال أبو يعلى: حدثنا سُوَيْد بن سعيد، حدثنا ضمام بن إسماعيل، عن موسى بن وَرْذَانَ، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «يا بني قصي، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف. أنا النذير والموت المغير. والساعة والموعد».

الحديث الرابع:

قال أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا التيمي، عن أبي عثمان، عن قبيصة بن مُخَارِق وَرْهَر بن عمرو قال: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ﷻ، سعد رسول الله رُضْمَةً من جبل على أعلاها حجر، فجعل ينادي: «يا بني عبد مناف، إنما أنا نذير، إنما مثلي ومثلكم كرجل رأى العدو، فذهب يربأ أهله، يخشى أن يسبقوه، فجعل ينادي ويهتف: يا صباحاه». ورواه مسلم والنسائي، من حديث سليمان بن طرخان التيمي، عن أبي عثمان عبد الرحمن بن مُلِ الثَّهْلَدِي، عن قبيصة وَرْهَر بن عمرو الهلالي، به.

الحديث الخامس:

قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شريك عن الأعمش، عن المثقال، عن عباد بن عبد الله الأسدي، عن علي، رضي الله عنه، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ﷻ، جمع النبي ﷺ من أهل بيته، فاجتمع ثلاثون، فأكلوا وشربوا قال: وقال لهم: «من يضمن عني ديني ومواعيدي، ويكون معي في الجنة، ويكون خليفتي في أهلي؟». فقال رجل - لم يسمعه شريك - يا رسول الله، أنت كنت بحرأ، من يقوم بهذا؟ قال: ثم قال الآخر، قال: فعرض ذلك على أهل بيته، فقال علي: أنا.

طريق أخرى بأبسط من هذا السياق: قال أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، عن عثمان بن المغيرة، عن أبي صادق، عن ربيعة بن ناجذ، عن علي، رضي الله عنه، قال: جمع رسول الله ﷺ - أو دعا رسول الله ﷺ - بني عبد المطلب، وهم رَفُطٌ، كلهم يأكل الجذعة ويشرب الفَرْق - قال: وصنع لهم مدام طعام فأكلوا حتى شبعوا - قال: وبقي الطعام كما هو كأنه لم يمس. ثم دعا بَعُفْرٍ فشرَبوا حتى رووا، وبقي الشراب كأنه لم يمس - أو لم يشرب - وقال: «يا بني عبد المطلب، إني بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم، فأيكُم يباعيني على أن يكون أخي وصاحبي؟». قال: فلم يقم إليه أحد. قال: فقمعت إليه - وكنت أصغر القوم - قال: فقال: «اجلس». ثم قال ثلاث مرات، كل ذلك أقوم إليه فيقول لي: «اجلس». حتى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي.

طريق أخرى أغرب وأبسط من هذا السياق بزيادات آخر: قال الحافظ أبو بكر البيهقي في «دلائل النبوة»: أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يُونُس بن بَكَيْر، عن محمد بن إسحاق قال: فحدثني من سمع عبد الله بن الحارث بن نوفل - واستكتمني اسمه - عن ابن عباس، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ﷻ، وَكُفِّصَ جَنَاحُ لِيٍّ إِلَيْكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﷻ، قال رسول الله ﷺ: «عرفت أني إن بادأت بها قومي، رأيت منهم ما أكره، فصمت. فجاءني جبريل، عليه السلام، فقال: يا محمد، إن لم تفعل ما أمرك به ربك عذبك ربك». قال علي، رضي الله عنه: فدعاني فقال: «يا علي، إن الله قد أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، فعرفت أني إن بادأتهم بذلك رأيت منهم ما أكره، فصمت عن ذلك، ثم جاءني جبريل فقال: يا محمد، إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك. فاصنع لنا يا علي شاة علي صاع من طعام، وأعد لنا عُسْ لبن، ثم اجمع

لي بني عبد المطلب». ففعلت فاجتمعوا له، وهم يومئذ أربعون رجلاً، يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً. ففهم أعمامه: أبو طالب، وحزمة، والعباس، وأبو لهب الكافر الخبيث. فقدّمت إليهم تلك الجفّة، فأخذ رسول الله ﷺ منها جذية فشقها بأسنانه ثم رمى بها في نواحيها، وقال: «كلوا بسم الله». فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما يرى إلا آثار أصابعهم: والله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها. ثم قال رسول الله ﷺ: «اسقهم يا علي». فجتث بذلك القعب فشرّبوا منه حتى نهلوا جميعاً، وإيم الله إن كان الرجل منهم ليشرّب مثله. فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم، بدره أبو لهب إلى الكلام فقال: لَهْذَ ما سحركم صاحبكم. فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله ﷺ. فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ: «يا علي، عُدْ لنا بمثل الذي كنت صنعت بالأمس من الطعام والشراب؛ فإن هذا الرجل قد بدرني إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم». ففعلت، ثم جمعهم له، فصنع رسول الله ﷺ كما صنع بالأمس، فأكلوا حتى نهلوا عنه، وإيم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها. ثم قال رسول الله ﷺ: «اسقهم يا علي». فجتث بذلك القعب فشرّبوا منه حتى نهلوا جميعاً. وإيم الله إن كان الرجل منهم ليشرّب مثله. فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدّره أبو لهب بالكلام فقال: لَهْذَ ما سحركم صاحبكم. فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله ﷺ. فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ: «يا علي، عد لنا بمثل الذي كنت صنعت لنا بالأمس من الطعام والشراب؛ فإن هذا الرجل قد بدرني إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم». ففعلت، ثم جمعهم له فصنع رسول الله ﷺ كما صنع بالأمس، فأكلوا حتى نهلوا عنه، ثم سقيتهم من ذلك القعب حتى نهلوا عنه، وإيم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ويشرب مثلاً، ثم قال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب، إني - والله - ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة».

قال أحمد بن عبد الجبار: بلغني أن ابن إسحاق إنما سمعه من عبد الغفار بن القاسم أبي مريم، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث. وقد رواه أبو جعفر بن جرير، عن ابن حميد، عن سلمة، عن ابن إسحاق، عن عبد الغفار ابن القاسم، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث، عن ابن عباس، عن علي بن أبي طالب، فذكر مثله، وزاد بعد قوله: «إني جئتكم بخير الدنيا والآخرة». «وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأياكم يوازرنني على هذا الأمر على أن يكون أخي، وكذا وكذا؟» قال: فأحجم القوم عنها جميعاً، وقلت - وإني لأحدثهم سناً، وأرمضهم عيناً، وأعظمهم بطناً، وأحشمهم ساقاً. أنا يا بني الله، أكون وزيرك عليه، فأخذ يزقني ثم قال: «إن هذا أخي، وكذا وكذا، فاسمعوا له وأطيعوا». قال: فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرنا أن نسمع لابنك وتطيع. تفرد بهذا السياق عبد الغفار بن القاسم أبي مريم، وهو متروك كذاب شيعي، اتهمه علي ابن المديني وغيره بوضع الحديث، وضعفه الأئمة رحمهم الله.

طريق أخرى: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسين بن عيسى بن ميسرة الحارثي، حدثنا عبد الله بن عبد القدوس، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث قال: قال علي، رضي الله عنه: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذَرْتُ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، قال لي رسول الله ﷺ: «اصنع لي رجل شاة بصاع من طعام وإناء لنا». قال: ففعلت، ثم قال: «ادع بني هاشم». قال: فدعوتهم وإنهم يومئذ لأربعون غير رجل - أو: أربعون ورجل - قال: وفيهم عشرة كلهم يأكل الجذعة بإدامها. قال: فلما أتوا بالقصعة أخذ رسول الله ﷺ من دزوتها ثم قال: «كلوا»، فأكلوا حتى شبعوا، وهي على هيتها لم يرزؤوا منها إلا سيراً، قال: ثم أتيتهم بالإناء فشرّبوا حتى رزؤوا. قال: وَفَضَّلَ فَضَّلْ، فلما فرغوا أراد رسول الله ﷺ أن يتكلم، فبدّروه الكلام، فقالوا: ما رأينا كالיום في السحر. فسكت رسول الله ﷺ، ثم قال: «اصنع لي رجل شاة بصاع من طعام». فصنعت قال: فدعاهم فلما أكلوا وشربوا، قال: فبدّروه فقالوا مثل مقالته الأولى، فسكت رسول الله ﷺ ثم قال لي: «اصنع لي رجل شاة بصاع من طعام» فصنعت، قال: فجمعهم، فلما أكلوا وشربوا بدرهم رسول الله ﷺ الكلام فقال: «أياكم يقضي عني ديني ويكون خليفتي في أهلي؟». قال: فسكتوا وسكت العباس خشية أن يحيط ذلك بماله، قال: وسكت أنا لسن العباس. ثم قالها مرة أخرى فسكت العباس، فلما رأيت ذلك قلت: أنا يا رسول الله. فقال: «أنت» قال: وإني يومئذ لأسوأهم هيئة، وإني لأعشى العينين، ضخم البطن، حمش الساقين. فهذه طرق متعددة لهذا الحديث عن علي، رضي الله عنه. ومعنى سؤاله، عليه الصلاة والسلام، لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه، ويخلفوه في أهله، يعني إن قتل في سبيل الله، كأنه خشى إذا قام بأعباء الإنذار أن يقتل، ولما أنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِيسَالَهُ وَاللَّهُ يَبْعَثُ مِنْ أَتَائِهِمُ﴾ [المائدة: ٦٧]، فعند ذلك أمن. وكان أولاً يحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَبْعَثُ مِنْ أَتَائِهِمُ﴾. ولم يكن في بني هاشم إذ ذاك أشد إيماناً وإيقاناً وتصديقاً لرسول الله ﷺ من علي، رضي الله عنه؛ ولهذا بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسول الله ﷺ، ثم كان بعد هذا - والله أعلم - دعاؤه الناس جهرة على الصفا، وإنذاره لبطون قريش عموماً وخصوصاً، حتى

سعى من سعى من أعمامه وعماته وبناته، لينبه بالأدنى على الأعلى، أي: إنما أنا نذير، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الواحد الدمشقي - غير منسوب - من طريق عمرو بن سُمرة، عن محمد بن سُوقة، عن عبد الواحد الدمشقي قال: رأيت أبا الدرداء، رضي الله عنه، يحدث الناس ويفتيهم، وولده إلى جنبه، وأهل بيته جلوس في جانب المسجد يتحدثون، فليل له: ما بال الناس يرغبون فيما عندك من العلم، وأهل بيتك جلوس لاهين؟ فقال: لأنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أزهّد الناس في الدنيا الأنبياء، وأشدّهم عليهم الأقربون». وذلك فيما أنزل الله، ﷻ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، ثم قال: «إن أزهّد الناس في العالم أهله حتى يفارقهم». ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، وكفّض جَنَامَكَ لِيَنِ أَهْلَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنَّ عَصَاكَ فَقَدْ إِنِّي بِرَبِّهِمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾. وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْكَرِيمِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿٢١٧﴾ أي: في جميع أمورك؛ فإنه مؤيدك وناصرك وحافظك ومظفرك ومُغْلٍ كلمتك. وقوله: ﴿الَّذِي يَرْبِّكَ مِنْ نَقْمٍ﴾ ﴿٢١٨﴾ أي: هو معتن بك، كما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِمَكْرِ رِبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]. قال ابن عباس: ﴿الَّذِي يَرْبِّكَ مِنْ نَقْمٍ﴾ يعني: إلى الصلاة. وقال عكرمة: يرى قيامه وركوعه وسجوده. وقال الحسن: ﴿الَّذِي يَرْبِّكَ مِنْ نَقْمٍ﴾: إذا صليت وحدك. وقال الضحاك: ﴿الَّذِي يَرْبِّكَ مِنْ نَقْمٍ﴾ ﴿٢١٨﴾ أي: من فراشك أو مجلسك. وقال قتادة: ﴿الَّذِي يَرْبِّكَ﴾: قائماً وجالساً وعلى حالائك. وقوله: ﴿وَتَقَلُّكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾ ﴿٢١٩﴾: قال قتادة: ﴿الَّذِي يَرْبِّكَ مِنْ نَقْمٍ﴾ ﴿٢١٩﴾ وَتَقَلُّكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴿٢٢٠﴾ قال: في الصلاة، يراك وحدك ويراك في الجمع. وهذا قول عكرمة، وعطاء الخراساني، والحسن البصري. وقال مجاهد: كان رسول الله ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه؛ ويشهد لهذا ما صح في الحديث: «سوّوا صفوفكم؛ فإني أراكم من وراء ظهري». وروى البزار وابن أبي حاتم، من طريقين، عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: يعني تقلبه من صلب نبي إلى صلب نبي، حتى أخرجه نبياً. وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الشَّيْخُ الْكَلِيمُ﴾ ﴿٢٢١﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [الآية: يونس: ٦١].

﴿هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مَن تَنْزَلُ الشَّيْطَانُ﴾ ﴿٢٢٢﴾ تَنْزَلَ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٌ ﴿٢٢٣﴾ يُلْقُونَ السَّعَةَ وَأَكْتَرْتُمْ كَذِبًا ﴿٢٢٤﴾ وَالشَّعْرَةَ يَبْغِيهِمُ النَّاسُ وَالْأَرْوَاحُ يَنْزِلُونَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاكِلُهُمْ وَيَشَابَهُهُمْ مِنَ الْكُهَّانِ الْكَذِبَةِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مَن تَنْزَلُ الشَّيْطَانُ﴾ ﴿٢٢٢﴾ تَنْزَلَ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٌ ﴿٢٢٣﴾ أي: كذوب في قوله، وهو الآفak الأثيم، أي: الفاجر في أفعاله. فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين كالكُهَّان وما جرى مجراه من الكذبة الفسقة، فإن الشياطين أيضاً كذبة فسقة. ﴿يُلْقُونَ السَّعَةَ﴾ أي: يسترقون السمع من السماء، فيسمعون الكلمة من علم الغيب، فيزيدون معها مائة كذبة، ثم يلقيونها إلى أوليائهم من الإنس فيتحدثون بها، فيصدقهم الناس في كل ما قالوه، بسب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء، كما صح بذلك الحديث، كما رواه البخاري، من حديث الزهري: أخبرني يحيى بن عروة بن الزبير يقول: قالت عائشة، رضي الله عنها: سألت ناس النبي ﷺ عن الكُهَّان، فقال: «إنهم ليسوا بشيء». قالوا: يا رسول الله، فإنهم يحدثون بالشئ يكون حقاً؟ فقال النبي ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني، فيقرّقرها في أذن وليه كقرقرّة الدجاجة، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة». وقال البخاري أيضاً: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو قال: سمعت عكرمة يقول: سمعت أبا هريرة يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاعاً لقوله، كأنها سلسلة على صفوان، حتى إذا فرغ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق وهو العلي الكبير. فيسمعها مسترقوا السمع، ومسترقوا السمع، هكذا بعضهم فوق بعض». ووصف سفيان بيده فحرفها، وبدد بين أصابعه «فيسمع الكلمة، فيلقياها إلى من تحته، ثم يلقياها الآخر إلى من تحته، حتى يلقياها على لسان الساحر - أو الكاهن - فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقياها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة. فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء». انفرد به البخاري. وروى مسلم من حديث الزهري، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس، عن رجال من الأنصار قريباً من هذا. وسيأتي عند قوله تعالى في سبأ:

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمُ ۖ الْآيَةُ (سبأ: ٢٣)، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَىٰ.

وقال البخاري: وقال الليث: حدثني خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال: أن أبا الأسود أخبره، عن عروة، عن عائشة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَحْدُثُ فِي الْعَنَانِ - وَالْعَنَانُ: الغمام - بِالْأَمْرِ يَكُونُ فِي الْأَرْضِ، فَتَسْمَعُ الشَّيَاطِينُ الْكَلِمَةَ، فَتَقْرَأُ فِي أَذُنِ الْكَاهِنِ كَمَا تَقْرَأُ الْقَارُورَةُ، فَيَزِيدُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ». وقال البخاري في موضع آخر من كتاب «بدء الخلق» عن سعيد بن أبي مريم، عن الليث، عن عبد الله بن أبي جعفر، عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن، عن عروة، عن عائشة، بنحوه. وقوله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ بِمِثْلِهِمُ الْفَاوَنُ﴾ (٢٢٢): قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن. وكذا قال مجاهد، رحمه الله، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما. وقال عكرمة: كان الشاعران يتهاجيان، فينتصر لهذا فقام من الناس، ولهذا فقام من الناس، فأنزل الله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ بِمِثْلِهِمُ الْفَاوَنُ﴾ (٢٢٢). وقال الإمام أحمد: حدثنا قُتَيْبَةُ، حدثنا ليث، عن ابن الهاد، عن يَحْيَى، عن مولى مصعب ابن الزبير - عن أبي سعيد قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج، إذ عَرَضَ شاعر يُشَدُّ، فقال النبي ﷺ: «خَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْ امْسِكُوا الشَّيْطَانَ - لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قِيحًا خَيْرَ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا». وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ (٢٢٣): قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: في كل لغو يخوضون. وقال الضحاك عن ابن عباس: في كل فن من الكلام. وكذا قال مجاهد وغيره. وقال الحسن البصري: قد - والله - رأينا أوديتهم التي يهيمون فيها، مرة في شتمة فلان، ومرة في مدحة فلان. وقال قتادة: الشاعر يمدح قومًا بباطل، ويذم قومًا بباطل. وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (٢٢٤): قال العوفي، عن ابن عباس: كان رجلان على عهد رسول الله ﷺ، أحدهما من الأنصار، والآخر من قوم آخرين، وإنهما تهاجيا، فكان مع كل واحد منهما غواة من قومه - وهم السفهاء - فقال الله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ بِمِثْلِهِمُ الْفَاوَنُ﴾ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦). وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أكثر قولهم يكذبون فيه. وهذا الذي قاله ابن عباس، رضي الله عنه، هو الواقع في نفس الأمر؛ فإن الشعراء يتجسسون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم، فيتكثرون بما ليس لهم؛ ولهذا اختلف العلماء، رحمهم الله، فيما إذا اعترف الشاعر في شعره بما يوجب حدًا: هل قام عليه بهذا الاعتراف أم لا، لأنهم يقولون ما لا يفعلون؟ على قولين. وقد ذكر محمد بن إسحاق، ومحمد بن سعد في الطبقات، والزيبر بن بكار في كتاب الفكاهة: أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، استعمل النعمان بن عدي بن فضالة على «ميسان» - من أرض البصرة - وكان يقول الشعر، فقال:

أَلَا هَلْ أَتَى الْحَسَنَاءُ أَنَّ حَلِيلَهَا
إِذَا شَبَّتْ غُثْنِي دِهَاقِينَ قَرْيَةً
فَإِذَا كُنْتُ نَذْمَانِي فَبِالْأَكْبَرِ اسْتَقْنِي
لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسْوُوهُ

بِمَيْسَانَ، يُسْقَى فِي رُجَاجٍ وَخُنْتَمٍ
وَرُقَاصَةٍ تَجْذُو عَلَى كُلِّ مَثْمٍ
وَلَا تَسْقِنِي بِالْأَضْعَرِ الْمُتَلَمِّ
تَنَادُمْنَا بِالْجَوْسِقِ الْمُتَهَدِّمِ

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين قال: أي والله، إنه ليسؤوني ذلك، ومن لقيه فليخبره أني قد عزلته. وكتب إليه: ﴿يَسْأَلُكَ الرَّكْعَةُ (١) حَمَّ (٢) تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣) غَافِرَ الذَّنْبِ وَقَابِلَ التَّوْبِ شَدِيدَ الْعِقَابِ ذِي الْقَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ (٤)﴾ [غافر: ١-٣]، أما بعد فقد بلغني قولك:

لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسْوُوهُ

تَنَادُمْنَا بِالْجَوْسِقِ الْمُتَهَدِّمِ

وايم الله، إنه ليسؤوني وقد عزلتك. فلما تقدم على عمر بكته بهذا الشعر، فقال: والله - يا أمير المؤمنين - ما شربتها قط، وما ذاك الشعر إلا شيء طفق على لساني. فقال عمر: أظن ذلك، ولكن والله لا تعمل لي على عمل أبداً، وقد قلت ما قلت. فلم يذكر أنه حذره على الشراب، وقد ضمنه شعره؛ لأنهم يقولون ما لا يفعلون، ولكنه ذمه عمر، رضي الله عنه، ولامه على ذلك وعزله به. ولهذا جاء في الحديث: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً، يريه خير له من أن يمتلئ شعراً». والمراد من هذا: أن الرسول ﷺ الذي أنزل عليه القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر؛ لأن حاله مناف لحالهم من وجوه ظاهرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (٩٦) [يس: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٥) وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تَوَسَّوْا (٦) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ (٧) نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْغَالِيَةِ (٨) وَهَكَذَا قَالَ هِنَا: ﴿وَلَهُمْ نَزِيلٌ مِنَ رَبِّ الْغَالِيَةِ (٩) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٠) عَلَيَّ فَلْيَكُنْ مِنَ الْغَالِيَةِ (١١) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٢)﴾ [الهي: ١٧]، ﴿وَمَا تَذْكُورُ إِلَّا الْفُتْيَانُ (١٣) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَبِيعُونَ (١٤) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَرُولُونَ (١٥)﴾ [الهي: ١٧] إلى أن قال: ﴿هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيْطَانُ (١٦) نَزَلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (١٧)﴾

﴿يَقُولُ اسْتَعِذْ بِرَبِّكَ﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ ﴿٢٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٤﴾. وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبد الله ابن قُسيط، عن أبي الحسن سالم البرزاد - مولى تميم الداري - قال: لما نزلت: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾ ﴿٢٢٣﴾، جاء حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ، وهم يبيكون فقالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء. فتلا النبي ﷺ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال: «انتم»، ﴿وَذَكِّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قال: «انتم»، ﴿وَأَنصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ قال: «انتم». رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، من رواية ابن إسحاق. وقد روى ابن أبي حاتم أيضاً، عن أبي سعيد الأشج، عن أبي أسامة، عن الوليد بن كثير، عن يزيد بن عبد الله، عن أبي الحسن مولى بني نوفل، أن حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة أتيا رسول الله ﷺ حين نزلت: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾ ﴿٢٢٣﴾ يبيكان، فقال رسول الله ﷺ، وهو يقرؤها عليهما: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾ ﴿٢٢٣﴾ حتى بلغ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، قال: «انتم». وقال أيضاً: حدثني أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، عن هشام بن عروة، عن عروة قال: لما نزلت: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾ ﴿٢٢٣﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿يَنْقَلِبُونَ﴾. وهكذا قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وزيد بن أسلم، وغير واحد أن هذا استثناء مما تقدم. ولا شك أنه استثناء، ولكن هذه السورة مكية، فكيف يكون سبب نزول هذه الآية في شعراء الأنصار؟ في ذلك نظر، ولم يتقدم إلا مراسلات لا يعتمد عليها، والله أعلم، ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم، حتى يدخل فيه من كان متلبساً من شعراء الجاهلية بذي الإسلام وأهله، ثم تاب وأناب، ورجع وأقلع، وعمل صالحاً، وذكر الله كثيراً في مقابلة ما تقدم من الكلام السيئ، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وامتدح الإسلام وأهله في مقابلة ما كذب بذهمه، كما قال عبد الله بن الزبغري حين أسلم:

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ، إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَنَقُثْتُ إِذْ أَنَا بُورُ
إِذَا جَارِي الشَّيْطَانُ فِي سِنَنِ الْعَدُوِّ، وَمَنْ مَالٌ مَنِيْلُهُ مَثْبُورُ
وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، كان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ، وهو ابن عمه، وأكثرهم له هجواً، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ، وكان يمدح رسول الله ﷺ بعد ما كان يهجو، ويتولا بعد ما كان قد عاداه. وهكذا روى مسلم في صحيحه، عن ابن عباس: أن أبا سفيان صخر بن حرب لما أسلم قال: يا رسول الله، ثلاث أعطينهن قال: «نعم». قال: معاوية تجعله كاتباً بين يديك. قال: «نعم». قال: وتؤمرني حتى أقاتل الكفار، كما كنت أقاتل المسلمين. قال: «نعم». وذكر الثلاثة: ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قيل: معناه: ذكروا الله كثيراً في كلامهم. وقيل: في شعرهم، وكلاهما صحيح مكفّر لما سبق. وقوله: ﴿وَأَنصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ قال ابن عباس: يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين. وكذا قال مجاهد، وقتادة، وغير واحد. وهذا كما ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «اهجهم - أو قال: هاجهم - وجبريل معك». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَرُ، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ: إن الله ﷻ، قد أنزل في الشعر ما أنزل، فقال: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده، لكان ما ترمونهم به نضح النبل». وقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢] وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة». وقال قتادة بن دَعَامَةَ في قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ يعني: من الشعراء وغيرهم. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا إياس بن أبي تميم، قال: حضرت الحسن ومُرُّ عليه بجانزة نصراني، فقال الحسن: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾. وقال عبد الله بن رِبَاح، عن صفوان بن مُحَرَز: أنه كان إذا قرأ هذه الآية - بكى حتى أقول: قد اندق قضيب زوره -: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾. وقال ابن وهب: أخبرني ابن شَرِيح الإسكندراني، عن بعض المشيخة: أنهم كانوا بأرض الروم، فبينما هم ليلة على نار يشتوون عليها - أو: يصطلون - إذا بركاب قد أقبلوا، فقاموا إليهم، فإذا فضالة بن عبيد فيهم، فأنزلوه فجلس معهم. قال: وصاحب لنا قائم يصلي - قال: حتى مرَّ بهذه الآية: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ قال فضالة بن عبيد: هؤلاء الذين يخربون البيت. وقيل: المراد بهم أهل مكة. وقيل: الذين ظلموا من المشركين. والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم، كما قال ابن أبي حاتم: ذكر عن زكريا بن يحيى الواسطي: حدثني الهيثم بن محفوظ أبو سعد النهدي، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن المجبر، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كتب أبي وصيته سطرين: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما

أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة، عند خروجه من الدنيا، حين يؤمن الكافر، وينتهي الفاجر، ويصدق الكاذب: إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن يعدل فذاك ظني به، ورجائي فيه، وإن يجُر ويدل فلا أعلم الغيب، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾

آخر تفسير سورة «الشعراء» والحمد لله رب العالمين



تفسير سورة النمل

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّ تِلْكَ الْفَرَّانِ وَكِتَابِ تُبَيِّنَ ① هَذِي وَتُزَيِّنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ② الَّذِينَ يُبَيِّنُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ③﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا لَمْ أَغْنَاهُمْ فِتْنَتُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ④ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَوَدَّةٌ مِنَ الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِرُونَ ⑤ وَلَئِكَ لَتَلْقَى الْفَرَاتِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ⑥﴾.

قد تقدم الكلام في «سورة البقرة» على الحروف المتقطعة في أوائل السور. وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ﴾ أي: هذه آيات: ﴿الْفَرَّانِ وَكِتَابِ تُبَيِّنَ﴾ أي: بين واضح، ﴿هَذِي وَتُزَيِّنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه، وعمل بما فيه، وأقام الصلاة المكتوبة، وآتى الزكاة المفروضة، وآمن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال، خيرها وشرها، والجنة والنار، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَشَارَةٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي مَآذِنِهِمْ وَفَرٌّ وَهُمْ عَلَيْهِمْ عَمَى أُولَئِكَ يَنَازِلُكَ يَنَازِلَاتٍ مِنْ مَكَّانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]. وقال: ﴿لَيُبَيِّنَنَّ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُذَرِّبُهُ قَوْمًا لَذًا﴾ [مرسم: ٩٧]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: يكذبون بها، ويستبعدون وقوعها ﴿رَبَّنَا لَمْ أَغْنَاهُمْ فِتْنَتُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: حسننا لهم ما هم فيه، ومددنا لهم في غيهم فهم يتيهون في ضلالهم. وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلِبْ أَعْيُنَهُمْ وَابْصُرْهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرْنَهُمْ فِي طَلْقِنِهِمْ يَوْمَهُمْ ⑦﴾ [الأنعام: ١١٠]، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَوَدَّةٌ مِنَ الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِرُونَ﴾ أي: ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر. وقوله: ﴿وَلَئِكَ لَتَلْقَى الْفَرَاتِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ⑥﴾ أي: ﴿وَلَئِكَ يَا مُحَمَّدُ - قال قتادة: ﴿لَتَلْقَى﴾ أي: لتأخذ - الْفَرَاتِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: من عند حكيم عليم، أي حكيم في أوامره، ونواهيها، عليم بالأمور جليلها وحقيها، فخيرها هو الصدق المحض، وحكمه هو العدل التام، كما قال تعالى: ﴿وَوَكَّلْتُ لَكُمْ رَبَّكَ حِدَقًا وَعَدَلًا لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥].

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَائِيكُمُ مِنْهَا يُخْرِئُ أَوْ يَأْتِيكُمْ بِسَاطِرٍ فَبَسَّ لَمَلِكُ تَطَلَّوْكَ ⑧ فَلَمَّا جَاءَهُ نُورٌ أَنْ بَوْرِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَنَحْوَهَا وَسُخِّنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑨﴾ يَمْشِي إِتْمًا أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑩ وَالَّذِي عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدِرِكًا وَرَّيْعًا يَمْشِي لَا تَخَفُ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ ⑪ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حَسَنًا بَعْدَ شَوْءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَحِيمٌ ⑫ وَأَدْخِلْ بَذَكَ فِي جَنَّتِكَ تَخْرُجُ يَغْتَابُ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ فِي بَيْتِ آيَاتٍ إِلَى رُغْوَةٍ وَقَوِيَّةٍ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتِيحِينَ ⑬ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا لَكُنَّا مُسِيرَةً قَالُوا هَذَا سُخْرُ يُوشَعَ ⑭ وَصَحَّادُوا بِهَا وَاسْتَفْتَنَاهَا أَنْفُسُهُمْ فَلَمَّا عَلَوْا قَانَطِرَ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُفْسِدِينَ ⑮﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ مذكراً له ما كان من أمر موسى، كيف اصطفاه الله وكلمه، ونجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة، والأدلة القاهرة، وابتعثه إلى فرعون وملته، فجددوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ﴾ أي: اذكر حين سار موسى بأهله، فأضل الطريق، وذلك في ليل وظلام، فأنس من جانب الطور ناراً، أي: رأى ناراً تاجج وتضطرم، فقال: ﴿لِأَهْلِهِ أَمَكُنُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: عن الطريق، ﴿أَوْ آتِيكُمْ بِسَاطِرٍ فَبَسَّ لَمَلِكُ تَطَلَّوْكَ﴾ أي: تتدفقون به. وكان كما قال، فإنه رجع منها بخبر عظيم، واقتبس منها نوراً عظيماً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ نُورٌ أَنْ بَوْرِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَنَحْوَهَا﴾ أي: فلما أتاها رأى منظراً هائلاً عظيماً، حيث انتهى إليها، والنار تضطرم في شجرة خضراء، لا تزداد النار إلا توقداً، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء. قال ابن عباس وغيره: لم تكن ناراً، إنما كانت نوراً يتوهج. وفي رواية عن ابن عباس: نور رب العالمين. فوقف موسى متعجباً مما

راى، فنودي أن بورك من في النار قال ابن عباس: أي قُدس. ﴿وَمَنْ حَوَّلَهَا﴾ أي: من الملائكة. قاله ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جببر، والحسن، وقتادة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود - وهو الطيالسي - حدثنا شعبة والمسدودي، عن عمرو بن مرة، سمع أبا عُبَيْدَةَ يحدث، عن أبي موسى، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينام، ولا يبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل». زاد المسعودي: «وحجابه النور - أو النار - لو كشفها لأحرقت سُبحَات وجهه كل شيء أدركه بصره». ثم قرأ أبو عُبَيْدَةَ: ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوَّلَهَا﴾. وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيح لمسلم، من حديث عمرو بن مرة، به. وقوله: ﴿وَسُبِّحَنَّ اللَّهُ رَبِّيَ الْعَلِيِّنَ﴾ أي: الذي يفعل ما يشاء ولا يشبه شيئاً من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم، المبين لجميع المخلوقات، ولا يكتنفه الأرض والسموات، بل هو الأحد الصمد، المنزه عن مماثلة المحدثات. وقوله: ﴿يَتُوحَّشِ إِلَهُ أَنَا اللَّهُ الْغَيُّرُ الْحَكِيمُ﴾ (١٥): أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز، الذي عز كل شيء وقهره وغلبه، الحكيم في أفعاله وأقواله. ثم أمره أن يلقي عصاه من يده؛ ليظهر له دليلاً واضحاً على أنه الفاعل المختار، القادر على كل شيء. فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلب في الحال حيّة عظيمة هائلة في غاية الكبر، وسرعة الحركة مع ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا فَتَرَّ كَاتِبًا جَانًّا﴾. والجان: ضرب من الحيات، أسرع حركة، وأكثر اضطراباً. وفي الحديث: نهي عن قتل جئان البيوت - فلما عابن موسى ذلك ﴿وَلَمْ يُدِرْكَ وَلَا يُعَبِّدْ﴾ أي: لم يلتفت من شدة فرقه، ﴿يَتُوحَّشِ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ﴾ أي: لا تخف مما ترى، فإني أريد أن أصطفيك رسولاً، وأجعلك نبياً وجيهاً. وقوله: ﴿إِنَّمَا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسَابًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٦): هذا استثناء منقطع، وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على عمل شيء ثم أقبل عنه، ورجع وأتاب، فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (٢٤: ٢٥)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١١٠: النساء). والآيات في هذا كثيرة جداً. وقوله: ﴿وَأَنْزِلْ يَدَكَ فِي جَيْدِكَ فَخَرُجْ بَيْضَةً مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾: هذه آية أخرى، ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار، وصدق من جعل له معجزة، وذلك أن الله - تعالى - أمره أن يدخل يده في جيب دِزِجِه، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة، كأنها قطعة قمر، لها لمعان يتلأل كالبرق الخاطف. وقوله: ﴿فِي يَمِينِ يَدَيْهِ﴾ أي: هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن، وأجعلهن برهاناً لك إلى فرعون وقومه، ﴿إِنَّهُمْ كَاذِبُونَ﴾. وهذه هي الآيات التسع التي قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ (الإسراء: ١٠١) كما تقدم تقرير ذلك هنالك. وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُجِيبَةً﴾ أي: بينة واضحة ظاهرة، ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴿رَحِمَدُوا بِهَا﴾ أي: في ظاهر أمرهم، ﴿وَأَسْتَفْتَنَاهَا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ظَنُّوا ظَنًّا وَهَرَبُوا﴾ أي: ظلموا من أنفسهم، سجيّة ملعونة، ﴿وَعَلُّوا﴾ أي: استكباراً عن اتباع الحق؛ ولهذا قال: ﴿فَظَنُّوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: انظر يا محمد كيف كان عاقبه كفرهم، في إهلاك الله إياهم، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة. وفحوى الخطاب يقول: احذروا أيها المكذوبون بمحمد، الجاحدون لما جاء به من ربه، أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأخرى؛ فإن محمداً، صلوات الله وسلامه عليه، أشرف وأعظم من موسى، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى، بما أتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشماله، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به، وأخذ المواقف له، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلِمًا وَقَالَ لِمَسَدٌ إِلَهُ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧) وَرَبِّتْ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَابِعُهَا أَنْتَ شَأْنًا عَلِمًا مَطْلَقَ الظُّلْمِ وَأَوْتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَمُرُ الْفَضْلِ الْتَمِيمِ (١٨) وَخَيْرَ لِّسُلَيْمَانَ جُودُهُ مِنَ الْإِنِّ وَالْإِنِّ وَالظُّلْمِ فَهَمْ يَوْضَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ الْقَدْحِ قَالَتْ تَمَلَّ يَتَابِعُهَا أَلَمَلْ أَدْخُلُوا سَكِينَكُمْ لَا يَحِيلُ عَلَيْكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُودُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠) تَبَسَّرَ صَاحِبًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ رَحْمَتِكَ وَأَنْ أَعْلَمَ صَاحِبًا رَّحْمَةً وَأَدْخِلْنِي فِي عِبَادِكَ الْمَكْمُولِينَ (٢١)﴾.

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبيه داود وابنه سليمان، عليهما من الله السلام، من النعم الجزيلة، والمواهب الجليلة، والصفات الجميلة، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة، والملك والتمكين التام في الدنيا، والنبوة والرسالة في الدين؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلِمًا وَقَالَ لِمَسَدٌ إِلَهُ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧). قال ابن أبي حاتم: ذكر عن إبراهيم بن يحيى بن تمام: أخبرني أبي، عن جدي قال: كتب عمر بن عبد العزيز: إن الله لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها، إلا كان حمدُه أفضل من نعمته، لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلِمًا وَقَالَ لِمَسَدٌ إِلَهُ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧)، وأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان، عليهما السلام.

وقوله: ﴿وَوَيْتَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ أي: في الملك والنبوة، وليس المراد وراثة المال؛ إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود، فإنه قد كان لداود مائة امرأة. ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة؛ فإن الأنبياء لا تورث أموالهم، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله: «نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة». وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: أخبر سليمان بنعم الله عليه، فيما وهبه له من الملك التام، والتمكين العظيم، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير. وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر - فيما علمناه - مما أخبر الله به ورسوله. ومن زعم من الجهلة والزعماء أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بني آدم قبل سليمان بن داود - كما يتفوه به كثير من الناس - فهو قول بلا علم. ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة، إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم، ويعرف ما تقول، فليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا، بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمأنوال. ولكن الله، سبحانه وتعالى، كان قد أفهم سليمان، عليه السلام، ما يتخاطب به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها؛ ولهذا قال: ﴿عَلِمْنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مما يحتاج إليه الملك، ﴿إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَضْلُ الْبَرُّ﴾ أي: الظاهر البين لله علينا.

قال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن عمرو بن أبي عمرو، عن المطلب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «كان داود، عليه السلام، فيه غيرة شديدة، فكان إذا خرج أغلقت الأبواب، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع». قال: «فخرج ذات يوم وأغلقت الأبواب، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار، فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل، والدار مغلقة؟ والله لفتضحن بذاود، فجاء داود، عليه السلام، فإذا الرجل قائم وسط الدار، فقال له داود: من أنت؟ قال: الذي لا يهاب الملوك، ولا يمتنع من الحجاب. فقال داود: أنت والله إذاً ملك الموت. مرحباً بأمر الله، فتزمل داود، عليه السلام، مكانه حتى قبضت نفسه، حتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس، فقال سليمان، عليه السلام، للطير: أظلي على داود، فأظلت عليه الطير حتى أظلمت عليهما الأرض، فقال لها سليمان: اقبضي جناحاً جناحاً» قال أبو هريرة: يا رسول الله، كيف فعلت الطير؟ فقبض رسول الله ﷺ يده، وغلبت عليه يومئذ المضرجة. قال أبو الفرج بن الجوزي: المضرجة: النور الحمر. وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّالِحِينَ جُنُودٌ مِنْ آلِهَةٍ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير، يعني: ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس، وكانوا هم الذين يلوونه، والجن وهم بعدهم يكونون في المنزلة، والطير ومنزلتها فوق رأسه، فإن كان حر أظلمته منه بأجنحتها. وقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يكف أولهم على آخرهم؛ لثلاث يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له. قال مجاهد: جعل على كل صنف وزعة، يردون أولها على آخرها، لثلاث يتقدموا في المسير، كما يفعل الملوك اليوم. وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا تَوَازَوْا عَلَى النَّهْرِ﴾ أي: حتى إذا مر سليمان، عليه السلام، بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل، ﴿فَأَنفَلَ نَمَلًا بِمَا أَتَاهَا قُتِلُوا أَدُلُّوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَلَكٌ مُنْذَرٌ﴾. أورد ابن عساکر، من طريق إسحاق بن بشر، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن، أن اسم هذه النملة حرس، وأنها من قبيلة يقال لهم: بنو الشيصان، وأنها كانت عرجاء، وكانت بقدر الذئب. أي: خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنها، ففهم ذلك سليمان، عليه السلام، منها ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أُوَدِّعَ مَنْ كَرِهَ اللَّهُ مُبْدًى﴾ أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي، من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والدي بالإسلام لك، والإيمان بك، ﴿وَأَنْ أَمْكُرَ مَكِيلًا تَرْضَاهُ﴾ أي: عملاً تحبه وترضاه، ﴿وَأَدْخِلْنِي رَحْمَتَكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: إذا توفيتني فالحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك. ومن قال من المفسرين: إن هذا الوادي كان بأرض الشام أو بغيره، وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب، أو غير ذلك من الأقاويل، فلا حاصل لها.

وعن توف البكالي أنه قال: كان نمل سليمان أمثال الذباب. هكذا رأيته مضبوطاً بالياء المشناة من تحت. وإنما هو بالياء الموحدة، وذلك تصحيف، والله أعلم. والغرض أن سليمان، عليه السلام، فهم قولها، وتبسم ضاحكاً من ذلك، وهذا أمر عظيم جداً. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا يسعر، عن زيد العتي، عن أبي الصديق الناجي قال: خرج سليمان، عليه السلام، يستسقي، فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: اللهم، إنا خلق من خلقك، ولا غنى عن سقياك، وإلا تسقنا تهلكنا. فقال سليمان، عليه السلام: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم. وقد ثبت في الصحيح - عند مسلم - من طريق عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن همام،

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قُرِصَتْ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَمْلَةً، فَأَمَرَ بِقَرِيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ، أَفِي أَنْ قُرِصَتْكَ نَمْلَةٌ أَهْلَكَتْ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ؟ فَهَلَا نَمْلَةٌ وَاحِدَةٌ!».

﴿وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢٠) لَأَعَذَّبَنَّكَ عَبْدًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ ثَبِينٍ ﴿٢١﴾. قال مجاهد، وسعيد بن جبیر، وغيرهما، عن ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندساً، يدل سليمان، عليه السلام، على الماء، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض، فإذا دلهم عليه أمر سليمان، عليه السلام، الجان فحفروا له ذلك المكان، حتى يستنبط الماء من قواره، فنزل سليمان، عليه السلام يوماً، بفلاة من الأرض، فتفقد الطير ليرى الهدهد، فلم يره، ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. حدث يوماً عبد الله بن عباس بنحو هذا، وفي القوم رجل من الخوارج، يقال له: «نافع بن الأزرق»، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس، فقال له: قف يا ابن عباس، غلبت اليوم! قال: ولم؟ قال: إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض، وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ، ويحثو على الفخ تراباً، فيجيء الهدهد لياخذها فيقع في الفخ، فيصيده الصبي. فقال ابن عباس: لولا أن يذهب هذا فيقول: رددت على ابن عباس، لما أجبته. فقال له: ويحك! إنه إذا نزل القدر عمي البصر، وذهب الحذر. فقال له نافع: والله لا أجادلك في شيء من القرآن أبداً. وقد ذكر الحافظ ابن عساکر في ترجمة أبي عبد الله البرزقي - من أهل بَزْرَةَ - من غوطة دمشق، وكان من الصالحين يصوم يوم الاثنين والخميس، وكان أمور قد بلغ الثمانين - فروى ابن عساکر بسنده إلى أبي سليمان بن زيد: أنه سأله عن سبب عوره، فامتنع عليه، فألح عليه شهوراً، فأخبره أن رجلين من أهل خراسان نزلا عنده جمعة في قرية برزة، وسألاه عن واد بها، فارتبها إياه، فأخرجها مجامر وأوقد فيها بخوراً كثيراً، حتى جعجج الوادي بالدخان، فأخذوا يعزمان والحيات تقبل من كل مكان إليهما، فلا يلتفتان إلى شيء منها، حتى أقبلت حية نحو الذراع، وعيناها توقدان مثل الدينار. فاستبشرا بها عظيماً، وقالوا: الحمد لله الذي لم يخيب سفرنا من سنة، وكسرا المجامر، وأخذوا الحية فأدخلوا في عيناها ميلاً فاكتحلا به، فسألتهما أن يكحلاني، فأبيا، فألححت عليهما وقلت: لا بد من ذلك، وتوعدتهما بالدولة، فكحلا عيني الواحدة اليمنى، فحين وقع في عيني نظرت إلى الأرض تحتني مثل المرأة، أنظر ما تحتها كما ترى المرأة، ثم قال لي: سر معنا قليلاً، فسرت معهما وهما يحدثان، حتى إذا بعدت عن القرية، أخذاني فكتفاني، وأدخل أحدهما يده في عيني ففقاها، ورمى بها ومضيا. فلم أزل كذلك ملقى مكتوفاً، حتى مر بي نفر ففك وثاقي. فهذا ما كان من خبر عيني.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا صدقة بن عمرو الغساني، حدثنا عباد بن ميسرة الميقرتي، عن الحسن قال: اسم هدهد سليمان، عليه السلام: عنبر. وقال محمد بن إسحاق: كان سليمان، عليه السلام، إذا غدا إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه: تفقد الطير، وكان فيما يزعمون يأتيه ثوبٌ من كل صنف من الطير، كل يوم طائر، فنظر فرأى من أصناف الطير كلها من حضره إلا الهدهد ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أخطأه بصري من الطير، أم غاب فلم يحضر؟ وقوله: ﴿لَأَعَذَّبَنَّكَ عَبْدًا شَدِيدًا﴾ قال الأعمش، عن الميهمال بن عمرو، عن سعيد، عن ابن عباس: يعني تنف ريشه. وقال عبد الله بن شداد: تنف ريشه وتشميسه. وكذا قال غير واحد من السلف: إنه تنف ريشه، وتركه ملقى يأكله الذر والنمل. وقوله: ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ يعني: قتله، ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ ثَبِينٍ﴾ أي: بعذر واضح بين. وقال سفيان بن عيينة، وعبد الله بن شداد: لما قدم الهدهد قال له الطير: ما خلفك، فقد نذر سليمان دمك! فقال: هل استثنى؟ فقالوا: نعم، قال: ﴿لَأَعَذَّبَنَّكَ عَبْدًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ ثَبِينٍ﴾ (٢١)، فقال: نجوت إذا. قال مجاهد: إنما دفع الله عنه ببره بأمه. ﴿فَسَكَتَ عَنَّا يَجِيبُ فَقَالَ أَهْطُ يَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَحِشْتُكَ مِنْ سَكَاةٍ بِسَلَامٍ يَقِينُ﴾ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَلِيكُمْ وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَمَّا عَرَّشْتُ عَظِيمٌ (٢٣) وَبَدَّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَكَّا لَهُمُ النَّبِيُّ لَأَعْلَنَهُمْ فَصَدَّمَهُمْ عَنْ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْحَبَّةَ فِي السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَرَبُّ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُنْزِلُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦). يقول تعالى: ﴿فَسَكَتَ﴾ الهدهد ﴿عَنَّا يَجِيبُ﴾ أي: غاب زماناً يسيراً، ثم جاء فقال لسليمان: ﴿أَهْطُ يَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أي: اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك، ﴿وَحِشْتُكَ مِنْ سَكَاةٍ بِسَلَامٍ يَقِينُ﴾ أي: بخبر صدق حق يقين. وسأهم: جفيم، وهم ملوك اليمن. ثم قال: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَلِيكُمْ﴾، قال الحسن البصري: وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ. وقال قتادة: كانت أمها جنية، وكان مؤخر قدميها مثل حافر الدابة، من بيت مملكة. وقال زهير بن محمد: هي بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الريان، وأمها فارة الجنية. وقال ابن جرير: بلقيس بنت ذي شرخ، وأمها يلتقة. وقال ابن أبي حاتم:

حدثنا علي بن الحسين، حدثنا مُسَدَّد، حدثنا سفيان - يعني ابن عيينة - عن عطاء بن السائب، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان مع صاحبة سليمان ألف قَيْل، تحت كل قَيْل مائة ألف مقاتل. وقال الأعمش، عن مجاهد: كان تحت يدي ملكة سبأ اثنا عشر ألف قَيْل، تحت كل قَيْل: مائة ألف مقاتل. وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، عن قتادة في قوله: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أُمَّرَأَةً تَنَاصَلَهُمْ﴾: كانت من بيت مملكة، وكان أولو مشورتها ثلاثمائة واثنى عشر رجلاً، كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل. وكانت بأرض يقال لها مَأْرِب، على ثلاثة أميال من صنعاء. وهذا القول هو أقرب، على أنه كثير على مملكة اليمن، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ قَبِيلٍ﴾ أي: من متاع الدنيا ما يحتاج الملك المتمكن ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب، وأنواع الجواهر واللآلئ. قال زهير بن محمد: كان من ذهب صفحتاه، مرمول بالياقوت والزبرجد. طوله ثمانون ذراعاً، وعرضه أربعون ذراعاً. وقال محمد بن إسحاق: كان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ، وكان إنما يخدمها النساء، لها ستمائة امرأة تلي الخدمة. قال علماء التاريخ: وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم، كان فيه ثلاثمائة وستون طاقة من شرقه ومثلها من غربه، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة، وتغرب من مقابلتها، فيسجدون لها صباحاً ومساءً، ولهذا قال: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: عن طريق الحق، ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ وقوله: ﴿أَلَا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ﴾ معناه: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ﴾ أي: لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من شيء من الكواكب وغيرها، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْيَنَ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْأَيْلُ وَالنَّهَارُ وَاللَّيْلُ لَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْنِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُمْ إِنْ كُنْتُمْ إِتَاءَهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]. وقرأ بعض القراء: ﴿أَلَا يَا اسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ جعلها ﴿أَلَا﴾ الاستفتاحية، و«يا» للنداء، وحذف المنادى، تقديره عنده: ﴿أَلَا يَا قَوْمِ اسْجُدُوا لِلَّهِ﴾. وقوله: ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْحَبَّ فِي الشَّجَرِ وَالْأَرْضِ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعلم كل خبيثة في السماء والأرض. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقاتدة، وغير واحد. وقال سعيد بن المسيب: الخبء: الماء. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: خبء السموات والأرض: ما جعل فيها من الأرزاق: المطر من السماء، والنبات من الأرض. وهذا مناسب من كلام الهدهد، الذي جعل الله فيه من الخاصة ما ذكره ابن عباس وغيره، من أنه يرى الماء يجري في تخوم الأرض ودواخلها. وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُنْصُرُونَ﴾ أي: يعلم ما يخفيه العباد، وما يعلنونه من الأقوال والأفعال. وهذا كقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مَنكُم مَّنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِيحٍ بِالْهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]. وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي: هو المدعو الله، وهو الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم، الذي ليس في المخلوقات أعظم منه. ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير، وعبادة الله وحده والسجود له، نهى عن قتله، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والضُرَد. وإسناده صحيح.

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أَذْهَبَ يَكْنِي هَذَا قَائِلُهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرُ مَاذَا يَرْتَوُونَ ﴿قَالَ يَأَيُّهَا الْمَلَكُؤُا إِنِّي الْإِنْسَانُ إِلَهُكُمْ كَيْفَ كُنْتُ كَرِيمٌ﴾ إِنَّهُ مِنْ شَيْئَيْنِ وَإِنَّهُ يَسْمُوهُ اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ ﴿أَلَا تَقْلُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي شَيْئِينَ﴾. يخبر تعالى عن قيل سليمان، عليه السلام، للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: أصدقت في إخبارك هذا، ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في مقالتك، فتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك؟ ﴿أَذْهَبَ يَكْنِي هَذَا قَائِلُهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرُ مَاذَا يَرْتَوُونَ﴾ وذلك أن سليمان، عليه السلام، كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها. وأعطاه لذلك الهدهد فحملة، قيل: في جناحه كما هو عادة الطير، وقيل: بمنقاره. وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس، إلى الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها، فآلقها إليها من كوة هنالك بين يديها، ثم تولى ناحية أدباً ورياسة، فتحيرت مما رأت، وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته، ففتحت ختمه وقرأته، فإذا فيه: ﴿إِنَّهُ مِنْ شَيْئَيْنِ وَإِنَّهُ يَسْمُوهُ اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ ﴿أَلَا تَقْلُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي شَيْئِينَ﴾ فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكته، ثم قالت لهم: ﴿يَأَيُّهَا الْمَلَكُؤُا إِنِّي الْإِنْسَانُ إِلَهُكُمْ كَيْفَ كُنْتُ كَرِيمٌ﴾ تعني بكرمه: ما رأت من عجب أمره، كون طائر أتى به فآلقها إليها، ثم تولى عنها أدباً. وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك، ثم قرأته عليهم، ﴿إِنَّهُ مِنْ شَيْئَيْنِ وَإِنَّهُ يَسْمُوهُ اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ ﴿أَلَا تَقْلُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي شَيْئِينَ﴾. فعرفوا أنه من نبي الله سليمان، وأنه لا قبل لهم به. وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة، فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها، قال العلماء: ولم يكتب أحد ﴿يَسْمُوهُ اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ قبل سليمان، عليه السلام. وقد روى ابن أبي حاتم في ذلك حديثاً في تفسيره، حيث قال: حدثنا أبي، حدثنا هارون بن الفضل أبو يعلى الحنات، حدثنا أبو

بلدهم، ﴿أَذَلَّةٌ وَمُمْضِرُونَ﴾ أي: مهانون مدحورون. فلما رجعت إليها رسلها بهديتها، وبما قال سليمان، سمعت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة، معظمة لسليمان، ناوية متابعتة في الإسلام. ولما تحقق سليمان، عليه السلام، قدومهم عليه ووفودهم إليه، فرح بذلك وسره.

﴿قَالَ يَبْنَائِيَا أَلَمْ تَأْتِيَا بَعْرِيهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُوِي سُلَيْمَانَ﴾ (٣٨) قَالَ عَفِيْتُ مِنَ الْإِنِّ أَنَا عَلَيْكَ يَوْمَ. قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْكَ لَقَوِيَّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا عَلَيْكَ بِدَلِيلٍ طَرَفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِي رَبِّي لِيُكْفِيَكَ تَشْكُرًا أَمْ أَكْفَرْتُمْ وَمَنْ شَكَرَ فَلَنَّا يَشْكُرُنَا لِنَفِيهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَزِيزٌ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان قال: فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت: قد - والله - عرفت، ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة، وما نصنع بمكائرتة شيئاً. وبعثت إليه: إني قادمة عليك بملوك قومي، لأنظر ما أمرك وما تدعوننا إليه من دينك. ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه - وكان من ذهب مُفَصَّص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ - فجعل في سبعة أبيات، بعضها في بعض، ثم أفلتت عليه الأبواب، ثم قالت لمن خلفت على سلطانها: احتفظ بما قبلك، وسرير ملكي، فلا يخلص إليه أحد من عباد الله، ولا يَزِيْرُهُ أحد حتى آتيك. ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف قبيل من ملوك اليمن، تحت يدي كل قبيل منهم ألوف كثيرة. فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومتتهاها كل يوم وليلة، حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والإنس، ممن تحت يديه، فقال: ﴿يَبْنَائِيَا أَلَمْ تَأْتِيَا بَعْرِيهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُوِي سُلَيْمَانَ﴾. وقال قتادة: لما بلغ سليمان أنها جائية، وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه، وكان من ذهب، وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مستوراً بالديباج والحريز، وكانت عليه تسعة مغاليق، ففكر أن يأخذها بعد إسلامهم. وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم مع دنائهم فقال: ﴿يَبْنَائِيَا أَلَمْ تَأْتِيَا بَعْرِيهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُوِي سُلَيْمَانَ﴾. وهكذا قال عطاء الخراساني، والسدي، وزهير بن محمد: ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتُوِي سُلَيْمَانَ﴾ فتحرم علي أموالهم بإسلامهم. ﴿قَالَ عَفِيْتُ مِنَ الْإِنِّ﴾ أي مارد من الجن. قال شعيب الجبائي: وكان اسمه كوزن. وكذا قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان. وكذا قال أيضاً وهب بن منبه. قال أبو صالح: وكان كأنه جبل. ﴿أَنَا عَلَيْكَ يَوْمَ. قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ قال ابن عباس: يعني: قبل أن تقوم من مجلسك. وقال مجاهد: مقعدك، وقال السدي، وغيره: كان يجلس للناس للقبضاء والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس. ﴿وَإِنِّي عَلَيْكَ لَقَوِيَّ أَمِينٌ﴾ قال ابن عباس: أي قوي على حملة، أمين على ما فيه من الجوهر. فقال سليمان، عليه السلام: أريد أعجل من ذلك. ومن ههنا يظهر أن النبي سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهبه الله له من الملك، وسخر له من الجنود، الذي لم يعطه أحد قبله، ولا يكون لأحد من بعده. ولينتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه. هذا وقد حجبتة بالأغلاق والأقفال والحفظة. فلما قال سليمان: أريد أعجل من ذلك، ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ قال ابن عباس: وهو آصف كاتب سليمان. وكذا روى محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان: أنه آصف بن برخياء، وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم. وقال قتادة: كان مؤمناً من الإنس، واسمه آصف. وكذا قال أبو صالح، والضحاك، وقاتدة: إنه كان من الإنس - زاد قتادة: من بني إسرائيل. وقال مجاهد: كان اسمه أسطوم. وقال قتادة - في رواية عنه -: كان اسمه بليخا. وقال زهير بن محمد: هو رجل من الأندلس يقال له: ذو النور. وزعم عبد الله بن لهيعة: أنه الخضر. وهو غريب جداً. وقوله: ﴿أَنَا عَلَيْكَ يَوْمَ. قَبْلَ أَنْ يَزِيدَ إِلَيْكَ طَرَفُكَ﴾ أي: أرفع بصرك وانظر مُدَّ بصرك مما تقدر عليه، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك. وقال وهب بن منبه: امدد بصرك، فلا يبلغ مداه حتى آتيك به. فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التي فيها هذا العرش المطلوب، ثم قام فتوضأ، ودعا الله ﷻ.

قال مجاهد: قال: يا ذا الجلال والإكرام. وقال الزهري: قال: يا إلهنا وإله كل شيء، إلهاً واحداً، لا إله إلا أنت، انتني بعرشها. قال: فتمثل له بين يديه. قال مجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمد بن إسحاق، وزهير بن محمد، وغيرهم: لما دعا الله ﷻ، وسأله أن يأتيه بعرش بلقيس - وكان في اليمن، وسليمان، عليه السلام، ببيت المقدس - غاب السرير، وغاص في الأرض، ثم نبع من بين يدي سليمان، عليه السلام. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، لم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمله بين يديه. قال: وكان هذا الذي جاء به من عباد البحر، فلما عين سليمان وولؤه ذلك، ورآه مستقراً عنده، ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِي رَبِّي﴾ أي من نعم الله علي، ﴿لِيُكْفِيَكَ تَشْكُرًا أَمْ أَكْفَرْتُمْ﴾ أي ليختبرني، ﴿تَشْكُرًا أَمْ أَكْفَرْتُمْ﴾ كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [نصحت: ٤٦]، وكقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]. وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَزِيزٌ كَرِيمٌ﴾ أي: هو غني عن العباد وعبادتهم، ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: كريم في نفسه، وإن لم يعبد أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة

إلى أحد، وهذا كما قال موسى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَنَفِيْ جَيْدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]. وفي صحيح مسلم: «يقول الله تعالى: يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم بإياها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

﴿قَالَ تَزَكُّرُوا لِمَا عَرَّضْنَا أَنْتَهُدِيْ أَمْ تَكْفُرُونَ مِنَ الْآيَاتِ لَا يَهْدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرَّضْتُمْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوَيْنَا الْكُلَّ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسِيْبِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

لما جيء سليمان، عليه السلام، بعرض بلقيس قبل قدومها، أمر به أن يغير بعض صفاته، ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس به، فقال: ﴿تَزَكُّرُوا لِمَا عَرَّضْنَا أَنْتَهُدِيْ أَمْ تَكْفُرُونَ مِنَ الْآيَاتِ لَا يَهْدُونَ﴾ قال ابن عباس: نزع عنه فصوصه ومرافقه. وقال مجاهد: أمر به فغير ما كان أحمر جعل أصفر، وما كان أصفر جعل أحمر: وما كان أخضر جعل أحمر، غير كل شيء عن حاله. وقال عكرمة: زادوا فيه ونقصوا. وقال قتادة: جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره، وزادوا فيه ونقصوا. ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرَّضْتُمْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أي: عرض عليها عرشها، وقد غير ونكر، وزيد فيه ونقص منه، فكان فيها ثبات وعقل، ولها لب ودهاء وحزم، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها، ولا أنه غيره، لما رأت من آثاره وصفاته، وإن غير وبدل ونكر، فقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أي: يشبهه ويقاربه. وهذا غاية في الذكاء والحزم. وقوله: ﴿وَأَوَيْنَا الْكُلَّ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسِيْبِينَ﴾ قال مجاهد: سليمان يقول له. وقوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ هذا من تمام كلام سليمان، عليه السلام - في قول مجاهد، وسعيد بن جبير، رحمهما الله - أي: قال سليمان: ﴿وَأَوَيْنَا الْكُلَّ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسِيْبِينَ﴾، وهي كانت قد صدها، أي: منعها من عبادة الله وحده. ﴿مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾. وهذا الذي قاله مجاهد وسعيد حسن، وقاله ابن جرير أيضاً. ثم قال ابن جرير: ويحتمل أن يكون في قوله: ﴿وَصَدَّهَا﴾ ضمير يعود إلى سليمان، أو إلى الله، ﷻ، تقديره: ومنعها، ﴿مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: صدها عن عبادة غير الله ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾. قلت: ويؤيد قول مجاهد: أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح، كما سيأتي. وقوله: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا﴾ وذلك أن سليمان، عليه السلام، أمر الشياطين فبنوا له قصرًا عظيمًا من قوارير، أي: من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه. واختلفوا في السبب الذي دعا سليمان، عليه السلام، إلى اتخاذها، فقيل: إنه لما عزم على تزوجها واصطفائها لنفسه؛ ذكر له جمالها وحسنها، ولكن في ساقها هُلْبٌ عظيم، ومؤخر أقدامها كمؤخر الدابة. فسأه ذلك، فاتخذ هذا ليعلم صحته أم لا؟ - هذا قول محمد بن كعب القرظي، وغيره - فلما دخلت وكشفت عن ساقها، رأى أحسن الناس وأحسنه قدمًا، ولكن رأى على رجلها شعرًا؛ لأنها ملكة ليس لها بعل، فأحب أن يذهب ذلك عنها فقيل لها: الموسى؟ فقالت: لا أستطيع ذلك. وكره سليمان ذلك، وقال للجن: اصنعوا شيئاً غير الموسى يذهب به هذا الشعر، فصنعوا له الثَّوْرَةَ. وكان أول من اتخذت له الثَّوْرَةَ، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي، والسدي، وابن جرير وغيرهم.

وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان: ثم قال لها: ادخلي الصرح، ليربها ملكاً هو أعز من ملكها، وسلطاناً هو أعظم من سلطانها. فلما رأت حبيبته لجة وكشفت عن ساقها، لا تشك أنه ماء تخوضه، فقيل لها: إنه صرح مُّمَرَّدٌ من قوارير. فلما وقفت على سليمان، دعاها إلى عبادة الله وعاتبها في عبادتها الشمس من دون الله. وقال الحسن البصري: لما رأت العلجَّة الصرح عرفت - والله - أن قدرأت ملكاً أعظم من ملكها. وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أهل العلم، عن وهب بن منبه قال: أمر سليمان بالصرح، وقد عملته له الشياطين من زجاج، كأنه الماء بياضاً. ثم أرسل الماء تحته، ثم وضع له فيه سريره، فجلس عليه، وعكفت عليه الطير والجن والإنس، ثم قال: ادخلي الصرح، ليربها ملكاً هو أعز من ملكها، وسلطاناً هو أعظم من سلطانها، ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا﴾، لا تشك أنه ماء تخوضه، قيل لها: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾، فلما وقفت على سليمان، دعاها إلى عبادة الله، ﷻ، وعاتبها في عبادتها الشمس من دون الله. فقالت بقول الزنادقة، فوقع سليمان ساجداً إعظاماً لما قالت، وسجد معه الناس، فسقط في يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع، فلما رفع سليمان رأسه قال: ويحك! ماذا قلت؟ قال: وأنسيت ما قالت - فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فأسلمت

وحسن إسلامها. وقد روى الإمام أبو بكر بن أبي شيبة في هذا أثرأ غريباً عن ابن عباس، قال: حدثنا الحسين بن علي، عن زائدة، حدثني عطاء بن السائب، حدثنا مجاهد - ونحن في الأزد - قال: حدثنا ابن عباس قال: كان سليمان، عليه السلام، يجلس على سريره، ثم يُوضَعُ كراسي حوله، فيجلس عليها الإنس، ثم يجلس الجن، ثم الشياطين، ثم تأتي الرياح فترفعهم، ثم تظلمهم الطير، ثم يغدون قدر ما يشتهي الراكب أن ينزل شهراً ورواحها شهراً، قال: فبينما هو ذات يوم في مسير له، إذ تفقد الطير ففقد الهدد فقال: ﴿مَا لَآ أَرَى الْهَدْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْكَذَّابِينَ﴾ ٤٥ لَأَعَذِّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَأْخِذَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ ثَبِينٍ ٤٦﴾، قال: فكان عذابه إياه أن ينفضه، ثم يلقيه في الأرض، فلا يمتنع من نملة ولا من شيء من هوام الأرض.

قال عطاء: وذكر سعد بن جُبَيْر عن ابن عباس مثل حديث مجاهد ﴿فَمَكَتْ عَنِّي بَعِيرٌ﴾ - فقرأ حتى انتهى إلى قوله: ﴿قَالَ سَتَشُقُّرُ أَصْدَقَتْ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَذَّابِينَ﴾ ٤٧ أَذْهَبَ بِكَتَبِي هَكَذَا﴾ وكتب: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، إلى بلقيس: ﴿أَلَا تَسْلَوْنَ عَلَيَّ وَأَتُونِي شَيْئِينَ﴾ ٤٨﴾، فلما ألقى الهدد بالكتاب إليها، ألقى في روعها: إنه كتاب كريم، وإنه من سليمان، وأن لا تعلوا علي واتنوني مسلمين. قالوا: نحن أولو قوة. قالت: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وإني مرسله إليهم بهدية. فلما جاءت الهدية سليمان قال: أنمِدُونِي بِمَالٍ، ارجع إليهم. فلما نظر إلى الغبار - أخبرنا ابن عباس قال: وكان بين سليمان وبين ملكة سبأ ومن معها حين نظر إلى الغبار كما بيننا وبين الحيرة، قال عطاء: ومجاهد حينئذ في الأزد - قال سليمان: أيكمن يأتيني بعرشها؟ قال: وبين عرشها وبين سليمان حين نظر إلى الغبار مسيرة شهرين، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ﴾ - قال: وكان لسليمان مجلس يجلس فيه للناس، كما يجلس الأمراء ثم يقوم - قال: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ﴾، قال سليمان: أريد أعجل من ذلك. فقال الذي عنده علم من الكتاب: أنظر في كتاب ربي، ثم آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك. قال: فنظر إليه سليمان فلما قطع كلامه رد سليمان بصره، فنبع عرشها من تحت قدم سليمان، من تحت كرسي كان سليمان يضع عليه رجله، ثم يصعد إلى السرير. قال: فلما رأى سليمان عرشها مستقراً عنده قال: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾، ﴿قَالَ تَكْرُؤًا لِّمَا عَرَّيْتَهَا﴾ فلما جاءت قيل لها: أهلكذا عرشك؟ قالت: كأنه هو. قال: فسألته عن أمرين، قالت لسليمان: أريد ماء من زيد رواء ليس من أرض ولا من سماء - وكان سليمان إذا سئل عن شيء، سأل الإنس ثم الجن ثم الشياطين. قال فقالت الشياطين: هذا هين، أجر الخيل ثم خذ عرقها، ثم املا منه الآنية. قال: فأمر بالخيول: فأجريت، ثم أخذ عرقها فملا منه الآنية. قال: وسألت عن لون الله، ﷻ. قال: فوثب سليمان عن سريره، فخر ساجداً، فقال: يا رب، لقد سألتني عن أمر إنه يتكاد، أي: يتعظم في قلبي أن أذكره لك. قال: ارجع فقد كفيتكهم، قال: فرجع إلى سريره فقال: ما سألت عنه؟ قالت: ما سألتك إلا عن الماء. فقال لجنوده: ما سألت عنه؟ فقالوا: ما سألتك إلا عن الماء. قال: ونسوه كلهم. قال: وقالت الشياطين لسليمان: تُريد أن تتخذها لنفسك، فإن اتخذها لنفسه ثم ولد بينهما ولد، لم تنفك من عبوديته. قال: ففعلوا صرحاً ممرداً من قوارير، فيه السمك. قال: فقيل لها: ادخلي الصرح. فلما رآته حسبته لجة، وكشفت عن ساقها، فإذا هي شُعْرَاء. فقال سليمان: هذا قبيح، ما يذهبه؟ فقالوا: تذهبه المواسي. فقال: أثر الموصي قبيح! قال: فجعلت الشياطين النورة. قال: فهو أول من جعلت له النورة. ثم قال أبو بكر بن أبي شيبة: ما أحسنه من حديث. قلت: بل هو منكر غريب جداً، ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس، والله أعلم. والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلفاة عن أهل الكتاب، مما يوجد في صحفهم، كروايات كعب ووهب - سامحهما الله تعالى - فيما نقلنا إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل، من الأوابد والغرائب والعجائب، مما كان وما لم يكن، ومما حرف وبدل ونسخ. وقد أغنانا الله، سبحانه، عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ، والله الحمد والمنة. أصل الصرح في كلام العرب: هو القصر، وكل بناء مرتفع، قال الله، سبحانه وتعالى، إخباراً عن فرعون: لعنه الله - أنه قال لوزيره هامان: ﴿آتِنِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغَ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ فَأَطْلُعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ الآية (غافر: ٣٦، ٣٧). والصرح: قصر في اليمن عالي البناء، والممرد أي: المبني بناء محكماً أملس ﴿مِنْ قَوَارِيرَ﴾ أي: زجاج. وتمريد البناء تمليسه. ومارد: حصن بدومة الجندل. والغرض أن سليمان، عليه السلام، اتخذ قصراً عظيماً منيفاً من زجاج لهذه الملكة؛ ليربها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله، تعالى، وجلالة ما هو فيه، وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، فأسلمت لله، ﷻ، وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي: بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها الشمس من دون الله، ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده، لا شريك له، الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ قَرِيعَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ ٤٩ قَالَ يَتَقَوَّلُوا بِالنَّصِيَةِ قَوْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا سَتَقِفُونَهُ اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ٥٠ قَالُوا أَطَرْنَا بِكَ وَبَيْنَ مَعَكَ قَالَ مَطَرِكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ ٥١.

وقال لهم صالح: ﴿تَسْمَعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدُّ غَيْرِ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، قالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث. وكان لصالح مسجد في الحجر عند شعب هناك يصلي فيه، فخرجوا إلى كهف: أي: غار هناك ليلاً، فقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه، ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله، ففرغنا منهم. فبعث الله صخرة من الهضب حيالهم، فخشوا أن تشدخهم فتبادروا فانطبقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار، فلا يدري قومهم أين هم. ولا يدرون ما فعل بقومهم. فعذب الله هؤلاء ههنا، وهؤلاء ههنا، وأنجى الله صالحاً ومن معه، ثم قرأ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ٥٤ ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمِينَ﴾ ٥٥ ﴿فَبَالَتْ يَأْثُمُ خَاوِيَةً﴾ ٥٦ أي: فارغة ليس فيها أحد: ﴿يَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنْجَيْنَا آلَ إِبْرَٰهِيمَ ؕ آمَنُوا وَكَانُوا بَشْعُرًا﴾ ٥٧.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْغِرُونَ﴾ ٥٨ ﴿لَيْسَ لَكُمُ الْآيَاتُ الْكِتَابَ مِنْ دُونِ الْحَقِّ وَلَكِنْ أَنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ٥٩ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُو آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْغِضُونَ﴾ ٦٠ ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنْ الْقَلْبِ﴾ ٦١ ﴿وَأَنْظَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا مُسَوِّمًا مَطَرُ الْمُتَدَبِّرِينَ﴾ ٦٢.

يخبر تعالى عن عبده لوط، عليه السلام، أنه أُنذر قومه نعمة الله بهم، في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكور دون الإناث، وذلك فاحشة عظيمة، استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء. قال: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْغِرُونَ﴾ ٥٨ أي: يرى بعضكم بعضاً، وتأتون في ناديتكم المنكر؟ ﴿لَيْسَ لَكُمُ الْآيَاتُ الْكِتَابَ مِنْ دُونِ الْحَقِّ وَلَكِنْ أَنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ٥٩ أي: لا تعرفون شيئاً لا طبعاً ولا شرعاً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَتَأْتُونَ الذَّكَرَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ٦٠ ﴿وَقَدَرْنَا مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ إِلَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ ٦١ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]. ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُو آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْغِضُونَ﴾ ٦٠ أي: يتخرجون من فعل ما تفعلونه، ومن إقراركم على صنيعكم، فأخرجوهم من بين أظهركم فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم. فعزموا على ذلك، فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، قال الله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْقَلْبِ﴾ ٦١ أي: من الهالكين مع قومها؛ لأنها كانت ردةً لهم على دينهم، وعلى طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تدل قومها على ضيغان لوط، ليأتوا إليهم، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبي الله ﷺ لا كرامة لها. وقوله: ﴿وَأَنْظَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ ٦٢ أي: حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين بعباد، ولهذا قال: ﴿مَطَرُ الْمُتَدَبِّرِينَ﴾ ٦٢ أي: الذين قامت عليهم الحجة، ووصل إليهم الإنذار، فخالفوا الرسول وكذبوه، وهما بإخراجه من بينهم.

﴿قُلِ الْمُتَدَبِّرِينَ وَكَلَّمَ عَلَى عِيسَى الْآيَاتِ أَصْطَفَىٰ اللَّهُ خَيْرَ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٦٣ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا ذَٰلِكَ بِهَجْرَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَيْئًا أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ بِمِيزَانٍ﴾ ٦٤.

يقول تعالى أمر أرسوله ﷺ أن يقول: ﴿قُلِ الْمُتَدَبِّرِينَ﴾ ٦٣ أي: على نعمه على عباده، من النعم التي لا تعد ولا تحصى، وعلى ما اتصف به من الصفات الغلى والأسماء الحسنى، وأن يُسَلِّمَ على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم، وهم رسله وأنبيأؤه الكرام، عليهم من الله الصلاة والسلام، هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيره: إن المراد بعباده الذين اصطفى: هم الأنبياء، قال: وهو كقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ٦٥ ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ ٦٦ ﴿وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ٦٧ [الصفات: ١٨٠ - ١٨٢]. وقال الثوري، والسدي: هم أصحاب محمد ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين، وروى نحوه عن ابن عباس.

ولا منافاة، فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى، فالأنبياء بطريق الأولى والأخرى، والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد ما ذكر لهم ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد، وما أحل بأعدائه من الخزي والنكال والقهر، أن يحمدوه على جميع أفعاله، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار. وقد قال أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عمار بن صبيح، حدثنا طلق بن غنم، حدثنا الحكم بن ظهير، عن السدي - إن شاء الله - عن أبي مالك، عن ابن عباس: ﴿وَسَلِّمْ عَلَى عِيسَى الْآيَاتِ أَصْطَفَىٰ﴾ ٦٣ قال: هم أصحاب محمد ﷺ، اصطفاهم الله لنبيه، رضي الله عنهم. وقوله: ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٦٤ استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله كُله أخرى، ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره، فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ٦٥ أي: تلك السموات بارتفاعها وصفاتها، وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة، والأرض باستفالتها وكثافتها، وما جعل فيها من الجبال والأوعار والسهول، والفيافي والغفار، والأشجار والزرع، والثمار والبحور، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك. وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ ٦٦ أي: جعله رزقاً للعباد، ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا﴾ ٦٧ أي: بساتين ﴿ذَٰلِكَ بِهَجْرَةٍ﴾ ٦٨ أي: منظر حسن وشكل بهي، ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا﴾ ٦٩

الهَجِيمِي، عن جابر ابن سُلَيْم الهَجِيمِي قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو مُخْتَبِ بِشَمْلَةٍ، وقد وقع هُذْبُها على قدميه فقلت: أيكم محمد- أو: رسول الله؟- فأومأ بيده إلى نفسه، فقلت: يا رسول الله، أنا من أهل البادية، وفي جفاؤهم، فأوصني. فقال: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك ووجهك مُتَبَسِّط، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي، وإن امرؤ شتمك بما يعلم فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه، فإنه يكون لك أجره وعليه وزره. وإياك وإسبال الإزار، فإن إسبال الإزار من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة، ولا تُسَبِّحُ أحداً». قال: فما سببت بعده أحداً، ولا شاة ولا بعيراً. وقد روى أبو داود والنسائي لهذا الحديث طرقاً، وعندهما طرف صالح منه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبي، حدثنا علي بن هاشم، حدثنا عبدة بن نوح، عن عمر بن الحجاج، عن عبيد الله بن أبي صالح قال: دخل علي طائوس يعودني، فقلت له: ادع الله لي يا أبا عبد الرحمن. فقال: ادع لنفسك، فإنه يجب المضطر إذا دعا. وقال وهب بن منبه: قرأت في الكتاب الأول: إن الله يقول: بعزتي إنه من اعتصم بي فإن كادته السموات ومن فيهن، والأرض بمن فيها، فإني أجعل له من بين ذلك مخرجاً. ومن لم يعتصم بي فإني أخسف به من تحت قدميه الأرض، فأجعله في الهواء، فأكله إلى نفسه. وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة رجل - حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدّينوري، المعروف بالذّقيّ الصوفي - قال هذا الرجل: كنت أكارى على بغل لي من دمشق إلى بلد الزّبداني، فركب معي ذات مرة رجل، فمررنا على بعض الطريق، على طريق غير مسلوكة، فقال لي: خذ في هذه، فإنها أقرب. فقلت: لا خبرة لي فيها، فقال: بل هي أقرب. فسلكناهما فانتهينا إلى مكان وَغَر وواد عميق، وفيه قتلى كثير، فقال لي: أمسك رأس البغل حتى أنزل. فنزل وتشمر، وجمع عليه ثيابه، وسل سكيناً معه وقصدني، ففرت من بين يديه وتبعني، فناشدته الله وقلت: خذ البغل بما عليه. فقال: هو لي، وإنما أريد قتلك. فخوفته الله والعقوبة فلم يقبل، فاستسلمت بين يديه وقلت: إن رأيت أن تركني حتى أصلي ركعتين؟ فقال: صل وعجل. فقممت أصلي فأرتج علي القرآن فلم يحضرني منه حرف واحد، فبقيت واقفاً متحيراً وهو يقول: هيه. فأرغ. فأجرى الله على لساني قوله تعالى: ﴿أَتَنْبِئُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾، فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادي، ويده حربة، فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده، فخر صريعاً، فتعلقت بالفارس وقلت: بالله من أنت؟ فقال: أنا رسول الله الذي يجب المضطر إذا دعا، ويكشف السوء. قال: فأخذت البغل والحمل ورجعت سالماً. وذكر في ترجمة «فاطمة بنت الحسن أم أحمد العجالية»، قالت: هزم الكفار يوماً المسلمين في غزاة، فوقف جواد جيد بصاحبه، وكان من ذوي اليسار ومن الصلحاء، فقال للجواد: مالك؟ وملك. إنما كنت أعدك لمثل هذا اليوم. فقال له الجواد: ومالي لا أقصر وأنت تكلّ علوّقي إلى السّواس فيظلمونني ولا يطعمونني إلا القليل؟ فقال: لك علي عهد الله أنني لا أعلفك بعد هذا اليوم إلا في حجري. فجرى الجواد عند ذلك، ونجى صاحبه، وكان لا يعلفه بعد ذلك إلا في حجره. واشتهر أمره بين الناس، وجعلوا يقصدونه ليسمعوا منه ذلك، وبلغ ملك الروم أمره، فقال: ما نضام بلدة يكون هذا الرجل فيها. واحتال ليحصله في بلده، فبعث إليه رجلاً من المرتدين عنده، فلما انتهى إليه أظهر له أنه قد حسنت نيته في الإسلام وقومه، حتى استوثق، ثم خرج يوماً يمشيان على جنب الساحل، وقد واعد شخصاً آخر من جهة ملك الروم ليتساعدا على أسره، فلما اكتنفاه ليأخذه رفع طرفه إلى السماء وقال: اللهم، إنه إنما خدعني بك فاكفنيهما بما شئت، قال: فخرج سبعان إليهما فأخذاهما، ورجع الرجل سالماً.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أي: يُخَلِّفُ قرناً لقرن قبلهم وخلفاً لسلف، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَنْشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ أَخَاهُكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْمَلَكُوتِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكُوتِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٢٥]، أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً كما قدما تنقيره. وهكذا هذه الآية: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أي: أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، وقوماً بعد قوم. ولو شاء لأوجدكم كلهم في وقت واحد، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين، كما خلق آدم من تراب. ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض، ولكن لا يميم أحداً حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد، فكانت تضيق عليهم الأرض، وتضيق عليهم معاشهم وأكسابهم، ويتضرر بعضهم ببعض. ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحد، ثم يكثرهم غاية الكثرة، ويذراهم في الأرض، ويجعلهم قروناً بعد قرون، وأما بعد أمم، حتى ينقضي الأجل وتفرغ البرية، كما قدر ذلك تبارك وتعالى، وكما أحصاهم وعدهم عدداً، ثم يقيم القيامة، ويوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله، ولهذا قال تعالى: ﴿أَتَنْبِئُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ أي: يقدر على ذلك، أو إله مع الله يُعْبَد، وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما أقل تذكركم فيما

يرشدكم إلى الحق، ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٦).

يقول: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ أي: بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية، كما قال: ﴿وَعَلَّمَنَّا وَيَأْتِجُكُمْ بِهِمْ يُنَادُونَ﴾ (النحل: ١٦)، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ لَكُمْ الْكُتُبَ لِيَتَذَكَّرُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ الآية (الأنعام: ٤٧). ﴿وَمَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: بين يدي السحاب الذي فيه مطر، يغيث به عباده المُجِدِّين الأزلين القنطين، ﴿أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْفَعُكُم مِّنَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٧).

أي: هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (١٧) ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ (البروج: ١٢، ١٣)، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ (الروم: ٢٧). ﴿وَمَنْ يَرْفَعُكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي: بما ينزل من مطر السماء، وينبت من بركات الأرض، كما قال: ﴿وَأَنزَلْنَا ذَاتَ النَّجْوَى﴾ (الحديد: ٤)، ﴿يَعْلَمُ مَا بَلَّغَ فِي الْأَرْضِ وَمَا يُخْرِجُ مِنهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا﴾ (الحديد: ٤)، فهو، تبارك وتعالى، ينزل من السماء ماء مباركا فيسكنه في الأرض، ثم يخرج به منها أنواع الزروع والشمار والأزاهير، وغير ذلك من ألوان شتى، ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَانِ﴾ (طه: ٥٤)؛ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ﴾ أي: فعل هذا. وعلى القول الآخر: يعيد؟ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على صحة ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ذلك، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان، كما قال الله: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّكَرًا لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (المومنون: ١١٧).

﴿قُلْ لَا يَمْلِكُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْقَيْبُ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَتَانًا يَبْشُرُونَ﴾ (١٨) ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا لَا بَلَّغْنَا عَمْرَهُمْ﴾ (١٩).

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق: أنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب. وقوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ استثناء منقطع، أي: لا يعلم أحد ذلك إلا الله، ﷻ، فإنه المنفرد بذلك وحده، لا شريك له، كما قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مَا تَحْمِلُ الْأَقْيَامُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الآية (الأنعام: ٥٩)، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الرِّيحَ وَرَسُولُهُ وَمَا يُدْرِي قَسٌّ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي قَسٌّ بَأَنِّي أَرْضُ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (القمان: ٣٤)، والآيات في هذا كثيرة. وقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَتَانًا يَبْشُرُونَ﴾ أي: وما يشعر الخلائق الساكنون في السموات والأرض بوقت الساعة، كما قال: ﴿تَنفَلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْضَةً﴾ (الأعراف: ١٨٧)، أي: ثقل علمها على أهل السموات والأرض. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن الجعد، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: من زعم أنه يعلم - يعني نبي ﷺ - ما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَا يَمْلِكُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْقَيْبُ إِلَّا اللَّهُ﴾. وقال قتادة: إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصلات. جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال براه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به. وإن ناساً جهلة بأمر الله، قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا. ومن سافر بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا. ومن ولد بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا. ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود، والقصير والطويل، والحسن والدميم، وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب! وقضى الله: أنه لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله، وما يشعرون أيان يبعثون. رواه ابن أبي حاتم عنه بحروفه، وهو كلام جليل متين صحيح، وقوله: ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أي: انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها. وقرأ آخرون: ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ﴾ أي: تساوى علمهم في ذلك، كما في الصحيح لمسلم: أن رسول الله ﷺ قال لجبريل - وقد سأله عن وقت الساعة -: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، أي: تساوى العجز عن درك ذلك علم المسؤول والسائل. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: غاب. وقال قتادة: ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ يعني: يُجْهَلُهُمْ ربهم، يقول: لهم ينفذ لهم إلى الآخرة علم، هذا قول. وقال ابن جريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس: ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾، حين لم ينفع العلم، وبه قال عطاء الخراساني، والسدي: أن علمهم إنما يُدْرَك

ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَمْسِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا لَكِ الْغُلِيلُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨]. وقال سفيان، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن أنه كان يقرأ: «بل أدرك علمهم»، قال اضمحل علمهم في الدنيا، حين عابونا الآخرة. وقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ عائد على الجنس، والمراد الكافرون، كما قال تعالى: ﴿وَعَرِضًا عَلَيْكُمْ سَفَا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا جِئْتُمْ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨] أي: الكافرون منكم. وهكذا قال ههنا: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ أي: شاكون في وجودها ووقوعها، ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا عَمُونَ﴾ أي: في عمية وجهل كبير في أمرها وشأنها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَاثَارًا إِنَّا لَنُعْجِزُ ﴿١٧﴾ لَقَدْ جِئْتَنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَاثَارُنا مِن قَبْلُ إِن هَٰذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَلٰٓئِلِ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن منكري البعث من المشركين: **أَنَّهُمْ اسْتَكْبَرُوا** إعادة الأجساد بعد صيورها عظماً ورفاتاً وتراباً، ثم قال: **﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾** أي: ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا، ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً. وقولهم: **﴿إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾** يعنون: ما هذا الوعد بإعادة الأبدان، **﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾** أي: أخذه قوم عنمن قبلهم، من قبلهم يتلقاه عن بعض، وليس له حقيقة. قال الله تعالى مجيباً لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد: **﴿قُلْ﴾** - يا محمد - لهؤلاء: **﴿يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾** أي: المكذبين بالرسول وما جاؤهم به من أمر المعاد وغيره، كيف حلت بهم نقم الله وعذابه ونكاله، ونجى الله من بينهم رسله الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته. ثم قال تعالى مسلماً لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه: **﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾** أي: المكذبين بما جئت به، ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات، **﴿وَلَا تُكِنُّ فِي صَبْرٍ مَّا يَمْكُرُونَ﴾** أي: في كيدك ورد ما جئت به، فإن الله مؤيدك وناصرك، ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدٌّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنْ أَسْرَفْتُمْ لَا بُدَّ لِلَّذِينَ لَا يُعْلَمُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَعَلِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين، في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك: ﴿وَيَقُولُوا مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٧١) قال الله مجيباً لهم: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّد ﷺ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدُّكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾. قال ابن عباس أن يكون قرب - أو: أن يقرب - لكم بعض الذي تستعجلون. وهكذا قال مجاهد، والضحاك، وعطاء الخراساني، وقتادة، والسدي. وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُوا مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ وَالْعَاقِبَاتُ لِلَّهِ وَلِأَنفُسِكُمْ لَٰحِظَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [العنكبوت: ٥٤]. وإنما دخلت «اللام» في قوله: ﴿رَدُّكُمْ لَكُمْ﴾؛ لأنه ضَمَن معنى «عجل لكم»، كما قال مجاهد في رواية عنه: ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدُّكُمْ لَكُمْ﴾: عجل لكم. ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُكَذِّبُونَ﴾ [التكوير: ١٦]، أي: في إسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُكَذِّبُونَ﴾ [التكوير: ١٦]، أي: يعلم السرائر والضمائر، كما يعلم الظواهر، ﴿سَوَاءٌ يَنصُرُكَ مِن أَسْرَ الْأَقْوَالِ وَمَن جَهَرَ بِهَا﴾ [الرعد: ١٠]، ﴿يَعْلَمُ الْغُيُوبَ﴾ [طه: ٧]، ﴿أَلَا جِنَّةٌ يَسْتَعِثُّونَ بِنَافَثِهِمْ يَتْلَمَحُنَّ مَا فِي سُرُوتٍ وَمَا يَكُونُ لَكُمْ عَنَّا بِشَيْءٍ مِّنْ حَقٍّ وَلَا أَتَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْهُ نَاسِيَةٌ﴾ [الحج: ٥٠]. ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة - وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه - فقال: ﴿وَمَا مِنَّ غَائِبَةٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: يعني: وما من شيء، ﴿فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الحج: ٧٠].

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْفَعُ عَلَى بَقِيٍّ بِشَرِّهِ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ بِهِ يَحْتَمِلُونَ﴾ (٧٦) وَإِنَّ هَذِي وَرَحْمَةُ الْفَاسِقِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ. وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَ وَلَا تَسْمِعُ النُّفُسَ الدَّاعِيَةَ إِذَا وَلَوْ أُمَّةٌ دَرِيدٌ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَتَى بِهَذِي الْأُمِّيِّ عَنْ صَلَاتِهِمْ إِنَّ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْمِعُونَ ﴿٨١﴾ ﴿

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز ، وما اشتمل عليه من الهدى والبيّنات والفرقان : أنه يقص على بني إسرائيل - وهم حملة التوراة والإنجيل - ﴿ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ، كاختلافهم في عيسى وتبانيهم فيه ، فاليهود اقتصروا ، والنصارى غلوا ، فجاء إليهم القرآن بالقول الوسط الحق العدل : أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْكَافَّةِ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ [مريم: ٣٤] . وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي رَحِمَهُ الْفُقَرَاءُ ﴾ [آي:

هدى لقلوب المؤمنين، ورحمة لهم في العمليات. ثم قال: ﴿إِنَّ رَيْبَكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿بِحَكْمِهِ﴾ وهو العزيز في انتقامه، ﴿الْعَلِيِّ﴾. بأفعال عباده وأقوالهم. ﴿تَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: في أمورك، وبلغ رسالة ربك، ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ أي: أنت على الحق المبين وإن خالفك من خالفك، ممن كتبت عليه الشقاوة وحقت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكُفْرَ﴾ أي: لا تسمعهم شئاً ينفعهم، فذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة، وفي آذانهم وقْر الكفر؛ ولهذا قال: ﴿لَا تَسْمَعُ الْكُفْرَ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنتَ بِبَدِيءَ الشَّيْءِ عَنْ صَلَاتِهِمْ إِنْ تُشِيعُ إِلَّا مَنْ يُوَفِّي بَيِّنَاتٍ﴾ فهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ أي: إنما يستجيب لك من هو سميع بصير، السمع والبصر النافع في القلب والبصيرة الخاضع لله، ولما جاء عنه على ألسنة الرسل، عليهم السلام.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿٨٢﴾

هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتزكيتهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق، يخرج الله لهم دابة من الأرض - قيل: من مكة. وقيل: من غيرها. كما سيأتي تفصيله - فتكلم الناس على ذلك. قال ابن عباس، والحسن، وقتادة - وزوي عن علي، رضي الله عنه -: تكلمهم كلاماً أي تخاطبهم مخاطبة. وقال عطاء الخراساني: تكلمهم فتقول لهم: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون. ويروى هذا عن علي، واختاره ابن جرير. وفي هذا القول نظر لا يخفى، والله أعلم. وقال ابن عباس - في رواية -: تجرحهم. وعنه رواية، قال: كلاً تفعل يعني هذا وهذا، وهو قول حسن، ولا منافاة، والله أعلم. وقد ورد في ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة، فلنذكر ما تيسر منها، والله المستعان: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن قُرَات، عن أبي الطفيل، عن حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال: لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق - أو: تحشر - الناس، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا. وهكذا رواه مسلم وأهل السنن، من طرق، عن قُرَات القزاز، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، عن حُذَيْفَةَ مَوْقُوفاً. وقال الترمذي: حسن صحيح. ورواه مسلم أيضاً من حديث عبد العزيز بن رُثَيْم، عن أبي الطفيل، عنه مرفوعاً. والله أعلم.

طريق أخرى: قال أبو داود الطيالسي، عن طلحة بن عمرو، وجرير بن حازم، فأما طلحة فقال: أخبرني عبد الله بن عبيد الله بن عمير الليثي: أن أبا الطفيل حدثه، عن حذيفة بن أسيد الغفاري أبي سريحة، وأما جرير فقال: عن عبد الله بن عُبيد، عن رجل من آل عبد الله بن مسعود - وحديث طلحة أتم وأحسن - قال: ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال: «لها ثلاث خرجات من الدهر، فتخرج خرجة من أقصى البادية، ولا يدخل ذكرها القرية - يعني: مكة - ثم تكمن زماناً طويلاً، ثم تخرج خرجة أخرى دون تلك، فيعلو ذكرها في أهل البادية، ويدخل ذكرها القرية» يعني: مكة. قال رسول الله ﷺ: «ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرهما: المسجد الحرام، لم يَرَوْعُهم إلا وهي تَرَوْعُهم بين الركن والمقام، تنفض عن رأسها التراب. فارفض الناس عنها شئاً ومعاً، ويقيت عصاية من المؤمنين، وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله، فبدأت بهم فجلت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدري، وولت في الأرض لا يدركها طالب، ولا ينجو منها هارب، حتى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة، فتأتيه من خلفه فتقول: يا فلان، الآن تصلي؟ فيقبل عليها فتسهم في وجهه، ثم تنطلق ويشتري الناس في الأموال، ويصطحبون في الأمصار، يعرف المؤمن من الكافر، حتى إن المؤمن ليقول: يا كافر، اقضني حقي. وحتى إن الكافر ليقول: يا مؤمن، اقضني حقي». ورواه ابن جرير من طريقين، عن حذيفة بن أسيد مَوْقُوفاً. فالله أعلم. ورواه من رواية حذيفة بن اليمان مرفوعاً، وأن ذلك في زمان عيسى ابن مريم، وهو يطوف بالبيت، ولكن إسناده لا يصح.

حديث آخر: قال مسلم بن الحجاج: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن بشر، عن أبي حيان، عن أبي رُزَّة، عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتهما ما كانت قبل صاحبتهما، فالأخرى على أثرها قريباً». حديث آخر: روى مسلم في صحيحه من حديث العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب - مولي الحُرَّة - عن أبيه: عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدهم، أو أمر العامة». وله من حديث قتادة، عن الحسن، عن زياد بن رباح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستاً: الدجال، والدخان، ودابة الأرض، وطلوع الشمس، من مغربها، وأمر العامة وخوصة

أحدكم». حديث آخر: قال ابن ماجه: حدثنا حَزْمَلَةُ بن يحيى، حدثنا ابن وهب، أخبرني عَمْرُو بن الحارث وابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سَيَّان بن سعد، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، ودابة الأرض، والدجال، وخُوصَةُ أحدكم، وأمر العامة». تفرد به. حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي أيضاً: حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أوس بن خالد، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «تخرج دابة الأرض، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان، عليهما السلام، فتخطم أنف الكافر بالعصا، وتُجلي وجه المؤمن بالخاتم، حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر». ورواه الإمام أحمد، عن بَهْز وعفان ويزيد بن هارون، ثلاثتهم عن حماد بن سلمة، به. وقال: «فتخطم أنف الكافر بالخاتم، وتجلو وجه المؤمن بالعصا، حتى إن أهل الخوان الواحد ليجتمعون فيقول هذا: يا مؤمن، ويقول هذا: يا كافر». ورواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يونس بن محمد المؤدب، عن حماد بن سلمة، به.

حديث آخر: قال ابن ماجه: حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو، حدثنا أبو ثُمَيْلَةَ، حدثنا خالد بن عُبيد، حدثنا عبد الله بن بُرَيْدة، عن أبيه قال: ذهب بي رسول الله ﷺ إلى موضع بالبادية، قريب من مكة، فإذا أرض يابسة حولها رمل، فقال رسول الله ﷺ: «تخرج الدابة من هذا الموضع. فإذا فُتِر في شبر». قال ابن بُرَيْدة: فحججت بعد ذلك بسنين، فأرانا عصاً له، فإذا هو بعصاي هذه، كذا وكذا. وقال عبد الرزاق عن مَعْمَر، عن قتادة، أن ابن عباس قال: هي دابة ذات رَعَب، لها أربع قوائم، تخرج من بعض أودية تهامة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية قال: قال عبد الله: تخرج الدابة من صِعد من الصفا كَجَزِي الفرس ثلاثة أيام، لم يخرج ثلثها. وقال محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح قال: سئل عبد الله بن عمرو عن الدابة، فقال: الدابة تخرج من تحت صخرة بجياد، والله لو كنت معهم - أولو شئت بعصاي الصخرة التي تخرج الدابة من تحتها. قيل: فتصنع ماذا يا عبد الله بن عمرو؟ قال: تستقبل المشرق فتصرخ صرخة تنفذه، ثم تستقبل الشام فتصرخ صرخة تنفذه، ثم تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه، ثم تستقبل اليمن فتصرخ صرخة تنفذه، ثم تروح من مكة فتصبح بعسفان. قيل: ثم ماذا؟ قال: لا أعلم. وعن عبد الله بن عمر، أنه قال: تخرج الدابة ليلة جمع. ورواه ابن أبي حاتم: وفي إسناده ابن البيلماني.

وعن وهب بن منبه: أنه حكى من كلام عُزَيْر، عليه السلام، أنه قال: وتخرج من تحت سدوم دابة تكلم الناس كل سميعها، وتضع الحبالى قبل التمام، ويعود الماء العذب أجاجاً، ويتعادي الأخلاء، وتُحَرِّقُ الحكمة، ويُرْفَعُ العلم، وتكلم الأرض التي تليها. وفي ذلك الزمان يرجو الناس ما لا يبلغون، ويتعبون فيما لا يتالون، ويعملون فيما لا يأكلون. ورواه ابن أبي حاتم، عنه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح - كاتب الليث - حدثني معاوية بن صالح، عن أبي مريم: أنه سمع أبا هريرة، رضي الله عنه، يقول: إن الدابة فيها من كل لون، ما بين قرنها فرسخ للراكب. وقال ابن عباس: هي مثل الحربة الضخمة. وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه قال: إنها دابة لها ريش وزغب وحافر، وما لها ذنب، ولها لحية، وإنها لتخرج حُضْر الفرس الجواد ثلاثاً، وما خرج ثلثها. ورواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جُرَيْج، عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال: رأسها رأس ثور، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن إيل، وعنقها عنق نعام، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هز، وذنبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعاً، تخرج معها عصا موسى، وخاتم سليمان، فلا يبقى مؤمن إلا نكتت في وجهه بعضا موسى نكتة بيضاء، فتفشو تلك النكتة حتى يبيض لها وجهه، ولا يبقى كافر إلا نكتت في وجهه نكتة سوداء بخاتم سليمان، فتفشو تلك النكتة حتى يسود لها وجهه، حتى إن الناس يتبايعون في الأسواق: بكم ذا يا مؤمن، بكم ذا يا كافر؟ وحتى إن أهل البيت يجلسون على مائدتهم، فيعرفون مؤمنهم من كافرهم، ثم تقول لهم الدابة: يا فلان، أبشر، أنت من أهل الجنة؟ ويا فلان، أنت من أهل النار. فذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُ لَئِنْ أَخْرَجَ اللَّهُ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَاثِرٌ بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (٨٣).

﴿وَيَوْمَ نَخْتَرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّنْ يَّكُذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (٨٤) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِمَا عَلَّمَا أَنَاذًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَنَّمُوا فَهُمْ لَا يَظْفَرُونَ ﴿٨٦﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلَ لُوطٍ آيَةً لِّلنَّاسِ فِيهِ وَآلُهَا مُبْتَرَأٌ بِكَ فِي ذَلِكَ لَآيَتٍ لِّعَاوِمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٧).

يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة، وحشر الظالمين المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله، ﷻ، ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا، تقريراً وتوبيخاً، وتصغيراً وتحقيراً فقال: ﴿وَيَوْمَ نَخْتَرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ أي: من كل قوم وقرن فوجاً، أي: جماعة، ﴿وَمَنْ يَّكُذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾ كما قال تعالى: ﴿اٰخِثْرُوا اٰلَيْهِمْ عَلٰمُوا وَاَزَلٰهُمْ﴾ [الصفافات: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُنْفِثُوا

رُؤْيَتْ ﴿٧﴾ ﴿التكوير: ٧﴾. وقوله: ﴿فَهُمْ يُرْعَوْنَ﴾: قال ابن عباس، رضي الله عنهما: يدفعون. وقال قتادة وَرَعَةً ترد أولهم على آخرهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يساقون. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ﴾ أي: أوقفوا بين يدي الله، ﷻ، في مقام المسألة ﴿قَالَ أَكْذَبْتُمْ بِمَا يَأْتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِمَا عَلَّمَا أَفَادَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟ أي: ويسألون عن اعتقادهم، وأعمالهم فلما لم يكونوا من أهل السعادة، وكانوا كما قال الله تعالى عنهم: ﴿فَلَا سَكَنَ لَكُمْ مَكَلٌ﴾ ﴿١٦﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٢١﴾ ﴿القيامة: ٣١، ٣٢﴾، فحينئذ قامت عليهم الحجة، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به، كما قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْفَعُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَرُ السَّاعِدِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٧]، وهكذا قال ههنا: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْفَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ أي: بهتوا فلم يكن لهم جواب؛ لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية. ثم قال تعالى منبهاً على قدرته التامة، وسلطانه العظيم، وشأنه الرفيع الذي تجب طاعته والانقياد لأوامره، وتصديق أنبيائه فيما جاؤوا به من الحق الذي لا محيد عنه، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلَ لُوطٍ لِّسَكْرًا فَبَرَّ﴾ أي: فيه ظلام تسكن بسببه حركاتهم، وتهذا أنفاسهم، ويستريحون من نصب التعب في نهارهم. ﴿وَالنَّهَارَ مُبْغِرًا﴾ أي: منيراً مشرقاً، فبسبب ذلك يتصرفون في المعاش والمكاسب، والأسفار والتجارات، وغير ذلك من شؤونهم التي يحتاجون إليها، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَنْزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَنفُسٍ ذٰلِكَ يَوْمَ يَكُونُ الْحِجَابُ بَاطِلًا وَمَنْ يَكُونُ الْحِجَابُ بَاطِلًا فَكُلُّ شَيْءٍ عَالِمٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُنْتُمْ فِي الْآثَرِ هَلْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع في الصور، وهو كما جاء في الحديث: «قرن ينفخ فيه» وفي حديث الصور أن إسرئيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى، فينفخ فيه أولاً نفخة الفزع ويطلوها، وذلك في آخر عمر الدنيا، حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء، فيفزع من في السموات ومن في الأرض ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾، وهم الشهداء، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون. قال الإمام مسلم بن الحجاج: حدثنا عُبيد الله بن مُعَاذٍ العنبري، حدثنا أبي، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم: سمعت يعقوب بن عاصم بن عَزْوَة بن مسعود الثقفي، سمعت عبد الله بن عمرو، رضي الله عنه، وجاءه رجل فقال: ما هذا الحديث الذي تحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ فقال: سبحان الله - أو: لا إله إلا الله - أو كلمة نحوهما - لقد هممت ألا أحدث أحداً شيئاً أبداً، إنما قلت: إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً يخرب البيت، ويكون ويكون. ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين - لا أدري أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين عاماً - فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود، فيطلبه فيهلكه. ثم يمكث الناس سبع سنين، ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدهم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه». قال: سمعتها من رسول الله ﷺ، قال: «فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دار رزقهم، حسن عيشهم. ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتها ورفع ليتها». قال: «وأول من يسمعه رجل يُلَوِّط حوض إبله». قال: «فيصعق ويصعق الناس، ثم يرسل الله - أو قال: ينزل الله مطراً كأنه الطل - أو قال: الظل - نعمان الشاك - فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون. ثم يقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، هَلُمُّوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ، وقفوههم إنهم مسؤولون. ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال كم: من كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين». قال: «فذلك يوم يجعل الولدان شيباً، وذلك يوم يكشف عن ساق». وقوله: «ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتها ورفع ليتها»، اللبت: هو صفحة العنق، أي: أمال عنقه ليستمعه من السماء جيداً. فهذه نفخة الفزع. ثم بعد ذلك نفخة الصعق، وهو الموت. ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين، وهو النشور من القبور لجميع الخلائق؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلُّ أَنفُسٍ ذٰلِكَ يَوْمَ يَكُونُ الْحِجَابُ بَاطِلًا وَمَنْ يَكُونُ الْحِجَابُ بَاطِلًا فَكُلُّ شَيْءٍ عَالِمٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُنْتُمْ فِي الْآثَرِ هَلْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾. وفي حديث الصور: أنه في النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح، فتوضع في ثقب في الصور، ثم ينفخ إسرئيل فيه بعد ما تنبت الأجساد في قبورها وأماكنها، فإذا نفخ في الصور طارت الأرواح، توهج أرواح المؤمنين نوراً، وأرواح الكافرين ظلمة، فيقول الله، ﷻ، وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى جسدها. فتجيء الأرواح إلى أجسادها، فتدب فيها كما يدب السم في اللدغ، ثم يقومون فينفضون التراب من قبورهم، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَعْدَانِ رِجَالَهُمْ بِأَنَّهُمْ لَبَسُوا نَفْسًا يَوْمَ يُؤْفَكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المعارج: ٩٣].

ولا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً وَلَا أَنْ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر بفضلك تفسير سورة القصص

وهي مكية.

قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا وكيع، عن أبيه، عن أبي إسحاق، عن معد يكره قال: أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ علينا ﴿طس﴾ المائتين، فقال: ما هي معي، ولكن عليكم من أخذها من رسول الله ﷺ: خُتَاب بن الأرت. قال: فأتينا خُتَاب بن الأرت، فقرأها علينا، رضي الله عنه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طس﴾ ١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذَّخَّرُونَ ٤ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي الشَّكِّ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ٥ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ٦ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ يَجْعُدَانِ يَجْعُدَانِ مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ٧

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة. وقوله: ﴿تِلْكَ﴾ أي: هذه: ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي: الواضح الجلي الكاشف عن حقائق الأمور، وعلم ما قد كان وما هو كائن. وقوله: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] أي: نذكر لك الأمر على ما كان عليه، كأنك شاهد وكنك حاضر. ثم قال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تكبر وتجبر وطغى، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: أصنافاً، قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته. وقوله: ﴿يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ يعني: بني إسرائيل. وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم. هذا وقد سلب عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم في أحسن الأعمال، ويكذبهم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيي نساءهم، إهانة لهم واحتقاراً، وخوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام، يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه. وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسون من قول إبراهيم الخليل، حين ورد الديار المصرية، وجرى له مع جبارها ما جرى، حين أخذ سارة ليتخذها جارية، فصانها الله منه، ومنعه منها بقدرته وسلطانه. فبشر إبراهيم، عليه السلام، ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك ملك مصر على يديه، فكانت القبط تتحدث بهذا عند فرعون، فاحترز فرعون من ذلك، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل، ولن ينفع حذر من قدر؛ لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولكل أجل كتاب؛ ولهذا قال: ﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ٥ ونُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ يَجْعُدَانِ يَجْعُدَانِ مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ٧. وقد فعل تعالى ذلك بهم، كما قال: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَضِعُّونَ مِنْكَ الْأَرْضِ وَمَكْرُهَا أَلَىٰ بَدْرُكُنَا فِيهَا وَكَمَتَ لَكَ رَجُلٌ كَرِيمٌ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَسْرِيُونَ﴾ [الاعراف: ١٣٧]. وقال: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩]، أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى، فما نفعه ذلك مع قدر الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القُدري، بل نفذ حكمه وجرى قلمه في القدم بأن يكون إهلاك فرعون على يديه، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده، وقتلت بسببه الرُّفَا من الولدان إنما منشؤه ومرياه على فراشك، وفي دارك، وغداؤه من طعامك، وأنت تربيته وتدلله وتتفاده، وحتفك، وهلاكك وهلاك جنودك على يديه، لتعلم أن رب السموات العلا هو القادر الغالب العظيم العزيز القوي الشديد المحال، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

﴿وَأَرْحَمًا إِلَهُكَ أَوْ مُوسَى أَنْ أَضْمِرَ فَإِذَا جِئْتَ عَلَيْهِ فَالْقِيَةِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافُ وَلَا تَحْزَنُ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَىٰ جِبَالِهِ وَمَا جَعَلُوهُ مِنْ الْقُرْآنِ إِلَّا نَقْلَةً ٨ لِكَيْ يَكُونَ لَكُمْ عَذَابٌ وَحَرَامٌ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ يَجْعُدَانِ يَجْعُدَانِ مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ٩ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَىٰ الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ١٠ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ يَجْعُدَانِ يَجْعُدَانِ مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ١١

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل، خافت القبط أن يفنى بني إسرائيل، فيلوثون هم ما كانوا يلونه من

الأعمال الشاقة. فقالوا لفرعون: إنه يوشك - إن استمر هذا الحال - أن يموت شيوخهم، وغلماهم لا يعيشون، ونساؤهم لا يمكن أن يَفْضُنَ بما يقوم به رجالهم من الأعمال، فيخلص إلينا ذلك. فأمر بقتل الولدان عاماً وتركهم عاماً، فولد هارون، عليه السلام، في السنة التي يتركون فيها الولدان، وولد موسى، عليه السلام، في السنة التي يقتلون فيها الولدان، وكان لفرعون أناس موكلون بذلك، وقوابل يَدُرُّونَ على النساء، فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها، فإذا كان وقت ولادتها لا يَقْبَلُهَا إِلَّا نساء القبط، فإذا ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن، وإن ولدت غلاماً دخل أولئك الذبَّاحون، بأيديهم الشفار المرفهة، فقتلوه ومضوا قَبَحَهُمُ الله. فلما حملت أم موسى به، عليه السلام، لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها، ولم تظن لها الدايات، ولكن لما وضعت ذكراً ضاقت به ذرعاً، وخافت عليه خوفاً شديداً وأحبته حباً زائداً، وكان موسى، عليه السلام، لا يراه أحد إلا أحبه، فالسعيد من أحبه طبعاً وشرعاً قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ [طه: ٣٩]. فلما ضاقت ذرعاً به ألهمت في سرها، وألقى في خلدتها، ونفت في روعها، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمُّ مُوسَىٰ أَنَّ أَزْوَاجَهُمَا إِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ كَأَلْفَيْهِ فِي أَلَيْمٍ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا زَاوَيْنَاهُ وَجَاجِلُهُ مِنَ الْفَرَسِ﴾ [٧]. وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل، فاتخذت تابوتاً، ومهدت فيه مهداً، وجعلت ترضع ولدها، فإذا دخل عليها أحد ممن تخاف جعلته في ذلك التابوت، وسيرته في البحر، وربطته بحبل عندها. فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه، فذهبت فوضعت في ذلك التابوت، وأرسلته في البحر وذهلت عن أن تربطه، فذهب مع الماء واحتمله، حتى مر به على دار فرعون، فالتقطه الجوّاري فاحتلمته، فذهبن به إلى امرأة فرعون، ولا يدرين ما فيه، وخشين أن يفتشن عليها في فتحه دونها. فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأباه، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها؛ ولهذا قال: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

قال محمد بن إسحاق وغيره: «اللام» هنا لام العاقبة لا لام التعليل؛ لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك. ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضي ما قالوه، ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فإنه تبقى اللام للتعليل؛ لأن معناه أن الله، تعالى، قبضهم لالتقاطه ليجعله لهم عدواً وحزناً فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَنَّ وَجُودُهُمَا كَانُوا خَطِيعِينَ﴾. وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كتب كتاباً إلى قوم من القدرية، في تكذيبهم بكتاب الله وبأقداره النافذة في علمه السابق: وموسى في علم الله السابق لفرعون عدو وحزن، قال الله تعالى: ﴿وَرَبِّي فِرْعَوْنٌ وَهَمَنَّ وَجُودُهُمَا يَنْهَمُ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾، وقلتم أنتم: لو شاء فرعون أن يكون لموسى ولياً ونصيراً، والله يقول: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكِ لَا تَقْتُلُوهُ عَنِّي أَن يَنْفَعَنِي أَوْ تَنْجِذَنِي وَلَكَا وَهَمَّ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٩]. يعني: أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفاً من أن يكون من بني إسرائيل فجعلت امرأته آسية بنت مزاحم تُحَاكُّ عنه وتذب دونه، وتحبه إلى فرعون، فقالت: ﴿قُرْتُ عَيْنِي وَلَكِ﴾ فقال: أما لك فتعَم، وأما لي فلا. فكان كذلك، وهذا الله به، وأهلكه الله على يديه، وقد تقدم في حديث الفتون في سورة «طه» هذه القصة بطولها، من رواية ابن عباس مرفوعاً عن النسائي وغيره. وقوله: ﴿عَنِّي أَن يَنْفَعَنِي﴾، وقد حصل لها ذلك، وهذا الله به، وأسكنها الجنة بسببه. وقولها: ﴿أَوْ تَنْجِذَنِي وَلَكَا﴾ أي: أرادت أن تتخذ ولدًا وتبناه، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه. وقوله تعالى: ﴿وَهَمَّ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه، من الحكمة العظيمة البالغة، والحجة القاطعة.

﴿وَأَمْسَحَ فَرَادُ أُمِّ مُوسَىٰ قَرْنًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَن رَّظُنَّا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٠] وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُحِّ وَهَمَّ لَا يَشْعُرُونَ [١١] وَحَزَنًا عَلَيْهِ الْمُرَاضِعُ مِنْ قَبْلِ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ يَتِيمٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ [١٢] فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَمَا تَفَرَّقَ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ الْوَحْيَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [١٣].

يقول تعالى مخبراً عن فؤاد أم موسى، حين ذهب ولدها في البحر، أنه أصبح فارغاً، أي: من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبّير، وأبو عبيدة، والضحاك، والحسن البصري، وقتادة، وغيرهم. ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾ أي: إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد، وتخبر بحالها، لولا أن الله بُثِّتَهَا وصَبَّرَهَا قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا أَن رَّظُنَّا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ [١٠] أي: أمرت ابنتها - وكانت كبيرة تعي ما يقال لها - فقالت لها: ﴿قُصِّيهِ﴾ أي: اتبعي أثره، وخذي خبره، وتطلّبي شأنه من نواحي البلد. فخرجت لذلك، ﴿فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُحِّ﴾ - قال ابن عباس: عن جانب. وقال مجاهد: ﴿فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُحِّ﴾: عن بعيد. وقال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده. وذلك أنه لما استقر موسى، عليه السلام، بدار فرعون، وأحبته امرأة الملك، واستطلقته منه، عرضوا

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ مَآبِنَهُ حَكَمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الدَّرِيَّةَ عَلَىٰ جِبْنٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَٰذَا مِنْ عَشِيرَةٍ فَاسْتَنْتَهُ الْوَلِيُّ مِنْ شِيعِيهِ عَلَىٰ الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌ حَثِيثٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَيْنِ الَّذِي فِي بَيْتِي مَنَافِعٌ لِي أَكُونُ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى، عليه السلام، ذكر أنه لما بلغ أشده، واستوى، آتاه الله حكماً وعِلماً - قال مجاهد: يعني النبوة، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قدّر له من النبوة والتكليم: قضية قتله ذلك القبطي، الذي كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين، فقال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الدَّرِيَّةَ عَلَىٰ جِبْنٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ قال ابن جريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس: وذلك بين المغرب والعشاء. وقال ابن المنكدر، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس: كان ذلك نصف النهار. وكذلك قال سعيد بن جبير، وعكرمة، والسُّدِّي، وقتادة: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ أي: يتضاربان ويتنازعان، ﴿هَٰذَا مِنْ شِيعَةٍ﴾ أي: من بني إسرائيل، ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَشِيرَةٍ﴾ أي: قبطي، قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق، فاستغاث الإسرائيلي بموسى، عليه السلام، ووجد موسى فرصة، وهي غفلة الناس، فعمد إلى القبطي فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ. قال مجاهد: وكزه، أي: طعنه يجمع كفه. وقال قتادة: وكزه بعضا كانت معه. ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: كان فيها حفته فمات، موسى: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌ حَثِيثٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَتُ عَلَىٰ﴾ أي: بما جعلت لي من الجاه والعزة والمنعة ﴿فَلَن أَكُونُ ظَهِيرًا﴾ أي: معيناً ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الكافرين بك، المخالفين لأمرك.

﴿فَاصْبِرْ فِي الدَّرِيَّةِ حَلِيفًا يَرْفَقْ فَإِنَّا إِلَيْنَا اسْتَصْرَجَ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَمْ يُوسِّ إِلَهُ لَوْئِثٌ حَثِيثٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَتَوَسَّعُ أَتْرُيبُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُتَصَلِّينَ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى، عليه السلام، لما قتل ذلك القبطي أنه أصبح ﴿فِي الدَّرِيَّةِ حَلِيفًا﴾ أي: من معزة ما فعل، ﴿يَرْفَقْ﴾ أي: يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر، فمر في بعض الطرق، فإذا ذاك الذي استنصره بالأمس على ذلك القبطي يقاتل آخر، فلما مر موسى، استصرخه على الآخر، فقال له موسى: ﴿إِنَّكَ لَوَثٌ حَثِيثٌ﴾ أي: ظاهر الغواية كثير الشر. ثم عزم على البطش بذلك القبطي، فاعتقد الإسرائيلي لخوره وضعفه وذله أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك، فقال يدفع عن نفسه:

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَحُمِلُونَ إِتِكَ الْمَلَآءِئِمَّةُ يَا تُرَىٰرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُونَكَ فَأَخْرَجَنِي لَكَ مِنَ النَّصِيحَةِ﴾ ﴿٢٠﴾ .

﴿ فَخَرَّجَ مِنْهَا خَابًا يَنْزِفَةً قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوَدِ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا نَزَّحَتْ إِلَى مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سُبُلَ الْكَسْبِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقَىٰ حَتَّىٰ يَبْصُرَ الْأَعْيُنَ وَأُوبَكَ سَوَاحِجَ كِبَرٍ ﴿٢٣﴾ سَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾

﴿ثُمَّ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسٍ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ حَتَّى إِذَا خَرَجْتُمْ مِنَ الدِّيَارِ لَسْتُمْ لَهُمْ رَبُّهُمْ أُولَٰئِكَ سَاءَ لِقَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَٰكِنْ أَجْرُكَ إِن كُنْتَ ظَاهِرًا عَلَيْهِمْ﴾^(٢٥) ﴿قَالَ إِنِّي أَزِيدُ﴾^(٢٦) ﴿قَالَ إِنِّي أَزِيدُ أَنْ أَتِيَّكَ إِحْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْخُذَنِي ثَمْنِي حِجَابٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٢٧) ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ نَقُوتٌ وَكَيْفَ﴾^(٢٨) ﴿

لما رجعت المراتان مِرَاعاً بالغنم إلى أبيهما، أنكر حالهما ومجيئهما سريعاً، فسألهما عن خبرهما، فقصتا عليه ما فعل موسى، عليه السلام. فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها قال الله تعالى: ﴿لَمَّا أَتَتْهُ أَحَدُثُهُمَا تُنْشِئُ عَلَىٰ أَسْتَحْيَا﴾ أي: مشي الحرائر، كما روي عن أمير المؤمنين عمر، رضي الله عنه، أنه قال: كانت مستترية بكم درعها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو

نعيم، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمر بن ميمون قال، قال عمر: رضي الله عنه: جاءت تمشي على استحياء، قائلة بثوبها على وجهها، ليست بسلفع خراجة ولاجة. هذا إسناد صحيح. قال الجوهري: السلفع من الرجال: الجسور، ومن النساء: الجريئة السلطة، ومن النوق: الشديدة. ﴿قَالَتْ إِنَّكَ آتِي بِدَعْوِكَ لِجَزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، وهذا تأدب في العبارة، لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يوهم ربية، بل قالت: ﴿إِنَّكَ آتِي بِدَعْوِكَ لِجَزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ يعني: ليشيك ويكافئك على سقيك لغنمنا. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَفَّ عَلَيْهِ الْقَصَصُ﴾ أي: ذكر له ما كان من أمره، وما جرى له من السبب الذي خرج من أجله من بلده، ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَحْوَتَ مِنْ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾ يقول: طب نفساً وقز عيناً، فقد خرجت من مملكتهم فلا حُكْمَ لهم في بلادنا. ولهذا قال: ﴿نَحْوَتَ مِنْ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾. وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل: من هو؟ على أقوال: أحدها أنه شعيب النبي، عليه السلام، الذي أرسل إلى أهل مدين. وهذا هو المشهور عند كثيرين، وقد قاله الحسن البصري وغير واحد. ورواه ابن أبي حاتم. حدثنا أبي، حدثنا عبد العزيز الأوسي، حدثنا مالك بن أنس؛ أنه بلغه أن شعيباً هو الذي قص عليه موسى القصص، قال: ﴿لَا تَخَفْ نَحْوَتَ مِنْ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾. وقد روى الطبراني عن سلمة بن سعد العنزي أنه وفد على رسول الله ﷺ فقال له: «مرحبا ب قوم شعيب وأختان موسى، هذيت». وقال آخرون: بل كان ابن أخي شعيب. وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب. وقال آخرون: كان شعيب قبل زمان موسى، عليه السلام، بمدة طويلة؛ لأنه قال لقومه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ يَتَّبِعُونَ﴾ [عود: ٩٥]. وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل، عليه السلام، بنص القرآن، وقد علم أنه كان بين موسى والخليل، عليهما السلام، مدة طويلة تزيد على أربعمئة سنة، كما ذكره غير واحد. وما قيل: إن شعيباً عاش مدة طويلة، إنما هو - والله أعلم - احتراز من هذا الإشكال، ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ما هنا. وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى، لم يصح إسناده، كما سنذكره قريباً إن شاء الله. ثم من الموجود في كتب بني إسرائيل أن هذا الرجل اسمه: «ثبرون»، والله أعلم.

وقال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود: وأثرون وهو ابن أخي شعيب، عليه السلام. وعن أبي حمزة، عن ابن عباس: الذي استأجر موسى يثري صاحب مدين. رواه ابن جرير، ثم قال: الصواب أن هذا لا يدرك إلا بخبر، ولا خبر تجب به الحجة في ذلك. وقوله: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْبَىٰ اسْتَجْرَةَ إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجْرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [آي: ٢٠] أي: قالت إحدى ابنتي هذا الرجل. قيل: هي التي ذهبت وراء موسى، عليه السلام، قالت لأبيها: ﴿يَأْبَىٰ اسْتَجْرَةَ﴾ أي: لرعية هذه الغنم. قال عمر، وابن عباس، وشريح القاضي، وأبو مالك، وقتادة، ومحمد بن إسحاق، وغير واحد: لما قالت: ﴿إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجْرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾، قال لها أبوها: وما علمك بذلك؟ قالت: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإنه لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال لي: كوني من ورائي، فإذا اجتنب الطريق فاحذني لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأتهدي إليه. قال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرس في غمر، وصاحب يوسف حين قال: ﴿أَكْثَرِي مَوْتُهُ﴾ [يوسف: ٢١]، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَأْبَىٰ اسْتَجْرَةَ إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجْرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾. قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِمَكَ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَنْتَيْنِ﴾ أي: طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى عنه ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين. قال شعيب الجبائي: وهما صفوراً، وليا. وقال محمد بن إسحاق: صفوراً وشرقا، ويقال: ليا. وقد استدل أصحاب أبي حنيفة رحمه الله تعالى بهذه الآية على صحة البيع فيما إذا قال: «بعتك أحد هذين العبدین بمائة». فقال: اشتريت، أنه يصح، والله أعلم. وقوله: ﴿عَلَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَّاجٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ [آي: ٢١] على أن ترعى علي ثمانين سنين، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك، وإلا ففي ثمان كفاية، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَثْقَّ عَلَيْكَ سَخِرْتُ لَكَ مِنْ الْفَكْلَيْنِ﴾ [آي: ٢٢] لا أشاقتك، ولا أؤاذيك، ولا أماريك. وقد استدلو بهذه الآية الكريمة لمذهب الأوزاعي، فيما إذا قال: «بعتك هذا بعشرة نقداً، أو بعشرين نسيئة» أنه يصح، ويختار المشتري بأيهما أخذه صح. وحمل الحديث المروي في سنن أبي داود: «من باع بيعتين في بيعة، فله أو كسهما أو الربا» على هذا المذهب. وفي الاستدلال بهذه الآية وهذا الحديث على هذا المذهب نظر، ليس هذا موضع بسطه لطوله. والله أعلم.

ثم قد استدل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم، في صحة استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية، واستأنسوا في ذلك بما رواه أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في كتابه السنن، حيث قال: «باب استئجار الأجير على طعام بطنه»: حدثنا محمد بن المصنف الحمصي، حدثنا بقية بن الوليد، عن مسلمة بن علي، عن سعيد بن أبي أيوب، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح قال: سمعت عتبة بن الثدري يقول: كنا عند رسول الله ﷺ فقراً ﴿طَسَّرَ﴾ [آي: ٢٣]، حتى إذا بلغ قصة موسى قال: إن موسى

أَجَرَ نَفْسَهُ ثَمَانِي سَنِينَ - أَوْ: عَشْرَ سَنِينَ - عَلَى عَقَّةٍ فَرَجَهُ وَطَعَامَ بَطْنِهِ. وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ مُسْلِمَةَ بِنَ عَلِيٍّ وَهُوَ الْخُشَنِّي الدِّمَشْقِيُّ الْبِلَاطِيُّ ضَعِيفُ الرَّوَايَةِ عِنْدَ الْأَثَمَةِ، وَلَكِنْ قَدْ رُويَ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، وَفِيهِ نَظَرٌ أَيْضاً. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ، حَدَّثَنَا صَفْوَانٌ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ لَهِيْعَةَ، عَنْ الْحَارِثِ بْنِ يَزِيدٍ الْحَضْرَمِيِّ، عَنْ عَلِيٍّ بْنِ رَبِيعٍ اللَّحْمِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ عَتَبَةَ بْنَ التَّدْرِ السَّلْمِيَّ - صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَحْدُثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مُوسَى أَجَرَ نَفْسَهُ بِعَقَّةٍ فَرَجَهُ، وَطَعْمَةٍ بِطْنِهِ». وَقَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَاراً عَنْ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (٢٨)، يَقُولُ: إِنَّ مُوسَى قَالَ لَصَهْرِهِ: الْأَمْرُ عَلَى مَا قُلْتُ مِنْ أَنَّكَ اسْتَأْجَرْتَنِي عَلَى ثَمَانِ سَنِينَ، فَإِذَا أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِي، فَأَنَا مَتَى فَعَلْتُ أَقْلَهُمَا فَقَدْ بَرَأْتُ مِنَ الْعَهْدِ، وَخَرَجْتَ مِنَ الشَّرْطِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ﴾ أَي: فَلَا حَرْجَ عَلَيَّ مَعَ أَنَّ الْكَامِلَ - وَإِنْ كَانَ مَبَاحاً لَكِنَّهُ فَاضِلٌ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، بِدَلِيلٍ مِنْ خَارِجٍ. كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة: ٢٠٣).

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِحَمْزَةَ بْنِ عَمْرٍو الْأَسْلَمِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ كَثِيرَ الصِّيَامِ، وَسَأَلَهُ عَنِ الصُّومِ فِي السَّفَرِ - فَقَالَ: «إِنْ شِئْتَ فَصُمْ، وَإِنْ شِئْتَ فَافْطَرْ»، مَعَ أَنَّ فِعْلَ الصِّيَامِ رَاجِعٌ مِنْ دَلِيلٍ آخَرَ. هَذَا وَقَدْ دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذَا فَعَلَ أَكْمَلَ الْأَجَلِينَ وَأَتَمَّهُمَا؛ قَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ سُلَيْمَانَ، حَدَّثَنَا مُرْوَانُ بْنُ شُجَاعٍ، عَنْ سَالِمِ الْأَفْطُسِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: سَأَلَنِي يَهُودِيٌّ مِنْ أَهْلِ الْحِيرَةِ: أَيُّ الْأَجَلِينَ قَضَى مُوسَى؟ فَقُلْتُ: لَا أَدْرِي حَتَّى أَقْدِمَ عَلَى خَيْرِ الْعَرَبِ فَسَأَلَهُ. فَقَدِمْتُ فَسَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: قَضَى أَكْثَرَهُمَا وَأَطْيَبَهُمَا، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَالَ فَعَلَ. هَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَهَكَذَا رَوَاهُ حَكِيمُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُهُ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ. وَوَقَعَ فِي «حَدِيثِ الْفُتُونِ»، مِنْ رِوَايَةِ الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي أَيُّوبَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ؛ أَنَّ الَّذِي سَأَلَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّصْرَانِيَّةِ. وَالْأَوَّلُ أَثْبَتُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَقَدْ رُويَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعاً، قَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الطُّوسِيُّ، حَدَّثَنَا الْحَمِيدِيُّ، حَدَّثَنَا سَفْيَانٌ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ يَحْيَى ابْنُ أَبِي يَعْقُوبَ، عَنْ الْحَكَمِ بْنِ أَبَانَ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «سَأَلْتُ جَبْرِيلَ: أَيُّ الْأَجَلِينَ قَضَى مُوسَى قَالَ: أَكْمَلَهُمَا وَأَتَمَّهُمَا». وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ الْحَمِيدِيِّ، عَنْ سَفْيَانَ - وَهُوَ ابْنُ عَيْنَةَ - حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ يَحْيَى ابْنُ أَبِي يَعْقُوبَ - وَكَانَ مِنْ أَسْنَانِي أَوْ أَصْغَرِ مَنِي - فَذَكَرَهُ. قُلْتُ: وَإِبْرَاهِيمُ هَذَا لَيْسَ بِمَعْرُوفٍ. وَرَوَاهُ الْبَزَارُ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ أَبَانَ الْقُرَشِيِّ، عَنْ سَفْيَانَ بْنِ عَيْنَةَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَعْيَنَ، عَنْ الْحَكَمِ بْنِ أَبَانَ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، فَذَكَرَهُ. ثُمَّ قَالَ: لَا نَعْرِفُهُ مَرْفُوعاً عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: قُرِئَ عَلَى يُونُسَ بْنِ عَبْدِ الْأَعْلَى، أَنْبَاءُ ابْنِ وَهْبٍ، أَنْبَاءُ عَمْرٍو بْنِ الْحَارِثِ، عَنْ يَحْيَى بْنِ مَيْمُونٍ الْحَضْرَمِيِّ، عَنْ يُونُسَ بْنِ تَرْحِيزٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَأَلَ: أَيُّ الْأَجَلِينَ قَضَى مُوسَى؟ قَالَ: «لَا أَعْلَمُ لِي». فَسَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَبْرِيلَ، فَقَالَ جَبْرِيلُ: لَا أَعْلَمُ لِي، فَسَأَلَ جَبْرِيلَ مَلَكاً فَوْقَهُ فَقَالَ: لَا أَعْلَمُ لِي. فَسَأَلَ ذَلِكَ الْمَلَكُ رَبَّهُ - ﷻ - عَمَّا سَأَلَهُ عَنْهُ جَبْرِيلُ عَمَّا سَأَلَهُ عَنْهُ مُحَمَّدٌ ﷺ فَقَالَ الرَّبُّ سَبِّحَانَهُ وَتَعَالَى: «قَضَى أَبْرَهُمَا وَأَبْقَاهُمَا - أَوْ قَالَ: أَزْكَاهُمَا». وَهَذَا مَرْسَلٌ، وَقَدْ جَاءَ مَرْسَلاً مِنْ وَجْهِ آخَرَ، وَقَالَ سُئِدٌ: حَدَّثَنَا حُجَّاجٌ، عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ: قَالَ مُجَاهِدٌ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَ جَبْرِيلَ: «أَيُّ الْأَجَلِينَ قَضَى مُوسَى؟» فَقَالَ: سَوْفَ أَسْأَلُ إِسْرَافِيلَ. فَسَأَلَهُ فَقَالَ: سَوْفَ أَسْأَلُ الرَّبَّ ﷻ. فَسَأَلَهُ فَقَالَ: «أَبْرَهُمَا وَأَوْفَاهُمَا».

طَرِيقٌ أُخْرَى مَرْسَلَةٌ أَيْضاً: قَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ وَكَيْعٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو مَعْشَرٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرْظِيِّ قَالَ: سَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الْأَجَلِينَ قَضَى مُوسَى؟ قَالَ: «أَوْفَاهُمَا وَأَتَمَّهُمَا». فَهَذِهِ طَرُقٌ مُتَعَادِلَةٌ، ثُمَّ قَدْ رُويَ هَذَا مَرْفُوعاً مِنْ رِوَايَةِ أَبِي ذَرٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَارِيُّ: حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ اللَّهِ يَحْيَى بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ السَّكَنِ، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِدْرِيسَ، حَدَّثَنَا عَوْيَدُ بْنُ أَبِي عِمْرَانَ الْجَوْنِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَ: أَيُّ الْأَجَلِينَ قَضَى مُوسَى؟ قَالَ: «أَوْفَاهُمَا وَأَبْرَهُمَا»، قَالَ: «وَإِنْ سَأَلْتُ أَيُّ الْمَرَاتَيْنِ تَزُوجُ؟ فَقُلْتُ الصَّغْرَى مِنْهُمَا». ثُمَّ قَالَ الْبَزَارِيُّ: لَا نَعْلَمُ يَرُوي عَنْ أَبِي ذَرٍّ إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَادِ. وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ حَدِيثِ عَوِيْدَ بْنِ أَبِي عِمْرَانَ - وَهُوَ ضَعِيفٌ - ثُمَّ قَدْ رُويَ أَيْضاً نَحْوَهُ مِنْ حَدِيثِ عَتَبَةَ بْنِ التَّدْرِ بِزِيَادَةٍ غَرِيبَةٍ جَدًّا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَارِيُّ: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ السَّجِسْتَانِيُّ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بَكَّيْرٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيْعَةَ، حَدَّثَنَا الْحَارِثُ بْنُ يَزِيدَ عَنْ عَلِيٍّ بْنِ رَبِيعٍ اللَّحْمِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ عَتَبَةَ بْنَ التَّدْرِ يَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَأَلَ: أَيُّ الْأَجَلِينَ قَضَى مُوسَى؟ قَالَ: «أَبْرَهُمَا وَأَوْفَاهُمَا». ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَمَّا أَرَادَ فِرَاقَ شُعَيْبٍ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَمَرَ امْرَأَتَهُ أَنْ تَسْأَلَ أَبَاهَا أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ غَنَمِهِ مَا يَعْشُونَ بِهِ. فَأَعْطَاهَا مَا وَلَدَتْ غَنَمَهُ فِي ذَلِكَ الْعَامِ مِنْ قَالِبِ لَوْنٍ. قَالَ: فَمَا مَرَّتْ شَاةٌ إِلَّا ضَرَبَ مُوسَى جَنْبَهَا بِعَصَاهُ، فَوَلَدَتْ قَوَالِبَ الْوَلَوَانِ كُلَّهَا، وَوَلَدَتْ ثُنْتَيْنِ وَثَلَاثًا كُلَّ شَاةٍ لَيْسَ فِيهَا فَشُوشٌ وَلَا

ضُوب، ولا كميشة تُقَوَّت الكف، ولا تُعُول». وقال رسول الله ﷺ: «إذا افتتحتم الشام فإنكم ستجدون بقايا منها، وهي السامرية». هكذا أورد البزار. وقد رواه ابن أبي حاتم بأبسط من هذا، فقال:

حدثنا أبو زُرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني عبد الله بن لهيعة (ح) وحدثنا أبو زُرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لهيعة، عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن علي بن رباح اللخمي قال: سمعت عتبة بن الثَّدر السلمي - صاحب رسول الله ﷺ - يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «إن موسى، عليه السلام، آجر نفسه بعقة فرجه وطُعمة بطنه. فلما وفي الأجل - قيل: يا رسول الله، أي الأجلين؟ قال -: أبرهما وأوفاهما. فلما أراد فراق شعيب أمر أمرأته أن تسأل أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاهما ما ولدت من غنمه من قالب لون من ولد ذلك العام، وكانت غنمه سوداء حسناء، فانطلق موسى، عليه السلام، إلى عصاه فسماها من طرفها، ثم وضعها في أدنى الحوض، ثم أوردتها فسقاها، ووقف موسى بإزاء الحوض فلم تصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة قال: «فاتمت وأثلثت، ووضعت كلها قوالب ألوان إلا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش - قال يحيى: ولا ضبون. وقال صفوان: ولا ضُوب. قال أبو زُرعة: الصواب ضُوب - ولا غُزُور ولا تُعُول ولا كميشة تُقَوَّت الكف». قال النبي ﷺ: «فلو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهي السامرية. وحدثنا أبو زُرعة، حدثنا صفوان قال: سمعت الوليد قال: فسألت ابن لهيعة: ما الفشوش؟ قال: التي تُفَشُّ بلبنها واسعة الشَّخب. قلت: فما الضُبوب؟ قال: الطويلة الضرع تجره. قلت: فما الغُزُور؟ قال: ضيقة الشَّخب. قال فما الثُّعُول؟ قال: التي ليس لها ضرع إلا كهيشة حلمتين. قلت: فما الكميشة؟ قال: التي تُقَوَّت الكف، كميشة الضرع، صغير لا يدركه الكف. مدار هذا الحديث على عبد الله بن لهيعة المصري - وفي حفظه سوء - وأخشى أن يكون رفعه خطأ، والله أعلم. وينبغي أن يُزوَى ليس فيها فشوش ولا غُزُور، ولا ضُوب ولا تُعُول ولا كميشة، لتذكر كل صفة ناقصة مع ما يقابلها من الصفات الناقصة. وقد روى ابن جرير من كلام أنس بن مالك - موقوفاً عليه - ما يقارب بعضه بإسناد جيد، فقال: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: لما دعي نبي الله موسى، عليه السلام، صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما، قال له صاحبه: كل شاة ولدت على غير لونها فذلك ولدها لك. فعمد فرفع حبلاً على الماء، فلما رأت الخيال فزعت فجالت جولة، فولدت كلهن بلقاً إلا شاة واحدة، فذهب بأولادهن ذلك العام.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا تَلْعَلُ مِنكُمْ مِّنْهَا يَخْرُجُ أَوْ كَذَّابٌ يَرِيدُ النَّارَ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَظِيئِ الْأَوَادِ الْآتِينَ ﴿٣٠﴾ أَلْقِمْوْا السَّنَكَةَ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَسْمُوكَ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣١﴾ وَأَنِّي آنَسْتُ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعْجَبُ يَسْمُوكَ أَقِيلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣٢﴾ أَسْأَلُكَ بِذَلِكَ فِي بَيْتِكَ مَخْرَجَ يَصْفَاءَ مِن غَيْرِ سَوْمٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَانِكَ مِنَ الرَّحْمَنِ فَذَلِكَ بُرْهَانِي مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٣﴾﴾

قد تقدم في تفسير الآية قبلها أن موسى، عليه السلام، قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما وأنقاهما، وقد استفاد هذا أيضاً من الآية الكريمة من قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ أي: الأكل منهن، والله أعلم. قال ابن أبي نجيع، عن مجاهد: قضى عشر سنين، وبعدها عشرًا آخر. وهذا القول لم أره لغيره، وقد حكاه عنه ابن جرير، وابن أبي حاتم، والله أعلم. وقوله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾: قالوا: كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله، فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره، فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة ياردة، فنزل منزلاً فجعل كلما أوردى زنده لا يضيء شيئاً، فتعجب من ذلك، فبينما هو كذلك إذ ﴿آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ أي: رأى ناراً تضيء له على بعد، ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي: حتى أذهب إليها، ﴿لَعَلَّ مِّنْكُمْ مِّنْهَا يَخْرُجُ﴾. وذلك لأنه كان قد أضل الطريق، ﴿أَوْ كَذَّابٌ يَرِيدُ النَّارَ﴾ أي: قطعة منها، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: تتدفؤون بها من البرد. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَظِيئِ الْأَوَادِ الْآتِينَ﴾ أي: من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْتَ إِلَّا مَرَى الْأَمْرِ﴾، فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة، والجبل الغربي عن يمينه، والنار وجددها تضطرم في شجرة خضراء في لحف الجبل مما يلي الوادي، فوقف باهتاً في أمرها، فناداه ربه: ﴿مِن شَظِيئِ الْأَوَادِ الْآتِينَ فِي أَلْفَعَةِ الْبَرْكََةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾. قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: رأيت الشجرة التي نودي منها موسى، عليه السلام، سمرة خضراء ترف. إسناده مقارب. وقال محمد بن إسحاق، عن بعض من لا يهتم، عن وهب بن منبه قال: شجرة من الثُّلُيق، وبعض أهل

الكتاب يقول: من العوسج. وقال قتادة: هي من العوسج، وعصاه من العوسج. وقوله تعالى: ﴿أَن يَمُوتَ إِرَّتَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْأَعْلَى﴾ أي: الذي يخاطبك ويحكمك هو رب العالمين، الفعال لما يشاء، لا إله غيره، ولا رب سواه، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته، وأقواله وأفعاله سبحانه!

وقوله: ﴿وَأَن آتَىٰ عَصَاكَ﴾ أي: التي في يدك. كما قرره على ذلك في قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوتَ﴾ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنِيٍّ وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبَ أُخْرَىٰ (١٨). والمعنى: أما هذه عصاك التي تعرفها القها **﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾** (١٩)، فعرف وتحقق أن الذي يخاطبه ويحكمه هو الذي يقول للشيء: كن، فيكون. كما تقدم بيان ذلك في سورة طه. وقال ما هنا: **﴿نَلَّكَ رَأَاهَا تَهْتَزُّ﴾** أي: تضطرب **﴿كَأَنَّا جَانٌّ﴾** أي: في حركتها السريعة مع عظم خلق قوائمها واتساع فمها، واصطكاك أنيابها وأضراسها، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعها، فتجنحدر في فيها تتقعقع، كأنها حادة في واد. فعند ذلك **﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَبَّ بَعُوثٌ﴾** أي: ولم يكن يلتفت؛ لأن طبع البشرية ينفر من ذلك. فلما قال الله له: **﴿يَمُوتَ أَقِيلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَعْيُنِ﴾**، رجع فوقف في مقامه الأول، ثم قال الله له: **﴿أَسْأَلُكَ بِذَلِكَ فِي جَبِّكَ تَخَرَّجَ بَصَاطًا مِنْ غَيْرِ سَوِيٍّ﴾** أي: إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألاً، كأنها قطعة قمر في لمعان البرق؛ ولهذا قال: **﴿وَمِنْ غَيْرِ سَوِيٍّ﴾** أي: من غير برص. وقوله: **﴿وَأَسْأَلُكَ بِذَلِكَ جَانِّكَ مِنَ الرُّقَبِ﴾**: قال مجاهد: من الفزع. وقال قتادة: من الرعب. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير: مما حصل لك من خوفك من الحية. والظاهر أن المراد أعم من هذا، وهو أنه أمر، عليه السلام، إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب، وهي يده، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف. وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يديه على فؤاده، فإنه يزول عنه ما يجد أو يخف، إن شاء الله، وبه الثقة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الربيع بن ثعلب الشيخ الصالح، أخبرنا أبو إسماعيل المؤدب، عن عبد الله بن مسلم، عن مجاهد، قال: كان موسى، عليه السلام، قد ملأ قلبه رعباً من فرعون، فكان إذا رآه قال: اللهم، إني أدرك بك في نحره، وأعوذ بك من شره، ففرغ الله ما كان في قلب موسى، عليه السلام، وجعله في قلب فرعون، فكان إذا رآه بال كما يبول الحمام. وقوله: **﴿فَذَلِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾** يعني: إلقاء العصا وجعلها حية تسعى، وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء - دليلان قاطعان واضحيان على قدرة الفاعل المختار، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه؛ ولهذا قال: **﴿إِنَّكُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتِيئِينَ﴾** أي: خارجين عن طاعة الله، مخالفين لدين الله، والله أعلم.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ (٢٠) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْضَلُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٢١) قَالَ سَنُنْذِرُ عَصَاكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ بِأَيِّتِنَا أَنْتَا وَهِيَ آيَتُنَا الْفُلُورُ (٢٢).
لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون، الذي إنما خرج من ديار مصر فراراً منه وخوفاً من سطوته، **﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾** يعني: ذلك القبطي، **﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾** أي: إذا راؤني. **﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْضَلُ مِنِّي لِسَانًا﴾**، وذلك أن موسى، عليه السلام، كان في لسانه لغة، بسبب ما كان تناول تلك الجمرة، حين خُير بينها وبين الثمرة أو الدرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، فحصل فيه شدة في التعبير؛ ولهذا قال: **﴿وَأَسْأَلُ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾** (٢٣) يَقْفَهُوا قَوْلِي (٢٤) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٥) هَارُونَ أَخِي (٢٦) أَشَدُّ بِهٖ أُنْزِي (٢٧) وَأَشْرَكَ فِي أَمْرِي (٢٨) (طه: ٢٧-٣٢)، أي: يؤنسني فيما أمرتني به من هذا المقام العظيم، وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد. ولهذا قال: **﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْضَلُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾**، أي: وزيراً ومعيناً ومقرباً لأمرى، يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن الله ﷻ، لأن خبر اثنين أنجع في النفوس من خبر واحد؛ ولهذا قال: **﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾**. وقال محمد بن إسحاق: **﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾** أي: يبين لهم عني ما أكلهم به، فإنه يفهم عني. فلما سأل ذلك قال الله تعالى: **﴿سَنُنْذِرُ عَصَاكَ بِأَخِيكَ﴾** أي: سنقوي أمرك، ونعز جانبك بأخيك الذي سألت له أن يكون نبياً مذكوراً. كما قال في الآية الأخرى: **﴿قَدْ أُوتِيَ سُورَةُ يَمُوتَ﴾** (طه: ٣٦)، وقال تعالى: **﴿وَوَعَدْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾** (٥٣). ولهذا قال بعض السلف، ليس أحد أعظم مثلاً على أخيه، من موسى على هارون، عليهما السلام، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه إلى فرعون وملته، ولهذا قال الله تعالى في حق موسى: **﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾** (الأحزاب: ٦٩). وقوله تعالى: **﴿وَنَجْعَلُ لَكَ سُلْطَانًا﴾** أي: حجة قاهرة، **﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ بِأَيِّتِنَا﴾** أي: لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكم بسبب إبلأكم آيات الله، كما قال تعالى لرسوله محمد ﷺ: **﴿يَأْتِيَا الرُّسُولَ بِلَغٍّ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ لَمَّا يَأْتِيَنَّكَ رِسَالَتُهُمْ وَأَلَّا يَصُوبُوا مِنْ أَثَرِهَا﴾** (المائدة: ٦٧). وقال تعالى: **﴿الَّذِينَ يَكُونُونَ رُسُلًا لِلَّهِ وَيُحْشَرُونَ وَلَا يَحْشَرُونَ أَمْدًا إِلَّا**

اللَّهُ وَكَفَى بِاللَّهِ حَيِّبًا ﴿٣٦﴾ [الأحراب: ٣٩]، أي: وكفى بالله ناصراً ومعيناً ومؤيداً. ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ولمن اتبعهما في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿أَتَشَاءُ وَمِنْ أَتَّبَعُكَ الْفَلِيلُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَحْمَدَ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [يوسف: ٥١]، لا ينفع الظالمين معذرتهم وَلَهُمْ الْعَذَابُ الَّذِي لَمْ يَرْجُوا وَهُمْ لَمْ يَأْمُرُوا بِهِمْ بِالسُّلْطَانِ فَكَانُوا لَهُمْ قَسِيْرًا ﴿٣٧﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]. ووجه ابن جرير على أن المعنى: ﴿وَيَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمْ﴾، ثم يتبدى فيقول: ﴿بِأَيِّتِنَا أَتَشَاءُ وَمِنْ أَتَّبَعُكَ الْفَلِيلُونَ﴾، تقديره: أنتم ومن اتبعكم الغالبون بآياتنا. ولا شك أن هذا المعنى صحيح، وهو حاصل من التوجيه الأول، فلا حاجة إلى هذا، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا يَنْتَبِهَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُتَعَدَّى وَمَا سَعَيْنَا بِهِدًا فِي مَابَيْنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [٣٦] وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا جَاءَكَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُمْ عِقَابَةُ الدَّارِ إِنَّمَا لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾.

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه، وعرضه ما آتاها الله من المعجزات الباهرة والدلالات القاهرة، على صدقهما فيما أخبر عن الله ﷻ من توحيده واتباع أوامره. فلما عين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه، وأيقنوا أنه من الله، عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهة، وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق، فقالوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُتَعَدَّى﴾ أي: مفتعل مصنوع. وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه، فما صعد معهم ذلك. وقوله: ﴿وَمَا سَعَيْنَا بِهِدًا فِي مَابَيْنَا الْأَوَّلِينَ﴾ يعنون: عبادة الله وحده لا شريك له، يقولون: ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى. فقال موسى، عليه السلام، مجيباً لهم: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا جَاءَكَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ﴾ يعني: مني ومنكم، وسيفصل بيني وبينكم. ولهذا قال: ﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُمْ عِقَابَةُ الدَّارِ﴾ أي: النصرة والظفر والتأييد، ﴿إِنَّمَا لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: المشركون بالله.

﴿وَقَالَ رِفْعَةُ بَنِي إِسْرَءِيلَ مَا عَلِمْنَا لَكَ مِنْ إِلهٍ غَيْرِ فَأَوْذِي بِهِمْ عَلَى الظَّالِمِينَ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَهُ إِلَهُ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [٣٨] وَأَسْتَكْبَرُوا وَخُشِدُوا فِي الْأَرْضِ يَغْيِرُ الْخَقَّ وَطَنُوا أَنَّهُمْ إِنْ شَاءَ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَحْذَنَّهُمْ وَخُشِدُوا فَسَبَّحْنَاهُمْ فِي الْآيَةِ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَهْلَةً يَكْفُرُونَ إِلَى الْكَاثِرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُصْرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْتُولِينَ ﴿٤٢﴾.

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافتراءه في دعوى الإلهية لنفسه القبيحة - لعنه الله - كما قال تعالى: ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية، فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم؛ ولهذا قال: ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ مَا عَلِمْنَا لَكَ مِنْ إِلهٍ غَيْرِ﴾، وقال تعالى إخباراً عنه: ﴿فَحَسْرَتَانِي﴾ [٣٨] أَنَا رَبُّكَ الْأَخْلَاقُ ﴿٣٩﴾ فَأَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الْآخِرَةَ وَالْأَوَّلَةَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَحْتَفِلُ ﴿٤١﴾ [النازعات: ٢٣-٢٤] يعني: أنه جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالي مَضْرَحاً لهم بذلك، فأجابوه سامعين مطيعين. ولهذا انتقم الله تعالى منه، فجعله عبرة لغيره في الدنيا والآخرة، وحتى إنه واجه موسى الكليم بذلك فقال: ﴿لَيْنَ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]. وقوله: ﴿فَأَوْذِي بِهِمْ عَلَى الظَّالِمِينَ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَهُ إِلَهُ مُوسَى﴾ أي: أمر وزيره هامان ومدبر رعيته ومشير دولته أن يوقد له على الطين، ليتخذ له أجراً لبناء الصرح، وهو القصر المتيف الرفيع - كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ رِفْعَةُ بَنِي إِسْرَءِيلَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَتَلْعُ الْأَشْيَاءَ﴾ [٣٨] أَصْنَبَ السَّمَكِينَ فَطَلَعَ إِلَهُ إِلَهُ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنُ لِفِرْعَوْنَ سَوْءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٤٧﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]، وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح الذي لم يَرِ في الدنيا بناء أعلى منه، إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: في قوله إن ثم رياء غيري، لا أنه كذبه في أن الله أرسله؛ لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع، فإنه قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، وقال: ﴿لَيْنَ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وقال: ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ مَا عَلِمْنَا لَكَ مِنْ إِلهٍ غَيْرِ﴾ وهذا قول ابن جرير. وقوله: ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا وَخُشِدُوا فِي الْأَرْضِ يَغْيِرُ الْخَقَّ وَطَنُوا أَنَّهُمْ إِنْ شَاءَ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [٣٩] أي: طغوا وتجبروا، وأكشروا في الأرض الفساد، واعتقدوا أنه لا معاد ولا قيامة، ﴿فَسَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْءَ عَذَابٍ﴾ [٣٩] إِنَّ رَبَّكَ لَبَاسِمٌ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنَّهُمْ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٠﴾ وَلَهُذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿فَأَحْذَنَّهُمْ وَخُشِدُوا فَسَبَّحْنَاهُمْ فِي الْآيَةِ﴾ أي: أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة، فلم يبق منهم أحد، ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الظَّالِمِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَهْلَةً يَكْفُرُونَ إِلَى الْكَاثِرِ﴾ أي: لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم، في تكذيب الرسل وتعطيل الصانع، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُصْرُونَ﴾ أي: فاجتمع عليهم خزي الدنيا وموصولاً بذل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَلَا نَصِيرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣]. وقوله: ﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: وشرع الله

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٤٦﴾

وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾: أمتك في أصلاّب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت. وقال قتادة: ﴿وَمَا

فَمَا أَدْرِي إِذَا يَمُنُّنَتْ أَرْضاً ۖ أَرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي
 أَي: فما أدري أيليني الخير أو الشر. قال مجاهد بن جبر: أمرت اليهود قريشاً أن يقولوا للمحمد ﷺ ذلك، فقال الله: ﴿أُولَئِكَ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا﴾ قال: يعني موسى وهارون ﷺ ﴿تَظَاهَرَا﴾ أي: تعاونوا وتناصروا وصدق كل منهما الآخر. وبهذا قال سعيد ابن جبيرة وأبو رزين في قوله: ﴿سَاحِرَانِ﴾ يعنون: موسى وهارون. وهذا قول جيد قوي، والله أعلم. وقال مسلم بن يسار، عن ابن عباس ﴿قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا﴾ يعني: موسى ومحمداً، صلوات الله وسلامه عليهما. وهذا رواية عن الحسن البصري. وقال الحسن وقتادة: يعني: عيسى ومحمداً، صلى الله عليهما وسلم، وهذا فيه بعد؛ لأن عيسى لم يجر له ذكرها هنا، والله أعلم. وأما من قرأ ﴿سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا﴾، فقال علي بن أبي طلحة والعوفي، عن ابن عباس. يعنون التوراة والقرآن: وكذا قال عاصم الجندي، والسُّدِّيُّ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال السدي: يعني صدق كل واحد منهما الآخر. وقال عكرمة: يعنون: التوراة والإنجيل. وهو رواية عن أبي رُزَعة، واختاره ابن جرير. وقال الضحاك وقتادة: الإنجيل والقرآن. والله، سبحانه، أعلم بالصواب. والظاهر على قراءة: ﴿سَاحِرَانِ﴾ أنهم يعنون: التوراة والقرآن؛ لأنه قال بعده: ﴿قُلْ فَأَنُؤِ بِكِتَابِ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا نَبِيُّهُ﴾، وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَرْزَلَ إِلَهُكَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مَوْسَىٰ نُورًا وَهَدَىٰ لِلنَّاسِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكًا﴾ [الأنعام: ٩١، ٩٢]، وقال في آخر السورة: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾، إلى أن قال: ﴿وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكًا فَلْيُحْمِوهٗ وَأَتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقالت الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابَ أَنْزَلَ

مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿١٣٠﴾ وقال ورقة بن نوفل: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى. وقد علم بالضرورة لذوي الأبواب أن الله لم ينزل كتاباً من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذي أنزل على محمد، ﷺ، وهو القرآن، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى بن عمران، عليه السلام، وهو التوراة التي قال الله تعالى فيها: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَهْدِيكُمْ بَيْنَ النَّبِيِّاتِ الَّذِينَ آسَلُمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْيَارَ يَمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤]، والإنجيل إنما نزل متمماً للتوراة ومُحلاً لبعض ما حُرم على بني إسرائيل. ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَنِ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٣١﴾ أي: فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل. قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ أَي: فَإِنْ لَمْ يَجِيبُواكَ عَمَّا قُلْتَ لَهُمْ وَلَمْ يَتَّبِعُوا الْحَقَّ﴾ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْكَ الْفُلُ﴾ أي: بلا دليل ولا حجة ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ أي: بغير حجة مأخوذة من كتاب الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. وقوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾، قال مجاهد: فصلنا لهم القول. وقال السدي: بينا لهم القول. وقال قتادة: يقول تعالى: أخبرهم كيف صنع بمن مضى وكيف هو صانع، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. قال مجاهد وغيره: ﴿وَصَلَّاتُكُمْ﴾ يعني: قريشاً. وهذا هو الظاهر، لكن قال حماد بن سلمة، عن عمرو بن دينار، عن يحيى بن جعدة، عن رفاعه - رفاعه هذا هو ابن قُرَظَةَ الْقُرَظِيِّ، وجعله ابن منده: رفاعه بن سمّال، خال صفية بنت حيي، وهو الذي طلق تميمه بنت وهب التي تزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير بن باطا، كذا ذكره ابن الأثير - قال: نزلت: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ في عشرة أنا أحدهم. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديثه.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٣٢﴾ وَإِذَا بَلَغَ عَلَيْهِمْ قَالُوا مَاذَا بِهِ إِذْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُشْرِكِينَ ﴿١٣٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، وقال: ﴿وَرَبِّ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعَةً لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا بَلَغَ عَلَيْهِمْ يُخَرِّجُونَ الْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ ﴿١٣٤﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨]، وقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْتُكَ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ وَرَهْبَانُنَا وَوَهْبَانَا وَآلَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٣٥﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَرْسُولَ رَبِّكَ أَتَيْتَهُمْ تَبِعُ مِنْ أَلْفٍ مِمَّنْ عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿١٣٦﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣]. قال سعيد بن جبير: نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي، فلما قدموا على النبي ﷺ يقرأ عليهم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ حتى ختمها، فجعلوا يبكون وأسلموا، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٣٧﴾ وَإِذَا بَلَغَ عَلَيْهِمْ قَالُوا مَاذَا بِهِ إِذْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٣٨﴾

يعبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، وقال: ﴿وَرَبِّ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعَةً لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا بَلَغَ عَلَيْهِمْ يُخَرِّجُونَ الْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ ﴿١٣٤﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨]، وقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْتُكَ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ وَرَهْبَانُنَا وَوَهْبَانَا وَآلَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٣٥﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَرْسُولَ رَبِّكَ أَتَيْتَهُمْ تَبِعُ مِنْ أَلْفٍ مِمَّنْ عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿١٣٦﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣]. قال سعيد بن جبير: نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي، فلما قدموا على النبي ﷺ يقرأ عليهم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ حتى ختمها، فجعلوا يبكون وأسلموا، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٣٧﴾ وَإِذَا بَلَغَ عَلَيْهِمْ قَالُوا مَاذَا بِهِ إِذْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٣٨﴾ يعني: من قبل هذا القرآن كنا مسلمين، أي: موحدين مخلصين لله مستجيبين له. قال الله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُكُمْ وَأَعْمَلُكُمْ لَا يَنْفَعُ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ١٢١]، وهذا هو المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثاني يؤتون أجرهم مرتين بإيمانهم بالرسول الأول ثم بالثاني، ولهذا قال: ﴿يَا صَبْرًا﴾ أي: على اتباع الحق، فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس. وقد ورد في الصحيحين من حديث عامر الشعبي، عن أبي بريدة، عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت له أمة فأذهبها فأحسن تأديبها ثم أعطاها فتزوجها». وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق السليحي، حدثنا ابن لهيعة، عن سليمان بن عبد الرحمن، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: «إني لتحت راحلة رسول الله ﷺ يوم الفتح، فقال قولاً حسناً جميلاً، وقال فيما قال: «من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين، وله ما لنا وعليه ما علينا، ومن أسلم من المشركين، فله أجره، وله ما لنا وعليه ما علينا». وقوله: ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ النَّيِّفَةَ﴾ أي: لا يقابلون السيء بمثله، ولكن يعفون ويصفحون. ﴿وَمَا رَفَقْتَهُمْ يُفْقُونَ﴾ أي: ومن الذي رزقهم من الحلال ينفقون على خلق الله في النفقات الواجبة لأهلهم وأقاربهم، والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات، وصدقات النفل والقربات.

وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ أي: لا يخالطون أهله ولا يعاشرهم، بل كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرَأُوا اللَّغْوَ مَرَوْا كَرِيهًا﴾ [الفرقان: ١٧]. ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُكُمْ وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا يَنْفَعُ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: إذا سفه عليهم سفاهة، وكلهم بما لا

يلقي بهم الجواب عنه، أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب. ولهذا قال عنهم: إنهم قالوا: ﴿لَا أَعْنَلُكُمْ وَلَكُمْ أَعْنَلُكُمْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ لَا يَنْبَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي: لا نريد طريق الجاهلين ولا نحبها. قال محمد بن إسحاق في السيرة، ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً، أو قريب من ذلك، من النصاري، حين بلغهم خبره من الحبشة. فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وسألوهم. ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة - فلما فرغوا من مساءلة رسول الله عما أرادوا، دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره. فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش، فقالوا لهم: خيبتكم الله من ركب. بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تظمن مجالسكم عنده حتى فارقت دينكم وصدقتموه فيما قال؛ ما نعلم ركباً أحق منكم. أو كما قالوا لهم. فقالوا لهم: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً. قال: ويقال: إن النفر النصاري من أهل نجران، والله أعلم أي ذلك كان. قال: ويقال - والله أعلم - إن فيهم نزلت هذه الآيات: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلَكْتَبَ مِنْ قَبْلِهِ ثُمَّ يَدُّ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَنْبَغِي الْجَاهِلِينَ﴾. وقد سألت الزهري عن هذه الآيات فيمن أنزلن، قال: ما زلت أسمع من علمائنا أنهن أنزلن في النجاشي وأصحابه، رضي الله عنهم، والآيات التي في سورة المائدة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُنَّ كَذَّبَتْ بِطَيِّبَاتٍ وَهَبَّ كَذِبَهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿عَامَاتٍ قَلِيلًا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣].

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وَقَالَ إِنْ تَلَّحَّ الْمَدَى مَعَكَ تَخَطَّفَ مِنْ أَرْضٍ أَوْ لَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا أَيْمًا يَجُوعُ إِلَيْهِ تَمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ وَزَقَّا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾.

يقول تعالى لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه: إنك يا محمد لا تهدي من أحببت. أي: ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ، والله يهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة والخجة الدامغة، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. وهذه الآية أخص من هذا كله؛ فإنه قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ، وقد كان يحوطه وينصره، ويقوم في صفه ويحبه حباً شديداً طبعياً لا شرعياً، فلما حضرته الوفاة وحان أجله، دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام، فسبق القدر فيه، واختطف من يده، فاستمر على ما كان عليه من الكفر، والله الحكمة التامة. قال الزهري: حدثني سعيد بن المسيب، عن أبيه - وهو المسيب بن حزن المخزومي، رضي الله عنه - قال: لم حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة. فقال رسول الله ﷺ: «يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعودان له بتلك المقالة، حتى قال آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب. وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: «أما لاستغفرن لك ما لم أنه عنك». فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَتْ لِلشَّيْءِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَىٰ﴾. [التوبة: ١١٣]، وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. أخرجه من حديث الزهري. وهكذا رواه مسلم في صحيحه، والترمذي، من حديث يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه رسول الله ﷺ فقال: «يا عمه، قل: لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة». فقال: لولا أن تُعترني بها قريش، يقولون: ما حملة عليه إلا جزع الموت، لأفرزت بها عينك، لا أقولها إلا لأقر بها عينك. فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. وقال الترمذي: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن كيسان. ورواه الإمام أحمد، عن يحيى بن سعيد القطان، عن يزيد بن كيسان، حدثني أبو حازم، عن أبي هريرة، فذكره بنحوه.

وهكذا قال ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، والشعبي، وقتادة: إنها نزلت في أبي طالب حين عرض عليه رسول الله ﷺ أن يقول: «لا إله إلا الله»، فأبى عليه ذلك، وقال: أي ابن أخي، ملة الأشياخ. وكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن أبي راشد قال: كان رسول قيصر جاء إلي قال: كتب معي قيصر إلى رسول الله ﷺ كتاباً، فأتيته فدفعته الكتاب، فوضعه في حجره، ثم قال: «ممن الرجل؟» قلت: من تنوخ. قال: «هل لك في دين أبيك إبراهيم الحنيفة؟» قلت: إني رسول قوم، وعلى دينهم

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ نَبِيٍّ فَتَنَّا الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا وَرَبَّيْنَاهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا يَعْلَمُونَ﴾ [١٦] أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيْفٍ كَمَنْ نَعْتَمُهُ مَتَّعَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُخْصَرِينَ﴾ [١٧].

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا، وما فيها من الزينة الدنية والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم، كما قال: ﴿مَا عِزُّكُمْ يُعَدُّ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وقال: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٨٨]، وقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَى الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَّعَ﴾ [العد: ٢٦]، وقال: ﴿قُلْ تُؤْتَوْنَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا﴾ [التكوير: ١٧]، وقال رسول الله ﷺ: «والله ما الدنيا في الآخرة، إلا كما يغمس أحدكم إصبعه في اليم، فليُنظر ماذا يرجع إليه». وقوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: أفلا يعلم من يقدم الدنيا على الآخرة؟ وقوله: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيْفٍ كَمَنْ نَعْتَمُهُ مَتَّعَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُخْصَرِينَ﴾ [١٧] يقول: أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح أعماله من الثواب الذي هو صائر إليه لا محالة، كمن هو كافر مكذب بقاء الله وعده ووعيده، فهو ممتع في الحياة الدنيا أياماً قلائل، ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ

أَلَيْسَ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦٢﴾ قال مجاهد، وقتادة: من المعذنين. ثم قد قيل: إنها نزلت في رسول الله ﷺ وفي أبي جهل. وقيل: في حمزة وعلي وأبي جهل، وكلاهما عن مجاهد. والظاهر أنها عامة، وهذا كقوله تعالى إخباراً عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه، وهو في الدرجات وذاك في الدرجات: ﴿وَلَوْلَا رَحْمَةُ رَبِّي لَكُنْتَ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الصافات: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْهُنَاءَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ إِنَّ شِرْكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْنَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِلَّا فِتْنَتُكَ فَذَعَبْنَاهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ وَرَأَوْا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَسَيَأْتِيهِ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يورخ به الكفار المشركين يوم القيامة، حيث يناديهم فيقول: ﴿إِنَّ شِرْكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يعني: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا، من الأصنام والأنداد، هل ينصروكم أو ينتصرون؟ وهذا على سبيل التقرير والتهديد، كما قال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَوَكُنْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ رَبَّنَا ظُفُرًا وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفْعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنعام: ٩٤]. وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يعني: من الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر، ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْنَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾، فشهدوا عليهم أنهم أغووههم فاتبعوهم، ثم تبرؤوا من عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمَ تُدْعَىٰ إِلَهُكُمْ إِلَهًا وَتُكْفَرُ عَنْكُمْ سِجْمَتُهُمْ يُعَادِبُهم وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِغَارًا ﴿٨١﴾﴾ [مریم: ٨١، ٨٢]، وقال: ﴿وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ بَعْدِهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَمَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلاَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفُولُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الحجرات: ١٥، ١٦]، وقال الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا أَخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَفْنَاءً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ لِّبَعْضٍ وَبَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التكوير: ٢٥]، وقال الله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَجَبْتُمُ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُّوَافِقُوهَا وَلَمْ يَحْدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٢﴾﴾ [الكهف: ٥٢، ٥٣]. وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾: النداء الأول عن سؤال التوحيد، وهذا فيه إثبات النبوات: ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم؟ وكيف كان حالكم معهم؟ وهذا كما يسأل العبد في قبره: من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً عبد الله ورسوله. وأما الكافر فيقول: هاه... هاه... لا أدري؛ ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت؛ لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾. وقال مجاهد: فعميت عليهم الحجج، فهم لا يتساءلون بالأنساب. وقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: في الدنيا، ﴿فَسَيَأْتِيهِ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: يوم القيامة، و«عسى» من الله موجبة، فإن هذا واقع بفضل الله ومنه لا محالة.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَكَلَّىٰ عَنْهَا بُشْرُكُونَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٨﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْخَبْرُ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُجْعَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب فقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ أي: ما يشاء، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده، ومرجعها إليه. وقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ نفى على أصح القولين، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الاحزاب: ٣٦]. وقد اختار ابن جرير أن «ما» هنا بمعنى «الذي»، تقديره: ويختار الذي لهم فيه خيرة. وقد احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجود مراعاة الأصلح. والصحيح أنها نافية، كما نقله ابن أبي حاتم، عن ابن عباس وغيره أيضاً، فإن المقام في بيان انفراد تعالى بالخلق والتقدير والاختيار، وأنه لا نظير له في ذلك؛ ولهذا قال: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَكَلَّىٰ عَنْهَا بُشْرُكُونَ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، التي لا تخلق ولا تختار شيئاً. ثم قال: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: يعلم ما تكن الضمائر، وما تنطوي عليه السرائر، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق، ﴿سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ

هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالْأَيْلِ وَسَارِيَّ النَّهَارِ ﴿٧١﴾ [الرمذ: ١٠]. وقوله: ﴿وَعَرَّ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو المنفرد بالإلهية، فلا معبود سواه، كما لا رب يخلق ويختار سواه ﴿لَهُ الْحَدُّ فِي الْأَوَّلِ وَالْآخِرَةِ﴾ أي: في جميع ما يفعله هو المحمود عليه، لعدله وحكمته ﴿وَلَهُ الْمُسْكُمُ﴾ أي: الذي لا معقب له، لقهره وغلبيه وحكمته ورحمته، ﴿وَالَّذِي تَرْمُونَ﴾ أي: جميعكم يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله، من خير وشر، ولا يخفى عليه منهم خافية في سائر الأعمال.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْأَيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ﴿٧٢﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٧٣﴾ وَمَنْ رَعَى جَعَلَ لَكَ الْأَيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٤﴾.

يقول تعالى محتثاً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار، اللذين لا قوام لهم بدونهما. وبين أنه لو جعل الليل دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة، لأضر ذلك بهم، ولستمته النفوس وانحصرت منه، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾ أي: تبصرون به وتستأنسون بسببه، ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾. ثم أخبر أنه لو جعل النهار سرمداً دائماً مستمراً إلى يوم القيامة، لأضر ذلك بهم، ولتعبت الأبدان وكلت من كثرة الحركات والأشغال؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي: تستريحون من حركاتكم وأشغالكم، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ومن رعى: أي: بكم ﴿جَعَلَ لَكَ الْأَيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: خلق هذا وهذا، ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي: في الليل، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: في النهار بالأسفار والترحال، والحركات والأشغال، وهذا من باب اللف والنشر. وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار، أو بالنهار استدركه بالليل، كما قال تعالى: ﴿وَعَرَّ الَّذِي جَعَلَ الْأَيْلَ وَالنَّهَارَ خَلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ ﴿٧٥﴾ [الفرقان: ٦٢]، والآيات في هذا كثيرة.

﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ وَزَعَنَّا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٧٧﴾.

وهذا أيضاً نداء ثان على سبيل التقرير والتوبيخ لمن عبد مع الله إلهاً آخر، يناديهم الرب - تبارك وتعالى - على رؤوس الأشهاد فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: في الدار الدنيا. ﴿وَزَعَنَّا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ قال مجاهد: يعني: رسولاً. ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: على صحة ما ادعيتموه من أن الله شركاء، ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي: لا إله غيره، أي: فلم ينطقوا ولم يحيروا جواباً، ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ذنبوا فلم ينفعوهم.

﴿إِنَّ قُرُونَكُمْ كَاتٍ مِنْ قَبْرِ مُوسَى فَقِيلَ عَلَيْهِمْ وَأَيُّكُمْ مِنَ الْكُفُورِ مَا إِنْ مَفَاحِمُهُ لَسَتْ بِالْمُفْسِدَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُنْفَرِينَ﴾ ﴿٧٩﴾.

قال الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: ﴿إِنَّ قُرُونَكُمْ كَاتٍ مِنْ قَبْرِ مُوسَى﴾ قال: كان ابن عمه. وهكذا قال إبراهيم النخعي، وعبد الله بن الحارث بن نوفل، وسماك بن حرب، وقتادة، ومالك بن دينار، وابن جزي، وغيرهم: أنه كان ابن عم موسى، عليه السلام. قال ابن جزي: هو قارون بن يصر بن قاهث، وموسى بن عمران بن قاهث. وزعم محمد بن إسحاق بن يسار: أن قارون كان عم موسى، عليه السلام. قال ابن جرير: وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه، والله أعلم. وقال قتادة بن دعام: كنا نحدث أنه كان ابن عم موسى، وكان يسمى المنور لحسن صوته بالثورة، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري، فأهلكه البغي لكثرة ماله. وقال شهر بن حوشب: زاد في ثيابه شبراً طولاً، ترفعاً على قومه. وقوله: ﴿وَأَيُّكُمْ مِنَ الْكُفُورِ﴾ أي: من الأموال ﴿مَا إِنْ مَفَاحِمُهُ لَسَتْ بِالْمُفْسِدَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ أي: ليشغل حملها الفئام من الناس لكثرتها. قال الأعمش، عن خزيمة: كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود، كل مفتاح مثل الأصبع، كل مفتاح على خزانة على حدة، فإذا ركب حملت على ستين بغلاً أغر محجلاً. وقيل: غير ذلك، والله أعلم. وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي: وعظه فيما هو فيه صالح قومه، فقالوا على سبيل النصيح والإرشاد: لا تفرح بما أنت فيه، يعنون: لا تبطر بما أنت فيه من الأموال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾. قال ابن عباس: يعني: المرحين. وقال مجاهد: يعني: الأشرين البطرين، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم. وقوله: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي: استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة، في طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات،

التي يحصل لك بها الثواب في الدار الآخرة. ﴿وَلَا تَسْكُ نَفْسِكَ مِنَ الذُّنُوبِ﴾ أي: مما أباح الله فيها من المأكل والمشرب والملابس والمساكن والمناجح، فإن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولزورك عليك حقاً، فأت كل ذي حق حقه. ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك، ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به الأرض، وتسعى إلى خلق الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُنْفَرِينَ﴾. ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عَيْنِي أَوَّلَمَ بَلَّمْتَ أَنَّكَ اللَّهُ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمًّا وَلَا يُثَلِّدُ عَنْ دُؤُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه، حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير، ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عَيْنِي﴾ أي: أنا لا افتقر إلى ما تقولون، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأنني أستحقه، ولمجته لي فتقديره: إنما أعطيته لعلم الله في أنني أهل له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَنَّ الْأَمْسُ شُرُوءًا كَانَتْ لَنَا حُرُوقُهُ يَنْعَمَ بِنَا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٩]. أي: على علم من الله بي، وكقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ صَرْفِهِ لِنُقُولَ هَذَا لِي﴾ [نصبت: ٥٠] أي: هذا أستحقه. وقد زوي عن بعضهم أنه أراد: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عَيْنِي﴾ أي: إنه كان يعاني علم الكيمياء، وهذا القول ضعيف؛ لأن علم الكيمياء في نفسه علم باطل؛ لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا الله ﷻ قال الله: ﴿يَتَأْتِيهَا الْنَّاسُ شُرَبٌ مِثْلَ طَائِفَاتٍ فَاذْهَبُوا لَهَا إِنَّكَ لِلذَّيْبِ تَدْعُوكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة». وهذا ورد في المصورين الذين يشبهون بخلق الله في مجرد الصورة الظاهرة أو الشكل، فكيف بمن يدعي أنه يحيل ماهية هذه الذات إلى ماهية ذات أخرى، هذا زور ومحال، وجهل وضلال. وإنما يقدر على الصبغ في الصورة الظاهرة، وهو كذب وزغل وتمويه، وترويج أنه صحيح في نفس الأمر، وليس كذلك قطعاً لا محالة، ولم يثبت بطريق شرعي أنه صح مع أحد من الناس من هذه الطريقة التي يتعاناها هؤلاء الجهلة الفسقة الأفاكون فأما ما يجريه الله تعالى من خرق العوائد على يدي بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهباً أو فضة أو نحو ذلك، فهذا أمر لا ينكره مسلم، ولا يرده مؤمن، ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات وإنما هذا عن مشيئة رب الأرض والسموات، واختياره وفعله، كما روى عن خبوة بن شريح المصري، رحمه الله، أنه سأله سائل، فلم يكن عنده ما يعطيه، ورأى ضرورته، فأخذ حصاة من الأرض فأجالها في كفه، ثم ألقاها إلى ذلك السائل فإذا هي ذهب أحمر. والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً يطول ذكرها. وقال بعضهم: إن قارون كان يعلم الاسم الأعظم، فدعا الله به، فتمول بسببه. والصحيح المعنى الأول؛ ولهذا قال الله تعالى - راداً عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال - ﴿أَوَلَمْ يَلْمِزْ أُنَاسًا تَدَّعَوْا عَلَيْهِمْ دَرَسَ هَؤُلَاءِ الْفُتُورِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمًّا﴾ أي: قد كان من هو أكثر منه مالاً وما كان ذلك عن محبة مناله، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يُثَلِّدُ عَنْ دُؤُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: لكثرة ذنوبهم. قال قتادة: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عَيْنِي﴾: على خير عندي. وقال السدي: على علم أي أهل لذلك. وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فإنه قال في قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عَيْنِي﴾ قال: لولا رضا الله عني، ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال، وقرأ: ﴿أَوَلَمْ يَلْمِزْ أُنَاسًا تَدَّعَوْا عَلَيْهِمْ دَرَسَ هَؤُلَاءِ الْفُتُورِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمًّا وَلَا يُثَلِّدُ عَنْ دُؤُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه يقول: لولا أنه يستحق ذلك لما أعطي.

﴿فَصَرَّ عَلَىٰ قُوَّةٍ فِي زِينَتِهِ﴾ قَالَ الْبَيْهَقِيُّ: الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا بَيَّتَتْ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ قُرُونُهُمْ إِنَّهُمْ لَكُوْهُ حَقْلٌ عَظِيمٌ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ: أَوْتُوا الْعِلْمَ وَلَيْسَ كُمْ تَوَاتٍ اللَّهُ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَتَمَلَّ صَلَاحًا وَلَا يَلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قارون: إنه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة، وتجمل باهر، من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخرفها وزينتها، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطى، قالوا: ﴿بَيَّتَتْ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ قُرُونُهُمْ إِنَّهُمْ لَكُوْهُ حَقْلٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ذو حظ وافر من الدنيا. فلما سمع مقاتلهم أهل العلم النافع قالوا لهم: ﴿وَلَيْسَ كُمْ تَوَاتٍ اللَّهُ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَتَمَلَّ صَلَاحًا﴾ أي: جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون. كما في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وافرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَمَلُّمْ نَفْسًا أَخْفَىٰ لَكُمْ مِنْ قُوَّةٍ أَعْيَنَ جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الصحة: ١٧]». وقوله: ﴿وَلَا يَلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾. قال السدي: وما يلقى الجنة إلا الصابرون. كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم. قال ابن جرير: وما يلقى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا، الراغبون في الدار الآخرة. وكأنه جعل ذلك مقطوعاً من

كلام أولئك، وجعله من كلام الله ﷻ وإخباره بذلك.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنْ أَلْفِئَةٍ مِّنَ الشَّمْعِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَذِّبُ اللَّهُ بِبَشَائِهِمْ يَوْمَ يُنَادُوا لِلَّهِ أَنْ تُخْرِجُوا آلَهُنَا لَعَنَّا لَحَفَ يَنَّا وَيَكَذِّبُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته، وفخره على قومه وبغيه عليهم، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض، كما ثبت في الصحيح - عند البخاري من حديث الزهري، عن سالم - أن أباه حدثه: أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة». ثم رواه من حديث جرير بن زيد، عن سالم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، نحوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا النضر بن إسماعيل أبو المغيرة القاص، حدثنا الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل فيمن كان قبلكم، خرج في بُرْدَيْنِ أخضرين يخالن فيهما، أمر الله الأرض فأخذته، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة». تفرد به أحمد، وإسناده حسن. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا أبو معلى بن منصور، أخبرني محمد بن مسلم، سمعت زياداً النميري يحدث عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل فيمن كان قبلكم خرج في بردين فاختال فيهما، فأمر الله الأرض فأخذته، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة». وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر - شكر - في كتاب العجائب الغريبة بسنده عن نوفل بن مساحق قال: رأيت شاباً في مسجد نجران، فجعلت أنظر إليه وأتعجب من طوله وتماحه وجماله، فقال: ما لك تنظر إلي؟ فقلت: أعجب من جمالك وكمالك. فقال: إن الله ليعجب مني. قال: فما زال ينقص وينقص حتى صار بطول الشبر، فأخذ به بعض قرابته في كفه وذهب. وقد ذكر أن هلاك قارون عن دعوة نبي الله موسى، عليه السلام، واختلف في سببه، فعن ابن عباس والسدي: أن قارون أعطى امرأة بغياً مالا على أن تبته موسى بحضرة الملا من بني إسرائيل، وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله، فتقول: يا موسى، إنك فعلت بي كذا وكذا. فلما قالت في الملا ذلك لموسى، عليه السلام، أزعج من الفرق، وأقبل عليها وصلى ركعتين ثم قال: أنشدك بالله الذي فرق البحر، وأنجاك من فرعون، وفعل كذا وفعل كذا، لما أخبرني بالذي حملك على ما قلت؟ فقلت: أما إذ تشدّنتني فإن قارون أعطاني كذا وكذا، على أن أقول لك، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه، فعند ذلك خرّ موسى ﷺ ساجداً، وسأل الله في قارون. فأوحى الله إليه أني قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه، فأمر موسى الأرض أن تبتهله وداره فكان ذلك. وقيل: إن قارون لما خرج على قومه في زينته تلك، وهو راكب على البغال الشهب، وعليه وعلى خدومه الثياب الأرجوان الصبغة، فمر في جحفة ذلك على مجلس نبي الله موسى، عليه السلام، وهو يذكرهم بأيام الله. فلما رأى الناس قارون انصرف وجوه الناس حوله، ينظرون إلى ما هو فيه. فدعا موسى، عليه السلام، وقال: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا موسى، أما لئن كنت فضلت عليّ بالنبوة، فلقد فضلت عليك بالدنيا، ولئن شئت لنخرجن، فلتدعوني عليّ وأدعوك عليك. فخرج وخرج قارون في قومه، فقال موسى: تدعو أو أدعونا؟ قال: بل أنا أدعو. فدعا قارون فلم يجب له، ثم قال موسى: أدعو؟ قال: نعم. فقال موسى: اللهم، مّر الأرض أن تطيعني اليوم. فأوحى الله إليه أني قد فعلت، فقال موسى: يا أرض، خذيهم. فأخذتهم إلى أقدامهم. ثم قال: خذيهم. فأخذتهم إلى ركبهم، ثم إلى مناكبهم. ثم قال: أقبلي بكنوزهم وأمواهم. قال: فأقبلت بها حتى نظروا إليها. ثم أشار موسى بيده فقال: اذهبوا بني لاوى فاستوت بهم الأرض.

وعن ابن عباس أنه قال: خُسف بهم إلى الأرض السابعة. وقال قتادة: ذكر لنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة، فهم يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة. وقد ذكرها هنا إسرائيليات غريبة أضربنا عنها صفحاً. وقوله: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنْ أَلْفِئَةٍ مِّنَ الشَّمْعِينَ﴾ أي: ما أغنى عنه ماله وما جمعه، ولا خدمه ولا حشمه. ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله به، ولا كان هو في نفسه متصراً لنفسه، فلا ناصر له لا من نفسه، ولا من غيره. وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ أي: الذين لما رأوه في زينته ﴿يَكِلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُصْرُؤُنْ إِنَّهُمْ لَدُوْ حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، فلما خسف به أصبحوا يقولون: ﴿وَيَكَذِّبُ اللَّهُ بِبَشَائِهِمْ يَوْمَ يُنَادُوا لِلَّهِ أَنْ تُخْرِجُوا آلَهُنَا لَعَنَّا لَحَفَ يَنَّا﴾ أي: ليس المال ببدل على رضا الله عن صاحبه وعن عباده، فإن الله يعطي ويمنع ويضيق ويوسع، ويخفض ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة. وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم أرزاقكم، وإن الله يعطي المال من يحب، ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب». ﴿لَوْلَا أَنَّ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَعَسَ يَنَّا﴾ أي: لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا، كما خسف به، لأننا وددنا أن نكون مثله. ﴿وَيَكَذِّبُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾: يعنون: أنه كان كافراً، ولا يفلح الكافرون عند الله، لا في الدنيا ولا في الآخرة. وقد اختلف النحاة في معنى قوله تعالى ها هنا: ﴿وَيَكُنْ﴾، فقال بعضهم: معناها: «ويلك اعلم أن»، ولكن خُفِّت ف قيل: «ويك» ودل فتح «أن»

على حذف «اعلم». وهذا القول ضعفه ابن جرير، والظاهر أنه قوي، ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها في المصاحف متصلة «ويكان». والكتابة أمر وضعي اصطلاحى، والمرجع إلى اللفظ العربي، والله أعلم. وقيل: معناها: ويكان، أي: ألم تر أن. قاله قتادة: وقيل: معناها: «وي كان»، ففصلها وجعل حرف «وي» للتعجب أو للتنبيه، و«كان» بمعنى «أظن وأحسب». قال ابن جرير: وأقوى الأقوال في هذا قول قتادة: إنها بمعنى: ألم تر أن، واستشهد بقول الشاعر:

سَالَتَانِي الطَّلَاقُ أَنْ رَأَيْتَانِي قُلَّ مَالِي، قَدْ جُثُّمَانِي بِشُكْرِ
وَيَكُنْ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُخْرِجُ جَبَّ، وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعْشُ عَيْشَ ضَرِّ
﴿تِلْكَ أَدَارُ الْأَخِرَةِ لِمَنْ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالَّذِينَ لِلنَّفْسِ الْأَنْفِ﴾ (٨٣) مَن جَاءَهُ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَهُ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَجْزِيهِ الْوَيْلُ الْعَظِيمُ إِلَّا مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿٨٤﴾.

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين، الذين لا يريدون علوًّا في الأرض، أي: ترفعاً على خلق الله وتعاضماً عليهم وتجبراً بهم، ولا فساداً فيهم. كما قال عكرمة: العلو: التجبر. وقال سعيد بن جبير: العلو: البغي. وقال سفيان بن سعيد الثوري، عن منصور، عن مسلم البطين: العلو في الأرض: التكبر بغير حق. والفساد: أخذ المال بغير حق. وقال ابن جرير: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ تعظماً وتجبراً، ﴿وَلَا فُسَادًا﴾: عملاً بالمعاصي. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن أشعث السمان، عن أبي سلام الأعرج، عن علي قال: إن الرجل ليعجبه من شركائه نعله أن يكون أجود من شركائه صاحبه، فيدخل في قوله: ﴿تِلْكَ أَدَارُ الْأَخِرَةِ لِمَنْ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالَّذِينَ لِلنَّفْسِ الْأَنْفِ﴾. وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره؛ فإن ذلك مذموم، كما ثبت في الصحيح، عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه أوحى إلي أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد»، وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجلُّل فهذا لا بأس به، فقد ثبت أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني أحب أن يكون ردائي حسناً ونعلي حسنة، أقمّن الكبر ذلك؟ فقال: «لا، إن الله جميل يحب الجمال». وقال: ﴿مَنْ جَاءَهُ بِالْحَسَنَةِ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ أي: ثواب الله خير من حسنة العبد، فكيف والله يضاعفه ضعافاً كثيرة فهذا مقام الفضل. ثم قال: ﴿وَمَنْ جَاءَهُ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَجْزِيهِ الْوَيْلُ الْعَظِيمُ إِلَّا مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَنْ جَاءَهُ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾ (٨٤). وهذا مقام الفصل العدل.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَهُ الْيُسْرَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٨٥) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَى رُبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَتَّبِعْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَآخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾.

يقول تعالى أمراً رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد، وهو يوم القيامة، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْ مَعَادٍ﴾ أي: افترض عليك أداءه إلى الناس، ﴿لَرَادُّكَ إِلَيْ مَعَادٍ﴾ أي: إلى يوم القيامة فيسأل عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٦١)، وقال: ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ أَرْسُلًا فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالَوْا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ (١٠٩)، وقال: ﴿وَبَاقِيَ الَّذِينَ ظَلَمُوا فَاسْأَلْهُمْ﴾ (الزمر: ٦٩). وقال السدي عن أبي صالح، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْ مَعَادٍ﴾، يقول: لرادك إلى الجنة، ثم سائلك عن القرآن. قال السدي: وقال أبو سعيد مثلاً. وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة، وعن ابن عباس، رضي الله عنهما: ﴿لَرَادُّكَ إِلَيْ مَعَادٍ﴾ قال: إلى يوم القيامة. ورواه مالك، عن الزهري. وقال الثوري، عن الأعمش، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿لَرَادُّكَ إِلَيْ مَعَادٍ﴾: إلى الموت. ولهذا طُرُقٌ عن ابن عباس، رضي الله عنهما، وفي بعضها: لرادك إلى معدنك من الجنة. وقال مجاهد: يحييك يوم القيامة. وكذا روي عن عكرمة، وعطاء، وسعيد بن جبيرة، وأبي قزعة، وأبي مالك، وأبي صالح. وقال الحسن البصري: أي والله، إن له لمعاداً، يبعثه الله يوم القيامة ثم يدخله الجنة. وقال زوي عن ابن عباس غير ذلك، كما قال البخاري في التفسير من صحيحه: حدثنا محمد بن مقاتل، أنبأنا يعلى، حدثنا سفيان الثوري، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿لَرَادُّكَ إِلَيْ مَعَادٍ﴾ قال: إلى مكة. وهكذا رواه النسائي في تفسير سننه، وابن جرير من حديث يعلى - وهو ابن عبيد الطنافسي - به. وهكذا روى العوفي، عن ابن عباس: ﴿لَرَادُّكَ إِلَيْ مَعَادٍ﴾ أي: لرادك إلى مكة كما أخرجك منها. وقال محمد بن

إسحاق، عن مجاهد في قوله: ﴿لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾: إلى مولدك بمكة. قال ابن أبي حاتم: وقد روي عن ابن عباس، ويحيى بن الجزار، وسعيد بن جبير، وعطية، والضحاك، نحو ذلك. وحدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر قال: قال سفيان: فسمعنا من مقاتل منذ سبعين سنة، عن الضحاك قال: لما خرج النبي ﷺ من مكة، فبلغ الجحفة، اشتاق إلى مكة، فأنزل الله عليه: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ إلى مكة. وهذا من كلام الضحاك يقتضي أن هذه الآية مدنية، وإن كان مجموع السورة مكياً، والله أعلم. وقد قال عبد الرزاق: حدثنا معمر، عن قتادة في قوله: ﴿لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ قال: هذه مما كان ابن عباس يكتمها، وقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن نعيم القاري أنه قال في قوله: ﴿لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ قال: إلى بيت المقدس. وهذا - والله أعلم - يرجع إلى قول من فسر ذلك بيوم القيامة؛ لأن بيت المقدس هو أرض المحشر والمنشر، والله الموفق للصواب. ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة، وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمانة على اقتراب أجله، صلوات الله وسلامه عليه، كما فسر ابن عباس بسورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ ﴿سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ ﴿٢١﴾ أنه أجل رسول الله ﷺ نعي إليه، وكان ذلك بحضور عمر بن الخطاب، ووافقه عمر على ذلك، وقال: لا أعلم منها غير الذي تعلم. ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله: ﴿لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ بالموت، وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت، وتارة بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين: الجن والإنس، ولأنه أكمل خلق الله، وأفصح خلق الله، وأشرف خلق الله على الإطلاق. وقوله: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ يَاهُذِي وَمَنْ هُوَ فِي صَلَاتِي ثَبِيرٌ﴾ أي: قل - لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم - قل: ربي أعلم بالمهتدي منكم ومني، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار، ولمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة. ثم قال تعالى مذكراً لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم: ﴿وَبَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي: ما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: إنما نزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك، فإذا منحت بهذه النعمة العظيمة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَاهِرًا﴾ أي: معيناً ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾، أي: ولكن فارقههم وناذهم وخالفهم. ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آلِهَتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أي: لا تتأثر لمخالفتهم لك وصددهم الناس عن طريقك لا تلوي على ذلك ولا تناله؛ فإن الله مُغْلٍ كلمتك، ومؤيد دينك، ومظهر ما أرسلت به على سائر الأديان؛ ولهذا قال: ﴿وَأَذِعْ لَنْ رِبِّكَ﴾ أي: إلى عبادة ربك وحده لا شريك له، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا تليق العبادة إلا له ولا تنبغي الإلهية إلا لعظمته. وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾: إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم، الذي تموت الخلائق ولا يموت، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، فعبر بالوجه عن الذات، وهكذا قوله ها هنا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: إلا إياه. وقد ثبت في الصحيح، من طريق أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد:

الَا كُلُّ شَيْءٍ مَّا خَلَا اللَّهُ بِاطْلُ

وقال مجاهد والثوري في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: إلا ما أريد به وجهه، وحكاه البخاري في صحيحه كالمقرر له. قال ابن جرير: ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر:

اسْتَغْفِرُ اللَّهَ ذَنْبًا لَنْتُ مُخْصِيَةً رَبَّ الْعِبَادِ، إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ
وهذا القول لا ينافي القول الأول، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد بها وجه الله ﷻ من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة. والقول الأول مقتضاه أن كل الدوات فانية وهالكة وزائلة إلا ذاته تعالى، فإنه الأول والآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء. قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا في كتاب «التفكير والاعتبار»: حدثنا أحمد بن محمد بن أبي بكر، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا عمر بن سليم الباهلي، حدثنا أبو الوليد قال: كان ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه، يأتي الخبرة فيقف على بابها، فينادي بصوت حزين فيقول: أين أهلك؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾. وقوله: ﴿لَهُ الْفُكْرُ﴾ أي: الملك والتصرف، ولا معقب لحكمه، ﴿وَلَا إِلَهُ يُشْفَعُونَ﴾ أي: يوم معادكم، فيحزركم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، والله أعلم.

تفسير سورة العنكبوت

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَبْذُرُوا آمِنًا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٢﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٣﴾﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة «البقرة». وقوله: ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَبْذُرُوا آمِنًا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ﴾ استفهام إنكار، ومعناه: أن الله سبحانه وتعالى لا بد أن يتلى عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمل فالأمل، يتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء». وهذه الآية كقول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ إِنَّا نَنْصُرُ اللَّهَ قَرِيبًا﴾ [البقرة: ٢١٤]؛ ولهذا قال ما هنا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (١) أي: الذين صدقوا في دعواهم الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه. والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون. وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة؛ ولهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل: ﴿إِلَّا لَنَسْلَمَ﴾ [البقرة: ١٤٣]: إلا لنرى؛ وذلك أن الرؤية إنما تتعلق بالموجود، والعلم أعم من الرؤية، فإنه يتعلق بالمععدم والموجود. وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٢) أي: لا يحسن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا وأطم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِقُونَا﴾ أي: يفوتونا، ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ينس ما يظنون.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَكَ مُدًا بَعِيدًا فَلْيَسْبِغْ عِلْمُكَ ﴿٥﴾ وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ أي: في الدار الآخرة، وعمل الصالحات رجاء ما عند الله من الثواب الجزيل، فإن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملاً موفوراً، فإن ذلك كائن لا محالة؛ لأنه سميع الدعاء، بصير بكل الكائنات؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَكَ مُدًا بَعِيدًا فَلْيَسْبِغْ عِلْمُكَ﴾ (٥). وقوله: ﴿وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [نصت: ٤٦]. أي: من عمل صالحاً فإنما يعود نفع عمله على نفسه، فإن الله غني عن أفعال العباد، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل واحد منهم، ما زاد ذلك في ملكه شيئاً؛ ولهذا قال: ﴿وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٦). قال الحسن البصري: إن الرجل ليجاهد، وما ضرب يوماً من الدهر بسيف. ثم أخبر أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم من إحسانه وبره بهم يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء، وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، فيقبل القليل من الحسنات، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْلِبُ يُشْقَالُ دَرُّهُ وَإِنَّكَ خَسِرَةٌ يَخْسِرُهَا وَيُؤْتِي مِنْ لَدُنْهُ أَثَرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال ما هنا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٧).

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِنَّ مَرْجِعَكُمْ فَأْتِيكُمْ بِنَا كَثَرْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾﴾.

يقول تعالى أمراً بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَصَّى رُكَّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

يَلْعَنَ عِنْدَكَ الْكَبِيرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ فَمَّا أُمِّي وَلَا تَبَرَّهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٤﴾ وَأَنْقِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ﴿٢٥﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]. ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما، في مقابلة إحسانهما المتقدم، قال: ﴿وَأِنْ جَهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: وإن حرصا عليك أن تتابعهما في دينهما إذا كانا مشركين، فإياك وإياهما، لا تطعهما في ذلك، فإن مرجعكم إلى يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما، وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب، أي: حبا دينيا؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٢٦﴾. وقال الترمذي عند تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى، حدثنا ابن جعفر، حدثنا شعبة، عن سماك بن حرب قال: سمعت مضعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد، قال: نزلت في أربع آيات. فذكر قصة، وقالت أم سعد: أليس قد أمرك الله بالبر؟ والله لا أطعم طعاما ولا أشرب شربا حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاهما، فأنزل الله ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِرَآلِهِ حَسَنًا وَإِنْ جَهَدَاكَ إِلَى الْآيَةِ. وهذا الحديث رواه الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي أيضا، وقال الترمذي: حسن صحيح.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَمَلَ فِتْنَةٍ النَّاسِ كَذَّابِ اللَّهِ وَلَكِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِن رَّبِّكَ يَقُولُ إِنَّكَ كَنتَ مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ ﴿٢٨﴾. يقول تعالى مخبرا عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون الإيمان بالسنتهم، ولم يثبت الإيمان في قلوبهم، بأنهم إذا جاءتهم فتنة ومحنة في الدنيا، اعتقدوا أن هذا من نعمة الله تعالى بهم، فارتدوا عن الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَمَلَ فِتْنَةٍ النَّاسِ كَذَّابِ اللَّهِ﴾. قال ابن عباس: يعني: فتنته أن يرتد عن دينه إذا أُوذِيَ في الله. وكذا قال غيره من علماء السلف. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعِدُّ اللَّهُ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبْ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الَّذِي وَالْآخِرَةُ ذَلِكَ هُوَ الْفَسَادُ الَّذِي ﴿٢٩﴾ [الحج: ١١]. ثم قال: ﴿وَلَكِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِن رَّبِّكَ يَقُولُ إِنَّكَ كَنتَ مَعَكُمْ﴾ أي: ولئن جاء نصر قريب من ربك - يا محمد - وفتح ومغانم، ليقول هؤلاء لكم: إنا كنا معكم، أي كنا إخوانكم في الدين، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ مَتَاعٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا إِنَّهُ تَكُونُ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا إِنَّهُ سَيَنْصَرُّوهُمْ وَيَضْمَعُنَّكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ لَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْحِكُوهُ عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنفُسِهِمْ يُدْرِكُ﴾ [المائدة: ٥٢]. وقال تعالى مخبرا عنهم ها هنا: ﴿وَلَكِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِن رَّبِّكَ يَقُولُ إِنَّكَ كَنتَ مَعَكُمْ﴾، ثم قال تعالى: ﴿أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أو ليس الله بأعلم بما في قلوبهم، وما تكنه ضمائرهم، وإن أظهرها لكم الموافقة؟ وقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ ﴿٣٠﴾ أي: وليختبرن الله الناس بالضراء والسراء، ليميز هؤلاء من هؤلاء، ومن يطيع الله في الضراء والسراء، إنما يطيعه في حظ نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَسْلُتُنَّكُم مِّنَ الْفِتَنِ تَتْلُونَ أَخْبَارَكُمْ﴾ ﴿٣١﴾ [محمد: ٣١]، وقال تعالى بعد وقعة أحد، التي كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٩]، والله أعلم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْفَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْفِتْنَةِ عَمَّا كَانُوا يَقُولُونَ﴾ ﴿٣٣﴾. يقول تعالى مخبرا عن كفار قريش: أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى: ارجعوا عن دينكم إلى ديننا، واتبعوا سبيلنا، ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ﴾ أي: وأثامكم - إن كانت لكم آثام في ذلك - علينا وفي رقابنا، كما يقول القائل: «افعل هذا وخطيئتك في رقبتي». قال الله تكذيبا لهم: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: فيما قالوه: إنهم يحملون عن أولئك خطاياهم، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد، ﴿وَلَنْ تَنَالُوا مَثَلَهُ لَكِنْ خَلِيلًا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمٌ حِمِيمًا﴾ ﴿٣٤﴾ [يُؤْتِيهِمُ] [المعارج: ١٠، ١١]، وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْفَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾: إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة، أنهم يوم القيامة يحملون أوزار أنفسهم، وأوزار آخر بسبب من أضلوا من الناس، من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئا، كما قال تعالى: ﴿لَيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُبْغُونَهُمْ بِعَيْتٍ عَلَيْهِ آلَا سَكَاةٍ مَا يُزْزِفُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ [النحل: ٢٥]. وفي الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من آثامهم شيئا» وفي الصحيح: «ما قتلت نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل». وقوله: ﴿وَلَيَسْئَلَنَّ

كَذَّبَ أُمُّرٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَّ الرَّسُولُ إِلَّا الْبَلَّغَ الْمُبِينُ ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء: أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له، وتوحيده في الشكر، فإنه المشكور على النعم، لا مُسْدَى لها غيره، فقال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ أَي: أخلصوا له العبادة واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة. ثم أخبرهم أن الأصنام التي يعبدونها والأوثان، لا تضر ولا تنفع، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء، سميتوها آلهة، وإنما هي مخلوقة مثلكم. هكذا روى العوفي عن ابن عباس. وبه قال مجاهد، والسدي. وروى الوالي، عن ابن عباس: وتصنعون إفكاً، أي: تحتونها أصناماً. وبه قال مجاهد - في رواية - وعكرمة، والحسن، وقتادة وغيرهم، واختاره ابن جرير، رحمه الله. وهي لا تملك لكم رزقاً، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ وهذا أبلغ في الحصر، كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ﴿رَبِّ آتِنِي فِي عِنْدِكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١]، ولهذا قال: ﴿فَاتَّقُوا أَي فاطلبوا﴾ عند الله الرزق، أي: لا عند غيره، فإن غيره لا يملك شيئاً، ﴿وَأَعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ أَي: كلوا من رزقه واعبدوه وحده، واشكروا له على ما أنعم به عليكم، ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله. وقوله: ﴿وَلَا تُكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمُّرٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ أي: فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل، ﴿وَمَا عَلَّ الرَّسُولُ إِلَّا الْبَلَّغَ الْمُبِينُ﴾ يعني: إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء. وقال قتادة في قوله: ﴿وَلَا تُكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمُّرٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ قال: يُعْزِي نبيه ﷺ. وهذا من قتادة يقتضي أنه قد انقطع الكلام الأول، واعترض بهذا إلى قوله: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾. وهكذا نص على ذلك ابن جرير أيضاً. والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل، عليه السلام لقومه يحتاج عليهم لإثبات المعاد، لقوله بعد هذا كله: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾، والله أعلم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [١٩] قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله يُعِيدُهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَعِذُّكَ مِّنْ بَشَاءٍ مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ إِذَا شَاءَ يَمْحُجُّ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقَاتِبُ اللَّهُ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن الخليل، عليه السلام، أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه، بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم جدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته؛ فإنه سهل عليه يسير لديه. ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السماوات وما فيها من الكواكب النيرة: الثوابت، والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبراري وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في نفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء: كن، فيكون؛ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [١٩]، كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بدأ الخلق ثم الله يُعِيدُهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [٢٠]، وهو الذي يخلق السماوات والأرضين وما بينهما في ستة أيام ثم يرجعون يوم القيامة. ﴿وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [٢١] أي: هو الحاكم المتصرف، الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فله الخلق والأمر، مهما فعل فقدل؛ لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة، كما جاء في الحديث الذي رواه أهل السنن: «إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه، لعذبهم وهو غير ظالم لهم» ولهذا قال تعالى: ﴿يَعِذُّكَ مِّنْ بَشَاءٍ مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ إِذَا شَاءَ يَمْحُجُّ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [٢٢] أي: لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه، بل هو القاهر فوق عباده، وكل شيء خائف منه، فقير إليه، وهو الغني عما سواه. ﴿وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [٢١] كقوله: ﴿وَلَقَدْ يَمَانُ اللَّهُ وَلَقَدْ يَمَانُ اللَّهُ﴾ أي: جحدوها وكفروا بالمعاد، ﴿وَأُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي أَي: لا نصيب لهم فيها، ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٢٢] أي: موجع في الدنيا والآخرة.

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِمَّا كَانَتْ فِي ذَلِكَ أَلْسِنَةٌ يَّقِينُ يَوْمَئِذٍ ﴿٢٣﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ لَّيَعْلَمَ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

بمقام يقومه نوف البكالي، فجتته؛ إذ جاء رجل، فانتبذ الناس وعليه خمصة، وإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص. فلما رآه نوف أمسك عن الحديث، فقال عبد الله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون هجرة بعد هجرة، فينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم، لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها، تلتفظهم أرضهم، تقذرهم نفس الرحمن، تحشرهم النار مع القردة والخنازير فقيت معهم إذا باتوا، وتقبل معهم إذا قالوا، وتاكل منهم من تخلف». قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيخرج أناس من أمتي من قبل المشرق، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، كلما خرج منهم قرن قطع، كلما خرج منهم قرن قطع» حتى عذها زيادة على عشرين مرة «كلما خرج منهم قرن قطع، حتى يخرج الدجال في بقيتهم». ورواه أحمد عن أبي داود، وعبد الصمد، كلاهما عن هشام الدستوائي، عن قتادة، به. وقد رواه أبو داود في سننه، فقال في كتاب الجهاد، باب ما جاء في سكنى الشام: حدثنا عبيد الله بن عمر، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن قتادة، عن شهر بن حوشب، عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون هجرة بعد هجرة، فخير أهل الأرض أزمهم مهاجر إبراهيم، ويبقى في الأرض شرار أهلها تلتفظهم أرضهم وتقذرهم نفس الرحمن، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يزيد، أخبرنا أبو جناب يحيى بن أبي حية، عن شهر بن حوشب قال: سمعت عبد الله بن عمر يقول: لقد رأيتنا وما صاحب الدينار والدرهم بأحق من أخيه المسلم، ثم لقد رأيتنا بأخرة الآن، والدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لئن أنتم اتبعتم أذناب البقر، وتبايعتم بالعينة، وتركتم الجهاد في سبيل الله، ليلزمنكم الله مذلة في أعناقكم، ثم لا تنزع منكم حتى ترجعوا إلى ما كنتم عليه، وتتوبوا إلى الله ﷻ». وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «لتكونن هجرة بعد هجرة إلى مهاجر أبيكم إبراهيم حتى لا يبقى في الأرضين إلا شرار أهلها وتلفظهم أرضهم، وتقذرهم روح الرحمن، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير، تقيل حيث يقولون، وتبيت حيث يبيتون، وما سقط منهم فلها». ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج من أمتي قوم يسيئون الأعمال، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم - قال يزيد: لا أعلمه إلا قال -: يحقر أحدهم علمه مع علمهم، يقتلون أهل الإسلام، فإذا خرجوا فاقتلوه، ثم إذا خرجوا فاقتلوه، ثم إذا خرجوا فاقتلوه، فطوبى لمن قتلهم، وطوبى لمن قتلوه. كلما طلع منهم قرن قطعه الله». فردد ذلك رسول الله ﷺ عشرين مرة، أو أكثر، وأنا أسمع.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو الحسين بن الفضل، أخبرنا عبد الله بن جعفر، حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا أبو النضر إسحاق بن يزيد وهشام بن عمار الدمشقيان قالا: حدثنا يحيى بن حمزة، حدثنا الأوزاعي، عن نافع - وقال أبو النضر، عمن حدثه، عن نافع - عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «سيهاجر أهل الأرض هجرة بعد هجرة، إلى مهاجر إبراهيم، حتى لا يبقى إلا شرار أهلها، تلتفظهم الأرضون وتقذرهم روح الرحمن، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير، تبيت معهم حيث باتوا، وتقبل معهم حيث قالوا، لها ما سقط منهم». غريب من حديث نافع. والظاهر أن الأوزاعي قد رواه عن شيخ له من الضعفاء، والله أعلم. وروايته عن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أقرب إلى الحفظ. وقوله: ﴿وَوَعَيْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَاهُمْ وَمَا يَحْذَرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩] أي: إنه لما فارق قومه أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبي وولده ولد صالح في حياة جده. وكذلك قال الله: ﴿وَوَعَيْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] أي: زيادة، كما قال: ﴿فَنَزَّلْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَيَمِينَ وَكَوْا إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي: ويولد لهذا الولد ولد في حياتكما، تفر به أعينكما. وكون يعقوب ولد لإسحاق نص عليه القرآن، وثبت به السنة النبوية، قال الله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَقَالُوا تَعْبُدُ آلَهُكُمْ فَمَا يَكُنْ لَكُمْ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [يوسف: ١٠٠] وفي الصحيحين: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم». فأما ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَعَيْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾، قال: «هما ولدا إبراهيم». فمعناه: أن ولد الولد بمنزلة الولد؛ فإن هذا أمر لا يكاد يخفى على من هو دون ابن عباس. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَبْنَاءَ وَالْكَتَبَ﴾، هذه خلعة سنية عظيمة، مع اتخاذ الله إياه خليلاً، وجعله للناس إماماً، أن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام، إلا وهو من سلالة، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم، فقام في ملتهم مبشراً بالنبي العربي القرشي الهاشمي، خاتم الرسل على الإطلاق، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم، عليهم السلام. ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه، عليه أفضل الصلاة والسلام من الله تعالى. وقوله: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ أَجْرًا فِي الدُّنْيَا وَلَئِنَّ فِي الْآخِرَةِ لَوَجْهًا لِلرَّحْمَنِ﴾ [يوسف: ٢١] أي: جمع الله

له بين سعاده الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني والمنزل الرّخب، والموارد العذب، والزوجة الحسنة الصالحة، والثناء الجميل، والذكر الحسن، فكل أحد يحبه ويتولاه، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يُبَيِّنُ الْآيَاتِ وَالْآيَاتِ وَالْآيَاتِ﴾ [النجم: ٢٧]، أي: قام بجميع ما أمر به، وكمل طاعة ربه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُهُ أَجْرُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِيَنَّ مِنَ الْفَالِحِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِذْ يَرْهِيهِ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الشورى: ١٧٠]، شاكراً لآلِئِهِمْ أَتْبَعْتَهُ وَهَدَنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [النحل: ١٢٧-١٢٨].

﴿وَلَوْ كُنَّا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الْفِتْنَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [النحل: ١٢٧]، إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الْفِتْنَةَ وَتَقَطُّونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي كَادِيكُمْ الْمُسْكِرَ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابٍ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصّٰدِقِينَ [النحل: ١٢٨] قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ [النحل: ١٢٩].

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط، عليه السلام، أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال، في إتيانهم الذكران من العالمين، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم وكانوا مع هذا يكفرون بالله، ويكذبون رسوله ويخالفون ويقطعون السبيل، أي: يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم ﴿وَتَأْتُونَ فِي كَادِيكُمْ الْمُسْكِرَ﴾، أي: يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك، فمن قاتل: كانوا يأتون بعضهم بعضاً في الملا، قاله مجاهد. ومن قاتل: كانوا يتضارطون ويتضاحكون؛ قاله عائشة، رضي الله عنها، والقاسم. ومن قاتل: كانوا يناطحون بين الكباش، ويناقرون بين الديوك، وكل ذلك كان يصدر عنهم، وكانوا شراً من ذلك. وقال الإمام أحمد: حدثنا حماد بن أسامة، أخبرني حاتم بن أبي صغيرة، حدثنا سماك بن حرب، عن أبي صالح - مولى أم هانئ - عن أم هانئ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﷻ: ﴿وَتَأْتُونَ فِي كَادِيكُمْ الْمُسْكِرَ﴾، قال: «يحدثون أهل الطريق، ويسخرون منهم، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه». ورواه الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث أبي أسامة حماد بن أسامة عن أبي يونس الفشيري، حاتم بن أبي صغيرة، به. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن لا يعرف إلا من حديث حاتم بن أبي صغيرة، عن سماك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا محمد بن كثير، عن عمرو بن قيس، عن الحكم، عن مجاهد: ﴿وَتَأْتُونَ فِي كَادِيكُمْ الْمُسْكِرَ﴾ قال: الصغير، ولعب الحمام والجلاّح، والسؤال في المجلس، وحل أزوار القباء. وقوله: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابٍ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾، وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم؛ ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرِ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَىٰ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ بَغْيٌ كَثِيرٌ ۖ إِنْ أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [النحل: ١٢٨] قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ بِمَن فِيهَا لَنُجِيبَنَّ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْقَدِيرِ [النحل: ١٢٩] وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِتًّا مِنْهُمْ وَصَافَ بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُ وَقَالُوا لَا تَحْزَنْ وَلَا تَحْزَنْ إِنََّّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتُكَ كَانَتْ مِنَ الْقَدِيرِ [النحل: ١٣٠] إِنَّ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَىٰ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْسٌ وَمِنْ أَسْمَاءِ يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ [النحل: ١٣١] وَلَقَدْ رَزَقْنَاهَا مِنْهَا أَيْةً يَنْتَظِرُونَ [النحل: ١٣٢].

لما استنصر لوط، عليه السلام، الله عليهم، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم، عليه السلام، في هيئة أضياف، فجاءهم بما ينبغي للضيف، فلما رأى أنه لا همة لهم إلى الطعام نكرمهم وأوجس منهم خيفة، فشرعوا يؤوانسونه ويشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة - وكانت حاضرة - فتعجبت من ذلك، كما تقدم بيانه في سورة «هود» و«الحجر». فلما جاءت إبراهيم بالبشرى، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط، أخذ يدافع لعلهم ينظرون، لعل الله يهديهم، ولما قالوا: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَىٰ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ بَغْيٌ كَثِيرٌ ۖ إِنْ أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [النحل: ١٢٨] قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ بِمَن فِيهَا لَنُجِيبَنَّ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْقَدِيرِ [النحل: ١٢٩]، أي: من الهالكين؛ لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم ودبرهم. ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شباب حسان، فلما رآهم كذلك، ﴿سِتًّا مِنْهُمْ وَصَافَ بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُ﴾، أي: اهتم بأمرهم، إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه، وإن لم يصفهم خشي عليهم منهم، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة. ﴿وَقَالُوا لَا تَحْزَنْ وَلَا تَحْزَنْ إِنََّّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتُكَ كَانَتْ مِنَ الْقَدِيرِ [النحل: ١٣٠] إِنَّ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَىٰ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْسٌ وَمِنْ أَسْمَاءِ يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ [النحل: ١٣١] وَلَقَدْ رَزَقْنَاهَا مِنْهَا أَيْةً يَنْتَظِرُونَ [النحل: ١٣٢].

وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم. وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَزَقْنَاهَا مِنْهَا أَيْةً يَنْتَظِرُونَ﴾ [النحل: ١٣٢]، أي: واضحة،

شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع فإنه مستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، لقوتها وثباتها. ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به. إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال، ويعلم ما يشركون به من الأنداد، وسيجزئهم وصفهم إنه حكيم عليم. ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْأُمْتَلُ نَصْرِيكَ لِلثَّانِي وَمَا يَقُولُكَ إِلَّا الْكِبْرُ﴾ (٤٤). أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه. قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثني ابن لهيعة، عن أبي قبيل، عن عمرو بن العاص، رضي الله عنه، قال: عقلت عن رسول الله ﷺ ألف مثل. وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص - رضي الله عنه - حيث يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْأُمْتَلُ نَصْرِيكَ لِلثَّانِي وَمَا يَقُولُكَ إِلَّا الْكِبْرُ﴾ (٤٤). وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثنا أبي، حدثنا ابن سنان، عن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحرزني، لأنني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَقَالَ الْأُمْتَلُ نَصْرِيكَ لِلثَّانِي وَمَا يَقُولُكَ إِلَّا الْكِبْرُ﴾ (٤٤).

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ (٤٥) في ذلك لآية للْمُؤْمِنِينَ ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأُوْحِيَ السَّكْوَةُ﴾ (٤٥) تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (٤٥).

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة: أنه خلق السموات والأرض بالحق، يعني: لا على وجه العبث واللعب، ﴿لِيُعْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ (طه: ٤٥)، ﴿لِيُعْزَى الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا وَيُعْزَى الَّذِينَ آمَنُوا بِالْحَقِّ﴾ (النجم: ٣١). وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٥) أي: للدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية. ثم قال تعالى أمراً رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن، وهو قراءته وإبلاغه للناس: ﴿وَأُوْحِيَ السَّكْوَةُ﴾ (٤٥) ﴿وَأُوْحِيَ السَّكْوَةُ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (٤٥) يعني: أن الصلاة تشتمل على شيئين: على ترك الفواحش والمنكرات، أي: إن مواظبتها تحمل على ترك ذلك. وقد جاء في الحديث من رواية عمران، وابن عباس مرفوعاً: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم تزده من الله إلا بعداً».

ذكر الآثار الواردة في ذلك:

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن هارون المخرمي الفلاس، حدثنا عبد الرحمن بن نافع أبو زياد، حدثنا عمر بن أبي عثمان، حدثنا الحسن، عن عمران بن حصين قال: سئل النبي ﷺ عن قول الله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٥) قال: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر، فلا صلاة له». وحدثنا علي بن الحسين، حدثنا يحيى بن أبي طلحة اليربوعي حدثنا أبو معاوية، عن ليث، عن طاوس، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يزد بها من الله إلا بعداً» ورواه الطبراني من حديث أبي معاوية. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا خالد بن عبد الله، عن العلاء بن المسيب، عن ذكره، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٥) قال: فمن لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر، لم يزد بصلاته من الله إلا بعداً. فهذا موقوف. قال ابن جرير: وحدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا علي بن هاشم بن البريد، عن جوير، عن الضحاك، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا صلاة لمن لم يقطع الصلاة، وطاعة الصلاة أن تنهى عن الفحشاء والمنكر» قال: وقال سفيان: «قَالُوا يَنْشَبِ أَصْلُكَ فَأَمْرُكَ» (مود: ٨٧) قال: فقال سفيان: أي والله، تأمره وتنهاه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن جوير، عن الضحاك، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاة لم تنه عن الفحشاء والمنكر، لم يزد بها من الله إلا بعداً». والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود، وابن عباس، والحسن وقتادة، والأعمش وغيرهم، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا جرير - يعني ابن عبد الحميد - عن الأعمش، عن أبي صالح قال: أراه عن جابر - شك الأعمش - قال: قال رجل للنبي ﷺ: إن فلاناً يصلي فإذا أصبح سرق، قال: «سينهاه ما يقول». وحدثنا محمد بن موسى الحرشي، حدثنا زياد بن عبد الله، عن الأعمش عن أبي صالح، عن جابر، عن النبي ﷺ ينحوه - ولم يشك - ثم قال: وهذا الحديث قد رواه غير واحد عن الأعمش واختلفوا في إسناده، فرواه غير واحد عن الأعمش، عن أبي

صالح، عن أبي هريرة أو غيره، وقال قيس عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، وقال جرير وزيد: عن عبد الله، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن جابر. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش قال: أنا أبو صالح، عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق؟ فقال: «إنه سينهاه ما يقول». وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى، وهو المطلوب الأكبر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: أعظم من الأول، «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ» أي: يعلم جميع أفعالكم وأعمالكم. وقال أبو العالية في قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، قال: إن الصلاة فيها ثلاث خصال، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية، وذكر الله. فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر القرآن يأمره وينهاه. وقال ابن عون الأنصاري: إذا كنت في صلاة فأنت في معروف، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر. وقال حماد بن أبي سليمان: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ يعني: ما دمت فيها. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، يقول: ولذكر الله لعباده أكبر، إذا ذكروه من ذكرهم إياه. وكذا روى غير واحد عن ابن عباس. وبه قال مجاهد، وغيره. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن داود بن أبي هند، عن رجل، عن ابن عباس: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال: ذكر الله عند طعامك وعند منامك. قلت: فإن صاحباً لي في المنزل يقول غير الذي تقول: قال: وأي شيء يقول؟ قلت: قال: يقول الله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فلذكر الله إيانا أكبر من ذكرنا إياه. قال: صدق. قال: وحديثنا أبي، حديثنا النفيلي، حدثنا إسماعيل، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، قال: لها وجهان، قال: ذكر الله عندما حرمة، قال: وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُفَيم، أخبرنا عطاء بن السائب، عن عبد الله بن ربيعة قال: قال لي ابن عباس: هل تدري ما قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾؟ قال: قلت: نعم. قال: فما هو؟ قلت: التسبيح والتحميد والتكبير في الصلاة، وقراءة القرآن، ونحو ذلك. قال: لقد قلت قولاً عجباً، وما هو كذلك، ولكنه إنما يقول: ذكر الله إياكم عند ما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه، أكبر من ذكركم إياه. وقد روى هذا من غير وجه عن ابن عباس. وروي أيضاً عن ابن مسعود، وأبي الدرداء، وسلمان الفارسي، وغيرهم. واختاره ابن جرير.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَحْدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف. وقال آخرون: بل هي باقية أو محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن، ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالنَّوَظِلِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَدَقَ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُفْتَهِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿نَقُولَا لَهُمْ قَوْلًا نِيًّا لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ أَوْ يَخْشَوْنَ﴾ [طه: ٤٤]. وهذا القول اختاره ابن جرير، وحكاه عن ابن زيد. وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي: حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ ينتقل من الجدل إلى الجلال، ويقاثلون بما يردعهم ويمنعهم، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَبِمَا بَالَيْتُمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]. قال جابر: أمرنا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف. قال مجاهد: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾، يعني: أهل الحرب، ومن امتنع منهم عن أداء الجزية. وقوله: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾، يعني: إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه، فهذا لا تقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً، ولا على تصديقه، فلعله أن يكون باطلاً، ولكن نؤمن به إيماناً مجملًا معلقاً على شرط وهو أن يكون منزلاً، لا مبدلاً ولا مؤولاً. وقال البخاري، رحمه الله: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عثمان بن عمر، أخبرنا علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون». وهذا الحديث تفرد به البخاري.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن عمر، أخبرنا يونس، عن الزهري، أخبرني ابن أبي نملة: أن أبا نملة الأنصاري أخبره، أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ، جاءه رجل من اليهود، فقال: يا محمد، هل تتكلم هذه الجنازة؟ قال رسول الله ﷺ: «الله

أعلم: قال اليهودي أنا أشهد أنها تتكلم. فقال رسول الله ﷺ: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله ورسله وكتبه، فإن كان حقاً لم تكذبوهم، وإن كان باطلاً لم تصدقوهم». قلت: وأبو نملة هذا هو: عُمارة: وقيل: عمار. وقيل: عمرو بن معاذ بن زُرارة الأنصاري، رضي الله عنه. ثم ليعلم أن أكثر ما يُحدثون به غالبه كذب وبهتان؛ لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل، وما أقل الصدق فيه، ثم ما أقل فائدة كثير منه لو كان صحيحاً. قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا أبو عاصم، حدثنا سفيان، عن سليمان بن عامر، عن عمارة بن عمير، عن حُرَيْث بن ظُهَيْر، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا باطلاً، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية، تدعوه إلى دينه كتالية المال. وقال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن سعد، أخبرنا ابن شهاب، عن عُبَيْد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل على رسوله ﷺ أحدث تقرؤونه محضاً لم يُشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله، وغيره وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسائلهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم. وقال البخاري: وقال أبو اليمان: أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني حُميد بن عبد الرحمن: أنه سمع معاوية يحدث رجلاً من قريش بالمدينة - وذكر كعب الأحبار - فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلوا عليه الكذب. قلت: معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد؛ لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة؛ لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة، ومع ذلك وقرب العهد وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة، لا يعلمها إلا الله ومن منحه الله علماً بذلك، كُلُّ بحسبه، والله الحمد والمنة.

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَنَالُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَعْطَلُ بَيْبِنَا إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْدُئُ فِي سُذُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْوَحْيَ وَمَا يُجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْقَلِيلُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قال ابن جرير: يقول الله تعالى: كما أنزل الكتاب على من قبلك - يا محمد - من الرسل، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب. وهذا الذي قاله حسن ومناسبة وارتباط جيد. وقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء، كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وأشباههما. وقوله: ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾، يعني العرب من قريش وغيرهم، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ أي: ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل، ويغطي ضوء الشمس بالوصائل، وهيهات. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَنَالُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَعْطَلُ بَيْبِنَا﴾، أي: قد لبثت في قومك - يا محمد - ومن قبل أن تأتي بهذا القرآن عمراً لا تقرأ كتاباً ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب. وهكذا صفته في الكتب المتقدمة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي الْوُحْيِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]. وهكذا كان، صلوات الله وسلامه عليه دائماً أبداً إلى يوم القيامة، لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرأ ولا حرفاً بيده، بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم. ومن زعم من متأخري الفقهاء، كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه أنه، عليه السلام، كتب يوم الحديبية: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله: فإنما حملة على ذلك رواية في صحيح البخاري: «ثم أخذ فكتب»: وهذه محمولة على الرواية الأخرى: «ثم أمر فكتب». ولهذا اشتد النكير بين فقهاء المغرب والمشرق على من قال بقول الباجي، وتبرؤوا منه، وأنشدوا في ذلك أقوالاً، وخطبوا به في محافلهم: وإنما أراد الرجل - أعني الباجي، فيما يظهر عنه - أنه كتب ذلك على وجه المعجزة، لا أنه كان يحسن الكتابة، كما قال، عليه الصلاة والسلام، إخباراً عن الدجال: «مكتوب بين عينيه كافر» وفي رواية: «ك ف ر، يقرأها كل مؤمن»، وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت، عليه السلام، حتى تعلم الكتابة، فضعيف لا أصل له؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَنَالُوا﴾ أي: تقرأ ﴿مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾، لتأكيد النفي، ﴿وَلَا تَعْطَلُ بَيْبِنَا﴾ تأكيد أيضاً، وخرج مخرج الغالب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْلُرُ بِحَاجَتِهِ﴾ [الأنعام: ٢٣٨]. وقوله: ﴿إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول: إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة: ﴿وَقَالُوا أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ أَسْتَبْهَتَهَا فِيهِ ثَمَلٌ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّكُمْ كَانَتْ عَفْوَكَ رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]. وقال ها هنا: ﴿بَلْ هُوَ

ءَايَاتٍ يَبَيِّنُ فِي سُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَي: هذا القرآن آيات بيّنة واضحة في الدلالة على الحق، أمراً ونهيّاً وخبراً، يحفظه العلماء، يسره الله عليهم حفظاً وتلاوة وتفسيراً، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَيَّنَّا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [١٧] ﴿القم: ١٧﴾، وقال رسول الله ﷺ: «ما من نبي إلا وقد أعطى ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً».

وفي حديث عياض بن حمار، في صحيح مسلم: «يقول الله تعالى: إني مبتليكم ومبتل بك، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان». أي: لو غسل الماء المحلّ المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل، كما جاء في الحديث الآخر: «لو كان القرآن في إهاب، ما أحرقت النار». لأنه محفوظ في الصدور، ميسر على الألسنة، مهيمن على القلوب، معجز لفظاً ومعنى؛ ولهذا جاء في الكتب المتقدمة، في صفة هذه الأمة: «أناجيلهم في صدورهم». واختار ابن جرير أن المعنى في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبَيِّنُ فِي سُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتاباً ولا تخطه بيمينك، آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب. ونقله عن قتادة، وابن جريج. وحكى الأول عن الحسن البصري فقط. قلت: وهو الذي رواه العوفي عن عبد الله بن عباس، وقاله الضحاك، وهو الأظهر، والله أعلم. وقوله: ﴿وَمَا يَحْكُمُ إِلَّا أَطْلُفُونَ﴾ أي: ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون، أي: المعتدون المكابرون، الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١١] ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْآلِيمَ﴾ [١٢] ﴿يونس: ٩٦، ٩٧﴾.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [١٣] ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ آيَاتٌ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَيْنَ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [١٤] ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [١٥].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات - يعنون - ترشدهم إلى أن محمداً رسول الله كما جاء صالح بناقته، قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: إنما أمر ذلك إلى الله، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم؛ لأن ذلك سهل عليه، يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنما قصدكم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَإِنَّمَا تُمَوِّدُ الْآفَاقَةَ مَيْمَنَةً فَنَغْلِبُكُمْ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]. وقوله: ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: إنما بعثت نذيراً لكم بين التذارة فعلي أن أبلغكم رسالة الله ﴿وَمَنْ يَدْعُ اللَّهَ فَهُوَ الْهَدْيُ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ مِنْكُمْ شَيْئاً﴾ [الكهف: ١٧]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. ثم قال تعالى مبيناً كثرة جهلهم، وسخافة عقلمهم، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد فيما جاءهم به - وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ عجزت الفصحاء والبغاة عن معارضته، بل عن معارضة عشر سور من مثله، بل عن معارضة سورة منه - فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ آيَاتٌ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ أي: أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم، الذي فيه خبر ما قبلهم، ونبا ما بعدهم، وحكم ما بينهم، وأنت رجل أُمي لا تقرأ ولا تكتب، ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب، فجنّتهم بأخبار ما في الصحف الأولى، ببيان الصواب مما اختلفوا فيه، وبالحق الواضح البين الجلي، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمُوا عَمَلُونَا فِيِ إِسْرَءِيلَ﴾ [١٦] ﴿الشعراء: ١٩٧﴾ وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا آيَاتُنَا بِآيَاتِهِ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ نَأْتِهِمْ بِبَيِّنَةٍ مَا فِي الصَّحُفِ الْأُولَى﴾ [١٧] ﴿طه: ١٣٣﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا ليث، حدثني سعيد بن أبي سعيد، عن أبيه عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». أخرجاه من حديث الليث. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَيْنَ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [١٨] أي: إن في هذا القرآن: ﴿لَرَحْمَةً﴾ أي: بياناً للحق، وإزاحة للباطل و﴿ذِكْرَيْنَ﴾ بما فيه حلول الثقات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين، ﴿لَرَحْمَةً وَذِكْرَيْنَ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. ثم قال تعالى: قل: ﴿كَفَى بِاللَّهِ بَنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه، بأنه أرسلني، فلو كنت كاذباً عليه لاتنقم مني، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ لَقَوْلٌ عَلَيْنَا بِعَصِ الْأَقَاوِيلِ﴾ [١٩] ﴿لَحَذَّائُنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [٢٠] ﴿ثُمَّ لَنَقْلَنَّهُ مِنْهُ الْوَيْلَ﴾ [٢١] ﴿فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَجْدَعَةٍ حَنِينٍ﴾ [٢٢] [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]، وإنما أنا صادق عليه فيما أخبركم به، ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات، والدلائل القاطعات. ﴿يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: لا تخفي عليه خافية. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: يوم معادهم سيجزيهم على ما فعلوا، ويقابلهم

دينهم، وهاجروا إلى الله، ونايذوا الأعداء، وفارقوا الأهل والأقرباء، ابتغاء وجه الله، ورجاء ما عنده وتصديق موعوده. قال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثني أبي، حدثنا صفوان المؤذن، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا معاوية بن سلام، عن أخيه

زيد بن سلام، عن جده أبي سلام الأسود، حدثني أبو معاتق الأشعري، أن أبا مالك الأشعري حدثه أن رسول الله ﷺ حدثه أن في الجنة عُرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وأطاب الكلام، وأباح الصيام، وأقام الصلاة، والناس نيام. قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، في أحوالهم كلها، في دينهم ودنياهم. ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب، فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار؛ ولهذا قال: ﴿وَكَيْفَ يَمُنُّ الَّذِينَ لَا تَحُولُ رِزْقَهُمْ﴾ أي: لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تؤخر شيئاً لغد، ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: الله يفيض لها رزقها على ضعفها، ويسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه، حتى الذر في قرار الأرض، والطير في الهواء والحيتان في الماء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَمُنُّ الَّذِينَ لَا تَحُولُ رِزْقَهُمْ وَلَهُمْ يَوْمَهُمْ يَمُوتُونَ وَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [هود: ٦١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الرحمن الهروي، حدثنا يزيد - يعني ابن هارون - حدثنا الجراح بن ميثال الجزري - هو أبو العطوف - عن الزهري، عن رجل، عن ابن عمر قال: خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة، فجعل يلتقط من التمر ويأكل، فقال لي: «يا ابن عمر، مالك لا تأكل؟» قال: قلت: لا أشتهيه يا رسول الله، قال: «الكني أشتهيه، وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً ولم أجده، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك قيصر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخشون رزق سنتم بضعة البقين؟» قال: فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت: ﴿وَكَيْفَ يَمُنُّ الَّذِينَ لَا تَحُولُ رِزْقَهُمْ وَلَهُمْ يَوْمَهُمْ يَمُوتُونَ وَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يأمرني بكنز الدنيا، ولا باتباع الشهوات، فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية فإن الحياة بيد الله، ألا وإنني لا أكنز ديناراً ولا درهماً، ولا أخبئ رزقاً لغد». وهذا حديث غريب، وأبو العطوف الجزري ضعيف. وقد ذكروا أن الغراب إذا فقس عن فراخه البيض، خرجوا وهم بيض فإذا رآهم أبواهم كذلك، نفرا عنهم أياماً حتى يسود الريش، فيظل الفرخ فاتحاً فاه يتفقد أبويه، فيفيض الله له طيراً صغيراً كالبرغش فيغشاه فيتقوت منه تلك الأيام حتى يسود ريشه، والأبوان يتفقدانه كل وقت، فكلما رآوه أبيض الريش نفرا عنه، فإذا رآوه قد اسود ريشه عطفوا عليه بالحضانة والرزق، ولهذا قال الشاعر:

يا رازق النعاب في عُشِّه وجابر العظم الكبير المهيض
وقد قال الشافعي في جملة كلام له في الأوامر، كقول النبي ﷺ: «سافروا تصحوا وترزقوا». قال البيهقي أخبرنا إمام أبو الحسن علي بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد، أخبرنا محمد بن غالب، حدثني محمد بن سنان، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن رزاد - شيخ من أهل المدينة - حدثنا عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «سافروا تصحوا وتغنموا». قال: ورويناه عن ابن عباس. وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لُهيعة، عن دراج، عن عبد الرحمن بن حُجيرة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سافروا تربحوا، وصوموا تصحوا، واغزوا تغنموا». وقد ورد مثل حديث ابن عمر عن ابن عباس مرفوعاً، وعن معاذ بن جبل موقوفاً. وفي لفظ: «سافروا مع ذوي الجود والميسرة». وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم.

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَمَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَقَالُوا اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٦١) ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٦٢) ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ زَلَّ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاتَّخِذْ بِهِ الْأَرْضُ مِنْ بَدُوِّ مَوَاقِفَ لَقَالُوا اللَّهُ فَبِئْسَ الْخَبَرُ لِيٍّ بَلْ كَذِبُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٦٣).

يقول تعالى مقررًا أنه لا إله إلا هو؛ لأن المشركين - الذين يعبدون معه غيره - معترفون أنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر، وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده، ومقدر آجالهم، واختلافها واختلاف أرزاقهم ففاوت بينهم، فمنهم الغني والفقير، وهو العليم بما يصلح كلا منهم، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فذكر أنه المستبد بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك فلم يُعبد غيره؟ ولم يتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاقرار بتوحيد الربوبية. وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تلييتهم: «لييك لا شريك لك، إلا شركاً هو لك، تملكه وما ملك».

﴿وَمَا هِيَ الْحَبَرَةُ الَّتِي لَا يَهْدِي وَإِنَّ أَهْلَ الْبُيُوتِ لَوِ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٦٤) ﴿فَلَا رَيْبَ فِي الْفُتُورِ دَعَا اللَّهُ تَوَلَّيْنَ لَهُ

الَّذِينَ فَلَّمَا جَحَنَهُمْ إِلَى الْآلِ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ يَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَهُمْ وَلِيَسْتَنْصِفُوا قَوْمَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها، وغاية ما فيها لهو ولعب: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أي: الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال لها ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الآباد. وقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لآثروا ما يبقى على ما يفنى. ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطراب يدعونه وحده لا شريك له، فهلا يكون هذا منهم دائماً، ﴿فَإِذَا رَكِيزًا فِي التُّلُوكِ دَعَاُ اللَّهُ تَخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾، كقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ السَّارِبُ فِي الْبَحْرِ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَا تَجْنُكُمُ إِلَى الْبَرِّ آفَاقُهُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧]. وقال ها هنا: ﴿فَلَمَّا جَحَنَهُمْ إِلَى الْآلِ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾. وقد ذكر محمد بن إسحاق، عن عكرمة بن أبي جهل: أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فاراً منها، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة، اضطربت بهم السفينة، فقال أهلها: يا قوم، أخلصوا لربكم الدعاء، فإنه لا ينجي ههنا إلا هو. فقال عكرمة: والله إن كان لا ينجي في البحر غيره، فإنه لا ينجي غيره في البر أيضاً، اللهم لك علي عهد لئن خرجت لأذهبن فلاضعن يدي في يد محمد فلاجدنه رؤوفاً رحيماً، وكان كذلك. وقوله: ﴿يَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَهُمْ وَلِيَسْتَنْصِفُوا﴾: هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة؛ لأنهم لا يقصدون ذلك، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقيضه إياهم لذلك فهي لام التعليل. وقد قدمنا تقرير ذلك في قوله: ﴿يَكُونُ لَهُمْ عَذَابٌ وَخِزْيَانٌ﴾ [التقصص: ٨].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّا بَيْنَ يَدَيْهِ وَخَلَفْنَا النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبَالِغِ الظُّلُمِ يَوْمُنَ وَبِعَمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَقَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى مبتدئاً على قريش فيما أحلهم من حرمة، الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والبادي، ومن دخله كان آمناً، فهم في أمن عظيم، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا يَلْفُ قُرَيْشٍ﴾ [١] ﴿إِلَّا فِيهِمْ رِجَالُ آلِثَلَاةٍ وَالصَّيْفُ﴾ [٢] ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ [٣] ﴿الَّذِينَ أَلْعَمَهُمْ رَبُّنَا وَأَنَّمَهُمْ رَبُّنَا حَوْبِي﴾ [٤] [قريش: ١-٤]. وقوله: ﴿أَفَبَالِغِ الظُّلُمِ يَوْمُنَ وَبِعَمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي: أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به، وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد، و ﴿بَدَّلُوا بِمَتَىٰ أَلْعَمَ اللَّهُ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، وكفروا بنبي الله وعبدوه ورسوله، فكان اللاتق بهم إخلاص العبادة لله، وألا يشركوا به، وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره، فكذبوه وقتلوه وأخرجوه من بين ظهرهم؛ ولهذا سلبهم الله ما كان أنعم به عليهم، وقتل من قتل منهم بيد، وصارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين، ففتح الله على رسوله مكة، وأرغم أنافهم وأذل رقابهم. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَقَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾، أي: لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله فقال: إن الله أوحى إليه شيء. ولم يوح إليه شيء. ومن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله. وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه، فالأول مفتر، والثاني مكذب؛ ولهذا قال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾، يعني: الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، أي: لنبصرنهم سبلنا، أي: طرقتنا في الدنيا والآخرة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا عباس الهمداني أبو أحمد - من أهل عكا - في قول الله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [٦٩] قال: الذين يعملون بما يعلمون، يهديهم لما لا يعلمون. قال أحمد بن أبي الحواري: فحدثت به أبا سليمان الداراني فأعجبه، وقال: ليس ينبغي لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر، فإذا سمعه في الأثر عمل به، وحمد الله حين وافق ما في نفسه. وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عيسى بن جعفر - قاضي الري - حدثنا أبو جعفر الرازي، عن المغيرة، عن الشعبي قال: قال عيسى ابن مريم، عليه السلام: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك. وفي حديث جبريل لما سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان قال: «أخبرني عن الإحسان». قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

انتهى تفسير سورة العنكبوت،

وبه الحمد والمنة



مكة.

حديث آخر: قال سليمان بن مهران الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، قال: قال عبد الله: خمس قد مضين: الدخان واللزام، والبطشة، والقمر، والروم. أخرجاه. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا المحاربي، عن داود بن أبي هند، عن عامر - هو الشعبي - عن عبد الله - هو ابن مسعود رضي الله عنه - قال: كان فارس ظاهراً على الروم، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم. وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم، فلما نزلت: ﴿الَّذِي عَلَيَّ الرُّومُ﴾ (١) فِي آدَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئَاتُ ﴿٢﴾ فِي يَضَعِ سِنِينَ ﴿٣﴾ قالوا: يا أبا بكر، إن صاحبك يقول: إن الروم تظهر على فارس بضع سنين؟! قال: صدق. قالوا: هل لك إلى أن نقامرك. فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين، فمضت السبع ولم يكن شيء، ففرح المشركون بذلك وشق على المسلمين، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «ما بضع سنين عندكم؟» قالوا: دون العشر. قال: «اذهب فرايديهم وازدد سنتين في الأجل». قال: فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس، ففرح المؤمنون بذلك، وأنزل الله: ﴿الَّذِي عَلَيَّ الرُّومُ﴾ (١) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلُفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾. حديث آخر: قال ابن أبي حاتم، حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عمر الوكيعي، حدثنا مؤمل، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء، قال: لما نزلت: ﴿الَّذِي عَلَيَّ الرُّومُ﴾ (١) فِي آدَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئَاتُ ﴿٢﴾ قال المشركون لأبي بكر: ألا ترى إلى ما يقول صاحبك؟ يزعم أن الروم تغلب فارس. قال: صدق صاحبي. قالوا: هل لك أن نخاطرك؟ فجعل بينه وبينهم أجلاً، فحل الأجل قبل أن تغلب الروم فارس، فبلغ ذلك النبي ﷺ فسأه ذلك وكرهه، وقال لأبي بكر: «ما دعاك إلى هذا؟» قال: تصديقاً لله ولرسوله. فقال: «تعرض لهم وأعظم الخطر واجعله إلى بضع

سنين». فأتاهم أبو بكر فقال لهم: هل لكم في العود، فإن العود أحمد؟ قالوا: نعم. قال: فلم تمض تلك السنين حتى غلبت الروم فارس، وربطوا خيولهم بالمدائن، وبنوا الرومية، فجاء به أبو بكر إلى النبي ﷺ فقال: هذا السحت، قال: «تصدق به». حديث آخر: قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا إسماعيل بن أبي أويس، أخبرني ابن أبي الزناد، عن عروة بن الزبير، عن نيار بن مكرم الأسلمي قال: لما نزلت، ﴿اللَّهُ غَلَبَتِ الرُّومَ﴾ ١ ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَبْعِينَ﴾ ٢ ﴿يَوْمَ يُغَارِظُ يَوْمَئِذٍ الْكَافِرُ﴾ ٣، فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفي ذلك قوله الله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّ الْمُؤْمِنُونَ بِتَصَرُّ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ٤، وكانت قريش تحب ظهور فارس؛ لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان بيعت، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة: ﴿اللَّهُ غَلَبَتِ الرُّومَ﴾ ١ ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَبْعِينَ﴾ ٢ ﴿يَوْمَ يُغَارِظُ يَوْمَئِذٍ الْكَافِرُ﴾ ٣، قال ناس من قريش لأبي بكر: فذاك بيننا وبينك. زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى - وذلك قبل تحریم الرهان - فارتهن أبو بكر والمشركون، وتواضعوا الرهان، وقالوا لأبي بكر: كم تجعل البضع: ثلاث سنين إلى تسع سنين، فسم بيننا وبينك وسطاً تنتهي إليه. قال: فسقوا بينهم ست سنين. قال: فمضت ست السنين قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، فعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين، قال: لأن الله قال: ﴿فِي بَعْضِ سِنِينَ﴾ ٤. قال: فأسلم عند ذلك ناس كثير.

هكذا ساقه الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح، لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي الزناد. وقد روى نحو هذا مراسلاً عن جماعة من التابعين، مثل عكرمة، والشعبي، ومجاهد، وقتادة، والسدي، والزهري، وغيرهم. ومن أغرب هذه السياقات ما رواه الإمام شئيب بن داود في تفسيره حيث قال: حدثني حجاج، عن أبي بكر بن عبد الله، عن عكرمة قال: كانت في فارس امرأة لا تلد إلا الملوك الأبطال، فدعاها كسرى فقال: إني أريد أن أبعث إلى الروم جيشاً وأستعمل عليهم رجلاً من بنيك، فأشير علي، أيهم أستعمل؟ قالت: هذا فلان، وهو أروغ من ثعلب، وأحذر من صقر. وهذا فرخان، وهو أنفذ من سنان. وهذا شهريراز، وهو أحلم من كذا - تعني أولادها الثلاثة - فاستعمل أيهم شئت. قال: فإني قد استعملت الحلیم. فاستعمل شهريراز، فسار إلى الروم بأهل فارس، فظهر عليهم فقتلهم، وحزب مدائنهم، وقطع زيتونهم. قال أبو بكر بن عبد الله: فحدثت بهذا الحديث عطاء الخراساني فقال: أما رأيت بلاد الشام؟ قلت: لا، أما إنك لو رأيتها لرأيت المدائن التي خربت، والزيتون الذي قطع. فأتيت الشام بعد ذلك فرأيت. قال عطاء الخراساني: حدثني يحيى بن يعمر: أن أنقص بعث رجلاً يدعى قطعة بجيش من الروم، وبعث كسرى شهريراز، فالتقى بأذرع وتُصرى، وهي أدنى الشام إليكم، فلقيت فارس الروم، فغلبتهم فارس. ففرحت بذلك كفار قريش وكرهه المسلمون. قال عكرمة: ولقي المشركون أصحاب النبي ﷺ وقالوا: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم، فأنزل الله: ﴿اللَّهُ غَلَبَتِ الرُّومَ﴾ ١ ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَبْعِينَ﴾ ٢ ﴿يَوْمَ يُغَارِظُ يَوْمَئِذٍ الْكَافِرُ﴾ ٣، فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار فقال: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا، فلا تفرحوا، ولا يقرن الله أعينكم، فوالله ليظهرن الله الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ. فقام إليه أبي بن خلف فقال: كذبت يا أبا فضيل. فقال له أبو بكر: أنت أكذب يا عدو الله. فقال: أنا حبك عشر قلائص مني وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت، وإن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين. ثم جاء أبو بكر إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «ما هكذا ذكرت، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فزياده في الخطر وماده في الأجل». فخرج أبو بكر فلقى أبيًا فقال: لعلك ندمت؟ فقال: لا، تعال أزايدك في الخطر وأماذك في الأجل، فاجعلها مائة قلوصل لمائة قلوصل إلى تسع سنين. قال: قد فعلت. فظهرت الروم على فارس قبل ذلك، فغلبهم المسلمون.

قال عكرمة: لما أن ظهرت فارس على الروم، جلس فرخان يشرب وهو أخو شهريراز، فقال لأصحابه: لقد رأيت كأنني جالس على سرير كسرى. فبلغت كسرى فكتب إلى شهريراز: إذا أتاك كتابي هذا فابعث إلي برأس فرخان. فكتب إليه: أيها الملك، إنك لن تجد مثل فرخان، له نكاية وصوت في العدو، فلا تفعل. فكتب إليه: إن في رجال فارس خلفاً منه، فمعتل إلي برأسه. فراجعته، فغضب كسرى فلم يجبه، وبعث بريداً إلى أهل فارس: إني قد نزعتم عنكم شهريراز، واستعملت عليكم فرخان. ثم دفع إلى البريد صحيفة لطيفة صغيرة فقال: إذا ولي فرخان الملك، وانقاد له أخوه، فأعطه هذه. فلما قرأ شهريراز الكتاب قال: سمعاً وطاعة، ونزل عن سريره، وجلس فرخان، ودفع إليه الصحيفة، قال: اتنوني بشهريراز، وقدمه ليضرب عنقه، قال: لا

تعجل عليّ حتى أكتب وصيتي، قال: نعم. فدعا بالسُّفَط فأعطاه الصحائف وقال: كل هذا راجعٌ فيك كسرى، وأنت أردت أن تقتلني بكتاب واحد. فرد الملك إلى أخيه شهريراز، وكتب شهريراز إلى قيصر ملك الروم: إن لي إليك حاجة لا تحملها البُرْد ولا تحملها الضحف، فالقني، ولا تلقني إلا في خمسين رومياً، فإني ألقاك في خمسين فارسياً. فأقبل قيصر في خمسمائة ألف رومي، وجعل يضع العيون بين يديه في الطريق، وخاف أن يكون قد مكر به، حتى أنه عيونه أنه ليس معه إلا خمسون رجلاً. ثم بسط لهما والتقى في قبة ديباج ضربت لهما، مع كل واحد منهما سكين، فدعيا ترجماناً بينهما، فقال شهريراز: إن الذين خربوا مدائنك أنا وأخي بكيدنا وشجاعتنا، وإن كسرى حسدنا وأراد أن أقتل أخي فأبيت، ثم أمر أخي أن يقتلني. وقد خلعناه جميعاً، فنحن نقاتله معك. قال: قد أصبتما. ثم أشار أحدهما إلى صاحبه أن السر بين اثنين فإذا جاوز اثنين فشا. قال: أجل. فقتلا الترجمان جميعاً بسكينيهما. قال: فأهلك الله كسرى، وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ يوم الحديبية، وفرح المسلمون معه.

فهذا سياق غريب، وبناء عجيب. ولنتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمة، فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، في أول سورة «البقرة». وأما الروم فهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم، وهم أبناء عم بني إسرائيل، ويقال لهم: بنو الأصفر. وكانوا على دين اليونان، واليونان من سلالة يافث بن نوح، أبناء عم الترك. وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة، ويقال لها: المتحيرة، ويصلون إلى القطب الشمالي، وهم الذين أسسوا دمشق، وبنوا معبدها، وفيه محارب إلى جهة الشمال، فكان الروم على دينهم إلى مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة، وكان من ملك الشام مع الجزيرة منهم يقال له: قيصر. فكان أول من دخل في دين النصارى من الملوك قسطنطين بن قسطنس، وأمه مريم الهيلانية الشدقانية من أرض حران، كانت قد تنصرت قبله، فدعته إلى دينها، وكان قبل ذلك فيلسوفاً، فتابعها. يقال: نقيّة - واجتمعت به النصارى، وتناظروا في زمانه مع عبد الله بن أريوس، واختلفوا اختلافاً كثيراً منتشراً متشتتاً لا ينضب، إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً، فوضعوا القسطنطين العقيدة، وهي التي يسمونها الأمانة الكبيرة، وإنما هي الخيانة الحقيرة، ووضعوا له القوانين - يعنون كتب الأحكام من تحليل وتحريم وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وغيروا دين المسيح، عليه السلام، وزادوا فيه ونقصوا منه. وفصلوا إلى المشرق واعتاضوا عن السبت بالأحد، وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير. واتخذوا أعياداً أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس، وغير ذلك من البواعيث والشعائين، وجعلوا له الباب وهو كبيرهم، ثم البتاركة، ثم المطارنة، ثم الأساقفة والقساوسة، ثم الشمامسة. وابتدعوا الرهبانية. وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهي القسطنطينية، يقال: إنه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة، وبنى بيت لحم بثلاثة محارب، وبنى أمه القمامة، وهؤلاء هم الملكية، يعنون الذين هم على دين الملك.

ثم حدث بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الإسكاف، ثم النسبورية أصحاب نسطورا، وهم فرق وطوائف كثيرة، كما قال رسول الله ﷺ: «إنهم افرقوا على اثنين وسبعين فرقة». والغرض أنهم استمروا على النصرانية، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده، حتى كان آخرهم هرقل. وكان عقلاء الرجال، ومن أحزم الملوك وأداهم، وأبعدهم غوراً وأقصاهم رأياً، فتملك عليهم في رئاسة عظيمة وأبهة كبيرة، فناواه كسرى ملك الفرس، وملك البلاد كالعراق وخراسان والزي، وجميع بلاد العجم، وهو سابور ذو الأكتاف. وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر، وله رئاسة العجم وحماقة الفرس، وكانوا مجوساً يعبدون النار. فتقدم عن عكرمة أنه بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه، والمشهور أن كسرى غزا بنفسه في بلاده فقهره وكسره وقصره، حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية. فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه، وكانت النصارى تعظمه تعظيماً زائداً، ولم يقدر كسرى على فتح البلد، ولا أمكنه ذلك لحصانته؛ لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر، فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هنالك. فلما طال الأمر دبر قيصر مكيدة، ورأى في نفسه خديعة، فطلب من كسرى أن يقلع عن بلاده على مال يصلحه عليه، ويشترط عليه ما شاء. فأجابته إلى ذلك، وطلب منه أموالاً عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا، من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة. فطاوعه قيصر، وأوهمه أن عنده جميع ما طلب، واستقل عقله لما طلب منه ما طلب، ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عشره، وسأل كسرى أن يُمكنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته، ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه، فأطلق سراحه، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية، جمع أهل ملته وقال: إني خارج في أمر قد أبرمته، في جند قد عينته من جيشي، فإن رجعت إليكم قبل الحول فأنا ملككم، وإن لم أرجع إليكم قبلها فأنتم بالخيار، إن شئتم استمررت على بيعتي، وإن شئتم وليتم عليكم غيري. فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حياً، ولو غبت عشرة أعوام. فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة من جيش متوسط، هذا وكسرى مُحَيَّم على القسطنطينية

ينتظره ليرجع، فركب قيصر من فوره وسار مسرعاً حتى انتهى إلى بلاد فارس، فعاث في بلادهم قتلاً لرجالها ومن بها من المقاتلة، أولاً فأولاً، ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن، وهي كرسي مملكة كسرى، فقتل من بها، وأخذ جميع حواصله وأمواله، وأسر نساءه وحريمه، وحلق رأس ولده، وركبه على حمار وبعث معه من الأساورة من قومه في غاية الهوان والذلة وكتب إلى كسرى يقول: هذا ما طلبت فخذ. فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم ما لا يحصىه إلا الله ﷻ، واشتد حنقه على البلد، فاشتد في حصارها بكل ممكن فلم يقدر على ذلك. فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون، التي لا سبيل لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها، فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها، وهو أنه أرصد جنده وحواصله التي معه عند فم المخاضة، وركب في بعض الجيش، وأمر بأحمال من التبن والبر والروث فحملت معه، وسار إلى قريب من يوم في الماء مصعداً، ثم أمر بإلقاء تلك الأحمال في النهر، فلما مرت بكسرى ظن هو وجنوده أنهم قد خاضوا من هنالك، فركبوا في طلبهم ففشرت المخاضة عن الفرس، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض في الخوض، فخاضوا وأسرعوا السير فقاتوا كسرى وجنوده، ودخلوا القسطنطينية. وكان ذلك يوماً مشهوداً عند النصاري، وبقي كسرى وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون. لم يحصلوا على بلاد قيصر، وبلادهم قد خربت الروم وأخذوا حواصلهم، وسبوا ذراريهم ونساءهم. فكان هذا من غلب الروم فارس، وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب الفرس للروم. وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبصري، على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما، وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز. وقال مجاهد: كان ذلك في الجزيرة، وهي أقرب بلاد الروم من فارس، فإله أعلم.

ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين، وهي تسع؛ فإن البضع في كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع. وكذلك جاء في الحديث الذي رواه الترمذي، وابن جرير وغيرهما، من حديث عبد الله بن عبد الرحمن الجُمحي، عن الزهري، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بن عبد الله، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر في مناجاة: ﴿اللَّهُمَّ خَلِّتِ الْوَرْثَ﴾: «ألا احتطت يا أبا بكر، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع؟»، ثم قال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. وروى ابن جرير، عن عبد الله بن عمرو: أنه قال ذلك. وقوله: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي: من قبل ذلك ومن بعده، فبنى على الضم لما قُطِعَ المضاف، وهو قوله: ﴿قَبْلُ﴾ عن الإضافة، وثبت. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّ الْمُؤْمِنُونَ بِبَصَرِ اللَّهِ﴾ أي: للروم أصحاب قيصر ملك الشام، على فارس أصحاب كسرى، وهم المجوس. وقد كانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كبيرة من العلماء، كابن عباس، والثوري، والسُّدِّي، وغيرهم. وقد ورد في الحديث الذي رواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والبخاري، من حديث الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد قال: لما كان يوم بدر، ظهرت الروم على فارس، فأعجب ذلك المؤمنين وفرحوا به، وأنزل الله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّ الْمُؤْمِنُونَ بِبَصَرِ اللَّهِ يُبْصِرُ مَنْ يُنْكَرُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾. وقال آخرون: بل كان نصرة الروم على فارس عام الحديدية؛ قاله عكرمة، والزهري، وقتادة، وغيرهم، ووجه بعضهم هذا القول بأن قيصر كان قد نذر لئن أظهره الله بكسرى ليمش من حمص إلى إيليا - وهو بيت المقدس - شكراً لله ﷻ، فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله ﷺ، الذي بعثه مع دحية بن خليفة، فأعطاه دحية لعظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر. فلما وصل إليه سأل من بالشام من عرب الحجاز، فأحضر له أبو سفيان صخر بن حرب الأموي في جماعة من كفار قريش كانوا في غزاة، فجاء بهم إليه، فجلسوا بين يديه، فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: أنا. فقال لأصحابه - وأجلسهم خلفه -: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذب فكذبوه. فقال أبو سفيان: فوالله لولا أن يأتروا عليّ الكذب لكذبت. فسأله هرقل عن نسبه وصفته، فكان فيما سألوه أن قال: فهل يغدر؟ قال: لا، ونحن منه في مدة لا ندرى ما هو صانع فيها - يعني بذلك الهدنة التي كانت قد وقعت بين رسول الله ﷺ وكفار قريش يوم الحديدية على وضع الحرب بينهم عشر سنين، فاستدلوا بهذا على أن نصر الروم على فارس كان عام الحديدية؛ لأن قيصر إنما وفى بنذره بعد الحديدية، والله أعلم.

ولأصحاب القول الأول أن يجيبوا عن هذا بأن بلاده كانت قد خربت وتشعثت، فما تمكن من وفاء نذره حتى أصلح ما ينبغي إصلاحه وتفقّد بلاده، ثم بعد أربع سنين من نصرته وفى بنذره، والله أعلم. والأمر في هذا سهل قريب، إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك؛ لأن الروم أهل كتاب في الجملة، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس، كما قال الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أُمَّكَ أَنْتَ الْأَنْبِيَاءُ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُوَاتِ شَرُّكُمْ وَلَتَجِدَنَّ أَرْبَهُمْ مُّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْذِينَ قَالُوا إِنَّا نَحْكُمُكُمْ ذَلِكَ وَإِنْ مِنْهُمْ قِسِيَةٌ وَهَبْنَاكَ وَأَنْتُمْ لَا تَشْكُرُونَ﴾ وَإِذَا

سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَوْهَُا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْ مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٢﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣]، وقال تعالى ههنا: ﴿فِي بَيْتِ سِنِينَ﴾ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٨١﴾ يَبْصُرُ اللَّهُ يَبْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٨٠﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثني أسيد الكلابي، قال: سمعت العلاء بن الزبير الكلابي يحدث عن أبيه، قال: رأيت غلبة فارس الروم، ثم رأيت غلبة الروم فارس، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم، كل ذلك في خمس عشرة سنة. وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: في انتصاره وانتقامه من أعدائه، ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين. وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي: هذا الذي أخبرناك به - يا محمد - من أنا سننصر الروم على فارس، وعد من الله حق، وخبر صدق لا يخلف، ولا يد من كونه ووقوعه؛ لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتلتين إلى الحق، ويجعل لها العاقبة، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: بحكم الله في كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل. وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ ﴿٧﴾ أي: أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها، فهم حذاق أذكاء في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون عما ينفعهم في الدار الآخرة، كأن أحدهم مُغْفَل لا ذهن له ولا فكرة. قال الحسن البصري: والله بلغ من أحدهم بدياه أنه يقلب الدرهم على ظفره، فيخبرك بوزنه، وما يحسن أن يصلي. وقال ابن عباس في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ ﴿٧﴾ يعني: الكفار، يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهال.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْآرِضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَبَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلَّيَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوْتُوا أَن كَذَّبُوا بِبَيِّنَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾.

يقول تعالى منبهاً على التفكير في مخلوقاته، الدالة على وجوده وانفراده بخلقها، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ يعني به: النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة، والأجناس المختلفة، فيعلموا أنها ما خلقت سدى ولا باطلاً، بل بالحق، وأنها موجهة إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾. ثم نبههم على صدق رسله فيما جاؤوا به عنه، بما أيدهم به من المعجزات، والدلائل الواضحات، من إهلاك من كفر بهم، ونجاة من صدقهم، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين؛ ولهذا قال: ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم - أيها المبعوث إليهم محمد صلوات الله وسلامه عليه، وأكثر أموالاً وأولاداً، وما أوتيتم معشار ما أوتوا، ومكنوا في الدنيا تمكيناً لم تبلغوا إليه، وعمرها فيها أعماراً طوالاً، فعمروها أكثر منكم. واستغلوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا لما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا، أخذهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس الله، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله، واستهزؤوا بها، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوْتُوا أَن كَذَّبُوا بِبَيِّنَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿١٠﴾، كما قال تعالى: ﴿وَنَقُلُّبُ أَقْبَلْتُمْ وَأَكْبَرْتُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرْتُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١١﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله: ﴿فَلَنَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وقال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمْتُ أَنِّي رَيْبُهُ اللَّهُ أَنْ يُهَيِّجَ يَتَضَيَّ ذُنُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩]. وعلى هذا تكون السوای منصوبة مفعولاً لأسأوا. وقيل: بل المعنى في ذلك: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوْتُوا﴾ السوای: أي: كانت السوای عاقبتهم؛ لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون. فعلى هذا تكون السوای منصوبة خبر كان. هذا توجيه ابن جرير، ونقله عن ابن عباس وقادة. ورواه ابن أبي حاتم عنهما وعن الضحاك بن مزاحم، وهو الظاهر، والله أعلم، ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٢﴾ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٤﴾ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُنْفِثُ رِيحٌ مِّنْ رَبِّكَ فَتَرَوْنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْحٍ يُخْبَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِبَيِّنَاتِنَا وَلِقَائِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخْتَصِمُونَ ﴿١٧﴾.

يقول تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: كما هو قادر على بدائه فهو قادر على إعادته، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: يوم

يقول تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب، ﴿ثُمَّ رَأَى أَنَّهُ إِذَا نُفِثَ بَنُوهُ﴾ ، فأصلكم من تراب، ثم من ماء مهين، ثم تصوّر فكانعلقة، ثم مضغة، ثم صار عظاماً، شكله على شكل الإنسان، ثم كسا الله تلك العظام لحماً، ثم نفخ فيه الروح، فإذا هو سميع بصير . ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبني المداائن والحصون، ويسافر في أقطار الأقاليم ويركب متن البحور، ويدور أقطار الأرض ويتكسب ويجمع الأموال، وله فكرة وغور، ودهاء ومكر، ورأي وعلم، واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه . فسبحان من أقدرهم وسيّرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعاش والمكاسب، وفاتوت بينهم في العلوم والفكرة، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة؛ ولهذا قال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ

بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٢﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد وعُثْمَرُ، قالا: حدثنا عوف، عن قسامة بن زهير، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن، وبين ذلك». ورواه أبو داود والترمذي من طرق، عن عوف الأعرابي، به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقوله: ﴿وَمِنْ مَّا بَيْنَهُمْ أَنْ يَخْلُقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: خلق لكم من جنسكم إنثاء يَكُنْ لكم أزواجاً، ﴿لِتُكْنُوَ إِلَيْهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] يعني بذلك حواء، خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر. ولو أنه جعل بني آدم كلهم ذكوراً وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم إما من جان أو حيوان، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس. ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهم مودة: وهي المحبة، ورحمة: وهي الرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبتها لها، أو لرحمة بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للالفة بينهما، وغير ذلك، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمِنْ مَّا بَيْنَهُمْ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأُخْتِلِفَ أَلْسِنَتُكُمْ وَالزُّبُرُ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ مَّا بَيْنَهُمْ مَتَاعُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَيْتَانِكُمْ مِنْ قُضِيَّةٍ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٤﴾.

يقول تعالى: ومن آيات قدرته العظيمة ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خلق السموات في ارتفاعها واتساعها، وشغوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات، والأرض في انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية، وبحار وقفار، وحيوان وأشجار. وقوله: ﴿وَأُخْتِلِفَ أَلْسِنَتُكُمْ﴾ يعني: اللغات، فهؤلاء بلغة العرب، وهؤلاء تنزلهم لغة أخرى، وهؤلاء كرج، وهؤلاء روم، وهؤلاء إفرنج، وهؤلاء بزيبر، وهؤلاء تكرر، وهؤلاء حبشة، وهؤلاء هنود، وهؤلاء عجم، وهؤلاء صقالية، وهؤلاء خزر، وهؤلاء أرمن، وهؤلاء أكرد، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله. من اختلاف لغات بني آدم، واختلاف ألوانهم وهي خلأهم، فجميع أهل الأرض - بل أهل الدنيا - منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة: كل له عيوان وحاجبان، وأنف وجبين، وفم وخدان. وليس يشبه واحد منهم الآخر، بل لا بد أن يفارقه بشيء من السمات أو الهيئة أو الكلام، ظاهراً كان أو خفياً، يظهر عند التأمل، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه الأخرى. ولو توافق جماعة في صفة من جمال أو قبح، لا بد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ وَمِنْ مَّا بَيْنَهُمْ مَتَاعُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَيْتَانِكُمْ مِنْ قُضِيَّةٍ﴾ أي: ومن الآيات ما جعل لكم من صفة النوم في الليل والنهار، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة، وذهاب الكلال والتعب، وجعل لكم الانتشار والسعي في الأسباب والأسفار في النهار، وهذا ضد النوم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يعون. قال الطبراني: حدثنا حجاج بن عمران السدوسي، حدثنا عمرو بن الحصين العقيلي، حدثنا محمد بن عبد الله بن علانة، حدثني ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، سمعت عبد الملك بن مروان يحدث عن أبيه، عن زيد بن ثابت، رضي الله عنه، قال: أصابني أرق من الليل، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «قل اللهم غارت النجوم، وهذأت العيون، وأنت حي قيوم، يا حي يا قيوم، أقم عيني وأهدئ ليبي، فقلتها، فذهب عني.

﴿وَمِنْ مَّا بَيْنَهُمْ يُرِيكُمْ أَلْرِّقَ حَقًّا وَكَلِمًا وَبَيِّنًا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْهِي. يَوْمَ تَزُولُ السَّمَاءُ كَمَا تَزُولُ الْأَرْضُ وَتَكُونُ السَّمَاءُ دُخَانًا﴾ وَمِنْ مَّا بَيْنَهُمْ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ مَّا بَيْنَهُمْ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿يُرِيكُمْ أَلْرِّقَ حَقًّا وَكَلِمًا﴾ أي: تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة، أو صواعق متلفة، وتارة ترجون وميضه وما يأتي بعده من المطر المحتاج إليه؛ ولهذا قال: ﴿وَيُبَيِّنُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْهِي. يَوْمَ تَزُولُ السَّمَاءُ كَمَا تَزُولُ الْأَرْضُ وَتَكُونُ السَّمَاءُ دُخَانًا﴾ أي: بعد ما كانت هامة لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الماء ﴿أَهْوَتْ رَوِّتِ وَأَكْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَيْحٍ بَهِيحٍ﴾ [الحج: ٥]. وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. ثم قال: ﴿وَمِنْ مَّا بَيْنَهُمْ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾، كقوله: ﴿يُسَبِّحُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]. وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إذا اجتهد في اليمين يقول: لا، والذي تقوم السماء والأرض بأمره، أي: هي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيرها إياها، ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسموات، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمُومٍ وَظُلُوفٍ إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا بِلُحْيَةٍ﴾ [الإسراء: ٥٢]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا هِيَ بَرْقَةٌ تَحْتَ بَدْرٍ﴾ [الأنعام: ١٠١]، ﴿فَلَمَّا هُمْ بِلُحْيَةٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢]. [النازعات:

١٣، ١٤، وقال: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (يس: ٥٣).

﴿وَلَمْ يَنْ يَفِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَتِيلُونَ﴾ (١٣) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٤).

يقول تعالى: ﴿وَلَمْ يَنْ يَفِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ملكه وعبيده، ﴿كُلُّ لَمْ قَتِيلُونَ﴾ أي: خاضعون خاشعون طوعاً وكرهاً. وفي حديث دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، مرفوعاً: «كل حرف في القرآن يُذكر فيه القنوت فهو الطاعة». وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني: أسير عليه. وقال مجاهد: الإعادة أهون عليه من البداءة، والبداءة عليه هين. وكذا قال عكرمة وغيره. وقال البخاري: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، أخبرنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقلوه: لن يعيدني كما بدأتي، وليس أو الخلق بأهون علي من إعادته. وأما شتمه إياي فقلوه: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد». انفرد بإخراجه البخاري كما انفرد بروايته - أيضاً - من حديث عبد الرزاق عن مَعْمَرٍ، عن همام، عن أبي هريرة، به. وقد رواه الإمام أحمد منفرداً به عن حسن بن موسى، عن ابن لهيعة، حدثنا أبو يونس سليم بن جُبَيْرٍ، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه، أو مثله. وقال آخرون: كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء. قال العوفي، عن ابن عباس: كل عليه هين. وكذا قال الربيع بن خثيم. ومال إليه ابن جرير، وذكر عليه شواهد كثيرة، قال: ويحتمل أن يعود الضمير في قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ إلى الخلق، أي: وهو أهون على الخلق. وقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس كقولهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١). وقال قتادة: مثله أنه لا إله إلا هو، ولا رب غيره، وقال مثل هذا ابن جرير. وقد أنشد بعض المفسرين عند ذكر هذه الآية لبعض أهل المعارف:

إِذَا سَكَنَ الْغَدِيرُ عَلَى صَفَاءٍ وَجُنُبٌ أَنْ يُحَرِّكَهُ التَّسْلِيمُ
تَرَى فِيهِ السَّمَاءَ بِلا انْتِرَاءٍ كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْدُو وَالْتِجُومُ
كَذَاكَ قُلُوبُ أَزْوَاجِ التَّجَلِّي يُرَى فِي صَفْوِهَا اللَّهُ الْعَظِيمُ
﴿وَهُوَ أَكْبَرُ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد غلب كل شيء، وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله، شرعاً وقدرًا. وعن مالك في تفسيره المروي عنه، عن محمد بن المنكدر، في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾، قال: لا إله إلا الله.

﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦) بَلْ أَنْتُمْ أَلْتُمْتُمْ ظُلُمًا أَوْهَآهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ قَدْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٢٧).

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به، العابدين معه غيره، الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له، ملك له، كما كانوا في تلبيتهم يقولون: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. فقال تعالى: ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم، ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أي: لا يرتضي أحد منكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله، فهو وهو فيه على السواء ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تخافون أن يقاسموكم الأموال. قال أبو مجلز: إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك، وليس له ذاك، كذلك الله لا شريك له. والمعنى: أن أحداكم يأنف من ذلك، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ لِلَّهِ مَا يَكْفُرُونَ﴾ (النحل: ٦٢) أي: من البنات، حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات الله، وقد كان أحدهم إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب، فهم يأنفون من البنات. وجعلوا الملائكة بنات الله، فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم، فهذا أغلظ الكفر. وهكذا في هذا المقام جعلوا له شركاء من عبده وخلق، وأحدهم يأنف غاية الإباء ويأنف غاية الأنفة من ذلك، أن يكون عبده شريكه في ماله، يساويه فيه. ولو شاء لقاسمه عليه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. قال الطبراني: حدثنا محمود بن الفرج الأصبغاني، حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلي، حدثنا حماد بن شعيب، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان يلبي أهل الشرك: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. فأنزل الله:

﴿هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾. ولما كان التنبيه بهذا المثل على براءته تعالى ونزاهته بطريق الأولى والأحرى، قال: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. ثم قال تعالى مبيناً أن المشركين إنما عبدوا غيره سناً من أنفسهم وجهلاً: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ: المشركون ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: في عبادتهم الأنداد بغير علم، ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي: فلا أحد يهديهم إذا كتب الله إضلالهم، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أي: ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير، ولا محيد لهم عنه؛ لأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينَ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ وَأَقْوَمُ وَأَقْوَمُ وَالصَّلَاةُ وَلَا تُكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ ذَرَفُوا دِيْنَهُمْ وَكَانُوا شَيْعاً كُلَّ حَرْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

يقول تعالى: فسدد وجهك واستمر على الذي شرعه الله لك، من الحنيفية ملة إبراهيم، الذي هداك الله لها، وكمملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة، التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وفي الحديث: «إني خلقت عبادي حنفاء، فاجتالهم الشياطين عن دينهم». وسنذكر في الأحاديث أن الله تعالى فطر خلقه على الإسلام، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية أو النصرانية أو المجوسية. وقوله: ﴿لَا يَبْدِيلُ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ قال بعضهم: معناه لا تبدلوا خلق الله، فتغيروا الناس على فطرتهم التي فطرهم الله عليها. فيكون خبراً بمعنى الطلب، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾ [آل عمران: ٩٧]، وهذا معنى حسن صحيح. وقال آخرون: هو خبر على باب، ومعناه: أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلية المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك؛ ولهذا قال ابن عباس، وإبراهيم التيمي، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وابن زيد في قوله: ﴿لَا يَبْدِيلُ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي: لدين الله. وقال البخاري: قوله: ﴿لَا يَبْدِيلُ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾: لدين الله، خلقت الأولين: دين الأولين، والدين والفطرة: الإسلام. حدثنا عبدان، أخبرنا عبد الله، أخبرنا يونس، عن الزهري، أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن: أن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم يقول: ﴿فَطَرَتُ اللَّهُ إِلَيْهِ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلُ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينَ الْقَيِّمُ﴾. ورواه مسلم من حديث عبد الله بن وهب، عن يونس بن يزيد الأيلي، عن الزهري، به. وأخرجه - أيضاً - من حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ. وفي معنى هذا الحديث قد وردت أحاديث عن جماعة من الصحابة، فمنهم الأسود بن سريع التيمي. قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا يونس، عن الحسن، عن الأسود بن سريع التيمي قال: أتيت رسول الله ﷺ وغزوت معه، فأصب ظهراً، فقتل الناس يومئذ، حتى قتلوا الولدان. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية؟» فقال رجل: يا رسول الله، أما هم أبناء المشركين؟ فقال: «ألا إنما خياركم أبناء المشركين». ثم قال: «لا تقتلوا ذرية، لا تقتلوا ذرية». وقال: «كل نسمة تولد على الفطرة، حتى يُعرب عنها لسانها، فأبواها يهودانها أو ينصرانها». ورواه النسائي في كتاب السير، عن زياد بن أيوب، عن هشيم، عن يونس - وهو ابن عبيد - عن الحسن البصري، به.

ومنهم جابر بن عبد الله الأنصاري، قال الإمام أحمد: حدثنا هشام، حدثنا أبو جعفر، عن الربيع بن أنس، عن الحسن، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، حتى يُعرب عنه لسانه، فإذا عبر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً». ومنهم عبد الله بن عباس الهاشمي، قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين، فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم». أخرجه في الصحيحين، من حديث أبي بشر جعفر بن إياس الشُّكْرِي، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس مرفوعاً بذلك. وقد قال أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا حماد - يعني ابن سلمة - أنبأنا عمار بن أبي عمار، عن ابن عباس قال: أتى عليّ زمان وأنا أقول: أولاد المسلمين مع أولاد المسلمين، وأولاد المشركين مع المشركين. حتى حدثني فلان عن فلان: أن رسول الله ﷺ سئل عنهم فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». قال: فلقيت الرجل فأخبرني. فأمسكت عن قولي. ومنهم عياض بن حمار المجاشعي، قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا هشام، حدثنا قتادة، عن مُطَرِّف، عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته: «إن ربي، ﷻ، أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا،

كل مال نحلته عبادي حلال، وإنني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلّتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، ثم إن الله، ﷻ، نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان. ثم إن الله أمرني أن أحرق قريشاً، فقلت: يا رب، إذا يثلّغوا رأسي فيدعوه خبزاً. قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزمهم نفرك، وأنفق عليهم فستنق عليك. وابتعث جيشاً نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك. قال: «وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم، ورجل عفيف فقير متصدق. وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زبّز له، الذين هم فيكم تبعاً، لا يبتغون أهلاً ولا مالاً. والخائن الذي لا يخفي له طمع وإن دق إلا خانه. ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك». وذكر البخيل، أو الكذاب، والشنظير: الفحاش. انفراد بإخراجه مسلم، فرواه من طرق عن قتادة، به. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي أَلْقَيْتُ﴾ أي: التمسك بالشرعية والفطرة السليمة هو الدين القويم المستقيم، ﴿وَلِكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا لا يعرفه أكثر الناس، فهم عنه ناكبون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَلَنْ تَجْعَلَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ خَيْرًا مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ١١٦]. وقوله: ﴿ثُنْيَيْنِ إِلَى﴾: قال ابن زيد، وابن جريج، أي راجعين إليه، ﴿وَأَقْرَبَهُ﴾ أي: خافوه وراقبوه، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وهي الطاعة العظيمة، ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: بل من الموحدين المخلصين له العبادة، لا يريدون بها سواه. قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، عن يزيد بن أبي مریم قال: مر عمر، رضي الله عنه، بمعاذ بن جبل فقال: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ: ثلاث، وهن من المنجيات: الإخلاص، وهي الفطرة، فطرة الله التي فطر الناس عليها، والصلاة وهي الملة، والطاعة وهي العصمة. فقال عمر: صدقت. حدثني يعقوب، حدثنا ابن علفي، حدثنا أيوب، عن أبي قلابة: أن عمر، رضي الله عنه، قال لمعاذ: ما قوام هذا الأمر؟ فذكره نحوه. وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَقُوا بَيْنَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ جَزٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُوا﴾ [٣٣] أي: لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم، أي: بدلوه وغيروه وأمنوا ببعض وكفروا ببعض. وقرأ بعضهم: «فارقوا دينهم» أي: تركوه وراء ظهورهم، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان، وسائر أهل الأديان الباطلة، مما عدا أهل الإسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا بَيْنَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ بِتَمِّمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَهْرَبُ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُمِيطُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء وملل باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء، وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة، وهم أهل السنة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين، وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه، كما رواه الحاكم في مستدركه أنه سئل، عليه السلام، عن الفرقة الناجية منهم، فقال: «ما أنا عليه اليوم وأصحابي».

﴿وَإِذَا مَنِ النَّاسُ سُرِّدُوا رَمَهُمْ ثُنْيَيْنِ إِلَى شَيْءٍ إِذَا أَذَاقَهُمْ مَتَهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [٣٤] لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَيَسْتَعْمِلُوا صَبَاحَ تَعْلَمُونَ [٣٥] أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَسْكُرُ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ [٣٦] وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَلَوْ أَنَّ لِي صَبَاحٌ مِّنْهُم لَأَكِيدُنَّ إِذْ هُمْ يَقْتُلُونَ [٣٧] أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [٣٨].

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم في حال الاضطراب يدعون الله وحده لا شريك له، وأنه إذا أسخغ عليهم النعم، إذا فريق منهم، أي في حالة الاختبار يشركون بالله، ويعبدون معه غيره. وقوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾، هي لام العقاب عند بعضهم، ولام التعليل عند آخرين، ولكنها تعليل لتقيض الله لهم ذلك. ثم توعدهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، قال بعضهم: والله لو توعدني حارس درب لخفت منه، فكيف والمتوعد هنا هو الذي يقول للشيء: كن، فيكون. ثم قال منكراً على المشركين فيما اختلفوه من عبادة الأوثان بلا دليل ولا حجة ولا برهان: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أي: حجة، ﴿فَهُوَ يَسْكُرُ﴾ أي: ينطق بما كانوا به يشركون؟ وهذا استفهام إنكار، أي: لم يكن لهم شيء من ذلك. ثم قال: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَلَوْ أَنَّ لِي صَبَاحٌ مِّنْهُم لَأَكِيدُنَّ إِذْ هُمْ يَقْتُلُونَ﴾ [٣٦]، هذا إنكار على الإنسان من حيث هو، إلا من عصمه الله ووفقه، فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفِي فَخْرٍ فَخْرٌ﴾ [هود: ١٠]، أي: يفرح في نفسه ويفخر على غيره، وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية، قال الله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١]، أي: صبروا في الضراء، وعملوا الصالحات في الرخاء، كما ثبت في الصحيح: «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له». وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: هو

المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله، فيوسع على قوم ويضيق على آخرين، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾
 ﴿فَإِنَّ ذَا الْقَرْيَةَ حَقَّقَ وَالْيَسِيرَ وَأَنَّ السَّبِيلَ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٣٨) وَمَا آتَيْنَاهُ مِنْ رَبِّا لَّيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ
 النَّاسِ فَلَا يَرِبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْنَاهُ مِنْ ذِكْوَرٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيْضُكُمْ ثُمَّ
 يُجْعِلُكُمْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَقَعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾.

يقول تعالى أمراً بإعطاء ذي ﴿الْقَرْيَةَ حَقَّقَ﴾ أي: من البر والصلة، ﴿وَالْيَسِيرَ﴾ وهو: الذي لا شيء له ينفق عليه، أو له شيء لا
 يقوم بكفافته، ﴿وَأَنَّ السَّبِيلَ﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه في سفره، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي:
 النظر إليه يوم القيامة، وهو الغاية القصوى، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة. ثم قال: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ مِنْ رَبِّا لَّيْرَبُوا
 فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِبُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم، فهذا لا ثواب له عند الله -
 بهذا فسر ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعكرمة، ومحمد بن كعب، والشعبي - وهذا الصنيع مباح، وإن كان لا
 ثواب فيه، إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة، قاله الضحاك، واستدل بقوله: ﴿وَلَا تَمْنَنَ فِتْنَتُهُ﴾ (المدثر: ٦) أي: لا
 تعط العطاء تريد أكثر منه. وقال ابن عباس: الرياء رياء، فربا لا يصح، يعني: ربا البيع؟ وربا لا بأس به، وهو هدية الرجل يريد
 فضلها وأضعافها. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ مِنْ رَبِّا لَّيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِبُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وإنما الثواب عند الله في الزكاة؛
 ولهذا قال ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ مِنْ ذِكْوَرٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٣٩) أي: الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء، كما
 جاء في الصحيح: «وما تصدق أحد بعدل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه، فبزيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه
 أو فصيله، حتى تصير التمرة أعظم من أحد». وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي: هو الخالق الرازق، يخرج الإنسان من
 بطن أمه عرياناً لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوى، ثم يزرقه جميع ذلك بعد ذلك، والرياش واللباس والمال والأموال
 والمكاسب، كما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن سلام أبي شرحبيل، عن جبة وسواء ابني خالد قالا:
 دخلنا على النبي ﷺ وهو يصلح شيئاً فأعناه، فقال: «لا تياساً من الرزق ما تهزرت رؤوسكما؛ فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس
 عليه قشرة، ثم يزرقه الله ﷻ». وقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيْضُكُمْ﴾ أي: بعد هذه الحياة، ﴿ثُمَّ يُجْعِلُكُمْ﴾ أي: يوم القيامة. وقوله: ﴿هَذَا
 مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ أي: الذين تعبدونهم من دون الله، ﴿مَنْ يَقَعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك،
 بل الله سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق، والإحياء والإماتة، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة؛ ولهذا قال بعد هذا كله.
 ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه وتعظم وجل وعز عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساو، أو ولد أو
 والد، بل هو الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿طَهَّرَ الْفَسَادَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ يَمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ
 عِقَابُ آلِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾.

قال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك، والسدي، وغيرهم: المراد بالبر ههنا: الفَيَافِي، وبالبحر: الأمصار والقرى، وفي رواية
 عن ابن عباس وعكرمة: البحر: الأمصار والقرى، وما كان منها على جانب نهر. وقال آخرون: بل المراد بالبر هو المعروف،
 وبالبحر: البحر المعروف. وقال زيد بن رُقَيْع: ﴿طَهَّرَ الْفَسَادَ﴾، يعني: انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط، وعن البحر تعمي
 دوايه. رواه ابن أبي حاتم. وقال: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، عن سفيان، عن حميد بن قيس الأعرج، عن
 مجاهد: ﴿طَهَّرَ الْفَسَادَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، قال: فساد البر: قتل ابن آدم، وفساد البحر: أخذ السفينة غصباً. وقال عطاء
 الخراساني: المراد بالبر: ما فيه من المدائن والقرى، وبالبحر: جزائره. والقول الأول أظهر، وعليه الأكثر، ويؤيده ما ذكره
 محمد بن إسحاق في السيرة: أن رسول الله ﷺ صالح ملك أيلة، وكتب له ببحره، يعني: ببلده. ومعنى قوله تعالى: ﴿طَهَّرَ
 الْفَسَادَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ يَمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي: بأن النقص في الثمار والزروع بسبب المعاصي.

وقال أبو العالية: من عصي الله في الأرض فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة؛ ولهذا جاء في الحديث
 الذي رواه أبو داود: «لحُدِّ يُقام في الأرض أحب إلى أهلها من أن يُمطروا أربعين صباحاً». والسبب في هذا أن الحدود إذا
 أقيمت، انكف الناس - أو أكثرهم، أو كثير منهم - عن تعاطي المحرمات، وإذا ارتكبت المعاصي كان سبباً في محاق البركات
 من السماء والأرض؛ ولهذا إذا نزل عيسى ابن مريم، عليه السلام، في آخر الزمان فحكم بهذه الشريعة المطهرة في ذلك
 الوقت، من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية، وهو تركها - فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فإذا أهلك الله في زمانه
 الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج، قيل للأرض: أخرجي بركاتك. فياكل من الرمانة الفثام من الناس، ويستظلون بقحفها،

ويكفي لين اللقحة الجماعة من الناس. وما ذاك إلا بركة تنفيذ شريعة رسول الله ﷺ، فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير؛ ولهذا ثبت في الصحيح: «إن الفاجر إذا مات تستريح منه العباد والبلاد، والشجر والدواب». ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا محمد والحسين قالا: حدثنا عوف، عن أبي قحذم قال: وجد رجل في زمان زياد - أو: ابن زياد - صرة فيها حب، يعني من بر أمثال النوى، عليه مكتوب: هذا نبت في زمان كان يعمل فيه بالعدل. وروى مالك، عن زيد بن أسلم: أن المراد بالفساد ها هنا الشرك. وفيه نظر. وقوله: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والشمرات، اختباراً منه ومجازاة على صنيعهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: عن المعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَيَكُونُهُمْ بِالْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلكم، ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ أي: فانظروا ما حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم.

﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَنِينِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ بَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصْعَقُونَ ﴿١٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَفَن عَمِلَ صَالِحًا وَلَا فِيهِمْ بَهْدُونَ ﴿١٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿١٥﴾﴾.

يقول تعالى أمراً بعباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته، والمبادرة إلى الخيرات: ﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَنِينِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ بَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: يوم القيامة، إذا أراد كونه فلا راد له، ﴿يَوْمَئِذٍ يُصْعَقُونَ﴾ أي: يتفرون، ففريق في الجنة وفريق في السعير؛ ولهذا قال: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَفَن عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نُفْسِيهِمْ بِبَهْدُونَ ﴿١٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ﴾ أي: يجازيهم مجازاة الفضل. الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ ومع هذا هو العادل فيهم، الذي لا يجور.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَنبَأُوا أَن رُّسُلَ الرَّاحِ مُبَشِّرُونَ ﴿١٦﴾ وَلِيَجْزِيَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي كُفْرِهِمْ بَعْدُ ﴿١٧﴾﴾.

يذكر تعالى نعمه على خلقه، في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته، بمجيء الغيث عقبها؛ ولهذا قال: ﴿وَلِيُذِيقَهُمْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: المطر الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد، ﴿وَلِيَجْزِيَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي كُفْرِهِمْ بَعْدُ﴾ أي: يبتليهم من قسوة قلوبهم، والسير من إقليم إلى إقليم، وقطر إلى قطر، ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي كُفْرِهِمْ بَعْدُ﴾ أي: يشكرون الله على ما أنعم به عليهم من النعم الظاهرة والباطنة، التي لا تعد ولا تحصى. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا لِّكُلِّ قَوْمٍ فَأَتَيْنَاهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَتْنَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾.

يذكر تعالى نعمه على خلقه، في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته، بمجيء الغيث عقبها؛ ولهذا قال: ﴿وَلِيُذِيقَهُمْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: المطر الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد، ﴿وَلِيَجْزِيَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي كُفْرِهِمْ بَعْدُ﴾ أي: يبتليهم من قسوة قلوبهم، والسير من إقليم إلى إقليم، وقطر إلى قطر، ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي كُفْرِهِمْ بَعْدُ﴾ أي: يشكرون الله على ما أنعم به عليهم من النعم الظاهرة والباطنة، التي لا تعد ولا تحصى. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا لِّكُلِّ قَوْمٍ فَأَتَيْنَاهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَتْنَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾.

يذكر تعالى نعمه على خلقه، في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته، بمجيء الغيث عقبها؛ ولهذا قال: ﴿وَلِيُذِيقَهُمْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: المطر الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد، ﴿وَلِيَجْزِيَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي كُفْرِهِمْ بَعْدُ﴾ أي: يبتليهم من قسوة قلوبهم، والسير من إقليم إلى إقليم، وقطر إلى قطر، ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي كُفْرِهِمْ بَعْدُ﴾ أي: يشكرون الله على ما أنعم به عليهم من النعم الظاهرة والباطنة، التي لا تعد ولا تحصى. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا لِّكُلِّ قَوْمٍ فَأَتَيْنَاهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَتْنَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَنبَأُوا أَن رُّسُلَ الرَّاحِ مُبَشِّرُونَ ﴿١٦﴾ وَلِيَجْزِيَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي كُفْرِهِمْ بَعْدُ ﴿١٧﴾﴾.

يبين تعالى كيف يخلق السحاب التي ينزل منها الماء فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَزِلُ الدُّوْدَ يَخْرُجُ مِنْ جَانِبِهِ فَإِذَا أَصَابَ يَوْمَ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ ﴿١٨﴾ وَلَئِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الذَّلِيلِ لَيَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٩﴾ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ الْأَرْضَ بِعَدِّ مَوَاسِمِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ آيَاتِنَا وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ وَلَئِن أَرْسَلْنَا بِرَأْوَةٍ مِّمَّا تَفَكَّرُونَ لَطَلُّوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَكْفُرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

يبين تعالى كيف يخلق السحاب التي ينزل منها الماء فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾، إما من البحر على ما ذكره غير واحد، أو مما يشاء الله ﷻ، ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي: يمدّه فيكثره ويثقيه، ويجعل من القليل كثيراً، ينشأ سحابة فترى في رأي العين مثل الترس، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق. وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقلاً مملوءاً ماء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَمِيمٌ إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا ثِقَالًا سَقْنَتْهُ لِيَكُونَ مِيتَةً فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّوَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتِ لَكُمْ نَذِيرٌ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: ٥٧]، وكذلك قال ههنا: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا﴾. قال مجاهد، وأبو عمرو بن العلاء، ومطر الوراق، وقتادة: يعني قطعاً. وقال غيره: مترامكاً، قاله الضحاك. وقال غيره: أسود من كثرة الماء، تراه مدلهما ثقلاً قريباً من الأرض. وقوله: ﴿فَنَزِلُ الدُّوْدَ يَخْرُجُ مِنْ جَانِبِهِ﴾ أي: فترى المطر - وهو القطر - يخرج من بين ذلك السحاب، ﴿فَإِذَا أَصَابَ يَوْمَ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾ أي:

لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم. وقوله: ﴿وَلَنْ كَاؤُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرْزُقَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبِينٌ﴾ (٥١)، معنى الكلام: أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قنطين أزلين من نزول المطر إليهم قبل ذلك، فلما جاءهم، جاءهم على فاقة، فوقع منهم موقعاً عظيماً. وقد اختلف النحاة في قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرْزُقَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبِينٌ﴾، فقال ابن جرير: هو تأكيد. وحكاه عن بعض أهل العربية. وقال آخرون: وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم المطر، ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: الإنزال ﴿لَمُبِينٌ﴾. ويحتمل أن يكون ذلك من دلالة التأسيس، ويكون معنى الكلام: أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله، ومن قبله أيضاً - قد فات عندهم نزوله وقتاً بعد وقت، فترقبوه في إياه فتأخر، فمضت مدة فترقبوه فتأخر، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط، فبعد ما كانت أرضهم مقشعة هامدة أصبحت وقد إهترت وربت، وأنبئت من كل زوج بهيج؛ ولهذا قال: ﴿فَانْظُرْ إِلَى مَأْثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ يعني: المطر، ﴿كَفَيْتُ يَحْيَى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾. ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفريقها وتمزقها، فقال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمَعْمُومٌ﴾ أي: إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات، ﴿وَقَوْعُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِرَبِّكُمْ فِرَارًا مُمْسِكًا لَأَظْلَمُوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ (٥٢)، يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِرَبِّكُمْ فِرَارًا مُمْسِكًا لَأَظْلَمُوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾، يابسة على الزرع الذي زرعه، ونبت وشب واستوى على سوقه، فأراه مصفراً، أي: قد اصفر وشرع في الفساد، لظلوا من بعده، أي: بعد هذا الحال يكفرون، أي: يجحدون ما تقدم إليهم من النعم، كما قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (٥٣) ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ غَيْرُ الرَّبِّ ثَوَّاهُ﴾ (٥٤) لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَتَحْتُمْ تَصْفَحُونَ﴾ (٥٥) ﴿إِنَّا لَمَعْرِضُونَ﴾ (٥٦) ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ (٥٧) [الواقعة: ٦٣ - ٦٧].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع، حدثنا هشيم، عن يعلی ابن عطاء، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو، قال: الرياح ثمانية، أربعة منها رحمة، وأربعة عذاب، فأما الرحمة فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات. وأما العذاب فالعقيم والصرصر، وهما في البر، والعاصف والقاصف، وهما في البحر فإذا شاء سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته، ولاقحاً للسحاب تلقحه بحمله الماء، كما يلقيح الذكر الأنثى بالحمل، وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيماً، وأودعه عذاباً أليماً، وجعله نعمة على من يشاء من عباده، فيجعله صرصرًا وعاتياً ومفسداً لما يمر عليه، والرياح مختلفة في مهابها: صبا ودبور، وجنوب، وشمال، وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف، فريح لينة رطبة تغذي النبات وأبدان الحيوان، وأخرى تجففه، وأخرى تهلكه وتعطبه، وأخرى تسيره وتصلبه، وأخرى توهنه وتضعفه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثنا عبد الله بن عباس، حدثني عبد الله بن سليمان، عن دراج، عن عيسى بن هلال الصديقي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «الريح مسخرة من الثانية - يعني الأرض الثانية - فلما أراد الله أن يهلك عاداً، أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحاً تهلك عاداً، فقال: يا رب، أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور. قال له الجبار تبارك وتعالى: لا، إذا تكفأ الأرض وما عليها، ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم»، فهي التي قال الله في كتابه: ﴿مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالْزَمِيرِ﴾ (٥٧) [الذاريات: ٤٢]. هذا حديث غريب، ورفع منكر. والأظهر أنه من كلام عبد الله بن عمرو، رضي الله عنه.

﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتُ وَلَا تَسْمِعُ الْقَبْرَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْيُونٍ﴾ (٥٨) ﴿وَمَا أَنْتَ بِمَهْدِيَ السَّمْعِ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٥٩).

يقول تعالى: كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجدانها، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون، وهم مع ذلك مُدْبِرُونَ عنك، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق، وردهم عن ضلالتهم، بل ذلك إلى الله تعالى، فإنه بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وليس ذلك لأحد سواه؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: خاضعون مستجيبون مطيعون، فأولئك هم الذين يستمعون الحق ويتبعونه، وهذا حال المؤمنين، والأول مثل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتُ يَسْمِعُهُمْ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]. وقد استدل أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، بهذه الآية: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتُ﴾، على توهيم عبد الله بن عمر في روايته مخاطبة النبي ﷺ القتلى الذين ألقوا في قليب بدر، بعد ثلاثة أيام، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم، حتى قال له عمر: يا رسول الله، ما تخاطب من قوم قد جئوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون». وتأولته عائشة على أنه قال: «إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق». وقال قتادة: أحياءهم الله له حتى سمعوا مقالته تفرحاً وتوبيحاً ونقمة.

والصحيح عند العلماء رواية ابن عمر، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر

مصححاً له، عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم، كان يعرفه في الدنيا، فيسلم عليه، إلا رد الله عليه روحه، حتى يرد عليه السلام». وثبت عنه ﷺ أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له، إذا انصرفوا عنه، وقد شرع النبي ﷺ لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول المسلم: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد، والسلف مجمعون على هذا، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف بزيارة الحي له ويستبشر، فروى ابن أبي الدنيا في كتاب القبور عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده، إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم». وروى عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: إذا مر رجل بقبر يعرفه فسلم عليه، رد عليه السلام. وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن رجل من آل عاصم الجحدري قال: رأيت عاصماً الجحدري في منامي بعد موته بستين، فقلت: أليس قد مت؟ قال: بلى، قلت: فأين أنت؟ قال: أنا - والله - في روضة من رياض الجنة، أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصيحتها إلى بكر بن عبد الله المزني، فتتلقى أخبارهم. قال: قلت: أجسامكم أم أرواحكم؟ قال: هيهات! قد بليت الأجسام، وإنما تتلاقى الأرواح، قال: قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إياكم؟ قال: نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس، قال: قلت: فكيف ذلك دون الأيام كلها؟ قال: لفضل يوم الجمعة وعظمته. قال: وحدثننا محمد بن الحسين، ثنا بكر بن محمد، ثنا حسن القصاب قال: كنت أغدو مع محمد بن واسع في كل غداة سبت حتى تأتي أهل الجبان، فنقف على القبور فنسلم عليهم، ندعو لهم ثم ننصرف، فقلت ذات يوم: لو صيرت هذا اليوم يوم الاثنين؟ قال: بلغني أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوماً قبلها ويوماً بعدها. قال: ثنا محمد، ثنا عبد العزيز بن أبيان قال: ثنا سفيان الثوري قال: بلغني عن الضحاك أنه قال: من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته، فقبل له: وكيف ذلك؟ قال: لمكان يوم الجمعة.

حدثنا خالد بن خذاش، ثنا جعفر بن سليمان، عن أبي التياح يقول: كان مطرُف يغدو، فإذا كان يوم الجمعة أدلىج. قال: وسمعت أبا التياح يقول: بلغنا أنه كان ينزل بغوطة، فأقبل ليلة حتى إذا كان عند المقابر يقوم وهو على فرسه، فرأى أهل القبور كل صاحب قبر جالساً على قبره، فقالوا: هذا مطرُف يأتي الجمعة ويصلون عندهم يوم الجمعة؟ قالوا: نعم، ونعلم ما يقول فيه الطير. قلت: وما يقولون؟ قال: يقولون: سلام عليكم. حدثني محمد بن الحسن، ثنا يحيى بن أبي بكر، ثنا الفضل بن الموفق ابن خال سفيان بن عيينة قال: لما مات أبي جرعت عليه جزعاً شديداً، فكنت آتي قبره في كل يوم، ثم قصرت عن ذلك ما شاء الله، ثم إنني أتيت يوماً، فبينما أنا جالس عند القبر غلبتني عياني فتمت، فرأيت كأن قبر أبي قد انفرج، وكأنه قاعد في قبره متوشح أكفانه، عليه سحنة الموتى، قال: فكأنني بكيت لما رأيته. قال: يا بني، ما أبطأ بك عني؟ قلت: وإنك لتعلم بمجيئي؟ قال: ما جئت مرة إلا علمتها، وقد كنت تأتيني فأسر بك ويسر من حولي بدعائك، قال: فكنت آتية بعد ذلك كثيراً. حدثني محمد، حدثنا يحيى بن بسطام، ثنا عثمان بن سُوَيْد الطُّقَارِيُّ قال: وكانت أمه من العابدات، وكان يقال لها: راهبة، قال: لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت: يا ذكري وذخيرتي من عليه اعتمادادي في حياتي وبعد موتي، لا تخذلني عند الموت ولا توحشني. قال: فماتت. فكنت آتيتها في كل جمعة فأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور، فرأيتها ذات يوم في منامي، فقلت لها: يا أمي، كيف أنت؟ قالت: أي بني، إن للموت لكربة شديدة، وإنني بحمد الله لفني برزخ محمود يفرش فيه الريحان، وتتوسد السندس والإستبرق إلى يوم النشور، فقلت لها: ألك حاجة؟ قالت: نعم، قلت: وما هي؟ قالت: لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا والدعاء لنا، فإني لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك، يقال لي: يا راهبة، هذا ابنك، قد أقبل، فأسر ويسر بذلك من حولي من الأموات.

حدثني محمد، حدثنا محمد بن عبد العزيز بن سليمان، حدثنا بشر بن منصور قال: لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبان، فيشهد الصلاة على الجنائز، فإذا أمسى وقف على المقابر فقال: آس الله وحشتكم، ورحم غريبتكم، وتجاوز عن مسيتكم، وقبل حسنايتكم، لا يزيد على هؤلاء الكلمات، قال: فأمسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلي ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو، قال: فبينما أنا نائم إذا بخلق قد جاؤوني، فقلت: ما أنتم وما حاجتكم؟ قالوا: نحن أهل المقابر، قلت: ما حاجتكم؟ قالوا: إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك، قلت: وما هي؟ قالوا: الدعوات التي كنت تدعو بها، قال: قلت: فإني أعود لذلك، قال: فما تركتها بعد. وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحي من أقاربه وإخوانه. قال عبد الله بن المبارك: حدثني ثور بن يزيد، عن إبراهيم، عن أيوب قال: تعرض أعمال الأحياء على الموتى، فإذا رأوا حسناً فرحوا واستبشروا وإن رأوا سوءاً قالوا: اللهم راجع به. وذكر ابن أبي الدنيا عن أحمد بن أبي الحواري قال: ثنا محمد أخي قال: دخل

عباد بن عباد على إبراهيم بن صالح وهو على فلسطين فقال: عظمي، قال: بم أعظك، أصلحك الله؟ بلغني أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم من الموتى، فانظر ما يعرض على رسول الله ﷺ من عملك، فبكى إبراهيم حتى أخضل لحيته. قال ابن أبي الدنيا: وحدثني محمد بن الحسين، ثنا خالد بن عمرو الأموي، ثنا صدقة بن سليمان الجعفري قال: كانت لي شربة سمجة، فمات أبي فبقت ونذمت على ما فرطت، ثم زلت أيماء زلة، فرأيت أبي في المنام، فقال: أي بني، ما كان أشد فرحي بك وأعمالك تعرض علينا، فنشبهها بأعمال الصالحين، فلما كانت هذه المرة استحيت لذلك حياة شديداً، فلا تخزني فيمن حولي من الأموات، قال: فكنتم أسمع بعد ذلك يقول في دعائه في السحر، وكان جارا لي بالكوفة: أسألك إياته لا رجعة فيها ولا حور، يا مصلح الصالحين، ويا هادي المضلين، ويا أرحم الراحمين. وهذا باب فيه آثار كثيرة عن الصحابة. وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول: اللهم إني أعوذ بك من عمل أخزي به عند عبد الله بن رواحة، كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد الله. وقد شرع السلام على الموتى، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسلم محال، وقد علم النبي ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا: «سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، وإننا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية»، فهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد، وإن لم يسمع المسلم الرد، والله أعلم.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعِفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ٥٤﴾.

يبني تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالاً بعد حال، فأصله من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم يصير عظماً ثم يكسى لحماً، ويُنفخ فيه الروح، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهن القوى. ثم يشب قليلاً قليلاً حتى يكون صغيراً، ثم حدثاً، ثم مراهقاً ثم شاباً. وهو القوة بعد الضعف، ثم يشرع في النقص فيكتهل، ثم يشيخ ثم يهرم، وهو الضعف بعد القوة. فتضعف الهمة والحركة والبطش، وتشيب اللثة، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يفعل ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد، ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن فضيل ويزيد، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية العوفي، قال: قرأت على ابن عمر: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعِفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعِفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾، ثم قال: قرأت على رسول الله ﷺ كما قرأت علي، فأخذ علي كما أخذت عليك. ورواه أبو داود والترمذي - وحسنه - من حديث فضيل، به. ورواه أبو داود من حديث عبد الله بن جابر، عن عطية، عن أبي سعيد، بنحوه.

﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبْقِئُ الْمُؤْمِنُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَاقِ فَهَكَذَا يَوْمَ الْبَاقِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ٥٧﴾.

يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا ساعة واحدة، ومقصودهم هم بذلك عدم قيام الحجة عليهم، وأنهم لم يُنظَرُوا حتى يُعَذَّبَ إليهم. قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَاقِ فَهَكَذَا يَوْمَ الْبَاقِ أي: فإرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة، كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا، فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة: ﴿لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في كتاب الأعمال، ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَاقِ﴾ أي: من يوم خلقتم إلى أن بعثتم، ﴿وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. قال الله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: لا ينفعهم اعتذارهم عما فعلوا، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: ولا هم يرجعون إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ يَسْتَعْتَبُوا فَهُمْ يَنْ كَالْمُعْتَبِينَ﴾ [نصت: ٢٤].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَكِنْ جَنَّتُمْ بِتِلْكَ الْقُرْآنِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ أَنتَ إِلَّا مُبْطِلُونَ ٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَدَّ اللَّهُ حَسْرَةً وَلَا يَسْتَجِزُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٦٠﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: قد بينا لهم الحق، ووضحنا لهم، وضرنا لهم في الأمثال ليتبينوا الحق ويتبعوه. ﴿وَلَكِنْ جَنَّتُمْ بِتِلْكَ الْقُرْآنِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ أَنتَ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: لو رأوا أي آية كانت، سواء كانت باقتراحهم أو غيره، لا يؤمنون بها، ويعتقدون أنها سحر وباطل، كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه. كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ عَلَىٰ حَقِّهِمْ كَيْدًا وَلَكِنْ لَا يُؤْمِنُونَ ٩١﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ٩٢﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]؛ ولهذا قال

ههنا: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٥٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴿٦٠﴾ أي: اصبر على مخالفتهم وعنادهم، فإن الله منجز لك ما وعدك من نصره إياك، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة، ﴿وَلَا يَسْتَحْفِظُكَ اللَّهُ إِلَّا لَا يُؤْفِقُونَ﴾ أي: بل أثبت على ما بعثك الله به، فإنه الحق الذي لا مرية فيه، ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هدى يتبع، بل الحق كله منحصر فيه. قال سعيد عن قتادة: نادى رجل من الخوارج علياً، رضي الله عنه، وهو في الصلاة - صلاة الغداة - فقال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَكَ لِيَحْطَنَ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَيْرِينَ ٦١﴾ [الزمر: ٦٥]، فأنصت له علي حتى فهم ما قال، فأجابه وهو في الصلاة: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَحْفِظُكَ اللَّهُ إِلَّا لَا يُؤْفِقُونَ ٦٢﴾. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. وقد رواه ابن جرير من وجه آخر فقال: حدثنا ابن وكيع، حدثنا يحيى بن آدم، عن شريك، عن عثمان بن أبي زُرْعَةَ، عن علي بن ربيعة قال: نادى رجل من الخوارج علياً وهو في صلاة الفجر، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَكَ لِيَحْطَنَ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَيْرِينَ ٦٣﴾، فأجابه علي وهو في الصلاة: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَحْفِظُكَ اللَّهُ إِلَّا لَا يُؤْفِقُونَ ٦٤﴾.

طريق أخرى: قال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا علي بن الجعد، أخبرنا شريك، عن عمران بن ظبيان، عن أبي تحيا قال: صلى علي رضي الله عنه، صلاة الفجر، فناداه رجل من الخوارج: ﴿لَنْ أَشْرَكَكَ لِيَحْطَنَ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَيْرِينَ﴾، فأجابه علي، وهو في الصلاة: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَحْفِظُكَ اللَّهُ إِلَّا لَا يُؤْفِقُونَ ٦٥﴾.

ما روي في فضل هذه السورة الشريفة، واستحباب قراءتها في الفجر:

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن عبد الملك بن عمير، سمعت شبيب - أبا روح - يحدث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح، فقرأ فيها الروم فأوهم، فقال: «إنه يلبس علينا القرآن، فإن أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء». وهذا إسناد حسن ومتن حسن، وفيه سر عجيب، ونبا غريب، وهو أنه، عليه السلام، تأثر بنقصان وضوء من اتهم به، فدل ذلك أن صلاة المأموم متعلقة بصلاة الإمام.

آخر تفسير سورة «الروم»



تفسير سورة لقمان

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿آلَ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾.

تقدم في أول سورة «البقرة» عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة، وهو أنه تعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين، وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها، ووصلوا قراياتها وأرحامهم، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة، فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك، لم يراؤوا به ولا أرادوا جزءاً من الناس ولا شكوراً، فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: على بصيرة وبينة ومنهج واضح وجلي، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة. ﴿وَمَنْ آتَاكَ مِنَ بَشَرٍ لَوْ أَنَّهُ الْخَبِيثُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَمِزْ يَمِزْ وَتَخَذِمَا هُزْأً أُولَئِكَ هُمْ عَذَابُ مُهِينٍ ١﴾ وَإِذَا تَنَادَّ عَلَيْهِمْ أَهْلُنَا وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا لَمْ يَسْمَعُوا كَأَن فِي أذُنِهِمْ وَقَرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢﴾.

لما ذكر تعالى حال السعداء، وهم الذين يهتدون بكتاب الله ويتنفعون بسماعه، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَفْشِيرُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدًى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ٣﴾ [الزمر: ٢٣]، عطف بذكر حال الأشقياء، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ آتَاكَ مِنَ بَشَرٍ لَوْ أَنَّهُ الْخَبِيثُ﴾ قال: هو - والله - الغناء. قال ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يزيد بن يونس، عن أبي

يبين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض، وما فيهما وما بينهما، فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ يَغْفِرُ عَذْرَ﴾، قال الحسن وقتادة: ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية. وقال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد: لها عمد لا ترونها. وقد تقدم تقرير هذه المسألة في أول سورة «الرعد» بما أغنى عن إعادته. ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ يعني: الجبال أرسط الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ تَبِيدَ بِكُمْ﴾ أي: لئلا تميد بكم. وقوله: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي: وذرا فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها والوانها إلا الذي خلقها. ولما قرر أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله تعالى: ﴿وَأَرْزَأْنَاهُنَّ مَاءً فَالْتَمَسْنَ فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَرَجٍ كَرِيمٍ﴾ أي: من كل زوج من النبات كريم، أي: حسن المنظر. وقال الشعبي: والناس - أيضاً - من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم. وقوله: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ أي: هذا الذي ذكره تعالى من خلق السموات، والأرض وما بينهما، صادر عن فعل الله وخلقه وتقديره، وحده لا شريك له في ذلك؛

ولهذا قال: ﴿مَا رُفِئَ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد، ﴿بَلِ الْكَافِرُونَ﴾ يعني: المشركين بالله العابدين معه غيره، ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ أي: جهل وعمى، ﴿ثَبِينَ﴾ أي: واضح ظاهر لا خفاء به. ﴿وَلَقَدْ مَاتَنَّا لَقَمَنَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

اختلف السلف في لقمان، عليه السلام: هل كان نبياً، أو عبداً صالحاً من غير نبوة؟ على قولين، الأكثرون على الثاني. وقال سفيان الثوري، عن الأشعث، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً. وقال قتادة، عن عبد الله بن الزبير، قلت لجابر بن عبد الله: ما انتهى إليكم من شأن لقمان؟ قال: كان قصيراً أفضس من النبوة. وقال يحيى بن سعيد الأنصاري، عن سعيد بن المسيب قال: كان لقمان من سودان مصر، ذا مشافر، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة. وقال الأوزاعي، رحمه الله: حدثني عبد الرحمن بن حرملة قال: جاء أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله، فقال له سعيد بن المسيب، لا تحزن من أجل أنك أسود، فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان: بلال، ومهجع مولى عمر بن الخطاب، ولقمان الحكيم، كان أسوداً نوبياً ذا مشافر. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن أبي الأشهب، عن خالد الزبيعي قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً، فقال له مولا: اذبح لنا هذه الشاة. فذبحها، فقال: أخرج أطيب مضغتين فيها. فأخرج اللسان والقلب، فمكث ما شاء الله ثم قال: اذبح لنا هذه الشاة، فذبحها، فقال: أخرج أخبث مضغتين فيها. فأخرج اللسان والقلب، فقال له مولا: أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها فأخرجتهما، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما. فقال لقمان: إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا. وقال شعبة، عن الحكم، عن مجاهد: كان لقمان عبداً صالحاً، ولم يكن نبياً. وقال الأعمش: قال مجاهد: كان لقمان عبداً أسود عظيم الشفتين، مشقق القدمين. وقال حكام بن سلم، عن سعيد الزبيدي، عن مجاهد: كان لقمان الحكيم عبداً حبشياً غليظ الشفتين، مُضْغُ القدمين، قاضياً على بني إسرائيل. وذكر غيره: أنه كان قاضياً على بني إسرائيل في زمن داود، عليه السلام. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا الحكم، حدثنا عمرو بن قيس قال: كان لقمان، عليه السلام، عبداً أسود غليظ الشفتين، مُضْغُ القدمين، فأتاه رجل وهو في مجلس أناس يحدثهم، فقال له: أأنت الذي كنت ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا، قال: نعم. فقال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث، والصمت عما لا يعنيني.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رُزْمَةَ، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد عن جابر قال: إن الله رفع لقمان الحكيم بحكمته، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك، فقال له: أأنت عبد بني فلان الذي كنت ترعى بالأمس؟ قال: بلى. قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: قَدَّرَ الله، وأداء الأمانة، وصدق الحديث، وتركي ما لا يعنيني. فهذه الآثار منها ما هو مُصْرَحٌ فيه بنفي كونه نبياً، ومنها ما هو مشعر بذلك؛ لأن كونه عبداً قد مَسَّه الرق ينافي كونه نبياً؛ لأن الرسل كان تبعث في أحساب قومها؛ ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً، وإنما ينقل كونه نبياً عن عكرمة - إن صح السند إليه، فإنه رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث وكيع، عن إسرائيل، عن جابر، عن عكرمة فقال: كان لقمان نبياً. وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي، وهو ضعيف، والله أعلم. وقال عبد الله بن وهب: أخبرني عبد الله بن عياش القتياني، عن عُمَرُ مولى عُفْرَةَ قال: وقف رجل على لقمان الحكيم فقال: أنت لقمان، أنت عبد بني الحسحاس؟ قال: نعم. قال: أنت راعي الغنم؟ قال: نعم. قال: أنت الأسود؟ قال: أما سوادى فظاهر، فما الذي يعجبك من أمري؟ قال: قال: وطء الناس بساطك وغشيهم بابك، ورضاهم بقولك. قال: يا ابن أخي، إن صغيت إلى ما أقول لك كنت كذلك. قال لقمان: غضي بصري، وكفي لساني، وعفة طعمتي، وحفظي فرجي، وقولي بصدق، ووفائي بعهدي، وتكرمتي ضيقي، وحفظي جاري، وتركي ما لا يعنيني، فذاك الذي صيرني إلى ما ترى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نُفَيْل، حدثنا عمرو بن واقد، عن عُبْدَةَ بن رِيَّاح، عن ربيعة، عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، أنه قال يوماً - وذكر لقمان الحكيم - فقال: ما أوتي ما أوتي عن أهل ولا مال، ولا حسب ولا خصال، ولكنه كان رجلاً صَمْصامة سَكِيناً، طويل الفكر، عميق النظر، لم ينم نهارة قط، ولم يره أحد قط يَبْزُق ولا يَتَنَحَّع، ولا يبول ولا يتغوط، ولا يغتسل، ولا يعبث ولا يضحك، وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياها أحد، وكان قد تزوج وولد له أولاد، فماتوا فلم يبك عليهم. وكان يغشى السلطان، ويأتي الحكام، لينظر ويتفكر ويعتبر، فبذلك أوتي ما أوتي. وقد ورد أثر غريب عن قتادة، رواه ابن أبي حاتم، فقال: حدثنا أبي، حدثنا العباس بن الوليد، حدثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعي، حدثنا سعيد بن بشير، عن قتادة قال: خَيرَ الله لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة، فاختر الحكمة على النبوة. قال: فأتاه جبريل

وهو نائم فذُرَّ عليه الحكمة - أو: رش عليه الحكمة - قال: فأصبح ينطق بها. قال سعيد: فسمعت عن قتادة يقول: قيل للقمان: كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيَّرَكَ ربك؟ فقال: إنه لو أرسل إليَّ بالنبوة عَزَمْتُ لرجوت فيه الفوز منه، ولكنك أرجو أن أقوم بها، ولكنه خيَّرني فخفت أن أضعف عن النبوة، فكانت الحكمة أحب إليَّ. فهذا من رواية سعيد بن بشير، وفيه ضعف قد تكلموا فيه بسببه، فالحق أعلم. والذي رواه سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادة، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَنَ الْحِكْمَةَ﴾ أي: الفقه في الإسلام، ولم يكن نبياً، ولم يوح إليه. وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَنَ الْحِكْمَةَ﴾ أي: الفهم والعلم والتعبير، ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ﴾ أي: أمرناه أن يشكر الله، ﷻ، على ما آتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل، الذي خصه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّا نَبْذُرْ لَهُ لَفْظاً﴾ أي: إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلْ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَهْدُوهُنَّ﴾ [الروم: ٤٤]. وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَسِيدٌ﴾ أي: غني عن العباد، لا يتضرر بذلك، ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً، فإنه الغني عما سواه؛ فلا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه.

﴿وَلَوْ قَالَ لَقَمَنُ لِأَنْفِي. وَهُوَ بِعَظْمٍ يَبْقَى لَا تَشْرِكُ بِهِ إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ﴾ [التكوير: ١٥] ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهًا عَلَىٰ وَهِنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيَّهِ أَنْ أَشْكُرْ لِي وَلِوَلَدَيْكَ إِلَىٰ الْوَصْيَةِ﴾ [١٦] ﴿وَلِنْ جَهَنَّمَكَ عَلَىٰ أَنْ تَشْرِكَ بِِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ نُرٍّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [١٧].

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده - وهو: لقمان بن عتقاء بن سدون. واسم ابنه: ثاران في قول حكاة السهيلي. وقد ذكره الله تعالى بأحسن الذكر، فإنه آتاه الحكمة، وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبههم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف؛ ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً، ثم قال محذراً له: ﴿إِنَّ التَّشْرِكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أي: هو أعظم الظلم. قال البخاري حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله، رضي الله عنه، قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أينما لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس بذلك، ألا تسمع إلى قول لقمان: ﴿يَبْقَى لَا تَشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّ التَّشْرِكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾». ورواه مسلم من حديث الأعمش، به. ثم قرن بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين. كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن وقال ههنا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهًا عَلَىٰ وَهِنٍ﴾. قال مجاهد: مشقة وهن الولد. وقال قتادة: جهداً على جهد. وقال عطاء الخراساني: ضعفاً على ضعف. وقوله: ﴿وَفِصْلَهُ فِي عَامَيَّهِ﴾ أي: تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين، كما قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَتَيْنِ رِضْعَانِ حَوْلَيْنِ كَالْيَمِينِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْفِخَ الرِّيحَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأنه قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحاف: ١٥]. وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً، ليذكر الولد بإحسانها المتقدم إليه، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ أَشْكُرْ لِي وَلِوَلَدَيْكَ إِلَىٰ الْوَصْيَةِ﴾ أي: فإني سأجزيك على ذلك أوفر الجزاء. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد الله بن أبي شيبة، ومحمود بن غيلان قالا: حدثنا عبيد الله، أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن وهب قال: قدم علينا معاذ بن جبل، وكان بعثه النبي ﷺ، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إني رسول رسول الله ﷺ إليكم: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تطيعوني لا ألوكم خيراً، وأن المصير إلى الله، وإلى الجنة أو إلى النار، إقامة فلا ظعن، وخلود فلا موت. وقوله: ﴿وَلِنْ جَهَنَّمَكَ عَلَىٰ أَنْ تَشْرِكَ بِِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: إن حرصاً عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما، فلا تقبل منهما ذلك، ولا يمنعنك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً، أي: محسناً إليهما، ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ﴾ يعني: المؤمنين، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال الطبراني في كتاب العشرة: حدثنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أحمد بن أيوب بن راشد، حدثنا مسلمة بن علقمة، عن داود بن أبي هند عن أبي عثمان النهدي: أن سعد بن مالك قال: أنزلت في هذه الآية: ﴿وَلِنْ جَهَنَّمَكَ عَلَىٰ أَنْ تَشْرِكَ بِِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ الآية، وقال: كنت رجلاً براً بأمي، فلما أسلمت قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدث؟ لتدعن دينك هذا أو لا أكل ولا أشرب حتى أموت، فتعير بي، فيقال: «يا قاتل أمه». فقلت: لا تفعل بي يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء. فمكثت يوماً وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوماً آخر وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت، قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه، تعلمين والله لو كانت لكي مائة نفس فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي، وإن شئت لا تأكلي. فأكلت.

﴿يَبْنِيْ اِيَّاهَا اِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ فَنَكُنْ فِي سَحَرٍ اَوْ فِي سَمَوَاتٍ اَوْ فِي الْاَرْضِ يَبْنٰى بِهَا اللّٰهُ اِنَّ اللّٰهَ لَطِيْفٌ خَبِيْرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنِيْ اَقْمِرَ الْفَسَلَةَ وَاَمْرٌ بِالْمَعْرُوْفِ وَاَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاَصْبَرَ عَلٰى مَا اَسْأَلُكَ اِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْاُمُوْرِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَيِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْاَرْضِ مَرَمًا اِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُوْرٍ ﴿١٨﴾ وَاَقْبِصْ فِي مَشِيْكَ وَاَعْمِضْ مِنْ صَوْتِكَ اِنَّ اَنْكَرَ الْاَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْمُنْجِيْرِ ﴿١٩﴾﴾.

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم؛ ليمثلها الناس ويقتدوا بها، فقال: ﴿يَبْنِيْ اِيَّاهَا اِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ﴾ أي: إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة من خردل. وجوز بعضهم أن يكون الضمير في قوله: ﴿يَبْنِيْ اِيَّاهَا﴾ ضمير الشأن والقصة. وجوز على هذا رفع ﴿يُنْفَالُ﴾ والاول أولى. وقوله: ﴿يَبْنٰى بِهَا اللّٰهُ﴾ أي: أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط، وجازى عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِيْنَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَٰكِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ اُنْثِيَ بِهَا وَكَفُنَ بِهَا حَسِيْبٌ ﴿١٧﴾﴾ [الانبيا: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿١٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿١٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صماء، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السموات أو الأرض، فإن الله يأتي بها؛ لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض؛ ولهذا قال: ﴿اِنَّ اللّٰهَ لَطِيْفٌ خَبِيْرٌ﴾ أي: لطيف العلم، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضائلت، ﴿خَبِيْرٌ﴾ بديب النمل في الليل البهيم. وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله: ﴿تَكُنْ فِي سَحَرٍ﴾: أنها صخرة تحت الأرضين السبع، ذكره السدي بإسناده ذلك المطروق عن ابن عباس وابن مسعود وجماعة من الصحابة إن صح ذلك، ويروى هذا عن عطية العوفي، وأبي مالك، والثوري، والمنهال بن عمرو، وغيرهم. وهذا والله أعلم، كأنه متلقى من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، والظاهر - والله أعلم - أن المراد: أن هذه الحبة في حقاتها لو كانت داخل صخرة، فإن الله سيديها ويظهرها بلطيف علمه، كما قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء، ليس لها باب ولا قوة، لخرج عمله للناس كأنما ما كان». ثم قال: ﴿يَبْنِيْ اَقْمِرَ الْفَسَلَةَ﴾ أي: بحدودها وفروضها وأوقاتها، ﴿وَاَمْرٌ بِالْمَعْرُوْفِ وَاَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي: بحسب طاقتك وجهدك، ﴿وَاَصْبَرَ عَلٰى مَا اَسْأَلُكَ﴾، علم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا بد أن يناله من الناس أذى، فأمره بالصبر. وقوله: ﴿اِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْاُمُوْرِ﴾ أي: إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور. وقوله: ﴿وَلَا تُصَيِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك، احتقاراً منك لهم، واستكباراً عليهم ولكن ألن جانبك، وبسط وجهك إليهم، كما جاء في الحديث: «ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه متبسط، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة، والمخيلة لا يحبها الله». قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تُصَيِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لا تتكبر فتحقر عباد الله، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك. وكذا روى العوفي وعكرمة عنه. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَلَا تُصَيِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾: لا تكلم وأنت معرض. وكذا زوي عن مجاهد، وعكرمة، ويزيد بن الأصم، وأبي الجوزاء، وسعيد بن جبير، والضحاك، وابن يزيد، وغيرهم. وقال إبراهيم التخمي: يعني بذلك: التشديق في الكلام. والصواب القول الأول. قال ابن جرير: وأصل الصعر: داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها، حتى تلتفت أعناقها عن رؤوسها، فشبه به الرجل المتكبر، ومنه قول عمرو بن حنن التغلبي:

وَكُنَّا إِذَا الْجُبَّارُ صَعَرَ خَدَّهُ أَفْمَأَلَهُ مِنْ مَنِيْلِهِ فَتَنَقَّوْمَا
وقال أبو طالب في شعره:

وَكُنَّا قَدِيمًا لَا نَقْرُ ظِلَامَةً إِذَا مَا ثَنَوْا صُعْرَ الرُّؤُوسِ نُقِيمُهَا
وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْاَرْضِ مَرَمًا﴾ أي: جذاً متكبراً جباراً عنيداً، لا تفعل ذلك يبغيضك الله؛ ولهذا قال: ﴿اِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُوْرٍ﴾ أي: مختال معجب في نفسه، فخور: أي على غيره، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْاَرْضِ مَرَمًا اِنَّكَ لَنْ تَصْرِقَ الْاَرْضَ وَلَٰكِنْ تَتَّبِعْ لِبِلَالٍ طُلُوْكَ ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧]، وقد تقدم الكلام على ذلك في موضعه. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا محمد بن عمران ابن أبي ليلى، حدثنا أبي، عن ابن أبي ليلى، عن عيسى، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن ثابت بن قيس بن شماس قال: ذكر الكبير عند رسول الله ﷺ فشد فيه، فقال: «إن الله لا يحب كل مختال فخور». فقال رجل من القوم: والله يا رسول الله إني لأغسل ثيابي فيعجبني بياضها، ويعجبني شراك نعلي، وعلاقة سوطي، فقال: «ليس ذلك الكبير، إنما الكبير أن تسفه الحق وتغتم الناس». ورواه من طريق أخرى بمثله، وفيه قصة

طويلة، ومقتل ثابت ووصيته بعد موته. وقوله: ﴿وَأَقْبِدْ فِي مَتْنِكَ﴾ أي: امش مشياً مقتصداً ليس بالبطيء المتبسط، ولا بالسرّيع المفرط، بل عدلاً وسطاً بين بين. وقوله: ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أي: لا تبالغ في الكلام، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْمُخِيرِ﴾، قال مجاهد وغير واحد: إن أنقيح الأصوات لصوت الحمير، أي غاية من رفع صوتك أنه يُشبه بالحمير في علوه ورفعه، ومع هذا هو بغض إلى الله تعالى. وهذا التشبيه في هذا بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء، العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه». وقال النسائي عند تفسير هذه الآية: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا الليث، عن جعفر بن ربيعة، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطاناً». وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجه، من طرق، عن جعفر بن ربيعة به، وفي بعض الألفاظ: «بالليل»، والله أعلم. فهذه وصايا نافعة جداً، وهي من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم. وقد روى عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة، فلنذكر منها أنموذجاً ودستوراً إلى ذلك. قال الإمام أحمد: حدثنا ابن إسحاق، أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا سفيان، أخبرني نهشل بن مُجَمِّع الضبي عن قرعة، عن ابن عمر، رضي الله عنه، قال: أخبرنا رسول الله ﷺ قال: «إن لقمان الحكيم كان يقول: إن الله إذا استدع شيتاً حفظه».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عيسى بن يونس، عن الأوزاعي، عن موسى بن سليمان، عن القاسم بن مُخْتَمِرَة يحدث عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني، إياك والتقنع فإنه مخوفة بالليل، مذلة بالنهار». وقال: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عثمان، عن ضمرة، حدثنا السري بن يحيى قال: قال لقمان لابنه: يا بني، إن الحكمة أجلسست المساكين مجالس الملوك. وقال: حدثنا أبي، حدثنا عبدة بن سليمان، أخبرنا ابن المبارك، حدثنا عبد الرحمن المسعودي، عن عون بن عبد الله قال: قال لقمان لابنه: يا بني: إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام - يعني السلام - ثم اجلس في ناحيتهم، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجلّ سهمك معهم، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم. وحدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار، حدثنا ضمرة، عن حفص بن عمر، رضي الله عنه، قال: وضع لقمان جراباً من خردل إلى جانبه، وجعل يعظ ابنه وعظلة ويخرج خردلة، حتى نفذ الخردل، فقال: يا بني، لقد وعظتكم موعظة لو وعظها جبل لتفطر. قال: فتفطر ابنه. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا يحيى بن عبد الباقي المصيصي، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الجرائي، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الطرائفي، حدثنا أبي بن سفيان المقدسي، عن خليفة ابن سلام، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة: لقمان الحكيم، والنجاشي، وبلال المؤذن». قال أبو القاسم الطبراني: أراد الحبش.

فصل في الخمول والتواضع

وذلك متعلق بوصية لقمان، عليه السلام، لابنه، وقد جمع في ذلك الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا كتاباً مفرداً ونحن، نذكر منه مقاصده، قال: حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا عبد الله بن موسى المدني، عن أسامة بن زيد، عن حفص بن عبيد الله بن أنس بن مالك: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رُبَّ أشعث ذي طمرين يُضَفِّح عن أبواب الناس، إذا أقسم على الله لأبره». ثم رواه من حديث جعفر بن سليمان، عن ثابت وعلي بن زيد، عن أنس، عن النبي ﷺ، فذكره، وزاد منهم البراء بن مالك. وروي أيضاً عن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا، وإذا غابوا لم يفتقدوا، أولئك مصابيح مجردون من كل فتنة غبراء مشينة». وقال أبو بكر بن سهل التميمي: حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا نافع بن يزيد، عن عياش بن عباس، عن عيسى بن عبد الرحمن، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر، رضي الله عنه، أنه دخل المسجد فإذا هو بمعاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله ﷺ، فقال له: ما يبكيك يا معاذ؟ قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ، سمعته يقول: «إن اليسير من الرياء شرك، وإن الله يحب الاتقياء الأخفاء الأثرياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، ينجون من كل غبراء مظلمة». حدثنا الوليد بن شجاع، حدثنا عثمان بن علي، عن حميد بن عطاء الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «رُبَّ ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره، لو قال: اللهم إني أسألك الجنة لأعطاه الجنة، ولم يعطه من الدنيا شيئاً». وقال

أيضاً: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أمتي من لو أتى باب أحدكم يسأله ديناراً أو درهماً أو فلساً لم يعطه، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها، ولو سأل الدنيا لم يعطه إياها، ولم يمنعه إياه لهوانه عليه، ذو طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره». وهذا مرسل من هذا الوجه. وقال أيضاً: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا جعفر بن سليمان، حدثنا عوف قال: قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إن من ملوك الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم، وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا، وإذا قالوا لم يُنصت لهم، حوائج أحدهم تتجلى في صدره، لو قسم نوره يوم القيامة بين الناس لوسعهم». قال: وأنشدني عمر بن شبة، عن ابن عائشة قال: قال عبد الله بن المبارك:

ألا رُبَّ ذي طمرين في مَنَزَلٍ غداً زرابيه مَبْتُوثَةٌ وَمَمَارُقه
قد اطرَدَتْ أنهاره حَوْلَ قَصْرِهِ وأشرق والتفت عليه حداثته

وروي - أيضاً - من حديث عبيد الله بن زحر، عن علي بن زيد، عن القاسم، عن أبي أمامة مرفوعاً: «قال الله: من أغبط أوليائي عندي: مؤمن خفيف الحاذ، ذو حظ من صلاة، أحسن عبادة ربه، وأطاعه في السر، وكان غامضاً في الناس، لا يشار إليه بالأصابع. إن صبر على ذلك». قال: ثم نقد رسول الله ﷺ بيده وقال: «عُجِّلَتْ منيته، وقل تراثه، وقلت بواكيه». وعن عبد الله بن عمرو قال: أحب عباد الله إلى الله الغرياء. قيل: ومن الغرياء؟ قال: الفرارون بدينهم، يجمعون يوم القيامة إلى عيسى ابن مريم. وقال الفضيل بن عياض: بلغني أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أنعم عليك؟ ألم أعطك؟ ألم أسترك؟ ألم...؟ ألم...؟ ألم أخمل ذكرك؟ ثم قال الفضيل: إن استطعت ألا تُعرف فافعل، وما عليك ألا يُثنى عليك، وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس محموداً عند الله. وكان ابن مُحَرِّيز يقول: اللهم إني أسألك ذكراً خاملاً. وكان الخليل بن أحمد يقول: اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك، واجعلني في نفسي من أوضع خلقك، وعند الناس من أوسط خلقك. ثم قال:

باب ما جاء في الشهرة

حدثنا أحمد بن عيسى المصري، حدثنا ابن وهب، عن عمر بن الحارث وابن لهيعة، عن يزيد ابن أبي حبيب، عن سنان بن سعد، عن أنس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حسب امرئ من الشر - إلا من عصم الله - أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه، وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم». وروي مثله عن إسحاق بن البهلول، عن ابن أبي قُدَيْك، عن محمد بن عبد الواحد الأخنسي، عن عبد الواحد بن أبي كثير، عن جابر بن عبد الله مرفوعاً، مثله. وروي عن الحسن مرسلًا نحوه، فقليل للحسن: فإنه يشار إليك بالأصابع؟ فقال: إنما المراد من يشار إليه في دينه بالبدعة وفي دنياه بالفسق. وعن علي، رضي الله عنه، قال: لا تبدأ لأن تشتهر، ولا ترفع شخصك لتذكر، وتعلم واكتم، واصمت تسلم، تسر الأبرار، وتغيظ الفجار. وقال إبراهيم بن أدهم، رحمه الله: ما صدق الله من أحب الشهرة. وقال أيوب: ما صدق الله عبده إلا سره ألا يشعر بمكانه. وقال محمد بن العلاء: من أحب الله أحب ألا يعرفه الناس. وقال سماك بن سلمة: إياك وكثرة الأخلاء. وقال أبان بن عثمان: إن أحببت أن يسلم لك دينك فأقل من المعارف؛ كان أبو العالية إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة نهض وتركهم. وقال: حدثنا علي بن الجعد، أخبرنا شعبة، عن عوف، عن أبي رجاء قال: رأى طلحة قوماً يمشون معه، فقال: ذباب طمع، وفراس النار. وقال ابن إدريس، عن هارون بن عنترة، عن سليم بن حنظلة قال: بينا نحن حول أبي إذ علاه عمر بن الخطاب بالدرة وقال: إنها مذلة للتابع، وفتنة للمتبوع. وقال ابن عون، عن الحسن: خرج ابن مسعود فاتبه أناس، فقال: والله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي، ما اتبعني منكم رجالان. وقال حماد بن زيد: كنا إذا مررنا على المجلس، ومعنا أيوب، فسلم، ردوا رداً شديداً فكان ذلك يغمه.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر: كان أيوب يطيل قميصه، فقليل له في ذلك، فقال: إن الشهرة فيما مضى كانت في طول القميص، واليوم في تشميره. واصطنع مرة نعلين على حدو نعلي النبي ﷺ، فلبسهما أياماً ثم خلعهما، وقال: لم أر الناس يلبسونهما. وقال إبراهيم التَّخَعِي: لا تلبس من الثياب ما يُشتهر في الفقهاء، ولا ما يزدريك السفهاء. وقال الثوري: كانوا يكرهون من الثياب الجياد، التي يُشتهر بها، ويرفع الناس إليه أبصارهم. والثياب الرديئة التي يحترق فيها، ويستذل دينه. وحدثنا خالد بن خدّاش: حدثنا حماد، عن أبي حنيفة - صاحب الزيادة - قال: كنا عند أبي قلابة إذ دخل عليه رجل عليه

أكسية، فقال: إياكم وهذا الحمار النهاق. وقال الحسن، رحمه الله: إن قوماً جعلوا الكبر في قلوبهم، والتواضع في ثيابهم، فصاحب الكساء بكسائه أعظم من صاحب المطرف بمطرفه، مالهم تفاقدوا. وفي بعض الأخبار أن موسى، عليه السلام، قال لبني إسرائيل: ما لكم تأتونني عليكم ثياب الرهبان، وقلوبكم قلوب الذئاب، البسوا ثياب الملوك، وآلبسوا قلوبكم بالخشية.

فصل في حسن الخلق

قال أبو التياح، عن أنس، رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً. وعن عطاء، عن ابن عمر: قيل: يا رسول الله، أي المؤمنين أفضل؟ قال: «أحسنهم خلقاً». وعن نوح بن عباد، عن ثابت، عن أنس مرفوعاً: «إن العبد ليلبلغ بحسن خلقه درجات الآخرة وشرف المنازل، وإنه لضعيف العبادة. وإنه ليلبلغ بسوء خلقه درك جهنم وهو عابد». وعن سنان بن هارون، عن حميد، عن أنس مرفوعاً: «ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة»، وعن عائشة مرفوعاً: «إن العبد ليلبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار». وقال ابن أبي الدنيا: حدثني أبو مسلم عبد الرحمن بن يونس، حدثنا عبد الله بن إدريس، أخبرني أبي وعمي، عن جدي، عن أبي هريرة، رضي الله عنه: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: «تقوى الله وحسن الخلق». وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: «الأجوفان: الفم والفرج». وقال أسامة بن شريك: كنت عند رسول الله ﷺ، فجاءته الأعراب من كل مكان، فقالوا: يا رسول الله، ما خير ما أعطي الإنسان؟ قال: «حسن الخلق». وقال يعلى بن مملك، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء - يبلغ به - قال: «ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق»، وكذا رواه عطاء، عن أم الدرداء، به. وعن مسروق، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «إن من خياركم أحاسنكم أخلاقاً». حدثنا عبد الله بن أبي بدر، حدثنا محمد بن عبيد، عن محمد بن أبي سارة، عن الحسن بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق، كما يعطي المجاهد في سبيل الله، يغدو عليه الأجر ويروح». وعن مكحول، عن أبي ثعلبة مرفوعاً: «إن أحبكم إلي وأقربك مني مجلساً، أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني منزلاً في الجنة مساويكم أخلاقاً، الثراؤون المتشدقون المتفيهقون». وعن أبي أويس، عن محمد بن المنكدر، عن جابر مرفوعاً: «ألا أخبركم بأكملكم إيماناً، أحاسنكم أخلاقاً، الموطئون أكنافاً، الذين يؤلفون ويألفون». وقال الليث، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة، عن بكر بن أبي الفرات قال: قال رسول الله ﷺ: «ما حسن الله خلق رجل وحُلُقَه فطَعَمَه النار». وعن عبد الله بن غالب الحداني، عن أبي سعيد مرفوعاً: «خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البخل، وسوء الخلق»، وقال ميمون بن مهران، عن رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق؛ وذلك أن صاحبه لا يخرج من ذنب إلا وقع في آخر». حدثنا علي بن الجعد، حدثنا أبو المغيرة الأحمسي، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن رجل من قریش قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق؛ إن الخلق الحسن ليذيب الذنوب كما تذيب الشمس الحديد، وإن الخلق السيئ ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل». وقال عبد الله بن إدريس، عن أبيه، عن جده، عن أبي هريرة مرفوعاً: «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط وجوه وحسن خلق». وقال محمد بن سيرين: حسن الخلق عون على الدين.

فصل في ذم الكبر

قال علقمة، عن ابن مسعود - رفعه -: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من كبر، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال حبة من إيمان». وقال إبراهيم بن أبي عبلة، عن أبي سلمة، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، أكبه الله على وجهه في النار». حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا أبو معاوية، عن عمر بن راشد، عن إياس بن سلمة، عن أبيه مرفوعاً: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب عند الله من الجبارين، فيصبيه ما أصابهم من العذاب، وقال مالك بن دينار: ركب سليمان بن داود، عليها السلام، ذات يوم البساط في مائتي ألف من الإنس، ومائتي ألف من الجن، فرفع حتى سمع تسبيح الملائكة في السماء، ثم خفضه حتى مست قدمه ماء البحر، فسمعوا صوتاً لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخشف به أبعد مما رفع. حدثنا أبو خيثمة، حدثنا يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: كان أبو بكر يخطبنا فيذكر بدء خلق الإنسان، حتى إن أحدنا ليقدر نفسه، يقول: خرج من مجرى البول مرتين. وقال الشعبي: من قتل اثنين فهو جبار، ثم تلا: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِمَا لَمْ يُحَيِّهِ إِلَّا أَنْ نَكُونُ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [الفصم: ١٩] وقال الحسن: عجباً لابن آدم، يغسل الخرق بيده في اليوم مرتين ثم يتكبر! يعارض جبار السموات، قال: حدثنا خالد بن خداح، حدثنا

حماد بن زيد، عن علي بن الحسن، عن الضحاك بن سفيان، فذكر الحديث. ضرب مثل الدنيا بما يخرج من ابن آدم. وقال الحسن، عن يحيى عن أبي قال: إن مطعم ابن آدم ضرب مثل للدنيا وإن قرّحه وملّحه. وقال محمد بن الحسين بن علي - من ولد علي رضي الله عنه - ما دخل قلب رجل شيء من كبر إلا نقص من عقله بقدر ذلك. وقال يونس بن عبيد: ليس مع السجود كبر، ولا مع التوحيد نفاق. ونظر طاوس إلى عمر بن عبد العزيز وهو يختال في مشيته، وذلك قبل أن يستخلف، فطعنه طاوس في جنبه بأصبعه، وقال: ليس هذا شأن من في بطنه خرم؟ فقال: له كالمعتز إليه: يا عم، لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها. قال أبو بكر بن أبي الدنيا: كانت بنو أمية يضربون أولادهم حتى يتعلموا هذه المشية.

فصل في الاختيال

عن أبي ليلى، عن ابن بُرَيْدَةَ، عن أبيه مرفوعاً: «من جرّ ثوبه خيلاً لم ينظر الله إليه». ورواه عن إسحاق بن إسماعيل، عن سفيان، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر مرفوعاً مثله. وحدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعاً: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرّ إزاره». «وبينما رجل يتبختر في برديه، أعجبته نفسه، خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة». وروى الزهري عن سالم، عن أبيه: «بينما رجل... إلى آخره».

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ مِمَّا ظَهَرَكُمْ وَبَاطِنُهُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ١٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ لَكُمْ عِلْمٌ بِمَا يُنْفَخُ عَلَيْكَ صُلُوبُ الْغَنَى ١٦﴾.

يقول تعالى منبهاً خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة، بأنه سخر لهم ما في السموات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم، وما يخلق فيها من سحب وأمطار وتلج وبرد، وجعله إياها لهم سقفاً محفوظاً، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار. وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب، وإزاحة الشبه والعلل، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم، بل منهم من يجادل في الله، أي: في توحيدِهِ وإرسال الرسل. ومجادلته في ذلك بغير علم، ولا مستند من حجة صحيحة، ولا كتاب ماثور صحيح؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ١٥﴾ أي: مبين بضيء. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ لَكُمْ عِلْمٌ بِمَا يُنْفَخُ عَلَيْكَ صُلُوبُ الْغَنَى ١٦﴾ أي: لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين، قال الله: ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ آبَاؤُهُمْ لَا يَقُولُوكَ سُبْحَانَ اللَّهِ لَوْلَا يُهْتَدُونَ ١٧﴾ [البقرة: ١٧٠] أي: فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم، أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه؛ ولهذا قال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ لَكُمْ عِلْمٌ بِمَا يُنْفَخُ عَلَيْكَ صُلُوبُ الْغَنَى ١٦﴾.

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ١٧﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُہٗٓ إِنَّمَا مَرْجِعُهُمْ فِيمَا ظَنَّهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ١٨﴾ نَتَّبِعُهُمْ فَيَلْزَمُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَبْطِشُكُم بِغَلَبِ غَلَبٍ ١٩﴾.

يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله، أي: أخلص له العمل وانقاد لأمره واتباع شرعه؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ ١٧﴾ أي: في عمله، باتباع ما به أمر، وترك ما عنه زجر، ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ١٧﴾ أي: فقد أخذ موثقاً من الله متيناً أنه لا يعذبه، ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُہٗٓ ١٨﴾ أي: لا تحزن يا محمد عليهم في كفرهم بالله وبما جئت به؛ فإن قدر الله نافذ فيهم، إلى الله مرجعهم فينبئهم بما عملوا، أي: فيجزئهم عليه، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ١٨﴾، فلا تخفى عليه خافية. ثم قال: ﴿نَتَّبِعُهُمْ قَلِيلًا ١٩﴾ أي: في الدنيا، ﴿ثُمَّ نَبْطِشُكُم بِغَلَبِ غَلَبٍ ١٩﴾ أي: فنلجئهم إلى عذاب غليظ. أي: فظيع صعب مشق على النفوس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ٢٠﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ٢١﴾ [يونس: ٩٩، ١٧٠].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٢٢﴾ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْغِيَّةُ ٢٣﴾.

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين به: إنهم يعرفون أن الله خالق السموات والأرض، وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له؛ ولهذا قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ٢٢﴾ أي: إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٢٢﴾. ثم قال: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ٢٣﴾ أي: هو خلقه وملكه، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْغِيَّةُ ٢٣﴾ أي: الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، الحميد في جميع ما خلق، له الحمد في السموات والأرض على ما خلق وشرع، وهو المحمود في الأمور كلها.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَدٌ وَالْبَعْرُ يَمْدُّ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ آبْحُرٍ مَا نَفَذْتُ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٧) ﴿مَا خَلَقْتُمْ وَلَا بِعَنَّاكُمْ إِلَّا كَفَّيْرٌ وَجِدُّوَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٢٨).

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وجلاله، وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَدٌ وَالْبَعْرُ يَمْدُّ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ آبْحُرٍ مَا نَفَذْتُ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ أي: ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً، وجعل البحر مداداً ومده سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام، ونفذ ماء البحر، ولو جاء أمثالها مداً. وإنما ذكرت «السبعة» على وجه المبالغة، ولم يرد الحصر ولا أن ثم سبعة أبحر موجودة تحيط بالعالم، كما يقوله من تلقاه من كلام الإسرائيليين التي لا تصدق ولا تكذب، بل كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَتِي رَبِّي وَلَوْ جَاءَ بِحَمَلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف: ١٠٩)، فليس المراد بقوله: ﴿يَسِيلُهُ﴾ آخر فقط، بل بمثله ثم بمثله، ثم بمثله، ثم هلم جرا؛ لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته. وقا الحسن البصري: لو جعل شجر الأرض أقلاماً، وجعل البحر مداداً، وقال الله: «إن من أمري كذا، ومن أمري كذا» لنفذ ما في البحور، وتكسرت الأقلام. وقال قتادة: قال المشركون: إنما هذا كلام يوشك أن ينفذ، فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَدٌ﴾ أي: لو كان شجر الأرض أقلاماً، ومع البحر سبعة أبحر، ما كان لتنفذ عجائب ربي وحكمته وخلقه وعلمه.

وقال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَدٌ﴾ الآية. يقول: لو كان ذلك البحر مداداً لكلمات الله والأشجار كلها أقلاماً، لانكسرت الأقلام، وفنى ماء البحر. وبقيت. كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره، ولا يشئ عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يشئ على نفسه. إن ربنا كما يقول، وفوق ما نقول. وقد روي أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود، قال ابن إسحاق: حدثني ابن أبي محمد، عن سعيد بن جبيرة أو عكرمة، عن ابن عباس؛ أن أحبار يهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة: يا محمد، أرايت قولك: ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنَ الْغَيْرِ إِلَّا قَلِيلًا﴾؟ [الإسراء: ٨٥]، إيانا تريد أم قومك؟ فقال رسول الله ﷺ «كلا». فقالوا: ألسنت تلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها بيان لكل شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنها في علم الله قليل، وعندكم من ذلك ما يكفيكم». وأنزل الله فيما سألوه عنه من ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَدٌ﴾ الآية. وهكذا روي عن عكرمة، وعطاء بن يسار. وهذا يقتضي أن هذه الآية مدنية لا مكية، والمشهور أنها مكية، والله أعلم. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز قد عز كل شيء وقهره وغلبه، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في خلقه وأمره، وأقواله وأفعاله، وشرعه وجميع شؤونه. وقوله: ﴿مَا خَلَقْتُمْ وَلَا بِعَنَّاكُمْ إِلَّا كَفَّيْرٌ وَجِدُّوَ﴾ أي: ما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة، الجميع هين عليه و﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢٧) [يس: ٨٢]، ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَقَفْظٍ آتٍ بِلَمَرٍّ﴾ [القمر: ٥٠] أي: لا يأمر بالشئ إلا مرة واحدة، فيكون ذلك الشئ لا يحتاج إلى تكرره وتوكده. ﴿فَلَمَّا هِيَ بَرْجَةٌ وَجِدَةٌ﴾ (٢٨) ﴿إِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي: كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة؛ ولهذا قال: ﴿مَا خَلَقْتُمْ وَلَا بِعَنَّاكُمْ إِلَّا كَفَّيْرٌ وَجِدُّوَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٢٨).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزِيلُ أَلْفًا فِي النَّهَارِ وَيُؤَيِّدُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبُاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٣٠).

يخبر تعالى أنه ﴿يُؤَيِّدُ أَلْفًا فِي النَّهَارِ﴾ بمعنى: يأخذ منه في النهار، فيطول ذلك ويقصر هذا، وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية، ثم يسرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار، وهذا يكون في الشتاء ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: إلى غاية محدودة. وقيل: إلى يوم القيامة. وكلا المعنيين صحيح، ويستشهد للقول الأول بحديث أبي ذر، رضي الله عنه، الذي في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر، أتدري أين تذهب هذه الشمس؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأذن ربها فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت». وقال ابن أبي الحاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثنا يحيى بن أيوب، عن ابن جريج، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس أنه قال: الشمس بمنزلة الساقية، تجري بالنهار في السماء في فلکها، فإذا غربت جرت بالليل في فلکها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها، قال: وكذلك القمر. إسناده صحيح. وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، كقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿٧٠﴾ [الحج: ٧٠]. ومعنى هذا: أنه تعالى الخالق للعالم بجميع الأشياء، كقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَتْلُونَ مِنْهَا لَآلِئًا يَتَّبِعُونَ أَفْعَالَهُنَّ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ أي: إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق، أي: الموجود الحق، الإله الحق، وأن كل ما سواه باطل؟ فإنه الغنى عما سواه، وكل شيء فقير إليه؛ لأن كل ما في السموات والأرض الجميع خلقه وعبده، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذباباً لعجزوا عن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيمُ الْكَبِيرُ﴾ (٣١) أي: العلي: الذي لا أعلى منه، الكبير: الذي هو أكبر من كل شيء، فكل شيء خاضع حقير بالنسبة إليه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَنْصَبِتُ اللَّهُ لِرَبِّكَ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣٢) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَظُلُجٍ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَسَّارٍ كَفُورٍ﴾ (٣٣).

يخبر تعالى أنه هو الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره، أي: بلطفه وتسخيره؛ فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت؛ ولهذا قال: ﴿لِرَبِّكَ مِنْ آيَاتِهِ﴾ أي: من قدرته، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبار في الضراء، شكور في الرخاء. ثم قال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَظُلُجٍ﴾ أي: كالجبال والغمام، ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ السَّفَرُ فِي الْبَحْرِ مَنِ الدَّعْوَى إِلَّا إِلَٰهُهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال: ﴿وَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكَ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. ثم قال: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ قال مجاهد: أي كافر. كأنه فسر المقتصد هنا بالجاحد، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. وقال ابن زيد: هو المتوسط في العمل. وهذا الذي قاله ابن زيد هو المراد في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَائِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢]، فالمقتصد هنا هو: المتوسط في العمل. ويحتمل أن يكون مراداً هنا أيضاً، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأحوال والأمور العظام والآيات الباهرات في البحر، ثم بعد ما أنعم الله عليه من الخلاص، كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام، والدؤوب في العبادة، والمبادرة إلى الخيرات. فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه، والله أعلم. وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَسَّارٍ كَفُورٍ﴾: فالخسار: هو الغدار. قاله مجاهد، والحسن، وقتادة، ومالك عن زيد بن أسلم، وهو الذي كلما عاهد نقض عهده، والخسر: أثم الغدر وأبلغه، قال عمرو بن معد يكرب:

وَأِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ أَبَا غَمِيرٍ
مَلَأَتْ يَدِيكَ مِنْ غَدْرِ وَخَسْرِ
وقوله: ﴿كَفُورٍ﴾ أي: جحود للنعم لا يشكرها، بل ينتاسها ولا يذكرها.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَرَبُّكُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنَّكُمْ لَعِنَائِي﴾ (٣٤) وَقَدْ عَلَّمَ الْقُرْآنَ الْفَرْسَ وَالْغَبَرَ وَتُتْلَىٰ خَفًّى وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٣٥).

يقول تعالى منذراً للناس يوم المعاد، وأمرأ لهم بتقواه والخوف منه، والخشية من يوم القيامة حيث ﴿لَا يَجْزِي وَالِدَ عَنْ وَلَدِهِ﴾ أي: لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه. وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يتقبل منه. ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله: ﴿فَلَا تَعْرَضْكُمْ أَحْيَاؤُ الدُّنْيَا﴾ أي: لا تلهيكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة، ﴿وَلَا يَفْرَقْكُمْ بِاللَّهِ الْفَرُودُ﴾ يعني: الشيطان. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة. فإنه يفر بين آدم وبعده ويمنيه، وليس من ذلك شيء بل كما قال تعالى: ﴿يَعِذُّهُمْ وَفِيهِمْ وَمَا يَعِذُّهُمْ إِلَّا غُرُوبُ﴾ (٣٥) [النساء: ١٢٠]. قال وهب بن منبه: قال عزيز، عليه السلام: لما رأيت بلاء قومي اشتد حزني وكثر همي، وأرق نومي، ففرضت إلى ربي وصليت وصمت فأنا في ذلك أتضرع أبكي إذ أتاني الملك فقلت له: أخبرني هل تشفع أرواح المصدقين للظلمة، أو الآباء لأبنائهم؟ قال: إن القيامة فيها فصل القضاء وملك ظاهر، ليس فيه رخصة، لا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الرحمن، ولا يؤخذ فيه والد عن ولده، ولا ولد عن والده، ولا أخ عن أخيه، ولا عبد عن سيده، ولا يهتم أحد بغيره ولا يحزن لحزنه، ولا أحد يرحمه، كل مشفق على نفسه، ولا يؤخذ إنسان عن إنسان، كل يهتم همه ويبكي عوله، ويحمل وزره، ولا يحمل وزره معه غيره. رواه ابن أبي حاتم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الرِّيحَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٣٦) وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣٧).

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي

مرسل ولا ملك مقرب، ﴿لَا يَخْبِيكَ لُوقَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الاعراف: ١٨٧]، وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه. وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه الله تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى، أو شقياً أو سعيداً علم الملائكة الموكلون بذلك؛ ومن شاء الله من خلقه. وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخرها، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان، لا علم لأحد بذلك. وهذه شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس: مفاتيح الغيب. قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني حسين بن واقد، حدثني عبد الله بن بريدة، سمعت أبي - بريدة - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خمس لا يعلمهن إلا الله ﷻ»: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ خَيْرٌ ﴿٢١﴾. هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجه. حديث ابن عمر: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ﷻ»: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ خَيْرٌ ﴿٢٢﴾. انفرد بإخراجه البخاري فرواه في «كتاب الاستسقاء» من صحيحه، عن محمد بن يوسف الفريابي، عن سفيان بن سعيد الثوري، به. ورواه في التفسير من وجه آخر فقال: حدثنا يحيى بن سليمان، حدثنا ابن وهب، حدثني عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر: أن أباه حدثه أن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس». ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾، انفرد به أيضاً. ورواه الإمام أحمد عن غندر، عن شعبة، عن عمر بن محمد، أنه سمع أباه يحدث، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «أوتيت مفاتيح كل شيء إلا خمس»: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ خَيْرٌ ﴿٢٣﴾. حديث ابن مسعود، رضي الله عنه: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن شعبة، حدثني عمرو بن مرة، عن عبد الله بن سلمة قال: قال عبد الله: أوتي نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غير خمس: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ خَيْرٌ ﴿٢٤﴾. وكذا رواه عن محمد بن جعفر، عن شعبة، عن عمرو بن مرة، به. وزاد في آخره: قال: قلت له: أنت سمعت من عبد الله؟ قال: نعم. أكثر من خمسين مرة. ورواه أيضاً عن وكيع، عن مسعر، عن عمرو بن مرة به. وهذا إسناد حسن على شرط أصحاب السنن ولم يخرجه.

حديث أبي هريرة: قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا إسحاق، عن جرير، عن أبي حيان، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يوماً بارزاً للناس، إذ أتاه رجل يمشي، فقال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: «الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر». قال: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: «الإسلام: أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان». فقال: يا رسول الله، ما الإحسان؟ قال: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». قال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أسرارها: إذ ولدت الأمة ربُّتها، فذاك من أسرارها. وإذا كان الحفاة العُرة رؤوس الناس، فذاك من أسرارها، في خمس لا يعلمهن إلا الله ﷻ»: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾... ﴿٢٥﴾، ثم انصرف الرجل فقال: «ردوه علي». فأخذوا ليردوه، فلم يروا شيئاً، فقال: «هذا جبريل، جاء ليعلم الناس دينهم». ورواه البخاري أيضاً في «كتاب الإيمان»، ومسلم من طرق، عن أبي حيان، به. وقد تكلمنا عليه في أول شرح البخاري. وذكرنا ثم حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في ذلك بطوله وهو من أفراد مسلم.

حديث ابن عباس: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد، حدثنا شهر، حدثنا عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، قال: جلس رسول الله ﷺ مجلساً له، فأتاه جبريل فجلس بين يدي رسول الله ﷺ واضعاً كفيه على ركبتي النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، حدثني ما الإسلام؟ قال رسول الله ﷺ: «الإسلام: أن تسلم وجهك لله ﷻ، وتشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله». قال: فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت؟ قال: «إذا فعلت ذلك فقد أسلمت». قال: يا رسول الله، فحدثني ما الإيمان؟ قال: «الإيمان: أن تؤمن بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبیین، وتؤمن بالموت، وبالحياة بعد الموت، وتؤمن بالجنة والنار، والحساب والميزان، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره». قال: فإذا فعلت ذلك فقد آمنت؟ قال: «إذا فعلت ذلك فقد آمنت». قال: يا رسول الله، حدثني ما الإحسان؟ قال رسول الله ﷺ: «الإحسان:

أن تعمل لله كأنك تراه، فإن كنت لا تراه فإنه يراك». قال: يا رسول الله، فحدثني متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: «سبحان الله. في خمس لا يعلمهن إلا هو: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَمَّازًا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَقَسٌ يَأْتِي أَرْضَ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾»، ولكن إن شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك؟». قال: أجل، يا رسول الله، فحدثني. قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيت الأمة ولدت ربتها - أو: ربه - ورأيت أصحاب الشاء يتناولون في البنيان، ورأيت الحفاة الجياع العالة كانوا رؤوس الناس، فذلك من معالم الساعة وأشراطها». قال: يا رسول الله، ومن أصحاب الشاء والحفاة والجياع العالة؟ قال: «العرب». حديث غريب، ولم يخرجوه.

حديث رجل من بني عامر: روى الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن منصور، عن ربعي بن حراش، عن رجل من بني عامر؛ أنه استأذن على النبي ﷺ فقال: «البح؟» فقال النبي ﷺ لخادمه: «أخرجني إليه، فإنه لا يحسن الاستئذان فقولني له: فليقل: «السلام عليكم، أدخل؟» قال: فسمعته يقول ذلك، فقلت: السلام عليكم، أدخل؟ فأذن، فدخلت، فقلت: بم أتيتنا به؟ قال: «لم آتكم إلا بخير، أنيتكم أن تعبدوا الله وحده لا شريك له، وأن تدعوا اللات والعزى، وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات؛ وأن تصوموا من السنة شهراً، وأن تأخذوا الزكاة من مال أغنيائكم فتدروها على فقرائكم». قال: فقال: فهل بقي من العلم شيء لا تعلمه؟ قال: «قد علم الله ﷻ خيراً، وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله ﷻ: الخمس: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَمَّازًا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَقَسٌ يَأْتِي أَرْضَ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾». وهذا إسناد صحيح. وقال ابن أبي نجيع، عن مجاهد: جاء رجل من أهل البادية فقال: إن امرأتي حبلى، فأخبرني ما تلد؟ وبلادنا جدبة، فأخبرني متى ينزل الغيث؟ وقد علمت متى ولدت فأخبرني متى أموت؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ﴾، إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. قال مجاهد: وهي مفاتيح الغيب التي قال الله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير. وقال الشعبي، عن مسروق، عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: من حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: ﴿وَمَا تَدْرِي نَقَسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾. وقوله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَقَسٌ يَأْتِي أَرْضَ تَمُوتُ﴾: قال قتادة: أشياء استأثر الله بهن، فلم يطلع عليهن ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة، في أي سنة أو في أي شهر، أو ليل أو نهار، ﴿وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ﴾، فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث، ليلاً أو نهاراً، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾، فلا يعلم أحد ما في الأرحام، أذكر أم أنثى، أحمر أو أسود، وما هو، ﴿وَمَا تَدْرِي نَقَسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، أخير أم شر، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت؟ لعلك الميت غداً، لعلك المصاب غداً، ﴿وَمَا تَدْرِي نَقَسٌ يَأْتِي أَرْضَ تَمُوتُ﴾ ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض، أني بحر أم بر، أو سهل أو جبل؟ وقد جاء في الحديث: «إذا أراد الله قبض عبد بأرض، جعل له إليها حاجة»، فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير، في مسند أسامة بن زيد: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا مغمّر، عن أيوب، عن أبي المليح، عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما جعل الله ميتة عبد بأرض إلا جعل له فيها حاجة». وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو داود الحفري، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن مطر بن عكاس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قضى الله ميتة عبد بأرض، جعل له إليها حاجة». وهكذا رواه الترمذي في «القدر»، من حيث سفيان الثوري، به. ثم قال: «حسن غريب، ولا يعرف لمطر عن النبي ﷺ غير هذا الحديث. وقد رواه أبو داود في «المراسيل»، والله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب، عن أبي المليح بن أسامة، عن أبي عزة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها - أو قال: بها - حاجة». وأبو عزة هذا هو: يسار بن عبد الله، ويقال: ابن عبد الهذلي. وأخرجه الترمذي من حديث إسماعيل بن إبراهيم - وهو ابن غلبة - وقال: صحيح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عصام الأصفهاني، حدثنا المؤمل بن إسماعيل، حدثنا عبيد الله بن أبي حميد، عن أبي المليح، عن أبي عزة الهذلي قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله قبض عبد بأرض، جعل له إليها حاجة، فلم ينته حتى يقدمها». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَقَسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَقَسٌ يَأْتِي أَرْضَ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن ثابت الجعدي ومحمد بن يحيى القطعي قالا: حدثنا عمر بن علي، حدثنا إسماعيل، عن قيس، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة». ثم قال البزار: وهذا الحديث لا نعلم أحداً يرفعه إلا عمر بن علي المَقْدَمي. وقال ابن أبي الدنيا: حدثني سليمان بن أبي مسيح

قال: أنشدني محمد بن الحكم لأعشى همدان:

فما تزود مئاً كان يجمعه
وعنير نفحة أغواد تُشَبِّ لهُ
لا تأسين على شيء فكل فتى
وكل من ظن أن الموت يُخطئهُ
بأيما بلدة تُفدز منيته

أورده الحافظ ابن عساكر، رحمه الله، في ترجمة عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث، وهو أعشى همدان، وكان الشعبي زوج أخته، وهو مزوج بأخت الشعبي أيضاً، وقد كان ممن طلب العلم وتفقه، ثم عدل إلى صناعة الشعر فغرف به. وقد رواه ابن ماجه عن أحمد بن ثابت وعمر بن شبة، كلاهما عن عمر بن علي مرفوعاً: «إذا كان أجل أحدكم بأرض أوثيته إليها حاجة، فإذا بلغ أقصى أثره، قبضه الله ﷻ، فتقول الأرض يوم القيامة: رب، هذا ما أودعنتي». قال الطبراني: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن أيوب، عن أبي المليح، عن أسامة أن رسول الله ﷺ قال: «ما جعل الله منية عبد بأرض، إلا جعل له إليها حاجة».

آخر تفسير سورة «لقمان» والحمد لله رب العالمين، وهو حسبنا ونعم الوكيل



تفسير سورة السجدة

وهي مكية. قال البخاري في «كتاب الجمعة». حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن سعد بن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى الْإِنسَانِ﴾. ورواه مسلم أيضاً من حديث سفيان الثوري، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا الحسن بن صالح، عن ليث، عن أبي الزبير، عن جابر قال: كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى الْإِنسَانِ﴾ تفرد به أحمد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا رَبَّ يَدُورُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْنَا بِالْهَوَىٰ مِنْ رَبِّكَ إِنشِدْ قَوْماً مَا آتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٢).

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة «البقرة» بما أغنى عن إعادته. وقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَبَّ يَدُورُ مِنْ رَبِّكَ لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مَرِيَّةَ أَنَّهُ نَزَلَ﴾. ثم قال مخبراً عن المشركين: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْنَا بِالْهَوَىٰ مِنْ رَبِّكَ إِنشِدْ قَوْماً مَا آتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: اختلعه من تلقاء نفسه، ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ إِنشِدْ قَوْماً مَا آتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: يتبعون الحق. ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَيْءٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٣) يَذِيرُ الْآثِمِينَ وَاللَّهُ إِلَى الْأَرْضِ فَجَعَلَ يَوْمَ كَانَتْ أَوَّلُهَا أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا تَعْدُونَ (٤) ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥). يخبر تعالى أنه الخالق للأنبياء، فخلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش. وقد تقدم الكلام على ذلك. ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَيْءٍ﴾ أي: بل هو المالك لأزمة الأمور، الخالق لكل شيء، المدبر لكل شيء، القادر على كل شيء، فلا ولي لخلقه سواه، ولا شفيع إلا من بعد إذنه. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني: أيها العابدون غيره، المتوكلون على من عداه - تعالى - وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو نديد، أو وزير أو عدل، لا إله إلا هو ولا رب سواه. وقد أورد النسائي ههنا حديثاً فقال: حدثنا إبراهيم بن يعقوب، حدثني محمد بن الصباح، حدثنا أبو عبيدة الحداد، حدثنا الأخضر بن عجلان، عون ابن جزيج المكي، عن عطاء، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ أخذ بيدي فقال: «إن الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش في اليوم السابع، فخلق التربة يوم السبت، والجبال يوم الأحد، والشجر يوم الاثنين، والمكروه يوم الثلاثاء، والنور يوم الأربعاء، والدواب يوم الخميس، وآدم يوم الجمعة في آخر ساعة من النهار بعد

العصر، وخلق من أديم الأرض، بأحمرها وأسودها، وطيبها وخبيثها، من أجل ذلك جعل الله من بني آدم الطيب والخبيث. هكذا أورد هذا الحديث إسناداً وممتناً، وقد أخرج مسلم والنسائي أيضاً من حديث الحجاج بن محمد الأعور، عن ابن جريج، عن إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ ينحو من هذا السياق. وقد علله البخاري في كتاب «التاريخ الكبير» فقال: «وقال بعضهم: أبو هريرة عن كعب الأحبار وهو أصح»، وكذا علله غير واحد من الحفاظ، والله أعلم. وقوله: ﴿يَذِيرُ الْأَمْرَ مِنَ الْأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي: ينتزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَنزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝١٢﴾ [الطلاق: ١٢]. وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا، ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة، وسلك السماء خمسمائة سنة. وقال مجاهد، وقتادة، والضحاك: النزول من الملك في مسيرة خمسمائة عام، وصعوده في مسيرة خمسمائة عام، ولكنه يقطعها في طرفة عين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾. «ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ» أي: المدبر لهذه الأمور الذي هو شهيد على أعمال عباده، يرفع إليه جليلها وحقيها، وصغيرها وكبيرها - هو ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي قد عز كل شيء فقهره وغلبه، ودانت له العباد والرقاب، ﴿الْجَبَّارُ﴾ بعباده المؤمنين. فهو عزيز في رحمته، رحيم في عزته وهذا هو الكمال: العزة مع الرحمة، والرحمة مع العزة، فهو رحيم بلا ذل.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ ۝١٣ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَيْهِنٍ ۝١٤ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِيهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٥﴾.

يقول تعالى: إنه الذي أحسن خلق الأشياء وأنقنها وأحكمها. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ قال: أحسن خلق كل شيء. كأنه جعله من المقدم والمؤخر. ثم لما ذكر خلق السموات والأرض، شرع في ذكر خلق الإنسان فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾، يعني: خلق أبا البشر آدم من طين، ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَيْهِنٍ ۝١٤﴾ أي: يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة، ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ يعني: آدم، لما خلقه من تراب خلقه سوياً مستقيماً، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِيهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾، يعني: العقول: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: بهذه القوى التي رزقكموها الله ﷻ. فالسعيد من استعملها في طاعة ربه ﷻ.

﴿وَقَالُوا أَوَآدَا صَلَّاتِنَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ۝١٧ قُلْ يَتُوفَنَكُم مَلَكَ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١٨﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا: ﴿أَوَآدَا صَلَّاتِنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تمزقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت، ﴿إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: أننا لنعود بعد تلك الحال؟! يستبعدون ذلك، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرتهم العاجزة، لا بالنسبة إلى قدرة الذي بدأهم وخلقهم من العدم، الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾. ثم قال: ﴿قُلْ يَتُوفَنَكُم مَلَكَ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾، الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة، كما هو المتبادر من حديث البراء المتقدم ذكره في سورة «إبراهيم»، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل، وهو المشهور، قاله قتادة وغير واحد، وله أعوان. وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت. قال مجاهد: حوت له الأرض فجعلت له مثل الطست، يتناول منها حيث يشاء. ورواه زمير بن محمد عن النبي ﷺ، بنحوه مرسلًا. وقاله ابن عباس، رضي الله عنهما. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن أبي يحيى المقرئ، حدثنا عمرو بن شعمر عن جعفر بن محمد قال: سمعت أبي يقول: نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: «يا ملك الموت، ارفق بصاحبي فإنه مؤمن». فقال ملك الموت: يا محمد، طب نفساً وقر عيناً فإنني بكل مؤمن رفيق، وأعلم أن ما في الأرض بيت مدر ولا شعر، في بر ولا بحر، إلا وأنا أتصفحه في كل يوم خمس مرات، حتى إنني أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم، والله يا محمد، لو أنني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الأمر بقبضها. قال جعفر: بلغني أنه إنما يتصفحهم عند مواقيت الصلاة، فإذا حضرهم عند الموت فإن كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك، ودفع عنه الشيطان، ولقنه الملك: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» في تلك الحال العظيمة. وقال عبد الرزاق: حدثنا محمد بن مسلم، عن إبراهيم بن ميسرة قال: سمعت مجاهداً يقول: ما على ظهر الأرض من بيت شعر أو مدر إلا وملك الموت يطيف به كل يوم مرتين. وقال كعب الأحبار: والله ما من بيت فيه أحد من أهل الدنيا إلا وملك الموت يقوم على بابه كل يوم سبع مرات. ينظر هل فيه أحد أمر أن

يتوفاه. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿ثُمَّ لَكُمْ رَيْكُمُ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الشَّجَرُونَ نَاكِسًا رُّءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْجِعْنَا نَمُنَّ بِصَلَاةِ إِبْنِ مُوَيْثِقٍ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا يَمَّا تَلْبِسُهُ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَكُمُ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة، وحالهم حين عاينوا البعث، وقاموا بين يدي الله حقيرين ذليلين، ناكسي رؤوسهم، أي: من الحياء والخجل، يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك، كما قال تعالى: ﴿أَتَتِج يَوْمَ وَيُصِيرُ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مریم: ٣٨]. وكذلك يعدون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّيْرِ﴾ [الملك: ١٠]. وهكذا هؤلاء يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْجِعْنَا﴾ أي: إلى الدار الدنيا، ﴿نَمُنَّ بِصَلَاةِ إِبْنِ مُوَيْثِقٍ﴾ أي: قد أيقنا وتحققنا أن وعدك حق ولقاءك حق، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى الدار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون آيات الله ويخالفون رسله، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى النَّارِ فَقَالُوا لَئِنَّا نَبُذُّكَ وَلَا تَكْذِبُ بِآيَاتِنَا وَمَا نَكُونُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنَّا هِيَ إِلَّا حَاجَاتُنَا الَّتِي دُفِنَّا بِهَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٩]. وقال ههنا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدًى﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جِيعًا﴾ [يس: ٦١]. وقال ههنا: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: من الصنفين، فدارهم النار لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك. ﴿فَذُوقُوا يَمَّا تَلْبِسُهُ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: يقال لأهل النار على سبيل التفرغ والتوبيخ: ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به، واستبعادكم وقوعه، وتناسيكم له؛ إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له، ﴿إِنَّا نَسِينَكُمُ﴾ أي: إنا سنعاملكم معاملة الناس؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابلة، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَسْتَكْفُرُ بِمَا كُنَّا نَعْمَلُ يَوْمَ كُنَّا هَٰذَا﴾ [الجناب: ٣٤]. وقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب كفركم وتكذيبكم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا حِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَرَّةً وَفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَتَنَبَّهُونَ حَسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٢٤-٣٠].

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَقَمُّ نَفْسٌ مَّا أُغْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أي: إنما يصدق بها ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾ أي: استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً، ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن اتباعها والانقياد لها، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. ثم قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ يعني بذلك: قيام الليل، وترك النوم والاضطجاع على الفراش الوطيئة. قال مجاهد والحسن في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾، يعني بذلك: قيام الليل. وعن أنس، وعكرمة، ومحمد بن المنكدر، وأبي حازم، وقتادة: هو الصلاة بين العشاءين. وعن أنس أيضاً: هو انتظار صلاة العتمة. رواه ابن جرير بإسناد جيد. وقال الضحاك: هو صلاة العشاء في جماعة، وصلاة الغداة في جماعة. ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفاً من وبال عقابه، وطمعاً في جزيل ثوابه، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية، ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم في الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ، كما قال عبد الله بن رواحة، رضي الله عنه.

وفينا رسول الله ﷺ يثقلو كتابه
أرانا الهندي بغير العمى فقلوبنا
يبيت ينجافي جنبه عن فراشه
إذا اشتق قلت بالمشركين المضاجع

وقال الإمام أحمد: حدثنا روم وعفان قالا: حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا عطاء بن السائب، عن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «عجب ربنا من رجلين: رجل ثار من وطنه ولحافه، ومن بين أهله وحيه إلى صلاته، فيقول ربنا: أيا ملائكتي، انظروا إلى عبدي، ثار من فراشه ووطنه، ومن بين حيه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي. ورجل غزا في سبيل الله ﷻ، فانهزموا، فلمع ما عليه من الفرار، وما له في الرجوع، فرجع حتى أهرق دمه، رغبة فيما عندي

وشفقة مما عندي. فيقول الله، ﷻ للملائكة: انظروا إلى عبيدي رجوع رغبة فيما عندي، ورهبة مما عندي، حتى أهرق دمه. وهكذا رواه أبو داود في «الجهاد»، عن موسى بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، به بنحوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي وائل، عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه، ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار. قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان، وتحج البيت». ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل». ثم قرأ: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾، حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾. ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» فقلت: بلى، يا رسول الله، فقال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله». ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» فقلت: بلى، يا نبي الله. فأخذ بلسانه ثم قال: «كُفَّ عليك هذا». فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به. فقال: «فكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال: على مناخرهم - إلا حصائد السنتهم». رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه في سنتهم، من طرق عن معمر، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. ورواه ابن جرير من حديث شعبة، عن الحكم قال: سمعت عُرْوَةَ بن الزنرال يحدث عن معاذ بن جبل، أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جنة، والصدقة تكَفِّر الخطيئة، وقيام العبد في جوف الليل»، وتلا هذه الآية: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

ورواه أيضاً من حديث الثوري، عن منصور بن المعتمر، عن الحكم، عن ميمون بن أبي شبيب، عن معاذ، عن النبي ﷺ بنحوه، ومن حديث الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، والحكم عن ميمون بن أبي شبيب، عن معاذ مرفوعاً بنحوه. ومن حديث حماد بن سلمة، عن عاصم بن ابن النجود، عن شهر، عن معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ، في قوله تعالى: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾، قال: «قيام العبد من الليل». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا فطر بن خليفة، عن حبيب بن أبي ثابت، والحكم، وحكيم بن جُبَيْر، عن ميمون بن أبي شبيب، عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في غزوة تبوك فقال: «إن شئت أنبأتك بأبواب الخير الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وقيام الرجل في جوف الليل»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾. ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا سويد بن سعد، حدثنا علي بن مُسْهِر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، جاء مناد فنادى بصوت يُسمعُ الخلائق: سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم. ثم يرجع فينادي: ليقم الذين كانت ﴿نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ الآية، فيقومون وهم قليل». وقال البزار: حدثنا عبد الله بن شبيب، حدثنا الوليد بن عطاء بن الأغر، حدثنا عبد الحميد بن سليمان، حدثني مصعب، عن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: قال بلال لما نزلت هذه الآية: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ الآية، كنا نجلس في المجلس، وناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون بعد المغرب إلى العشاء، فنزلت هذه الآية: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾. ثم قال: لا نعلم روى أسلم عن بلال سواه، وليس له طريق عن بلال غير هذا الطريق. وقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧) أي: فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم، واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد، لما أخفوا أعمالهم أخفى الله لهم من الثواب، جزاء وفاقاً؛ فإن الجزاء من جنس العمل. قال الحسن البصري: أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين، ولم يخطر على قلب بشر. رواه ابن أبي حاتم.

قال البخاري: قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الآية: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». قال أبو هريرة: فافروا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. قال: وحدثنا سفيان، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال الله مثله. قيل لسفيان: رواية؟ قال: فأي شيء؟ ورواه مسلم والترمذي من حديث سفيان بن عيينة، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. ثم قال البخاري: حدثنا إسحاق بن نصر، حدثنا أبو أسامة، عن الأعمش، حدثنا أبو صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، دُخْرًا من بله ما أطلعتم عليه»، ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧). قال أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، قرأ أبو هريرة: «قُرَاتٍ أُغْيِنَ».

انفرد به البخاري من هذا الوجه. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». أخرجه في الصحيحين من رواية عبد الرزاق. ورواه الترمذي في التفسير، وابن جرير، من حديث عبد الرحيم بن سليمان، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ بمثله. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أبي رافع، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال حماد: أحسبه عن النبي ﷺ قال: «من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة، به. وروى الإمام أحمد: حدثنا هارون، حدثنا ابن وهب، حدثني أبو صخر، أن أبا حازم حدثه قال: سمعت سهل بن سعد الساعدي، رضي الله عنه، يقول: شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة، حتى انتهى، ثم قال في آخر حديثه: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»، ثم قرأ هذه الآية: ﴿تَنَجَّاهُ جُثُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ بِهِمْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّهِمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، إلى قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ (١٧). وأخرجه مسلم في صحيحه عن هارون بن معروف، وهارون بن سعد، كلاهما عن ابن وهب، به. وقال ابن جرير: حدثني العباس بن أبي طالب، حدثنا معلى بن أسد، حدثنا سلام بن أبي مطيع، عن قتادة، عن عتبة بن عبد الغافر، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ، يروي عن ربه، ﷻ، قال: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». لم يخرجوه. وقال مسلم أيضاً في صحيحه: حدثنا ابن أبي عمر وغيره، حدثنا سفيان، حدثنا مطرّف بن طريف وعبد الملك بن سعيد، سمعا الشعبي يخبر عن المغيرة بن شعبة قال: سمعته على المنبر - يرفعه إلى النبي ﷺ - قال: «سأل موسى، عليه السلام ربه ﷻ: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة. فيقول: أي رب، كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلْك ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب. فيقول: لك ذلك، ومثله، ومثله، ومثله، ومثله، فيقال له: في الخامسة: رضيت رب. فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتئت نفسك ولذت عينك. فيقول: رضيت رب. قال: رب، فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غَرَسْتُ كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر»، قال: ومصدقاه من كتاب الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧). ورواه الترمذي عن ابن عمر، وقال: حسن صحيح، قال: ورواه بعضهم عن الشعبي، عن المغيرة ولم يرفعه، والمرفوع أصح.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفر بن منير المدائني، حدثنا أبو بدر شجاع بن الوليد، حدثنا زياد ابن خنيفة، عن محمد بن جحادة، عن عامر بن عبد الواحد قال: بلغني أن الرجل من أهل الجنة يمكث في مكانه سبعين سنة، ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه، فتقول له: قد أنى لك أن يكون لنا منك نصيب؟ فيقول: من أنت؟ فتقول: أنا من المزد. فيمكث معها سبعين سنة، ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه، فتقول له: قد أنى لك أن يكون لنا منك نصيب، فيقول: من أنت؟ فتقول: أنا التي قال الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. وقال ابن لهيعة: حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبيرة قال: تدخل عليهم الملائكة في مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات، معهم التحف من الله من جنات عدن ما ليس في جناتهم، وذلك قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، ويخبرون أن الله عنهم راض. وقال ابن جرير: حدثنا سهل بن موسى الرازي، حدثنا الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو، عن أبي اليمان الهوزني - أو غيره - قال: الجنة مائة درجة، أولها درجة فضة وأرضها فضة، ومساكنها فضة، وآبئها فضة وترابها المسك. والثانية ذهب، وأرضها ذهب، ومساكنها ذهب، وآبئها ذهب، وترابها المسك. والثالثة لؤلؤ، وأرضها لؤلؤ، ومساكنها اللؤلؤ، وآبئها اللؤلؤ، وترابها المسك. وسبع وتسعون بعد ذلك، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ثم تلا هذه الآية: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧). وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا معتمر بن سليمان، عن الحكم بن أبان، عن الغطريف، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، عن الروح الأمين قال: «يؤتى بحسنات العبد وسيئاته، ينقص بعضها من بعض، فإن بقيت حسنة واحدة وسع الله له في الجنة»، قال: فدخلت على «يزداد» فحدثت بمثل هذا الحديث، قال: فقلت: فأين ذهب الحسنات؟ قال: «أُولَئِكَ الَّذِينَ تَنَقَّلَ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَنِ الْمَقَرِّ وَعَدَّ الْوَسْطَى الَّذِي كَانُوا يُعَذِّبُونَ» (١٦). قلت: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، قال: العبد يعمل سراً أسرّه إلى الله، لم يعلم به الناس، فأسر الله له يوم القيامة قُرَّة أعين.

﴿أَفَنُكْفَىٰ ذُنُوبُهُمْ إِنَّمَا كَانُوا أَفْسَاقًا ۖ لَا يَنْصَرُونَ﴾ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ النَّارَيْنِ نُزُلًا مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ ذُنُوبَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَعْلَمَهُمْ بِرَجْمَتِهِ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى عن عدله وكرمه أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسوله، بمن كان فاسقاً، أي: خارجاً عن طاعة ربه مكذباً لرسوله إليه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا الشَّيْكَاتِ أَنْ نَسْلُكَهُمُ الْآثِنَاتِ ۚ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿٢١﴾ [الجنات: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يُحْسِبُ الْمُسْلِمُونَ أَنَّا نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَحَبُّ النَّارِ وَأَحَبُّ الْجَنَّةِ أَهْلُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ [الحشر: ٢٥]؛ ولهذا قال تعالى: ههنا: ﴿أَفَنُكْفَىٰ ذُنُوبُهُمْ إِنَّمَا كَانُوا أَفْسَاقًا ۖ لَا يَنْصَرُونَ﴾ ﴿١٨﴾ أي: عند الله يوم القيامة. وقد ذكر عطاء بن يسار والسدي وغيرهما: أنها نزلت في علي بن أبي طالب، وعقبة بن أبي معيط؛ ولهذا فصل حكمهم فقال: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها، وهي الصالحات، ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ النَّارَيْنِ﴾ أي: التي فيها المساكين والدور والغرف العالية، ﴿نُزُلًا﴾ أي: ضيافة وكرامة ﴿مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي: خرجوا عن الطاعة، ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ كقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ الآية [الحج: ٢٢٢]. قال الفضيل بن عياض: والله إن الأيدي لموتقة، وإن الأرجل لمقيدة، وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً. وقوله: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ ذُنُوبَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَعْلَمَهُمْ بِرَجْمَتِهِ﴾ قال ابن عباس: يعني بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتنا، وما يحل بأهلها مما يتنلى الله به عبادة ليتوبوا إليه. وروى مثله عن أبي بن كعب، وأبي العالية، والحسن، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وعلقمة، وعطية، ومجاهد، وقتادة، وعبد الكريم الجزي، وخصيف. وقال ابن عباس - في رواية عنه -: يعني به إقامة الحدود عليهم. وقال: البراء بن عازب، ومجاهد، وأبو عبيدة: يعني به عذاب القبر. وقال النسائي: أخبرنا عمرو بن علي، أخبرنا عبد الرحمن بن مهدي، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص وأبي عبيدة، عن عبد الله: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ ذُنُوبَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ قال: سنون أصابتهم.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثني عبيد الله بن عمر القواريري، حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة، عن قتادة، عن عَزْرَةَ، عن الحسن العُزْني، عن يحيى بن الجزار، عن ابن أبي ليلى، عن أبي بن كعب في هذه الآية: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ ذُنُوبَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ قال: المصيبات والدخان قد مضيا، والبطشة والزام. ورواه مسلم من حديث شعبة، به موقوفاً نحوه. وعند البخاري عن ابن مسعود، نحوه. وقال عبد الله بن مسعود أيضاً، في رواية عنه: العذاب الأدنى: ما أصابهم من القتل والسبي يوم بدر. وكذا قال مالك، عن زيد بن أسلم. قال السدي وغيره: لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير، فأصيبوا أو غرموا، ومنهم من جمع له الأمان. وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي: لا أظلم ممن ذكَّره الله بآياته وبينها له ووضحها، ثم بعد ذلك تركها وجدها وأعرض عنها وتناساها، كأنه لا يعرفها.

قال قتادة، رحمه الله: إياكم والإعراض عن ذكر الله، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرة، وأعوذ أشد العوز، وعظم من أعظم الذنوب. ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ﴾ أي: سأنقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام. وقال ابن جرير: حدثني عمران بن بكار الكلاعي، حدثنا محمد بن المبارك، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا عبد العزيز بن عبيد الله، عن عبادة بن نسي، عن جنادة بن أبي أمية، عن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث من فعلهن فقد أجرم، من عقد لواء في غير حق، أو عق والديه، أو مشى مع ظالم ينصره، فقد أجرم، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ﴾». ورواه ابن أبي حاتم، من حديث إسماعيل بن عياش، به، وهذا حديث غريب جداً.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَحَعِّلْنَاهُ هُدًى لِّئَلَّا يُسْرِىَ إِلَيْكَ﴾ ﴿٢٣﴾ وَحَعِّلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُوكَ بِآيَاتِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِبَصُلٍ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَمَّا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى، عليه السلام، أنه أتاه الكتاب وهو التوراة. وقوله: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾: قال قتادة: يعني به ليلة الإسراء. ثم روى عن أبي العالية الزياحي قال: حدثني ابن عم نبيكم - يعني ابن عباس - قال: قال رسول الله ﷺ: «رايت ليلة أسري بي موسى بن عمران، رجلاً آدم طويلاً جفداً، كأنه من رجال شثوة. ورايت عيسى رجلاً مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، مبسط الرأس، ورايت مالكا خازن النار والدجال، في آيات أراهن الله إياه، ﴿فَلَا تَكُنْ فِي

مَرِيضٍ يَنْ لِقَائِهِ، أنه قد رأى موسى، ولقي موسى ليلة أسري به. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا الحسن بن علي الخُلَواني، حدثنا روح بن عباد، حدثنا سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أبي العالية، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، قال: جُعِلَ موسى هُدى لبني إسرائيل، وفي قوله: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾، قال: من لقاء موسى ربه ﷻ. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: الكتاب الذي آتينا به هُدى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ، كما قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢٢]. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [٢٦]، أي: لما كانوا صابرين على أوامر الله وترك نواهيهِ وزواجره وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤوهم به، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله، ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر. ثم لما بدلوا وحرفوا وأولوا، سلبوا ذلك المقام، وصارت قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه، فلا عمل صالحاً، ولا اعتقاد صحيحاً؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾. قال قتادة وسفيان: لما صبروا عن الدنيا؛ وكذلك قال الحسن بن صالح. قال سفيان: هكذا كان هؤلاء، ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يُقْتَدَى به حتى يتحامي عن الدنيا. قال وكيع: قال سفيان: لا بد للدين من العلم، كما لا بد للجسد من الخبز.

وقال ابن بنت الشامي: قرأ أبي علي عمي - أو: عمي علي أبي - سئل سفيان عن قول علي، رضي الله عنه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ألم تسمع قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾، قال: لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوساً. قال بعض العلماء: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَفَقْنَاهُمْ مِنَ اللَّيْلِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [١١]، وَأَتَيْنَاهُمْ يَسْتَسْوُونَ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا تَوَلَّوْا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ [الجناب: ١٦، ١٧]، كما قال هنا: ﴿إِنْ رِزْقُكَ هُوَ يَقْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [٢٦]، أي: من الاعتقادات والأعمال.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [١١]، أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجَرِيءِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ أَنفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [١٢].

يقول تعالى: أو لم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسول ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية، بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر؟ ﴿هَلْ تَحْسَبُ أَنَّ أَحَدًا أَوْ سَمْعَ لَهُمْ يَكْذِبُ﴾ [مریم: ٩٨]؛ ولهذا قال: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾، أي: وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها، ذهبوا منها، ﴿كَانَ لَمْ يَقْنُوا فِيهَا﴾ [الاعراف: ٩٢]، كما قال: ﴿فَبَلَكَ يَوْمَهُمُ غَارِبَةٌ يَمَّا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢]، وقال: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرْبِهِ أَهْلُكُنَّاهُ وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهِ غَارِبَةٌ عَلَى غُرُوشِهَا وَيَغْنِي مَعْطَلُوهَا وَقَصْرِ مَشِيدِ﴾ [١٥]، أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ مَآذِنَ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَفْئُتُ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الْأَفْئُتِ﴾ [الحج: ٤٥ - ٤٦]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾، أي: إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاة من آمن بهم، لآيات وعبراً ومواعظ ودلائل متظاهرة. ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾، أي: أخبار من تقدم، كيف كان أمرهم؟ وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجَرِيءِ﴾: يبين تعالى لطفه بخلقه، وإحسانه إليهم في إرساله الماء إما من السماء أو من السبح، وهو: ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته؛ ولهذا قال: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجَرِيءِ﴾، وهي الأرض التي لا نبات فيها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا لَجَعَلْنَاهُ مَاءً عَلِيًّا صَعِيدًا جُرُأً﴾ [الكهف: ٨]، أي: يَبْسَأُ لا تنبت شيئاً. وليس المراد من قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجَرِيءِ﴾ أرض مصر فقط، بل هي بعض المقصود، وإن مثل بها كثير من المفسرين فليست هي المقصودة وحدها، ولكنها مرادة قطعاً من هذه الآية، فإنها في نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج إلى الماء ما لو نزل عليها مطراً لتهدمت أبنيتها، فيسوق الله إليها النيل بما يتحملة من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحيشة، وفيه طين أحمر، فيغشى أرض مصر، وهي أرض سيخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء، وذلك الطين أيضاً لِيُبْنَى الزرع فيه، فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطر في غير بلادهم، وطين جديد من غير أرضهم، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود ابتداء.

قال ابن لُويعة، عن قيس بن حجاج، عن حدثه قال: لم تُفتح مصر، أتى أهلها عمرو بن العاص - وكان أميراً بها - حين دخل ببؤنة من أشهر العجم، فقالوا: أيها الأمير، إن لئيلنا سئة لا يجري إلا بها. قال: وما ذاك؟ قالوا: إذا كانت ثنتا عشر ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها، فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها من الحلوى والثياب أفضل ما يكون، ثم

ألقيناهما في هذا النيل . فقال لهم عمرو : إن هذا ما لا يكون في الإسلام ، إن الإسلام يهدم ما كان قبله . فأقاموا بؤونة والنيل لا يجري ، حتى هموا بالجلء ، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك ، فكتب إليه : إنك قد أصبت بالذي فعلت ، وقد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي هذا ، فآلقها في النيل . فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر ، أما بعد . . . فإنك إن كنت إنما تجري من قبلك فلا تجري ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله أن يجريك . قال : فآلقى البطاقة في النيل ، وأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة ، وقطع الله تلك السُّنة عن أهل مصر إلى اليوم . رواه الحافظ أبو القاسم اللالكائي الطبري في كتاب «السنة» له .

ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْأَرْضَ فَتَحْرِجُ بِهَا زُرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْثَمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (٧٧)، كما قال تعالى: ﴿يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٧٤) ﴿أَنَا صَبَّأُ الْمَاءَ صَبًّا﴾ (٧٥) ﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَفًّا﴾ (٧٦) ﴿فَأَنبَأْنَا فِيهَا نَجَارًا وَعَبًّا وَهَبْنَا وَقَحْلًا﴾ (٧٨) ﴿وَنَبَاتًا وَمَرْجًا﴾ (٧٩) ﴿وَالْجِبَالَ عَجْلًا﴾ (٨٠) ﴿وَفَكَكْنَا لَهُمْ أَصْوَافَهُمْ﴾ (٨١) ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَ السَّيْلِ وَالْجِبَالِ أَيْمَانَ بِحُدُودِهِمْ الْأَرْضِ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (٨٢). وقال ابن أبي نَجِيج، عن رجل، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْغَيْرَةِ﴾ قال: هي التي لا تمطر إلا مطراً لا يغني عنها شيئاً، إلا ما يأتيها من السيول. وعن ابن عباس، ومجاهد، هي أرض باليمن. وقال الحسن، رحمه الله: هي قرى فيما بين اليمن والشام. وقال عكرمة، والضحاك، وقتادة، والسُّدِّي، وابن زيد: الأرض الجزز: التي لا نبات فيها وهي مغبرة.

قلت: وهذا كقوله: ﴿وَأَيُّ لَمْ الْأَرْضُ أَلَيْسَتْ أَحْيَيْهَا وَأَرْجَحًا مِنْهَا حَبًّا فَمَنْ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّتٍ مِنْ تَحِيْلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (٣٥) ﴿[يس: ٣٣-٣٥].

﴿وَقُلُوبٌ مِّنْ هَٰذَا الْفَتْحِ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيَّانَهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ يَوْمَ يُنظَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴿٣١﴾

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار وقوع بأس الله بهم، وحلول غضبه ونقمته عليهم، استبعاداً وتكديفاً وعناداً: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ؟﴾ متى تنصر علينا يا محمد؟ كما تزعم أن لك وقتاً تُدال علينا، ويُنتقم لك منا، فمتى يكون هذا؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين! قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ أي: إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا وفي الآخرة، ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا كُفْرُهُمْ إِسْمُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالنَّبِيِّ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَخَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَانُوا كَكُلِّ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿غافر: ٨٣ - ٨٥﴾ ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد الثجعة، وأخطأ فافحش، فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ السلام الطلقاء، وقد كانوا قريباً من الفين، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم؛ لقوله: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِسْمُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ﴿٨٤﴾، وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل، كقوله تعالى: ﴿فَاتَّقِ بَنِي دَاوُدَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا وَصَّيْنَا بِهِمْ فَبَدَّلَ الْأَوَّلِينَ بِالْآخِرِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ [الشعراء: ١١٨]، وكقوله: ﴿قُلْ يَجْعَلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ نَارٌ تَقْتَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ وَالْحَقُّ وَالْحَقُّ الْأَكْبَرُ﴾ ﴿٨٦﴾ [سبا: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا وَحَابَ كُلِّ حَبَاٍ عَنِ اللَّهِ﴾ ﴿٨٧﴾ [إبراهيم: ١٥]، وقال: ﴿وَكَاذِبٌ مِّن قَبْلُ يَسْتَفْهِمُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٨٩]، وقال: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]، ثم قال: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِلَيْهِمْ شَتْرَظِرُونَ﴾ ﴿٩٠﴾ أي: أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل إليك من ربك، كقوله: ﴿أَتَبِعَ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك، وسينصرك على من خالفك، إنه لا يخلف الميعاد. وقوله: ﴿إِلَيْهِمْ شَتْرَظِرُونَ﴾ أي: أنت منتظر، وهم منتظرون، ويتربصون بكم الدوائر، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعَرٌ نَّرْصُ بِهِ رَبِّي أَلَمْ نَكُنْ﴾ [الطور: ٣٠]، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله، في نصرتك وتأييدك، وسيجدون غيب ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك، من وبيل عقاب الله لهم، وحلول عذابه بهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل، والله أعلم.

تفسير سورة الأحزاب

وهي مدنية. قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا خلف بن هشام، حدثنا حماد بن زيد، عن عاصم ابن بهدلة، عن زر قال: قال لي أبي بن كعب: كأيّن تقرأ سورة الأحزاب؟ أو كأيّن تعدّها؟ قال: قلت: ثلاثاً وسبعين آية. فقال: قط! لقد رأيتها وإنها لتعادل «سورة البقرة»، ولقد قرأنا فيها: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، نكالا من الله، والله عليم حكيم». ورواه النسائي من وجه آخر، عن عاصم - وهو ابن أبي النجود، وهو ابن بهدلة - به. وهذا إسناد حسن، وهو يقتضي أنه كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَطِيعُوا الْكُفْرِينَ وَالْمُشَفِّقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَأَتَيْنَا مَا يُؤْتِيكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرًا ۝٢ وَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾.

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فلأن ياتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى. وقد قال طلق بن حبيب: التقوى: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، مخافة عذاب الله. وقوله: ﴿وَلَا تَطِيعُوا الْكُفْرِينَ وَالْمُشَفِّقِينَ﴾ أي: لا تسمع منهم ولا تستشرهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه، فإنه عليم بعواقب الأمور، حكيم في أقواله وأفعاله. ولهذا قال: ﴿وَأَتَيْنَا مَا يُؤْتِيكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: من قرآن وسنة، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرًا﴾ أي: فلا تخفى عليه خافية. ﴿وَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: في جميع أمورك وأحوالك، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: وكفى به وكيلًا لمن توكل عليه وأتاب إليه.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفٍ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَنْظَهُرُونَ مِنْهُنَّ أَهْنَكُنَّ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝٤ ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا أَسْمَاءَهُمْ فَلْيُدْعَوْكُمْ فِي الَّذِينَ مَوْلَاهُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٥﴾.

يقول تعالى موطنًا قبل المقصود العنوي أمراً حسيباً معروفاً، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه، ولا تصوير زوجته التي يظهر منها بقوله: أنت عليّ كظهر أمي أمأله، وكذلك لا يصير الذّعي ولدًا للرجل إذا تبناه فدعاه ابنًا له، فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفٍ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَنْظَهُرُونَ مِنْهُنَّ أَهْنَكُنَّ﴾، كقوله: ﴿مَا هُنَّ أَهْنُكُمْ إِنْ أَهْنَيْتُمْهُنَّ إِلَّا الَّتِي وَلَدْتُمُوهُنَّ وَهَبْتُمْ لِيُقُولُنَّ مُشْكِرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٢]. وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾: هذا هو المقصود بالنفي؛ فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ، كان النبي ﷺ قد تبناه قبل النبوة، وكان يقال له: «زيد بن محمد»، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾، كما قال في أثناء السورة: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝١٠﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال ههنا: ﴿ذَلِكَمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ يعني: تنبيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابنًا حقيقياً، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فما يمكن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان. ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾: قال سعيد بن جبير: ﴿يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أي: العدل. وقال قتادة: ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أي: الصراط المستقيم. وقد ذكر غير واحد: أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش، كان يقال له: «ذو القلبين»، وأنه كان يزعم أن له قلبين، كل منهما بعقل وافر. فأنزل الله هذه الآية رداً عليه. هكذا روى العوفي عن ابن عباس. قاله مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقاتدة، واختاره ابن جرير. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا زهير، عن قابوس - يعني ابن أبي ظبيان - أن أباه حدثه قال: قلت لابن عباس: أرايت قول الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفٍ﴾، ما عني بذلك؟ قال: قام رسول الله ﷺ يوماً يصلي، فخطر خطرة، فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترون له قلبين، قلباً معكم وقلباً معهم؟ فأنزل الله، ﷻ: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفٍ﴾.

وهكذا رواه الترمذي عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن صاعد الحراني - وعن عبد بن حميد، عن أحمد بن يونس - كلاهما عن زهير، وهو ابن معاوية، به. ثم قال: وهذا حديث حسن. وكذا رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث زهير،

به. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مغمّر، عن الزهري، في قوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفٍ﴾ قال: بلغنا أن ذلك كان في زيد بن حارثة، ضرب له مثل، يقول: ليس ابن رجل آخر ابنك. وكذا قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: أنها نزلت في زيد بن حارثة. وهذا يوافق ما قدمناه من التفسير، والله أعلم. وقوله: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾: هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب، وهم الأعداء، فأمر الله تعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة، وأن هذا هو العدل والقسط. قال البخاري، رحمه الله: حدثنا مَعْلَى بن أسد، حدثنا عبد العزيز بن المختار، حدثنا موسى ابن عقبة قال: حدثني سالم عن عبد الله بن عمر؛ أن زيداً بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، ما كُنَّا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾. وأخرجه مسلم والترمذي والنسائي، من طرق، عن موسى بن عقبة، به. وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه، في الخلوة بالمحارم وغير ذلك، ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبي حذيفة: يا رسول الله، كنا ندعو سالمأً أبناءً، وإن الله قد أنزل ما أنزل، وإنه كان يدخل عليّ، وإنني أجد في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئاً، فقال ﷺ: «أرضعني تحرمي عليه» الحديث. ولهذا لما نسخ هذا الحكم، أباح تعالى زوجة الدعي، وتزوج رسول الله ﷺ بزَيْنَب بنت جحش زوجة زيد بن حارثة، وقال: ﴿لَكِنَّ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزِلِ أَدْعِيائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧]، وقال في آية التحريم: ﴿وَلَا تَحِلُّ لِيُنْكِحَ الَّذِينَ مِنْ آبَائِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، احترازاً عن زوجة الدعي، فإنه ليس من الصلب، فأما الابن من الرضاعة، فمَنْزِل منزلة ابن الصلب شرعاً، بقوله، عليه السلام في الصحيحين: «حرموا من الرضاعة ما يحرم من النسب». فأما دعوة الغير ابناً على سبيل التكريم والتعظيم، فليس مما نهى عنه في هذه الآية، بدليل ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذي، من حديث سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن الحسن العُزَني، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قدمنا على رسول الله ﷺ أغيلمة بني عبد المطلب على حُمُرَات لنا من جَمْع، فجعل يَلَطُّخُ أفخاذنا ويقول: «أُبَيِّنِي لَا ترموا الجمره حتى تطلع الشمس». قال أبو عُبيد وغيره: «أُبَيِّنِي»: تصغير بني. وهذا ظاهر الدلالة، فإن هذا كان في حجة الوداع سنة عشر، وقوله: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ في شأن زيد بن حارثة، وقد قتل في يوم مؤتة سنة ثمان، وأيضاً ففي صحيح مسلم، من حديث أبي عَوَانَةَ الوضاح بن عبد الله الشُّكْرِي، عن الجَعْدِ أبي عثمان البصري، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بُنَيَّ». ورواه أبو داود والترمذي. وقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَلْيَخُونَكُمْ فِي الَّذِينَ وَمَوْلَيْكُمْ﴾: أمر الله تعالى برد أنساب الأعداء إلى آبائهم، إن عرفوا، فإن لم يعرفوا آباءهم، فهم إخوانهم في الدين ومواليهم، أي: عوضاً عما فاتهم من النسب. ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج من مكة عام غمرة القضاء، وتبعهم ابنة حمزة تنادي: يا عم، يا عم. فأخذها علي وقال لفاطمة: دونك ابنة عَمِّك فاحتملها. فاختصم فيها علي، وزيد، وجعفر في أبيهم يكتفلها، فكل أدلى بحجة؛ فقال علي: أنا أحق بها وهي ابنة عَميس - وقال زيد: ابنة أخي. وقال جعفر بن أبي طالب: ابنة عمي، وخالتها تحتى - يعني أسماء بنت عَميس. فقضى النبي ﷺ لخالتها، وقال: «الخاله بمنزلة الأم». وقال لعلي: «أنت مني، وأنا منك». وقال لجعفر: «أشبهت خَلْقِي وَخَلْقِي». وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا». ففي هذا الحديث أحكام كثيرة من أحسنها، أنه، عليه الصلاة والسلام، حكم بالحق، وأرضى كلاً من المتنازعين، وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا»، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَخُونَكُمْ فِي الَّذِينَ وَمَوْلَيْكُمْ﴾.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُليَّة، عن عبيدة بن عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال أبو بَكْرَةَ: قال الله ﷻ: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَلْيَخُونَكُمْ فِي الَّذِينَ وَمَوْلَيْكُمْ﴾، فأنا ممن لا يُعرف أبوه، وأنا من إخوانكم في الدين. قال أبي: والله إني لأظنه لو علم أن أباه كان حمزاً لانتفى إليه. وقد جاء في الحديث: «من ادعى لغير أبيه، وهو يعلمه، كفر». وهذا تشديد وتهديد ووعد أكيد، في التبري من النسب المعلوم؛ ولهذا قال: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَلْيَخُونَكُمْ فِي الَّذِينَ وَمَوْلَيْكُمْ﴾. ثم قال: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ أي: إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ، بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع؛ فإن الله قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمهم، كما أرشد إليه في قوله أمرأ عباده أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ كُنَّا بِمَعْصِيَاتِكُمْ غَافِلِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: قد فعلت». وفي صحيح البخاري، عن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب، فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ، فله أجر». وفي الحديث الآخر: «إن الله رفع عن أمة الخطأ والسيئات، وما يَكْرَهُونَ عليه». وقال هاهنا: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَمَذَّتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: وإنما الإثم على من تعمد الباطل كما قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْثَبِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾. وفي الحديث

المتقدم: «من ادعى إلى غير أبيه، وهو يعلمه، إلا كفر». وفي القرآن المنسوخ: «فإن كفرأ بكم أن ترغبوا عن آبائكم». قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَرُ، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس، عن عمر أنه قال: بعث الله محمداً ﷺ، بالحق، وأنزل معه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فرجم رسول الله ﷺ، ورجمنا بعده. ثم قال: قد كنا نقرأ: «ولا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم - أو: إن كفرأ بكم - أن ترغبوا عن آبائكم»، وإن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبده ورسوله». وربما قال مَعْمَرُ: «كما أطرت النصراني ابن مريم». ورواه في الحديث الآخر: «ثلاث في الناس كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت، والاستسقاء بالنجوم».

﴿أَلَيْسَ أَوْلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أَمْهَنُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيْكُمْ أُولَئِكَ مَعْرُوفًا كَذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝﴾.

قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته، ونصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم مقدماً على اختيارهم لأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝﴾ [النساء: ٦٥]. وفي الصحيح: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين». وفي الصحيح أيضاً أن عمر، رضي الله عنه، قال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال: «لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك». فقال: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي. فقال: «الآن يا عمر». ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿أَلَيْسَ أَوْلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾. وقال البخاري عندها: حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا محمد بن فليح، حدثنا أبي، عن هلال بن علي، عن عبد الرحمن بن أبي غمرة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة. اقرؤوا إن شئتم: ﴿أَلَيْسَ أَوْلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، فأیما مؤمن ترك مالا فليتره غضبته من كانوا. فإن ترك ديناً أو ضياعاً، فليأتني فأنا مولاه». تفرد به البخاري. ورواه أيضاً في «الاستقراض» وابن جرير، وابن أبي حاتم، من طرق، عن فليح، به مثله. ورواه الإمام أحمد، من حديث أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن رسول الله بنحوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، عن مَعْمَرُ، عن الزهري في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ أَوْلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ عن أبي سلمة، عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ كان يقول: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، فأیما رجل مات وترك ديناً، فإلي. ومن ترك مالا فلورثته». ورواه أبو داود، عن أحمد ابن حنبل، به نحوه. وقوله: ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ أَمْهَنُهُمْ﴾ أي: في الحرمة والاحترام، والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع، وإن سمي بعض العلماء بناتهن أخوات المؤمنين، كما هو منصوص الشافعي في المختصر، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم. وهل يقال لمعاوية وأمثاله: خال المؤمنين؟ فيه قولان للعلماء. ونص الشافعي على أنه يقال ذلك. وهل يقال لهن: أمهات المؤمنات، فیدخل النساء في جمع المذكر السالم تغليظاً؟ فيه قولان: صح عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: لا يقال ذلك. وهذا أصح الوجهين في مذهب الشافعي، رحمه الله. وقد روي عن أبي بن كعب، وابن عباس أنهما قرآ: «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم»، وروي نحو هذا عن معاوية، ومجاهد، وعكرمة، والحسن: وهو أحد الوجهين في مذهب الشافعي. حكاه البغوي وغيره، واستأنسوا عليه بالحديث الذي رواه أبو داود: حدثنا عبد الله بن محمد النخيلي، حدثنا ابن المبارك، عن محمد بن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، ولا يستطب بيمينه»، وكان يأمر بثلاثة أحجار، وينهى عن الروث والزرة.

وأخرجه النسائي وابن ماجه، من حديث ابن عجلان. والوجه الثاني: أنه لا يقال ذلك، واحتجوا بقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾. وقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في حكم الله ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ أي: القربايات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار. وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمواخاة التي كانت بينهم، كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجري يرث الأنصاري دون قرباته وذوي رحمه، للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ، وكذا قال سعيد بن جبیر، وغير واحد من السلف والخلف. وقد أورد فيه ابن أبي حاتم حديثاً عن الزبير بن العوام، رضي الله عنه، فقال: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي بكر المصعبي - من ساكني بغداد - عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن الزبير بن العوام قال: أنزل الله ﷻ، فينا خاصة معشر قريش والأنصار: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾،

وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة، قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نغم الإخوان، فواخيتهم ووارثناهم. فواخي أبو بكر خارجه بن زيد، وأخي عمر فلاناً، وأخي عثمان بن عفان رجلاً من بني زريق، سعد الزرقي، ويقول بعض الناس غيره. قال الزبير: وواخيت أنا كعب بن مالك، فجنته فابتعلته فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى، فوالله يا بني، لو مات يومئذ عن الدنيا، ما ورثه غيري، حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة، فرجعنا إلى موارثنا. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقْعَلُوا إِلَهُ أَوْلِيَاكُمْ مَعْرُوفًا﴾ أي: ذهب الميراث، وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية. وقوله: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أي: هذا الحكم، وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض، حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول، الذي لا يبدل، ولا يغير. قاله مجاهد وغير واحد. وإن كان قد يقال: قد شرع خلافه في وقت لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار في قدره الأزلي، وقضائه القدري الشرعي.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَمْ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۖ لَيْسَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾

يقول تعالى مخبراً عن أولى العزم الخمسة، وبقية الأنبياء: أنه أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامة دين الله، وإبلاغ رسالته، والتعاون والتناصر والاتفاق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحَكَمُوا بِحُكْمِهِ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ وَأَمْزَغْتُمْ لَكُمْ غُرْبًا ۚ فَأَشْهَدُوا بِمَا كُنْتُمْ تُكْفِرُونَ ۝﴾ [آل عمران: ٨١]. فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم، وكذلك هذا. ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة، وهم أولو العزم، وهو من باب عطف الخاص على العام، وقد صرح بذكرهم أيضاً في هذه الآية، وفي قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، فذكر الطرفين والوسط، الفاتح والخاتم، ومن بينهما على هذا الترتيب. فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها، كما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَمْ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۖ لَيْسَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾، فبدأ في هذه الآية بالخاتم؛ لشرفه - صلوات الله وسلامه عليه - ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله وسلامه عليهم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة الدمشقي، حدثنا محمد بن بكر، حدثنا سعيد بن بشير، حدثني قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَمْ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۖ لَيْسَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾: «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث، فبدأ بي قبلهم» سعيد بن بشير فيه ضعف. وقد رواه سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة مرسلاً، وهو أشبه، ورواه بعضهم عن قتادة موقوفاً، فالله أعلم. وقال أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا أبو أحمد، حدثنا حمزة الزيات، حدثنا علي بن ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: خيار ولد آدم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، وخيرهم محمد ﷺ أجمعين. موقوف، وحمزة فيه ضعف. وقد قيل: إن المراد بهذا الميثاق الذي أخذ منهم حين أخرجوا في صورة الدّر من صلب آدم، كما قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: ورفع أباهم آدم، فنظر إليهم - يعني: ذريته - وأن فيهم الغني والفقير، وحسن الصورة، ودون ذلك، فقال: رب، لو سويت بين عبادك؟ فقال: إني أحببت أن أشكر. وأرى فيهم الأنبياء مثل السرج، عليهم كالنور، وخصوصاً بميثاق آخر من الرسالة والنبوة، فهو الذي يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَمْ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۖ لَيْسَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾، قال مجاهد: المبلغين المؤدين عن الرسل. وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَمْ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۖ لَيْسَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾ أي: من أممهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: موجعاً فنحن نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم، ونصحوا الأمم وأفصحوا لهم عن الحق المبين، الواضح الجلي، الذي لا لبس فيه، ولا شك، ولا امتراء، وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين، فما جاءت به الرسل هو الحق، ومن خالفهم فهو على الضلال.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَكْذِبُوا نِعْمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا ثُمَّ زَوَّجْنَاكُمْ مِنْ آلِهَتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝﴾

يقول تعالى مخبراً عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباد المؤمنين، في صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا وذلك عام الخندق، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور. وقال موسى بن عتبة وغيره كانت في سنة أربع. وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفرأ من أشراف يهود بني النضير، الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر، منهم: سلام بن أبي الحقيق، وسلام بن يسلم، وكنانة بن الربيع، خرجوا إلى مكة واجتمعوا بأشراف قريش، وألبوهم

على حرب رسول الله ﷺ ووعدهم من أنفسهم النصر والإعانة. فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غطفان فدعاهم فاستجابوا لهم أيضاً. وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها، وقادهم أبو سفيان صخر بن حرب، وعلى غطفان غيثة بن حصن بن بدر، والجميع قريب من عشرة آلاف، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق، وذلك بإشارة سلمان الفارسي، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا، ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفر، وكان في حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحة. وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة قريباً من أحد، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، وهم نحو ثلاثة آلاف، وقيل: سبعمائة، وأسدوا ظهورهم إلى سلع وجوههم إلى نحو العدو، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الرجالة والخيالة أن تصل إليهم، وجعل النساء والذراير في أطام المدينة، وكانت بنو قريظة - وهم طائفة من اليهود - لهم حصن شرقي المدينة، ولهم عهد عن النبي ﷺ وذمة، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل فذهب إليهم حيي بن أخطب النضري اليهودي، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد، ومالوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فظلم الخطب واشتد الأمر، وضاق الحال، كما قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا أَنَّىٰ يَئْتِيُ الْفُتُونُوتُ وَيُرْلَاؤُا مَنَٰيكُمَا﴾. ومكثوا محاصرين للنبي ﷺ وأصحابه قريباً من شهر، إلا أنهم لا يصلون إليهم، ولم يقع بينهم قتال، إلا أن عمرو بن عبد ود العامري - وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية - ركب ومعه فوارس فافتحموا الخندق، وخلصوا إلى ناحية المسلمين، فندب رسول الله ﷺ خيل المسلمين إليه، فلم يبرز إليه أحد، فأمر علياً فخرج إليه، فتجاولا ساعة، ثم قتله علي، رضي الله عنه، فكان علامة على النصر. ثم أرسل الله ﷻ، على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية، حتى لم تبق لهم خيمة ولا شيء ولا ثوق لهم نار، ولم يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا يَمَّةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ ءَارِسَتَا عَلَيْهِم رِيحًا﴾. قال مجاهد: وهي الصبا، ويؤيده الحديث الآخر: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور». وقال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود، عن عكرمة قال: قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب: انطلقني نصير رسول الله ﷺ. فقالت الشمال: إن الحرة لا تسري بالليل. قال: فكانت الريح التي أرسلت عليهم الصبا. ورواه ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد الأشج، عن حفص بن غياث، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس، فذكره. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا يونس، حدثنا ابن وهب، حدثني عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن عبد الله بن عمر قال: أرسلني خالي عثمان بن مظعون ليلة الخندق في برد شديد وريح إلى المدينة، فقال: اتنا بطعام ولحاف. وقال: فاستأذنت رسول الله ﷺ، فأذن لي، وقال: «من أتيت من أصحابي فمرهم يرجعوا». قال: فذهبت والريح تسفي كل شيء، فجعلت لا ألقى أحداً إلا أمرته بالرجوع إلى النبي ﷺ، قال: فما يلوي أحد منهم عنقه. قال: وكان معي ترس لي، فكانت الريح تضربه علي، وكان فيه حديد، قال: فضربت الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفي، فأنفذها إلى الأرض.

وقوله: ﴿رَحْمَتُكَ لَمْ تَرْهَقْ﴾: وهم الملائكة، زلزلتهم وألفت في قلوبهم الرعب والخوف، فكان رئيس كل قبيلة يقول: يا بني فلان إلي. فيجتمعون إليه فيقول: النجاء، النجاء. لما ألقى الله تعالى في قلوبهم من الرعب. وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي قال: قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، رأيت رسول الله ﷺ وصحبته؟ قال: نعم يا بن أخي. قال: وكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نهجد. قال الفتى: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا. قال: قال حذيفة: يا بن أخي، والله لو رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هُويًا من الليل، ثم التفت فقال: «مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ؟» - يشرط له النبي ﷺ أنه يرجع - أدخله الله الجنة. قال: فما قام رجل. ثم صلى رسول الله ﷺ هُويًا من الليل ثم التفت إلينا، فقال مثله، فما قام منا رجل. ثم صلى رسول الله ﷺ هُويًا من الليل ثم التفت إلينا فقال: «مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ؟» - يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة - أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة. فما قام رجل من القوم؛ من شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد. فلما لم يبق أحد، دعاني رسول الله ﷺ. فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني فقال: «يا حذيفة، اذهب فادخل في القوم فانظر ما يفعلون، ولا تُحدثن شيئاً حتى تأتينا». قال: فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله ﷻ، تفعل بهم ما تفعل، ولا تُقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً، فقام أبو سفيان فقال: ما معشر قريش، لينظر امرؤ من جلسه. قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ فقال: أنا فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح الذي ترون. والله ما

تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا، فإني مُرْتَحِل، ثم قام إلى جَمَلِه وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه، فوثب به على ثلاث، فما أطلق عقَّالَه إلا وهو قائم. ولولا عهد رسول الله ﷺ إليّ: «ألا تحدث شيئاً حتى تأتيني» ثم شئت، لقتلته بسهم. قال حذيفة: فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مِرْطَ لبعض نسائه مُرَحِل، فلما رأيته أدخلني بين رجله، وطرح عليّ طرف المِرْطَ، ثم ركع، وسجد واني لفيه، فلما سلم أخبرته الخبر، وسمعت غَطْفَانِ بما فعلت قبرش، فانشمروا راجعين إلى بلادهم. وقد رواه مسلم في صحيحه من حديث الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: كنا عند حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه، فقال له رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ، قاتلت معه وأبليت. فقال له حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقُرْ، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يأتي بخير القوم، يكون معي يوم القيامة؟». فلم يجبه منا أحد، ثم الثانية، ثم الثالثة مثله. ثم قال: «يا حذيفة، قم فأنا بخير من القوم». فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم، فقال: «النتني بخير القوم، ولا تَدْعُزْهم عَلَيّ»، قال: فمضيت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يَضْطَلِي ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كِبِدِ قوسي، وأردت أن أرميه، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ: «لا تَدْعُزْهم عَلَيّ»، ولو رَمَيْتَه لأصبته. قال: فرجعت كأنما أمشي في حمام، فأتيت رسول الله ﷺ، ثم أصابني البرد حين فَرَعْتُ وفَرَزْتُ فأخبرت رسول الله ﷺ، والبسني من فضل عَبَاءَةٍ كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائماً حتى الصبح، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ: «قم يا نومان». ورواه يونس بن بُكَيْرٍ، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم: أن رجلاً قال لحذيفة، رضي الله عنه: نشكو إلى الله صحبتكم لرسول الله ﷺ، إنكم أدركتموه ولم ندركه، ورأيتموه ولم نره. فقال حذيفة: ونحن نشكو إلى الله إيمانكم به ولم تروه، والله لا تُذْري يا بن أخي لو أدركته كيف كنت تكون. لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الخندق في ليلة باردة مطيرة... ثم ذكر نحو ما تقدم مطولاً. وروى بلال بن يحيى العنسي، عن حذيفة نحو ذلك أيضاً. وقد أخرج الحاكم والبيهقي في «الدلائل»، من حديث عكرمة بن عمار، عن محمد بن عبد الله الدؤلي، عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة قال: ذُكر حذيفة مشاهدهم مع رسول الله ﷺ، فقال جلساؤه: أما والله لو شهدنا ذلك لكننا فعلنا وفعلنا. فقال حذيفة: لا تمنوا ذلك. لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحو صافون قعود، أبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقرينة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرائنا، وما أتت علينا قط أشد ظلمة ولا أشد ريحاً، في أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهي ظلمة ما يرى أحداً أصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولون: «إن بيوتنا عورة وما هي بعورة». فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، ويأذن لهم فيتسللون، ونحن ثلاثمائة ونحو ذلك، إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً حتى أتى عَلَيّ وما عَلَيّ جُثَّة من العدو ولا من البرد إلا مِرْطَ لامرأتي، ما يجاوز ركبتي. قال: فأتاني رسول الله ﷺ وأنا جأت على ركبتي فقال: «من هذا؟» فقلت: حذيفة. قال: «حذيفة». فتقاصرت بالأرض فقلت: بلى يا رسول الله، كراهية أن أقوم. قال: قم، فقممت، فقال: «إنه كائن في القوم خبر فأتني بخير القوم». قال: وأنا من أشد الناس فرعاً، وأشدّهم قرأً. قال: فخرجت، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم، احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته». قال: فوالله ما خلق الله فرعاً ولا قرأً في جوفي إلا خرج من جوفي، فما أجد فيه شيئاً. قال: فلما وليت قال: «يا حذيفة، لا تحدثن في القوم شيئاً حتى تأتيني». قال: فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم تَوَقَّدُ، وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار، ويمسح خاصرته، ويقول: الرحيل الرحيل، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك، فانتزعت سهماً من كنانتي أبيض الريش، فأضعه في كِبِدِ قوسي لأرميه به في ضوء النار، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «لا تحدثن فيهم شيئاً حتى تأتيني»، فأمسكت ورددت سهمي إلى كنانتي، ثم إني شَجَعْتُ نفسي حتى دخلت العسكر، فإذا أدنى الناس مني بنو عامر يقولون: يا آل عامر، الرحيل الرحيل، لا مقام لكم. وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبراً، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رجالهم وفَرَسَتَهُمُ الريح تضربهم بها، ثم خرجت نحو النبي ﷺ، فلما انتصفت في الطريق أو نحواً من ذلك، إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك مُتَعَمِّين، فقالوا: أخبر صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم. فرجعت إلى رسول الله ﷺ، وهو مشتمل في شملة يصلي، فوالله ما عدا أن رجعت رَاجِعَتِي القُرْ وجعلت أَقْرَقْتُ، فأومأ إليّ رسول الله ﷺ بيده وهو يصلي، فدنوت منه، فأسبل عليّ شملته. وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى، فأخبرته خبر القوم، وأخبرته أنني تركتهم يترحلون، وأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا يَمَّةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودُ قَارِسْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ يَمَّا تَقُولُونَ بَيْبِئًا ۖ وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ فِي سَنَةِ مَنَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ مِنْ حَدِيثِ عَكْرَمَةَ بْنِ عِمَارٍ، بِهِ وَقَوْلُهُ: ﴿إِذَا جَاءَكُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ﴾ أَي: الْأَحْزَابِ ﴿وَمَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾: تَقَدَّمَ عَنْ حَذِيفَةَ أَنَّهُمْ بَنُو قَرِظَةَ، ﴿وَلَا زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَكَلَبَتِ الْقُلُوبُ﴾

الْحَصِيرِ ۖ أَي: من شدة الخوف والفرع، ﴿وَتَقْتُلُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾. قال ابن جرير: ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين، وأن الله سيفعل ذلك. وقال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿وَلَا زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَلَبِغْتَ الْقُلُوبُ الْحَسَاجِرَ وَتَقْتُلُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾: ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق حتى قال مُعْتَب بن قشير - أخو بني عمرو بن عوف -: كان محمد يبعثنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط. وقال الحسن في قوله: ﴿وَتَقْتُلُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾: ظنون مختلفة، ظن المنافقون أن محمداً وأصحابه يستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عاصم الأنصاري، حدثنا أبو عامر (ح) وحدثنا أبي، حدثنا أبو عامر العقدي، حدثنا الزبير - يعني: ابن عبد الله، مولى عثمان بن عفان - عن زَيْد بن عبد الرحمن بن أبي سعيد، عن أبيه، عن أبي سعيد قال: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله، هل من شيء نقول، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال ﷺ: «نعم»، قولوا: اللهم استر عورتنا، وآمن رؤعاتنا. قال: فضرب وجه أعدائه بالريح، فهبهم بالريح. وكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل، عن أبي عامر العقدي.

﴿هَٰذَا الَّذِي جَاءُ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (١١) وَلَا يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ الْيَرْبِ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣). يقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال، حين نزلت الأحزاب حول المدينة، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضييق، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم: أنهم ابتلوا واختبروا وزلزلوا زلزلاً شديداً، فحينئذ ظهر النفاق، وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في نفوسهم: ﴿وَلَا يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١٢) أما المنافق، فنجم نفاقه، والذي في قلبه شبهة أو حسيكة، ضَعُف حاله فتنفس بما يجده من الوسواس في نفسه؛ لضعف إيمانه، وشدة ما هو فيه من ضيق الحال. وقوم آخرون قالوا كما قال الله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ الْيَرْبِ﴾ يعني: المدينة، كما جاء في الصحيح: «أريت في المنام دار هجرتكم، أرض بين حرتين فذهب وغلَى أنها هَجْر، فإذا هي يَثْرِب»، وفي لفظ: «المدينة». فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن مهدي، حدثنا صالح بن عمر، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن البراء، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من سَمِيَ المدينة يَثْرِب، فليستغفر الله، هي طابة، هي طابة».

تفرد به الإمام أحمد، وفي إسناده ضعف، والله أعلم. ويقال: إنما كان أصل تسميتها «يثرب» برجل نزلها من العماليق، يقال له: يثرب بن عبيل بن مهلابيل بن عوص بن عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح. قاله السهيلي، قال: وروي عن بعضهم أنه قال إن لها في التوراة أحد عشر اسماً: المدينة، وطابة، وطيبة، والمسكنة، والجابرة، والمجبة، والمحبوبة، والقاصمة، والمجبورة، والعذراء، والمرحومة. وعن كعب الأحبار قال: إنا نجد في التوراة يقول الله للمدينة: يا طيبة، ويا طابة، ويا مسكنة، لا تغلي الكنوز، أرفع أحاجرك على أحاجر القرى. وقوله: ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ أي: هاهنا، يعنون عند النبي ﷺ في مقام المراقبة، ﴿فَارْجِعُوا﴾ أي: إلى بيوتكم ومنازلكم. ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ﴾ قال العوفي، عن ابن عباس: هم بنو حارثة قالوا: بيوتنا نخاف عليها السُّرُوق. وكذا قال غير واحد. وذكر ابن إسحاق: أن القائل لذلك هو أوس بن قَيْطِي، يعني: اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة، أي: ليس دونها ما يحجبها عن العدو، فهم يخشون عليها منهم. قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ أي: ليست كما يزعمون، ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: هَرَباً من الزحف.

﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ يَدٌ أَقْفَارُهُمْ ثُمَّ سَلُّوا الْفِتْنَةَ لَأَنفَرُوا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا خِيَرًا﴾ (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤَلِّكَ لَهُمُ الْوَعْدَ أَنَّهُمْ مَشْغُورُونَ (١٥) قُلْ لَنْ يَفْعَلَكَ الْفَرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذْ لَا تُشْعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَعْدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكُمْ وَكِالَةٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٧).

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين «يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا»: أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة، وقَطَر من أقطارها، ثم سَلُّوا الفتنة، وهي الدخول في الكفر، لكفروا سريعاً. وهم لا يحافظون على الإيمان، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفرع. هكذا فسرها قتادة، وعبد الرحمن بن زيد، وابن جرير، وهذا ذم لهم في غاية الذم. ثم قال تعالى: يذكرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف، ألا يولوا الأديار ولا يفروا من الزحف، ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَشْغُورًا﴾ أي: وإن الله سيصالحهم عن ذلك العهد، لا بد من ذلك. ثم أخبرهم أن قرارهم ذلك لا يؤخر أجالهم، ولا يطول أعمارهم، بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غرة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَشْعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: بعد هَرَبكم وفراركم، ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَعْدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: يمنعكم، ﴿إِنْ

أَرَادَ بِكُمْ سُبْحًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٨﴾ أَي: ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا مغيث.

﴿قَدْ يَمْلِكُ اللَّهُ الْمَعْقُوفِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٩﴾ أَيَحْثَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْقَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْنِي عَنْهُ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْقَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَوْ لَيْتَ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب، والقائلين لإخوانهم، أي: أصحابهم وعشرائهم وخططانهم ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والسمار، وهم مع ذلك ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا أَيَحْثَةً عَلَيْكُمْ﴾ أي: بخلاء بالمودة، والشفقة عليكم.

وقال السدي: ﴿أَيَحْثَةً عَلَيْكُمْ﴾ أي: في الغنائم.

﴿فَإِذَا جَاءَ الْقَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْنِي عَنْهُ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: من شدة خوفه وجزعه، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْقَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي: فإذا كان الأمن، تكلموا كلاماً بليغاً فصيحاً عالياً، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة، وهم يكذبون في ذلك. وقال ابن عباس: ﴿سَلَفُوكُمْ﴾ أي: استقبلوكم.

وقال قتادة: أما عند الغنيمة فاشح قوم، وأسوأ مقاسمة: أعطونا، أعطونا، قد شهدنا معكم. وأما عند البأس فأجبن قوم، وأخذله للحق. وهم مع ذلك أشح على الخير، أي: ليس فيهم خير، قد جتموا الجبن والكذب وقلة الخير، فهم كما قال في أمثالهم الشاعر:

أَفِي السَّلَمِ أَغْيَارًا جَفَاءً وَغُلْفَةً وَفِي الْحَرْبِ أَمْثَالَ النِّسَاءِ السَّوَارِكِ
أَي: في حال المسالمة كأنهم الحمير. والأعيار: جميع عير، وهو الحمار. وفي الحرب كأنهم النساء الخيض؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ لَمَّا يَدْعُبُونَ وَلَدَ بَنَاتِ الْأَحْزَابِ يَدْعُوا أَنْ تَكُونَ لَهُنَّ زَوَاجُهُمْ يَوْمَ السَّلاَمِ﴾ ﴿٢١﴾

وهذا أيضاً من صفاتهم القبيحة في الجبن والخوف والخور، ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾، بل هم قريب منهم، وإن لهم عودة إليهم ﴿وَلَنْ يَأْتِيَ الْأَحْزَابَ يَدْعُوا أَنْ تَكُونَ لَهُنَّ زَوَاجُهُمْ يَوْمَ السَّلاَمِ﴾ أي: ويودون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة بل في البادية، يسألون عن أخباركم، وما كان من أمركم مع عدوكم، ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قُتِلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ولو كانوا بين أظهركم، لما قاتلوا معكم إلا قليلاً؛ لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٣﴾

هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسّي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله؛ ولهذا أمر الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب، في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه، ﷺ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين؛ ولهذا قال تعالى للذين تقلقلوا وتضجرُوا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: هلا اقتديتم به وتأسيت بسمائله؛ ولهذا قال: ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾. ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدقين بوعود الله لهم، وجعله العاقبة حاصلة لهم في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾. قال ابن عباس وفتادة: يعنون قوله تعالى في «سورة البقرة»: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتِهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ ﴿٢١٤﴾. أي هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختيار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب؛ ولهذا قال: ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾. وقوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾: دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم، كما قاله جمهور الأمة: إنه يزيد وينقص. وقد قررنا ذلك في أول «شرح البخاري»، والله الحمد والمنة. ومعنى قوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ أي: ذلك الحال والضيق والشدة ما زادهم ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ بالله، ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ أي: انقياداً لأوامره، وطاعة لرسوله.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ ﴿٢٤﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ

وَمُذَبِّبَ الْمُتَّقِينَ إِنْ سَأَلَ أَوْ يُؤْتَبَ عَلَيْهِمْ إِنْ أَلَّهَ كَانَ عَقُوبًا كَرِيمًا ﴿٢٤﴾ .

لما ذكر عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَيَنْهَضُوا عَنْهُمْ مَنْ فَضَى نَجْمُهُ﴾، قال بعضهم: أجله. وقال البخاري: عهده. وهو يرجع إلى الأول. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ أي: وما غيروا عهد الله، ولا نقضوه ولا بدلوه. قال البخاري: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري قال: أخبرني خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه قال: لما نسخنا الصُّحُفَ، فَقَدْتُ آيَةَ من «سورة الأحزاب» كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأها، لم أجدها مع أحد إلا مع خُزَيْمَةَ بن ثابت الأنصاري - الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين - : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ .

انفرد به البخاري دون مسلم. وأخرجه أحمد في مسنده، والترمذي والنسائي - في التفسير من سنتيهما - من حديث الزهري، به. وقال الترمذي: «حسن صحيح». وقال البخاري أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثني أبي، عن ثُمَامَةَ، عن أنس بن مالك قال: نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ . انفرد به البخاري من هذا الوجه، ولكن له شواهد من طرق أخر. قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت قال: قال أنس: عني أنس بن النضر سُميت به، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر، فشق عليه وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غُيِّبَتْ عنه، لئن أراني الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ لَيَرَيْنَ الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد، فاستقبل سعد بن معاذ فقال له أنس: يا أبا عمرو، ابن. وهاهنا لريح الجنة أجده دون أحد، قال: فقاتلهم حتى قُتِلَ قال: فَوُجِدَ في جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته - عمتي الربيع ابنة النضر - : فما عرفتُ أخي إلا ببنائه. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَيَنْهَضُوا عَنْهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ . قال: فكانوا يُزَوِّنُ أنها نزلت فيه، وفي أصحابه. ورواه مسلم والترمذي والنسائي، من حديث سليمان بن المغيرة، به. ورواه النسائي أيضاً وابن جرير، من حديث حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، به نحوه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حميد، عن أنس أن عمه - يعني: أنس بن النضر - غاب عن قتال بدر، فقال: غُيِّبَتْ عن أول قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين، لئن الله أشهدني قتالاً للمشركين، لَيَرَيْنَ الله ما أصنع. قال: فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون، فقال: اللهم إني أعوذ بك مما صنع هؤلاء - يعني: أصحابه - وأبرأ إليك مما جاء هؤلاء - يعني: المشركين - ثم تقدم فلقبه سعد - يعني: ابن معاذ - دون أحد، فقال: أنا معك. قال سعد: فلم أستطع أن أصنع ما صنع. قال: فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف، وطعنة رمح، ورمية سهم. وكانوا يقولون: فيه وفي أصحابه نزلت: ﴿فَيَنْهَضُوا عَنْهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ وأخرجه الترمذي في التفسير عن عبد بن حميد والنسائي فيه أيضاً، عن إسحاق بن إبراهيم، كلاهما، عن يزيد بن هارون، به. وقال الترمذي: حسن. وقد رواه البخاري في المغازي عن حسان بن حسان، عن محمد بن طلحة بن مُصَرِّف، عن حميد، عن أنس، به، ولم يذكر نزول الآية. ورواه ابن جرير، من حديث المعتمر بن سليمان، عن حميد، عن أنس، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن الفضل العسقلاني، حدثنا سليمان بن أيوب بن سليمان بن عيسى بن موسى بن طلحة بن عبيد الله، حدثني أبي، عن جدي، عن موسى بن طلحة، عن أبيه طلحة قال: لما أن رجع النبي ﷺ من أحد، صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وعَزَّى المسلمين بما أصابهم، وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والذخر، ثم قرأ هذه الآية: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ . فقام إليه رجل من المسلمين فقال: يا رسول الله، من هؤلاء؟ فأقبلتُ وعليَّ ثوبان أخضران خَضَرَمَيَّانِ فقال: «أيها السائل، هذا منهم». وكذا رواه ابن جرير من حديث سليمان بن أيوب الطَّلَحِي، به. وأخرجه الترمذي في التفسير والمناقب أيضاً، وابن جرير، من حديث يونس بن بُكَيْرٍ، عن طلحة بن يحيى، عن موسى وعيسى ابني طلحة، عن أبيهما، به. وقال: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث يونس. وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن عصام الأنصاري، حدثنا أبو عامر - يعني: العقدي - حدثنا إسحاق - يعني: ابن طلحة بن عبيد الله - عن موسى بن طلحة قال: دخلت على معاوية، رضي الله عنه، فلما خرجت، دعاني فقال: ألا أضع عندك يابن أخي حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ؟ أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «طلحة ممن قضى نجه». ورواه ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا عبد الحميد الجُمَانِي، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة الطَّلَحِي، عن موسى بن طلحة قال: قام معاوية بن أبي سفيان فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طلحة ممن قضى نجه». ولهذا قال مجاهد في قوله: ﴿فَيَنْهَضُوا عَنْهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ قال: عهده، ﴿وَمِنْهُمْ

مَنْ يَنْظُرْ ﴿٢٥﴾ قَالَ: يوماً. وقال الحسن: ﴿فَيَنْهَمُ مَنْ قَتَلَ نَجَبَةً﴾ يعني: موته على الصدق والوفاء. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ﴾ الموت على مثل ذلك، ومنهم من لم يبدل تبديلاً. وكذا قال قتادة، وابن زيد. وقال بعضهم: ﴿نَجَبَةً﴾: نذره. وقوله: ﴿وَمَا يَدَّبُّوا تَبْدِيلًا﴾ أي: وما غيروا عهدهم، وبدلوا الوفاء بالغدر، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه، وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا: ﴿إِنْ يَبُوءُ عَوْدَةً وَمَا هِيَ بِبُوءٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُوكَ إِلَّا ذَنْبًا﴾. وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إنما يختبر عياده بالخوف والزلازل ليميز الخبيث من الطيب، فيظهر أمر هذا بالفعل، وأمر هذا بالفعل، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم، حتى يعملوا بما يعلمه فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَسْلُوَنَكُمْ حَتَّى تَقَارَ الْمُجْهِدِينَ وَتُكْفِرُوا وَلَتَكُونُوا لِبَارِكُوا﴾ (٢٦) [محمد: ٣١]، فهذا علم بالشيء بعد كونه، وإن كان العلم السابق حاصلًا به قبل وجوده. وكذا قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِقَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، ولهذا قال هاهنا: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه، وقيامهم به، ومحافظتهم عليه. ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾ وهم النافضون لعهد الله، المخالفون لأوامره، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه، ولكن هم تحت مشيئته في الدنيا، إن شاء استمر بهم على ما فعلوه حتى يلقوه به فيعذبهم عليه، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى التزوع عن النفاق إلى الإيمان، وعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان. ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هي الغالبة لغضبه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا غَيْرَ يُهْرَبُ﴾ (٢٧).

يقول تعالى مخبراً عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة، بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية، ولولا أن جعل الله رسوله رحمة للعالمين، لكانت هذه الريح عليهم أشد من الريح العقيم على عاد، ولكن قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٢٨) [الأنفال: ٣٣]، فسلط عليهم هواء فرق شملهم، كما كان سبب اجتماعهم من الهوى، وهم أخلاط من قبائل شتى، أحزاب وآراء، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعتهم، وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحقتهم، لم ينالوا خيراً لا في الدنيا، مما كان في أنفسهم من الظفر والمغنم، ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بالعداوة، وهمهم بقتله، واستئصال جيشه، ومن هم بشيء وصدق همة بفعله، فهو في الحقيقة كفاعله. وقوله: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ أي: لم يحتاجوا إلى منازلهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم، بل كفى الله وحده، ونصر عبده، وأعز جنده؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده». أخرجاه من حديث أبي هريرة. وفي الصحيحين من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب. اللهم، اهزمهم وزلزلهم». وفي قوله: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾: إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش، وهكذا وقع بعدها، لم يغزهم المشركون، بل غزاهم المسلمون في بلادهم. وقال محمد بن إسحاق: لما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم»، فلم تغز قريش بعد ذلك، وكان هو يغزوهم بعد ذلك، حتى فتح الله عليه مكة. وهذا الحديث الذي ذكره محمد بن إسحاق حديث صحيح، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثني أبو إسحاق قال: سمعت سليمان بن صرد يقول: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «الآن تغزوه ولا يغزونا». وهكذا رواه البخاري في صحيحه، من حديث الثوري وإسرائيل، عن أبي إسحاق، به. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا غَيْرَ يُهْرَبُ﴾ أي: بحوله وقوته، ردهم خائبين، لم ينالوا خيراً، وأعز الله الإسلام وأهله، وصدق وعده، ونصر رسوله وعبده، فله الحمد والمنة.

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَافِيهِمْ وَقَفَّ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبُ فَرِيحًا تَقْتُلُونَ وَتَأْيُسُوتُ فَرِيحًا﴾ (٢٩) ﴿وَأَوْزَقَكُمْ أَرْسَهُمْ وَيَرْبَهُمْ وَأَوَّلَكُمْ وَأَوَّلًا لَمْ تَكُنْ لَكُمْ قُوَّةٌ قَبْلَ ذَلِكَ﴾ (٣٠).

قد تقدم أن بني قريظة لما قدمت جنود الأحزاب، ونزلوا على المدينة، نقضوا ما كان بينهم بين رسول الله ﷺ من العهد، وكان ذلك بسفارة حَيٍّ بن أخطب النضري - لعنه الله - دخل حصنهم، ولم يزل يسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد، وقال له فيما قال: ويحك، قد جئتكم بجز الدهر، أتيتكم بقريش وأحايشها، وغطفان وأتباعها، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه. فقال له كعب: بل والله أتيتني بذل الدهر. ويحك يا حيي، إنك مشؤوم، فدعنا منك. فلم يزل يقتل في الذروة

والغَارِبَ حتى أجا به، واشترط له حُيِّي إن ذهب الأحزاب، ولم يكن من أمرهم شيء، أن يدخل معهم في الحصن، فيكون له أسوتهم. فلما نَقَضَتْ قريظة، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ساءه، وشق عليه وعلى المسلمين جداً، فلما أيد الله ونَصَرَ، وكبت الأعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً، ووضع الناس السلاح. فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة إذ تبدى له جبريل معتجراً بعمامة من إستبرق، على بغلة عليها قطيفة من ديباج، فقال: أوضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: «نعم». قال: لكن الملائكة لم تضع أسلحتها، وهذا الآن رجوعي من طلب القوم. ثم قال: إن الله يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة. وفي رواية فقال له: عذيرك من مقاتل، أوضعتم السلاح؟ قال: «نعم». قال: لكننا لم نضع أسلحتنا بعد، انهض إلى هؤلاء. قال: «أين؟». قال: بني قريظة، فإن الله أمرني أن أزلزل عليهم. فنهض رسول الله ﷺ من فوره، وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة، وكانت على أميال من المدينة، وذلك بعد صلاة الظهر، وقال: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة». فسار الناس، فأدركتهم الصلاة في الطريق، فصلى بعضهم في الطريق وقالوا: لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل السير، وقال آخرون: لا نصليها إلا في بني قريظة. فلم يُعْتَفَ واحداً من الفريقين. وتبعهم رسول الله ﷺ، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب. ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصروهم خمساً وعشرين ليلة، فلما طال عليهم الحال، نزلوا على حكم سعد بن معاذ - سيد الأوس - لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية، واعتقدوا أنه يحسن إليهم في ذلك، كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول في مواله بني قينقاع، حين استطلقهم من رسول الله ﷺ، فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم كما فعل ابن أبي في أولئك، ولم يعلموا أن سعداً، رضي الله عنه، كان قد أصابه سهم في أكله أيام الخندق، فكواه رسول الله ﷺ في أكله، وأنزله في قبة في المسجد ليعوده من قريب. وقال سعد فيما دعا به: اللهم، وإن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقيني لها. وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم، فافجرها ولا تمنني حتى تُفَرَّ عيني من بني قريظة. فاستجاب الله دعاءه، وقَدَّرَ عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلباً من تلقاء أنفسهم، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطؤوا له عليه، جعل الأوس يلودون به ويقولون: يا سعد، إنهم مواليك، فأحسن فيهم. ويرققونه عليهم ويعطفونه، وهو ساكت لا يرد عليهم. فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد ألا تأخذه من الله لومة لائم. فعرفوا أنه غير مستبقيهم، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم». فقام إليه المسلمون، فأنزلوه إعظماً وإكراماً واحتراماً له في محل ولايته، ليكون أنفذ لحكمه فيهم. فلما جلس قال له رسول الله ﷺ: «إن هؤلاء - وأشار إليهم - قد نزلوا على حكمك، فأحكم فيهم بما شئت». قال: وحكمي نافذ عليهم؟ قال: «نعم». قال: وعلى من في هذه الخيمة؟ قال: «نعم». قال: وعلى من هاهنا. وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول الله ﷺ - وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ إجلالاً وإكراماً وإعظماً - فقال له رسول الله ﷺ: «نعم». فقال: إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم، وتُسبى ذريتهم وأموالهم. فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»، وفي رواية: «لقد حكمت بحكم المَلَك». ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد فحُذَّتْ في الأرض، وجيء بهم مكتفين، فضرب أعناقهم، وكانوا ما بين السبعمئة إلى الثمانمئة، وسبى من لم يُنبت منهم من النساء وأموالهم، وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبسطه في كتاب السيرة، الذي أفردناه موجزاً ومقتصاً، والله الحمد والمنة.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمُ﴾ أي: عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿يَنَ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يعني: بني قريظة من اليهود، من بعض أسباط بني إسرائيل، كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديماً، طمعاً في اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَأَوْفَرُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، فعليهم لعنة الله. وقوله: ﴿مِن صَيَاسِيهِمْ﴾ يعني: حصونهم. كذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وقتادة، والسُّدِّي، وغيرهم ومنه سميت صياصي البقر، وهي قرونها؛ لأنها أعلى شيء فيها. ﴿وَقَدَّ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعِبُ﴾ وهو الخوف؛ لأنهم كانوا مالئوا المشركين على حرب رسول الله ﷺ، وليس من يعلم كمن لا يعلم، فأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليعزوا في الدنيا، فانعكس عليهم الحال، وانقلب الحال، انشمر المشركون ففازوا بصفقة المغبون، فكما راموا العز ذلوا، وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة، فصارت الجملة أن هذه هي الصفقة الخاسرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِيضًا يَنُتَلَّوْنَ وَتَأْسَرُونَ فَرِيضًا﴾، فالذين قتلوا هم المقاتلة، والأسراء هم الأصاغر والنساء.

قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم بن بشير، أخبرنا عبد الملك بن عمير، عن عطية القرظي قال: عُرضت على النبي ﷺ يوم قريظة فشكوا في، فأمر بي النبي ﷺ أن ينظروا: هل أنبت بعد؟ فنظروا فلم يجدوني أنبت، فخلى عني وألحقني بالسبي. وكذا

رواه أهل السنن كلهم من طرق، عن عبد الملك بن عمير، به. وقال الترمذي: «حسن صحيح». ورواه النسائي أيضاً، من حديث ابن جُرَيْج، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن عطية، بنحوه. وقوله: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَنَاتَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أي: جعلها لكم من قتلكم لهم ﴿وَأَرْضًا لَمْ تَطْلُوهَا﴾: قيل: خير. وقيل: مكة. رواه مالك، عن زيد بن أسلم. وقيل: فارس والروم. وقال ابن جرير: يجوز أن يكون الجميع مراداً. ﴿وَكَلَّ اللَّهُ عَلَى كُلِّ مَنٍّ قَبِيرًا﴾: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا محمد بن عمرو، عن أبيه، عن جده علقمة بن وقاص قال: أخبرني عائشة قالت: خرجت يوم الخندق أقفو الناس، فسمعت وئيد الأرض ورائي، فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجئاً، قالت: فجلست إلى الأرض، فمر سعد وعليه دُرْع من حديد قد خرجت منه أطرافه، فأننا أتخوف على أطراف سعد، قالت: وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم، فمر وهو يرتجز ويقول:

لَبِثْتُ قَلِيلًا يَشْهَدُ الْهَيْجَا حَمَلٌ مَا أَحْسَنَ الْمَوْتَ إِذَا حَانَ الْأَجَلُ

قالت: فسمعت فافتحمت حقيقة، فإذا فيها نفر من المسلمين، وإذا فيها عمر بن الخطاب، وفيهم رجل عليه تَسْبِغَة له - تعني المغفر - فقال عمر: ما جاء بك؟ لعمرى والله إنك لجريئة، وما يؤمئك أن يكون بلاء أو يكون تَحَوُّز. قالت: فما زال يلومني حتى تمنيت أن الأرض انشقت بي ساعتئذ، فدخلت فيها، فرفع الرجل التسبغة عن وجهه، فإذا هو طلحة بن عبيد الله فقال: يا عمر، ويحك، إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التَحَوُّز أو الفرار إلا إلى الله تعالى؟ قالت: ويرمي سعداً رجلاً من قریش، يقال له ابن العرقه بسهم، وقال له: خذها وأنا ابن العرقه فأصابَ أَكْحَلَهُ فقطعه، فدعا الله سعد فقال: اللهم، لا تمنني حتى تُفَرِّقَ عيني من قريظة. قالت: وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية، قالت: فرقاً كُلُّهُ، وبعث الله الريح على المشركين، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً. فلحق أبو سفيان ومن معه بتهامة، ولحق عبيدة بن بدر ومن معه بنجد، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصبيهم، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمر بقبة من آدم فضربت على سعد في المسجد، قالت: فجاءه جبريل، عليه السلام، وإن على ثنياه لنقع الغبار، فقال: أو قد وضعت السلاح؟ لا، والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح، اخرج إلى بني قريظة فقاتلهم. قالت: فلبس رسول الله ﷺ لأَمَتَهُ، وأذن في الناس بالرحيل أن يخرجوا، فخرج رسول الله ﷺ فمر على بني غنم وهم جيران المسجد حوله فقال: ومن مر بكم؟ قالوا: مر بنا دحية الكلبي - وكان دحية الكلبي تشبه لحيته، وسنه ووجهه جبريل، عليه الصلاة والسلام، فاتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، فلما اشتد حصارهم واشتد البلاء قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ. فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر، فأشار إليهم أنه الذبح. قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ فقال رسول الله ﷺ: «انزلوا على حكم سعد بن معاذ». فنزلوا وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فأتى به على حمار عليه إكاف من ليف قد حُمِلَ عليه، وَخَفَ به قومه، فقالوا: يا أبا عمرو، حلفاؤك ومواليك وأهل التكاية ومن قد علمت، قالت: ولا يَزُجُّ إليهم شيئاً، ولا يلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال: قد آن لي ألا أبالي في الله لومة لائم. قال: قال أبو سعيد: فلما طلع قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم فأنزلوه». فقال عمر: سيدنا الله. قال: «أنزلوه». فأنزلوه، قال رسول الله ﷺ: «أحكم فيهم». قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبي ذراريهم، وتقسم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله». ثم دعا سعد فقال: اللهم إني كنت أبقيت على نبيك من حرب قريش شيئاً، فأبقني لها. وإن كانت قطعت الحرب بينه وبينهم، فأقبضني إليك. قال: فانفجر كُلُّهُ، وكان قد برىء منه إلا مثل الخُرْص، ورجع إلى قبته التي ضرب عليه رسول الله ﷺ. قالت عائشة: فَخَصَّرَهُ رسول الله ﷺ وأبو بكر، وعمر: فوالذي نفس محمد بيده، إني لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر، وأنا في حجرتي. وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾. قال علقمة: فقلت: أي أمه، فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟ قالت: كانت عينه لا تدمع على أحد، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو أخذ بلحيته. وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن نمير، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة نحواً من هذا، ولكنه أخصر منه، وفيه ذعاء سعد، رضي الله عنه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُلْ لِرَسُولِكُمْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرِزْقَهَا فَتَعَالَتْ أَمْتِعَتُكُمْ وَأَسْرَعَتُكُمْ سَرَكًا جِيلًا ۖ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ﴾.

هذا أمر من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بأن يَخْتَرِ نساءه بين أن يفارقهن، فيذهبن إلى غيره ممن يَحْصُلُ لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن، رضي الله عنهن وأرضاهن، الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة. قال البخاري: حدثنا أبو

اليمن، أخبرنا شعيب، عن الزهري، قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، أن عائشة، رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ أخبرته: أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخير أزواجه، فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال: «إني ذاكرك أمراً، فلا عليك أن تستعجلي حتى تستأمري أبويك»، وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه. قالت: ثم قال: «وإن الله قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ﴾» إلى تمام الآيتين، فقلت له: ففي أي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. وكذا رواه معلقاً عن الليث: حدثني يونس، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن عائشة، فذكره وزاد: قالت: ثم فعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت. وقد حكى البخاري أن مَعْمَرًا اضطرب، فتارة رواه عن الزهري، عن أبي سلمة، وتارة رواه عن الزهري، عن عُرْوَةَ، عن عائشة. وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن عبدة الضبي، حدثنا أبو عَوَّانَةَ، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه قال: قالت عائشة: لما نزل الخيار قال لي رسول الله ﷺ: «إني أريد أن أذكر لك أمراً، فلا تقضي فيه شيئاً حتى تستأمري أبويك». قالت: قلت: وما هو يا رسول الله؟ قال: فردّه عليها. فقالت: فما هو يا رسول الله؟ قالت: فقرأ عليها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبِّتْنَهَا﴾ إلى آخر الآية. قالت: فقلت: بل نختار الله ورسوله والدار الآخرة. قالت: ففرح بذلك النبي ﷺ. وحدثنا ابن وكيع، حدثنا محمد بن بشر، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: لما نزلت آية التخيير، بدأ بي رسول الله ﷺ، فقال: «يا عائشة، إني عارض عليك أمراً، فلا تفتاني فيه بشيء حتى تعرضيه على أبويك أبي بكر وأم رومان». فقلت: يا رسول الله، وما هو؟ قال: «قل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبِّتْنَهَا فَعَمَلِكُنَّ وَاسْتِغْنَاكُنَّ سَلَامًا جَيِّدًا﴾» قل الله ﷻ: «وَلَكِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾». قالت: فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ولا أوامر في ذلك أبوي أبا بكر وأم رومان، فضحك رسول الله ﷺ ثم استقرأ الحُجْرَ، فقال: «إن عائشة قالت كذا وكذا». فقلن: ونحن نقول مثل ما قالت عائشة، رضي الله عنهن كلهن.

ورواه ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد الأشج، عن أبي أسامة، عن محمد بن عمرو، به. قال ابن جرير: وحدثنا سعيد بن يحيى الأموي، حدثنا أبي، عن محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، عن عمرة، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ لما نزل إلى نسائه أمر أن يخيرهن، فدخل عليّ فقال: «سأذكر لك أمراً فلا تعجلي حتى تستشيري أباك». فقلت: وما هو يا نبي الله؟ قال: «إني أمرت أن أخيركن»، وتلا عليها آية التخيير، إلى آخر الآيتين. قالت: فقلت: وما الذي تقول لا تعجلي حتى تستشيري أباك؟ فإني أختار الله ورسوله، فسرّ بذلك، وعرض على نسائه فتبايعن كلهن، فاخترن الله ورسوله. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يزيد بن سنان البصري، حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح، حدثني الليث، حدثني عُقَيْل، عن الزهري، أخبرني عُبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قالت عائشة، رضي الله عنها: أنزلت آية التخيير فبدأ بي أوّل امرأة من نسائه، فقال: «إني ذاكرك أمراً، فلا عليك ألا تعجلي حتى تستأمري أبويك». قالت: قد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه. قالت: ثم قال: «إن الله قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ﴾» الآيتين. قالت عائشة: فقلت: أفي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. ثم خير نسائه كلهن، فقلن مثل ما قالت عائشة، رضي الله عنهن. وأخرجه البخاري ومسلم جميعاً، عن قتيبة، عن الليث، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، مثله. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مسلم بن صبيح، عن مسروق، عن عائشة قالت: خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه، فلم يعدها علينا شيئاً. أخرجاه من حديث الأعمش. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو، حدثنا زكريا بن إسحاق، عن أبي الزبير، عن جابر قال: أقبل أبو بكر، رضي الله عنه، يستأذن على رسول الله ﷺ والناس باباه جلوس، والنبي ﷺ جالس: فلم يؤذن له. ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له. ثم أذن لأبي بكر وعمر فدخلوا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه، وهو ساكت، فقال عمر: لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك، فقال عمر: يا رسول الله، لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتني النفقة آفئاً، فوجأت عنقها. فضحك النبي ﷺ حتى بدا ناضجه وقال: «هن حولي يسألنني النفقة». فقام أبو بكر، رضي الله عنه، إلى عائشة ليضربها، وقام عمر، رضي الله عنه، إلى حفصة، كلاهما يقولان: تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده. فنهاما رسول الله ﷺ فقلن نساؤه: والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده. قال: وأنزل الله، ﷻ، الخيار، فبدأ بعائشة فقال: «إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك». قالت: وما هو؟ قال: فتلا عليها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ﴾ الآية، قالت عائشة، رضي الله عنها: أفليك أستأمر أبوي؟ بل أختار الله ورسوله، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نساك ما اخترت. فقال: «إن الله تعالى لم يبعثني معنفًا، ولكن بعثني معلماً ميسراً، لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها». انفرد بإخراجه مسلم دون

البخاري، فرواه هو والنسائي، من حديث زكريا بن إسحاق المكي، به .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا سُريج بن يونس، حدثنا علي بن هاشم بن البريد، عن محمد بن عبيد الله بن علي ابن أبي رافع، عن عثمان بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي، رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ خَير نساء الدنيا والآخرة، ولم يخيرهن الطلاق. وهذا منقطع، وقد رُوي عن الحسن وقتادة وغيرهما نحو ذلك. وهو خلاف الظاهر من الآية، فإنه قال: ﴿فَمَالِيَكَ أَمْعَكَ وَشَرَّكَكَ سَرَّكَ جِلَّكَ﴾ أي: أعطيتك حقوقك وأطلق سراحك. وقد اختلف العلماء في جواز تزويج غيره لهن لو طلقهن، على قولين، وأصحهما نعم لو وقع، ليحصل المقصود من السراح، والله أعلم. قال عكرمة: وكان تحت يومئذ تسع نسوة، خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وكانت تحتها ﷺ صفية بنت حُيَيِّ النَّضْرِيَّة، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، رضي الله عنهن وأرضاهن. ولم يتزوج واحدة منهن، إلا بعد أن توفيت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، تزوجها رسول الله ﷺ بمكة، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وبقيت معه إلى أن أكرمه الله برسالة فأمّنت به ونصرته، وكانت له وزير صدق، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين، رضي الله عنها، في الأصح، ولها خصائص منها: أنه لم يتزوج عليها غيرها، ومنها أن أولاده كلهم منها، إلا إبراهيم، فإنه من سرية مارية، ومنها أنها خير نساء الأمة. واختلف في تفضيلها على عائشة على ثلاثة أقوال، ثالثها الوقف. وسئل شيخنا أبو العباس بن تيمية عنهما فقال: اختصت كل واحدة منهما بخاصية، فخديجة كان تأثيرها في أول الإسلام، وكانت تُسَلِّي رسول الله ﷺ وتثبت، وتسكنه، وتبذل دونه مالها، فأدركت غرة الإسلام، واحتملت الأذى في الله وفي رسوله وكان نصرته للرسول في أعظم أوقات الحاجة، فلها من النصرة والبذل ما ليس لغيرها. وعائشة تأثيرها في آخر الإسلام، فلها من التفقه في الدين وتبليغه إلى الأمة، وانتفاع بنيتها بما أدت إليهم من العلم، ما ليس لغيرها. هذا معنى كلامه، رضي الله عنه. ومن خصائصها: أن الله، سبحانه، بعث إليها السلام مع جبريل، فبلغها رسول الله ﷺ ذلك. روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: أتى جبريل، عليه السلام، النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة، قد أتت معها إناء فيها إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فأقرأها السلام من ربها ومنّي، وبشرها ببيت في الجنة، من قَصَب، لا صَخَب فيه ولا نَصَب وهذه لعمر الله خاصة، لم تكن لسواها. وأمّا عائشة، رضي الله عنها، فإن جبريل سلم عليها على لسان النبي ﷺ، فروى البخاري بإسناده أن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ يوماً: «يا عائشة، هذا جبريل يقرئك السلام». فقلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى، تريد رسول الله ﷺ. ومن خواص خديجة، رضي الله عنها: أنه لم تسوء قط، ولم تغاضبه، ولم ينلها منه إيلاء، ولا عتب قط، ولا هجر، وكفى بهذه منقبة وفضيلة. ومن خواصها: أنها أول امرأة أمّنت بالله ورسوله من هذه الأمة. فصل: فلما توفاهما الله تزوج بعدها سودة بنت زمعة، رضي الله عنها، وهي سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن جيل بن عامر بن لؤي، وكبرت عنده، وأراد طلاقها فوهبت يومها لعائشة، فأمسكها. وهذا من خواصها: أنها أثرت بيومها حب النبي ﷺ تقرباً إلى رسول الله ﷺ، وحباً له، وإيثاراً لمقامها معه، فكان يقسم لعائشة يومها ويوم سودة، ويقسم لنسائه، ولا يقسم لها وهي راضية بذلك مؤثرة، لترضي رسول الله ﷺ.

وتزوج الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبي بكر، رضي الله عنهما، وهي بنت ست سنين قبل الهجرة بستتين، وقيل: بثلاث، وبنى بها بالمدينة أول مقدمه في السنة الأولى، وهي بنت تسع، ومات عنها وهي بنت ثمان عشرة، وتوفيت بالمدينة، ودفنت بالبقيع، وأوصت أن يصلي عليها أبو هريرة سنة ثمان وخسين، ومن خصائصها: أنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه، كما ثبت ذلك عنه في البخاري وغيره، أنه سئل أيُّ الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة». قيل: فمن الرجال؟ قال: «أبوها». ومن خصائصها أيضاً: أنه لم يتزوج بكرة غيرها، ومن خصائصها: أنه كان ينزل عليه الوحي وهو في لحافها دون غيرها. ومن خصائصها: أن الله، ﷻ، لما أنزل عليه آية التخيير بدأ فيها فخيرها، فقال: «ولا عليك ألا تعجلي حتى تستأمري أبويك». فقالت: أفي هذا أستأمر أبوي، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. فاستن بها بقية أزواجه ﷺ، وقلن كما قالت. ومن خصائصها: أن الله، سبحانه، برأها مما رماها به أهل الإفك، وأنزل في عذرها، وبرأها، وحيأ يتلى في محاربي المسلمين، وصلواتهم إلى يوم القيامة، وشهد لها أنها من الطيبات، ووعداها المغفرة والرزق الكريم، وأخير، سبحانه، أن ما قيل فيها من الإفك كان خيراً لها، ولم يكن بذلك الذي قيل فيها شر لها، ولا عيب لها، ولا خافض من شأنها، بل رفعها الله بذلك، وأعلا قدرها وعظم شأنها، وأصاب لها ذكراً بالطيب والبراءة بين أهل الأرض والسماء، فيا لها من منقبة ما أجلها. وتأمل هذا التشريف

والإكرام الناشئ عن فرط تواضعها واستصغارها لنفسها، حيث قالت: ولشأنني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بوحى يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرئني الله بها، فهذه صديقة الأمة، وأم المؤمنين، وحب رسول الله ﷺ، وهي تعلم أنها بريئة مظلومة، وأن قاذفيها ظالمون مفترون عليها، قد بلغ أذاهم إلى أبييها، وإلى رسول الله ﷺ، وهذا كان احتقارها لنفسها وتصغيرها لشأنها، فما ظنك بمن قد صام يوماً أو يومين، أو شهراً أو شهرين، قد قام ليلة أو ليلتين، فظهر عليه شيء من الأحوال، ولاحظوا أنفسهم بعين استحقاق الكرامات، وأنهم ممن يتبرك بلفظهم، ويغتنم بصلح دعائهم، وأنهم يجب على الناس احترامهم وتعظيمهم وتعزيرهم وتوقيرهم، فيتمسح بأثوابهم، ويقبل ثرى اعتبارهم، وأنهم من الله بالمكانة التي تنتقم لهم لأجلها من تنقصهم في الحال، وأن يؤخذ من أساء الأدب عليهم من غير إهمال، وإن إساءة الأدب عليهم ذنب لا يكفره شيء إلا رضاهم. ولو كان هذا من وراء كفاية لهان، ولكن من وراء تخلف، وهذه الحماقات والرعنات نتاج الجهل الصميم، والعقل غير المستقيم، فإن ذلك إنما يصدر من جاهل معجب بنفسه، غافل عن جرمه وعيوبه وذنوبه، مغتر بإهمال الله له عن أخذه بما هو فيه من الكبر والازدراء على من لعله عند الله خير منه. نسال الله العافية في الدنيا والآخرة. وينبغي للعبد أن يستعيز بالله أن يكون عند نفسه عظيماً، وهو عند الله حقيراً، ومن خصائص عائشة، رضي الله عنها: أن الأكابر من الصحابة، رضي الله عنهم، كان إذا أشكل الأمر عليهم من الدين، استفتوها فيجدون علمه عندها. ومن خصائصها: أن رسول الله ﷺ توفي في بيتها. ومن خصائصها: أن الملك أرى صورتها للنبي ﷺ قبل أن يتزوجها في خرقه حرير، فقال النبي ﷺ: «إن يكن هذا من عند الله يمضه». ومن خصائصها: أن الناس كانوا يتحرون هداياهم يومها من رسول الله ﷺ تقريباً إلى الرسول ﷺ، فيتحفونه بما يحب في منزل أحب نسائه إليه، رضي الله عنهم أجمعين، وتكنى أم عبد الله، وروى أنها أسقطت من النبي ﷺ سقطاً، ولا يثبت ذلك.

وتزوج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب، وكانت قبله عند حبش بن حذافة، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ وممن شهد بدرأ، توفيت سنة سبع، وقيل: ثمان وعشرين، ومن خواصها: ما ذكره الحافظ أبو محمد المقدسي في مختصره في السيرة: أن النبي ﷺ طلقها، فأتاه جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة، فإنها صوامة قوامة وإنها زوجتك في الجنة. وقال الطبراني في المعجم الكبير: حدثنا أحمد بن طاهر بن حرملة بن يحيى، حدثنا جدي حرملة، حدثنا ابن وهب، حدثني عمرو بن صالح الحضرمي، عن موسى بن علي بن رباح، عن أبيه، عن عقبة بن عامر، أن النبي ﷺ طلق حفصة، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب، فوضع التراب على رأسه، وقال: ما يعبا الله بابن الخطاب بعد هذا. فنزل جبريل، عليه السلام، على النبي ﷺ فقال: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة لعمر.

وتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان، واسمها رملة بنت صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، هاجرت مع زوجها عبد الله بن جحش إلى أرض الحبشة، فتنصر بالحبشة، وأتم الله لها الإسلام، وتزوجها رسول الله ﷺ وهي بأرض الحبشة، وأصدقها عند النجاشي أربعمئة دينار، وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري بها إلى أرض الحبشة، وولى نكاحها عثمان بن عفان، وقيل: خالد بن سعيد بن العاص، وهي التي أكرمت فراش رسول الله ﷺ أن يجلس عليه أبوها لما قدم أبو سفيان المدينة، وقالت له: إنك مشرك، ومنعته الجلوس عليه.

وتزوج رسول الله ﷺ أم سلمة واسمها هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، وكانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد، توفيت سنة اثنين وستين، ودفنت بالبقيع، وهي آخر أزواج النبي ﷺ موتاً، وقيل: بل ميمونة، ومن خصائصها: أن جبريل دخل على النبي ﷺ، وهي عنده فرأته في صورة دحية الكلبي. ففي صحيح مسلم عن أبي عثمان قال: أنبت أن جبريل أتى النبي ﷺ، وعنده أم سلمة، فقال: فجعل يتحدث، ثم قام فقال نبي الله ﷺ لأم سلمة: «من هذا؟» أو كما قال. قالت: هذا دحية الكلبي. قالت: وإيم الله، ما حسبته إلا إياه، حتى سمعت خطبة النبي ﷺ، يخبر أنه جبريل، أو كما قال، قال سليمان التيمي: فقلت لأبي عثمان: ممن سمعت هذا الحديث؟ قال: من أسامة بن زيد. وزوجها ابنها - عمر - من رسول الله ﷺ، وردت طائفة ذلك بأن ابنها لم يكن له من السن حينئذ ما يعقد التزويج، ورد الإمام أحمد ذلك، وأنكر على من قاله، ويدل على صحة قول أحمد ما رواه مسلم في صحيحة أن عمر بن أبي سلمة - ابنها - سأل النبي ﷺ عن القبلية للصائم؟ فقال: «سل هذه» يعني: أم سلمة فأخبرته أن رسول الله ﷺ يفعله، فقال: لسنا كرسول الله ﷺ، يحل الله لرسوله ما شاء. فقال رسول الله ﷺ: «إني أتقاكم لله وأعلمكم به» أو كما قال. ومثل هذا لا يقال لصغير جداً، وعمر ولد بأرض الحبشة قبل الهجرة. وقال

تَبَرَّجَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقَمْنَ الصَّلَاةَ وَآتَيْنَ الزَّكَاةَ وَأَطَعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكُرْنَ مَا يُكَلِّفُ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنَ الْغَيْبِ وَالْخُصْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ .

هذه آداب أمر الله بها نساء النبي ﷺ، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، فقال مخاطباً لنساء النبي ﷺ بأنهن إذا اتقين الله كما أمرهن، فإنه لا يشبههن أحد من النساء، ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة، ثم قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ . قال السُّدِّي وغيره: يعني بذلك: ترفيق الكلام إذا خاطبن الرجال؛ ولهذا قال: ﴿فَقَطِّعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَرٌ﴾ أي: دَغَلٌ، ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾: قال ابن زيد: قولاً حسناً جميلاً معروفاً في الخير. ومعنى هذا: أنها تتخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أي: لا تتخاطب المرأة الأجانب كما تتخاطب زوجها. وقوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة. ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه، كما قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخرجن وهن ثيابهن»، وفي رواية: «وبيوتهن خير لهن». وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا حميد بن مسعدة، حدثنا أبو رجاء الكلبي، روح بن المسيب ثقة، حدثنا ثابت البناني، عن أنس، رضي الله عنه، قال: جئن النساء إلى رسول الله ﷺ فقلن: يا رسول الله، ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله تعالى، فما لنا عمل ندرك به عمل المجاهدين في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «من قعد - أو كلمة نحوها - منكن في بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين في سبيل الله». ثم قال: لا نعلم رواه عن ثابت إلا روح بن المسيب، وهو رجل من أهل البصرة مشهور. وقال البزار أيضاً: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا همام، عن قتادة، عن مُورِق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون بروحة بها وهي في فغر بيتها». ورواه الترمذي، عن بُنْدَار، عن عمرو بن عاصم، به نحوه. وروى البزار بإسناده المتقدم، وأبو داود أيضاً، عن النبي ﷺ قال: «صلاة المرأة أفضل من صلاتها في بيتها، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها». وهذا إسناده جيد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾: قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرج الجاهلية. وقال قتادة: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾: يقول: إذا خرجتن من بيوتكن - وكانت لهن مشية وتكرس وتفتُح - فنهى الله عن ذلك. وقال مقاتل بن حَيَّان: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾: والتبرج: أنها تلقي الخمار على رأسها، ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعقها، ويبدو ذلك كله منها، وذلك التبرج، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج. وقال ابن جرير: حدثني ابن زهير، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا داود - يعني ابن أبي الفرات - حدثنا علي بن أحمر، عن عكرمة عن ابن عباس قال: تلا هذه الآية: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾. قال: كانت فيما بين نوح وإدريس، وكانت ألف سنة، وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل، والآخر يسكن الجبل. وكان رجال الجبل صباحاً وفي النساء دمامة. وكان نساء السهل صباحاً وفي الرجال دمامة، وإن إبليس أتى رجلاً من أهل السهل في صورة غلام، فأجر نفسه منه، فكان يخدمه واتخذ إبليس شيئاً مثل الذي يُزَمَّر فيه الرُعاء، فجاء فيه بصوت لم يسمع الناس مثله، فبلغ ذلك من حوله، فأتا بهم يسمعون إليه، واتخذوا عيداً يجتمعون إليه في السنة، فيتبرج النساء للرجال. قال: ويتزين الرجال لهن، وإن رجلاً من أهل الجبل هَجَمَ عليهم في عيدهم ذلك، فرأى النساء وصباحتهن، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك، فتحولوا إليه، فنزلوا معهن وظهرت الفاحشة فيهن، فهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾. وقوله: ﴿وَأَقَمْنَ الصَّلَاةَ وَآتَيْنَ الزَّكَاةَ وَأَطَعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، نهاهن أولاً عن الشر في أمرهن بالخير، من إقامة الصلاة - وهي: عبادة الله وحده لا شريك له - وإيتاء الزكاة، وهي: الإحسان إلى المخلوقين، ﴿وَأَطَعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وهذا من باب عطف العام على الخاص. وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾: وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت هاهنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً، إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح. وروى ابن جرير: عن عكرمة أنه كان ينادي في السوق: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة، وهكذا روى ابن أبي حاتم قال: حدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنا حسين بن واقد، عن يزيد النحوي، عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ قال: نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة.

وقال عكرمة: من شاء باهله أنها نزلت في أزواج النبي ﷺ. فإن كان المراد أنهم كنَّ سبب النزول دون غيرهن فصحيح، وإن أريد أنهم المراد فقط دون غيرهن، ففي هذا نظر؛ فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك: الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أخبرنا علي بن زيد، عن أنس ابن مالك، رضي الله عنه، قال:

إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر، يقول: «الصلاة يا أهل البيت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾». ورواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن عفان، به. وقال: حسن غريب.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو نعيم، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، أخبرني أبو داود، عن أبي الحمراء قال: رابطة المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله ﷺ، قال: رأيت رسول الله ﷺ إذا طلع الفجر، جاء إلى باب علي وفاطمة فقال: «الصلاة الصلاة، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾». أبو داود الأعمى هو: نفع بن الحارث، كذاب.

حديث آخر: وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا الأوزاعي، حدثنا شداد أبو عمار قال: دخلت على واثلة بن الأسقع وعنده قوم، فذكروا علياً، رضي الله عنه، فلما قاموا قال لي: ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله ﷺ؟ قلت: بلى. قال: أتيت فاطمة أسألها عن علي فقالت: توجه إلى رسول الله ﷺ، فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله ﷺ ومعه علي وحسن وحسين، أخذ كل واحد منهما بيده حتى دخل، فأدنى علياً وفاطمة وأجلسهما بين يديه، وأجلس حسناً وحسيناً كل واحد منهما على فخذه، ثم لف عليهم ثوبه - أو قال: كساءه - ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، «اللهم هؤلاء أهل بيتي، وأهل بيتي أحق»، وقد رواه أبو جعفر بن جرير عن عبد الكريم بن أبي عمير، عن الوليد بن مسلم، عن أبي عمرو الأوزاعي بسنده نحوه - زاد في آخره: قال واثلة: فقلت: وأنا يا رسول الله - صلى الله عليه - من أهلك؟ قال: «وأنت من أهلي» قال واثلة: إنها من أرجى ما أرتجى. ثم رواه أيضاً عن عبد الأعلى بن واصل، عن الفضل بن دكين، عن عبد السلام بن حرب، عن كلثوم المحاربي، عن شداد أبي عمار قال: إني لجالس عند واثلة بن الأسقع إذ ذكروا علياً فشموه، فلما قاموا قال: اجلس حتى أخبرك عن الذي شتموه، إني عند رسول الله ﷺ إذ جاء علي وفاطمة وحسن وحسين فالتقى ﷺ عليهم كساءه له، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». قلت: يا رسول الله، وأنا: قال: «وأنت». قال: فوالله إنها لأوثق عملي عندي.

حديث آخر: قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح، حدثني من سمع أم سلمة تذكر أن النبي ﷺ كان في بيتها، فأتته فاطمة، رضي الله عنها، ببرمة فيها خزيرة، فدخلت بها عليه فقال لها: «ادعي زوجك وابنيك». قالت: فجاء علي وحسن وحسين فدخلوا عليه، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة، وهو على منامة له على دكان تحته كساء خبيري، قالت: وأنا في الحجرة أصلي، فأنزل الله، ﷻ، هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. قالت: فأخذ فضل الكساء فغطاهم به، ثم أخرج يده فآلوى بها إلى السماء، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»، قالت: فادخلت رأسي البيت، فقلت: وأنا معكم يا رسول الله؟ فقال: «إني إلى خير، إني إلى خير». وفي إسناده من لم يسم، وهو شيخ عطاء، وبقية رجاله ثقات. طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن أبي المعدل، عن عطية الطفاوي، عن أبيه؛ أن أم سلمة حدثته قالت: بينما رسول الله ﷺ في بيتي يوماً إذ قال الخادم: إن فاطمة وعلياً بالسدة قالت: فقال لي: «قومي فتتحي عن أهل بيتي». قالت: فقممت فتتحت في البيت قريباً، فدخل علي وفاطمة، ومعهما الحسن والحسين، وهما صبيان صغيران، فأخذ الصبيان فوضعهما في حجره فقبلهما، واعتنق علياً بإحدى يديه وفاطمة باليد الأخرى، وقبّل فاطمة وقبّل علياً، وأغدق عليهم خميصة سوداء وقال: «اللهم، إليك لا إلى النار أنا وأهل بيتي». قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله؟ صلى الله عليه. قال: «وأنت». طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا الحسن بن عطية، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد، عن أم سلمة؛ أن هذه الآية نزلت في بيتها: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. قالت: وأنا جالسة على باب البيت فقلت: يا رسول الله، ألسنت من أهل البيت؟ قال: «إني إلى خير، أنت من أزواج النبي ﷺ». قالت: وفي البيت رسول الله ﷺ وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين، رضي الله عنهم. طريق أخرى: رواه ابن جرير أيضاً، عن أبي كريب، عن وكيع، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن أم سلمة بنحوه. طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا خالد بن مخلد، حدثني موسى بن يعقوب، حدثني هاشم بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، عن عبد الله بن وهب بن زينة قال: أخبرني أم سلمة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ جمع فاطمة والحسن والحسين، ثم أدخلهم تحت ثوبه، ثم جأ إلى الله، ﷻ، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي». قالت أم سلمة: فقلت: يا رسول الله، أدخلني معهم.

فقال: «أنت من أهلي». طريق أخرى: رواه ابن جرير أيضاً، عن أحمد بن محمد الطوسي، عن عبد الرحمن بن صالح، عن محمد بن سليمان الأصبهاني، عن يحيى بن عبيد المكي، عن عطاء، عن عمر بن أبي سلمة، عن أمه بنحو ذلك. طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا مصعب بن المقدام، حدثنا سعيد بن زريق، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن أم سلمة قالت: جاءت فاطمة إلى رسول الله ﷺ ببرمة لها قد صنعت فيها عصيدة تحملها على طبق، فوضعتها بين يديه فقال: «أين ابن عمك وابناك؟» فقالت: في البيت. فقال: «ادعهم». فجاءت إلى علي فقالت: أجب رسول الله أنت وابناك. قالت أم سلمة: فلما رأهم مقبلين مد يده إلى كساء كان على المنامة، فمدّه وبسطه، وأجلسهم عليه، ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله، فضمه فوق رؤوسهم، وأوماً بيده اليمنى إلى ربه، ﷺ، فقال: «اللهم، هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا عبد الله بن عبد القدوس، عن الأعمش، عن حكيم بن سعد قال: ذكرنا علي بن أبي طالب عند أم سلمة، فقالت: في بيتي نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾. قالت أم سلمة: جاء رسول الله ﷺ إلى بيتي فقال: «لا تأذني لأحد». فجاءت فاطمة فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها. ثم جاء الحسن فلم أستطع أن أحجب عن أمه وجده، ثم جاء الحسين فلم أستطع أن أحجب، ثم جاء علي فلم أستطع أن أحجب، فاجتمعوا فجللهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط. قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا؟ قالت: فوالله ما أنعم، وقال: «إنك إلى خير».

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا محمد بن بشر، عن زكريا، عن مصعب بن شيبة، عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة، رضي الله عنها: خرج رسول الله ﷺ ذات غداة، وعليه مِرْطٌ مَرَحْلٌ من شَعَرِ أسود، فجاء الحسن فأدخله معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي فأدخله معه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾. ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن محمد بن بشر، به. طريق أخرى: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سريج بن يونس أبو الحارث، حدثنا محمد بن يزيد، عن العوام - يعني: ابن حَوْشَب - عن عم له قال: دخلت مع أبي على عائشة، فسألته عن علي، رضي الله عنه، فقالت، رضي الله عنه: تسألني عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وكانت تحته ابنته وأحب الناس إليه؟ لقد رأيت رسول الله ﷺ دعا علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فألقى عليهم ثوباً فقال: «اللهم، هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». قالت: فدنوت منه فقلت: يا رسول الله، وأنا من أهل بيتك؟ فقال: «نَحْنِي، فإني على خير».

حديث آخر: قال ابن جرير حدثنا المثنى، حدثنا بكر بن يحيى بن زَبَان العَنَزِي، حدثنا يَنْدَل، عن الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت هذه الآية في خمسة: في، وفي علي، وحسن، وحسين، وفاطمة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾». قد تقدم أن فضيل بن مرزوق رواه عن عطية، عن أبي سعيد، عن أم سلمة، كما تقدم. وروى ابن أبي حاتم من حديث هارون بن سعد العجلي، عن عطية، عن أبي سعيد موقوفاً، فالله أعلم.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا بُكَيْر بن مسمار قال: سمعت عامر بن سعد قال: قال سعد: قال رسول الله ﷺ حين نزل عليه الوحي، فأخذ علياً وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه، ثم قال: «رب، هؤلاء أهلي وأهل بيتي».

حديث آخر: وقال مسلم في صحيحه: حدثني زُهَيْر بن حرب، وشُجَاع بن مُخَلَّد جميعاً، عن ابن عُليَّة - قال زهير: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثني أبو حَيَّان، حدثني يزيد بن حَيَّان قال: انطلقت أنا وحُصَيْن بن سَبْرَةَ وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه، وغزوت معه، وصليت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً؛ حَدَّثْنَا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: يا بن أخي، والله لقد كَبَّرْتَ سِتِّي، وقدم عهدي، ونسيت بعض الذي كنت أعني من رسول الله ﷺ، فما حَدَّثْتُكُمْ فاقبلوا، وما لا فلا تُكَلِّفُونِي. ثم قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً بماء يدعي خُما - بين مكة والمدينة - فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذَكَر، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، وأولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به». فَحَثَّ على كتاب الله وَرَغَّب فيه، ثم قال: «وأهل بيتي، أَذْكُرْكُمْ الله في أهل بيتي، أَذْكُرْكُمْ الله في أهل بيتي» ثلاثاً. فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ فقال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من

حُرِّمَ الصَّدَقَةُ بَعْدَهُ . قال : ومن هم؟ قال هم آل علي، وآل عَقِيل، وآل جعفر، وآل عباس . قال : كل هؤلاء حُرِّمَ الصدقة؟ قال : نعم . ثم رَوَاهُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ بَكَّارَ بْنِ الرَّيَّانِ، عَنْ حَسَّانَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ مَسْرُوقٍ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ حَيَّانَ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِنَحْوِ مَا تَقَدَّمَ، وَفِيهِ : فَقُلْنَا لَهُ : مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؟ نَسَاؤُهُ؟ قَالَ : لَا وَابْنُ اللَّهِ، إِنْ الْمَرْأَةُ تَكُونُ مَعَ الرَّجُلِ الْعَصْرِ مِنَ الدَّهْرِ ثُمَّ يُطْلَقُهَا فَتَرْجِعُ إِلَى أَبِيهَا وَقَوْمِهَا . أَهْلُ بَيْتِهِ أَصْلُهُ وَغَصْبَتُهُ الَّذِينَ حُرِّمُوا الصَّدَقَةَ بَعْدَهُ . هَكَذَا وَقَعَ فِي هَذِهِ الرَّوَايَةِ، وَالْأَوَّلَى أَوَّلَى، وَالْأَخْذُ بِهَا أُخْرَى . وَهَذِهِ الثَّانِيَّةُ تَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَرَادَ تَفْسِيرَ الْأَهْلِ الْمَذْكُورِينَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ، إِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِمْ آلُ الَّذِينَ حُرِّمُوا الصَّدَقَةَ، أَوْ أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ بِالْأَهْلِ الْأَزْوَاجُ فَقَطْ، بَلْ هُمْ مَعَ آلِهِ، وَهَذَا الْإِحْتِمَالُ أَرْجَحُ؛ جَمْعاً بَيْنَهَا وَبَيْنَ الرَّوَايَةِ الَّتِي قَبْلَهَا، وَجَمْعاً أَيْضاً بَيْنَ الْقُرْآنِ وَالْأَحَادِيثِ الْمُتَقَدِّمَةِ إِنْ صَحَّتْ، فَإِنْ فِي بَعْضِ أَسَانِيدِهَا نَظَرًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . ثُمَّ الَّذِي لَا يَشْكُ فِيهِ مَنْ تَذَبَّرَ الْقُرْآنَ أَنَّ نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ دَخَلَتْ فِي قَوْلِهِ : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، فَإِنْ سِيَاقُ الْكَلَامِ مَعَهُنَّ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا كَلِمَةً : ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَكُنْ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أَيُّ : أَعْلَمَنَّ بِمَا يَنْزِلُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . قَالَهُ قَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ . وَاذْكُرَنَّ هَذِهِ النِّعْمَةَ الَّتِي خَصَّصْتَنَ بِهَا مِنْ بَيْنِ النَّاسِ، أَنَّ الْوَحْيَ يَنْزِلُ فِي بُيُوتِكُنَّ دُونَ سَائِرِ النَّاسِ، وَعَاشَتْهُ الصَّدِيقَةُ بِنْتُ الصَّدِيقِ أَوْلَاهُنَّ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ، وَأَحْظَاهُنَّ بِهَذِهِ الْغِنْيَةِ، وَأَخْصَاهُنَّ مِنْ هَذِهِ الرَّحْمَةِ الْعَمِيمَةِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْوَحْيُ فِي فِرَاشِ امْرَأَةٍ سِوَاهَا، كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ . قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ، رَحِمَهُ اللَّهُ : لِأَنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ بِكَرَى سِوَاهَا، وَلَمْ يَنْمِ مَعَهَا رَجُلٌ فِي فِرَاشِهَا سِوَاهَا، فَنَاسَبَ أَنْ تُخَصَّصَ بِهَذِهِ الْمِزْيَةِ، وَأَنْ تُفَرَّدَ بِهَذِهِ الرَّتَبَةِ الْعَالِيَةِ . وَلَكِنْ إِذَا كَانَ أَزْوَاجُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، فَقَرَابَتُهُ أَحَقُّ بِهَذِهِ التَّسْمِيَةِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ : «وَأَهْلُ بَيْتِي أَحَقُّ» . وَهَذَا يُشَبِّهُ مَا ثَبُتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا سئِلَ عَنِ الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ، فَقَالَ : «هُوَ مَسْجِدِي هَذَا» . فَهَذَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ؛ فَإِنَّ الْآيَةَ إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ، كَمَا وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ الْآخَرِ . وَلَكِنْ إِذَا كَانَ ذَلِكَ أَشَسَّ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ، فَمَسْجِدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْلَى بِتَسْمِيَتِهِ بِذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد، حدثنا أبو عَوَّانة، عن حُصَيْن بن عبد الرحمن، عن أبي جميلة قال: إن الحسن بن علي استخلف حين قُتل علي، رضي الله عنهما، قال: فبينما هو يصلي إذ وثب عليه رجل فطعنه بخنجر وزعم حصين أنه بلغه أن الذي طعنه رجل من بني أسد، وحسن ساجد قال: فيزعمون أن الطعنة وقعت في وركه، فمرض منها أشهراً، ثم برأ فقعده على المنبر، فقال: يا أهل العراق، اتقوا الله فينا، فإنا أمراؤكم رُشيفانكم، ونحن أهل البيت الذي قال الله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ قال: فما زال يقولها حتى ما بقي أحد من أهل المسجد إلا وهو يَجْحَرُ بكاءً. وقال السُّدِّي، عن أبي الديلم قال: قال علي بن الحسين لرجل من أهل الشام: أما قرأت في الأحزاب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾؟ قال: نعم، ولأنتم هم؟ قال: نعم. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي: بلطفه بكن بلغت هذه منزلة، وبخبرته بكن وأنكن أهل لذلك، أعطاكم ذلك وخصكن بذلك. قال ابن جرير، رحمه الله: واذكرن نعمة الله عليكن بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله على ذلك واحمدنه. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي: ذا لطف بكن، إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آياته والحكمة. وهي السنة، خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجاً. وقال قتادة: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَكُنْ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ قال: يمتن عليهن بذلك. رواه ابن جرير. وقال عطية العوفي في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يعني: لطيف باستخراجها، خبير بموضعها. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وكذا روى عن الربيع بن أنس، عن قتادة.

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنَاطِيْنَ وَالْقَنَاطِيْنَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالْعَصِيدَاتِ وَالْعَصِيدِينَ وَالْخَشَعَاتِ وَالْخَشَعِينَ وَالْمَصْفِيْنَ وَالْمَصْفِيَّاتِ وَالنَّبِيِّاتِ وَالنَّبِيِّينَ وَالْحَقِيقَاتِ وَالْحَقِيقَةَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذِّكْرُ أَثَدُّ اللَّهِ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا عثمان بن حكيم، حدثنا عبد الرحمن بن شيبه، سمعت أم سلمة زوج النبي ﷺ تقول: قلت للنبي ﷺ: ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت: فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر، قالت: وأنا أشرح شعري، فلففت شعري، ثم خرجت إلى حُجْرة من حُجَر بيتي، فجعلت سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول عند المنبر: «يا أيها الناس، إن الله يقول: إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات» إلى آخر الآية. وهكذا رواه النسائي وابن جرير، من حديث عبد الواحد بن زياد، به مثله . طريق أخرى عنها: قال النسائي أيضاً: حدثنا محمد بن حاتم، حدثنا سُوَيْدٌ، أخبرنا عبد الله بن شريك، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أم سلمة أنها قالت

للنبي ﷺ: يا نبي الله، مالي أسمع الرجال يذكرون في القرآن، والنساء لا يذكرون؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾. وقد رواه ابن جرير، عن أبي كُرَيْب، عن أبي معاوية، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة: أن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، حدثه عن أم سلمة، رضي الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله، أذكر الرجل في كل شيء ولا نذكر؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾. طريق أخرى: قال سفيان الثوري، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله، يذكر الرجال ولا نذكر؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الآية.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب قال: حدثنا سَيَّار بن مظاهر العَنَزِي، حدثنا أبو كُذَيْبَة يحيى بن المهلب، عن قابوس بن أبي ظَبْيَان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: قال النساء للنبي ﷺ: ما له يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الآية. وحدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد؛ عن قتادة قال: دخل نساء على نساء النبي ﷺ، فقلن: قد ذُكرن الله في القرآن، ولم تُذكر بشيء، أما فينا ما يذكر؟ فأنزل الله، ﷻ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الآية.

فقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ دليل على أن الإيمان غير الإسلام، وهو أخص منه، لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِسْلَامُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]. وفي الصحيحين: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن». فبفسله الإيمان، ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين، فدل على أنه أخص منه كما قررناه في أول شرح البخاري. وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾: القنوت: هو الطاعة في سكون، «أَمَنْ هُوَ قَنِيتُ مَاءَةَ أَلِيلٍ سَاعِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ» [الزمر: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَنِيتُ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، «الرؤم: ٢٦»، «يَنْزِيْعُهُ أَقْنِي لِرَبِّكَ وَاسْتَجْرَى وَكَذَلِكَ مَعَ الرَّكِيْعِ» [البقرة: ٢٣٨]، «آل عمران: ٤٣» «وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَنِيتَيْنِ» [البقرة: ٢٣٨]، فالإسلام بعده مرتبة يرتقي إليها، ثم القنوت ناشئ عنهما. «وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ»: هذا في الأقوال، فإن الصدق خصلة محمودة؛ ولهذا كان بعض الصحابة لم تُجرب عليه كذبة لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وهو علامة على الإيمان، كما أن الكذب أمارة على النفاق، ومن صدق نجا، «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة. وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار. ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» والأحاديث فيه كثيرة جداً. «وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ»: هذه سَجِيَّةُ الْأَثْبَاتِ، وهي الصبر على المصائب، والعلم بأن المقدور كائن لا محالة، وتَلَقَّى ذلك بالصبر والثبات، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى، أي: أصعبه في أول وهلة، ثم ما بعده أسهل منه، وهو صدق السجبة وثباتها. «وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ»: الخشوع: السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار والتواضع. والحامل عليه الخوف من الله ومراقبته، كما في الحديث: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». «وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ»: الصدقة: هي الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء، الذين لا كَسْبَ لهم ولا كاسب، يعطون من فضول الأموال طاعة لله، وإحساناً إلى خلقه، وقد ثبت في الصحيحين: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» فذكر منهم: «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه». وفي الحديث الآخر: «والصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار». وفي الترمذي عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «إن الصدقة تطفئ غضب الرب وتدفع ميتة السوء». وفي الصحيحين عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه، فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه، فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه. فاتقوا النار ولو بشق تمرة». وفي حديث أبي ذر أنه قال: سألت رسول الله ﷺ ماذا ينجي العبد من النار؟ قال: «الإيمان بالله». قلت: يا نبي الله، مع الإيمان عمل؟ قال: «ترضخ مما خولك الله»، أو: «ترضخ مما رزقك الله»؛ ولهذا لما خطب النبي ﷺ يوم العيد قال في خطبته: «يا معشر النساء تصدقن ولو في حليكن، فإني رأيتكن أكثر أهل النار». وكأنه حثهن ورغبهن على ما يفدين به أنفسهن من النار، وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: ذكر لي أن الأعمال تتباهى، فنقول الصدقة: أنا أفضلكم. وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: ضرب رسول الله ﷺ، مثل البخيل والمتصدق، كمثال رجلين عليهم جتان من حديد، أو جتان من حديد. قد اضطرت أيديهما إلى ثدييهما وتراقيهما، فجعل المتصدق، كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه، حتى تغشى أنامله، وتعفو أثره، وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت، وأخذت كل حلقة مكانها. قال أبو هريرة: فانا رأيت رسول الله ﷺ يقول بإصبعه هكذا في جيبه. فلو رأيته يوسعها ولا يتسع. وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتِ شَيْئًا فَنَفْسِهِ فَذَلِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦]. فوجود الرجل يجبه إلى أضداده، ويخله بغيضه إلى أولاده. كما قيل:

ويظهر عيب المرء في الناس بخله وتستتره عنهم جميعاً سخاؤه
تعط بائبوب السخاء فلئنني أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

والأحاديث في الحث عليها كثيرة جداً، له موضع بذاته. ﴿وَالصَّيِّمِينَ وَالصَّيِّمَاتِ﴾: في الحديث الذي رواه ابن ماجه: «والصوم زكاة البدن» أي: تزكيه وتطهره وتقيفه من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً. قال سعيد بن جبيرة: من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر، دخل في قوله: ﴿وَالصَّيِّمِينَ وَالصَّيِّمَاتِ﴾. ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة - كما قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباء فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» - ناسب أن يذكر بعده: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾: أي: عن المحارم والمآثم إلا عن المباح، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْوَاجِهِمْ حَقْلُونَ﴾ ① إِنْ عَلَنَ أَزْوَاجَهُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ غَيْرَ مُلَوِّصِينَ ② فَمَنْ ابْتَغَى زَوْجاً فَلْيُتْلِكْ هُمْ الْمَأْدُونُونَ ③ ﴿المؤمنون: ٥-٧﴾. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَثُرَ كَثِيرًا وَالَّذِينَ كَثُرَ كَثِيرًا﴾: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عبيد الله، حدثنا محمد بن جابر، عن علي بن الأقرع، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل، فصليا ركعتين، كتبنا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات». وقد رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من حديث الأعمش، عن علي بن الأقرع، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي سعيد وأبي هريرة، عن النبي ﷺ، بمثله. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا ذراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أنه قال: قلت: يا رسول الله، أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات». قال: قلت: يا رسول الله، ومن الغازي في سبيل الله؟ قال: «لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً لكان الذاكرون الله أفضل منه». وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ يسير في طريق مكة، فأتى على جُمدان فقال: «هذا جُمدان، سيروا فقد سبق المُفْرَدُونَ». قالوا: وما المُفْرَدُونَ؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً». ثم قال: «اللهم اغفر للمحلقين». قالوا: والمقصرون؟ قال: «اللهم، اغفر للمحلقين». قالوا: والمقصرون؟ قال: «والمقصرون؟». تفرد به من هذا الوجه، ورواه مسلم دون آخره. وقال الإمام أحمد: حدثنا حُجَّين بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة، عن زياد بن أبي زياد - مولى عبد الله بن عباس - بن أبي ربيعة - أنه بلغه عن معاذ بن جبل، رضي الله عنه، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عمل آدمي عملاً قط أنجى له من عذاب الله من ذكر الله». وقال معاذ: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من تعاطي الذهب والفضة، ومن أن تلقوا عدوكم غداً فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «ذكر الله، ﷻ». وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا زُبَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ: «أن رجلاً سأله فقال: أي المجاهدين أعظم أجراً يا رسول الله؟ فقال: «أكثرهم لله ذكراً». قال: فأي الصائمين أكثر أجراً؟ قال: «أكثرهم لله ذكراً». ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة، كل ذلك يقول رسول الله ﷺ: «أكثرهم لله ذكراً». فقال أبو بكر لعمر، رضي الله عنهما: ذهب الذاكرون بكل خير. فقال رسول الله ﷺ: «أجل». وسنذكر بقية الأحاديث الواردة في كثرة الذكر عند قوله في هذه السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ④ وَسِيحُوا بِكُفْرٍ وَأَسِيلًا ⑤﴾ الآية [الأحزاب: ٤١، ٤٢]، إن شاء الله تعالى. وقوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾: أي: هيا لهم منه لذوبهم مغفرة وأجراً عظيماً وهو الجنة.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ⑥﴾.

قال العوفي، عن ابن عباس: قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية، وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها، فقالت: لست بناكحته، فقال رسول الله ﷺ: «بل فانكحيه». قالت: يا رسول الله، أوامر في نفسي. فبينما هما يتحادثان أنزل الله هذه الآية على رسوله ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ الآية، قالت: قدر رضىته لي منكحاً يا رسول الله؟ قال: «نعم». قالت: إذا لا أعصي رسول الله ﷺ، قد أنكحته نفسي. وقال ابن لهيعة، عن ابن أبي عمرة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة، فاستنكفت منه، وقالت: أنا خير منه حسباً - وكانت امرأة فيها حدة - فأنزل الله، ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية كلها. وهكذا قال مجاهد، وقتادة، ومقاتل بن حيان: أنها نزلت في زينب بنت جحش الأسدية حين خطبها

رسول الله ﷺ على مولاه زيد بن حارثة، فامتنت ثم أجابت. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وكانت أول من هاجر من النساء - يعني: بعد صلح الحديبية - فوهبت نفسها للنبي ﷺ، فقال: قد قبلت. فزوجها زيد بن حارثة - يعني: والله أعلم بعد فراقه زينب - فسخطت هي وأخوها وقالوا: إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجنا عبده. قال: فنزل القرآن: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ إلى آخر الآية. قال: وجاء أمر أجمع من هذا: ﴿الَّتِي أَرْكَبُ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ قال: فذاك خاص وهذا جماع. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن ثابت البناني، عن أنس قال: خطب النبي ﷺ على جلييب امرأة من الأنصار إلى أبيها، فقال: حتى استأمر أمها. فقال: النبي ﷺ: فنعم إذا. قال: فانطلق الرجل إلى امرأته، فذكر لها، فقالت: لاها الله ذا، وما وجد رسول الله ﷺ إلا جلييبا، وقد منعناها من فلان وفلان؟ قال: والجارية في سترها تسمع. قال: فانطلق الرجل يريد أن يخبر النبي ﷺ بذلك. فقالت الجارية: أتريدون أن تزودوا على رسول الله ﷺ أمره؟ إن كان قد رضيكم فأنكحوه. قال: فكانها جلّت عن أبيها، وقالوا: صدقت. فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: إن كنت رضيته فقد رضيته. قال: «إفني قد رضيته». قال: فزوجها، ثم فزع أهل المدينة، فركب جلييب فوجده قد قتل، وحوله ناس من المشركين قد قتلهم، قال أنس: فلقد رأيته وإنها لمن أنفق بيت بالمدينة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد - يعني: ابن سلمة - عن ثابت، عن كنانة بن نعيم العدوي، عن أبي برزة الأسلمي أن جلييبا كان أمرا يدخل على النساء يُمرّ بهن ويلعبهن، فقلت لامرأتي: لا يدخلن اليوم عليكم جلييب، فإنه إن دخل عليكم لأفعلن ولأفعلن. قال: وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم لم يزوها حتى يعلم: هل لنبي الله ﷺ فيها حاجة أم لا. فقال رسول الله ﷺ لرجل من الأنصار: «زوجني ابنتك». قال: نعم، وكرامة يا رسول الله، ونعمة عين. فقال: إني لست أريدها لنفسي. قال: فلمن يا رسول الله؟ قال: لجلييب. فقال: يا رسول الله، أشاور أمها. فأتى أمها فقال: رسول الله ﷺ يخطب ابنتك؟ فقالت: نعم ونعمة عين. فقال: إنه ليس يخطبها لنفسه، إنما يخطبها لجلييب. فقالت: أجلييب إني؟ أجلييب إني؟ لا، لعمر الله لا تزوجه. فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول الله ﷺ فيخبره بما قالت أمها، قالت الجارية: من خطبني إليك؟ فأخبرتها أمها. قالت: أتريدون على رسول الله ﷺ أمره؟! ادفعوني إليه، فإنه لن يضيعني. فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: شأنك بها. فزوجها جلييبا. قال: فخرج رسول الله ﷺ في غزاة له، فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه: «هل تفقدون من أحد؟» قالوا: نفقد فلانا ونفقد فلانا. قال: «انظروا هل تفقدون من أحد؟» قالوا: لا. قال: «الكني أفقد جلييبا». قال: «فاطلبوه في القتلى». فطلبوه فوجده إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه. فقالوا: يا رسول الله، ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه. فأتاه رسول الله ﷺ فقام عليه، فقال: قتل سبعة وقتلوه، هذا مني وأنا منه. مرتين أو ثلاثا، ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه وحفر له، ماله سرير إلا ساعد النبي ﷺ. ثم وضعه في قبره، ولم يذكر أنه غسله، رضي الله عنه. قال ثابت: فما كان في الأنصار أيم أنفق منها. وحدث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ثابتا: هل تعلم ما دعالها رسول الله ﷺ؟ فقال: «اللهم، صب عليها الخير صبا، ولا تجعل عيشها كذا» كذا قال، فما كان في الأنصار أيم أنفق منها. هكذا أورده الإمام أحمد بطوله، وأخرج منه مسلم والنسائي في الفضائل قصة قتله. وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر في «الاستيعاب» أن الجارية لما قالت في خدرها: أتريدون على رسول الله ﷺ أمره؟ تلت هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾. وقال ابن جريج أخبرني عامر بن مصعب، عن طائوس قال: إنه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد العصر، فنهاه، وقرأ ابن عباس، رضي الله عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾. فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا، ولا رأي ولا قول، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وفي الحديث: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به». ولهذا شدد في خلاف ذلك، فقال: ﴿وَمَنْ يَقِصْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ أَمْسِكْ عَلَيْكُمْ زَوْجَكُمْ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَخَفِيَ النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [٦٤].

يقول تعالى مخبرا عن نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، أنه قال لمولاه زيد بن حارثة وهو الذي أنعم الله عليه، أي: بالإسلام ومتابعة الرسول، عليه أفضل الصلاة والسلام: ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أي: بالعتق من الرق، كان سيدا كبيرا الشأن جليل القدر،

حبيباً إلى النبي ﷺ، يقال له: الحب، ويقال لابنه أسامة: الحب ابن الحب. قالت عائشة، رضي الله عنها: ما بعثه رسول الله ﷺ في سرية إلا أمره عليهم، ولو عاش بعده لاستخلفه. رواه أحمد عن سعيد بن محمد الوراق ومحمد بن عبيد، عن وائل بن داود، عن عبد الله البهي عنها. وقال البزار: حدثنا خالد بن يوسف، حدثنا أبو عوانة (ح)، وحدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا أبو داود، حدثنا أبو عوانة، أخبرني عمران بن أبي سلمة، عن أبيه: حدثني أسامة بن زيد قال: كنت في المسجد، فأتاني العباس وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، فقالا: يا أسامة، استأذن لنا على رسول الله ﷺ. قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقلت: علي والعباس يستأذنان؟ فقال: «أتدري ما حاجتهما؟» فقلت: لا يا رسول الله. فقال: «لكني أدري»، قال: فأذن لهما. قال: يا رسول الله، جئناك لتخبرنا: أي أهلك أحب إليك؟ فقال: «أحب أهلي إلي فاطمة بنت محمد»، قال: يا رسول الله، ما نسألك عن فاطمة. قال: «فأسامة بن زيد بن حارثة، الذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه». وكان رسول الله ﷺ قد رُزَّجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية - وأما أُمَيَّة بنت عبد المطلب - وأصدقها عشرة دنانير، وستين درهماً، وخِمَاراً، ومِلْحَةً، ودُرْعاً، وخمسين مُدّاً من طعام، وعشرة أمداد من تمر. قاله مقاتل بن حيان، فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها، ثم وقع بينهما، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له: «امسك عليك زوجك، واتق الله». قال الله تعالى: «وَتَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ». ذكر ابن جرير، وابن أبي حاتم هاهنا آثاراً عن بعض السلف، رضي الله عنهم، أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردناها. وقد روى الإمام أحمد هاهنا أيضاً حديثاً، من رواية حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس فيه غرابة تركنا سياقه أيضاً. وقد روى البخاري أيضاً بعضه مختصراً فقال: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا مَعْلَى بن منصور، عن حماد بن زيد، حدثنا ثابت، عن أنس بن مالك قال: إن هذه الآية: «وَتَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ» نزلت في شأن زينب بنت جحش، وزيد بن حارثة، رضي الله عنهما. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق، حدثنا ابن عيينة، عن علي ابن زيد بن جُدْعَانَ قال: سألتني علي بن الحسين ما يقول الحسن في قوله: «وَتَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ»؟ فذكرت له فقال: لا، ولكن الله أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد ليشكوها إليه قال: اتق الله، وامسك عليك زوجك. فقال: قد أخبرتك أنني مُزَوَّجُكِها، وتخفي في نفسك ما الله مبديه. وهكذا روى عن السدي أنه قال نحو ذلك. وقال ابن جرير: حدثني إسحاق بن شاهين، حدثني خالد، عن داود عن عامر، عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: لو كنتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحى إليه من كتاب الله، لكنتم: «وَتَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ».

وقوله: «فَلَمَّا فَصَّي زَيْدٌ مَتْنَهَا وَطَرَا رُوحَتَهَا»: الوطر: هو الحاجة والأرب، أي: لما فرغ منها، وفارقها، وزوجناها، وكان الذي ولي تزويجها منه هو الله ﷻ، بمعنى: أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي، ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر. قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم - يعني: ابن القاسم أبو النضر - حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس، رضي الله عنه، قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: «اذهب فاذكرها علي». فانطلق حتى أتتها وهي تُحْمَرُ عَجِينَهَا، قال: فلما رأيته عظمت في صدري - حتى ما أستطيع أن أنظر إليها - أن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي، وقلت: يا زينب، أبشري، أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك. قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي، ﷻ. فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن. ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله ﷺ أطعمنا عليها الخبز واللحم، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته فجعل يتبع حُجْرَ نسائه يسلم عليهن، ويقولن: يا رسول الله، كيف وجدت أهلك؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر. قال: فانطلق حتى دخل البيت، فذهبت أدخل معه، فألقى السرييني وبينه، ونزل الحجاب، ووعظ القوم بما وعظوا به: «لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ» الآية. ورواه مسلم والنسائي من طرق، عن سليمان بن المغيرة، به. وقد روى البخاري، رحمه الله، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات. وقد قدمنا في «سورة النور» عن محمد بن عبد الله بن جحش قال: تفاخرت زينب وعائشة، فقالت زينب، رضي الله عنها: أنا التي نزل تزويجي من السماء، وقالت عائشة: أنا التي نزل عُذْرِي من السماء، فاعترفت لها زينب، رضي الله عنها. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن المغيرة، عن الشعبي قال: كانت زينب تقول للنبي ﷺ: إني لأدل عليك بثلاث، ما من نسك امرأة تدل بهن: إن جدي وجدك واحد، وإني أنكحنيك الله من السماء، وإن السفير جبريل

عليه السلام. وقوله: ﴿لَيْكُنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي: إنما أبحنا لك تزويجها وفعلنا ذلك؛ لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأعداء، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تزوج زينب بنت جحش، فكان يقال له: «زيد بن محمد»، فلما قطع الله هذه النسبة بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَائَكُمْ أَسْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ أَدْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، ثم زاد ذلك بياناً وتأكيذاً بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش لما طلقها زيد بن جحش؛ ولهذا قال في آية التحريم: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] ليحترز من الابن الدعي؛ فإن ذلك كان كثيراً فيهم. وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحُتِّمه، وهو كائن لا محالة، كانت زينب في علم الله مستصيرة من أزواج النبي ﷺ.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ (٣٨).

يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي: فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب التي طلقها دعيه زيد بن جحش. وقوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: هذا حكم الله في الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا رد على من توهم من المنافقين نقصاً في تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه، الذي كان قد تبناه. ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ أي: وكان أمره الذي يقدره كائناً لا محالة، وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

﴿الَّذِينَ يُلْقُونَ رِسَالَتَهُ اللَّهُ وَخَشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَحَاشَ لِلَّذِينَ اتَّبَعَتْهُ إِتِيسَافًا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠).

يمدح تعالى: ﴿الَّذِينَ يُلْقُونَ رِسَالَتَهُ اللَّهُ﴾ أي: إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها، ﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾ أي: يخافونه ولا يخافون أحداً سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: وكفى بالله ناصرًا ومعيناً. وسيد الناس في هذا المقام. بل وفي كل مقام - محمد رسول الله ﷺ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب، إلى جميع أنواع بني آدم، وأظهر الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع، فإنه قد كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وأما هو، صلوات الله عليه، فإنه بُعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم، ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه، رضي الله عنهم، بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره، وخضره وسفره، وسره وعلايته، فرضي الله عنهم وأرضاهم. ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا، فبنوهم يقتدي المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون. فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم. قال الإمام أحمد: حدثنا ابن زُهير، أخبرنا الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبي البختري، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «لا يَخْفَرُنَّ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أَنْ يَرَى أَمْرَ اللَّهِ فِيهِ مَقَالٌ ثُمَّ لَا يَقُولُهُ، فيقول الله: ما يمنعك أن تقول فيه؟ فيقول: رب، خشيت الناس. فيقول: فأنأحق أن يخشى». ورواه أيضاً عن عبد الرزاق، عن الثوري، عن زيد، عن عمرو بن مرة. ورواه ابن ماجه، عن أبي كُرَيْب، عن عبد الله بن نمير وأبي معاوية، كلاهما عن الأعمش به. وقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، نهي تعالى أن يقال بعد هذا: «زيد بن محمد» أي: لم يكن أباه وإن كان قد تبناه، فإنه، صلوات الله عليه وسلامه، لم يعيش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم؛ فإنه ولد له القاسم، والطاهر، من خديجة فماتوا صغاراً، وولد له إبراهيم من مارية القبطية، فمات أيضاً رضيعاً، وكان له من خديجة أربع بنات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، رضي الله عنهم أجمعين، فمات في حياته ثلاث وتأخرت فاطمة حتى أصيبت به، صلوات الله وسلامه عليه، ثم ماتت بعده لسته أشهر. وقوله: ﴿وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَحَاشَ لِلَّذِينَ اتَّبَعَتْهُ إِتِيسَافًا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، كقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى والأخرى؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي، ولا ينعكس. وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر الأزدي، حدثنا زُهير بن محمد، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها، وترك فيها موضع لبنه لم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه، ويقولون: لو تم موضع هذه اللبنة! فأنأ في النبيين موضع تلك اللبنة». ورواه الترمذي، عن بُزْدَار، عن أبي عامر العقدي، به، وقال: حسن صحيح.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا المختار بن قُفْل، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي». قال: فشق ذلك على الناس قال: قال:

«ولكن المبشرات». قالوا: يا رسول الله، وما المبشرات؟ قال: «رؤيا الرجل المسلم، وهي جزء من أجزاء النبوة». وهكذا روى الترمذي عن الحسن بن محمد الزعفراني، عن عفان بن مسلم، به. وقال: صحيح غريب من حديث المختار بن قُفْل.

حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا سليم بن حَيَّان، عن سعيد بن ميناء، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة! فأنا موضع اللبنة، ختم بي الأنبياء، عليهم السلام». ورواه البخاري، ومسلم، والترمذي، من طرق، عن سليم بن حيان، به. وقال الترمذي: صحيح غريب من هذا الوجه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل النبيين من قبلي كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا لبنة واحدة، فبحث أنا فأتممت تلك اللبنة». انفرد بإخراجه مسلم من رواية الأعمش، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عثمان بن عُبَيْد الراسي قال: سمعت أبا الطفيل قال: قال رسول الله ﷺ: «لا نبوة بعدي إلا المبشرات». قال: قيل: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: «الرؤيا الحسنة - أو قال -: الرؤيا الصالحة».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن هَمَّام بن مَثْنَة قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابنتي بيوتاً فأحسنها وأكملها وأجملها، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون ويمسحون بالبيان ويقولون: ألا وضعت هاهنا لبنة فيتم ببيتنا؟! قال رسول الله ﷺ: «فكنت أنا اللبنة». أخرجه من حديث عبد الرزاق.

حديث آخر: عن أبي هريرة أيضاً: قال: الإمام مسلم: حدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة وعلي بن حجر قالوا: حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أُفْضِلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍ أَغْطِيَتْ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَتُصَيِّرُ بِالرَّعْبِ، وَأَجَلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ طَهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون». ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث إسماعيل بن جعفر، وقال الترمذي: حسن صحيح.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا موضع لبنة واحدة، فبحث أنا فأتممت تلك اللبنة». ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة، وأبي كُرَيْب، كلاهما عن أبي معاوية، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سُوَيْد الكلبي، عن عبد الأعلى بن هلال السلمي، عن العزْبَاض بن سارية قال: قال النبي ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طيئته».

حديث آخر: قال الزهري: أخبرني محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي». أخرجه في الصحيحين. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن عبد الله بن مُبَيَّرَة، عن عبد الرحمن بن جبير قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودع، فقال: «أنا محمد النبي الأمي - ثلاثاً - ولا نبي بعدي: أوتيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه، وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش، وتجاوز بي، وعُوفِيَتْ أمتي؛ فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم، فإذا ذهب بي فعليكم بكتاب الله، أحلوا حلاله، وحرموا حرامه». تفرد به الإمام أحمد. ورواه الإمام أحمد أيضاً عن يحيى بن إسحاق، عن ابن لهيعة، عن عبد الله بن هبيرة، عن عبد الله بن مريخ الخولاني، عن أبي قيس - مولى عمرو بن العاص - عن عبد الله بن عمرو فذكر مثله سواء. والأحاديث في هذا كثيرة، فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد، صلوات الله وسلامه عليه، إليهم، ثم من تشرّف له ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له. وقد أخبر تعالى في كتابه، ورسوله في السنة المتواترة عنه: أنه لا نبي بعده؛ ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك، دجال ضال مضل، ولو تخرق وشعبذ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والتنجيحات، فكلها محال وضلال عند أولي الألباب، كما أجرى الله، سبحانه وتعالى، على يد الأسود العنسي باليمن،

ومسيلة الكذاب باليامة، من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة، ما علم كل ذي لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالان، لعنهما الله. وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها. وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرن بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره، ويكون في غاية الإنفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا نَزَّلَ الْكِتَابُ شَيْئًا مِّنْ أَفْكَارٍ أُوتِيَ﴾ الآية [الشراء: ٢٢١، ٢٢٢]. وهذا بخلاف الأنبياء، عليهم السلام، فإنهم في غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرن به وينهون عنه، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات، والأدلة الواضحات، والبراهين الباهرات، فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمراً ما دامت الأرض والسموات.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَيُخَوِّذُكُمْ بِكَوْنِهِ وَأَسِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيٰ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ يَخْتِمْهُمْ يَوْمَ يَقُوتُهُمْ سَلَمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَزَاءً كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

يقول تعالى أمرأ عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تعالى، المنعم عليهم بأنواع النعم وأصناف المنن، لما لهم في ذلك من جزيل الثواب، وجميل المآب. قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عبد الله بن سعيد، حدثني مولى ابن عياش عن أبي بحرية، عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله، ﷻ». وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه، من حديث عبد الله بن سعيد بن أبي هند، عن زياد - مولى ابن عياش - عن أبي بحرية - واسمه عبد الله بن قيس التراغمي - عن أبي الدرداء، به. قال الترمذي: ورواه بعضهم عنه فأرسله. قلت: وقد تقدم هذا الحديث عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَكْثَرُ﴾ في مسند الإمام أحمد، من حديث زياد بن أبي زياد مولى عبد الله بن عياش: أنه بلغه عن معاذ بن جبل، عن رسول الله ﷺ، بنحوه فإله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا فرج بن فضالة، عن أبي سعيد الحمصي قال: سمعت أبا هريرة يقول: دعاء سمعته من رسول الله ﷺ لا أدعه: «اللهم، اجعلني أعظم شكر، وأتبع نصيحتك، وأكثر ذكرك، وأحفظ وصيتك». ورواه الترمذي عن يحيى بن موسى، عن وكيع، عن أبي فضالة الفرج بن فضالة، عن أبي سعيد الحمصي، عن أبي هريرة، فذكر مثله وقال: غريب. وهكذا رواه الإمام أحمد أيضاً عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن فرج بن فضالة، عن أبي سعيد المدني عن أبي هريرة فذكره. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن صالح، عن عمرو بن قيس قال: سمعت عبد الله بن بسر يقول: جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله». وقال الآخر: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا، فمروني بأمر أنشئت به. قال: «لا يزال لسانك رطباً بذكر الله». وروى الترمذي وابن ماجه منه الفصل الثاني، من حديث معاوية بن صالح، به. وقال الترمذي: حسن غريب. وقال الإمام أحمد: حدثنا سريج، حدثنا ابن وهب، عن عمرو بن الحارث قال: إن ذراجاً أبا السمح حدث، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أكثرُوا ذكر الله حتى يقولوا: مجنون». وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عقبة بن مكرم العمي، حدثنا سعيد بن سفيان الجحدري، حدثنا الحسن بن أبي جعفر، عن عقبة بن أبي ثبيت الراسبي، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اذكروا الله ذكراً كثيراً حتى يقول المنافقون: تراؤن». وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا شداد أبو طلحة الراسبي، سمعت أبا الوازع جابر بن عمرو يحدث عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم جلسوا مجلساً لم يذكروا الله فيه، إلا رآه حسرة يوم القيامة». وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا﴾: إن الله لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها معلوماً، ثم عذر أهلها في حال عذر، غير الذكر، فإن الله لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه، إلا مغلوباً على تركه، فقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُوْعًا وَعَلَىٰ جُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والصحة والسقم، والسر والعلانية، وعلى كل حال، وقال: ﴿وَسَيُخَوِّذُكُمْ بِكَوْنِهِ وَأَسِيلًا﴾، فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته. والأحاديث والآيات والآثار في الحث على ذكر الله كثيرة جداً، وفي هذه الآية الكريمة الحث على الإكثار من ذلك. وقد صنف الناس في الأذكار المتعلقة بآاء الليل والنهار كالنسائي والمعمري وغيرهما، ومن أحسن الكتب المؤلفة في ذلك كتاب الأذكار للشيخ محيي الدين النووي، رحمه الله تعالى. وقوله:

﴿وَسَبِّحْهُ بَكْرَةً وَأَوَّلَ لَيْلٍ ۝٤٥﴾ أي: عند الصباح والمساء، كقوله: ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تَسُبُّونَ وَحِينَ تَصْبِحُونَ ۝٤٦﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝٤٧﴾ [الروم: ١٧-١٨]. وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ: هذا تهيج إلى الذكر، أي: إنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم، كقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَزَكِّيَكُمْ وَلِيْلَكُمْ أَلِكُتِّبَ وَالْحِكْمَةَ وَمَلَائِكُهُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَكْتُوبُونَ ۝٤٨﴾ فَادْكُرُوا أَذْكُرْكُمْ وَانْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ۝٤٩﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢]. وقال النبي ﷺ: «يقول الله: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملا خير منهم». والصلاة من الله ثأوه على العبد عند الملائكة، حكاه البخاري عن أبي العالية. ورواه أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عنه. وقال غيره: الصلاة من الله: الرحمة ورد بقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۝٥٠﴾. وقد يقال: لا منافاة بين القولين والله أعلم. وأما الصلاة من الملائكة، فيمعنى الدعاء للناس والاستغفار، كقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝٥١﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٥٢﴾ [آية: ٤٨-٤٩]. وقوله: ﴿يُخْرِجُكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم، ودعاء ملائكته لكم، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين. ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم، وبصرهم الطريق الذي ضل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاء إلى الكفر أو البدعة وأشياهم من الطعام. وأما رحمته بهم في الآخرة: فأمنهم من الفرع الأكبر، وأمر ملائكته بيلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار، وما ذاك إلا لمحبتهم لهم ورأفته بهم. قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن حميد، عن أنس، رضي الله عنه، قال: مر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني، ابني، وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار. قال: فَخَفَّضَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وقال: «ولا الله، لا يلقي حبيبه في النار». إسناده على شرط الصحيحين، ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة، ولكن في صحيح الإمام البخاري، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبياً لها، فالصقته إلى صدرها، وأرضعته فقال: «أترون هذه تلقي ولدها في النار وهي تقدر على ذلك؟» قالوا: لا. قال: «فوالله، الله أرحم بعباده من هذه بولدها». وقوله: ﴿يَجِئُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾: الظاهر أن المراد - والله أعلم - ﴿يَجِئُهُمْ﴾ أي: من الله تعالى يوم يلقونه ﴿سَلَامٌ﴾ أي: يوم يسلم عليهم كما قال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ۝٥٣﴾ [يس: ٥٨]. وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيي بعضهم بعضاً بالسلام، يوم يلقون الله في الدار الآخرة. واختاره ابن جرير. قلت: وقد يستدل بقوله تعالى: ﴿دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ﴾ [يونس: ١٠]. وقوله: ﴿وَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾، يعني: الجنة وما فيها من المآكل والمشرب، والملابس المساكن، والمناجك والملاذ والمناظر وما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿يَأْتِيهَا النَّارُ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٤﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۝٥٥﴾ وَيَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَثِيرًا ۝٥٦﴾ وَلَا تَطِيعُ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعَّ أَدْبَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٥٧﴾. قال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا فُلَيْحُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: ﴿يَأْتِيهَا النَّارُ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٤﴾ وحرزا للأمينين، أنت عبيدي ورسولي، سميتك المتوكل، لست بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن لا إله إلا الله، فيفتح به أعينا عميا، وآذانا صماً، وقلوباً غلفاً.

وقد رواه البخاري في «اليوم» عن محمد بن سنان، عن فُلَيْحُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عن هلال بن علي به. ورواه في التفسير عن عبد الله - قيل: ابن رجاء، وقيل: ابن صالح - عن عبد العزيز بن أبي سلمة، عن هلال، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو، به. ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن عبد الله بن رجاء، عن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون، به. وقال البخاري في اليوم: وقال سعيد، عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن سلام. وقال وهب بن منية: إن الله أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل - يقال له: شعيا - أن قم في قومك بني إسرائيل، فإني منطلق لسانك بوحي وأبعث أمياً من الأميين، أبعثه مبشراً ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه، من سكنته، ولو يمشي على القصب لم يسمع من تحت

قدميه، أبعته مبشراً ونذيراً، لا يقول الخنا، أفتح به أعينا كُفها، وأذانا صماً، وقلوباً غلفاً، أسدده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكنية لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة منطقته، والصدق والوفاء طبيعته، والغفو والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخُمالة، وأعرف به بعد التُّكُرة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد القِلَّة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين أمم متفرقة، وقلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأستنقذ به قُتُماً من الناس عظيمة من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، موحدون مؤمنين مخلصين، مصدقين لما جاءت به رسلي: اللهم التسبيح والتحميد، والثناء والتكبير والتوحيد، في مساجدهم ومجالسهم، ومضاجعهم ومنقلبهم ومشاهيرهم، يصلون لي قياماً وقعوداً، ويقاتلون في سبيل الله صفوفاً وزُحُوناً، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتي الوفاً، يطهرون الوجوه والأطراف، ويشدون الثياب في الأنصاف، قربانهم دماؤهم، وأناجليهم في صدورهم، رهبان بالليل ليوث بالنهار، وأجعل في أهل بيته وذريته السابقين، والصديقين والشهداء والصالحين، أمته من بعده يهدون بالحق وبه يعدلون، أعز من نصرهم، وأؤيد من دعا لهم، وأجعل دائرة السوء على من خالفهم أو بغى عليهم، أو أراد أن ينتزع شيئاً مما في أيديهم. أجعلهم ورثة لنبيهم، والداعية إلى ربهم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقومون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويوفون بعهدهم، أختم بهم الخير الذي بدأنه بأولهم، ذلك فضلي أوتيته من أشاء، وأنا ذو الفضل العظيم. هكذا رواه ابن أبي حاتم، عن وهب بن منبه اليماني، رحمه الله.

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحمن بن صالح، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العرزمي، عن شيبان النحوي، أخبرني قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا أَرْسَلْنَاكُمْ شُهَدَاءَ وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (١٥٨) - وقد كان أمر علياً ومعاداً أن يسيرا إلى اليمن - فقال: «انطلقا فبشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تسعرا، إنه قد أنزل علي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا أَرْسَلْنَاكُمْ شُهَدَاءَ وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (١٥٨)». ورواه الطبراني عن محمد بن نصر بن حميد البزاز البغدادي، عن عبد الرحمن بن صالح الأزدي، عن عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العرزمي، بإسناده مثله. وقال في آخره: «فإنه قد أنزل علي: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً على أمتك ومبشراً بالجنة، ونذيراً من النار، وداعياً إلى شهادة أن لا إله إلا الله بإذنه، وسراجاً منيراً بالقرآن». وقوله: ﴿شُهَدَاءَ﴾ أي: الله بالوحدانية، أنه لا إله غيره، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة، ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾. كقوله: ﴿لَنَكُونَنَّ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقوله: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب، ونذيراً للكافرين من وبيل العقاب. وقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ أي: داعياً للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك، ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ أي: وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق، كالشمس في إشراقها وإضاءتها، لا يجدها إلا معانده. وقوله: ﴿وَلَا يُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَدَعَ أَذْنَهُمْ﴾ أي: لا تطعمهم ولا تسمع منهم في الذي يقولونه ﴿وَدَعَ أَذْنَهُمْ﴾، أي: اصفح وتجاوز عنهم، وكل أمرهم إلى الله، فإن فيه كفاية لهم؛ ولهذا قال: ﴿وَنُوكِلَ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدْوٍ تَعُدُّوهنَّ فَمِعْوَهُنَّ وَسَبَّحُوهُنَّ سَرَامًا حَبِيلًا﴾ (١٥٩).

هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة. منها: إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها، وقد اختلفوا في النكاح: هل هو حقيقة في العقد وحده، أو في الوطء، أو فيهما؟ على ثلاثة أقوال، واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده، إلا في هذه الآية فإنه استعمل في العقد وحده؛ لقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوهُنَّ﴾. وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها. وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾: خرج مخرج الغالب؛ إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكثابية في ذلك بالاتفاق. وقد استدل ابن عباس، وسعيد بن المسيب، والحسن البصري، وعلي بن الحسين، زين العابدين، وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾، فعقب النكاح بالطلاق، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله. وهذا مذهب الشافعي، وأحمد بن حنبل، وطائفة كثيرة من السلف والخلف، رحمهم الله تعالى. وذهب مالك وأبو حنيفة، رحمهما الله، إلى صحة الطلاق قبل النكاح؛ فيما إذا قال: «إن تزوجت فلانة فهي طالق»؛ فعندهما متى تزوجها طلقت منه. واختلفا فيما إذا قال: «كل امرأة أتزوجها فهي طالق». فقال مالك: لا تطلق حتى يعين المرأة. وقال أبو حنيفة، رحمه الله: كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه،

فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور المروزي، حدثنا النضر بن شميل، حدثنا يونس - يعني: ابن أبي إسحاق - سمعت آدم مولى خالد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: إذا قال: كل امرأة أتزوجها فهي طالق، قال: ليس بشيء من أجل أن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ الآية. وحدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وكيع، عن مطر، عن الحسن بن مسلم بن يثاق، عن ابن عباس قال: إنما قال الله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾، ألا ترى أن الطلاق بعد النكاح؟ وهكذا روى محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال الله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ فلا طلاق قبل النكاح. وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك». رواه الإمام أحمد والترمذي، وأبو داود، وابن ماجه. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن». وهو أحسن شيء روي في هذا الباب. وهكذا روى ابن ماجه عن علي، والمسنون بن مخرمة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا طلاق قبل نكاح». وفي الآية دليل على أن الميسس مطلق، ويراد به الوطء.

وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدُوٍّ تَعْتَدُونَهَا﴾: هذا أمر مجمع عليه بين العلماء: أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتذهب فتزوج في فورها من شاءت، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشراً، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضاً. وقوله: ﴿فَتَتَوَفَّوهُنَّ بِرِجَالِكُمْ﴾: المتعة هاهنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمي لها، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَرْصَتْ مَا فَرَضْتُمْ فَلَكُمْ مِنَ الْفَتْحِ قُدْرٌ مِمَّا الْفَتْحُ قُدْرٌ عَلَى الْمَغْنَمِ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. وقال: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّوهُنَّ عَلَى التَّوْبِيعِ قُدْرٌ وَعَلَى الْفَتْحِ قُدْرٌ مِمَّا الْفَتْحُ قُدْرٌ عَلَى الْمَغْنَمِ﴾ [البقرة: ٢٣٦]. وفي صحيح البخاري، عن سهل بن سعد وأبي أسيد: أن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها، فكانها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقين. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: إن كان سمي لها صداقاً، فليس لها إلا النصف، وإن لم يكن سمي لها صداقاً فأمته على قدر عسره ويسره، وهو السراح الجميل.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ لِكَافَّةٍ لَكُمُ الْبَيْتِ وَأَهْلِهِ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَمِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنِكَاحٌ عَلَيْكَ وَنِكَاحٌ خَلَّتْكَ الْبَيْتِ هَاجَرٌ مَلَكَ وَامْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَنْتَحِبَ عَلَيْهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

يقول تعالى مخاطباً نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهرهن، وهي الأجور هاهنا. كما قاله مجاهد وغير واحد، وقد كان مهره لثلاث عشرة أوقية ونشاً وهو نصف أوقية، فالجميع خمسمائة درهم، إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشي، رحمه الله، أربعمئة دينار، وإلا صفية بنت خني فإنه اصطفاها من سني خبير، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها. وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية، أذى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها، رضي الله عن جميعهن. وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَمِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أي: وأباح لك التسري مما أخذت من المغانم، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما. وملك ربحانة بنت شمعون النضرية، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم، عليه السلام، وكانتا من السراري، رضي الله عنهما. وقوله: ﴿وَنِكَاحٌ عَلَيْكَ وَنِكَاحٌ خَلَّتْكَ الْبَيْتِ هَاجَرٌ مَلَكَ خَلَّتْكَ الْبَيْتِ هَاجَرٌ مَلَكَ﴾: هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط؛ فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى، فأباح بنت العم والعمة، وبنت الخال والخالة، وتحريم ما قرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت، وهذا بشع قطع. وإنما قال: ﴿وَنِكَاحٌ عَلَيْكَ وَنِكَاحٌ خَلَّتْكَ الْبَيْتِ هَاجَرٌ مَلَكَ﴾ فَوَحَّدَ لفظ الذكر لشرفه، وجمع الإناث لنقصهن كقوله: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: ٤٨]، ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿وَيَجْعَلُ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١١]، وله نظائر كثيرة. وقوله: ﴿الَّذِي هَاجَرَ مَلَكَ﴾: قال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث الرازي، حدثنا عبيد الله بن موسى، حدثنا إسرائيل، عن السدي، عن أبي صالح، عن أم هانئ قالت: خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه بعذري، ثم أنزل الله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ لِكَافَّةٍ لَكُمُ الْبَيْتِ وَأَهْلِهِ وَمِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنِكَاحٌ عَلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿الَّذِي هَاجَرَ مَلَكَ﴾ قالت: فلم أكن أحل له، ولم أكن ممن هاجر معه، كنت من الطلقاء. ورواه ابن جرير عن أبي كُرَيْب، عن عبيد الله بن موسى، به. ثم رواه ابن أبي حاتم من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح، عنه بنحوه. ورواه الترمذي في جامعه.

وهكذا قال أبو رزين وقتادة: إن المراد: من هاجر معه إلى المدينة. وفي رواية عن قتادة: «الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ» أي: أسلمن. وقال الضحاك: قرأ ابن مسعود: «وَاللَّاتِي هَاجَرَ مَعَكَ».

وقوله: «وَأَمْرًا مُؤَمَّنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا» أي: ويحل لك - يا أيها النبي - المرأة المؤمنة إذا وهبت نفسها لك أن تزوجها بغير مهر إن شئت ذلك. وهذه الآية توالى فيها شرطان، كقوله تعالى إخباراً عن نوح، عليه السلام، أنه قال لقومه: «وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصِيَاحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ» [هود: ٣٤]، وكقول موسى: «يَقُولُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ» [يونس: ٨٤]. وقال هاهنا: «وَأَمْرًا مُؤَمَّنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا»، وقد قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق، أخبرنا مالك، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد الساعدي؛ أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله، إني قد وهبت نفسي لك. فقامت قياماً طويلاً، فقام رجل فقال: يا رسول الله، رُوجِنِهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ. فقال رسول الله ﷺ: «إِنْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ تُصَدِّقُهَا بِهِ» فقال: ما عندي إلا إزار ي هذا. فقال رسول الله ﷺ: «هَلْ أُعْطِيتَهَا إِزَارَكَ جَلَسَتْ لَا إِزَارَ لَكَ، فَالْتَمَسَ شَيْئًا». فقال: لا أجد شيئاً. فقال: «الْتَمَسْ وَلَوْ خَاتِماً مِنْ حَدِيدٍ» فالتمس فلم يجد شيئاً، فقال له النبي ﷺ: «هَلْ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ؟» قال: نعم؛ سورة كذا، وسورة كذا - لسور يسميها - فقال له رسول الله ﷺ: «زَوِّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ». أخرجاه من حديث مالك. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا مرحوم، سمعت ثابتاً يقول: كنت مع أنس جالساً وعنده ابنة له، فقال أنس: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله، هل لك في حاجة؟ فقالت ابنته: ما كان أقل حياءها. فقال: «هي خير منك، رغبت في النبي، فعرضت عليه نفسها». انفرده بإخراجه البخاري، من حديث مرحوم بن عبد العزيز العطار، عن ثابت البناني، عن أنس، به. وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الله بن بكر، حدثنا سنان بن ربيعة، عن الحضرمي، عن أنس بن مالك: أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ابنة لي كذا وكذا. فذكرت من حسناتها وجمالها، فأثرتك بها. فقال: «قد قبلتها». فلم تزل تمدحها حتى ذكرت أنها لم تصدع ولم تُشْكِك شيئاً قط، فقال: «لا حاجة لي في ابنتك». لم يخرجوه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا منصور بن أبي مَرْحَم، حدثنا ابن أبي الوضاح - يعني: محمد بن مسلم - عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم. وقال ابن وهب، عن سعيد بن عبد الرحمن وابن أبي الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه: أن خولة بنت حكيم بن الأوقص، من بني سليم، كانت من اللاتي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وفي رواية له عن سعيد بن عبد الرحمن، عن هشام، عن أبيه: كنا نتحدث أن خولة بنت حكيم كانت وهبت نفسها لرسول الله ﷺ، وكانت امرأة صالحة. فيحتمل أن أم سليم هي خولة بنت حكيم، أو هي امرأة أخرى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وكيع، حدثنا موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب، وعمر بن الحكم، وعبد الله بن عبيدة قالوا: تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة، ست من قریش، خديجة، وعائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة. وثلاث من بني عامر بن صَفْصَعَةَ، وامرأتان من بني هلال بن عامر: ميمونة بنت الحارث، وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، وزينب أم المساكين - امرأة من بني أبي بكر بن كلاب من القرطاء - وهي التي اختارت الدنيا، وامرأة من بني الجون، وهي التي استعادت منه، وزينب بنت جحش الأسدية، والسبيتان صفية بنت حيي بن أخطب، وجويرة بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن ابن عباس: «وَأَمْرًا مُؤَمَّنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ» قال: هي ميمونة بنت الحارث. فيه انقطاع: هذا مرسل، والمشهور أن زينب التي كانت تدعى أم المساكين هي زينب بنت خزيمة الأنصارية، وقد ماتت عند النبي ﷺ في حياته، فالله أعلم. والغرض من هذا أن اللاتي وهبن أنفسهن من النبي ﷺ كثير، كما قال البخاري، حدثنا زكريا بن يحيى، حدثنا أبو أسامة قال: هشام بن عروة حدثنا عن أبيه، عن عائشة قالت: كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن من النبي ﷺ وأقول: أنهب امرأة نفسها؟ فلما أنزل الله: «تَرَجَى مَن نَشَاءُ وَنَهْنَهُنَّ وَقَوَّيْ لَيْلَكَ مَن نَشَاءُ وَمَن أُنْعِمْتَ مِن عَزَاكَ فَلَا جَنَاحَ عَلَيْهِ» قلت: ما أرى رَيْكَ إِلَّا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن منصور الجعفي، حدثنا يونس بن بكير، عن عُبَيْدَةَ بْنِ الْأَزْهَر، عن سِمَاك، عن عِكْرَمَةَ، عن ابن عباس قال: لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له. ورواه ابن جرير عن أبي كُرَيْب، عن يونس بن بكير. أي: إنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له، وإن كان ذلك مباحاً له ومخصوصاً به؛ لأنه مردود إلى مشيئته، كما قال الله تعالى: «إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا» أي: إن اختار ذلك.

وقوله: «وَخَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» قال عكرمة: أي لا تحل الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل

له حتى يعطيها شيئاً. وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما. أي: إنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل، فإنه متى دخل بها وجب لها عليه مهر مثلها، كما حكم به رسول الله ﷺ في بزّوج بنت واشق لما فوضت، فحكم لها رسول الله ﷺ بصدّق مثلها لما توفي عنها زوجها، والموت والدخول سواء في تقرير المهر وثبوت مهر المثل في المفوضة لغير النبي ﷺ، فأما هو، عليه السلام، فإنه لا يجب عليه للمفوضة شيء ولو دخل بها؛ لأن له أن يتزوج بغير صدّق ولا ولي ولا شهود، كما في قصة زينب بنت جحش، رضي الله عنها. ولهذا قال قتادة في قوله: ﴿خَالِصَةً لِّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يقول: ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولي ولا مهر إلا للنبي ﷺ. وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾: قال أبي بن كعب، ومجاهد، والحسن، وقاتدة وابن جرير في قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾: أي: من خصرهم في أربع نسوة حرائر وما شاؤوا من الإماء، واشترائط الولي والمهر والشهود عليهم، وهم الأمة، وقد رخصنا لك في ذلك، فلم نوجب عليك شيئاً فيه؛ ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿زُجْجِيَ مِنْ نِسَاءٍ مِثْنَهُنَّ وَقَوَّيْتُ إِلَيْكَ مِنْ نِسَاءٍ وَمِنْ أَنْبَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدَّى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ (٥١).

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها؛ أنها كانت تُعَيِّرُ النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، قالت: ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صدّق؟ أنزل الله ﷻ: ﴿زُجْجِيَ مِنْ نِسَاءٍ مِثْنَهُنَّ وَقَوَّيْتُ إِلَيْكَ مِنْ نِسَاءٍ وَمِنْ أَنْبَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، قالت: إني أرى زَيْك يسارع لك في هواك. وقد تقدم أن البخاري رواه من حديث أبي أسامة، عن هشام بن عروة، فدل هذا على أن المراد بقوله: ﴿زُجْجِيَ﴾: أي: تؤخر ﴿مِنْ نِسَاءٍ مِثْنَهُنَّ﴾: أي: من الواهبات أنفسهن ﴿وَقَوَّيْتُ إِلَيْكَ مِنْ نِسَاءٍ﴾: أي: من شئت قبلتها، ومن شئت رددتها، ومن رددتها فأنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك، إن شئت عُذْتُ فيها فأوَيْتها؛ ولهذا قال: ﴿وَمِنْ أَنْبَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾. قال عامر الشعبي في قوله: ﴿زُجْجِيَ مِنْ نِسَاءٍ مِثْنَهُنَّ وَقَوَّيْتُ إِلَيْكَ مِنْ نِسَاءٍ﴾: كن نساء وهبن أنفسهن للنبي ﷺ فدخل ببعضهن وأرجأ بعضهن لم يُكْحَرْ بعده، منهن أم شريك. وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿زُجْجِيَ مِنْ نِسَاءٍ مِثْنَهُنَّ وَقَوَّيْتُ إِلَيْكَ مِنْ نِسَاءٍ﴾: أي: من أزواجك، لا حرج عليك أن تترك القسم لهن، فتقدم من شئت، وتؤخر من شئت، وتجمع من شئت، وتترك من شئت. هكذا يروى عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقاتدة، وأبي رزين، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم، ومع هذا كان، صلوات الله وسلامه عليه، يقسم لهن؛ ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجباً عليه، صلوات الله وسلامه عليه، واحتجوا بهذه الآية الكريمة. وقال البخاري: حدثنا حبان بن موسى، حدثنا عبد الله - هو ابن المبارك - أخبرنا عاصم الأحول، عن معاذة عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية: ﴿زُجْجِيَ مِنْ نِسَاءٍ مِثْنَهُنَّ وَقَوَّيْتُ إِلَيْكَ مِنْ نِسَاءٍ وَمِنْ أَنْبَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، فقلت لها: ما كنت تقولين؟ فقالت: كنت أقول: إن كان ذاك إليّ فإني لا أريد يا رسول الله أن أؤثر عليك أحداً. فهذا الحديث عنها يدل على أن المراد من ذلك عدم وجوب القسم، وحديثها الأول يقتضي أن الآية نزلت في الواهبات، ومن هاهنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء اللاتي عنده، أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم. وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي، وفيه جمع بين الأحاديث؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدَّى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾: أي: إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم، فإن شئت قسمت، وإن شئت لم تقسم، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت، ثم مع هذا أنت تقسم لهن اختياراً منك لا أنه على سبيل الوجوب، فرحن بذلك واستبشرن به وحملن جميلك في ذلك، واعترفن بمنتك عليهن في قسمك لهن وتسويتك بينهما وإنصافك لهن وعدلك فيهن. وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾: أي: من الميل إلى بعضهن دون بعض، مما لا يمكن دفعه، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن عبد الله بن يزيد، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا فعلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك». ورواه أهل السنن الأربعة، من حديث حماد بن سلمة - وزاد أبو داود بعد قوله: فلا تلمني فيما تملك ولا أملك: يعني القلب. وإسناده صحيح، ورجاله كلهم ثقات. ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: أي: بضمائير السرائر، ﴿حَلِيمًا﴾: أي: يحلم ويغفر.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِسَاءَةُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَصْبَحْتَ بِهِنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ (٥٢).

ذكر غير واحد من العلماء - كابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقاتدة، وابن زيد، وابن جرير، وغيرهم - أن هذه الآية نزلت

مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضاً عنهم، على حسن صنيعهم في اختيارهم الله ورسوله والدار الآخرة، لما خيهرن رسول الله ﷺ، كما تقدم في الآية. فلما اخترن رسول الله ﷺ، كان جزاؤهن أن الله قصّره عليهن، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن، ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسراي فلا حجر عليه فيهن. ثم إنه تعالى رفع عنه الحجر في ذلك ونسخ حكم هذه الآية، وأباح له التزوج، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوّج لتكون المنة للرسول ﷺ عليهن. قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عطاء، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء. ورواه أيضاً من حديث ابن جريج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن عائشة. ورواه الترمذي والنسائي في سنيهما. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الملك بن شيبه، حدثني عمر بن أبي بكر، حدثني المغيرة بن عبد الرحمن الحزامي، عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله، عن عبد الله بن وهب بن زُفعة، عن أبي سلمة أنها قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء، إلا ذات محرم، وذلك قول الله ﷻ: ﴿تَزَوَّجْ مِنْ نِسَاءِ مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتَقْوَى إِلَيْكَ مِنْ نِسَاءٍ﴾. فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة، كآيتي عدة الوفاة في البقرة، الأولى ناسخة للتي بعدها، والله أعلم. وقال آخرون: بل معنى الآية: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ أي: من بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتي أحللنا لك من نسائك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك، وبنات العم والعمت والخال والخالات والواهة وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك. هذا مروى عن أبي بن كعب، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك - في رواية - وأبي رزين - في رواية عنه - وأبي صالح، والحسن، وقتادة - في رواية - والسدي، وغيرهم. قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُليّة، عن داود بن أبي هند، حدثني محمد بن أبي موسى، عن زياد - رجل من الأنصار - قال: قلت لأبي بن كعب: أ رأيت لو أن أزواج النبي ﷺ تُوفين، أما كان له أن يتزوج؟ فقال: وما يمنعه من ذلك؟ قال: قلت: قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾. فقال: إنما أحل الله له ضرباً من النساء، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ وَبَّتَ نَفْسُهَا لِلنَّبِيِّ﴾ ثم قيل له: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾. ورواه عبد الله بن أحمد من طرق، عن داود، به. وروى الترمذي، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء، إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات بقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾، فأحل الله فتياتكم المؤمنات ﴿وَأَمَّا نِسَاءُ الْمُؤْمِنَاتِ إِذَا وَبَّتَ نَفْسُهَا لِلنَّبِيِّ﴾، وحرم كل ذات دين غير الإسلام، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ النَّبِيِّ مَا تَبَدَّلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ إلى قوله: ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وحرم ما سوى ذلك من أصناف النساء. وقال مجاهد: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ أي: من بعد ما سمى لك، لا مسلمة ولا يهودية ولا نصرانية ولا كافرة. وقال أبو صالح: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾: أمر ألا يتزوج أعرابية ولا غريبة، ويتزوج بعد من نساء تهامة، وما شاء من بنات العم والعمة، والخال والخالة، إن شاء ثلاثمائة وقال عكرمة: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ أي: التي سمى الله.

واختار ابن جرير، رحمه الله، أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء، وفي النساء اللواتي في عصمته وكن تسعاً. وهذا الذي قاله جيد، ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف؛ فإن كثيراً منهم روى عنه هذا وهذا، ولا منافاة، والله أعلم. ثم أرود ابن جرير على نفسه ما روي أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها، وعزم على فراق سودة حتى وهبته يومها لعائشة، ثم أجاب بأن هذا كان قبل نزول قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾، وهذا الذي قاله من أن هذا كان قبل نزول الآية صحيح، ولكن لا يحتاج إلى ذلك؛ فإن الآية إنما دلت على أنه لا يتزوج بمن عدا اللواتي في عصمته، وأنه لا يستبدل بهن غيرهن، ولا يدل ذلك على أنه لا يطلق واحدة منهن من غير استبدال، والله أعلم. فأما قضية سودة ففي الصحيح عن عائشة، رضي الله عنها، وهي سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَأَيْتُ خَالَاتٍ مِنْ بَنَاتِ إِسْرَافٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ الآية [النساء: ١٢٨]. وأما قضية حفصة فروى أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه، من طرق عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن صالح بن صالح بن حي عن سلمة بن كهيل، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، عن عمر؛ أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها. وهذا إسناد قوي. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا يونس بن بكير، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن ابن عمر قال: دخل عمر على حفصة وهي تبكي، فقال: ما يبكيك؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك؟ إنه قد كان طلقك مرة ثم راجعك من أجلي؛ والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبداً. ورجاله على شرط الصحيحين. وقوله: ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾، فهناك عن الزيادة عليهن، أو طلاق واحدة منهن واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه. وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً مناسباً ذكره هاهنا، فقال:

حدثنا إبراهيم بن نصر، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن إسحاق بن عبد الله القرشي، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل: بادلني امرأتك وأبادلك بامرأتي. أي: تنزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي. فأنزل الله: ﴿وَلَا يَدْرَأُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَتَيْتَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَمْ جَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ﴾. قال: فدخل عيينة بن حصن على النبي ﷺ، وعنده عائشة، فدخل بغير إذن، فقال له رسول الله ﷺ: «فأين الاستئذان؟ فقال يا رسول الله، ما استأذنت على رجل من مضر منذ أدركت. ثم قال: من هذه الحمراء إلى جنبك؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذه عائشة أم المؤمنين». قال: أفلا أنزل لك على أحسن الخلق؟ قال: «يا عيينة إن الله قد حرم ذلك». فلما أن خرج قالت عائشة: من هذا؟ قال: هذا أحق مطاع، وإنه على ما ترين لسيد قومه». ثم قال البزار إسحاق بن عبد الله: لين الحديث جداً، وإنما ذكرناه لأننا لم نحفظه إلا من هذا الوجه، وثبتنا العلة فيه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُدْعَى لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبَاتٍ لِيُخْبِرَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِمْ أَوْ يُرْسِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ دُونِهِمْ إِنَّ إِلَاحَكُمْ كَانَ يُؤْتِي السَّبْعَ مِنْ دُونِهِمْ وَمَا كَانَ إِلَاحُكُمْ أَنْ تُدْعُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زُجُجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِنَّ إِلَاحَكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ٥٣﴾. إن بُدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخَفُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَتْ يَكْفِي شَيْئًا عَلَيْهِمَا ٥٤.

هذه آية الحجاب، وفيها أحكام وآداب شرعية، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه أنه قال: وافقت ربي في ثلاث، فقلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فأنزل الله: ﴿وَأَعِزُّوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو حجبتن؟ فأنزل الله آية الحجاب. وقلت لأزواج النبي ﷺ: لما تمالأن عليه في الغيرة: «عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُمْ» [التحریم: ٥]، فنزلت كذلك. وفي رواية لمسلم ذكر أسارى بدر، وهي قضية رابعة. وقد قال البخاري: حدثنا مُسَدَّد، عن يحيى، عن حُمَيد، عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آية الحجاب. وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش، التي تولى الله تعالى تزويجها بنفسه، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة، في قول قتادة والواقدي وغيرهما. وزعم أبو عبيدة معمر بن المثنى، وخليفة بن خياط: أن ذلك كان في سنة ثلاث، فالحق أعلم. قال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الله الرقاشي، حدثنا مُعْتَمِر بن سليمان، سمعت أبي، حدثنا أبو مجلز، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو كأنه يتنهاى للقيام فلم يقوموا. فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام، وقعد ثلاثة نفر. فجاء النبي ﷺ ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقت، فبحثت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا. فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل، فالتقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ الآية.

وقد رواه أيضاً في موضع آخر، ومسلم والنسائي، من طرق، عن معتمر بن سليمان، به. ثم رواه البخاري منفرداً به من حديث أيوب، عن أبي قلابة، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، بنحوه. ثم قال: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك قال: بُني على النبي ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم، فأرسلت على الطعام داعياً، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون. فدعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه، فقلت: يا نبي الله، ما أجد أحداً أدعوه. قال: «ارفعوا طعامكم»، وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت، فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة، فقال: «السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته». قالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهللك، بارك الله لك؟ فَتَقَرَّى حجر نساته كلهن، يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقبلن له كما قالت عائشة. ثم رجع رسول الله ﷺ فإذا رهط ثلاثة في البيت يتحدثون. وكان النبي ﷺ شديد الحياء، فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة، فما أدري أخبرته أم أخبر أن القوم حَرَجُوا؟ فرجع حتى إذا وضع رجله في أشكفة الباب داخلة، وأخرى خارجة، أرخى الستري بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب. انفرد به البخاري من بين أصحاب الكتب الستة، سوى النسائي في اليوم واللييلة، من حديث عبد الوارث. ثم رواه عن إسحاق - هو ابن منصور - عن عبد الله بن بكر السهمي، عن حُمَيد، عن أنس، بنحو ذلك، وقال: «رجلان» انفرد به من هذا الوجه. وقد تقدم في أفراد مسلم من حديث سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو المظفر، حدثنا جعفر بن سليمان، عن الجعد - أبي عثمان الشَّكْرِي - عن أنس بن مالك قال: أعرس

رسول الله ﷺ ببعض نسائه، فصنعت أم سليم حيساً ثم وضعت في تَوْرَ، فقالت: اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ، وأقرنه مني السلام، وأخبره أن هذا منا له قليل - قال أنس: والناس يومئذ في جهد - فجئت به فقلت: يا رسول الله، بعثت بهذا أم سليم إليك، وهي تقرئك السلام، وتقول: أخبره أن هذا منا له قليل، فنظر إليه ثم قال: «ضعه» فوضعت في ناحية البيت، ثم قال: «اذهب فادع لي فلاناً وفلاناً». وسمى رجالاً كثيراً، وقال: «ومن لقيت من المسلمين». فدعوتُ مَنْ قال لي، ومن لقيت من المسلمين، فجئت والبيت والصفّة والحجرة ملأى من الناس - فقلت: يا أبا عثمان، كم كانوا؟ فقال: كانوا زهاء ثلاثمائة - قال أنس: فقال لي رسول الله ﷺ: «جئ به». فجئتُ به إليه، فوضع يده عليه، ودعا وقال: «ما شاء الله». ثم قال: «ليتحلّق عَشْرَةَ عَشْرَةَ، وليسموا، وليأكل كل إنسان مما يليه». فجعلوا يسمون ويأكلون، حتى أكلوا كلهم. فقال لي رسول الله ﷺ: «ارفعه». قال: فجئتُ فأخذت الثَوْرَ فما أدري أهو حين وضعت أكثر أم حين أخذت؟ قال: وتخلّف رجال يتحدثون في بيت رسول الله، وروجُ رسول الله ﷺ التي دخل بها معهم مَوْلِيَةٌ وجهها إلى الحائط، فأطالوا الحديث، فشقوا على رسول الله ﷺ، وكان أشد الناس حياءً - ولو أعلموا كان ذلك عليهم عزيزاً - فقام رسول الله ﷺ فخرج فسلم على حُجْرِهِ وعلى نسائه، فلما رآوه قد جاء ظنوا أنهم قد ثَقَلُوا عليه، ابتدروا الباب فخرجوا، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر، ودخل البيت وأنا في الحجرة، فمكث رسول الله ﷺ في بيته يسيراً، وأنزل الله عليه القرآن، فخرج وهو يقرأ هذه الآية: ﴿يَتْلُوا آيَاتِ اللَّهِ آنَسُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبِذٍ يُطْرَقُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ فَيَنْقَضُوا بِأَنَّهُمْ دُعُوا حَتَّى لَا يَسْمَعُوا كَلِمَ الْفَوَاحِشِ مِنْكُمْ وَلَا يَخَافُ أَنَّ يُنَادَى بِهَذَا اسْمِ اللَّهِ عِزًّا﴾. قال أنس: فقرأهن عليّ قبل الناس، فانا أخذتُ الناس بهن عهداً. وقد رواه مسلم والترمذي والنسائي جميعاً، عن قتيبة، عن جعفر بن سليمان، به. وقال الترمذي: حسن صحيح وعَلَّقَهُ البخاري في كتاب النكاح فقال: وقال إبراهيم بن طَهْمَانَ، عن الجَعْدِ أَبِي عثمان، عن أنس، فذكر نحوه. ورواه مسلم أيضاً عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن الجعد، به. وقد روى هذا الحديث عبد الله بن المبارك، عن شريك، عن بيان بن بشر، عن أنس، بنحوه.

وروى البخاري والترمذي، من طريقين آخرين، عن يَنَانِ بن بشر الأحمسي الكوفي، عن أنس، بنحوه. ورواه ابن أبي حاتم أيضاً، من حديث أبي نَضْرَةَ العبدي، عن أنس بن مالك، بنحوه. ورواه ابن جرير من حديث عمرو بن سعيد، ومن حديث الزهري، عن أنس، بنحو ذلك. وقال الإمام أحمد: حدثنا بهزُّ وهاشم بن القاسم قالا: حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ: «اذهب فاذكرها عليّ». قال: فانطلق زيد حتى أتاهها، قال: وهي تُحْمَرُ عَجِينَهَا، فلما رأيتها عَظُمْتُ في صدري... وذكر تمام الحديث، كما قدمناه عند قوله: ﴿لَمَّا فَصَّ وَرَيْدٌ تَنَهَا وَطَرًا﴾، وزاد في آخره بعد قوله: وَوَعَظَ الْقَوْمَ بِمَا وَعَظُوا بِهِ. قال هاشم في حديثه: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبِذٍ يُطْرَقُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ فَيَنْقَضُوا بِأَنَّهُمْ دُعُوا حَتَّى لَا يَسْمَعُوا كَلِمَ الْفَوَاحِشِ مِنْكُمْ وَلَا يَخَافُ أَنَّ يُنَادَى بِهَذَا اسْمِ اللَّهِ عِزًّا﴾. وقد أخرجه مسلم والنسائي، من حديث سليمان بن المغيرة، به. وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن عبد الرحمن - ابن أخي ابن وهب - حدثني عمي عبد الله بن وهب، حدثني يونس عن الزهري، عن عُرْوَةَ، عن عائشة قالت: إن أزواج رسول الله ﷺ كُنَّ يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصب - وهو صعيد أفيح - وكان عمر يقول لرسول الله ﷺ: احجب نساءك. فلم يكن رسول الله ﷺ ليفعل، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ، وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر بصوته الأعلى: قد عرفناك يا سودة. حرصاً أن ينزل الحجاب، قالت: فأنزل الله الحجاب.

هكذا وقع في هذه الرواية. والمشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب، كما رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم، من حديث هشام بن عُرْوَةَ، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جَسِيمَةً لا تُخْفِي على من يعرفها، فرأها عمر بن الخطاب فقال: يا سودة، أما والله ما تُخْفِينِ عَلَيْنَا، فانظري كيف تخرجين؟ قالت: فانكفت رابعة، ورسول الله ﷺ في بيتي، وإنه ليتعشى، وفي يده عَرَقٌ، فدخلت فقالت: يا رسول الله، إني خرجت لبعض حاجتي، فقال لي عمر كذا وكذا. قالت: فأوحى الله إليه، ثم رَفَعَ عنه وإن العَرَقُ في يده، ما وضعه. فقال: «إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن». لفظ البخاري. فقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾: حَظَرَ على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن، كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام، حتى غار الله لهذه الأمة، فأمرهم بذلك، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إياكم والدخول على النساء». ثم استثنى من ذلك فقال: ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبِذٍ يُطْرَقُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ فَيَنْقَضُوا بِأَنَّهُمْ دُعُوا حَتَّى لَا يَسْمَعُوا كَلِمَ الْفَوَاحِشِ مِنْكُمْ وَلَا يَخَافُ أَنَّ يُنَادَى بِهَذَا اسْمِ اللَّهِ عِزًّا﴾. قال مجاهد وقتادة وغيرهما: أي غير متحنيين نضجه واستواءه، أي: لا ترقبوا الطعام حتى إذا قارب

لما أمر تعالى النساء بالحجاب من الأجانب، بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم، كما استأناهم في سورة النور، عند قوله: ﴿وَلَا يُدْرِكُ زِينَتَهُمْ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْحَكُنَّ يَخْفِهْنَ عَلَىٰ جُيُوشٍ وَلَا مُبْدِيَاتَ رِزْنَتُهُنَّ إِلَّا لِمَعْلُونِهِنَّ أَوْ ءَابَائِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، وفيها زيادات على هذه. وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته. وقد سأل بعض السلف فقال: لم لم يذكر العم والخال في هاتين الآيتين؟ فأجاب عكرمة الشعبي: بأنهما لم يذكرأ؛ لأنهما قد يصفان ذلك لبنهما. قال ابن جرير: حدثني محمد بن المنثري، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد، حدثنا داود، عن الشعبي وعكرمة في قوله: ﴿لَا جَنَاحَ عَلَيْهِنَ فِيْ ءَابَائِهِنَّ وَآَبَائِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، ولا أَبْنَاءَهُنَّ وَلَا إِخْوَانَهُنَّ وَلَا إِخْوَانَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ [النور: ٣٢]، قلت: ما شأن العم والخال لم يذكر ؟ قال:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٦١).

قال البخاري: قال أبو العالية: صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء. وقال ابن عباس: يصلون: يتركون. هكذا علقه البخاري عنهما. وقد رواه أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية كذلك. وروى مثله عن الربيع أيضاً. وروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس كما قاله سواء، رواهما ابن أبي حاتم. وقال أبو عيسى الترمذي: وروى عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم قالوا: صلاة الرب: الرحمة، وصلاة الملائكة: الاستغفار. ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو الأودي، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، قال الأعمش عن عطاء بن أبي رباح: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَلَكَ كُتْمٌ صُلُونُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ قال: صلواته تبارك وتعالى: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي. والمقصود من هذه الآية: أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبهه عنده في الملا الأعلى، بأنه يشي عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه. ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق، عن جعفر- يعني: ابن المغيرة- عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن بني إسرائيل قالوا لموسى، عليه السلام: هل يصلي ربك؟ فناده ربه: يا موسى، سألوكم: «هل يصلي ربك؟» فقل: نعم، إنما أصلي أنا وملائكتي على أنبيائي ورسلي. فانزل الله، ﷻ، على نبيه ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَلَكَ كُتْمٌ صُلُونُ عَلَى النَّبِيِّ بِكُنْهَا الْآيَاتِ مَأْمُونًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ٥١﴾. وقد أخبر أنه، سبحانه وتعالى، يصلي على عباده المؤمنين في قوله تعالى: ﴿بِكُنْهَا الْآيَاتِ مَأْمُونًا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ٥١﴾ وَسَبِّحُوا بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٥٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَلَكَ كُتْمٌ يُخَبِّرُكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ الظُّلُمَاتِينَ رَحِيمًا ٥٣﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٣]. وقال تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُصْرِيقِينَ ٥٤﴾ الْآيَاتِ إِذَا أَصْبَحَتُمْ مُبْشِرَةً قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَأَنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ٥٥﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥٦﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]. وفي الحديث: «إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف». وفي الحديث الآخر: اللهم، صل على آل أبي أوفى». وقال رسول الله ﷺ لامرأة جابر- وقد سأله أن يصلي عليها وعلى زوجها: «صلى الله عليك، وعلى زوجك». وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه، وكيفية الصلاة عليه، ونحن نذكر منها إن شاء الله تعالى ما تيسر، والله المستعان. قال البخاري- عند تفسير هذه الآية -: حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد، حدثنا أبي، عن مسهر، عن الحكم، عن ابن أبي ليلى، عن كعب بن عُجْرَةَ قال: قيل: يا رسول الله، أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ فقال: «قولوا: اللهم، صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم، بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الحكم: قال: سمعت ابن أبي ليلى قال: لقيني كعب بن عُجْرَةَ فقال: ألا أهدي لك هدية؟ خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، قد علمنا- أو: عرفنا- كيف السلام عليك، فكيف الصلاة؟ قال: «قولوا: اللهم، صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم، بارك على محمد وعلى آل محمد وعلى محمد وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد». وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة في كتبهم، من طرق متعددة، عن الحكم- وهو ابن عتبة- زاد البخاري: وعبد الله بن عيسى، كلاهما عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، فذكره. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا هُشَيْم بن بُشَيْر، عن يزيد بن أبي زياد، حدثنا عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عُجْرَةَ قال: لما نزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَلَكَ كُتْمٌ صُلُونُ عَلَى النَّبِيِّ بِكُنْهَا الْآيَاتِ مَأْمُونًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ٥١﴾. قال: قلنا: يا رسول الله، قد علمنا السلام، فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. إنك حميد مجيد». وكان عبد الرحمن بن أبي ليلى يقول: وعلينا معهم. ورواه الترمذي بهذه الزيادة. ومعنى قولهم: «أما السلام عليك فقد عرفناه»: هو الذي في التشهد الذي كان يعلمهم إياه، كما كان يعلمهم السورة من القرآن، وفيه: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته».

حديث آخر: قال البخاري: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث، عن ابن الهاد، عن عبد الله بن خباب، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قلنا: يا رسول الله، هذا السلام، فكيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد عبدك ورسولك، كما صليت على آل إبراهيم. وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم». وفي رواية: قال أبو صالح، عن الليث: «علي محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم». حدثنا إبراهيم بن حمزة، حدثنا ابن أبي حازم والذَّوْزُودِي، عن يزيد - يعني: ابن الهاد - قال: «كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم». وأخرجه النسائي وابن ماجه، من حديث ابن الهاد، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: قرأت على عبد الرحمن: مالك، عن عبد الله بن أبي بكر، عن أبيه، عن عمرو بن سُلَيْم أنه قال: أخبرني أبو حميد الساعدي أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد». وقد أخرجه بقية الجماعة، سوى الترمذي، من حديث مالك، به.

حديث آخر: قال مسلم: حدثنا يحيى التميمي قال: قرأت على مالك، عن نَعِيم بن عبد الله المُجَمَّر، أخبرني محمد بن عبد الله بن زيد الأنصاري - قال: وعبد الله بن زيد هو الذي كان أَرَى النداء بالصلاة - أخبره عن أبي مسعود الأنصاري - قال: أثنانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عُبَادَة، فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله، فكيف نصلي عليك؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ: «قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم». وقد رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من حديث مالك، به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن خُزَيْمَة، وابن حِبَّان، والحاكم في مستدركه، من حديث محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن محمد بن عبد الله بن زيد بن عبد ربه، عن أبي مسعود البدرى أنهم قالوا: يا رسول الله، أما السلام فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا في صلاتنا؟ فقال: «قولوا: اللهم، صل على محمد وعلى آل محمد...». وذكره. ورواه الشافعي، رحمه الله، في مسنده، عن أبي هريرة، بمثله. ومن هاهنا ذهب الشافعي، رحمه الله، إلى أنه يجب على المصلي أن يصلي على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير، فإنه تركه لم تصح صلاته. وقد شرع بعض المتأخرين من المالكية وغيرهم يُشَنع على الإمام الشافعي في اشتراطه ذلك في الصلاة، ويزعم أنه قد تفرد بذلك، وحكى الإجماع على خلافه أبو جعفر الطبري والطحاوي والخطابي وغيرهم، فيما نقله القاضي عياض. وقد تَسَفَّ القائل في رده على الشافعي، وتكلف في دعواه الإجماع على ذلك، وقال ما لم يحط به علماً، فإنه قد روينا وجوب ذلك والأمر بالصلاة على رسول الله ﷺ في الصلاة كما هو ظاهر الآية، ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة، منهم: ابن مسعود، وأبو مسعود البدرى، وجابر بن عبد الله، ومن التابعين: الشعبي، وأبو جعفر الباقر، ومقاتل بن حيان. وإليه ذهب الشافعي، لا خلاف عنه في ذلك ولا بين أصحابه أيضاً، وإليه ذهب الإمام أحمد أخيراً فيما حكاه عنه أبو زُرْعَة الدمشقي، به. وبه قال إسحاق بن راهويه، والفقهاء الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن المَوَاز المالكي، رحمهم الله، حتى إن بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال في الصلاة عليه ﷺ كما علمهم أن يقولوا لما سألوهم، وحتى إن بعض أصحابنا أوجب الصلاة على الآل ممن حكاه البَنْدَنِيّجِي، وسُلَيْم الرازي، وصاحبه نصر بن إبراهيم المقدسي، ونقله إمام الحرمين وصاحبه الغزالي قولاً عن الشافعي. والصحيح أنه وجه، على أن الجمهور على خلافه، وحكوا الإجماع على خلافه، وللقول بوجوبه ظواهر الحديث، والله أعلم. والغَرَض أن الشافعي، رحمه الله، لقوله بوجوب الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة - سَلَفَ وَخَلَفَ كما تقدم، الله الحمد والمنة، فلا إجماع على خلافه في هذه المسألة لا قديماً ولا حديثاً، والله أعلم. ومما يؤيد ذلك: الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي - وصححه - والنسائي وابن خزيمة، وابن حبان في صحيحهما، من رواية خُوَيْبَة بن شُرَيْح المصري، عن أبي هانئ - حميد بن هانئ -، عن عمرو بن مالك أبي علي الجَنَبِي، عن فضالة بن عبيد، رضي الله عنه، قال: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته، لم يمجّد الله ولم يصل على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «عجل هذا». ثم دعاه فقال له ولغيره: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله، ﷻ، والثناء عليه، ثم ليصل على النبي ثم ليدع بعد بما شاء».

وكذا الحديث الذي رواه ابن ماجه، من رواية عبد المهيم بن عباس بن سهل بن سعد الساعدي، عن أبيه، عن جده، عن

رسول الله ﷺ أنه قال: «لا صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه، ولا صلاة لمن لم يصل على النبي، ولا صلاة لمن لم يحب الأنصار». ولكن عبدالمهيمن هذا متروك. وقد رواه الطبراني من رواية أخيه «أبي بن عباس»، ولكن في ذلك نظر، وإنما يعرف من رواية «عبد المهيمن»، والله أعلم. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إسماعيل، عن أبي داود الأعمى، عن بُريدة قال: قلنا: يا رسول الله، قد علمنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد، كما جعلتها على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد». أبو داود الأعمى اسمه: نفع بن الحارث، متروك. حديث آخر موقوف: رويناه من طريق سعيد بن منصور وزيد بن الحباب ويزيد بن هارون، ثلاثتهم عن نوح بن قيس: حدثنا سلامة الكندي: أن علياً، رضي الله عنه، كان يعلم الناس هذا الدعاء: اللهم داحي المدحوات، وبارئ المسموكات، وجبّار القلوب على فطرته شقيها وسعيدها. اجعل شرائف صلواتك، ونوامي بركاتك، ورأفة تحننك، على محمد عبدك ورسولك، الخاتم لما سبق، والفتاح لما أغلق، والمعلن الحق بالحق، والدامغ جيشات الأباطيل، كما حُمِلَ فاضطلع بأمرك لطاعتك، مستوفزاً في مرضاتك، غير نكل في قَدَم، ولا واهن في عزم، واعياً لوحيك، حافظاً لعهدك، ماضياً على نفاذ أمرك، حتى أوري قيساً لقابس، آلاء الله تصل بأهله أسبابه، به هديت القلوب بعد خوضات الفتن والإثم، وأقام موضحات الأعلام، ومُبينات الإسلام ونائرات الأحكام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، وتعيثك نعمة، ورسولك بالحق رحمة. اللهم افسح له مفسحات في عدلك، وأجزه مضاعفات الخير من فضلك. مهتآت له غير مكدرات، من فوز ثوابك المعلول وجزيل عطائك المجمعول. اللهم، أعل على بناء البانين بنيانه، وأكرم مثواه لديك ونزله. وأنتم له نوره، وأجزه من ابتنائك له مقبول الشهادة، مرضي المقالة، ذا منطق عدل، وخُطّة فصل، وحجة وبرهان عظيم. هذا مشهور من كلام علي، رضي الله عنه، وقد تكلم عليه ابن قتيبة في مشكل الحديث، وكذا أبو الحسين أحمد بن فارس اللغوي في جزء جمعه في فضل الصلاة على النبي ﷺ، إلا أن في إسناده نظراً. قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي: سلامة الكندي هذا ليس بمعروف، ولم يدرك علياً. وكذا قال: وقد روى الحافظ أبو القاسم الطبراني هذا الأثر عن محمد بن علي الصائغ، عن سعيد بن منصور، حدثنا نوح بن قيس، عن سلامة الكندي قال: كان علي، رضي الله عنه، يعلمنا الصلاة على النبي ﷺ فيقول: «اللهم، داحي المدحوات» وذكره.

حديث آخر موقوف: قال ابن ماجه: حدثنا الحسين بن بيان، حدثنا زيد بن عبد الله، حدثنا المسعودي، عن عون بن عبد الله، عن أبي فاختة، عن الأسود بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه؛ فإنكم لا تدرّون لعل ذلك يُعرض عليه. قال: فقالوا له: فَعَلِمْنَا. قال: قولوا: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، محمد عبدك ورسولك، إمام الخير وقائد الخير، ورسول الرحمة. اللهم ابثه مقاماً محموداً يُقْبِطُ به الأولون والآخرون، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم، بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. وهذا موقوف، وقد روى إسماعيل القاضي عن عبد الله بن عمرو - أو: عمر - على الشك من الراوي قريباً من هذا. حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا أبو إسرائيل، عن يونس بن خَبَاب قال: خطبنا بفارس فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَكَتَبَكُمْ يَصْلُونَ عَلَى النَّبِيِّ يَكَايُهَا الَّذِي مَاتُوا صَلَوَاتِهِ وَسَلَامُهُ وَسَلَّمَ﴾، فقال: أنبأني من سمع ابن عباس يقول: هكذا أنزل. فقلنا - أو: قالوا - يا رسول الله، علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك؟ فقال: «اللهم، صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وارحم محمد وآل محمد، كما رحمت آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، إنك حميد مجيد». فيستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبي ﷺ، كما هو قول الجمهور: ويعضده حديث الأعرابي الذي قال: اللهم، ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً. فقال رسول الله ﷺ: «لقد حجرت واسعاً». وحكى القاضي عياض عن جمهور المالكية منعه، قال: وأجازه أبو محمد بن أبي زيد.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، أخبرنا شعبة، عن عاصم بن عبيد الله قال: سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يحدث عن أبيه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من صلى علي صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صلى علي، فَلْيَقِلْ عبد من ذلك أو ليكثر». ورواه ابن ماجه، من حديث شعبة به. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سلمة منصور بن سلمة الخزاعي، ويونس - هو ابن محمد - قال: حدثنا ليث، عن يزيد بن الهاد، عن عمرو بن أبي عمرو، عن أبي

الحوirth، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن عبد الرحمن بن عوف قال: خرج رسول الله ﷺ فاتبعته حتى دخل نخلاً، فسجد فأطال السجود، حتى خفت - أو: خشيت - أن يكون الله قد توفاه أو قبضه. قال: فجئت أنظر، فرفع رأسه فقال: «ما لك يا عبد الرحمن؟» قال: فذكرت ذلك له فقال: «إن جبريل، عليه السلام، قال لي: ألا أبشرك؟ إن الله، ﷻ، يقول: من صلى عليك صليت عليه، ومن سَلِمَ عليك سَلِمْتُ عليه». طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا سليمان بن بلال، حدثنا عمرو بن أبي عمرو، عن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن عوف، عن عبد الرحمن بن عوف قال: خرج رسول الله ﷺ فتوجه نحو صدقته، فدخل فاستقبل القبلة، فخر ساجداً، فأطال السجود، حتى ظننت أن الله قد قبض نفسه فيها، فدنوت منه ثم جلست، فرفع رأسه فقال: «من هذا؟» فقلت: عبد الرحمن. قال: «ما شأنك؟» قلت: يا رسول الله، سجدت سجدة خشيت أن يكون الله، ﷻ، قبض نفسك فيها. فقال: «إن جبريل أتاني فبشرني أن الله، ﷻ، يقول لك: من صلى عليك صليت عليه، ومن سَلِمَ عليك سَلِمْتُ عليه - فسجدت لله، ﷻ، شكرًا».

حديث آخر: قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الرحيم بن بحير بن عبد الله بن معاوية بن بحير بن ريسان، حدثنا عمرو بن الربيع بن طارقة، وحدثنا يحيى بن أيوب، حدثنا عبد الله بن عمر، عن الحكم بن عتيبة، عن إبراهيم التَّخَمي، عن الأسود بن يزيد، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: خرج رسول الله ﷺ للحاجة فلم يجد أحداً يتبعه، ففزع عمر، فاتاه بمطهرة من خلفه، فوجد النبي ﷺ ساجداً في مشربة، فتنحى عنه من خلفه حتى رفع النبي ﷺ رأسه، فقال: «أحسن يا عمر حين وجدتي ساجداً فتفتحيت عني، إن جبريل أتاني فقال: من صلى عليك من أمتك واحدة، صلى الله عليه عشر صلوات، ورفعه عشر درجات». وقد اختار هذا الحديث الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «المستخرج على الصحيحين». وقد رواه إسماعيل القاضي، عن القعني، عن سلمة بن وُزْدان، عن أنس، عن عمر بنحوه. ورواه أيضاً عن يعقوب بن حميد، عن أنس بن عياض، عن سلمة بن وُزْدان، عن مالك بن أوس بن الحدثان، عن عمر بن الخطاب، بنحوه. حديث آخر: قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا بُنْدَار، حدثنا محمد بن خالد بن عُمَّة، حدثني موسى بن يعقوب الرُّمَعي، حدثني عبد الله بن كَيْسَانَ، أن عبد الله بن شداد أخبره، عن عبد الله بن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة». تفرد بروايته الترمذي، رحمه الله، ثم قال: هذا حديث حسن غريب. حديث آخر: قال إسماعيل القاضي: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن يعقوب بن زيد بن طلحة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني آت من ربي فقال لي: ما من عبد يصلي عليك صلاة إلا صلى الله عليه بها عشرًا». فقام رجل فقال: يا رسول الله، ألا أجعل نصف دعائي لك؟ قال: «إن شئت». قال: ألا أجعل ثلثي دعائي لك؟ قال: «إن شئت». قال: ألا أجعل دعائي لك كله؟ قال: «إذن يكفيك الله هم الدنيا وهم الآخرة». فقال شيخ - كان بمكة - يقال له: مَنيع - لسفيان: عمن أسنده؟ قال: لا أدري.

حديث آخر: قال إسماعيل القاضي: حدثنا سعيد بن سلام العطار، حدثنا سفيان - يعني: الثوري - عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يخرج في جوف الليل فيقول: «جاءت الراحفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه». قال أبي: يا رسول الله، إني أصلي من الليل، أفأجعل لك ثلث صلاتي؟ قال رسول الله ﷺ: «الشطر». قال: أفأجعل لك شطر صلاتي؟ قال رسول الله ﷺ: «الثلاثان». قال أفأجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إذن يغفر الله لك ذنبك كله». وقد رواه الترمذي بنحوه فقال: حدثنا هَتَاد، حدثنا قَبِيصة، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: «يا أيها الناس، اذكروا الله، اذكروا الله، جاء الراحفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه». قال أبي: قلت: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: «ما شئت». قلت: الربع؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك». قلت: فالنصف؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك». قلت: فالثلثين؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك». قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إذن تكفي همك، ويغفر لك ذنبك». ثم قال: هذا حديث حسن. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي، عن أبيه قال: قال رجل: يا رسول الله، أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك؟ قال: «إذن يكفيك الله ما أهَمُّك من ذنبك وآخرتك».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن سليمان مولى الحسن بن علي، عن عبد الله بن أبي طلحة، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم، والسرور يرى في وجهه، فقالوا: يا رسول الله، إنا لرى السرور في وجهك. فقال: «إنه أتاني الملك فقال: يا محمد، أما يرضيك أن ربك، ﷻ، يقول: إنه لا يصلي عليك أحد من

أمتك إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً؟ قال: بلى. ورواه النسائي من حديث حماد بن سلمة، به. وقد رواه إسماعيل القاضي، عن إسماعيل بن أبي أويس، عن أخيه، عن سليمان بن بلال، عن عُبَيْد الله بن عمر، عن ثابت، عن أبي طلحة، بنحوه. طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيْج، حدثنا أبو مَعْشَر، عن إسحاق بن كعب بن عُجْزَة، عن أبي طلحة الأنصاري قال: أصبح رسول الله ﷺ يوماً طيب النفس، يرى في وجهه البشر، قالوا: يا رسول الله، أصبحت اليوم طيب النفس، يرى في وجهك البشر؟ قال: «أجل، أتاني آت من ربي، ﷺ»، فقال: من صلى عليك من أمتك صلاة، كَتَبَ الله له بها عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، ورد عليه مثلها. هذا أيضاً إسناد جيد، ولم يخرجوه. حديث آخر: روى مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، من حديث إسماعيل بن جعفر، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه؛ عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عَلَيَّ واحدة، صلى الله عليه بها عشراً». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وفي الباب عن عبد الرحمن بن عوف، وعامر بن ربيعة، وعمار، وأبي طلحة، وأنس، وأبي بن كعب. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا شريك، عن ليث، عن كعب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «صلوا علي؛ فإنها زكاة لكم. وسلوا الله لي الوسيلة؛ فإنها درجة في أعلى الجنة، لا ينالها إلا رجل، وأرجو أن أكون أنا هو». تفرد به أحمد، وقد رواه البزار من طريق مجاهد، عن أبي هريرة، بنحوه فقال: حدثنا محمد بن إسحاق البكالي، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا داود بن عُثَيْمَة، عن ليث، عن مجاهد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صلوا علي، فإنها زكاة لكم، وسلوا الله لي الدرجة الوسيلة من الجنة» فسلناه - أو: أخبرنا - فقال: «هي درجة في أعلى الجنة، وهي لرجل، وأنا أرجو أن أكون ذلك الرجل». في إسناده بعض من تَكَلَّم فيه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لُيَيْعَة، عن عبد الله بن هبيرة، عن عبد الرحمن بن مَرْجٍ الخولاني، سمعت أبا قيس - مولى عمرو بن العاص - سمعت عبد الله بن عمرو يقول: من صلى على رسول الله ﷺ صلاة، صلى الله عليه وملائكته بها سبعين صلاة، فَلْيَقُلْ عبد من ذلك أو ليكثر. وسمعت عبد الله بن عمرو يقول: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودع فقال: «أنا محمد النبي الأمي - قاله ثلاث مرات - ولا نبي بعدي، أوتيت فواتح الكلام وخواتمه وجوامعه، وعلمت كم خزانة النار وحملة العرش، وتجاوز بي، عُوفيت وعوفيت أمتي، فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم، فإذا دُهِبَ بي فعليكم بكتاب الله، أحلوا حلاله، وحرموا حرامه». حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا أبو سَلَمَة الخراساني، حدثنا أبو إسحاق، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من ذُكِرَتْ عنده فَلْيَصِلْ علي، ومن صَلَّى علي مرة واحدة صلى الله عليه عشراً». ورواه النسائي في «اليوم والليلة»، من حديث أبي داود الطيالسي، عن أبي سلمة - وهو المغيرة بن مسلم الخراساني - عن أبي إسحاق عمرو بن عبد الله السَّبَّيحي، عن أنس، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا يونس بن عمرو - يعني: يونس بن أبي إسحاق - عن بُزَيْد بن أبي مريم، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي صلاة واحدة، صلى الله عليه عشر صلوات، وحط عنه عشر خطيئات». حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الملك بن عمرو وأبو سعيد قالا: حدثنا سليمان بن بلال، عن عمارة بن عَزِيْة، عن عبد الله بن الحسين، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «البخل من ذُكِرَتْ عنده، ثم لم يصل علي». وقال أبو سعيد: «فلم يصل علي». ورواه الترمذي من حديث سليمان بن بلال، ثم قال: هذا حديث حسن غريب صحيح. ومن الرواة من جعله من مسند «الحسين بن علي»، ومنهم من جعله من مسند «علي» نفسه. حديث آخر: قال إسماعيل القاضي: حدثنا حجاج بن مُنْهَال، حدثنا حماد بن سلمة، عن معبد بن هلال العَنَزِي، حدثني رجل من أهل دمشق، عن عوف بن مالك، عن أبي ذر، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أبخل الناس من ذُكِرَتْ عنده فلم يصل علي». حديث آخر مرسل: قال إسماعيل: وحدثنا سليمان بن حرب، حدثنا جرير بن حازم، سمعت الحسن يقول: قال رسول الله ﷺ: «بحسب امرئ من البخل أن أذكر عنده فلا يُصَلِّي علي»، صلوات الله عليه.

حديث آخر: قال الترمذي: حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي، حدثنا رُبَيْع بن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد المقُبَّرِي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل ذُكِرَتْ عنده فلم يصل علي. ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان، ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبير فلم يدخلا الجنة». ثم قال: حسن غريب. قلت: وقد رواه البخاري في الأدب، عن محمد بن عبيد الله، حدثنا ابن أبي حازم، عن كثير بن زيد، عن الوليد بن رباح، عن أبي هريرة، مرفوعاً، بنحوه. ورويناه من حديث محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، به.

قال الترمذي: وفي الباب عن جابر وأنس. قلت: وابن عباس، وكعب بن عُجْرَة، وقد ذكرت طرق هذا الحديث في أول كتاب الصيام وعند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَلْفُظَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [البراء: ٢٣]. وهذا الحديث والذي قبله دليل على وجوب الصلاة عليه ﷺ كلما ذكر، وهو مذهب طائفة من العلماء منهم الطحاوي والحلي، ويتقوى بالحديث الآخر الذي رواه ابن ماجه: حدثنا جُبَارَة بن المغَلَس، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عمرو بن دينار، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من نسي الصلاة عَلَيَّ خَطِيءٌ طريق الجنة». جُبَارَة ضعيف. ولكن رواه إسماعيل القاضي من غير وجه، عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر قال: قال رسول الله ﷺ: «من نسي الصلاة عَلَيَّ خَطِيءٌ طريق الجنة». وهذا مرسل يتقوى بالذي قبله والله أعلم. وذهب آخرون إلى أنه تجب الصلاة في المجلس مرة واحدة، ثم لا تجب في بقية ذلك المجلس، بل تستحب. نقله الترمذي عن بعضهم، ويتأيد بالحديث الذي رواه الترمذي: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن صالح - مولى التوأمة - عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم تَوْرَةٌ، فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم». تفرد به الترمذي من هذا الوجه. ورواه الإمام أحمد عن حجاج ويزيد بن هارون، كلاهما عن ابن أبي ذئب، عن صالح - مولى التوأمة - عن أبي هريرة، مرفوعاً مثله. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن. وقد رُوِيَ عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، من غير وجه، وقد رواه إسماعيل القاضي من حديث شعبة، عن سليمان، عن دُكْوَان، عن أبي سعيد قال: «ما من قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون على النبي ﷺ، إلا عليهم حسرة، وإن دخلوا الجنة لما يرون من الثواب». وحكى عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه، عليه السلام، في العمر مرة واحدة، امتثالاً لأمر الآية، ثم هي مستحبة في كل حال، وهذا هو الذي نصره القاضي عياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه ﷺ في الجملة. قال: وقد حكى الطبراني أن محملاً الآية على النذب، وادعى فيه الإجماع. قال: ولعله فيما زاد على العرة، والواجب منه مرة كالشهادة له بالنبوة، وما زاد على ذلك فمندوب مُرَغَّب فيه من سنن الإسلام، وشعار أمته. قلت: وهذا قول غريب، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة، فمنها واجب، ومنها مستحب على ما نبينه. فمنه: بعد النداء للصلاة؛ للحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حيوة، حدثنا كعب بن علقمة، أنه سمع عبد الرحمن بن جبير يقول: إنه سمع عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم مؤذناً فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليّ؛ فإنه من صلى عَلَيَّ صلاةً صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة». وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، من حديث كعب بن علقمة. طريق أخرى: قال إسماعيل القاضي: حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا عمرو بن علي، عن أبي بكر الجُشَمي، عن صفوان بن سليم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل الله لي الوسيلة، حَقَّتْ عليه شفاعتي يوم القيامة».

حديث آخر: قال إسماعيل القاضي: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا سعيد بن زيد، عن ليث، عن كعب - هو كعب الأحبار - عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «صلوا عَلَيَّ، فإن صلاتكم عليّ زكاة لكم، وسلوا الله لي الوسيلة». قال: فإما حَدَّثَنَا وإما سألناه، فقال: «الوسيلة أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل، وأرجو أن أكون ذلك الرجل». ثم رواه عن محمد بن أبي بكر، عن معتمر، عن ليث - وهو ابن أبي سليم - به. وكذا الحديث الآخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا بكر بن سودة، عن زياد بن نعيم، عن وُقَّاء الحضرمي، عن رُوَيْفَع بن ثابت الأنصاري؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى على محمد وقال: اللهم، أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة، وجبت له شفاعتي». وهذا إسناد لا بأس به، ولم يخرجوه.

أثر آخر: قال إسماعيل القاضي: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، حدثني مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن أبيه، سمعت ابن عباس يقول: اللهم تقبل شفاعة محمد الكبرى، وارفع درجته العليا، وأعطه سُؤْلَه في الآخرة والأولى، كما أتيت إبراهيم وموسى، عليهما السلام. إسناد جَيِّد قوي صحيح. ومن ذلك: عند دخول المسجد والخروج منه: للحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا ليث بن أبي سليم، عن عبد الله بن الحسن، عن أمه فاطمة بنت الحسين، عن جدته فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم وقال: «اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك». وإذا خرج صلى على محمد وسلم، ثم قال: «اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب فضلك». وقال إسماعيل القاضي: حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا سفيان بن عمر التميمي، عن سليمان الضُبِّي، عن

علي بن الحسين قال: قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: إذا مررت بالمساجد فصلوا على النبي ﷺ. وأما الصلاة عليه ﷺ في الصلاة، فقد قدمنا الكلام عليها في التشهد الأخير، ومن ذهب إلى ذلك من العلماء مع الشافعي، رحمه الله. وأما التشهد الأول فلا تجب فيه قولاً واحداً، وهل تستحب؟ على قولين للشافعي. ومن ذلك: الصلاة عليه ﷺ في صلاة الجنازة: فإن السنة أن يقرأ في التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب، وفي الثانية يصلي على النبي ﷺ، وفي الثالثة يدعو للميت، وفي الرابعة يقول: اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده. قال الشافعي، رحمه الله: حدثنا مطرّف بن مازن، عن مَعْمَر، عن الزهري: أخبرني أبو أمامة ابن سهل بن حنيف أنه أخبره رجل من أصحاب النبي ﷺ: أن السنة في الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرّاً في نفسه ثم يصلي على النبي ﷺ ويخلص الدعاء للجنازة، وفي التكبيرات لا يقرأ في شيء منها، ثم يسلم سرّاً في نفسه. ورواه النسائي، عن أبي أمامة نفسه أنه قال: من السنة، فذكره. وهذا من الصحابي في حكم المرفوع على الصحيح. ورواه إسماعيل القاضي، عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى، عن معمر، عن الزهري، عن أبي أمامة بن سهل، عن سعيد بن المسيب أنه قال: السنة في الصلاة على الجنازة... فذكره. وهكذا روي عن أبي هريرة، وابن عمر، والشعبي. ومن ذلك: في صلاة العيد: قال إسماعيل القاضي: حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام الدستوائي، حدثنا حماد بن أبي سليمان، عن إبراهيم، عن علقمة: أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة خرج عليهم الوليد بن عقبة يوماً قبل العيد، فقال لهم: إن هذا العيد قد دنا، فكيف التكبير فيه؟ قال عبد الله: تبدأ فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة، وتحمد ربك وتصلي على النبي ﷺ، ثم تدعو، وتكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تقرأ ثم تكبر وترتكع، ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربك وتصلي على النبي ﷺ ثم تدعو وتكبر، وتفعل مثل ذلك، ثم تركع. فقال حذيفة وأبو موسى: صدق أبو عبد الرحمن. إسناده صحيح. ومن ذلك: أنه يُسْتَحَبّ ختم الدعاء بالصلاة عليه ﷺ قال الترمذي: حدثنا أبو داود، أخبرنا النضر بن شميل، عن أبي قرة الأسدي، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب، قال: الدعاء موقوف بين السماء والأرض، لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك. وهكذا رواه أيوب بن موسى، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب، قوله. ورواه معاذ بن الحارث، عن أبي قرة، عن سعيد بن المسيب، عن عمر مرفوعاً. وكذا رواه زَيْن بن معاوية في كتابه مرفوعاً، عن النبي ﷺ قال: «الدعاء موقوف بين السماء والأرض، لا يصعد حتى يصلي علي، فلا تجعلوني كَعُمَرَ الرّاكِب، صلوا عليّ أول الدعاء وأوسطه وآخره». وهذه الزيادة إنما تروى من رواية جابر بن عبد الله في مسند الإمام عبد بن حميد الكشي حيث قال: حدثنا جعفر بن عون، أخبرنا موسى بن عبيدة، عن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم، عن أبيه قال: قال جابر: قال لنا رسول الله ﷺ: «لا تجعلوني كقدح الراكب، إذا علق تعاليقه أخذ قدحه فملاه من الماء، فإن كان له حاجة في الوضوء توضأ، وإن كان له حاجة في الشرب شرب وإلا أهراق ما فيه، اجعلوني في أول الدعاء، وفي وسط الدعاء، وفي آخر الدعاء». فهذا حديث غريب، وموسى بن عُبيدة ضعيف الحديث.

ومن أكد ذلك: دعاء القنوت: لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم، من حديث أبي الحوراء، عن الحسن بن علي، رضي الله عنهما، قال: علّمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في القنوت: «اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، تباركت ربنا وتعاليت». وزاد النسائي في سننه بعد هذا: وصلى الله على النبي محمد. ومن ذلك: أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه في يوم الجمعة وليلة الجمعة: قال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن علي الجعفي، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن أوس بن أوس الثقفي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي». قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أَرْمَتْ؟ - يعني: وقد بليت - قال: «إن الله حرم على الأرض أن تاكل أجساد الأنبياء». ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، من حديث حسين بن علي الجعفي. وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطني، والنووي في الأذكار. حديث آخر: قال أبو عبد الله بن ماجه: حدثنا عمرو بن سَوَاد المصري، حدثنا عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أيمن، عن عُبَادَة بن نُسَيٍّ، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا الصلاة علي يوم الجمعة؛ فإنه مشهود تشهد الملائكة. وإن أحداً لم يصلي علي إلا عُرِضَتْ عَلَيَّ صلاته حتى يفرغ منها». قال: قلت: وبعد الموت؟ قال: «وبعد الموت، إن الله حرم على الأرض أن تاكل أجساد الأنبياء» فنبى الله حي يرزق. هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفيه انقطاع بين

عبادة بن نسي وأبي الدرداء، فإنه لم يدركه، والله أعلم.

وقد روى البيهقي من حديث أبي أمامة وأبي مسعود، عن النبي ﷺ في الأمر بالإكثار من الصلاة عليه ليلة الجمعة ويوم الجمعة، ولكن في إسنادهما ضعف، والله أعلم. وروي مرسلًا عن الحسن البصري، فقال إسماعيل القاضي: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا جرير بن حازم، سمعت الحسن - هو البصري - يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تأكل الأرض جسَدًا من كلمه روح القدس». مرسل حسن. وقال الشافعي: أخبرنا إبراهيم بن محمد، أخبرنا صفوان بن سليم أن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم الجمعة وليلة الجمعة، فأكثروا الصلاة علي». هذا مرسل. وهكذا يجب على الخطيب أن يصلي على النبي ﷺ يوم الجمعة على المنبر في الخطبتين، ولا تصح الخطبتان إلا بذلك؛ لأنها عبادة، وذكر الله فيها شرط، فوجب ذكر الرسول ﷺ فيها كالأذان والصلاة. هذا مذهب الشافعي وأحمد، رحمهما الله. ومن ذلك: أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره، صلوات الله وسلامه عليه: قال أبو داود: حدثنا ابن عوف - هو محمد - حدثنا المقري، حدثنا حنيفة، عن أبي صخر حميد بن زياد، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد يسلم علي إلا رَدَّ الله علي روحي، حتى أَرُدَّ عليه السلام». تفرد به أبو داود، وصححه النووي في الأذكار. ثم قال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح قال: قرأت على عبد الله بن نافع، أخبرني ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا علي، فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم». تفرد به أبو داود أيضاً. وقد رواه الإمام أحمد عن سُرَّيج، عن عبد الله بن نافع - وهو الصائغ - به. وصححه النووي أيضاً: وقد روى من وجه آخر عن علي، رضي الله عنه. قال القاضي إسماعيل بن إسحاق في كتابه «فضل الصلاة على النبي ﷺ»: حدثنا إسماعيل بن أبي أونس، حدثنا جعفر بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب عن ابن عوف عن أبيه، عن علي بن الحسين بن علي: أن رجلاً كان يأتي كل غداة فيزور قبر النبي ﷺ ويصلي عليه، ويصنع من ذلك ما اشتهر عليه علي بن الحسين، فقال له علي ابن الحسين: ما يحملك على هذا؟ قال: أحب السلام على النبي ﷺ. فقال له علي بن الحسين: هل لك أن أحدثك حديثاً عن أبي؟ قال: نعم. فقال: له علي بن الحسين: أخبرني أبي، عن جدي أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا قبري عيداً، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي وسلموا حيثما كنتم فتبلغني صلاتكم وسلامكم». في إسناده رجل مبهم لم يُسم. وقد روي من وجه آخر مرسلًا، قال عبد الرزاق في مصنفه، عن الثوري، عن ابن عجلان، عن رجل - يقال له: سهيل - عن الحسن بن الحسن بن علي: أنه رأى قوماً عند القبر فنهاهم، وقال: إن النبي ﷺ قال: «لا تتخذوا قبري عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي حيثما كنتم؛ فإن صلاتكم تبلغني». فلعله رآهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم فوق الحاجة، فنهاهم. وقد روي أنه رأى رجلاً يتتاب القبر فقال: يا هذا، ما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء، أي: الجميع يبلغه، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

وقال الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا أحمد بن رشد بن المصري، حدثنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا محمد بن جعفر، أخبرني حميد بن أبي زينب، عن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: «صلوا علي حيثما كنتم، فإن صلاتكم تبلغني». ثم قال الطبراني: حدثنا العباس بن حمدان الأصبهاني، حدثنا شعيب بن عبد الحميد الطحان، أخبرنا يزيد بن هارون عن شيبان، عن الحكم بن عبد الله بن خطاف، عن أم أنيس بنت الحسن بن علي، عن أبيها قال: قال رسول الله ﷺ: «أرأيت قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَلِلَّهِكَ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾؟» فقال: «إن هذا من المكنوم، ولولا أنكم سألتوني عنه لما أخبرتكم، إن الله وكل بي ملكين لا أذكر عند عبد مسلم فيصلي علي إلا قال ذاك الملكان: «غفر الله لك». وقال الله وملائكته جواباً لذيكَ الملكين: «آمين». ولا يصلي أحد إلا قال ذاك الملكان: «غفر الله لك». ويقول الله وملائكته جواباً لذيكَ الملكين: «آمين». غريب جداً، وإسناده فيه ضعف شديد. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن عبد الله بن السائب، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله وملائكته سياحين في الأرض، يبلغوني من أمتي السلام». وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري وسليمان بن مهران الأعمش، كلاهما عن عبد الله بن السائب، به. فأما الحديث الآخر: «من صلى عليَّ عند قبري سمعته، ومن صلى علي من بعيد بلغته». ففي إسناده نظر، تفرد به محمد بن مروان السدي الصغير، وهو متروك، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً. قال أصحابنا: ويستحب للمحرم إذا لبى وفرغ من تلبيته أن يصلي على النبي ﷺ: لما روي عن الشافعي والدارقطني من رواية صالح بن محمد بن زائدة، عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال: كان يؤمر الرجل إذا

فرغ من تلبيته أن يصلي على النبي ﷺ على كل حال. وقال إسماعيل القاضي: حدثنا عارم بن الفضل، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا زكريا، عن الشعبي، عن وهب بن الأجدع قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: إذا قدمتم فطوفوا بالبيت سبعة، وصلوا عند المقام ركعتين، ثم اتوا الصفا فقوموا عليه من حيث ترون البيت، فكبروا سبع تكبيرات، تكبيراً بين حمد الله وثناء عليه، وصلاة على النبي ﷺ، ومسألة لنفسك، وعلى المروة مثل ذلك. إسناده جيد حسن قوي. وقالوا: ويستحب الصلاة على النبي ﷺ مع ذكر الله عند الذبح: واستأنسوا بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، قال بعض المفسرين: يقول الله تعالى: «لا أذكر إلا ذكرت معي». وخالفهم في ذلك الجمهور، وقالوا: هذا موطن يفرد فيه ذكر الرب تعالى، كما عند الأكل، والدخول، والوقاع وغير ذلك، مما لم ترد فيه السنة بالصلاة على النبي ﷺ. حديث آخر: قال إسماعيل القاضي: حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا عمر بن هارون، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن ثابت، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «صلوا على أنبياء الله ورسله؛ فإن الله بعثهم كما بعثني». في إسناده ضعيفان، وهما عمر بن هارون وشيخه، والله أعلم. وقد رواه عبد الرزاق، عن الثوري، عن موسى بن عبيدة الرزدي، به.

ومن ذلك: أنه يستحب الصلاة عليه عند طنين الأذن، إن صح الخبر في ذلك، على أن الإمام أبا بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة قد رواه في صحيحه فقال: حدثنا زياد بن يحيى، حدثنا مَعْمَر بن محمد بن عبيد الله، عن أبيه محمد، عن أبيه أبي رافع قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا طنت أذن أحدكم فليذكرني وليصل عليّ، وَلْيُثَلِّ: ذَكَرَ الله مَنْ ذَكَرَنِي بخير». إسناده غريب، وفي ثبوته نظر، والله أعلم. وهاهنا مسألة: وقد استحَب أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة على النبي ﷺ كلما كتبه، وقد ورد في الحديث من طريق كادح بن رحمة، عن نَهْشَل، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ في كتاب، لم تزل الصلاة جارية له ما دام اسمي في ذلك الكتاب». وليس هذا الحديث بصحيح من وجوه كثيرة، وقد روي من حديث أبي هريرة، ولا يصح أيضاً، قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي شيخنا: أحسبه موضوعاً. وقد روي نحوه عن أبي بكر، وابن عباس. ولا يصح من ذلك شيء، والله أعلم. وقد ذكر الخطيب البغدادي في كتابه: «الجامع لأدب الراوي والسامع»، قال: رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: كثيراً ما يكتب اسم النبي ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة، قال: ويلغني أنه كان يصلي عليه لفظاً.

فصل

وأما الصلاة على غير الأنبياء، فإن كانت على سبيل التبعية كما تقدم في الحديث: «اللهم، صل على محمد وآله وأزواجه وذريته»، فهذا جائز بالإجماع، وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم: فقال قائلون: يجوز ذلك، واحتجوا بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي صَلَّى عَلَيْكُمْ وَكَتَبَكُمْ﴾، ويقول: «أَوَلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ؟» [البقرة: ١٥٧]، ويقول تعالى: ﴿حَدِّثْ مَنْ آمَنَ مِنْكُمْ صَدَقَ ظُهُورُهُمْ وَزَكَّرَهُمْ بِمَا وَصَّلَ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَواتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وبحديث عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «اللهم صل عليهم». وأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى». أخرجه في الصحيحين. وبحديث جابر: أن امرأته قالت: يا رسول الله، صل عليّ وعلى زوجي. فقال: «صلى الله عليك وعلى زوجك». وقال الجمهور من العلماء: لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة؛ لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا، فلا يلحق بهم غيرهم، فلا يقال: «قال أبو بكر صلى الله عليه». أو: «قال علي صلى الله عليه». وإن كان المعنى صحيحاً، كما لا يقال: «قال محمد، ﷺ»، وإن كان عزيزاً جليلاً؛ لأن هذا من شعار ذكر الله، ﷻ. وحملوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم؛ ولهذا لم يثبت شعاراً لآل أبي أوفى، ولا لجابر وأمراته. وهذا مسلك حسن. وقال آخرون: لا يجوز ذلك؛ لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء، يصلون على من يعتقدون فيهم، فلا يُقْتَدَى بهم في ذلك، والله أعلم. ثم اختلف المانعون من ذلك: هل هو من باب التحريم، أو الكراهة التنزيهية، أو خلاف الأولى؟ على ثلاثة أقوال، حكاهما الشيخ أبو زكريا النووي في كتاب الأذكار. ثم قال: والصحيح الذي عليه الأكثر أنه مكروه كراهة تنزيه؛ لأن شعار أهل البدع، وقد نهينا عن شعارهم، والمكروه هو ما ورد فيه نهى مقصود. قال أصحابنا: والمعتمد في ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة في اللسان بالأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، كما أن قولنا: «ﷻ»، مخصوص بالله سبحانه وتعالى، فكما لا يقال: «محمد ﷻ»، وإن كان عزيزاً جليلاً، لا يقال: «أبو بكر - أو - علي - صلى الله عليه». هذا لفظه بحروفه. قال: وأما السلام فقال الشيخ أبو محمد الجويني من أصحابنا: هو في معنى الصلاة، فلا يستعمل في الغائب، ولا يفرد به غير الأنبياء، فلا

يقال: «علي عليه السلام»، وسواء في هذا الأحياء والأموات، وأما الحاضر فيخاطب به، فيقال: سلام عليكم، أو سلام عليك، أو السلام عليك أو عليكم. وهذا مجمع عليه. انتهى ما ذكره. قلت: وقد غلب هذا في عبارة كثير من النسخ للكتب، أن يفرد علي، رضي الله عنه، بأن يقال: «عليه السلام»، من دون سائر الصحابة، أو: «كرم الله وجهه» وهذا وإن كان معناه صحيحاً، لكن ينبغي أن يساوي بين الصحابة في ذلك؛ فإن هذا من باب التعظيم والتكريم، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان بن عفان أولى بذلك منه، رضي الله عنهم أجمعين. قال إسماعيل القاضي: حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثني عثمان بن حكيم بن عباد بن حنيفة، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: لا تصح الصلاة على أحد إلا على النبي ﷺ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة.

وقال أيضاً: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا حسين بن علي، عن جعفر بن بزقان قال: كتب عمر بن عبد العزيز، رحمه الله: أما بعد، فإن أناساً من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة، وإن ناساً من القصاص قد أحدثوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل الصلاة على النبي ﷺ، فإذا جاءك كتابي هذا فمُرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعائهم للمسلمين عامة، ويدعوا ما سوى ذلك. أثر حسن. قال إسماعيل القاضي: حدثنا معاذ بن أسد، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا ابن لهيعة، حدثني خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن ثوبان بن وهب؛ أن كعباً دخل على عائشة، رضي الله عنها، فذكروا رسول الله ﷺ، فقال كعب: ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ﷺ، سبعون ألفاً بالليل، وسبعون ألفاً بالنهار، حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يزفونه. فرج: قال النووي: إذا صلى على النبي ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم، فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول: «صلى الله عليه فقط»، ولا: «عليه السلام» فقط، وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، فالأولى أن يقال: ﷺ تسليماً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا أَكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (٥٨).

يقول تعالى: متهدداً ومتوعداً من آذاه، بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك، وأذى رسوله بغيب أو تنقص، عياداً بالله من ذلك. قال عكرمة في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: نزلت في المصوِّرين. وفي الصحيحين، من حديث سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله، ﷻ: يؤذيني ابن آدم، يَسُبُّ الدهر، وأنا الدهر، أقلب ليله ونهاره. ومعنى هذا: أن الجاهلية كانوا يقولون: يا خيبة الدهر، فعل بنا كذا وكذا. فيستندون أفعال الله تعالى إلى الدهر، ويسبونه، وإنما الفاعل لذلك هو الله، ﷻ، فهي عن ذلك. هكذا قرره الشافعي وأبو عبيد وغيرهما من العلماء، رحمهم الله. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حيي بن أخطب. والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء، من آذاه فقد آذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن عبيدة بن أبي رائلة الحذاء التميمي، عن عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن المغفل المزني قال: قال النبي ﷺ: «الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه». وقد رواه الترمذي من حديث عبيدة بن أبي رائلة، عن عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن المغفل، به. ثم قال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا أَكْتَسَبُوا﴾ أي: ينسبون إليهم ما هم براء منه لم يعملوه ولم يفعلوه، ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ وهذا هو البهت البين أن يحكي أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه، على سبيل العيب والتنقص لهم، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله، ثم الرافضة الذين ينتقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد بَرَّاهم الله منه، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم؛ فإن الله، ﷻ، قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم، وهؤلاء الجيلة الأغبياء يسبونهم وينتقصونهم، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً، فهم في الحقيقة منكوسو القلوب، يذمون الممدوحين، ويمدحون المذمومين. وقال أبو داود: حدثنا العفشي، حدثنا عبد العزيز - يعني: ابن محمد - عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، أنه قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: «ذكرُ أخاك بما يكره». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته». وهكذا رواه الترمذي، عن قتيبة، عن الدراوردي، به. قال: حسن صحيح. وقد قال ابن أبي حاتم:

قال له في سورة «الأعراف»، وهي مكة وهذه مدينة، فاستمر الحال في رَدِّ علمها إلى الذي يقيمها، لكن أخبره أنها قريبة بقوله: ﴿وَمَا يَدْرِكُ لَمَلُ السَّاعَةِ كَوْنٌ قَرِيبًا﴾، كما قال: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ وَأَسْنَأُ الْقَمَرُ ۝﴾ [القمر: ١١]، وقال: ﴿أَقْرَبَ النَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ١١]، وقال: ﴿أَلَمْ أَمُرْ اللَّهَ فَلَا تَسْمَعُوا ۝﴾ [النحل: ٢١]، ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْكَافِرِينَ ۝﴾ أي: أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سِيرًا ۝﴾ أي: في الدار الآخرة: ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا ۝﴾ أي: ماكثين مستمرين، فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها، ﴿لَا يَجِدُونَ فِيهَا وَلَا تَبِيرًا ۝﴾ أي: وليس لهم مغيب ولا معين ينقذهم مما هم فيه. ثم قال: ﴿يَوْمَ ثَقُلَتْ الْوِجَاهُ ۝﴾ في النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ۝﴾ [١٦]، أي: يسحبون في النار على وجوههم، وتلوى وجوههم على جهنم، يقولون وهم كذلك، يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول، كما أخبر عنهم في حال العرصات بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَفْعَدْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝﴾ [١٧]، يَقُولُ لَيْتَنِي لَوْ أَتَيْتُ فَلَا تَا خَلِيلًا ۝﴾ [١٨] لَقَدْ أَصَلَيْتُ عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذَلًا ۝﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]، وقال تعالى: ﴿رَبِّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝﴾ [الحجر: ٢٢]. وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاتَنَا فَأُصْلَحْنَا فَاصْلَحْنَا ۝﴾ [٢٧]، وقال طائوس: سادتنا: يعني الأشراف، وكبرانا: يعني العلماء. رواه ابن أبي حاتم. أي: اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة، وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئاً، وأنهم على شيء فإذا هم ليسوا على شيء، ﴿رَبَّنَا أَنِمْهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ۝﴾ أي: بكفرهم وإغوائهم إيانا، ﴿وَالْعَذَابُ لَنَا كَبِيرًا ۝﴾. قرأ بعض القراء بالباء الموحدة. وقرأ آخرون بالياء المثلثة، وهما قريباً المعنى، كما في حديث عبد الله بن عمرو: أن أبا بكر قال: يا رسول الله، علمني دعاء أدعوه به في صلاتي. قال: «قل: اللهم، إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم». أخرجاه في الصحيحين يروى «كبيراً» و «كثيراً»، وكلاهما بمعنى صحيح. واستحب بعضهم أن يجمع الداعي بين اللفظين في دعائه، وفي ذلك نظر، بل الأولى أن يقول هذا تارة، وهذا تارة، كما أن القارئ مخير بين القراءتين أيتهما قرأ فحَسَنَ، وليس له الجمع بينهما، والله أعلم. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا ضَرَّارُ بْنُ صُرْدٍ، حدثنا علي بن هاشم، عن محمد بن عبيد الله بن أبي رافع، عن أبيه، في تسمية من شهد مع علي، رضي الله عنه: الحجاج بن عمرو بن غزوة، وهو الذي كان يقول عند اللقاء: يا معشر الأنصار، أتريدون أن تقولوا لربنا إذا لقيناه: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاتَنَا فَأُصْلَحْنَا فَاصْلَحْنَا ۝﴾ [٢٧]، أَنِمْهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَذَابُ لَنَا كَبِيرًا ۝﴾. ﴿يَتَابَتَا إِلَيْنِ مَأْمُورًا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ وَمَا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ۝﴾.

قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا روح بن عبادة، حدثنا عوف، عن الحسن ومحمد وخلص، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إن موسى كان رجلاً حَيِّيًا، وذلك قوله: ﴿يَتَابَتَا إِلَيْنِ مَأْمُورًا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ وَمَا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ۝﴾. هكذا أورد هذا الحديث هاهنا مختصراً جداً، وقد رواه في أحاديث «الأنبياء» بهذا السند بعينه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى، عليه السلام، كان رجلاً حَيِّيًا سَيِّئاً، لا يَرَى من جلده شيء استحياء منه، فأذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص وإما أذرة وإما آفة، وإن الله، ﷻ، أراد أن يُبرِّه مما قالوا لموسى، عليه السلام، فخلا يوماً وحده، فخلع ثيابه على حجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حَجَر، ثوبي حَجَر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فأراه غريبان أحسن ما خلق الله، ﷻ، وأبراه مما يقولون، وقال الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوفاه إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً. قال: فلذلك قوله تعالى: ﴿يَتَابَتَا إِلَيْنِ مَأْمُورًا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ وَمَا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ۝﴾. وهذا سياق حسن مطول، وهذا الحديث من أفراد البخاري دون مسلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا عوف، عن الحسن، عن النبي ﷺ. وخلص، ومحمد، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية: ﴿يَتَابَتَا إِلَيْنِ مَأْمُورًا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ وَمَا قَالُوا ۝﴾ قال: قال النبي ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حَيِّيًا سَيِّئاً، لا يكاد يرى من جلده شيء استحياء منه». ثم ساق الحديث كما رواه البخاري مطولاً، ورواه في تفسيره عن روح، عن عوف، به. ورواه ابن جرير من حديث الثوري، عن جابر الجعفي، عن عامر الشعبي، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحو هذا. وهكذا رواه من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن المُنْهَالِ بن عمرو، عن سعيد بن جُبَيْر، وعبد الله بن الحارث، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى ۝﴾ قال: قال قومه له: إنك أدر فخرج ذات يوم يغتسل، فوضع ثيابه على صخرة، فخرجت الصخرة تشتت بثيابه، وخرج يتبعها عرياناً حتى انتهت به مجالس بني

إسرائيل، قال: فرأوه ليس بآدر، فذلك قوله: ﴿فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾. وهكذا رواه العوفي، عن ابن عباس سواء. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا روح بن حاتم وأحمد بن المعلى الأدمي قالا: حدثنا يحيى بن حماد، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «كان موسى، عليه السلام، رجلاً حَيَّياً، وإنه أتى - أحسبه قال: الماء - ليغتسل، فوضع ثيابه على صخرة، وكان لا يكاد تبدو عورته، فقال بنو إسرائيل: إن موسى آدر - أو: به آفة، يعنون: أنه لا يضع ثيابه - فاحتلمت الصخرة ثيابه حتى صارت بحذاء مجالس بني إسرائيل، فنظروا إلى موسى كأحسن الرجال، أو كما قال، فذلك قوله: ﴿فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، حدثنا الحكم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، في قوله: ﴿فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ قال: سعد موسى وهارون الجبل، فمات هارون، عليه السلام، فقال بنو إسرائيل لموسى، عليه السلام: أنت قتلتنا، كان ألين لنا منك وأشد حياء. فأذوه من ذلك، فأمر الله الملائكة فحملته، فمروا به على مجالس بني إسرائيل، فتكلمت بموته، فما عرف موضع قبره إلا الرُّحَمَ، وإن الله جعله أصم أبكم. وهكذا رواه ابن جرير، عن علي بن موسى الطوسي، عن عباد بن العوام، به. ثم قال: وجائز أن يكون هذا هو المراد بالأذى، وجائز أن يكون الأول هو المراد، فلا قول أولى من قول الله ﷻ. قالت: يحتمل أن يكون الكل مراداً، وأن يكون معه غيره، والله أعلم. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله قال: قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسماً، فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله. قال: فقلت: يا عدو الله، أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت. قال: فذكر ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه، ثم قال: «رحمة الله على موسى، لقد أودى بأكثر من هذا فصير». أخرجاه في الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش، به. طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، سمعت إسرائيل بن يونس، عن الوليد بن أبي هاشم - مولى الهمداني، عن زيد بن زائد، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر». فأتى رسول الله ﷺ ما لقسمة، قال: فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه: والله ما أراد محمد بقسمة وجهه الله ولا الدار الآخرة. قال: فَتَبَيَّنْتُ حتى سمعت ما قالوا، ثم أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إنك قلت لنا: «لا يبلغني أحد من أصحابي شيئاً»، وإن مررت بفلان وفلان، وهما يقولان كذا وكذا. فاحمر وجه رسول الله ﷺ وشق عليه، ثم قال: «دعنا منك، لقد أودى موسى بأكثر من هذا، فصير».

وقد رواه أبو داود في الأدب، عن محمد بن يحيى الذهلي، عن محمد بن يوسف الفريابي، عن إسرائيل عن الوليد بن أبي هاشم به مختصراً: «لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر». وكذا رواه الترمذي في «المناقب»، عن الذهلي سواء، إلا أنه قال: «زيد بن زائدة». ورواه أيضاً عن محمد بن إسماعيل، عن عبد الله بن محمد، عن عبيد الله بن موسى وحسين بن محمد، كلاهما عن إسرائيل، عن السُّدِّي، عن الوليد بن أبي هاشم، به مختصراً أيضاً، فزاد في إسناده السدي، ثم قال: غريب من هذا الوجه. وقوله: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ أي: له وجهة وجاءه عند ربه، ﷻ. قال الحسن البصري: كان مستجاب الدعوة عند الله. وقال غيره من السلف: لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، ولكن منع الرؤية لما يشاء الله، ﷻ. وقال بعضهم: من وجاهته العظيمة عند الله: أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه، فأجاب الله سؤاله، وقال: ﴿وَوَجَّهْنَا لَمْ مِنْ رَحْمَتِنَا آخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ۝٦٧﴾ [مرم: ٥٣].

﴿بَنِيَّاهُ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً ۝٧١﴾ صَلِّحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ رَتِّبْ لَكُمْ دُورَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ۝٧٢﴾. يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، وأن يعبدوه عبادة من كانه يراه، وأن يقولوا «قَوْلًا سَدِيداً» أي: مستقيماً لا عوجاج فيه ولا انحراف. ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك، أثنابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم، أي: يوفقه للأعمال الصالحة، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية. وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها. ثم قال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾: وذلك أنه يجاز من النار، ويصير إلى النعيم المقيم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عَوْن، حدثنا خالد، عن لَيْث، عن أبي بَزْدَةَ، عن أبي موسى الأشعري قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر، فلما انصرف أومأ إلينا بيده فجلسنا، فقال: «إن الله أمرني أن آمركم، أن تتقوا الله وتقولوا قولاً سديداً». ثم أتى النساء فقال: «إن الله أمرني أن آمركن: أن تتقين الله وتقلن قولاً سديداً». وقال ابن أبي الدنيا في كتاب «التقوى»: حدثنا محمد بن عباد بن موسى، حدثنا عبد العزيز بن عمران الزهري، حدثنا عيسى بن سُمرة، عن هشام بن عَزْوَة، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: ما قام رسول الله ﷺ على المنبر

إلا سمعته يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٢) الآية. غريب جداً. وروى من حديث عبد الرحيم بن زيد العمي، عن أبيه، عن محمد بن كعب، عن ابن عباس موقوفاً، من سره أن يكون أكرم الناس، فليقل الله. قال عكرمة: القول السديد: لا إله إلا الله. وقال غيره: السديد: الصدق. وقال مجاهد: هو السداد. وقال غيره: هو الصواب. والكل حق.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢) لِعَذِبِ اللَّهِ السَّافِقِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٧٢).

قال العوفي، عن ابن عباس: يعني بالأمانة: الطاعة، وعرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم، فلم يطقنها. فقال لآدم: إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها، فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال: يا رب، وما فيها؟ قال: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت. فأخذها آدم فتحملها، فذلك قوله: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، الأمانة: الفرائض، عرضها الله على السموات والأرض والجبال، وإن أدوها أثابهم. وإن ضيعوها عذبهم، ففكرها ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيماً لدين الله ألا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها، وهو قوله: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ يعني: غراً بأمر الله. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ قال: عرضت على آدم فقال: خذها بما فيها، فإن أطعت غفرت لك، وإن عصيت عذبتك. قال: قبلت، فما كان إلا قدر ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم، حتى أصاب الخطيئة. وقد روى الضحاك، عن ابن عباس، قريباً من هذا. وفيه نظر وانقطاع بين الضحاك وبينه، والله أعلم. وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، والحسن البصري، وغير واحد: ألا إن الأمانة هي الفرائض. وقال آخرون: هي الطاعة. وقال الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: قال أبي بن كعب: من الأمانة أن المرأة أتممت على فرجها. وقال قتادة: الأمانة: الدين والفرائض والحدود. وقال بعضهم: الغسل من الجنابة. وقال مالك، عن زيد بن أسلم قال: الأمانة ثلاثة: الصلاة، والصوم، والاعتسال من الجنابة. وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عوقب، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه، إلا من وفق الله، وبالله المستعان. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد العزيز بن المغيرة البصري، حدثنا حماد بن واقد - يعني: أبا عمر الصنفار - سمعت أبا معمر - يعني: عون بن معمر - يحدث عن الحسن - يعني: البصري - أنه تلا هذه الآية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ قال: عرضها على السبع الطبايق الطرائق التي زينت بالنجوم، وحملة العرش العظيم، فقيل لها: هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: قيل لها: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت. قالت: لا. ثم عرضها على الأرضين السبع الشداد، التي شددت بالأوتاد، وذلت بالمهاد، قال: فقيل لها: هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: قيل لها: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت. قالت: لا. ثم عرضها على الجبال الشم الشوامخ الصعاب الصلاب، قال: قيل لها: هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: قيل لها: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت. قالت: لا. وقال مقاتل بن حيان: إن الله حين خلق خلقه، جمع بين الإنس والجن، والسموات والأرض والجبال، فبدأ بالسموات فعرض عليهن الأمانة وهي الطاعة، فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة، ولكن على الفضل والكرامة والثواب في الجنة. ؟ فقلن: يا رب، إنا لا نستطيع هذا الأمر، وليست بنا قوة، ولكننا لك مطيعين. ثم عرض الأمانة على الأرضين، فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة وتقبلنني مني، وأعطينكم الفضل والكرامة؟ فقلن: لا صبر لنا على هذا يا رب ولا نطق، ولكننا لك سامعين مطيعين، لا نعصيك في شيء تأمرنا به. ثم قرب آدم فقال له: أتحمل هذه الأمانة وترعاها حق رعايتها؟ فقال عند ذلك آدم: مالي عندك؟ قال: يا آدم، إن أحسنت وأطعت ورعيت الأمانة، فلك عندي الكرامة والفضل وحسن الثواب في الجنة. وإن عصيت ولم ترعها حق رعايتها وأسأت، فإني معذبك ومعاقبك وأنزلك النار. قال: رضيت يا رب. وتحملها، فقال الله ﷻ: قد حَمَلْتُكَهَا. فذلك قوله: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾. رواه ابن أبي حاتم. وعن مجاهد أنه قال: عرضها على السموات فقالت: يا رب، حملتني الكواكب وسكان السماء وما ذكر، وما أريد ثواباً ولا أحمل فريضة. قال: وعرضها على الأرض فقالت: يا رب، غرست في الأشجار، وأجريت في الأنهار وسكان الأرض وما ذكر، وما أريد ثواباً ولا أحمل فريضة. وقالت الجبال مثل ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ في عاقبة أمره. وهكذا قال ابن جريج. وعن ابن أشوع أنه قال: لما عرض الله عليهن حمل الأمانة، ضَجَّجْنَ إلى الله ثلاثة أيام ولياليهن، وقلن: ربنا. لا طاقة لنا بالعمل، ولا نريد الثواب.

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا هارون بن زيد بن أبي الزرقاء الموصلي، حدثنا أبي، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم في هذه الآية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ الآية، فقال الإنسان: بين أذني وعاتقي فقال الله تعالى: إني معينك عليها، أي: معينك على عينيك بطبقتين، فإذا نازعك إلى ما أكره فأطبق. ومعينك على فرجك بلباس، فلا تكشفه إلى ما أكره. ثم روى عن أبي حازم نحو هذا. وقال ابن جرير: حدثنا يونس، حدثنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ قال: إن الله عرض عليهن الأمانة أن يفترض عليهن الدين، ويجعل لهن ثواباً وعقاباً، ويستأنهن على الدين. فقلن: لا، نحن مسخرات لأمرك، لا نريد ثواباً ولا عقاباً. قال: وعرضها الله على آدم فقال: بين أذني وعاتقي. قال ابن زيد: فقال الله تعالى له: أما إذا تحملت هذا فساعينك، أجعل لبصرك حجاباً، فإذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحل لك فأرخ عليه حجاباً، وأجعل للسانك باباً وغلقاً، فإذا خشيت فأغلق، وأجعل لفرجك لباساً فلا تكشفه إلا على ما أحللت لك. وقال ابن جرير: حدثني سعيد بن عمرو السكوني، حدثنا بقة، حدثنا عيسى بن إبراهيم، عن موسى بن أبي حبيب، عن الحكم بن عمير - وكان من أصحاب النبي ﷺ - قال: قال النبي ﷺ: «إن الأمانة والوفاء نزلا على ابن آدم مع الأنبياء، فأرسلوا به، فمنهم رسول الله، ومنهم نبي، ومنهم نبي رسول، ونزل القرآن وهو كلام الله، ونزلت العربية والعجمية، فعملوا أمر القرآن وعلموا أمر السنن بالسنتهم، ولم يدع الله شيئاً من أمره مما يأتون وما يجتنبون وهي الحجج عليهم، إلا بينه لهم. فليس أهل لسان إلا وهم يعرفون الحسن والقيح، ثم الأمانة أول شيء يرفع ويبقى أثرها في جذور قلوب الناس، ثم يرفع الوفاء والعهد والذمم وتبقى الكتب، فعالم يعمل، وجاهل يعرفها وينكرها ولا يحملها، حتى وصل إلي وإلى أمتي، ولا يهلك على الله إلا هالك، ولا يغفل إلا تارك. فالحذر أيها الناس، وإياكم والوسواس الخناس، فإنما يلوكم أيكم أحسن عملاً». هذا حديث غريب جداً، وله شواهد من وجوه أخرى. ثم قال ابن جرير: حدثنا محمد بن خلف العسقلاني، حدثنا عبد الله بن عبد المجيد الحنفي، أخبرنا أبو العوام القطان، حدثنا قتادة، وأبان بن أبي عياش، عن خُلَيْدِ الْعَصْرِيِّ، عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خمس من جاء بهن يوم القيامة مع إيمان دخل الجنة: من حافظ على الصلوات الخمس على وضوئهن وركوعهن وسجودهن، ومواقبتهن، وأعطى الزكاة من ماله طيب النفس بها - وكان يقول: وإيم الله لا يفعل ذلك إلا مؤمن - وصام رمضان، وحج البيت إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأدى الأمانة». قالوا: يا أبا الدرداء، وما أداء الأمانة؟ قال: الغسل من الجنابة، فإن الله لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيره. وهكذا رواه أبو داود عن محمد بن عبد الرحمن العنبري، عن أبي علي عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي، عن أبي العوام عمران بن ذاور القطان، به.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا تميم بن المنتصر، أخبرنا إسحاق، عن شريك، عن الأعمش، عن عبد الله بن السائب، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها» أو قال: يكفر كل شيء - إلا الأمانة، يؤتى بصاحب الأمانة فيقال له: أد أمانتك. فيقول: أنى يارب وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال له: أد أمانتك. فيقول: أنى يارب وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال له: أد أمانتك، فيقول: أنى يارب وقد ذهبت الدنيا؟ فيقول: اذهبوا به إلى أمه الهاوية. فيذهب به إلى الهاوية، فيهوى فيها حتى ينتهي إلى قعرها، فيجدها هنالك كهيتها، فيحملها فيضعها على عاتقه، فيصعد بها شفير جهنم، حتى إذا رأى أنه قد خرج زلت فهوى في أثرها أبد الأبدین». قال: والأمانة في الصوم، والأمانة في الرضوء، والأمانة في الحديث، وأشد ذلك الودائع. فلقيت البراء فقلت: ألا تسمع إلى ما يقول أخوك عبد الله؟ فقال: صدق. قال شريك: وحدثنا عياش العامري، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، بنحوه. ولم يذكر: «الأمانة في الصلاة وفي كل شيء». إسناده جيد، ولم يخرجوه. ومما يتعلق بالأمانة الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن حذيفة قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا انتظر الآخر، حدثنا «أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعملوا من القرآن وعلموا من السنة». ثم حدثنا عن رفع الأمانة، فقال: «ينام الرجال النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوكت، فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر المجمل كجمر دحرجته على رجلك، تراه مُتَبَرِّأً وليس فيه شيء». قال: ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله، قال: «فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلك وأظرفه وأعقله. وما في قلبه حبة من خردل من إيمان. ولقد أتى عليّ زمان وما أبالي أيكم بايعت، إن كان مسلماً ليردنه على دينه، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه عليّ ساعيه، فأما اليوم فما كنت أباع منكم إلا فلاناً وفلاناً. وأخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش، به. وقال

الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أربع إذا كنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة طعمة». هكذا رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص. وقد قال الطبراني في مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب: حدثني يحيى بن أيوب العلاف المصري، حدثنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن ابن حَجيرة، عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع إذا كنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة طعمة». فزاد في الإسناد: «ابن حَجيرة»، وجعله من مسند ابن عمر.

وقد ورد النهي عن الحلف بالأمانة، قال عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد: حدثنا شريك، عن أبي إسحاق الشيباني، عن خُثَّاس بن سُحيم - أو قال: جَبَلَة بن سُحيم - قال: أقبلت مع زياد ابن حُذَيْر من الجابية فقلتُ في كلامي: لا والأمانة. فجعل زياد يبيكي ويبكي، فظننت أني أتيتُ أمراً عظيماً، فقلت له: أكان يكره هذا؟ فقال: نعم. كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهي. وقد ورد في ذلك حديث مرفوع، قال أبو داود: حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا الوليد بن ثعلبة الطائي، عن ابن بُريدة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف بالأمانة فليس منا»، تفرد به أبو داود، رحمه الله. وقوله تعالى: ﴿لَعَذَابُ اللَّهِ السَّيِّفِينَ وَالسَّهْمَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ أي: إنما حمل ابن آدم الأمانة وهي التكليف ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله ويطنون الكفر متابعة لأهله، ﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ﴾، وهم الذين ظاهراً وباطناً هم على الشرك بالله، ﷻ، ومخالفة رسله، ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: ويرحم المؤمنين من الخلق الذي آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

آخر تفسير سورة «الأحزاب»



تفسير سورة سبأ

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَأْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْخُسُوفُ وَالْكَوْكَبُ وَالْخَيْبُ ۝ تَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَزِلُّ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝﴾.

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة: أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك، كما قال: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخُسُوفُ وَالْكَوْكَبُ وَالْخَيْبُ وَالْخُسُوفُ وَالْكَوْكَبُ وَالْخَيْبُ ۝﴾ [القصص: ٧٠]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَأْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه، كما قال: ﴿وَلَهُ لَنَا الْكَوْكَبُ وَالْأَوَّلُ ۝﴾ [البلبل: ١٣]. ثم قال: ﴿وَلَهُ الْخُسُوفُ فِي الْآخِرَةِ﴾، فهو المعبود أبداً، المحمود على طول المدى. وقال: ﴿وَهُوَ الْخَيْبُ﴾ أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، ﴿وَالْخَيْبُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه شيء. وقال مالك عن الزهري: خبير بخلقه، حكيم بأمره؛ ولهذا قال: ﴿تَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي: يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض، والحب المبذور والكامن فيها، ويعلم ما يخرج من ذلك: عدده وكيفيته وصفاته، ﴿وَمَا يَزِلُّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من قطر ورزق، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي: من الأعمال الصالحة وغير ذلك، ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ أي: الرحيم بعباده فلا يعاجل عصاتهم بالعقوبة، الغفور من ذنوب عباده الثائنين إليه المتوكلين عليه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِيَا السَّاعَةَ قُلْ بَلْ رَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ سِقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصَغُرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ مَنفَعَةُ رَزْقٍ كَرِيمٍ ۝ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي مَالِنَا مُجْرِبِينَ أُولَئِكَ هُمْ عَذَابٌ مِن رِجْزٍ أَلِيمٍ ۝ وَبَرَى الَّذِينَ أَوْفُوا الْقِلَمَ أَلَدَى أَنْزَلَ إِلَيْنَا لِمَالِكٍ مِن رِّبِّكَ هُوَ الْخَاقُ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝﴾.

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن، مما أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لما أنكره من أنكره

من أهل الكفر والعناد، فإحداهن في سورة يونس: ﴿وَيَسْتَنفِثُكَ عَنْ قُلُوبِ رِجَالٍ لَّهُمْ لَحَقٌ وَمَا أَشَرُّ مُعْتَمِرِينَ﴾ [٥٢] ﴿يونس: ٥٣﴾، والثانية هذه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، والثالثة في التغابن: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]، فبقوله: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره: ﴿عَلَيْهِ الْغَلِيظُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. قال مجاهد وقتادة: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾: لا يغيب عنه، أي: الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه منه شيء، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة، فإنه بكل شيء عليم. ثم بين حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله: ﴿لَيَجْزِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [والذين سَمَوْا بِآيَاتِنَا مُعْجِرِينَ] أي: سحوا في الصد عن سبيل الله وتكذيب رسله، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أي: لينعم السعداء من المؤمنين، ويعذب الأشقياء من الكافرين، كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ لَهُمْ الْكَافُورُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْمِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يُجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]. وقوله: ﴿وَرَبِّي الَّذِينَ أَرْثُوا الْعِلْمَ الَّذِينَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾: هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها، وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله في الدنيا رأوه حينئذ عين اليقين، ويقولون يومئذ أيضاً: ﴿لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلٌ مِنْ رَبِّهِمْ بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ويقال أيضاً: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، ﴿لَقَدْ لَبِثْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَاقِ فَكَذَلِكَ يَوْمَ الْبَاقِ﴾ [الروم: ٥٦]، ﴿وَرَبِّي الَّذِينَ أَرْثُوا الْعِلْمَ الَّذِينَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَرَبَّهُمْ إِلَهٌ صَرِيحٌ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ﴾. العزيز هو: المنيع الجنب، الذي لا يُغالب ولا يَمَانع، بل قد قهر كل شيء، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه، وقدره، وهو المحمود في ذلك كله.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَحْنُ عَلَىٰ نَدْلِكُمْ عَلَىٰ رِجْلٍ نَبْتَكُمُ إِذَا مَرَقْتُمْ كُلَّ مِرْقَةٍ لَكُمْ لَيْ خَلِي جَسَدِي﴾ [٧] أَفَدَيْتُمْ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جُنَّةٌ بَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالْعَذَابِ أَلِيمٌ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْنًا خَفِيفٌ بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ شَوِطٌّ عَلَيْهِمْ كَمَا يَنْزِلُ السَّمَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾

هذا إخبار من الله عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَحْنُ عَلَىٰ نَدْلِكُمْ عَلَىٰ رِجْلٍ نَبْتَكُمُ إِذَا مَرَقْتُمْ كُلَّ مِرْقَةٍ﴾ أي: تفرقت أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أي: بعد هذا الحال ﴿لَيْ خَلِي جَسَدِي﴾ أي: تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك، وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين: إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله أنه قد أوحى إليه ذلك، أو أنه لم يتعمد لكن بُسِّ عليه كما يُلبَس على المعنوة والمجنون؛ ولهذا قالوا: ﴿أَفَدَيْتُمْ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جُنَّةٌ﴾؟ قال الله تعالى راداً عليهم: ﴿بَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالْعَذَابِ أَلِيمٌ﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذي جاء بالحق، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء، ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ أي: في الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله، ﴿وَالْعَذَابِ أَلِيمٌ﴾ من الحق في الدنيا. ثم قال منبهاً لهم على قدرته في خلق السموات والأرض، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: حيثما توجهوا وذهبوا فالسما مظللة مظللة عليهم، والأرض تحتهم، كما قال: ﴿وَالسَّمَاءُ بَنِينَهَا رِجَالٌ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] والأرض فرشتها فَنَعَمُ الْمُهَيَّوُونَ ﴿٢٨﴾ [الذاريات: ٤٧-٤٨]. قال عبد بن حميد: أخبرنا عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؟ قال: إنك نظرت عن يمينك أو عن شمالك، أو من بين يديك أو من خلفك، رأيت السماء والأرض. وقوله: ﴿إِنَّ شَأْنًا خَفِيفٌ بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ شَوِطٌّ عَلَيْهِمْ كَمَا يَنْزِلُ السَّمَاءُ﴾ أي: لو شئنا لفعلنا بهم ذلك لظلمهم وقدرنا عليهم، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا. ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾: قال مَعْمَرٌ، عن قتادة: ﴿مُنِيبٌ﴾: تائب. وقال سفيان عن قتادة: المنيب: المقبل إلى الله ﷻ. أي: إن في النظر إلى خلق السماء والأرض لدلالة لكل عبد قِطْنٍ لبيب رجّاع إلى الله، على قدرة الله على بعث الأجساد ووقوع المعاد؛ لأن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطوالها وأعراضها، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ﴾ [يس: ٨١]، وقال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

﴿وَلَقَدْ مَاتَ دَاوُدُ وَمَا قَدَرْنَا مَمْلَكَاتٍ إِلَّا فِي نَفْسٍ نَقْدِرُ الْوَيْدِ وَالنَّاسُ لَهْ لَاحِدِينَ﴾ [١٠] أَنْ تَعْمَلَ سَبْعِينَ وَفَقِيرًا فِي السَّرِّ وَتَعْمَلُوا صَاحِبًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود، صلوات الله وسلامه عليه، مما آتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العدد والعدد، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم، الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال والرياسات، الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات، والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته، ثم قال: «لقد أوتي هذا مزمراً من مزامير آل داود». وقال أبو عثمان النهدي: ما سمعت صوت صنّج ولا برّيط ولا وتر أحسن من صوت أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه. ومعنى قوله: ﴿أُوتِيَ﴾ أي: سبّحي. قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد. وزعم أبو ميسرة أنه بمعنى سبّحي بلسان الحبشة. وفي هذا نظر، فإن التأويل في اللغة هو الترجيع، فأمرت الجبال والطيور أن ترجع معه بأصواتها. وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي في كتابه «الجمال» في باب النداء منه: ﴿يَجِئَالُ أُوتِيَ مَعَهُ﴾ أي: سيري معه بالنهار كله، والتأويل: سير النهار كله، والإسناد: سير الليل كله. وهذا لفظه، وهو غريب جداً لم أجده لغيره، وإن كان له مساعدة من حيث اللفظ في اللغة، لكنه بعيد في معنى الآية هاهنا. والصواب أن المعنى في قوله تعالى: ﴿أُوتِيَ مَعَهُ﴾ أي: رَجَعِي مُسَبِّحَةً معه، كما تقدم، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَلَّنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ قال الحسن البصري، وقتادة، والأعمش وغيرهم: كان لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة، بل كان يفثله بيده مثل الخيوط؛ ولهذا قال: ﴿أَن أَعْلَى سَيَقْنَتِي﴾ وهي: الدروع. قال قتادة: وهو أول من عملها من الخلق، وإنما كانت قبل ذلك صفائح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا ابن سَمَاعَةَ، حدثنا ابن ضَمْرَةَ، عن ابن شَوْذَب قال: كان داود، عليه السلام، يرفع في كل يوم درعاً فيبيعها بستة آلاف درهم: ألفين له ولأهله، وأربعة آلاف درهم يطعم بها بني إسرائيل خبز الحواري. ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ﴾: هذا إرشاد من الله لنبيه داود، عليه السلام، في تعليمه صنعة الدروع. قال مجاهد في قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ﴾: لا تُلْقِ المسمار فيقلق في الحلقة، ولا تَغْلُظْه فيفصمها، واجعله بقدر. وقال الحكم بن عتيبة: تَغْلُظْه فيفصم، وتُدَقُّه فيقلق. وهكذا روى عن قتادة، وغير واحد. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: السرد: حَلَقَ الحديد. وقال بعضهم: يقال: درع مسرودة: إذا كانت مسمورة الحلقي، واستشهد بقول الشاعر:

وَعَلَيْهِمَا مَنْزُورُ ذَنَانٍ قَضَاهُمَا «دَاوُدُ»، أَوْ صَنَعَ السُّوَابِغَ «تَبَعُ»

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة داود، عليه السلام، من طريق إسحاق بن بشر - وفيه كلام - عن أبي إلياس، عن وهب بن مُثَنٍّ ما مضمونه: أن داود، عليه السلام، كان يخرج متنكراً، فيسأل الركبان عنه وعن سيرته، فلا يسأل أحداً إلا أثنى عليه خيراً في عبادته وسيرته ومعدلته، صلوات الله وسلامه عليه. قال وهب: حتى بعث الله ملكاً في صورة رجل، فلقبه داود فسأله كما كان يسأل غيره، فقال: هو خير الناس لنفسه ولأمته، إلا أن فيه خصلة لو لم تكن فيه كان كاملاً قال: ما هي؟ قال: يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين، يعني: بيت المال، فعند ذلك نصب داود، عليه السلام، إلى ربه في الدعاء أن يعلمه عملاً بيده يستغني به وغيثه به عياله، فالأن له الحديد، وعلمه صنعة الدروع، فعمل الدرع، وهو أول من عملها، فقال الله: ﴿أَن أَعْلَى سَيَقْنَتِي وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ﴾ يعني: مسامير الحلقي، قال: وكان يعمل الدرع، فإذا ارتفع من عمله درع باعها، فتصدق بثلاثها، واشترى بثلاثها ما يكفيه وعياله، وأمسك الثلث يتصدق به يوماً بيوم إلى أن يعمل غيرها. وقال: إن الله أعطى داود شيئاً لم يعطه غيره من حسن الصوت، إنه كان إذا قرأ الزبور تسمع الوحش حتى يؤخذ بأعناقها وما تنفر، وما صنعت الشياطين المزامير والبرابيط والصنوج إلا على أصناف صوته. وكان شديد الاجتهاد، وكان إذا افتتح الزبور بالقراءة كأنما ينفخ في المزامير، وكان قد أعطى سبعين مزمراً في حلقة. وقوله: ﴿وَأَعْمَلُوا صِلَاحًا﴾ أي: في الذي أعطاكم الله من النعم، ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: مراقب لكم، بصير بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفي علي من ذلك شيء.

﴿وَالشَّيْطَانُ الرِّيحَ غَدُوها شَرٌّ وَرَوَّاحها شَرٌّ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَاطِرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَمَعْلُ بَيْنَ يَدَيْهِ يَلْذَن رِيحَهُ وَمَن يَرِجْ مِنْهُم عَن أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَمَعْلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْنَبٍ وَتَسْتَغِيلُ كَالْجَوَابِ وَتُدْوِرُ رَايَسَاتُ أَعْمَلُوا مَا لَ داوُدَ شُكْرًا وَقِيلَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْكَافُورُ ﴿١٣﴾﴾.

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود، عطف بذكر ما أعطى سليمان، من تسخير الريح له تحمل بساطه، غدوها شهر ورواحها شهر. قال الحسن البصري: كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغذى بها، ويذهب راثحاً من إصطخر فيبيت بكابل، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع. وقوله: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَاطِرِ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء الخراساني، وقتادة، والسدي، ومالك عن زيد بن أسلم، وعبد الرحمن بن

زيد بن أسلم، وغير واحد: القطر: النحاس. قال قتادة: وكانت باليمن، فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان، عليه السلام. قال السدي: وإنما أسيلت له ثلاثة أيام. وقوله: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي: وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن الله، أي: بقدره، وتسخره لهم بمشيئته ما يشاء من البنيات وغير ذلك. ﴿وَمِنَ بَرِّجٍ مِّنْهُم مَّنْ يَنْزِعُ عَنْ أَهْلِهَا﴾ أي: ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿يُنْقِذُهُم مِّنْ عَذَابِ النَّارِ﴾ وهو الحريق. وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديثاً غريباً فقال: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثنا معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن جبيرة بن نفير، عن أبي ثعلبة الخشني، أن رسول الله ﷺ قال: «الجن على ثلاثة أصناف: صنف له أجنحة يطيرون في الهواء، وصنف حيات وكلاب، وصنف يحلون ويظعنون». رفعه غريب جداً. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا خزيمة، حدثنا ابن وهب، أخبرني بكر بن مضر، عن محمد، عن ابن أنعم أنه قال: الجن ثلاثة: صنف لهم الثواب وعليهم العقاب، وصنف طيارون فيما بين السماء والأرض، وصنف حيات وكلاب. قال بكر بن مضر: ولا أعلم إلا أنه قال: حدثني أن الإنسان ثلاثة: صنف يظلمهم الله بظل عرشه يوم القيامة. وصنف كالأنعام بل هم أضل سبيلاً. وصنف في صور الناس على قلوب الشياطين.

وقال أيضاً: حدثنا أبي: حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق حدثنا سلمة - يعني: ابن الفضل - عن إسماعيل، عن الحسن قال: الجن ولد إبليس، والإنس ولد آدم، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون، وهم شركاؤهم في الثواب والعقاب، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهو ولي الله، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان. وقوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَكُم مَّا يَشَاءُونَ مِنْ تَحْرِيْبٍ وَتَنْقِيلٍ﴾ أما المحاريب فهي البناء الحسن، وهو أشرف شيء في المسكن وصدرة. وقال مجاهد: المحاريب بانيان دون القصور. وقال الضحاك: هي المساجد. وقال قتادة: هي المساجد والقصور، وقال ابن زيد: هي المساكن. وأما التماثيل فقال عطية العوفي، والضحاك والسدي: التماثيل: الصور. قال مجاهد: وكانت من نحاس. وقال قتادة: من طين وزجاج. وقوله: ﴿يَجْعَلْنَ كَالْقُرَىٰ وَكَأَنَّهُنَّ كَالْقُرَىٰ رَاسِيَتٌ﴾: الجواب: جمع جابية، وهي الحوض الذي يجبي فيه الماء، كما قال الأعشى ميمون بن قيس:

تَرَوْحُ عَلَى آلِ الْمَخْلُوقِ جَفَاءً
كَجَابِيَةِ الشَّيْخِ الْعِرَاقِيِّ تَفْهَقُ
وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿كَالْقُرَىٰ﴾ أي: كالجوبة من الأرض. وقال العوفي، عنه: كالحياض. وكذا قال مجاهد، والحسن، وقاتدة، والضحاك وغيرهم. والقصور الراسيات: أي الثابتات، في أماكنها لا تتحول ولا تتحرك عن أماكنها لعظمتها. وكذا قال مجاهد، والضحاك، وغيرهما. وقال عكرمة: أثافيها منها. وقوله: ﴿أَعْمَلُوا أَلَّا دَاوُدَ شُكِّرَ﴾ أي: وقلنا لهم اعملوا شكراً على ما أنعم به عليكم في الدنيا والدين. وشكراً: مصدر من غير الفعل، أو أنه مفعول له، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول وبالنية، كما قال:

أَفَادَنْكُمُ النَّفَمَاءُ مَنَى ثَلَاثَةً:
يَدِي، وَلِسَانِي، وَالضَّمِيرَ الْمُحْجَبَ
قال أبو عبد الرحمن الحُبلى: الصلاة شكر، والصيام شكر، وكل خير عمله الله شكر. وأفضل الشكر الحمد. رواه ابن جرير. وروى هو وابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب القرظي قال: الشكر تقوى الله والعمل الصالح. وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل، وقد كان آل داود، عليه السلام، كذلك قائمين بشكر الله قولاً وعملاً. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي بكر، حدثنا جعفر - يعني: ابن سليمان - عن ثابت البناني قال: كان داود، عليه السلام، قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي، فغفرتهم هذه الآية: ﴿أَعْمَلُوا أَلَّا دَاوُدَ شُكِّرَ﴾ وقيل من عبادي الشكور. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً. ولا يفر إذا لاقى». وقد روى أبو عبد الله بن ماجه من حديث شئند بن داود، حدثنا يوسف بن محمد بن المنكدر، عن أبيه، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «قلت أم سليمان بن داود لسليمان: يا بني، لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيراً يوم القيامة». وروى ابن أبي حاتم عن داود، عليه السلام، هاهنا أثراً غريباً مطولاً جداً، وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عمران بن موسى، حدثنا أبو يزيد فيض بن إسحاق الرقي قال: قال فضيل في قوله تعالى: ﴿أَعْمَلُوا أَلَّا دَاوُدَ شُكِّرَ﴾. فقال داود: يا رب، كيف أشكرك، والشكر نعمة منك؟ قال: «الآن شكرتني حين علمت أن النعمة مني». وقوله: ﴿وَقِيلَ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾: إخبار عن الواقع.

﴿لَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَهُ لَمَّا حَرَّ تَبَيَّنَ لِبْنٌ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ .

يذكر تعالى كيفية موت سليمان، عليه السلام، وكيف عُمِيَ الله موته على الجنّ المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكلًا على عصاه - وهي منسأته - كما قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة وغير واحد - مدة طويلة نحوًا من سنة، فلما أكلتها دابة الأرض، وهي الأرضة، ضعفت وسقط إلى الأرض، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة - تبين الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك. وقد ورد في ذلك حديث مرفوع غريب، وفي صحته نظر، قال ابن جرير:

حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا موسى بن مسعود أبو حذيفة، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عطاء، عن السائب، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «كان سليمان نبي الله، عليه السلام، إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها: ما اسمك؟ فتقول: كذا. فيقول: لأي شيء أنت؟ فإن كانت لغرس غرسَتْ، وإن كانت لدواء كُتِبَتْ. فبينما هو يصلي ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه، فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخروب. قال: لأي شيء أنت؟ قالت: لخراب هذا البيت. فقال سليمان: اللهم، عَمَّ على الجن موتي حتى يعلم الإنسان أن الجن لا يعلمون الغيب. فنحتها عصاً، فتوكلًا عليها حولاً ميتاً، والجن تعمل. فأكلتها الأرضة، فتبينت الإنسان أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولاً في العذاب المهين». قال: وكان ابن عباس يقرؤها كذلك قال: «فشكرت الجن الأرضة، فكانت تأتيها بالماء». وهكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث إبراهيم بن طهمان، به. وفي رفعه غرابة ونكارة، والأقرب أن يكون موقوفاً، وعطاء بن أبي مسلم الخراساني له غرابات، وفي بعض حديثه نكارة. وقال السُّدِّي، في حديث ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، قال: كان سليمان يتحرر في بيت المقدس السنة والستين والشهر والشهرين، وأقل من ذلك وأكثر، يدخل طعامه وشرابه، فأدخله في المرة التي توفي فيها، وكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبت في بيت المقدس شجرة، فيأتيها فيسألها، فيقول: ما اسمك؟ فتقول: اسمي كذا وكذا. فإن كانت لغرس غرسها، وإن كانت نبت دواء قالت: نبت دواء لكذا وكذا. فيجعلها كذلك، حتى نبت شجرة يقال لها: الخروب، فسألها: ما اسمك؟ فقالت: أنا الخروب. قال: ولأي شيء نبت؟ قالت: نبت لخراب هذا المسجد. قال سليمان: ما كان الله ليخزيه وأنا حي؟ أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس. فنزعها وغرسها في حائط له، ثم دخل المحراب فقام يصلي متوكلًا على عصاه، فمات ولا تعلم به الشياطين، وهم في ذلك يعملون له، يخافون أن يخرج فيعاقبهم. وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب، وكان المحراب له كوى بين يديه وخلفه، فكان الشيطان الذي يريد أن يخلع يقول: ألسنت جلدًا إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب؟ فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر، فدخل شيطان من أولئك فمر، ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان في المحراب إلا احترق. فمر ولم يسمع صوت سليمان، ثم رجع فلم يسمع، ثم رجع فوقع في البيت ولم يتحرك. ونظر إلى سليمان، عليه السلام، قد سقط ميتاً. فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات. ففتحوا عنه فأخرجوه. ووجدوا منسأته - وهي: العصا بلسان الحبشة - قد أكلتها الأرضة، ولم يعلموا منذ كم مات؟ فوضعوا الأرضة على العصا، فأكلت منها يوماً وليلة، ثم حسبوا على ذلك النحو، فوجدوه قد مات منذ سنة. وهي في قراءة ابن مسعود: فمكثوا يدايرون له من بعد موته حولاً، فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبونهم ولو أنهم علموا الغيب، لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب يعملون له سنة، وذلك قول الله ﷻ: ﴿مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَهُ لَمَّا حَرَّ تَبَيَّنَ لِبْنٌ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ . يقول: تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم، ثم إن الشياطين قالوا للأرضة: لو كنت تأكلين الطعام أتيناك بأطيب الطعام، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب، ولكننا سننقل إليك الماء والطين - قال: فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت - قال: ألم تر إلى الطين الذي يكون في جوف الخشب؟ فهو ما تأتيها به الشياطين، شكرًا لها.

وهذا الأثر - والله أعلم إنما هو مما تلقى من علماء أهل الكتاب، وهي وثق، لا يصدق منها إلا ما وافق الحق، ولا يكذب منها إلا ما خالف الحق، والباقي لا يصدق ولا يكذب. وقال ابن وهب وأصبغ بن الفرخ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَهُ﴾ قال: قال سليمان، عليه السلام، لملك الموت: إذا أمرت بي فأعلمني. فأتاه فقال: يا سليمان، قد أمرت بك، وقد بقيت لك سوية. فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير، وليس له باب، فقام يصلي فاتكأ على عصاه، قال: فدخل عليه ملك الموت، فقبض روحه وهو متوكل على عصاه، ولم يصنع ذلك

فراراً من ملك الموت. قال: والجن يعملون بين يديه وينظرون إليه، يحسبون أنه حي. قال: بعث الله، ﷺ، دابة الأرض. قال: والدابة تأكل العيدان - يقال لها: القادح - فدخلت فيها فأكلتها، حتى إذا أكلت جوف العصا ضعف، وثقل عليها فخر ميتاً، فلما رأت ذلك الجن انفضوا وذهبوا. قال: فذلك قوله: ﴿مَا دَعَمُ عَلَى مَرْيَتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْ سَائِغِهِ﴾. قال أصبغ: بلغني عن غيره أنها قامت سنة تأكل منها قبل أن يخر. وقد ذكر غير واحد من السلف نحوه، وهذا، والله أعلم.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ بَيْنٍ وَشِمَالٍ كُلًّا مِنْ رِزْقِ رَبِّكَمْ وَأَشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَهُ طَيِّبَةً وَرَبِّ عَفْوَرٍ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْمَرْمِ وَيَغْلَسُهُمْ يَجْتَنِبُوهَ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْطٍ حُمِلَ وَأَتَى وَشَقَّ مِنْ يَمِينِهِ قَلِيلٌ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ تُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ ﴿١٧﴾﴾. كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكانت التبابعة منهم، وبلقيس - صاحبة سليمان - منهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم، وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم. وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه، ويشكروه بتوحده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ، شذر مذر، كما يأتي تفصيله وبيانه قريباً إن شاء الله تعالى وبه الثقة. قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا ابن لهيعة، عن عبد الله بن هُبَيْرَةَ، عن عبد الرحمن بن وَغَلَةَ قال: سمعت ابن عباس يقول: إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ: ما هو؟ رجل أم امرأة أم أرض؟ قال: «بل هو رجل، ولد عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، وبالشام منهم أربعة، فأما اليمانيون: فَمَذْحِجٌ، وَكِنْدَةُ، وَالْأَزْدُ، وَالْأَشْعَرِيُّونَ، وَأَنَامَرٌ، وَحَمِيرٌ. وأما الشامية فلخم، وجذام، وعاملة، وغسان. ورواه عبدُ، عن الحسن بن موسى، عن ابن لهيعة، به. وهذا إسناده حسن، ولم يخرجوه، وقد روي من طرق متعددة. وقد رواه الحافظ أبو عمر بن عبد البر في كتاب «القصص والأسماء»، بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم، من حديث ابن لهيعة، عن علقمة بن وعل، عن ابن عباس فذكر نحوه. وقد روي نحوه من وجه آخر. وقال الإمام أحمد أيضاً وعبد بن حميد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أبو جَنَابٍ يحيى بن أبي حنيفة الكلبي، عن يحيى بن هانئ بن عُزْوة، عن فروة بن مُسَيْكٍ قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أقاتل بمقبل قومي مدبرهم؟ قال: «نعم»، فقاتل بمقبل قومك مدبرهم. فلما وليت دعائي فقال: «لا تقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام». فقلت: يا رسول الله، أرايت سبأ؟ أراد هو، أو رجل، أو ما هو؟ قال: «لا، بل رجل من العرب، ولد له عشرة فتيان ستة وتشام أربعة، تيامن الأزد، والأشعريون، وحمير، وكندة، ومذحج، وأنمار الذي يقال لهم: بجيلة وخثعم. وتشام لخم، وجذام، وعاملة، وغسان». وهذا أيضاً إسناده جيد وإن كان فيه أبو جَنَابٍ الكلبي، وقد تكلموا فيه. لكن رواه ابن جرير عن أبي كُرَيْبٍ، عن العنقري، عن أسباط بن نصر، عن يحيى بن هانئ المرادي، عن عمه أو عن أبيه - يشك أسباط - قال: قدم فروة بن مُسَيْكٍ على رسول الله ﷺ، فذكره.

طريق أخرى لهذا الحديث: قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، حدثنا ابن لهيعة، عن توبة بن نمر، عن عبد العزيز بن يحيى أنه أخبره قال: كنا عند عبيدة ابن عبد الرحمن بإفريقية فقال يوماً: ما أظن قوماً بأرض إلا هم من أهلها. فقال علي بن رباح: كلا، قد حدثني فلان أن فروة بن مُسَيْكٍ العُطَيْفِي قدم على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن سبأ قوم كان لهم عز في الجاهلية، وإنني أخشى أن يرتدوا عن الإسلام، أفأقاتلهم؟ فقال: «ما أمرت فيهم بشيء بعد». فأنزلت هذه الآية: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ﴾ الآيات، فقال له رجل: يا رسول الله، ما سبأ؟ فذكر مثل هذا الحديث الذي قبله: أن رسول الله ﷺ سئل عن سبأ: ما هو؟ أبلد، أم رجل، أم امرأة؟ قال: «بل رجل، ولد عشرة فسكن اليمن منهم ستة، والشام أربعة، أم اليمانيون: فَمَذْحِجٌ، وَكِنْدَةُ، وَالْأَزْدُ، وَالْأَشْعَرِيُّونَ، وَأَنَامَرٌ، وَحَمِيرٌ غير ما حلها. وأما الشام: فلخم، وجذام، وغسان، وعاملة».

فيه غرابة من حيث ذكر نزول الآية بالمدينة، والسورة مكية كلها، والله أعلم. طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا أبو أسامة، حدثني الحسن بن الحكم، حدثنا أبو سَبْرَةَ التَّخَمِي، عن فروة بن مُسَيْكٍ العُطَيْفِي قال: قال رجل: يا رسول الله، أخبرني عن سبأ: ما هو؟ أرض، أم امرأة؟ قال: «ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من الولد، فتيان ستة وتشام أربعة، فأما الذين تشاموا: فلخم وجذام وعاملة وغسان، وأما الذين تيامنوا: فكندة: والأشعريون، والأزد، ومذحج، وحمير، وأنمار». فقال رجل: ما أنمار؟ قال: «الذين منهم خثعم وبجيلة». ورواه الترمذي في جامعه، عن أبي كُرَيْبٍ وعبد بن حميد قالوا: حدثنا أبو أسامة، فذكره أبسط من هذا، ثم قال: هذا حديث حسن غريب. وقال أبو عمر بن عبد البر: حدثنا عبد الوارث بن سفيان، حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا أحمد بن زهير، حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطي، حدثنا ابن كثير - هو عثمان بن كثير - عن الليث بن سعد، عن موسى بن علي، عن يزيد بن حصين، عن تميم الداري؛ أن رجلاً أتى

رسول الله ﷺ فسأله عن سبا، فذكر مثله، فقوى هذا الحديث وحسن. قال علماء النسب، منهم محمد بن إسحاق: اسم سبا: عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وإنما سمي سباً لأنه أول من سبا في العرب، وكان يقال له: الرائش؛ لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه، فسمي الرائش، والعرب تسمي المال: ريشاً ورياشاً. وذكروا أنه بشر برسول الله ﷺ في زمانه المتقدم، وقال في ذلك شعراً:

سَيَمْلِكُ بَعْدَنَا مُلْكًا عَظِيمًا نَبِيٍّ لَا يُرَخِّصُ فِي الْحَرَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُ مِنْهُمْ مُلُوكُ يَدِينُونَ الْعِبَادَ بِخَيْرِ دَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُمْ مِنْهُمْ مُلُوكُ يَصِيرُ الْمُلْكُ فِينَا بِأَقْسَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَ قَحْطَانَ نَبِيٍّ ثَقِي خَبْرَتُهُ خَيْرَ الْأَنَامِ
وَسُمِّيَ أَخْمَدًا يَا لَيْتَ أَنِّي أَعْمُرُ بَعْدَ مَبْعَثِهِ بِعَامِ
فَاعْضُدْهُ وَأَحْبِسْهُ بِئْضَرِي بِكُلِّ مُدْجَجٍ وَبِكُلِّ رَامِ
مَنْ يَظْهَرُ فُكُوءُوا نَاصِرِي وَمَنْ يَلْقَاهُ يُبْلِغْهُ سَلَامِي

ذكر ذلك الهمداني في كتاب «الإكليل». واختلفوا في قحطان في ثلاثة أقوال: أحدها: أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق. والثاني: أنه من سلالة غابر، وهو هود، عليه الصلاة والسلام، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضاً. والثالث: أنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليهما السلام، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضاً. وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر الثمري، رحمه الله، في كتابه المسمى: «الإنباء على ذكر أصول القبائل الرواة». ومعنى قوله عليه السلام: «كان رجلاً من العرب» يعني: العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل، عليه السلام، من سلالة سام بن نوح. وعلى القول الثالث: كان من سلالة الخليل، عليه السلام، وليس هذا بالمشهور عندهم، والله أعلم. وفي صحيح البخاري: أن رسول الله ﷺ مر بنفر من «أسلم» ينتضلون، فقال: «ارمو بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً». فأسلم قبيلة من الأنصار، والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبا، نزلوا بيشرب لما تفرقت سبا في البلاد، حين بعث الله عليهم سيل العرم، ونزلت طائفة منهم بالشام، وإنما قيل لهم: غسان بما نزلوا عليه قيل: باليمن. وقيل: إنه قريب من المُشَلَّل، كما قال حسن بن ثابت:

إِنَّمَا سَأَلْتُ قَبَائِلًا مَفْشَرًا نُجَبَ الْأُذَى نَسَبًا نُسَبًا، وَالْمَاءُ غَسَانُ
ومعنى قوله: «ولد له عشرة من العرب» أي: كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن، لأنهم ولدوا من صلبه، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر، كما هو مقرر مبين في مواضعه من كتب النسب. ومعنى قوله: «فتيامن منهم ستة، وتشاء منهم أربعة» أي: بعد ما أرسل الله عليهم سيل العرم، منهم من قام ببلادهم، ومنهم من نزح عنها إلى غيرها، وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبليين وتجتمع إليه أيضاً سيول أمطارهم وأوديتهم، فعمد ملوكهم الأقدام، فبنوا بينهما سداً عظيماً محكماً حتى ارتفع الماء، وحكم على حافات ذينك الجبليين، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن، كما ذكر غير واحد من السلف، منهم قتادة: أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكلت أو زنبيل، وهو الذي تخترف فيه الثمار، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قُطَاف، لكثرتهم ونضجه واستوائه، وكان هذا السد بمأرب: بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل، ويعرف بسد مأرب. وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث، ولا شيء من الهوام، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم، ليوحدهم ويعيدوه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةً﴾، ثم فسرها بقوله: ﴿جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي: من ناحتي الجبليين والبلدة بين ذلك، ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَمْ بَلَدَةٍ طَيِّبَةٍ وَرَبِّ غَفُورٍ﴾ أي: غفور لكم إن استمررتم على التوحيد. وقوله: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ أي: عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس، كما قال هدهد سليمان: ﴿وَيَسْتَفْتِكَ مِنْ سَبِيلٍ يَنْتَرِي﴾ (٢١) ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أُمَّرَأَةً تَلْبَسُكُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٢) وَجَدْتُهَا وَقَوْمُهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَغْنَاهُمْ فَصَدَّكُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٣) [النمل: ٢٢ - ٢٤]. وقال محمد بن إسحاق، عن وهب بن منبه: بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً. وقال السدي: أرسل الله إليهم اثني عشر ألف نبي، والله أعلم. وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾: قيل: المراد بالعرم المياه. وقيل: الوادي.

وقيل: الجُرْذ. وقيل: الماء الغزير. فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته، مثل: «مسجد الجامع». و«سعيد كُرْز» حكى ذلك السهيلي. وذكر غير واحد منهم ابن عباس، ووهب بن منبه، وقتادة، والضحاك: أن الله، ﷻ، لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم، بعث على السد دابة من الأرض، يقال لها: «الجُرْذ» نقتبه - قال وهب بن منبه: وقد كانوا يجدون في كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجُرْذ فكانوا يرصدون عنده السنائير برهة من الزمان، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنائير، وولجت إلى السد فنقتبه، فانهار عليهم. وقال قتادة وغيره: الجُرْذ: هو الخلد، نقتب أسافله حتى إذا ضعف وهى، وجاءت أيام السيول، صدم الماء البناء فسقط، فانساب الماء في أسفل الوادي، وخزب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال، فبيست وتحطمت، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَذَلُّهُمْ يَخْنَخِنُهُمْ جَنَّاتٍ ذَوَاتُ أَكْمَلٍ خَمَلٍ﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء الخراساني، والحسن، وقتادة، والسدي: وهو الأراك، وأكلة التبرير. ﴿وَأَنَّى﴾: قال العوفي، عن ابن عباس: هو الطُّرْفَاء. وقال غيره: هو شجر يشبه الطرفاء. وقيل: هو السَّمُر. فالله أعلم. وقوله: ﴿وَتَقْوِي مِّنْ يَّذِرُ قَلِيلٍ﴾: لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر قال: ﴿وَتَقْوِي مِّنْ يَّذِرُ قَلِيلٍ﴾، فهذا الذي صار أمر تترك الجنتين إليه، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة، والظلال العميقة والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجرة الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل. وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله، وتكذيبهم بالحق وعدولهم عنه إلى الباطل؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ مَا كَفَرُواْ وَهَلْ تَجْزِيْهِ إِلَّا الْكَفُورُ﴾ (١٧) أي: عاقبتهم بكفرهم. قال مجاهد: ولا يعاقب إلا الكفور. وقال الحسن البصري: صدق الله العظيم. لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور. وقال طاووس: لا يناقش إلا الكفور. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو عمر بن النحاس الرملي، حدثنا حجاج بن محمد، حدثنا أبو البداء، عن هشام بن صالح التغلبي، عن ابن خيرة - وكان من أصحاب علي، رضي الله عنه - قال: جزاء المعصية الوهن في العبادة، والضيقة في المعيشة، والتعسر في اللذة. قيل: وما التعسر في اللذة؟ قال: لا يصادف لذة حلال إلا جاءه من يُنغصه إياها.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قَرْيَ ظَهْرَةَ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ فِيهَا لَيَالِيًا وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ (١٨) ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مِرْقَةٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَكَيْتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (١٩).

يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغبطة والنعمة، والعيش الهني الرغيد، والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة، بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرتهم لا يحتاج إلا حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمر، ويقيل في قرية وبيت في أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾، قال وهب بن منبه: هي قرى بصنعاء. وكذا قال أبو مالك. وقال مجاهد: والحسن، وسعيد بن جبير، ومالك عن زيد بن أسلم، وقتادة، والضحاك، والسدي، وابن زيد وغيرهم: يعني: قرى الشام. يعنون أنهم كانوا يسبغون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة. وقال العوفي، عن ابن عباس: القرى التي باركنا فيها: بيت المقدس. وقال العوفي، عنه أيضاً: هي قرى عربية بين المدينة والشام. ﴿قَرْيَ ظَهْرَةَ﴾ أي: بينة واضحة، يعرفها المسافرون، يقبلون في واحدة، ويبيتون في أخرى؛ ولهذا قال: ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾، أي: جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه، ﴿سَيْرُوا فِيهَا لَيَالِيًا وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ أي: الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلاً ونهاراً. ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، وقرأ آخرون: «بعد بين أسفارنا». وذلك أنهم بطروا هذه النعمة - كما قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد - وأحبوا مغاورة ومهامم يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحرور والمخاوف، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض، من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في من وسلوى وما يشتهون من مأكول ومشارب وملابس مرتفعة؛ ولهذا قال لهم: ﴿أَسْتَدْرِكُ آلَؤُوهَ أَمْ أَدْرِكُ هُوَ أَلَا يَعْلَمُ خَيْرًا فَهَاجِلُوا يَمْضُوا إِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِنَسْوِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَكْفُرُونَ﴾ (٢٠) ﴿يَقُولُونَ الْآيَاتِ الْآيَاتِ وَيَقُولُ الْآيَاتِ الْآيَاتِ مَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٢١) [البقرة: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِكَ مِثْلَهُ بَطُورًا مَّيِّسَتْهَا﴾ [القصص: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِسَانَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، وقال في حق هؤلاء: ﴿وَوَلَّوْهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾، أي: بكفرهم، ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مِرْقَةٍ﴾ أي: جعلناهم حديثاً للناس، وسمرات يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهني تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا؛ ولهذا تقول

العرب في القوم إذا تفرقوا: «تفرقوا أيدي سبا» و «تفرقوا شذر مذر».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، سمعت أبي يقول: سمعت عكرمة يحدث بحديث أهل سبا، قال: «لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ مَاءٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ» إلى قوله: «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ»: وكانت فيهم كهنة، وكانت الشياطين يسترقون السمع، فأخبروا الكهنة بشيء من أخبار السماء، فكان فيهم رجل كاهن شريف كثير المال، وإنه خُبر أن زوال أمرهم قد دنا، وأن العذاب قد أظلمهم. فلم يدر كيف يصنع؛ لأنه كان له مال كثير من عقار، فقال لرجل من بنيه - وهو أعزهم أخوالاً -: إذا كان غداً وأمرتك بأمر فلا تفعل، فإذا انتهرتك فانتهرني، فإذا تناولتك فالطمني. فقال: يا أبت، لا تفعل، إن هذا أمر عظيم، وأمر شديد، قال: يا بني، قد حدث أمر لا بد منه. فلم يزل به حتى وافاه على ذلك. فلما أصبحوا واجتمع الناس، قال: يا بني، افعل كذا وكذا، فأبى، فانتهره أبوه، فأجابه، فلم يزل ذلك بينهما حتى تناوله أبوه، فوثب على أبيه فطممه، فقال: ابني يطمني؟ عليّ بالشفرة. قالوا: وما تصنع بالشفرة؟ قال: أذبحه. قالوا: تذبح ابنك. الطمه أو اصنع ما بدا لك. قال: فأبى، قال: فأرسلوا إلى أخواله فأعلموهم ذلك، فجاء أخواله فقالوا: خذ منا ما بدا لك. فأبى إلا أن يذبحه. قالوا: فلتموتن قبل أن تذبحه. قال: فإذا كان الحديث هكذا فإني لا أرى أن أقيم ببلد يحال بيني وبين ولدي فيه، اشتروا مني دوري، اشتروا مني أرضي، فلم يزل حتى باع دوره وأراضيهِ وعقاره، فلما صار الثمن في يده وأحزره، قال: أي قوم، إن العذاب قد أظلمكم، وزوال أمركم قد دنا، فمن أراد منكم داراً جديداً، وجمالاً شديداً، وسفراً بعيداً، فليلق بعمان. ومن أراد منكم الخمر والخمير والتقصير - وكلمة، قال إبراهيم: لم أحفظها - فليلق بيثرب ذات نخل. فأطاعه قومه، فخرج أهل عمان إلى عمان. وخرجت غسان إلى بصرى. وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان إلى يثرب ذات النخل. قال: فأثروا على بطن مر فقال بنو عثمان: هذا مكان صالح، لا ينبغي به بدلاً. فأقاموا به، فسموا لذلك خزاعة، لأنهم انخرعوا من أصحابهم، واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة، وتوجه أهل عمان إلى عمان، وتوجهت غسان إلى بصرى. هذا أثر غريب عجيب، وهذا الكاهن هو عمرو بن عامر أحد رؤساء اليمن وكبراء سبا وكهانهم.

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في أول السيرة ما كان من أمر عمرو بن عامر الذي كان أول من خرج من بلاد اليمن، بسبب استئثاره بإرسال العرم فقال: وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن - فيما حدثني أبو زيد الأنصاري -: أنه رأى جرذاً يحفر في سد مأرب، الذي كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاؤوا من أرضهم. فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك، فاعتزم على الثقله عن اليمن فكاد قومه، فأمر أصغر أولاده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيطممه، ففعل ابنه ما أمره به، فقال عمرو: لا أقيم ببلد لطم وجهي فيها أصغر ولدي. وعرض أمواله، فقال أشراف من أشراف اليمن: اغتنموا غضبة عمرو، فاشتروا منه أمواله، وانتقل في ولده وولد ولده. وقالت الأزد: لا نتخلف عن عمرو بن عامر. فباعوا أموالهم، وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد «عك» مجتازين يرتادون البلدان، فحاربتهم عك، وكانت حربهم سجالاً. ففي ذلك يقول عباس بن مرداس السلمى:

وَعَكَ بَنُ عَدْنَانَ الَّذِينَ تَغْلَبُوا بَعْسَانًا، حَتَّى طَرَدُوا كُلَّ مَطَرَدٍ
وهذا البيت من قصيدة له. قال: ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا في البلاد، فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام، ونزلت الأوس والخزرج يثرب، ونزلت خزاعة مَزا. ونزلت أزد السراة السراة، ونزلت أزد عَمَانَ عُمَان، ثم أرسل الله على السد السيل فهدمه، وفي ذلك أنزل الله ﷻ هذه الآيات. وقد ذكر السدي قصة عمرو بن عامر بنحو ما ذكر محمد بن إسحاق، إلا أنه قال: «فأمر ابن أخيه»، مكان «ابنه»، إلى قوله: «فباع ماله وارتحل بأهله، فتفرقوا». رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، أخبرنا سلمة، عن ابن إسحاق قال: يزعمون أن عمرو بن عامر - وهو عم القوم - كان كاهناً، فرأى في كهنته أن قومه سيمزقون ويباعدون بين أسفارهم. فقال لهم: إني قد علمت أنكم ستمزقون، فمن كان منكم ذاهباً بعيداً وجمل شديد، ومزاد جديد - فليلق بكاس أو كرود. قال: فكانت وادعة بن عمرو. ومن كان منكم ذاهباً مذن، وأمر دغن، فليلق بأرض شن. فكانت عوف بن عمرو، وهم الذين يقال لهم: بارق. ومن كان منكم يريد عيشاً آتياً، وحرماً آمناً، فليلق بالأرزين. فكانت خزاعة. ومن كان منكم يريد الراسيات في الوحل، والمطعمات في المحل، فليلق بيثرب ذات النخل. فكانت الأوس والخزرج، وهما هذان الحيان من الأنصار. ومن كان منكم يريد خمراً وخميراً، وذهباً وحريراً، وملكاً وتاميراً، فليلق بكوثي وبُصري، فكانت غسان بنو جفنة ملوك الشام. ومن كان منهم بالمرق.

قال ابن إسحاق: وقد سمعت بعض أهل العلم يقول: إنما قالت هذه المقالة طريفة امرأة عمرو بن عامر، وكانت كاهنة، فرأت في كهانتها ذلك، فالله أعلم أي ذلك كان. وقال سعيد، عن قتادة، عن الشعبي: أما غسان فلهقوا بالشام، وأما الأنصار فلهقوا بيشرب، وأما خزاعة فلهقوا بتهامة، وأما الأزد فلهقوا بعمان، فمزمهم الله كل ممزق. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. ثم قال محمد بن إسحاق: حدثني أبو عبيدة قال: قال الأعشي - أعشى بني قيس بن ثعلبة - واسمه: ميمون بن قيس:

وَفِي ذَاكَ لِلْمُؤْمِنِ أُنُورٌ وَمَأْرَبٌ عَفْصَى عَلَيْهَا الْعَرْمُ
رُخَامٌ بَيِّنَةٌ لَهُمْ حَمِيرٌ إِذَا جَاءَ مَوَارُهُ لِمَ يَـمُورُ
فَأَزْوَى الزُّرُوعُ وَأَعْنَابُهَا عَلَى سَعَةِ مَاؤُهُمْ إِذْ قُسِمَ
فَصَارُوا أَيْادِي مَا يَفْـتَدِرُو نَ مِنْهُ عَلَى شَرْبِ طِفْـلٍ فُطِمَ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن في هذا الذي حل بهؤلاء من النعمة والعذاب، وتبديل النعمة وتحويل العافية، عقوبة على ما ارتكبه من الكفر والآثام - لعبرةً وذلةً لكل عبد صبار على المصائب، شكور على النعم. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن وعبد الرزاق المعني، قالا: أخبرنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن العيص بن خريث عن عمر بن سعد، عن أبيه - هو سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبت من قضاء الله للمؤمن، إن أصابه خير حمدَ ربه وشكر، وإن أصابه مصيبة حمدَ ربه وصبر، يؤجر المؤمن في كل شيء، حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته». وقد رواه النسائي في «اليوم والليلة»، من حديث أبي إسحاق السبيعي، به - وهو حديث عزيز - من رواية عمر بن سعد، عن أبيه. ولكن له شاهد في الصحيحين من حديث أبي هريرة: «عجبا للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا، إن أصابه سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابه ضراء صبر فكان خيرا له. وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن». قال عبد: حدثنا يونس، عن شيبان، عن قتادة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ قال: كان مطرف يقول: نعم العبد الصبار الشكور، الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِيَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّيهِ الْآخِرَةَ يَوْمَ هُوَ مِنهَا فِي شَأْنِ رَبِّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ ﴿٢١﴾.

لما ذكر الله تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشیطان، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى، وخالف الرشاد والهدى، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾. قال ابن عباس وغيره: هذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم، ثم قال: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَآتِيَنَّكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، ثم قال: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ ﴿٢١﴾ [الأعراف: ١٧] والآيات في هذا كثيرة. وقال الحسن البصري: لما أبطأ الله آدم من الجنة ومعه حواء، هبط إبليس فرحاً بما أصاب منهما، وقال: أصبت من الأبوبن ما أصبت، فالذرية أضعف وأضعف. وكان ذلك ظناً من إبليس، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢١﴾ فقال عند ذلك إبليس: «لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح، أعدته وأمتيته وأخذعه». فقال الله: «وعزتي لا أحجب عنه التوبة ما لم يفرغ بالموت، ولا يدعوني إلا أجبته، ولا يسألني إلا أعطيته، ولا يستغفرني إلا غفرت له». رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾: قال ابن عباس: أي من حجة. وقال الحسن البصري: والله ما ضربهم بعضاً، ولا أكرهم على شيء، وما كان إلا غروراً وأمانياً دعاهم إليها فأجابوه. وقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّيهِ الْآخِرَةَ يَوْمَ هُوَ مِنهَا فِي شَأْنِ رَبِّكَ﴾ أي: إنما سلطناه عليهم ليطهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء، فيحسب عبادة ربه ﷻ في الدنيا، ممن هو منها في شك. وقوله: ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ﴾ أي: ومع حفظه ضل من ضل من أتباع إبليس، وبحفظه وكلامه سليم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل.

﴿فَلْيَدْعُوا إِلَيْكَ رَبَّكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا دُونَكَ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَلَا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهٌ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَوْفَرَ عَنْ قَلْبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُمْ الْعَمَلُ الْكَبِيرُ﴾ ﴿٢٢﴾.

بين تعالى أنه الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا نظير له ولا شريك له، بل هو المستقل بالامر وحده، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض، فقال: ﴿فَلْيَدْعُوا إِلَيْكَ رَبَّكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: من الآلهة التي عبدت من دونه ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا دُونَكَ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ شَيْءٍ﴾ [فاطر: ١٣].

وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ﴾ أي: لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشراكة، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظُهُورٍ﴾ أي: وليس الله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه، عبيد لديه. قال قتادة في قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظُهُورٍ﴾، من عون يعينه شيء. وقال: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أُوْثِقَ لَهُ﴾ أي: لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترى أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء إلا بعد إذنه له في الشفاعة، كما قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُفْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرُّهُ﴾ [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشَعَتِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. ولهذا ثبت في الصحيحين، من غير وجه عن رسول الله ﷺ - وهو سيد ولد آدم، وأكبر شافع عند الله -: أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم أن يأتي ربهم لفصل القضاء، قال: «فأسجد لله فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ويفتح علي بمحامد لا أحصيها الآن، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعطه واشفع تشفع» الحديث بتمامه. وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾. وهذا أيضاً مقام رفيع في العظمة. وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي، سمع أهل السموات كلامه، أزعدها من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي. قاله ابن مسعود ومسروق، وغيرهما. ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: زال الفزع عنها. قال ابن عباس، وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمي والشعبي، وإبراهيم النخعي، والضحاك والحسن، وقاتدة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ يقول: جُلِّيَ عن قلوبهم، وقرأ بعض السلف - وجاء مرفوعاً -: «حتى إذا فرغ» بالعين المعجمة، ويرجع إلى الأول. فإذا كان كذلك يسأل بعضهم بعضاً: ماذا قال ربكم؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا، ولهذا قال: ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ أي: أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان، ﴿وَهُوَ الْحَقُّ الْكَبِيرُ﴾. وقال آخرون: بل معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: المشركين عند الاحتضار، ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة في الدنيا، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة، قالوا: ماذا قال ربكم؟ فقيل لهم: الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين في الدنيا. قال ابن أبي نجيج، عن مجاهد: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾: كشف عنها الغطاء يوم القيامة. وقال الحسن: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: ما فيها من الشك والتكذيب. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: ما فيها من الشك، قال: فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانيتهم وما كان يضلهم، ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْحَقُّ الْكَبِيرُ﴾ قال: وهذا في بني آدم، هذا عند الموت، أقروا حين لا ينفعهم الإقرار. وقد اختار ابن جرير القول الأول: أن الضمير عائد على الملائكة. هذا هو الحق الذي لا مرية فيه، لصحة الأحاديث فيه والآثار، ولنذكر منها طرفاً يدل على غيره: قال البخاري عند تفسير هذه الآية الكريمة في صحيحه: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، سمعت عكرمة، سمعت أبا هريرة يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فُزِّعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير فيسمعها مُسْتَرْقِقُ السمع، ومسترق السمع - هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بيده - فخرَّها وبَدَّدَ بين أصابعه - فيسمع الكلمة، فيلقها إلى من تحته، ثم يلقها الآخر إلى من تحته، حتى يلقها على لسان الساحر أو الكاهن: قَرِيباً أدركه الشهاب قبل أن يلقها، وربما ألغها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: ليس قد قال لنا يوم كذا وكذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء. انفراد بإخراجه البخاري دون مسلم من هذا الوجه. وقد رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث سفيان بن عيينة، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر وعبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، أخبرنا الزهري، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في نفر من أصحابه - قال عبد الرزاق: «من الأنصار» - فَرَمَى بنجم فاستنار، قال: «ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية؟» قالوا: كنا نقول يُؤَلَّدُ عظيم، أو يموت عظيم - قلت للزهري: أكان يرمى بها في الجاهلية؟ قال: نعم، ولكن غَلِظَتْ حين بعث النبي ﷺ - قال: فقال رسول الله ﷺ: «فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا، تبارك وتعالى، إذا قضى أمراً أصبح حَمَلَةُ العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح هذه الدنيا، ثم يستخبر أهل السماء الذي يُلَوِّنُ حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء سماء؛ حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء، وتخطف الجن السمع فيرمون، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون. هكذا رواه الإمام أحمد. وقد أخرجه مسلم في صحيحه، من حديث صالح بن كيسان، والأوزاعي، ويونس ومَعْقِل بن عبيد الله، وأربعتهم عن الزهري، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس عن رجل من

الأنصار، به. ورواه وقال يونس: عن رجال من الأنصار. وكذا رواه النسائي في «التفسير» من حديث الزبيدي، عن الزهري، به. ورواه الترمذي فيه عن الحسين بن حريث؛ عن الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، عن رجل من الأنصار، رضي الله عنه، والله أعلم. حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف وأحمد بن منصور بن سيار الرمادي - والسياق لمحمد بن عوف - قالا: حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا الوليد - هو ابن مسلم - عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن عبد الله بن أبي زكرياء، عن رجاء بن حيوة، عن النواس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله أن يوحى بأمره تكلم بالوحي، فإذا تكلم السموات منه رجفة - أو قال: رعدة - شديدة؛ من خوف الله، فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فيمضي به جبريل على الملائكة، كلما مرّ بسما سماء سألها ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال: الحق، وهو العلي الكبير. فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي حيث أمره الله من السماء والأرض». وكذا رواه ابن جرير وابن خزيمة، عن زكريا بن أبان المصري، عن نعيم بن حماد، به. قال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: ليس هذا الحديث بالشام عن الوليد بن مسلم، رحمه الله. وقد روى ابن أبي حاتم من حديث العوفي، عن ابن عباس - وعن قتادة: أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إحياء الله سبحانه إلى محمد ﷺ بعد الفترة التي كانت بينه وبين عيسى، ولا شك أن هذا أولى ما دخل في هذه الآية.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ لِيَاكُمْ لَمَعْلُومُونَ﴾ (٢٤) ﴿قُلْ لَا تَتَّبِعُوا عَمَّا أَفْرَمًا وَلَا تَتَّبِعُوا عَمَّا تَمَلُّونَ﴾ (٢٥) ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَفْعَلُ بِهِمْ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٦).

يقول تعالى مقررًا تفردة بالخلق والرزق، وانفراده بالإلهية أيضاً، فكما كانوا يعترفون بأنه لا يبرزهم من السماء والأرض - أي: بما ينزل من المطر وينبت من الزرع - إلا الله، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره. وقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ لِيَاكُمْ لَمَعْلُومُونَ﴾ أي: في صلاتي. هذا من باب اللف والنشر، أي: واحد من الفريقين مبطل، والآخر محق، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّا أَوْ لِيَاكُمْ لَمَعْلُومُونَ﴾. قال قتادة: قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين: والله ما نحن وإياكم على أمر واحد، إن أحد الفريقين لمهند. وقال عكرمة وزيد بن أبي مريم: معناه: إنا نحن لعلى هدى، وإنكم لفي ضلال مبين. وقوله: ﴿قُلْ لَا تَتَّبِعُوا عَمَّا أَفْرَمًا وَلَا تَتَّبِعُوا عَمَّا تَمَلُّونَ﴾ (٢٥): معناه: التبري منهم، أي: لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله وإلى توحيد وإفراد العبادة له، فإن أجبتهم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتم فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا بِاللَّهِ قُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٦) [يونس: ٤١]، وقال: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (٢٧) ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢٨) ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٢٩) ﴿لَكُمْ دِينُي وَلِيَ دِينِ﴾ (٣٠) [سورة الكافرون]. وقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا﴾ أي: يوم القيامة، يجمع بين الخلاق في صعيد واحد، ثم يفتح بيننا بالحق، أي: يحكم بيننا بالعدل، فيجزئ كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُخَفِّرُونَ﴾ (٣١) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ (٣٢) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ (٣٣) [الروم: ١٤ - ١٦]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ أي: الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور. وقوله: ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَفْعَلُ بِهِمْ شُرَكَاءَ﴾ أي: أروني هذه الآلهة التي جعلتموها الله أنداداً وصيرتموها له عدلاً. ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس له نظير ولا تديد، ولا شريك ولا عدل، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾ (٣٤): أي: الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٥) أي: ذو العزة التي قد قهر بها كل شيء، وَعَلَيْتَ كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً﴾ (٣٦) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً﴾ (٣٧) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً﴾ (٣٨) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً﴾ (٣٩) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً﴾ (٤٠).

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً﴾ (٣٦): أي: إلا إلى جميع الخلق من المكلفين، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الاعراف: ١٥٨]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: تبشر من أطاعك بالجنة، وتنذر من عصاك بالنار. ﴿وَلَكِنَّ

أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَلَا تُلْقِ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]. قال محمد بن كعب في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ يعني: إلى الناس عامة. وقال قتادة في هذه الآية: أرسل الله محمد ﷺ إلى العرب والعجم، فأكرمهم على الله أطوعهم لله ﷻ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الطهراني، حدثنا حفص بن عمر العدني، حدثنا الحكم - يعني: ابن أبان - عن عكرمة قال: سمعت ابن عباس يقول: إن الله فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء. قالوا: يا ابن عباس، فيم فضله الله على الأنبياء؟ قال: إن الله قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، وقال للنبي ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾، فأرسله الله إلى الجن والإنس. وهذا الذي قاله ابن عباس قد ثبت في الصحيحين رفعه عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر. وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل. وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي. وأعطيت الشفاعة. وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة». وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت إلى الأسود والأحمر». قال مجاهد: يعني: الجن والإنس. وقال غيره: يعني: العرب والعجم، والكل صحيح. ثم قال تعالى مخبراً عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٢١]، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الآية [الشورى: ١٨]. ثم قال: ﴿قُلْ لَّكَ يَبْعَادُ يَوْمٌ لَا تَسْتَجِزُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغِيثُونَ﴾ [٢٢]، أي: لكم ميعاد موزل معدود محدد، لا يزداد ولا ينقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَمَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤٤]، وقال: ﴿وَمَا يُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّتَدَوِّرٍ﴾ [٢٣]، ﴿يَوْمَ يَأْتِي لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَيَنْهَوْنَهُمْ مِنْهُ وَيُسَبِّحُونَ﴾ [مرد: ١٠٤-١٠٥].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَغْفِرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [٢٤] قال الذين استكبروا للذين استغفروا نحن صدقناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كثر عجرهم [٢٥] وقال الذين استغفروا للذين استكبروا بل مكر أليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وَجَعَلْنَا الْفُكْلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٢٦].

يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وما أخبر به من أمر المعاد؛ ولهذا قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، قال الله تعالى متهدداً لهم ومتوعداً، ومخبراً عن مواقفهم الدلالية بين يديه في حال تخصصهم وتجاههم: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَغْفِرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [٢٤]، لولا أنتم تصدوننا، لكننا اتبعنا الرسل وآمننا بما جاؤونا به. فقال لهم القادة والسادة، وهم الذين استكبروا: ﴿وَلَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [٢٤]، أي: لولا أنتم تصدوننا، لكننا اتبعنا الرسل وآمننا بما جاؤونا به. فقال لهم القادة والسادة، وهم الذين استكبروا: ﴿وَلَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [٢٤]، أي: نحن ما فعلنا بكم أكثر من آتاء دعوانكم فاتبعتونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الأنبياء، لشهوتكم واختياركم لذلك؛ ولهذا قالوا: ﴿بَلْ كَثُرَ نَجْرِمِينَ﴾ وقال الذين استغفروا للذين استكبروا بل مكر أليل والنهار [٢٥]، أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً، وتغترون وتؤمنون، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكذب ومين. قال قتادة، وابن زيد: ﴿بَلْ مَكْرُ أَلِيلٍ وَالنَّهَارِ﴾ يقول: بل مكروهم بالليل بالنهار. وكذا قال مالك، عن زيد بن أسلم: مكروهم بالليل والنهار. ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً﴾ أي نظراء وألهة معه، وتقيموا لنا شُعباً وأشياء من المحال، تضلونا بها ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [٢٦] أي: الجميع من السادة والأتباع، كل ندم على ما سلف منه. ﴿وَجَعَلْنَا الْفُكْلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم، ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٢٦]، أي: إنما نجازيكم بأعمالكم، كل بحسبه، للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بحسبهم ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فروة بن أبي المغراء، حدثنا محمد بن سليمان بن الأصباهي، عن أبي سنان ضرار بن صرد، عن عبد الله بن أبي الهذيل، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن جهنم لما سبق إليها أهلها تلقاهم لهبها، ثم لفتحتهم لفحة فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب». وحدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا الطيب أبو الحسن، عن الحسن بن يحيى الخشني قال: ما في جهنم دار ولا مغار ولا غل ولا سلسلة ولا قيد، إلا اسم صاحبها عليه مكتوب. قال: فحدثني أبا سليمان - يعني: الداراني، رحمة الله عليه - فبكي ثم قال: ويحك. فكيف به لو جمع هذا كله عليه، فجعل القيد في رجله، والغُل في يديه والسلسلة في عنقه، ثم أدخل الدار وأدخل المغارة؟!.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآيَاتِنَا تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ جَزَاءً إِلَّا جَنَّةً يَدْخُلُونَهَا مِن دَرْوَاهِبٍ وَمَا فِيهَا مَبْدُودٌ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَتَحَاتِبُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَبْدُودٌ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى مسلماً لنبيه، وأمر له بالناسي بمن قبله من الرسل، ومخبره بأنه ما بعث نبياً في قرية إلا كذبه مترفوها، واتبعه ضعفاؤهم، كما قال قوم نوح: ﴿أَتُؤْمِنُ لِلَّهِ وَأَتُتَبِعُكَ الْكَافِرُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، ﴿وَمَا تَزِلُّكَ إِلَا أَلْوَيْتَ هُمُ أَرَادُوا نَكَاحَ بَاوَى الْأَرَايِ﴾ [مرد: ٢٧]، وقال الكبراء من قوم صالح: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَفْهَمُوا لِمَن آمَنَ مِنْهُمْ أَتْمَلِكُونَ أُنْتَ صَالِحًا تُرْسِلُ بَيْنَ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِكَ أَرْسِلُ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الاعراف: ٧٥-٧٦] وقال تعالى: ﴿رَبِّكَ ذَلِكُمْ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيُتَوَلَّوْا أَهْلُكُم مِّنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ آيَاتُ اللَّهِ يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النعام: ٥٥]؟ وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُّجْرِمِينَ لِّيَكْفُرُوا فِيهَا﴾ [النعام: ١١٢]، وقال: ﴿وَلَا أَرَدْنَا أَنْ نَتْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ [الإسراء: ١٦]، وقال هاهنا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ أَي: نبي أو رسول﴾ [إلا قال مُتْرَفُوهَا]، وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة. قال قتادة: هم جبابرتهم وقادتهم ورؤوسهم في الشر. ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: لا نؤمن به ولا نتبعه. قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا محمد بن عبد الوهاب عن سفيان عن عاصم، عن أبي زرين قال: كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر، فلما بعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله: ما فعل؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش، إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم. قال: فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال: دلني عليه. قال: وكان يقرأ الكتب، أو بعض الكتب. قال: فأتى النبي ﷺ فقال: إلام تدعو؟ قال: «إلى كذا وكذا». قال: أشهد أنك رسول الله. قال: «وما علمك بذلك؟» قال: إنه لم يبعث نبي إلى أتبعه وذلة الناس ومساكينهم. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ الآيات، قال: فأرسل إليه النبي ﷺ: «إن الله قد أنزل تصديق ما قلت». وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل، قال فيها: وسألتك: أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم فزعمت: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل. وقوله تعالى إخباراً عن المترفين المكذبين: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا، ثم يعذبهم في الآخرة، وهيهات لهم ذلك. قال الله: ﴿يَتَصَبَّوْنَ أَنَّهُ مُدَّخِرٌ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَيَتَنَبَّوْنَ ﴿٥٥﴾ شَارِعٌ لِّمَن فِي الْقُرْبَىٰ كُلِّ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦] وقال: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ فِيهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْفُقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿ذَرَىٰ وَمَنْ خَلَقَ وَجِدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلَ لَكُم مَّالًا مَّتَدُونًا ﴿١٢﴾ وَيَتَنَبَّوْنَ ﴿١٣﴾ وَمَدَّتْ لَهُ مَهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أُرِيدَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١-١٥]، وقال: ﴿لَا يَأْتِيَنَّكَ عِيسَىٰ ﴿١١﴾ سَاهِقًا مَّوَدًّا ﴿١٢﴾﴾ [المائدة: ١١-١٢]، وقد أخبر الله عن صاحب تينك الجنتين: أنه كان ذا مال وولد وثمر، ثم لم تُغن عنه شيئاً، بل سلب ذلك كله في الدنيا قبل الآخرة؛ ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب، فيفقر من يشاء ويغني من يشاء، وله الحكمة التامة البالغة، والحجة الدامغة القاطعة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآيَاتِنَا تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ أي: ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم، ولا اعتنائنا بكم. قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا كثير، حدثنا جعفر، حدثنا يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». رواه ومسلم وابن ماجه، من حديث كثير بن هشام، عن جعفر ابن بُرقان، به. ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح، ﴿فَأُولَٰئِكَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ جَزَاءً إِلَّا جَنَّةً يَدْخُلُونَهَا مِن دَرْوَاهِبٍ وَمَا فِيهَا مَبْدُودٌ﴾ أي: في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى، ومن كل شر يُحذر منه. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا قزوة بن المغراء الكندي، حدثنا القاسم وعلي بن مُسهر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن علي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لأغرفاً ترى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها». فقال أعرابي: لمن هي؟ قال: «لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام». ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَتَحَاتِبُونَ﴾ أي: يسعون في الصد عن سبيل الله، واتباع الرسل والتصديق بآياته، ﴿أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخْتَصِرُونَ﴾ أي: جميعهم مُجْزَوْنَ بأعمالهم فيها بحسبهم. وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَبْدُودٌ﴾ أي:

بحسب ما له في ذلك من الحكمة، يسط على هذا من المال كثيراً، ويضيق على هذا ويقتصر عليه رزقه جداً، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره، كما قال تعالى: ﴿أَنْتَظِرُ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١] أي: كما هم متفاوتون في الدنيا: هذا فقير مدقع، وهذا غني مؤسّع عليه، فكذلك هم في الآخرة: هذا في الغرفات في أعلى الدرجات، وهذا في العُمرات في أسفل الدرجات. وأطيب الناس في الدنيا كما قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم وزُوق كَفَافًا، وَقُتِعَ اللهَ بِمَا آتَاهُ». رواه مسلم من حديث ابن عمرو. وقوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي: مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب، كما ثبت في الحديث: «يقول الله تعالى: أَنْفَقَ أَنْفَقَ عَلَيْكَ». وفي الحديث: أن ملكين يصيحان كل يوم، يقول أحدهما: «اللهم أعط مُسِيكًا تَلَفًا»، ويقول الآخر: «اللهم أعط منفقًا خَلَفًا» وقال رسول الله ﷺ: «أنفق بلائًا، ولا تخش من ذي العرش إقلالا».

وقال ابن أبي حاتم عن يزيد بن عبد العزيز الطلاس، حدثنا هُشَيْمٌ عن الكوثر بن حكيم، عن مكحول قال: بلغني عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إن بعدكم زمان عضوض، بعض الموسر على ما في يده حذار الإنفاق». ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الْكَارِزِينَ﴾. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا روح بن حاتم، حدثنا هُشَيْمٌ، عن الكوثر بن حكيم، عن مكحول قال: بلغني عن حذيفة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض، بعض الموسر على ما في يديه حذار الإنفاق»، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الْكَارِزِينَ﴾، وَيَنْهَلُ شرار الخلق يبايعون كل مضطر، ألا إن بيع المضطرين حرام، ألا إن بيع المضطرين حرام المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، إن كان عندك معروف، فُتد به على أخيك، وإلا فلا تزده هلاكاً إلى هلاكه. هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي إسناده ضعف. وقال سفيان الثوري، عن أبي يونس الحسن بن يزيد قال: قال مجاهد: لا يتأولن أحدكم هذه الآية: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾: إن كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه، فإن الرزق مقسوم.

﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُكُمُ أَهْلُكُمْ أَفَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ﴾ ﴿١٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِنْ دُونِهِمْ شَيْءٌ كَانُوا يَعبُدُونَ أَكْثَرُهُمْ يَوْمَ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ قَالُوا لَا بَلَاءَ لَكُم بِبَعْشَرٍ يَعْبُدُكُمْ وَلَا ضَرَّ عَلَيْنَا مَنْ لَدُنْهُمْ ظَلْمًا دُفُّوا عَذَابَ آثَارِ آلِي كُثُوفٍ بِهَا تَكْفُرُونَ ﴿١٢﴾.

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صور الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى، فيقول للملائكة: ﴿أَهْلُكُمُ أَهْلُكُمْ أَفَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ﴾؟ أي: أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتهم؟ كما قال في سورة الفرقان: ﴿أَنْتُمْ أَهْلُكُمْ عِبَادُكُمْ أَهْلُكُمْ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧]، وكما يقول لعيسى: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي إِلَهَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]. وهكذا تقول الملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿أَنْتَ وَلَيْسَ مِنْ دُونِهِمْ شَيْءٌ﴾ أي: نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء، ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِيَهُمْ﴾ يعنون: الشياطين؛ لأنهم هم الذين يزينون لهم عبادة الأوثان ويضلونهم، ﴿أَكْثَرُهُمْ يَوْمَ مُؤْمِنُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِي إِلَى آلِيهِمْ وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَى سَبْطَانَا مُرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧]. قال الله تعالى: ﴿قَالُوا لَا بَلَاءَ لَكُم بِبَعْشَرٍ يَعْبُدُكُمْ وَلَا ضَرَّ عَلَيْنَا مَنْ لَدُنْهُمْ ظَلْمًا﴾ أي: لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان، التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكُزيبكم، اليوم لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً، ﴿وَقُولُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ - وهم المشركون - ﴿دُفُّوا عَذَابَ آثَارِ آلِي كُثُوفٍ بِهَا تَكْفُرُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك، تقريباً وتوبيخاً.

﴿وَلَا تَنْتَظِرْ عَلَيْهِمْ تَبَاتًا يَنْتَظِرُونَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ كَانِ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ لِمَقْدَرِ اللَّهِ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿١٣﴾ وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قُلُوبًا مِنْ نَذِيرٍ ﴿١٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعَارِ مَا آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رَسُولِي كَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿١٥﴾.

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب؛ لأنهم كانوا إذا تلى عليهم آيات بينات يسمعونها غصّة طرية من لسان رسوله ﷺ، ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ كَانِ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ﴾، يعنون أن دين آبائهم هو الحق، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل - عليهم وعلى آبائهم لعائن الله - ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ لِمَقْدَرِ اللَّهِ﴾ يعنون: القرآن، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾. قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قُلُوبًا مِنْ نَذِيرٍ﴾ ﴿١٤﴾ أي: ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن، وما أرسل إليهم نبياً قبل محمد ﷺ، وقد كانوا يودون ذلك ويقولون: لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب، لكننا أهدي من غيرنا، فلما مَنَّ الله عليهم بذلك كذبوه وعاندوه وجحدوه. ثم قال: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم، ﴿وَمَا بَلَّغُوا مَعَارِ مَا آتَيْنَهُمْ﴾ قال ابن عباس: أي من القوة في الدنيا. وكذلك

﴿٥٠﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْفِئُونَ نُفُوسَكُمْ ثُمَّ تُكَفِّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جُنْءٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا يُنذِرُ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٥١﴾

﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ أَخْرَجَهُمْ مِنَ ظُلُمَاتٍ إِلَى نُورٍ﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ إِذْ أَخْرَجَهُ مِنَ ابْنِ مَرْيَمَ إِلَى ذُرِّيَّتِهِ﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ إِذْ أَخْرَجَهُ مِنَ الْمَقْبَرَةِ إِلَى الْهَيَاكِلِ﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ إِذْ أَخْرَجَهُ مِنَ الْأَرْضِ الْمَغْلُوبَةِ إِلَى الْأَرْضِ الْغَالِبَةِ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ إِذْ أَخْرَجَهُ مِنَ الْبَيْتِ الْمَكِينِ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ إِذْ أَخْرَجَهُ مِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ إِلَى الْبَيْتِ الْمَكِينِ﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ إِذْ أَخْرَجَهُ مِنَ الْبَيْتِ الْمَكِينِ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ إِذْ أَخْرَجَهُ مِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ إِلَى الْبَيْتِ الْمَكِينِ﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ إِذْ أَخْرَجَهُ مِنَ الْبَيْتِ الْمَكِينِ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ إِذْ أَخْرَجَهُ مِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ إِلَى الْبَيْتِ الْمَكِينِ﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ إِذْ أَخْرَجَهُ مِنَ الْبَيْتِ الْمَكِينِ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ إِذْ أَخْرَجَهُ مِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ إِلَى الْبَيْتِ الْمَكِينِ﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ إِذْ أَخْرَجَهُ مِنَ الْبَيْتِ الْمَكِينِ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى أمراً رسولهُ أن يقول للمُشركين: ﴿مَا سَأَلْتُمْ مِنْ ثَغَرٍ فَعُوْا لَكُمْ﴾ أي: لا أريد منكم جُعلاً ولا عطاءً على أداء رسالة الله إليكم، ونصحي إياكم، وأمركم بعبادة الله، ﴿إِنْ أُجِرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: إنما أطلب ثواب ذلك عند الله ﴿وَعُوْا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَيْدٌ﴾ أي: عالم بجميع الأمور، بما أنا عليه من إخباري عنه بإرساله إياي إليكم، وما أنتم عليه. وقوله: ﴿قُلْ إِنْ رِزْقِي بَقِيْدٌ يَلْمُوكَ عَلَمُ الْغُيُوْبِ﴾، كقوله تعالى: ﴿يَلْمُوكَ الْوَرْثَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ عَلَى مَنْ يَنْشَأُ مِنْ بَنِيهِمْ﴾ [غافر: ١٥]. أي: يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض، وهو علام الغيوب، فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض. وقوله: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيْدُ﴾، أي: جاء الحق من الله والشرع العظيم، وزُهِقَ الباطل وزُهِقَ واضمحَل، كقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [النبأ: ١٨]، ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح، وجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة، جعل يقطعُ الصنمَ بسيفه قوْسيه، ويقرأ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيْدُ﴾. رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وحده عند هذه الآية، كلهم من حديث الثوري،

عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن أبي مَعْمَر عبد الله بن سَخْبَرَة، عن ابن مسعود، به. أي: لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة. وزعم قتادة والسدي: أن المراد بالباطل هاهنا إبليس، أي: إنه لا يخلق أحداً ولا يعيده، ولا يقدر على ذلك. وهذا وإن كان حقاً ولكن ليس هو المراد هاهنا، والله أعلم. وقوله: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ أي: الخير كله من عند الله، وفيما أنزله ﷺ من الوحي والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه، كما قال عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، لما سئل عن تلك المسألة في المفوضة: أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه. وقوله: ﴿إِنَّهُ سَيَعِبُ قَرِيبٌ﴾ أي: سميع لأقوال عباده، قريب يجب دعوة الداعي إذا دعاه. وقد روى النسائي هاهنا حديث أبي موسى الذي في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً مجيباً».

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فُتِحُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُذْخِدُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْقَلْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) رَجُلٌ يَنْتَهِمُ وَيَنُوبُ وَأَنَّى لَهُمُ اتِّسَاعُ أَبْنَامِهِمْ فِي مَكَانٍ قَرِيبٍ (٥٤) يقول تعالى: ولو ترى - يا محمد - إذا فزع هؤلاء المكذبون يوم القيامة، ﴿فَلَا قُوَّةَ﴾ أي: فلا مفر لهم، ولا وزر ولا ملجأ ﴿وَأُذْخِدُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لم يكونوا يُمنعون في الهرب، بل أخذوا من أول وهلة. قال الحسن البصري: حين خرجوا من قبورهم. وقال مجاهد، وعطية العوفي، وقاتدة: من تحت أقدامهم. وعن ابن عباس والضحاك: يعني: عذابهم في الدنيا. وقال عبد الرحمن بن زيد: يعني: قتلهم يوم بدر. والصحيح: أن المراد بذلك يوم القيامة، وهو الطامة العظمى، وإن كان ما ذكر متصلًا بذلك. وحكى ابن جرير عن بعضهم قال: إن المراد بذلك جيش يخسف بهم بين مكة والمدينة في أيام بني العباس، ثم أورد في ذلك حديثاً موضوعاً بالكلية. ثم لم ينبه على ذلك، وهذا أمر عجيب غريب منه. ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ أي: يوم القيامة يقولون: آمنا بالله وبكتبه ورسله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (٥٧) [السجدة: ١٧] ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: وكيف لهم تعاطي الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة، وهي دار الجزاء لا دار الابتلاء، فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان، كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد. قال مجاهد: ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ﴾ قال: التناول لذلك. وقال الزهري: التناولهم الإيمان وهم في الآخرة، وقد انقطعت عنهم الدنيا. وقال الحسن البصري: أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد. وقال ابن عباس: طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه، وليس بحين رجعة ولا توبة. وكذا قال محمد بن كعب القرظي، رحمه الله. وقوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة، وقد كفروا بالحق في الدنيا وكذبوا بالرسول؟ ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْقَلْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْقَلْبِ﴾ قال: بالظن.

قلت: كما قال تعالى: ﴿رَبِّمَا بِالْقَلْبِ﴾ [الكهف: ٢٢]، فتارة يقولون: شاعر. وتارة يقولون: كاهن. وتارة يقولون: ساحر. وتارة يقولون: مجنون. إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويكذبون بالغيب والنشور والمعاد، ويقولون: ﴿إِنْ نَعْلَمُ إِلَّا نَعْلَمُ وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ [الجن: ٣٢]. قال قتادة: يرمجون بالظن، لا بعث ولا جنة ولا نار. وقوله: ﴿وَجِلَّ بَيْنَهُمْ وَيَنُوبُ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قال الحسن البصري، والضحاك، وغيرهما: يعني: الإيمان. وقال السدي: ﴿وَجِلَّ بَيْنَهُمْ وَيَنُوبُ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وهي: التوبة. وهذا اختيار ابن جرير، رحمه الله. وقال مجاهد: ﴿وَجِلَّ بَيْنَهُمْ وَيَنُوبُ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من هذه الدنيا، من مال وزهرة وأهل. وروى ذلك عن ابن عباس وابن عمر والربيع بن أنس. وهو قول البخاري وجماعة. والصحيح: أنه لا منافاة بين القولين؛ فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين ما طلبوه في الآخرة، فمنعوا منه.

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا أثراً غريباً عجيباً جداً، فلنذكره بطوله فإنه قال: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا بشر بن حجر السامي، حدثنا علي بن منصور الأنباري، عن الشَّرْقِيِّ بن قُطَامِي، عن سعد بن طريف، عن عكرمة، عن ابن عباس في قول الله ﷻ: ﴿رَجُلٌ يَنْتَهِمُ وَيَنُوبُ مَا يَشْتَهُونَ﴾ إلى آخر الآية، قال: كان رجل من بني إسرائيل فاتحاً - أي: فتح الله له مالا - فمات فورثه ابن له تافه - أي: فاسد - فكان يعمل في مال الله بمعاصي الله. فلما رأى ذلك إخوان أبيه أتوا الفتى فعذلوه ولاموه، فضجر الفتى فباع عقاره بصامت، ثم رحل فأتى عيناً شجاجة فسرح فيها ماله، وابتنى قصراً. فبينما هو ذات يوم جالس إذ شملت عليه ريح بامرأة من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أرجاً - أي: ريحاً - فقالت: من أنت يا عبد الله؟ فقال: أنا امرؤ من بني إسرائيل. قالت: فلك هذا القصر، وهذا المال؟ قال: نعم. قالت: فهل لك من زوجة؟ قال: لا. قالت: فكيف يَهْنِك العيش ولا زوجة

لك؟ قال: قد كان ذلك. فهل لك من بعل؟ قالت: لا. قال: فهل لك إلى أن أتزوجك؟ قالت: إني امرأة منك على مسيرة ميل، فإذا كان غد فتزود زاد يوم وانتني، وإن رأيت في طريقك هولاً فلا يهولك. فلما كان من الغد تزود زاد يوم، وانطلق فانتهي إلى قصر، ففرغ راحة، فخرج إليه شاب من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أريجاً - أي: ريحاً - فقال: من أنت يا عبد الله؟ فقال: أنا الإسرائيلي. قال: فما حاجتك؟ قال: دعنتي صاحبة هذا القصر إلى نفسها. قال: صدقت، فهل رأيت في طريقك هولاً؟ قال: نعم، ولولا أنها أخبرتني أن لا بأس عليّ، لهالني الذي رأيت؛ أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل، إذا أنا بكلية فاتحة فاهها، ففرغت، فَوُثِّبْتُ فإذا أنا من ورائها، وإذا جراؤها ينبحن في بطنها. فقال له الشاب: لست تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزمان، يقاعد الغلام المشيخة في مجلسهم ويبرزهم حديثهم. قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل، إذا أنا بمائة عترة حُفِّل، وإذا فيها جُذِي يعصها، فإذا أتى عليها وظن أنه لم يترك شيئاً، فتح فاه يلتهم الزيادة. فقال: لست تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزمان، ملك يجمع صامت الناس كلهم، حتى إذا ظن أنه لم يترك شيئاً فتح فاه يلتهم الزيادة.

قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا بشجر، فأعجبني غصن من شجرة منها ناضر، فأردت قطعه، فنادتني شجرة أخرى: «يا عبد الله، مني فخذ». حتى ناداني الشجر أجمع: «يا عبد الله، منا فخذ». قال: لست تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزمان، يقل الرجال ويكثر النساء، حتى إن الرجل ليخطب امرأة فتدعوه العشر والعشرون إلى أنفسهن. قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا برجل قائم على عين، يغرف لكل إنسان من الماء، فإذا تصدعوا عنه صبّ في جرتة فلم تعلق جرتة من الماء بشيء. قال: لست تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزمان، القاص يعلم الناس العلم ثم يخالفهم إلى معاصي الله. قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا بعنزة، وإذا بقوم قد أخذوا بقواتهما، وإذا رجل قد أخذ بقرنيها، وإذا رجل قد أخذ بذنبها، وإذا رجل قد ركبها، وإذا رجل يحلبها. فقال: أما العنز فهي الدنيا، والذين أخذوا بقواتها يتساقطون من عيشها، وأما الذي قد أخذ بقرنيها فهو يعالج من عيشها ضيقاً، وأما الذي أخذ بذنبها فقد أدبرت عنه، وأما الذي ركبها فقد تركها. وأما الذي يحلبها فبُخ، بَخ، ذهب ذلك بها. قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل، وإذا أنا برجل يمتح على قلبه، كلما أخرج دلوه صبّه في الحوض، فانساب الماء راجعاً إلى القلب. قال: هذا رجل رَدَّ الله عليه صالح عمله، فلم يقبله. قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل، إذا أنا برجل يئذ بذرأ فيستحصد، فإذا حنطة طيبة. قال: هذا رجل قبل الله صالح عمله، وأزكاه له. قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل، إذا أنا برجل مستلق على قفاه، قال: يا عبد الله، ادن مني فخذ بيدي وأقعدني، فوالله ما قعدت منذ خلقتني الله فأخذت بيده، فقام يسعى حتى ما أراه. فقال له الفتى: هذا عمر الأبعد نَفَد، أنا ملك الموت وأنا المرأة التي أتتك... أمرني الله بقبض روح الأبعد من هذا المكان، ثم أصيره إلى نار جهنم قال: ففيه نزلت هذه: ﴿وَجِئِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ الآية.

هذا أثر غريب، وفي صحته نظر، وتنزيل هذه الآية عليه وفي حقه بمعنى أن الكفار كلهم يتوفون وأرواحهم متعلقة بالحياة الدنيا، كما جرى لهذا المغرور المفتون، ذهب يطلب مراده فجاءه الموت فجأة بغتة، وحيل بينه وبين ما يشتهي. وقوله: ﴿كَأَ فُؤَلٍ بِأَشْيَاعِهِمْ بَيْنَ قَبْلٍ﴾ أي: كما جرى للأمم الماضية المكذبة للرسل، لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم، ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨١) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا شَكَرَ اللَّهُ إِلَيْنَا قَدْ حَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَحَسَرَ هَٰؤُلَاءِ الْكُفْرُونَ (٨٥) [غافر: ٨٤-٨٥]. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ أي: كانوا في الدنيا في شك وريبة، فلهذا لم يقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب. قال قتادة: إياكم والشك والريبة، فإنه من مات على شك بُعِثَ عليه، ومن مات على يقين بُعِثَ عليه.

آخر تفسير سورة «سبا»، والله الحمد والمنة



تفسير سورة فاطر

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئَةِ رُؤُلَا أُولَ الْأَحْصَاءِ مَثْنٍ وَثُلُثَ وَرُبْعَ بَرِيدٍ فِي الْفَلَاقِ مَا يَنبَأُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١).

قال سفيان الثوري، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض، حتى أتاني اعرابيان يختصمان في بشر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها، أنا بدأتها. فقال ابن عباس أيضاً: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: بديع السموات والأرض. وقال الضحاك: كل شيء في القرآن فاطر السموات والأرض فهو: خالق السموات والأرض. وقوله: ﴿حَاجِلَ الْمَلَكِ رُسُلًا﴾ أي: بينه وبين أنبيائه، ﴿أُولَئِكَ أَجْمَعُونَ﴾ أي: يطيطون بها ليلبغوا ما أمروا به سريعاً ﴿مَنْفَى وَتِلْكَ رُجُوعٌ﴾ أي: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب؛ ولهذا قال: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. قال السدي: يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء. وقال الزهري، وابن جريج في قوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ يعني: حسن الصوت. رواه عن الزهري البخاري في الأدب، وابن أبي حاتم في تفسيره. وقرئ في الشاذ: ﴿يَزِيدُ فِي الْحَلْقِ﴾، بالحاء المهملة، والله أعلم.

﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَدِيدٍ وَهُوَ الْغَنِيُّ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٢﴾

يخبر تعالى أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع. قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، حدثنا مغيرة، أخبرنا عامر، عن وزاد- مولى المغيرة بن شعبة- قال: كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة: اكتب إلي بما سمعت من رسول الله ﷺ. فدعاني المغيرة فكتبت إليه: إني سمعت رسول الله ﷺ إذا انصرف من الصلاة قال: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»، وسمعتة ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال، وعن وأد البنات، وعقوق الأمهات، ومنع وهات. وأخرجاه من طرق عن وزاد، به. وثبت في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: «سمع الله لمن حمده، اللهم ربنا لك الحمد، ملء السماء والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد. اللهم، أهل الثناء والمجد. أحق ما قال العبد، علينا لك عبد. اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد». وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بِشَيْءٍ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ فَلَا رَادَّ لِفَعْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]. ولهذا نظائر كثيرة. وقال الإمام مالك: كان أبو هريرة إذا مضى يقول: مُطَرْنَا بَنُو الفتح، ثم يقرأ هذه الآية: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَدِيدٍ وَهُوَ الْغَنِيُّ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٢﴾. ورواه ابن أبي حاتم، عن يونس، عن ابن وهب، عنه.

﴿يَتَّبِعُ النَّاسُ أَلْوَاكُ أَنْتَ اللَّهُ عَلَيَّ خَلْقِي عَزَّ اللَّهُ يُرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَالِقُ الْفَجْرِ﴾ ﴿٣﴾

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيد في أفراد العبادة له، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فذلك فليفرد بالعبادة، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان؛ ولهذا قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَالِقُ الْفَجْرِ﴾، أي: فكيف توفكون بعد هذا البيان، ووضح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان؟

﴿وَلَنْ يَكْفُرُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَلَكَ اللَّهُ تَرَجُّعُ الْأُمُورِ﴾ ﴿٤﴾ يَتَّبِعُ النَّاسُ إِنْ رَدَّ اللَّهُ حَقَّ ﴿٥﴾ فَلَا تَعْرَكُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْفَرُودُ ﴿٦﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُذَّوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿٦﴾

يقول: وإن يكذبوك- يا محمد- هؤلاء المشركون بالله ويخالفوك فيما جنتهم به من التوحيد، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة؛ فإنهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم، ﴿وَلَكَ اللَّهُ تَرَجُّعُ الْأُمُورِ﴾ أي: وسنجزئهم على ذلك أوفر الجزاء. ثم قال: ﴿يَتَّبِعُ النَّاسُ إِنْ رَدَّ اللَّهُ حَقَّ﴾ أي: المعاد كائن لا محالة، ﴿فَلَا تَعْرَكُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: العيشة الدنئية بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم فلا تتلهاوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية، ﴿وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْفَرُودُ﴾ وهو الشيطان. قاله ابن عباس. أي: لا يفتنكن الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته فإنه غرار كذاب أفاك. وهذه الآية كآلآية التي في آخر لقمان: ﴿فَلَا تَعْرَكُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْفَرُودُ﴾ [لقمان: ٣٣]. قال مالك، عن زيد بن أسلم: هو الشيطان. كما قال: يقول المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يضرب ﴿يَتَّبِعُهُمْ الشَّيْطَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيهِ الرَّجْمَةُ وَعَلَيْهِمْ مِنَ فِيهِ الْمَذَابُ﴾ ﴿٧﴾ يَتَادَوْهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَهُمْ قَالُوا بَلَى ﴿٨﴾ [العنيد: ١٣-١٤]. ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُذَّوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: هو مبارز لكم بالعداوة، فعادوه أنتم أشد العداوة، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به، ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: إنما يقصد أن يضللكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير، فهذا هو العدو المبين. فنسأل الله

القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان، وأن يرزقنا اتباع كتابه، والاقتفاء بطريق رسوله، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير. وهذه كقولته: ﴿وَلَا تَنَالُوا الْمَالِ الْكَافِرَ جُنَاحٌ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوُّهُ فَذَرُوهُهُ وَذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِكُمْ لَكُمْ عَذَابٌ يُصَلُّ لِلظَّالِمِينَ بَلَا ۝﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال بعض العلماء: وتحت هذا الخطاب نوع لطيف من العتاب كأنه يقول: إنما عادت إبليس من أجل أبيكم ومن أجلكم، فكيف يحسن بكم أن توالوه؟ بل اللاتق بكم أن تعادوه وتخالفوه ولا تطاوعوه.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝﴾ [٧] أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝﴾ [٨].

لما ذكر الله تعالى أن اتباع إبليس مصيرهم إلى عذاب السعير، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد؛ لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن، وأن الذين آمنوا بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ [٧] أي: لما كان منهم من ذنب، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على ما عملوه من خير. ثم قال: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَاهُ حَسَنًا﴾ يعني: كالكفار والفجار، يعملون أعمالاً سيئة، وهم في ذلك يعتقدون ويحسنون أنهم يحسنون صنعا، أي: أفمن كان هكذا قد أضله الله، ألك فيه حيلة؟ لا حيلة لك فيه، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: بقدره كان ذلك، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ﴾ أي: لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم في قدره، إنما يفضل من يفضل ويهدي من يهدي، لما له في ذلك من الحجة البالغة، والعلم التام؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾. وقال ابن أبي حاتم عند هذه الآية: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عوف الجهمي، حدثنا محمد بن كثير، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي عمرو السيباني- أو: ربيعة- عن عبد الله بن الدليمي قال: أنبت عبد الله بن عمرو، وهو في حائط بالطائف يقال له: الرهط، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى، ومن أخطأه منه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على ما علم الله ﷻ». ثم قال: حدثنا يحيى بن عبدك القزويني، حدثنا حسان بن حسان البصري، حدثنا إبراهيم بن بشر، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا إبراهيم القرشي، عن سعد بن شرحبيل، عن زيد ابن أبي أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «الحمد لله الذي يهدي من الضلالة، ويلبس الضلالة على من أحب». وهذا أيضاً حديث غريب جداً.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرٌ مَحَابٍ مَسْفُتَةً إِلَى بَلَدٍ مَبْنِيٍّ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْشُّورُ ۝﴾ [٩] مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْغَزَا فَلِلَّهِ الْغَزَا جَمِيعًا وَإِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكُلُّ الْفَلَكِ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ النَّجَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَوْمُ ۝﴾ [١٠] وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝﴾ [١١]. كثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها- كما في أول سورة الحج- بنبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك، فإن الأرض تكون ميتة هامة لا نبات فيها، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزل عليها، ﴿أَفَرَأَيْتَ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ﴾ [الحج: ٥]، كذلك الأجساد، إذا أراد الله سبحانه بعثها ونشورها، أنزل من تحت العرش مطراً يعم الأرض جميعاً فتنبت الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض؛ ولهذا جاء في الصحيح: «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب، منه خلق ومنه يركب»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْشُّورُ﴾. وتقدم في «الحج» حديث أبي رزين: قلت: يا رسول الله، كيف يحيى الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «يا أبا رزين، أما مررت بوادي قومك مخلاً ثم مررت به يهتز خضراً؟» قلت: بلى. قال: «فكذلك يحيى الله الموتى». وقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْغَزَا فَلِلَّهِ الْغَزَا جَمِيعًا﴾ أي: من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة، فليزِم طاعة الله، فإنه يحصل له مقصوده؛ لأن الله مالك الدنيا والآخرة، وله العزة جميعها، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكُفْرَينَ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْنِئْتُمْ عَنْهُمْ الْغَزَا فَإِنَّ الْغَزَا لِلَّهِ جَمِيعًا ۝﴾ [النساء: ١٣٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْوَسْرَةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْوَسْرَةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُتَنَفِّينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]. قال مجاهد: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْغَزَا﴾ بعبادة الأوثان، ﴿فَإِنَّ الْغَزَا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾. وقال قتادة: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْغَزَا فَلِلَّهِ الْغَزَا جَمِيعًا﴾ أي: فليستعزز بطاعة الله ﷻ. وقيل: من كان يريد علم العزة، لمن هي، ﴿فَإِنَّ الْغَزَا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، حكاه ابن جرير. وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكُلُّ الْفَلَكِ﴾ يعني: الذكر والتلاوة والدعاء. قاله غير واحد من السلف. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن إسماعيل الأحمسي، أخبرني جعفر بن عون، عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي، عن عبد الله بن المخارق، عن أبيه المخارق بن سليم قال: قال لنا عبد الله- هو ابن مسعود- إذا حدثناكم حديثاً أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله: إن العبد المسلم إذا قال: «سبحان الله وبحمده، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، تبارك الله»، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه، ثم صعد بهن إلى السماء

فلا يُعز بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن، حتى يحيي بهن وجه الرحمن ﷻ، ثم قرأ عبد الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾. وحدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُثَيْبٍ، أخبرنا سعيد الجُرَيْرِي، عن عبد الله بن شقيق قال: قال كعب الأحبار: إن لـ «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» لدويًا حول العرش كدوي النحل، يذكرون بصاحبهن، والعمل الصالح في الخزائن. وهذا إسناد صحيح إلى كعب الأحبار، رحمه الله، وقد روي مرفوعاً. قال الإمام أحمد: حدثنا ابن ثُمَيْرٍ، حدثنا موسى - يعني: ابن مسلم الطحان - عن عون بن عبد الله، عن أبيه - أو: عن أخيه - عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «الذين يذكرون من جلال الله، من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله، يتعاطفن حول العرش، لهن دوي كدوي النحل، يذكرون بصاحبهن ألا يحب أحدكم ألا يزال له عند الله شيء يذكر به؟». وهكذا رواه ابن ماجه عن أبي بشر بكر بن خلف، عن يحيى بن سعيد القطان، عن موسى ابن أبي عيسى الطحان، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن أبيه - أو: عن أخيه - عن النعمان بن بشير، به.

وقوله: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الكلم الطيب: ذكر الله، يصعد به إلى الله، ﷻ، والعمل الصالح: أداء فرائضه. ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه، رد كلامه على عمله، فكان أولى به. وكذا قال مجاهد: العمل الصالح يرفع الكلام الطيب. وكذا قال أبو العالية، وعكرمة، وإبراهيم النخعي، والضحاك، والسدي، والربيع بن أنس، وشهر بن حوشب، وغير واحد من السلف. وقال إياس بن معاوية القاضي: لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام. وقال الحسن، وقتادة: لا يقبل قول إلا بعمل. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ النَّبِيَّاتِ﴾: قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وشهر بن حوشب: هم المرأون بأعمالهم، يعني: يمشكون بالناس، يوهمون أنهم في طاعة الله، وهم بُغَضَاءُ إِلَى اللَّهِ ﷻ، يراؤون بأعمالهم، ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المشركون. والصحيح أنها عامة، والمشركون داخلون بطريق الأولى؛ ولهذا قال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾، أي: يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قرب لأولي البصائر والنهي، فإنه ما أسر عبد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفتلت لسانه، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. فالمرأني لا يروج أمره ويستمر إلا على غبي، أما المؤمنون المتفلسون فلا يروج ذلك عليهم، بل يكشف لهم عن قرب، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية. وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي: ابتداء خلق أبيكم آدم من تراب، ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: ذكراً وأنثى، لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجاً من جنسكم، لتسكنوا إليها. وقوله: ﴿وَمَا تَحْيِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي: هو عالم بذلك، لا يخفى عليه من ذلك شيء، بل ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَلَا حَبَّةٌ مِنْ ثَلَمَةٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَحْيِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِعِدَادٍ﴾ [٨٠] عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْكَفِيُّ الْكَبِيرُ الْمَعْتَمَلُ [٨٠-٨٩]. وقوله: ﴿وَمَا يَعْزُّ مِنْ عُمرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي: ما يعطي بعض النطف من العمر الطويل يعلمه، وهو عنده في الكتاب الأول، ﴿وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ﴾ الضمير عائد على الجنس، لا على العين؛ لأن العين الطويل للعمر في الكتاب وفي علم الله لا ينقص من عمره، وإنما عاد الضمير على الجنس. قال ابن جرير: وهذا كقولهم: «عندي ثوب ونصفه» أي: ونصف آخر. وروي من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا يَعْزُّ مِنْ عُمرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ إن ذلك على الله يبر، يقول: ليس أحد قضيت له طول عُمر وحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزداد عليه، وليس أحد قضيت له أنه قصير العمر والحياة بالغ للعمر، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له، فذلك قوله: ﴿وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [٨٠] إِنَّ اللَّهَ يَبْرُ، يقول: كل ذلك في كتاب عنده. وهكذا قال الضحاك بن مزاحم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: ﴿وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ قال: ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام. وقال عبد الرحمن في تفسيرها: ألا ترى الناس، يعيش الإنسان مائة سنة، وآخر يموت حين يولد فهذا هذا. وقال قتادة: والذي ينقص من عمره: فالذي يموت قبل ستين سنة. وقال مجاهد: ﴿وَمَا يَعْزُّ مِنْ عُمرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي: في بطن أمه يكتب له ذلك، لم يخلق الخلق على عمر واحد، بل لهذا عمر، ولهذا عمر هو أنقص من عمره، وكل ذلك مكتوب لصاحبه، بالغ ما بلغ. وقال بعضهم: بل معناه: ﴿وَمَا يَعْزُّ مِنْ عُمرٍ﴾ أي: ما يكتب من الأجل ﴿وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ﴾، وهو ذهابه قليلاً قليلاً، الجميع معلوم عند الله سنة بعد سنة، وشهراً بعد شهر، وجمعة بعد جمعة، ويوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، الجميع مكتوب عند الله في كتاب. نقله ابن جرير عن أبي مالك. وإليه ذهب السدي، وعطاء الخراساني. واختار ابن جرير القول الأول، وهو كما قال. وقال النسائي

عند تفسير هذه الآية الكريمة: حدثنا أحمد بن يحيى بن زيد بن سليمان، سمعت ابن وهب يقول: حدثني يونس، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن ييسر له في رزقه، وييسر له في أجله فليصل رَجَمَهُ». وقد رواه البخاري ومسلم وأبو داود، من حديث يونس بن يزيد الأيلي، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله أبو مسرح، حدثنا عثمان بن عطاء، عن مسلمة بن عبد الله، عن عمه أبي مشجعة بن ربعي، عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال: «إن الله يأخر نفساً إذا جاء أجلها، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد، فيدعون له من بعده، فيلحقه دعاؤهم في قبره، فذلك زيادة العمر». وقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: سهل عليه، يسير لديه علمه بذلك وتفصيله في جميع مخلوقاته، فإن علمه شامل لجميع ذلك لا يخفى منه عليه شيء.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فَاوٍ سَالِحٌ شَرَابٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلٍ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلًا تَلْبَسُونَهَا وَرَىٰ أَلْفَاكٌ فِيهِ مَوَاسِرٌ لِّتَنْتَفُوا مِنْ قَبْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة: وخلق البحرين العذب الزلال، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس، من كيار وصغار، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، والعمران والبراري والقفار، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك، ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار، وإنما تكون مالحة رُغَاقاً مَرَّةً، ولهذا قال: ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: مر. ثم قال: ﴿وَمَنْ كُلٍ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعني: السمك، ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلًا تَلْبَسُونَهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الْوُثُودُ وَالزَّيْتُ وَالْمَرْجُ﴾ ﴿٢٢﴾ فَإِنَّ مَالَكُمُ الرَّيْبَ ﴿٢٣﴾ ﴿الرحمن: ٢٢-٢٣﴾. وقوله: ﴿وَرَىٰ أَلْفَاكٌ فِيهِ مَوَاسِرٌ﴾ أي: تمخره وتشقه بحيزومها، وهو مقدمها المُسْتَم الذي يشبه جَوْجُ الطير - وهو: صدره. وقال مجاهد: تمخر الريح السفن، ولا يمحخر الريح من السفن إلا العظام. وقوله: ﴿لِيَتَنَفَّسُوا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: بأسفاركم بالتجارة، من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم، وهو البحر، تتصرفون فيه كيف شئتم، وتذهبون أين أردتم، ولا يمتنع عليكم شيء منه، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السموات وما في الأرض، الجميع من فضله ومن رحمته.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَُمْ اللَّهُ رُبُّكُمْ لَهُ أَلْمَافٌ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿٢٤﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَكُمْ وَهُمْ كَسِرَابٍ مُّسَمًّى يَوْمَ يَكُونُ يَسْرِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانة العظيم، في تسخيره الليل بظلامه والنهار بضياؤه، ويأخذ من طول هذا فيزيده على قصر هذا فيعتلان. ثم يأخذ من هذا في هذا، فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفاً وشتاءً، ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: والنجوم السيارات، والثوابت الثاقبات بأضوائهن أجرام السموات، الجميع يسرون بمقدار معين، وعلى منهاج مقنن محرر، تقديراً من عزيز عليم. ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى يوم القيامة. ﴿ذَلِكَُمْ اللَّهُ رُبُّكُمْ﴾ أي: الذي فعل هذا هو الرب العظيم، الذي لا إله غيره، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من الأنداد والأصنام التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين، ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء وعطية العوفي، والحسن، وقادة، وغيرهم: القطمير: هو اللفافة التي تكون على نواة التمرة، أي: لا يملكون من السموات والأرض شيئاً، ولا بمقدار هذا القطمير. ثم قال: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَكُمْ﴾ يعني: الآلهة التي تدعونها من دون الله لا يسمعون دعاءكم؛ لأنها جماد لا أرواح فيها ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أي: لا يقدرون على ما تطلبون منها، ﴿يَوْمَ الْيَقِينَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾، أي: يبتروون منكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَسْأَلُ يَمْنُ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَنْجِيهِ اللَّهُ إِلَّا يَوِيَّ الْيَقِينَةِ وَمَنْ عَنْ دَعَائِهِمْ غَفَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا حُيِّرُوا اتَّبَعُوا لَمْ أَقْنَاءَ وَكَانُوا بِسَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الحقاف: ٥-٦]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَكُونُوا لَكُمْ عَزَاً ﴿٢٧﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِرَّادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٢٨﴾﴾ [نجم: ٨١-٨٢]. وقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي: ولا يخبر بعواقب الأمور ومآلها وما نصير إليه، مثل خبير بها. قال قتادة: يعني نفسه تبارك وتعالى، فإنه أخبر بالواقع لا محالة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٩﴾ إِنْ بَنَّا بِذُنُوبِكُمْ وَإِنْ يَخْلَقُ جَبِيدٌ ﴿٣٠﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٣١﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَلَنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِلْهِهَا لِأَنْ يَحْمَلَ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّا نُؤَذِّرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَعْلَامُوا﴾



وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أي: كما لا يسمع ويتنفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم، ولا تستطيع هدايتهم. ﴿إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ (١٣٢) أي: إنما عليك البلاغ والإنذار، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، ﴿وَلَا يَمُنُّ أَشَدُّ إِلَّا خَلَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله إليهم النذر، وأزاح عنهم العلل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد: ٧)، وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوبَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ الآية (النحل: ١٣٦)، والآيات في هذا كثيرة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَكْفُرُكَ فَقَدْ كَذَّبَ

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه، من إقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله في الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً، سرّاً وعلانية، ﴿بَرُّجُونَ تَجَرُّوْنَ لَكَ تَبَرُّوْنَ﴾، أي: يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله. كما قدمنا في أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه: «إن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي: ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم، ﴿إِنَّهُمْ عَفَرُونَ﴾ أي: لذنوبهم، ﴿شَكُورٌ﴾ للقليل من أعمالهم. قال قتادة: كان مطُوفٌ، رحمه الله، إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القراء. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حيو، حدثنا سالم بن غيلان أنه سمع دزاجاً أبا السمع يحدث عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى إذا رضي عن العبد أثنى عليه سبعة أصناف من الخير لم يعمله، وإذا سخط على العبد أثنى عليه سبعة أصناف من الشر لم يعمله». غريب جداً.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٣١).

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد من الكتاب، وهو القرآن ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المتقدمة يصدقها، كما شهدت له بالتنويه، وأنه منزل من رب العالمين. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أي: هو خبير بهم، بصير بمن يستحق ما يفضل به على من سواه. ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر، وفضل النبيين بعضهم على بعض، ورفع بعضهم درجات، وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم، صلوات الله عليهم أجمعين.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْذِ اللَّهُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٣٢).

يقول تعالى: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم، المصدق لما بين يديه من الكتب، الذي اصطفينا من عبادنا، وهم هذه الأمة، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع، فقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾، وهو: المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات. ﴿وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو: المؤدّي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات. ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْذِ اللَّهُ﴾ وهو: الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، قال: هم أمة محمد ﷺ، ورثهم الله كل كتاب أنزله، فظالمهم يُغفر له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح، وعبد الرحمن بن معاوية العُثَيّبي قالوا: حدثنا أبو الطاهر بن السرح، حدثنا موسى بن عبد الرحمن الصنعاني، حدثني ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم: «شفاعتي لأهل الكباير من أمتي». قال ابن عباس: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاععة محمد ﷺ. وهكذا روي عن غير واحد من السلف: أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين، على ما فيه من عوج وتقصير. وقال آخرون: بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة، ولا من المصطفين الوارثين الكتاب. قال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق، حدثنا ابن عيينة، عن عمرو، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾، قال: هو الكافر. وكذا روى عنه عكرمة، وبه قال عكرمة أيضاً فيما رواه ابن جرير. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾، قال: هم أصحاب المشأمة. وقال مالك عن زيد بن أسلم، والحسن، وقتادة: هو المنافق. ثم قد قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة في أول سورة «الواقعة» وآخرها. والصحيح: أن الظالم لنفسه من هذه الأمة. وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ، من طرق يشد بعضها بعضاً، ونحن نورد منها ما تيسر:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الوليد بن العيزار؛ أنه سمع رجلاً من ثقيف يُحَدِّث عن رجل من كنانة، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْذِ اللَّهُ﴾، قال: «هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة، وكلهم في الجنة». هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي إسناده من لم يسم. وقد رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث شعبة، به نحوه. ومعنى قوله: «بمنزلة واحدة» أي: في أنهم من هذه الأمة، وأنهم من أهل الجنة، وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة.

الحديث الثاني: قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا أنس بن عياض الليثي أبو ضمرة، عن موسى بن عقبة، عن علي بن عبد الله الأزدي، عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ﴾، فأما الذي سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حساباً يسيراً، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر، ثم هم الذين تلافاهم برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّكَ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَلْهَنَّا دَارَ الْمُقَامِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (٣١)». طريق أخرى: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أسيد بن عاصم، حدثنا الحسين بن حفص، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن رجل، عن أبي ثابت، عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ». قال: «فأما الظالم لنفسه فيحبس حتى يصيبه الهم والحزن، ثم يدخل الجنة». ورواه ابن جرير من حديث سفيان الثوري، عن الأعمش قال: ذكر أبو ثابت أنه دخل المسجد، فجلس إلى جنب أبي الدرداء، فقال: اللهم، آتس وحشتي، وارحم غرتي، ويسر لي جليساً صالحاً، قال أبو الدرداء: لئن كنت صادقاً لأنا أسعد بك منك، سأحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لم أحدث به منذ سمعته منه، ذكر هذه الآية: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ»، «فأما السابق بالخيرات فيدخلها بغير حساب وأما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً، وأما الظالم لنفسه فيصيبه في ذلك المكان من الغم والحزن، وذلك قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾».

الحديث الثالث: قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس، حدثنا ابن مسعود، أخبرنا سهل بن عبد ربه الرازي، حدثنا عمرو بن أبي قيس، عن ابن أبي ليلى، عن أخيه، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أسامة بن زيد: «فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ» الآية، قال: قال رسول الله ﷺ: «كلهم من هذه الأمة».

الحديث الرابع: قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عزيز، حدثنا سلامة، عن عقييل، عن ابن شهاب، عن عوف بن مالك، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمتي ثلاثة أثلاث: فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة، وثلث يُمَحَّصُونَ ويكشفون، ثم تأتي الملائكة فيقولون: وجدناهم يقولون: «لا إله إلا الله وحده». يقول الله ﷻ: صدقوا، لا إله إلا أنا، أدخلوهم الجنة بقولهم: «لا إله إلا الله وحده» واحملوا خطاياهم على أهل النار، وهي التي قال الله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [التكوير: ٢١٣]، وتصديقها في التي فيها ذكر الملائكة، قال الله تعالى: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا»، فجعلهم ثلاثة أنواع، وهم أصناف كلهم، فمنهم ظالم لنفسه، فهذا الذي يكشف ويمحص». غريب جداً.

أثر عن ابن مسعود: قال ابن جرير: حدثني ابن حميد، حدثنا الحكيم بن بشير، عن عمرو بن قيس، عن عبد الله بن عيسى، عن يزيد بن الحارث، عن شقيق أبي وائل، عن عبد الله بن مسعود؛ أنه قال: هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة: ثلاث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول: ما هؤلاء؟ - وهو أعلم تبارك وتعالى - فتقول الملائكة: هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام، إلا أنهم لم يشركوا بك فيقول الرب ﷻ: أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي: وتلا عبد الله هذه الآية: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ» الآية. أثر آخر: قال أبو داود الطيالسي، عن الصلت بن دينار أبو شعيب، عن عقبة بن صُهَبَانَ الهُثَالِيِّ قال: سألت عائشة، رضي الله عنها، عن قول الله: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ» الآية، فقالت لي: يا بني، هؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ، شهد له رسول الله ﷺ والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم. قال: فجعلت نفسها معنا. وهذا منها، رضي الله عنها، من باب الهُضم والتواضع، وإلا فهي من أكبر السابقين بالخيرات؛ لأن فضلها على النساء كفضل الشريد على سائر الطعام. وقال عبد الله بن المبارك، رحمه الله: قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه: في قوله تعالى: «فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ» قال: هي لأهل بدونا، ومقتصدنا أهل حضرةنا، وسابقنا أهل الجهاد. رواه ابن أبي حاتم. وقال عوف الأعرابي: حدثنا عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: حدثنا كعب الأحبار قال: إن الظالم لنفسه من هذه الأمة، والمقتصد والسابق بالخيرات كلهم في الجنة، ألم تر أن الله تعالى قال: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» (٣٢) جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا إِلَى قَوْلِهِ: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ» قال: فهؤلاء أهل النار. ورواه ابن

جرير من طرق، عن عوف، به. ثم قال: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثني ابن عُليّة، أخبرنا حميد، عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث، عن أبيه أن ابن عباس سأل كعباً عن قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ إلى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قال: تماسمت منابكهم وزب كعب، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم. ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا الحكم بن بشير، حدثنا عمرو بن قيس، عن أبي إسحاق السبيعي في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية، قال أبو إسحاق: أما ما سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج. ثم قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا الحكم، حدثنا عمرو، عن محمد بن الحنفية قال: إنها أمة مرحومة، الظالم مغفور له، والمقتصد في الجنات عند الله، والسابق بالخيرات في الدرجات عند الله. ورواه الثوري، عن إسماعيل بن سميع، عن رجل، عن محمد بن الحنفية، بنحوه. وقال أبو الجارود: سألت محمد بن علي - يعني: الباقر - عن قوله: ﴿فَيَنْهَضُ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ فقال: هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً. فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام. وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه الرحمة، فإنهم كما قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا محمد بن يزيد، حدثنا عاصم بن رجاء بن خُوّة، عن قيس بن كثير قال: قدم رجل من المدينة إلى أبي الدرداء - وهو بدمشق - فقال: ما أقدمك أي أخي؟ قال: حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ. قال أما قدمت لتجارة؟ قال: لا. قال: أما قدمت لحاجة؟ قال: لا؟ قال: أما قدمت إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: نعم. قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم، وإنه ليستغفر للعالم من في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. إن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر». وأخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث كثير بن قيس - ومنهم من يقول: قيس بن كثير - عن أبي الدرداء. وقد ذكرنا طرقه واختلاف الرواية فيه في شرح «كتاب العلم» من «صحيح البخاري»، والله الحمد والمنة. وقد تقدم في أول «سورة طه» حديث ثعلبة بن الحكم، عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء: إني لم أضع علمي وحكمي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم، على ما كان منكم، ولا أبالي».

﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا لِمَ لَمْ يَأْتِ اللَّهُ بِالَّذِي آذَنَ عَنْ الْمُرْسَلِينَ إِنْ يَكُنْ رَبُّكَ بِتَقْوَىٰ شُكْرٍ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَتَانَا دَارَ الْمُقَامَاتِ مِنْ قَبْلِهِ. لَا يَسْتَأْذِنُ فِيهَا نَفْسٌ وَلَا يَمَسُّ فِيهَا ثَمَرٌ ﴿٣٥﴾﴾.

يخبر تعالى أن ماوى هؤلاء المصطفين من عباده، الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ﴾ أي: جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدمهم على ربهم، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾، كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تبلغ الخلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء». ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾، ولهذا كان محظوراً عليهم في الدنيا، فأباحه الله لهم في الدار الآخرة، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «من لبس الحرير في الدنيا، لم يلبسه في الآخرة». وقال: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن سواد السرحي، أخبرنا ابن وهب، عن ابن لُهَيْعة، عن عقيل بن خالد، عن الحسن، عن أبي هريرة، رضي الله عنه؛ أن أبا أمامة حدث: أن رسول الله ﷺ حدثهم، وذكر حلى أهل الجنة فقال: «مسورون بالذهب والفضة، مكلمة بالدر، وعليهم أكاليل من دُرٍّ وياقوت متواصلة، وعليهم تاج كتاج الملوك، شباب جُرْدُ مُرْدٍ مكحلون». ﴿وَقَالُوا لِمَ لَمْ يَأْتِ اللَّهُ بِالَّذِي آذَنَ عَنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهو الخوف من المحذور، أزاحه عنا، وأراحنا مما كنا نتخوفه، ونحذوه من هموم الدنيا والآخرة. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس على أهل ﴿لا إله إلا الله﴾ وحشة في قبورهم ولا في منشرهم، وكأنني بأهل ﴿لا إله إلا الله﴾ ينفضون التراب عن رؤوسهم، ويقولون: ﴿لِمَ لَمْ يَأْتِ اللَّهُ بِالَّذِي آذَنَ عَنْ الْمُرْسَلِينَ﴾». رواه ابن أبي حاتم من حديثه. وقال الطبراني: حدثنا جعفر بن محمد الفريابي، حدثنا يحيى بن موسى المروزي، حدثنا سليمان بن عبد الله بن وهب الكوفي، عن عبد العزيز بن حكيم، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس على أهل ﴿لا إله إلا الله﴾ وحشة في الموت ولا في قبورهم ولا في النشور. وكأنني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب، يقولون: ﴿لِمَ لَمْ يَأْتِ اللَّهُ بِالَّذِي آذَنَ عَنْ الْمُرْسَلِينَ﴾». كما ثبت في الصحيح أن

قال ابن عباس، وغيره: غفر لهم الكثير من السيئات، وشكر لهم اليسير من الحسنات. ﴿الَّذِي أَتَانَا دَارَ الْمُقَامَاتِ مِنْ قَبْلِهِ﴾: يقولون: الذي أعطانا هذه المنزلة، وهذا المقام من فضله ومثله ورحمته، لم تكن أعمالنا تساوي ذلك. كما ثبت في الصحيح أن

رسول الله ﷺ قال: «لن يدخل أحدكم عمله الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتخمدني الله برحمة منه وفضل». ﴿لَا يَسْأَلُ فِيهَا نَفْسٌ وَلَا يَسْأَلُ فِيهَا لُتُوبٌ﴾ أي: لا يسئال فيها عتاء ولا إعياء. والنصب واللغوب: كل منهما يستعمل في التعب. وكان المراد بنفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم، والله أعلم. فمن ذلك أنهم كانوا يذنبون أنفسهم في العبادة في الدنيا، فسقط عنهم التكليف بدخولها، وصاروا في راحة دائمة مستمرة، قال الله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِغَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقَنِّنُ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [١٦] ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَّلَ نَعْمَلُ مَا نَعْمَلُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَاصِرٍ﴾ [١٧].
لما ذكر تعالى حال السعداء، شرع في بيان مآل الأشقياء، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقَنِّنُ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾، كما قال تعالى: ﴿لَا يَبُوتُ فِيهَا وَلَا يَسْتَحْيٰ﴾ [طه: ٧٤]. وثبت في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فلا يموتون فيها ولا يحيون». قال الله تعالى: ﴿وَنَادُوا بِتَكْلَافٍ لِّقَبْضِ عَلَيْنَا رَبُّنَا قَالَ إِنَّكُمْ تُكَلِّمُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]. فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك، قال الله تعالى: ﴿لَا يُقَنِّنُ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [٧٨] ﴿لَا يَفْقَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسَوْنَ﴾ [٧٩] [الزخرف: ٧٤-٧٥]. وقال: ﴿كُلَّمَا حَبَسَ ذُنُوبَهُمْ صُورًا﴾ [الإسراء: ٩٧] ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَرِيَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [١٢٠] [النبا: ٣٠]. ثم قال: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ أي: هذا جزاء كل من كفر بربه، وكذب بالحق. وقوله: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا﴾ أي: ينادون فيها، يجارون إلى الله، ﷻ، بأصواتهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: يسألون الرجعة إلى الدنيا، ليعملوا غير عملهم الأول، وقد علم الرب، جل جلاله، أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا، لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون. فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم، كما قال تعالى مخبراً عنهم في قولهم: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَلِنْ يَتُوكَ يَوْمَ يُؤْمِنُوا﴾ [غافر: ١١-١٢]، أي: لا يجيبكم إلى ذلك، لأنكم كنتم كذلك، ولو رددتم لعدتم إلى ما نهيتهم عنه؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿أَوَّلَ نَعْمَلُ مَا نَعْمَلُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ﴾ أي: أو ما عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانفعتم به في مدة عمركم؟ وقد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد هاهنا، فروي عن علي بن الحسين زين العابدين أنه قال: مقدار سبع عشرة سنة. وقال قتادة: اعلموا أن طول العمر حجة، فنعوذ بالله أن نغير بطول العمر، قد نزلت هذه الآية: ﴿أَوَّلَ نَعْمَلُ مَا نَعْمَلُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ﴾، وإن فيه من لابن ثمان عشرة سنة. وكذا قال أبو غالب الشيباني. وقال عبد الله بن المبارك، عن مَعْمَر، عن رجل، عن وهب بن مَثْبُة في قوله: ﴿أَوَّلَ نَعْمَلُ مَا نَعْمَلُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ﴾، قال: عشرين سنة. وقال هُشَيْم، عن منصور، عن زاذان، عن الحسن في قوله: ﴿أَوَّلَ نَعْمَلُ مَا نَعْمَلُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ﴾، قال: أربعين سنة. وقال هشيم أيضاً، عن مجاهد، عن الشعبي، عن مسروق أنه كان يقول: إذا بلغ أحدكم أربعين سنة، فليأخذ حذره من الله ﷻ.

وهذا رواية عن ابن عباس فيما قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن مجاهد قال: سمعت ابن عباس يقول: العمر الذي أعذر الله إلى ابن آدم: ﴿أَوَّلَ نَعْمَلُ مَا نَعْمَلُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ﴾ أربعون سنة. هكذا رواه من هذه الوجه، عن ابن عباس. وهذا القول هو اختيار ابن جرير. ثم رواه من طريق الشوري وعبد الله بن إدريس، كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في قوله: ﴿أَوَّلَ نَعْمَلُ مَا نَعْمَلُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ﴾ ستون سنة. فهذه الرواية أصح عن ابن عباس، وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضاً، لما ثبت في ذلك من الحديث - كما سنورده - لا كما زعمه ابن جرير، من أن الحديث لم يصح؛ لأن في إسناده من يجب التثبت في أمره. وقد روى أصبغ بن ثباتة، عن علي، رضي الله عنه، أنه قال: العمر الذي غيرهم الله به في قوله تعالى: ﴿أَوَّلَ نَعْمَلُ مَا نَعْمَلُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ﴾ ستون سنة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا دُحَيْم، حدثنا ابن أبي قُدَيْك، حدثني إبراهيم بن الفضل المخزومي، عن ابن أبي حُسَيْن المكي؛ أنه حدثه عن غطاء - هو ابن أبي رباح - عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة قيل: أين أبناء الستين؟ وهو العمر الذي قال الله فيه: ﴿أَوَّلَ نَعْمَلُ مَا نَعْمَلُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾». وكذا رواه ابن جرير، عن علي بن شعيب، عن محمد بن إسماعيل بن أبي قُدَيْك، به. وكذا رواه الطبراني من طريق ابن أبي قُدَيْك، به. وهذا الحديث فيه نظر؛ لحال إبراهيم بن الفضل، والله أعلم. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن رَجُلٍ من بني غَفَار، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لقد أعذر الله إلى عبد أحياء حتى بلغ ستين أو سبعين سنة، لقد أعذر الله إليه، لقد أعذر الله إليه».

وهكذا رواه الإمام البخاري في «كتاب الرقاق» من صحيحه: حدثنا عبد السلام بن مطهر، عن عمر بن علي، عن مغل بن محمد الغفاري، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعذر الله ﷻ إلى امرئ آخر عمره حتى بلغه ستين سنة». ثم قال البخاري: تابعه أبو حازم وابن عجلان، عن سعيد المقبري. فأما أبو حازم فقال ابن جرير: حدثنا أبو صالح الفزاري، حدثنا محمد بن سوار، أخبرنا يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد القاري الإسكندراني، حدثنا أبو حازم، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من عمره الله ستين سنة، فقد أعذر إليه في العمر». وقد رواه الإمام أحمد والنسائي في الرقاق جميعاً عن قتيبة، عن يعقوب بن عبد الرحمن، به. ورواه البزار قال: حدثنا هشام بن يونس، حدثنا عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة». يعني: «أَوْ لَرَّ نَعْمَرُكُم مَّا يَنْدَكُرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ». وأما متابعة «ابن عجلان» فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو السريحي بن محمد بن عبد الملك بن قرعة بسامراء، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني محمد بن عجلان، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله ﷻ، إليه في العمر». وكذا رواه الإمام أحمد عن أبي عبد الرحمن هو المقرئ، به. ورواه أحمد أيضاً عن خلف عن أبي مغشّر، عن سعيد المقبري. طريق أخرى عن أبي هريرة: قال ابن جرير: حدثني أحمد بن الفرج أبو عتبة الحمصي، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، حدثنا المطرف بن مازن الكناني، حدثني مَعْمَر بن راشد قال: سمعت محمد بن عبد الرحمن الغفاري يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لقد أعذر الله ﷻ، إلى صاحب الستين سنة والسبعين». فقد صح هذا الحديث من هذه الطرق، فلو لم يكن إلا الطريق التي ارتضاها أبو عبد الله البخاري شيخ هذه الصناعة لكفت. وقول ابن جرير: (إن في رجاله بعض من يجب التثبت في أمره)، لا يلتفت إليه مع تصحيح البخاري، والله أعلم. وذكر بعضهم أن العمر الطبيعي عند الأطباء مائة وعشرون سنة، فالإنسان لا يزال في ازدياد إلى كمال الستين، ثم يشرع بعد هذا في النقص والهرم، كما قال الشاعر:

إِذَا بَلَغَ الْفَتَى سِتِينَ عَامًا فَقَدْ ذُقَبَ الْمَسَرَّةُ وَالْفَتَاءُ

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله إلى عباده به، ويزيح به عنهم العلل، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة، كما ورد بذلك الحديث، قال الحسن بن عرفة، رحمه الله: حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك». وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه جميعاً في كتاب الزهد، عن الحسن بن عرفة، به. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وهذا عَجَبٌ من الترمذي، فإنه قد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا من وجه آخر وطريق أخرى، عن أبي هريرة، حيث قال: حدثنا سليمان بن عمر، عن محمد بن ربيعة، عن كامل أبي العلاء، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك». وقد رواه الترمذي في «كتاب الزهد» أيضاً، عن إبراهيم بن سعيد الجوهري، عن محمد بن ربيعة، به. ثم قال: هذا حديث حسن غريب، من حديث أبي صالح عن أبي هريرة، وقد روى من غير وجه عنه. هذا نصه بحروفه في الموضوعين، والله أعلم. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو موسى الأنصاري، حدثنا ابن أبي فديك، حدثني إبراهيم بن الفضل - مولى بني مخزوم - عن المقبري، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مُعْتَرَكُ المنيا ما بين الستين إلى السبعين». وبه قال: قال رسول الله ﷺ: «أقل أمتي أبناء سبعين». إسناده ضعيف. حديث آخر في معنى ذلك: قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا إبراهيم بن هاني، حدثنا إبراهيم بن مهدي، حدثنا عثمان بن مطر، عن أبي مالك، عن رُبَيْعٍ عن حذيفة أنه قال: يا رسول الله، أنبتنا بأعمار أمتك. قال: «ما بين الخمسين إلى الستين». قالوا: يا رسول الله، فأبناء السبعين؟ قال: «قل من يبلغها من أمتي، رحم الله أبناء السبعين، ورحم الله أبناء الثمانين». ثم قال البزار: لا يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد، وعثمان بن مطر من أهل البصرة ليس بقوي. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثة وستين سنة. وقيل: ستين. وقيل: خمسا وستين سنة. والمشهور الأول، والله أعلم. وقوله: «وَجَاءَكُمْ الْأَنْذِيرُ»: روي عن ابن عباس، وعكرمة، وأبي جعفر الباقر، وقتادة، وسفيان بن عيينة أنهم قالوا: يعني: الشيب. وقال السدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني به الرسول ﷺ وقرأ ابن زيد: «هَذَا نَذِيرٌ بَيْنَ الْأَوَّلِ (٥١) [النجم: ٥٦]». وهذا هو الصحيح عن قتادة، فيما رواه شيبان، عنه أنه قال: احتج عليهم بالعمر والرسول. وهذا اختيار ابن جرير، وهو الأظهر؛ لقوله تعالى: «وَأَوَدُّ بِكُمْ إِلَهُكُمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّكُمْ كَذِبْتُمْ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لَاحِقٌ كَذِبُهُمْ (٧٨)»

تفسير سورة يس

وهي مكية. قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا قتيبة وسفيان بن وكيع، حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرؤاسي، عن الحسن بن صالح، عن هارون أبي محمد، عن مقاتل بن حيان، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن يس». ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات. ثم قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد بن عبد الرحمن. وهارون أبو محمد شيخ مجهول. وفي الباب عن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، ولا يصح لضعف إسناده، وعن أبي هريرة منظور فيه. أما حديث الصديق فرواه الحكيم الترمذي في كتابه نوادر الأصول. وأما حديث أبي هريرة فقال أبو بكر البزار: حدثنا عبد الرحمن بن الفضل، حدثنا زيد - هو ابن الحباب - حدثنا حميد - هو المكّي، مولى آل علقمة - عن عطاء - هو ابن أبي رباح - عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن يس». ثم قال: لا نعلم رواه إلا زيد، عن حميد. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا حجاج بن محمد، عن هشام بن زياد، عن الحسن قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ يس في ليلة أصبح مغفوراً له. ومن قرأ: «حم» التي فيها الدخان أصبح مغفوراً له». إسناده جيد. وقال ابن حبان في صحيحه: حدثنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم - مولى ثقيف - حدثنا الوليد بن شجاع بن الوليد السكوني، حدثنا أبي، حدثنا زيد بن خثيمة، حدثنا محمد بن جحادة، عن الحسن، عن جُنْدَب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله، غفر له». وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا معتمر، عن أبيه، عن رجل، عن أبيه، عن معقل بن يسار، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «البقرة سنّام القرآن وذروته، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً، واستخرجت ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] من تحت العرش فوصلت بها - أو: فوصلت بسورة البقرة - ويس قلب القرآن، لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة، إلا غفر له، وأقرؤها على موتاكم». وكذا رواه النسائي في «اليوم والليلة» عن محمد بن عبد الأعلى، عن معمر بن سليمان، به. ثم قال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا ابن المبارك، حدثنا سليمان التيمي، عن أبي عثمان - وليس بالتهدي - عن أبيه، عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «أقرؤها على موتاكم» - يعني: يس.

ورواه أبو داود، والنسائي في «اليوم والليلة» وابن ماجه من حديث عبد الله بن المبارك، به إلا أن في رواية النسائي: عن أبي عثمان، عن معقل بن يسار. ولهذا قال بعض العلماء: من خصائص هذه السورة: أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره الله. وكان قراءتها عند الميت لتنزل الرحمة والبركة، وليسهل عليه خروج الروح، والله أعلم. قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان قال: كان المشيخة يقولون: إذا قرأت - يعني يس - عند الميت خُفِّف عنه بها. وقال البزار: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي» - يعني: يس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْ﴾ (١) وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ (٢) إِنَّكَ لَئِنْ أَلَمْتَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) نَزِيلَ الْفَرْقَانِ الرَّحِيمِ (٥) إِنْشِدْ رُومًا مَا أُذِيرَ مَا بَاتُواهُمْ فَهُمْ عَفِوُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧).

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول «سورة البقرة»: ورؤي عن ابن عباس وعكرمة، والضحاك، والحسن وسفيان بن عيينة أن «يس» بمعنى: يا إنسان. وقال سعيد بن جبيرة: هو كذلك في لغة الحبشة. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: هو اسم من أسماء الله تعالى. «وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ» (٢): أي: المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، «إِنَّكَ» يا محمد «لَئِنْ أَلَمْتَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (٣): أي: على منهج ودين قويم، وشرع مستقيم، «نَزِيلَ الْفَرْقَانِ الرَّحِيمِ» (٤): أي: هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت به مُنْزَل من رب العزة، الرحيم بعباده المؤمنين، كما قال تعالى: «وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ وَصِيَّتِي وَالْهَدْيَ لِي» (٥) صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ آيَاتُ اللَّهِ تُبَيِّنُ الْأُمُورَ (٥٦) [الشورى: ٥٢-٥٣]. وقوله تعالى: «إِنْشِدْ رُومًا مَا أُذِيرَ مَا بَاتُواهُمْ فَهُمْ عَفِوُونَ» (٦) يعني بهم: العرب؛ فإنه ما أتاهم من نذير من قبله. وذكرهم وحدهم لا يفي من

عدهم كما زعمه بعض النصارى، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم. وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المواترة في عموم بعثته، صلوات الله وسلامه عليه، عند قوله تعالى: ﴿قُلْ يَكْفِيكَمُ اللَّهُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الاعراف: ١٥٨]. وقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾: قال ابن جرير: لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله قد حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله، ولا يصدقون رسله.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْتَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ (٨) ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٩) ﴿وَسَوْفَ عَلِيمٌ أَلَدَّرَتْنَاهُمْ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠) ﴿إِنَّمَا تُذَكِّرُ مَنْ أُنْعِمَ الذِّكْرُ وَخَسِيَ الرَّحْمَنَ الْغَنِيِّ فَفِتْنَةٌ يَغْفِرُ وَأَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (١١) ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتُوتَ وَنَكْتُبُ مَا قَدَسُوا وَآذَنَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ (١٢).

يقول تعالى: إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جعل في عنقه غُل، فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه، فارتفع رأسه، فصار مقمحا؛ ولهذا قال: ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾، والمقمح: هو الرافع رأسه، كما قالت أم زرع في كلامها: «وأشرب فأنقمح» أي: أشرب فأروي، وأرفع رأسي تهنيئا وترويا. واكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين، وإن كانتا مرادتين، كما قال الشاعر:

فَمَا أَذْرَى إِذَا يُمْنَتْ أَزْضَا أُرِيدَ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي
الْخَيْرُ الَّذِي أَنَا ابْنُغِيهِ أَمْ الشَّرُّ الَّذِي لَا يَأْتِلِينِي

فاكتفى بذكر الخير عن ذكر الشر لما دل السياق والكلام عليه، وكذا هذا، لما كان الغل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق، اكتفى بذكر العنق عن اليدين. قال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْتَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ (٨) قال: هو كقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩] يعني بذلك: أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم، لا يستطيعون أن يسطوها بخير. وقال مجاهد: ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ قال: رافعوا رؤوسهم، وأيديهم موضوعة على أفواههم، فهم مغلولون عن كل خير. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾: قال مجاهد: عن الحق، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال مجاهد: عن الحق، فهم يترددون. وقال قتادة: الضلالات. وقوله: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ أي: أغشينا أبصارهم عن الحق، ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي: لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه. قال ابن جرير: وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «فأغشيناهم» بالعين المهملة، من العشا وهو داء في العين. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: جعل الله هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان فهم لا يخلصون إليه، وقرأ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ حَفَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١١) ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (١٢) (يونس: ٩٦-٩٧) ثم قال: من منعه الله لا يستطيع. وقال عكرمة: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً لأفعلن ولأفعلن، فأنزلت: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْتَالًا﴾ إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، قال: وكانوا يقولون: هذا محمد. فيقول: أين هو؟ أين هو؟ لا يبصره. رواه ابن جرير. وقال محمد بن إسحاق: حدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب قال: قال أبو جهل وهم جلوس: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكاً فإذا متم بعثتم بعد موتكم، وكانت لكم جنات خير من جنات الأزْدن. وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح، ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تعذبون بها. وخرج عليهم رسول الله ﷺ عند ذلك، وفي يده حفنة من تراب، وقد أخذ الله على أعينهم دونه، فجعل يذرها على رؤوسهم، ويقرأ: ﴿يَسَّ﴾ (١) والقرآن المكي (٢) حتى انتهى إلى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٩)، وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته، وابتأوا رؤساء على بابه، حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار، فقال: ما لكم؟ قالوا: ننتظر محمداً. قال: قد خرج عليكم، فما بقي منكم من رجل إلا قد وضع على رأسه تراباً، ثم ذهب لحاجته. فجعل كل رجل منهم ينفض ما على رأسه من التراب. قال: وقد بلغ النبي ﷺ قول أبي جهل فقال: «وأنا أقول ذلك: إن لهم مني لذبحاً، وإنه أحدهم». وقوله: ﴿وَسَوْفَ عَلِيمٌ أَلَدَّرَتْنَاهُمْ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠) أي: قد حتم الله عليهم بالضلالة، فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به. وقد تقدم نظيرها في أول سورة البقرة، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ حَفَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١١) ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (١٢) (يونس: ٩٦-٩٧). إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر، وهو القرآن العظيم، ﴿وَخَسِيَ الرَّحْمَنَ﴾ أي: حيث لا يراه أحد إلا الله، يعلم أن الله مطلع عليه، وعالم بما يفعله، ﴿فَفِتْنَةٌ يَغْفِرُ﴾ أي: للذنوب، ﴿وَأَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: كبير واسع حسن جميل، كما قال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْقَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْقَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (١٣) (الملك: ١٧). ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتُوتَ﴾ أي: يوم القيامة، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب من

يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق، كما قال بعد ذكر قسوة القلوب: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧]. وقوله: ﴿وَنَكْشِبُ مَا قَدَّمُوا﴾ أي: من الأعمال. وفي قوله: ﴿وَأَنزَلْنَاهُمْ﴾ قولان:

أحدهما: نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم، وآثارهم التي أثروها من بعدهم، فنجزهم على ذلك أيضاً، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كقوله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة، كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً». رواه مسلم، من رواية شعبة، عن عون بن أبي جحيفة، عن المنذر بن جرير، عن أبيه جرير بن عبد الله البجلي، رضي الله عنه، وفي قصة مُجْتَابِي الثَمَارِ الْمُضْرِبِينَ. ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن يحيى بن سليمان الجعفي، عن أبي المحية يحيى بن يَمْلَى، عن عبد الملك بن عمير، عن جرير بن عبد الله، فذكر الحديث بطوله، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَنَكْشِبُ مَا قَدَّمُوا وَأَنزَلْنَاهُمْ﴾. وقد رواه مسلم من رواية أبي عَوَانَةَ، عن عبد الملك بن عمير، عن المنذر بن جرير، عن أبيه، فذكره. وهكذا الحديث الآخر الذي في صحيح مسلم عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم، انقطع عمله إلا من ثلاث: من علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده». وقال سفيان الثوري، عن أبي سعيد قال: سمعت مجاهداً يقول في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْشِبُ مَا قَدَّمُوا وَأَنزَلْنَاهُمْ﴾ قال: ما أوردوا من الضلالة.

وقال ابن أبيه، عن عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿وَنَكْشِبُ مَا قَدَّمُوا وَأَنزَلْنَاهُمْ﴾ يعني: ما أثروا. يقول: ما سنوا من سنة، فعمل بها قوم من بعد موتهم، فإن كان خيراً فله مثل أجورهم، لا ينقص من أجر من عمله شيئاً، وإن كانت شراً فعليه مثل أوزارهم، ولا ينقص من أوزار من عمله شيئاً. ذكرهما ابن أبي حاتم. وهذا القول هو اختيار البغوي.

والقول الثاني: أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية. قال ابن أبي نجيع وغيره، عن مجاهد: ﴿مَا قَدَّمُوا﴾: أعمالهم. ﴿وَأَنزَلْنَاهُمْ﴾: قال: خطاهم بأرجلهم. وكذا قال الحسن وقتادة: ﴿وَأَنزَلْنَاهُمْ﴾ يعني: خطاهم. قال قتادة: لو كان الله تعالى مغفلاً شيئاً من شأنك يا ابن آدم، أغفل ما تعفي الرياح من هذه الآثار، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله، حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله أو من معصيته، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله، فليفعل. وقد زُودت في هذا المعنى أحاديث:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبي، حدثنا الجُرَيْرِي، عن أبي نضرة، عن جابر بن عبد الله قال: خلت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال لهم: «إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد». قالوا: نعم يا رسول الله، قد أردنا ذلك. فقال: «يا بني سلمة، دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم». وهكذا رواه مسلم، من حديث سعيد الجريري وكهشمس بن الحسن، كلاهما عن أبي نضرة - واسمه: المنذر بن مالك بن قطعة العبدي - عن جابر.

الحديث الثاني: قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الوزير الواسطي، حدثنا إسحاق الأزرق، عن سفيان الثوري، عن أبي سفيان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: كانت بنو سلمة في ناحية من المدينة، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قريب من المسجد، فنزلت: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْشِبُ مَا قَدَّمُوا وَأَنزَلْنَاهُمْ﴾ فقال لهم النبي ﷺ: «إن آثاركم تكتب». فلم ينتقلوا. انفرد بإخراجه الترمذي عند تفسير هذه الآية الكريمة، عن محمد بن الوزير، به. ثم قال: (حسن غريب من حديث الثوري). ورواه ابن جرير، عن سليمان بن عمر بن خالد الرقي، عن ابن المبارك، عن سفيان الثوري، عن طريف - وهو ابن شهاب أبو سفيان السعدي - عن أبي نضرة، به. وقد رُوي من غير طريق الثوري، فقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن زياد الساجي، حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا شعبة، عن سعيد الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: إن بني سلمة شَكُّوا إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد، فنزلت: ﴿وَنَكْشِبُ مَا قَدَّمُوا وَأَنزَلْنَاهُمْ﴾، فأقاموا في مكانهم. وحدثنا ابن المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ، بنحوه. وفيه غرابة من حيث ذكر نزول هذه الآية، والسورة بكمالها مكية، فالله أعلم.

الحديث الثالث: قال ابن جرير: حدثنا نصر بن علي الجهضمي، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت منازل الأنصار متباعدة من المسجد، فأرادوا أن ينتقلوا إلى المسجد، فنزلت: ﴿وَنَكْشِبُ مَا

قَدَّمُوا وَأَثَرَهُمْ»، فقالوا: ثبت مكاننا. هكذا رواه وليس فيه شيء مرفوع. ورواه الطبراني عن عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم، عن محمد بن يوسف الغريابي، عن إسرائيل، عن سيمك، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانت الأنصار بعيدة منازلهم من المسجد، فأرادوا أن يتحولوا إلى المسجد، فنزلت: ﴿وَنَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا وَأَثَرَهُمْ﴾، فثبتوا في منازلهم.

الحديث الرابع: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثني حُتَيْب بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبلي، عن عبد الله بن عمرو قال: توفي رجل بالمدينة، فصلى عليه النبي ﷺ وقال: «يا ليت مات في غير مولده». فقال رجل من الناس: ولم يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل إذا توفي في غير مولده، قيس له من مولده إلى منقطع أثره في الجنة».

ورواه النسائي عن يونس بن عبد الأعلى، وابن ماجه عن حرملة، كلاهما عن ابن وهب، عن حيي بن عبد الله، به. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا أبو ثعلبة، حدثنا الحسين، عن ثابت قال: مشيت مع أنس فأسرعت المشي، فأخذ بيدي فمشينا وريداً، فلما قضينا الصلاة قال أنس: مشيت مع زيد بن ثابت فأسرعت المشي، فقال: يا أنس، أما شعرت أن الآثار تكتب؟ أما شعرت أن الآثار تكتب؟

وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأخرى، فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب، فلان تكتب تلك التي فيها قُدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَارٍ مُبِينٍ﴾ أي: جميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ، والإمام المبين هنا هو أم الكتاب. قاله مجاهد، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وكذا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] أي: بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ وَتَوَاعَاهُ يَاسِينَ وَالشُّهَدَاءُ﴾ [الزمر: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَفِي السَّمْعَيْنِ مَشْفُوعِينَ بِمَا فِيهِ يُقُولُونَ رَبَّنَا مَا هَذَا الصَّحْفُ لَا يَقَارِئُ صِدْقَ وَلَا كَيْفَ إِلَّا لَنُصَنِّعَنَّهُمْ نَبِيًّا مَا وَعَدُوا غَيْرًا وَلَا يُلَاقِي رَبَّهُمْ لَكُنَّا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [١٣] إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اتْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَهَمَزْنَا بِهَذَا الْإِنَّمِ أَنْتَ مُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن قَبْلِهِ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ قَالُوا رَبَّنَا بَعَثَ إِلَيْنَا إِبْرَاهِيمَ وَنُوحًا وَآدَمَ مِن قَبْلِ هَٰذَا إِنَّكَ لَأَنزِلُ الرَّسُولَ فِي هَٰذَا الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [١٥].

يقول تعالى: واضرب - يا محمد - لقومك الذين كذبوك ﴿ثُمَّ جَاءَهُمُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [١٦] قَالُوا رَبَّنَا بَعَثَ إِلَيْنَا إِبْرَاهِيمَ وَنُوحًا وَآدَمَ مِن قَبْلِ هَٰذَا إِنَّكَ لَأَنزِلُ الرَّسُولَ فِي هَٰذَا الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [١٧]. قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس، وكعب الأحبار، وهب بن منبه -: إنها مدينة أنطاكية، وكان بها ملك يقال له: انطيوخس بن انطيوخس بن انطيوخس، وكان يعبد الأصنام، فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل، وهم: صادق وصادق وشلوم، فكذبهم. وهكذا روي عن يزيد بن الخصب، وعكرمة، وقتادة، والزهرى: أنها أنطاكية. وقد استشكل بعض الأئمة كونها أنطاكية، بما سنذكره بعد تمام القصة، إن شاء الله تعالى. وقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اتْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي: بادروهما بالكذب، ﴿فَهَمَزْنَا بِهَذَا الْإِنَّمِ﴾ أي: قويتاهم وشددنا أزرهما برسول ثالث. قال ابن جرير، عن وهب بن سليمان، عن شعيب الجبائي قال: كان اسم الرسولين الأولين شمعون ويوحنا، واسم الثالث بولص، والقرية أنطاكية.

﴿فَقَالُوا﴾ أي: لأهل تلك القرية: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ أي: من ربكم الذي خلقكم، نأمركم بعبادته وحده لا شريك له. قاله أبو العالية. وزعم قتادة بن دعامة: أنهم كانوا رسل المسيح، عليه السلام، إلى أهل أنطاكية ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أي: فكيف أوحى إليكم وأنتم بشر ونحن بشر، فلم لا أوحى إلينا مثلكم؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة. وهذه شبه كثير من الأمم المكذبة، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [التغابن: ٦]، فاستعجبوا من ذلك وأنكروه. وقوله: ﴿قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَرِيدُونَ أَنْ نُصَدِّقَ عَنْكَ كَاثِبٌ مَّابِئُونَا فَأَوْفَا بِسُلْطَانِ مُبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]. وقوله حكاية عنهم في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَطْعَمَهُمُ بَشَرًا مِثْلُكُمْ يُكْفَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتِلْكَ إِلَّا جَاهِلُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَمَنَّاهُ بَشَرًا مِثْلُكُمْ﴾ [الإسراء: ٩٤]. ولهذا قال هؤلاء: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن قَبْلِهِ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ قَالُوا رَبَّنَا بَعَثَ إِلَيْنَا إِبْرَاهِيمَ وَنُوحًا وَآدَمَ مِن قَبْلِ هَٰذَا إِنَّكَ لَأَنزِلُ الرَّسُولَ فِي هَٰذَا الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [١٥]. أي: أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين: الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار، كقوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَشِيرًا﴾ [البقرة: ١٢٩]، ﴿وَلَا تَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ١٣٠]، ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [١٧]. يقولون: إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم، فإن أظعنتم كانت لكم [المعنى: ٥٢].

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ نَنهَضُوا لَلْجَحِيمِ وَلْيَعِزِّزْ بِنَا عَذَابَ آيَةٍ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿قَالُوا طَهِّرْكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ﴾ ﴿١٩﴾
فبعد ذلك قال لهم أهل القرية: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: لم نزع على وجوهكم خيراً في عيشنا.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَنْفَوِيكُمْ أَنْتُمْ وَالرَّاسِلُونَ ﴿٢١﴾﴾ أَنْتُمْ وَمَنْ لَا يَسْتَظْهِرُ أَخَاهُ وَهُمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ رُجُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ فَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِيدُ الْإِخْلَاقَ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شِفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَقْدِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ إِلَهِي إِنْكَ لَكُنِّي ضَلُّكِي مَبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ إِنْ أَمْسَتْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه -: إن أهل القرية قَتَلُوا بقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى، أي: لينصرهم من قومه - قالوا: وهو حبيب، وكان يعمل الجرير - وهو الحبال - وكان رجلاً سقيماً قد أسرع فيه الجذام، وكان كثير الصدقة، يتصدق بنصف كسبه، مستقيم النظرة. وقال ابن إسحاق عن رجل سماه، عن الحكم، عن مِقْسَم - أو: عن مجاهد - عن ابن عباس قال: كان اسم صاحب يس حبيب، وكان الجذام قد أسرع فيه. وقال الثوري، عن عاصم الأحول، عن أبي معجل: كان اسمه حبيب بن مري. وقال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس أيضاً قال: اسم صاحب يس حبيب النجار، فقتله قومه.

وقال السدي: كان قَصَّاراً. وقال عمر بن الحكم: كان إسكافاً. وقال قتادة: كان يتعبد في غار هناك. ﴿قَالَ يَتْفِرُّوْا أَتَمِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾: يحض قومه على اتباع الرسل الذين أنوهم، ﴿أَتَمِعُوا مِنْ لَّا يَسْتَكْبِرُ أَجْرًا﴾ أي: على إبلاغ الرسالة، ﴿وَهُمْ مُتْمَدِّنُونَ﴾ فيما يدعونكم إليه، من عبادة الله وحده لا شريك له. ﴿وَمَا لِي لَا أَقْبُدَ الَّذِي ظَفَرَنِي﴾ أي: وما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له، ﴿وَالَّذِي رَجَعُونِ﴾ أي: يوم المعاد، فيجازيكم على أعمالكم، إن خيراً فأخبر، وإن شراً فشر. ﴿وَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾؟ استفهام إنكار وتوبيخ وتقرع، ﴿إِنْ يُرِيدِ الْكَافِرِينَ بَصَرٌ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا وَلَا يَقُودُونَ﴾ أي: هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئاً، فإن الله لو أرادني بسوء، ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: ١٠٧]. وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه، ولا يتقذوني مما أنا فيه، ﴿إِنِّي إِذْ أَكُنِي صَبًّلاً ثِيْبِي﴾ (٢٤) أي: إن اتخذتها آلهة من دون الله. وقوله: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ﴾ (٢٥): قال ابن إسحاق- فيما بلغه عن ابن عباس وكعب وهب- يقول لقومه: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي كفرتم به، ﴿فَاسْمِعُونِ﴾ أي: فاسمعوا قلبي. ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أي: الذي أرسلكم، ﴿فَاسْمِعُونِ﴾ أي: فاشهدوا لي بذلك عنده. وقد حكاها ابن جرير فقال: وقال آخرون: بل خاطب بذلك الرسل، وقال لهم: اسمعوا قلبي، لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي، إني قد آمنت بربكم واتبعتمكم. وهذا القول الذي حكاها هؤلاء أظهر في المعنى، والله أعلم.

قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب - : فلما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ، ولم يكن له أحد يمينع عنه . وقال قتادة : جعلوا يرمونه بالحجارة ، وهو يقول : اللهم اهد قومي ، فإنهم لا يعلمون . فلم يزالوا به حتى ألقوه وهو يقول كذلك ، فقتلوه ، رحمه الله .

﴿يَسْأَلُ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا عَصَوْا لِي بِرَبِّي وَعَلَيْهِ مِنَ الْكُفُوبِ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُتَرَلِّينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كُنْتَ إِلَّا صَبِيحَةً وَاحِدَةً فَأَنَّا هُمْ خُنُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

قال محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن ابن مسعود: إنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُضْبُهُ من دبره وقال الله له:

﴿أَنْخَلِ الْجَنَّةَ﴾، فدخلها فهو يرزق منها، قد أذهب الله عنه سُقْم الدنيا وحزنها ونَصَبَهَا. وقال مجاهد: قيل لحبيب النجار: ادخل الجنة. وذلك أنه قُتل فوجبت له، فلما رأى الثواب ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْيَ يَلْمُونَ﴾. قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً، لا تلقاه غاشاً؛ لَمَّا عاين ما عاين من كرامة الله ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْيَ يَلْمُونَ يَمَّا عَفَّرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾. ﴿١٧﴾. تمنى على الله أن يعلم قومه ما عاين من كرامة الله له، وما هجم عليه. وقال ابن عباس: نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يَقْوَرُ الْكُفْرُ الْكُفْرُ﴾ [يس: ٢٠]، وبعد مماته في قوله: ﴿يَلَيْتَ قَوْيَ يَلْمُونَ يَمَّا عَفَّرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾. ﴿١٧﴾. رواه ابن أبي حاتم. وقال سفيان الثوري، عن عاصم الأحول، عن أبي مجلز: ﴿يَمَّا عَفَّرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾. ﴿١٧﴾: بإيماني بري، وتصديقي المرسلين. ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل من هذا الثواب والجزاء والتعظيم المقيم، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل، فرحمه الله ورضي عنه، فلقد كان حريصاً على هداية قومه. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عبيد الله، حدثنا ابن جابر - وهو محمد - عن عبد الملك - يعني: ابن عمير - قال: قال عروة بن مسعود الثقفي للنبي ﷺ: ابعثنى إلى قومي أدعوهم إلى الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «إني أخاف أن يقتلوك». فقال: لو وجدوني نائماً ما أيقظوني. فقال له رسول الله ﷺ: «انطلق». فانطلق فمر على اللات والعزى، فقال: لأصبحنك غداً بما يسوؤك. فغضبت ثقيف، فقال: يا معشر ثقيف، إن اللات لا لات، وإن العزى لا عزى، أسلموا تسلموا. يا معشر الأحلاف، إن العزى لا عزى، وإن اللات لا لات، أسلموا تسلموا. قال ذلك ثلاث مرات، فرماه رجل فاصاب أكله فقتله، فبلغ رسول الله ﷺ فقال: «هذا مثله كمثل صاحب يس» ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْيَ يَلْمُونَ يَمَّا عَفَّرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾. ﴿١٧﴾. وقال محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن مَعْمَر بن خُزَم: أنه حدث عن كعب الأحبار: أنه ذكر له حبيب بن زيد بن عاصم - أخو بني مازن بن النجار - الذي كان مسيلاً الكذاب قُطْعَه باليمامة، حين جعل يسأله عن رسول الله ﷺ، فجعل يقول: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم. ثم يقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع. فيقول له مسيلمة: أسمع هذا ولا تسمع ذاك؟ فيقول: نعم. فجعل يُقْطَعُه عضواً عضواً، كلما سأله لم يزد على ذلك حتى مات في يديه. فقال كعب حين قيل له: اسمه حبيب، وكان الله صاحب يس اسمه حبيب.

وقوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ ﴿١٨﴾: يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه، غضباً منه تعالى عليهم؛ لأنهم كذبوا رسله، وقتلوا وليه. ويذكر تعالى: أنه ما أنزل عليهم، وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم، بل الأمر كان أيسر من ذلك. قاله ابن مسعود، فيما رواه ابن إسحاق، عن بعض أصحابه، عنه أنه قال في قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ ﴿١٨﴾: أي: ما كثرناهم بالجموع الأمر كان أيسر علينا من ذلك، ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَكِيدُونَ﴾ ﴿١٩﴾، قال: فأهلك الله ذلك الملك، وأهلك أهل أنطاكية، فبادوا عن وجه الأرض، فلم يبق منهم باقية. وقيل: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ ﴿١٨﴾: أي: وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم، بل نبعث عليهم عذاباً يدمرهم. وقيل: المعنى في قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ ﴿١٨﴾: أي: من رسالة أخرى إليهم. قاله مجاهد وقاتدة. قال قتادة: فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله، ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَكِيدُونَ﴾ ﴿١٩﴾. قال ابن جرير: والأول أصح؛ لأن الرسالة لا تسمى جنداً.

قال المفسرون: بعث الله إليهم جبريل، عليه السلام، فأخذ بعضادتي باب بلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم، لم يبق بهم روح تردد في جسد. وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح، عليه السلام، كما نص عليه قتادة وغيره، وهو الذي لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره، وفي ذلك نظر من وجوه:

أحدها: أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله، ﷺ، لا من جهة المسيح، كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِقَالِك فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ ﴿١٦﴾. إلى أن قالوا: ﴿رَبَّنَا بَعِّرْ إِيَّا الْكَافِرَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ [يس: ١٤-١٧]. ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح، عليه السلام، والله أعلم. ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥].

الثاني: أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح؛ ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدن الأربع اللاتي فيهن بئركة، وهن القدس لأنها بلد المسيح، وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها، والإسكندرية لأن فيها اصطلمحوا على اتخاذ البتاركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة والشمامسة والراهبين. ثم رومية لأنها مدينة الملك

قسطنطين الذي نصر دينهم وأطّده. ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البترك من رومية إليها، كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة أمنت، فأهل هذه القرية قد ذكر الله تعالى أنهم كتبوا رسله، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخدمتهم، فالله أعلم.

الثالث: أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة، وقد ذكر أبو سعيد الخدري وغير واحد من السلف: أن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين، ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [القصص: ٤٣]. فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن العظيم قرية أخرى غير أنطاكية، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضاً. أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك، والله، سبحانه وتعالى، أعلم. فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا الحسين بن أبي السري العسقلاني، حدثنا حسين الأشقر، حدثنا ابن عيينة، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «السُّبُّ ثلاثة: فالسُّبُّ إلى موسى يوشع بن نون، والسُّبُّ إلى عيسى صاحب يس، والسُّبُّ إلى محمد علي بن أبي طالب»، فإنه حديث منكر، لا يعرف إلا من طريق حسين الأشقر، وهو شيعي متروك، والله أعلم.

﴿يَحْشَرُهُ عَلَى الْوَيْلِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٢٠) أَلَمْ يَرَوْا كَرِهْلَكُنَا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَلَنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٢٢﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَحْشَرُهُ عَلَى الْوَيْلِ﴾ أي: يا ويل العباد. وقال قتادة: ﴿يَحْشَرُهُ عَلَى الْوَيْلِ﴾ أي: يا حسرة العباد على أنفسهم، على ما ضيعت من أمر الله، فرطت في جنب الله. قال: وفي بعض القراءة: ﴿يا حسرة العباد على أنفسهم﴾. ومعنى هذا: يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب، كيف كذبوا رسل الله، وخالفوا أمر الله، فإنهم كانوا في الدار الدنيا المكذبون منهم. ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١١) أي: يكذبونه ويستهزئون به، ويجحدون ما أرسل به من الحق.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَرِهْلَكُنَا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٢١) أي: ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل، كيف لم تكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلهم وفقرتهم من قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حِكْمَانَا الَّتِي نَكُونُ وَهَيَّا﴾ [المؤمنون: ٢٧]، وهم القائلون بالدور من الدهرية، وهم الذين يعتقدون جهلاً منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها، فرد الله تعالى عليهم باطلهم، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَرِهْلَكُنَا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٢١). وقوله: ﴿وَلَنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (٢٢) أي: وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله، ﷻ، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيراً وشرها، ومعنى هذه كقوله تعالى: ﴿وَلَنْ كُلُّ لَمَّا يُؤْفِقَهُمْ رَبُّكَ أََعْمَلَهُمْ﴾ [عود: ١١١]. وقد اختلف القراء في أداء هذا الحرف؛ فمنهم من قرأ: ﴿وَلَنْ كُلُّ لَمَّا﴾ بالتخفيف، فعنده أن «إن» للإثبات، ومنهم من شدد «لَمَّا»، وجعل «إن» نافية، و«لَمَّا» بمعنى «إلا» تقديره: وما كل إلا جميع لدينا محضرون، ومعنى القراءتين واحد، والله أعلم.

﴿وَأَيُّ لَمَّا أَلْمَسَتْ أَلْبَتَهُ أَحْبَبَتْهَا وَأَخْرَجَتْ مِنْهَا حَبًّا فَبِتَتْهُ بِأَكْثَرِ﴾ (٢٣) وَحَمَلْنَا فِيهَا جَنَّتَيْنِ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْتَبْنَا وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٢٤﴾ يَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٥﴾ شِعْنُ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَسْكُنُونَ ﴿٢٦﴾.

يقول تعالى: ﴿وَأَيُّ لَمَّا أَلْمَسَتْ أَلْبَتَهُ﴾ أي: دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى ﴿أَلْمَسَتْ أَلْبَتَهُ﴾ أي: إذا كانت ميتة هامة لا شيء فيها من النبات، فإذا أنزل الله عليها الماء امتزت وربت، وأنبثت من كل زوج بهيج؛ ولهذا قال: ﴿أَحْبَبَتْهَا وَأَخْرَجَتْ مِنْهَا حَبًّا فَبِتَتْهُ بِأَكْثَرِ﴾ أي: جعلناها رزقاً لهم ولأنعامهم، ﴿وَحَمَلْنَا فِيهَا جَنَّتَيْنِ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْتَبْنَا وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ (٢٤) أي: جعلنا فيها أنهاراً سارحة في أمكنة، يحتاجون إليها لياكلوا من ثمره. لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم عطف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها. وقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: وما ذاك كله إلا من رحمة الله بهم، لا بسعيهم ولا كدهم، ولا بحولهم وقوتهم. قاله ابن عباس وقاتدة؛ ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؟ أي: فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم

من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى؟ واختار ابن جرير - بل جزم به، ولم يحك غيره إلا احتمالاً - أن «ما» في قوله: ﴿وَمَا عِلَّتَهُ أَيْدِيهِمْ﴾ بمعنى: «الذي»، تقديره: لياكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم، أي: غرسوه ونصبوه، قال: وهي كذلك في قراءة ابن مسعود ﴿يَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عِلَّتَهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (٣٥). ثم قال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ أي: من زروع وثمار ونبات. ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فجعلهم ذكراً وأنثى، ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من مخلوقات شتى لا يعرفونها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ فَوْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١٩). [الذريات: ٤٩].

﴿وَوَإِنَّ لَهُمُ الْآيِلَ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُنْظِمُونَ﴾ (٣٦) وَاللَّشْتَ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٧) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ (٣٨) لَا تَأْتِيهِمْ يَنْبِيُّ لَهَا أَنَّ تَذَكَّرَ الْقَمَرَ وَلَا الْآيِلَ سَابِقَ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٩).

يقول تعالى: ومن الدلالة لهم على قدرته تعالى العظيمة خلق الليل والنهار، هذا بظلامه وهذا بضياؤه، وجعلهما يتعاقبان، يجيء هذا فيذهب هذا، ويذهب هذا فيجيء هذا، كما قال: ﴿يُنشِئُ الْآيِلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حِينًا﴾ [الاعراف: ٥٤]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَوَإِنَّ لَهُمُ الْآيِلَ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ أي: نصرمه منه فيذهب، فيقبل الليل؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُمْ مُنْظِمُونَ﴾، كما جاء في الحديث: «إذا أقبل الليل من هاهنا، وأدبر النهار من هاهنا، وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم». هذا هو الظاهر من الآية، وزعم قتادة أنها كقولها تعالى: ﴿يُولِجُ الْآيِلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي الْآيِلِ﴾ [المع: ٦١]. وقد ضعف ابن جرير قول قتادة هاهنا، وقال: إنما معنى الإيلاج: الأخذ من هذا في هذا، وليس هذا مراداً في هذه الآية. وهذا الذي قاله ابن جرير حق. وقوله: ﴿وَاللَّشْتَ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٣٧)، في معنى قوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ قولان:

أحدهما: أن المراد: مستقرها المكاني، وهو تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجانب، وهي أينما كانت فهي تحت العرش هي وجميع المخلوقات؛ لأنه سقفاها، وليس بكرة كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة، وإنما هو قبة ذات قوائم تحمله الملائكة، وهو فوق العالم مما يلي رؤوس الناس، فالشمس إذا كانت في قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون إلى العرش، فإذا استدارت في فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام، وهو وقت نصف الليل، صارت أبعد ما تكون من العرش، فيحتشد تسجد وتستأذن في الطلوع، كما جاءت بذلك الأحاديث. قال البخاري: حدثنا أبو نعيم، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال: «يا أبا ذر، أتدري أين تغرب الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله: ﴿وَاللَّشْتَ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٣٧)». حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدي، حدثنا وكيع عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبيه، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَاللَّشْتَ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾، قال: «مستقرها تحت العرش». كذا أورده هاهنا. وقد أخرجه في أماكن متعددة، ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه، من طرق، عن الأعمش، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر قال: كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد حين وجبت الشمس، فقال: «يا أبا ذر، تدري أين تذهب الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها ﷻ، فتستأذن في الرجوع فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت. فترجع إلى مطلعها، وذلك مستقرها، ثم قرأ: ﴿وَاللَّشْتَ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾». وقال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: «أتدري أين هذا؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، ويقال لها: ارجعي من حيث جئت. فتطلع من مغربها، فذلك قوله: ﴿وَاللَّشْتَ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٣٧)». وقال عبد الرزاق: أخبرنا مغمفر، عن أبي إسحاق، عن وهب بن جابر، عن عبد الله بن عمرو قال في قوله: ﴿وَاللَّشْتَ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾، قال: إن الشمس تطلع فتردها ذنوب بني آدم، حتى إذا غربت سلمت وسجدت واستأذنت فيؤذن لها، حتى إذا كان يوم غربت فسلمت وسجدت، واستأذنت فلا يؤذن لها، فنقول: إن المسير بعيد وإني لا يؤذن لي لا أبلغ، فتحبس ما شاء الله أن تجبس، ثم يقال لها: «اطلعي من حيث غربت». قال: «فمن يومئذ إلى يوم القيامة لا ينفع نفساً إيمانها، لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً». وقيل: المراد بقوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾: هو انتهاء سيرها وهو غاية ارتفاعها في السماء في الصيف وهو أوجها، ثم غاية انخفاضها في الشتاء وهو الحضيض.

والقول الثاني: أن المراد بمستقرها هو: منتهى سيرها، وهو يوم القيامة، يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكور، وينتهي هذا العالم إلى غايته، وهذا هو مستقرها الزماني. قال قتادة: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ أي: لوقتها ولأجل لا تعدوه. وقيل: المراد: أنها

كل زوجين اثنين. قال ابن عباس: المشحون: المؤقر. وكذا قال سعيد بن جبير، والشعبي، وقتادة، والضحاك، والسدي. وقال الضحاك، وقتادة، وابن زيد: وهي سفينة نوح، عليه السلام.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ لَمَّمْنَ بَيْنَ يَدَيْهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ (٢٢): قال العوفي، عن ابن عباس: يعني بذلك: الإبل، فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والحسن، وقتادة- في رواية- وعبد الله بن شداد، وغيرهم. وقال السدي- في رواية -: هي الأنعام. وقال ابن جرير: حدثنا الفضل بن الصباح، حدثنا محمد بن فضيل، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: تدرُونَ ما ﴿وَلَقَدْ لَمَّمْنَ بَيْنَ يَدَيْهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ (٢٢)؟ قلنا: لا. قال: هي السفن، جعلت من بعد سفينة نوح على مثلها. وكذا قال غير واحد وأبو مالك، والضحاك، وقتادة، وأبو صالح، والسدي أيضاً: المراد بقوله: ﴿وَلَقَدْ لَمَّمْنَ بَيْنَ يَدَيْهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ (٢٢): أي السفن. ويُقوي هذا المذهب في المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَأْتِيَنَّكَ الْبَاءَ حَمَلَتُهُ فِي الْبَارَةِ﴾ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكَ تَذَكُّرًا وَنَعِيماً أَذُنٌ وَصِيَّةٌ (١٧) [الحاقة: ١١، ١٢].

وقوله: ﴿وَلَنْ نُنْفِذَهُمْ﴾ يعني: الذين في السفن، ﴿فَلَا صَرِيحٌ لَّهُمْ﴾ أي: فلا مغيث لهم مما هم فيه، ﴿وَلَا هُمْ يُقَدَّرُونَ﴾ أي: أي: مما أصابهم، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾. وهذا استثناء منقطع، تقديره: لكن برحمتنا نسيركم في البحر والبحر، ونُسَلِّمُكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى؛ ولهذا قال: ﴿وَمَتَّعْنَا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى وقت معلوم عند الله.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا اللَّهَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ أَتَعْلَمُونَ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَلْعَمَهُمْ إِنَّ شَتْرَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم، وعدم اكتراثهم بذنوبهم التي أسلفوها، وما هم يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفَعُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قال مجاهد: من الذنوب. وقال غيره بالعكس، ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ أي: لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه. وتقدير كلامه: أنهم لا يجهلون إلى ذلك ويعرضون عنه. واكتفى عن بذلك بقوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: على التوحيد وصدق الرسل ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي: لا يتأملونها ولا ينتفعون بها.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: وإذا أمروا بالإففاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: عن الذين آمنوا من الفقراء، أي: قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإففاق محاجين لهم فيما أمرهم به: ﴿أَتُنْفِقُ مِنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَفْعَمَهُ﴾ أي: هؤلاء الذين أمرتمونا بالإففاق عليهم، لو شاء الله لأغناهم ولأطعمهم من رزقه، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم، ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: في أمركم لنا بذلك. قال ابن جرير: ويحتمل أن يكون من قول الله للكفار حين ناظروا المسلمين وردوا عليهم، فقال لهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، وفي هذا نظر.

﴿يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ ﴿فَلَا يَسْتَغِيثُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَجْعَلُونَ﴾ ﴿٥٦﴾.

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ؟﴾ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]، قال الله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ ﴿١٩﴾ أي: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهذه -والله أعلم- نفخة الفزع، ينفخ في الصور نفخة الفزع، والناس في أسواقهم ومعابشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم، فبينما هم كذلك إذ أمر الله تعالى إسرأفيل فنفخ في الصور نفخة يُطَوِّلُهَا وَيُمْدِّدُهَا، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصفى لياً، ورفع لياً -وهي صفحة العنق- يستمع الصوت من قبل السماء. ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار، تحيط بهم من جوانبهم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي: على ما يملكونه، الأمر أمم من ذلك، ﴿وَلَا إِلَٰهَ إِلَّا هُمْ يَرْجُمُونَ﴾. وقد وردت هاهنا آثار وأحاديث ذكرناها في موضع آخر، ثم تكون بعد هذا نفخة الصعق، التي تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحي القيوم، ثم بعد ذلك نفخة البعث.

﴿وَيُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَمْشُونَ﴾ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَوْمَئِذٍ مَا بَعَثْنَا مِنْ مُرْسَلٍ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا صَيْحَةٌ سَمِيعَةٌ فَإِذَا هُمْ كُفَّةٌ ﴿٥٣﴾

هذه هي النفخة الثالثة، وهي نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور؛ ولهذا قال: ﴿إِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَمْشُونَ﴾، والسنلان هو: المشي السريع، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُنَا مِنْ الْأَجْدَاثِ رَبَّكَ كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُورِثُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ [المعارج: ٤٣].

﴿قَالُوا يَبْنَؤُنَا مِنْ بَعَثَانَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ ؟ يعنون: من قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها، فلما عاينوا ما كذبوه في محشرهم ﴿قَالُوا يَبْنَؤُنَا مِنْ بَعَثَانَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ ، وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم ؛ لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد. وقال أبي بن كعب، ومجاهد، والحسن، وقتادة: ينامون نومة قبل البعث. قال قتادة: وذلك بين النفتين. فذلك يقولون: ﴿مِنْ بَعَثَانَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ ، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون - قاله غير واحد من السلف -: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ . وقال الحسن: إنما يجيبهم بذلك الملائكة. ولا منافاة إذ الجمع ممكن، والله أعلم. وقال عبد الرحمن بن زيد: الجميع من قول الكفار: ﴿يَبْنَؤُنَا مِنْ بَعَثَانَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ .

نقله ابن جرير، واختار الأول، وهو أصح، وذلك كقوله تعالى في الصفات: ﴿قَالُوا يَبْنَؤُنَا هَذَا يَوْمَ الْيَوْمِ﴾ (٢٥) هَذَا يَوْمَ الْقَبْرِ الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكْذِيبُكَ (٢٦) [الصفات: ٢٠، ٢١]، وقال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ (٢٧) قَالَ الَّذِينَ أُورُوا أَلْوَمَ وَالْإِسْمَ لَعْدَ لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا يَوْمَ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنْ كُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) [الروم: ٥٥، ٥٦]. وقوله: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (٢٩)، كقوله: ﴿فَلَمَّا هِيَ بَرْزَةٌ وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ بِالشَّاهِرَةِ﴾ (٣٠) [النازعات: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]، وقال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَسَبِ دَعْوَانِكُمْ إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا كَلِمَةً إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٣١) [الاسراء: ٥٢]. أي: إنما نأمرهم أمراً واحداً، فإذا الجميع محضرون، ﴿فَأَنبِئْهُمْ لَا تُفْلِحُ تَحْتِ شَيْئًا﴾ أي: من عملها، ﴿وَلَا تَجْزِيكَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

﴿إِنَّ أَمْثَلَ آتِئَةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَكَيْهُونَ﴾ (٣٢) ثُمَّ وَأَوَّجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْبَابِكِ مُتَكِبُونَ (٣٣) لَمْ يَهَيَّاهُمْ فَكَيْهَةٌ وَلَمْ يَدْعُوهُمْ (٣٤) سَلَّمَ قَوْلًا يَنْ رَبِّ رَجِيهِ (٣٥) .

يخبر تعالى عن أهل الجنة: أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العَرَصات فنزلوا في رَوْضَاتِ الْجَنَّةِ: أنهم ﴿فِي شُغْلٍ فَكَيْهُونَ﴾ أي: في شغل عن غيرهم، بما هم فيه من النعيم المقيم، والفوز العظيم. قال الحسن البصري: وإسماعيل بن أبي خالد: ﴿فِي شُغْلٍ﴾ عما فيه أهل النار من العذاب. وقال مجاهد: ﴿فِي شُغْلٍ فَكَيْهُونَ﴾ أي: في نعيم معجبون، أي: به. وكذا قال قتادة. وقال ابن عباس: ﴿فَكَيْهُونَ﴾ أي: فرحون. وقال عبد الله بن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والأعمش، وسليمان التيمي، والأوزاعي في قوله: ﴿إِنَّ أَمْثَلَ آتِئَةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَكَيْهُونَ﴾ (٣٢) قالوا: شغلهم اقتضاض الأبقار. وقال ابن عباس - في رواية عنه -: ﴿فِي شُغْلٍ فَكَيْهُونَ﴾ أي: بسماع الأوتار. وقال أبو حاتم: لعله غلط من المستمع، وإنما هو اقتضاض الأبقار. وقوله: ﴿ثُمَّ وَأَوَّجُهُمْ﴾ قال مجاهد: وحلائلهم ﴿فِي ظِلِّ﴾ أي: في ظلال الأشجار ﴿عَلَى الْأَرْبَابِكِ مُتَكِبُونَ﴾ . قال ابن عباس، ومجاهد وعكرمة، ومحمد بن كعب، والحسن، وقتادة، والسدي، وخُصَيْف: ﴿أَلْأَرْبَابِكِ﴾: هي السرر تحت الحجال. قلت: نظيره في الدنيا هذه التخوت تحت البشاخين، والله أعلم. وقوله: ﴿لَمْ يَهَيَّاهُمْ فَكَيْهَةٌ﴾ أي: من جميع أنواعها، ﴿وَلَمْ يَدْعُوهُمْ﴾ أي: مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف الحمصي، حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار، حدثنا محمد بن مهاجر، عن الضحاك المَعْفَرِي، عن سليمان بن موسى، حدثني كُرَيْب؛ أنه سمع أسامة بن زيد يقول: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل مُشْتَمِر إلى الجنة؟ فإن الجنة لا آخر لها، هي - ورب الكعبة - نور كلها يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مُشِيد، ونهر مُطَرِد، وثمرة نصيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد، في دار سلامة، وفاكهة خضرة، وخَبْرَةٌ ونعمة، ومحلة عالية بهيَّة». قالوا: يا رسول الله، نحن المشتمرون لها. قال: «قولوا: إن شاء الله». قال القوم: إن شاء الله. وكذا رواه ابن ماجه في «كتاب الزهد» من سننه، من حديث الوليد بن مسلم، عن محمد بن مهاجر، به. وقوله: ﴿سَلَّمَ قَوْلًا يَنْ رَبِّ رَجِيهِ﴾ (٣٥) : قال ابن جرير: قال ابن عباس في قوله: ﴿سَلَّمَ قَوْلًا يَنْ رَبِّ رَجِيهِ﴾ (٣٥) : فإن الله نفسه سلام على أهل الجنة. وهذا الذي قاله ابن عباس كقوله تعالى: ﴿يَحْيِيهِمْ يَوْمَ يَقُومُ سَلَامٌ﴾ [الاحزاب: ٤٤].

وقد روى ابن أبي حاتم هاتنا حديثاً في إسناده نظر، فإنه قال: حدثنا موسى بن يوسف، حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، حدثنا أبو عاصم العباداني، حدثنا الفضل الرقاشي، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بيننا أهل الجنة في نعيمهم، إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة. فذلك قوله: ﴿سَلَّمَ قَوْلًا يَنْ رَبِّ رَجِيهِ﴾ (٣٥) ». قال: «فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته عليهم وفي ديارهم». ورواه ابن ماجه في «كتاب السنة» من سننه، عن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، به. وقال ابن جرير: حدثنا

يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، حدثنا حُزَمَةُ، عن سليمان بن حُمَيْد قال: سمعت محمد بن كعب القُرظي يحدث عن عمر بن عبد العزيز قال: إذا فرغ الله من أهل الجنة والنار، أقبل في ظُلُل من الغمام والملائكة، قال: فيسلم على أهل الجنة، فيردون عليه السلام- قال القرظي: وهذا في كتاب الله ﴿سَلِّمُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَوْحًا رَاجِيًا﴾ -فيقول: سلوني. فيقولون: ماذا نسألك أي رب؟ قال: بلى سلوني. قالوا: نسألك- أي رب- رضاك. قال: رضائي أحلكم دار كرامتي. قالوا: يا رب، فما الذي نسألك، فوعزتكَ وجلالك وارتفاع مكانك، لو قسمت علينا رزق الثقلين لأطعمناهم ولأسقيناهم ولألبسناهم ولأخدمناهم، لا ينقصنا ذلك شيئاً. قال: إن لدي مزيداً. قال: فيفعل ذلك بهم في درجهم، حتى يستوي في مجلسه. قال: ثم تأتيهم التحف من الله، ﷻ، تحملها إليهم الملائكة. ثم ذكر نحوه. وهذا أثر غريب، أورده ابن جرير من طرق.

﴿وَأَسْرُوا إِلَيْهَا الْعُزْرَةَ ۖ﴾ ﴿٩﴾ ﴿أَلَمْ أَفْعَدْ إِلَيْكُمْ بَنِي مَادَنَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿وَأِنْ أَعْبَدْتُمْ مَعَهَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿١١﴾ ﴿وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٢﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمرهم أن يمتازوا، بمعنى: يتميزون عن المؤمنين في موقفهم، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِجَاعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزُلِّقًا بِيَنَّهُمْ﴾ [يونس: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ١٤]، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] أي: يصيرون صدعين فرقتين، ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْجَعَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢] من دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوكُمْ إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٣﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَيْتَ مَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾: ﴿١٥﴾ هذا تقريع من الله للكفرة من بني آدم، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿١٦﴾ أي: قد أمرتكم في دار الدنيا بعبادتي، وأمرتكم بعبادتي، وهذا هو الصراط المستقيم، فسلكتهم غير ذلك واتبعتم الشيطان فيما أمركم به؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾، يقال: «جِبِلًّا» بكسر الجيم، وتشديد اللام. ويقال: «جِبِلًّا» بضم الجيم والباء، وتخفيف اللام. ومنهم من يسكن الباء. والمراد بذلك: الخلق الكثير، قاله مجاهد، والسُّدِّيُّ، وقتادة، وسفيان بن عيينة.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾؟ أي: أما كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له، وعُدولكم إلى اتباع الشيطان؟! قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي، عن إسماعيل بن رافع، عن عمن حدثه عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة أمر الله جهنم فيخرج منها عتق ساطع مظلم، يقول: ﴿أَلَمْ أَهْدِ إِلَيْكُمْ يَسَىٰ ۖ مَا دَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٥) وَأَنْ أَغْدِي فِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (١٦) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٧) مَذْهَبَهُمْ إِلَىٰ كُفْرٍ فَتَعَدَّى (١٨) استأزوا اليوم أيها المجرمون. فيتمييز الناس ويحبسون، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿وَرَبَّى كُلَّ مَنقَرٍ بِجَانِبِهِ كُلُّ لُحْمٍ يُدْعَىٰ إِلَىٰ كَيْسِبِ الْيَوْمِ يُحْزَنُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٨) [الجنابة: ٢٨].

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٧﴾ أَصْلَحُوا الْيَوْمَ يَٰ كَافِرُونَ ﴿١٨﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَنصِتُ أَصْوَاهَهُمْ ﴿١٩﴾ يَمَّا كَانُوا يَقْسِمُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْعِرُونَ ﴿٢١﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَاتَتِهِمْ فَمَا اسْتَضَلُّوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٢﴾

يقال للكرة من بني آدم يوم القيامة، وقد برزت الجحيم لهم تقرعاً وتوبيخاً: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (١٢) أي: هذه التي حذرتمك الرسل فكذبتموه، ﴿أَسَلَوْكُمَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (١٤) كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَىٰ مَا كَانُوا بِجَهَنَّمَ دَعَا﴾ (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٥) أَفَسِحَرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) ﴿الطور: ١٣-١٥﴾.

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَعْيُنَهُمْ بِمَا لَكُمَا فِي الْيَوْمِ﴾ (١٥): هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة، حين ينكرون ما اجترموه في الدنيا، ويحلفون ما فعلوه، فيختم الله على أفواههم، ويستنتطق جوارحهم بما عملت. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو شيبة إبراهيم بن عبد الله بن أبي شيبة، حدثنا منجاب بن الحارث التميمي، حدثنا أبو عامر الأسدي، حدثنا سفيان، عن عبيد المكتب، عن الفضيل بن عمرو، عن الشعبي، عن أنس بن مالك قال: كنا عند النبي ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: «أتدرون مم أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى. فيقول: لا أجزى علي إلا شاهداً من نفسي. فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً،

وبالكرام الكاتبين شهوداً. فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي. فتنتطق بعلمه، ثم يخلي بينه وبين الكلام، فيقول: بُعداً لكن وسُحْقاً، فعنكَنْ كُنْتُ أناضل». وقد رواه مسلم والنسائي، كلاهما عن أبي بكر بن أبي النضر، عن أبي النضر، عن عُبَيْد الله بن عبد الرحمن الأشجعي، عن سفيان - هو الثوري - به. ثم قال النسائي: لا أعلم أحداً روى هذا الحديث عن سفيان غير الأشجعي، وهو حديث غريب، والله تعالى أعلم. كذا قال، وقد تقدم من رواية أبي عامر عبد الملك بن عمرو الأسدي - وهو العَقْدِي - عن سفيان.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن بَهْز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ مُقَدِّمَةً أَفْوَاهِكُمْ بِالْقِدَامِ، فَأُولَ مَا يَسْأَلُ عَنْ أَحَدِكُمْ فَخَذَهُ وَكَتَفَهُ». رواه النسائي عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، به. وقال سفيان بن عيينة، عن سُهَيْل، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ في حديث القيامة الطويل، قال فيه: «ثم يلقي الثالث فيقول: ما أنت؟ فيقول: أنا عبدك، أمنت بك وبنبيك وبكتابك، وصمت وصليت وتصدقت - ويشي بخير ما استطاع - قال: فيقال له: ألا نبعث عليك شاهداً؟ قال: فيفكر في نفسه، من الذي يشهد عليه، فيختم على فيه، ويقال لفخذه: انطقي. فتنتطق فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل، وذلك المنافق، وذلك ليعذر من نفسه. وذلك الذي سخط الله عليه». ورواه مسلم وأبو داود، من حديث سفيان بن عيينة، به بطوله. ثم قال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا ضَمُضَم بن زُرْعَةَ عن شُرَيْح بن عبيد، عن عقبة بن عامر؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُخْتَم على الأفواه، فَخَذَهُ من الرجل اليسرى». ورواه ابن جرير عن محمد بن عوف، عن عبد الله بن المبارك، عن إسماعيل بن عياش، به مثله. وقد جَوَّد إسناده الإمام أحمد، رحمه الله، فقال: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ضَمُضَم بن زُرْعَةَ، عن شُرَيْح بن عُبَيْد الحَضْرَمِي، عن حَذَّه عن عقبة بن عامر؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُخْتَم على الأفواه، فَخَذَهُ من الرجل الشمال».

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُثَيْم، حدثنا يونس بن عُبَيْد، عن حُمَيْد بن هلال قال: قال أبو بردة: قال أبو موسى - هو الأشعري، رضي الله عنه -: يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة، فَيَعْرَضُ عليه رَبُّه عمله فيما بينه وبينه، فيعترف فيقول: نعم أي رب، عملتُ عملتُ عملت. قال: فيغفر الله له ذنوبه، ويستره منها. قال: فما على الأرض خليفة ترى من تلك الذنوب شيئاً، وتبدو حسناته، فَوَدَّ أن الناس كلهم يرونها، ويدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض ربه عليه عمله، فيجحد فيقول: أي رب، وعزتك لقد كتب علي هذا الملك ما لم أعمل. فيقول له الملك: أما عملت كذا، في يوم كذا، في مكان كذا؟ فيقول: لا، وعزتك أي رب ما عملته. فإذا فعل ذلك خُتِمَ على فيه. قال أبو موسى الأشعري: فإني أحسب أول ما ينطق منه الفخذ اليمنى، ثم تلا: ﴿الَّذِينَ نَحْنُ عَنْ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٥).

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبَيِّرُوكَ﴾ (١٦): قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في تفسيرها: يقول: ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى، فكيف يهتدون؟ وقال مرة: أعميناهم. وقال الحسن البصري: لو شاء الله لطمس على أعينهم، فجعلهم عمياً يترددون.

وقال السدي: لو شئنا أعمينا أبصارهم. قال مجاهد، وأبو صالح، وقتادة، والسدي: ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ يعني: الطريق. وقال ابن زيد: يعني بالصراف هاهنا: الحق، ﴿فَأَنَّى يُبَيِّرُوكَ﴾ وقد طمسنا على أعينهم؟ وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَأَنَّى يُبَيِّرُوكَ﴾ يقول: لا يبصرون الحق.

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾: قال العوفي عن ابن عباس: أهلكتناهم. وقال السدي: يعني: لغيرنا خلقهم. وقال أبو صالح: لجعلناهم حجارة. وقال الحسن البصري، وقتادة: لأقعدهم على أرجلهم. ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَلَعُوا مِنْصِبًا﴾ أي: إلى أمام، ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: إلى وراء، بل يلزمون حالاً واحداً، لا يتقدمون ولا يتأخرون. ﴿وَمَنْ مَخْبَرُهُ نَجَّسْنَاهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٧) وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (١٨) لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحْيِيَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ (١٩).

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره رَدَّ إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (٢٥) [الروم: ٥٤]. وقال: ﴿وَمَنْ يَرْدُ إِلَى أَزْوَاجِ الْأُمَمِ لَيْسَ إِلَّا بِمَلَكٍ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥]. والمراد من هذا - والله أعلم - الإخبار عن هذه الدار بأنها دار

زوال وانتقال، لا دار دوام واستقرار؛ ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَتَّقُونَ﴾ أي: يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم ثم صيروتهم إلى نفس الشَّيْبَةِ، ثم إلى الشيخوخة؛ ليعلموا أنهم خُلِقُوا لدار أخرى، لا زوال لها ولا انتقال منها، ولا مجدها عنها، وهي الدار الآخرة.

وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾: يقول تعالى مخبراً عن نبيه محمد ﷺ: أنه ما علمه الشعر، ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي: وما هو في طبعه، فلا يحسنه ولا يحبه، ولا تقتضيه جِبِلَّتُهُ؛ ولهذا ورد أنه، عليه الصلاة والسلام، كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم، بل إن أشده رَحْفُهُ أو لم يتمه. وقال أبو رزعة الرازي: حَدَّثَ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مَجَالِدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ قَالَ: مَا وَلَدَ عَبْدَ الْمُطَّلَبِ ذَكَراً وَلَا أُنْثَى إِلَّا يَقُولُ الشِّعْرَ، إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. ذكره ابن عساکر في ترجمة «عتبة بن أبي لهب» الذي أكله السَّحْبُ بِالزَّرْقَاءِ. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن الحسن - هو البصري - قال: إن رسول الله ﷺ كان يتمثل بهذا البيت:

كَفَى بِالْإِسْلَامِ وَالشَّيْبَ لِلْمَرْءِ نَاهِيَاً

فقال أبو بكر: يا رسول الله:

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً

قال أبو بكر، أو عمر: أشهد أنك رسول الله، يقول الله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾. وهكذا روى البيهقي في الدلائل: أن رسول الله ﷺ قال للعباس بن مرداس السلمي: «أنت القائل: أتجعل نَهْبِي ونَهْبَ الْعُبَيْدِ بَيْنَ الْأَقْرَعِ وَعَيْنَةَ»

فقال: إنما هو: «بين عينة والأقرع» فقال: «الكل سواء». يعني: في المعنى، صلوات الله وسلامه عليه. وقد ذكر السهيلي في «الروض الأنف» لهذا التقديم والتأخير الذي وقع في كلامه، عليه السلام، في هذا البيت مناسبة أغرب فيها، حاصلها شَرَفُ الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ عَلَى عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرِ الْفَزَارِيِّ؛ لأنه ارتد أيام الصديق، بخلاف ذاك، والله أعلم. وهكذا روى الأموي في مغازيه: أن رسول الله ﷺ جعل يعشي بين القتلى يوم بدر، وهو يقول: «نُفِّلَتْ هَامَأً.....». فيقول الصديق، رضي الله عنه، متمماً للبيت:

.... مِنْ رَجُلٍ أَعْمَزَةٍ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَزُّ وَأَظْلَمَا

وهذا لبعض شعراء العرب في قصيدة له، وهي في الحماسة. وقال الإمام أحمد: حدثنا هُثَيْمٌ، حدثنا مغيرة، عن الشعبي، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا استراث الخير، تمثل فيه بيت طَرْفَةٍ:

وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ

وهكذا رواه النسائي في «اليوم والليلة» من طريق إبراهيم بن مهاجر، عن الشعبي، عنها. ورواه الترمذي والنسائي أيضاً من حديث المقدم بن شَرِيحِ بْنِ هَانِيٍّ، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها، كذلك. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أسامة، عن زائدة، عن سِمَاك، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يتمثل من الأشعار:

وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ

ثم قال: رواه غير زائدة، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن عائشة. وهذا في شعر طرفة بن العبد، في معلقته المشهورة، وهذا المذكور هو عجز بيت منها، أوله:

سُئِدِي لَكَ الْيَوْمَ مَا كُنْتُ جَاهِلَا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَبْعَ لَهُ

بَتَاتاً وَلَمْ تَضْرِبْ لَهُ وَقْتُ مَوْعِدْ

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو حفص عمر بن أحمد بن نعيم - وكيل المتقي ببغداد -

حدثنا أبو محمد عبد الله بن هلال النحوي الضريير، حدثنا علي بن عمرو الأنصاري، حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري،

عن عروة، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: ما جمع رسول الله ﷺ بيت شعر قط، إلا بيتاً واحداً:

تَقَالُ بِمَا تَهْوَى يَكُنْ قَلْقَلَمَا يُقَالُ لَشَيْءٍ كَانَ إِلَّا تَحَقُّقَا

سألت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزني عن هذا الحديث، فقال: هو منكر. ولم يعرف شيخ الحاكم، ولا الضريير. وقال

سعيد بن أبي عروبة عن قتادة: قيل لعائشة: هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان أبغض الحديث إليه، غير أنه كان يتمثل ببيت أخي بني قيس، فيجعل أوله آخره، وآخره أوله. فقال أبو بكر ليس هكذا. فقال رسول الله ﷺ: «إني والله ما أنا بشاعر ولا ينبغي لي». رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وهذا لفظه. وقال معمر عن قتادة: بلغني أن عائشة سئلت: هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ فقالت: لا، إلا بيت طرفة:

سُئِنْدِي لَكَ الْيَوْمَ مَا كُنْتُ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ
فجعل يقول: «من لم تُزَوِّدْ بالأخبار». فقال أبو بكر: ليس هذا هكذا. فقال: «إني لست بشاعر، ولا ينبغي لي».

وثبت في الصحيحين أنه، عليه الصلاة والسلام، تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة، ولكن تبعاً لقول أصحابه، فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون، فيقولون:

لَا هُمْ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزَلَنْ مَكِينَةَ عَلَيْنَا وَتَبَّتْ الْأَقْدَامُ إِنْ لَا قِيْنَا
إِنَّ الْأَلَى قَدْ بَغَرُوا عَلَيْنَا إِذَا أَرَاؤُا فَشْنَةَ أَبِيْنَا

ويرفع صوته بقوله: «أبيناً» ويمدها. وقد روى هذا بزحاف في الصحيح أيضاً. وكذلك ثبت أنه قال يوم حنين وهو راكب البغلة، يُقدم بها في نحور العدو:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبُ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

لكن قالوا: هذا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن شعر، بل جرى على اللسان من غير قصد إليه. وكذلك ما ثبت في الصحيحين عن جندب بن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غار فَنَكِبَتْ أَصْبَعُهُ، فقال:

هَلْ أَنْتَ إِلَّا إِضْبَعُ دَمِيَّتٍ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيَّتِ
وسأيتي عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ [النجم: ٣٢] إنشاد:

إِنْ تُغْفِرَ اللَّهُمَّ تُغْفِرْ جُمَا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلْمَا

وكل هذا لا ينافي كونه ﷺ ما علم شعراً ولا ينبغي له؛ فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. وليس هو بشاعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش، ولا كهانة، ولا مفتعل، ولا سحر يُؤثر، كما تنوعت فيه أقوال الضلال وآراء الجهال. وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعاً وشرعاً، كما رواه أبو داود قال:

حدثنا عبيد الله بن عمر، حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثنا شرحبيل بن يزيد المصافري، عن عبد الرحمن بن رافع التثوخي قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أبالي ما أوتيت إن أنا شربت تريباقاً، أو تعلقت تميمية، أو قلت الشعر من قبل نفسي». تفرد به أبو داود. وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن الأسود بن شيبان، عن أبي نوفل قال: سألت عائشة: أكان رسول الله ﷺ يتسامع عنده الشعر؟ فقالت: كان أبغض الحديث إليه. وقال عن عائشة: كان رسول الله ﷺ يعجبه الجوامع من الدعاء، ويدع ما بين ذلك.

وقال أبو داود: حدثنا أبو الوليد الطيالسي، حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قبحاً، خير له من أن يمتلىء شعراً». تفرد به من هذا الوجه، وإسناده على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا قزعة بن سويد الباهلي، عن عاصم بن مَخْلَد، عن أبي الأشعث الصنعاني (ح) وحدثنا الأشيب فقال: عن ابن عاصم، عن أبي الأشعث، عن شَدَّاد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرض بيت شعر بعد العشاء الآخرة، لم تقبل له صلاة تلك الليلة». وهذا حديث غريب من هذا الوجه، ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة. والمراد بذلك نظمه لا إنشاده، والله أعلم. على أن الشعر فيه ما هو مشروع، وهو هجاء المشركين الذي كان يتعاطاه شعراء الإسلام، كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رَوَاحَة، وأمثالهم وأضرابهم، رضي الله عنهم أجمعين. ومنه ما فيه حكم ومواعظ وأدب، كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية، ومنهم أمية بن أبي الصلت الذي قال فيه النبي ﷺ: «أمن شعره وكفر قلبه». وقد أنشد بعض الصحابة منه للنبي ﷺ مائة بيت، يقول عقب كل بيت: «هيه». يعني يستطعمه، فيزيده من

ذلك. وقد روى أبو داود من حديث أبي بن كعب، وبريدة بن الحَصْبِيب، وعبد الله بن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «إن من البيان سحراً، وإن من الشعر حكماً». ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ يعني: محمداً ﷺ ما علمه الله شعراً، ﴿وَمَا يَلْبِسُ لَهْجَةً﴾ أي: وما يصلح له، «إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ» أي: ما هذا الذي علمناه، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ أي: بين واضح جلي لمن تأمله وتدبره. ولهذا قال: ﴿لَيْسَ هَذَا الْقُرْآنُ الْبَيِّنُ كُلُّ حِيٍّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَا يُذَكِّرُ بِهِ مَوْلًى﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَآلُنَا مَنْ مَعَهُمْ﴾ [هود: ١٧]. وإنما ينتفع بنذارته من هو حي القلب، مستنير البصيرة، كما قال قتادة: حي القلب، حي البصر. وقال الضحاك: يعني: عاقلاً، ﴿وَيَحْيَى الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: هو رحمة للمؤمن، وحجة على الكافر.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا صِلَةً أَدْبِثْنَا أُنْثَىٰ نَهْمًا لَّهَا مَلَكُوتٌ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَيَنبَغِي رُكُوعُهُمْ لَهَا وَهُمْ يَا كُفُورًا ﴿٧٢﴾ وَكَمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَمَسَارِبٌ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم، ﴿فَهُمْ لَهَا مَلَكُوتٌ﴾. قال قتادة: مطيقون أي: جعلهم يقهرونها وهي ذليلة لهم، لا تمتنع منهم، بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه، ولو شاء لأقامه وساقه، وذلك دليل متقاد معه. وكذا لو كان القطار مائة بعير أو أكثر، لसार الجميع بسير صغير. وقوله: ﴿فَيَنبَغِي رُكُوعُهُمْ لَهَا وَهُمْ يَا كُفُورًا﴾ أي: منها ما يركبون في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال، إلى سائر الجهات والأقطار. ﴿وَهُمْ يَا كُفُورًا﴾ إذا شاقوا ونحروا واجتزروا، ﴿وَكَمْ فِيهَا مَنَافِعٌ﴾ أي: من أوصافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين، ﴿وَمَسَارِبٌ﴾ أي: من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى، ونحو ذلك. ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾؟ أي: أفلا يؤخذون خالق ذلك ومسخره، ولا يشكرون به غيره؟

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّهُمْ يَصْطَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّغْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُبْزَوْنَ وَمَا يُعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله، يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى. قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي: لا تقدر الآلهة على نصر عابديها، بل هي أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحق وأدخر، بل لا تقدر على الانتصار لأنفسها، ولا الانتقام ممن أَرَادَهَا بِسُوءٍ؛ لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل. وقوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّغْضَرُونَ﴾: قال مجاهد: يعني: عند الحساب، يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة، محضرة عند حساب عابديها؛ ليكون ذلك أبلغ في خزيهم، وأدل عليهم في إقامة الحجة عليهم. وقال قتادة: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ يعني: الآلهة، ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّغْضَرُونَ﴾، والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا وهي لا تسوق إليهم خيراً، ولا تدفع عنهم سوءاً، إنما هي أصنام. وهكذا قال الحسن البصري. وهذا القول حسن، وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله.

وقوله: ﴿فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي: تكذيبهم لك وكفرهم بالله، ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُبْزَوْنَ وَمَا يُعْلَمُونَ﴾ أي: نحن نعلم جميع ما هم عليه، وسنجزئهم وضغفهم ونعاملهم على ذلك، يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً، ولا صغيراً ولا كبيراً، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَكَيْفَ خَلَقْنَاهُ قَالَ مَنْ يُعْزِي الْعَظَمَ وَهِيَ رَيْبٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهِ الَّذِي أَنْشَأَنَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْشَرْتُمْ تَبْتَغُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

قال مجاهد، وعكرمة، وعروة بن الزبير، والسُّدِّي. وقاتدة: جاء أبي بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفتنه ويدريه في الهواء، وهو يقول: يا محمد، أنزع من الله بيعت هذا؟ فقال: «نعم، يمينك الله ثم بيعتك، ثم يحشرك إلى النار». ونزلت هذه الآيات من آخر «يس»: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾، إلى آخره.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا عثمان بن سعد الزيات، عن هُشَيْمٍ، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، أن العاصي بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتنه بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أياحيي الله تعالى هذا بعدما أرى؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، يمينك الله ثم يحييك، ثم يدخلك جهنم». قال: ونزلت الآيات من آخر «يس». ورواه ابن جرير عن يعقوب بن إبراهيم، عن هُشَيْمٍ، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، فذكره ولم يذكر «ابن عباس». وروى من طريق العوفي، عن ابن عباس قال: جاء عبد الله بن أبي يعظم ففته وذكر نحو ما تقدم. وهذا منكر؛ لأن السورة مكية، وعبد الله بن أبي بن سلول إنما كان بالمدينة. وعلى كل تقدير سواء كانت هذه الآيات نزلت

في أبي بن خلف، أو في العاص بن وائل، أو فيهما، فهي عامة في كل من أنكر البعث. والألف واللام في قوله: ﴿أَوَّلَهُ يَرِ الْإِنْسَنَ﴾ للجنس، يعم كل منكر للبعث. ﴿أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ أي: أولم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة، فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلاله من ماء مهين، فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين، كما قال تعالى: ﴿أَوَّلَهُ يَرِ الْإِنْسَنَ﴾ في قرار تبيين ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٢]، وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَشْجَاةٍ نَبْتِلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢] أي: من نطفة من أخلاط متفرقة، فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته؟ كما قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا خريز، حدثني عبد الرحمن بن ميسرة، عن جبير بن نفير، عن بسر بن جحاش؛ أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه، فوضع عليها أصبعه، ثم قال: «قال الله تعالى: ابن آدم، أتني تُعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سَوَيْتَكَ وَعَدَلْتُكَ، مشيت بين يردك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق وأتني أوان الصدقة؟». ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يزيد بن هارون، عن خريز بن عثمان، به. ولهذا قال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَبَيَّنْ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَيْبٌ﴾؟ أي: استبعد إعادة الله تعالى - ذي القدرة العظيمة التي خلقت السموات والأرض - للأجساد والعظام الرميعة، ونسي نفسه، وأن الله خلقه من العدم، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحدته؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِي الَّذِينَ أَشْكَا هَؤُلَاءِ مَرْتَرًا وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنبياء: ١٧] أي: يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها، أين ذهبت، وأين تفرقت وتمزقت.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، عن عبد الملك بن عمير، عن ربيعة قال: قال عقبة بن عمرو لحذيفة: ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعته يقول: «إن رجلاً حضره الموت، فلما أيس من الحياة أوصى أهله: إذا أنا مت فاجمعوا لي خطباً كثيراً جزلاً، ثم أوقدوا فيه ناراً، حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي فامشحشش، فخذوها فذروها في البيم. ففعلوا، فجمعهم الله إليه فقال له: لم فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك. فغفر الله له». فقال عقبة بن عمرو: وأنا سمعته يقول ذلك، وكان نباشاً. وقد أخرجاه في الصحيحين، من حديث عبد الملك بن عمير، بألفاظ كثيرة، منها: أنه أمر بنيه أن يحرقوه ثم يسحقوه، ثم يذروا نصفه في البر ونصفه في البحر، في يوم راتح، أي: كثير الهواء - ففعلوا ذلك. فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه، ثم قال له: كن. فإذا هو رجل قائم. فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: مخافتك وأنت أعلم. فما تلافاه أن غفر له».

وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَشْتَبَ بِهِ تَلُوفُونَ﴾ [الأنبياء: ٨١] أي: الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضراً نضراً ذا ثمر وريح، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً، توقد به النار، كذلك هو فعال لما يشاء، قادر على ما يريد لا يمنعه شيء. قال قتادة في قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَشْتَبَ بِهِ تَلُوفُونَ﴾ [الأنبياء: ٨١] يقول: الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر أن يبعثه. وقيل: المراد بذلك سرح المرحم والعفار، ينبت في أرض الحجاز فيأتي من أراد قذح نار وليس معه زناد، فيأخذ منه عودين أخضرين، ويقذف أحدهما بالآخر، فتتولد النار من بينهما، كالزناد سواء. روى هذا عن ابن عباس. رضي الله عنهما. وفي المثل: لكل شجر نار، واستمجد المَرْحُ والعَفَار. وقال الحكماء: في كل شجر نار إلا الغاب.

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنبياء: ٨٢] إِمَّا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [الأنبياء: ٨٣] فَيَكُونُ الَّذِي يَدِيرُ مَلَكُوتُ كُلِّ قَوْمٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [الأنبياء: ٨٣].

يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة في خلق السموات السبع، بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال، وبحار وقفار، وما بين ذلك، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وقال هاهنا: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: مثل البشر، فيعيدهم كما بدأهم. قاله ابن جرير. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَوَّلَهُ يَرِ الْإِنْسَنَ﴾ [الأنبياء: ٨١] وقال: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ إِمَّا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [الأنبياء: ٨٣] أي: يأمر بالشيء أمراً واحداً، لا يحتاج إلى تكرار:

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَلِئِمَّا يَقُولُ لَهُ كُنْ - قَوْلُهُ فَيَكُونُ وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا موسى بن المسيب، عن شهر، عن عبد الرحمن بن غنم، عن أبي ذر، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقول: يا عبادي، كلكم مذبذب إلا من عافيت، فاستغفروني أغفر لكم. وكلكم

فقير إلا من أغنيت، إني جواد ماجد واجد أفعل ما أشاء، عطائي كلام، وعذابي كلام، إذا أردت شيئاً فلإنما أقول له كن فيكون». وقوله: ﴿تَسْبَحَنَ الَّذِي يَدُّهُ مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [١٨٣] أي: تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحق القويم، الذي بيده مقاليد السموات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله، وله الخلق والأمر، وإليه ترجع العباد يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله، وهو العادل المتفضل.

ومعنى قوله: ﴿تَسْبَحَنَ الَّذِي يَدُّهُ مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كقوله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ يَدُّهُ مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وكقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي يَدُّهُ الْمَلَكُ﴾ [الملك: ١]، فالملك والملكوت واحد في المعنى، كرحمة ورحمات، ورغبة ورهيبات، وجبر وجبروت. ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجساد، والملكوت هو عالم الأرواح، والأول هو الصحيح، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا حماد، عن عبد الملك بن عمير، حدثني ابن عم لحذيفة، عن حذيفة - وهو ابن اليمان - رضي الله عنه، قال: قمّت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقرأ السبع الطول في سبع ركعات، وكان إذا رفع رأسه من الركوع قال: «سمع الله لمن حمده». ثم قال: «الحمد لذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة» وكان ركوعه مثل قيامه، وسجوده مثل ركوعه، فأنصرف وقد كادت تنكسر رجلاي.

وقد روى أبو داود، والترمذي في الشمائل، والنسائي، من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي حمزة - مولى الأنصار - عن رجل من بني عتب، عن حذيفة؛ أنه رأى رسول الله ﷺ من الليل، وكان يقول: «الله أكبر - ثلاثاً - ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة». ثم استفتح فقرأ البقرة، ثم ركع فكان ركوعه نحواً من قيامه، وكان يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم». ثم رفع رأسه من الركوع، فكان قيامه نحواً من ركوعه، يقول: «لربي الحمد». ثم سجد، فكان سجوده نحواً من قيامه، وكان يقول في سجوده: «سبحان ربي الأعلى». ثم رفع رأسه من السجود، وكان يقعد فيما بين السجدةين نحواً من سجوده، وكان يقول: «رب، اغفر لي، رب اغفر لي». فصلى أربع ركعات، فقرأ فيهن البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة - أو الأنعام - شك شعبة - هذا لفظ أبي داود.

وقال النسائي: «أبو حمزة عندنا: طلحة بن يزيد، وهذا الرجل يشبه أن يكون صلة». كذا قال. والأشبه أن يكون ابن عم حذيفة، كما تقدم في رواية الإمام أحمد، والله أعلم. فأما رواية صلة بن زفر، عن حذيفة، فإنها في صحيح مسلم، ولكن ليس فيها ذكر الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة.

وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، حدثني معاوية بن صالح، عن عمرو بن قيس، عن عاصم بن حميد، عن عوف بن مالك الأشجعي قال: قمّت مع رسول الله ﷺ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوّذ. قال: ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: «سبحان ذي الجبروت والملوك والكبرياء والعظمة». ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ بآل عمران، ثم قرأ سورة سورة. ورواه الترمذي في الشمائل، والنسائي، من حديث معاوية بن صالح، به.

آخر تفسير سورة «يس»
ولله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً



تفسير سورة الصافات

وهي مكية. قال النسائي: أخبرنا إسماعيل بن مسعود، حدثنا خالد - يعني ابن الحارث - عن ابن أبي ذئب قال: أخبرني الحارث بن عبد الرحمن، عن سالم بن عبد الله، عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف، ويؤمنا بالصافات. تفرد به النسائي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتُ سَبَّحُنَّ اللَّيْلَ فَأَنْجَزْنَ نَحْمًا ۝ فَالْجَارِجَاتُ ذَوَّارًا ۝ إِنَّ إِلَهُنَّ لَإِلهٌ وَاحِدٌ ۝ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ ۝﴾

قال سفيان الثوري: عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه أنه قال: ﴿وَالْقَائِلَتِ صَفَا﴾ ① وهي: الملائكة، ﴿وَالْقَائِرَتِ زَكَا﴾ ② وهي: الملائكة، ﴿وَالْقَائِلَتِ ذَكَا﴾ ③، هي: الملائكة. وكذا قال ابن عباس، ومسروق، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، ومجاهد، والسدني، وقتادة، والربيع بن أنس. قال قتادة: الملائكة صفوف في السماء. وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن فضيل، عن أبي مالك الأشجعي، عن ربيع، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثَ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِداً، وَجُعِلَتْ لَنَا ثَرِبَتُهَا طَهوراً إذا لم نجد الماء». وقد روى مسلم أيضاً، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من حديث الأعمش، عن المُسَيَّبِ بن رافع، عن تميم بن طرفة، عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا تَصِفُونَ كَمَا تَصِفُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟» قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْمُتَقَدِّمَةَ وَيَتَرَاوُونَ فِي الصَّفِّ». وقال السدي وغيره: معنى قوله: ﴿وَالْقَائِرَتِ زَكَا﴾ ④: أنها تزجر السحاب. وقال الربيع بن أنس: ﴿وَالْقَائِرَتِ زَكَا﴾ ⑤: ما زجر الله عنه في القرآن. وكذا روى مالك، عن زيد بن أسلم. ﴿وَالْقَائِلَتِ ذَكَا﴾ ⑥ قال السدي: الملائكة يحيون بالكتاب، والقرآن من عند الله إلى الناس. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَالْقَائِلَتِ ذَكَا﴾ ⑦ عَذْرًا أَوْ تَذَرًا ⑧ [المرسلات: ٥، ٦]. وقوله: ﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ⑨، هذا هو المقسم عليه؛ أنه تعالى لا إله إلا هو ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: من المخلوقات، ﴿وَرَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت، وسيارات تبدو من المشرق، وتغرب من المغرب. واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالاتها عليه. وقد صرح بذلك في قوله: ﴿فَلَا أَقِيمُ رَبِّيَ التَّنَزُّيَ وَالْقَرَّبَ إِنَّا لَقَائِدُونَ﴾ ⑩ [المعارج: ٤٠]. وقال في الآية الأخرى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْقَائِرَتِ زَكَا﴾ ⑪ [الرحمن: ١٧]، يعني: في الشتاء والصيف، للشمس والقمر.

﴿إِنَّا رَبَّنَا أَلَمَّا الْأَدْنَى بِرَبِّنَا الْكَوَكِبِ﴾ ⑫ وَحَفَظًا بَيْنَ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ⑬ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْإِنِّ الْأَخْلَى وَيَقْدُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ⑭ مُخَوَّراً وَمَنْ عَذَابٌ رَاصِبٌ ⑮ إِلَّا مَنْ خَلَفَ لِمُتْلَفَةٍ فَأَتَعَهُمْ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ⑯.

يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للنظرين إليها من أهل الأرض ﴿بِرَبِّنَا الْكَوَكِبِ﴾، قرئ بالإضافة وبالبدل، وكلاهما بمعنى واحد، فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوءها جرم السماء الشفاف، فتضيء لأهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا دُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ ⑰ [الملك: ٥]. وقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ ⑱ وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ⑲ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتَعَهُمْ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ⑳ [الحجر: ١٦-١٨]. وقوله هاهنا: ﴿وَحَفَظْنَاهَا بِمَصَابِيحَ﴾: وحفظناها حفظاً، ﴿بَيْنَ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾، يعني: المتمرد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع، أنه شهاب ثاقب فأحرقه؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْإِنِّ الْأَخْلَى﴾ أي: لتلا يصلوا إلى الملأ الأعلى، وهو السموات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بما يوحى الله مما يقوله من شرعه وقدره، كما تقدم بيان ذلك في الأحاديث التي أوردناها عند قوله تعالى: ﴿حَقِّقْ إِذَا فَزَعَ عَنْ ثُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلَمُ الْكَبِيرُ﴾ ㉑ [سبا: ٢٣]. ولهذا قال: ﴿يَقْدُونَ﴾ أي: يرمون، ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي: من كل جهة يقصدون السماء منها، ﴿مُخَوَّراً﴾ أي: رجماً يدحرون به ويزجرون، ويمنعون من الوصول إلى ذلك، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ رَاصِبٌ﴾ أي: في الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجه مستمر، كما قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَلَفَ لِمُتْلَفَةٍ﴾ أي: إلا من اختطف من الشياطين الخطفة، وهي الكلمة يسمعونها من السماء فيلقونها إلى الذي تحته، ويلقيها الآخر إلى الذي تحته، وربما أدركه الشهاب قبل أن يلقوها وربما ألقاها بقدر الله قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن، كما تقدم في الحديث؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ خَلَفَ لِمُتْلَفَةٍ فَأَتَعَهُمْ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ ㉒ أي: مستنير. قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: كانت للشياطين مقاعد في السماء فكانوا يستمعون الوحي. قال: وكانت النجوم لا تجري، وكانت الشياطين لا ترمى. قال: فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض، فزادوا في الكلمة تسعاً. قال: فلما بعث رسول الله ﷺ، جعل الشيطان إذا قدم مقعده جاء شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه. قال: فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هو إلا من أمر حدث. قال: فَبَتَّ جنوده، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي بين جبلي نخلة - قال وكيع: يعني بطن نخلة - قال: فرجعوا إلى إبليس فأخبروه، فقال: هذا الذي حدث.

وستأتي الأحاديث الواردة مع الآثار في هذا المعنى عند قوله تعالى إخباراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ

حَرَمًا شَدِيدًا وَشَهُوَ ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلشَّجَرِ فَفَنِ يَسْتَبِيعَ ۖ الْآنَ حِيدٌ لَّمْ يَبْقَا مِنْهَا مَوْجِدٌ ۝٩ وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَتَرَىٰ أُنثَىٰ يَمِّنَ فِي الْأَرْضِ أَنزَلْنَا يَوْمَ نُفِثَ مِنْهُم ذُرِّيَّتَهُمْ ۖ فَكَانُوا بِأَعْيُنِنَا ۖ فَنَنفِثُ مِنْ بَيْنِ ظُفُرِهِمْ ۖ فَمِنْ هَؤُلَاءِ مَن يَخْتَرِفُ ۖ وَأَمَّا أَشَدُّ خَلْقًا ۖ فَمَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ ۖ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۖ وَإِنَّا نَمُوتُ وَيَوْمَ يُنْفَخُ ۖ فَتَتَجَلَّىٰ لَهُمُ الْبُيُوتُ ۖ فَتَبْصُرُونَ ۖ وَقَالُوا إِن هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۖ ۝١٥ هَٰذَا مِنَّا وَكَأَنَّا كَرُكٌ ۖ وَهَٰذَا لَنُتَبَوَّؤُنَّ ۖ أَوْ هَٰذَا بَقَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۖ ۝١٦ قُلْ نَعَم وَأَنتُمْ كَذِبُونَ ۖ ۝١٧ إِنَّا نَحْنُ الْغَالِبُونَ ۖ ۝١٨

يقول تعالى: فَسَلْ هَؤُلَاءِ الْمُنْكَرِينَ لِلْبَيْتِ: أَيَا أَشَدُّ خَلْقًا هُمُ أَمْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ - وقرأ ابن مسعود: «أَمْ مِنْ عَدْنَا» - فإنهم يَقْرَوْنَ أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم، وإذا كان الأمر كذلك فلم ينكرون البعث؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا، كما قال تعالى: «لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْثَرُ مِنْ خَلْقِ الْبَاطِنِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» [غافر: ٥٧]. ثم بين أنهم خُلِقُوا مِنْ شَيْءٍ ضَعِيفٍ، فقال: «إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ». قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، والضحاك: هو الجيد الذي يلتصق ببعضه ببعض. وقال ابن عباس، وعكرمة: هو اللزج. وقال قتادة: هو الذي يلزق باليد. وقوله: «بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ» أي: بل عجبتم يا محمد - من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله به من الأمر العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فناءها. وهم بخلاف أمرك، من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك. قال قتادة: عجب محمد ﷺ، وسخر ضلل بني آدم. «وَأَنَّا لَوَلَّا ءَالِيَهُ» أي: دلالة واضحة على ذلك «يَسْخَرُونَ» قال مجاهد، وقتادة: يستهزئون. «وَقَالُوا إِن هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ» أي: إن هذا الذي جئت به إلا سحر مبين، «هَٰذَا مِنَّا وَكَأَنَّا كَرُكٌ ۖ وَهَٰذَا لَنُتَبَوَّؤُنَّ ۖ أَوْ هَٰذَا بَقَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ» يستبعدون ذلك ويكذبون به، «قُلْ نَعَم وَأَنتُمْ كَذِبُونَ» أي: قل لهم يا محمد: نعم تبغثون يوم القيامة بعد ما تصيرون تراباً وعظاماً، «وَأَنتُمْ كَذِبُونَ» أي: حقيرون تحت القدرة العظيمة، كما قال تعالى: «وَكُلُّ أُنثَىٰ ذَخِيرٌ» [النمل: ٨٧]، وقال: «إِنَّ الْآيَةَ يَسْخَرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَٰخِرِينَ» [غافر: ٦٠]. ثم قال: «فَإِنَّمَا مِنْ زُجْرَةٍ وَجِدَةٍ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ» أي: إنما هو أمر واحد من الله ﷻ، يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض، فإذا هم قيام بين يديه، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة.

«وَقَالُوا يَوْنُكُمَا هَٰذَا يَوْمَ الْبَاطِنِ ۖ هَٰذَا يَوْمَ الْقَضَىٰ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ» [الشعراء: ٢٢] «لَا تَنْصُرُونَ» [الأنعام: ١٠] «بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَقْبِلُونَ» [الأنعام: ١١]. يخبر تعالى عن قيل الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدار الدنيا، فإذا عاينوا أهوال القيامة ندّموا كل الندم حيث لا يتفعهم الندم، «وَقَالُوا يَوْنُكُمَا هَٰذَا يَوْمَ الْبَاطِنِ ۖ» [الشعراء: ٢٢]، فقتل لهم الملائكة والمؤمنون: «هَٰذَا يَوْمَ الْقَضَىٰ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ» [الشعراء: ٢٢]. وهذا يقال لهم على وجه التقرير والتوبيخ، ويأمر الله الملائكة أن تميز الكفار من المؤمنين في الموقف في محشرهم ومنشرهم؛ ولهذا قال تعالى: «لَا تَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ» قال النعمان ابن بشير، رضي الله عنه: يعني بأزواجهم أشباههم وأمثالهم. وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة ومجاهد، والسدي، وأبو صالح، وأبو العالية، وزيد بن أسلم وغيرهم. وقال سفيان الثوري، عن سماك، عن النعمان بن بشير، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: «لَا تَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ» قال: إخوانهم. وقال شريك، عن سماك، عن النعمان قال: سمعت عمر يقول: «لَا تَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ» قال: أشباههم. قال: يجيء صاحب الربا مع أصحاب الربا، وصاحب الزنا مع أصحاب الزنا، وصاحب الخمر مع أصحاب الخمر. وقال خُصِيف، عن مِقْسَم، عن ابن عباس: «وَأَزْوَاجُهُمْ»: نساءهم. وهذا غريب، والمعروف عنه الأول، كما رواه مجاهد وسعيد بن جبيرة، عنه: «وَأَزْوَاجُهُمْ»: قرنائهم. «وَمَا كَانُوا بِعَيْنِنَا» أي: أرشدوهم إلى طريق جهنم، وهذا كقوله تعالى: «وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رُجُومِهِمْ عَيْنًا وَيَكُونُ رِجَالًا مَّوَدَّعِينَ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زُنُجُودُهُمْ سَمِعُوا» [الأنعام: ٩٧].

وقوله: «وَقَفُّهُمْ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ» [الشعراء: ٢٢] أي: قفوه حتى يُسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا كما قال الضحاك، عن ابن عباس: يعني احبسوهم إنهم محاسبون. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الثعلبي، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت ليثاً يحدث عن بشر، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى شَيْءٍ كَانَ مَوْقُوفًا مَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يَغَادِرُهُ وَلَا يَفَارِقُهُ، وَإِنْ دَعَا رَجُلٌ رَجُلًا، ثُمَّ قَرَأَ: «وَقَفُّهُمْ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ» [الشعراء: ٢٢]. ورواه الترمذي، من حديث ليث بن أبي سليم. ورواه ابن جرير، عن يعقوب بن إبراهيم، عن معتمر، عن ليث، عن رجل، عن أنس

مرفوعاً. وقال عبد الله بن المبارك: سمعت عثمان بن زائدة يقول: إن أول ما يسأل عنه الرجل جلساؤه، ثم يقال لهم على سبيل التقرير والتوبيخ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ (٢٥) أي: كما زعمتم أنكم جميع منتصر، ﴿بَلْ هُمْ آيَوْمَ مُتَنَبِّئُونَ﴾ (٢٦) أي: منقادون لأمر الله، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٧) قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن النبيين (٢٨) قالوا بل لَرُ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكَ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَأَقْبَعُونَ (٣١) فَأَعْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَوِينَ (٣٢) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٣) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٤) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا تَارِكُوا آلِهَةً إِلَّا نَحْنُ وَإِنَّا بِمَا نَعْبُدُ لِرَبِّنَا لَعَالَمِينَ (٣٥) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٦).

يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة، كما يتخاصمون في ذرات النار، ﴿فَيَقُولُ السُّعْمَتُ لِلَّذِي اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَشْتَرُ مَغْنُومًا مِنَّا نَجِيئًا مِنَّا الْتَأَنَّا﴾ (٣٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِذْ قَالَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْوَسَادِ (٣٨) ﴿[تفسير: ٤٧، ٤٨]. وقال: ﴿وَلَوْ تَرَكْنَا بِهِ الْأَشْقَابُ مُوقِفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلُ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣٩) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعُّوا أَفَنُ مَصَدَّقُكَ عَنِ الْمَلَكِ بَعْدَ إِذْ جَاءَكَ بِبَلْ كُنْتُمْ تُجْرِمُونَ (٤٠) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ أَلِيلٍ وَالنَّهَارُ إِذْ تَأْمُرُونَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَحْمِلَ لَهُ أَثْمًا وَإِنَّا لَنَرَاهُ لَنَّارًا لَّالْعَذَابِ وَجَعَلْنَا الْأَخْلَافَ فِي أَصْغَارِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤١) [سبا: ٣١-٣٢]. قالوا لهم هاهنا: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَبِينِ﴾ قال الضحّاك، عن ابن عباس: يقولون: كنتم تقهرونا بالقدرة منكم علينا؛ لأننا كنا أذلاء وكنتم أعزاء. وقال مجاهد: يعني: عن الحق، الكفار تقوله للشياطين. وقال قتادة: قالت الإنس للجن: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَبِينِ﴾ قال: من قبل الخير، فتنهونا عنه وتبطئونا عنه. وقال السدي: تأتوننا عن اليمين من قبل الحق، تزينون لنا الباطل، وتصدوننا عن الحق. وقال الحسن في قوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَبِينِ﴾ إني والله، يأتيه عند كل خير يريد فيصده عنه. وقال ابن زيد: معناه تحولون بيننا وبين الخير، ورددتونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذي أمرنا به. وقال يزيد الرشك: من قبل ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾. وقال خُصِيف: يعنون من قبل ميامينهم. وقال عكرمة: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَبِينِ﴾، قال: من حيث نأمنكم.

وقوله: ﴿قَالُوا بَلْ لَرُ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٩) تقول القادة من الجن، والإنس للأتباع: ما الأمر كما تزعمون؟ بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكَ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة على صحة ما دعوناكم إليه، ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ﴾ أي: بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق؛ فهذا استجبت لنا وتركتم الحق الذي جاءكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاؤوكم به، فخالفتموهم. ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَأَقْبَعُونَ﴾ (٣١) فَأَعْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَوِينَ (٣٢)، يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله: إنا من الأشقياء الذائفين العذاب يوم القيامة، ﴿فَأَعْوَيْنَكُمْ﴾ أي: دعوناكم إلى الضلالة، ﴿إِنَّا كُنَّا غَوِينَ﴾ أي: دعوناكم إلى ما نحن فيه، فاستجبت لنا، قال الله تعالى: ﴿فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٣٣) أي: الجميع في النار، كل بحسبه، ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٤) أي: يستكبرون أن يقولوها، كما يقولها المؤمنون. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثنا الليث، عن ابن مسافر - يعني عبد الرحمن بن خالد - عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله، وأنزل الله في كتابه - وذكر قوماً استكبروا - فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٤)». وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن سعيد الجُريري، عن أبي العلاء قال: يؤتى باليهود يوم القيامة فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: الله وغزيراً. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال، ثم يؤتى بالنصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: نعبد الله والمسيح. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال. ثم يؤتى بالمشركون فيقال لهم: «لا إله إلا الله»، فيستكبرون. ثم يقال لهم: «لا إله إلا الله»، فيستكبرون. ثم يقال لهم: «لا إله إلا الله». فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد الله. فيقال لهم: هل تعرفونه إذا رأيتموه؟ فيقولون: نعم. فيقال لهم: فكيف تعرفونه ولم تروه؟ قالوا: نعلم أنه لا عدل له. قال: فيتعرف لهم تبارك وتعالى، وينجي الله المؤمنين.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا تَارِكُوا آلِهَةً إِلَّا نَحْنُ وَإِنَّا بِمَا نَعْبُدُ لِرَبِّنَا لَعَالَمِينَ﴾ (٣٥) أي: أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون، يعنون رسول الله ﷺ! قال الله تعالى تكذيباً لهم، ورداً عليهم: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾، يعني رسول الله ﷺ جاء بالحق في جميع شريعة الله له من الإخبار والطلب، ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: صدقهم فيما أخبروه عنه من الصفات الحميدة، والمناهج السليمة،

وأخبر عن الله في شرعه وقدره وأمره كما أخبروا، ﴿تَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية [نصت: ٤٣].

﴿إِنْكُرُوا لَذَابُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ (٣٨) وَمَا يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلُصِينَ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَوَكَهْهُمْ مُنْكَرُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بِيَمِينٍ لَدَوِّ لَسَانِهِمْ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧) وَعَنْهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩).

يقول تعالى: مخاطباً للناس: ﴿إِنْكُرُوا لَذَابُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ (٣٨) وَمَا يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٩)، ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين، كما قال تعالى: ﴿وَالصَّامِرُ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِرٌ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الصمر: ١-٣]. وقال: ﴿لَقَدْ عَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (١) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٤-٦]، وقال: ﴿وَلَا يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتَاً مَقْشُوعاً (١) ثُمَّ نَتَجَى الَّذِينَ أَتَقَرُوا وَتَدَّرُّ الْقَلْبِيلُ فِيهَا جِثَّةٌ (٢)﴾ [سرم: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ بِمَا كُنْتَ رَحِيماً (٢٨) إِنَّ أَحْسَنَ الْبَرِّ (٢٩)﴾ [المدر: ٣٨، ٣٩]؛ ولهذا قال: هاهنا: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلُصِينَ﴾ (٤٠) أي: ليسوا يذوقون العذاب الأليم، ولا يناقشون في الحساب، بل يتجاوز عن سيئاتهم، إن كان لهم سيئات، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، إلى ما يشاء الله من التضعيف.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ (٤١) قال قتادة، والسدي: يعني الجنة. ثم فسره بقوله تعالى: ﴿فَوَكَهْهُمْ مُنْكَرُونَ﴾ (٤٢) أي: يُخَدَمُونَ ويرزقون ويرفَهون وينعمون، ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ (٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٤) ينظر بعضهم إلى بعض. حديث غريب. وقوله ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ (٤٥) بِيَمِينٍ لَدَوِّ لَسَانِهِمْ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧) كما قال في الآية الأخرى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ وَلَدُنَّ عُلَّودُنَّ (١) يَأْكُوبُ وَأُتَارِقُ (٢)﴾ [سرم: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ (٤٥) أي: بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها. قال مالك، عن زيد بن أسلم: خمر جارية بيضاء، أي: لونها مشرق حسن بهي لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء، من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم. وقوله: ﴿لَدَوِّ لَسَانِهِمْ﴾ (٤٦) أي: طعمها طيب كلونها، وطيب الطعم دليل على طيب الريح، بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك. وقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ (٤٧) يعني: لا تؤثر فيهم غولاً - وهو وجع البطن. قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد - كما تفعله خمر الدنيا من القولنج ونحوه، لكثرة مايتها. وقيل: المراد بالغول هاهنا: صداع الرأس. وروي هكذا عن ابن عباس. وقال قتادة: هو صداع الرأس، وجع البطن. وعنه، وعن السدي: لا تغتال عقولهم، كما قال الشاعر:

فَمَا زَالَتِ الْكَأْسُ تُغْتَالُنَا وَتُذْهِبُ بِأَوَّلِ الْأَوَّلِ

وقال سعيد بن جبيرة: لا مكروه فيها ولا أذى. والصحيح قول مجاهد: إنه وجع البطن. وقوله: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ (٤٧) قال مجاهد: لا تذهب عقولهم، وكذا قال ابن عباس: ومحمد بن كعب، والحسن، وعطاء بن أبي مسلم الخراساني، والسدي، وغيرهم. وقال الضحاك، عن ابن عباس: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول. فذكر الله الجنة فتزهرها عن هذه الخصال، كما ذكر في سورة «الصافات».

وقوله: ﴿وَعَنْهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ (٤٨) أي: عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن. كذا قال ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وقتادة، والسدي، وغيرهم. وقوله: ﴿عِينٌ﴾ (٤٨) أي: حسان الأعين. وقيل: ضخام الأعين. وهو يرجع إلى الأول، وهي النجلاء العيناء، فوصف عيونهن بالحسن والعفة، كقول زليخا في يوسف حين جملة وأخرجته على تلك النسوة، فأعظمته وأكبرته، وظنن أنه ملك من الملائكة لحسنه وبهاء منظره، قالت: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَدَدْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاَسْتَعَمَّ﴾ [يوسف: ٣٢] أي: هو مع هذا الجمال عفيف تقي نقي، فأرتهن جماله الظاهر وأخبرتهن بجماله الباطن. وهكذا الحور العين ﴿خَيْرٌ حَسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠]، ولهذا قال: ﴿وَعَنْهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ (٤٨). وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ (٤٩)؛ وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ (٤٩) يقول: للؤلؤ المكنون. وينشد هاهنا بيت أبي دهل الشاعر في قصيدة له:

نعم فإن الموت يقطعه، فقالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَئِينَ ۚ﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلُ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾، قيل لهم: لا. قالوا: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَوْ أَلْفُورُ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٦٠﴾. وقوله: ﴿لِيُنْزِلَ هَذَا فَلَيمْلِلَ الْعَمِلُونَ﴾ ﴿٦١﴾ قال قتادة: هذا من كلام أهل الجنة. وقال ابن جرير: هو من كلام الله تعالى، ومعناه: لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا، ليصبروا إليه في الآخرة. وقد ذكروا قصة رجلين كانا شريكين في بني إسرائيل، تدخل في ضمن عموم هذه الآية الكريمة.

قال أبو جعفر بن جرير: حدثني إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، حدثنا عتاب بن بشير، عن خصيف، عن فرات بن ثعلبة البهراني في قوله: ﴿إِنِّي كَأَن لِّي فَرِيقٌ﴾ قال: إن رجلين شريكين، فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينار، وكان أحدهما له حرفة، والآخر ليس له حرفة، فقال الذي له حرفة للآخر: ليس عندك حرفة، ما أراني إلا مفارقك ومقاسمك، فقامسه وفارقه، ثم إن الرجل اشترى داراً بألف دينار كانت لملك، مات، فدعا صاحبه فأراه فقال: كيف ترى هذه الدار؟ ابتعتها بألف دينار؟ قال: ما أحسنها! فلما خرج قال: اللهم، إن صاحبي ابتاع هذه الدار بألف دينار، وإنني أسألك داراً من دور الجنة، فتصدق بألف دينار، ثم مكث ما شاء الله أن يمكث، ثم إنه تزوج بأمراء بألف دينار، فدعاه وصنع له طعاماً. فلما أتاه قال: إني تزوجت امرأة بألف دينار. قال: ما أحسن هذا! فلما انصرف قال: يا رب، إن صاحبي تزوج امرأة بألف دينار، وإنني أسألك امرأة من المحور العين. فتصدق بألف دينار، ثم إنه مكث ما شاء الله أن يمكث. ثم اشترى بستانين بألفي دينار، ثم دعاه فأراه فقال: إني ابتعت هذين البستانين. فقال: ما أحسن هذا! فلما خرج قال: يا رب، إن صاحبي قد اشترى بستانين بألفي دينار، وأنا أسألك بستانين في الجنة. فتصدق بألفي دينار، ثم إن الملك أتاهما فتوفاهما، ثم انطلق بهذا المتصدق، فأدخله داراً تعجبه، وإذا امرأة تطلع يضيء ما تحتها من حسنها، ثم أدخله بستانين وشيئاً الله به عليم، فقال عند ذلك: ما أشبه هذا برجل كان من أمره كذا وكذا. قال: فإنه ذاك، ولك هذا المنزل والبستانان والمرأة. قال: فإنه كان لي صاحب يقول: أئتلك لمن المصدقين؟ قيل له: فإنه في الجحيم. قال: هل أنتم مطلعون؟ فاطلع فرأه في سواء الجحيم. فقال عند ذلك: ﴿تَأَلَّوْا إِن كِدَتْ لَأَزْوَاجٌ لَّوْ لَا يَفْقَهُوْا لَكُنتُمْ مِنْ الْمُخْضَرِّينَ﴾ ﴿٥٧﴾ الآيات.

قال ابن جرير: وهذا يقوي قراءة من قرأ: ﴿أئتلك لمن المصدقين﴾ بالتشديد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عمر بن عبد الرحمن الأبار أبو حفص قال: سألت إسماعيل السدي عن هذه الآية: ﴿قَالَ قَائِلٌ لَّهُمْ إِنِّي كَانَ لِي فَرِيقٌ﴾ ﴿٥٩﴾ يَقُولُ أَوَّلَكَ لَئِنْ أَصْحَفْتَنِي ﴿٥٩﴾؟ قال: فقال لي: ما ذكرك هذا؟ قلت: قرأته آنفاً فأحببت أن أسألك عنه؟ فقال: أما فاحفظ، كان شريكاً في بني إسرائيل، أحدهما مؤمن والآخر كافر، فافترقا على ستة آلاف دينار، كل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقي فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك؟ أضربت به شيئاً؟ أتجرت به في شيء؟ فقال له المؤمن: لا، فما صنعت أنت؟ فقال: اشتريت به أرضاً ونخلًا وثماراً وأنهاراً قال: فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلي، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه، ثم قال: اللهم إن فلاناً - يعني شريكه الكافر - اشترى أرضاً ونخلًا وثماراً بألف دينار، ثم يموت غداً ويتركها، اللهم إني اشتريت منك بهذه الألف دينار، أرضاً ونخلًا وثماراً وأنهاراً في الجنة. قال: ثم أصبح فقسمها في المساكين. قال: ثم مكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقي فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك، أضربت به في شيء؟ أتجرت به في شيء؟ قال: لا، فما صنعت أنت. قال: كانت ضيعتي قد اشتد علي مؤنتها، فاشتريت رقيقاً بألف دينار، يقومون بي فيها، ويعملون لي فيها. فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلي، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه، ثم قال: اللهم إن فلاناً - يعني شريكه الكافر - اشترى رقيقاً من رقيق الدنيا بألف دينار، يموت غداً ويتركهم، أو يموتون فيتركونه، اللهم، وإنني اشتري منك بهذه الألف الدينار رقيقاً في الجنة. ثم أصبح فقسمها على المساكين. قال: ثم مكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقي فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك؟ أضربت به في شيء؟ أتجرت به في شيء؟ قال: لا، فما صنعت أنت؟ قال: أمري كله قد تم إلا شيئاً واحداً فلانة قد مات عنها زوجها، فأصدقته ألف دينار، ففجأتني بها ومثلها معها. فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلي، فلما انصرف أخذ الألف الدينار الباقية، فوضعها بين يديه، وقال: اللهم إن فلاناً - يعني شريكه الكافر - تزوج زوجة من أزواج الدنيا، فيموت غداً فيتركها، أو تموت فتتركه، اللهم وإنني أخطب إليك بهذه الألف الدينار حوراء عيانه في الجنة. ثم أصبح فقسمها بين المساكين. قال: فبقي المؤمن ليس عنده شيء. قال: فليس قميصاً من قطن، وكساء من صوف، ثم أخذ مراً فجعله على رقبتة، يعمل الشيء ويحفر الشيء بقوته. قال: فجاءه رجل فقال: يا عبد الله، أتزاجرنى نفسك مشاهرة، شهراً بشهر، تقوم على دواب لي تعلقها وتكنس سرقبتها؟

قال: نعم. قال: فواجره نفسه مشاهرة، شهراً بشهر، يقوم على دوابه. قال: فكان صاحب الدواب يغدو كل يوم ينظر إلى دوابه، فإذا رأى منها دابة ضامرة، أخذ برأسه فوجأ عنقه، ثم يقول له: سرقت شعير هذه البارحة؟ فلما رأى المؤمن هذه الشدة قال: لأتبن شريكى الكافر، فلا عملن في أرضه فيقطعني هذه الكسرة يوماً، ويكسوني هذين الثوبين إذا بليا. قال: فانطلق يريده، فلما انتهى إلى بابهِ وهو ممس، فإذا قصر مشيد في السماء، وإذا حوله البوابون، فقال لهم: استأذنوا لي صاحب هذا القصر، فإنكم إذا فعلتم سره ذلك، فقالوا له: انطلق إن كنت صادقاً فتم في ناحية، فإذا أصبحت فتعرض له. قال: فانطلق المؤمن، فألقى نصف كسائه تحته، ونصفه فوقه، ثم نام. فلما أصبح أتى شريكه فتعرض له، فخرج شريكه الكافر وهو راكب، فلما رآه عرفه فوقف عليه وسلم عليه وصافحه، ثم قال له: ألم تأخذ من المال مثل ما أخذت؟ قال: بلى وهذه حالي وهذه حالك. قال: أخبرني ما صنعت في مالك؟ قال: لا تسألني عنه. قال: فما جاء بك؟ قال: جئت أعمل في أرضك هذه، فتقطعني هذه الكسرة يوماً بيوم، وتكسوني هذين الثوبين إذا بليا. قال: لا، ولكن أصنع بك ما هو خير من هذا، ولكن لا ترى مني خيراً حتى تخبرني ما صنعت في مالك؟ قال: أفرضته؟ قال: من؟ قال: المليء الوفي. قال: من؟ قال: الله ربي. قال: وهو مصافحه، فانتزع يده من يده، ثم قال: ﴿أَمَّا لَيْنَ الْمَصِيْفِ لَدَا يَنَّا وَكَأَنَّ تَرَاكَ وَعَظْمًا أَوْثًا لَدَيْكَ﴾ (٥٧). قال السدي: محاسبون. قال: فانطلق الكافر وتركه. قال: فلما رآه المؤمن ليس يلوي عليه، رجع وتركه، يعيش المؤمن في شدة من الزمان، ويعيش الكافر في رخاء من الزمان. قال: فإذا كان يوم القيامة وأدخل الله المؤمن الجنة، يمر فإذا هو بأرض ونخل وثمار وأنهار، فيقول: لمن هذا؟ فيقال: هذا لك. فيقول: يا سبحان الله! أو بلغ من فضل عملي أن أتاب بمثل هذا؟ قال: ثم يمر فإذا هو برقيق لا تحصى عدتهم، فيقول: لمن هذا؟ فيقال: هؤلاء لك. فيقول: يا سبحان الله! أو بلغ من فضل عملي أن أتاب بمثل هذا؟ قال: ثم يمر فإذا هو بقبة من ياقوتة حمراء مجوفة، فيها حوراء عيناء، فيقول: لمن هذه؟ فيقال: هذه لك. فيقول: يا سبحان الله! أو بلغ من فضل عملي أن أتاب بمثل هذا؟ قال: ثم يذكر المؤمن شريكه الكافر فيقول: ﴿إِنِّي كَأَن لِّي فَرَسٍ﴾ (٥٨) يَقُولُ أَمَّا لَيْنَ الْمَصِيْفِ لَدَا يَنَّا وَكَأَنَّ تَرَاكَ وَعَظْمًا أَوْثًا لَدَيْكَ (٥٧). قال: فالجنة عالية، والنار هاربة، قال: فبريه الله شريكه في وسط الجحيم، من بين أهل النار، فإذا رآه المؤمن عرفه، فيقول: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنتَ لَتَوَدُّنِ﴾ (٥٩) وَلَوْلَا بَقِيَّةُ رَبِّي لَكُنتَ مِنَ الْخَاصِرِينَ (٥٩) أَمَّا نَحْنُ بِمَبْنِيٍّ (٥٨) إِلَّا مَوْنَنَا الْأَوَّلُ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْقَوَدِ الْعَظِيمِ (٦٠) لِيُثِلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْغَالِبُونَ (٦١). بمثل ما مَنَّ عليه. قال: فيتذكر المؤمن ما مر عليه في الدنيا من الشدة، فلا يذكر مما مر عليه في الدنيا من الشدة، أشد عليه من الموت.

﴿أَمَّا لَيْنَ الْمَصِيْفِ لَدَا يَنَّا وَكَأَنَّ تَرَاكَ وَعَظْمًا أَوْثًا لَدَيْكَ﴾ (٥٧) ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ (٦٢) ﴿إِنَّمَا شَجَرَةُ زُحْرُفٍ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ (٦٣) ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهُ زُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ (٦٤) ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ فِيهَا فَاعِلُونَ فِيهَا الْبُظُورُ﴾ (٦٥) ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَاكِبًا مِّنْ جِبرِ﴾ (٦٦) ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمْ لِأَنَّ الْجَحِيمِ﴾ (٦٧) ﴿إِنَّهُمْ الْقَوَا عَابَاءُ مَرَجٍ سَالِينَ﴾ (٦٨) ﴿فَهُمْ عَلَىٰ عَاقِبَتِهِمْ مُّهْرُورُونَ﴾ (٦٩).

يقول الله تعالى: أهذا الذي ذكره، من نعيم الجنة وما فيها من مأكول ومشروب ومناكح وغيره ذلك من الملاذ - خير ضيافة وعطاء ﴿أَمَّا شَجَرَةُ الزُّقُومِ﴾؟ أي: التي في جهنم. وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة، كما قال بعضهم من أنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم كما أن شجرة طوبى ما من دار في الجنة إلا وفيها منها غصن. وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر، يقال له: الزقوم، كقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةُ زُحْرُفٍ مِّنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدَّهْنِ وَصَنِيعٌ لِلْآكِلِينَ﴾ (٦٤) [المؤمنون: ٢٠]، يعني الزيتون، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنَا السَّالُونَ الْمَكْذِبُونَ﴾ (٥٩) ﴿لَا يَكُونُ بَيْنَ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ﴾ (٥٧) [الرائقة: ٥١، ٥٢]. وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ (٦٢)، قال قتادة: ذكرت شجرة الزقوم، فافتتن بها أهل الضلالة، وقالوا: صاحبكم ينبئكم أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر، فانزل الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا شَجَرَةُ زُحْرُفٍ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ (٦٤) غدت من النار، ومنها خلقت. وقال مجاهد: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ (٦٢)، قال أبو جهل - لعنه الله -: إنما الزقوم التمر والزبد أترقه. قلت: ومعنى الآية: إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختباراً تختبر به الناس، من يصدق منهم ممن يكذب، كقوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا الزُّبْرًا الَّذِي أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةُ الْمَعْنَىٰ فِي الْقُرْآنِ وَتُؤَفِّقُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الاسراء: ٦٠].

وقوله: ﴿إِنَّمَا شَجَرَةُ زُحْرُفٍ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ (٦٤)، أي: أصل منبتها في قرار النار، ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهُ زُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ (٦٤) تبشيع لها وتكريره لذكرها. قال وهب بن منبه: شعور الشياطين قائمة إلى السماء. وإنما شبهها بزؤوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛ لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر. وقيل: المراد بذلك ضرب من الحيات، رؤوسها بشعة المنظر. وقيل: جنس من النبات، طلعه في غاية الفحاشة. وفي هذين الاحتمالين نظر، وقد ذكرهما ابن جرير، والأول أقوى

وأولى، والله أعلم. وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ فِيهَا مَالًا وَمِنَ الْأُشْجَارِ﴾، ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التي لا أبشع منها، ولا أقبح من منظرها، مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع، فإنهم ليضطربون إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها، وما في معناها، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ شَرِيحٍ﴾ لا يسبون ولا يثني من شريح [الغاشية: ٦، ٧]. وقال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية، وقال: «اتقوا الله حتى تقاته، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا، لأفسدت على أهل الأرض معاشهم، فكيف بمن تكون طعامه؟». ورواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، من حديث شعبة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَاكِبًا﴾ قال ابن عباس: يعني شرب الحميم على الزقوم.

وقال في رواية عنه: ﴿لَشَوَاكِبًا﴾ مزجاً من حميم. وقال غيره: يعني يمزج لهم الحميم بصديد وغساق، مما يسيل من فروجهم وعيونهم. وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا حيوة بن شريح الحضرمي، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، عن صفوان بن عمرو، أخبرني عبيد الله بن بسر عن أبي أمامة الباهلي، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه كان يقول: «يقرب - يعني إلى أهل النار - ماء فيتكرهه، فإذا أدنى منه شوي وجهه، ووقعت فروة رأسه فيه. فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن رافع، حدثنا يعقوب بن عبد الله، عن جعفر وهارون بن عترة، عن سعيد بن جبيرة قال: إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم فيها، فلو أن ماراً يمر بهم يعرفهم لعرف وجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش، فيستغيثون فيخاثون بماء كالمهل - وهو الذي قد انتهى حره - فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود، ويصهر ما في بطونهم، فيمشون تسيل أمعاؤهم وتتساقط جلودهم، ثم يضرّبون بمقامع من حديد، فيسقط كل عضو على حياله، يدعون بالبور.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمْ لِأَلْبَحِيمِ﴾ أي: ثم إن مردهم بعد هذا الفصل إلى نار تتأجج، وجحيم تتوقد، وسعير تتوهج، فتارة في هذا وتارة في هذا، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ جَحِيمٍ مَّاوَى﴾ [الرحمن: ٤٤]. هكذا تلا فتادة هذه الآية عند هذه الآية، وهو تفسير حسن قوي. وقال السدي في قراءة عبد الله: ﴿ثم إن مقلهم إلى الجحيم﴾ وكان عبد الله يقول: والذي نفسي بيده لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار. ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]. وروى الثوري، عن ميسرة، عن المنهال بن عمرو، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقل هؤلاء ويقيل هؤلاء. قال سفيان: أراه، ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾، ﴿ثم إن مقلهم إلى الجحيم﴾. قلت: على هذا التفسير تكون «ثم» عاطفة لخبر على خبر. وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا مَاءً مَرًّا مَرَّ سَالِينَ﴾ أي: إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك، من غير دليل ولا برهان؛ ولهذا قال: ﴿فَهُمْ عَلَى مَا نَزَّلْنَاهُمْ بِهِ عَوْدُونَ﴾ قال مجاهد: شبيهة بالهرولة. وقال سعيد بن جبيرة: يسفون.

﴿وَلَقَدْ سَلَ قَبْلَهُمْ أَكْثَرَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ ثُنْدَيْنِ﴾ ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَنَذِرِينَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى. وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين، يندرون بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته، ممن كفر به وعبد غيره، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم. فاهلك المكذبين ودمرهم، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم؛ ولهذا قال: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَنَذِرِينَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نوحًا فَلَيْعَمَ الْمُجِيبُونَ﴾ ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿وَوَعَدْنَا دَاوُدَ إِذْ قَالَ إِنَّا أَنْزَلْنَاكَ فِي الْأَخْيَرِ﴾ ﴿وَوَعَدْنَا دَاوُدَ إِذْ قَالَ إِنَّا أَنْزَلْنَاكَ فِي الْأَخْيَرِ﴾.

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة، شرع يبين ذلك مفصلاً، فذكر نوحاً، عليه السلام، وما لقي من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة، فدعى ربه أني مغلوب فانتصر، فغضب الله لغضبهم عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نوحًا فَلَيْعَمَ الْمُجِيبُونَ﴾ أي: فلنعم المجيبون له، ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، وهو التكذيب والأذى،

قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ يعني: طعين. وكانوا يفرون من المطعون، فأراد أن يخلو بالكهتهم. وكذا قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَنَظَرْنَا نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ﴿٨٩﴾، فقالوا له وهو في بيت آلهمهم: اخرج. فقال: إني مطعون، فتركوه مخافة الطاعون. وقال قتادة، عن سعيد بن المسيب: رأى نجماً طلع فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ كابدني الله عن دينه ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ﴿٩٠﴾. وقال آخرون: فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ بالنسبة إلى ما يستقبل، يعني: مرض الموت. وقيل: أراد ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله ﷻ. وقال الحسن البصري: خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم، فأرادوه على الخروج، فاضطجع على ظهره وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وجعل ينظر في السماء، فلما خرجوا أقبل إلى آلهمهم فكسرها. رواه ابن أبي حاتم.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَنَظَرُوا عَنْهُ مُنْجِبِينَ﴾ ﴿٩١﴾ أي: إلى عيدهم، ﴿فَرَأَى إِلَهَ الْإِلَهِمْ﴾ أي: ذهب إليها بعد أن خرجوا في سرعة واختفاء، ﴿فَقَالَ آلَا تَأْكُلُونَ﴾، وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديهم طعاماً قرباناً لتبزيك لهم فيه. قال السدي: دخل إبراهيم عليه السلام، إلى بيت الآلهة، فإذا هم في بهو عظيم، وإذا مستقبل باب البهو صنم عظيم، إلى جنبه صنم آخر أصغر منه، بعضها إلى جنب بعض، كل صنم يليه أصغر منه، حتى بلغوا باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعاماً وضعوه بين أيدي الآلهة، وقالوا: إذا كان حين نرجع وقد بزكت الآلهة في طعامنا أكلنا، فلما نظر إبراهيم، عليه السلام، إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ﴿آلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنطِفُونَ﴾ ﴿٩٢﴾؟ وقوله: ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ عِزّاً بِالْيَمِينِ﴾ ﴿٩٣﴾: قال الفراء: معناه مال عليهم ضرباً باليمين. وقال قتادة والجوهري: فأقبل عليهم ضرباً باليمين. وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى؛ ولهذا تركهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون، كما تقدم في سورة الأنبياء تفسير ذلك. وقوله هاهنا: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ رَيْبُونَ﴾ ﴿٩٤﴾: قال مجاهد وغير واحد: أي يسرعون. وهذه القصة هاهنا مختصرة، وفي سورة الأنبياء مبسطة، فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة من فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا، فعرفوا أن إبراهيم، عليه السلام، هو الذي فعل ذلك. فلما جاؤوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعيهم، فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُمُونَ؟﴾ أي: أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تحتونها وتجعلونها بأيديكم؟ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٩٥﴾. يحتمل أن تكون «ما» مصدرية، فيكون تقدير الكلام: والله خلقكم وعملكم. ويحتمل أن تكون بمعنى «الذي» تقديره: والله خلقكم والذي تعملونه. وكلا القولين متلازم، والأول أظهر؛ لما رواه البخاري في كتاب «أفعال العباد»، عن علي بن المديني، عن مروان بن معاوية، عن أبي مالك، عن ربيعة بن حراش، عن حذيفة مرفوعاً قال: «إن الله يصنع كل صانع وصنعتة». وقرأ بعضهم: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٩٦﴾. فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر، فقالوا: ﴿إِنَّا لَمُبَشِّرُونَ فَأَلْفَوْهُ بِالْحَمِيرِ﴾ وكان من أمرهم ما تقدم بيانه في سورة الأنبياء، ونجاه الله من النار وأظهره عليهم، وأعلى حجته ونصرها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ ﴿٩٧﴾.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَيْ رَبِّي سَبْعِينَ﴾ ﴿٩٨﴾ رَبِّي هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٩٩﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي السَّمَاءِ آتٍ أَذِيكُم مَّاذَا نَحْنُ قَالُوا أَتَمَّامٌ مَا نَحْنُ سَجَدَ لِلَّهِ إِن شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا أَتَيْنَا وَقَدْ بَلَغَ الْبَحْرَ يَبْنَؤُا هَيْدُورٌ قَدْ صَدَفَتْ أَرْوَاهُ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْبَهِيمُ ﴿١٠٣﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِذِيحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَانَ عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٥﴾ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٦﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٧﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٨﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ يَبْنَؤُا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٩﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا عِيسَى وَطَالُوتَ لِنَفْسِهِ نُبِيتُ ﴿١١٠﴾.

يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم عليه السلام: أنه بعد ما نصره الله على قومه وأيس من إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم، وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَيْ رَبِّي سَبْعِينَ رَبِّي هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٩٩﴾. يعني: أولاداً مطيعين عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم. قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ ﴿١٠٠﴾. وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أول ولد بشر به إبراهيم، عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم أن إسماعيل ولد لإبراهيم عليه السلام، ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم تسع وتسعون سنة. وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيداً، وفي نسخة: بكره، فأقحموا هاهنا كذباً وبهتاناً «إسحاق»، ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوه، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوه، فزادوا ذلك وخزفوا وحيدك، بمعنى الذي ليس عندك غيره، فإن إسماعيل كان ذهب به ويأمله إلى جنب مكة. وهذا تأويل وتحريف باطل، فإنه لا يقال: وحيد إلا لمن ليس له غيره، وأيضاً فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار. وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكي ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة أيضاً، وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تلقى إلا عن أجبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مسلماً من غير حجة. وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه

إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَيَكْفُرْتُهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ﴾ [الحجر: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَكَلَهُ إِسْحَاقَ يَتُوبُ﴾ [هود: ٧١]، أي: يولد له في حياته ولد يسمى يعقوب، فيكون من ذريته عقب ونسل. وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير؛ لأن الله تعالى قد وعدهما بأنه سيعقب، ويكون له نسل، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيراً، وإسماعيل وصف هاهنا بالحلُم؛ لأنه مناسب لهذا المقام.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَى﴾ أي: كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه. وقد كان إبراهيم، عليه السلام، يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد «فاران» وينظر في أمرهما، وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعاً إلى هناك، فله أعلم. وعن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبّير، وعطاء الخراساني، وزيد بن أسلم، وغيرهم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَى﴾ يعني: شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل، ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَى﴾ قال يَتُوبُ إِنَّ أَرَى فِي السَّائِرِ أَنَّ أَذْهَبَكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى. قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وخي، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ يَتُوبُ إِنَّ أَرَى فِي السَّائِرِ أَنَّ أَذْهَبَكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن الجندب، حدثنا أبو عبد الملك الكردي، حدثنا سفيان بن عيينة، عن إسرائيل بن يونس، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رؤيا الأنبياء في المنام وخي» ليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه. وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله وطاعة أبيه. ﴿قَالَ يَتُوبُ أَفَلَمْ يَأْتِ بِتُوبَةٍ﴾ أي: امض لما أمرك الله من ذبحي، ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْقَانِئِينَ﴾ أي: سأصبر وأحتسب ذلك عند الله ﷻ. وصدق، صلوات الله وسلامه عليه، فيما وعد؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يُؤْمِرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ [مریم: ٥٤، ٥٥].

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَمَّ تِلْكَ لِجَبْرِئِيلَ﴾ ﴿٥٦﴾ أي: فلما شهدا وذكرنا الله تعالى: إبراهيم على الذبيح والولد على شهادة الموت. وقيل: ﴿أَتَمَّ﴾ يعني: استسلما وانقادا؛ إبراهيم امتثل أمر الله، وإسماعيل طاعة الله وأبيه. قاله مجاهد، وعكرمة والسدي، وقتادة، وابن إسحاق، وغيرهم. ومعنى ﴿تِلْكَ لِجَبْرِئِيلَ﴾ أي: صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه، ليكون أهون عليه، قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبّير، والضحاك، وقتادة: ﴿تِلْكَ لِجَبْرِئِيلَ﴾: أكبه على وجهه. وقال الإمام أحمد: حدثنا سُريج ويونس قالوا: حدثنا حماد بن سلمة، عن أبي عاصم الغنوي، عن أبي الطفيل، عن ابن عباس أنه قال: لما أمر إبراهيم بالمناسك عرض له الشيطان عند السعي، فسابقه فسبقه إبراهيم، ثم ذهب به جبريل إلى جمره العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمره الوسطى فرماه بسبع حصيات، وثم تله للجبين، وعلى إسماعيل قميص أبيض، فقال له: يا أبت، إنه ليس لي ثوب تكفني فيه غيره، فاخلعه حتى تكفني فيه. فعالجه ليخلعه، فتودى من خلفه: ﴿أَنْ يَتَّيَرَّيْهِ قَدْ مَدَّتْ الزُّبَيَّا﴾، فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين. قال ابن عباس: لقد رأيتنا نتبع ذلك الضرب من الكباش. وذكر تمام الحديث في «المناسك» بطوله. ثم رواه أحمد بطوله عن يونس، عن حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبّير، عن ابن عباس، فذكر نحوه إلا أنه قال: «إسحاق». فعن ابن عباس في تسمية الذبيح رويتان، والأظهر عنه إسماعيل، لما سيأتي بيانه.

وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن بن دينار، عن قتادة، عن جعفر بن إياس، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكَفَّرْتُهُ بِذَبْحِ عِيسَى﴾ قال: خرج عليه كبش من الجنة. قد رعى قبل ذلك أربعين خريفاً، فأرسل إبراهيم ابنه وأتبع الكبش، فأخرجه إلى الجمره الأولى، فرماه بسبع حصيات فأفلقته عندها، فجاء الجمره الوسطى فأخرجه عندها، فرماه بسبع حصيات ثم أفلقته فأدركه عند الجمره الكبرى، فرماه بسبع حصيات فأخرجه عندها. ثم أخذه، فأثني به المنحر من منى فذبحه، فوالذي نفس ابن عباس بيده لقد كان أول الإسلام، وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة قد حش، يعني: ييس. وقال عبد الرزاق أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، أخبرنا القاسم قال: اجتمع أبو هريرة وكعب، فجعل أبو هريرة يحدث عن النبي ﷺ، وجعل كعب يحدث عن الكُتُب، فقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «إن لكل نبي دعوة مستجابة، وإنني قد خبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة». فقال له كعب: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: فذاك أبي وأمي - أو: فداه أبي وأمي - أفلا أخبرك عن إبراهيم عليه السلام؟ إنه لما أُرِيَ ذَبْحَ ابنه إسحاق قال الشيطان: إن لم أفنن هؤلاء عند هذه لم أفنتهم أبداً. فخرج إبراهيم بابنه ليذبحه، فذهب الشيطان فدخل على سارة، فقال: أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: غدا به لبعض حاجته. قال: لم يغد لحاجة، وإنما ذهب به ليذبحه. قالت: ولم يذبحه؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك. قالت: فقد أحسن أن يطيع ربه. فذهب الشيطان في

أثرهما فقال للغلام: أين يذهب بك أبوك؟ قال: ليعرض حاجته. قال: إنه لا يذهب بك لحاجة، ولكنه يذهب بك ليذبحك. قال: ولم يذبحني؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك. قال: فوالله لئن كان الله أمره بذلك ليفعلن. قال: فيس منه فلحق بإبراهيم، فقال: أين غدوت بابنك؟ قال: لحاجة. قال: فإنك لم تغد به لحاجة، وإنما غدوت به لتذبحه قال: ولم أذبحه؟ قال: تزعم أن ربك أمرك بذلك. قال: فوالله لئن كان الله أمرني بذلك لأفعلن. قال: فتركه ويش أن يطاع. وقد رواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وهب، عن يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، أن عمرو ابن أبي سفيان بن أسيد بن جارية الثقفي أخبره، أن كعباً قال لأبي هريرة... فذكره بطوله، وقال في آخره: وأوحى الله إلى إسحاق أني أعطيتك دعوة أستجيب لك فيها. قال إسحاق: اللهم، إني أدعو أن تستجيب لي: أئما عبد لقيك من الأولين والآخرين، لا يشرك بك شيئاً، فأدخله الجنة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خيرني بين أن يغفر لنصف أمتي، وبين أن أختبئ شفاعتي، فاختبأت شفاعتي، ورجوت أن تكفر الجحيم لأمتي، ولولا الذي سبقني إليه العبد الصالح لتعجلت فيها دعوتي، إن الله لما فرج عن إسحاق كزب الذبح قبل له: يا إسحاق، سل ثغطة. فقال: أما والذي نفسي بيده لأتبعجلنها قبل نزغات الشيطان، اللهم من مات لا يشرك بك شيئاً فاعف له وأدخله الجنة». هذا حديث غريب منكر. وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف الحديث، وأخشى أن يكون في الحديث زيادة مذبذبة، وهي قوله: «إن الله تعالى لما فرج عن إسحاق» إلى آخره، والله أعلم. فهذا إن كان محفوظاً فالأشبه أن السياق إنما هو عن إسماعيل، وإنما حرفوه بإسحاق؛ حسداً منهم كما تقدم، وإلا فالمناسك والذبايح إنما محلها بمنى من أرض مكة، حيث كان إسماعيل لا إسحاق عليهما السلام، فإنه إنما كان ببلاد كنعان من أرض الشام.

وقوله تعالى: ﴿وَوَدَّيْتَهُ أَنْ يَبَرِّهَهُ﴾ (١٧) ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ أي: قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح. وذكر السدي وغيره أنه أمر السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً، بل حال بينها وبينه صفيحة من نحاس، ونودي إبراهيم، عليه السلام، عند ذلك: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾. وقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٠) أي: هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ (١) ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرَهُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرًا﴾ (٣) [الطلاق: ٢، ٣]. وقد استدلل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل، خلافاً لطائفة من المعتزلة، والدلالة من هذه ظاهرة، لأن الله تعالى شرع لإبراهيم ذبح ولده، ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء، وإنما كان المقصود من شرعه أولاً إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزيمه على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّكَ كَذَلِكَ تَلْهَوْنَ الْبَصِيرَةَ﴾ (١٢١) أي: الاختيار الواضح الجلي؛ حيث أمر بذبح ولده، فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله، متقاداً لطاعته؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَابْرَأْهِمُ الَّذِينَ وَفَّ﴾ (٢٧) [النجم: ٢٧].

وقوله: ﴿وَوَدَّيْتَهُ يَذْبَحُ عَظِيمٍ﴾ (١٧) قال سفيان الثوري، عن جابر الجعفي، عن أبي الطفيل، عن علي، رضي الله عنه: ﴿وَوَدَّيْتَهُ يَذْبَحُ عَظِيمٍ﴾ (١٧) قال: بكبش أبيض أعين أقرن، قدربط بسمرة - قال أبو الطفيل وجدوه مربوطاً بسمرة في ثبير. وقال الثوري أيضاً، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار، حدثنا داود العطار، عن ابن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: الصخرة التي بمنى بأصل ثبير هي الصخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء ابنه، هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء، فذبحه، وهو الكبش الذي قرّبه ابن آدم فتقبل منه، فكان مخزوناً حتى فدى به إسحاق. وروي أيضاً عن سعيد بن جبير أنه قال: كان الكبش يرتع في الجنة حتى تشقق عنه ثبير، وكان عليه عهن أحمر. وعن الحسن البصري: أنه كان اسم كبش إبراهيم: جرير. وقال ابن جرير: قال عبيد بن عمير: ذبحه بالمقام. وقال مجاهد: ذبحه بمنى عند المنحر. وقال هشيم، عن سيار، عن عكرمة؛ أن ابن عباس كان أفتى الذي جعل عليه نذراً أن ينحر نفسه، فأمره بمائة من الإبل. ثم قال بعد ذلك: لو كنت أفتيته بكبش لأجزأه أن يذبح كبشاً، فإن الله تعالى قال في كتابه: ﴿وَوَدَّيْتَهُ يَذْبَحُ عَظِيمٍ﴾ (١٧). والصحيح الذي عليه الأكثر أن فدي بكبش. وقال الثوري، عن رجل، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَدَّيْتَهُ يَذْبَحُ عَظِيمٍ﴾ (١٧) قال: وغل. وقال محمد بن إسحاق، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن أنه كان يقول: ما فدي إسماعيل إلا بتيس من الأزوى، أهبط عليه من ثبير. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا منصور، عن خاله مسافع، عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتني امرأة من بني سليم - ولدت عامة أهل دارنا - أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة - وقال مرة: إنها سألت عثمان: لم دعاك

فيه، وإني لأراه كما قلت. ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام، كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك - قال محمد بن كعب: وأنا عند عمر بن عبد العزيز - فقال له عمر: أي إبن إبراهيم أير بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن يهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب، على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق، يكون إسحاق أبوهم، والله أعلم أيهما كان، وكل قد كان طاهراً طيباً مطيعاً لله ﷻ. وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: سألت أبي عن الذبيح، من هو؟ إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: إسماعيل. ذكره في كتاب الزهد. وقال ابن أبي حاتم: وسمعت أبي يقول: الصحيح أن الذبيح إسماعيل، عليه السلام. قال: وروي عن علي، وابن عمر، وأبي هريرة، وأبي الطفيل، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جببر، والحسن، ومجاهد، والشعبي، ومحمد بن كعب القرظي، وأبي جعفر محمد بن علي، وأبي صالح أنهم قالوا: الذبيح إسماعيل. وقال البغوي في تفسيره: وإليه ذهب عبد الله بن عمر، وسعيد بن المسيب، والسدي، والحسن البصري، ومجاهد، والربيع بن أنس، ومحمد بن كعب القرظي، والكلبي، وهو رواية عن ابن عباس، وحكاها أيضاً عن أبي عمرو بن العلاء.

وقد روى ابن جرير في ذلك حديثاً غريباً فقال: حدثني محمد بن عمار الرازي، حدثنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة، حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابي، عن عبيد الله بن محمد العتبي - من ولد عتبة بن أبي سفيان - عن أبيه: حدثني عبد الله بن سعيد، عن الصنابحي قال: كنا عند معاوية بن أبي سفيان، فذكروا الذبيح: إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: على الخبر سقطتم، كنا عند رسول الله ﷺ، فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، غُذِّي علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين. فضحك رسول الله ﷺ، فقليل له: يا أمير المؤمنين، وما الذبيحان؟ فقال: إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر الله إن سهل الله أمرها عليه، ليذبحن أحد ولده، قال: فخرج السهم على عبد الله، فمنعه أخواله وقالوا: افد ابنك بمائة من الإبل. ففداه بمائة من الإبل، وإسماعيل الثاني. وهذا حديث غريب جداً. وقد رواه الأموي في مغازيه: حدثنا بعض أصحابنا، أخبرنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة، حدثنا عمر بن عبد الرحمن القرشي، حدثنا عبيد الله بن محمد العتبي - من ولد عتبة بن أبي سفيان - حدثنا عبد الله بن سعيد، حدثنا الصنابحي قال: حضرنا مجلس معاوية، فذاكر القوم إسماعيل وإسحاق، وذكره. كذا كتبه من نسخة مغلوطة. وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى: ﴿وَيَذَرْنَهُ فَنَبَّاهٍ﴾ [١١٦]، فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله: ﴿وَيَذَرْنَهُ فَنَبَّاهٍ﴾ [١١٦]. وأجاب عن البشارة يعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعي، أي العمل. ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضاً. قال: وأما القرآن اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلتا من بلاد الشام. قال: وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك. هذا ما اعتمد عليه في تفسيره، وليس ما ذهب إليه بمذهب ولا لازم، بل هو بعيد جداً، والذي استدلل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَيَذَرْنَهُ فَنَبَّاهٍ﴾ [١١٦]، لما تقدمت البشارة بالذبيح - وهو إسماعيل - عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق، وقد ذكرت في سورتي «هود» و«الحجر». وقوله: ﴿يَبَّاهٍ﴾ حال مقدرة، أي: سيصير منه نبي من الصالحين. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عليه، عن داود، عن عكرمة قال: قال ابن عباس، رضي الله عنهما: الذبيح إسحاق. قال: وقوله: ﴿وَيَذَرْنَهُ فَنَبَّاهٍ﴾ [١١٦] قال: بشر بنوته. قال: وقوله: ﴿وَوَعَدْنَا لَمَنْ رَمَعْنَا آخَاءَهُمْ هَؤُلَاءِ﴾ [٥٣] (مریم: ٥٣) قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد: وهب له نبوته. وحدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت داود يحدث، عن عكرمة، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿وَيَذَرْنَهُ فَنَبَّاهٍ﴾ [١١٦] قال: إنما بشر به نبياً حين فداء الله من الذبيح، ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان الثوري، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَيَذَرْنَهُ فَنَبَّاهٍ﴾ [١١٦] قال: بشر به حين ولد، وحين نبى. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله: ﴿وَيَذَرْنَهُ فَنَبَّاهٍ﴾ [١١٦] قال: بعد ما كان من أمره، لما جاد الله بنفسه، وقال الله: ﴿وَنَرَكُنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾. وقوله: ﴿وَنَرَكُنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا نَحْنُ وَنَحْنُ﴾ [١١٦]، كقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَتْلُجْ أَهْبِطْ سَلَامٌ مِنَّا وَبَرَكَاتٌ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنَتَّبِعُكُم مِّنْ بَعْدِ وَأَنَّا نَبْشُكُم مِّنْ عَذَابِ آيَةٍ﴾ [٤٨].

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَكَرَّمْنَا﴾ [١١٦] وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الظُّلُمِ [١١٥] وَصَرَّيْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْقَتْلِينَ [١١٦] وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ

الْمُسَيِّئِينَ ﴿١٢٧﴾ وَهَدَيْتُهُمَا الْفِرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٢٨﴾ وَرَزَقْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهَا مِنْ عِبَادَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ .

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمد في حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحياء النساء، واستعمالهم في أحس الأشياء. ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم، وأقر أعينهم منهم، فغلبهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم. ثم أنزل الله على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستبين، وهو التوراة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيكَةَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقال هاهنا: ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الْفِرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١٢٧﴾ أي: في الأقوال والأفعال، ﴿وَرَزَقْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿١٢٩﴾ أي: أبقينا لها من بعدهما ذكراً جميلاً وثناءً حسناً، ثم فسره بقوله: ﴿سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهَا مِنْ عِبَادَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ .

﴿وَإِنْ يَأْسَ لِنَ الْمُزْمِلِينَ﴾ ﴿١٢٧﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٨﴾ أَلَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿١٢٩﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْأَوَّلُ ﴿١٣٠﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٣١﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٣٢﴾ وَرَزَقْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٣٣﴾ سَلَّمَ عَلَى آلِ يَأْسَينَ ﴿١٣٤﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٥﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٦﴾ .

قال قتادة، ومحمد بن إسحاق، يقال: إلياس هو إدريس. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبيدة بن ربيعة، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: إلياس هو إدريس. وكذا قال الضحاك. . وقال وهب بن منبه: هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران، بعثه الله في بني إسرائيل بعد حزقيل، عليهما السلام، وكانوا قد عبدوا صنماً يقال له: «بعل»، فدعاهم إلى الله، ونهاهم عن عبادة ما سواه. وكان قد آمن به ملكهم ثم ارتد، واستمروا على ضلالتهم، ولم يؤمن به منهم أحد. فدعا الله عليهم، فحبس عنهم القطر ثلاث سنين، ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم، ووعدوه الإيمان به إن هم أصابهم المطر. فدعا الله لهم، فجاءهم الغيث فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر، فسأل الله أن يقبضه إليه. وكان قد نشأ على يديه اليسع بن أخطوب، عليه السلام، فأمر إلياس أن يذهب إلى مكان كذا وكذا، فمهما جاءه فليركبه ولا يهبه، فجاءته فرس من نار فركب، وألبسه الله النور وكساه الريش، وكان يطير مع الملائكة ملكاً إنسياً سماوياً أرضياً، هكذا حكاه وهب عن أهل الكتاب، والله أعلم بصحته.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿١٢٧﴾ أي: ألا تخافون الله في عبادتكم غيره؟ ﴿أَلَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ﴾ ﴿١٢٩﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقاتدة، والسدي: ﴿بَعْلًا﴾ يعني: رباً. قال قتادة وعكرمة: وهي لغة أهل اليمن. وفي رواية عن قتادة قال: هي لغة أزد شنوءة. وقال ابن إسحاق: أخبرني بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها: «بعل». وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: هو اسم صنم كان يعبد أهل مدينة يقال لها «بعلبك»، غربي دمشق. وقال الضحاك: هو صنم كانوا يعبدونه. وقوله: ﴿أَلَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أي: أتعبدون صنماً؟ ﴿أَلَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ﴾ ﴿١٢٩﴾ أي: أتعبدون بعلًا وتتركوا ربكم الأولين ﴿١٣٠﴾ أي: هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له. قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ ﴿١٣١﴾ أي: للعداب يوم الحساب، ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿١٣٢﴾ أي: الموحدين منهم. وهذا استثناء منقطع من مثبت. وقوله: ﴿وَرَزَقْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿١٣٣﴾ أي: ثناءً جميلاً، ﴿سَلَّمَ عَلَى آلِ يَأْسَينَ﴾ ﴿١٣٤﴾ كما يقال في إسماعيل: إسماعيل. وهي لغة بني أسد. وأنشد بعض بني نمير في صَبِّ صَاحِدِهِ .

يَقُولُ رَبِّ السُّوقِ لِمَا جِئْنَا هَذَا وَرَبِّ الْبَيْتِ إِسْرَائِيلَ

ويقال: ميكال، وميكائيل، وميكائين، وإبراهيم وإبراهيم، وإسرائيل وإسرائيل، طور سيناء، وطور سينين. وهو موضع واحد، وكل هذا سائغ. وقرأ آخرون: ﴿سلام على إدراسين﴾، وهي قراءة عبد الله بن مسعود. وآخرون: ﴿سَلَّمَ عَلَى آلِ يَأْسَينَ﴾ ﴿١٣٤﴾، يعني: آل محمد ﷺ. وقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ قد تقدم تفسيره.

﴿وَلَيْكُمُ لُوطُ لَيْنَ الرِّمَالِينَ﴾ ﴿١٣٦﴾ إِذْ جَنَّتْهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٧﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٨﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٩﴾ وَلَكُمْ لُتُورٌ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ ﴿١٤٠﴾ وَآلِئِلٍ أَكَلَا تَقُولُونَ ﴿١٤١﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط، عليه السلام، أنه بعثه إلى قومه فكذبوه، فنجاه الله من بين أظهرهم هو وأهله، إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها، فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات، وجعل محلهم من الأرض بحيرة متنة قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرين ليلاً ونهاراً؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكُمْ لُتُورٌ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ﴾ ﴿١٤٠﴾ وَآلِئِلٍ أَكَلَا تَقُولُونَ ﴿١٤١﴾ .

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ : أي : أفلا تعتبرون بهم، كيف دمر الله عليهم، وتعلمون أن للكافرين أمثالها؟

﴿وَإِنْ يُوَسَّسْ لِمَنْ أَلْمَزْتَيْنِ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَتَى إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ مُبِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَكُنَّ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ تَنَزَّلَتْ بِهِ الصَّاعِقَةُ وَالْعَمَاءُ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَلْبَسْنَاهُ عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى بَاقَةِ آلِفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَامْتَا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾.

قد تقدمت قصة يونس، عليه السلام، في سورة الأنبياء. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى ونسبه إلى أمه»، وفي رواية قيل: «إلى أبيه». وقوله: ﴿إِذْ أَتَى إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٣٩﴾﴾ قال ابن عباس: هو الموقر، أي: المملوء بالامتنعة. ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي: قارع، ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي: المغلوبين. وذلك أن السفينة تلغيت بها الأمواج من كل جانب، وأشرافوا على الغرق، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقي في البحر، لتخف بهم السفينة، فوقع القرعة على نبي الله يونس، عليه الصلاة والسلام، ثلاث مرات، وهم يضمنون به أن يلقي من بينهم، فتجرد من ثيابه ليلقي نفسه وهم يأبون عليه ذلك. وأمر الله تعالى حوتاً من البحر الأخضر أن يشق البحار، وأن يلتقم يونس، عليه السلام، فلا يهشيم له لحماً، ولا يكسر له عظماً. فجاء ذلك الحوت وألقى يونس، عليه السلام، نفسه، فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها. ولما استقر يونس في بطن الحوت، حسب أنه قدمات، ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حي، فقام يصلي في بطن الحوت، وكان من جملة دعائه: «يا رب، اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس» واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت، فقيل: ثلاثة أيام، قاله قتادة. وقيل: خمسة، قاله جعفر الصادق. وقيل: أربعين يوماً، قاله أبو مالك. وقال مجاهد، عن الشعبي: التقمه ضحى، وقذفه عشية. والله أعلم بمقدار ذلك. وفي شعر أمية بن أبي الصلت:

وَأَنْتَ بِفَضْلِ مَنْكَ نَجَّيْتَ يُوسُفَ وَقَدْ بَاتَ فِي أَضْعَافِ حُوتٍ لِيَالِيَا
وقوله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَكُنَّ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾، قيل: لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء. قاله الضحاك بن قيس، وأبو العالية، ووهب بن منبه، وقاتدة، وغير واحد. واختاره ابن جرير. وقد ورد في الحديث الذي سنورده ما يدل على ذلك إن صح الخبر. وفي حديث عن ابن عباس: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة». وقال ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، والضحاك، وعطاء بن السائب، والسدي، والحسن، وقاتدة: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾، يعني: المصلين. وصرح بعضهم بأنه كان من المصلحين قبل ذلك. وقال بعضهم: كان من المسبحين في جوف أبيه. وقيل: المراد: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾، هو قوله: ﴿فَكَادَنِي أَنْ أَظْلَمْتُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجِجْنَاهُ مِنَ الْقَمَرِ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]، قاله سعيد بن جبيرة وغيره. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثنا أبو صخر: أن يزيد الزقاشي حدثه: أنه سمع أنس بن مالك - ولا أعلم إلا أن أنسا يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ - أن يونس النبي ﷺ حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات، وهو في بطن الحوت، فقال: اللهم، لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين. فأقبلت الدعوة تحف بالعرش، قالت الملائكة: يا رب، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا رب، ومن هو؟ قال: عبيد يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل، ودعوة مستجابة؟ قالوا: يا رب، أو لا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه بالعراء. ورواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، به. زاد ابن أبي حاتم: قال أبو صخر حميد بن زيد: فأخبرني ابن قسيط وأنا أحدثه هذا الحديث: أنه سمع أبا هريرة يقول: طرح بالعراء، وأنبت الله عليه اليقطينة. قلنا: يا أبا هريرة، وما اليقطينة، قال: شجرة الدباء. قال أبو هريرة: وهما الله له أزوية وحشية تاكل من خشاش الأرض - أو قال: هشاش الأرض - قال: فتفتش عليه فتزويه من لبنها كل عشيته وبكرته حتى تبت. وقال أمية بن أبي الصلت في ذلك بيتاً من شعره:

فَأَنْبَتَ يَقْطِيناً عَلَيْهِ بِرَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ، لَوْلَا اللَّئُ الْفَى ضَاحِيَا
وقد تقدم حديث أبي هريرة مسنداً مرفوعاً في تفسير سورة الأنبياء. ولهذا قال تعالى: ﴿تَنَزَّلَتْ بِهِ الصَّاعِقَةُ﴾ أي: ألقيناها ﴿وَالْعَمَاءُ﴾ قال ابن عباس، وغيره: وهي الأرض التي ليس بها نبت ولا بناء. قيل: على جانب دجلة. وقيل: بأرض اليمن. فإله أعلم. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: ضعيف البدن. قال ابن مسعود، رضي الله عنه: كهنية الفرخ ليس عليه ريش. وقال السدي: كهنية الصبي: حين يولد، وهو المنفوس. وقاله ابن عباس، وابن زيد أيضاً. ﴿وَأَلْبَسْنَاهُ عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾: قال ابن مسعود، وابن عباس،

ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ووهب بن منبه، وهلال بن يساف، وعبد الله بن طائوس، والسدي، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني، وغير واحد قالوا كلهم: البقطين هو القرع. وقال هشيم، عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبير: كل شجرة لا ساق لها فهي من البقطين. وفي رواية عنه: كل شجرة تهلك من غابها فهي من البقطين. وذكر بعضهم في القرع فوائد، منها: سرعة نباته، وتظليل ورقه لكبره، ونعومته، وأنه لا يقرها الذباب، وجودة أغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئاً ومطبوخاً بلبه وقشره أيضاً. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحبُّ الدُّبَّاءَ، ويتبعه من حِوْاشي الصُّخْفَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾: روى شهر بن حوشب، عن ابن عباس أنه قال: إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذته الحوت. رواه ابن جرير: حدثني الحارث قال: حدثنا الحسن قال: حدثنا أبو هلال، عن شهر، به. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت. قلت: ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولاً، أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدموه كلهم وآمنوا به. وحكى البغوي أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت، كانوا مائة ألف أو يزيدون.

وقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال ابن عباس- في رواية عنه:- بل يزيدون، وكانوا مائة وثلاثين ألفاً. وعنه: مائة ألف وبضعة وثلاثين ألفاً. وعنه: مائة ألف وبضعة وأربعين ألفاً. وقال سعيد بن جبير: يزيدون سبعين ألفاً. وقال مكحول: كانوا مائة ألف وعشرة آلاف. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الرحيم البرقي، حدثنا عمرو بن أبي سلمة قال: سمعت زهيراً عن سمع أبا العالية قال: حدثني أبي بن كعب: أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْ يَنْبِئَهُمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكٌ يَوْمَ تُبْعَثُونَ﴾، قال: يزيدون عشرين ألفاً. ورواه الترمذي عن علي بن خنجر، عن الوليد بن مسلم، عن زهير، عن رجل، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب، به، وقال: غريب. ورواه ابن أبي حاتم من حديث زهير، به. قال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول في ذلك: معناه إلى المائة الألف، أو كانوا يزيدون عندكم، يقول: كذلك كانوا عندكم. وهكذا سلك ابن جرير هاهنا ما سلكه عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ يَوْمَ يَدْعَاكُمْ يَوْمَ كَالْجِبَارِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله: ﴿إِذَا رُفِيقٌ مِنْهُمْ يَحْسَبَنَّ الْآلِهَةَ أَوْ أَشَدَّ حَشِيَّةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله: ﴿كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩] أن المراد ليس أنقص من ذلك، بل أزيد. وقوله: ﴿فَتَأْتَوْنَهُ﴾ أي: فأمّن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس، عليه السلام، جميعهم. ﴿فَتَعْلَمُهُمْ إِلَى جَنِّ﴾ أي: إلى وقت آجالهم، كقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَمَعْنَا فِي الْهَآدِ مَا تَنْمَعُ الْهَآدُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا قَوْمٌ يُنَاسُوا﴾ [الشعراء: ٢٢٦]، وقوله: ﴿فَتَعْلَمُهُمْ إِلَى جَنِّ﴾ [يونس: ٩٨].

[illegible]

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْكَيْفَتَيْنِ سَبْطًا﴾ قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بنات الله. فسأل أبو بكر، رضي الله عنه: فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سُرّوات الجن. وكذا قال قتادة، وابن زيد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الْمَلَائِكَةَ أَيُّهَا الَّذِينَ نَسَبُوا إِلَيْهِمْ ذَلِكَ: ﴿فَاتَّبَعْتُمُ كَيْفَهُمْ﴾ أي: إن الذين قالوا ذلك لمحضرون في العذاب يوم الحساب ليكذبهم في ذلك وافترائهم، وقولهم الباطل بلا علم. وقال العوفي: عن ابن عباس في قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْكَيْفَتَيْنِ سَبْطًا﴾ قال: زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان. حكاه ابن جرير. وقوله: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد، وعما يصفه به الظالمون الملحدون علواً كبيراً. وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع، وهو من مثبت، إلا أن يكون الضمير في قوله: ﴿عَمَّا يُصِفُونَ﴾ عائد إلى جميع الناس ثم استثنى منهم المخلصين، وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي ومرسل. وجعل ابن جرير هذا الاستثناء من قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾، وفي هذا الذي قاله نظر.

﴿فَالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ عِزِّيَ﴾ مَّا أَتَى عَلَيْهِ يَفْتِنُهُ ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَنَّةِ﴾ ﴿وَمَا يَتَّخِذُ اللَّهُ مَثَلًا لِّظَالِمٍ﴾ ﴿وَلَا تَحْنُ السَّائِقُونَ﴾ ﴿وَلَا تَحْنُ النَّاسِيحُونَ﴾ ﴿فَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ﴾ ﴿لَوْ أَنَّا عِدْنَا دَكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿فَكُفِّرُوا بِيَدِهِ مَنَوعٌ يَّمْلِكُونَ﴾.

يقول تعالى مخاطباً للمشركين: ﴿فَالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ عِزِّيَ﴾ مَّا أَتَى عَلَيْهِ يَفْتِنُهُ ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَنَّةِ﴾ أي: ما يتبادر لمغالكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة إلا من هو أضل منكم ممن ذرى للنار. ﴿فَكَمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَلْصَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاقِلُونَ﴾ [الاعراف: ١٧٩]. فهذا الضرب من الناس هو الذي يتبادر لدين الشرك والكفر والضلالة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نَقَلْنَا بِكَ الْقَوْلَ فَنَتَّبِعُ لَمَّا قَالُوا﴾ ﴿يُؤْتِيكَ مِنْهُ مَنَ الْكَلِمَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩] أي: إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل. ثم قال تعالى مئزهاً للملائكة مما نسبوا إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله: ﴿وَمَا يَتَّخِذُ اللَّهُ مَثَلًا لِّظَالِمٍ﴾ أي: له موضع مخصوص في السماوات ومقامات العبادة لا يتجاوزها ولا يتعداه. وقال ابن عساکر في ترجمته لمحمد بن خالد، بسنده إلى عبد الرحمن بن العلاء بن سعد، عن أبيه - وكان ممن بايع يوم الفتح - أن رسول الله ﷺ قال يوماً لجلسائه: «أطمت السماء وحق لها أن تئيط، ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك رافع أو ساجد». ثم قرأ: ﴿وَلَا تَحْنُ السَّائِقُونَ﴾ وقال الضحاک في تفسيره: ﴿وَمَا يَتَّخِذُ اللَّهُ مَثَلًا لِّظَالِمٍ﴾ قال: كان مسروق يزوى عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم». فذلك قوله: ﴿وَمَا يَتَّخِذُ اللَّهُ مَثَلًا لِّظَالِمٍ﴾. وقال الأعمش، عن أبي إسحاق، عن مسروق: عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: إن في السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك أو قدماء، ثم قرأ عبد الله: ﴿وَمَا يَتَّخِذُ اللَّهُ مَثَلًا لِّظَالِمٍ﴾. وكذا قال سعيد بن جبیر.

وقال قتادة: كانوا يصلون الرجال والنساء جميعاً، حتى نزلت: ﴿وَمَا يَتَّخِذُ اللَّهُ مَثَلًا لِّظَالِمٍ﴾، فتقدم الرجال وتأخر النساء. ﴿وَلَا تَحْنُ السَّائِقُونَ﴾ أي: نكف صفوفاً في الطاعة، كما تقدم عند قوله: ﴿وَالطَّائِفَاتُ صَفًّا﴾ قال ابن جرير، عن الوليد بن عبد الله بن أبي مغيث قال: كانوا لا يصفون في الصلاة حتى نزلت: ﴿وَلَا تَحْنُ السَّائِقُونَ﴾، فصفوا. وقال أبو نضرة: كان عمر إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه، ثم قال: أقيموا صفوفكم، استووا قياماً، يريد الله بكم هدى الملائكة، ثم يقول: ﴿وَلَا تَحْنُ السَّائِقُونَ﴾، تأخر يا فلان، تقدم يا فلان، ثم يتقدم فيكبر، رضي الله عنه. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير. وفي صحيح مسلم عن حذيفة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثَ: جُعِلَتْ صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجداً، وتربتها طهوراً الحديث». ﴿وَلَا تَحْنُ السَّائِقُونَ﴾ أي: نصطف فنبسح الرب ونمجده ونقدسه ونزهره عن النقائص، فنحن عبيد له، فقرأ إليه، خاضعون لديه. وقال ابن عباس، ومجاهد: ﴿وَمَا يَتَّخِذُ اللَّهُ مَثَلًا لِّظَالِمٍ﴾: الملائكة، ﴿وَلَا تَحْنُ السَّائِقُونَ﴾: الملائكة، ﴿وَلَا تَحْنُ السَّائِقُونَ﴾: الملائكة يسبحون الله ﷻ. وقال قتادة: ﴿وَلَا تَحْنُ السَّائِقُونَ﴾، يعني: المصلون، يشنون بمكانهم من العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿١٦﴾ لَا يَسْجُدُونَ لِلْقُلُوبِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَسْمَعُونَ ﴿١٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ مِنْهُمْ وَهُوَ يَشْفَعُونَ ﴿١٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ يَتَّخِذُ اللَّهُ ذُنُوبَهُمْ قَدْ أَفْلَحَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَائِلِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٩]. وقوله: ﴿فَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ﴾ ﴿لَوْ أَنَّا عِدْنَا دَكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

أي: قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى، ويأتيهم بكتاب الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِبِلِ الْأُمَىٰ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [فاطر: ٢٤]. وقال: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ النَّبِيُّ عَلَيْنَا مِنَ السَّمَاءِ كِتَابًا فَتَكُونُ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿وَلَا تَحْنُ السَّائِقُونَ﴾.

أَنزَلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ لَنُنَكِّتَ لَكُمْ أَهْدَىٰ مِنْ زَوَاجِكُمْ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً مِّنْ أَعْلَاهُ وَمَن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصِفُونَ ﴿١٥٧﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٧١﴾، وعيد أكيد وتهديد شديد، على كفرهم بربهم - سبحانه وتعالى - وتكذيبهم - رسوله ﷺ.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِبَادِنَا الْفَرَسِيِّينَ﴾ ﴿١٧١﴾ إِبْنُ مَسْرُورٍ ﴿١٧٢﴾ وَلَيْدٌ حُجْدًا لِّمُ الْفَرَسِيِّينَ ﴿١٧٣﴾ فَقَوْلُهُمْ حَتَّىٰ جِئَ ﴿١٧٤﴾ وَأَنبِئَهُمْ فَسَوْفَ يَنبِئُهُمُ ﴿١٧٥﴾ أَفَعَمَلَاتِنَا يَسْتَعْمِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَقَوْلُهُمْ حَتَّىٰ جِئَ ﴿١٧٨﴾ وَأَنبِئَهُمْ فَسَوْفَ يَنبِئُهُمُ ﴿١٧٩﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِبَادِنَا الْفَرَسِيِّينَ﴾ ﴿١٧١﴾ أي: تقدم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسول وأتباعهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿٢١﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ ﴿٥١﴾ [غافر: ٥١]؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِبَادِنَا الْفَرَسِيِّينَ﴾ ﴿١٧١﴾ إِبْنُ مَسْرُورٍ ﴿١٧٢﴾ أي: في الدنيا والآخرة. كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم، وكيف أهلك الله الكافرين، ونجى عباده المؤمنين: ﴿وَلَيْدٌ حُجْدًا لِّمُ الْفَرَسِيِّينَ﴾ ﴿١٧٢﴾ أي: تكون لهم العاقبة. وقوله جل وعلا: ﴿فَقَوْلُهُمْ حَتَّىٰ جِئَ﴾ ﴿١٧٤﴾ أي: اصبر على أذاهم لك، وانتظر إلى وقت مؤجل، فإننا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر؛ ولهذا قال بعضهم: غيى ذلك إلى يوم بدر. وما بعدها أيضاً في معناها. وقوله: ﴿وَأَنبِئَهُمْ فَسَوْفَ يَنبِئُهُمُ﴾ ﴿١٧٥﴾ أي: انظرهم وارقب ماذا يحل بهم من العذاب والتكال على مخالفتك وتكذيبك؛ ولهذا قال على وجه التهديد والوعيد: ﴿فَسَوْفَ يَنبِئُهُمُ﴾ ﴿١٧٩﴾. ثم قال عز وجل: ﴿أَفَعَمَلَاتِنَا يَسْتَعْمِلُونَ﴾ ﴿١٧٦﴾ أي: هم إنما يستعملون العذاب لتكذيبهم وكفرهم، فإن الله يغضب عليهم بذلك، ويعجل لهم العقوبة، ومع هذا أيضاً كانوا من كفرهم وعنادهم يستعملون العذاب والعقوبة، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ الْمُنْذِرِينَ﴾ ﴿١٧٧﴾ أي: فإذا نزل العذاب بمحلتهم، فبئس ذلك اليوم يومهم، بإهلاكهم ودمارهم. قال السدي: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يعني: بدارهم، ﴿فَسَاءَ الْمُنْذِرِينَ﴾ أي: فبئس ما يصبغون، أي: ببس الصباح صباحهم؛ ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث إسماعيل بن عُلَيَّةَ، عن عبد العزيز بن صُهَيْبٍ، عن أنس، رضي الله عنه، قال: صَحَّحَ رسول الله ﷺ خيبر، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش، رجعوا وهم يقولون: محمد والله، محمد والخميس. فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». ورواه البخاري من حديث مالك، عن حميد، عن أنس. وقال الإمام أحمد: حدثنا رُوح، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن أبي طلحة قال: لما صَحَّحَ رسول الله ﷺ خيبر، وقد أخذوا مساحيهم وغَدَرُوا إلى حروثهم وأرضيهم، فلما رأوا النبي ﷺ ولو مدبرين، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، الله أكبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». لم يخرجوه من هذه الوجه، وهو صحيح على شرط الشيخين. وقوله: ﴿وَقَوْلُهُ عَنْهُمْ حَتَّىٰ جِئَ﴾ ﴿١٧٤﴾ وَأَنبِئَهُمْ فَسَوْفَ يَنبِئُهُمُ ﴿١٧٩﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك.

﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَلَقَدْ لَدَّ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾.

ينزه تعالى نفسه الكريمة ويقدها ويربها عما يقوله الظالمون المكذبون المعتدون - تعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً - ولهذا قال: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، أي ذي العزة التي لا تُرام، ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عن قول هؤلاء المعتدين المفتريين، ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٨١﴾ أي: سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة، لسلامة ما قالوه في ربهم، وصحته وحقيقته، ﴿وَلَقَدْ لَدَّ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٨٢﴾ أي: له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال. ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص - قرن بينهما في هذا الموضع، وفي مواضع كثيرة من القرآن؛ ولهذا قال: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَلَقَدْ لَدَّ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾. وقال سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سلمتم عليَّ فسلموا على المرسلين، فإنما أنا رسول من المرسلين». هكذا رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث سعيد، عنه كذلك. وقد أسند ابن أبي حاتم، رحمه الله، فقال: حدثنا علي بن الحسين بن الجعيد، حدثنا أبو بكر الأعمش، ومحمد بن عبد الرحيم صاعقة قالوا: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا شيبان، عن قتادة قال: حدثنا أنس بن مالك، عن أبي طلحة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سلمتم عليَّ فسلموا على المرسلين». وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا نوح، حدثنا أبو هارون، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ: «أنه كان إذا سلم قال: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَلَقَدْ لَدَّ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾» ثم يسلم. إسناده ضعيف. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمار بن خالد الواسطي، حدثنا شعبة، عن يونس بن أبي إسحاق، عن الشعبي قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليقل

آخر مجلسه حين يريد أن يقوم: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٢) ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٨١) ﴿وَلَحْمَدُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٨٣).
وروى من وجه آخر متصل موقوف على علي، رضي الله عنه. قال أبو محمد البغوي في تفسيره: أخبرنا أبو سعيد أحمد بن شريح، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني ابن فنجويه، حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان، حدثنا إبراهيم بن سهلويه، حدثنا علي بن محمد الطنفاسي، حدثنا وكيع، عن ثابت بن أبي صفية، عن الأصمعي بن نباته، عن علي، رضي الله عنه، قال: من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه في مجلسه: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٢) ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٨١) ﴿وَلَحْمَدُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٨٣).
وروى الطبراني من طريق عبد الله بن صخر بن أنس، عن عبد الله بن زيد بن أرقم، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قال دبر كل صلاة: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٢) ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٨١) ﴿وَلَحْمَدُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٨٣) ثلاث مرات، فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر». وقد وردت أحاديث في كفارة المجلس: سبحانهك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. وقد أفردت لها جزءاً على حدة. فلتكتب هاهنا إن شاء الله تعالى.

آخر تفسير سورة الصافات



تفسير سورة ص

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ (١) ﴿بِالَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّ رِشْقَانِي﴾ (٢) ﴿كَرَّ أَهْلُكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَقَادُوا وَكَلَتْ جِبْنَ مَنَاسٍ﴾ (٣).
أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقوله: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ (١) أي: والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد، ونفع لهم في المعاش والمعاد. قال الضحاك في قوله: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾، كقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ (الأنبياء: ١٠) أي: تذكيركم. وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير. وقال ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وإسماعيل بن أبي خالد، وابن عينة، وأبو حصين، وأبو صالح، والسدي: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾: ذي الشرف، أي: ذي الشأن والمكانة. ولا منافاة بين القولين، فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار. واختلفوا في جواب هذا القسم، فقال بعضهم: هو قوله: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُولَ فَهَؤُلَاءِ عِقَابُ﴾ (١٤) ﴿ص﴾: [١٤]. وقيل قوله: ﴿إِنْ ذَلِكَ لِحَقِّ نَحَاسٍ أَهْلِ أَثَارِ﴾ (١٦) ﴿ص﴾: [١٦]، حكاهما ابن جرير، وهذا الثاني فيه بعد كبير، وضعفه ابن جرير. وقال قتادة: جوابه: ﴿بِالَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّ رِشْقَانِي﴾ (٢)، واختاره ابن جرير. وقيل: جوابه ما تضمنه سياق السورة بكمالها، والله أعلم. ثم حكى ابن جرير عن بعض أهل العلم أنه قال: جوابه «ص» بمعنى: صدق حق والقرآن ذي الذكر. وقوله: ﴿بِالَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّ رِشْقَانِي﴾ (٢) أي: إن في هذا القرآن لذكراً لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر. وإنما لم ينتفع به الكافرون ولأنهم ﴿فِي عِزِّ﴾ أي: استكبار عنه وحمية، ﴿رِشْقَانِي﴾ (٢) أي: مخالفة له ومعادنة ومفارقة. ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسول وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء، فقال: ﴿كَرَّ أَهْلُكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ (٣) أي: من أمة مكذبة، ﴿مَقَادُوا﴾ (٣) أي: حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأوا إلى الله. وليس ذلك بمُجِدِّ عنهم شيئاً. كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ (١٧) ﴿الأنبياء: ١٧﴾ أي: يهربون ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكَنِكُمْ لَكُمْ تَسْتَوُونَ﴾ (١٢) ﴿الأنبياء: ١٢﴾. قال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، عن التميمي قال: سألت ابن عباس عن قول الله: ﴿مَقَادُوا وَكَلَتْ جِبْنَ مَنَاسٍ﴾، قال: ليس بحين نداء، ولا نَزْو، ولا فرار. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ليس بحين مغاث. وقال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: نادوا النداء حين لا ينفعهم، وأنشد:

تَذَكَّرْ لِيْلَى لَا تَحِينَ تَذَكَّرْ

وقال محمد بن كعب في قوله: ﴿مَقَادُوا وَكَلَتْ جِبْنَ مَنَاسٍ﴾، يقول: نادوا بالتحديد حين تولت الدنيا عنهم، واستنصوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم. وقال قتادة: لما رأوا العذاب أرادوا التوبة في غير حين النداء. وقال مجاهد: ﴿مَقَادُوا وَكَلَتْ جِبْنَ مَنَاسٍ﴾، ليس

بحين فرار ولا إجابة. وقد روى نحو هذا عن عكرمة، وسعيد بن جبير، وأبي مالك، والضحاك، وزيد بن أسلم، والحسن، وقتادة. وعن مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَلَا تَجِئْ مَنَاصٍ﴾، ولا نداء في غير حين النداء. وهذه الكلمة وهي «لات»، هي «لا» التي للنفي، زيدت معها التاء، كما تزداد في ثم، فيقولون: ثمت، ورب فيقولون: ربت. وهي مفصولة، والوقف عليها. ومنهم من حكى عن المصنف الإمام فيما ذكره ابن جرير أنها متصلة بحين: «ولا تحين مناص». والمشهور الأول. ثم قرأ الجمهور بنصب حين، تقديره: وليس الحين حين مناص. ومنهم من جوز النصب بها، وأنشد:

تَذْكُرُ حُبَّ لَيْلَى لَا تَحِينَا وَأَضْحَى الشَّيْبُ قَدْ قَطَعَ الْقَرِينَا
ومنهم من جوز الجز بها، وأنشد:

طَلَبُوا ضَلَحًا وَلَا تَأْوِينَا فَاجْبُنَا أَنْ لَيْسَ حِينُ بَقَا
وأنشد بعضهم أيضاً:

وَلَا تَسَاعَاةً مَسْنَدُ

بخفض الساعة. وأهل اللغة يقولون: النوص: التأخر، والبوص: التقدم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَجِئْ مَنَاصٍ﴾ أي: ليس الحين حين فرار ولا ذهاب.

﴿وَعَبَّرَ أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكُفْرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿١﴾ أَحْمِلْ الْآثِمَةَ إِلَهاً وَجِئْنَا إِنْ هَذَا لَكُنْ عَجَابٌ ﴿٢﴾ وَأَطْلَقَ النَّاسُ مِنْهُمْ أَنْ أَسْأَلُوا وَاسْتَبْرَأُوا عَلَى الْإِلَهِكُمْ إِنْ هَذَا لَكُنْ بُرَادٌ ﴿٣﴾ مَا يَمَعْنَا هَذَا فِي الْيَلَةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا أَنْخِلُكُمُ ﴿٤﴾ أَنْزَلَ عَلَى الذِّكْرِ مِنْ بَيْنَا بَلْ مُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْخُلُ الْغَيْبُ إِذْ يَنْدَعُ الْخَوَافُ رَوَّحَهُ رَبُّكَ الْمَوْتِ الْأَوَّابُ ﴿٥﴾ أَمْ لَهُمْ ثُلُكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرَوْا فِي الْآسَنِيبِ ﴿٦﴾ جُئْتُمْ مَآ هَآؤَالِكُ مَهْرُومٌ مِنَ الْآخِرَابِ ﴿٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعجبهم من بعثة الرسول بشراً، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكُفْرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١﴾﴾ [يونس: ٢٢]. وقال هاهنا: ﴿وَعَبَّرَ أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي: بشر مثلهم، ﴿وَقَالَ الْكُفْرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ أَحْمِلْ الْآثِمَةَ إِلَهاً وَجِئْنَا﴾ أي: أزعجهم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟ أنكر المشركون ذلك - فبحهم الله تعالى - وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشرته قلوبهم، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلق ذلك من قلوبهم، وإفراد الله بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿أَحْمِلْ الْآثِمَةَ إِلَهاً وَجِئْنَا إِنْ هَذَا لَكُنْ عَجَابٌ ﴿٢﴾ وَأَطْلَقَ النَّاسُ مِنْهُمْ﴾، وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين: ﴿إِنْ أَسْأَلُوا أَي: استمروا على دينكم﴾ ﴿وَأَسْتَبْرَأُوا عَلَى الْإِلَهِكُمْ﴾، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد. وقوله: ﴿إِنْ هَذَا لَكُنْ بُرَادٌ﴾. قال ابن جرير: إن هذا الذي يدعوننا إليه محمد من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم، والاستعلاء، وأن يكون له منكم اتباع، ولسنا مجيبه إليه.

ذكر سبب نزول هذه الآيات: قال السدي: إن أناساً من قريش اجتمعوا، فيهم: أبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، في نفر من مشيخة قريش، فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبي طالب فلنكلمه فيه، فلينصفنا منه، فليكيف عن شتم ألهتنا، وندعه وإلهه الذي يعبد؟ فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ، فيكون منا إليه شيء. فتعيرنا به العرب، يقولون: «تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه». فبعثوا رجلاً منهم يقال له: «المطلب»، فاستأذن لهم علي أبي طالب، فقال: هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم يستأذنون عليك. قال: أدخلهم. فلما دخلوا عليه قالوا: يا أبا طالب، أنت كبيرنا وسيدنا، فأنصفنا من ابن أخيك، فمره فليكيف عن شتم ألهتنا وندعه وإلهه. قال: فبعث إليه أبو طالب، فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال: يا ابن أخي، هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم، وقد سألتك أن تكف عن شتم ألهتهم ويدعوك وإلهك. قال: «يا عم، أفلا أدعوهما إلى ما هو خير لهم؟»، قال: وإلام تدعوهم؟ قال: «أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها العجم». فقال أبو جهل من بين القوم: ما هي وأبيك؟ لنعطينها عشرة أمثالها. قال: تقولون: «لا إله إلا الله». فنفر وقال: سلنا غير هذا. قال: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي، ما سألتكم غيرها». فقاموا من عنده غضاباً، وقالوا: والله لنشتمنك وإلهك الذي أمرك بهذا. ﴿وَأَطْلَقَ النَّاسُ مِنْهُمْ أَنْ أَسْأَلُوا وَاسْتَبْرَأُوا عَلَى الْإِلَهِكُمْ إِنْ هَذَا لَكُنْ بُرَادٌ ﴿٣﴾﴾. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وزاد: فلما خرجوا دعا رسول الله ﷺ عمه إلى قوله: «لا إله إلا الله»، فأبى وقال: بل على دين الأشياخ. ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [الفصل: ٥٦].

وقال أبو جعفر بن جبير: حدثنا أبو كريب وابن وكيع قالا: حدثنا أبو أسامة، حدثنا الأعمش، حدثنا عباد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب، دخل عليه رهط من قريش، فيهم أبو جهل، فقالوا: إن ابن أخيك يشتم أهلكنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فتهتبه؟ فبعثت إليه، فجاء النبي ﷺ فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل، قال: فخشي أبو جهل إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه. فوثب فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه، فجلس عند الباب. فقال له أبو طالب: أي ابن أخي، ما بال قومك يشكونك، يزعمون أنك تشتم أهلكهم، وتقول وتقول؟ قال: وأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ فقال: «يا عم، إني أريدكم على كلمة واحدة! يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية»، ففزعوا لكلمته ولقوله، وقالوا: كلمة واحدة! نعم وأبيك عسراً، فقالوا: وما هي؟ وقال أبو طالب: وأي كلمة هي يا ابن أخي؟ فقال: «لا إله إلا الله»، فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: «أَجْمَلُ الْإِلَهِ إِلَهًا وَجَدْنَا إِلَهًا هَذَا لَنُؤَيِّدَ بِهِ» (١)، قال: ونزلت من هذا الموضع إلى قوله: «لَا يُدْرِي عَذَابُ» لفظ أبي كريب. وهكذا رواه الإمام أحمد والنسائي، من حديث محمد بن عبد الله بن ثُمير، كلاهما عن أبي أسامة، عن الأعمش، عن عباد، غير منسوب، به نحوه، ورواه الترمذي، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن جرير أيضاً، كلهم في تفاسيرهم من حديث سفيان الثوري، عن الأعمش، عن يحيى بن عُمارة الكوفي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فذكر نحوه. وقال الترمذي: حسن.

وقولهم: «مَا تَيْمَنَّا بِهَذَا فِي الْإِلَهِ الْأُخْرَى» أي: ما سمعنا بهذا الذي يدعوننا إليه محمد من التوحيد في الملة الآخرة. قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: يعنون دين قريش. وقال غيرهم: يعنون النصرانية، قاله محمد بن كعب، والسدي. وقال العوفي، عن ابن عباس: «مَا تَيْمَنَّا بِهَذَا فِي الْإِلَهِ الْأُخْرَى»، يعني: النصرانية، قالوا: لو كان هذا القرآن حقاً أخبرتنا به النصارى. «إِنَّ هَذَا إِلَّا أَنْزَلَهُ»: قال مجاهد، وقتادة: كذب، وقال ابن عباس: تخرص. وقولهم: «أَنْزَلَ عَلَيْنَا الذِّكْرَ مِنْ بَيْنَيْنَا» يعني: أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم، كما قالوا في الآية الأخرى: «لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرَسَيْنِ عَظِيمِ» [الزخرف: ٣١] قال الله تعالى: «أَهَرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ» [الزخرف: ٣٢]؛ ولهذا لما قالوا هذا الذي دل على جهلهم وقلة عقلهم، في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم، قال الله تعالى: «بَلْ لَّكَآ يَدْرُؤُا عَذَابَ» أي: إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله ونقمته، سيعلمون غيب ما قالوا، وما كذبوا به، يوم يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا. ثم قال مبيناً أنه المتصرف في ملكه، الفعال لما يشاء، الذي يعطي من يشاء ما يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده، ويختتم على قلب من يشاء، فلا يهديه أحد من بعد الله، وإن العباد لا يملكون شيئاً من الأمر، وليس إليهم من التصرف في الملك ولا مثقال ذرة، وما يملكون من قطمير؛ ولهذا قال تعالى منكراً عليهم: «أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَقَائِبِ» (٢) أي: العزيز الذي لا يرام جنبه، الوهاب الذي يعطي ما يريد لمن يريد. وهذه الآية شبيهة، بقوله: «أَمْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ الْوَقَائِبِ» (٣) يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٤) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَاهُم مِّنْ أَمْلٍ إِذْ وَهُمْ يَكْفُرُونَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِّنْكَ عَظِيمًا (٥) فَيَنْهَوْنَ مَنِ آمَنَ بِهِ وَيَمْنَعُونَ مَنِ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٦) [النساء: ٥٣-٥٥]، وقوله: «قُلْ لَوْ أَنَّم تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَكْسِمُكُمْ خَبِئَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ فَتُورًا» (٧) [الإسراء: ١٠٠]، وذلك بعد الحكاية عن الكفار أنهم أنكروا بعثة الرسول البشري، وكما أخبر تعالى عن قوم صالح عليه السلام حين قالوا: «أَتَأْتِيَ الذِّكْرَ عَلَيْنَا مِن بَيْنَيْنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَتَى» (٨) سَيَمْلِكُونَ عَذَابًا مِّنَ الْكَذَابِ الْأَثِيرِ (٩) [الفرع: ٢٦، ٢٥]. وقوله: «أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ» (١٠) أي: إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وغيرهم: يعني طرق السماء. وقال الضحاك: فليصعدوا إلى السماء السابعة. ثم قال: «جُنْدٌ مَّا هُمَ لَّاكَ مَهْرُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ» (١١) أي: هؤلاء الجند المكذوبون الذين هم في عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكثبون، كما كتبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين، وهذه كقوله: «أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ» (١٢) سَيَرَمَ قَلْبَهُمُ النَّارُ وَلَيُحْمَرُّ وُجُوهُهُمْ وَالسَّامِعُ لَهُمْ وَالْأَرْضُ يُدْعَى وَاسْمُهَا (١٣) [الفرع: ٤٤-٤٦].

«كَذَّبَتْ قَالَهُمْ قَوْمٌ بُعِدَ وَرَوَّعُوا ذُرَّ الْأَنْدَادِ» (١٤) وَتَوَدُّ وَقَوْمَ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابِ (١٥) إِنْ كُلِّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ (١٦) وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا سَيْحَةً مِّنْ لَّهْمَا يَن قَوَّي (١٧) وَقَالُوا رَبَّنَا جَعَلْنَا قَدْرَ بَوْرٍ الْحَسَابِ (١٨) أَصْبَرُ عَلَى مَا يَقُولُونَ. يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية، وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات في مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء. وقد تقدمت قصصهم مبسوطه في أماكن متعددة. وقوله: «أُولَئِكَ الْأَحْزَابِ» أي: كانوا أكثر منكم وأشد قوة، وأكثر أموالاً

وأولاداً، فما دافع ذلك عنهم عن عذاب الله من شيء، لما جاء أمر ربك؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ﴾ (١٧) فجعل علة هلاكهم هو تكذيبهم بالرسول، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر. وقوله: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ (١٨) قال مالك، عن زيد بن أسلم: أي ليس لها مثوية، أي: ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها، أي: قد اقتربت ودنت وأزفت، وهذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله إسرافيل أن يطولها، فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع، إلا من استثنى الله ﷻ. وقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا فِتْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (١٩) هذا إنكار من الله على المشركين في دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب، فإن القبط هو الكتاب وقيل: هو الحظ والنصيب. قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وغير واحد: سألوا تعجيل العذاب - زاد قتادة: كما قالوا: ﴿أَلَيْسَ إِنَّ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال: ٣٢). وقيل: سألوا تعجيل نصيبهم من الجنة، إن كانت موجودة أن يلقوا ذاك في الدنيا. وإنما خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتكذيب. وقال ابن جرير: سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر في الدنيا، وهذا الذي قاله جيد، وعليه يدور كلام الضحاك، وإسماعيل بن أبي خالد، والله أعلم. ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد، قال الله تعالى لرسوله ﷺ أمراً له بالصبر على أذاهم، ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر.

﴿رَأَى عَبْدًا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٢٠) إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ بِالْغَيْثِ وَالْإِنشِرَاقِ ﴿٢١﴾ وَالطَّيْرَ تَحْسُورُهُ كُلُّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿٢٢﴾ وَتَدَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَ وَفَصَّلَ الْكُتَابِ ﴿٢٣﴾

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود، عليه السلام: أنه كان ذا أيد، والأيد: القوة في العلم والعمل. قال ابن عباس وابن زيد والسدي: الأيد: القوة، وقرأ ابن زيد: ﴿وَأَلَمَّا بَيَّنَّاهُ بِآيَاتِهِ وَإِنَّا لَنُؤَيِّسُوهُ﴾ (٢٤) [الذاريات: ٤٧]. وقال مجاهد: الأيد: القوة في الطاعة. وقال قتادة: أعطي داود عليه السلام قوة في العبادة، وفقها في الإسلام، وقد ذكر لنا أنه، عليه السلام، كان يقول ثلث الليل، ويصوم نصف الدهر. وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى». وإنه كان أواباً، وهو الرجاء إلى الله ﷻ في جميع أموره وشؤونه. وقوله: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ بِالْغَيْثِ وَالْإِنشِرَاقِ﴾ (٢١) أي: إنه تعالى سخر الجبال تسبيح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ أَوَّابٌ مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبا: ١٠]. وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه، وترجع بترجيعه، إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء فسمعوه وهو يترنم بقراءة الزبور، لا تستطيع الذهاب، بل تقف في الهواء، وتسبح معه وتجييه الجبال الشامخات، ترجع معه، وتسبح تبعاً له. قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا محمد بن بشر، عن مسعر، عن عبد الكريم، عن موسى بن أبي كثير، عن ابن عباس أنه بلغه: أن أم هانئ ع ذكرت أن رسول الله ﷺ يوم فتح مكة صلى الضحى ثمان ركعات، قال ابن عباس: قد ظننت أن لهذه الساعة صلاة، يقول الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُنَ بِالْغَيْثِ وَالْإِنشِرَاقِ﴾. ثم رواه من حديث سعيد بن أبي عروبة، عن أبي المتوكل، عن أيوب بن صفوان، عن مولاة عبد الله بن الحارث بن نوفل، أن ابن عباس كان لا يصلي الضحى، قال: فأدخلته على أم هانئ فقالت: أخبرني هذا ما أخبرتي به، فقالت أم هانئ: دخل علي رسول الله ﷺ يوم الفتح في بيتي، ثم أمر بماء صب في قصعة، ثم أمر بشوب، فأخذ بيدي وبيني، فاغتسل ثم رش ناحية البيت، فصلى ثمان ركعات، وذلك من الضحى، قيامهن وركوعهن وسجودهن وجلسهن سواء، قريب بعضهن من بعض، فخرج ابن عباس وهو يقول: لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت صلاة الضحى إلا الآن: ﴿يُسَبِّحُنَ بِالْغَيْثِ وَالْإِنشِرَاقِ﴾، وكنت أقول: أين صلاة الإشراق، وكان بعد يقول: صلاة الإشراق. ولهذا قال: ﴿وَالطَّيْرَ تَحْسُورُهُ﴾ أي: محبوسة في الهواء، ﴿كُلُّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: مطيع يسبح تبعاً له. قال سعيد بن جبيرة، وقاتة، ومالك عن زيد بن أسلم، وابن زيد: ﴿كُلُّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: مطيع.

وقوله: ﴿وَتَدَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أي: جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك. قال ابن أبي نجيع، عن مجاهد: كان أشد أهل الدنيا سلطاناً. وقال السدي: كان يحرسه في كل يوم أربعة آلاف. وقال بعض السلف: بلغني أنه كان حرسه في كل ليلة ثلاثة وثلاثين ألفاً، لا تدور عليهم النوبة إلى مثلها من العام القابل. وقال غيره: أربعون ألفاً مشتملون بالسلاح. وقد ذكر ابن جرير، وابن أبي حاتم، من رواية علباء بن أحمر، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن نفرين من بني إسرائيل استعدى أحدهما على الآخر إلى داود، عليه السلام، أنه اغتصبه بقرأ، فأنكر الآخر، ولم يكن للمدعي بيعة، فأرجأ أمرهما، فلما كان الليل أمر داود، عليه السلام، في المنام بقتل المدعي، فلما كان النهار طلبهما وأمر بقتل المدعي، فقال: يا نبي الله، علام تقتلني وقد اغتصبني

قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي، عن أنس - ويزيد وإن كان من الصالحين - لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله ﷻ، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضاً. وقوله: ﴿إِذْ خَلَعُوا عَلَى دَاوُدَ مِثْمَ﴾، إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه، وهو أشرف مكان في داره، وكان قد أمر ألا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تَسَوَّرا عليه المحراب، أي: احتاطا به يسألانه عن شأنهما. وقوله: ﴿وَعَزَّزْنَا فِي الْخِطَابِ﴾ أي: غَلَّبْنِي. يقال: عز يعز: إذا قهر وغلب. وقوله: ﴿وَلَقَدْ دَاوُدُ أَمَّا فَتَنَّتْهُ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي اختبرناه. وقوله: ﴿وَحَرَّ رَاكِبًا﴾ أي: ساجداً ﴿وَأَنَابَ﴾. ويحتمل أنه رجع أولاً، ثم سجد بعد ذلك، وقد ذكر أنه استمر ساجداً أربعين صباحاً، ﴿فَفَرَّقْنَا لَكَ ذَلِكَ﴾ أي: ما كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين. وقد اختلف الأئمة، رضي الله عنهم، في سجدة ص، هل هي من عزائم السجود؟ على قولين، الجديد من مذهب الشافعي، رحمه الله، أنها ليست من عزائم السجود، بل هي سجدة شكر. والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا إسماعيل - وهو ابن علي - عن أيوب، عن ابن عباس أنه قال في السجود في ص: ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها. ورواه البخاري، وأبو داود، والترمذي، والنسائي في تفسيره، من حديث أيوب، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال النسائي أيضاً عند تفسير هذه الآية: أخبرني إبراهيم بن الحسن - هو المقيمي - حدثنا حجاج بن محمد، عن عمرو بن ذر، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ سجد في ص، وقال: «سجدها داود، عليه السلام، توبة، ونسجدها شكراً». تفرد بروايته النسائي، ورجال إسناده كلهم ثقات، وقد أخبرني شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي قراءة عليه وأنا أسمع: أخبرنا أبو إسحاق المدرجي، أخبرنا زاهر بن أبي طاهر الثقفي، أخبرنا زاهر بن طاهر الشحامي، أخبرنا أبو سعد الكنجروذي، أخبرنا الحاكم أبو أحمد محمد بن محمد الحافظ، أخبرنا أبو العباس السراج، حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا محمد بن يزيد بن حُثَيْس، عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد قال: قال لي ابن جريج: يا حسن، حدثني جدك عبيد الله بن أبي يزيد، عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني رأيت فيما يرى النائم كائني أصلي خلف شجرة، فقرأت السجدة، فسجدت فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها تقول وهي ساجدة: اللهم، اكتب لي بها عندك أجراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وضع عني بها وزراً، وأقبلها مني كما قبلتها من عبدك داود. قال ابن عباس: فرأيت النبي ﷺ قام فقرأ السجدة، ثم سجد، فسمعتة يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة. رواه الترمذي عن قتيبة، وابن ماجه عن أبي بكر بن خلاد، كلاهما عن محمد بن يزيد بن خنيس، نحوه. وقال الترمذي: غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقال البخاري عند تفسيرها أيضاً: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا

محمد بن عبيد الطنافسي، عن العوام قال: سألت مجاهداً عن سجدة ص فقال: سألت ابن عباس: من أين سجدت؟ فقال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ [الأنعام: ٨٦]، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْسَوْهُ﴾ [الأنعام: ٩]، فكان داود، عليه السلام، ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها داود، عليه السلام، فسجدها رسول الله ﷺ. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا حميد، حدثنا بكر - هو ابن عبد الله المزني - أنه أخبره: أن أبا سعيد الخدري رأى رؤيا أنه يكتب «ص»، فلما بلغ إلى التي يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شيء بحضرته انقلب ساجداً، قال: فقصها على النبي ﷺ، فلم يزل يسجد بها بعد. تفرد به الإمام أحمد. وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبي سرح، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر ص، فلما بلغ السجدة نزل فسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تَشَرَّنَ الناس للسجود، فقال: «إنما هي توبة نبي، ولكني رأيتمكم تَشَرَّنْتُمْ». فنزل وسجد، وسجدوا. تفرد به أبو داود، وإسناده على شرط الصحيح.

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزْلَىٰ وَحَسَنَ مَّكَابٍ﴾ أي: وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله ﷻ بها، وحسن مرجع، وهو الدرجات العالية في الجنة، لتوبته وعدله التام في ملكه، كما جاء في الصحيح: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلنا يديه يمين، الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا». وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا فضيل، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً، إمام عادل. وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً، إمام جائر». ورواه الترمذي من حديث فضيل - وهو ابن مرزوق الأغر - عن عطية، به. وقال: لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا سيار، حدثنا جعفر ابن سليمان: سمعت مالك بن دينار في قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزْلَىٰ وَحَسَنَ مَّكَابٍ﴾، قال: يقام داود يوم القيامة عند ساق العرش، ثم يقول: يا داود، مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني به في الدنيا. فيقول: وكيف وقد سلبته؟ فيقول: إني أردته عليك اليوم. قال: فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان. ﴿يَبْدَأُؤُذُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (٢٦).

هذه وصية من الله ﷻ لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلون عنه فيضلوا عن سبيله. وقد تواعد الله تعالى من ضل عن سبيله، وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد، حدثنا مروان بن جنان، حدثني إبراهيم أبو زرعة - وكان قد قرأ الكتاب - أن الوليد بن عبد الملك قال له: أيحاسب الخليفة، فإني قد قرأت الكتاب الأول، وقرأت القرآن وفقهت؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أقول؟ قال: قل في أمان. قلت: يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله أو داود؟ إن الله - ﷻ - جمع له النبوة والخلافة، ثم توعد في كتابه فقال: ﴿يَبْدَأُؤُذُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾، هذا من المقدم والمؤخر، لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا. وقال السدي: لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا اليوم الحساب. وهذا القول أمشئ على ظاهر الآية، فالحق أعلم.

﴿وَمَا خَلَقْنَا النَّسَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ عَلَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٢٧) أَرَجَعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَرَجَعَلُ الْمُفْسِدِينَ كَالْعَجَابِ (٢٨) كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِّنُبَيِّنَ لَكَ آيَاتِهِ وَلِتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩).

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثاً، وإنما خلقهم ليعبده ويوحده، ثم يجمعهم ليوم الجمع، فيثيب المطيع ويعذب الكافر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا النَّسَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ عَلَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الذين لا يرون عبثاً ولا معاداً، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط، ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾، أي: ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم. ثم بين تعالى أنه من عدله وحكمته لا يساوي بين المؤمن والكافر، فقال: ﴿أَرَجَعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَرَجَعَلُ الْمُفْسِدِينَ كَالْعَجَابِ﴾ (٢٨) أي: لا نفعل ذلك، ولا يستون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى، يثاب فيها هذا المطيع، ويعاقب فيها هذا الفاجر. وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد جزاء، فلإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمد، فلا بد من حكمة الحكيم العليم العادل،

الذي لا يظلم مثقال ذرة، من إنصاف هذا من هذا. وإذا لم يقع هذا في هذه الدار، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة. ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة، قال: ﴿كَتَبْنَا إِلَيْكَ مِيزَانًا بِرٍّ وَتَقْوَىٰ ۖ وَلَئِنْ جِئْتَنَا بِطَافٍ ۖ لَّيُؤْتِيَنَّكَ اللَّهُ حَكْمًا عَاقِلًا ۚ﴾ [٢٩] أي: ذوو العقول، وهي الألباب، جمع لب، وهو العقل. قال الحسن البصري: والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل. رواه ابن أبي حاتم. ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ ۖ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ الْمُرْسَلُ ۚ﴾ [٣٠] أَوَّلُ: إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ الْغَنِيَّ الْأَفْنَىٰ فَصَنَّفَ لَهَا كَلِمَاتٍ خَفِيفًا وَبَاسِمًا ۚ﴾ [٣١] فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ۚ﴾ [٣٢] رَدُّوهُمَا عَلَىٰ فُلُوكَ مَسْمُومًا بِالْحُسْقَىٰ ۚ﴾ [٣٣].

يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود سليمان، أي: نبياً، كما قال: ﴿وَوَرِّثْ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ٢٦] أي: في النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر. وقوله: ﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ الْمُرْسَلُ﴾، ثناء على سليمان، عليه السلام، بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله ﷻ. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمود بن خالد، حدثنا الوليد، حدثنا مكحول قال: لما وهب الله لداود سليمان، عليه السلام، قال له: يا بني، ما أحسن؟ قال: سكينه الله وإيمان. قال: فما أقبح؟ قال: كفر بعد إيمان. قال: فما أحلى؟ قال: روح الله بين عباده. قال: فما أبرد؟ قال: عفو الله عن الناس، وعفو الناس بعضهم عن بعض. قال داود، عليه السلام: فأنتم نبي. وقوله: ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ الْغَنِيَّ الْأَفْنَىٰ﴾ [٣١] أي: إذ عرض على سليمان في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات. قال مجاهد: وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، والجياد: السراع. وكذا قال غير واحد من السلف. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مؤمل، حدثنا سفيان، عن أبيه سعيد بن مسروق، عن إبراهيم التيمي في قوله: ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ الْغَنِيَّ الْأَفْنَىٰ﴾ [٣١] قال: كانت عشرين فرساً ذات أجنحة. كذا رواه ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا ابن أبي زائدة، أخبرني إسرائيل، عن سعيد بن مسروق، عن إبراهيم التيمي قال: كانت الخيل التي شغل سليمان، عليه الصلاة والسلام، عشرين ألف فرس، فعقرها. وهذا أشبه، والله أعلم. وقال أبو داود: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا سعيد بن أبي مريم، أخبرنا يحيى بن أيوب، حدثني عُمارة بن غَزِيَّة: أن محمد بن إبراهيم حدثه، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك - أو خيبر - وفي سهونها ستر، فبهت الريح، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة - لُعب - فقال: «ما هذا يا عائشة؟» قالت: بناتي. ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقا، فقال: «ما هذا الذي أرى وسطهن؟» قالت: فرس. قال: «وما هذا الذي عليه؟» قالت: جناحان قال: «فرس له جناحان؟!» قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة؟ قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ.

وقوله: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [٣٢]، ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً، كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد المغرب، وذلك ثابت في الصحيحين من غير وجه، من ذلك عن جابر قال: جاء عمر، رضي الله عنه، يوم الخندق بعد ما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، ويقول: يا رسول الله، والله ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب. فقال رسول الله ﷺ: «والله ما صليتها». فقال: فقمنا إلى بطحان فتوضاً للصلاة وتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب. ويحتمل أنه كان سائفاً في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال. والخيل تتراد للقتال. وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعاً فنسخ ذلك بصلاة الخوف، ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسابقة والمضايقة، حيث لا يمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود، كما فعل الصحابة، رضي الله عنهم، في فتح تستر، وهو منقول عن مكحول، والأوزاعي، وغيرهما. والأول أقرب؛ لأنه قال بعدها: ﴿رَدُّوهُمَا عَلَىٰ فُلُوكَ مَسْمُومًا بِالْحُسْقَىٰ﴾ [٣٣]. قال الحسن البصري: قال: لا، والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك. ثم أمر بها فعقرت. وكذا قال قتادة. وقال السدي: ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: جعل يمسح أعراف الخيل، وعراقيبها حبالها. وهذا القول اختاره ابن جرير، قال: لأنه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرق، ويهلك مالاً من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها. وهذا الذي رجح به ابن جرير فيه نظر؛ لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذا كان غضباً لله ﷻ بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة؛ ولهذا لما خرج عنها الله تعالى عوضه الله تعالى ما هو خير منها، وهي الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، غدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال، عن أبي قتادة وأبي الدهماء - وكانا يكثران السفر نحو البيت -

قالا: أتينا على رجل من أهل البادية، فقال البدوي: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما عمله الله تعالى، وقال: «إنك لا تدع شيئاً اتقاء الله - عز وجل - إلا أعطاك الله خيراً منه».

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً وَهَبْ لِي مَلَكاً لَا يُلْقِي لِأَخِيهِ لِكُلِّ يَدٍ لَحْمِيَّةً يَدَيْكَ إِنَّكَ أَنتَ الرَّعَّابُ ﴿٣٦﴾ فَتَنَّا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُفَاتَةً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاسٍ ﴿٣٨﴾ وَالْآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٩﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَانْتَنُ أَوْ أَشْكُ بِنَفْسِكَ مِنْهُمَا وَلَوْلَا الَّذَيْنِ لَكَ عَذَابٌ مُّذَابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أي: اختبرناه بأن سلبناه الملك مرة، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾: قال ابن عباس، ومجاهد: وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، وغيرهم: يعني شيطاناً. ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رجع إلى ملكه وسلطانه وأبته. قال ابن جرير: وكان اسم ذلك الشيطان صخرأ. قاله ابن عباس، وقتادة. وقيل: آصف. قاله مجاهد. وقيل: أصروا. قاله مجاهد أيضاً. وقيل: حقيق. قاله السدي. وقد ذكروا هذه القصة مبسطة ومختصرة. وقد قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة: قال أمر سليمان، عليه السلام، ببناء بيت المقدس، فقيل له: ابنه ولا يُسْمَعُ فيه صوت حديد. فقال: فطلب ذلك فلم يقدر عليه. فقيل له: إن شيطاناً في البحر يقال له: «صخر» شبه المارد. قال: فطلبه وكانت عين في البحر يَرُدُّها في كل سبعة أيام مرة، فنزع ماؤها وجعل فيها خَمْرٌ، فجاء يوم وزده فإذا هو بالخمَر، فقال: إنك لشراب طيب، إلا أنك تصيب الحليم، وتزيد الجاهل جهلاً. ثم رجع حتى عطش عطشاً شديداً، ثم أتاه فقال: إنك لشراب طيب، إلا أنك تصيب الحليم، وتزيد الجاهل جهلاً. ثم شربها حتى غلبت على عقله، قال: فأرى الخاتم، أو ختم به بين كنفه فذُلُّ. قال: وكان ملكه في خاتمه، فأتى به سليمان فقال: إنه قد أمرنا ببناء هذا البيت، وقيل لنا: لا يسمعن فيه صوت حديد. قال: فأتى ببيض الهدهد فجعل عليه زجاجة، فجاء الهدهد فدار حولها، فجعل يَرَى بيضه ولا يقدر عليه، فذهب فجاء بالماس فوضعه عليه، فقطعها به. حتى أنضى إلى بيضه. فأخذ الماس، فجعلوا يقطعون به الحجارة. وكان سليمان عليه السلام إذا أراد أن يدخل الخلاء - أو: الحمام - لم يدخل بخاتمه فانطلق يوماً إلى الحمام، وذلك الشيطان صخر معه، وذلك عند مقارفة قارف فيه بعض نسائه. قال: فدخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه، فألقاه في البحر، فالتقمته سمكة، ونزع ملك سليمان منه، وألقى على الشيطان شبه سليمان. قال: فجاء فقعد على كرسيه وسريره، وسُلِّطَ على ملك سليمان كله غير نسائه. قال: فجعل يقضي بينهم، وجعلوا ينكرون منه أشياء، حتى قالوا: لقد فتن نبي الله. وكان فيهم رجل يشبهونه بعمر بن الخطاب في القوة فقال: والله لأجرينه. قال: فقال: يا نبي الله - وهو لا يرى إلا أنه نبي الله - أهدنا نصيبه الجنابة في الليلة الباردة، فيدع الغسل عمداً حتى تطلع الشمس، أترى عليه بأساً؟ فقال: لا. قال: فبينما هو كذلك أربعين ليلة حتى وجد نبي الله خاتمه في بطن سمكة، فأقبل فجعل لا يستقبله جني ولا طير إلا سجد له، حتى انتهى إليهم، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾، قال: هو الشيطان صخر. وقال السدي: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أي: ابتلينا سليمان، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ قال: جلس الشيطان على كرسيه أربعين يوماً. قال: وكان لسليمان، عليه السلام، مائة امرأة، وكانت امرأة منهن يقال لها: جرادة، وهي أثر نسائه وآمنهن عنده، وكان إذا أجنب أو أتى حاجة نزع خاتمه، ولم يأت من عليه أحد من الناس غيرها، فأعطاه يوماً خاتمه ودخل الخلاء، فخرج الشيطان في صورته، فقال: هاتي الخاتم. فأعطته، فجاء حتى جلس على مجلس سليمان، وخرج سليمان بعد ذلك فسألها أن تعطيه خاتمه، فقالت: ألم تأخذ قبلاً؟ قال: لا. وخرج مكانه تائها. قال: ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوماً، قال: فأنكر الناس أحكامه، فاجتمع قراء بني إسرائيل وعلماءهم، فجاءوا حتى دخلوا على نسائه، فقالوا: إنا قد أنكرنا هذا، فإن كان سليمان فقد ذهب عقله وأنكرنا أحكامه. قال: فبكى النساء عند ذلك، قال: فأقبلوا يمشون حتى أتوا، فأحذقوا به ثم نشروا التوراة فقرأوا. قال: فطار من بين أيديهم حتى وقع على شرفة، والخاتم معه. ثم طار حتى ذهب إلى البحر، فوقع الخاتم منه في البحر، فابتلعه حوت من حيتان البحر. قال: وأقبل سليمان في حاله التي كان فيها، حتى انتهى إلى صياد من صيادي البحر، وهو جائع، وقد اشتد جوعه. فاستطعمهم من صيدهم، وقال: إني أنا سليمان. فقام إليه بعضهم فضربه بعصا فشجّه، فجعل يغسل دمه وهو على شاطئ البحر، فلام الصيادون صاحبهم الذي ضربه، فقالوا بش ما صنعت حيث ضربته. قال: إنه زعم أنه سليمان. قال: فأعطوه سمكتين مما قد مذر عندهم، فلم يشغله ما كان به من الضرب حتى قام إلى شط البحر، فشق بطونهما، فجعل يغسل دمه، فوجد خاتمه في بطن إحدىاهما، فأخذه فلبسه، فرد الله عليه بهاءه وملكه، وجاء الطير التي حامت عليه فعرف القوم أنه سليمان، عليه السلام، فقام القوم يعتذرون مما صنعوا به، فقال: ما أحمدكم على عذرکم، ولا ألومکم على ما كان منکم، كان هذا الأمر لا بد منه. قال: فجاء حتى أتى ملكه، وأرسل إلى الشيطان فجاء به فأمر به فجعل في صندوق من حديد، ثم أطبق عليه، وقفل عليه بقفل، وختم عليه بخاتمه، ثم أمر

به فالقي في البحر، فهو فيه حتى تقوم الساعة. وكان اسمه حقيق. قال: وسخر له الريح، ولم تكن سخرت له قبل ذلك، وهو قوله: ﴿وَقَبَّ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَمِيرٍ مِّنْ بَنِي إِدْرِكَ أَنْتَ الْوَقَّابُ﴾.

وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد قوله: ﴿وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ قال: شيطاناً يقال له: آصف. فقال له سليمان: كيف تفتنون الناس؟ قال: أرني خاتمك أخبرك. فلما أعطاه إياه نبذه آصف في البحر، فراح سليمان وذهب ملكه، وقعد آصف على كرسيه، ومنعه الله نساء سليمان فلم يقربهن - ولم يقربنه وأنكرنه. قال: فكان سليمان يستطعم، فيقول: أتعرفوني؟ أطعموني، أنا سليمان. فيكذبونه، حتى اعطته امرأة يوماً حوتاً فجعل يطيب بطنه، فوجد خاتمه في بطنه، فرجع إليه ملكه، وفر آصف، فدخل البحر فاراً. وهذه كلها من الإسرائيليات، ومن أنكرها ما قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء وعثمان بن أبي شيبة وعلي بن محمد قالوا: حدثنا أبو معاوية، أخبرنا الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾، قال: أراد سليمان أن يدخل الخلاء، فأعطى الجراد خاتمه - وكانت الجراد امرأة، وكانت أحب نساته إليه - فجاء الشيطان في صورة سليمان، فقال لها: هاتي خاتمي. فأعطته إياه. فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين، فلما خرج سليمان من الخلاء قال لها: هاتي خاتمي. قالت: قد أعطيتك سليمان. قال: أنا سليمان. قالت: كذبت، لست سليمان، فجعل لا يأتي أحداً فيقول له: «أنا سليمان»، إلا كذبه، حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة. فلما رأى ذلك عَزَفَ أنه من أمر الله ﷻ. قال: وقام الشيطان يحكم بين الناس، فلما أراد الله أن يرد على سليمان سلطانه، ألقي في قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان. قال: فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا لهن: أتذكرون من سليمان شيئاً؟ قلن: نعم، إنه يأتينا ونحن خُضَّص، وما كان يأتينا قبل ذلك. فلما رأى الشيطان أنه قد فُطِنَ له، ظن أن أمره قد انقطع، فكتبوا كتاباً فيها سحر وكفر، فدفنوها تحت كرسي سليمان، ثم أثاروها وقرؤوها على الناس. وقالوا: بهذا كان يظهر سليمان على الناس ويغلبهم. فأكفر الناس سليمان، عليه السلام، فلم يزالوا يكفرونه، وبعث ذلك الشيطان بالخاتم فطرحة في البحر، فتلقت سمكة فأخذته. وكان سليمان يحمل على شط البحر بالأجر، فجاء رجل فاشتري سمكاً فيه تلك السمكة التي في بطنه الخاتم، فدعا سليمان فقال: تحمل لي هذا السمك؟ فقال: نعم. قال: بكم؟ قال بسمكة من هذا السمك. قال: فحمل سليمان، عليه السلام، السمك، ثم انطلق به إلى منزله، فلما انتهى الرجل إلى بابه أعطاه تلك السمكة التي في بطنه الخاتم، فأخذها سليمان فشق بطنها، فإذا الخاتم في جوفها، فأخذته فليس. قال: فلما لبسه دانت له الجن والإنس والشياطين، وعاد إلى حاله، وقَرَّبَ الشيطان حتى دخل جزيرة من جزائر البحر، فأرسل سليمان في طلبه، وكان شيطاناً مريداً، فجعلوا يطلبونه ولا يقدرون عليه، حتى وجدوه يوماً نائماً، فجاءوا فبنوا عليه بنياناً من رصاص، فاستيقظ فوثب فجعل لا يثيب في مكان من البيت إلا انماط معه الرصاص، قال: فأخذوه فأوثقوه، وجاءوا به إلى سليمان، فأمر به فنقر له تحت من رخام، ثم أدخل في جوفه، ثم سد بالنحاس، ثم أمر به فطرح في البحر، فذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾، قال: يعني الشيطان الذي كان سلط عليه. إسناده إلى ابن عباس قوي، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس - إن صح عنه - من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان، عليه السلام، فالظاهر أنهم يكذبون عليه؛ ولهذا كان في السياق منكرات من أشدها ذكر النساء، فإن المشهور أن ذلك الجنى لم يسلط على نساء سليمان، بل عصمهن الله منه، تشريعاً وتكريماً لنبيه ﷺ، وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف، كسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم، وجماعة آخرين، وكلها مثلاً من قصص أهل الكتاب، والله أعلم بالصواب.

وقال يحيى بن أبي عمرو السيباني: وجد سليمان خاتمه في عسقلان، فمشى في خرقه إلى بيت المقدس، تواضعاً لله ﷻ، رواه ابن أبي حاتم. وقد روى ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار في صفة كرسي سليمان، عليه الصلاة والسلام، خبراً عجيباً، فقال: حدثنا أبي، رحمه الله، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، أخبرني أبو إسحاق المصري، عن كعب الأحبار؛ أنه لما فرغ من حديث إرم ذات العماد قال له معاوية: يا أبا إسحاق، أخبرني عن كرسي سليمان بن داود، وما كان عليه؛ ومن أي شيء هو؟ فقال: كان كرسي سليمان من أنياب الفيلة مُقَفَّصاً بالدر والياقوت والزبرجد واللؤلؤ. وقد جعل له درجة منها مُقَفَّصَةٌ بالدر والياقوت والزبرجد، ثم أمر بالكرسي فُحِفَّتْ من جانبيه بالنخل، نخل من ذهب، شماريخها من ياقوت وزبرجد ولؤلؤ. وجعل على رؤوس النخل التي عن يمين الكرسي طواويس من ذهب، ثم جعل على رؤوس النخل التي على يسار الكرسي نسور من ذهب مقابلة الطواويس، وجعل على يمين الدرجة الأولى شجرتا صنوبر من ذهب، وعن يسارها أشدان من ذهب، وعلى رؤوس الأسدين عمودان من زبرجد، وجعل من جانبي الكرسي شجرتا كرم من ذهب، قد أظلتا الكرسي، وجعل عناقيدها دراً

وياقوتاً أحمر. ثم جعل فوق دَرَج الكرسي أسدان عظيمان من ذهب مجوفان محشوان مسكاً وعنبراً. فإذا أراد سليمان أن يصعد على كرسيه استدار الأسدان ساعة، ثم يقعان فينضحان ما في أجوافهما من المسك والعنبر حول كرسي سليمان، عليه السلام، ثم يوضع منبران من ذهب، واحد لخليفته، والآخر لرئيس أجباز بني إسرائيل ذلك الزمان. ثم يوضع أمام كرسيه سبعون منبراً من ذهب، يعقد عليها سبعون قاضياً من بني إسرائيل وعلمائهم، وأهل الشرف منهم والطول، ومن خلف تلك المنابر كلها خمسة وثلاثون منبراً من ذهب، ليس عليها أحد، فإذا أراد أن يصعد على كرسيه وضع قدميه على الدرجة السفلى، فاستدار الكرسي كله بما فيه وما عليه، وبسط الأسد يده اليمنى وينشر النسر جناحه الأيسر، ثم يصعد سليمان على الدرجة الثانية، فيبسط الأسد يده اليسرى، وينشر النسر جناحه الأيمن، فإذا استوى سليمان على الدرجة الثالثة وقعد على الكرسي، أخذ نسر من تلك النسور عظيم تاج سليمان فوضعه على رأسه، فإذا وضعه على رأسه استدار الكرسي بما فيه كما تدور الرحي المسرعة. فقال معاوية، رضي الله عنه: وما الذي يدبره يا أبا إسحاق؟ قال: تنين من ذهب، ذلك الكرسي عليه وهو عظيم مما عمله صخر الجني، فإذا أحست بدورانه تلك النسور والأسد والطواويس التي في أسفل الكرسي دَوَّنَ إلى أعلاه، فإذا وقف وقفن كلهن منكسات رؤوسهن على رأس سليمان ابن داود عليه السلام وهو جالس، ثم ينضحن جميعاً ما في أجوافهن من المسك والعنبر على رأس سليمان، عليه السلام. ثم تتناول حمامة من ذهب واقفة على عمود من جوهر، التوراة فتجعلها في يده فيقرؤها سليمان على الناس. وذكر تمام الخبر، وهو غريب جداً.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِإِخْوَتِي إِحْدَى مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قال بعضهم: معناه: لا ينبغي لأحد من بعدي، أي: لا يصلح لأحد أن يسلمني، كما كان من قضية الجسد الذي ألقي على كرسيه، لا أنه يحجر على من بعده من الناس. والصحيح أنه سأل من الله ملكاً لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله، وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبه وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ. قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا روح ومحمد بن جعفر، عن شعبة، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن عفريتاً من الجن ثقلت عليّ البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع عليّ الصلاة، فأمكنتني الله منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تئصبوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِإِخْوَتِي مِنْ بَعْدِي﴾» قال روح: فردّه خاسئاً. وكذا رواه مسلم والنسائي، من حديث شعبة، به. وقال مسلم في صحيحه: حدثنا محمد بن سلمة المُرَادِي، حدثنا عبد الله بن وهب، عن معاوية بن صالح، حدثني ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي الدرداء قال: قام رسول الله ﷺ يصلي، فسمعتاه يقول: «أعوذ بالله منك». ثم قال: «ألعنك بلعنة الله» - ثلاثاً - وبسط يده كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله، قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك؟ قال: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليحمله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك - ثلاث مرات - ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة. فلم يستأخر ثلاث مرات، ثم أردت أخذه والله لولا دعوة أخي سليمان، لأصبح موقاً يلعب به صبيان أهل المدينة». وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد، حدثنا ميسرة بن معبد، حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال: رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائماً يصلي، فذهبت أمر بين يديه فردني، ثم قال: حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام يصلي صلاة الصبح وهو خلفه، فقرأ فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتموني وإبليس، فأهويت بيدي، فما زلت أختقه حتى وجدت بَرْدَ لعابه بين إصبعي هاتين - الإبهام والتي تليها - ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد، يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل». وقد روى أبو داود منه: «من استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل»، عن أحمد ابن أبي سُرَيْج، عن أبي أحمد الزبيري، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا إبراهيم بن محمد الفزاري، حدثنا الأوزاعي، حدثني ربيعة بن يزيد، عن عبد الله الديلمي قال: دخلت على عبد الله بن عمرو، وهو في حائط له بالطائف يقال له: «الوهط»، وهو مُحَاصِرُ فتي من قریش يَزْنُ تُشْرِبُ الخمر، فقلت: بلغني عنك حديث أنه «من شرب شربة خمر لم يقبل الله ﷻ»، له توبة أربعين صباحاً، وإن الشقي من شقي في بطن أمه، وإنه من أتى بيت المقدس لا يَنْتَهَرُهُ إلا الصلاة فيه، خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه، فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجتذب يده من يده، ثم انطلق. فقال عبد الله بن عمرو: إني لا أحل لأحد أن يقول عَلَيَّ ما لم أفل، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شرب من الخمر شربة، لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب تاب الله عليه. فإن عاد - الثالثة أو الرابعة - فإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه

من رَدَّعَ الخبال يوم القيامة». قال: «وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله ﷻ». وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن سليمان سأل الله تعالى ثلاثاً، فأعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة: سألته حكماً يصادف حكمه، فأعطاه إياه، وسألته ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه إياه، وسألته أن لا يرد رجل خراج من بيته إلا الصلاة في هذا المسجد، خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه، فنحن نرجو أن يكون الله تعالى قد أعطانا إياه». وقد روى هذا الفصل الأخير من هذا الحديث النسائي وابن ماجه من طرق، عن عبد الله بن فيروز الديلمي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه، ﷻ، خلا لا ثلاثاً... وذكره.

وقد روي من حديث رافع بن عمير، رضي الله عنه، بإسناد وسياق غريبين، فقال الطبراني: حدثنا محمد بن الحسن بن قُتَيْبَةَ العسقلاني، حدثنا محمد بن أيوب بن سُؤَيْد، حدثني أبي، حدثنا إبراهيم بن أبي عُبَيْلَةَ، عن أبي الزاهرية، عن رافع بن عمير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله ﷻ لداود، عليه السلام: ابن لي بيتاً في الأرض. فبنى داود بيتاً لنفسه قبل البيت الذي أمر به، فأوحى الله إليه: يا داود، نصبت بيتك قبل بيتي؟ قال: يا رب، هكذا قضيت، من ملك استأثر. ثم أخذ في بناء المسجد، فلما تم السور سقط، ثلاثاً، فشكا ذلك إلى الله ﷻ فقال: يا داود، إنك لا تصلح أن تبني لي بيتاً. قال: ولم يا رب؟ قال: لما جرى على يديك من الدماء. قال: يا رب، أو ما كان ذلك في هواك ومحبتك؟ قال: بلى، ولكنهم عبادي، وأنا أرحمهم. فشك ذلك عليه، فأوحى الله إليه: لا تحزن، فإنني سأقضي بناءه على يدي ابنك سليمان. فلما مات داود أخذ سليمان في بنائه فلما تم قرب القرابين، وذبح الذبائح، وجمع بني إسرائيل، فأوحى الله إليه: قد أرى سرورك ببنيان بيتي، فسلني أعطك. قال: أسألك ثلاث خصال: حكماً يصادف حكمك، وملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه». قال رسول الله ﷺ: «أما ثنتان فقد أعطيهما، وأنا أرجو أن يكون قد أعطى الثالثة». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عُمر بن راشد اليمامي، حدثنا إياس بن سلمة ابن الأكوع، عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ دعا دعاءً إلا استفتحته بـ «سبحان الله ربي الأعلى العلي الوهاب». وقد قال أبو عبيد: حدثنا علي بن ثابت، عن جعفر بن بَرْقَان، عن صالح بن مسمار قال: لما مات نبي الله داود أوحى الله إلى ابنه سليمان، عليهما السلام: أن سلني حاجتك. قال: أسألك أن تجعل لي قلباً يخشاك، كما كان قلب أبي، وأن تجعل قلبي يحبك كما كان قلب أبي. فقال الله: أرسلت إلى عبيدي وسألته حاجته، فكانت حاجته أن أجعل قلبه يخشاني، وأن أجعل قلبه يحبني. لأهَبَنَ له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده.

قال الله تعالى: ﴿مَسَرَّنَا لَهُ الرِّيحَ تَحْمِي وَآمُرُهُ رِيحًا حَيْثُ أَصَابَ﴾ (٣٦)، والتي بعدها، قال: فأعطاه الله ما أعطاه، وفي الآخرة لا حساب عليه. هكذا أورده أبو القاسم ابن عساکر في ترجمة سليمان، عليه السلام، في تاريخه. وروى عن بعض السلف أنه قال: بلغني عن داود عليه السلام أنه قال: «إلهي، كن لسليمان كما كنت لي»: فأوحى الله إليه: أن قل لسليمان: يكون لي كما كنت لي، أكون له كما كنت لك. وقوله: ﴿مَسَرَّنَا لَهُ الرِّيحَ تَحْمِي وَآمُرُهُ رِيحًا حَيْثُ أَصَابَ﴾ (٣٦): قال الحسن البصري، رحمه الله: لما عقر سليمان الخيل غضباً لله، ﷻ، عوضه الله ما هو خير منها وأسرع، الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر. وقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: حيث أراد من البلاد. وقوله: ﴿وَالنَّيْلَيْنِ كُلَّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾ (٣٧): أي: منهم من هو مستعمل في الأبنية الهائلة من محارِب وتمانيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر، وطائفة غواصون في البحار يستخرجون مما فيها من اللآلئ والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها، ﴿وَأَخْرَجَ مَقَرِّينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ (٣٨): أي: موثوقون في الأغلال والأكبال، ممن قد تَمَرَّدَ وعصى وامتنع من العمل وأبى، أو قد أساء في صنيعه واعتدى. وقوله: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٩): أي: هذا الذي أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألنا، فأعط من شئت وأحرم من شئت، لا حساب عليك، أي: مهما فعلت فهو جائز لك، احكم بما شئت فهو صواب. وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خُيِّرَ بين أن يكون عبداً رسولاً - وهو الذي يفعل ما يؤمر به، وإنما هو قاسم يقسم بين الناس ما أمره الله به - وبين أن يكون ملكاً نبياً، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح، اختار المنزلة الأولى بعد ما استشار جبريل، فقال له: تواضع. فاختار المنزلة الأولى، لأنها أرفع قدراً عند الله وأعلى منزلة في المعاد. وإن كانت المنزلة الثانية وهي النبوة مع الملك عظيمة أيضاً في الدنيا وفي الآخرة؛ ولهذا لما ذكر تعالى ما أعطى سليمان في الدنيا نبه على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضاً، فقال: ﴿وَأَنَّ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكَ فَحَصَنَّ مَنَاقِبَ﴾ (٤٠): أي: في الدار الآخرة.

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا أَوْثَرَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ يَنْصُبْ عَلَيَّ وَعَنَاءً ۖ ﴿٤١﴾ أَزْكُرُ بِرَبِّكَ هَذَا مُتَسَلِّيًا بَارِدًا وَشَرَابًا ۖ ﴿٤٢﴾ وَوَعَيْتُ لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنِّي وَذِكْرًا لِّأُولَى الْأَلْبَابِ ۖ ﴿٤٣﴾ وَغَدَّ بِكَ نَفْسًا فَاتَرَبَّ بِوَدٍّ وَلَا عَنَاءٍ ۖ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَاحِبًا بِمَقَامٍ ۖ ﴿٤٤﴾﴾

يذكر تعالى عبده ورسوله أيوب، عليه السلام، وما كان ابتلاه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده، حتى لم يبق في جسده مفرز لإبرة سليماً سوى قلبه، ولم يبق له من حال الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه، غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله ورسوله، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه، وتخدمه نحواً من ثماني عشرة سنة. وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا، فُسِّلَبَ جميع ذلك، حتى آل به الحال إلى أن ألقي على مزبلة من مزابيل البلدة هذه المدة بكمالها، ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته، رضي الله عنها، فإنها كانت لا تفارقه صباحاً ولا مساءً إلا بسبب خدمة الناس، ثم تعود إليه قريباً. فلما طال المطال، واشتد الحال، وانتهى القدر المقدور، وتم الأجل المقدر، تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين، فقال: ﴿أَنِّي مَسْنِيَ الْفُتْرَ وَأَنْتَ أَزْكُمُ الرَّبِيعَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وفي هذه الآية الكريمة قال: رَبِّ، إني مسني الشيطان بنصب وعذاب، قيل: ينصب في بدني، وعذاب في مالي وولدي. فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين، وأمره أن يقوم من مقامه، وأن يركض الأرض برجله. ففعل فأنبع الله عيناً وأمره أن يغتسل منها، فأذهب جميع ما كان في بدنه من الأذى. ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر، فأنبع له عيناً أخرى وأمره أن يشرب منها، فأذهب ما كان في باطنه من السوء، وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَزْكُرُ بِرَبِّكَ هَذَا مُتَسَلِّيًا بَارِدًا وَشَرَابًا ۖ ﴿٤٢﴾﴾.

قال ابن جرير، وابن أبي حاتم جميعاً: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني نافع بن يزيد، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب، عليه السلام، لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم - والله - لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحداً من العالمين. قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: من ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله، فيكشف ما به. فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له. فقال أيوب: لا أدري ما تقول، غير أن الله يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله، فيرجع إلى بيتي فأكفر عنهما، كراهية أن يذكر الله إلا في حق. قال: وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضاهما أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، وأوحى الله تعالى إلى أيوب، عليه السلام، أن ﴿أَزْكُرُ بِرَبِّكَ هَذَا مُتَسَلِّيًا بَارِدًا وَشَرَابًا ۖ ﴿٤٢﴾﴾، فاستبطأته، فتلقت تنظر، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان. فلما رآته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى. فوالله على ذلك، ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً. قال: فإني أنا هو. قال: وكان له أندران، أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير حتى فاض. هذا لفظ ابن جرير رحمه الله.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن مثنى قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عرياناً، خرّ عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثو في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى بي عن بركتك». انفرد بإخراجه البخاري، من حديث عبد الرزاق، به. ولهذا قال تعالى: ﴿وَوَعَيْتُ لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنِّي وَذِكْرًا لِّأُولَى الْأَلْبَابِ ۖ ﴿٤٣﴾﴾، قال الحسن، وقتادة: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم. وقوله: ﴿رَحْمَةً مِنِّي﴾ أي: به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته، ﴿وَذِكْرًا لِّأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ أي: لدوي العقول، ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة.

وقوله: ﴿وَعَدَّ بِكَ نَفْسًا فَاتَرَبَّ بِوَدٍّ وَلَا عَنَاءٍ﴾، وذلك أن أيوب، عليه السلام، كان قد غضب على زوجته، ووعد عليها في أمر فعلته. قيل: إنها باعت ضفيريها بخبز فأطعمته إياه، فلما على ذلك، وحلف إن شفاه الله ليضربها مائة جلدة. وقيل: لغير ذلك من الأسباب. فلما شفاه الله وعافاه، ما كان جزاؤها من هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب، فأفاته الله، ﷻ، أن يأخذ ضغناً - وهو: الشُمراخ - فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة، وقد برزت يمينه، وخرج من حنثه ووفى بندره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأناب إليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَاحِبًا بِمَقَامٍ ۖ ﴿٤٤﴾﴾، أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه ﴿بِمَقَامٍ ۖ﴾ أي: رجاء منيب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. وقد استدلل كثير من الفقهاء بهذه الآية الكريمة على مسائل في الإيمان وغيرها، وأخذوها بمقتضاها، ومنعت طائفة أخرى من الفقهاء من ذلك وقالوا: لم يثبت أن الكفارة كانت مشروعة في شرع أيوب، عليه السلام،

فلذلك رخص له في ذلك، وقد أغنى الله هذه الأمة بالكفارة.

﴿وَأَذْكُرْ عِبَادًا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ٤٥﴾ إِنَّا اخْتَصَمْنَا بِمِصْرَ ذِكْرَى الدَّارِ ٤٦ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ٤٧ ﴿وَأَذْكُرْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ٤٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين: ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادًا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ٤٥﴾ يعني بذلك: العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يُنَادِي﴾ يقول: أولى القوة، ﴿وَالْأَبْصَارِ﴾ يقول: الفقه في الدين. وقال مجاهد: ﴿أُولَى الْأَيْدِي﴾، يعني: القوة في طاعة الله، ﴿وَالْأَبْصَارِ﴾، يعني: البصر في الحق. وقال قتادة والسدي: أعطوا قوة في العبادة وبصراً في الدين. وقوله: ﴿إِنَّا اخْتَصَمْنَا بِمِصْرَ ذِكْرَى الدَّارِ ٤٦﴾ قال مجاهد: أي جعلناهم يعملون للأخرة ليس لهم فَمَ غيرها. وكذا قال السدي: ذكروهم للأخرة وعملهم لها. وقال مالك بن دينار: نزع الله من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها. وكذا قال عطاء الخراساني. وقال سعيد بن جبيرة: يعني بالدار الجنة، يقول: أخلصناها لهم بذكرهم لها، وقال في رواية أخرى: ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾: عقى الدار. وقال قتادة: كانوا يذكرون الناس الدار الآخرة والعمل لها. وقال ابن زيد: جعل لهم خاصة أفضل شيء في الدار الآخرة. وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ٤٧﴾، أي: لمن المختارين المجتبيين الأخيار، فهم أخيار مختارون. وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ٤٥﴾، قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة في سورة الأنبياء بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ أي: هذا فصل فيه ذكر لم يتذكر. وقال السدي: يعني القرآن.

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَكَابٍ ٤٨ جَنَّتٍ عَرْضُهَا مِثْلُ الْأَرْضِ ٤٩ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِكُحْمَةٍ كَثِيرَةٍ وَفَرٍ ٥٠ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الْكَرْبِ ٥١ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ٥٢﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَمْ يَنْفَادِ ٥٣﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء، أن لهم في الدار الآخرة ﴿لَحُسْنَ مَكَابٍ﴾ وهو: المرجع والمنقلب. ثم فسره بقوله: ﴿جَنَّتٍ عَرْضُهَا مِثْلُ الْأَرْضِ ٤٩﴾ جَنَاتٍ إقامة مفتحة لهم الأبواب. والألف واللام هنا بمعنى الإضافة، كأنه يقول: مفتحة لهم أبوابها أي: إذا جاؤوها فتحت لهم أبوابها. قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن ثواب الهباري، حدثنا عبد الله بن نُمَيْرٍ، حدثنا عبد الله بن مسلم - يعني: ابن هرمز - عن ابن سابط، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة قصراً يقال له: عدن، حوله البروج والمروج، له خمسة آلاف باب، عند كل باب خمسة آلاف حَبْرَةٍ لا يدخله - أو: لا يسكنه - إلا نبي أو صديق أو شهيد أو إمام عدل». وقد ورد في ذكر أبواب الجنة الثمانية أحاديث كثيرة من وجوه عديدة. وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا ٤٩﴾ قيل: متربعين فيها على سرر تحت الحجال، ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُحْمَةٍ كَثِيرَةٍ ٥٠﴾ أي: مهما طلبوا وجدوا، وحضروا كما أرادوا. ﴿وَفَرٍ ٥٠﴾ أي: من أي أنواعه شأوا أو انتهم به الخدام ﴿يَا كُؤَبَ وَأَبَارِينَ وَكُلَّيْنِ ٥١﴾ [الواقعة: ١٨]. ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الْكَرْبِ ٥١﴾ أي: عن غير أزواجهن، فلا يلتفتن إلى غير بعلوتهن، ﴿أَنْزَابٌ ٥٢﴾ أي: متساويات في السن والعمر. هذا معنى قول ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، ومحمد بن كعب، والسدي. ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ٥٢﴾ أي: هذا الذي ذكرنا من صفة الجنة التي وعدنا لعباده المتقين، التي يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار. ثم أخبر عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا انقضاء ولا زوال ولا انتهاء، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَمْ يَنْفَادِ ٥٣﴾، كقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وكقوله: ﴿عِلَاقَةٌ غَيْرُ يُحْدَوِرُ﴾ [مرد: ١٠٨]، وكقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨] أي: غير مقطوع، وكقوله: ﴿أَكْثُلُهُمْ قَدْ ظَلَمُوا نَفْسَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وكقوله: ﴿وَعَفَى الْكَافِرِينَ أَتَارُ ٥٣﴾ [الرعد: ٣٥] والآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿هَذَا وَارْتِ لِلطَّائِفِينَ لَنْزَارِ ٥٤ جَهَنَّمَ بَصُورَتَا يَنْتَرِ الْمَاهِدُ ٥٥ هَذَا قَلْبُوهُ حَمِيمٌ وَنَسَاءُ ٥٦ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَنْزَارُ ٥٧﴾ هَذَا قَوْجٌ مُتَّكِئِينَ مَعَكُمْ لَا مَرَجَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُمْ صَلَاةُ الْآثَارِ ٥٨ قَالُوا بَلْ أَشْتَرُ لَا مَرَجَ بَيْنَهُمْ أَشْتَرُ قَدْ شَتَّوْهُ لَنَا يَنْتَرِ الْفَرَارُ ٥٩ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّ عَذَابًا يَنْتَرِ فِي الْآثَارِ ٦٠ قَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِيَالًا كَمَا نَنْدَرُ مِنَ الْآثَارِ ٦١ أَفَعَدَّوْهُ سَعِيرًا أَمْ رَآغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ٦٢ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَذَابِمْ أَهْلِ الْآثَارِ ٦٣﴾

لما ذكر تعالى مآل السعداء، نثى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم، فقال: ﴿هَذَا وَارْتِ لِلطَّائِفِينَ ٥٤﴾ وهم: الخارجون عن طاعة الله، المخالفون لرسول الله، ﴿لَنْزَارِ ٥٤﴾ أي: لسوء متقلب ومرجع. ثم فسره بقوله: ﴿جَهَنَّمَ بَصُورَتَا يَنْتَرِ الْمَاهِدُ ٥٥﴾ أي: يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم، أما الحميم فهو: الحار الذي قد انتهى حره، وأما الغساق فهو: ضده، وهو البارد الذي لا يستطيع من شدة برده المؤلم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَخَرُ مِنْ شَكْلِهِ ٥٦﴾

أَرْجُ ٥٨ ﴿٥٨﴾ أي: وأشياء من هذا القبيل، الشيء وضده يعاقبون بها. قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا ذرّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن ذلّوا من عَسَاق يهراق في الدنيا، لأتت أهل الدنيا». ورواه الترمذي، عن سُوَيْد بن نصر، عن ابن المبارك، عن رِشْدِين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن ذرّاج، به. ثم قال: «لا نعرفه إلا من حديث رشدين». كذا قال: وقد تقدم من غير حديثه. ورواه ابن جرير، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، به. وقال كعب الأحبار: عَسَاق: عين في جهنم، يسيل إليها حُمّة كل ذات حُمّة من حية وعقرب وغير ذلك، فيستقع، فيؤتى بالآدمي فيغمس فيها غمسة واحدة، فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام، ويتعلق جلده ولحمه في كعبيه وعقبه، ويُجرّ لحمه كما يُجرّ الرجل ثوبه. رواه ابن أبي حاتم. وقال الحسن البصري في قوله: «وَأَخْرَجَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجَ ٥٩﴾: الألوان من العذاب. وقال غيره: كالزهرير، والسوم، وشرب الحميم، وأكل الزقوم، والصعود والهوى، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة والمتضادة، والجميع مما يعذبون به، ويهانون بسببه..

وقوله: ﴿هَذَا نَجْمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ٦٠﴾، هذا إخبار عن قيل أهل النار بعضهم لبعض، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُتَتْ لَمَسَتْ أَهْنًا﴾ [الأعراف: ٨٣]، يعني بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون، ويكفر بعضهم ببعض، فتقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى، إذا أقبلت التي بعدها مع الخزنة من الزبانية: ﴿هَذَا نَجْمٌ مَعَكُمْ﴾ أي: داخل معكم، ﴿لَا مَرْجَا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ أي: لأنهم من أهل جهنم. ﴿قَالُوا بَلْ أَشْتَرُ لَا مَرْجَا بِكُمْ﴾ أي: فيقول لهم الداخلون: ﴿بَلْ أَشْتَرُ لَا مَرْجَا بِكُمْ أَشْتَرُ قَدَمْتُمُو لَنَا﴾ أي: أنتم دعوتونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير، ﴿يَنْتَرِ الْأَنْكَارُ﴾ أي: فبئس المنزل والمستقر والمصير. ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّ عَلَيْنَا شِعْمًا فِي النَّارِ ٦١﴾، كما قال الله: ﴿قَالَتْ أَرْبَعَةُ رِبَا أُولَئِكَ أَصْلَوْا فَلَقِيَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ فِي النَّارِ ٦٢﴾ قال لكل لكل منكم عذاب بحسبه، أي: لكل منكم عذاب بحسبه، ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِبَاكَ كَمَا نَدَّعُمُ مِنَ الْأَنْكَارِ ٦٣﴾ أَفَقَدْتُمْ سَخِرًا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ٦٤﴾، هذا إخبار عن الكفار في النار أنهم يفقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة، وهم المؤمنون في زعمهم، قالوا: ما لنا لا نراهم معنا في النار؟ قال مجاهد: هذا قول أبي جهل، يقول: مالي لا أرى بلالاً وعماراً وصهيباً وفلاناً وفلاناً. وهذا مثل ضرب، وإلا فكل الكفار هذا حالهم: يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم، فقالوا: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِبَاكَ كَمَا نَدَّعُمُ مِنَ الْأَنْكَارِ أَفَقَدْتُمْ سَخِرًا﴾ أي: في الدنيا، ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾، يسلون أنفسهم بالمحال، يقولون: أو لعلهم معنا في جهنم، ولكن لم يقع بصرنا عليهم. فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العالية، وهو قوله: ﴿وَوَادَعَى أَصْحَبُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعْلَمُ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُهُمُ الْخُوفُ إِنَّهُمْ يَبُغُونَ أَنْ يُقَرَّرُوا بِمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا ٦٥﴾ إلى قوله: ﴿وَوَادَعَى أَصْحَابُ الْأَنْكَارِ رِبَاكَ لَا يَبُغُونَ إِلَّا أَنْ تُبْعِدَهُمْ مِنْكُمْ وَكُنْتُمْ تَتَذَكَّرُونَ ٦٦﴾ أَفَتَكُونُ ٦٧﴾ أَفَتَكُونُ ٦٨﴾ أَفَتَكُونُ ٦٩﴾ أَفَتَكُونُ ٧٠﴾ أي: إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد، من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض، ولعن بعضهم لبعض، لحق لا مرية فيه ولا شك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِمَّنْ لَمْ يَلِدْ إِلَّا اللَّهُ الرَّحْمَنُ الْقَهَّارُ ٧١﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْفَقْدُ ٧٢﴾ قُلْ هُوَ نَبِيُّ عَظِيمٍ ٧٣﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مَرْسُومُونَ ٧٤﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّهِ إِلَّا إِذْ يَخْتَصِمُونَ ٧٥﴾ إِنْ يَشَاءُ إِلَى إِلَهِكُمْ أَنَا نَذِيرٌ تُبِينُ ٧٦﴾. يقول تعالى أمرًا رسول الله ﷺ أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله: إنما أنا منذر لست كما تزعمون، ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الرَّحْمَنُ الْقَهَّارُ ٧٧﴾ أي: هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه. ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه، ﴿الْعَزِيزُ الْفَعْلُ ٧٨﴾ أي: غفار مع عزته وعظمته.

﴿قُلْ هُوَ نَبِيُّ عَظِيمٍ ٧٩﴾ أي: خبر عظيم وشأن بليغ، وهو إرسال الله إياي إليكم، ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مَرْسُومُونَ﴾ أي: غافلون. قال مجاهد، وشريح القاضي، والسدي في قوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبِيُّ عَظِيمٍ ٧٩﴾ يعني: القرآن. وقوله: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّهِ إِلَّا إِذْ يَخْتَصِمُونَ ٧٥﴾ أي: لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملائكة الأعلى؟ يعني: في شأن آدم وامتناع إيليس من السجود له، ومحاجته ربه في تفضيله عليه. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا جهمص اليمامي، عن يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن أبي سلام، عن أبي سلام، عن عبد الرحمن بن عائش، عن مالك بن يخامر، عن معاذ، رضي الله عنه، قال: احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح، حتى كدنا نترأى قرن الشمس. فخرج رسول الله ﷺ سريعاً فَنَوَّبَ بالصلاة فصلى، وَتَجَوَّزَ في صلاته، فلما سلم قال: «كما أنتم على مصافكم». ثم أقبل إلينا فقال: «إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة، إني قمت من الليل فصليت ما قُدر لي، فنعست في صلاتي حتى استيقظت، فإذا

أنا بريء في أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدري فيم يختصم الملا الأعلى؟ قلت: لا أدري رب - أعادها ثلاثاً - فأريته وضع كفه بين كتفي، حتى وجدت برد أنامله بين صدري، فتجلى لي كل شيء وعرفت، فقال: يا محمد، فيم يختصم الملا الأعلى؟ قلت: في الكفارات. قال: وما الكفارات؟ قلت: نقل الأقدام إلى الجمعات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء عند الكريهات. قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام. قال: سل. قلت: اللهم، إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة بقوم فتوفني غير مفتون، وأسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقريني إلى حبك. وقال رسول الله ﷺ: «إنها حق فادرسوها وتعلموها»، فهو حديث المنام المشهور، ومن جعله بقطة فقد غلط، وهو في السنن من طرق. وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذي من حديث جهضم بن عبد الله اليمامي به. وقال: «حسن صحيح» وليس هذا الاختصاص هو الاختصاص المذكور في القرآن إن هذا قد فسر، وأما الاختصاص الذي في القرآن فقد فسر بعد هذا، وهو قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُم سَجْدًا ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْغَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ ذَلِكَ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَنَفَخْتَنِي مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لعَذَابَ لَّعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ أُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الرُّفُوفِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأَعْرِضَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَتَّبِعُكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

هذه القصة ذكرها الله تعالى، في سورة البقرة، وفي أول الأعراف، وفي سورة الحجر، وفي سبحان، والكهف، وهاهنا. وهي أن الله، سبحانه، أعلم الملائكة قبل خلق آدم، عليه السلام، بأنه سيخلق بشراً من حمأ مسنون، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراماً وإعظاماً واحتراماً، وامثالاً لأمر الله ﷻ. فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس، ولم يكن منهم جنساً؛ كان من الجن فخانته طبعه وجبلته أحوج ما كان إليه، فاستكف عن السجود لآدم، وخاصم ربه ﷻ فيه، وادعى أنه خير من آدم؛ فإنه مخلوق من نار وادم خلق من طين، والنار خير من الطين، في زعمه. وقد أخطأ في ذلك، وخالف أمر الله، وكفر بذلك، فأبعده الله وأرغم أنفه، وطرده عن باب رحمته ومحل أنسه، وحضرة قدسه، وسماء إبليس، إعلاماً له بأنه قد أنلس من الرحمة، وأنزله من السماء مذموماً مدحوراً إلى الأرض، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث، فأنظره الحليم الذي لا يفعل على من عصاه فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطفى، وقال: ﴿لَأَعْرِضَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿٨٢﴾ كما قال: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُفِّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْفَيْسَمَةِ لأَعْتِيكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِيَ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ ﴿٥٥﴾ [الإسراء: ٦٥]. وقوله: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَتَّبِعُكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٨٥﴾: قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع الحق الأولى، وفسره مجاهد بأن معناه: أن الحق، والحق أقول. وفي رواية عنه: الحق مني، وأقول الحق. وقرأ آخرون بنصبهما. قال السدي: هو قسم أقسم الله به. قلت: وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلِ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٧]، وكقوله تعالى: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَتَّبِعُكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَّقْفُورًا﴾ ﴿٧٣﴾ [الإسراء: ٦٣].

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ ﴿٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلنَّاسِ ﴿٨٧﴾ وَلَتَسْلَمَنَّ نَابُؤُكُمْ بَعْدَ جِيئِ﴾ ﴿٨٨﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجراً تعطونه من عرض الحياة الدنيا، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ أي: وما أزيد على ما أرسلني الله به، ولا أبغني زيادة عليه، بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبغني بذلك وجه الله ﷻ والدار الآخرة. قال سفيان الثوري، عن الأعمش ومنصور، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود قال: يا أيها الناس، من علم شيئاً فليقل به، ومن لا يعلم فليقل: الله أعلم؛ فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله قال لنبيكم ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ ﴿٨٦﴾. أخرجه من حديث الأعمش، به. وقوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلنَّاسِ﴾ ﴿٨٧﴾ يعني: القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن، قاله ابن عباس. ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن أبي غسان مالك بن إسماعيل: حدثنا قيس، عن عطاء ابن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَتَسْلَمَنَّ﴾ قال: الجن والإنس. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿لَا تُؤْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وكقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [ممد: ١٧]. وقوله: ﴿وَلَتَسْلَمَنَّ نَابُؤُكُمْ بَعْدَ جِيئِ﴾ أي: خبره وصدقه ﴿بَعْدَ جِيئِ﴾ أي: عن قريب.

قال قتادة: بعد الموت. وقال عكرمة: يعني يوم القيامة. ولا منافاة بين القولين؛ فإن من مات فقد دخل في حكم القيامة. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَتَمَنَّيَنَّ نَأْمَ بَعْدَ حِينٍ﴾ قال الحسن: يا بن آدم، عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

آخر تفسير سورة ص،

وبه الحمد والمنة



تفسير سورة الزمر

وهي مكية. قال النسائي: حدثنا محمد بن النضر بن مساور، حدثنا حماد، عن مروان أبي لبابة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر. ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم. وكان يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ آلَ اللَّهِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَخْطَفَ بِمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤﴾

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب - وهو القرآن العظيم - من عنده، تبارك وتعالى، فهو الحق الذي لا مريب فيه ولا شك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا رَبِّيَ الْفَاتِحَةَ﴾ (١) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿٢﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٣﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿٤﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ٢١٩]. وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]. وقال

ها هنا: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ أي: المنيع الجنب، ﴿الْحَكِيمِ﴾ أي: في أقواله وأفعاله، وشرعه، وقدره. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (٢) أي: فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده، وأنه ليس له شريك ولا عدل ولا نديد؛ ولهذا قال: ﴿آلَ اللَّهِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ (٣) أي: لا يقبل من العمل إلا من أخلص فيه العامل لله وحده، لا شريك له. وقال قتادة في قوله: ﴿آلَ اللَّهِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ (٣) شهادة أن لا إله إلا الله. ثم أخبر تعالى عن عبادة الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ (٤) أي: إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صورة الملائكة المقربين في زعمهم، فعبدوا تلك الصورة تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة؛ ليشفعوا لهم عند الله في نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمر الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به. قال قتادة، والسدي، ومالك عن زيد بن أسلم، وابن زيد: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ أي: ليشفعوا لنا، ويقربونا عنده منزلة. ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم: «ليكن لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك». وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، بردها والنهي عنها، والدعوة إلى إفراة العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه ولا رضى به، بل أبغضه ونهى عنه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوفَ﴾ [النحل: ٣٦]. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥) [الأنبياء: ٢٥]. وأخبر أن الملائكة التي في السموات من المقربين وغيرهم، كلهم عبيد خاضعون لله، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه، ﴿فَلَا تَقْرَبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، تعالى الله عن ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: سيفصل بين الخلائق يوم معادهم، ويجزي كل عامل بعمله، ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ الصُّرُورُ﴾ أي: يوم ينفخ الصور، ﴿يَوْمَ يَأْتِي السُّبْحَةُ أَهْلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤١) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (٤٢) أي: لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله، وقلبه كفار يجحد بآياته وحججه وبراهينه. ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جبهة المشركين في الملائكة، والمعاندون من اليهود والنصارى في العزيز وعيسى، فقال: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَخْطَفَ

يقول تعالى مخبراً عن نفسه تعالى: أنه الغني عما سواه من المخلوقات، كما قال موسى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّكَ اللَّهُ لَغَفِيْرٌ حَمِيْدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]. وفي صحيح مسلم: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً». وقوله: ﴿وَلَا يَرْضَى لِيْبَابُهُ الْكَفْرُ﴾ أي: لا يجه ولا يأمر به، ﴿وَأَنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يجه منكم ويزدكم من فضله. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل نفس عن نفس شيئاً، بل كل مطالب بأمر نفسه، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: فلا تخفى عليه خافية. وقوله: ﴿وَإِذَا مَنَّ الْإِنْسَنُ مَنَّ دَعَارَهُ مَيْمِنًا إِلَىٰ يَمِيْنِهِ﴾ أي: عند الحاجة يضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَ السُّعْرَ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُوْنَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَمَنَّكَ إِلَىٰ النَّارِ أَعْرَضْتَ وَكَانَ الْإِنْسَنُ كَذْبَارًا﴾ [الإسراء: ٦٧]. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِذَا حُوِّلَهُ يَتَمَنَّاهُ وَمَنْ يَنْهَىٰ مَا كَانُ يَدْعُوْا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَنَّ الْإِنْسَنُ الشُّعْرَ دَعَا لِيُجِيْبُوْهُ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَالِمًا فَلَمَّا كَفَتْنا عَنْهُ شُرَهُ مَرَّ كَانَ لَوْ يَدْعُوْنَا إِلَىٰ شُرِهِ مَسْرُومًا﴾ [يونس: ١٧]. ﴿وَحَلَّ لِلَّهِ أَنْتَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيْلِهِ﴾ أي: في حال العافية يشرك بالله، ويجعل له أنداداً. ﴿قُلْ تَمَنَّعْ بِكَفْرِكَ قَلِيْلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي: قل لمن هذه حاله وطريقته ومسلكه تمتع بكفرك قليلاً وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، كقوله: ﴿قُلْ تَمَنَّوْا فَإِنْ مَضَىٰ رَبُّكُمْ إِلَىٰ النَّارِ﴾ [إبراهيم: ١٣٠]، وقوله: ﴿لَتَمُنَّاهُمْ قَلِيْلًا ثُمَّ نَنْصُرُهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيْظٍ﴾ [القمان: ١٢٤].

﴿أَتَنْهَوْنَ قُنُوتَ عَائِةِ الْيَلِّ سَائِدَا وَقَائِمَا بَحْدُرِ الْآخِرَةِ وَرَبِّهَا رَحْمَةً رَّبُّهُ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَكْفُرُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾.

يقول تعالى: أمن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً؟ لا يستونون عن الله، كما قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مَن أَهْلَ الْكِتَابِ أَنَّهُ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ عَائِةِ الْيَلِّ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال هاهنا: ﴿أَتَنْهَوْنَ قُنُوتَ عَائِةِ الْيَلِّ سَائِدَا وَقَائِمَا﴾ أي: في حال سجوده وفي حال قيامه؛ ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة، ليس هو القيام وحده، كما ذهب إليه آخرون. قال الثوري، عن فراس، عن الشعبي، عن مسروق، عن ابن مسعود أنه قال: القانت: المطيع لله ولرسوله. وقال ابن عباس، الحسن، والسدي، وابن زيد: ﴿عَائِةِ الْيَلِّ﴾: جوف الليل. وقال الثوري، عن منصور: بلغنا أن ذلك بين المغرب والعشاء. وقال الحسن، وقتادة: ﴿عَائِةِ الْيَلِّ﴾: أوله وأوسطه وآخره. وقوله: ﴿يَتَذَكَّرُ الْآخِرَةِ وَرَبِّهَا رَحْمَةً رَّبُّهُ﴾ أي: في حال عبادته خائف راج، ولا بد في العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب؛ ولهذا قال: ﴿يَتَذَكَّرُ الْآخِرَةِ وَرَبِّهَا رَحْمَةً رَّبُّهُ﴾، فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه، كما قال الإمام عبد بن حميد في مستنده. حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا ثابت، عن أنس قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت، فقال له: «كيف تجدك؟» قال: أرجو وأخاف. فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ﷻ الذي يرجو، وأمنه الذي يخافه». ورواه الترمذي والنسائي في اليوم والليلة، وابن ماجه، من حديث سيّار بن حاتم، عن جعفر بن سليمان، به. وقال الترمذي: «غريب». وقد رواه بعضهم عن ثابت، عن أنس، عن النبي ﷺ مرسلًا. وقال ابن أبي حاتم، حدثنا عمر بن شبة، عن عبيدة النميري، حدثنا أبو خلف عبد الله بن عيسى الخزاز، حدثنا يحيى البكاء، أنه سمع ابن عمر قرأ: ﴿أَتَنْهَوْنَ قُنُوتَ عَائِةِ الْيَلِّ سَائِدَا وَقَائِمَا بَحْدُرِ الْآخِرَةِ وَرَبِّهَا رَحْمَةً رَّبُّهُ﴾؛ قال ابن عمر: ذاك عثمان بن عفان، رضي الله عنه. وإنما قال ابن عمر ذلك؛ لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان بالليل وقراءته، حتى إنه ربما قرأ القرآن في ركعة، كما روى ذلك أبو عبيدة عنه، رضي الله عنه، وقال الشاعر:

ضُحُوا بِأَنْفُسِ عُنُوتِ السُّجُودِ بِهِ يُنْقَطُ اللَّيْلُ تَشْبِيحًا وَقُرْآنًا

وقال الإمام أحمد: كتب إلى الربيع بن نافع: حدثنا الهيثم بن حميد، عن زيد بن واقد، عن سليمان بن موسى، عن كثير بن مرة، عن تميم الداري قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بمائة آية في ليلة، كتب له قنوت ليلة». وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة عن إبراهيم بن يعقوب، عن عبد الله بن يوسف والربيع بن نافع، كلاهما عن الهيثم بن حميد، به. وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَكْفُرُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل الله أنداداً ليعضل عن سبيله؟! ﴿لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل.

﴿قُلْ يَبَايِدُ الَّذِينَ آمَنُوا أَلْفُوا رَحْمَةً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾.

يقول تعالى أمرأ عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿قُلْ يَبَايِدُ الَّذِينَ آمَنُوا أَلْفُوا رَحْمَةً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم. وقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾: قال مجاهد: فهاجروا فيها، وجاهدوا، واعتزلوا الأوثان. وقال شريك، عن منصور، عن عطاء في قوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾: قال: إذا دعيتم إلى المعصية فاهربوا، ثم قرأ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]. وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، قال الأوزاعي: ليس يوزن لهم ولا يكال، إنما يعرف لهم غرقاً. وقال ابن جريج: بلغني أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يزدادون على ذلك. وقال السدي: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: يعني في الجنة. وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾﴾ أي: إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾، قال السدي: يعني من أمته ﷺ.

﴿قُلْ إِنِّي لَأَكْفَى إِنْ عَصَيْتَ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ قُلْ اللَّهُ أَكْبَدُ غَلَا لَمْ يَبِي ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْكَلْبَيْنِ الَّذِينَ خَبَرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْفِتْرَانِ الْكَلْبَيْنِ ﴿١٥﴾﴾ لَمْ يَنْفَرِيهِمْ غُلُلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلُلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴿١٦﴾﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد وأنت رسول الله: ﴿إِنِّي لَأَكْفَى إِنْ عَصَيْتَ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وهو يوم القيامة. وهذا شرط، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأخرى، ﴿قُلْ اللَّهُ أَكْبَدُ غَلَا لَمْ يَبِي ﴿١٤﴾﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ، وهذا أيضاً تهديد وتبذير منهم،

﴿قُلْ لَّيْسَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ شَيْءٌ أَيْ: إِنَّمَا الْخَاسِرُونَ كُلُّ الْخَسِرَانِ﴾ [الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ] أَيْ: تَفَارَقُوا فَلَا تَقَاءَ لَهُمْ أَبَدًا، سَوَاءَ ذَهَبَ أَهْلُهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَقَدْ ذَهَبُوا هُم إِلَى النَّارِ، أَوْ أَنَّ الْجَمِيعَ أَسْكَنُوا النَّارَ، وَلَكِنْ لَا اجْتِمَاعَ لَهُمْ وَلَا سُرُورَ، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْأَشِيرُ﴾ أَيْ: هَذَا هُوَ الْخُسَارُ الْبَيْنُ الظَّاهِرُ الْوَاضِحُ. ثُمَّ وَصَفَ حَالَهُمْ فِي النَّارِ فَقَالَ: ﴿لَهُمْ مِّنْ قُوَّهِمْ ظُلُلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنَ النَّارِ يَنْشَبُ عَنْهُمُ اللَّعَابُ بِقُوَّهِمْ وَمِنْ حَتَّىٰ أُنْجِلَهُمْ وَيَقُولُ دُوْقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المكوت: ٥٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّتُ اللَّهَ بِهِ عِبَادُهُمْ﴾ أَيْ: إِنَّمَا يَقْصُ خَيْرُ هَذَا الْكَائِنِ لَا مُحَالَةَ لِيَخُوفَ بِهِ عِبَادَهُ، لِيَنْزَجِرُوا عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَأْتَمِ. وَقَوْلُهُ: ﴿يَعْبَادُ فَاتَّقُونِ﴾ أَيْ: اخْشَوْا بِأَسْيَ وَسُطُوتِي، وَعَذَابِي وَنَقْمَتِي.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادَ﴾ [الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أَزْوَاجُ الْأَتَّابِينَ] ﴿١٨﴾.

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ نَزَلَتْ فِي زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ نُفَيْلٍ، وَأَبِي ذَرٍّ، وَسُلَيْمَانَ الْفَارِسِيِّ. وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا شَامِلَةٌ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ، مِمَّنْ اجْتَنَبَ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ، وَأَنَابَ إِلَىٰ عِبَادَةِ الرَّحْمَنِ. فَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أَيْ: يَفْهَمُونَهُ وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ لِمُوسَىٰ حِينَ آتَاهُ التَّوْرَةَ: ﴿فَمَهْذَا يَفُوقُوهُ وَأَمَرَ قَوْمَكُمُ لِيُخْذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]. ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أَيْ: الْمُتَصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ هُمُ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَيْ: ذَوُو الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ، وَالْفَطَرِ الْمُسْتَقِيمَةِ. ﴿أَمَنَ حَقَّ عَلَيْهِ كِتَابُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُؤْتِيهِمْ مِّنْ آثَارِ﴾ [لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَوْا رَبَّهُمْ هُمْ غُرَفٌ مِّنْ قُوَّاهُمْ غُرَفٌ مِّنْ جَنَّةٍ مَّيِّتَةٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلُفُ اللَّهُ الْوَعْدَ] ﴿١٩﴾.

يَقُولُ تَعَالَى: أَفَمَنْ كَتَبَ اللَّهُ أَنَّهُ شَقِيٌّ تَقْدُرُ تُنْقِذُهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْهَلَاكِ؟ أَيْ: لَا يَهْدِيهِ أَحَدٌ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ يَضِلُّهُ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَمَنْ يَهْدِهِ فَلَا مُضِلَّ لَهُ. ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ عِبَادَةِ السَّعْدَاءِ أَنَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ الْقُصُورُ الشَّاهِقَةُ، ﴿مِنْ قُوَّاهُمْ غُرَفٌ مَّيِّتَةٌ﴾، أَيْ: طَبَاقٌ فَوْقَ طَبَاقٍ، مَبْنِيَّاتٌ مُحْكَمَاتٌ مَزْخَرَفَاتٌ عَالِيَاتٌ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عِبَادُ بْنُ يَعْقُوبَ الْأَسَدِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فَضِيلٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنِ النَّعْمَانِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَغُرَفًا يُرَىٰ بِطُونُهَا مِنْ ظَهْوَرِهَا، وَظَهْوَرُهَا مِنْ بَطُونِهَا». فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَصَلَّىٰ اللَّهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسِ نِيَامًا». وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحَاقَ، وَقَالَ: «حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَقَدْ تَكَلَّمَ بِعَظْمِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِيهِ مِنْ قَبْلِ حِفْظِهِ». وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقُ، حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ ابْنِ مُعَاتِقٍ - أَوْ: أَبِي مُعَاتِقٍ - عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَغُرَفَةً يَرَىٰ ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَالْآنَ الْكَلَامَ، وَتَابَعَ الصِّيَامَ، وَصَلَّىٰ وَالنَّاسِ نِيَامًا». تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعَاتِقٍ الْأَشْعَرِيِّ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ، بِهِ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا قَتِيبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدَانَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لِيَتَرَاءَوْنَ الْغُرَفَةَ فِي الْجَنَّةِ كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكُوكَبَ فِي السَّمَاءِ». قَالَ: فَحَدَّثْتُ بِذَلِكَ النَّعْمَانُ بْنُ أَبِي عِيَّاشٍ، فَقَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخَدْرِيَّ يَقُولُ: «كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكُوكَبَ الدَّرِيَّ فِي الْأَفْقِ الشَّرْقِيِّ أَوْ الْغَرْبِيِّ». أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي حَازِمٍ، وَأَخْرَجَاهُ أَيْضًا فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سَلِيمٍ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَّارٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا فُزَّارَةُ، أَخْبَرَنِي قُلَيْحٌ، عَنْ هِلَالِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَّارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لِيَتَرَاءَوْنَ فِي الْجَنَّةِ أَهْلَ الْغُرَفِ، كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكُوكَبَ الدَّرِيَّ الْغَارِبَ فِي الْأَفْقِ الطَّالِعِ، فِي تَفَاضُلِ أَهْلِ الدَّرَجَاتِ». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُولَٰئِكَ النَّبِيُّونَ؟ فَقَالَ: «بَلَىٰ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، وَأَقْوَامٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الرَّسْلَ». وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ سُؤِيدٍ، عَنْ ابْنِ الْمُبَارَكِ، عَنْ قُلَيْحٍ بِهِ، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَبُو النَّضْرِ وَأَبُو كَامِلٌ قَالَا: حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ: حَدَّثَنَا سَعْدُ الطَّائِي، حَدَّثَنَا أَبُو الْمَدَّلَةِ - مَوْلَىٰ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ - أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا إِذَا رَأَيْنَاكَ رَقَّتْ قُلُوبُنَا، وَكُنَّا مِنْ أَهْلِ الْآخِرَةِ، فَإِذَا قَرَأْنَاكَ أَعْجَبَتْنَا الدُّنْيَا وَشَمَمَتْنَا النِّسَاءُ وَالْأَوْلَادُ. قَالَ: «لَوْ أَنْتُمْ تَكُونُونَ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ عَلَى الْحَالِ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا عِنْدِي، لَصَافَحْتُمْ الْمَلَائِكَةَ بِأَكْفِهِمْ، وَلِزَارْتَكُمْ فِي بَيْتِكُمْ. وَلَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَجَاءَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يَذْنِبُونَ كَيْ يَغْفِرَ لَهُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَدَّثَنَا عَنْ الْجَنَّةِ، مَا بَنَّاوْهَا؟ قَالَ: «لَبَنَةٌ ذَهَبٌ وَلَبَنَةٌ فُضَّةٌ، وَمَلَاطُهَا الْمَسْكُ الْأَذْفَرُ، وَخَضْبَاوْهَا اللَّوْلُو وَالْيَاقُوتُ، وَتَرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ، مِنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ وَلَا يَبْئَسُ، وَيَخْلُدُ وَلَا يَمُوتُ، وَلَا

بلى ثيابه، ولا يفنى شبابه. ثلاثة لا تُردُّ دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تُحتمل على الغمام، وتفتح لها أبواب السموات، ويقول الرب: وعزتي لأُنصرك ولو بعد حين». وروى الترمذي، وابن ماجه بعضه، من حديث سعد أبي مجاهد الطائي - وكان ثقة - عن أبي المذلة - وكان ثقة - به. وقوله: ﴿يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: تسلك الأنهار بين خلال ذلك، كما يشاؤوا وأين أرادوا، ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ أي: هذا الذي ذكرناه وعده الله عباده المؤمنين ﴿لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْوَعْدَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ خُطًّا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾ أَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ قَوْلٌ لِلْقَنِيَّةِ فَلَوْهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَيْكَ فِي صَلَافِ مُيْنِ ﴿٢٢﴾﴾.

يخبر تعالى: أن أصل الماء في الأرض من السماء كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]، فإذا أنزل الماء من السماء كَمَنَّ في الأرض، ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء، ويُنبِئ عيوناً ما بين صغار وكبار، بحسب الحاجة إليها؛ ولهذا قال: ﴿فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾. قال ابن أبي حاتم - رحمه الله -: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عمرو بن علي، حدثنا أبو قتيبة عتبة بن يقطان، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾، قال: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق في الأرض تغيره، فذلك قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾، فمن سره أن يعود الملح عذاب فليصعده. وكذا قال سعيد بن جبير، وعامر الشعبي: أن كل ماء في الأرض فأصله من السماء. وقال سعيد بن جبير: أصله من الثلج، يعني: أن الثلج يترام على الجبال، فيسكن في قرارها، فتنبع العيون من أسافلها. وقوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾ أي: ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعاً ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾ أي: أشكاله وطعمومه وروائح وروائح وروائح، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: بعد نضارته وشبابه يكتهل ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾، قد خالطه اليبس، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ خُطًّا﴾ أي: ثم يعود يابساً يتحطم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا، تكون خضرة نضرة حسنة، ثم تعود عجوزاً شوهاء، والشباب يعود شيخاً هرمياً كبيراً ضعيفاً قد خالطه اليبس، وبعد ذلك كله الموت. فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير، وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء، وينبت به زرعاً وثماراً، ثم يكون بعد ذلك خطأ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْتَرِبْتُمْ لَهُمْ مِثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَلَّا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَفَ فِيهِ فَاَصْبَحَ سَمَكًا يَذْرُؤُ الْيَنبُوعَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥]. وقوله: ﴿أَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق؟! كقوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَمْ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلٌ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الانعام: ١١٢]؛ ولهذا قال: ﴿قَوْلٌ لِلْقَنِيَّةِ فَلَوْهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: فلا تلين عند ذكره، ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم، ﴿أَوْلَيْكَ فِي صَلَافِ مُيْنِ﴾.

﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَنْقَسِرُ بِهِ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٢﴾﴾.

هذا مذخ من الله - ﷻ - لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ﴾ قال مجاهد: يعني القرآن كله متشابه مثاني. وقال قتادة: الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف. وقال الضحاك: ﴿مَثَانٍ﴾: ترديد القول ليفهموا عن ربهم ﷻ. وقال عكرمة، والحسن: ثنى الله فيه القضاء - زاد الحسن: تكون السورة فيها آية، وفي السورة الأخرى آية تشبهها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿مَثَانٍ﴾: مُرَدَّد، زُودَ موسى في القرآن، وصالح وهود والأنبياء، عليهم السلام، في أمكنة كثيرة. وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿مَثَانٍ﴾: قال: القرآن يشبه بعضه بعضاً، ويُردُّ بعضه على بعض. وقال بعض العلماء: ويُروى عن سفيان بن عيينة معنى قوله: ﴿مُتَشَابِهًا مَثَانٍ﴾: أن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد، فهذا من المتشابه، وتارة تكون بذكر الشيء ووضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفه الجنة ثم صفة النار، وما أشبه هذا، فهذا من المثاني، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَوَّلَ لَئِي نُبَيِّنَ ﴿١٦﴾ وَإِنَّ الْآخِرَ لَئِي نَجْمِجَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنفطار: ١٦، ١٧]، وكقوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُتُورِ لَئِي يَسْجِنَ ﴿٧﴾﴾ [المطففين: ٧]، إلى أن قال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَوَّلِ لَئِي عَلِيَّتِ ﴿٨﴾﴾ [المطففين: ٨]، وهذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَكَابِ ﴿٩﴾﴾ [ص: ٤٩]. إلى أن قال: ﴿هَذَا وَارَكُ لِلطَّائِفِينَ لَئِي مَتَابِ ﴿١٠﴾﴾ [ص: ٥٥]، ونحو هذا من السياقات، فهذا كله من المثاني، أي: في معنيين اثنين، وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضاً، فهو المتشابه وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله: ﴿بِهِ تَنْقَسِرُ بِهِ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: بينا للناس فيه بضرب الأمثال، ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْذَرُونَ﴾ فإن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان، كما قال تعالى: ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ (الروم: ٢٨) أي: تعلمونه من أنفسكم، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ الْأَنْثَالَ نَصَرِيحًا لِلنَّاسِ وَمَا يَقُولُهَا إِلَّا الْقَصِيدُونَ﴾ (المنكوت: ٤٣). وقوله: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِجٍّ﴾ أي: هو قرآن بلسان عربي مبين، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هوييان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله ﷻ كذلك، وأنزله بذلك، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما فيه من الوعد. ثم قال: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَبِّكَ فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَابِهُونَ﴾ أي: يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم، ﴿وَرَبَّكَ سَلَمًا رِجْلٍ﴾ أي: خالصاً لرجل، لا يملكه أحد غيره، ﴿هَلْ سَوَّيْنَا مَثَلًا﴾ أي: لا يستوي هذا وهذا. وكذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذي لا يعبد

إلا الله وحده لا شريك له. فأين هذا من هذا؟ قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص، ولما كان هذا المثل ظاهراً بيناً جلياً، قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على إقامة الحجة عليهم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا بشركون بالله.

وقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣٢): هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق رضي الله عنه عند موت الرسول ﷺ، حتى تحقق الناس موته، مع قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَمُرَّ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (٣٣) [آل عمران: ١٤٤]. ومعنى هذه الآية: ستقلون من هذه الدار لا محالة، وستجتمعون عند الله في الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله ﷻ، فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين. ثم إن هذه الآية - وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين، وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة - فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة. قال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن محمد بن عمرو، عن أبي حاطب - يعني يحيى بن عبد الرحمن - عن ابن الزبير، عن الزبير قال: لما نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (٣٤) قال الزبير: يا رسول الله أكرر علينا الخصومة؟ قال: «نعم». قال: إن الأمر إذا لشديد. وكذا رواه الإمام أحمد عن سفيان، وعنده زيادة: ولما نزلت: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (٣٥) [التكاثر: ٢٨] قال الزبير: أي رسول الله، أي نعيم نسال عنه؟ وإنما - يعني: هما الأسودان: التمر والماء - قال: «أما إن ذلك سيكون». وقد روى هذه الزيادة الترمذي وابن ماجه، من حديث سفيان، به. وقال الترمذي: حسن. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا ابن نمير، حدثنا محمد - يعني ابن عمرو - عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، عن عبد الله بن الزبير، عن الزبير بن العوام قال: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣٢) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣٤) قال الزبير: أي رسول الله، أكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: «نعم»، ليكرر عليكم، حتى يؤدي إلى كل ذي حق حقه. قال الزبير: والله إن الأمر لشديد. ورواه الترمذي من حديث محمد بن عمرو، به وقال: حسن صحيح. وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي عثانة، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أول الخصمين يوم القيامة جاران». تفرد به أحمد. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنه ليخصم، حتى الشاتان فيما انتطحتا» تفرد به أحمد. وفي المسند عن أبي ذر، رضي الله عنه أنه قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين يتطحنان، فقال: «أتدري فيم يتطحنان يا أبا ذر؟» قلت: لا. قال: «لكن الله يدري وسيحكم بينهما». وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا سهل بن بحر، حدثنا حيان بن أغلب، حدثنا أبي، حدثنا ثابت عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بالإمام الخائن يوم القيامة، فتخاصمه الرعية فيفلجون عليه، فيقال له: سد ركناً من أركان جهنم». ثم قال: الأغلب بن تميم ليس بالحافظ. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (٣٤)، يقول: يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهدي الضال، والضعيف المستكبر. وقد روى ابن منده في كتاب «الروح»، عن ابن عباس أنه قال: يختصم الناس يوم القيامة، حتى تختصم الروح مع الجسد، فنقول الروح للجسد: أنت فعلت. ويقول الجسد للروح: أنت أمرت، وأنت سولت. فبيعت الله ملكاً يفصل بينهما، فيقول لهما: إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير وآخر ضرير، دخلا بستاناً، فقال المقعد للضرير: إني أرى هاهنا ثماراً، ولكن لا أصل إليها. فقال له الضرير: اركبني فتناولها، فركبه فتناولها، فأيهما المعتدي؟ فيقولان: كلاهما. فيقول لهما الملك. فإنكما قد حكمتما على أنفسكما. يعني: أن الجسد للروح كالمطية، وهو راكبه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفر بن أحمد بن عؤمجة، حدثنا ضرار، حدثنا أبو سلمة الخزاعي منصور بن سلمة، حدثنا القمي - يعني يعقوب بن عبد الله - عن جعفر بن المغيرة، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية، وما نعلم في أي شيء نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (٣٤) قال: قلنا: من نخاصم؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة فمن نخاصم؟ حتى وقعت الفتنة، فقال ابن عمر: هذا الذي وعدنا ربنا - ﷻ - نختم فيه. ورواه النسائي عن محمد بن عامر، عن منصور بن سلمة، به. وقال أبو العالية في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (٣٤) قال: يعني أهل القبلة. وقال ابن زيد: يعني أهل الإسلام وأهل الكفر. وقد قدمنا أن الصحيح العموم، والله أعلم.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٣٥) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ

أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٦﴾ لَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ يُكْفِّرُ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٨﴾

يقول تعالى مخاطباً للمشركين الذين افتروا على الله، وجعلوا معه آلهة أخرى، وادعوا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولداً - تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً - ومع هذا كذبوا بالحق إذا جاءهم على السنة رسل الله وسلامه عليهم أجمعين، ولهذا قال: ﴿فَنَنْظُرُ أَطَّلَعُ مِنْ كَذَبِ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُ﴾ أي: لا أحد أظلم من هذا؛ لأنه جمع بين طرفي الباطل، كذب على الله، وكذب رسول الله، قالوا الباطل وردوا الحق؛ ولهذا قال متوعداً لهم: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وهم الجاحدون المكذبون. ثم قال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال مجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، وابن زيد: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾: هو الرسول. وقال السدي: هو جبريل عليه السلام، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾: يعني: محمداً ﷺ. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾: قال: من جاء بلا إله إلا الله، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾: يعني: رسول الله ﷺ. وقرأ الربيع بن أنس: «الذين جاؤوا بالصدق» يعني: الأنبياء، «وصدقوا به» يعني: الأنبياء. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾: قال: أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة، فيقولون: هذا ما أعطيتونا، فعلنا فيه بما أمرتمونا. وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين؛ فإن المؤمن يقول الحق ويعمل به، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول في هذه الآية على هذا التفسير، فإنه جاء بالصدق، وصدق المرسلين، وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنين، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾: هو رسول الله ﷺ، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾: المسلمون. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾: قال ابن عباس: اتقوا الشرك. ﴿لَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: يعني: في الجنة، مهما طلبوا وجدوا، ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ يُكْفِّرُ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٨). كما قال في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْمَجَنَّةِ وَفَدَّ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (٣٩) [الأخاف: ١٦].

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّضُكَ بِالَّذِينَ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْفِقَارٍ﴾ (٣٧) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَافِقَتُ صُرُوفَهُ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِي قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَتَّقُوا اللَّهَ عَلَى مَا كَانْتُمْ عَنْهُ عِزْلٌ مُتَقِفُونَ تَقْلُوبُونَ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْمَرٌ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ - وقرأ بعضهم: عباده - يعني أنه تعالى يكفي من عبده وتوكل عليه. وقال ابن أبي حاتم هاهنا: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثنا أبو هانئ، عن أبي علي عمرو بن مالك الجنبني، عن فضالة بن عبيد الأنصاري؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أفلح من هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً، وقَعَ به». ورواه الترمذي والنسائي، من حديث حيوة بن شريح، عن أبي هانئ الخولاني به. وقال الترمذي: صحيح. ﴿وَيُخَوِّضُكَ بِالَّذِينَ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْفِقَارٍ﴾ (٣٧) أي: منيع الجنب لا يضام، من استند إلى جنبه ولجأ إلى بابه، فإنه العزيز الذي لا أعز منه، ولا أشد انتقاماً منه، ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ يعني: أن المشركين كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيره، مما لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَافِقَتُ صُرُوفَهُ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِي﴾ أي: لا تستطيع شيئاً من الأمر. وذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديث قيس بن الحجاج، عن حنش الصنعاني، عن ابن عباس مرفوعاً: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، جفت الصحف، ورفعت الأنفام، واعمل لله بالشكر في اليقين، واعلم أن الصبر على ما تكره خيرٌ كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً». ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: الله كافي، عليه توكلت وعليه يتوكل المتوكلون، كما قال هود، عليه السلام، حين قال له قومه: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْرَابُكَ بِبَعْضِ آلِهَتِنَا يَسُوُّ قَالَ إِنْ شَأْنُ اللَّهِ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٤١) مِنْ دُونِهِ

فَكَذَّبُوهُ جَمِيعًا ثُمَّ لَا شُطْرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنْ تَوَلَّيْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبَّكَ مَا يَنْ دَآئِبَةً إِلَّا هُوَ عَاجِدٌ يَاصْبِيحًا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ - [معدود: ٥٤].
 [٥٦]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عصام الأنصاري، حدثنا عبد الله بن بكر السهمي، حدثنا محمد بن حاتم، عن أبي المقدم - مولى آل عثمان - عن محمد بن كعب القرظي، حدثنا ابن عباس رضي الله عنهما - رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه، ومن أحب أن يكون أكرم الناس، فليقت الله». وقوله: ﴿قُلْ يَتَقَوَّمُ عَمَلُكُمْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على طريقتكم، وهذا تهديد ووعيد. ﴿إِنِّي عَجِلٌ﴾ أي: على طريقتي ومنهجي، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ستعلمون غيب ذلك ووباله ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: في الدنيا، ﴿وَيُؤَلِّمُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّيَمٌ﴾ أي: دائم مستمر، لا محيد له عنه. وذلك يوم القيامة.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ افْتَكَذَ وَلَفْتَسِيءٌ وَلَمْ يَفْعَلْ فَمَنْ سَلَ فَلَمَّا يُعْصَلْ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿٥٦﴾ اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ مِنْ مَوَاطِنَهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَوَاطِنَهَا فَيَمْسِكُ إِلَيْهَا فَمَنْ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَى إِلَيْهَا أَجَلٌ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥٧﴾.

يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني: القرآن ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذهم به، ﴿فَمَنِ افْتَكَذَ وَلَفْتَسِيءٌ﴾ أي: فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه، ﴿وَمَنْ سَلَ فَلَمَّا يُعْصَلْ عَلَيْهَا﴾ أي: إنما يرجع وبال ذلك على نفسه، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: بموكل أن يهتدوا، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [معدود: ٥٧].
 [٥٨]. ﴿فَلَمَّا عَلَيْكَ الْبَلْعُ وَعَلَيْهَا الْحَسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]. ثم قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقَاسَ أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنْفِثُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿وَهُوَ الْغَافِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْعَلُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ [الأنعام: ٦٠].
 [٦١]. ذكر الوفايتين: الصغرى ثم الكبرى. وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى؛ ولهذا قال: ﴿اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ مِنْ مَوَاطِنَهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَوَاطِنَهَا فَيَمْسِكُ إِلَيْهَا فَمَنْ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَى إِلَيْهَا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾، فيه دلالة على أنها تجتمع في الملائكة الأعلى، كما ورد بذلك الحديث المرفوع الذي رواه ابن منده وغيره. وفي صحيح البخاري ومسلم من حديث عبيد الله بن عمر، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليقبضه بداخله إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم ليقل: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين». وقال بعض السلف رحمهم الله: يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف، ﴿يَمْسِكُ إِلَيْهَا فَمَنْ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ التي قد ماتت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى. وقال السدي: إلى بقية أجلها. وقال ابن عباس: يمسك أنفس الأموات، ويرسل أنفس الأحياء، ولا يغلط. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُعَاعًا فَلِأُولَئِكَ كَانُوا لَا يَسْمَكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ الشَّفَعَةُ وَالْأَرْضِينَ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَنْبِشُونَ﴾ ﴿٦٤﴾.

يقول تعالى ذاماً للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد، التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حدها على ذلك، وهي لا تملك شيئاً من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالاً من الحيوان بكثير. ثم قال: قل: أي يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عن الله إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلها إليه، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمْ الشَّفَعَةُ وَالْأَرْضِينَ﴾ أي: هو المتصرف في جميع ذلك، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجزي كلا بعمله. ثم قال تعالى ذاماً للمشركين أيضاً: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي: إذا قيل: لا إله إلا الله ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ قال مجاهد: ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ انقبضت. وقال السدي: نفرت. وقال قتادة: كفرت واستكبرت. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: استكبرت. كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ [الصافات: ٢٣٥].
 [٢٣٥]. أي: عن المتابعة والانقياد لها فقلوبهم لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، قاله مجاهد، ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَنْبِشُونَ﴾ أي: يفرحون ويسرون.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

يقول تعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر، من المذمة لهم في حبهم الشرك، ونفرتهم عن التوحيد، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: ادع أنت الله وحده لا شريك له، الذي خلق السموات والأرض وفطرها، أي: جعلها على غير مثال سبق، ﴿عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: السر والعلاية، ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: في دنياهم، ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم، وقيامهم من قبورهم. وقال مسلم في صحيحه: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا يحيى بن أبي كثير، حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة رضي الله عنها: بأي شيء كان رسول الله ﷺ يفتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم، رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم». وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، وأخبرنا سهيل بن أبي صالح وعبد الله ابن عثمان بن خثيم، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك في هذه الدنيا أنني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير، وإني لا أائق إلا برحمتك، فأجعل لي عندك عهداً تُوفِّقني يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد، إلا قال الله ﷻ، لملائكته يوم القيامة: إن عبيدي قد عهد إلي عهداً فأوفوه إياه، فيدخله الله الجنة». قال سهيل: فأخبرت القاسم بن عبد الرحمن أن عوناً أخبر بكذا وكذا؟ فقال: ما في أهلنا جارية إلا وهي تقول هذا في خدرها. انفرد به الإمام أحمد.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثني حُيَ بن عبد الله، أن أبا عبد الرحمن حدثه قال: أخرج لنا عبد الله بن عمرو قرطاساً وقال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا يقول: «اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت رب كل شيء، وإله كل شيء، أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، والملائكة يشهدون، أعوذ بك من الشيطان وشركه، وأعوذ بك أن أقترف على نفسي إثماً، أو أجره إلى مسلم». قال أبو عبد الرحمن: كان رسول الله ﷺ يعلمه عبد الله بن عمرو أن يقول ذلك حين يريد أن ينام. تفرد به أحمد أيضاً. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا ابن عياش، عن محمد بن زياد الألهاني، عن أبي راشد الخُبْراني قال: أتيت عبد الله بن عمرو فقلت له: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ. فألقى بين يدي صحيفة فقال: هذا ما كتب لي رسول الله ﷺ، فظفرت فيها فإذا فيها أن أبا بكر الصديق قال: يا رسول الله، علمني، ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت. فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، لا إله إلا أنت، رب كل شيء ومليكه، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه، أو أقترف على نفسي سوءاً، أو أجره إلى مسلم». ورواه الترمذي، عن الحسن بن عرفة، عن إسماعيل بن عياش، به، وقال: حسن غريب من هذا الوجه. وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا شيبان، عن ليث، عن مجاهد قال: قال أبو بكر الصديق: أمرني رسول الله ﷺ أن أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعي من الليل: «اللهم فاطر السموات والأرض» إلى آخره.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أي: ولو أن جميع ملك الأرض وضعفه معه، ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ﴾ أي: الذي أوجبه الله لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يُثْقِلُ منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهباً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم، ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: وظهر لهم جزءا ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمأثم، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا.

﴿فَلَمَّا سَسَّ الْأَيُّنَ مُرُّ دَعَائِهِمْ إِذَا حَوْلَهُمْ نِعْمَةٌ مِمَّا قَالُوا إِنَّمَا أُوتِيتُهُمْ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ فَذَاقُوا الْعَذَابَ بِمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَاصْبِرْ لَهُمْ سَيِّئَاتِ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا لَهُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان أنه في حال الضراء يَضْرَع إلى الله، ﷻ، وينيب إليه ويدعوه، وإذا خوله منه نعمة بغى وطغى، وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ أَيْ: لما يعلم الله من استحقاقه له، ولولا أنني عند الله تعالى خصيصة لما حَوَّلَنِي هذا! وقال قتادة: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عَيْنِي﴾ [الفصم: ٢٧٨]: على خير عندي. قال الله ﷻ: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ أَيْ: ليس الأمر كما زعموا، بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصى؟ مع علمنا المتقدم بذلك، فهي فتنة أَيْ: اختبار، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فلهذا يقولون ما يقولون، ويدعون ما يدعون. ﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أَيْ: قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى، كثير ممن سلف من الأمم، ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أَيْ: فما صح قولهم ولا منعهم جمعهم وما كانوا يكسبون، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَٰؤُلَاءِ﴾ أَيْ: من المخاطبين ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أَيْ: كما أصاب أولئك، ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ كما قال تعالى مخبراً عن قارون أنه قال له قومه: ﴿لَا تَفْجِإْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَيْنِي أُولَٰئِكَ بِمَلَكٍ مِّن قَبْلِهِ. مِنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِ. هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَكَثُرَ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) [الفصم: ٧٦-٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعْصِيِينَ﴾ (١٢٩) [سبا: ٣٥]. وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أَيْ: يوسعه على قوم ويضيقه على آخرين، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: لغيرنا وحجباً.

﴿قُلْ يٰٓيَبَادِيَ الدِّينِ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٣) وَأَيُّهَا مَنِ رَزَقَكُمْ وَأَسْلَمُوا لَمْ يَنْبَغِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُشْكِرُونَ (٥٤) وَأَيُّهَا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَحْنُ بِمُحْسِنِينَ عَلَىٰ مَا قَرَأْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُمْ لِمِنَ الشَّاكِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ بَيْنَ يَدَيْ الْعَذَابِ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَكَ مَا يَنبَغِي فَكُذِّبَتْ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩).

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر. ولا يصح حمل هذه الآية على غير توبة؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه. وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام بن يوسف؛ أن ابن جريج أخبرهم: قال يعلى: إن سعيد بن جبير أخبره عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا. فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي نقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة. فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ إِلَهُهَا مَا خَرَّ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ونزل قوله: ﴿قُلْ يٰٓيَبَادِيَ الدِّينِ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾. وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي، ومن حديث ابن جريج، عن يعلى بن مسلم المكي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، به. والمراد من الآية الأولى قوله: ﴿إِلَّا مَن قَاتَلَ وَفَاتَهُ وَجَيْلٌ عَمَلًا صَالِحًا﴾ الآية [الفرقان: ٧٠]. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو قبيل قال: سمعت أبا عبد الرحمن المري يقول: سمعت ثوبان -مولى رسول الله ﷺ- يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية: ﴿يٰٓيَبَادِيَ الدِّينِ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ إلى آخر الآية، فقال رجل: يا رسول الله، فمن أشرك؟ فسكت النبي ﷺ، ثم قال: «ألا ومن أشرك» ثلاث مرات. تفرد به الإمام أحمد.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا روح بن قيس، عن أشعث بن جابر الحداني، عن مكحول، عن عمرو بن عبسة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، شيخ كبير يدعى على عصا له، فقال: يا رسول الله إن لي غدرات وفجرات، فهل يغفر لي؟ فقال: «ألمست تشهد أن لا إله إلا الله؟» قال: بلى، وأشهد أنك رسول الله. فقال: «قد غفر لك غدراتك وفجراتك». تفرد به أحمد. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ قَبْرٌ صَالِحٌ﴾ [هود: ٤٦]، وسمعتة يقول: ﴿يٰٓيَبَادِيَ الدِّينِ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ولا يسألني ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. ورواه أبو داود والترمذي، من حديث ثابت، به. فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد: أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة، ولا يقطن عبد من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه وكثرت؛ فإن باب التوبة والرحمة واسع، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَمْلِكْ مَوَدَّةَ أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (١١٥) [النساء: ١١٠]،

وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ٥٣﴾ [النساء: ١٤٥]، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ تَلَفَعُوا وَمَا مِنْ آتٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَكُمُ الْعَذَابُ الَّذِي كُفِّرُوا عَنْهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٥٤﴾ [المائدة: ٧٣]، ثم قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُوا وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٥٥﴾ [المائدة: ٧٤]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ وَالْكُوفَةِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠]. قال الحسن البصري: انظر إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أوليائه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة! والآيات في هذا كثيرة جداً. وفي الصحيحين عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ، حديث الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً، ثم ندم وسأل عابداً من عباد بني إسرائيل: هل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله وأكمل به مائة. ثم سأل عالماً من علمائهم: هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها، فقصدها فاتاه الموت في أثناء الطريق، فاخصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله أن يقيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيهما كان أقرب فهو منها. فوجده أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشير، فقبضته ملائكة الرحمة. وذكر أنه نأى بصدره عند الموت، وأن الله أمر البلدة الخيرة أن تقترب، وأمر تلك البلدة أن تتباعد. هذا معنى الحديث، وقد كتبهنا في موضع آخر بلفظه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، في قوله: ﴿قُلْ يَكِيدُ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ إلى آخر الآية، قال: قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيزاً ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُوا وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٥٦﴾ [المائدة: ٧٤] ثم دعا توبته من هو أعظم قولاً من هؤلاء، من قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ أَكْثَرُ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٣٨]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب الله عليه. وروى الطبراني من طريق الشعبي، عن شتير بن شكل أنه قال: سمعت ابن مسعود يقول: إن أعظم آية في كتاب الله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإن أجمع آية في القرآن بخير وشر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وإن أكثر آية في القرآن فرجاً في سورة الغفر: ﴿قُلْ يَكِيدُ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾، وإن أشد آية في كتاب الله تصرفاً: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ٥٧﴾ [وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ] [الطلاق: ٣، ٢]. فقال له مسروق: صدقت. وقال الأعمش، عن أبي سعيد، عن أبي الكنود قال: مر عبد الله - يعني ابن مسعود - على قاص، وهو يذكر الناس، فقال: يا مذكر، لم تقنط الناس؟ ثم قرأ: ﴿قُلْ يَكِيدُ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾. رواه ابن أبي حاتم.

ذكر أحاديث فيها نفي القنوط: قال الإمام أحمد: حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا أبو عبيدة عبد المؤمن بن عبيد الله، حدثني أخشن السدوسي قال: دخلت على أنس بن مالك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده، لو أخطأتم حتى تملاً خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتكم الله لغفر لكم، والذي نفس محمد بيده، لو لم تخطئوا لجاء الله بقوم يخطئون، ثم يستغفرون الله فيغفر لهم». تفرد به الإمام أحمد. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثني ليث، حدثني محمد بن قيس - قاص عمر بن عبد العزيز - عن أبي صرمة، عن أبي أيوب الأنصاري، رضي الله عنه، أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت منكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ، يقول: «لولا أنكم تذبنون، لخلق الله قوماً يذبنون فيغفر لهم». هكذا رواه الإمام أحمد، وأخرجه مسلم في صحيحه، والترمذي جميعاً، عن قتيبة، عن الليث بن سعد، به. رواه مسلم من وجه آخر به، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي صرمة - وهو الأنصاري صحابي - عن أبي أيوب، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك الحراني، حدثنا يحيى بن عمرو بن مالك الثكوري قال: سمعت أبي يحدث عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «كفارة الذنب الندامة» وقال رسول الله ﷺ: «لولا أنكم تذبنون لجاء الله بقوم يذبنون، فيغفر لهم» تفرد به أحمد. وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثني عبد الأعلى بن حماد الثريسي، حدثنا داود بن عبد الرحمن، حدثنا أبو عبد الله مسلمة الرازي، عن أبي عمرو البجلي، عن عبد الملك بن سفيان الثقفي، عن أبي جعفر محمد بن علي، عن محمد بن الحنفية، عن أبيه، علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب العبد المفتن التواب». لم يخرجوه من هذا الوجه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أخبرنا ثابت وحמיד، عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: إن إبليس - عليه لعائن الله - قال: يا رب، إنك أخرجتني من الجنة من أجل آدم، وإنني لا أستطيعه إلا بسلطانك. قال: فأنت مسلط. قال: يا رب، زدني. قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك مثله. قال: يا رب، زدني. قال: أجعل صدورهم مساكن لكم، وتجرون منهم مجرى الدم. قال: يا رب، زدني. قال: أجلب

عليهم بخيلك ورجلك، وشاركهم في الأموال والأولاد، وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً. فقال آدم عليه السلام: يا رب، قد سلطته علي، وإنني لا أمتنع منه إلا بك. قال: لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من قرأه سوء. قال: يا رب، زدني، قال: الحسنه عشر أو أزيد، والسيئه واحدة أو أمحوها. قال: يا رب، زدني. قال: يا رب، باب التوبة مفتوحة ما كان الروح في الجسد. قال: يا رب، زدني، قال: ﴿يَتَّبِعُوا الَّذِينَ أَتَوْا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: قال نافع: عن عبد الله بن عمير، عن عمر، رضي الله عنه، في حديثه قال: وكنا نقول ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة، عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم. قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم. قال: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أنزل الله فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: ﴿يَتَّبِعُوا الَّذِينَ أَتَوْا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَتَّبِعُوا لَكُمْ رَيْبَكُمْ وَأَسْلِمُوا لَكُمْ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ﴾ (٩٤) وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ يَنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٩٥). قال عمر، رضي الله عنه: فكتبته بيدي في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاص قال: فقال هشام: لما أتتني جعلت أقرأها بذي طوى أضعد بها فيه وأصوت ولا أفهمها، حتى قلت: اللهم أفهمنيها. قال: فالقى الله في قلبي أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا، ويقال فينا. قال: فرجعت إلى بعيري فجلست عليه، فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة. ثم استحثت سبحانه وتعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة، فقال: ﴿وَأَتَّبِعُوا لَكُمْ رَيْبَكُمْ وَأَسْلِمُوا لَكُمْ﴾ أي: ارجعوا إلى الله واستسلموا له، ﴿يَنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ﴾ أي: بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النعمة، ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ﴾، وهو القرآن العظيم، ﴿يَنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث لا تعلمون ولا تشعرون. ثم قال: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِهَئِذَا عَلَيَّ مَا قَرَأْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ أي: يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل.

وقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ (٩٦) أي: إنما كان عملي في الدنيا عمل سائر مستهزئ غير موقن مصدق. ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٩٧) أو تقول حين ترى العذاب لو أنك لي كرهه فأكون من المؤمنين (٩٨) أي: تود أن لو أعيدت إلى الدار فتحسن العمل. قال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس: أخبر الله سبحانه، ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه. وقال: ﴿وَلَا يَنْتَفِكُ عَنْ يَدَيْهِ خَيْرٌ﴾ [فاطر: ١٤]، ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِهَئِذَا عَلَيَّ مَا قَرَأْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ (٩٩) أو تقول لو أنك الله هدايتي لكانت من المؤمنين (١٠٠) أو تقول حين ترى العذاب لو أنك لي كرهه فأكون من المؤمنين (١٠١) فأخبر الله تعالى: أن لو زدوا لما قدروا على الهدى، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لَإِنَّمَا هُمْ عَنْهُ لَكَذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني؟ فتكون عليه حسرة». قال: «وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لو أن الله هداني؟! قال: «فيكون له الشكر». ورواه النسائي من حديث أبي بكر بن عياش، به. ولما تمنى أهل الجرائم العود إلى الدنيا، وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَكَ ءَايَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٠٢) أي: قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتي في الدار الدنيا، وقامت حججي عليك، فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها، وكنت من الكافرين بها، الجاحدين لها. ﴿وَيَوْمَ الْفِتْنَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلْيَسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (١٠٣) وَيَسَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَقَازِنِهِمْ لَا يَنْسَهُمُ اللَّهُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٠٤).

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه، وتبيض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قال تعالى هاهنا: ﴿وَيَوْمَ الْفِتْنَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: في دعواهم له شريكاً ولولداً ﴿وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ أي: بكذبهم وافتراءهم. وقوله: ﴿أَلْيَسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: ليست جهنم كافية لها سجنًا وموتلاً، لهم فيها دار الخزي والهوان، بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبانهم عن الانقياد للحق. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثنا عيسى بن أبي عيسى الخياط، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر في صور الناس، يعلمهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا سجنًا من النار في واد يقال له بولس، من نار الأنبار، ويسقون عصارة أهل النار، من طينة الخبال» وقوله: ﴿وَيَسَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَقَازِنِهِمْ﴾ أي:

مما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله، ﴿لَا يَسْتَهُمُ الْشَوْهَ﴾ أي: يوم القيامة: ﴿وَلَا هُمْ يَخْزَنُونَ﴾ أي: ولا يحزنهم الفوز الأكبر، بل هم آمنون من كل فزع، مزحزون عن كل شر، مؤمنون كل خير.

﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (٦٢) ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٦٣) ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (٦٤) ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَ لِيَحْبَطَ عَنْكَ لِتَكُونَ مِنَ الْغَافِرِينَ﴾ (٦٥) ﴿بَلِ اللَّهُ قَائِمٌ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٦٦).

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها، وربها ومليكتها والمتصرف فيها، وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته. وقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، قال مجاهد: المقاليد هي: المفاتيح بالفارسية. وكذا قال قتادة، وابن زيد، وسفيان بن عيينة. وقال السدي: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خزائن السموات والأرض. والمعنى على كلا القولين: أن أزمته الأمور بيده، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: حججه وبراهينه، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. وقد روى ابن أبي حاتم هاتنا حديثاً غريباً جداً - وفي صحته نظر - ولكن نذكره كما ذكره، فإنه قال: حدثنا يزيد بن سنان البصري بمصر، حدثنا يحيى بن حماد، حدثنا الأغلب بن تميم، عن مَخْلَد بن هذيل العبدى، عن عبد الرحمن المدني، عن عبد الله بن عمر، عن عثمان بن عفان، رضي الله عنه، أنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فقال: «ما سألتني عنها أحد قبلك يا عثمان»، قال: «تفسيرها: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، أستغفر الله، ولا قوة إلا بالله، الأول والآخر، والظاهر والباطن، بيده الخير، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير، من قالها يا عثمان إذا أصبح عشر مرار أعطي خصلاً ستاً: أما أولاهن: فيحرس من إبليس وجنوده، وأما الثانية: فيعطي قطاراً من الأجر، وأما الثالثة: تفرغه لدرجة في الجنة، وأما الرابعة: فيزوج من الحور العين، وأما الخامسة: فيحضره اثنا عشر ملكاً، وأما السادسة: فيعطي من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزيور. وله مع هذا يا عثمان من الأجر كمن حج وتقبلت حجته، واعتمر فتقبلت عمرته، فإن مات من يومه طبع بطابع الشهداء». ورواه أبو يعلى الموصلي من حديث يحيى بن حماد، به مثله. وهو غريب، وفيه نكارة شديدة، والله أعلم. وقوله: ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (٦٤): ذكروا في سبب نزولها ما رواه ابن أبي حاتم وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن المشركين بهجلمهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهم، ويعبدوا معه إليه، فنزلت: ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (٦٤) ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَ لِيَحْبَطَ عَنْكَ لِتَكُونَ مِنَ الْغَافِرِينَ﴾ (٦٥). وهذه كقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبَطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]. وقوله: ﴿بَلِ اللَّهُ قَائِمٌ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٦٦) أي: أخلص العبادة لله وحده، لا شريك له، أنت ومن معك، أنت ومن اتبعك وصدقك.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتَتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَمَعْلَىٰ يَتْرَكُونَ﴾ (٦٧). يقول تعالى: وما قدر المشركون الله حق قدره، حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته. قال مجاهد: نزلت في قريش. وقال السدي: ما عظموه حق عظمتهم. وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله تعالى عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره. وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف. قال البخاري: قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، حدثنا آدم، حدثنا شيبان، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: جاء حير من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد: إنا نجد أن الله ﷻ يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء، والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع. فيقول: أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ الآية. وقد رواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع من صحيحه، والإمام أحمد، ومسلم، والترمذي والنسائي في التفسير من سننهما، كلهم من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم عن عبيدة، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، بنحوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم عن علقمة، عن عبد الله، رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم، أبلغك أن الله تعالى يحمل الخلائق على إصبع، والسموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع؟ قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه. قال: وأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

إلى آخر الآية. وهكذا رواه البخاري، ومسلم، والنسائي - من طرق - عن الأعمش، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن حسن الأشقر، حدثنا أبو كدينة، عن عطاء، عن أبي الضحى، عن ابن عباس قال: مر يهودي برسول الله ﷺ وهو جالس فقال: كيف تقول يا أبا القاسم: يوم يجعل الله السماء على ذه - وأشار بالسبابة - والأرض على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه - كل ذلك يشير بإصبعه - قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية. وكذا رواه الترمذي في التفسير عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن محمد بن الصلت أبي جعفر، عن أبي كدينة يحيى بن المهلب، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضحى مسلم بن صبيح، به، وقال: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. ثم قال البخاري: حدثنا سعيد بن غفير، حدثنا الليث، حدثني عبد الرحمن بن خالد بن مسافر، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن: أنا أبا هريرة، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض، ويطوى السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض». تفرد به من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجه آخر. وقال البخاري - في موضع آخر - : حدثنا مقدّم بن محمد، حدثنا عمي القاسم بن يحيى، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع، وتكون السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك». تفرد به أيضاً من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجه آخر.

وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ آخر أبسط من هذا السياق وأطول، فقال: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن عبيد الله بن مقسم، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ حَيْثُ قَبَضْتُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده، يحركها يقبل بها ويدبر: «بمجد الرب نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أن العزيز، أنا الكريم». فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: ليخبرن به. وقد رواه مسلم، والنسائي، وابن ماجه من حديث عبد العزيز بن أبي حازم - زاد مسلم: ويعقوب بن عبد الرحمن، كلاهما عن أبي حازم، عن عبيد الله بن مقسم، عن ابن عمر، به، نحوه. ولفظ مسلم - عن عبيد الله بن مقسم في هذا الحديث: أنه نظر إلى عبد الله بن عمر كيف يحكي النبي ﷺ، قال: يأخذ الله سمواته وأرضيه بيده ويقول: أنا الملك، ويقبض أصابعه ويبسطها: أنا الملك، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه، حتى إنني لأقول: أساقط هو برسول الله ﷺ وقال الزوار: حدثنا سليمان بن سيف، حدثنا أبو علي الحنفي، حدثنا عباد المُنْقَرِي، حدثني محمد بن المتكدر قال: حدثنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ حتى بلغ: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فقال المنبر هكذا، فجاء وذهب ثلاث مرات. ورواه الإمام الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث عبيد بن عمير، عن عبد الله بن عمرو، وقال: صحيح.

وقال الطبراني في المعجم الكبير: حدثنا عبد الرحمن بن معاوية الغُثَي، حدثنا حيان بن نافع بن صخر بن جويرية، حدثنا سعيد بن سالم القداح، عن معمر بن الحسن، عن بكر بن خنيس، عن أبي شيبه، عن عبد الملك بن عمير، عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ لنفر من أصحابه: «إني قارىء عليكم آيات من آخر سورة الزمر، فمن بكى منكم وجبت له الجنة؟» فقرأها من عند قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، إلى آخر السورة، فمنا من بكى، ومنا من لم يبك، فقال الذين لم يبكوا: يا رسول الله، لقد جهدنا أن نبكي، فلم نبك؟ فقال: «إني سأقرأها عليكم، فمن لم يبك فليتبك». هذا حديث غريب جداً. وأغرب منه ما رواه في المعجم الكبير أيضاً: حدثنا هاشم بن مُرْثَد، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثني أبي، حدثني ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: ثلاث خلال غَيَّبَهُنَّ عن عبادي، لو رآهن رجل ما عمل سوءاً أبداً: لو كشفت غطائي فرآني حتى يستيقن ويعلم كيف أفعل بخلقي إذا أتيتهم، وقبضت السموات بيدي، ثم قبضت الأرض والأرضين، ثم قلت: أنا الملك، من ذا الذي له الملك دوني؟ ثم أريتهم الجنة وما أعددت لهم فيها من كل خير، فيستيقنوها. وأريتهم النار وما أعددت لهم فيها من كل شر فيستيقنوها، ولكن عمداً غيبت ذلك عنهم لأعلم كيف يعملون، وقد بينته لهم». وهذا إسناد متقارب، وهي نسخة تروى بها أحاديث جمعة، والله أعلم.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصُوعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ لَحْنًا فَإِذَا هُمْ بِنَجْمٍ يُظْهِرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأُثْرَقَتِ الْأَرْضُ بُورًا رِيًّا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالسَّاعَةِ وَالشُّهَدَاءُ وَفُصِّلَ بَيْنَهُمْ أَلْحَقَ بِهِمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾. يقول تعالى مخبراً عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة، فقلوه: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصُوعِقَ مَنْ

فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، هذه النفخة هي الثانية، وهي نفخة الصعق، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض، إلا من شاء الله كما هو مصرح به مفسراً في حديث الصور المشهور. ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً، وهو الباقي آخر بالديمومة والبقاء، ويقول: ﴿لَيْسَ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] ثلاث مرات. ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ الْكَوْبُ الْكَهَّارُ﴾ أي: الذي هو واحد وقد قهر كل شيء، وحكم بالفناء على كل شيء. ثم يحيى أول من يحيى إسماعيل، ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى، وهي النفخة الثالثة نفخة البعث، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَفْخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِيَّامٍ يَنْظُرُونَ﴾ أي: أحياء بعد ما كانوا عظاماً ورفاتاً، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿لَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِمْ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْتَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِيهِمْ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِئِهِمْ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَشْرَقَتُّ فَتُحَرِّقُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الروم: ٧٥]. قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم قال: سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود قال: سمعت رجلاً قال لعبد الله بن عمرو: إنك تقول: الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ قال: لقد هممت ألا أحدثكم شيئاً، إنما قلت: سترون بعد قليل أمراً عظيماً. ثم قال عبد الله بن عمرو: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي، فيمكث فيهم أربعين - لا أدري أربعين يوماً أو أربعين عاماً أو أربعين شهراً أو أربعين ليلة - فيبعث الله عيسى ابن مريم، كأنه عروة بن مسعود الثقفي، فيظهر فيهلكه الله. ثم يلبث الناس بعده سنين سبعاً ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً بارداً من قبل الشام، فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدهم كان في كبد جبل لدخلت عليه». قال: سمعتها من رسول الله ﷺ: «ويبقى شرار الناس في خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً». قال: «فينمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيأمرهم بالأوثان فيعبدها، وهم في ذلك دارة أرزاقهم، حسن عيشهم. ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى له، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه، فيصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صعق. ثم يرسل الله - أو: ينزل الله مطراً كأنه الطل - أو الظل، شك نعمان - فتنبت منه أجساد الناس. ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يا أيها الناس، هلموا إلى ربكم: ﴿وَقَفُّواْ لَهُمْ مَّسْئُورُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، قال: «ثم يقال: أخرجوا بعث النار». قال: «فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين. فيومئذ تبعث الولدان شبياً، ويومئذ يكشف عن ساق». انفرد بإخراجه مسلم في صحيحه. وقال البخاري: حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش قال: سمعت أبا صالح قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «بين التفختين أربعون». قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: آبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: آبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: آبيت، ويلى كل شيء من الإنسان إلا عَجَبُ ذنبه، فيه يركب الخلق. وقال أبو يعلى: حدثنا يحيى بن معين، حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عمر بن محمد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «سألت جبريل، عليه السلام، عن هذه الآية: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصُيِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾: من الذين لم يشأ الله أن يصعقهم؟ قال: هم الشهداء، مقلدون أسيافهم حول عرشه، تتلقاهم ملائكة يوم القيامة إلى المحشر بنجائب من ياقوت نمارها ألين من الحرير، مد خطاها مد أبصار الرجال، يسرون في الجنة يقولون عند طول النزهة: انطلقوا بنا إلى ربنا، ﷻ، ننظر كيف يقضي بين خلقه، يضحك إليهم الهي، وإذا ضحك إلى عبد في موطن فلا حساب عليه. رجاله كلهم ثقات إلا شيخ إسماعيل بن عياش، فإنه غير معروف، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بَشْرًا رَبَّهَا﴾ أي: أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق، تبارك وتعالى، للخلائق لفصل القضاء، ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ قال قتادة: كتاب الأعمال، ﴿وَوُجِّعَ بِاللَّيْتَيْنِ﴾ قال ابن عباس: يشهدون على الأمم بأنهم بلغوه رسالات الله إليهم، ﴿وَأَشْهَدَاهُ﴾ أي: الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر، ﴿وَقُضِيَ إِلَيْهِمْ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، ﴿وَمَنْ لَا يَظْلَمُونَ﴾. قال الله تعالى: ﴿وَنُضِعَ الْمَوْزِنُ الْقِسْطُ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تَظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَنْ كُنَّ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنَّ بِهَا حَكِيمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَنْ تَكُ حَسَنَةً يُعْتَدِيهَا وَيُؤْتَى مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، ولهذا قال: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: من خير أو شر، ﴿وَمَنْ أَعْلَمَ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ فِئًا ۖ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا نَسُوا

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار؟ وإنما يساقون سوقاً عنيفاً بجزر وتهديد ووعد، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [الطور: ١٣] أي: يدفعون إليها دفعاً. هذا وهم عطاش ظمأ، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَ يُحْشَرُ الْمُتَّقِينَ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [٨٥] وَتُسَوِّقُ الْمُتَّقِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَفْدًا [٨٦]. [مريم: ٨٥، ٨٦]. وهم في تلك الحال ضُمُّ وبكم وعمي، منهم من يمشي على وجهه، ﴿وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَذَابٌ وَبُكَاءٌ وَصُفَاءٌ فَأُولَٰئِكَ جَهَنَّمَ كَلِمَاتُ خَبْرٍ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. وقوله: ﴿حَقٌّ لِّذَا جَاءَهُمْ فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي: بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعاً، لتعجل لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية - الذين هم غلاظ الأخلاق، شداد القوى، على وجه التقرع والتوبيخ والتنكيل: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ أي: من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم وال أخذ عنهم، ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ أي: يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه، ﴿وَيُنذِرُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: ويحذرونكم من شر هذا اليوم؟ فيقول الكفار لهم: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: قد جاؤونا وأنذرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين، ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ لِكُمُ الْعَذَابُ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ﴾ أي: ولكن كذبناهم وخالفناهم، لما سبق إلينا من الشقوة التي كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل، كما قال تعالى مخبراً عنهم في الآية الأخرى: ﴿كَلِمَاتُ أُولَٰئِكَ فِيهَا فَجْرٌ سَلَّمَ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [٨٨] قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَشَرْتَ إِلَّا فِي سَكْنٍ كَبِيرٍ [٨٩] وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ [٩٠] [الملك: ٨-١٠] أي: رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة ﴿هَٰذَا نَزَّلَ بِمِثْلِهِ﴾ [الملك: ١١] أي: بعداً لهم وخساراً.

وقوله هاهنا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب؛ ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم مستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به؛ ولهذا قال جل وعلا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها لا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها ﴿فَيَسَّرَ مَوْتَهُ الْمُنَكَّرِينَ﴾ أي: فبسبب المكسر وبسبب تكبركم في الدنيا، وإيائكم عن اتباع الحق، فهو الذي صيركم إلى ما أنتم فيه، فبسبب الحال وبسبب المال.

﴿وَسَيَقُولُ الَّذِينَ أَتَوْا رُسُلَهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُرُّوا حَقٌّ لِّذَا جَاءَهُمْ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لُبِثْتُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّازِلَةٍ فَلَا تَصُدُّكُمْ عَنْ جَهَنَّمَ فَمَا تَصُدُّكُمْ عَنْهَا﴾ [٧٣] وَقَالُوا لَٰكِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ أَلْفَنِي﴾ [٧٤] [٧٣] وَقَالُوا لَٰكِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ أَلْفَنِي﴾ [٧٤]

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفداً إلى الجنة ﴿زُرُّوا﴾ أي: جماعة بعد جماعة: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف، كل زمرة تناسب بعضها بعضاً. ﴿حَقٌّ لِّذَا جَاءَهُمْ﴾ أي: وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط، حبسوا على قطرة بين الجنة والنار، فاقصص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا مُدْبِرُوا وَتَقَوُّوا أَذُنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، وقد ورد في حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم بالدخول، فيقصدون آدم، ثم نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمداً، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما فعلوا في العرصات عند استشفاعهم إلى الله، ﷻ، أن يأتي لفصل القضاء، ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر في المواطن كلها. وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول شفيع في الجنة» وفي لفظ لمسلم: «وأنا أول من يقرع باب الجنة». وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا سليمان، عن ثابت، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. قال: يقول: بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك». ورواه مسلم عن عمرو الناقد وزهير بن حرب، كلاهما عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن سليمان - وهو ابن المغيرة القيسي - عن ثابت، عن أنس، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن همام بن منبه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، ولا يبصقون فيها، ولا يمتخطون فيها، ولا يتغوطون فيها. آتيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجارهم الألوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقهما من رءاء اللحم، من الحسن. لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشياً». رواه البخاري عن محمد بن مقاتل، عن ابن المبارك. ورواه مسلم عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، كلاهما عن معمر بإسناده نحوه. وكذا رواه أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زُرْعَةَ، عن أبي هريرة رضي الله عنه

قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زُمرَةٍ يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دُري في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعاً في السماء». وأخرجاه أيضاً من حديث جرير. وقال الزهري، عن سعيد، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الجنة من أمتي زُمرَةٌ، هم سبعون ألفاً، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر». فقام عُكَّاشَةُ بن مِخْصَن فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: «اللهم اجعله منهم». ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: «اللهم اجعله منهم». ثم قام رجل من السبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب - البخاري ومسلم، عن ابن عباس، وجابر بن عبد الله، وعمران بن حصين، وابن مسعود، ورفاعة بن عرابة الجهني، وأم قيس بنت محصن. ولهما عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: «ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً - أو: سبعمئة ألف - آخذ بعضهم ببعض، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر». وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن محمد بن زياد قال: سمعت أبا أمامة الباهلي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: وعدني ربي ﷻ، أن يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً، مع كل ألف سبعون ألفاً، ولا حساب عليهم ولا عذاب، وثلاث حَيَّاتٍ من حَيَّاتِ ربي ﷻ. وكذا رواه الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو، عن سليم بن عامر، وأبي اليمان عامر ابن عبد الله بن لُحَي عن أبي أمامة رضي الله عنه. ورواه الطبراني، عن عتبة بن عبد السلمي: «ثم يشفع كل ألف في سبعين ألفاً» وروى مثله عن ثوبان، وأبي سعيد الأنباري. وله شواهد من وجوه كثيرة.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ يُنْشَرُ فَادَّخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾: لم يذكر الجواب هاهنا، وتقديره: حتى إذا جاؤوها، وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراماً وتعظيماً، وتلقته الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء، لا كما تلقى الزبانية الكفرة بالثريب والتأنيب، فتقديره: إذا كان هذا سَعِدُوا وطابوا، وسُرُّوا وفرحوا، بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم. وإذا حذف الجواب هاهنا ذهب الدهن كل مذهب في الرجاء والأمل. ومن زعم أن الواو في قوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ واو الثمانية، واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية، فقد أبعد التَّجَعُّة، وأغرق في التَّزَعُّع. وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله، دعي من أبواب الجنة، وللجنة أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان» فقال أبو بكر، رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله، ما على أحد من ضرورة دُعي، من أيها دعي، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: «نعم»، وأرجو أن تكون منهم». ورواه البخاري ومسلم، من حديث الزهري، بنحوه. وفيهما من حديث أبي حازم سلمة بن دينار، عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة ثمانية أبواب، باب منها يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون». وفي صحيح مسلم، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو: فيسبغ الوضوء - ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء». وقال الحسن بن عرفة: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حُسَيْن، عن شُهْر بن خُوْشَب، عن معاذ، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مفتاح الجنة: لا إله إلا الله».

ذكر سعة أبواب الجنة - نسأل الله العظيم من فضله أن يجعلنا من أهلها: في الصحيحين من حديث أبي زُرْعَةَ، عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل: «فيقول الله: يا محمد، أدخل من لا حساب عليه من أمتك من الباب الأيمن، وهم شركاء الناس في الأبواب الأخر. والذي نفس محمد بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة - ما بين عضادتي الباب - لكما بين مكة وهجر - أو: هجر ومكة». وفي رواية: «مكة وبصرى». وفي صحيح مسلم، عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال فيها: «ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة، مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام». وفي المسند عن حكيم بن معاوية، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ، مثله. وقال عبد بن حميد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دُرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «إن ما بين مصراعين في الجنة مسيرة أربعين سنة».

وقوله: ﴿وَقَالَ لَمَتَّ خَزَنَتَهَا سَلِّمْ عَلَيْكُمْ يٰبَنِيَّ﴾ أي: طابت أعمالكم وأقوالهم، وطاب سعيكم فطاب جزاؤكم، كما أمر رسول الله ﷺ أن يتنادي بين المسلمين في بعض الغزوات: «إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة» وفي رواية: «مؤمنة». وقوله: ﴿فَأَدْخَلُوهَا خَلِيلَيْنِ﴾ أي: ماكنين فيها أبداً، لا يبعثون عنها حولا. ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أي: يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر، والعطاء العظيم، والنعيم المقيم، والملك الكبير، يقولون عند ذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أي: الذي كان وعدنا على السنة رسله الكرام، كما دعوا في الدنيا: ﴿رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا نَحْزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْغُرْنَ إِنَّكَ رَبَّنَا لَعَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الأنبياء: ١٠٠]، ﴿الَّذِي أَسْلَمْنَا نَارَ الْقِيَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَسَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥]. وقولهم: ﴿وَأَرْزُقْنَا الْأَرْضَ نَنْبَرُأَ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنَعْمَ أَبْنَاءُ الْعَالَمِينَ﴾ قال أبو العالية، وأبو صالح، وقتادة، والسدي، وابن زيد: أي أرض الجنة. وهذه الآية كقولها: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُرِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الْعَادِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ولهذا قالوا: ﴿نَنْبَرُأَ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي: أين شئنا حللنا، فنعلم الأجر أجربنا على عملنا. وفي الصحيحين من حديث الزهري، عن أنس في قصة المعراج قال النبي ﷺ: «أدخلت الجنة، فإذا فيها جنايد اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك». وقال عبد بن حميد: حدثنا روح بن عباد، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سأل ابن صائد عن تربة الجنة؟ فقال: «دُرْمَكَة بيضاء مسك خالص» فقال رسول الله ﷺ: «صدق». وكذا رواه مسلم، من حديث أبي سلمة، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، به. ورواه مسلم أيضاً عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن أبي أسامة، عن الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد؛ أن ابن صائد سأل رسول الله ﷺ عن تربة الجنة، فقال: «دُرْمَكَة بيضاء، مسك خالص».

وقول ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عاصم بن ضمرة، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿وَيَسِّرُ الْكَلِمَاتِ لِقَوْلِهِمْ رَبِّهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ دُرًّا﴾، قال: سيقوا حتى انتهوا إلى باب من أبواب الجنة، فوجدوا عندها شجرة يخرج من تحت ساقها عينا، فعمدوا إلى إحداها ففعلوها منها، فجرت عليهم نضرة النعيم، فلم تغيّر أبشارهم بعدها أبداً، ولم تشعث أشعارهم أبداً بعدها، كأنما دهنوا بالدهان، ثم عمدوا إلى الأخرى كأنما أمروا بها، فغشروا منها، فأذهبت ما كان في بطونهم من أذى أو قذى، وتلقته الملائكة على أبواب الجنة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ يٰبَنِيَّ فَأَدْخُلُوهَا خَلِيلَيْنِ﴾. ويلقى كل غلمان صاحبهم يُطِيقُونَ به، فعل الولدان بالحميم جاء من الغيبة: أبشِر، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا. وقال: وينطلق غلام من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين، فيقول: هذا فلان - باسمه في الدنيا - فيقلن: أنت رأيته؟ فيقول: نعم. فيستخفهن الفرح حتى تخرج إلى أسكفة الباب. قال: فيجيء فإذا هو بنمارق مصفوفة، وأكواب موضوعة، وزرابي ماثورة. قال: ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه، فإذا هو قد أسس على جندل اللؤلؤ، بين أحمر وأخضر وأصفر وأبيض، ومن كل لون. ثم يرفع طرفه إلى سقفه، فلولا أن الله قدره له، لآلم أن يذهب ببصره، إنه لمثل البرق. ثم ينظر إلى أزواجه من الحور العين، ثم يتكىء على أريكة من أرائكه، ثم يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] الآية. ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل التَّهْدِي، حدثنا مسلمة بن جعفر البجلي قال: سمعت أبا معاذ البصري يقول: إن علياً، رضي الله عنه، كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يُسْتَقْبَلُونَ - أو: يُؤْتُونَ - بنوق لها أجنحة، وعليها رحال الذهب، شراك نعالهم نور يتلألأ، كل خطوة منها مد البصر، فيتتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينا، فيشربون من إحداها فيُغْسَل ما في بطونهم من دنس، ويغتسلون من الأخرى، فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبداً، وتجري عليهم نضرة النعيم، فيتتهون - أو: فيأتون - باب الجنة، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، فيضربون بالحلقة على الصفيحة، فيسمع لها طنين يا علي، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل، فتبعث قِيَمَهَا فيفتح له، فإذا رآه خَرَّ له - قال مسلمة: أراه قال: ساجداً - فيقول: ارفع رأسك، فإنما أنا قِيَمُكَ، وكُلْتُ بأمرك. فيتبعه ويقفو أثره، فتستخف الحوراء العجلة، فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه، ثم تقول: يا حبي، وأنا حبيك، وأنا الخالدة التي لا أموت، وأنا الناعمة التي لا أبأس، وأنا الراضية التي لا أسخط، وأنا المقيمة التي لا أظعن». فيدخل بيتاً من أسه إلى سقفه مائة ألف ذراع، بناؤه من جندل اللؤلؤ، طرائق أصفر وأخضر وأحمر، ليس فيها

طريقة تشاكل صاحبها، في البيت سبعون سريراً، على كل سريرة سبعون حَشَّةً، على كل حَشية سبعون زوجة، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مُنَح ساقها من باطن الحُلل، يقضي جماعها في مقدار ليلة من لياليكم هذه. الأنهار من تحتهم تَنفَرِد، أنهار ماء غير آسن - قال: صاف، لا كدر فيه - وأنهار من لبن لم يتغير طعمه - قال: لم يخرج من ضروع الماشية - وأنهار من خمر لذة للشاربين - قال: لم تعصرها الرجال بأقدامهم - وأنهار من عسل مصفى - قال: لم يخرج من بطون النحل. يستجني الثمار، فإن شاء قائماً، وإن شاء قاعداً، وإن شاء متكئاً - ثم تلا: ﴿وَدَائِجٌ عَرِيْمٌ يَلْتَلِمُهَا وَذُلَّتْ فُطُورُهَا نَذِيْلًا﴾ [الإنسان: ١٤] - فيشتهي الطعام فيأتيه طير أبيض - قال: وربما قال: أخضر. قال: - فترفع أجنتها، فيأكل من جنوبها، أي الألوان شاء، ثم يطير فيذهب، فيدخل الملك فيقول: سلام عليكم، تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون. ولو أن شعرة من شعر الحوراء وقعت لأهل الأرض، لأضاءت الشمس معها سواداً في نور. هذا حديث غريب، وكأنه مرسل، والله أعلم.

﴿وَرَبِّ الْمَلٰٓئِكَةِ حَافِيَةً مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُيُوٓٔ بِرَبِّهِمْ يَلٰٓحِقُ وَيَقِيْلُ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰلَمِيْنَ﴾ ﴿٧٥﴾.

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار، وأنه نَزَلَ كُلًّا في المحل الذي يليق به ويصلح له، وهو العادل في ذلك الذي لا يجور - أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول عرشه المجيد، يسبحون بحمد ربهم، ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه ويتزهدونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية، وقضى الأمر، وحكم بالعدل؛ ولهذا قال: ﴿وَقُيُوٓٔ بِرَبِّهِمْ﴾ أي: بين الخلائق ﴿بِالْحَقِّ﴾. ثم قال: ﴿وَقِيْلُ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰلَمِيْنَ﴾ أي: ونطق الكون أجمعه - ناطقه وبهيمة - الله رب العالمين، بالحمد في حكمه وعدله؛ ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شَهِدَتْ له بالحمد. قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، واختتم بالحمد في قوله: ﴿وَقُيُوٓٔ بِرَبِّهِمْ يَلٰٓحِقُ وَيَقِيْلُ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰلَمِيْنَ﴾.

آخر تفسير سورة الزمر وشه الحمد أولاً وآخرها ظاهراً وباطناً



تفسير سورة غافر

وهي مكية. قد كره بعض السلف، منهم محمد بن سيرين أن يقال: «الحواميم»، وإنما يقال: «آل حم». قال عبد الله بن مسعود: آل حم ديباج القرآن. وقال ابن عباس: إن لكل شيء لباباً، وللباب القرآن آل حم - أو قال: الحواميم. قال مسعود بن كِذَام: كان يقال لهن: العرائس. روى ذلك كله الإمام العَلَم أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله، في كتاب: فضائل القرآن. وقال حُميد بن رَنْجُوبه: حدثنا عبيد الله بن موسى، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص عن عبيد الله قال: إن مثل القرآن كمثل رجل انطلق يتراد لأهله منزلاً، فمر بأثر غيث فبينما هو يسير فيه ويتعجب منه، إذ هبط على روضات دُمَثَات فقال: عجبت من الغيث الأول، فهذا أعجب وأعجب فقليل له: إن مثل الغيث الأول مثل عظم القرآن، وإن مثل هؤلاء الروضات الدُمَثَات، مثل آل حم في القرآن. أوردته البغوي. وقال ابن لُهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب: أن الجِرَاح بن أبي الجراح حدثه عن ابن عباس، قال: لكل شيء لباب، وللباب القرآن الحواميم. وقال ابن مسعود: إذا وَقَعَتْ في آل حم فقد وَقَعَتْ في روضات أُنَاتُق فيهن. وقال أبو عبيد: حدثنا الأشجعي، حدثنا مسعر - هو ابن كِذَام - عن حدث: أن رجلاً رأى أبا الدرداء رضي الله عنه يبنى مسجداً، فقال له: ما هذا؟ فقال: أبنيه من أجل آل حم. وقد يكون هذا المسجد الذي بناه أبو الدرداء، هو المسجد المنسوب إليه داخل قلعة دمشق. وقد يكون صيانتها وحفظها ببركة وبركة ما وَضَعَ له، فإذا هذا الكلام يدل على النصر على الأعداء، كما قال رسول الله ﷺ لأصحابه في بعض الغزوات: «إن يَتِمَّ الليلة فقولوا: حم، لا ينصرون». وفي رواية: «لا تنصرون». وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن الحكم بن ظبيان بن خَلْف المازني، ومحمد بن الليث الهمداني قالا: حدثنا موسى بن مسعود، حدثنا عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي، عن زرارة بن مصعب، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ آية الكرسي وأول حم المؤمن، عُصِمَ ذلك اليوم من كل سوء». ثم قال: لا نعلمه يروى إلا

بهذا الإسناد. ورواه الترمذي من حديث المليكي، وقال: تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٢﴾﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة، فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقد قيل: إن ﴿حَمْدٌ﴾ اسم من أسماء الله ﷻ، وأنشدوا في ذلك:

يُذَكِّرُنِي حَامِيَمَ وَالرَّمْحُ شَاجِرٌ فَهَلَا تَلَا حَامِيَمَ قَبْلَ التَّحْقِيمِ
وقد ورد في الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي، من حديث الثوري، عن أبي إسحاق، عن المهلب بن أبي صفرة قال: حدثني من سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنْ بَيَّتُمُ اللَّيْلَةَ فَقُولُوا: حَمْدٌ، لَا يَنْصُرُونَ» وهذا إسناد صحيح. واختار أبو عبيد أن يُروى: «فَقُولُوا: حَمْدٌ، لَا يَنْصُرُوا» أي: إن قلتم ذلك لا ينصروا، جملة جزاء لقوله: فَقُولُوا. وقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي: تنزيل هذا الكتاب - وهو القرآن - من الله ذي العزة والعلم، فلا يرام جنباه، ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجاباه. وقوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ أي: يغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه. وقوله: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ أي: لمن تمرّد وطغى وأثر الحياة الدنيا، وعناعن أوامر الله، وبغى وقد اجتمع في هذه الآية الرجاء والخوف. وهذه كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ لِلنَّارِ عَشْرُ مِائَاتٍ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، يقرن هذين الوصفين كثيراً في مواضع متعددة من القرآن؛ ليبقى العبد بين الرجاء والخوف.

وقوله: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ قال ابن عباس: يعني: السعة والغنى. وكذا قال مجاهد، وقتادة. وقال يزيد بن الأصم: «ذِي الطَّوْلِ»: يعني: الخير الكثير. وقال عكرمة: «ذِي الطَّوْلِ»: ذي المن. وقال قتادة: يعني: ذي النعم والفواضل. والمعنى: أنه المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هو فيه من المن والأنعام، التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها، «وَلَنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ» [إبراهيم: ٣٤]. وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا نظير له في جميع صفاته، فلا إله غيره، ولا رب سواه «إِلَهُ الْمَصِيرِ» أي: إليه المرجع والمآب، فيجازي كل عامل بعمله، «وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» [الرعد: ٤١]. وقال أبو بكر بن عياش: سمعت أبا إسحاق السبيعي يقول: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، إني قتلْتُ، فهل لي توبة؟ فقرأ عليه: ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ وقال: اعمل ولا تيأس. رواه ابن أبي حاتم - واللفظ له - وابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن مروان الرقي، حدثنا عمر - يعني ابن أيوب - أخبرنا جعفر بن برقان، عن يزيد بن الأصم قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان ينفذ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ففقد عمر فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، يتابع في هذا الشراب. قال: فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب: «من عمر بن الخطاب إلى فلان ابن فلان، سلام عليك، أما بعد: فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير». ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيك أن يقبل بقلبه، وأن يتوب الله عليه. فلما بلغ الرجل كتاب عمر جعل يقرؤه ويردده، ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، قد حذرني عقوبته، ووعدني أن يغفر لي. ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث جعفر بن برقان، وزاد: «فلم يزل يرددها على نفسه، ثم بكى، ثم نزع فأحسن النزع فلما بلغ عمر رضي الله عنه خبره قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أحاكم زل زلّة فسددوه ووقفوه، وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن شبة، حدثنا حماد بن واقد - أبو عمر الصغار -، حدثنا ثابت البناني، قال: كنت مع مصعب بن الزبير في سواد الكوفة، فدخلت حائطاً أصلي ركعتين، فافتتحت: ﴿حَمْدٌ﴾ المؤمن، حتى بلغت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾ فإذا رجل خلفي على بغلة شهباء، عليه مُقَطَّعات يمنية، فقال: إذا قلت: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ فقل: «يا غافر الذنب، اغفر لي ذنبي». وإذا قلت: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾، فقل: «يا قابل التوب، اقبل توبتي». وإذا قلت: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾، فقل: «يا شديد العقاب، لا تعاقبني». قال: فالتفت فلم أر أحداً، فخرجت إلى الباب فقلت: مَرَبِّكُمْ رجل عليه مقطعات يمنية؟ قالوا: ما رأينا أحداً فكانوا يزورون أنه إلياس. ثم رواه من طريق أخرى، عن ثابت، بنحوه. وليس فيه ذكر إلياس.

﴿مَا يُجِدِلُ فِي عَائِدَةِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَرْزُقُكَ تَعَالِيُّ الْيَلْدِ﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ وَنَحْنُ كُلُّ أُمَّةٍ

يُرْسِلُهُمْ لِإِخْدَاةٍ وَيَجْعَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْقُلُوبَ فَأَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ ﴿٦﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٧﴾

يقول تعالى: ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه، ﴿فَلَا يَرْجِعُ قَلْبُهُمْ فِي الْإِلَادِ﴾ أي: في أموالهم ونعيمها وزهرتها، كما قال: ﴿لَا يَرْجِعُ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْإِلَادِ﴾ ﴿مَنْعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْهَادِ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يَنْتَهِمُ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]. ثم قال تعالى مسلماً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، بأن له أسوة من سلف من الأنبياء؛ فإنه قد كذبهم أممهم وخالفوهم، وما آمن بهم منهم إلا قليل، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾، وهو أول رسول بعثه الله ينهى عن عبادة الأوثان، ﴿وَالْأَنْزَابِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من كل أمة، ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله، ﴿وَجَعَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْقُلُوبَ﴾ أي: ما خلّوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي. وقد قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا عارم أبو النعمان، حدثنا مغنير بن سليمان قال: سمعت أبي يحدث عن حنّش، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من أعان باطلاً ليدحض بباطله حقاً، فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله». وقوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ أي: أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام، ﴿وَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فكيف بلغك عذابي لهم، ونكالي بهم؟ قد كان شديداً موجعاً مؤلماً. قال قتادة: كان الله شديداً. وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: كما حقت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة، كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والأخرى؛ لأن من كذبك فلا وثوق له بتصديق غيرك.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّجَنَاتِ وَمَنْ بَقِيَ السَّجَنَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْنَاهُ وَكَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش الأربعة، ومن حوله من الكروبيين، بأنهم يسبحون بحمد ربهم، أي: يقرنون بين التسبيح الدال على نفي النقائص، والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح، ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: خاشعون له أذلاء بين يديه، وأنهم ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: من أهل الأرض ممن آمن بالغيب، فقيض الله سبحانه ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب، ولما كان هذا من سجايا الملائكة، عليهم الصلاة والسلام، كانوا يؤمنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب، كما ثبت في صحيح مسلم: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين، ولك بمثله». وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن محمد - هو ابن أبي شيبة - حدثنا عدة بن سليمان، عن محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة، عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ صدّق أمية في شيء من شعره، فقال:

رَجُلٌ وَثُورٌ نَحْتُ رَجُلٍ يَمِينُهُ وَالنَّسْرُ لِلْأُخْرَى، وَلَيْسَتْ مُرْصَدُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صدق». فقال:

وَالشَّمْسُ تَطْلُعُ كُلَّ آخِرِ لَيْلَةٍ تَأْتِي فَمَا تُطْلِعُ لَنَا فِي رَسْلِهَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صدق».

وهذا إسناد جيد: وهو يقتضي أن حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ قَوْمَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]. وهنا سؤال، وهو أن يقال: ما الجمع بين المفهوم من هذه الآية، ودلالة هذا الحديث؟ وبين الحديث الذي رواه أبو داود. حدثنا محمد بن الصباح البزار؛ حدثنا الوليد بن أبي ثور، عن سماك، عن عبد الله بن عجمرة، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب، قال: كنت بالبطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة، فنظر إليها فقال: «ما تسمون هذه؟» قالوا: السحاب. قال: «والمزن؟» قالوا: والمزن. قال: «والعتان؟» قالوا: والعتان. قال أبو داود: ولم ألق العنان جيداً قال: «هل تدرون بُعد ما بين السماء والأرض؟» قالوا: لا ندري. قال: «بعد ما بينهما إما واحدة، أن اثنتان، أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك» حتى عدّ سبع سموات «ثم فوق السماء السابعة بحر، بين أسفله

وأعلاه مثل بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم الله، ﷻ، فوق ذلك، ثم رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، من حديث سماك بن حرب، به. وقال الترمذي: حسن غريب. وهذا يقتضي أن حملة العرش ثمانية، كما قال شهر بن حوشب: حملة العرش ثمانية، أربعة يقولون: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك». وأربعة يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك. ولهذا يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: إن رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم، ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي: فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه، واتبعوا ما أمرتهم به، من فعل الخيرات وترك المنكرات، ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: وزحزحهم عن عذاب الجحيم، وهو العذاب المجمع الأليم.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أي: اجمع بينهم وبينهم، لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] أي: ساوينا بين الكل في المنزلة، لتقر أعينهم، وما نقصنا العالي حتى يساوي الداني، بل رفعنا الناقص في العمل، فساويناه بكثير العمل، تفضلاً منا ومنه. قال سعيد بن جبیر: إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه، وأين هم؟ فيقال: إنهم لم يبلغوا طبقتك في العمل. فيقول: إني إنما عملت لي ولهم. فيُلحَقُونَ به في الدرجة، ثم تلا سعيد بن جبیر هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: أنصح عباد الله للمؤمنين الملائكة، ثم تلا هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾، وأغش عباد الله للمؤمنين الشياطين. وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: الذي لا يمانع ولا يغالب، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الحكيم في أقوالك وأفعالك، من شرعك وقدرتك. ﴿وَقِهِمُ السَّعَاتِ﴾ أي: فعلها أو وبالها ممن وقعت منه، ﴿وَمَنْ نَقِ السَّعَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿فَقَدْ رَحِمْنَا﴾ أي: لطفنا به ونجيت من العقوبة، ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقْعِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَمَتَيْنَا اثْنَتَيْنِ فَاصْرَفْنَا بِدُلُونَا قَهْلَ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَلَّيْتُمْ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُم مَائِدَتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١٤﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار: أنهم ينادون يوم القيامة وهم في غمرات النيران يتلظنون، وذلك عندما باشرنا من عذاب الله ما لا قبل لأحد به، فمقتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البغض، بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة، التي كانت سبب دخولهم إلى النار، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخبار عالياً، نادوهم به نداء بأن مقت الله لهم في الدنيا حين كان يُعرض عليهم الإيمان، فيكفرون، أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة. قال قتادة في قوله: ﴿لَمَقْتُ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقْعِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ يقول: لمقت الله أهل الضلالة حين عُرض عليهم الإيمان في الدنيا، فتركوه وأبوا أن يقبلوه، أكبر مما مقتوا أنهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة. وهكذا قال الحسن البصري، ومجاهد، والسدي، وذو بن عبد الله الهمداني، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وابن جرير الطبري، رحمهم الله.

وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَمَتَيْنَا اثْنَتَيْنِ﴾ قال الثوري: عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود رضي الله عنه. هذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَنًا فَأَخْبَيْتُمْ ثُمَّ يُبْسِتُكُمْ ثُمَّ يُصِيبُكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] وكذا قال ابن عباس، والضحاك، وقاتدة، وأبو مالك. وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية. وقال السدي: أميتوا في الدنيا ثم أحيوا في قبورهم فخطبوا، ثم أميتوا ثم أحيوا يوم القيامة. وقال ابن زيد: أحيوا حين أخذ عليهم الميثاق من صلب آدم، ثم خلقهم في الأرحام ثم أماتهم ثم أحياهم يوم القيامة. وهذان القولان - من السدي، وابن زيد - ضعيفان، لأنهما يلزمهما على ما قالنا ثلاث إحياءات وإماتات. والصحيح قول ابن مسعود وابن عباس ومن تابعهما. والمقصود من هذا كله: أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله، ﷻ، في عرصات القيامة، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُتَجَرِّثُونَ تَأَكَّشُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْتَعْنَا فَمَلَّ سَلِيلًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٧] فلا يجابون. ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا

عليها، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة، فلا يجابون، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوا عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَعَسَىٰ أَمْرُهُمْ أَن يَمْشُوا عَلَىٰ الْأَرْضِ طَاقِفِينَ لَمْ يَمْسَسْهُمْ آسَافُ عَذَابٍ مُّذِرٍ ۖ﴾ [٢٧] ﴿بَلْ بَدَأْتُمْ مَآ كَانُوا يَحْفَتُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [٢٨] ﴿لَا تَأْمَنُوا دُخْلَ النَّارِ وَذَاقُوا مَسْجَهَا وَخَسْبُهَا وَمَقَامُهَا وَأَعْلَالُهَا، كَانَ سُؤْلُهُمْ لَلرَّجْعَةِ أَشَدَّ وَأَعْظَمَ، وَهُمْ يَمْشُرُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَدَقَاتٍ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَّلَ نَعْمَرِكُمْ مَا يَنْذِرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُرُّوا مَنَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ قَبْرِ﴾ [٢٩] ﴿فَاطْر: ٢٧﴾، ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [٣٠] ﴿قَالَ اخْسَوْا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ [٣١] ﴿الْمُؤْمِنُونَ: ١٠٧، ١٠٨﴾، وفي هذه الآية الكريمة تلطفوا في السؤال، وقدموا بين يدي كلامهم مقدمة، وهي قولهم: ﴿أَنشَأْنَا السَّنِينَ وَأَنبَتْنَا أَشْنَتَيْنِ﴾ أي: قدرتك عظيمة، فإنك أحببتنا بعد ما كنا أمواتاً، ثم أمتنا ثم أحببتنا، فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا، ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: فعمل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا؟ فإنك قادر على ذلك؛ لنعمل غير الذي كنا نعمل، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإننا ظالمون. فأجيبوا إلا سبيل إلى عودتكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا.

ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تحجده وتنفيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَسَّلْتُمْ﴾، أي: أنتم هكذا تكونون، وإن رددتم إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [٢٨]، وقوله: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ أي: هو الحاكم في خلقه، العادل الذي لا يجوز، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، لا إله إلا هو. وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يظهر قدرته لخلقها بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها، ﴿وَيُرِيكُمْ لَكُمْ مِنْ أَسْمَاءِ رِزْقًا﴾، وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والشمار ما هو مشاهد بالحس، من اختلاف ألوانه وطعومه، وروائحه وأشكاله وألوانه، وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء، ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ أي: يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿إِلَّا مَنْ يُبْصِرُ﴾ أي: من هو بصير منيب إلى الله، ﴿وَيَذَّكَّرُ﴾.

وقوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [٣٢] أي: فأخلصوا الله وحده العبادة والدعاء، وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا هشام - يعني بن عروة بن الزبير - عن أبي الزبير محمد بن مسلم بن مدرس المكي قال: كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين سلم: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» قال: وكان رسول الله ﷺ يَهْتَلِ بِهِن دَبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ. ورواه مسلم وأبو داود والنسائي، من طرق، عن هشام بن عروة، وحجاج بن أبي عثمان، وموسى بن عقبة، ثلاثهم عن أبي الزبير، عن عبد الله بن الزبير قال: كان رسول الله ﷺ يقول في دبر الصلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» وذكر تمامه. وقد ثبت في الصحيح عن ابن الزبير؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الربيع، حدثنا الحَصِيب بن ناصح، حدثنا صالح - يعني المزي - عن هشام بن حسان، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه».

﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [٣٣] ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [٣٤] ﴿يَوْمَ تَخْرُجُ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [٣٥] ﴿يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ عَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ وَارْتِفَاعِ عَرْشِهِ الْعَظِيمِ الْعَالِيِّ عَلَىٰ جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ كَالسَّقْفِ لَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ أَفْهَى الْمَسَاجِدِ﴾ [٣٦] ﴿تَرْجَى الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [٣٧] ﴿فَاقْبَرُ﴾ [المعارج: ٣، ٤]، وسيأتي بيان أن هذه مسافة ما بين العرش إلى الأرض السابعة، في قول جماعة من السلف والخلف، وهو الأرجح إن شاء الله تعالى. وقد ذكر غير واحد أن العرش من ياقوتة حمراء، اتساع ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة. وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة. وقد تقدم في حديث الأوعال ما يدل على ارتفاعه عن السموات السبع بشيء عظيم.

وقوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾، كقوله تعالى: ﴿يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ أَنْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢٧]، وكقوله: ﴿وَلَا تَنْزِيلَ رَبِّ الْمَالِكِينَ﴾ [النحل: ٢٧] ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [النحل: ٢٧] ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ

التَّوْبَةِ ﴿١٨﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤]؛ ولهذا قال: ﴿لِيُذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾: اسم من أسماء يوم القيامة، حذر منه عباده. وقال ابن جريج: قال ابن عباس: يلتقي فيه آدم وآخر ولده. وقال ابن زيد: يلتقي فيه العباد. وقال قتادة، والسدي، وبلال بن سعد، وسفيان بن عيينة: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض. وقال قتادة أيضاً: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض، والخالق والخلق. وقال ميمون بن مهران: يلتقي فيه الظالم والمظلوم. وقد يقال: إن يوم القيامة هو يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمل من خير وشر. كما قاله آخرون. وقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ﴾ أي: ظاهرون بادون كلهم، لا شيء يكنهم ولا يظلمهم ولا يسترهم. ولهذا قال: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي: الجميع في علمه على السواء. وقوله: ﴿لَمَّا أَلْمَلَكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَجْدُ الْقَهَّارُ﴾ قد تقدم في حديث ابن عمر: أنه تعالى يطوي السموات والأرض بيده، ثم يقول: أنا الملك، أنا الجبار، أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المكتبرون؟ وفي حديث الصور: أنه تعالى إذا قبض أرواح جميع خلقه، فلم يبق سواه، وحده لا شريك له، حينئذ يقول: لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه قائلاً: ﴿لِلَّهِ الْوَجْدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: الذي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن غالب الدقاق، حدثنا عبيد بن عبيدة، حدثنا معتمر، عن أبيه، حدثنا أبو نضرة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ينادي مناد بين يدي الساعة: يا أيها الناس، أتتكم الساعة. فيسمعها الأحياء والأموات، قال: وينزل الله ﷻ إلى سماء الدنيا ويقول: ﴿لَمَّا أَلْمَلَكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَجْدُ الْقَهَّارُ﴾.

وقوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿١٩﴾: يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه، أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها، وبالسنة واحدة؛ ولهذا قال: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ كما ثبت في صحيح مسلم، عن أبي ذر، عن رسول الله ﷺ - فيما يحكي عن ربِّه - أنه قال: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» - إلى أن قال: - يا عبادي، إنما هو أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه». وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: يحاسب الخلاق كلهم، كما يحاسب نفساً واحدة، كما قال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَفَتْكُمْ وَجِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَمَفْجِعٍ بِالْبَصْرِ﴾ [الفر: ٥٠].

﴿وَأَذِزْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ﴾ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَافُ ﴿٢٠﴾ يَمْلِكُ حَاطَّةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿٢١﴾ وَاللَّهُ يَقْنِصُ الْبَاطِنَ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٢﴾.

يوم الآزفة هو: اسم من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لاقتربها، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْتَ الْآزِفَةَ﴾ ﴿٢١﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَافِيَةٌ ﴿٢٢﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨] وقال: ﴿أَفَتَرَبَّيْتَ النَّسَاءَ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [الفر: ١] وقال: ﴿أَقْرَبَ لِلشَّائِسِ جِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] وقال: ﴿إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [الاحزاب: ١] وقال: ﴿كَلَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّتَتْ وُجُوهُ الْوَكِيدِ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِرَبِّكُمْ تَدْعُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ [الملك: ٢٧]. وقوله: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ﴾ أي ساكتين، قال قتادة: وقفت القلوب في الحناجر من الخوف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها وكذا قال عكرمة، والسدي، وغير واحد. ومعنى «كَظِيمٍ» أي: ساكتين، لا يتكلم أحد إلى بلذنه «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْبَاطِنُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ﴿٢٨﴾ [النبا: ٢٨]. وقال ابن جريج: «كَظِيمٍ» أي: ساكتين. وقوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَافُ﴾ أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير.

وقوله: ﴿يَمْلِكُ حَاطَّةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ ﴿٢٠﴾ يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيقها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حق الحياء، ويتَّقَوْهُ حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر. قال ابن عباس في قوله: ﴿يَمْلِكُ حَاطَّةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ ﴿٢٠﴾: وهو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسنة، أو تمر به وبهم المرأة الحسنة، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غَضَّ، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غَضَّ بصره عنها وقد اطلع الله من قلبه أنه رَدَّ ولو اطلع على فرجها. رواه ابن أبي حاتم. وقال الضحاك: ﴿حَاطَّةَ الْأَعْيُنِ﴾: هو الغمز، وقول الرجل: رأيت، ولم ير؛ أو: لم أر، وقد رأى. وقال ابن عباس: يعلم الله تعالى من العين في نظرها، هل تريد الخيانة أم لا؟ وكذا قال مجاهد، وقاتة. وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾: يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا؟ وقال السدي: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ أي: من الوسوسة.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي: يحكم بالعدل. وقال الأعمش: عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾: قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنه، وبالسيفه السيئه ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٢٥). وهذا الذي فسر به ابن عباس في هذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَجْزِي الَّذِينَ أَسْعَوْا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأوثان والأنداد، ﴿لَا يَقْضُونَ شَيْئًا﴾ أي: لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي: سميع لأقوال خلقه، بصير بهم، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ﴾ (٢٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٧). يقول تعالى: أو لم يسر هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم المكذبة بالأنبياء، ما حل بهم من العذاب والنكال، مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة، ﴿وَمَا آثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أثروا في الأرض من البنايات والمعالم والديارات، ما لا يقدر عليه هؤلاء، كما قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِن مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحاف: ٢٦]، وقال: ﴿وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩] أي: ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد، أخذهم الله بذنوبهم، وهي كفرهم برسلمهم، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ﴾ أي: وما دفع عنهم عذاب الله أحد ولا رده عنهم راد، ولا وقاهم واق. ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنوبهم التي ارتكبوها واجترموها، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات، ﴿فَكَفَرُوا﴾ أي: مع هذا البيان والبرهان كفروا ووجدوا، ﴿فَآخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أهلكهم ودمر عليهم وللكافرين أمثالها، ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: ذو قوة عظيمة وبطش شديد، وهو ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: عقابه أليم شديد وجيع. أعادنا الله منه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٨) إِنْ فِرْعَوْنُ وَهَكَانَ وَقُرُونُ فَقَالَ أَسْحَرُ كَذَّابٌ (٢٩) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا أَأَنبَاءُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي سَكْنٍ (٣٠) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٣١) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِن كُلِّ مُكَيِّدٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٣٢).

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة، كما جرى لموسى بن عمران، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات، والدلائل الواضحات؛ ولهذا قال: ﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ والسلطان هو: الحجة والبرهان ﴿إِنْ فِرْعَوْنُ﴾، هو: ملك القبط بالديار المصرية، ﴿وَهَكَانَ﴾، وهو: وزير في مملكته، ﴿وَقُرُونُ﴾، وكان أكثر الناس في زمانه ملاً وتجارة ﴿فَقَالَ أَسْحَرُ كَذَّابٌ﴾ أي: كذبوه وجعلوه ساحراً مُمَحَرِّقاً مُمَوَّهاً كذاباً في أن الله أرسله. وهذه كقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاهُوٌّ أَوْ جُنُونٌ أَوْ أَتَاوَا بِذِي بَلِّ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ﴾ (٥٢) [الذاريات: ٥٢، ٥٣]. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي: بالبرهان القاطع الدال على أن الله تعالى أرسله إليهم، ﴿قَالُوا أَأَنبَاءُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل. أما الأول: فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين. وأما الأمر الثاني: فللعلة الثانية، لإهانة هذا الشعب، ولكي يتشاءموا بموسى، عليه السلام؛ ولهذا قالوا: ﴿أَوَدَيْتَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَبِنَ بَدِّ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَنِ رَبِّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَذَابُكُمْ فَتَنْظُرُ كَيْفَ تَقُولُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]. قال قتادة: هذا أمر بعد أمر. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي سَكْنٍ﴾ أي: وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل لئلا يُنصروا عليهم، إلا ذاهب وهالك في ضلال.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾. وهذا عزم من فرعون - لعنه الله - على قتل موسى، عليه السلام، أي: قال لقومه: دعوني حتى أقتل لكم هذا، ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي: لا أبالي منه. وهذا في غاية الجحد والتجهرم والعناد. وقوله - قبحه الله -: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾، يعني: موسى، يخشى فرعون أن يُضِلَّ موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم. وهذا كما يقال في المثل: «صار فرعون مُذْكَراً»، يعني: واعظاً، يشفق على الناس من موسى، عليه السلام. وقرأ الآخرون: «أن يبدل دينكم وأن يُظْهِرَ في الأرض الفساد» وقرأ آخرون: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ وقرأ بعضهم: «يُظْهِرُ في الأرض الفساد»، بالضم. وقال موسى: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِن كُلِّ مُكَيِّدٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي:

لما بلغه قول فرعون: ﴿ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ قال موسى: استجرت بالله وغذت به من شره وشر أمثاله؛ ولهذا قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾، أيها المخاطبون، ﴿بَيْنَ كُلِّ مَنكِرٍ﴾ أي: عن الحق، مجرم، ﴿لَا يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ الْحَسَابُ﴾؛ ولهذا جاء في الحديث عن أبي موسى، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: «اللهم، إنا نعوذ بك من شرورهم، ونندرك بك في نحورهم».

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن هُوَ مُشْرِكٌ كَذَّابٌ﴾ (٢٨) ﴿يَقُولُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرٌ فِي الْأَرْضِ مَن يُصِرَّكَ مِنْ بَنِي اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْوَىٰكُمْ إِلَّا سِجْنًا أَوْ عَذَابًا﴾ (٢٩).

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون. قال السدي: كان ابن عم فرعون، ويقال: إنه الذي نجا مع موسى. واختاره ابن جرير، ورَدَّ قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً؛ لأن فرعون أنفعل لكلامه واستمعه، وكف عن قتل موسى، عليه السلام، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل بالعقوبة؛ لأنه منهم. وقال ابن جريج، عن ابن عباس: لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون، والذي قال: ﴿يَكْتُمُونَ إِلَهُكَ أَلَسَ لَا يَأْتِيهِمْ يَكُ يَقُولُ﴾ (القصص: ٢٠) رواه ابن أبي حاتم. وقد كان هذا الرجل يكتُم إيمانه عن قومه القبط، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾، فأخذت الرجل غضبة لله ﷻ، و«أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»، كما ثبت بذلك الحديث، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون، وهي قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ أي: لأجل أن يقول ربي الله، اللهم إلا ما رواه البخاري في صحيحه حيث قال: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي، حدثني يحيى بن أبي كثير، حدثني محمد بن إبراهيم التيمي، حدثني عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد شيء مما صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة، إذ أقبل غُفَيَّة بن أبي مُعَيْط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه، فحققه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر، رضي الله عنه، فأخذ بمنكبه ودفع عن النبي ﷺ، ثم قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. انفرد به البخاري من حديث الأوزاعي قال: وتابعه محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عروة، عن أبيه، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا هارون بن إسحاق الهمداني، حدثنا غُفَيَّة، عن هشام - يعني ابن عروة - عن أبيه، عن عمرو بن العاص أنه سُئِلَ: ما أشد ما رأيت قريشاً بلغوا من رسول الله ﷺ؟ قال: مر بهم ذات يوم فقالوا له: أنت تنهانا أن نعبد ما يعبد آبائنا؟ فقال: «أنا ذاك» فقاموا إليه، فأخذوا بمجامع ثيابه، فرأيت أبا بكر محتضنه من ورائه، وهو يصيح بأعلى صوته، وإن عينيه ليسيلان، وهو يقول: يا قوم، ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؟ حتى فرغ من الآية كلها. وهكذا رواه النسائي من حديث عبدة، فجعله من مسند عمرو بن العاص، رضي الله عنه. وقوله: ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول: «ربي الله»، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟ ثم تنزل معهم في المخاطبة فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ يعني: إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به، فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه، فلا تؤذوه، فإن يك كاذباً فإن الله سبحانه يعلو على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة، وإن يك صادقاً وقد أذيتموه بصيكم بعض الذي يعدكم، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة، فمن الجائز عندهم أن يكون صادقاً، فينبغي على هذا ألا تتعرضوا له، بل اتركوه، وقومه يدعوهم ويتبعونه. وهكذا أخبر الله تعالى عن موسى، عليه السلام، أنه طلب من فرعون وقومه المودعة في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا قَلِيلَهُمْ قَوْمٌ فَفِرْعَوْنُ وَجَاهُ فَرَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ (١٧) ﴿أَن أَدْرَأَ إِلَيْكَ عِبَادَ اللَّهِ إِلَيَّ لَكُرْ رَسُولٌ آيِينَ﴾ (١٨) ﴿وَأَن لَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَهَ إِلَهٍ إِلَهَ إِلَهٍ سُلْطَانِي مُبِينٍ﴾ (١٩) ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَجْعَلُونَ أَن تَجْعَلُونَ﴾ (٢٠) ﴿وَأَن لَّا تَقُولُوا لِي فَأَنزِيلُ مِنَ اللَّهِ﴾ (٢١) [الدخان: ١٧-٢١] وهكذا قال رسول الله ﷺ لقريش أن تتركوه يدعوا إلى الله تعالى عباد الله، ولا يمسوه بسوء، وأن يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة في ترك أذيتهم، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] أي: إلا ألا تؤذوني فيما بيني وبينكم من القرابة، فلا تؤذوني وتتركوا بيني وبين الناس. على هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية، وكان فتحاً مبيناً.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن هُوَ مُشْرِكٌ كَذَّابٌ﴾ أي: لو كان هذا الذي يزعم أن الله أرسله إليكم كاذباً كما تزعمون، لكان أمره بينا، يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله، كانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيماً، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله. ثم قال المؤمن محذراً قومه زوال نعمة الله عنهم وحلول نقمة الله بهم: ﴿يَقُولُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرٌ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور

وقوله: ﴿يَوْمَ تُؤْثَرُونَ مَتْرُوفِينَ﴾ أي: ذاهبين هاربين، ﴿كَلَّا لَا وَفَاءَ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْهِيكَ لِلْأَمْرِ﴾ [القصية: ١١، ١٢]، ولهذا قال: ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ أي: ما لكم مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه، ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي: من أضله الله فلا هادي له غيره. وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ قَبْلِ الْإِسْنَةِ﴾ يعني: أهل مصر، قد بعث الله فيهم رسولاً من قبل موسى، وهو يوسف، عليه السلام، كان عزيز أهل مصر، وكان رسولاً يدعو إلى الله أمته القبط، فما أطاعوه تلك الساعة إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوي؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا زِلُمْ فِي شَاكٍ وَمِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَقٌّ إِذَا هَلَكْتُمْ لَنَ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أي: يستم فقلتم طامعين: ﴿لَنَ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ أي: كحالكم هذا ثم قال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ﴾ أي: الذين يدفعون الحق بالباطل، ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله، فإن الله يمقت على ذلك أشد المقت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: والمؤمنون أيضاً يُبْغَضُونَ من تكون هذه صفته، فإن من كانت هذه صفته يطعم الله على قلبه، فلا يعرف بعد

ذلك معروفاً، ولا ينكر منكرأ؛ ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يَطْعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَبِرٍ﴾ أي: على اتباع الحق ﴿جَبَّارٍ﴾. وروى ابن أبي حاتم، عن عكرمة - وحكى عن الشعبي - أنهما قالاً: لا يكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسين. وقال أبو عمران الجوني، وقادة: آية الجبابة القتل بغير حق.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمُنُ آدَمُ ابْنُ صِمْثَاٍّ فَلَمَّا آتَاهُ السَّمَكُوتُ قَالَ لِي أَنَا إِلَهُهُ مُوسَى وَآلِي لَأَطِئُنَّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنُ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَلَيْهِ. وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ (٣٦).

يقول تعالى مخبراً عن فرعون، وعنه، وتمرده، وافترائه في تكذيبه موسى، عليه السلام، أنه أمر وزيره هامان أن يبني له صرحاً، وهو: القصر العالي المنيف الشاهق. وكان اتخاذه من الآجر المضروب من الطين المشوي، كما قال: ﴿فَأَوْقَدَ فِي يَهْمُنُ عَلَى الظُّلُمِ فَأَتَمَّكَ فِي صَرْحٍ﴾ [القصص: ٣٨]، ولهذا قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون البناء بالآجر، وأن يجعلوه في قبورهم. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿أَتَأْتِيَ الْأُتُمِينَ أَتَبَّ السَّمَكُوتُ﴾ قال سعيد بن جبیر، وأبو صالح: أبواب السموات. وقيل: طرق السموات ﴿فَأَطِيعَ إِلَهُهُ مُوسَى وَآلِي لَأَطِئُنَّهُ كَذِبًا﴾، وهذا من كفره وتمرده، أنه كذب موسى في أن الله، ﷻ، أرسله إليه، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنُ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَلَيْهِ. وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: بصنيعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئاً يتوصل به إلى تكذيب موسى، عليه السلام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد: يعني إلا في خسار.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ مَاتَ بَقَرُوا أَنَّهُمْ أَهْلُكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (٣٧) يَقُولُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ وَلِيَ الْآخِرَةِ هِيَ دَارُ الْفَكَارِ ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا يَجْزَى إِلَّا يَنْجُزَى﴾ (٣٨) وَأَنْتَ وَمَوْءُؤُكَ يَدْخُلُونَ لِلنَّارِ يَرْجُونَ فِيهَا يُبْعَثُونَ ﴿٣٩﴾ حَسَابٍ ﴿٤٠﴾.

يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطفى وأثر الحياة الدنيا، ونسى الجبار الأعلى، فقال لهم: ﴿يَقُولُوا أَنَّهُمْ أَهْلُكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، لا كما كذب فرعون في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾. ثم زهدهم في الدنيا التي قد آثروها على الأخرى، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى ﷻ، فقال: ﴿يَقُولُوا إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ﴾ أي: قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتزول وتضمحل، ﴿وَالِ الْآخِرَةِ هِيَ دَارُ الْفَكَارِ﴾ أي: الدار التي لا زوال لها، ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم، ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا يَنْجُزَى﴾ أي: واحدة مثلها، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَ وَمَوْءُؤُكَ يَدْخُلُونَ لِلنَّارِ يَرْجُونَ فِيهَا يُبْعَثُونَ﴾ أي: لا يتقدر بجزاء بل يشيبه الله، ثواباً كثيراً لا انقضاء له ولا نفاذ.

﴿وَيَقُولُوا مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّارِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ. مَا لَيْسَ لِي بِهِ. عَلِمَ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْفَرْيزِ الْفَكْرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَمْ دَعَوْتُ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدًّا إِلَى اللَّهِ وَأَنْتَ الْمُشْرِكِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ سَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُصْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَعِيرٌ بِالْعِلَاقِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِقَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ أَنَارَ يَمْشُونَ عَلَيْهِ عُدُلًا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾.

يقول لهم المؤمن: ما بالي أدعوكم إلى النجاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الذي بعثه ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ. مَا لَيْسَ لِي بِهِ. عَلِمَ؟﴾ أي: جهل بلا دليل: ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْفَرْيزِ الْفَكْرِ﴾ أي: هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه، ﴿لَا جَرَمَ أَنَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ يقول: حقا. قال السدي، وابن جرير: معنى قوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾: حقا. وقال الضحاك: ﴿لَا جَرَمَ﴾: لا كذب. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَا جَرَمَ﴾، يقول: بلى، إن الذي تدعونني إليه من الأصنام والأنداد ﴿لَيْسَ لَمْ دَعَوْتُ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾. قال مجاهد: الوثن ليس بشيء. وقال قتادة: يعني الوثن، لا ينفع ولا يضر. وقال السدي: لا يجيب داعيه، لا في الدنيا ولا في الآخرة. وهذا كقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْبَيِّنَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ (٩) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِسَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٠﴾ [الحجاف: ٥، ٦]، ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]. وقوله: ﴿وَأَنْ مَّرَدًّا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: في الدار الآخرة، فيجازي كلأ بعمله؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنْتَ الْمُشْرِكِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: خالدين فيها بإسرافهم، وهو شركهم بالله. ﴿سَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ أي: سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتذكرونه، وتندمون حيث لا ينفعكم الندم، ﴿وَأَفَؤُصْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: وأتوكل على الله وأستعينه، وأقطعكم وأباعدكم،

﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي: هو بصير بهم، فيهدي من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدر النافذ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فنجاه الله مع موسى، عليه السلام، وأما في الآخرة فبالجنة ﴿وَقَالَ يُرَوِّقُونَ سَوْءَ الْعَذَابِ﴾ وهو: الغرق في اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم. فإن أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار؛ ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أي: أشده المأ وأعظمه نكالاً. وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾. ولكن هاهنا سؤال، وهو أنه لا شك أن هذه الآية مكية، وقد استدلو بها على عذاب القبر في البرزخ، وقد قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم - هو ابن القاسم أبو النضر - حدثنا إسحاق بن سعيد - هو ابن عمرو بن سعيد ابن العاص - حدثنا سعيد - يعني أباه - عن عائشة: أن يهودية كانت تخدمها، فلا تصنع عائشة إليها شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وراك الله عذاب القبر. قالت: فدخل رسول الله ﷺ عليّ فقلت: يا رسول الله، هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة؟ قال: «لا، وعم ذلك؟». قالت: هذه اليهودية، لا تصنع لي شيئاً من المعروف إلا قالت: وراك الله عذاب القبر. قال: «كذبت يهود. وهم على الله أكذب، لا عذاب دون يوم القيامة». ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملاً بثوبه، محمرة عيناه، وهو ينادي بأعلى صوته: «القبر كقطع الليل المظلم. أيها الناس، لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً وضحكتكم قليلاً. أيها الناس، استعيذوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق». وهذا إسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم، ولم يخرجاه. وروى أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا سفيان، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة - قال: سألتها امرأة يهودية فأعطتها، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر. فأنكرت عائشة ذلك، فلما رأت رسول الله ﷺ قالت له، فقال: «لا». قالت عائشة: ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك: «وانه أوحى إلي أنكم تفتنون في قبوركم».

وهذا أيضاً على شرطهما. فيقال: فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية، وفيها الدليل على عذاب البرزخ؟ والجواب: أن الآية دلت على عرض الأرواح إلى النار غداً وعشيّاً في البرزخ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها في القبور، إذ قد يكون ذلك مختصاً بالروح، فأما حصول ذلك للجسد وتألمه بسببه، فلم يدل عليه إلا السنة في الأحاديث المرضية الآتي ذكرها. وقد يقال: إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار في البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن في قبره بذنب، ومما يدل على هذا ما رواه الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا يونس، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود، وهي تقول: أشعرت أنكم تفتنون في قبوركم؟ فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «إنما يفتن يهود». قالت عائشة: فلبثنا ليالي، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشعرت أنه أوحى إلي أنكم تفتنون في القبور؟». وقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ بعد يستعيز من عذاب القبر. وهكذا رواه مسلم، عن هارون بن سعيد وحرمة، كلاهما عن ابن وهب، عن يونس بن يزيد الأيلي، عن الزهري، به. وقد يقال: إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح في البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يتصل بالأجساد في قبورها، فلما أوحى إليه في ذلك بخصوصيته استعاذ منه، والله، سبحانه وتعالى، أعلم. وقد روى البخاري من حديث شعبة، عن أشعث بن أبي الشعثاء، عن أبيه، عن مسروق، عن عائشة، رضي الله عنها، أن يهودية دخلت عليها فقالت: أعاذك الله من عذاب القبر. فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر؟ فقال: «نعم، عذاب القبر حق». قالت عائشة: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر. فهذا يدل على أنه بادر إلى تصديق اليهودية في هذا الخبر، وقرر عليه. وفي الأخبار المتقدمة: أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحي، فلعلهما قضيتان، والله أعلم، وأحاديث عذاب القبر كثيرة جداً.

وقال قتادة في قوله: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾: صباحاً ومساءً، ما بقيت الدنيا، يقال لهم: يا آل فرعون، هذه منازلكم، توبيحاً ونقمة وصغاراً لهم. وقال ابن زيد: هم فيها اليوم، يُغذى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد، حدثنا المحاربي، حدثنا ليث، عن عبد الرحمن بن ثروان، عن هزيل، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: إن أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تسرح بهم في الجنة حيث شاؤوا، وإن أرواح ولدان المؤمنين في أجواف عصافير تسرح في الجنة حيث شاءت، فتأوي إلى قناديل معلقة على العرش، وإن أرواح آل فرعون في أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح عليها، فذلك عرضها. وقد رواه الثوري، عن أبي قيس، عن الهذيل بن شرحبيل، من كلامه في أرواح آل فرعون. وكذلك قال

السدي. وفي حديث الإسراء من رواية أبي هارون العبيدي، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال فيه: «ثم انطلق بي إلى خلق كثير من خلق الله، رجال كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم، مصفدون على سابلة آل فرعون، وآل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشيا». **﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ أَذْخَلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾**، وآل فرعون كالإبل المسومة يخطون الحجارة والشجر ولا يعقلون». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا زيد بن أحرم، حدثنا عامر بن مذكّر الحارثي، حدثنا عتبة - يعني ابن يقظان - عن قيس بن مسلم، عن طارق، عن شهاب، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أثابه الله». قال: قلنا: يا رسول الله، ما إثابة الكافر؟ فقال: «إن كان قد وصل رحماً أو تصدق بصدقة أو عمل حسنة، أثابه الله المال والولد والصحة وأشباه ذلك». قلنا: فما إثابته في الآخرة؟ قال: «عذاباً دون العذاب»، وقرأ: **﴿أَذْخَلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾**. رواه البزار في مسنده، عن زيد بن أحرم، ثم قال: لا نعلم له إسناداً غير هذا.

وقال ابن جرير: حدثنا عبد الكريم بن أبي عمير، حدثنا حماد بن محمد الفزاري البلخي قال: سمعت الأوزاعي وسأله رجل فقال: رحمك الله. رأينا طيوراً تخرج من البحر، تأخذ ناحية الغرب بيضاً، فوجاً فوجاً، لا يعلم عددها إلا الله، ﷻ، فإذا كان العشي رجع مثلها سوداً. قال: وفطنتم إلى ذلك؟ قال: نعم. قال: إن تلك الطير في حواصلها أرواح آل فرعون، تعرض على النار غدواً وعشيا، فترجع إلى وكورها وقد احترقت ريشها وصارت سوداً، فينبت عليها من الليل ريش أبيض، وتتناثر السود، ثم تعدو على النار غدواً وعشيا، ثم ترجع إلى وكورها. فلذلك دؤبهم في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى: **﴿أَذْخَلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾**، قال: وكانوا يقولون: إنهم ستمائة ألف مقاتل. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق، أخبرنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحذكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. فيقال: هذا مقعدك حيث يبعثك الله، ﷻ، إلى يوم القيامة». أخرجه في الصحيحين، من حديث مالك، به.

﴿وَإِذْ يَتَحَكَّرُونَ فِي النَّارِ يَقُولُ أَلَمْ نَعْمَدُوا لِلنَّارِ أَشْكَبُونَهَا أَشْكَبُوا لَنَا كُلًّا لَكُمْ نِعْمًا فَهَلْ أَنتُمْ مُنْجُونَ عَنَّا نَفِيبًا مِنْ النَّارِ﴾ (٤٧) **﴿قَالَ الَّذِينَ أَشْكَبُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْبَاقِي﴾** (٤٨) **﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِهِمْ جَهَنَّمَ أَدْعَاؤُكُمْ يُخَفِّفُ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾** (٤٩) **﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا قَادَعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾** (٥٠).

يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار، وتخاصمهم، وفرعون وقومه من جملتهم **﴿يَقُولُ أَلَمْ نَعْمَدُوا﴾** وهم: الأنبياء **﴿لِلَّذِينَ أَشْكَبُوا﴾** وهم: القادة والسادة والكبراء: **﴿إِنَّا كُلًّا لَكُمْ نِعْمًا﴾** أي: أطعناكم فيما دعوتونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال، **﴿فَهَلْ أَنتُمْ مُنْجُونَ عَنَّا نَفِيبًا مِنْ النَّارِ﴾** أي: تسطأ تتحملونه عنا. **﴿قَالَ الَّذِينَ أَشْكَبُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾** أي: لا نتحمل عنكم شيئاً، كفى بنا ما عندنا، وما حملنا من العذاب والنكال. **﴿إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْبَاقِي﴾** أي: يقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا، كما قال تعالى: **﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾** [الأنعام: ٣٨]. **﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِهِمْ جَهَنَّمَ أَدْعَاؤُكُمْ يُخَفِّفُ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾** (٤٩)؛ لما علموا أن الله، سبحانه، لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم، بل قد قال: **﴿أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْلِمُونَ﴾** [المؤمنون: ١٠٨] سألوا الخزنة - وهم كالبوابين لأهل النار - أن يدعوا لهم الله أن يخفف عن الكافرين ولو يوماً واحداً من العذاب، فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: **﴿أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾** أي: أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على السنة الرسل؟ **﴿قَالُوا بَلَى قَالُوا قَادَعُوا﴾** أي: أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم، ونحن منكم برآء، ثم نخبركم أنه سواء دعوتهم أو لم تدعوا، لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم؛ ولهذا قالوا: **﴿وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾** أي: إلا من ذهب، لا يتقبل ولا يستجاب.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ (٥١) **﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾** (٥٢) **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدًى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾** (٥٣) **﴿هُدًى وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾** (٥٤) **﴿فَأَصْبَحَ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَفِيرَ لِذَلِكَ وَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْغَدَاةِ وَالْآخِرِ﴾** (٥٥) **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِشَكٍّ سُلْطَانِ أَنتَهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِسَالِفِينَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّكِينُ الْبَصِيرُ﴾** (٥٦).

قد أورد أبو جعفر بن جرير، رحمه الله تعالى، عند قوله تعالى: **﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** سؤالاً فقال: قد عُلِمَ أن بعض الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، قتل قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعيا، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى، فأين النصرة في الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين. أحدهما: أن يكون

الخبر خرج عاماً، والمراد به البعض، قال: وهذا سائق في اللغة. الثاني: أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن أذاهم، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم، كما قُبل بقتله يحيى وزكريا وشعيا، سلب عليهم من أعدائهم من أمانهم وسفك دماءهم، وقد ذكر أن النمرود أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح، عليه السلام، من اليهود، فسلب الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلّوهم، وأظهرهم الله عليهم. ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم إماماً عادلاً، وحكماً مقسطاً، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام. وهذه نصرة عظيمة، وهذه سنة الله في خلقه في قديم الدهر وحديثه: أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا، ويقر أعينهم ممن أذاهم، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب». وفي الحديث الآخر: «إني لأثار لأوليائي كما يثار الليث الحرب»، ولهذا أهلك تعالى قوم نوح وعاد وثمود، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وأهل مدين، وأشباههم وأضرابهم، ممن كذب الرسل وخالف الحق. وأنجى الله من بينهم المؤمنين، فلم يهلك منهم أحداً، وعذب الكافرين، فلم يقلت منهم أحداً.

قال السدي: لم يبعث الله رسولاً قط، إلى قوم فيقتلونه، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا. قال: فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا، وهم منصورون فيها. وهكذا نصر الله سبحانه نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خالفه وناواه، وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان. وأمره بالهجرة من بين ظهرائي قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر، فنصره عليهم وخذلهم له، وقتل صناديدهم، وأسر سراتهم، فاستاقهم مقرنين في الأصفاد، ثم من عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة، فقرت عينه بببله، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم، فأنقذه الله به مما كان فيه من الشرك والكفر، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة العرب بكاملها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً. ثم قبضه الله، تعالى، إليه، لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله أصحابه خلفاء بعده، قبلخوا عنه دين الله، ودعوا عباد الله إلى الله. وفتحوا البلاد والرساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب، حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها. ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَنَنْصُرَ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ (٥١) أي: يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل. قال مجاهد: الأَشْهُد: الملائكة. وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾. وقرأ آخرون: ﴿يَوْمَ بِالرَّفْعِ، كانه فسر به ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ﴾، وهم المشركون ﴿مَعَذِرَتُهُمْ﴾ أي: لا يقبل منهم عذر ولا فدية، ﴿وَلَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: الإبعاد والطرود من الرحمة، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وهي النار. قاله السدي، بش المنزل والمقيل. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي: سوء العاقبة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدًى﴾، وهو ما بعثه الله به من الهدى والنور، ﴿وَأَوْثَقْنَا بِحَبْلِ الْإِسْمَاقِ﴾ أي: جعلنا لهم العاقبة، وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه، بما صبروا على طاعة الله واتباع رسوله موسى، عليه السلام، وفي الكتاب الذي أورثوه - وهو التوراة - ﴿هُدًى وَذِكْرٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٥٢) وهي: العقول الصحيحة السليمة. وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ﴾ أي: يا محمد، ﴿إِنِّي وَدَّعْتُ اللَّهَ﴾ أي: وعدناك أنا سنعلی كلمتك، ونجعل العاقبة لك وللمن اتبعك، والله لا يخلف الميعاد. وهذا الذي أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك. وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ﴾، هذا تهيب للامة على الاستغفار، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ﴾ أي: في أواخر النهار وأوائل الليل، ﴿وَاللَّيْلِ﴾، وهو أوائل النهار وأواخر الليل. وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آلِهَتِهِمْ إِلَهِمْ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوَةُ﴾ أي: يدعون الحق بالباطل، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله، ﴿إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَّا هُمْ بِيَلْفِيهِ﴾ أي: ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق، واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه من إخمالات الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدهم هو الموضوع، ﴿فَأَسْوَدَ بِاللَّهِ﴾ أي: من حال مثل هؤلاء، ﴿إِنَّهُمْ هُمُ السَّكِينُ﴾ (٥٣)، أو: من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان. هذا تفسير ابن جرير. وقال كعب وأبو العالية: نزلت هذه الآية في اليهود: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آلِهَتِهِمْ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوَةُ﴾ فقال الله لنبيه ﷺ أمراً له أن يستعيز من فتنة الدجال، ولهذا قال: ﴿فَأَسْوَدَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ هُمُ السَّكِينُ﴾. وهذا قول غريب، وفيه تعسف بعيد، وإن كان قد رواه ابن أبي حاتم في كتابه، والله أعلم.

﴿لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُنَافِقُ ۚ فَبَلَاءٌ مِمَّا نَنْزِلُوهُمْ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ .

يقول تعالى منبهاً على أنه بعيد الخلائق يوم القيامة، وأن ذلك سهل عليه، يسير لديه - بأنه خلق السموات والأرض، وخلقهم أكبر من خلق الناس بداية وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأخرى، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لَهُنَّ بَدَلًا ۚ يَقْدِرْ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ الْإِنْسَانَ ۖ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٣٢﴾﴾ [الاحقاف: ٣٣]. وقال هاهنا: ﴿لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾؛ فلماذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها، كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله خلق السموات والأرض، وينكرون المعاد، استبعاداً وكفراً وعناداً، وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا. ثم قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُنَافِقُ ۚ أَي: كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار، ﴿قَدْ خَلَتْ مِن عِبَادِي وَخَيْرَ مِمَّا لَكَ الْكَافِرُونَ﴾ أَي: ما أقل ما يتذكر كثير من الناس. ثم قال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ﴾ أَي: لكائنة وواقعة، ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَي: لا يصدقون بها، بل يكذبون بوجودها. قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا أشهب، حدثنا مالك، عن شيخ قديم من أهل اليمن - قدم من ثم - قال: سمعت أن الساعة إذا دنت اشتد البلاء على الناس، واشتد حر الشمس.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ .

هذا من فضله، تبارك وتعالى، وكرمه: أنه ندب عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة، كما كان سفيان الثوري يقول: يا مَنْ أَحَبَّ عِبَادَهُ إِلَيْهِ مَنْ سَأَلَهُ فَأَكْثَرَ سَوَالَهُ، وَبَا مِنْ أَبْغَضَ عِبَادَهُ إِلَيْهِ مَنْ لَمْ يَسْأَلِهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ غَيْرُكَ يَا رَبِّ. رواه ابن أبي حاتم. وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

اللُّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرْتَحَتْ سُؤَالُهُ وَنُفِي آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ
وقال قتادة: قال كعب الأحبار: أعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم تُعطهن أمة قبلهم إلا نبي: كان إذا أرسل الله نبياً قيل له: «أنت شاهد على امتك»، وجعلتكم شهداء على الناس. وكان يقال له: «ليس عليك في الدين من حرج». وقال لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. وكان يقال له: «ادعني أستجب لك» وقال لهذا الأمة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ رواه ابن أبي حاتم. وقال الإمام الحافظ أبو يعلى: أحمد بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده: حدثنا أبو إبراهيم الترمذاني، حدثنا صالح المري قال: سمعت الحسن يحدث عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ - فيما يروي عن ربه ﷻ - قال: «أربع خصال، واحدة منهن لي، وواحدة لك، وواحدة فيما بيني وبينك، وواحدة فيما بينك وبين عبادي: فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً، وأما التي لك علي فما عملت من خير جزيتك به، وأما التي بيني وبينك: فمنك الدعاء وعلي الإجابة، وأما التي بينك وبين عبادي: فأرض لهم ما ترضى لنفسك».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن ذر، عن يُسَيع الكندي، عن النعمان بن بشير، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾. وهكذا رواه أصحاب السنن: الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، وابن جرير، كلهم من حديث الأعمش، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن جرير أيضاً، من حديث شعبة، عن منصور، عن ذر، به. وأخرجه الترمذي أيضاً من حديث الثوري، عن منصور والأعمش، كلاهما عن ذر، به. ورواه ابن حبان والحاكم في صحيحيهما، وقال الحاكم: صحيح الإسناد. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثني أبو مليح المدني - شيخ من أهل المدينة - سمعه عن أبي صالح، وقال مرة: سمعت أبا صالح يحدث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يدع الله، غضب الله عليه». تفرد به أحمد، وهذا إسناد لا بأس به. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا مروان الفزاري، حدثنا صُبَيْح أبو المليح: سمعت أبا صالح يحدث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يسأله يغضب عليه». قال ابن معين: أبو المليح هذا اسمه: صُبَيْح. كذا قيده بالضم عبد الغني بن سعيد. وأما أبو صالح هذا فهو الخُوزي، سكن شَيْبَ الخوز. قاله البزار في مسنده. وكذا وقع في روايته أبو المليح الفارسي، عن أبي صالح الخُوزي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يسأل الله يغضب عليه». وقال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن

﴿١١﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ إِلَّا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْيَسْتَنْتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي

خَلَقَكُمْ مِنْ رُأْسٍ ثُمَّ يَنْفَعُهُمْ مِنْ طَفَافِهِمْ إِنَّ عَلَاقَهُمْ بِمَحْرَجِهِمْ لَعَلَّامٌ لَمَّا خَلَقَكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُوَكُمْ شَيْئًا مِنْكُمْ وَأَنْ يَقُولَ مِنْ قَبْلِ وَابِلًا لِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرُ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٧٨﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله ينهى أن يُعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان. وقد بين تعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه، في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رُأْسٍ ثُمَّ يَنْفَعُهُمْ مِنْ طَفَافِهِمْ إِنَّ عَلَاقَهُمْ بِمَحْرَجِهِمْ لَعَلَّامٌ لَمَّا خَلَقَكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُوَكُمْ شَيْئًا مِنْكُمْ وَأَنْ يَقُولَ مِنْ قَبْلِ وَابِلًا لِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: هو الذي يقلبكم في هذه الأطوار كلها، وحده لا شريك له، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله، ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَقَّعُ مِنْ قَبْلٍ﴾ أي: من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم، بل تسقطه أمه سقطاً، ومنهم من يتوفى صغيراً، وشاباً، وكهلاً قبل الشيخوخة، كقوله: ﴿لَنُكَبِّرَنَّكُمْ وَلَنُفَرِّغَنَّ فِي الْأَسْبَابِ مَا تَشَاءُونَ لِمَا أَجَلِي شَيْئًا﴾ [الحج: ٥] وقال هاهنا: ﴿وَلَنَكَلِمَنَّ تَقَالُوتَ﴾، قال ابن جريج، تذكرون البعث. ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المتفرد بذلك، لا يقدر على ذلك أحد سواه، ﴿فَإِذَا قُضِيَ أَمْرُ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: لا يخالف ولا يمانع، بل ما شاء كان لا محالة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِرُسُلِنَا ثُمَّ كَانُوا فِي الْكُفْرِ وَكَانُوا مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [٧٩] الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا سَوَفَ يَكْفُرُونَ ﴿٨٠﴾ إِذِ الْأَغْطَلُ فِي أَغْنِيَتِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٨١﴾ فِي الْعَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٨٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ شُرَكَاءُ مَا تَشْكُرُونَ ﴿٨٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا سَلُوا عَنَّا بَلْ لَوْ كُنَّا نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٨٤﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَتَرَفَعُونَ ﴿٨٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٨٦﴾.

يقول تعالى: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله، ويجادلون في الحق والباطل، كيف تُصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال، ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ أي: من الهدى والبيان، ﴿سَوَفَ يَكْفُرُونَ﴾: هذا تهديد شديد، ووعد أكيد، من الرب، جل جلاله، لهؤلاء، كما قال تعالى: ﴿قَوْلًا يَوْمَهُ لِلْمُذَكِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥]. وقوله: ﴿إِذِ الْأَغْطَلُ فِي أَغْنِيَتِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ أي: متصلة بالأغلال، بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم، تارة إلى الحميم وتارة إلى الحميم؛ ولهذا قال: ﴿يُسْجَرُونَ فِي الْعَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [٧٩]، كما قال: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُتَكِبُونَ﴾ [٨٣] يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آخٍ ﴿٨٤﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]. وقال بعد ذكره أكلهم الزقوم وشربهم الحميم: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَكِلَى الْحَمِيمِ﴾ [الصفات: ٦٨] وقال: ﴿وَاصْبِرْ الْفِتَالِ مَا أَصْحَبَ الْفِتَالِ ﴿٨١﴾ فِي سَوَاءٍ وَحْمِيرٍ ﴿٨٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُورٍ ﴿٨٣﴾ لَا يُبَرِّدُ وَلَا يُكْرِمُ ﴿٨٤﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ إِيَّاهُ النَّارُ الْكَلْبُورُ ﴿٨٥﴾ لَأَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُفَيْرٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا بَنَى الْبَلْعُونَ ﴿٨٧﴾ فَتَرَوْنَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّعِيمِ ﴿٨٨﴾ فَتَرَوْنَ شَرْبَ اللَّعِيمِ ﴿٨٩﴾ مِمَّا تَزَكَّمُ بِمِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ [الرافعة: ٤١-٥٦]. وقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ ﴿٩٢﴾ لَطَعَامُ الْآثِمِينَ ﴿٩٣﴾ كَاللَّهْلِ يَبْقَى فِي الْبَطْنِ ﴿٩٤﴾ كَقُلِّ الْحَمِيمِ ﴿٩٥﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءٍ الْحَمِيمِ ﴿٩٦﴾ ثُمَّ سُبُوهُ قَوْلَ زَائِمِهِ مِّنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٩٧﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٩٨﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الدخان: ٤٣-٥٠]، أي: يقال لهم ذلك على وجه التفرقة والتوبيخ، والتحقير والتصغير، والتهكم والاستهزاء بهم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا منصور بن عمار، حدثنا بشير بن طلحة الخزاعي، عن خالد بن ذريك، عن يعلي بن مثنى - رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ - قال: «ينشئ الله سبحانه لأهل النار سوداء مظلمة، ويقال: يا أهل النار، أي شيء تطلبون؟ فيذكرون بها سحاب الدنيا فيقولون: نسأل بَرْدَ الشراب، فتمطرهم أغلا لا تزيد في أغلالهم، وسلاسل تزيد في سلاسلهم، وجرماً تُلْهَبُ النار عليهم». هذا حديث غريب.

وقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ شُرَكَاءُ مَا تَشْكُرُونَ﴾ [٧٩] مِنْ دُونِ اللَّهِ، أي: قيل لهم: أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ هل ينصرونكم اليوم؟ ﴿قَالُوا سَلُوا عَنَّا﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعونا، ﴿بَلْ لَوْ كُنَّا نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ أي: جحدوا عبادتهم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَوْ كُنَّا نَدْعُو مِنْ قَبْلُ لَنَدْعُوهُنَّ إِنَّ أَنْفُسَنَا مِمَّا نَكْفُرُ﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾. وقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَتَرَفَعُونَ﴾ [٨٤]، أي: تقول لهم الملاذبة: هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق، ومرحكم وأسرهم وبطركم، ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [٨٦].

أي: فبئس المنزل والمَقِيلُ الذي فيه الهوان والعذاب الشديد، لمن استكبر عن آيات الله، واتباع دلائله وحججه. ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ قَبْلًا تَرَىٰكَ بَعْضَ الَّذِي تَدْعُهُمْ أَوْ تَوَفِّيكَ﴾ [٧٧] فَإِنَّمَا أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فَيُفْجِئُ بِالْحَقِّ وَخَيْرَ هَؤُلَاءِ الْمُطِيلُونَ ﴿٧٨﴾.

يقول تعالى أمراً رسولاً، صلوات الله وسلامه عليه، بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه؛ فإن الله سينجز لك ما وعدك من

النصر والظفر على قومك، وجعل العقابة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة، ﴿فَكَيْفَ تَتَرْتَّبُكَ بَعْضَ الَّذِي تَدْعُهُمْ﴾ أي: في الدنيا. وكذلك وقع، فإن الله أقر أعينهم من كبرائهم وعظماهم، أبيدوا في يوم بدر. ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في أيام حياته ﷺ. وقوله: ﴿أَوْ تَتَوَفَّيْنَاكَ فَإِنَّا بَرِّحُومُونَ﴾ أي: فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة. ثم قال مسلياً له: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنهٗمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنهٗم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ كما قال في سورة النساء سواء، أي: منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت للرسول العقابة، والنصرة، ﴿وَمِنهٗم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف، كما تقدم التنبيه على ذلك في سورة النساء، والله الحمد والمنة. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَك بِكَآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات، إلا أن يأذن الله له في ذلك، فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾: وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿يَقْضِ بِالْحَقِّ﴾، فينجو المؤمنون، ويهلك الكافرون؛ ولهذا قال: ﴿وَحَسِرَ هَٰذَاكَ الْكَاطِبُونَ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْفُسَ لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَىٰ الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَتُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (٨١).

يقول تعالى ممثلاً على عباده، بما خلق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٦٧]، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب، ويحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة. والبقر تؤكل، ويشرب لبنها، وتحترث عليها الأرض. والغنم تؤكل، ويشرب لبنها. والجميع تجزأ أصوافها وأشعارها وأوبارها، فيتخذ منه الأثاث والثياب والأمتعة، كما فُضِّلَ وَبَيَّنَّ في أماكن تقدم ذكرها في «سورة الأنعام»، و«سورة النحل»، وغير ذلك؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَىٰ الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ (٨٠). وقوله: ﴿وَتُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ أي: حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم، ﴿فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾؟ أي: لا تقدرُونَ على إنكار شيء من آياته، إلا أن تعاندوا وتكابروا.

﴿أَلَمْ يَجْعَلِ فِي الْأَرْضِ مَنَظَرًا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاتَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْغَيْرِ وَخَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَايَاتُنَا بِأَلْفِ اللَّهِ وَحَدُّهَا كَمَا كُنَّا بِهٖ مُّشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَبَّ اللَّهُ الَّذِي قَدْ خَلَقَ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هَٰذَاكَ الْكَافِرُونَ (٨٥).

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسول في قديم الدهر، وماذا حل بهم من العذاب الشديد، مع شدة قواهم، وما أثروه في الأرض، وجمعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً، ولا رد عنهم ذرة من بأس الله؛ وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، لم يلتفتوا إليهم، ولا أقبلوا عليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل. قال مجاهد: قالوا: نحن أعلم منهم، لن نبعث ولن نعذب. وقال السدي: فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم، فاتاهم من بأس الله ما لا يقبل لهم به. ﴿وَخَافَ بِهِمْ﴾ أي: أحاط بهم، ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: يكذبون ويستبعدون وقوعه. ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عاينوا وقوع العذاب بهم، ﴿قَالُوا ءَايَاتُنَا بِأَلْفِ اللَّهِ وَحَدُّهَا كَمَا كُنَّا بِهٖ مُّشْرِكِينَ﴾ أي: وحدوا الله وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا نقال العثرات، ولا تنفع المعذرة. وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿ءَايَاتُ اللَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ءَايَاتُنَا قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْفٰسِقِينَ﴾ (٨٦) [يونس: ٩١] أي: فلم يقبل الله منه؛ لأنه قد استجاب لنبيه موسى دعاءه عليه حين قال: ﴿وَأَشَدُّ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]. وهكذا هاهنا قال: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَبَّ اللَّهُ الَّذِي قَدْ خَلَقَ فِي عِبَادِهِ﴾ أي: هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب: أنه لا يقبل؛ ولهذا جاء في الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» أي: فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة، وعاین الملك، فلا توبة حينئذ؛ ولهذا قال: ﴿وَحَسِرَ هَٰذَاكَ الْكَافِرُونَ﴾.

آخر تفسير سورة غافر،

وشه الحمد والمنة



تفسير سورة فصلت

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَيِّنَاتٍ وَذِكْرًا فَاعِظًا ۝ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا ثُلُوثًا فِي أَكْثَرِهِمْ مِمَّا دَعَوْنَا إِلَيْهِ ۝ وَإِنَّا لَخَائِفُونَ ۝ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمِزْ إِنَّا عَوِّلُونَ ۝﴾ .

يقول تعالى: ﴿حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝﴾ يعني: القرآن منزل من الرحمن الرحيم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَزَّلْنَاهُ بِرَبِّ الْغَايِبِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۝﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤]. وقوله: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي: بُيِّنَتْ معانيه وأحكامه، ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: في حال كونه لفظاً عربياً، بيئاً واضحاً، فمعانيه مفصلة، وألفاظه واضحة غير مشككة، كقوله: ﴿كِتَابٌ أُخْبِتْ آيَاتُهُ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝﴾ [فصلت: ٤٢]. وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون، ﴿بَيِّنَاتٍ وَذِكْرًا﴾ أي: تارة يبشر المؤمنين، وتارة ينذر الكافرين، ﴿فَاعِظٌ أَعَزُّهُمْ هُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: أكثر قريش، فهم لا يفهمون منه شيئاً مع بيانه ووضوحه، ﴿وَقَالُوا ثُلُوثًا فِي أَكْثَرِهِمْ﴾ أي: في غلف مغطاة ﴿مِمَّا دَعَوْنَا إِلَيْهِ ۝ وَإِنَّا لَخَائِفُونَ﴾ أي: صمم عما جئنا به، ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ فلا يصل إلينا شيء مما تقول، ﴿فَاغْمِزْ إِنَّا عَوِّلُونَ﴾ أي: اعمل أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا لا نتابعك. وقال الإمام العَلَمُ عبد بن حُمَيد في مسنده: حدثني ابن أبي شيبه، حدثنا علي بن مُسَهر، عن الأجلح، عن الذَّيَّال بن حَزْمَةَ الأسدي، عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، قال: اجتمعت قريش يوماً فقالوا: انظروا أَعْلَمَكُمْ بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا، وشئت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه ولننظر ماذا يرد عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة. قالوا: أنت يا أبا الوليد. فأتاه عتبة فقال: يا محمد، أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عُبِتْ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، وإنا والله ما رأينا سَخْلَةً قط أشأم على قومك منك؛ فرقت جماعتنا، وشئت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً! والله ما نلحظ إلا مثل صبيحة الخُبْلَى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيف، حتى تنفاني! أيها الرجل، إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً، وإن كان إنما بك الباء فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً. فقال رسول الله ﷺ: ﴿فَرَعُوتُ؟﴾ قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: ﴿يَسِّرْ لَنَا الْكَيْدَ الرَّجِيمَ ۝﴾ ﴿حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝﴾ حتى بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَبَغَةً يَنْتَلِ صَبَغَةً عَادَ وَثُمُودَ ۝﴾. فقال عتبة: حسبك! حسبك! ما عندك غير هذا؟ قال: ﴿لَا﴾. فرجع إلى قريش، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمون به إلى كلمته. قالوا: فهل أجابك؟ قال: نعم، قالوا: فما قال؟ قال: لا، والذي نصبها بَنِيَّ ما فهمت شيئاً مما قال، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. قالوا: ويلك! يكلّمك الرجل بالعربية ما تدري ما قال؟! قال: لا، والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة. وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده، عن أبي بكر بن شيبه بإسناده، مثله سواء. وقد ساقه البغوي في تفسيره بسنده عن محمد بن فضيل، عن الأجلح - وهو ابن عبد الله الكندي الكوفي - وقد ضَعَفَ بعض الشيء عن الذَّيَّال بن حزملة، عن جابر، فذكر الحديث إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَبَغَةً يَنْتَلِ صَبَغَةً عَادَ وَثُمُودَ ۝﴾. فأمسك عتبة على فيه، وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم. فقال أبو جهل: يا معشر قريش، والله ما نرى عتبة إلا قد صَبَا إلى محمد، وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة قد أصابته، فانطلقوا بنا إليه. فانطلقوا إليه فقال أبو جهل: يا عتبة، ما حسبك عنا إلا أنك صبرت إلى محمد وأعجبت طعامه، فإن كانت لك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد. فغضب عتبة، وأقسم ألا يكلم محمداً أبداً، وقال: والله، لقد علمت أني من أكثر قريش مالاً، ولكني أتيتُه وقصصت عليه القصة فأجابني بشيء والله ما

هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صِغَةً مِثْلَ صِغَةِ عَادٍ وَتَضَوُّوا﴾ (١٣)، فأمسكت فيه، وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب. وهذا السياق أشبه من سياق البزار وأبي يعلى، والله أعلم.

وقد أورد هذه القصة الإمام محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب السيرة على خلاف هذا النمط، فقال: حدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي قال: حَدَّثْتُ أَنْ عَتَبَةَ بِنَ رَبِيعَةَ - وَكَانَ سَيِّدًا - قَالَ يَوْمًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قُرَيْشٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحْدَهُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَلَا أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأَكَلِمُهُ وَأَعْرِضُ عَلَيْهِ أُمُورًا لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضُهَا، فَتَنْعِيهِ أَيُّهَا شَاءَ وَيَكْفِ عَنَّا؟ وَذَلِكَ حِينَ أَسْلَمَ حَمْزَةُ، وَرَأَوْا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَزِيدُونَ وَيَكْثُرُونَ، فَقَالُوا: بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ، فَقَمِ إِلَيْهِ فَكَلِمُهُ. فَقَامَ إِلَيْهِ عَتَبَةُ حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّكَ مَنَا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنَ السُّطَّةِ فِي الْعَشِيرَةِ، وَالْمَكَانِ فِي النَّسَبِ، وَإِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ قَوْمَكَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، فَفَرَقْتَ بِهِ جَمَاعَتَهُمْ، وَسَفَهْتَ بِهِ أَحْلَامَهُمْ، وَعَبْتَ بِهِ آلِهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ، وَكَفَرْتَ بِهِ مِنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ، فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عَلَيْكَ أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنَّا بَعْضُهَا. قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ، أَسْمَعْ». قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنْ كُنْتُ إِنَّمَا تَرِيدُ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَالًا، جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أُمُورِنَا حَتَّى تَكُونَ مِنْ أَكْثَرِنَا أُمُورًا. وَإِنْ كُنْتُ تَرِيدُ بِهِ شَرْفًا سَوْدَنَّاكَ عَلَيْنَا، حَتَّى لَا نَقْطَعَ أَمْرًا دُونَكَ. وَإِنْ كُنْتُ تَرِيدُ بِهِ مَلِكًا مَلِكَنَّاكَ عَلَيْنَا. وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ رِثْيًا تَرَاهُ لَا تَسْتَطِيعُ رَدَهُ عَنْ نَفْسِكَ، طَلَبْنَا لَكَ الطَّبَّ، وَبَذَلْنَا فِيهِ أُمُورِنَا حَتَّى نَبْرُثَكَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا غَلِبَ النَّاسُ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُدَارِيَ مِنْهُ - أَوْ كَمَا قَالَ لَهُ - حَتَّى إِذَا فَرَّغَ عَتَبَةُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَمِعُ مِنْهُ قَالَ: «أَفَرِغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟». قَالَ: نَعَمْ قَالَ: «فَاسْتَمِعْ مِنِّي» قَالَ: أَفْعَلْ. قَالَ: ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ الْمُكْرِبَ الرَّحِيمَ﴾ (١٤) ﴿حَمْدٌ لِلَّهِ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١٥) كِتَابٌ فَصَّلْتُ مَا بَيْنَهُمْ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٦) بَيِّنَاتٍ وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٧). ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهَا يَقْرُؤُهَا عَلَيْهِ. فَلَمَّا سَمِعَ عَتَبَةُ أَنْصَتَ لَهَا، وَالْقَى يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مَعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا يَسْمَعُ مِنْهُ، ثُمَّ انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّجْدَةِ مِنْهَا، فَسَجَدَ، ثُمَّ قَالَ: «قَدْ سَمِعْتُ يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتُ، فَأَنْتَ وَذَاكَ»، فَقَامَ عَتَبَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَقْسَمُ - يَحْلِفُ بِاللَّهِ - لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو الْوَلِيدِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ. فَلَمَّا جَلَسَ إِلَيْهِمْ قَالُوا: مَا وَرَاءُكَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟ قَالَ: وَرَائِي أَنِّي قَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَاللَّهُ مَا هُوَ بِالسَّحَرِ وَلَا بِالشَّعْرِ وَلَا بِالْكِهَانَةِ. يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَطِيعُونِي وَاجْعَلُوهَا لِي، خُلُوفًا بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ فَاعْتَزَلُوهُ، فَوَاللَّهِ لِيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي سَمِعْتُ نَبَأًا، فَإِنْ تَصَبَّهَ الْعَرَبُ فَقَدْ كَفَيْتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ، وَإِنْ يَظْهَرُ عَلَى الْعَرَبِ فَمُلْكُهُ مَلِكُكُمْ، وَعِزُّهُ عِزُّكُمْ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ. قَالُوا: سَحَرَكُمُ اللَّهُ يَا أَبَا الْوَلِيدِ بِلِسَانِهِ! قَالَ: هَذَا رَأْيِي فِيهِ، فَاصْنَعُوا مَا بَدَأَ لَكُمْ. وَهَذَا السِّبَاقُ أَشْبَهَ مِنَ الَّذِي قَبْلَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (١٨) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩)﴾ (٢٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢١)﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾، لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد، ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي: أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على السنة الرسل، ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: لسالف الذنوب، ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: دمار لهم هلاك عليهم، ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: الذي لا يشهدون أن لا إله إلا الله. وكذا قال عكرمة. وهذا كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٢٢) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (٢٣)﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وكقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٢٤) وَكَذَّبَ أَسَدَ رَبِّهِ فَفَلَّ (٢٥)﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقوله: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَّا أَنْ تَزَكَّاهَا (٢٦)﴾ [التازعات: ١٨]. والمراد بالزكاة هاهنا: طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك. وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام، وتكون سبباً لزيادته وبركته وكثرة نفعه، وتوفيقاً إلى استعماله في الطاعات. وقال السدي: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: الذين لا يدينون بالزكاة. وقال معاوية بن قرة: ليس هم من أهل الزكاة. وقال قتادة: يمنعون زكاة أموالهم. وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير. وفيه نظر؛ لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة، على ما ذكره غير واحد، وهذه الآية مكية، اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الزكاة الصدقة كان مأموراً به في ابتداء البعثة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فاما الزكاة ذات النصب والمقادير فلإنما بين أمرها بالمدينة، ويكون هذا جمعاً بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجباً قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابتداء البعثة، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف، فرض الله على رسوله ﷺ الصلوات الخمس، وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك، شيئاً فشيئاً، والله

عباس، وقناة، والسدي في قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ لِّلَّسَّالِينَ﴾ أي: لمن أراد السؤال عن ذلك. وقال ابن زيد: معناه ﴿وَقَدَّرَ فِيمَا أَقْوَمَتْهُ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءٌ لِّلَّسَّالِينَ﴾ أي: على وفق مراد من له حاجة إلى رزق أو حاجة، فإن الله قدر له ما هو محتاج إليه. وهذا

القول يشبه ما ذكره في قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتُكُمْ يَوْمَ كُنُفٍ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والله أعلم.
 وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾، وهو: بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض، ﴿فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضُ أَيْنَ أَنتِ يَا طَوْرًا أَوْ كَرَفًا﴾ أي: استجيبا لأمرى، وانفعلا لفعلي، طائعتين أو مكرهتين. قال الثوري، عن ابن جريج، عن سليمان بن موسى، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضُ أَيْنَ أَنتِ يَا طَوْرًا أَوْ كَرَفًا﴾ قال: قال الله تعالى للسماوات: أطلعي شمسي وقمرى ونجومى. وقال للأرض: شققي أنهارك، وأخرجي ثمارك. فقالتا: ﴿أَيْنَا طَائِفِينَ﴾. واختاره ابن جرير - رحمه الله.
 ﴿قَالَتَا أَيْنَا طَائِفِينَ﴾ أي: بل نستجيب لك مطعين بما فينا، مما تريد خلقه من الملائكة والإنس والجن جميعاً مطيعين لك. حكاه ابن جرير عن بعض أهل العربية، قال: وقيل: تنزيلاً لهن معاملة من يعقل بكلامهما. وقيل: إن المتكلم من الأرض بذلك هو مكان الكعبة، ومن السماء ما يسامته منها، والله أعلم. وقال الحسن البصري: لو أيا عليه أمره لعذبهما عذاباً يجدان ألمه. رواه ابن أبي حاتم. ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَعَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: ففرغ من تسويتهن سبع سموات في يومين، أي: آخرين، وهما يوم الخميس ويوم الجمعة. ﴿وَأَوْتَىٰ فِي كُلِّ سَبْعَةٍ أَمْرًا﴾ أي: ورتب مقررًا في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة، وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو، ﴿وَرَبَّاتِ السَّامَةِ الدُّنْيَا بِمَنْبِيجٍ﴾، وهن الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض، ﴿وَحِفْظًا﴾ أي: حرصاً من الشياطين أن تستمع إلى الملا الأعلى. ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي: العزيز الذي قد عز كل شيء فغلبه وقهره، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم. قال ابن جرير: حدثنا هناد بن السري، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبي سعيد البقال، عن عكرمة، عن ابن عباس - قال هناد: قرأت سائر الحديث - أن اليهود أتت النبي ﷺ فسألته عن خلق السماوات والأرض، فقال: «خلق الله الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيها من منافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب، فهذه أربعة» ﴿فَلِأَيِّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَتَعَلَّمُونَ لَهُ أَندَاكَ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رِجْسًا مِّنَ رِّجْسِ أَهْلِهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَوْفَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ آيَاتٍ سَوَاءٌ لِّلنَّاسِ لَئْسَ بِالْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿لَمَن سَأَلَ، قَالَ: «وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه، فخلق في أول ساعة من هذه الثلاثة الآجال، حين يموت من مات، وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء مما ينتفع به الناس، وفي الثالثة آدم، وأسكنه الجنة، وأمر إبليس بالسجود له، وأخرجه منها في آخر ساعة». ثم قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: «ثم استوى على العرش». قالوا: قد أصبت لو أنتمت! قالوا: ثم استراح. فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً: فنزل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّا مِنْ لَّيْلِ لَّيْلٍ فَاصْبِرْ عَلٰى مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٢٨]. هذا الحديث فيه غرابة. فاما حديث ابن جريج، عن إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»، فقد رواه مسلم، والنسائي في كتابيهما، عن حديث ابن جريج، به. وهو من غرائب الصحيح، وقد علَّله البخاري في التاريخ فقال: رواه بعضهم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن كعب الأحبار وهو الأصح.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صِغَةً مِّثْلَ صِغَةِ عَادٍ وَتَمُودَ﴾ ﴿١٥﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ وَبَنِي خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلُوا بِهِ كَاذِبُونَ﴾ ﴿١٦﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَن أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَّلَ بَرَاءَةٍ أَنَا اللَّهُ الَّذِي خَلَقْنَاهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْتَدُونَ﴾ ﴿١٧﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّيُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْفَرْقِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَثَرٌ وَمَنْ لَا يُصِرُّهُ﴾ ﴿١٨﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهَدْيِ فَأَخَذْتَهُمْ صِغَةً الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿١٩﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جنتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جنتكم به من عند الله، فإني أنذركم حلول نقمة الله بكم، كما حلت بالأمم الماضية من المكذبين بالمرسلين «صِغَةً مِّثْلَ صِغَةِ عَادٍ وَتَمُودَ» أي: ومن شاكلهما ممن فعل كفعلهما، ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ وَبَنِي خَلْفِهِمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ لَهَا عَادٌ إِذْ أُنذِرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذِيرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الاحقاف: ٢١] أي: في القرى المجاورة لبلادهم، بعث الله إليهم الرسل يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ومبشرين ومنذرين، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم، وما ألبس أوليائه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا، بل كذبوا وجحدوا، وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي: لو أرسل الله رسلاً لكانوا ملائكة من عنده، ﴿فَإِنَّا بِمَا

أَتَسْلِمُ بِهِ؟ أي: أيها البشر ﴿كُفِرُونَ﴾ أي: لا تتبعكم وأنتم بشر مثلنا. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: بغوا وعتوا وعصوا، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي: منوا بشدة تركيبيهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون به من بأس الله! ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة؟ فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وإن بطشه شديد، كما قال تعالى: ﴿وَالنَّمْلَ يَنْتَنها بِأَنْبِيئِهِمْ وَأَنَّا لَمُؤَيَّدُونَ﴾ [الدَّارِيَات: ٤٧]، فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته وعصوا رسوله، فلهذا قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قال بعضهم: وهي الشديدة الهبوب. وقيل: الباردة. وقيل: هي التي لها صوت. والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحاً شديدة قوية؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جداً، كقوله تعالى: ﴿يَرْيَحُ صَرْصِرًا عَلَيْنَا﴾ [الحاقة: ٦٠] أي: باردة شديدة، وكانت ذات صوت مزعج، ومنه سمي النهر المشهور ببلاد المشرق صرصراً، لقوة صوت جريه. وقوله: ﴿فِي آيَاتِهِ نَحْسَاتٌ﴾ أي: متتابعات، ﴿سَمِعَ لَيَالٍ وَكَفَيِّنَةٌ آيَاتِهِ خُشُوعًا﴾ [الحاقة: ٧]، كقوله: ﴿فِي يَوْمٍ نَخَسُ مَسْتَمِرًّا﴾ [القمر: ١٩] أي: ابتدئوا بهذا العذاب في يوم نحس عليهم، واستمر بهم هذا النحس سبع ليال وثمانية أيام، حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَثَرُ﴾ أي: أشد خزياً لهم، ﴿وَعَمَّ لَا يُصْرُونَ﴾ أي: في الأخرى، كما لم ينصروا في الدنيا، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب ويدراً عنهم النكال. وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ قال ابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جبير، وقتادة، والسدي، وابن زيد: بينا لهم. وقال الثوري: دعوانهم. ﴿فَاسْتَجَبُوا أَمْرًا عَلَى الْمَذَكِّ﴾ أي: بصرانهم، وبيننا لهم، ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح ﷺ، فخالقوه وكذبوه، وعقروا ناقة الله التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ﴾ أي: بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلاً وهواناً وعذاباً ونكالا، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: من التكذيب والجحود. ﴿وَنَحْنُ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ﴾ أي: من بين أظهرهم، لم يمسه سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله مع نبيهم صالح عليه السلام بإيمانهم، وتقواهم لله ﷻ.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [١٩] حَقَّ إِذَا مَا جَاءَهُمَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَسُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِمَ لُجُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِنْ تَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَشِيرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكَ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ فَاصْبِرْ لِمَ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمَعْنِيِّينَ ﴿٢٤﴾.

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [١٩] أي: اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار، ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِثَ الْمُشْكِرِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَذَكَ﴾ [مریم: ٨٦] أي: عطاشاً. وقوله: ﴿حَقَّ إِذَا مَا جَاءَهُمَا﴾ أي: وقفوا عليها، ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَسُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بأعمالهم مما قدموه وأخروه، لا يكتُم منه حرف. ﴿وَقَالُوا لِمَ لُجُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُ عَلَيْنَا؟﴾ أي: لا موا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء: ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: فهو لا يخالف ولا يمانع، وإليه يرجعون. قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا علي بن قادم، حدثنا شريك، عن عبيد المكنب، عن الشعبي، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم، فقال: «ألا تسألوني عن أي شيء ضحكتم؟» قالوا: يا رسول الله، من أي شيء ضحكتم؟ قال: «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: أي ربي، أليس وعدتني ألا تظلمني؟ قال: بلى، فيقول: فإني لا أقبل عليّ شاهداً إلا من نفسي. فيقول الله تبارك وتعالى: أو ليس كفى بي شهيداً، وبالملائكة الكرام الكاتبين؟ قال: فيردد هذا الكلام مراراً». قال: «فيختم على فيه، وتتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بعداً لَكُنْ وسُحْقاً، عنك كنت أجادل». ثم رواه هو وابن أبي حاتم، من حديث أبي عامر الأسدي، عن الثوري، عن عبيد المكنب، عن فضيل بن عمرو، عن الشعبي ثم قال: «لا نعلم رواه عن أنس غير الشعبي». وقد أخرجه مسلم والنسائي جميعاً عن أبي بكر بن أبي النضر، عن أبي النضر، عن عبيد الله بن عبد الرحمن الأشجعي، عن الثوري، به. ثم قال النسائي: «لا أعلم أحداً رواه عن الثوري غير الأشجعي». وليس كما قال كما رأيت، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا إسماعيل بن عُليّة، عن يونس ابن عُبيد، عن حميد بن هلال قال: قال أبو بزة: قال أبو موسى: ويدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض عليه ربه ﷻ عمله، فيجحد ويقول: يا رب، وعزتك لقد كتب على هذا الملك ما لم أعمل! فيقول له الملك: أما عملت كذا، في يوم كذا، في مكان كذا؟ فيقول: لا

وعزتك، أي رب ما عملته. قال: فإذا فعل ذلك خُتِمَ على فيه - قال الأشعري: فأني لأحسب أول ما ينطق منه فخذة اليمنى. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زهير، حدثنا حسن، عن ابن لهيعة: قال ذراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة عُزِفَ الكافر بعمله، فجحد وخاصم، فيقال: هؤلاء جيرانك، يشهدون عليك؟ فيقول: كذبوا. فيقول: أهلك وعشيرتك؟ فيقول: كذبوا. فيقول: احلفوا. فيحلفون، ثم يصمتهم الله وتشهد عليهم السننهم، ويدخلهم النار». وقال ابن أبي حاتم: وحدثنا أبي، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث: سمعت أبي: حدثنا علي بن زيد، عن مسلم بن ضبيح أبي الضحى، عن ابن عباس: أنه قال لابن الأزرق: إن يوم القيامة يأتي على الناس منه حين، لا ينطقون ولا يعتذرون ولا يتكلمون حتى يؤذن لهم، ثم يؤذن لهم فيختصمون، فيجحد الجاحد بشركه بالله، فيحلفون له كما يحلفون لكم، فيبعث الله عليهم حين يجحدون شهداء من أنفسهم، جلودهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم، ويختتم على أفواههم، ثم يفتح لهم الأفواه فتخاصم الجوارح، فتقول: ﴿أَطَعْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِيكَ تُرْجَعُونَ﴾، فتقر الألسنة بعد الجحود. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عبدة بن سليمان، حدثنا ابن المبارك، حدثنا صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جبير الحضرمي، عن رافع أبي الحسن - وصف رجلاً جحد - قال: فيشير الله إلى لسانه، فيربو في فمه حتى يملأه، فلا يستطيع أن ينطق بكلمة، ثم يقول لأرأيه كلها: تكلمي واشهدي عليه. فيشهد عليه سمعه وبصره وجلده، وفرجه ويده وأرجلاه: صنعنا، عملنا، فعلنا. وقد تقدم أحاديث كثيرة، وآثار عند قوله تعالى في سورة يس: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ١٠٥]، بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقال ابن أبي حاتم - رحمه الله -: حدثنا أبي، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا يحيى بن سليم الطائفي، عن ابن خُثَيْم، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله قال: لما رجعت إلى النبي ﷺ مهاجرة البحر قال: «ألا تحدثون بأعاجيب ما رأيت بأرض الحبشة؟» فقال فتية منهم: بلى يا رسول الله، بينا نحن جلوس إذ مرت علينا عجوز من عجائز رهايينهم، تحمل على رأسها قلة من ماء، فمرت بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كتفيها، ثم دفعها فخرت على ركبتيها، فانكسرت قلتها. فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت: سوف تعلم يا عُذْر، إذا وضع الله الكرسي، وجمع الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غدا؟ قال: يقول رسول الله ﷺ: «صَدَقْتُ، وصدق، كيف يُقدِّس الله قوماً لا يؤخذ لضعفهم من شديدهم؟». هذا حديث غريب من هذا الوجه، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأهوال: أخبرنا إسحاق بن إبراهيم قال: أخبرنا يحيى بن سليم، به. وقوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَنْهَكَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي: تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم: ما كنتم تتكلمون منا الذي كنتم تفعلونه، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي، ولا تبالون منه في زعمكم؛ لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَحْكُمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكَ ظَنُّكَ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ؟﴾ أي: هذا الظن الفاسد - وهو اعتقادكم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون - هو الذي أتلّفكم وأرداكم عند ربكم، ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: في مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهلكم. قال الإمام أحمد - رحمه الله -: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمار، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله قال: كنت مستترأ بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر: قرشي، وختناه ثقفيان - أو: ثقف وختناه قرشيان - كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال: الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه، وإذا لم نرفعه لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئاً سمعه كله. قال: فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَنْهَكَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. وكذا رواه الترمذي عن هناد، عن أبي معاوية، بإسناده نحوه. وأخرجه أحمد ومسلم والترمذي أيضاً، من حديث سفيان الثوري، عن الأعمش، عن عمار بن عمير، عن وهب بن ربيعة، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، بنحوه.

ورواه البخاري ومسلم أيضاً، من حديث السفيانيين، عن منصور، عن مجاهد، عن أبي معمر عبد الله بن سَجْبَرَة، عن ابن مسعود، به. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿أَنْ يَنْهَكَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ قال: «إنكم تدعون مُقَدِّمًا على أفواهكم بالقدم، فأول شيء يبين عن أحدكم فخذة وكفه». قال معمر: وتلا الحسن: ﴿وَذَلِكَ ظَنُّكَ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ؟﴾، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: أنا مع عبدي عند ظنه بي، وأنا معه إذا دعاني»، ثم أقر الحسن ينظر في هذا، فقال: ألا إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم، فأما المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وأما الكافر والمنافق فأساء الظن بالله فأساء العمل. ثم قال: قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ

تَسْتَعِينُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ» إلى قوله: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا النضر بن إسماعيل القاص - وهو أبو المغيرة - حدثنا ابن أبي ليلى، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن، فإن قوماً قد أَرَادَهُمْ سُوءُ ظَنِّهِمْ بِاللَّهِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾. وقوله: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَكُمْ وَإِنْ يَسْتَعِينُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْعَمَلِ ﴿٢٦﴾﴾ أي: سواء عليهم أصبروا أم لم يصبروا هم في النار، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها. وإن طلبوا أن يستعينوا ويبدوا أعذاراً فما لهم أعذار، ولا تُقال لهم عثرات. قال ابن جرير: ومعنى قوله: ﴿فَإِنْ يَسْتَعِينُوا﴾ أي: يسألوا الرجعة إلى الدنيا، فلا جواب لهم - قال: وهذه كقوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿٢٧﴾﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ قَالَ اخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٦-١٠٨].

﴿وَقَسَمْنَا لَكُمُ الْقُرْآنَ قُرْآنًا لَعْنًا لِمَنْ كَفَرَ لَمْ يَسْمَعْوَ لِمَا الْقُرْآنَ وَالْقَوَا فِيهِ لَمَّا كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ عِبَادِهِ اللَّهُ النَّارُ لَكُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِنَا يَجْعَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا اللَّهَ الَّذِينَ آتَيْنَا مِنْ الْإِنْسِ جَعَلَهُمَا نَحْتِ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَشْقَالِ ﴿٢٩﴾﴾.

يذكر تعالى أنه هو الذي أضل المشركين، وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته، وهو الحكيم في أفعاله، بما قَبِضَ لهم من القرآن من شياطين الإنس والجن: ﴿فَرِيقًا لَمْ يَأْتِنَ أَيْدِيَهُمْ وَمَا خَلَفَهُمْ وَرَحَى عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِمَا الْقُرْآنَ وَالْقَوَا فِيهِ لَمَّا كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ عِبَادِهِ اللَّهُ النَّارُ لَكُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِنَا يَجْعَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا اللَّهَ الَّذِينَ آتَيْنَا مِنْ الْإِنْسِ جَعَلَهُمَا نَحْتِ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَشْقَالِ ﴿٢٩﴾﴾. كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ يَقْبِضْ لَمْ يَسْمَعْوَ لِمَا الْقُرْآنَ وَالْقَوَا فِيهِ لَمَّا كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ وَاللَّهُ يَسْمَعُ عَنِ السَّيْلِ وَيَخْتَصِمُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧]. وقوله تعالى: ﴿رَحَى عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ أي: كلمة العذاب كما حق على أمة قد خلت من قبلهم، ممن فعل كفعلهم، من الجن والإنس، إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أي: استَوُوا هم وإياهم في الخسار والدمار. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِمَا الْقُرْآنَ وَالْقَوَا فِيهِ﴾ أي: تواسوا فيما بينهم ألا يطيعوا للقرآن، ولا يتقادوا لأوامره، ﴿وَالْقَوَا فِيهِ﴾ أي: إذا تلي لا تستمعوا له. كما قال مجاهد: ﴿وَالْقَوَا فِيهِ﴾ يعني: بالمكاء والصغير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن فريش تفعله. وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَالْقَوَا فِيهِ﴾: عيبوه. وقال قتادة: اجحدوا به، وأنكروه وعادوه. ﴿لَمَّا كَفَرُوا عَادُوا﴾. هذا حال هؤلاء الجبهة من الكفار، ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن. وقد أمر الله - سبحانه - عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢١٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ثم قال تعالى: منتصراً للقرآن، ومنتقماً ممن عاداه من أهل الكفران: ﴿فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: في مقابلة ما اعتمدوه في القرآن وعند سماعه، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بشر أعمالهم، وسبى أعمالهم ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ عِبَادِهِ اللَّهُ النَّارُ لَكُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِنَا يَجْعَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا اللَّهَ الَّذِينَ آتَيْنَا مِنْ الْإِنْسِ جَعَلَهُمَا نَحْتِ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَشْقَالِ ﴿٢٩﴾﴾. قال سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن مالك بن الحصين الفزاري، عن أبيه، عن علي، رضي الله عنه، في قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَا مِنْ الْإِنْسِ﴾ قال: إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه. وهكذا رواه حبة الغرني عن علي، مثل ذلك. وقال السدي، عن علي: فإبليس يدعو به كل صاحب شرك، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة، فإبليس - لعنه الله - هو الداعي إلى كل شر من شرك فما دونه، وابن آدم الأول. كما ثبت في الحديث: «ما قتلت نفس ظمناً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل». وقوله: ﴿يَجْعَلُهُمَا نَحْتِ أَقْدَامِنَا﴾ أي: أسفل منا في العذاب ليكونا أشد عذاباً منا؛ ولهذا قالوا: ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَشْقَالِ﴾ أي: في الدرك الأسفل من النار، كما تقدم في الأعراف من سؤال الأنبياء من الله أن يعذب قاداتهم أضعاف عذابهم، قال: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَقْلُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي: إنه تعالى قد أعطى كل منهم ما يستحقه من العذاب والنكال، بحسب عمله وإفساده، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ يَمَّا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَانُوا يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ اللَّهِ فِي أُمَمٍ خَالِدَةٍ مِنْهُمْ لَمْ يَنْصَرُوا إِلَيْهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢١١﴾﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا اللَّهَ الَّذِينَ آتَيْنَا مِنْ الْإِنْسِ جَعَلَهُمَا نَحْتِ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَشْقَالِ ﴿٢٩﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَانُوا يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ اللَّهِ فِي أُمَمٍ خَالِدَةٍ مِنْهُمْ لَمْ يَنْصَرُوا إِلَيْهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢١١﴾﴾. قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا الجراح، حدثنا سلم بن قتيبة أبو قتيبة الشعميري، حدثنا سهيل بن أبي حزم، حدثنا ثابت، عن أنس بن مالك قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَانُوا يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ اللَّهِ فِي أُمَمٍ خَالِدَةٍ مِنْهُمْ لَمْ يَنْصَرُوا إِلَيْهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، قد قالها ناس ثم

كفر أكثرهم، فمن قالها حتى يموت فقد استقام عليها. وكذا رواه النسائي في تفسيره، والبخاري وابن جرير، عن عمرو بن علي الفلاس، عن سلم بن قتيبة به. وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن الفلاس به، ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن عامر بن سعد، عن سعيد بن نمران قال: قرأت عند أبي بكر الصديق هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا﴾ قال: هم الذين لم يشركوا بالله شيئاً. ثم روى من حديث الأسود بن هلال قال: قال أبو بكر، رضي الله عنه: ما تقولون في هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا﴾؟ قال: فقالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا﴾: من ذنب. فقال: لقد حملتموها على غير المحمل، ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا﴾ فلم يلتفتوا إلى إله غيره. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والسدي، وغير واحد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهراني، أخبرنا حفص بن عمر العدني، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: سئل ابن عباس، رضي الله عنهما: أي آية في كتاب الله أرخص؟ قال: قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله. وقال الزهري: تلا عمر هذه الآية على المنبر، ثم قال: استقاموا - والله - بطاعته، ولم يروغوا وروغان الثعالب. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا﴾ على أداء فرائضه. وكذا قال قتادة، قال: وكان الحسن يقول: اللهم، أنت ربنا، فارزقنا الاستقامة. وقال أبو العالية: ﴿ثُمَّ اسْتَفْتَوْا﴾: أخلصوا له العمل والدين. وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْمٌ، حدثنا يعلى بن عطاء، عن عبد الله بن سفيان الثقيفي، عن أبيه: أن رجلاً قال: يا رسول الله، مرني بأمر في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: «قل: آمنت بالله، ثم استقم». قلت: فما أتقي؟ فأومأ إلى لسانه. ورواه النسائي من حديث شعبة، عن يعلى بن عطاء، به. ثم قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إبراهيم بن سعد، حدثني ابن شهاب، عن محمد بن عبد الرحمن بن ماعز الغامدي، عن سفيان بن عبد الله الثقيفي قال: قلت: يا رسول الله، حدثني بأمر أعصم به. قال: «قل: ربي الله، ثم استقم». قلت: يا رسول الله، ما أكثر ما تخاف علي؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه، ثم قال: «هذا». وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه، من حديث الزهري، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقد أخرجه مسلم في صحيحه والنسائي، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن سفيان بن عبد الله الثقيفي قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً، لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: «قل: آمنت بالله، ثم استقم». وذكر تمام الحديث.

وقوله: ﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال مجاهد، والسدي، وزيد بن أسلم، وابنه: يعني عند الموت قائلين: ﴿أَلَا تَخَافُوا﴾ قال مجاهد، وعكرمة، وزيد بن أسلم: أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي: على ما خلفتموه من أمر الدنيا، من ولد وأهل، ومال أو دين، فإنما تخلفكم فيه، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير. وهذا كما في حديث البراء، رضي الله عنه: «إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمريه، اخرجي إلى روح وريحان، ورب غير غضبان». وقيل: إن الملائكة تنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم. حكاه ابن جرير عن ابن عباس، والسدي. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة، حدثنا عبد السلام بن مطهر، حدثنا جعفر بن سليمان: سمعت ثابتاً قرأ سورة «حم. السجدة»، حتى بلغ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾. فوقف فقال: بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله من قبره، يتلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا، فيقولان له: لا تخف ولا تحزن، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾. قال: فيؤمن الله خوفه، ويقر عينه، فما عظمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هي للمؤمن قرة عين، لما هداه الله، ولما كان يعمل له في الدنيا. وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته، وفي قبره، وحين يبعث. رواه ابن أبي حاتم. وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جداً. وهو الواقع. وقوله: ﴿تَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم، أي: قرناءكم في الحياة الدنيا، نسدكم ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤنسكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ﴾ أي: في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهي النفوس، وتقربه العيون، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا كَدَّعُونَ﴾ أي: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم، أي: كما اخترتم، ﴿ثَلَاثِينَ عَشْرًا رَّحِيمًا﴾ أي: ضيافة وعطاء وإنعاماً من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رؤوف، حيث غفر، وستر، ورحم، ولطف.

وقد ذكر ابن أبي حاتم ما هنا حديث سوق الجنة عند قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا كَدَّعُونَ ثَلَاثِينَ عَشْرًا رَّحِيمًا﴾، فقال: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا عبد الحميد بن حبيب بن أبي العشرين أبي سعيد، حدثنا

الأوزاعي، حدثني حسان بن عطية، عن سعيد بن المسيب: أنه لقي أبا هريرة رضي الله عنه، فقال أبو هريرة: نسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة. فقال سعيد: أو فيها سوق؟ قال: نعم، أخبرني رسول الله ﷺ أن أهل الجنة إذا دخلوا فيها، نزلوا بفضل أعمالهم، فيؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة في أيام الدنيا فيزورون الله، ويبرز لهم عرشه، ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة، وتوضع لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من ياقوت، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، ويجلس فيه أذنهم وما فيهم دنيء على كثران المسك والكافور، ما يرون بأن أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلساً. قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله، وهل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «نعم، هل تمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر؟» قلنا: لا. قال ﷺ: «فكذلك لا تمارون في رؤية ربكم تعالى، ولا يبقى في ذلك المجلس أحد إلا حاضره الله محاضرة، حتى إنه ليقول للرجل منهم: يا فلان بن فلان، أتذكر يوم عملت كذا وكذا؟ - يذكره ببعض غدراته في الدنيا - فيقول: أي رب، أفلم تغفر لي؟ فيقول: بلى، فبسعة مغفرتي بلغت منزلتك هذه. قال: فبينما هم على ذلك، غشيتهم سحابة من فوقهم، فأمطرت عليهم طيباً لم يجدوا مثل ريحه شيئاً قط». قال: «ثم يقول ربنا - ﷺ: قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة، وخذوا ما اشتهيتم». قال: «فأتاني سوقاً قد حُفَّت به الملائكة، فيها ما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الآذان، ولم يخطر على القلوب. قال: فيحمل لنا ما اشتيناه، ليس يباع فيه شيء ولا يشتري، وفي ذلك السوق يلقي أهل الجنة بعضهم بعضاً». قال: «فيقبل الرجل ذو المنزل الرفيعة، فيلقى من هو دونه - وما فيهم دنيء - فيروعه ما يرى عليه من اللباس، فما ينقضي آخر حديثه حتى يتمثل عليه أحسن منه؛ وذلك لأنه لا ينبغي لأحد أن يحزن فيها. ثم تنصرف إلى منازلنا، فيتلقانا أزواجنا فيقلن: مرحباً وأهلاً بجنبتنا، لقد جئت وإن بك من الجمال والطيب أفضل مما فارقتنا عليه. فيقول: إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار - ﷺ - وبحقنا أن نقبل بمثل ما اقبلنا به».

وقد رواه الترمذي في صفة الجنة من جامعه، عن محمد بن إسماعيل، عن هشام بن عمار، ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار، به نحوه. ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن أبي عدي، عن حميد، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قلنا: يا رسول الله، كلنا نكره الموت؟ قال: «ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه، فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله فأحب الله لقاءه. قال: «وإن الفاجر - أو الكافر - إذا حضر جاءه بما هو صائر إليه من الشر - أو: ما يلقي من الشر - فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه». وهذا حديث صحيح، وقد ورد في الصحيح من غير هذا الوجه.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّا بِرِغْمِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: دعا عباد الله إليه، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وهو في نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومُتَعَدٍّ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل ياتمر بالخير ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى. وهذه عامة في كل من دعا إلى خير، وهو في نفسه مهتد، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك، كما قال محمد بن سيرين، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقيل: المراد به المؤذنون الصالحاء، كما ثبت في صحيح مسلم: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة». وفي السنن مرفوعاً: «الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن، فأرشد الله الأئمة، وغفر للمؤذنين». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن عروة الهروي، حدثنا غسان قاضي هراة وقال أبو زرعة: حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن مطر، عن الحسن، عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: «سهام المؤذنين عند الله يوم القيامة كسهام المجاهدين، وهو بين الأذان والإقامة كالمشحط في سبيل الله في دمه». قال: وقال ابن مسعود: «لو كنت مؤذناً ما باليت ألا أحج ولا أعتمر ولا أجاهد». قال: وقال عمر بن الخطاب: لو كنت مؤذناً لكل أمري، وما باليت ألا انتصب لقيام الليل ولا لصيام النهار، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اغفر للمؤذنين» ثلاثاً، قال: فقلت: يا رسول الله، تركتنا، ونحن نجتدل على الأذان بالسيوف. قال: «كلا يا عمر، إنه يأتي على الناس زمان يتركون الأذان على ضعفائهم، وتلك لحوم حرمها الله على النار، لحوم المؤذنين». قال: وقالت عائشة: ولهم هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾، قالت: فهو المؤذن إذا قال: «حي على

عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به؛ ولهذا قال: ﴿إِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: عن إفراذ العبادة له وأبوا إلا أن يشكروا معه غيره، ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني: الملائكة، ﴿يَسْمِعُونَ لَهُمُ الْيَلِيلَ وَالنَّهَارَ وَهُمْ لَا يَسْئَمُونَ﴾، كقوله: ﴿إِنِ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكُنَّا بِهَا قَوْمًا لَا يَشْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٩]. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سفيان - يعني ابن وكيع - حدثنا أبي، عن ابن أبي ليلى، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الليل ولا النهار، ولا الشمس ولا القمر، ولا الرياح فإنها ترسل رحمة لقوم، وعذاباً لقوم». وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أي: على قدرته على إعادة الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي: هامدة لانبثاب فيها، بل هي ميتة، ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: أخرجت من جميل ألوان الزروع والشمار، ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لَآيَاتٍ لِّمَن يَعْلَمُ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَيْنًا أَقَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَبَرٌ مِّن مَّن بَآئِيَ عَاثِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاِبَةٌ ﴿٤١﴾ لَا تَابِيهِ الْأَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجِلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَّغْفِرٌ وَدُوَّ عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾، قال ابن عباس: الإلحاد: وضع الكلام على غير موضعه. وقال قتادة، وغيره: هو الكفر والعناد. وقوله: ﴿لَا يَخَفُونَ عَيْنًا﴾ أي: فيه تهديد شديد، ووعد أكيد، أي: إنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته، وسيجزيه على ذلك بالمعقوبة والنكال؛ ولهذا قال: ﴿أَقَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَبَرٌ مِّن مَّن بَآئِيَ عَاثِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؟ أي: أيسوي هذا وهذا؟ لا يستويان. ثم قال - ﷻ - تهديداً للكفرة: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ قال مجاهد، والضحاك، وعطاء الخراساني: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾: وعيد، أي: من خير أو شر، إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ قال الضحاك، والسدي، وقاتدة: وهو القرآن، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاِبَةٌ﴾ أي: منيع الجنب، لا يرام أن يأتي أحد بمثله، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْأَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: ليس للبطلان إليه سبيل؛ لأنه منزل من رب العالمين؛ ولهذا قال: ﴿تَرْجِلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي: حكيم في أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود، أي: في جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محمود عواقبه وغاياته. ثم قال: ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ قال قتادة، والسدي، وغيرهما: ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك، فكما قد كذبت فقد كذبوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم، فاصبر أنت على أذى قومك لك. وهذا اختيار ابن جرير، ولم يحك هو، ولا ابن أبي حاتم وغيره. وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَّغْفِرٌ لِّنَّاسٍ﴾ أي: لمن تاب إليه، ﴿وَدُوٌّ عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: لمن استمر على كفره، وطغيانه، وعناده، وشقاقه، ومخالفته. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَّغْفِرٌ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا غفر الله وتجاوزته ما هُتأ أحدُ العيش، ولولا وعيده وعقابه لانكل كل أحد».

﴿وَلَوْ جَمَعْتُمْ قَوْمًا أَفْجِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَفْجِيًّا وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُّوكَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاسْتَخْلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُفِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾.

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته، وإحكامه في لفظه ومعناه، ومع هذا لم يؤمن به المشركون، نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت، كما قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِدُعَائِهِمْ ﴿٤٤﴾ [الشعراء: ١٩٨، ١٩٩]. وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم، لقالوا على وجه التعنت والعناد: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَفْجِيًّا وَعَرَبِيٌّ﴾ أي: لقالوا: هلا أنزل مفصلاً بلغة العرب، ولا نكروا ذلك وقالوا: أعجمي وعربي؟ أي: كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه. هكذا روى هذا المعنى عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، والسدي، وغيرهم. وقيل: المراد بقولهم: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَفْجِيًّا وَعَرَبِيٌّ﴾ أي: هلا أنزل بعضها بالأعجمي، وبعضها بالعربي. هذا قول الحسن البصري، وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام في قوله ﴿أَفْجِيًّا﴾، وهو رواية عن سعيد بن جبيرة. وهو في التعنت والعناد أبلغ. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٌ﴾ أي: قل يا محمد: هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه، وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب، ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ﴾ أي: لا يفهمون ما فيه، ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي: لا يهتدون إلى ما فيه من البيان، كما قال تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَذِّبُ الْفَاسِقِينَ إِلَّا حَسَارًا﴾ [الأنعام: ٨٢]. ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادُّوكَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال مجاهد: يعني بعيد من قلوبهم. قال ابن جرير: معناه: كان من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد، لا يفهمون ما يقول. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْوَرِيِّ يَتَّقِي مَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاةً وَيَبْكُ مِمَّنْ شَأْنُهُمْ﴾

لَا يَقُولُونَ ﴿١٧١﴾ [البقرة: ١٧١]. وقال الضحّاك: ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم. وقال السدي: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالساً عند رجل من المسلمين يقضي، إذ قال: يا بليكا. فقال عمر: لِمَ تلي؟ هل رأيت أحداً، أو دعاك أحد؟ قال: دعاني داع من وراء البحر. فقال عمر: أولئك ينادون من مكان بعيد. . رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي: كُذِّبَ وأوذى ﴿فَأَمِيرٌ كَمَا صَبَّرَ أُولُو الْعَرْزِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. ﴿وَلَوْلَا كِتَابُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَاجِبًا لَمُسَمًّى﴾ [الشورى: ١٤] بتأخير الحساب إلى يوم المعاد، ﴿لَتَقْبَضَنَّ يَنَّهُمْ﴾ أي: لعجل لهم العذاب، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً، ﴿وَأَتَتْهُمْ لَقِي سَلَكٍ يَنْتَه مُرِيبٌ﴾ أي: وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا، بل كانوا شاكين فيما قالوا، غير محققين لشيء كانوا فيه. هكذا وجهه ابن جرير، وهو محتمل، والله أعلم.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ﴿١٧٢﴾ ﴿إِنَّهُ يَرُدُّ بِلُغَمِ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَتَيْنَ شُرَكَاءَ قَالُوا مَا أَذْنَكُ مَا بَيْنَا مِنْ شَيْبٍ﴾ ﴿١٧٣﴾ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَلُّوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ ﴿١٧٤﴾.

يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: إنما يعود نفع ذلك على نفسه، ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: إنما يرجع وبال ذلك عليه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي: لا يعاقب أحداً إلا بذنب، ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه. ثم قال: ﴿إِنَّهُ يَرُدُّ بِلُغَمِ السَّاعَةِ﴾ أي: لا يعلم ذلك أحد سواه، كما قال ﷺ، وهو سيد البشر لجبريل وهو من سادات الملائكة - حين سألته عن الساعة، فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مُنْهَبِهَا﴾ ﴿١٧٥﴾ [الزمر: ٤٤]، وقال: ﴿لَا يَحِيطُ بِوَقْعِهَا إِلَّا مَنَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وقوله: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي: الجميع بعلمه، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ زَرْعٍ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال جلّت عظمتة: ﴿يَسْأَلُ مَا تَقُولُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَضِيضُ الْأَرْحَامِ وَمَا تَزَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقال: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِنْ شَيْءٍ وَلَا يَفْقَهُ مِنْ غَيْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]. وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَتَيْنَ شُرَكَاءَ﴾ أي: يوم القيامة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق: أين شركائي الذين عبدتموهم معي؟ ﴿قَالُوا مَا أَذْنُكَ﴾ أي: أعلمناك، ﴿مَا بَيْنَا مِنْ شَيْبٍ﴾ أي: ليس أحد منا اليوم يشهد أن معك شريكاً، ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: ذهبوا فلم ينفوهم، ﴿وُظَلُّوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ﴾ أي: وظن المشركون يوم القيامة، وهذا بمعنى اليقين، ﴿مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ﴾ أي: لا محيد لهم عن عذاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِقُوها وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ ﴿١٧٦﴾ [الكهف: ٥٣].

﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَا الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَبْغُثْ قَنُوطًا﴾ ﴿١٧٧﴾ ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَدَلِ ضَرَّةٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَطُنُ السَّاعَةِ قَائِمَةً وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَيَّ رَبِّ إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنِ فَلَنُتَبِّحَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ﴿١٧٨﴾ ﴿وَلِإِنِ أَعْرَضَ وَنَا بَحَايِبِهِ. وَلِإِنِ أَسَاءَ الشَّرُّ فَنَدُو دُعَاوَهُ عَرِيضٍ﴾ ﴿١٧٩﴾.

يقول تعالى: لا يَمَلُ الإنسان من دعائه ربه بالخير - وهو: المال، وصحة الجسم، وغير ذلك - وإن مسه الشر - وهو: البلاء أو الفقر - ﴿فَيَبْغُثْ قَنُوطًا﴾ أي: يقع في ذهنه أنه لا ينهي له بعد هذا خير. ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَدَلِ ضَرَّةٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَإِذَا أَصَابَهُ خَيْرٌ وَرَزَقَ بعد ما كان في شدة ليقولن: هذا لي، إن كنت أستحقه عند ربي، ﴿وَمَا أَطُنُ السَّاعَةِ قَائِمَةً﴾ أي: يكفر بقيام الساعة، أي: لأجل أنه خول نعمة بفخر، ويبطر، ويكفر، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا شَكَنَّا﴾ ﴿١٨٠﴾ ﴿وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَيَّ رَبِّ إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنِ﴾ أي: ولئن كان ثم معاد فليحسن إلي ربي، كما أحسن إلي في هذه الدار، يتمنى على الله، ﷻ، مع إساءته العمل وعدم اليقين. قال تعالى: ﴿فَلَنُتَبِّحَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنتكال. ثم قال: ﴿وَلِإِنِ أَعْرَضَ وَنَا بَحَايِبِهِ. وَلِإِنِ أَسَاءَ الشَّرُّ فَنَدُو دُعَاوَهُ عَرِيضٍ﴾ أي: أعرض عن الطاعة، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله، ﷻ، كقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى وَرُكْبِهِ﴾ [الذاريات: ٣٩]. ﴿وَلِإِنِ أَسَاءَ الشَّرُّ فَنَدُو دُعَاوَهُ عَرِيضٍ﴾ أي: يطيل المسألة في الشيء الواحد فالكلام العريض: ما طال لفظه وقل معناه، والوجيز: عكسه، وهو: ما قل ودل. وقد قال تعالى: ﴿وَلِإِنِ أَسَاءَ الشَّرُّ فَنَدُو دُعَاوَهُ عَرِيضٍ أَوْ قَائِمًا أَوْ قَائِمًا كَفَفْنَا عَنْهُ مُرَمُّ مَرَّ كَانَ لَوْ يَدْعُنَا إِلَى شَرٍّ مِمَّا كُنَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ نَمُ كَفَرْتُمْ بِهِ. مَنْ أَضَلَّ مَنَ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿١٨١﴾ سُرِبَهُمْ ءَاتَيْنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَقٌّ

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ نَمُ كَفَرْتُمْ بِهِ. مَنْ أَضَلَّ مَنَ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿١٨٢﴾ سُرِبَهُمْ ءَاتَيْنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَقٌّ

يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْلَمَ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنَ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُونَ ﴿٢﴾
 يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنَّا﴾ هذا القرآن ﴿مِنَ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ؟﴾ أي: كيف تُزَوِّن حالكم عند الذي أنزله على رسوله؟ ولهذا قال: ﴿مَنْ أَسْلَمَ مِنَّا هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾؟ أي: في كفر وعناد ومشاقة للحق، ومثلك بعيد عن الهدى. ثم قال: ﴿سَرَّيْنَاهُ مَا بَيْنَنَا وَالْأَقْصَىٰ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: سنظهر لهم دلائلنا وحُجَجنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله، ﷺ، على رسوله ﷺ بدلائل خارجية ﴿فِي الْأَقْصَىٰ﴾، من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان. قال مجاهد، والحسن، والسدي: ودلائل في أنفسهم، قالوا: وقعة بذر، وفتح مكة، ونحو ذلك من الوقائع التي حَلَّتْ بهم، نصر الله فيها محمداً وصحبه، وخذل فيها الباطل وجزئه. ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاق والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى. وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباعدة، من حسن وقبيح وبين ذلك، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله، وقوته، وحيله، وحذره أن يجوزها، ولا يتعدها، كما أنشده ابن أبي الدنيا في كتابه التفكير والاعتبار، عن شيخه أبي جعفر القرشي:

وَإِذَا نَظَرْتَ تُرِيدُ مُغْتَابِرًا فَاَنْظُرْ إِلَيْكَ فَبَيْنَكَ مُغْتَابِرُ
 أَنْتَ الَّذِي يُنْفِى وَيُضْبِخُ فِي الدِّ دُنْيَا وَكُلُّ أَمْرٍ عَابِرُ
 أَنْتَ الْمَصْرُوفُ كَانَ فِي صَفَرٍ ثُمَّ اسْتَغْلِبَ بِشَخْصِكَ الْكَابِرُ
 أَنْتَ الَّذِي تَنْفَاهُ خُلُقُهُ يَتَعَاهَدُ مِنْهُ الشُّغْرُ وَالْبَشَرُ
 أَنْتَ الَّذِي تُغْطِي وَتُغْلِبُ لَا يُنْجِيهِ مَنْ أَنْ يُغْلِبَ الْحَذَرُ
 أَنْتَ الَّذِي لَا شَيْءَ مِنْهُ لَكَ وَأَخْبَثُ مِنْهُ بِمَالِهِ الْقَدَرُ

وقوله تعالى: ﴿حَقٌّ يَبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْلَمَ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؟ أي: كفى بالله شهيداً على أفعال عباده وأقوالهم، وهو يشهد أن محمداً صادق فيما أخبر به عنه، كما قال: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلْنَاهُ يُرْسِلُ وَأَلْتَمِذْهُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦]. وقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنَ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾؟ أي: في شك من قيام الساعة؛ ولهذا لا يتفكرون فيه، ولا يعملون له، ولا يحذرون منه، بل هو عندهم هَذَر لا يعيرون به وهو واقع لا ريب فيه وكان لا محالة. قال ابن أبي الدنيا: حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا خلف بن تميم، حدثنا عبد الله بن محمد بن سعيد الأنصاري: أن عمر بن عبد العزيز صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإني لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم، ولكن فكرت في هذا الأمر الذي أنتم إليه صائرون، فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحق، والمكذب به هالك ثم نزل. ومعنى قوله، رضي الله عنه: «أن المصدق به أحق» أي: لأنه لا يعمل له عمل مثله، ولا يحذر منه ولا يخاف من هوله، وهو مع ذلك مصدق به، موقن بوقوعه، وهو مع ذلك يتمادى في لعبه وغفلته وشهواته وذنوبه، فهو أحق بهذا الاعتبار، والأحق في اللغة: ضعيف العقل. وقوله: «والمكذب به هالك»: هذا واضح، والله أعلم. ثم قال تعالى - مقررأ على أنه على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى -: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُونَ﴾ أي: المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته، وتحت طي علمه، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

آخر تفسير سورة

حم السجدة



تفسير سورة الشورى

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝ عَسَىٰ ۝ كَذَلِكَ يُؤْتِيكَ الْإِلَهِ الْوَالِي الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾ ثُمَّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝

﴿وَكَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَرَسًا شَرِيحًا وَتَبَارَكَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْفُرْقَانَ﴾ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مِنَ الْبَيْنَةِ فِي ذَمِّهِمُ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴿٨﴾

يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك، ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: واضحا جليا بينا، ﴿لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ وهي مكة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: من سائر البلاد شرقا وغربا، وسميت مكة أم القرى؛ لأنها أشرف من سائر البلاد، لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها. ومن أوجز ذلك وأدله ما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري، أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن أن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أخبره: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: وهو واقف بالحرزوة في سوق مكة: - «والله، إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت». وهكذا رواية الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، من حديث الزهري، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقوله: ﴿لِنُنْذِرَ يَوْمَ الْمَجْعِ﴾، وهو يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد. وقوله: ﴿لَا رِبَّ فِيهِ﴾ أي: لا شك في وقوعه، وأنه كائن لا محالة. وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي النَّارِ﴾، كقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ الْيَوْمَ الْمَجْعُ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [التغابن: ٩] أي: يَجْمَعُنْ أَهْلَ الْجَنَّةِ أَهْلَ النَّارِ، وكقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمَعُ لَهُ الْكُفَّاءُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ﴾ ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّتَدَوِّعٍ﴾ ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ النَّفْسُ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَيَنْهَرُ شَرِقًا وَسَكِيمًا﴾ [هود: ١٠٣-١٠٥]. قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا ليث، حدثني أبو قبيل المغافري، عن شُعْبَةَ الْأَصْبَحِيِّ، عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قال: قلنا: لا، إلا أن تخبرنا يا رسول الله. قال للذي في يده اليمنى: «هذا كتاب من رب العالمين، بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم - لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبدا» ثم قال للذي في يساره: «هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم - لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبدا» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فإي شيء إذا نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه؟ فقال رسول الله ﷺ: «سَدُّوا وَقَارِبُوا، فَإِنْ صَاحِبَ الْجَنَّةِ يَخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ، وَإِنْ صَاحِبَ النَّارِ لِيَخْتَمَ لَهُ بِعَمَلِ النَّارِ، وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ» ثم قال بيده فقبضها، ثم قال: «فرغ ربكم ﷻ من العباد» ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال: «فريق في الجنة»، ونبذ باليسرى فقال: «فريق في السعير».

وهكذا رواه الترمذي والنسائي جميعا، عن قتيبة، عن الليث بن سعد وبكر بن مضر، كلاهما عن أبي قبيل، عن شُعْبَةَ بْنِ مَاتِعِ الْأَصْبَحِيِّ، عن عبد الله بن عمرو، به. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب. وساقه البغوي في تفسيره من طريق بشر بن بكر، عن سعيد بن عثمان، عن أبي الزاهرية، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ، فذكره بنحوه. وعنده زيادات منها: ثم قال: «فريق في الجنة وفريق في السعير، عدل من الله ﷻ». ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن عبد الله بن صالح - كاتب الليث - عن الليث، به. ورواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن أبي قبيل، عن شُعْبَةَ، عن رجل من الصحابة، فذكره. ثم روى عن يونس، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث وخيثمة بن شريح، عن يحيى بن أبي أسيد؛ أن أبا فراس حدثه: أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: إن الله لما خلق آدم نفثه نفث المزدود، وأخرج منه كل ذريته، فخرج أمثال الثَّعْفِ، فقبضهم قبضتين، ثم قال: شقي وسعيد، ثم ألقاهما، ثم قبضهما. فقال: فريق في الجنة وفريق في السعير. وهذا الموقف أشبه بالصواب، والله أعلم. وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد - يعني ابن سلمة - أخبرنا الجُرَيْرِيُّ، عن أبي نضرة، أن رجلا من أصحاب النبي ﷺ يقول له: أبو عبد الله - دخل عليه صحابه يعودونه وهو يبكي، فقالوا له: ما يبكيك؟، ألم يقل لك رسول الله ﷺ: «خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقاني» قال: بلى، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ قَبِضَ بِيَمِينِهِ قُبْضَةً، وَأُخْرَىٰ بِالْيَدِ الْأُخْرَىٰ، قَالَ: هَذِهِ لِهَذِهِ، وَهَذِهِ لِهَذِهِ» فلا أدري في أي القبضتين أنا. وأحاديث القدر في الصحاح والسنن والمسانيد كثيرة جداً، منها حديث علي، وابن مسعود، وعائشة، وجماعة جمة. وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من يشاء إلى الحق، وأضل من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ يَدْخُلُ مِنَ الْإِبْطَالِ فِي رَحْمَتِهِ وَالْغَلْطِ الْيُؤَسَّرُ مَلَأَهُ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن أبي سويد، حدثه عن ابن حجية: أنه بلغه أن موسى، عليه السلام، قال: يا رب خَلَقْتَ الَّذِينَ خَلَقْتَهُمْ، جعلت منهم فريقاً في الجنة وفريقاً في النار، لو ما أدخلتهم كلهم الجنة؟! فقال: يا موسى، ارفع دُزُك. فرفع، قال: قد رفعت. قال: ارفع. فرفع، فلم يترك شيئاً، قال: يا رب، قد رفعت، قال: ارفع. قال: قد رفعت، إلا ما لا خير فيه. قال: كذلك أدخل خلقي كلهم الجنة، إلا ما لا خير فيه.

﴿أَبَرَّ اتَّقِذُوا مِن دُونِهِ أُولَئِكَ قَالَهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿وَمَا أَخْلَقْنَاهُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَكُفُّوا إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ

شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٣﴾ لَمْ يَخْلُقْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَسْطَ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ يَكْلِي شَيْءٌ عَلِيمٌ ﴿١٤﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبراً أنه الولي الحق الذي لا ينبغي العبادة إلا له وحده، فإنه القادر على إحياء الموتى وهو على كل شيء قدير. ثم قال: ﴿وَمَا اخْلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: مهما اختلفتم فيه من الأمور، وهذا عام في جميع الأشياء، ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: هو الحاكم فيه بكتابه، وسنة نبيه ﷺ، كقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ﴾. ﴿وَمَا اخْلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: هو الحاكم في كل شيء، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أرجع في جميع الأمور. وقوله: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما وما بينهما، ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: من جنسكم وشكلكم، مئة عليكم وتفضلاً جعل من جنسكم ذكراً وأنثى، ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي: وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج. وقوله: ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾ أي: يخلقكم فيه، أي: في ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذركم فيه ذكوراً وإناثاً، خلقاً من بعد خلق، وجيلاً بعد جيل، ونسلأ بعد نسل، من الناس والأنعام. وقال البغوي، رحمه الله ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾ أي: في الرحم. وقيل: في البطن. وقيل: في هذا الوجه من الخلقة. قال مجاهد: ونسلأ بعد نسل من الناس والأنعام. وقيل: في بمعنى الباء، أي: يذركم به. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي: ليس كخالق الأزواج كلها شيء؛ لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. وقوله: ﴿لَمْ يَخْلُقْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ تقدم تفسيره في سورة الزمر، وحاصل ذلك أنه المتصرف الحاكم فيهما، ﴿بَسْطَ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء، وله الحكمة والعدل التام، ﴿إِنَّهُ يَكْلِي شَيْءٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقْبُوا الدِّينَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِيهِ كَثِيرًا مِّنَ الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ ﴿١٥﴾ وَمَا تَقْرَءُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيِّنَاتٌ مِّن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّعَلَّيْكُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦﴾ وَلَئِذَا أُنذِرُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَقَدْ لَكُمُ الشَّاكُ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴿١٧﴾

يقول تعالى لهذه الأمة: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، فذكر أول الرسل بعد آدم وهو نوح، عليه السلام، وآخرهم وهو محمد ﷺ، ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم وهم: إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، عليهم السلام. وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة، كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله: ﴿وَلَئِذَا أُنذِرُوا الْكُتُبَ بَيِّنَاتٌ مِّن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّعَلَّيْكُمْ يَتَّقُونَ﴾. والآية [الأحزاب: ٧]. والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو: عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وفي الحديث: «نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» أي: القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم، كقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ فُتُورًا﴾ [المائدة: ٤٨]، ولهذا قال هاهنا: ﴿أَنْ أَقْبُوا الدِّينَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِيهِ كَثِيرًا مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: وصى الله سبحانه وتعالى جميع الأنبياء، عليهم السلام، بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف.

وقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد. ثم قال: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ أي: هو الذي يقدر الهداية لمن يستحقها، ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا اخْلَقْتُمْ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾، أي: إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغي والعناد والمشاقة. ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: لولا الكلمة السابقة من الله بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد، لعجل لهم العقوبة في الدنيا سريعاً. وقوله: ﴿وَلَئِذَا أُنذِرُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعني: الجيل المتأخر بعد القرن الأولى المكذب للحق ﴿لَقَدْ لَكُمُ الشَّاكُ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾ أي: ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم مقلدون لأبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم، وشك مرعب، وشقاق بعيد.

﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ أَصْحَابَ الْكُتُبِ وَلَا تَنَجَّ أَهْلَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْمَلُ بِمَا يَنْصُرُ اللَّهُ رَبَّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ ﴿١٩﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلة، كل منها منفصلة عن التي قبلها، لها حكم برأسه - قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي، فإنها أيضاً عشرة فصول كهذه. وقوله: ﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ﴾ أي: فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولى العزم وغيرهم، فادعُ الناس إليه.

وقوله: ﴿وَأَسْتَقِيمَ كَمَا أُبْرِتَ﴾ أي: واستقيم أنت ومن اتبعك على عبادة الله، كما أمركم الله ﷻ. وقوله: ﴿وَلَا تَلْبِغْ أَوْفَاقَهُمْ﴾ يعني: المشركين فيما اختلقوه، وكذبوه، وافتروه من عبادة الأوثان. وقوله: ﴿وَقُلْ ءَأَمِنتُمْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِ﴾ أي: صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، لا نفرق بين أحد منهم. وقوله: ﴿وَأُورِثَ لَأَعُولَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: في الحكم كما أمرني الله. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: هو المعبود، لا إله غيره، فنحن نفر بذلك اختياراً، وأنتم وإن لم تفعلوه اختياراً، فله يسجد من العالمين طوعاً واختياراً. وقوله: ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ أي: نحن برآء منكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ كَذِبُكَ قَتْلَ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِّتُونَهُ وَمَا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرٌّ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]. وقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ قال مجاهد: أي لا خصومة. قال السدي: وذلك قبل نزول آية السيف. وهذا مثبته، لأن هذه الآية مكية، وآية السيف بعد الهجرة. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ أي: يوم القيامة، كقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا: ٢٦]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: المرجع والمآب يوم الحساب.

﴿وَالَّذِينَ يَخَافُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جَهَنَّمَ دَاحِضَةً عَنْ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [١٦] الله الذي أنزل الكتب بالحق والبرهان وما يدريك لعل الساعة قريب ﴿١٧﴾ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارئون في الساعة لئي سلكي بعيدي ﴿١٨﴾.

يقول تعالى - متوعداً الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به -: ﴿وَالَّذِينَ يَخَافُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ﴾ أي: يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى، ﴿جَهَنَّمَ دَاحِضَةً عَنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: باطلة عند الله، ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ أي: منه، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: يوم القيامة. قال ابن عباس، ومجاهد: جادلوا المؤمنين بعد ما استجابوا لله ولرسوله، ليصدوهم عن الهدى، وطمعوا أن تعود الجاهلية. وقال قتادة: هم اليهود والنصارى، قالوا لهم: ديننا خير من دينكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم، وأولي بالله منكم. وقد كذبوا في ذلك. ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿وَالْبُرْهَانَ﴾، وهو: العدل والإنصاف، قاله مجاهد، وقاتلة. وهذه كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقوله: ﴿وَالسَّلَامَةَ رَفَعْنَا وَوَصَّيْنَا الْآلِيزَاتِ﴾ [٧] ﴿أَلَّا تَقْلُوا فِي الْمِيزَانِ﴾ [٨] ﴿وَأَقِيمُوا الزُّنْتَ وَالْقِسْطَ وَلَا تَغْيِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [٩] [الرحمن: ٧-٩]. وقوله: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾: فيه ترغيب فيها، وترهيب منها، وتزهد في الدنيا. وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أي: يقولون: ﴿مَنْ هَذَا الَّذِي إِذْ قَالَ إِنَّكُمْ مَعِي فِي الدُّنْيَا﴾ [سبا: ٢٩]، وإنما يقولون ذلك تكديساً واستبعاداً، وكفراً وعناداً، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: خائفون وجلون من وقوعها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي: كائنة لا محالة، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها. وقد روي من طرق تبلغ درجة التواتر، في الصحاح والحسان، والسنن والمسانيد، وفي بعض ألفاظه: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوري، وهو في بعض أسفاره، فناداه فقال: يا محمد. فقال له النبي ﷺ: نحواً من صوته «هاؤم». فقال: متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك، إنها كائنة، فما أعددت لها؟». فقال: حُب الله ورسوله. فقال: «أنت مع من أحببت». فقوله في الحديث: «المرء مع من أحب»، هذا متواتر لا محالة، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة، بل أمره بالاستعداد لها. وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يَمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ أي: يحاجون في وجودها ويدفعون وقوعها، ﴿لَيْ سَكَلِي بَعِيدٌ﴾ أي: في جهل بين؛ لأن الذي خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى، كما قال:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [٢٧] ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [٢٨] ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَهُ فِي حَرْفِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤَتْهُ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [٢٩] ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا الْفَصْلُ لَفَقِيَ بَيْنَهُمْ وَلِئِنْ الْفَالِغِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٣٠] ﴿رَبِّ الْقَلْبَيْنِ مُشْفِقِينَ﴾ [٣١] ﴿وَمَا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْحَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [٣٢].

يقول تعالى مخبراً عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم عن آخرهم، لا ينسى أحد منهم، سواء في رزقه البر والفاجر، كقول تعالى: ﴿وَمَا يَنبَغِي فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَوْدِعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦]. ولها نظائر كثيرة. وقوله: ﴿يَزِدُّكَ مِنْ شَاءَهُ﴾ أي: يوسع على من يشاء، ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أي: لا يعجزه شيء. ثم قال: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ أي: عمل الآخرة، ﴿نَزَدَ لَهُ فِي حَرْفِهِ﴾ أي: نقوه ونعينه على ما هو بصده، ونكثر نماءه، ونجزه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله. ﴿وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤَتْهُ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ أي: ومن كان

إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا، وليس له إلى الآخرة همّة البتة بالكلية، حَزَمَهُ اللهُ الآخرة، والدنيا إن شاء أعطاه منها، وإن لم يشأ لم يحصل له لا هذه ولا هذه، وفاز هذا الساعي بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة. والدليل على هذا أن هذه الآية هانئا مقيدة بالآية التي في «سبحان» وهي قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَالَةَ عَجَلًا لَمْ يَسْلِكْهَا مَدَامًا مَدَامًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ١٧﴾ كَلَّا نَبْذُلُهُمْ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَايِكُمْ وَمَا كَانَ عَطَايِكُمْ تَحْطُونَ ١٨﴾ أَنْظَرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ١٩﴾ [الإسراء: ١٨-٢١]. وقال الثوري، عن مغيرة، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسَّاءِ والرفعة، والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة من نصيب». وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْتِ بِهِ اللَّهُ؟ أَمْ لَا يَتَّبِعُونَ مَا شَرَعَ اللَّهُ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ، بَلْ يَتَّبِعُونَ مَا شَرَعَ لَهُمْ شَيَاطِينُهُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ، مِنْ تَحْرِيمٍ مَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ، مِنَ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ، وَتَحْلِيلِ الْمَيْتَةِ وَالدم والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة، التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم، من التحليل والتحرير، والعبادات الباطلة، والأقوال الفاسدة. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «رَأَيْتُ عَمْرُو بْنَ لُحَيْ بْنِ قَعْتَةَ يُحَرِّقُ قَضِيَّةً فِي النَّارِ». لأنه أول من سبب السوابق. وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذي حَمَلَ قريشا على عبادة الأصنام، لعنه الله وقبحه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ لَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُتِحَ رِيبُهُمْ﴾، أي: لعوجلوا بالعقوبة، لولا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المعاد، ﴿وَلِإِنَّ الْفُلُوجِيَّ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: شديد موجه في جهنم وبئس المصير.

ثم قال تعالى: ﴿تَرَى الْفُلُوجِيَّ مُتَشَفِّعِينَ مِنْكَ كَسْبُوا﴾ أي: في عرصات القيامة، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي: الذي يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم، وهم في هذا الخوف والوجل، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، فأين هذا من هذا: أين من هو في العَرَصَاتِ في الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه، ممن هو في روضات الجنات، فيما يشاء من مأكَل ومشارب وملابس ومسكن ومناظر ومناكح وملاذ، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. قال الحسن بن عرفة: حدثنا عمر بن عبد الرحمن الأبار، حدثنا محمد بن سعد الأنصاري، عن أبي طيبة، قال: إن الشُّرْبَ من أهل الجنة لتظلمهم السحابة فتقول: ما أمطرُكم. قال: فما يدعوا داع من القوم بشيء إلا أمطرتهم، حتى إن القاتل منهم ليقول: أمطرينا كواعب أترباً. رواه ابن جرير، عن الحسن بن عرفة، به. ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي: الفوز العظيم، والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة.

﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ لَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ فَتُحِبُّوا اللَّهَ وَتُحِبُّوا النَّاسَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. ثم يقولون أَفَنَكُنَّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَنَحْنُ اللَّهُ الْكَبِيرُ وَنَحْنُ اللَّهُ الْكَبِيرُ وَنَحْنُ اللَّهُ الْكَبِيرُ [آل عمران: ١٠٥]. يقول تعالى لما ذكر روضات الجنة، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: هذا حاصل لهم، كائن لا محالة، ببشارة الله لهم به. وقوله: ﴿قُلْ لَا أَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ لَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ فَتُحِبُّوا اللَّهَ وَتُحِبُّوا النَّاسَ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ما لا تعطونه، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني، وتذروني أبلغ رسالات ربي، إن لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة. قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة قال: سمعت طائوساً عن ابن عباس: أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿لَا أَلْمُودَةُ فِي الْقَرْيَةِ﴾، فقال سعيد بن جبيرة: قريبي آل محمد. فقال ابن عباس: عَجَلْتُ، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيه قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة. انفرد به البخاري. ورواه الإمام أحمد، عن يحيى القطان، عن شعبة به. وهكذا روى عامر الشعبي، والضحاك، وعلي بن أبي طلحة، والعوفي، ويوسف بن مهران، وغير واحد، عن ابن عباس، مثله. وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدي، وأبو مالك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا هاشم بن يزيد الطبراني وجعفر القلانسي قالا: حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شريك، عن خُصَيْف، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: قال لهم رسول الله ﷺ: «لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تؤذوني في نفسي لقرايتي منكم، وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم».

وروى الإمام أحمد، عن حسن بن موسى: حدثنا قَزْعَةُ، يعين ابن سُوَيْد - وابن أبي حاتم - عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن قَزْعَةَ بن سُوَيْد - عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، أن النبي ﷺ قال: «لا أسألكم على ما آتاكم من البينات والهدى أجراً، إلا أن تؤادوا الله، وأن تقربوا إليه بطاعته». وهكذا روى قتادة عن الحسن البصري، مثله. وهذا كأنه تفسير يقول

ثان، كأنه يقول: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أي: إلا أن تعملوا بالطاعة التي تقرّبكم عند الله زلفى. وقول ثالث: وهو ما حكاه البخاري وغيره، رواية عن سعيد بن جبير، ما معناه، أنه قال: معنى ذلك أن تودوني في قرابتي، أي: تحسنوا إليهم وتبروهم. وقال السدي، عن أبي الدليم قال: لما جرى بعلي بن الحسين أسيراً، فأقيم على درج دمشق، قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم، وقطع قرني الفتنة. فقال له علي بن الحسين: أقرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: أقرأت آل حم؟ قال: قرأت القرآن، ولم أقرأ آل حم. قال: ما قرأت: ﴿قُلْ لَا أَتْلُوكَ عَلَيْهِ آجراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؟ فقال: وإنكم أنتم هم؟ قال: نعم. وقال أبو إسحاق الشيباني: سألت عمرو بن شعيب عن قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَتْلُوكَ عَلَيْهِ آجراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، فقال: قرى النبي ﷺ. رواهما ابن جرير. ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا عبد السلام، حدثني يزيد بن أبي زياد، عن قسم، عن ابن عباس قال: قالت الأنصار: فعلنا وفعلنا، وكأنهم فخرُوا. فقال ابن عباس -أو: العباس، شك عبد السلام -: لنا الفضل عليكم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاهم في مجالسهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بي؟» قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «ألم تكونوا ضللاً فهداكم الله بي؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «أفلا تحيوني؟» قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: «ألا تقولون: ألم يخرجك قومك فآويناك؟ أو لم يكذبوك فصدقناك؟ أو لم يخذلوك فنصرناك؟» قال: فما زال يقول حتى جثوا على الركب، وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لله ولرسوله. قال: فنزلت: ﴿قُلْ لَا أَتْلُوكَ عَلَيْهِ آجراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾.

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، عن علي بن الحسين، عن عبد المؤمن بن علي، عن عبد السلام، عن يزيد بن أبي زياد -وهو ضعيف - بإسناده مثله، أو قريباً منه. وفي الصحيحين - في قسم غنائم حنين - قريب من هذا السياق، ولكن ليس فيه ذكر نزول هذه الآية. وذكر نزولها في المدينة فيه نظير؛ لأن السورة مكية، وليس يظهر بين هذه الآية الكريمة وبين السياق مناسبة، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا رجل سماه، حدثنا حسين الأشقر، عن قيس، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ لَا أَتْلُوكَ عَلَيْهِ آجراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم؟ قال: «فاطمة وولدها، عليهم السلام». وهذا إسناد ضعيف، فيه مبهم لا يعرف، عن شيخ شيعي متخرق، وهو حسين الأشقر، ولا يقبل خبره في هذا المحل. وذكر نزول هذه الآية في المدينة بعيد، فإنها مكية ولم يكن إذ ذاك لفاطمة أولاد بالكلية، فإنها لم تتزوج بعلي إلا بعد بدر من السنة الثانية من الهجرة. والحق تفسير الآية بما فسرها به الإمام خبر الأمة، وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس، كما رواه عنه البخاري رحمه الله: ولا تنكر الوصاة بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخرّاً وحسباً ونسباً، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجليلة، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنه، وعلي وأهل بيته وذريته، رضي الله عنهم أجمعين. وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغير خَمٍّ: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي، وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض».

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث، عن العباس بن عبد المطلب قال: قلت: يا رسول الله، إن قريشاً إذا لقي بعضهم بعضاً لقوهم بغير حسن، وإذا لقونا لقونا بوجه لا نعرفها؟ قال: فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً، وقال: «والذي نفسي بيده، لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم الله ولرسوله». ثم قال أحمد: حدثنا جرير، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد المطلب ابن ربيعة قال: دخل العباس على رسول الله ﷺ فقال: إنا لنخرج فرجاً قريشاً تُحَدِّث، فإذا رأونا سكتوا. فغضب رسول الله ﷺ وذرَّ عِرْقَ بَيْنِ عَيْنَيْهِ، ثم قال: «والله لا يدخل قلب امرئ إيماناً حتى يحبكم الله ولقرابتي». وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا خالد، حدثنا شعبة، عن واقد قال: سمعتُ أبي يحدث عن ابن عمر، عن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، قال: أرقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته. وفي الصحيح: أن الصديق قال لعلي، رضي الله عنهما: والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل في قرابتي. وقال عمر بن الخطاب للعباس، رضي الله عنهما: والله لإسلامك يوم أسلمت، كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم؛ لأن إسلامك كان أحب إلي رسول الله من إسلام الخطاب. فحال الشيخين، رضي الله عنهما، هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك؛ ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين، رضي الله عنهما، وعن سائر الصحابة أجمعين.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أبي حَيَّان التيمي، حدثنا يزيد بن حَيَّان قال: انطلقت أنا

وَحُسَيْنَ بْنِ مَيْسَرَةَ، وَعُمَرَ بْنَ مُسْلِمٍ إِلَى زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، فَلَمَّا جَلَسْنَا إِلَيْهِ قَالَ لَهُ حَصِينٌ: لَقَدْ لَقَيْتُ يَا زَيْدٌ خَيْرًا كَثِيرًا، رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَسَمِعْتُ حَدِيثَهُ، وَغَزَوْتُ مَعَهُ، وَصَلَيْتُ مَعَهُ. لَقَدْ رَأَيْتُ يَا زَيْدٌ خَيْرًا كَثِيرًا. حَدَّثَنَا يَا زَيْدٌ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَ: يَا أَخِي، وَاللَّهِ كَثُرْتُ سَنِي، وَقَدِمَ عَهْدِي، وَنَسِيتُ بَعْضَ الَّذِي كُنْتُ أَعْمِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَا حَدَّثْتُكُمْ فَأَقْبَلُوهُ، وَمَا لَا فَلَائِي تُكَلِّفُونِيهِ. ثُمَّ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا خَطِيبًا فِينَا، بِمَاءٍ يَدْعَى خَمًّا - بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ - فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَذَكَرَ وَوَعظَ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يَوْشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فَأَجِيبُ، وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ، أُولَهُمَا: كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ» فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَرَغَبَ فِيهِ، وَقَالَ: «وَأَهْلُ بَيْتِي أَذْكُرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أَذْكُرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي». فَقَالَ لَهُ حَصِينٌ: وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ يَا زَيْدٌ؟ أَلَيْسَ نَسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؟ قَالَ: إِنَّ نِسَاءَهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مِنْ حُرْمِ الصَّدَقَةِ بَعْدَهُ. قَالَ: وَمَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ آلُ عَلِيٍّ، وَآلُ عَقِيلٍ، وَآلُ جَعْفَرٍ، وَآلُ الْعَبَّاسِ. قَالَ: أَكُلُّ هَؤُلَاءِ حَرَمُ الصَّدَقَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ. وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الْفَضَائِلِ، وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طَرَقٍ عَنْ يَزِيدَ بْنِ حَيَّانَ بِهِ. وَقَالَ أَبُو عَيْسَى التِّرْمِذِيُّ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْمُنْذِرِ الْكُوفِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فَضِيلٍ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ عَطِيَّةٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ - وَالْأَعْمَشُ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي، أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الْآخَرِ: كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَالْآخَرُ عِتْرَتِي: أَهْلُ بَيْتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَى الْحَوْضِ، فَانظُرُوا كَيْفَ تَخْلُقُونِي فِيهِمَا».

تَفَرَّدَ بِرَوَايَتِهِ التِّرْمِذِيُّ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ أَيْضًا: حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْكُوفِيُّ، حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ الْحُسَيْنِ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّتِهِ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ الْقَصْوَاءِ يَخْطُبُ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابُ اللَّهِ، وَعِتْرَتِي: أَهْلُ بَيْتِي». تَفَرَّدَ بِهِ التِّرْمِذِيُّ أَيْضًا، وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَفِي الْبَابِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، وَأَبِي سَعِيدٍ، وَزَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، وَحَذِيفَةَ بْنِ أَسِيدٍ. ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ سَلِيمَانُ بْنُ الْأَشْعَثِ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلِيمَانَ النَّوْفَلِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعْمِهِ، وَأَحِبُّوا بَيْتِي بِحَبِي». ثُمَّ قَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ إِنَّمَا نَعْرِفُهُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَقَدْ أوردنا أَحَادِيثَ أُخَرَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الاحزاب: ٣٣]، بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهَا هَاهُنَا، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى: حَدَّثَنَا سُؤَيْدُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا مُقَفَّلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ حَنْشَلٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا ذَرٍّ وَهُوَ أَخَذَ بِحُلُقَةِ الْبَابِ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مِنْ عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَنِي، وَمَنْ أَنْكَرَنِي فَأَنَا أَبُو ذَرٍّ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا مِثْلُ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ مِثْلُ سَفِينَةِ نُوحَ، مَنْ دَخَلَهَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا هَلَكَ». هَذَا بِهَذَا الْإِسْنَادِ ضَعِيفٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَفْرَقْ حَسَنَةً زَرَدَ لَمْ يَهَبْ حَسَنَةً﴾ أَي: وَمَنْ يَعْمَلْ حَسَنَةً ﴿زَرَدَ لَمْ يَهَبْ حَسَنَةً﴾ أَي: أَجْرًا وَثَوَابًا، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا ذَرًّا وَإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]. وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنَّ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةَ بَعْدَهَا، وَمِنْ جَزَاءِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ بَعْدَهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أَي: يَغْفِرُ الْكَثِيرَ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَيَكْثُرُ الْقَلِيلُ مِنَ الْحَسَنَاتِ، فَيَسْتَرْ وَيَغْفِرُ، وَيُضَاعَفُ فَيَشْكُرُ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَنْتَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَحْتَبِرْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أَي: لَوْ افْتَرَيْتَ عَلَيْهِ كَذِبًا كَمَا يَزْعُمُ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلُونَ ﴿يَحْتَبِرْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أَي: لَطَبَعَ عَلَى قَلْبِكَ وَسَلَبَكَ مَا كَانَ أَتَاكَ مِنَ الْقُرْآنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ لَوَّلُوكَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ [٤٤] ﴿لَاخِذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [٤٥] ثُمَّ لَفَعْنَا مِنْهُ الْوَيْتِينَ [٤٦] فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَمْرِ عِنْدَ حَجَرَيْنِ [٤٧]﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧] أَي: لَا نَتَّقِمَا مِنْهُ أَشَدَّ الْإِتِّقَامِ، وَمَا قَدَّرَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَحْجِزَ عَنْهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَسَخَ اللَّهُ الْأَتِظِلَّ﴾ لَيْسَ مَعْطُوفًا عَلَى قَوْلِهِ: ﴿يَحْتَبِرْ﴾ فَيَكُونُ مُجْزُوعًا، بَلْ هُوَ مَرْفُوعٌ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، قَالَه ابْنُ جَرِيرٍ، قَالَ: وَحَذَفَتْ مِنْ كِتَابَتِهِ «الْوَاوُ» فِي رِسْمِ الْمُصْحَفِ الْإِمَامِ، كَمَا حَذَفَتْ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَنَسَخَ الْأَرْيَابَةَ﴾ [العلق: ١٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَنَسَخَ الْإِنْسَانَ بِالسَّيْرِ دُعَاهُ بِالْحَيَرِ﴾ [الاسراء: ١١]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُحْيِي الْمَوْتَى يَكْنُتُهُ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿وَنَسَخَ اللَّهُ الْأَتِظِلَّ وَيُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أَي: يَحْقُقُهُ وَيُثَبِّتُهُ وَيُبَيِّنُهُ وَيُوضِّحُهُ بِكَلِمَاتِهِ، أَي بِحُجَّتِهِ وَبِرَاهِنِهِ، ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِ يَدَاتُ الْأُصْدُورِ﴾ أَي: بِمَا تَكُنُهُ الضَّمَامَاتُ، وَتَنْطَوِي عَلَيْهِ السَّرَائِرُ.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ الْوَيْتَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْمُرُهَا مِنَ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [٢٥] ﴿وَنَسْجِبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَنُفَعِلُوا الصَّالِحِينَ وَنَزِيدُهُمْ مِنْ نَفْلِهِ وَالْكَافِرُونَ هُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [٢٦] ﴿وَلَوْ سَئَلْنَا اللَّهَ الرِّزْقَ لِيَسَاءُوا لِمَعْرَا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يَزِيلُ يَقْدَرُ مَا يَشَاءُ إِنَّمَا يَبْهَوُّ خَيْرًا بِصِيرٍ﴾ [٢٧] ﴿وَهُوَ الَّذِي يَزِيلُ الْقَيْتَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَكِيلُ الْعَلِيمُ﴾ [٢٨].

يقول تعالى ممتناً على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه: أنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح ويستر ويغفر، كقوله: ﴿وَمَنْ يَمَلَّ سَوْماً أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرَ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [النساء: ١١٠]، وقد ثبت في صحيح مسلم، رحمه الله، حيث قال: حدثنا محمد بن الصباح وزهير بن حرب قال: حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا إسحاق بن أبي طلحة، حدثني أنس بن مالك - وهو عمه - قال: قال رسول الله ﷺ: «الله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم، أنت عبدي وأنا ربك - أخطأ من شدة الفرح». وقد ثبت أيضاً في الصحيح من رواية عبد الله بن مسعود نحوه. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾: إن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته في المكان الذي يخاف أن يقتله العطش فيه». وقال همام بن الحارث: سئل ابن مسعود عن الرجل يفجر بالمرأة ثم يتزوجها؟ قال: لا بأس به، وقرأ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ الآية رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث شريك القاضي، عن إبراهيم بن مهاجر، عن إبراهيم النخعي، عن همام، فذكره. وقوله: ﴿وَتَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ تَقَرُّباً﴾ أي: يقبل التوبة في المستقبل، ويعفو عن السيئات في الماضي، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم، ومع هذا يتوب على من تاب إليه.

وقوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال السدي: يعني يستجيب لهم. وكذا قال ابن جرير: معناه يستجيب الدعاء لهم لأنفسهم ولأصحابهم وإخوانهم. وحكاه عن بعض النحاة، وأنه جعلها كقوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. ثم روى هو وابن أبي حاتم، من حديث الأعمش، عن شقيق بن سلمة، عن سلمة بن سبرة قال: خطبنا معاذ بالشام، فقال: أنتم المؤمنون، وأنتم أهل الجنة. والله إني أرجو أن يدخل الله من تسبون من فارس والروم الجنة، وذلك بأن أحدكم إذا عمل له - يعني أحدكم عملاً - قال: أحسنت رحمك الله، أحسنت بارك الله فيك، ثم قرأ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية أنه جعل مثل قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ [الزمر: ١٨] أي: هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] والمعنى الأول أظهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك؛ ولهذا قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن المصنف، حدثنا بقرية، حدثنا إسماعيل بن عبد الله الكندي، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾، قال: «الشفاعة لمن وجبت له النار، ممن صنع إليهم معروفاً في الدنيا». وقال قتادة عن إبراهيم النخعي اللخمي في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، قال: يشفعون في إخوانهم، ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال: يشفعون في إخوان إخوانهم. وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾: لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل، ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجع المؤلم يوم معادهم وحسابهم.

وقوله: ﴿وَلَوْ سَئَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِيَاكُوهُ لَبُغَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض، أشراً وبطراً. وقال قتادة: كان يقال: خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك. وذكر قتادة حديث: «إنما أخاف عليكم ما يخرج الله من زهرة الحياة الدنيا»، وسؤال السائل: آياتي الخير بالشراً الحديث. وقوله: ﴿وَلَكِنْ يَرْزُقُ يَدْرُ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِرِزْقِهِ يَحِيرُ بَصِيرٌ﴾ أي: ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك، فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر. كما جاء في الحديث المروي: «إن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه».

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَرْزُقُ الْفَتَى مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أي: من بعد إياس الناس من نزول المطر، ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله: ﴿وَلَا يَكُونُ مِنْ قَبْلِهِ أَنْ يَرْزُقَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسٍ﴾ [الروم: ٤٩]. وقوله: ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أي: يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية. قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، فُحِطَ المطر وقُتِلَ الناس؟ فقال عمر، رضي الله عنه: مطرتم، ثم قرأ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَرْزُقُ الْفَتَى مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾. ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَيْدُ﴾ أي: هو المتصرف لخلقهم بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله.

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَاكِّئٍ وَمَوْ عَلَى جَمِيعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ۝٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ وَمَا أَشَدُّ مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٣١﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانة القاهر ﴿خَلْقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ذرا فيهما، أي: في السموات والأرض، ﴿مِنَ دَاكِّئٍ﴾، وهذا يشمل الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم، وطباعهم وأجناسهم، وأنواعهم، وقد فرقهم في أرجاء أقطار الأرض والسموات، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دَاكِّئٍ﴾ أي: يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلق في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، ويتفقدهم البصر، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق.

وقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِكُمْ﴾ أي: مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما هو عن سيئات تقدمت لكم، ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي: من السيئات، فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها، ﴿وَلَوْ يُولِئُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَاكِّئٍ﴾ [فاطر: ٤٥]. وفي الحديث الصحيح: «والذي نفسي بيده، ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن، إلا كفر الله عنه بها من خطاياه، حتى الشوكة يشاكها». وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، حدثنا أيوب قال: قرأت في كتاب أبي قلابة قال: نزلت: ﴿فَمَنْ يَسْعَلْ يَسْعَلْ دَرَّةً خَيْرًا يَسْرَهُ ۝٢٩﴾ وَمَنْ يَسْعَلْ يَسْعَلْ دَرَّةً شَرًّا يَسْرَهُ ۝٣٠﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وأبو بكر يأكل، فأمسك وقال: يا رسول الله، إني لراة ما عملت من خير وشراً فقال: «أرأيت ما رأيت مما تكره، فهو من مثاقيل ذر الشر، وتدخر مثاقيل الخير حتى تعطاه يوم القيامة» قال: قال أبو إدريس: فلإني أرى مصداقها في كتاب الله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾. ثم رواه من وجه آخر، عن أبي قلابة، عن أنس، قال: والأول أصح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع، حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، حدثنا الأزهر بن راشد الكاهلي، عن الخضر بن القوأس البجلي، عن أبي سحيلة، عن علي، رضي الله عنه، قال: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله ﷺ، وحدثنا به رسول الله ﷺ، قال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾. وسأفسرها لك يا علي: «ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا، فيما كسبت أيديكم، والله تعالى أحلم من أن يثني عليه العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنه في الدنيا فإله الله تعالى أكرم من أن يعود بعد عفو». وكذا رواه الإمام أحمد، عن مروان بن معاوية وعبد، عن أبي سحيلة قال: قال علي: ... فذكر نحوه مرفوعاً. ثم رواه ابن أبي حاتم نحوه من وجه آخر موقوفاً فقال: حدثنا أبي، حدثنا منصور بن أبي مزاحم، حدثنا أبو سعيد بن أبي الوضاح، عن أبي الحسن، عن أبي جحيفة قال: دخلت على علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقال: ألا أحدثكم بحديث ينفي لكل مؤمن أن يعييه؟ قال: فسألناه، ففلا هذه الآية: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾. قال: ما عاقب الله به في الدنيا فإله الله تعالى أكرم من أن يثني عليه العقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عنه في الدنيا فإله الله تعالى أكرم من أن يعود في عفو يوم القيامة. وقال الإمام أحمد: حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا طلحة - يعني ابن يحيى - عن أبي بريدة، عن معاوية - هو ابن أبي سفيان، رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذي إلا كفر الله عنه به من سيئاته». وقال أحمد أيضاً: حدثنا حسين، عن زائدة، عن ليث، عن مجاهد، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا كثرت ذنوب العبد، ولم يكن له ما يكفرها، ابتلاه الله بالحرز ليكفرها». وقل ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا أبو أسامة، عن إسماعيل بن مسلم، عن الحسن - هو البصري - قال في قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾. قال: لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، ما من خدش عود، ولا اختلاج عرق، ولا عثرة قدم، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر». وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عمر بن علي، حدثنا هشيم، عن منصور، عن الحسن، عن عمران بن حصين، رضي الله عنه، قال: دخل عليه بعض أصحابه وقد كان ابتلي في جسده، فقال له بعضهم إنا لنبتئس لك لما نرى فيك. قال: فلا تبتئس بما ترى، فإن ما ترى بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾. قال: وحدثنا أبي: حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني، حدثنا جرير، عن أبي البلاد قال: قلت للعلاء بن بدر: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِكُمْ﴾، وقد ذهب بصري وأنا غلام؟ قال: فبذنوب والديك. وحدثنا أبي: حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا وكيع، عن عبد العزيز بن أبي رواد، عن الضحاك قال: ما نعلم أحداً حفظ القرآن ثم نسيه إلا بذنب، ثم قرى الضحاك: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾.

عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٢﴾ . ثُمَّ يَقُولُ الضَّحَّاكُ : وَآيٌ مُصِيبَةٌ أَكْثَرُ مِنْ نَسْيَانِ الْقُرْآنِ .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ ﴿٣٣﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ بَصِيرَةٍ ﴿٣٤﴾ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبْنَ وَيَعْبَثُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٥﴾ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُخَدِّلُونَ فِيهِ مَا لَمْ يَنْصُرْ مِنْ جَحِيشٍ ﴿٣٦﴾ .

يقول تعالى : ومن آياته الدالة على قدرته وسلطانه، تسخير البحر لتجري فيه الفلك بأمره، وهي الجوارى في البحر كالأعلام، أي : كالجبال، قاله مجاهد، والحسن، والسدي، والضحاك، أي : هي في البحر كالجبال في البر، ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ أي : التي تسير بالسفن، لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك السفن، بل تظل راكدة لا تجيء، ولا تذهب، بل واقفة على ظهره، أي : على وجه الماء ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي : في الشدائد ﴿شَكُورٍ﴾ أي : إن في تسخير البحر وإجرائه الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم، للدلالات على نعمته تعالى على خلقه ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي : في الشدائد، ﴿شَكُورٍ﴾ في الرخاء . وقوله : ﴿أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبْنَ﴾ أي : ولو شاء لأهلك السفن وغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون عليها، ﴿وَيَعْبَثُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي : من ذنوبهم . ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر . وقال بعض علماء التفسير : معنى قوله : ﴿أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبْنَ﴾ أي : لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية، فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم، فصرفت ذات اليمين أو ذات الشمال، أبقت لا تسير على طريق، ولا إلى جهة مقصد . وهذا القول هو يتضمن هلاكها، وهو مناسب للأول، وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح فوقفت، أو لقواه فشردت وأبقت وهلك . ولكن من لطفه ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة، كما يرسل المطر بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيراً جداً لهدم البنيان، أو قليلاً لما أنبت الزرع والثمار، حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سيحاً من أرض أخرى غيرها؛ لأنهم لا يحتاجون إلى مطر، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم، وأسقط جدرانهم . وقوله : ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُخَدِّلُونَ فِيهِ مَا لَمْ يَنْصُرْ مِنْ جَحِيشٍ﴾ ﴿٣٥﴾ أي : لا محيد لهم عن بأسنا ونفعتنا، فإنهم مهزورون بقدرتنا .

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ فَحْشٍ لَّيْسَ الْبِرُّ بِالْعِمَّةِ وَمَا عَنْدَ اللَّهِ حَبْرٌ وَآيَاتٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَيْبٍ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ بَعْضَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا اسْتَأْذَنُوا لِلْبِرِّ هُمْ يَنْصَرُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ .

يقول تعالى محقراً بشأن الحياة الدنيا وزينتها، وما فيها من الزهر والنعم الغاني، بقوله : ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ فَحْشٍ لَّيْسَ الْبِرُّ بِالْعِمَّةِ﴾ أي : مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به، فإنما هو متاع الحياة الدنيا، وهي دار دنيئة فانية زائلة لا محالة، ﴿وَمَا عَنْدَ اللَّهِ حَبْرٌ وَآيَاتٍ﴾ أي : وثواب الله خير من الدنيا، وهو باق سرمدي، فلا تقدموا الغاني على الباقي؛ ولهذا قال : ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي : للذين صبروا على ترك الملاذ في الدنيا، ﴿وَعَلَى رَيْبٍ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي : ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات وترك المحرمات . ثم قال : ﴿وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ بَعْضَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ ، وقد قدمنا الكلام على الإثم والفواحش في «سورة الأعراف» ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي : سجيبتهم وخلقهم وطبعهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس، ليس سجيبتهم الانتقام من الناس . وقد ثبت في الصحيح : أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمت الله . وفي حديث آخر : «كان يقول لأحدنا عند المعتبة : ماله؟ تربت جيبته» . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن زائدة، عن منصور، عن إبراهيم قال : كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا، وكانوا إذا قدروا عفوا .

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي : اتبعوا رسله وأطاعوا أمره، واجتنبوا زجره، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ ، وهي أعظم العبادات لله ﷻ ، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أي : لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تعالى : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ولهذا كان عليه الصلاة والسلام، يشاورهم في الحروب ونحوها، ليطيب بذلك قلوبهم . وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب رضي الله عنه الوفاة حين طعن، جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر، وهم : عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنهم أجمعين، فاجتمع رأى الصحابة كلهم على تقديم عثمان عليهم، رضي الله عنهم، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ، وذلك بالإحسان إلى خلق الله، الأقرب إليهم منهم فالأقرب . وقوله : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا اسْتَأْذَنُوا لِلْبِرِّ هُمْ يَنْصَرُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ أي : فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أذلة، بل يقدرّون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا وعفوا، كما قال يوسف، عليه السلام، لإخوته : ﴿لَا تُغْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية، ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم من عليهم مع قدرته على الانتقام، وكذلك عفوه عن غزو بن الحارث، الذي أراد الفتك به عليه السلام حين اختلط سيفه وهو نائم، فاستيقظ عليه السلام، وهو في يده صلتاً، فانتهره، فوضعه من يده، وأخذ رسول الله ﷺ

السيف من يده، ودعا أصحابه، ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل، وعفا عنه. وكذلك عفا عن لبيد بن الأعصم، الذي سحره، عليه السلام، ومع هذا لم يعرض له، ولا عاتبه، مع قدرته عليه. وكذلك عفوه، عليه السلام، عن المرأة اليهودية - وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخبيري الذي قتله محمود بن مسلمة - التي سمت الذراع يوم خيبر، فأخبره الذراع بذلك، فدعاها فاعترفت فقال: «ما حملك على ذلك» قالت: أردت إن كنت نبياً لم يضرك، وإن لم تكن نبياً استرحنا منك، فأطلقها، عليه الصلاة والسلام، ولكن لما مات منه بشر بن البراء قتلها به، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً، والحمد لله.

﴿وَحَرَّزُوا سَيِّئَتَهُمْ يَنْتَهِأ عَنْكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَيْنَمَا لَزُمُوا إِنَّهُمْ لَا يُحِثُّ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَلَمَّا أَنْصَرَّ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا صَبَرَ وَصْعَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٤﴾﴾ قوله تعالى: ﴿وَحَرَّزُوا سَيِّئَتَهُمْ يَنْتَهِأ عَنْكَ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعَدَّكَ عَلَيْهِمْ فَأَتَدُوا عَلَيْهِمْ يَسْتَلِ مَا أَعَدَّكَ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]. وكقوله: ﴿وَلَمَّا أَنْصَرَّ فَعَاقِبُوا بَيْنَهُمْ مَا عَوْقِبْتُمْ بِهِ وَلَمَّا صَبَرَ لَمْ يَخْرُجْ لِلْمُصَدِّقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [النحل: ١٢٦]، فشرح العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، كقوله تعالى: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ [المائدة: ٤٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَمْلَحَ فَأَجْزَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا يضيع ذلك عند الله كما صح في الحديث: «وما زاد الله عبداً بغو إلا عزاً». وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِثُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: المعتدين، وهو المبتدئ بالسئية. وقال بعضهم: لما كانت الأقسام الثلاثة: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، ذكر الأقسام الثلاثة في هذه الآية فذكر المقتصد وهو الذي يفيض بقدر حقه لقوله: ﴿وَحَرَّزُوا سَيِّئَتَهُمْ يَنْتَهِأ عَنْكَ﴾، ثم ذكر السابق بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَمْلَحَ فَأَجْزَ عَلَى اللَّهِ﴾، ثم ذكر الظالم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِثُّ الظَّالِمِينَ﴾ فأمر بالعدل، وندب إلى الفضل، ونهى من الظلم. ثم قال: ﴿وَلَمَّا أَنْصَرَّ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١٢﴾﴾ أي: ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم. قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيغ، حدثنا معاذ بن معاذ، حدثنا ابن عوف قال: كنت أسأل عن الانتصار: ﴿وَلَمَّا أَنْصَرَّ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١٢﴾﴾، فحدثني علي بن زيد بن جدعان، عن أم محمد - امرأة أبيه - قال ابن عون: زعموا أنها كانت تدخل على أم المؤمنين عائشة - قالت: قالت أم المؤمنين: دخل علينا رسول الله ﷺ، وعندنا زينب بنت جحش، فجعل يصنع بيده شيئاً فلم يُفطن لها، فقلت بيده حتى فطنت لها، فأمسك. وأقبلت زينب تقحم لعائشة، فنهاها، فأبت أن تنتهي. فقال لعائشة: «سُبِّها» فسبتهَا فغلبتها، وانطلقت زينب فأتت علياً فقالت: إن عائشة تقع بكم، وتفعل بكم. فجاءت فاطمة فقال لها: «إنها حبة أبيك ورب الكعبة» فانصرفت، وقالت لعل: إني قلت له كذا وكذا، فقال لي كذا وكذا. قال: وجاء علي إلى النبي ﷺ فكلّمه في ذلك. وهكذا ورد هذا السياق، وعلي بن زيد بن جدعان يأتي في رواياته بالمنكرات غالباً، وهذا فيه نكارة، والحديث الصحيح خلاف هذا السياق، كما رواه النسائي وابن ماجه من حديث خالد بن سلمة الفأفأ، عن عبد الله بن أبي، عن عروة قال: قالت عائشة، رضي الله عنها: ما علمتُ حتى دخلت علي زينب بغير إذن وهي غضبي، ثم قالت لرسول الله ﷺ: حسبك إذا قلت لك ابنة أبي بكر ذُرِّيَّتُهَا ثم أقبلت علي فأعرضت عنها، حتى قال النبي ﷺ: «دونك فانتصري» فأقبلت عليها حتى رأيتها وقد يبس ريقها في فمها، ما ترد علي شيئاً. فرأيت النبي ﷺ يتهلل وجهه. وهذا لفظ النسائي. وقال البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو غسان، حدثنا أبو الأحوص، عن أبي حمزة، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من دعا علي من ظلمه فقد انتصر». ورواه الترمذي من حديث أبي الأحوص، عن أبي حمزة - واسمه ميمون - ثم قال: «لا نعرفه إلا من حديثه، وقد تكلم فيه من قبل حفظه».

وقوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ أي: إنما الحرج والعنت ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: يبدؤون الناس بالظلم. كما جاء في الحديث الصحيح: «السُّبُّانُ مَا قَالَهُ، فعلى البادئ ما لم يُعْتَدِ المظلوم». ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: شديد موجه. قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا سعيد بن زيد - أخو حماد بن زيد - حدثنا عثمان الشحام، حدثنا محمد بن واسع، قال: قدمت مكة فإذا على الخندق مَنظرة، فأخذت فانطلق بي إلى مروان بن المهلب، وهو أمير على البصرة، فقال: حاجتك يا أبا عبد الله. قلت: حاجتي إن استطعت أن تكون كما قال أخو بني عدي. قال: ومن أخو بني عدي؟ قال: العلاء بن زياد، استعمل صديقاً له مرة على عمل، فكتب إليه: أما بعد فإن استطعت ألا تبيت إلا وظهرك خفيف، وبطنك خميص، وكفك نقيه من دماء المسلمين وأموالهم، فإنك إذا فعلت ذلك لم يكن عليك سبيل، ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [١٣] فقال: صدق والله ونصح ثم قال: ما حاجتك يا أبا عبد الله؟ قلت: حاجتي أن تلحقني بأهلي. قال: نعم. رواه ابن أبي حاتم.

ثم إنه تعالى لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص، قال نادياً إلى العفو والصفح: ﴿وَكَلِمَ صَبْرٍ وَفَقْرٍ﴾ أي: صبر على الأذى وستر السببة، ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾. قال سعيد بن جببر: يعني لمن حق الأمور التي أمر الله بها، أي: لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل وثناء جميل. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمران بن موسى الطرسوسي، حدثنا عبد الصمد بن يزيد - خادم الفضيل بن عياض - قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلاً فقل: «يا أخي، اعف عنه». فإن العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمل قلبي العفو، ولكن أنتصر كما أمرني الله ﷻ. فقل له: إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلى باب العفو، فإنه باب واسع، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله، وصاحب العفو ينال على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يقلب الأمور. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى - يعني ابن سعيد القطان - عن ابن عجلان، حدثنا سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رجلاً شتم أبا بكر والنبي ﷺ جالس، فجعل النبي ﷺ يعجب ويتبسم، فلما أكثر رد عليه بعض قوله، فغضب النبي ﷺ وقام، فلحقه أبو بكر فقال: يا رسول الله، إنه كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت! قال: «إنه كان معك ملك يرد عنك، فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان». ثم قال: «يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق، ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها الله، إلا أعز الله بها نضرة، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة، إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة، إلا زاده الله بها قلة». وكذا رواه أبو داود، عن عبد الأعلى بن حماد، عن سفيان بن عيينة - قال: ورواه صفوان بن عيسى، كلاهما عن محمد بن عجلان. ورواه من طريق الليث، عن سعيد المقبري، عن بشير بن المحرر، عن سعيد بن المسيب مرسلًا. وهذا الحديث في غاية الحسن في المعنى، وهو سبب سبه للصدق.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ يُهْدِيهِ وَيَرَى الظَّالِمِينَ لَمْ يَأْمُرُوا بِالْعَدَابِ يَقُولُوا هَلْ لَنَا مَرَّةٌ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (٤٤) ﴿وَنَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الْآثِلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَبِيرَاتِ الَّذِينَ خَبَرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِلَّا إِنْ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ (٤٥) ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أُولِيَاءَ يَصْرُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤٦).

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة: إنه من شاء كان ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له، وأنه من هداه فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، كما قال: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]. ثم قال مخبراً عن الظالمين، وهم المشركون بالله ﴿لَمْ يَأْمُرُوا بِالْعَدَابِ﴾ أي: يوم القيامة يتمنون الرجعة إلى الدنيا، ﴿يَقُولُوا هَلْ لَنَا مَرَّةٌ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَفَعُوا يَدَهُمْ إِلَى الْآثِلِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكُذِّبُ يَأْتِي رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٤٧) ﴿بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٤٨) [النعام: ٢٧، ٢٨]. وقوله: ﴿وَنَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار ﴿خَشِيعِينَ مِنَ الْآثِلِ﴾، أي: الذي قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله، ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ قال مجاهد: يعني ذليل، أي ينظرون إليها مسارقة خوفاً منها، والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو أعظم مما في نفوسهم، أجارنا الله من ذلك. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: يقولون يوم القيامة: ﴿إِنَّ الْخَبِيرَاتِ﴾ أي: الخسار الأكبر ﴿الَّذِينَ خَبَرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: ذهب بهم إلى النار، فعدموا لذتهم في دار الأبد، وخسروا أنفسهم، وفرق بينهم وبين أصحابهم وأهاليهم وقرباتهم، فخسروهم، ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ أي: دائم سرمدي أبدي، لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها. وقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أُولِيَاءَ يَصْرُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤٦) أي: ليس له خلاص.

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَكٍ يُؤْمِرُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ (٤٩) ﴿إِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مَتًّا رَحْمَةً فَجِئَ بِهَا وَإِنْ نُسِفَتْهُمُ سِنِينَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ (٥٠).

لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة، حذر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ أي: إذا أمر بكونه فإنه كلمع البصر يكون، وليس له دافع ولا مانع. وقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلَكٍ يُؤْمِرُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ أي: ليس لكم حصن تحصنون فيه، ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه، فتغيبون عن بصره، تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلا إليه، ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنَّ الْآثِلَ﴾ (٥١) ﴿لَا لَا وَدَّ اللَّهُ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ التَّشْتَرُ﴾ (٥٢) [القيامة: ١٠-١٢]. وقوله: ﴿إِنْ أَعْرَضُوا﴾ يعني: المشركين ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ أي: لست عليهم بمصيطر: ﴿إِنْسٍ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَطَعْنًا لِلْجَسَّادِ﴾ [الرد: ٤٠]. وقال هاهنا: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أي: كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّا

إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَيَّهَا ۚ أَي: إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك، «وَلَمَّا ضُمَّ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِئًا مِّن فَئِئِهِمْ شَبَّ» يعني الناس «سَيِّئَةً» أَي: جذب ونقمة وبلاء وشدة، «فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ» أَي: يجحد ما تقدم من النعمة ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أشر وبطر، وإن أصابته محنة يشن وقط، كما قال رسول الله ﷺ للنساء: «يا معشر النساء، تصدقن فإنني رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة: «ولم يا رسول الله؟ قال: «لأنكن تكثرن الشكاية، وتكفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم جردتها عن رحمك قلت: ما رأيت منك خيراً قط». وهذا حال أكثر الناس إلا من هداه الله وألهمه رشده، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالؤمن كما قال رسول الله ﷺ: «إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ إِذْ أَخْرَجَهُمْ مِنَ ظُلُمٍ إِلَى نُّورٍ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بَعْدَ ذَلِكَ فَيَعْمَلْ مَن يَكْفُرْ عَمِيماً ۖ إِنَّهُ عَلَيْهِ قَدِيرٌ ۝٤٩﴾

يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وأنه يخلق ما يشاء، «يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنشَاءً» أَي: يرزقه البنات فقط - قال البغوي: ومنهم لوط، عليه السلام «وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ» أَي: يرزقه البنين فقط. قال البغوي: كإبراهيم الخليل، عليه السلام - لم يولد له أنثى، «أَوْ يُرْوِجُهُمْ ذُكْرًا وَإِنثَاءً» أَي: يعطي من يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى، أي: من هذا وهذا. قال البغوي: كمحمد، عليه الصلاة والسلام «وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً» أَي: لا يولد له. قال البغوي: كيعقوب وعيسى، عليهما السلام، فجعل الناس أربعة أقسام، منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكوراً وإناثاً، ومنهم من يمنعه هذا وهذا، فيجعله عقيماً لا نسل له ولا يولد له، «إِنَّهُ عَلَيْهِ قَدِيرٌ» أَي: بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام، «قَدِيرٌ» أَي: على من يشاء، من تفاوت الناس في ذلك. وهذا المقام شبيه بقوله تعالى عن عيسى: «وَلَنَجْجِلكَ مَائَةً لِلنَّاسِ» [مريم: ٢١] أَي: دلالة لهم على قدرته، تعالى وتقدس، حيث خلق الخلق على أربعة أقسام، فآدم، عليه السلام، مخلوق من تراب، لا من ذكر ولا أنثى، وحواء، عليها السلام، مخلوقة من ذكر بلا أنثى، وسائر الخلق سوى عيسى عليه السلام من ذكر وأنثى، وعيسى، عليه السلام، من أنثى بلا ذكر فتمت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم، عليهما السلام؛ ولهذا قال: «وَلَنَجْجِلكَ مَائَةً لِلنَّاسِ»، فهذا المقام في الآباء، والمقام الأول في الأبناء، وكل منهما أربعة أقسام، فسيحان العليم القدير.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْتُمَ إِلَهُهُ إِلَّا وَجْهاً أَوْ مِرّاً ۚ وَبِإِذْنِ اللَّهِ يُخْفَىٰ ۚ وَمَا يَكْتُمُ إِلَهُهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ۝٥٠﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُحْمًا مِّنْ أَمْرًا مَّا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِلَيْكَ تُهْدَىٰ ۚ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥١﴾ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ آيَةٌ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ۝٥٢﴾

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله ﷻ، وهو أنه تعالى تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئاً لا يتمارى فيه أنه من الله ﷻ، كما جاء في صحيح ابن حبان، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي: أَنْ نَفْسًا لَّنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ زَرْقَهَا وَأَجْلَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ». وقوله: «أَوْ مِرّاً ۚ وَبِإِذْنِ اللَّهِ يُخْفَىٰ ۚ وَمَا يَكْتُمُ إِلَهُهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ» أَي: يستكمل الرؤية بعد التكليم، فحجب عنها. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله: «ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحاً الحديث، وكان أبوه قد قتل يوم أحد، ولكن هذا في عالم البرزخ، والآية إنما هي في الدار الدنيا. وقوله: «أَوْ مِرّاً ۚ وَبِإِذْنِ اللَّهِ يُخْفَىٰ ۚ وَمَا يَكْتُمُ إِلَهُهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ» فهو علي عليه السلام خبير حكيم. وقوله: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُحْمًا مِّنْ أَمْرًا» يعني: القرآن، «مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ» أَي: على التفصيل الذي شرع لك في القرآن، «وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا» كقوله: «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَنُورٌ ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي قُلُوبِهِمْ عَمَلٌ غَيْرُ الْهُدَىٰ ۚ وَهُوَ عَنِ أُولَئِكَ تَنَادَرَتْ مِنَ مَكَّانٍ مُّعَيَّنٍ» [نصفت: ٤٤]. وقوله: «وَإِلَيْكَ أَي: يا محمد «لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ»، وهو الخلق القويم، ثم فسره بقوله: «صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» أَي: ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما، الحاكم الذي لا معقب لحكمه، «آيَةٌ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ»، أي ترجع الأمور، فيفصلها ويحكم فيها.

آخر تفسير سورة «حم الشورى»

والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الزخرف

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّمَا فِي أَرُ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلَّ حَكِيمٌ ۝ أَنْتَضَرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُتَعِيبِينَ ۝ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَنْ مِثْلَ الْأَوَّلِينَ ۝﴾.

يقول تعالى: ﴿حَمْدٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝﴾ أي: البين الواضح الجلي المعاني والألفاظ؛ لأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: بلغة العرب فصيحاً واضحاً، ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي: نفهمونه وتندبرونه، كما قال: ﴿يَلْسَانُ عَرَبِيٍّ شَبِيحٌ﴾ [الشعراء: ١٩٥]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا فِي أَرُ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلَّ حَكِيمٌ ۝﴾: بين شرفه في الملا الأعلى، ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا فِي أَرُ الْكِتَابِ﴾ أي: القرآن ﴿فِي أَرُ الْكِتَابِ﴾ أي: اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس، ومجاهد، ﴿لَدَيْنَا﴾ أي: عندنا، قاله قتادة وغيره، ﴿لَعَلَّ﴾ أي: ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل، قاله قتادة، ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: محكم بريء من اللبس والزيغ. وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله، كما قال: ﴿إِنَّمَا لَقَرْنَاهُ كَرِيمٌ ۝﴾ في ﴿كِتَابٍ مَكُونٍ ۝﴾ لَا يَسْأَلُهُ إِلَّا الْمُنظَرُونَ ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْمَلَكَيْنِ ۝﴾ [الواقعة: ٧٧-٨٠] وقال: ﴿كَلَّا إِنَّمَا تَذَكُّرٌ ۝﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ﴿فِي صُفُوفٍ مَكْرُومَةٍ ۝﴾ مَرْثُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿يَأْتِيهِمْ سَفَرٌ ۝﴾ كَرَامٍ بَرَرٌ ﴿[عبس: ١١-١٦]؛ ولهذا استنبط العلماء، رحمهم الله، من هاتين الآيتين: أن المحدث لا يمس المصحف، كما ورد به الحديث إن صح؛ لأن الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن في الملا الأعلى، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى، لأنه نزل عليهم، وخطابه متوجه إليهم، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم، والانقياد له بالقبول والتسليم، لقوله: ﴿وَإِنَّمَا فِي أَرُ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلَّ حَكِيمٌ ۝﴾. وقوله: ﴿أَنْتَضَرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُتَعِيبِينَ ۝﴾: اختلف المفسرون في معناها، ف قيل: معناها: أنحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به؟ قاله ابن عباس: ومجاهد وأبو صالح، والسدي، واختاره ابن جرير. وقال قتادة في قوله: ﴿أَنْتَضَرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾: والله لو أن هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله عاد بعائده ورحمته، وكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة، أو ما شاء الله من ذلك. وقول قتادة لطيف المعنى جداً، وحاصله أنه يقول في معناه: أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير والذكر الحكيم - وهو القرآن - وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل أمر به ليهتدي من قدر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته. ثم قال تعالى - مسلماً لنبيه في تكذيب من كذبه من قومه، وأمرأله بالصبر عليهم -: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝﴾ أي: في شيع الأولين، ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝﴾ أي: يكتدون ويسخرون به. وقوله: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي: فأهلكنا المكذبين بالرسول، وقد كانوا أشد بطشاً من هؤلاء المكذبين لك يا محمد. كقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا أَكْثَرًا مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر: ٨٢] والآيات في ذلك كثيرة. وقوله: ﴿وَمَنْ مِثْلَ الْأَوَّلِينَ ۝﴾: قال مجاهد: سنتهم. وقال قتادة: عقوبتهم. وقال غيرهما: عبرتهم، أي: جعلناهم عبرة لم بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم، كقوله في آخر هذه السورة: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ۝﴾ [الزخرف: ٥٦]. وكقوله: ﴿سَأَلَ اللَّهُ أَلَى قَدْ خَلَقْتُ فِي عِبَادِي ۝﴾ [غافر: ٨٥] وقال: ﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الإحزاب: ٦٢].

﴿وَلَنْ يَسْأَلَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلَدًا مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوهُ ۝﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَالِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿يَسْأَلُونَ عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا بِعَمَةِ رَبِّكُمْ ۝﴾ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَمْ مُقِرِّينَ ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا رَبُّنَا لَسْفَلُونَ ۝﴾.

يقول تعالى: ولئن سألت - يا محمد - هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره: ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْكَئِيمُ﴾ أي: ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله تعالى وحده لا شريك له، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد. ثم قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: فراشاً قراراً ثابتاً، يسرون عليها ويقومون وينامون وينصرفون، مع أنها مخلوقة على تيار الماء، لكنه أرساها بالجبال لثلا تميد هكذا ولا هكذا، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ فِيهَا شُبُلًا﴾ أي: طرقاً بين الجبال والأودية ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: في سيركم من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم. ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ﴾ أي: بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم، لأنفسكم ولأنعامكم. وقوله: ﴿فَأَنْثَرْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا﴾ أي: أرضاً ميتة، فلما جاءها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج. ثم نبه بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها، فقال: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي: مما تنبت الأرض من سائر الأصناف، من نبات وزروع وثمار وأزاهير، وغير ذلك أي من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ مِنَ الْفَلَاحِ﴾ أي: السفن ﴿وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: ذلها لكم وسخرها ويسرها لأكلكم لحومها، وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها؛ ولهذا قال: ﴿لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أي: لتستووا متمكنين مرتفقين ﴿عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أي: على ظهور هذا الجنس، ﴿ثُمَّ تَذْكُرُونَهَا يَوْمَ تَرْكَبُكُمْ﴾ أي: فيما سخر لكم ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَكُمُ مُقْرِينَ﴾ أي: مقاومين. ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه. قال ابن عباس، وقتادة، والسدي، وابن زيد: ﴿مُقْرِينَ﴾ أي: مطيقين. ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا رَبُّنَا لَسْقِلُونَ﴾ (١٤) أي: لصاثرون إليه بعد ممانتنا، وإليه سيرنا الأكبر. وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي في قوله: ﴿وَسَكَّرُوا لَكُمُ الْخَيْرَ الْغَوِيَّ﴾ (البقرة: ١٩٧)، وباللباس الدنيوي على الأخروي في قوله تعالى: ﴿وَرَيْسًا وَلِيًّا الْقَوِيُّ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ (الأعراف: ٢٦).

ذكر الأحاديث الواردة عند ركوب الدابة:

حديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا شريك بن عبد الله، عن أبي إسحاق، عن علي بن ربيعة قال: رأيت علياً، رضي الله عنه، أتى بدابة، فلما وضع رجله على الركاب قال: باسم الله. فلما استوى عليها قال: الحمد لله، ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَكُمُ مُقْرِينَ وَلَا إِلَهَ إِلَّا رَبُّنَا لَسْقِلُونَ﴾ (١٤)، ثم حمد الله ثلاثاً، وكبر ثلاثاً، ثم قال: سبحانك، لا إله إلا أنت، قد ظلمت نفسي فاغفر لي. ثم ضحك، فقلت له: من أي شيء ضحكت يا أمير المؤمنين؟ فقال: رأيت رسول الله ﷺ صنع كما صنعت، ثم ضحك. فقلت: مم ضحكت يا رسول الله؟ فقال: «يعجب الرب من عبده إذا قال: رب، اغفر لي، ويقول: علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري». وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث أبي الأحوص - زاد النسائي - ومنصور - عن أبي إسحاق السبيعي، عن علي بن ربيعة الأسدي الوالبي، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقد قال عبد الرحمن بن مهدي، عن شعبة: قلت لأبي إسحاق السبيعي: ممن سمعت هذا الحديث؟ قال: من يونس بن خباب. فقلت يونس بن خباب فقلت: ممن سمعته؟ فقال: من رجل سمعه من علي بن ربيعة. ورواه بعضهم عن يونس بن خباب، عن شقيق بن عقبة الأسدي، عن علي بن ربيعة الوالبي، به.

حديث عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا أبو بكر بن عبد الله، عن علي بن أبي طلحة، عن عبد الله بن عباس؛ أن رسول الله ﷺ أُرْدِفَ على دابته، فلما استوى عليها كبر رسول الله ﷺ ثلاثاً، وحمد ثلاثاً، وهلل الله واحدة. ثم استلقى عليه فضحك، ثم أقبل عليه فقال: «ما من امرئ مسلم يركب دابة فيصنع كما صنعت، إلا أقبل الله، ﷻ، عليه، فضحك إليه كما ضحكت إليك». تفرد به أحمد.

حديث عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبي الزبير، عن علي بن عبد الله البارق، عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما؛ أن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثاً ثم قال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَكُمُ مُقْرِينَ وَلَا إِلَهَ إِلَّا رَبُّنَا لَسْقِلُونَ﴾ (١٤). ثم يقول: «اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى. اللهم، هون علينا السفر واطو لنا البعيد. اللهم، أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل. اللهم، أصحبنا في سفرنا، واخلفنا في أهلنا». وكان إذا رجع إلى أهله قال: «آيئون ثابتون إن شاء الله، عابدون، لربنا حامدون». وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي، من حديث ابن جريج، والترمذي من حديث حماد بن سلمة، كلاهما عن أبي الزبير، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم، عن عمرو بن

الحكم بن ثوبان، عن أبي لاس الخزاعي قال: حملنا رسول الله ﷺ على إبل من إبل الصدقة إلى الحج. فقلنا: يا رسول الله، ما نرى أن تحملنا هذه! فقال: «ما من بعير إلا في ذروته شيطان، فاذكروا اسم الله عليها إذا ركبتوها كما أمركم، ثم امتنوها لأنفسكم، فإنما يحمل الله ﷻ». أبو لاس اسمه: محمد بن الأسود بن خلف.

حديث آخر في معناه: قال أحمد: حدثنا عثاب، أخبرنا عبد الله (ح) وعلي بن إسحاق، أخبرنا عبد الله - يعني ابن المبارك - أخبرنا أسامة بن زيد، أخبرني محمد بن حمزة؛ أنه سمع أباہ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «على ظهر كل بعير شيطان، فإن ركبتوها فسموا الله ﷻ، ثم لا تقصروا عن حاجاتكم».

﴿وَجَعَلُوا لَمْ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ مِمَّا بَخَلُّوا يَخَلُّوا يَخَلُّوا بِالنَّارِ وَأَصْفَكُمْ بِالْبَيْتِ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَاطِمٌ ﴿١٧﴾ أَوْسَى يُنْشِئُوا فِي الْحَيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَاءِ غَيْرٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِئَا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَخُكَبُ شَهْدَتِهِمْ وَسُئُلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ نَأْ لَّهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما افتروه وكذبوه في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله، كما ذكر الله عنهم في سورة «الأنعام»، في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لَمْ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا مِنْ الْحَزْبِ وَالْأَنْكَبِ تَصِيْبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرْصِهِمْ وَهَذَا لِسُرْكَائِهِمْ فَكَانَ يَسْأَلُهُمْ أَفَلَا يَعْلَمُ إِنْ كَانَتْ إِلَهُهُ وَمَا كَانَ إِلَهُهُ يَسْأَلُ لَمْ يَخْلُقْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦]. وكذلك جعلوا له من قسمي البنات والبنين أحسهما وأرداهما وهو البنات، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ﴿٢١﴾ إِنَّكَ إِذَا فَسَخْتَ بُرْءَهُ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]. وقال هاهنا: ﴿وَجَعَلُوا لَمْ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

ثم قال: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ مِمَّا بَخَلُّوا يَخَلُّوا يَخَلُّوا بِالنَّارِ وَأَصْفَكُمْ بِالْبَيْتِ ﴿١٦﴾﴾؟ وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار. ثم ذكر تمام الإنكار فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَاطِمٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات بأنف من ذلك غاية الألفة، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك، يقول تعالى: فكيف تأنفون أنتم من ذلك، وتسبونوه إلى الله ﷻ؟ ثم قال: ﴿أَوْسَى يُنْشِئُوا فِي الْحَيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَاءِ غَيْرٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ أي: المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلى منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عيية، أو من يكون هكذا ينسب إلى جناب الله ﷻ؟!، فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن، في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلى وما في معناه، ليحجب ما فيها من نقص، كما قال بعض شعراء العرب:

وَمَا الْحَلَى إِلَّا زِينَةٌ مِنْ نَقِيصَةٍ يَتِمُّ مِنْ حُسْنٍ إِذَا الْحُسْنُ قَصُورًا
وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْجَمَالُ مَوْفُورًا كَحُسْنِكَ، لَمْ يَخْتِجْ إِلَى أَنْ يَزُورًا

وأما نقص معناها، فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار، لا عبارة لها ولا همة، كما قال بعض العرب وقد بشر بنت: «ما هي بنعم الولد: نصرها بالبكاء، وبرها سرقة». وقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِئَا﴾ أي: اعتقدوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: ﴿أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أي: شاهدهم وقد خلقهم الله إناثاً، ﴿سَخُكَبُ شَهْدَتِهِمْ﴾ أي: بذلك، ﴿وَسُئُلُونَ﴾ عن ذلك يوم القيامة. وهذا تهديد شديد، ووعد أكيد. ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أي: لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام، التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله، فإنه عالم بذلك وهو يقرنا عليه، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ: أحدها: جعلهم لله ولداً، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً. والثاني: دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً. الثالث: عبادتهم لهم مع ذلك كله، بلا دليل ولا برهان، ولا إذن من الله ﷻ، بل بمجرد الآراء والأهواء، والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء، والخط في الجاهلية الجهلاء. الرابع: احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قدرًا والحجة إنما تكون بالشرع، وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلاً كبيراً، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوفَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَمِنْهُمْ مَن ظَنَّنَا أَنَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَنِ الْعَدْلِ كَافٍ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَسَلِّ مَن أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٥]. وقال في هذه الآية - بعد أن ذكر حجبتهم هذه -: ﴿مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بصحة ما قالوه واحتجوا به ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، أي: يكذبون ويقولون. وقال مجاهد في قوله: ﴿مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾

إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢١﴾ أَي: ما يعلمون قدرة الله على ذلك.

﴿أَمْ أَنْتُمْ مَنَّانُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مَنَاقِبٍ عَلَيْنَا وَنَحْنُ عَلَىٰ مَنَاقِبِهِمْ مُتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مَنَاقِبٍ عَلَيْنَا وَنَحْنُ عَلَىٰ مَنَاقِبِهِمْ مُتَّقُونَ ﴿٢٤﴾ قُلْ أُولَئِكَ جَاهِلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ أُولَئِكَ جَاهِلُونَ ﴿٢٦﴾ قُلْ أُولَئِكَ جَاهِلُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أُولَئِكَ جَاهِلُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أُولَئِكَ جَاهِلُونَ ﴿٢٩﴾ قُلْ أُولَئِكَ جَاهِلُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ أُولَئِكَ جَاهِلُونَ ﴿٣١﴾ قُلْ أُولَئِكَ جَاهِلُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ أُولَئِكَ جَاهِلُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ أُولَئِكَ جَاهِلُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ أُولَئِكَ جَاهِلُونَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة: ﴿أَمْ أَنْتُمْ مَنَّانُونَ﴾ أي: من قبل شركهم، ﴿فَهُمْ يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَشْفَادُ﴾ أي: فيما هم فيه، أي: ليس الأمر كذلك، كقوله: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ [الروم: ٣٥] أي: لم يكن ذلك. ثم قال: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مَنَاقِبٍ عَلَيْنَا وَنَحْنُ عَلَىٰ مَنَاقِبِهِمْ مُتَّقُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد، بأنهم كانوا على أمة، والمراد بها الدين هاهنا، وفي قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢]. وقولهم: ﴿وَلَنَا عَلَىٰ مَا نَحْنُ بِهِ حَقٌّ وَمَا نَحْنُ بِهِ بِمَقُولِهِمْ﴾، دعوى منهم بلا دليل. ثم بين تعالى أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل، تشابهت قلوبهم، فقالوا مثل مقالتهم: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَيْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَالِحٌ أَوْ جَاهِلٌ﴾ ﴿٢٧﴾ أَوَّاهُوا بِمَا بَلَّ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٢٨﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣] وهكذا قال هاهنا: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مَنَاقِبٍ عَلَيْنَا وَنَحْنُ عَلَىٰ مَنَاقِبِهِمْ مُتَّقُونَ﴾ ﴿٢٩﴾. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿أُولَئِكَ جَاهِلُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ قُلْ أُولَئِكَ جَاهِلُونَ ﴿٣١﴾ قُلْ أُولَئِكَ جَاهِلُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ أُولَئِكَ جَاهِلُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ أُولَئِكَ جَاهِلُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ أُولَئِكَ جَاهِلُونَ ﴿٣٥﴾

﴿وَلَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٣٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٣٨﴾ بَلْ مَنَعَتْهُمْ هَذِهِمْ دِينَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٣٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٤٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٤١﴾ أَمْ يَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا أَلَمْ يَكُنْ لَنَا آيَةٌ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٤٢﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٤٣﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٤٤﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٤٥﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٤٦﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٤٧﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٤٨﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٤٩﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٥٠﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٥١﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٥٢﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٥٣﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٥٤﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٥٥﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٥٦﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٥٧﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٥٨﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٥٩﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٦٠﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٦١﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٦٢﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٦٣﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٦٤﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٦٥﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٦٦﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٦٧﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٦٨﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٦٩﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٧٠﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٧١﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٧٢﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٧٣﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٧٤﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٧٥﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٧٦﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٧٧﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٧٨﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٧٩﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٨٠﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٨١﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٨٢﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٨٣﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٨٤﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٨٥﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٨٦﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٨٧﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٨٨﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٨٩﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٩٠﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٩١﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٩٢﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٩٣﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٩٤﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٩٥﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٩٦﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٩٧﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٩٨﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿٩٩﴾ وَهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليه إمام الحنفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها: أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ ﴿٣٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴿٣٨﴾ أي: هذه الكلمة، وهي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، وهي «لا إله إلا الله»، أي: جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم، عليه السلام، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إليها. وقال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ يعني: لا إله إلا الله، لا يزال في ذريته من يقولها. وروي نحوه عن ابن عباس. وقال ابن زيد: كلمة الإسلام. وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ مَنَعَتْهُمْ هَذِهِمْ دِينَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٣٩﴾ أي: بين الرسالة والنذارة. ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ أي: كابروه وعاندوه ودفعوا بالصدور والراح كفرأ وحسدأ وغبأ، ﴿وَقَالُوا﴾ أي: كالمعترضين على الذي أنزله تعالى وتقدس: ﴿لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي: هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القرينتين؟ يعنون مكة والطائف. قاله ابن عباس، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي، وقتادة، والسدي، وابن زيد. وقد ذكر غير واحد منهم: أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفي. وقال مالك عن زيد بن أسلم، والضحاك، والسدي: يعنون الوليد بن المغيرة، ومسعود بن عمرو الثقفي. وعن مجاهد: عمير بن عمرو بن مسعود الثقفي. وعنه أيضاً: أنهم يعنون الوليد بن المغيرة، وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي. وعن مجاهد: يعنون عتبة بن ربيعة بمكة، وابن عبد ياليل بالطائف. وقال السدي: عنوا بذلك الوليد بن المغيرة، وكنانة بن عبد عمرو بن عمير الثقفي. والظاهر: أن مرادهم رجل كبير من أي البلديتين كان. قال الله تعالى راداً عليهم في هذا الاعتراض: ﴿أَمْ يَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا أَلَمْ يَكُنْ لَنَا آيَةٌ بِمَا كُنَّا فِي الشَّكِّ﴾ ﴿٤١﴾ أي: ليس الأمر مردوداً إليهم، بل إلى الله، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً، وأشرفهم بيتاً، وأطهرهم أصلاً. ثم قال

تعالى مبينا أنه قد فaut بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة، فقال: ﴿عَنْ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَيعَشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾. وقوله: ﴿لِنَتَّخِذَ مِنْهُمْ بَعْضًا سَخِرَاءَ﴾، قيل: معناه ليسخر بعضهم بعضاً في الأعمال، لاحتياج هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، قاله السدي وغيره. وقال قتادة، والضحاك: ليملك بعضهم بعضاً. وهو راجع إلى الأول. ثم قال: ﴿وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَحْمَدُونَ﴾ أي: رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ لَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطائنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال - هذا معنى قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدي، وغيرهم - ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُؤْسَاتِهِمْ سُقُوتًا مِّنْ فَضْرَةٍ وَمَتَاعًا غَلِيظًا يَظْهَرُونَ﴾ أي: سلاسل ودرجاً من فضة - قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد، وغيرهم - ﴿غَلِيظًا يَظْهَرُونَ﴾ أي: يصعدون، ﴿وَالْيُؤْسَرُونَ أَتْرَابًا﴾ أي: أغلاقاً على أبوابهم ﴿وَسُرُّرًا عَلَيْهِ يَنُكَّرُونَ﴾، أي: جميع ذلك يكون فضة، ﴿وَزُخْرُفًا﴾، أي: وذهباً. قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي، وابن زيد. ثم قال: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكُمْ لَمَّا مَتَّعَ لِحَيَاتِهِ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى أي: يجعل لهم بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشارب، ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله حسنة يجزيهم بها، كما ورد به الحديث الصحيح. وقد ورد في حديث آخر: «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، فما سقى منها كافراً شربة ماء»، أسنده البغوي من رواية زكريا بن منظور، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ، فذكره. ورواه الطبراني من طريق زمعة بن صالح، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ: «لو عدلت الدنيا جناح بعوضة، ما أعطى كافراً منها شيئاً». ثم قال: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: هي لهم خاصة لا يشاركون فيها أحد غيرهم؛ ولهذا لما قال عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ حين صعد إليه في تلك المشربة لما ألى من نسائه، فراه عمر على رمال حصيد قد أثر بجنبه فابتدرت عيناه بالبكاء، وقال: يا رسول الله، هذا كسرى وقبصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه. وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس وقال: «أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟» ثم قال: «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا». وفي رواية: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟». وفي الصحيحين أيضاً وغيرهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة». وإنما خولهم الله تعالى في الدنيا لحقارتها، كما روى الترمذي وابن ماجه، من طريق أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافراً شربة ماء أبداً»، قال الترمذي: حسن صحيح.

﴿وَمَنْ يَبْشُرْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضَ لَمْ يَشِطْلَا فَهُوَ لَمْ قَرِينٌ ٣٦﴾ وَاتَّخِذُوا لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ٣٧﴾ حَقٌّ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَكَلِّمُ بَنِيَّ وَيَنْتَكِلُ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْبَسُ الْقَرِينُ ٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَكْثَرُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ٣٩﴾ أَفَأَنْتُمْ تُشْفِعُونَ أَمْ يَكُنْ لَهُ الْفَتْحُ وَمَنْ كَانَ فِي صَكْلٍ ثَبِيتٍ ٤٠﴾ فَإِنَّمَا نَذَرْنَا لَكُمْ فِيهَا نِفْتَمُوتَ ٤١﴾ أَوْ رَبُّكَ الَّذِي وَعَدْتُهُمْ فَإِنَّا عَلِيمٌ مُّقْتَدِرُونَ ٤٢﴾ فَاسْتَسِيكَ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُنْكَلُونَ ٤٤﴾ وَمَنْ مِّنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِنْ رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ٤٥﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْشُرْ﴾ أي: يتعاضى، ويتغافل ويعرض، ﴿عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ والعشا في العين: ضعف بصرها. والمراد هاهنا: عشا البصيرة، ﴿نَقِيضَ لَمْ يَشِطْلَا فَهُوَ لَمْ قَرِينٌ﴾ كقوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُنْذَرِينَ قُلُوبُهُمْ مَّا تَوَلَّى وَفُضِّلَ بِهِمْ وَسَاءَتْ مَعِيرًا ١١٥﴾ [النساء: ١١٥]، وكقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وكقوله: ﴿وَوَعَدْنَاهُ لَمُزْ قُرْآنَهُ فَرَبُّنَا لَمْ يَمِزْ أَيْدِيهِمْ وَمَا عَلَّمَهُمْ وَحَىٰ عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ فِي أُمُورٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ مِنَ الْبُحْرِ وَالْأَنْبِيَاءِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ٢٥﴾ [فصلت: ٢٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ حَقٌّ إِذَا جَاءَنَا ﴿أَي: هذا الذي تغافل عن الهدى نقبض له من الشياطين من بضله، ويهديه إلى صراط الجحيم. فإذا وافى الله يوم القيامة يتبرم بالشیطان الذي وكل به، ﴿يَكَلِّمُ بَنِيَّ وَيَنْتَكِلُ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْبَسُ الْقَرِينُ﴾ أي: فبئس القرين كنت لي في الدنيا. وقرأ بعضهم: «حتى إذا جاءنا» يعني: القرين والمقارن. قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن سعيد الجزيقي قال: بلغنا أن الكافر إذا بعث من قبره يوم القيامة سَمِعَ بيده شيطان فلم يفارقه، حتى يصيرهما الله تعالى إلى النار، فذلك حين يقول: ﴿يَكَلِّمُ بَنِيَّ وَيَنْتَكِلُ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْبَسُ الْقَرِينُ﴾ والمراد بالمشرقين هنا هو ما بين المشرق والمغرب. وإنما استعمل هنا تَغْلِيظاً، كما يقال: القمران، والأبوان، والعسران. قاله ابن جرير وغيره. ولما كان الاشتراك في المصيبة في الدنيا يحصل به تسلياً لمن شاركه في مصيبته، كما قالت الخنساء تبكي أخاها:

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ خَوْلِي عَلَى قَتْلِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أَسْلَى النَّفْسَ عَنْهُ بِالنَّاسِي

قطع الله بذلك بين أهل النار، فلا يحصل لهم بذلك ناسي وتسليه ولا تخفيف. ثم قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ أَيْدِي إِذْ ظَلَمْتُمْ أَتْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُتَوَكِّفُونَ﴾ (٤٦) أي: لا يغني عنكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب الأليم. وقوله: ﴿أَفَأَنْتُمْ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٤٧) أي: ليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ، وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحكم العدل في ذلك. ثم قال: ﴿فَأَمَّا نَذَهَبَ بِكَ فَأَمَّا مِنْهُمْ تُنْفِثُونَ﴾ (٤٨) أي: لا بد أن ننتقم منهم ونعاقبهم، ولو ذهب أنت، ﴿أَوْ رُبَّمَا نَذَهَبَ الْأَذَى وَعَذَابُهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ (٤٩) أي: نحن قادرون على هذا وعلى هذا. ولم يقبض الله رسوله حتى أقر عينه من أعدائه، وحكمه في نواصيهم، وملكه ما تضمنته صياصيمهم. هذا معنى قول السدي، واختاره ابن جرير. وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن معمر قال: تلا قتادة: ﴿فَأَمَّا نَذَهَبَ بِكَ فَأَمَّا مِنْهُمْ تُنْفِثُونَ﴾ (٤٨) فقال: ذهب النبي ﷺ وبقيت النعمة، ولم ير الله نبيه ﷺ في أمته شيئاً يكرهه، حتى مضى، ولم يكن نبي قط إلا ورأى العقوبة في أمته، إلا نبيكم ﷺ قال: وذكر لنا أن رسول الله ﷺ أرى ما يصيب أمته من بعده، فما رزني ضاحكاً منبسطاً حتى قبضه الله ﷻ. وذكر من رواية سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة نحوه. ثم روى ابن جرير عن الحسن نحو ذلك أيضاً. وفي الحديث: «النجوم أمانة للسماء، فإذا ذهب النجوم أتى السماء ما توعد»، وأنا أمانة لأصحابي، فإذا ذهب أتى أصحابي ما يوعدون».

ثم قال تعالى: ﴿فَأَسْتَجِبْ لِلَّذِي أَرْجَى إِلَيْكَ إِنَّاكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٠) أي: خذ بالقرآن المنزل على قلبك، فإنه هو الحق، وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم. ثم قال: ﴿وَإِنَّمَا لَدُكُمُ الرَّحْمَةُ﴾ (٥١) قيل: معناه: لشرف لك ولقومك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة، والسدي، وابن زيد. واختاره ابن جرير، ولم يحك سواه. وأورد البغوي هاهنا حديث الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا أكبه الله على وجهه ما أقاموا الدين». رواه البخاري. وقيل: معناه: أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخُلص من المهاجرين السابقين الأولين، ومن شابههم وتابعهم. وقيل: معناه: ﴿وَإِنَّمَا لَدُكُمُ الرَّحْمَةُ﴾ (٥١) أي: لتذكير لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم، كقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٥٢) [الأنبياء: ١٠١]، وكقوله: ﴿وَأَنْذَرْتُكُمْ عَذَابَ الْآخِرِينَ﴾ (٥٣) [الشعراء: ٢١٤]. ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٥٤) أي: عن هذا القرآن وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له. وقوله: ﴿وَمَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلًا جَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ (٥٥) أي: جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَشَّرْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رُسُلًا أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوفَ﴾ [النحل: ٣٦]. قال مجاهد: في قراءة عبد الله بن مسعود: «واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك رسلنا». وهكذا حكاه قتادة والضحاك والسدي، عن ابن مسعود. وهذا كأنه تفسير لا تلاوة، والله أعلم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: واسألهم ليلة الإسراء، فإن الأنبياء جميعوا له. واختار ابن جرير الأول، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٥٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَصْحَكُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يُرِيدُ مِنَ آيَةِ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَدَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُتَدَبِّرُونَ ﴿٥٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَبْكُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى، عليه السلام، أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء، والقادة، والأنبياء والرعايا، من القبط وبني إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه بعث معه آيات عظماً، كيده وعصاه، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات، ومع هذا كله استكبروا على اتباعها والانقياد لها، وكذبوها وسخروا منها، وضحكوا ممن جاءهم بها. ﴿وَمَا يُرِيدُ مِنَ آيَةِ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم، وجهلهم وخبالهم. وكلما جاءتهم آية من هذه

الآيات يضرعون إلى موسى، عليه السلام، ويتلطفون له في العبادة بقولهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أي: العالم، قاله ابن جرير. وكان علماء زمانهم هم السحرة. ولم يكن السحر عندهم في زمانهم مذموماً، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم؛ لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك، وإنما هو تعظيم في زعمهم، ففي كل مرة يبعثون موسى عليه السلام إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا ويرسلوا معه بني إسرائيل. وفي كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَاعَ وَالْذَّمَ أَيْنَ مَفْطَلَتِي فَأَسْكَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (١٢٢) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ أَخَدْنَا لَمَّا رَمَك بِمَا عَاهَدَ عَبْدُكَ لَبِنَ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَتَرْسِلَنَّا مَلَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٢٣﴾ لَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ الْكَابِئَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَلَاغَةٌ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٢٤﴾ [الأعراف: ١٢٣ - ١٢٥].

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْعَثُوا إِلَيَّ الْيَسَّ لِي مَلَكَ وَهَٰذَا الْآخِرُ نَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (١٢٥) أَرَأَيْتَ مَا هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يَبِينُ ﴿١٢٦﴾ فَلَوْلَا أَلْتَمَسْنَا فِي قَوْمِ هَٰذَا آيَةً مِنْ رَبِّهِمْ أَوْ لَكُنَّا مِنَ الْمَلَأَةِ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٢٧﴾ فَأَسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتِيحِينَ ﴿١٢٨﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٩﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخَرِينَ ﴿١٣٠﴾.

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده: أنه جمع قومه، فنادى فيهم متبجحاً مفتخراً بملك مصر وتصرفه فيها: ﴿الْيَسَّ لِي مَلَكَ وَهَٰذَا الْآخِرُ نَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾، قال قتادة: قد كانت لهم جنان وأنهار ماء، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ؟﴾ أي: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، يعني: وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَحَسَرَ فَادَىٰ﴾ (١٢٦) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿١٢٧﴾ فَأَعْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ تَعَالَىٰ الْآخِرُ وَالْأَوَّلُ ﴿١٢٨﴾ [النازعات: ٢٣ - ٢٥]. وقوله: ﴿أَرَأَيْتَ مَا هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يَبِينُ﴾ (١٢٦) قال السدي: يقول: بل أنا خير من هذا الذي هو مهين. وهكذا قال بعض نحاة البصرة: إن «أم» هاهنا بمعنى «بل». ويؤيد هذا ما حكاه الفراء عن بعض القراء أنه قرأها: «أما أنا خير من هذا الذي هو مهين». قال ابن جرير: ولو صحت هذه القراءة لكان معناها صحيحاً واضحاً، ولكنها خلاف قراءة الأمصار، فإنهم قرؤوا: ﴿أَرَأَيْتَ مَا هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يَبِينُ﴾ (١٢٦)؟ على الاستفهام. قلت: وعلى كل تقدير فإنما يعني فرعون - عليه اللعنة - أنه خير من موسى، عليه السلام، وقد كذب في قوله هذا كذباً بيناً واضحاً، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة. ويعني بقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كما قال سفيان: حقير. وقال قتادة، والسدي: يعني: ضعيف. وقال ابن جرير: يعني: لا ملك له ولا سلطان ولا مال. ﴿وَلَا يَكَادُ يَبِينُ﴾ يعني: لا يكاد يفصح عن كلامه، فهو عبي حصر. قال السدي: ﴿وَلَا يَكَادُ يَبِينُ﴾ أي: لا يكاد يفهم. وقال قتادة، والسدي، وابن جرير: يعني عبي اللسان. وقال سفيان: يعني في لسانه شيء من الجمرة حين وضعها في فيه وهو صغير. وهذا الذي قاله فرعون - لعنه الله - كذب واختلاق، وإنما حملة على هذا الكفر والعناد، وهو ينظر إلى موسى، عليه السلام، بعين كافرة شقية، وقد كان موسى، عليه السلام، من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة أبصار ذوي الأبصار والألباب. وقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كذب، بل هو المهين الحقيق خَلْقُهُ وَخَلْقًا وَدِينًا. وموسى عليه السلام هو الشريف الرئيس الصادق البار الراشد. وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يَبِينُ﴾ افتراء أيضاً، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة، فقد سأل الله، ﷻ، أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله له في ذلك في قوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمْوَسَىٰ﴾ (١٢٩) [طه: ٣٦]، ويتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته، كما قاله الحسن البصري، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام، فالأشياء الخلقية التي ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل فهو يدري هذا، وإنما أراد الترويج على رعيته، فإنهم كانوا جهلة أغبياء. وهكذا قوله: ﴿فَلَوْلَا أَلْتَمَسْنَا فِي قَوْمِ هَٰذَا آيَةً مِنْ رَبِّهِمْ أَوْ لَكُنَّا مِنَ الْمَلَأَةِ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (١٢٧) أي: يكتنفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه، نظر إلى الشكل الظاهر، ولم يفهم السر المعنوي الذي هو أظهر مما نظر إليه، لو كان يعلم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ (١٢٧) أي: استخف عقولهم، فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتِيحِينَ﴾. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٢٩)، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ءَاسَفُونَا﴾ أسخطونا. وقال الضحاک، عنه: أغضبونا. وهكذا قال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، ومحمد بن كعب القرظي، وقاتدة، والسدي، وغيرهم من المفسرين. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثنا ابن لهيعة، عن عقبة بن مسلم التجيبي عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الله ﷻ يعطي العبد ما شاء، وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك استدراج منه له»، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٢٩). وحدثنا أبي، حدثنا يحيى بن عبد الحميد الجُمَانِي، حدثنا قيس بن الربيع، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: كنت عند عبد الله ﷻ فذكر عنده موت الفجاءة، فقال:

تخفيف على المؤمن، وحسرة على الكافر. ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾. وقال عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه: وجدت النعمة مع الغفلة، يعني قوله: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَاَعَزَّتْهُمْ جَمْعِيَّتُكَ﴾. وقوله: ﴿فَحَمَلْنَاهُمْ سَلَكَ وَمَثَلًا لِّلْآخَرِينَ﴾ (٥٧): قال أبو مجلز: ﴿سَلَكَ﴾ لمثل من عمل بعملهم. وقال هو ومجاهد: ﴿وَمَثَلًا﴾ أي: عبرة لمن بعدهم.

﴿وَلَمَّا شَرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا اِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٨) وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ اَوْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ اِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَبِيثُونَ (٥٩) اِنْ هُوَ اِلَّا عَبْدٌ اَنْعَمَّا عَلَيْهِ وَهَمَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي اِسْرَءِيلَ (٦٠) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكَ تَلَكُّكَ فِي الْاَرْضِ يَخْلُوفُونَ (٦١) وَاِنَّهُمْ لَكَاِبَةٌ لَا تَتَذَكَّرُ فِيْهَا وَاَنْتَبَهُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦٢) وَلَا يَصُدُّكُمْ اَلْبَتَلُوتُ اِذْ لَكَ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٣) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيْهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَاَطِيعُوا اَمْرًا (٦٤) اِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّيْ رَبُّكُمْ فَاَعْبُدُوْهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦٥) فَاتَّخَذَتْ الْاُخْرَا اِيْضًا مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلًا لِّلَّذِيْنَ ظَلَمُوْا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ اَلْيَوْمِ (٦٥).

يقول تعالى مخبراً عن تعنت قريش في كفرهم وتعمدهم العناد والجدل: ﴿وَلَمَّا شَرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا اِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧) قال غير واحد، عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة والضحاك، والسدي: يضحكون، أي: أعجبوا بذلك. وقال قتادة: يجزعون ويضحكون. وقال إبراهيم النخعي: يعرضون. وكان السبب في ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة حيث قال: وجلس رسول الله ﷺ - فيما بلغني - يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿اِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اَللّٰهِ حَصَبٌ جَعَلَهُمْ اَتْشَرَ لِّهَآ وَرِدُوْكُمْ﴾ (٥٨) الآية [الانبيا: ١٩٨]. ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزبير التيمي، حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد، قد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبيري: أما والله لو وجدته لَخَصَمْتُهُ، سلوا محمداً: أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده، فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيزاً، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم؟ فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبيري، ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «كل من أحب أن يعبد من دون الله، فهو مع من عبده، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته»، فأنزل الله ﷻ: ﴿اِنَّ الَّذِيْنَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْبٰى اُولٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُوْنَ﴾ (٦١) [الانبيا: ١٠١] أي: عيسى وعزير ومن عبد معهما من الأحرار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله ﷻ، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله. ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُوْنَ﴾ (٦٢) [الانبيا: ٢٦]، ونزل فيما يذكر من أمر عيسى وأنه يعبد من دون الله. وعجب الوليد ومن حضره من حجته وخصومته: ﴿وَلَمَّا شَرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا اِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧) أي: يصدون عن أمرك بذلك من قوله. ثم ذكر عيسى فقال: ﴿اِنْ هُوَ اِلَّا عَبْدٌ اَنْعَمَّا عَلَيْهِ وَهَمَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي اِسْرَءِيلَ﴾ (٦٠) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكَ تَلَكُّكَ فِي الْاَرْضِ يَخْلُوفُونَ (٦١) وَاِنَّهُمْ لَكَاِبَةٌ لَا تَتَذَكَّرُ فِيْهَا وَاَنْتَبَهُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦٢) ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلاً على علم الساعة، يقول: ﴿فَلَا تَتَذَكَّرُ فِيْهَا وَاَنْتَبَهُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

وذكر ابن جرير من رواية العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَمَّا شَرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا اِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧) قال: يعني قريشاً، لما قيل لهم: ﴿اِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اَللّٰهِ حَصَبٌ جَعَلَهُمْ اَتْشَرَ لِّهَآ وَرِدُوْكُمْ﴾ (٥٨) [الانبيا: ١٩٨] إلى آخر الآيات، فقالت له قريش: فما ابن مريم؟ قال: «ذاك عبد الله ورسوله». فقالوا: والله ما يريد هذا إلا أن نتخذة رباً، كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم رباً، فقال الله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوْهُ لَكَ اِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَبِيثُونَ﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا شببان، عن عاصم بن أبي السجود، عن أبي زرين، عن أبي يحيى - مولى ابن عقيل الأنصاري - قال: قال ابن عباس: لقد علمت آية من القرآن ما سألتني عنها رجل قط، فما أدري أعلمها الناس فلم يسألوا عنها، أم لم يفظنوا لها فيسألوا عنها. قال: ثم طفق يحدثنا، فلما قام تلاومنا ألا نكون سألناه عنها. فقلت: أنا لها إذا راح غداً. فلما راح الغد قلت: يا ابن عباس، ذكرت أمس أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط، فلا تدري أعلمها الناس أم لم يفظنوا لها؟ فقلت: أخبرني عنها وعن اللاتي قرأت قبلها. قال: نعم، إن رسول الله ﷺ قال لقريش: يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير، وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم، وما تقول في محمد، فقالوا: يا محمد، ألسنت تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً، فإن كنت صادقاً كان آلهتهم كما تقولون؟ قال: فأنزل الله: ﴿وَلَمَّا شَرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا اِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧). قلت: ما يصدون؟ قال: يضحكون، ﴿وَاِنَّهُمْ لَكَاِبَةٌ لَا تَتَذَكَّرُ فِيْهَا وَاَنْتَبَهُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾. قال: هو خروج عيسى ابن مريم قبل القيامة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن يعقوب الدمشقي، حدثنا آدم، حدثنا شيبان، عن عاصم ابن أبي النجود، عن أبي أحمد مولى الأنصار، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير». فقالوا له: ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً، فقد كان يعبد من دون الله؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا شَرِبَ أَنْ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَمَّا شَرِبَ أَنْ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧﴾: قالت قريش: إنما يريد محمد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى. ونحو هذا قال قتادة.

وقوله: ﴿وَقَالُوا أَلَهْتُمْ خَيْرَ آثَرٍ هُوَ﴾: قال قتادة: يقولون: ألهتنا خير منه. وقال قتادة: قرأ ابن مسعود: «وقالوا ألهتنا خير أم هذا»، يعنون محمداً ﷺ. وقوله: ﴿مَا صَرَّيْوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾: أي: مراء، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية؛ لأنها لما لا يعقل، وهي قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٤٨]. ثم هي خطاب لقريش، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه، فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلاً منهم، ليسوا يعتقدون صحتها. وقد قال الإمام أحمد، رحمه الله تعالى: حدثنا ابن نمير، حدثنا حجاج بن دينار، عن أبي غالب، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أوتوا الجدل»، ثم تلا هذه الآية: ﴿مَا صَرَّيْوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِيصُونَ﴾. وقد رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن جرير، من حديث حجاج بن دينار، به. ثم قال الترمذي: حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديثه كذا قال. وقد روى من وجه آخر عن أبي أمامة بزيادة، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا حميد بن عياش الرملي، حدثنا مؤمل، حدثنا حماد، أخبرنا ابن مخزوم، عن القاسم أبي عبد الرحمن الشامي، عن أبي أمامة - قال حماد: لا أدري رفعه أم لا؟ - قال: ما ضلت أمة بعد نبيها إلا كان أول ضلالها التكذيب بالقدر، وما ضلت أمة بعد نبيها إلا أعطوا الجدل، ثم قرأ: ﴿مَا صَرَّيْوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِيصُونَ﴾. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا أبو كبير، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، عن عباد بن عباد، عن جعفر، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: إن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يتنازعون القرآن، فغضب غضباً شديداً حتى كأنما صب على وجهه الخل، ثم قال: «لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا الجدل»، ثم تلا: ﴿مَا صَرَّيْوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِيصُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ يعني: عيسى، عليه السلام، ما هو إلا عبد من عباد الله أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: دلالة وحجة وبرهاناً على قدرتنا على ما نشاء. وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ مِنْكُمْ﴾ أي: بدلكم ﴿فَلْيَكْفُرْ فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾، قال السدي: يخلفونكم فيها. وقال ابن عباس، وقاتدة: يخلف بعضهم بعضاً، كما يخلف بعضهم بعضاً. وهذا القول يستلزم الأول. وقال مجاهد: يعمرون الأرض بدلكم. وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَعِلَّامٌ لِّلْآعَادَةِ﴾: تقدم تفسير ابن إسحاق: أن المراد من ذلك: ما بُعث به عيسى، عليه السلام، من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك من الأسقام. وفي هذا نظر. وأبعد منه ما حكاه قتادة، عن الحسن البصري وسعيد بن جبيرة: أن الضمير في ﴿وَإِنَّهُمْ﴾، عائد على القرآن، بل الصحيح أنه عائد على عيسى عليه السلام، فإن السياق في ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي: قبل موت، عيسى، عليه الصلاة والسلام، ثم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]، ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَعِلَّامٌ لِّلْآعَادَةِ﴾ أي: أماره ودليل على وقوع الساعة، قال مجاهد: ﴿وَإِنَّهُمْ لَعِلَّامٌ لِّلْآعَادَةِ﴾ أي: آية للساعة خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة. وهكذا روي عن أبي هريرة رضي الله عنه، وابن عباس، وأبي العالية، وأبي مالك، وعكرمة، والحسن، وقاتدة، والضحاك، وغيرهم. وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ، أنه أخبر بنزول عيسى ابن مريم، عليه السلام، قبل يوم القيامة إماماً عادلاً، وحكماً مقسطاً.

وقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعْتُمْ بَآءَ﴾ أي: لا تشكوا فيها، إنها واقعة وكائنة لا محالة، ﴿وَأَتَّبِعُونِ﴾ أي: فيما أخبركم به ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ أي: من اتباع الحق ﴿إِنَّهُ لَكُرْ عَذُوبٌ مُبِينٌ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ أي: بالنبوة ﴿وَلَا يَنْبَغِي لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَخْلِفُونَ فِيهِ﴾. قال ابن جرير: يعني من الأمور الدينية لا الدنيوية. وهذا الذي قاله حسن جيد، ثم رد قول من زعم أن «بعض» هاهنا بمعنى «كل»، واستشهد بقول لبيد الشاعر:

تَرَكَ أَمْكَنَةً إِذَا لَمْ أَزْضِهَا أَوْ يَغْتَلِقُ بَغْضَ النَّفْسِ حَمَاهَا
وأولوه على أنه أراد جميع النفوس. قال ابن جرير: وإنما أراد نفسه فقط، وعبر البعض عنها. وهذا الذي قاله محتمل. وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم به، ﴿وَأَطِيعُوا﴾، فيما جنتكم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [١١١] أي: أنا

وأنتم عبيد له، فقراء إليه، مشتركون في عبادته وحده لا شريك له، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: هذا الذي جئتمكم به هو الصراط المستقيم، وهو عبادة الرب، ﷻ، وحده. وقوله: ﴿تَأْتِيهِمُ الْخُزُبُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أي: اختلفت الفرق وصاروا شيعاً فيه، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله - وهو الحق - ومنهم من يدعي أنه ولد الله، ومنهم من يقول: إنه الله - تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً - ولهذا قال: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ إِلَهِمْ﴾.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٦٦) ﴿الْأَخْلَاقَ يَوْمَئِذٍ يَبْقَعُهَا لِبَعْضِ عَذَابٍ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (١٦٧) ﴿يَعْبَادُ لَا حَاقَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (١٦٨) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (١٦٩) ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَبُونَ﴾ (١٧٠) ﴿يُلَاقُوا فِيهَا بِمِثْلِ مَا يُصَافُونَ فِيهَا وَمَا يَسْتَهْجِئُونَ أَنفُسَهُمْ وَكَذَلِكَ أُخْبِرُوا وَاتَّبَعَتْ آلُيَافَثَ أَرْوَاهُهَا بِمَا كَانَتْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٧١) ﴿لَوْ فِيهَا فُكَيْهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأَكَّلُونَ﴾ (١٧٢).

يقول تعالى: هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؟ أي: فإنها كائنة لا محالة وواقعة، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين لها فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها، فحينئذ يندمون كل الندم، حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم. وقوله: ﴿الْأَخْلَاقَ يَوْمَئِذٍ يَبْقَعُهَا لِبَعْضِ عَذَابٍ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (١٦٧) أي: كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان الله، ﷻ، فإنه دائم بدوامه. وهذا كما قال إبراهيم، عليه السلام، لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَمَسُّ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَمَأْوَاهُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [المعنكوت: ٢٥]. وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي، رضي الله عنه: ﴿الْأَخْلَاقَ يَوْمَئِذٍ يَبْقَعُهَا لِبَعْضِ عَذَابٍ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (١٦٧) قال: خليلان مؤمنان، وخليتان كافران، فتوفي أحد المؤمنين وبشر بالجنة فذكر خليله، فقال: اللهم، إن فلانا خليلي كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر، وينبئني أنني ملائكتك، اللهم فلا تضله بعدي حتى تراه مثل ما أرئيتي، وترضى عنه كما رضيت عني. فيقال له: اذهب فلو تعلم ما له عندي لضحكك كثيراً وبكيت قليلاً. قال: ثم يموت الآخر، فتجتمع أرواحهما، فيقال: ليشن أحكما على صاحبه، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: نعم الأخ، ونعم الصاحب، ونعم الخليل. وإذا مات أحد الكافرين وبشر بالنار ذكر خليله فيقول: اللهم، إن خليلي فلانا كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك، ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير، ويخبرني أنني غير ملائكتك، اللهم فلا تهده بعدي حتى تراه مثل ما أرئيتي، وتسخط عليه كما سخطت علي. قال: فيموت الكافر الآخر، فيجمع بين أرواحهما فيقال: ليشن كل واحد منكما على صاحبه. فيقول كل واحد منهما لصاحبه: بش الأخ، وبش الصاحب، وبش الخليل. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين. وروى الحافظ ابن عساكر - في ترجمة هشام بن أحمد - عن هشام بن عبد الله بن كثير: حدثنا أبو جعفر محمد بن الخضر بالرفقة، عن معافى: حدثنا حكيم بن نافع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رجلين تحابا في الله، أحدهما بالشرق والآخر بالمغرب، لجمع الله بينهما يوم القيامة، يقول: هذا الذي أحببته في».

وقوله: ﴿يَعْبَادُ لَا حَاقَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (١٦٨) ثم بشرهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (١٦٩) أي: آمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم. قال المعتمر بن سليمان، عن أبيه: إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فرح، فينادي مناد: ﴿يَعْبَادُ لَا حَاقَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (١٦٨) فيرجوها الناس كلهم، قال: فيبتغها: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (١٦٩)، قال: فيياس الناس منها غير المؤمنين. ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ أي: يقال لهم: ادخلوا الجنة ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ أي: نظراؤكم ﴿تُحْبَبُونَ﴾ أي: تنعمون وتسعدون، وقد تقدم تفسيرها في سورة الروم. ﴿يُلَاقُوا فِيهَا بِمِثْلِ مَا يُصَافُونَ فِيهَا وَمَا يَسْتَهْجِئُونَ أَنفُسَهُمْ وَكَذَلِكَ أُخْبِرُوا وَاتَّبَعَتْ آلُيَافَثَ أَرْوَاهُهَا بِمَا كَانَتْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٧١) أي: من ذهب لا خراطيم لها ولا غرى، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ﴾ - وقرأ بعضهم: «تشتهي الأنفس» - ﴿وَكَذَلِكَ أُخْبِرُوا وَاتَّبَعَتْ آلُيَافَثَ أَرْوَاهُهَا بِمَا كَانَتْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: طيب الطعم والريح وحسن المنظر. قال عبد الرزاق: أخبرني إسماعيل بن أبي سعيد، عن عكرمة - مولى ابن عباس - أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة وأسفلهم درجة لرجل لا يدخل الجنة بعده أحد فيفسح له في بصره مسيرة مائة عام في قصور من ذهب، وخيام من لؤلؤ، ليس فيها موضع شبر إلا معمور يغدى عليه ويراح بسبعين ألف صفحة من ذهب، ليس فيها صفحة إلا فيها لون ليس في الأخرى، مثله شهرته في آخرها كشهرته في أولها، لو نزل به جميع أهل الأرض لوسع عليهم مما أعطى، لا ينقص ذلك مما أوتي شيئاً».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن الجعيد، حدثنا عمرو بن سواد السرحي، حدثنا عبد الله بن وهب، عن ابن لهيعة، عن عقيل بن خالد، عن الحسن، عن أبي هريرة: أنا أبا أمامة، رضي الله عنه، حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم - وذكر الجنة - فقال: «والذي نفس محمد بيده، لياخذن أحدكم اللقمة فيجعلها في فيه، ثم يخطر على باله طعام آخر، فيتحول الطعام الذي في فيه على الذي اشتهى» ثم قرأ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن - هو ابن موسى - حدثنا سكين بن عبد العزيز، حدثنا الأشعث الضرير، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة إن له لسبع درجات، وهو على السادسة وفوقه السابعة، وإن له ثلاثمائة خادم، ويغدى عليه ويراح كل يوم بثلاثمائة صحيفة - ولا أعلمه إلا قال: من ذهب - في كل صحيفة لون ليس في الأخرى، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره، ومن الأشربة ثلاثمائة إناء، في كل إناء لون ليس في الآخر، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره، وإنه يقول: يا رب، لو أذنت لي لأطعمت أهل الجنة وسقيتهم، لم ينقص مما عندي شيء، وإن له من الحور العين لاثنتين وسبعين زوجة، سوى أزواجه من الدنيا، وإن الواحدة منهن لياخذ مقعدها قدر ميل من الأرض». «وَأَنْتُمْ فِيهَا» أي: في الجنة ﴿خَالِدُونَ﴾ أي: لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولا. ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان: ﴿وَيَذَلُّكَ لِبَنَاتِهِ أَلَّتِي أَرْنَتْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٤) أي: أعمالكم الصالحة كانت سببا لشمول رحمة الله إليكم، فإنه لا يدخل أحدا عمله الجنة، ولكن بفضل من الله ورحمته. وإنما الدرجات تفاوتها بحسب عمل الصالحات. قال ابن أبي حاتم: حدثنا الفضل بن شاذان المقرئ، حدثنا يوسف بن يعقوب - يعني الصفار - حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى منزله من الجنة حسرة، فيقول: ﴿لَوْ أَنَّكَ اللَّهُ هَذَا لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾» (الزمر: ٥٧) وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول: ﴿وَمَا كُنَّا لِنُتَيَّيَ لَوْلَا أَنَّ هَذَا اللَّهُ﴾ (الأعراف: ٤٣)، ليكون له شكرا. قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة» وذلك قوله تعالى: ﴿وَيَذَلُّكَ لِبَنَاتِهِ أَلَّتِي أَرْنَتْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٤). وقوله: ﴿لَكُنَّ فِيهَا فَكِيهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُون﴾ (٧٥) أي: من جميع الأنواع، ﴿فِيهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: مهما اخترتم وأردتم. ولما ذكر الله تعالى الطعام والشراب، ذكر بعده الفاكهة لتتم هذه النعمة والغبطة.

﴿إِنَّ الْمُتَجَرِّمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٧٦) لَا يَفُتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَنَنْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَكَادُوا يَنْكِلُوكَ لَيْقُضَ عَلَيْكَ رَبُّكَ قَالِ إِنَّكُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كُرْهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلًا لَدَيْهِمْ يَكْفُيُونَ ﴿٨٠﴾ .

لما ذكر تعالى حال السعداء، ثنى بذكر الأشقياء، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَجَرِّمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٧٦) لَا يَفُتَّرُ عَنْهُمْ أي: ساعة واحدة ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير، ﴿وَمَا ظَنَنْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ﴾ (٧٦) أي: بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجج عليهم وإرسال الرسل إليهم، فكذبوا وعصوا، فجوزوا بذلك جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد. ﴿وَكَادُوا يَنْكِلُوكَ﴾ وهو: خازن النار. قال البخاري: حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن عطاء، عن صفوان بن يعلى، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَكَادُوا يَنْكِلُوكَ لَيْقُضَ عَلَيْكَ رَبُّكَ﴾ أي: ليقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: ﴿لَا يَفُتُّ عَنْهُمْ فَيْسُورٌ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ (فاطر: ٣٦). وقال: ﴿وَنَجِّنَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلُ أَتَارَ الْكَلْبِ﴾ (٧٧) ثُمَّ لَا يَبُوءُ فِيهَا وَلَا يَجِيءُ ﴿٧٨﴾ (الأعلى: ١١ - ١٣)، فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك، ﴿قَالَ إِنَّكُمْ تَكْفُرُونَ﴾: قال ابن عباس: مكث ألف سنة، ثم قال: إنكم ماكثون. رواه ابن أبي حاتم. أي: لا خروج لكم منها ولا معيد لكم عنها. ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كُرْهُونَ﴾ أي: ولكن أكثركم للحق كرهون. أي: ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه، وتصد عن الحق وتأباه، وتبغض أهله، فعودوا عليه أنفسهم بالملامة، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة. ثم قال تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ (٧٩) قال مجاهد: أرادوا كيد شر فكندناهم. وهذا الذي قاله مجاهد كما قال تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَكَرْهًا وَكِبْرًا وَمَنْ لَا يَشْعُرْ﴾ (النمل: ٥٠)، وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون في رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه، فكادهم الله، ورد وبال ذلك عليهم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي: سرهم وعلايتهم، ﴿بَلَىٰ وَرُسُلًا لَدَيْهِمْ يَكْفُيُونَ﴾ أي: نحن نعلم ما هم عليه، والملائكة أيضا يكتبون أعمالهم، صغيرها وكبيرها.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَكَدًّا فَآتَا أَوَّلَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨١) سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَحْوُسُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا

يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ الْكَفَرُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٦﴾ وَبِئْسَ لِلْكَافِرِينَ بَشِيرًا أَنْ هُوَ اللَّهُ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَعِذْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ .

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ أي: لو فرض هذا لعبده على ذلك؛ لأنني عبد من عبيده، مطيع لجميع ما يأمرني به، ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فرض كان هذا، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ لَمْ يَكُنْ لَكَ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]. وقال بعض المفسرين في قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ أي: الأنفين. ومنهم سفيان الثوري، والبخاري حكاه فقال: ويقال: ﴿أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾: الجاحدين، من عبد يعبد. وذكر ابن جرير لهذا القول من الشواهد ما رواه عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب: حدثني ابن أبي ذئب عن أبي قُسيط، عن بَعَجَةَ بن زيد الجهني: أن امرأة منهم دخلت على زوجها - وهو رجل منهم أيضاً - فولدت له في ستة أشهر، فذكر ذلك زوجها لعثمان بن عفان، رضي الله عنه، فأمر بها أن ترجم، فدخل عليه علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقال: إن الله يقول في كتابه: ﴿وَحَمَلَهَا فَتُكِلِّهُنَّ أَهْلَ الْبُيُوتِ﴾ [الأحاف: ١٥]، وقال: ﴿وَفَصَّلَكُمْ فِي الْعَمَلِ﴾ [القمان: ١٤]، قال: فوالله ما عبد عثمان، رضي الله عنه، أن بعث إليها: ترد - قال يونس: قال ابن وهب: عبد: استكف. وقال الشاعر:

مَتَى مَا يَشَأْ ذُو الْوُدِّ يَضْرِبُ خَلِيلَهُ
وَيُعْبِدُ عَلَيْهِ لَا مَحَالَةَ ظَالِمًا
وهذا القول فيه نظر؛ لأنه كيف يلتزم مع الشرط فيكون تقديره: إن كان هذا فأننا ممتنع منه؟ هذا فيه نظر، فليتأمل. اللهم إلا أن يقال: ﴿إِنْ﴾ ليست شرطاً، وإنما هي نافية كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾، يقول: لم يكن للرحمن ولد فأننا أول الشاهدين. وقال قتادة: هي كلمة من كلام العرب: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ [٨٦] أي: إن ذلك لم يكن فلا ينبغي. وقال أبو صخر: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ [٨٦] أي: فأننا أول من عبده بأن لا ولد له، وأول من وحده. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال مجاهد: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ أي: أول من عبده ووحده وكذبكم.

وقال البخاري: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾: الأنفين. وهما لغتان، رجل عابد وعبد. والأول أقرب على أنه شرط وجزاء، ولكن هو ممتنع. وقال السدي في قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ يقول: لو كان له ولد كنت أول من عبده، بأن له ولداً، لكن لا ولد له. وهو اختيار ابن جرير، ورد قول من زعم أن ﴿إِنْ﴾ نافية. ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [٨٦] أي: تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد، فإنه فرد أحد صمد، لا نظير له ولا كفاء له، فلا ولد له. وقوله: ﴿نَذَرَهُمْ مُخْرَجًا﴾ أي: في جهلهم وضلالهم ﴿وَيَلْبِسُوا﴾ في دنياهم ﴿حَقًّا يُلْقَوْنَ يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾، وهو يوم القيامة، أي: فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم، ومآلهم، وحالهم في ذلك اليوم. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ أي: هو إله من في السماء، وإله من في الأرض، يعبداه أهلها، وكلهم خاضعون له، أذلاء بين يديه، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَلْمُ مَرْكُمُ وَجْهَكُمْ وَيَلْمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣] أي: هو المدعو الله في السموات والأرض. ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ الْكَفَرُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: هو خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما، بلا مدافعة ولا ممانعة، فسبحانه وتعالى عن الولد، وتبارك: أي استقر له السلامة من العيوب والنقائص؛ لأنه الرب العلي العظيم، المالك للأشياء، الذي بيده أزمة الأمور نقضاً وإبراماً، ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: لا يجليها لوقتها إلا هو، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: فيجازي كل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأوثان ﴿الشَّفَعَةَ﴾ أي: لا يقدرُونَ على الشفاعة لهم، ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، هذا استثناء منقطع، أي: لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له. ثم قال: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [٨٦] أي: ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدِينَ معه غيره ﴿مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي: هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها، وحده لا شريك له في ذلك، ومع هذا يعبدون معه غيره، ممن لا يملك شيئاً ولا يقدر على شيء، فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾. وقوله: ﴿وَبِئْسَ لِلْكَافِرِينَ بَشِيرًا أَنْ هُوَ اللَّهُ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٨٧] أي: وقال محمد: قيله، أي: شكاً إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه، فقال: يا

رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، كما أخبر تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَذَرُكَ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] وهذا الذي قلناه هو معنى قول ابن مسعود، ومجاهد، وقتادة، وعليه فسر ابن جرير. قال البخاري: وقرأ عبد الله - يعني ابن مسعود -: «وقال الرسول يا رب». وقال مجاهد في قوله: ﴿وَقِيلَ يَذَرُكَ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٣٠]، قال: فأبر الله قول محمد. وقال قتادة: هو قول نبيكم ﷺ، يشكوا قومه إلى ربه ﷻ. ثم حكى ابن جرير في قوله: ﴿وَقِيلَ يَذَرُكَ﴾ قراءتين، إحداهما النصب، ولها توجيهان: أحدهما أنه معطوف على قوله: ﴿تَسْمَعُ يَرْهَقُمْ وَتَخُونُهُمْ﴾ [الزخرف: ٨٠] والثاني: أن يقدر فعل، وقال: قِيلَ. والثانية: الخفض، وقيل، عطفًا على قوله: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، تقديره: وعلم قيله. وقوله: ﴿فَأَصْفَحَ عَنْهُمْ﴾ أي: المشركين، ﴿وَقُلْ سَلَمٌ﴾ أي: لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلاً وقولاً، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، هذا تهديد منه تعالى لهم، ولهذا أحل بهم بأسه الذي لا يرد، وأعلى دينه وكلمته، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب.

آخر تفسير سورة الزخرف



تفسير سورة الدخان

وهي مكية. قال الترمذي: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا زيد بن الحباب، عن عُمر بن أبي خنم، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ (حم الدخان) في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك». ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعمر بن أبي خنم يضعف. قال البخاري: منكر الحديث. ثم قال: حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفي، حدثنا زيد بن الحباب، عن هشام أبي المقدم، عن الحسن، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ (حم الدخان) في ليلة الجمعة، غفر له». ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام أبو المقدم يضعف، والحسن لم يسمع منه أبي هريرة. كذا قال أيوب، ويونس بن عبيد، وعلي بن زيد. وفي مسند البزار من رواية أبي الطفيل عامر بن واثلة، عن زيد بن حارثة؛ أن رسول الله ﷺ قال لابن صياد: «إني قد خبات خباً فما هو؟» وخبأه رسول الله ﷺ سورة الدخان، فقال: هو الدُخ. فقال: «أخسأ ما شاء الله كان». ثم انصرف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١ وَلَكِنَّ الْكُتُبَ الْكَلِيمَ ۝٢ إِنَّآ أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ ۝٣ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٤ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٥ أَمَّا يَنْ عِندَنَا إِنَّا كُنَّا مُسْتَبِينَ ۝٦ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٧ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُوزَ ثَوَابِكُمْ ۝٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم: إنه أنزل في ليلة مباركة، وهي ليلة القدر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر: ١] وكان ذلك في شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقد ذكرنا الأحاديث الواردة في ذلك في «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته. ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان - كما روى عن عكرمة - فقد أبعد التَّعَجُّبَ، فإن نص القرآن أنها في رمضان. والحديث الذي رواه عبد الله بن صالح، عن الليث، عن عقيل، عن الزهري: أخبرني عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس أن رسول الله ﷺ قال: «تقطع الأجال من شعبان إلى شعبان، حتى إن الرجل لينكح ويولد له، وقد أخرج اسمه في الموتى» فهو حديث مرسل، ومثله لا يعارض به النصوص. وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أي: معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً، لتقوم حجة الله على عباده. وقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روي عن ابن عمر، وأبي مالك، ومجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف. وقوله: ﴿حَكِيمٍ﴾ أي: محكم، لا يبدل ولا يغير؛ ولهذا قال: ﴿أَمَّا يَنْ عِندَنَا﴾ أي: جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوحيه فبأمره وإذنه وعلمه، ﴿إِنَّا كُنَّا مُسْتَبِينَ﴾ أي: إلى الناس رسولاً يتلو عليهم آيات الله مبينات، فإن الحاجة كانت ماسة إليه؛ ولهذا قال: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: الذي أنزل هذا القرآن هو رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما

وما فيهما، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن كنتم متحققين. ثم قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ مَبَادِئِكُمْ الْأُولَى﴾ (٨)، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٨].

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَمُونَ﴾ (٩) فَأَرْسَلْنَا يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا أَكَيْفَ عَذَابُكَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْوُكُوفُ قَدْ جَاءَهُمُ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُنْجُوهُنَّ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَايِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْفِتْنَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴿١٦﴾.

يقول تعالى: بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون، أي: قد جاءهم اليقين، وهم يشكون فيه ويمترون، ولا يصدقون به، ثم قال متوعداً لهم ومتهدداً: ﴿فَأَرْسَلْنَا يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾. قال سليمان بن مهران الأعمش، عن أبي الضحى مسلم بن ضُبَيْح، عن مسروق قال: دخلنا المسجد - يعني مسجد الكوفة - عند أبواب كنده، فإذا رجل يقص على أصحابه: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾، تدرون ما ذلك الدخان؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام. قال: فأتينا ابن مسعود فذكرنا ذلك له، وكان مضطجعاً ففزع فقم، وقال: إن الله ﷻ قال لنبيكم ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ (٨٦)، [ص: ٨٦]، إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: «الله أعلم»، سأحدثكم عن ذلك، إن قريشاً لما أبطلت عن الإسلام واستعصت على رسول الله ﷺ، دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان - وفي رواية: فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فبصر ما بينه وبينها كهية الدخان من الجهد - قال: قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾، فأتى رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله، استسق الله لمضر، فإنها قد هلك. فاستسقى لهم فسقوا، فأنزل الله: ﴿إِنَّا كَايِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ (١٥). قال ابن مسعود: فيكشف العذاب عنهم يقوم القيامة، فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْفِتْنَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ (١٦)، قال: يعني يوم بدر. قال ابن مسعود: فقد مضى خمسة: الدخان، والروم، والقمر، البطشة، والزام. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين.

ورواه الإمام أحمد في مسنده، وهو عند الترمذي والنسائي في تفسيرهما، وعند ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق متعددة، عن الأعمش، به. وقد وافق ابن مسعود على تفسير الآية بهذا، وأن الدخان مضى، جماعة من السلف كمجاهد، وأبي العالية، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وعطية العوفي، وهو اختيار ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا يحيى بن حسان، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا عبد الرحمن الأعرج في قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ قال: كان يوم فتح مكة. وهذا القول غريب جداً، بل منكر. وقال آخرون: لم يمض الدخان بعد، بل هو من أمارات الساعة، كما تقدم من حديث أبي سريحة حذيفة بن أسيد الغفاري، رضي الله عنه، قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس - أو تحشر الناس -: تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا». تفرد بإخراجه مسلم في صحيحه. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لابن الصياد: «إني خبأت لك خبأ»، قال: هو الدُّخ. فقال له: «أخساً فلن تعدو قدرك». قال: وخبأ له رسول الله ﷺ: ﴿فَأَرْسَلْنَا يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ (١٠). وهذا فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب، وابن صياد كاشف على طريقة الكهان بلسان الجان، وهم يُقرطمون العبارة؛ ولهذا قال: «هو الدُّخ»، يعني: الدخان. فعندها عرف رسول الله ﷺ مادته وأنها شيطانية، فقال له: «أخساً فلن تعدو قدرك».

ثم قال ابن جرير: وحدثني عصام بن رُوَاد بن الجراح، حدثنا أبي، حدثنا سفيان بن سعيد الثوري، حدثنا منصور بن المعتمر، عن رُبَيْع بن جَرَّاش قال: سمعت حذيفة بن اليمان يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أول الآيات الدجال، ونزول عيسى ابن مريم، ونار تخرج من قعر عدن أبين، تسوق الناس إلى المحشر، تقيل معهم إذا قالوا، والدخان - قال حذيفة: يا رسول الله، وما الدخان؟ فتلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿فَأَرْسَلْنَا يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾» - يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه منه كهية الزكمة، وأما الكافر فيكون

بأشهرهم، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُوَفُّسَ لَمَّا مَأْتُوا كَفَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٤٨]، ولم يكن العذاب بأشهرهم واتصل بهم، بل كان قد انعقد سببه ووصله عليهم، ولا يلزم أيضاً أن يكونوا قد أقبلوا عن كفرهم ثم عادوا إليه، قال الله تعالى إخباراً عن شعيب أنه قال لقومه حين قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ بِشُعَيْبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَمُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ قَدْ آتَيْنَا عَلَىٰ اللَّهِ كُذْبًا إِنْ هَذَا إِلَّا عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ وَنَبِيُّنَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ سَمِعَ الْكَلِمَةَ أَمَّا عَلَيَّ فَلَا أَشْعُورُ بِمَا عَمِلْتُمْ وَلَكِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤْتَمِرٌ فَأَسْرِ بِمَا لِلَّهِ بِكَ وَفِيكُمْ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقُلْ لَهُمْ فِيكُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الشعير: ١٠١-١٠٩]، وقال قتادة: ﴿إِنَّكَ عَائِدُونَ﴾: إلى عذاب الله. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ الْوُجُوهُ وَتَسْوَدُّ الْوُجُوهُ فَأَنْتُمْ فِي الْوُجُوهِ نَذِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فسر ذلك ابن مسعود بيوم بدر. وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود على تفسيره الدخان بما تقدم، وروى أيضاً عن ابن عباس وجماعة من رواية العوفي، عنه. وعن أبي بن كعب وجماعة، وهو محتمل. والظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً. قال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عليه، حدثنا خالد الحذاء، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى: يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة. وهذا إسناد صحيح عنه، وبه يقول الحسن البصري، وعكرمة في أصح الروایتين، عنه.

﴿وَلَقَدْ مَنَّا فَبَلَّغْنَاهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذْأَبًا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِيَّاكَ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي إِنِّي بِمَا تَصِفُونَ أَمِينٌ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْرِضُوا ﴿٢١﴾ فَقَدَا رَبُّهُ أَنْ هَتُولَا قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَنشَأَ يَبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَرَكُوا مِنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَتَمَنَّى كَانُوا فِيهَا فِكْهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا مَّاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا نَجَّىٰ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْعَذَابِ النَّهْمِينَ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَخْرَجْنَاهُمْ عَلَىٰ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٣٢﴾ وَأَنبَأْنَاهُمْ مِنْ آيَاتِنَا مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

يقول تعالى: ولقد اخترنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون، وهم قبط مصر، ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾: يعني: موسى كلميه، عليه السلام، ﴿أَنْ أَذْأَبًا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ﴾، كقوله: ﴿فَأَنبَأْنَاهُمْ مِنْ آيَاتِنَا مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾: ﴿فَأَنبَأْنَاهُمْ مِنْ آيَاتِنَا مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾: أي: مأمون على ما أبلغكموه. وقوله: ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾: أي: لا تستكبروا على اتباع آياته، والانقياد لحججه والإيمان ببراهينه، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَبِّحُوا حَتَّىٰ يَسْجُدُوا لِي﴾ [إعافر: ١٦٠]. ﴿إِنِّي إِنِّي بِمَا تَصِفُونَ أَمِينٌ﴾: أي: بحجة ظاهرة واضحة، وهي ما أرسله الله به من الآيات البينات والأدلة القاطعة. ﴿وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾: قال ابن عباس، وأبو صالح: هو الرجم باللسان وهو الشتم. وقال قتادة: هو الرجم بالحجارة. أي: أعوذ بالله الذي خلقتني وخلقكم من أن تصلوا إلي بسوء من قول أو فعل. ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْرِضُوا﴾: أي: فلا تتعرضوا إلي، ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أن يقضي الله بيننا. فلما طال مقامه بين أظهرهم، وأقام حجج الله عليهم، كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَهَارُونَ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَلْيَلْجُوا إِلَىٰ سَبِيلِكَ رَبَّنَا لِنُسَلِّحَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]. وهكذا قال هاهنا: ﴿فَقَدَا رَبُّهُ أَنْ هَتُولَا قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾، فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج بني إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنشَأَ يَبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَوْعَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَتِيَ بِآيَاتِنَا فَمُصِرْ يَمْصِرْ وَلَا يُخَفِّئُ﴾ [طه: ١٧]. وقوله هاهنا: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾، وذلك أن موسى، عليه السلام، لما جاوز هو وبني إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان، ليصير حائلًا بينهم وبين فرعون، فلا يصل إليهم. فأمره الله أن يتركه على حاله ساكنًا، وبشره بأنهم جند مغرقون فيه، وأنه لا يخاف دركًا ولا يخشى. قال ابن عباس: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾: كهيبته وامضه. وقال مجاهد ﴿رَهْوًا﴾: طريقًا يسيرًا كهيبته، يقول: لا تأمره يرجع، اتركه حتى يرجع آخرهم. وكذا قال عكرمة، والربيع بن أنس، والضحاك، وقاتدة، وابن زيد، وكعب الأحبار، وسماك بن حرب، وغير واحد. ثم قال تعالى: ﴿كَذَرَكُوا مِنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ﴾: وهي المساكن الكريمة الأنيقة والأماكن الحسنة. وقال مجاهد، وسعيد بن جبير: ﴿وَمَقَارٍ كَرِيمٍ﴾: المناجر. وقال ابن لهيعة، عن وهب بن عبد الله المعافري، عن عبد الله بن عمرو قال: نيل مصر سيد الأنهار، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب، وذلك له، فإذا أراد الله أن يجري نيل مصر أمر كل نهر أن يمدده، فأمدته الأنهار بمائها، وفجر الله له الأرض عيونًا، فإذا انتهى جريه إلى ما أراد الله، أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره.

وقال في قوله تعالى: ﴿كَذَرَكُوا مِنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَتَمَنَّى كَانُوا فِيهَا فِكْهِينَ ﴿٢٧﴾﴾، قال: كانت الجنان

السدي الكبير. وقال عطاء الخراساني: بكاؤها: أن تحمر أطرافها. وذكروا أيضاً في مقتل الحسين أنه ما قلب حجر يومئذ إلا وجد تحته دم غيظ، وأنه كسفت الشمس، واحمر الأفق، وسقطت حجارة. وفي كل ذلك نظر، والظاهر أنه من سُخِّف الشيعة وكذبهم، ليعظموا الأمر - ولا شك أنه عظيم - ولكن لم يقع هذا الذي اختلقوه وكذبوه، وقد وقع ما هو أعظم من ذلك - قتل الحسين، رضي الله عنه - ولم يقع شيء مما ذكره، فإنه قد قتل أبوه علي بن أبي طالب، وهو أفضل منه بالإجماع ولم يقع شيء من ذلك، وعثمان بن عفان قتل محصوراً مظلوماً، ولم يكن شيء من ذلك. وعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قتل في المحراب في صلاة الصبح، وكان المسلمين لم تطرقهم مصيبة قبل ذلك، ولم يكن شيء من ذلك. وهذا رسول الله ﷺ وهو سيد البشر في الدنيا والآخرة يوم مات لم يكن شيء مما ذكره. ويوم مات إبراهيم ابن النبي ﷺ خسفت الشمس، فقال الناس: الشمس خسفت لموت إبراهيم، فصلى بهم رسول الله ﷺ صلاة الكسوف، وخطبهم وبين لهم أن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَا بِنَبِيٍّ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْأَمْثَالِ الْكَلِيمِ (٣٤) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْأَشْرَفِينَ (٣٥)﴾: يمتن عليهم تعالى بذلك، حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم، وتسخير إياهم في الأعمال المهيبة الشاقة. وقوله: ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْأَشْرَفِينَ (٣٦)﴾: أي: مستكبراً جباراً عنيداً، كقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أُمُلُكًا شِيعًا (٤٤)﴾. وقوله: ﴿فَأَنزَلْنَاكَ وَأَكْبَرْنَا قَوْمًا عَالِينَ (٤٥)﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وقوله: ﴿فَلَنَسْكَرَنَّ فِي الْأَرْضِ وَنَحْنُ سَاقُونَ (٤٦)﴾ [الأنبياء: ٤٦]، فكان فرعون سيراً في أمره، سخيف الرأي على نفسه. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْأَعْلَيْنِ (٣٧)﴾ - قال مجاهد: ﴿أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْأَعْلَيْنِ﴾: على من هم بين ظهريه. وقال قتادة: اخبروا على أهل زمانهم ذلك. وكان يقال: إن لكل زمان عالماً. وهذه كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَتْلُوَنَّ فِي أَصْلَابِكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤] أي: أهل زمانه، وكقوله لمريم: ﴿وَأَمْلَأْنِيكَ عَنْ ذِكْرِ آلِكَ الْأَكْلِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] أي: في زمانها؛ فإن خديجة أفضل منها، وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، أو مساوية لها في الفضل، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. وقوله: ﴿وَأَيُّنَّاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ﴾ أي: من الحجج والبراهين وخوارق العادات ﴿مَا فِيهِ بَلَكُوا مُبْتَلًى﴾ أي: اختبار ظاهر جلي لمن اهتدى به.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٨) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٩)﴾ فَأَنزَلْنَا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُيُوسُفَ وَالَّذِينَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ أَكَلْنَا مِنْهُم مَّا جَاءَهُمْ (٤١)﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور. ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا، فإن كان البعث حقاً ﴿فَأَنزَلْنَا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠)﴾. وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في هذه الدار، بل بعد انقضاءها وذهابها وفراغها بعيد الله العالمين خلقاً جديداً، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً، يوم تكون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً. ثم قال تعالى متهدداً لهم، ومتوعداً ومنذراً لهم بأسه الذي لا يرد، كما حل بأشباههم ونظرائهم من المشركين والمنكرين للبعث وكقوم تبع - وهم سبأ - حيث أهلكهم الله وخرب بلادهم، وشردهم في البلاد، وفرقهم شذر مذر، كما تقدم ذلك في سورة سبأ، وهي مُصَدَّرَةٌ بإنكار المشركين للمعاد. وكذلك هاهنا شبههم بأولئك، وقد كانوا عرباً من قحطان كما أن هؤلاء عرب من عدنان، وقد كانت حمير - وهم سبأ - كلما ملك فيهم رجل سموه نُبَعًا، كما يقال: كسرى لمن ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافراً، والنجاشي لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من أعلام الأجناس. ولكن اتفق أن بعض تبايعتهم خرج من اليمن وسار في البلاد حتى وصل إلى سمرقند، واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه، واتسعت مملكته وبلاده، وكثرت رعاياه وهو الذي مَضَرَ الحيرة فاتفق أنه مَرَّ بالمدينة النبوية وذلك في أيام الجاهلية، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقتلوه بالنهار، وجعلوا يَفْرُونَهُ بالليل، فاستحيا منهم وكف عنهم، واستصحب معه حبرين من أحبار يهود كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة؛ فإنها مُهَاجِرٌ نبي يكون في آخر الزمان، فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة فنهياه عن ذلك أيضاً، وأخبراه بعظمة هذا البيت، وأنه من بنات إبراهيم الخليل وإنه سيكون له شأن عظيم على يدي ذلك النبي المبعوث في آخر الزمان، فعظمها وطاف بها، وكساها الملاء والوصائل والحبيير. ثم كر راجعاً إلى اليمن ودعا أهلها إلى اليهود معه، وكان إذا ذاك دين موسى، عليه السلام، فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح، عليه السلام، فتهود معه عامة أهل اليمن. وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق في كتابه السيرة. وقد ترجمه الحافظ ابن عساکر في تاريخه ترجمة حافلة، أورد فيها أشياء كثيرة مما ذكرنا وما لم نذكر. وذكر أنه ملك دمشق، وأنه كان إذا استعرض الخيل صُفَّت له من دمشق إلى

اليمن، ثم ساق من طريق عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن ابن أبي ذئب، عن المقبري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما أدري الحدود طهارة لأهلها أم لا؟ ولا أدري تبع لعينا كان أم لا؟ ولا أدري ذو القرنين نبياً كان أم ملكاً؟» وقال غيره: «أعزيراً كان نبياً أم لا». وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن محمد بن حماد الظهراني، عن عبد الرزاق. قال الدارقطني: تفرد به عبد الرزاق، ثم روى ابن عساكر من طريق محمد بن كُرَيْب، عن أبيه، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، مرفوعاً: «عَزِيزٌ لا أدري أنبيأ كان أم لا؟ ولا أدري العيين تُبَعُّ أم لا؟». ثم أورد ما جاء في النهي عن سبه ولعنته، كما سيأتي. وكأنه - والله أعلم - كان كافراً ثم أسلم، وتابع دين الكليم على يدي من كان من أحبار اليهود في ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح، عليه السلام، وحج البيت في زمن الجُرهميين، وكساه الملاء والوصائل من الحرير والحبر ونحر عنده ستة آلاف بدنة وعظمه وأكرمه. ثم عاد إلى اليمن. وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر، من طرق متعددة مطولة مبسولة، عن أبي بن كعب، وعبد الله بن سلام، وعبد الله بن عباس وكعب الأبحار. وإليه المرجع في ذلك كله، وإلى عبد الله بن سلام أيضاً، وهو أثبت وأكبر وأعلم. وكذا روى قصته وهب بن مَثْبُة، ومحمد بن إسحاق في السيرة كما هو مشهور فيها. وقد اختلط على الحافظ ابن عساكر في بعض السياقات ترجمة تُبَعُّ هذا بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل، فإن تُبَعُّ هذا المشار إليه في القرآن أسلم قومه على يديه، ثم لما مات عادوا بعده إلى عبادة الأصنام والنيران، فعاقبهم الله تعالى كما ذكره في سورة سبأ، وقد بسطنا قصتهم هنالك، والله الحمد والمنة. وقال سعيد بن جبیر: كسا تبع الكعبة، وكان سعيد ينهى عن سبه. وتُبَعُّ هذا هو تُبَعُّ الأوسط، واسمه أسعد أبو كُرَيْب بن مَلِكِيكرب اليماني، ذكروا أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وستاً وعشرين سنة، ولم يكن في حمير أطول مدة منه، وتوفي قبل مبعث رسول الله ﷺ بنحو من سبعمائة عام. وذكروا أنه لما ذكر له الحبران من يهود المدينة أن هذه البلدة مُهاجِرٌ نبي آخر في الزمان، اسمه أحمد، قال في ذلك شعراً واستودعه عند أهل المدينة. وكانوا يتوارثونه ويروونه خلفاً عن سلف. وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الذي نزل رسول الله ﷺ في داره، وهو:

شَهَذْتُ عَلَى أَخْمَدَ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ بَارِي السَّمِ
فَلَوْ مُدَّ غُمْرِي إِلَى غُمْرِهِ لَكُنْتُ وَزِيْرًا لَهُ وَابْنِ عَمِ
وَجَافَذْتُ بِالسُّيْفِ أَغْدَاءَهُ وَفَرَجْتُ عَنْ صَدْرِهِ كُلَّ عَمِ

وذكر ابن أبي الدنيا أنه خُفِرَ قبر بصنعاء في الإسلام، فوجدوا فيه امرأتين صليحتين، وعند رؤوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب: «هذا قبر حبي وليس - روى: حبي وتماضر - ابنتي تُبَعُّ، ماتتا وهما تشهدان أن لا إله إلا الله ولا تشركان به شيئاً، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما. وقد ذكرنا في «سورة سبأ» شعر سبأ في ذلك أيضاً. قال قتادة: ذكر لنا أن كعباً كان يقول في تبع: بُعِتَ نَعْتُ الرجل الصالح، ذم الله تعالى قومه ولم يذمه، قال: وكانت عائشة تقول: لا تسبوا تُبَعّاً؛ فإنه قد كان رجلاً صالحاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لهيعة، عن أبي زُرْعَةَ - يعني عمرو بن جابر الحضرمي - قال: سمعت سهل بن سعد الساعدي يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا تُبَعّاً؛ فإنه قد كان أسلم». ورواه الإمام أحمد في مسنده عن حسن بن موسى، عن ابن لهيعة، به. وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن علي الأبار، حدثنا أحمد بن محمد بن أبي بَزْة، حدثنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا سفيان، عن سَمَّاك بن حرب، عن عِكْرَمَةَ، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: لا تسبوا تبعاً؛ فإنه قد أسلم». وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن ابن أبي ذئب، عن المقبري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدري، تُبَعُّ نبياً كان أم غير نبي».

وتقدم بهذا السند من رواية ابن أبي حاتم كما أورده ابن عساكر: «لا أدري، تُبَعُّ كان لعينا أم لا؟». فالله أعلم. ورواه ابن عساكر من طريق زكريا بن يحيى البدي، عن عكرمة، عن ابن عباس موقوفاً. وقال عبد الرزاق: أخبرنا عمران أبو الهذيل، أخبرني تميم بن عبد الرحمن قال: قال عطاء بن أبي رباح: لا تسبوا تُبَعّاً؛ فإن رسول الله ﷺ نهى عن سبه.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ ۚ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٨﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْوَدُ ۝٣٩ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُصْرَوْنَ ۝٤٠ إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٤١﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عدله وتزييه نفسه عن اللعب والعبث والباطل، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۝٣٧﴾ [ص: ٢٧]، وقيل: ﴿أَمْحِصْتُمْ أَنْمَا خَلَقْنَاكُمْ عَيْنًا وَأَنْتُمْ لَا تَرْحَمُونَ ۝٤٠﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَوْبَرِ ۝٤١﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. ثم قال: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ وهو يوم القيامة،

يفصل الله فيه بين الخلائق، فيعذب الكافرين ويشيب المؤمنين. وقوله: ﴿يَقْتَتِلُهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أي: يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا﴾ أي: لا ينفع قريب قريباً، كقوله: ﴿فَلَا تُفِجْ فِي الصُّورِ فَلَا أَصَابَ يَنْشَهُرُ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَنْسَآلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وكقوله: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمٌ حِمِيمًا﴾ [يسر: ١٠]، [المعارج: ١٠، ١١] أي: لا يسأل أخاه عن حاله وهو يراه عياناً. وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُصْرُوتُ﴾ أي: لا ينصر القريب قريبه، ولا يأتيه نصره من خارج. ثم قال: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ أي: لا ينفع يومئذ إلا من رحمه الله، ﷻ، لخلقهم ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي: هو عزيز ذو رحمة واسعة.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ [٤٣] ﴿طَلْعَامٌ الْإِثِيرِ﴾ [٤٤] ﴿كَالْهَيْلِ يَغِي فِي الْبَطُونِ﴾ [٤٥] ﴿كَعَلِّ الْحَبِيبِ﴾ [٤٦] ﴿خَذُوهُ فَأَعْيَلُوهُ﴾ [٤٧] ﴿إِلَّا سَوَاءَ الْحَبِيبِ﴾ [٤٨] ﴿ثُمَّ شَبُّوا قَوْقَ رَبِّهِمْ﴾ [٤٩] ﴿مِنْ عَذَابِ الْحَبِيبِ﴾ [٥٠] ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [٥١] ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [٥٢].

يقول تعالى مخبراً عما يعذب به عباده الكافرين الجاحدين للقاءه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ [٤٣] ﴿طَلْعَامٌ الْإِثِيرِ﴾ [٤٤] والاثيم: أي في قوله وفعله، وهو الكافر. وذكر غير واحد أنه أبو جهل، ولا شك في دخوله في هذه الآية، ولكن ليست خاصة به. قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن همام بن الحارث؛ أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلاً: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ [٤٣] ﴿طَلْعَامٌ الْإِثِيرِ﴾ [٤٤]، فقال: طعام اليتيم. فقال أبو الدرداء قل: إن شجرة الزقوم طعام الفاجر. أي: ليس له طعام غيرها. قال مجاهد: ولو وقعت منها قطرة في الأرض لأفسدت على أهل الأرض معاشهم. وقد تقدم نحوه مرفوعاً. وقوله: ﴿كَالْهَيْلِ يَغِي فِي الْبَطُونِ﴾ [٤٥] قالوا: كعكر الزيت ﴿يَغِي فِي الْبَطُونِ﴾ كَعَلِّ الْحَبِيبِ [٤٦] أي: من حرارتها ودرءتها. وقوله: ﴿خَذُوهُ فَأَعْيَلُوهُ﴾ [٤٧] أي: خذوا الكافر، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية: ﴿خُذُوهُ﴾ ابتدره سبعون ألفاً منهم. ﴿فَأَعْيَلُوهُ﴾ أي: سوقوه سحياً ودفعاً في ظهره. قال مجاهد: ﴿خُذُوهُ فَأَعْيَلُوهُ﴾ أي: خذوه فادفعوه. وقال الفرزدق:

لَيْسَ الْكَرَامُ بِإِجَالِيكَ أَبَافُكُمْ
خَشَى ثَرْدَ إِلَى عَطِيَّةِ تُغْنِيْلُ
﴿إِنَّ سَوَاءَ الْحَبِيبِ﴾ [٤٨] أي: وسطها، ﴿ثُمَّ شَبُّوا قَوْقَ رَبِّهِمْ﴾ [٤٩] ﴿مِنْ عَذَابِ الْحَبِيبِ﴾ [٥٠]، كقوله: ﴿يَصْبُ مِنْ قَوْقِ زَوْسِهِمْ﴾ [٥١] ﴿يَصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجَمُودُ﴾ [٥٢] [الحج: ١٩، ٢٠]. وقد تقدم أن الملك يضربه بمقعة من حديد، تفتح دماغه، ثم يصب الحميم على رأسه فينزل في بدنه، فيسلت ما في بطنه من أمعائه، حتى ترقق من كعبه - أعانها الله تعالى من ذلك. وقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [٥١] أي: قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ. وقال الضحاك، عن ابن عباس: أي ليست بعزيز ولا كريم. وقد قال الأموي في مغازيه: حدثنا أسباط، حدثنا أبو بكر الهذلي، عن عكرمة قال: لقي رسول الله ﷺ أبا جهل - لعنه الله - فقال: «إن الله تعالى أمرني أن أقول لك: ﴿أَنْتَ لَكَ قَوْلُكَ﴾ [٢٤] ثُمَّ أَتَى لَكَ قَوْلُكَ﴾ [٢٥]» [القبامة: ٣٤، ٣٥] قال: فنزع ثوبه من يده وقال: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء. ولقد علمت أنني أمتع أهل البطحاء، وأنا العزيز الكريم. قال: فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله وغيره بكلمته، وأنزل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [٥١]. وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [٥٢]، كقوله: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ [٥٣] ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [٥٤] ﴿أَفَيْسَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٥٥] [الطور: ١٣ - ١٥]، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [٥٢].

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي مَقَابِلِ آيِينَ﴾ [٥٦] ﴿فِي جَهَنَّمَ وَغُيُوبٍ﴾ [٥٧] ﴿يَلْبِسُونَ مِنْ شُنْدِينَ وَإِسْتَرْقُوا شَقَقِيلِينَ﴾ [٥٨] ﴿كَذَلِكَ وَنَزَّجْنَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ [٥٩] ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ نَكْبَةٍ مُزَكَّاتٍ﴾ [٦٠] ﴿لَا يُدْعَوْنَ فِيهَا الْمَوْتُ إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابُ الْحَبِيبِ﴾ [٦١] ﴿فَضَلَّ عَنْ رَبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْرُ الْعَظِيمُ﴾ [٦٢] ﴿فَلَمَّا يَبْتَغَتْ نِسَاءَهُنَّ لِبَاسَهُنَّ لَمَعْنَهُمْ يَتَكَبَّرُونَ﴾ [٦٣] ﴿فَارْتَبَّ لَهُمْ مَرْجَبُونَ﴾ [٦٤].

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء - ولهذا سُمي القرآن مثاني - فقال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [٥٦] أي: الله في الدنيا ﴿فِي مَقَابِلِ آيِينَ﴾ [٥٧] أي: في الآخرة وهو الجنة، قد آمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيد، وسائر الآفات والمصائب ﴿فِي جَهَنَّمَ وَغُيُوبٍ﴾ [٥٧]. وهذا في مقابلة ما أولئك فيه من شجر الزقوم، وشرب الحميم. وقوله تعالى: ﴿يَلْبِسُونَ مِنْ شُنْدِينَ وَإِسْتَرْقُوا شَقَقِيلِينَ﴾ [٥٨] وهو: رفيع الحرير، كالقمصان ونحوها، ﴿وَإِسْتَرْقُوا﴾ [٥٨] وهو ما فيه بريق ولمعان وذلك كالرياش، وما يلبس على أعالي القماش، ﴿شَقَقِيلِينَ﴾ [٥٨] أي: على السرر، لا يجلس أحد منهم وظهروه إلى غيره. وقوله: ﴿كَذَلِكَ وَنَزَّجْنَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ [٥٩] أي: هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحور العين الحسان اللاتي ﴿لَمْ يَلْبِسْنَ إِلَٰهَ بَنَاتِهِمْ وَلَا جَانَّ﴾ [الرحمن: ٥٦ - ٧٤]، ﴿كَانَ الْبَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [٦٥]

[الرحمن: ٥٨]، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِنْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نوح بن حبيب، حدثنا نصر بن مزاحم العطاري، حدثنا عمر بن سعد، عن رجل، عن أنس - رفعه نوح - قال: لو أن حوراء بَزَقَتْ في بحر لُجِّي، لَعَذَّبَ ذلك الماء لعذوبة ريقها. وقوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ غَايِرَةٍ﴾ [٥٥] أي: أي: مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه، بل يحضر إليهم كلما أرادوا.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾: هذا الاستثناء يؤكد النفي، فإنه استثناء منقطع، ومعناه: أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالموت في صورة كيش أملح، فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت» وقد تقدم الحديث في سورة مريم. وقال عبد الرزاق: حدثنا سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي مسلم الأغر، عن أبي سعيد وأبي هريرة، رضي الله عنهما، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «يقال لأهل الجنة: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تَبَاسُوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً». رواه مسلم، عن إسحاق بن راهويه وعبد بن حميد، كلاهما عن عبد الرزاق به. هكذا يقول أبو إسحاق وأهل العراق «أبو مسلم الأغر»، وأهل المدينة يقولون: «أبو عبد الله الأغر». وقال أبو بكر بن أبي داود السجستاني: حدثنا أحمد بن حفص، عن أبيه، عن إبراهيم بن طهمان، عن الحجاج - وهو ابن حجاج - عن عبادة، عن عبيد الله بن عمرو، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتقى الله دخل الجنة، ينعم فيها ولا يئس، ويحيا فيها فلا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه». وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن يحيى، حدثنا عمرو بن محمد الناقد، حدثنا سليمان بن عبيد الله الرقي، حدثنا مصعب بن إبراهيم، حدثنا عمران بن الربيع الكوفي، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر، رضي الله عنه، قال: سُئِلَ نبي الله ﷺ: أينام أهل الجنة؟ فقال: «النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون». وهكذا رواه أبو بكر بن مُزْدَوِيه في تفسيره: حدثنا أحمد بن القاسم بن صدقة المصري، حدثنا المقدم بن داود، حدثنا عبد الله بن المغيرة، حدثنا سفيان الثوري، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون». وقال أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا الفضل بن يعقوب، حدثنا محمد بن يوسف الفريابي، عن سفيان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قيل: يا رسول الله، هل ينام أهل الجنة؟ قال: «لا، النوم أخو الموت». ثم قال: «لا نعلم أحداً أسنده عن ابن المنكدر، عن جابر إلا الثوري، ولا عن الثوري، إلا الفريابي» هكذا قال، وقد تقدم خلاف ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَوَقَّهْتَ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم، وسلمهم ونجاهم وزحزحهم من العذاب الأليم في دركات الجحيم، فحصل لهم المطلوب، ونجاهم من المرهوب؛ ولهذا قال: ﴿فَصَلِّ مِّنْ رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [٥٧] أي: إنما كان هذا بفضلهم وإحسانه إليهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسددوا وقاربوا، واعلموا أن أحداً لن يدخله عمله الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل». وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَرَفَعُ لِسَانُكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٥٨] أي: إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جلياً بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتفهمون ويعملون. ثم لما كان مع هذا البيان والوضوح من الناس من كفر وخالف وعاند، قال الله تعالى لرسوله مسلماً له واعداً له بالنصر، ومتوعداً لمن كذبه بالعطب والهلاك: ﴿فَارْتَبْتَ﴾ أي: انتظر ﴿إِنَّهُمْ مُّرْتَبُونَ﴾ أي: فيعلمون لمن يكون النصر والظفر وغُلُو الكلمة في الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد وإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ لَوَقِيُّ عَذَابٍ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [٥٩] يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٩﴾ [غافر: ٥٩ - ٥٢].

آخر تفسير سورة الدخان،

وله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة



تفسير سورة الجاثية

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١ نَزَلَ الْكِتَابُ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابِّهِ مَايَتُ لِقَوْمٍ يُؤْفِكُونَ ۝٤ وَخَلْقِ الْآبِلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ مَايَتُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾ .

يُرشد تعالى خلقه إلى التفكير في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والأرض، وما فيها من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة والجن والإنس، والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار، في تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضياه، وما أنزل الله تعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماه رزقاً؛ لأن به يحصل الرزق، ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد ما كانت هامة لا نبات فيها ولا شيء. وقوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ أي: جنوباً وشاماً، ودبوراً وصباً، بحرية وبرية، ليلية ونهارية. ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقمح، ومنها ما هو غذاء الأرواح، ومنها ما هو عقيم لا ينتج. وقال أولاً: ﴿لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ﴾، ثم ﴿يُؤْفِكُونَ﴾، ثم ﴿يَعْقِلُونَ﴾، وهو تَرْقُّ من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى. وهذه الآيات شبيهة بآية «البقرة» وهي قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ الْآبِلِ وَالنَّهَارِ وَاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ فِي الْبَحْرِ وَمَا يُغْمِغُ النَّاسُ وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَيِّنَاتٍ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١١١﴾ [البقرة: ١١١]. وقد أورد ابن أبي حاتم هاهنا عن وهب بن منبه أنراً طويلاً غريباً في خلق الإنسان من الأخلاط الأربعة.

﴿ذَلِكَ مَايَتُ اللَّهُ تَلَوَّماً عَلَيْكَ بِآلِقِي حَبِيبٍ بَعْدَ اللَّهِ وَمَايَتُ اللَّهُ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ وَلِلَّهِ أَفَالِكُ آيَةٍ ۝٧ بَسْمُ مَايَتُ اللَّهُ تَنَلُّ عَلَيْهِ ثُمَّ يُبْرِئُ سَتَكْرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهُ فَيَتَرَهُ بِدَابِّ آيَةٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ مَايَتُ شَيْئًا أَخَذَهَا هَزْؤًا أُولَئِكَ لَمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝٩ مِنْ رَأْيِهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَذَا هَدَى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَاتَتْ رَيْبُهُمْ لَمْ عَذَابٌ مِنْ رَيْبِ آيَةٍ ۝١١﴾ .

يقول تعالى: هذه آيات الله - يعني القرآن بما فيه من الحجج والبيّنات - ﴿تَلَوَّماً عَلَيْكَ بِآلِقِي﴾ أي: متضمنة الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا يتقادون لها، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟! ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ أَفَالِكُ آيَةٍ﴾ أي: أفاك في قوله كذاب، حلاف مهين أثيم في فعله وقيله كافر بآيات الله؛ ولهذا قال: ﴿بَسْمُ مَايَتُ اللَّهُ تَنَلُّ عَلَيْهِ﴾ أي: تقرأ عليه ﴿ثُمَّ يُبْرِئُ﴾ أي: على كفره وجحوده استكباراً وعناداً ﴿كَانَ لَمْ يَسْمَعْهُ﴾ أي: كأنه ما سمعها، ﴿فَيَتَرَهُ بِدَابِّ آيَةٍ﴾ أي: فآخبره أن له عند الله يوم القيامة عذاباً أليماً موجعاً. ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ مَايَتُ شَيْئًا أَخَذَهَا هَزْؤًا﴾ أي: إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتخذته سخرية وهزواً، ﴿أُولَئِكَ لَمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي: في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به؛ ولهذا روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو. ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال: ﴿مِنْ رَأْيِهِمْ جَهَنَّمَ﴾ أي: كل من اتصف بذلك سيصبرون إلى جهنم يوم القيامة، ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا﴾ أي: لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، ﴿وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ﴾ أي: ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئاً، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. ثم قال تعالى: ﴿هَذَا هَدَى﴾ يعني القرآن، ﴿هَذَا هَدَى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَاتَتْ رَيْبُهُمْ لَمْ عَذَابٌ مِنْ رَيْبِ آيَةٍ﴾ : وهو المؤلم الموجع.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْتَرَى الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيَسْتَمُوا مِنْ فَتْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَتَّئِدًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٣ قُلِ الَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ تُرْجَعُونَ ۝١٥﴾ .

يذكر تعالى نعمه على عبده فيما سخر لهم من البحر ﴿لِيَجْتَرَى الْفُلُكُ﴾، وهي السفن فيه بأمره تعالى، فإنه هو الذي أمر البحر أن يحملها ﴿وَلِيَسْتَمُوا مِنْ فَتْلِهِ﴾ أي: في المتاجر والمكاسب، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: على حصول المنافع المجلوبة إليكم من الأقاليم النائية والافات القاصية. ثم قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: من الكواكب والجبال، والبحار والأنهار، وجميع ما تنتفعون به، أي: الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه؛ ولهذا قال: ﴿جَمِيعًا مَتَّئِدًا﴾ أي: من عنده وحده لا شريك له في

ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ يَّعْمَوْنَ فَعِوَ اللَّهِ ثَمَّ إِذَا مِنكُمْ الْغُثَاءُ فِالْيَوْمِ يُخْتَارُونَ﴾ [النحل: ٥٣]. وروى ابن جرير من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جِيعًا مِّمَّنْهُ﴾ كل شيء هو من الله، وذلك الاسم فيه اسم من أسمائه، فذلك جميعاً منه، ولا ينافيه فيه المنازعون، واستيقن أنه كذلك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن خلف العسقلاني، حدثنا الفيضاني، عن سفيان، عن الأعمش، عن المجهول بن عمرو، عن أبي أراكة قال: سألت رجل عبد الله بن عمرو قال: مم خلق الخلق؟ قال: من النور والنار، والظلمة والشرى. قال: واثبت ابن عباس فأسأله. فأنه فقال له مثل ذلك، فقال: أرجع إليه فسله: مم خلق ذلك كله؟ فرجع إليه فأسأله، فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جِيعًا مِّمَّنْهُ﴾ هذا أثر غريب، وفيه نكارة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ آسَاءُ يُعَفِّرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أي: يصفحوا عنهم ويحملوا الأذى منهم. وهذا كان في ابتداء الإسلام، أمرو أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك لتأليف قلوبهم، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلال والجهاد. هكذا روي عن ابن عباس، وقتادة. وقال مجاهد في قوله: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾: لا يبالون نعم الله. وقوله: ﴿يَجْزَى قَوْمًا مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: إذا صفحوا عنهم في الدنيا، فإن الله مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلْيَنصِرْهُ وَأَنْ سَاءَ ثَوَابُ الْكَافِرِينَ﴾ إلى رَجُلٍ رَجُلًا يَرْجُوهُمُ ﴿١٥﴾ أي: تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم عليه، فيجزىكم بأعمالكم خيرها وشرها.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ وَوَعَدْنَا مَن آتَيْنَاهُم مِّنَ الْغُلَامِ عَلَى الْعَمَلِ ﴿١٦﴾ وَأَتَيْنَاهُم مِّنَ الْأَمْرِ مِمَّا اخْتَلَفُوا إِلَّا مَن بَعَدَ مَا جَاءَهُم بِغَيْرِ غُبَارٍ فَخَفَوْا وَلَمْ يَلْمِزْهُمْ يَوْمَ الْآيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِمَّا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِمَّا اللَّهُ شَاءَ وَأَنَّ الْغُلَامِ يَمْشِي بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِكُلِّ غُلَامٍ مِّنَ الْآخَرِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَتُكَ لِلنَّاسِ وَهَذِهِ رَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

يذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم، وجعله الملك فيهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ وَوَعَدْنَا مَن آتَيْنَاهُم مِّنَ الْغُلَامِ عَلَى الْعَمَلِ﴾ أي: من المأكول والمشرب، ﴿وَأَتَيْنَاهُم مِّنَ الْأَمْرِ مِمَّا اخْتَلَفُوا﴾ أي: في زمانهم، ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي: حججاً وبراهين وأدلة قاطعات، فقامت عليهم الحجج ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة، وإنما كان ذلك بغيا منهم على بعضهم بعضاً، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَفْقَى يَتَّبِعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِمَّا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: سيفصل بينهم بحكمه العدل. وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ أي: اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو، وأعرض عن المشركين، وقال هاهنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِمَّا اللَّهُ شَاءَ وَأَنَّ الْغُلَامِ يَمْشِي بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِكُلِّ غُلَامٍ مِّنَ الْآخَرِينَ﴾ وماذا تغني عنهم ولايتهم لبعضهم بعضاً، فإنهم لا يزيدونهم إلا خساراً ودماراً وهلاكاً، ﴿وَاللَّهُ وَكَى الْمُنْفِقِينَ﴾، وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات. ثم قال: ﴿هَذَا بَصِيرَتُكَ لِلنَّاسِ﴾ يعني: القرآن ﴿وَهَذِهِ رَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مِّمَّنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَشَجَرَةٍ كُلِّ نَفْسٍ مِّمَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَلَّىٰ وَجْهَهُ فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

يقول تعالى: لا يستوي المؤمنون والكافرون، كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِي أَعْدَابُ النَّارِ وَأَعْدَابُ الْجَنَّةِ أَجْحَبُ الْجَنَّةِ الْخَبَرُ هُمُ الْفَاقِرُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال هاهنا: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: عملوها وكسبوها ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مِّمَّنْهُمْ﴾ أي: نساوهم بهم في الدنيا والآخرة! ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نساوي بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة، وفي هذه الدار. قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا مؤمل بن إهاب، حدثنا بكير بن عثمان التَّنُوخِي، حدثنا الوضيين بن عطاء، عن يزيد بن مَرْثَد الباجي، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: إن الله بنى دينه على أربعة أركان، فمن صبر عليهن ولم يعمل بهن لقي الله وهو من الفاسقين. قيل: وما هي يا أبا ذر؟ قال: يسلم حلال الله، وحرام الله، وأمر الله، ونهي الله، لا يؤتمن عليهن إلا الله. قال أبو القاسم: ﴿كما أنه لا يجتني من الشوك العنب، كذلك لا ينال الفجار منازل الأبرار﴾. هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقد ذكره محمد بن إسحاق في كتاب «السيرة» أنهم وجدوا حجراً بمكة في أس الكعبة مكتوب عليه: تعملون السيئات وترجون الحسنات؟ أجل، كما يجتني من الشوك العنب. وقد روى الطبراني من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي

الضحى، عن مسروق؛ أن تمينا الداري قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَوْا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَحْمَلَهُمْ كَالثَّيْنِ مَآثِرًا وَعِجْلًا أَلَمْ نَحْمِلْهُمْ؟﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾. وقال: ﴿وَعَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: بالعدل، ﴿وَلْيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَغْدَدَ إِلَهُهُ هَوْنَةً﴾ أي: إنما ياتمر بهواه، فنهما رآه حسناً فعله، ومهما رآه قبيحاً تركه: وهذا قد يستدل به على المعتزلة في قولهم بالتحسين والتفويض العقلين. وعن مالك فيما روى عنه من التفسير: لا يهوى شيئاً إلا عبده. وقوله: ﴿وَأَسْأَلُ اللَّهَ عَلَىٰ عِلْمِي﴾، يحتمل قولين: أحدهما: وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك. والآخر: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه. والثاني يستلزم الأول، ولا يتعكس. ﴿وَحَمَّ عَلَىٰ سَيِّئِهِ وَفَلَيْهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَنَبُونًا﴾ أي: فلا يسمع ما ينفعه، ولا يعي شيئاً يهتدي به، ولا يرى حجة يستضيء بها؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَسَا هَادِيَ كُمْ وَيَذُرْهُمْ فِي مَلْطَمَتِهِمْ يَعْصُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [٢٤] ﴿وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ مَاتُنَا يَتَّبِعُوا مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٢٥] ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْعَلُكُمْ لِكَيْ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٢٦].

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، ويقولوه الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداء والرجعة، ويقولوه الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه. وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾. قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، أي: يتوهمون ويتخيلون. فأما الحديث الذي أخرجه صاحبنا الصحيح، وأبو داود، والنسائي، من رواية سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب ليلة ونهاره». وفي رواية: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر». وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جداً فقال: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، وهو الذي يهلكنا، يمينا ويحيينا، فقال الله في كتابه: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾». قال: «ويسبون الدهر، فقال الله ﷻ: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار». وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن منصور، عن شُرَيْح بن النعمان، عن ابن عيينة، مثله: ثم روى عن يونس، عن ابن وهب، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار». وأخرجه صاحبنا الصحيح والنسائي، من حديث يونس بن زيد، به. وقال محمد بن إسحاق، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله: استقرضت عبدي فلم يعطني، وسبني عبدي، يقول: وادهره. وأنا الدهر». قال الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله، عليه الصلاة والسلام: «لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر»: كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة، قالوا: يا خيبة الدهر. فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله ﷻ، فكانهم إنما سبوا، الله ﷻ؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نُهي عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله هو الدهر الذي يعنونه، ويسندون إليه تلك الأفعال. هذا أحسن ما قيل في تفسيره، وهو المراد، والله أعلم. وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدهم الدهر من الأسماء الحسنى، أخذوا من هذا الحديث. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ مَاتُنَا يَتَّبِعُوا مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: أحيوهم إن كان ما تقولونه حقاً. قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: كما تشهدون ذلك، يخرجكم من العدم إلى الوجود، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَنًا فَأَنْجَيْكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] أي: الذي قدر على البداء قادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُكُمْ لِكَيْ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: إنما يجمعكم ليوم القيامة لا يعيدكم في الدنيا حتى تقولوا: «اتَّبَعْنَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ لِكُلِّ يَوْمٍ ذِكْرًا﴾ [الأنبياء: ٩] ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٠] ﴿وَمَا تَزِيدُهُمْ إِلَّا لِأَجْلِ مَقْدُورٍ﴾ [هود: ١٠٤] وقال هاهنا: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُكُمْ لِكَيْ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا ينكرون المعاد،

يخبر تعالى عن حكمه في خلقه يوم القيامة، فقال: ﴿فَأَنذَرْتُ أَشْوَاعًا وَلَبِثُوا مَصْلِحَاتٍ﴾ أي: أمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحات، وهي الخالصه الموافقة للشرع، ﴿فَيَذَرُهُمْ رُفُفًا فِي رَحْمَةٍ﴾، وهي الجنة، كما ثبت في الصحيح أن الله قال للجنة: «أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء». ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي: البين الواضح. ثم قال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ أَتَيْنِي تَتْلُوا عَنِّي كُتُبًا فَأَسْتَخْرِجُكُمْ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريراً وتوبيخاً: أما قرئت عليكم آيات الرحمن فاستكبرتم عن اتباعها، وأعرضتم عند سماعها، ﴿وَكُنْتُمْ فَوْقَ نَجْمٍ﴾ أي: في أفعالكم، مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب؟ ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: إذا قال لكم المؤمنون ذلك، ﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أي: لا نعرفها، ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا عَظَمًا﴾ أي: إن نتوهم وقوعها إلا توهماً، أي مرجوحاً؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا عَنِّي بِمُتَّبِعِينَ﴾ أي: بمتحققين، قال الله تعالى: ﴿وَبَدَلَهُمْ سَيِّئَاتِ مَا عَمِلُوا﴾ أي: وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة، ﴿وَمَا كَانَ يَحِمْلُهُمْ﴾ أي: أحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: من العذاب والنكال، ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَسْخَرُكُمْ﴾ أي: نعاملكم معاملة الناسي لكم في نار جهنم ﴿كَأَنِّي سَئِرٌ لِّقَاءِ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به، ﴿وَمَا وَكَّلَ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾. وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك

الخيال والإبل، وأدرك ترأس وتزئج؟ فيقول: بلى، يا رب. فيقول: أظننت أنك مُلاقِي؟ فيقول: لا. فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني. قال الله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ أَخَذُوا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ أي: إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخرى، تسخرون وتستهنئون بها، ﴿وَعَزَّزُوا الْقَوْلَ الْأَنفِيَّ﴾ أي: خدعتكم فاطمأنتم إليها، فأصبحتم من الخاسرين؛ ولهذا قال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا﴾ أي: من النار ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يطلب منهم العتبي، بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب. ثم لما ذكر حكمه في المؤمنين والكافرين قال: ﴿فَلِلَّهِ الْحُكْمُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِينَ﴾ أي: المالك لهما وما فيهما؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ﴾ قال مجاهد: يعني السلطان. أي: هو العظيم الممجد، الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه. وقد ورد في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: العظمة إزارِي، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما أسكتته ناري». ورواه مسلم من حديث الأعمش، عن أبي إسحاق، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي هريرة وأبي سعيد، رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ، بنحوه. وقوله: ﴿وَهُوَ الْمُبِيرُ﴾ أي: الذي لا يغالب ولا يمانع، ﴿الْمُكِيرُ﴾ في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس، لا إله إلا هو.

آخر تفسير سورة الجاثية والله الحمد والمنة



تفسير سورة الأحقاف

وهي مكية:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ﴾ تَزِيدُ الْكَفَّيْنِ مِنَ اللَّهِ الْمَرْبِزِ الْمَكْبَرِ ﴿١﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذُنُوا مُعْرِضُونَ ﴿٢﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتَأْتُونَ بِكُتُبٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْتَرَوْا بَيْنَ عَلَيْهِمْ كُتُبٌ مَكِيدِيَّةٌ ﴿٣﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِيلُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِسَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٥﴾

يخبر تعالى أنه نزل الكتاب على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام، والحكمة في الأقوال والأفعال، ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: لا على وجه العبث والباطل، ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص. قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذُنُوا مُعْرِضُونَ﴾ أي: لاهون عما يراد بهم، وقد أنزل إليهم كتاب وأرسل إليهم رسول، وهم معرضون عن ذلك كله، أي: وسيعلمون غيب ذلك. ثم قال: ﴿قُلْ﴾ أي: لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: ولا شرك لهم في السموات ولا في الأرض، وما يملكون من قطمير، إن المُلْكَ والتصرف كله إلا الله، ﷻ، فكيف تعبدون معه غيره، وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أمو أمركم به؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: ﴿أَتَأْتُونَ بِكُتُبٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أي: هاتوا كتاباً من كتب الله المنزل على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة هذه الأصنام، ﴿أَوْ أَنْتَرَوْا بَيْنَ عَلَيْهِمْ كُتُبٌ مَكِيدِيَّةٌ﴾ أي: لا دليل لكم نقلياً ولا عقلياً على ذلك؛ ولهذا قرأ آخرون: «أو أنتره من علم» أي: أو علم صحيح يأنرونه عن أحد ممن قبلهم، كما قال مجاهد في قوله: ﴿أَوْ أَنْتَرَوْا بَيْنَ عَلَيْهِمْ﴾: أو أحد يأنر علماً. قال القوفي، عن ابن عباس: أو بينة من الأمر. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثنا صفوان بن سليم، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن ابن عباس قال سفيان: لا أعلم إلا عن النبي ﷺ: «أو أنتره من علم» قال: «الخط». وقال أبو بكر بن عياش: أو بقية من علم. وقال الحسن البصري: ﴿أَوْ أَنْتَرَوْا﴾: شيء يستخرجه فيشره. وقال ابن عباس، ومجاهد، وأبو بكر بن عياش أيضاً: ﴿أَوْ أَنْتَرَوْا بَيْنَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني الخط. وقال قتادة: ﴿أَوْ أَنْتَرَوْا بَيْنَ عَلَيْهِمْ﴾: خاصة من علم. وكل هذه الأقوال متقاربة، وهي راجعة إلى ما قلناه، وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله وأكرمه، وأحسن مثواه. وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِيلُونَ﴾ (٥) أي: لا أضل ممن يدعو أصناماً، ويطلب منها ما لا تستطيعه

تعيّينهم، كالعشرة، وابن سلام، والغُميصاء، وبلال، وسرافقة، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، والقراء السبعين الذين قتلوا بيشر معونة، وزيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة، وما أشبه هؤلاء. وقوله: ﴿إِن آتَيْتُ إِلَّا مَا يَوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي: إنما أتبع ما ينزله الله عليّ من الوحي، ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بين التّذارة، وأمري ظاهر لكل ذي لب وعقل.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ سَبَقُوا لَهُمْ هَذَا إِنَّكَ قَدِيرٌ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيٍّ لِّنَذِيرٍ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُنذِرُ لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ (١١) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا فَلَا حَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿أُولَئِكَ أَحَبَّ إِلَيْنَا خَلِيلِينَ فِيهَا جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢).

يقول تعالى: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُوَلَاءَ الْمَشْرِكِينَ الْكَافِرِينَ بِالْقُرْآنِ: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ أي: ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي جئتكم به قد أنزله عليّ لأبلغكموه وقد كفّرتم به، وكذبتموه، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ أي: وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء قبلي، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به. وقوله: ﴿فَقَامَ﴾ أي: هذا الذي شهد بصدقه من بني إسرائيل لمعرفته بحقيقته ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم: عن اتباعه. وقال مسروق: فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه، وكفّرتم أنتم بنبينا وكتابكم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام وغيره، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام. وهذه كقوله: ﴿وَإِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُشْكِبِينَ﴾ (١٣) [الفصص: ٥٣]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَوْثَرُوا الْقَوْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ يُحْزِنُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ (١٤) [الأنعام: ١٠٧-١٠٨]. قال مسروق، والشعبي: ليس بعبد الله بن سلام، هذه الآية مكية، وإسلام عبد الله بن سلام كان بالمدينة. رواه عنهما ابن جرير وابن أبي حاتم، واختاره ابن جرير. وقال مالك، عن أبي الثَّغَر، عن عامر بن سعد، عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض: «إنه من أهل الجنة»، إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾. رواه البخاري ومسلم والنسائي، من حديث مالك، به. وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعكرمة، ويوسف بن عبد الله بن سلام، وهلال بن يساف، والسُّدِّي، والثوري، ومالك بن أنس وابن زيد؛ أنهم كلهم قالوا: إنه عبد الله بن سلام.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أي: قالوا عن المؤمنين بالقرآن: لو كان القرآن خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه. يعنون بلالاً وعماراً وصُهبياً وخباباً وأشباههم وأقرانهم من المستضعفين والعبيد والإماء، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجهة وله بهم عناية. وقد غلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً، وأخطؤوا خطأ بيناً، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] أي: يتعجبون: كيف اهتدى هؤلاء دوننا؛ ولهذا قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾. وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها. وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿سَبَقُوا لَهُمْ هَذَا إِنَّكَ قَدِيرٌ﴾ أي: كذب ﴿قَدِيرٌ﴾ أي: مأثور عن الأقدمين، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله ﷺ: «بطر الحق، وغمط الناس». ثم قال: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ﴾ وهو التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعني: القرآن ﴿مُصَدِّقٌ﴾ أي: لما قبله من الكتب ﴿لِسَانِ عَرَبِيٍّ﴾ أي: فصيحاً بيناً واضحاً، ﴿لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُنذِرَ لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: مشتمل على التذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين. قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا﴾: تقدم تفسيرها في سورة «حم، السجدة». وقوله: ﴿فَلَا حَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلون، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا، ﴿أُولَئِكَ أَحَبَّ إِلَيْنَا خَلِيلِينَ فِيهَا جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٥) أي: الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسُبُوغها عليهم.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ اشدَّهُ وَبَلَغَ اربعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وِلَدَيَّ وَأَنْ أَحْسِلَ صَلَامًا رَحْمَةً وَأَصْلِحْ لِي فِي دِينِي إِنَّي نَسِيتُ إِلَيْكَ وَلَئِي مِنَ السَّالِكِينَ﴾ (١٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقُولُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَأَوَّلُ عَنْ سَيِّئِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْحَنَّةِ وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾.

لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين، كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن، كقوله: ﴿وَقَفَّيْ رَبِّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ لَأَيَّ اَلْمُحْسِنِينَ﴾ [القمان: ١٤]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. وقال هاهنا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ أي: أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، أخبرني سِمَاك بن حرب قال: سمعت مُضْعَب بن سعد يحدث

عن سعد قال: قالت أم سعد لسعد: أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين، فلا أكل طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى تكفر بالله. فامتنعت من الطعام الشراب، حتى جعلوا يفتحون فاهما بالعصا، ونزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ الآية [النكوت: ٨]. ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث شعبة بإسناده، نحوه وأطول منه. ﴿وَحَمَلَتْهُ أَثَقَالٌ كَرِهًا﴾ أي: قاست بسببه في حال حمل مشقة وتعباً، من وحام وغشيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي: بمشقة أيضاً من الطلق وشدته، ﴿وَحَمَلَهُ وَضَعَتْهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾. وقد استدلل علي، رضي الله عنه، بهذه الآية مع التي في لقمان: ﴿وَوَضَعْتَهُ فِي عَامَتَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقوله: ﴿وَالْوَلَدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوي صحيح. ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة، رضي الله عنهم. قال محمد بن إسحاق بن يسار، عن يزيد بن عبد الله بن قُسيط، عن بَعْجَةَ بن عبد الله الجهني قال: تزوج رجل منا امرأة من جُهَيْنَةَ، فولدت له لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان فذكر ذلك له، فبعث إليها، فلما قامت لتلبس ثيابها بكى أختها، فقالت: ما يبكيك؟! فوالله ما التبس بي أحد من خلق الله غيره قط، فيقضي الله في ما شاء. فلما أتى بها عثمان أمر برجمها، فبلغ ذلك علياً فأناه، فقال له: ما تصنع؟ قال: ولدت تماماً لسته أشهر، وهل يكون ذلك؟ فقال له علي: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قال: أما سمعت الله يقول: ﴿وَحَمَلَهُ وَضَعَتْهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾. وقال: ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾، فلم نجده بقي إلا ستة أشهر، قال: فقال عثمان: والله ما فطنت لهذا، علي بالمرأة فوجدوها قد فرغ منها، قال: فقال بَعْجَةُ: فوالله ما الغراب بالغراب، ولا البيضة بالبيضة أشبه منه بأبيه. فلما رآه أبوه قال: ابني إني والله لا أشك فيه، قال: وأبلاه الله بهذه القرحة قرحة الأكلة، فما زالت تأكله حتى مات. رواه ابن أبي حاتم، وقد أوردناه من وجه آخر عند قوله: ﴿فَأَنَّا أَوَّلَ الْعَمِيِّينَ﴾ [الزخرف: ٨١]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا قُرُوزَةُ بن أبي المَغْرَاء، حدثنا علي بن مِسْهَر، عن داود بن أبي هند، عن عِكْرَمَةَ، عن ابن عباس قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر، كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا وضعت لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعت لسته أشهر فحولين كاملين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَحَمَلَهُ وَضَعَتْهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾. ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: قوي وشب وارتجل ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي: تنامى عقله وكمل فهمه وحمله. ويقال: إنه لا يتغير غالباً عما يكون عليه ابن الأربعين.

قال أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن القاسم بن عبد الرحمن قال: قلت لمسروق: متى يؤخذ الرجل بذنوبه؟ قال: إذا بَلَغْتَ الأربعين، فَخُذْ حذرك. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عُبيد الله القواريري، حدثنا عَزْرَةُ بن قيس الأزدي. وكان قد بلغ مائة سنة - حدثنا أبو الحسن السلولي عنه وزادني قال: قال محمد بن عمرو بن عثمان، عن عثمان، عن النبي ﷺ قال: «العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة، خفف الله حسابه، وإذا بلغ ستين سنة رزقه الله الإنابة إليه، وإذا بلغ سبعين سنة أحبه أهل السماء، وإذا بلغ ثمانين سنة ثبت الله حسناته ومحا سيئاته، وإذا بلغ تسعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشقعه الله في أهل بيته، وكتب في السماء: أسير الله في أرضه». وقد روى هذا من غير هذا الوجه، وهو في مسند الإمام أحمد. وقد قال الحجاج بن عبد الله الحكمي أحد أمراء بني أمية بدمشق: تركت المعاصي والذنوب أربعين سنة حياة من الناس، ثم تركتها حياة من الله، ﷻ. وما أحسن قول الشاعر:

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ فَلَمَّا عَلَا قَالَ لِلْبَاطِلِ: ابْطُلْ
﴿قَالَ رَبِّ أَرْبَعِينَ﴾ أي: ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ فِعْلَكَ الَّذِي أَمَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَلَدِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي: في المستقبل، ﴿وَأَصْلِحَ لِي فِي دُرَيْتِي﴾ أي: نسلي وعقبى، ﴿إِنِّي بُنْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ هذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله، ﷻ، ويعزم عليها. وقد روى أبو داود في سننه، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم أن يقولوا في التشهد: «اللهم، ألف بين قلوبنا، وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبل السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، وجننا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا، وأزواجنا، وذرياتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها قابليها، وأتممها علينا». قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ويتجاوز عن سيئاتهم، فيغفر لهم الكثير من الزلل، ويتقبل منهم اليسير من العمل، ﴿فِي أَحْصَى الْجَنَّةِ﴾ أي: هم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله من تاب إليه وأناب؛ ولهذا قال: ﴿وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا بِوَعْدِهِمْ﴾. قال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا الْمُغْتَفِر بن سليمان، عن الحكم بن

أبان، عن الغطريف، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ، عن الروح الأمين، عليه السلام، قال: «يؤتى بحسنات العبد وسيئاته، فيقتص بعضها ببعض، فإن بقيت حسنة وسع الله له في الجنة» قال: فدخلت على يزداد فحدثت بمثل هذا الحديث قال: قلت: فإن ذهبت الحسنة؟ قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾. وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن محمد بن عبد الأعلى الصنعاني، عن المعتمر بن سليمان، بإسناده مثله - وزاد: عن الروح الأمين. قال: قال الرب، جل جلاله: يؤتى بحسنات العبد وسيئاته... فذكره، وهو حديث غريب، وإسناده جيد لا بأس به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سليمان بن مغبل، حدثنا عمرو بن عاصم الكلابي، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر جعفر بن أبي وخشية، عن يوسف بن سعد، عن محمد بن حاطب قال: ونزل في داري حيث ظهر علي على أهل البصرة، فقال لي يوماً: لقد شهدت أمير المؤمنين علياً، وعنده عماراً وصعصعة والأشتر ومحمد بن أبي بكر، فذكروا عثمان فالتوا منه، وكان علي، رضي الله عنه، على السرير، ومعه عود في يده، فقال قائل منهم: إن عندكم من يفصل بينكم فسالوه، فقال علي: كان عثمان من الذين قال الله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾. قال: والله عثمان وأصحاب عثمان - قالها ثلاثاً - قال يوسف: فقلت لمحمد بن حاطب: الله سمعت هذا من علي؟ قال: الله سمعت هذا من علي، رضي الله عنه.

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَدِيَ أَنِّي لَكُمَّا أَهْدَانِیْ أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَمَا یَسْتَفِیْئَانِ اللَّهُ وَرَبِّكَ مَا یَنْزِلُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِیرُ الْأَوَّلِیْنَ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَیْبِ وَالْإِنِّسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَیْرَیْنَ﴾ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَعْوَةٍ بِمَا عَمِلُوا وَلِیُوَفِّیَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا یُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَیَوْمَ یَرْضَى الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبَتْهُمُ لَهْبَنُكُورٍ فِي حَاكِمِ الدُّنْيَا وَاسْتَنْتَفَتْهُمْ بِهَا قَالِیْمٌ یَحْزَنُونَ عَذَابَ الْهُونِ یَا كُفَّارٍ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ یَغْرِبُ لَهَا یَوْمَ كُفَّ كُفُّهُمْ فَتُسْفَنُونَ ﴿٢٠﴾

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَدِيَ أَنِّي لَكُمَّا أَهْدَانِیْ﴾ - وهذا عام في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر فقلوه ضعيف؛ لأن عبد الرحمن بن أبي بكر أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه. وروى العوفي، عن ابن عباس: أنها نزلت في ابن أبي بكر الصديق. وفي صحة هذا نظر، والله أعلم. وقال ابن جريج، عن مجاهد: نزلت في عبد الله بن أبي بكر. وهذا أيضاً قاله ابن جريج. وقال آخرون: عبد الرحمن بن أبي بكر. وقاله السدي. وإنما هذا عام في كل من عق والديه وكذب بالحق، فقال لوالديه: ﴿أَنِّي لَكُمَّا أَهْدَانِیْ﴾ عقيهما. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا يحيى بن أبي زائدة، عن إسماعيل بن أبي خالد، أخبرني عبد الله بن المديني قال: إني لفي المسجد حين خطب مروان، فقال: إن الله أرى أمير المؤمنين في يزيد رايأ حسناً، وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر عمر، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: أهرقليه؟! إن أبا بكر والله ما جعلها في أحد من ولده، ولا أحد من أهل بيته، ولا جعلها معاوية في ولده لا رحمة وكرامة لولده. فقال مروان: أأنت الذي قال لوالديه: أف لكما؟ فقال عبد الرحمن: أأنت الذي قال لوالدين الذي لعن رسول الله ﷺ أباك؟ قال: وسمعتهم عائشة فقالت، يا مروان، أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا؟ كذبت، ما فيه نزلت، ولكن نزلت في فلان بن فلان. ثم انتحب مروان، ثم نزل عن المنبر حتى أتى باب حجرتها، فجعل يكلمها حتى انصرف. وقد رواه البخاري بإسناده آخر ولفظ آخر، فقال: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن يوسف بن مالهك قال: كان مروان على الحجاز، استعمله معاوية بن أبي سفيان، فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال: خذوه. فدخل بيت عائشة، رضي الله عنها، فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَدِيَ أَنِّي لَكُمَّا أَهْدَانِیْ أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن، إلا أن الله أنزل عُذْرِي. طريق آخر: قال النسائي: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أمية بن خالد، حدثنا شعبة، عن محمد بن زياد قال: لما بايع معاوية لابنه، قال مروان: سئته أبي بكر وعمر. فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: سئته هرقل وقيصر. فقال مروان: هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَدِيَ أَنِّي لَكُمَّا أَهْدَانِیْ﴾ الآية، فبلغ ذلك عائشة فقالت: كذب مروان! والله ما هو به، ولو شئت أن أسمي الذي أنزلت فيه لسميته، ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروان في صلبه، فمروان فُضِّضَ من لعنة الله. وقوله: ﴿أَهْدَانِیْ أَنْ أَخْرَجَ﴾ أي: أن أبعت ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ أن: قدم مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر، ﴿وَمَا یَسْتَفِیْئَانِ اللَّهُ﴾ أي: يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما: ﴿وَبَلَّكَ مَا یَنْزِلُ مَا یَنْزِلُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِیرُ الْأَوَّلِیْنَ﴾ قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَیْبِ وَالْإِنِّسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَیْرَیْنَ﴾ ﴿١٨﴾

أي: دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهلهم يوم القيامة.
 وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ بعد قوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ﴾ دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك. وقال الحسن، وقناة:
 هو الكافر الفاجر العاق لوالديه، المكذب بالبعث. وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة سهل بن داود، من طريق هشام بن
 عمار: حدثنا حماد بن عبد الرحمن، حدثنا خالد بن الزبرقان الحلبي، عن سليمان بن حبيب المحاربي، عن أبي أمامة
 الباهلي، عن النبي ﷺ قال: «أربعة لعنهم الله من فوق عرشه، وأمنت عليهم الملائكة: مضل المساكين - قال خالد: الذي
 يهوى يده إلى المسكين فيقول: هلم أعطيك، فإذا جاءه قال: ليس معي شيء - والذي يقول للمكفوف: اتق الدابة، ليس بين
 يديه شيء. والرجل يسأل عن دار القوم فيدلونه على غيرها، والذي يضرب الوالدين حتى يستغيثا» غريب جداً. وقوله: ﴿وَلِكُلِّ
 دَرَجَةٍ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: لكل عذاب بحسب عمله، ﴿وَلِيُؤْذِنَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها. قال
 عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: درجات النار تذهب سفلًا، ودرجات الجنة تذهب علوًا. وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى
 الْأَنْهَارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَنْتَعْتُمْ بِهَا﴾ أي: يقال لهم ذلك تزيينًا وتوبيخًا. وقد تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب،
 رضي الله عنه، عن كثير من طيبات المأكّل والمشرب، وتنزه عنها، ويقول: إني أخاف أن أكون كالذين قال الله تعالى لهم
 وَقَرَّبَهُمْ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَنْتَعْتُمْ بِهَا﴾. وقال أبو مخنف: ليتفقّدن أوقام حسنات كانت لهم في الدنيا، فيقال لهم:
 ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾. وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُجْزِي عَذَابَ الْهَوْنِ يَمَّا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ يَقُولُ يَمَّا كُنتُمْ تَقْسِفُونَ﴾، فمجوزوا
 من جنس عملهم، فكما نَعَمُوا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصي، جازاهم الله بعذاب الهون، وهو
 الإهانة والخزي والآلام الموجعة، والحسرات المتتابعة، والمنازل في الدرجات المفطعة، أجازنا الله من ذلك كله.

﴿وَأَذْكُرْ لَنَا عَادَ إِذْ أَنْذَرْنَاهُمْ بِالْأَنْفَاقِ وَقَدْ حَلَّتْ أَنْذَرُهُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَسْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيْنَ عِندَ اللَّهِ تَالُوتُكُمْ أَن تَكُونَ قَوْمًا
 مَّجْهُولَاتٍ ۚ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا هَذَا عَارِضٌ مُطْمَئِنِّ بِكُمْ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحَ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ تُوذِرُ كُلَّ نَجَمٍ بِأَمْرِ
 رَبِّهِ فَأَمْسَحُوا لَا يَرُوهَا إِلَّا مَسْكِتُهُمْ كَذَلِكَ تُجْزَى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ۝٢٥﴾.

يقول تعالى مسلبيًا لنبيه في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَأَذْكُرْ لَنَا عَادَ﴾ وهو هود، عليه السلام، بعثه الله إلى عاد الأولى،
 وكانوا يسكنون الأحقاف - جمع حفف وهو: الجبل من الرمل - قاله ابن زيد. وقال عكرمة: الأحقاف: الجبل والغار. وقال
 علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: الأحقاف: واد بحضرموت، يدعى بُزْهُوت، تلقى فيه أرواح الكفار. وقال قتادة: ذكر لنا
 أن عاد كانوا حيًا باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بارض يقال لها: الشُخْر. قال ابن ماجه: «باب إذا دعا فليبدأ بنفسه»:
 حدثنا الحسين بن علي الخلال، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس
 قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحمنا الله وأخا عاد». وقوله: ﴿وَقَدْ حَلَّتْ أَنْذَرُهُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يعني: وقد أرسل الله إلى
 من حول بلادهم من القرى مرسلين ومنذرين، كقوله: ﴿لَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦]، وكقوله: ﴿فَإِنْ
 أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَوْغَةً مِّثْلَ صَوْغَةِ عَادَ وَتَقَوْمٌ ۚ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَسْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا
 لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۝١٤﴾ [نمل: ١٣، ١٤] أي: قال لهم هود ذلك، فأجابه قومه قائلين: ﴿إِجْتَنَّا إِنَّا كَانُوا
 لِنُتَصَدَّقَ عَنْ ءَالِهِنَا فَإِنَّا بِمَا نُرَدُّ بِهَا كَافِرُونَ ۝١٥﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعاداً منهم وقوعه، كقوله:
 ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]. ﴿قَالَ إِنَّمَا إِلَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل
 العذاب فيفعل ذلك بكم، وأما أنا فمن شأني أن أبلغكم ما أرسلت به، ﴿وَلَكِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُجْهُولَاتٍ﴾ أي: لا تعقلون ولا
 تفهمون.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ أي: لما رأوا العذاب مستقبلهم، اعتقدوا أنه عارض مطر، ففرحوا به
 واستبشروا به، وقد كانوا محملين محتاجين إلى المطر، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ مَّا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحَ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: هو
 العذاب الذي قُلتُم: ﴿فَالْيَوْمَ يَمَّا تَمُنُّونَ إِنَّ كُنتُمْ مِنَ الضَّالِّينَ﴾. ﴿تَذَمَّرُوا﴾ أي: تخزب: كل شيء من بلادهم، مما من شأنه
 الخراب ﴿بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ أي: بإذن الله لها في ذلك، كقوله: ﴿مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالْهَبِ ۝١٧﴾ [الذاريات: ٤٧] أي:
 كالشيء البالي. ولهذا قال: ﴿فَأَمْسَحُوا لَا يَرُوهَا إِلَّا مَسْكِتُهُمْ﴾ أي: قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية، ﴿كَذَلِكَ نُجْزَى الْقَوْمَ
 الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا، وخالف أمرنا.

وقد ورد حديث في قصتهم وهو غريب جداً من غرائب الحديث وأفراده، قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني أبو

المندر سلام بن سليمان النحوي قال: حدثنا عاصم بن أبي النجود، عن أبي وائل، عن الحارث البكري قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ، فمررت بالزبدة، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت لي: يا عبد الله، إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنت مبلغني إليه؟ قال: فحملتها فأنتيت بها المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال مقلد السيف بين يدي رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً. قال: فجلست، فدخل منزله - أو قال: رحله - فاستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت فسلمت، فقال: «هل كان بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدبرة عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتني أن أحملها إليك، وها هي الباب: فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً فأجعل الدهناء، فحميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول الله، فإلى أين يضطر مضطرك؟ قال: قلت: إن مثلي ما قال الأول: «يَغْزَى حَمَلَتْ حَقَّتْهَا»، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصماً، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد. قال: «هيه، وما وافد عاد؟» - وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه - قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: قَيْل، فمر بمعاطية بن بكر، فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما «الجرادتان» - فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مَهْرَة فقال: اللهم، إنك تعلم أنني لم أجيء إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه. فمرت به سحابات سود، فنودي منها: «اختر»، فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: «خذها رماداً رمداً، لا تبقي من عاد أحداً». قال: فما بلغني أنه أرسل عليهم من الريح إلا كقدر ما تجري في خاتمي هذا، حتى هلكوا - قال أبو وائل: وصدق - وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: «لا تكن كوافد عاد». رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، كما تقدم في سورة «الأعراف». وقال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو: أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار، عن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجعماً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم. قالت: وكان إذا رأى غيماً - أو ريحاً - عرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية؟ فقال: «يا عائشة، ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، قد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا». وأخرجاه من حديث ابن وهب.

طريق أخرى: قال أحمد حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن المقدم بن شريح، عن أبيه، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان إذا رأى ناشئاً في أفق من آفاق السماء، ترك عمله، وإن كان في صلاته، ثم يقول: «اللهم، إني أعوذ بك من شر ما فيه». فإن كشفه الله حمد الله، وإن أمطرت قال: «اللهم، صيباً نافعاً».

طريق أخرى: قال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو الطاهر، أخبرنا ابن وهب، سمعت ابن جرير يحدث عن عطاء بن أبي رباح، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم، إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به». قالت: وإذا تَحَلَّيْتُ السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سري عنه، فعرفت ذلك عائشة، فسألته، فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرٌّ﴾». وقد ذكرنا قصة هلاك عاد في سورتي «الأعراف» و«هود» بما أغنى عن إعادته هاهنا، والله الحمد والمنة. وقال الطبراني: حدثنا عیدان بن أحمد، حدثنا إسماعيل بن زكريا الكوفي، حدثنا أبو مالك عن مسلم الملائي، عن مجاهد وسعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فتح على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم، ثم أرسلت عليهم [فحملتهم] البدو إلى الحضرم فلما رآها أهل الحضرم قالوا: هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا. وكان أهل البوادي فيها، فالقى أهل البادية على أهل الحضرة حتى هلكوا. قال: عتت على خزائنها حتى خرجت من خلال الأبواب».

﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمًا وَانْصَرًا وَأَفِيدَةً فَمَا آغَى عَنْهُمْ سَمَهُمْ وَلَا ابْصَرَهُمْ وَلَا أَفِيدَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَحْصَدُونَ بِأَيْدِي اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَفَرْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَكَرَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٨﴾.

يقول تعالى: ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريباً منه، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمًا وَانْصَرًا وَأَفِيدَةً فَمَا آغَى عَنْهُمْ سَمَهُمْ وَلَا ابْصَرَهُمْ وَلَا أَفِيدَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَحْصَدُونَ بِأَيْدِي اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: وأحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه، أي: فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم، فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيَةِ﴾ يعني: أهل مكة، قد

أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها كعاد، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن وثمود، وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدین وكانت في طريقهم ومعهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يمشون بها أيضاً. وقوله: ﴿وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: بيناها ووضحناها، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ أي: فهلا نصرهم عند احتياجهم إليهم، ﴿بَلْ سَأَلُوا عَنْهُمْ﴾ أي: بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم، ﴿وَذَكَرَ لِقَائِهِمْ﴾ أي: كذبهم، ﴿وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أي: وافترأهم في اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها، واعتمادهم عليها. ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَعِينُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كُتُبًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مَوْسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَّا طَرِيقَ تَضَلُّعٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَدَاعِيَ الْيَوْمِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيَجْعَلْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَتَنْ لَا يُحِبُّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي سُلْبِ تَبِينَ ﴿٣٢﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو: سمعت عكرمة، عن الزبير: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَعِينُونَ الْقُرْآنَ﴾، قال: بنخلة، ورسول الله ﷺ يصلي العشاء الآخرة، ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدَا﴾ [الجن: ١٩]، قال سفيان: اللبد: بعضهم على بعض، كاللبد بعضه على بعض. تفرد به أحمد، وسيأتي من رواية ابن جرير، عن عكرمة، عن ابن عباس: أنهم سبعة من جن نصيبين. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة (ح) - وقال الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه «دلائل النبوة»: أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا إسماعيل القاضي، أخبرنا مسدد، حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ عن الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ، وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا - والله - الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك حين رجعوا إلى قومهم، قالوا: يا قومنا، إنا سمعنا قرآناً عجيباً، يهدي إلى الرشd فأمتنا به، ولن نشرك بربنا أحداً، وأنزل الله على نبيه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ تَسْتَعْتِفُونَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١]، وإنما أوحى إليه قول الجن. رواه البخاري عن مسدد بنحوه، وأخرجه مسلم عن شيبان بن فروخ، عن أبي عوانة، به. ورواه الترمذي والنسائي في التفسير، من حديث أبي عوانة.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: قال: كان الجن يستمعون الوحي، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرأ، فيكون ما سمعوا حقاً وما زادوا باطلاً، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رمي بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث. فبث جنوده، فإذا بالنبي ﷺ يصلي بين جبلي نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذي حدث في الأرض. رواه الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سنتيهما، من حديث إسرائيل، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وهكذا رواه أيوب عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. وكذا رواه العوفي، عن ابن عباس أيضاً، بمثل هذا السياق بطوله، وهكذا قال الحسن البصري: إنه، عليه السلام، ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله عليه بخبرهم. وذكر محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن محمد بن كعب القرظي قصة خروج رسول الله ﷺ إلى الطائف ودعائه إياهم إلى الله ﷻ، وإبائهم عليه. فذكر القصة بطولها، وأورد ذلك الدعاء الحسن: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي» إلى آخره. قال: فلما انصرف عنهم بات بنخلة، فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه الجن من أهل نصيبين. وهذا صحيح، ولكن قوله: «إن الجن كان استماعهم تلك الليلة». فيه نظر؛ لأن الجن كان استماعهم في ابتداء الإحياء، كما دل عليه حديث ابن عباس المذكور، وخروجه، عليه السلام، إلى الطائف كان بعد موت عمه، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين، كما قرره ابن إسحاق وغيره والله أعلم. وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا سفيان، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله بن مسعود قال: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن بطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا. قال: صه، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَعِينُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ إلى ﴿سُلْبِ تَبِينَ﴾.

فهذا مع الأول من رواية ابن عباس يقتضي أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة وإنما استمعوا قراءته، ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالاً قوماً بعد قوم، وفوجاً بعد فوج، كما سيأتي بذلك الأخبار في موضعها والآثار، مما ستوردها هاهنا إن شاء الله تعالى وبه الثقة. فأما ما رواه البخاري ومسلم جميعاً، عن أبي قدامة عبيد الله بن سعيد السرخسي، عن أبي أسامة حماد بن أسامة، عن مسعر بن كدام، عن معن بن عبد الرحمن قال: سمعت أبي قال: سألت مسروقاً: من أذن النبي ﷺ ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثني أبوك - يعني ابن مسعود - أنه أذنت بهم شجرة - فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى، ويكون إثباتاً مقدماً على نفي ابن عباس، ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات، والله أعلم. ويحتمل أن يكون في الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى أذنت بهم الشجرة، أي: أعلمته باستماعهم، والله أعلم. قال الحافظ البيهقي: وهذا الذي حكاه ابن عباس رضي الله عنهما، إنما هو في أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرههم، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن، دعاهم إلى الله، ﷻ، كما رواه عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه.

ذكر الرواية عنه بذلك: قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا داود، عن الشعبي - وابن أبي زائدة، أخبرنا داود، عن الشعبي - عن علقمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود: هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد؟ فقال: ما صحبه منا أحد، ولكننا فقدناه ذات ليلة بمكة، فقلنا: اغتيل؟ استطير؟ ما فعل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما كان في وجه الصبح - أو قال: في السحر - إذا نحن به يحيي من قبل حراء، فقلنا: يا رسول الله - فذكروا له الذي كانوا فيه - فقال: «إنه أتاني داعي الجن، فأتيتهم فقرأت عليهم». قال: فانطلق، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم - قال: وقال الشعبي: سأله الزاد - قال عامر: سأله بمكة، وكانوا من جن الجزيرة، فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما كان عليه لحماً، وكل بكرة أو روثة علف لدوابكم - قال: فلا تستنجوا بهما، فإنهما زاد إخوانكم من الجن». وهكذا رواه مسلم في صحيحه، عن علي بن حجر، عن إسماعيل بن علي، به نحوه. وقال مسلم أيضاً: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود - وهو ابن أبي هند - عن عامر قال: سألت علقمة: هل كان ابن مسعود، رضي الله عنه، شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: فقال: علقمة: أنا سألت ابن مسعود؛ فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا، ولكننا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقدناه فالتمسناه في الأدوية والشعاب، فقلنا: استطير؟ اغتيل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، قال: فقلنا: يا رسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم. فقال: «أتاني داعي الجن، فذهبت معهم، فقرأت عليهم القرآن». قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسأله الزاد فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بكرة أو روثة علف لدوابكم». قال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم».

طريق أخرى عن ابن مسعود: قال أبو جعفر بن جرير: حدثني أحمد بن عبد الرحمن، حدثني عمي، حدثني يونس، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، أن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بت الليلة أقرأ على الجن ربياً بالحجون».

طريق أخرى: فيها أنه كان معه ليلة الجن، قال ابن جرير، رحمه الله: حدثني أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا عمي عبد الله بن وهب، أخبرني يونس، عن ابن شهاب، عن أبي عثمان ابن سنة الخزاعي - وكان من أهل الشام - أن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهو بمكة: «ومن أحب منكم أن يحضر أمر الجن الليلة فليفع». فلم يحضر منهم أحد غيري، قال: فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لي برجله خطأ، ثم أمرني أن أجلس فيه، ثم انطلق حتى قام، فافتتح القرآن فغشيت أسودة كثيرة حالت بيني وبينه، حتى ما أسمع صوته، ثم طففوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، حتى بقي منهم رهط، ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر، فانطلق فتبرز، ثم أتاني فقال: «ما فعل الرهط؟» فقلت: هم أولئك يا رسول الله، فأعطاهم عظماً وروثاً زاداً، ثم نهى أن يستطيب أحد بروت أو عظم. ورواه ابن جرير عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، عن أبي زرعة وهب الله بن راشد، عن يونس بن يزيد الأيلي، به. ورواه البيهقي في الدلائل، من حديث عبد الله بن صالح - كاتب الليث - عن الليث، عن يونس، به. وقد روى إسحاق بن راهويه، عن جرير، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن مسعود، فذكر نحو ما تقدم. ورواه الحافظ أبو نعيم، من طريق موسى بن عبيدة، عن سعيد بن الحارث، عن أبي المعلى، عن ابن مسعود، فذكر نحوه أيضاً.

طريق أخرى: قال أبو نعيم: حدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي قال: حدثنا عفان وعكرمة قالا: حدثنا معتمر قال: قال أبي: حدثني أبو تميم، عن عمرو - ولعله قد يكون قال: البكالي - يحدثه عمرو، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: استتبعني رسول الله ﷺ فانطلقنا حتى أتينا مكان كذا وكذا، فخط لي خطاً فقال: «كن بين ظهر هذه لا تخرج منها؛ فإنك إن خرجت منها هلكت» فذكر الحديث بطوله وفيه غرابة شديدة.

طريق أخرى: قال ابن جرير: وحدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن معمر، عن يحيى ابن أبي كثير، عن عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفي؛ أنه قال لابن مسعود: حدثت أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن؟ قال: أجل. قال: فيكيف كان؟ فذكر الحديث كله، وذكر أن النبي ﷺ خط عليه خطاً، وقال: «لا تبرح منها» فذكر مثل العجاجة السوداء غشيت رسول الله ﷺ، فذعر ثلاث مرات، حتى إذا كان قريباً من الصبح، أتاني النبي ﷺ فقال: «أنمت؟» فقلت: لا والله، ولقد هممت مراراً أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تفرعهم بعصاك، تقول: «اجلسوا» فقال: «لو خرجت لم آمن أن يخطفك بعضهم». ثم قال: «هل رأيت شيئاً؟» فقلت: نعم، رأيت رجلاً سوداً مستشعرين ثياباً بيضاً. قال: «أولئك جن نصيبين سألوني المتاع - والمتاع: الزاد - فمعتهم بكل عظم حائل، أو بكرة، أو روثة» - فقلت: يا رسول الله، وما يعني ذلك عنهم؟ فقال: «إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل، ولا روثاً إلا وجدوا فيها جبهها يوم أكلت، فلا يستقين أحد منكم إذا خرج من الخلاء بعظم ولا بكرة ولا روثة».

طريق أخرى: قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي وأبو نصر بن قتادة قالا: أخبرنا أبو محمد يحيى بن منصور القاضي، حدثنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البوشنجي، حدثنا روح بن صلاح، حدثنا موسى بن علي بن رباح، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود قال: استتبعني رسول الله ﷺ فقال: «إن نفرا من الجن - خمسة عشر بني إخوة وبني عم - يأتونني الليلة، فأقرأ عليهم القرآن»، فانطلقت معه إلى المكان الذي أراد، فخط لي خطاً وأجلسني فيه، وقال لي: «لا تخرج من هذا». فبت فيه حتى أتاني رسول الله ﷺ مع السحر في يده عظم حائل وروثة حُمة فقال لي: «إذا ذهبت إلى الخلاء فلا تستنج بشيء من هؤلاء». قال: فلما أصبحت قلت: لأعلمن علمي حيث كان رسول الله ﷺ قال، فذهبت فرأيت موضع مبارك ستين بعيراً.

طريق أخرى: قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس ابن محمود الدورى، حدثنا عثمان بن عمر، عن المستمر بن الريان، عن أبي الجوزاء، عن عبد الله بن مسعود قال: انطلقت مع رسول الله ﷺ ليلة الجن، حتى أتى الحجون، فخط لي خطاً، ثم تقدم إليهم فازدحموا عليه، فقال سيد لهم، يقال له: «وردان»: أنا أرحلهم عنك. فقال: إني لن يجيرني من الله أحد.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا سفيان، عن أبي فزارة العبسي، حدثنا أبو زيد - مولى عمرو بن حريث - عن ابن مسعود قال: لما كان ليلة الجن قال لي النبي ﷺ: «أملعك ماء؟» قلت: ليس معي ماء، ولكن معي إداوة فيها نبيذ. فقال النبي: «تمر طيبة، وماء طهور» فتوضأ. ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث أبي زيد، به.

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا ابن لهيعة، عن قيس بن الحجاج، عن حنش الصنعاني، عن ابن عباس، عن عبد الله بن مسعود؛ أنه كان مع رسول الله ﷺ ليلة الجن، فقال رسول الله: «يا عبد الله، أملعك ماء؟» قال: معي نبيذ في إداوة، فقال: «أصيب علي». فتوضأ، فقال النبي ﷺ: «يا عبد الله، شراب وطهور». تفرد به أحمد من هذا الوجه، وقد أورده الدارقطني من طريق آخر، عن ابن مسعود، به.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرني أبي عن ميناء، عن عبد الله قال: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن، فلما انصرف تنفس، فقلت: ما شأنك؟ قال: «نعت إلي نفسي يا ابن مسعود». هكذا رأيته في المسند مختصراً، وقد رواه الحافظ أبو نعيم في كتابه «دلائل النبوة»، فقال: حدثنا سليمان بن أحمد بن أيوب، حدثنا إسحاق بن إبراهيم - وحدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبي قالا: حدثنا عبد الرزاق، عن أبيه، عن ميناء، عن ابن مسعود قال: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن، فتنفس، فقلت: ما لك يا رسول الله؟ قال: «نعت إلي نفسي يا ابن مسعود». قلت: استخلف. قال: «من؟» قلت: أبو بكر. فسكت، ثم مضى ساعة فتنفس، فقلت: ما شأنك بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: «نعت إلي نفسي يا ابن مسعود». قلت: استخلف. قال: «من؟» قلت: عمر بن الخطاب. فسكت ثم مضى ساعة، ثم تنفس فقلت: ما شأنك؟ قال: «نعت إلي نفسي». قلت: فاستخلف. قال ﷺ: «من؟» قلت: علي بن أبي طالب.

قال ﷺ: «أما والذي نفسي بيده، لئن أطاعوه ليدخلن الجنة أجمعين أكتعين». وهو حديث غريب جداً، وأحرى به ألا يكون محفوظاً، وبتقدير صحته فالظاهر أن هذا بعد وفودهم إليه بالمدينة على ما سنورده، فإن في ذلك الوقت في آخر الأمر لما فتحت مكة، ودخل الناس والجان أيضاً في دين الله أفواجاً، نزلت سورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّكَ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾، وهي السورة التي نعتت نفسه الكريمة فيها إليه، كما قد نص على ذلك ابن عباس، ووافقه عمر بن الخطاب عليه، وقد ورد في ذلك حديث سنورده عند تفسيرها، والله أعلم. وقد رواه أبو نعيم أيضاً، عن الطبراني عن محمد بن عبد الله الحضرمي، عن علي بن الحسين بن أبي بردة، عن يحيى بن سعيد الأسلمي، عن حرب بن صبيح، عن سعيد بن مسلمة، عن أبي مرة الصنعاني، عن أبي عبد الله الجديلي، عن ابن مسعود، فذكره وذكر فيه قصة الاستخلاف، وهذا إسناد غريب، وسياق عجيب.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي رافع، عن ابن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ خط حوله، فكان أحدهم مثل سواد النخل، وقال لي: «لا تبرح مكانك»، فأقرأهم كتاب الله، فلما رأى الرُّط قال: كأنهم هؤلاء. وقال النبي ﷺ: «أمعك ماء؟» قلت: لا. قال: «أمعك نبيذ؟» قلت: نعم. فتوضأ به.

طريق أخرى مرسله: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهري، أخبرنا حفص بن عمر العدني، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال: هم اثنا عشر ألفاً جاؤوا من جزيرة الموصل، فقال النبي ﷺ لابن مسعود: «أنظرني حتى أتيتك»، وخط عليه خطأ، وقال: «لا تبرح حتى أتيتك». فلما خشيم ابن مسعود كاد أن يذهب، فذكر قول رسول الله ﷺ فلم يبرح، فقال له النبي ﷺ: «لو ذهبت ما التقينا إلى يوم القيامة». طريق أخرى مرسله أيضاً: قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال: ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من ينزوى، وأن نبي الله ﷺ قال: «إني أمرت أن أقرأ على الجن فأبكم يتبعني؟» فاطرقوا، ثم استبهم فاطرقوا، ثم استبهم الثالثة فقال رجل: يا رسول الله، إن ذاك لذو ندبة فأتبعه ابن مسعود أخو هذيل، قال: فدخل النبي ﷺ شعباً يقال له: «شعب الحجون»، وخط عليه، وخط على ابن مسعود ليشبه بذلك، قال: فجعلت أهال وأرى أمثال النور تمشي في دفوفها، وسمعت لغطاً شديداً، حتى خفت على نبي الله ﷺ ثم تلا القرآن، فلما رجع رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، ما اللغظ الذي سمعت؟ قال: «اختصموا في قتل، فقضيت بينهم بالحق». رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. فهذه الطرق كلها تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصداً، فتلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، ﷻ، وشرع الله لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت. وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن ولم يشعر بهم، كما قاله ابن عباس، رضي الله عنهما. ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود. وأما ابن مسعود فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم، وإنما كان بعيداً منه، ولم يخرج مع النبي ﷺ أحد سواه، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة، هذه طريقة البيهقي. وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ابن مسعود ولا غيره، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام أحمد، وهي عند مسلم: ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى والله أعلم، كما روى ابن أبي حاتم في تفسير: ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾، من حديث ابن جريج قال: قال عبد العزيز بن عمر: أما الجن الذين لقوه بنخلة فجن نينوى، وأما الجن الذين لقوه بمكة فجن نصيبين، وتأوله البيهقي على أنه يقول: «فتبنا بشر ليلة بات بها قوم»، على غير ابن مسعود ممن لم يعلم بخروجه ﷺ إلى الجن، وهو محتمل على بعد، والله أعلم. وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عمرو محمد بن عبد الله الأديب، أخبرنا أبو بكر الإسماعيلي، أخبرنا الحسن بن سفيان، حدثني سويد بن سعيد، حدثنا عمرو بن يحيى، عن جده سعيد بن عمرو، قال: كان أبو هريرة يتبع رسول الله ﷺ بإدواة لوضوئه وحاجته، فأدركه يوماً فقال: «من هذا؟» قال: أنا أبو هريرة. قال: «أنتني بأحجار أستنج بها، ولا تأتني بعظم ولا روثة». فأتيته بأحجار في ثوبي، فوضعتها إلى جنبه حتى إذا فرغ وقام اتبعته، فقلت: يا رسول الله، ما بال العظم والروثة؟ قال: «أتاني وفد جن نصيبين، فسألوني الزاد، فدعوت الله لهم ألا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا طعاماً». أخرجه البخاري في صحيحه، عن موسى بن إسماعيل، عن عمرو بن يحيى، بإسناده قريباً منه. فهذا يدل مع ما تقدم على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك. وسنذكر ما يدل على تكرار ذلك. وقد روى عن ابن عباس غير ما ذكر عنه أولاً من وجه جيد، فقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الحميد الحماني، حدثنا النضر بن عري، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ الآية، قال: كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم. فهذا يدل على أنه قد روى القصتين. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا سويد بن عبد العزيز: حدثنا رجل سماه، عن ابن جريج، عن مجاهد: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ

نَقَرًا مِّنَ الْجِنِّ الْآيَةَ، قال: كانوا سبعة نفر، ثلاثة من أهل حران، وأربعة من أهل نصيبين، وكانت أسماؤهم حبي وحسي ومسي، وشاصر وناصر، والأرد وإيبان والأحقم. وذكر أبو حمزة الثمالي أن هذا الحي من الجن كان يقال لهم: بنو الشيصبان، وكانوا أكثر الجن عدداً وأشرفهم نسباً، وهم كانوا عامة جنود إبليس. وقال سفيان الثوري، عن عاصم، عن دُرٍّ، عن ابن مسعود: كانوا تسعة، أحدهم زوبعة، أتوه من أصل نخلة. وتقدم عنه أنهم كانوا خمسة عشر، وفي رواية: أنهم كانوا على ستين راحلة. وتقدم عنه أن اسم سيدهم وردان، وقيل: كانوا ثلاثمائة، وتقدم عن عكرمة أنهم كانوا اثني عشر ألفاً، فلعل هذا الاختلاف دليل على تكرر وفادتهم عليه صلوات الله وسلامه عليه، ومما يدل على ذلك ما قاله البخاري في صحيحه: حدثنا يحيى بن سليمان، حدثني ابن وهب، حدثني عمر - هو ابن محمد - أن سالمًا حدثه، عن عبد الله بن عمر قال: ما سمعت عمر يقول شيء قط: «إني لأظنه كذا» إلا كان كما يظن، بينما عمر بن الخطاب جالس، إذ مر به رجل جميل، فقال: لقد أخطأ ظني - أو: إن هذا على دينه في الجاهلية - أو لقد كان كاهنهم - عليّ بالرجل، فدعي له، فقال له ذلك، فقال: ما رأيت كالذي استقبل له رجل مسلم. قال: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرني. قال: كنت كاهنهم في الجاهلية. قال: فما أعجب ما جاءتك به جِئْتِكَ. قال: بينما أنا يوماً في السوق جاءني أعرف فيها الفرع، فقالت:

أَلَمْ تَرَ الْجِنَّ وَإِنْسَهَا
وَلَحُورَهَا بِالْقُلَاصِ وَأَخْلَاصَهَا

قال عمر: صدق، بينما أنا نائم عند آلهم، إذ جاء رجل بعجل فذبحه، فصرخ به صارخ، لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه، يقول: يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله» فوثب القوم، فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا؟ ثم نادى يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله». فقممت، فما نشبنا أن قيل: هذا نبي. هذا سياق البخاري، وقد رواه البيهقي من حديث ابن وهب، بنحوه، ثم قال: «وظاهر هذه الرواية يوم أن عمر بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذي ذبح، وكذلك هو صريح في رواية ضعيفة عن عمر في إسلامه، وسائر الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذي أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه، والله أعلم». وهذا الذي قاله البيهقي هو المتجه، وهذا الرجل هو سواد بن قارب، وقد ذكرت هذا مستقصى في سيرة عمر، رضي الله عنه، فمن أراد أن يقرأه من ثم، والله الحمد والمنة. قال البيهقي: «حديث سواد بن قارب، ويشبه أن يكون هذا هو الكاهن الذي لم يذكر اسمه في الحديث الصحيح». أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب المفسر من أصل سماعه، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار الأصبهاني، قراءة عليه، حدثنا أبو جعفر أحمد بن موسى الحمار الكوفي بالكوفة، حدثنا زياد بن يزيد بن بادويه أبو بكر القصري، حدثنا محمد بن النواس الكوفي، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبي إسحاق، عن البراء رضي الله عنه قال: بينما عمر بن الخطاب يخطب الناس على منبر رسول الله ﷺ، إذ قال: أيها الناس، أفياكم سواد بن قارب؟ قال: فلم يجبه أحد تلك السنة، فلما كانت السنة المقبلة قال: أيها الناس، أفياكم سواد بن قارب؟ قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، وما سواد بن قارب؟ قال: فقال له عمر: إن سواد بن قارب كان بدءاً إسلامه شيئاً عجيباً، قال: فيينا نحن كذلك إذ طلع سواد بن قارب، قال: فقال له عمر: يا سواد، حدثنا ببداية إسلامك، كيف كان؟ قال سواد: فإني كنت نازلاً بالهند، وكان لي رتي من الجن، قال: فيينا أنا ذات ليلة نائم، إذ جاءني في منامي ذلك. قال: قم فافهم واعقل إن كنت تعقل، قد بعث رسول الله من لؤي بن غالب، ثم أنشأ يقول:

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَائْجَاسِهَا
تَهْوَى إِلَى مَكَّةَ تَبْغَى الْهُدَى
فَإِنَّهُضْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ
قال: ثم أنبئني فأفزعني، وقال: يا سواد بن قارب، إن الله بعث نبياً فانهض إليه تهتد وترشد. فلما كان من الليلة الثانية أتاني فأنبئني، ثم أنشأ يقول كذلك:

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَتَطْلَإِهَا
تَهْوَى إِلَى مَكَّةَ تَبْغَى الْهُدَى
فَإِنَّهُضْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ
فلما كان في الليلة الثالثة أتاني فأنبئني، ثم قال:

عَجِبْتُ لِلْجَنِّ وَتَخْبَارَهَا
تَهْوَى إِلَى مَكَّةَ تُبْغِي الْهُدَى
فَأَنْهَضَ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ

قال: فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة، وقع في قلبي حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ما شاء الله، قال: فانطلقت إلى رحلي فشدته على راحلتي، فما حللت عليه نسعة ولا عقدت أخرى حتى أتيت رسول الله ﷺ، فإذا هو بالمدينة - يعني مكة - والناس عليه كعرف الفرس، فلما رأيته النبي ﷺ قال: «مرحباً بك يا سواد بن قارب، قد علمنا ما جاء بك». قال: قلت: يا رسول الله، قد قلت شعراً، فاسمعه مني. قال سواد: فقلت:

أَتَانِي رَيْثِي بَعْدَ لَيْلٍ وَمَجْمَعَةٍ
ثَلَاثٍ لَيْالٍ قَوْلُهُ كُلُّ لَيْلَةٍ:
فَسَمُرْتُ عَنْ مَاقِي الْإِزَارِ وَوَسَطْتُ
فَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ لَا شَيْءَ غَيْرُهُ
وَأَنَّكَ أَذْنَى الْمُزْسَلِينَ شَفَاعَةٌ
فَمُرْنَا بِمَا يَأْتِيكَ يَا خَيْرَ مُزْسَلٍ
وَكُنْ لِي شَفِيعاً يَوْمَ لَا دُوَّ شَفَاعَةٍ

قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال لي: «أفلحت يا سواد». فقال له عمر: هل يأتيك رثيك الآن؟ فقال: منذ قرأت القرآن لم يأتني، ونعم العوض كتاب الله من الجن. ثم أسنده البيهقي من وجهين آخرين. ومما يدل على وفادتهم إليه، عليه السلام، بعد ما هاجر إلى المدينة، الحديث الذي رواه الحافظ أبو نعيم في كتاب «دلائل النبوة» فقال: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن عبدة المصيصي، حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد بن أسلم: أنه سمع أبا سلام يقول: حدثني من حديث عمرو بن غيلان الثقفي قال: أتيت عبد الله بن مسعود فقلت له: حدثت أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن؟ قال: أجل. قلت: حدثني كيف كان شأنه؟ فقال: إن أهل الصفة أخذ كل رجل منهم رجل يعشيه، وتركت فلم يأخذني أحد منهم، فمر بي رسول الله ﷺ فقال: «من هذا؟». فقلت: أنا ابن مسعود. فقال: «ما أخذك أحد يعشيك؟» فقلت: لا. قال: «فانطلق لعلني أجد لك شيئاً». قال: فانطلقنا حتى أتى حجرة أم سلمة فتركتني ودخل إلى أهله، ثم خرجت الجارية فقالت: يا ابن مسعود، إن رسول الله ﷺ لم يجد لك عشاء، فارجع إلى مضجعك. قال: فرجعت إلى المسجد، فجمعت حصباء المسجد فتوسدته، والتفتت بشوبي، فلم ألبث إلا قليلاً حتى جاءت الجارية، فقالت: أجب رسول الله ﷺ. فاتبعته وأنا أرجو العشاء، حتى إذا بلغت مقامي، خرج رسول الله ﷺ وفي يده عسيب من نخل، فعرض به على صدري فقال: «أنتطلق أنت معي حيث انطلقت؟» قلت: ما شاء الله. فأعادها علي ثلاث مرات، كل ذلك أقول: ما شاء الله. فانطلق وانطلقت معه، حتى أتينا بقيع الغرقد، فخط بعصاه خطأ، ثم قال: «اجلس فيها، ولا تبرح حتى أتيك». ثم انطلق يمشي وأنا أنظر إليه خلال النخل، حتى إذا كان من حيث لا أراه ثارت العجاجة السوداء، ففرقت فقلت الحق برسول الله ﷺ، فإني أظن أن هوازن مكروا برسول الله ﷺ ليقتلوه، فأسعى إلى البيوت، فاستغيث الناس. فذكرت أن رسول الله ﷺ أوصاني: ألا أبرح مكاني الذي أنا فيه، فسمعت رسول الله ﷺ يقرعهم بعصاه ويقول: «اجلسوا». فجلسوا حتى كاد ينشق عمود الصبح، ثم ثاروا وذهبوا، فأتاني رسول الله ﷺ فقال: «أنتم بعدي؟» فقلت: لا، ولقد فزعت الفرعة الأولى، حتى رأيت أن أتى البيوت فاستغيث الناس حتى سمعتكم تقرعهم بعصاك، وكنت أظنها هوازن، مكروا برسول الله ﷺ ليقتلوه. فقال: «لو أنك خرجت من هذه الحلقة ما آمنهم عليك أن يختطفك بعضهم، فهل رأيت من شيء منهم؟» فقلت: رأيت رجالاً سوداً مستشعرين بثياب بيض. فقال رسول الله ﷺ: «أولئك وفد جن نصيبين، أتوني فسألوني الزاد والمتاع، فمعتهم، بكل عظم حائل أو روثة أو بكرة». قلت: وما يغني عنهم ذلك؟ قال: «إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه الذي كان عليه يوم أكل، ولا روثة إلا وجدوا فيها جبهه الذي كان فيها يوم أكلت، فلا يستنقي أحد منكم بعظم ولا بكرة». وهذا إسناد غريب جداً، ولكن فيه رجل مبهم لم يسم والله أعلم.

وَقَدْ هُمَا الْعَمِيسَ بِأَنْحَوَارَهَا
لَيْسَ دُورُ الشُّرِّ كَأَخْيَارَهَا
مَا مُؤْمِنُو الْجَنِّ كَكُفَّارَهَا

قال: فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة، وقع في قلبي حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ما شاء الله، قال: فانطلقت إلى رحلي فشدته على راحلتي، فما حللت عليه نسعة ولا عقدت أخرى حتى أتيت رسول الله ﷺ، فإذا هو بالمدينة - يعني مكة - والناس عليه كعرف الفرس، فلما رأيته النبي ﷺ قال: «مرحباً بك يا سواد بن قارب، قد علمنا ما جاء بك». قال: قلت: يا رسول الله، قد قلت شعراً، فاسمعه مني. قال سواد: فقلت:

وَلَمْ يَكْ فِيمَا قَدْ بَلَوْتُ بِكَادِبٍ
أَتَاكَ رَسُولٌ مِنْ لُؤْيٍ بِنِ عَالِبٍ
بِی الدُّعْلِبِ الْوَجْنَاءِ عِنْدَ السَّبَاسِبِ
وَأَنَّكَ مَأْمُونٌ عَلَى كُلِّ غَائِبٍ
إِلَى اللَّهِ يَا ابْنَ الْأَكْرَمِينَ الْأَطَائِبِ
وَأَنْ كَانَ فِيمَا جَاءَ شَيْبِ الذَّوَائِبِ
سِوَاكَ بِمُفْنٍ عَنِ سَوَادِ بِنِ قَارِبِ

قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال لي: «أفلحت يا سواد». فقال له عمر: هل يأتيك رثيك الآن؟ فقال: منذ قرأت القرآن لم يأتني، ونعم العوض كتاب الله من الجن. ثم أسنده البيهقي من وجهين آخرين. ومما يدل على وفادتهم إليه، عليه السلام، بعد ما هاجر إلى المدينة، الحديث الذي رواه الحافظ أبو نعيم في كتاب «دلائل النبوة» فقال: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن عبدة المصيصي، حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد بن أسلم: أنه سمع أبا سلام يقول: حدثني من حديث عمرو بن غيلان الثقفي قال: أتيت عبد الله بن مسعود فقلت له: حدثت أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن؟ قال: أجل. قلت: حدثني كيف كان شأنه؟ فقال: إن أهل الصفة أخذ كل رجل منهم رجل يعشيه، وتركت فلم يأخذني أحد منهم، فمر بي رسول الله ﷺ فقال: «من هذا؟». فقلت: أنا ابن مسعود. فقال: «ما أخذك أحد يعشيك؟» فقلت: لا. قال: «فانطلق لعلني أجد لك شيئاً». قال: فانطلقنا حتى أتى حجرة أم سلمة فتركتني ودخل إلى أهله، ثم خرجت الجارية فقالت: يا ابن مسعود، إن رسول الله ﷺ لم يجد لك عشاء، فارجع إلى مضجعك. قال: فرجعت إلى المسجد، فجمعت حصباء المسجد فتوسدته، والتفتت بشوبي، فلم ألبث إلا قليلاً حتى جاءت الجارية، فقالت: أجب رسول الله ﷺ. فاتبعته وأنا أرجو العشاء، حتى إذا بلغت مقامي، خرج رسول الله ﷺ وفي يده عسيب من نخل، فعرض به على صدري فقال: «أنتطلق أنت معي حيث انطلقت؟» قلت: ما شاء الله. فأعادها علي ثلاث مرات، كل ذلك أقول: ما شاء الله. فانطلق وانطلقت معه، حتى أتينا بقيع الغرقد، فخط بعصاه خطأ، ثم قال: «اجلس فيها، ولا تبرح حتى أتيك». ثم انطلق يمشي وأنا أنظر إليه خلال النخل، حتى إذا كان من حيث لا أراه ثارت العجاجة السوداء، ففرقت فقلت الحق برسول الله ﷺ، فإني أظن أن هوازن مكروا برسول الله ﷺ ليقتلوه، فأسعى إلى البيوت، فاستغيث الناس. فذكرت أن رسول الله ﷺ أوصاني: ألا أبرح مكاني الذي أنا فيه، فسمعت رسول الله ﷺ يقرعهم بعصاه ويقول: «اجلسوا». فجلسوا حتى كاد ينشق عمود الصبح، ثم ثاروا وذهبوا، فأتاني رسول الله ﷺ فقال: «أنتم بعدي؟» فقلت: لا، ولقد فزعت الفرعة الأولى، حتى رأيت أن أتى البيوت فاستغيث الناس حتى سمعتكم تقرعهم بعصاك، وكنت أظنها هوازن، مكروا برسول الله ﷺ ليقتلوه. فقال: «لو أنك خرجت من هذه الحلقة ما آمنهم عليك أن يختطفك بعضهم، فهل رأيت من شيء منهم؟» فقلت: رأيت رجالاً سوداً مستشعرين بثياب بيض. فقال رسول الله ﷺ: «أولئك وفد جن نصيبين، أتوني فسألوني الزاد والمتاع، فمعتهم، بكل عظم حائل أو روثة أو بكرة». قلت: وما يغني عنهم ذلك؟ قال: «إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه الذي كان عليه يوم أكل، ولا روثة إلا وجدوا فيها جبهه الذي كان فيها يوم أكلت، فلا يستنقي أحد منكم بعظم ولا بكرة». وهذا إسناد غريب جداً، ولكن فيه رجل مبهم لم يسم والله أعلم.

وقد روى الحافظ أبو نعيم من حديث بقة بن الوليد، حدثني نمير بن زيد القنبر، حدثنا أبي، حدثنا قحافة بن ربيعة، حدثني

الزبير بن العوام قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح في مسجد المدينة، فلما انصرف قال: «أيكم يتبعني إلى وفد الجن الليلة؟» فأسكت القوم ثلاثاً، فمر بي فأخذ بيدي، فجعلت أمشي معه حتى حبست عنا جبال المدينة كلها، وأفضينا إلى أرض براز فإذا برجال طوال كأنهم الرماح، مستشعرين بثيابهم من بين أرجلهم، فلما رأيتهم غشيتني رعدة شديدة، ثم ذكر نحو حديث ابن مسعود المتقدم، وهذا حديث غريب، والله أعلم. ومما يتعلق بوفود الجن ما رواه الحافظ أبو نعيم: حدثنا أبو محمد بن حيان، حدثنا أبو الطيب أحمد بن روح، حدثنا يعقوب الدورقي، حدثنا الوليد بن بكير التميمي، حدثنا حصين بن عمر، أخبرني عبيد المكتب، عن إبراهيم قال: خرج نفر من أصحاب عبد الله يريدون الحج، حتى إذا كانوا في بعض الطريق، إذا هم بحية تنشي على الطريق أبيض، ينفخ منه ريح المسك، فقلت لأصحابي: امضوا، فليست ببارح حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمر هذه الحية. قال: فما لبثت أن ماتت، فعمدت إلى خرقة بيضاء فلففتها فيها، ثم نحيتها من الطريق فدفنتها، وأدركت أصحابي في المتعشى. قال: فوالله إنا لنعوذ إذ أقبل أربع نسوة من قبل المغرب، فقالت: واحدة منهن: أيكم دفن عمرأ؟ قلنا: ومن عمرو، قالت: أيكم دفن الحية؟ قال: قلت: أنا. قالت: أما والله لقد دفنت صوماً قوماً، يأمر بما أنزل الله، ولقد آمن بنبيكم، وسمع صفته من السماء قبل أن يبعث بأربعمائة عام. قال الرجل فحمدنا الله، ثم قضينا حجتنا، ثم مرت بعمر بن الخطاب في المدينة فأنبأته بأمر الحية، فقال: صدقت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقد آمن بي قبل أن أبعث بأربعمائة سنة». وهذا حديث غريب جداً، والله أعلم.

قال أبو نعيم: وقد روى الثوري، عن أبي إسحاق، عن الشعبي، عن رجل من ثقيف، بنحوه. وروى عبد الله بن أحمد والظاهراني، عن صفوان بن المعطل - هو الذي نزل ودفن تلك الحية من بين الصحابة - وأنهم قالوا: أما إنه آخر التسعة موتاً الذين أتوا رسول الله ﷺ يستمعون القرآن. وروى أبو نعيم من حديث الليث بن سعد، عن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون، عن عمه، عن معاذ بن عبيد الله بن معمر قال: كنت جالساً عند عثمان بن عفان، فجاء رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إني كنت بفلاة من الأرض، فذكر أنه رأى ثعبانين اقتتلا ثم قتل أحدهما الآخر، قال: فذهبت إلى المعترك، فوجدت حيات كثيرة مقتولة، وإذا ينفخ من بعضها ريح المسك، فجعلت أشمها واحدة واحدة، حتى وجدت ذلك من حية صفراء رقيقة، فلففتها في عمامتي ودفنتها. فبينما أنا أمشي إذ ناداني مناد: يا عبد الله، لقد هُديت! هذان حيان من الجن بنو أشعيان وبنو أقيش التقوا، فكان من القتلى ما رأيت، واستشهد الذي دفنته، وكان من الذين سمعوا الوحي من رسول الله ﷺ: قال: فقال عثمان لذلك الرجل: إن كنت صادقاً فقد رأيت عجباً، وإن كنت كاذباً فعليك كذبك. فقله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ آلِيْنِ﴾ أي: طائفة من الجن، ﴿يَسْتَمِئُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ أي: استمعوا وهذا أدب منهم.

وقد قال الحافظ البيهقي: حدثنا الإمام أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان، أخبرنا أبو الحسن محمد بن عبد الله الدقاق، حدثنا محمد بن إبراهيم البوشنجي، حدثنا هشام بن عمار الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: قرأ رسول الله ﷺ سورة «الرحمن» حتى ختمها، ثم قال: «ما لي أراكم سكوتا، فلنجن كانوا أحسن منكم رداً، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَءُوا الْقُرْآنَ حَتَّىٰ تَخْلَعُوا عَلَيْهِمُ الْكُفَّةَ﴾» إلا قالوا: ولا بشيء من آلانك - أو نعمك - ربنا نكذب، فلك الحمد. ورواه الترمذي في التفسير، عن أبي مسلم عبد الرحمن بن واقد، عن الوليد بن مسلم، به. قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن، فذكره، ثم قال الترمذي: «غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد، عن زهير» كذا قال. وقد رواه البيهقي من حديث مروان بن محمد الطاطري، عن زهير بن محمد، به مثله. وقوله: ﴿فَلَمَّا قُيُوسٌ﴾ أي: فرغ. كقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ [الجمعة: ١٠]، ﴿فَقَضَّاهُمْ سَبْعَ سَعَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [نمل: ١٢]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ سَائِرُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَّا قَوْمَهُمْ مُّذِيرِينَ﴾ أي: رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ، كقوله: ﴿لَيَسْتَفْهَمُوا فِي الدِّينِ وَيَتَذَكَّرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. وقد استدلل بهذه الآية على أنه في الجن نذر، وليس فيهم رسل: ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولا؛ لقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يس: ١٠٩]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَبَاغُونَ أَطْعَامَ وَيَسْتَفْهَمُونَ فِي الْأَمْثَالِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال عن إبراهيم الخليل: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [المنكوث: ٢٧]. فكل نبي بعثه الله بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته، فأما قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَيَمْعَمَرُ أَلْيَٰى وَالْإِنسِ أَلْرَّ يَأْكُمُ رُسُلُكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فالمراد من مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما وهو الإنس، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الْوَلَدُ وَالْمَرْثَاتُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أي: أحدهما.

ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم مخبراً عنهم: ﴿قَالُوا يَتَقَوَّمَتَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾، ولم يذكروا عيسى؛ لأن عيسى، عليه السلام، أنزل عليه الإنجيل فيه مواظ وتريقات وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة؛ فلهذا قالوا: أنزل من بعد موسى. وهكذا قال ورقة بن نوفل، حين أخبره النبي ﷺ بقصة نزول جبريل عليه السلام عليه أول مرة، فقال: **يَخْ يَخْ**، هذا الناموس الذي كان يأتي موسى، يا ليتني أكون فيها جَدْعاً. ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المنزلة قبله على الأنبياء. وقولهم: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أي: في الاعتقاد والإخبار، ﴿وَالَّذِي طَرِيقُ مُسْتَقِيمٍ﴾: في الأعمال، فإن القرآن يشتمل على شيئين خير وطلب، فخير صدق، وطلبه عدل، كما قال: ﴿وَكَمَّتْ رُكُوتُكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، فالهدى هو: العلم النافع، ودين الحق: وهو العمل الصالح. وهكذا قالت الجن: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ في الاعتقادات، ﴿وَالَّذِي طَرِيقُ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: في العمليات. ﴿يَتَقَوَّمَتَا لِيُنبِئَا دَاعِيَ اللَّهِ﴾: فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً صلوات الله وسلامه عليه إلى الثقلين الإنس والجن حيث دعاهم إلى الله، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين، وتكليفهم ووعدهم ووعدهم، وهي سورة الرحمن؛ ولهذا قال: ﴿لِيُنبِئَا دَاعِيَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ﴾. وقوله: ﴿يَتَوَفَّرُ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ﴾: قيل: إن «من» هاهنا زائدة، وفيه نظر؛ لأن زيادتها في الإثبات قليل. وقيل: إنها على بابها للتبويض، ﴿وَيُخَوِّضُكُمْ مِنْ عَذَابِ آيَةٍ﴾ أي: ويقبكم من عذابه الأليم. وقد استدلل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة؛ ولهذا قالوا هذا في هذا المقام، وهو مقام تبجح ومبالغة، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، قال: حدثت عن جرير، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: لا يدخل مؤمنو الجن الجنة؛ لأنهم من ذرية إبليس، ولا تدخل ذرية إبليس الجنة. والحق أن مؤمنهم كمؤمني الإنس يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة من السلف، وقد استدلل بعضهم لهذا بقوله: ﴿لَوْ يَخْلُقْنَهُ إِسْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانَّ﴾ [الرحمن: ١٧٤]، وفي هذا الاستدلال نظر، وأحسن منه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكَ مَاءً رَمِيًّا فَجَنَّاكَ ۖ فِئَافِي ۖ أَلَمْ نَكُنْكَ كَذَّابًا ۖ﴾ [الرحمن: ٤٦، ٤٧]، فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولي أبلغ من الإنس، فقالوا: «ولا يَشَى من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد» فلم يكن تعالى ليمتن عليهم بجزاء لا يحصل لهم، وأيضاً فإنه إذا كان يجازي كافرهم بالنار - وهو مقام عدل - فلا أن يجازي مؤمنهم بالجنة - وهو مقام فضل - بطريق الأولى والأخرى. ومما يدل أيضاً على ذلك عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۖ﴾ [التكوير: ١٧]، وما أشبه ذلك من الآيات. وقد أفردت هذه المسألة في جزء على حدة، والله الحمد والمنة. وهذه الجنة لا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً، أفلا يسكنها من آمن به وعمل له صالحاً؟ وما ذكروه هاهنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجارة من العذاب الأليم، هو يستلزم دخول الجنة؛ لأنه ليس في الآخرة إلا الجنة أو النار، فمن أجبر من النار دخل الجنة لا محالة. ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع أن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة وإن أجبروا من النار، ولو صح لقلنا به، والله أعلم. وهذا نوح، عليه السلام، يقول لقومه ﴿يَتَوَفَّرُ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَيُخَوِّضُكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [نوح: ٤]، ولا خلاف أن مؤمني قومه في الجنة، فكذلك هؤلاء. وقد حكى فيهم أقوال غريبة فمن عبد العزيز: أنهم لا يدخلون بخبوخة الجنة، وإنما يكونون في رزقها وحولها وفي أرجائها. ومن الناس من زعم أنهم في الجنة يراهم بنو آدم ولا يرون هم بنو آدم عكس ما كانوا عليه في الدار الدنيا. ومن الناس من قال: لا يأكلون في الجنة ولا يشربون، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس، عوضاً عن الطعام والشراب كالملائكة، لأنهم من جنسهم. وكل هذه الأقوال فيها نظر، ولا دليل عليها. ثم قال مخبراً عنه: ﴿وَمَنْ لَا يُحِبَّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بل قدرة الله شاملة له ومحيطه به، ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أي: لا يجيرهم منه أحدٌ ﴿أُولَئِكَ فِي سَعَتٍ مُبِينٍ﴾. وهذا مقام تهديد وترهيب، فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب؛ ولهذا نجع في كثير منهم، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً، كما تقدم بيانه.

﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ يَخْلُقْهُمْ يَتَدَبَّرُ عَلَى أَنْ يَخْرُجَ الْقَوْمُ بِكَ إِيَّاهُ عَلَى كُلِّ مَعْوَةٍ قَدِيرٌ ۖ وَيَوْمَ يُعْرَشُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ الْبَاقِ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلْ وَرَيْبًا قَالِ قَدْ قُورُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۖ﴾ [التكوير: ٢٢] **تَأْسِرُ** كَمَا صَدَّ أَوَّلُوا الْغَرَبِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا سَتَعِجِلْ لَهُمْ كَانَهُمْ يَوْمَ يَوْمًا مَا يُوْعَدُونَ لَوْ بَلَّغُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَبَأٍ بَلِّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ۖ﴾ [التكوير: ٢٥].

يقول تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ﴾ أي: هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ يَخْلُقْهُمْ﴾ أي: ولم يكرهه خلقهم، بل قال لها: «كوني» فكانت، بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعة

يَبْلُغُوا بِمَنَاصِكُمْ بَيْعُتِي وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُبَدِّلَ أَعْمَلَكُمْ ① سَبِيحَهُمْ وَيُصَلِّحُ بَالَهُمْ ② وَيُجَاهِدُ لِمَنَّةٍ عَرَفَهَا كَيْفَ ③ يَقَاتِلُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَشَاءُوا اللَّهُ يُضَرِّكُمْ وَيُنَبِّتُ أَفْئَادَكُمْ ④ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَا لَمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا ⑤ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَيْهًا مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ⑥.

يقول تعالى مرشداً للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أي: إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصداً بالسيف، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَغْنَتْكُمْ فَتُكْدُوا﴾ أي: أهلكتموهم قتلاً ﴿فَتُكْدُوا﴾ وثاق الأسارى الذين تأسروهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون في أمرهم، إن شئتم منتقم عليهم فأطلقتم أسرارهم مجاناً، وإن شئتم فادبتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه. والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله، سبحانه، عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ لياخذوا منهم الفداء، والتقلل من القتل يومئذ فقال: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنِي أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَشْرَىٰ حَتَّىٰ يُتَخَفَ فِي الْأَرْضِ فَيُدْوَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ⑦﴾ لَوْلَا كَتَبَ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑧﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٨]. ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية - المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه - منسوخة بقوله تعالى: ﴿إِذَا أَسْلَخَ الْإِكْثَرَ الْكُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَعَظِّمُوا نَصْرَهُمْ وَاقْتُلُوا لَهُمْ كَعَلَّ مَرْصِدًا﴾ الآية [التوبة: ٥]، رواه العوفي عن ابن عباس. وقاله قتادة، والضحاك، والسدي، وابن جريج. وقال الآخرون - وهم الأكثرون - : ليست منسوخة. ثم قال بعضهم: إنما الإمام مخير بين المن على الأسير ومفاداته فقط، ولا يجوز له قتله. وقال آخرون منهم: بل له أن يقتله إن شاء، لحديث قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط من أسارى بدر، وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: «إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تَمْنَىٰ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تَرِيدُ الْمَالَ فَسَلِّ تَعَطَّ مِنْهُ مَا شِئْتَ. وَزَادَ الشَّافِعِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ، فَقَالَ: الإمام مخير بين قتله أو المن عليه، أو مفادته أو استرقاقه أيضاً. وهذه المسألة مخزرة في علم الفروع، وقد دللنا على ذلك في كتابنا «الأحكام»، والله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ نَصَعَ الْكُرْمُ أَزْوَاجًا﴾: قال مجاهد: حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام. وكأنه أخذه من قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال». وقال الإمام أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن إبراهيم بن سليمان، عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرشي، عن جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ؛ أن سلمة بن نُفَيْل أخبرهم: أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: إِنِّي سَبَيْتُ الْخَيْلَ، وَأَلْقَيْتُ السِّلَاحَ، وَوَضَعْتُ الْحَرْبَ أَوْزَارَهَا، وَقُلْتُ: «لا قتال» فقال له النبي ﷺ: «الآن جاء القتال، لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس يُزَيِّغُ اللَّهُ قُلُوبَ أَقْوَامٍ فَيَقَاتِلُونَهُمْ: وَبِرْزَقِهِمْ اللَّهُ مِنْهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ. أَلَا إِنَّ عَقْرَ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ الشَّامَ، وَالْخَيْلَ مَعْقُودَ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». وهكذا رواه النسائي من طريقين، عن جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، عن سلمة بن نُفَيْل السكوني، به. وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا داود بن رُشَيْد، حدثنا الوليد بن مسلم، عن محمد بن مهاجر عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرشي، عن جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، عن النّوّاس بن سَمْعَانَ قَالَ: لما فتح على رسول الله ﷺ فتح فقالوا: يا رسول الله، سببت الخيل، ووضعت السلاح، ووضعت الحرب أوزارها، قالوا: لا قتال، قال: «كذبوا، الآن، جاء القتال، لا يزال الله يَرْفَعُ قُلُوبَ قَوْمٍ يَقَاتِلُونَهُمْ، فِيرْزَقُهُمْ مِنْهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَعَقْرُ دَارِ الْمُسْلِمِينَ الشَّامَ». وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن داود بن رُشَيْد، به. والمحمول أنه من رواية سلمة ابن نُفَيْل كما تقدم. وهذا يقوي القول بعدم النسخ، كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلى الأبدى حرب. وقال قتادة: ﴿حَتَّىٰ نَصَعَ الْكُرْمُ أَزْوَاجًا﴾: حتى لا يبقى شرك. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَتَقِيلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ ⑨﴾ [البقرة: ١٩٣]. ثم قال بعضهم: ﴿حَتَّىٰ نَصَعَ الْكُرْمُ أَزْوَاجًا﴾ أي: أوزار المحاربين، وهم المشركون، بأن يتربوا إلى الله ﷻ. وقيل: أوزار أهلها بأن يبدلوا الوسخ في طاعة الله، ﷻ. وقوله: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ تَشَاءَ اللَّهُ لَأنتَصَرْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده، ﴿وَلَكِنْ يَبْلُغُوا بِمَنَاصِكُمْ بَيْعُتِي﴾ أي: ولكن شرع لكم الجهاد وقتل الأعداء ليختبركم، ويبلو أخباركم. كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي «آل عمران» و «براءة» في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلُوا مِنْكُمْ وَرَعِمَ الْغَابِرِينَ ⑩﴾ [آل عمران: ١٤٢]. وقال في سورة براءة: ﴿وَتَقِيلُوهُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخَذِّبُهُمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ صُدُورٌ قَوِيَةٌ مُؤْمِنِينَ ⑪﴾ وَيَذْهَبُ عِظَةُ قُلُوبِهِمْ وَرُؤُوبُ اللَّهِ عَلَ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ⑫﴾ [التوبة: ١٤-١٥].

ثم لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين، قال: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُبَدِّلَ أَعْمَلَكُمْ﴾ أي: لن يذهب بل يكثرها وينميها ويضاعفها. ومنهم من يجري عليه عمله في طول بَرَزْخِهِ، كما ورد بذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده، حيث قال: حدثنا زيد بن يحيى الدمشقي، حدثنا ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن كثير بن مرة، عن قيس الجذامي - رجل كانت له صبية - قال: قال رسول الله ﷺ: «يعطى الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه: يُكْفَرُ عَنْهُ كُلُّ خَطِيئَةٍ،

ويرى مقعده من الجنة، ويزوج من الحور العين، ويؤمن من الفزع الأكبر، ومن عذاب القبر، ويحلى حُلَّة الإيمان. تفرد به أحمد، رحمه الله. حديث آخر: قال أحمد أيضاً: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن بجير بن سعيد، عن خالد بن معدان، عن المقدم بن معد يكرب الكندي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حُلَّة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر ويؤمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوفاء، والياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه». وقد أخرجه الترمذي وصححه ابن ماجه. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو، وعن أبي قتادة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يُغفر للشهيد كل شيء إلا الذن» . وروي من حديث جماعة من الصحابة، وقالوا أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته». ورواه أبو داود. والأحاديث في فضل الشهيد كثيرة جداً.

وقوله: ﴿سَبِّحْهُمْ﴾ أي: إلى الجنة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَتَذَكَّرُ بِهِمْ رَبُّهُمْ يُسَبِّحُهُمْ تَحَرَّى مِنْ قَبْلِهِمْ الْأَنْهَارَ فِي جَنَّاتِ الْغَيْبِ﴾ [يونس: ٩]. وقوله: ﴿وَيُصَلِّ بِأَلَمٍ﴾ أي: أمرهم وحالهم، ﴿وَيَذِلُّهُمْ لِحَنَةً عَرَفَهَا لَمْ﴾ أي: عرفهم بها وهدهم إليها. قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحداً. وروى مالك عن ابن زيد بن أسلم نحو هذا. وقال محمد بن كعب: يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة، كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة. وقال مقاتل بن حيان: بلغنا أن الملك الذي كان وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة، ويتبعه ابن آدم حتى يأتي أقصى منزل هو له، فيعرفه كل شيء أعطاه الله في الجنة، فإذا انتهى إلى أقصى منزلة في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه، وانصرف الملك عنه، ذكرهن ابن أبي حاتم، رحمه الله. وقد روى الحديث الصحيح بذلك أيضاً، رواه البخاري من حديث قتادة، عن أبي المتوكل الناجي، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمن من النار حبسوا بقطرة بين الجنة والنار، يتقاضون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، والذي نفسي بيده، إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله كان في الدنيا». ثم قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يُنصَرُوا وَيُنصِرْهُمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الحج: ٤٠]، فإن الجزاء من جنس العمل؛ ولهذا قال: ﴿وَيُنصِرْهُمْ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾، كما جاء في الحديث: «من بلغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها، ثبت الله قدمه على الصراط يوم القيامة». ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ﴾، عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله ولرسوله ﷺ. وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تيس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة». وفي رواية: تعس عبد الحميص - تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، ألا: فلا شفاء الله. وقوله: ﴿وَأَصْلَ أَصْلَهُمْ﴾ أي: أحبطها وأبطلها؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: لا يريدونه ولا يحبونه، ﴿فَأَحْطَطَ أَصْلَهُمْ﴾.

﴿أَفَلَا يَرَوْا فِي الْأَرْضِ بُنْيَانًا مِمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ أي: عابدهم بتكذيبهم وكفرهم، أي: ونجى المؤمنين من بين أظهرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّكُونِ أَتْلَاهُمْ﴾، ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ مَوَّلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكُفْرَ لَا مَوَّلَى لَهُمْ﴾ [١١]، ولهذا قال أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركين يوم أحد حين سأل عن النبي ﷺ، وعن أبي بكر وعمر فلم يجب، وقال: أما هؤلاء فقد هلكوا، وأجابه عمر بن الخطاب فقال: كذبت يا عدو الله، بل أبقي الله لك ما يسووك، وإن الذين غددت لأحياء كلهم. فقال أبو سفيان: يو يوم بدر، والحرب سجال، أما إنكم ستجدون مثله لم أمر بها ولم تسؤني، ثم ذهب يرتجز ويقول: اعل هبل، اعل هبل. فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبون؟» قالوا: يا رسول الله، وما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل» ثم قال أبو سفيان: لنا العزى، ولا عزى لكم. فقال: «ألا تحببوه؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم». ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنصَرُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ أي: في دنياهم، يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام، خضماً وقضماً ليس لهم همة إلا في ذلك. ولهذا ثبت في الصحيح: «المؤمن يأكل من معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء». ثم قال: ﴿وَالنَّارُ مَوَّلَى لَهُمْ﴾ أي: يوم جزائهم. وقوله: ﴿وَكُلٌّ مِنْ قَرَبَةٍ مِنْ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرَبِكَ إِلَيَّ أَخْرَجَكَ﴾

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا مصعب بن إبراهيم بن حمزة الزبيري، وعبد الله بن الصقر السكري قالا: حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي، حدثنا عبد الرحمن بن المغيرة، حدثني عبد الرحمن بن عياش، عن دلهم بن الأسود بن عبد الله بن حاجب بن عامر بن المتفق العقيلي، عن أبيه، عن عمه لقيط بن عامر، قال دلهم: وحدثني أيضاً أبو الأسود، عن عاصم بن لقيط أن لقيط ابن عامر خرج وافداً إلى رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله، فعلام نطلع من الجنة؟ قال: «على أنهار عسل مصفى، وأنهار من خمر ما بها صداع ولا ندامة، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وماء غير آسن، وفاكهة، لعمر إلهك ما تعلمون وخير من مثله، وأزواج مطهرة» قلت: يا رسول الله، أولنا فيها أزواج مصلاحات؟ قال: «الصالحات للمصالحين، تلذوهم مثل لذاتكم في الدنيا ويلذونكم، غير ألا توالد». وقال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا: حدثنا يعقوب بن

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ سِرَّاتِكُمْ وَمَنْ يُدَكِّرْ﴾ أي: يعلم تصرفكم في نهاركم ومستقركم في ليلكم، كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وكقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ ثَبِيثٍ﴾ [هود: ٦]. وهذا القول ذهب إليه ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير. وعن ابن عباس: متقلبكم في الدنيا، ومثواكم في الآخرة. وقال السدي: متقلبكم في الدنيا، ومثواكم في قبوركم. والأول أولى وأظهر، والله أعلم.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِنَّ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَحْكُمُكُمْ وَذَكَرَ فِيهَا الْفِتْنَةُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ۖ طَاعَةٌ ۚ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ حِزْبًا لَّهُمْ ۚ﴾ [النساء: ٢٢] ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَسَنَهُمُ اللَّهُ فَاصْتَعَفَ وَاعْتَمَ أَنْصَرَهُمْ ۚ﴾ [النساء: ٢٣].

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله ﷺ، وأمر به نكل عنه كثير من الناس، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَكَانَ كَيْفَ عَلَيْهمُ الْفِتْنَةُ إِذْ قِيلَ لَهُمْ يَنْتَهِبُوا النَّاسَ كُفْيَهُ اللَّهُ أَوْ أَشَدَّ حَشِيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْفِتْنَةُ لَوْلَا أَنْزَلْنَا إِلَيْنَا آيَةً قَرِيبًا قُلْ مَنْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا ظُلْمُ لِمَنْ قِيلَ ۖ﴾ [النساء: ٢٧].

١٧٧. وقال هاهنا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: مشتتة على حكم القتال؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَحْكُمُكُمْ وَذَكَرَ فِيهَا الْفِتْنَةُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: من فزعهم ورعهم وجنبهم من لقاء الأعداء. ثم قال: مشجعاً لهم: ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أي: وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا، أي: في الحالة الراهنة، ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي: جد الحال، وحضر القتال، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ أي: أخلصوا له النية، ﴿لَكَانَ حِزْبًا لَّهُمْ ۚ﴾. وقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أي: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجاهلاء، تسفكون الدماء، وتقطعون الأرحام؛ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَسَنَهُمُ اللَّهُ فَاصْتَعَفَ وَاعْتَمَ أَنْصَرَهُمْ ۚ﴾ [النساء: ٢٣]، وهذا نهى عن الإسناد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والفعال وبذل الأموال.

وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ، من طرق عديدة، ووجوه كثيرة. قال البخاري: حدثنا خالد بن مخلد، حدثنا سليمان، حدثني معاوية بن أبي مَرْزَد، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «خلق الله الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحق الرحمن ﷻ، فقال: مه! فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. فقال: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك». قال أبو هريرة: أقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۚ﴾ [النساء: ٢٣]. ثم رواه البخاري من طريقين آخرين، عن معاوية بن أبي مَرْزَد، به. قال رسول الله ﷺ: «أقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۚ﴾». ورواه مسلم من حديث معاوية بن أبي مَرْزَد، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، أخبرنا عيينة بن عبد الرحمن بن جوشن، عن أبيه، عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أحرى أن يجعل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم». رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، من حديث إسماعيل - هو ابن عُليّة - به. وقال الترمذي: هذا حديث صحيح. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون أبو محمد المرثي، حدثنا محمد بن عباد المخزومي، عن ثوبان، عن رسول الله ﷺ قال: «من سره النساء في الأجل، والزيادة في الرزق، فليصل رحمه». تفرد به أحمد، وله شاهد في الصحيح. وقال أحمد أيضاً: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حجاج بن أَرْطَاة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي ذوي أرحام، أصل ويقطعون، وأعفو ويظلمون، وأحسن ويسيتون، أفأكافئهم؟ قال: «لا، إذن تتركون جميعاً، ولكن جُذْ بالفضل وصلهم؛ فإنه لن يزال معك ظهير من الله ﷻ، ما كنت على ذلك». تفرد به من هذا الوجه، وله شاهد من وجه آخر. وقال الإمام أحمد: حدثنا يَغْلَى، حدثنا فطر، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرحم معلقة بالعرش، وليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»، رواه البخاري. وقال أحمد: حدثنا بهز، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا قتادة، عن أبي ثمامة الثقفي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الرحم يوم القيامة لها حُجَّةٌ كحُجَّةِ المغفل، تتكلم بلسان طُلُقٍ ذُلُقٍ، فتصل من وصلها وتقطع من قطعها».

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، عن أبي قابوس، عن عبد الله بن عمرو - يبلغ به النبي ﷺ - قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء، والرحم شُجَّةٌ من الرحمن، من وصلها وصلته، ومن قطعها

بنته». وقد رواه أبو داود والترمذي، من حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، به. وهذا هو الذي يروى بتسلسل الأولية، وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا هشام الدستوائي، عن يحيى بن أبي كثير، عن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ؛ أن أباه حدثه: أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف وهو مريض، فقال له عبد الرحمن: وصلتك رحمًا، إن رسول الله ﷺ قال: «قال الله ﷻ: أنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها من اسمي، فمن يصلها أصله، ومن يقطعها أقطعها فأبته». أو قال: من يبيتها أبته». تفرد به من هذا الوجه. ورواه أحمد أيضاً من حديث الزهري، عن أبي سلمة، عن الرداد - أو أبي الرداد - عن عبد الرحمن بن عوف، به. ورواه أبو داود والترمذي، من رواية أبي سلمة، عن أبيه. والأحاديث في هذا كثيرة. وقال الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن عمار الموصلي، حدثنا عيسى بن يونس، عن محمد بن عبد الله بن عاتكة، عن الحجاج بن الفرافصة، عن أبي عمر البصري، عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». وبه قال رسول الله ﷺ: «إذا ظهر القول، وخزن العمل، واتبغت الألسنة، وتباغضت القلوب، وقطع كل ذي رحم رحمه، فعند ذلك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم».

﴿أَفَلَا يَنْدَرُونَ الْفَرَمَاتَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ آذَانِهِمْ يُرَىٰ بِدُونِ لَهْمٍ الْهَدَىٰ السَّجْدُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلٌ لَهُمْ﴾ (٢٥) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سُلَيْمٌ فِي بَعْضِ الْأُمَمِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُ﴾ (٢٦) ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِصَرِيحٍ وَجُوهُهُمْ وَأَذَانُهُمْ﴾ (٢٧) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ (٢٨) يقول تعالى أمرًا بتدبر القرآن وتفهمه، ونهاياً عن الإعراض عنه، فقال: ﴿أَفَلَا يَنْدَرُونَ الْفَرَمَاتَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤) أي: بل على قلوب أقفالها، فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه. قال ابن جرير: حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد قال: حدثنا حماد بن زيد، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ يوماً: ﴿أَفَلَا يَنْدَرُونَ الْفَرَمَاتَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤)، فقال شاب من أهل اليمن: بل عليها أقفالها حتى يكون الله ﷻ يفتحها أو يفرجها. فما زال الشاب في نفس عمر، رضي الله عنه، حتى ولى، فاستعان به. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ آذَانِهِمْ يُرَىٰ بِدُونِ لَهْمٍ الْهَدَىٰ السَّجْدُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلٌ لَهُمْ﴾ (٢٥) أي: غرهم وخدعهم، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سُلَيْمٌ فِي بَعْضِ الْأُمَمِ﴾ (٢٦) أي: مالتوهم وناصحوهم في الباطل على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرهم خلاف ما يبطنون؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُ﴾ (٢٦) أي: يعلم ما يسرون وما يخفون، الله مطلع عليه وعالم به، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾ [النساء: ٨١]. ثم قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِصَرِيحٍ وَجُوهُهُمْ وَأَذَانُهُمْ﴾ (٢٧) أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالنعف والقهر والضرب، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُوْنَ أَوْدَانَهُمْ وَيُجْزَوْنَ أَسْجَادَهُمْ﴾ [الأنعام: ٩٣]، ولهذا قال هاهنا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ (٢٨).

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَشْقَانَهُمْ﴾ (٢٩) ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَمَرْنَاكُم بِالْحَمْدِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٣٠) ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَمَرْنَاكُم بِالْحَمْدِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٣١) يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَشْقَانَهُمْ﴾ (٢٩) أي: اعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر، وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة «براءة»، فبين فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم؛ ولهذا إما كانت تسمى الفاضحة. والأصغار: جمع ضغن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره. وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَمَرْنَاكُم بِالْحَمْدِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٣٠) يقول تعالى: ولو نشاء يا محمد لأمرناك لأشخاصهم، فعرفتهم عياناً، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين ستراً منه على خلقه، وحملاً للأمور على ظاهر السلامة، ورد السرائر إلى عالمها، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٣١) أي: فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفجواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفتلت لسانه. وفي الحديث: «ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله جلابها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر». وقد ذكرنا ما يستدل به على نفاق الرجل، وتكلمنا على

نفاق العمل والاعتقاد في أول «شرح البخاري»، بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقد ورد في الحديث تعيين جماعة من المنافقين. قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن سلمة، عن عياض بن عياض، عن أبيه، عن أبي مسعود عقبة بن عمرو، رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن منكم منافقين، فمن سميت فليقم». ثم قال: «قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان». حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً ثم قال: «إن فيكم - أو: منكم - فاتقوا الله». قال: فمر عمر برجل ممن سمى مقنع قد كان يعرفه، فقال: ما لك؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ، فقال: بعداً لك سائر اليوم. وقوله: ﴿وَلَبَّوْكُمْ﴾ أي: ولتختبرنكم بالأوامر والنواهي، ﴿حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّعِيفِينَ وَتَبْلُغُوا أَمْرَكُمْ﴾. وليس في تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب، فالمراد: حتى نعلم وقوعه؛ ولهذا يقول ابن عباس في مثل هذا: إلا لنعلم، أي: لنرى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَصْرِفُوا ذَلِكَ عَنْ اللَّهِ شَيْئًا وَسَيُحْمِلُهُمْ آلُكُمْ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿يَأْتِيهِمُ الْيَقِينُ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاؤُوا وَهُمْ كَفَارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿فَلَا تَهْتَفُوا بِمَا يَنْتَفِعُونَ مِنَ النَّارِ لَنْ يَنْتَفِعُوا بِهَا فِيهَا وَهُمْ فِي عَذَابٍ مُتَسَاوِينَ﴾ ﴿٣٥﴾.

يخبر تعالى عن كفر وصد عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى: أنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه برده مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات. وقد قال الإمام محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة: حدثنا أبو قدامة، حدثنا وكيع، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يظنون أنه لا يضر مع «لا إله إلا الله» ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، فنزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْغِلُوا أَعْيُنَكُمْ﴾، فخافوا أن يبطل الذنب العمل. ثم روى من طريق عبد الله بن المبارك: أخبرني بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان، عن نافع، عن ابن عمر قال: كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْغِلُوا أَعْيُنَكُمْ﴾. فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، حتى نزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك، فكننا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش، ونرجو لمن لم يصيبها. ثم أمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تُبْغِلُوا أَعْيُنَكُمْ﴾ أي: بالردة؛ ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاؤُوا وَهُمْ كَفَارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ﴿٣٤﴾، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الآية.

ثم قال لعباده المؤمنين: ﴿فَلَا تَهْتَفُوا﴾ أي: لا تضعفوا عن الأعداء، ﴿وَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ أي المهادنة والمسالمة، ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم وكثرة عددكم وعُدَدِكُمْ؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَهْتَفُوا وَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي: في حال علوكم على عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المعاهدة والمهادنة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم إلى ذلك. وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾: فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء، ﴿وَلَنْ يَرْكَزَ أَعْيُنَكُمْ﴾ أي: ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئاً.

﴿إِنَّمَا لِلدِّينِ أَلْفَاظُ لَبِّ وَهَوٍّ وَإِنْ تَوَسَّوْا وَتَنَفَّوْا لَتُؤْخَذَ بِجُوزِكُمْ وَلَا يُنْقَلُ عَنْكُمْ شَيْءٌ﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿إِنْ يَتْلُوكُمْ بِحَبْلِ الْجَنَّةِ لَيُخْرِجَنَّ عَنْكُمْ تَبَابًا﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿هَآؤُنَا هَآؤُنَا تَتَوَفَّوْنَ لِنُفِيقَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُنْفِقُوا مِنْ بَيْنَحْ وَبَيْنَ بَيْتَيْنِ فَإِنَّمَا يَبْغِلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَآلَهُ الْفُقَرَاءُ وَآلَهُ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلُ قَوْمًا عَنْكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْتًا﴾ ﴿٣٨﴾.

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهويناً لسانها: ﴿إِنَّمَا لِلدِّينِ أَلْفَاظُ لَبِّ وَهَوٍّ﴾ أي: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله ﷻ؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنْ تَوَسَّوْا وَتَنَفَّوْا لَتُؤْخَذَ بِجُوزِكُمْ وَلَا يُنْقَلُ عَنْكُمْ شَيْءٌ﴾ أي: هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئاً، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم. ثم قال: ﴿إِنْ يَتْلُوكُمْ بِحَبْلِ الْجَنَّةِ لَيُخْرِجَنَّ عَنْكُمْ تَبَابًا﴾ أي: يحرركم تبخلوا. ﴿وَيُخْرِجَنَّ عَنْكُمْ﴾. قال قتادة: «قد علم الله أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان». وصدق قتادة فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه. وقوله: ﴿هَآؤُنَا هَآؤُنَا تَتَوَفَّوْنَ لِنُفِيقَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُنْفِقُوا مِنْ بَيْنَحْ وَبَيْنَ بَيْتَيْنِ فَإِنَّمَا يَبْغِلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبإل ذلك

عليه، ﴿وَاللَّهُ الْعَزِيزُ﴾ أي: عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه دائماً؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنْشُرُ الْفُقَرَاءَ﴾ أي: بالذات إليه. فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم، أي لا ينفكون عنه. وقوله: ﴿وَأَنْتَ تَنْزِلُ﴾ أي: عن طاعته واتباع شرعه ﴿يَسْتَبِيدُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ أي: ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولا أوامره. وقال ابن أبي حاتم: وابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني مسلم بن خالد، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَأَنْتَ تَنْزِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾، قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: فضرب يده على كتف سلمان الفارسي ثم قال: «هذا وقومه، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس». تفرد به مسلم بن خالد الزنجي، ورواه عنه غير واحد، وقد تكلم فيه بعض الأئمة، والله أعلم.

آخر تفسير سورة القتال



تفسير سورة الفتح

وهي مدنية. قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا شعبة، عن معاوية بن قرة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيرة سورة الفتح على راحته فرجع فيها - قال معاوية: لولا أنني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت لكم قراءته، أخرجاه من حديث شعبة به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ بِعَمَلِكَ وَهَدْيِكَ بِرْهَانَ سُبْحَانَكَ ﴿٢﴾ وَيُغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ عَمَلَكُمْ﴾ .
نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ليقضي عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكراه من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله. فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع، أنزل الله ﷻ، هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما روي عن ابن مسعود، رضي الله عنه، وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية. وقال الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية. وقال البخاري: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر. فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأناها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم تمضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح، حدثنا مالك بن أنس، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، قال: فسألته عن شيء - ثلاث مرات - فلم يرد علي، قال: فقلت لنفسي: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، نزلت رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك؟ قال: فركبت راحلتي فتقدمت مخافة أن يكون نزل في شيء، قال: فإذا أنا بمناد ينادي: يا عمر، أين عمر؟ قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء، قال: فقال النبي ﷺ: «نزلت علي الليلة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها» ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾. ورواه البخاري، والترمذي والنسائي، من طرق، عن مالك، رحمه الله، وقال علي بن المديني: هذا إسناد مديني جيد لم نجده إلا عندهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قتادة، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: نزلت على النبي ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرجعه من الحديبية، قال النبي ﷺ: «لقد أنزلت علي آية أحب إلي مما على الأرض»، ثم قرأها عليهم النبي ﷺ فقالوا: هنيئاً مريئاً يا نبي الله، لقد بين الله ﷻ، ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لِيُخْلِ الثَّوَمَيْنَ وَالْثَوَمَيْنَ جَنَّاتٍ﴾ حتى بلغ: ﴿قُرُونًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥]، أخرجاه في الصحيحين من رواية قتادة به. وقال الإمام

أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا مُجَمِّع بن يعقوب، قال: سمعت أبي يحدث عن عمه عبد الرحمن بن أبي يزيد الأنصاري عن عمه مجمع بن جارية الأنصاري - وكان أحد القراء الذي قرأوا القرآن - قال: شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباغر، فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ قالوا: أوحى إلى رسول الله ﷺ، فخرجنا مع الناس نوجف، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم، فاجتمع الناس عليه، فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١)، قال: فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: أي رسول الله، وفتح هو؟ قال: «إي والذي نفس محمد بيده، إنه لفتح». فقسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية، فقسمها رسول الله ﷺ على ثمانية عشر سهماً، وكان الجيش ألفاً وخمسمائة فارس، فأعطى الفارس سهمين، وأعطى الرجل سهماً. رواه أبو داود في الجهاد عن محمد بن عيسى، عن مجمع بن يعقوب، به. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع، حدثنا أبو بحر، حدثنا شعبة، حدثنا جامع بن شداد، عن عبد الرحمن بن أبي علقمة، قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول: لما أقبلنا من الحديبية أعرسنا فنمنا، فلم نستيقظ إلا بالشمس قد طلعت، فاستيقظنا ورسول الله ﷺ نائم، قال: فقلنا: «امضوا». فاستيقظ رسول الله ﷺ: فقال: «افعلوا كما كنتم تفعلون وكذلك يفعل من نام أو نسي». قال: وفقدنا ناقة رسول الله ﷺ، فطلبناها، فوجدناها قد تعلق خطامها بشجرة، فأتيتها بها فركبها، فبينما نحن نسير إذ أتاه الوحي، قال: وكان إذا أتاه الوحي اشتد عليه، فلما سرى عنه أخبرنا أنه أنزل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١).

وقد رواه أحمد وأبو داود، والنسائي من غير وجه، عن جامع بن شداد به. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان عن زياد بن علاقة، قال: سمعت المغيرة بن شعبه يقول: كان النبي ﷺ يصلي حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً». أخرجاه ببقية الجماعة إلا أبا داود من حديث زياد به. وقال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وهب، حدثني أبو صخر، عن ابن قسيط، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه. فقالت له عائشة: يا رسول الله، أنصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً؟». أخرجه مسلم في الصحيح من رواية عبد الله بن وهب، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عبد الله بن عون الخراز - وكان ثقة بمكة - حدثنا محمد بن بشر حدثنا مسعر، عن قتادة، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه - أو قال: ساقاه - فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟». غريب من هذا الوجه. فقله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١) أي: بينا ظاهراً، والمراد به صلح الحديبية فإنه حصل بسببه خير جزيل، وأمن الناس واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان. وقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾: هذا من خصائصه - صلوات الله وسلامه عليه - التي لا يشاركه فيها غيره. وليس صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو - صلوات الله وسلامه عليه - في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة. ولما كان أطوع خلق الله ﷻ، وأكثرهم تعظيماً لأوامره ونواهيه، قال حين بركت به الناقة: «حسبها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم شيئاً يعظمون به حرمت الله ﷻ إلا أجبتهم إليها». فلما أطاع الله ﷻ في ذلك وأجاب إلى الصلح، قال الله ﷻ له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُؤْتِيَ بِضَئِيقِ رِزْقِكَ أَفْوَاجًا (٢) أي: في الدنيا والآخرة، أي: بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم، ﴿وَيُؤْتِرُكَ اللَّهُ تَقَرُّراً عَزِيزًا﴾ (٣) أي: بسبب خضوعك لأمر الله ﷻ يعرفك الله ﷻ وينصرك على أعدائك، كما جاء في الحديث الصحيح: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله ﷻ إلا رفعه الله ﷻ». وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ما عاقبت - أي في الدنيا والآخرة - أحداً عصى الله تعالى فيه بمثل أن تطيع الله فيه.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِسْلَامِهِمْ وَاللَّهُ جُودٌ أَسَدَدٌ وَالْأَرْضُ كَانَ اللَّهُ عَلَيْهَا حَكِيمًا﴾ (٤) لِيُنْزِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ اللَّهُ قَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَلَعَذَابُ الْمُتَفِيفِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الْفَظَائِكُ بِاللَّهِ ظَرْبُ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ ذِكْرُ السَّوْءِ وَعَذَابُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ وَأَعْدَتْ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَاللَّهُ جُودٌ أَسَدَدٌ وَالْأَرْضُ كَانَ اللَّهُ عَلَيْهَا حَكِيمًا (٧).

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أي: جعل الطمأنينة. قال ابن عباس، وعنه: الرحمة. وقال قتادة: الوقار في قلوب

المؤمنين. وهم الصحابة يوم الحديبية، الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم لذلك، واستقرت، زادهم إيماناً مع إيمانهم. وقد استدلل بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب. ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين، فقال: ﴿وَلَوْ جُئِدُوا لَاسْتَوَتْ بِالْأَرْضِ﴾ أي: ولو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة، والبراهين الدامغة؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عِندَ حَكِيمًا﴾، ثم قال تعالى: ﴿لِنُخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتُ بَقَرٍ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، قد تقدم حديث أنس: قالوا: هنياً لك يا رسول الله، هذا لك فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿لِنُخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتُ بَقَرٍ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكين فيها أبداً، ﴿وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَوَابُهُمْ﴾ أي: خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح ويغفر، ويستر ويرحم ويشكر، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قُرْآنًا عَظِيمًا﴾، كقوله: ﴿فَمَنْ زُجِرَ عَنْ الْكَاثِرِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ قَارَىٰ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُوقِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. وقوله: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَلَمَ النَّاسُ أَنْ يَبْتَغِيَ اللَّهُ فِي حُكْمِهِ، وَيُظَنُّونَ بِالرُّسُولِ وَأَصْحَابِهِ أَنْ يَقْتُلُوا وَيَذْهَبُوا بِالْكَلْبَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ النَّارِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أي: أبعدهم من رحمته، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَمَاتَ مَصِيرًا﴾. ثم قال مؤكداً لقدرة على الانتقام من الأعداء - أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين -: ﴿وَلَوْ جُئِدُوا لَاسْتَوَتْ بِالْأَرْضِ وَكَانَ عَرِيسًا حَكِيمًا﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ٨ ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّيَهُ دُعَاؤُكُمْ بُكْرَةً وَأَمْسِلًا﴾ ٩ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكُمَا يَذُوقُونَ أَهْلَهُ قَوْلَ اللَّهِ قَوْلَ آيِهِمْ فَمَنْ تَكَلَّمَ فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ عَلَىٰ نَفْسِهِ. وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْكَ اللَّهُ فَسَبِّحْهُ بِحَمْدِ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ ١٠.

يقول تعالى لنبيه محمد - صلوات الله وسلامه عليه - ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ أي: على الخلق، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أي: للمؤمنين، ﴿وَنَذِيرًا﴾ أي: للكافرين. وقد تقدم تفسيرها في سورة «الأحزاب» ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّيَهُ دُعَاؤُكُمْ﴾، قال ابن عباس وغير واحد: يعظموه، ﴿وَتُعَزِّيَهُ﴾، من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: يسبحون الله، ﴿بُكْرَةً وَأَمْسِلًا﴾ أي: أول النهار وآخره. ثم قال تعالى لرسوله ﷺ تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكُمَا يَذُوقُونَ أَهْلَهُ قَوْلَ اللَّهِ قَوْلَ آيِهِمْ﴾ (النساء: ٨٠)، ﴿يَذُوقُونَ أَهْلَهُمْ﴾ أي: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله ﷺ، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقٌّ فِي النَّارِ وَالْإِيمَانُ وَالْقُرْآنُ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِهِمْ﴾ (التوبة: ١١١). وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الفضل بن يحيى الأنباري، حدثنا علي بن بكار، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سل سيفه في سبيل الله، فقد بايع الله». وحدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، أخبرنا جرير، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ في الحجر: «والله لبيعه الله يوم القيامة له عينان ينظر بهما، ولسان ينطق به، ويشهد على من استلمه بالحق، فمن استلمه فقد بايع الله»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكُمَا يَذُوقُونَ أَهْلَهُ قَوْلَ اللَّهِ قَوْلَ آيِهِمْ﴾. ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَنْ تَكَلَّمَ فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ أي: إنما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غني عنه، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْكَ اللَّهُ فَسَبِّحْهُ بِحَمْدِ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً جزيلاً. وهذه البيعة هي بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة سمر بالحديبية، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ قيل: ألف وثلاثمائة. وقيل: أربعمائة. وقيل: وخمسمائة. والأوسط أصح.

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك: قال البخاري: حدثنا قتيبة، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن جابر قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة. ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة، به. وأخرجاه أيضاً من حديث الأعمش، عن سالم ابن أبي الجعد، عن جابر قال: كنا يومئذ ألفاً وأربعمائة، ووضع يده في ذلك الماء، فنبع الماء من بين أصابعه، حتى روي كلهم. وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية، وأن رسول الله ﷺ أعطاهم سهماً من كنانته، فوضعوه في بئر الحديبية، فجاشت بالماء، حتى كفتهم، فقيل لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: كنا ألفاً وأربعمائة، ولو كان مائة ألف لكفانا. وفي رواية في الصحيحين عن جابر: أنهم كانوا خمس عشرة مائة. وروى البخاري من حديث قتادة، قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة. قلت: فإن جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، قال: كانوا أربع عشرة مائة. قال رحمه الله: وهم، هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة. قال البيهقي: هذه الرواية تدل على أنه كان في القديم يقول: خمس عشرة مائة، ثم ذكر الوهم فقال: أربع عشرة مائة. وروى العوفي عن ابن عباس: أنهم كانوا ألفاً وخمسمائة وخمسة

وعشرين. والمشهور الذي رواه غير واحد عنه: أربع عشرة مائة، وهذا هو الذي رواه البيهقي، عن الحاكم، عن الأصم، عن العباس الدوري، عن يحيى بن معين، عن شبابة بن سوار، عن شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفاً وأربعمائة. وكذلك هو في رواية سلمة بن الأكوع، ومעقل بن يسار، والبراء بن عازب. وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازي والسير. وقد أخرج صاحبها الصحيح من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن أبي أوفى يقول: كان أصحاب الشجرة ألفاً وأربعمائة، وكانت أسلم يومئذ ثمن المهاجرين. وروى محمد بن إسحاق في السيرة، عن الزهري، عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم، أنهما حدثاه قالاً: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالاً، وساق معه الهدي سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، كل بدنة عن عشرة نفر، وكان جابر بن عبد الله فيما بلغني عنه يقول: كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة. كذا قال ابن إسحاق وهو معدود من أوهامه، فإن المحفوظ في الصحيحين أنهم كانوا بضع عشرة مائة.

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة: قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب لبيعه إلى مكة ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب من يمتعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظي عليها، ولكن أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمة. فخرج عثمان إلى مكة، فلقه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فحملة بين يديه، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل. قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: «لا تبرح حتى نناجز القوم». ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة. فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت. وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت، ولكن بايعنا على ألا نفر. فبايع الناس، ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجعد بن قيس أخو بني سلمة، فكان جابر يقول: والله لكانني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته، قد ضباً إليها يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان باطل.

وذكر ابن لهيعة، عن الأسود، عن عروة بن الزبير قريباً من هذا السياق، وزاد في سياقه: أن قريشاً بعثوا وعندهم عثمان بن عفان سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص إلى رسول الله ﷺ، فبينما هم عندهم إذا وقع كلام بين بعض المسلمين وبعض المشركين، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتهن كل من الفريقين من عنده من الرسل، ونادى منادي رسول الله ﷺ: ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله ﷺ، وأمر بالبيعة، فاجروا على اسم الله فبايعوا، فسار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة فبايعوه على ألا يفروا أبداً، فأرعب ذلك المشركين، وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين، ودعوا إلى المودة والصلح. وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا تمام، حدثنا الحسن بن بشر، حدثنا الحكم بن عبد الملك، عن قتادة، عن أنس بن مالك، قال: لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رضي الله عنه رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله». فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم. قال ابن هشام: وحدثني من أثق به عن حدثه بإسناد له، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عمر قال: بايع رسول الله ﷺ لعثمان، فضرب بإحدى يديه على الأخرى. وقال عبد الملك بن هشام النحوي: فذكر وكيع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي: أن أول من بايع رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان أبو سنان الأسدي. وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي: حدثنا سفيان، حدثنا ابن أبي خالد، عن الشعبي، قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، كان أول من انتهى إليه أبو سنان الأسدي رضي الله عنه، فقال: ابسط يدك أبايعك. فقال النبي ﷺ: «علام تبايعني؟». فقال أبو سنان: على ما في نفسك. هذا أبو سنان بن وهب الأسدي رضي الله عنه. وقال البخاري: حدثنا شجاع بن الوليد، سمع النضر بن محمد: حدثنا صخر بن الربيع، عن نافع، قال: إن الناس يتحدثون أن ابن عمر أسلم قبل عمر، وليس كذلك، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار أن يأتي به ليقاتل

عليه، ورسول الله ﷺ يبائع عند الشجرة، وعمر لا يدري بذلك، فبايعه عبد الله، ثم ذهب إلى الفرس فجا به إلى عمر، وعمر يستلثم للقتال، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبائع تحت الشجرة، فانطلق، فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ، وهي التي يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر. ثم قال البخاري: وقال هشام بن عمار: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عمر بن محمد العمري، أخبرني نافع، عن ابن عمر، أن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية قد تفرقوا في ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ فقال - يعني عمر -: يا عبد الله، انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ. فوجدهم يبايعون، فبايع ثم رجع إلى عمر فخرج فبايع. وقد أسنده البيهقي عن أبي عمرو الأديب، عن أبي بكر الإسماعيلي، عن الحسن بن سفيان، عن دحيم: حدثني الوليد بن مسلم فذكره.

وقال الليث، عن أبي الزبير، عن جابر، قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فبايعناه، وعمر أخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة، وقال: بايعناه على ألا نفر، ولم نبايعه على الموت. رواه مسلم، عن قتيبة، عنه. وروى مسلم عن يحيى بن يحيى، عن يزيد بن زريع، عن خالد، عن الحكم بن عبد الله بن الأعرج، عن معقل بن يسار، قال: لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبائع الناس، وأنا رافع غصنا من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، قال: ولم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على ألا نفر. وقال البخاري: حدثنا المكي بن إبراهيم، عن زيد بن أبي عبيد، عن سلمة بن الأكوع، قال: بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال يزيد: قلت: يا أبا مسلم، على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت. وقال البخاري أيضاً: حدثنا أبو عاصم، حدثنا يزيد بن أبي عبيد عن سلمة، قال: بايعت رسول الله ﷺ يوم الحديبية ثم تنحيت، فقال: «يا سلمة، ألا تبايع؟» قلت: بايعت، قال: «أقبل فبايع». فدنوت فبايعته. قلت: علام بايعته يا سلمة؟ قال: على الموت. وأخرجه مسلم من وجه آخر عن يزيد ابن أبي عبيد. وكذا روى البخاري عن عباد بن تميم، أنهم بايعوه على الموت. وقال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو الفضل بن إبراهيم، حدثنا أحمد بن سلمة، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا أبو عامر العقدي عبد الملك بن عمرو، حدثنا عكرمة بن عمار اليمامي، عن إياس بن سلمة، عن أبيه سلمة بن الأكوع قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاه لا تروها، فقدم رسول الله ﷺ على جباها - يعني الركي - فإما دعا وإما بصق فيها، فجاشت، فسقينا واستقينا. قال: ثم إن رسول الله ﷺ دعا إلى البيعة في أصل الشجرة. فبايعته أول الناس، ثم بايع وبائع، حتى إذا كان في وسط الناس قال ﷺ: «بايعني يا سلمة». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتكم في أول الناس. قال: «وأيضاً». قال: ورأيت رسول الله ﷺ عزلاً فأعطاني حجة - أو درقة - ثم بايع حتى إذا كان في آخر الناس قال ﷺ: «ألا تبايع يا سلمة؟». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتكم في أول الناس وأوسطهم. قال: «وأيضاً». فبايعته الثالثة، قال: «يا سلمة، أين حجفتك أو درقتك التي أعطيتك؟». قال: قلت: يا رسول الله، لقيني عامر عزلاً فأعطيتها إياه - فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «إنك كالذي قال الأول: اللهم أبغني حبياً من أحب إلي من نفسي» قال: ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا في الصلح حتى مشى بعضنا في بعض فاصطلحنا. قال: وكنت خادماً لطلحة بن عبيد الله، رضي الله عنه، أسقي فرسه وأحسه وأكل من طعامه، وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله. فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض، أتيت شجرة فكسحت شوكرها، ثم اضطجعت في أصلها في ظلها، فأتاني أربعة من مشركي أهل مكة، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ فأبغضتهم، وتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذا نادى منادي من أسفل الوادي: يا للمهاجرين، قتل ابن زيم. فاخرطت سيفي، فشددت على أولئك الأربعة وهم رقاد، فأخذت سلاحهم وجعلته ضغثاً في يدي، ثم قلت: والذي كرم وجه محمد ﷺ، لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه، قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ، قال: وجاء عمي عامر برجل من العَبَلات يقال له: «مكرز» من المشركين يقوده، حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال: «دعوهم يكن لهم بدء الفجور ونشأ»، فعفا عنهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [الفتح: ٢٤]. وهكذا رواه مسلم عن إسحاق بن إبراهيم بن راهويه بسنده نحوه، أو قريباً منه.

وثبت في الصحيحين من حديث أبي عوانة، عن طارق، عن سعيد بن المسيب، قال: كان أبي ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فانطلقنا من قابل حاجين، فخفي علينا مكانها، فإن كان تبينت لكم، فأنتم أعلم. وقال أبو بكر الحميدي: حدثنا سفيان، حدثنا أبو الزبير، حدثنا جابر، قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، وجدنا رجلاً منا يقال له «الجد بن قيس» مختبئاً تحت إبط بعيره. رواه مسلم من حديث ابن جريج، عن ابن الزبير، به. وقال الحميدي أيضاً: حدثنا سفيان، عن

عمرو، سمع جابراً، قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة، فقال لنا رسول الله ﷺ «أنتم خير أهل الأرض اليوم». قال جابر: لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة. قال سفيان: إنهم اختلفوا في موضعها. أخرجاه من حديث سفيان. وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا الليث، عن أبي الزبير، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن هارون الفلاس المخرمي، حدثنا سعد بن عمرو الأشعني، حدثنا محمد بن ثابت العبدي، عن خدّاش بن عياش، عن أبي الزبير، عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل من بايع تحت الشجرة كلهم الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر». قال: فانطلقنا نبتدره فإذا رجل قد أضل بعيره، فقلنا: تعال فبايع. فقال: أصيب بعيري أحب إلي من أن أبايع. وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا عبيد الله بن معاذ، حدثنا أبي، حدثنا قرة، عن أبي الزبير، عن جابر، عن النبي ﷺ أنه قال: «من يصعد الثنية، ثنية المزار، فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل». فكان أول من صعد خيل بني الخزرج، ثم تبادر الناس بعد، فقال رسول الله ﷺ: «كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر». فقلنا: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ. فقال: والله لأن أجد ضالتي أحب إلي من أن يستغفر لي صاحبكم. فإذا هو رجل ينشد ضالة. رواه مسلم عن عبيد الله، به. وقال ابن جريج: أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابراً يقول: أخبرني أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار - إن شاء الله - من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد». قالت: بلى يا رسول الله. فانتهرها، فقالت لحفصة: «وَلَا يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدُهَا» [مریم: ٧١]، فقال النبي ﷺ: «قد قال الله: ﴿ثُمَّ تَتَّبِعِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُوا ظُلُومَهُمْ فِيهَا﴾ [٧١]». [مریم: ٧٢]، رواه مسلم. وفيه أيضاً عن قتيبة، عن الليث، عن أبي الزبير، عن جابر: أن عبداً لحاطب بن أبي بلتعة جاء يشكو حاطباً، فقال: يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: «كذبت، لا يدخلها؛ فإنه قد شهد بداراً والحديبية». ولهذا قال تعالى في الشفاء عليهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ مِمَّنْ نَكَتَ فَإِنَّمَا يَنْكُرُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَيَنْتُهِ أَجْرًا غَلِيظًا﴾ [الفتح: ١٠]، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَمَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلْنَا السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَنبَأَهُمْ فَتَحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

﴿سَبِّحُوا لِلَّهِ الْمُخْلَقُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَلَفَتْنَا آمُونًا وَآخِلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِئِنَّهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ يَوْمَ تَكُونُ أَلْوَنًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [١١] بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ لَكُمْ الْآسَاءَ وَكَشَرْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [١٢] وَمَنْ لَمْ يُؤْمِرْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ [١٣] وَلِلَّهِ الْمَلَكُوتُ الْيَوْمَ وَالْآخِرِ يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [١٤].

يقول تعالى مخبراً رسوله - صلوات الله وسلامه عليه - بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهلهم وشغلهم، وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ، فاعتذروا بشغلهم بذلك، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ، وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِآلِئِنَّهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ يَوْمَ تَكُونُ أَلْوَنًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أي: لا يقدر أحد أن يرد ما أَرَادَ فيكم تعالى وتقدس، وهو العليم بسر أركم وضمائرهم، وإن صانعتونا وتابعتونا؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. ثم قال: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي: اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شافتهم، وتستبد خضراؤهم، ولا يرجع منهم مخبر، ﴿وَظَنَّتُمْ لَكُمْ الْآسَاءَ وَكَشَرْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي: هلكى. قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد. وقال قتادة: فاسدين. وقيل: هي بلغة عمان. ثم قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِرْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله، فإن الله تعالى سيعذبه في السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر. ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السموات والأرض: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: لمن تاب إليه وأتاب، وخضع لديه.

﴿سَبِّحُوا لِلَّهِ الْمُخْلَقُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَكَاثِرِكُمْ لِتَأْخُذُوا دَرَنًا تَلْبَعُكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَبِّحُوا لَهُ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [١٥] قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَبِّحُوا لَهُ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [١٥].

يقول تعالى مخبراً عن الأعراب الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة الحديبية، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه إلى خيبر يفتحونها: أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدهم ومصابرتهم، فأمر الله رسوله ﷺ ألا يأذن لهم في ذلك، معاقبة لهم من جنس ذنبهم. فإن الله تعالى وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحذمهم لا يشركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعاً وقدرأ؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾. قال

مجاهد، وقتادة، وجوبير: وهو الوعد الذي وعده أهل الحديبية. واختاره ابن جرير. وقال ابن زيد: هو قوله: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَتِهِمْ فَاسْتَشْذِذْ لَهُمْ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْحَبَشَةِ﴾ [التوبة: ٨٣]. وهذا الذي قاله ابن زيد فيه نظر؛ لأن هذه الآية التي في «براءة» نزلت في غزوة تبوك، وهي متأخرة عن غزوة الحديبية. وقال ابن جريج: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ يعني: بتبسيطهم المسلمين عن الجهاد. ﴿قُلْ لَنْ تَنصُرُونَا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم، ﴿فَسَبِّحُوا لِلَّهِ بَلَّ تَحْسُدُونَ﴾ أي: أن تشرككم في المغنم، ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم.

﴿قُلْ لِلْمُشْرِكِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرَةٌ إِنْ قَوْمٌ أُولَىٰ بِأَسْ شَيْدٍ يُقْبِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلُّونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤَيِّدُكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَنْتَوَلَوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [نيس على الأعشى حرج ولا على الأعشى حرج ولا على البرص حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتولَّ يعذبه عذابًا أليمًا].

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذي يدعون إليهم، الذين هم أولو بأس شديد، على أقوال: أحدها: أنهم هوازن. رواه شعبة عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير - أو عكرمة، أو جميعاً - ورواه هشيم عن أبي بشر، عنهما. وبه يقول قتادة في رواية عنه. الثاني: ثقف، قاله الضحاك. الثالث: بنو حنيفة، قاله جوبير. ورواه محمد بن إسحاق، عن الزهري. وروي مثله عن سعيد وعكرمة. الرابع: هم أهل فارس. رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه يقول عطاء، ومجاهد، وعكرمة - في إحدى الروايات عنه. وقال كعب الأحبار: هم الروم. وعن ابن أبي ليلى، وعطاء، والحسن، وقتادة: هم فارس والروم. وعن مجاهد: هم أهل الأوثان. وعنه أيضاً: هم رجال أولو بأس شديد، ولم يعين فرقة. وبه يقول ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الأشج، حدثنا عبد الرحمن بن الحسن القواريري، عن مَعْمَر، عن الزهري، في قوله: ﴿سِتْرَةٌ إِنْ قَوْمٌ أُولَىٰ بِأَسْ شَيْدٍ﴾ قال: لم يأت أولئك بعد. وحدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن ابن أبي خالد، عن أبيه، عن أبي هريرة في قوله: ﴿سِتْرَةٌ إِنْ قَوْمٌ أُولَىٰ بِأَسْ شَيْدٍ﴾ قال: هم البارزون. قال: وحدثنا سفيان، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغار الأعين، ذلف الأنف، كان وجوههم المجان المطرقة». قال سفيان: هم الترك. قال ابن أبي عمر: وجدت في مكان آخر: ابن أبي خالد عن أبيه قال: نزل علينا أبو هريرة ففسر قول رسول الله ﷺ: «تقاتلون قوماً نعالهم الشُّعر»، قال: هم البارزون، يعني الأكراد. وقوله: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُبَدِّلُونَهُمْ﴾ يعني: يشرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم، ولكن النصره عليهم، أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار. ثم قال: ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا﴾ أي: تستجيبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه، ﴿يُؤَيِّدُكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَنْتَوَلَوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: زمن الحديبية، حيث دعيتم فتخلفتم، ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. ثم ذكر الأعداء في ترك الجهاد، فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذي يطرا أياماً ثم يزول، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعداء اللازمة حتى يبرأ. ثم قال تعالى مرغياً في الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَتَوَلَّ يَعْذِبُهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا بالمذلة، وفي الآخرة بالنار.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ النَّبِيِّ إِذْ يُأَيِّدُكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَمَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [مَعَانِي كَبِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا].

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدم ذكر عدتهم، وأنهم كانوا ألفاً وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية. قال البخاري: حدثنا محمود، حدثنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون، فقلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة، حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان. فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال سعيد: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم. وقوله: ﴿فَمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة، ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾: وهي الطمأنينة، ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾: وهو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَعَانِي كَبِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا موسى - يعني ابن عبيدة - حدثني إياس بن سلمة، عن

أبيه، قال: بينما نحن قائلون. إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: أيها الناس، البيعة البيعة، نزل روح القدس. قال: فقرأنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمره فبايعناه، فذلك قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ قال: فبايع لعثمان بإحدى يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئاً لابن عفان، طوف بالبيت ونحن هاهنا. فقال رسول الله ﷺ: «لو مكث كذا ما طاف حتى أطوف».

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَنَازِلَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ. وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (٢٠) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدُرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْيَرُ ثُمَّ لَا جِدُونَ بِنَا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سَنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَمَوْ أَلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ يَبْطِئُ مَكَّهُ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤).

قال مجاهد في قوله: ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَنَازِلَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾: هي جميع المغنمات إلى اليوم، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني: فتح خيبر. وروى العوفي عن ابن عباس: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني: صلح الحديبية. وكف أيدى الناس عنكم أي: لم يملككم سوء مما كان أعداؤكم أضمره لكم من المحاربة والقتال. وكذلك كف أيدي الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء أظهركم عن عيالكم وحريمكم، ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يعتبرون بذلك، فإن الله حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء، مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه في الظاهر، كما قال: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ (البقرة: ٢١٦). ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي: بسبب انقيادكم لأمره واتباعهم طاعته، وموافقتهكم رسوله. وقوله: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدُرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (٢١) أي: وغنيمة أخرى وفتحاً آخر معيناً لم تكونوا تقدرون عليها، قد يسرها الله عليكم، وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون. وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة، ما المراد بها؟ فقال العوفي عن ابن عباس: هي خيبر. وهذا على قوله في قوله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾: إنها صلح الحديبية. وقاله الضحاك، وابن إسحاق، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال قتادة: هي مكة. واختاره ابن جرير. وقال ابن أبي ليلى، والحسن البصري: هي فارس والروم. وقال مجاهد: هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن سيماء الحنظلي، عن ابن عباس: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدُرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ قال: هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم. وقوله: ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْيَرُ ثُمَّ لَا جِدُونَ بِنَا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٢٢) يقول تعالى مبشراً لعباده المؤمنين: بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفار فأراد مذبراً لا يجدون ولياً ولا نصيراً؛ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين. ثم قال: ﴿سَنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (٢٣) أي: هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلا نصر الله الإيمان على الكفر، ورفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وغلدهم، وكثرة المشركين وعددهم.

وقوله: ﴿وَمَوْ أَلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ يَبْطِئُ مَكَّهُ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (٢٤): هذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كف أيدى المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكف أيدي المؤمنين من المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفريقين، وأوجد بينهم صلحاً فيه خيرة للمؤمنين، وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة. وقد تقدم في حديث سلمة بن الأكوع حين جاؤا بأولئك السبعين الأساري فأوثقوهم بين يدي رسول الله ﷺ فنظر إليهم وقال: «أرسلوهم يكن لهم بدء الفجور ونشأ». قال: وفي ذلك أنزل الله: ﴿وَمَوْ أَلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ الآية. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح، من قبل جبل التنعيم، يريدون غرة رسول الله ﷺ فدعا عليهم فأخذوا - قال عفان: فغفا عنهم - ونزلت هذه الآية: ﴿وَمَوْ أَلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ يَبْطِئُ مَكَّهُ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾. ورواه مسلم وأبو داود في سننه، والترمذي والنسائي في التفسير من سننهما، من طرق، عن حماد بن سلمة، به. وقال أحمد - أيضاً -: حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا الحسين بن واقد، حدثنا ثابت البناني، عن عبد الله بن مَعْقِلِ الْمُزَنِيِّ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ، وعلي بن أبي طالب. وسهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلي: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فأخذ سهيل بيده وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم. اكتب في قضيتنا ما نعرف. قال: «اكتب بسمك اللهم»، وكتب:

«هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة». فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب في قضيتنا ما نعرف. فقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله». فبينما نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله بأسماعهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد؟ أو: هل جعل لكم أحد أماناً؟». فقالوا: لا. فخلى سبيلهم، فأنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَلَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾. رواه النسائي من حديث حسين بن واقد، به.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب القتي، حدثنا جعفر، عن ابن أبيزى قال: لما خرج النبي ﷺ بالهدي وانتهى إلى ذي الحليفة، قال له عمر: يا نبي الله، تدخل على قوم لك حزب بغير سلاح ولا كراع؟ قال: فبعث إلى المدينة، فلم يدع فيها كراعاً ولا سلاحاً إلا حملة، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل، فصار حتى أتى منى، فنزل بمنى، فأنابه عنه أن عكرمة بن أبي جهل قد خرج عليك في خمسمائة، فقال لخالد بن الوليد: «يا خالد، هذا ابن عمك أنك في الخيل»، فقال خالد: أنا سيف الله، وسيف رسوله - فيومئذ سمي سيف الله - يا رسول الله، أرم بي أين شئت. فبعثه على خيل، فلقى عكرمة في الشعب فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد في الثانية فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد في الثالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، فأنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَلَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ إلى: ﴿عَدَاً أَلِيماً﴾. قال: فكف الله النبي عنهم من بعد أن أظفروا عليهم لبقايا من المسلمين كانوا بقوا فيها كراهية أن تطأهم الخيل. ورواه ابن أبي حاتم عن ابن أبيزى بنحوه. وهذا السياق فيه نظر؛ فإنه لا يجوز أن يكون عام الحديبية؛ لأن خالداً لم يكن أسلم، بل قد كان طليعة المشركين يومئذ، كما ثبت في الصحيح. ولا يجوز أن يكون في عمرة القضاء، لأنهم قاضوه على أن يأتي من العام المقبل فيعتمر ويقيم بمكة ثلاثة أيام، فلما قدم لم يمانعوه ولا حاربوه ولا قاتلوه. فإن قيل: فيكون يوم الفتح؟ فالجواب: ولا يجوز أن يكون يوم الفتح؛ لأنه لم يسق عام الفتح هدياً، وإنما جاء محارباً مقاتلاً في جيش عزمزم، فهذا السياق فيه خلل، قد وقع فيه شيء فليتأمل، والله أعلم. وقال ابن إسحاق: حدثني من لا أنهم، عن عكرمة مولى ابن عباس: أن قريشاً بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين، وأمروهم أن يطبقوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أحداً، فأخذوا أخذاً، فأني بهم رسول الله ﷺ، فعفا عنهم وخلى سبيلهم، وقد كانوا رموا إلى عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل. قال ابن إسحاق: وفي ذلك أنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ الآية. وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً يقال له: «ابن زُتَيْم» اطلع على الثنية من الحديبية، فرماه المشركون بسهم فقتلوه، فبعث رسول الله ﷺ خيلاً، فأنهوا باثني عشر فارساً من الكفار، فقال لهم: «هل لكم علي عهد؟ هل لكم علي ذمة؟». قالوا: لا. فأرسلهم، وأنزل الله في ذلك: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ الآية.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَنِي مَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلْمُكُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَرَّ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطْلُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَصَرٌ يَغِيرُ عَلَيْهِمْ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَرَكْنَا وَلَدَنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَدَاً أَلِيماً﴾ الآية. إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم لومة لومة جنة البهائم فأنزل الله سبحانه على رسوله وعلى المؤمنين والزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركي العرب من قريش ومن مالههم على نصرتهم على رسول الله ﷺ: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: هم الكفار دون غيرهم، ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: أنتم أحق به، وأنتم أهله في نفس الأمر، ﴿وَالْمَدَنِي مَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلْمُكُمْ﴾ أي: وصدوا الهدي أن يصل إلى محله، وهذا من بغيتهم وعنادهم، وكان الهدي سبعين بدنة، كما سيأتي بيانه.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَرَّ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطْلُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَصَرٌ يَغِيرُ عَلَيْهِمْ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام. ثم قال: ﴿لَوْ تَرَكْنَا وَلَدَنَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لَمَدَّنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَدَاً أَلِيماً﴾ أي: لسلطناكم عليهم فقتلناهم قتلاً ذريعاً. قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو الزُّنْبَاع - روح بن الفرج - حدثنا عبد الرحمن بن أبي عباد المكي، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله أبو سعيد - مولى بني هاشم - حدثنا حُجْر بن خلف: سمعت عبد الله بن عوف يقول: سمعت جنيد بن سبغ يقول:

قاتلت رسول الله ﷺ أول النهار كافراً، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً، وفيما نزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ الْمُؤْمِنِينَ وَنِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. قال: كنا تسعة نفر: سبعة رجال وامرأتين. ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن عباد المكي به، وقال فيه: عن أبي جمعة جنيد بن سبيع، فذكره والصواب أبو جعفر: حبيب بن سباع. ورواه ابن أبي حاتم من حديث حجر بن خلف، به. وقال: كنا ثلاثة رجال وتسع نسوة، وفيما نزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ الْمُؤْمِنِينَ وَنِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا عبد الله بن عثمان بن جبلة، عن أبي حمزة، عن عطاء، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿لَوْ نَزَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يقول: لو نزل الكفار من المؤمنين، لعذبهم الله عذاباً أليماً يقتلهم إياهم.

وقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْمَمِيَّةَ حِمَّةَ لِمُنَافِقَةٍ﴾، وذلك حين أبوا أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأبو أن يكتبوا: «هذا ما قضى عليه محمد رسول الله»، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَةً عَلَى رَسُولِهِ. وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالزَّاهِمَةَ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾، وهي قول: «لا إله إلا الله»، كما قال ابن جرير، وعبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن قزعة أبو علي البصري، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا شعبة، عن ثوير، عن أبيه، عن الطفيل - يعني: ابن أبي بن كعب رضي الله عنه - عن أبيه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَالزَّاهِمَةَ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾، قال: «لا إله إلا الله». وكذا رواه الترمذي عن الحسن بن قزعة، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديثه، وسألت أبا رزعة عنه فلم يعرفه إلا من هذا الوجه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث، حدثني عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، أن أبا هريرة أخبره، أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحدقه، وحسابه على الله»، وأنزل الله في كتابه، وذكر قوماً فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥]، وقال الله جل ثناؤه: ﴿وَالزَّاهِمَةَ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ وهي: «لا إله إلا الله»، محمد رسول الله، فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية، وكاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة. وكذا رواه بهذه الزيادات ابن جرير من حديث الزهري، والظاهر أنها مدرجة من كلام الزهري، والله أعلم. وقال مجاهد: ﴿كَلِمَةُ التَّقْوَى﴾: الإخلاص، وقال عطاء بن أبي رباح: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. وقال يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، عن الزهري، عن عروة، عن المسور: ﴿وَالزَّاهِمَةَ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له. وقال الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن عتبة بن ربيعة، عن علي: ﴿وَالزَّاهِمَةَ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر. وكذا قال ابن عمر، رضي الله عنهما. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَالزَّاهِمَةَ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وهي رأس كل تقوى. وقال سعيد بن جبيرة: ﴿وَالزَّاهِمَةَ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله، والجهاد في سبيله. وقال عطاء الخراساني: هي: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وقال عبد الله بن المبارك، عن مخمر، عن الزهري: ﴿وَالزَّاهِمَةَ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: بسم الله الرحمن الرحيم. وقال قتادة: ﴿وَالزَّاهِمَةَ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله. ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾: كان المسلمون أحق بها، وكانوا أهلها. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر. وقد قال النسائي: حدثنا إبراهيم بن سعيد، حدثنا شعبة بن سوار، عن أبي رزين، عن عبد الله ابن العلاء بن زبر، عن بسر بن عبيد الله، عن أبي إدريس، عن أبي بن كعب أنه كان يقرأ: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْمَمِيَّةَ حِمَّةَ لِمُنَافِقَةٍ﴾ [الفتح: ٢٦]، ولو حमितم كما حموا لفسد المسجد الحرام. فبلغ ذلك عمر فأغلظ له، فقال: إنك لتعلم أني كنت أدخل على رسول الله ﷺ فيعلمني مما عمله الله. فقال عمر: بل أنت رجل عندك علم وقرآن، فاقرأ وعلم مما علمك الله ورسوله.

وهذا ذكر الأحاديث الواردة في قصة الحديبية وقضية الصلح: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا محمد بن إسحاق بن يسار، عن الزهري، عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالوا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتلاً، وساق معه الهدي سبعين بدنة، وكان الناس سبعمئة رجل، فكانت كل بدنة عن عشرة، وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي، فقال: يا رسول الله، هذه قریش قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العوذ المطافيل، قد لبست جلود النمر، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموه إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قریش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافر، وإن لم يفعلوا وبهم قوة، فماذا تظن قریش؟ فوالله لا أزال أجاهدكم على الذي بعثني الله به حتى يظهرني أو تنفرد هذه السالفة». ثم أمر الناس

فسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمض على طريق تخرجه على ثنية المرار والحديبية من أسفل مكة. قال: فسلك بالجيش تلك الطريق، فلما رأت خيل قريش فترة الجيش قد خالفوا عن طريقهم، ركضوا راجعين إلى قريش، فخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا سلك ثنية المرار، بركت ناقته، فقال الناس: خلاّت. فقال رسول الله ﷺ: «ما خلاّت، وما ذلك لها بخلق، ولكنها حبسها حابس الفيل عن مكة، والله لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها». ثم قال للناس: «انزلوا». قالوا: يا رسول الله، ما بالوادي من ماء ينزل عليه الناس. فأخرج رسول الله ﷺ سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل في قليب من تلك القلب، فغرز فيه فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بعبطن. فلما اطمان رسول الله ﷺ، إذا بُذِلَ بين ورقاء في رجال من خزاعة، فقال لهم كقولهم لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعملون على محمد، وإن محمداً لم يأت لقتال، إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه، فاتهموهم.

قال محمد بن إسحاق: قال الزهري: وكانت خزاعة في عَيَّة رسول الله ﷺ مشركها ومسلمها، لا يخفون على رسول الله ﷺ شيئاً كان بمكة، فقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك فوالله لا يدخلها أبداً علينا عتوة، ولا يتحدث بذلك العرب. ثم بعثوا إليه يَكْرَزُ بن حفص، أحد بني عامر بن لؤي، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا رجل غادر». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه رسول الله ﷺ بنحو ما كَلَّم به أصحابه، ثم رجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ؛ فبعثوا إليه الحليس بن علقمة الكناني، وهو يومئذ سيد الأحابيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهدي في وجهه»، فبعثوا الهدي، فلما رأى الهدي يسيل عليه من غرض الوادي في قلاته قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله، رجع ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظماً لما رأى، فقال: يا معشر قريش، قد رأيت ما لا يحل صدّه، الهدي في قلاته قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله. قالوا: اجلس، إنما أنت أعرابي لا علم لك. فبعثوا إليه عروة بن مسعود الثقفي، فقال: يا معشر قريش، إن قد رأيت ما يلقي منكم من تبعثون إلى محمد إذا جاءكم، من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد وأني ولد، وقد سمعت بالذي نابكم، فجمعت من أطاعني من قومي، ثم جئت حتى آسيتكم بنفسي. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم. فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه، فقال: يا محمد، جمعت أوباش الناس، ثم جئت بهم لبيضتك لتفضها، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمر، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عتوة أبداً، وأيم الله لكأنني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً. قال: وأبو بكر قاعد خلف رسول الله ﷺ، فقال: امصص بظر اللات! نحن ننكشف عنه؟! قال: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أبي قحافة». قال: أما والله لولا يد كانت لك عندي لكفأتك بها، ولكن هذه بها. ثم تناول لحية رسول الله ﷺ، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد، قال: ففرع يده. ثم قال: أمسك يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل - والله - لا تصل إليك. قال: ويحك! ما أفظعك وأغلظك! فتبسم رسول الله ﷺ. قال: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة». قال: أغدر، وهل غسلت سوانك إلا بالأمس؟! قال: فكلمه رسول الله ﷺ بمثل ما كلم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً. قال: فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ وضوءاً إلا ابتدره، ولا يصبق بصاقاً إلا ابتدره، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه. فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش، إني جئت كسرى في ملكه، وجئت قصر والنجاشي في ملكهما، والله ما رأيت ملكاً قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه شيء أبداً، فروا رأيكم. قال: وقد كان رسول الله ﷺ قبل ذلك قد بعث خراش بن أمية الخزاعي إلى مكة، وحمله على جمل له يقال له: «الثعلب»، فلما دخل مكة عقرت به قريش، وأرادوا قتل خراش، فمنعهم الأحابيش، حتى أتى رسول الله ﷺ، فدعا عمر ليعثه إلى مكة، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بها من بني عدي أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعز مني: عثمان بن عفان. قال: فدعا رسول الله ﷺ، فبعثه إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب أحد، وإنما جاء زائراً لهذا البيت، معظماً لحرمة. فخرج عثمان حتى أتى مكة، فلقى أبا بن سعيد بن العاص، فنزل عن دابته وحمله بين يديه وردف خلفه، وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. قال: واحتبسته قريش عندها، قال: وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل.

قال محمد: فحدثني الزهري: أن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو، وقالوا: أنت محمداً نصالحه ولا يكون في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب أنه دخلها علينا عتوة أبداً. فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «قد أراد

القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلموا وأطالا الكلام، وتراجعا حتى جرى بينهما الصلح، فلما التام الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أو ليس برسول الله؟ أو لسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الذلة في ديننا؟ فقال أبو بكر: يا عمر، الزم غرضه حيث كان، فإني أشهد أنه رسول الله. ثم قال عمر: وأنا أشهد. ثم أتى رسول الله فقال: يا رسول الله، أو لسنا بالمسلمين أو ليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى». قال: فعلام نعطي الذلة في ديننا؟ فقال: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعني». ثم قال عمر: ما زلت أصوم وأصلي وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيراً. قال: ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل بن عمرو: ولا أعرف هذا، ولكن اكتب: «باسمك اللهم، فقال رسول الله: «اكتب باسمك اللهم. هذا ما صلح عليه محمد رسول الله، سهيل بن عمرو»، فقال سهيل بن عمرو: ولو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب هذا ما اصطالح عليه محمد بن عبد الله، وسهيل بن عمرو، على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى رسول الله من أصحابه بغير إذن وليه، رده عليهم، ومن أتى قريش ممن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا أسلال ولا أغلال، وكان في شرطهم حين كتبوا الكتاب: أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده، دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد رسول الله وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، وأنك ترجع عنا عما ن هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك، وأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف في القرب، فبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب، إذ جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو في الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ قال: وقد كان أصحاب رسول الله خرجوا وهم لا يشكون في الفتح، لرؤيا رآها رسول الله ﷺ فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل رسول الله ﷺ على نفسه، دخل الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا أن يهلكوا. فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وقال: يا محمد، قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: «صدقت». فقام إليه فأخذ بتلابيه. قال: وصرخ أبو جندل بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنونني في ديني؟ قال: فزاد الناس شراً إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك وللمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً فأعطيناهم على ذلك وأعطينا عليه عهداً، وإنا لن نغدر بهم». قال: فوثب إليه عمر بن الخطاب فجعل يمشي مع أبي جندل إلى جنبه وهو يقول: اصبر أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، قال: ويدني قائم السيف منه، قال: يقول: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه قال: فغن الرجل بأبيه. قال: ونفذت القضية، فلما فرغا من الكتاب، وكان رسول الله ﷺ يصلي في الحرم، وهو مضطرب في الحل، قال: فقام رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس، انحروا واحلقوا». قال: فما قام أحد. قال: ثم عاد بمثلها، فما قام رجل حتى عاد ﷺ بمثلها، فما قام رجل. فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة فقال: «يا أم سلمة، ما شأن الناس؟». قالت: يا رسول الله، قد دخلهم ما رأيت، فلا نكلمن منهم إنساناً، واعمد إلى هديك حيث كان فانحرو واحلق، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك. فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره. ثم جلس فحلق، قال: فقام الناس ينحرون ويحلقون. قال: حتى إذا كان بين مكة والمدينة في وسط الطريق نزلت سورة الفتح. هكذا ساقه أحمد من هذا الوجه، وهكذا رواه يونس بن بكير وزيد البكائي، عن ابن إسحاق، بنحوه، وفيه إغراب، وقد رواه أيضاً عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهري، به نحوه وخالفه في أشياء.

وقد رواه البخاري، رحمه الله، في صحيحه، فساقه سياقة حسنة مطولة بزيادات جيدة، فقال في كتاب الشروط من صحيحه: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق أخبرنا مَعْمَر: أخبرني الزهري: أخبرني غَزْوَة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه، قال: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدي وأشعره، وأحرم منها بعمره وبعث عيناً له من خزاعة، وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه، فقال: إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلون وصادوك ومانعوك. فقال: «أشبروا أيها الناس علي، أترون أن نميل على عيالهم، وذراي هؤلاء الذين يريدون أن صدونا عن البيت؟»، وفي لفظ: «أترون أن نميل على ذراي هؤلاء الذين أعانواهم. فإن يأتونا كان الله قد قطع عُنُقاً من المشركين وإلا تركناهم محزونين»، وفي لفظ: «فإن قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محزوبين وإن نجوا يكن عُنُقاً قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟».

فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت، لا نريد قتل أحد ولا حرباً، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. وفي لفظ: فقال أبو بكر، رضي الله عنه: الله ورسوله أعلم إنما جئنا معتمرين، ولم نجء لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه. فقال النبي ﷺ: «فروحوا إذن»، وفي لفظ: «فامضوا على اسم الله». حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين». فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت به راحلته. فقال الناس: حل حل فالحل، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل». ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمة الله، إلا أعطيتهم إياها». ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث الناس حتى نزحوه، وشكى إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي، نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلونك وصادوك عن البيت. فقال النبي ﷺ: «إنا لم نجء لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب فأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددوهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن الله أمره». قال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه بشيء. وقال: ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم، أستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تهمونني؟ قالوا: لا. قال: أستم تعلمون أنني استغفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آتة. قالوا: آتة. فأتاه فجعل يكلم رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ له نحواً من قوله لبديل بن ورقاء. فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرايت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أصله قبلك؟ وإن تك الأخرى فإني والله لأرى وجوها، وإني لأرى أشواً من الناس خليفاً أن يفروا ويدعوك، فقال أبو بكر، رضي الله عنه: امصص بظفر اللات! أنحن نفر وندعه؟! قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده لو لا يد كانت لك عندي لم أجزك بها، لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة، رضي الله عنه قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال له: آخر يدك من لحية النبي ﷺ. فرفع عروة رأسه وقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أي غدر، ألت أسمى في غدرتك؟! وكان المغيرة بن شعبة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء». ثم إن عروه جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينه، قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه، تعظيماً له ﷺ، فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، وفدت على كسرى وقيصر والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها. فقال رجل منهم من بني كنانة: دعوني آتة. فقالوا: آتة، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال النبي ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البُذَن، فابعثوها له» فُبِعثَ له، واستقبله الناس يُلبُّون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدَّوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البُذَن قد قُلت وأُشعرت، فما أرى أن يُصَدَّوا عن البيت. فقال رجل منهم يقال له: «مِكْرَز بن حفص»، فقال: دعوني آتة. فقالوا: آتة. فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: «هذا مكرز بن حفص وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو.

وقال معمر: أخبرني أيوب، عن عكرمة أنه قال: لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: «قد سهَّل لكم من أمركم». قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينك كتاباً فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال

النبي ﷺ: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل بن عمرو: أما «الرحمن» فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: «باسمك اللهم»، كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال النبي ﷺ: «اكتب: باسمك اللهم». ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله». فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: «محمد بن عبد الله»، فقال النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتوني». اكتب محمد بن عبد الله قال الزهري: وذلك لقوله: «والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمان الله إلا أعطيتهم إياها». فقال له النبي ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به». فقال: سهيل: والله لا نتحدث العرب أنا أخذنا ضُفْعَةً، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: «وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا». فقال المسلمون: سبحان الله! كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرُسِفُ في قيوده، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن تُرَدَّه إليّ، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد». قال: فوالله إذا لا أصالحك على شيء أبداً. قال النبي ﷺ: «فأجزه لي» فقال: ما أنا بمجيز ذلك لك، قال: «بلى فافعل». قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بلى قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أُرِّدَ إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذَّبَ عذاباً شديداً في الله ﷻ. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فأتيت نبي الله ﷺ، فقلت: ألسنت نبي الله حقاً؟ قال ﷺ: «بلى». قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فلم نعطي الدنيا في ديننا إذا؟ قال: «إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري»، قلت: أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت نطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرتك أنا تأتية العام؟». قلت: لا، قال: «فإنك آتية ومُطَوَّفٌ به». قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر اليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنيا في ديننا إذا؟ قال: أيها الرجل، إنه رسول الله، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بعرزّه، فوالله إنه على الحق. قلت: أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، قال: فأخبرك أنك تأتية العام؟ قلت: لا. قال: فإنك تأتية ونطوف به.

قال الزهري: قال عمر: فعلت لذلك أعمالاً. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا». قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات!! فلما لم يبق منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، قالت له أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَلَسْتُمْ إِلَى الْمَوْتِ مَهْجَرَتِي﴾ حتى بلغ: ﴿يَعِصِمُ الْكَوَاكِبَ﴾ [المتنحة: ١٠]. فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية. ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير - رجل من قريش - وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر، فقال: أجل! والله إنه لجيد، لقد جربت منه ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى يزد، وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا دُعرًا»، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي، وإني لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله، قد - والله - أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم نجاني الله منهم، فقال النبي ﷺ: «ويل أمه يسعّر حرب! لو كان له أحد». فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وتقلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوه، وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ، تناسده الله والرحم لما أرسل إليهم: «فمن أتاه منهم فهو آمن». فأرسل النبي ﷺ إليهم، وأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَلَدَى كَلِّ أَتَيْهِمْ عَنْكُمْ وَإِذْيَكُمْ عَنْهُمْ يَغْلِي مَكَّةَ﴾ حتى بلغ: ﴿حِجَّةَ الْبَيْتِ﴾، وكانت حميتهم أنهم لم يقرؤا أنه رسول الله، ولم يقرؤا بسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت. هكذا ساقه البخاري هاهنا، وقد أخرجه في التفسير، وفي عمرة الحديبية، وفي الحج، وغير ذلك من حديث معمر وسفيان بن عيينة، كلاهما عن الزهري، به. ووقع في بعض الأماكن عن الزهري، عن عروة، عن مروان واليسور بن مخزومة، عن رجال من أصحاب النبي ﷺ بذلك. وهذا أشبه

والله أعلم، ولم يسقه أبسط من هاهنا، وبينه وبين سياق ابن إسحاق تباین في مواضع، وهناك فوائد ينبغي إضافتها إلى ما هاهنا، ولذلك سقنا تلك الرواية وهذه، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم. وقال البخاري في التفسير: حدثنا أحمد بن إسحاق السُّلَمي، حدثنا يعلي، حدثنا عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبي ثابت، قال: أتيت أبا وائل أسأله فقال: كنا بصفين فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله؟ فقال علي بن أبي طالب: نعم. فقال سهل بن حُنَيف: اتهموا أنفسهم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية - يعني: الصلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين - ولو نرى قتالاً لقاتلنا، فجاء عمر فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلنا في الجنة وقتلهم في النار؟ فقال: «بلى». قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال: «يا ابن الخطاب، إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبداً»، فرجع متغيظاً، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على الحق وهم على الباطل، فقال: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبداً، فنزلت سورة الفتح. وقد رواه البخاري أيضاً في مواضع أخر ومسلم والنسائي من طرق أخر عن أبي وائل سفيان بن سلمة، عن سهيل بن حنيفة، وفي بعض ألفاظه: «يا أيها الناس، اتهموا الرأي، فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أقدر على أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددته» وفي رواية: فنزلت سورة الفتح، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فقرأها عليه. قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس، أن قريشاً صالحوا النبي ﷺ، فيهم سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ لعلي: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: لا ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب ما نعرف: «باسمك اللهم». فقال: اكتب من محمد رسول الله. قال: لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال النبي ﷺ: «اكتب: من محمد بن عبد الله». واشتروطوا على النبي ﷺ أن من جاء منكم لا نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددموه علينا، فقال: يا رسول الله، أنكتب هذا؟ قال: «نعم، إنه من ذهب منا إليهم فابعده الله». رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة، به. وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا عكرمة بن عمار قال: حدثني سمك، عن عبد الله بن عباس قال: لما خرجت الحرورية اعتزلوا، فقلت لهم: إن رسول الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعلي: «اكتب يا علي: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله: «امح يا علي، اللهم إنك تعلم أنني رسولك، امح يا علي، واكتب: هذا ما صلح عليه محمد بن عبد الله». والله لرسول الله خير من علي، وقد محاه نفسه، ولم يكن محوه ذلك يمحاه من النبوة، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم. ورواه أبو داود من حديث عكرمة بن عمار اليمامي، بنحوه. وروى الإمام أحمد، عن يحيى بن آدم: حدثنا زهير، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن الحكم، عن يقسَم، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: نحر رسول الله ﷺ يوم الحديبية سبعين بدنة فيها جمل لأبي جهل، فلما صُدَّتْ عن البيت حَتَّتْ كما تَحَنُّ إلى أولادها.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ آتِياً بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكُنَّ بِاللَّهِ شَهِيداً (٢٨).

كان رسول الله ﷺ قد أَرَى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تنفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرت أنك تأتية عامك هذا» قال: لا، قال: «فإنك آتية ومطوف به». وبهذا أجاب الصديق، رضي الله عنه، أيضاً حَذَوُ الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ آتِياً بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾. وهذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء، وقوله: ﴿آمِنِينَ﴾ أي: في حال دخولكم. وقوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾، حال مقدرة؛ لأنهم في حال حرمهم لم يكونوا محلّقين ومقصرين، وإنما كان هذا في ثاني الحال، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «رحم الله المحلقين». قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «رحم الله المحلقين». في الثالثة أو الرابعة. وقوله: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾: حال مؤكدة في المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد. وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج في صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه بعضها عنوة وبضعها صلحاً، وهي إقليم عظيم كثير النخل

والزروع، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدا أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحيشة، جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعري وأصحابه، ولم يغيب منهم أحد، قال ابن زيد: إلا أبا دجاجة سِمَاك بن خَرْشَة، كما هو مقرر في موضعه ثم رجع إلى المدينة، فلما كان في ذي القعدة في سنة سبع خرج إلى مكة معتمراً هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدى، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وسار وأصحابه يلبون. فلما كان قريباً من مر الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيال والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذي بينه وبينهم من وضع القتال عشر سنين، وذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج، وسار إلى مكة بالسيف مغمدة في قربها، كما شارطهم عليه. فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش ميكز بن حفص فقال: يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد. قال: «وما ذاك؟». قال: دخلت: علينا بالسلاح والقسي والرماح. فقال: «لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يأجج»، فقال: بهذا عرفناك، بالبر والوفاء. وخرجت رؤوس الكفار من مكة لثلاث ينظروا إلى رسول الله ﷺ ولا إلى أصحابه غيظاً وحنقاً، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام، وبين يديه أصحابه يلبون، والهدى قد بعثه إلى ذي طوى، وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصاري أخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها، وهو يقول:

باسم الذي لا دين إلا دينه	باسم الذي محمد رسول له
خلو بني الكفار عن سبيله	اليوم نضربكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله	ضرباً يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله	قد أنزل الرحمن في تنزيله
في ضحف تتلى على رسوله	بأن خير القتل في سبيله

يا رب إنني مؤمن بقيله

فهذا مجموع من روايات متفرقة. قال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء، دخلها وعبد الله بن رواحة أخذ بخطام ناقته ﷺ، وهو يقول:

خلو بني الكفار عن سبيله	إنني شهيد أنه رسول له
خلو فكل الخير في رسوله	يا رب إنني مؤمن بقيله
نحن قتلناكم على تأويله	كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله	ويذهل الخليل عن خليله

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن أنس بن مالك قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء، مشى عبد الله بن رواحة بين يديه، وفي رواية وابن رواحة أخذ بغرزه، وهو يقول:

خلو بني الكفار عن سبيله	قد نزل الرحمن في تنزيله
بأن خير القتل في سبيله	يا رب إنني مؤمن بقيله
نحن قتلناكم على تأويله	كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله	ويذهل الخليل عن خليله

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا إسماعيل - يعني: ابن زكريا - عن عبد الله - يعني: ابن عثمان - عن أبي الطفيل، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ لما نزل مر الظهران في عمرته، بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشاً تقول: ما يتابعون من العجف. فقال أصحابه: لو انتحرنّا من ظهرنا، فأكلنا من لحمه، وحسّونا من مرقه، أصبحنا غداً حين ندخل على القوم وبنا جمامة. قال: «لا تفعلوا، ولكن اجمعوا لي من أزوادكم». فجمعوا له ووسطوا الأنطاع، فأكلوا حتى تركوا وحشاً كل واحد منهم في جرابه، ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد، وقعدت قريش نحو الحجر، فاضطجع بردائه، ثم قال: «لا يرى القوم فيكم غميرة» فاستلم الركن ثم رَمَلَ، حتى إذا تغيّب بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود، فقالت قريش: ما ترضون بالمشي أما إنكم لتنفرون نَفَر الظباء، ففعل ذلك ثلاثة أشواط، فكانت سُنَّة. قال أبو الطفيل: فأخبرني ابن عباس: أن

رسول الله ﷺ فعل ذلك في حجة الوداع. وقال أحمد أيضاً: حدثنا يونس؛ حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة، وقد هتتهم حُمى يثرب، ولقوا منها سوءاً، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد هتتهم حمى يثرب، ولقوا منها شراً، وجلس المشركون من الناحية التي تلي الحجر، فأطلق الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة؛ ليرى المشركون جلدهم، قال: فرملوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركبتين حيث لا يراهم المشركون، ولم يمنع النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاء عليهم، فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد هتتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا. أخرجاه في الصحيحين من حديث حماد بن زيد، به وفي لفظ: قدم النبي ﷺ وأصحابه صبيحة رابعة، أي من ذي القعدة، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وفد قد هتتهم حمى يثرب، فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، ولم يمنعه أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم.

قال البخاري: وزاد ابن سلمة - يعني: حماد بن سلمة - عن أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ لعامة الذي استأمن قال: «ارملوا». ليرى المشركون قوتهم، والمشركون من قبل عقيقان. وحدثنا محمد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عطاء، عن ابن عباس قال: إنما سعى النبي ﷺ بالبيت وبالصفاء والمروة، ليرى المشركون قوته. ورواه في مواضع أخر، ومسلم والنسائي، من طرق، عن سفيان بن عيينة، به. وقال أيضاً: حدثنا علي بن أبي عبد الله، حدثنا سفيان، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، سمع ابن أبي أوفى يقول: لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم؛ أن يؤذوا رسول الله ﷺ. انفرد به البخاري دون مسلم. وقال البخاري أيضاً: حدثنا محمد بن رافع، حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا فليح، وحدثني محمد بن الحسين بن إبراهيم، حدثنا أبي، حدثنا فليح بن سليمان، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ خرج معتمراً، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحاً عليهم ولا سيوفاً، ولا يقيم بها إلا ما أحبوا. فاعتمر من العام المقبل، فدخلها كما كان صالحهم، فلما أن قام بها ثلاثاً، أمره أن يخرج فخرج. وهو في صحيح مسلم أيضاً. وقال البخاري أيضاً: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء، قال: اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة، فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب كتبوا: «هذا ما قاضانا عليه محمد رسول الله». قالوا: لا نقر بهذا، ولو تعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً، ولكن أنت محمد بن عبد الله. قال: «أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله». ثم قال لعلي بن أبي طالب: «امح رسول الله». قال: لا، والله لا أمحوك أبداً. فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب، وليس يحسن يكتب، فكتب: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله: لا يدخل مكة السلاح إلا السيف في القراب، وألا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يتبعه، وألا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيم بها» فلما دخلها ومضى الأجل، أتوا علياً فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادي: يا عم، يا عم. فتناولها علي فأخذ بيدها، وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك فحملتها، فاختمص فيها علي وزيد وجعفر، فقال علي: أنا أخذتها وهي ابنة عمي، وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، ففقي بها النبي ﷺ لخالها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، وقال لعلي: «أنت مني وأنا منك»، وقال لجعفر: «أشبهت خلقي وخلقي» وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا». قال علي: ألا تتزوج ابنة حمزة؟ قال: «إنها ابنة أخي من الرضاة» انفرد به من هذا الوجه. وقوله: «فَمَلِمَ مَا لَمْ تَمْلُكُوا فَمَجَلَمَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ قَرِيبًا» أي: فعلم الله تعالى من الخير والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموه أنتم، «فَمَجَلَمَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ» أي: قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبي ﷺ، «فَتَمَّا قَرِيبًا»: وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين. ثم قال تعالى، مبشراً للمؤمنين بنصرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه على عدوه وعلى سائر أهل الأرض: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ» أي: بالعلم النافع والعمل الصالح؛ فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعي صحيح، والعمل الشرعي مقبول، فإخباراتها حق وإنشاءاتها عدل، «يُظْهِرُ عَلَى الَّذِينَ كُفَرُوا» أي: على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومسلمين ومشركين، «وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا» أي: أنه رسوله، وهو ناصر.

«يُحْمَدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّاعًا سَاجِدًا يَقْتُلُونَ قَسْلًا مِنَ اللَّهِ وَيَرْضَوْنَ سِيَمَاءَهُمْ فِي وَجْهِهِمْ مِنْ أَمْرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْبَةِ وَتَمْلِكُهُمْ فِي الْإِيمَانِ كَرِيمٌ أَخْرَجَ مِنْهُمْ شَقْلَهُ فَتَارِدَةٌ فَاسْتَفْظَتْ فَاَسْتَوَتْ عَلَى سُوقِهِ فَمَجَّبَ الزَّرَّاعَ لِيَنْظُرَ بِهِمُ الْكُفَّارُ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا».

يخبر تعالى عن محمد صلوات الله عليه، أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب، فقال: «يُحْمَدُ رَسُولُ اللَّهِ»، وهذا مبتدأ وخبر،

وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم نثى بالثناء على أصحابه فقال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [المائدة: ٥٤] وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار، رحيماً برأ بالأخيار، غضوباً عوساً في وجه الكافر، ضحواً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال النبي ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحسنى والسهر»، وقال: «المؤمن للمؤمن كالبنیان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه كلا الحديثين في الصحيح. وقوله: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّاعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾: وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال، وصفهم بالإخلاص فيها لله ﷻ، والاحتساب عند الله جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه، تعالى، عنهم وهو أكبر من الأول، كما قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ١٧٢]. وقوله: ﴿سَيَمَانٌ وَرُجُومٌ يَنْ أَرَى السَّجُودَ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «سَيَمَانٌ وَرُجُومٌ» يعني: السمات الحسن. وقال مجاهد وغير واحد: يعني: الخشوع والتواضع. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنّافسي، حدثنا حسين الجعفي، عن زائدة، عن منصور، عن مجاهد: «سَيَمَانٌ وَرُجُومٌ يَنْ أَرَى السَّجُودَ» قال: الخشوع، قلت: ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه، فقال: ربما كان بين عيني من هو أسمى قلباً من فرعون. وقال السدي: الصلاة تحسن وجوههم. وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار. وقد أسنده ابن ماجه في سننه، عن إسماعيل بن محمد الطلّحي، عن ثابت بن موسى، عن شريك، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار» والصحيح أنه موقوف. وقال بعضهم: إن للحسنة نوراً في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس. وقال أمير المؤمنين عثمان: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلّأت لسانه. والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر في صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله ظاهره للناس، كما روي عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه قال: من أصلح سريرته أصلح الله علانيته. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمود بن محمد المروزي، حدثنا حامد بن آدم المروزي، حدثنا الفضل بن موسى، عن محمد بن عبيد الله العرزمي، عن سلمة بن كهيل، عن جندب بن سفيان البجلي قال: قال النبي ﷺ: «ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر»، العرزمي متروك. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لخرج عمله للناس كائناً ما كان». وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا حسن، حدثنا زهير، حدثنا قابوس بن أبي ظبيان: أن أباه حدثه عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «إن الهدي الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة» ورواه أبو داود عن عبد الله بن محمد النخعي، عن زهير، به. فالصحة رضي الله عنهم خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبه في سمتهم وهديهم. وقال مالك، رحمه الله: بلغني أن النصراني كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: «والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا». وصدقوا في ذلك، فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوه الله بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾، ثم قال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَجٍ أُخْرِجَ سَلْطَمٌ فَاتَّزِدَ فَاسْتَقْلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى سُرْقَةٍ﴾: «أَخْرِجَ سَلْطَمٌ» أي: فراخه، «فَاتَّزِدَ» أي: شده «فَاسْتَقْلَطَ» أي: شب وطال، «فَاسْتَوَى عَلَى سُرْقَةٍ» أي: فكذلك أصحاب محمد ﷺ أزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع، «يَبْتَغِيهِمُ الْكُفَّارُ». ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك - رحمه الله، في رواية عنه - بتكفير الرافض الذين يبغيضون الصحابة، قال: لأنهم يبغيضونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية. ووافقه طائفة من العلماء على ذلك. والأحاديث في فضائل الصحابة والنهي عن التعرض لهم بمساء كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم. ثم قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ﴾ «من» هذه لبيان الجنس، «مُتَّفِقَةً» أي: لذنوبهم. «وَأَجْرًا عَظِيمًا» أي: ثواباً جزيلاً ورزقاً كريماً، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل. قال مسلم في صحيحه: حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال

ذلك، والله أعلم. وقال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا أزهر بن سعد، أخبرنا ابن عون، أنبأني موسى ابن أنس، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه. فأناه فوجده في بيته مُتَكَسِّمًا رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يَرْفَعُ صوته فوق صوت النبي ﷺ، فقد حبط عمله، فهو من أهل النار. فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، قال موسى: فرجع إليه المرة الأخيرة ببيشارة عظيمة فقال: «إذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة» تفرد به البخاري من هذا الوجه. وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى: ﴿وَأَن تَنفَعُوا﴾، وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ حبط عملي، أنا من أهل النار، وجلس في أهله حزيناً، ففقد رسول الله ﷺ، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله ﷺ، ما لك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ، وأجهر له بالقول، حبط عملي، أنا من أهل النار. فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال، فقال: «لا، بل هو من أهل الجنة». قال أنس: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة. فلما كان يوم البمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنط وليس كفنه، فقال: بشما تُعَمِّدُون أفرانكم. فقاتلهم حتى قُتل. وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى آخر الآية، جلس ثابت في بيته، قال: أنا من أهل النار. واحتبس عن النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ لسعد بن معاذ: «يا أبا عمرو، ما شأن ثابت؟ أشتكى؟» فقال: سعد إنه لجاري، وما علمت له بشكوى. قال: فأناه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت: أنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أنني من أرفعكم صوتاً على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار. فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بل، هو من أهل الجنة».

ثم رواه مسلم عن أحمد بن سعيد الدارمي، عن حيَّان بن هلال، عن سليمان بن المغيرة، به، قال: ولم يذكر سعد بن معاذ. وعن قطن بن سُبير عن جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس بنحوه. وقال: ليس فيه ذكر سعد بن معاذ. حدثنا هُرَيم بن عبد الأعلى الأسدي، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبي يذكر، عن ثابت، عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية، واقتصر الحديث، ولم يذكر سعد بن معاذ، وزاد: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا رَجُلٌ من أهل الجنة. فهذه الطرق الثلاث مُعَلَّلَةٌ لرواية حماد بن سلمة، فيما تفرد به من ذكر سعد بن معاذ. والصحيح: أن حال نزول هذه الآية لم يكن سعد بن معاذ موجوداً؛ لأنه كان قد مات بعد بني قريظة بأيام قلائل سنة خمس، وهذه الآية نزلت في وفد بني تميم، والوفود إنما تواتروا في سنة تسع من الهجرة، والله أعلم. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا زيد بن الحُبَّاب، حدثنا أبو ثابت بن ثابت بن قيس بن شماس، حدثني عمي إسماعيل بن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس، عن أبيه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ قال: قعد ثابت بن قيس في الطريق يكي، قال: فمر به عاصم بن عدي من بني العجلان، فقال: ما يبكيك يا ثابت؟ قال: هذه الآية، أتخوف أن تكون نزلت في وأنا صيت، رفيع الصوت. قال: فمضى عاصم بن عدي إلى رسول الله ﷺ قال: وغلبه البكاء، فأتى امرأته جميلة ابنة عبد الله بن أبي بن سلول فقال لها: إذا دخلت بيت فَرْسِي فشدي عَلَيَّ الضَّيْبَ بمسمار، فضرته بمسمار حتى إذا خرج عطفه، وقال: لا أخرج حتى يتوفاني الله، ﷺ، أو يرضى عني رسول الله ﷺ. قال: وأتى عاصم رسول الله ﷺ فأخبره خبره، فقال: «إذهب فادعه لي». فجاء عاصم إلى المكان فلم يجده، فجاء إلى أهله فوجده في بيت الفَرْس، فقال له: إن رسول الله ﷺ يدعوك. فقال: أكرس الضبة. قال: فخرجاً فأتى النبي ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا ثابت؟». فقال: أنا صيت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت في: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾. فقال: له رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟». فقال: رضيت بيشري الله ورسوله ﷺ، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت النبي ﷺ. قال: وأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفْتَوَى﴾. وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين كذلك، فقد نهى الله ﷻ، عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله ﷺ، وقد رويانا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد رسول الله ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء، فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قال: من أهل الطائف. فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً. وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره، كما كان يكره في حياته؛ لأنه محترم حياً وفي قبره، صلوات الله وسلامه عليه، دائماً. ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه

﴿إِنَّ الْكَاذِبَ يَبْذُوكَ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ١٦ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾ .
ثم إنه تعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات، وهي بيوت نسائه، كما يصنع أجلاف الأعراب، فقال: ﴿أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ . ثم أرشد إلى الأدب في ذلك فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: لكان لهم في ذلك الخيرة والمصلحة في الدنيا والآخرة. ثم قال داعياً لهم إلى التوبة والإنابة: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . ثم ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي، فيما أورده غير واحد، قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا موسى بن عقبة، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن الأقرع بن حابس؛ أنه نادى رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، فقال: يا محمد، يا محمد - وفي رواية: يا رسول الله - فلم يجبه. فقال: يا رسول الله، إن حمدي لزين، وإن ذمي لشين، فقال: «ذاك الله، ﷻ». وقال ابن جرير: حدثنا أبو عمار الحسين بن حُرَيْث المروزي، حدثنا الفضل بن موسى، عن الحسين بن واقد، عن أبي إسحاق، عن البراء في قوله: ﴿إِنَّ الْكَاذِبَ يَبْذُوكَ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ﴾ قال: جاء رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إن حمدي زين، وذمي شين. فقال: «ذاك الله، ﷻ». وهكذا ذكره الحسن البصري، وقناة مرسلًا. وقال سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي عمرة قال: كان بشر بن غالب وليد بن عطار - أو بشر ابن عطار وليد بن غالب - وهما عند الحجاج جالسان - فقال بشر بن غالب للبيد بن عطار: نزلت في قومك بني تميم: ﴿إِنَّ الْكَاذِبَ يَبْذُوكَ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ﴾ قال: فذكرت ذلك لسعيد بن جبيرة فقال: أما إنه لو علم بآخر الآية أجابه: ﴿يَمْشُونَ عَلَيْكَ أَوْ اسْكُمُوا﴾ [الحجرات: ١٧]، قالوا: أسلمنا، ولم يقاتلك بنو أسد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن علي الباهلي، حدثنا المعتمر بن سليمان: سمعت داود الطفاوي يحدث عن أبي مسلم البجلي، عن زيد بن أرقم قال: اجتمع أناس من العرب فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يك ملكاً نعش بجناحه. قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا، فجاؤوا إلى حجرته فجعلوا ينادونه وهو في حجرته: يا محمد، يا محمد. فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الْكَاذِبَ يَبْذُوكَ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ١٦ . قال: فأخذ رسول الله ﷺ بأذني فمدّها، فجعل يقول: «لقد صدق الله قولك يا زيد، لقد صدق الله قولك يا زيد». ورواه ابن جرير، عن الحسن بن عرفة، عن المعتمر بن سليمان، به.

يأمر تعالى بالثبوت في خبر الفاسق ليحتاط له، لئلا يحكم بقوله فيكون - في نفس الأمر - كاذباً أو مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقتضى وراه، وقد نهى الله عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون لأننا إنما أمرنا بالثبوت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال. وقد قررنا هذه المسألة في كتاب العلم من شرح البخاري، والله الحمد والمنة. وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق. وقد روى ذلك من طرق، ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده من رواية ملك بني المصطلق، وهو الحارث بن ضَرَار، والد جُوزَيْرة بنت الحارث أم المؤمنين، رضي الله عنها، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن سابق، حدثنا عيسى بن دينار، حدثني أبي أنه سمع الحارث بن

ضرار الخزاعي يقول: قدمت على رسول الله ﷺ، فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله، أرجع إليهم فادعهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته، ويُرسل إلي رسول الله ﷺ رسولاً لإيَّان كذا وكذا ليأتيك ما جمعتُ من الزكاة. فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول فلم يأت، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطٌ من الله ورسوله، فدعا بسرّات قومه، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وُتِّ لي وقتاً يرسل إليّ رسولُه ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخُلف، ولا أرى حبس رسولُه إلا من سخطه كانت، فانطلقوا فنأتى رسول الله ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق قرّق - أي: خاف - فرجع فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي. فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث. وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفُصل عن المدينة لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بُعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان يبعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعت الزكاة وأردت قتله. قال: لا، والذي بعث محمدًا بالحق ما رأيته بئته ولا أتاني. فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: «منعت الزكاة وأردت قتل رسولِي؟». قال: لا، والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلا حين احتبس عليّ رسول رسول الله ﷺ، خشيت أن يكون كانت سخطه من الله ورسوله. قال: فنزلت الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿حِكْمَةٌ﴾. ورواه ابن أبي حاتم عن المنذر بن شاذان التمار، عن محمد بن سابق به. ورواه الطبراني من حديث محمد بن سابق، به، غير أنه سماه الحارث بن سرار، والصواب: الحارث بن ضرار، كما تقدم.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا جعفر بن عَوْن، عن موسى بن عبيدة، عن ثابت مولى أم سلمة، عن أم سلمة قالت: بعث رسول الله ﷺ رجلاً في صدقات بني المصطلق بعد الواقعة، فسمع بذلك القوم، فتلقوه يعظمون أمر رسول الله ﷺ، قالت: فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، قالت: فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: إن بني المصطلق قد منعوني صدقاتهم. فغضب رسول الله ﷺ والمسلمون. قالت: فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله ﷺ، فصفاؤ له حين صلى الظهر، فقالوا: نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله، بعث إلينا رجلاً مصداقاً، فسررنا بذلك، وقرت به أعيننا، ثم إنه رجع من بعض الطريق، فخشينا أن يكون ذلك غضباً من الله ومن رسوله، فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال فأذن بصلاة العصر، قالت: ونزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَسَبِّحُوا أَن تَصْبِحُوا قَوْمًا يَهْتَكِرُ فَصَحْرًا عَلَى مَا فَتَنَنَّا نَتَذَرِينَهُ﴾. وروى ابن جرير أيضاً من طريق العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية قال: كان رسول الله ﷺ يبعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق ليأخذ منهم الصدقات، وإنهم لما أتاهم الخبر فرحوا وخرجوا يتلقون رسول رسول الله ﷺ، وإنه لما حُدث الوليد أنهم خرجوا يتلقونه، رجع الوليد إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن بني المصطلق قد منعوا الصدقة. فغضب رسول الله ﷺ من ذلك غضباً شديداً، فبينما هو يحدث نفسه أن يغزوهم إذ أتاه الوفد فقالوا: يا رسول الله، إنا حدثنا أن رسولك رجع من نصف الطريق، وإنا خشينا أن ما رده كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله. وإن النبي ﷺ استغشهم وهم بهم، فأنزل الله عذرهم في الكتاب، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَسَبِّحُوا﴾ إلى آخر الآية. وقال مجاهد وقتادة: أرسل رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق ليُصدقهم، فتلقوه بالصدقة، فرجع فقال: إن بني المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك - زاد قتادة: وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام - فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إليهم، وأمره أن يتثبت ولا يعجل. فانطلق حتى أتاهم ليلاً، فبعث عينه، فلما جاؤوا أخبروا خالداً أنهم مستمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى الذي يعجبه، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فأنزل الله هذه الآية. قال قتادة: فكان رسول الله ﷺ يقول: «الْتَبَّين من الله، والعجلة من الشيطان». وكذا ذكر غير واحد من السلف، منهم: ابن أبي ليلى، ويزيد بن رومان، والضحاك، ومقاتل ابن حَيَّان، وغيرهم في هذه الآية: أنها نزلت في الوليد بن عقبة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: أعلموا أن بين أظهركم رسول الله ﷺ فعظموه ووقروه، وتادبوا معه، وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]. ثم بيّن تعالى أن رأيهم سخيّف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال: ﴿وَلَوْ يُلَيْمُكَ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَنَسْتُمْ﴾ أي: لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وخرَجكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنفَعَ الْهَقَّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَنفَعُهُمْ ذِكْرُهُمْ قَلِيلًا مِّنْ ذِكْرِهِمْ يُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١]. وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَىٰكُمْ الْإِيمَانُ وَزَكَاةُ

في قُلُوبِكُمْ أَي: حبه إلى نفوسكم وحسنه في قلوبكم. قال الإمام أحمد: حدثنا بهز، حدثنا علي بن مسعدة، حدثنا قتادة، عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «الإسلام علانية، والإيمان في القلب» قال: ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات، ثم يقول: «التقوى هاهنا، التقوى هاهنا». «وَكَرَّ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْأَعْيَانُ» أَي: وبغض إليكم الكفر والفسوق، وهي: الذنوب الكبار. والعصيان وهي جميع المعاصي. وهذا تدريج لكمال النعمة. وقوله: «أُولَئِكَ هُمُ الرُّشِدُونَ» أَي: المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون، الذين قد آتاهم الله رشدهم. قال الإمام أحمد: حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، حدثنا عبد الواحد بن أيمن المكي، عن ابن رفاعة الزرقعي، عن أبيه قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: «استوتوا حتى أثنى على ربي، ﷻ فصاروا خلفه صفوفاً، فقال: اللهم، لك الحمد كله. اللهم، لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت. ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت. ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت. اللهم، أبسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك. اللهم، إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم، إني أسألك النعيم يوم العَيْلَةِ، والأمن يوم الخوف. اللهم، إني عاتذك من شر ما أعطيتنا، ومن شر ما منعتنا. اللهم، حُبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين. اللهم، توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين. اللهم، قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك. اللهم، قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق». ورواه النسائي في اليوم والليلة عن زياد بن أيوب، عن مَرْوَانَ بن معاوية، عن عبد الواحد بن أيمن، عن عُبَيْدِ بْنِ رِفَاعَةَ، عن أبيه، به. وفي الحديث المرفوع: «من سرتة حسنته، وساءتة سيئته، فهو مؤمن». ثم قال: «فَضَّلَا مِنْ اللَّهِ رِزْمَةً» أَي: هذا العطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه، «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» أَي: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره.

«وَلَنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَكَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى اللَّهِ أَمْرًا فَإِنَّ فَاتَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْقَدْلِ وَأَقِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» (٩) إِنَّا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠).

يقول تعالى أمراً بالإصلاح بين المسلمين الباغيين بعضهم على بعض: «وَلَنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا»، فسماهم مؤمنين مع الاقتتال. وبهذا استدلل البخاري وغيره على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقول الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم. وهكذا ثبت في صحيح البخاري من حديث الحسن، عن أبي بكره أن رسول الله ﷺ خطب يوماً ومعه على المنبر الحسن بن علي، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين». فكان كما قال، صلوات الله وسلامه عليه، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق، بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة. وقوله: «وَلَنْ بَكَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى اللَّهِ أَمْرًا» أَي: حتى ترجع إلى أمر الله وتسمع للحق وتطيعه، كما ثبت في الصحيح عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». قلت: يا رسول الله، هذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ قال: «تمنعه من الظلم، فذاك نصرته» إياه. وقال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا معتمر قال: سمعت أبي يحدث: أن أنساً قال: قيل للنبي ﷺ، لو أتيت عبد الله بن أبي؟ فانطلق إليه نبي الله ﷺ وركب حماراً، وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرض سبخة، فلما انطلق إليه النبي ﷺ قال: «إليك عني، فوالله لقد أذاني ريح حمارك» فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ طيب ريحاً منك. قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: «وَلَنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا». ورواه البخاري في «الصلح» عن مُسَدَّدٍ، ومسلم في «المغازي» عن محمد بن عبد الأعلى، كلاهما عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، به نحوه. وذكر سعيد بن جبير: أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسيف والنعال، فأنزل الله هذه الآية، فأمر بالصلح بينهما. وقال السدي: كان رجل من الأنصار يقال له: «عمران»، كانت له امرأة تدعى أم زيد، وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها في غُليَّةٍ له لا يدخل عليها أحد من أهلها. وإن المرأة بعثت إلى أهلها، فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها، وإن الرجل قد كان خرج، فاستعان أهل الرجل، فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها، فتدافعوا واجتلدوا بالنعال، فنزلت فيهم هذه الآية. فبعث إليهم رسول الله ﷺ وأصلح بينهم، وفاؤوا إلى أمر الله. وقوله: «وَلَنْ فَاتَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْقَدْلِ وَأَقِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» أَي: اعدلوا بينهم فيما كان أصاب بعضهم لبعض، بالقسط، وهو العدل، «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ». قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا عبد الأعلى، عن مَعْمَرٍ، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن

عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمن، بما أقسطوا في الدنيا». ورواه النسائي عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى، به. وهذا إسناد جيد قوي، رجاله على شرط الصحيح. وحدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عمرو بن أوس، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولّوا». ورواه مسلم والنسائي، من حديث سفيان بن عيينة، به. وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي: الجميع إخوة في الدين، كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه». وفي الصحيح: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه». وفي الصحيح أيضاً: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين، ولك بمثل». والأحاديث في هذا كثيرة، وفي الصحيح: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وكمل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحنى والشهر». وفي الصحيح أيضاً: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه. وقال أحمد: حدثنا أحمد بن الحجاج، حدثنا عبد الله، أخبرنا مصعب بن ثابت، حدثني أبو حازم قال: سمعت سهل بن سعد الساعدي يحدث عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان، كما يألم الجسد لما في الرأس». تفرد به ولا بأس بإسناده. وقوله: ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَعْمَارِهِمْ﴾ يعني: الفشتين المقتتلين، ﴿وَأَقْرَأُوا اللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾، وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرَ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا يَسَاءَ عَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ يَسْسُ الْأَنْفُسُ الْفُسُوقَ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكبر بطن الحق وغصص الناس»، ويروى: «وغصط الناس». والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحققر أعظم قدراً عند الله وأحب إليه من الساخر منه المحققر له؛ ولهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرَ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا يَسَاءَ عَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾، فنص على نهى الرجال وعطف بنهي النساء. وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا تلمزوا الناس. والهمّاز اللّماز من الرجال مذموم ملعون، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [البقرة: ١١]، فالهمز بالفعل واللمز بالقول، كما قال: ﴿هَكَذَا مَثَلٌ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [القصص: ١١] أي: يحقر الناس ويهمزهم طاعناً عليهم، ويمشي بينهم بالنيمة وهي: اللمز بالمقال؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، كما قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] أي: لا يقتل بعضكم بعضاً. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وقتادة، ومقاتل بن حيان: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا يطعن بعضكم على بعض. وقوله: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي: لا تتداعوا بالألقاب، وهي التي يسوء الشخص سماعها. قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا داود بن أبي هند، عن الشعبي قال: حدثني أبو جبرية بن الضحاك قال: فبينا نزلت في بني سلمة: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دُعِيَ أحد منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا. فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾. رواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل، عن وهيب، عن داود، به. وقوله: ﴿يَسْسُ الْأَنْفُسُ الْفُسُوقَ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي: بسس الصفة والاسم الفسوق وهو: التنازع بالألقاب، كما كان أهل الجاهلية يتناعتون، بعدما دخلتم في الإسلام وعقلمتهم، ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ﴾ أي: من هذا ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْزُوا كَثِيرًا مِّنَ الْفَالِغِ إِن ك بَعْضُ الظَّنِّ إِثْرٌ وَلَا تَحْسَبُوا أَنَّ بَعْثَ نَفْسِكُمْ بَعْثًا أَجْمَعًا أَكُلَّ لَحْمٍ أَحْيَاهُ مَيِّتًا مَّكَرُهُمْ وَأَقْرَأُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ نَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً، فليجتنب كثير منه احتياطاً، وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه قال: ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً. وقال أبو عبد الله بن ماجه: حدثنا أبو القاسم بن أبي ضمرة نصر بن محمد بن سليمان الجعفي، حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي قيس التُّصْرِي، حدثنا عبد الله بن عمر قال: رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك. والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم من عند الله حرمة منك، ماله ودمه، وأن يظن به إلا خير». تفرد به ابن ماجه من هذا الوجه. وقال مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب

الحديث، ولا تجسوسوا ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً». رواه البخاري عن عبد الله بن يوسف، ومسلم عن يحيى بن يحيى، وأبو داود عن العتيبي ثلاثتهم، عن مالك، به. وقال سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام». رواه مسلم والترمذي - وصححه - من حديث سفيان بن عيينة، به. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله القزويني العدوي، حدثنا بكر بن عبد الوهاب المدني، حدثنا إسماعيل بن قيس الأنصاري، حدثني عبد الرحمن بن محمد بن أبي الرجال، عن أبيه، عن جده حارثة بن النعمان قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لازمات لأمتي: الطَّيْرَةُ، والحسد، وسوء الظن». فقال رجل: ما يذهبن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال: «إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فأمض». وقال أبو داود: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن زيد قال: أتى ابن مسعود، رضي الله عنه، برجل، فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرًا. فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به. سماء ابن أبي حاتم في روايته الوليد بن عقبة بن أبي معيط. وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا ليث، عن إبراهيم بن نسيط الحولاني، عن كعب بن علقمة، عن أبي الهيثم، عن دحَّين كاتب عقبة قال: قلت لعقبة: إن لنا جيراناً يشربون الخمر، وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم. قال: لا تفعل، ولكن عظمهم وتهدهم. قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاء دحَّين فقال: إني قد نهيتهم فلم ينتهوا، وإني داع لهم الشرط فيأخذونهم. قال: لا تفعل، ولكن عظمهم وتهدهم. قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاء دحَّين فقال: إني قد نهيتهم فلم ينتهوا، وإني داع لهم الشرط فتأخذهم. فقال له عقبة: ويحك لا تفعل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها». ورواه أبو داود والنسائي من حديث الليث بن سعد، به نحوه. وقال سفيان الثوري، عن ثور، عن راشد بن سعد، عن معاوية قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم» أو: «كدت أن تفسدهم». فقال أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ، ففعله الله بها. رواه أبو داود منفرداً به من حديث الثوري، به. وقال أبو داود أيضاً: حدثنا سعيد بن عمرو الحضرمي، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا ضَمَضَم بن زُرَّعة، عن شُرَيْح بن عبيد، عن جُبَيْر بن نَفِير، وكثير بن مُرَّة، وعمرو بن الأسود، والمقدام بن معد يكرب، وأبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم، وقوله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي: على بعضكم بعضاً. والتجسس غالباً يطلق في الشر، ومنه الجاسوس. وأما التجسس فيكون غالباً في الخير، كما قال تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام أنه قال: ﴿يَكْفُرْ أَذَهَبُوا فَتَجَسَّسُوا مِنْ يُونُسَ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَجُلٍ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقد يستعمل كل منهما في الشر، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً». وقال الأوزاعي: التجسس: البحث عن الشيء. والتحسس: الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون، أو يتسمع على أبوابهم. والتدابير: الضُرم. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَلَا يَنْتَبِ بِمَعْشَرَ بَعْضًا﴾: فيه نهى عن الغيبة، وقد فسرهما الشارع كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: حدثنا القَعْنَبِي، حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته». ورواه الترمذي عن قتيبة، عن الدُّرَّاءُزِّي به. وقال: حسن صحيح. ورواه ابن جرير عن بُذَار، عن عُثْمَر، عن شعبة، عن العلاء. وهكذا قال ابن عمر، ومسروق، وقتادة، وأبو إسحاق، ومعاوية بن قُرَّة. وقال أبو داود: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثني علي بن الأقرم، عن أبي حذيفة، عن عائشة قالت: قلت للنبي ﷺ: حبسك من صفة كذا وكذا! - قال غير مسدد: تعني قصيرة - فقال: «لقد قلت كلمة لو مُرَّجَتْ بماء البحر لمزجته». قالت: وحكيت له إنساناً، فقال ﷺ: «ما أحب أني حكيت إنساناً، وإن لي كذا وكذا». ورواه الترمذي من حديث يحيى القَطَّان، وعبد الرحمن بن مَهْدِي، ووَكَيْع، ثلاثتهم عن سفيان الثوري، عن علي بن الأقرم، عن أبي حذيفة سلمة بن صهيب الأرحبي، عن عائشة، به. وقال: حسن صحيح. وقال ابن جرير: حدثني ابن أبي الشوارب: حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا سليمان الشيباني، حدثنا حسان بن المخارق: أن امرأة دخلت على عائشة، فلما قامت لتخرج أشارت عائشة بيدها إلى النبي ﷺ - أي: إنها قصيرة - فقال النبي ﷺ: «اغتبيتها». والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما في الجرح والتعديل والنصح، كقوله ﷺ، لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «اذنوا له، بش أخو العشيرة»، وكقوله لفاطمة بنت قيس - وقد

خطبها معاوية وأبو الجهم: «أما معاوية فصعلوك، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه». وكذا ما جرى مجرى ذلك. ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد؛ ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت، كما قال تعالى: ﴿أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْنَاهُ﴾؟ أي: كما تكرهون هذا طبعاً، فاكروهوا ذاك شرعاً؛ فإن عقوبته أشد من هذا وهذا من التنفير عنها والتحذير منها، كما قال، عليه السلام، في العائد في هبته: «كالكلب يقيء ثم يرجع في قيئه»، وقد قال: «ليس لنا مثل سوء». وثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من غير وجه أنه، عليه السلام، قال في خطبة حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا». وقال أبو داود: حدثنا واصل بن عبد الأعلى، حدثنا أسباط بن محمد، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام: ماله وعرضه ودمه، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم». ورواه الترمذي عن عبيد بن أسباط بن محمد، عن أبيه، به. وقال: حسن غريب. وحدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا الأسود بن عامر، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن سعيد بن عبد الله بن جريج، عن أبي بزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته». تفرد به أبو داود.

وقد روي من حديث البراء بن عازب، فقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا إبراهيم بن دينار، حدثنا مصعب بن سلام، عن حمزة بن حبيب الزيات، عن أبي إسحاق السبيعي، عن البراء بن عازب قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتها - أو قال: في خدورها - فقال: «يا معشر من آمن بلسانه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته». طريق أخرى عن ابن عمر: قال أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي: أخبرنا عبد الله بن ناجية، حدثنا يحيى بن أكثم، حدثنا الفضل بن موسى الشيباني، عن الحسين بن واقد، عن أوفى بن ذلهم، عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من يتبع عورات المسلمين يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله». قال: ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، وللمؤمن أعظم حرمة عند الله منك. قال أبو داود: وحدثنا حيوة بن شريح، حدثنا بَقِيَّةُ، عن ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن وقاص بن ربيعة، عن المستورد؛ أنه حدث: أن النبي ﷺ قال: «من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها في جهنم، ومن كُسي ثوباً برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله في جهنم. ومن قام برجل مقام سمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة». تفرد به أبو داود. وحدثنا ابن مصفى، حدثنا بَقِيَّةُ وأبو المغيرة قالوا: حدثنا صفوان، حدثني راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جبيرة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، قلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم». تفرد به أبو داود، وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي المغيرة عبد القدوس بن الحجاج الشامي، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا أبو عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد العمي، حدثنا أبو هارون العَدَنِيُّ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله، حدثنا ما رأيت ليلة أُسري بك؟... قال: «ثم انطلق بي إلى خلق من خلق الله كثير، رجال ونساء مُوَكَّل بهم رجال يعمدون إلى غُرَضٍ جَنَّب أحدهم فَيَحْدُون منه الحُدُوءَ من مثل النعل ثم يضعونه في فم أحدهم، فيقال له: «كل كما أكلت»، وهو يجد من أكله الموت - يا محمد - لو يجد الموت وهو يكره عليه فقلت: يا جبرائيل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الهَمَازُونَ اللَّمَّازُونَ أَصْحَاب النِّمِعة. فيقال: ﴿أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْنَاهُ﴾ وهو يكره على أكل لحمه. هكذا أورد هذا الحديث، وقد سقناه بطوله في أول تفسير «سورة مباح» والله الحمد. وقال أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثنا الربيع، عن يزيد بن أنس؛ أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن يصوموا يوماً ولا يفطروا أحد حتى أذن له. فصام الناس، فلما أمسوا جعل الرجل يجيء إلى رسول الله ﷺ فيقول: ظلمت منذ اليوم صائماً، فإذن لي فأفطر، فيأذن له، ويجيء الرجل فيقول ذلك، فيأذن له، حتى جاء رجل فقال: يا رسول الله، إن فتاتين من أهلك ظلتا منذ اليوم صائمتين، فإذن لهما فليفطرا فأعرض عنه، ثم أعاد، فقال رسول الله ﷺ: «ما صامتا، وكيف صام من ظل يأكل لحوم الناس؟ اذهب، فمرهما إن كانتا صائمتين أن يستقيتا». ففعلتا، فقأت كل واحدة منهما عِلْقَةً عِلْقَةً فَأَتَى النبي ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «لو ماتتا وهما فيهما لأكلتهما النار». إسناد ضعيف، ومتن غريب.

وقد رواه الحافظ البيهقي من حديث يزيد بن هارون: حدثنا سليمان التيمي قال: سمعت رجلاً يحدث في مجلس أبي عثمان التّهدي عن عبيد - مولى رسول الله - أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ، وأن رجلاً أتى رسول الله فقال: يا رسول الله، إن هاهنا امرأتين صامتا، وإنهما كادتا تموتان من العطش - أراءه قال: بالهجرة - فأعرض عنه - أو: سكت عنه - فقال: يا نبي الله، إنهما - والله قد ماتتا أو كادتا تموتان. فقال: ادعهما. فجاءتا، قال: فجئى بقدر - أو عُس - فقال لإحدهما: قيثي. فقأت من قيث ودم وصديد، حتى قأت نصف القدر. ثم قال للأخرى: قيثي فقأت قيثاً ودماً وصديداً ولحمياً ودماً عبيطاً وغيره حتى ملأت القدر. فقال: إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، جلست إحدهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس. وهكذا قد رواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون وابن أبي عدي، كلاهما عن سليمان بن طرخان التيمي، به مثله أو نحوه. ثم رواه أيضاً من حديث مُسَدَّد، عن يحيى القَطَّان، عن عثمان بن غياث، حدثني رجل أظنه في حلقة أبي عثمان، عن سعد - مولى رسول الله ﷺ - أنهم أمروا بصيام، فجاء رجل في نصف النهار فقال: يا رسول الله، فلانة وفلانة قد بلغتا الجهد. فأعرض عنه مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «ادعهما». فجاء بئس - أو: قَدَح - فقال لإحدهما: «قيثي»، فقأت لَحْماً ودماً عبيطاً وقيثاً، وقال للأخرى مثل ذلك، فقال: «إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، أتت إحدهما للأخرى فلم تزالا تأكلان لحوم الناس حتى امتلأت أجوافهما قيثاً». وقال البيهقي: كذا قال «عن سعد»، والأول - وهو عبيد - أصح. قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا عمرو بن الضحاك بن مَخْلَدٍ، حدثنا أبي أبو عاصم، حدثنا ابن جُرَيْج، أخبرني أبو الزبير عن ابن عَمِّ لأبي هريرة أن ماعراً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد زنيت فأعرض عنه - قالها أربعاً - فلما كان في الخامسة قال: «زنت؟» قال: نعم. قال: «وتدري ما الزنا؟» قال: نعم، أتيت منها حراماً ما يأتي الرجل من امرأته حلالاً. قال: «ما تريد إلى هذا القول؟» قال: أريد أن تطهرني. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أدخلت ذلك منك في ذلك منها كما يغيب الجمل في المكحلة والرشاء في البئر؟» قال: نعم، يا رسول الله. قال: فأمر برجمه فرجم، فسمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رَجُمَ رجم الكلب. ثم سار النبي ﷺ حتى مرَّ بجيفة حمار فقال: «أين فلان وفلان؟ أنزلا فكلنا من جيفة هذا الحمار؟» قال: غفر الله لك يا رسول الله، وهل يُؤكل هذا؟ قال: «فما نلتما من أخيكما أنفأ أشد أكلا منه، والذي نفسي بيده، إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها» إسناده صحيح. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثني أبي، حدثنا واصل - مولى ابن عيينة - حدثني خالد بن عَرْفُطَةَ، عن طلحة بن نافع، عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح جيفة منتنة، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين». طريق أخرى: قال عبد بن حُميد في مسنده: حدثنا إبراهيم بن الأشعث، حدثنا الفضيل بن عياض، عن سليمان، عن أبي سفيان - وهو طلحة بن نافع - عن جابر قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فهاجت ريح منتنة، فقال النبي ﷺ: «إن نقرأ من المنافقين اغتابوا ناساً من المسلمين، فلذلك بعثت هذه الريح» وربما قال: «فلذلك هاجت هذه الريح». وقال السدي في قوله: ﴿يُحِبُّ أَدُّكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً﴾: زعم أن سلمان الفارسي كان مع رجلين من أصحاب النبي ﷺ في سفر يخدمهما ويخف لهما، وينال من طعامهما، وأن سلمان لما سار الناس ذات يوم وبقي سلمان نائماً، لم يسر معهم، فجعل صاحبه يكلمانه فلم يجده، ففرض الخباء فقالا: ما يريد سليمان - أو: هذا العبد - شيئاً غير هذا: أن يجيء إلى طعام مقدور، وخباء مضروب! فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله ﷺ يطلب لهما إداماً، فانطلق فأتى رسول الله ﷺ ومعه قَدَحٌ له، فقال: يا رسول الله، بعثني أصحابي لتؤدبهم إن كان عندك؟ قال: «ما يصنع أصحابك بالأدم؟ قد اتندموا». فرجع سلمان يخبرهما بقول رسول الله ﷺ، فانطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فقالا: لا، والذي بعثك بالحق، ما أصبنا طعاماً منذ نزلنا. قال: «إنكما قد اتندمتما بسلمان بقولكما». قال: ونزلت: ﴿يُحِبُّ أَدُّكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً﴾، إنه كان نائماً.

وروى الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «المختارة» من طريق حَبَّان بن هلال، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: كانت العرب تخدم بعضها بعضاً في الأسفار، وكان مع أبي بكر وعمر رجل يخدمهما، فناما فاستيقظا ولم يهبيء لهما طعاماً، فقالا: إن هذا لنؤوم، فأيقظاه، فقالا له: اتت رسول الله ﷺ فقل له: إن أبا بكر وعمر يقرئانك السلام، ويستأذنانك. فقال: «إنهما قد اتندما» فجاء فقالا: يا رسول الله، بأي شيء اتندمنا؟ فقال: «بلحم أخيكما، والذي نفسي بيده، إني لأرى لحمه بين ثناياكما». فقالا: استغفر لنا يا رسول الله فقال: «مُرَّاه فليستغفر لكما». وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا محمد بن مسلم، عن محمد بن إسحاق عن عمه موسى بن يسار، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكل من لحم أخيه في الدنيا، قُرب له لحمه في الآخرة، فيقال له: كله ميتاً كما أكلته حيّاً. قال: فيأكله ويكَلِّح ويصيح».

غريب جداً. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا اللَّهَ﴾ أي: فيما أكرمكم به ونهاكم عنه، فراقبوه في ذلك واخشوا منه، ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ أي: تواب على من تاب إليه، رحيم بمن رجع إليه، واعتمد عليه. قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس في توبته أن يُقلع عن ذلك، ويعزم على ألا يعود. وهل يشترط الندم على ما فات؟ فيه نزاع، وأن يتحلل من الذي اغتابه. وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذا أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، فتكون تلك بتلك، كما قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن الحجاج، أخبرنا عبد الله، أخبرنا يحيى بن أيوب، عن عبد الله بن سليمان؛ أن إسماعيل بن يحيى المعافري أخبره أن سهل بن معاذ بن أنس الجهني أخبره، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «من حمى مؤمناً من منافقي عيبيه، بعث الله إليه ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم. ومن رمى مؤمناً بشيء يريد شينه، حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال». وكذا رواه أبو داود من حديث عبد الله - وهو ابن المبارك - به بنحوه.

وقال أبو داود أيضاً: حدثنا إسحاق بن الصباح، حدثنا ابن أبي مريم، أخبرنا الليث: حدثني يحيى بن سليم؛ أنه سمع إسماعيل بن بشير يقول: سمعت جابر بن عبد الله، وأبا طلحة بن سهل الأنصاري يقولان: قال رسول الله ﷺ: «ما من امرئ يخذل امرأ مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمة ويتقص فيه من عرضه، إلا خذله الله في موطن يحب فيها نصرته. وما من امرئ ينصر امرأ مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه، ويتنهك فيه من حرمة، إلا نصره الله في موطن يحب فيها نصرته». تفرد به أبو داود.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً للناس أنه خلقهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوب، وهي أعم من القبائل، ويعد القبائل مراتب آخر كالفضائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك. وقيل: المراد بالشعوب بطون العجم، وبالقبائل بطون العرب، كما أن الأسباط بطون بني إسرائيل. وقد لخصت هذا في مقدمة مفردة جمعتها من كتاب: «الإنباه» لأبي عمر بن عبد البر، ومن كتاب «القصص والأسم» في معرفة أنساب العرب والعجم». فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأموال الدينية، وهي طاعة الله ومتابعة رسوله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى بعد النبي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً، منبهاً على تساويهم في البشرية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ أي: ليحصل التعارف بينهم، كل يرجع إلى قبيلته. وقال مجاهد في قوله: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾، كما يقال: فلان بن فلان من كذا وكذا، أي: من قبيلة كذا وكذا. وقال سفيان الثوري: كانت جُمُير ينتسبون إلى مُخَالِفِهَا، وكانت عرب الحجاز ينتسبون إلى قبائلها. وقد قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا أحمد بن محمد، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن عبد الملك ابن عيسى الثقفي، عن يزيد - مولى المنبعث - عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم؛ فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثرة في المال، منسأة في الأثر». ثم قال: غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ﴾ أي: إنما يتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب. وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ: قال البخاري، رحمه الله: حدثنا محمد بن سلام، حدثنا عبدة، عن عبيد الله، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «أكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم. قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا». وقد رواه البخاري في غير موضع من طرق عن عبدة بن سليمان. ورواه النسائي في التفسير من حديث عبيد الله - وهو ابن عمر العمري - به.

حديث آخر: قال مسلم، رحمه الله: حدثنا عمرو الناقد، حدثنا كثير بن هشام، حدثنا جعفر ابن برقان، عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». ورواه ابن ماجه عن أحمد بن سنان، عن كثير بن هشام، به. حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن أبي هلال، عن بكر، عن أبي ذر قال: إن النبي ﷺ قال له: «انظر، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضلته بتقوى». تفرد به أحمد. حديث آخر: وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو عبدة عبد الوارث بن إبراهيم العسكري، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو بن جبلة، حدثنا عبيد بن حنين الطائي، سمعت محمد بن حبيب بن خزاش القصري، يحدث عن أبيه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «المسلمون إخوة، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى».

حديث آخر: قال أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا أحمد بن يحيى الكوفي، حدثنا الحسن بن الحسين، حدثنا قيس - يعني ابن الربيع - عن شبيب بن غَرْقَدَة، عن المستظل بن حصين، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم بنو آدم. وآدم خلق من تراب، ولينتهين قوم يفخرون بأبائهم، أو ليكونون أهون على الله من الجفان». ثم قال: لا نعرفه عن حذيفة إلا من هذا الوجه. حديث آخر: قال: ابن أبي حاتم: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا يحيى بن زكريا القطان، حدثنا موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القُصواء يستلم الأركان بمحجن في يده، فما وجد لها مناحاً في المسجد حتى نزل ﷺ على أيدي الرجال، فخرج بها إلى بطن المسيل فأنبخت. ثم إن رسول الله ﷺ خطبهم على راحلته، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال: «يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم غيبة الجاهلية وتعظمها بأبائنا، فالتاس رجلان: رجل يرتقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله. إن الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلَكُمْ شُفْعَاءَ لِأَسْوَاقٍ لِيَتَدَارَوْا بِكُمْ أَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَرُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾». ثم قال: «أقول قولِي هذا واستغفر الله لي ولكم». هكذا رواه عبد بن حميد، عن أبي عاصم الضحاك بن مخلد، عن موسى بن عبيدة، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح عن عقبة بن عامر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد، كلكم بنو آدم طُفَّ الصاع لم يملوه، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى، وكفى بالرجل أن يكون بذيلاً بخيلاً فاحشاً». وقد رواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، عن ابن لهيعة، به. ولفظه: «الناس لآدم وحواء، طف الصاع لم يملوه، إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة، إن أكرمكم عند الله أتقاكم». وليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا شريك، عن سيمك، عن عبد الله بن عبيدة زوج درة ابنة أبي لهب، عن درة بنت أبي لهب قالت: قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر، فقال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ فقال ﷺ: «خير الناس أقرؤهم، وأتقاهم لله، وأمرهم بالمعروف، ونهأهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم». حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو الأسود، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: ما أعجب رسول الله ﷺ شيء من الدنيا، ولا أعجبه أحد قط، إلا ذو تقى. تفرد به أحمد رحمه الله. وقوله: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» أي: عليم بكم، خبير بأموركم، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله. وقد استدلل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة، من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين، لقوله: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَرُّكُمْ». وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى مذكورة في كتب الفقه، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في «كتاب الأحكام»، والله الحمد والمنة. وقد روى الطبراني عن عبد الرحمن أنه سمع رجلاً من بني هاشم يقول: أنا أولى الناس برسول الله ﷺ. فقال: غيرك أولى به منك، ولك منه نسبة.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تَمُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِفَكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (١٥) ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفِي عَنْ قَوْمِهِ عَنِ أَنْ يَسْأَلُوا قُلْ لَا تَمُؤْمِنُوا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ إِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَيْكَ أَنْ هَدَيْتَكَ لِلْإِيمَانِ إِنَّ كَثَرْتَ صَادِقِينَ﴾ (١٦) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٧).

يقول تعالى منكرأ على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تَمُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾. وقد استفيد من هذه الآية الكريمة: أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل، عليه السلام، حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَرُ، عن الزهري، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: أعطى رسول الله ﷺ رجلاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً، فقال سعد: يا رسول الله، أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تعط فلاناً شيئاً، وهو مؤمن؟ فقال النبي ﷺ: «أو مسلم» حتى أعادها سعد ثلاثاً، والنبي ﷺ يقول: «أو مسلم» ثم قال النبي ﷺ: «إني لأعطي رجلاً وأدع من هو أحب إلي منهم فلا أعطيه شيئاً؛ مخافة أن يكبو في النار على وجوههم». أخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري، به. فقد فرق النبي ﷺ بين المسلم والمؤمن، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام. وقد قرنا ذلك بأدلتنا في أول شرح كتاب الإيمان من «صحيح البخاري» والله الحمد والمنة. ودل ذلك على أن ذلك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً؛ لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من

الإسلام، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك. وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم النخعي، وقناة، واختاره ابن جرير. وإنما قلنا هذا لأن البخاري، رحمه الله، ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يُظهرون الإيمان وليسوا كذلك. وقد روى عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وابن زيد أنهم قالوا في قوله: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أي: استسلمنا خوف القتل والسبأ. قال مجاهد: نزلت في بني أسد بن خزيمه. وقال قتادة: نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ. والصحيح الأول؛ أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا، كما ذكر المنافقون في سورة براءة. وإنما قيل لهؤلاء تأديباً: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَكِنْ يَدْعُو الْأَيْمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد. ثم قال: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَكُنْزَكُمْ عَنْكُمْ شَيْئاً﴾ أي: لا ينقصكم من أجوركم شيئاً، كقوله: ﴿وَمَا أَكْتَفْتُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: لمن تاب إليه وأتاب. وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنما المؤمنون الكامل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَكُنْزُوا﴾ أي: لم يشكوا ولا تنزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة، وهي التصديق المحض، ﴿وَيَحْذَرُوا يَأْمُولَهُمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: في قولهم إذا قالوا: «إنهم مؤمنون»، لا كععض الأعراب الذين ليس معهم من الدين إلا الكلمة الظاهرة. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رشدين، حدثني عمرو بن الحارث، عن أبي السمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد قال: إن النبي ﷺ قال: «المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء: الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم. ثم الذي إذا أشرف على طمع تركه الله، ﷻ». وقوله: ﴿قُلْ أَتَمْلِكُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي: أنخبرونه بما في ضمائرهم، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا يخفي عليه من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ﴿وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلَيْهِ﴾. ثم قال تعالى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾، يعني: الأعراب الذين يمتنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول، يقول الله ردأ عليهم: ﴿قُلْ لَا تَسْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ﴾، فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم، والله المنة عليكم فيه، ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكَ أَنْ هَدَيْتَكَ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتَ صَادِقِينَ﴾ أي: في دعوكم ذلك، كما قال النبي ﷺ للانصار يوم حنين: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فالفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟». كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمر. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي، عن محمد بن قيس، عن أبي عون، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أسلمنا وقاتلتك العرب، ولم نقاتلك، فقال رسول الله ﷺ: «إن فقههم قليل، وإن الشيطان ينطلق على السنتهم». ونزلت هذه الآية: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَسْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكَ أَنْ هَدَيْتَكَ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتَ صَادِقِينَ﴾ (٧). ثم قال: لا نعلمه يروي إلا من هذا الوجه، ولا نعلم روى أبو عون محمد بن عبيد الله، عن سعيد بن جبير، غير هذا الحديث. ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ عَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٨).

آخر تفسير الحجرات، والله الحمد والمنة



تفسير سورة ق

وهي مكية. وهذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح، وقيل: من الحجرات. وأما ما يقوله العامة: إنه من (عَم) فلا أصل له، ولم يقله أحد من العلماء المعبرين فيما نعلم. والدليل على أن هذه السورة هي أول المفصل ما رواه أبو داود في سننه، باب «تحرير القرآن» ثم قال: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا قُرَّان بن تمام، (ح) وحدثنا عبد الله بن سعيد أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد سليمان بن حيان. وهذا لفظه - عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلي، عن عثمان بن عبد الله ابن أوس، عن جده - قال عبد الله بن سعيد: حدثني أوس بن حذيفة - ثم اتفقا. قال: قدما على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف، قال: فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة، وأنزل رسول الله ﷺ بني مالك في قُبة له - قال مُسَدَّد: وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف، قال: كان رسول الله ﷺ كل ليلة يأتيان بعد العشاء يحدثنا - قال أبو سعيد: قائماً على رجله حتى

يرأوح بين رجله من طول القيام - فأكثر ما يحدثنا ما لقي من قومه قريش، ثم يقول: لا سواء وكنا مستضعفين مستذلين - قال مُسَدَّد: بمكة - فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم، ندال عليهم ويدلون علينا. فلما كانت ليلة أبطأ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت عنا الليلة! قال: «إنه طرأ على حزبي من القرآن، فكرهت أن أجيء حتى أتمه». قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده. ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن أبي خالد الأحمر، به. ورواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي، عن عبد الله بن عبد الرحمن، هو ابن يعلى الطائفي به. إذا علم هذا، فإذا عددت ثمانياً وأربعين سورة، فالتى بعدهن سورة «ق». بيانه: ثلاث: البقرة، وآل عمران، والنساء: وخمس: المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبراءة. وسبع: يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل. وتسع: سبحان، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنور، والفرقان. وإحدى عشرة: الشعراء، والنمل، والقصاص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والم السجدة، والأحزاب، وسبأ، وفاطر، ويس. وثلاث عشرة: الصافات، ووص، والزمر، وغافر، وحم السجدة، وحم عسق، والزخرف، والدخان، والجنات. والأحقاف، والقتال، والفتح، والحجرات. ثم بعد ذلك الحزب المفصل كما قاله الصحابة، رضي الله عنهم. فتعين أن أوله سورة «ق» وهو الذي قلناه والله الحمد والمنة. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا مالك، عن صفرة بن سعيد، عن عُبَيْد الله بن عبد الله، أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد؟ قال: بقاف، واقتربت. ورواه مسلم وأهل السنن الأربعة، من حديث مالك، به. وفي رواية لمسلم عن فليح عن ضمرة، عن عبيد الله، عن أبي واقد قال: سألتني عمر، فذكره. حديث آخر: وقال أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زُزارة، عن أم هشام بنت حارثة قالت: لقد كان تُتَوَرَّنَا وتُتَوَرَّنَا النبي ﷺ واحداً ستين، أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿ق﴾ وَالْقُرْآنَ الْكَبِيرَ ﴿١﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ، كان يقرأها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس. ورواه مسلم أيضاً من حديث ابن إسحاق، به. وقال أبو داود: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن خبيب، عن عبد الله بن محمد بن معن، عن ابنة الحارث بن النعمان قالت: ما حفظت ﴿ق﴾ إلا من في رسول الله ﷺ، يخطب بها كل جمعة. قالت: وكان تنورنا وتنور رسول الله ﷺ واحداً. وكذا رواه مسلم، والنسائي، وابن ماجه، من حديث شعبة، به. والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار، كالعيد والجمع، لاشتغالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب.

﴿ق﴾ وَالْقُرْآنَ الْكَبِيرَ ﴿١﴾ بَلْ يَحْسُرُونَ أَن جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا نَجْوَى بَيْنَهُمْ ﴿٢﴾ أَوَدَّآ مَنَّا وَكَأَنَّا زَاكِرَاتُ ذَلِكَ رَجَعٌ بَيْنَهُمْ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَيَعْلَمُ الَّذِي كَتَبَ خَيْطُ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيعٍ ﴿٥﴾.

﴿ق﴾: حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور، كقوله: (ص، ن، الم، حم، طس) ونحو ذلك، قاله مجاهد وغيره. وقد أسلفنا الكلام عليها، في أول «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته. وقد روي عن بعض السلف أنهم قالوا ﴿ق﴾ وَالْقُرْآنَ الْكَبِيرَ ﴿١﴾: جبل محيط بجميع الأرض، يقال له جبل قاف. وكان هذا - والله أعلم - من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس، لما رأى من جواز الرواية عنهم فيما لا يصدق ولا يكذب. وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقهم، يلبسون به على الناس أمر دينهم، كما افترى في هذه الأمة - مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها - أحاديث عن النبي ﷺ وما بالعهد من قدم، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى، وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمر، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته! وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: «وحدثنا عن بني إسرائيل، ولا حرج» فيما قد يجوزوه العقل، فأما فيما تُحِيلُهُ العقول ويحكم عليه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل - والله أعلم. وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، والله الحمد والمنة، حتى إن الإمام أبا محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، رحمه الله، أورد هاهنا أثراً غريباً لا يصح سنده عن ابن عباس فقال: حدثنا أبي قال: حدثت عن محمد بن إسماعيل المخزومي: حدثنا ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: خلق الله من وراء هذه الأرض بحراً محيطاً، ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له «ق» السماء الدنيا مرفوفة عليه. ثم خلق الله من وراء ذلك الجبل أرضاً مثل تلك الأرض سبع مرات. ثم خلق من وراء ذلك بحراً محيطاً بها، ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له «ق» السماء الثانية مرفوفة عليه، حتى عد

سبع أرضين، وسبعة أبحر، وسبعة أجبل، وسبع سموات. قال: وذلك قوله: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧]. فإسناد هذا الأثر فيه انقطاع، والذي رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿قَ﴾ قال: هو اسم من أسماء الله، والذي ثبت عن مجاهد: أنه حرف من حروف الهجاء، كقوله: (ص، ن، حم، طس، ألم) ونحو ذلك. فهذه تبعد ما تقدم عن ابن عباس. وقيل: المراد «قضي الأمر والله»، وأن قوله: ﴿قَ﴾ دلت على المحذوف من بقية الكلم كقول الشاعر:

قُلْتُ لَهَا: قَفِي قَفَا لَهَا قَفَا

وفي هذا التفسير نظر؛ لأن الحذف في الكلام إنما يكون إذا دل دليل عليه، ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف؟ وقوله: ﴿وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ أي: الكريم العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. واختلفوا في جواب القسم ما هو؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة أنه قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَظِيطٌ﴾. وفي هذا نظر، بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد، وتقريره وتحقيقه وإن لم يكن القسم متلقى لفظاً، وهذا كثير في أقسام القرآن كما تقدم في قوله: ﴿صَ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ [بل آيَاتُ كُرْآنٍ فِي عَرَفٍ وَنِيفَاقٍ] [ص: ١-٢]، وهكذا قال هاهنا: ﴿قَ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ [بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا نَسْءٌ عَجِيبٌ] [أي: تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر كقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُحْلًا مِنْهُمْ أَنْ أُنْذِرَ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢] أي: وليس هذا بعجيب؛ فإن الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس. ثم قال مخبراً عنهم في عجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه: ﴿أَوَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ذَلِكَ بَعِيدٌ﴾ [أي: يقولون: أنذا متنا وبلينا، وتقطعت الأوصال منا، وصرنا تراباً، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [أي: بعيد الوقوع، ومعنى هذا: أنهم يعتقدون استحالة وعدم إمكانه، قال الله تعالى راداً عليهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [أي: ما تاكل من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان؟ وأين ذهبت؟ وإلى أين صارت؟ ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَظِيطٌ﴾ [أي: حافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة. قال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [أي: ما تاكل من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم. وكذا قال مجاهد، وقادة، والضحاك، وغيرهم. ثم بين تعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [أي: وهذا حال كل من خرج عن الحق، مهما قال بعد ذلك فهو باطل. والمرج: المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلاه، كقوله: ﴿إِنَّا لَنَبِيُّ قَوْلٍ خَلَفَ﴾ [يُؤَكِّدُ عَنْهُ مِنْ آيَةٍ] [الذاريات: ٨، ٩].

﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا مِنْ فُجُوجٍ﴾ [وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ] [تَبَعْرَةً وَذَكَرَ لِكُلِّ عِبْدٍ مُبِينٍ] [وَزَيَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَرَكًا فَأَلْبَنَّا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْمُغْوِيَةِ] [وَأَنزَلْنَا بَارِسَقَتٍ لَهَا طَلْعٌ نَبِيدٌ] [وَزَيَّلْنَا لِيَّاسًا وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً بَيْنَآنَا كَذَلِكَ الْفُرُوجُ] [١١].

يقول تعالى منها للعباد على قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ [أي: بالمصاييح، ﴿وَمَا مِنْ فُجُوجٍ﴾. قال مجاهد: يعني من شقوق. وقال غيره: فوق. وقال غيره: من صدوع. والمعنى متقارب، كقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَوَاتِرٍ بِلَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ﴾ [ثم ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَائِيسًا وَهُوَ حَسِيرٌ] [الملك: ٣-٤] أي: كليل، أي: عن أن يرى عيباً أو نقصاً. وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ [أي: وسعناها وفرشناها، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [وهي: الجبال؛ لئلا تميد بأهلها وتضطرب؛ فإنها مفرقة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها، ﴿وَأَلْبَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [أي: من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع، ﴿وَمِنْ كُلِّ مَوْثٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وقوله: ﴿بَهِيجٍ﴾ [أي: حسن نضر، ﴿تَبَعْرَةً وَذَكَرَ لِكُلِّ عِبْدٍ مُبِينٍ﴾ [أي: ومشاهدة خلق السموات والأرض وما جعل الله فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب، أي: خاضع خائف وجل رجاء إلى الله ﷻ. وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَرَكًا﴾ [أي: نافعاً، ﴿فَأَلْبَنَّا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ [أي: حدائق من بساتين ونحوها، ﴿وَحَبَّ الْمُغْوِيَةِ﴾ [وهو: الزرع الذي يراد لحبه وادخاره. ﴿وَأَنزَلْنَا بَارِسَقَتٍ﴾ [أي: طوالاً شاهقات. وقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقادة، والسدي، وغيرهم: الباسقات الطوال. ﴿لَهَا طَلْعٌ نَبِيدٌ﴾ [أي: منضود. ﴿وَزَيَّلْنَا لِيَّاسًا﴾ [أي: للخلق، ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً بَيْنَآنَا﴾ [وهي الأرض التي كانت هامة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزهار وغير ذلك، مما يحار الطرف في حسناتها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها، فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيي الله الموتى. وهذا المشاهد من عظيم قدرته

بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَمَيِّضْ يَخْلُقْ يَمْدِيدٌ عَلَّ أَنْ يُخْرِجَ الْمَوْتُ بَلَاءً إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْبِرْهُ أَفَلَا تَرَى الْأَرْضَ خَشِيعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ افْعُرَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي آتَاكُمْ الْحَيَاةَ لَخَيِّ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [نمل: ٣٩].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيِّ وَشُؤُوا﴾ (١٢) وَعَادٌ وَرَعُونُ وَإِخْوَنُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُجِّ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ هُمْ وَبِعَدِ (١٤) أَنْبِيَاءَ بِالْمَلَأِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقِ جَدِيدٍ (١٥).

يقول تعالى متهدداً لكفار قريش بما أحله بأشباحهم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم، من النقمات والعذاب الأليم في الدنيا، كقوم نوح وما عذبهم الله به من الغرق العام لجميع أهل الأرض، وأصحاب الرس وقد تقدمت قصتهم في سورة «الفرقان» ﴿وَشُؤُوا وَعَادٌ وَرَعُونُ وَإِخْوَنُ لُوطٍ﴾ (١٣)، وهم أمته الذين بعث إليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور، وكيف خسف الله بهم الأرض، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة؛ بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق، ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام، ﴿وَقَوْمُ تُجِّ﴾ وهو اليماني. وقد ذكرنا من شأنه في سورة الدخان بما أغنى عن إعادته هاهنا والله الحمد. ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أي: كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذب رسوله، ومن كذب رسولاً فكانما كذب جميع الرسل، كقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٤) [الشعراء: ١٠٥]، وإنما جاءهم رسول واحد، فهم في نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم، ﴿هَمٌّ وَبِعَدِ﴾ أي: فحق عليهم ما أوعدهم الله، على التكذيب من العذاب والنتكال فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك. وقوله: ﴿أَنْبِيَاءَ بِالْمَلَأِ الْأَوَّلِ﴾ أي: أفاعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شك من الإعادة، ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقِ جَدِيدٍ﴾ والمعنى: أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَشَقِىَ خَلْقَهُمْ قَالَتْ مَنْ يُعْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (١٥) قُلْ يُخَبِّرُهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (١٦) [يس: ٧٨-٧٩]. وقد تقدم في الصحيح: «يقول الله تعالى: يؤذني ابن آدم، يقول: لن يعيدني كما بداني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته».

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُمْ قُلُوبُهُمْ قَسَمٌ إِنَّهُمُ اقْرَبُ إِلَهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (١٧) إِذْ يُلْقَى السُّلْخَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَبِئْسَ الْفُلْطُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْمُنِيِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي السُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَفَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَفَرَّقَ الْيَوْمَ حَبِيدُ (٢٢).

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه، وعلمه محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل». وقوله: ﴿وَنَحْنُ اقْرَبُ إِلَهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يعني: ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه. ومن تأوله على العلم فإنما فر لثلاث يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿وَنَحْنُ اقْرَبُ إِلَهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، كما قال في المحتضر: ﴿وَنَحْنُ اقْرَبُ إِلَهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْهُ﴾ (٢٠) [البقرة: ٨٥]، يعني ملائكته. وكما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٩) [الحجر: ٩]، فالملائكة نزلت بالذكر - وهو القرآن - بإذن الله، وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار الله لهم على ذلك، فللملك لمة في الإنسان كما أن للشيطان لمة وكذلك: «الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ يُلْقَى السُّلْخَانِ﴾ يعني: الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان. ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَبِئْسَ الْفُلْطُ مِنْ قَوْلٍ﴾ أي: مترصد ﴿بِئْسَ الْفُلْطُ مِنْ قَوْلٍ﴾ أي: ابن آدم ﴿بِئْسَ الْفُلْطُ مِنْ قَوْلٍ﴾ أي: ما يتكلم بكلمة ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (١٨) أي: إلا ولها من يراقبها معتد لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَيْكُمْ لَحَافِظُونَ﴾ (١٦) كِرَامًا كَتِيبِينَ (١٧) يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٧) [الأنفطار: ١٠-١٢]. وقد اختلف العلماء: هل يكتب الملك كل شيء من الكلام؟ وهو قول الحسن وقناة، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب كما هو قول ابن عباس، على قولين، وظاهر الآية الأول، لعموم قوله: ﴿بِئْسَ الْفُلْطُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (١٨). وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة الليثي، عن أبيه، عن جده علقمة، عن بلال بن الحارث المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت. يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه». قال: فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعه حديث بلال بن الحارث. ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، من حديث

محمد بن عمرو به . وقال الترمذي : حسن صحيح . وله شاهد في الصحيح . وقال الأحنف بن قيس : صاحب اليمين يكتب الخير ، وهو أمير على صاحب الشمال ، فإن أصاب العبد خطيئة قال له : أمسك ، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها ، وإن أبي كتبها . رواه ابن أبي حاتم . وقال الحسن البصري وتلا هذه الآية : ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قِيبُ﴾ : يا ابن آدم ، بُسِطَتْ لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك ، والآخر عن شمالك ، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك فاعمل ما شئت ، أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحتك ، وجعلت في عنقك معك في قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول : ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَمَّتْهُ طَسْأَةٌ مِنْ عَمَلِهِ وَفُتِحَ لَكُمُ الْيَوْمَ الْقِتْمَةُ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْمَسْئُورُ﴾ (١٣) ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا﴾ (١٤) [الإسراء: ١٣-١٤] ثم يقول : عدل - والله - فيك من جعلك حاسب نفسك . وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِيدٌ﴾ (١٥) قال : يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر ، حتى إنه ليكتب قوله : «أكلت ، شربت ، ذهبت ، جئت ، رأيت» ، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله ، فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر ، وألقى سائرته ، ذلك قوله : ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتْ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (١٦) [الرعد: ٢٩] ، وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يثن في مرضه ، فبلغه عن طاوس أنه قال : يكتب الملك كل شيء حتى الأنين . فلم يثن أحمد حتى مات رحمه الله . وقوله : ﴿وَبِمَاءَتِ سَكْرَةِ الْآلَوِي يَلْحَقُ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ عِيدٌ﴾ (١٧) ، يقول تعالى : وجاءت - أيها الإنسان - سكرة الموت بالحق ، أي : كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمتري فيه ، ﴿وَالَّذِي كُنْتَ مِنْهُ عِيدٌ﴾ أي : هذا هو الذي كنت تفر منه قد جاءك ، فلا محيد ولا مناص ، ولا فكاك ولا خلاص . وقد اختلف المفسرون في المخاطب بقوله : ﴿وَبِمَاءَتِ سَكْرَةِ الْآلَوِي يَلْحَقُ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ عِيدٌ﴾ (١٧) ، فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو . وقيل : الكافر ، وقيل : غير ذلك . وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا إبراهيم بن زياد - سبلان - أخبرنا عباد بن عباد عن محمد بن عمرو بن علقمة ، عن أبيه ، عن جده علقمة بن وقاص أن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : حضرت أبي وهو يموت ، وأنا جالسة عند رأسه ، فأخذته غشيّة فتمثلت بييت من الشعر :

مَنْ لَا يَزَالُ دَمْعُهُ مُنْقَطِعًا
فَإِنَّهُ لَا يَبْدُ مَرَّةً مَدْقُوقًا
قالت : فرفع رأسه فقال : يا بنية ، ليس كذلك ولكن كما قال الله تعالى : ﴿وَبِمَاءَتِ سَكْرَةِ الْآلَوِي يَلْحَقُ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ عِيدٌ﴾ (١٧) . وحدثنا خلف بن هشام ؛ حدثنا أبو شهاب الخياط ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن البهي قال : لما أن ثقل أبو بكر ، رضي الله عنه ، جاءت عائشة ، رضي الله عنها ، فتمثلت بهذا البيت :

لَعَمْرُكَ مَا يَغْنِي الشَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى
إِذَا حَشَرَجْتَ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ
فكشفت عن وجهه وقال : ليس كذلك ، ولكن قلني : ﴿وَبِمَاءَتِ سَكْرَةِ الْآلَوِي يَلْحَقُ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ عِيدٌ﴾ (١٧) . وقد أوردت لهذا الأثر طرقاً كثيرة في سيرة الصديق عند ذكر وفاته ، رضي الله عنه . وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ : لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : «سبحان الله ! إن للموت لسكرات» . وفي قوله : ﴿وَالَّذِي كُنْتَ مِنْهُ عِيدٌ﴾ قولان : أحدهما : أن «ما» هاهنا موصولة ، أي : الذي كنت منه تحيد - بمعنى : تبتعد وتناهي وتفر - قد حل بك ونزل بساحتك . والقول الثاني : أن «ما» نافية بمعنى : ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه ولا الحيد عنه . وقد قال الطبراني في المعجم الكبير : حدثنا محمد بن علي الصائغ المكي ، حدثنا حفص بن عمر الحدي ، حدثنا معاذ بن محمد الهذلي ، عن يونس بن عبيد ، عن الحسن ، عن سمره قال : قال رسول الله ﷺ : «مثل الذي يفر من الموت مثل الثعلب ، تطلبه الأرض يذبن ، فجاء يسعى حتى إذا أعى وأسهر دخل حجره ، فقالت له الأرض : يا ثعلب ، ديني . فخرج وله حصاص ، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه ومات» . ومضمون هذا المثل : كما لا انفكاك له ولا محيد عن الأرض كذلك الإنسان لا محيد له عن الموت . وقوله : ﴿وَنُفِثَ فِي السُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعْدِ﴾ (٢٠) . قد تقدم الكلام على حديث النفخ في الصور والفرع والصق والبعث ، وذلك يوم القيامة . وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحتى جبهته ، وانتظر أن يؤذن له» . قالوا : يا رسول الله كيف نقول؟ قال : «قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل» . فقال القوم : حسبنا الله ونعم الوكيل . ﴿وَبِمَاءَتِ كُلِّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَنَبِيذٌ﴾ (٢١) أي : ملك يسوقه إلى المحشر ، وملك يشهد عليه بأعماله . هذا هو الظاهر من الآية الكريمة . وهو اختيار ابن جرير ، ثم روى من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن يحيى بن رافع - مولى لثقيف - قال : سمعت عثمان بن عفان يخطب ، فقرأ هذه الآية : ﴿وَبِمَاءَتِ كُلِّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَنَبِيذٌ﴾ (٢١) ، فقال : سائق يسوقها إلى الله ، وشاهد يشهد عليها بما عملت . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد . وقال مطرّف ، عن أبي جعفر - مولى أشجع - عن أبي هريرة : السائق : الملك ، والشهيد : العمل . وكذا قال الضحاك والسدي . وقال العوفي عن ابن عباس : السائق من الملائكة ، والشهيد : الإنسان نفسه ، يشهد على نفسه . وبه قال

الضحاك بن مزاحم أيضاً. وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال في المراد بهذا الخطاب في قوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (٢٣). أحدها: أن المراد بذلك الكافر. رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وبه يقول الضحاك بن مزاحم وصالح بن كيسان. والثاني: أن المراد بذلك كل أحد من بر وفاجر؛ لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كالقطة والدنيا كالمنام. وهذا اختيار ابن جرير، ونقله عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس. والثالث: أن المخاطب بذلك النبي ﷺ. وبه يقول زيد بن أسلم، وابنه. والمعنى على قولهما: لقد كنت في غفلة من هذا الشأن قبل أن يوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك، فبصرك اليوم حديد. والظاهر من السياق خلاف هذا، بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ يعني: من هذا اليوم، ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: قوي؛ لأن كل واحد يوم القيامة يكون مستبصرًا، حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفهم ذلك. قال الله تعالى: ﴿أَنجِ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْفُ بَصَرِهِمْ وَلَا هُمْ يَأْتُونَ بِشَيْءٍ﴾ (٢٣٨)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَاتَّعَفَا فَاتَّعَفَلْ صَلِّبْنَا إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ (٢٣٧) [السجدة: ١٧].

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيْ عَيْدٍ ۖ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَعَفَارٍ عَيْدٍ ۖ﴾ (٢٣) ﴿مَتَاعٌ لِلْغَيْرِ يُغْتَنَبُ فِيهِ﴾ (٢٤) ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّآءَرًا فَأَلْفَيَا فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ (٢٥) ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَفْلَيْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (٢٦) ﴿قَالَ لَا تَحْسَبُوا لَدَيَّْ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكَ بِالْوَيْدِ﴾ (٢٧) ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّْ وَمَا أَنَا بِظَلِيمٍ لِّتَبِيرٍ﴾ (٢٨).

يقول تعالى مخبراً عن الملك الموكل بعمل ابن آدم: أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل، ويقول: ﴿هَذَا مَا لَدَيْ عَيْدٍ﴾ (٢٣) أي: معتد محضر بلا زيادة ولا نقصان. وقال مجاهد: هذا كلام الملك السائق يقول: هذا ابن آدم الذي وكلتني به، قد أحضرته. وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد، وله اتجاه وقوة. فعند ذلك يحكم الله، سبحانه وتعالى، في الخليفة بالعدل فيقول: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَعَفَارٍ عَيْدٍ﴾ (٢٣). وقد اختلف النحاة في قوله: ﴿أَلَيْسَ﴾، فقال بعضهم: هي لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالثنية، كما روي عن الحجاج أنه كان يقول: يا حرسى، اضربا عنقه، ومما أنشد ابن جرير على هذه اللغة قول الشاعر:

فلن تزجراني - يا ابن عفان - أنزجر
وإن تتركاني أحمر عرضاً ممنوعاً

وقيل: بل هي نون التوكيد، سهلت إلى الألف. وهذا بعيد؛ لأن هذا إنما يكون في الوقف، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أدى الشهيد عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم وبش المصير. ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَعَفَارٍ عَيْدٍ﴾ (٢٣) أي: كثير الكفر والتكذيب بالحق، ﴿عَيْدٍ﴾: معاند للحق، معارض له بالباطل مع علمه بذلك. ﴿مَتَاعٌ لِلْغَيْرِ﴾ أي: لا يؤدي ما عليه من الحقوق، ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة، ﴿يُغْتَنَبُ فِيهِ﴾ أي: فيما ينفقه ويصرفه، يتجاوز فيه الحد. وقال قتادة: معتد في منطقة وسيرته وأمره. ﴿ثَرِيبٌ﴾ أي: شاك في أمره، مريب لمن نظر في أمره ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّآءَرًا﴾ أي: أشرك بالله فعبد معه غيره، ﴿فَأَلْفَيَا فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾. وقد تقدم في الحديث: أن عنقاً من النار يبرز للخلائق فينادي بصوت يسمع الخلائق: إني وكلت بثلاثة، بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين ثم تلوى عليهم. قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية - هو ابن هشام - حدثنا شيبان، عن فراس، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري عن نبي الله ﷺ أنه قال: «يخرج عنق من النار يتكلم، يقول: وكلت اليوم بثلاثة: بكل جبار، ومن جعل مع الله إلهاً آخر، ومن قتل نفساً بغير نفس. فتنتطوي عليهم، فتقذفهم في غمرات جهنم». ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم: وهو الشيطان الذي وكل به: ﴿رَبَّنَا مَا أَفْلَيْتُمْ﴾ أي: يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافراً، يتبرأ منه شيطانه، فيقول: ﴿رَبَّنَا مَا أَفْلَيْتُمْ﴾ أي: ما أضللت، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي: بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانداً للحق. كما أخبر تعالى في الآية الأخرى في قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ لِي كُفِّرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢) [إبراهيم: ٢٢]. وقوله: ﴿قَالَ لَا تَحْسَبُوا لَدَيَّْ﴾ يقول الرب ﷻ للإنسي وقرينه من الجن، وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق فيقول الإنسي: يا رب، هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاني. ويقول الشيطان: ﴿رَبَّنَا مَا أَفْلَيْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي: عن منهج الحق. فيقول الرب ﷻ لهما: ﴿لَا تَحْسَبُوا لَدَيَّْ﴾ أي: عندي، ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكَ بِالْوَيْدِ﴾ أي: قد أعذرت إليكم على السنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين. ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّْ﴾: قال مجاهد: يعني قد قضيت ما أنا قاض، ﴿وَمَا أَنَا بِظَلِيمٍ لِّتَبِيرٍ﴾ أي: لست أعذب أحداً بذنب أحد، ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبه، بعد قيام الحجة عليه.

مريم أنه سمع مجاهداً يقول: لا يزال يقذف فيها حتى تقول: قد امتلأت فتقول: هل في من مزيد؟ وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو هذا. فعند هؤلاء أن قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾، إنما هو بعد ما يضع عليها قدمه، فتزوي وتقول حينئذ: هل بقي في من مزيد؟ يسع شيئاً. قال العوفي، عن ابن عباس: وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبرة. فالله أعلم. وقوله: ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلشَّيْطَانِ بَيِّنَاتٍ﴾: قال قتادة، وأبو مالك، والسدي: ﴿وَأَزَلَّتْ﴾ أدنيت وقربت من المتقين، ﴿بَيِّنَاتٍ﴾، غير بعيد، وذلك يوم القيامة، وليس ببعيد؛ لأنه واقع لا محالة، وكل ما هو آت. ﴿هَذَا مَا نُعْذِرُ لِكُلِّ آوَابٍ﴾ أي: رجاء تائب مقلع، ﴿حَافِظٌ﴾ أي: يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكته. وقال عبيد بن عمير: الأواب: الحفيظ الذي لا يجلس مجلساً فيقوم حتى يستغفر الله، ﴿مَنْ حَيَّيْنَاكَ الرَّحْمَنَ بِالتَّيِّبِ﴾ أي: من خاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلا الله. كقوله عليه السلام: «ورجل ذكر الله خالياً، ففاضت عيناه».

﴿وَمَا يَقْلِبُ فِي يَدَيْهِ﴾ أي: ولقي الله يوم القيامة بقلب سليم متيب إليه خاضع لديه. ﴿أَسْأَلُوكَ﴾ أي: الجنة ﴿يَسْأَلُكَ﴾، قال قتادة: سلّموا من عذاب الله، وسلم عليهم ملائكة الله. وقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْقُلُودِ﴾ أي: يخلدون في الجنة فلا يموتون أبداً، ولا يظعنون أبداً، ولا يبعثون عنها حولاً. وقوله: ﴿لَمْ يَأْكُلُوا فِيهَا﴾ أي: مهما اختاروا وجدوا، من أي أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا بَقِيَّةُ، عن بَجِيرِ بن سعد، عن خالد بن معدان، عن كثير بن مُرَّة قال: من المزيّد أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ماذا تريدون فأمطره لكم؟ فلا يدعون بشيء إلا أمطرتهم. قال كثير: لئن أشهدني الله ذلك لأقولن: أمطرينا جوارى مزيّنات. وفي الحديث عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال له: «إنك لتشتهي الطير في الجنة، فيخر بين يديك مشوياً». وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن عامر الأحول، عن أبي الصديق، عن أبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة، كان حمله ووضعته وسبته في ساعة واحدة». وزاد «كما يشتهي». وقوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَّعُوا لَمَّةً وَلِيَّاتٌ﴾ [يونس: ٢٦]. وقد تقدم في صحيح مسلم عن ضَهَبِ بن سنان الرومي: أنها النظر إلى وجه الله الكريم. وقد روى البزار وابن أبي حاتم، من حديث شريك القاض، عن عثمان بن عمير أبي اليقظان، عن أنس بن مالك في قوله ﷺ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قال: يظهر لهم الرب، ﷻ، في كل جمعة.

وقد رواه الإمام أبو عبد الله الشافعي مرفوعاً فقال في مسنده: أخبرنا إبراهيم بن محمد، حدثني موسى بن عبيدة، حدثني أبو الأزهر معاوية بن إسحاق بن طلحة، عن عبد الله بن عبيد بن عمير أنه سمع أنس بن مالك يقول: أتى جبرائيل بمرأة بيضاء فيها نكتة إلى رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: «ما هذه؟». فقال: هذه الجمعة، فُضِّلَتْ بها أنت وأمتك، فالناس لكم فيها تبع، اليهود، والنصارى، ولكم فيها خير، ولكن فيها ساعة لا يوافقها مؤمن يدعو الله بخير إلا استجيب له، وهو عندنا يوم المزيّد. قال النبي ﷺ: «يا جبريل، وما يوم المزيّد؟» قال: إن ربك اتخذ في الفردوس وادياً أفتح فيه كتب المسك، فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله ما شاء من ملائكته، وحوله من نور، عليها مقاعد النبيين، وحف تلك المنابر بمنابر من ذهب، مكللة بالياقوت والزبرجد، عليها الشهداء والصديقون فجلسوا من ورائهم على تلك الكتب، فيقول الله ﷻ: أنا ربكم، قد صدقتكم وعدي، فسلوني أعطكم. فيقولون: ربنا، نسألك رضوانك، فيقول: قد رضيت عنكم، ولكم على ما تمنيتم، ولدي مزيد. فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربهم من الخير، وهو اليوم الذي استوى فيه ربكم على العرش، وفيه خلق آدم، وفيه تقوم الساعة. وهكذا أورده الإمام الشافعي في كتاب «الجمعة» من الأم، وله طرق عن أنس بن مالك، رضي الله عنه. وقد أورد ابن جرير هذا من رواية عثمان بن عمير، عن أنس بأبسط من هذا، وذكر هاهنا أثراً أطولاً عن أنس بن مالك موقوفاً وفيه غرائب كثيرة. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا ذراج عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل في الجنة ليتكىء في الجنة سبعين سنة قبل أن يتحول ثم تأتیه امرأة فنضرب على منكبيه فينظر وجهه في خدها أصفى من المرأة، وإن أدنى لؤلؤ عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب. فتسلم عليه، فيرد السلام، فيسألها: من أنت؟ فتقول: أنا من المزيّد. وإنه ليكون عليها سبعون حلة، أدهاها مثل النعمان، من طوبى، فينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من رواء ذلك، وإن عليها من التيجان، إن أدنى لؤلؤة منها تضيء ما بين المشرق والمغرب». وهكذا رواه عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث، عن ذراج، به.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحْمُودٍ﴾ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَإِصْحَارًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ

وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّا مِنْ نُفُوسٍ ﴿٣٧﴾ فَأَصْبَرَ عَلَى مَا بَقُولُوكَ وَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى: وكما أهلكنا قبل هؤلاء المنكرين: ﴿مِن قَرِينٍ هُمْ أَشَدُّ بِطْنًا﴾ أي: كانوا أكثر منهم وأشد قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَسَبِّحُوا فِي اللَّيْلِ﴾: قال ابن عباس: أثروا فيها. وقال مجاهد: ﴿فَسَبِّحُوا فِي اللَّيْلِ﴾: ضربوا في الأرض. وقال قتادة: فساروا في البلاد، أي ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم أنتم فيها ويقال لمن طوف في البلاد: نقب فيها. قال امرؤ القيس:

لَقَدْ نَقَبْتُ فِي الْأَقَاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الْعَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ
وقوله: ﴿هَلْ مِنْ غَمِيمٍ﴾ أي: هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعوه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل؟ فأنتم أيضاً لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا﴾ أي: لعبرة ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي: لب يمي به. وقال مجاهد: عقل ﴿أَوِ الْفَى السَّمْعِ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: استمع الكلام فوعاه، وتعلقه بقلبه وتفهمه بلبه. وقال مجاهد: ﴿أَوِ الْفَى السَّمْعِ﴾ يعني: لا يحدث نفسه بغيره، ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ وقال: شاهد بالقلب. وقال الضحاك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه: إذا استمع بأذنيه وهو شاهد يقول غير غائب. وهكذا قال الثوري وغير واحد. وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّا مِنْ نُفُوسٍ﴾ ﴿٣٧﴾: فيه تقرير المعاد؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن، قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأحرى. وقال قتادة: قالت اليهود: عليهم لعائن الله -: خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه: ﴿وَمَا مَسَّا مِنْ نُفُوسٍ﴾ أي: من إعياء ولا نصب ولا تعب، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لَهُنَّ ثَقِيلًا يُقَدِّرْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٣٨﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وكما قال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وقال: ﴿أَنَّهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرَأَيْتُمْ أَتَيْنَاهُمُ﴾ [التازعات: ٢٧].

وقوله: ﴿فَأَصْبَرَ عَلَى مَا بَقُولُوكَ﴾ يعني: المكذبين، اصبر عليهم واهجرهم هجراً جميلاً، ﴿وَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾، وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتين قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجباً على النبي ﷺ وعلى أمته حولاً، ثم نسخ في حق الأمة وجوبه. ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر، لا تضامون فيه، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا». ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾.

ورواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة، من حديث إسماعيل، به. وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي: فصل له، كقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: هو التسبيح بعد الصلاة. ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم. فقال: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا تنصدق، ويعتقون ولا نعتق! قال: «أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين». قال: فقالوا: يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله. قال: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء». والقول الثاني: أن المراد بقوله: ﴿وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ﴾: هما الركعتان بعد المغرب، روى ذلك عن عمر وعلي، وابنه الحسن وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي أمامة، وبه يقول مجاهد، وعكرمة، والشعبي، والثخفي والحسن وقاتدة، وغيرهم. قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وعبد الرحمن، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن عاصم بن ضمرة، عن علي قال: كان رسول الله ﷺ يصلي على أثر كل صلاة مكتوبة ركعتين إلا الفجر والعصر. وقال عبد الرحمن: دبر كل صلاة. ورواه أبو داود والنسائي، من حديث سفيان الثوري، به. زاد النسائي: ومطرف، عن أبي إسحاق، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا هارون بن إسحاق الهمداني، حدثنا ابن

﴿٧﴾ إِنَّكَ لَنِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قِيلَ لَمَنْزُورٌ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ قَامَ فِي عَمَرٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَتْلُونَ آيَاتِ الْيَوْمِ الَّذِينَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ قَامَ عَلَى أَلْوَانٍ يَنْتَوُونَ ﴿١٣﴾ دُوقُوا وَفَتَكُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَحْيُونَ ﴿١٤﴾ .

قال شعبة بن الحجاج، عن سيماك، عن خالد بن عزة أنه سمع علياً وشعبة أيضاً، عن القاسم بن أبي بزة، عن أبي الطفيل، سمع علياً. وثبت أيضاً من غير وجه، عن أمير المؤمنين على ابن أبي طالب: أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألوني عن آية في كتاب الله، ولا عن سنة عن رسول الله، إلا أنبأكم بذلك. فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا﴾ ﴿١﴾؟ قال: الريح قال: ﴿فَالَّذِينَ ذَرَوْا﴾ ﴿٢﴾؟ قال: السحاب. قال: ﴿فَالَّذِينَ ذَرَوْا﴾ ﴿٣﴾؟ قال: السفن. قال: ﴿فَالَّذِينَ ذَرَوْا﴾ ﴿٤﴾؟ قال: الملائكة. وقد روى في ذلك حديث مرفوع، فقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن هاني، حدثنا سعيد بن سلام العطار، حدثنا أبو بكر بن أبي سبرة، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: جاء صبيغ التميمي إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا﴾ ﴿١﴾؟ فقال: هي الرياح، ولولا أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول ما قلته. قال: فأخبرني عن ﴿فَالَّذِينَ ذَرَوْا﴾ ﴿٢﴾؟ قال: هي الملائكة، ولولا أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول ما قلته. قال: فأخبرني عن ﴿فَالَّذِينَ ذَرَوْا﴾ ﴿٣﴾؟ قال: هي السفن، ولولا أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول ما قلته. ثم أمر به فضرب مائة، وجعل في بيت، فلما برأ دعا به وضربه مائة أخرى، وحمله على قتب، وكتب إلى أبي موسى الأشعري: امنع الناس من مجالسته. فلم يزل كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف بالأيمان الغليظة ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئاً. فكتب في ذلك إلى عمر، فكتب عمر: ما إخاله إلا صدق، فخل بينه وبين مجالسة الناس. قال أبو بكر البزار: فأبو بكر بن أبي سبرة لين، وسعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث. قلت: فهذا الحديث ضعيف رفعه، وأقرب ما فيه أنه موقوف على عمر، فإن قصة صبيغ بن عسل مشهور مع عمر، وإنما ضربه لأنه ظهر له من أمره فيما يسأل تعنتاً وعناداً، والله أعلم. وقد ذكر الحافظ ابن عساكر هذه القصة في ترجمة صبيغ مطولة. وهكذا فسرهما ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسدي، وغير واحد. ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم غير ذلك. وقد قيل: إن المراد بالذاريات: الريح كما تقدم، وبالحاملات وقرأ: السحاب كما تقدم؛ لأنها تحمل الماء، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل:

وَأَسْلَمْتُ نَفْسِي لِمَنْ أَتَلَمَّتْ لَهُ الْمَرْزُ نُحْمِلُ عَذْباً زُلَالاً
فأما الجاريات يسراً، فالمشهور عن الجمهور - كما تقدم - أنها السفن، تجري ميسرة في الماء جرياً سهلاً. وقال بعضهم: هي النجوم تجري يسراً في أفلاكها، ليكون ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، إلى ما هو أعلى منه، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمراً للملائكة فوق ذلك، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية. وهذا قسم من الله ﷻ على وقوع المعاد؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا وَعْدٌ لِمَا كَانَ﴾ ﴿٥﴾؟ أي: لخبر صدق، ﴿وَالَّذِينَ﴾، وهو: الحساب ﴿لَمَّا﴾؟ أي: لكائن لا محالة. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا﴾ ﴿٦﴾؟ قال ابن عباس: ذات البهاء والجمال والحسن والاستواء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو مالك، وأبو صالح، والسدي، وقتادة، وعطية العوفي، والربيع بن أنس، وغيرهم. وقال الضحاك، والزهري، بن عمرو، وغيرهما: مثل تجعد الماء والرمل والزرع إذا ضربته الريح، فينسج بعضه بعضاً طرائق طرائق، فذلك الحبك. قال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علفي، حدثنا أيوب، عن أبي قلابة، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «إن من ورائكم الكذاب المضل، وإن رأسه من ورائه حُبْكُ حُبْك» يعني بالحبك: الجعودة. وعن أبي صالح: ﴿ذَاتُ الْمُبْكِ﴾: الشدة. وقال خصيف: ﴿ذَاتُ الْمُبْكِ﴾: ذات الصفاقة. وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: ﴿ذَاتُ الْمُبْكِ﴾: حبكت بالنجوم. وقال قتادة: عن سالم بن أبي الجعد، عن مغدان بن أبي طلحة، عن عمرو البكالي، عن عبد الله بن عمرو: ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا﴾ ﴿٧﴾؟ يعني: السماء السابعة. وكأنه - والله أعلم - أراد بذلك السماء التي فيها الكواكب الثابتة، وهي عند كثير من علماء الهيئة في الفلك الثامن الذي فوق السابع، والله أعلم. وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، وهو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس، رضي الله عنهما، فإنها من حسنهما مرتفعة شفاقة صفيقة، شديدة البناء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مكلفة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات. وقوله: ﴿إِنَّكَ لَنِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ ﴿٨﴾؟ أي: إنكم أيها المشركون المكذبون للرسول لفي قول مختلف مضطرب، لا يلتزم ولا يجتمع. وقال قتادة: إنكم لفي قول مختلف، يعني ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به. ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ ﴿٩﴾؟ أي: إنما يروج على من هو ضال في نفسه؛ لأنه قول باطل إنما يتقاد له ويضل بسببه ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال غمر، لا فهم له، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَكُ وَمَا تَبْدُونَ﴾ ﴿١٠﴾ مَا أَشْرَ عَلَيْهِ يَفْتِنِينَ ﴿١١﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [الصافات: ١٦١ - ١٦٣]. قال ابن عباس، والسدي: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ﴾

وقال أبو قلابة: جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل، فقال رجل من الصحابة: هذا المحروم. وقال ابن عباس أيضاً: وسعيد بن المسيّب، وإبراهيم النخعي، ونافع - مولى ابن عمر - وعطاء ابن أبي رباح ﴿وَالْمَحْرُومُ﴾: المحارف. وقال قتادة، والزهري: ﴿وَالْمَحْرُومُ﴾: الذي لا يسأل الناس شيئاً، قال الزهري وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بالطواف الذي تروده اللقمة واللقمتان، والتمرّة والتمرّتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفتن له فيصدق عليه». وهذا الحديث قد أسنده الشيخان في صحيحيهما من وجه آخر. وقال سعيد بن جببر: هو الذي يجيء وقد قُسم المغنم، فيرضخ له. وقال محمد بن إسحاق: حدثني بعض أصحابنا قال: كنا مع عمر بن عبد العزيز في طريق مكة فجاء كلب فانتزع عمر كتف شاة فرمى بها إليه، وقال: يقولون: إنه المحروم. وقال الشعبي: أعياني أن أعلم ما المحروم. واختار ابن جرير أن المحروم: هو الذي لا مال له بأي سبب كان، قد ذهب ماله، سواء كان لا يقدر على الكسب، أو قد هلك ماله أو نحوه بأقاة أو نحوه. وقال الثوري، عن قيس بن مسلم، عن الحسن بن محمد؛ أن رسول الله ﷺ بعث سرية فغنموا، فجاء قوم لم يشهدوا الغنيمة فنزلت هذه الآية: ﴿وَقَدْ أَمَرْتَهُمْ حَتَّى لَسَالِ الْخَيْلِ وَالْمَحْرُومِ﴾. وهذا يقتضي أن هذه مدينة، وليس كذلك، بل هي مكة شاملة لما بعدها. وقوله: ﴿وَقَدْ أَمَرْتَهُمْ حَتَّى لَسَالِ الْخَيْلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ أي: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبّال، والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألْسنة الناس واللوانهم، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَقَدْ أَتَيْتُكُمْ أَفْلا تُفَكِّرُونَ﴾. قال قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة. ثم قال: ﴿وَقَدْ أَمَرْتَهُمْ بِرُفْقٍ﴾ يعني: المطر، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يعني: الجنة. قاله ابن عباس، ومجاهد وغير واحد. وقال سفيان الثوري: قرأ واصل الأحدب هذه الآية: ﴿وَقَدْ أَمَرْتَهُمْ بِرُفْقٍ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فقال: ألا إني أرى رزقي في السماء، وأنا أطلبه في الأرض؟ فدخل خربة فمكث فيها ثلاثاً لا يصيب شيئاً، فلما أن كان في اليوم الثالث إذا هو بدُوخْلَةٍ من رطب، وكان له أخ أحسن نية منه، فدخل معه فصارتا دُوخْلَتَيْنِ، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق الموت بينهما. وقوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾: يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء، كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون. وكان معاذ، رضي الله عنه، إذا حدث بالشئ يقول لصاحبه: إن هذا لحق كما أنك هاهنا. قال مسدد، عن ابن أبي عدي، عن عوف،

عن الحسن البصري قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا». ورواه ابن جرير، عن بُذَار، عن ابن أبي عدي، عن عوف، عن الحسن، فذكره مرسلًا.

﴿هَلْ أَنْتَ حَبِيبٌ لِإِبْرَاهِيمَ الْمُرْكَوْمِ﴾ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّشْكِرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَأَى إِلَهُكُ أَهْلِيكَ فَمَلَأَ بِعَيْنَيْهِ سِيبًا ﴿٢٦﴾ فَفَرَّقَهُمْ إِنَّهُمْ قَالَ آلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَرْجَسَ مِنْهُمْ جُفَاءً فَأُولَا لَا تَحْتَفَ وَبَشَّرُوهُ بِمُكْرِمٍ عَلَيْكَ ﴿٢٨﴾ فَأَنْبَأَكَ أَمْرَانَهُمَا فِي صَرْقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهُمَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْمُكْرِمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ .

هذه القصة قد تقدمت في سورة «هود» و«الحجر» أيضاً. وقوله: ﴿هَلْ أَنْتَ حَبِيبٌ لِإِبْرَاهِيمَ الْمُرْكَوْمِ﴾ (٢٤) أي: الذين أُرصد لهم الكرامة. وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل. وقوله: ﴿فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ﴾: الرفع أقوى وأثبت من النصب، فردّه أفضل من التسليم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّمَ يَنْصَبُوا خَبِيرًا أَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهُمَا﴾ [النساء: ٨٦]، فالخليل اختار الأفضل. وقوله: ﴿قَوْمٌ مُّشْكِرُونَ﴾: وذلك أن الملائكة وهم: جبريل وإسرافيل وميكائيل قدموا عليه في صور شباب حسان عليهم مهابة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿قَوْمٌ مُّشْكِرُونَ﴾. وقوله: ﴿فَرَأَى إِلَهُكُ أَهْلِيكَ﴾ أي: انسل خفية في سرعة، ﴿فَمَلَأَ بِعَيْنَيْهِ سِيبًا﴾ أي: من خيار ماله. وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنْهُمْ بِالْبَشْرِيبِ قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ بِعِثَلٍ خَبِيرٌ﴾ [هود: ٦٩] أي: مشوي على الرُصف، ﴿فَفَرَّقَهُمْ﴾ أي: أدناه منهم، ﴿قَالَ آلَا تَأْكُلُونَ﴾: تلتطف في العبارة وعرض حسن. وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛ فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولاً فقال: «ناتيككم بطعام؟» بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتي سمين مشوي، فقربه إليهم، لم يضعه، وقال: اقتربوا، بل، وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿آلَا تَأْكُلُونَ﴾، على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتصدق، فافعل.

وقوله: ﴿فَأَرْجَسَ مِنْهُمْ جُفَاءً﴾: هذا محال على ما تقدم في القصة في السورة الأخرى، وهو قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَرْجَسَ مِنْهُمْ جُفَاءً قَالُوا لَا تَحْتَفَ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمٌ لُوطٌ﴾ (٢٥) وَأَمْرَانَهُمَا قَاهِمَةً فَصَكَّتْ [هود: ٧٠-٧١] أي: استبشرت بهلاكهم؛ لتبردهم وعتوهم على الله، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. ﴿قَالَتْ يَوْنُتَلَقِمْ إِلَيْهِ وَانَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَفِي كَيْدٍ عَجِيبٍ﴾ (٢٦) قَالُوا أَنْتَجِيبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَّتُمْ عَلَيْهِمْ أَفَلَا أَلَيْبُ إِنَّهُ حَبِيبٌ خَيْرٌ ﴿٢٧﴾ [هود: ٧٢-٧٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِمُكْرِمٍ عَلَيْكَ﴾، فالبشارة له هي بشارة لها؛ لأن الولد منها، فكل منهما بشر به. وقوله: ﴿فَأَنْبَأَكَ أَمْرَانَهُمَا فِي صَرْقٍ﴾ أي: في صرخة عظيمة ورنه، قاله ابن عباس: ومجاهد، وعكرمة، وأبو صالح، والضحاك، وزيد بن أسلم، والثوري، والسدي، وهي قولها: ﴿آلَا تَسْتَدْعُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرْمَةٌ تَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ (٢٨). ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: ضربت يدها على جبينها، قاله مجاهد وابن سابط. وقال ابن عباس: لطمت، أي تعجبت كما تتعجب النساء من الأمر الغريب، ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: كيف ألد وأنا عجوز عقيم، وقد كنت في حال الصبا عقيماً لا أحبل؟ ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْمُكْرِمُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٠) أي: عليم بما تستحقون من الكرامة، حكيم في أقواله وأفعاله.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمٌ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِئَرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِمَارًا مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ سُوءَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَرَفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَنْفَرَحْنَا مِنْهَا كَانِ فِيهَا مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿٣٥﴾ مَا مَدَنَّا فِيهَا عِزٌّ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَرَكَّا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ .

قال الله مخبراً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّفْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرُ مُبْعِدًا فِي قَوْمٍ لُوطٌ﴾ (٢٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٢٥﴾ يَكَلِّمُهُمْ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ قَدْ جَاءَهُ أَمْرٌ مِنْ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ عَزِيزٌ مَرْدُودٌ ﴿٢٦﴾ [هود: ٧٤-٧٦]. وقال هاهنا: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣١) أي: ما شأنكم وفيهم جنتم؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمٌ مُّجْرِمِينَ﴾ (٣٢) يعنون قوم لوط، ﴿لِئَرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِمَارًا مِنْ طِينٍ﴾ (٣٣) أي: معلمة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَرَفِينَ﴾ أي: مكتوبة عنده بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه، فقال في سورة العنكبوت: ﴿قَالَ إِنَّكَ فِيهَا لُوطًا قَالُوا لَا تَحْتَفَ أَعْلَمَ بَيْنَ فِتْيَانٍ لَشَجَرَةٍ وَاهِلَةٍ إِلَّا أَمْرَانَهُمَا كَانَتْ مِنَ الْقَدِيرِ﴾ (٢٢) [العنكبوت: ٢٢]. وقال هاهنا: ﴿فَأَنْفَرَحْنَا مِنْهَا كَانِ فِيهَا مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (٣٥)، وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته، ﴿مَا مَدَنَّا فِيهَا عِزٌّ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٦). احتج بهذه الآية من ذهب إلى رأي المعتزلة، ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام؛ لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين. وهذا الاستدلال ضعيف؛ لأن هؤلاء كانوا قوماً مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس، فاتفق الاسمان هاهنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك في كل حال. وقوله: ﴿وَرَكَّا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٣٧) أي: جعلناها عبرة، لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا محللتهم

بحيرة منتنة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين، ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

﴿وَفِي مِثْقَلِ ذَرَّةٍ لَّكَ رِزْقٌ وَإِنَّ رِزْقَكَ شَدِيدٌ ۝٣٨﴾ ﴿فَرَحُّوا فِي ذِكْرِ رَبِّهِمْ ۝٣٩﴾ ﴿فَإِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۝٤٠﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَمَلَةٌ كَالْهَبِ ۝٤١﴾ ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَسْبَحُوا حَتَّىٰ يَجِيءَ ۝٤٢﴾ فَمَتَّعْنَا عَنْ أَثَرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ وَهُمْ يَمْخُطُونَ ۝٤٣﴾ مَا اسْتَغْلَقُوا مِنْ يَدَاهُ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ ۝٤٤﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ أَنِ يَأْتِيَهُمُ الْقَارِعُ وَمَا لَهُمْ لَمَمٌ ۝٤٥﴾.

يقول تعالى: ﴿وَفِي مِثْقَلِ ذَرَّةٍ لَّكَ رِزْقٌ﴾ آية ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رُحُونًا مِّن بَنِي إِدْرِيسَ﴾ أي: بدليل باهر وحجة قاطعة، ﴿فَتَوَلَّىٰ رُحُونًا مِّن بَنِي إِدْرِيسَ﴾ أي: فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين، استكباراً وعناداً. وقال مجاهد: تعزز بأصحابه. وقال قتادة: غلب عدو الله على قومه. وقال ابن زيد: ﴿فَتَوَلَّىٰ رُحُونًا مِّن بَنِي إِدْرِيسَ﴾ أي: بجموعه التي معه، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَايَ إِلَىٰ رُحِيِّ رَبِّي لَمَكُنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. والمعنى الأول قوي كقوله: ﴿ثَوْبِي عَطِيْفٌ يُصْبِلُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٩] أي: معرض عن الحق مستكبر، ﴿وَقَالَ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ أي: لا يخلو أملك فيما جنتني به من أن تكون ساحراً أو مجنوناً، قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي الْيَمِّ﴾ وهو البحر، ﴿وَقَوْمَ يُدْعَىٰ عَلَيْهِمُ الرِّيحُ الْعَقِيمَ﴾ أي: وهو مملوك كافر جاحد فاجر معاند. ثم قال: ﴿وَفِي عَادَ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أي: المفسدة التي لا تنتج شيئاً. قاله الضحاك، وقتادة، وغيرهما. ولهذا قال: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ﴾ أي: مما تفسده الريح ﴿إِلَّا جَمَلَةً كَالْهَبِ﴾ أي: كالشيء الهالك البالي. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي عبد الله بن وهب، حدثني عبد الله - يعني: ابن عياش - القتياني، حدثني عبد الله بن سليمان، عن دراج، عن عيسى بن هلال الصَّدْفِي، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «الريح مسخرة من الثانية - يعني من الأرض الثانية - فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحاً تهلك عاداً، قال: أي رب، أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور؟ قال له الجبار: لا، إذا تكفأ الأرض ومن عليها، ولكن أرسل عليهم، بقدر خاتم. فهي التي يقول الله في كتابه: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَمَلَةً كَالْهَبِ﴾. هذا الحديث رفعه منكر، والأقرب أن يكون موقوفاً على عبد الله بن عمرو، من زاملته اللتين أصابهما يوم اليرموك، والله أعلم. قال سعيد بن المسيب وغيره في قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ قالوا: هي الجنوب. وقد ثبت في الصحيح من رواية شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلك عاد بالدمور». ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَسْبَحُوا حَتَّىٰ يَجِيءَ ۝٤٢﴾ قال ابن جرير: يعني إلى وقت فناء آجالكم. والظاهر أن هذه كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْكَفَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ الْعَذَابُ﴾ [فصل: ١٧]. وهكذا قال هاهنا: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَسْبَحُوا حَتَّىٰ يَجِيءَ ۝٤٢﴾ فَمَتَّعْنَا عَنْ أَثَرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ وَهُمْ يَمْخُطُونَ ۝٤٣﴾، وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكثرة النهار ﴿فَمَا اسْتَغْلَقُوا مِنْ يَدَاهُ﴾ أي: من هرب ولا نهوض، ﴿وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ﴾ أي: ولا يقدر أن ينصرفوا مما هم فيه. وقوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ أَنِ يَأْتِيَهُمُ الْقَارِعُ وَمَا لَهُمْ لَمَمٌ ۝٤٥﴾ وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿إِنَّمَا كَانُوا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ وكل هذه القصص قد تقدمت مبسطة في أماكن كثيرة، من سور متعددة.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَا بِمِيزَانٍ وَإِنَّا لَنُوزِنُهُنَّ بِكَالِ الذُّبَابِ وَوَاسِعًا ۝٤٦﴾ ﴿وَالْأَرْضَ بَنَيْنَاهَا فِي سِتْمَةِ الْيَوْمِ ۝٤٧﴾ ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٨﴾ ﴿فَقَرَأُوا إِلَى اللَّهِ إِلَى اللَّهِ ۝٤٩﴾ ﴿إِنِّي لَكُن مِّنْ نَّذِيرِ اللَّهِ ۝٥٠﴾ وَلَا تَقْسَمُوا بِاللهِ إِنَّهَا مَآخِزٌ لِّي لَكُن مِّنْ نَّذِيرِ اللَّهِ ۝٥١﴾.

يقول تعالى منبهاً على خلق العالم العلوي والسفلي: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَا بِمِيزَانٍ﴾ أي: جعلناها سقفاً محفوظاً رقيقاً ﴿بِمِيزَانٍ﴾ أي: بقوة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والثوري، وغير واحد، ﴿وَالْأَرْضَ بَنَيْنَاهَا فِي سِتْمَةِ الْيَوْمِ﴾، أي: قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد، حتى استقلت كما هي، ﴿وَالْأَرْضَ بَنَيْنَاهَا فِي سِتْمَةِ الْيَوْمِ﴾ أي: جعلناها فراشاً للمخلوقات، ﴿فَتَمَّ السَّيِّئُونَ﴾ أي: وجعلناها مهداً لأهلها، ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، وحتى الحيوانات جن وإنس، ذكور وإناث والنباتات؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له، ﴿فَقَرَأُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: الجؤوا إليه، واعتمدوا في أموركم عليه، ﴿إِنِّي لَكُن مِّنْ نَّذِيرِ اللَّهِ﴾. ﴿وَلَا تَقْسَمُوا بِاللهِ إِنَّهَا مَآخِزٌ لِّي﴾ أي: ولا تشرکوا به شيئاً، ﴿إِنِّي لَكُن مِّنْ نَّذِيرِ اللَّهِ﴾.

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سِيرًا أَوْ حُكْمًا مِّن بَنِي إِدْرِيسَ ۝٥٢﴾ ﴿أَوَاسُوا بِهِمْ بِمَا هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ ۝٥٣﴾ ﴿فَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ أَنْتَ يَمْلِكُ ۝٥٤﴾ ﴿وَذَكَرَ أَنَّ الْوَكْرَيْنَ نَفْعَ الْوَكْرَيْنِ ۝٥٥﴾ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِعِبَادَتِي ۝٥٦﴾ ﴿مَا أُرِيدُ بِهِمْ مِنْ زُفْرٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ۝٥٧﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْتَّيْنِ ۝٥٨﴾ ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا تَبْلُغُ ذُنُوبَ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْمِلُونَ ۝٥٩﴾ ﴿فَوَلَّىٰ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾.

يقول تعالى مسلماً نبيه ﷺ: وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذبون الأولون لرسولهم: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سِيرًا أَوْ حُكْمًا مِّن بَنِي إِدْرِيسَ﴾.

رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاهُوَ أَوْ يُحَدِّثُونَ ﴿٥٧﴾ ! قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ بِالْعَدْلِ﴾ أي: أوصى بعضهم بعضاً بهذه المقالة؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: لكن هم قوم طغاة، تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال مقدمهم. قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ عَذَابِ اللَّهِ غَافِلُونَ﴾ أي: فاعرض عنهم يا محمد، ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلَكٍ﴾ يعني: فما تلومك على ذلك ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ أي: إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة. ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٩﴾ أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا ليقروا بعبادتي طوعاً أو كرهاً وهذا اختيار ابن جرير. وقال ابن جُرَيج: إلا ليعرفون. وقال الربيع بن أنس: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا للعبادة. وقال السدي: من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع، ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولُوا اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] هذا منهم عبادة، وليس ينفعهم مع الشرك. وقال الضحّاك: المراد بذلك المؤمنون. وقوله: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ﴾ ﴿٦٠﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْتَّيِّنِ ﴿٦١﴾ قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم وأبو سعيد قالا: حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود قال: أقراني رسول الله ﷺ: ﴿إِنِّي لَأَنَا الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ﴾. ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث إسرائيل، وقال الترمذي: حسن صحيح. ومعنى الآية: أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم. قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا عمران - يعني ابن زائدة بن ثييب - عن أبيه، عن أبي خالد - هو الوالبي - عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿قال الله: يا ابن آدم، تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمَلًا صَدْرَكَ غَنَى، وَأَسَدَ فَرْكَ، وَلَا تَفْعَلْ مَلَأَتْ صَدْرَكَ شَغْلًا وَلَمْ أَسَدْ فَرْكَ﴾. ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث عمران بن زائدة، وقال الترمذي: حسن غريب. وقد روى الإمام أحمد عن وكيع وأبي معاوية، عن الأعمش، عن سلام أبي شُرَحْبِيل، سمعت حَبَّةً وسواء ابني خالد يقولان: أتينا رسول الله ﷺ وهو يعمل عملاً أو يبني بناءً - وقال أبو معاوية: يصلح شيئاً - فاعناه عليه، فلما فرغ دعا لنا وقال: «لا تياساً من الرزق ما تهزرت رؤوسكم، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة، ثم يعطيه الله ويرزقه». وقد ورد في بعض الكتب الإلهية: «يقول الله تعالى: ابن آدم، خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلك برزقك فلا تتعب فاطلبي تجديني؛ فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فُتكت فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء». وقوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا﴾ أي: نصيباً من العذاب، ﴿يَنْتَلِ ذُنُوبَ أَحْسَنِ مِنْهُمَ فَلَا يَسْتَعْمِلُونَ﴾ أي: فلا يستعملون ذلك، فإنه واقع بهم لا محالة ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ يعني: يوم القيامة.

آخر تفسير سورة الطور والآيات



تفسير سورة الطور

وهي مكية. قال مالك، عن الزهري، عن محمد بن جُبَيْر بن مطعم، عن أبيه: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً - أو قراءة - منه. أخرجه من طريق مالك وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن يوسف، أخبرنا مالك، عن محمد بن عبد الرحمن بن ثَوَّل، عن عُرْوَةَ، عن زينب بنت أبي سلمة، عن أم سلمة قالت: شَكَوتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنِّي أَشْتَكِي، فَقَالَ: «طُوفِي مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ وَأَنْتِ رَاكِبَةٌ» فطفت، ورسول الله ﷺ يصلي إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ﴾ (١) وَكَتَبَ مَسْطُورٌ (٢) فِي رَفٍّ مَشْهُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَشْهُورِ (٤) وَالْقَفِّ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالنَّحْرِ الْمَشْهُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَمْ يَنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَبِيرُ الْجِبَالُ سِبْكَ (١٠) قَوْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِي هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ (١٤) أَسِخْرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ (١٥) أَسَلَوْهَا قَاصِرُونَ أَوْ لَا تَبْصُرُونَ (١٦) سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنْثَارٌ أَوْ لَمْ يَنْثَرُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٧).

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة: أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم. فالطور هو: الجبل الذي يكون

فيه أشجار، مثل الذي كلم الله عليه موسى، وأرسل منه عيسى، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طوراً، وإنما يقال له: جبل. ﴿وَكُنْزٍ مَّنْشُورٍ﴾ قيل: هو اللوح المحفوظ. وقيل: الكتب المنزلة المكتوبة التي تقرأ على الناس جهاراً؛ ولهذا قال: ﴿وَرَفِ مَّنْشُورٍ﴾. ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء: بعد مجاوزته إلى السماء السابعة: «ثم رفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم» يعني: يتعدون فيه يطوفون، كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم كذلك ذاك البيت، هو كعبة أهل السماء السابعة؛ ولهذا وجد إبراهيم الخليل، عليه السلام، مسنداً ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها، ويصلون إليه، والذي في السماء الدنيا يقال له: بيت العزة. والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا روح بن جنان، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «في السماء السابعة بيت يقال له: «المعمور» بحيال الكعبة، وفي السماء الرابعة نهر يقال له: «الحيوان» يدخله جبريل كل يوم، فينغمس فيه انغماسة، ثم يخرج فينتفض انتفاضة يخبر عنه سبعون ألف قطرة، يخلق الله من كل قطرة ملكاً يؤمرون أن يؤتوا البيت المعمور، فيصلوا فيه فيفعلون، ثم يخرجون فلا يعودون إليه أبداً، ويولى عليهم أحدهم، يؤمر أن يقف بهم من السماء موقفاً يسبحون الله فيه إلى أن تقوم الساعة». هذا حديث غريب جداً، تفرد به روح بن جنان هذا، وهو القرشي الأموي مولا هم أبو سعد الدمشقي، وقد أنكر هذا الحديث عليه جماعة من الحفاظ منهم: الجوزجاني، والعقيلي، والحاكم أبو عبد الله النيسابوري، وغيرهم. قال الحاكم: لا أصل له من حديث أبي هريرة، ولا سعيد، ولا الزهري.

وقال ابن جرير: حدثنا هناد بن السري، حدثنا أبو الأحوص، عن سماك بن حرب، عن خالد بن عرعة، أن رجلاً قال لعلي: ما البيت المعمور؟ قال: بيت في السماء يقال له: «الضراح»، وهو بحيال الكعبة من فوقها، حرمة في السماء كحرمة البيت في الأرض، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة، لا يعودون فيه أبداً. وكذا رواه شعبة وسفيان الثوري، عن سماك وعندهما أن ابن الكواء هو السائل عن ذلك. ثم رواه ابن جرير عن أبي كريب، عن طلحة بن غنم، عن زائدة، عن عاصم، عن علي بن ربيعة قال: سأل ابن الكواء عن البيت المعمور، قال: مسجد في السماء يقال له: «الضراح»، يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة، ثم لا يعودون فيه أبداً. ورواه من حديث أبي الطفيل، عن علي بن عيسى، عن ابن عباس: هو بيت حذاء العرش، تعمده الملائكة، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والربيع بن أنس، والسدي، وغير واحد من السلف. وقال قتادة: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «هل تدرون ما البيت المعمور؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه مسجد في السماء بحيال الكعبة، لو خر لخر عليها، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم». وزعم الضحاك أنه يعمره طائفة من الملائكة يقال لهم: الجن، من قبيلة إبليس، فإله أعلم.

وقوله: ﴿وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعَ﴾: قال سفيان الثوري: وشعبة، وأبو الأحوص، عن سماك، عن خالد بن عرعة، عن علي: ﴿وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعَ﴾ يعني: السماء، قال سفيان: ثم تلا: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]. وكذا قال مجاهد، وقاتدة، والسدي، وابن جزي، وابن زيد، واختاره ابن جرير. وقال الربيع بن أنس: هو العرش، يعني: أنه سقف لجميع المخلوقات، وله اتجاه، وهو يُراد مع غيره كما قاله الجمهور. وقوله: ﴿وَالْبَحْرَ الْمَتَجَرِّجَ﴾: قال الربيع بن أنس: هو الماء الذي تحت العرش، الذي ينزل الله منه المطر الذي يحيى به الأجساد في قبورها يوم معادها. وقال الجمهور: هو هذا البحر. واختلف في معنى قوله: ﴿الْمَتَجَرِّجَ﴾، فقال بعضهم: المراد أنه يوقد يوم القيامة ناراً كقوله: ﴿وَإِذَا أَلْمَأَسَّرَ مَنَاجِدَ﴾ [التكوير: ٦] أي: أضرمت فتصير ناراً تتأجج، محيطاً بأهل الموقف. رواه سعيد بن المسيب، عن علي بن أبي طالب، وزوي عن ابن عباس. وبه يقول سعيد بن جببر، ومجاهد، وعبد الله بن عبيد بن عمير، وغيرهم. وقال العلاء بن بدر: إنما سمي البحر المسجور لأنه لا يُشرب منه ماء، ولا يسقى به زرع، وكذلك البحار يوم القيامة. كذا رواه عنه ابن أبي حاتم. وعن سعيد بن جببر: ﴿وَالْبَحْرَ الْمَتَجَرِّجَ﴾ يعني: المرسل. وقال قتادة: ﴿وَالْبَحْرَ الْمَتَجَرِّجَ﴾: المملوء. واختاره ابن جرير ووجهه بأنه ليس موقداً اليوم فهو مملوء. وقيل: المراد به: الفارغ، قال الأصمعي، عن أبي عمرو بن العلاء، عن ذي الرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْبَحْرَ الْمَتَجَرِّجَ﴾: قال: الفارغ؛ خرجت أمة تستسقي فرجعت فقالت: «إن الحوض مسجور»، تعني: فارغاً. رواه ابن مردويه في مسانيد الشعراء.

وقيل: المراد بالمسجور: الممنوع المكفوف عن الأرض؛ لئلا يغمرها فيغرق أهلها. قاله علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس،

وبه يقول السدي وغيره، وعليه يدل الحديث الذي رواه الإمام أحمد، رحمه الله، في مسنده، فإنه قال: حدثنا يزيد، حدثنا العوام، حدثني شيخ كان م رابطاً بالساحل قال: لقيت أبا صالح مولى عمر بن الخطاب فقال: حدثنا عمر بن الخطاب، عن رسول الله ﷺ قال: «ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات، يستأذن الله أن ينفضخ عليهم، فيكفه الله ﷻ». وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلي: حدثنا الحسن بن سفيان، عن إسحاق بن راهويه، عن يزيد - وهو ابن هارون - عن العوام بن حوشب، حدثني شيخ م رابط قال: خرجت ليلة لحربي لم يخرج أحد من الحرس غيري، فأتيت الميناء فصعدت، فجعل يخیل إلي أن البحر يشرف يحاذي رؤوس الجبال، فعل ذلك مراراً وأنا مستيقظ، فلقيت أبا صالح فقال: حدثنا عمر بن الخطاب: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من ليلة إلا والبحر يشرف ثلاث مرات، يستأذن الله أن ينفضخ عليهم، فيكفه الله ﷻ». فيه رجل مبهم لم يسم. وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧): «هذا هو المقسم عليه، أي: الواقع بالكافرين، كما قال في الآية الأخرى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ﴾ (٨): أي: ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك. قال الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن داود، عن صالح المري، عن جعفر بن زيد العبدي قال: خرج عمر يَمَسُّ المدينة ذات ليلة، فمر بدار رجل من المسلمين، فوافقه قائماً يصلي، فوقف يستمع قراءته فقراً: ﴿وَالطُّورِ﴾ (١) حتى بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧) مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ (٨) قال: قسم - ورب الكعبة - حق. فنزل عن حمارة واستند إلى حائط، فمكث ملياً، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهراً يعود الناس لا يدرون ما مرضه، رضي الله عنه. وقال الإمام أبو عبيد في «فضائل القرآن»: حدثنا محمد بن صالح، حدثنا هشام بن حسان، عن الحسن: أن عمر قرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧) مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ (٨)، فربا لها ربوة، عيد منها عشرين يوماً. وقوله: ﴿يَوْمَ تَمُوتُ أُنثَىٰ مَوْتًا﴾ (٩): قال ابن عباس وقتادة: تتحرك تحريكاً. وعن ابن عباس: هو تشققها، وقال مجاهد: تدور دوراً. وقال الضحاك: استدارتها وتحريكها لأمر الله، وموج بعضها في بعض. وهذا اختيار ابن جرير أنه التحرك في استدارة: قال: وأنشد أبو عبيدة معمر بن المثنى بيت الأعشى:

كَانَ مَشْيَئُهَا مِنْ بَيْتٍ جَارَتْهَا مَوْرُ السَّحَابَةِ، لَا زَيْتٌ وَلَا عَجَلٌ
﴿وَنَسِيرُ الْجِبَالِ سِيرًا﴾ (١٠): أي: تذهب فتصير هباء منبثاً، وتنسف نفسها، ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (١١): أي: ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم، وعقابه لهم، ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ (١٢): أي: هم في الدنيا يخوضون في الباطل، ويتخذون دينهم هزواً ولعباً، ﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ﴾ (١٣): أي: يدعون ويساقون، ﴿إِلَىٰ نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ (١٤): وقال مجاهد، والشعبي، ومحمد بن كعب، والضحاك، والسدي، والثوري: يدعون فيها دفعاً ﴿هَذِهِ أُنثَىٰ الَّتِي كُتِرَ بِهَا لُكْذِبُونَ﴾ (١٥): أي: تقول لهم الزبانية ذلك تقريباً وتوبيخاً، ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْهَرُونَ﴾ (١٦): أي: ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ﴾ (١٧): أي: سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا، لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها، ﴿عَلَيْكُمْ إِنَّمَا جَزَاءُ مَا كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ (١٨): أي: ولا يظلم الله أحداً، بل يجازي كلا بعمله.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ (١٩) فَكَفَيْهِمْ بِمَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّعَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٢٠﴾ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُتِبَ لَهُمْ يَوْمَ تَقْلَقُونَ ﴿٢١﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ مُرَرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَاجُهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٢﴾.

يخبر تعالى عن حال السعداء فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ (١٩)، وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال، ﴿فَكَفَيْهِمْ بِمَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ (٢٠): أي: يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ، من مأكول ومشرب وملابس ومسكن ومراكب وغير ذلك، ﴿وَوَقَّعَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (٢١): أي: يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ، من مأكول ومشرب وملابس ومسكن ومراكب وغير ذلك، ﴿وَوَقَّعَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (٢١): أي: وقد نجاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حدثها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة، التي فيها من السرور ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وقوله: ﴿كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُتِبَ لَهُمْ يَوْمَ تَقْلَقُونَ﴾ (٢١)، كقوله: ﴿كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَتَقَفْتُمْ فِي آلِيَاءِ فَلَالِيَةٍ﴾ (٢٢) [الحاقة: ٢٤]. أي: هذا بذاك، تفضلاً منه إحساناً. وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ مُرَرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ (٢٢) قال الثوري، عن حصين، عن مجاهد، عن ابن عباس: السرر في الحجال. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان، حدثنا صفوان بن عمرو: أنه سمع الهيثم بن مالك الطائي يقول: إن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليتكلى المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول عنه ولا يمله، يأتيه ما اشتبهت نفسه ولذت عينه». وحدثنا أبي، حدثنا هُذَيْفَةُ بن خالد، عن سليمان بن المغيرة، عن ثابت قال: بلغنا أن الرجل ليتكلى في الجنة سبعين سنة، عنده من أزواجه وخدمه وما أعطاه الله من الكرامة والنعيم، فإذا حانت منه نظرة فإذا أزواج له لم يكن رآهن قبل ذلك، فيقلن: قد آن لك أن تجعل لنا منك نصيباً. ومعنى ﴿مَصْفُوفَةٍ﴾ (٢٢): أي: وجوه بعضهم إلى بعض، كقوله:

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الصفحات: ٤٤]. ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ بَحُورَ عَيْنٍ﴾ أي: وجعلناهم قرينات صالحات، وزوجات حسناً من الحور العين. وقال مجاهد: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ﴾: أنكحناهم بحور عين، وقد تقدم وصفهن في غير موضع بما أغنى عن إعادته.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ قُلْنَا بَيْنَهُمْ لَافِتًا بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا كُتِبَ لَهُمْ مِنْ شَيْءٍ مِنْهُمَا فَكُلُوا مِنْهُمَا وَيَسْتَبِشِرُوا بِهِمَا وَلَا تَأْيِثْهُمْ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زُلْفَتَانِ مِنْهُمْ كَأَنَّهُمْ فَوْقُ ثَمَرٍ حَامٍ﴾ ﴿٢٢﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِهَا مُتَفَرِّقِينَ ﴿٢٤﴾ فَكَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَوَقَّعْنَا عَلَيْهِمُ الْقُسُوفَ ﴿٢٥﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٦﴾.

يخبر تعالى عن فضله وكرمه، وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه: إن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بآبائهم في المنزل وإن لم يبلغوا عملهم، لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته، للتساوي بينه وبين ذاك، ولهذا قال: ﴿لَفَتْنَا بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا كُتِبَ لَهُمْ مِنْ شَيْءٍ مِنْهُمَا فَكُلُوا مِنْهُمَا وَيَسْتَبِشِرُوا بِهِمَا﴾. قال الثوري: عن عمرو بن مَرْة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه في العمل، لتقر بهم عينه ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ قُلْنَا بَيْنَهُمْ لَافِتًا بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا كُتِبَ لَهُمْ مِنْ شَيْءٍ مِنْهُمَا فَكُلُوا مِنْهُمَا وَيَسْتَبِشِرُوا بِهِمَا﴾. وكذا رواه ابن جرير من حديث شعبة عن عمرو بن مَرْة به. ورواه البزار، عن سهل بن بحر، عن الحسن بن حماد الوراق، عن قيس بن الربيع، عن عمرو بن مَرْة، عن سعيد، عن ابن عباس مرفوعاً، فذكره، ثم قال: وقد رواه الثوري، عن عمرو بن مرة، عن سعيد، عن ابن عباس موقوفاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد البيروني، أخبرني محمد بن شعيب أخبرني شببان، أخبرني ليث، عن حبيب بن أبي ثابت الأسدي، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس في قول الله، ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ قُلْنَا بَيْنَهُمْ لَافِتًا بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال: هم ذرية المؤمن، يموتون على الإيمان: فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم الحقوا بآبائهم، ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوها شيئاً.

وقال الحافظ الطبراني: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن غزوان، حدثنا شريك، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس - أظنه عن النبي ﷺ - قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك. فيقول: يا رب، قد عملت لي ولهم. فيؤمر بالحقاقهم به، وقرأ ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. وقال القوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: يقول: والذين أدرك ذريتهم الإيمان فعملوا بطاعتي، ألحقهم بإيمانهم إلى الجنة، وأولادهم الصغار تلحق بهم. وهذا راجع إلى التفسير الأول، فإن ذلك مفسر أصرح من هذا. وهكذا يقول الشعبي، وسعيد بن جبيرة، وإبراهيم، وقتادة، وأبو صالح، والربيع بن أنس، والضحاك، وابن زيد. وهو اختيار ابن جرير. وقد قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا حمد بن فضال، عن محمد بن عثمان، عن زاذان، عن علي قال: سألت خديجة النبي ﷺ عن ولدين ماتا لها في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «هما في النار». فلما رأى الكراهة في وجهها قال: «لورأت مكانهما لأبغضتهما». قالت: يا رسول الله، فولدي منك. قال: «في الجنة». قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ قُلْنَا بَيْنَهُمْ لَافِتًا بَيْنَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية. وهذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء، فقد قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا رب، أني لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك». إسناده صحيح، ولم يخرجوه من هذا الوجه، ولكن له شاهد في صحيح مسلم، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

وقوله: ﴿كُلُّ أُنْثَىٰ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: كل أنثى بما كسبت رهينة، أي: مرتين بعمله، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء كان أباً أو ابناً، كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ ﴿٢٧﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْآلَيْنِ ﴿٢٨﴾ فِي جَنَّتٍ يَسْأَلُونَ ﴿٢٩﴾ عَنِ الْمُتَجَرِّينِ ﴿٣٠﴾ [المعشر: ٣٨-٤١]. وقوله: ﴿وَأَمَّا ذُنُوبُهُمْ فَبِكُفْرِهِمْ وَلَعَنُوا وَمِمَّا يُنْتَهَوْنَ﴾ ﴿٣١﴾ أي: وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى، مما يستطاب ويشتهى. وقوله: ﴿يَسْتَرْعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي: يتعاطون فيها كأساً، أي: من الخمر. قاله الضحاك. ﴿لَا لَوْ فِيهَا وَلَا تَأْيِثُ﴾ أي: لا يتكلمون عنها بكلام لاغ، أي: هذيان، ولا إنهم، أي: فحش، كما تتكلم به الشربة من أهل الدنيا. وقال ابن عباس: اللغو: الباطل. والتأيم: الكذب. وقال مجاهد: لا يستبون ولا يؤثمون. وقال قتادة: كان ذلك في الدنيا مع الشيطان.

وقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زُمَرٌ لَّهُمْ كَانَهُمْ يَنْزِلُونَ﴾ (٢٤): إخبار عن خدامهم وحشمهم في الجنة كأنهم اللؤلؤ الرطب، المكنون في حشمتهم وبهائهم ونظافتهم وحسن ملابسهم، كما قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ (١٧) ﴿أَكْرَابٌ وَآيَاتٌ وَكَافُرٌ مِّن مِّمِينَ﴾ (١٨). وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَلَّلُونَ﴾ (٢٥) أي: أقبلوا يتحادثون ويتسائلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، وهذا كما يتحدث أهل الشراب على شرايبهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم، ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي هَٰذَا دُنْيَا مُّشْفِقِينَ﴾ (٢٦) أي: قد كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه، ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقْنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٢٧) أي: فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف، ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلَ نَدْعُوهُ﴾ أي: نتضرع إليه، فاستجاب الله لنا وأعطانا سؤلنا، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾. وقد ورد في هذا المقام حديث، رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده فقال: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا سعيد بن دينار، حدثنا الربيع بن صبيح، عن الحسن، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة اشتاقوا إلى الإخوان، فيجيء سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا، فيتحدثان، فيتكئ هذا ويتكئ هذا، فيتحدثان بما كان في الدنيا، فيقول أحدهما لصاحبه: يا فلان، تدري أي يوم غفر الله لنا؟ يوم كنا في موضع كذا وكذا، فدعونا الله ﷻ - فغفر لنا». ثم قال البزار: لا نعرفه يُروى إلا بهذا الإسناد. قلت: وسعيد بن دينار الدمشقي قال أبو حاتم: هو مجهول، وشيخه الربيع بن صبيح قد تكلم فيه غير واحد من جهة حفظه، وهو رجل صالح ثقة في نفسه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي الصخري، عن مسروق، عن عائشة؛ أنها قرأت هذه الآية: ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقْنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٢٧) ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلَ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (٢٨)، فقالت: اللهم مُنْ علينا وقنا عذاب السموم، إنك أنت البر الرحيم. قيل للأعمش: في الصلاة؟ قال: نعم.

ثم قال تعالى منكرًا عليهم في قولهم في الرسول، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرْنَاهُ رِيبَ الْآلَتِينَ﴾ أي: قوارع الدهر. والمنون: الموت. يقولون: ننظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبُّوا لِيَ مَعَكُمْ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: انتظروا لاني منتظر معكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والتصرة في الدنيا والآخرة. قال محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: إن قريشًا لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ قال قائل منهم: احتسبوه في وثاق، ثم تربصوا به رب المنون حتى يهلك، كما هلك من هلك قبله من الشعراء زهير والنايفة، إنما هو كأحدهم. فانزل الله في ذلك في قولهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرْنَاهُ رِيبَ الْآلَتِينَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَنْتُمْ بِذُنُوبٍ﴾ أي: عقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولونه فيك من الأقوال الباطلة التي يعلمون في أنفسهم أنها كذب وزور؟ ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: ولكن هم قوم ضلال معاندون، فهذا هو الذي يحملهم على ما قاله فيك. وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَتْلُوهُ﴾ أي: اختلقه واقتراه من عند نفسه، يعنون القرآن: قال الله: ﴿بَلْ لَا يَزِيدُكَ﴾ أي: كفرهم هو الذي يحملهم على هذه المقالة. ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أي: إن كانوا صادقين في قولهم: «تقولوه واقتراه» فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس، ما جاؤوا بمثله، ولا بعشر سور من مثله، ولا بسورة من مثله.

﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ عَيْرٍ شَيْءًا ۚ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كُلَّ يَوْمٍ تَوَلَّى ۚ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِرٌ رَحِيكٌ ۚ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَهُمْ سُلُبٌ مَسْمُوعَةٌ فِيهِ تَلْكَابٌ سَمِيعٌ يُبْطِلُنَّ شَيْئًا ۚ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبُيُوتُ ﴿٣٧﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ يَنْفَرُونَ ۚ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ ۚ أَمْ هُمُ السَّمِيعُونَ ۚ﴾

فَعَمَّ يَتَّبِعُونَ ﴿٤٤﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٥﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٦﴾

هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أي: أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً. قال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان قال: حدثني عن الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنَ الْأَرْضِ بَلْ لَا يُفْقَهُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ كاد قلبي أن يطير. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من طرق، عن الزهري، به. وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركاً، وكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمّله على الدخول في الإسلام بعد ذلك. ثم قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنَ الْأَرْضِ بَلْ لَا يُفْقَهُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ أي: أهم خلقوا السموات والأرض؟ وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده، لا شريك له. ولكن عدم إيمانهم هو الذي يحملهم على ذلك، ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمُ الْمُحْضِرُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ أي: أهم يتصرفون في الملك ويبدعهم مفاتيح الخزائن، ﴿أَمْ هُمُ الْمُحْضِرُونَ﴾ أي: المحاسبون للخلائق، ليس الأمر كذلك، بل الله، هو المالك المتصرف الفعال لما يريد. وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلُسُوفٌ يُحْشِرُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ أي: مرقاة إلى الملا الأعلى، ﴿فَلْيَاكِتَسِبْكُمْ يُسْلُطْنَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فليأت الذي يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال، أي: وليس لهم سبيل إلى ذلك، فليسوا على شيء، ولا لهم دليل. ثم قال منكرأ عليهم فيما نسبوه إليه من البنات، وجعلهم الملائكة إناثاً، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث، بحيث إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم. هذا وقد جعلوا الملائكة بنات الله، وعبدوهم مع الله، فقال: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ ﴿٤٩﴾، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، ﴿أَمْ تَتَنَزَّلُ أَنْجَارُ﴾ أي: أجرة على إبلاغك إياهم رسالة الله؟ أي: لست تسألهم على ذلك شيئاً، ﴿فَهُمْ مِنْ تَفَرُّقٍ مُتَفَرِّقُونَ﴾، أي: فهم من أدنى شيء يتبرمون منه، ويثقلهم ويشق عليهم، ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ أي: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله، ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ ﴿٥١﴾ يقول تعالى: أم يريد هؤلاء يقولهم هذا في الرسول وفي الدين غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم، فالذين كفروا هم المكيدون، ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٢﴾. وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله. ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون، فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿إِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ ﴿٥٣﴾ فَنَذَرُهمُ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ وَأَصْبَحَ لُكُمُ الرَّيْكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٥٧﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٥٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس: ﴿إِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا﴾ أي: عليهم يعذبون به، لما صدقوا ولما أيقنوا، بل يقولون: هذا ﴿سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ أي: متراكم. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَمْرُغُونَ﴾ ﴿٥٣﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ عَنْ قَوْمٍ مُشْجُونِينَ﴾ ﴿٥٤﴾ [الحجر: ١٤-١٥]. قال الله تعالى: ﴿فَنَذَرُهُمْ﴾ أي: دعهم - يا محمد - حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾، وذلك يوم القيامة، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي: لا ينفعهم كيدهم ومكرهم الذي استعملوه في الدنيا، لا يُجدي عنهم يوم القيامة شيئاً، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾. ثم قال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: قبل ذلك في الدار الدنيا، كقوله: ﴿وَلَكِنْ يَفْتَنُهمُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ [السجدة: ٢١]، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: نغلبهم في الدنيا، وتبليهم فيها بالمصائب، لعلمهم يرجعون وينبون، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جلى عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه، كما جاء في بعض الأحاديث: «إن المنافق إذا مرض وعوفي مثله في ذلك كمثل البعير، لا يدرى فيما عقلوه ولا فيما أرسلوه». وفي الأثر الإلهي: كم أعصيك ولا تعاقبني؟ قال الله: يا عبيدي، كم أعافيك وأنت لا تدري؟ وقوله: ﴿وَأَصْبَحَ لُكُمُ الرَّيْكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: اصبر على أذاهم ولا تبالهم، فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا، والله يعصمك من الناس.

وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾: قال الضحاك: أي إلى الصلاة: سبحانهك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك. وقد روى مثله عن الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما. وروى مسلم في صحيحه، عن عمر أنه كان يقول هذا في ابتداء الصلاة. ورواه أحمد وأهل السنن، عن أبي سعيد وغيره، عن النبي ﷺ أنه كان يقول ذلك.

وقال أبو الجوزاء: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بَيْنَ قَوْمٍ﴾ أي: من نومك من فراشك. واختاره ابن جرير: ويتأيد هذا القول بما رواه الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسدد، حدثنا الأوزاعي، حدثني عُمَيْرُ بْنُ هَانِيَةَ، حدثني جنادة بن أبي أمية، حدثنا عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال: «من تعار من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. سبحانه الله. والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: رب اغفر لي - أو قال: ثم دعا - استجيب له، فإن عزم فتوضأ، ثم صلى تقبلت صلاته». وأخرجه البخاري في صحيحه، وأهل السنن، من حديث الوليد بن مسلم، به. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بَيْنَ قَوْمٍ﴾ قال: من كل مجلس. وقال الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بَيْنَ قَوْمٍ﴾ قال: إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال: سبحانه اللهم ويحمدك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الدمشقي، حدثنا محمد بن شعيب، أخبرني طلحة بن عمرو الحضرمي، عن عطاء بن أبي رباح؛ أنه حدثه عن قول الله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بَيْنَ قَوْمٍ﴾، يقول: حين تقوم من كل مجلس، إن كنت أحسنت ازددت خيراً، وإن كان غير ذلك كان هذا كفارة له. وقد قال عبد الرزاق في جامعه: أخبرنا مَعْمَرُ، عن عبد الكريم الجَزْرِي، عن أبي عثمان الفقير؛ أن جبريل علم النبي ﷺ إذا قام من مجلسه أن يقول: سبحانه اللهم ويحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. قال مَعْمَرُ: وسمعت غيره يقول: هذا القول كفارة المجالس. وهذا مرسل، وقد وردت أحاديث مسندة من طرق - يقرى بعضها بعضاً - بذلك، فمن ذلك حديث ابن جُرَيْج، عن سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «من جلس في مجلس فكثر فيه لفظه فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانه اللهم ويحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك». رواه الترمذي - وهذا لفظه - والنسائي في اليوم والليلة، من حديث ابن جريج. وقال الترمذي: حسن صحيح. وأخرجه الحاكم في مستدركه وقال: إسناده على شرط مسلم، إلا أن البخاري علله.

قلت: علله الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو حاتم، وأبو زُرْعَةَ، والدارقطني، وغيرهم. ونسبوا الوهم فيه إلى ابن جُرَيْج. على أن أبا داود قد رواه في سننه من طريق غير ابن جريج إلى أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ بنحوه. ورواه أبو داود - واللفظ له - والنسائي، والحاكم في المستدرک، من طريق الحجاج بن دينار، عن هاشم، عن أبي العالية، عن أبي بَزْزَةَ الأسلمي قال: كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: «سبحانك اللهم ويحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك». فقال رجل: يا رسول الله، إنك لتقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى؟! قال: «كفارة لما يكون في المجلس». وقد روي مرسلًا عن أبي العالية، والله أعلم. وهكذا رواه النسائي والحاكم، من حديث الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن رافع بن خديج، عن النبي ﷺ مثله سواء. وروي مرسلًا أيضاً، والله أعلم. وكذا رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو؛ أنه قال: «كلمات لا يتكلم بهن أحد في مجلسه عند قيامه ثلاث مرات، إلا كفر بهن عنه، ولا يقولهن في مجلس خير ومجلس ذكر، إلا ختم له بهن كما يختم بالخاتم على الصحيفة: سبحانه اللهم ويحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»، وأخرجه الحاكم من حديث أم المؤمنين عائشة، وصححه، ومن رواية جُبَيْرِ بْنِ مطعم. ورواه أبو بكر الإسماعيلي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، كلهم عن النبي ﷺ. وقد أفردت لذلك جزءاً على حدة بذكر طرقه وألفاظه وعلله، وما يتعلق به، والله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي: اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة في الليل، كما قال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ. نَافِلَةً لَكَ عَنْكَ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. وقوله: ﴿وَرَدِّدْ الشُّجُورَ﴾: قد تقدم في حديث ابن عباس أنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر، فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم، أي: عند جنوحها للغيبوبة. وقد روي في حديث ابن سيلان، عن أبي هريرة مرفوعاً: «لا تَدْعُوهُمَا، وإن طردتكم الخيل». يعني: ركعتي الفجر، رواه أبو داود. ومن هذا الحديث حكى عن بعض أصحاب الإمام أحمد القول بوجوبهما، وهو ضعيف لحديث: «خمس صلوات في اليوم والليلة». قال: هل علي غيرها؟ قال: «لا إلا أن تطوع». وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر. وفي لفظ لمسلم: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها».

آخر تفسير سورة الطور

والله أعلم

تفسير سورة النجم

وهي مكية. قال البخاري: حدثنا نصر بن علي، أخبرني أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الأسود بن يزيد، عن عبد الله قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة: ﴿وَالنَّجْمِ﴾، قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، رأيته بعد ذلك قُتل كافراً، وهو أمية بن خلف. وقد رواه البخاري أيضاً في مواضع، ومسلم وأبو داود والنسائي، من طرق، عن أبي إسحاق، به. وقوله في الممتنع: إنه أمية بن خلف في هذه الرواية مشكل، فإنه قد جاء من غير هذه الطريق أنه عتبة بن ربيعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَبْطِئُ عَنِ الْمَوْتِ ۝٣ إِن مَوْءَدًّا يُوقَىٰ ۝٤﴾ .

قال الشعبي وغيره: الخالق يُقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق. رواه ابن أبي حاتم. واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ فقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: يعني بالنجم: الثريا إذا سقطت مع الفجر. وكذا روي عن ابن عباس، وسفيان الثوري. واختاره ابن جرير. وزعم السدي أنها الزهرة. وقال الضحاك: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ يعني: القرآن إذا نزل. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ۝٧٥﴾ وَإِنَّهُمْ لَقَارِكُوكُمْ كِيمَ ۝٧٦﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْتُومٍ ۝٧٧﴾ لَا يَسْمَعُ إِلَّا السَّمْعُ ۝٧٨﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٨٠﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٠]. وقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾: هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بأنه بار راشد تابع للحق، ليس بضال، وهو: الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم، والغاوي: هو العالم بالحق العادل عنه قصداً إلى غيره، فتره الله سبحانه وتعالى رسوله وشرعه من مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود، وعن علم الشيء وكتمانه والعمل بخلافه، بل هو، صلوات الله وسلامه عليه، وما بعثه الله به من الشرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَبْطِئُ عَنِ الْمَوْتِ ۝٣﴾ أي: ما يقول قولاً عن هوى وغرض، ﴿إِن مَوْءَدًّا يُوقَىٰ ۝٤﴾ أي: إنما يقول ما أمر به، يبلغه إلى الناس كاملاً موثقاً من غير زيادة ولا نقصان، كما رواه الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا حريز بن عثمان، عن عبد الرحمن بن ميسرة، عن أبي أمامة؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليدخلن الجنة شفاعة رجل ليس بنبي مثل الحيين - أو: مثل أحد الحيين - ربيعة ومضر». فقال رجل: يا رسول الله، أو ما ربيعة من مضر؟ قال: «إنما أقول ما أقول». وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عبيد الله بن الأخنس، أخبرنا الوليد بن عبد الله، عن يوسف بن مَاهَك، عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله، ورسول الله ﷺ بشر، يتكلم في الغضب، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «اكتب، فوالذي نفسي بيده، ما خرج مني إلا حق». ورواه أبو داود عن مُسَدَّد وأبي بكر بن أبي شيبه، كلاهما عن يحيى بن سعيد القطان، به. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا الليث، عن ابن عجلان، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما أخبرتكم أنه الذي من عند الله، فهو الذي لا شك فيه». ثم قال: لا نعلمه يُروى إلا بهذا الإسناد. وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليث، عن محمد، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لا أقول إلا حقا». قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله؟ قال: «إني لا أقول إلا حقا».

﴿عَلَّمَ شَيْدُ الْقُوَى ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَرَمَ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَرَمَ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتَسْمُرُونَ عَلٰى مَا بَيْنَ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِنْدَ رَبِّهِ الشَّلَا ۝١٤ عِنْدَ جَنَّةِ الْأُفُقِ ۝١٥ إِذْ يَنْتَقِي الْيَدْنَةُ مَا يَنْتَقِي ۝١٦ مَا رَأَىٰ الْبَصَرُ وَمَا لَمْ يَلْمِ ۝١٧ لَقَدْ كَانَ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله محمد ﷺ أنه ﴿عَلَّمَ﴾ الذي جاء به إلى الناس ﴿شَيْدُ الْقُوَى﴾، وهو جبريل، عليه السلام، كما قال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١﴾ [التكوير: ١٩-٢١]. وقال هاهنا: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾

أي: ذو قوة. قاله مجاهد، والحسن، وابن زيد. وقال ابن عباس: ذو منظر حسن. وقال قتادة: ذو خلق طويل حسن. ولا منافاة بين القولين؛ فإنه، عليه السلام، ذو منظر حسن، وقوة شديدة. وقد ورد الحديث الصحيح من رواية أبي هريرة وابن عمرو أن النبي ﷺ قال: «لا تحل الصدقة لغني»، ولا لذي مرة سيئ. وقوله: «فَاسْتَوَى» يعني: جبريل، عليه السلام. قاله مجاهد والحسن وقاتدة، والربيع بن أنس «وَوُفَّ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى» يعني: جبريل، استوى في الأفق الأعلى. قاله عكرمة وغير واحد. قال عكرمة: والأفق الأعلى: الذي يأتي منه الصبح. وقال مجاهد: هو مطلع الشمس. وقال قتادة: هو الذي يأتي منه النهار. وكذا قال ابن زيد، وغيرهم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة، حدثنا مضر بن عمرو البجلي أبو القاسم، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن طلحة بن مصرف، حدثني أبي، عن الوليد - هو ابن قيس - عن إسحاق بن أبي الكهتلة أظنه ذكره عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل في صورته إلا مرتين، أما واحدة فإنه سأله أن يراه في صورته فسد الأفق. وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد، فذلك قوله: «وَوُفَّ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى» يعني: جبريل، عليه السلام. وقد قال ابن جرير هاهنا قولاً لم أره لغيره، ولا حكاه هو عن أحد، وحاصله: أنه ذهب إلى أن المعنى: «فَاسْتَوَى» أي: هذا الشديد القوى ذو المرة هو ومحمد صلى الله عليهما وسلم «بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى» أي: استويا جميعاً بالأفق، وذلك ليلة الإسراء كذا قال، ولم يوافقه أحد على ذلك. ثم شرع يوجه ما قال من حيث العربية فقال: وهذا كقوله تعالى: «أَوَدَّا كُنَّا تَرَاً وَمَا بَاقِيَا» [النمل: ٦٧]، فعطف بالآباء على المكثي في «كُنَّا» من غير إظهار «نحن»، فكذاك قوله: «فَاسْتَوَى وَفُورٌ» قال: وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده:

لَمْ تَرَ أَنَّ النَّبِيَّ يَضْلُبُ عُودَهُ وَلَا يَسْتَوِي وَالْخَرْزُفُ الْمُسْقُصُفُ
وهذا الذي قاله من جهة العربية متجه، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك؛ فإن هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء، بل قبلها، ورسول الله ﷺ في الأرض، فهبط عليه جبريل، عليه السلام، وتدلّى إليه، فاقترب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدره المنتهى، يعني ليلة الإسراء، وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة بعد ما جاء جبريل، عليه السلام، أول مرة، فأوحى الله إليه صدر سورة «اقرأ»، ثم فتر الوحي فترة ذهب النبي ﷺ فيها مراراً ليلتردى من رؤوس الجبال، فكلما همّ بذلك ناداه جبريل من الهواء: «يا محمد، أنت رسول الله حقاً، وأنا جبريل». فيسكن لذلك جأشه، وتقر عينه، وكلما طال عليه الأمر عاد لمثلها، حتى تبدّى له جبريل ورسول الله ﷺ في الأبطح في صورته التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح قد سدّ عظم خلقه الأفق، فاقترب منه، وأوحى إليه عن الله، ﷻ، ما أمره به، فعرف عند ذلك عظمة المَلَك الذي جاءه بالرسالة، وجلالة قدره، وعلو مكانته عند خالقه الذي بعثه إليه. فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده حيث قال: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا الحارث بن عبيد، عن أبي عمران الجوني، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «بيننا أنا قاعد إذ جاء جبريل، عليه السلام، فوَكَّرَ بين كتفي، فقمت إلى شجرة فيها كَوْكَبِي الطير، فقعدي في أحدهما وقعدت في الآخر. فَسَمَتِ وارتفعت حتى سَدَّتِ الخافقين وأنا أقبل طرفي، ولو شئت أن أمس السماء لمست، فالتفت إلى جبريل كأنه حُلَس لاط فعرفت فضل علمه بالله علي. وفتيح لي باب من أبواب السماء ورأيت النور الأعظم، وإذا دون الحجاب رفرة الدر والياقوت. وأوحى إلى ما شاء الله أن يوحى». ثم قال البزار: لا يرويه إلا الحارث بن عبيد، وكان رجلاً مشهوراً من أهل البصرة. قلت: الحارث بن عُبيد هذا هو أبو قدامة الإيادي، أخرج له مسلم في صحيحه إلا أن ابن معين ضعفه، وقال: ليس هو بشيء. وقال الإمام أحمد: مضطرب الحديث. وقال أبو حاتم الرازي: كتب حديثه ولا يحتج به. وقال ابن حبان: كَثُرَ وَهْمُهُ فلا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد. فهذا الحديث من غرائب رواياته، فإن فيه نكارة وغرابة ألفاظ وسياقاً عجيباً، ولعله منام، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شريك، عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سدّ الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدرر والياقوت ما الله به عليم. انفرد به أحمد. وقال أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن إدريس بن مثنى، عن وهب بن منبه، عن ابن عباس قال: سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته، فقال: ادع ربك. فدعاه، فطلع عليه سواد من قبل المشرق، فجعل يرتفع ويتنشر، فلما رآه النبي ﷺ صيق، فأثابه فتعشّه ومسح الزقاق عن شذقه. انفرد به أحمد. وقد رواه ابن عساكر في ترجمة «عتبة بن أبي لهب»، من طريق محمد بن إسحاق، عن عثمان بن عروة بن الزبير، عن أبيه، عن هُبَّار بن الأسود قال: كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام، فتجهزت معهما، فقال ابنه عتبة: والله لأنطلقن إلى محمد ولأودينه في ربه، سبحانه، فانطلق حتى أتى النبي ﷺ، فقال: يا محمد، هو يكفر بالذي دنى فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى. فقال النبي ﷺ: «اللهم

ابعث إليه كلباً من كلابك». ثم انصرف عنه فرجع إلى أبيه فقال: يا بني، ما قلت له؟ فذكر له ما قال له، قال: فما قال لك؟ قال: قال: «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك» قال: يا بني، والله ما آمن عليك دعاءه فسرنا حتى نزلنا الشراة، وهي مأسدة، ونزلنا إلى صومعة راهب، فقال الراهب: يا معشر العرب، ما أنزلكم هذه البلاد، فإنها تسرح الأسد فيها كما تسرح الغنم؟ فقال لنا أبو لهب: إنكم قد عرفتم كبر سني وحقي، وإن هذا الرجل قد دعا على ابني دعوة - والله - ما أمنها عليه، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة، وافرشوا لابني عليها، ثم افرشوا حولها. ففعلنا، فجاء الأسد فشم وجوهنا، فلما لم يجد ما يريد تقبض، فوثب، فإذا هو فوق المتاع، فشم وجهه ثم هزمه هزيمة ففزع رأسه. فقال أبو لهب: قد عرفت أنه لا ينفلت عن دعوة محمد.

وقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (٩) أي: فاقترب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض، حتى كان بينه وبين محمد قَاب قَوْسَيْنِ، أي: بقدرهما إذا مَدَا. قاله مجاهد، وقتادة. وقد قيل: إن المراد بذلك بُعد ما بين وتر القوس إلى كبدها. وقوله: ﴿أَوْ أَدْنَى﴾، قد تقدم أن هذه الصيغة تستعمل في اللغة لإثبات المخبر عنه ونفي ما زاد عليه، كقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَابَةِ أَوْ أَدْنَى قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، أي: ما هي بالين من الحجارة، بل هي مثلها أو يزيد عليها في الشدة والقسوة. وكذا قوله: ﴿يَحْتَضِرُونَ النَّاسَ كَهَيْئَةِ اللَّهِ أَوْ أَدْنَى حَشِيَّةٍ﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ بِالْأَقْبَى أَوْ زَيْدُونِ﴾ (١٧) [الصافات: ١٤٧]، أي: ليسوا أقل منها بل هم مائة ألف حقيقة، أو يزيدون عليها. فهذا تحقيق للمخبر به لا شك ولا تردد، فإن هذا ممتنع هاهنا، وهكذا هذه الآية: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (٩). وهذا الذي قلناه، من أن هذا المقرب الداني الذي صار بينه وبين محمد ﷺ، إنما هو جبريل، عليه السلام، هو قول أم المؤمنين عائشة، وابن مسعود، وأبي ذر، وأبي هريرة، كما سنورد أحاديثهم قريباً إن شاء الله. وروى مسلم في صحيحه، عن ابن عباس أنه قال: «رأى محمد ربه بفؤاده مرتين». فجعل هذه إحداهما. وجاء في حديث شريك بن أبي نمر، عن أنس في حديث الإسراء: «ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى» ولهذا تكلم كثير من الناس في متن هذه الرواية، وذكروا أشياء فيها من الغرابة، فإن صح فهو محمول على وقت آخر وقصة أخرى، لا أنها تفسير لهذه الآية؛ فإن هذه كانت ورسول الله ﷺ في الأرض لا ليلة الإسراء؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ رِجَّةِ النَّجْمِ﴾ (١٠)، فهذه هي ليلة الإسراء، والأولى كانت في الأرض. وقد قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا سليمان الشيباني، حدثنا زر بن حبیش قال: قال عبد الله بن مسعود في هذه الآية: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (٩)، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل له ستمائة جناح». وقال ابن وهب: حدثنا ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة، عن عائشة قالت: كان أول شأن رسول الله ﷺ أنه رأى في منامه جبريل بأجساد، ثم إنه خرج ليقضي حاجته فصرخ به جبريل: يا محمد، يا محمد. فنظر رسول الله ﷺ يميناً وشمالاً فلم ير شيئاً - ثلاثاً - ثم رفع بصره فإذا هو ثمان إحدى رجلية مع الأخرى على أفق السماء فقال: يا محمد، جبريل، جبريل - يسكنه - فهرب النبي ﷺ حتى دخل في الناس، فنظر فلم ير شيئاً، ثم خرج من الناس، ثم نظر فرأه، فدخل في الناس فلم ير شيئاً، ثم خرج فنظر فرأه، فذلك قول الله ﷻ: ﴿وَأَنبَجَرُوا إِذَا هُوَ ﴿١٠﴾ مَا سَلَاحُكُمْ وَمَا هُوَ ﴿١١﴾﴾، إلى قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ (٨)، يعني جبريل إلى محمد، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (٩): ويقولون: القاب نصف الإصبع. وقال بعضهم: ذراعين كان بينهما. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث ابن وهب. وفي حديث الزهري عن أبي سلمة، عن جابر شاهد لهذا.

وروى البخاري عن طلحة بن غنم، عن زائدة، عن الشيباني قال: سألت زراً عن قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (٩) فَأَوْحَى إِلَيْكَ عَبْدُكَ مَا أَوْحَى (١٠) قال: حدثنا عبد الله أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح. وقال ابن جرير: حدثني ابن بزيع البغدادي، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (١١) قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حللنا رفر، قد ملأ ما بين السماء والأرض. فعلى ما ذكرناه يكون قوله: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْكَ عَبْدُكَ مَا أَوْحَى﴾ (١٠) معناه: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى. أو: فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل وكلا المعنيين صحيح، وقد ذكر عن سعيد بن جبیر في قوله: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْكَ عَبْدُكَ مَا أَوْحَى﴾ (١٠)، قال: أوحى إليه: «الم أجدك يتيمًا»، ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (١٢) [الشعر: ٤٤]. وقال غيره: أوحى الله إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها، وعلى الأمم حتى تدخلها أمك. وقوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (١١) أَمْتَرُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) قال مسلم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن زياد بن حصين، عن أبي العالية، عن ابن عباس: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (١١)، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ (١٣) قال: رأى بفؤاده مرتين. وكذا رواه يسمك، عن عكرمة، عن ابن عباس، مثله. وكذا قال أبو صالح والسدي وغيرهما: إنه رأى بفؤاده مرتين أو مرة، وقد خالفه ابن مسعود وغيره، وفي رواية عنه أنه أطلق الرؤية، وهي

محمولة على المقيدة بالفؤاد. ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب، فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة، رضي الله عنهم، وقول البغوي في تفسيره: وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه، وهو قول أنس والحسن وعكرمة. فيه نظر، والله أعلم. وقال الترمذي: حدثنا محمد بن عمرو بن تبهان بن صفوان، حدثنا يحيى بن كثير العبيري، عن سلم بن جعفر، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: رأى محمد ربه قلت: أليس الله يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] قال: ويحك! ذاك إذا تجلّى بنوره الذي هو نوره، وقد رأى ربه مرتين. ثم قال: حسن غريب. وقال أيضاً: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن مجالد، عن الشعبي قال: لقي ابن عباس كعباً بعرفة، فسأله عن شيء فكبر حتى جاوبته الجبال، فقال ابن عباس: إنا بنو هاشم فقال كعب: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى، فكلّم موسى مرتين ورآه محمد مرتين. وقال مسروق: دخلت على عائشة فقلت: هل رأى محمد ربه؟ فقلت: لقد تكلمت بشيء قف له شعري. فقلت: رؤيداً، ثم قرأت: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ﴿١٧٨﴾. فقلت: أين يذهب بك؟ إنما هو جبريل، من أخبرك أن محمداً رأى ربه أو كنتم شيئاً مما أمر به، أو يعلم الخمس التي قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْفَلَكِ﴾ [لقمان: ٣٤]، فقد أعظم الفرية، ولكنه رأى جبريل، لم يره في صورته إلا مرتين، مرة عند سدره المنتهى ومرة في جبال، وله ستمائة جناح قد سد الأفق.

وقال النسائي: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أتعجبون أن تكون الحلة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد، عليهم السلام؟! وفي صحيح مسلم، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنى أراه». وفي رواية: «رأيت نوراً». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب قال: قالوا: يا رسول الله، رأيت ربك؟ قال: «رأيت بفؤادي مرتين» ثم قرأ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ﴿١١١﴾. ورواه ابن جرير، عن ابن خنيد، عن مهران، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب، عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال: قلنا: يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ قال: «لم أره بعيني، ورأيت بفؤادي مرتين». ثم تلا: ﴿ثُمَّ نَافَذَكَ﴾ ﴿١١٨﴾. ثم قال ابن أبي حاتم: وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، أخبرني عباد بن منصور قال: سألت عكرمة: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ﴿١١١﴾، فقال عكرمة: تريد أن أخبرك أنه قد رآه؟ قلت: نعم. قال: قد رآه، ثم قد رآه. قال: فسألت عنه الحسن فقال: رأى جلاله وعظمته ورداءه. وحدثنا أبي، حدثنا محمد بن مجاهد، حدثنا أبو عامر العقدي، أخبرنا أبو خلدة، عن أبي العالية قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «رأيت نهراً، ورأيت وراء النهر حجاباً، ورأيت وراء الحجاب نوراً لم أر غير». وذلك غريب جداً، فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ربي ﷻ». فإنه حديث إسناده على شرط الصحيح، لكنه مختصر من حديث المنام.

كما رواه الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن أيوب، عن أبي قلابة عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني ربي الليلة في أحسن صورة - أحسبه يعني في النوم - فقال: يا محمد، أتدري فيم يختصم الملا الأعلى؟» قال: «قلت: لا. فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بَرْدَهَا بين ثديي» - أو قال: نُخْرِي - فعلمت ما في السموات وما في الأرض، ثم قال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملا الأعلى؟» قال: «قلت: نعم، يختصمون في الكفارات والدرجات». قال: «وما الكفارات والدرجات؟» قال: «قلت: المكث في المساجد بعد الصلوات، والمشي على الأقدام إلى الجُمُعات، وإبلاغ الوضوء في المكاره، من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه. وقال: قل يا محمد إذا صليت: اللهم، إني أسألك الخيرات وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة أن تقبضني إليك غير مفتون». قال: «والدرجات بَذَلُ الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام». وقد تقدم في آخر سورة «ص»، عن معاذ، نحوه. وقد رواه ابن جرير من وجه آخر عن ابن عباس، وفيه سياق آخر وزيادة غريبة فقال: حدثني أحمد بن عيسى التميمي، حدثني سليمان بن عُمر بن سيار، حدثني أبي، عن سعيد بن زُرَيْب، عن عمر بن سليمان، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «رأيت ربي في أحسن صورة فقال لي: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملا الأعلى؟ فقلت: لا يا رب. فوضع يده بين كتفي فوجدت بَرْدَهَا بين ثديي، فعلمت ما في السموات والأرض، فقلت: يا رب، في الدرجات والكفارات، ونقل الأقدام إلى الجُمُعات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة. فقلت: يا رب، إنك اتخذت إبراهيم خليلاً، وكلّمْتَ موسى تكليماً، وفعلت وفعلت، فقال: ألم

أشرح لك صدرك؟ ألم أضع عنك وزرك؟ ألم أفعل بك؟ ألم أفعل؟ قال: «فأفضي إلي بأشياء لم يؤذن لي أن أحدثكموها» قال: «فذاك قوله في كتابه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ (١) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٢) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (٣) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (٤)﴾، فجعل نور بصري في فؤادي، فنظرت إليه بفؤادي. إسناده ضعيف. وقد ذكره الحافظ ابن عساكر بسنده إلى هبار بن الأسود، رضي الله عنه؛ أن عتبة بن أبي لهب لما خرج في تجارة إلى الشام قال لأهل مكة: اعلموا أنني كافر بالذي دنا فتدلى. فبلغ قوله رسول الله ﷺ، فقال: «سَلَطَ اللهُ عليه كلباً من كلابه». قال هبار: فكننت معهم، فنزلنا بأرض كثيرة الأسد، قال: فلقد رأيت الأسد جاء فجعل يَشُمُّ رؤوس القوم واحداً واحداً، حتى تخطى إلى عتبة فاقتطع رأسه من بينهم. وذكر ابن إسحاق وغيرهم في السيرة: أن ذلك كان بأرض الزرقاء، وقيل: بالسرارة، وأنه خاف ليلتذ، وأنهم جعلوه بينهم وناموا من حوله، فجاء الأسد فجعل يزار، ثم تخطاهم إليه فضغم رأسه، لعنه الله.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (٥) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (٦) عِنْدَ جَنَّةِ الْمَأْوَى (٧)﴾، هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التي خلقه الله عليها، وكانت ليلة الإسراء. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الإسراء بطرقها وألفاظها في أول سورة «سبحان» بما أغنى عن إعادته هاهنا، وتقدم أن ابن عباس، رضي الله عنهما، كان يشبث الرؤية ليلة الإسراء، ويستشهد بهذه الآية. وتابعه جماعة من السلف والخلف، وقد خالفه جماعات من الصحابة، رضي الله عنهم، والتابعين وغيرهم. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن عاصم بن بهدلة، عن زر بن حبیش، عن ابن مسعود في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (٥) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (٦)﴾، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل وله ستمائة جناح، ينثر من ريشه التهاويل: الدر والياقوت». وهذا إسناده جيد قوي. وقال أحمد أيضاً: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا شريك، عن جامع بن أبي راشد، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق: يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم. إسناده حسن أيضاً. وقال أحمد أيضاً: حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثني حسين، حدثني عاصم بن بهدلة قال: سمعت شقيق بن سلمة يقول: سمعت ابن مسعود يقول: قال: رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل على سدة المنتهى، وله ستمائة جناح» سألت عاصماً عن الأجنحة، فأبى أن يخبرني، قال: فأخبرني بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب. وهذا أيضاً إسناده جيد. وقال أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني حسين، حدثني عاصم بن بهدلة، حدثني شقيق قال: سمعت ابن مسعود يقول: قال رسول الله ﷺ: «أناني جبريل، عليه السلام، في خُضِر معلق به الدر». إسناده جيد أيضاً. وقال الإمام أحمد: حدثني يحيى، عن إسماعيل، حدثنا عامر قال: أتى مسروق عائشة فقال: يا أم المؤمنين، هل رأى محمد ﷺ ربه ﷻ؟ قالت: سبحان الله لقد قَفَّ شعري لما قلت، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب: من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿لَا تَدْرِيكَ الْبَصَرُ وَفَوْقَ يَدْرِيكَ الْبَصَرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُلْحِقَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ بَيِّنَةً وَرَأَى حُجَابًا﴾ [الشورى: ٥١]، ومن أخبرك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْفَلَكَ فِي الْآبَاقِ﴾ [الفن: ٣٤]، ومن أخبرك أن محمداً قد كتم، فقد كذب، ثم قرأت: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين. وقال أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن داود، عن الشعبي، عن مسروق قال: كنت عند عائشة فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقَيْنِ﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ (٥)؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ عنها، فقال: «إنما ذاك جبريل». لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين، رآه منهبطاً من السماء إلى الأرض، ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض. أخرجه في الصحيحين، من حديث الشعبي، به.

رواية أبي ذر، قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألت. قال: وما كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأى ربه، ﷻ؟ فقال: إني قد سألته فقال: «قد رأيته، نوراً أنى أراه». هكذا وقع في رواية الإمام أحمد، وقد أخرجه مسلم من طريقين بلفظين فقال: حدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة، حدثنا وكيع، عن يزيد بن إبراهيم، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنى أراه». وقال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألت. فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال: قلت: كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت فقال: «رأيت نوراً». وقد حكى الخلال في «علله» أن الإمام أحمد سئل عن هذا الحديث فقال: ما زلت منكراً له، وما أدرى ما وجهه. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عون الواسطي، أخبرنا هُشَيْم، عن منصور، عن

الحكم، عن إبراهيم، عن أبيه، عن أبي ذر قال: رآه بقلبه، ولم يره بعينه. وحاول ابن خزيمة أن يدعي انقطاعه بين عبد الله بن شقيق وبين أبي ذر، وأما ابن الجوزي فتأوله على أن أبا ذر لعله سأل رسول الله ﷺ قبل الإسراء، فأجابه بما أجابه به، ولو سأل بعد الإسراء لأجابه بالإثبات. وهذا ضعيف جداً، فإن عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، قد سألت عن ذلك بعد الإسراء، ولم يثبت لها الرؤية. ومن قال: إنه خاطبها على قدر عقلها، أو حاول تخطئتها فيما ذهبت إليه - كابن خزيمة في كتاب التوحيد - فإنه هو المخطئ، والله أعلم. وقال النسائي: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشام عن منصور، عن الحكم، عن يزيد بن شريك، عن أبي ذر قال: رأى رسول الله ﷺ ربه بقلبه، ولم يره ببصره. وقد ثبت في صحيح مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبه، عن علي بن مُسهر، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه؛ أنه قال في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ (١٩)، قال: رأى جبريل، عليه السلام. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ (٢٠): قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته مرتين. وكذا قال قتادة، والربيع بن أنس، وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَنْشَأُ الَّتِيذَةُ مَا يَنْشَأُ﴾ (٢١): قد تقدم في أحاديث الإسراء أنه غشيته الملائكة مثل الغربان، وغشيها نور الرب، وغشيها ألوان ما أدري ما هي. وقال الإمام أحمد: حدثنا مالك بن يثوب، حدثنا الزبير بن عدي، عن طلحة، عن مرة، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدره المنتهى، وهي في السماء السابعة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها، ﴿إِذْ يَنْشَأُ الَّتِيذَةُ مَا يَنْشَأُ﴾ (٢١). قال: فراش من ذهب، قال: وأعطى رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطى الصلوات الخمس، وأعطى خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المُقحّمات. انفرد به مسلم. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية، عن أبي هريرة أو غيره - شك أبو جعفر - قال: لما أسري برسول الله ﷺ انتهى إلى السدر، فقيل له: هذه السدرة قال: فغشيها نور الخلاق، وغشيته الملائكة مثل الغربان حين يقعن على الشجر، قال: فكلّمه عند ذلك، فقال له: سل. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿إِذْ يَنْشَأُ الَّتِيذَةُ مَا يَنْشَأُ﴾ (٢١). قال: كان أغصان السدرة لؤلؤاً وياقوتاً وزبرجداً، فرأى محمد، ورأى ربه بقلبه. وقال ابن زيد: قيل: يا رسول الله، أي شيء رأيت يغشى تلك السدرة؟ قال: رأيت يغشاها قرأش من ذهب، ورأيت على كل ورقة من ورقها ملكاً قائماً يسبح الله، ﷻ. وقوله: ﴿مَا رَأَى الْبَصَرُ وَمَا كُنَّ﴾ (٢٢). قال ابن عباس: ما ذهب يميناً ولا شمالاً، ﴿وَمَا كُنَّ﴾: ما جاوز ما أمر به. وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة، فإنه ما فعل إلا ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطى. وما أحسن ما قال الناظم:

رَأَى جَنَّةَ الْمَآزَى وَمَا نَوَّهَهَا، وَلَوْ رَأَى غَيْرَهُ مَا قَدَرَاهُ لَنَافَا
وقوله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (٢٣)، كقوله: ﴿لِيُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [طه: ٢٣] أي: الدالة على قدرتنا وعظمتنا. وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع؛ لأنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (٢٣)، ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس، وقد تقدم تقدير ذلك في سورة «سبحان» وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا محمد بن طلحة، عن الوليد بن قيس، عن إسحاق بن أبي الكهيلة قال محمد: أظنه عن ابن مسعود - أنه قال: إن محمداً لم ير جبريل في صورته إلا مرتين، أما مرة فإنه سأل أن يريه نفسه في صورته، فأراه صورته فسد الأفق. وأما الأخرى فإنه صعد معه حين صعد به. وقوله: ﴿وَقَوَّ بِالْأَفْئِ الْاَظْهُرُ﴾ (٢٤) ثُمَّ ذَا فَنَدَّكَ (٢٥) نَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٢٦) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (٢٧) قَالَ: فلما أحس جبريل ربه، ﷻ، عاد في صورته وسجد. فقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ (٢٨) عِنْدَ بَدْرَةِ الْمُشْتَمِ (٢٩) عِنْدَمَا جَنَّةُ الْأَوَّلَى (٣٠) إِذْ يَنْشَأُ الَّتِيذَةُ مَا يَنْشَأُ (٣١) مَا رَأَى الْبَصَرُ وَمَا كُنَّ (٣٢) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (٣٣). قال: خلق جبريل، عليه السلام. هكذا رواه الإمام أحمد، وهو غريب.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١) وَمَوَدَّةَ الثَّالِثَةِ الْأُخْرَىٰ (٢) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ (٣) تِلْكَ إِذْ يَنْشَأُ مِنْكُمْ فَأَنشَبُوا نِسْرًا (٤) وَإِنَّمَا أَوْلَاؤُكُمْ هِيَ مَا أَوَّلَ اللَّهُ لَهَا مِن شَيْءٍ وَإِن يَنْشَأُ مِنْكُمْ فَأَنشَبُوا نِسْرًا (٥)﴾ (١) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (٦) عِنْدَ بَدْرَةِ الْمُشْتَمِ (٧) عِنْدَمَا جَنَّةُ الْأَوَّلَىٰ (٨) إِذْ يَنْشَأُ الَّتِيذَةُ مَا يَنْشَأُ (٩) مَا رَأَى الْبَصَرُ وَمَا كُنَّ (١٠) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١١)﴾ (١٢) قَالَ: خلق جبريل، عليه السلام. هكذا رواه الإمام أحمد، وهو غريب.

يقول تعالى مُقَرَّعاً للمشرّكين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم لها البيوت مضاهة للكعبة التي بناها خليل الرحمن، عليه الصلاة والسلام: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ﴾ ؟ وكانت اللات صخرة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهو ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش. قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله تعالى، فقالوا: اللات، يعنون مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. وحكي

عن ابن عباس، ومجاهد، والربيع بن أنس: أنهم قرؤوا «اللات» بتشديد التاء، وفسروه بأنه كان رجلاً يَلْتَلُ للحجيج في الجاهلية السويق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه. وقال البخاري: حدثنا مسلم - هو ابن إبراهيم - حدثنا أبو الأشهب، حدثنا أبو الجوزاء، عن ابن عباس: «الَّتِ وَالْعُزَّى» قال: كان اللات رجلاً يَلْت السويق، سويق الحاج. قال ابن جرير: وكذا العُزَّى من العزيز. وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، وهي بين مكة والطائف، كانت قريش يعظمونها، كما قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزى لكم فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم». وروى البخاري من حديث الزهري، عن حُمَيْد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف فقال في حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله. ومن قال لصاحبه: تعالى أقامرك، فليصدق». وهذا محمول على ما سبق لسانه في ذلك، كما كانت ألسنتهم قد اعتادته في زمن الجاهلية، كما قال النسائي: أخبرنا أحمد بن بكار وعبد الحميد بن محمد قالا: حدثنا مَخْلَد، حدثنا يونس، عن أبيه، حدثني مصعب بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: حلفت باللات والعزى، فقال لي أصحابي: بش ما قلت! قلت هجراً! فأتيت رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له، فقال: «قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. وانفت عن شما لك ثلاثاً، وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم لا تعد». وأما «مناة» فكانت بالمُشَلَّل - عند قُذَيْد، بين مكة والمدينة - وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها، ويهلون منها للحج إلى الكعبة. وروى البخاري عن عائشة نحوه. وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت آخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها. قال ابن إسحاق في السيرة: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، بها سدة وحجاب، وتهدى لها كما يهدى للكعبة، وتطوف بها كطوافاتها بها، وتنحدر عندها، وهي تعرف فضل الكعبة عليها؛ لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم، عليه السلام، ومسجده. فكانت لقريش وبني كنانة العُزَّى بنخلة، وكانت سدنتها وحجابها بني شيبان من سليم حلفاء بني هشام. قلت: بعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها، وجعل يقول:

يَا عَزَّى، كُفِّرْنَاكَ لَا سُبْحَانَكَ إِنَّمَا رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ
وقال النسائي: أخبرنا علي بن المنذر، أخبرنا ابن فضيل، حدثنا الوليد بن جُمَيْع، عن أبي الطُّفَيْل قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكانت بها العزى، فأثاها خالد وكانت على ثلاث سُرَات، وهدم البيت الذي كان عليها. ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «ارجع فإنك لم تصنع شيئاً». فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة - وهم حجبها - أمعنوا في الجبل وهم يقولون: «يا عَزَّى، يا عَزَّى». فأثاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها، فغمسها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «تلك العزى». قال ابن إسحاق: وكانت اللات لتقيف بالطائف، وكان سدنتها وحجابها بني مُعْتَب. قلت: وقد بعث إليها رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب، فهدماها وجعلها مكانها مسجد الطائف. قال ابن إسحاق: وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المُشَلَّل بقديد، فبعث رسول الله ﷺ إليها أبا سفيان صخر بن حرب، فهدمها. ويقال: علي بن أبي طالب. قال: وكانت ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة، ومن كان ببلادهم من العرب بَبَّالَة. قلت: وكان يقال لها: الكعبة اليمانية، وللکعبة التي بمكة الكعبة الشامية. فبعث إليه رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي فهدمه. قال: وكانت فُلَس لطيء ولمن يليها بجبلي طييء من سلمى وأجا. قال ابن هشام: فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ بعث إليه علي بن أبي طالب فهدمه، واصطفى منه سيفين: الرُّسُوب والمُخَدَّم، فَنَقَلَهُ إِيَّاهَا رسول الله ﷺ، فهما سيفا علي. قال ابن إسحاق: وكان لحمير وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له: رِيَام. وذكر أنه كان به كلب أسود، وأن الحبرين اللذين ذهبا مع تبع استخرجاه وقتلاه، وهدما البيت. قال ابن إسحاق: وكانت «رُضَاء» بيتاً لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، ولها يقول المستور بن ربيعة بن كعب بن سعد حين هدمها في الإسلام:

وَلَقَدْ شَذَذْتُ عَلَى رُضَاءِ شَذَّةٍ
قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: إِنَّهُ عَاشَ ثَلَاثِمِائَةً وَثَلَاثِينَ سَنَةً، وَهُوَ الْقَاتِلُ:
وَلَقَدْ سَنَنْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطَوَّلْتُهَا
مِائَةً حَذَّثَهَا بِفَدَّهَا مِئَتَانِ لِي
فَتَرَكْتُهَا قَفْرًا بِقَاعِ أَسَحَمَا
وَعُمِرْتُ مِنْ عَدَدِ السَّنِينَ مِئَتًا
وَأَزْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ الشُّهُورِ سَنِيًّا

هَلْ مَابَقِيَ إِلَّا كَمَا قَدْ قَاتْنَا يَوْمَ يَمُورُ وَلَيْلَةٌ تَخْذَوْنَ
قال ابن إسحاق: وكان ذو الكعبات لبركر وتغلب ابني وائل، وإياد يستنداد وله يقول أعشى بني قيس بن ثعلبة:

بَيْنَ الْخَوَزَنَةِ وَالسُّدَيْرِ وَبَارِقِ وَالْبَيْتِ ذِي الْكَعْبَاتِ مِنْ سَنَدَادِ
ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ وَنَوَازِلَ الْأُنْجَىٰ ۚ﴾ ٢٧. ثم قال: ﴿الَّذِينَ الذَّكْرُ لَهُ الْأُنْثَىٰ ۖ﴾ ٢٨. أي: أنجعلون له ولداً، وتجعلون ولده أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكور، فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت ﴿فِتْنَةً يَبْهَتُ ۖ﴾ أي: جوراً باطلاً، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً. ثم قال منكر عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر، من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَابْتَدَأْتُمْ ۖ﴾ أي: من تلقاء أنفسكم ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۖ﴾ أي: من حجة، ﴿إِنْ يَبْهَتُونَ إِلَّا الظَّلَمَ وَمَا هَؤُلَاءِ إِلَّا نَفْسٌ ۖ﴾ أي: ليس لها مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظ نفوسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْفِتْنَةُ ۖ﴾ أي: ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤهم به، ولا انقادوا له. ثم قال: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَنَّىٰ ۖ﴾ ٢٩. أي: ليس كل من تمنى خيراً حصل له، ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا مَا بِأَيْهِ أَهْلِ الْكِتَابِ ۖ﴾ [النساء: ١٧٣]، ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال، ولا كل من ود شيئاً يحصل له. قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق، حدثنا أبو عروانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى، فإنه لا يدري ما يكتب له من أميته». تفرد به أحمد. وقوله: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ۖ﴾ ٣٠. أي: إنما الأمر كله لله، مالك الدنيا والآخرة، والمتصرف في الدنيا والآخرة، فهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا يَقْبُضُ سِتْرَهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْزُقُ ۖ﴾ ٣١. كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۖ﴾ [سبا: ٢٣]، فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله، وهم لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على السنة جميع رسله، وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه؟

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْئَرُونَ لِلْمَلَائِكَةِ نَسِيَةً الْأُنْثَىٰ ۖ﴾ ٢٧. وَمَا لَكُمْ بِهِ. مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَبْهَتُونَ إِلَّا الظَّلَمَ وَإِنَّ الظَّلَمَ لَا يَقْنِي مِنَ الْخَطَايَا فَاعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَا يَرْدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ﴾ ٢٨. ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن سَلَ عَنْ سَبِيلِهِ. وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اعْتَدَىٰ ۖ﴾ ٢٩. يقول تعالى منكرًا على المشركين في تسميتهم الملائكة نسيَةً الأنثى، وجعلهم لها أنها بنات الله، كما قال: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنَّتُمْ آسَافُهُمْ خَلْقَهُمْ سَوَافٍ ۖ﴾ [الزخرف: ١٧]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا لَكُمْ بِهِ. مِنْ عِلْمٍ ۖ﴾ أي: ليس لهم علم صحيح يصدق ما قالوه، بل هو كذب وزور وافتراء، وكفر شنيع. ﴿إِنْ يَبْهَتُونَ إِلَّا الظَّلَمَ وَإِنَّ الظَّلَمَ لَا يَقْنِي مِنَ الْخَطَايَا شَيْئًا ۖ﴾ أي: لا يجدي شيئاً، ولا يقوم أبداً مقام الحق. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث». وقوله: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا ۖ﴾ أي: أعرض عن الذي أعرض عن الحق واهجره. وقوله: ﴿وَلَا يَرْدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ﴾ أي: وإنما أكثر همه ومبلغ علمه الدنيا، فذاك هو غاية ما لا خير فيه. ولذلك قال: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ۖ﴾ أي: طلب الدنيا والسعي لها هو غاية ما وصلوا إليه. وقد روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له» وفي الدعاء المأثور: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همًّا، ولا مبلغ علمنا». وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن سَلَ عَنْ سَبِيلِهِ. وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اعْتَدَىٰ ۖ﴾ أي: هو الخالق لجميع المخلوقات، والعالم بمصالح عباده، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته، وهو العادل الذي لا يجوز أبداً، لا في شرعه ولا في قدره.

﴿وَلَقَدْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْمَعْنَىٰ ۖ﴾ ٣٠. الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّهُمَّ إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْعَفْوَ هُوَ أَعْلَمُ بِكَ إِنَّ أَشَدَّ رَيْبَ الْأَرْضِ وَإِذَا أَشْرَ أَجَةٍ فِي بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تَرْوُكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ۖ﴾ ٣١.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه الغني عما سواه، الحاكم في خلقه بالعدل، وخلق الخلق بالحق، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْمَعْنَىٰ ۖ﴾ ٣٠. أي: يجازي كلا بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، أي: لا يتعاطون المحرمات والكبائر، وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستر عليهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ۖ﴾ ٣١.

[النساء: ٣١]. وقال هاهنا: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبِئُونَ كَثِيرَ الْإِنْتِرِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّهُمَّ﴾. وهذا استثناء منقطع؛ لأن اللطم من صفات الذنوب ومحقرات الأعمال. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن ابن طامس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللطم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظاً من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فَرِئَا العين النظر، وزنا اللسان الطلق، والنفس تَمْنَى وتَشْتَهِي، والفرج يُصَدِّق ذلك أو يُكَذِّبُه». أخرجه في الصحيحين، من حديث عبد الرزاق، به. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن ثور، حدثنا معمر، عن الأعمش، عن أبي الضحى؛ أن ابن مسعود قال: «زنا العينين النظر، وزنا الشفتين التقبيل، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين المشي، ويُصَدِّق ذلك الفرج أو يُكَذِّبُه، فإن تقدم بفرجه كان زانياً، وإلا فهو اللطم». وكذا قال مسروق، والشعبي. وقال عبد الرحمن بن نافع: الذي يقال له: ابن لبابة الطائفي. قال: سألت أبا هريرة عن قول الله: ﴿إِلَّا اللَّهُمَّ﴾ قال: القُبلة، والغمزة، والنظرة، والمباشرة، فإذا مس الختانُ الختانَ فقد وجب الغسل، وهو الزنا. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا اللَّهُمَّ﴾: إلا ما سلف. وكذا قال زيد بن أسلم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن منصور، عن مجاهد أنه قال: في هذه الآية: ﴿إِلَّا اللَّهُمَّ﴾ قال: الذي يلم بالذنب ثم يدعه، قال الشاعر:

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرَ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلْمَأ؟
وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن منصور، عن مجاهد في قول الله: ﴿إِلَّا اللَّهُمَّ﴾ قال: الرجل يلم بالذنب ثم ينزع عنه، قال: وكان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت وهم يقولون:

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرَ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلْمَأ؟
وقد رواه ابن جرير وغيره مرفوعاً. قال ابن جرير: حدثني سليمان بن عبد الجبار، حدثنا أبو عاصم، حدثنا زكريا بن إسحاق، عن عمرو بن دينار، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبِئُونَ كَثِيرَ الْإِنْتِرِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّهُمَّ﴾ قال: هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب وقال: قال رسول الله ﷺ:

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرَ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلْمَأ؟
وهكذا رواه الترمذي، عن أحمد بن عثمان أبي عثمان البصري، عن أبي عاصم النبيل. ثم قال: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق. وكذا قال البزار: لا نعلمه يُروى متصلاً إلا من هذا الوجه. وساقه ابن أبي حاتم والبخاري من حديث أبي عاصم النبيل، وإنما ذكره البخاري في تفسير سورة «تنزيل»، وفي صحته مرفوعاً نظراً. ثم قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، حدثنا يونس، عن الحسن، عن أبي هريرة - أراه رفعه -: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبِئُونَ كَثِيرَ الْإِنْتِرِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّهُمَّ﴾ قال: «اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود، واللمة من السرقة ثم يتوب ولا يعود، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود»، قال: «ذلك الإمام». وحدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبي عدي، عن عوف، عن الحسن، في قول الله: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبِئُونَ كَثِيرَ الْإِنْتِرِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّهُمَّ﴾ قال: اللطم من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر، ثم لا يعود. وحدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيْيَّة، عن أبي رَجَاء، عن الحسن في قول الله: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبِئُونَ كَثِيرَ الْإِنْتِرِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّهُمَّ﴾ قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: هو الرجل يصيب اللمة من الزنا، واللمة من شرب الخمر، فيجتنبها ويتوب منها. وقال ابن جرير، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا اللَّهُمَّ﴾: يلم بها في الحين. قلت: الزنا؟ قال: الزنا ثم يتوب. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا ابن عُيَيْنَةَ، عن عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس قال: ﴿إِلَّا اللَّهُمَّ﴾: الذي يلم المرأة. وقال السدي: قال أبو صالح: سئلت عن ﴿إِلَّا اللَّهُمَّ﴾ فقلت: هو الرجل يصيب الذنب ثم يتوب. وأخبرت بذلك ابن عباس فقال: لقد أعانك عليها مَلَكٌ كريم. حكاه البخاري. وروى ابن جرير من طريق المثنى بن الصباح - وهو ضعيف - عن عمرو بن شعيب؛ أن عبد الله بن عمرو قال: ﴿إِلَّا اللَّهُمَّ﴾: ما دون الشرك. وقال سفيان الثوري، عن جابر الجعفي، عن عطاء، عن ابن الزبير: ﴿إِلَّا اللَّهُمَّ﴾ قال: ما بين الحدين: حد الدنيا وعذاب الآخرة. وكذا رواه شعبة، عن الحكم، عن ابن عباس، مثله سواء. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا اللَّهُمَّ﴾: كل شيء بين الحدين: حد الدنيا وحد الآخرة، تكفره الصلوات، وهو اللطم، وهو دون كل موجب، فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا، وأما حد الآخرة فكل شيء ختمه الله بالنار، وأخر عقوبته إلى الآخرة. وكذا قال عكرمة، وقتادة، والضحاك.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ رَسِيمٌ مُعَفِّرٌ﴾ أي: رحمته وَسِعَتْ كل شيء، ومغفرته تَسَعُ الذنوب كلها لمن تاب منها، كقوله: ﴿قُلْ

يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ [الزمر: ٥٣]. وقوله: ﴿هُوَ أَفْهَمُ يَكُونُ إِذَا أُنْشِأَ كَرِيمٌ الْأَرْضِ﴾ أي: هو بصير بكم، عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التي تصدر عنكم وتقع منكم، حين أنشأ أباكم آدم من الأرض، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر، ثم قسمهم فريقين: فريقاً للجنة، وفريقاً للسعير. وكذا قوله: ﴿وَرَادَّ أَنْتَرُ آجِنَةً فِي بَطْنِ أَهْنَتِكُمْ﴾: قد كتب الملك الذي يُوَكَّلُ به رزقه وأجله وعمله، وشقي أم سعيد. قال مكحول: كنا آجنة في بطون أمهاتنا، فسقط منا من سقط، وكنا فيمن بقي ثم كنا مرضع فهللك منا من هلك. وكنا فيمن بقي ثم صرنا يَفْعَةً، فهللك منا من هلك. وكنا فيمن بقي ثم صرنا شباباً فهللك منا من هلك. وكنا فيمن بقي ثم صرنا شيوخاً - لا أباً لك - فماذا بعد هذا تنتظر؟ رواه ابن أبي حاتم عنه.

وقوله: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم، ﴿هُوَ أَفْهَمُ يَمِينِ أَنْتَ﴾، كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ يَلِ اللَّهُ يَرْيَ مِنْ بَيْنِكُمْ لَا يَلْمُونَ قَبِيلًا﴾ [النساء: ٤٩]. وقال مسلم في صحيحه: حدثنا عمرو الناقد، حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا الليث، عن يزيد بن أبي حبيب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، قال: سميت ابنتي بزة، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم، وسميت بزة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تزكوا أنفسكم، إن الله أعلم بأهل البر منكم». فقالوا: بم نسميها؟ قال: «سموها زينب». وقد ثبت أيضاً في الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا خالد الحذاء، عن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن أبيه قال: مدح رجل رجلاً عند النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ويلك! قطعت عُنُقَ صاحبك - مرأاً - إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل: أحسب فلاناً - والله حسبي، ولا أزكي على الله أحداً - أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك». ثم رواه عن عُثْرٍ، عن شعبة، عن خالد الحذاء، به. وكذا رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه، من طرق، عن خالد الحذاء، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، وعبد الرحمن قالوا: حدثنا سفيان، عن منصور، عن إبراهيم، عن همام بن الحارث قال: جاء رجل إلى عثمان فأنشأ عليه في وجهه، قال: فجعل المقداد بن الأسود يحشو في وجهه التراب ويقول: أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين أن نحشو في وجوههم التراب. ورواه مسلم وأبو داود، من حديث الثوري، عن منصور، به.

﴿أَنزَيْتَ الْإِلَهَ تَوَكَّلْ﴾ [٣٣] وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْثًا ﴿٣٤﴾ أَعْنَدُ عَلَى الْغَيْبِ فَهُوَ بَرٌّ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يَلْبَسْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَكَّلَ ﴿٣٧﴾ أَلَا تَرَى ذُرِّيَّتَهُ وَذُرِّيَّاتَهُ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٨﴾ وَأَنْ سَعِيَهُمْ سَوْفَ يُرَى ﴿٣٩﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْخِرَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤٠﴾. يقول تعالى دائماً لمن تولى عن طاعة الله: ﴿فَلَا مَكَدَ لَكَ مَكَلٌ﴾ [٣١] وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَكَّلْ ﴿٣٢﴾ [القيامة: ٣١-٣٢]، ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْثًا﴾ [٣٤] قال ابن عباس: أطاع قليلاً ثم قطعه. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، وقناة، وغير واحد. قال عكرمة، وسعيد: كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئراً، فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل، فيقولون: «أكديننا»، ويتركون العمل. وقوله: ﴿أَعْنَدُ عَلَى الْغَيْبِ فَهُوَ بَرٌّ﴾ [٣٥] أي: أعند هذا الذي قد أمسك يده خشية الإنفاق، وقطع معروفة، أعنده علم الغيب أنه سيفد ما في يده، حتى قد أمسك عن معروفة، فهو يرى ذلك عياناً؟! أي: ليس الأمر كذلك، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلاً وشحاً وعلماً؛ ولهذا جاء في الحديث: «أنفق بلائاً، ولا تخش من ذي العرش إقللاً»، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: ٣٩].

وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَلْبَسْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُوسَى﴾ [٣٦] وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَكَّلَ ﴿٣٧﴾ قال سعيد بن جبيرة، والثوري: أي بلغ جميع ما أمر به. وقال ابن عباس: ﴿وَكَّلَ﴾ الله بالبلاغ. وقال سعيد بن جبيرة: ﴿وَكَّلَ﴾ ما أمر به. وقال قناة: ﴿وَكَّلَ﴾ طاعة الله، وأدى رسالته إلى خلقه. وهذا القول هو اختيار ابن جرير، وهو يشمل الذي قبله، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رُبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَتْهُنَّ قَالَ إِنِّي بَالِغُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، فقام بجميع الأوامر، وترك جميع النواهي، وبلغ الرسالة على التمام والكمال، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماماً يُقْتَدَى به في جميع أحواله وأفعاله وأقواله، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْتَيْنَاكَ أَنْتَ وَأَبْنَاكَ وَمَلَكُ الْإِبْرَاهِيمَ حَقِيقًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١١٣]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف الجهمي، حدثنا آدم بن أبي إياس العسقلاني، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَكَّلَ﴾ [٣٧]، قال: «أندري ما وفي؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «وفي عمل يومه بأربع ركعات من أول النهار». ورواه ابن جرير من حديث جعفر بن الزبير، وهو ضعيف. وقال الترمذي في جامعه: حدثنا أبو جعفر السفثاني، حدثنا أبو مسهر، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن بحير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن جبيرة بن نفير، عن أبي الدرداء وأبي ذر، عن رسول الله ﷺ عن الله، أنه قال: «ابن آدم، اركع لي أربع ركعات من أول النهار، أكفك آخره». قال ابن أبي حاتم،

رحمه الله: حدثنا أبي، حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن لُهيعة، حدثنا زِيَّان بن قائد، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «ألا أخبركم لم سمي الله إبراهيم خليله الذي وفي؟ إنه كان يقول كلما أصبح وأمسى: ﴿مُتَّبِعِينَ اللَّهِ حِينَ تَشُوكَ وَحِينَ تَصْبُحُ﴾» [الروم: ١٧] حتى ختم الآية. ورواه ابن جرير عن أبي كُرَيْب، عن رُشَيْدِينَ بن سعد، عن زِيَّان، به. ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى فقال: ﴿أَلَا نَزِدُّ زُرَّةً وَزَرَ لَأَنزِلَ﴾ [٢٨] أي: كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها، لا يحملها عنها أحد كما قال: ﴿وَلَا تَنَعُّ مُنْقَلَةٌ لِّإِنِّ جَمَلَهَا لَا يَحْمِلُ عَنْهُ شَيْءٌ وَلَا كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر: ١٨]، ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [٣٨] أي: كما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه. ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي، رحمه الله، وما اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى؛ لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم؛ ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة، رضي الله عنهم، ولو كان خيراً لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما، ومنصوص من الشارع عليهما. وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم ينتفع به»، فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله، كما جاء في الحديث: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه». والصدقة الجارية كالوقوف ونحوه هي من آثار عمله ووقفه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ مُّتَوَكِّلُونَ﴾ وَنَحْنُ مَا قَدَّمُوا وَآفَكْرُهُمْ» [الآية: ١٢]. والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده، هو أيضاً من سعيه وعمله، وثبت في الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً». وقوله: ﴿وَأَنْ سَعَيْتُمْ سَوَاءً يَرْوَى﴾ [٥٠] أي: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِّعْمَلِكُمْ شَرْيَ اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَرَدُونَ﴾ إِلَى عَالِي الْقَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشَرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» [التوبة: ١٠٥] أي: فيخبركم به، ويجزيكم عليه أتم الجزاء، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهكذا قال هاهنا: ﴿ثُمَّ يَبْرِئُ الْجَرَءَ الْآفَاقِ﴾ [٤١] أي: الأوفر.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [١٢] وَأَنْتُمْ هُوَ أَمَّا وَعَلِياً [١٤] وَأَنْتُمْ عَلَىٰ الرَّؤُوسِ الذِّكْرُ وَالْأُنثَىٰ [١٥] مِنْ تَلْفَةٍ إِذَا شِئْتَ [١٦] وَأَنَّ عَلَىٰ النَّشْأَةِ الْآخَرَىٰ [١٧] وَأَنْتُمْ هُوَ أَفْقَىٰ وَأَقْنَىٰ [١٨] وَأَنْتُمْ هُوَ رَبُّ الْبَعْرِثَىٰ [١٩] وَأَنْتُمْ أَهْلُكَ عَادَا الْأَوَّلِ [٢٠] وَتَمُوتُوا قَا أَفْقَى [٢١] وَقَوْمُ نَوْجٍ بَيْنَ بَلَدٍ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ أَهْلُ عِلْمٍ وَأَفْقَى [٢٢] وَالْمُؤْمِنَةُ الْآخَرَىٰ [٢٣] فَتَنْتَهَىٰ مَا عَشَىٰ [٢٤] فَيَأْتِي مَالَهُ رَبِّكَ تَسْمَاعِي [٢٥].

يقول تعالى مخبراً: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [٤٢] أي: المعاد يوم القيامة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سُؤَيْد بن سَعِيد، حدثنا مسلم بن خالد، عن عبد الرحمن ابن سابط، عن عمرو بن ميمون الأودي قال: قام فينا معاذ بن جبل فقال: يا بني أود، إنني رسول الله إليكم، تعلمون أن المعاد إلى الله، إلى الجنة أو إلى النار. وذكر البغوي من رواية أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾، قال: لا فكرة في الرب. قال البغوي: وهذا مثل ما روي عن أبي هريرة مرفوعاً: «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق، فإنه لا تحيط به الفكرة». كذا أورده، وليس بمحفوظ بهذا اللفظ، وإنما الذي في الصحيح: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغ أحدكم ذلك فليستعذ بالله وليتته». وفي الحديث الآخر الذي في السنن: «تفكروا في مخلوقات الله، ولا تفكروا في ذات الله، فإن الله خلق ملكاً ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة ثلاثمائة سنة» أو كما قال. وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ أَمَّا وَعَلِياً وَأَنْتُمْ هُوَ أَمَّا وَعَلِياً﴾ [٤١]، كقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢٢]، ﴿وَأَنْتُمْ عَلَىٰ الرَّؤُوسِ الذِّكْرُ وَالْأُنثَىٰ﴾ [٤٥] مِنْ تَلْفَةٍ إِذَا شِئْتَ [٤٦]، كقوله: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [٣٨] أَوْ بِكَ تَلْفَةٌ بَيْنَ مَوْتٍ يَتَىٰ [٣٧] ثُمَّ كَانَ عِلْفَةً فَتَقَىٰ مَوْتَهُ [٣٨] فَجَلَّ بَيْنَهُ الرَّؤُوسِ الذِّكْرُ وَالْأُنثَىٰ [٣٩] لَيْسَ ذَلِكَ بِعْدٍ عَلَيْكَ أَنْ يُخَيَّرَ لِلْمَوْتِ [٤٠] [القيامة: ٣٦-٤٠]. وقوله: ﴿وَأَنَّ عَلَىٰ النَّشْأَةِ الْآخَرَىٰ﴾ [٤٧] أي: كما خلق البداة هو قادر على الإعادة، وهي النشأة الآخرة يوم القيامة. ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ أَفْقَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [٤٨] أي: مُلْكُ عِبَادِهِ الْمَالِ، وجعله لهم قُتْبَةً مَقِيماً عندهم، لا يحتاجون إلى بيعه، فهذا تمام النعمة عليهم. وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين، منهم أبو صالح، وابن جرير، وغيرهما. وعن مجاهد: ﴿أَفْقَىٰ﴾: مَوْلٍ، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: أخدم. وكذا قال قتادة. وقال ابن عباس، ومجاهد أيضاً: ﴿أَقْنَىٰ﴾: أعطى، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: رَضَى. وقيل: معناه: أغنى نفسه وأفقر الخلائق إليه، قاله الحضرمي بن لاحق. وقيل: ﴿أَقْنَىٰ﴾ من شاء من خلقه، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: أفقر من شاء منهم، قاله ابن زيد. حكاهما ابن جرير، وهما بعيذان من حيث اللفظ. وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ رَبُّ الْبَعْرِثَىٰ﴾ [٤٩] قال ابن عباس، ومجاهد،

وقتادة، وابن زيد وغيرهم: هو هذا النجم الوقاد الذي يقال له: «مِرْزَمُ الجوزاء»، كانت طائفة من العرب يعبدونه. ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ (٥٦) وهم: قوم هود. ويقال لهم: عاد بن إرم بن سام بن نوح، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَادٍ ﴿٦١﴾ إِمْرًا ثَانِيًا ﴿٦٢﴾ فَأَمَّا مَادٍ فَهُوَ الْغَمَامُ ﴿٦٣﴾ فَجَاءَهُمْ مِنَ الْغَمَامِ سَحَابٌ مَّثَلُ الْغَنَمِ الْمَاجِئَةِ ﴿٦٤﴾ فَكَانُوا مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ أَقْوَامًا ﴿٦٥﴾ وَأَعْتَابَهُمْ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ، فَأَهْلَكَهُمْ اللَّهُ ﴿يَرْسِلُ سَرَاجَ عَذَابِهِ ﴿٦٦﴾ سَاحِبًا عَلَيْهِمْ تُخُوفًا مِثْلَ الْقُنُودِ ﴿٦٧﴾﴾ [الحاقة: ٦-١٧]. وقوله: ﴿وَكُمُودًا فَإِنِّي أَتِيَنَّ ﴿٥١﴾ أَي: دمرهم فلم يبق منهم أحدًا، ﴿وَقَوْمٌ شَرُّ مِنْ قَوْمٍ﴾ أي: من قبل هؤلاء، ﴿إِنِّي أَتِيَنَّ كَانُوا هُمْ أَهْلَهُمْ وَأَلْقَى﴾ أي: أشد تمردًا من الذين من بعدهم، ﴿وَالْمُؤَيَّدَاتُ الْهَوَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ يعني: مدائن لوط، قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال: ﴿فَنَشْنَاهَا مَا عَشْنُ ﴿٥٣﴾﴾ يعني: من الحجارة التي أرسلها عليهم ﴿وَأَنطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُتَدَبِّرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الشعراء: ١٧٣]. قال قتادة: كان من مدائن لوط أربعة آلاف ألف إنسان، فانضمر عليهم الوادي شيئًا من نار ونفط وقطران كغم الأتون. رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن محمد بن وهب بن عطية، عن الوليد بن مسلم، عن خليد، عنه به. وهو غريب جدًا.

﴿فَيَا مَاءَ رَبِّكَ تَنَمَّائِكَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: ففي أي نعم الله عليك أيها الإنسان تمتري؟ قاله قتادة. وقال ابن جُرَيج: ﴿فَيَا مَاءَ رَبِّكَ تَنَمَّائِكَ ﴿٥٥﴾﴾ يا محمد. والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير. ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى ﴿٥٦﴾﴾ أَرَفَتِ الْآزِفَةَ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَافِيَةٌ ﴿٥٨﴾ أَلَيْسَ هَذَا لِلنَّدِيكِ تَجَبُّونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضَكُّونَ وَلَا تَتَّكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ ﴿٦١﴾ فَاصْبِرُوا لِلَّهِ وَأَعْبُدُوا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى﴾ أي: من جنسهم، أرسل كما أرسلوا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الاحقاف: ٩]. ﴿أَرَفَتِ الْآزِفَةَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: اقتربت القريبة، وهي القيامة، ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَافِيَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ أي: لا يدفعها إذا من دون الله، ولا يطلع على علمها سواه. ثم قال تعالى منكرًا على المشركين في استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلهمهم: ﴿تَجَبُّونَ﴾ من أن يكون صحيحًا، ﴿وَتَضَكُّونَ﴾ منه استهزاء وسخرية، ﴿وَلَا تَتَّكُونَ﴾ أي: كما يفعل الموقنون به، كما أخبر عنهم: ﴿وَيَحْذَرُونَ لِلَّذِينَ لَا يَكُونُونَ ﴿٦٠﴾ وَيَزِيدُهُمْ خَسْرًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء: ١٠٩]. وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ ﴿٦١﴾﴾ قال سفيان الثوري، عن أبيه، عن ابن عباس قال: الغناء، هي يمانية، اسمها لنا: غَنَ لنا. وكذا قال عكرمة. وفي رواية عن ابن عباس: ﴿سَيِّدُونَ﴾: معرضون. وكذا قال مجاهد، وعكرمة. وقال الحسن: غافلون. وهو رواية عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. وفي رواية عن ابن عباس: تستكبرون. وبه يقول السدي. ثم قال أمرًا بعبادته بالسجود له والعبادة المتابعة لرسوله ﷺ والتوحيد والإخلاص: ﴿فَاصْبِرُوا لِلَّهِ وَأَعْبُدُوا ﴿٦٢﴾﴾ أي: فاضعوه له وأخلصوا ووجدوا. وقال البخاري: حدثنا أبو مَعْمَرٍ، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: سجد النبي ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس. انفرد به دون مسلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن خالد، حدثنا رباح، عن مَعْمَرٍ، عن ابن طاوس، عن عكرمة بن خالد، عن جعفر بن المطلب بن أبي وداعة، عن أبيه قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم، فسجد وسجد من عنده، فرفعت رأسي وأبيت أن أسجد، ولم يكن أسلم يومئذ المطلب، فكان بعد ذلك لا يسمع أحدًا يقرأها إلا سجد معه. وقد رواه النسائي في الصلاة، عن عبد الملك بن عبد الحميد، عن أحمد بن حنبل، به. ذكر حديث له مناسبة بما تقدم من قوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى ﴿٥٦﴾﴾ أَرَفَتِ الْآزِفَةَ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَافِيَةٌ ﴿٥٨﴾ أَلَيْسَ هَذَا لِلنَّدِيكِ تَجَبُّونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضَكُّونَ وَلَا تَتَّكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ ﴿٦١﴾ فَاصْبِرُوا لِلَّهِ وَأَعْبُدُوا ﴿٦٢﴾﴾. فإن النذير هو: الحذر لما يعاين من الشر، الذي يخشى وقوعه فيمن أنذرهم، كما قال: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبا: ٤٦]. وفي الحديث: «أنا النذير الغريان». أي: الذي أعجله شدة ما عاين من الشر عن أن يلبس عليه شيئًا، بل بادر إلى إنذار قومه قبل ذلك، فجاءهم غريبانًا مسرعًا، مناسب لقوله: ﴿أَرَفَتِ الْآزِفَةَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: اقتربت القريبة، يعني: يوم القيامة، كما قال في أول السورة التي بعدها: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ﴾ [الشم: ١]. قال الإمام أحمد: حدثنا أنس بن عياض، حدثني أبو حازم - لا أعلم إلا عن سهل بن سعد - قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعدو، وجاء ذا بعدو حتى أنفضوا خَبَرَتَهُمْ، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه». وقال أبو حازم: قال رسول الله ﷺ - قال أبو ضَمْرَةَ - لا أعلم إلا عن سهل بن سعد - قال: «مثلي ومثل الساعة كهاتين» وفرق بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام، ثم قال: «مثلي ومثل الساعة كمثل قَرْسِي رَهَان»، ثم قال: «مثلي ومثل الساعة كمثل رجل بعثه قومه طليعة، فلما خشي أن يسبق ألاح بشو به: أتيتم أتيتم». ثم يقول رسول الله ﷺ: «أنا

ذلك». وله شواهد من وجوه آخر من صحاح وحسان، والله الحمد والمنة، وبه الثقة والعصمة.

آخر تفسير سورة النجم وش الحمد والمنة



تفسير سورة القمر

وهي مكية. قد تقدم في حديث أبي واقد: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف، واقتربت الساعة، في الأضحى والفطر، وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار، لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد وبده الخلق وإعادته، والتوحيد وإثبات النبوات، وغير ذلك من المقاصد العظيمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اَقْرَبَ السَّاعَةُ وَانْتَقَ الْقَمَرُ ۚ وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُرْشُوا يَكْفُرُوا يَتَعَنَّ ۚ﴾ ١ ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ﴾ ٢
﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْآيَةِ مَا فِيهِ مُزْجَرٌ ۚ﴾ ٣ ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْذُرُّ ۚ﴾ ٤

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة و فراغ الدنيا وانقضائها. كما قال تعالى: ﴿أَنَّ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا سَتْمَجُلُوهُ سُبْحَنَهُ﴾ [النحل: ١]، وقال: ﴿اَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]. وقد وردت الأحاديث بذلك، قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى وعمرو بن علي قالا: حدثنا خلف بن موسى، حدثني أبي، عن قتادة، عن أنس، أن رسول الله ﷺ خطب أصحابه ذات يوم، وقد كادت الشمس أن تغرب فلم يبق منها إلا شَيْفٌ يسير، فقال: «والذي نفسي بيده، ما بقي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه، وما نرى من الشمس إلا يسيراً». قلت: هذا حديث مداره على خلف بن موسى بن خلف العمَري، عن أبيه. وقد ذكره ابن جَبَان في الثقات، وقال: ربما أخطأ. حديث آخر يعضد الذي قبله ويفسره، قال الإمام أحمد: حدثنا الفضل بن دُكَيْن، حدثنا شريك، حدثنا سلمة بن كُهَيْل، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ والشمس على قُعَيْقِعَانَ بعد العصر، فقال: «ما أعماركم في أعمار من مضى إلا كما بقي من النهار فيما مضى».

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا محمد بن مُطَرُف، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بُعِثَتِ السَّاعَةُ هَكَذَا». وأشار بإصبعيه: السبابة والوسطى. أخرجاه من حديث أبي حازم سلمة بن دينار. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عُبَيْد، حدثنا الأعمش، عن أبي خالد، عن وهب السَّوَّائِي قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهذه من هذه إن كادت لتسبقها» وجمع الأعمش بين السبابة والوسطى. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا الأوزاعي، حدثنا إسماعيل بن عبيد الله، قال: قدم أنس بن مالك على الوليد بن عبد الملك فسأله: ماذا سمعت من رسول الله ﷺ يذكر به الساعة؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنتم والساعة كهاتين». تفرد به أحمد، رحمه الله. وشاهد ذلك أيضاً في الصحيح في أسماء رسول الله ﷺ: أنه الحاشر الذي يُحْشَرُ الناس على قدميه. وقال الإمام أحمد: حدثنا بَهْرُ بن أسد، حدثنا سليمان بن المغيرة، حدثنا حميد بن هلال، عن خالد بن عمير قال: خطب عتبة بن غَزَّوَان - قال بهز: وقال قبل هذه المرة - خطبنا رسول الله ﷺ قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن الدنيا قد آذنت بصُرْمٍ وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صُبابَة كصبابة الإناء يتصايبها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يُلْقَى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً ما يدرك لها قرعاً، والله لتملونه، أفعمجتم! والله لقد ذكر لنا أن ما بين مَضْرَاعِي الجنة مسيرة أربعين عاماً، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ الزحام» وذكر تمام الحديث، انفرد به مسلم.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني يعقوب، حدثني ابن عُيَيْة، أخبرنا عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمي قال: نزلنا المدائن فكنّا منها على قَرْشَخ، فجاءت الجمعة، فحضر أبي وحضرت معه، فخطبنا حذيفة، فقال: ألا إن الله يقول: ﴿اَقْرَبَ السَّاعَةُ وَانْتَقَ الْقَمَرُ ۚ﴾، ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفرار، ألا وإن اليوم المضمار، وغداً السباق، فقلت لأبي: أيستبق الناس غداً؟ فقال: يا بني، إنك لجاهل، إنما هو السباق بالأعمال. ثم جاءت الجمعة الأخرى فحضرنا فخطب حذيفة، فقال: ألا إن الله ﷻ، يقول: ﴿اَقْرَبَ السَّاعَةُ وَانْتَقَ الْقَمَرُ ۚ﴾، ألا وإن

الدنيا قد أذنت بفراق، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق، ألا وإن الغاية النار، والسابق من سبق إلى الجنة. وقوله: ﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾: قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ، كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: «خمس قد مضين: الروم، والدخان، واللزام، والبطشة، والقمر». وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات.

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك:

رواية أنس بن مالك: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَرٌ، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة مرتين، فقال: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾. ورواه مسلم، عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق. وقال البخاري: حدثني عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبَةَ عن قتادة، عن أنس بن مالك: أن أهل مكة سألو رسول الله ﷺ أن يرهم آية، فأراه القمر شقين، حتى رأوا جزءاً بينهما. وأخرجاه أيضاً من حديث يونس بن محمد المؤدب، عن شيبان، عن قتادة. ورواه مسلم أيضاً من حديث أبي داود الطيالسي، ويحيى القطان، وغيرهما، عن شعبة، عن قتادة، به.

رواية جبير بن مطعم، رضي الله عنه: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن كثير، حدثنا سليمان بن كثير، عن حصين بن عبد الرحمن، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين: فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد. فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه، وأسنده البيهقي في «الدلائل» من طريق محمد بن كثير، عن أخيه سليمان بن كثير، عن حصين بن عبد الرحمن، به. وهكذا رواه ابن جرير من حديث محمد بن فضيل وغيره، عن حصين، به. ورواه البيهقي أيضاً من طريق إبراهيم بن طَهْمَانَ وَهَشِيمٍ، كلاهما عن حصين، عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن جده فذكره.

رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: قال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا بكر، عن جعفر، عن عِزَّاءَ بن مالك، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس قال: انشق القمر في زمان رسول الله ﷺ. ورواه البخاري أيضاً ومسلم، من حديث بكر بن مضر، عن جعفر بن ربيعة، عن عِزَّاءَ بن مالك، به مثله. وقال ابن جرير: حدثنا ابن مثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود بن أبي هند، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ وَإِنْ بَرَوْا آيَةً يُرْسِلُوهُ وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ قال: قد مضى ذلك، كان قبل الهجرة، انشق القمر حتى رأوا شقيه. وروى العوفي، عن ابن عباس نحو هذا. وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن عمرو البزار، حدثنا محمد بن يحيى الفُطَيْعِي، حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ابن جريج، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كُيِّفَ القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا: سحر القمر. فنزلت: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ﴿١﴾ إلى قوله: ﴿مُسْتَمِرٌّ﴾.

رواية عبد الله بن عمر: قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو بكر أحمد بن الحسن القاضي قالا: حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس بن محمد الدوري، حدثنا وهب بن جرير، عن شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمر في قوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ﴿١﴾ قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فِلَقَتَيْنِ: فِلَقَةٌ من دون الجبل، وفِلَقَةٌ من خلف الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللهم اشهد». وهكذا رواه مسلم والترمذي، من طرق عن شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، به. قال مسلم كرواية مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود. وقال الترمذي: حسن صحيح.

رواية عبد الله بن مسعود: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن ابن أبي نَجِيج، عن مجاهد، عن أبي مَعْمَرٍ، عن ابن مسعود، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين حتى نظرُوا إليه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا». وهكذا رواه البخاري ومسلم، من حديث سفيان بن عيينة، به. وأخرجاه من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر عبد الله بن سَخْبَرَةَ، عن ابن مسعود، به. وقال ابن جرير: حدثني عيسى بن عثمان بن عيسى الرملي، حدثنا عمي يحيى بن عيسى، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن رجل، عن عبد الله، قال: كنا مع رسول الله ﷺ بمنى فانشق القمر، فأخذت فرقة خلف الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا، اشهدوا». قال البخاري: وقال أبو الضحى، عن مسروق عن عبد الله: بمكة. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا أبو عوانة، عن المغيرة، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة. قال: فقالوا: انظروا ما يأتيكم به السَّفَّار، فإن محمداً لا يستطيع أن

يسحر الناس كلهم. قال: فجاء السَّفَّار فقالوا: ذلك. وقال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا العباس ابن محمد الدوري، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا هُشَيْم، حدثنا مغيرة، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله، قال: انشق القمر بمكة حتى صار فرقتين، فقال كفار قريش أهل مكة: هذا سحر سحركم به ابن أبي كَبْشَةَ، انظروا السفار، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سيخر سحركم به. قال: فسئل السفار، قال: وقدموا من كل وجهة، فقالوا: رأيناه. رواه ابن جرير من حديث المغيرة، به، وزاد: فأنزل الله ﷻ: ﴿أَفَرَأَيْتَ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۚ﴾. ثم قال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُثَيْب، أخبرنا أيوب، عن محمد - هو ابن سيرين - قال: ثبت أن ابن مسعود، رضي الله عنه، كان يقول: لقد انشق القمر. وقال ابن جرير أيضاً: حدثني محمد بن عمارة، حدثنا عمرو بن حماد، حدثنا أسباط، عن سيمك، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عبد الله، قال: لقد رأيت الجبل من قَرْجِ القمر حين انشق. ورواه الإمام أحمد عن مؤمِل، عن إسرائيل، عن سيمك، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عبد الله، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، حتى رأيت الجبل من بين فرجتي القمر. وقال ليث، عن مجاهد: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «اشهد يا أبا بكر». فقال المشركون: سَجِرَ القمر حتى انشق. وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً﴾ أي: دليلاً وحجة وبرهاناً «يَعْرِضُوا» أي: لا ينقادون له، بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم، «وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَبِرٌّ» أي: ويقولون: هذا الذي شاهدناه من الحجج، سحر سحرنا به. ومعنى «مُسْتَبِرٌّ» أي: ذاهب. قاله مجاهد، وقناة، وغيرهما، أي: باطل مضمحل، لا دوام له. «وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ» أي: كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمرتهم به آراءهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقولهم. وقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ قال قناة: معناه: أن الخير واقع بأهل الخير، والشر واقع بأهل الشر. وقال ابن جريج: مستقر بأهله. وقال مجاهد: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي: يوم القيامة. وقال السدي: «مُسْتَقَرٌّ» أي: واقع. وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ﴾ أي: من الأخبار عن قصص الأمم المذكبين بالرسول، وما حل بهم من العذاب والنكال والعذاب، مما يتلى عليهم في هذا القرآن، «مَا فِيهِ مُّذَكَّرٌ» أي: ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتعادي على التكذيب. وقوله: ﴿حِكْمَةً بَلِغَةً﴾ أي: في هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله، «فَمَا تَتَنَزَّلُ أَنْتُمْ» يعني: أي شيء تغني النذر عن كتب الله عليه الشقارة، وختم على قلبه؟ فمن الذي يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُكْمُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ۝﴾ [النعام: ١١٩]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تَتَنَزَّلُ أَنْتُمْ عَنْ قَوْلِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿قَوْلَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ ۝﴾ حُشْعًا أَنْصَرَفُوا بِحُجْرَةٍ مِنَ الْأَخْدَانِ كَانَتْ جَرَادٌ مُّتَنَبِّئَةً ۝ مُنْهَبِئِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ ۝﴾.

يقول تعالى: فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضون ويقولون: هذا سحر مستمر، أعرض عنهم وانتظرهم، «يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ» أي: إلى شيء منكر فظيع، وهو موقف الحساب، وما فيه من البلاء، بل والزلازل والأهوال، «خاشعاً أبصارهم» أي: ذليلة أبصارهم، «بِحُجْرَةٍ مِنَ الْأَخْدَانِ» وهي: القبور، «كَانَتْ جَرَادٌ مُّتَنَبِّئَةً» أي: كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي «جَرَادٌ مُّتَنَبِّئَةٌ» في الآفاق؛ ولهذا قال: «مُنْهَبِئِينَ» أي: مسرعين «إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ»، لا يخالفون ولا يتأخرون، «يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ» أي: يوم شديد الهول عبوس قَمَطَرِير «فَلَاكٌ يَوْمَئِذٍ عَرِيرٌ ۝ عَلَ الْكَافِرِينَ عَرِيرٌ بَئِيرٌ ۝﴾ [الدثر: ٩-١٠].

﴿كَذَّبَتْ قُلُوبُهُمْ يَوْمَ سَجَوْا نَحْوَ الْغَايَةِ وَقَالُوا إِنَّهُنَّ أَهْلُ بَحْنٍ وَارْدَجٍ ۝﴾ قَدْ رَأَوْا آيَةً مِّنْ مَّوَلَاتٍ فَانْتَبِهَتْ ۝ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَا يُمْشُونَ ۝ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُورٍ ۝ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى دَابِ الْأَوَّاجِ وَدُسِّرَ ۝ فَنَجَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝ وَلَقَدْ رَزَقْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مَّذْكُرٍ ۝﴾

يقول تعالى: «كَذَّبَتْ» قبل قومك يا محمد «يَوْمَ سَجَوْا نَحْوَ الْغَايَةِ» أي: صرحوا له بالتكذيب واتهموه بالجنون، «وَقَالُوا إِنَّهُنَّ أَهْلُ بَحْنٍ وَارْدَجٍ» قال مجاهد: «وَارْدَجٍ» أي: استطير جنونا. وقيل: «وَارْدَجٍ» أي: انتهروه وزجروه وأوعده: «قَالُوا لَنْ لَّرَ تَنْتَوِي بِنُحُجٍ لِّتَكُونَنَّ مِنَ الْمُحْجَمِينَ ۝﴾ [الشعراء: ١١٦]. قاله ابن زيد، وهذا متوجه حسن. «قَدْ رَأَوْا آيَةً مِّنْ مَّوَلَاتٍ فَانْتَبِهَتْ» أي: إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم «فَانْتَبِهَتْ» أنت لديك. قال الله تعالى: «فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَا يُمْشُونَ ۝﴾. قال السدي: هو الكثير «وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا» أي: نبعت جميع أرجاء الأرض، حتى التناير التي هي محال النيران نبعت عيوناً، «فَالْتَقَى الْمَاءُ» أي: من السماء ومن الأرض «عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُورٍ» أي: أمر مقدر. قال ابن جُرَيْج، عن ابن عباس: «فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَا يُمْشُونَ ۝﴾:

كثير، لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده، ولا من السحاب؛ فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم، فالتقى الماء على أمر قد قدر. وروى ابن أبي حاتم أن ابن الكوّاء سأل علياً عن المجرة فقال: هي شرح السماء، ومنها فتحت السماء بماء منهمر. ﴿وَحَاجَّتْهُنَّ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَيُسْرٍ﴾. قل ابن عباس، وسعيد بن جبير، والقرظي، وقتادة، وابن زيد: هي المسامير، واختاره ابن جرير، قال: وواحداه دسار، ويقال: دسير، كما يقال: حبيك وحباك، والجمع حُبْك. وقال مجاهد: الدسر: أضلاع السفينة. وقال عكرمة والحسن: هو صدرها الذي يضرب به الموج. وقال الضحاك: الدسر: طرفها وأصلها. وقال العوفي، عن ابن عباس: هو كُلُّهَا. وقوله: ﴿يَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرًا﴾ أي: جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصاراً لنوح، عليه السلام. وقوله: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾ قال قتادة: أبقي الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة. والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن، كقوله تعالى: ﴿وَوَاقِهِ لَمْ نَأْتِ حَمَلًا دُرُوسًا فِي الْفُلِّ الشَّعِيرِ﴾ ﴿وَلَقَدْ نَزَّلْنَاهُمْ بِرُكُونٍ﴾ [يس: ٤١-٤٢]. وقال: ﴿إِنَّا لَنَاكِفَا الْعَالَمِ لَمَّا كُنْتُمْ فِي الْغَابَةِ﴾ [نوح: ١١-١٢]. ولهذا قال هاهنا: ﴿فَهَلْ يَنْتَذِرُ﴾ أي: فهل من يتذكر ويتعظ؟

قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الأسود، عن ابن مسعود قال: أقراني رسول الله ﷺ: ﴿فَهَلْ يَنْتَذِرُ﴾ فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن، مُذَكَّرٌ أو مُتَذَكَّرٌ؟ قال: أقراني رسول الله ﷺ: ﴿مُتَذَكَّرٌ﴾. وهكذا رواه البخاري: حدثنا يحيى، حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الأسود بن يزيد، عن عبد الله قال: قرأت على النبي ﷺ: ﴿فَهَلْ مِنْ مُذَكَّرٍ﴾. فقال النبي ﷺ: ﴿فَهَلْ يَنْتَذِرُ﴾. وروى البخاري أيضاً من حديث شعبة، عن أبي إسحاق، عن الأسود، عن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿فَهَلْ مِنْ مُذَكَّرٍ﴾. وقال: حدثنا أبو نعيم، حدثنا زهير، عن أبي إسحاق؛ أنه سمع رجلاً يسأل الأسود: ﴿فَهَلْ مِنْ مُذَكَّرٍ﴾، أو: ﴿مُذَكَّرٌ﴾؟ قال: سمعت عبد الله يقرأ: ﴿فَهَلْ مِنْ مُذَكَّرٍ﴾. وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأها: ﴿فَهَلْ مِنْ مُذَكَّرٍ﴾ دالاً. وقد أخرج مسلم هذا الحديث وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث أبي إسحاق. وقوله: ﴿كَذَّبَتْ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٌ﴾ أي: كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذب رسلي ولم يتعظ بما جاءت به نذري، وكيف انتصرت لهم، وأخذت لهم بالثأر. ﴿وَلَقَدْ بَيَّنَّا الْفُرْقَانَ لِلَّذِينَ﴾ أي: سهلنا لفظه، ويسرنا معناه لمن أراد، ليتذكر الناس. كما قال: ﴿كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبِينًا لِّذِي نُفُوسٍ أَلْبَسْنَاهُ لِيَمْلِكُنَا إِلَهُكُ﴾ [ص: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلنَّاسِ إِذْ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْفُرْقَانِ﴾ [نور: ١]. ﴿وَنَذِيرٌ بِهِ قَوْلُ الْقَائِلِ﴾ [مریم: ٩٧]. قال مجاهد: ﴿وَلَقَدْ بَيَّنَّا الْفُرْقَانَ لِلَّذِينَ﴾ يعني: هَوَّنَا قراءته. وقال السدي: يسرنا تلاوته على اللسان. وقال الضحاك، عن ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان آدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله ﷻ. قلت: ومن تيسيره، تعالى، على الناس تلاوة القرآن ما تقدم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف». وأوردنا الحديث بطرقه وألفاظه بما أغنى عن إعادته هاهنا، والله الحمد والمنة. وقوله: ﴿فَهَلْ يَنْتَذِرُ﴾ أي: فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يسر الله حفظه ومعناه؟ وقال محمد بن كعب القرظي: فهل من منزجر عن المعاصي؟ وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن رافع، حدثنا ضمره، عن ابن شوذب، عن مطر - هو الوراق - في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْتَذِرُ﴾: هل من طالب علم فَيُعَانِ عليه؟ وكذا علقه البخاري بصيغة الجزم، عن مطر الوراق وكذا رواه ابن جرير، وروى عن قتادة مثله.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٌ﴾ [١٨] ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا بِرَحْمَةٍ مِنَّا نَحْنُ مُنْذِرُونَ﴾ [١٩] ﴿نَحْنُ الْبَاقُونَ﴾ [٢٠] ﴿كُلُّهُمْ أَهْلٌ مِّنْ عَادٍ﴾ [٢١] ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٌ﴾ [٢٢] ﴿وَلَقَدْ بَيَّنَّا الْفُرْقَانَ لِلَّذِينَ﴾ [٢٣] ﴿فَهَلْ يَنْتَذِرُ﴾ [٢٤].

يقول تعالى مخبراً عن عاد قوم هود: إنهم كذبوا رسولهم أيضاً، كما صنع قوم نوح، وأنه تعالى أرسل ﴿عَلَيْهِمْ رِيحًا مَّصْرُورًا﴾، وهي الباردة الشديدة البرد، ﴿فِي يَوْمٍ نَّجَسَ﴾ أي: عليهم. قاله الضحاك، وقتادة، والسدي. ﴿مُتَشَتِّرًا﴾: عليهم نحسه ودماره؛ لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالآخروي. وقوله: ﴿نَحْنُ الْبَاقُونَ﴾ أي: نحن الباقون من آلهم. وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار، ثم تنكسه على أم رأسه، فيسقط إلى الأرض، فتتلخ رأسه فيبقى جثة بل رأس؛ ولهذا قال: ﴿نَحْنُ الْبَاقُونَ﴾ أي: نحن الباقون من آلهم. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٌ﴾ [٢٥] ﴿وَلَقَدْ بَيَّنَّا الْفُرْقَانَ لِلَّذِينَ﴾ [٢٦] ﴿فَهَلْ يَنْتَذِرُ﴾ [٢٧].

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدْرِ﴾ [٢٨] ﴿فَقَالُوا أَتُحَدِّثُكَ نَبَأًا وَنَحْنُ نَسْمَعُ﴾ [٢٩] ﴿إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَكْنٍ مَّذْمُومٍ﴾ [٣٠] ﴿وَلَقَدْ بَيَّنَّا الْفُرْقَانَ لِلَّذِينَ﴾ [٣١] ﴿فَهَلْ يَنْتَذِرُ﴾ [٣٢].

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدْرِ﴾ [٢٨] ﴿فَقَالُوا أَتُحَدِّثُكَ نَبَأًا وَنَحْنُ نَسْمَعُ﴾ [٢٩] ﴿إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَكْنٍ مَّذْمُومٍ﴾ [٣٠] ﴿وَلَقَدْ بَيَّنَّا الْفُرْقَانَ لِلَّذِينَ﴾ [٣١] ﴿فَهَلْ يَنْتَذِرُ﴾ [٣٢].

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدْرِ﴾ [٢٨] ﴿فَقَالُوا أَتُحَدِّثُكَ نَبَأًا وَنَحْنُ نَسْمَعُ﴾ [٢٩] ﴿إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَكْنٍ مَّذْمُومٍ﴾ [٣٠] ﴿وَلَقَدْ بَيَّنَّا الْفُرْقَانَ لِلَّذِينَ﴾ [٣١] ﴿فَهَلْ يَنْتَذِرُ﴾ [٣٢].

وأن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء، قال الله تعالى: ﴿سَبِّحْهُمْ لَمَنَعَهُمْ وَوَلَّوْهُمُ الذُّبُرَ﴾ (٤٥) أي: سيقرب شملهم ويغلبون. قال البخاري: حدثنا إسحاق؛ حدثنا خالد، عن خالد - وقال أيضاً: حدثنا محمد، حدثنا عفان بن مسلم، عن وهيب، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ قال - وهو في قبة له يوم بدر -: «أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً». فأخذ أبو بكر، رضي الله عنه، بيده وقال: حسبك يا رسول الله! ألححت على ربك. فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول: ﴿سَبِّحْهُمْ لَمَنَعَهُمْ وَوَلَّوْهُمُ الذُّبُرَ﴾ (٤٥) بِلِ السَّاعَةِ مَوْعِدَهُمُ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ (٤٦). وكذا رواه البخاري والنسائي في غير موضع، من حديث خالد - وهو يهران الحذاء - به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الربيع الزهراني، حدثنا حماد، عن أيوب، عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿سَبِّحْهُمْ لَمَنَعَهُمْ وَوَلَّوْهُمُ الذُّبُرَ﴾ (٤٥) قال: قال عمر: أي جمع يهزم؟ أي جمع يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع، وهو يقول: ﴿سَبِّحْهُمْ لَمَنَعَهُمْ وَوَلَّوْهُمُ الذُّبُرَ﴾ (٤٥) فعرفت تأويلها يومئذ. وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف، أن ابن جريج أخبرهم: أخبرني يوسف بن مارك قال: إني عند عائشة أم المؤمنين، قالت: نزل على محمد ﷺ بمكة - وإني لجارية الحب - ﴿بِلِ السَّاعَةِ مَوْعِدَهُمُ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ (٤٦)﴾. هكذا رواه هاهنا مختصراً. ورواه في فضائل القرآن مطولاً، ولم يخرج مسلم.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُورٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرًا إِلَّا رَجَدُهُ كَلِمَةٍ يَالْأَيْمَنَ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٥١) وَكُلَّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُنْتَظَرٍ (٥٣) إِنَّ الَّذِينَ فِي حَتِّ وَتَهْرِ (٥٤) فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُنْقَدِرٍ (٥٥)﴾.

يخبرنا تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق، وسُور مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق. ثم قال: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ أي: كما كانوا في سُور وشك وتردد أورثهم ذلك النار، وكما كانوا ضلالاً، سُحبوا فيها على وجوههم، لا يدرون أين يذهبون، ويقال لهم تقريباً وتوبيخاً: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾. وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٤٩)، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ كُلَّ شَيْءٍ لِّقَدَرٍ تَقْدِيرٍ﴾ [الفرقان: ٢] وكقوله: ﴿مَنْجَ أَسْرَ رَبِّكَ الْأَكَلِ (١) أَلَيْسَ خَلْقَ فَتَوَى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَنَّا (٣)﴾ [الاعلى: ١-٣]، أي: قدر قدراً، وهدى الخلائق إليه، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابتها لها قبل برئها، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات، وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على الفرقة القدرية الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة. وقد تكلمنا على هذا المقام مفصلاً، وما ورد فيه من الأحاديث في شرح «كتاب الإيمان» من «صحيح البخاري»، رحمه الله، ولنذكر هاهنا الأحاديث المتعلقة بهذه الآية الكريمة: قال أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان الثوري، عن زياد بن إسماعيل السهمي، عن محمد بن عباد بن جعفر، عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونهم في القدر، فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩). وهكذا رواه مسلم والترمذي وابن ماجه، من حديث وكيع، عن سفيان الثوري، به. وقال البزار: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا الضحاك بن مخلد، حدثنا يونس بن المحارب، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: ما نزلت هذه الآيات: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُورٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)، إلا في أهل القدر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سهل بن صالح الأنطاكي، حدثني ثروة بن حبيب، عن كنانة، حدثنا جرير بن حازم، عن سعيد بن عمرو بن جعدة، عن ابن زبارة، عن أبيه، عن النبي ﷺ، أنه تلا هذه الآية: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)، قال: «نزلت في أناس من أمتي يكونون في آخر الزمان يكذبون بقدر الله». وحدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا مروان بن شجاع الجوزي، عن عبد الملك بن جريج، عن عطاء ابن أبي رباح، قال: أتيت ابن عباس وهو يتزعج من زمزم، وقد ابتلت أسافل ثيابه، فقلت له: قد تكلم في القدر. فقال: أو قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)، أولئك شرار هذه الأمة، فلا تعودوا مرضاهم، ولا تفضلوا على موتاهم، إن رأيت أحداً منهم فقات عينيه بأصبعي هاتين.

وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر، وفيه مرفوع، فقال: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا الأوزاعي، عن بعض إخوته، عن محمد بن عبيد المكي، عن عبد الله ابن عباس، قال: قيل له: إن رجلاً قدم علينا يُكذِّبُ بالقدر فقال: دلوني عليه - وهو أعمى - قالوا: وما تصنع به يا أبا عباس قال: والذي نفسي بيده لئن استمكنت منه لأعضن أنفه حتى أقطعه، ولئن وقعت رقبته في يدي لأدقنها؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كأنني بنساء بني فهر يُطْفَنُ بالخزرج، تصطفق ألياتهن مشركات، هذا أول شرك

هذه الأمة، والذي نفسي بيده، ليتهاين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يكون قَدْرَ خيراً، كما أخرجه من أن يكون قدر شراً. ثم رواه أحمد عن أبي المغيرة، عن الأوزاعي، عن العلاء بن الحجاج، عن محمد بن عبيد، فذكر مثله. لم يخرجوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني أبو صخر، عن نافع قال: كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكتبه، فكتب إليه عبد الله بن عمر: إنه بلغني أنك تكلمت في شيء من القدر، فإياك أن تكتب إلي، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر». رواه أبو داود، عن أحمد بن حنبل، به. وقال أحمد: حدثنا أنس بن عياض، حدثنا عمر بن عبد الله مولى غُفَرَة، عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «لكل أمة مجوس، ومجوس أمي الذين يقولون: لا قدر. إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم». لم يخرجوه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه. وقال أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا رشدين، عن أبي صخر حُمَيد بن زياد، عن نافع، عن ابن عمر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون في هذه الأمة مسخ، ألا وذاك في المكذبين بالقدر والزندقية». ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث أبي صخر حميد بن زياد، به. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب. وقال أحمد: حدثنا إسحاق بن الطباع، أخبرني مالك، عن زياد بن سعد، عن عمرو بن مسلم، عن طاوس اليماني قال: سمعت ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس». ورواه مسلم منفرداً به، من حديث مالك. وفي الحديث الصحيح: «استعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك أمر فقل: قَدَّرَ الله وما شاء فعل، ولا تقل: لو أني فعلت لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان». وفي حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال له: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء، لم يكتبه الله لك، لم ينفعوك. ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يكتبه الله عليك، لم يضروك». جفت الأقلام وطويت الصحف.

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن سَوار، حدثنا الليث، عن معاوية، عن أيوب بن زياد، حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة، حدثني أبي قال: دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه، أوصني واجتهد لي. فقال: أجلسوني. فلما أجلسوه قال: يا بني، إنك لم تطعم طعم الإيمان، ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره. قلت: يا أبتاه، وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك. يا بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم. ثم قال له: اكتب. فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» يا بني، إن مت ولست على ذلك دخلت النار. ورواه الترمذي عن يحيى بن موسى البلخي، عن أبي داود الطيالسي، عن عبد الواحد بن سليم، عن عطاء بن أبي رباح، عن الوليد بن عبادة، عن أبيه، به. وقال: حسن صحيح غريب.

وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن ربيع بن خَراش، عن رجل، عن علي بن أبي طالب، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، يعتني بالحق، ويؤمن بالموت، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشره». وكذا رواه الترمذي من حديث النضر بن شَمِيل، عن شعبة عن منصور، به. ورواه من حديث أبي داود الطيالسي، عن شعبة، عن منصور عن ربيع، عن علي فذكره وقال: «هذا عندي أصح». وكذا رواه ابن ماجه من حديث شريك، عن منصور، عن ربيع، عن علي، به. وقد ثبت في صحيح مسلم من رواية عبد الله بن وهب وغيره، عن أبي هانئ الخولاني، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» زاد ابن وهب: ﴿وَكُنَّا عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ١٧]. ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب. وقوله: ﴿وَمَا أَمْرًا إِلَّا وَجْدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (٥٦). وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه كما أخبر بنفوذ قدره فيهم، فقال: ﴿وَمَا أَمْرًا إِلَّا وَجْدَةٌ﴾ أي: إنما نأمر بالشئ مرة واحدة، لا نحتاج إلى تأكيد بثانية، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلاً موجدواً كلمح البصر، لا يتأخر طرفة عين، وما أحسن ما قال بعض الشعراء:

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَمِنْ أَمْرًا يَفْعَلُ لَهُ: كُنْ، قَوْلُهُ فَيَكُونُ
وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ يعني: أمثالكم وسلفكم من الأمم السالفة المكذبين بالرسول، ﴿فَهَلْ مِنْ تَذَكَّرٍ﴾ أي: فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك، وقدر لهم من العذاب، كما قال: ﴿رَجُلٌ يَنْتَهِي وَيَنْتَهِي مَا يَشْتَهِي كَمَا قَوْلَ أَتَشَاءُ مِنْ قَبْلِ﴾ [سبا: ١٥٤]. وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ (٥٧) أي: مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة، عليهم السلام ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ أي: من أعمالهم ﴿شُتَّتْ﴾ أي: مجموع عليهم، ومسطر في صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا سعيد بن مسلم بن بانك: سمعت عامر بن عبد الله بن الزبير، حدثني عوف بن

الحارث - وهو ابن أخي عائشة لأمها - عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالباً». ورواه النسائي وابن ماجه، من طريق سعيد بن مسلم بن بانك المدني. وثقه أحمد، وابن معين، وأبو حاتم، وغيرهم. وقد رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة سعيد بن مسلم هذا من وجه آخر، ثم قال سعيد: فحدثت بهذا الحديث عامر بن هشام فقال لي: ويحك يا سعيد بن مسلم. لقد حدثني سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنباً فاستصغره، فأتاه آت في منامه فقال له: يا سليمان:

لَا تَخْقِرَنَّ مِنَ الذَّنُوبِ صَغِيرًا إِنَّ الصَّغِيرَ لَوْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ
عِنْدَ الْإِلَهِ مُسْطَرٌّ تَسْطِيرًا فَازْجِرْ هَوَاكَ عَنِ الْبَطَالَةِ لَا تَكُنْ
صَعْبَ الْقِيَادِ وَثَمَرَ تَشْمِيرَا إِنَّ الْمَحْضَبَ إِذَا أَحْبَبَ إِلَهَهُ
طَارَ الْفُؤَادُ وَأَلْهَمَ التَّفَكِيرَا فَاسْأَلْ هَدَايَتَكَ الْإِلَهَ بِنِيَّةٍ
فَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرَا

وقوله: ﴿إِنَّ التَّوْفِيقَ فِي جَنَّتِي وَهَيَّيْتُ﴾ أي: بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر، والسحب في النار على وجوههم، مع التوبيخ والتقريع والتهديد. وقوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي: في دار كرامة الله ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه، ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَنٍ﴾ أي: عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون؛ وقد قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عمرو بن أوس، عن عبد الله بن عمرو - يَبْلُغُ به النبي ﷺ - قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا». انفرد بإخراجه مسلم والنسائي، من حديث سفيان بن عيينة، بإسناده مثله.

آخر تفسير سورة «اقتربت»

وشه الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة



تفسير سورة الرحمن

وهي مكية. قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن عاصم، عن زُرِّ، أن رجلاً قال لابن مسعود: كيف تعرف هذا الحرف: «ماء غير ياسن أو آسن»؟ فقال: كل القرآن قد قرأت. قال: إني لأقرأ المفصل؛ أجمع في ركعة واحدة. فقال: أهذا كهذا الشعر، لا أبأ لك؟ قد علمت قرائن النبي ﷺ التي كان يقرن قرينتين قرينتين من أول المفصل، وكان أول مفصل ابن مسعود: ﴿الرَّحْمَنُ﴾. وقال أبو عيسى الترمذي: حدثنا عبد الرحمن بن واقد أبو مسلم، حدثنا الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم، سورة «الرحمن»، من أولها إلى آخرها، فسكتوا فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَيَأْتِي مَاءٌ آلَهُ رِيَقًا كَذَّبَانِ﴾»، قالوا: لا بشيء من نعمك - ربنا - نكذب، فلك الحمد». ثم قال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد. ثم حكى عن الإمام أحمد أنه كان لا يعرفه، ينكر رواية أهل الشام عن زهير بن محمد هذا. ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عمرو بن مالك، عن الوليد بن مسلم. وعن عبد الله بن أحمد ابن شبيب، عن هشام بن عمار، كلاهما عن الوليد بن مسلم، به. ثم قال: لا نعرفه يروى إلا من هذا الوجه. وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد بن عباد بن موسى، وعمرو بن مالك البصري، قالوا: حدثنا يحيى بن سليم، عن إسماعيل بن أمية، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قرأ سورة «الرحمن» - أو: فُرِئت عنده - فقال: «ما لي أسمع الجن أحسن جواباً لربها منكم؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ما أتيت على قول الله: ﴿فَيَأْتِي مَاءٌ آلَهُ رِيَقًا كَذَّبَانِ﴾» إلا قالت الجن: لا بشيء من نعمة ربنا نكذب». ورواه الحافظ البزار، عن عمرو بن مالك، به. ثم قال: لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه، بهذا الإسناد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ﴾ ١ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ٢ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ ٣ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ ٤ ﴿الْقَمَرَ وَالْقَمَرِ بِحُسْبَانٍ﴾ ٥ ﴿وَالنَّجْمَ وَالنَّجْمِ بِسُبْحَانٍ﴾ ٦

وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٦﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٧﴾ وَأَقِيمُوا الزُّنْتَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَغْيُرُوا الْمِيزَانَ ﴿٨﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿٩﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١٠﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ﴿١١﴾ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾

يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقه: أنه أنزل على عباده القرآن، ويسر حفظه وفهمه على من رحمه، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ ﴿١﴾ عِلْمُ الْقُرْآنِ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عِلْمُهُ الْبَيَانِ ﴿٤﴾ قال الحسن: يعني: النطق. وقال الضحاك، وقتادة، وغيرهما: يعني: الخير والشر. وقول الحسن هاهنا أحسن وأقوى؛ لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين، على اختلاف مخارجها وأنواعها. وقوله: ﴿السَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ﴿٥﴾ أي: يجريان متعاقبين بحساب مُقْتَن لا يختلف ولا يضطرب، ﴿لَا الشَّمْسُ بِبَلْبَلٍ لَمَّا أَتَتْهُ﴾ ﴿٦﴾ وَلَا أَلِيلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٧﴾ [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَاللَّيْلِ إِذَا يَجَاسَ وَجَعَلِ اللَّيْلُ لَكُمُ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ﴿٨﴾ [الأنعام: ٩٦]. وعن عكرمة أنه قال: لو جعل الله نور جميع أبصار الإنسان والجن والدواب والطير في عيني عبد، ثم كشف حجاباً واحداً من سبعين حجاباً دون الشمس، لما استطاع أن ينظر إليها. ونور الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي، ونور الكرسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش، ونور العرش جزء من سبعين جزءاً من نور السترة. فانظر ماذا أعطى الله عبده من النور في عينية وقت النظر إلى وجه ربه الكريم عياناً. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ ﴿٩﴾: قال ابن جرير: اختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿وَالنَّجْمُ﴾ بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق، فروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: النجم ما انبسط على وجه الأرض - يعني من النبات. وكذا قال سعيد بن جببر، والسدي، وسفيان الثوري. وقد اختاره ابن جرير، رحمه الله. وقال مجاهد: النجم الذي في السماء. وكذا قال الحسن، وقتادة. وهذا القول هو الأظهر، والله أعلم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ الآية [الحج: ١٨]. وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ﴿١٠﴾ يعني: العدل، كما قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وهكذا قال هاهنا: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ ﴿٦﴾ أي: خلق السموات والأرض بالحق والعدل، لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل؛ ولهذا قال: ﴿وَأَقِيمُوا الزُّنْتَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَغْيُرُوا الْمِيزَانَ﴾ ﴿٨﴾ أي: لا تبخسوا الوزن، بل زنوا بالحق والقسط، كما قال تعالى: ﴿وَرِزْقًا بِالْقِسْطِ الْكَافِ﴾ [الشعراء: ١٨٢]. وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ ﴿٩﴾ أي: كما رفع السماء وضع الأرض ومهداها، وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات، لتستقر لما على وجهها من الأنام، وهم: الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألوانهم، في سائر أقطارها وأرجائها.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: الأنام: الخلق. ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ أي: مختلفة الألوان والطعوم والروائح، ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾: أفردته بالذكر لشرفه ونفحه، رطباً ويابساً. والأكماء - قال ابن جرير، عن ابن عباس: هي أوعية الطلع. وهكذا قال غير واحد من المفسرين، وهو الذي يطلع فيه القنوط ثم ينشق عن العنقود، فيكون بساً، ثم رطباً، ثم ينضج ويتناهي ينثعه واستواؤه. قال ابن أبي حاتم: ذكر عن عمرو بن علي الصيرفي: حدثنا أبو قتيبة، حدثنا يونس بن الحارث الطائفي، عن الشعبي قال: كتب قيصر إلى عمر بن الخطاب: أخبرك أن رسلي أنتني من قبلك، فزعمت أن قبلكم شجرة ليست بخليقة لشيء من الخير، تخرج مثل آذان الحمير، ثم تشقق مثل اللؤلؤ، ثم تخضر فتكون مثل الزمرد الأخضر، ثم تحمر فتكون كالياقوت الأحمر، ثم يتنقع وتنضج فتكون كأطيب فالودج أكل، ثم تيبس فتكون عصمة للمقيم وزاداً للمسافر، فإن تكن رسلي صدقتي فلا أرى هذه الشجرة إلا من شجر الجنة. فكتب إليه عمر بن الخطاب: من عمر أمير المؤمنين إلى قيصر ملك الروم، إن رسلك قد صدقوك، هذه الشجرة عندنا، وهي الشجرة التي أنبتها الله على مريم حين نفست بعيسى ابنها، فائق الله ولا تتخذ عيسى إلهاً من دون الله، فإن ﴿مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿أَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٥٢﴾ [آل عمران: ٥٩ - ٦٠]. وقيل: الأكماء: رفاتها، وهو: اللب الذي على عنق النخلة. وهو قول الحسن وقتادة.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ ﴿١١﴾: قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ يعني: التين. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿الْعَصْفُ﴾: ورق الزرع الأخضر الذي قطع رؤوسه، فهو يسمى العصف إذا يبس. وكذا قال قتادة، والضحاك، وأبو مالك: عصفه: تبته. وقال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ يعني: الورد. وقال الحسن: هو ريحانكم هذا. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾: خضر الزرع. ومعنى هذا - والله أعلم - أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له في حال نباته عصف، وهو: ما على السنبلة، وريحان، وهو: الورد الملتف على ساقها. وقيل:

العصف: الورق أول ما ينبت الزرع بقلأ. والريحان: الورق، يعني: إذا أذجن وانعقد فيه الحب. كما قال زيد بن عمرو بن نفيل في قصيدته المشهورة.

وَقُولَا لَهُ: مَنْ يُثَبِّثُ الْحَبَّ فِي الثُّرَى فَيُضَيِّحُ مِنْهُ الْبَقْلُ يَهْتَزُّ رَابِيَا؟
وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَبُّهُ فِي رُؤُوسِهِ؟ فَنُفِي ذَاكَ آيَاتٌ لِمَنْ كَانَ وَاعِيَا

وقوله: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٣) أي: فبأي الآلاء- يا معشر الثقلين، من الإنس والجن- تكذبان؟ قاله مجاهد، وغير واحد. ويدل عليه السياق بعده، أي: النعم ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها، لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها، فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنین: «اللهم، ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد». وكان ابن عباس يقول: «لا، بأية يا رب». أي: لا نكذب بشيء منها. قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة، عن أسماء بنت أبي بكر قالت: سمعت رسول الله ﷺ وهو يقرأ، وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر، والمشركون يستمعون ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٣).

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الشَّرَفَيْنِ رَبُّ الْفَرَقَيْنِ ﴿١٧﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَشْجَارِ ﴿٢٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾.

يذكر تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق الجن من مارج من نار، وهو: طرف لهبها. قاله الضحاك، عن ابن عباس. وبه يقول عكرمة، ومجاهد، والحسن، وابن زيد. وقال الغوفي، عن ابن عباس: ﴿مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ﴾: من لهب النار، من أحسنها. وقال علي بن أبي طلحة، وعن ابن عباس: ﴿مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ﴾: من خالص النار. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجن من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم». ورواه مسلم، عن محمد بن رافع وعبد بن حميد، كلاهما عن عبد الرزاق، به. وقوله: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢٣): تقدم تفسيره ﴿رَبُّ الشَّرَفَيْنِ رَبُّ الْفَرَقَيْنِ﴾ (١٧) يعني: مشرقى الصيف والشتاء، ومغربى الصيف والشتاء. وقال في الآية الأخرى: ﴿فَلَا أَقِيمُ رَبِّ الشَّرَفَيْنِ وَالْفَرَقَيْنِ﴾ (المعارج: ٤٠)، وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم، وبروزها منه إلى الناس. وقال في الآية الأخرى: ﴿رَبُّ الشَّرَفَيْنِ وَالْفَرَقَيْنِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (١). وهذا المراد منه جنس المشارق والمغارب، ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق من الجن والإنس قال: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢٣)؟

وقوله: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ (١٨): قال ابن عباس: أي أرسلهما. وقوله: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾: قال ابن زيد: أي: منعهما أن يلتقيا، بما جعل بينهما من البرزخ الحاجز الفاصل بينهما. والمراد بقوله: ﴿الْبَحْرَيْنِ﴾: الملح والحلو، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس. وقد قدمنا الكلام على ذلك في سورة «الفرقان» عند قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا يِلْحٌ أَلْبَاحٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا﴾ (٥٧) [الفرقان: ٥٣]. وقد اختار ابن جرير هاهنا أن المراد بالبحرين: بحر السماء وبحر الأرض، وهو مروي عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وعطية، وابن أبي رزى. قال ابن جرير: لأن اللؤلؤ يتولد من ماء السماء، وأصداف بحر الأرض. وهذا وإن كان هكذا ليس المراد بذلك ما ذهب إليه، فإنه لا يساعده اللفظ؛ فإنه تعالى قد قال: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (٢٠) أي: وجعل بينهما برزخا، وهو: الحاجز من الأرض، لئلا يبنى هذا على هذا، وهذا على هذا، فيفسد كل واحد منهما الآخر، ويزيله على صفته التي هي مقصودة منه. وما بين السماء والأرض لا يسمى برزخاً وحجراً محجوراً.

وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (٢٢) أي: من مجموعهما، فإذا وجد ذلك لأحدهما كفى، كما قال تعالى: ﴿يَمْتَصِّرَ الْيَتَّى وَالْأَيْسَ أَلَمْ يَأْكُمُ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]. والرسول إنما كانوا في الإنس خاصة دون الجن، وقد صح هذا الإطلاق. واللؤلؤ معروف، وأما المرجان فقيل: هو صغار اللؤلؤ. قاله مجاهد، وقتادة، وأبو رزين، والضحاك. وروى عن علي. وقيل: كباره وجيده. حكاه ابن جرير عن بعض السلف. ورواه ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس، وحكاه عن السدي عن حماد، عن ابن عباس. وروى مثله عن علي، ومجاهد أيضاً، ومرة الهمداني. وقيل: هو نوع من الجواهر أحمر اللون. قال السدي، عن أبي مالك، عن مسروق، عن عبد الله قال: المرجان: الخرز الأحمر. قال السدي هو البُسْدُ بالفارسية. وأما قوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلًا تَلْسُوتُهَا﴾ [فاطر: ١٢]، فاللحم من كل من الأجاج والعذب، والحلية، إنما هي من الملح

دون العذب. قال ابن عباس: ما سقطت قط قطرة من السماء في البحر، ف وقعت في صدفة إلا صار منها لؤلؤة. وكذا قال عكرمة، وزاد: فإذا لم تقع في صدفة نبتت بها عنبرة. وروى من غير وجه عن ابن عباس نحوه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: إذا أمطرت السماء، فتحت الأصداف في البحر أفواهاها، فما وقع فيها - يعني: من قطر - فهو اللؤلؤ. إسناده صحيح، ولما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض، امتن بها عليهم فقال: ﴿فَإِنِّي ءَالَآءُ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ (٢٦). وقوله: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْتَثَنَاتُ﴾ يعني: السفن التي تجري في البحر، قال مجاهد: ما رفع قلعه من السفن فهي منشأة وما لم يرفع قلعه فليس بمنشأة، وقال قتادة: ﴿الْمُنْتَثَنَاتُ﴾: يعني المخلوقات. وقال غيره: المنشآت - بكسر الشين - يعني: البادات. ﴿كَالْأَنْكَمِ﴾ أي: كالجبال في كبرها، وما فيها من المناجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، مما فيه من صلاح للناس في جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنِّي ءَالَآءُ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ (٢٦). وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا العراز بن سويد، عن عميرة بن سعد، قال: كنت مع علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، على شاطئ الفرات، إذا أقبلت سفينة مرفوع شراعها، فبسط علي يديه ثم قال: يقول الله ﷻ: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْتَثَنَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَنْكَمِ﴾ (٢٦). والذي أنشأها تجري في بحر من بحوره ما قتلت عثمان، ولا مالات على قتله.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَإِنِّي ءَالَآءُ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْتَكْبِرُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَإِنِّي ءَالَآءُ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٣٠﴾.

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السموات، إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم؛ فإن الرب - تعالى - وتقديس - لا يموت، بل هو الحي الذي لا يموت أبداً. قال قتادة: أنبا بما خلق، ثم أنبا أن ذلك كله كان. وفي الدعاء المأثور: يا حي، يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك نستغيث، أصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلا أنفسنا طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك. وقال الشعبي: إذا قرأت: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (٢٦)، فلا تسكت حتى تقرأ: ﴿وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٢٧). وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الفصم: ٢٨]. وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: هو أهل أن يجلب فلا يعصى، وأن يطاع فلا يخالف، كقوله: ﴿وَأَسْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْبَتِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، وكقوله إخباراً عن المتصدين: ﴿إِنَّمَا تَطْمَئِنُّوهُ لِرَبِّهِ أَفْوَه﴾ [الإنسان: ٩]. قال ابن عباس: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾: ذو العظمة والكبرياء. ولما أخبر عن تساوي أهل الأرض كلهم في الوفاة، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة، فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل قال: ﴿فَإِنِّي ءَالَآءُ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ (٢٦). وقوله: ﴿يَسْتَكْبِرُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (٢٨): وهذا إخبار عن غناه عما سواه، وافتقار الخلائق إليه في جميع الأنات، وأنهم يسألونه بلسان حالهم، وأنه كل يوم هو في شأن. قال الأعمش، عن مجاهد، عن عبيد بن عمير: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، قال: من شأنه أن يجيب داعياً، أو يعطي سائلاً، أو يفك عانياً، أو يشفي سقيماً. وقال ابن أبي نجيع، عن مجاهد قال: كل يوم هو يجيب داعياً، ويكشف كريباً، ويجيب مضطراً، ويغفر ذنباً. وقال قتادة: لا يستغني عنه أهل السموات والأرض، يحيى حياً، ويميت ميتاً، ويربي صغيراً، ويفك أسيراً، وهو منتهى حاجات الصالحين وصرىخهم، ومنتهى شكواهم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان الجفصي، حدثنا حرير بن عثمان، عن سويد بن جبلة - هو الفزاري - قال: إن ربكم كل يوم هو في شأن، فيعق رقاباً، ويعطي رغاباً، ويقم عقاباً.

وقال ابن جرير: حدثني عبد الله بن محمد بن عمرو الغزالي، حدثني إبراهيم بن محمد بن يوسف الفريابي، حدثني عمرو بن بكر السكسكي، حدثنا الحارث بن عبيدة بن رباح الغساني، عن أبيه، عن منيب بن عبد الله بن منيب الأزدي، عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، فقلنا: يا رسول الله، وما ذاك الشأن، قال: «أن يغفر ذنباً، ويفرج كريباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، وسليمان بن أحمد الواسطي، قالوا: حدثنا الوزير بن صبيح الثقفي أبو روح الدمشقي - والسياق لهشام - قال: سمعت يونس بن ميسرة ابن خلّيس، يحدث عن أم الدرداء عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «قال الله ﷻ: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾: قال: «من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرج كريباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين». وقد رواه ابن عساكر من طرق متعددة، عن هشام بن عمار، به. ثم ساقه من حديث أبي همام الوليد بن شجاع، عن الوزير بن صبيح قال: ودلنا عليه الوليد بن مسلم، عن مطرف، عن الشعبي، عن أم الدرداء، عن أبي

الدرء، عن النبي ﷺ، فذكره. قال: والصحيح الأول. يعني إسناده الأول. قلت: وقد روى موقوفاً، كما علقه البخاري بصيغة الجزم، فجعله من كلام أبي الدرداء، فالله أعلم. وقال البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن الحارث، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن اليلماني، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي تَأْوِيلٍ﴾، قال: «يعفر ذنباً، ويكشف كرباً». ثم قال ابن جرير: وحدثنا أبو كريب، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن أبي حمزة الثمالي، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، أن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء، دفنناه ياقوتة حمراء، قلمه نوره، وكتابه نور، عرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة، يخلق في كل نظرة، ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء.

﴿سَنَعْرِجُ لَكُمْ آيَةَ الْفُلْكَانِ ﴿٣١﴾ فَإِنِّي مَالَهُ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٣٢﴾ يَتَمَتَّرَ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَغْلَبْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاتَّقُوا لَا تَنْفُذُوا إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِنِّي مَالَهُ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِنْ نَارٍ وَخَسَافٍ فَلَا تَنْصَرِكُونَ ﴿٣٥﴾ فَإِنِّي مَالَهُ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿سَنَعْرِجُ لَكُمْ آيَةَ الْفُلْكَانِ ﴿٣١﴾﴾، قال: وعيد من الله للعباد، وليس بالله شغل وهو فارغ. وكذا قال الضحاك: هذا وعيد. وقال قتادة: قد دنا من الله فراغ لخلقه. وقال ابن جرير: ﴿سَنَعْرِجُ لَكُمْ﴾ أي: سنقض لكم. وقال البخاري: سنحاسبكم، لا يشغله شيء عن شيء، وهو معروف في كلام العرب، يقال: «لأنفزعن لك» وما به شغل، يقول: «لأخذنك على غررتك». وقوله: ﴿آيَةُ الْفُلْكَانِ﴾: الفلكان: الإنس والجن، كما جاء في الصحيح: «يسمعها كل شيء إلا الثقلين» وفي رواية: «إلا الجن والإنس». وفي حديث الصور: «الفلكان الإنس والجن» ﴿فَأَيُّ مَالَهُ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٣٢﴾﴾.

ثم قال: ﴿يَتَمَتَّرَ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَغْلَبْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاتَّقُوا لَا تَنْفُذُوا إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكُمْ ﴿٣٣﴾﴾. أي: لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره، بل هو محيط بكم، لا تقدرون على التخلص من حكمه، ولا النفوذ عن حكمه فيكم، أينما ذهبت أحيط بكم، وهذا في مقام المحشر، الملائكة محدقة بالخلائق، سبع صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكُمْ﴾ أي: إلا بأمر الله، ﴿يَقُولُ الْإِنْسُ يَوْمَئِذٍ أَلَمْ أَكُنْ مِنْكُمْ قَبْلَ مَا كُنْتُمْ أَشْهُدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَرَبِّكَ يَوْمَئِذٍ شَفِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [القيامة: ١٠-١٢]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَفْعَلُهَا وَيَرْجِعُهُمْ فِيهَا خَلْقٌ ﴿٣٥﴾﴾ [يونس: ٢٧]، ولهذا قال: ﴿يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِنْ نَارٍ وَخَسَافٍ فَلَا تَنْصَرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الشواط: هو لهب النار. وقال سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: الشواط: الدخان. وقال مجاهد: هو اللهب الأخضر المنقطع. وقال أبو صالح: الشواط: هو اللهب الذي فوق النار ودون الدخان. وقال الضحاك: ﴿شَوَاطِئَ مِنْ نَارٍ﴾: سيل من نار. وقوله: ﴿وَخَسَافٍ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَخَسَافٍ﴾: دخان النار. وروى مثله عن أبي صالح، وسعيد بن جبيرة، وأبي سنان. قال ابن جرير: والعرب تسمي الدخان نحاساً - بضم النون وكسرهما - والقراءة مجمعة على الضم، ومن النحاس بمعنى الدخان قول نابغة جعدة:

يُضِيءُ كَضَوْءِ سَرَاجِ السُّلَيْمِ ط، لَمْ يَجْعَلِ اللَّؤْلُؤُ فِيهِ نُحَاساً

يعني: دخاناً، هكذا قال. وقد روى الطبراني من طريق جوير، عن الضحاك: أن نابغ بن الأزرق سأل ابن عباس عن الشواط فقال: هو اللهب الذي لا دخان معه. فسأله شاهداً على ذلك من اللغة، فأئشده قول أمية بن أبي الصلت في حسان:

أَلَا مِنْ مُبْلَغٍ خُشَّانٍ عَشِيٍّ ط، لَمْ يَجْعَلِ اللَّؤْلُؤُ فِيهِ نُحَاساً

أليس أبوك فينا كان قيناً ط، لَمْ يَجْعَلِ اللَّؤْلُؤُ فِيهِ نُحَاساً

يَمَانِيّاً يَظَلُّ يَشُدُّ كَيْراً ط، لَمْ يَجْعَلِ اللَّؤْلُؤُ فِيهِ نُحَاساً

قال: صدقت، فما النحاس؟ قال: هو الدخان الذي لا لهب له. قال: فهل تعرفه العرب؟ قال: نعم، أما سمعت نابغة بني ذبيان يقول:

يُضِيءُ كَضَوْءِ سَرَاجِ السُّلَيْمِ ط، لَمْ يَجْعَلِ اللَّؤْلُؤُ فِيهِ نُحَاساً

وقال مجاهد: النحاس: الضمير، يذاب فيصب على رؤوسهم. وكذا قال قتادة: وقال الضحاك: ﴿وَخَسَافٍ﴾: سيل من نحاس.

والمعنى على كل قول: لو ذهبت هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَنْصَرِكُونَ﴾ ﴿٣٥﴾. ﴿فَأَيُّ مَالَهُ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّا أَنْشَأَتِ السَّمَاءُ كَلَكَاتٍ وَرَدَّهُ الْاِلَهَانِ ﴿٣٧﴾ فَإِنِّي مَالَهُ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٣٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ إِشْرَافٌ وَلَا جَدَّ ﴿٣٩﴾ فَإِنِّي مَالَهُ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٤٠﴾ يَعْرِفُ السَّجِرُونَ بِسَمْتِهِمْ يَوْمَئِذٍ بِالنَّوْصِ وَالْأَفْكَامِ ﴿٤١﴾ فَإِنِّي مَالَهُ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿يَطُورُونَ بَيْنًا وَبَيْنَ جَمِيمٍ مَّانٍ ٣١﴾ فَإِنِّي مَآلَهُ رَكَبًا نَّكَارًا ﴿٣٢﴾.

يقول تعالى: ﴿إِذَا أُنشِئَتِ السَّمَاءُ﴾ يوم القيامة، كما دلت عليه هذه الآية مع ما شاكلها من الآيات الواردة في معناها، كقوله: ﴿وَأُنشِئَتِ السَّمَاءُ فِي يَوْمٍ مَّيْمَزٍ وَاهِيَةٍ﴾ [الحاقة: ١٦]، وقوله: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ وَاللَّيْلُ مِثْلَ الْبُرْجِ تَنَزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ١ وَأُنشِئَتْ رِيحًا وَحُفَّتْ ٢﴾ [الانشقاق: ١-٢]. وقوله: ﴿فَكَانَتْ زُرَّةً ٣ كَالَّذِي هَانَ ٤ أَيْ: تَذُوبٌ كَمَا يَذُوبُ الذَّرْدِيُّ وَالْفَضَّةُ فِي السِّبْكِ، وَتَتَلَوْنَ كَمَا تَتَلَوْنَ الْأَصْبَاغَ الَّتِي يَدُحْنُ بِهَا، فَتَارَةٌ حُمْرَاءُ وَصَفْرَاءُ وَزُرْقَاءُ وَخَضْرَاءُ، وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ الْأَمْرِ وَهَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْعَظِيمِ. وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي الصَّهْبَاءِ، حَدَّثَنَا نَافِعُ أَبُو غَالِبٍ الْبَاهِلِيُّ، حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاءُ تُطَشُّ عَلَيْهِمْ». قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الطُّشُّ: الْمَطَرُ الضَّعِيفُ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿زُرَّةً ٣ كَالَّذِي هَانَ ٤﴾، قَالَ: هُوَ الْأَدِيمُ الْأَحْمَرُ. وَقَالَ أَبُو كُذَيْبَةَ عَنْ قَابُوسَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَكَانَتْ زُرَّةً ٣ كَالَّذِي هَانَ ٤﴾: كَالْفَرَسِ الْوَرْدِ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: تَغْيِيرُ لَوْنِهَا. وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ: كَالْبَزْدُونِ الْوَرْدِ، ثُمَّ كَانَتْ بَعْدَ كَالِدَهَانَ. وَحَكَى الْبَغَوِيُّ وَغَيْرُهُ: أَنَّ الْفَرَسَ الْوَرْدَ تَكُونُ فِي الرِّبْعِ صَفْرَاءُ، وَفِي الشِّتَاءِ حُمْرَاءُ، فَإِذَا اشْتَدَّ الْبَرْدُ اغْبَرَّ لَوْنُهَا. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: تَكُونُ الْوَأْنَاءُ. وَقَالَ السِّدِّيُّ: تَكُونُ كَلَوْنِ الْبَغْلَةِ الْوَرْدَةِ، وَتَكُونُ كَالْمَهْلِ كِلْدَرِيِّ الزَّيْتِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿كَالَّذِي هَانَ ٤﴾: كَالْوَأْنِ الدَّهَانِ. وَقَالَ عَطَاءُ الْخِرَاسَانِيُّ: كَلَوْنُ دُهْنِ الْوَزْدِ فِي الصَّفْرَةِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ الْيَوْمُ خَضْرَاءُ، وَيَوْمَئِذٍ لَوْنُهَا إِلَى الْحُمْرَةِ، يَوْمَ ذِي الْوَأْنِ. وَقَالَ أَبُو الْجَوَازِ: فِي صِفَاءِ الدَّهْنِ. وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ بْنُ جَرِيحٍ: تَصِيرُ السَّمَاءُ كَالدَّهْنِ الذَّائِبِ، وَذَلِكَ حِينَ يُصْبِيهَا حَرُّ جَهَنَّمَ.

وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ٣٣﴾، وهذه كقوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَكُمْ فَيَعْذِرُونَ ﴿٣٦﴾ [المزملات: ٣٥-٣٦]، فهذا في حال، وَثُمَّ حَالٍ يَسْأَلُ الْخَلَائِقُ فِيهَا عَنْ جَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٣٧﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٨﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]؛ وَلِهَذَا قَالَ قَتَادَةُ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ٣٣﴾، قَالَ: قَدْ كَانَتْ مَسْأَلَةٌ، ثُمَّ خَتَمَ عَلَى أَفْوَاهِ الْقَوْمِ، وَتَكَلَّمْتُ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَا يَسْأَلُهُمْ: هَلْ عَمِلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ لِأَنَّهُ أَعْلَمَ بِذَلِكَ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ يَقُولُ: لِمَ عَمِلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ فَهُوَ قَوْلُ ثَانَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: لَا يَسْأَلُ الْمَلَائِكَةُ عَنِ الْمَجْرَمِ، يُعْرِفُونَ بِسِمَاهُمْ. وَهَذَا قَوْلُ ثَالِثٍ. وَكَانَ هَذَا بَعْدَ مَا يُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، فَذَلِكَ الْوَقْتُ لَا يَسْأَلُونَ عَنْ ذُنُوبِهِمْ، بَلْ يَقَادُونَ إِلَيْهَا وَيَلْقَوْنَ فِيهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْرِفُ الْفَاسِقُونَ ٣٩﴾ بِسِمَتِهِمْ ٤٠ أَيْ: بِعَلَامَاتٍ تَظْهَرُ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: يَعْرِفُونَهُمْ بِأَسْوَدَادِ الْوُجُوهِ وَزُرْقَةِ الْعَيُونِ. قُلْتُ: وَهَذَا كَمَا يَعْرِفُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْغُرَّةِ وَالتَّحْجِيلِ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ.

وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا تَنْزَمِي وَلَا تَأْقَدِمُ ٤١﴾ أَيْ: تَجْمَعُ الزَّبَانِيَةُ نَاصِيئَتَهُ مَعَ قَدَمِيهِ وَيَلْقَوْنَهُ فِي النَّارِ كَذَلِكَ. وَقَالَ الْأَعْمَشُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يُؤْخَذُ بِنَاصِيئَتِهِ وَقَدَمِهِ، فَيَكْسَرُ كَمَا يَكْسَرُ الْحَطَبُ فِي النَّتُورِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: يَجْمَعُ بَيْنَ نَاصِيئَتِهِ وَقَدَمِيهِ فِي سِلْسِلَةٍ مِنْ وَرَاءَ ظَهْرِهِ. وَقَالَ السِّدِّيُّ: يَجْمَعُ بَيْنَ نَاصِيئَةِ الْكَافِرِ وَقَدَمِيهِ، فَتَرْبِطُ نَاصِيئَتَهُ بِقَدَمِهِ، وَيَقْتُلُ ظَهْرَهُ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو تَوْبَةَ الرِّبْعِيُّ بْنُ نَافِعٍ، حَدَّثَنَا مَعَاوِيَةُ بْنُ سَلَامٍ، عَنْ أَخِيهِ زَيْدِ بْنِ سَلَامٍ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَلَامٍ - يَعْنِي جَدَّهُ - أَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ، حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ كِنْدَةَ قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ فَدَخَلَتْ عَلَيْهَا، وَبَيْنِي وَبَيْنَهَا حِجَابٌ، فَقُلْتُ: حَدَّثَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ يَأْتِي عَلَيْهِ سَاعَةٌ لَا يَمْلِكُ لِأَحَدٍ فِيهَا شِفَاعَةً؟ قَالَتْ: نَعَمْ، لَقَدْ سَأَلْتُهُ عَنْ هَذَا وَأَنَا وَهُوَ فِي شِعَارٍ وَاحِدٍ، قَالَ: «نَعَمْ، حِينَ يَوْضَعُ الصِّرَاطُ، وَلَا أَمْلِكُ لِأَحَدٍ فِيهَا شِفَاعَةً، حَتَّى أَعْلَمَ أَيْنَ يَسْلُكُ بِي؟ وَيَوْمَ تَبْيَضُ وَجُوهُ وَتَسْوَدُ وَجُوهُ، حَتَّى أَنْظُرَ مَاذَا يَفْعَلُ بِي - أَوْ قَالَ: يَوْحَى - وَعِنْدَ الْجِسْرِ حِينَ يَسْتَحْدُ وَيَسْتَحِرُّ» قَالَتْ: وَمَا يَسْتَحْدُ وَمَا يَسْتَحِرُّ؟ قَالَ: «يَسْتَحْدُ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ شَفْرَةِ السِّيفِ، وَيَسْتَحِرُّ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الْجَمْرَةِ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَجِيزُهُ لَا يَبْضُرُهُ، وَأَمَّا الْمُنَافِقُ فَيَتَعَلَّقُ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَوْسَطَهُ خَرَّ مِنْ قَدَمِهِ فَيَهْوِي بِيَدِهِ إِلَى قَدَمِيهِ، فَتَضْرِبُهُ الزَّبَانِيَةُ بِخُطَافٍ فِي نَاصِيئَتِهِ وَقَدَمِهِ، فَتَقْذِفُهُ فِي جَهَنَّمَ، فَيَهْوِي فِيهَا مَقْدَارَ خَمْسِينَ عَامًا». قُلْتُ: مَا ثَقُلَ الرَّجُلُ؟ قَالَتْ: ثَقُلَ عَشْرَ خَلَقَاتٍ سَمَانٍ، فَيَوْمَئِذٍ يَعْرِفُ الْمَجْرَمُونَ بِسِمَاهُمْ فَيَأْخِذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ. هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ جَدًّا، وَفِيهِ أَلْفَاظُ مُنْكَرٌ رَفَعَهَا، وَفِي الْإِسْنَادِ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ، وَمِثْلُهُ لَا يَحْتَجُّ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُكْفِرُونَ ٤٢﴾ أَيْ: هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ بِوُجُودِهَا هِيَ حَاضِرَةٌ تَشَاهِدُ وَنَهَا عَيَانًا، يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَتَصْغِيرًا وَتَحْقِيرًا. وَقوله: ﴿يَطُورُونَ بَيْنًا وَبَيْنَ جَمِيمٍ مَّانٍ ٣١﴾ أَيْ: تَارَةً يَعْدِبُونَ فِي الْحَجِيمِ، وَتَارَةً يَسْقُونَ مِنَ الْحَمِيمِ، وَهُوَ الشَّرَابُ الَّذِي هُوَ كَالنَّحَاسِ الْمَذَابِ، يَقْطَعُ الْأَمْعَاءَ وَالْأَحْشَاءَ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا الْأَنْفُلُ فِي أَغْتَابِهِمُ ٤٣﴾ وَالنَّاسُ لِيُسْحَبُونَ ﴿٤٤﴾ فِي لَكْمَةٍ ٤٥ ثَمَّ فِي الْكَارِ يُسْحَرُونَ ﴿٤٦﴾ [الغافر: ٧١-٧٢]. وَقوله: ﴿مَّانٍ ٣١﴾ أَيْ: حَارٌّ، وَقَدْ بَلَغَ الْغَايَةَ فِي الْحَرَارَةِ، لَا يَسْتَطَاعُ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَطُورُونَ بَيْنًا وَبَيْنَ جَمِيمٍ مَّانٍ ٣١﴾ قَدْ انْتَهَى عَلَيْهِ، وَاشْتَدَّ حَرُّهُ.

وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبیر، والضحاك، والحسن، والثوري، والسدي. وقال قتادة: قد أتى طبعه منذ خلق الله السموات والأرض. وقال محمد بن كعب القرظي: يؤخذ العبد فيحزك بناصيته في ذلك الحميم، حتى يذوب اللحم ويبقى العظم والعينان في الرأس. وهي كالتي يقول الله تعالى: ﴿فِي اللَّيْلِ تُثَرَّفُ فِي أَلْتَارِ يُسْجَرُونَ﴾ (٧٧). والحميم الآن: يعني الحار. وعن القرظي رواية أخرى: ﴿يَجِيرُ مَالًا﴾ أي: حاضر. وهو قول ابن زيد أيضاً، والحاضر، لا ينافي ما روي عن القرظي أولاً أنه الحار، كقوله تعالى: ﴿تَشَقَّى مِنْ عَيْنِي مَائِدَةً﴾ (٩) [الغاشية: ٥٠]، أي حارة شديدة الحر لا تستطاع. وكقوله: ﴿غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣] يعني: استواءه ونضجه. فقوله: ﴿يَجِيرُ مَالًا﴾ أي: حميم حار جداً. ولما كان معاقبة العصاة المجرمين وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه، وكان إنذاره لهم عذابه وبأسه مما يزرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك، قال ممثلاً بذلك على برته: ﴿يَأْتِي مَالًا رِيكًا تَكْذِبَانِ﴾ (٤٥).

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (٤٦) ﴿يَأْتِي مَالًا رِيكًا تَكْذِبَانِ﴾ (٤٧) ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ (٤٨) ﴿يَأْتِي مَالًا رِيكًا تَكْذِبَانِ﴾ (٤٩) ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ (٥٠) ﴿يَأْتِي مَالًا رِيكًا تَكْذِبَانِ﴾ (٥١) ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ (٥٢) ﴿يَأْتِي مَالًا رِيكًا تَكْذِبَانِ﴾ (٥٣).

قال ابن شَوْذِب، وعطاء الخراساني: نزلت هذه الآية: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (٤٦) في أبي بكر الصديق. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن مصفى، حدثنا بَقِيَّة، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن عطية بن قيس في قوله: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (٤٦): نزلت في الذي قال: أحرقوني بالنار، لعلي أضل الله، قال: تاب يوماً وليلة بعد أن تكلم بهذا، فقبل الله منه وأدخله الجنة. والصحيح أن هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره، يقول تعالى: ولمن خاف مقامه بين يدي الله، ﷻ، يوم القيامة، ﴿وَنُمِّي أَلْفُ نَفْسٍ عَنِ الْفَوْقِ﴾ [النازعات: ٤٠]، ولم يطف ولا أثار الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى، فأدى فرائض الله، واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان، كما قال البخاري، رحمه الله. حدثنا عبد الله بن أبي الأسود، حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد العنقي، حدثنا أبو عمران الجوني، عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة، آتيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم ﷻ إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن». وأخرجه بقية الجماعة إلا أبا داود، من حديث عبد العزيز، به. وقال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أبي بكر بن أبي موسى، عن أبيه - قال حماد: ولا أعلمه إلا قد رفعه - في قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (٤٦)، وفي قوله: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ﴾ (٤٧) قال: جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين. وقال ابن جرير: حدثنا زكريا بن يحيى بن أبان المصري، حدثنا ابن أبي مريم، أخبرنا محمد بن جعفر، عن محمد بن أبي خزيمة، عن عطية بن يسار، أخبرني أبو الدرداء؛ أن رسول الله ﷺ قرأ يوماً هذه الآية: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (٤٦)، فقلت: وإن زنى أو سرق؟ فقال: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (٤٦)، فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (٤٦)، فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «إن رغم أنف أبي الدرداء». ورواه النسائي من حديث محمد بن أبي خزيمة، به. ورواه النسائي أيضاً عن مؤمل بن هشام، عن إسماعيل، عن الجُريري، عن موسى، عن محمد بن سعد بن أبي وقاص، عن أبي الدرداء، به. وقد روي موقوفاً عن أبي الدرداء. وروى عنه أنه قال: إن من خاف مقام ربه لم يزن ولم يسرق. وهذه الآية عامة في الإنس والجن، فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا؛ ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (٤٦) ﴿يَأْتِي مَالًا رِيكًا تَكْذِبَانِ﴾ (٤٧). ثم نعت هاتين الجنتين فقال: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ (٤٨) أي: أغصان نضرة حسنة، تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة، ﴿يَأْتِي مَالًا رِيكًا تَكْذِبَانِ﴾ (٤٩). هكذا قال عطاء الخراساني وجماعة: إن الأفنان أغصان الشجر، يمس بعضها بعضاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن علي، حدثنا مسلم بن قتيبة، حدثنا عبد الله بن النعمان، سمعت عكرمة يقول: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ (٤٨)، يقول: ظل الأغصان على الحيطان، ألم تسمع قول الشاعر حيث يقول:

مَا هَاجَ شَوْكَكَ مِنْ هَدِيلِ حَمَامَةٍ تَذْعُو عَلَى فَنَنِ الْغُصُونِ حَمَامًا
تَذْعُو أَبَا فَرْحَانَ صَادَفَ طَاوِيًا ذَا مَخْلَبِينَ مِنَ الصَّقُورِ قَطَامًا
وحكى البغوي عن مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والكلبي: أنه الغصن المستقيم طوياً. قال: وحدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبد السلام بن حرب، حدثنا عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ (٤٨): ذواتا ألوان.

قال: وقد روي عن سعيد بن جبير، والحسن، والسدي، وخُصيف، والنضر بن عربي، وأبي سنان مثل ذلك. ومعنى هذا القول أن فيهما فنوناً من الملاذ، واختاره ابن جرير. وقال عطاء: كل غصن يجمع فنوناً من الفاكهة. وقال الربيع بن أنس: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ (٥٤): واسعنا الفناء. وكل هذا الأقوال صحيحة، ولا منافاة بينها، والله أعلم. وقال قتادة: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ (٥٤) ينبت بسعتها وفضلها ومزيتها على ما سواها. وقال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن أسماء قالت: سمعت رسول الله ﷺ وذكر سدره المنتهى - فقال: «يسير في ظل الفتن منها الراكب مائة سنة - أو قال: يستظل في ظل الفتن منها مائة راكب - فيها فراش الذهب، كأن ثمرها القلال». رواه الترمذي من حديث يونس بن بكير، به. ﴿فِيهَا عَيْنَانِ جَوَارِحَ﴾ (٥٥): أي تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان فتثمر من جميع الألوان، ﴿فِيهَا مَاءٌ لَّهُ رِيْقًا تَكْذِبَانِ﴾ (٥٦) قال الحسن البصري: إحداهما يقال لها: «تسليم»، والأخرى «السلسيل». وقال عطية: إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين. ولهذا قال بعد هذا: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ ذَوَاتَا عَيْنٍ﴾ (٥٧): أي من جميع أنواع الثمار مما يعلمون وخير مما يعلمون، ومما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿فِيهَا مَاءٌ لَّهُ رِيْقًا تَكْذِبَانِ﴾ (٥٦). قال إبراهيم بن الحكم بن أبان، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس: ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل. وقال ابن عباس: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء، يعني: أن بين ذلك بوناً عظيماً، ورفقاً بيناً في التفاضل.

﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَىٰ آلَ عِزٍّ ذَوَاتَا سِيْرٍ﴾ (٥٨) ﴿فِيهَا مَاءٌ لَّهُ رِيْقًا تَكْذِبَانِ﴾ (٥٦) ﴿فِيهَا مَاءٌ لَّهُ رِيْقًا تَكْذِبَانِ﴾ (٥٦) ﴿فِيهَا مَاءٌ لَّهُ رِيْقًا تَكْذِبَانِ﴾ (٥٦) ﴿فِيهَا مَاءٌ لَّهُ رِيْقًا تَكْذِبَانِ﴾ (٥٦) ﴿فِيهَا مَاءٌ لَّهُ رِيْقًا تَكْذِبَانِ﴾ (٥٦).

يقول تعالى: ﴿مُتَكَبِّرِينَ﴾ يعني: أهل الجنة. والمراد بالانكاء هاهنا: الاضطجاع. ويقال: الجلوس على صفة الترفع. ﴿عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو: ما غلظ من الديباج. قاله عكرمة، والضحاك، وقاتة. وقال أبو عمران الجوني: هو الديباج المغزى بالذهب. فنه على شرف الظهارة بشرف البطانة. وهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى. قال أبو إسحاق، عن هُبيرة بن يريم، عن عبد الله بن مسعود قال: هذه البطائن فكيف لو رأيت الظواهر؟ وقال مالك بن دينار: بطائنها من إستبرق، وظواهرها من نور. وقال سفيان الثوري - أو شريك -: بطائنها من إستبرق، وظواهرها من نور جامد. وقال القاسم بن محمد: بطائنها من إستبرق، وظواهرها من الرحمة. وقال ابن شُذَّب، عن أبي عبد الله الشامي: ذكر الله البطائن ولم يذكر الظواهر، وعلى الظواهر المحابس، ولا يعلم ما تحت المحابس إلا الله. ذكر ذلك كله الإمام ابن أبي حاتم. ﴿وَحَىٰ آلَ عِزٍّ ذَوَاتَا سِيْرٍ﴾ (٥٨) أي: ثمرها قريب إليهم، متى شاءوا تناولوه، على أي صفة كانوا، كما قال: ﴿فَلَوْهَا ذَاتُ غُرَابٍ﴾ (٥٩) ﴿الْحَاقَّةُ﴾ (٦٠) وقال: ﴿وَكَايَ عَالِيْنَ يَلْمُزْنَ وَأُولَٰئِكَ فَطَرَهَا تَزْلِيلًا﴾ (٦١) ﴿الْإِنْسَانُ﴾ (٦٢) أي: لا تمنع ممن تناولها، بل تنحط إليه من أغصانها، ﴿فِيهَا مَاءٌ لَّهُ رِيْقًا تَكْذِبَانِ﴾ (٥٦). ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك: ﴿يَبِينُ﴾ أي: في الفرش ﴿تَصِيرُ الْأَطْرَفُ﴾ أي غصنات عن غير أزواجهن، فلا يرين شيئاً أحسن في الجنة من أزواجهن. قاله ابن عباس، وقاتة، وعطاء الخراساني، وابن زيد. وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعولها: والله ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك، ولا في الجنة شيء أحب إلي منك، فالحمد لله الذي جعلك لي وجعلني لك. ﴿لَا يَلْمِزُكَ إِنِشْ قِيلَ لَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ (٦٣) أي: بل هن أبكار عرب أتراب، لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنسان والجن. وهذه أيضاً من الأدلة على دخول مؤمني الجن الجنة. قال أوطاة بن المنذر: سئل ضمرة بن حبيب: هل يدخل الجن الجنة؟ قال: نعم، وينكحون، للجن جنات، وللإنس إنسيات. وذلك قوله: ﴿لَا يَلْمِزُكَ إِنِشْ قِيلَ لَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ (٦٣) ﴿فِيهَا مَاءٌ لَّهُ رِيْقًا تَكْذِبَانِ﴾ (٥٦). ثم قال ينعتهن للخطاب: ﴿كَأَنَّ الْيَقُوتَ وَالْمَرْجَانَ﴾ (٦٤)، قال مجاهد، والحسن، والسدي، وابن زيد، وغيرهم: في صفاء الياقوت وبياض المرجان، فجعلوا المرجان هاهنا اللؤلؤ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن حاتم، حدثنا عبيدة بن حميد، عن عطاء بن السائب، عن عمرو بن ميمون الأودي، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من الحرير، حتى يرى مخها، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿كَأَنَّ الْيَقُوتَ وَالْمَرْجَانَ﴾ (٦٤)، فأما الياقوت فإنه حَجَرٌ لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيت من ورائه». وهكذا رواه الترمذي من حديث عبيدة بن حميد وأبي الأحوص، عن عطاء بن السائب، به. ورواه موقوفاً، ثم قال: وهو أصح. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا يونس، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين، على كل واحدة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من وراء الثياب». تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه. وقد رواه مسلم من حديث إسماعيل بن عُليَّة، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، قال: إما تفاخروا وإما تذاكروا،

الرجال أكثر في الجنة أم النساء؟ فقال أبو هريرة: أو لم يقل أبو القاسم ﷺ: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أضواء كوكب دُرِّي في السماء، لكل امرئ منهن زوجتان اثنتان، يُرى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب». وهذا الحديث مُخْرَجٌ في الصحيحين، من حديث هَمَام بن مَثَبٍ وأبي رُزَعة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا محمد بن طلحة، عن حميد، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لَعَذْوَةٌ في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها، وَلَقَابُ قَوْسٍ أَحَدِكُمْ - أو موضع قيده - يعني: سوطه - من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لمئات ما بينهما ربحاً، ولطاب ما بينهما، ولتصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها». ورواه البخاري من حديث أبي إسحاق، عن حميد، عن أنس بنحوه. وقوله: «مَلَّ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ» (٦٢) أي: ما لمن أحسن في الدنيا العمل إلا الإحسان إليه في الدار الآخرة. كما قال تعالى: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَّ يُؤْتِيهِمْ أُجْرَهُمْ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّجْتَمِعِينَ» (٦٣). وقال البغوي: أخبرنا أبو سعيد الشريحي، حدثنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني ابن قنْجُو، حدثنا ابن شبيب، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن بهرام، حدثنا الحجاج بن يوسف المُكْتَب، حدثنا بشر بن الحسين، عن الزبير بن عدي، عن أنس بن مالك، قال: قرأ رسول الله ﷺ: «مَلَّ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ» (٦٢)، قال: «هل تدرون ما قال ربكم؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «يقول: هل جزاء ما أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة». ولما كان في الذي ذُكِرَ نعم عظيمة لا يقاومها عمل، بل مجرد تفضل وامتنان، قال بعد ذلك كله: «وَيَأْتِي مَالَهُ رَبُّكَ نَكَدًا» (٦٤). ومما يتعلق بقوله تعالى: «وَلَمْ يَكُنْ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ» (٦٥)، ما رواه الترمذي والبغوي، من حديث أبي النضر هاشم بن القاسم، عن أبي عقيل الثقيفي، عن أبي فروة يزيد بن سنان الزهاوي، عن بُكَيْرِ ابن فيروز، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة». ثم قال الترمذي: غريب، لا نعرفه إلا من حديث أبي النضر. وروى البغوي من حديث علي بن خُجَر، عن إسماعيل بن جعفر، عن محمد بن أبي حَزْمَةَ - مولى حويط بن عبد العزى - عن عطاء بن يَسَار، عن أبي الدرداء؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقص على المنبر وهو يقول: «وَلَمْ يَكُنْ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ» (٦٥)، قلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «وَلَمْ يَكُنْ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ» (٦٥). فقلت الثانية: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «وَلَمْ يَكُنْ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ» (٦٥). فقلت الثالثة: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «وإن، رغم أنف أبي الدرداء».

«وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٌ» (٦٦) وَيَأْتِي مَالَهُ رَبُّكَ نَكَدًا (٦٤) مَدَامَتَانِ (٦٤) فِي أَيِّ مَالِهِ رَبُّكَ نَكَدًا (٦٤) فِيهَا عَيْنَانِ صَاحَتَانِ (٦٦) فِي أَيِّ مَالِهِ رَبُّكَ نَكَدًا (٦٤) فِيهَا نَهْرٌ جَسَدٌ (٦٥) فِي أَيِّ مَالِهِ رَبُّكَ نَكَدًا (٦٤) حُرٌّ مَقْصُورٌ فِي الْخِيَارِ (٦٦) فِي أَيِّ مَالِهِ رَبُّكَ نَكَدًا (٦٤) لَمْ يَطْلُبْنِي إِسْرَافُهُمْ وَلَا حَافٍ (٦٥) فِي أَيِّ مَالِهِ رَبُّكَ نَكَدًا (٦٤) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرٍ جَسَدٍ (٦٦) فِي أَيِّ مَالِهِ رَبُّكَ نَكَدًا (٦٤) بَرَكَ أَمْرُ رَبِّكَ ذِي الْكُلَّةِ وَالْإِكْرَامِ (٦٨).

هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن، قال الله تعالى: «وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٌ» (٦٦). وقد تقدم في الحديث: «جنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آتيتهما وما فيهما، فالأوليان للمقربين، والآخران لأصحاب اليمين». وقال أبو موسى: جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين. وقال ابن عباس: «وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٌ» (٦٦): من دونهما في الدرج: وقال ابن زيد: من دونهما في الفضل. والدليل على شرف الأولين على الآخرين وجوه: أحدها: أنه نعت الأولين قبل هاتين، والتقديم يدل على الاعناء ثم قال: «وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٌ» (٦٦). وهذا ظاهر في شرف التقديم وعلوه على الثاني. وقال هناك: «ذَوَاتَا أَفْنَانٍ» (٦٥): وهي الأغصان أو الفنون في الملاذ، وقال هاهنا: «مَدَامَتَانِ» (٦٤) أي: سوداوان من شدة الري. قال ابن عباس في قوله: «مَدَامَتَانِ» (٦٤): قد اسودتا من الخضرة، من شدة الري من الماء. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن فضيل، حدثنا عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: «مَدَامَتَانِ» (٦٤): قال: خضراوان. وروى عن أبي أيوب الأنصاري، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن أبي أوفى، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد - في إحدى الروايات - وعطاء، وعطية العوفي، والحسن البصري، ويحيى بن رافع، وسفيان الثوري، نحو ذلك. وقال محمد بن كعب: «مَدَامَتَانِ» (٦٤): ممتلئتان من الخضرة. وقال قتادة: خضروان من الري ناعمتان. ولا شك في نضارة الأغصان على الأشجار المشبكية بعضها في بعض. وقال هناك: «فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ» (٦٥)، وقال هاهنا: «صَاحَتَانِ» (٦٦)، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي فياضتان. والجري أقوى من النضخ. وقال الضحاك: «صَاحَتَانِ» (٦٦) أي: ممتلئتان لا تنقطعان.

وقال هناك: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ مَثَلٌ﴾، وقال هاهنا: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ مَثَلٌ﴾، ولا شك أن الأولى أعم وأكثر من الأفراد والتنوع على فاكهة، وهي نكرة في سياق الإثبات لا تعم؛ ولهذا فسر قوله: ﴿وَنَخْلٍ وَرُمَّانٍ﴾ من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخاري وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما. قال عبد بن حميد: حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا حصين بن عمر، حدثنا مخارق، عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب قال: جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أفي الجنة فاكهة؟ قال: «نعم، فيها فاكهة ونخل ورمان». قالوا: أفيما ياكلون كما ياكلون في الدنيا؟ قال: «نعم وأضعاف». قالوا: فيقصون الحوائج؟ قال: «لا، ولكنهم يعرفون ويرشون، فيذهب الله ما في بطونهم من أذى». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الفضل بن دكين، حدثنا سفيان، عن حماد، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس قال: نخل الجنة سعتها كسوة لأهل الجنة، منها مقطعاتهم، ومنها خللهم وكرثها ذهب أحمر، وجذوعها زمرد أخضر، وثمرها أحلى من العسل، وألين من الزبد، وليس له عجم. وحدثنا أبي: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد - هو ابن سلمة - عن أبي هارون، عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كمثل البعير المقتب». ثم قال: ﴿فِيهَا خَيْرٌ حَسَنٌ﴾، قيل: المراد خيرات كثيرة حسنة في الجنة، قاله قتادة. وقيل: خيرات جمع خيرة، وهي المرأة الصالحة الحسنة الخلُق الحسنة الوجه، قاله الجمهور. وروى مرفوعاً عن أم سلمة. وفي الحديث الآخر الذي سنورده في سورة «الواقعة»: أن الحور العين يغنين: نحن الخيرات الحسان، خلقنا لأزواج كرام. ولهذا قرأ بعضهم: «فيهن خيرات»، بالتشديد ﴿أَلَيْسَ فِيَّ آلَاءُ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾.

ثم قال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَارِ﴾، وهناك قال: ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْكَرْفِ﴾، ولا شك أن التي قد قصرت طرفها بنفسها أفضل ممن قصرت، وإن كان الجميع مخدرات. قال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن جابر، عن القاسم بن أبي بزة، عن أبي عبيدة، عن مسروق، عن عبد الله قال: إن لكل مسلم خيرة، ولكل خيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب، يدخل عليها كل يوم تحفة وكرامة وهدية لم تكن قبل ذلك، لا مراحات ولا طمحات، ولا بخرات ولا ذفوات، حور عين، كأنهن بيض مكنون. وقوله: ﴿فِي الْخِيَارِ﴾، قال البخاري: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد، حدثنا أبو عمران الجوني، عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون». ورواه أيضاً من حديث أبي عمران، به. وقال: «ثلاثون ميلاً». وأخرجه مسلم من حديث أبي عمران، به، ولفظه: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهل يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضاً». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن أبي الربيع، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قتادة، أخبرني خُلَيْدُ الْعَصْرِيِّ، عن أبي الدرداء قال: الخيمة لؤلؤة واحدة، فيها سبعون باباً من در. وحدثنا أبي، حدثنا عيسى بن أبي فاطمة، حدثنا جرير، عن هشام، عن محمد بن المثنى، عن ابن عباس في قوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَارِ﴾، قال: في خيام اللؤلؤ، وفي الجنة خيمة واحدة من لؤلؤة، أربعة فراسخ في أربعة فراسخ، عليها أربعة آلاف مصراع من الذهب. وقال عبد الله بن وهب: أخبرنا عمرو أن ذراجاً أبا السَّمْح حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ، قال: «أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم، واثنان وسبعون زوجة، وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت، كما بين الجابية وصنعاء». ورواه الترمذي من حديث عمرو بن الحارث، به. وقوله: ﴿لَا يَطْمَئِنُّنَّ إِلَّا بِشَأْنِهِمْ وَلَا يَجَانُّ﴾: قد تقدم مثله سواء، إلا أنه زاد في وصف الأوائل بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالزُّمَرُ﴾، ﴿فَإِنَّ آلَاءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾.

وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَتَبَقَّرِي حَسَنٍ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الرفرف: المحابس. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك، وغيرهما: هي المحابس. وقال العلاء بن بدر: الرفرف على السرير، كهينة المحابس المتدلي. وقال عاصم الجحدري: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ﴾ يعني: الوسائد. وهو قول الحسن البصري في رواية عنه. وقال أبو داود الطيالسي، عن شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ﴾، قال: الرفرف: رياض الجنة. وقوله: ﴿وَتَبَقَّرِي حَسَنٍ﴾ قال: ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدي، العبقري: الزرابي. وقال سعيد بن جبير: هي عتاق الزرابي، يعني: جباها. وقال مجاهد: العبقري: الديباج. وسئل الحسن البصري عن قوله: ﴿وَتَبَقَّرِي حَسَنٍ﴾ فقال: هي بسط أهل الجنة - لا بألكنم - فاطلبوها. وعن الحسن البصري رواية: أنها المرافق. وقال زيد بن أسلم: العبقري: أحمر وأصفر وأخضر. وسئل العلاء بن زيد عن العبقري، فقال: البسط أسفل من ذلك. وقال أبو حَزْزَةَ

يعقوب ابن مجاهد: العبقري: من ثياب أهل الجنة، لا يعرفه أحد. وقال أبو العالية: العبقري: الطنافس المخمّلة، إلى الرقة ما هي. وقال القتبي: كل ثوب مَوْشِي عند العرب عبقري. وقال أبو عبيدة: هو منسوب إلى أرض يعمل بها الوشي. وقال الخليل بن أحمد: كل شيء يسر من الرجال وغير ذلك يسمى عند العرب عبقرياً. ومنه قول النبي ﷺ في عمر: «فلم أر عبقرياً يفري فريه». وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنتين الأولين أرفع وأعلى من هذه الصفة؛ فإنه قد قال هناك: ﴿مُكَيِّبِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَرْقٍ﴾، فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظواهرها، اكتفاء بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأخرى. وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة: ﴿هَكَذَا جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ فوصف أهلها بالإحسان وهو أعلى المراتب والنهايات، كما في حديث جبريل لما سأل عن الإسلام، ثم الإيمان. فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنتين الأولين على هاتين الآخرين، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأولين.

ثم قال: ﴿تَنَزَّلُ أَنَّمْ رَبِّكَ ذِي الْمَلَكِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يكرم فيعبد، ويشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى. وقال ابن عباس: ﴿ذِي الْمَلَكِ وَالْإِكْرَامِ﴾: ذي العظمة والكبرياء. وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، عن عمير ابن هاني، عن أبي العذراء، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَجِدُوا الله يغفر لكم». وفي الحديث الآخر: «إن من إجلال الله إكرام ذي الشبهة المسلم، وذو السلطان، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه». وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو يوسف الجزي، حدثنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا حماد، حدثنا حميد الطويل، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الظُّلُوبَا يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ». وكذا رواه الترمذي، عن محمود بن غيلان، عن مؤمل بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، به، ثم قال: غلط المؤمل فيه، وهو غريب وليس بمحفوظ، وإنما يروى هذا عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن، عن النبي ﷺ. وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن إسحاق، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن يحيى بن حسان المقدسي، عن ربيعة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الظُّلُوبَا يَذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ». ورواه النسائي من حديث عبد الله بن المبارك، به. قال الجوهري: الُظُّ فلان بفلان: إذا لزمه. وقال ابن مسعود: «الظُّلُوبَا يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» أي: الزموا. ويقال: الإلظاظ هو الإلحاح. قلت: وكلاهما قريب من الآخر. والله أعلم. وهو المداومة واللزوم والإلحاح. وفي صحيح مسلم والسنن الأربعة، من حديث عبد الله بن الحارث، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد - يعني: بعد الصلاة - إلا قدر ما يقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام».

آخر تفسير سورة الرحمن،

وله الحمد والمنة



تفسير سورة الواقعة

وهي مكية. قال أبو إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، قد شئت؟ قال: «شيتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعمّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت». رواه الترمذي وقال: حسن غريب. وقال الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن مسعود بسنده إلى عمرو بن الربيع بن طارق المصري: حدثنا السري بن يحيى الشيباني، عن أبي شجاع، عن أبي ظبية قال: مرض عبد الله مرضه الذي توفي فيه، فعاده عثمان بن عفان فقال: ما تشتهي؟ قال: ذنوبي. قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي. قال: ألا أمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني. قال: ألا أمر لك بعباءة؟ قال: لا حاجة لي فيه. قال: يكون لبناتك من بعدك؟ قال: أتخشى على بناتي الفقرا؟ إني أمرت بناتي يقرآن كل ليلة سورة الواقعة، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة، لم تصبه فاقة أبداً». ثم قال ابن عساكر: كذا قال، والصواب: عن «شجاع»، كما رواه عبد الله بن وهب، عن السري. وقال عبد الله بن وهب: أخبرني السري بن يحيى أن شجاعاً خذته، عن أبي ظبية، عن عبد الله بن مسعود، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً». فكان أبو ظبية لا يدعها. وكذا رواه أبو يعلى، عن إسحاق بن إبراهيم، عن محمد بن منيب، عن السري بن يحيى، عن شجاع، عن أبي ظبية، عن ابن مسعود، به. ثم رواه عن إسحاق بن أبي إسرائيل، عن محمد بن منيب العدني، عن السري بن

يحيى، عن أبي ظبية، عن ابن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة، لم تصبه فاقة أبداً». لم يذكر في سنده «شجاعاً». قال: وقد أمرت بناتي أن يقرأنها كل ليلة. وقد رواه ابن عساكر أيضاً من حديث حجاج بن نصير وعثمان بن اليمان، عن السري بن يحيى، عن شجاع، عن أبي فاطمة، قال: مرض عبد الله، فأتاه عثمان بن عفان يعود، فذكر الحديث بطوله. قال عثمان بن اليمان: كان أبو فاطمة هذا مولى لعلي بن أبي طالب. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا إسرائيل ويحيى بن آدم، حدثنا إسرائيل، عن سماك بن حرب؛ أنه سمع جابر بن سمرة يقول: كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات كنحو من صلاتكم التي تصلون اليوم، ولكنه كان يخفف. كانت صلاته أخف من صلاتكم، وكان يقرأ في الفجر «الواقعة» ونحوها من السور.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَئِنْ لَوْقَعَهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَأْفَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَمُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبِنًا ﴿٦﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْشَّمَائِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَائِ ﴿٩﴾ وَالشَّقِيقُونَ الشَّقِيقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ الْمَعْرُوفُونَ ﴿١١﴾ فِي حَقِّ الْقِيَمِ ﴿١٢﴾﴾

الواقعة: من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لتحقيق كونها وجودها، كما اقل: ﴿فَيَمِيزُ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ [الحاقة: ١٥]. وقوله: ﴿لَئِنْ لَوْقَعَهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾﴾ أي: ليس لوقوعها إذا أراد الله كونها صارف يصرفها، ولا دافع يدفعها، كما قال: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ يَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ [النورى: ٤٧]، وقال: ﴿سَأَلَ سَائِلًا بِمَا ذُكِّرَ ﴿١﴾ لَكِنِّي لَيْسَ لَمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾ [المعارج: ٢-١]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَلَيْهِ الْقَتِيبُ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْمَكِينُ الْحَيُّ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام: ٧٣]. ومعنى «كاذبة» - كما قال محمد بن كعب -: لا بد أن تكون. وقال قتادة: ليس فيها مثنوية ولا ارتداد ولا رجعة. قال ابن جرير: والكاذبة: مصدر كالعاقبة والعافية. وقوله: ﴿خَافِضَةٌ رَأْفَةٌ ﴿٣﴾﴾ أي: تحفض أقواماً إلى أسفل سافلين إلى الجحيم، وإن كانوا في الدنيا أعزاء. وترفع آخرين إلى أعلى عليين، إلى النعيم المقيم، وإن كانوا في الدنيا وضعاء. وهكذا قال الحسن، وقاتدة وغيرهما. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يزيد بن عبد الرحمن بن مصعب المعنى، حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرؤاسي، عن أبيه، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿خَافِضَةٌ رَأْفَةٌ ﴿٣﴾﴾: تخفض أناساً وترفع آخرين. وقال عبيد الله العتكي، عن عثمان بن سراقه، ابن خالة عمر بن الخطاب: ﴿خَافِضَةٌ رَأْفَةٌ ﴿٣﴾﴾: الساعة خفضت أعداء الله إلى النار، ورفعت أولياء الله إلى الجنة. وقال محمد بن كعب: تخفض رجلاً كانوا في الدنيا مرتفعين، وترفع رجلاً كانوا في الدنيا مخفوضين. وقال السدي: خفضت المتكبرين، ورفعت المتواضعين. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿خَافِضَةٌ رَأْفَةٌ ﴿٣﴾﴾: أسمعت القريب والبعيد. وقال عكرمة: خفضت فأسمعت الأدنى، ورفعت فأسمعت الأقصى. وكذا قال الضحاك، وقاتدة.

وقوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾﴾ أي: حركت تحريكاً فاهتزت واضطربت بطولها وعرضها. ولهذا قال ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة، وغير واحد في قوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾﴾ أي: زلزلت زلزلاً شديداً. وقال الربيع بن أنس: ترج بما فيها كرج الغريال بما فيه. وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ [الزلزلة: ١]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْفُؤًا رِيحًا ﴿١﴾ زَلْزَلَةً النَّاسُ فِيهَا كَالْعَنَابِ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١]. وقوله: ﴿وَمُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٥﴾﴾ أي: فُتَّتْ فُتًا. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقاتدة، وغيرهم. وقال ابن زيد: صارت الجبال كما قال الله تعالى: ﴿كَيْبًا مَهْيَلًا ﴿١٤﴾﴾ [الزمل: ١٤] وقوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبِنًا ﴿٦﴾﴾: قال أبو إسحاق، عن الحارث، عن علي، رضي الله عنه: ﴿هَبَاءً مُتْبِنًا﴾ كرهج الغبار يسطع ثم يذهب، فلا يبقى منه شيء. وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبِنًا ﴿٦﴾﴾: الهباء الذي يطير من النار، إذا اضطربت يطير منه الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئاً. وقال عكرمة: المنبث: الذي ذرته الريح وبشته. وقال قتادة: ﴿هَبَاءً مُتْبِنًا﴾: كيبس الشجر الذي تذروه الرياح. وهذه الآية كآخواتها الدالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة، وذهابها وتسييرها ونسفها - أي قلعها - وصيرورتها كالهعن المنفوش. وقوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾﴾ أي: ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: قوم عن يمين العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن، ويؤتون كتبهم بأيمانهم، ويؤخذ بهم ذات اليمين. قال السدي: وهم جمهور أهل الجنة. وآخرون عن يسار العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر، ويؤتون كتبهم بشمائلهم، ويؤخذ بهم ذات الشمال، وهم عامة أهل النار - عباداً بالله من صنيعهم - وطائفة سابقون بين يديه وهم أخص وأحظى وأقرب من

أصحاب اليمين الذين هم سادتهم، فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء، وهم أقل عدداً من أصحاب اليمين؛ ولهذا قال: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۖ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۖ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ وَهُمْ هَكَذَا قَسَمَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ فِي آخِرِ السُّورَةِ وَقَدْ احتضارهم، وهكذا ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِي اللَّهَ ۖ﴾ الآية [فاطر: ٣٢]، وذلك على أحد القولين في الظالم لنفسه كما تقدم بيانه.

قال سفيان الثوري، عن جابر الجعفي، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۖ﴾ قال: هي التي في سورة الملائكة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ۖ﴾ وقال ابن جريج، عن ابن عباس: هذه الأزواج الثلاثة هم المذكورون في آخر السورة وفي سورة الملائكة. وقال يزيد الرقاشي: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۖ﴾ قال: أصنافاً ثلاثة. وقال مجاهد: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۖ﴾ قال: يعني: فرقاً ثلاثة. وقال ميمون بن مهران: أفواجاً ثلاثة. وقال عبيد الله العتكي، عن عثمان بن سراقه، ابن خالة عمر بن الخطاب: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۖ﴾: اثنان في الجنة، وواحد في النار. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا الوليد بن أبي ثور، عن سيمك عن النعمان بن بشير، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَلَا تَكُونُوا ثَلَاثَةً ۖ﴾ [التكوير: ٧] قال: الضرباء، كل رجل من قوم كانوا يعملون عمله، وذلك بأن الله يقول: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۖ﴾ فأصحب اليمين ما أصحب اليمين (٨) وأصحب المشأمة ما أصحب المشأمة (٩) والسابقون السابقون (١٠) قال: هم الضرباء. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله المثنى، حدثنا البراء الغنوي، حدثنا الحسن، عن معاذ بن جبل؛ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْمَنِ ۖ﴾، وأصحب الأيمان، فقبض بيده قبضتين فقال: «هذه للجنة ولا أبالي، وهذه للنار ولا أبالي». وقال أحمد أيضاً: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا خالد بن أبي عمران، عن القاسم بن محمد، عن عائشة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «أتدرون من السابقون إلى ظل يوم القيامة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «الذين إذا أعطوا الحق، قبلوه، وإذا سئلوه بذلوه، وحكموا للناس بحكمهم لأنفسهم».

وقال محمد بن كعب وأبو حزرّة يعقوب بن مجاهد: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ﴾: هم الأنبياء، عليهم السلام. وقال السدي: هم أهل عليين. وقال ابن أبي نجيع، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ﴾، قال: يوشع بن نون، سبق إلى موسى، ومؤمن آل «يس»، سبق إلى عيسى، وعلي بن أبي طالب، سبق إلى محمد رسول الله ﷺ. رواه ابن أبي حاتم، عن محمد بن هارون الفلاس، عن عبد الله بن إسماعيل المدائني البزاز، عن شعيب بن الضحاك المدائني، عن سفيان ابن عيينة، عن ابن أبي نجيع، به. وقال ابن أبي حاتم: وذكر محمد بن أبي حماد، حدثنا مهران، عن خارجة، عن قرة، عن ابن سيرين: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ﴾: الذين صلوا للقبليتين. ورواه ابن جرير من حديث خارجة به. وقال الحسن وقتادة: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ﴾: أي: من كل أمة. وقال الأوزاعي، عن عثمان بن أبي سودة أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ﴾ أولئك السابقون (١١)، ثم قال: أولهم رواحاً إلى المسجد، وأولهم خروجاً في سبيل الله.

وهذه الأقوال كلها صحيحة، فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَقَرِّكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَكُوتُ وَالْأَرْضُ ۖ﴾ [ال عمران: ١٣٣]، وقال: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَقَرِّكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَكُوتُ وَالْأَرْضُ ۖ﴾ [الحديد: ٢٢]، فمن سابق إلى هذه الدنيا وسبق إلى الخير، كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزء من جنس العمل، وكما تدن تدان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۖ﴾ في جَنَّتِ النَّارِ (١٢). وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن زكريا القزاز الرازي، حدثنا خارجة بن مصعب، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو، قال: قالت الملائكة: يا رب، جعلت لبني آدم الدنيا فهم يأكلون ويشربون ويتزوجون، فاجعل لنا الآخرة. فقال: لا أفعل. فراجعوا ثلاثاً، فقال: لا أجعل من خلقت بيدي كمن قتل له: كن، فكان. ثم قرأ عبدالله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ﴾ أولئك المقربون (١٣) في جَنَّتِ النَّارِ (١٤). وقد روى هذا الأثر الإمام عثمان بن سعد الدارمي في كتابه: «الرد على الجهمية»، ولفظه: فقال الله ﷻ: «لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي، كمن قتل له: كن، فكان».

﴿ثَلَاثَةً مِنَ الْأَوَّلِينَ ۖ﴾ (١٥) وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ (١٦) عَلَى سُرُرٍ مَوْصُوفَةٍ (١٧) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٨) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُغَلَّدُونَ (١٩) يَأْكُرُونَ وَابْتِغَاءً وَكَأَيِّنْ مِنْ مِيعَةٍ لَا يَصُدُّونَ عَنْهَا وَلَا يَنْزِفُونَ (٢٠) وَفَكَهْوٍ مِمَّا يَشْتَبُونَ (٢١) وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ حَرٌّ وَلَا شِدَّةٌ (٢٢) وَكُلُّ شَيْءٍ فِيهَا يَتَسَوَّى (٢٣) لَا يَصْعَقُونَ فِيهَا لَوْ لَا تَأْنِيًا (٢٤) إِلَّا فِيهَا سُلَاسٍ سُلَاسًا (٢٥) ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين المقربين أنهم ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ أي: جماعة ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤). وقد اختلفوا في المراد بقوله: ﴿الْأَوَّلِينَ﴾، و ﴿الْآخِرِينَ﴾. فقيل: المراد بالأولين: الأمم الماضية، والآخرين: هذه الأمة. هذا رواية عن مجاهد، والحسن البصري، رواها عنهما ابن أبي حاتم. وهو اختيار ابن جرير، واستأنس بقوله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة». ولم يحك غيره، ولا عزاه إلى أحد. ومما يستأنس به لهذا القول، ما رواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع، حدثنا شريك، عن محمد بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: لما نزلت: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤)، شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ، فنزلت: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) فقال النبي ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثلث أهل الجنة، بل أنتم نصف أهل الجنة - أو: شطر أهل الجنة - وتقاسمونها النصف الثاني». ورواه الإمام أحمد، عن أسود بن عامر، عن شريك، عن محمد، بباع الملاء، عن أبيه، عن أبي هريرة فذكره. وقد روى من حديث جابر نحو هذا، ورواه الحافظ ابن عساكر من طريق هشام بن عمار: حدثنا عبد ربه بن صالح، عن عروة بن رويم، عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ: لما نزلت: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (١٥)، ذكر فيها ثلثة من الأولين وقليل من الآخرين، قال عمر: يا رسول الله، ثلثة من الأولين وقليل منها؟ قال: فامسك آخر السورة سنة، ثم نزل: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) فقال رسول الله ﷺ: «يا عمر، تعال فاسمع ما قد أنزل الله: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤)، ألا وإن من آدم إلي ثلثة، وأمتي ثلثة، ولن نستكمل ثلثنا حتى نستعين بالسودان من رعاة الإبل، ممن شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

هكذا أورده في ترجمة «عروة بن رويم»، إسناداً ومتناً، ولكن في إسناده نظر. وقد وردت طرق كثيرة متعددة بقوله ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة» الحديث بتمامه، وهو مفرد في «صفة الجنة» والله الحمد والمنة. وهذا الذي اختاره ابن جرير هاهنا، فيه نظر، بل هو قول ضعيف؛ لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة. والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم، والله أعلم. فالقول الثاني في هذا المقام، هو الراجح، وهو أن يكون المراد بقوله: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) أي: من صدر هذه الأمة، ﴿وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (١٤) أي: من هذه الأمة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عفان، حدثنا عبد الله بن بكر المزني، سمعت الحسن: أتى على هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (١٥) أُولَئِكَ الْمَرْغُوبُونَ (١٦)، فقال: أما السابقون، فقد مضوا، ولكن اللهم اجعلنا من أهل اليمن. ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد، حدثنا الشَّريُّ بن يحيى قال: قرأ الحسن: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (١٥) أُولَئِكَ الْمَرْغُوبُونَ (١٦) فِي حَبْتِ النَّبِيِّ (١٧) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) ثَلَاثَةٌ مِمَّنْ مَضَى مِنْ هَذِهِ الْأُمَّة. وحدثنا أبي، حدثنا عبد العزيز بن المغيرة المنقري، حدثنا أبو هلال، عن محمد بن سيرين، أنه قال في هذه الآية: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) قال: كانوا يقولون، أو يرجون، أن يكونوا كلهم من هذه الأمة. فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة. ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن يعم الأمر جميع الأمم كل أمة بحسبها؛ ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها، من غير وجه، أن رسول الله ﷺ قال: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» الحديث بتمامه. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا زياد أبو عمر، عن الحسن، عن عمار بن ياسر، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل أمتي مثل المطر، لا يدري أوله خير أم آخره»، فهذا الحديث، بعد الحكم بصحة إسناده، محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في إبلاغه إلى من بعدهم، كذلك هو محتاج إلى القائمين به في أواخرها، وتثبيت الناس على السنة وروايتها وإظهارها، والفضل للمتقدم. وكذلك الزرع الذي يحتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثاني، ولكن العمدة الكبرى على الأول، واحتياج الزرع إليه أكد، فإنه لولاه ما نبت في الأرض، ولا تعلق أساسه فيها؛ ولهذا قال، عليه السلام: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، إلى قيام الساعة». وفي لفظ: «حتى يأتي أمر الله وهم كذلك». والغرض: أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة؛ لشرف دينها، وعظم نبيها. ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر أن في هذه الأمة سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب. وفي لفظ: «مع كل ألف سبعون ألفاً». وفي آخر: «مع كل واحد سبعون ألفاً». وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا هشام بن مرثد الطبراني، حدثنا محمد - هو ابن إسماعيل بن عياش - حدثني أبي، حدثني صَمُصَمٌ - يعني ابن زُرَّعة - عن شريح - هو ابن عبيد - عن أبي مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «أما والذي نفسي بيده، ليعيشن منكم يوم القيامة مثل الليل الأسود زمرة

جميعها يحيطون الأرض، تقول الملائكة لما جاء مع محمد ﷺ أكثر مما جاء مع الأنبياء، عليهم السلام.

وحسن أن يذكر هاهنا عند قوله: ﴿ثَلَاثَةَ يَوْمٍ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) و﴿ثَلَاثَةَ يَوْمٍ الْآخِرِينَ﴾ (١٥) الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في «دلائل النبوة» حيث قال: أخبرنا أبو نصر ابن قتادة، أخبرنا أبو عمرو ابن مطر، حدثنا جعفر - هو ابن محمد بن المستفاض الفريابي - حدثني أبو وهب الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله بن مُسَرِّحَ الحُرَّاني، حدثنا سليمان بن عطاء القرشي الحراني، عن مسلمة ابن عبد الله الجهني، عن عمه أبي مُشْجَعَةَ بن رَبِيعِي، عن ابن زَمَلِ الجهني، رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح قال، وهو ثاب رجله: «سبحان الله وبحمده. أستغفر الله، إن الله كان تواباً» سبعين مرة، ثم يقول: «سبعين بسبعائة، لا خير لمن كانت ذنوبه في يوم واحد أكثر من سبعائة». ثم يقول ذلك مرتين، ثم يستقبل الناس بوجهه، وكان يعجبه الرؤيا، ثم يقول: «هل رأى أحد منكم شيئاً؟» قال ابن زمل: فقلت: أنا يا رسول الله. فقال: «خير تلقاه، وشر توقاه، وخير لنا، وشر على أعدائنا، والحمد لله رب العالمين. أنقص رؤياك». فقلت: رأيت جميع الناس على طريق رحب سهل لاحب، والناس على الجادة منطلقين، فبينما هم كذلك، إذ أشفى ذلك الطريق على مرج لم ترى عيني مثله، يرف رفيفاً، يقطر ماؤه، فيه من أنواع الكلال، قال: وكأني بالرعدة الأولى حين أشفوا على المرح كبروا، ثم أكبوا رواحلهم في الطريق، فلم يظلموه يميناً ولا شمالاً. قال: فكأني أنظر إليهم منطلقين. ثم جاءت الرعدة الثانية وهم أكثر منهم أضعافاً، فلما أشفوا على المرح كبروا، ثم أكبوا رواحلهم في الطريق، فمنهم المرتع، ومنهم الآخذ الضغث. ومضوا على ذلك. قال: ثم قدم عظم الناس، فلما أشفوا على المرح كبروا وقالوا: (هذا خير المنزل). كأني أنظر إليهم يميلون يميناً وشمالاً، فلما رأيت ذلك، لزمت الطريق حتى أتى أقصى المرح، فإذا أنا بك يا رسول الله على منبر فيه سبع درجات وأنت على أعلاها درجة، وإذا عن يمينك رجل آدم شتل أفتى، إذا هو تكلم يسمو فيفرج الرجال طولاً، وإذا عن يسارك رجل ربة باذ كثير خيلان الوجه، كأنما حمم شعره بالماء، إذا هو تكلم، أصغيت إكراماً له. وإذا أمام ذلك رجل شيخ أشبه الناس بك خلقاً ووجهاً، كلكم تؤمونه تريدونه، وإذا أمام ذلك ناقة عجفاء شارف، وإذا أنت يا رسول الله كأنك تبعثها. قال: فامتقع لون رسول الله ﷺ ساعة ثم سرى عنه، وقال رسول الله ﷺ: «أما ما رأيتم من الطريق السهل الرحب اللاحب، فذاك ما حملتم عليه من الهدى وأنتم عليه. وأما المرح الذي رأيتم، فالدنيا مضيت أنا وأصحابي لم تتعلق بها بشيء، ولم تتعلق منا، ولم نردها ولم تردنا. ثم جاءت الرعدة الثانية من بعدنا وهم أكثر منا أضعافاً، فمنهم المرتع، ومنهم الآخذ الضغث، ونجوا على ذلك. ثم جاء عظم الناس، فمالوا في المرح يميناً وشمالاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وأما أنت، فمضيت على طريقة صالحة، فلن تزال عليها حتى تلقاني. وأما المنبر الذي رأيتم فيه سبع درجات وأنا في أعلاها درجة، فالدنيا سبعة آلاف سنة، أنا في آخرها ألفاً. وأما الرجل الذي رأيتم على يميني الآدم الشتل، فذاك موسى، عليه السلام، إذا تكلم، يعلو الرجال بفضل كلام الله إياه. والذي رأيتم عن يساري الباز الربة الكثير خيلان الوجه، كأنما حمم شعرة بالماء، فذاك عيسى ابن مريم، نكرمته لإكرام الله إياه. وأما الشيخ الذي رأيتم أشبه الناس بي خلقاً ووجهاً فذاك أبونا إبراهيم، كلنا نؤمه ونقتدي به. وأما الناقة التي رأيتم ورأيتني أبعثها، فهي الساعة، علينا تقوم، لا نبي بعدي، ولا أمة بعد امتي». قال: فما سأل رسول الله ﷺ عن رؤيا بعد هذا إلا أن يجيء الرجل، فيحدثه بها متبرعاً.

وقوله: ﴿عَلَى شُرَرٍ مَوْضُوعَةٍ﴾ (١٥) قال ابن عباس: أي مرمولة بالذهب، يعني: منسوجة به. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وزيد بن أسلم، وقاتدة، والضحاك، وغيره. وقال السدي: مرمولة بالذهب واللؤلؤ. وقال عكرمة: مشبكة بالدرر والياقوت. وقال ابن جرير: ومنه سمي وضين الناقة الذي تحت بطنها، وهو فعيل بمعنى مفعول؛ لأنه مضفور، وكذلك السرر في الجنة مضفورة بالذهب واللاكي. وقال: ﴿تُكَيِّبُ عَلَيَّاهُ تَنْبِيلِك﴾ (١٦) أي: وجوه بعضهم إلى بعض، ليس أحد وراء أحد. ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَدُنَّ مَخْلُودٌ﴾ (١٧) أي: مخلدون على صفة واحدة، لا يكبرون عنها ولا يشيرون ولا يتغيرون، ﴿يَاكُوبُ وَيُوسُفُ وَيُحْيَى﴾ (١٨) أي: الكيزان التي لا خراطيم لها ولا أذان. والأباريق: التي جمعت الوصفين. والكؤوس: الهنابات، والجميع من خمر من عين جارية معين، ليس من أوعية تنقطع وتفرغ، بل من عيون سارحة. وقوله: ﴿لَا يَصْدُقُونَ عَنْهَا وَلَا يَبْزُونَ﴾ (١٩) أي: لا تصدع رؤوسهم ولا تنزف عقولهم، بل هي ثابتة مع الشدة المطرية واللذة الحاصلة. وروى الضحاك، عن ابن عباس أنه قال: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول. فذكر الله خمر الجنة ونزهاها عن هذه الخصال. وقال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعطية، وقاتدة، والسدي: ﴿لَا يَصْدُقُونَ عَنْهَا﴾ يقول: ليس لهم فيها صداع رأس. وقالوا في قوله: ﴿لَا يَبْزُونَ﴾ أي: لا تذهب بعقولهم. وقوله: ﴿وَلَا يَكْهَرُونَ بِهَا يَتَحَرَّوْنَ﴾ (٢٠) وَلَا يَكْهَرُونَ بِهَا يَتَحَرَّوْنَ (٢١) أي: ويطوفون عليهم بما يتخبرون من الثمار.

وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها، ويدل على ذلك حديث «عكراش ابن ذؤيب» الذي رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي، رحمه الله، في مسنده: حدثنا العباس بن الوليد التزيسي، حدثنا العلاء بن الفضل بن عبد الملك بن أبي سوية، حدثنا عبيد الله بن عكراش، عن أبيه عكراش بن ذؤيب، قال: بعثني بنو مرة في صدقات أموالهم إلى رسول الله ﷺ، فقدمت المدينة فإذا هو جالس بين المهاجرين والأنصار، وقدمت عليه بلبل كأنها عروق الأرطي، قال: «من الرجل؟» قلت: عكراش بن ذؤيب. قال: «ارفع في النسب»، فانتسبت له إلى «مرة بن عبيد»، وهذه صدقة «مرة بن عبيد». فتبسم رسول الله ﷺ. قال: هذه إبل قومي، هذه صدقات قومي. ثم أمر بها أن توسم بميسم إبل الصدقة وتضم إليها. ثم أخذ بيدي فانطلقنا إلى منزل أم سلمة، فقال: «هل من طعام؟» فأتينا بحفنة كثيرة الثريد والوزر، فجعل يأكل منها، فأقبلت أخبط بيدي في جوانبها، فقبض رسول الله ﷺ بيده اليسرى على يدي اليمنى، فقال: «يا عكراش، كل من موضع واحد، فإنه طعام واحد». ثم أتينا بطبق فيه تمر، أو رطب - شك عبيد الله رطباً كان أو تمرأ - فجعلت أكل من بين يدي، وجالت يد رسول الله ﷺ في الطبق، وقال: «يا عكراش، كل من حيث شئت، فإنه غير لون واحد». ثم أتينا بماء، فغسل رسول الله ﷺ يده ومسح بئيل كفيه وجهه وذراعيه ورأسه ثلاثاً، ثم قال: «يا عكراش، هذا الوضوء مما غيرت النار». وهكذا رواه الترمذي مطولاً وابن ماجه جميعاً، عن محمد بن بشار، عن أبي الهذيل العلاء بن الفضل، به. وقال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من حديثه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا بهز بن أسد وعفان - وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا شيبان - قالوا: حدثنا سليمان بن المغيرة، حدثنا ثابت، قال: قال أنس: كان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا، فربما رأى الرجل الرؤيا فسأل عنه إذا لم يكن يعرفه، فإذا أتني عليه معروف، كان أعجب لرؤياه إليه. فأتته امرأة فقالت: يا رسول الله، رأيت كأنني أتيت فأخرجت من المدينة، فأدخلت الجنة فسمعت وجبة انتحيت لها الجنة، فنظرت فإذا فلان ابن فلان، وفلان ابن فلان، فسَمْتُ اثني عشر رجلاً، كان النبي ﷺ قد بعث سرية قبل ذلك، فجيء بهم عليهم ثياب طلس تشخب أوداجهم، فقيل: اذهبوا بهم إلى نهر البديخ - أو: البديخ - قال: فغمسوا فيه، فخرجوا ووجوههم كالقمر ليلة البدر، فأتوا بصحفة من ذهب فيها بُسر فأكلوا من بسر ما شاؤوا، فما يقبلونها من وجه إلا أكلوا من الفاكهة ما أرادوا، وأكلت معهم. فجاء البشير من تلك السرية، فقال: كان من أمرنا كذا وكذا، وأصيب فلان وفلان. حتى عد اثني عشر رجلاً، فدعا رسول الله ﷺ المرأة فقال: «قصي رؤياك». فقصتها، وجعلت تقول: فجيء بفلان وفلان كما قال. هذا لفظ أبي يعلى، قال الحافظ الضياء: وهذا على شرط مسلم.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا معاذ بن المثنى، حدثنا علي بن المديني، حدثنا ربحان بن سعيد، عن عباد بن منصور، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل إذا نزع ثمرة في الجنة، عادت مكانها أخرى». وقوله: ﴿وَلَتَرِ لَطِيرَ مَنَّا يَشْتَهَوْنَ﴾ (٢١)، قال الإمام أحمد: حدثنا سيار بن حاتم، حدثنا جعفر بن سليمان الضبيعي، حدثنا ثابت، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن طير الجنة كأمثال البخت، يرفع في شجر الجنة». فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذه لطير ناعمة، فقال: «أكلتها أنعم منها - قالها ثلاثاً - وإنني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها». تفرد به أحمد من هذا الوجه. وروى الحافظ أبو عبد الله المقدسي في كتابه «صفة الجنة» من حديث إسماعيل بن علي الخطيبي، عن أحمد بن علي الخثومي، عن عبد الجبار بن عاصم، عن عبد الله بن زياد، عن زُرَّعة، عن نافع، عن ابن عمر، قال: ذكرت عن النبي ﷺ طوبى، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، هل بلغك ما طوبى؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «طوبى شجرة في الجنة، ما يعلم طولها إلا الله، يسير الراكب تحت غصن من أغصانها سبعين خريفاً، ورقها الحلل، يقع عليها الطير كأمثال البخت». فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هناك لطيراً ناعماً؟ قال: «أنعم منه من يأكله، وأنت منهم إن شاء الله». وقال قتادة في قوله: ﴿وَلَتَرِ لَطِيرَ مَنَّا يَشْتَهَوْنَ﴾ (٢١): ذكر لنا أن أبا بكر قال: يا رسول الله، إنني أرى طيرها ناعمة كما أهلها ناعمون. قال: «من يأكلها - والله يا أبا بكر - أنعم منها، وإنها لأمثال البخت، وإنني لأحسب على الله أن تأكل منها يا أبا بكر». وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثني مجاهد بن موسى، حدثنا مَعْنُ بن عيسى، حدثني ابن أخي ابن شهاب، عن أبيه، عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ سئل عن الكوثر فقال: «نهر أعطانيه ربي، ﷺ، في الجنة، أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طيور أعناقها يعني كاعناق الجزر». فقال عمر: إنها لناعمة. قال رسول الله ﷺ: «أكلها أنعم منها». وكذا رواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن القَعْنِي، عن محمد بن عبد الله بن مسلم بن شهاب، عن أبيه، عن أنس وقال: حسن. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنائفي، حدثنا أبو معاوية عن عبيد الله بن الوليد الوصافي، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لطيراً فيه سبعون ألف ريشة، فيقع على صحيفة الرجل من أهل الجنة

فيتنفض، فيخرج من كل ريشة - يعني: لوناً - أبيض من اللين، وألين من الزبد، وأعذب من الشهد، ليس منها لون يشبه صاحبه ثم يطير». هذا حديث غريب جداً، والوصافي وشيخه ضعيفان. ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح - كاتب الليث - حدثني الليث، حدثنا خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن أبي حازم، عن عطاء، عن كعب، قال: إن طائر الجنة أمثال البخت، يأكل مما خلق من ثمرات الجنة، ويشرب من أنهار الجنة، فيصطفون له، فإذا اشتهى منها شيئاً أتاه حتى يقع بين يديه، فيأكل من خارجه وداخله ثم يطير لم ينقص منه شيء. صحيح إلى كعب. وقال الحسن بن عرفة: حدثنا خلف بن خليفة، عن حميد الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوباً».

وقوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ (٢٧) كَأَمْثَلِ الذُّلُوفِ أَلْتَكُونُ ﴿٢٨﴾: قرأ بعضهم بالرفع، وتقديره: ولهم فيها حور عِين. وقراءة الجر تحتمل معنيين، أحدهما: أن يكون الإعراب على الاتباع بما قبله؛ لقوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَنٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا مِنْ الذُّلُوفِ﴾ (٢٧) ﴿يَا كُوفٍ وَأَبَارِكُ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ (٢٨) لَا يَصُدُّونَ عَنْهَا وَلَا يَرْفُونَ ﴿٢٩﴾ وَفَكَهْوٍ مِمَّا يَنْحَرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَيْسَ طَعْمٌ مِمَّا يَنْتَهَوْنَ ﴿٣١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٣٢﴾، كما قال: ﴿وَأَمْسَحُوا رُءُوسَكُمْ وَأَطِيعُوا﴾ (المائدة: ٦)، وكما قال: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدِّي حُضْرٌ وَاسْتَبَقُوا﴾ (الإنسان: ٢١). والاحتمال الثاني: أن يكون مما يطوف به الولدان المخلدون عليهم الحور العين، ولكن يكون ذلك في القصور، لا بين بعضهم بعضاً، بل في الخيام يطوف عليهم الخدام بالهور العين، والله أعلم. وقوله: ﴿كَأَمْثَلِ الذُّلُوفِ أَلْتَكُونُ﴾ (٢٨) أي: كأنهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه، كما تقدم في «سورة الصافات» ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ نَكُونَ﴾ (١٩) ﴿الصافات: ٤٩﴾ وقد تقدم في سورة «الرحمن» وصفهن أيضاً؛ ولهذا قال: ﴿حَزَنًا يَمَّا كَانُوا يَتَلَوْنَ﴾ (٢٢) أي: هذا الذي أتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل. ثم قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ (٢٥) ﴿إِلَّا فِيهَا سَلَاةٌ سَلَاةً﴾ (٢٦) أي: لا يسمعون في الجنة كلاماً لاغياً، أي: غثاً خالياً من المعنى، أو مشتتاً على معنى حقير أو ضعيف، كما قال: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغْوًا﴾ (١١) (الغاشية: ١١) أي: كلمة لاغية ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ أي: ولا كلاماً فيه قبح، ﴿إِلَّا فِيهَا سَلَاةٌ سَلَاةً﴾ (٢٦) أي: إلا التسليم منهم بعضهم على بعض، كما قال: ﴿وَقَرَّتْهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ (إبراهيم: ٢٣) وكلامهم أيضاً سالم من اللغو والإثم.

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَحْضٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَنضُورٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ مُمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَكَهْوٍ كَثِيرٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْلُوبٍ وَلَا مَمْنُونٍ ﴿٣٣﴾ وَرُفٍّ مَرْمُوقٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَهُنَّ أَكْوَاجًا ﴿٣٦﴾ عُرَىٰ أَزْوَاجٍ ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾.

لما ذكر تعالى مآل السابقين - وهم المقربون - عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين - وهم الأبرار - كما قال ميمون بن مهران: أصحاب اليمين منزلة دون المقربين، فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (٢٧) أي: أي شيء أصحاب اليمين؟ وما حالهم؟ وكيف مالهم؟ ثم فسر ذلك فقال: ﴿فِي سِدْرٍ مَّحْضٍ﴾ (٢٨). قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وأبو الأحوص، وقسامة بن زهير، والسفر بن نسير، والحسن، وقتادة، وعبد الله بن كثير، والسدي، وأبو حزرة، وغيرهم: هو الذي لا شك فيه. وعن ابن عباس: هو الموقر بالثمر. وهو رواية عن عكرمة، ومجاهد. وكذا قال قتادة أيضاً: كنا نحدث أنه الموقر الذي لا شك فيه. والظاهر أن المراد هذا وهذا؛ فإن سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر، وفي الآخرة على عكس من هذا، لا شك فيه، وفي الثمر الكثير الذي قد أثقل أصله، كما قال الحافظ أبو بكر بن سلمان النجاد. حدثنا محمد بن محمد هو البغوي، حدثني حمزة بن عباس، حدثنا عبد الله بن عثمان، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا صفوان بن عمرو، عن سليم بن عامر قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله لينفعا بالأعراب ومساثلهم؛ قال: أقبل أعرابي يوماً فقال: يا رسول الله، ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟ فقال رسول الله ﷺ: «وما هي؟». قال: السدر، فإن له شوكاً مؤذياً، فقال رسول الله ﷺ: «أليس الله يقول: ﴿فِي سِدْرٍ مَّحْضٍ﴾ (٢٨)، خَصَّدَ الله شوكه، فجعل مكان كل شوك ثمرة، فلإنها لتنبت ثمرات تفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لوناً من طعام، ما فيها لون يشبه الآخر».

طريق أخرى: قال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا محمد بن المصنف، حدثنا محمد بن المبارك، حدثنا يحيى بن حمزة، حدثني ثور بن يزيد، حدثني حبيب بن عبيد، عن عتبة بن عبد السلمي قال: كنت جالساً مع رسول الله ﷺ، فجاء أعرابي فقال: يا رسول الله، أسمعك تذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكاً منها؟ يعني: الطلح، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله يجعل مكان كل شوك ثمرة مثل خضوة التيس الملبود، فيها سبعون لوناً من الطعام، لا يشبه لون آخر». وقوله: ﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُورٍ﴾ (٢٩): الطلح: شجر عظام يكون بأرض الحجاز، من شجر العضاة، واحدته طلحة،

وهو شجر كثير الشوك، وأنشد ابن جرير لبعض الحداة:

بَشَّرَهَا ذَلِيلُهَا وَقَالَا: غَدَا تَرَيْنَ الطَّلَحَ وَالْجَبَّالَا

قال مجاهد: ﴿تَشْوَرُ﴾ أي: متراكم الثمر، يذكر بذلك قريشاً؛ لأنهم كانوا يعجبون من وَجْ، وظلاله من طلع وسدر. وقال السدي: ﴿تَشْوَرُ﴾: مصفوف. قال ابن عباس: يشبه طلع الدنيا، ولكن له ثمر أحلى من العسل. قال الجوهري: والطلع لغة في الطلع. قلت: وقد روى ابن أبي حاتم من حديث الحسن بن سعد، عن شيخ من همدان قال: سمعت علياً يقول: هذا الحرف في ﴿وَالطَّلَحِ تَشْوَرُ﴾ قال: طلع منضود، فعلى هذا يكون هذا من صفة السدر، فكأنه وصفه بأنه منضود وهو الذي لا شوك له، وأن طلعه منضود، وهو كثرة ثمره، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو معاوية، عن إدريس، عن جعفر بن إياس، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد: ﴿وَالطَّلَحِ تَشْوَرُ﴾ قال: الموز. قال: وروى عن ابن عباس، وأبي هريرة، والحسن، وعكرمة، وقسامة بن زهير، وقتادة، وأبي خزيمة، مثل ذلك، وبه قال مجاهد، وابن زيد. وزاد فقال: أهل اليمن يسمون الموز الطلح. ولم يحك ابن جرير غير هذا القول. وقوله: ﴿وَالطَّلَحِ تَشْوَرُ﴾ قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة - يبلغ به النبي ﷺ - قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَالطَّلَحِ تَشْوَرُ﴾». ورواه مسلم من حديث الأعرج، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا سريج، حدثنا فليح، عن هلال بن علي، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَالطَّلَحِ تَشْوَرُ﴾».

وكذا رواه البخاري، عن محمد بن سنان، عن فليح، به، وكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة. وكذا رواه حماد بن سلمة، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة، والليث بن سعد، عن سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة، وعوف، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة به. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالوا: حدثنا شعبة، سمعت أبا الضحاك يحدث عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين، أو مائة سنة، هي شجرة الخلد». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا يزيد بن هارون، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها، اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَالطَّلَحِ تَشْوَرُ﴾». إسناده جيد، ولم يخرجوه. وهكذا رواه ابن جرير، عن أبي كريب، عن عبدة وعبد الرحيم، عن محمد بن عمرو، به. وقد رواه الترمذي، من حديث عبد الرحيم بن سليمان، به. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهران، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن زياد - مولى بني مخزوم - عن أبي هريرة قال: إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَالطَّلَحِ تَشْوَرُ﴾. فبلغ ذلك كعباً فقال: صدق، والذي أنزل التوراة على موسى والفرقان على محمد، لو أن رجلاً ركب جفّة أو جذعة، ثم دار حول تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط هَرَمًا، إن الله غرسها بيده ونفخ فيها من روحه، وإن أفنانها لمن رواء سورة الجنة، وما في الجنة نهر إلا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا محمد بن مئihal الضريس، حدثنا يزيد بن زريع، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أنس، عن النبي ﷺ في قول الله ﷻ: ﴿وَالطَّلَحِ تَشْوَرُ﴾، قال: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها». وكذا رواه البخاري، عن روح بن عبد المؤمن، عن يزيد بن زريع، وهكذا رواه أبو داود الطيالسي، عن عمران بن داود القطان، عن قتادة، به. وكذا رواه معمر، وأبو هلال، عن قتادة، به. وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد وسهل بن سعد، عن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضّر السريع مائة عام ما يقطعها». فهذا حديث ثابت عن رسول الله ﷺ، بل متواتر مقطوع بصحته عند أئمة الحديث النقاد، لتعدد طرقه، وقوة أسانيد، وثقة رجاله. وقد قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو بكر، حدثنا أبو حُصَيْن قال: كنا على باب في موضع، ومعنا أبو صالح وشقيق - يعني: الضبي - فحدثنا أبو صالح قال: حدثني أبو هريرة قال: إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً. قال أبو صالح: أتكذب أبا هريرة؟ قال: ما أكذب أبا هريرة، ولكنني أكذبك أنت. فشق ذلك على القراء يومئذ. قلت: فقد أبطل من يكذب بهذا الحديث، مع ثبوته وصحته ورفعته إلى رسول الله ﷺ. وقال الترمذي: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا زياد بن الحسن بن الفرات القزاز، عن أبيه، عن جده، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما في الجنة شجرة إلا ساقها من ذهب». ثم قال: حسن غريب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن أبي الربيع، حدثنا أبو عامر العقدي، عن زعمة بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: الظل الممدود شجرة في الجنة ساق ظلها، قدر ما يسير الراكب في نواحيها مائة عام.

قال: فيخرج إليها أهل الجنة؛ أهل الغرف وغيرهم، فيتحدثون في ظلها. قال: فيشتهي بعضهم ويذكر لهو الدنيا، فيرسل الله ريحاً من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو في الدنيا. وهذا أثر غريب، وإسناده جيد قوي حسن. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن يمان، حدثنا سفيان، حدثنا أبو إسحاق، عن عمرو بن ميمون في قوله: ﴿وَيُظِلُّ تَمْدُورٌ﴾ (٢٧) قال: سبعون ألف سنة. وكذا رواه ابن جرير عن بُنْدَار، عن ابن مهدي، عن سفيان، مثله. ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يهرا، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون: ﴿وَيُظِلُّ تَمْدُورٌ﴾ (٢٧) قال: خمسمائة ألف سنة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد الطيالسي، حدثنا حُصَيْن بن نافع، عن الحسن في قول الله تعالى: ﴿وَيُظِلُّ تَمْدُورٌ﴾ (٢٧) قال: في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة لا يقطعها.

وقال عوف، عن الحسن: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها». رواه ابن جرير. وقال شبيب، عن عكرمة، عن ابن عباس: في الجنة شجرة لا يحمل، يُستظل به. رواه ابن أبي حاتم. وقال الضحاك، والسدي، وأبو حَزْرَةَ في قوله: ﴿وَيُظِلُّ تَمْدُورٌ﴾ (٢٧): لا ينقطع، ليس فيها شمس ولا حر، مثل قبل طلوع الفجر. وقال ابن مسعود: الجنة سَجَسَج، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. وقد تقدمت الآيات كقوله: ﴿وَيُظِلُّهُمْ ظِلًُّا ظَلِيلًا﴾ (النساء: ٥٧)، وقوله: ﴿أَكْثَلُهَا كَأَبْرُوطٍ ظِلُّهَا﴾ (الرعد: ٣٥)، وقوله: ﴿فِي ظِلِّ وَرَقَيْنِ﴾ (المرسلات: ٤١) إلى غير ذلك من الآيات. وقوله: ﴿وَبَاوُتَ تَشْكُوبُ﴾ (٢٨) قال الثوري: يعني يجري في غير أخدود. وقد تقدم الكلام عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَاوُتَ تَشْكُوبُ﴾ (٢٨) أي: عَنَّا غَيْرَ مَاسِينِ الآية (محمد: ١٥)، بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقوله: ﴿وَفَكَهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ (٢٩) لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ (٣٠) أي: وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ (البقرة: ٢٥) أي: يشبه الشكل الشكل، ولكن الطعم غير الطعم. وفي الصحيحين في ذكر سدره المنتهى قال: «إذا ورقها كآذان الفيلة ونبقها مثل قلال هجر». وفيهما أيضاً، من حديث مالك، عن زيد، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس قال: حُسِبَتِ الشمس، فصلى رسول الله ﷺ والناس معه، فذكر الصلاة. وفيه: قالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا، ثم رأيناك تكعكت. قال: «إني رأيت الجنة، فتناولت منها عنقوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا». وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خَيْثَمَةَ، حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا عبيد الله، حدثنا ابن عقيل، عن جابر قال: بينا نحن في صلاة الظهر، إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا معه، ثم تناول شيئاً ليأخذه ثم تأخر، فلما قضى الصلاة قال له أبي بن كعب: يا رسول الله، صنعت اليوم في الصلاة شيئاً ما كنت تصنعه؟ قال: «إنه عُرِضَتْ عَلَيَّ الجنة، وما فيها من الزهرة والفضرة، فتناولت منها قطفاً من عنب لأتيكم به، فجعل بيني وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه». وروى مسلم، من حديث أبي الزبير، عن جابر، نحوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن بحر، حدثنا هشام بن يوسف، أخبرنا مَعْمَر، عن يحيى بن أبي كثير، عن عامر بن زيد البجلي: أنه سمع عُبَيْة بن عُبَيْد السلمى يقول: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، فسأله عن الحوض وذكر الجنة، ثم قال الأعرابي: فيها فاكهة؟ قال: «نعم، وفيها شجرة تدعى طوبى»، فذكر شيئاً لا أدري ما هو، قال: أي شجرة أرضنا تشبه؟ قال: «ليست تشبه شيئاً من شجر أرضك». فقال النبي ﷺ: «أتيت الشام؟» قال: لا. قال: «تشبه شجرة بالشام تدعى الجوزة، تنبت على ساق واحد، وينفرش أعلاها». قال: ما عظم أصلها؟ قال: «لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقتها هراماً». قال: فيها عنب؟ قال: «نعم». قال: فما عظم العنقود؟ قال: «مسيرة شهر للغراب الأبقع، ولا يفتر». قال: فما عظم الحبة؟ قال: «هل ذبح أبوك تيساً من غنمه قط عظيماً؟» قال: نعم قال: «فسلخ إهابه فأعطاه أمك، فقال: اتخذي لنا منه دلو؟». قال: نعم. قال الأعرابي: فإن تلك الحبة لتشبعني وأهل بيتي؟ قال: «نعم وعامة عشيرتك». وقوله: ﴿لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ﴾ (٣٠) أي: لا تنقطع شتاء ولا صيفاً، بل أكلها دائم مستمر أبداً، مهما طلبوا وجدوا، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شيء. قال قتادة: لا يمنعهم من تناولها عود ولا شوك ولا يُعَدُّ. وقد تقدم في الحديث: «إذا تناول الرجل الثمرة عادت مكانها أخرى». وقوله: ﴿وَفُتْرَى مَرُوعَةٌ﴾ (٣١) أي: عالية وطيبة ناعمة. قال النسائي وأبو عيسى الترمذي: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا رشدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن ذَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَفُتْرَى مَرُوعَةٌ﴾ (٣١) قال: «ارتفاعها كما بين السماء والأرض، ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه، إلا من حديث رشدين بن سعد. قال: وقال بعض أهل العلم: معنى هذا الحديث: ارتفاع الفرش في الدرجات، وبعد ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض.

هكذا قال: إنه لا يعرف هذا إلا من رواية رشدين بن سعد، وهو المصري، وهو ضعيف. وهكذا رواه أبو جعفر بن جرير،

عن أبي كُرَيْب، عن رشدين. ثم رواه هو وابن أبي حاتم، كلاهما عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، فذكره. وكذا رواه ابن أبي حاتم أيضاً عن نعيم بن حماد، عن ابن وهب. وأخرجه الضياء في صفة الجنة من حديث حرملة، عن ابن وهب، به مثله. ورواه الإمام أحمد عن حسن بن موسى، عن ابن لهيعة، حدثنا دراج، فذكره. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي سعيد الأشج، حدثنا أبو معاوية، عن جُوَيْر، عن أبي سهل - يعني: كثير بن زياد - عن الحسن: ﴿وَفُتْرُ مَرْوَعَةَ﴾ (٢٧) قال: ارتفاع فراش الرجل من أهل الجنة مسيرة ثمانين سنة. وقوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنِشَاءً﴾ (٢٨) جَعَلْنَهُمْ أَتَكَارًا (٢٩) عَرَبًا أَتَكَارًا (٣٠) لَمْ يَحْتَبِ الْيَبِينَ (٣١) : جرى الضمير على غير مذكور. لكن لما دل السياق، وهو ذكر الفرش، على النساء اللاتي يضايعن فيها، اكتفي بذلك عن ذكرهن، وعاد الضمير عليهن، كما في قوله: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْغَيْثِ الْفَضْلُ فَتَنَّتْ لَيْلِيَّ﴾ (٣٢) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَمْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٣) [ص: ٣١-٣٢] يعني: الشمس، على المشهور من قول المفسرين. قال الأخفش في قوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنِشَاءً﴾ (٢٨) : أضمهرن ولم يذكرهن قبل ذلك. وقال أبو عبيدة: ذكرن في قوله: ﴿وَعُورُ عَيْنٍ﴾ (٢٩) كَأَنَّهُنَّ الْوَلُولُ (٣٠) [الواقعة: ٢٢-٢٣]. فقوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ﴾ أي: أعدناهن في النشأة الآخرة بعدما كنَّ عجائز رُمَصًا، صرن أبكاراً عرباً، أي: بعد الثبوتية عدن أبكاراً عرباً، أي: متحبيات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة. وقال بعضهم: ﴿عَرَبًا﴾ أي: غُنيات. قال موسى بن عُبَيْدة الرَزْدِي، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنِشَاءً﴾ (٢٨) ، قال: «نساء عجائز كنَّ في الدنيا عُمَصًا رُمَصًا». رواه الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم. ثم قال الترمذي: غريب، وموسى يزيد ضعيفاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف الحمصي، حدثنا آدم - يعني: ابن أبي إياس - حدثنا شيبان، عن جابر، عن يزيد بن مرة، عن سلمة بن يزيد قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول في قوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنِشَاءً﴾ (٢٨) يعني: «الطيب والأبكار اللاتي كنَّ في الدنيا».

وقال عبد بن حميد: حدثنا مصعب بن المقدام، حدثنا المبارك بن فضالة، عن الحسن قال: أتت عجوز فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يدخلني الجنة. فقال: «يا أم فلان، إن الجنة لا تدخلها عجوز». قال: فَوَلَّتْ تَبْكِي، قال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنِشَاءً﴾ (٢٨) جَعَلْنَهُمْ أَتَكَارًا (٢٩) ». وهكذا رواه الترمذي في الشامل، عن عبد بن حميد. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا بكر بن سهل الدماطي، حدثنا عمرو بن هاشم البيروني، حدثنا سليمان بن أبي كريمة، عن هشام بن حسان، عن الحسن، عن أمه، عن أم سلمة قالت: قلت: يا رسول الله، أخبرني عن قول الله: ﴿وَعُورُ عَيْنٍ﴾ (٢٩) [الواقعة: ٢٢]، قال: «حور: بيض، عين: ضخم العين، شُفْرُ الحوراء بمنزلة جناح النسر». قلت: أخبرني عن قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْوَلُولُ﴾ (٣٠) [الواقعة: ٢٣]، قال: «صفاوهن صفاء الدار الذي في الأصداف، الذي لم تَمَسَّه الأيدي». قلت: أخبرني عن قوله: ﴿فَإِنَّ يَبْتَزُّنَّ حِسَانَ﴾ (٣١) [الرحمن: ٧٠]. قال: «خَيْرَاتُ الأخلاق، حسان الوجوه». قلت: أخبرني عن قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ يَتَّصِفْنَ مَكُونَهُنَّ﴾ (٣٢) [الصفات: ٤٩]، قال: «ورقتهن كرقعة الجلد الذي رأيت في داخل البيضة مما يلي القشر، وهو: الغزقي». قلت: يا رسول الله، أخبرني عن قوله: ﴿عَرَبًا أَتَكَارًا﴾ (٣٠) . قال: «هن اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز رُمَصًا شُعْمًا، خلقهن الله بعد الكبر، فجعلهن عذارى عرباً متعشقات متحبيات، أتراباً على ميلاد واحد». قلت: يا رسول الله، نساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: «بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين، كفضل الظهارة على البطانة». قلت: يا رسول الله، وبم ذاك؟ قال: «بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله ﷻ، ألبس الله وجوههن النور، وأجسادهن الحرير، بيض الألوان، خضر الثياب صفر الحلى، مَجَامِرُهم الدُّرُّ، وأمشاطهن الذهب، يقلن: نحن الخالدات فلا نموت أبداً، ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً، ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً، طوبى لمن كُنَّا له وكان لنا». قلت: يا رسول الله، المرأة منا تتزوج زوجين والثلاثة والأربعة، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها، من يكون زوجها؟ قال: «يا أم سلمة، إنها تُخَيَّرُ فتختار أحسنهم خلقاً، فتقول: يا رب، إن هذا كان أحسن خلقاً معي فزوجنيه، يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة». وفي حديث الصور الطويل المشهور: أن رسول الله ﷺ يشفع للمؤمنين كلهم في دخول الجنة فيقول الله: قد شفعتك وأذنت لهم في دخولها. فكان رسول الله ﷺ يقول: «والذي بعثني بالحق، ما أنتم في الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم، فيدخل الرجل منهم على ثنتين وسبعين زوجة، وسبعين مما ينشئ الله، وثنيتين من ولد آدم، لهما فضل على من أنشأ الله، بعبادتهما الله في الدنيا، يدخل على الأولى منهما في غرفة من ياقوته، على سرير من ذهب مُكَلَّلٌ باللؤلؤ، عليه سبعون زوجاً من سُتُوسٍ واستبرق وإنه ليضع يده بين كتفيها، ثم ينظر إلى يده من صدرها من وراء ثيابها وجلدها ولحمها، وإنه لينظر إلى مخ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلك في قصبة الياقوت، كبده لها

مرأة - يعني: وكبدها له مرأة - فبينما هو عندها لا يملها ولا تمل، ولا يأتيها من مرة إلا وجدها عذراء، ما يفتر ذكره ولا تستكي قُبُلها إلا أنه لا مني ولا مَنِيَّة، فبينما هو كذلك إذ نودي: إنا قد عرفنا أنك لا تمل ولا تمل، إلا أن لك أزواجاً غيرها، فيخرج، فيأتيهن واحدة واحدة، كلما جاء واحدة قالت: والله ما في الجنة شيء أحسن منك، وما في الجنة شيء أحب إلي منك.

وقال عبد الله بن وهب: أخبرني عمرو بن الحارث، عن دَرَّاج، عن ابن حُجيرة، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أن قال له: أُنطأ في الجنة؟ قال: «نعم والذي نفسي بيده، دُخْماً، دُخْماً، فإذا قام عنها رَجَعَتْ مُطَهَّرَةً بَكَراً». وقال الطبراني: حدثنا إبراهيم بن جابر الفقيه البغدادي، حدثنا محمد بن عبد الملك الدقيق الواسطي، حدثنا معلى بن عبد الرحمن الواسطي، حدثنا شريك، عن عاصم الأحول، عن أبي المتوكل، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكاراً». وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا عُفْران، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يعطي المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا في النساء». قلت: يا رسول الله، ويُطيق ذلك؟ قال: «يعطي قوة مائة». ورواه الترمذي من حديث أبي داود وقال: صحيح غريب. وروى أبو القاسم الطبراني من حديث حُسين بن علي الجعفي، عن زائدة، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، هل نصل إلى نساء في الجنة؟ قال: «إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء». قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي: هذا الحديث عندي على شرط الصحيح، والله أعلم. وقوله: ﴿عُرْبًا﴾ قال سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: يعني متحبيبات إلى أزواجهن، ألم تر إلى الناقة الضبعة، هي كذلك. وقال الضحاک، عن ابن عباس: العُرب: العواشق لأزواجهن، وأزواجهن لهن عاشقون. وكذا قال عبد الله بن سرجس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو العالية، ويحيى بن أبي كثير، وعطية، والحسن، وقتادة، والضحاک، وغيرهم. وقال ثور بن زيد، عن عكرمة قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿عُرْبًا﴾ قال: هي المِلْفَةُ لزوجها. وقال شعبة، عن سِمَاك، عن عكرمة: هي العَنِجَة. وقال الأجلح بن عبد الله، عن عكرمة: هي الشُّكْلَة. وقال صالح بن حَيَّان، عن عبد الله بن بريدة في قوله: ﴿عُرْبًا﴾ قال: الشُّكْلَة بلغة أهل مكة، والغنجة بلغة أهل المدينة. وقال تميم بن حذلم: هي حسن التَّبَعْل. وقال زيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن: العُرب: حسنات الكلام. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن سهل بن عثمان العسكري: حدثنا أبو علي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿عُرْبًا﴾ قال: «كلامهن عربي». وقوله: ﴿أَزْوَاجًا﴾ قال الضحاک، عن ابن عباس يعني: في سن واحدة، ثلاث وثلاثين سنة. وقال مجاهد: الأتراب، المستويات. وفي رواية عنه: الأمثال. وقال عطية: الأقران. وقال السدي: ﴿أَزْوَاجًا﴾ أي: في الأخلاق المتواخيات بينهم، ليس بينهم تباعد ولا تحاسد، يعني: لا كما كن ضرائر في الدنيا ضرائر متعديات. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن عبد الله بن الكهف، عن الحسن ومحمد: ﴿عُرْبًا أَزْوَاجًا﴾ قالوا: المستويات الأسنان، يأتلفن جميعاً، ويلعبن جميعاً. وقد روى أبو عيسى الترمذي، عن أحمد بن منيع، عن أبي معاوية، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن علي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لمجتمعاً للحوار العين، يرفعن أصواتاً لم تسمع الخلائق بمثلها، يقلن: نحن الخالدات فلا نبيد، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكُنَّا له». ثم قال: هذا حديث غريب. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو حنيفة، حدثنا إسماعيل بن عمر، حدثنا ابن أبي ذئب، عن فلان بن عبد الله بن رافع، عن بعض ولد أنس بن مالك، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الحوار العين ليغنين في الجنة، يقلن: نحن خَيْرَات حسان، خبثنا لأزواج كرام». قلت: إسماعيل بن عَمْرٍ هذا هو أبو المنذر الواسطي أحد الثقات الأثبات. وقد روى هذا الحديث الإمام عبد الرحيم بن إبراهيم الملقب بذي حُجَم، عن ابن أبي قُذَيْك، عن ابن أبي ذئب، عن عون بن الخطاب بن عبد الله بن رافع، عن ابن أنس، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الحوار العين يغنين في الجنة: نحن الجوار الحسان، خلقنا لأزواج كرام».

وقوله: ﴿لَا مَحْجَبَ لِيَبِينَ﴾ أي: خلقنا لأصحاب اليمين، أو: ادخرن لأصحاب اليمين، أو: زوجن لأصحاب اليمين. والأظهر أنه متعلق بقوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنثَاءً﴾ ﴿فَجَعَلْنَهُنَّ أَزْوَاجًا﴾ ﴿عُرْبًا أَزْوَاجًا﴾ ﴿لَا مَحْجَبَ لِيَبِينَ﴾، فتقديره: أنشأناهن لأصحاب اليمين. وهذا توجيه ابن جرير. رُوي عن سليمان الذراني - رحمه الله - قال: صليت ليلة، ثم جلست أدعو، وكان البرد شديداً، فجعلت أدعو بيد واحدة، فأخذتني عيني فتمت، فرأيت حوراء لم ير مثلاً وهي تقول: يا أبا سليمان، أتدعو بيد واحدة وأنا أغدّي لك في النعيم من خمسمائة سنة! قلت: ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لَا مَحْجَبَ لِيَبِينَ﴾ متعلقاً بما قبله، وهو قوله: ﴿أَزْوَاجًا لَا مَحْجَبَ لِيَبِينَ﴾ أي: في أسنانهم. كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم، من حديث جرير، عن

عُمارة بن القعقاع، عن أبي رُزْعة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دُرِّي في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون، ولا يتفلون، ولا يتمخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خَلْق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعاً في السماء». وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون وعفان قالا: حدثنا حماد بن سلمة - وروى الطبراني، واللفظ له، من حديث حماد بن سلمة - عن علي بن زيد بن جذعان، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل أهل الجنة الجنة جُرداً مُرداً بيضاً جَعاداً مُكحَّلين، أبناء ثلاث وثلاثين، وهم على خلق آدم ستون ذراعاً في عرض سبعة أذرع». وروى الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي، عن عمران القطان، عن قتادة، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غنم، عن مُعاذ بن جبل؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة الجنة جُرداً مُرداً مكحَّلين أبناء ثلاثين، أو ثلاث وثلاثين سنة». ثم قال: حسن غريب. وقال ابن وهب: أخبرنا عمرو بن الحارث أن ذَرَجاً أبا السمع حَذَنه عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات من أهل الجنة من صغير أو كبير، يُردون بني ثلاث وثلاثين في الجنة، لا يزيدون عليها أبداً، وكذلك أهل النار». ورواه الترمذي عن سُويد بن نصر، عن ابن المبارك، عن رشدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، به. وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا القاسم بن هاشم، حدثنا صفوان بن صالح، حدثني رَوَاد ابن الجراح العسقلاني، حدثنا الأزاعي، عن هارون بن رثاب، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم، ستين ذراعاً بذراع الملك! على حُسْن يوسف، وعلى ميلاد عيسى ثلاث وثلاثين سنة، وعلى لسان محمد، جُرداً مُرداً مُكحَّلون». وقال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا محمود بن خالد وعباس بن الوليد قالا: حدثنا عمر، عن الأزاعي، عن هارون بن رثاب، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يبعث أهل الجنة على صورة آدم في ميلاد ثلاث وثلاثين، جُرداً مُرداً مكحَّلين، ثم يذهب بهم إلى شجرة في الجنة فيكسون منها، لا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم». وقوله: «ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠)» أي: جماعة من الأولين، وجماعة من الآخرين. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا محمد بن بكار، حدثنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن الحسن، عن عمران بن حصين، عن عبد الله بن مسعود - قال: وكان بعضهم يأخذ عن بعض - قال: أكرينا ذات ليلة عند رسول الله ﷺ ثم غدونا عليه، فقال: «عُرِضَتْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَأَتَابِعَاهَا بِأَمِّهَا، فِيمر عليّ النبي، والنبي في العصابة، والنبي في الثلاثة، والنبي ليس معه أحد - وتلا قتادة هذه الآية: «أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ» [هو: ١٧٨] - قال: حتى مَرَّ عَلَيَّ مُوسَى ابْنُ عِمْرَانَ فِي كَنْبَكَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَالَ: «قُلْتُ: رَبِّي، مِنْ هَذَا؟» قَالَ: هَذَا أَخُوكَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَمِنْ مَعَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ». قال: «قلت: رب، فأين أمتي؟» قال: انظر عن يمينك في الظراب». قال: «فإذا وجوه الرجال». قال: «قال: أرضيت؟» قال: قلت: «قد رضيت، رب». قال: انظر إلى الأفق عن يسارك. فإذا وجوه الرجال. قال: أرضيت؟ قلت: «رضيت، رب». قال: فإن مع هؤلاء سبعين ألفاً، يدخلون الجنة بغير حساب». قال: وأنشأ عُنْكَاشَةَ بن مَخْصَنٍ من بني أسد - قال سعيد: وكان بَذْرياً - قال: يا نبي الله، ادع الله أن يجعلني منهم. قال: فقال: «اللهم اجعله منهم». قال: أنشأ رجل آخر، قال: يا نبي الله ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: «سبقك بها عكاشة». قال: فقال رسول الله ﷺ: «فإن استطعتم - فداكم أبي وأمي - أن تكونوا من أصحاب السبعين فافعلوا، وإلا فكونوا من أصحاب الظراب، وإلا فكونوا من أصحاب الأفق، فإني قد رأيت ناساً كثيراً قد تأشَّبوا حوله». ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ربيع أهل الجنة». فكبرنا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة». قال: فكبرنا، قال: «إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة». قال: فكبرنا. ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: «ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠)». قال: فقلنا بيننا: من هؤلاء السبعون ألفاً؟ فقلنا: هم الذين ولدوا في الإسلام، ولم يشركوا. قال: فبلغه ذلك، فقال: «بل هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون». وكذا رواه ابن جرير من طريقين آخرين، عن قتادة، به نحوه. وهذا الحديث له طرق كثيرة من غير هذا الوجه في الصحاح وغيرها. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا مِهْرَان، حدثنا سفيان، عن أبان بن أبي عياش، عن سعيد بن جبَّير، عن ابن عباس: «ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠)» قال: قال رسول الله ﷺ: «هُمَا جَمِيعاً مِنْ أُمَّتِي».

﴿وَأَحَبُّ النَّبِيِّ مَا أَحَبَّ نَبِيًّا (١١) فِي سَبْعٍ وَكَبِيرٍ (١٢) وَطَلَّ مِنْ يَمِينِهِ (١٣) لَا يَدِي وَلَا كَرِيمٍ (١٤) لِيَهُنَّ كَأَوْفَى ذَلِكَ مُتَرَفٍ (١٥) وَكَأَوْفَى يَمِينِهِ عَلَى الْخَيْبِ الْعَظِيمِ (١٦) وَكَأَوْفَى يَمِينِهِ أَيْدِيَنَا وَكُنَّا شَرَكًا وَعَظَمًا لَوْنَا لَتَبْعُونَهُ (١٧) أَوْ مَا تَأْتَا الْأَوَّلُونَ (١٨) قُلْ لَيْتَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (١٩) لَتَحْبَبُونَهُ (٢٠) إِنَّكُمْ لَهِيَ الْفَالِقُونَ الْكَافِرُونَ (٢١) لَا يَكُونُ مِنْ حَرْبٍ مِّنْ نَّوْمٍ (٢٢) فَاتَّقُوا مَنَّا الْبَلُونَ (٢٣)﴾

لما ذكر تعالى حال أصحاب اليمين، عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال، فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمَانِ مِمَّا أَصْحَابُ الْيَمَانِ﴾ أي: أي شيء هم أصحاب الشمال؟ ثم فسر ذلك فقال: ﴿فِي سَوَاءٍ﴾ وهو: الهراء الحار ﴿وَجَمِيرٍ﴾ وهو: الماء الحار ﴿وَيُطْلَىٰ مِنْ بَيْنِهِمَا﴾ قال ابن عباس: ظل الدخان. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وأبو صالح، وقتادة، والسدي، وغيرهم. وهذه كقوله تعالى: ﴿أَصْلَفُوا لِي مَا كُنْتُ يَدْعُوهُ تَكَذِّبُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ أَطْلَعُوا إِلَىٰ ظِلِّي ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا طَلِيلَ وَلَا بَقِيَّةَ مِنَ الْهَبِّ ﴿٣١﴾ إِنَّمَا تَرَىٰ يَسْكُرُونَ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جَنَّاتٌ مِّنْ دُونِ الْأُولَىٰ ﴿٣٣﴾ وَلَيْسَ بِهَا مِثْلُ الْكَذَّابِينَ ﴿٣٤﴾ [المرسلات: ٢٩-٣٤]، ولهذا قال هاهنا: ﴿وَيُطْلَىٰ مِنْ بَيْنِهِمَا﴾ ﴿٣٢﴾ وهو الدخان الأسود ﴿لَا يَأْبَىٰ وَلَا كَرِيمٌ﴾ ﴿٤٤﴾ أي: ليس طيب الهبوب ولا حسن المنظر، كما قال الحسن وقتادة: ﴿وَلَا كَرِيمٌ﴾ أي: ولا كريم المنظر. وقال الضحاك: كل شراب ليس بعذب فليس بكريم. وقال جرير: العرب تتبع هذه اللفظة في النفي، فيقولون: «هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم، هذا اللحم ليس بسمين ولا كريم، وهذا الدار ليست بنظيفة ولا كريمة». ثم ذكر تعالى استحقاقهم لذلك، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُّكْرِبِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ أي: كانوا في الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم، لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل. ﴿وَكَاذِبُونَ﴾ أي: يُصَمِّمُونَ ولا ينوون توبة ﴿عَلَىٰ لَيْسَتِ الْكُفْرُ بِاللَّهِ﴾ وهو الكفر بالله، وجعل الأوثان والأنداد أرباباً من دون الله. قال ابن عباس: ﴿لَيْسَتِ الْكُفْرُ بِاللَّهِ﴾ الشرك. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم. وقال الشعبي: هو اليمين الغموس. وكانوا يقولون: ﴿أَيْدِيَنَا وَكَأَنَّا شُرَكَاءُ وَعَظَمَانَا لَوْنَا لَمَبُتُونُ أَوْ عَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿٤٨﴾؟ يعني: أنهم يقولون ذلك مكذبين به مستبدين لوقوعه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ لِيَوْمٍ لَا يُدْعَىٰ يَوْمَ تَمُوتُ﴾ ﴿٥٠﴾ أي: أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بني آدم سيجمعون إلى عرصات القيامة، لا تغادر منهم أحداً، كما قال: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الْبَشَرُ يَوْمَ تَشْهَدُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ وَمَا تُؤْمِرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴿٥٣﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِذِيئِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿٥٤﴾ [احمد: ١٠٣-١٠٥]. ولهذا قال هاهنا: ﴿لَمَجْمُوعُونَ لِيَوْمٍ يُدْعَىٰ يَوْمَ تَمُوتُ﴾ ﴿٥٠﴾ أي: هو موقت بوقت مُّحَدَّد، لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ﴿٥١﴾ الْفَائِزُونَ مِنْ شَرِّ مَنْ زُفِرَ ﴿٥٢﴾ فَالَّذِينَ مَتَّوْا إِلَيْكُمْ فَكَتَرُوا شَرًّا لَّيْلٍ ﴿٥٥﴾ وهي الإبل العطاش، واحداها أهيم، والأنثى هيامة، ويقال: هائم وهائمة. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة: الهمم: الإبل العطاش الظماء. وعن عكرمة أنه قال: الهمم: الإبل المراض، تمص الماء مصاً ولا تزوي. وقال السدي: الهمم: داء يأخذ الإبل فلا تزوي أبداً حتى تموت، فذلك أهل جهنم لا يروون من الحميم أبداً. وعن خالد بن معدان: أنه كان يكره أن يشرب شربة الهمم عبثاً واحدة من غير أن يتنفس ثلاثاً. ثم قال تعالى: ﴿هَذَا نَزْلُكُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿٥٦﴾ أي: هذا الذي وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم، كما قال في حق المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْآزْوَاجِ نُزُلًا﴾ ﴿٥٧﴾ [الحج: ١٠٧] أي: ضيافة وكرامة.

﴿تَحْنُ خَلَقْتَكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ (٥٧) ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ﴾ (٥٨) ﴿أَشْتَرُ عَقْلُونَهُ أَمْ تَحْنُ الْخَائِلُونَ﴾ (٥٩) ﴿تَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا تَحْنُ يَسْتَفِيقُونَ﴾ (٦٠) ﴿عَلَى أَنْ يُذِيلَ آسْنَلَكُمْ وَتُنْبِئَكُمْ فِي مَا لَا تَمْلِكُونَ﴾ (٦١) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٢).

يقول تعالى مقررًا للمعاد، وردًا على المكذبين به من أهل الزيف والإلحاد، من الذين قالوا: ﴿أَيُّدَا يَسْنَا وَكُنَّا شُرَكَاءَ وَعَظَلْنَا أَوْنَا لَمَيُومُونَ﴾ [الصافات: ١٦]، وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب، والاستبعاد، فقال: ﴿تَحْنُ خَلَقْتُمْ﴾ أي: نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، أفليس الذي قدر على البداء بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى؛ فهذا قال: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي: فهلا تصدقون بالبعث! ثم قال مستدلاً عليهم بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ﴾ (٥٨) ﴿أَشْتَرُ عَقْلُونَهُ أَمْ تَحْنُ الْخَائِلُونَ﴾ (٥٩) ﴿أي: أنتم تقرونه في الأرحام وتخلقونه فيها، أم الله الخالق لذلك؟ ثم قال: ﴿تَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ أي: صرفناه بينكم. وقال الضحّاك: ساوى فيه بين أهل السماء والأرض. ﴿وَمَا تَحْنُ يَسْتَفِيقُونَ﴾ أي: وما نحن بعاجزين ﴿عَلَى أَنْ يُذِيلَ آسْنَلَكُمْ﴾ أي: نغير خلقكم يوم القيامة، ﴿وَتُنْبِئَكُمْ فِي مَا لَا تَمْلِكُونَ﴾ أي: من الصفات والأحوال. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٢) أي: قد علمتم أن الله أنشاكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، فهل تتذكرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة - وهي البداء - قادر على النشأة الأخرى، وهي الإعادة بطريق الأولى والأخرى، وكما قال: ﴿وَعُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلَ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ (٦٣) ﴿مَرِيسَ﴾ [٦٤]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (٦٥) ﴿وَصَرَفْنَا لَنَا صَنَدًا وَوَسُوْى خَلَقَهُ قَالَ مَنْ يُعِي الظُّلُمَ وَهَى زُوبِعَ﴾ (٦٦) ﴿قُلْ يُحْيِي الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٦٧) [يس: ٧٧-٧٩]، وقال

تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٦٣﴾ أَوَّلَ بَلَدٍ تَقَعُ مِنْ رَبِّكَ يُنَقِّى ﴿٦٤﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ فَلَانٍ مُسَوًى ﴿٦٥﴾ جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الغاشية: ٣٦ - ٤٠].

﴿أَوَّلَ بَلَدٍ مَا تَحَرَّوْهُ ﴿٦٣﴾ أَأَنْتَ تَزْعُمُهُ، أَمْ عَنْ الزَّرْعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاةً فَلَبِثْتَ تَبْكُهُمْ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَنَعْرِضُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ عَنْ حَرْمُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتَ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنْتَ أَرْزُقُهُمْ مِنْ الشَّرْبِ أَمْ عَنْ الْمُنْزَلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَهْلًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتَ النَّارَ الَّتِي تُؤْرَقُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنْتَ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ عَنْ الْمُنْشِقُونَ ﴿٧٢﴾ عَنْ جَعَلْنَاهَا نَذِيرًا وَمَتْنًا لِلْمُتَّقِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

يقول: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَا تَحَرَّوْهُ ﴿٦٣﴾؟ وهو شق الأرض وإثارتها والبذر فيها، ﴿أَأَنْتَ تَزْعُمُهُ؟﴾ أي: تنبئونه في الأرض ﴿أَمْ عَنْ الزَّرْعُونَ﴾ أي: بل نحن الذي نفره قراره وننبئه في الأرض. قال ابن جرير: وقد حدثني أحمد بن الوليد القرشي، حدثنا مسلم بن أبي مسلم الحزمي، حدثنا مخلد بن الحسين، عن هشام، عن محمد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولن: زرع، ولكن قل: حرث»، قال أبو هريرة: ألم تسمع إلى قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَا تَحَرَّوْهُ ﴿٦٣﴾ أَأَنْتَ تَزْعُمُهُ، أَمْ عَنْ الزَّرْعُونَ ﴿٦٤﴾﴾. ورواه البزار عن محمد بن عبد الرحيم، عن مسلم الجميع به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن عطاء، عن أبي عبد الرحمن: لا تقولوا: زرعنا، ولكن قولوا: حرثنا. وروى عن حنبل المديني أنه كان إذا قرأ: ﴿أَأَنْتَ تَزْعُمُهُ، أَمْ عَنْ الزَّرْعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ وأمثالها، يقول: بل أنت يا رب. وقوله: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاةً﴾ أي: نحن أنبئناه بلطفنا ورحمتنا، وأبقيناه لكم رحمة بكم، ولو نشاء لجعلناه حطاماً، أي: لأيسئناه قبل استوائه واستحصاده، ﴿فَلَبِثْتَ تَبْكُهُمْ﴾. ثم فسر ذلك بقوله: ﴿إِنَّا لَنَعْرِضُونَ ﴿٦٥﴾ بَلْ عَنْ حَرْمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: لو جعلناه حطاماً لفلظمت تفكهم في العقالة، تنوعون كلامكم، فتقولون تارة: ﴿إِنَّا لَنَعْرِضُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: لملقون. وقال مجاهد، وعكرمة: إنا لملوع بنا. وقال قتادة: معذبون. وتارة تقولون: بل نحن محرمون. وقال مجاهد أيضاً: ﴿إِنَّا لَنَعْرِضُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ملقون للشر، أي: بل نحن مُحَارِفُونَ، قاله قتادة، أي: لا يثبت لنا مال، ولا ينتج لنا ربح. وقال مجاهد: ﴿بَلْ عَنْ حَرْمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: محدودون، يعني: لا حظ لنا. قال ابن عباس، ومجاهد: ﴿فَلَبِثْتَ تَبْكُهُمْ﴾: تعجبون. وقال مجاهد أيضاً: ﴿فَلَبِثْتَ تَبْكُهُمْ﴾: تفجعون وتحزنون على ما فاتكم من زرعكم. وهذا يرجع إلى الأول، وهو التعجب من السبب الذي من أجله أصيبوا في مالهم. وهذا اختيار ابن جرير. وقال عكرمة: ﴿فَلَبِثْتَ تَبْكُهُمْ﴾: تلامون. وقال الحسن، وقاتدة، والسدي: ﴿فَلَبِثْتَ تَبْكُهُمْ﴾: تندمون. ومعناه إما على ما أنفقتم، أو على ما أسلفتم من الذنوب. قال الكسائي: تفكه من الأضداد، تقول العرب: تفكهت بمعنى تنعمت، وتفكهت بمعنى حزنت. ثم قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنْتَ أَرْزُقُهُمْ مِنَ الشَّرْبِ﴾ يعني: السحاب. قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد. ﴿أَمْ عَنْ الْمُنْزَلُونَ﴾ يقول: بل نحن المنزلون. ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَهْلًا﴾ أي: زُعَاقاً مَرَا لا يصلح لشرب ولا زرع، ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أي: فهلا تشكرون نعمة الله عليكم في إنزاله المطر عليكم عذباً زلالاً! ﴿لَكُرْهُنَّ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ شَيْمُونٌ ﴿٧٠﴾ يُبْتِ لَكُمْ بِهِ الزَّيْعُ وَالزَّيْتُونُ وَالْخَيْلُ وَالْأَعْنَبُ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٧١﴾﴾ [النحل: ١٠ - ١١]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عثمان بن سعيد بن مرة، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن جابر، عن أبي جعفر، عن النبي ﷺ: أنه إذا شرب الماء قال: «الحمد لله الذي سقانا عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاباً بذنوبنا». ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ النَّارَ الَّتِي تُؤْرَقُونَ ﴿٧١﴾﴾ أي: تقدحون من الزناد، وتستخرجونها من أصلها، ﴿أَأَنْتَ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ عَنْ الْمُنْشِقُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي: بل نحن الذين جعلناها مودعة في موضعها، وللعرب شجرتان، إحداهما: المرخ، والأخرى: العقار، إذا أخذ منهما غصنان أخضران، فحك أحدهما بالآخر، تناثر من بينهما شر النار. وقوله: ﴿عَنْ جَعَلْنَاهَا نَذِيرًا﴾: قال مجاهد، وقاتدة: أي تذكّر النار الكبرى. قال قتادة: ذكر لنا رسول الله ﷺ قال: «يا قوم، ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم». قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية! قال: «قد ضربت بالماء ضربتين - أو: مرتين - حتى يستنفع بها بنو آدم ويدنوا منها». وهذا الذي أرسله قتادة رواه الإمام أحمد في مسنده فقال: حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد». وقال الإمام مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم». فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية. فقال: «إنها فضلت عليها تسعة وستين جزءاً». رواه البخاري من حديث مالك، ومسلم من حديث أبي الزناد، ورواه مسلم، من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ عن همام، عن أبي هريرة، به. وفي لفظ: «والذي نفسي بيده، لقد فضلت عليها تسعة وستين جزءاً، كلهن مثل حرها». وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن عمرو الخلال، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي، حدثنا مَعْنٌ بن عيسى القزاز، عن مالك، عن

عنه أبي السهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم؟ لهي أشد سواداً من دخان ناركم هذه بسبعين ضعفاً». قال الضياء المقدسي: وقد رواه ابن مصعب، عن مالك ولم يرفعه، وهو عندي على شرط الصحيح. وقوله: ﴿وَمَتَّعًا لِلْمُتَّقِينَ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والنضر بن عربي: معنى ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: المسافرين، واختاره ابن جرير، وقال: ومنه قولهم: «أقوت الدار إذا رحل أهلها». وقال غيره: القى والقواء: القفر الخالي البعيد من العمران. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المقوي هنا الجائع. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وَمَتَّعًا لِلْمُتَّقِينَ﴾: للحاضر والمسافر، لكل طعام لا يصلحه إلا النار. وكذا روى سفيان، عن جابر الجعفي، عن مجاهد. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: المستمتعين، الناس أجمعين. وكذا ذكر عن عكرمة.

وهذا التفسير أعم من غيره، فإن الحاضر والبادي من غني وفقير الكل محتاجون للطبخ والإصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع. ثم من لطف الله تعالى أن أوردعها في الأحجار، وخالص الحديد، بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأورى، وأوقد ناره فأطبخ بها واصطلى، واشتوى واستأنس بها، وانتفع بها سائر الانتفاعات. فلهذا أفرد المسافرون وإن كان ذلك عاماً في حق الناس كلهم. وقد يستدل له بما رواه الإمام أحمد وأبو داود من حديث أبي خذاش حبان بن زيد الشَّرْعَبِي الشَّامي، عن رجل من المهاجرين من قُرْن، أن رسول الله ﷺ قال: «المسلمون شركاء في ثلاثة: النار والكلا والماء». وروى ابن ماجة بإسناد جيد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لا يُمتنعن: الماء والكلا والنار». وله من حديث ابن عباس مرفوعاً مثل هذا وزيادة: «وثمته حرام»، ولكن في إسناده «عبد الله بن خراش بن حوشب» وهو ضعيف، والله أعلم. وقوله: ﴿فَنَسِجَ بَاسِرٍ رَزَقَ الْعَظِيمُ﴾ (٧٦) أي: الذي بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة: الماء العذب الزلال البارد، ولو شاء لجعله ملحاً أجاباً كالبهار المفرقة. وخلق النار المحرقة، وجعل ذلك مصلحة للعباد، وجعل هذه منفعة لهم في معاش دنياهم، وزاجراً لهم في المعاد.

﴿فَلَا أَقْسِئُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ (٧٥) وَإِنَّهُ لَنَسْفٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَنَزَارُ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَبْسُئُهُ إِلَّا الْمَظْهَرُونَ ﴿٧٩﴾ تَبَرُّكٌ مِنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا لَعَلَّيْتُمْ تُؤْخَذُونَ ﴿٨١﴾ وَتَعْلَمُونَ رُزُقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذَّبُونَ ﴿٨٢﴾.

قال جوير، عن الضحاك: إن الله لا يقسم بشيء من خلقه، ولكنه استفتح يستفتح به كلامه. وهذا القول ضعيف. والذي عليه الجمهور أنه قسم من الله ﷻ، يقسم بما شاء من خلقه، وهو دليل على عظمته. ثم قال بعض المفسرين: «لا» هاهنا زائدة، وتقديره: أقسم بمواقع النجوم. ورواه ابن جرير، عن سعيد بن جبيرة. ويكون جوابه: ﴿إِنَّهُ لَنَزَارُ كَرِيمٌ﴾ (٧٧). وقال آخرون: ليست «لا» زائدة لا معنى لها، بل يؤتى بها في أول القسم إذا كان مقسماً به على منفى، كقول عائشة، رضي الله عنها: «لا، والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط» وهكذا هاهنا تقدير الكلام: «لا»، أقسم بمواقع النجوم ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر أو كهانة، بل هو قرآن كريم». وقال ابن جرير: وقال بعض أهل العربية: معنى قوله: ﴿فَلَا أَقْسِئُ﴾: فليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف القسم بعد فقيل: أقسم. واحتفلوا في معنى قوله: ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾، فقال حكيم بن جبيرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، يعني: نجوم القرآن؛ فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً في السنين بعد. ثم قرأ ابن عباس هذه الآية. وقال الضحاك، عن ابن عباس: نزل القرآن جملة من عند الله من اللوح المحفوظ إلى السُّفَرَةِ الكرام الكاتبين في السماء الدنيا، فنجمته السفرة على جبريل عشرين ليلة، ونجمه جبريل على محمد ﷺ عشرين سنة، فهو قوله: ﴿فَلَا أَقْسِئُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ (٧٥): نجوم القرآن. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والسدي، وأبو حزة. وقال مجاهد أيضاً: ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ في السماء، ويقال: مطالعها ومشارقها. وكذا قال الحسن، وقتادة، وهو اختيار ابن جرير. وعن قتادة: مواقعها: منازلها. وعن الحسن أيضاً: أن المراد بذلك انتشارها يوم القيامة. وقال الضحاك: ﴿فَلَا أَقْسِئُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ (٧٥) يعني بذلك: الأنواء التي كان أهل الجاهلية إذا مطروا قالوا: مطرنا بنوء كذا وكذا.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَنَسْفٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (٧٦) أي: وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم، لو تعلمون عظمته لعظمتكم المقسم به عليه، ﴿إِنَّهُ لَنَزَارُ كَرِيمٌ﴾ (٧٧) أي: إن هذا القرآن الذي نزل على محمد لكتاب عظيم. ﴿فِي كِتَابٍ مَكُونٍ﴾ (٧٨) أي: معظم في كتاب معظم محفوظ موفر. قال ابن جرير: حدثني إسماعيل بن موسى، أخبرنا شريك، عن حكيم - هو ابن جبيرة - عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿لَا يَبْسُئُهُ إِلَّا الْمَظْهَرُونَ﴾ (٧٩) قال: الكتاب الذي في السماء. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿لَا يَبْسُئُهُ إِلَّا الْمَظْهَرُونَ﴾ (٧٩) يعني: الملائكة. وكذا قال أنس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، والضحاك، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، وأبو نهيك، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن

عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، حدثنا مَعْمَرٌ، عن قتادة: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٩) قال: لا يمسّه عند الله إلا المطهرون، فأما في الدنيا فإنه يمسّه المجوسي النجس، والمنافق الرجس. وقال: وهي في قراءة ابن مسعود: ﴿ما يمسّه إلا المطهرون﴾. وقال أبو العالية: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٩): ليس أنتم أصحاب الذنوب. وقال ابن زيد: رَعِمَتْ كُفَار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسّه إلا المطهرون كما قال: ﴿وَمَا تَزَكَّى يَوْمَ الْفَيْصِلِ﴾ (٧٦) وَمَا يَلْبِسُ هُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٦) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ (٧٦) [الشعراء: ٢١٠-٢١٢]. وهذا القول قول جيد، وهو لا يخرج عن الأقوال التي قبله. وقال الفراء: لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به. وقال آخرون: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٩) أي: من الجنابة والحدث. قالوا: ولفظ الآية خبر ومعناها الطلب، قالوا: والمراد بالقرآن هاهنا المصحف، كما روى مسلم عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، مخافة أن يناله العدو. واحتجوا في ذلك بما رواه الإمام مالك في موطئه، عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمر بن حزم: ألا يمس القرآن إلا طاهر. وروى أبو داود في المراسيل، من حديث الزهري قال: قرأت في صحيفة عند أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن رسول الله ﷺ قال: «ولا يمس القرآن إلا طاهر». وهذه وجادة جيدة. قد قرأها الزهري وغيره، ومثل هذا ينبغي الأخذ به. وقد أسنده الدارقطني عن عمرو بن حزم، وعبد الله بن عمر، وعثمان بن أبي العاصي، وفي إسناد كل منها نظر، والله أعلم.

وقوله: ﴿تَزِيلُ بَيْنَ رَبِّ الْمَلَكَيْنِ﴾ (٨٠) أي: هذا القرآن منزل من الله رب العالمين، وليس هو كما يقولون: إنه سحر، أو كهانة، أو شعر، بل هو الحق الذي لا مزية فيه، وليس وراءه حق نافع. وقوله: ﴿أَفَكَيْدًا أَكْذِيبُ أَنْتُمْ تُدْهِنُونَ﴾ (٨١) قال العوفي، عن ابن عباس: أي مكذبون غير مصدقين. وكذا قال الضحاك، وأبو حذرة، والسدي. وقال مجاهد: ﴿تُدْهِنُونَ﴾ أي: تريدون أن تمالئوهم فيه وتركوا إليهم. ﴿وَيَحْمِلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ (٨٢) قال بعضهم: يعني: وتجعلون رزقكم بمعنى شكركم أنكم تكذبون، أي: تكذبون بدل الشكر. وقد روي عن علي وابن عباس أنهما قرأها: «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون» كما سيأتي. وقال ابن جرير: وقد ذكر عن الهيثم بن عدي: أن من لغة أزد شئونة: ما رزق فلان بمعنى: ما شكر فلان. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا إسرائيل، عن عبد الأعلى، عن أبي عبد الرحمن، عن علي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَيَحْمِلُونَ رِزْقَكُمْ﴾، يقول: «شكركم» ﴿أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾، تقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، بنجم كذا وكذا. وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن مُخَوَّل بن إبراهيم النهدي - وابن جرير، عن محمد بن المنثني، عن عبيد الله بن موسى، عن يعقوب بن إبراهيم، عن يحيى بن أبي بكير، ثلاثتهم عن إسرائيل، به مرفوعاً. وكذا رواه الترمذي عن أحمد بن مئيع، عن حسين بن محمد - وهو المروزي - به، وقال: «حسن غريب». وقد رواه سفيان عن عبد الأعلى، ولم يرفعه. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: ما مُطِر قوم قط إلا أصبح بعضهم كافراً، يقولون: مُطِرْنَا بنوء كذا وكذا. وقرأ ابن عباس: «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون». وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس.

وقال مالك في الموطأ، عن صالح بن كيسان، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن زيد بن خالد بن الجهني أنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب. وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب». أخرجه في الصحيحين، وأبو داود، والنسائي، كلهم من حديث مالك، به. وقال مسلم: حدثنا محمد بن سلمة المرادي وعُمر بن سَود، حدثنا عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، أن أبا يونس خذته عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين، ينزل الغيث، فيقولون: بكوكب كذا وكذا». تَفَرَّدَ به مسلم من هذا الوجه. وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا سفيان، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يُبْصِحُ الْقَوْمَ بالنعمة أو يُبْسِئُهُم بها، فيصبح بها قوم كافرين، يقولون: مُطِرْنَا بنوء كذا وكذا». قال محمد - هو ابن إبراهيم -: فذكرت هذا الحديث لسعيد بن المسيب، فقال: ونحن قد سمعنا من أبي هريرة، وقد أخبرني من شهد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وهو يستسقي، فلما استسقى التفت إلى العباس فقال: يا عباس، يا عم رسول الله، كم بقي من نوء الثريا؟ فقال: العلماء يزعمون أنها تعترض في الأفق بعد سقوطها سبعة. قال: فما مضت سابعة حتى مُطِرُوا. وهذا محمول على السؤال عن الوقت الذي أجرى الله فيه العادة بإتزال المطر، لا أن

ذلك النوء يؤثر بنفسه في نزول المطر؛ فإن هذا هو المنهي عن اعتقاده. وقد تقدم شيء من هذه الأحاديث عند قوله: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَتِهِ فَلَا تُصِيبُكُمْ لَهْمَةٌ﴾ [فاطر: ٢٢]. وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا سفیان، عن إسماعيل بن أمية - أحسبه أو غيره - أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً - ومطروا - يقول: مطرنا ببعض عَشَانِينَ الْأَسَدِ. فقال: «كذبت! بل هو زرق الله». ثم قال ابن جرير: حدثني أبو صالح الصراري، حدثنا أبو جابر محمد بن عبد الملك الأزدي، حدثنا جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «ما مطر قوم من ليلة إلا أصبح قوم بها كافرين». ثم قال: «وَيَحْمِلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ ﴿٨٣﴾»، يقول قائل: مطرنا بنجم كذا وكذا. وفي حديث عن أبي سعيد مرفوعاً: «لَوْ قُحِطَ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ ثُمَّ مَطَرُوا لَقَالُوا: مطرنا بنوء المجدح». وقال مجاهد: «وَيَحْمِلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ ﴿٨٣﴾»: قال: قولهم في الأنواء: مطرنا بنوء كذا، وبنوء كذا، يقول: قولوا: هو من عند الله، وهو رزقه. وهكذا قال الضحاک وغير واحد. وقال قتادة: أما الحسن فكان يقول: بش ما أخذ قوم لأنفسهم، لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب. فمعنى قول الحسن هذا: وتجعلون حظكم من كتاب الله أنكم تكذبون به؛ ولهذا قال قبله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا أَنْتُمْ تُكْفِرُونَ ﴿٨٤﴾ وَيَحْمِلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَ الْهُلُومُ ﴿٨٦﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٌ تَنْظُرُونَ ﴿٨٧﴾ وَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٨﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٩﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَ أَيُّ: الروح﴾ ﴿الْهُلُومُ﴾ أَيُّ: الحلق، وذلك حين الاحتضار، كما قال: ﴿فَلَا إِذَا بَلَغَ الْفَرْقَ ﴿٩١﴾ قَبْلَ مَوْلَايَ ﴿٩٢﴾ وَنَظَرَ أَنَّهُ الْفَرْقَ ﴿٩٣﴾ وَاللَّيْلُ أَنَا وَالنَّهَارُ ﴿٩٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ بِمِمَّا تَكْفُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الغاية: ٢٦-٣٠]؛ ولهذا قال هاهنا: وَأَنْتُمْ حِينِيذٌ تَنْظُرُونَ ﴿٨٦﴾ أَيُّ: إلى المحتضر وما يكابده من سكرات الموت ﴿وَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ أَيُّ: بملائكتنا ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أَيُّ: ولكن لا ترونهم. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَهُوَ الْفَاقِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْقَرُونَ ﴿٩٦﴾ ثُمَّ دُفُّوا إِلَىٰ آلِهِمْ مُلْجَمِينَ ﴿٩٧﴾ أَلَا لَهُ الْفَتْهُمْ وَهُوَ أَمَرُ الْمُجْسِمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الانعام: ٦١-٦٢]. وقوله: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٩﴾ تَرْجِعُونَهَا﴾: معناه: فهلا ترجعون هذه النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول، ومقرها في الجسد إن كنتم غير مدنيين. قال ابن عباس: يعني محاسبين. وزوي عن مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقاتدة، والضحاک، والسدي، وأبي حذرة، مثله. وقال سعيد بن جبیر، والحسن البصري: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٩﴾﴾: غير مصدقين أنكم تدانون وتبعثون وتجزون، فردوا هذه النفس. وعن مجاهد: ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾: غير موقنين. وقال ميمون بن مهران: غير معذبين مقهورين.

﴿فَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُتَفَرِّينَ ﴿٩٠﴾ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَحَتَّىٰ يَبْيُرَ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَمْسَبِ الْيَمِينِ ﴿٩٢﴾ سَلَّمَ اللَّهُ مِنْ أَمْسَبِ الْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ الْعَبَاثِينَ ﴿٩٤﴾ فَزُلْزِلَ مِنْ جَبِيرٍ ﴿٩٥﴾ وَصَلِيَّةٌ يَجِيرُ ﴿٩٦﴾﴾ إِنْ هَذَا هُوَ حَقُّ الْيَمِينِ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٨﴾﴾.

هذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم: إما أن يكون من المقربين، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين. وإما يكون من المكذبين الضالين عن الهدى، الجاهلين بأمر الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا إِنْ كَانَ﴾ أَيُّ: المحتضر ﴿مِنَ الْمُتَفَرِّينَ﴾، وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات، ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَحَتَّىٰ يَبْيُرَ ﴿٩٠﴾﴾ أَيُّ: فلهم روح وريحان، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت، كما تقدم في حديث البراء: أن ملائكة الرحمة تقول: «أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمريه، أخرجي إلى روح وريحان، ورب غير غضبان». وقال علي بن طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَرُوحٌ﴾ يقول: راحة وريحان، يقول: مستراحة. وكذا قال مجاهد: إن الروح: الاستراحة. وقال أبو حذرة: الراحة من الدنيا. وقال سعيد بن جبیر، والسدي: الروح: الفرح. وعن مجاهد: ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ﴾: جنة ورخاء. وقال قتادة: فروح ورحمة. وقال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر: ﴿وَرِيحَانٌ﴾: ورزق. وكل هذه الأقوال متقاربة، صحيحة، فإن من مات مقرباً حصل له جميع ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة، والفرح والسرور والرزق الحسن، ﴿وَحَتَّىٰ يَبْيُرَ﴾. وقال أبو العالية: لا يفارق أحد من المقربين حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة، فيقبض روحه فيه. وقال محمد بن كعب: لا يموت أحد من الناس حتى يعلم: أمن أهل الجنة هو أم من أهل النار؟ وقد قدما أحاديث الاحتضار عند قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الْكَافِرَ مَا أَمَرُوا بِالْقَوْلِ الْكَافِرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، ولو كتبت هاهنا لكان حسناً! ومن جعلتها حديث تميم الداري، عن النبي ﷺ، يقول: «يقول الله لملك الموت: انطلق إلى فلان فانتني به، فإنه قد جرت به بالسراء والضراء فوجدته حيث أحب، انتني به فلأريحه. قال: فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمس مائة من الملائكة، معهم أكفان وخشوط من الجنة، ومعهم ضَبَائِرُ الرِّيحَانِ، أصل الرِّيحَانَةُ واحد وفي رأسها عشرون لوناً، لكل لون منها ريح سوى ريح

صاحبه، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك». وذكر تمام الحديث بطوله كما تقدم، وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا هارون، عن بُذيل بن ميسرة، عن عبد الله بن شقيق، عن عائشة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿فَرَجَّ وَرَجَّاهُ﴾ برفع الراء. وكذا رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث هارون - وهو ابن موسى الأعور - به، وقال الترمذي: لا نعرفه إلا من حديثه.

وهذه القراءة هي قراءة يعقوب وحده، وخالفه الباقر فقرأوا: ﴿فَرَجَّ﴾ بفتح الراء. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو الأسود محمد بن عبد الرحمن ابن نوفل: أنه سمع دُرَّة بنت معاذ تحدث، عن أم هانئ: أنها سألت رسول الله ﷺ: أنتزاور إذا متنا، ويرى بعضنا بعضاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «تكون التَّسْمُ طيراً يعلق بالشجر، حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس في جسدها». هذا الحديث فيه بشارة كل مؤمن، ومعنى «يعلق» يأكل، ويشهد له بالصحة أيضاً ما رواه الإمام أحمد عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي، عن الإمام مالك بن أنس، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: «إنما تَسْمَةُ المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه». وهذا إسناد عظيم، ومتن قوي. وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى فتاديل معلقة بالعرش» الحديث. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا عطاء بن السائب قال: كان أول يوم عرفت فيه عبد الرحمن بن أبي ليلى: رأيت شيخاً أبيض الرأس واللحية على حمار، وهو يتبع جنازة، فسمعت يقول: حدثني فلان بن فلان، سمع رسول الله ﷺ يقول: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قال: فأكب القوم يبكون، فقال: «ما يبكيكم؟» فقالوا: إنا نكره الموت. قال: «ليس ذاك، ولكنه إذا خضر ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿وَرَجَّاهُ وَرَجَّاهُ﴾، فإذا بُشِّرَ بذلك أحب لقاء الله ﷻ، والله، ﷻ، للقاءه أحب ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الْفَآلِينَ﴾ ﴿نَزَّلَ مِنْ جَبْرِ﴾ ﴿وَنَصَلَهُ جَبْرِ﴾، فإذا بشر بذلك كره لقاء الله، والله للقاءه أكره. هكذا رواه الإمام أحمد، وفي الصحيح عن عائشة - رضي الله عنها - شاهد لمعناه. وقوله: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿أَي: وأما إن كان كان المحض من أصحاب اليمين، ﴿سَلَّمَ لَكَ مِنْ أَحْسَنِ الْيَمِينِ﴾ ﴿أَي: تبشرهم الملائكة بذلك، تقول لأحدهم: سلام لك، أي: لا بأس عليك، أنت إلى سلامة، وأنت من أصحاب اليمين. وقال قتادة، وابن زيد: سَلِّمَ من عذاب الله، وسَلِّمَ عليه ملائكة الله. كما قال عكرمة: تسلم عليه الملائكة، وتخبره أنه من أصحاب اليمين. وهذا معنى حسن، ويكون ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا نَسْتَدِلُّ عَلَيْهِمُ بِمَلَكِكُمْ أَلَّا تُخَافُوا وَلَا تُحْزِنُوا وَاتَّبَرُوا يُلْجَأُونَ إِلَيْهِ فَيَكْتُمُ تُكْذِبُونَ﴾ ﴿تَحْنُ أُولَئِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُنَّ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ ﴿ثُمَّ لَا يَنْفَعُ عَنْفُسَكُمْ تَعْمُرُ﴾ ﴿فصلت: ٣٠-٣٢﴾. وقال البخاري: ﴿سَلَّمَ لَكَ﴾ أي: مُسلم لك، إنك من أصحاب اليمين. والغيت «إن» وهو: معناها، كما تقول: أنت مُصدق مسافر عن قليل. إذا كان قد قال: إني مسافر عن قليل. وقد يكون كالدعاء له، كقولك: سقياً لك من الرجال، إن رفعت «السلام» فهو من الدعاء. وقد حكاه ابن جرير هكذا عن بعض أهل العربية، ومال إليه، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الْفَآلِينَ﴾ ﴿نَزَّلَ مِنْ جَبْرِ﴾ ﴿وَنَصَلَهُ جَبْرِ﴾ ﴿أَي: وأما إن كان كان المحض من المكذبين بالحق، الضالين عن الهدى، ﴿نَزَّلَ﴾ أي: فضيافة ﴿مِنْ جَبْرِ﴾ وهو المذاب الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود، ﴿وَنَصَلَهُ جَبْرِ﴾ أي: وتقرير له في النار التي تغمره من جميع جهاته. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ ﴿أَي: إن هذا الخبر لهو الحق اليقين الذي لا مرية فيه، ولا محيد لأحد عنه. ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ﴿قال أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا موسى بن أيوب الغافقي، حدثني عتي ياس بن عامر، عن عقبة بن عامر الجهني قال: لما نزلت: على رسول الله ﷺ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ﴿قال: «اجعلوها في ركوعكم»، ولما نزلت: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿[الأعلى: ١]، قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في سجودكم». وكذا رواه أبو داود وابن ماجه، من حديث عبد الله بن المبارك، عن موسى بن أيوب، به. وقال روح بن عبادة: حدثنا حجاج الصواف، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: سبحان الله العظيم وبحمده، غُرسَتْ له نخلة في الجنة». هكذا رواه الترمذي من حديث روح، ورواه هو والنسائي أيضاً من حديث حماد بن سلمة، من حديث أبي الزبير عن جابر، عن النبي ﷺ، وقال الترمذي: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث أبي الزبير.

وقال البخاري في آخر كتابه: حدثنا أحمد بن إشكاب، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا عُمارة ابن القعقاع، عن أبي زُرعة، عن

أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم». ورواه بقية الجماعة إلا أبا داود، من حديث محمد بن فضيل، بإسناده، مثله.



تفسير سورة الحديد

وهي مدنية. قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا بقة بن الوليد، حدثني بحير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن ابن أبي بلال، عن عرباض بن سارية، أنه حدثهم أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد، وقال: «إن فيها آية أفضل من ألف آية». وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من طرق عن بقة، به. وقال الترمذي: حسن غريب. ورواه النسائي عن ابن أبي السرح، عن ابن وهب، عن معاوية بن صالح، عن بحير بن سعد، عن خالد بن معدان قال: كان رسول الله ﷺ... فذكره مرسلاً، لم يذكر عبد الله بن أبي بلال، ولا العرباض بن سارية. والآية المشار إليها في الحديث هي - والله أعلم - قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، كما سيأتي بيانه إن شاء الله وبه الثقة.

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ لَمْ تَكُنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ بِشَيْءٍ. وَتَبَيَّنَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات والأرض، أي: من الحيوانات والنباتات، كما قال في الآية الأخرى: ﴿سُبِّحْ لَهُ السَّمَوَاتُ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَسْبًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: الذي قد خضع له كل شيء ﴿الْعَزِيزُ﴾ في خلقه وأمره وشرعه ﴿لَمْ تَكُنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ بِشَيْءٍ﴾ أي: هو المالك المتصرف في خلقه، فيحيي ويميت، ويعطي من يشاء ما يشاء، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. وقوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾: وهذه الآية هي المشار إليها في حديث العرباض بن سارية: أنها أفضل من ألف آية. وقال أبو داود: حدثنا عباس بن عبد العظيم، حدثنا النضر بن محمد، حدثنا عكرمة - يعني ابن عمار - حدثنا أبو زميل قال: سألت ابن عباس فقلت: ما شيء أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قلت: والله لا أتكلم به. قال: فقال لي: أشيء من شك؟ قال: - وضحك - قال: ما نجا من ذلك أحد. قال: حتى أنزل الله: ﴿إِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَتَنَّا آلِ الْيَمِينِ بِقُرْآنِهِ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية [يونس: ٩٤] قال: وقال لي: إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. وقد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية وأقوالهم على نحو من بضعة عشر قولاً. وقال البخاري: قال يحيى: الظاهر على كل شيء علماً، والباطن على كل شيء علماً. قال شيخنا الحافظ المزني: يحيى هذا هو ابن زياد الفراء، له كتاب سماه: «معاني القرآن». وقد ورد في ذلك أحاديث، فمن ذلك ما قال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا ابن عياش، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم: «اللهم، رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالحق الحب والنوى، لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء. اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر». ورواه مسلم في صحيحه: حدثني زهير بن حرب، حدثنا جرير عن سهيل قال: كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام: أن يضطجع على شقه الأيمن، ثم يقول: اللهم، رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالحق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته، اللهم، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر. وكان يروي ذلك، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ.

وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده عن عائشة أم المؤمنين نحو هذا، فقال: حدثنا عتبة، حدثنا يونس، حدثنا السري بن إسماعيل، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يأمر بفراشه فيفرش له مستقبل القبلة، فإذا أوى إليه توسد كفه اليمنى، ثم همس - ما يُدري ما يقول - فإذا كان في آخر الليل رفع صوته فقال: «اللهم، رب السموات السبع ورب العرش العظيم، إله كل شيء، ورب كل شيء، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالحق الحب والنوى،

أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته. اللهم، أنت الأول الذي ليس قبلك شيء، وأنت الآخر الذي ليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر. السري بن إسماعيل هذا ابن عم الشعبي، وهو ضعيف جداً، والله أعلم. وقال أبو عيسى الترمذي عند تفسير هذه الآية: حدثنا عبد بن حميد وغير واحد - المعنى واحد - قالوا: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن، عن قتادة قال: حدث الحسن، عن أبي هريرة قال: بينما رسول الله ﷺ جالس وأصحابه، إذ أتى عليهم سحب، فقال نبي الله ﷺ: «هل تدرون ما هذا؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا العنان، هذه روايا الأرض تسوقه إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه». ثم قال: «هل تدرون ما فوقكم؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها الرقيق، سقف محفوظ، وموج مكفوف». ثم قال: «هل تدرون كم بينكم وبينها؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينكم وبينها خمسمائة سنة». ثم قال: «هل تدرون ما فوق ذلك؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن فوق ذلك سماء بعد ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة - حتى عد سبع سموات - ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض». ثم قال: «هل تدرون ما فوق ذلك؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن فوق ذلك العرش، وبينه وبين السماء بعد ما بين السماءين». ثم قال: «هل تدرون ما الذي تحتكم؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها الأرض». ثم قال: «هل تدرون ما الذي تحت ذلك؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن تحتها أرضاً أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة - حتى عد سبع أرضين - بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة». ثم قال: «والذي نفس محمد بيده، لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله»، ثم قرأ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ يَكِلُ شَيْءٌ عَلَيْهِ ۖ﴾.

ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه، ويروى عن أيوب ويونس - يعني ابن عبيد - وعلي بن زيد قالوا: لم يسمع الحسن من أبي هريرة. وفسر بعض أهل العلم هذا الحديث فقالوا: إنما هبط على علم الله وقدرته وسلطانه، وعلم الله وقدرته وسلطانه في كل مكان، وهو على العرش، كما وصف في كتابه. انتهى كلامه. وقد روى الإمام أحمد هذا الحديث عن سريح، عن الحكم بن عبد الملك، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، فذكره، وعنده بعد ما بين الأرضين مسيرة سبعمائة عام، وقال: «لو دليتم أحدكم بحبل إلى الأرض السفلى السابعة لهبط على الله»، ثم قرأ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ يَكِلُ شَيْءٌ عَلَيْهِ ۖ﴾. ورواه ابن أبي حاتم والبخاري من حديث أبي جعفر الرازي، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة... فذكر الحديث، ولم يذكر ابن أبي حاتم آخره وهو قوله: «لو دليتم بحبل»، وإنما قال: «حتى عد سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة عام»، ثم تلا: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ يَكِلُ شَيْءٌ عَلَيْهِ ۖ﴾. وقال البخاري: لم يروه عن النبي ﷺ إلا أبو هريرة. ورواه ابن جرير، عن بشر، عن يزيد، عن سعيد، عن قتادة ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ﴾، ذكر لنا أن نبي الله ﷺ بينما هو جالس في أصحابه إذ ثار عليهم سحب، فقال: «هل تدرون ما هذا؟»، وذكر الحديث مثل سياق الترمذي سواء، إلا أنه مرسل من هذا الوجه، ولعل هذا هو المحفوظ، والله أعلم. وقد روي من حديث أبي ذر الغفاري، رضي الله عنه وأرضاه، رواه البخاري في مسنده، والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات، ولكن في إسناده نظر، وفي متنه غرابة ونكارة، والله سبحانه وتعالى أعلم. وقال ابن جرير عند قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ يَنْهَلْنَ ۖ﴾ [العلاق: ١٧]: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة قال: التقى أربعة من الملائكة بين السماء والأرض، فقال بعضهم لبعض: من أين جئت؟ قال أحدهم: أرسلني ربي، ﷻ، من السماء السابعة وتركته ثم، قال الآخر: أرسلني ربي، ﷻ، من الأرض السابعة وتركته ثم، قال الآخر: أرسلني ربي من المشرق وتركته ثم، قال الآخر: أرسلني ربي من المغرب وتركته ثم. وهذا حديث غريب جداً، وقد يكون الحديث الأول موقوفاً على قتادة كما روي هاهنا من قوله، والله أعلم.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَكِلُ مَا يَكُنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝﴾ لَمْ يَكُنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ وَلَمْ يَكُنْ الْأَشْيَاءُ ۖ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝﴾.

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم أخبر باستوائه على العرش بعد خلقهن، وقد تقدم الكلام على هذه الآية وأشباهاها في سورة «الأعراف» بما أغنى عن إعادته هنا. ﴿يَعْلَمُ مَا يَكُنْ فِي الْأَرْضِ ۖ﴾ أي: يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ۖ﴾ من زرع ونبات وثمار، كما قال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْأَلُ مِنْ دَرَكَةٍ إِلَّا يُعَلِّمَهَا وَلَا جَبْرَ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبَ وَلَا يَابِسَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقوله: ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ۖ﴾ أي: من الأمطار، والثلوج والبرد، والأقذار والأحكام مع الملائكة الكرام، وقد تقدم في سورة «البقرة» أنه

ما ينزل من قطرة من السماء إلا ومعها ملك يُقرّرها في المكان الذي يأمر الله به حيث يشاء تعالى. وقوله: ﴿وَمَا يَمَسُّ مِنْهَا﴾ أي: من الملائكة والأعمال، كما جاء في الصحيح: «يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ». وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: رقيب عليكم، شهيد على أعمالكم حيث أنتم، وأين كنتم، من بر أو بحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو القفار، الجميع في علمه على السواء، وتحت بصره وسمعه، فيسمع كلامكم ويرى مكانكم، ويعلم سرهم ونجواكم، كما قال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتَقُونَ سُودُوهُمْ لِيَسْتَحْفَظُوا مِنْهُ أَلَا يَبِينُ يَسْتَحْفَظُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا يُرِيدُ وَمَا يَطْلُبُونَ إِنَّهُ عَلَيْهِمْ إِذَاتُ السُّعُودِ﴾ [مرد: ٥٠]. وقال: ﴿سَوَاءٌ يَنْصُرُكَ مِنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِالْكِيلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]، فلا إله غيره ولا رب سواه. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجبريل، لما سأله عن الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وروى الحافظ أبو بكر الإسماعيلي من حديث نصر بن خزيمة بن جنادة بن محفوظ بن علقمة، حدثني أبي، عن نصر بن علقمة، عن أخيه، عن عبد الرحمن بن عائذ قال: قال عمر: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: زدني كلمة أعيش بها. فقال: «استح الله كما تستحي رجلاً من صالح عشيرتك لا يفارقك». هذا حديث غريب، وروى أبو نعيم من حديث عبد الله بن معاوية الغاضري مرفوعاً: «ثلاث من فعلهن فقد طعم الإيمان: من عبد الله وحده، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه في كل عام، ولم يعط الهرمة ولا الدرنه، ولا الشرط اللثيمة ولا المريضة، ولكن من أوسط أموالكم. وزكى نفسه». وقال رجل: يا رسول الله، ما تزكية المرء نفسه؟ فقال: «يعلم أن الله معه حيث كان». وقال نعيم بن حَمَاد، رحمه الله: حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار الحمصي، عن محمد بن مهاجر، عن عروة بن رُوَيْم، عن عبد الرحمن بن غنم، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ أَفْضَلَ الْإِيمَانَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ». غريب. وكان الإمام أحمد ينشد هذين البيتين:

إِذَا مَا خَلَسَتْ الدَّهْرُ يَوْمًا فَلَا تُقْلُ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْتُ: عَلَيَّ رَقِيبٌ
وَلَا تُخَسِبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً وَلَا أَنْ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغْثِبُ

وقوله: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَاللَّهُ رُبُّكُمْ الْأَوَّلُ﴾ [آي: ١٠] أي: هو المالك للندبا والآخرة، كما قال: ﴿وَلَا لَكَ الْآخِرَةُ وَالْأَوَّلُ﴾ [الببل: ١٣]، وهو المحمود على ذلك، كما قال: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخُسُوفُ فِي الْأَوَّلِ وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧]، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١]. فجميع ما في السموات والأرض ملك له، وأهلها عبيد أرقاء أذلاء بين يديه كما قال: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا بِي الْأَرْحَنِ عَبْدًا﴾ [١٣] لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُ وَعَدَّاهُمْ عَدًّا ﴿١٤﴾ وَلَكُلِّمْ هَآئِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ قَرْنًا ﴿١٥﴾ [مریم: ٩٣-٩٥]. ولهذا قال: ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رُبُّكُمْ الْأَوَّلُ﴾ [آي: ١٠] إليه المرجع يوم القيامة، فيحكم في خلقه بما شاء، وهو العادل الذي لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة، بل إن يكن أحدهم عمل حسنة واحدة يضاعفها إلى عشر أمثالها، ﴿وَيُؤْتِي مِنْ لَدُنْهُ أُتْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]. وكما قال تعالى: ﴿وَنُصِّعُ الْآلُونَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الانبيا: ٤٧]. وقوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: هو المتصرف في الخلق، يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وتارة بالعكس، وتارة يتركهما معتدلين. وتارة يكون الفصل شتاء ثم ربيعاً ثم قيطاً ثم خريفاً، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريد به بخلقه، ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ بِذَاتِ السُّدُورِ﴾ [آي: ١٠] يعلم السرائر وإن دقت، وإن خفيت.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَرَسُولُ اللَّهِ وَأَمْلُوا بِمَا جَعَلَكُمْ مَسْتَخْلِفِينَ فِيهِ قَالَتِ الْأَعْرَابُ مَا نَدْنِيكُمْ وَأَنْفَقُوا لَمْ أَجْرُ كَيْفَ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَنْ عِبِيدِهِ مَا فِي يَدَيْهِ مِنْ خِزْيَانٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُؤْمِنُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَقَدْ يَرْزُقُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠﴾ وَالْأَرْضُ لَا يَسْتَوِي يَنْصُرُ مَنْ أَمْنَقَ مِنْ قَتْلِ الْفِتْنَةِ وَقَتْلُ أَوْلِيائِكَ أَظْهَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ نَفْسِهِمْ وَقَتْلُوا وَقَدْ وَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ قَدْ ذَا الَّذِي يُرِيضُ اللَّهُ رِضًا حَسَنًا فَيُضِيقَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

أمر تعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار، وحث على الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه، أي: مما هو معكم على سبيل العارية، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ثم صار إليكم، فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال في طاعته، فإن يفعلوا وإلا حاسبهم عليه وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَرَسُولُ اللَّهِ وَأَمْلُوا بِمَا جَعَلَكُمْ مَسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾: فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك، أو يعصي الله فيه فتكون قد سعت في معاونته على الإثم والعدوان. قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا

شعبة، سمعت قتادة يحدث، عن مطرف - يعني ابن عبد الله بن الشخير - عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: ﴿أَلَمْ يَكُنْ أَتَاكُمُ الْفُكْرُ؟﴾ [التكاثر: ١]، يقول ابن آدم: مالي مالي! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟. ورواه مسلم من حديث شعبة، به، وزاد: «وما سوى ذلك فذاهب وتاركة للناس». وقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا يَنْكُرُوا أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، ترغيب في الإيمان والإنفاق في الطاعة، ثم قال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ؟﴾ أي: وأي شيء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم، يدعوكم إلى ذلك وبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به؟ وقد روينا في الحديث من طُرُق في أوائل شرح «كتاب الإيمان» من صحيح البخاري: أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «أي المؤمنين أعجب إليكم إيماناً؟» قالوا: الملائكة. قال: «وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟» قالوا: فالأنبياء. قال: «وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟». قالوا: فنحن؟ قال: «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم، يجدون صُحُفاً يؤمنون بما فيها». وقد ذكرنا طرفاً من هذا في أول سورة «البقرة» عند قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]. وقوله: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكَ﴾ كما قال: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ إِيمَانَكُمْ وَمِثْقَةَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمْعًا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧]. ويعني بذلك: بيعة الرسول ﷺ. وزعم ابن جرير: أن المراد بذلك الميثاق الذي أخذ عليهم في صلب آدم، وهو مذهب مجاهد، فالله أعلم. وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَنْ عَبْدِهِ آيَاتِ بَيْنَتٍ﴾ أي: حججاً واضحات، ودلائل باهرات وبراهين قاطعات، ﴿يُخْرِجُكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: من ظلمات الجهل والكفر، والآراء المتضادة إلى نور الهدى واليقين والإيمان، ﴿وَرَأَى اللَّهُ يَكْرَهُوهُ رَبِّمْ﴾ أي: في إنزاله الكتب وإرساله الرسل لهداية الناس، وإزاحة العُلق وإزالة الشبهة. ولما أمرهم أولاً بالإيمان والإنفاق، ثم حثهم على الإيمان، وبين أنه قد أزال عنهم موانعه، حثهم أيضاً على الإنفاق فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ الْغَنَى وَالْكَفْرَ﴾ أي: أنفقوا ولا تخشوا فقراً وإقلالاً، فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالك السموات والأرض، وبيده مقاليدهما، وعنده خزائنها، وهو مالك العرش بما حوى، وهو القائل: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الْكَافِرِينَ﴾ [سبا: ٣٩]، وقال: ﴿وَمَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] فمن توكل على الله أنفق، ولم يخش من ذي العرش إقلالاً، وعلم أن الله سيخلفه عليه. وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ﴾ أي: لا يستوي هذا ومن لم يفعل كفعله، وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديداً، فلم يكن يؤمن حيثئذ إلا الصديقون، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً، ودخل الناس في دين الله أفواجا؛ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ أَكْبَرُ مِنْ أُولَئِكَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلٍ﴾ ولا وَكَلَّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى. والجمهور على أن المراد بالفتح ها هنا فتح مكة. وعن الشعبي وغيره أن المراد بالفتح ها هنا: صلح الحديبية، وقد يُستدل لهذا القول بما قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا زهير، حدثنا حميد الطويل، عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها؟ فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي ﷺ فقال: «دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنفقتم مثل أحد - أو: مثل الجبال - ذهباً، ما بلغتم أعمالهم». ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة، وكانت هذه المشاجرة بينهما في بني جذيمة الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد بعد الفتح، فجعلوا يقولون: «صَبَانَا، صَبَانَا»، فلم يحسنوا أن يقولوا: «أسلمنا»، فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم، فخالفه عبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمر وغيرهما. فاختم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك. والذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه». وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث ابن وهب: أخبرنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري أنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية، حتى إذا كنا بعسفان قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم». فقلنا: من هم يا رسول الله؟ أقرش؟ قال: «لا، ولكن أهل اليمن، هم أرق أفئدة وألين قلوباً» فقلنا: هم خير منا يا رسول الله؟ قال: «لو كان لأحدهم جبل من ذهب فأنفقه، ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه، ألا إن هذا فضل ما بيننا وبين الناس، ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أُولَئِكَ أَكْبَرُ مِنْ أُولَئِكَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلٍ﴾ وَكَلَّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ». وهذا الحديث غريب بهذا السياق، والذي في الصحيحين من رواية جماعة، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد - ذكر الخوارج -: «تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، يمعرون من الدين كما يمعرون السهم من الرمية». الحديث. . . ولكن روى ابن جرير هذا الحديث من وجه آخر، فقال: حدثني ابن البرقي، حدثنا ابن أبي مريم، أخبرنا محمد بن جعفر، أخبرني زيد بن أسلم، عن أبي سعيد التمار، عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم

مع أعمالهم». قلنا: من هم يا رسول الله؟ قریش؟ قال: «لا، ولكن أهل اليمن، لأنهم أرق أفئدة، وألين قلوباً». وأشار بيده إلى اليمن، فقال: «هم أهل اليمن، ألا إن الإيمان يمان، والحكمة يمانية». فقلنا: يا رسول الله، هم خير منا؟ قال: «والذي نفسي بيده، لو كان لأحدهم جبل من ذهب ينفق ما أدى مُدَّ أحدكم ولا نصيفه». ثم جمع أصابعه ومد خصره، وقال: «ألا، إن هذا فضل ما بيننا وبين الناس»، ﴿لَا يَسْتَوِي سَكَرٌ مِّنْ أَنْعَقٍ مِّنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٢﴾. فهذا السياق ليس فيه ذكر الحديدية، فإن كان ذلك محفوظاً كما تقدم، فيحتمل أنه أنزل قبل الفتح إخباراً عما بعده، كما في قوله تعالى في سورة «المزمل» - وهي مكية، من أوائل ما نزل -: ﴿وَالَّذِينَ يُتْلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [المزمل: ٢٠] فهي بشارة بما يستقبل، وهكذا هذه. والله أعلم. وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ يعني: المنفقين قبل الفتح وبعده، كلهم لهم ثواب على ما عملوا، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء، كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاتِلُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ عِدَّةُ أُولَى الْقَتْلِ وَالَّذِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُرُونَ وَأَنْفُسُهُمْ فَذَلَّلَ اللَّهُ الْمُكْحَبِينَ وَأَمْلَأَهُمْ عَلَى الْقَاتِلِينَ دَرَجَةً وَكَذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٣﴾. وهكذا الحديث الذي في الصحيح: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير»، وإنما نبه بهذا لثلاث يهدر جانب الآخر بمدح الأول دون الآخر، فيتوهم متوهم ذمه؛ فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه، مع تفضيل الأول عليه؛ ولهذا قال: ﴿يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ أي: فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن فعل بعد ذلك، وما ذلك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام، وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيقة. وفي الحديث: «سبق درهم مائة ألف». ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكر، رضي الله عنه، له الحظ الأوفر من هذه الآية، فإنه سيد من عمل بها من سائر أئمة الأنبياء، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله، ﷺ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها.

وقد قال أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي عند تفسير هذه الآية: أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرنا عبد الله بن حامد بن محمد، أخبرنا أحمد بن إسحاق بن أيوب، أخبرنا محمد بن يونس، حدثنا العلاء بن عمرو الشيباني، حدثنا أبو إسحاق الفزاري، حدثنا سفيان بن سعيد، عن آدم بن علي، عن ابن عمر قال: كنت عند النبي ﷺ وعنده أبو بكر الصديق، وعليه عباءة قد خلها في صدره بخلال، فنزل جبريل فقال: ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلها في صدره بخلال؟ فقال: «أنفق ماله علي قبل الفتح». قال: فإن الله يقول: اقرأ عليه السلام، وقل له: أراض أنت عني في ففرك هذا أم ساخط؟ فقال رسول الله: «يا أبا بكر، إن الله يقرأ عليك السلام، ويقول لك: أراض أنت عني في ففرك هذا أم ساخط؟» فقال أبو بكر، رضي الله عنه: أسخط على ربي ﷺ؟ إني عن ربي راض. هذا الحديث ضعيف الإسناد من هذا الوجه. وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال عمر بن الخطاب: هو الإنفاق في سبيل الله، قيل: هو النفقة على العيال. والصحيح أنه أعم من ذلك، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة وعزيمة صادقة، دخل في عموم هذه الآية؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَمْ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَمْثَلًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥] أي: جزاء جميل، ورزق باهر - وهو الجنة - يوم القيامة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا خلف بن خليفة، عن حميد الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَمْ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: «نعم، يا أبا الدحداح». قال: أرني يدك يا رسول الله. قال: فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي - وله حائط فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها - قال: فجاء أبو الدحداح فناداهما: يا أم الدحداح. قالت: لبيك. فقال: اخرجي، فقد أقرضت ربي، ﷺ - وفي رواية -: أنها قالت له: ربح بيعك يا أبا الدحداح. ونقلت منه متاعاً وصبيانها، وأن رسول الله ﷺ قال: «كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح». وفي لفظ: «رب نخلة مدلاة عروقه دَرَّ ويقوت، لأبي الدحداح في الجنة».

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُرْسُكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتْ نَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِ الْأَشْجَرِ خَلِيلِينَ فِيمَا ذَٰلِكَ هُوَ الْبُورُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿١٤﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالَّذِينَ تَقَاتَلُوا بَيْنَهُمْ أَنْتُمْ نَافِلُونَ فَتَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْمَدَابُ ﴿١٥﴾ يَنَادُونَكَ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبَسْتُمْ وَاغْتَرَبْتُمْ وَاللَّهُ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْفُرُودُ ﴿١٦﴾ قَالِيزُمْ لَا يُؤْعَدُّ إِلَيْكُمْ يَوْمَ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا رَبَّكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَيَسِّرُ الْمَصِيرُ﴾ ﴿١٧﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين: أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة، بحسب أعمالهم،

كما قال عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿يَتَنَبَّأُ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال: على قدر أعمالهم يمررون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ مرة. ورواه ابن أبي حاتم، وابن جرير. وقال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن أبين وصنعاء فدون ذلك، حتى إن من المؤمنين من يضيء نوره موضع قدميه». وقال سفيان الثوري، عن حصين، عن مجاهد عن جُنادة بن أمية قال: إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم، وسياكم وحُلاككم، ونجواكم ومجالسكم، فإذا كان يوم القيامة، قيل: يا فلان، هذا نورك. يا فلان، لا نور لك. وقرأ: ﴿يَتَنَبَّأُ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾. وقال الضحاك: ليس لأحد إلا يعطى نوراً يوم القيامة، فإذا انتهوا إلى الصراط طُفِئ نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طُفِئ نور المنافقين، فقالوا: ربنا، أتمم لنا نورنا. وقال الحسن في قوله: ﴿يَتَنَبَّأُ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: يعني: على الصراط. وقد قال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، أخبرنا عمي، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سعد بن مسعود: أنه سمع عبد الرحمن بن جُبَيْر يحدث: أنه سمع أبا الدرداء وأبا ذر يخبران عن النبي ﷺ قال: «أنا أول من يؤذن له يوم القيامة بالسجود، وأول من يؤذن له برفع رأسه، فأنظر من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، فأعرف أمتي من بين الأمم». فقال له رجل: يا نبي الله، كيف تعرف أمتك من بين الأمم، ما بين نوح إلى أمتك؟ قال: «أعرفهم، مُحَجَّلُونَ من أثر الوضوء، ولا يكون لأحد من الأمم غيرهم وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم وذريتهم». وقوله: ﴿وَيَاذُنْهِ﴾ قال الضحاك: أي وبأيماهم كتبهم، كما قال: ﴿فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابِهِ يَكْسِبْهُ﴾ [الإسراء: ٧١]. وقوله: ﴿يُتَرَنَّبُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: يقال لهم: بشراكم اليوم جنات، أي: لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكنين فيها أبداً ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُفَنِّقُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُوا نَفْسِيْنَ مِنْ نُّورِكُمْ﴾: وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأحوال المزعجة، والزلازل العظيمة، والأمر الفظيعة، وإنه لا ينجو يومئذٍ إلا من آمن بالله ورسوله، وعمل بما أمر الله، وترك ما عنه زجر.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدة بن سليمان، حدثنا ابن المبارك، حدثنا صفوان بن عمرو، حدثني سليم بن عامر قال: خرجنا على جنازة في باب دمشق، ومعنا أبو أمامة الباهلي، فلما صلى على الجنائز وأخذوا في دفنها، قال أبو أمامة: أيها الناس، إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقسمون فيه الحسنات والسيئات، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر، وهو هذا - يشير إلى القبر - بيت الوحدة، وبيت الظلمة، وبيت الدود، وبيت الضيق، إلا ما وسع الله، تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة، فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله، فبيض وجوه وتسود وجوه، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فتغشى الناس ظلمة شديدة، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً، وهو المثل الذي ضربه الله في كتابه، قال: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]، فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضيء الأعمى بنور البصير، ويقول المنافقون للذين آمنوا: ﴿انظُرُوا نَفْسِيْنَ مِنْ نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورَكُمْ﴾ وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال: ﴿يَخْدِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]. فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور، فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب، ﴿بَابُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظُهُرُهُ مِنْ فَيْكِهِ الْعَذَابُ﴾ الآية. يقول سليم بن عامر: فما يزال المنافق معتراً حتى يقسم النور، ويميز الله بين المؤمن والمنافق. ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن عثمان، حدثنا ابن حيوة، حدثنا أرطاة بن المنذر، حدثنا يوسف بن الحجاج، عن أبي أمامة قال: بُعِثَ ظلمة يوم القيامة، فما من مؤمن ولا كافر يرى كفه، حتى يبعث الله بالنور إلى المؤمنين بقدر أعمالهم، فيتبعهم المنافقون فيقولون: ﴿انظُرُوا نَفْسِيْنَ مِنْ نُّورِكُمْ﴾. وقال العوفي، والضحاك، وغيرهما، عن ابن عباس: بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور دليلاً من الله إلى الجنة، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم، فأظلم الله على المنافقين، فقالوا حينئذٍ: ﴿انظُرُوا نَفْسِيْنَ مِنْ نُّورِكُمْ﴾، فلما كنا معكم في الدنيا. قال المؤمنون: ﴿ارْجِعُوا﴾ من حيث جئتم من الظلمة، فالتمسوا هنالك النور. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا الحسن بن علوية القطان، حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار، حدثنا إسحاق بن بشر أبو حذيفة، حدثنا ابن جريج، عن ابن مَلِيكَة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم سترأ منه على عباده، وأما عند الصراط فإن الله يعطي كل مؤمن نوراً، وكل منافق نوراً، فإذا استوا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات، فقال المنافقون: ﴿انظُرُوا نَفْسِيْنَ مِنْ نُّورِكُمْ﴾. وقال المؤمنون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا نُورَنَا﴾ [التحریم: ٨]. فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً. وقوله: ﴿فَضَرَبَ بِهَيْبِهِمْ سُورًا لَمْ يَأْبَ بَابُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظُهُرُهُ مِنْ فَيْكِهِ الْعَذَابُ﴾ قال

الحسن، وقناة: هو حائط بين الجنة والنار. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو الذي قال الله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حَبَابٌ﴾ [الأعراف: ٤٦]. وهكذا روي عن مجاهد، رحمه الله، وغير واحد، وهو الصحيح. ﴿بَابُ بَابٍ بَابُ بَابٍ﴾ أي: الجنة وما فيها ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَازِلُ مُتَقَابِلِينَ﴾ أي: النار. قاله قتادة، وابن زيد، وغيرهما.

قال ابن جرير: وقد قيل: إن ذلك السور سور بيت المقدس عند وادي جهنم. ثم قال: حدثنا ابن البرقي، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، عن سعيد بن عطية بن قيس، عن أبي العوام - مؤذن بيت المقدس - قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: إن السور الذي ذكر الله في القرآن: ﴿فَصَبَّ سَوْسُورَهُمْ فِي سُبُورٍ لَّهُمْ بَابٌ بَابُهَا فِيهِ الرَّحْمَةُ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَازِلُ مُتَقَابِلِينَ﴾ هو السور الشرقي بباطنه المسجد وما يليه، وظاهره وادي جهنم. ثم روى عن عبادة بن الصامت، وكعب الأحبار، وعلي بن الحسين زين العابدين، نحو ذلك. وهذا محمول منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى ومثالا لذلك، لا أن هذا هو الذي أريد من القرآن هذا الجدار المعين ونفس المسجد وما وراءه من الوادي المعروف بوادي جهنم؛ فإن الجنة في السموات في أعلى عليين، والنار في الدركات أسفل سافلين. وقول كعب الأحبار: إن الباب المذكور في القرآن هو باب الرحمة الذي هو أحد أبواب المسجد، فهذا من إسرائيلياته وثرائه. وإنما المراد بذلك: سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من وراءه في الحيرة والظلمة والعذاب، كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة ﴿يَا دُودُهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين: أما كنا معكم في الدار الدنيا، نشهد معكم الجمعات، ونصلي معكم الجماعات، ونقف معكم بعرفات، ونحضر معكم الغزوات، ونؤدي معكم سائر الواجبات؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي: فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين: بلى، قد كنتم معنا، ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنَّا أَنَّكُمْ وَرَقْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّكُمْ الْأَمَانُ﴾، قال بعض السلف: أي فتنت أنفسكم بالذات والمعاصي والشهوات ﴿وَرَقْتُمْ﴾ أي: أخرتم التوبة من وقت إلى وقت. وقال قتادة: ﴿وَرَقْتُمْ﴾ بالحق وأهله ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ أي: بالبعث بعد الموت ﴿وَعَرَّيْنَاكُمْ الْأَمَانُ﴾ أي: قلتم: سيفر لنا. وقيل: غرتم الدنيا ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: ما زلت في هذا حتى جاء الموت ﴿وَعَرَّيْنَاكُمْ بِاللَّهِ الْقُرْآنُ﴾ أي: الشيطان. قال قتادة: كانوا على خدعة من الشيطان، والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار. ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين، أنكم كنتم معنا أي: بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها، وإنما كنتم في حيرة وشك، فكتم تراؤن الناس ولا تذكرن الله إلا قليلا. قال مجاهد: كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم ويعشونهم ويعاشرهم، وكانوا معهم أمواتا، ويعطون النور جميعا يوم القيامة، ويطفا النور من المنافقين إذا بلغوا السور، ويماز بينهم حينئذ. وهذا القول من المؤمنين لا ينافي قولهم الذي أخبر الله به عنهم، حيث يقول - وهو أصدق القائلين -: ﴿كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَبَتْ رَيْبَةً﴾ (٢٨) ﴿إِلَّا أَهْبَاطُ الْيَتِيمِ﴾ (٣١) ﴿فِي جَنَّةٍ يَسْلَوْنَ﴾ (٤٥) ﴿عَنِ الْيَتِيمِ﴾ (٤٦) ﴿مَّا سَلَكَ فِي سَفَرٍ﴾ (٤٧) ﴿قَالُوا لَوْ نَحْنُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٤٨) ﴿وَلَوْ نَحْنُ نَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ (٤٩) ﴿وَكُنَّا نَحْمِلُ غَرَضًا مَعَ الْفَاحِشِينَ﴾ (٥٠) ﴿وَكُنَّا نَكُذِّبُ رُسُلَ الْيَتِيمِ﴾ (٥١) ﴿حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ (٥٢) [المدر: ٣٨-٤٧]، فهذا إنما خرج منهم على وجه التقرير لهم والتوبيخ. ثم قال تعالى: ﴿فَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ شَرِّ الْمُتَشَابِهِ﴾ (٥٣) [المدر: ٤٨]، كما قال تعالى ها هنا: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ مِنْكُمْ فِدْيَةً وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله، ما قبل منه. وقوله: ﴿مَّا رَأَيْتُمْ ثَمَرًا﴾ أي: هي مصيركم وإليها منقلبكم. وقوله: ﴿يَوْمَ تَوْلَتْكُمْ﴾ أي: هي أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتبابكم، ﴿وَيَسَّاتُ السَّمِيرُ﴾ (٥٤).

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَلَمْ تَأْتِهِمُ السَّاعَةُ فَلَمْ يُؤْتُوا مَوْتًا وَلَهُمْ مَوْتٌ مَرَّةً ثُمَّ أُحْيُوا﴾ (٥٥) [المدر: ٤٩]، فقلنا: إن الله يحب الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآية لعلكم تتقون (٥٦).

يقول الله تعالى: أما أن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي: تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن، ففهمه وتناقذ له وتسمع له وتطيعه. قال عبد الله بن المبارك: حدثنا صالح المري، عن قتادة، عن ابن عباس أنه قال: إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية، رواه ابن أبي حاتم، عن الحسن بن محمد بن الصباح، عن حسين المروزي، عن ابن المبارك، به. ثم قال هو ومسلم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال - يعني الليث - عن عون بن عبد الله، عن أبيه، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية إلا أربع سنين. كذا رواه مسلم في آخر الكتاب. وأخرجه النسائي عند تفسير هذه الآية، عن هارون بن سعيد الأيلي، عن ابن وهب، به. وقد رواه ابن ماجه من حديث موسى بن يعقوب الزمعي، عن أبي حزم، عن عامر بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، مثله. فجعله من مسند ابن الزبير. لكن رواه البزار في مسنده من طريق موسى بن

يعقوب، عن أبي حازم، عن عامر، عن ابن الزبير، عن ابن مسعود، فذكره. وقال سفيان الثوري، عن المسعودي، عن القاسم قال: ملأ أصحاب رسول الله ﷺ ملة، فقالوا: حدثنا يا رسول الله. فأنزل الله تعالى: ﴿تَحَنَّنْ نَفْسُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ (يوسف: ٢٣) قال: ثم ملأوا ملة فقالوا: حدثنا يا رسول الله، فأنزل الله تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ الْحَدِيثَ﴾ (الزمر: ٢٣). ثم ملأوا ملة فقالوا: حدثنا يا رسول الله. فأنزل الله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ؟﴾ وقال قتادة: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ؟﴾ ذكر لنا أن شداد بن أوس كان يروي عن رسول الله ﷺ قال: «إن أول ما يرفع من الناس الخشوع». وقوله: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَلَمَّا عَلِمُوا الْآيَاتُ فَحَسَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾: نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى، ولما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، واشتروا به ثمنًا قليلًا، ونبدوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المتوفكة، وقلدوا الرجال في دين الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد. ﴿كَذَلِكَ يَنْهَى ذُنُوبَهُمْ﴾ أي: في الأعمال، فقلوبهم فاسدة، وأعمالهم باطلة. كما قال: ﴿فِيمَا تَنْهِيهِمْ يَتَّبِعُوهُمْ لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِمْ وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَضَعُوا أَعْيُنَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ وَمَا أُمِرُوا بِهَا. وارتكبوا ما نهوا عنه؛ ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا شهاب بن خراش، حدثنا حجاج بن دينار، عن منصور بن المعتمر، عن الربيع بن عميلة الفزاري قال: حدثنا عبد الله بن مسعود حديثًا ما سمعت أعجب إلي منه، إلا شيئًا من كتاب الله - أو: شيئًا قاله النبي ﷺ - قال: «إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد فحسَّتْ قلوبهم اخترعوا كتابًا من عند أنفسهم، استهوت قلوبهم واستحلته ألسنتهم واستلذته، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهوراتهم فقالوا: تعالوا ندع بني إسرائيل إلى كتابنا هذا، فمن تابعنا عليه تركناه، ومن كره أن يتابعنا قتلناه. ففعلوا ذلك، وكان فيهم رجل فقيه، فلما رأى ما يصنعون عمد إلى ما يعرف من كتاب الله فكتبه في شيء لطيف، ثم أدرجه، فجعله في قرن ثم علق ذلك القرن في عنقه، فلما أكثروا القتل قال بعضهم لبعض: يا هؤلاء، إنكم قد أفضيتم القتل في بني إسرائيل، فادعوا فلانًا فاعرضوا عليه كتابكم، فإنه إن تابعكم فسيتابعكم بقية الناس، وإن أبى فاقتلوه. فدعوا فلانًا ذلك الفقيه فقالوا: تؤمن بما في كتابنا؟ قال: وما فيه؟ اعرضوه علي. فعرضه عليه إلى آخره، ثم قالوا: أتؤمن بهذا؟ قال: نعم، أمنت بما في هذا - وأشار بيده إلى القرن - فتركوه، فلما مات نبشوه فوجدوه متعلقًا بذلك القرن، فوجدوا فيه ما يعرف من كتاب الله، فقال بعضهم لبعض: يا هؤلاء، ما كنا نسمع هذا أصابه فتنة. فافتقرت بنو إسرائيل على ثنتين وسبعين ملة، وخير مللهم ملة أصحاب ذي القرن. قال ابن مسعود: وإنكم أوشك بكم إن بقيتم - أو: بقي من بقي منكم - أن تروا أمورًا تنكرونها، لا تستطيعون لها غيرًا، فيحسب المرء منكم أن يعلم الله من قلبه أنه لها كاره. وقال أبو جعفر الطبري: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن مغيرة، عن أبي معشر، عن إبراهيم قال: جاء عتريس بن عرقوب إلى ابن مسعود فقال: يا عبد الله، هلك من لم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. فقال عبد الله: هلك من لم يعرف قلبه معروفًا ولم ينكر قلبه منكرًا؛ استهوت قلوبهم واستحلته ألسنتهم، وقالوا: نعرض بني إسرائيل على هذا الكتاب فمن آمن به تركناه، ومن كفر به قتلناه. قال: فجعل رجل منهم كتاب الله في قرن، ثم جعل القرن بين قنذوتيه فلما قيل له: أتؤمن بهذا؟ قال: أمنت به - ويومئذ إلى القرن بين قنذوتيه - ومالي لا أؤمن بهذا الكتاب؟ فمن خير مللهم اليوم ملة صاحب القرن. وقوله: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ آيَاتِنَا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١٨) فيه إشارة إلى أنه، يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضللتها، ويفرّج الكرب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجردة الهامدة بالغيث الهثان الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد ما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الإضلال، والمفضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعال، وهو الحكم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال.

﴿إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقُرْآنَ وَاللَّهِ قَرَمًا حَسَا يَضَعُ لَهُمْ وَأَهْمَ أَجْرَ كَرِيمٍ﴾ (١٩) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَاللَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهُمْ هُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ الْحَقِيرُونَ (٢٠).

يخبر تعالى عما يثيب به المصدقين والمصدقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة، ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: دفعوه بنية خالصة ابتغاء وجه الله، لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكورًا؛ ولهذا قال: ﴿يَضَعُ لَهُمْ﴾ أي: يقابل لهم الحسنة

بعشر أمثالها، ويزداد على ذلك إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك، ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: ثواب جزيل حسن، ومرجع صالح ومآب ﴿كَرِيمٌ﴾. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾: هذا تمام الجملة، وصف المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون. قال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾: هذه مفصلة ﴿وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾. وقال أبو الضحى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ثم استأنف الكلام فقال: ﴿وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾. وهكذا قال مسروق، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وغيرهم. وقال الأعمش عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قال: هم ثلاثة أصناف: يعني المصدقين، والصدّيقين، والشهداء، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّاهِدِينَ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]، ففرق بين الصدّيقين والشهداء، فدل على أنهما صنفان. ولا شك أن الصديق أعلى مقاماً من الشهيد، كما رواه الإمام مالك بن أنس، رحمه الله، في كتابه الموطأ، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تتراءون الكوكب الدرّي الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين». اتفق البخاري ومسلم على إخرجه من حديث مالك، به. وقال آخرون: بل المراد من قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ فأخبر عن المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون وشهداء. حكاه ابن جرير عن مجاهد، ثم قال ابن جرير: حدثني صالح بن حرب أو مغفّر، حدثنا إسماعيل بن يحيى، حدثنا ابن عجلان، عن زيد بن أسلم، عن البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مؤمنوا امتي شهداء». قال: ثم تلا ﷺ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾. هذا حديث غريب. وقال أبو إسحاق، عن عمرو بن ميمون في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ قال: يجيئون يوم القيامة معاً كالإصبعين. وقوله: ﴿وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في جنات النعيم، كما جاء في الصحيحين: «أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال: ماذا تريدون؟ فقالوا: نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فيك فنقتل كما قُتلنا أول مرة. فقال: إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون». وقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي: لهم عند ربهم أجر جزيل ونور عظيم يسعى بين أيديهم، وهم في ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن عطاء بن دينار، عن أبي يزيد الخولاني قال: سمعت فضالة بن عبيد يقول: سمعت عمر بن الخطاب يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «الشهداء أربعة: رجل مؤمن جيد الإيمان، لقي العدو فصدق الله فقتل، فذلك الذي ينظر الناس إليه هكذا - ورفع رأسه حتى سقطت قلنسوة رسول الله ﷺ أو قلنسوة عمر - والثاني مؤمن لقي العدو فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح، جاءه سهم غرّب فقتله، فذاك في الدرجة الثانية، والثالث رجل مؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقي العدو فصدق الله حتى قتل، فذاك في الدرجة الثالثة والرابع رجل مؤمن أسرف على نفسه إسرافاً كثيراً، لقي العدو فصدق الله حتى قتل، فذاك في الدرجة الرابعة». وهكذا رواه علي بن المديني، عن أبي داود الطيالسي، عن ابن المبارك، عن ابن لهيعة، وقال: هذا إسناد مصري صالح. ورواه الترمذي من حديث ابن لهيعة وقال: حسن غريب. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْحَرِيمِ﴾: لما ذكر السعداء ومآلهم، عطف بذكر الأشقياء وبين حالهم.

﴿أَقْلَمُوا أَنَا الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا لَيْتَ وَفَوَ رَيْبَةً وَفَخَاخَرُ بَيْنَكُمْ وَكَثَاثٌ فِي الْأَمْزَلِ وَالْأَوَّلِ كَتَلٌ غَيْثٌ أَجَبَ الْكُفَّارَ بَأَنَّهُ ثُمَّ يَجْعُ فَتَرَهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حَطْلَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَقْفَرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْفُرُورِ ﴿١٩﴾ سَابِقُوا إِلَى مَقْفَرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَحَتَّىٰ عَرْشِنَا كَرَمِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٠﴾﴾.

يقول تعالى موهناً أمر الحياة الدنيا ومحقرّاً لها: ﴿أَنَا الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا لَيْتَ وَفَوَ رَيْبَةً وَفَخَاخَرُ بَيْنَكُمْ وَكَثَاثٌ فِي الْأَمْزَلِ وَالْأَوَّلِ﴾ أي: إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا، كما قال: ﴿يُنِزُّ لِلنَّاسِ مِنْ الشَّهَوَاتِ مِنَ الْإِسْكَ وَالْبَيْنِ وَالْفَنَاطِيرِ الْمُفْتَنَةِ مِنَ الدَّهْشِ وَالْفُتُورِ وَالْحَبْلِ الْمُسَوِّمَةِ وَالْأَنْفَمِ وَالْعَرَبِيِّ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْقِتَابِ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: ١٤]. ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال: ﴿كَتَلٌ غَيْثٌ﴾ وهو المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْغَيْثَ مِنْ بَدَمٍ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى: ٢٨]. وقوله: ﴿أَجَبَ الْكُفَّارَ بَأَنَّهُ﴾ أي: يعجب الزرع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث؛ وكما يعجب الزارع ذلك كذلك تعجب الحياة الكفار، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها، ﴿ثُمَّ يَجْعُ فَتَرَهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حَطْلَمًا﴾ أي: يهيج ذلك الزرع فتراه مصفراً بعد ما كان خضراً نضراً، ثم يكون بعد ذلك كله

حطاماً، أي: يصير يبساً متحطماً، هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزاً شوهاء، والإنسان كذلك يكون في أول عمره وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأعطاف، بهي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه وينفذ بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً، ضعيف القوى، قليل الحركة، يعجزه الشيء اليسير، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (الروم: ٥٤). ولما كان المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة، حذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير، فقال: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْفُرُورِ﴾ أي: وليس في الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا: إما عذاب شديد، وإما مغفرة من الله ورضوان. وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْفُرُورِ﴾ أي: هي متاع فانٍ غارٍ لمن ركن إليه، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة. قال ابن جرير: حدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا المحاربي، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها». اقرؤوا: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْفُرُورِ﴾. وهذا الحديث ثابت في الصحيح بدون هذه الزيادة، والله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير ووكيع، كلاهما عن الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «للجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك». انفراد بإخراجه البخاري في «الرقاق»، من حديث الثوري، عن الأعمش، به. ففي هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان، وإذا كان الأمر كذلك؛ فلماذا حثه الله على المبادرة إلى الخيرات، من فعل الطاعات، وترك المحرمات، التي تكفر عنه الذنوب والزلات، وتحصل له الثواب والدرجات، فقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ والمراد جنس السماء والأرض، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَسَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وقال ما هنا: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي هذا الذي أهلهم الله له هو من فضله ومنه عليهم وإحسانه إليهم، كما قدمنا في الصحيح: أن فقراء المهاجرين قالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم. قال: «وما ذاك؟». قالوا: يُصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا تنصديق، ويُعتقون ولا تُعتق. قال: «أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه سبقت من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم: تسبحون وتكبرون وتحمدون دُبُر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين». قال: فرجعوا فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا، ففعلوا مثله! فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْتَخُلُوتُ بَيْنَهُمُ النَّاسُ بِالْبَغْيِ وَمَنْ يُؤَلَّ فَالَ اللَّهُ هُوَ الْفَعِيُّ الْخَبِيرُ (٢٤).

يخبر تعالى عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية، فقال: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾، أي: في الآفاق وفي نفوسكم ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ أي: من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمه. وقال بعضهم: ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾: عائد على النفوس. وقيل: عائد على المصيبة. والأحسن عوده على الخليقة والبرية؛ لدلالة الكلام عليها، كما قال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَیَّة، عن منصور بن عبد الرحمن قال: كنت جالساً مع الحسن، فقال رجل: سله عن قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ فسأله عنها، فقال: سبحان الله! ومن يشك في هذا؟ كل مصيبة بين السماء والأرض، ففي كتاب الله من قبل أن يبرأ النسمه. وقال قتادة: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: هي السنون. يعني: الجذب، ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ يقول: الأوجاع والأمراض. قال: وبلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود ولا نكبة قدم، ولا خلجان عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر. وهذه الآية الكريمة من أدل دليل على القدرية نفاة العلم السابق - قبحهم الله - وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حيوة وابن لهيعة قالوا: حدثنا أبو هانئ الخولاني: أنه سمع أبا عبد الرحمن الجُبَلِي يقول: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة». ورواه مسلم في صحيحه، من حديث عبد الله بن وهب وحيوة بن شريح ونافع بن يزيد، ثلاثهم عن أبي هانئ، به. وزاد ابن وهب: «وكان عرشه على الماء». ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح. وقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: إن علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابتها لها طبق ما يوجد في حينها، سهل على الله، ﷻ؛ لأنه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون. وقوله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا

فَأَنذَرْتُكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَيْنَاكُمْ ﴿٢٥﴾ أي: أعلمناكم بتقديم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطاكم لم يكن ليصيبكم، فلا تأسوا على ما فاتكم، فإنه لو قدر شيء لكان ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَيْنَاكُمْ﴾ أي: جاءكم، ويقرأ: «أناكم» أي: أعطاكم. وكلاهما متلازمان، أي: لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم، فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً، تفخرون بها على الناس؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي كُلَّ مَخْلُوقٍ مَّخْرَجًا﴾، أي: مختال في نفسه متكبر فخور، أي: على غيره. وقال عكرمة: ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً. ثم قال: ﴿الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْوَسْطَىٰ مِنَ النَّاسِ بِالْبَحْلِ﴾ أي: يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه، ﴿وَمَنْ يَبْغُلْ﴾ أي: عن أمر الله وطاعته ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ كما قال موسى عليه السلام: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جِئِمَا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَأَرْسَلْنَا مَعَهُ الْكَتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَرْسَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَعْزُزُ وَرَسُولُهُ بِالْقَبِيِّ إِنْ أَلَّهَ قُوَىٰ عَزِيزٌ ﴿٢٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بالمعجزات، والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات، ﴿وَأَرْسَلْنَا مَعَهُ الْكَتَابَ﴾ وهو: النقل المصدق ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو: العدل. قاله مجاهد، وقناة، وغيرهما. وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة، كما قال: ﴿أَفَنُكْفَىٰ عَنْ بَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّي. وَيَتْلُو شَاهِدًا بِئِنَّهُ﴾ [مرد: ٤١٧]، وقال: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ إِلَهِي فَطَرُ النَّاسِ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٢٣٠]، وقال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٧]، ولهذا قال في هذه الآية: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالحق والعدل وهو: اتباع الرسل فيما أخبروه به، وطاعتهم فيما أمروا به، فإن الذي جازوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق، كما قال: ﴿وَكُنْتُ كَذَّابًا وَمُكَذِّبًا لِلرَّسُولِ﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقاً في الإخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي. ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوءوا غرف الجنات، والمنازل العاليات، والسرر المصفوفات: ﴿لَنُكْمَدَ بِهِيَ الْوَدَىٰ هَذَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنُتَوَدَّىٰ لَوْلَا أَنَّ هَذَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي: وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه؛ ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية، وكلها جدال مع المشركين، وبيان وإيضاح للتوحيد، وبيان ودلائل، فلما قامت الحجة على من خالف، شرع الله الهجرة، وأمرهم بالقتال بالسيوف، وضرب الرقاب والهوام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده. وقد روى الإمام أحمد وأبو داود، من حديث عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، عن حسان بن عطية، عن أبي المنيب الجرجسي الشامي، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيَّ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذَّلَّةُ وَالضُّغَارُ عَلَىٰ مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ». ولهذا قال تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يعني: السلاح كالسيوف، والحرب، والسنان، والنصال، والدروع، ونحوها. ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ أي: في معاشهم كالسكة والفأس والقدوم، والمنشار، والإزميل، والمجرفة، والآلات التي يستعان بها في الحراثة والحياكة والطبخ والخبز وما لا قوام للناس بدونه، وغير ذلك. قال علباء بن أحمد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ثلاثة أشياء نزلت مع آدم: السندان والكلبتان والميعة - يعني المطرقة -. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَعْزُزُ وَرَسُولُهُ بِالْقَبِيِّ﴾ أي: من نيته في حمل السلاح نصرته الله ورسوله، ﴿إِنَّ اللَّهَ قُوَىٰ عَزِيزٌ﴾ أي: هو قوي عزيز، ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليلو بعضهم بعضاً.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَبَيَّنَّا فُرْقَانَهُمْ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَتَقَبَّلُوهُنَّ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ عَادِهِمْ رُسُلَنَا وَفَقَّيْنَا يَعْسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانَةٌ اتَّبَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَتَقَبَّلُوهُنَّ ﴿٢٩﴾﴾.

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً، عليه السلام، لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته، وكان إبراهيم، عليه السلام، خليل الرحمن، لم ينزل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولاً ولا أوحى إلى بشر من بعده، إلا وهو من سلالته، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ يعني: حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم الذي بشر بعده بمحمد، صلوات الله وسلامه عليهما؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ عَادِهِمْ رُسُلَنَا وَفَقَّيْنَا يَعْسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ وهم الحواريون ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي: رافة وهي الخشية ﴿وَرَحْمَةً﴾ بالخلق. وقوله: ﴿وَرَهَابَانَةٌ اتَّبَعُوهَا﴾ أي: ابتدعها أمة النصاري ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: ما شرعناها لهم، وإنما هم

التزموها من تلقاء أنفسهم. وقوله: ﴿إِلَّا آتِيَا رِضْوَانِ اللَّهِ﴾: فيه قولان، أحدهما: أنهم قصدوا بذلك رضوان الله، قاله سعيد بن جبير، وقتادة. والآخر: ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله. وقوله: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَائِهَا﴾ أي: فما قاموا بما التزموه حق القيام. وهذا ذم لهم من وجهين، أحدهما: في الابتداء في دين الله ما لم يأمر به الله. والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قرينة يقر بهم إلى الله، ﷻ.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا إسحاق بن أبي حمزة أبو يعقوب الرازي، حدثنا السدي بن عبدويه، حدثنا بَكَيْرُ بن معروف، عن مُقاتِل بن حَيَّان، عن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله ابن مسعود، عن أبيه، عن جده ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ابن مسعود». قلت: لبيك يا رسول الله. قال: «هل علمت أن بني إسرائيل افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة؟ لم ينح منها إلا ثلاث فرق، قامت بين الملوك والجبابرة بعد عيسى ابن مريم، عليه السلام، فدعت إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم، فقاتلت الجبابرة فقتلت فصبرت ونجت، ثم قامت طائفة أخرى لم يكن لها قوة بالقتال، فقامت بين الملوك والجبابرة، فدعوا إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم، فقتلت وقطعت بالمشاير وحرقت بالنيران، فصبرت ونجت. ثم قامت طائفة أخرى لم يكن لها قوة بالقتال ولم تطق القيام بالقسط، فلحققت بالجمال فتعبدت وترهبت، وهم الذين ذكرهم الله، ﷻ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾. وقد رواه ابن جرير بلفظ آخر من طريق أخرى فقال: حدثنا يحيى بن أبي طالب، حدثنا داود بن المحبر، حدثنا الصُّعْق بن حزن، حدثنا عقيل الجعدي، عن أبي إسحاق الهمداني، عن سُوَيْد بن غفلة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «اختلف من كان قبلنا على ثلاث وسبعين فرقة، نجا منهم ثلاث وهلك سائرهم...» وذكر نحو ما تقدم، وفيه: ﴿فَقَاتَلْنَا الَّذِينَ آمَنُوا بِنَبِيِّهِمْ أُخْرَفَهُمْ﴾ هم الذين آمنوا بي وصدقوني ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَيَقُوتُوا﴾ وهم الذين كذبوني وخالفوني. ولا يقدح في هذه المتابعة لحال داود بن المحبر، فإنه أحد الوضاعين للحديث، لكن قد أسنده أبو يعلى، وسنده عن شيبان بن فروخ، عن الصُّعْق بن حزن، به مثل ذلك. فقوي الحديث من هذا الوجه.

وقال ابن جرير، وأبو عبد الرحمن النسائي - واللفظ له -: أخبرنا الحسين بن حُرَيْث، حدثنا الفضل بن موسى، عن سفيان بن سعيد، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: كان ملوك بعد عيسى، عليه السلام، بدلت التوراة والإنجيل، فكان منهم مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل، فليل ملوكهم: ما نجد شيئاً أشد من شتم يشتمونا هؤلاء، إنهم يقرؤون: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، هذه الآيات، مع ما يعيبنونا به من أعمالنا في قراءتهم، فادعهم فليقرؤوا كما نقرأ، وليؤمنوا كما آمننا. فدعاهم فجمعهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل، إلا ما بدلوا منها، فقالوا: ما تريدون إلى ذلك؟ دعونا: فقالت طائفة منهم: ابنا لنا أسطوانة، ثم ارفعونا إليها، ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا فلا نرد عليكم. وقالت طائفة: دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونشرب كما يشرب الوحش، فإن قدرتم علينا في أرضكم فاقتلونا. وقالت طائفة: ابنا لنا دوراً في القياقي، ونحتفر الآبار ونحترث البقول فلا نرد عليكم ولا نمر بكم. وليس أحد من القبائل إلا له حميم فيهم، ففعلوا ذلك فأنزل الله، ﷻ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا آتِيَا رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَائِهَا﴾ والآخرين قالوا: نتعبد كما تعبد فلان، ونسيح كما ساح فلان، ونتخذ داراً كما اتخذ فلان، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم، فلما بعث النبي ﷺ ولم يبق منهم إلا القليل، انحط منهم رجل من صومعته، وجاء سائح من سياحته، وصاحب الدبر من دبره، فآمنوا به وصدقوه، فقال الله، ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾. أجريين بإيمانهم بعيسى ابن مريم وبالتوراة والإنجيل، وبإيمانهم بمحمد ﷺ وتصديقهم قال: ﴿وَيَحْمِلُ لَكُمْ ثُورًا تَمَشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨]: القرآن، واتباعهم النبي ﷺ، قال: ﴿ثَلَاثَةً أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ الذين يتشبهون بكم ﴿أَلَا يَقْدَرُونَ عَلَى شَيْءٍ مَنِ فَضَّلَ اللَّهُ وَأَنَّ الْفَضْلَ يَدُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. هذا السياق فيه غرابة، وسيأتي تفسير هاتين الآيتين الآخرين على غير هذا، والله أعلم. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أحمد بن عيسى، حدثنا عبد الله بن وهب، حدثني سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء: أن سهل بن أبي أمامة حدثه أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك بالمدينة زمان عمر بن عبد العزيز وهو أمير، وهو يصلي صلاة خفيفة، كأنها صلاة مسافر أو قريباً منها، فلما سلم قال: يرحمك الله، أرأيت هذه الصلاة المكتوبة، أم شيء تنفثته؟ قال: إنها المكتوبة، وإنها صلاة رسول الله ﷺ ما أخطأت إلا شيئاً سهوت عنه، إن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم، فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد عليهم، فتلک بقاياهم في الصوامع والديارات، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم». ثم غدوا من الغد فقالوا: بقاياهم في الصوامع والديارات، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم». ثم غدوا من الغد قالوا: تركب فننظر ونعتبر. قال: نعم،

فركبوا جميعاً، فإذا هم بديار قفر قد باد أهلها وانقرضوا وفنوا، خاوية على عروشها فقالوا: تعرف هذه الديار؟ قال: ما أعرفني بها وبأهلها. هؤلاء أهل الديار، أهلهم البغي والحسد، إن الحسد يطفىء نور الحسنات، والبغي يصدق ذلك أو يكذبه، والعين تزني والكف والقدم والجسد واللسان، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه. وقال الإمام أحمد: حدثنا يعمر، حدثنا عبد الله، أخبرنا سفيان، عن زيد العمي، عن أبي إياس، عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «لكل نبي رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله، ﷺ». ورواه الحافظ أبو يعلى، عن عبد الله بن محمد بن أسماء، عن عبد الله بن المبارك به ولغظه: «لكل أمة رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله». وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين - هو ابن محمد - حدثنا ابن عياش - يعني إسماعيل - عن الحجاج بن مروان الكلاعي، وعقيل بن مدرك السلمي، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أن رجلاً جاءه فقال: أوصني. فقال: سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك، أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن، فإنه روحك في السماء وذكرك في الأرض. تفرد به أحمد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُلِهِ يُؤْخَذْ مِنْكُمْ كَفَالَتَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَخَفِّرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾
يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

قد تقدم في رواية النسائي عن ابن عباس: أنه حمل هذه الآية على مؤمني أهل الكتاب، وأنهم يؤتون أجراً مرتين كما في الآية التي في القصص، وكما في حديث الشعبي عن أبي بردة، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجراً مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم اعتقها وتزوجها فله أجران». أخرجاه في الصحيحين. ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاك، وعتبة بن أبي حكيم، وغيرهما، وهو اختيار ابن جرير. وقال سعيد بن جبير: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجراً مرتين أنزل الله هذه الآية في حق هذه الأمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُلِهِ يُؤْخَذْ مِنْكُمْ كَفَالَتَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: ضعفين، وزادهم: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ يعني: هدى يتبصر به من العمى والجهالة، ويغفر لكم. فضلهم بالنور والمغفرة. ورواه ابن جرير عنه. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَشْكُوا أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ قُرْآنًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال: ٢٩]. وقال سعيد بن عبد العزيز: سأل عمر بن الخطاب حبراً من أحرار يهود: كم أفضل ما ضعفت لكم حسنة؟ قال: كفل ثلاثمائة وخمسون حسنة. قال: فحمد الله عمر على أنه أعطانا كفتلين. ثم ذكر سعيد قول الله ﷻ: ﴿يُؤْخَذْ مِنْكُمْ كَفَالَتَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ قال سعيد: والكفالة مثل ذلك. رواه ابن جرير. ومما يؤيد هذا القول ما رواه الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً، فقال: من يعمل لي من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ ألا فعلت اليهود. ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ ألا فعلت النصارى. ثم قال: من يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذي عملتم. فغضب النصارى واليهود، وقالوا: نحن أكثر عمالاً وأقل عطاء. قال: هل ظلمتكم من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا. قال: فإنما هو فضلي أوتيته من شاء». قال أحمد: وحدثنا مؤمل، عن سفيان، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، نحو حديث نافع، عنه. انفرد بإخراجه البخاري، فرواه عن سليمان بن حرب، عن حماد، عن أيوب، عن نافع، به. وعن قتبة، عن الليث، عن نافع، بمثله. وقال البخاري: حدثني محمد بن العلاء، حدثنا أبو أسامة، عن بريد، عن أبي بردة، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً يوماً إلى الليل على أجر معلوم، فعملوا إلى نصف النهار فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجر الذي شرطت لنا، وما عملنا باطل. فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوا، واستأجر آخرين بعدهم فقال: أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر قالوا: ما عملنا باطل، ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه. فقال: أكملوا بقية عملكم؛ فإن ما بقي من النهار شيء يسير. فأبوا، فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، فاستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور» انفرد به البخاري. ولهذا قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ بَعَثَ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رد ما أعطاه الله، ولا على إعطاء ما منع الله، ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. قال ابن جرير: ﴿يُنَزِّلُ بَعَثَ﴾ أي: ليعلم. وقد ذكر عن ابن مسعود أنه قرأها: «لكي يعلم». وكذا حطاب بن عبد الله،

وسعيد بن جبير، قال ابن جرير: لأن العرب تجعل «لا» صلة في كل كلام دخل في أوله أو آخره جحد غير مصرح، فالسابق كقوله: ﴿مَا تَنَكَّ إِلَّا تَنَكَّدَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ﴿وَمَا يَشْعُرْكُمْ أَنَّهُمْ إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، ﴿وَحَكَّمْ عَلَى قَرْبَا أَهْلَكُنَّهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥].



تفسير سورة المجادلة

وهي مدنية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١).

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عروة، عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله، ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية. وهكذا رواه البخاري في كتاب التوحيد تعليقا فقال: وقال الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عروة، عن عائشة، فذكره. وأخرجه النسائي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، وابن جرير، من غير وجه، عن الأعمش، به. وفي رواية لابن أبي حاتم عن الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عروة، عن عائشة، أنها قالت: تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله، أكل شيابي، ونثر له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك. قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾. وقال: وزوجها أوس بن الصامت. وقال ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة: هو أوس بن الصامت، وكان أوس امرأ به لم، فكان إذا أخذه لممه واشتد به يظهر من امراته، وإذا ذهب لم يقل شيئا. فأتت رسول الله تستفتيه في ذلك، وتشتكي إلى الله، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ الآية. وهكذا روى هشام بن عروة، عن أبيه: أن رجلا كان به لم، فذكر مثله. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل أبو سلمة، حدثنا جرير - يعني ابن حازم - قال: سمعت أبا يزيد يحدث قال: لقيت امرأة عمر - يقال لها: خولة بنت ثعلبة - وهو يسير مع الناس، فاستوقفته فوقف لها ودنا منها وأصغى إليها رأسه، ووضع يديه على منكبيها حتى قضت حاجتها وانصرفت. فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، حبست رجالا قرش على هذه العجوز؟! قال: ويحك! وتدري من هذه؟ قال: لا. قال: هذه امرأة سمع الله شكاوها من فوق سبع سموات، هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو لم تصرف عني إلى الليل ما انصرفت حتى تقضي حاجتها إلا أن تحضر صلاة فأصليها، ثم أرجع إليها حتى تقضي حاجتها. هذا منقطع بين أبي يزيد وعمر بن الخطاب. وقد روي من غير هذا الوجه. وقال ابن أبي حاتم أيضا: حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا يعلى، حدثنا زكريا عن عامر قال: المرأة التي جادلت في زوجها خولة بنت الصامت، وأمها معاذة التي أنزل الله فيها: ﴿وَلَا تَكْرَهُوا قِتْلَكُمْ عَلَى الْبَلَاءِ إِنَّ أَرَدْنَ حَصْحَا﴾ [النور: ٣٣]. صوابه: خولة امرأة أوس بن الصامت.

﴿الَّذِينَ يُلْهِهُونَ بَيْنَكُمْ مِنْ بَنَاتِهِمْ مَا هُنَّ أَهْلُهُنَّ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَفَتَّوٍ عَفُورٌ﴾ (٢) وَالَّذِينَ يُلْهِهُونَ مِنْ بَنَاتِهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ إِذَا جَاءَتْ قَرْبًا رَقَبَةٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبَاسَ ذَلِكَ كَوْثُورٌ يُعْطُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) مَن لَّرْ يَدٌ فَيَسَامُ شَرَّهَيْنِ مُتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبَاسَ ذَلِكَ كَوْثُورٌ يُعْطُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٤) وَمَنْ لَّرْ يَدٌ فَيَسَامُ شَرَّهَيْنِ مُتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبَاسَ ذَلِكَ كَوْثُورٌ يُعْطُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٥).

قال الإمام أحمد: حدثنا سعد بن إبراهيم ويعقوب قال: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني معمر بن عبد الله بن حنظلة، عن ابن عبد الله بن سلام، عن خويلة بنت ثعلبة قالت: في - والله - وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة «المجادلة»، قالت: كنت عنده وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه، قالت: فدخل علي يوما فراجعت بشيء فغضب فقال: أنت علي كظهر أمي. قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل علي فإذا هو يريدني عن نفسي. قالت: قلت: كلا، والذي نفسي خويلة بيده، لا تخلص إلي وقد قلت ما قلت، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه. قالت: فوثابني وامتنعت منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي، فاستعرت منها ثيابا، ثم خرجت حتى

جئت رسول الله ﷺ، فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيتُ منه، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه. قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا خويلة، ابنُ عمك شيخ كبير، فاتقي الله فيه». قالت: فوالله ما برحت حتى نزل في القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه، ثم سُري عنه، فقال لي: «يا خويلة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك». ثم قرأ عليّ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: «مُرِيهِ فليعتق رقبة». قالت: فقلت: يا رسول الله، ما عنده ما يعتق. قال: «فليصم شهرين متتابعين». قالت: فقلت: والله إنه شيخ كبير، ما به من صيام. قال: «فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر». قالت: فقلت: يا رسول الله، ما ذاك عنده. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «فلنا سنعيته بعرقٍ من تمر». قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا ساعيته بعرقٍ آخر، قال: «فقد أصبت وأحسنت، فاذهي فتصدق به عنه، ثم استوصي بآبن عمك خيراً». قالت: ففعلت. ورواه أبو داود في كتاب الطلاق من سننه من طريقين، عن محمد بن إسحاق بن يسار، به. وعنده: خولة بنت ثعلبة، ويقال فيها: خولة بنت مالك بن ثعلبة. وقد تصغر فيقال: خَوَيْلة. ولا منافاة بين هذه الأقوال، فالأمر فيها قريب، والله أعلم.

هذا هو الصحيح في سبب نزول صدر هذه السورة، فأما حديث سلمة بن صخر فليس فيه أنه كان سبب النزول، ولكن أمر بما أنزل الله في هذه السورة، من العتق أو الصيام، أو الإطعام، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سليمان بن يسار، عن سلمة بن صخر الأنصاري قال: كنتُ امرأة قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري، فلما دخل رمضان تظَّهَّرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان، فرقاماً أن أصيب في ليلتي شيئاً فاتابع في ذلك إلى أن يدركني النهار، وأنا لا أقدر أن أنزع، فبينما هي تخدمني من الليل إذ تكشف لي منها شيء، فوثبت عليها، فلما أصبحتُ غدوتُ على قومي فأخبرتهم خبري وقلت: انطلقوا معي إلى النبي ﷺ فأخبره بأمري. فقالوا: لا، والله لا نفعل؛ نتخوف أن ينزل فينا. أو يقول فينا رسول الله ﷺ - مقالة يبقى علينا عارها، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك. قال: فخرجتُ حتى أتيت النبي ﷺ، فأخبرته خبري. فقال لي: «أنت بذاك». فقلت: أنا بذاك. فقال: «أنت بذاك». فقلت: أنا بذاك. قال: «أنت بذاك» قلت: نعم، ها أناذا فامض في حكم الله تعالى، فإني صابر له. قال: «أعتق رقبة». قال: ففصمت صفقة رقبتني بيدي وقلت: لا، والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها. قال: «فصم شهرين». قلت: يا رسول الله، وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام؟ قال: «فتصدق». فقلت: والذي بعثك بالحق، لقد بنتا ليلتنا هذه وحشي ما لنا عشاء. قال: «اذهب إلى صاحب صدقة بني زريق فقل له فليدفعها إليك، فأطعم عنك منها وسقاً من تمر ستين مسكيناً، ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك». قال: فرجعت إلى قومي فقلت: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة والبركة، قد أمر لي بصدقتكم، فادفعوها إليّ. فدفعوها إليّ. وهكذا رواه أبو داود، وابن ماجه، واختصره الترمذي وحسنه. وظاهر السياق: أن هذه القصة كانت بعد قصة أوس بن الصامت، وزوجته خَوَيْلة بنت ثعلبة، كما دلَّ عليه سياق تلك وهذه بعد التأمل.

قال خَصِيف، عن مجاهد، عن ابن عباس: أول من ظاهر من امرأته أوس بن الصامت، أخو عبادة بن الصامت، وامرأته خولة بنت ثعلبة بن مالك، فلما ظاهر منها خشيت أن يكون ذلك طلاقاً، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أوساً ظاهر مني، وإننا إن افترقنا هلكتنا، وقد نثرث بطني منه، وقدمت صُحْبَتَهُ. وهي تشكو ذلك وتبكي، ولم يكن جاء في ذلك شيء. فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «أتقدر على رقبة تعتقها؟». قال: لا، والله يا رسول الله ما أقدر عليها؟ قال: فجمع له رسول الله ﷺ، حتى أعتق عنه، ثم راجع أهله رواه ابن جرير. ولهذا ذهب ابن عباس والأشرون إلى ما قلناه، والله أعلم. فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن سَائِرِهِمْ﴾ أصل الظاهر مشتق من الظهر، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا تظاهر أحد من امرأته قال لها: أنت عليّ كظهر أمي، ثم في الشرع كان الظاهر في سائر الأعضاء قياساً على الظهر، وكان الظاهر عند الجاهلية طلاقاً، فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفارة، ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعمدونه في جاهليتهم. هكذا قال غير واحد من السلف. قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن أبي حمزة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية: أنت عليّ كظهر أمي، حُرِّمت عليه فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس، وكانت تحته ابنة عم له يقال لها: «خويلة بنت ثعلبة». فظاهر منها، فأسقط في يديه، وقال: ما أراك إلا قد حرَّمت علي. وقالت له مثل ذلك، قال: فانطلقني إلى رسول الله ﷺ. فأنت رسول الله فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه، فقال: «يا خويلة، ما أمرنا في أمرك بشيء». فأنزل الله على رسوله ﷺ، فقال: «يا خويلة، أبشري» قالت: خيراً. فقرأ عليها: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ إلى

قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَابِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَّخِذُوا﴾. قالت: وأي رقبة لنا؟ والله ما يجد رقبة غيري. قال: ﴿فَمَنْ لَّوْ يَحْدُ قَسِيمًا شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾. قالت: والله لولا أنه يشرب في اليوم ثلاث مرات لذهب بصره! قال: ﴿فَمَنْ لَّوْ يَسْتَطِيعُ قَطْعًا يَتَيْنِ مَسْكِينًا﴾. قالت: من أين؟ ما هي إلا أكلة إلى مثلها! قال: فدعا بشطر وسق - ثلاثين صاعاً، والوسق: ستون صاعاً - فقال: «ليطعم ستين مسكيناً وليراجعكم»، وهذا إسناد جيد قوي، وسياق غريب.

وقد روي عن أبي العالية نحو هذا، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الرحمن الهروي، حدثنا علي بن عاصم، عن داود بن أبي هند، عن أبي العالية قال: كانت خولة بنت ذُلَيْج تحت رجل من الأنصار، وكان ضرير البصر فقيراً سيئ الخلق، وكان طلاق أهل الجاهلية إذا أراد الرجل أن يطلق امرأته، قال: «أنت علي كظهر أمي». وكان لها منه عيّل أو عيّلان، فنازعه يوماً في شيء فقال: «أنت علي كظهر أمي». فاحتملت عليها ثيابها حتى دخلت على النبي ﷺ وهو في بيت عائشة، وعائشة تغسل شق رأسه، فقدمت عليه ومعها عيّلها، فقالت: يا رسول الله، إن زوجي ضرير البصر، فقير لا شيء له سيئ الخلق، وإنني نازعته في شيء فغضب، فقال: «أنت علي كظهر أمي»، ولم يرد به الطلاق، ولي منه عيّل أو عيّلان، فقال: «ما أعلمك إلا قد حرمت عليه». فقالت: أشكو إلى الله ما نزل بي وأبا صبيي. قال: ودارت عائشة فغسلت شق رأسه الآخر، فدارت معها، فقالت: يا رسول الله، زوجي ضرير البصر، فقير سيئ الخلق، وإن لي منه عيلاً أو عيّلين، وإنني نازعته في شيء فغضب، وقال: «أنت علي كظهر أمي»، ولم يرد به الطلاق! قالت: فرفع إلي رأسه وقال: «ما أعلمك إلا قد حرمت عليه». فقالت: أشكو إلى الله ما نزل بي وأبا صبيي؟ قال: ورأت عائشة وجه النبي ﷺ تَغَيَّرَ، فقالت لها: «وراءك وراءك؟» فتنحت، فمكث رسول الله ﷺ في غشيانه ذلك ما شاء الله، فلما انقطع الوحي قال: «يا عائشة، أين المرأة» فدعتها، فقال لها رسول الله ﷺ: «اذهي فأنني بزوجك». فانطلقت تسعى فجاءت به. فإذا هو - كما قالت - ضرير البصر، فقير سيئ الخلق. فقال النبي ﷺ: «أستعيز بالله السميع العليم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَيَّ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَابِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾. قال النبي ﷺ: «أتجد رقبة تعتقها من قبل أن تمسها؟». قال: لا. قال: «أنتستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟». قال: والذي بعثك بالحق، إنني إذا لم أكل المرتين والثلاث يكاد أن يعشو بصري. وقال: «أنتستطيع أن تطعم ستين مسكيناً؟». قال: لا، إلا أن تعينني. قال: فأعانه رسول الله ﷺ فقال: «أطعم ستين مسكيناً». قال: وحول الله الطلاق، فجعله ظهاراً. ورواه ابن جرير، عن ابن المثنى، عن عبد الأعلى، عن داود، سمعت أبا العالية، فذكره نحوه، بأخصر من هذا السياق.

وقال سعيد بن جبير: كان الإيلاء والظهار من طلاق الجاهلية، فوقت الله الإيلاء أربعة أشهر، وجعل في الظهار الكفارة. ورواه ابن أبي حاتم، بنحوه. وقد استدلل الإمام مالك على أن الكافر لا يدخل في هذه الآية بقوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ فالخطاب للمؤمنين، وأجاب الجمهور بأن هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، واستدل الجمهور عليه بقوله: ﴿مِنْ نِّسَابِهِمْ﴾ على أن الأمة لا ظهار منها، ولا تدخل في هذا الخطاب. وقوله: ﴿مَا مَرَّ أَهْمَتْنِيهِ إِنْ أَهْمَتْنِيهِ إِلَّا إِلَيَّ وَلَدْنَتْنِي أَيُّهَا﴾: لا تعصير المرأة بقول الرجل: «أنت علي كأمي» أو «مثل أمي» أو «كظهر أمي»، وما أشبه ذلك، لا تعصير أمه بذلك، إنما أمه التي ولدته؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ مَنكُراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً﴾ أي: كلاماً فاحشاً باطلاً ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ أي: عما كان منكم في حال الجاهلية. وهكذا أيضاً عما خرج من سبق اللسان، ولم يقصد إليه المتكلم، كما رواه أبو داود: ولكن لم يحرمها عليه بمجرد ذلك؛ لأنه لم يقصده، ولو قصده لحرمت عليه؛ لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة وما أشبه ذلك. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَابِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾: اختلف السلف والأئمة في المراد بقوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ فقال بعض الناس: العود هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره، وهذا القول باطل، وهو اختيار ابن حزم، وقول داود، وحكاه أبو عمر بن عبد البر عن بكَيْر بن الأشج والفراء وفرقة من أهل الكلام. وقال الشافعي: هو أن يمسكها بعد الظهار زماناً يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق. وقال أحمد بن حنبل: هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا يحل له حتى يكفر بهذه الكفارة. وقد حكى عن مالك: أنه العزم على الجماع والإمسك، وعنه أنه الجماع. وقال أبو حنيفة: هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريره، ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية، فمضى تظاهر الرجل من امرأته فقد حرّمها تحريماً لا يرفعها إلا الكفارة. وإليه ذهب أصحابه والليث بن سعد. وقال ابن لهيعة: حدثني عطاء، عن سعيد بن جبير: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ يعني: يريدون أن يعودوا في الجماع الذي حرموه على أنفسهم. وقال الحسن البصري: يعني الغشيان في الفرج. وكان لا يرى بأساً أن يغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفر. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿مِنْ قَبْلِ أَن يَتَّخِذُوا مَسْأَلَةَ الْمَسِّ﴾. وكذا قال عطاء، والزهري،

وقتادة، ومقاتل بن حيان. وقال الزهري: ليس له أن يقبلها ولا يمسه حتى يكفر. وقد روى أهل السنن من حديث عكرمة، عن ابن عباس أن رجلاً قال: يا رسول الله، إنني ظاهرت من امرأتي فوقعت عليها قبل أن أكفر. فقال: «ما حملك على هذا يرحمك الله؟» قال: رأيت خلخالها في ضوء القمر. قال: «فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله، ﷺ». وقال الترمذي: حسن غريب صحيح. ورواه أبو داود والنسائي من حديث عكرمة مرسلاً. قال النسائي: وهو أولى بالصواب. وقوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبٍ﴾ أي: فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسا، فهنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان، وفي كفارة القتل مقيدة بالإيمان، فحمل الشافعي، رحمه الله، ما أطلقها هنا على ما قيد هناك لاتحاد الموجب، وهو عتق الرقبة، واعتضد في ذلك بما رواه عن مالك بسنده، عن معاوية بن الحكم السلمي، في قصة الجارية السوداء، وأن رسول الله ﷺ قال: «أعتقها فإنها مؤمنة». وقد رواه أحمد في مسنده، ومسلم في صحيحه.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا عبد الله بن نمير، عن إسماعيل بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن طائوس، عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ رجل فقال: إني تظاهرت من امرأتي ثم وقعت عليها قبل أن أكفر. فقال رسول الله ﷺ: «ألم يقل الله ﴿مَنْ قَتَلَ أَنْ يَمَاسًا﴾». قال: أعجبتني؟ قال: «أمسك حتى تكفر». ثم قال البزار: لا يروى عن ابن عباس بأحسن من هذا، وإسماعيل بن مسلم تكلم فيه، وروى عنه جماعة كثيرة من أهل العلم. وفيه من الفقه أنه لم يأمره إلا بكفارة واحدة. وقوله: ﴿ذَلِكَ ثَوَعُظْتُ بِهِ﴾ أي: تزجرون به ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ أي: خير بما يصلحكم، عليهم بأحوالكم. وقوله: ﴿مَنْ لَوْ يَحِدُ فَيَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَابَعَيْنِ مِنْ بَلَى أَنْ يَمَاسًا فَمَنْ لَوْ يَسْطَعُ فِإِطَاعِمَ سِتِّينَ يَشْكِيًا﴾. وقد تقدمت الأحاديث الواردة بهذا على الترتيب، كما ثبت في الصحيحين في قصة الذي جامع امرأته في رمضان. ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: شرعنا هذا لهذا. وقوله: ﴿وَذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: محارمه فلا تنتهكوها. وقوله: ﴿وَاللَّكْفَيْنِ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: الذين لم يؤمنوا ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة، لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء، كلا، ليس الأمر كما زعموا، بل لهم عذاب أليم، أي: في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ كُفْرًا كَمَا كُنْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا بِالْحَقِّ يَتَّبِعُونَ عَذَابَ نَارٍ ۖ يَوْمَ يَسْأَلُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنْشَرُّهُمْ بِمَا عَمِلُوا ۖ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَأْتِي السَّحَابَ مَاءً فِي السَّحَابِ وَيَأْتِي الْأَرْضَ مَاءً يَكُونُ مِنْ مَجْهَدٍ يَنْتَضِلُّ إِلَّا هُوَ رَاكِعُهُمْ وَلَا يَخْشَى إِلَّا هُوَ سَاءَ مَا يَحْكُمُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مُهْتَمٌّ إِنَّ اللَّهَ يُخْلِقُ مَا يَشَاءُ عَلَى نَهْجٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٧﴾

يخبر تعالى عن شاقوا الله ورسوله وعاندوا شره ﴿كَيْدًا كَمَا كَيْدَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: أهينوا ولعنوا وأخزوا، كما فعل بمن أشبههم ممن قبلهم ﴿وَقَدْ أَرْسَلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِآيَاتِنَا﴾ أي: واضحات لا يخالفها ويعاندها إلا كافر فاجر مكابر، ﴿وَاللَّكُونِ عَذَابٌ مِثْلُ﴾ أي: في مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله، والانقياد له، والخضوع لديه. ثم قال: ﴿يَوْمَ يَسْتَعْتِبُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ وذلك يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، ﴿فَيَنْتَبِهُنَّ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: يخبرهم بالذي صنعوا من خير وشر ﴿أَخْصَنَهُ اللَّهُ وَشَرَّهُ﴾ أي: ضبطه الله وحفظه عليهم، وهم قد نسوا ما كانوا عليه، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى ولا ينسى شيئاً. ثم قال تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه وإطلاعه عليهم، وسماعه كلامهم، ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأين كانوا، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّكُونِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَحْوِ ثَلَاثَةٍ مِنْ سَرَّ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاقِبُهُمْ وَلَا يَحْصِي سَادَتُهُمْ وَلَا أَذُنٌ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْفَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ أي: يطلع عليهم ويسمع كلامهم وسرهم ونجواهم، ورسله أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به، مع علم الله به وسمعه لهم، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [التوبة: ٤٨٠] ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علم الله تعالى، ولا شك في إرادة ذلك ولكن سمعه أيضاً مع علمه محيط بهم، وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه مطلع على خلقه، لا يغيب عنه من أموره شيء. ثم قال: ﴿ثُمَّ يَنْتَبِهُنَّ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قال الإمام أحمد: افتتح الآية بالعلم، واختتمها بالعلم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُمْ عَنِ الشَّعْوِ لَمَّا هُمْ عَنْهُ وَشَجَّحُوا بِالْإِنْمِ وَالْعُدُونِ وَمَعَصَيْتِ الرُّسُولِ وَإِذَا جَاءَهُمْ حَيْوَتُهُمْ لَا تَوْحِيدَ لَهُ اللَّهُ وَتَوَلَّوْنَ الْبَاطِلَ لَا تَنْتَهُمُ إِلَّا تَنْتَهُمُ إِلَّا تَنْتَهُمُ فَلَا تَنْتَهُمُ بِالْإِنْمِ وَالْعُدُونِ وَمَعَصَيْتِ الرُّسُولِ وَتَوَلَّوْا بِالْإِنْمِ وَالْعُدُونِ وَأَنْفَعُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُعْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الشَّعْوُ مِنَ الشَّعْلَانِ يُخْرَجُ اللَّيْنُ أَمْشُوا وَلَكِنَّ بِصَاحِبِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

قال ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى﴾ قال: اليهود. وكذا قال مقاتل بن حيان، وزاد: كان بين النبي ﷺ وبين اليهود مودة، وكانوا إذا مر بهم رجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم، حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقلته - أو: بما يكره المؤمن - فإذا رأى المؤمن ذلك خشيمهم، فترك طريقه عليهم. فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى، فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَوْمُورُونَ لِمَا هُوَ عَنْهُمْ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي، حدثني سفيان بن حمزة، عن كثير بن زيد، عن ربيع بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه، عن جده قال: كنا نتناوب رسول الله ﷺ نبيت عنده؛ يطرقه من الليل أمر، وتبدوله حاجة. فلما كانت ذات ليلة كثر أهل التوب والمحسبون، حتى كنا أندية نتحدث، فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا النجوى؟ ألم تنهوا عن النجوى؟». قلنا: تبنا إلى الله يا رسول الله، إنا كنا في ذكر المسيح، فرقا منه. فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي منه؟». قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الشرك الخفي، أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل». هذا إسناد غريب، وفيه بعض الضعفاء. وقوله: ﴿تَنْتَحَرُوا إِلَى الْيَمِينِ وَالْعُدْوَنِ وَمَعْيِبَةِ الرَّسُولِ﴾ أي: يتحدثون فيما بينهم بالإثم، وهو ما يختص بهم، والعدوان، وهو ما يتعلق بغيرهم، ومنه معصية الرسول ومخالفته، يُصرون عليها ويتواصون بها. وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ جُنُودُكَ بِمَا تَرْجُو مِنْ اللَّهِ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن نمير، عن الأعمش، عن مسلم عن مسروق، عن عائشة قالت: دخل على رسول الله ﷺ يهود فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم. فقالت عائشة: وعليكم السام واللعنة. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش». قلت: ألا تسمعونهم يقولون: السام عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «أو ما سمعت أقول؟ وعليكم؟». فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ جُنُودُكَ بِمَا تَرْجُو مِنْ اللَّهِ﴾. وفي رواية في الصحيح أنها قالت لهم: عليكم السام والذام واللعنة. وأن رسول الله ﷺ قال: «إنه يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا». وقال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس مع أصحابه، إذ أتى عليهم يهودي فسلم عليهم، فردوا عليه، فقال نبي الله ﷺ: «هل تدرون ما قال؟». قالوا: سلم يا رسول الله. قال: «بل قال: سام عليكم، أي: تسامون دينكم». قال رسول الله ﷺ: «ردوه». فردوه عليه. فقال نبي الله ﷺ: «أقلت: سام عليكم؟». قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا: عليك» أي: عليك ما قلت. وأصل حديث أنس مخرج في الصحيح، وهذا الحديث في الصحيح عن عائشة، بنحوه. وقوله: ﴿وَقُولُوا فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُ اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي: يفعلون هذا، ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام، وإنما هو شتم في الباطن، ومع هذا يقولون في أنفسهم: لو كان هذا نبيا لعذبنا الله بما نقول له في الباطن؛ لأن الله يعلم ما نسرّه، فلو كان هذا نبيا حقاً لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة في الدنيا، فقال الله تعالى: ﴿حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: جهنم كفائهم في الدار الآخرة ﴿يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ الْكَمِيرَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد، عن عطاء بن السائب، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو؛ أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: سام عليك، ثم يقولون في أنفسهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُ اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾؟ فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ جُنُودُكَ بِمَا تَرْجُو مِنْ اللَّهِ وَيَقُولُوا فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُ اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ الْكَمِيرَ﴾. إسناد حسن ولم يخرجوه. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ جُنُودُكَ بِمَا تَرْجُو مِنْ اللَّهِ﴾ قال: كان المنافقون يقولون لرسول الله ﷺ إذا حيّوه: «سام عليك»، قال الله: ﴿حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ الْكَمِيرَ﴾. ثم قال الله مؤذبا عباده المؤمنين ألا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا تَنصِيحُكُمْ فَلَا تَتَّبِعُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَةَ وَمَعْيِبَةِ الرَّسُولِ﴾ أي: كما يتناجى به الجبهة من كفر أهل الكتاب ومن مالههم على ضلالهم من المنافقين، ﴿وَتَتَّبِعُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَةَ وَأَتَوْا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي قد أحصاها عليكم، وسيجزيك بها. وقال الإمام أحمد: حدثنا بهز وعفان قالا: أخبرنا همام، حدثنا قتادة، عن صفوان بن محرز قال: كنت أخذنا بيد ابن عمر، إذ عرض له رجل فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يدين المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. ثم يُعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين». أخرجاه في الصحيحين، من حديث قتادة. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا التَّائِبِينَ مِنَ الظَّنِّ لِيَحْزَنَكَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِصَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنما النجوى - وهي المسارة - حيث يتوهم مؤمن بها سوءاً ﴿وَمِنَ الظَّنِّ لِيَحْزَنَكَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه، ﴿لِيَحْزَنَكَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي:

ليسوءهم، وليس ذلك بضارهم شيئاً إلا بإذن الله، ومن أحسن من ذلك شيئاً فليستعذ بالله وليتوكل على الله، فإنه لا يضره شيء بإذن الله. وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي حيث يكون في ذلك تأذ على مؤمن، كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وأبو معاوية قالا: حدثنا الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه». أخرجاه من حديث الأعمش. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه؛ فإن ذلك يحزنه». انفرد بإخراجه مسلم عن أبي الربيع وأبي كامل، كلاهما عن حماد بن زيد، عن أيوب، به.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ الَّذِينَ آمَنُوا بِكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا أَوْلَىٰ دَرَجَةً وَأَلَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

يقول تعالى مؤبداً عباده المؤمنين، وأمرهم أن يحسن بعضهم إلى بعض في المجالس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾، وقرئ: ﴿فِي الْمَجَالِسِ﴾، ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وذلك أن الجزء من جنس العمل، كما جاء في الحديث الصحيح: «من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة» وفي الحديث الآخر: «ومن يسر على مفسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه». ولهذا أشبه كثيرة؛ ولهذا قال: ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾. قال قتادة: نزلت هذه الآية في مجالس الذكر، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضُتُوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض. وقال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية يوم جُمعة وكان رسول الله ﷺ يومئذ في الصفة، وفي المكان ضيق، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء أناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس، فقاموا حيال رسول الله ﷺ، فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. فرد النبي ﷺ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك، فردوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم، فعرف النبي ﷺ ما يحملهم على القيام، فلم يفسح لهم، فشق ذلك على النبي ﷺ، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار، من غير أهل بدر: «قم يا فلان، وأنت يا فلان». فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه، وعرف النبي ﷺ الكراهة في وجوههم، فقال المنافقون: أستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس؟ والله ما رأينا قبلاً عدل على هؤلاء، إن قوماً أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب لنبيهم، فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه. فبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله رجلاً فسح لأخيه». فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعاً، فتفسح القوم لإخوانهم، ونزلت هذه الآية يوم الجمعة. رواه ابن أبي حاتم.

وقد قال الإمام أحمد، والشافعي: حدثنا سفيان، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا». وأخرجاه في الصحيحين من حديث نافع، به. وقال الشافعي: أخبرنا عبد المجيد، عن ابن جريج قال: قال سليمان بن موسى، عن جابر بن عبد الله. أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقيم أحدكم أخاه يوم الجمعة، ولكن ليقبل: افسحوا». على شرط السنن ولم يخرجوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الملك بن عمرو، حدثنا فليح، عن أيوب بن عبد الرحمن بن أبي صغصعة، عن يعقوب بن أبي يعقوب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه، ولكن افسحوا يفسح الله لكم». ورواه أيضاً عن سريج بن يونس، ويونس بن محمد المؤدب، عن فليح، به. ولفظه: «لا يقوم الرجلُ للرجل من مجلسه، ولكن افسحوا يفسح الله لكم» تفرد به أحمد. وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال: فمنهم من رخص في ذلك محتجاً بحديث: «قوموا إلى سيدكم». ومنهم من منع ذلك محتجاً بحديث: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً، فليَتْبِرْهُ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ» ومنهم من فصل فقال: يجوز عند القدوم من سفر، وللحاكم في محل ولايته، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ، فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكماً في بني قريظة فرأه مقبلاً قال للمسلمين: «قوموا إلى سيدكم». وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه، والله أعلم. فأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم. وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكان إذا جاء لا يقومون له، لما يعلمون من كراهته لذلك. وفي الحديث المروي في السنن: أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس، وكان الصحابة، رضي الله عنهم، يجلسون منه على مراتبهم، فالصديق يجلسه عن يمينه، وعمر عن يساره، وبين يديه غالباً عثمان وعلي؛ لأنهما كانا ممن يكتب الوحي، وكان يأمرهم بذلك، كما رواه مسلم من حديث الأعمش، عن عمارة بن عمير، عن أبي معمر، عن أبي مسعود، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «ليليني منكم أولو الأحلام

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن عُمارة بن عمير التيمي، عن أبي معمر، عن أبي مسعود قال: كان رسول الله ﷺ يسمح مناكبنا في الصلاة ويقول: «استروا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم، ليليني منكم أولو الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم». قال أبو مسعود: فأنتم اليوم أشد اختلافاً. وكذا رواه مسلم وأهل السنن، إلا الترمذي، من طرق عن الأعمش، به. وإذا كان هذا أمره لهم في الصلاة أن يليه العقلاء ثم العلماء، فبطريق الأولى أن يكون ذلك في غير الصلاة. وروى أبو داود من حديث معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن كثير بن مرة، عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أقيموا الصفوف، وحاذروا بين المناكب، وسُدُّوا الخلل، وليتُوا بأيدي إخوانكم، ولا تذرُوا فرجات الشيطان، ومن وصل صفًا وصله الله، ومن قطع صفًا قطعه الله». ولهذا كان أبي بن كعب - سيد القراء - إذا انتهى إلى الصف الأول انتزع منه رجلاً يكون من أفناء الناس، ويدخل هو في الصف المقدم، ويحتج بهذا الحديث: «ليليني منكم أولو الأحلام والنهى». وأما عبد الله بن عمر فكان لا يجلس في المكان الذي يقوم له صاحبه عنه، عملاً بمقتضى ما تقدم من روايته الحديث الذي أورده. ولنقتصر على هذا المقدار من الأمثلة المتعلقة بهذه الآية، وإلا فسيطه يحتاج إلى غير هذا الموضع، وفي

الحديث الصحيح : بينا رسول الله ﷺ جالس، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأما أحدهم فوجد فرجة في الحلقة فدخل فيها، وأما الآخر فجلس وراء الناس، وأدبر الثالث ذاهباً. فقال رسول الله ﷺ : «ألا أنبئكم بخير الثلاثة، أما الأول فأوى إلى الله فأواه الله، وأما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الثالث فأعرض الله عنه». وقال الإمام أحمد: حدثنا عثاب بن زياد، أخبرنا عبد الله، أخبرنا أسامة بن زيد، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : «لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما». ورواه أبو داود والترمذي، من حديث أسامة بن زيد الليثي، به. وحسنه الترمذي . وقد روي عن ابن عباس، والحسن البصري وغيرهما أنهم قالوا في قوله تعالى : ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَسَبَّحُوا لِلَّهِ الْمَجْلِسَ وَالْقَائِمِينَ﴾ ، يعني : في مجالس الحرب، قالوا: ومعنى قوله : ﴿وَإِذَا قِيلَ اسْجُدُوا فَاسْجُرُوا﴾ أي : انهضوا للقتال. وقال قتادة : ﴿وَإِذَا قِيلَ اسْجُرُوا فَاسْجُرُوا﴾ أي : إذا دعيتم إلى خير فأجبوا. وقال مقاتل بن حيان : إذا دعيتم إلى الصلاة فارفعوا إليها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كانوا إذا كانوا عند النبي ﷺ في بيته فأرادوا الانصراف أحب كل منهم أن يكون هو آخرهم خروجاً من عنده، فربما يشق ذلك عليه - عليه السلام - وقد تكون له الحاجة، فأمروا أنهم إذا أمروا بالانصراف أن ينصرفوا، كقوله : ﴿وَلَنْ يَقِيلَ لَكُمْ أَتَيْمُوا فَاتَّبِعُونَا﴾ [النور: ٢٨]. وقوله : ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكَلِمَةَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي : لا تعتقدوا أنه إذا فسح أحد منكم لأخيه إذا قبل، أو إذا أمر بالخروج فخرج، أن يكون ذلك نقصاً في حقه، بل هو رفعة ومزية عند الله، والله تعالى لا يضع ذلك له، بل يجزيه بها في الدنيا والآخرة، فإن من تواضع لأمر الله رفع الله قدره، ونشر ذكره؛ ولهذا قال : ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكَلِمَةَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي : خبير بمن يستحق ذلك ويمن لا يستحقه. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا إبراهيم، حدثنا ابن شهاب، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على مكة، فقال له عمر : من استخلفت على أهل الوادي؟ قال : استخلفت عليهم ابن أبزى. قال : وما ابن أبزى؟ فقال : رجل من موالينا. فقال عمر بن الخطاب : استخلفت عليهم مولى؟ فقال : يا أمير المؤمنين، إنه قارىء لكتاب الله، عالم بالفرائض، قاض. فقال عمر، رضي الله عنه : أما إن نبيكم ﷺ قد قال : «إن الله يرفع بهذا الكتاب قوماً ويضع به آخرين». وهكذا رواه مسلم من غير وجه، عن الزهري، به. وروي من غير وجه عن عمر بنحوه. وقد ذكرت فضل العلم وأمله وما ورد في ذلك من الأحاديث مستقصاة في شرح «كتاب العلم» من صحيح البخاري، ولله الحمد والمنة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا سَأِلْتُمُ الرَّسُولَ فَقِيدُوا بَيْنَ يَدَيِّ حُرْمَتِكُمْ صَدَقَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطَهَرُ فَإِنْ لَوْ تَحَدَّثُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا تَفِيهُمُ اللَّهُ عَنْهُ رَجِمُ ۖ﴾ [١٧] ﴿عَلَيْكُمْ أَنْ تَقُولُوا بَدَأَ بَشَرُهُمْ غَوًى وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا أَمْرُ اللَّهِ لَفَسِدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَدْ جَاءَ بِظُهْرِهِمْ رَحْمَةً لِيَخْرِجَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَصَلَ اللَّهُ إِلَى الْقُلُوبِ الصَّافِيَةِ ۚ﴾ [١٨]

يقول تعالى أمرأ عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجي رسول الله ﷺ ، أي: يساره فيما بينه وبينه ، أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكّيه وتزله لأن يصلح لهذا المقام ، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكَ وَأَطْرَهُ﴾ . ثم قال: ﴿فَإِنْ لَرَّ عَجُودًا﴾ أي: إلا من عجز عن ذلك لفقده ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فما أمر بها إلا من قدر عليها . ثم قال: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ أي: أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ، ﴿فَإِذَا لَرَّ قَعْلًا وَتَأَنَّ وَتَأَنَّىٰ وَاللَّهُ عَلَيْكُمْ فَلَيَمُنَّ السَّلَوةَ وَمَأْتُوا

الزُّكُوةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ فنسخ وجوب ذلك عنهم. وقد قيل: إنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها سوى علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. قال ابن أبي نجیح، عن مجاهد قال: نهوا عن مناجاة النبي ﷺ حتى يتصدقوا، فلم يناعه إلا علي بن أبي طالب، قدم ديناراً صدقة تصدق به، ثم ناجى النبي ﷺ فسأله عن عشر خصال، ثم أنزلت الرخصة. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، قال علي رضي الله عنه: آية في كتاب الله، ﷺ، لم يعمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، كان عندي دينار فصرفته بعشر دراهم، فكنت إذا ناجيت رسول الله ﷺ تصدقت بدرهم، فسخت ولم يعمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةٌ﴾ الآية.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهران، عن سفيان، عن عثمان بن المغيرة، عن سالم بن أبي الجعد، عن علي بن علقمة الأنماري، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «ما ترى، دينار؟». قال: لا يطيقون. قال: «نصف دينار؟». قال: لا يطيقون. قال: «ما ترى؟». قال: شعيرة، فقال له النبي ﷺ: «إنك زهيد». قال: قال علي: فبي خفف الله عن هذه الأمة، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةٌ﴾، فنزلت ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً﴾. ورواه الترمذي عن سفيان بن وكيع، عن يحيى بن آدم، عن عبيد الله الأشجعي، عن سفيان الثوري، عن عثمان بن المغيرة الثقفي، عن سالم بن أبي الجعد، عن علي بن علقمة الأنماري، عن علي بن أبي طالب قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةٌ﴾ إلى آخرها، قال لي النبي ﷺ: «ما ترى، دينار؟» قلت: لا يطيقونه. وذكر بتمايه، مثله، ثم قال: «هذا حديث حسن غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه». ثم قال: ومعنى قوله: «شعيرة»: يعني وزن شعيرة من ذهب. ورواه أبو يعلى، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يحيى بن آدم، به. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةٌ﴾ إلى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: كان المسلمون يقدمون بين يدي التجوى صدقة، فلما نزلت الزكاة نسخ هذا. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً﴾ وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه، عليه السلام. فلما قال ذلك صبر كثير من الناس وكفوا عن المسألة، فأنزل الله بعد هذا: ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً كَذَلِكَ لَمْ تَعْمَلُوا وَتَأْتِ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقْبِلُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزُّكُوةَ﴾ فوسع الله عليهم ولم يضيق. وقال عكرمة والحسن البصري في قوله: ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً﴾: نسختها الآية التي بعدها: ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً﴾ إلى آخرها. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة ومقاتل بن حيان: سأل الناس رسول الله ﷺ، حتى أحفوه بالمسألة، فقطعهم الله بهذه الآية، فكان الرجل منهم إذا كانت له الحاجة إلى نبي الله ﷺ فلا يستطيع أن يقضيها حتى يقدم بين يديه صدقة، فاشتد ذلك عليهم، فأنزل الله الرخصة بعد ذلك: ﴿فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقال معمر، عن قتادة: ﴿إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً﴾: إنها منسوخة، ما كانت إلا ساعة من نهار. وهكذا روى عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن أيوب، عن مجاهد قال علي: ما عمل بها أحد غيري حتى نسخت وأحسبه قال: وما كانت إلا ساعة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَلْمِزُونَ ﴿١٥﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَتَعْبُدُونَ جَنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧﴾ لَنْ نَقْبِ عَنَّتُمْ أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٨﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسِنُونَ إِلَيْهِمْ عَلَيَّ هُمْ الْكَافِرُونَ ﴿١٩﴾ اسْتَخَرُوا عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

يقول تعالى منكرًا على المنافقين موالاتهم الكفار في الباطن، وهم في نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿مُذَبِّحِينَ بَيْنَ ذَلِكَ إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [النساء: ١٤٣]. وقال هاهنا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: اليهود، الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم في الباطن. ثم قال: ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي: هؤلاء المنافقون، ليسوا في الحقيقة لا منكم أيها المؤمنون، ولا من الذين تولوهم وهم اليهود. ثم قال: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَلْمِزُونَ﴾ يعني: المنافقين يحلفون على الكذب وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا، وهي اليمين الغموس، ولا سيما في مثل حالهم اللعين، عيادًا بالله منه، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا جاؤوا الرسول حلفوا بالله لا أنهم مؤمنون، وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به؛ لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه، وإن كان في نفس الأمر مطابقًا؛ ولهذا شهد الله بكذبهم في إيمانهم وشهادتهم لذلك. ثم قال: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي: أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة، وهي موالاة الكافرين ونصحهم، ومعاودة المؤمنين

وغشهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿اعْتَدُوا أَنْفُسَكُمْ جُنَّةً فَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: اظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، واتقوا بالأيमान الكاذبة، فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغتر بهم، فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض الناس ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي: في مقابلة ما امتنعوا من الحلف باسم الله العظيم في الأيمان الكاذبة الحائثة. ثم قال: ﴿أَنْ تَنْفِكَ عَنْهُمْ أَمْرُهُمْ وَكَأَنَّ أَوَّلَهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم، ﴿أَوَّلِيكَ أَحَبُّ الْآثَرِ هُمْ فِيهَا خَلِيدُونَ﴾. ثم قال: ﴿يَوْمَ يَمُنُّهُمْ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي: يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحداً، ﴿فَيُطْلَقُونَ لَمْ كُنَّا بِمُحْلِقِينَ لَكُمْ وَنَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: يحلفون بالله، ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى وَالْإِسْقَامَةِ﴾ كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا؛ لأن من عاش على شيء مات عليه وبعث عليه، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة؛ ولهذا قال: ﴿وَنَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: حلفهم ذلك لربهم، ﴿ثُمَّ قَالَ مَنكَرٌ عَلَيْهِمْ حِسَابُهُمْ﴾: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ فأكد الخبر عنهم بالكذب.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نفيل، حدثنا زهير، عن سماك بن حرب، حدثني سعيد بن جبيرة، أن ابن عباس حدثه: أن النبي ﷺ كان في ظل حجرة من حجروه، وعنده نفر من المسلمين قد كان يقلص عنهم الظل، قال: «إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان، فإذا أتاكم فلا تكلموه». فجاء رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فكلمه، فقال: «علام تشتمني أنت وفلان وفلان؟» نفر دعاهم بأسمائهم - قال: فانطلق الرجل فدعاهم، فحلفوا له واعتذروا إليه، قال: فانزل الله، ﷺ: ﴿فَيُطْلَقُونَ لَمْ كُنَّا بِمُحْلِقِينَ لَكُمْ وَنَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾. وهكذا رواه الإمام أحمد من طريقين، عن سماك، به. ورواه ابن جرير، عن محمد بن المنثري، عن غندر، عن شعبة، عن سماك، به نحوه. وأخرجه أيضاً من حديث سفيان الثوري، عن سماك، بنحوه. إسناده جيد ولم يخرجوه. وحال هؤلاء كما أخبر تعالى عن المشركين حيث يقول: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِي تَرْفَعَةٍ لَأَنَّ أَقْوَامًا وَكَانُوا رَبًّا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَكَانُوا أَكْثَرًا يَقْتُلُونَ﴾ ﴿الْأَنْعَامُ: ٢٣، ٢٤﴾. ثم قال: ﴿أَسْتَحْوِذَ عَلَيْهِمُ الْقَيْنَانُ فَالْتَمَسْنَهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ﴾ أي: استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله، ﷻ، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه؛ ولهذا قال داود: حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زائدة، حدثنا السائب بن خبيش، عن معدان بن أبي طلحة اليعفرى، عن أبي الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو، لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب القاصية». قال زائدة: قال السائب: يعني الصلاة في الجماعة. ثم قال تعالى: ﴿أَوَّلِيكَ حَرْبٌ أَلْتَقَيْنَ﴾ يعني: الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله. ثم قال: ﴿أَلَا إِنَّ حَرْبَ أَلْتَقَيْنَ هُمُ الْقَيْنَانُ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْلِيكَ فِي الْآذَانِ﴾ ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَخِيكَ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ بَوَّادُونَ مَنْ كَذَبَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أَوَّلِيكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَتَدَّبَهُمْ جُورُجٌ مِنْهُ وَيَدْلُجُهُمْ حَتَّى تُخْرِجَهُمْ مِنَ تَحْتِهَا الْأَثْنُورَ خَلِيدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أَوَّلِيكَ حَرْبٌ أَلْتَقَيْنَ أَلَا إِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمُ الْقَلْبَانُ﴾ ﴿٢٢﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين للمحادين لله ورسوله، يعني: الذي هم في حدٍّ والشرع في حدٍّ، أي: مجانبون للحق مشاقون له، هم في ناحية والهدى في ناحية، ﴿أَوَّلِيكَ فِي الْآذَانِ﴾ أي: في الأسماع المبعدين المطرودين عن الصواب، الأذلين في الدنيا والآخرة. ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَخِيكَ أَنَا وَرَسُولِي﴾ أي: قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يُمانع، ولا يبدل، بأن النصر له وكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّهُمَّ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ ﴿غافر: ٥١، ٥٢﴾. وقال هاهنا: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَخِيكَ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: كتب القوي العزيز أنه الغالب لأعدائه. وهذا قدر محكم وأمر مبرم، أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة. ثم قال تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ بَوَّادُونَ مَنْ كَذَبَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي: لا يـُـوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين، كما قال تعالى: ﴿لَا يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ الْكُفْرَانُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَتَمَسَّكْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُ تُقَاتُوا وَبِعَذَابِكُمْ اللَّهُ تَنْفَعُ﴾ الآية [آل عمران: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانِ آبَاؤُكُمْ أَوْ أَبْنَاؤُكُمْ أَوْ إِخْوَانُكُمْ أَوْ عَشِيرَتُكُمْ وَأُولَئِكَ أَقْرَبُكُمْ مِمَّا يَبْغِيكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْغِيكُمْ كَسَادَهَا وَمَسْكُونَتُهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ [التوبة: ٢٤]. وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره: أنزلت هذه الآية: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح، حين قتل أباه يوم بدر؛ ولهذا قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك الستة، رضي الله عنهم: «ولو كان أبو

عبدة حياً لاستخلفته». وقيل في قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا إِبْنَاءَ هُمْ﴾: نزلت في أبي عبدة، قتل أباه يوم بدر ﴿أَوْ أَبْنَاءَ هُمْ﴾: في الصديق، هُم يومئذ يقتل ابنه عبد الرحمن، ﴿أَوْ إِخْوَنَهُمْ﴾: في مصعب بن عمير، قتل أخاه عبید بن عمير يومئذ ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾: في عمر، قتل قريباً له يومئذ أيضاً، وفي حمزة وعلي وعبدة بن الحارث، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ، والله أعلم. قلت: ومن هذا القليل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين في أسارى بدر، فأشار الصديق بأن يفادوا، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين، وهم بنو العم والعشيرة، ولعل الله أن يهديهم. وقال عمر: لا أرى ما رأى يا رسول الله، هل تمكني من فلان - قريب لعمر - فأقتله، وتمكن علياً من عقيل، وتمكن فلاناً من فلان، ليعلم الله أنه ليست في قلوبنا هودة للمشركين... القصة بكاملها. وقوله: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه، فهذا ممن كتب الله في قلبه الإيمان، أي: كتب له السعادة وقررها في قلبه وزين الإيمان في بصيرته.

وقال السدي: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾: جعل في قلوبهم الإيمان. وقال ابن عباس: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ نَّيَّةٍ﴾ أي: قواهم. وقوله: ﴿وَيَدْعُلَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾: كل هذا تقدم تفسيره غير مرة. وفي قوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾: سر بديع، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم. وقوله: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٣١) أي: هؤلاء حزب الله، أي: عباد الله وأهل كرامته. وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرهم في الدنيا والآخرة في مقابلة ما أخبر عن أولئك حزب الشيطان. ثم قال: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا هارون بن حميد الواسطي، حدثنا الفضل بن عثينة، عن رجل قد سماه - يقال: هو عبد الحميد بن سليمان، انقطع من كتابي - عن الذئال بن عباد قال: كتب أبو حازم الأعرج إلى الزهري: اعلم أن الجاه جاهان، جاء يجريه الله على أيدي أوليائه لأوليائه، وإنهم الخامل ذكرهم، الخفية شخصوصهم، ولقد جاءت صفتهم على لسان رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْأَخْفَاءَ الْأَتْقِيَاءَ الْأَبْرِيَاءَ﴾ الذين إذا غابوا لم يُفْتَقَدُوا، وإذا حضروا لم يُدْعَوْا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل فتنة سوداء مظلمة. فهؤلاء أولياء الله الذين قال الله: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. وقال نعيم بن حَمَّاد: حدثنا محمد بن ثور، عن يونس، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: اللهم، لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي يداً ولا نعمة، فإني وجدت فيما أوحيت إلي: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾. قال سفيان: يرون أنها نزلت فيمن يخالط السلطان. ورواه أبو أحمد العسكري.



تفسير سورة الحشر

وكان ابن عباس يقول: سورة بني النضير. وهي مدنية. قال سعيد بن منصور: حدثنا هُشَيْم، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: أنزلت في بني النضير. ورواه البخاري ومسلم من وجه آخر، عن هُشَيْم، به. ورواه البخاري من حديث أبي عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: قُلْ سورة بني النضير.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَالِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ارْتَعَابٌ يَخْرُجُونَ يَوْمَهُمُ الْبَاقِي ۝٢ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كُفْرُهُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ الْعَلِيمَ لَعَالِمُهُمْ ۝٣ وَلَوْ لَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْعَمَلَةَ لَفَسَدُوا فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ النَّارِ ۝٤ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ شَأْوَارُ اللَّهِ رَسُولُهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٥ مَا ظَنَنْتُمْ مِنْ لَيْلَةٍ أَوْ نَوْمَةٍ مُقَامَةً عَلَى أَسْوَأَ لَهَا يَإَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَلِخَيْرٍ الْمُنَافِقِينَ ۝٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنْ جَمِيعَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ يُسَبِّحُ لَهُ وَيَمَجِّدُهُ وَيُقَدِّسُهُ، وَيُصَلِّي لَهُ وَيُحْمَدُهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿سُبِّحَ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أَي: مُنِيعٌ

الجناب ﴿أَلْحِكْكُمْ﴾ في قدره وشرعه. وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: يهود بني النضير. قاله ابن عباس، ومجاهد، والزهري، وغير واحد: كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادئهم وأعطاهم عهداً ودماً، على ألا يقاتلهم ولا يقاتلوه، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه، فأحل الله بهم بأسه الذي لا مرد له، وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يُصد، فأجلاهم النبي ﷺ، وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون، وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله، فما أغنى عنهم من الله شيئاً، وجاءهم ما لم يكن ببالهم، وسيرهم رسول الله ﷺ وأجلاهم من المدينة، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرع من أعالي الشام، وهي أرض المحشر والمنشر، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر. وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم، فكانوا يخبرون ما في بيوتهم من المنقولات التي يمكن أن تحمل معهم؛ ولهذا قال: ﴿يَخْرُجُونَ بِيُوتِهِمْ يُأْخِذُهَا بِيَدَيْهِمُ وَيَأْخِذُهَا بِأَنْفُسِهِمْ يَأْخِذُهَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أي: تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله، وكذب كتابه، كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا، مع ما يذخره له في الآخرة من العذاب الأليم.

قال أبو داود: حدثنا محمد بن داود بن سفيان، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَرُ، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي، ومن كان معه يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر: إنكم أوتيتم صاحبنا، وإننا نقسم بالله لقاتلته، أو لتخرجنه، أو لتسيرن إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان، اجتمعوا لقتال النبي ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم، فقال: «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريد أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقتلوا أبناءكم وإخوانكم؟»، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن مع صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نساءكم شيء. - وهي الخلاخيل - فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ اجتمعت بنو النضير بالغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ: أخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون جبراً، حتى نلتقي المنصف فيسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك آمننا بك، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم، قال لهم: «إنكم والله لا تأمنوا عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه». فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا الغد على بني قريظة بالكتائب، وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم. وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم، حتى نزلوا على الجلاء. فجعلت بنو النضير، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها، وكان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة، أعطاه الله إياها وخصه بها، فقال: ﴿وَمَا آتَاكَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْحَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يقول: بغير قتال، فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين، قسمها بينهم، وقسم منها لرجلين من الأنصار وكانا ذوي حاجة، ولم يقسم من الأنصار غيرهما، وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ التي في أيدي بني فاطمة. ولنذكر ملخص غزوة بني النضير على وجه الاختصار، وبالله المستعان.

وكان سبب ذلك فيما ذكره أصحاب المغازي والسير: أنه لما قُتل أصحاب بئر معونة، من أصحاب رسول الله ﷺ، وكانوا سبعين، وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمري، فلما كان في أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بني عامر، وكان معهما عهد من رسول الله ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو، فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد قتلت رجلين، لأدينهما». وكان بين بني النضير وبني عامر حلف وعهد، فخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك الرجلين، وكان منازل بني النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقها. قال محمد بن إسحاق بن يسار في كتابه السيرة: ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير، يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر، للذين قتل عمرو بن أمية الضمري؛ للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما، فيما حدثني يزيد بن رومان، وكان بني النضير وبني عامر عقد وحلف. فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا: نعم، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه. ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم - فمن رجل يعلو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرة، فيرحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي، رضي الله عنهم. فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة، فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيته داخل المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم

الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير لهم. ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها. فنادوه: أن يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعييه على من صنعته، فما بال قطع النخل وتحريقها؟ وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج، منهم عبد الله بن أبي بن سلول، ووديعه، ومالك بن أبي قوئل، وسويد وداعس، قد بعثوا إلى بني النضير: أن اثبتوا وتمتعوا فإننا لن نسلمكم، إن قوتلتهم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة، ففعل، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به. فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وخذلوا الأموال لرسول الله ﷺ، فكانت لرسول الله ﷺ خاصة يضعها حيث شاء، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار. إلا أن سهل بن حنيف وأبا دجانة سماك بن خرشة ذكرا فقراً، فأعطاهما رسول الله ﷺ. قال: ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان: يامين بن غمير بن كعب بن عمرو بن جحاش، وأبو سعد بن وهب أسلموا على أموالهما فأحرزاهما. قال ابن إسحاق: وقد حدثني بعض آل يامين: أن رسول الله ﷺ قال ليامين: «ألم تر ما لقيت من ابن عمك، وما هم به من شائي». فجعل يامين بن غمير لرجل جعل على أن يقتل عمرو بن جحاش، فقتله فيما يزعمون. قال ابن إسحاق: ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها. وهكذا روى يونس بن بكير، عن إسحاق، بنحو ما تقدم. فقلوه: «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ». يعني: بني النضر: «مَنْ يَذَرِيهِمْ يَذُلُّ لَأُولَى الْكُفْرِ».

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن أبي سعد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: من شك في أن أرض المحشر ها هنا - يعني الشام فليثل هذه الآية: «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ»، قال لهم رسول الله ﷺ: «اخرجوا». قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر». وحدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن عوف، عن الحسن قال: لما أجلى رسول الله ﷺ بني النضير، قال: «هذا أول الحشر، وأنا على الأثر». ورواه ابن جرير، عن بُنْدَار، عن ابن أبي عدي، عن عوف، عن الحسن، به. وقوله: «مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا؟» أي: في مدة حصاركم لهم وقصرها، وكانت ستة أيام، مع شدة حصونهم ومنعتها؛ ولهذا قال: «وَوَلَّوْا أَهْلَهُمْ مَا بَيْنَهُمْ خُصُومُهُمْ مِنْ اللَّهِ فَأَنْتُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَخْشَوْا». أي: جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال، كما قال في الآية الأخرى: «قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآفَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْفَوَاصِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ الشَّقَقُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَنْتُمْ الْمَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾» [النحل: ٢٦]. وقوله: «وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ» أي: الخوف والهلع والجزع، وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصروهم الذي نُصِرَ بالربح مسيرة شهر، صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: «يَخْرُجُونَ يَوْمَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْكُفَرِيِّينَ»: قد تقدم تفسير ابن إسحاق لذلك، وهو نقض ما استحسَنوه من سقوفهم وأبوابهم، وتحملها على الإبل، وكذا قال عروة بن الزبير، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد. وقال مقاتل بن حيان: كان رسول الله ﷺ يقاتلهم، فإذا ظهر على درب أو دار، هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال. وكان اليهود إذا علوا مكاناً أو غلبوا على دَرَبٍ أو دار، نقبوا من أدبارها ثم حصنوها ودربوها، يقول الله تعالى: «فَاعْتَرِبُوا يَتَأُولَى الْأَبْصَرِ». وقوله: «وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَمَذَّيْبُهُمْ فِي الدُّنْيَا» أي: لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء، وهو النفي من ديارهم وأموالهم، لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسي، ونحو ذلك، قاله الزهري، عن عروة، والسدي وابن زيد؛ لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم في الدار الدنيا مع ما أعد لهم في الآخرة من العذاب في نار جهنم.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح - كاتب الليث - حدثني الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير قال: ثم كانت وقعة بني النضير، وهم طائفة من اليهود، على رأس ستة أشهر من وقعة بدر. وكان منزلهم بناحية من المدينة، فحاصروهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء، وأن لهم ما أقلت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة، وهي السلاح، فأجلاهم رسول الله ﷺ قبل الشام. قال: والجلاء أنه كُتِبَ عليهم في آي من التوراة، وكانوا من سبط لم يصيبهم الجلاء قبل ما سلط عليه رسول الله ﷺ، وأنزل الله فيهم: «سَجَّ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» إلى قوله: «وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ». وقال عكرمة: الجلاء: القتل. وفي رواية عنه: الفناء. وقال قتادة: الجلاء: خروج الناس من البلد إلى البلد. وقال الضحاك: أجلاهم إلى الشام، وأعطى كل ثلاثة بعيراً وسقاء، فهذا الجلاء. وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أحمد بن كامل القاضي، حدثنا محمد بن سعيد العوفي، حدثني أبي، عن عمي، حدثني أبي عن جدي، عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ قد حاصروهم حتى بلغ منهم كل مبلغ، فأعطوه ما أراد منهم، فصالحهم على

أن يحقن لهم دماءهم، وأن يخرجهم من أرضهم ومن ديارهم وأوطانهم، وأن يسيرهم إلى أذرعات الشام، وجعل لكل ثلاثة منهم يعبراً وسقاء، والجلاء إخراجهم من أرضهم إلى أرض أخرى. وروي أيضاً من حديث يعقوب بن محمد الزهري، عن إبراهيم بن جعفر بن محمود بن محمد بن مسلمة، عن أبيه، عن جده، عن محمد بن مسلمة؛ أن رسول الله ﷺ بعثه إلى بني النضير، وأمره أن يؤجلهم في الجلاء ثلاث ليال. وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ ثَائِرٌ﴾ أي: حتم لازم لا بد لهم منه. وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: إنما فعل الله بهم ذلك وسلط عليهم رسوله وعباده المؤمنين؛ لأنهم خالفوا الله ورسوله، وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين في البشارة بمحمد ﷺ، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم. ثم قال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. وقوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَكَسْتُمْهَا فَأَيُّمَةٌ عَلَى أَسْوَأِهَا يَأْتِيَنَّ اللَّهُ وَبِخَيْرِ الْفِتْيَيْنِ﴾ (٥) اللين: نوع من التمر، وهو جيد. قال أبو عبيدة: وهو ما خالف العجوة والبزني من التمر. وقال كثيرون من المفسرين: اللينة: ألوان التمر سوى العجوة. قال ابن جرير: هو جميع النخل. ونقله عن مجاهد: وهو البؤيرة أيضاً؛ وذلك أن رسول الله ﷺ لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم، وإرهاباً وإرعاباً لقلوبهم. فروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان، وقتادة، ومقاتل بن حيان أنهم قالوا: فبعث بنو النضير يقولون لرسول الله ﷺ: إنك تنهى عن الفساد، فما بالك تأمر بقطع الأشجار؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة، أي: ما قطعتم وما تركتم من الأشجار، فالجميع بإذن الله ومشيتته وقدرته ورضاه، وفيه نكايه العدو، وخزي لهم، وإرغام لأنوفهم. وقال مجاهد: نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل، وقالوا: إنما هي مغنم المسلمين. فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه، وتحليل من قطعته من الإثم، وإنما قطعه وتركه بإذنه. وقد روي نحو هذا مرفوعاً، فقال النسائي: أخبرنا الحسن بن محمد، عن عفان، حدثنا حفص بن غياث، حدثنا حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، في قوله: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَكَسْتُمْهَا فَأَيُّمَةٌ عَلَى أَسْوَأِهَا يَأْتِيَنَّ اللَّهُ وَبِخَيْرِ الْفِتْيَيْنِ﴾ (٥) قال: يستنزلونهم من حصونهم وأمرؤا بقطع النخل، فحاك في صدورهم، فقال المسلمون: قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً، فلنسلن رسول الله ﷺ: هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ﴾.

وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا حفص، عن ابن جريج، عن سليمان بن موسى، عن جابر - وعن أبي الزبير، عن جابر - قال: رخص لهم في قطع النخل، ثم شدد عليهم، فاتوا النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، علينا إثم فيما قطعنا؟ أو علينا وزر فيما تركنا؟ فأنزل الله، ﷻ: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَكَسْتُمْهَا فَأَيُّمَةٌ عَلَى أَسْوَأِهَا يَأْتِيَنَّ اللَّهُ﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قطع نخل بني النضير وحرّق. وأخرجه صاحب الصحيح من رواية موسى بن عقبة، بنحوه، ولفظ البخاري من طريق عبد الرزاق، عن ابن جريج، عن موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر قال: حاربت النضير وقريظة، فأجلى بني النضير وأقر قريظة ومن عليهم حتى حاربت قريظة فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين، إلا بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ فأمنهم وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلهم بني قينقاع، وهم رهط عبد الله بن سلام، ويهود بني حارثة، وكل يهود بالمدينة. ولهما أيضاً عن قتيبة، عن الليث بن سعد، عن نافع، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷻ حرّق نخل بني النضير وقطع - وهي البؤيرة - فأنزل الله، ﷻ فيه: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَكَسْتُمْهَا فَأَيُّمَةٌ عَلَى أَسْوَأِهَا يَأْتِيَنَّ اللَّهُ وَبِخَيْرِ الْفِتْيَيْنِ﴾ (٥). وللبخاري، رحمه الله، من رواية جؤيزية بن أسماء، عن نافع، عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷻ حرّق نخل بني النضير. ولها يقول حسان بن ثابت، رضي الله عنه:

وهان على سرة بني لؤي
فأجابه أبو سفيان بن الحارث يقول:

أدام الله ذلك من صنيع
ستعلم أننا منها بئزّه

كذا رواه البخاري، ولم يذكره ابن إسحاق. وقال محمد بن إسحاق: وقال كعب بن مالك يذكر إجلاء بني النضير وقتل ابن الأشرف:

لقد خزيت بغدزتها الحبور
وذلك أنهم كفروا برّب

كذلك الدهر ذو صرّف يَدُوّر
عظيم أمره أمر كبير

وقد أوتوا معاً فهماً وعِلْماً
نذير صادق أذى كتاباً
فقال: ما أتيت بأمر صدق
فقال: بلى لقد أديت حقاً
فمن يثبعه يهد لكل رُشد
فلما أشربوا غُذراً وكُفراً
أرى الله النبيّ برأي صدق
فأَيَّدَهُ وسلَّطه عليهم
فغودرَ منهمو كعب صريعاً
على الكُفَّين ثم وقذ علثه
بأمر مُحَمَّد إذ دس ليلاً
فما كره فأنزله بِمَكْر
فتلك بئس النُصير بدار سوء
غداة أنافهم في الزخف رهواً
وغشَّان الحمامة موازوه
فقال: السلم ويحكمو فصبتوا
فلذاقوا غيب أنهرهمو وبالا
وأجلوا عامدين لقبيلتقاع
قال: وكان مما قيل من الأشعار في بني النضير قول ابن لقيم العنسي - ويقال: قالها قيس بن بحر بن طريف، قال ابن هشام الأشجعي:

أهلي فداة لامرئ غير هالك
يقيلون في جمر الغضاة ويذُلُّوا
فلإن يك ظني صادقاً بمُحمَّد
يؤم بها عمرو بن بُهثة إنهم
عليهن أبطال مساعير في الوغى
وكل رقيق الشفرتين مهتدي
فمن مبلغ عني قريشاً رسالة
بأن أخاكم فاعلمن مُحَمَّداً
فديئوا له بالحق تجسمن أمورك
نبي تلافته من الله رحمة
فقد كان في بذل لعنري عبرة
غداة أتى في الخزرجية عامداً
مُعاناً بزوح القدس ينكي عدوه
رسولاً من الزحمن يثلُّو كتابه
أرى أنره يزداذ في كل مَوطن

أحل اليهود بالحسي المُزئم
أهيبض عودا بالودي المُكَّم
يروا خيله بين الضلا ويرمزم
عذر وما حي صديق كمُجرم
يهُزُون أطراف الوشيح المُقَمَّم
ثورثن من أزمان عاد وجُزهم
فهل بعدهم في المجد من مُتَكْرَم
تليد التدى بين الحجون وزمزم
وتسُمُوا من الدنيا إلى كل مُعظَّم
ولا تسألوه أنر غيب مُرَجَّم
لكنم يا قريش والقلب المُلَمَّم
إليكم مُطيعاً للعظيم المُكْرَم
رسولاً من الزحمن حقاً بِمُغْلَم
فلما أنار الحق لم يتلغَّم
علواً لأمر حمه الله مُحْكَم

وقد أورد ابن إسحاق، رحمه الله، ها هنا أشعاراً كثيرة، فيها آداب ومواعظ وحكم، وتفصيل للقصة، تركنا باقيها اختصاراً واكتفاء بما ذكرناه، والله الحمد والمنة. قال ابن إسحاق: كانت وقعة بني النضير بعد وقعة أحد وبعد بئر معونة. وحكى

البخاري، عن الزهري، عن عروة أنه قال: كانت وقعة بني النضير بعد بدر بستة أشهر.

﴿وَمَا آتَاكَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ لَأَنَّهُ أَهْلُ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِالرُّسُلِ فَعَدُّوهُ وَمَا نَهَيْتُمْ عَنْهُ فَأَتَوْهُ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾.

يقول تعالى مبيناً لعل الغي، وما صفته؟ وما حكمه؟ فالغي: كل مال أخذ من الكفار بغير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب، كأموال بني النضير هذه، فإنها مما لم يُوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، أي: لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصالاة، بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم من هبة رسول الله ﷺ، فأفاده الله على رسوله؛ ولهذا تصرف فيه كما شاء، فردّه على المسلمين في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله ﷻ، في هذه الآيات، فقال: ﴿وَمَا آتَاكَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أي: من بني النضير ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يعني: الإبل، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: هو قدير لا يُغالب ولا يُمانع، بل هو القاهر لكل شيء. ثم قال: ﴿وَمَا آتَاكَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ أي: جميع البلدان التي تفتح هكذا، فحكمها حكم أموال بني النضير؛ ولهذا قال: ﴿فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ إلى آخرها والتي بعدها. فهذه مصارف أموال الغي ووجوهه. قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عمرو ومغمر، عن الزهري، عن مالك بن أوس بن الحدثان، عن عمر، رضي الله عنه، قال: كانت أموال بني النضير مما آفاه الله على رسوله مما لم يُوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة ستة - وقال مرة: قوت ستة - وما بقي جعله في الكراع والسلاح في سبيل الله ﷻ. هكذا أخرجه أحمد ما هنا مختصراً، وقد أخرجه الجماعة في كتبهم - إلا ابن ماجه - من حديث سفيان، عن عمرو بن دينار، عن الزهري، به. وقد رويناه مطولاً، فقال أبو داود، رحمه الله: حدثنا الحسن بن علي ومحمد بن يحيى بن فارس - المعنى واحد - قالوا: حدثنا بشر بن عمر الزهراني، حدثني مالك بن أنس، عن ابن شهاب، عن مالك بن أوس قال: أرسل إليّ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، حين تعالى النهار، فجنّته فوجدته جالساً على سرير مفضياً إلى رماله، فقال حين دخلت عليه: يا مال، إنه قد دفأ أهل أبيات من قومك، وقد أمرت فيهم بشيء، فاقسم فيهم. قلت: لو أمرت غيري بذلك؟ فقال: خذه. فجاءه يرفاً، فقال: يا أمير المؤمنين، هل لك في عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص؟ فقال: نعم. فأذن لهم فدخلوا، ثم جاءه يرفاً فقال: يا أمير المؤمنين، هل لك في العباس وعلي؟ قال: نعم. فأذن لهم فدخلوا، فقال العباس: يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا - يعني: علياً - فقال بعضهم: أجل يا أمير المؤمنين، اقض بينهما وارحمهما. قال مالك بن أوس: خُيِّلَ إليّ أنهما قدما أولئك النفر لذلك. فقال عمر، رضي الله عنه: انتدأ. ثم أقبل على أولئك الرهط فقال: أنشدكم بالله الذي ياذن تقوم السماء والأرض، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركنا صدقة». قالوا: نعم. ثم أقبل على علي والعباس فقال: أنشدكما بالله الذي ياذن تقوم السماء والأرض، هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركنا صدقة». فقالا: نعم. فقال: فإن الله خص رسوله بخاصة لم يخص بها أحداً من الناس، فقال: ﴿وَمَا آتَاكَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾. فكان آفاه الله على رسوله أموال بني النضير، فوالله ما استأثر بها عليكم ولا أحرزها دونكم، فكان رسول الله ﷺ يأخذ منها نفقة ستة - أو: نفقته ونفقة أهله ستة - ويجعل ما بقي أسوة المال. ثم أقبل على أولئك الرهط فقال: أنشدكم بالله الذي ياذن تقوم السماء والأرض: هل تعلمون ذلك؟ قالوا: نعم. ثم أقبل على علي والعباس فقال: أنشدكما بالله الذي ياذن تقوم السماء والأرض: هل تعلمان ذلك؟ قالوا: نعم. فلما توفي رسول الله ﷺ قال أبو بكر: «أنا ولي رسول الله»، فجنّت أنت وهذا إلى أبي بكر، تطلب أنت ميراثك من ابن أخيك، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها، فقال أبو بكر، رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «لا نورث، ما تركنا صدقة». والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق. فوليا أبو بكر، فلما توفي قلت: أنا ولي رسول الله ﷺ وولي أبي بكر، فوليتا ما شاء الله أن إليها، فجنّت أنت وهذا، وأنتما جميع وأمركما واحد، فسألتمانيها، فقلت: إن شئتما فأتا أدفعها إليكما على أن عليكما عهد الله أن تليها بالذي كان رسول الله ﷺ يليها، فأخذتماها مني على ذلك، ثم جئتاني لأقضي بينكما بغير ذلك. والله لا أقضي بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة، فإن عجزتما عنها فردّاها إلي. أخرجه من حديث الزهري، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عارم وعفان قالوا: حدثنا معتمر، سمعت أبي يقول: حدثنا أنس بن مالك، عن نبي الله ﷺ أن الرجل كان يجعل له من ماله النخلات، أو كما شاء الله، حتى فتحت عليه قريظة والنضير. قال: فجعل يرذ بعد ذلك، قال: وإن

ولا أحسن بذلاً في كثير، لقد كفونا المؤنة، وأشركونا في المهنة، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله! قال: «لا، ما أثبتتم عليهم ودعوتهم الله لهم». لم أره في الكتب من هذا الوجه.

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا سفيان، عن يحيى بن سعيد، سمع أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال: دعا النبي ﷺ للأنصار أن يقطع لهم البحرين، قالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها. قال: «إما لا، فاصبروا حتى تلقوني، فإنه سيصيبكم بعدي أثره». تفرد به البخاري من هذا الوجه. وقال البخاري: حدثنا الحكم بن نافع، أخبرنا شعيب، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قالت الأنصار: أقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. قال: لا. فقالوا: تكفونا المؤنة ونشرككم في الشجرة؟ قالوا: سمعنا وأطعنا. تفرد به دون مسلم. «وَلَا يَحْدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا» أي: ولا يجدون في أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزل والشرف، والتقديم في الذكر والرتبة. قال الحسن البصري: «وَلَا يَحْدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً» يعني: الحسد. «مِمَّا أُوتُوا»: قال قتادة: يعني فيما أعطى إخوانهم. وكذا قال ابن زيد. ومما يستدل به على هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن أنس قال: كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ، فقال: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة». فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، قد تعلق نعليه بيده الشمال، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى. فلما كان في اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ مثل مقالته أيضاً، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى. فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال: «إني لأحيت أبي فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت». قال: نعم. قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي، فلم يره يقوم من الليل شيئاً، غير أنه إذا تعازى وتقلب على فراشه، ذكر الله وكبر، حتى يقوم لصلاة الفجر. قال عبد الله: غير أني لم أسمع يقول إلا خيراً، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن احتقر عمله، قلت: يا عبد الله، لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة». فطلعت أنت الثلاث المرات، فأردت أن أوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت. فلما وليت دعائي فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا تنطق. ورواه النسائي في اليوم والليلة، عن سويد بن نصر، عن ابن المبارك، عن معمر به. وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين، لكن رواه عقيل وغيره عن الزهري، عن رجل، عن أنس، فالله أعلم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: «وَلَا يَحْدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا» يعني: «مِمَّا أُوتُوا»: المهاجرون. قال: وتكلم في أموال بني النضير بعض من تكلم من الأنصار، فعاتبهم الله في ذلك، فقال: «وَمَا آتَاكَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ يَنْتَهَ مِمَّا أَوْحَشَتْ عَلَيْهِ مِنْ حَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَسْلُطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾»، قال: وقال رسول الله ﷺ: «إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم». فقالوا: أموالنا بيننا قطائع. فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك؟». قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «هم قوم لا يعرفون العمل، فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر». فقالوا: نعم يا رسول الله. وقوله: «وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» يعني: حاجة، أي: يقدمون المحاولج على حاجة أنفسهم، ويبدؤون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الصدقة جهد المقل». وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله: «وَيُلْمِزُونَكَ بِمَا أَنْفَقُوا» [الإنسان: ٨]. وقوله: «وَمَا آتَاكَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ يَنْتَهَ مِمَّا أَوْحَشَتْ عَلَيْهِ مِنْ حَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَسْلُطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾» [البقرة: ١٧٧]. فإن هؤلاء يتصدقون وهم يحبون ما تصدقوا به، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه. ومن هذا المقام تصدق الصديق، رضي الله عنه، بجميع ماله، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟». فقال: أبقيت لهم الله ورسوله. وهذا الماء الذي عُرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه، وهو جريح مقل أحوج ما يكون إلى الماء، فردّه الآخر إلى الثالث، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم، رضي الله عنهم وأرضاهم. وقال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن كثير، حدثنا أبو أسامة، حدثنا فضيل بن غزوان، حدثنا أبو حازم الأشجعي، عن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً، فقال النبي ﷺ: «ألا رجل يُضَيَّفُ هذا الليلة، رحمه الله؟». فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيفُ رسول الله ﷺ لا تدخره شيئاً. فقالت: والله ما

عندي إلا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبيُّ العشاء فتزيمهم وتعالى فأطفئني السراج وتطوى بطوننا الليلة. ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ، فقال: «لقد عجب الله، عز وجل - أو: ضحك - من فلان وفلانة». وأنزل الله ﷻ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾. وكذا رواه البخاري في موضع آخر، ومسلم والترمذي والنسائي من طرق، عن فضيل بن غزوان، به نحوه. وفي رواية لمسلم تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة، رضي الله عنه. وقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْثِرْ شَيْئًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتْلِفُونَ﴾ أي: من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح. قال أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا داود بن قيس الغراء، عن غبيد الله بن مفسم، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظلم، وإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم». انفرد بإخراجه مسلم، فرواه عن القعقني، عن داود بن قيس، به. وقال الأعمش وشعبة، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن الحارث، عن زهير بن الأقرم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الفحش، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفتش، وإياكم والشح؛ فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور ففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا».

ورواه أحمد وأبو داود من طريق شعبة، والنسائي من طريق الأعمش، كلاهما عن عمرو بن مرة، به. وقال الليث، عن يزيد بن الهاد، عن سهيل بن أبي صالح، عن صفوان بن أبي يزيد، عن القعقاع بن الجلاج، عن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عتبة بن سليمان، أخبرنا ابن المبارك، حدثنا المسعودي، عن جامع بن شداد، عن الأسود بن هلال قال: جاء رجل إلى عبد الله فقال: يا أبا عبد الرحمن، إني أخاف أن أكون قد هلك! فقال له عبد الله: وما ذاك؟ قال: سمعت الله يقول: ﴿وَمَنْ يُؤْثِرْ شَيْئًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتْلِفُونَ﴾، وأنا رجل شحيح، لا أكاد أن أخرج من يدي شيئاً! فقال عبد الله: ليس ذلك بالشح الذي ذكر في القرآن، إنما الشح الذي ذكر الله في القرآن أن تاكل مال أخيك ظلماً، ولكن ذلك البخل، وبش الشيء البخل. وقال سفيان الثوري، عن طارق بن عبد الرحمن، عن سعيد بن جبيرة، عن أبي الهياج الأسدي قال: كنت أطوف بالبيت، فرأيت رجلاً يقول: «اللهم قني شح نفسي». لا يزيد على ذلك، فقلت له، فقال: «إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ولم أزن ولم أفعل»، وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه. ورواه ابن جرير. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن إسحاق، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا مجمع بن جارية الأنصاري، عن عمه يزيد بن جارية، عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «برئ من الشح من أدى الزكاة، وقرى الضيف، وأعطى في النانية». وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾: هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفتي، وهم المهاجرون ثم الأنصار، ثم التابعون بإحسان، كما قال في آية براءة: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَٰئِكَ مِنْ هَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٠]. فالتابعون لهم بإحسان هم: المتبعون لأنصارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة، الداعون لهم في السر والعلانية؛ ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ﴾ أي: قائلين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ أي: بغضاً وحسداً للذين آمنوا ربنا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ. وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة: أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفتي نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا موسى بن عبد الرحمن المسروقي، حدثنا محمد بن بشر، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر، عن أبيه، عن عائشة أنها قالت: أمروا أن يستغفروا لهم، فسبواهم! ثم قرأت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ الآية. وقال إسماعيل بن علية، عن عبد الملك بن عمير، عن مسروق، عن عائشة قالت: أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ، فسببتموهم. سمعت نبيكم ﷺ يقول: «لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها». رواه البغوي. وقال أبو داود: حدثنا مسدد، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا أيوب، عن الزهري قال: قال عمر، رضي الله عنه: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْفَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خُبْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ قال الزهري: قال عمر: هذه لرسول الله ﷺ خاصة، قرى عربية: فذك وكذا وكذا، فما آفأه الله على رسوله من أهل القرى فله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، ﴿وَالَّذِينَ يَبُوءُوا بِالدَّارِ وَالْإِيمَانِ مِنْ قَبْلِهِ﴾،

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ، فاستوعبت هذه الآية الناس ، فلم يبق أحد من المسلمين إلا له فيها حق - قال أيوب : أو قال : حظ - إلا بعض من تملكون من أرقائكم . كذا رواه أبو داود ، وفيه انقطاع .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن أيوب ، عن عكرمة ابن خالد ، عن مالك بن أوس بن الحذثان قال : قرأ عمر بن الخطاب : ﴿إِنَّمَا الْمَدَنِيُّ لِلْفَقْرَةِ وَالْمَسْكِينِ﴾ حتى بلغ ﴿عَلَيْكُمْ حَكِيمٌ﴾ [التوبة : ٦٠] ، ثم قال : هذه لهؤلاء ، ثم قرأ : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأَ اللَّهُ تَحْسِبُهُمْ لِلرَّسُولِ وَلَئِنْ الْفَرَسُ وَالْإِنْسَانُ وَالْمَسْكِينُ﴾ [الأنعام : ٤١] ، ثم قال : هذه لهؤلاء ، ثم قرأ : ﴿مَّا آتَاكَ اللَّهُ عَلَى رُسُلِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ حتى بلغ للفقراء ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَكَ مِنَ الْقُرَى﴾ ، ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ، ثم قال : استوعبت هذه الآية المسلمين عامة ، وليس أحد إلا له فيها حق ، ثم قال : لئن عشت لياثنين الراعي - وهو بسرو جدير - نصيبه فيها ، لم يعرق فيها جبينه .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَقُولُونَ لَا غِنَى لَنَا مِنَ اللَّهِ وَلَا غِنَى لَنَا مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [١١] ﴿لَيْنَ أَفْرَجَا لَا يَخْرُجُونَ مِنْهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْكَلْنَ الْأَذَى ثُمَّ لَا يَضُرُّهُمْ﴾ [١٢] ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبًا فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [١٣] ﴿لَا يَتَّقُونَكُمْ جِئِمَا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جَدْرٍ بِأَسْهُرَ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جِئِمَا وَقَوْلُهُمْ شَيْءٌ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [١٤] ﴿كَتَلَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قُرْبًا دَاوًا وَكَلَّ أَيْهِمْ وَلَمْ عَدَايَ أَيْمٍ﴾ [١٥] ﴿كَتَلَّ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٦] ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمْ أَنَّهُمْ فِي آثَارٍ خَلِيلٍ بَيْنَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [١٧] .

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه ، حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر من أنفسهم ، فقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَقُولُونَ لَا غِنَى لَنَا مِنَ اللَّهِ وَلَا غِنَى لَنَا مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [١١] ﴿لَيْنَ أَفْرَجَا لَا يَخْرُجُونَ مِنْهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْكَلْنَ الْأَذَى ثُمَّ لَا يَضُرُّهُمْ﴾ [١٢] ، قال الله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [١٣] أي : لكاذبون فيما وعدوهم به إما أنهم قالوا لهم قولاً ومن نيتهم ألا يفوا لهم به ، وإما أنهم لا يقع منهم الذي قالوه ؛ ولهذا قال : ﴿وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ [١٢] أي : لا يقاتلون معهم ، ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ﴾ [١٢] أي : قاتلوا معهم ﴿لَيُؤْكَلْنَ الْأَذَى ثُمَّ لَا يَضُرُّهُمْ﴾ [١٢] ، وهذه بشارة مستقلة بنفسها . ثم قال تعالى : ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبًا فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [١٣] أي : يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله ، كقوله : ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ يَخْلُتُونَ الْكَافِرِينَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء : ٧٧] ؛ ولهذا قال : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [١٣] . ثم قال : ﴿لَا يَتَّقُونَكُمْ جِئِمَا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جَدْرٍ﴾ [١٤] يعني : أنهم من جبينهم وطمعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقابلة ، بل إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين ، فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة . ثم قال : ﴿بِأَسْهُرَ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ [١٤] أي : عداوتهم فيما بينهم شديدة ، كما قال : ﴿وَلِيَقِمْ بَيْنَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام : ٦٥] ؛ ولهذا قال : ﴿تَحْسِبُهُمْ جِئِمَا وَقَوْلُهُمْ شَيْءٌ﴾ [١٤] أي : تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين ، وهم مختلفون غاية الاختلاف . قال إبراهيم النخعي : يعني : أهل الكتاب والمنافقين ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [١٤] . ثم قال : ﴿كَتَلَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قُرْبًا دَاوًا وَكَلَّ أَيْهِمْ وَلَمْ عَدَايَ أَيْمٍ﴾ [١٥] قال مجاهد ، والسدي ، ومقاتل بن حيان : يعني : كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر . وقال ابن عباس : ﴿كَتَلَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [١٥] يعني : يهود بني قينقاع . وكذا قال قتادة ، ومحمد بن إسحاق . وهذا القول أشبه بالصواب ، فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا . وقوله : ﴿كَتَلَّ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ [١٥] يعني : مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين ، وقول المنافقين لهم : ﴿وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ [١٢] ثم لما حقت الحقائق وجد بهم الحصار والقتال ، تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة ، مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذ سول للإنسان - والعباد بالله - الكفر ، فإذا دخل فيما سول له تبرأ منه وتصل ، وقال : ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ . وقد ذكر بعضهم ما هنا قصة لبعض عباد بني إسرائيل هي كالمثال لهذا المثل ، لا أنها المرادة وحدها بالمثل ، بل هي منه مع غيرها من الوقائع المشاكلة لها ، فقال ابن جرير : حدثنا خلاد بن أسلم ، أخبرنا النضر بن شميل ، أخبرنا شعبة ، عن أبي إسحاق ، سمعت عبد الله بن نهيك قال : سمعت علياً ، رضي الله عنه ، يقول : إن راهباً تعبد ستين سنة ، وإن الشيطان أراد فاعياه ، فعمد إلى امرأة فأجتها ولها إخوة ، فقال لإخوتها : عليكم بهذا القس فيداويها . قال : فجاءوا بها إليه فداواها ، وكانت عنده . فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبت ، فأتاها فحملت ، فعمد إليها فقتلها ، فجاء إخوتها ، فقال الشيطان للراهب : أنا صاحبك ، إنك أعيينني ، أنا صنعت هذا بك فاطعني أنجك مما صنعت بك ، اسجد لي سجدة . فسجد له ، فلما سجد له قال : إني بريء منك ، إني أخاف الله رب العالمين ، فذلك قوله : ﴿كَتَلَّ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ [١٥] . وقال ابن جرير : حدثني يحيى بن إبراهيم المسعودي ، حدثنا أبي ، عن أبيه ، عن جده ، عن

الصخر والآبار، هذا كتاب الله لا تنفى عجائبه فاستضيؤوا منه ليوم ظلمة، واتضحوا بسنائه وبيانه. إن الله أنشئ على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُكْسِرُونَ﴾ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَ رَبَّهُمْ رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعَةً ﴿[الانباء: ٩٠]﴾، لا خير في قول لا يراد به وجه الله، ولا خير في مال لا ينفق في سبيل الله، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم. هذا إسناد جيد، ورجاله كلهم ثقات، وشيخ حريز بن عثمان، وهو نعيم بن نمحة، لا أعرفه بنفي ولا إثبات، غير أن أبا داود السجستاني قد حكم بأن شيوخ حريز كلهم ثقات. وقد روي لهذه الخطبة شواهد من وجوه آخر، والله أعلم. وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أي: لا يستوي هؤلاء وهؤلاء في حكم الله يوم القيامة، كما قال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْنُهُمْ وَمَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿[الجناب: ٢١]﴾، وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَالَّذِينَ لَا تُؤْمِنُونَ﴾ الآية [غافر: ٥٨]. وقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ ﴿[مر: ٢٨]﴾؟ في آيات آخر دلالات على أن الله، سبحانه، يكرم الأبرار، ويهين الفجار؛ ولهذا قال ما هنا: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي: الناجون المسلمون من عذاب الله، ﷻ.

﴿لَوْ أَنَّكَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا بَيْنَ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلِ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿[٢١]﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْقِيَامُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿[٢٢]﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَيْكَ الْفُتُورُ أَلَمْ تَكُنْ لِلْمُؤْمِنِينَ الْغَنِيُّ الرَّحِيمُ الْجَبَّارُ الْمُكَرِّمُ شَبَّحَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿[٢٣]﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلَّاقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿[٢٤]﴾.

يقول تعالى معظمًا لأمر القرآن، ومبينًا علو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد: ﴿لَوْ أَنَّكَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا بَيْنَ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: فإن كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه، لخشع وتصدع من خوف الله، ﷻ، فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع، وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه؟ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلِ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. قال العوفي: عن ابن عباس في قوله: ﴿لَوْ أَنَّكَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا﴾ إلى آخرها، يقول: لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه، لتصدع وخشع من ثقله، ومن خشية الله. فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع. ثم قال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلِ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وكذا قال قتادة، وابن جرير. وقد ثبت في الحديث المتواتر: أن رسول الله ﷺ لما عمل له المنبر، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد، فلما وضع المنبر أول ما وضع، وجاء النبي ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر، فعند ذلك حن الجذع وجعل يش كما يش الصبي الذي يسكن، لما كان يسمع من الذكر والوحي عنده. ففي بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصري بعد إيراد: «فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع». وهكذا هذه الآية الكريمة، إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته، لخشعت وتصدعت من خشيته، فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم؟ وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِيَ بِهِ الْمَوْتُ﴾ الآية [الزمر: ٢١]. وقد تقدم أن معنى ذلك: أي لكان هذا القرآن. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مِنَ الْحَمَادَةِ لَمَا يَنْفَعُ بِهِ الْأَنْهَارُ وَلَوْ أَنَّ مِنَ الْمَاءِ لَمَا يَبْقَى مِنْهَا لَمَّا يَبْقَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٤]. ثم قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْقِيَامُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿[٢٢]﴾: أخبر تعالى أنه الذي لا إله إلا هو فلا رب غيره، ولا إله للوجود سواه، وكل ما يعبد من دونه فباطل، وأنه عالم الغيب والشهادة، أي: يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا فلا يخفى عليه شيء في الأرض، ولا في السماء من جليل وحقيق وصغير وكبير، حتى الذر في الظلمات. وقوله: ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾: قد تقدم الكلام على ذلك في أول التفسير، بما أغنى عن إعادته ما هنا. والمراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، وقد قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال: ﴿قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ فَيُزِيلْ ذَلِكَ فَيَقْرَأُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ﴿[٥٨]﴾ [يونس: ٥٨]. وقال: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَيْكَ﴾ أي: المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة. وقوله: ﴿الْقُدُّوسُ﴾: قال وهب بن منبه: أي الطاهر. وقال مجاهد، وقاتة: أي المبارك. وقال ابن جريج: تقدسه الملائكة الكرام. ﴿أَلَكُمُ﴾ أي: من جميع العيوب والنقائص؛ بكماله في ذاته وصفاته وأفعاله. وقوله: ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس: أي آمن خلقه من أن يظلمهم. وقال قتادة: آمن بقوله إنه حق. وقال ابن زيد: صدق عباده المؤمنين في إيمانهم به. وقوله: ﴿الْمُهَيِّوْنَ﴾: قال ابن عباس وغير واحد: أي: الشاهد على خلقه بأعمالهم، بمعنى: هو

إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جَهْدًا فِي سَبِيلِ رَأَيْتُمْ مَرْحَبًا فَيُورُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَتَاكُمْ بِمَا أَنْفَعْتُمْ وَمَا أَنْفَعْتُمْ وَمَنْ يَقَعْلَهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾
 إِنْ يَنْفَعُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ يَأْسُوهُ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُهُمْ وَلَا أَؤَلَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَقُولُ يَنْفَعُكُمْ
 وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾

كان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين، وكان من أهل بدر أيضاً، وكان له بمكة أولاد ومال، ولم يكن من قريش أنفسهم، بل كان حليفاً لعثمان. فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة لما نقض أهلها العهد، فأمر النبي ﷺ المسلمين بالتجهيز لغزوهم، وقال: «اللهم، عَمَّ عليهم خبرنا». فعمد حاطب هذا فكتب كتاباً، وبعث مع امرأة من قريش إلى أهل مكة، يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم، ليتخذ بذلك عندهم يداً، فأطلع الله رسوله على ذلك، استجابة لدعائه. فبعث في أثر المرأة فأخذ الكتاب منها، وهذا بين في الحديث المتفق على صحته. قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عمرو، أخبرني حسن بن محمد بن علي، أخبرني عبيد الله بن أبي رافع - وقال مرة: إن عبيد الله بن أبي رافع أخبره -: أنه سمع علياً، رضي الله عنه، يقول: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها». فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا: أخرجي الكتاب. قالت: ما معي كتاب. قلنا: لتخرجن الكتاب أو لثلقتن الثياب. قال: فأخرجت الكتاب من عقاصها، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب، ما هذا؟». قال: لا تعجل علي، إني كنت امرأ مخلصاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كُفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضاء بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «إنه صدقكم». فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله أطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». وهكذا أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه، من غير وجه، عن سفيان بن عُيينة، به. وزاد البخاري في كتاب «المغازي»: فأنزل الله السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَجِدُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ وقال في كتاب التفسير: قال عمرو: ونزلت فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَجِدُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ قال: لا أدري الآية في الحديث أو قال عمرو. قال البخاري: قال علي - يعني: ابن المديني -: قيل لسفيان: في هذا نزلت: ﴿لَا تَجِدُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾؟ فقال سفيان: هذا في حديث الناس، حفظته من عمرو، ما تركت منه حرفاً، وما أرى أحداً حفظه غيري. وقد أخرجاه في الصحيحين من حديث حصين بن عبد الرحمن، عن سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن علي قال: بعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثد، والزبير بن العوام، وكلنا فارس، وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فأدر كناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ﷺ قلنا: الكتاب؟ فقالت: ما معي كتاب. فأنخأناها فالتمسنا فلم نر كتاباً، قلنا: ما كذب رسول الله ﷺ! لتخرجن الكتاب أو لتجردنك. فلما رأنا الجذاموت إلى خجرتنا وهي مُحْتَجِزَةٌ بكساء فأخرجته. فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ، فقال عمر: يا رسول الله، قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلاضرب عنقه. فقال: «ما حملك على ما صنعت؟». قال: والله ما بي إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله، أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هنالك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله. فقال: «صدق، لا تقولوا له إلا خيراً». فقال عمر: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلاضرب عنقه. فقال: «اليس من أهل بدر؟» فقال: «لعل الله قد أطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة - أو: قد غفرت لكم. فدمعت عينا عُمر، وقال: الله ورسوله أعلم. هذا لفظ البخاري في «المغازي» في غزوة بدر، وقد روي من وجه آخر عن علي.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسن الهشنجاني، حدثنا عبيد بن يعيش، حدثنا إسحاق بن سليمان الرازي، عن أبي سنان - هو سعيد بن سنان - عن عمرو بن مرة الجملي، عن أبي البخري الطائي، عن الحارث، عن علي قال: لما أراد النبي ﷺ أن يأتي مكة، أسر إلى أناس من أصحابه أنه يريد مكة، فيهم حاطب بن أبي بلتعة وأفشى في الناس أنه يريد خيبر. قال: فكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة أن رسول الله ﷺ يريدكم. فأخبر رسول الله ﷺ، قال: فبعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثد، وليس منا رجل إلا وعنده فرس، فقال: «اتوا روضة خاخ، فإنكم ستلقون بها امرأة معها كتاب، فخذوه منها». فانطلقنا حتى رأيناها بالمكان الذي ذكر رسول الله ﷺ. قلنا لها: هات الكتاب. فقالت: ما معي كتاب. فوضعنا متاعها وفتشنا فلم نجد في متاعها، فقال أبو مرثد: لعله ألا يكون معها. قلنا: ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا. قلنا لها:

لتخرجته أو لثعريتك. فقالت: أما تتقون الله؟! أستم مسلمين؟ فقلنا: لتخرجنه أو لثعريتك. قال عمرو بن مرة: فأخرجته من حُجْرَتِهَا. وقال حبيب بن أبي ثابت: أخرجه من قُبْلَها. فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا الكتاب من حاطب بن أبي بلتعة. فقام عمر فقال: يا رسول الله، خان الله ورسوله، فائذن لي فلاضرب عنقه. فقال رسول الله: «أليس قد شهد بدرًا؟». قالوا: بلى. قال عمر: بلى، ولكنه قد نكث وظاهر أعداءك عليك. فقال رسول الله ﷺ: «فلعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، إني بما تعملون بصير». ففاضت عيناه وقلع رسول الله ﷺ إلى حاطب فقال: «يا حاطب، ما حملك على ما صنعت؟». فقال: يا رسول الله، إني كنت امرأاً مخلصاً في قريش، وكان لي بها مال وأهل، ولم يكن من أصحابك أحد إلا وله بمكة من يمنع أهله وماله، فكتبت إليهم بذلك ووالله - يا رسول الله - إني لمؤمن بالله ورسوله. فقال رسول الله ﷺ: «صدق حاطب، فلا تقولوا لحاطب إلا خيراً». قال حبيب بن أبي ثابت: فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ الآية. وهكذا رواه ابن جرير، عن ابن حميد، عن مهران، عن أبي سنان - سعيد بن سنان - بإسناده مثله. وقد ذكر ذلك أصحاب المغازي والسير، فقال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن غزوة بن الزبير وغيره من علمائنا قال: لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إليهم، ثم أعطاه امرأة - زعم محمد بن جعفر أنها من مزينة، وزعم غيره أنها: سارة، مولاة لبني عبد المطلب - وجعل لها جُعلاً على أن تبلغه قريشاً فجعلته في رأسها، ثم قتلت عليه قرونها، ثم خرجت به. وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام فقال: «أدركا امرأة قد كتبت معها حاطب بكتاب إلى قريش، يحذرهم ما قد أجمعنا له من أمرهم». فخرجا حتى أدركاها بالخليفة - خليفة بني أبي أحمد - فاستنزلاها بالخليفة، فالتصا في رحلها فلم يجدا شيئاً، فقال لها علي بن أبي طالب: «إني أحلف بالله ما كذب رسول الله وما كذبنا، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك». فلما رأت الجِدَّ منه قالت: أعرض. فأعرض، فحلت قُرون رأسها، فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته إليه. فأتى به رسول الله ﷺ فدعا رسول الله حاطباً فقال: «يا حاطب ما حملك على هذا؟». فقال: يا رسول الله، أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت ولا بدلت، ولكن كنت امرأاً ليس لي في القوم من أهل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم. فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، دعني فلاضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر! لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم». فأنزل الله، ﷻ، في حاطب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ لَا تَخْذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ إلى قوله: ﴿فَدَكَانَتْ لَكُمْ أَسْوَءَ حَسَنَةٍ فِي إِيْزِهِمْ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لَقَوْمُهُمْ إِنَّا بَرَاءٌ مِنْكُمْ وَهُمْ قَبِيحُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَلَّا بَلْ يَكْفُرُ لَكُمْ وَيُنَادِي رَبَّهُمْ وَأُولَئِكَ أَكْذَابُ﴾ [الممتحنة: ٤] إلى آخر القصة.

وروي مَعْمَرُ، عن الزهري، عن غزوة نحو ذلك. وهكذا ذكر مقاتل بن حيان: أن هذه الآيات نزلت في حاطب بن أبي بلتعة: أنه بعث سارة مولاة بني هاشم، وأنه أعطاه عشرة دراهم، وأن رسول الله ﷺ بعث في أثرها عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، فأدركاها بالجحفة... وذكر تمام القصة كنحو ما تقدم. وعن السدي قريب منه. وهكذا قال العوفي، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغير واحد: إن هذه الآيات نزلت في حاطب بن أبي بلتعة. فقله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ يعني: المشركين والكفار الذين هم محاربون الله ولرسوله وللمؤمنين، الذين شرع الله عداوتهم ومصارمتهم، ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَةَ أَوْلِيَاءَ تَبَسُّمُ أَوْلِيَاءَهُمْ بَعْضُهُمْ يَتَوَلَّى بَعْضُهُمْ كَأَنَّهُمْ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٥١]. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا أُكُلُوتَرُوا وَلِيًّا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَثَارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [٥٧]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَرْيدُونَ أَنْ يَحْمِلُوا إِلَهُكُمْ سُلْطَانًا تُبَيِّنًا﴾ [النساء: ١٤٤]. وقال تعالى: ﴿لَا يَخْذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ تَعَالَى﴾ [آل عمران: ٢٨] ولهذا قبل رسول الله ﷺ غدر حاطب لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش، لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد.

ويذكرها هنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا مصعب بن سلام، حدثنا الأجلح، عن قيس بن أبي مسلم، عن ربعي بن حراش، سمعت حذيفة يقول: ضرب لنا رسول الله ﷺ أمثالاً: واحداً وثلاثة وخمسة وسبعة، وتسعة، وأحد عشر - قال: فضرب لنا منها مثلاً وترك سائرهما، قال: «إن قوماً كانوا أهل ضعف ومسكنة، قاتلهم أهل تجبر وعداء، فأظهر الله أهل

الضعف عليهم، فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلّطوهم، فأسخطوا الله عليهم إلى يوم يلقونه». وقوله: ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُلَ وَيَذَلُّونَهُمْ﴾: هذا مع ما قبله من التهيج على عدواتهم وعدم موالاتهم؛ لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم، كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي: لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين، كقوله: ﴿وَمَا تَقْصُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْغَيْرِ الْمَحْيُودِ﴾ [البروج: ٨]، وكقوله: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]. وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهْدًا فِي سَبِيلِي وَآيَةً مَرْضَانِي﴾ أي: إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء، إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم فلا توالوا أعدائي وأعداءكم، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حنقاً عليكم وسخطاً لدينكم. وقوله: ﴿يُشْرُونَ إِلَهُهُمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَغْلَى مَا أَحْفَقْتُمْ وَمَا أَغْلَيْتُمْ﴾ أي: تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر ﴿وَمَنْ يَقَعْلَهُ مِنْكُمْ فَقَدْ سَلَ سَوَاءَ السَّبِيلِ إِنْ يَقْصُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطَرُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ يَأْتُونَهُمْ﴾ أي: لو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال. ﴿وَوَدُّوا أَنْ تُكْفَرُوا﴾ أي: ويحرصون على ألا تتألوا خيراً، فهم عدواتهم لكم كامنة وظاهرة، فكيف توالون مثل هؤلاء؟ وهذا تهيج على عدواتهم أيضاً. وقوله: ﴿إِنْ تَتَّبِعْكُمْ أَزْمَانُكُمْ وَلَا تَأْتِيَكُمْ يَوْمَ الْفِتْنَةِ يَقُولُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهِ يَمَا تَمَلُّونَ بَعِيرٌ﴾ [٣] أي: قربانكم لا تتفعلكم عند الله إذا أراد الله بكم سوءاً، ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتهم بما يسخط الله، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر وضل عمله، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد، ولو كان قريباً إلى نبي من الأنبياء. قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس، أن رجلاً قال: يا رسول الله: أين أبي؟ قال: «في النار» فلما قُيِّ دعاه فقال: «إن أبي وأباك في النار». ورواه مسلم وأبو داود، من حديث حماد بن سلمة، به.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُشْرَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ وَمَا أَمَّاكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿١﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَارْعِزْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْغَيْرُ الْمَكِيدُ ﴿٢﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُشْرَةٌ حَسَنَةٌ لَئِنْ كَانَ يَرْيَا اللَّهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَيْرُ الْمَكِيدُ ﴿٣﴾﴾.

يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين وعداوتهم ومجانبتهم والتبري منهم: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُشْرَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أي: وأتباعه الذين آمنوا معه ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ مِنْكُمْ﴾ أي: تبرأنا منكم ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَيْنَكُمْ طَرِيقُكُمْ﴾ ﴿وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ يعني: وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم، ما دمت على كفركم فنحن أبداً تنبرأ منكم ونبغضكم ﴿حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: إلى أن توحّدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأنداد والأوثان. وقوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ﴾ أي: لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها، إلا في استغفار إبراهيم لأبيه، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لأبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم، ويقولون: إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه، فأنزل الله، ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَدَى مَا بَرَكْتَ لِمَنْ أَحْبَبَ﴾ [الأنعام: ١٣٦] ﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [١١٤، ١١٣، التوبة: ١١٤]. وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُشْرَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ وَمَا أَمَّاكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ليس لكم في ذلك أسوة، أي: في الاستغفار للمشركين، هكذا قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومقاتل، والضحاك وغير واحد. ثم قال تعالى مخبراً عن قول إبراهيم والذين معه، حين فارقوا قومهم وتبرؤوا منهم، فلجؤوا إلى الله وتضرعوا إليه فقالوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي: توكلنا عليك في جميع الأمور، وسلمنا أمورنا إليك، وفوضناها إليك ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي: المعاد في الدار الآخرة. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال مجاهد: معناه: لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا. وكذا قال الضحاك. وقال قتادة لا تظهرهم علينا فيفتنونا بذلك، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحقهم عليه. واختاره ابن جرير. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: لا تسلطهم علينا فيفتنونا. وقوله: ﴿وَارْعِزْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْغَيْرُ الْمَكِيدُ﴾ أي: واستر ذنوبنا عن غيرك، واعف عنها فيما بيننا وبينك، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْغَيْرُ الْمَكِيدُ﴾ أي: الذي لا يضام من لاذب جناحك، ﴿الْمَكِيدُ﴾ في أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك. ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُشْرَةٌ حَسَنَةٌ لَئِنْ كَانَ يَرْيَا اللَّهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الْآخِرَ﴾: وهذا تأكيد لما تقدم ومستثنى منه ما تقدم أيضاً لأن هذه الأسوة المبينة هاهنا هي الأولى بعينها. وقوله: ﴿لَئِنْ كَانَ يَرْيَا اللَّهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الْآخِرَ﴾: تهيج إلى

ذلك كل مقر بالله والمعاد. وقوله: ﴿وَمَنْ يَزُكْ﴾ أي: عما أمر الله به، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْغَنِيُّ﴾ كقوله: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ غَنِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٨]. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿الْغَنِيُّ﴾: الذي قد كمل في غناه، وهو الله، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفه، وليس كمثل شيء، سبحانه الله الواحد القهار. ﴿الْغَنِيُّ﴾: المستحمد إلى خلقه، أي: هو المحمود في جميع أفعاله وأقواله، لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ يَنْتَكِرَ وَيَنْزِلَ عَادِيَتُهُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧) لَا يَهْتَكِرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُغْنِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَا يَخْرُجُكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَهْتَكِرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ تَتْلُونَ فِي الدِّينِ وَالْقَرْيَةِ بَيْنَ دِينِكُمْ وَظَنُّوهُمَا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩).

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ يَنْتَكِرَ وَيَنْزِلَ عَادِيَتُهُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً﴾ أي: محبة بعد البغضة، ومودة بعد البقرة، وألفة بعد الفرقة. ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ أي: على ما يشاء من الجمع بين الأسماء المتناقضة والمتباينة والمختلفة، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة، فتصبح مجتمعة متفقة، كما قال تعالى ممتناً على الأنصار: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَهُ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ الآية (آل عمران: ١٠٣). وكذا قال لهم النبي ﷺ: «ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟». وقال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُمْ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣]. وفي الحديث: «أحب حبيبي هوناً ما، فعسى أن يكون بغيضك يوماً ما. وأبغض بغيضك هوناً ما، فعسى أن يكون حبيبي يوماً ما». وقال الشاعر:

وقد يجمعُ الله الشنيتين بعدما
يظنُّ أن كل الظنَّ إلا تلاقيا
وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه وأتوا إلى ربه وأسلموا له، وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه، من أي ذنب كان. وقد قال مقاتل بن حيان: إن هذه الآية نزلت في أبي سفيان، صخر بن حرب، فإن رسول الله ﷺ تزوج ابنته، فكانت هذه مودة ما بينه وبينه. وفي هذا الذي قاله مقاتل نظر؛ فإن رسول الله تزوج بأم حبيبة بنت أبي سفيان قبل الفتح، وأبو سفيان إنما أسلم ليلة الفتح بلا خلاف. وأحسن من هذا ما رواه ابن أبي حاتم حيث قال: قُرى على محمد بن عزيز: حدثني سلامة، حدثني عقيل، حدثني ابن شهاب؛ أن رسول الله ﷺ استعمل أبا سفيان بن حرب على بعض اليمن، فلما قبض رسول الله ﷺ أقبل فلقي ذا الخمار مرتداً، فقاتله، فكان أول من قاتل في الردة وجاهد عن الدين. قال ابن شهاب: وهو ممن أنزل الله فيه: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ يَنْتَكِرَ وَيَنْزِلَ عَادِيَتُهُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧). وفي صحيح مسلم، عن ابن عباس: أن أبا سفيان قال: يا رسول الله، ثلاث أعطينهن. قال: «نعم». قال: وتؤمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين. قال: «نعم»، قال: ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك. قال: «نعم». قال: وعندي أحسن العرب وأجمله، أم حبيبة بنت أبي سفيان أزوجها. . . الحديث. وقد تقدم الكلام عليه. وقوله تعالى: ﴿لَا يَهْتَكِرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُغْنِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَا يَخْرُجُكُمْ مِنْ دِينِكُمْ﴾ أي: لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم في الدين، كالنساء والضعفة منهم، ﴿أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾ أي: تحسنوا إليهم ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي: تعدلوا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا هشام بن عروة، عن فاطمة بنت المنذر، عن أسماء - هي بنت أبي بكر، رضي الله عنهما - قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا، فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصلها؟ قال: «نعم، صلي أمك». أخرجه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا مصعب بن ثابت، حدثنا عامر بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه قال: قدمت قتيبة على ابنتها أسماء ابنة أبي بكر بهدايا: صناد وأقط وسمن، وهي مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها. فسألت عائشة النبي ﷺ، فأنزل الله، ﷻ: ﴿لَا يَهْتَكِرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُغْنِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ إلى آخر الآية، فأمرها أن تقبل هديتها، وأن تدخلها بيتها. وهكذا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث مصعب بن ثابت، به. وفي رواية لأحمد وابن جرير: قتيبة بنت عبد العزيز بن عبد أسعد، من بني مالك بن حسل. وزاد ابن أبي حاتم: في المدة التي كانت بين قريش، ورسول الله ﷺ. وقال أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار: حدثنا عبد الله بن شبيب، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو قتادة العدوي، عن ابن أخي الزهري، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة وأسماء أنهما قالتا: قدمت علينا أمنا

الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ رد ابنته زينب على أبي العاص بن الربيع، وكانت هجرتها قبل إسلامه بست سنين على النكاح الأول، ولم يحدث شهادة ولا صداقاً. ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه. ومنهم من يقول: «بعد سنتين»، وهو صحيح؛ لأن إسلامه كان بعد تحريم المسلمات على المشركين بستين. وقال الترمذي: ليس بإسناده بأس، ولا نعرف وجه هذا الحديث، ولعله جاء من حفظ داود بن الحصين. وسمعت عبد بن حميد يقول: سمعت يزيد بن هارون يذكر عن ابن إسحاق هذا الحديث، وحديث ابن الحجاج - يعني ابن أرقطاة - عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ رد ابنته على أبي العاص بن الربيع بمهر جديد ونكاح جديد. فقال يزيد: حديث ابن عباس أجود إسناداً، والعمل على حديث عمرو بن شعيب. قلت: وقد روى حديث الحجاج بن أرقطاة، عن عمرو بن شعيب الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه، وضعفه الإمام أحمد وغير واحد، والله أعلم. وأجاب الجمهور عن حديث ابن عباس بأن ذلك كان قضية عين يحتمل أنه لم تنقض عدتها منه؛ لأن الذي عليه الأكثرون أنها متى انقضت العدة ولم يسلم انفسخ نكاحها منه. وقال آخرون: بل إذا انقضت العدة هي بالخيار، إن شاءت أقامت على النكاح واستمرت، وإن شاءت فسخته وذهبت فتزوجت، وحملوا عليه حديث ابن عباس، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَتَوْهُم مَّا أَنْفَقُوا﴾ يعني: أزواج المهاجرات من المشركين، ادفعوا إليهم الذي غرموه عليهم من الأصدقة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والزهري، وغير واحد. وقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْنَهُنَّ أََمْوَهُنَّ﴾ يعني: إذا أعطيتنهم ما أنفقن فانكحوهن، أي: تزوجوهن بشرطه من انقضاء العدة والولي وغير ذلك. وقوله: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا بِعِصْمِ الْكُفَّارِ﴾: تحريم من الله، ﷻ، على عباده المؤمنين نكاح المشركات، والاستمرار معهن. وفي الصحيح، عن الزهري، عن عروة، عن المسور ومروان بن الحكم: أن رسول الله ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاء نساء من المؤمنات، فأنزل الله، ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا بِعِصْمِ الْكُفَّارِ﴾، فطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين، تزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية. وقال ابن ثور، عن معمر، عن الزهري: أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ، وهو بأسفل الحديبية، حين صالحهم على أنه من أتاه منهم رده إليهم، فلما جاءه النساء نزلت هذه الآية، وأمره أن يرد الصداق إلى أزواجهن، وحكم على المشركين مثل ذلك إذا جاءتهم امرأة من المسلمين أن يردوا الصداق إلى زوجها، وقال: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا بِعِصْمِ الْكُفَّارِ﴾. وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال: وإنما حكم الله بينهم بذلك، لأجل ما كان بينهم وبينهم من العهد. وقال محمد بن إسحاق، عن الزهري: طلق عمر يومئذ قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة، فتزوجها معاوية، وأم كلثوم بنت عمرو بن جرويل الخزاعية، وهي أم عبيد الله، فتزوجها أبو جهل بن حذيفة بن غانم، رجل من قومه، وهما على شركهما، وطلق طلحة بن عبيد الله أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فتزوجها بعده خالد بن سعيد بن العاص. وقوله: ﴿وَسَتَلُوا مَّا أَنْفَقْتُمْ وَلَسْتَلُوا مَّا أَنْفَقُوا﴾ أي: وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم اللاتي يذهبن إلى الكفار، إن ذهبن، وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين. وقوله: ﴿وَلَكُمْ حُكْمٌ أَوْ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أي: في الصلح واستثناء النساء منه، والأمر بهذا كله هو حكم الله يحكم به بين خلقه. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بما يصلح عباده، حكيم في ذلك.

ثم قال: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ نِسَاءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَلَيْكُمْ فَتَأْتُوا إِلَيْهِنَّ ذَهَبًا فَأَزْوَاجُهُمْ يُنْفَقْنَ﴾ قال مجاهد، وقتادة: هذا في الكفار الذين ليس لهم عهد، إذا فرت إليهم امرأة ولم يدفعوا إلى زوجها شيئاً، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها شيء، حتى يدفع إلى زوج الذاهبة إليهم مثل نفقته عليها. وقال ابن جرير: حدثنا يونس، حدثنا ابن وهب، أخبرني يونس، عن الزهري قال: أقر المؤمنون بحكم الله، فأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين التي أنفقوا على نسايتهم، وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المسلمين، فقال الله للمؤمنين به: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ نِسَاءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَلَيْكُمْ فَتَأْتُوا إِلَيْهِنَّ ذَهَبًا فَأَزْوَاجُهُمْ يُنْفَقْنَ﴾ فلو أنها ذهبت بعد هذه الآية امرأة من أزواج المؤمنين إلى المشركين، رد المؤمنون إلى زوجها النفقة التي أنفق عليها من العقب الذي بأيديهم، الذي أمروا أن يردوه على المشركين من نفقاتهم التي أنفقوا على أزواجهم اللاتي آمن وهاجرن، ثم ردوا إلى المشركين فضلاً إن كان بقي لهم. والعقب: ما كان بأيدي المؤمنين من صداق نساء الكفار حين آمن وهاجرن. وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: يعني إن لحقت امرأة رجل من المهاجرين بالكفار، أمره رسول الله ﷺ أنه يعطى من الغنيمة مثل ما أنفق. وهكذا قال مجاهد: ﴿فَعَلَيْكُمْ﴾: أصبتم غنيمة من قريش أو غيرهم ﴿فَتَأْتُوا إِلَيْهِنَّ ذَهَبًا فَأَزْوَاجُهُمْ يُنْفَقْنَ﴾ يعني: مهر مثلها. وهكذا قال مسروق، وإبراهيم، وقتادة، ومقاتل، والضحاك، وسفيان بن حسين، والزهري أيضاً. وهذا لا ينافي الأول؛ لأنه إن أمكن الأول فهو أولى، وإلا فمن الغنائم اللاتي

تؤخذ من أيدي الكفار. وهذا أوسع، وهو اختيار ابن جرير، والله الحمد والمنة.

﴿يَأْتِيَاكَ الْوَيْلُ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ بِبَيْعَتِكَ عَلَيَّ أَنْ لَا يُشْرَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَرْفِقَ وَلَا يَزِينُ وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبَهْتَنٍ يَقْتَرِنَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ قَابِلِهِنَّ وَأَسْتَغْفِرُ لَكُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ رَجِيمٌ﴾.

قال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن أخي ابن شهاب، عن عمه قال: أخبرني عروة أن عائشة زوج النبي ﷺ، أخبرته: أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿يَأْتِيَاكَ الْوَيْلُ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ بِبَيْعَتِكَ﴾ إلى قوله: ﴿عَزَّوَجَلَّ رَجِيمٌ﴾. قال عروة: قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتكم»، كلاماً، ولا والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعه، ما يبايعهن إلا بقوله: «قد بايعتكم على ذلك». هذا لفظ البخاري. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن محمد بن المنكدر، عن أميمة بنت رقيقة قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نساء لبنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن: «أَنْ لَا يُشْرَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا»، الآية، وقال: «فيما استطعتن وأطقتن»، قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله، ألا تصافحنا؟ قال: «إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة». هذا إسناد صحيح، وقد رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، من حديث سفيان بن عيينة - والنسائي أيضاً من حديث الثوري - ومالك بن أنس كلهم، عن محمد بن المنكدر، به. وقال الترمذي: حسن صحيح، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن المنكدر. وقد رواه أحمد أيضاً من حديث محمد بن إسحاق، عن محمد بن المنكدر، عن أميمة، به. وزاد: «ولم يصافح منا امرأة». وكذا رواه ابن جرير من طريق موسى بن عقبة، عن محمد بن المنكدر، به. ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي جعفر الرازي، عن محمد بن المنكدر: حدثتني أميمة بنت رقيقة - وكانت أخت خديجة خالة فاطمة - من فيها إلى في، فذكره. وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني سليل بن أبيوب بن الحكم بن سليم، عن أمه سلمى بنت قيس - وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ - قد صلت معه القبلتين، وكانت إحدى نساء بني عدي بن النجار - قالت: جئت رسول الله ﷺ نبايعه في نسوة من الأنصار، فلما شرط علينا: ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزن، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، قال: «ولا تغششن أزواجكن». قالت: فبايعناه، ثم انصرفنا، فقلت لامرأة منهن: ارجعي فسللي رسول الله ﷺ: ما غش أزواجنا؟ قال: فسألته فقال: «تأخذ ماله، فتحابي به غيره».

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن أبي العباس، حدثنا عبد الرحمن بن عثمان بن إبراهيم بن محمد بن حاطب، حدثني أبي، عن أمه عائشة بنت قدامة - يعني: ابن مظعون - قالت: أنا مع أمي رائطة بنت سفيان الخزاعية، والنبي ﷺ يبايع النسوة ويقول: «أبايعكن على ألا تشركن بالله شيئاً، ولا تسرقن، ولا تزنين، ولا تقتلن أولادكن، ولا تأتين ببهتان نفتريه بين أيديكن وأرجلكن، ولا تعصينني في معروف». قالت: فاطرقن. فقال لهن النبي ﷺ: «قلن: نعم فيما استطعتن». فكن يقرن وأقول معهن، وأمي تلقني قولتي أي بنية: نعم فيما استطعت فكنت أقول كما يقلن. وقال البخاري: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أيوب، عن حفصة بنت سيرين، عن أم عطية قالت: بايعة رسول الله ﷺ، فقرأ علينا: ﴿أَنْ لَا يُشْرَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾، ونهانا عن النياحة، فقبضت امرأة يدها، فقالت: أسعدتني فلانة أريد أن أجزيها. فما قال لها رسول الله ﷺ شيئاً، فانطلقت ورجعت فبايعها. ورواه مسلم. وفي رواية: «فما وفي منهن امرأة غيرها، وغير أم سليم ابنة ملحان». وللبخاري عن أم عطية قالت: أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة ألا ننوح، فما وقت منا امرأة غير خمس نسوة: أم سليم، وأم العلاء، وابنة أبي سبرة امرأة معاذ، وامراتان - أو: ابنة أبي سبرة، وامرأة معاذ، وامرأة أخرى.. وقد كان رسول الله ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة يوم العيد، كما قال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا هارون بن معروف، حدثنا عبد الله بن وهب، أخبرني ابن جريج: أن الحسن بن مسلم أخبره، عن طاوس، عن ابن عباس قال: شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فكلهم يصلوها قبل الخطبة ثم يخطب بعد، فنزل نبي الله ﷺ فكان يأنظر إليه حين يجلس الرجال بيده، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال: ﴿يَأْتِيَاكَ الْوَيْلُ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ بِبَيْعَتِكَ عَلَيَّ أَنْ لَا يُشْرَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَرْفِقَ وَلَا يَزِينُ وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبَهْتَنٍ يَقْتَرِنَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾، حتى فرغ من الآية كلها. ثم قال حين فرغ: «أنتن على ذلك؟». فقالت امرأة واحدة، لم يجبه غيرها: نعم يا رسول الله - لا يدري الحسن من هي - قال: «فتصدقن»، قال: وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفتح والخواتيم في ثوب بلال.

وقال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا ابن عياش، عن سليمان بن سليم، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن

جده قال: جاءت أميمة بنت رقيقة إلى رسول الله ﷺ تباعه على الإسلام، فقال: «أبايعك على ألا تشركي بالله شيئاً، ولا تسرقى، ولا تزني، ولا تقتلي ولدك، ولا تأتي بيهتان فتفترينه بين يديك ورجليك، ولا تنوحى، ولا تبرجي تبرج الجاهلية الأولى». وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن الزهري، عن أبي إدريس الخولاني، عن عباد بن الصامت قال: كنا عند رسول الله ﷺ في مجلس فقال: «تباعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم». قرأ الآية التي أخذت على النساء ﴿إِذَا جَاءَكَ الثَّوْبَتُ﴾ - فمن وقى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به، فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه، فهو إلى الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه. أخرجاه في الصحيحين. وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبي حبيب، عن مرثد بن عبد الله اليزني، عن أبي عبد الله عبد الرحمن بن عسيلة الصنابجي، عن عباد بن الصامت قال: كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعه النساء، وذلك قبل أن يفرض الحرب، على ألا تشرك بالله شيئاً، ولا تسرق، ولا تزني، ولا تقتل أولادنا، ولا تأتي بيهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، وقال: «فإن وقيتم فلکم الجنة» رواه ابن أبي حاتم. وقد روى ابن جرير من طريق العوفي، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ أمر عمر بن الخطاب فقال: «قل لهن: إن رسول الله ﷺ يبايعكن على ألا تشركن بالله شيئاً». وكانت هند بنت عتبة بن ربيعة التي شقت بطن حمزة مئكرة في النساء - فقالت: إني إن أتكلم يعرفني، وإن عرفني قتلني. وإنما تنكرت فرقا من رسول الله ﷺ، فسكت النسوة اللاتي مع هند، وأبين أن يتكلمن. فقالت هند وهي مئكرة: كيف تقبل من النساء شيئاً لم تقبله من الرجال؟ ففطن إليها رسول الله ﷺ وقال لعمر: «قل لهن: ولا تسرقن». قالت هند: والله إني لأصيب من أبي سفيان الهنات، ما أدري أحلهن لي أم لا؟ قال أبو سفيان: ما أصبت من شيء مضى أو قد بقي، فهو لك حلال. فضحك رسول الله ﷺ وعرفها، فدعاها فأخذت بيده، فعادت به، فقال: «أنت هند؟». قالت: عفا الله عما سلف. فصرف عنها رسول الله ﷺ فقال: «ولا تزنين»، فقالت: يا رسول الله، وهل تزني الحرة؟ قال: «لا، والله ما تزني الحرة». فقال: «ولا يقتلن أولادهن». قالت هند: أنت قتلتهم يوم بدر، فأنت وهم أبصر. قال: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ يَهُودِيَّةٌ يَدْرِيئَةً بَيْنَ إِلَيْهِمْ وَلَا نَصْرَانِيَّةٌ﴾ قال: ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾. قال: منعهن أن ينحن، وكان أهل الجاهلية يمزقن الثياب ويخدشن الوجوه، ويقطعن الشعور، ويدعون بالثبور. والثبور: الويل. وهذا أثر غريب، وفي بعضه نكارة، والله أعلم؛ فإن أبا سفيان وامرأته لما أسلما لم يكن رسول الله ﷺ يخفيهما، بل أظهرهما الصفاء والود له، وكذلك كان الأمر من جانب، عليه السلام، لهما. وقال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية يوم الفتح، فبايع رسول الله ﷺ الرجال على الصفا، وعمر يبايع النساء تحتها عن رسول الله ﷺ، فذكر بقيقته كما تقدم وزاد: فلما قال: ﴿وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ﴾، قالت هند: ربيناهم صغاراً فقتلتموهم كباراً. فضحك عمر بن الخطاب حتى استلقى. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نصر بن علي، حدثني غبطة بنت سليمان، حدثني عمتي، عن جدتها، عن عائشة قالت: جاءت هند بنت عتبة إلى رسول الله ﷺ لتباعه، فنظر إلى يدها فقال: «اذهي فغيري يدك». فذهبت فغيرتها بحناء، ثم جاءت فقال: «أبايعك على ألا تشركي بالله شيئاً، فبايعها وفي يدها سواران من ذهب، فقالت: ما تقول في هذين السوارين؟ فقال: «جمرتان من جمر جهنم». فقلوه: ﴿يَأْتِيَنَّ النَّبِيَّ إِذَا جَاءَكَ الثَّوْبَتُ يَبَايَعُكَ﴾ أي: من جاءك منهن على هذه الشروط، فبايعها، ﴿عَلَّ أَنْ لَا يُشْرَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرَقَ﴾ أي: أموال الناس الأجانب، فأما إذا كان الزوج مقصراً في نفقتها، فلها أن تأكل من ماله بالمعروف، ما جرت به عادة أمثاله، وإن كان بغير علمه، عملاً بحديث هند بنت عتبة أنها قالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني، فهل علي جناح إن أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك». أخرجاه في الصحيحين. وقوله: ﴿وَلَا يَزِينَنَّ﴾ كقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَةَ﴾ إِنَّهُ كَانَ فَجَسَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ [الإسراء: ٣٢]. وفي حديث سمرة ذكر عقوبة الزناة بالعذاب الأليم في نار الجحيم. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: جاءت فاطمة بنت عتبة تباع النبي ﷺ فأخذ عليها: «أَنْ لَا يُشْرَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرَقَ وَلَا يَزِينَنَّ﴾ الآية، قالت: فوضعت يدها على رأسها حياءً، فأعجبها ما رأى منها، فقالت عائشة: أفزى أيتها المرأة، فوالله ما بايعنا إلا على هذا. قالت: نعم إذاً. فبايعها بالآية. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن فضيل، عن حصين، عن عامر - هو الشعبي - قال: بايع رسول الله ﷺ النساء، وعلى يده ثوب قد وضعه على كفه، ثم قال: «ولا تقتلن أولادكن». فقالت امرأة: تقتل أباءهم وتوصين بأولادهم؟ قال: وكان بعد ذلك إذا جاءه النساء يبايعنه، جمعهن فغرض عليهن، فإذا أقرن رجعتن. وقوله: ﴿وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ﴾: وهذا يشمل قتله بعد

وجوده، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويعم قتلوه وهو جنين، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء، تطرح نفسها لثلاث تحبل إما لغرض فاسد أو ما أشبهه. وقوله: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِنَّ بَقَرَاتٌ بَيْنَ أََيْدِيهِنَّ وَأَرْسُلُهُنَّ﴾ قال ابن عباس: يعني لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم. وكذا قال مقاتل. ويؤيد هذا، الحديث الذي رواه أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، حدثنا عمرو - يعني: ابن الحارث - عن ابن الهاد، عن عبد الله بن يونس، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعة: «أيا امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم، فليست من الله في شيء»، ولن يدخلها الله جنته، وأيا رجل جحد ولده وهو ينظر إليه، احتجب الله منه، وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين». وقوله: ﴿وَلَا يَمْسُكَنَّ فِي مَعْرُوفٍ﴾ يعني: فما أمرتهن به من معروف، ونهيتهن عنه من منكر. قال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبي قال: سمعت الزبير، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَمْسُكَنَّ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قال: إنما هو شرط شرطه الله للنساء. وقال ميمون بن مهران: لم يجعل الله لنبية طاعة إلا لمعروف، والمعروف: طاعة. وقال ابن زيد: أمر الله بطاعة رسوله، وهو خيرة الله من خلقه في المعروف. وقد قال غيره عن ابن عباس، وأنس بن مالك، وسالم بن أبي الجعد، وأبي صالح، وغير واحد: نهان يومئذ عن النوح. وقد تقدم حديث أم عطية في ذلك أيضاً. وقال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة في هذه الآية: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أخذ عليهن النياحة، ولا تحدثن الرجال إلا رجلاً منكراً محرمًا. فقال عبد الرحمن بن عوف: يا نبي الله، إن لنا أضيفاً، وإننا نغيب عن نساينا. فقال رسول الله ﷺ: «ليس أولئك عَنِيَّتُ، ليس أولئك عَنِيَّتُ». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا إبراهيم بن موسى الفراء، أخبرنا ابن أبي زائدة، حدثني مبارك، عن الحسن قال: كان فيما أخذ النبي ﷺ: «ألا تحدثن الرجال إلا أن تكون ذات محرم، فإن الرجل لا يزال يحدث المرأة حتى يمد ي بين فخذه». وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا هارون، عن عمرو، عن عاصم، عن ابن سيرين، عن أم عطية الأنصارية قالت: كان فيما اشترط علينا من المعروف حين بايعنا ألا ننوح، فقالت امرأة من بني فلان: إن بني فلان أسعدوني، فلا حتى أجزهم فانطلقت فأسعدتهم، ثم جاءت فبايعت، قالت: فما وقى منهن غيرها، وغير أم سليم ابنة ملحان أم أنس بن مالك. وقد روى البخاري هذا الحديث من طريق حفصة بنت سيرين، عن أم عطية نسيبة الأنصارية، رضي الله عنها. وقد روى نحوه من وجه آخر أيضاً. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا أبو نعيم، حدثنا عُمر بن فروخ القَتَّاب، حدثني مصعب بن نوح الأنصاري قال: أدركت عجزاً لنا كانت فيمن بايع رسول الله ﷺ. قالت: فأنيت لأبايعه، فأخذ علينا فيما أخذ ألا نتحن. فقالت عجزو: يا رسول الله، إن ناساً قد كانوا أسعدوني على مصائب أصابتنني، وإنهم قد أصابتنهم مصيبة، فأنأريد أن أسعدهم. قال: «فانطلقني فكافئتهم». فانطلقت فكافأتهن، ثم إنها أتته فبايعته، وقال: هو المعروف الذي قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَمْسُكَنَّ فِي مَعْرُوفٍ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا القَعْنَبِي، حدثنا الحجاج بن صفوان، عن أسيد بن أبي أسيد البراد، عن امرأة من المبايعات قالت: كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ: ألا نعصب في معروف: ألا نخمش وجوهاً، ولا ننشر شعراً، ولا نشق جيباً، ولا ندعوا وِلاً. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وكيع، عن يزيد مولى الصهباء، عن شهر بن حوشب، عن أم سلمة، عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَلَا يَمْسُكَنَّ فِي مَعْرُوفٍ﴾، قال: «النوح». ورواه الترمذي في التفسير، عن عبد بن حميد، عن أبي نعيم - وابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع - كلاهما عن يزيد بن عبد الله الشيباني مولى الصهباء، به. وقال الترمذي: حسن غريب. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن سنان القزاز، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا إسحاق بن عثمان أبو يعقوب، حدثني إسماعيل بن عبد الرحمن بن عطية، عن جدته أم عطية قالت: لما قدم رسول الله ﷺ جمع نساء الأنصار في بيت، ثم أرسل إلينا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقام على الباب وسلم علينا، فرددت - أو: فرددنا - عليه السلام، ثم قال: «أنا رسولُ رسول الله ﷺ إِيَّاكُمْ». قالت: فقلنا: مرحباً برسول الله ورسول رسول الله. فقال: «تبايعن على ألا تشركن بالله شيئاً، ولا تسرقن ولا تزني؟» قالت: قلنا: نعم. قالت: فمديده من خارج الباب - أو: البيت - ومددنا أيدينا من داخل البيت، ثم قال: «اللهم اشهد». قالت: وأمرنا في العيدين أن نخرج فيه الخُيُص والعواتق، ولا جمعة علينا، ونهانا عن اتباع الجنائز. قال إسماعيل: فسألت جدتي عن قوله: ﴿وَلَا يَمْسُكَنَّ فِي مَعْرُوفٍ﴾. قالت: النياحة. وفي الصحيحين من طريق الأعمش، عن عبد الله بن مَرَّة، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية». وفي الصحيحين أيضاً عن أبي موسى: أن رسول الله ﷺ برىء من الصالقة والحالقة والشاقة. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا هُذَيْبَةُ بن خالد، حدثنا أبان بن يزيد،

حدثنا يحيى بن أبي كثير: أن زيداً حدثه: أن أبا سلام حدثه: أن أبا مالك الأشعري حدثه: أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة». وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب». ورواه مسلم في صحيحه منفرداً به، من حديث أبان بن يزيد العطار، به. وعن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ لعن النائحة والمستمعة. رواه أبو داود.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾.

ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر «هذه السورة» كما نهى عنها في أولها فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: اليهود والنصارى وسائر الكفار، ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء وقد يشسوا من الآخرة، أي: من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله ﷻ. وقوله: ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾: فيه قولان، أحدهما: كما يشس الكفار الأحياء من قرباتهم الذين في القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك؛ لأنهم لا يعتقدون بعثاً ولا نشوراً، فقد انقطع رجاءهم منهم فيما يعتقدونه. قال العوفي: عن ابن عباس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ إلى آخر السورة، يعني: من مات من الذين كفروا فقد يشس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم أو يبعثهم الله ﷻ. وقال الحسن البصري: ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ قال: الكفار الأحياء قد يشسوا من الأموات. وقال قتادة: كما يشس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا. وكذا قال الضحاك. رواه ابن جرير. والقول الثاني: معناه: كما يشس الكفار الذين هم في القبور من كل خير. قال الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود: ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ قال: كما يشس هذا الكافر إذا مات وعابن ثوابه واطلع عليه. وهذا قول مجاهد، وعكرمة، ومقاتل، وابن زيد، والكلبي، ومنصور. وهو اختيار ابن جرير.



تفسير سورة الصف

وهي مدنية. قال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا ابن المبارك، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة - وعن عطاء بن يسار، عن أبي سلمة - عن عبد الله بن سلام قال: تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله ﷺ فيسأله: أي الأعمال أحب إلى الله؟ فلم يبق أحد منا، فأرسل رسول الله ﷺ إلينا رجلاً، فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة، يعني سورة الصف كلها. وهكذا رواه الإمام أحمد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا العباد بن الوليد بن مزيد البيروتي قراءة قال: أخبرني أبي، سمعت الأوزاعي، حدثني يحيى بن أبي كثير، حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن، حدثني عبد الله بن سلام. أن أناساً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: لو أرسلنا إلى رسول الله ﷺ نسأله عن أحب الأعمال إلى الله ﷻ؟ فلم يذهب إليه أحد منا، وهبتنا أن نسأله عن ذلك، قال: فدعا رسول الله ﷺ أولئك النفر رجلاً رجلاً حتى جمعهم، ونزلت فيهم هذه السورة سبح «الصف» قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ كلها. قال أبو سلمة: وقرأها علينا عبد الله بن سلام كلها، قال يحيى بن أبي كثير: وقرأها علينا أبو سلمة كلها. قال الأوزاعي: وقرأها علينا يحيى بن أبي كثير كلها. قال أبي: وقرأها علينا الأوزاعي كلها. وقد رواه الترمذي عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي: حدثنا محمد بن كثير، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفرأ من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله ﷻ لعملناه. فأنزل الله: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ. قال أبو سلمة: فقرأها علينا ابن سلام. قال يحيى: فقرأها علينا أبو سلمة. قال ابن كثير: فقرأها علينا الأوزاعي. قال عبد الله: فقرأها علينا ابن كثير. ثم قال الترمذي: وقد خولف محمد بن كثير في إسناد هذا الحديث عن الأوزاعي، فروى ابن المبارك، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن هلال بن أبي ميمونة، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن سلام - أو: عن أبي سلمة، عن عبد الله بن سلام - قلت: وهكذا رواه الإمام أحمد، عن يغمّر، عن ابن المبارك، به. قال الترمذي: وروى الوليد بن مسلم هذا الحديث عن الأوزاعي، نحو رواية محمد بن كثير. قلت: وكذا رواه الوليد بن يزيد، عن الأوزاعي، كما رواه ابن كثير. قلت: وقد أخبرني بهذا الحديث الشيخ المسند أبو العباس أحمد بن أبي طالب الحجار قراءة عليه وأنا أسمع، أخبرنا أبو المُنْجَا عبد الله بن عَمْرٍو بن اللَّيْث، أخبرنا أبو

الوقت عبد الأول بن عيسى بن شبيب السجزي قال: أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن المظفر بن محمد بن داود الداودي، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حموية السرخسي، أخبرنا عيسى بن عمر بن عمران السمرقندي، أخبرنا الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي بجميع مسنده، أخبرنا محمد بن كثير، عن الأوزاعي... فذكر بإسناده مثله، وتسلسل لنا قراءتها إلى شيخنا أبي العباس والحجار، ولم يقرأها، لأنه كان آمياً، وضاق الوقت عن تلقينها إياه. ولكن أخبرني الحافظ الكبير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، رحمه الله: أخبرنا القاضي تقي الدين سليمان ابن الشيخ أبي عمر، أخبرنا أبو المنجا بن اللثي، فذكره بإسناده، وتسلسل لي من طريقه، وقرأها علي بكما لها، والله الحمد والمنة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ① ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ② ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ③ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بِئَنٍّ مَرْضُوضٌ ④.

تقدم الكلام على قوله: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ① غير مرة، بما أغنى عن إعادته. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ②؟ إنكار على من يعد عذراً، أو يقول قولاً لا يفي به، ولهذا استدلل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً، سواء ترتب عليه غرم للموعد أم لا. واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان». وفي الحديث الآخر في الصحيح: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها» - فذكر منهن إخلاف الوعد - وقد استقصينا الكلام على هذين الحديثين في أول «شرح البخاري»، والله الحمد والمنة. ولهذا أكد تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. وقد روى الإمام أحمد وأبو داود، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: أتانا رسول الله ﷺ في بيتنا وأنا صبي قال: فذهبت لأخرج لألعب، فقالت أُمي: يا عبد الله: تعال أعطك. فقال لها رسول الله ﷺ: «وما أردت أن تعطيه؟». قالت: تمرأ. فقال: «أما إنك لو لم تفعلني كُتبت عليك كذبة». وذهب الإمام مالك، رحمه الله، إلى أنه إذا تعلق بالوعد غرم على الموعد وجب الوفاء به، كما لو قال لغیره: «تزوج ولك على كل يوم كذا». فتزوج، وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك، لأنه تعلق به حق أُمي، وهو مبني على المضايقة. وذهب الجمهور إل أنه لا يجب مطلقاً، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فرضية الجهاد عليهم، فلما فرض نكل عنه بعضهم، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقْبِلُوا السِّلَاحَ وَأَمْ آتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَى الدِّينُ قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ الْكَفَى وَلَا تَظْلَمُونَ قَبِيلًا﴾ ⑤ إِنَّمَا تَكُونُوا يَدُوكُمْ مَمْلُوكَاتُ الْكَفَى وَلَوْ كُفْتُمْ فِي بَيْعٍ مُشْتَرِكٍ ⑥ [النساء: ٧٧، ٧٨]. وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ تُحْكَمُ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُظْهَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْكَفَى ⑦﴾ [محمد: ٢٠] وهكذا هذه الآية معناها، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ②، قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله - ﷻ - دلنا على أحب الأعمال إليه، فنعمل به. فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيماناً به لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقرؤا به. فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين، وشق عليهم أمره، فقال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ②؟ وهذا اختيار ابن جرير.

وقال مقاتل بن حيان: قال المؤمنون: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به. فدلهم الله على أحب الأعمال إليه، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾، فبين لهم، فابتلوا يوم أحد بذلك، فولوا عن النبي ﷺ مدبرين، فانزل الله في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ②؟ وقال: أحبكم إلي من قاتل في سبيلي. ومنهم من يقول: أنزلت في شأن القتال، يقول الرجل: «قاتلت»، ولم يقاتل. «وطعنت»، ولم يطعن. «وضربت»، ولم يضرب. «وصبرت»، ولم يصبر. وقال قتادة، والضحاك: نزلت توبيخاً لقوم كانوا يقولون: «قتلنا، ضربنا، طعنا، وفعلنا». ولم يكونوا فعلوا ذلك. وقال ابن يزيد: نزلت في قوم من المنافقين، كانوا يعدون المسلمين النصر، ولا يفون لهم بذلك. وقال مالك، عن يزيد بن أسلم: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ②؟ قال: في الجهاد. وقال ابن أبي نجيع، عن مجاهد: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ② إلى قوله:

﴿كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْصُورٍ﴾ فما بين ذلك: في نفر من الأنصار، فيهم عبد الله بن راحة، قالوا في مجلس: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله، لعلنا بها حتى نموت. فأنزل الله هذا فيهم. فقال عبد الله بن راحة: لا أبرح حبساً في سبيل الله حتى أموت. فقتل شهيداً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فروة بن أبي المغراء، حدثنا علي بن مشير، عن داود بن أبي هند، عن أبي حرب بن أبي الأسود الدؤلي، عن أبيه قال: بعث أبو موسى إلى قراء أهل البصرة، فدخل عليه منهم ثلاثمائة رجل، كلهم قد قرأ القرآن، فقال: أنتم قراء أهل البصرة وخيارهم. وقال: كنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات، فأنسيناها، غير أني قد حفظت منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. فتكتب شهادة في أعناقكم، فتسألون عنها يوم القيامة. ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْصُورٍ﴾. فهذا إخبار منه تعالى بمحبة عباده المؤمنين إذا اصطفوا مواجيهين لأعداء الله في حومة الوغي، يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان. قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا هُشَيْمٌ، قال: مُجَالِدٌ أَخْبَرَنَا عَنْ أَبِي الْوَدَّاعِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ: الرَّجُلُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ، وَالْقَوْمُ إِذَا صَفُّوا لِلصَّلَاةِ، وَالْقَوْمُ إِذَا صَفُّوا لِلْقِتَالِ». ورواه ابن ماجه من حديث مجالد، عن أبي الوُدَّاعِ جبر بن نوف، به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم الفضل بن دُكَيْنٍ، حدثنا الأسود - يعني ابن شيبان - حدثني يزيد بن عبد الله بن الشَّخِيرِ قال: قال مطرف: كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتيه لقاءه، فلقيته فقلت: يا أبا ذر، كان يبلغني عنك حديث، فكنت أشتيه لقاءك، فقال: لله أبوك! فقد لقيت، فهات. فقلت: كان يبلغني عنك أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم أن الله يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة؟ قال: أجل، فلا إخالني أكذب على خليلي ﷺ. قلت: فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله؟ قال: رجل غزا في سبيل الله، خرج محتسباً مجاهداً فلقى العدو فقتل، وأنتم تجدونه في كتاب الله المنزل، ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْصُورٍ﴾. وذكر الحديث.

هكذا أورد هذا الحديث من هذا الوجه بهذا السياق، وبهذا اللفظ، واختصره. وقد أخرجه الترمذي والنسائي من حديث شعبة، عن منصور بن المعتمر، عن رُبَيْعِ بْنِ حِرَاشٍ، عن زيد بن طيبان، عن أبي ذر بأبسط من هذا السياق وأتم وقد أوردناه في مواضع آخر، والله الحمد. وعن كعب الأحبار أنه قال: يقول الله تعالى لمحمد ﷺ: «عبد المتوكل المختار ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، مولده بمكة، وهجرته بطنجة، وملكه بالشام، وأمه الحمادون يحمّدون الله على كل حال، وفي كل منزلة، لهم دوي كدوي النحل في جو السماء بالسحر، يؤصّون أطرافهم، ويأتزرون على أنصافهم، صفهم في القتال مثل صفهم في الصلاة». ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْصُورٍ﴾. «رعاة الشمس، يصلون الصلاة حيث أدركنهم، ولو على ظهر دابة» رواه ابن أبي حاتم. وقال سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ قال: كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن يضافهم، وهذا تعليم من الله للمؤمنين. قال: وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْصُورٍ﴾: ملتصق ببعضه في بعض، من الصف في القتال. وقال مقاتل بن حيان: ملتصق بعضه إلى بعض. وقال ابن عباس: ﴿كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْصُورٍ﴾: مُتَّبِعٌ، لا يزول، ملتصق ببعضه ببعض. وقال قتادة: ﴿كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْصُورٍ﴾: ألم تر إلى صاحب البنيان، كيف لا يحب أن يختلف بنيانه؟ فكذلك الله ﷻ يحب أن لا يختلف أمره، وإن الله صف المؤمنين في قتالهم وصفهم في صلاتهم، فعليكم بأمر الله، فإنه عصمة لمن أخذ به. أورد ذلك كله ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: حدثني سعيد بن عمرو السكوني، حدثنا بَقِيَّةُ بْنُ الْوَلِيدِ، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن يحيى بن جابر الطائي، عن أبي بحرية قال: كانوا يكرهون القتال على الخيل، ويستحبون القتال على الأرض، لقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْصُورٍ﴾. قال: وكان أبو بحرية يقول: إذا رأيتُموني التفت في الصف فجثوا في لحيي.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوِّمُ لِمَ تَوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٥) رَاذَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ الْوَرَىٰ وَبَشِيرًا رَسُولًا يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ خُذُوا كِتَابِي هَذَا يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ (٦).

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكنيته موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿لِمَ تَوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي: لم تصلون الأذى إلي وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة؟ وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ

فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم، وأمر له بالصبر؛ ولهذا قال: «رحمة الله على موسى: لقد أودى بأكثر من هذا فصير». وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ أو يؤصلوا إليه أذى، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ هَادُوا مُوسَى فَهَارَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا﴾ [الاحزاب: ٦٩]. وقوله: ﴿لَقَدْ رَأَوْا أَزْوَاجَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، أزاح الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، كما قال تعالى: ﴿وَقَلْبُهَا أَفْتَدَتْهُمْ وَأَصْدَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠] وقال: ﴿وَمَنْ يُضَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا تَوَلَّى وَتُضْلِيهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥] ولهذا قال الله تعالى في هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ يعني: التوراة قد بشرت بي، وأنا مصداق ما أخبرت عنه، وأنا مبشر بمن بعدي، وهو الرسول النبي الأمي المكي أحمد. فعيسى، عليه السلام، هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملا بني إسرائيل مبشراً بمحمد، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي لا رسالة بعده ولا نبوة. وما أحسن ما أورد البخاري الحديث الذي قال فيه: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري قال: أخبرني محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب». ورواه مسلم، من حديث الزهري، به نحوه. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا المسعودي، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن أبي موسى قال: سمى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء، منها ما حفظنا فقال: «أنا محمد، وأحمد، والحاشر، والمقفي، ونبي الرحمة، والتوبة، والملحمة». ورواه مسلم من حديث الأعمش، عن عمرو بن مرة، به. وقد قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزَةً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الْنَّبِيِّينَ لَمَّا أَعْتَبْتُمْ أَنَّمَا أَتَيْنَاكُمْ بِكِتَابٍ يَصُدِّقُ مَا كُنْتُمْ تُكْفِرُونَ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِسْرَءِيلَ قَالُوا أَتَقْرَأُونَ قَالَ فَاثْبُتُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد: لئن بعث محمد وهو حي ليتبعه، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعوه وينصروه. وقال محمد بن إسحاق: حدثني ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك. قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاء له قصور بصرى من أرض الشام». وهذا إسناد جيد. وروى له شواهد من وجوه آخر، فقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح، عن سعيد بن سويد الكلبي، عن عبد الأعلى بن هلال السلمي، عن العرياض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طيته، وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين». وقال أحمد أيضاً: حدثنا أبو النضر، حدثنا الفرج بن فضالة، حدثنا لقمان بن عامر قال: سمعت أبا أمامة قال: قلت: يا نبي الله، ما كان بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاء له قصور الشام». وقال أحمد أيضاً: حدثنا حسن بن موسى: سمعت خديجاً أخا زهير بن معاوية، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن عتبة، عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن نحو من ثمانين رجلاً، منهم: عبد الله بن مسعود، وجعفر، وعبد الله بن عرفة، وعثمان بن مظعون، وأبو موسى. فأتوا النجاشي، وبعث قريش عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد بهدية، فلما دخلا على النجاشي سجداً له، ثم ابتدرا عن يمينه وعن شماله، ثم قالوا له: إن نفراً من بني عمن نزلوا أرضك، ورغبوا عنا وعن ملتنا. قال: فأين هم؟ قالوا: هم في أرضك، فابعت إليهم. فبعث إليهم. فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم. فاتبعوه فسلم ولم يسجد، فقالوا له: ما لك لا تسجد للملك؟ قال: إنا لا نسجد إلا لله ﷻ. قال: وما ذاك؟ قال: إن الله بعث إلينا رسوله، فأمرنا ألا نسجد إلا لله ﷻ، وأمرنا بالصلاة والزكاة. قال عمرو بن العاص، فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم. قال: ما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه؟ قالوا: نقول كما قال الله ﷻ: هو كلمة الله وروحه ألقيها إلى العذراء البتول، التي لم يمسهما بشر ولم يقرضها ولد. قال: فرفع عوداً من الأرض ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه، ما يساوي هذا. مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم. انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضه. وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما، ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدرأ، وزعم أن النبي ﷺ استغفر له حين بلغه موته. وقد رويت هذه القصة عن جعفر وأم

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ورسوله، كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال: ﴿مَنْ أَصَابَكُمْ إِلَى اللَّهِ؟﴾ أي: من مُعِينِي فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ ﷻ؟ ﴿قَالَ أَلْتَوَكَّلُونَ؟﴾ - وهم أتباع عيسى عليه السلام -: ﴿عَنْ أَنْصَارِ اللَّهِ﴾ أي: نحن أنصارك على ما أرسلت به ومُؤازروك على ذلك، ولهذا بعثهم دعاءً إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيليين، واليونانيين. وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج: «من رجل يُؤويني حتى أبلغ رسالة ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي». حتى قَبِضَ الله ﷻ له الأوس والخزرج من أهل المدينة، فبايعوه ووازره، وشارطوه أن يمنعه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفواله بما عاهدوا الله عليه؛ ولهذا سماهم الله ورسوله: الأنصار، وصار ذلك علماً عليهم، رضي الله عنهم، وأرضاهم. وقوله: ﴿فَنَامَتْ ثَلَاثَةٌ مِنْ بَنَاتِ إِسْرَئِيلَ وَكَفَرَتْ ثَلَاثَةٌ﴾ أي: لما بلغ عيسى ابن مريم عليه السلام رسالة ربه إلى قومه، ووازره من أوازره من الحواريين، اهتدت طائفة من بنى إسرائيل بما جاءهم به، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به، وجحدوا نبوته،

ورموه وأمه بالعظام، وهم اليهود - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - وغلت فيه طائفة ممن اتبعه، حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، وافترقوا فرقا وشيعا، فمن قائل منهم: إنه ابن الله. وقائل: إنه ثالث ثلاثة: الأب، والابن، وروح القدس. ومن قائل: إنه الله. وكل هذه الأقوال مفصلة في سورة النساء. وقوله: ﴿فَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَذُوبِكُمْ﴾ أي: نصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى، ﴿فَأَسْبَحُوا لِلَّهِ﴾ أي: عليهم، وذلك ببعثة محمد ﷺ، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: حدثني أبو السائب، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن المنهال - يعني ابن عمرو - عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أراد الله ﷻ أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج إلى أصحابه وهم في بيت اثنا عشر رجلا، من عين في البيت، ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي. قال: ثم قال: أيكم يلقي عليه شبهي فيقتل مكاني، ويكون معي في درجتي؟ قال: فقام شاب من أحدثهم سنا فقال: أنا. قال: فقال له: اجلس. ثم أعاد عليه، فقام الشاب فقال: أنا. فقال له: اجلس. ثم عاد عليهم فقام الشاب، فقال: أنا. فقال: نعم، أنت ذاك. قال: فألقي عليه شبه عيسى، وُزِعَ عيسى عليه السلام من روزنة في البيت إلى السماء، قال: وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا شبهه فقتلوه وصلبوه، وكفربه بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به، ففترقوا ثلاث فرق. قالت فرقة: كان الله فينا ما شاء، ثم صعد إلى السماء. وهؤلاء البعقوية. وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء، ثم رفعه إليه وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه، وهؤلاء المسلمون، فظاهرت الكافرتان على المسلمة، فقتلوا، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا ﷺ، ﴿فَأَمَّا تِلْكَ الْأُمَّةُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَرَرَتْ عَلَيْنَا﴾ يعني: الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى، والطائفة التي آمنت في زمن عيسى، ﴿فَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَذُوبِكُمْ فَاسْبَحُوا لِلَّهِ﴾، بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار ﴿فَأَسْبَحُوا لِلَّهِ﴾. هذا لفظه في كتابه عند تفسير هذه الآية الكريمة. وهكذا رواه النسائي عند تفسير هذه الآية من سنته، عن أبي كُرَيْبٍ محمد بن العلاء، عن أبي معاوية، بمثله سواء. فامة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح، والله أعلم.



تفسير سورة الجمعة

وهي مدنية. عن ابن عباس، وأبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين. رواه مسلم في صحيحه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَصَّرَ فِي الْأَنْبِيَاءِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَسْلُوْنَ عَلَيْهِمْ السَّلَامَ. وَرَزَقَهُمْ وَجَلَدَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْلٍ ضَلُّوا مُبِينًا ۝ وَالْأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْعَنُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝﴾.

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات وما في الأرض، أي: من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها، كما قال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]. ثم قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي﴾ أي: هو مالك السموات والأرض المتصرف فيهما بحكمه، وهو ﴿الْقُدُّوسُ﴾ أي: المزهة عن النقائص، الموصوف بصفات الكمال ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: تقدم في تفسيره غير مرة. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَصَّرَ فِي الْأَنْبِيَاءِ رُسُلًا مِنْهُمْ﴾: الأميون هم: العرب كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّهِ أَوْثُوا الْكِتَابَ وَالْأَنْبِيَاءَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ افْتَدَوْا رَبًّا وَقَوْلُوا فَمَنْ عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِمِصْرٍ بِالْبَادِ﴾ [ال عمران: ٢٠] وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عاداهم، ولكن المنه عليهم أبلغ وأكد، كما في قوله: ﴿وَأَنذَرْتُكَ الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وهذا وأمثاله لا ينافي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَكُافِرُ الْإِنْسَانُ إِيَّي رَسُولَ اللَّهِ إِلَىٰ كَيْفَتِهِمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقوله: ﴿لَا تُؤْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقوله إخباراً عن القرآن: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثه صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق، أحمرهم وأسودهم، وقد قدمنا تفسير ذلك في سورة الأنعام، بالآيات والأحاديث الصحيحة، والله الحمد والمنة. وهذه الآية هي مصداق إجابة الله لخليله

الْمَوْتُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَنْ يَسْتَوْفُوا أَجْرًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْفَالِغِينَ ﴿١٠﴾ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوْتًا لَوْ يَسْمُرُونَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُمْ بِمُزَحِّجِيهِ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يَسْمُرُوا وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَسْمُرُونَ ﴿١١﴾ [البقرة: ٩٤-٩٦].
وقد أسلفنا الكلام هناك، وبيننا أن المراد أن يدعوا على الضال من أنفسهم أو خصومهم، كما تقدمت مباحلة النصارى في آل عمران: ﴿فَمَنْ حَاكَمَكَ فِيمَا جَاءَكَ مِنَ الْوَيْلِ فُلْ قَالًا نَدَّحَ آيَاتَنَا وَآيَاتَكَ وَنَسَاكَ وَنِسَاءَكُمُ وَالنَّسَاءُ أَنْفُسُكُمْ ثُمَّ نَسَبَلْ فَنَجْعَلْ لَنْتَنَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] ومباحلة المشركين في سورة مريم: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدَدْ لَهُ الرِّجْحَ مَدًّا﴾ [مريم: ١٧٥].

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن يزيد الرقي أبو يزيد، حدثنا فرات، عن عبد الكريم بن مالك الجزري، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال أبو جهل لعنه الله: إن رأيت محمداً عند الكعبة لآتيته حتى أطأ على عُنُقِهِ. قال: فقال رسول الله ﷺ: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تموتوا لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار. ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً». رواه البخاري والترمذي والنسائي، من حديث عبد الرزاق عن معمر، عن عبد الكريم، به. قال البخاري: «وتبعه عمرو بن خالد، عن عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم». ورواه النسائي أيضاً عن عبد الرحمن بن عبيد الله الحلبي، عن عبيد الله بن عمرو والرقى، به أتم. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الْآخِرُ يُعْرَضُ عَلَيْكَ فَأَنْتَ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّهِ وَالشَّهَادَةُ يَتَنَبَّهَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [آيماً تَكُونُوا يَدْرِكُكُمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي رُوحٍ مُسْتَبَدِّوَةٍ] [النساء: ٧٨]. وفي معجم الطبراني من حديث معاذ بن محمد الهذلي، عن يونس، عن الحسن، عن سُمرة مرفوعاً: «مثل الذي يفر من الموت كمثل الثعلب تطلبه الأرض بدين، فجاء يسعى حتى إذا أعيا وانهر دخل حجره، فقالت له الأرض: يا ثعلب ديني. فخرج له خصاص، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه، فمات».

﴿يَأْتِيهِمُ الْآلِيزُ مَأْمَرًا إِذَا تَوَدَّعَ لِلصَّلَاةِ مِنْ بَوَّارِ الْجُمُعَةِ قَامَسُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْتَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آياً قُضِيَتِ الصَّلَاةُ قَامَسُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَادْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [١٧].

إنما سميت الجمعة جمعة، لأنها مشتقة من الجمع، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرة بالمعابد الكبار وفيه كُمل جميع الخلائق، فإنه اليوم السادس من السنة التي خلق الله فيها السموات والأرض. وفيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها. وفيه تقوم الساعة. وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه كما ثبت بذلك الأحاديث الصحاح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عبيدة بن حُميد، عن منصور، عن أبي معشر، عن إبراهيم، عن علقمة، عن قرع الضبي، حدثنا سلمان قال: قال أبو القاسم ﷺ: «يا سلمان، ما يوم الجمعة؟». قلت: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله ﷺ: «يوم جُمع فيه أبواك -أو- أبوك». وقد روي عن أبي هريرة، من كلامه، نحو هذا، فالحق أعلم. وقد كان يقال له في اللغة القديمة يوم العروبة. وثبت أن الأمم قبلنا أمروا به فضلوأ عنه، واختار اليهود يوم السبت الذي لم يقع فيه خلق، واختار النصارى يوم الأحد الذي ابتدأ فيه الخلق، واختار الله لهذه الأمة يوم الجمعة الذي أكمل الله فيه الخليقة، كما أخرجه البخاري ومسلم من حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن همام بن مثنى قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا. ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالتاس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غد». لفظ البخاري. وفي لفظ لمسلم: «أضل الله من كان قبلنا. فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد. فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد. وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، المقضي بينهم قبل الخلائق». وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة، فقال: ﴿يَأْتِيهِمُ الْآلِيزُ مَأْمَرًا إِذَا تَوَدَّعَ لِلصَّلَاةِ مِنْ بَوَّارِ الْجُمُعَةِ قَامَسُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: اقصدوا واعمدوا واهتموا في مسيركم إليها، وليس المراد بالسعي ها هنا المشي السريع، وإنما هو الاهتمام بها، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: ١٩]. وكان عمر بن الخطاب وابن مسعود رضي الله عنهما يقرآنها: «فامضوا إلى ذكر الله». فاما المشي السريع إلى الصلاة فقد نهى عنه، لما أخرجه في الصحيحين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة، وعليكم السكينة والوقار، ولا تسرعوا، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فاتموا». لفظ البخاري. وعن أبي قتادة قال: بينما نحن نصلي مع النبي ﷺ إذ سمع جلبة رجال، فلما صلى قال: «ما شأنكم؟». قالوا: استعجلنا إلى الصلاة. قال: «فلا تفعلوا، إذا أتيت الصلاة فامشوا وعليكم بالسكينة، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فاتموا». أخرجه. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة، رضي الله عنه،

قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، ولكن اثتوها تمشون، وعليكم السكينة والوقار، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا». رواه الترمذي من حديث عبد الرزاق كذلك، وأخرجه من طريق يزيد بن زريع، عن معمر، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، بمثله. قال الحسن: أما والله ما هو بالسعي على الأقدام، ولقد نُهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، ولكن بالقلوب والنية والخشوع. وقال قتادة في قوله: ﴿فَأَسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ يعني: أن تسعى بقلبك وعملك، وهو المشي إليها، وكان يتأول قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى﴾ [الصافات: ١٠٢] أي: المشي معه. روي عن محمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وغيرهما نحو ذلك. ويستحب لمن جاء الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه إليها، لما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل». ولهما عن أبي سعيد، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم». وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حق لله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام، يغسل رأسه وجسده». رواه مسلم.

وعن جابر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «على كل رجل مسلم في كل سبعة أيام غسل يوم، وهو يوم الجمعة». رواه أحمد، والنسائي، وابن حبان. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا ابن المبارك، عن الأوزاعي، عن حسان بن عطية، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن أوس بن أوس الثقفي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من غُسل واغتسل يوم الجمعة، وبكر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام واستمع ولم يَلْغُ كان له بكل خطوة أجر سنة، أجر صيامها وقيامها». وهذا الحديث له طرق وألفاظ، وقد أخرجه أهل السنن الأربعة وحسنه الترمذي. وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من اغتسل يوم الجمعة غُسل الجنابة، ثم راح فكانما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكانما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة، فكانما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكانما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكانما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر» أخرجاه. ويستحب له أن يلبس أحسن ثيابه، ويتطيب ويتسوك، ويتنظف ويتطهر. وفي حديث أبي سعيد المتقدم: «غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم، والسواك، وأن يمس من طيب أهله». وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن محمد بن إسحاق، حدثني محمد بن إبراهيم التيمي، عن عمران بن أبي يحيى، عن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبي أيوب الأنصاري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب أهله - إن كان عنده - ولبس من أحسن ثيابه، ثم خرج حتى يأتي المسجد فيركع - إن بدا له - ولم يؤذ أحداً، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلي، كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى». وفي سنن أبي داود وابن ماجه، عن عبد الله بن سلام، رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته». وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم الجمعة، فرأى عليهم ثياب التمار، فقال: «ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعه، سوى ثوبي مهنته». رواه ابن ماجه. وقوله تعالى: ﴿إِذَا نَادَى الصَّلَاةَ﴾: المراد بهذا النداء هو النداء الثاني الذي كان يفعل بين يدي رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر، فإنه كان حينئذ يؤذن بين يديه، فهذا هو المراد، فأما النداء الأول الذي زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فإنما كان هذا لكثرة الناس، كما رواه البخاري رحمه الله حيث قال: حدثنا آدم - هو ابن أبي إياس - حدثنا ابن أبي ذئب، عن الزهري، عن السائب بن يزيد قال: كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان بعد زمن وكثر الناس، زاد النداء الثاني على الزوراء يعني: يؤذن به على الدار التي تسمى بالزوراء، وكانت أرفع دار بالمدينة، بقرب المسجد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا محمد بن راشد المكحولي، عن محكول: أن النداء كان يوم الجمعة مؤذن واحد حين يخرج الإمام، ثم تقام الصلاة، وذلك النداء الذي يحرم عنده البيع والشراء إذا نودي به، فأمر عثمان، رضي الله عنه، أن ينادي قبل خروج الإمام حتى يجتمع الناس. وإنما يؤمر بحضور الجمعة الرجال الأحرار دون النساء والعبيد والصبيان، ويعذر المسافر والمريض، وقيم المريض، وما أشبه ذلك من الأعذار، كما هو مقرر في كتب الفروع. وقوله: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أي: اسعوا إلى ذكر الله واركعوا البيع إذا نودي للصلاة. ولهذا اتفق العلماء على تحريم البيع بعد النداء الثاني. واختلفوا هل يصح إذا تعاطاه متعاطم أم لا؟ على قولين، وظاهر الآية عدم الصحة كما هو مقرر في موضعه، والله أعلم. وقوله: ﴿ذَلِكَ سِوَا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تركم البيع وإقبالكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة خير لكم، أي: في الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون. وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ أي: فرغ منها، ﴿فَانشَرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾: لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع، أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض والابتغاء من

فضل الله . كان عراك بن مالك رضي الله عنه إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد، فقال: اللهم، أجبني دعوتك، وصليتي فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك، وأنت خير الرازقين . رواه ابن أبي حاتم . وروي عن بعض السلف أنه قال: من باع واشترى يوم الجمعة بعد الصلاة، بارك الله له سبعين مرة، لقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ . وقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: في حال بيعكم وشرائكم، وأخذكم وعطائكم، اذكروا الله ذكراً كثيراً، ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة ولهذا جاء في الحديث: «من دخل سوقاً من الأسواق فقال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير كُتبت له ألف ألف حسنة، ومُحي عنه ألف ألف سيئة» . وقال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً، حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً .

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِو وَمِنَ الْبَيْعَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ .

يعاتب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذ، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ أي: على المنبر تخطب . هكذا ذكره غير واحد من التابعين، منهم: أبو العالية، والحسن، وزيد بن أسلم، وقتادة . وزعم مقاتل بن حيان: أن التجارة كانت لدحية بن خليفة قبل أن يسلم، وكان معها طبل، فانصرفوا إليها وتركوا رسول الله ﷺ قائماً على المنبر إلا القليل منهم . وقد صرح بذلك الخبر، فقال الإمام أحمد: حدثنا ابن إدريس، عن حصين، عن سالم بن أبي الجعد، عن جابر قال: قدمت عير المدينة، ورسول الله ﷺ يخطب، فخرج الناس وبقي اثنا عشر رجلاً، فنزلت: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ . أخرجاه في الصحيحين، من حديث سالم، به . وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زكريا بن يحيى، حدثنا هُشَيْم، عن حصين، عن سالم بن أبي الجعد وأبي سفيان، عن جابر بن عبد الله قال: بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة، فقدمت عير إلى المدينة، فابتدعها أصحاب رسول الله ﷺ، حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو تابعتهم حتى لم يبق منكم أحد، لسال بكم الوادي ناراً»، ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ ، وقال: كان في الاثنى عشر الذين تَبَتُّوا مع رسول الله ﷺ: أبو بكر، وعمر، رضي الله عنهما . وفي قوله: ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ : دليل على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائماً . وقد روى مسلم في صحيحه عن جابر بن سُمرة قال: كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما، يقرأ القرآن ويذكر الناس . لكن ها هنا شيء ينبغي أن يعلم وهو: أن هذه القصة قد قيل: إنها كانت لما كان رسول الله ﷺ يقدم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة، كما رواه أبو داود في كتاب المراسيل: حدثنا محمود بن خالد، عن الوليد، أخبرني أبو معاذ بَكِير بن معروف، أنه سمع مُقاتل بن حَيَّان يقول: «كان رسول الله ﷺ يصلي يوم الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين، حتى إذا كان يومُ النبي يخطب، وقد صلى الجمعة، فدخل رجل فقال: إن دحية بن خليفة قد قدم بتجارة . يعني: فانفضوا، ولم يبق معه إلا نفر يسير . وقوله: ﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ﴾ أي: الذي عند الله من الثواب في الدار الآخرة ﴿خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِو وَمِنَ الْبَيْعَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي: لمن توكل عليه، وطلب الرزق في وقته .



تفسير سورة المنافقون

وهي مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتِفِقُونَ قَالُوا نَشَهِدُ إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتِفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١ أَخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ مَّا نَشَأُوا ثُمَّ كَذَبُوا فَطَعِ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَمَهَرُ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَانَتْهُمْ حَشَبٌ مُّشْتَدَّةٌ يَعْسِرُونَ كُلَّ سَيِّئَةٍ عَلَيْهِمْ هُوَ الْمُدُّ فَلَا تَدْرِي مَا تَعْلَمُهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤَفِّكُونَ ۝٤﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين: أنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاؤوا النبي ﷺ ، فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك، بل على الضد من ذلك ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتِفِقُونَ قَالُوا نَشَهِدُ إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي: إذا حضروا عندك واجهوك بذلك، وأظهروا لك ذلك، وليسوا كما يقولون: ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ . ثم قال:

وأنزل الله فيه ما تسمعون، وقيل لعدو الله: لو أتيت رسول الله ﷺ؟ فجعل يلوي رأسه، أي: لست فاعلاً.
وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الربيع الزهراني، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب، عن سعيد بن جبير: أن رسول الله ﷺ كان إذا نزل منزلاً لم يرتحل حتى يصلي فيه، فلما كانت غزوة تبوك بلغه أن عبد الله بن أبي سلول قال: ﴿يُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾. فارتحل قبل أن ينزل آخر النهار، وقيل لعبد الله بن أبي: انت النبي ﷺ حتى يستغفر لك. فأنزل الله: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَئِنْ قِيلَ لَهُمْ تَقَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَلَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾. وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن جبير. وقوله: إن ذلك في غزوة تبوك، فيه نظر، بل ليس بجيد؛ فإن عبد الله بن أبي ابن سلول لم يكن ممن خرج في غزوة تبوك، بل رجع بطائفة من الجيش. وإنما المشهور عند أصحاب المغازي والسير أن ذلك كان في غزوة المريسيع، وهي غزوة بني المصطلق.

قال يونس بن بكير، عن ابن إسحاق: حدثني محمد بن يحيى بن حبان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة، في قصة بني المصطلق: فبينما رسول الله ﷺ مقيم هناك، اقتتل على الماء جهجاه بن سعيد الغفاري - وكان أجيراً - لعمر بن الخطاب، وسنان بن وبرة قال ابن إسحاق: فحدثني محمد بن يحيى بن حبان قال: ازدحما على الماء فاقتتلا، فقال سنان: يا معشر الأنصار. وقال الجهجاه: يا معشر المهاجرين - وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبي - فلما سمعها قال: قد ثاورونا في بلادنا. والله ما مثلنا وجلايب قريش هذه إلا كما قال القائل: «سمن كلبك يأكلك». والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم أقبل على من عنده من قومه وقال: هذا ما صنعت بآنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كفتهم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها. فسمعها زيد بن أرقم، فذهب بها إلى رسول الله ﷺ وهو غليظ - وعنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه - فأخبره الخبر، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله مَرَّ عِبَادُ بِنِ بَشَرٍ فَلْيَضْرِبْ عَقَّهُ. فقال ﷺ: «فكيف إذا تحدث الناس - يا عمر - أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا، ولكن ناد يا عمر في الرحيل». فلما بلغ عبد الله بن أبي أن ذلك قد بلغ رسول الله ﷺ، أنه فاعتذر إليه، وحلف بالله ما قال ما قال عليه زيد بن أرقم - وكان عند قومه بمكان - فقالوا: يا رسول الله، عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يثبت ما قال الرجل. وراح رسول الله ﷺ مُهْجِراً فِي سَاعَةٍ لَا يَرُوحُ فِيهَا، فلقية أسيد بن الحضير فسلم عليه بتحية النبوة، ثم قال: والله لقد رُحْتُ فِي سَاعَةٍ مُنْكَرَةٍ مَا كُنْتُ تَرُوحُ فِيهَا. فقال رسول الله ﷺ: «أما بلغنا ما قال صاحبك ابن أبي؟». زعم أنه إذا قدم المدينة أنه سيخرج الأعز منها الأذل. قال: فأتت - يا رسول الله - العزيز وهو الذليل. ثم قال: يا رسول الله أرفق به فوالله لقد جاء الله بك ولنا لننظم له الخرز لتُوجَّه، فإنه ليرى أن قد استلبته ملكاً. فسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا، وليلته حتى أصبحوا، وصدر يومه حتى اشتد الضحى. ثم نزل بالناس ليشرح لهم عما كان من الحديث، فلم يأمن الناس أن وجدوا مس الأرض فناموا، ونزلت سورة المنافقين. وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو بكر بن إسحاق، أخبرنا بشر بن موسى، حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، سمعت جابر بن عبد الله يقول: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فكسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار. وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فقال رسول الله ﷺ: «ما بال دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتنة». وقال عبد الله بن أبي ابن سلول - وقد فعلوها -: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال جابر: وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ، ثم كثر المهاجرون بعد ذلك، فقال عمر: دعني أضرب عتق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: «دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه». ورواه الإمام أحمد عن حسين بن محمد المروزي، عن سفيان بن عيينة. ورواه البخاري عن الحميدي، ومسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة وغيره، عن سفيان، به نحوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الحكم، عن محمد بن كعب القرظي، عن زيد بن أرقم قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال عبد الله بن أبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال: فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، قال: فحلف عبد الله بن أبي أنه لم يكن شيء من ذلك. قال: فلأمتي قومي وقالوا: ما أردت إلى هذا؟ قال: فانطلقت فمئت كتيباً حزناً، قال: فأرسل إلي نبي الله ﷺ فقال: «إن الله قد أنزل غُدرَكَ وَصَدَقَكَ». قال: فنزلت هذه الآية ﴿هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُبْعَثُوا عَلَيْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ حتى بلغ: ﴿لَنْ رَجَعَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾. ورواه البخاري عند هذه الآية، عن آدم بن أبي إياس، عن شعبة، ثم قال: وقال ابن أبي زائدة، عن الأعمش، عن عمرو، عن ابن أبي ليلى، عن زيد، عن النبي ﷺ. ورواه الترمذي والنسائي عنده أيضاً من حديث شعبة، به.

طريق أخرى عن زيد: قال الإمام أحمد، رحمه الله، حدثنا يحيى بن آدم، ويحيى بن أبي بكير قال: حدثنا إسرائيل، عن أبي

إسحاق قال: سمعت زيد بن أرقم - وقال ابن أبي بُكير: عن زيد بن أرقم - قال: خرجت مع عمي في غزاة، فسمعت عبد الله بن أبي ابن سلول يقول لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فذكرت ذلك لعمي، فذكره عمي لرسول الله ﷺ فأرسل إليَّ رسول الله ﷺ فحدثته، فأرسل إلى عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه فحللوا ما قالوا: فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصابني همٌّ لم يصبني مثله قط، وجلس في البيت، فقال عمي: ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك. قال: حتى أنزل الله: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ قال: فبعث إليَّ رسول الله ﷺ فقرأها رسول الله علي، ثم قال: «إن الله قد صدقك». ثم قال أحمد أيضاً: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا زهير، حدثنا أبو إسحاق: أنه سمع زيد بن أرقم يقول: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصاب الناس شدة، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفصوا من حوله. وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فأتيت النبي ﷺ فأخبرته بذلك، فأرسل إلى عبد الله بن أبي فسأله، فاجتهد بعينه ما فعل. فقالوا: كذب زيد يا رسول الله. فوقع في نفسي ما قالوا، حتى أنزل الله تصديقي: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾. قال: ودعاهم رسول الله ﷺ ليستغفر لهم، فلووا رؤوسهم. وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ خُشْبٌ مِّنْهُ﴾ قال: كانوا رجالاً أجمل شيء. وقد رواه البخاري ومسلم والنسائي، من حديث زهير. ورواه البخاري أيضاً والترمذي من حديث إسرائيل، كلاهما عن أبي إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعي الهمداني الكوفي، عن زيد، به.

طريق أخرى عن زيد: قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا عبد الله بن حُميد، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن السدي، عن أبي سعد الأزدي قال: حدثنا زيد بن أرقم قال: غزونا مع رسول الله ﷺ وكان معنا أناس من الأعراب، فكانا نبتدئ الماء، وكان الأعراب يسبقونا يسبق الأعرابي أصحابه يملأ الحوض، ويجعل حوله حجارة، ويجعل التطع عليه حتى يجيء أصحابه. قال: فأتى رجل من الأنصار الأعرابي، فأرخصى زمام ناقته لتشرب، فأبى أن يدعه، فانتزع حجراً ففاض الماء، فرفع الأعرابي خشبة، فضرب بها رأس الأنصاري فشجّه، فأتى عبد الله بن أبي رأس المنافقين فأخبره - وكان من أصحابه - فغضب عبد الله بن أبي، ثم قال: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفصوا من حوله - يعني الأعراب - وكانوا يحضرون رسول الله ﷺ عند الطعام. فقال عبد الله لأصحابه: إذا انفصوا من عند محمد فأتوا محمداً بالطعام، فليأكل هو ومن عنده، ثم قال لأصحابه: إذا رجعت إلى المدينة فليخرج الأعز منها الأذل. قال زيد: وأنا ردف عتي، فسمعت عبد الله فأخبرت عتي، فانطلق فأخبر رسول الله ﷺ، فأرسل إليه رسول الله، فحلف وجحد، قال: فصدقه رسول الله ﷺ وكذبني، فجاء إلى عمي فقال: ما أردت إلا أن مقتك رسول الله ﷺ وكذبك والمسلمون. فوقع علي من الغم ما لم يقع على أحد قط، فبينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ في سفر وقد خفت برأسي من الهم، إذ أتاني رسول الله ﷺ فعرك أذني، وضحك في وجهي، فما كان يسرني أن لي بها الخلد في الدنيا، ثم إن أبا بكر لحقني وقال: ما قال لك رسول الله ﷺ قلت: ما قال لي رسول الله ﷺ شيئاً، غير أن عرك أذني وضحك في وجهي. فقال: أبشر. ثم لحقني عمر فقلت له مثل قولي لأبي بكر. فلما أن أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين. انفرد بإخراجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح. وهكذا رواه الحافظ البيهقي عن الحاكم عن أبي العباس محمد بن أحمد المحبوبي، عن سعيد بن مسعود، عن عبيد الله بن موسى، به. وزاد بعد قوله «سورة المنافقين» ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ حتى بلغ: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ حتى بلغ: ﴿يُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَهَا الْأَذْلَ﴾. وقد روى عبد الله بن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة بن الزبير - في المغازي - وكذا ذكر موسى بن عقبة في مغازيه أيضاً هذه القصة بهذا السياق، ولكن جعلاً الذي بلغ رسول الله ﷺ كلام عبد الله بن أبي ابن سلول إنما هو أوس بن أرقم، من بني الحارث بن الخزرج. فلعله مبلغ آخر، أو تصحيف من جهة السمع، والله أعلم.

وقد قال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا محمد بن عزيز الأيلي، حدثني سلامة، حدثني عقيل، أخبرني محمد بن مسلم، أن عروة بن الزبير وعمرو بن ثابت الأنصاري أخبراه: أن رسول الله ﷺ غزا غزوة المريسيع، وهي التي هدم رسول الله ﷺ فيها مناة الطاغية التي كانت بين قفا المشلل وبين البحر، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فكسر مناة، فاقتتل رجلان في غزوة رسول الله ﷺ تلك، أحدهما من المهاجرين، والآخر من بهز، وهم حلفاء الأنصار، فاستعلى الرجل الذي من المهاجرين على البهزي، فقال البهزي: يا معشر الأنصار، فنصره رجال من الأنصار، وقال المهاجري: يا معشر المهاجرين. فنصره رجال من المهاجرين، حتى كان بين أولئك الرجال من المهاجرين والرجال من الأنصار شيء من القتال، ثم حُجز بينهم فانكفا كل منافق - أو: رجل في قلبه مرض - إلى عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال: قد كنت تُزجى وتدفع فأصبحت لا تضرو ولا

تنفع، قد تناصرت علينا الجلابيب - وكانوا يدعون كل حديث هجرة: الجلابيب - فقال عبد الله بن أبي عدو الله: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال مالك بن الدخشم - وكان من المنافقين -: أو لم أقل لكم لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا. فسمع بذلك عمر بن الخطاب، فأقبل يمشي حتى جاء رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي في هذا الرجل الذي قد أفتن الناس، أضرب عنقه - يريد عمر عبد الله بن أبي - فقال رسول الله ﷺ لعمر: «أو قاتله أنت إن أمرتك بقتله؟» قال عمر: نعم والله لئن أمرتني بقتله لأضربن عنقه. فقال رسول الله ﷺ: «اجلس». فأقبل أسيد بن الحضير - وهو أحد الأنصار، ثم أحد بني عبد الأشهل - حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي في هذا الرجل الذي قد أفتن الناس حتى أضرب عنقه. فقال رسول الله ﷺ: «أو قاتله أنت إن أمرتك بقتله؟» قال: نعم، والله لئن أمرتني بقتله لأضربن بالسيف تحت قرط أذنيه. فقال رسول الله ﷺ: «اجلس». ثم قال رسول الله ﷺ: «آذنوا بالرحيل». فهجر بالناس، فسار يومه وليلته والغد حتى مَتَّعَ النهار، ثم نزل. ثم هجر بالناس مثلها، فصبح بالمدينة في ثلاث سارها من قفا المُشَلَّل فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أرسل إلى عمر فدعاه، فقال له رسول الله ﷺ: «أي عمر، أكنت قاتله لو أمرتك بقتله؟» قال عمر: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «والله لو قتله يومئذ لأرغمت أنوف رجال لو أمرتهم اليوم بقتله امتثلوه فيتحدث الناس أني قد وقعت على أصحابي فأقتلهم صبراً». وأنزل الله ﷻ: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُبْعَثُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ إلى قوله: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ﴾ الآية. وهذا سياق غريب، وفيه أشياء نفيسة لا توجد إلا فيه.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار: حدثني عاصم بن غمر بن قتادة: أن عبد الله بن أبي - يعني لما بلغه ما كان من أمر أبيه - أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار. فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته، ما بقي معنا». وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما: أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة، وقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة، واستل سيفه، فجعل الناس يعمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه: ورايك. فقال: ما لك؟ ويلك. فقال: والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل. فلما جاء رسول الله ﷺ - وكان إنما يسير ساقه - فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه، فقال ابنه عبد الله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له. فأذن له رسول الله ﷺ، فقال: أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن. وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير في مسنده: حدثنا سفيان بن غيينة، حدثنا أبو هارون المدني قال: قال عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول لأبيه: والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول: رسول الله ﷺ الأعز وأنا الأذل. قال: وجاء النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد أن تقتل أبي، فوالذي بعثك بالحق ما تأملت وجهه قط هيبه له، ولئن شئت أن آتيك برأسه لآتينك، فلاني أكره أن أرى قاتل أبي.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٩) ﴿وَأَنفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِمَّنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِ أَمْدُكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَسْتَفْذَكَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٠) ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١١).

يقول تعالى أمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره وناهياً لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ومخبراً لهم بأنه من انتهى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خلق له من طاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ثم حشهم على الإنفاق في طاعته فقال: ﴿وَأَنفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِمَّنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِ أَمْدُكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَسْتَفْذَكَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٠)، فكل مفرط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيراً، يستعجب ويستدرك ما فات، وهيئات! كان ما كان، وأتى ما هوأت، وكل بحسب تفریطه، أما الكفار فكما قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ الْقَاسِيَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ يَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَّجِثْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعْ آلَؤُنَّ أَنْ نَكُونُوا مُفْزَعِينَ﴾ (١١) ﴿لَقَدْ أَعْمَلْ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٢) ﴿الْمُؤْمِنُونَ: ٩٩، ١٠٠﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١١)، أي: لا ينظر أحداً بعد حلول أجله، وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقاً في قوله وسؤاله ممن لو رد لعاد إلى شر مما كان عليه، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. وقال أبو عيسى الترمذي: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا جعفر بن عون، حدثنا أبو جناب الكلبي، عن الضحاك بن مزاحم، عن ابن عباس قال: من كان له مال يبلغه حج بيت ربه، أو تجب فيه عليه

زكاة، فلم يفعل، سأل الرجعة عند الموت. فقال رجل: يا ابن عباس، اتق الله، فإنما يسأل الرجعة الكفار. فقال: سألتو علياً بذلك قرأتاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١) وَأَتَفَعُوا مِنْ مَا رَزَقْنَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَسْتَفْذِكَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٣) قال: فما يوجب الزكاة؟ قال: إذا بلغ المال مائتين فصاعداً. قال: فما يوجب الحج؟ قال: الزاد والبعير. ثم قال: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا عبد الرزاق، عن الثوري، عن يحيى بن أبي حية - وهو أبو جناب الكلبي - عن الضحاك، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، بنحوه. ثم قال: وقد رواه سفيان بن عيينة وغيره، عن أبي جناب، عن الضحاك، عن ابن عباس، من قوله. وهو أصح، وضعف أبو جناب الكلبي. قلت: رواية الضحاك عن ابن عباس فيها انقطاع، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن ثعلب، حدثنا سليمان بن عطاء، عن مسلمة الجعني، عن عمه - يعني أبا مشجعة بن ربيعي - عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ الزيادة في العمر فقال: «إن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها، وإنما الزيادة في العمر أن يرزق الله العبد ذرية صالحة يدعون له، فيلحقه دعاؤهم في قبره».

آخر تفسير سورة «المنافقون»، ولله الحمد والمنة



تفسير سورة التغابن

وهي مدنية، وقيل: مكية. قال الطبراني: حدثنا محمد بن هارون بن محمد بن بكار الدمشقي، حدثنا العباس بن الوليد الخلال، حدثنا الوليد بن الوليد، حدثنا ابن ثوبان، عن عطاء بن أبي رباح، عن عبد الله بن عمرو، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من سورة التغابن». أورده ابن عساكر في ترجمة «الوليد بن صالح»، وهو غريب جداً، بل منكر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَدُّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَتَكُونُونَ كَافِرًا وَيُنَكِّرُ مَوْتَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُحِيرُونَ وَمَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُ الْمُشْكِرِينَ (٤).

هذه السورة هي آخر المُسَبِّحات، وقد تقدم الكلام على تسبيح المخلوقات لبارئها ومالكها؛ ولهذا قال: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَدُّ﴾ أي: هو المتصرف في جميع الكائنات، المحمود على جميع ما يخلقه ويقدره. وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: مهما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع، وما لم يشأ لم يكن. وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَتَكُونُونَ كَافِرًا وَيُنَكِّرُ مَوْتَكُمْ﴾ أي: هو الخالق لكم على هذه الصفة، وأراد منكم ذلك، فلا بد من وجود مؤمن وكافر، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال، وهو شهيد على أعمال عباده، وسيجزئهم بها أتم الجزاء؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. ثم قال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل والحكمة، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: أحسن أشكالكم، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٢) أَيُّ صُورَةٍ مَّا نَشَاءُ رَكَّبَكَ (٣) [الانفطار: ٦-٨]، وكقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَكْرًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ اللَّطِيفِ﴾ الآية [غافر: ٦٤]، وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب. ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السماوية والأرضية والنفسية، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُحِيرُونَ وَمَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُ الْمُشْكِرِينَ﴾ (٤).

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَكَالَ أَمْرِهم وَلَمْ يَأْتِهِمْ نَجْدٌ فَذَاقُوا أَمْرَهُمْ ثُمَّ هُمْ يَفْكَرُونَ﴾ (١) وَتَسْتَفْتِي اللَّهَ وَاللَّهُ عَنِ جَيْدٍ (٢).

يقول تعالى مخبراً عن الأمم الماضين، وما حل بهم من العذاب والنكال؛ في مخالفة الرسل والتكذيب بالحق، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: خبرهم وما كان من أمرهم، ﴿فَذَاقُوا وَكَالَ أَمْرِهم﴾ أي: وخيم تكذيبهم وردى أفعالهم، وهو ما حل بهم في الدنيا من العقوبة والخزي ﴿وَلَمْ يَأْتِهِمْ نَجْدٌ﴾ أي: في الدار الآخرة مضاف إلى هذا الدنيوي. ثم علل ذلك فقال:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْلِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج والدلائل والبراهين ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَجِدُونَا؟﴾ أي: استبعدوا أن تكون الرسالة في البشر، وأن يكون هدايم على يدي بشر مثلهم، ﴿ذَكَرُوا وَتَوَلَّوْا﴾ أي: كذبوا بالحق ونكلوها عن العمل، ﴿وَأَسْتَفَى اللَّهُ﴾ أي: عنهم، ﴿وَاللَّهُ عَزَّ وَجَدٌ﴾.

﴿عَمَّ الْبَيْنَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعِثَ لَكَ ذُوُّ الْمِغْنَةِ ثُمَّ لَنُبْعِثَ لَكَ بِمَا عَمِلْتَ ذُلَّكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَاسْمِعُوا لِقَاءَهُ رَسُولَهُ. وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنَّهُمْ سَيُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قُرْآنٌ مِثْلُ الْقُرْآنِ الَّذِي أُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين والكفار أنهم يزعمون أنهم لا يعثون: ﴿قُلْ بَلْ وَرَبِّيَ اشْفَعُ ثُمَّ لَنَنْبَغَ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي: لتُخْزِنَ بجميع أعمالكم، جليلها وحقيقها، صغيرها وكبيرها، ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: بعثكم ومجازاتهم. وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه، ﷻ، على وقوع المعاد ووجوده، فالأولى في سورة يونس: ﴿رَسَّيْتُمْ لَوْلَاقِيَ هُوَ قُلْ لِي وَرَبِّيَ إِنَّهُ لَنَاصِرٌ مِّمَّنْ عِنْدَ رَبِّي﴾ [يونس: ٥٢]، والثانية في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلْ وَرَبِّيَ لَأَتَانِكُمْ﴾ الآية [سبأ: ٣]، والثالثة هي هذه: ﴿زَمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يُلَاقِيَ قُلْ بَلْ وَرَبِّيَ لَتُفْعِنَ ثُمَّ لَنَنْبَغَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [٧].

فَاتَيْنَكُمُ ﴿١٢﴾ الْآيَةَ سُبْحًا ۖ وَنُسُفُوهَا فِي مَبْطِئَتِنَا ۖ وَلَقَدْ نَفَخْنَا بِالْقَوْلِ فَجَاءْتُمُوهَا وَمِنْ يُبْسِئِ لَكُمْ فَجِئْنَاكُمْ مِنَ غُبُرٍ فَخَشَاكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْكَلِيمُ الْمُسْتَجِيبُ ﴿١٣﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ﴿فَاتَيْنَا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْغَوْثِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ يعني: القرآن، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية. وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ إِلَهُ الْجَمْعِ﴾: وهو يوم القيامة، سمي بذلك لأنه يجمع فيه الأولون والآخرين في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمَعُ لَهُ الْإِنسَاءُ ذَوَلَهُمْ ذَٰلِكَ يَوْمَ تُشْهَدُونَ﴾ [عنود: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِّكَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ لَكَ بِيَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]. وقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال ابن عباس: هو اسم من أسماء يوم القيامة. وذلك أن أهل الجنة يغنون أهل النار. وكذا قال قتادة ومجاهد. وقال مقاتل بن حيان: لا غيب أعظم من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة، ويذهب بأولئك إلى النار. قلت: وقد فسر ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ سَلِيمًا يُكْفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا بِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾. وقد تقدم تفسير مثل هذه غير مرة.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ سَبِيلَهُ﴾ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْخَالِفِينَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى مخبراً بما أخبر به في سورة الحديد: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢]، وهكذا قال ما هنا: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: قال ابن عباس: بأمر الله، يعني: عن قدره ومشيته. ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ رُجُلَهُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى يَدَيْهِ﴾ أي: وما أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه، وبقيناً صادقاً، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيراً منه. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ رُجُلَهُ﴾ يعني: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وقال الأعمش، عن أبي ظبيان قال: كنا عند علقمة فقرأء عنده هذه الآية: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ رُجُلَهُ﴾، فُسِّلَ عن ذلك فقال: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. وقال سعيد بن جبير، ومقاتل بن حيان: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ رُجُلَهُ﴾ يعني: يسترجع، يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]. وفي الحديث المتفق عليه: «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن». وقال أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح، أنه سمع جنادة بن أبي أمية يقول: سمعت عبادَةَ بن الصامت يقول: إن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله، وتصديق به، وجهاد في سبيله». قال: أريد أهون من هذا يا رسول الله. قال: «السماحة والصبر». قال: أريد أهون من ذلك يا رسول الله. قال: «لا تتهم الله في شيء، قضى لك به». لم يخرجوه. وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾: أمر بطاعة الله ورسوله فيما شرع، وفعل ما به أمر وترك ما عنه نهى وزجر، ثم قال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاءُ الْمُنِيبُ﴾ أي: إن نكلتم عن العمل فإنما عليه ما حُمل من البلاغ، وعليكم ما حُمِلتم من السمع والطاعة. قال الزهري: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلىنا التسليم. ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد، الذي لا إله غيره، فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فِتْنَتُكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فالأول خبر عن التوحيد، ومعناه معنى الطلب، أي: وحدوا الإلهية له،

يقول تعالى مخبراً بما أخبر به في سورة الحديد: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢]، وهكذا قال ما هنا: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: قال ابن عباس: بأمر الله، يعني: عن قدره ومشيته. ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ رُجُلَهُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى يَدَيْهِ﴾ أي: وما أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه، وبقيناً صادقاً، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيراً منه. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ رُجُلَهُ﴾ يعني: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وقال الأعمش، عن أبي ظبيان قال: كنا عند علقمة فقرأء عنده هذه الآية: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ رُجُلَهُ﴾، فُسِّلَ عن ذلك فقال: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. وقال سعيد بن جبير، ومقاتل بن حيان: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ رُجُلَهُ﴾ يعني: يسترجع، يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]. وفي الحديث المتفق عليه: «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن». وقال أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح، أنه سمع جنادة بن أبي أمية يقول: سمعت عبادَةَ بن الصامت يقول: إن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله، وتصديق به، وجهاد في سبيله». قال: أريد أهون من هذا يا رسول الله. قال: «السماحة والصبر». قال: أريد أهون من ذلك يا رسول الله. قال: «لا تتهم الله في شيء، قضى لك به». لم يخرجوه. وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾: أمر بطاعة الله ورسوله فيما شرع، وفعل ما به أمر وترك ما عنه نهى وزجر، ثم قال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاءُ الْمُنِيبُ﴾ أي: إن نكلتم عن العمل فإنما عليه ما حُمل من البلاغ، وعليكم ما حُمِلتم من السمع والطاعة. قال الزهري: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلىنا التسليم. ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد، الذي لا إله غيره، فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فِتْنَتُكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فالأول خبر عن التوحيد، ومعناه معنى الطلب، أي: وحدوا الإلهية له،

وأخلصوا لدي، وتوكلوا عليه، كما قال تعالى: ﴿رَبِّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَوْا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١٤] ﴿إِنَّمَا آمَنَ لَكُمْ وَأَوْلَدَكُمْ وَفَتَنَهُ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [١٥] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنِفُوا حَرًّا لَا تَفْسِكُمْ وَبَيْنَ يَدَيْكُمْ شَحٌّ نَقِيهِ. فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [١٦] ﴿إِنْ تَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ قَرَبًا حَسَنًا يَضَعْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [١٧] ﴿عَلَيْهِ الْقَبِ وَالشَّهَادَةُ الْغَرِيرُ الْحَكِيمُ﴾ [١٨].

يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد: أن منهم من هو عدو الزوج والوالد، بمعنى: أنه يلتهي به عن العمل الصالح، كقوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [٩] [المنافقون: ٩]، ولهذا قال ما هنا: ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قال ابن زيد: يعني على دينكم. وقال مجاهد: ﴿إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾ قال: يحمل الرجل على قطعية الرحم أو معصية ربه، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه. وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا محمد بن خلف العسقلاني، حدثنا الفريابي، حدثنا إسرائيل، حدثنا سماك بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس - وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ - قال: فهؤلاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوه، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهموا أن يعاقبوه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَإِنْ تَعَفَوْا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وكذا رواه الترمذي عن محمد بن يحيى، عن الفريابي - وهو محمد بن يوسف - به. وقال: حسن صحيح. ورواه ابن جرير والطبراني، من حديث إسرائيل، به. وروى من طريق العوفي، عن ابن عباس، نحوه، وهكذا قال عكرمة مولاة سواء. وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتَنَهُ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [١٥]: يقول تعالى: إنما الأموال والأولاد فتنة، أي: اختبار وابتلاء من الله لخلق. ليعلم من يطيعه ممن يعصيه. وقوله: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ كما قال: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْمَرْثَى ذَلِكَ مَتْنِعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [١٧] والتي بعدها [آل عمران: ١٤، ١٥]. وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني حسين بن واقد، حدثني عبد الله بن بريدة، سمعت أبي بريدة يقول: كان رسول الله ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين، رضي الله عنهما، عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله ورسوله، إنما أموالكم وأولادكم فتنة، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما». ورواه أهل السنن من حديث حسين بن واقد، به. وقال الترمذي: حسن غريب، إنما نعرفه من حديثه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا شريح بن النعمان، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا مجالد، عن الشعبي، حدثنا الأشعث بن قيس قال: قدمت على رسول الله ﷺ في وفد كندة، فقال لي: «هل لك من ولد؟» قلت: غلام ولدي في مخرجي إليك من ابنة جمد، ولوددت أن بمكانه: شيع القوم. قال: «لا تقولن ذلك، فإن فيهم قرة عين، وأجر إذا قبضوا»، ثم قال: «ولئن قلت ذاك: إنهم لمحنة لمحزنة إنهم لمحنة محزنة» تفرد به أحمد، رحمه الله تعالى. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمود بن بكر، حدثنا أبي، عن عيسى بن أبي وائل، عن ابن أبي ليلى، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الولد ثمرة القلوب، وإنهم محبنة مبخلة محزنة» ثم قال: لا يعرف إلا بهذا الإسناد. وقال الطبراني: حدثنا هاشم بن مرثد، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثنا أبي، حدثني ضَمْضَمُ بْنُ زُرْعَةَ، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «ليس عدوك الذي إن قتلته كان فوزاً لك، وإن قتلك دخلت الجنة، ولكن الذي لعله عدو لك ولدك الذي خرج من صلبك، ثم أعدى عدو لك مالك الذي ملكك يمينك». وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [١٥]: أي: جهدكم وطاقتكم. كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه». وقد قال بعض المفسرين - كما رواه مالك، عن زيد بن أسلم - إن هذه الآية العظيمة ناسخة للتي في «آل عمران» وهي قوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَوْنُوا وَلَا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [٣٧] [آل عمران: ١٠٢]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثني يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني ابن لهيعة، حدثني عطاء - هو ابن دينار - عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَوْنُوا وَلَا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ قال: لما نزلت الآية اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى رمت عراقيبهم وتقرحت جباههم، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، فنسخت الآية الأولى. وروي عن أبي العالية، وزيد بن أسلم، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان، نحو ذلك. وقوله: ﴿وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [١٧]: أي: كونوا منقادين لما

يأمركم الله به ورسوله، ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة، ولا تقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا تتخلفوا عما به أمرتم، ولا تركبوا ما عنه زجرتم. وقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ أي: وابذلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن إليكم، يكن خيراً لكم في الدنيا والآخرة، وإن لا تفعلوا يكن شراً لكم في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿وَمَن يَوْقُ شَحَّ نَفْسِهِ قَاتِلٌ لِّكَ هُمُ الْقَاتِلُونَ﴾: تقدم تفسيره في سورة «الحشر» وذكر الأحاديث الواردة في معنى هذه الآية، بما أغنى عن إعادته ها هنا، والله الحمد والمنة، وقوله: ﴿إِن تَقْرَئُوا اللَّهَ فَرَسًا حَسَنًا يُّصْنَعِ لَكُمْ وَيُغْفِرُ لَكُمْ﴾ أي: مهما أنفقتم من شيء فهو يخلفه، ومهما تصدقتم من شيء فعليه جزاءه، ونزل ذلك منزلة القرض له، كما ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول: «من يقرض غير ظلوم ولا عديم». ولهذا قال: ﴿يُّصْنَعِ لَكُمْ﴾ كما تقدم في سورة البقرة ﴿يُّصْنَعِ لَكُمْ أَشْغَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]. ﴿وَيَغْفِرُ لَكُمْ﴾ أي: ويكفر عنكم السيئات. ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ أي: يجزي على القليل بالكثير ﴿حَسْبُكُمْ﴾ أي: يغفو ويصفح ويغفر ويستر، ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات. ﴿عَلِمُ الْقَلْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: تقدم تفسيره غير مرة.



تفسير سورة الطلاق

وهي مدنية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتْ وَأَنصِرُوا الْيَدَ الْأَيْمَنَ وَلَا يَجْرُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِيَنَّ بِغَيْرِ حُكْمٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾. وخطب النبي ﷺ أولاً تشريعاً وتكريماً، ثم خاطب الأمة تبعاً فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتْ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن ثواب بن سعيد الهباري، حدثنا أسباط بن محمد، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس قال: طلق رسول الله ﷺ حفصة، فأنت أهلها، فأنزل الله، ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتْ﴾ فقبل له: راجعها فإنها صوامة قوامه، وهي من أزواجك ونسائك في الجنة. ورواه ابن جرير، عن ابن بشار، عن عبد الأعلى، عن سعيد، عن قتادة... فذكره مرسلًا وقد ورد من غير وجه: أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها. وقال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث وعقيل، عن ابن شهاب، أخبرني سالم: أن عبد الله بن عمر أخبره: أنه طلق امرأة له وهي حائض، فذكر عمر لرسول الله ﷺ، فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال: «ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسه، فتلك العدة التي أمر الله، ﷺ». هكذا رواه البخاري ها هنا وقد رواه في مواضع من كتابه، ومسلم، ولفظه: «تلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء». ورواه أصحاب الكتب والمسانيد من طرق متعددة وألفاظ كثيرة، ومواضع استقصائها كتب الأحكام. وأمس لفظ يوردها هنا ما رواه مسلم في صحيحه، من طريق ابن جريج: أخبرني أبو الزبير، أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن - مولى عزة يسأل ابن عمر - وأبو الزبير يسمع ذلك: كيف ترى في رجل طلق امرأته حائضاً؟ فقال: طلق ابن عمر امرأته حائضاً على عهد رسول الله ﷺ، فسأل عمر رسول الله ﷺ فقال: إن عبد الله بن عمر طلق امرأته وهي حائض، فقال رسول الله ﷺ: «ليراجعها» فردّها، وقال: «إذا طهرت فليطلق أو يمسه». قال ابن عمر: وقرأ النبي ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتْ﴾. وقال الأعمش، عن مالك بن الحارث، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله في قوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتْ﴾ قال: الطهر من غير جماع. وروي عن ابن عمر، وعطاء، ومجاهد، والحسن، وابن سيرين، وفتادة، وميمون بن مهران، ومقاتل بن حيان مثل ذلك. وهو رواية عن عكرمة، والضحاك. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتْ﴾ قال: لا يطلقها وهي حائض ولا في طهر قد جامعها فيه، ولكن: تتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة. وقال عكرمة: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتْ﴾: العدة: الطهر، والقرء الحيضة، أن يطلقها حبلى مستبيناً حملها، ولا يطلقها وقد طاف عليها، ولا يدرى حبلى هي أم لا. ومن ها هنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سنة وطلاق بدعة، فطلاق السنة: أن يطلقها طاهراً من غير جماع، أو حاملاً قد استبان حملها. والبدعي: هو أن يطلقها في حال الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه، ولا يدرى أحملت أم لا؟ وطلاق ثالث لا سنة فيه

ولا بدعة، وهو طلاق الصغيرة والآيسة، وغير المدخول بها، وتحرير الكلام في ذلك وما يتعلق به مستقصى في كتب الفروع، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقوله: ﴿وَأَحْصُوا أَيَّامَ الْيَدَةِ﴾ أي: احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها، لئلا تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج. ﴿وَأَنْتُمْ أَلَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي: في ذلك. وقوله: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أي: في مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه، فليس للرجل أن يخرجها، ولا يجوز لها أيضاً الخروج لأنها معتقلة لحق الزوج أيضاً. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفِدْحَةٍ مُنْتَهَى﴾ أي: لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة، فتخرج من المنزل، والفاحشة المبينة تشمل الزنا، كما قاله ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، والشعبي، والحسن، وابن سيرين، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جببر، وأبو قلابه، وأبو صالح، والضحاك، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، والسدي، وسعيد بن هلال، وغيرهم. وتشمل ما إذا نشرت المرأة أو بذت على أهل الرجل وآذتهم في الكلام والفعال، كما قاله أبي بن كعب، وابن عباس، وعكرمة، وغيرهم. وقوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: شرائعه ومحارمه ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا ياتمر بها ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي: بفعل ذلك. وقوله: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ أي: إنما أبقينا المطلقة في منزل الزوج في مدة العدة، لعل الزوج يندم على طلاقها ويخلق الله في قلبه رغبةً، فيكون ذلك أيسر وأسهل. قال الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن فاطمة بنت قيس في قوله: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ قال: هي الرجعة. وكذا قال الشعبي، وعطاء، وقتادة، والضحاك، ومقاتل بن حيان، والثوري. ومن ها هنا ذهب من ذهب من السلف ومن تابعهم، كالإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله، إلى أنه لا تجب السكنى للمبتوتة، وكذا المتوفى عنها زوجها، واعتمدوا أيضاً على حديث فاطمة بنت قيس الفهرية، حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات، وكان غائباً عنها باليمن، فأرسل إليها بذلك، فأرسل إليها وكيله بشعير - يعني: نفقة - فتسخطته فقال: والله ليس لك علينا نفقة. فأتت رسول الله ﷺ، فقال: «ليس لك عليه نفقة». ولمسلم: ولا سكنى، وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك، ثم قال: «تلك امرأة يغشاها أصحابي، اعتدي عند ابن أم مكتوم، فإنه أعمى تضعين ثيابك» الحديث.

وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ آخر، فقال: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا مجالد، حدثنا عامر قال: قدمت المدينة فأتيت فاطمة بنت قيس، فحدثتني أن زوجها طلقها على عهد رسول الله ﷺ، فبعته رسول الله ﷺ في سرية. قالت: فقال لي أخوه: أخرجني من الدار. فقلت: إن لي نفقة وسكنى حتى يحل الأجل. قال: لا. قالت: فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: إن فلاناً طلقني، وإن أخاه أخرجني ومنعني السكنى والنفقة، فأرسل إليه فقال: «مالك ولابنة آل قيس»، قال: يا رسول الله، إن أخي طلقها ثلاثاً جميعاً. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «انظري يا بنت آل قيس، إنما النفقة والسكنى للمرأة على زوجها ما كان له عليها رجعة، فإذا لم يكن له عليها رجعة فلا نفقة ولا سكنى. أخرجني فانزلي على فلانة». ثم قال: «إنه يتحدث إليها، انزلي على ابن أم مكتوم، فإنه أعمى لا يراك» وذكر تمام الحديث. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن عبد الله البزار الشُّسْتَرِيُّ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم الصواف، حدثنا بكر بن بكار، حدثنا سعيد بن يزيد البجلي، حدثنا عامر الشعبي: أنه دخل على فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس القرشي، وزوجها أبو عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي، فقالت: إن أبا عمرو بن حفص أرسل إلي وهو منطلق في جيش إلى اليمن بطلاقي، فسألت أولياءه النفقة علي والسكنى، فقالوا: ما أرسل إلينا في ذلك شيئاً، ولا أوصانا به، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن أبا عمرو بن حفص أرسل إلي بطلاقي، فطلبت السكنى والنفقة علي، فقال أولياءه: لم يرسل إلينا في ذلك بشيء. فقال رسول الله ﷺ: «إنما النفقة والسكنى للمرأة إذا كان لزوجها عليها رجعة، فإذا كانت لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره فلا نفقة لها ولا سكنى». وكذا رواه النسائي عن أحمد بن يحيى الصوفي، عن أبي نعيم الفضل بن دكين، عن سعيد بن يزيد وهو الأحمسي البجلي الكوفي. قال أبو حاتم الرازي: هو شيخ، يروى عنه.

﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَامْكُوهُنَّ يَمْكُورُهُنَّ أَوْ فَارْجُوهُنَّ يَمْكُورُهُنَّ وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ بِنِكَاحِ الشَّهَدَةِ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ يُعْطَى بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَى اللَّهَ بِعَمَلٍ لَهُ عَزَمًا ۖ وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغٌ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝﴾.

يقول تعالى: فإذا بلغت المعتدات أجلهن، أي: شارفن على انقضاء العدة وقاربن ذلك، ولكن لم تفرغ العدة بالكلية، فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها، وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده. ﴿يَمْكُورُهُنَّ﴾ أي:

محسناً إليها في صحبتها، وإما أن يعزم على مفارقتها ﴿يَمْزُورِي﴾ أي: من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف، بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن. وقوله: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلِي نِكَاحٌ﴾ أي: على الرجعة إذا عزمتم عليها، كما رواه أبو داود وابن ماجه، عن عمران بن حصين: أنه سُئل عن الرجل يطلق امرأته ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا رجعتها فقال: طلقت لغير سنة، ورجعت لغير سنة، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها، ولا تُعَذِّ. وقال ابن جريج: كان عطاء يقول: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلِي نِكَاحٌ﴾ قال: لا يجوز في نكاح ولا طلاق ولا رجاء إلا شاهداً عدل، كما قال الله، ﷻ، إلا أن يكون من عذر. وقوله: ﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: هذا الذي أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة، إنما يأتمر به من يؤمن بالله وأنه شرع هذا، ويخاف عقاب الله في الدار الآخرة. ومن ها هنا ذهب الشافعي - في أحد قوليهِ - إلى وجوب الإشهاد في الرجعة، كما يجب عنده في ابتداء النكاح. وقد قال بهذا طائفة من العلماء، ومن قال بهذا يقول: إن الرجعة لا تصح إلا بالقول ليقع الإشهاد عليها. وقوله: ﴿وَمَن يَتَيَّ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: ومن يتق الله فيما أمره به، وترك ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، أي: من جهة لا تخطر بباله.

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا كهيس بن الحسن، حدثنا أبو السليل، عن أبي ذر قال: جعل رسول الله ﷺ يتلو علي هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَيَّ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، حتى فرغ من الآية، ثم قال: «يا أبا ذر، لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفتمهم». قال: فجعل يتلوها ويُردها علي حتى نعست، ثم قال: «يا أبا ذر، كيف تصنع إن أخرجت من المدينة؟». قلت: إلى السعة والدعة أنطلق، فأكون حمامة من حمام مكة. قال: «كيف تصنع إن أخرجت من مكة؟». قال: قلت: إلى السعة والدعة، إلى الشام والأرض المقدسة. قال: «وكيف تصنع إن أخرجت من الشام؟». قلت: إذا - والذي بعثك بالحق - أضع سيفي على عاتقي. قال: «أو خير من ذلك؟». قلت: أو خير من ذلك؟ قال: «تسمع وتطيع، وإن كان عبداً حبشياً». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا زكريا، عن عامر، عن شُتير ابن شكل قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول: إن أجمع آية في القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وإن أكثر آية في القرآن فرجاً: ﴿وَمَن يَتَيَّ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾. وفي المسند: حدثني مهدي بن جعفر، حدثنا الوليد بن مسلم، عن الحكم بن مصعب، عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب». وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَمَن يَتَيَّ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ يقول: ينجيهِ من كل كرب في الدنيا والآخرة، ﴿وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾. وقال الربيع بن خثيم: ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ أي: من كل شيء ضاق على الناس. وقال عكرمة: من طلق كما أمره الله يجعل له مخرجاً. وكذا روي عن ابن عباس، والضحاك. وقال ابن مسعود، ومسروق: ﴿وَمَن يَتَيَّ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾: يعلم أن الله إن شاء منع، وإن شاء أعطى ﴿مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: من حيث لا يدرى. وقال قتادة: ﴿وَمَن يَتَيَّ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ أي: من شبهات الأمور والكرب عند الموت، ﴿وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ومن حيث لا يرجو أو لا يأمل. وقال السدي: ﴿وَمَن يَتَيَّ اللَّهُ﴾: يطلق للسنة، ويراجع للسنة، وزعم أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له: «عوف بن مالك الأشجعي» كان له ابن، وأن المشركين أسروه، فكان فيهم، وكان أبوه يأتي رسول الله ﷺ فيشكو إليه مكان ابنه وحاله التي هو بها وحاجته، فكان رسول الله ﷺ يأمره بالصبر، ويقول له: «إن الله سيجعل لك فرجاً». فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيراً أن انفلت ابنه من أيدي العدو فمر بغنم من أغنام العدو، فاستاقها فجاء بها إلى أبيه، وجاء معه بغني قد أصابه من الغنم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَيَّ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾. رواه جرير. وروي أيضاً من طريق سالم بن أبي الجعد مرسلأ نحوه. وقال الإمام أحمد، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن عيسى، عن عبد الله بن أبي الجعد، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليُخَرَّم الرزق بالذنوب يُصِيبُهُ، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر». ورواه النسائي وابن ماجه، من حديث سفيان - وهو الثوري - به. وقال محمد بن إسحاق: جاء مالك الأشجعي إلى رسول الله ﷺ فقال له: أسرأني عوف. فقال له رسول الله ﷺ: «أرسل إليه أن رسول الله ﷺ يأمرك أن تكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله». وكانوا قد شدوه بالقدر فسقط القدر عنه، فخرج، فإذا هو بناق لهم فركبها، وأقبل فإذا بسرح القوم الذين كانوا شدوه فصاح بهم، فاتبع أولها آخرها، فلم يفتأ أبويه إلا وهو ينادي بالبالب، فقال أبوه: عوف ورب الكعبة. فقالت أمه: واسواته. وعوف كيف يقدم لما هو فيه من القدر - فاستبقا الباب والخادم، فإذا عوف قد ملا الفنا إبلاً، فقص على أبيه أمره وأمر الإبل، فقال أبوه: فقا حتى آتي رسول الله ﷺ فأسأله عنها. فأتى رسول الله ﷺ فأخبره بخبر عوف وخبر الإبل، فقال له رسول الله ﷺ: «اصنع بها ما أحببت، وما كنت

صانعاً بمالك». ونزل: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، حدثنا إبراهيم بن الأشعث، حدثنا الفضيل بن عياض، عن هشام بن حسان، عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤونة، ووزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله إليها». وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليث، حدثنا قيس بن الحجاج، عن حنشل الصنعاني، عن عبد الله بن عباس: أنه حدث أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً، فقال له رسول الله ﷺ: «يا غلام، إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف». وقد رواه الترمذي من حديث الليث بن سعد، وابن لهيعة، به. وقال: حسن صحيح. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا بشير بن سلمان، عن سيار أبي الحكم، عن طارق بن شهاب، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: قال رسول الله ﷺ: «من نزل به حاجة فأنزلها بالناس كان قمناً أن لا تسهل حاجته، ومن أنزلها بالله أتاه الله برزق عاجل، أو يموت أجل». ثم رواه عبد الرزاق، عن سفيان، عن بشير، عن سيار أبي حمزة، ثم قال: وهو الصواب، وسيار أبو الحكم لم يحدث عن طارق. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرَهُ﴾ أي: منفذ قضاياه وأحكامه في خلقه بما يريد. ويشاؤه ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرًا﴾ كقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَنا بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

﴿وَالَّتِي يَسِّنْ مِنَ الْمَجِصِ مِنْ سِلَاحِكُ إِذَا أَرَبْتَهُ فَعِدَّتُهُ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ ذلك أمر الله أنزله، إِلَهُكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفَرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمَ لَهُ أَجْرًا ﴿١٠﴾. يقول تعالى مبيناً لعدة الآيسة - وهي التي قد انقطع عنها الحيض لكبرها - أنها ثلاثة أشهر، عوضاً عن الثلاثة قروء في حق من تحيض، كما دلت على ذلك آية «البقرة»، وكذا الصغار اللاتي لم يبلغن سن الحيض أن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر، ولهذا قال: ﴿وَالَّتِي لَمْ يَحِضْ﴾. وقوله: ﴿إِنْ أَرَبْتَهُ﴾ فيه قولان: أحدهما - وهو قول طائفة من السلف، كمجاهد، والزهري، وابن زيد - أي إن رابن دماً وشككتكم في كونه حيضاً أو استحاضة، وارتبتم فيه. والقول الثاني: إن ارتبتم في حكم عدتهن، ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر. وهذا مروى، عن سعيد بن جبيرة. وهو اختيار ابن جرير، وهو أظهر في المعنى، واحتج عليه بما رواه عن أبي كَرْبٍ وأبي السائب قالوا: حدثنا ابن إدريس، أخبرنا مطرف، عن عمرو بن سالم قال: قال أبي بن كعب: يا رسول الله، إن عدداً من عدد النساء لم تذكر في الكتاب: الصغار والكبار وأولات الأحمال. قال: فأنزل الله، ﷻ: ﴿وَالَّتِي يَسِّنْ مِنَ الْمَجِصِ مِنْ سِلَاحِكُ إِذَا أَرَبْتَهُ فَعِدَّتُهُ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. ورواه ابن أبي حاتم بأبسط من هذا السياق فقال: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، أخبرنا جرير، عن مطرف، عن عمر بن سالم، عن أبي بن كعب قال: قلت لرسول الله ﷺ: إن ناساً من أهل المدينة لما أنزلت هذه الآية التي في «البقرة» في عدة النساء قالوا: لقد بقي من عدة النساء عدد لم يذكروا في القرآن: الصغار والكبار اللاتي قد انقطع عنهن الحيض، وذوات الحمل. قال: فأنزلت التي في النساء القصوى: ﴿وَالَّتِي يَسِّنْ مِنَ الْمَجِصِ مِنْ سِلَاحِكُ إِذَا أَرَبْتَهُ فَعِدَّتُهُ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْ﴾. وقوله: ﴿وَأُولَتْ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾: يقول تعالى: ومن كانت حاملاً فعدتها بوضعه، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بوقا ناقة، في قول جمهور العلماء من السلف والخلف، كما هو نص هذه الآية الكريمة، وكما وردت به السنة النبوية. وقد روي عن علي، وابن عباس، رضي الله عنهم، أنهما ذهبا في المتوفى عنها زوجها أنها تعتد بأبعد الأجلين من الوضع أو الأشهر، عملاً بهذه الآية الكريمة، والتي في سورة «البقرة». وقد قال البخاري: حدثنا سعد بن حفص، حدثنا شيبان، عن يحيى قال: أخبرني أبو سلمة قال: جاء رجل إلى ابن عباس - وأبو هريرة جالس - فقال: أفنتي في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة. فقال ابن عباس: آخر الأجلين. قلت أنا: ﴿وَأُولَتْ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي - يعني أبا سلمة - فأرسل ابن عباس غلامه كريماً إلى أم سلمة يسألها، فقالت: قُتِلَ زوج سُبَيْعة الأسلمية وهي حبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت، فأنكحها رسول الله ﷺ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها. هكذا أورد البخاري هذا الحديث ها هنا مختصراً. وقد رواه هو ومسلم وأصحاب الكتب مطولاً من وجوه أخر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حماد بن أسامة، أخبرنا هشام، عن أبيه، عن المسور بن مخرمة، أن سُبَيْعة الأسلمية توفي عنها زوجها وهي حامل، فلم تمكث إلا ليالي حتى وضعت، فلما تعلت من نفاسها خطبت، فاستأذنت رسول الله ﷺ في النكاح،

فأذن لها أن تُنكح، فُنكحت. ورواه البخاري في صحيحه، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه من طرق عنها، كما قال مسلم بن الحجاج: حدثني أبو الطاهر، أخبرنا ابن وهب، حدثني يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، حدثني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: أن أباه كتب إلى عمر بن عبد الله بن الأرقم الزهري يأمره أن يدخل على سبيعة بنت الحارث الأسلمية فيسألها عن حديثها وعما قال لها رسول الله ﷺ حين استفتته. فكتب عمر بن عبد الله يخبره أن سبيعة أخبرته أنها كانت تحت سعد بن خولة - وكان ممن شهد بدرًا - فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك فقال لها: مالي أراك متجملة؟ لعلك ترجين النكاح، إنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر. قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حين أمسيت فأنثت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك، فأفانني بأني قد حلت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزوج إن بدا لي. هذا لفظ مسلم. ورواه البخاري مختصراً، ثم قال البخاري بعد ذلك، أي: بعد رواية الحديث الأول عند هذه الآية: وقال سليمان بن حرب وأبو النعمان: حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن محمد - هو ابن سيرين - قال: كنت في حلقة فيها عبد الرحمن بن أبي ليلى، رحمه الله، وكان أصحابه يعظمونه، فذكر آخر الأجلين، فحدثت بحديث سبيعة بنت الحارث عن عبد الله بن عتبة، قال: فضمر لي بعض أصحابه، قال محمد: ففطنت له فقلت: إني لجريء أن أكذب على عبد الله وهو في ناحية الكوفة. قال: فاستحيا وقال: ولكن عمه لم يقل ذلك. فلقيت أبا عطية مالك بن عامر فسألته، فذهب يحدثني بحديث سبيعة، فقلت: هل سمعت عن عبد الله فيها شيئاً؟ فقال: كنا عند عبد الله فقال: أنجعلون عليها التخليط، ولا تجعلون عليها الرخصة؟ نزلت سورة النساء القصص بعد الطولي: ﴿وَأُولَئِىَ الْأَحْزَابِ أَلْهَمْنَاهُ أَنْ يَصْنَعَنَّ حَمَلَهُنَّ﴾. ورواه ابن جرير، من طريق سفيان بن عُيينة وإسماعيل بن عُليّة، عن أيوب به مختصراً. ورواه النسائي في التفسير عن محمد بن عبد الأعلى، عن خالد بن الحارث، عن ابن عون، عن محمد بن سيرين، فذكره. وقال ابن جرير: حدثني زكريا بن يحيى بن أبان المصري، حدثنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا محمد بن جعفر، حدثني ابن شبرمة الكوفي، عن إبراهيم، عن علقمة بن قيس، أن عبد الله بن مسعود قال: من شاء لاعنته، ما نزلت: ﴿وَأُولَئِىَ الْأَحْزَابِ أَلْهَمْنَاهُ أَنْ يَصْنَعَنَّ حَمَلَهُنَّ﴾ إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها. قال: وإذا وضعت المتوفى عنها زوجها فقد حلت. يريد بآية المتوفى عنها زوجها: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]. وقد رواه النسائي من حديث سعيد بن أبي مريم، به. ثم قال ابن جرير: حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا إسماعيل بن خالد، عن الشعبي قال: ذكر عند ابن مسعود آخر الأجلين، فقال: من شاء قاسمته بالله أن هذه الآية التي في النساء القصص نزلت بعد الأربعة الأشهر والعشر ثم قال: أجل الحامل أن تضع ما في بطنها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: بلغ ابن مسعود أن علياً، رضي الله عنه، يقول: آخر الأجلين. فقال: من شاء لاعنته، إن التي في النساء القصص نزلت بعد البقرة: ﴿وَأُولَئِىَ الْأَحْزَابِ أَلْهَمْنَاهُ أَنْ يَصْنَعَنَّ حَمَلَهُنَّ﴾. ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث أبي معاوية، عن الأعمش.

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثني محمد بن أبي بكر المقدمي، أخبرنا عبد الوهاب الثقفي، حدثني المثنى، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو، عن أبي بن كعب قال: قلت للنبي ﷺ: ﴿وَأُولَئِىَ الْأَحْزَابِ أَلْهَمْنَاهُ أَنْ يَصْنَعَنَّ حَمَلَهُنَّ﴾، المطلقة ثلاثاً أو المتوفى عنها؟ فقال: «هي المطلقة ثلاثاً والمتوفى عنها». هذا حديث غريب جداً، بل منكر؛ لأن في إسناده المثنى بن الصباح، وهو متروك الحديث بمرة، ولكن رواه ابن أبي حاتم بسند آخر، فقال: حدثنا محمد بن داود السُفْهاني، حدثنا عمرو بن خالد - يعني: الحراني - حدثنا ابن لهيعة، عن عمرو بن شعيب، عن سعيد بن المسيب، عن أبي بن كعب، أنه لما نزلت هذه الآية قال لرسول الله ﷺ: لا أدري أم مشتركة أم مبهما، قال رسول الله ﷺ: «آية آية؟». قال: ﴿أَلْهَمْنَاهُ أَنْ يَصْنَعَنَّ حَمَلَهُنَّ﴾، المتوفى عنها والمطلقة؟ قال: «نعم». وكذا رواه ابن جرير، عن أبي كُرَيْب، عن موسى بن داود، عن ابن لهيعة، به. ثم رواه عن أبي كريب أيضاً، عن مالك بن إسماعيل، عن ابن عيينة، عن عبد الكريم بن أبي المخارق أنه حدث عن أبي بن كعب قال: سألت رسول الله ﷺ عن: ﴿وَأُولَئِىَ الْأَحْزَابِ أَلْهَمْنَاهُ أَنْ يَصْنَعَنَّ حَمَلَهُنَّ﴾ قال: «أجل، كل حامل أن تضع ما في بطنها». عبد الكريم هذا ضعيف، ولم يدرك أياً. وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ أي: يسهل له أمره، ويسره عليه، ويجعل له فرجاً قريباً ومخرجاً عاجلاً. ثم قال: «ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا﴾ أي: حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسوله ﷺ، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ سَبِيلًا وَيُخْرِجْهُ مِنْهُ مَخْرَجًا وَاسِعًا﴾ أي: يذهب عنه المحذور، ويجزل له الثواب على العمل اليسير. ﴿أَتَكْفُرُونَ مِنْ حَيْثُ سَكَّرْتُمْ وَلَا تَعْلَمُونَ لِيُخْرِجَهُنَّ مِنْكُمْ وَإِنْ كُنَّ أُولَئِىَ حَمْلٍ فَلْيَقْرَأْنَ عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَصْنَعَنَّ حَمَلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْحَمْنَ

أَجُورَهُمْ وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَكَسَّرْتُمْ فَتَسْرِعْ لَهُ أُخْرَى ﴿٦﴾ لِيُثَبِّقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتَيْهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفْسِقْ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ

يقول تعالى أمرأ عياده إذا طلق أحدهم المرأة أن يسكنها في منزل حتى تنقضي عدتها، فقال: ﴿أَتَسْكُنُونَ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ؟﴾ أي: عندكم، ﴿بَيْنَ بَيْنِكُمْ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: يعني سعتكم. حتى قال قتادة: وإن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه. وقوله: ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِضَعْفِهِنَّ﴾: قال مقاتل بن حيان: يعني يضاجرها لتفتدي منه بمالها أو تخرج من مسكنه. وقال الثوري، عن منصور، عن أبي الضحى: ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِضَعْفِهِنَّ﴾ قال: يطلقها، فإذا بقي يومان راجعها. وقوله: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَئِكَ حَمَلَ فَاثِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾: قال كثير من العلماء منهم ابن عباس، وطائفة من السلف، وجماعات من الخلف: هذه في البائن، إن كانت حاملاً أنفق عليها حتى تضع حملها، قالوا: بدليل أن الرجعية تجب نفقتها، سواء كانت حاملاً أو حائلاً. وقال آخرون: بل السياق كله في الرجعيات، وإنما نص على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعية، لأن الحمل تطول مدته غالباً، فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق إلى الوضع؛ لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة. واختلف العلماء: هل النفقة لها بواسطة الحمل، أو للحمل وحده؟ على قولين منصوصين عن الشافعي وغيره، ويتفرع عليها مسائل مذكورة في علم الفروع. وقوله: ﴿فَإِنْ أَضَعْنَ لَكُمْ﴾ أي: إذا وضعن حملهن وهن طوالق، فقد برئ بانقضاء عدتهن، ولها حينئذ أن ترضع الولد، ولها أن تمتنع منه، ولكن بعد أن تغذيه باللبأ - وهو باكورة اللبن الذي لا قوام للولد غالباً إلا به - فإن أرضعت استحققت أجره مثلها، ولها أن تعاقب أباه أو وليه على ما يتفقان عليه من أجره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَضَعْنَ لَكُمْ فَاتُّوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾. وقوله: ﴿وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف، من غير إضرار ولا مضارة، كما قال في سورة «البقرة» ﴿لَا تُضَاكِرْهُنَّ أُولَهُنَّ وَلَا مَوْلَاهُمْ وَلَا مَوْلَاكُمُ﴾ [البقرة: ٢٢٣]. وقوله: ﴿وَإِنْ تَكَسَّرْتُمْ فَتَسْرِعْ لَهُ أُخْرَى﴾ أي: وإن اختلف الرجل والمرأة، فطلبت المرأة أجره الرضاع كثيراً ولم يجبها الرجل إلى ذلك، أو بذل الرجل قليلاً ولم توافقه عليه، فليسترضع له غيرها. فلو رضيت الأم بما استوجرت عليه الأجنبية فهي أحق بولدها. وقوله: ﴿لِيُثَبِّقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتَيْهِ﴾ أي: لينفق على المولود والده، أو وليه، بحسب قدرته، ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفْسِقْ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا

أَتَتْهَا﴾ كقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. روى ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا حكام، عن أبي سنان قال: سأل عمر بن الخطاب عن أبي عبيدة، فقيل: إنه يلبس الغليظ من الثياب، ويأكل أخشن الطعام، فبعث إليه بألف دينار، وقال للرسول: انظر ما يصنع بها إذا هو أخذها: فما لبث أن لبس اللين من الثياب، وأكل أطيب الطعام، فجاء الرسول فأخبره، فقال: رحمه الله، تأول هذه الآية: ﴿لِيُثَبِّقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتَيْهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفْسِقْ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا أَتَتْهَا﴾ في معجمه الكبير: حدثنا هاشم بن مرثد الطبراني، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، أخبرني أبي، أخبرني ضمضم بن زُرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري - واسمه الحارث - قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة نفر، كان لأحدهم عشرة دنانير، فتصدق منها بدينار. وكان لآخر عشر أواق، فتصدق منها بأوقية. وكان لآخر مائة أوقية، فتصدق منها بعشر أواق». فقال رسول الله ﷺ: «هم في الأجر سواء، كل قد تصدق بعشر ماله، قال الله تعالى: ﴿لِيُثَبِّقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتَيْهِ﴾. هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقوله: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾: وعد من الله تعالى، ووعدته حق، وهو لا يخلفه، وهذه كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشعر: ٥، ٦].

وقد روى الإمام أحمد حديثاً يحسن أن نذكره ها هنا، فقال: حدثنا هشام بن القاسم، حدثنا عبد الحميد بن بهرام، حدثنا شهر بن حوشب قال: قال أبو هريرة: بينا رجل وامرأة له في السلف الخالي لا يقدران على شيء، فجاء الرجل من سفره، فدخل على امرأته جائعاً قد أصابته مَسَقَةٌ شديدة، فقال لامرأته: عندك شيء؟ قالت: نعم، أبشر، أنك رزق الله. فاستحثها، فقال: ويحك! ابتغي إن كان عندك شيء. قالت: نعم، هُنيئة - ترجو رحمة الله - حتى إذا طال عليه الطوى قال: ويحك! قومي فابتغي إن كان عندك شيء فائتيني به، فإني قد بلغت وجهي. فقالت: نعم، الآن يُضج التنور فلا تعجل. فلما أن سكنت عنها ساعة وتحيّنت أن يقول لها، قالت من عند نفسها: لو قمْتُ فَنظَرْتُ إلى تنوري؟ فقامت فنظرت إلى تنورها ملآن جنوب الغنم، ورحيها تطحنان. فقامت إلى الرحي فنفضتها، واستخرجت ما في تنورها من جنوب الغنم. قال أبو هريرة: فوالذي نفس أبي القاسم بيده، هو قول محمد ﷺ: «لو أخذت ما في رحيها ولم تنفضها لطاحتها إلى يوم القيامة». وقال في موضع آخر: حدثنا أبو عامر، حدثنا أبو بكر، عن هشام، عن محمد - هو ابن سيرين - عن أبي هريرة قال: دخل رجل على أهله، فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البرية، فلما رأت امرأته قامت إلى الرحي فوضعتها، وإلى التنور فمسجرتها، ثم قالت: اللهم ارزقنا.

وقد روى البيهقي في كتاب «الأسماء والصفات» هذا الأثر عن ابن عباس بأبسط من هذا السياق، فقال: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، وحدثنا أحمد بن يعقوب، وحدثنا عبيد بن غنام النخعي، أخبرنا علي بن حكيم، حدثنا شريك، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضحى، عن ابن عباس أنه قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَوَابِقَ وَمِنَ الْأَرْضِ يَنْهَضُ﴾ قال: سبع أرضين، في كل أرض

نبي كنيكهم، وآدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى. ثم رواه البيهقي من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي الضحى، عن ابن عباس في قول الله، ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَوَكٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ قال: في كل أرض نحو إبراهيم، عليه السلام. ثم قال البيهقي: إسناده هذا عن ابن عباس صحيح، وهو شاذ بمره، لا أعلم لأبي الضحى عليه متابعاً، والله أعلم. قال الإمام أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي في كتابه «التفكير والاعتبار»: حدثني إسحاق بن حاتم المدائني، حدثنا يحيى بن سليمان، عن عثمان بن أبي دهرش قال: بلغني أن رسول الله ﷺ انتهى إلى أصحابه وهم سكوت لا يتكلمون، فقال: «ما لكم لا تتكلمون؟». فقالوا: نتفكر في خلق الله، ﷻ. قال: «فكذلك فافعلوا، تفكروا في خلقه ولا تفكروا فيه، فإن بهذا المغرب أرضاً بيضاء، نورها ساحتها - أو قال: ساحتها نورها - مسيرة الشمس أربعين يوماً، بها خلق الله لم يعصوا الله طرفة عين قط». قالوا: فأين الشيطان عنهم؟ قال: «ما يدرون خلق الشيطان أم لم يخلق؟». قالوا: أمن ولد آدم؟ قال: «ما يدرون خلق آدم أم لم يخلق». وهذا حديث مرسل، وهو منكر جداً، و«عثمان بن أبي دهرش» ذكره ابن أبي حاتم في كتابه فقال: روي عن رجل من آل الحكم بن أبي العاص، وعنه سفيان بن عيينة، ويحيى بن سليم الطائفي، وابن المبارك. سمعت أبي يقول ذلك.

تفسير سورة التحريم

وهي مدنية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ رِجْسَ أَرْوَاحِكُمْ وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ يُحَرِّمُ الْفُلُوحَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعَلُونَ﴾ (١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ رِجْسَ أَرْوَاحِكُمْ وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ يُحَرِّمُ الْفُلُوحَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعَلُونَ﴾ (٢) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ رِجْسَ أَرْوَاحِكُمْ وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ يُحَرِّمُ الْفُلُوحَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعَلُونَ﴾ (٣) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ رِجْسَ أَرْوَاحِكُمْ وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ يُحَرِّمُ الْفُلُوحَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعَلُونَ﴾ (٤) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ رِجْسَ أَرْوَاحِكُمْ وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ يُحَرِّمُ الْفُلُوحَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعَلُونَ﴾ (٥).

اختلف في سبب نزول صدر هذه السورة، فقيل: نزلت في شأن مارية، وكان رسول الله ﷺ قد حرّمها، فنزل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ رِجْسَ أَرْوَاحِكُمْ وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ يُحَرِّمُ الْفُلُوحَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعَلُونَ﴾. قال أبو عبد الرحمن النسائي: أخبرنا إبراهيم بن يونس بن محمد، حدثنا أبي، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس: أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرّمها، فأنزل الله، ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ؟﴾ إلى آخر الآية. وقال ابن جرير: حدثني ابن عبد الرحيم البرقي، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا أبو غسان، حدثني زيد بن أسلم: أن رسول الله ﷺ أصاب أم إبراهيم في بيت بعض نسائه، فقالت: أي رسول الله، في بيتي وعلى فراشي؟! فجعلها عليه حراماً. فقالت: أي رسول الله، كيف يحرم عليك الحلال؟ فحلف لها بالله لا يصيبها. فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ؟﴾ قال زيد: فقوله: أنت عليّ حرام لغو. وهكذا روى عبد الرحمن بن زيد، عن أبيه. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا يونس، أخبرنا ابن وهب، عن مالك، عن زيد بن أسلم، قال: قل لها: «أنت عليّ حرام، والله لا أطوك». وقال سفيان الثوري وابن علقمة، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن مسروق قال: ألقى رسول الله ﷺ وحرّم، فعُوتِبَ في التحريم، وأمر بالكفارة في اليمين. رواه ابن جرير. وكذا روى عن قتادة، وغيره، عن الشعبي، نفسه. وكذا قال غير واحد من السلف. منهم الضحاك، والحسن، وقاتل بن حيان، وروى العوفي، عن ابن عباس القصة مطولة. وقال ابن جرير: حدثنا سعيد بن يحيى، حدثنا أبي، حدثنا محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: قلت لعمر بن الخطاب: من المرأتان؟ قال: عائشة وحفصة. وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم القبطية، أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة في نوبتها، فوجدت حفصة، فقالت: يا نبي الله، لقد جئت إليّ شيئاً ما جئت إلى أحد من أزواجك، في يومي، وفي دوري، وعلى فراشي. قال: «ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها؟». قالت: بلى فحرّمها وقال: «لا تذكر ذلك لأحد». فذكرته لعائشة، فأظهر الله عليه، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ رِجْسَ أَرْوَاحِكُمْ﴾ (١) الآيات. فبلغنا أن رسول الله ﷺ كفر عن يمينه، وأصاب جاريته. وقال الهيثم بن كليب في مسنده: حدثنا أبو قلابة عبد الملك بن محمد الرقاشي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا جرير بن حازم، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، عن عمر قال: قال النبي ﷺ لحفصة: «لا تخبري أحداً، وإن أم إبراهيم عليّ حرام». فقالت: أتحرّم ما أحل الله لك؟ قال: «فوالله

لا أقربها». قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة. قال: فأُنزل الله: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾. وهذا إسناد صحيح، ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه المستخرج. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، حدثنا هشام الدستوائي قال: كتب إلي يحيى يحدث عن يعلى بن حكيم، عن سعيد بن جبير: أن ابن عباس كان يقول في الحرام: يمين تكفرها، وقال ابن عباس: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] يعني: أن رسول الله ﷺ حرم جاريته فقال الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ؟﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾، فكفر يمينه، فصر الحرام يميناً. ورواه البخاري عن معاذ بن فضالة، عن هشام - هو الدستوائي - عن يحيى - هو ابن كثير - عن ابن حكيم - وهو يعلى - عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في الحرام: يمين تكفر. وقال ابن عباس: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. ورواه مسلم من حديث هشام الدستوائي به.

وقال النسائي: أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد بن علي، حدثنا مغل - هو ابن يزيد - حدثنا سفيان، عن سالم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أنه رجل فقال: إني جعلت امرأتي علي حراماً؟ قال: كذبت ليست عليك بحرام. ثم تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ؟﴾ عليك أغلظ الكفارات، عتق رقبة. تفرد به النسائي من هذا الوجه، بهذا اللفظ. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن زكريا، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا إسرائيل، عن مسلم، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ؟﴾ قال: حرم رسول الله ﷺ سُرَيْتَهُ. ومن ها هنا ذهب من ذهب من الفقهاء ممن قال بوجوب الكفارة على من حرم جاريته أو زوجته أو طعاماً أو شرباً أو ملبساً أو شيئاً من المباحات، وهو مذهب الإمام أحمد وطائفة. وذهب الشافعي إلى أنه لا تجب الكفارة فيما عدا الزوجة والجارية، إذا حرّم عينيهما أو أطلق التحريم فيهما في قوله، فأما إن نوى بالتحريم طلاق الزوجة أو عتق الأمة، نفذ فيهما. وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبو عبد الله الطبراني، أخبرنا حفص بن عمر العدني، أخبرنا الحكم بن أبان، حدثنا عكرمة، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ؟﴾ في المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ. وهذا قول غريب، والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل، كما قال البخاري عند هذه الآية: حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام بن يوسف، عن ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها، فتواطأ أنا وحفصة على: أينما دخل عليها، فلتقل له: أكلت مغافير؟ إني أجد منك ريح مغافير. قال: «لا، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فلن أعود له، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً»، ﴿بَنِي مَرْثَاتٍ أَرْوَيْكَ﴾. هكذا أورد هذا الحديث ها هنا بهذا اللفظ. وقال في كتاب «الآيمان والنذور»: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا الحجاج، عن ابن جريج قال: زعم عطاء أنه سمع عبيد بن عمير يقول: سمعت عائشة تزعم أن رسول الله ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً، فتواصيأت أنا وحفصة أن أينما دخل عليها النبي ﷺ، فلتقل: إني أجد منك ريح مغافير؛ أكلت مغافير؟ فدخل على إحداهما النبي ﷺ، فقالت ذلك له، فقال: «لا، بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش، ولن أعود له». فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ؟﴾ إلى: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَفَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ لعائشة وحفصة، ﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَرْوَابِهِ حَيْثَا﴾ لقوله: «بل شربت عسلاً». وقال إبراهيم بن موسى، عن هشام: «ولن أعود له، وقد حلفت، فلا تخبري بذلك أحداً». وهكذا رواه في كتاب «الطلاق» بهذا الإسناد، ولفظه قريب منه. ثم قال: المغافير: شبيه بالصمغ، يكون في الرمث فيه حلاوة، أغفر الرمث: إذا ظهر فيه. واحداً مغفور، ويقال: مغافير. وهكذا قال الجوهري، قال: وقد يكون المغفور أيضاً للعشر والثمام والسلم والطلع. قال: والرمث، بالكسر: مرعى من مراعي الإبل، وهو من الحمض. قال: والعرفط: شجر من العضاء ينضج المغفور منه.

وقد روى مسلم هذا الحديث في كتاب «الطلاق» من صحيحه، عن محمد بن حاتم، عن حجاج بن محمد، عن ابن جريج، أخبرني عطاء، عن عبيد بن عمير، عن عائشة، به. ولفظه كما أورده البخاري في «الآيمان والنذور». ثم قال البخاري في كتاب «الطلاق»: حدثنا فروة بن أبي المغراء، حدثنا علي بن مسهر، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلوى والعسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه، فيدنو من إحداهن. فدخل على حفصة بنت عمر فاتحبت أكثر ما كان يحتبس، ففُزْتُ فسألت عن ذلك، فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل، فسقت النبي ﷺ منه شربة، فقلت: أما والله لنحتالن له. فقلت لسودة بنت زمعة: إنه سيدنو منك، فإذا دنا منك فقولي: أكلت مغافير؟ فإنه سيقول لك: لا. فقولي له: ما هذه الرياح التي أجد؟ فإنه سيقول لك: سقتني حفصة شربة عسل. فقولي: جرست نحلته العرفط. وسأقول ذلك، وقولي أنت له يا صفية ذلك، قالت - تقول سودة -: والله ما هو إلا أن قام على الباب، فأردت أن أناديه

بما أمرتني فراقاً منك، فلما دنا منها قالت له سودة: يا رسول الله، أكلت مغافير؟ قال: «لا». قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: «سقتني حفصة شربة عسل». قالت: جرت نحله العرفط. فلما دار إلي قلت نحو ذلك، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت له: يا رسول الله، ألا أسقيك منه؟ قال: «لا حاجة لي فيه». قالت: تقول سودة: والله لقد حرّمناه. قلت لها: اسكتي. هذا لفظ البخاري. وقد رواه مسلم عن سويد بن سعيد، عن علي بن مّشهر، به. وعن أبي كُزَيْب وهارون بن عبد الله والحسن بن بشر، ثلاثهم عن أبي أسامة حماد بن أسامة، عن هشام بن عروة، به. وعنده قالت: وكان رسول الله ﷺ يشد عليه أن يوجد منه الريح يعني: الريح الخبيثة، ولهذا قلن له: أكلت مغافير لأن ريحها فيه شيء. فلما قال: «بل شربت عسلاً». قلن: جرت نحله العرفط، أي: رعت نحله شجر العرفط الذي صمّغه المغافير؛ ولهذا ظهر ريحه في العسل الذي شربته. قال الجوهري: جرت نحله العرفط تجرس: إذا أكلته، ومنه قيل للنحل: جوارس، قال الشاعر:

تَظَلُّ عَلَى الثُّمَرَاءِ مِنْهَا جَوَارِسُ

وقال: الجَرْس والجَرْس: الصوت الخفي. ويقال: سمعت جرس الطير. إذا سمعت صوت مناقيرها على شيء تأكله، وفي الحديث: «فيسمعون جرس طير الجنة». قال الأصمعي: كنت في مجلس شعبة قال: «فيسمعون جرس طير الجنة» بالشين المعجمة، فقلت: «جرس»؟! فنظر إلي فقال: خذوها عنه، فإنه أعلم بهذا منا. والغرض أن هذا السياق فيه أن حفصة هي الساقية للعسل، وهو من طريق هشام بن عروة، عن أبيه، عن خالته عائشة. وفي طريق ابن جريج عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن عائشة أن زينب بنت جحش هي التي سقت العسل، وأن عائشة وحفصة توطأنا عليه، فانه أعلم. وقد يقال: إنهما واقعتان، ولا بُدَّ في ذلك إلا أن كونهما سبباً لنزول هذه الآية فيه نظر، والله أعلم. ومما يدل على أن عائشة وحفصة، رضي الله عنهما، هما المتظاهرتان الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بن عبد الله بن أبي ثور، عن ابن عباس قال: لم أزل حريصاً أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إِنْ نُبَاَ إِلَى اللَّهِ فَدَّ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، حتى حج عمر وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة. ففبرز ثم أتاني، فسكبت على يديه فتوضأ، فقلت: يا أمير المؤمنين، من المرأتان من أزواج النبي ﷺ، اللتان قال الله تعالى: ﴿إِنْ نُبَاَ إِلَى اللَّهِ فَدَّ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا﴾؟ فقال عمر: وأعجباً لك يا ابن عباس - قال الزهري: كره - والله ما سألته عنه ولم يكتمه قال: هي حفصة وعائشة. قال: ثم أخذ يسوق الحديث. قال: كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطلق نساؤنا يتعلمن من نساؤهم، قال: وكان منزلي في دار بني أمية بن زيد بالعوالي. قال: فغضبت يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعي، فأنكرت أن تراجعي، فقلت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل. قال: فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم. قلت: وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم. قلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر، أفأتمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت؟ لا تراجعي رسول الله ولا تسأليه شيئاً، وسليني من مالي ما بدا لك، ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول الله ﷺ منك - يريد عائشة - قال: وكان لي جار من الأنصار، وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ ينزل يوماً وأنزل يوماً، فيأتيني بخبر الوحي وغيره، وآتيه بمثل ذلك. قال: وكنا نتحدث أن غسان تُنعل الخيل لتغزونا، فنزل صاحبي يوماً ثم أتى عشاء، فضرب بابي ثم ناداني، فخرجت إليه فقال: حدث أمر عظيم! فقلت: وما ذاك؟ أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم من ذلك وأطول! طلق رسول الله ﷺ نساءه، فقلت: قد خابت حفصة وخسرت، قد كنت أظن هذا كائناً. حتى إذا صليْتُ الصبح شددت علي ثيابي ثم نزلت، فدخلت على حفصة وهي تبكي فقلت: أطلقكن رسول الله ﷺ فقلت: لا أدري، هو هذا معتزل في هذه المشربة. فأتيته غلاماً له أسود فقلت: استأذن لعمر. فدخل الغلام ثم خرج إلي فقال: ذكرت لك له فصمت. فانطلقت حتى أتيت المنبر، فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم، فجلست قليلاً، ثم غلبني ما أجد، فأتيته الغلام فقلت: استأذن لعمر. فدخل ثم خرج فقال: فقد ذكرت لك له فصمت. فخرجت فجلست إلى المنبر، ثم غلبني ما أجد فأتيته الغلام فقلت: استأذن لعمر. فدخل ثم خرج إلي فقال: قد ذكرت لك له فصمت. فوليت مدبراً فإذا الغلام يدعوني فقال: ادخل، قد أذن لك. فدخلت فسلمت على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رُمال حصير.

قال الإمام أحمد: وحدثنا يعقوب في حديث صالح: رُمال حصير قد أثر في جنبه، فقلت: أطلقت يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه إلي وقال: «لا». فقلت: الله أكبر، لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطلق نساؤنا يتعلمن من نساؤهم، فغضبت علي امرأتي يوماً، فإذا هي تراجعي، فأنكرت أن تراجعي،

فقلت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وتهجره أحداهن اليوم إلى الليل. فقلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر، أفأتمن إحدكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت. فتسبم رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، فدخلت على حفصة فقلت: لا يغرثك أن كانت جارتك هي أوسم - أو: أحب - إلى رسول الله ﷺ منك. فتسبم أخرى، فقلت: أستأنس يا رسول الله. قال: «نعم». فجلست فرفعت رأسي في البيت، فوالله ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر إلا أهبته ثلاثة. فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك، فقد وسع على فارس والروم، وهم لا يعبدون الله. فاستوى جالساً وقال: «أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا». فقلت: استغفر لي يا رسول الله. وكان أقسم ألا يدخل عليهن شهراً؛ من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله، ﷻ. وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي، من طرق، عن الزهري، به. وأخرجه الشيخان من حديث يحيى بن سعيد الأنصاري، عن عبيد بن حنين، عن ابن عباس، قال: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية، فما أستطيع أن أسأله هيبته له، حتى خرج حاجاً فخرجت معه، فلما رجعنا وكنا ببعض الطريق، عدل إلى الأراك لحاجة له، قال: فوقفت حتى فرغ، ثم سرت معه فقلت: يا أمير المؤمنين، من اللتان، تظاهرتا على النبي ﷺ؟ هذا لفظ البخاري، ولمسلم: من المرأتان اللتان قال الله تعالى: ﴿وَرَأَى نَظْمًا عَلَيْهِ﴾ قال: عائشة وحفصة. ثم ساق الحديث بطوله، ومنهم من اختصره.

وقال مسلم أيضاً: حدثني زهير بن حرب، حدثنا عمر بن يونس الحنفي، حدثنا عكرمة بن عمار، عن سماك بن الوليد - أبي زميل - حدثني عبد الله بن عباس، حدثني عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه، دخلت المسجد، فإذا الناس يَنْكُثُونَ بالحصى، ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه! وذلك قبل أن يُؤمر بالحجاب. فقلت: لأعلمن ذلك اليوم... فذكر الحديث في دخوله على عائشة وحفصة، ووعظه إياهما، إلى أن قال: فدخلت، فإذا أنا برباح غلام رسول الله ﷺ على أسكفة المشربة، فنادت فقلت: يا رباح، استأذن لي على رسول الله ﷺ... فذكر نحو ما تقدم، إلى أن قال: فقلت: يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلما تكلمت - وأحمد الله - بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي، ونزلت هذه الآية، آية التخيير: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْزَاقًا خَيْرًا مِنْكَ﴾، ﴿وَرَأَى نَظْمًا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلَّى الْمُرُوءِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾. فقلت: اطلقتهن؟ قال: «لا». فقممت على باب المسجد فنادت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه، ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَنْثَىٰ أَوْ الْأَخْوَفِ أَدَّاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ لَعُيْلَهُمُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]. فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر. وكذا قال سعيد بن جبير، وعكرمة، ومقاتل بن حيان، والضحاك، وغيرهم: ﴿وَصَلَّى الْمُرُوءِينَ﴾: أبو بكر وعمر - زاد الحسن البصري - عثمان. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وَصَلَّى الْمُرُوءِينَ﴾: علي بن أبي طالب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن أبي عمر، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين قال: أخبرني رجل ثقة يرفعه إلى علي قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَصَلَّى الْمُرُوءِينَ﴾ قال: هو علي بن أبي طالب. إسناده ضعيف. وهو منكر جداً. وقال البخاري: حدثنا عمرو بن عون، حدثنا هشيم، عن حميد، عن أنس، قال: قال عمر: اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلت لهن: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْزَاقًا خَيْرًا مِنْكَ﴾ فنزلت هذه الآية. وقد تقدم أنه وافق القرآن في أماكن، منها في نزول الحجاب، ومنها في أسارى بدر، ومنها قوله: لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فأنزل الله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبي، حدثنا الأنصاري، حدثنا حميد، عن أنس قال: قال عمر بن الخطاب: بلغني شيء كان بين أمهات المؤمنين وبين النبي ﷺ، فاستقرتني أقول: لتكفن عن رسول الله ﷺ أو ليلدنه الله أزواجاً خيراً منك. حتى أتيت على آخر أمهات المؤمنين، فقالت: يا عمر، أما لي برسول الله ﷺ ما يعظ نساءه، حتى تعظهن؟! فأمسكت، فأنزل الله، ﷻ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْزَاقًا خَيْرًا مِنْكَ مِثْلَ مِثْلِي مِثْلِي قَبْلَكَ عِيْدَتِ مِثْلِي مِثْلِي وَأَنْكَارًا﴾. وهذه المرأة التي ردت عما كان فيه من وعظ النساء هي أم سلمة، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري. وقال الطبراني، حدثنا إبراهيم بن نائلة الأصبغاني، حدثنا إسماعيل الجلي، حدثنا أبو عوانة، عن أبي سنان، عن الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا أَمَرُ الْأُنثَىٰ إِلَىٰ بَعْضِ أَرْزَاقِهِ حَيًّا﴾، قال: دخلت حفصة على النبي ﷺ في بيتها وهو يطمأ مارية، فقال لها رسول الله ﷺ: «لا تخبري عائشة حتى أبشرك ببشارة، فإن أبأك يلي الأمر من بعد أبي بكر إذا أنا مت». فذهبت حفصة فأخبرت عائشة، فقالت عائشة لرسول الله ﷺ: من أنباك هذا؟ قال: ﴿يَبَايَ الْأَيْلَةُ الْخَيْرُ﴾. فقالت عائشة: لا أنظر إليك حتى تحرم مارية. فحرمها، فأنزل الله: ﴿يَبَايَ الْأُنثَىٰ لِرَ

عُرِّمَ». إسناده فيه نظر، وقد تبين مما أوردناه تفسير هذه الآيات الكريمات. ومعنى قوله: ﴿مُسْلِمَتِي تَزَوَّجْتُ فَتَبَيَّنَتْ عَيْدَتِي﴾ ظاهر. وقوله: ﴿سَيِّدَتِي﴾ أي: صائحات، قاله أبو هريرة، وعائشة، وابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، ومحمد بن كعب القرظي، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو مالك، وإبراهيم النخعي، والحسن، وقادة، والضحاك، والربيع بن أنس، والسُدِّي، وغيرهم. وتقدم فيه حديث مرفوع عند قوله: ﴿الْمُسْلِمُونَ﴾ من سورة «براءة»، ولقطة: «سياحة هذه الأمة الصيام». وقال زيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن: ﴿سَيِّدَتِي﴾ أي: مهاجرات، وتلا عبد الرحمن: ﴿الْمُسْلِمُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] أي: المهاجرون. والقول الأول أولى، والله أعلم. وقوله: ﴿تَبَيَّنَتْ وَأَبْكَارًا﴾ أي: منهن ثيبات، ومنهن أبكاراً، ليكون ذلك أشهى إلى النفوس، فإن التنوع يسطو النفس؛ ولهذا قال: ﴿تَبَيَّنَتْ وَأَبْكَارًا﴾.

وقال أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا أبو بكر بن صدقة، حدثنا محمد بن محمد بن مرزوق، حدثنا عبد الله بن أمية، حدثنا عبد القدوس، عن صالح بن حيّان، عن ابن بريدة، عن أبيه: ﴿تَبَيَّنَتْ وَأَبْكَارًا﴾ قال: وعد الله نبيه ﷺ في هذه الآية أن يزوجه، فالثيب: أسيّة امرأة فرعون، وبالأبكار: مريم بنت عمران. وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة «مريم عليها السلام» من طريق سُوَيْد بن سعيد: حدثنا محمد بن صالح بن عمر، عن الضحاك ومجاهد، عن ابن عمر قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بموت خديجة فقال: إن الله يقرئها السلام، ويبشرها ببيت في الجنة من قصب، بعيد من اللهب، لا نصب فيه ولا صخب، من لؤلؤ جوفاء بين بيت مريم بنت عمران وبيت أسيّة بنت مزاحم. ومن حديث أبي بكر الهذلي، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن النبي ﷺ دخل على خديجة، وهي في الموت، فقال: «يا خديجة، إذا لقيت ضرائك فاقريهن مني السلام». فقالت: يا رسول الله، وهل تزوجت قبلي؟ قال: «لا»، ولكن الله زوجني مريم بنت عمران، وأسيّة امرأة فرعون، وكلثم أخت موسى. ضعيف أيضاً. وقال أبو يعلى: حدثنا إبراهيم بن عرعة، حدثنا عبد النور بن عبد الله، حدثنا يونس بن شعيب، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعْلَمْتُ أَنَّ اللَّهَ زَوْجَنِي فِي الْجَنَّةِ مَرِيَمَ بِنْتَ عِمْرَانَ، وَكَلْثَمَ أُخْتِ مُوسَى، وَأَسِيَّةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ». فقلت: هنيئاً لك يا رسول الله. وهذا أيضاً ضعيف وروي مرسلًا عن ابن أبي داود.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ٦﴾
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْبُدُوا الْيَوْمَ إِلَّا بَعْدَ هَذَا مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ٧﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُورُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَفْصًا عَنِ زَكَمٍ أَنْ يَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَارُ ٨﴾
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ في قوله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ يقول: أذبوهم، علموهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ يقول: اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، ومروا أهلكم بالذكر، ينجيكم الله من النار. وقال مجاهد: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ قال: اتقوا الله، وأوصوا أهلكم بتقوى الله. وقال قتادة: يأمرهم بطاعة الله، وينهاهم عن معصية الله، وأن يقوم عليهم بأمر الله، ويأمرهم به ويساعدهم عليه، فإذا رأيت الله معصية، ردعهم عنها وزجرتهم عنها. وهكذا قال الضحاك ومقاتل: حق على المسلم أن يعلم أهله من قرباته، وإمانته وعبيده، ما فرض الله عليهم، وما نهاهم الله عنه. وفي معنى هذه الآية الحديث الذي رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، من حديث عبد الملك بن الربيع بن سبرة، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها». هذا لفظ أبي داود، وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وروى أبو داود، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ مثل ذلك. قال الفقهاء: وهكذا في الصوم، ليكون ذلك تمريناً له على العبادة، لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر، والله الموفق. وقوله: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾: «وَقُودُهَا» أي: حطبها الذي يلقي فيها جثث بني آدم. ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ قيل: المراد بذلك الأصنام التي كانت تعبد لقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وقال ابن مسعود، ومجاهد، وأبو جعفر

الباقر، والسدي: هي حجارة من كبريت - زاد مجاهد: - أنتن من الجيفة. - وروى ذلك ابن أبي حاتم، رحمه الله، ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحمن بن سنان المنقري، حدثنا عبد العزيز - يعني ابن أبي رواد - قال: بلغني أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، وعنده بعض أصحابه، وفيهم شيخ، فقال الشيخ: يا رسول الله، حجارة جهنم كحجارة الدنيا؟ فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، لصخرة من صخر جهنم أعظم من جبال الدنيا كلها». قال: فوقع الشيخ مغشياً عليه، فوضع النبي ﷺ يده على فؤاده فإذا هو حي فناداه قال: «يا شيخ، قل: لا إله إلا الله».

فقالها: فبشره بالجنة، قال: فقال أصحابه: يا رسول الله، أمن بيننا؟ قال: «نعم، يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَكَافَّ وَعِيدٍ﴾» [إبراهيم: ١٤]. هذا حديث مرسل غريب.

وقوله: ﴿عَلَيْهَا مَلَكُوتٌ غُلَاطٌ يَشُدُّهُ﴾ أي: طباعهم غليظة، قد نُزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله، ﴿يَشُدُّهُ﴾ أي: تركيهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان، حدثنا أبي، عن عكرمة أنه قال: إذا وصل أول أهل النار إلى النار، وجدوا على الباب أربعمائة ألف من خزنة جهنم، سود وجوههم، كالحة أنيابهم، قد نزع الله من قلوبهم الرحمة، ليس في قلب واحد منهم مثقال ذرة من الرحمة، لو طير الطير من منكب أحدهم لطار شهرين قبل أن يبلغ منكبه الآخر، ثم يجدون على الباب التسعة عشر، عرض صدر أحدهم سبعون خريقاً، ثم يهونون من باب إلى باب خمسمائة سنة، ثم يجدون على كل باب منها مثل ما وجدوا على الباب الأول، حتى ينتهوا إلى آخرها. وقوله: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَعْصُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه، لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه. وهؤلاء هم الزبانية عياداً بالله منهم. وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْدُوا إِلَيْهِمْ إِنَّمَا يَجْعَلُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يقال للكفرة يوم القيامة: لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم. ثم قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ أي: توبة صادقة جازمة، تمحو ما قبلها من السيئات وتلم شعث التائب وتجمعه، وتكفه عما كان يتعاطاه من الدنئات. قال ابن جرير: حدثنا ابن مثنى، حدثنا محمد، حدثنا شعبة، عن سماك بن حرب: سمعت النعمان بن بشير يخطب: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ قال: يذنب الذنب ثم لا يرجع فيه. وقال الثوري، عن سماك، عن النعمان، عن عمر قال: التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه، أو لا يعود فيه. وقال أبو الأحوص وغيره، عن سماك، عن النعمان، سئل عمر عن التوبة النصوح، فقال: أن يتوب الرجل من العمل السيء، ثم لا يعود إليه أبداً. وقال الأعمش، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله: ﴿تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ قال: يتوب ثم لا يعود. وقد روي هذا مرفوعاً فقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، عن إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «التوبة من الذنب أن يتوب منه، ثم لا يعود فيه». تفرد به أحمد من طريق إبراهيم بن مسلم الهجري، وهو ضعيف، والموقوف أصح، والله أعلم. ولهذا قال العلماء: التوبة النصوح هو أن يُقْلَعَ عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على ألا يفعل في المستقبل. ثم إن كان الحق لآدمي رده إليه بطريقه. قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عبد الكريم، أخبرني زياد بن أبي مريم، عن عبد الله بن معقل قال: دخلت مع أبي علي عبد الله بن مسعود فقال: أنت سمعت النبي ﷺ يقول: «الندم توبة؟». قال: نعم. وقال مرة: نعم سمعته يقول: «الندم توبة». ورواه ابن ماجه، عن هشام بن عمار، عن سفيان بن عيينة، عن عبد الكريم - وهو ابن مالك الجزري - به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثني الوليد بن بكير أبو خباب، عن عبد الله بن محمد العدوي، عن أبي سنان البصري، عن أبي قلابة، عن زر بن حبيش، عن أبي بن كعب قال: قيل لنا أشياء تكون في آخر هذه الأمة عند اقتراب الساعة، منها نكاح الرجل امرأته أو أمته في دبرها، وذلك مما حرم الله ورسوله، ويمقت الله عليه ورسوله. ومنها: نكاح الرجل الرجل، وذلك مما حرم الله ورسوله، ويمقت الله عليه ورسوله. ومنها: نكاح المرأة المرأة، وذلك مما حرم الله ورسوله، ويمقت الله عليه ورسوله. وليس لهؤلاء صلاة ما أقاموا على هذا، حتى يتوبوا إلى الله توبة نصوحاً. قال زر: فقلت لأبي بن كعب: فما التوبة النصوح؟ فقال: سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «هو الندم على الذنب حين يفِرُّ منك، فتستغفر الله بندامتك منه عند الحاضر، ثم لا تعود إليه أبداً». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن علي، حدثنا عباد بن عمرو، حدثنا أبو عمرو بن العلاء، سمعت الحسن يقول: التوبة النصوح: أن تُبْغِضَ الذنب كما أحببته، وتستغفر منه إذا ذكرته. فأما إذا حزم بالتوبة وصمم عليها فإنها تُجِبُّ ما قبلها من الخطيئات، كما ثبت في الصحيح: «الإسلام يجِبُّ ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها». وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرارُ على ذلك إلى الممات، كما تقدم في الحديث وفي الأثر: «ثم لا يعود فيه أبداً»، أو يكفي العزم على ألا يعود في تكفير الماضي، بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك لا يكون ذلك ضاراً في تكفير ما تقدم، لعموم قوله، عليه السلام: «التوبة تجب ما قبلها؟». وللأول أن يحتج بما ثبت في الصحيح أيضاً: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر». فإذا كان هذا في الإسلام الذي هو أقوى من التوبة، فالتوبة بطريق الأولى، والله أعلم. وقوله: ﴿عَنِ رَبِّكُمْ أَنْ يَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلِيُخْلِكَمَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ و﴿عَنِ اللَّهِ مِنْ اللَّهِ مَوْجِبَةٌ﴾، ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي: ولا يخزيهم معه يعني: يوم القيامة،

﴿تُورَثُ يَتَّىٰ بَيْتِكَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْتِيَهُمْ﴾ كما تقدم في سورة الحديد. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْنَا لَنَا تُورَاكَ وَغَيْرَ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: قال مجاهد، والضحاك، والحسن البصري وغيرهم: هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طمىء. وقال محمد بن نصر المروزي: حدثنا محمد بن مقاتل المروزي، حدثنا ابن المبارك، أخبرنا ابن لهيعة، حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، أنه سمع أبا ذر وأبا الدرداء قالا: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يؤذن له في السجود يوم القيامة، وأول من يؤذن له برفع رأسه، فأنظر بين يدي فأعرف أمتي من بين الأمم، وأنظر عن يميني فأعرف أمتي من بين الأمم، وأنظر عن شمالي فأعرف أمتي من بين الأمم». فقال رجل: يا رسول الله، وكيف تعرف أمتك من بين الأمم. قال: «غُرٌّ محجلون من آثار الطهور، ولا يكون أحد من الأمم كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم». وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن إسحاق الطالقاني، حدثنا ابن المبارك، عن يحيى بن حسان، عن رجل من بني كنانة قال: صليت خلف النبي ﷺ، عام الفتح، فسمعتهم يقول: «اللهم، لا تخزني يوم القيامة».

﴿يَتَأْتِيَ الْجَاهِدُ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَطَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ① صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ ②. يقول تعالى أمر رسول الله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين هؤلاء بالسلاح والقتال، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم، ﴿وَأَغْلَطَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: في الدنيا، ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: في الآخرة. ثم قال: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم، أن ذلك لا يجدي عنهم شيئاً، ولا ينفعهم عند الله، إن لم يكن الإيمان حاصلًا في قلوبهم، ثم ذكر المثل فقال: ﴿امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ﴾ أي: نبين رسولين عندهما في صحبتها ليلاً ونهاراً، يؤاكلانها ويضاجعانها ويعاشرانها أشد العشرة والاختلاط ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي: في الإيمان، لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدقاهما في الرسالة، فلم يُجد ذلك كله شيئاً، ولا دفع عنهما محذوراً؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لكفرهما، ﴿وَقِيلَ﴾ أي: للمراتين: ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾. وليس المراد: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في فاحشة، بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة؛ لحرمة الأنبياء، كما قدما في سورة النور. قال سفيان الثوري، عن موسى بن أبي عائشة، عن سليمان بن قتة: سمعت ابن عباس يقول في هذه الآية: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال: ما زنتا، أما امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه. وقال العوفي، عن ابن عباس قال: كانت خيانتها أنهما كانتا على غير دينهما فكانت امرأة نوح تطلع على سر نوح، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابة من قوم نوح به، وأما امرأة لوط فكانت إذا أضاف لوط أحداً أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل سوء. وهكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، وغيرهم. وقال الضحاك عن ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط، إنما كانت خيانتها في الدين. وقد استدلل بهذه الآية الكريمة بعض العلماء على ضعف الحديث الذي يآثره كثير من الناس: من أكل مع مغفور له غفر له. وهذا الحديث لا أصل له، وإنما يروى هذا عن بعض الصالحين أنه رأى النبي ﷺ في المنام فقال: يا رسول الله، أنت قلت: من أكل مع مغفور له غفر له؟ قال: «لا، ولكني الآن أقوله».

﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبَنِّىْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَغُلِبَ وَعَمِلِهِ وَبَنِّىْ مِنَ الْقَوْرِ الْقَلِيلِينَ ③ وَمِمَّنْ أَمْنَتْ بِعَهْدِ اللَّهِ أَنْ تُحْيِيَ قَرْبَةً فَفَتَحْنَا بِهَا مِنْ رُوحِنَا وَوَدَعْنَا كِفْلَهَا مِنْ رُوحِنَا وَوَكَّلْنَا بِهَا مِنَ الْقَتْلَيْنِ ④﴾. وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَنْفِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكُفْرِينَ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَتَّمَلَّكْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ سَتَلُّوا مِنْهُمُ غَنَةً﴾ ⑤ [آل عمران: ٢٨]. قال قتادة: كان فرعون أعتى أهل الأرض وأبعده فوالله ما ضار امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها لتعلموا أن الله حكم عدل، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه. وقال ابن جرير: حدثنا إسماعيل بن حفص الأبلخي، حدثنا محمد بن جعفر، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي، عن سلمان قال: كانت امرأة فرعون تُعَذِّبُ في الشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة. ثم رواه عن محمد بن عبيد المحاربي عن أسباط بن محمد، عن سليمان التيمي، به. ثم قال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَیَّة، عن هشام الدستوائي، حدثنا القاسم بن أبي بزة قال: كانت امرأة فرعون تسأل: من غلب؟ فيقال: غلب موسى وهارون. فتقول: آمنت برب موسى وهارون، فأرسل إليها فرعون فقالت: انظروا أعظم صخرة تجدونها، فإن مضت على قولها فألقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهي امرأته، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت

بيتها في الجنة، فمضت على قولها، وانتزع الله روحها، وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح. فقولها: ﴿رَبِّ أَيْنَ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾: قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار. وقد ورد شيء من ذلك في حديث مرفوع، ﴿وَيَحْيَىٰ مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾. أي: خلصني منه، فإني أبرأ إليك من عمله، ﴿وَيَحْيَىٰ مِنَ الْقَوَارِ الْأَقْلَابِيِّينَ﴾. وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم، رضي الله عنها. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية قال: كان إيماناً امرأة فرعون من قبل إيمان امرأة خازن فرعون، وذلك أنها جلست تمشط ابنة فرعون، فوقع المشط من يدها، فقالت تعس من كفر بالله؟ فقالت لها ابنة فرعون: ولك رب غير أبي؟ قالت: ربي وربك ورب كل شيء. فطمعتها بنت فرعون وضربتها، وأخبرت أباه، فأرسل إليها فرعون فقال: تعبدين رباً غيري؟ قالت: نعم، ربي وربك ورب كل شيء. الله، وإياه أعبد فعذبها فرعون وأوتد لها أوتاداً، فشد رجلها ويديها وأرسل عليها الحيات، وكانت كذلك، فأتى عليها يوماً فقال لها: ما أنت منتبهة؟ فقالت له: ربي وربك ورب كل شيء. الله. فقال لها: إني ذابح ابنك في فيك إن لم تغعلي. فقالت له: اقض ما أنت قاض. فذبح ابنها في فيها، وإن روح ابنها بشرها، فقال لها: أبشري يا أمه، فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا. فصبرت ثم أتى عليها فرعون يوماً آخر فقال لها مثل ذلك، فقالت له، مثل ذلك، فذبح ابنها الآخر في فيها، فبشرها روحه أيضاً، وقال لها: اصبري يا أمه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا. قال: وسمعت امرأة فرعون كلام روح ابنها الأكبر ثم الأصغر، فأمنت امرأة فرعون، وقبض الله روح امرأة خازن فرعون، وكشف الغطاء عن ثوبها ومنزلتها وكرامتها في الجنة لامرأة فرعون حتى رأت فازدادت إيماناً و يقيناً وتصديقاً، فاطلع فرعون على إيمانها، فقال للملا: ما تعلمون من آسية بنت مزاحم؟ فأثروا عليها، فقال لهم: إنها تعبد غيري. فقالوا له: اقتلها. فأوتد لها أوتاداً، فشد يديها ورجليها، فدعت آسية ربها فقالت: ﴿رَبِّ أَيْنَ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾. فوافق ذلك أن حضرها فرعون، فضحكت حين رأت بيتها في الجنة، فقال فرعون: ألا تعجبون من جنونها، إنا نعذبها وهي تضحك، فقبض الله روحها، رضي الله عنها. وقوله: ﴿وَمَرْيَمُ ابْنَتُ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا﴾ أي: حفظته وصانته. الإحصان: هو العفاف والحرية، ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ أي: بواسطة الملك، وهو جبريل، فإن الله بعثه إليها فتمثل لها في صورة بشر سوي، وأمره الله تعالى أن ينفخ فيه في جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت في فرجها، فكان منه الحمل بعيسى، عليه السلام. ولهذا قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتَ بِكِ كَلِمَتِ رَبِّكَ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ﴾. قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا داود بن أبي الفرات، عن علباء، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط، وقال: «أتدرون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية ابنة مزاحم امرأة فرعون». وثبت في الصحيحين من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة، عن مرة الهمداني، عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ أنه قال: «كُلُّ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». وقد ذكرنا طرق هذه الأحاديث والألفاظ والكلام عليها في قصة عيسى ابن مريم، عليهما السلام، في كتابنا «البداية والنهاية» والله الحمد والمنة، وذكرنا ما ورد من الحديث من أنها تكون هي وآسية بنت مزاحم من أزواجه، عليه السلام، في الجنة عند قوله: ﴿نَبِيِّنَّ وَأَبْنَاكَرًا﴾.



تفسير سورة الملك

وهي مكية. قال أحمد: حدثنا حجاج بن محمد وابن جعفر قالوا: حدثنا شعبة، عن قتادة، عن عباس الجشمي، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «إن سورة في القرآن ثلاثين آية شفعت ل صاحبها حتى غفر له: ﴿بِئْرَكَ الَّذِي يَدْعُو أَلْمَلِكُ﴾». ورواه أهل السنن الأربعة، من حديث شعبة، به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وقد روى الطبراني والحافظ الضياء المقدسي، من طريق سلام بن مسكين، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة: ﴿بِئْرَكَ الَّذِي يَدْعُو أَلْمَلِكُ﴾». وقال الترمذي: حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، حدثنا يحيى بن مالك الثكري، عن أبيه، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خبائه على قبر، وهو لا يحسب أنه قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ضربت خيائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا إنسان يقرأ سورة الملك ﴿بِئْرَكَ﴾ حتى ختمها، فقال رسول الله ﷺ: «هي المانعة، هي المنجية، تنجي من عذاب القبر». ثم قال: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وفي الباب عن أبي هريرة. ثم روى الترمذي أيضاً من طريق ليث بن

أبي سليم، عن أبي الزبير، عن جابر: أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: ﴿الْأَلَمْ يَتْلُكُمُ﴾ (سورة السجدة)، ﴿يَتَذَكَّرُ أَلَيْكَ﴾ وقال ليث عن طاوس: يفضلان كل سورة في القرآن سبعين حسنة. وقال الطبراني، حدثنا محمد بن الحسين بن عجلان الأصبهاني، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي» يعني: ﴿يَتَذَكَّرُ أَلَيْكَ يَتَذَكَّرُ أَلَيْكَ﴾.

هذا حديث غريب، وإبراهيم ضعيف، وقد تقدم مثله في سورة «يس»، وقد روى هذا الحديث عبد بن حميد في مسنده بأبسط من هذا، فقال: حدثنا إبراهيم بن الحكم، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال لرجل: ألا أتحنك بحديث تفرح به؟ قال: بلى. قال: أقرأ: ﴿يَتَذَكَّرُ أَلَيْكَ يَتَذَكَّرُ أَلَيْكَ﴾ وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك، فإنها المنجية والمجادة، تجادل - أو تخاصم - يوم القيام عند ربها لقارناتها، وتطلب له أن ينجيها من عذاب النار، وينجي بها صاحبها من عذاب القبر، قال رسول الله ﷺ: «لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي». وقد روى الحافظ ابن عساكر في تاريخه، في ترجمة أحمد بن نصر بن زياد أبي عبد الله القرشي النيسابوري المقرئ الزاهد الفقيه، أحد الثقات الذين روى عنهم البخاري ومسلم، لكن في غير الصحيحين، وروى عنه الترمذي وابن ماجه وابن خزيمة، وعليه تفقه في مذهب أبي عبيد بن خزيمة، وخلق سواهم، ساق بسنده من حديثه عن فرات بن السائب، عن الزهري، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن رجلاً ممن كان قبلكم مات، وليس معه شيء من كتاب الله إلا ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، فلما وضع في حفرته أتاه الملك فثارت السورة في وجهه، فقال لها: إنك من كتاب الله، وأنا أكره مساءتك، وإني لا أملك ولا له ولا لنفسي ضرراً ولا نفعاً، فإن أردت هذا به فانطلقني إلى الرب تبارك وتعالى فاشفعني له. فتنتقل إلى الرب فتقول: يا رب، إن فلاناً عمد إلي من بين كتابك فتعلمني وتلاني أفتحرقه أنت بالنار وتعذبه وأنا في جوفه؟ فإن كنت فاعلاً ذلك به فامحني من كتابك. فيقول: ألا أراك غضبت؟ فتقول: وحق لي أن أغضب. فيقول: اذهبي فقد وهبته لك، وشقمتك فيه. قال: فتجي فيخرج الملك، فيخرج كاسف البال لم يخل منه شيء. قال: فتجي فتضع فاهها على فيه، فتقول: مرحباً بهذا الفم، فربما تلاني، ومرحباً بهذا الصدر، فربما وعاني، ومرحباً بهاتين القدمين، فربما قامتا بي. وتؤنسني في قبره مخافة الوحشة عليه». قال: فلما حدث بهذا رسول الله ﷺ لم يبق صغير ولا كبير ولا حُر ولا عبد، إلا تعلمها، وسماها رسول الله ﷺ المنجية. قلت: وهذا حديث منكر جداً، وفرات بن السائب هذا ضعفه الإمام أحمد، ويحيى بن معين، والبخاري، وأبو حاتم، والدارقطني وغير واحد. وقد ذكره ابن عساكر من وجه آخر، عن الزهري، من قوله مختصراً. وروى البيهقي في كتاب «إثبات عذاب القبر» عن ابن مسعود موقوفاً ومرفوعاً ما يشهد لهذا وقد كتبه في كتاب الجنائز من الأحكام الكبرى، والله الحمد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَذَكَّرُ أَلَيْكَ يَتَذَكَّرُ أَلَيْكَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) أَلَيْكَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْحَيَاةَ يَتْلُوَكُمْ أَنْتُمْ أَحْسَنُ عِلَافًا وَهُوَ أَعَزُّ الْقُوَى (٢) أَلَيْكَ خَلَقَ سَكُونًا طَبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَاتَّعِجْ بِالْمَرِّ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ (٣) ثُمَّ أَتَّعِجْ بِالْمَرِّ كَذَّبَتْ بِقَلْبِكَ الْبَصَرُ خَايِبًا وَهُوَ حَبِيرٌ (٤) وَلَقَدْ رَزَقْنَاهُ الذُّنْبَا بِمَعِينٍ وَجَعَلْنَاهُ رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥).

يمجد تعالى نفسه الكريمة، ويخبر أنه بيده الملك، أي: هو المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله. ولهذا قال: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ثم قال: ﴿أَلَيْكَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْحَيَاةَ﴾: واستدل بهذه الآية من قال: إن الموت أمر وجودي لأنه مخلوق. ومعنى الآية: أنه أوجد الخلاق من العدم، ليلوهم ويختبرهم أيهم أحسن عملاً؟ كما قال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَتُوقُونَ فَأُخِيضَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]. فسمى الحال الأول - وهو العدم - موتاً، وسمى هذه النشأة حياة. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يُبَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا خُلَيْدٌ، عن قتادة في قوله: ﴿أَلَيْكَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْحَيَاةَ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «إن الله أذل بني آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء». ورواه معمر، عن قتادة. وقوله: ﴿يَتْلُوَكُمْ أَنْتُمْ أَحْسَنُ عِلَافًا﴾ أي: خير عملاً، كما قال محمد بن عجلان: ولم يقل أكثر عملاً. ثم قال: ﴿وَهُوَ أَعَزُّ الْقُوَى﴾ أي: هو العزيز العظيم المنيع الجنتاب، وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأتاب، بعدما عصاه وخالف أمره، وإن كان تعالى عزيزاً، هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز. ثم قال: ﴿أَلَيْكَ خَلَقَ سَكُونًا طَبَاقًا﴾ أي: طبقة بعد طبقة، وهل هن متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهن على بعض، أو متفصلات بينهما خلاء؟ فيه قولان، أصحابهما الثاني، كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره.

وقوله: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾ أي: بل هو مصطحب مستو، ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة، ولا نقص ولا عيب ولا خلل، ولهذا قال: ﴿فَاتَّبِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: انظر إلى السماء فتأملها، هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً؟ قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والثوري، وغيرهم في قوله: ﴿فَاتَّبِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: شقوق. وقال السدي: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: من خروق. وقال ابن عباس في رواية: ﴿مِن فُطُورٍ﴾ أي: من وحي. وقال قتادة: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: هل ترى خللاً يا بن آدم؟ وقوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ قال: مرتين. ﴿يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِبًا﴾ قال ابن عباس: ذليلاً؟ وقال مجاهد، وقاتدة: صاغراً. ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ قال ابن عباس: يعني: وهو كليل. وقال مجاهد، وقاتدة، والسدي: الحسير: المنقطع من الإعياء. ومعنى الآية: إنك لو كررت البصر، مهما كررت، لا تقلب إليك، أي: لرجع إليك البصر، ﴿حَاسِبًا﴾ عن أن يرى عيباً أو خللاً، ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: كليل وقد انقطع من الإعياء من كثرة التكرار، ولا يرى نقصاً. ولما نفى عنها في خلقها النقص بين كمالها وزينتها فقال: ﴿وَلَقَدْ رَزَقْنَاهُ الذِّنْبَ يَصْبِيحُ﴾ وهي الكواكب التي وضعت فيها من السيارات والثواب. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾: عاد الضمير في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ على جنس المصابيح لا على عينها؛ لأنه لا يرمي بالكواكب التي في السماء، بل بشبه من دونها، وقد تكون مستمدة منها، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمُ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ أي: جعلنا للشياطين هذا الخزي في الدنيا، وأعدنا لهم عذاب السعير في الآخرة، كما قال: في أول الصفات: ﴿إِنَّا رَزَقْنَاهُ أَمْثَـةَ الذِّنْبِ يَبْنِيهِ الْكُوكِبُ﴾ ﴿وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الثَّلَا أَلْعَلَّ وَيَقْدِفُونَ مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ ﴿مُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاسِبٌ﴾ ﴿إِلَّا مَن خَلِيفَ الْخَلْفَةَ فَاتَّبَعَهُ﴾ ﴿يَهَابٌ ثَابِتٌ﴾ ﴿الصفات: ٦-١٠﴾. قال قتادة: إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برباه وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿إِذَا أُنْفُثُوا فِيهَا صَبْرًا لَّمَّا شِيقًا وَهِيَ تَنُورُ﴾ ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿فَأَعْرِضُوا يَذَّبُكُمُ السَّعِيرُ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿إ﴾ أي: بشس المال والمنقلب. ﴿إِذَا أُنْفُثُوا فِيهَا صَبْرًا لَّمَّا شِيقًا﴾: قال ابن جرير: يعني الصباح. ﴿وَهِيَ تَنُورُ﴾: قال الثوري: تغلي بهم كما يغلي الحب القليل في الماء الكثير. وقوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي: تكاد ينفصل بعضها من بعض، من شدة غيظها عليهم وحنفها بهم، ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ ﴿إ﴾ يذكر تعالى عدله في خلقه، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه، كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْذِرِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ١٧١]. وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة، فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزل الله من الحق، لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاعتار به، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم، قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرِضُوا يَذَّبُكُمُ السَّعِيرُ﴾ ﴿إ﴾. قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبه، عن عمرو بن مَرْة، عن أبي البختري الطائي قال: أخبرني من سمعه من رسول الله ﷺ أنه قال: «لن يهلك الناس حتى يُعذبوا من أنفسهم». وفي حديث آخر: «لا يدخل أحد النار، إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة».

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمُ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿وَأَنبِئُوا قَوْمَكُم بِوَاعْدِهِمْ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ﴾ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ ﴿إ﴾.

يقول تعالى مخبراً عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائباً عن الناس، فينكف عن المعاصي ويقوم بالطاعات، حيث لا يراه أحد إلا الله، بأنه له مغفرة وأجر كبير، أي: يكفر عنه ذنوبه، ويجازى بالثواب الجزيل، كما ثبت في الصحيحين: «سبعة يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله»، فذكر منهم: «رجلاً دعه امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله»، ورجلاً تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه». وقال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا طلوت بن عباد، حدثنا الحارث بن عبيد، عن ثابت، عن أنس قال: قالوا: يا رسول الله، إنا نكون عندك على حال، فإذا فارقناك كنا على غيره؟ قال: «كيف أنتم وربكم؟» قالوا: الله ربنا في السر والعانية. قال: «ليس ذلكم النفاق». لم يروه عن ثابت إلا الحارث بن عبيد

يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا غيره، يبتغون عندهم نصراً ورزقاً، مُنْكَراً عليهم فيما اعتقدوه، ومُخْبِراً لهم أنه لا يحصل ما أملوه، فقال: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصْرِفُكَ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ أي: ليس لكم من دونه من ولي ولا واق، ولا ناصر لكم غيره، ولهذا قال: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ لَا فِي عَوْرِدِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْفَعُكَ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَكَ﴾ أي: من هذا الذي إذا قطع الله رزقه عنكم يرزقكم بعده؟! أي: لا أحد يعطي ويمنع ويخلق ويرزق، وينصر إلا الله، وحده لا شريك له، أي: وهم يعلمون ذلك، ومع هذا يعبدون غيره، ولهذا قال: ﴿بَلْ لَّعَنَّا﴾ أي: استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿فِي عَوْرَتِهِمْ﴾ أي: معاندة واستكباراً ونفوراً على أدبارهم عن الحق، أي: لا يسمعون له ولا يتبعونه. ثم قال: ﴿أَمَّنْ يَبْسِئُ مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَعْدَىٰ أَمَّنْ يَبْسِئُ سَوَاءً عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؟ وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو كمثل من يمشي مُكِبًّا على وجهه، أي:

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾: يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي أَلَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ إِلَهِ؟﴾ أي: خلصوا أنفسكم، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا التوبة والإنابة، والرجوع إلى دينه، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والثكال، فسواء عذبنا الله أو رحمنا، فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم. ثم قال: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ عَامِتٌ بِهِ وَعَقِبَهُ تَوَكُّفًا﴾ أي: آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم، وعليه توكلنا في جميع أمورنا، كما قال: ﴿عَاتِبُهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [مرد: ١٧٣]. ولهذا قال: ﴿سَتَجِدُنَّ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ؟﴾ أي: منا ومنكم، ولمن تكون العقاب في الدنيا والآخرة؟ ثم قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِذَا اصْبَحَ مَاؤُكُمْ غُرًا؟﴾ أي: ذاهبا في الأرض إلى أسفل، فلا يُنال بالنفوس الحداد، ولا السواعد الشداد، والغائر: عكس النابع، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ يَأْتِكُمْ بِمَاءٍ مَيِّينٍ؟﴾ أي: نابع سائح جار على وجه الأرض، لا يقدر على ذلك إلا الله، ﷻ، فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه وأجرها في سائر أقطار الأرض، بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة، فله الحمد والمنة.

وهي مكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿٣٠﴾ وَمَا يَسْأَلُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِمَعْنَى رَبِّكَ يَخْلُفُونَ ﴿٢﴾ وَإِنْ لَكَ لَأَخْرَاجَ عَمْرٍَ مُتَمَوِّنٌ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلِي عَظِيمٌ ﴿٤﴾ سَبَّحْمُ وَبُصِّرُونَ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تَصَلَّى عَنْ سَيْبِهِ. وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْهَرِينَ ﴿٧﴾.

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول «سورة البقرة»، وأن قوله: ﴿ت﴾ كقوله: ﴿صَ﴾، ﴿قَ﴾، ونحو ذلك من الحروف المقطعة في أوائل السور، وتحرير القول في ذلك بما أغنى عن إعادته. وقيل: المراد بقوله: ﴿ت﴾: حوت عظيم على تيار الماء العظيم المحيط، وهو حامل للأرضين السبع، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى، حدثنا سفيان - هو الثوري - حدثنا سليمان - هو الأعمش - عن أبي ظبيان، عن ابن عباس قال: أول ما خلق الله القلم قال: اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: اكتب القدر. فجرى بما يكون من ذلك اليوم إلى يوم قيام الساعة. ثم خلق «النون» ورفع بخار الماء، ففتت منه السماء، وبسطت الأرض على ظهر النون، فاضطرب النون فمادت الأرض، فأثبتت بالجبال، فإنها لتفخر على الأرض. وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن سنان، عن أبي معاوية، عن الأعمش. به. وهكذا رواه شعبة، ومحمد بن فضيل، ووكيع، عن الأعمش. به. وزاد شعبة في روايته: ثم قرأ: ﴿تَ وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ١١. وقد رواه شريك، عن الأعمش، عن أبي ظبيان - أو مجاهد - عن ابن عباس، فذكر نحوه. ورواه مَعْمَر، عن الأعمش: أن ابن عباس قال... فذكره، ثم قرأ: ﴿تَ وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ١١. ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن عطاء، عن أبي الضحى، عن ابن عباس قال: إن أول شيء خلق ربي، ﷻ، القلم، ثم قال له: اكتب. فكتب ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة. ثم خلق «النون» فوق الماء، ثم كبس الأرض عليه. وقد روى الطبراني ذلك مرفوعاً فقال: حدثنا أبو حبيب زيد بن المهتدي المروزي، حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقاني، حدثنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا حماد بن زيد، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضحى مسلم بن صبيح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما خلق الله القلم والحوت، قال للقلم: اكتب، قال: ما أكتب، قال: كل شيء كائن إلى يوم القيامة». ثم قرأ: ﴿تَ وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ١١، فالنون: الحوت. والقلم: القلم.

حديث آخر في ذلك: رواه ابن عساکر عن أبي عبد الله مولى بني أمية، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول شيء خلقه الله القلم، ثم خلق «النون» وهي: الدواة. ثم قال له: اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما يكون - أو: ما هو كائن - من عمل أو رزق أو أثر أو أجل. فكتب ذلك إلى يوم القيامة، فذلك قوله: ﴿تَ وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ١١. ثم ختم على القلم فلم يتكلم إلى يوم القيامة، ثم خلق العقل وقال: وعزتي لأكملنك فيمن أحببت، ولأنقصنك ممن أبغضت». وقال ابن أبي نجیح: إن إبراهيم بن أبي بكر أخبره عن مجاهد قال: كان يقال: النون الحوت العظيم الذي تحت الأرض السابعة. وذكر البغوي وجماعة من المفسرين: إن على ظهر هذا الحوت صخرة سمكها كغلظ السموات والأرض، وعلى ظهرها ثور له أربعون ألف قرن، وعلى منته الأرضون السبع وما فيها وما بينهن، فالله أعلم. ومن العجيب أن بعضهم حمل على هذا المعنى الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا حميد، عن أنس: أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم رسول الله ﷺ المدينة، فأتاه فسأله عن أشياء، قال: إني سائلك عن أشياء لا يعلمها إلا نبي، قال: ما أول أشراف الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه؟ والولد ينزع إلى أمه؟ قال: «أخبرني بهن جبريل أنفاً». قال ابن سلام: فذاك عدو اليهود من الملائكة. قال: «أما أول أشراف الساعة فتأخرهم من المشرق إلى المغرب. وأول طعام يأكله أهل الجنة زيادة كبد حوت. وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع». ورواه البخاري من طرق عن حميد، ورواه مسلم أيضاً. وله من حديث ثوبان - مولى رسول الله ﷺ - نحو هذا. وفي صحيح مسلم من حديث أبي أسماء الرحبي، عن ثوبان: أن حبراً سأل رسول الله ﷺ عن مسائل، فكان منها أن قال: فما تحفتهم؟ - يعني أهل الجنة حين يدخلون الجنة - قال: «زيادة كبد الحوت». قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها». قال: فما شربهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسيلاً».

وقيل: المراد بقوله ﴿تَ﴾: لوح من نور. قال ابن جرير: حدثنا الحسين بن شبيب المكتب، حدثنا محمد بن زياد الجزري، عن فرات بن أبي الفرات، عن معاوية بن قرّة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿تَ وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ١١. لوح من نور، وقلم من نور، يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة. وهذا مرسل غريب. وقال ابن جريج: أخبرني أن ذلك القلم من نور طوله مائة عام. وقيل: المراد بقوله: ﴿تَ﴾: دواة، والقلم: القلم. قال ابن جرير: حدثنا عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن مَعْمَر، عن الحسن وقتادة في قوله: ﴿تَ﴾ قالوا: هي الدواة. وقد روي في هذا حديث مرفوع غريب جداً فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الحسن بن يحيى، حدثنا أبو عبد الله مولى بني أمية، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خلق الله النون، وهي الدواة». وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب، حدثنا

أخي عيسى بن عبد الله، حدثنا ثابت الشمالي، عن ابن عباس قال: إن الله خلق النون - وهي الدواة - وخلق القلم، فقال: اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل معمول، بر أو فجور، أو رزق مقسوم حلال أو حرام. ثم ألزم كل شيء من ذلك، شأنه: دخوله في الدنيا، ومقامه فيها كم؟ وخروجه منها كيف؟ ثم جعل على العباد حفظه، وللكتاب خزاناً، فالحفظة ينسخون كل يوم من الخزان عمل ذلك اليوم، فإذا فني الرزق وانقطع الأثر وانقضى الأجل، أتت الحفظة الخزنة يطلبون عمل ذلك اليوم، فتقول لهم الخزنة: ما نجد لصاحبكم عندنا شيئاً. فترجع الحفظة فيجدونهم قد ماتوا. قال: فقال ابن عباس: أستم قوماً عرباً تسمعون الحفظة يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنِيخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الباقية: ٢٩] وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل. وقوله: ﴿وَالْقَلَمِ﴾: الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به كقوله: ﴿أَتَرَأَوْهُكَ الْأَكْثَرُ﴾ [الذي علم بالقلم] ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٣-٤]. فهو قسم منه تعالى، وتنبيه لخلق الله على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: يعني: وما يكتبون. وقال أبو الضحى، عن ابن عباس: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: وما يعملون. وقال السدي: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾: يعني الملائكة وما تكتب من عمل العباد.

وقال آخرون: بل المراد هنا بالقلم الذي أجراه الله بالقدر حين كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرضين بخمسين ألف سنة. وأوردوا في ذلك الأحاديث الواردة في ذكر القلم، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان ويونس بن حبيب قالوا: حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا عبد الواحد بن سليم السلمي، عن عطاء - هو ابن أبي رباح - حدثني الوليد بن عباد بن الصامت قال: دعاني أبي حين حضره الموت فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: يا رب ما أكتب؟ قال: اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد». وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد من طرق، عن الوليد بن عباد، عن أبيه، به. وأخرجه الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي، به. وقال: حسن صحيح غريب. ورواه أبو داود في كتاب «السنة» من سننه، عن جعفر بن مسافر، عن يحيى بن حسان، عن ابن رباح، عن إبراهيم بن أبي عبلة، عن أبي حفصة - واسمه حُيَيش بن شريح الحبشي الشامي - عن عبادة، فذكره. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله الطوسي، حدثنا علي بن الحسن بن شقيق، أنبأنا عبد الله بن المبارك، حدثنا رباح بن زيد، عن عمر بن حبيب، عن القاسم بن أبي بزة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول شيء خلقه الله القلم، فأمره فكتب كل شيء». غريب من هذا الوجه، ولم يخرجوه. وقال ابن أبي نجيع، عن مجاهد: ﴿وَالْقَلَمِ﴾ يعني: الذي كتب به الذكر. وقوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: يكتبون، كما تقدم. وقوله: ﴿مَا أَتَتْ يَغْفِرُ رَبُّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [ي] أي: لست، والله الحمد، بمجنون، كما قد يقوله الجهلة من قومك، والمكذبون بما جنتهم به من الهدى والحق المبين، فنسبوك إلى الجنون، ﴿وَرَأَى لِلَّهِ أَخْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [ي] أي: بل لك الأجر العظيم، والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبديد، على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق، وصبرك على أذاهم. ومعنى ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع كقوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [ي] أي: غير محسوب، وهو يرجع إلى ما قلناه. وقوله: ﴿وَرَأَى لِلَّهِ أَخْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [ي] أي: غير مقطوع عنهم. وقال مجاهد: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير محسوب، وهو يرجع إلى ما قلناه. وقوله: ﴿وَرَأَى لِلَّهِ أَخْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [ي] أي: وإنك لعلى دين عظيم، وهو الإسلام. وكذلك قال مجاهد، وأبو مالك، والسدي، والربيع بن أنس، والضحاك، وابن زيد. وقال عطية: لعلى أدب عظيم. وقال معمر، عن قتادة: سُئِلَتْ عائشة عن خلق رسول الله ﷺ. قالت: كان خلقه القرآن، تقول: كما هو في القرآن. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة قوله: ﴿وَرَأَى لِلَّهِ أَخْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [ي] ذكر لنا أن سعد بن هشام سأل عائشة عن خلق رسول الله ﷺ. فقالت: أأستقرأ القرآن؟ قال: بلى. قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، عن زرارة بن أوفى، عن سعد بن هشام قال: سألت عائشة فقلت: أخبريني يا أم المؤمنين عن خلق رسول الله ﷺ. فقالت: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم. فقالت: كان خلقه القرآن. هذا حديث طويل. وقد رواه الإمام مسلم في صحيحه، من حديث قتادة بطوله. وسأيت في سورة «المزمل» إن شاء الله تعالى. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا يونس، عن الحسن قال: سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: كان خلقه القرآن.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا شريك، عن قيس بن وهب، عن رجل من بني سواد قال: سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ. فقالت: أما تقرأ القرآن: ﴿وَرَأَى لِلَّهِ أَخْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [ي]؟ قال: قلت: حديثني عن ذلك. قالت: صنعت له طعاماً، وصنعت له حفصة طعاماً، فقلت لجاريتي: اذهبي فإن جاءت هي بالطعام فوضعه قبل فاطمحي الطعام! قالت: فجاءت بالطعام. قالت: فألقت الجارية، فوقعت القصعة فانكسرت - وكان نطعاً - قالت: فجمعه رسول الله ﷺ وقال: «اقتضوا - أو:

اقتضي - شك أسود - ظرفاً مكان ظرفك». قالت: فما قال شيئاً. وقال ابن جرير: حدثنا عبيد بن آدم بن أبياس، حدثنا أبي، حدثنا المبارك بن فضالة، عن الحسن، عن سعد بن هشام: قال: أتيت عائشة أم المؤمنين فقلت لها: أخبريني بخلق النبي ﷺ. فقالت: كان خلقه القرآن. أما تقرأ؟ ﴿وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾. وقد روى أبو داود والنسائي، من حديث الحسن، نحوه. وقال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، وأخبرني معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن جبير بن نفير قال: حججت فدخلت على عائشة، رضي الله عنها، فسألتهما عن خلق رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن. هكذا رواه أحمد، عن عبد الرحمن بن مهدي. ورواه النسائي في التفسير، عن إسحاق بن منصور، عن عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن صالح، به. ومعنى هذا أنه، عليه السلام، صار امتثال القرآن، أمراً ونهياً، سجية له، وخلقاً تطبعه، وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه. هذا مع ما جبلة الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة، والصفح والحلم، وكل خلق جميل. كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: أف قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً، ولا مسست خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شمت مسكاً ولا عطرأ كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ. وقال البخاري: حدثنا أحمد بن سعيد أبو عبد الله، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا إبراهيم بن يوسف، عن أبيه، عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسن الناس خلقاً، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير. والأحاديث في هذا كثيرة، ولأبي عيسى الترمذي في هذا كتاب «الشمائل». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن عروّة، عن عائشة قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً له قط، ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئاً قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله. ولا خُبر بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثمًا، فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمة الله، فيكون هو ينتقم لله. وقال الإمام أحمد: حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن محمد بن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ». تفرد به. وقوله: ﴿مُسْتَعِيرٌ وَيُعِيرُونَ﴾ (٥) بِأَيْتِكُمُ الْفِتْنُ ﴿٦﴾ أَي: فستعلم يا محمد، وسيعلم مخالفوك ومكذبوك: من المفتون الضال منك ومنهم. وهذه كقوله تعالى: ﴿سَيَلْمُونَكَ عَذَابَ الْكَذَّابِ الْأَثِيرِ﴾ (الفر: ٢٦)، وكقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْقَهُونَ هُدًى وَهُدًى أَوْ يُبَيِّنُ﴾ (سبأ: ٢٤). قال ابن جريج: قال ابن عباس في هذه الآية: ستعلم ويعلمون يوم القيامة. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿بِأَيْتِكُمُ الْفِتْنُ﴾ (٦) أَي: الجنون. وكذا قال مجاهد، وغيره. وقال قتادة وغيره: ﴿بِأَيْتِكُمُ الْفِتْنُ﴾ (٦) أَي: أولى بالشیطان. ومعنى المفتون ظاهر، أي: الذي قد افتتن عن الحق وضل عنه، وإنما دخلت الباء في قوله: ﴿بِأَيْتِكُمُ الْفِتْنُ﴾ (٦) لتدل على تضمين الفعل في قوله: ﴿مُسْتَعِيرٌ وَيُعِيرُونَ﴾ (٥) وتقديره: فستعلم ويعلمون، أو: فسُخِّرَ وَيُخَيَّرُونَ بِأَيْتِكُمُ الْفِتْنُ. والله أعلم. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَصَلَّى عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْهَرِينَ﴾ (٧) أَي: هو يعلم تعالى أي الفريقين منكم ومنهم هو المهدي، ويعلم الحزب الضال عن الحق.

﴿فَلَا تُلَاحِظْ الْمُنْكَذِبِينَ﴾ (٨) وَدُّوا لَوْ تَدْعُوهُمْ فَيَذَرُوكَ ﴿٩﴾ وَلَا تُلَاحِظْ كُلَّ حِلَافٍ مُّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَازٍ مُّشَلَّمٌ بِبَيِّنَةٍ ﴿١١﴾ تَنَاجَى لِلْمَعْرِ مَعْتَرٍ أَيْمٍ ﴿١٢﴾ عُنْثَى بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيحٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تَنَلَّاهُمَا عَلَيْنَا قَالَ أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَيَمُّ عَلَى الْفُطُورِ ﴿١٦﴾. يقول تعالى: كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم والخلق العظيم: ﴿فَلَا تُلَاحِظْ الْمُنْكَذِبِينَ﴾ (٨). ﴿وَدُّوا لَوْ تَدْعُوهُمْ فَيَذَرُوكَ﴾ (٩): قال ابن عباس: لو تُرْخَصْ لهم فيُرخِّصون. وقال مجاهد: ودوا لو تركن إلى ألهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُلَاحِظْ كُلَّ حِلَافٍ مُّهِينٍ﴾ (١٠): وذلك أن الكاذب لضغفه ومهاتته إنما يفتي بأيمانه الكاذبة التي يجترأ بها على أسماء الله تعالى، واستعمالها في كل وقت في غير محلها. قال ابن عباس: المهين الكاذب. وقال مجاهد: هو الضعيف القلب. قال الحسن: كل حلاف مكابر مهين ضعيف. وقوله: ﴿هَازٍ﴾: قال ابن عباس وقاتة: يعني الاغتيال. ﴿تَنَاجَى بِبَيِّنَةٍ﴾ يعني: الذي يمشي بين الناس، ويحشر بينهم وينقل الحديث لفساد ذات البين، وهي الحالقة، وقد ثبت في الصحيحين من حديث مجاهد، عن طاوس، عن ابن عباس قال: مر رسول الله ﷺ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة» الحديث. وأخرجه بقية الجماعة في كتبهم، من طرق عن مجاهد، به. وقال أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن همام، أن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتات». رواه الجماعة - إلا ابن ماجه - من طرق، عن إبراهيم، به. وحدثنا عبد الرزاق،

حدثنا الثوري، عن منصور، عن إبراهيم، عن همام، عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتات» يعني: نمأماً. وحدثنا يحيى بن سعيد القطان أبو سعيد الأحول، عن الأعمش، حدثني إبراهيم - منذ نحو ستين سنة - عن همام بن الحارث قال: مر رجل على حذيفة فقيل: إن هذا يرفع الحديث إلى الأمراء. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول - أو قال -: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة قتات». وقال أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا مهدي، عن واصل الأحذب، عن أبي وائل قال: بلغ حذيفة عن رجل أنه ينم الحديث، فقال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة نمأ». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا مَعْمَر، عن ابن خُثَيْم، عن شهر بن حَوْشَب، عن أسماء بنت يزيد بن السكن؛ أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخياركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «الذين إذا رؤوا ذكر الله، ﷻ». ثم قال: «ألا أخبركم بشراكم؟ المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبراءة العنت». ورواه ابن ماجه، عن سويد بن سعيد، عن يحيى بن سليم، عن ابن خُثَيْم، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن ابن أبي حُسَيْن، عن شهر بن حَوْشَب، عن عبد الرحمن بن غَنَم - يبلغ به النبي ﷺ -: «خيار عباد الله الذين إذا رؤوا ذكر الله، وشرار عباد الله المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبراءة العنت». وقوله: «مَنْعَ لِلنَّعْرِ مَعْتَدِ أَنْيَرِ» (١٧) أي: يمنع ما عليه وما لديه من الخير (مَعْتَدٍ) في تناول ما أحل الله له، يتجاوز فيها الحد المشروع (أَنْيَرِ) أي: يتناول المحرمات. وقوله: «عَتَلِيَّ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْنِي» (١٨) أما العتل: اللفظ الغليظ الصحيح، المجموع المَنُوعُ. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وعبد الرحمن، عن سفيان، عن مَعْبُد بن خالد، عن حارثة بن وهب قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأهل الجنة؟ كل ضعيف مُتَضَعِّف لو أقسم على الله لأبره، ألا أنبئكم بأهل النار؟ كل عتل جَوَاطُ مستكبر». وقال وكيع: «كل جَوَاطُ جعظري مستكبر». أخرجه في الصحيحين وبقية الجماعة، إلا أبا داود، من حديث سفيان الثوري وشعبة، كلاهما عن معبد بن خالد، به. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا موسى بن علي قال: سمعت أبي يحدث عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن النبي ﷺ قال عند ذكر أهل النار: «كل جعظري جَوَاطُ مستكبر جماع مناع». تفرد به أحمد. قال أهل اللغة: الجعظري: اللفظ الغليظ، والجَوَاطُ: المجموع المَنُوع. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا عبد الحميد، عن شهر بن حَوْشَب، عن عبد الرحمن بن غَنَم، قال: سئل رسول الله ﷺ عن العُتْلُ الزنيم، فقال: «هو الشديد الخلق المصحح، الأكل الشروب، الواجد للطعام والشراب، الظلوم للناس، رحيب الجوف». وبهذا الإسناد قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة الجَوَاطُ الجعظري، والعتل الزنيم» وقد أرسله أيضاً غير واحد من التابعين. وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن مَعْمَر، عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «تبكي السماء من عبد أصح الله جسمه، وأرحب جوفه، وأعطاه من الدنيا مَقْضَماً، فكان للناس ظلوماً. قال: فذلك العُتْلُ الزنيم». وهكذا رواه ابن أبي حاتم من طريقين مرسلين، ونص عليه غير واحد من السلف، منهم مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، وغيرهم: أن العتل هو: المَصْحُح الخلق، الشديد القوي في المأكل والمشرب والمنكح، وغير ذلك، وأما الزنيم فقال البخاري: حدثنا محمود، حدثنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن أبي حصين، عن مجاهد، عن ابن عباس: «عُتْلِيَّ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْنِي» (١٩) قال: رجل من قريش له زمة مثل زمة الشاة. ومعنى هذا: أنه كان مشهوراً بالشر كشهرة الشاة ذات الزمة من بين أخواتها. وإنما الزنيم في لغة العرب: هو الذُعْيُ في القوم. قاله ابن جرير وغير واحد من الأئمة، قال: ومنه قول حسان بن ثابت، يعني يذم بعض كفار قريش:

وَأَنْتَ زَنْيِمٌ نَبِيطٌ فِي آلِ هَاشِمٍ كَمَا نَبِيطُ خَلْفَ الرَّاكِبِ الْقَدْحُ الْفَرْدُ
وقال آخر:

زَنْيِمٌ لَيْسَ يُعْرَفُ مِنْ أَبَوَيْهِ بَغْيِي الْأُمِّ دُوَّ حَسَبِ لَنْيِمٍ
وقال ابن أبي حاتم: حاتم عمار بن خالد الواسطي، حدثنا أسباط، عن هشام، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: «زَيْنِي» قال: الدعْيُ الفاحش اللئيم. ثم قال ابن عباس:

زَنْيِمٌ تَدَاعَاهُ الرِّجَالُ زِيَادَةً كَمَا زِيدَ فِي عَرْضِ الْأَدِيمِ الْأَكَارُغُ
وقال العوفي عن ابن عباس: الزنيم: الدعْي. ويقال: الزنيم: رجل كانت به زمة، يعرف بها. ويقال: هو الأخسن بن شريق الثقفي، حليف بني زهرة. وزعم أناس من بني زهرة أن الزنيم الأسود بن عبد يغوث الزهري، وليس به. وقال ابن أبي نجيع،

عن مجاهد، عن ابن عباس: أنه زعم أن الزنيم المُلحق النسب. وقال ابن أبي حاتم: حدثني يونس، حدثنا ابن وهب، حدثني سليمان بن بلال، عن عبد الرحمن بن حرملة، عن سعيد بن المسيب، أنه سمعه يقول في هذه الآية: ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ (١٧) قال سعيد: هو المُلحق في القوم، ليس منهم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عقبة بن خالد، عن عامر بن قدامة قال: سئل عكرمة عن الزنيم، قال: هو ولد الزنا. وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ (١٧) قال: يعرف المؤمن من الكافر مثل الشاة الزنماء. والزنماء من الشياه: التي في عنقها هنتان معلقتان في حلقتها. وقال الثوري، عن جابر، عن الحسن، عن سعيد بن جبير قال: الزنيم: الذي يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزمنتها. والزنيم: المُلحق. رواه ابن جرير. وروى أيضاً من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال في الزنيم: قال: نُعت فلم يعرف حتى قيل: زنيم. قال: وكانت له زُمنة في عنقه يُعرف بها. وقال آخرون: كان دعياً. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا ابن إدريس، عن أبيه، عن أصحاب التفسير قالوا: هو الذي تكون له زُمنة مثل زمنة الشاة. وقال الضحاك: كانت له زمنة في أصل أذنه، ويقال: هو اللثيم المُلحق في النسب. وقال أبو إسحاق: عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: هو المريب الذي يعرف بالشر. وقال مجاهد: الزنيم يعرف بهذا الوصف كما تعرف الشاة. وقال أبو رزين: الزنيم علامة الكفر. وقال عكرمة: الزنيم الذي يعرف باللؤم كما تعرف الشاة بزمنتها. والأقوال في هذا كثيرة، وترجع إلى ما قلناه، وهو أن الزنيم هو: المشهور بالشر، الذي يعرف به من بين الناس، وغالباً يكون دعياً ولد زنا، فإنه في الغالب يتسلط الشيطان عليه ما لا يتسلط على غيره، كما جاء في الحديث: «لا يدخل الجنة ولد زنا». وفي الحديث الآخر: «ولد الزنا شرُّ الثلاثة إذا عمل بعمل أبويه». وقوله: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَنَبِيٍّ﴾ (١٨) إذا تَلَّى عَلَيْهِ مَا يَنْشَأُ قَالَ اسْتَطِيرَ الْأَوَّلِينَ (١٩) يقول تعالى: هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والنبين، كفر بآيات الله وأعرض عنها، وزعم أنها كذب مأخوذ من أساطير الأولين، كقوله: ﴿ذَرَفَ وَمَنْ خَلَقَتْ وَجِداً﴾ (١١) ﴿بَعَثَتْ لَهُ مَا لَا مَثْدُوَ﴾ (١٢) وَبَيْنَ شُهُودَا (١٣) وَمَهَّدَتْ لَهُ تَهْيِداً (١٤) ثُمَّ بَلَغَتْ أَنْ أَوَيْدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِنَا عَيْداً (١٦) سَأَوْفَعُهُ صَوْوَا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْرُكَ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأَتْلُوهُ سَرَّ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَرَ (٢٧) لَا يَتَّبِعُ وَلَا تَنْزَرُ (٢٨) لَوْعَةً لِّلْهَرِّ (٢٩) عَلَيْهَا يَسْمَعُ عَنَرُ (٣٠) [المدر: ١١-٣٠]. وقال تعالى ما هنا: ﴿سَيَسْمَعُ عَلَى الْقَرْطُورِ (٣١)﴾. قال ابن جرير: سنيين أمره بياناً واضحاً، حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم، كما لا تخفى السمّة على الخراطيم. وهكذا قال قتادة: ﴿سَيَسْمَعُ عَلَى الْقَرْطُورِ (٣١)﴾: شين لا يفارقه آخر ما عليه. وفي رواية عنه: سيما على أنفه. وكذا قال السدي. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿سَيَسْمَعُ عَلَى الْقَرْطُورِ (٣١)﴾: يقاتل يوم بدر، فيخطم بالسيف في القتال. وقال آخرون: ﴿سَيَسْمَعُ﴾: سمّة أهل النار، يعني: نسود وجهه يوم القيامة، وعبر عن الوجه بالخرطوم. وحكى ذلك كله أبو جعفر بن جرير، ومال إلى أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه في الدنيا والآخرة، وهو منجّه. وقد قال ابن أبي حاتم في سورة ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٣٢): حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، حدثني الليث، حدثني خالد عن سعيد، عن عبد الملك بن عبد الله، عن عيسى بن هلال الصدفي، عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن العبد يكتب مؤمناً أحقاباً ثم يموت والله عليه ساخط. وإن العبد يكتب كافراً أحقاباً ثم أحقاباً، ثم يموت والله عليه راض. ومن مات هماراً لمأزاً مُلقياً للناس، كان علامته يوم القيامة أن يسمه الله على الخرطوم، من كلا الشفتين».

﴿إِنَّا يَتَوَفَّيْهِمْ كَمَا يَتَوَفَّى أَصْحَابَ الْبَيْتِ إِذْ أَقْبَمُوا بِصِرْمَتِهِمْ مَّصِيحِينَ (٣٣) وَلَا يَسْتَنْوُونَ (٣٤) فَلَمَّا عَلِمَا مَا لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ مِنْ دُونِ ذَلِكَ عَلَيْهَا مَلَأَتْ يَدَهُنَّ مِنَ الرَّحْمَةِ الْعَظِيمَةِ، وَأَعْطَاهُم مِنَ النِّعَمِ الْجَسِيمَةِ، وَهُوَ بَعَثُهُ مَحْمدًا ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَابَلُوهُ بِالتَّكْذِيبِ وَالرَّدِّ وَالْمَحَارِبَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّا يَتَوَفَّيْهِمْ﴾ أي: اخبرناهم، ﴿كَمَا يَتَوَفَّى أَصْحَابَ الْبَيْتِ﴾ وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفاكهة ﴿وَإِذْ أَقْبَمُوا بِصِرْمَتِهِمْ مَّصِيحِينَ﴾ أي: حلفوا فيما بينهم ليُجَدُّ ثمرها ليلاً، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء، ﴿وَلَا يَسْتَنْوُونَ﴾ (٣٤) أي: فيما حلفوا به. ولهذا حثَّهم الله في إيمانهم، فقال: ﴿فَلَمَّا عَلِمَا مَا لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ مِنْ دُونِ ذَلِكَ عَلَيْهَا مَلَأَتْ يَدَهُنَّ مِنَ الرَّحْمَةِ الْعَظِيمَةِ، وَلَقَدْ لَبِثْنَ الْأَجَلَ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٥).

هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة، وأعطاهم من النعم الجسيمة، وهو بَعَثُهُ مَحْمدًا ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَابَلُوهُ بِالتَّكْذِيبِ وَالرَّدِّ وَالْمَحَارِبَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّا يَتَوَفَّيْهِمْ﴾ أي: اخبرناهم، ﴿كَمَا يَتَوَفَّى أَصْحَابَ الْبَيْتِ﴾ وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفاكهة ﴿وَإِذْ أَقْبَمُوا بِصِرْمَتِهِمْ مَّصِيحِينَ﴾ أي: حلفوا فيما بينهم ليُجَدُّ ثمرها ليلاً، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء، ﴿وَلَا يَسْتَنْوُونَ﴾ (٣٤) أي: فيما حلفوا به. ولهذا حثَّهم الله في إيمانهم، فقال: ﴿فَلَمَّا عَلِمَا مَا لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ مِنْ دُونِ ذَلِكَ عَلَيْهَا مَلَأَتْ يَدَهُنَّ مِنَ الرَّحْمَةِ الْعَظِيمَةِ، وَلَقَدْ لَبِثْنَ الْأَجَلَ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٥).

الأسود. وقال الثوري، والسدي: مثل الزرع إذا حُصِد، أي: هشياً يساً. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن أحمد بن الصباح:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٢٦﴾ أَتَجْعَلُ السَّيِّئِينَ كَالنَّعِيمِينَ ﴿٢٧﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٢٨﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَأَكْثَرَ مِنْهُ لَا تَكُونُ فِيهِ إِلَّا كُنُوزٌ وَمَا يَرْزُقُهَا رَبُّهَا فَأَنْبَجِلُ عَنْهَا ﴿٣٠﴾ وَتُنَزَّلُ عَلَيْهَا الْغَمَامُ ﴿٣١﴾ يُسْقَى مِنْهَا الْكُنُوزُ فَلَا يَمُوتُ فِيهَا سَمٌّ وَلَا يَافِسٌ ﴿٣٢﴾ لِيُثَبِّتُ اللَّهُ عَلَيْهَا الْقِيَامَ وَتُجْزَىٰ عَنْهَا أُولَئِكَ بِإِعْمَالِهِمْ خَالِفُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّهُمْ فِيهَا مُنْقَضُونَ دَعْوَاهُمْ ﴿٣٤﴾﴾

لما ذكر الله تعالى حال أهل الجنة الدنيوية، وما أصابهم فيها من النعمة حين عصوا الله، فكأن، وخالفوا أمره، بين أن لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم التي لا تبيد ولا تفرغ ولا ينقضي نعيمها. ثم قال: ﴿أَتَجْعَلُ السَّيِّئِينَ كَالنَّعِيمِينَ﴾ (٢٦) أي: أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء؟ كلا ورب الأرض والسماء؛ ولهذا قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٢٨) أي: كيف تظنون ذلك؟ ثم قال: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ (٢٩) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَأَكْثَرَ مِنْهُ لَا تَكُونُ فِيهِ إِلَّا كُنُوزٌ وَمَا يَرْزُقُهَا رَبُّهَا فَأَنْبَجِلُ عَنْهَا ﴿٣٠﴾ كتاب منزل من السماء تدرسون وتحتفظونه وتداولونه بنقل الخلف عن السلف، متضمن حكماً مؤكداً كما تدعونه؟ ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَأَكْثَرَ مِنْهُ لَا تَكُونُ فِيهِ إِلَّا كُنُوزٌ وَمَا يَرْزُقُهَا رَبُّهَا فَأَنْبَجِلُ عَنْهَا﴾ (٣١) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٢﴾ أي: أمعكم عهود منا وموائيق مؤكدة، ﴿إِنَّ لَكُمْ لَأَكْثَرَ مِنْهُ لَا تَكُونُ فِيهِ إِلَّا كُنُوزٌ وَمَا يَرْزُقُهَا رَبُّهَا فَأَنْبَجِلُ عَنْهَا﴾ (٣٣) أي: إنه سيحصل لكم ما تريدون وتستهنون، ﴿سَلَامَةٌ أُولَئِكَ رَبِّهِمْ﴾ (٣٤) أي: قل لهم: من هو

المتضمن المتكفل بهذا؟ ﴿أَمْ لَمْ شُرَكَاءَ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، ﴿فَتَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

﴿يَوْمَ يَكْتَفَى عَنْ سَائِي وَيَدْعُونَ إِلَى الشُّجُورِ فَلَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ (١٦) خَيِّمَةً أَقْرَبُكُمْ رَعْفَتَهُمْ وَلَهُ وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى الشُّجُورِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَائِي وَمَنْ يَكْذِبْ يَكْذِبْ يَكْذِبُ بِهَذَا الْوَلِيدِ سَتَجِدُهُمْ يَنْ حَيْث لَا يَسْتَلُونَ (١٧) وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَبِينٌ (١٨) أَمْ تَنْتَهُرُ لَأَمْرًا فَهَـذَا مِنْ تَقَرُّرٍ مُتَقَلَّبٍ (١٩) أَمْ عِنْدَهُمُ الْآلِهَةُ هُمْ يَكْتُمُونَ (٢٠).

لما ذكر تعالى أن للممتقين عنده جنات النعيم، بين متى ذلك كائن وواقع، فقال: ﴿يَوْمَ يَكْتَفَى عَنْ سَائِي وَيَدْعُونَ إِلَى الشُّجُورِ فَلَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ (١٦) يعني: يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والزلازل والبلاء والامتحان والأمور العظام. وقد قال البخاري ها هنا: حدثنا آدم، حدثنا الليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً». وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وفي غيرهما من طرق، وله ألفاظ، وهو حديث طويل مشهور. وقد قال عبد الله بن المبارك، عن أسامة بن زيد، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ يَكْتَفَى عَنْ سَائِي﴾ قال: هو يوم كرب وشدة. رواه ابن جرير ثم قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهرا، عن سفيان، عن المغيرة، عن إبراهيم، عن ابن مسعود - أو: ابن عباس، الشك من ابن جرير - : ﴿يَوْمَ يَكْتَفَى عَنْ سَائِي﴾ قال: عن أمر عظيم، كقول الشاعر:

وقامت الحرب بنا على ساق

وقال ابن أبي نجيع، عن مجاهد: ﴿يَوْمَ يَكْتَفَى عَنْ سَائِي﴾ قال: شدة الأمر. وقال ابن عباس: هي أول ساعة تكون في يوم القيامة. وقال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿يَوْمَ يَكْتَفَى عَنْ سَائِي﴾ قال: شدة الأمر وجده. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿يَوْمَ يَكْتَفَى عَنْ سَائِي﴾ يقول: حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال. وكشفه دخول الآخرة، وكشف الأمر عنه. وكذا روى الضحاك عن ابن عباس. أورد ذلك كله أبو جعفر بن جرير ثم قال: حدثني أبو زيد عمر بن شبة، حدثنا هارون بن عمر المخزومي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا أبو سعيد روح بن جناح، عن مولى لعمر بن عبد العزيز، عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: ﴿يَوْمَ يَكْتَفَى عَنْ سَائِي﴾ قال: «عن نور عظيم، يخرون له سجداً». ورواه أبو يعلى، عن القاسم بن يحيى، عن الوليد بن مسلم، به. وفيه رجل مبهم، فالله أعلم. وقوله: ﴿خَيِّمَةً أَقْرَبُكُمْ رَعْفَتَهُمْ وَلَهُ﴾ أي: في الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه. ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة، إذا تجلى الرب، ﷻ، فسجد له المؤمنون، لا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً، كلما أراد أحدهم أن يسجد خثر لقفاه، عكس السجود، كما كانوا في الدنيا، بخلاف ما عليه المؤمنون. ثم قال تعالى: ﴿فَذَرِي وَمَنْ يَكْذِبُ يَكْذِبُ بِهَذَا الْوَلِيدِ﴾ يعني: القرآن. وهذا تهديد شديد، أي: دعني ولياه مني ومنه، أنا أعلم به كيف استدرجه، وأمه في غيه وأنظر، ثم أخذه أخذ عزيز مقتدر؛ ولهذا قال: ﴿سَتَجِدُهُمْ يَنْ حَيْث لَا يَسْتَلُونَ﴾ أي: وهم لا يشعرون، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة، وهو في نفس الأمر إهانة، كما قال: ﴿أَتَمْسُكُونَ أَنَّاسٍ يُدْعَى بِهِنَّ مِنْ تَالِي مَائِي﴾ (٢١) كَيْدِي مَبِينٌ (٢٢) لَكَيْدِي بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٣) [الموسى: ٥٥، ٥٦]، وقال: ﴿فَلَمَّا سَأَلُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ، فَحَسَّ عَلَيْهِمْ أَبُوؤُكُكُ كَيْدِي مَبِينٌ (٢٤)﴾ أي: وأوخرهم وأنظرهم وأمدهم، وذلك من كيدي ومكري بهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَبِينٌ﴾ أي: عظيم لمن خالف أمري، وكذب رسلي، واجترأ على معصيتي. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته». ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرْشَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ (٢٥) [معد: ١٠٢]. وقوله: ﴿أَمْ تَنْتَهُرُ لَأَمْرًا فَهَـذَا مِنْ تَقَرُّرٍ مُتَقَلَّبٍ﴾ (١٩) أَمْ عِنْدَهُمُ الْآلِهَةُ هُمْ يَكْتُمُونَ (٢٠): تقدم تفسيرهما في سورة «الطور». والمعنى في ذلك: أنك يا محمد تدعوهم إلى الله، ﷻ، بلا أجر تأخذه منهم، بل ترجو ثواب ذلك عند الله، ﷻ، وهم يكذبون بما جنتهم به، بمجرد الجهل والكفر والعناد.

﴿فَأَمَّا رَبُّكَ فَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْوَيْتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْشُومٌ﴾ (٢٦) فَلَوْلَا أَنْ تَدْرَكَ نِعْمَةً مِنْ رَبِّهِ، لَيْدٌ بِالْعَرَةِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٢٧) فَاجْتَنِبْ رَبَّهُمْ نَحْمَلُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ (٢٨) وَإِنْ كَادَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَسْرِهِمْ لَنْ نَنْصُرَهُمْ لِنَا الْوَكْرَ يَقُولُونَ إِنَّهُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٩) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٣٠).

يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا رَبُّكَ﴾ يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم؛ فإن الله سيحكم لك عليهم، ويجعل العقاب لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْوَيْتِ﴾ يعني: ذا النون، وهو يونس بن متى، عليه السلام، حين ذهب مغاضباً على قومه، فكان من أمره ما كان من ركوبه في البحر والتقام الحوت له، وشرود الحوت به في البحار وظلمات غمرات اليم، وسماعه تسبيح

البحر بما فيه للعلي القدير، الذي لا يُرَدُّ ما أنفذه من التقدير، فحينئذ نادى في الظلمات: ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. قال الله: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَيِّعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنْتُمْ كَانَتِ الْمَسَاجِدُ لِلَّذِينَ فِي بَطْنِهِ أَلْ يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤] وقال ههنا: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والسدي: مغموماً. وقال عطاء الخراساني، وأبو مالك: مكروب. وقد قدمنا في الحديث أنه لما قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، خرجت الكلمة تحف حول العرش، فقالت الملائكة: يا رب، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة. فقال الله: أما تعرفون هذا؟ قالوا: لا. قال: هذا يونس. قالوا: يا رب، عبدك الذي لا يزال يرفع له عمل صالح ودعوة مجابة؟ قال: نعم. قالوا: أفلا ترحم ما كان يعمل في الرخاء فتنجيه من البلاء؟ فأمر الله الحوت فألقاه بالعراء، ولهذا قال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ رُحْمًا يُدْرِكُ الْيَمِينَ﴾ [٥٠]. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى». ورواه البخاري من حديث سفيان الثوري. وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة. وقوله: ﴿وَلَنْ يَكْذِبَكَ الْكَلْبُ كَفَرًا أَتَرَىٰ بِهَيْبَةٍ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: ﴿لَيَكْفُرَنَّكَ﴾ لينفذنوك بأبصارهم، أي: ليعينوك بأبصارهم، بمعنى: يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك، وحمايته إياك منهم. وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق، بأمر الله ﷻ، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة:

حديث أنس بن مالك، رضي الله عنه: قال أبو داود: حدثنا سليمان بن داود العتكي، حدثنا شريك (ح)، وحدثنا العباس العنبري، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا شريك، عن العباس بن ذريح، عن الشعبي - قال العباس: عن أنس - قال: قال النبي ﷺ: «لا رقية إلا من عين أو حمة أو دم لا يرقأ». لم يذكر العباس العين. وهذا لفظ سليمان. حديث بريدة بن الحصيب، رضي الله عنه: قال أبو عبد الله بن ماجه: حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا إسحاق بن سليمان، عن أبي جعفر الرازي، عن حصين، عن الشعبي، عن بريدة بن الحصيب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا رقية إلا من عين أو حمة». هكذا رواه ابن ماجه، وقد أخرجه مسلم في صحيحه، عن سعيد بن منصور، عن هشيم، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عامر الشعبي، عن بريدة موقوفاً، وفيه قصة. وقد رواه شعبة، عن حصين، عن الشعبي، عن بريدة. قاله الترمذي. وروى هذا الحديث الإمام البخاري من حديث محمد بن فضيل، وأبو داود من حديث مالك بن مغول، والترمذي من حديث سفيان بن عيينة، ثلاثتهم عن حصين، عن عامر الشعبي، عن عمران بن حصين موقوفاً. حديث أبي جندب بن جنادة: قال الحافظ أبو يعلى الموصلي، رحمه الله: حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرعة بن البرند السامي، حدثنا ديلم بن غزوان، حدثنا وهب بن أبي دبي، عن أبي حرب، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العين لتولع الرجل بإذن الله، فيتصاعد حالقا، ثم يتردى منه» إسناده غريب، ولم يخرجوه. حديث حابس التميمي: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حرب، حدثنا يحيى بن أبي كثير، حدثنا حية بن حابس التميمي: أن أباه أخبره: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا شيء في الهام، والعين حق، وأصدق الطيرة الفأل». وقد رواه الترمذي عن عمرو بن علي، عن أبي غسان يحيى بن كثير، عن علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، به. ثم قال غريب. قال: وروى شيبان، عن يحيى بن أبي كثير، عن حية بن حابس، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. قلت: كذلك رواه الإمام أحمد، عن حسن بن موسى وحسين بن محمد، عن شيبان، عن يحيى بن أبي كثير، عن حية، حدثه عن أبيه، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا بأس في الهام، والعين حق، وأصدق الطيرة الفأل».

حديث ابن عباس: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن الوليد، عن سفيان، عن دويد، حدثني إسماعيل بن ثوبان، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «العين حق، العين حق، تستنزل الحالق» غريب. طريق أخرى: قال مسلم في صحيحه: حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، أخبرنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا وهيب، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبق العین، وإذا اغتسلتم فاغسلوا». انفرد به دون البخاري. وقال عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن منصور، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يُعوذُ الحسن والحسين، يقول: «أعذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة»، ويقول: «هكذا كان إبراهيم يُعوذُ إسحاق وإسماعيل، عليهما السلام». أخرجه البخاري وأهل السنن من حديث المنهال، به. حديث أبي أمامة أسعد بن سهل بن حنيف، رضي الله عنه: قال ابن ماجه: حدثنا هشام بن عمار، حدثنا سفيان،

عن الزهري، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال: مر عامر بن ربيعة بسهل بن حنيف، وهو يقتسل، فقال: لم أر كالיום ولا جلد مخبأة. فما لبث أن لُطَّ به، فأتني به رسول الله ﷺ فقيل له: أدرك سهلاً صريعاً. قال: «من تنهمون به؟». قالوا: عامر بن ربيعة. قال: «علام يقتل أحدكم أخاه؟ إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدغ له بالبركة». ثم دعا بماء فأمر عامراً أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين، وربكته، وداخله إزاره، وأمره أن يصب عليه. قال سفيان: قال معمر، عن الزهري، وأمر أن يكفأ الإناء من خلفه. وقد رواه النسائي، من حديث سفيان بن عيينة ومالك بن أنس، كلاهما عن الزهري، به. ومن حديث سفيان بن عيينة أيضاً عن معمر، عن الزهري، عن أبي أمامة: ويكفأ الإناء من خلفه. ومن حديث ابن أبي ذئب عن الزهري، عن أبي أمامة أسعد بن سهل بن حنيف، عن أبيه، به. ومن حديث مالك أيضاً، عن محمد بن أبي أمامة بن سهل، عن أبيه، به. حديث أبي سعيد الخدري: قال ابن ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد، عن الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: كان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنس. فلما نزلت المعوذتان أخذهما وترك ما سوى ذلك. ورواه الترمذي والنسائي من حديث سعيد بن إياس أبي مسعود الجريري، به. وقال الترمذي: حسن.

حديث آخر عنه: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثني أبي، حدثني عبد العزيز بن صهيب، حدثني أبو نضرة، عن أبي سعيد: أن جبريل أتى رسول الله ﷺ فقال: اشتكت يا محمد؟ قال: «نعم». قال: باسم الله أريقك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس وعين يشفيك، باسم الله أريقك. ورواه عن عفان، عن عبد الوارث، مثله. ورواه مسلم وأهل السنن - إلا أبا داود - من حديث عبد الوارث، به. قال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا داود، عن أبي نضرة، عن سعيد - أو: عن جابر بن عبد الله - أن رسول الله ﷺ اشتكى، فأتاه جبريل فقال: باسم الله أريقك، من كل شيء يؤذيك، من كل حاسد وعين الله يشفيك. ورواه أيضاً، عن محمد بن عبد الرحمن الطفاوي، عن داود، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، به. قال أبو زرعة الرازي: روى عبد الصمد بن عبد الوارث، عن أبيه، عن عبد العزيز، عن أبي نضرة، وعن عبد العزيز، عن أنس، في معناه، وكلاهما صحيح. حديث أبي هريرة: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا مَعْمَرُ، عن هُشَامِ بن مُثَنَّى قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: «إن العين حق». أخرجه من حديث عبد الرزاق. وقال ابن ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا إسماعيل بن عُلَيْة، عن الجريري، عن مُضَارِبِ بن حزن، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «العين حق». تفرد به. ورواه أحمد، عن إسماعيل بن عُلَيْة، عن سعيد الجريري، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا ثور - يعني ابن يزيد - عن مكحول، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «العين حق، ويحضرها الشيطان، وحسد ابن آدم». وقال أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا أبو معشر، عن محمد بن قيس: سئل أبو هريرة: هل سمعت رسول الله يقول: الطيرة في ثلاث؟ في المسكن والفرس والمرأة؟ قال: قلت: إذا أقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل! ولكنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أصدق الطيرة الفأل، والعين حق». حديث أسماء بنت عميس: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عُرْوَةَ بن عامر، عن عُبيد بن رفاعة الزُرقي قال: قالت أسماء: يا رسول الله، إن بني جعفر تصيبهم العين، أفاسترقي لهم؟ قال: «نعم، فلو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين». وكذا رواه الترمذي وابن ماجه، من حديث سفيان بن عيينة، به. ورواه الترمذي أيضاً والنسائي، من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَرُ، عن أيوب، عن عمرو بن دينار، عن عُرْوَةَ بن عامر، عن عُبيد بن رفاعة، عن أسماء بنت عميس، به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

حديث عائشة، رضي الله عنها: قال ابن ماجه: حدثنا علي بن أبي الخصيب، حدثنا وكيع، عن سفيان، ومِسْرَرُ، عن معبد بن خالد، عن عبد الله بن شداد، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ أمرها أن تسترقي من العين. ورواه البخاري عن محمد بن كثير، عن سفيان، عن معبد بن خالد، به. وأخرجه مسلم من حديث سفيان ومِسْرَرُ، كلاهما عن معبد، به. ثم قال ابن ماجه: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو هشام المخزومي، حدثنا وهيب، عن أبي واقد، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «استعذوا بالله، فإن العين حق». تفرد به. وقال أبو داود: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: كان يؤمر العائن فيتوضأ ويغسل منه المعين. حديث سهل بن حنيف: قال الإمام أحمد: حدثنا حُسَيْن بن محمد، حدثنا أبو أويس، حدثنا الزهري، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف: أن أباه حدثه أن النبي ﷺ خرج وساروا معه نحو مكة، حتى إذا كانوا بشعب الخرار - من الجحفة - اغتسل سهل بن حنيف - وكان رجلاً أبيض حسن الجسم والجلد - فنظر إليه عامر بن ربيعة، أخو بني عدي بن كعب، وهو يقتسل، فقال: ما رأيت كالיום ولا جلد

مُخْبَأَةً. فَلْيَبِطْ سَهْلٌ، فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لَكَ فِي سَهْلٍ. وَاللَّهُ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ وَلَا يُفْقِقُ. قَالَ: «هَلْ تَتَهَمُونَ فِيهِ أَحَدًا؟». قَالُوا: نَظَرْنَا إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ. فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامِرًا، فَتَغَيَّظَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدَكُمْ أَخَاهُ، هَلَا إِذَا رَأَيْتَ مَا يَعْجَبُكَ بَرَكْتُ؟». ثُمَّ قَالَ لَهُ: «اغْتَسِلْ لَهُ» - فَغَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ وَمِرْقِيَهُ وَرِكْبَتَيْهِ وَأَطْرَافَ رِجْلَيْهِ وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ فِي قَدَحٍ - ثُمَّ صَبَّ ذَلِكَ الْمَاءَ عَلَيْهِ. يَصْبُهُ رَجُلٌ عَلَى رَأْسِهِ وَظَهْرُهُ مِنْ خَلْفِهِ، ثُمَّ يَكْفَأُ الْقَدَحَ وَرَاءَهُ. فَفَعَلَ ذَلِكَ، فَرَأَى سَهْلٌ مَعَ النَّاسِ، لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ.

حديث عامر بن ربيعة: قال الإمام أحمد في مسند عامر: حدثنا وكيع، حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن عيسى، عن أمية بن هند بن سهل بن حنيف، عن عبد الله بن عامر قال: انطلق عامر بن ربيعة وسهل بن حنيف يريدان الغسل، قال: - فانطلقا يلتمسان الخمر - قال: فوضع عامر جُبةً كانت عليه من صوف، فنظرت إليه فأصبته بعيني فنزل الماء يغتسل. قال: فسمعت له في الماء فرقة، فأثبته فتأثبته ثلاثاً فلم يجبني. فأثبت النبي ﷺ فأخبرته. قال: فجاء يمشي فخاض الماء كأنني أنظر إلى بياض ساقيه، قال: فضرب صدره بيده ثم قال: «اللهم، اصرف عنه حرها وبردها ووصبها» قال: فقام. فقال رسول الله ﷺ: «إذا رأى أحدكم من أخيه، أو من نفسه أو من ماله، ما يعجبه، فليزيك، فإن العين حق». حديث جابر: قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا أبو داود، حدثنا طالب بن حبيب بن عمرو بن سهل الأنصاري - ويقال له: ابن الضجيع، ضجيع حمزة، رضي الله عنه - حدثني عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثر من يموت من أمتي بعد كتاب الله وقضائه وقدره بالأنفس». قال البزار: يعني العين. قال: ولا نعلم يروى هذا الحديث عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد. قلت: بل قد روي من وجه آخر عن جابر، قال الحافظ أبو عبد الرحمن محمد بن المنذر الهروي - المعروف بشكر - في كتاب العجائب، وهو مشتمل على فوائد جليلة وغريبة: حدثنا الرهاوي، حدثنا يعقوب بن محمد، حدثنا علي بن أبي علي الهاشمي، حدثنا محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «العين حق، لتورد الرجل القبر، والجمال القدر، وإن أكثر هلاك أمتي في العين». ثم رواه عن شعيب بن أيوب، عن معاوية بن هشام، عن سفيان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «قد تدخل الرجل العين في القبر، وتدخل الجمال القدر». حديث عبد الله بن عمرو: قال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا رشدين بن سعد، عن الحسن بن ثوبان، عن هشام بن أبي رُقِيَّة، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة، ولا هامة ولا حسد، والعين حق». تفرد به أحمد. حديث عن علي: روى الحافظ ابن عساكر من طريق خثيمة بن سليمان الحافظ: حدثنا عبيد بن محمد الكشوري، حدثنا عبد الله بن عبد الله بن عبد ربه البصري، عن أبي رجاء، عن شعبة، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي، أن جبريل أتى النبي ﷺ فوافقه مغتماً، فقال: يا محمد، ما هذا الغم الذي أراه في وجهك؟ قال: «الحسن والحسين أصابتهما عين». قال: صدق بالعين، فإن العين حق، أفلا عوذتهما بهؤلاء الكلمات؟ قال: «وما هن يا جبريل؟». قال: قل: اللهم ذا السلطان العظيم، ذا المن القديم، ذا الوجه الكريم، ولي الكلمات التامات، والدعوات المستجابات، عاف الحسن والحسين من أنفس الجن، وأعين الإنس. فقالها النبي ﷺ فقاما يلعبان بين يديه. فقال النبي ﷺ: «عوذوا أنفسكم ونساءكم وأولادكم بهذا التعوذ، فإنه لم يتعوذ المتعوذون بمثله». قال الخطيب البغدادي: تفرد بروايته أبو رجاء محمد بن عبيد الله الحيطي من أهل نُسَرَ. ذكره ابن عساكر في ترجمة «طراد بن الحسين»، من تاريخه. وقوله: «وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ لَمُنْجُونَ» أي: يزدرونه بأعينهم ويؤذونه بألسنتهم، ويقولون: «إِنَّهُمْ لَمُنْجُونَ» أي: لمجيئهم بالقرآن، قال الله تعالى: «وَمَا هُمْ إِلَّا ذُرٌّ لِّلْعَالَمِينَ» ﴿٥٧﴾.



تفسير سورة الحاقة

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَاقَةُ ١﴾ مَا الْمَاقَةُ ١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْمَاقَةُ ١ كَذَبَتْ تَمُودُ وَعَادُ بِالْقَارِعَةِ ١ قَالَتْ تَمُودُ فَأَتَيْنَاكَ بِالْطَّائِفَةِ ١ وَمَا عَادُ فَأَتَيْنَاكَ بِرَبِيعٍ مَرْمَرٍ عَلَيْهِ ١ سَحَرْنَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَكُنَّيْنِ أَتْيَامٍ حُشُومًا مَرَعُ الْقَوْمِ فِيهَا مَرَعٌ كَانَتْهُمْ أَعْجَارُ نَخْلِ خَاوِيَةٍ ١ فَبَدَّلَ تَمُودُ لَهَا مِنْ بَاقِيَةٍ ١ وَجَاءَ رَمْعُومٌ وَمِنْ قَبْلِهِ وَالْمَوْتَضِكَّةُ ١ فَلَمَّا رَسُلٌ رَسُلٌ تَمِيمٌ فَلَمَّذَهُمْ لَمَذَةً رَابِيَةً ١ إِنَّا لَنَا قَلَمًا الْمَاءُ

حَمَلَتْكَ فِي الْبَآرَةِ ﴿١١﴾ لِيَجْزِيَكَ لَكُ نَذِيرٌ وَتَبَيَّنَ أَذُنُ رَعِيَّةٍ ﴿١٢﴾.

الحاقة من أسماء يوم القيامة، لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد، ولهذا عظم تعالى أمرها فقال: ﴿وَمَا أَذْرَبُكَ مَا لَكَآئِكُ﴾ ﴿١٢﴾؟ ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال تعالى: ﴿فَأَنَّا نُمَوِّدُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ ﴿٥﴾، وهي الصيحة التي أسكتتهم، والزلزلة التي أسكتتهم. هكذا قال قتادة: الطاغية الصيحة. وهو اختيار ابن جرير. وقال مجاهد: الطاغية الذنوب. وكذا قال الربيع بن أنس، وابن زيد: إنها الطغيان، وقرأ ابن زيد: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ ﴿١١﴾ [الشعر: ١١]. وقال السدي: ﴿فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ قال: يعني: عاقر الناقة. ﴿وَأَنَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ مَسْرُورٍ﴾ أي: باردة. قال قتادة، والربيع، والسدي، والثوري: ﴿عَالِيَةٍ﴾ أي: شديدة الهبوب. قال قتادة: عنت عليهم حتى نَقَبَتْ عن أفئدتهم. وقال الضحاك: ﴿مَسْرُورٍ﴾: باردة ﴿عَالِيَةٍ﴾: عنت عليهم بغير رحمة ولا بركة. وقال علي وغيره. عنت على الخزنة فخرجت بغير حساب. ﴿سَخَّرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: سلطها عليهم ﴿سَخَّرَ لِيَالٍ وَتَنَبَّيْنَاهُ أَيَّامَ حُسُومًا﴾ أي: كوامل متتابعات مشائيم. قال ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والثوري، وغير واحد: ﴿حُسُومًا﴾: متتابعات. وعن عكرمة والربيع: مشائيم عليهم، كقوله: ﴿فِي أَيَّامٍ نَّجَسَاتٍ﴾ [فصل: ١٦] قال الربيع: وكان أولها الجمعة. وقال غيره الأربعة. ويقال: إنها التي تسميها الناس الأعجاز؛ كان الناس أخذوا ذلك من قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا سَرْعًا كَأَنَّهُمْ أَجْرَارٌ نَحْلٌ حَاقِيَةٌ﴾. وقيل: لأنها تكون في عجر الشتاء، ويقال: أيام المعجوز؛ لأن عجوزاً من قوم عاد دخلت سرباً فقتلتها الريح في اليوم الثامن. حكاه البيهقي. والله أعلم. قال ابن عباس: ﴿حَاقِيَةٌ﴾: خربة. وقال غيره: بالية، أي جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخرب ميتاً على أم رأسه، فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامة كأنها قائمة النخلة إذا خرت بلا أغصان. وقد ثبت في الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نُصِرْتُ بِالْصُّبَا، وأهلك عَادُ بِالْذُّبُورِ». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن يحيى بن الضريس العبدي، حدثنا ابن فضيل، عن مسلم، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فتح الله على عاد من الريح التي أهلكوا فيها إلا مثل موضع الخاتم، فمَرَّتْ بأهل البادية فحملتهم ومواسيهم وأموالهم، فجعلتهم بين السماء والأرض. فلما رأى ذلك أهل الحاضرة الريح وما فيها قالوا: هذا عارض ممطرنا. فالتفت أهل البادية ومواسيهم على أهل الحاضرة». وقال الثوري عن ليث، عن مجاهد: الريح لها جناحان وذنب. ﴿فَقَالَ رَبُّ لَهَا يَنْزِلِي بِأَيْسَرٍ﴾ ﴿٨﴾؟ أي: هل تحس منهم من أحد من بقاياهم أنه ممن ينتسب إليهم؟ بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خلفاً. ثم قال تعالى: ﴿وَبِمَا يَرْجُونَ وَفَن قَوْلِهِمْ﴾: قُرَى بكسر القاف، أي: ومن عنده في زمانه من أتباعه من كفار القبط. وقرأ آخرون بفتحها، أي: ومن قبله من الأمم المشبهين له. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كُفُّوا أَعْيُنُهُمْ﴾ وهم المكذبون بالرسول. ﴿بِالْفَعْلَةِ الْخَاطِنَةِ﴾ وهي التكذيب بما أنزل الله. قال الربيع: ﴿بِالْفَعْلَةِ﴾ أي: بالمعصية. وقال مجاهد: بالخطايا.

ولهذا قال: ﴿فَنصَوْرًا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾: وهذا جنس، أي: كُلُّ كَذَبَ رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ. كما قال: ﴿كُلُّ كَذَبَ الرَّسُولِ لَكُمْ رَعِيدٌ﴾ [ق: ١٤]. ومن كذب رسول الله فقد كذب بالجميع، كما قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٥﴾ [الشعر: ١٠٥]، ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٦﴾ [الشعر: ١٢٣]، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٧﴾ [الشعر: ١٤١]. وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد؛ ولهذا قال هاتين: ﴿فَنصَوْرًا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَصَدَّ رَابِعَةٍ﴾ ﴿١٨﴾ أي: عظيمة شديدة اليمّة. قال مجاهد: ﴿رَابِعَةٍ﴾: شديدة. وقال السدي: مهلكة. ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَّا طَغَا آلُكَآءُ﴾ أي: زاد على الحد ياذن الله وارتفع على الوجود. قال ابن عباس وغيره: ﴿طَغَا آلُكَآءُ﴾: كثر. وذلك بسبب دعوة نوح، عليه السلام، على قومه حين كذبوه وخالفوه، فعبدوا غير الله فاستجاب الله له وعم أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح في السفينة، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته. قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهرا، عن أبي سنان سعيد بن سنان، عن غير واحد، عن علي بن أبي طالب قال: لم تنزل قطرة من ماء إلا بكيل على يدي ملك، فلما كان يوم نوح أذن للماء دون الخزان، فطغى الماء على الخزان فخرج، فذلك قول الله: ﴿إِنَّا لَنَّا طَغَا آلُكَآءُ حَمَلَتْكَ فِي الْبَآرَةِ﴾ ﴿١١﴾. ولم ينزل شيء من الريح إلا بكيل على يدي ملك، إلا يوم عاد، فإنه أذن لها دون الخزان فخرجت، فذلك قوله: ﴿بِرِيحٍ مَسْرُورٍ عَالِيَةٍ﴾ عنت على الخزان. ولهذا قال تعالى ممتناً على الناس: ﴿إِنَّا لَنَّا طَغَا آلُكَآءُ حَمَلَتْكَ فِي الْبَآرَةِ﴾ ﴿١١﴾، وهي السفينة الجارية على وجه الماء، ﴿لِيَجْزِيَكَ لَكُ نَذِيرٌ﴾ عاد الضمير على الجنس للدلالة المعنى عليه، أي: وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء في البحار، كما قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَآكِ وَالْأَنْعَامِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ [الزخرف: ١٢، ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَرَبَّاهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمُ فِي الْفَلَآكِ الْمَشْحُونِ﴾ ﴿١١﴾ وَنَلَقْنَاهُمْ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْنَا مَا يَكُونُ ﴿١٢﴾ [يس: ٤١، ٤٢]. وقال قتادة: أبقي الله السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة. والأول أظهر؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّهَا أَذُنُ رَعِيَّةٍ﴾ أي: وتفهم هذه النعمة، وتذكرها أذن واعية. قال ابن عباس: حافظة سامعة. وقال قتادة: ﴿أَذُنُ رَعِيَّةٍ﴾: عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من

كتاب الله، وقال الضحاك: ﴿وَيَمِيزُ أَذُنَ رَجِيَّةٍ﴾: سمعتها أذن ووعت. أي: من له سمع صحيح وعقل رجيح. وهذا عام فيمن فهم، ووعي. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة الدمشقي، حدثنا العباس بن الوليد بن صبح الدمشقي، حدثنا زيد بن يحيى، حدثنا علي بن حوشب، سمعت مكحولاً يقول: لما نزل على رسول الله ﷺ: ﴿وَيَمِيزُ أَذُنَ رَجِيَّةٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي أن يجعلها أذن علي». قال مكحول: فكان علي يقول: ما سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً قط فستيته. وهكذا رواه ابن جرير، عن علي بن سهل، عن الوليد بن مسلم، عن علي بن حوشب، عن مكحول، به. وهو حديث مرسل. وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا جعفر بن محمد بن عامر، حدثنا بشر بن آدم، حدثنا عبد الله بن الزبير أبو محمد - يعني والد أبي أحمد الزبيري - حدثني صالح بن الهيثم، سمعت بريدة الأسلمي يقول: قال رسول الله ﷺ لعلي: «إني أمرت أن أدنيك ولا أقصيك، وأن أعلمك وأن تعي، وحق لك أن تعي». قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَيَمِيزُ أَذُنَ رَجِيَّةٍ﴾. ورواه ابن جرير عن محمد بن خلف، عن بشر بن آدم، به. ثم رواه ابن جرير من طريق آخر عن أبي داود الأعمى، عن بريدة، به. ولا يصح أيضاً.

﴿إِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْثَةٌ وَبَدَأَ ۖ يَخْلُقُ الْأَرْضَ وَالْجِبَالَ فَذَكَرَ وَجَدَهُ ۖ يَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۖ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَنِينَةً ۖ يَوْمَئِذٍ تَرْمِضُونَ لَا تَخَفُ مِنْكُمْ حَافِيَةٌ ۖ﴾
يقول تعالى مخبراً عن أهوال يوم القيامة، وأول ذلك نفخة الفزع، ثم يعقبها نفخة الصعق حين يُصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور، وهي هذه النفخة. وقد أكدها ها هنا بأنها واحدة؛ لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع، ولا يحتاج إلى تكرار وتأکید. وقال الربيع: هي النفخة الأخيرة. والظاهر ما قلناه؛ ولهذا قال ها هنا: ﴿وَيَخْلُقُ الْأَرْضَ وَالْجِبَالَ فَذَكَرَ وَجَدَهُ ۖ﴾ أي: فمدت مذل الأديم العكاظي، وتبدلت الأرض غير الأرض، ﴿يَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ﴾ أي: قامت القيامة. ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۖ﴾. قال سماك، عن شيخ من بني أسد، عن علي قال: تنشق السماء من المجرة. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: هي كقوله: ﴿وَيُصَوِّرُ السَّمَاءَ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ۖ﴾ [النبا: ١٩]. وقال ابن عباس: منخرقة، والعرش بحذائنها. ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ۖ﴾: الملك: اسم جنس، أي: الملائكة على أرجاء السماء. قال ابن عباس: على ما لم يه منها، أي: حافتها. وكذا قال سعيد بن جبیر، والأوزاعي وقال الضحاك: أطرافها. وقال الحسن البصري: أبوابها. وقال الربيع بن أنس في قوله: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ۖ﴾ يقول: على ما استدق من السماء، ينظرون إلى أهل الأرض. وقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَنِينَةً ۖ﴾ أي: يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة. ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش العرش العظيم، أو: العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء، والله أعلم بالصواب. وفي حديث عبد الله بن عميرة، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب، في ذكر حملة العرش أنهم ثمانية أوعال. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد يحيى بن سعيد، حدثنا زيد بن الحباب، حدثني أبو السمع البصري، حدثنا أبو قبيل حُبي بن هانيء: أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: حملة العرش ثمانية، ما بين موق أحدهم إلى مؤخر عينه مسيرة مائة عام. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي قال: كتب إلي أحمد بن حفص بن عبد الله النيسابوري: حدثني أبي، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن موسى بن عقبة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أذن لي أن أحدثكم عن ملك من حملة العرش: بُعِدَ ما بين شحمة أذنه وعنقه بخفق الطير سبعمائة عام». وهذا إسناد جيد، رجاله ثقات. وقد رواه أبو داود في كتاب «السنن» من سننه: حدثنا أحمد بن حفص بن عبد الله، حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن موسى بن عقبة، عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش: أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام». هذا لفظ أبي داود. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة، حدثنا يحيى بن المغيرة، حدثنا جرير، عن أشعث، عن جعفر، عن سعيد بن جبیر في قوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَنِينَةً ۖ﴾. قال: ثمانية صفوف من الملائكة. قال: ورؤي عن الشعبي وعكرمة، والضحاك. وابن جريج مثل ذلك. وكذا روى الشَّدي عن أبي مالك، عن ابن عباس: ثمانية صفوف. وكذا روى العوفي، عنه. وقال الضحاك: عن ابن عباس: الكروبيون ثمانية أجزاء، كل جزء منهم بقدر الإنس والجن والشیاطین والملائكة. وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تَرْمِضُونَ لَا تَخَفُ مِنْكُمْ حَافِيَةٌ ۖ﴾ أي: تعرضون على عالم السر والنجوى الذي لا يخفى عليه شيء من أموركم، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر؛ ولهذا قال: ﴿لَا تَخَفُ مِنْكُمْ حَافِيَةٌ ۖ﴾. وقد قال ابن أبي الدنيا: أخبرنا إسحاق بن إسماعيل، أخبرنا سفيان بن عيينة، عن جعفر بن بُزقان، عن ثابت بن الحجاج قال: قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن تزنوا، فإنه أخف عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزيّنوا للعرض الأكبر: ﴿يَوْمَئِذٍ تَرْمِضُونَ لَا تَخَفُ مِنْكُمْ حَافِيَةٌ ۖ﴾
﴿يَوْمَئِذٍ تَرْمِضُونَ لَا تَخَفُ مِنْكُمْ حَافِيَةٌ ۖ﴾

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا علي بن علي بن رفاعة، عن الحسن، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجداً ومعادير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فأخذ بيمينه وأخذ بشماله». ورواه ابن ماجة، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع، به. وقد رواه الترمذي عن أبي كريب، عن وكيع، عن علي بن علي، عن الحسن، عن أبي هريرة، به. وقد روى ابن جرير عن مجاهد بن موسى، عن يزيد، عن سليمان بن حيان، عن مروان الأصغر، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: عرضتان، معادير وخصومات، والعرضة الثالثة تطير الصحف في الأيدي. ورواه سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة مرسلًا، مثله.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْفَ بِرَبِّهِ ۖ يَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كَيْفَ ۚ﴾ (١٩) ﴿إِنَّ لَنَا أَفْ مَنِّي حِسَابَ ۚ﴾ (٢٠) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۚ﴾ (٢١) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۚ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۚ﴾ (٢٢) ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِغَةِ ۚ﴾ (٢٣).

يخبر تعالى عن سعادة من أوتي كتابه يوم القيامة بيمينه، وفرحه بذلك، وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه: ﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كَيْفَ ۚ﴾ أي: خذوا اقربوا كتابي؛ لأنه يعلم أن الذي فيه خير وحسنات محضة، لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات. قال عبد الرحمن بن زيد: معنى: ﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كَيْفَ ۚ﴾ أي: ها اقربوا كتابي، و«ؤم» زائدة. كذا قال، والظاهر أنها بمعنى: هاكم. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا بشر بن مطر الواسطي، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا عاصم الأحوال، عن أبي عثمان قال: المؤمن يعطى كتابه بيمينه في ستر من الله، فيقرأ سيئاته، فكلما قرأ سيئة تغير لونه حتى يمر بحسناته فيقرأها، فيرجع إليه لونه. ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات، قال: فعند ذلك يقول: ﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كَيْفَ ۚ﴾. وحدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن الوليد بن سلمة، حدثنا روح بن عباد، حدثنا موسى بن عبيدة، أخبرني عبد الله بن عبد الله بن حنظلة - غسيل الملائكة - قال: إن الله يوقف عبده يوم القيامة فيدي سيئاته في ظهر صحيفته، فيقول له: أنت عملت هذا؟ فيقول: نعم، أي رب. فيقول له إني لم أفضحك به، وإني قد غفرت لك. فيقول عند ذلك: ﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كَيْفَ ۚ﴾ (١٩) ﴿إِنَّ لَنَا أَفْ مَنِّي حِسَابَ ۚ﴾ (٢٠)، حين نجا من فضحه يوم القيامة. وقد تقدم في الصحيح حديث ابن عمر حين سئل عن النجوى، فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يُذْنِي الله العبد يوم القيامة، فيُقرره بذنوبه كلها، حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله: إني سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه، وأما الكافر والمنافق فيقول الأَشْهاد: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ١٨]. وقوله: ﴿إِنَّ لَنَا أَفْ مَنِّي حِسَابَ ۚ﴾ أي: قد كنت موقناً في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة، كما قال: ﴿الَّذِينَ يَكْتُمُونَ أَنَّهُمْ مُثْقَلُوا رَبَّهُمْ﴾ [البقرة: ٤٦]. قال الله: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۚ﴾ (٢١) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۚ﴾ (٢٢) أي: ربيعة قصورها، حسان حورها، نعيمة دورها، دائم حبورها. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو غنبة الحسن بن علي بن مسلم السُّكُونِي، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن سعيد بن يوسف، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلام الأسود قال: سمعت أبا أمانة قال: سأل رجل رسول الله ﷺ: هل يتزاور أهل الجنة؟ قال: «نعم»، إنه ليهبط أهل الدرجة العليا إلى أهل الدرجة السفلى، فيحيونهم ويسلمون عليهم، ولا يستطيع أهل الدرجة السفلى يصعدون إلى الأعلى، تقصر بهم أعمالهم». وقد ثبت في الصحيح: «إن الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض». وقوله: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۚ﴾ (٢٢) قال البراء بن عازب: أي قريبة، يتناولها أحدهم، وهو نائم على سريرته. وكذا قال غير واحد. قال الطبراني: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الدبري، عن عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، عن عطاء بن يسار، عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة أحد إلا بجواز» (بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من الله لفلان بن فلان، أدخلوه جنة عالية، قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ. وكذا رواه الضياء في صفة الجنة من طريق سعدان بن سعيد، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي، عن سلمان، عن رسول الله ﷺ قال: «يعطى المؤمن جوازاً على الصراط» (بسم الله الرحمن الرحيم)، هذا كتاب من الله العزيز الحكيم لفلان، أدخلوه جنة عالية، قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ. وقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِغَةِ ۚ﴾ (٢٣) أي: يقال لهم ذلك؛ تفضلاً عليهم، وامتناناً وإنعاماً وإحساناً. وإلا فقد ثبت في الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسددوا وقاربوا واعلموا أن أحداً منكم لن يدخله عمله الجنة». قالوا: ولأنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل».

﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْفَ بِرَبِّهِ ۖ يَقُولُ يَتَنَبَّأُ بِكَيْفَ ۚ﴾ (٢٤) ﴿وَلَمْ يَأْتِ مَا حِسَابَ ۚ﴾ (٢٥) ﴿يَتَنَبَّأُ كَأَنَّهُ الْفَاضِيَةُ ۚ﴾ (٢٦) ﴿مَا أَفْوَ عَنِّي مَا يَٰ ۚ﴾ (٢٧) ﴿هَلَكَ عَنِّي شَاطِئِي ۚ﴾ (٢٨) ﴿خُذْهُ مَقْلُوبًا ۚ﴾ (٢٩) ﴿ثُمَّ لِيَسْأَلْهُ ۚ﴾ (٣٠) ﴿ثُمَّ لِيَسْأَلْهُ دَرَجَاتُ مَا كَسَبَهُ ۚ﴾ (٣١) ﴿إِنَّكَ كَادَ لَا يُؤْمِنُ يَأْتِيهِ الطَّيِيرُ ۚ﴾ (٣٢) ﴿وَلَا يَحْصِي عَن لِّسَانِ الْبَشَرِ ۚ﴾ (٣٣) ﴿لَا يَكْفِي ۚ﴾ (٣٤) ﴿لَا يَكْفِي ۚ﴾ (٣٥) ﴿لَا يَكْفِي ۚ﴾ (٣٦) ﴿لَا يَكْفِي ۚ﴾ (٣٧).

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطي أحدهم كتابه في العرصات بشماله، فحينئذ يندم غاية الندم، ﴿يَقُولُ يَتَنَبَّأُ لَوْ أَوْتُ كِتَابِيَةَ وَلَوْ أَذْرِي مَا حِسَابِيَةَ﴾ (٣٨) ﴿يَتَنَبَّأُ كَانَتْ الْقَائِيَةَ﴾ (٣٩). قال الضحاك: يعني مودة لا حياة بعدها. وكذا قال محمد بن كعب، والربيع، والسدي. وقال قتادة: تمنى الموت، ولم يكن شيء في الدنيا أكره إليه منه. ﴿مَا أَقْنَعَنِي مَالِيَةَ﴾ (٣٨) ﴿هَلَكَنِي شَأْنِيَةَ﴾ (٣٩) أي: لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذاب الله وبأسه، بل خلص الأمر إليّ وحدي، فلا معين لي ولا مجير. فعندها يقول الله، ﴿عَذْرُوهُ قُلُوبُهُ﴾ (٤٠) ﴿لَمْ يَجْعَلْ سَلُوكُهُ﴾ (٤١) أي: يأمر الزبانية أن تأخذ عنتاً من المحشر، فتغله، أي: تضع الأغلال في عنقه، ثم ثورده إلى جهنم فتصلبه إياها، أي: تغمره فيها. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن عمرو بن قيس، عن الجثنهال بن عمرو قال: إذا قال الله، ﴿عَذْرُوهُ﴾ (٤٠) ابتدره سبعون ألف ملك، إن الملك منهم ليقول هكذا، فيلقي سبعين ألفاً في النار. وروى ابن أبي الدنيا في «الأهوال»: أنه يبتدره أربعمئة ألف، ولا يبقى شيء إلا دقه، فيقول: ما لي ولك؟ فيقول: إن الرب عليك غضبان، فكل شيء غضبان عليك. وقال الفضيل - هو ابن عياض -: إذا قال الرب، ﴿عَذْرُوهُ قُلُوبُهُ﴾ (٤٠) ابتدره سبعون ألف ملك، أيهم يجعل الغل في عنقه. ﴿لَمْ يَجْعَلْ سَلُوكُهُ﴾ (٤١) أي: اغمره فيها. وقوله: ﴿تَرَى فِي سَبِيلِهِ دَرَجَاتٍ سَبْعُونَ دَرَجَةً فَاسْأَلُوكُوهُ﴾ (٤٢) قال كعب الأحبار: كل حلقة منها قدر حديد الدنيا. وقال العوفي عن ابن عباس، وابن جرير: بذراع الملك. وقال ابن جريج، قال ابن عباس: ﴿فَسْأَلُوكُوهُ﴾ (٤٢) تدخل في أسته ثم تخرج من فيه، ثم ينظّمون فيها كما ينظّم الجراد في العود حين يشوى. وقال العوفي، عن ابن عباس: يسلك في دبره حتى يخرج من منخريه، حتى لا يقوم على رجليه. وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، أخبرنا عبد الله، أخبرنا سعيد بن يزيد، عن أبي السمع، عن عيسى بن هلال الصّدفي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رصاصة مثل هذه - وأشار إلى مثل جُمُحمة - أرسلت من السماء إلى الأرض، وهي مسيرة خمسمائة سنة، لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة، لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار، قبل أن تبلغ قعرها أو أصلها». وأخرجه الترمذي، عن سُوَيْد بن نصر، عن عبد الله بن المبارك، به. قال: هذا حديث حسن. وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْغَنِيُّ﴾ (٤٣) ﴿وَلَا يَحْشُرُ عَنْ طَعَامِ الْيَسِينِ﴾ (٤٤) أي: لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته، ولا ينفع خلقه ويؤدي حقهم؛ فإن الله على العباد أن يوحده ولا يشركوا به شيئاً، وللعباد بعضهم على بعض حق الإحسان والمعاونة على البر والتقوى؛ ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وقبض النبي ﷺ وهو يقول: «الصلاة»، وما ملكت أيمانكم». وقوله: ﴿فَسَبَّحْ لَهُ الْيَوْمَ هَذَا حَبِيمٌ﴾ (٤٥) ﴿وَلَا طَعَامَ إِلَّا مِنْ غَنِيِّ﴾ (٤٦) لا يأكله إلا الْغَنِيُّونَ (٤٧) أي: ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله، لا حميم - وهو القريب - ولا شفيع يطاع، ولا طعام له هنا إلا من غسليين. قال قتادة: هو شر طعام أهل النار. وقال الربيع، والضحاك: هو شجرة في جهنم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا منصور بن أبي مزاحم، حدثنا أبو سعيد المؤدب، عن خُصيف، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: ما أدري ما الغسليين، ولكني أظنه الزقوم. وقال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: الغسليين: الدم والماء يسيل من لحومهم. وقال علي بن أبي طلحة عنه: الغسليين: صديد أهل النار.

﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣٨) ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣٩) ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (٤٠) ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّكَ الْقَدِيمِ﴾ (٤١).

يقول تعالى مقسماً لخلقهم بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته الدالة على كماله في أسمائه وصفاته، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم: إن القرآن كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله، الذي اصطفاه لنيلخ الرسالة وأداء الأمانة، فقال: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣٨) ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣٩) ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (٤٠) يعني: محمداً، أضافه إليه على معنى التبليغ؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل؛ ولهذا أضافه في سورة التكويد إلى الرسول الملكي: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (٤٠) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٤١) شَلَّاحٌ تَمَّ أَمْرُهُ (٤٢) وهذا جبريل، عليه السلام. ثم قال: ﴿وَمَا سَاجِدٌ بِجَنَّتُونَ﴾ (٤٣) يعني: محمداً ﷺ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْكَلْبِ﴾ (٤٤) يعني: أن محمداً ﷺ رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها، ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِغَنِينٍ﴾ (٤٥) أي: بمتهم ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (٤٥) [التكوير: ١٩ - ٢٥]، وهكذا قال ها هنا: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ (٤٦) ولا يقول كاهنٌ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ (٤٧)، فأضافه تارة إلى قول الرسول الملكي، وتارة إلى الرسول البشري؛ لأن كلا منهما مبلغ عن الله ما استأمنه عليه من وحيه وكلامه؛ ولهذا قال: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّكَ الْقَدِيمِ﴾ (٤١). قال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثنا شريح بن عبيد الله قال: قال عمر بن الخطاب: خرجت أنعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمعت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن. قال: فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قریش. قال:

فقرأ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٦﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ قال: فقلت: كاهن. قال: فقرأ: ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تُذَكَّرُونَ ﴿١٨﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾﴾ وَوَقَوْلَ عَلِيٍّ بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٢٠﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٢١﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٢٢﴾ مَّا يَسْكُرُ مِنْ أَلْوِي عَتِهِ حَجْرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ إلى آخر السورة. قال: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع. فهذا من جملة الأسباب التي جعلها الله مؤثرة في هداية عمر بن الخطاب، كما أوردنا كيفية إسلامه في سيرته المفردة، والله الحمد.

﴿وَقَوْلَ عَلِيٍّ بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٢٠﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٢١﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٢٢﴾ مَّا يَسْكُرُ مِنْ أَلْوِي عَتِهِ حَجْرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ يَسْكُرُ تُكْذِبِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّمَا لَحْرَةً عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّمَا لَحَى الْيَقِينَ ﴿٢٦﴾ فَسَجَّ بِأَنفِ رَبِّكَ الْقَطِيرِ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَقَوْلَ عَلِيٍّ﴾ أي: محمد ﷺ لو كان كما يزعمون مفترياً علينا، فزاد في الرسالة أو نقص منها، أو قال شيئاً من عنده فنسبه إلينا، وليس كذلك، لعاجلنا بالعقوبة. ولهذا قال: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٢١﴾﴾ قيل: معناه لانتقمنا منه باليمين؛ لأنها أشد في البطن. وقيل: لأخذنا بيمينه. ﴿ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٢٢﴾﴾ قال ابن عباس: وهو نياط القلب، وهو العِزْقُ الذي القلب معلق فيه. وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، والحكم، وقتادة، والضحاك، ومسلم البطين، وأبو صخر حميد بن زياد. وقال محمد بن كعب: هو القلب ومراقه وما يليه. وقوله: ﴿مَّا يَسْكُرُ مِنْ أَلْوِي عَتِهِ حَجْرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: فما يقدر أحد منكم على أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئاً من ذلك. والمعنى في هذا: بل هو صادق بار راشد؛ لأن الله، ﷻ، مقرر له ما يبلغه عنه، مؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات. ثم قال: ﴿وَإِنَّمَا لَنَذَكُرُ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ يعني: القرآن كما قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبُشْرَى وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]. ثم قال: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ يَسْكُرُ تُكْذِبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: مع هذا البيان والوضوح، سيوجد منكم من يكذب بالقرآن. ثم قال: ﴿وَإِنَّمَا لَحْرَةً عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ قال ابن جرير: وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة وحكاة عن قتادة بمثله. وروى ابن أبي حاتم، من طريق السدي، عن أبي مالك: ﴿وَإِنَّمَا لَحْرَةً عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ يقول: لندامة. ويحتمل عود الضمير على القرآن، أي: وإن القرآن والإيمان به لحسرة في نفس الأمر على الكافرين، كما قال: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُتَنَبِّهِينَ ﴿٢٦﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١]، وقال تعالى: ﴿وَجِبِلٌ بَيْنَهُمْ وَيَمٌّ مَّا يَشْفُونَ﴾ [سبا: ٥٤] ولهذا قال ما هنا: ﴿وَإِنَّمَا لَحَى الْيَقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: الخبر الصادق الحق الذي لا مرية فيه، ولا شك ولا ريب. ثم قال: ﴿فَسَجَّ بِأَنفِ رَبِّكَ الْقَطِيرِ ﴿٢٧﴾﴾ أي: الذي أنزل هذا القرآن العظيم.

آخر تفسير سورة «الحاقة»، والله الحمد



تفسير سورة سأل سائل

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَسَارِجِ ﴿٣﴾ تَنَجُّ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمِيسَ أَلْفِ سَنَةٍ ﴿٤﴾ قَاتِمٍ صَبْرًا حَسِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَيْدًا ﴿٦﴾ وَزَنَّهُ قَلْبًا ﴿٧﴾﴾

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾ فيه تضمين دل عليه حرف «الباء»، كأنه مُقَدَّر: يستعجل سائل بعذاب واقع. كقوله: ﴿وَيَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ كَانَ يَخْلُفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧]، أي: وعذابه واقع لا محالة. قال النسائي: حدثنا بشر بن خالد، حدثنا أبو أسامة، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾ قال: النضر بن الحارث بن كلدة. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾ قال: ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ دعا داع بعذاب واقع يقع في الآخرة، قال: وهو قولهم: ﴿أَلَمْ نَكُنْ إِن كُنَّا هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِّنْ عِنْدِكَ فَأَمْلِمْزْ عَلَيْنَا حِسَابَهُ مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وقال ابن زيد وغيره: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾ أي: واد في جهنم. يسيل يوم القيامة بالعذاب. وهذا القول ضعيف، بعيد عن المراد والصحيح الأول لدلالة السياق عليه. وقوله: ﴿وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: مُرْصَد مُعَذِّبٌ للكافرين. وقال ابن عباس: ﴿وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾ جاء ﴿لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ﴾ أي: لا دافع له إذا أراد الله كونه؛ ولهذا قال: ﴿مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَسَارِجِ ﴿٣﴾﴾ قال الثوري، عن الأعمش، عن

رجل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿ذِي الْمَنَاجِبِ﴾ قال: ذو الدرجات. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ذِي الْمَنَاجِبِ﴾ يعني: العلو والفواضل. وقال مجاهد: ﴿ذِي الْمَنَاجِبِ﴾: معارج السماء. وقال قتادة: ذي الفواضل والنعم. وقوله: ﴿تَتَجَنَّجُ الْمُكَلَّكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾: قال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة: ﴿تَتَجَنَّجُ﴾: تصعد. وأما الروح فقال أبو صالح: هم خلق من خلق الله. يشبهون الناس، وليسوا ناساً. قلت: ويحتمل أن يكون المراد به جبريل، ويكون من باب عطف الخاص على العام. ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بني آدم، فإنها إذا قبضت يُصعد بها إلى السماء، كما دل عليه حديث البراء. وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من حديث المنهال، عن زاذان، عن البراء مرفوعاً - الحديث بطوله في قبض الروح الطيبة - قال فيه: «فلا يزال يصعد بها من سماء إلى سماء حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله». والله أعلم بصحته، فقد تكلم في بعض رواته، ولكنه مشهور، وله شاهد في حديث أبي هريرة فيما تقدم من رواية الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه، من طريق ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يسار، عنه. وهذا إسناده رجاله على شرط الجماعة، وقد بسطنا لفظه عند قوله تعالى: ﴿يُنشِئُ اللَّهُ الذِّكْرَ أَمْثُلًا بِالْقَوْلِ أَلْغَائِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الْفَلَّاحِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وقوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فيه أربعة أقوال:

أحدها: أن المراد بذلك مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين، وهو قرار الأرض السابعة، وذلك مسيرة خمسين ألف سنة، هذا ارتفاع العرش عن المركز في وسط الأرض السابعة. وذلك اتساع العرش من قطر إلى قطر مسيرة خمسين ألف سنة، وأنه من ياقوتة حمراء، كما ذكره ابن أبي شيبة في كتاب صفة العرش. وقد قال ابن أبي حاتم عند هذه الآية: حدثنا أحمد بن سلمة، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا حكام، عن عُمر بن معروف، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عباس قوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: انتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق السموات مقدار خمسين ألف سنة ويوم كان مقداره ألف سنة. يعني بذلك: تنزل الأمر من السماء إلى الأرض، ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد، فذلك مقداره ألف سنة؛ لأن ما بين السماء والأرض مقدار مسيرة خمسمائة سنة. وقد رواه ابن جرير عن ابن حميد، عن حكام بن سلم، عن عُمر بن معروف، عن ليث، عن مجاهد قوله، لم يذكر ابن عباس. قال ابن أبي حاتم: وحدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا نوح المؤدب، عن عبد الوهاب بن مجاهد، عن أبيه، عن ابن عباس قال: غلظ كل أرض خمسمائة عام، وبين كل أرض إلى أرض خمسمائة عام، وذلك سبعة آلاف عام. وغلظ كل سماء خمسمائة عام، وبين السماء إلى السماء خمسمائة عام، وذلك أربعة عشر ألف عام، وبين السماء السابعة وبين العرش مسيرة ستة وثلاثين ألف سنة، فذلك قوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾. القول الثاني: أن المراد بذلك مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، أخبرنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا ابن أبي زائدة، عن ابن جريج، عن مجاهد: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: الدنيا عمرها خمسون ألف سنة. وذلك عمرها يوم سماها الله تعالى يوم، ﴿تَتَجَنَّجُ الْمُكَلَّكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ﴾ قال: اليوم: الدنيا. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد - وعن الحكم بن أبان، عن عكرمة: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: الدنيا من أولها إلى آخرها مقدار خمسين ألف سنة، لا يدري أحدكم مضى، ولا كم بقي إلا الله، ﷻ. القول الثالث: أنه اليوم الفاصل بين الدنيا والآخرة، وهو قول غريب جداً. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا بهلول بن المورق، حدثنا موسى بن عبيدة، أخبرني محمد بن كعب: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: هو يوم الفصل بين الدنيا والآخرة. القول الرابع: أن المراد بذلك يوم القيامة، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: يوم القيامة. وهذا إسناده صحيح. ورواه الثوري عن سماك بن حرب، عن عكرمة ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: يوم القيامة. وكذا قال الضحاك، وابن زيد. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿تَتَجَنَّجُ الْمُكَلَّكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ﷻ: قال: فهذا يوم القيامة، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة. وقد وردت أحاديث في معنى ذلك، قال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد قال: قيل لرسول الله ﷺ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: ما أطول هذا اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا». ورواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن دراج، به. إلا أن

دراجاً وشيخه ضعيفان، والله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أبي عمر الغداني قال: كنت عند أبي هريرة فمر رجل من بني عامر بن صعصعة، فقيل له: هذا أكثر عامري مالاً. فقال أبو هريرة: ردوه. فقال: نبئت أنك ذو مال كثير؟ فقال العامري: إي والله، إن لي لمائة حمراً ومائة أدماء، حتى عد من ألوان الإبل، وأفنان الرقيق، ورباط الخيل فقال أبو هريرة: إياك وأخفاف الإبل وأظلاف النعم - يُردّد ذلك عليه، حتى جعل لون العامري يتغير - فقال: ما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من كانت له إبل لا يعطي حقها في نجبتها ورسولها قلنا يا رسول الله: ما نجبتها ورسولها؟ قال: «في عسرها ويسرها فإنها تأتي يوم القيامة كأغذ ما كانت وأكثره وأسمنه وأشهره، حتى يبطح لها بقاع قرقر، فتطوّه بأخفافها، فإذا جاوزته أخرجها أعيدت عليه أولاهها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله، وإذا كانت له بقرة لا يعطي حقها في نجبتها ورسولها، فإنها تأتي يوم القيامة كأغذ ما كانت وأكثره وأسمنه وأشهره ثم يبطح لها بقاع قرقر فتطوّه كل ذات ظلف يظلفها، وتنطحه كل ذات قرن بقرنها، إذا جاوزته أخرجها أعيدت عليه أولاهها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله. وإذا كانت له غنم لا يعطي حقها في نجبتها ورسولها، فإنها تأتي يوم القيامة كأغذ ما كانت وأسمنه وأشهره، حتى يبطح لها بقاع قرقر، فتطوّه كل ذات ظلف يظلفها وتنطحه كل ذات قرن بقرنها، ليس فيها عقصاء ولا عضاء، إذا جاوزته أخرجها أعيدت عليه أولاهها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين الناس، فيرى سبيله». فقال العامري: وما حق الإبل يا أبا هريرة؟ قال: أن تعطي الكريمة، وتمنع الغزيرة، وتفقر الظهر، وتسقي اللبن، وتطرق الفحل. وقد رواه أبو داود من حديث شعبة، والنسائي من حديث سعيد بن أبي عروبة، كلاهما عن قتادة، به.

طريق أخرى لهذا الحديث: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يؤدي حقه إلا جعل صفائح يحمى عليها في نار جهنم، فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار». وذكر بقية الحديث في الغنم والإبل كما تقدم، وفيه: «الخيول لثلاثة لرجل أجبر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر» إلى آخره. ورواه مسلم في صحيحه بتمامه منفرداً به دون البخاري، من حديث سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة، وموضع استقصاء طرقه وألفاظه في كتاب الزكاة في «الأحكام»، والغرض من إيراده هنا قوله: «حتى يحكم الله بين عباده، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة». وقد روى ابن جرير عن يعقوب عن ابن عُلَيَّة وعبد الوهاب، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة قال: سأل رجل ابن عباس عن قوله: ﴿يَوْمَ يُوزَنُ كَنْ يَوْمَ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: فاتهمه، فقيل له فيه، فقال: ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟ فقال: إنما سألتك لتحذني. قال: هما يومان ذكرهما الله، الله أعلم بهما، وأكره أن أقول في كتاب الله بما لا أعلم. وقوله: ﴿فَأَصْحَبُ رَبِّكَ حَيْلًا﴾ أي: اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك، واستعجالهم العذاب استبعاداً لوقوعه، كقوله: ﴿يَسْتَعْمِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ يَتَذَكَّرُ فِيهَا مَنُ اتَّقَىٰ﴾ [الشورى: ١٨] قال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَيْدًا﴾ أي: وقوع العذاب وقيام الساعة يراه الكفرة بعيد الوقوع، بمعنى مستحيل الوقوع، ﴿وَرَوْنَهُ قَرِيًّا﴾ أي: المؤمنون يعتقدون كونه قريباً، وإن كان له أمد لا يعلمه إلا الله، ﷻ، لكن كل ما هو آتٍ فهو قريب وواقع لا محالة.

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْبَةِ﴾ ٨ ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ ٩ ﴿وَلَا يَسْتَلُ حِمٌّ حِمًّا﴾ ١٠ ﴿يَصْرَوْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَكُونُ لَكُمُ الْمُدْخَرُ﴾ ١١ ﴿وَصَحْبِيهِ وَأَخِيهِ﴾ ١٢ ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حِمٌّ ثُمَّ يَنْجِيهِ﴾ ١٣ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ١٤ ﴿تَرْجَاةً لِلَّذِينَ﴾ ١٥ ﴿تَلْعَاوًا أَدْرُؤُونَ﴾ ١٦ ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْبَةِ﴾ ١٧ ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ ١٨ ﴿وَلَا يَسْتَلُ حِمٌّ حِمًّا﴾ ١٩ ﴿يَصْرَوْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَكُونُ لَكُمُ الْمُدْخَرُ﴾ ٢٠ ﴿وَصَحْبِيهِ وَأَخِيهِ﴾ ٢١ ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حِمٌّ ثُمَّ يَنْجِيهِ﴾ ٢٢ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ٢٣ ﴿تَرْجَاةً لِلَّذِينَ﴾ ٢٤ ﴿تَلْعَاوًا أَدْرُؤُونَ﴾ ٢٥ ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْبَةِ﴾ ٢٦ ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ ٢٧ ﴿وَلَا يَسْتَلُ حِمٌّ حِمًّا﴾ ٢٨ ﴿يَصْرَوْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَكُونُ لَكُمُ الْمُدْخَرُ﴾ ٢٩ ﴿وَصَحْبِيهِ وَأَخِيهِ﴾ ٣٠

يقول تعالى: العذاب واقع بالكافرين ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْبَةِ﴾ ٨. قال ابن عباس: ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، والسدي، وغير واحد، كدردي الزيت ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ ٩. أي: كالصوف المنفوش، قاله مجاهد، وقاتدة، والسدي. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ ٥ [القارة: ٥]. وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَلُ حِمٌّ حِمًّا﴾ ١٠. يعرف بصروته. أي: لا يسأل القريب عن حاله، وهو يراه في أسوأ الأحوال، فتشغله نفسه عن غيره. قال العوفي عن ابن عباس: يعرف بعضهم بعضاً، ويتعارفون بينهم، ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك، يقول: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ نَّيْمٌ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنَبِّئُ﴾ ٢٧. وهذه الآية الكريمة كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْ بَيْنِكُمْ عَشْرَةَ صُفُوفاً﴾ [الحجرات: ١٣]. وكقوله: ﴿وَلَنْ تَدْعُ مَثَلَهُ إِلَىٰ جَلِيلٍ إِلَّا جَلِيلًا لَا يَجْعَلُ مِنْهُ شَيْئاً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]. وكقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الشُّرُورِ فَلَا أَنْصَابَ يَسْتَهْزِئُ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ﴾ ١١. [المؤمنون: ١٠١]. وكقوله: ﴿يَوْمَ يَرَى الْأَنْزِلُ مِنْ آيِهِ﴾ ٢٤ ﴿وَأَيُّهُ وَأَخِيهِ﴾ ٢٥ ﴿وَصَحْبِيهِ وَأَخِيهِ﴾ ٢٦ ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ نَّيْمٌ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنَبِّئُ﴾ ٢٧ [عبس: ٣٤-٣٧]. وقوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْبَةِ﴾ ٢٨ ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ ٢٩ ﴿وَلَا يَسْتَلُ حِمٌّ حِمًّا﴾ ٣٠

وَصَلَّيْهِ إِلَى تَوْبِهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا ۚ أَيَّ لَا يَقْبَلُ مِنْهُ فِدَاءً وَلَوْ جَاءَ بِأَهْلِ الْأَرْضِ، وبأعز ما يجده من المال، ولو بملء الأرض ذهباً، أو من ولده الذي كان في الدنيا حشاشة كبده، يود يوم القيامة إذا رأى الأهوال أن يفتدي من عذاب الله به، ولا يقبل منه. قال مجاهد والسدي: ﴿وَصَلَّيْهِ﴾: قبيلته وعشيرته. وقال عكرمة: فخذته الذي هو منهم. وقال أشهب، عن مالك: ﴿وَصَلَّيْهِ﴾: أمه. وقوله: ﴿إِنَّمَا لَطَى﴾: يصف النار وشدة حرها ﴿نَزَاعَةً لِّلشَّوْثِ﴾ ﴿١١﴾. قال ابن عباس، ومجاهد: جلدة الرأس. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿نَزَاعَةً لِّلشَّوْثِ﴾ ﴿١١﴾: الجلود والهام. وقال مجاهد: ما دون العظم من اللحم. وقال سعيد بن جبير: العصب. وقال أبو صالح: ﴿نَزَاعَةً لِّلشَّوْثِ﴾ ﴿١١﴾: يعني: أطراف الديدن والرجلين. وقال أيضاً: نزاعة لحم الساقين. وقال الحسن البصري، وثابت البناني: ﴿نَزَاعَةً لِّلشَّوْثِ﴾ ﴿١١﴾: أي: مكارم وجهه. وقال الحسن أيضاً: تحرق كل شيء فيه، ويبقى فؤاده يصيح. وقال قتادة: ﴿نَزَاعَةً لِّلشَّوْثِ﴾ ﴿١١﴾: أي: نزاعة لهامته ومكارم وجهه وخلقه وأطرافه. وقال الضحاك: تيري اللحم والجلد عن العظم، حتى لا تترك منه شيئاً. وقال ابن زيد: الشوى: الآراب العظام. فقوله: نزاعة، قال: تقطع عظامهم، ثم يجدد خلقهم وتبدل جلودهم. وقوله: ﴿تَتَعَوَّذُونَ مِنْ أَذْرٍ وَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿١٧﴾ وَتَجْعَلُونَ قُلُوبَكُمْ ﴿١٨﴾: أي: تدعو النار إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها، وقدر لهم أنهم في الدار الدنيا يعملون عملها، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطير الحب. وذلك أنهم - كما قال الله، ﷻ - كانوا ممن ﴿أَذْرٍ وَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿١٧﴾: أي: كذب بقلبه، وترك العمل بجوارحه ﴿وَتَجْعَلُونَ قُلُوبَكُمْ﴾ ﴿١٨﴾: أي: جمع المال بعضه على بعض فأوعاه، أي: أركاه ومنع حق الله منه من الواجب عليه في النفقات ومن إخراج الزكاة. وقد ورد في الحديث: «ولا تؤعي فيؤعي الله عليك». وكان عبد الله بن عكيم لا يربط له كيساً ويقول: سمعت الله يقول: ﴿وَتَجْعَلُونَ قُلُوبَكُمْ﴾ ﴿١٨﴾. وقال الحسن البصري: يا ابن آدم، سمعت وعيد الله ثم أوعيت الدنيا. وقال قتادة في قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ قُلُوبَكُمْ﴾ ﴿١٨﴾: قال: كان جموعاً قعوماً للخبيث.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الْفَقْرُ حَزُوًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْغَنَاءُ مَوْعًا ﴿٢١﴾ لَا تَصْلَىٰ نَفْسٌ إِلَّا بِصَلَاةٍ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهَوْنَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مِّمَّا لَكَ مِنَ الْغَنَاءِ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَرْغُوبِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُبْذَرُونَ بِبُيُوتِ الْيَتَامَىٰ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهَوْنَ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يُرْجَوْنَ خَيْطُونَ ﴿٢٨﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَرْجَهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٢٩﴾ فَمَنْ أَتَىٰ رِزْقَهُ فَلْيَرْجُوهْ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهَوْنَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يُرْجَوْنَ خَيْطُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهَوْنَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهَوْنَ ﴿٣٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهَوْنَ ﴿٣٥﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ﴿١٩﴾، ثم فسره بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الْفَقْرُ حَزُوًا﴾ ﴿٢٠﴾: أي: إذا أصابه الضر فرع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْغَنَاءُ مَوْعًا﴾ ﴿٢١﴾: أي: إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره، ومنع حق الله فيها. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا موسى بن علي بن رباح: سمعت أبي يحدث عن عبد العزيز بن مروان بن الحكم قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «شر ما في رجل شح هال، وجبن خال». ورواه أبو داود عن عبد الله بن الجراح، عن أبي عبد الرحمن المقرئ، به. وليس لعبد العزيز عنده سواء. ثم قال: ﴿لَا تَصْلَىٰ نَفْسٌ إِلَّا بِصَلَاةٍ﴾ ﴿٢٢﴾: أي: الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم إلا من عصمه الله ووفقه، وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه، وهم المصلون: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهَوْنَ﴾ ﴿٢٣﴾. قيل: معناه يحافظون على أوقاتهم وواجباتهم. قاله ابن مسعود، ومسروق، وإبراهيم النخعي. وقيل: المراد بالدوام ها هنا السكون والخشوع، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَائِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ١، ٢]. قاله عتبة بن عامر. ومنه الماء الدائم، أي: الساكن الرائد. وقيل: المراد بذلك الذين إذا عملوا عملاً دأبوا عليه وأثبتوه، كما جاء في الصحيح عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل». وفي لفظ: «ما دأب عليه صاحبه»، قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً دأب عليه. وفي لفظ: أثبته. وقال قتادة في قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهَوْنَ﴾ ﴿٢٣﴾: ذكر لنا أن دانيال، عليه السلام، نعت أمة محمد ﷺ فقال: يصلون صلاة لو صلاها قوم نوح ما غرقوا، أو قوم عاد ما أرسلت عليهم الرياح العقيم، أو ثمود ما أخذتهم الصيحة. فعليكم بالصلاة فإنها خلقت للمؤمنين حسن. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مِّمَّا لَكَ مِنَ الْغَنَاءِ﴾ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَرْغُوبِ ﴿٢٥﴾: أي: في أموالهم نصيب مقرر لذوي الحاجات. وقد تقدم الكلام على ذلك في «سورة الذاريات». وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُبْذَرُونَ بِبُيُوتِ الْيَتَامَىٰ﴾ ﴿٢٦﴾: أي: يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهَوْنَ﴾ ﴿٢٧﴾: أي: خائفون وجلون، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ ﴿٢٨﴾: أي: لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلا بأمان من الله تبارك وتعالى. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُرْجَوْنَ خَيْطُونَ﴾ ﴿٢٩﴾: أي: يكفونها عن الحرام ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه. ولهذا قال: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَرْجَهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ ﴿٣٠﴾: أي: من الإماء، ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ﴿٣١﴾: أي: أثبتهم الله.

ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَادُونَ ﴿٣٦﴾ . وقد تقدم تفسير ذلك في أول سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١﴾ بما أغنى عن إعادته ها هنا . وقوله : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَنبِيَائِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ أي : إذا أوتمنوا لم يخونوا ، وإذا عاهدوا لم يغدروا . وهذه صفات المؤمنين ، وضدها صفات المنافقين ، كما ورد في الحديث الصحيح : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أوتمن خان» . وفي رواية : «إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر» . وقوله : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ أي : محافظون عليها لا يزيدون فيها ، ولا ينقصون منها ، ولا يكتمونها ، ﴿وَمَنْ يَكْتُمْنَهَا فَإِنَّهُ فَإِنَّ قَلْبَهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣] . ثم قال : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحَافِظُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ أي : على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها ، فافتتح الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها ، فدل على الاعتناء بها والتشويه بشرفها ، كما تقدم في أول سورة : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١﴾ ، سواء ؛ ولهذا قال هناك : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَارِبُونَ﴾ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرْتُونَ الْآزْدُونَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿١١﴾ [المؤمنون: ١٠ ، ١١] ، وقال ها هنا : ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ يُكْرِمُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ أي : مكرمون بأنواع الملاذ والمسار .

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكَ مُهْطِئٌ بِآيَاتِنَا﴾ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَتِيمِ وَعَنِ الْإِنْفَالِ عَزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيْطَعُ كُلُّ آتَمِي نَبْتِهِمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أَقْبَمُ رَبِّي لِلْغَيْبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ يُثْبِتَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا عَنْ يَسْتَوِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْنَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْمَعُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْجَنَّةِ الْفِرَاقَ كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُوبٍ يُفُوتُونَ ﴿٤٣﴾ خِزْمَةً أَمْرُهُمْ رَعْفَةٌ وَلَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ .

يقول تعالى منكراً على الكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وهم مشاهدون له ، ولما أرسله الله به من الهدى وأيده الله به من المعجزات الباهرة ، ثم هم مع هذا كله فارون منه ، متفرقون عنه ، شاردون يميناً وشمالاً ، فرقاً فرقاً ، وشيعاً شيعاً ، كما قال تعالى : ﴿قَالَ لَهُمْ عَنِ الْفَرَقَةِ مَعْزِينَ﴾ ﴿٤١﴾ كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُشْتَبِرَةٌ ﴿٤٢﴾ فَزَيَّتْ مِنْ سَوْتِهِمْ ﴿٤٣﴾ الآية [المدر: ٤٩ - ٥١] . وهذه مثلها ، فإنه قال تعالى : ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكَ مُهْطِئٌ بِآيَاتِنَا﴾ ﴿٣٦﴾ أي : فما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد ﴿مُهْطِئٌ﴾ أي : مسرعين نافرين منك ، كما قال الحسن البصري : ﴿مُهْطِئٌ﴾ أي : منطلقين ، ﴿عَنِ الْيَتِيمِ وَعَنِ الْإِنْفَالِ عَزِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ واحداً عزة ، أي : متفرقين . وهو حال من مهطعين ، أي : في حال تفرقهم واختلافهم ، كما قال الإمام أحمد في أهل الأهواء : فهم مخالفون للكتاب ، مختلفون في الكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب . وقال العوفي ، عن ابن عباس : ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكَ مُهْطِئٌ بِآيَاتِنَا﴾ ﴿٣٦﴾ قال : قبلك ينظرون ، ﴿عَنِ الْيَتِيمِ وَعَنِ الْإِنْفَالِ عَزِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ قال : العزيم : العصب من الناس ، عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به . وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا أبو عامر ، حدثنا قرة ، عن الحسن في قوله : ﴿عَنِ الْيَتِيمِ وَعَنِ الْإِنْفَالِ عَزِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ متفرقين ، يأخذون يميناً وشمالاً يقولون : ما قال هذا الرجل ؟ وقال قتادة : ﴿مُهْطِئٌ﴾ : عامدين ، ﴿عَنِ الْيَتِيمِ وَعَنِ الْإِنْفَالِ عَزِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ أي : فرقاً حول النبي ﷺ لا يرغبون في كتاب الله ، ولا في نبيه ﷺ . وقال الثوري ، وشعبة ، وعيسى بن يونس ، وعبد بن القاسم ، ومحمد بن فضيل ، ووكيع ، ويحيى القطان ، وأبو معاوية ، كلهم عن الأعمش ، عن المسيب بن رافع ، عن تميم بن طرفة ، عن جابر بن سمرة ، أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم حلق ، فقال : «ما لي أراكم عزين ؟» . رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن جرير ، من حديث الأعمش ، به . وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا مؤمل ، حدثنا سفيان ، عن عبد الملك بن عمير ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه وهم حلق حلق ، فقال : «ما لي أراكم عزين ؟» . وهذا إسناد جيد ، ولم أره في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه . وقوله : ﴿أَيْطَعُ كُلُّ آتَمِي نَبْتِهِمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ ﴿٣٨﴾ أي : أيطمع هؤلاء - والحالة هذه - من فرارهم عن الرسول ونفارهم عن الحق ، أن يدخلوا جنات النعيم ؟ بل ما واهم نار الجحيم . ثم قال تعالى مقررًا لوقوع المعاد والعذاب بهم الذي أنكروا كونه واستبعدوا وجوده ، مستدلًا عليهم بالبداة التي الإعادة أمرون منها وهم معترفون بها ، فقال : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ أي : من المعنى الضعيف ، كما قال : ﴿أَلَمْ تَخْلُقْ مِنْ تَوَّاهٍ﴾ ﴿١٠﴾ [المرسلات: ٢٠] . وقال : ﴿فَنُفِثَ الْإِنْسُ بِمِثْقَلٍ ذَرَّةٍ﴾ ﴿١١﴾ خَلَقَ مِنْ تَوَّاهٍ ﴿١٢﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الشُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿١٣﴾ إِنَّهُ عَلَى تَجْوِيدٍ لَدِيدٌ ﴿١٤﴾ يَوْمَ تَكُنُ السَّكَاكِينُ ﴿١٥﴾ قَا لَمْ يَنْفُذْ قُوَّةُ وَلَا نَكِيرٌ ﴿١٦﴾ [الطارق: ٥ - ١٠] . ثم قال : ﴿فَلَا أَقْبَمُ رَبِّي لِلْغَيْبِ وَالْغُورِ﴾ ﴿١٧﴾ أي : الذي خلق السموات والأرض ، وجعل مشرقاً ومغرباً ، وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب من مغاربها . وتقرير الكلام : ليس الأمر كما تزعمون أن لا معاد ولا حساب ، ولا بعث ولا نشور ، بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة . ولهذا أتى به «لا» في ابتداء القسم ليدل على أن المقسم عليه نفي ، وهو مضمون الكلام ، وهو الرد على زعمهم الفاسد في نفي يوم القيامة ، وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى ما هو أبلغ من إقامة القيامة ، وهو خلق السموات والأرض ، وتسخير ما فيها من المخلوقات من الحيوانات والجمادات ، وسائر صنوف الموجودات ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وقال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ لِيَخْلُقْنَهُنَّ يَغْدِرَ عَلَى أَنْ يُبْحِيَ السَّمَكَاتِ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٣٣﴾

[illegible]

وَيُخْرِجُهُمْ إِخْرَاجًا ۝ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَالًا ۝

يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح، عليه السلام، أنه اشتكى إلى ربه، ما لقي من قومه، وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عاماً، وما بين لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشd والسبيل الأقوم، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلَ نَهَارًا ۝ لَمْ أَتْرَكْ دَعَاءَهُمْ فِي لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ، امْتِنَالًا لِأَمْرِكَ وَابْتِغَاءً لَطَاعَتِكَ، ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ۝ أَي: كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق فروا منه وحادوا عنه، ﴿وَرَبِّي كُنْ لَمَّا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغُرَ فِي أَعَانِهِمْ وَأَسْتَفْشَوْا بَيْنَهُمْ ۝ أَي: سدوا أذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوههم إليه. كما أخبر تعالى عن كفار قريش: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَأَسْمَعُ قَوْلَهُ ۝﴾ (فصل: ٢٦). ﴿وَأَسْتَفْشَوْا بَيْنَهُمْ ۝﴾ قال ابن جريج، عن ابن عباس: تنكروا له لئلا يعرفهم. وقال سعيد بن جبير، والسدي: غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول. ﴿وَأَسْرَأُوا أَي: استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم القطيع، ﴿وَأَسْتَفْشَوْا أُصْغِرًا أَي: واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له. ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ۝﴾ أي: جهره بين الناس ﴿ثُمَّ إِنِّي أَفْشَيْتُمْ بَيْنَهُمْ ۝﴾ أي: كلاماً ظاهراً بصوت عال، ﴿وَأَسْرَأْتُ لَهُمْ إِتْرَارًا أَي: فيما بيني وبينهم، فنوع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝﴾ أي: ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه وتوبوا إليه من قريب، فإنه من تاب إليه تاب عليه، ولو كانت ذنوبه مهما كانت في الكفر والشرك، ولهذا قال: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝﴾ ﴿يُرْسِلُ السَّحَابَ عَلَيْكُمْ يُدْرِكُوا ۝﴾ أي: متواصلة الأمطار. ولهذا يستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية. وهكذا روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: أنه صعد المنبر ليستسقي، فلم يزد على الاستغفار، وقرأ الآيات في الاستغفار. ومنها هذه الآية: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝﴾ ﴿يُرْسِلُ السَّحَابَ عَلَيْكُمْ يُدْرِكُوا ۝﴾ ثم قال: لقد طلبت الغيث بمجاديع السماء التي ستنزل بها المطر. وقال ابن عباس وغيره: يتبع بعضه بعضاً. وقوله: ﴿وَيُذِذْكُمْ بِأَمْوَالٍ غَيْرِهَا وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّتٍ وَجَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ، وَأَنْتُمْ إِذَا تَبْتَمُّ إِلَى اللَّهِ وَاسْتَغْفَرْتُمُوهُ وَأَطَعْتُمُوهُ، كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدر لكم الفرض، وأمدكم بأموال وبنين، أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وخللها بالأنهار الجارية بينها. هذا مقام الدعوة بالترغيب. ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال: ﴿يَا لَكُمْ لَا تُخَوِّنُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ قُلُوا لِلنَّاسِ مَا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۝﴾ (فصل: ٢٦). قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقال ابن عباس: لا تعظمون الله حق عظمتة، أي: لا تخافون من بأسه ونقمته: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْرَارًا ۝﴾ قيل: معناه من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة. قاله ابن عباس، وعكرمة، وقادة، ويحيى بن رافع، والسدي، وابن زيد.

وقوله: ﴿إِنْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ بِلَاقًا ۝﴾ أي: واحدة فوق واحدة، وهل هذا يتلقى من جهة السمع فقط؟ أو هي من الأمور المدركة بالحس، مما علم من التسيير والكسوفات، فإن الكواكب السبعة السيارة يكشف بعضها بعضاً، فأدناها القمر في السماء الدنيا وهو يكشف ما فوقه، وعطارد في الثانية، والزهرة في الثالثة، والشمس في الرابعة، والمريخ في الخامسة، والمشتري في السادسة، وزحل في السابعة. وأما بقية الكواكب - وهي الثوابت - ففي فلك ثامن يسمونه فلك الثوابت. والمتشرعون منهم يقولون: هو الكرسي، والفلك التاسع، وهو الأطلس. والأثير عندهم الذي حركته على خلاف حركة سائر الأفلاك، وذلك أن حركته مبدأ الحركات، وهي من المغرب إلى المشرق، وسائر الأفلاك عكسه من المشرق إلى المغرب، ومعها يدور سائر الكواكب تبعاً، ولكن للسيارة حركة معاكسة لحركة أفلاكها، فإنها تسير من المغرب إلى المشرق. وكل يقطع فلكه بحسبه، فالقمر يقطع فلكه في كل شهر مرة، والشمس في كل سنة مرة، وزحل في كل ثلاثين سنة مرة، وذلك بحسب اتساع أفلاكها، وإن كانت حركة الجمع في السرعة متناسبة. هذا ملخص ما يقولونه في هذا المقام، على اختلاف بينهم في مواضع كثيرة، لسنأ بصدد بيانها، وإنما المقصود أن الله سبحانه ﴿خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ بِلَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ النَّجْمَ سِرَاجًا ۝﴾ أي: فاوت بينهما في الاستنارة، فجعل كلا منهما نموذجاً على حدة، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها، وقد قدر القمر منازل وبروجاً، وفاوت نوره، فتارة يزداد حتى يتناهي ثم يشرع في النقص حتى يستتر، ليدل على مضي الشهور والأعوام، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝﴾ (يونس: ٥). وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَنْتَكُمُ مِنَ الْأَرْضِ بِكَاءٍ ۝﴾ هذا اسم مصدر، والإتيان به هنا أحسن، ﴿ثُمَّ يُبْدِئُ فِيهَا أَي: إذا تمم ﴿وَيُخْرِجُهُمْ إِخْرَاجًا أَي: يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝﴾ أي: بسطها ومهدا وقررها وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات ﴿لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَالًا ۝﴾ أي: خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم، من نواحيها وأرجائها وأقطارها، وكل هذا مما ينبههم به نوح، عليه السلام على

قدرة الله وعظمته في خلق السموات والأرض، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرازق، جعل السماء بناء، والأرض مهاداً، وأوسع على خلقه من رزقه، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحد ولا يشرك به أحد، لأنه لا نظير له ولا عدیل له، ولا ند ولا كفء، ولا صاحبة ولا ولد، ولا وزير ولا مشير، بل هو العلي الكبير.

﴿قَالَ نوحُ رَبِّ إِنِّي مَعْصُوفٌ وَأَتَّبَعُوا مِن لَّدُنِّي مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَشَا ٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبَرًا ٢٢ ﴿وَقَالُوا لَا نَدْرَأُ مَالَهُ الْهِتَكَ وَلَا تَدْرَأُ وَدَا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَمُوتُ وَيَعْقُوقُ وَشَرًّا ٢٣﴾ وَقَدْ أَسْلَمُوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ٢٤﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام، أنه أنهى إليه، وهو العليم الذي لا يعزب عنه شيء، أنه مع البيان المتقدم ذكره، والدعوة المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى: أنهم عصوه وكذبوه وخالفوه، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله، ومتع بمال وأولاد، وهي نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام، ولهذا قال: ﴿وَأَتَّبَعُوا مِن لَّدُنِّي مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَشَا ٢١﴾: قرئ «وَوَلَدَهُ» بالضم وبالفتح، وكلاهما متقارب. وقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبَرًا ٢٢﴾، قال مجاهد: «أَشْتَجَبَاكَ» أي: عظيماً. وقال ابن زيد: «أَشْتَجَبَاكَ» أي: كبيراً. والعرب تقول: أمر عجب وعجاب وعجّاب. ورجل حُسان. وحُسان: وجمال وجمال، بالتخفيف والتشديد، بمعنى واحد. والمعنى في قوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبَرًا ٢٢﴾: أي: باتباعهم في تسويلهم لهم بأنهم على الحق والهدى، كما يقولون لهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكْرٌ آتِيلٌ وَالنَّهَارُ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْصِلَ لَهُ أَندَادًا﴾ (سبأ: ٢٣). ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبَرًا ٢٢﴾ وَقَالُوا لَا نَدْرَأُ مَالَهُ الْهِتَكَ وَلَا تَدْرَأُ وَدَا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَمُوتُ وَيَعْقُوقُ وَشَرًّا ٢٣﴾. وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله. قال البخاري: حدثنا إبراهيم، حدثنا هشام، عن ابن جريج، وقال عطاء، عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد: أما ود: فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع: فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطفان بالجوف عند سبأ، وأما يعوق: فكانت لهمدان، وأما نسر: فكانت لحمير لآل ذي كلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح، عليه السلام، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصباً وسموها بأسمائهم. ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتسخ العلم غيبت. وكذا زوي عن عكرمة، والضحاك، وقتادة، وابن إسحاق، نحو هذا. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هذه أصنام كانت تعبد في زمن نوح.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهران، عن سفيان، عن موسى، عن محمد بن قيس «يَمُوتُ وَيَعْقُوقُ وَشَرًّا» قال: كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم. فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر، فعبدوهم. وروى الحافظ ابن عسكار في ترجمة شيث، عليه السلام، من طريق إسحاق بن بشر قال: وأخبرني جوير ومقاتل، عن الضحاك، عن ابن عباس أنه قال: ولد لآدم، عليه السلام، أربعون ولداً، عشرون غلاماً وعشرون جارية، فكان ممن عاش منهم: هابيل، وقابيل، وصالح، وعبد الرحمن - والذي كان سماه عبد الحارث - وود، وكان وذ يقال له «شيث» ويقال له: «هبة الله» وكان إخوته قد سؤدوه، وولد له سواع ويغوث ويعوق ونسر. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو عمر الدوري، حدثني أبو إسماعيل المؤذب، عن عبد الله بن مسلم بن هرمز، عن أبي حنيفة، عن عروة بن الزبير قال: اشتكى آدم، عليه السلام، وعنده بنوه: ود، ويغوث، ويعوق، وسواع، ونسر وكان وذ أكبرهم وأبرهم به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا يعقوب، عن أبي المطهر قال: ذكروا عند أبي جعفر - وهو قائم يصلي - يزيد بن المهلب، قال: فلما انفتل من صلاته قال: ذكرت يزيد بن المهلب، أما إنه قتل في أول أرض عُبد فيها غير الله. قال: ثم ذكر وداً قال: وكان وذ رجلاً مسلماً وكان محبباً في قومه، فلما مات عسكروا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه، فلما رأى إبليس جزعهم عليه، تشبه في صورة إنسان، ثم قال: إني أرى جزعكم على هذا الرجل، فهل لكم أن أصور لكم مثله، فيكون في ناديتكم فتذكرونه؟ قالوا: نعم. فصور لهم مثله، قال: ووضعوه في ناديتهم وجعلوا يذكرونه. فلما رأى ما بهم من ذكره قال: هل لكم أن أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالاً مثله، فيكون له في بيته فتذكرونه؟ قالوا: نعم. قال: فمثل لكل أهل بيت تمثالاً مثله، فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به، قال: وأدرك أبناءهم فجعلوا يرون ما يصنعون به، وتناسلوا ودرس أمر ذكرهم إياه، حتى اتخذوه إلهاً يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم، فكان أول ما عبد غير الله: الصنم الذي سموه ودّاً. وقوله: ﴿وَقَدْ أَسْلَمُوا كَثِيرًا﴾ يعني: الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقاً كثيراً، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم. وقد قال الخليل، عليه السلام، في دعائه ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ٢٥﴾

رَبِّ إِيَّاهُ اسْتَلَمْنَا كُفْرًا مِنَ الْتَائِبِينَ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦]. وقوله: ﴿وَلَا نُزِدُ الْقُرْآنَ إِلَّا سَلَكًا﴾: دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم، كما دعا موسى على فرعون ومثله في قوله: ﴿رَبَّنَا أَلِمْسَ عَلَى أَمْرِهِمْ وَأَشْدِدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]. وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به.

﴿يَمَّا خَطْبْتَهُمْ أَغْرَقُوا فَأَدْبَلُوا نَارًا فَلَمْ يَحْدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [١٥] وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْكَافِرِينَ دَبَارًا ﴿١٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِرًا كَفَّارًا ﴿١٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا نُزِدُ الْقُرْآنَ إِلَّا نَارًا ﴿١٨﴾.

يقول تعالى: ﴿مما خطاياهم﴾ وقرئ: ﴿خَطْبَتِهِمْ﴾ ﴿أَغْرَقُوا﴾ أي: من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿أَغْرَقُوا فَأَدْبَلُوا نَارًا﴾ أي: نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار، ﴿فَلَمْ يَحْدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ أي: لم يكن لهم معين ولا مُغيث ولا مُجبر ينقذهم من عذاب الله كقوله: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعُ﴾ [مرد: ٤٣]. وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْكَافِرِينَ دَبَارًا ﴿١٦﴾ أي: لا تترك على وجه الأرض منهم أحداً ولا دياراً وهذه من صيغ تأكيد النفي.

قال الضحاك: ﴿دَبَارًا﴾: واحداً. وقال السدي: الديار: الذي يسكن الدار. فاستجاب الله له، فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن أبيه، وقال: ﴿سَوَّيْتُ إِلَى جَبَلٍ يَصْعَدُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعُ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [مرد: ٤٣]. وقال ابن أبي حاتم: قرئ على يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني شبيب بن سعد، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لو رحم الله من قوم نوح أحداً، لرحم امرأة، لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها. فلو رحم الله منهم أحداً لرحم هذه المرأة». هذا حديث غريب، ورجاله ثقات. ونجى الله أصحاب السفينة الذين آمنوا مع نوح، عليه السلام، وهم الذين أمره الله بحملهم معه. وقوله: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ أي: إنك إن أبقيت منهم أحداً أضلوا عبادك، أي: الذين تخلقهم بعدهم ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِرًا كَفَّارًا﴾ أي: فاجراً في الأعمال كافر القلب، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً. ثم قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا﴾: قال الضحاك: يعني: مسجدي، ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها، وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن، وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا خيثمة، أنبأنا سالم بن غيلان: أن الوليد بن قيس التميمي أخبره: أنه سمع أبا سعيد الخدري - أو: عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تصحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي». ورواه أبو داود والترمذي، من حديث عبد الله بن المبارك، عن حيوة بن شريح، به. ثم قال الترمذي: إنما نعرفه من هذا الوجه. وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾: دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات، وذلك يعم الأحياء منهم والأموات، ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء، اقتداء بنوح، عليه السلام، وبما جاء في الآثار، والأدعية المشهورة المشروعة. وقوله: ﴿وَلَا نُزِدُ الْقُرْآنَ إِلَّا نَارًا﴾: قال السدي: إلا هلاكاً. وقال مجاهد: إلا خساراً، أي: في الدنيا والآخرة.

آخر تفسير سورة «نوح» عليه السلام والله الحمد والمنة



تفسير سورة الجن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهي مكية.

﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الْغُرُوبِ فَأَمَّا يُوحَىٰ وَلَهُ يُرْوَىٰ أَحَادٌ ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ مَقَالٌ جَدُّ رَبَّنَا مَا اخْتَفَىٰ سَجِيَّةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سُبْحَانَكَ عَلَىٰ سَطْلَعٍ ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنشَ وَالْإِنشَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَكُنَّ مِنَ الْإِنشِ يَوْمَئِذٍ يَرِيَالِي مِّنَ الْجِنِّ فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَمِيتَ اللَّهُ أَحَادًا ﴿٧﴾﴾.

يقول تعالى أمرًا رسوله ﷺ أن يخبر قومه: أن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وصدقوه وانقادوا له، فقال تعالى: ﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ

أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ تَهْدِي إِلَى الْآرْتِدَاءِ أَي: إلى السداد والنجاح، ﴿فَقَامًا بِرَبِّهِ وَلَنْ تُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾. وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الحقاف: ٢٩]. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في ذلك بما أغنى عن إعادتها ها هنا. وقوله: ﴿وَأَنَّهُ قَتَلَ جَدُّ رَبِّنَا﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: فعله وأمره وقدرته. وقال الضحاك، عن ابن عباس: جد الله: الآؤه وقدرته ونعمته على خلقه. وروي عن مجاهد وعكرمة: جلال ربنا. وقال قتادة: تعالى جلاله وعظمته وأمره. وقال السدي: تعالى أمر ربنا. وعن أبي الدرداء، ومجاهد أيضاً وابن جريج: تعالى ذكره. وقال سعيد ابن جبیر: ﴿قَتَلَ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: تعالى ربنا. فأما ما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس قال: الجد: أب. ولو علمت الجن أن في الإنسان جداً ما قالوا: تعالى جد ربنا. فهذا إسناد جيد، ولكن لست أفهم ما معنى هذا الكلام؛ ولعله قد سقط شيء، والله أعلم. وقوله: ﴿فَمَا اتَّخَذَ صَاحِبَهُ وَلَا وَلَدًا﴾ أي: تعالى عن اتخاذ صاحبة والأولاد، أي: قالت الجن: تنزه الرب تعالى جلاله وعظمته، حين أسلموا وأمنوا بالقرآن، عن اتخاذ صاحبة والولد. ثم قالوا: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَفُولُ سَيْفِينَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ ﴿٢﴾، قال مجاهد، وعكرمة، وقاتدة، والسدي: ﴿سَيْفِينَا﴾ يعنون: إبليس، ﴿شَطَطًا﴾، قال السدي، عن أبي مالك. ﴿شَطَطًا﴾ أي: جوراً. وقال ابن زيد: ظلماً كبيراً. ويحتمل أن يكون المراد بقولهم: ﴿سَيْفِينَا﴾: اسم جنس لكل من زعم أن الله صاحبة أو ولداً. ولهذا قالوا: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَيْفِينَا﴾ أي: قبل إسلامه ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ أي: باطلاً وزوراً؛ ولهذا قالوا: ﴿وَأَنَّا عَلَّمْنَا أَن نَقُولَ الْإِنْسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ﴿٣﴾ أي: ما حسبنا أن الإنسان والجن يتمثلون على الكذب على الله في نسبة صاحبة والولد إليه. فلما سمعنا هذا القرآن وأمننا به، علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك. وقوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَكُنَّ مِنَ الْإِنْسِ يَفُولُونَ يَكُنَّ مِنَ الْجِنِّ فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾ ﴿٤﴾ أي: كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنسان؛ لأنهم كانوا يعوذون بنا، أي: إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البراري وغيرها كما كان عادة العرب في جاهليتها. يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجن، أن يصيبهم شيء يسوؤهم كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارتها، فلما رأت الجن أن الإنسان يعوذون بهم من خوفهم منهم، ﴿فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾ أي: خوفاً وإرهاباً وذعراً، حتى تبقا أشد منهم مخافة وأكثر تعوداً بهم، كما قال قتادة: ﴿فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾ أي: إثمًا، وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة. وقال الثوري، عن منصور عن إبراهيم: ﴿فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾ أي: ازدادت الجن عليهم جراءة. وقال السدي: كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فينزلها فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن أن أضرب أنا فيه أو مالي أو ولدي أو ماشيتي، قال: فإذا عاذ بهم من دون الله، رهقهم الجن الأذى عند ذلك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد يحيى بن سعيد القطان، حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبي، حدثنا الزبير بن الخزيم، عن عكرمة قال: كان الجن يفرقون من الإنسان كما يفرق الإنسان منهم أو أشد، وكان الإنسان إذا نزلوا وادياً هرب الجن، فيقول سيد القوم: تعوذ بسيد أهل هذا الوادي. فقال الجن: نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم. فدنا من الإنسان فأصابوهم بالخبل والجنون، فذلك قول الله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَكُنَّ مِنَ الْإِنْسِ يَفُولُونَ يَكُنَّ مِنَ الْجِنِّ فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾ ﴿٥﴾. وقال أبو العالية، والربيع، وزيد بن أسلم: ﴿رَهَقًا﴾ أي: خوفاً. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾ أي: إثمًا. وكذا قال قتادة. وقال مجاهد: زاد الكفار طغياناً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فروة بن أبي المغراء الكندي، حدثنا القاسم بن مالك - يعني المزني - عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن أبيه، عن كردم بن أبي السائب الأنصاري قال: خرجت مع أبي من المدينة في حاجة، وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة، فأوانا المبيت إلى راعي غنم. فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم، فوثب الراعي فقال: يا عامر الوادي، جارك. فنأدى مناد لا نراه، يقول: يا سرحان، أرسله. فأنتي الحمل يشتد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمة. وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَكُنَّ مِنَ الْإِنْسِ يَفُولُونَ يَكُنَّ مِنَ الْجِنِّ فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾. ثم قال: وروى عن عبيد بن عمير، ومجاهد، وأبي العالية، والحسن، وسعيد بن جبیر، وإبراهيم التيمي، نحوه. وقد يكون هذا الذئب الذي أخذ الحمل - وهو ولد الشاة - كان جنباً حتى يهرب الإنسي ويخاف منه، ثم رده عليه لما استجار به، ليضله ويهينه، ويخرجه عن دينه، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ ﴿٦﴾ أي: لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولاً. قاله الكلبي، وابن جرير.

﴿وَأَنَّا لَنَسَمَا الْأَمْنَةَ فَوَدِدْنَا مِثْلَ حَرِّمَا شَيْدًا وَثَبًا﴾ ﴿٧﴾ وَأَنَا كَمَا تَقَعُدُنَا مَقْعَدُ الشَّجَرِ فَمَنْ يَسْتَجِ الْآنَ يَمِدُّ لَمْ يَشَأْ رَصَدًا ﴿٨﴾ وَأَنَا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمِّنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿٩﴾.

يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرساً شديداً، وحفظت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك؛ لئلا يسرقوا شيئاً من القرآن. فيلقوه

على السنة الكهنة، فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدري من الصادق. وهذا من لطف الله بخلقه، ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز، ولهذا قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَهَا مُنْقَصَةً مِّنْ يُسْبَغِ فَجَعَلْنَاهَا مِثْلَ تَرَابٍ أَوْ دُخَانٍ﴾ (١١) أي: من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهاباً مرصداً له، لا يتخطاه ولا يتعداه، بل يحرقه ويهلكه، ﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (١٢) أي: ما ندري هذا الأمر الذي قد حدث في السماء، لا ندري أشر أريد بمن في الأرض، أم أراد بهم ربهم رشداً؟ وهذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل، والخير أضافوه إلى الله ﷻ. وقد ورد في الصحيح: «والشر ليس إليك». وقد كانت الكواكب يُرمى بها قبل ذلك، ولكن ليس بكثير بل في الأحيان بعد الأحيان، كما في حديث ابن عباس: بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذا رمي بنجم فاستنار، فقال: «ما كنتم تقولون في هذا؟» فقلنا: كنا نقول: يولد عظيم، يموت عظيم. فقال: «ليس كذلك، ولكن الله إذا قضى الأمر في السماء»، وذكر تمام الحديث، وقد أوردناه في سورة «سبا» بتمامه. وهذا هو السبب الذي حملهم على تطلب السبب في ذلك، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة، فعرفوا أن هذا هو الذي حفظت من أجله السماء، فأمن من آمن منهم، وتمرد في طغيانه من بقي، كما تقدم حديث ابن عباس في ذلك، عند قوله في سورة «الأحقاف»: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الَّذِينَ يَسْتَمِعونَ الْفَرْعَانَ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٩]. ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر، وهو كثرة الشهب في السماء والرمي بها، هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا له وارتاعوا لذلك، وظنوا أن ذلك لخراب العالم. كما قال السدي: لم تكن السماء تحرس إلا أن يكون في الأرض نبي أو دين لله ظاهر، وكانت الشياطين قبل محمد ﷺ قد اتخذت المقاعد في السماء الدنيا، يستمعون ما يحدث في السماء من أمر. فلما بعث الله محمداً نبياً، رُجموا ليلة من الليالي، ففزع لذلك أهل الطائف، فقالوا: هلك أهل السماء، لما رأوا من شدة النار في السماء واختلاف الشهب. فجعلوا يعتقدون أرقاءهم رؤسبون مواشيهم، فقال لهم عبد ياليل بن عمرو بن عمير: ويحكم يا معشر أهل الطائف. أمسكوا عن أموالكم، وانظروا إلى معالم النجوم، فإن رأيتموها مستقرة في أمكنتها فلم يهلك أهل السماء، إنما هذا من أجل ابن أبي كبشة - يعني: محمداً ﷺ - وإن أنتم لم تروها فقد هلك أهل السماء. فنظروا فأروها، فكفوا عن أموالهم. وفزعت الشياطين في تلك الليلة، فأتوا إبليس فحدثوه بالذي كان من أمرهم، فقال: ائتوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمها. فأنه فشم فقال: صاحبكم بمكة. فبعث سبعة نفر من جن نصيبين، فقدموا مكة فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي في المسجد الحرام يقرأ القرآن، فدنوا منه حرصاً على القرآن حتى كادت كلالهم تصيبه، ثم أسلموا. فأنزل الله تعالى أمرهم على نبيه ﷺ، وقد ذكرنا هذا الفصل مستقصى في أول البعث من (كتاب السيرة) المطول، والله أعلم، والله الحمد والمنة.

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمَلَائِكَةُ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كَمَا طَرَفَ الْوَيْدَا﴾ (١٣) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ (١٤) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدَائِكَ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ. فَلَا يَحَافُ بِحَسَا وَلَا رَهَقًا﴾ (١٥) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا وَرَدُّوا وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (١٦) وَأَوَّلُ اسْتَقْمَارِهِمْ عَلَى الْطَّرِيقِ لَأَشَقِّينَهُمْ مَّا عَدَاكَ﴾ (١٧) لَنُفِيقَنَّ فِيهِ وَنَن عَرِضَ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ. يَسْلُكُهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ (١٨).

يقول مخبراً عن الجن: إنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمَلَائِكَةُ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ (١٣) أي: غير ذلك، ﴿كَمَا طَرَفَ الْوَيْدَا﴾ (١٤) أي: طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة. قال ابن عباس: ومجاهد، وغير واحد: ﴿كَمَا طَرَفَ الْوَيْدَا﴾ (١٤) أي: منا المؤمن، ومنا الكافر. وقال أحمد بن سليمان الثجادي في أماليه، حدثنا أسلم بن سهل بخش، حدثنا علي بن الحسن بن سليمان - وهو أبو الشعثاء الحضرمي، شيخ مسلم - حدثنا أبو معاوية قال: سمعت الأعمش يقول: تروح إلينا جني، فقلت له: ما أحب الطعام إليكم؟ فقال الأرز. قال: فأتيناهم به، فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحداً. فقلت: فيكم من هذه الأهواء التي فينا؟ قال: نعم. قلت: فما الرافضة فيكم؟ قال: شرنا. عرضت هذا الإسناد على شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزني فقال: هذا إسناد صحيح إلى الأعمش. وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة العباس بن أحمد الدمشقي قال: سمعت بعض الجن وأنا في منزلي بالليل ينشد:

قُلُوبٌ بِرَاهَا الْحَبِّ حَتَّى تَعْلَقَتْ مَذَاهِبُهَا فِي كُلِّ غَرْبٍ وَشَارِقٍ
تَهَيَّمُ بِحُبِّ اللَّهِ، وَاللَّهُ رُبُّهَا مَعْلُوقَةٌ بِاللَّهِ دُونَ الْخَلَائِقِ

وقوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ (١٣) أي: نعلم أن قدرة الله حاكمة علينا، وأنا لا نعجزه في الأرض، ولو أمعنا في الهرب، فإنه علينا قادر، لا يعجزه أحد منا. ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدَائِكَ آمَنَّا بِهِ﴾ (١٤) يفتخرون بذلك، وهو

مفخر لهم، وشرف رفيع، وصفة حسنة. وقولهم: ﴿فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَحَافُ بَغْسًا وَلَا رَهَقًا﴾، قال ابن عباس، وقتادة، وغيرهما فلا يخاف أن يُنقص من حسناته أو يحمل عليه غير سيئاته، كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ عُقْلًا وَلَا هِمًّا﴾ [طه: ١١٧].
﴿وَأَنَا مِّنَ الْمُتَسِلِّمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ﴾ أي: منا المسلم ومنا القاسط، وهو: الجائر عن الحق الناكب عنه، بخلاف المقسط فإنه العادل، ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رِسْدًا﴾ أي: طلبوا لأنفسهم النجاة، ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [٥٩] أي: وقد أُسعر بهم. وقوله: ﴿وَالَّذِي اسْتَفْتَوْا عَلَىٰ لِقَائِهِمْ ذِيئًا﴾، اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين: أحدهما: وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها، ﴿لَأَشْفَيْنَهُم ثَاءً عَذَابًا﴾ أي: كثيراً. والمراد بذلك سعة الرزق، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِحْسَانَ مَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكْفُوْا مِنْ فِقْرِهِمْ وَهُمْ نَحْنُ آيُهُمْ﴾ [المائدة: ٦٦]، وكقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الاعراف: ٩٦]. وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿لِقَائِهِمْ ذِيئًا﴾ أي: لنختبرهم، كما قال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿لِقَائِهِمْ﴾: لنبتليهم، من يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية؟ ذكر من قال بهذا قال: قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَالَّذِي اسْتَفْتَوْا عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ﴾ يعني بالاستقامة: الطاعة. وقال مجاهد: ﴿وَالَّذِي اسْتَفْتَوْا عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ﴾ قال: الإسلام. وكذا قال سعيد بن جبیر، وسعيد بن المسيب، وعطاء، والسدي، ومحمد بن كعب القرظي. وقال قتادة: ﴿وَالَّذِي اسْتَفْتَوْا عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ﴾ يقول: لو آمنوا كلهم لأوسعنا عليهم من الدنيا. وقال مجاهد: ﴿وَالَّذِي اسْتَفْتَوْا عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ﴾ أي: طريقة الحق. وكذا قال الضحاك، واستشهد على ذلك بالآيتين اللتين ذكرناهما، وكل هؤلاء أو أكثرهم قالوا في قوله: ﴿لِقَائِهِمْ ذِيئًا﴾ أي: لنبتليهم به. وقال مقاتل: فنزلت في كفار قريش حين مُنعوا المطر سبع سنين. والقول الثاني: ﴿وَالَّذِي اسْتَفْتَوْا عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ﴾: الصلاة ﴿لَأَشْفَيْنَهُم ثَاءً عَذَابًا﴾ أي: لأوسعنا عليهم في الرزق استدراجاً، كما قال: ﴿فَلَمَّا شَاؤْنَا دُخِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ ابْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرَجُوا مِنَّا إِذَوُا لَعْنَتَهُمْ بَعَثْنَا إِذَا هُمْ يَمِيلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وكقوله: ﴿إِنَّمَا يُدْعِرُ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَيَتَنَبَّأُ ۖ إِنَّهُ يُصَدِّقُنَا فِي سُبْحَانِهِ لَا يَقَعُّونَ﴾ [٥١] [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، وهذا قول أبي مجلز لاحق بن حميد؛ فإنه قال في قوله: ﴿وَالَّذِي اسْتَفْتَوْا عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ﴾ أي: طريقة الصلاة. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وحكاها البيهقي عن الربيع بن أنس، وزيد بن أسلم، والكلبي، وابن كيسان. وله اتجاه، ويتأيد بقوله: ﴿لِقَائِهِمْ ذِيئًا﴾. وقوله: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي: عذاباً شاقاً شديداً موجعاً مؤلماً. قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وابن زيد: ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي: مشقة لا راحة معها. وعن ابن عباس: جبل في جهنم. وعن سعيد بن جبیر: بشر فيها.

﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (٧) وَأَنَّ مَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ يَدًا ﴿٨﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٩﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ شَرًّا وَلَا رَحْمَةً قُلْ إِنِّي لَنْ يَغْفِرَ بِي إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ أَعِدَّ مِنْ دُونِهِ مِثْلَهُمْ ﴿١٠﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنْ أَمْرِ وَرِسَالَةٍ وَمَنْ بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَصْرَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿١١﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْأَلُونَ مَنْ أَمَنتُمْ بِأَمْرِهِمْ وَأَقْلَبَ عَدَدَكُمْ ﴿١٢﴾ .

يقول تعالى أمرأ عباده أن يؤحدوه في مجال عبادته، ولا يدعى معه أحد ولا يشرك به، كما قال قتادة في قوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (٧). قال: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم، أشركوا بالله، فأمر الله نبيه ﷺ أن يؤحدوه وحده. وقال ابن أبي حاتم: ذكر علي بن الحسين: حدثنا إسماعيل ابن بنت السدي، أخبرنا رجل سماه، عن السدي، عن أبي مالك - أو أبي صالح - عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (٨) قال: لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا المسجد الحرام، ومسجد إيليا: بيت المقدس. وقال الأعمش: قالت الجن: يا رسول الله، ائذن لنا نشهد معك الصلوات في مسجدك. فأنزل الله: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (٩) يقول: صلوا، لا تخالطوا الناس. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهران، حدثنا سفيان، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن محمود، عن سعيد بن جبيرة: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ﴾ قال: قالت الجن لنبي الله ﷺ: كيف لنا أن نأتي المسجد ونحن ناؤون عنك؟، وكيف نشهد الصلاة ونحن ناؤون عنك؟ فنزلت: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (٨) وقال سفيان، عن خُصَيْف، عن عكرمة: نزلت في المساجد كلها. وقال سعيد بن جبيرة: نزلت في أعضاء السجود، أي: هي لله فلا تسجدوا بها لغيره. وذكروا عند هذا القول الحديث الصحيح، من رواية عبد الله بن طائوس، عن أبيه، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجهة - أشار بيديه إلى أنفه - واليدين والركبتين وأطراف القدمين». وقوله: ﴿وَأَنَّ مَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ يَدًا﴾ (٨)، قال العوفي، عن ابن عباس يقول: لما سمعوا النبي ﷺ يتلو القرآن كادوا يركبونه، من الحرص، لما سمعوه يتلو القرآن، ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْغَيْبِ﴾، يستمعون القرآن. هذا قول، وهو مروى عن الزبير بن العوام، رضي الله عنه. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن معمر، حدثنا

أبو مسلم، عن أبي عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال الجن لقومهم: ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ (١٩)، قال: لما راوه يصلي وأصحابه، يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده، قالوا: عجبوا من طوعية أصحابه له، قال: فقالوا لقومهم: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾. وهذا قول ثان، وهو مروى عن سعيد بن جبير أيضاً. وقال الحسن: لما قام رسول الله ﷺ يقول: «لا إله إلا الله»، ويدعو الناس إلى ربهم، كادت العرب تلبد عليه جميعاً. وقال قتادة في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ (٢٠)، قال: تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه، فأبى الله إلا أن ينصره ويضميه ويظهره على من ناواه. وهذا قول ثالث، وهو مروى عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقول ابن زيد، واختيار ابن جرير، وهو الأظهر لقوله بعده: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ (٢١)، أي: قال لهم الرسول، لما أدّوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه، ليطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته: ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ (٢٢)، أي: إنما أعبد ربي وحده لا شريك له، واستجير به وأتوكل عليه، ﴿وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾. وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَنُفِثُ لَكُمْ صَرًا وَلَا رَشَدًا﴾ (٢٣)، أي: إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي، وعبد من عباد الله ليس إلي من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم، بل المرجع في ذلك كله إلى الله ﷻ. ثم أخبر عن نفسه أيضاً أنه لا يجبره من الله أحد، أي: لو عصيته فإنه لا يقدر أحد على إنقاضي من عذابه، ﴿وَلَنْ أَيْدِي مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٤)، قال مجاهد، وقاتدة، والسدي: لا ملجأ. وقال قتادة أيضاً: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخَيِّرَ مِنْ اللَّهِ أَحَدًا وَلَنْ أَيْدِي مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٥)، أي: لا نصير ولا ملجأ. وفي رواية: لا ولي ولا موئل. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بَلَاً يَنْظُرُ وَيُرْسِلُ فِيهِمْ﴾: قال بعضهم: هو مستثنى من قوله: ﴿لَا أَنُفِثُ لَكُمْ صَرًا وَلَا رَشَدًا﴾، ﴿إِلَّا بَلَاً﴾، ويحتمل أن يكون استثناء من قوله: ﴿لَنْ يُخَيِّرَ مِنْ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (٢٦)، أي: لا يجبرني منه ويخلصني إلا بإلغاي الرسالة التي أوجب أداءها علي، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَتَسَبَّحُ مِنْ الثَّانِي﴾ [المائدة: ٦٧]. وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ (٢٧)، أي: إنما أبلغكم رسالة الله، فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم خالدين فيها أبداً، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها. وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ (٢٨)، أي: حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصراً وأقل عدداً، هم أم المؤمنون الموحدون لله ﷻ، أي: بل المشركين لا ناصر لهم بالكلية، وهم أقل عدداً من جنود الله ﷻ.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَكُمْ رَبِّي أَمَدًا﴾ (٢٩) عَلِيمٌ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٣٠) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ رَصَدًا (٣١) لَعَلَّهُمْ إِنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَحْمَتَهُمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٣٢).

يقول تعالى أمرأه رسول الله ﷺ أن يقول للناس: أنه لا علم له بوقت الساعة، ولا يدري أقرب وقتها أم بعيد؟ ﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَكُمْ رَبِّي أَمَدًا﴾ (٣٠)؟ أي: مدة طويلة. وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الحديث الذي يتداوله كثير من الجهلة من أنه عليه السلام، لا يؤلف تحت الأرض، كذب لا أصل له، ولم نره في شيء من الكتب. وقد كان ﷺ يُسأل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها، ولما تبدى له جبريل في صورة أعرابي كان فيما سأل أن قال: يا محمد، فأخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». ولما ناداه ذلك الأعرابي بصوت جهوري فقال: يا محمد، متى الساعة؟ قال: «ويحك. إنها كائنة، فما أعددت لها؟». قال: أما إنني لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله. قال: «فأنت مع من أحببت». قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن مفضل، حدثنا محمد بن حمير، حدثني أبو بكر بن أبي مريم، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «يا بني آدم، إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى، والذي نفسي بيده، إنما تواعدون لآت». وقد قال أبو داود في آخر «كتاب الملاحم»: حدثنا موسى بن سهيل، حدثنا حجاج بن إبراهيم، حدثنا ابن وهب، حدثني معاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جبير، عن أبيه، عن أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يعجز الله هذه الأمة من نصف يوم». انفراد به أبو داود، ثم قال أبو داود: حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا أبو المغيرة، حدثني صفوان، عن شريح بن عبيد، عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال: «إني لأرجو ألا تعجز أمتي عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم». قيل لسعد: وكم نصف يوم؟ قال: خمسمائة عام. انفراد به أبو داود. وقوله: ﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٣١) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ (٣٢)، هذه كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وهكذا قال ما هنا: إنه يعلم الغيب والشهادة، وإنه لا يطلع أحد من خلقه على شيء من علمه إلا مما أطلعته تعالى عليه، ولهذا قال: ﴿فَلَا يَظْهَرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٣٣) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ (٣٤)، وهذا يعم الرسول الملكي والبشري. ثم قال: ﴿فَأَنْتُمْ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ رَصَدًا﴾ (٣٥)، أي:

يختصه بمزيد معقيات من الملائكة يحفظونه من أمر الله، ويساقونوه على ما معه من وحي الله، ولهذا قال: ﴿يَعْلَمُ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخَصَّ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾. وقد اختلف المفسرون في الضمير الذي في قوله: ﴿يَعْلَمُ﴾، إلى من يعود؟ فقيل: إنه عائد على النبي ﷺ.

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب القمي، عن جعفر، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ لَعَدًا﴾ (٦٦) ﴿إِلَّا مَنْ أَرْزَقَ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (٦٧) قال: أربعة حفظة من الملائكة مع جبريل، ﴿يَعْلَمُ﴾ محمد ﷺ ﴿أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخَصَّ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾. ورواه ابن أبي حاتم من حديث يعقوب القمي، به. وهكذا رواه الضحاك، والسدي، ويزيد بن أبي حبيب. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة: ﴿يَعْلَمُ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَبِّهِمْ﴾، قال: ليعلم نبي الله أن الرسل قد بلغت عنه، وأن الملائكة حفظتها ودفعها عنها. وكذا رواه سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة. واختاره ابن جرير. وقيل غير ذلك، كما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَرْزَقَ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (٦٧)، قال: هي معقيات من الملائكة يحفظون النبي من الشيطان، حتى يتبين الذي أرسل به إليهم، وذلك حين يقول، ليعلم أهل الشرك أن قد أبلغوا رسالات ربهم. وكذا قال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿يَعْلَمُ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَبِّهِمْ﴾، قال: ليعلم من كذب الرسل أن قد أبلغوا رسالات ربهم. وفي هذا نظر. وقال البيهقي: قرأ يعقوب: «ليعلم» بالضم، أي: ليعلم الناس أن الرسل بلغوا. ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله ﷻ، وهو قول حكاه ابن الجوزي في «زاد المسير». ويكون المعنى في ذلك: أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما بين إليهم من الوحي، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم، ويكون ذلك كقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وكقوله: ﴿وَلِنَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلِنَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [النكبت: ١١]، إلى أمثال ذلك، مع العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعاً لا محالة؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخَصَّ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.



تفسير سورة المزمل

وهي مكية. قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار: حدثنا محمد بن موسى القطان الواسطي، حدثنا معلى بن عبد الرحمن، حدثنا شريك، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر قال: اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا: سموا هذا الرجل اسماً فصدوا الناس عنه. فقالوا: كاهن. قالوا: ليس بكاهن. قالوا: مجنون. قالوا: ليس بمجنون. قالوا: ساحر. قالوا: ليس بساحر. ففرق المشركون على ذلك، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فتمزمل في ثيابه وتدرج فيها. فأتاه جبريل، عليه السلام، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّزِيلُ﴾ (١)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّذِيرُ﴾ (٢)، ثم قال البزار: معلى بن عبد الرحمن: قد حدث عنه جماعة من أهل العلم، واحتملوا حديثه، لكنه تفرد بأحاديث لا يتابع عليها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الرَّزِيلُ﴾ (١) ﴿فَرَأَيْتَ إِلَّا قَيْلًا﴾ (٢) ﴿يَضَعُوهُ أَوْ أَنْفُسُ مِنْهُ قَيْلًا﴾ (٣) ﴿أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ رَزِيلُ الْقَوْمَانِ تَرْيَلًا﴾ (٤) ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (٥) ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ (٦) ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا شَوِيلًا﴾ (٧) ﴿وَاذْكُرْ أَمْرَ رَبِّكَ وَبَقُلْ لِلَّهِ تَسْبِيحًا﴾ (٨) ﴿رَبُّ الْكَوْثَرِ وَالْكَوْبَرِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (٩).

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمّل، وهو: التغطي في الليل، وينهض إلى القيام لربه ﷻ، كما قال تعالى: ﴿تَنَجَّاهُ جُؤُودُهُمْ عَنِ الْمَصَائِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]. وكذلك كان رسول الله ﷺ ممثلاً ما أمره الله تعالى به من قيام الليل، وقد كان واجباً عليه وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. وها هنا بين له مقدار ما يقوم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّزِيلُ﴾ (١) ﴿فَرَأَيْتَ إِلَّا قَيْلًا﴾ (٢). قال ابن عباس، والضحاك، والسدي: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّزِيلُ﴾ (١) يعني: يا أيها النائم. وقال قتادة: المزمل في ثيابه، وقال إبراهيم النخعي: نزلت وهو مُتَزَمِّلٌ بقطيفة. وقال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّزِيلُ﴾ (١) قال: يا محمد، رُمِلت القرآن. وقوله: ﴿يَضَعُوهُ﴾: بدل من الليل، ﴿أَوْ أَنْفُسُ مِنْهُ قَيْلًا﴾ (٣) أو رَدَّ عَلَيْهِ (٤) أي: أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو

أَلَيْلٍ، حتى بلغ: ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَنْشُرُ مِنْهُ﴾ وقال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ. نَافِلَةً لَّكَ عَنِ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ١٧٩]. وهذا الذي قاله كما قاله. والدليل عليه ما رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال: حدثنا يحيى، حدثنا سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن زُرارة بن أوفى، عن سعد بن هشام: أنه طلق امرأته ثم ارتحل إلى المدينة ليبيع عقاراً له بها ويجعله في الكراع والسلاح، ثم يجاهد الروم حتى يموت. فلقي رهطاً من قومه فحدثوه أن رهطاً من قومه ستة أرادوا ذلك على عهد رسول الله ﷺ فقال: «أليس لكم في أسوة؟» فنهاهم عن ذلك، فأشهدهم على رجعتها، ثم رجع إلينا فأخبرنا أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال: ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: انت عائشة فاسألها ثم ارجع إلي فأخبرني بردها عليك. قال: فأتيت على حكيم بن أفلح فاستلحقته إليها، فقال: ما أنا بقاربها؛ إني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئاً، فأبت فيها إلا مضياً. فأقسمت عليه، فجاء معي، فدخلنا عليها فقالت: حكيم؟ وعرفته، قال: نعم. قالت: من هذا معك؟ قال: سعد بن هشام. قالت: من هشام؟ قال: ابن عامر. قال: فترحمت عليه وقالت: نعم المرأة كان عامر. قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: أأنت تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن. فهممت أن أقوم، ثم بدا لي قيام رسول الله ﷺ، قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ. قالت: أأنت تقرأ هذه السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ﴾؟ قلت: بلى. قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل طوعاً من بعد فريضة. فهممت أن أقوم، ثم بدا لي وتر رسول الله ﷺ، قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن وتر رسول الله ﷺ. قالت: كنا نعد له سواكه وطهوره، فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل، فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلي ثماني ركعات لا يجلس فيهن إلا عند الثامنة، فيجلس ويذكر ربه ويدعو ويستغفر ثم ينهض ولا يسلم. ثم يصلي التاسعة فيقعد فيحمد ربه ويذكره ويدعوه ثم يسلم تسليماً يسمعنا، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم. فتلك إحدى عشر ركعة يا بني. فلما أسن رسول الله ﷺ وأخذ اللحم، أوتر بسبع، ثم صلى ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم، فتلك تسع يا بني. وكان رسول الله ﷺ إذا صلى أحب أن يداوم عليها، وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض، صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة، ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة، ولا قام ليلة حتى أصبح، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان. فأتيت ابن عباس فحدثته بحديثها، فقال: صدقت، أما لو كنت أدخل عليها لآتيها حتى تشافهني مشافهة. هكذا رواه الإمام أحمد بتمامه. وقد أخرجه مسلم في صحيحه، من حديث قتادة، بنحوه.

طريق أخرى عن عائشة في هذا المعنى: قال ابن جرير: حدثنا وكيع، حدثنا زيد بن الحُبَاب وحدثنا ابن حميد، حدثنا مهراَن قالا جميعاً، واللفظ لابن وكيع: عن موسى بن عُبيدة، حدثني محمد بن طُخَلَاء، عن أبي سلمة، عن عائشة قالت: كنت أجمل لرسول الله ﷺ حصيراً يصلي عليه من الليل، فتسامع الناس به فاجتمعوا، فخرج الكمُغُض - وكان بهم رحيماً، فخشي أن يكتب عليهم قيام الليل - فقال: «أيها الناس، اكلفوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل، وخير الأعمال ما ديم عليه». ونزل القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ﴾ ﴿قُلْ أَلَيْلٌ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿يَقَعُ أَوْ أَنْفُسُهُ قَلِيلًا﴾ ﴿أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ﴾، حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق، فمكثوا بذلك ثمانية أشهر، فرأى الله ما يبتغون من رضوانه، فرحمهم فردهم إلى الفريضة، وترك قيام الليل. ورواه ابن أبي حاتم من طريق موسى بن عبيدة الرُبَذي، وهو ضعيف. والحديث في الصحيح بدون زيادة نزول هذه السورة، وهذا السياق قد يُوهَم أن نزول هذه السورة بالمدينة، وليس كذلك، وإنما هي مكة. وقوله في هذا السياق: إن بين نزول أولها وآخرها ثمانية أشهر - غريب؛ فقد تقدم في رواية أحمد أنه كان بينهما سنة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن يَشْعَر، عن سماك الحنفي، سمعت ابن عباس يقول: أول ما نزل: أول المزمل، كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان، وكان بين أولها وآخرها قريب من سنة. وهكذا رواه ابن جرير عن أبي كُرَيْب، عن أبي أسامة، به. وقال الثوري ومحمد بن بشر العبدي، كلاهما عن مسعر، عن سماك، عن ابن عباس: كان بينهما سنة. وروى ابن جرير، عن أبي كريب، عن وكيع، عن إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس، مثله. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهراَن، عن سفيان، عن قيس بن وهب، عن أبي عبد الرحمن قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ﴾، قاموا حولاً حتى ورمت أقدامهم وسوقهم، حتى نزلت: ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَنْشُرُ مِنْهُ﴾، قال: فاستراح الناس. وكذا قال الحسن البصري. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا عُبيد الله بن عمر القواريري، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، عن زُرارة بن أوفى، عن سعد بن هشام قال: فقلت - يعني لعائشة -: أخبرينا عن قيام رسول الله ﷺ. قالت: أأنت

تقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ ①﴾؟ قلت: بلى. قالت: فإنها كانت قيام رسول الله ﷺ وأصحابه، حتى انتفتخت أقدامهم، وخس آخرها في السماء ستة عشر شهراً، ثم نزل. وقال معمر، عن قتادة: ﴿فَرَأَى إِلَهًا قَلِيلًا ②﴾: قاموا حولاً أو حولين، حتى انتفتخت شوقهم وأقدامهم فأنزل الله تخفيفها بعد في آخر السورة. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب القمي، عن جعفر، عن سعيد - هو ابن جبير - قال: لما أنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ ③﴾ قال: مكث النبي ﷺ على هذه الحال عشر سنين يقوم الليل، كما أمره، وكانت طائفة من أصحابه يقومون معه، فأنزل الله عليه بعد عشر سنين: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلَاثِ فَصَافَةٍ وَيَسْمَعُ قَلَمُكَ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ④﴾، إلى قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ⑤﴾، فخفف الله تعالى عنهم بعد عشر سنين. ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن عمرو بن رافع، عن يعقوب القمي، به. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَرَأَى إِلَهًا قَلِيلًا ⑥﴾ نَفْسَهُ، أَوْ أَشْضَ مِنْهُ قَلِيلًا ⑦ أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ وَرَقْلَ الْقُرْآنِ رَبِيلًا ⑧. فأمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلاً، فشق ذلك على المؤمنين، ثم خفف الله عنهم ورحمهم، فأنزل بعد هذا: ﴿عَلِمَ أَنَّ سَبْكُونَ مِنْكُمْ رُبَّمَا وَكَأَنَّهُمْ يَبْرُونَ فِي الْأَرْضِ ⑨﴾، إلى قوله: ﴿فَأَقْرَهُوهُمَا تَبَيَّنَ مِنْهُ ⑩﴾، فوسع الله - وله الحمد - ولم يضيق. وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ⑪﴾ أي: أكثر من ذكره، وانقطع إليه، وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك، وما تحتاج إليه من أمور دنياك، كما قال: ﴿وَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ⑫﴾ [الشرح: ٧] أي: إذا فرغت من مهامك فانصب في طاعته وعبادته، لتكون فارغ البال. قاله ابن زيد بمعناه أو قريب منه. قال ابن عباس ومجاهد، وأبو صالح، وعطية، والضحاك، والسدي: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ⑬﴾ أي: أخلص له العبادة. وقال الحسن: اجتهد وتبتل إليه نفسك. وقال ابن جرير: يقال للعابد: متبتل، ومنه الحديث المروي: أنه نهى عن التبتل، يعني: الانقطاع إلى العبادة وترك الزوج. وقوله: ﴿رَبِّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ⑭﴾ أي: هو المالك المتصرف في المشارق والمغرب الذي لا إله إلا هو، وكما أفردته بالعبادة فأفردته بالتوكل، ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ⑮﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ⑯﴾ [مرد: ١٢٣]، وكقوله: ﴿إِنَّكَ نَعِبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑰﴾، وآيات كثيرة في هذا المعنى، فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله، وتخصيصه بالتوكل عليه.

﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَبِلًا ⑱﴾ وَذَرَى الْمَكْذِبِينَ أُولَى الْأَمْتَةِ وَمَهْلِكُ قَلِيلًا ⑲ إِنَّ لَدُنَّا أُنْكَالًا وَجِبَا ⑳ وَطَعَامًا ذَا غَضَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ㉑ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَّيَلًا ㉒ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ㉓ فَصَحَّىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيلًا ㉔ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ㉕ السَّمَاءُ مَطْفُورَةٌ بِإِذْنِ رَبِّكَ فَاصْبِرْ ㉖ وَابْصُرْ عَلَىٰ مَا نَبْأُ الْفَاسِقِينَ ㉗ وَابْصُرْ عَلَىٰ مَا نَبْأُ الْفَاسِقِينَ ㉘ وَابْصُرْ عَلَىٰ مَا نَبْأُ الْفَاسِقِينَ ㉙ وَابْصُرْ عَلَىٰ مَا نَبْأُ الْفَاسِقِينَ ㉚ وَابْصُرْ عَلَىٰ مَا نَبْأُ الْفَاسِقِينَ ㉛ وَابْصُرْ عَلَىٰ مَا نَبْأُ الْفَاسِقِينَ ㉜ وَابْصُرْ عَلَىٰ مَا نَبْأُ الْفَاسِقِينَ ㉝ وَابْصُرْ عَلَىٰ مَا نَبْأُ الْفَاسِقِينَ ㉞ وَابْصُرْ عَلَىٰ مَا نَبْأُ الْفَاسِقِينَ ㉟ وَابْصُرْ عَلَىٰ مَا نَبْأُ الْفَاسِقِينَ ㊱ وَابْصُرْ عَلَىٰ مَا نَبْأُ الْفَاسِقِينَ ㊲ وَابْصُرْ عَلَىٰ مَا نَبْأُ الْفَاسِقِينَ ㊳ وَابْصُرْ عَلَىٰ مَا نَبْأُ الْفَاسِقِينَ ㊴ وَابْصُرْ عَلَىٰ مَا نَبْأُ الْفَاسِقِينَ ㊵ وَابْصُرْ عَلَىٰ مَا نَبْأُ الْفَاسِقِينَ ㊶ وَابْصُرْ عَلَىٰ مَا نَبْأُ الْفَاسِقِينَ ㊷ وَابْصُرْ عَلَىٰ مَا نَبْأُ الْفَاسِقِينَ ㊸ وَابْصُرْ عَلَىٰ مَا نَبْأُ الْفَاسِقِينَ ㊹ وَابْصُرْ عَلَىٰ مَا نَبْأُ الْفَاسِقِينَ ㊺ وَابْصُرْ عَلَىٰ مَا نَبْأُ الْفَاسِقِينَ ㊻ وَابْصُرْ عَلَىٰ مَا نَبْأُ الْفَاسِقِينَ ㊼ وَابْصُرْ عَلَىٰ مَا نَبْأُ الْفَاسِقِينَ ㊽ وَابْصُرْ عَلَىٰ مَا نَبْأُ الْفَاسِقِينَ ㊾ وَابْصُرْ عَلَىٰ مَا نَبْأُ الْفَاسِقِينَ ㊿

يقول تعالى أمرأه رسول الله ﷺ بالصبر على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه، وأن يهجرهم هجراً جميلاً، وهو الذي لا عتاب معه. ثم قال له متوعداً لكفار قومه ومتهدداً - وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء -: ﴿وَذَرَى الْمَكْذِبِينَ أُولَى الْأَمْتَةِ ⑱﴾ أي: دعني والمكذبين المترفين أصحاب الأموال، فإنهم أقدر على الطاعة من غيرهم وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم، ﴿وَمَهْلِكُ قَلِيلًا ⑲﴾ أي: وريداً، كما قال: ﴿نُتِمُّهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَيْكَ عَذَابٍ غَلِيظٍ ⑳﴾ [النساء: ٢٤]، ولهذا قال ها هنا: ﴿إِنَّ لَدُنَّا أُنْكَالًا ㉑﴾ وهي: القيود. قاله ابن عباس، وعكرمة، وطاوس، ومحمد بن كعب، وعبد الله بن بريدة، وأبو عمران الجوني، وأبو مجلز، والضحاك، وحامد بن أبي سلمان، وقاتدة والسدي، وابن المبارك والثوري، وغير واحد، ﴿وَجِبَا ㉒﴾ وهي: السعير المضطربة. ﴿وَمَهْلِكُ قَلِيلًا ㉓﴾ قال ابن عباس: ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج، ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا ㉔﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ㉕ أي: تزلزل، ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَّيَلًا ㉖﴾ أي: تصير الأرض قاعاً صافصفاً، لا ترى فيها عوجاً، أي: وادياً، ولا أمناً، أي: رابية، ومعناه: لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع. ثم قال مخاطباً لكفار قريش، والمراد سائر الناس: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكَ ㉗﴾ أي: بأعمالكم، ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ㉘﴾ فَصَحَّىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيلًا ㉙. قال ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة، والسدي، والثوري: ﴿أَخَذًا وَبِيلًا ㉚﴾ أي: شديداً، أي: فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول، فيصيبكم ما أصاب فرعون، حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْجَهَنَّمَ ㉛ وَالْأُولَى ㉜﴾ [النازعات: ٢٥]، وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتم؛ لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران. ويروى عن ابن عباس ومجاهد. وقوله: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ㉕﴾، يحتمل أن يكون ﴿يَوْمًا ㉕﴾ معمولاً لتتقون، كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود: «فكيف تخافون أيها الناس يوماً يجعل الولدان شيباً؟» ويحتمل أن يكون معمولاً لكفرتم، فعلى الأول: كيف يحصل لكم أمان من يوم هذا الفزع العظيم إن كفرتم؟ وعلى الثاني: كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه؟ وكلاهما معنى حسن، ولكن الأول أولى، والله أعلم. ومعنى قوله: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ㉕﴾ أي: من شدة أهواله وزلازله

﴿إِنْ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ ﴿١٩﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلَاثِي إِلَيَّ وَصَفَةً وَأَتْلُومُ وَكَلَامَهُ بَيْنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَالَّذِينَ يُبْذَرُونَ إِلَيْكَ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَن لَّنِي خُصْمٌ فَاقْضُوا مَا بَيْنَنَا قَاضِيًّا بِمَا نَظَرْنَا فِي الْقُورَىٰ عِلْمًا أَوْ سَكُونًا بِمَا نَظَرْنَا وَأَخْرَجُوا بِغَيْرِ حَقٍّ مِنَ الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِن قُدْرَتِ اللَّهِ وَمَا أَخْرَجُوا يَتْلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاضِيًّا بِمَا نَظَرْنَا مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرَأُوا اللَّهَ قُرْآنًا حَسَنًا وَمَا نَقُولُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نَّحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٢١﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ أي: السورة: ﴿تَذَكَّرُ﴾ أي: يتذكر بها أولو الألباب؛ ولهذا قال: ﴿فَمَنْ شَاءَ أَخَذَ إِلَىٰ رُبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي: ممن شاء الله هدايته، كما قيده في السورة الأخرى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنََّّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (الإنسان: ٢٠). ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَمْلِكُ ثَقُوفَ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي إِلِيلٍ وَصَفَّهُ وَقَلَّمَ وَطَافَهُ مِنَ الَّذِينَ مَلَكَ﴾ أي: تارة هكذا، وتارة هكذا، وذلك كله من غير قصد منكم، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل؛ لأنه يشق عليكم؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَمْدُدُ إِلَيْكَ آلِيلًا وَنَأْفَاقًا﴾ أي: تارة يعتدلان، وتارة يأخذ هذا من هذا، أو هذا من هذا، ﴿عَلِمَ أَنَّ لَكُمْ شُصُورًا﴾ أي: الفرض الذي أوجبه عليكم ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَنْزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أي: من غير تحديد بوقت، أي: ولكن قوموا من الليل ما تيسر. وعبر عن الصلاة بالقراءة، كما قال في سورة سبحان: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَوَاتِكَ﴾ أي: بقرائكك، ﴿وَلَا تَخَافُ يَهَا﴾. وقد استدلل أصحاب الإمام أبي حنيفة، رحمه الله، بهذه الآية، وهي قوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَنْزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ على أنه لا يتعين قراءة الفاتحة في الصلاة، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن، ولو بأية، أجزاء، واعتضدوا بحديث المسيء صلواته الذي في الصحيحين: «ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن». وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت، وهو في الصحيحين أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب فهي خداج، ففي خداج، ففي خداج، غير تمام». وفي صحيح ابن خزيمة عن أبي هريرة مرفوعاً: «لا تجزئ صلاة من لم يقرأ بأم القرآن». وقوله: ﴿عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ رَجُلٌ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يَقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار في ترك قيام الليل، من مرضى لا يستطيعون ذلك، ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر، وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل الله. وهذه الآية - بل السورة كلها - مكية، ولم يكن القتال شرع بعد، فهي من أكبر دلائل النبوة، لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلية. ولهذا قال: ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَنْزِلُ يَنْزِلُ﴾ أي: قوموا بما تيسر عليكم منه. قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن غليئة، عن أبي رجاء محمد، قال: قلت للحسن: يا أبا سعيد، ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه، ولا يقوم به، إنما يصلي المكتوبة؟ قال: يتوسد القرآن. لعن الله ذاك، قال الله تعالى للعبد الصالح: ﴿وَلَهُ لَذُوعٌ عِلْمٌ لِمَا عَلَّمْتَهُ﴾ (يوسف: ٦٨)، ﴿وَعَلَّمْتَهُ مَا لَمْ يَلْمِزْهُ أَنْتَ وَلَا آتَاكَ﴾ (الأنعام: ٩١). قلت: يا أبا سعيد، قال الله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَنْزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾؟ قال: نعم، ولو خمس آيات. وهذا ظاهر من مذهب الحسن البصري: أنه كان يرى حقاً واجباً على حملة القرآن أن يقوموا ولو بشيء منه في الليل، ولهذا جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل نام حتى أصبح، فقال: «ذاك بال الشيطان في أذنه». فقيل: معناه: نام عن المكتوبة. وقيل: عن قيام الليل. وفي السنن: «أوتروا يا أهل القرآن». وفي الحديث الآخر: «من لم يوتر فليس منا». وأغرب من هذا ما حكى عن أبي بكر عبد العزيز، من الحنابلة، من إيجابه قيام شهر رمضان، فالحق أعلم. وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن سعيد بن فرقد الجذبي، حدثنا أبو حمة محمد بن يوسف الزبيدي، حدثنا عبد الرحمن، عن محمد بن عبد الله بن طاوس - من ولد طاوس -

عن أبيه، عن طاوس، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَنْزِلُ مِنْهُ﴾ قال: «مائة آية». وهذا حديث غريب جداً لم أره إلا في معجم الطبراني، رحمه الله. وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم، وآتوا الزكاة المفروضة. وهذا يدل لمن قال: إن فرض الزكاة نزل بمكة، لكن مقادير النصب والمخرج لم تُبين إلا بالمدينة. والله أعلم. وقد قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وغير واحد من السلف: إن هذه الآية نسخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل. واختلفوا في المدة التي بينهما على أقوال كما تقدم. وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل: «خمس صلوات في اليوم والليلة». قال: هل علي غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوع». وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ فَرَسًا حَسَنًا﴾ يعني: من الصدقات، فإن الله يجازي على ذلك أحسن الجزاء وأوفره، كما قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَشْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]. وقوله: ﴿وَمَا تَقْدِرُوا إِلَّا أَنْفُسُكُمْ مِنْ خَيْرٍ يُجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ أي: جميع ما تقدموه بين أيديكم فهو خير لكم حاصل، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أبو خنيفة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الحارث بن سويد قال: قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه؟». قالوا: يا رسول الله، ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه. قال: «اعلموا ما تقولون». قالوا: ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله؟ قال: «إنما مال أحدكم ما قدم ومال وارثه ما أخر». ورواه البخاري من حديث حفص بن غياث، والنسائي من حديث أبي معاوية، كلاهما عن الأعمش، به. ثم قال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: أكثروا من ذكره واستغفاره في أموركم كلها، فإنه غفور رحيم لمن استغفروه.

آخر تفسير سورة «المزمل» وشه الحمد



تفسير سورة المدثر

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبُّكَ فَكَرِهٌ ۝ وَيَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبُّكَ فَكَرِهٌ ۝ وَلَا تَنْتَظِرْ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝﴾ قَدْ نَزَلَ فِي أَلْفَاوُر ۝ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝.

ثبت في صحيح البخاري من حديث يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة، عن جابر أنه كان يقول: أول شيء نزل من القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبُّكَ فَكَرِهٌ ۝ وَيَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبُّكَ فَكَرِهٌ ۝ وَلَا تَنْتَظِرْ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝﴾، كم سيأتي بيان ذلك هنالك. قال البخاري: حدثنا يحيى، حدثنا وكيع، عن علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن، قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبُّكَ فَكَرِهٌ ۝ وَيَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبُّكَ فَكَرِهٌ ۝ وَلَا تَنْتَظِرْ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝﴾. فقلت: فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء، فلما قضيت جوارى هبطت فتوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً. فرفعت رأسي فرأيت شيئاً، فأنيت خديجة فقلت: دثروني. وضبوا علي ماء بارد. قال: فدثروني وضبوا علي ماء بارداً قال: فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبُّكَ فَكَرِهٌ ۝ وَيَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبُّكَ فَكَرِهٌ ۝ وَلَا تَنْتَظِرْ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝﴾. هكذا ساقه من هذا الوجه، وقد رواه مسلم من طريق عقيل، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة قال: أخبرني جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله ﷺ يتحدث عن فترة الوحي: «فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قبل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجنثت منه حتى هويت إلى الأرض، فجنثت إلى أهلي، فقلت: زملوني زملوني. فزملوني، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبُّكَ فَكَرِهٌ ۝ وَيَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبُّكَ فَكَرِهٌ ۝ وَلَا تَنْتَظِرْ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝﴾. قال أبو سلمة: والرجز: الأوثان - ثم حمي الوحي وتتابع. هذا لفظ البخاري. وهذا السياق هو المحفوظ، وهو يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا، لقوله: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء»، وهو جبريل حين أتاه بقوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝﴾. ثم إنه حصل بعد هذا فترة، ثم نزل الملك بعد هذا. ووجه

أفأطم مهلاً بعض هذا التدلّل
وإن تك قد ساءت منك مني خليفة
وقال سعيد بن جبير: ﴿وَبِاللّٰهِ تَعَالٰى﴾ : وقلبك ونيتك فطهر. وقال محمد بن كعب القرظي، والحسن البصري: وخُلقك فحسّن. وقوله: ﴿وَالزَّحْرَ فَاقْبَرْ﴾ ، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «وَالزَّحْرُ» ، وهو الأصنام، فاهجر. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والزهري، وابن زيد: إنها الأوثان. وقال إبراهيم، والضحاك: ﴿وَالزَّحْرَ فَاقْبَرْ﴾ أي: اترك المعصية. وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّ اللَّهَ لَا يُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الاحزاب: ٦١].
﴿وَقَالَ مُوسَى لِإِخْوِهِ مُهْرُوتَ أَخْلَقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْبَحْ وَلَا تَجْعَلْ لِسَيِّدِكُمُ الْعِيسَى﴾ [الاعراف: ١٤٢]. وقوله: ﴿وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْبِرُ﴾ : قال ابن عباس: لا تعط العطية لتلمس أكثر منها. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وعطاء، وطاوس، وأبو الأحوص، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم. وروي عن ابن مسعود أنه قرأ: «ولا تمنن أن تستكبر». وقال الحسن البصري: لا تمنن بعملك على ربك تستكبره. وكذا قال الربيع بن أنس، واختاره ابن جرير. وقال خُصيف، عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْبِرُ﴾ : قال: لا تضعف أن تستكبر من الخير، قال: تمنن في كلام العرب تضعف. وقال ابن زيد: لا

تمنن بالنبوة على الناس، تستكثرهم بها، تأخذ عليه عوضاً من الدنيا. فهذه أربعة أقوال، والأظهر القول الأول، والله أعلم. وقوله: ﴿وَلَيْكَ فَالْيَمِينُ﴾ أي: اجعل صبرك على أذاهم لوجه الله ﷻ قاله مجاهد. وقال إبراهيم النخعي: اصبر على عطيتك لله تعالى. وقوله: ﴿إِنَّا نَبْرُ فِي الْآثَرِ﴾ (٨) ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ (٩) ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ يَوْمُ بَئِيرٍ﴾ (١٠) قال ابن عباس، ومجاهد، والشعبي، وزيد بن أسلم، والحسن، وقتادة، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي، وابن زيد: ﴿الْآثَرُ﴾: الصور. قال مجاهد: وهو كهية القرن. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أسباط بن محمد، عن مطرف، عن عطية العوفي، عن ابن عباس: ﴿إِنَّا نَبْرُ فِي الْآثَرِ﴾ (٨) فقال: قال رسول الله ﷺ «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته، ينتظر متى يؤمر فينفض؟» فقال أصحاب رسول الله ﷺ فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا». وهكذا رواه الإمام أحمد عن أسباط، به. ورواه ابن جرير عن أبي كُرَيْب، عن ابن فضيل وأسباط، كلاهما عن مطرف، به. ورواه من طريق أخرى، عن العوفي، عن ابن عباس، به. وقوله: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ (٩) أي: شديد، ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ يَوْمُ بَئِيرٍ﴾ (١٠) أي: غير سهل عليهم. كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ (الفر: ٨). وقد روينا عن زرارة بن أوفى - قاضي البصرة -: أنه صلى بهم الصبح، فقرأ هذه السورة، فلما وصل إلى قوله: ﴿إِنَّا نَبْرُ فِي الْآثَرِ﴾ (٨) ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ (٩) ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ يَوْمُ بَئِيرٍ﴾ (١٠) شَبَّ شَقَّةً، ثم خرميتاً، رحمه الله.

﴿ذَرَى وَمَنْ حَلَفْتَ وَجِدًا﴾ (١١) ﴿وَجَعَلْتَ لَهُ مَا لَا مَدْرَدَ﴾ (١٢) ﴿وَبَيْنَ شُهُودًا﴾ (١٣) ﴿وَوَهَّدْتَ لَهُ تَهِيدًا﴾ (١٤) ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَرِيدَ﴾ (١٥) ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِيْنَتَا عِينِكَ﴾ (١٦) ﴿سَاءَ رُفْقَهُ صَعُودًا﴾ (١٧) ﴿إِنَّهُ فَكَرَ فَقَدَرًا﴾ (١٨) ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ فَدَرًا﴾ (١٩) ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ (٢٠) ﴿ثُمَّ عَسَّ وَبَسَّرَ﴾ (٢١) ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ (٢٢) ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا بَحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ (٢٣) ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (٢٤) ﴿سَاءَ لِي سَفَرًا﴾ (٢٥) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَفَرًا﴾ (٢٦) ﴿لَا بَقِي وَلَا نَدْرًا﴾ (٢٧) ﴿لَوَلَمْ يَلْمَسْ يَلْمَسْ﴾ (٢٨) ﴿عَلَيَّا نَسَمَةً عَشْرًا﴾ (٢٩) ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ (٣٠).

يقول تعالى متوعداً لهذا الخبيث الذي أنعم الله عليه بنعم الدنيا، فكفر بأنعم الله، وبدلها كفرًا، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها، وجعلها من قول البشر. وقد عدد الله عليه نعمه حيث قال: ﴿ذَرَى وَمَنْ حَلَفْتَ وَجِدًا﴾ (١١) أي: خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد، ثم رزقه الله، ﴿مَا لَا مَدْرَدَ﴾ (١٢) أي: واسعاً كثيراً. قيل: ألف دينار. وقيل: مائة ألف دينار. وقيل: أرضاً يستغلها. وقيل غير ذلك. وجعل له ﴿وَبَيْنَ شُهُودًا﴾ (١٣) قال مجاهد: لا يغيبون، أي: حضوراً عنده لا يسافرون في التجارات، بل مواليتهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود عند أبيهم، يتمتع بهم ويتملى بهم. وكانوا - فيما ذكره السدي، وأبو مالك، وعاصم بن عمر بن قتادة - ثلاثة عشر. وقال ابن عباس، ومجاهد: كانوا عشرة. وهذا أبلغ في النعمة وهو إقامتهم عنده. ﴿وَوَهَّدْتَ لَهُ تَهِيدًا﴾ (١٤) أي: مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك، ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَرِيدَ﴾ (١٥) ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِيْنَتَا عِينِكَ﴾ (١٦) أي: معانداً، وهو الكفر على نعمه بعد العلم. قال الله: ﴿سَاءَ رُفْقَهُ صَعُودًا﴾ (١٧) قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «ويل: واد في جهنم، يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره، والضُّوْدُ: جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً، ثم يهوي به كذلك فيه أبداً». وقد رواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن الحسن بن موسى الأشيب، به. ثم قال: غريب، لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة عن دراج. كذا قال. وقد رواه ابن جرير، عن يونس، عن عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن دراج. وفيه غرابة ونكارة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ وعلي بن عبد الرحمن - المعروف بعلان المصري - قال: حدثنا منجاب، أخبرنا شريك، عن عمار الدُهْنِي، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ ﴿سَاءَ رُفْقَهُ صَعُودًا﴾ (١٧) قال: «هو جبل في النار من نار يكلف أن يصعده، فإذا وضع يده ذابت، وإذا رفعها عادت، وإذا وضع رجله ذابت، وإذا رفعها عادت». ورواه البزار وابن جرير، من حديث شريك، به. وقال قتادة، عن ابن عباس: صعود: صخرة في جهنم عظيمة يسحب عليها الكافر على وجهه. وقال السدي: صعوداً: صخرة ملساء في جهنم، يكلف أن يصعد بها. وقال مجاهد: ﴿سَاءَ رُفْقَهُ صَعُودًا﴾ (١٧) أي: مشقة من العذاب. وقال قتادة: عذاباً لا راحة فيه. واختاره ابن جرير. وقوله: ﴿إِنَّهُ فَكَرَ فَقَدَرًا﴾ (١٨) أي: إنما أرهقناه صعوداً، أي: قربناه من العذاب الشاق؛ لبعده عن الإيمان، لأنه فكر وقدر، أي: تَرَوَى ماذا يقول في القرآن حين سُئِلَ عن القرآن، ففكر ماذا يخلق من المقال، ﴿وَقَدَّرَ﴾ (١٩) أي: تَرَوَى، ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ فَدَرًا﴾ (٢٠) ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ (٢١) ﴿ثُمَّ عَسَّ وَبَسَّرَ﴾ (٢٢) أي: أعاد النظرة والتروي، ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ (٢٣) أي: قبض بين عينيه وقطب، ﴿وَبَسَّرَ﴾ (٢٤) أي: كبح وكره، ومنه قول توبة بن الحُمير الشاعر:

وَقَدْ رَابَسَنِي مِنْهَا صُدُودٌ رَابَسُهُ وَإِعْرَاضُهَا عَنْ حَاجَتِي وَيُسُوْرُهَا
وقوله: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ (٢٣) أي: صُرف عن الحق، ورجع القهقري مستكبراً عن الانقياد للقرآن، ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا بَحْرٌ

يُؤْتِرُ ﴿٢١﴾ أي: هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ ﴿٢٥﴾ أي: ليس بكلام الله. وهذا المذكور في هذا السياق هو: الوليد بن المغيرة المخزومي، أحد رؤساء قريش - لعنه الله - وكان من خبره في هذا ما رواه العوفي، عن ابن عباس قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله عن القرآن، فلما أخبره خرج على قريش فقال: يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة. فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله. فلما سمع بذلك نفر من قريش اتهموا فقالوا: والله لئن صبا الوليد لتضبؤن قريش. فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه. فانطلق حتى دخل عليه بيته فقال للوليد: ألم تر قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال: ألسنت أكثرهم مالا وولداً. فقال له أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه. فقال الوليد: أقد تحدثت به عشرين؟ فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة، ولا عمر، ولا ابن أبي كبشة، وما قوله إلا سحر يؤثر. فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ذَرِّ وَمَنْ خَلَقْتَ رَجِيذاً﴾ ﴿٢٦﴾ إلى قوله: ﴿لَا تَبْقَى وَلا تَدَّرُ﴾ ﴿٢٨﴾. وقال قتادة: زعموا أنه قال: والله لقد نظرت فيما قال الرجل فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يعلو، وما أشك أنه سحر. فأنزل الله: ﴿فَقِيلَ كَيْفَ تَدَّرُ﴾ ﴿٢٩﴾ الآية، ﴿ثُمَّ عَسَّ وَبَسَّ﴾ ﴿٣٠﴾. قبض ما بين عينيه وكلح. وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، أخبرنا محمد بن ثور، عن مغمّر، عن عبادة بن منصور، عن عكرمة: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكانه رق له. فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام، فأتاه فقال: أي عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا. قال: لم؟ قال: يعطونك، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله. قال: قد علمت قريش أنني أكثرها مالا. قال: فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما قال، وأنت كاره له. قال: فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من ذلك. والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلو. قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر فيه. فلما فكر قال: هذا سحر يآثره عن غيره. فنزلت: ﴿ذَرِّ وَمَنْ خَلَقْتَ رَجِيذاً﴾ ﴿٣١﴾. قال قتادة: خرج من بطن أمه وحيداً حتى بلغ ﴿يَتَعَمَّ عَتَرُ﴾. وقد ذكر محمد بن إسحاق وغير واحد نحوه من هذا. وقد زعم السدي أنهم لما اجتمعوا في دار الندوة ليجمعوا رأيهم على قول يقولونه فيه، قبل أن يقدم عليهم وفود العرب للحج ليصدوهم عنه، فقال قائلون: شاعر. وقال آخرون: ساحر. وقال آخرون: كاهن. وقال آخرون: مجنون. كما قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ صَرَفُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ فَمَنْعُوا فَلَا يَسْطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ ﴿٣٨﴾ [الإسراء: ٤٨]، كل هذا والوليد يفكر فيما يقوله فيه، ففكر وقدر، ونظر وعسس ويسر، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتِرُ﴾ ﴿٢١﴾. ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ ﴿٢٥﴾. قال الله ﷻ ﴿سَأُفْلِسُ سَقَرُ﴾ ﴿٢٦﴾ أي: سأغمره فيها من جميع جهاته. ثم قال: ﴿وَمَا أَزِيدُكَ مَا سَقَرُ﴾ ﴿٢٧﴾ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم. ثم فسر ذلك بقوله: ﴿لَا تَبْقَى وَلا تَدَّرُ﴾ ﴿٢٩﴾ أي: تأكل لحومهم وعروقهم وعصبهم وجلودهم، ثم تبدل غير ذلك وهم في ذلك لا يموتون ولا يحيون، قاله ابن بريده وأبو سنان وغيرهما. وقوله: ﴿وَلَا تَدَّرُ﴾ ﴿٢٨﴾، قال مجاهد: للجلد، وقال أبو رزين: تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل. وقال زيد بن أسلم: تلوح أجسادهم عليها. وقال قتادة: ﴿وَلَا تَدَّرُ﴾ ﴿٢٨﴾ أي: حراقة للجلد. وقال ابن عباس: تحرق بشرة الإنسان. وقوله: ﴿عَلَيْهَا يَتَعَمَّ عَتَرُ﴾ ﴿٣٠﴾ أي: من مقدمي الزبانية، عظيم خلقهم، غليظ خلقهم.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا ابن أبي زائدة، أخبرني حريث، عن عامر، عن البراء في قوله: ﴿عَلَيْهَا يَتَعَمَّ عَتَرُ﴾ ﴿٣٠﴾. قال: إن رهطاً من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ عن خزنة جهنم، فقال: الله ورسوله أعلم. فجاء رجل فأخبر النبي ﷺ فنزل عليه ساعتئذ: ﴿عَلَيْهَا يَتَعَمَّ عَتَرُ﴾ ﴿٣٠﴾. فأخبر أصحابه وقال: «ادعهم، أما إني سائلهم عن ثروة الجنة إن أتوني، أما إنها درمكة بيضاء». فجاءوا فسألوه عن خزنة جهنم، فأهوى بأصابع كفيه مرتين وأمسك الإبهام في الثانية، ثم قال: «آخرون من ثروة الجنة». فقالوا: أخبرهم يا ابن سلام. فقال: كأنها حُزْبَةُ بَيْضَاء. فقال رسول الله ﷺ «أما إن الخبز إنما يكون من الدرمك». هكذا وقع عند ابن أبي حاتم عن البراء، والمشهور عن جابر بن عبد الله، كما قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا منده، حدثنا أحمد بن عبدة، أخبرنا سفيان ويحيى بن حكيم، حدثنا سفيان، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، غلب أصحابك اليوم. فقال: «بأي شيء؟» قال: سألتهم يهود هل أعلمكم نبيكم عدة خزنة أهل النار؟ قالوا: لا نعلم حتى نسأل نبينا ﷺ. قال رسول الله ﷺ «أفغلب قوم سئلو عما لا يدرون فقالوا: لا ندرى حتى نسأل نبينا؟ عليّ بأعداء الله، لكنهم سألوا نبيهم أن يريهم الله جهرة». فأرسل إليهم فدعاهم. قالوا: يا أبا القاسم، كم عدد خزنة أهل النار؟ قال: «هكذا»، وطبق كفيه، ثم طبق كفيه، مرتين، وعقد واحدة، وقال لأصحابه: «إن سئلتهم عن ثروة الجنة فهي الدرمك». فلما سألوه فأخبرهم بعدة خزنة أهل

النار، قال لهم رسول الله ﷺ: «ما تربة الجنة؟» فنظر بعضهم إلى بعض، فقالوا: خبزة يا أبا القاسم. فقال: «الخبز من الدرّك». وهكذا رواه الترمذي عند هذه الآية عن ابن أبي عمر، عن سفيان، به. وقال هو والبخاري: لا نعرفه إلا من حديث مجالد. وقد رواه الإمام أحمد، عن علي بن المديني، عن سفيان، قصص الدرّك فقط.

﴿وَمَا جَعَلْنَا آثَارَ إِلَّا مَلِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عَذَابَهُمْ إِلَّا يَنْتَهِ لَيْلَيْنِ كَفَرُوا لِيَسْتَقِيلَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَرَوَدَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا وَلَا يَرْثَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرِضٌ وَالْكُفْرُ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُعَلِّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يُغَلِّ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا يَكُنْ لِلنَّاسِ شَيْءٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (٢١) ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ (٢٢) وَاللَّيْلِ إِذَا أَظْمَرُ (٢٣) وَالضُّحَى (٢٤) إِنَّا لَنَجْزِي الْكَافِرَ (٢٥) نَجْزِيًا لِلنَّاسِ (٢٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقَى أَنْ يَتَّقَى (٢٧)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا آثَارَ إِلَّا مَلِكَةً﴾ أي: خزائنها، ﴿إِلَّا مَلِكَةً﴾ أي: زبانية غلاظاً شداداً. وذلك رد على مشركي قريش حين ذكر عدد الخزنة، فقال أبو جهل: يا معشر قريش، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم تغلبونهم؟ فقال الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا آثَارَ إِلَّا مَلِكَةً﴾ أي: شديدي الخلق لا يقاومون ولا يغالبون. وقد قيل: إن أبا الأشدين - واسمه: كلدة بن أسيد بن خلف - قال: يا معشر قريش، اكفوني اثنين وأنا أكفيكم سبعة عشر، إعجاباً منه بنفسه، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينتزعوه من تحت قدميه، فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه. قال السهيلي: وهو الذي دعا رسول الله ﷺ إلى مصارعته وقال: إن صرعتني أمنت بك، فصرعه النبي ﷺ مراراً، فلم يؤمن. قال: وقد نسب ابن إسحاق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب. قلت: ولا منافاة بين ما ذكرناه، والله أعلم. ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَذَابَهُمْ إِلَّا يَنْتَهِ لَيْلَيْنِ كَفَرُوا﴾ أي: إنما ذكرنا عذابهم أنهم تسعة عشر اختباراً مثلاً للناس، ﴿لِيَسْتَقِيلَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: يعلمون أن هذا الرسول حق؛ فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله. ﴿وَرَوَدَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا وَلَا يَرْثَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرِضٌ﴾ أي: من المنافقين ﴿وَالْكُفْرُ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا؟﴾ أي: يقولون: ما الحكمة في ذكر هذا ما هنا؟ قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُعَلِّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام، ويتزلزل عند آخرين، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة. وقوله: ﴿وَمَا يُغَلِّ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى، لئلا يتوهم متوهم إنما هم تسعة عشر فقط، كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة من الفلاسفة اليونانيين. ومن تابعهم من الملتين الذين سمعوا هذه الآية، فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة والنفوس التسعة، التي اخترعوا دعواها وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها، فما فهموا صدر الآية وقد كفروا بآخرها، وهو قوله: ﴿وَمَا يُغَلِّ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

وقد ثبت في حديث الإسراء المروي في الصحيحين وغيرهما. عن رسول الله ﷺ أنه قال في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة: «إذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه آخر ما عليهم». وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا إسرائيل، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن مروق، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أظن السماء وحق لها أن تنط، ما فيها موضع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولا تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصُّعَدَاتِ تجارون إلى الله ﷻ». فقال أبو ذر: والله لوددت أني شجرة تُعَصَّد. ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث إسرائيل، وقال الترمذي: حسن غريب، ويروى عن أبي ذر موقوفاً. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا خير بن عرفة المصري، حدثنا عُرْوَةُ بن مروان الرقي، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم بن مالك، عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما في السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم، أو ملك ساجد، أو ملك راکع، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً: سبحانك! ما عبدناك حقَّ عبادتك، إلا أنا لم نشرك بك شيئاً». وقال محمد بن نصر المروزي في «كتاب الصلاة»: حدثنا عمرو بن زرارة، أخبرنا عبد الوهاب بن عطاء، عن سعيد، عن قتادة، عن صفوان بن مُخْرِز، عن حكيم بن حزام قال: بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شيء. فقال رسول الله ﷺ: «أسمع أطيح السماء وما تلام أن تنط، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك راکع أو ساجد». وقال أيضاً: حدثنا محمد بن عبد الله بن قهزاد، حدثنا أبو معاذ الفضل بن خالد النحوي، حدثنا عبيد بن سليمان الباهلي، سمعت الضحاک بن مزاحم، يحدث عن مسروق بن الأجدع، عن عائشة أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما في السماء الدنيا موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم، وذلك قول الملائكة: ﴿وَمَا يَنَّا إِلَّا لَمْ مَقَامَ مَقَامٍ﴾ (١١٤) ﴿وَمَا لَنَحْنُ الصَّالُونَ﴾ (١١٥) ﴿وَمَا لَنَحْنُ الْكَاشِحُونَ﴾ (١١٦)». [الصفات: ١٦٤-١٦٦]. وهذا مرفوع غريب جداً رواه عن محمود بن آدم، عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود أنه قال: إن من

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَوِيَّةٌ﴾ ﴿٣٧﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ فِي جَنَّاتٍ يَدْخُلُونَ ﴿٣٩﴾ مِنَ الْمُعْجِنِ ﴿٤٠﴾ مَا سَلَكَكَ فِي سَقَرٍ ﴿٤١﴾ قَالُوا لَا تَكُن مِمَّنْ الصَّالِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَهُ ظُهُومُ النَّبِيِّينَ ﴿٤٣﴾ وَكُنَّا غَوْضًا مَعَ الْغَاثِينَ ﴿٤٤﴾ وَكَأَنَّهُمْ يُؤَدِّونَ إِلَيْنَا الْيَمِينَ ﴿٤٥﴾ فَمَا تَعْمَلُهُمْ فَتَعْمَلُ الشَّفِيعِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا لَمْ عَنِ التَّكْوِينِ مُرَصِّرِينَ ﴿٤٧﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُشْتَمِرَةٌ ﴿٤٨﴾ تَوَّتَّ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٤٩﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنْقَرَةً ﴿٥٠﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥١﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ ﴿٥٢﴾ مَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٣﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْغُورَةِ ﴿٥٤﴾ يَقُولُ تَعَالَى مَخْبِرًا أُنْ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَوِيَّةٌ﴾ ﴿٣٧﴾ أَي: معتقطة بعملها يوم القيامة، قاله ابن عباس وغيره: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ

الْيَقِينِ ﴿٣٩﴾ ، فَإِنَّهُمْ ﴿٤٠﴾ فِي جَهَنَّمَ يَنَازِلُونَ ﴿٤١﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٢﴾ أَي: يسألون المجرمين وهم في الغرفات وأولئك في الدركات قائلين لهم: ﴿٤٣﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٤﴾ قَالُوا لَوْ نَدْرِكُ النَّصْلَ ﴿٤٥﴾ لَرَكْنَا نَكُّعًا لِّعَلَّيْكَ نَعْلَمُ. وقال قتادة: كلما غوى غاوى غويانا معه، ﴿وَكُنَّا نَكُوبُ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ يعني: الموت. كقوله: ﴿وَأَعْيَدَ رَبِّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر: ٩٩]، وقال رسول الله ﷺ: «أما هو - يعني عثمان بن مظعون - فقد جاءه اليقين من ربه». قال الله تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أَي: من كان متصفاً بهذه الصفات فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه؛ لأن الشفاعة إنما تنجح إذا كان المحل قابلاً، فاما من وافى الله كافراً يوم القيامة فإنه له النار لا محالة، خالداً فيها. ثم قال تعالى: ﴿فَمَا لَمْ يَنْتَهِ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُبْرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ أَي: فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك عما تدعوهم إليه وتذكرهم به معرضين، ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّشْتَبِهَةٌ ﴿٥١﴾﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥٢﴾﴾ أَي: كأنهم في نفارهم عن الحق، وإعراضهم عنه حُمُرٌ من حمر الوحش إذا فرت ممن يريد صيدها من أسد، قاله أبو هريرة، وابن عباس - في رواية عنه - وزيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن. أو: رام، وهو رواية عن ابن عباس، وهو قول الجمهور. وقال حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس: الأسد بالعربية، ويقال له بالحبيشية: قسورة، وبالفارسية: شير، وبالنبطية: أوياء. وقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى شُحُفًا مِّثْلَ هَذِهِ ﴿٥٣﴾﴾ أَي: بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاباً كما أنزل علي النبي. قاله مجاهد وغيره، كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ جَاهَنَّمَ مِثْلَ آيَةٍ قَالُوا لَوْ نَدْرِكُ النَّصْلَ لَرَكْنَا نَكُّعًا لِّعَلَّيْكَ نَعْلَمُ. وفي رواية عن قتادة: يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل. فقوله: ﴿فَمَا لَمْ يَنْتَهِ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُبْرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ أَي: حقاً إن القرآن تذكرة، ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٤﴾﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿٥٥﴾﴾ ، كقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿٥٦﴾﴾ [الإنسان: ٣٠]. وقوله: ﴿هُوَ أَهْلُ النَّفَرِ وَأَهْلُ الْغَفَرِ ﴿٥٧﴾﴾ أَي: هو أهل أن يخاف منه، وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأتاب. قاله قتادة: وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، أخبرني سهيل - أخو حزم - حدثنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ النَّفَرِ وَأَهْلُ الْغَفَرِ ﴿٥٧﴾﴾ وقال: «قال ربكم: أنا أهل أن اتقى، فلا يجعل معي إله، فمن اتقى أن يجعل معي إلهاً كان أهلاً أن اغفر له». ورواه الترمذي، وابن ماجه من حديث زيد بن الحباب، والنسائي من حديث المعافى بن عمران كلاهما عن سهيل بن عبد الله القطعي، به. وقال الترمذي: حسن غريب، وسهيل ليس بالقوي. ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن هذبة بن خالد، عن سهيل، به. وهكذا رواه أبو يعلى، والبخاري، وغيرهم، من حديث سهيل القطعي، به.

آخر تفسير سورة «المدثر» والله الحمد والمنة وحسبنا الله ونعم الوكيل



تفسير سورة القيامة

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿١﴾ وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَلَوَةِ ﴿٢﴾﴾ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِطَامَهُ ﴿٣﴾ بَلْ قَدِيرٌ عَلَى أَنْ سُوِيَ تِلْكَ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْتَلْ لِيَأْنِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿٦﴾ فَإِنَّا بِوَيْ الْقَبْرِ ﴿٧﴾ وَخَفَ الْقَبْرِ ﴿٨﴾ وَجَمِ النَّفْسِ وَالْقَبْرِ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَدَّ ﴿١١﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يَبْئُتُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ لَوْ أَنَّ مَعَاذِرَهُ ﴿١٥﴾﴾.

قد تقدم غير مرة أن المقسم عليه متى كان منتفياً، جار الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفي. والمقسم عليه هنا هو إثبات الميعاد، والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بعث الأجساد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿١﴾ وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَلَوَةِ ﴿٢﴾﴾ ، قال الحسن: أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة. وقال قتادة: بل أقسم بهما جميعاً. هكذا حكاه ابن أبي حاتم. وقد حكى ابن جرير، عن الحسن والأعرج أنهما قرآ: «لأقسم بيوم القيامة»، وهذا يوجه قول الحسن؛ لأنه أثبت القسم بيوم القيامة ونفى القسم بالنفس اللوامة. والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً كما قاله قتادة رحمه الله، وهو المروي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، واختاره ابن جرير. فأما يوم القيامة فمعروف، وأما النفس اللوامة، فقال قره بن خالد، عن الحسن البصري

في هذه الآية: إن المؤمن - والله - ما نراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلمتي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ وإن الفاجر يعمي قُدماً ما يعاتب نفسه. وقال جَوْنَيْر: بلغنا عن الحسن أنه قال في قوله: ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَاِمَةَ﴾ (٢)، قال: ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا يلوم نفسه يوم القيامة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح بن مسلم، عن إسرائيل، عن سماك: أنه سأل عكرمة عن قوله: ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَاِمَةَ﴾ (٣)، قال: يلوم على الخير والشر: لو فعلت كذا وكذا. ورواه ابن جرير، عن أبي كَرْزُب، عن وكيع عن إسرائيل. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مؤمل، حدثنا سفيان، عن ابن جُرَيْج، عن الحسن بن مسلم، عن سعيد بن جبير في: ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَاِمَةَ﴾ (٤)، قال: تلوم على الخير والشر. ثم رواه من وجه آخر عن سعيد أنه سأل ابن عباس عن ذلك: فقال: هي النفس اللوؤم. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: تندم على ما فات وتلوم عليه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: اللوامة: المذمومة. وقال قتادة: ﴿اللَّوَاِمَةُ﴾: الفاجرة. قال ابن جرير: وكل هذه الأقوال متقاربة بالمعنى، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر، وتندم على ما فات. وقوله: ﴿يَتَحَسَّبُ الْإِنْسَانُ أَن يَمُوتَ عَظَامَةً﴾ (٥)، أي: يوم القيامة، أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة؟ ﴿بَلْ قَدَرِينَ عَلَٰهُ أَن تُسَوَّىٰ بَنَانَهُ﴾ (٦)، قال سعيد بن جبير والعوفي، عن ابن عباس: أن نجعله خُفًّا أو حافراً. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وفتادة، والضحاك، وابن جرير. ووجه ابن جرير بأنه تعالى لو شاء لجعل ذلك في الدنيا. والظاهر من الآية أن قوله: ﴿قَدَرِينَ﴾، حال من قوله: ﴿يَمُوتَ﴾ (٧)، أي: أيظن الإنسان أن لا نجتمع عظامه؟ بل سنجمعها قادرين على أن تُسَوَّىٰ بنانه، أي: قدرتنا صالحة لجمعها، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان، فنجعل بنانه - وهي أطراف أصابعه - مستوية. وهذا معنى قول ابن قتبية، والزجاج. وقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِقَابَ رَبِّهِ﴾ (٨)، قال سعيد، عن ابن عباس: يعني يمضي قدماً. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿لِقَابَ رَبِّهِ﴾ يعني: الأمل، يقول الإنسان: أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة، ويقال: هو الكفر بالحق بين يدي القيامة. وقال مجاهد: ﴿لِقَابَ رَبِّهِ﴾: يمضي أمامه ركباً رأسه. وقال الحسن: لا يلقى ابن آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قُدماً قُدماً، إلا من عصمه الله. وروى عن عكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، والسدي، وغير واحد من السلف: هو الذي يجعل الذنوب وُسُوف التوبة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو الكافر يكذب بيوم الحساب. وكذا قال ابن زيد، وهذا هو الأظهر من المراد؛ ولهذا قال بعده: ﴿يَتَنَبَّأُ أَنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (٩)، أي: يقول متى يكون يوم القيامة؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه، وتكذيب لوجوده، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٠)، قل لَكُمْ يَبْعَادُ يَوْمٌ لَا تَسْتَفْهِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْقُطُونَ (١١). [سبا: ٢٩، ٣٠]. وقال تعالى ها هنا: ﴿وَلَا يَرَىٰ الْبَصَرُ﴾ (١٢)، قال أبو عمرو بن العلاء: ﴿رَبِّهِ﴾ بكسر الراء، أي: حار. وهذا الذي قاله شبيه بقوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، بل ينظرون من الفزع هكذا وهكذا، لا يستقر لهم بصر على شيء، من شدة الرعب. وقرأ آخرون: «برق» بالفتح، وهو قريب في المعنى من الأول. والمقصود أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخضع وتحار وتذل من شدة الأحوال، ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور. وقوله: ﴿وَحَسَفَ الْقَمَرُ﴾ (١٣)، أي: ذهب ضوؤه، ﴿وَجِجَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (١٤)، قال مجاهد: كُورًا. وقرأ ابن زيد عند تفسير هذه الآية: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١٥) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (١٦) [التكوير: ١، ٢] وروى عن ابن مسعود أنه قرأ: «وَجُمِعَ بين الشمس والقمر». وقوله: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ (١٧)، أي: إذا عاين ابن آدم هذه الأحوال يوم القيامة، حينئذ يريد أن يفر ويقول: ﴿أَيْنَ الْمَفَرُّ؟﴾ أي: هل من ملجأ أو موئل؟ قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ (١٨) إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ لَّتَشْتَرُ (١٩). قال ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف: أي لا نجاة. وهذه كقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّصِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧] أي: ليس لكم مكان تنتكرون فيه، وكذا قال ها هنا: ﴿لَا وَزَرَ﴾ (٢٠) أي: ليس لكم مكان تعتصمون فيه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ لَّتَشْتَرُ﴾ (٢١)، أي: المرجع والمصير. ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (٢٢)، أي: يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها، أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها، كما قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لَّامَّا عَمِلُوا خَيْرًا وَلَا يَنْظُرُونَ إِلَّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وهكذا قال ها هنا: ﴿بَلْ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (٢٣) وَلَوْ أَنَّهُ لَرَأَىٰ مَا يُخَيَّرُ (٢٤)، أي: هو شهيد على نفسه، عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَىٰ كَيْفَ كُنَّا يَتَفَتَحُ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا﴾ (٢٥) [الإسراء: ١٤].

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿بَلْ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (٢٦) يقول: سمعه وبصره ويداه ورجلاه وجوارحه. وقال قتادة: شاهد على نفسه. وفي رواية قال: إذا شئت - والله - رأيته بصيراً بعيوب الناس وذنوبهم غافلاً عن ذنوبه، وكان يقال: إن في الإنجيل مكتوباً: يا ابن آدم، تُبصر القذاة في عين أخيك، وتترك الجذال في عينك لا تبصره. وقال مجاهد: ﴿وَلَوْ أَنَّهُ لَرَأَىٰ مَا يُخَيَّرُ﴾ (٢٧) : ولو جادل عنها فهو بصير عليها. وقال قتادة: ﴿وَلَوْ أَنَّهُ لَرَأَىٰ مَا يُخَيَّرُ﴾ (٢٨) : ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه. وقال

الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم، وهي الزيادة». ثم تلا هذه الآية: ﴿لَلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَّعُوا فِي زِيَادَةٍ﴾ [يونس: ٢٦].

وفي أفراد مسلم، عن جابر في حديثه: «إن الله يتجلى للمؤمنين يضحك» - عني في عرصات القيامة - ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم ﷻ في العرصات، وفي روضات الجنات. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا عبد الملك بن أبجر، حدثنا ثوير بن أبي فاختة، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه ألفي سنة، يرى أقصاه كما يرى أدناه، ينظر إلى أزواجه وخدمه. وإن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرتين». ورواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن شبابة، عن إسرائيل، عن ثوير قال: «سمعت ابن عمر...» فذكره، قال: ورواه عبد الملك بن أبجر، عن ثوير، عن مجاهد، عن ابن عمر، قوله. وكذلك رواه الثوري، عن ثوير، عن مجاهد، عن ابن عمر، ولم يرفعه. ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن، ولكن ذكرنا ذلك مفزاً في مواضع من هذا التفسير، وبالله التوفيق. وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام. وهذه الأنام. ومن تأول ذلك بأن المراد بـ﴿إِلَى﴾ مفرد الآلاء، وهي النعم، كما قال الثوري، عن منصور، عن مجاهد: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ (٢٦)، فقال: تنتظر الثواب من ربها. رواه ابن جرير من غير وجه عن مجاهد. وكذا قال أبو صالح أيضاً فقد أبعد هذا القائل النجعة، وأبطل فيما ذهب إليه. وأين هو من قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ (١٥) [المطففين: ١٥]، قال الشافعي، رحمه الله: ما حجب الفجار إلا وقد علم أن الأبرار يرونه ﷻ. ثم قد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ بما دل عليه سياق الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ (٢٦). قال ابن جرير: حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا آدم، حدثنا المبارك، عن الحسن: ﴿وَيَوْمَئِذٍ نَاطِرَةٌ﴾ (٢٦)، قال: حسنة، ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ (٢٦)، قال: تنظر إلى الخالق، وحق لها أن تنظر وهي تنظر إلى الخالق. وقوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ (٢٦) نَظَرٌ أَنْ يَقْلَ بِهَا فَاقَرَّةٌ (٢٦): هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة بأسرة. قال قتادة: كالحة. وقال السدي: تغير ألوانها. وقال ابن زيد: ﴿بَاسِرَةٌ﴾ أي: عابسة. ﴿نَظَرٌ﴾ أي: تستيقن، ﴿أَنْ يَقْلَ بِهَا فَاقَرَّةٌ﴾ (٢٦)، قال مجاهد: داهية. وقال قتادة: شر. وقال السدي: تستيقن أنها هالكة. وقال ابن زيد: تظن أن ستدخل النار. وهذا المقام كقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وكقولوه: ﴿وَيَوْمَئِذٍ تُنْفِرُ الْمَاجِدَةُ مُنْفِرَةً﴾ (٢٨) حَاجِكَةُ مُنْتَشِرَةً (٢٩) وَيَوْمَئِذٍ عَلَيْنَا عَازِرَةٌ (٣٠) تَرْفَعُنَا فَتَرَى (٣١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ الْغَوَّارُونَ (٣٢)، [عبس: ٣٨-٤٢] وكقوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ عَشِيشَةٌ﴾ (٢) عَازِلَةٌ نَاصِيَةٌ (٣) نَصَلُ نَارًا حَاصِيَةً (٤)، إلى قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ (٨) لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ (١٠) [الغاشية: ٢-١٠]، في أشباه ذلك من الآيات والسياقات. ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الْقَرَابَةَ﴾ (٢٦) يَقِلُّ مَنْ رَأَى (٢٧) وَنَظَرَ أَنَّهُ الْفَرَادُ (٢٨) وَالْقَلْبُ أَلْسَانُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاءُ (٣٠) فَلَا سَكَنَ وَلَا سَلَ (٣١) وَلَكِنْ كَذَبٌ وَفَوَلَّ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَعْلَاهُ يَنْتَهِى (٣٣) أُولَئِكَ لَكَ فَاقَرَّةٌ (٣٤) ثُمَّ أُولَئِكَ فَاقَرَّةٌ (٣٥) أَحْسَبُ الْآرِسِينَ أَنْ يُرَكَّ سَكَنٌ (٣٦) أَوَّيْكَ تَلْعَنُ مِنْ مَرٍ يَتَّقُ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَقَبُهُ مَقَلَقٌ سَكَنٌ (٣٨) جَعَلَ مِنْهُ الْآرِسِينَ الذِّكْرَ وَالْأُنثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَذِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْوَلَدُ (٤٠). يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال - ثبتنا الله هناك بالقول الثابت - فقال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الْقَرَابَةَ﴾ (٢٦)، إن جعلنا ﴿كَلَّا﴾ رادعة فمعناها: لست يا ابن آدم تكذب هناك بما أخبرت به، بل صار ذلك عندك عياناً. وإن جعلناها بمعنى (حقاً) فظاهر، أي: حقاً إذا بلغت التراقي، أي: انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك، والتراقي: جمع ترقوة، وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق، كقوله: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ (٢٧) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ (٢٨) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُعْصِرُونَ (٢٩) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ عَذْرَ مَدِينٍ (٣٠) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) [الواقعة: ٨٣-٨٧]. وهكذا قال هاهنا: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الْقَرَابَةَ﴾ (٢٦) ويذكرها هنا حديث بئر بن جحاش الذي تقدم في سورة «يس». والتراقي: جمع ترقوة، وهي قريبة من الحلقوم. ﴿وَقِيلَ مَنْ رَأَى﴾ (٢٧)، وكذا قال قتادة، والضحاك، وابن زيد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نصر بن علي، حدثنا روح بن المسيب أبو رجاء الكلبي، حدثنا عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَأَى﴾ (٢٧) قال: قيل: من يرى بروحه ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ فعلى هذا يكون من كلام الملائكة. وبهذا الإسناد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْقَلْبُ أَلْسَانُ بِالسَّاقِ﴾ (٢٩) قال: التفث عليه الدنيا والآخرة. وكذا قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَالْقَلْبُ أَلْسَانُ بِالسَّاقِ﴾ (٢٩)، يقول: آخر يوم من أيام الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة، فتلتقي بالشدة إلا من رحم الله. وقال عكرمة: ﴿وَالْقَلْبُ أَلْسَانُ بِالسَّاقِ﴾ (٢٩): الأمر العظيم بالأمر العظيم. وقال مجاهد: بلاء ببلاء. وقال الحسن البصري في قوله: ﴿وَالْقَلْبُ أَلْسَانُ بِالسَّاقِ﴾ (٢٩)، هما ساقاك إذا التفتا. وفي رواية عنه: ماتت

الْمَوْتُ ﴿١٠﴾؟ فليقل: بلى. ومن قرأ: ﴿وَالْتَرَمَكْتُ﴾ فبلغ: ﴿يَأَيُّ حَيِّثُ بَدَّؤُ يَوْمُوتُونَ ﴿٥٥﴾﴾؟ فليقل: آمنا بالله. ورواه أحمد، عن سفيان بن عيينة. ورواه الترمذي عن ابن أبي عمر، عن سفيان بن عيينة. وقد رواه شعبة، عن إسماعيل بن أمية قال: قلت له: من حدثك؟ قال رجل صدق، عن أبي هريرة. وقال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة، قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ﴾ أَنَّ يُحْيِيَ الْمَوْتَ ﴿١١﴾﴾. ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأها قال: «سبحانك ويلي». قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه مر بهذه الآية: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ﴾ أَنَّ يُحْيِيَ الْمَوْتَ ﴿١١﴾﴾؟ قال: سبحانك، فبلى.

آخر تفسير سورة «القيامة» وشه الحمد والمنة



تفسير سورة الإنسان

وهي مكية. قد تقدم في صحيح مسلم، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿الَّذِي تَوَلَّى السُّجُودَ﴾ و﴿هَذَا أَقَرُّ عَلَى الْإِنْسَانِ﴾. وقال عبد الله بن وهب: أخبرنا ابن زيد: أن رسول الله ﷺ قرأ هذه السورة: ﴿هَذَا أَقَرُّ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ يَنْزِلُ الدَّهْرُ﴾، وقد أنزلت عليه وعنده رجل أسود، فلما بلغ صفة الجنان، زفر زفرة فخرجت نفسه. فقال رسول الله ﷺ: «أخرج نفس صاحبكم» أو قال: أخيكم - الشوق إلى الجنة. مرسل غريب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَذَا أَقَرُّ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ يَنْزِلُ الدَّهْرُ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴿١﴾﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ تُطْفَئَةِ أَمْشَاجٍ تَنْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَيْمًا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّا شَاكِرًا وَإِنَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر، لحقارته وضعفه، فقال: ﴿هَذَا أَقَرُّ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ يَنْزِلُ الدَّهْرُ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴿١﴾﴾؟ ثم بين ذلك فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ تُطْفَئَةِ أَمْشَاجٍ﴾ أي: أخلاط. والمشج والمشيح: الشيء الخليط، بعضه في بعض. قال ابن عباس في قوله: ﴿مِنْ تُطْفَئَةِ أَمْشَاجٍ﴾ يعني: ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتماعا واختلطا، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور، وحال إلى حال، ولون إلى لون. وهكذا قال عكرمة، ومجاهد، والحسن، والربيع بن أنس: الأمشاج: هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة. وقوله: ﴿تَنْتَلِيهِ﴾ أي: نخبره، كقوله: ﴿يَبْلُوكُمْ أَبْكُمُ لَأَسْنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَيْمًا بَصِيرًا﴾ أي: جعلنا له سمعاً وبصراً يتمكن بهما من الطاعة والمعصية. وقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي: بيناه له ووضحناه وبصرناه به، كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْكَلْبِ﴾ [فصلت: ١٧]، وكقوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البعد: ١٠]، أي: بيناه له طريق الخير وطريق الشر. وهذا قول عكرمة، وعطية، وابن زيد، ومجاهد - في المشهور عنه - والجمهور. ورؤي عن مجاهد، وأبي صالح، والضحاك، والسدي أنهم قالوا في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾: يعني خروجه من الرحم. وهذا قول غريب، والصحيح المشهور الأول. وقوله: ﴿إِنَّا شَاكِرًا وَإِنَّا كَفُورًا﴾: منصوب على الحال من «الهاء» في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ تقديره: فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كل الناس يغدو، فبائع نفسه فموقبها أو مُتَّقِهَا». وتقدم في سورة «الروم» عند قوله: ﴿وَفُطِّرْتُ أَنفَ لَئِي فَطَرْتُ النَّاسَ عَلَيَّهَا﴾ [الروم: ٣٠]، من رواية جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يُعرب عنه لسانه، فإذا أعرب عنه لسانه، فأما شاكراً وإما كفوراً». وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا عبد الله بن جعفر، عن عثمان بن محمد، عن المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما من خارج يخرج إلا باباه رايثان: راية بيد ملك، وراية بيد شيطان، فإن خرج لما يُحِبُّ الله اتبعه الملك برايته، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته. وإن خرج لما يُسُخِط الله اتبعه الشيطان برايته، فلم يزل تحت راية الشيطان، حتى يرجع إلى بيته».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن ابن خُثَيْم، عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر بن عبد الله: أن النبي ﷺ قال لكعب بن عُجْرة: «أعاذك الله من إمارة السفهاء». قال: وما إمارة السفهاء؟ قال: «أمرأه يكونون من بعدي، لا يهتدون بهدي، ولا يستنون بسنتي، فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم، فأولئك ليسوا مني ولست منهم، ولا يردون

على حوضي. ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يُعَظِّمُوا عَلَى ظُلْمِهِمْ، فأولئك مني وأنا منهم، وسيردون على حوضي. يا كعب بن عُجرة، الصوم جنة، والصدقة تطفيء الخطيئة، والصلاة قربان - أو قال: برهان - يا كعب بن عجرة، إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سُخْت، النار أولى به. يا كعب، الناس غاديان، فمبتاعٌ نفسه فمعتقها، وبائع نفسه فموقبها». ورواه عن عفان، عن وُقيب، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، به.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا وَآغْلَلْنَا وَسَمِيرًا ﴿١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٢﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٣﴾ يُؤْتُونَ بِالنَّدَى وَمَأْكُوفًا يَوْمَ كَانَ شَرْهُهُمُ مُسْتَطِيرًا ﴿٤﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٥﴾ إِنَّمَا تَطْعِمُهُم لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ تَزْكِيًّا ﴿٦﴾ وَلَا تَشْكُرُوا ﴿٧﴾ إِنَّمَا تَأْكُلُ مِن رِّبَا يَوْمَ عُثِرَ عَلَىٰ قَطَرٍ ﴿٨﴾ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْبَوْرِ وَلَقِّنَهُمْ نَصْرًا وَرُسُودًا ﴿٩﴾ نَجَّيْنَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةَ وَحَرِيرٍ ﴿١٠﴾﴾.

يخبر تعالى عما أُرصد له للكافرين من خلقه به من السلاسل والأغلال والسعير، وهو اللهب والحريق في نار جهنم، كما قال: ﴿إِذْ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧﴾ فِي لَحْبِيرٍ شَرٌّ فِي الْآثَارِ يُسْجَرُونَ ﴿٨﴾﴾ (غافر: ٧١، ٧٢). ولما ذكر ما أَعَدَّ لهؤلاء الأشقياء من السعير قال بعده: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٢﴾﴾، وقد علم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة، مع ما يضاف إلى ذلك من اللذادة في الجنة. قال الحسن: برد الكافور في طيب الزنجبيل، ولهذا قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٣﴾﴾ أي: الذي مُزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفاً بلا مزج ويَزَوُّونَ بها، ولهذا ضمن يشرب «يروي» حتى عداه بالباء، ونصب ﴿عَيْنًا﴾ على التمييز. قال بعضهم: هذا الشراب في طيبة كالكافور. وقال بعضهم: هو من عين كافور. وقال: بعضهم: يجوز أن يكون منصوباً بـ ﴿يَشْرَبُ﴾. حكى هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير. وقوله: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: يتصرفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا، من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم. والتفجير هو الإنباع، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْتِيَكَ لَكَ حَقٌّ تَقَدَّرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يُنْتَوَعُ ﴿٩﴾﴾ (الاسراء: ٩٠). وقال: ﴿وَجَعَلْنَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف: ٣٣]. قال مجاهد: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾: يقودونها حيث شاؤوا، وكذا قال عكرمة، وقتادة. وقال الثوري: يصرفونها حيث شاؤوا. وقوله: ﴿يُؤْتُونَ بِالنَّدَى وَمَأْكُوفًا يَوْمَ كَانَ شَرْهُهُمُ مُسْتَطِيرًا ﴿٤﴾﴾ أي: يتعبدون الله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبه على أنفسهم بطريق النذر. قال الإمام مالك، عن طلحة بن عبد الملك الأيلي، عن القاسم بن مالك، عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»، رواه البخاري من حديث مالك. ويتركون المحرمات التي نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد، وهو اليوم الذي شره مستطير، أي: منتشر عام على الناس إلا من رحم الله. قال ابن عباس: فاشياً: وقال قتادة: استطار - والله - شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض. قال ابن جرير: ومنه قولهم: استطار الصدع في الزجاجاة واستطال. ومنه قول الأعشى:

فَبَائِثٌ وَقَدْ أُنْشِرَتْ فِي الْقُفَا دَصْدَعًا، عَلَى نَائِيهَا، مُسْتَطِيرًا

يعني: ممتداً فاشياً. وقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾: قيل: على حب الله تعالى. وجعلوا الضمير عائداً إلى الله ﷻ للدلالة السياق عليه. والأظهر أن الضمير عائد على الطعام، أي: يطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوته لهم، قاله مجاهد، ومقاتل، واختاره ابن جرير، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكَلِ الْأَوَّلَىٰ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وكقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. وروى البيهقي، من طريق الأعمش، عن نافع قال: مرض ابن عمر فاشتبهت عنباً - أول ما جاء العنب - فأرسلت صفيه - يعني امرأته - فاشتريت عنقوداً بدرهم، فأتبع الرسول السائل، فلما دخل به قال السائل: السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه. فأعطوه إياه. ثم أرسلت بدرهم آخر فاشتريت عنقوداً فأتبع الرسول السائل، فلما دخل قال السائل: السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه. فأعطوه إياه. فأرسلت صفيه إلى السائل فقالت: والله إن عُدت لا تصيبُ منه خيراً أبداً. ثم أرسلت بدرهم آخر فاشتريت به. وفي الصحيح: «أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح، شحيح، تأمل الغنى، وتخشى الفقر»، أي: في حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٥﴾﴾. أما المسكين واليتيم، فقد تقدم بيانهما وصفتهما. وأما الأسير: فقال سعيد بن جبير، والحسن، والضحاك: الأسير: من أهل القبلة. وقال ابن عباس: كان أسراؤهم يومئذ مشركين. ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء، وهكذا قال سعيد بن جبير، وعطاء، والحسن، وقتادة. وقد وصى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء في غير ما حديث، حتى إنه كان آخر ما أوصى أن جعل يقول: «الصلاة وما ملكت أيمانكم». وقال عكرمة: هم العبيد - واختاره ابن جرير - لعموم الآية للمسلم والمشرك. وقال مجاهد: هو المحبوس، أي: يطعمون لهؤلاء

الطعام وهم يشتهونه ويحيونه، قائلين بلسان الحال: ﴿إِنَّا ظَلَمْنَا لِنَفْسِنَا﴾ أي: رجاء ثواب الله ورضاه، ﴿لَا يُبْدِ سِرَّكَ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ أي: لا نطلب منكم مجازاة تكافؤنا بها ولا أن تشكرونا عند الناس. قال مجاهد وسعيد بن جبير: أما والله ما قالوه بالسنتهم، ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به ليرغب في ذلك راغب. ﴿إِنَّا نَحْنُ مِنْ رَبِّكَ يَوْمًا عَبُودًا فَطِيرًا﴾ (١٣) أي: إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه، في اليوم العبوس القمطرير. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿عَبُودًا﴾: ضيقاً، ﴿فَطِيرًا﴾: طويلاً. وقال عكرمة وغيره، عنه، في قوله: ﴿يَوْمًا عَبُودًا فَطِيرًا﴾ أي: يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران. وقال مجاهد: ﴿عَبُودًا﴾: العابس الشفتين، ﴿فَطِيرًا﴾: قال: تقبيض الوجه بالبُسُور. وقال سعيد بن جبير، وقادة: تعبس فيه الوجه من الهول، ﴿فَطِيرًا﴾: تغليس الجبين وما بين العينين، من الهول. وقال ابن زيد: العبوس: الشر. والقمطرير: الشديد. وأوضح العبارات وأجلها وأحلاها، وأعلاها وأولاها قول ابن عباس، رضي الله عنه. قال ابن جرير: والقمطرير هو: الشديد؛ يقال: هو يوم قمطرير ويوم قماطر، ويوم عصب وعصبب، وقد اقمطر اليوم يقمطر اقمطاراً، وذلك أشد الأيام وأطولها في البلاء والشدة، ومنه قول بعضهم:

بنسي عمننا، هل تذكرون بلاءنا؟
عليكم إذا ما كان يوم قماطر
قال الله تعالى: ﴿فَوَقَّهَهُمُ اللَّهُ سَرَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهَهُمْ نَصْرَهُ وَوَسَّوْهُمَا﴾ (١٤)، وهذا من باب التجانس البليغ، ﴿فَوَقَّهَهُمُ اللَّهُ سَرَ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ أي: أمنهم مما خافوا منه، ﴿وَلَقَّهَهُمْ نَصْرَهُ﴾ أي: في وجوهم، ﴿وَسَّوْهُمَا﴾ أي: في قلوبهم. قاله الحسن البصري، وقادة، وأبو العالية، والربيع بن أنس. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَبُيُوتُهُمْ يُؤْمَرُونَ شُهُورًا﴾ (٢٨) سَائِكَةً شَتَّى شَتَّى (٢٩) [عبس: ٣٨، ٣٩]. وذلك أن القلب إذا سُر استنار الوجه، قال كعب بن مالك في حديثه الطويل: وكان رسول الله ﷺ إذا سُر، استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر. وقالت عائشة: دخل علي رسول الله ﷺ مسروراً تبرق أسارير وجهه. الحديث. وقوله: ﴿وَبُيُوتُهُمْ يُؤْمَرُونَ شُهُورًا﴾ أي: بسبب صبرهم أعطاهم ونولهم ويوأمهم ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أي: منزلاً رجباً، وعيشاً رعداً، ولباساً حسناً. وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة هشام بن سليمان الداراني قال: قرئ على أبي سليمان الداراني سورة: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾، فلما بلغ القارئ إلى قوله: ﴿وَبُيُوتُهُمْ يُؤْمَرُونَ شُهُورًا﴾، قال بما صبروا على ترك الشهوات في الدنيا، ثم أنشد:

كم قنيل بشهوة وأسير
شهوأت الإنسان تورثه اللذل
أف من مُشْتَهَى خلاف الجميل
وثُلُقِيهِ فِي الْبَلَاءِ الطُّوِيلِ

﴿فَتُكَيِّفُ فِيهَا عَلَى الْآرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَسَا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ (١٥) وَدَائِيَّةٌ عَلَيْهِمْ يَلْبَثُهَا وَذُلَّتْ فَطُورُهَا نَذِيلًا (١٦) وَطَلَّاتٌ عَلَيْهِمْ يَبَازِيهِ مِنْ فَضْوٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا (١٧) قَوَارِيرًا مِنْ فَضْوٍ مَقْرُوعًا نَقِيرًا (١٨) وَتَسْتَوْنَ فِيهَا كَأَنَّا كَانُوا بِرِشَاهِمَا رَجِيلًا (١٩) بَيْنَ فِيهَا شَمْسٌ سَائِيكٌ (٢٠) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانِ عُلْدَانِ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَبِطَتْهُنَّ لَوْلُؤُهُنَّ شُكْرًا (٢١) وَلَئِذَا رَأَيْتَ نِيَمًا وَمَلَكًا كِبِيرًا (٢٢) عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدِّي خُصْرٌ وَاسْتَبْرَقٌ وَكُلُوا أَسْوَدَ مِنْ فَضْوٍ وَسَقَتْهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاكًا طُورًا (٢٣) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُنَّ جَزَاءً وَكَانَ سَعِيرًا مُشْكُورًا (٢٤).

يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم، وما أسبغ عليهم من الفضل المقيم فقال: ﴿فَتُكَيِّفُ فِيهَا عَلَى الْآرَائِكِ﴾. وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة «الصفات»، وذكر الخلاف في الاتكاء، هل هو الاضطجاع، أو التمرق، أو التربع، أو التمكن في الجلوس؟ وأن الأرائك هي الشرر تحت الحجال. وقوله: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَسَا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي: ليس عندهم حر مزعج، ولا برد مؤلم، بل هي مزاج واحد دائم سُرْمَدِي: ﴿لَا يَبْغُوتُ عَنْهَا غَوْلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]. وَدَائِيَّةٌ عَلَيْهِمْ يَلْبَثُهَا أي: قريبة إليهم أغصانها، ﴿وَذُلَّتْ فَطُورُهَا نَذِيلًا﴾ أي: متى تعاطاه دنا القطف إليه وتدلّى من أعلى غصنه، كأنه سامع طائع، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَبَيْنَ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿فَطُورُهَا دَائِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣]. قال مجاهد: ﴿وَذُلَّتْ فَطُورُهَا نَذِيلًا﴾: إن قام ارتفعت بقدره، وإن قعد تدلّت له حتى ينالها، وإن اضطجع تدلّت له حتى ينالها، فذلك قوله: ﴿نَذِيلًا﴾. وقال قتادة: لا يرد أيديهم عنها شوك ولا بُعد. وقال مجاهد: أرض الجنة من ورق، وترابها المسك، وأصول شجرها من ذهب وفضة، وأفنانها من اللؤلؤ الرطب والزبرجد والياقوت، والورق والتمر بين ذلك. فمن أكل منها قائماً لم يؤذه، ومن أكل منها قاعداً لم يؤذه، ومن أكل مضطجعا لم يؤذه. وقوله: ﴿وَطَلَّاتٌ عَلَيْهِمْ يَبَازِيهِ مِنْ فَضْوٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي: يطوف عليهم الخدم بأواني الطعام، وهي من فضة، وأكواب الشراب وهي الكيزان التي لا عرى لها ولا خراطيم. وقوله: ﴿قَوَارِيرًا﴾ (٢٥) قَوَارِيرًا مِنْ فَضْوٍ، فالأول منصوب بخبر «كان» أي: كانت قوارير. والثاني منصوب إما على البدلية، أو تمييز؛ لأنه بينه بقوله: ﴿قَوَارِيرًا مِنْ فَضْوٍ﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن البصري، وغير واحد: يياض الفضة في صفاء الزجاج، والقوارير لا تكون إلا من زجاج. فهذه الأكواب هي

من فضة، وهي مع هذا شفافة يرى ما في باطنها من ظاهرها، وهذا مما لا نظير له في الدنيا. قال ابن المبارك، عن إسماعيل، عن رجل، عن ابن عباس: ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيت في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿قَدَرًا نَقِيرًا﴾ أي: على قدر رتبهم، لا تزيد عنه ولا تنقص، بل هي معدة لذلك، مقدرة بحسب رتب أصحابها. هذا معنى قول ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، وأبي صالح، وقتادة، وابن أبيزى، وعبد الله بن عبيد بن عمير، وقتادة، والشعبي، وابن زيد. وقاله ابن جرير وغير واحد. وهذا أبلى في الاعتناء والشرف والكرامة. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿قَدَرًا نَقِيرًا﴾: قدرت للكف. وهكذا قال الربيع بن أنس. وقال الضحاك: على قدر أكف الخدام. وهذا لا ينافي القول الأول، فإنها مقدرة في القدر والرتب. وقوله: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأَنَّ كَانِ بِرَاجِئًا زَفِيرًا﴾ (١٣) أي: ويسقون - يعني الأبرار أيضاً - في هذه الأكواب ﴿كَأَنَّ﴾ أي: خمرًا، ﴿كَانِ بِرَاجِئًا زَفِيرًا﴾، فثارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وثارة بالزنجبيل، وهو حار، ليعتدل الأمر، وهؤلاء يمزج لهم من هذا ثارة ومن هذا تارة. وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صرفاً، كما قاله قتادة وغير واحد. وقد تقدم في قوله: ﴿عَيْنًا يَتَمَرَّطُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾، وقال ههنا: ﴿عَيْنًا يَتَمَرَّطُ بِهَا سُلَيْمٌ﴾ (١٤) أي: الزنجبيل عين في الجنة تسمى سلسبيلًا. قال عكرمة: اسم عين في الجنة. وقال مجاهد: سميت بذلك لسلاسة سيلها وحدة جريها. وقال قتادة: ﴿عَيْنًا يَتَمَرَّطُ بِهَا سُلَيْمٌ﴾ (١٥) : عين سلسة مستفيدة ماؤها. وحكى ابن جرير عن بعضهم أنها سميت بذلك لسلاستها في الحلق. واختار هو أنها تغم ذلك كله، وهو كما قال. وقوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّغَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْثُورًا﴾ (١٦) أي: يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة ﴿مُغَلَّدُونَ﴾ أي: على حالة واحدة مغلدون عليها، لا يتغيرون عنها، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن. ومن فسرهم بأنهم مخرصون في آذانهم الأقرطة، فإنما عبر عن المعنى بذلك، لأن الصغير هو الذي يليق له ذلك دون الكبير. وقوله: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْثُورًا﴾ أي: إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة، وكثرتهم، وصباحة وجوههم، وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم، حسبتهم لؤلؤاً منثوراً. ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن.

قال قتادة، عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو: ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف خادم، كل خادم على عمل ما عليه صاحبه. وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ أي: وإذا رأيت يا محمد، ﴿عَيْنًا﴾ أي: هناك، يعني في الجنة ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الخيرة والسرور، ﴿رَأَيْتَ عَيْنًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ أي: مملكة الله هناك عظيمة وسلطاناً باهراً. وثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجا منها، وآخر أهل الجنة دخولا إليها: إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها. وقد قذمت في الحديث المروي من طريق ثوير بن أبي فاختة، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه». فإذا كان هذا عطاؤه تعالى لأدنى من يكون في الجنة، فما ظنك بما هو أعلى منزلة، وأحظى عنده تعالى. وقد روى الطبراني ما هنا حديثاً غريباً جداً فقال: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن عمار الموصلي، حدثنا عفيف بن سالم، عن أبيوب بن عتبة، عن عطاء، عن ابن عمر قال: جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله ﷺ: فقال له رسول الله: «سل واستفهم». فقال: يا رسول الله، فضّلتم علينا بالصور والألوان والنبوة، أفرأيت إن آمنّت بما آمنّت به وعملت بما عملت به، إني لكائن معك في الجنة؟ قال: «نعم، والذي نفسي بيده، إنه ليُرى يياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام». ثم قال رسول الله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله، كان له بها عهد عند الله، ومن قال: سبحان الله وبحمده، كتب له مائة ألف حسنة، وأربعة وعشرون ألف حسنة». فقال رجل: كيف نهلك بعد هذا يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليأتي يوم القيامة بالعمل لو وضع على جبل لأثقله، فتقوم النعمة - أو: نعم الله - فتكاد تستنفد ذلك كله، إلا أن يتغنّاه الله برحمته». ونزلت هذه السورة: ﴿هَذَا أَنَّهُ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ رَآه أَنَّهُ ضَرْبٌ كَرِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾. فقال الحبشي: وإن عيني لترى ما ترى عينك في الجنة؟ قال: «نعم». فاستبكي حتى فاضت نفسه. قال ابن عمر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يُدليه في خفرتة بيده. وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ يَابُّ سُدُنٍّ خُضْرٌ رَّاسِقٌ﴾ أي: لباس أهل الجنة فيها الحريري، ومنه سندس، وهو رفيع الحريري كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان، وهو مما يلي الظاهر، كما هو المعمود في اللباس. ﴿وَعَلَا أَسَاوِرٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وهذه صفة الأبرار، وأما المقربون فكما قال: ﴿يُحْكَمُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلي قال بعده: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي: طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديّة، كما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال: إذا انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة

وجدوا هنالك عينين فكانما ألهموا ذلك فشرّبوا من إحداها فأذهب الله ما في بطونهم من أذى، ثم اغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم. وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعِيرًا فَتَبَيَّنُوا﴾ (٢٢) أي: يقال لهم ذلك تكريماً لهم وإحساناً إليهم كقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِغَةِ﴾ (٢٤)، والحاقة: (٢٤)، وكقوله: ﴿وَوَدُّوا أَنْ يَلْبَسُوا الْحَبَّةَ الْوُثْقَىٰ بِمَا كُتِبَتْ لَهُمْ﴾ (٤٣). وقوله: ﴿وَكَانَ سَعِيرًا فَتَبَيَّنُوا﴾ أي: جزاكم الله على القليل بالكثير.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾ (٢٣) فاصبر لِمَكْرِ رَبِّكَ وَلَا تَطْغُ بِمَنْتُمْ مَائِنًا أَوْ كُفُورًا (٢٤) وَأَذْكُرْ أَنْتَ رَبَّكَ بِكُورٍ وَأَمِيلًا (٢٥) وَبَيْنَ أَيْلٍ فَاسْتَجِدْ لَهُمْ وَسَيْحَةً لِّبَالٍ طَوِيلًا (٢٦) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٧) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٨) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٩).

يقول تعالى ممثلاً على رسوله ﷺ بما نزله عليه من القرآن العظيم تنزيلاً ﴿فَاصْبِرْ لِمَكْرِ رَبِّكَ﴾ أي: كما أكرمك بما أنزلت عليك، فاصبر على قضائه وقدره، واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره، ﴿وَلَا تَطْغُ بِمَنْتُمْ مَائِنًا أَوْ كُفُورًا﴾ أي: لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل إليك، بل بلغ ما أنزل إليك من ربك، وتوكل على الله؛ فإن الله يعصمك من الناس. فالآثم هو الفاجر في أفعاله، والكفور هو الكافر بقلبه. ﴿وَأَذْكُرْ أَنْتَ رَبَّكَ بِكُورٍ وَأَمِيلًا﴾ (٢٥) أي: أول النهار وآخره. ﴿وَبَيْنَ أَيْلٍ فَاسْتَجِدْ لَهُمْ وَسَيْحَةً لِّبَالٍ طَوِيلًا﴾ (٢٦) كقوله: ﴿وَبَيْنَ أَيْلٍ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَنِّي أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (٧٨) [الإسراء: ٧٨]، وكقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا تَحْزَنْ وَلَا تَيْسَّرْ مِنْهُ قِيلًا (٢) أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ وَرَيْلَ الْقُرْآنِ تَزِيلًا (١)﴾ [المزمل: ١-٤]. ثم قال تعالى منكراً على الكافر ومن أشبههم في حُب الدنيا والإقبال عليها والانصباب إليها، وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (٢٧) يعني: يوم القيامة. ثم قال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: يعني خلقهم. ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي: وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة، وبدلناهم فأعدناهم خلقاً جديداً. وهذا استدلال بالبداة على الرجعة. وقال ابن زيد، وابن جرير: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي: وإذا شئنا أتينا بقوم آخرين غيرهم، كقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ أَتِمًّا تَاتٍ فَإِذَا تَبَيَّنَ كُنْتُمْ كَالْعِهْنِ عَلَىٰ عُرِيٍّ﴾ (٢٠) [إبراهيم: ١٩، ٢٠، وفاطر: ١٦، ١٧]. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (٢٧) وما ذلك على الله بعزيز (٢٠) [إبراهيم: ١٩، ٢٠]. ثم قال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٢٨) [النساء: ٣٩]. ثم قال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٢٨) أي: لا يقدر أحد أن يهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان ولا يجر لنفسه نفعاً، ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٢٨) أي: عليم بمن يستحق الهداية فيبسرهما له، ويقض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة، والحقبة الدامغة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. ثم قال: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٢٩) أي: يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ومن يهده فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له.

آخر سورة «الإنسان» والله اعلم



تفسير سورة والمرسلات

وهي مكية. قال البخاري: حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثني إبراهيم، عن الأسود، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: بينما نحن مع النبي ﷺ في غار يمني، إذ نزلت عليه: ﴿وَأَنزَلْنَاكَ﴾، فإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرطب بها، إذ وثبت علينا حية، فقال النبي ﷺ: «أتلقوها». فابتدرناها فذهبت، فقال النبي ﷺ: «وَقِيَّتْ شَرَكُم كَمَا وَقِيَّتْ شَرَاهَا». وأخرجه مسلم أيضاً، من طريق الأعمش. وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن عبيد الله، عن ابن عباس، عن أمه: أنها سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات غرقاً. وفي رواية مالك، عن الزهري، عن عبيد الله، عن ابن عباس: أن أم الفضل سمعته يقرأ: ﴿وَأَنزَلْنَاكَ غُرًا﴾ (١)، فقالت: يا بني، ذكرتني بقرآنك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب. أخرجاه في الصحيحين، من طريق مالك، به.

يقول تعالى مخاطباً للكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار، أنهم يقال لهم يوم القيامة: ﴿أَسْلَفُوا إِنَّا مَا كُنَّا بِهِ نَكِيدُونَ﴾ (٢١) ﴿أَسْلَفُوا إِنَّا ظِلِّي ذِي ثَلَاثِ شَعْرٍ﴾ (٢٢). يعني: لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان، فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعور، ﴿لَا ظِلُّهُ وَلَا يَبْقَى مِنَ اللَّهَبِ﴾ (٢٣). أي: ظل الدخان المقابل للهب لا ظليل هو في نفسه، ولا يغني من اللهب، يعني: ولا يقيهم حر اللهب. وقوله: ﴿إِنَّمَا تَرَى بِشْكِرٍ كَالْقَصْرِ﴾ (٢٤). أي: يتطاير الشر من لهبها كالقصر. قال ابن مسعود: كالحصون. وقال ابن عباس وقتادة، ومجاهد، ومالك عن زيد بن أسلم، وغيرهم: يعني أصول الشجر. ﴿كَأَنَّهُمْ جَنَّاتٌ صُفْرٌ﴾ (٢٥). أي: كالإبل السود. قاله مجاهد، والحسن، وقتادة، والضحاك. واختاره ابن جرير. وعن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر: ﴿جَنَّاتٌ صُفْرٌ﴾ يعني: حبال السفن. وعنه - أعني ابن عباس -: ﴿جَنَّاتٌ صُفْرٌ﴾: قطع نحاس. وقال البخاري: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا يحيى، أخبرنا سفيان، عن عبد الرحمن بن عابس قال: سمعت ابن عباس: ﴿إِنَّمَا تَرَى بِشْكِرٍ كَالْقَصْرِ﴾ (٢٤)، قال: كنا نعد إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك، فنرفعه للشاء، فنسميه القصر، ﴿كَأَنَّهُمْ جَنَّاتٌ صُفْرٌ﴾ (٢٥). حبال السفن، تجمع حتى تكون كأوساط الرجال، ﴿وَلَّيْ يَوْمَ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٢٦). ثم قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْفَعُونَ﴾ (٢٧). أي: لا يتكلمون. ﴿وَلَا يُؤْنَسُ لَهُمْ فِتْنَتُهُمْ﴾ (٢٨). أي: لا يقدرون على الكلام، ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا، بل قد قامت عليهم الحجة، ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون. وعرضت القيامة حالات، والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة، وعن هذه الحالة تارة؛ ليدل على شدة الأهوال والزلازل يومئذ. ولهذا يقول بعد كل فصل من هذا الكلام: ﴿وَلَّيْ يَوْمَ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٢٧). وقوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ الْقَصَلِ جَمْعَتُكَ وَالْأَوَّلِينَ﴾ (٢٨) فإن كان لك كيد فيكذبون (٢٩). وهذه مخاطبة من الخالق لعباده يقول لهم: ﴿هَذَا يَوْمٌ الْقَصَلِ جَمْعَتُكَ وَالْأَوَّلِينَ﴾ (٢٨). يعني: أنه جمعهم بقدرته في صعيد واحد، يُسمعهم الداعي وينفذهم البصر. وقوله: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكَ كَيْدٌ فَيَكِيدُونَ﴾ (٣٠): تهديد شديد ووعد أكيد، أي: إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتي، وتنجوا من حكمي فافعلوا، فإنكم لا تفقدون على ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَتَمَتَّعُ الْكَاذِبُ وَالْإِنْسَانُ إِذَا اسْتَعْظَمَ أَنْ تَقْبُذَ مِنْ أَقْطَارِ السَّكُونِ وَالْآخِرِينَ أَتَقْبُذُوا لَا تَتَذَكَّرُونَ إِلَّا يَسْلُطُنِي﴾ (٣١)، [الرحمن: ٣٣] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَصْرُفْهُمْ شَيْئًا﴾ [هود: ٥٧]، وفي الحديث: يا عبادي، إنكم لن تبغوا نفعي فتفنعوني، ولن تبغوا ضري فتضروني. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن المنذر الطريقي الأودي، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا حصين بن عبد الرحمن، عن حسان بن أبي المخارق، عن أبي عبد الله الجدلي قال: أتيت بيت المقدس، فإذا عبادة بن الصامت، وعبد الله بن عمرو، وكعب الأحبار يتحدثون في بيت المقدس، فقال عبادة: إن كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين بصعيد واحد، ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي، ويقول الله: ﴿هَذَا يَوْمٌ الْقَصَلِ جَمْعَتُكَ وَالْأَوَّلِينَ﴾ (٢٨) فإن كان لك كيد فيكذبون (٣٠)، اليوم لا ينجو مني جبار عنيد، ولا شيطان مرید. فقال عبد الله بن عمرو: فإننا نحدث يومئذ أنه يخرج عنك من النار فتنتقل حتى إذا كانت بين ظهري الناس نادى: أيها الناس، إني بعثت إلى ثلاثة أنا أعرف بهم من الأب بولده ومن الأخ بأخيه، لا يعيهم عني وزر، ولا تحفيهم عني خافية: الذي جعل مع الله إلهاً آخر، وكل جبار عنيد، وكل شيطان مرید. فتطوي عليهم فتقذف بهم في النار قبل الحساب بأربعين سنة.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴿١٦﴾ وَقَوْكَ مِمَّا يَنْتَهَوْنَ ﴿١٧﴾ كَلُوا وَأَشْرَبُوا هَيْتًا بِمَا كَفَّرَ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٠﴾ كَلُوا وَتَتَمَنَّوْا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ازْكُمَا لَا يَرْكُمُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ فَإَيَّ حَيْثُ يَسْتَدِرُّونَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عباده المتقين الذين عبدوه بأداء الواجبات، وترك المحرمات: أنهم يوم القيامة يكونون في جنات وعيون، أي: بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه، من ظل الحمام، وهو الدخان الأسود المنتن. ﴿وَقَوْكَ مِمَّا يَنْتَهَوْنَ﴾ أي: ومن سائر أنواع الشمار، مهما طلبوا وجدوا. ﴿كَلُوا وَأَشْرَبُوا هَيْتًا بِمَا كَفَّرَ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم. ثم قال تعالى مخبراً خيراً مستأنفاً: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل، ﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾. وقوله: ﴿كَلُوا وَتَتَمَنَّوْا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾: خطاب للمكذبين بيوم الدين، وأمرهم أمر تهديد ووعد فقال تعالى: ﴿كَلُوا وَتَتَمَنَّوْا قَلِيلًا﴾ أي: مدة قليلة قريبة قصيرة، ﴿إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾ أي: ثم تساقون إلى نار جهنم التي تقدم ذكرها، ﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿تَتَمَنَّوْا قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَيْكَ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [النار: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْكُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٧﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا رَاجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]. وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ازْكُمَا لَا يَرْكُمُونَ﴾ أي: إذا أمر هؤلاء الجهلاء من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة، امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه، ولهذا قال: ﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾. ثم قال: ﴿فَإَيَّ حَيْثُ يَسْتَدِرُّونَ﴾ أي: إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن، فبأي كلام يؤمنون به؟! كقوله تعالى: ﴿فَإَيَّ حَيْثُ يَدْعُو بَدَأَ اللَّهُ وَمَا يَنْتَهَوْنَ﴾ [الجن: ٢٦]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن إسماعيل بن أمية: سمعت رجلاً أعرابياً بدوياً يقول: سمعت أبا هريرة يرويه إذا قرأ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ رِغَابًا﴾، فقرأ: ﴿فَإَيَّ حَيْثُ يَسْتَدِرُّونَ﴾؟ فليقل: آمنت بالله وبما أنزل. وقد تقدم هذا الحديث في سورة «القيامة».

آخر تفسير سورة «المرسلات» والله الحمد والمنة



تفسير سورة النبأ

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ بَسَّاتُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَبَّحُونَ ﴿٤﴾ تُوْ كَلَّا سَبَّحُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْتَهُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لَيْلًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى منكرًا على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها: ﴿عَمَّ بَسَّاتُونَ﴾ أي: عن أي شيء يتساءلون؟ عن أمر القيامة، وهو النبأ العظيم، يعني: الخبر الهائل المقطع الباهر. قال قتادة، وابن زيد: النبأ العظيم: البعث بعد الموت. وقال مجاهد: هو القرآن. والأظهر الأول لقوله: ﴿الَّذِي هُوَ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ يعني: الناس فيه على قولين: مؤمن به وكافر. ثم قال تعالى متوعداً لمنكري القيامة: ﴿كَلَّا سَبَّحُونَ﴾ تُوْ كَلَّا سَبَّحُونَ ﴿٥﴾، وهذا تهديد شديد ووعد أكيد. ثم شرع تعالى يبين قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة، الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره، فقال: ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ أي: أمهدة للخلائق ذلولاً لهم، قارة ساكنة ثابتة ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي: جعلها لها أوتاداً أرساها بها وثبتها وقررها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها. ثم قال: ﴿وَخَلَقْتَهُمْ أَزْوَاجًا﴾ يعني: ذكرًا وأنثى، يستمتع كل منهما بالآخر، ويحصل التناسل بذلك، كقوله: ﴿وَمِنْ مَّا بَيْنَهُ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي: قطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد، والسعي في المعاش في عرض النهار. وقد تقدم مثل هذه الآية في سورة «الفرقان». ﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لَيْلًا﴾ أي: يغشى الناس ظلامه وسواده، كما قال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَنشَغَرُ﴾ [الشمس: ١٤]، وقال الشاعر:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْقَضَى كَانَ يَفْتِكًا﴾ (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الْأَشْوَاقِ أَزْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَوُحِّتَ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَادًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّغْيِيِّينَ مَتَابًا ﴿٢٢﴾ لَيْسَ فِيهَا آخَافٌ ﴿٢٣﴾ لَا يَذْقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حِيمًا وَنَسَقًا ﴿٢٥﴾ حَرًّا وَقَفًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلُّ نَفْسٍ نَحْنُ خَاصِمَتٌ لِّخَلْقِكُمْ ﴿٢٩﴾ أَفَلَا تَرَوْنَ أَنَّكُمْ لَكُمْ عَذَابًا ﴿٣٠﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفصل، وهو يوم القيامة، أنه مؤقت بأجل معدود، لا يزداد عليه ولا ينقص منه، ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله ﷻ، كما قال: ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعْتَدٍ﴾ (١٣٠) ﴿عود: ١٠٤﴾ . ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الْأَشْوَاقِ أَزْوَاجًا﴾ (١٨) : قال مجاهد: زُمرًا. قال ابن جرير: يعني تاتي كل أمة مع رسولها، كقوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٣١] . وقال البخاري: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الْأَشْوَاقِ أَزْوَاجًا﴾ (١٨) : حدثنا محمد، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النسختين أربعون» . قالوا: أربعون يوماً؟ قال: «أبشيت» . قالوا: أربعون شهراً؟ قال: «أبشيت» . قالوا: أربعون سنة؟ قال: «أبشيت» . قال: «ثم ينزل الله من السماء ماء فينبثون كما ينبث البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظماً واحداً، وهو عجب الذنب، ومنه يَرْجُبُ الْخَلْقُ يوم القيامة» . ﴿وُحِّتَ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ (١٩) : أي طرقاتاً ومسالك لتزول الملائكة، ﴿وُسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَادًا﴾ (٢٠) ، كقوله: ﴿وَرَوَّى الْجِبَالُ مَحْشَاً جَامِداً وَهِيَ تَمُرٌّ مَرَّ السَّعَابِ﴾ [النمل: ٨٨] ، وكقوله: ﴿وَتَكُونُ الْأَجْسَالُ كَالْهَيْبِ الْمَغْفُوشِ﴾ (٢١) [الغارة: ٥٠] . وقال هاهنا: ﴿فَكَانَتْ سَرَادًا﴾ : أي: يخيل إلى الناظر أنها شيء، وليست بشيء، وبعد هذا تذهب بالكلية، فلا عين ولا أثر، كما قال: ﴿وَمَثَلُ الْوَكِّ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿٢٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿٢٦﴾ لَا تَبْقَى فِيهَا غَمَمًا وَلَا شَجَاً ﴿٢٧﴾﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧] ، وقال: ﴿وَيَوْمَ نُسِفُ الْجِبَالُ وَرَوَّى الْأَرْضُ يَارِدَةً﴾ [الكهف: ٤٧] . وقوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ (٢١) : أي: مرصدة عمدة، ﴿لِلطَّغْيِيِّينَ﴾ وهم: المردة العصاة المخالفون للرسول، ﴿مَتَابًا﴾ : أي: مرجعاً ومقلباً ومصيراً ونزلاً. وقال الحسن، وقتادة في قوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ (٢١) : يعني: أن لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز بالنار، فإن كان معه جواز نجا، وإلا احتبس. وقال سفيان الثوري: عليها ثلاث قناطر. وقوله: ﴿لَيْسَ فِيهَا آخَافٌ﴾ (٢٣) :

أي: ما كُتِبَ فيها أحقاباً، وهي جمع «حُقب»، وهو المدة من الزمان. وقد اختلفوا في مقداره، فقال ابن جرير، عن ابن حميد، عن مهران، عن سفيان الثوري، عن عمار الدهني، عن سالم بن أبي الجعد قال: قال علي بن أبي طالب لهلال الهجري: ما تجدون الحُقب في كتاب الله المنزل؟ قال: نجده ثمانين سنة، كل سنة اثنا عشر شهراً، كل شهر ثلاثون يوماً، كل يوم ألف سنة. وهكذا رُوِيَ عن أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وابن عباس، وسعيد بن جبيرة، وعمرو بن ميمون، والحسن، وقادة، والربيع بن أنس، والضحاك. وعن الحسن والسدي أيضاً: سبعون سنة كذلك. وعن عبد الله بن عمرو، الحُقب أربعون سنة، كل يوم منها كالف سنة مما تعدون رواهما ابن أبي حاتم.

وقال بشير بن كعب: ذكر لي أن الحُقب الواحد ثلاثمائة سنة، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً، كل يوم ألف سنة. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. ثم قال ابن أبي حاتم: ذكر عن عمر بن علي بن أبي بكر الأشدني: حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، عن جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لَيَبْلُغَنَّ فِيهَا أَشْقَابٌ﴾ (١٧)، قال: فالحقب ألف شهر، الشهر ثلاثون يوماً، والسنة اثنا عشر شهراً، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً، كل يوم منها ألف سنة مما تعدون، فالحقب ثلاثون ألف سنة. وهذا حديث منكر جداً، والقاسم والراوي عنه وهو جعفر بن الزبير كلاهما متروك. وقال البزار: حدثنا محمد بن مرداس، حدثنا سليمان بن مسلم أبو المعلى قال: سألت سليمان التيمي: هل يخرج من النار أحد؟ فقال: حدثني نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: «والله لا يخرج من النار أحد حتى يمكث فيها أحقاباً». قال: والحُقب: بضع وثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً مما تعدون. ثم قال: سليمان بن مسلم بصري مشهور. وقال السدي: ﴿لَيَبْلُغَنَّ فِيهَا أَشْقَابٌ﴾ (٢٢): سبعمائة حُقب، كل حُقب سبعون سنة، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً، كل يوم كالف سنة مما تعدون. وقد قال مقاتل بن حيان: إن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿فَذَرُونَا فَهَنَّا رَبِّدْكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (٢٣). وقال خالد بن معدان: هذه الآية وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ (عمره: ١٠٧) في أهل التوحيد. رواهما ابن جرير. ثم قال: يحتمل أن يكون قوله: ﴿لَيَبْلُغَنَّ فِيهَا أَشْقَابٌ﴾ (٢٣) متعلقاً بقوله: ﴿لَا يَذْقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ (٢٢)، ثم يحدث الله لهم بعد ذلك عذاباً من شكل آخر ونوع آخر. ثم قال: والصحيح أنها لا انقضاء لها، كما قال قتادة والربيع بن أنس. وقد قال قبل ذلك: حدثني محمد بن عبد الرحيم البرقي، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، عن زهير، عن سالم: سمعت الحسن يسأل عن قوله: ﴿لَيَبْلُغَنَّ فِيهَا أَشْقَابٌ﴾ (٢٢). قال: أما الأحقاب فليس لها عدة إلا الخلود في النار، ولكن ذكروا أن الحُقب سبعون سنة، كل يوم منها كالف سنة مما تعدون. وقال سعيد، عن قتادة: قال الله تعالى: ﴿لَيَبْلُغَنَّ فِيهَا أَشْقَابٌ﴾ (٢٢). وهو: ما لا انقطاع له، وكلما مضى حُقب جاء حقب بعده، وذكر لنا أن الحُقب ثمانون سنة. وقال الربيع بن أنس: ﴿لَيَبْلُغَنَّ فِيهَا أَشْقَابٌ﴾ (٢٢)، لا يعلم عدة هذه الأحقاب إلا الله، ولكن الحُقب الواحد ثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً، كل يوم كالف سنة مما تعدون. رواهما أيضاً ابن جرير. وقوله: ﴿لَا يَذْقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ (٢٤) أي: لا يجدون في جهنم برداً لقلوبهم، ولا شرباً طيباً يتغذون به. ولهذا قال: ﴿إِلَّا جَيْمًا وَشَجَارًا﴾ (٢٥). قال أبو العالية: استثنى من البرد الحميم ومن الشراب الغساق. وكذا قال الربيع بن أنس. فاما الحميم: فهو الحار الذي قد انتهى حره وحموه. والغساق: هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو بارد لا يستطيع من برده، ولا يواجه من نتنه. وقد قدمنا الكلام على الغساق في سورة «ص» بما أغنى عن إعادته، أجازنا الله من ذلك، بمنه وكرمه. قال ابن جرير: وقيل: المراد بقوله: ﴿لَا يَذْقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ يعني: النوم، كما قال الكندي:

بَرَدَتْ مَرَاشِفُهَا عَلَيَّ فَصَدَنِي عَنْهَا وَعَنْ قُبُلَاتِهَا، الْبَرْدُ يعني بالبرد: النعاس والنوم. هكذا ذكره ولم يعثره إلى أحد. وقد رواه ابن أبي حاتم، من طريق السدي، عن مرة الطيب. ونقله عن مجاهد أيضاً. وحكاه البغوي عن أبي غيبة، والكسائي أيضاً. وقوله: ﴿جَزَاءً وَكَافًا﴾ (٢٦) أي: هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة وفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا. قاله مجاهد، وقاتدة، وغير واحد. ثم قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ (٢٧) أي: لم يكونوا يعتقدون أن ثم داراً يجازون فيها ويحاسبون، ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ (٢٨) أي: وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التي أنزلها على رسله، فيقابلونها بالكذب والمعادنة. وقوله: ﴿كِذَابًا﴾ (٢٨) أي: تكذيباً، وهو مصدر من غير الفعل. قالوا: وقد شمع أعرابي يستفي الفراء على المروة: الحلق أحب إليك أو القصار؟ وأنشد بعضهم:

لَقَدْ طَالَ مَا نَبْطُطُنِي عَنْ صَحَابَتِي وَعَنْ حُجُجِ قَضَائِهَا مِنْ شَفَائِيَا
وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ (٢٩) أي: وقد علمنا أعمال العباد كلها، وكتبناها عليهم، وسنجزيهم على ذلك،

إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وقوله: ﴿تَذَوُّوْا فَلَنْ تَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (٣١) أي: يقال لأهل النار: ذوقوا ما أنتم فيه، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه، ﴿وَبَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ (٣٨) [ص: ٥٨]. قال قتادة: عن أبي أيوب الأزدي، عن عبد الله بن عمرو قال: لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه: ﴿تَذَوُّوْا فَلَنْ تَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (٣١). قال: فهم في مزيد من العذاب أبداً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن محمد بن مصعب الصوري، حدثنا خالد بن عبد الرحمن، حدثنا جسر بن فرقد، عن الحسن قال: سألت أبا برزة الأسلمي عن أشد آية في كتاب الله على أهل النار. قال: سمعت رسول الله ﷺ قرا: ﴿تَذَوُّوْا فَلَنْ تَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (٣١)، فقال: «هلك القوم بمعاصيهم الله ﷻ».

﴿إِنَّ لِلنَّارِ مَقَارًا﴾ (٢١) ﴿حَدَائِقَ وَأَنْبَارًا﴾ (٢٢) ﴿وَكَوَاعِبَ أَنْبَارًا﴾ (٢٣) ﴿وَكُنُوسًا دِهَانًا﴾ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا كَذِبًا ﴿بِرَّاءَ بَيْنَ رَبِّكَ عِلَاقَةً حَسَابًا﴾ (٢٥). يقول تعالى مخبراً عن السعداء وما أعد لهم تعالى من الكرامة والنعيم المقيم، فقال: ﴿إِنَّ لِلنَّارِ مَقَارًا﴾ (٢١). قال ابن عباس والضحاك: منتزهاً. وقال مجاهد، وقتادة: فازروا، فنجوا من النار. والأظهر ما هنا قول ابن عباس؛ لأنه قال بعده: ﴿حَدَائِقَ﴾، وهي البساتين من النخيل وغيرها ﴿وَأَنْبَارًا﴾ (٢٢) ﴿وَكَوَاعِبَ أَنْبَارًا﴾ (٢٣) أي: حوراً كواعب. قال ابن عباس ومجاهد، وغير واحد: ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ أي: نواهد، يعنون أن تُدَيِّهَن نواهد لم يتدلين لأنهن أبقار غُرب أنراب، أي: في سن واحدة، كما تقدم بيانه في سورة «الواقعة». قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن الدشتكي، حدثني أبي، عن أبي سفيان عبد الرحمن بن عبد رب بن تيم الشكري، حدثنا عطية بن سليمان أبو الغيث، عن أبي عبد الرحمن القاسم بن أبي القاسم الدمشقي، عن أبي أمامة: أنه سمعه يحدث عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ قُمْصَ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيَبْدُو مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، وَإِنَّ السَّحَابَةَ لَتَمْرُ بِهِمْ فَتَنَادِيهِمْ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، مَاذَا تَرِيدُونَ أَنْ أَمْطَرَكُمْ؟ حَتَّى إِذَا لَمْ يَمُطَرُوا مِنَ الْكَوَاعِبِ الْأَنْرَابِ». وقوله: ﴿وَكُنُوسًا دِهَانًا﴾ (٢٤)، قال ابن عباس: مملوءة متتابعة. وقال عكرمة: صافية. وقال مجاهد، والحسن وقتادة، وابن زيد: ﴿دِهَانًا﴾: الملاى المترعة. وقال مجاهد، وسعيد بن جبيرة: هي المتتابعة. وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا كَذِبًا﴾ (٢٥)، كقوله: ﴿لَا لِقَاءَ فِيهَا وَلَا تَأْيِيدَ﴾ [الطور: ٢٣] أي: ليس فيها كلام لاغ عارٍ عن الفائدة، ولا إثم كذب، بل هي دار السلام، وكل كلام فيها سالم من النقص. وقوله: ﴿بِرَّاءَ بَيْنَ رَبِّكَ عِلَاقَةً حَسَابًا﴾ (٢٦) أي: هذا الذي ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهموه، بفضلهم ومنه وإحسانه ورحمته؛ ﴿عِلَاقَةً حَسَابًا﴾ أي: كافياً وافراً شاملاً كثيراً، تقول العرب: «أعطاني فأحسبني» أي: كفاني. ومنه «حسبي الله»، أي: الله كافني.

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (٢٧) ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ سُفًّا لَا يَقْكُورُونَ إِلَّا مَنْ أُوْدُلَ لَهُ الرِّجْمَانُ وَقَالَ مُوَابَا﴾ (٢٨) ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْغَوْيُ فَكُنْ شَاءَ أَتَعَدَّ إِلَى رَبِّهِ مَتَابًا﴾ (٢٩) إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ بَلَيْتَنِي كُنْتُ زُتْرًا ﴿٣٠﴾. يخبر تعالى عن عظمته وجلاله، وأنه رب السموات والأرض وما بينهما، وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء. وقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي: لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَنْفَعُ عَبْدَهُ إِلَّا بِالْإِذْنِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وكقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [مرد: ١٠٥]. وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ سُفًّا لَا يَقْكُورُونَ﴾، اختلف المفسرون في المراد بالروح ما هنا، ما هو؟ على أقوال: أحدها: رواه العوفي، عن ابن عباس: أنهم أرواح بني آدم. الثاني: هم بنو آدم. قاله الحسن، وقتادة، وقال قتادة: هذا مما كان ابن عباس يكتمه. الثالث: أنهم خلق الله، على صور بني آدم، وليس بملائكة ولا ببشر، وهم يأكلون ويشربون. قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو صالح والأعمش. الرابع: هو جبريل. قاله الشعبي، وسعيد بن جبيرة، والضحاك. ويستشهد لهذا القول بقوله: ﴿تَنْزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (٢٨) ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِئَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (٢٩) [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]. وقال مقاتل بن حيان: الروح: أشرف الملائكة، وأقرب إلى الرب ﷻ، وصاحب الوحي. والخامس: أنه القرآن. قاله ابن زيد، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، والسادس: أنه ملك من الملائكة بقدر جميع المخلوقات، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾، قال: هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن خلف العسقلاني، حدثنا رواد بن الجراح، عن أبي حمزة، عن الشعبي، عن علقمة، عن ابن مسعود قال: الروح: في السماء الرابعة هو أعظم من السموات ومن الجبال ومن الملائكة، يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة، يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً من الملائكة يجيء يوم القيامة صفاء وحده، وهذا قول غريب جداً. وقد قال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله بن عرس المصري، حدثنا وهب الله بن رزق أبو هريرة، حدثنا بشر بن بكر، حدثنا الأوزاعي، حدثني عطاء، عن عبد الله بن عباس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ مَلَكًا لَوْ قِيلَ لَهُ: التَّمِمْ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ بِلْقَمَةِ وَاحِدَةٍ، لَفَعَلَ، تَسْبِيحَهُ: سَبْحَانِكَ حَيْثُ كُنْتُ». وهذا حديث غريب جداً، وفي رفعه نظر، وقد يكون موقوفاً على ابن عباس، ويكون مما تلقاه من الإسرائيليات، والله أعلم.

وتوقف ابن جرير فلم يقطع بواحد من هذه الأقوال كلها، والأشبه - والله أعلم - أنهم بنو آدم. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَدْرَكَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾، كقوله: ﴿لَا تَكُفُّمْ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥]. وكما ثبت في الصحيح: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل». وقوله: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي: حقًا، ومن الحق: «لا إله إلا الله»، كما قاله أبو صالح، وعكرمة. وقوله: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ أي: الكائن لا محالة، ﴿فَمَنْ شَاءَ أَخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَابًا﴾ [٣٩] أي: مرجعًا وطريقًا يهتدي إليه ومنهجًا يمر به عليه. وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني: يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريبًا، لأن كل ما هو آت. ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: يعرض عليه جميع أعماله، خيرها وشرها، قديمها وحديثها، كقوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وكقوله: ﴿يَبْهَتُ الْإِنْسَانُ يَوْمَذِي مَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [١٣]. ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ بَلْأَنِّي كُنْتُ نَبْيًا﴾ [١٠] أي: يود الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا ترابًا، ولم يكن خلقًا، ولا خرج إلى الوجود. وذلك حين عاين عذاب الله، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سُطرت عليه بأيدي الملائكة السُّفرة الكرام البررة. وقيل: إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا، فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجوز، حتى إنه ليقص للشاة الجماء من القرناء. فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها: كوني ترابًا، فتصير ترابًا. فعند ذلك يقول الكافر: ﴿بَلْأَنِّي كُنْتُ نَبْيًا﴾ أي: كنت حيوانًا فأرجع إلى التراب. وقد ورد معنى هذا في حديث الضور المشهور، وورد فيه آثار عن أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وغيرهما.

آخر تفسير سورة «عم»



تفسير سورة النازعات

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرَا﴾ ١ ﴿وَالنَّاصِرَاتُ شَطَا﴾ ٢ ﴿وَالنَّاعِيَاتُ سَبَا﴾ ٣ ﴿وَالنَّاقِرَاتُ شَنَا﴾ ٤ ﴿وَالْمَدْرَاتُ أَمَّا﴾ ٥ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاحِفَةُ﴾ ٦ ﴿تَنْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ ٧ ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ ٨ ﴿أَنْفُسُهُمْ تَشَتِفُ﴾ ٩ ﴿يَقُولُونَ أَوْنَا لَنُؤَدِّدُونَ فِي الْخَافِرَةِ﴾ ١٠ ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظْمًا جَافِرَةً﴾ ١١ ﴿قَالُوا يَاكَ إِذَا كُرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ ١٢ ﴿فَلَمَّا هِيَ بَرْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ١٣ ﴿لِفَأْهُمْ يَأْسَافَةٌ﴾ ١٤.

قال ابن مسعود، وابن عباس، ومسروق، وسعيد بن جبيرة، وأبو صالح، وأبو الضحى، والسدي: ﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرَا﴾ ١: الملائكة، يعنون حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعنف فتغرق في نزعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلته من نشاط، وهو قوله: ﴿وَالنَّاصِرَاتُ شَطَا﴾ ٢، قاله ابن عباس. وعن ابن عباس: ﴿وَالنَّاعِيَاتُ سَبَا﴾ ٣: هي أنفس الكفار، تُنزع ثم تُنشط، ثم تغرق في النار. رواه ابن أبي حاتم. وقال مجاهد: ﴿وَالنَّاقِرَاتُ شَنَا﴾ ٤: الموت. وقال الحسن، وقائدة: ﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرَا﴾ ١: ﴿وَالنَّاصِرَاتُ شَطَا﴾ ٢: هي القسي في القتال. والصحيح الأول، وعليه الأكثرون. وأما قوله: ﴿وَالنَّاعِيَاتُ سَبَا﴾ ٣، فقال ابن مسعود: هي الملائكة. وزوي عن علي، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وأبي صالح مثل ذلك. وعن مجاهد: ﴿وَالنَّاصِرَاتُ شَطَا﴾ ٢: الموت. وقال قتادة: هي النجوم. وقال عطاء بن أبي رباح: هي السفن. وقوله: ﴿وَالْمَدْرَاتُ أَمَّا﴾ ٥: روي عن علي، ومسروق، ومجاهد، وأبي صالح، والحسن البصري: يعني الملائكة؛ قال الحسن: سبقت إلى الإيمان والتصديق به. وعن مجاهد: الموت. وقال قتادة: هي النجوم. وقال عطاء: هي الخيل في سبيل الله. وقوله: ﴿وَالْمَدْرَاتُ أَمَّا﴾ ٥، قال علي، ومجاهد، وعطاء، وأبو صالح، والحسن، وقائدة، والربيع بن أنس، والسدي: هي الملائكة - زاد الحسن -: تدبر الأمر من السماء إلى الأرض. يعني: بأمر ربها ﷻ. ولم يختلفوا في هذا، ولم يقطع ابن جرير بالمراد في شيء من ذلك، إلا أنه حكى في ﴿وَالْمَدْرَاتُ أَمَّا﴾ ٥: أنها الملائكة، ولا أثبت ولا نفى. وقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاحِفَةُ﴾ ٦: ﴿تَنْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ ٧، قال ابن عباس: هما النفختان الأولى والثانية. وهكذا قال مجاهد، والحسن، وقائدة، والضحاك، وغير واحد. وعن مجاهد: أما الأولى - وهي قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاحِفَةُ﴾ ٦ - فكقوله جلّت عظمته: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ [الزلزل: ١٤]، والثانية - وهي الرادفة - فهي كقوله: ﴿وَتُحْمَلِ الْأَرْضُ وَلِجِبَالُهَا فَتُكَادُ وَجِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤].

مقطع، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّاعَةَ أَكْهَنُ وَأَمْزُ﴾ [الفر: ٤٦]. ﴿يَوْمَ يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ ﴿٢٥﴾ أي: حينئذ يتذكر ابن آدم جميع عمله خيره وشره، كما قال: ﴿يَوْمَ يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّ لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: ٢٢]. ﴿وَمَرَّتِ الْمَجِيعُ لِمَنْ يَرَى﴾ ﴿٣٦﴾ أي: أظهرت للنظرين فرأها الناس عياناً، ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ ﴿٣٧﴾ أي: تمزّد وعتا، ﴿وَرَأَى الْخَيْرَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٣٨﴾ أي: قدمها على أمر دينه وأخراها، ﴿فَأَنَّ الْمَجِيعَ هِيَ النَّارُ﴾ ﴿٣٩﴾ أي: فإن مصيره إلى الجحيم، وإن مطعمه من الرزقوم، ومشربه من الحميم. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ﴿٤٠﴾ أي: خاف القيام بين يدي الله ﷻ، وخاف حُكْمَ الله فيه، ونهى نفسه عن هواها، وردّها إلى طاعة مولاهما ﴿فَأَنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ ﴿٤١﴾ أي: منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء. ثم قال تعالى: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا﴾ ﴿٤٢﴾ فَمِ أَنْتَ مِنْ ذِكْرُهَا ﴿٤٣﴾ إِنْ رَبِّكَ سُئِلَهَا ﴿٤٤﴾ أي: ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق، بل مردّها ومرجعها إلى الله ﷻ، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين، ﴿نَقَلَتْ فِي السَّكُونِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكَ إِلَّا بَشْرٌ بَسْطَ يَسْتَأْذِنُكَ كَأَنَّكَ حَرٌّ عَنَّا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال ها هنا: ﴿إِنْ رَبِّكَ سُئِلَهَا﴾ ﴿٤٥﴾. ولهذا لما سأل جبريلُ رسول الله ﷺ عن وقت الساعة قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَنْشَأُ﴾ ﴿٤٦﴾ أي: إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذّرهم من بأس الله وعذابه، فمن خشي الله وخاف مقامه ووعيده، اتبعك فأفلح وأنجح، والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك. وقوله: ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّحًا لَوْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ ﴿٤٧﴾ أي: إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مدة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم كانت عشيّة من يوم أو ضحى من يوم. قال جُوَيْر، عن الضحّاك، عن ابن عباس: ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّحًا لَوْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ ﴿٤٨﴾، أما عشيّة: فما بين الظهر إلى غروب الشمس، ﴿أَوْ ضُحًى﴾: ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار. وقال قتادة: وقت الدنيا في أعين القوم حين عاينوا الآخرة.

آخر تفسير سورة «النّازعات» وشه الحمد والمنة



تفسير سورة عبس

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لِمَ لَمْ يَرِ ﴿٣﴾ أَوْ يَذْكُرُ فِتْنَةً لِلْإِنْسَانِ ﴿٤﴾ أَمَا مَنِ اسْتَفْتَى ﴿٥﴾ فَأَن تَلَمْ تَصَدَّى ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْوَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَحْفَى ﴿٩﴾ فَأَن عَنَّا لَلْعَنَ ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرُ ﴿١١﴾ مَن شَاءَ ذَكَرُ ﴿١٢﴾ فِي صُفٍّ فُكِّرِمُو ﴿١٣﴾ تَرْوَعُو مَطَرَهُمْ ﴿١٤﴾ وَيَأْتِي سَفَرُ ﴿١٥﴾ كَرَامٍ مَّوَرُ ﴿١٦﴾.

ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطبُ بعض عظماء قريش، وقد طمع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم - وكان ممن أسلم قديماً - فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلج عليه، وودّ النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك ليمكن من مخاطبة ذلك الرجل، طمعاً ورغبة في هدايته. وعيس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه، وأقبل على الآخر، فأنزل الله ﷻ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لِمَ لَمْ يَرِ ﴿٣﴾ أي: يحصل له زكاة وطهارة في نفسه، ﴿أَوْ يَذْكُرُ فِتْنَةً لِلْإِنْسَانِ﴾ ﴿٤﴾ أي: يحصل له اتعاظ وانزجار عن المحارم، ﴿أَمَا مَنِ اسْتَفْتَى﴾ ﴿٥﴾ فَأَن تَلَمْ تَصَدَّى ﴿٦﴾ أي: أما الغني فأنت تتعرض له لعله يهتدي، ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْوَى﴾ ﴿٧﴾ أي: ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة. ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى﴾ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَحْفَى ﴿٩﴾ أي: يقصدك ويؤمك ليهتدي بما تقول له، ﴿فَأَن عَنَّا لَلْعَنَ﴾ ﴿١٠﴾ أي: نتشاغل. ومن ها هنا أمر الله ﷻ رسول ﷺ ألا يخص بالإنذار أحداً، بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغني، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والصغار والكبار. ثم الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة. قال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا محمد - هو ابن مهدي - حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة عن أنس في قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ﴿١﴾، جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أبي بن خلف، فأعرض عنه، فأنزل الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾، فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه. قال قتادة: وأخبرني أنس بن مالك قال: رأيته يوم القادسية وعليه درع ومعه راية سوداء - يعني ابن أم مكتوم - وقال أبو يعلى وابن جرير: حدثنا سعيد بن يحيى الأموي، حدثني أبي، عن هشام بن عروة مما

عرضه عليه عن عُرْوَة، عن عائشة قالت: أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (١) في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول: أرشدني. قالت: وعند رسول الله ﷺ من عظماء المشركين. قالت: فجعل النبي ﷺ يُعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول: «أترى بما أقول بأساً؟». فيقول: لا. ففي هذا أنزلت: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (١).

وقد روى الترمذي هذا الحديث، عن سعيد بن يحيى الأموي، بإسناده، مثله، ثم قال: وقد رواه بعضهم عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (١) في ابن أم مكتوم، ولم يذكر فيه عن عائشة. قلت: كذلك هو في الموطأ. ثم روى ابن جرير وابن أبي حاتم أيضاً من طريق العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢)، قال: بينا رسول الله ﷺ يناجي عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب - وكان يتصدى لهم كثيراً، ويحرص عليهم أن يؤمنوا - فأقبل إليه رجل أعمى - يقال له عبد الله بن أم مكتوم - يمشي وهو يناجيهم، فجعل عبد الله يستقرئ النبي ﷺ آية من القرآن، وقال: يا رسول الله، علمني مما علمك الله. فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وعبس في وجهه، وتولى وكره كلامه، وأقبل على الآخرين، فلما قضى رسول الله ﷺ نجواه، وأخذ ينقلب إلى أهله، أمسك الله بعض بصره، ثم خفق برأسه، ثم أنزل الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّكَ يُبْرَأُ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤). فلما نزل فيه ما نزل، أكرمه رسول الله ﷺ وكلمه وقال له النبي ﷺ: «ما حاجتك؟ هل تريد من شيء؟» وإذا ذهب من عنده قال: «هل لك حاجة في شيء؟». وذلك لما أنزل الله تعالى: ﴿أَنَا مَنِ اسْتَعْتَفَ (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّقُ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبَ (٧)﴾. فيه غرابة ونكارة، وقد تكلّم في إسناده.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا الليث، حدثني يونس، عن ابن شهاب قال: قال سالم بن عبد الله، عن عبد الله بن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن بلالاً يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم». وهو الأعمى الذي أنزل الله فيه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢)، وكان يؤذن مع بلال. قال سالم: وكان رجلاً ضريب البصر، فلم يك يؤذن حتى يقول له الناس - حين ينظرون إلى بزوغ الفجر -: أذن. وهكذا ذكر عروة بن الزبير، ومجاهد، وأبو مالك، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، وغير واحد من السلف والخلف: أنها نزلت في ابن أم مكتوم. والمشهور أن اسمه عبد الله، ويقال: عمرو. والله أعلم. وقوله: ﴿لَا إِنَّمَا نَذَرُ﴾ (١١) أي: هذه السورة، أو الوصية بالمساواة بين الناس في إبلاغ العلم من شريفهم وضعيفهم. وقال قتادة والسدي: ﴿لَا إِنَّمَا نَذَرُ﴾ (١١) يعني: القرآن، ﴿فَنَشَاءُ نَذْرٌ﴾ (١٢) أي: فمن شاء ذكر الله في جميع أموره. ويحتمل عود الضمير على الوحي؛ لدلالة الكلام عليه. وقوله: ﴿فَنَشَاءُ نَذْرٌ﴾ (١٢) ﴿نَزَّوَعَةً مَّنْ مَّطَهَرٍ﴾ (١٣) أي: هذه السورة أو العظة، وكلاهما متلازم، بل جميع القرآن: ﴿فَنَشَاءُ نَذْرٌ﴾ (١٣) أي: معظمة موقرة ﴿نَزَّوَعَةً﴾ (١٣) أي: عالية القدر، ﴿مَّنْ مَّطَهَرٍ﴾ (١٣) أي: من الدنس والزيادة والنقص. وقوله: ﴿يَأْتِيهِ سَرًّا﴾ (١٥). قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وابن زيد: هي الملائكة. وقال وهب بن منبه: هم أصحاب محمد ﷺ، وقال قتادة: هم القراء. وقال ابن جريج، عن ابن عباس: السفارة بالنبطية: القراء. وقال ابن جرير: الصحيح أن السفارة الملائكة، والسفيرة يعني بين الله وبين خلقه، ومنه يقال: السفير: الذي يسعى بين الناس في الصلح والخير، كما قال الشاعر:

وَمَا أَدْعُ السَّفِيرَةَ بَيْنَ قَوْمِي وَمَا أُنْشِي بِغُشٍّ إِنْ مَشَيْتُ
وقال البخاري: سفرة: الملائكة. سفرت: أصلحت بينهم. وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحى الله وتأديته كالسفير الذي يصلح بين القوم. وقوله: ﴿كَرِيمٌ بَرٌّ﴾ (١٦) أي: خلقهم كريم حسن شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة. ومن ها هنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد. قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا هشام، عن قتادة، عن زُرَّارة بن أوفى، عن سعيد بن هشام، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو عليه شاق له أجران». أخرجه الجماعة من طريق قتادة، به.

﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْثَرُ﴾ (١٧) مِنْ أَيْ تَبَوَّءَ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ تَطَلَّعَ خَلَقَهُ فَتَدَبَّرَ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ (٢٠) ثُمَّ أَنَّهُ أَقْدَرُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) لَا تَبْقَىٰ مَّا أَمَرَ (٢٣) تَلَوَّحُ الْإِنْسَانُ إِلَّا لِسَانِهِ (٢٤) أَنَا سَمِيعٌ أَلِيمٌ (٢٥) ثُمَّ شَفَعْنَا الْأَرْضَ شَفَاً (٢٦) فَأَلْبَسْنَا فِيهَا جَبَاً (٢٧) وَعَبَاً وَقَسَاً (٢٨) وَزَيَّنَّا رَحَلَاً (٢٩) وَنَدَّاهُ عَلَاً (٣٠) وَفَكَّهُمْ رَأَاً (٣١) فَنَنَّا لَكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ (٣٢).

يقول تعالى ذاماً لمن أنكر البعث والنشور من بني آدم: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْثَرُ﴾ (١٧). قال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ﴾: لعن الإنسان. وكذا قال أبو مالك. وهذا لجنس الإنسان المكذب؛ لكثرة تكذيبه بلا مستند، بل بمجرد الاستبعاد وعدم

العلم. قال ابن جرير: ﴿مَا أَكْثَرُ﴾: ما أشد كفره! وقال ابن جرير: ويحتمل أن يكون المراد: أي شيء جعله كافراً؟ أي: ما حمله على التكذيب بالمعاد. وقال قتادة: وقد حكاه البغوي عن مقاتل والكلبي: - ﴿مَا أَكْثَرُ﴾: ما ألعنه. ثم بين تعالى له كيف خلقه الله من الشيء الحقير، وأنه قادر على إعادته كما بدأه، فقال: ﴿مِنْ أَيْ قَوْمٍ خَلَقَهُ﴾ (١٨) ﴿مِنْ تَلْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ (١٩) أي: قدر أجله ووزقه وعمله وشقي أو سعيد. ﴿ثُمَّ أَسْبَلَ يَسْرَهُ﴾ (٢٠)، قال العوفي، عن ابن عباس: ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه. وكذا قال عكرمة، والضحاك، وأبو صالح، وقاتدة، والسدي، واختاره ابن جرير. وقال مجاهد: هذه كقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (٢١) [الإنسان: ٣] أي: بينا له ووضحناه وسهلنا عليه علمه، وهكذا قال الحسن، وابن زيد. وهذا هو الأرجح، والله أعلم. وقوله: ﴿ثُمَّ أَنَا إِلَهُ الْفَقِيرِ﴾ (٢٢) أي: إنه بعد خلقه له ﴿أَنَا إِلَهُ الْفَقِيرِ﴾ أي: جعله ذا قبر. والعرب تقول: «قبر الرجل»: إذا ولى ذلك منه، وأقبره الله. وعضبت قرن الثور، وأعضبته الله، وبرتت ذنب البعير وأبرتته الله. وطردت عني فلاناً، وأطرده الله، أي: جعله طريداً، قال الأعشى:

لَوْ أَشْنَدْتُ مَيْتًا إِلَى نَحْرِهَا عَاشَ، وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرِ
وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ (٢٣) أي: بعثه بعد موته، ومنه يقال: البعث والنشور، ﴿وَمَنْ مَّا يَشَاءُ أَنْ يَخْلُقْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنشَرَهُ يَنْشُرُ تَنْشِيرًا﴾ (٢٤) [الروم: ٢٠]، ﴿وَأَنظُرْ إِلَى الطَّيَّارِ كَيْفَ تُنْشِرُهَا ثُمَّ تَكْسُوها كِسَاءً﴾ [البقرة: ٢٥٩]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أصبغ بن الفرج، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث: أن دراجاً أبا السمح أخبره، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «يأكل التراب كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه». قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «مثل حبة خردل منه ينشؤون». وهذا الحديث ثابت في الصحيح من رواية الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، بدون هذه الزيادة، ولغظه: «كل ابن آدم يتلى إلا عجب الذنب، منه خلق وفيه يركب». وقوله: ﴿كَلَّا لَنَا بَقِيَّةٌ مَّا أَشَرُّ﴾ (٢٥)، قال ابن جرير: يقول: كلا، ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر؛ من أنه قد أدى حق الله عليه في نفسه وماله، ﴿لَنَا بَقِيَّةٌ مَّا أَشَرُّ﴾ يقول: لم يؤد ما فرض عليه من الفرائض لربه ﷻ. ثم روى - هو وابن أبي حاتم - من طريق ابن أبي حاتم، عن مجاهد قوله: ﴿كَلَّا لَنَا بَقِيَّةٌ مَّا أَشَرُّ﴾ (٢٦) قال: لا يقضي أحد أبداً كل ما افترض عليه. وحكاه البغوي، عن الحسن البصري، بنحو من هذا. ولم أجد للمتقدمين فيه كلاماً سوى هذا. والذي يقع لي في معنى ذلك - والله أعلم - أن المعنى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ (٢٣) أي: بعثه، ﴿كَلَّا لَنَا بَقِيَّةٌ مَّا أَشَرُّ﴾ (٢٥) أي: لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة، ويفرغ القدر من بني آدم ممن كتب تعالى له أن سيوجد منهم، ويخرج إلى الدنيا، وقد أمر به تعالى كوناً وقدرأ، فإذا تهاهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم. وقد روى ابن أبي حاتم، عن وهب بن ثنيته قال: قال غزير، عليه السلام: قال الملك الذي جاءني: فإن القبور هي بطن الأرض، وإن الأرض هي أم الخلق، فإذا خلق الله ما أراد أن يخلق، وتمت هذه القبور التي مَدَّ الله لها، انقطعت الدنيا ومات من عليها، ولفظت الأرض ما في جوفها، وأخرجت القبور ما فيها، وهذا شبيه بما قلناه من معنى الآية، والله - سبحانه وتعالى - أعلم بالصواب. وقال: ﴿فَنَنْظُرُ الْإِنْسَانَ إِلَى طَائِفَةٍ﴾ (٢٧) فيه امتنان، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعد ما كانت عظاماً بالية وتراباً متمزقاً، ﴿إِنَّا سَيِّئَاتُكَ مَسَا﴾ (٢٨) أي: أنزلناه من السماء على الأرض، ﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ (٢٩) أي: أسكناه فيها فدخل في تخومها وتخلل في أجزاء الحب المودع فيها، فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض، ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَنَبَاتًا وَغُلًّا وَشَجَرًا﴾ (٣٠) فالحب: كل ما يذكر من الحبوب، والعنب معروف، والقضب هو: الفصصة التي تأكلها الدواب رطبة. ويقال لها: الفت أيضاً. قال ذلك ابن عباس، وقاتدة، والضحاك، والسدي. وقال الحسن البصري: القضب: العلف. ﴿وَنَزَّلْنَا﴾: وهو معروف، وهو آدم وعصيره آدم، ويستصبح به، ويذهن به. ﴿وَنَحْلًا﴾: يؤكل بلحاً، وبسراً، ورطباً، وتمراً، ونبثاً، ومطبوخاً، ويعتصر منه رُبُّ وخل. ﴿وَسَدَائِقَ غُلًّا﴾ (٣١) أي: بساتين. قال الحسن، وقاتدة: ﴿غُلًّا﴾: نخل غلاظ كرام. وقال ابن عباس، ومجاهد: «الحدائق»: كل ما التفت واجتمع. وقال ابن عباس أيضاً: ﴿غُلًّا﴾: الشجر الذي يستظل به. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَسَدَائِقَ غُلًّا﴾ (٣٢) أي: طوال. وقال عكرمة: ﴿غُلًّا﴾: غلاظ الأوساط. وفي رواية: غلاظ الرقاب، ألم تر إلى الرجل إذا كان غليظ الرقبة قيل: والله إنه لأغلب. رواه ابن أبي حاتم، وأنشد ابن جرير للفرزدق:

عَوَى فَنَائِرَ أَغْلَبَ ضَيْئُهَا
فَوَيْلَ ابْنِ الْمِرَاغَةِ مَا اسْتَشَارَ
وقوله: ﴿وَقَفَّيْكَ يَا﴾ (٣٣) أما الفاكهة فهو ما يتفكه به من الشمار. قال ابن عباس: الفاكهة: كل ما أكل رطباً. والأب: ما

أنبتت الأرض، مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس - وفي رواية عنه -: هو الحشيش للبهائم. وقال مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو مالك: الأب: الكلال. وعن مجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد: الأب للبهائم كالفاكهة لبني آدم. وعن عطاء: كل شيء نبت على وجه الأرض فهو أب. وقال الضحاك: كل شيء أنبتته الأرض سوى الفاكهة فهو أب. وقال ابن إدريس، عن عاصم بن كليب، عن أبيه، عن ابن عباس: الأب: نبت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس. ورواه ابن جرير من ثلاث طرق، عن ابن إدريس، ثم قال: حدثنا أبو كريب وأبو السائب قالا: حدثنا ابن إدريس، حدثنا عبد الملك، عن سعيد بن جبير قال: عد ابن عباس وقال: الأب: ما أنبتت الأرض للأنعام. هذا لفظ أبي كريب، وقال أبو السائب: ما أنبتت الأرض مما يأكل الناس وتأكل الأنعام. وقال العوفي، عن ابن عباس: الأب: الكلال والمرعى. وكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد، وغير واحد. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا محمد بن يزيد، حدثنا العوام بن حوشب، عن إبراهيم التيمي قال: سئل أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، عن قوله تعالى: ﴿وَفَكَهَةً وَأَبًا﴾ (٣٣) فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقطنني إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم. وهذا منقطع بين إبراهيم التيمي والصديق. فأما ما رواه ابن جرير حيث قال: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبي عدي، حدثنا حميد، عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب ﴿عَسَىٰ وَنُوَّكَ﴾ (٣٤)، فلما أتى على هذه الآية: ﴿وَفَكَهَةً وَأَبًا﴾ (٣٣) قال: عرفنا ما الفاكهة، فما الأب؟ فقال: لعمر ك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف. فهو إسناده صحيح، وقد رواه غير واحد عن أنس، به. وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض، لقوله: ﴿فَالْيُنَّاسُ فِيهَا جَاءَ﴾ (٣٧) ﴿وَمِمَّا وَضَّعْنَا ۖ وَنَزَوْنَا وَفَعَلْنَا ۖ وَحَدَّائِقُ عَلَيَّا ۖ وَفَكَهَةً وَأَبًا﴾ (٣٣). وقوله: ﴿نَسْنَا لَكُمُ ۖ لَا تَمِيكَ﴾ (٣٤) أي: عيشة لكم ولأنعامكم في هذه الدار إلى يوم القيامة.

﴿فَإِذَا جَاءَ ۖ الْفَاسِقَةُ ۖ يَوْمَ يَرَى ۖ الْآلُفُ مِنْ آيِهِ ۖ وَأَيْنَهُ ۖ وَأَيْنَهُ ۖ وَصَاحِبِهِ ۖ وَيَبِي ۖ لِكُلِّ أَمْرٍ ۖ إِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ شَاءَ ۖ يُنَبِّئُوهُ ۖ وَجُوهٌ ۖ يَوْمَئِذٍ تُشْفِرُ ۖ حَاجِبَةً ۖ تُشَتِّبِرُ ۖ وَجُوهٌ ۖ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّ ۖ عَذَابٌ ۖ تَعَفُّوا ۖ قَرَّةٌ ۖ أَوَّلُهَا ۖ ثُمَّ الْكَفَرَةُ ۖ الْفَعْرَةُ ۖ﴾ (٣٤).

قال ابن عباس: ﴿الْفَاسِقَةُ﴾: اسم من أسماء يوم القيامة، عظمه الله، وحذره عباده. قال ابن جرير: لعله اسم للنفخة في الصور. وقال البغوي: ﴿الْفَاسِقَةُ﴾: يعني صيحة القيامة؛ سميت بذلك لأنها تصخ الأسماع، أي: تبلغ في إسماعها حتى تكاد تُصمها. ﴿يَوْمَ يَرَى ۖ الْآلُفُ مِنْ آيِهِ ۖ وَأَيْنَهُ ۖ وَأَيْنَهُ ۖ وَصَاحِبِهِ ۖ وَيَبِي ۖ﴾ (٣٤) أي: يراهم، ويفر منهم، ويتعد عنهم؛ لأن الهول عظيم، والخطب جليل. قال عكرمة، يلقي الرجل زوجته فيقول لها: يا هذه، أي بعل كنت لك؟ فتقول: نعم البعل كنت! وتثني بخير ما استطاعت، فيقول لها: فإني أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهينها لي لعلني أنجو مما ترين. فتقول له: ما أسير ما طلبت، ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئاً أتخوف مثل الذي تخاف. قال: وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به فيقول: يا بني، أي والد كنت لك؟ فيثني بخير. فيقول له: يا بني، إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلني أنجو بها مما ترى. فيقول ولده: يا أبت، ما أسير ما طلبت، ولكني أتخوف مثل الذي تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً. يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَى ۖ الْآلُفُ مِنْ آيِهِ ۖ وَأَيْنَهُ ۖ وَأَيْنَهُ ۖ وَصَاحِبِهِ ۖ وَيَبِي ۖ﴾ (٣٤). وفي الحديث الصحيح - في أمر الشفاعة -: أنه إذا طلب إلى كل من أولي العزم أن يشفع عند الله في الخلاق، يقول: نفسي نفسي، لا أسأله اليوم إلا نفسي، حتى إن عيسى ابن مريم يقول: لا أسأله اليوم إلا نفسي، لا أسأله مريم التي ولدتني. ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَى ۖ الْآلُفُ مِنْ آيِهِ ۖ وَأَيْنَهُ ۖ وَأَيْنَهُ ۖ وَصَاحِبِهِ ۖ وَيَبِي ۖ﴾ (٣٤). قال قتادة: الأحب فالأحب، والأقرب فالأقرب، من هول ذلك اليوم. وقوله: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ ۖ إِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ شَاءَ ۖ يُنَبِّئُوهُ ۖ﴾ (٣٧) أي: في شغل شاغل عن غيره. قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، حدثنا الوليد بن صالح، حدثنا ثابت أبو زيد العباداني، عن هلال بن خباب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «تَحْشُرُونَ حُفَاةَ عَرَاةٍ مَشَاةً غُرْلًا». قال: فقالت زوجته: يا رسول الله، أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: «لِكُلِّ أَمْرٍ ۖ إِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ شَاءَ ۖ يُنَبِّئُوهُ ۖ﴾ (٣٧). أو قال: «ما أشغله عن النظر». وقد رواه النسائي منفرداً به، عن أبي داود، عن عارم، عن ثابت بن يزيد - وهو أبو زيد الأحول البصري، أحد الثقات - عن هلال بن خباب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، به. وقد رواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن محمد بن الفضل، عن ثابت بن يزيد، عن هلال بن خباب، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «تَحْشُرُونَ حُفَاةَ عَرَاةٍ مَشَاةً غُرْلًا». فقالت امرأة: أبيضر - أو: يرى - بعضنا عورة بعض؟ قال: «يا فلانة»، ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ ۖ إِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ شَاءَ ۖ يُنَبِّئُوهُ ۖ﴾ (٣٧). ثم قال الترمذي: وهذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن ابن عباس، رضي الله عنه. وقال النسائي: أخبرني عمرو بن عثمان، حدثنا بقية، حدثنا الزبيدي، أخبرني الزهري، عن عروة، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلًا». فقالت عائشة: يا رسول الله، فكيف بالعورات؟ فقال: «لِكُلِّ أَمْرٍ ۖ إِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ شَاءَ ۖ يُنَبِّئُوهُ ۖ﴾ (٣٧). انفرد به النسائي من هذا الوجه.

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أزهر بن حاتم، حدثنا الفضل بن موسى، عن عائذ بن شريح، عن أنس بن مالك قال: سألت عائشة، رضي الله عنها، رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، إني سألنك عن حديث فتخبرني أنت به. فقال: «إن كان عندي منه علم». قالت: يا نبي الله، كيف يحشر الرجال؟ قال: «حفاة عراة». ثم انتظرت ساعة فقالت: يا نبي الله، كيف يحشر النساء؟ قال: «كذلك حفاة عراة». قالت: واسوأناه من يوم القيامة؟ قال: «وعن أي ذلك تسألين؟ إنه قد نزل علي آية لا يضرك كان عليك ثياب أو لا يكون». قالت: آية آية هي يا نبي الله؟ قال: «لِكُلِّ أَرَبٍ يَنْتَهِمُ يَوْمَئِذٍ شَأْنُ بَيْنِهِ (٢٧)». وقال البغوي في تفسيره: أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أخبرنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرنا الحسين بن عبد الله، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن، حدثنا محمد بن عبد العزيز، حدثنا ابن أبي أويس، حدثنا أبي، عن محمد بن أبي عياش، عن عطاء بن يسار، عن سودة زوج النبي ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «يبعث الناس حفاة عراة غُرلاً قد ألجمهم العرق، وبلغ شحوم الأذان». فقلت: يا رسول الله، واسوأناه ينظر بعضنا إلى بعض؟ فقال: «قد شغل الناس، لِكُلِّ أَرَبٍ يَنْتَهِمُ يَوْمَئِذٍ شَأْنُ بَيْنِهِ (٢٧)». هذا حديث غريب من هذا الوجه جداً، وهكذا رواه ابن جرير عن أبي عمار الحسين بن حريث المروزي، عن الفضل بن موسى، به. ولكن قال أبو حاتم الرازي: عائذ بن شريح ضعيف، في حديثه ضعف. وقوله: «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ تُنْفِرُ (٢٨) حَايِكَةٌ تُنْتَبِرُ (٢٩)» أي: يكون الناس هنالك فريقين: «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ تُنْفِرُ (٢٨)» أي: مستنيرة، «حَايِكَةٌ تُنْتَبِرُ (٢٩)» أي: مسرورة فرحة من سرور قلوبهم، قد ظهر البشر على وجوههم، وهؤلاء أهل الجنة. «وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرٌ (٣٠) رَفَعَهَا قَذَرٌ (٣١)» أي: يعلوها ويغشاها قفرة، أي: سواد. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سهل بن عثمان العسكري، حدثنا أبو علي محمد مولى جعفر بن محمد، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «يلجم الكافر العرق ثم تقع الغبرة على وجوههم». قال: فهو قوله: «وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرٌ (٣٠)». وقال ابن عباس: «رَفَعَهَا قَذَرٌ (٣١)» أي: يغشاها سواد الوجوه. وقوله: «أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْعَجِرُ (٣٢)» أي: الكفرة قلوبهم، الفجرة في أعمالهم، كما قال تعالى: «وَلَا يَلْدُرُوا إِلَّا فَاِجْرًا كِفْلًا (٣٧)».

آخر تفسير سورة «عبس» والله الحمد والمنة



تفسير سورة التكويد

وهي مكية. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا عبد الله بن بدير القاص: أن عبد الرحمن بن يزيد الصنعاني أخبره: أنه سمع ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «من سُرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١)﴾، و﴿إِذَا النُّجُومُ انْفَطَرَتْ (١)﴾، و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١)﴾. وهكذا رواه الترمذي، عن العباس بن عبد العظيم الغُبَرِيِّ، عن عبد الرزاق، به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١)﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُيِّرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُتِّتْ (٨) بَاقٍ ذِكْرٌ قِيلَتْ (٩) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١٠) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْفِلَتْ (١١) عِلَّتْ نَفْسٌ مَّا حَصُرَتْ (١٢)﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١)﴾ يعني: أظلمت. وقال العوفي، عنه: ذهبت، وقال مجاهد: اضمحلَّت وذهبت. وكذا قال الضحاك. وقال قتادة: ذهب ضوؤها. وقال سعيد بن جبير: «﴿كُوِّرَتْ (١)﴾: غُورَتْ. وقال الربيع بن خثيم: «﴿كُوِّرَتْ (١)﴾ يعني: رمي بها. وقال أبو صالح: «﴿كُوِّرَتْ (١)﴾: ألقيت. وعنه أيضاً: نكست. وقال زيد بن أسلم: تقع في الأرض. قال ابن جرير: والصواب من القول عندنا في ذلك أن التكويد جمع الشيء بعضه إلى بعض، ومنه تكويد العمامة وهو لفها على الرأس، وتكوير الكارة، وهي جمع الثياب بعضها إلى بعض، فمعنى قوله: «﴿كُوِّرَتْ (١)﴾: جمع بعضها إلى بعض، ثم لفت فرمي بها، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوؤها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج وعمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا أبو أسامة، عن مجالد، عن شيخ من بجيلة، عن ابن عباس: «﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١)﴾: قال: يكور الله الشمس والقمر

والنجوم يوم القيامة في البحر، ويبحث الله ربحاً دبوراً فتضرمها ناراً. وكذا قال عامر الشعبي. ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثني معاوية بن صالح، عن ابن يزيد بن أبي مريم، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال في قول الله: ﴿إِذَا انْفُشَ كُوْرَتُ﴾ ١، قال: «كورت في جهنم». وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا موسى بن محمد بن حيّان، حدثنا دُرُسْتُ بن زياد، حدثنا يزيد الرقاشي، حدثنا أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشمس والقمر نوران عقيران في النار». هذا حديث ضعيف؛ لأن يزيد الرقاشي ضعيف، والذي رواه البخاري في الصحيح بدون هذه الزيادة، ثم قال البخاري: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا عبد العزيز بن المختار، حدثنا عبد الله الدانا، حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «الشمس والقمر يكوران يوم القيامة». انفرد به البخاري وهذا لفظه، وإنما أخرجه في كتاب «بدء الخلق»، وكان جديراً أن يذكره ها هنا أو يكرره، كما هي عادته في أمثاله! وقد رواه البزار فجود إirاده فقال: حدثنا إبراهيم بن زياد البغدادي، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا عبد العزيز بن المختار، عن عبد الله الدانا، قال سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن خالد بن عبد الله القسري في هذا المسجد - منجد الكوفة - وجاء الحسن فجلس إليه فحدث قال: حدثنا أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشمس والقمر نوران في النار يوم القيامة». فقال الحسن: وما ذنبهما؟ فقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول: أحسبه قال: وما ذنبهما. ثم قال: لا يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه، ولم يرو عبد الله الدانا عن أبي سلمة سوى هذا الحديث. وقوله: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ ٢، أي: انتشرت، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوْكَبُ انْتَرَتْ﴾ ٣ [الانفطار: ٢٢]، وأصل الانكدار: الانصباب. قال الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: ست آيات قبل يوم القيامة، بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت، ففرغت الجن إلى الإنس وإلى الجن، واختلطت الدواب والطيور والوحوش، فماجوا بعضهم في بعض: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ ٤، قال: اختلطت، ﴿وَإِذَا الْبُشَارُ عُطِّلَتْ﴾ ٥، قال: أهملها، ﴿وَإِذَا الْآيَاتُ سُيِّرَتْ﴾ ٦، قال: قالت الجن: نحن نأتيكم بالخبر. قال: فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجج، قال: فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا، قال فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الرياح فأماتهم. رواه ابن جرير - وهذا لفظه - وابن أبي حاتم، ببعضه، وهكذا قال مجاهد والربيع بن خثيم، والحسن البصري، وأبو صالح، وحماة بن أبي سليمان، والضحاك في قوله: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ ٢، أي: تناثرت. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ ٢، أي: تغيرت. وقال يزيد بن أبي مريم عن النبي ﷺ: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ ٢، قال: «انكدرت في جهنم، وكل من عبد من دون الله فهو في جهنم، إلا ما كان من عيسى وأمه، ولو رضيا أن يُعبدَا للدخلاها». رواه ابن أبي حاتم بالإسناد المتقدم. وقوله: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ ٦، أي: زالت عن أماكنها وسُفّت، فتركت الأرض قاعاً صافصفاً. وقوله: ﴿وَإِذَا الْبُشَارُ عُطِّلَتْ﴾ ٥، قال عكرمة، ومجاهد، عشار الإبل - قال مجاهد: «عُطِّلَتْ»: تركت وسُيِّت. وقال أبي بن كعب، والضحاك: أهملها أهلها. وقال الربيع بن خثيم: لم تحلب ولم تُصَرَّ، تخلى منها أربابها. وقال الضحاك: تركت لا راعي لها. والمعنى في هذا كله متقارب. والمقصود أن العشار من الإبل - وهي: خيارها والحوامل منها التي قد وصلت في حملها إلى الشهر العاشر، واحداها: عشار، ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع - قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانفعا بها، بعد ما كانوا أرغب شيء فيها، بما دهمهم من الأمر العظيم المُفْطع الهائل، وهو أمر القيامة وانعقاد أسبابها، ووقوع مقدماتها. وقيل: بل يكون ذلك يوم القيامة، يراها أصحابها كذلك ولا سبيل لهم إليها. وقد قيل في العشار: إنها السحاب يُعْطَل عن المسير بين السماء والأرض، لخراب الدنيا. وقد قيل: إنها الأرض التي تُعْشَر. وقيل: إنها الديار التي كانت تسكن تُعْطَل لذهاب أهلها. حكى هذه الأقوال كلها الإمام أبو عبد الله القرطبي في كتابه «التذكرة»، ورجح أنها الإبل، وعزاه إلى أكثر الناس. قلت: بل لا يعرف عن السلف والأئمة سواه، والله أعلم. وقوله: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ ٤، أي: جمعت. كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلْمٍ يَلْمِزُ يُجَنَّبِيهِ إِلَّا أَتَمَّ أَتَمَّكُمْ تَأْتِيكُمْ فِي الْكِتَابِ مِنْ قَوْمٍ ثُمَّ لَكُمْ رِيحٌ يُمْشِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]. قال ابن عباس: يحشر كل شيء حتى الذباب. رواه ابن أبي حاتم. وكذا قال الربيع بن خثيم والسدي، وغير واحد. وكذا قال قتادة في تفسير هذه الآية: إن هذه الخلائق موافقة فيقضي الله فيها ما يشاء. وقال عكرمة: حشرها: موتها.

وقال ابن جرير: حدثني علي بن مسلم الطوسي، حدثنا عباد بن العوام، أخبرنا حصين، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ ٤، قال: حشر البهائم: موتها، وحشر كل شيء الموت غير الجن والإنس، فإنهما يوقفان يوم القيامة.

حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن أبيه، عن أبي يعلى، عن الربيع بن خثيم: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ قال: أتى عليها أمر الله. قال سفيان: قال أبي: فذكرته لعكرمة، فقال: قال ابن عباس: حشرها: موتها. وقد تقدم عن أبي بن كعب أنه قال: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾: اختلطت. قال ابن جرير: والأولى قول من قال: ﴿حُشِرَتْ﴾: جمعت، قال الله تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ مَحْشُورٌ ۝١٩﴾ [ص: ١٩]، أي مجموعة. وقوله: ﴿وَإِذَا الْيَمَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾، قال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن علفية، عن داود، عن سعيد بن المسيب قال: قال علي، رضي الله عنه، لرجل من اليهود: أين جهنم؟ قال: البحر. فقال: ما أراه إلا صادقاً ﴿وَالْبَحْرُ الْمَسْجُورُ﴾ [الطور: ٢١]، ﴿وَإِذَا الْيَمَارُ سُجِّرَتْ﴾ مُحَقَّقَةٌ. وقال ابن عباس وغير واحد: يرسل الله عليها الذبور فتسعرها، وتصير ناراً تاجح، وقد تقدم الكلام على ذلك عند قوله: ﴿وَالْبَحْرُ الْمَسْجُورُ ۝٦﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن الجعيد، حدثنا أبو طاهر، حدثني عبد الجبار بن سليمان أبو سليمان النفاط - شيخ صالح يشبه مالك بن أنس - عن معاوية بن سعيد قال: إن هذا البحر بركة - يعني بحر الرُّوم - وسط الأرض، والأنهار كلها تصب فيه، والبحر الكبير يصب فيه، وأسفله آبار مطبقة بالنحاس، فإذا كان يوم القيامة أسجر. وهذا أثر غريب عجيب. وفي سنن أبي داود: «لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز، فإن تحت البحر ناراً، وتحت النار بحراً» الحديث، وقد تقدم الكلام عليه في سورة «فاطر». وقال مجاهد، والحسن بن مسلم: ﴿سُجِّرَتْ﴾: أوقدت. وقال الحسن: يبست. وقال الضحاك، وقتادة: غاض ماؤها فذهب ولم يبق فيها قطرة. وقال الضحاك أيضاً: ﴿سُجِّرَتْ﴾: فجرت. وقال السدي: فتحت وسيرت. وقال الربيع بن خثيم: ﴿سُجِّرَتْ﴾: فاضت. وقوله: ﴿وَإِذَا الْكُتُوبُ أُوتِيَتْ ۝٧﴾ أي: جمع كل شكل إلى نظيره، كقوله: ﴿لَاخِثُوا الْيَتِيمَ فَكَلَّمُوا وَآوَى إِلَيْكُمْ﴾ [الصافات: ٢٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الصباح البزار، حدثنا الوليد بن أبي ثور، عن سماك، عن النعمان بن بشير أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذَا الْكُتُوبُ أُوتِيَتْ ۝٧﴾ قال: الضرباء، كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله، وذلك بأن الله ﷻ يقول: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧﴾ فَأَمْسَحُ بِالْيَمِينَةِ مَا أَحْصَى الْيَمِينَةُ ۝٨ وَأَمْسَحُ بِالشَّمْسِ مَا أَحْصَى الشَّمْسُ ۝٩ وَالسَّيْفُونَ السَّيْفُونَ ۝١٠﴾ [الزمر: ٧-١٠]، قال: هم الضرباء. ثم رواه ابن أبي حاتم من طرق أخرى، عن سماك بن حرب، عن النعمان بن بشير أن عمر خطب الناس فقرأ: ﴿وَإِذَا الْكُتُوبُ أُوتِيَتْ ۝٧﴾ فقال: تزوجها: أن تولف كل شعبة إلى شيعتهم. وفي رواية: هما الرجلان يعملان العمل فيدخلان به الجنة أو النار. وفي رواية عن النعمان قال: سئل عمر عن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكُتُوبُ أُوتِيَتْ ۝٧﴾ فقال: يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، فذلك تزويج الأنفس. وفي رواية عن النعمان أن عمر قال للناس: ما تقولون في تفسير هذه الآية: ﴿وَإِذَا الْكُتُوبُ أُوتِيَتْ ۝٧﴾؟ فسكتوا. قال: ولكن هو الرجل يزوج نظيره من أهل الجنة، والرجل يزوج نظيره من أهل النار، ثم قرأ: ﴿لَاخِثُوا الْيَتِيمَ فَكَلَّمُوا وَآوَى إِلَيْكُمْ﴾. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا الْكُتُوبُ أُوتِيَتْ ۝٧﴾ قال: ذلك حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة. وقال ابن نجيب، عن مجاهد: ﴿وَإِذَا الْكُتُوبُ أُوتِيَتْ ۝٧﴾ قال: الأمثال من الناس جمع بينهم. وكذا قال الربيع بن خثيم والحسن، وقتادة. واختاره ابن جرير، وهو الصحيح. قول آخر في قوله: ﴿وَإِذَا الْكُتُوبُ أُوتِيَتْ ۝٧﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن الجعيد، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعث بن سوار، عن جعفر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: يسيل واد من أصل العرش من ماء فيما بين الصيحتين، ومقدار ما بينهما أربعون عاماً، فبنت منه كل خلق بلى، من الإنسان أو طير أو دابة، ولو مر عليهم ما قد عرفهم قبل ذلك لعرفهم على الأرض. قد نبثوا، ثم تُرسل الأرواح فتزوج الأجساد، فذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكُتُوبُ أُوتِيَتْ ۝٧﴾. وكذا قال أبو العالية، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والشعبي، والحسن البصري أيضاً في قوله: ﴿وَإِذَا الْكُتُوبُ أُوتِيَتْ ۝٧﴾ أي: زوجت بالأبدان. وقيل: زوج المؤمنين بالحوار العين، وزوج الكافرون بالشياطين. حكاه القرطبي في «التذكرة». وقوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾ يَأْتِي ذِكْرُ قِتْلَتِ ۝٩، هكذا قراءة الجمهور: ﴿سُئِلَتْ﴾. والمؤودة هي التي كان أهل الجاهلية يدسونها في التراب كراهية البنت، فيوم القيامة تسأل المؤودة على أي ذنب قتلت، ليكون ذلك تهديداً لقاتلها، فإذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذا؟! وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾ أي: سألت. وكذا قال أبو الضحى: «سألت» أي: طلبت بدمها. وعن السدي، وقتادة، مثله. وقد وردت أحاديث تتعلق بالمؤودة، فقال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني أبو الأسود - وهو: محمد بن عبد الرحمن بن نوفل - عن عروة، عن عائشة، عن جدامة بنت وهب - أخت عكاشة - قالت حضرت رسول الله ﷺ في ناس وهو يقول: «لقد هممت أن أنهي عن الغيلة، فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يُغِيلُونَ أولادهم، ولا يضر أولادهم ذلك شيئاً». ثم سأله عن العزل، فقال

رسول الله ﷺ: «ذلك الواد الخفي، وهو الموودة سثلت». ورواه مسلم من حديث أبي عبد الرحمن المقرئ - وهو عبد الله بن يزيد - عن سعيد بن أبي أيوب. ورواه أيضاً ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يحيى بن إسحاق السيلحيني، عن يحيى بن أيوب. ورواه مسلم أيضاً وأبو داود والترمذي، والنسائي، من حديث مالك بن أنس، ثلاثتهم عن أبي الأسود، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن أبي عدي، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن علقمة، عن سلمة بن يزيد الجعفي قال: انطلقت أنا وأخي إلى رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، إن أمنا مليكة كانت تصل الرحم وتقري الضيف، وتفعل وتفعل هلكت في الجاهلية، فهل ذلك نافعها شيئاً؟ قال: «لا». قلنا: فإنها كانت وأدت أختنا لنا في الجاهلية، فهل ذلك نافعها شيئاً؟ قال: «الوائدة والموودة في النار، إلا أن يدرك الوائدة الإسلام، فيعفو الله عنها». ورواه النسائي، من حديث داود بن أبي هند، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن علقمة وأبي الأحوص، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «الوائدة والموودة في النار». وقال أحمد أيضاً: حدثنا إسحاق الأزرق، أخبرنا عوف، حدثني حسناء ابنة معاوية الصُرمية، عن عمها قال: قلت: يا رسول الله، من في الجنة؟ قال: «النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والموودة في الجنة». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا قرعة قال: سمعت الحسن يقول: قيل: يا رسول الله، من في الجنة؟ قال: «الموودة في الجنة». هذا حديث مرسل من مراسيل الحسن، ومنهم من قبله. وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبو عبد الله الظهراني، حدثنا حفص بن عمر العدني، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: أطفال المشركين في الجنة، فمن زعم أنهم في النار فقد كذب، يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سِلَّتْ ۖ﴾ (٨) ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۖ﴾ (٩). قال ابن عباس: هي المدفونة. وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن سماك بن حرب، عن النعمان بن بشير، عن عمر بن الخطاب في قوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سِلَّتْ ۖ﴾ (٨) ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۖ﴾ (٩)، قال: جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنني وأدت بنات لي في الجاهلية، فقال: «أعتق عن كل واحدة منهن رقبة». قال: يا رسول الله، إنني صاحب إبل؟ قال: «فانحر عن كل واحدة منهن بدنة».

قال الحافظ أبو بكر البزار: خولف فيه عبد الرزاق، ولم نكتبه إلا عن الحسين بن مهدي، عنه. وقد رواه ابن أبي حاتم فقال: أخبرنا أبو عبد الله الظهراني - فيما كتب إلي - قال: حدثنا عبد الرزاق. . . فذكره بإسناده مثله، إلا أنه قال: «وأدت ثمان بنات لي في الجاهلية». وقال في آخره: «فأهد إن شئت عن كل واحدة بدنة». ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا قيس بن الربيع، عن الأغر بن الصباح، عن خليفة بن حصين قال: قدم قيس بن عاصم على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنني وأدت اثنتي عشرة ابنة لي في الجاهلية - أو: ثلاث عشرة - قال: «أعتق عددن نسماً». قال: فأعتق عددن نسماً، فلما كان في العام المقبل جاء بمائة ناقة، فقال: يا رسول الله، هذه صدقة قومي على أثر ما صنعت بالمسلمين. قال علي بن أبي طالب: فكنا نريحها، ونسميها القيسية. وقوله: ﴿وَإِذَا الضُّحَاكُ شُرَّتْ ۖ﴾ (١٠) قال الضحاك: أعطى كل إنسان صحيفته يمينه أو بشماله. وقال قتادة: صحيفتك يا ابن آدم، تملئ فيها، ثم تطوى، ثم تنشر عليك يوم القيامة، فليظن رجل ماذا يملئ في صحيفته. وقوله: ﴿وَإِذَا الْكَلْبُ كُطِلَتْ ۖ﴾ (١١) قال مجاهد: اجتذبت. وقال السدي: كشفت. وقال الضحاك: تنكشط فتذهب. وقوله: ﴿وَإِذَا الْحَبِيبُ شُرَّتْ ۖ﴾ (١٢) قال السدي: أحميت. وقال قتادة: أوقدت. قال: وإنما يسعها غضب الله وخطايا بني آدم. وقوله: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْفِلَتْ ۖ﴾ (١٣) قال الضحاك، وأبو مالك، وقاتدة، والربيع بن خثيم أي: قريت إلى أهلها. وقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۖ﴾ (١٤)، هذا هو الجواب، أي: إذا وقعت هذه الأمور حينئذ تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ قَدْ لَوْ أَنَّ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَهُمَا أَمَدًا بَعِيدًا﴾ (١٥) قال عمران: ١٣٠. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ الْإِنسَانُ يَوْمِيحٌ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۖ﴾ (١٦) [القيامة: ١٣]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدة، حدثنا ابن المبارك، أخبرنا محمد بن مظرف: عن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: لما نزلت: ﴿إِذَا الْكَلْبُ كُورَتْ ۖ﴾ (١٧)، قال عمر: لما بلغ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۖ﴾ (١٤) قال: لهذا أجري الحديث.

﴿قَدْ أَقِيحَ الْكَلْبُ ۖ﴾ (١٥) وَالْأَلِ إِذَا عَمَسَ ۖ (١٦) وَالضُّحَاكُ إِذَا تَنَسَّسَ ۖ (١٧) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۖ (١٨) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۖ (١٩) ثُمَّ لَمْ يَأْمُرْ أَمِينٌ ۖ (٢٠) وَمَا سَاجِدٌ يَسْجُدُ ۖ (٢١) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْيَئِينِ ۖ (٢٢) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِنَبِيْنٍ ۖ (٢٣) قَاتِنٌ ۖ (٢٤) تَذْهَبُونَ ۖ (٢٥) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۖ (٢٦) لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَعِيمَ ۖ (٢٧) وَمَا تَنَكَّرُونَ إِلَّا أَنْ يَنْتَهَ اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِيَتِ ۖ (٢٨).

روى مسلم في صحيحه، والنسائي في تفسيره عند هذه الآية، من حديث مسعر بن كدام، عن الوليد بن سريع، عن عمرو بن خريث قال: صليت خلف النبي ﷺ الصبح، فسمعتة يقرأ: ﴿قَدْ أَقِيحَ الْكَلْبُ ۖ﴾ (١٥) وَالْأَلِ إِذَا عَمَسَ ۖ (١٦) وَالضُّحَاكُ إِذَا

تَنَكَّسَ ﴿١٥﴾. ورواه النسائي عن بندار، عن عُثْدَر، عن شعبة، عن الحجاج بن عاصم، عن أبي الأسود، عن عمرو بن حُرَيْث، به نحوه. قال ابن أبي حاتم وابن جرير، من طريق الثوري، عن أبي إسحاق، عن رجل من مراد، عن علي: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحَقِّينِ﴾ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّيْ ﴿١٦﴾ قال: هي النجوم تخنس بالنهار، وتظهر بالليل. وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا شعبة، عن سماك بن حرب، سمعت خالد بن عرعة، سمعت علياً ومثلاً عن: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحَقِّينِ﴾ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّيْ ﴿١٦﴾ فقال: هي النجوم، تخنس بالنهار وتكنس بالليل. وحدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن سماك، عن خالد، عن علي قال: هي النجوم. وهذا إسناد جيد صحيح إلى خالد بن عرعة، وهو السهمي الكوفي، قال أبو حاتم الرازي: روى عن علي، وروى عنه سماك والقاسم بن عوف الشيباني. ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً، والله أعلم. وروى يونس، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي: أنها النجوم. رواه ابن أبي حاتم. وكذا روى عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والسدي، وغيرهم: أنها النجوم. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا هُوَذة بن خليفة، حدثنا عوف، عن بكر بن عبد الله في قوله: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحَقِّينِ﴾ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّيْ ﴿١٦﴾ قال: هي النجوم الدراري، التي تجري تستقبل المشرق. وقال بعض الأئمة: إنما قيل للنجوم: «الخنس»، أي: في حال طلوعها، ثم هي جوار في فللكها، وفي حال غيوبتها يقال لها: «كُنَّس» من قول العرب: أوى الظبي إلى كناسة: إذا تغيب فيه. وقال الأعمش، عن إبراهيم قال: قال عبد الله: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحَقِّينِ﴾ ﴿١٥﴾ قال: بقر الوحش. وكذا قال الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة، عن عبد الله: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحَقِّينِ﴾ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّيْ ﴿١٦﴾، ما هي يا عمرو؟ قلت: البقر. قال: وأنا أرى ذلك. وكذا روى يونس بن أبي إسحاق، عن أبيه.

وقال أبو داود الطيالسي، عن عمرو، عن أبيه، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿الْجَوَارِ الْكُنَّيْ﴾ ﴿١٦﴾ قال: البقر الوحش تكنس إلى الظل. وكذا قال سعيد بن جبيرة. وقال العوفي، عن ابن عباس: هي الظباء. وكذا قال سعيد أيضاً، ومجاهد، والضحاك. وقال أبو الشعثاء جابر بن زيد: هي الظباء والبقر. وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا مغيرة، عن إبراهيم ومجاهد: أنهما تذاكرا هذه الآية: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحَقِّينِ﴾ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّيْ ﴿١٦﴾، فقال إبراهيم لمجاهد: قل فيها بما سمعت. قال: فقال مجاهد: كنا نسمع فيها شيئاً، وناس يقولون: إنها النجوم. قال: فقال إبراهيم: قل فيها بما سمعت. قال: فقال مجاهد: كنا نسمع أنها بقر الوحش حين تكنس في حُجْرَتِهَا. قال: فقال إبراهيم: إنهم يكذبون على علي، هذا كما روى عن علي أنه ضمن الأسفل الأعلى، والأسفل الأسفل. وتوقف ابن جرير في قوله: ﴿بِالْحَقِّينِ الْجَوَارِ الْكُنَّيْ﴾ ﴿١٦﴾، هل هو النجوم، أو الظباء وبقر الوحش؟ قال: ويحتمل أن يكون الجميع مراداً. وقوله: ﴿وَأَلَيْلٌ إِذَا عَسَسَ﴾ ﴿١٧﴾، فيه قولان: أحدهما: إقباله بظلامه، قال مجاهد: أظلم. وقال سعيد بن جبيرة: إذا نشأ. وقال الحسن البصري: إذا غشي الناس. وكذا قال عطية العوفي. وقال علي بن أبي طلحة، والعوفي عن ابن عباس: ﴿إِذَا عَسَسَ﴾: إذا أدبر. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وكذا قال زيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن: ﴿إِذَا عَسَسَ﴾: أي: إذا ذهب فتولى. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي البُخْتَرِيِّ، سمع أبا عبد الرحمن السلمي قال: خرج علينا علي، رضي الله عنه، حين ثَوَّبَ المَثُوبَ بصلاة الصبح فقال: أين السائلون عن الوتر: ﴿وَأَلَيْلٌ إِذَا عَسَسَ﴾ ﴿١٧﴾ وَأَلْضِجْ إِذَا تَنَكَّسَ ﴿١٨﴾؟ هذا حين أدبر حسن. وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿إِذَا عَسَسَ﴾: إذا أدبر. قال لقوله: ﴿وَأَلْضِجْ إِذَا تَنَكَّسَ﴾ ﴿١٨﴾: أي: أضاء، واستشهد بقول الشاعر أيضاً:

حَتَّى إِذَا الضُّبُجُ لَهُ تَنَفَّسًا وَانْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسَسَا
أي: أدبر. وعندني أن المراد بقوله: ﴿عَسَسَ﴾: إذا أقبل، وإن كان يصح استعماله في الإدبار، لكن الإقبال ها هنا أنسب، كأنه أقسم تعالى بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضياؤه إذا أشرق، كما قال: ﴿وَأَلَيْلٌ إِذَا تَنَفَّسَتْ﴾ ﴿١٩﴾ وَأَلْضِجْ إِذَا تَنَكَّسَتْ ﴿٢٠﴾، [الليل: ١، ٢] وقال: ﴿وَأَلْضِجْ﴾ ﴿٢٠﴾ وَأَلَيْلٌ إِذَا سَجَى ﴿٢١﴾ [الضحى: ١، ٢]، وقال: ﴿فَأَنَّى الْإِسْتِجَارَ يُجَمَّلَ أَلَيْلٌ سَكَا﴾ [الأنعام: ٩٦]، وغير ذلك من الآيات. وقال كثير من علماء الأصول: إن لفظة «عسس» تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما، والله أعلم. قال ابن جرير: وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب يزعم أن «عسس»: دنا من أوله وأظلم. وقال الفراء: كان أبو البلاد النحوي يُشَدُّ بيتاً:

عَسَسَ حَتَّى لَوْ يَشَاءُ أَذْنًا كَانَ لَهُ مِنْ ضَوْؤِهِ مَقْبِيسٌ
يريد: لو يشاء إذ دنا، أدغم الذا في الدال. وقال الفراء: وكانوا يرون أن هذا البيت مصنوع. وقوله: ﴿وَأَلْضِجْ إِذَا تَنَكَّسَ﴾ ﴿٢٠﴾، قال الضحاك: إذا طلع. وقال قتادة: إذا أضاء وأقبل. وقال سعيد بن جبيرة: إذا نشأ. وهو المروي عن علي، رضي الله عنه.

وقال ابن جرير: يعني: وضوء النهار إذا أقبل وتبين. وقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يعني: إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم، أي: ملك شريف حسن الخلق، بهي المنظر، وهو جبريل، عليه الصلاة والسلام. قاله ابن عباس، والشعبي، وميمون بن مهران، والحسن، وقناة، والضحاك، والربيع بن أنس، وغيرهم. ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ كقوله: ﴿مَعَهُ سَيِّدُ الْقُوَّةِ﴾ (٥) ذو مِرَّةٍ قَاسَتْوَيْ (٦) [النجم: ٥، ٦]، أي: شديد الخلق، شديد البطش والفعل، ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي: له مكانة عند الله ﷻ ومنزلة رفيعة. قال أبو صالح في قوله: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ قال: جبريل يدخل في سبعين حجاباً من نور بغير إذن، ﴿شُطَاعَ ثَمٍّ﴾ أي: له وجهة، وهو مسموع القول مطاع في الملا الأعلى. قال قتادة: ﴿شُطَاعَ ثَمٍّ﴾ أي: في السموات، يعني: ليس هو من أفناء الملائكة، بل هو من السادة والأشراف، مُعْتَنَى بِهِ، انتخب لهذه الرسالة العظيمة. وقوله: ﴿أَيُّنَ﴾: صفة لجبريل بالأمانة، وهذا عظيم جداً أن الرب ﷻ يزكي عبده ورسوله الملكي جبريل كما زكى عبده ورسوله البشري محمداً ﷺ بقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِبَحْوَنٍ﴾ (٢٢). قال الشعبي، وميمون بن مهران، وأبو صالح، ومن تقدم ذكرهم: المراد بقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِبَحْوَنٍ﴾ (٢٢) يعني: محمداً ﷺ. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ (٢٣) يعني: ولقد رأى محمداً جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله ﷻ على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح ﴿بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ أي: البين، وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء، وهي المذكورة في قوله: ﴿مَعَهُ سَيِّدُ الْقُوَّةِ﴾ (٥) ذو مِرَّةٍ قَاسَتْوَيْ (٦) وهو بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) [النجم: ٥-١٠]، كما تقدم تفسير ذلك وتقريره. والدليل أن المراد بذلك جبريل، عليه السلام. والظاهر - والله أعلم - أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء، لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية وهي الأولى، وأما الثانية وهي المذكورة في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ (١٧) عِنْدَ رِجَّةِ الْمُتَلَكِّينَ (١٨) وَعِنْدَمَا جَاءَهُ الْمَلَكُ (١٩) إِذْ يَقْنُنُ مِنَ السَّمَاءِ مَا يَخْتَفَى (٢٠) [النجم: ١٣-١٦]، فنلك إنما ذكرت في سورة «النجم»، وقد نزلت بعد سورة الإسراء. وقوله: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ (٢٤) أي: وما محمد على ما أنزله الله إليه بظنين، أي: بمتهم. ومنهم من قرأ ذلك بالضاد، أي: ببخيل، بل يبذله لكل أحد. قال سفيان بن عيينة: ظنين وضنين سواء، أي: ما هو بكاذب، وما هو بفاجر. والظنين: المتهم، والضنين: البخيل. وقال قتادة: كان القرآن غيباً، فأنزله الله على محمد، فما ضنَّ به على الناس، بل بلغه ونشره وبذله لكل من أَرَادَهُ. وكذا قال عكرمة، وابن زيد، وغير واحد. واختار ابن جرير قراءة الضاد. قلت: وكلاهما متواتر، ومعناه صحيح كما تقدم. وقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (٢٥) أي: وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم، أي: لا يقدر على حمله، ولا يريده، ولا ينبغي له. كما قال: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (٢١) وَمَا يَلْبِغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢٢) لِيُثَبِّرَ عَنَّا السَّمْعَ لَمَعَزُولُونَ (٢٣) [الشعراء: ٢١٠-٢١٢]. وقوله: ﴿فَإِن تَذَهَبَ عَقُولُكُمْ فِي تَكْذِيبِكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ، مع ظهوره ووضوحه، وبيان كونه جاء من عند الله ﷻ، كما قال الصديق، رضي الله عنه، لوفد بني حنيفة حين قدموا مسلمين، وأمرهم فتلوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة الذي هو في غاية الهذيان والركاكة، فقال: ويحكم، أين يذهب بعقولكم؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إل، أي: من إله. وقال قتادة: ﴿فَإِن تَذَهَبُونَ﴾ (٢٦) أي: عن كتاب الله وعن طاعته. وقوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢٧) أي: هذا القرآن ذكر لجميع الناس، يتذكرون به ويتعظون، ﴿لَمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) أي: من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن، فإنه منجاة له وهداية، ولا هداية فيما سواه، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٩) أي: ليست المشيئة موكولة إليكم، فمن شاء اعتدى ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله ﷻ رب العالمين. قال سفيان الثوري، عن سعيد بن عبد العزيز، عن سليمان بن موسى، لما نزلت هذه الآية: ﴿لَمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨)، قال أبو جهل: الأمر إلينا، إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم. فأنزل الله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٩).

آخر تفسير سورة «التكوير» والله الحمد والمنة



تفسير سورة الانفطار

وهي مكية. قال النسائي: أخبرنا محمد بن قدامة، حدثنا جرير عن الأعمش، عن محارب بن دثار، عن جابر قال: قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطول، فقال النبي ﷺ: «أفان يا معاذ؟ أفان يا معاذ؟ أين كنت عن سبوح اسم ربك الأعلى، والضحى، وإذا السماء انفطرت؟!». وأصل الحديث مخرج في الصحيحين، ولكن ذكر ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (١) في أفراد النسائي. وتقدم

من رواية عبد الله بن عمر، عن النبي ﷺ قال: «من سرّه أن ينظر إلى القيامة رأي عين فليقرأ: ﴿إِذَا الْبُشْرَى كُذِّبَتْ﴾ ❶ و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ❷ و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ❸».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ❶ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ❷ وَإِذَا الْبُشْرَى نُفِرَتْ ❸ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ❹ عِلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ❺ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ❻ الَّذِي خَلَقَكَ سَوْنَكَ فَعَدَلَكَ ❼ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ❽ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ❿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⓫ كِرَامًا كَاتِبِينَ ⓬ يَكْتُونَ مَا تَعْمَلُونَ ⓭﴾.

يقول تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ❶ أي: انشقت. كما قال: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ يَوْمَ﴾ [المزمل: ١٨]. ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ ❷ أي: تساقطت. ﴿وَإِذَا الْبُشْرَى نُفِرَتْ﴾ ❸: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: فجر الله بعضها في بعض. وقال الحسن: فجر الله بعضها في بعض، فذهب ماؤها. وقال قتادة: اختلط مالحها بعذبها. وقال الكلبي: ملئت. ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾ ❹: قال ابن عباس: بُجِثَتْ. وقال السدي: تُبْعَثُ: تُحْرَكُ فيخرج من فيها. ﴿عِلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ ❺ أي: إذا كان هذا حصل هذا. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ❻؟ هذا تهديد، لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب، حيث قال: ﴿الْكَرِيمِ﴾، حتى يقول قائلهم: غره كرمه. بل المعنى في هذه الآية: ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم - أي: العظيم - حتى أقدمت على معصيته، وقابلته بما لا يليق؟ كما جاء في الحديث: «يقول الله يوم القيامة: ابن آدم، ما غرك بي؟ ابن آدم، ماذا أجبت المرسلين؟». قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان: أن عمر سمع رجلاً يقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ❻، فقال عمر: الجهل. وقال أيضاً: حدثنا عمر بن شبة، حدثنا أبو خلف، حدثنا يحيى البكاء، سمعت ابن عمر يقول وقرأ هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ❻. قال ابن عمر: غره - والله - جهله. قال: ورؤي عن ابن عباس، والربيع بن خثيم، والحسن، مثل ذلك. وقال قتادة: «مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ»: شيء، ما غرّ ابن آدم غير هذا العدو الشيطان. وقال الفضيل بن عياض: لو قال لي: «ما غرك بي»، لقلت: سُتُورُكَ الْمُرخاة. وقال أبو بكر الوراق: لو قال لي: «مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ» لقلت: غرني كرم الكريم. قال البغوي: وقال بعض أهل الإشارة: إنما قال: ﴿بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ دون سائر أسمائه وصفاته، كأنه لقنه الإجابة. وهذا الذي تخيله هذا القائل ليس بطائل؛ لأنه إنما أتى باسمه ﴿الْكَرِيمِ﴾، لئنه على أنه لا ينبغي أن يُقَابَلَ الكريم بالأفعال القبيحة، وأعمال السوء. وقد حكى البغوي، عن الكلبي ومقاتل أنهما قالوا: نزلت هذه الآية في الأسود بن شريق، ضرب النبي ﷺ ولم يعاقب في الحالة الراهنة، فأنزل الله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾؟ وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ سَوْنَكَ فَعَدَلَكَ﴾ ❼ أي: ما غرك بالرب الكريم ﴿الَّذِي خَلَقَكَ سَوْنَكَ فَعَدَلَكَ﴾ ❼ أي: جعلك سويّاً معتدلاً القائمة منتصبها، في أحسن الهيئات والأشكال. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا حريز، حدثني عبد الرحمن بن ميسرة، عن جبير بن نفير، عن بسر بن جحاش القرشي: أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه، فوضع عليها إصبعه، ثم قال: «قال الله ﷻ: ابن آدم، أتني تُعْجِزُني وقد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إذا سويتك وعدلتك، مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدقني، وأتأى أوأى الصدقة». وكذا رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يزيد بن هارون، عن حريز بن عثمان، به.

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي: وتابعه يحيى بن حمزة، عن ثور بن يزيد، عن عبد الرحمن بن ميسرة. وقوله: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ ❽: قال مجاهد: في أي شبه أب أو أم أو خال أو عم؟ وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سنان القزاز، حدثنا مُطَهَّرُ بن الهيثم، حدثنا موسى بن عُلي بن رباح، حدثني أبي، عن جدي: أن النبي ﷺ قال له: «ما ولد لك؟» قال: يا رسول الله، ما عسى أن يُولد لي؟ إما غلام وإما جارية. قال: «فمن يشبه؟» قال: يا رسول الله، من عسى أن يشبه؟ إما أباه وإما أمه. فقال النبي ﷺ عندها: «مه. لا تقولن هكذا، إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم؟ أما قرأت هذه الآية في كتاب الله: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ ❽؟ قال: سلكك. وهكذا رواه ابن أبي حاتم والطبراني، من حديث مُطَهَّرِ بن الهيثم، به. وهذا الحديث لو صح لكان فيضاً في هذه الآية، ولكن إسناده ليس بالثابت؛ لأن مُطَهَّرَ بن الهيثم قال فيه أبو سعيد بن يونس: كان متروك الحديث. وقال ابن حبان: يروي عن موسى بن علي وغيره ما لا يُشبه حديث الأثبات. ولكن في الصحيحين عن أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن امرأتي ولدت غلاماً أسود؟ قال: «هل لك من إبل؟» قال: نعم. قال: «فما ألوانها؟» قال: يكون حُمر. قال: «فهل فيها من أورك؟» قال: نعم. قال: «فأني أتناها ذلك؟»

قال: عسى أن يكون نزعة عرق. قال: «وهذا عسى أن يكون نزعة عرق». وقد قال عكرمة في قوله: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (٨): «إن شاء في صورة قرد، وإن شاء في صورة خنزير. وكذا قال أبو صالح: إن شاء في صورة كلب، وإن شاء في صورة حمار، وإن شاء في صورة خنزير. وقال قتادة: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (٨)، قال: قادر - والله - ربنا على ذلك. ومعنى هذا القول عند هؤلاء: أن الله ﷻ، قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة الخلق، ولكن بقدرته ولطفه وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم معتدل تام، حسن المنظر والهيئة. وقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ (٩): أي: بل إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي، تكذيب في قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لَظُؤْلُمًا﴾ (١٠) كَرَامًا كَثِيرًا ﴿يَقُولُونَ مَا نَعْمَلُونَ﴾ (١١) يعني: وإن عليكم لملائكة حفظة كراماً فلا تقابلوهم بالقبائح، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنابسي، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان ومسرر، عن علقمة بن مرثد، عن مجاهد قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين: الجنابة والغائط. فإذا اغتسل أحدكم فليستر بجرم حائط أو ببيعه، أو ليستره أخوه».

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار، فوصله بلفظ آخر، فقال: حدثنا محمد بن عثمان بن كرامة، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن حفص بن سليمان، عن علقمة بن مرثد، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ينهاكم عن التعري، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم، الكرام الكاتبين، الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات: الغائط، والجنابة، والغسل. فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستر بثوبه، أو بجرم حائط، أو ببيعه». ثم قال: حفص بن سليمان لين الحديث، وقد روي عنه، واحتمل حديثه. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا زياد بن أيوب، حدثنا ميثم بن إسماعيل الحلبي، حدثنا تمام بن نجيع، عن الحسن - يعني البصري - عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من حافظين يرفعان إلى الله ﷻ، ما حفظا في يوم، فيرى في أول الصحيفة وفي آخرها استغفار إلا قال الله تعالى: قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة». ثم قال: تفرد به تمام بن نجيع، وهو صالح الحديث. قلت: وثقه ابن معين وضعفه البخاري، وأبو زرعة، وابن أبي حاتم، والنسائي، وابن عدي. ورواه ابن حبان بالوضع. وقال الإمام أحمد: لا أعرف حقيقة أمره. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إسحاق بن سليمان البغدادي المعروف بالقلوسي، حدثنا بيان بن حمران، حدثنا سلام، عن منصور بن زاذان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يعرفون بني آدم - وأحسبه قال: ويعرفون أعمالهم - فإذا نظروا إلى عبد يعمل بطاعة الله ذكروه بينهم وسموه، وقالوا: أفلح الليلة فلان، نجا الليلة فلان. وإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصية الله ذكروه بينهم وسموه، وقالوا: هلك الليلة فلان». ثم قال البزار: سلام هذا، أحسبه سلام المدائني، وهو لين الحديث.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٢) وَلَئِنَّ الْفَجَارَ لَفِي حَبِيرٍ ﴿١٣﴾ يَصَلُّونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٤﴾ وَمَا لَهُمْ عَنْهَا بِعَائِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٨﴾.

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم، وهم الذين أطاعوا الله ﷻ، ولم يقابلوه بالمعاصي. وقد روى ابن عساکر في ترجمة «موسى بن محمد»، عن هشام بن عمار، عن عيسى بن يونس بن أبي إسحاق، عن عبيد الله، عن محارب، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «إنما سماهم الله الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء». ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم؛ ولهذا قال: ﴿يَصَلُّونَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ (١٤) أي: يوم الحساب والجزاء والقيامة، ﴿وَمَا لَهُمْ عَنْهَا بِعَائِينَ﴾ (١٥) أي: لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة، ولا يخفف عنهم من عذابها، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة، ولو يوماً واحداً. وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ (١٦) تعظيم لشأن يوم القيامة، ثم أكد بقوله: ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ (١٧) ثم فسره بقوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (١٨) أي: لا يقدر واحد على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى. ونذكرها هنا حديث: «يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، لا أملك لكم من الله شيئاً». وقد تقدم في آخر تفسير سورة الشعراء؛ ولهذا قال: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾، كقوله: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وكقوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْعَلِيُّ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٢٦]، وكقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الناجمة: ٤]. قال قتادة: ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (١٨)، والأمر - والله - اليوم، ولكنه يومئذ لا ينازعه أحد.

تفسير سورة المطففين

وهي مدنية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّهِمُ الْغَالِيينَ ﴿٦﴾

قال النسائي وابن ماجه: أخبرنا محمد بن عقيل - زاد ابن ماجه: وعبد الرحمن بن بشر - قال: حدثنا علي بن الحسين بن واقد، حدثني أبي، عن يزيد - هو ابن أبي سعيد النخعي، مولى قریش - عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما قدم نبي الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١)، فحسبوا الكيل بعد ذلك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفر بن النضر بن حماد، حدثنا محمد بن عبيد، عن الأعمش، عن عمرو بن مَرْة، عن عبد الله بن الحارث، عن هلال بن طلق قال: بينا أنا أسير مع ابن عمر فقلت: من أحسن الناس هيئة وأوفاه كيلاً؟ أهل مكة أو المدينة؟ قال: حق لهم، أما سمعت الله يقول: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١). وقال ابن جرير: حدثنا أبو السائب، حدثنا ابن فضيل، عن ضرار، عن عبد الله المكتب، عن رجل، عن عبد الله قال: قال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، إن أهل المدينة ليوفون الكيل. قال: وما يمنعه أن يوفوا الكيل وقد قال الله ﷻ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) حتى بلغ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّهِمُ الْغَالِيينَ﴾ (٦). فالمراد بالتطفيف ها هنا: الخس في المكيال والميزان، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس، وإما بالنقصان إن قضاهم. ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك وهو الويل، بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أي: من الناس ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ أي: يأخذون حقهم بالوافي والزائد، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (٣) أي: ينقصون. والأحسن أن يجعل «كالوا» و«وزنوا» متعدياً ويكون هم في محل نصب، ومنهم من يجعلها ضميراً مؤكداً للمستتر في قوله: «كالوا» و«وزنوا»، ويحذف المفعول لدلالة الكلام عليه، وكلاهما مقارب.

وقد أمر الله - تعالى - بالوفاء في الكيل والميزان، فقال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ بِالْقَيْسِ الَّذِي ذَلِكُمْ سَبْرٌ وَاحْسِنُوا أَوَّلَ الْوَيْلِ﴾ (٣٥) [الاسراء: ٣٥]، وقال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكُلُوا نَفْسًا لَّنَا وَلَا سُمَمًا﴾ [الانعام: ١٥٢]، وقال: ﴿وَأَقِيمُوا الزُّنْتَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (١) [الرحمن: ٤٩]. وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس في المكيال والميزان. ثم قال تعالى متوعداً لهم: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ (١) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾؟ أي: أما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر، في يوم عظيم الهول، كثير الفزع، جليل الخطب، من خسر فيه أدخل ناراً حامية؟ وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّهِمُ الْغَالِيينَ﴾ (٦) أي: يقومون حفاة عراة غرلاً، في موقف صعب حرج ضيق ضنك على المجرم، ويغشاهم من أمر الله، ما تعجز القوى والحواس عنه. قال الإمام مالك عن نافع، عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّهِمُ الْغَالِيينَ﴾ (١) حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه. رواه البخاري، من حديث مالك وعبد الله بن عون، كلاهما عن نافع، به. ورواه مسلم من الطريقتين أيضاً. وكذلك رواه صالح وثابت بن كيسان وأيوب بن يحيى، وعبد الله وعبيد الله ابنا عمر، ومحمد بن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر، به. ولفظ الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا ابن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّهِمُ الْغَالِيينَ﴾ (١): لعظمة الرحمن ﷻ يوم القيامة، حتى إن العرق ليلجُم الرجال إلى أنصاف آذانهم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن إسحاق، حدثنا ابن المبارك، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثني سليم بن عامر، حدثني المقداد - يعني ابن الأسود الكندي - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة أذنت الشمس من العباد، حتى تكون قيد ميل أو ميلين، قال: فتصهرهم الشمس، فيكونون في العرق كقدر أعمالهم، منهم من يأخذه إلى عقبه، ومنهم من يأخذه إلى ركبته، ومنهم من يأخذه إلى حقويه، ومنهم من يلجمه إلجاماً». رواه مسلم، عن الحكم بن موسى، عن يحيى بن حمزة - والترمذي، عن سويد، عن ابن المبارك - كلاهما عن ابن جابر، به. حديث آخر: قال الإمام

أحمد: حدثنا الحسن بن سوار، حدثنا الليث بن سعد، عن معاوية بن صالح: أن أبا عبد الرحمن حدثه، عن أبي أمامة: أن رسول الله ﷺ قال: «تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل، ويزاد في حرها كذا وكذا، تغلي منها الهوام كما تغلي القدور، يُعرفون فيها على قدر خطاياهم، منهم من يبلغ إلى كعبه، ومنهم من يبلغ إلى ساقه، ومنهم من يبلغ إلى وسطه، ومنهم من يلجمه العرق». انفرد به أحمد. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لبيبة، حدثنا أبو عثانة حي بن يؤمن، أنه سمع عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تدنو الشمس من الأرض فيعرق الناس، فمن الناس من يبلغ عرقه عقيبته، ومنهم من يبلغ إلى نصف الساق، ومنهم من يبلغ إلى ركبتيه، ومنهم من يبلغ العجز، ومنهم من يبلغ الخاصرة، ومنهم من يبلغ منكبيه، ومنهم من يبلغ وسط فيه - وأشار بيده فألجمها فاه، رأيت رسول الله ﷺ يشير هكذا - ومنهم من يغطي عرقه». وضرب بيده إشارة. انفرد به أحمد. وفي حديث: أنهم يقومون سبعين سنة لا يتكلمون. وقيل: يقومون ثلاثمائة سنة. وقيل: يقومون أربعين ألف سنة. ويقضي بينهم في مقدار عشرة آلاف سنة، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة». وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو عون الزياتي، أخبرنا عبد السلام بن عجلان، سمعت أبا يزيد المدني، عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ لبشير الغفاري: «كيف أنت صانع في يوم يقوم الناس فيه ثلاثمائة سنة لرب العالمين، من أيام الدنيا، لا يأتيهم فيه خبر من السماء ولا يؤمر فيه بأمر؟». قال بشير: المستعان الله. قال: «فإذا أويت إلى فراشك فتعوذ بالله من كرب يوم القيامة، وسوء الحساب». ورواه ابن جرير من طريق عبد السلام، به. وفي سنن أبي داود: أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة. وعن ابن مسعود: يقومون أربعين سنة رافعي رؤوسهم إلى السماء، لا يكلمهم أحد، قد ألجم العرق برؤسهم وفاجرهم. وعن ابن عمر: يقومون مائة سنة. رواهما ابن جرير. وفي سنن أبي داود والنسائي وابن ماجه، من حديث زيد بن الحباب، عن معاوية بن صالح، عن أزهر بن سعيد الحواري، عن عاصم بن حميد، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يفتتح قيام الليل: يكبر عشراً، ويحمد عشراً، ويسبح عشراً، ويستغفر عشراً، ويقول: «اللهم اغفر لي واهديني، وارزقني وعافني». ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَزْكُرُ مَا بِسِجِّينٍ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْمُومٌ ﴿٩﴾ وَلَمْ يُمْضِهِ الْمَكِينُ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يُكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَذِرٍ أَلِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا نُتِيَ عَلَيْهِ الْمَسِيلُ فَالْأَكْذِبُ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُونٌ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَسَالُوا الْجَحِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ قَالُوا هَذَا إِلَهِ كُفُّوا يَدَ كَذِبِكُمْ ﴿١٧﴾﴾.

يقول: حقاً ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ أي: إن مصيرهم وأوأهم لفي سجين - فعيل من السَّجَن، وهو الضيق - كما يقال: فسَّيق وشَرَّيب وخَمَّير وسَكَّير، ونحو ذلك. ولهذا عظم أمره فقال: ﴿وَمَا أَزْكُرُ مَا بِسِجِّينٍ﴾؟ أي: هو أمر عظيم، وسجن مقيم وعذاب أليم. ثم قد قال قائلون: هي تحت الأرض السابعة. وقد تقدم في حديث البراء بن عازب، في حديثه الطويل: يقول الله ﷻ في روح الكافر: اكتبوا كتابه في سجين. وسجين: هي تحت الأرض السابعة. وقيل: صخرة تحت الأرض السابعة خضراء. وقيل: بئر في جهنم. وقد روى ابن جرير في ذلك حديثاً غريباً منكراً لا يصح فقال: حدثنا إسحاق بن وهب الواسطي، حدثنا مسعود بن موسى بن مشكان الواسطي، حدثنا نصر بن خزيمة الواسطي، عن شعيب بن صفوان، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «الفلق: جب في جهنم مغطى، وأما سجين فمفتوح». والصحيح أن «سجينا» مأخوذ من السَّجَن، وهو الضيق، فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق، وكل ما تعالى منها اتسع، فإن الأفلاك السبعة كل واحد منها أوسع وأعلى من الذي دونه، وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التي دونها، حتى ينتهي السفول المطلق والمحل الأضيئ إلى المركز في وسط الأرض السابعة. ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل السافلين، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البين: ٥، ٦]. وقال هـ هنا: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَزْكُرُ مَا بِسِجِّينٍ ﴿٨﴾﴾، وهو يجمع الضيق والسفول، كما قال: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَبْحًا يَقْرَءُونَ مُعْتَرِينَ دَعَاؤًا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان: ١٣]. وقوله: ﴿كِتَابٌ مَرْمُومٌ ﴿٩﴾﴾ ليس تفسيراً لقوله: ﴿وَمَا أَزْكُرُ مَا بِسِجِّينٍ ﴿٨﴾﴾، وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين، أي: مرقوم مكتوب مفروغ منه، لا يزداد فيه أحد ولا ينقص منه أحد؛ قاله محمد بن كعب القرظي. ثم قال: ﴿وَلَمْ يُمْضِهِ الْمَكِينُ ﴿١٠﴾﴾ أي: إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من السَّجَن والعذاب المهين. وقد تقدم الكلام على قوله: ﴿وَيْلٌ﴾ بما أغنى عن إعادته، وأن المراد من ذلك الهلاك والدمار، كما يقال: ويل لفلان. وكما جاء في المسند والسنن من رواية بهز بن حكيم بن معاوية بن حيدة، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للذي يُحدث فيكذب، ليضحك الناس، ويل له، ويل له». ثم قال تعالى مفسراً للمكذبين الفجار الكفرة: ﴿الَّذِينَ يُكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾﴾ أي: لا يصدقون بوقوعه،

ولا يعتقدون كونه، ويستبعدون أمره. قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَذِرٍ ۝١٧﴾ أي: معتمد في أفعاله؛ من تعاطي الحرام والمجازاة في تناول المباح والأثيم في أقواله: إن حدث كذب، وإن وعد أخلف، وإن خاصم فجر. وقوله: ﴿إِنَّا نُنْزِلُ عَلَيْهِ مَائِدَاتُهَا ۝١٨﴾ أي: إذا سمع كلام الله من الرسول، يكذب به، ويظن به ظن السوء، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل، كما قال تعالى: ﴿وَرِئَازًا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رِئَازًا قَالُوا اسْتَطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝١٩﴾ [النحل: ٢٢٤]، وقال: ﴿وَقَالُوا اسْتَطِيرُ الْأَوَّلِينَ اسْتَنْتَبَهَا فَوَيْ شَتَّىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَوَّلًا ۝٢٠﴾ [الفرقان: ٥]، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٢١﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا، إن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان بما عليها من الرُّين الذي قد ليس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا، ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٢٢﴾. والرين يعترى قلوب الكافرين، والغيم للأبرار، والغين للمقربين.

وقد روى ابن جرير والترمذي والنسائي وابن ماجة من طرق، عن محمد بن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صُقل قلبه، وإن زاد زادت، فذلك قول الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٢٢﴾». وقال الترمذي: حسن صحيح. ولفظ النسائي: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة، فإن هو نزع واستغفر وتاب صُقل قلبه، فإن عاد فيها حتى يعلو قلبه، فهو الران الذي قال الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٢٢﴾». وقال أحمد: حدثنا صفوان بن عيسى، أخبرنا ابن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صُقل قلبه، فإن زاد زادت حتى يعلو قلبه، وذلك الران الذي ذكر الله في القرآن: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٢٢﴾». وقال الحسن البصري: هو الذنب على الذنب، حتى يعمى القلب، فيموت. وكذا قال مجاهد بن جبر وقتادة، وابن زيد، وغيرهم. وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ۝٢٣﴾ أي: لهم يوم القيامة منزل ونزل سجين، ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم. قال الإمام أبو عبد الله الشافعي: في هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه ﷻ يومئذ. وهذا الذي قاله الإمام الشافعي، رحمه الله، في غاية الحسن، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية، كما دل عليه منطوق قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ۝٢٤﴾ [إلى ربها ناصرة] ﴿٢٢﴾. وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة في رؤية المؤمنين ربهم ﷻ في الدار الآخرة، رؤية بالابصار في عرصات القيامة، وفي روضات الجنات الفاخرة. وقد قال ابن جرير محمد بن عمار الرازي: حدثنا أبو معمر المنقري، حدثنا عبد الوارث بن سعيد، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن في قوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ۝٢٣﴾، قال: يكشف الحجاب، فينظر إليه المؤمنون والكافرون، ثم يحجب عنه الكافرون وينظر إليه المؤمنون. كل يوم غدوة وعشية - أو كلاماً هذا معناه - قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْغَيْمِ ۝٢٤﴾ أي: ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن من أهل النيران، ﴿ثُمَّ بَقَا هَذَا الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكَذُّبُونَ ۝٢٥﴾ أي: يقال لهم ذلك على وجه التقرير والتوبيخ، والتصغير والتحقير.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبِيَاءِ لَبِئْسَ مَا عَلِيُّونَ ۝٢٦﴾ كِتَابٌ مَّرْهُومٌ ﴿٢٦﴾ يَشْهَدُهُ الْمَلَكُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٢٨﴾ عَلَى الْأَرَاكِ يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾ تَرَوْنَ فِي وُجُوهِهِمْ نَصْرَةَ النَّبِيِّ ﴿٣٠﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيْقٍ مَّخْتَوٍ ﴿٣١﴾ خِتْمُهُمُ سِكِّينٌ ﴿٣٢﴾ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ السُّفُورُونَ ﴿٣٣﴾ وَرِءَايُهُمْ بَيْنَ سَتِيرَةٍ ﴿٣٤﴾ عِنَّا يَتَرَفَّتْ رِجَاهُ الْمَعْرُوفُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

يقول تعالى: حقاً ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ وهم بخلاف الفجار، ﴿لَبِئْسَ مَا عَلِيُّونَ﴾ أي: مصيرهم إلى عليين، وهو بخلاف سجين. قال الأعمش، عن شمر بن عطية، عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعباً وأنا حاضر عن سجين، قال: هي الأرض السابعة. وفيها أرواح الكفار. وسأله عن عليين فقال: هي السماء السابعة، وفيها أرواح المؤمنين. وهكذا قال غير واحد: إنها السماء السابعة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبِيَاءِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٢٨﴾ يعني: الجنة. وفي رواية العوفي، عنه: أعمالهم في السماء عند الله. وكذا قال الضحاك. وقال قتادة: عليون: ساق العرش اليمنى. وقال غيره: عليون عند سدة المتتهى. والظاهر: أن عليين مأخوذ من العلو، وكلما علا الشيء ارتفع عظم واتسع؛ ولهذا قال معظماً أمره ومفخماً شأنه: ﴿وَمَا أَذْرَبْكَ مَا عَلِيُّونَ ۝٢٦﴾. ثم قال مؤكداً لما كتب لهم: ﴿كِتَابٌ مَّرْهُومٌ ﴿٢٦﴾ يَشْهَدُهُ الْمَلَكُونَ ﴿٢٧﴾﴾، وهم الملائكة، قاله قتادة. وقال العوفي، عن ابن عباس: يشهد من كل سماء مقربوها. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٢٨﴾ أي: يوم القيامة هم في نعيم مقيم، وجنات فيها فضل عظيم، ﴿عَلَى الْأَرَاكِ﴾ وهي: السرر تحت الحجال، ﴿يُنْظَرُونَ﴾ قيل: معناه ينظرون في ملكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذي لا ينقضي ولا يبديد. وقيل: معناه ﴿عَلَى الْأَرَاكِ يُنْظَرُونَ﴾ [٢٩]، إلى الله ﷻ.

وهذا مقابلة لما وُصف به أولئك الفجار: ﴿لَا يَتَمَنَّوْنَ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَيزِ لَمَحْجُورُونَ﴾، فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله وهم على سررهم وفرشهم، كما تقدم في حديث ابن عمر: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة، يرى أقصاه كما يرى أذناه، وإن أعلاه لمن ينظر إلى الله في اليوم مرتين». وقوله: ﴿تَتَوَلَّوْا فِي وَجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أي: تعرف إذا نظرت إليهم في وجوههم نضرة النعيم، أي: صفة الترافة والحشمة والسرور والدعة والرياسة، مما هم فيه من النعيم العظيم. وقوله: ﴿يَسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ أي: يسقون من خمر من الجنة. والرحيق: من أسماء الخمر. قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد. قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا زهير، عن سعد أبي المجاهد الطائي، عن عطية بن سعد العوفي، عن أبي سعيد الخدري - أراه قد رفعه إلى النبي ﷺ - قال: «أيما مؤمن سقى مؤمناً شربة على ظمأ، سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم. وأيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع، أطعمه الله من ثمار الجنة. وأيما مؤمن كسا مؤمناً ثوباً على عري، كساه الله من خضر الجنة». وقال ابن مسعود في قوله: ﴿يَخْتَمُّهُ مُسْكٌ﴾ أي: خلطه مسك. وقال العوفي، عن ابن عباس: طيب الله لهم الخمر، فكان آخر شيء جعل فيها مسك، ختم بمسك. وكذا قال قتادة والضحاك. وقال إبراهيم والحسن: ﴿يَخْتَمُّهُ مُسْكٌ﴾ أي: عاقبته مسك. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا أبو حمزة، عن جابر، عن عبد الرحمن بن سابط، عن أبي الدرداء: ﴿يَخْتَمُّهُ مُسْكٌ﴾ قال: شراب أبيض مثل الفضة، يخمون به شرابهم. ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها، لم يبق ذو روح إلا وجد طيبها. وقال ابن أبي نجيع، عن مجاهد: ﴿يَخْتَمُّهُ مُسْكٌ﴾ قال: طيبه مسك. وقوله: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ أي: وفي مثل هذا الحال فليتنافس المتنافسون، وليتباهى ويكثر ويستبق إلى مثله المستبقون. كقوله: ﴿لِيُنْزِلَ هَذَا فَبَلِّغِمْ أَلْعَمَلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]. وقوله: ﴿وَيَذَرُهَا يَنْتَبِهُونَ﴾ أي: ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم، أي: من شراب يقال له تسنيم، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه. قاله أبو صالح والضحاك، ولهذا قال: ﴿عَيْنَا يَنْتَرِبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: يشربها المقربون صرفاً، وتُمنج لأصحاب اليمين مزجاً. قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومسروق، وقتادة، وغيرهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [١١] وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ [١٢] وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ [١٣] وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ [١٤] وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ [١٥] فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ [١٦] عَلَى الْأَرَاكِ يَنْظُرُونَ [١٧] هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [١٨].

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا في الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين، أي: يستهزئون بهم ويحتقرونهم، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم، أي: محتقرين لهم، ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ [١٣] أي: إذا انقلب، أي: رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم، انقلبوا إليها فاكهين، أي: مهما طلبوا وجدوا، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحتقرونهم ويحسدونهم، ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ﴾ [١٤] أي: لكونهم على غير دينهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ [١٥] أي: وما بُعث هؤلاء المجرمون حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر من أعمالهم وأقوالهم، ولا كلفوا بهم؟ فلم اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ انشُرُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ [١٨] إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُوا رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَلِرَجَائِنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ [١٩] فَأَعْزَمْنَاهُمْ بِخَيْرِنَا حَتَّىٰ أَنْصَرَّتْهُمْ وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ نَضْحَكُونَ [٢٠] إِلَىٰ جَزِينِهِمْ الْيَوْمَ بِمَا صَدَقُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ [٢١] [المؤمنون: ١٠٨-١١١]. ولهذا قال ها هنا: ﴿فَالْيَوْمَ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ أي: في مقابلة ما ضحك بهم أولئك ﴿عَلَى الْأَرَاكِ يَنْظُرُونَ﴾ [١٧] أي: إلى الله ﷻ، في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون، ليسوا بضالين، بل هم من أولياء الله المقربين، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته. وقوله: ﴿هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [١٨]؟ أي: هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتقصص أم لا؟ يعني: قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله.

آخر تفسير سورة «المطففين»



تفسير سورة الانشقاق

وهي مكية. قال مالك، عن عبد الله بن يزيد، عن أبي سلمة: أن أبا هريرة قرأ بهم: ﴿إِذَا أَنشَأَتْ أَنْشَقَتْ﴾ [١]، فسجد فيها،

فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها. رواه مسلم والنسائي، من طريق مالك، به. وقال البخاري: حدثنا أبو النعمان، حدثنا معتمر، عن أبيه، عن بكر، عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة فقراً: ﴿إِذَا الشَّمْسُ أُنشَقَّتْ﴾ (١)، فسجد، فقلت له، قال: سجدت خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه. ورواه أيضاً عن مسدد، عن معتمر، به. ثم رواه عن مسدد، عن يزيد بن زريع، عن التيمي، عن بكر، عن أبي رافع، فذكره. وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائي من طرق، عن سليمان بن طرخان التيمي، به. وقد روى مسلم وأهل السنن من حديث سفيان بن عيينة - زاد النسائي: وسفيان الثوري - كلاهما عن أيوب بن موسى، عن عطاء بن ميناء، عن أبي هريرة قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في ﴿إِذَا الشَّمْسُ أُنشَقَّتْ﴾ (١) و﴿أَفَرَأَيْتَ لَأَوَّلَى خَلْقٍ﴾ (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ أُنشَقَّتْ﴾ (١) وَأَوْدَتْ لِرَبِّهَا وُحُوتٌ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخَلَّتْ (٤) وَأَوْدَتْ لِرَبِّهَا وُحُوتٌ (٥) يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ (٦) إِلَىٰ رَبِّكَ كَذَمًا مَّقْلَقِيهِ (٧) فَأَمَّا مَنْ أَوَفَّ كِتَابَهُ يُسَبِّحُ (٨) فَسَوْفَ يُجَاسَسُ بِسَجَاةٍ يَسِيرَا (٩) وَنُفِثَ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورَا (١٠) وَأَمَّا مَنْ أَوَفَّ كِتَابَهُ كَذَمًا (١١) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورَا (١٢) وَصَلَّىٰ سَعِيرَا (١٣) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورَا (١٤) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ نَّجُورَ (١٥) بَلْ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرَا (١٦).

يقول تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ أُنشَقَّتْ﴾ (١) وذلك يوم القيامة، ﴿وَأَوْدَتْ لِرَبِّهَا﴾ (٢) أي: استمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق ﴿وُحُوتٌ﴾ (٣) أي: وحق لها أن تطيع أمره؛ لأنه العظيم الذي لا يُمانع ولا يغالب، بل قد قهر كل شيء ودل له كل شيء. ثم قال: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ (٤) أي: بُسطت وفُرشت ووُسِّعت. قال ابن جرير، رحمه الله: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن معمر، عن الزهري، عن علي بن الحسين: أن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة مدَّ الله الأرض مدَّ الأديم حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه، فأكون أول من يدعى، وجبريل عن يمين الرحمن، والله ما رآه قبلها، فأقول: يا رب، إن هذا أخبرني أنك أرسلته إلي؟ فيقول الله ﷻ: صدق. ثم أشفع فأقول: يا رب، عبادك عبدوك في أطراف الأرض. قال: وهو المقام المحمود». وقوله: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخَلَّتْ﴾ (٥) أي: ألقت ما في بطنها من الأموات، وتخلت منهم. قاله مجاهد، وسعيد، وقتادة، ﴿وَأَوْدَتْ لِرَبِّهَا وُحُوتٌ﴾ (٦) كما تقدم. وقوله: ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَذَمًا﴾ (٧) أي: ساع إلى ربك سعيًا، وعامل عملاً، ﴿مَّقْلَقِيهِ﴾ (٨) ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر. ويشهد له ما رواه أبو داود الطيالسي، عن الحسن بن جعفر، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «قال جبريل: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه». ومن الناس من يعيد الضمير على قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ (٧) أي: فملاق ربك، ومعناه: فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك. وعلى هذا فكلا القولين متلازم. قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَذَمًا﴾ (٧) يقول: تعمل عملاً تلقى الله به، خيراً كان أو شراً. وقال قتادة: ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَذَمًا﴾ (٧) أن كدحك - يا ابن آدم - لضعيف، فمن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليفعل، ولا قوة إلا بالله. ثم قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوَفَّ كِتَابَهُ يُسَبِّحُ﴾ (٨) ﴿فَسَوْفَ يُجَاسَسُ بِسَجَاةٍ يَسِيرَا﴾ (٩) أي: سهلاً بلا تعسير، أي: لا يحقق عليه جميع دقائق أعماله؛ فإن من حوسب كذلك يهلك لا محالة.

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، أخبرنا أيوب، عن عبد الله بن أبي مليكة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نُوقِشَ الحساب عُذِبَ». قالت: فقلت: أليس قال الله: ﴿فَسَوْفَ يُجَاسَسُ بِسَجَاةٍ يَسِيرَا﴾ (٩)؟ قال: «ليس ذاك بالحساب، ولكن ذلك العرض، من نُوقِشَ الحساب يوم القيامة عُذِبَ». وهكذا رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير، من حديث أيوب السخيتاني، به. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا روح بن عبادة، حدثنا أبو عامر الخراز، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا معذباً». فقلت: أليس الله يقول: ﴿فَسَوْفَ يُجَاسَسُ بِسَجَاةٍ يَسِيرَا﴾ (٩)؟ قال: «ذاك العرض، إنه من نُوقِشَ الحساب عُذِبَ»، وقال بيده على إصبعه كأنه ينكث. وقد رواه أيضاً عن عمرو بن علي، عن ابن أبي عدي، عن أبي يونس القشيري، عن ابن أبي مليكة، عن القاسم، عن عائشة، فذكر الحديث. أخرجاه من طريق أبي يونس القشيري، واسمه حاتم بن أبي صغيرة، به. قال ابن جرير: حدثنا نصر بن علي الجهضمي، حدثنا مسلم، عن الحريش بن الخزيم، عن أخيه الزبير، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة قالت: من نُوقِشَ الحساب - أو: من حُوسِبَ - عُذِبَ. قال: ثم قالت: إنما الحساب اليسير عرض على الله ﷻ وهو يراههم. وقال أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني عبد الواحد بن حمزة بن عبد الله بن الزبير، عن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن عائشة قالت: سمعتُ

رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: «اللهم حاسبني حساباً يسيراً». فلما انصرف قلت: يا رسول الله، ما الحساب اليسير؟ قال: «أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه، إنه من نُوقش الحساب يا عائشة يومئذ هلك». صحيح على شرط مسلم. وقوله تعالى: ﴿وَيَقْلِبْ إِلَيَّ أَعْيُنُهُمْ مَسْرُورًا﴾ (١٠) أي: ويرجع إلى أهله في الجنة. قاله قتادة، والضحاك، ﴿مَسْرُورًا﴾ أي: فرحان مغتبطاً بما أعطاه الله ﷻ. وقد روى الطبراني عن ثوبان - مولى رسول الله ﷺ - أنه قال: إنكم تعملون أعمالاً لا تعرف، ويوشك العازب أن يثوب إلى أهله، فمسرور ومكظوم.

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْلَهُ وِرَاةً ظَاهِرًا﴾ (١١) أي: بشماله من وراء ظهره، تُثنى يده إلى ورائه ويعطى كتابه بها كذلك، ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا بُرُورًا﴾ (١٢) أي: خساراً وهلاكاً ﴿وَيَصِلُ سَعِيرًا﴾ (١٣) إِنَّهُ كَانَ فِي أَعْيُنِهِ مَسْرُورًا (١٤) أي: فرحاً لا يفكر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل، ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ (١٥) أي: كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا بعيداً بعد موته. قاله ابن عباس، وقتادة، وغيرهما. والخور: هو الرجوع. قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا كَذَّبْتُمْ بِمَا كُنْتُمْ بِهِ بَصِيرًا﴾ (١٦) يعني: بلى سعيده الله كما بدأه، ويجازيه على أعماله خيراً وشراً، فإنه ﴿كَانَ يَوْمَ بَصِيرًا﴾ (١٧) أي: علماً خبيراً.

﴿فَلَا أَقْسَمُ بِالْغَفَىٰ﴾ (١٨) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٩) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (٢٠) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (٢١) نَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٢) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمَعُونَ (٢٣) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ (٢٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٥) فَيَتْرَكُهُمْ يَذَّابِلُ أَيْمٍ (٢٦) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٧).

رُوي عن علي، وابن عباس، وعُباد بن الصامت، وأبي هريرة، وشداد بن أوس، وابن عمر، ومحمد بن علي بن الحسين، ومكحول، وبكر بن عبد الله المزني، وبكير بن الأشج، ومالك، وابن أبي ذئب، وعبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون أنهم قالوا: الشفق: الحمرة. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن خثيم، عن ابن لبيبة، عن أبي هريرة قال: الشفق: البياض. فالشفق هو: حمرة الأفق إما قبل طلوع الشمس - كما قاله مجاهد - وإما بعد غروبها - كما هو معروف عند أهل اللغة. قال الخليل بن أحمد: الشفق: الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة، فإذا ذهب قيل: غاب الشفق. وقال الجوهري: الشفق: بقية ضوء الشمس وحمرة في أول الليل إلى قريب من العتمة. وكذا قال عكرمة: الشفق الذي يكون بين المغرب والعشاء. وفي صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وقت المغرب ما لم يغب الشفق». ففي هذا كله دليل على أن الشفق هو كما قاله الجوهري وال خليل. ولكن صح عن مجاهد أنه قال في هذه الآية: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِالْغَفَىٰ﴾ (١٨) هو النهار كله. وفي رواية عنه أيضاً أنه قال: الشفق: الشمس. رواهما ابن أبي حاتم. وإنما حملة على هذا قرأه بقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (١٩) أي: جمع. كأنه أقسم بالضياء والظلام. وقال ابن جرير: أقسم الله بالنهار مديراً، وبالليل مقبلاً. قال ابن جرير: وقال آخرون: الشفق اسم للحمرة والبياض. وقالوا: هو من الأضداد. قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة: ﴿وَمَا وَسَقَ﴾: وما جمع. قال قتادة: وما جمع من نجم ودابة. واستشهد ابن عباس بقول الشاعر:

مُسْتَوْسَقَاتٌ لَوْ تَجِدُنَّ سَائِقًا

قد قال عكرمة: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (١٩) يقول: ما ساق من ظلمة، إذا كان الليل ذهب كل شيء إلى مأواه. وقوله: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ (٢٠) قال ابن عباس: إذا اجتمع واستوى. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومسروق، وأبو صالح، والضحاك، وابن زيد. ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ (٢٠) إذا استوى. وقال الحسن: إذا اجتمع، إذا امتلأ. وقال قتادة: إذا استدار. ومعنى كلامهم: أنه إذا تكامل نوره وأبدر، جعله مقابلاً لليل وما وسق. وقوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ (٢١) قال البخاري: أخبرنا سعيد بن النضر، أخبرنا هشيم، أخبرنا أبو بشر، عن مجاهد قال: قال ابن عباس: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ (٢١) حالاً بعد حال - قال هذا نبيكم ﷺ. - هكذا رواه البخاري بهذا اللفظ، وهو محتمل أن يكون ابن عباس أسند هذا التفسير عن النبي ﷺ، كأنه قال: سمعت هذا من نبيكم ﷺ، فيكون قوله: «نبيكم» مرفوعاً على الفاعلية من «قال» وهو الأظهر، والله أعلم. كما قال أنس: لا يأتي عام إلا والذي بعده شر منه، سمعته من نبيكم ﷺ. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشيم، أخبرنا أبو بشر، عن مجاهد: أن ابن عباس كان يقول: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ (٢١) قال: يعني نبيكم ﷺ، يقول: حالاً بعد حال. هذا لفظه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾: حالاً بعد حال. وكذا قال عكرمة ومرة الطيب، ومجاهد، والحسن، والضحاك ومسروق وأبو صالح.

ويحتمل أن يكون المراد: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ (٢١) حالاً بعد حال. قال: هذا، يعني المراد بهذا نبيكم ﷺ، فيكون

مرفوعاً على أن «هذا» و«نبيكم» يكونان مبتدأ وخبراً، والله أعلم. ولعل هذا قد يكون هو المتبادر إلى كثير من الرواة، كما قال أبو داود الطيالسي وعُثْر: حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ ١٦ قال: محمد ﷺ. ويؤيد هذا المعنى قراءة عمر، وابن مسعود، وابن عباس، وعامة أهل مكة والكوفة: «لَتَرْكَبَنَّ» بفتح التاء والباء. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن إسماعيل، عن الشعبي: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ ١٦ قال: لتركب يا محمد سماء بعد سماء. وهكذا رُوي عن ابن مسعود، ومسروق، وأبي العالية: ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾: سماء بعد سماء. قلت: يعنون ليلة الإسراء. وقال أبو إسحاق، والسدي، عن رجل، عن ابن عباس: ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾: منزلاً على منزل. وكذا رواه العوفي، عن ابن عباس مثله - وزاد: «ويقال أمراً بعد أمر، وحالاً بعد حال». وقال السدي نفسه: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ ١٦: أعمال من قبلكم منزلاً بعد منزل. قلت: كأنه أراد معنى الحديث الصحيح: «لتركب سنن من كان قبلكم، حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه». قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟». وهذا محتمل. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا صدقة، حدثنا ابن جابر، أنه سمع مكحولاً يقول في قول الله: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ ١٦ قال: في كل عشرين سنة، تحدثون أمراً لم تكونوا عليه. وقال الأعمش: حدثني إبراهيم قال: قال عبد الله: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ ١٦ قال: السماء تنشق ثم تحمر، ثم تكون لوناً بعد لون. وقال الثوري، عن قيس بن وهب، عن مرة، عن ابن مسعود: ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ ١٦ قال: السماء مرة كالدهان، ومرة تنشق. وروى البزار من طريق جابر الجعفي، عن الشعبي، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ ١٦، يا محمد، يعني حالاً بعد حال. ثم قال: ورواه جابر، عن مجاهد، عن ابن عباس. وقال سعيد بن جبير: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ ١٦ قال: قوم كانوا في الدنيا خسيس أمرهم، فارتفعوا في الآخرة، وآخرون كانوا أشرافاً في الدنيا، فانضغوا في الآخرة. وقال عكرمة: ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾: حالاً بعد حال، فطيماً بعد ما كان رضيعاً، وشيخاً بعد ما كان شاباً.

وقال الحسن البصري: ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ يقول: حالاً بعد حال، رخاء بعد شدة، وشدة بعد رخاء، وغني بعد فقر، وفقراً بعد غنى، وصحة بعد سقم، وسقماً بعد صحة. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن عبد الله بن زاهر: حدثني أبي، عن عمرو بن شمر، عن جابر - هو الجعفي - عن محمد بن علي، عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن ابن آدم لفي غفلة مما خلق له؛ إن الله إذا أراد خلقه قال للملك: اكتب رزقه، اكتب أجله، اكتب أثره، اكتب شقياً أو سعيداً، ثم يرتفع ذلك الملك ويبعث الله إليه ملكاً فيحفظه حتى يدرك، ثم يرتفع ذلك الملك، ثم يوكل الله به ملكين يكتبان حسناته وسيئاته، فإذا حضره الموت ارتفع ذاك الملكان، وجاء ملك الموت فقبض روحه، فإذا دخل قبره ردّ الروح في جسده، ثم ارتفع ملك الموت، وجاء ملكا القبر فامتحنانه، ثم يرتفعان، فإذا قامت الساعة انخط عليه ملك الحسنات وملك السيئات، فانتشطا كتاباً معقوداً في عنقه، ثم حضرا معه: واحد سائفاً وآخر شهيداً»، ثم قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ ٢٢. قال رسول الله ﷺ: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ ١٦ قال: «حالاً بعد حال». ثم قال النبي ﷺ: «إن قدامكم لامراً عظيماً لا تقدرونه، فاستعينوا بالله العظيم». هذا حديث منكر، وإسناده فيه ضعف، ولكن معناه صحيح، والله - سبحانه وتعالى - أعلم. ثم قال ابن جرير بعد ما حكى أقوال الناس في هذه الآية من القراء والمفسرين: والصواب من التأويل قول من قال لَتَرْكَبَنَّ أنت - يا محمد - حالاً بعد حال وأمرأ بعد أمر من الشدائد. والمراد بذلك - وإن كان الخطاب إلى رسول الله ﷺ موجهاً - جميع الناس، وأنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأحواله أحوالاً. وقوله: ﴿فَمَا لَمْ لَا يُوْثِقُوا﴾ ٢٢ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ٢١ أي: فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر؟ وما لهم إذا قرئت عليهم آيات الرحمن وكلامه - وهو هذا القرآن - لا يسجدون إعظماً وإكراماً واحتراماً؟ وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَكُونَنَّ﴾ ٢٢ أي: من سجنيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ ٢٣ قال مجاهد وقتادة: يكتمون في صدورهم. ﴿فَيَرْثُهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٢٤ أي: فأخبرهم - يا محمد - بأن الله ﷻ قد أعد لهم عذاباً أليماً. وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: هذا استثناء منقطع، يعني لكن الذين آمنوا - أي: بقلوبهم - وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿فَهُمْ أَجْرٌ﴾ ٢٤ أي: في الدار الآخرة. ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ ٢٥ قال ابن عباس: غير منقوص. وقال مجاهد، والضحاك: غير محسوب. وحاصل قولهما أنه غير مقطوع، كما قال تعالى: ﴿عَطَاةٌ غَيْرُ مَحْذُورَةٍ﴾ [مود: ١٠٨]. وقال السدي: قال بعضهم: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: غير منقوص. وقال بعضهم: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ عليهم. وهذا القول الآخر عن بعضهم قد أنكره غير واحد؛ فإن الله ﷻ له المنة على أهل الجنة في كل حال وأن اللحظة، وإنما دخلوها بفضل ورحمة لا بأعمالهم، فله عليهم المنة دائماً سرمداً والحمد لله وحده أبداً؛ ولهذا يلهمون

تسبيحه وتحميده كما يليهمون النفس: ﴿وَالْأَبْرُ دَعَوْنَهُمْ أَنِ انْقَسَبُوا رَبِّي الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: ١٠].

آخر تفسير سورة «الانشقاق» وشه الحمد



تفسير سورة البروج

وهي مكية. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا زُرَيْق بن أبي سلمى، حدثنا أبو المهزم، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج، والسماء والطارق. وقال أحمد: حدثنا أبو سعيد - مولى بني هاشم - حدثنا حماد بن عباد السدوسي، سمعت أبا المهزم يحدث عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ أمر أن يقرأ بالسموات في العشاء. تفرد به أحمد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدَ مُنْهَبٍ ۝ قِيلَ انصَبْ الْخُذُودِ ۝ إِنَّكَ ذَاكَ الْأَوَّلُ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا ۝ وَاللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْمَرْيَقِ ۝﴾.

يقسم الله بالسماء وبروجها، وهي: النجوم العظام، كما تقدم بيان ذلك في قوله: ﴿نَسَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]. قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسدي: البروج: النجوم. وعن مجاهد أيضاً: البروج التي فيها الحرس. وقال يحيى بن رافع: البروج: قصور في السماء. وقال المنهال بن عمرو: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ﴾: الخلق الحسن. واختار ابن جرير أنها: منازل الشمس والقمر، وهي اثنا عشر برجاً، تسير الشمس في كل واحد منها شهراً، ويسير القمر في كل واحد يومين وثلاثاً، فذلك ثمانية وعشرون منزلة، ويستسر ليلتين. وقوله: ﴿وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ﴾ وشاهد ومُنْهَبٍ: اختلف المفسرون في ذلك، وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الله بن محمد بن عمرو الغزي، حدثنا عبيد الله - يعني ابن موسى - حدثنا موسى بن عبيدة، عن أيوب بن خالد بن صفوان بن أوس الأنصاري، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ﴾ يوم القيامة ﴿وشاهد﴾ يوم الجمعة. وما طلعت شمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه، ولا يستعبد فيها من شر إلا أعاده، ﴿وشاهد﴾ يوم عرفة. وهكذا روى هذا الحديث ابن خزيمة، من طرق عن موسى بن عبيدة الربذي - وهو ضعيف الحديث - وقد روي موقوفاً على أبي هريرة، وهو أشبه. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد، حدثنا شعبة، سمعت علي بن زيد ويونس بن عبيد يحدثان عن عمار - مولى بني هاشم - عن أبي هريرة - أما علي فرفعه إلى النبي ﷺ، وأما يونس فلم يُعَدَّ أبا هريرة - أنه قال في هذه الآية: ﴿وشاهد ومُنْهَبٍ﴾ قال: يعني الشاهد يوم الجمعة، ويوم مشهود يوم القيامة. وقال أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن يونس، سمعت عماراً - مولى بني هاشم - يحدث عن أبي هريرة أنه قال في هذه الآية: ﴿وشاهد ومُنْهَبٍ﴾ قال: الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة، والموعود يوم القيامة. وقد روي عن أبي هريرة أنه قال: اليوم الموعود يوم القيامة. وكذلك قال الحسن، وقتادة، وابن زيد. ولم أرهم يختلفون في ذلك، والله الحمد. ثم قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثني أبي، حدثنا ضمضم بن زُرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة، وإن الشاهد يوم الجمعة، وإن المشهود يوم عرفة، ويوم الجمعة ذخره الله لنا». ثم قال ابن جرير: حدثنا سهل بن موسى الرازي، حدثنا ابن أبي فُدَيْك، عن ابن حرملة، عن سعيد بن المسيب أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سيد الأيام يوم الجمعة، وهو الشاهد، والمشهود يوم عرفة».

وهذا مرسل من مراسيل سعيد بن المسيب، ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وكيع، عن شعبة، عن علي بن زيد، عن يوسف المكي، عن ابن عباس قال: الشاهد هو محمد ﷺ، والمشهود يوم القيامة، ثم قرأ: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمَعُ كُلُ النَّاسِ وَمِنْهُمْ يَوْمَ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]. وحدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن مغيرة، عن شباك قال: سأل رجل الحسن بن علي عن:

﴿وَنَاهِي وَشْهُورٌ﴾ قال: سألت أحداً قبلي؟ قال: نعم، سألت ابن عمر وابن الزبير، فقالا: يوم الذبح ويوم الجمعة. فقال: لا، ولكن الشاهد محمد ﷺ ثم قرأ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَنْ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، والمشهود يوم القيامة، ثم قرأ: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمَعُ لُهُ الْآلُفُ وَذَلِكَ يَوْمَ تَشْهُدُونَ﴾. وهكذا قال الحسن البصري. وقال سفيان الثوري، عن ابن حرملة، عن سعيد بن المسيب: ﴿وَنَاهِي﴾ يوم القيامة. وقال مجاهد، وعكرمة، والضحاك: الشاهد: ابن آدم، والمشهود: يوم القيامة. وعن عكرمة أيضاً: الشاهد: محمد ﷺ، والمشهود: يوم الجمعة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الشاهد: الله، والمشهود: يوم القيامة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين، حدثنا سفيان، عن أبي يحيى القتات، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَنَاهِي وَشْهُورٌ﴾ قال: الشاهد: الإنسان. والمشهود: يوم الجمعة. هكذا رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهران، عن سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَنَاهِي وَشْهُورٌ﴾ الشاهد: يوم عرفة، والمشهود: يوم القيامة. وبه عن سفيان - هو الثوري - عن مغيرة، عن إبراهيم قال: يوم الذبح، ويوم عرفة، يعني الشاهد والمشهود. قال ابن جرير: وقال آخرون: المشهود يوم الجمعة. ورووا في ذلك ما حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني عمي عبد الله بن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أئمن، عن عباد بن نسي، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة، فإنه يوم مشهود، تشهد الملائكة». وعن سعيد بن جبيرة: الشاهد: الله، وتلا ﴿وَكُنْ لِلَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، والمشهود: نحن. حكاه البغوي، وقال: الأكثرون على أن الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة. وقوله: ﴿قِيلَ أَصْحَابُ الْأَعْدُدِ﴾ أي: لمن أصحاب الأخدود، وجمعه: أخاديد، وهي الحفر في الأرض، وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله، فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم، فأبوا عليهم، فحفروا لهم في الأرض أخدوداً وأججوا فيه نارا، وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم، فقتلهم فيها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قِيلَ أَصْحَابُ الْأَعْدُدِ﴾ أَلَا ذَاتِ الْوُفُو ﴿١﴾ إِذْ هُرِّعُوا عَلَىٰ قُودٍ ﴿٢﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٣﴾ أي: مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ﴿٤﴾ أي: وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذي لا يضام من لاذبجابه، المنيع الحميد في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، وإن كان قد قدر على عباده هؤلاء هذا الذي وقع بهم بأيدي الكفار به، فهو العزيز الحميد، وإن خفي سبب ذلك على كثير من الناس. ثم قال: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من تمام الصفة أنه المالك لجميع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: لا يغيب عنه شيء في جميع السموات والأرض، ولا تخفى عليه خافية.

وقد اختلف أهل التفسير في أهل هذه القصة، من هم. فعن علي، رضي الله عنه، أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل تزويج المحارم، فامتنع عليه علماؤهم، فعمد إلى حفر أخدود فقفذ فيه من أنكر عليه منهم، واستمر فيهم تحليل المحارم إلى اليوم. وعنه أنهم كانوا قوماً باليمن اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم، فغلب مؤمنوهم على كفارهم، ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين، فخذوا لهم الأخاديد، وأحرقوهم فيها. وعنه أنهم كانوا من أهل الحبشة، واحدهم حبشي. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿قِيلَ أَصْحَابُ الْأَعْدُدِ﴾ أَلَا ذَاتِ الْوُفُو ﴿١﴾ قال: ناس من بني إسرائيل، خذوا أخدوداً في الأرض، ثم أوقدوا فيه نارا، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء، فغرضوا عليها، وزعموا أنه دانيال وأصحابه. وهكذا قال الضحاك بن مزاحم، وقيل غير ذلك. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن ضبيب: أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إني قد كبرت سني وحضر أجلي، فادفع إلي غلاماً أعلمه السحر. فدفع إليه غلاماً فكان يعلمه السحر، وكان بين الساحر وبين الملك راهب، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه، فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال: ما حبسك؟ وإذا أتى أهله ضربه وقالوا: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقال: حبسني أهلي. وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسني الساحر.

قال: فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة، قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجزوا، فقال: اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر. قال: فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس. وربما فقتلها، ومضى الناس. فأخبر الراهب بذلك فقال: أي بني، أنت أفضل مني، وإنك ستبتي، فإن ابتليت فلا تدل علي. فكان الغلام يُرى الأكمة والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم، وكان للملك جليس فعمي،

فسمع به، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: اشفني ولك ما ههنا أجمع. فقال: ما أنا أشفي أحداً، إنما يشفي الله، ﷻ، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك. فآمن فدعا الله فشفاه. ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال له الملك: يا فلان، من ردّ عليك بصرك؟ فقال: ربي؟ فقال: أنا؟ قال: لا، ربي وربك الله. قال: ولك رب غيري؟ قال: نعم، ربي وربك الله. فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فبعث إليه فقال: أي بُني، بلغ من سحرك أن تبرى الأكهم والأبرص وهذه الأدواء؟ قال: ما أشفي أنا أحداً، إنما يشفي الله، ﷻ. قال: أنا؟ قال: لا. قال: أولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله. فأخذ أيضاً بالعذاب، فلم يزل به حتى دل على الراهب، فأتى بالراهب فقال: أرجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه، وقال للأعمى: أرجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض. وقال للغلام: أرجع عن دينك، فأبى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال: إذا بلغت ذروته، فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه من فوقه فذهبوا به، فلما علوا به الجبل قال: اللهم، اكفنيهم بما شئت. فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون. وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله. فبعث به مع نفر في قُرقور فقال: إذا لججتم به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فغرقوه في البحر. فلججوا به البحر فقال الغلام: اللهم، اكفنيهم بما شئت. فغرقوا أجمعون، وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله. ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أرك به، فإن أنت فعلت ما أرك به قتلتي، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد ثم تصليني على جذع، وتأخذ سهماً من كنانتي ثم قل: «بسم الله رب الغلام»، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتي. ففعل، ووضع السهم في كيد قوسه ثم رماه، وقال: «بسم الله رب الغلام». فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام. فليل للملك: أ رأيت ما كنت تحذر؟ فقد - والله - نزل بك، قد آمن الناس كلهم. فأمر بأفواه السكك فُخِّدَتْ فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأفحموه فيها. قال: فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون، فجاءت امرأة بابتين لها ترضعه، فكانت تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أمه، فإنك على الحق.

وهكذا رواه مسلم في آخر الصحيح عن هُذَبة بن خالد، عن حماد بن سلمة به نحوه. ورواه النسائي عن أحمد بن سليمان، عن عفان، عن حماد بن سلمة. ومن طريق حماد بن زيد، كلاهما عن ثابت به واختصروا أوله. وقد جَوَّدَ الإمام أبو عيسى الترمذي، فرواه في تفسير هذه السورة عن محمود بن غيلان وعبد بن حُميد - المعنى واحد - قال: أخبرنا عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن ثابت البُناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن ضُهير قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر همست؟ قال: «إن نبياً من الأنبياء، كان أعجب بأمته فقال: من يقوم لهؤلاء؟ فأوحى الله إليه أن خيرهم بين أن أنتقم منهم، وبين أن أسلط عليهم عدوهم. فاختاروا النعمة، فسُلِّطَ عليهم الموت، فمات منهم في يوم سبعون ألفاً». قال: وكان إذا حَدَّثَ بهذا الحديث، حَدَّثَ بهذا الحديث الآخر قال: كان ملك من الملوك، وكان لذلك الملك كاهن تكهن له، فقال الكاهن: انظروا لي غلاماً فهماً - أو قال: فطناً لِقناً - فأعلّمه علمي هذا. فذكر القصة بتمامها، وقال في آخره: «يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ أَصْحَابُ الْأَنْدَادِ وَالْوُفُودِ﴾». حتى بلغ: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. قال: فأما الغلام فإنه دفن قال: فيذكر أنه أخرج في زمان عمر بن الخطاب، وإصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل. ثم قال الترمذي: حسن غريب. وهذا السياق ليس فيه صراحة أن سياق هذه القصة من كلام النبي ﷺ. قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي: فيحتمل أن يكون من كلام ضُهير الرومي، فإنه كان عنده علم من أخبار النصارى، والله أعلم.

وقد أورد محمد بن إسحاق بن يسار هذه القصة في السيرة بسياق آخر، فيها مخالفة لما تقدم فقال: حدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القُرظي - وحدثني أيضاً بعض أهل نجران، عن أهلها -: أن أهل نجران كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان، وكان في قرية من قراها قريباً من نجران - ونجران هي القرية العظمى التي إليها جماع أهل تلك البلاد - ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر، فلما نزلها فيمُون - ولم يسموه لي بالاسم الذي سماه ابن منبه، قالوا: رجل نزلها - ابنتي خيمة بين نجران وبين تلك القرية التي فيها الساحر، وجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر، فبعث الثامر ابنه عبد الله بن الثامر مع غلمان أهل نجران، فكان إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من عبادته وصلاته، فجعل يجلس إليه ويسمع منه، حتى أسلم فوحد الله وعبد، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم، وكان يعلمه، فكتمه إياه وقال له: يا ابن أخي، إنك لن تحمله؛ أخشى ضعفك عنه. والثامر أبو عبد الله لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر

كما يختلف الغلمان، فلما رأى عبد الله أن صاحبه قد ضن به عنه، وتخوف ضعفه فيه، عمد إلى أقذاح فجمعها، ثم لم يبق لله اسماً يعلمه إلا كتبه في قذح، وكل اسم في قذح، حتى إذا أحصاها أوقد ناراً ثم جعل يقذفها فيها قدحاً قدحاً، حتى إذا مر بالاسم الأعظم قذف فيها بقذحه، فوثب القذح حتى خرج منها لم يضره شيء، فأخذه ثم أتى به صاحبه فأخبره أنه قد علم الاسم الأعظم الذي كتبه فقال: وما هو: قال: هو كذا وكذا. قال: وكيف علمته؟ فأخبره بما صنع. قال: أي ابن أخي، قد أصبته فأمسك على نفسك، وما أظن أن تفعل.

فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحداً به ضر إلا قال: يا عبد الله، أتوحد الله وتدخل في ديني وأدعو الله لك فيعافيك مما أنت فيه من البلاء؟ فيقول: نعم. فيوحد الله ويسلم، فيدعو الله له فيشفى، حتى لم يبق بنجران أحد به ضر إلا أنه، فاتبعه علي أمره ودعاه فعوفي، حتى رُفِع شأنه إلى ملك نجران، فدعاه فقال له: أفسدت علي أهل قريتي، وخالفت ديني ودين آبائي، لأمثلن بك. قال: لا تقدر على ذلك. قال: فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل، فيطرح على رأسه، فيقع إلى الأرض ما به بأس، وجعل يبعث به إلى مياه نجران، يُحور لا يلقى فيها شيء إلا هلك، فيلقى به فيها، فيخرج ليس به بأس. فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر: إنك - والله - لا تقدر على قتلي حتى تؤخذ الله فتؤمن بما آمنت به، فإنك إن فعلت سلطت علي فقتلتني. قال: فوحد الله ذلك الملك، وشهد شهادة عبد الله بن الثامر، ثم ضربه بعضاً في يده فشجه شجة غير كبيرة، فقتله، وهلك الملك مكانه. واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر - وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم، عليه السلام، من الإنجيل وحكمه - ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث، فمن هنالك كان أصل دين النصرانية بنجران. قال ابن إسحاق: فهذا حديث محمد بن كعب القرظي وبعض أهل نجران عن عبد الله بن الثامر، والله أعلم أي ذلك كان.

قال: فسار إليهم ذو نواس بجنده، فدعاهم إلى اليهودية، وخيّرهم بين ذلك أو القتل، فاخاروا القتل، فخذ الأخدود، فحرق بالنار وقتل بالسيف ومثل بهم، حتى قتل منهم قريباً من عشرين ألفاً، ففي ذي نواس وجنده أنزل الله، ﷻ، على رسوله ﷺ: ﴿قُلْ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ (١) النَّارُ ذَاتُ الْوُودِ (٢) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٣) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٤) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٥) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ (٦) وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٧)﴾. هكذا ذكر محمد بن إسحاق في السيرة أن الذي قتل أصحاب الأخدود هو ذو نواس، واسمه: زرعة، ويسمى في زمان مملكته ييوسف، وهو ابن تيان أسعد أبي كرب، وهو تبع الذي غزا المدينة وكسى الكعبة، واستصحب معه حبرين من يهود المدينة، فكان تهود من تهود من أهل اليمن على يديهما، كما ذكره ابن إسحاق ميسوطاً، فقتل ذو نواس في الأخدود عشرين ألفاً، ولم ينج منهم سوى رجل واحد يقال له: دوس ذو ثعلبان، ذهب فارساً، وطرّدوا وراءه فلم يُقدّر عليه، فذهب إلى قيصر ملك الشام، فكتب إلى النجاشي ملك الحبشة، فأرسل معه جيشاً من نصارى الحبشة يقدمهم أرباط وأبرهة، فاستنقذوا اليمن من أيدي اليهود، وذهب ذو نواس هارباً فلجّج في البحر، فغرق. واستمر ملك الحبشة في أيدي النصارى سبعين سنة، ثم استنقذه سيف بن ذي يزن الحميري من أيدي النصارى، لما استجاش بكسرى ملك الفرس، فأرسل معه من في السجون، وكانوا قريباً من سبعمائة، ففتح بهم اليمن، ورجع الملك إلى حمير. وسنذكر طرفاً من ذلك - إن شاء الله - في تفسير سورة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١)﴾. وقال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أنه حدث: أن رجلاً من أهل نجران كان في زمان عمر بن الخطاب، حفر خربة من خرب نجران لبعض حاجته، فوجد عبد الله بن الثامر تحت دفن فيها قاعداً، واضعاً يده على ضربة في رأسه، ممسكاً عليها بيده، فإذا أخذت يده عنها ثعبت دماً، وإذا أرسلت يده ردت عليها، فأمسكت دمه، وفي يده خاتم مكتوب فيه: ربي الله. فكتب فيه إلى عمر بن الخطاب يخبره بأمره، فكتب عمر إليهم: أن أقروه على حاله، وردوا عليه الدفن الذي كان عليه. ففعلوا. وقد قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا، رحمه الله: حدثنا أبو بلال الأشعري، حدثنا إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، حدثني بعض أهل العلم: أن أبا موسى لما افتتح أصبهان وجد حائطاً من حيطان المدينة قد سقط، فبناه فسقط، ثم بناه فسقط، فقبل له: إن تحته رجلاً صالحاً. فحفر الأساس فوجد فيه رجلاً قائماً معه سيف، فيه مكتوب: أنا الحارث بن مضاض، نعمت على أصحاب الأخدود. فاستخرجه أبو موسى، وبنى الحائط، فثبت. قلت: هو الحارث بن مضاض بن عمرو بن مضاض بن عمرو الجهمي، أحد ملوك جرهم الذين ولوا أمر الكعبة بعد ولد نبت بن إسماعيل بن إبراهيم، وولد الحارث هذا هو: عمرو بن الحارث بن مضاض هو آخر ملوك جرهم بمكة، لما أخرجتهم خزاعة وأجلوهم إلى اليمن، وهو القاتل في شعره الذي قال ابن هشام إنه أول شعر قاله العرب:

كَانَ لَمْ يَكُنْ الْحَجُّونَ إِلَى الصَّفَا أَنَيْسَ، وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامُرُ

بَلَى، نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَبِإَذْنَا صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالْجُدُودِ الْعَوَائِرُ وهذا يقتضي أن هذه القصة كانت قديماً بعد زمان إسماعيل، عليه السلام، بقرب من خمسمائة سنة أو نحوها، وما ذكره ابن إسحاق يقتضي أن قصتهم كانت في زمان الفترة التي بين عيسى ومحمد، عليهما من الله السلام، وهو أشبه، والله أعلم. وقد يحتمل أن ذلك قد وقع في العالم كثيراً، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان، أخبرنا صفوان، عن عبد الرحمن بن جبير قال: كانت الأخدود في اليمن زمان تبع، وفي القسطنطينية زمان قسطنطين حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد، فاتخذوا أتوناً، وألقي فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد. وفي العراق في أرض بابل بختنصر، الذي وضع الصنم وأمر الناس أن يسجدوا له، فامتنع دانيال وصاحبه: عزريا وميشائيل، فأوقد لهم أتوناً وألقى فيه الحطب والنار، ثم ألقاهما فيه، فجعلها الله عليهما برداً وسلاماً، وأنقذهما منها، وألقى فيها الذين بغوا عليه وهم تسعة رهط، فأكلتهم النار. وقال أسباط، عن السدي في قوله: ﴿قِيلَ اصْحَبِ الْأَخْدُودَ﴾ قال: كانت الأخدود ثلاثة: خذ بالعراق، وخذ بالشام، وخذ باليمن. رواه ابن أبي حاتم.

وعن مقاتل قال: كانت الأخدود ثلاثة: واحدة بنجران باليمن، والأخرى بالشام، والأخرى بفارس، أما التي بالشام فهو انطنانوس الرومي، وأما التي بفارس فهو بختنصر، وأما التي بارض العرب فهو يوسف ذو نواس. فاما التي بفارس والشام فلم ينزل الله فيهم قرآناً، وأنزل في التي كانت بنجران. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشنتكي، حدثنا عبد الله بن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع - هو ابن أنس - في قوله: ﴿قِيلَ اصْحَبِ الْأَخْدُودَ﴾ قال: سمعنا أنهم كانوا قوماً في زمان الفترة فلما رأوا ما وقع في الناس من الفتنة والشر وصاروا أحزاباً، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣، الروم: ٣٢]، اعتزلوا إلى قرية سكنوها، وأقاموا على عبادة الله ﴿تَخِيصُ لَهُ الْآلِينَ حَقَّهُ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البينة: ٥]، وكان هذا أمرهم حتى سمع بهم جبار من الجبارين، وحُذث حديثهم، فأرسل إليهم فأمرهم أن يعبدوا الأوثان التي اتخذوا، وأنهم أبوا عليه كلهم وقالوا: لا نعبد إلا الله وحده، لا شريك له. فقال لهم: إن لم تعبدوا هذه الآلهة التي عبدت فإني قاتلكم. فأبوا عليه، فخذ أخدوداً من نار، وقال لهم الجبار - وقفهم عليها -: اختاروا هذه أو الذي نحن فيه. فقالوا: هذه أحب إلينا. وفيهم نساء وذرية، وفزعن الذرية، فقالوا لهم: لا نار من بعد اليوم. فوقعوا فيها، فقبضت أرواحهم من قبل أن يمسه حرهمها، وخرجت النار من مكانها فأحاطت بالجبارين، فأحرقهم الله بها، ففي ذلك أنزل الله، ﴿قِيلَ اصْحَبِ الْأَخْدُودَ﴾ [النار ذات الأود ٥] إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُعُودٌ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْغَرِيبِ الْحَمِيدِ [الذي لم تملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد ٩]. ورواه ابن جرير: حُذث عن عمار، عن عبد الله بن أبي جعفر، به نحوه. وقوله: ﴿إِنَّ الْآلِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: حرقوا. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن أبيزى. ﴿ثُمَّ لَمْ يَبْقُوا﴾ أي: لم يبقوا عما فعلوا، ويندموا على ما أسلفوا. ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾، وذلك أن الجزاء من جنس العمل. قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أوليائه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة.

﴿إِنَّ الْآلِينَ مَاتُوا وَخَلُّوا أَسْلِحَهُمْ فَلَمْ يَحْتَجِزْ بَيْنَ نَفْسِهَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ الْقَوْرُ الْكَبِيرُ﴾ [إِنْ يَكُنْ رَبُّكَ لِشَيْءٍ لِي وَتَوْفِيقُكَ إِلَيَّ لِيُخْرِجَنِي مِنَ الْبُيُوتِ وَيَتَوَفَّاكَ أَوْ يَتَخَذَكَ مِنَ الْبُيُوتِ آيَةً ١٧] وَهُوَ الْقَوْرُ الْأَوْدُودُ [ذُو الْعَرْشِ الْحَمِيدُ ١٥] فَقَالَ لِمَا يَرِيدُ [هَلْ أَنْتَ حَبِيبٌ لِلسُّعُودِ ١٧] رِزْعُونَ وَمُؤَدُّونَ [بِالْآلِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ ١٩] وَاللَّهُ يَنْزِلُ فِي تَحْفُوتِهِمْ [بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ١١] فِي رُوحٍ مُخْفُوتٍ [١٢].

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين أن ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ الْقَوْرُ الْكَبِيرُ﴾. ثم قال: ﴿إِنْ يَكُنْ رَبُّكَ لِشَيْءٍ لِي وَتَوْفِيقُكَ إِلَيَّ لِيُخْرِجَنِي مِنَ الْبُيُوتِ وَيَتَوَفَّاكَ أَوْ يَتَخَذَكَ مِنَ الْبُيُوتِ آيَةً ١٧﴾. من قوته وقدرته التامة يبدى الخلق ثم يعيده كما بداه، بلا ممانع ولا مداخل. ﴿وَهُوَ الْقَوْرُ الْأَوْدُودُ ١٥﴾ أي: يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه، ولو كان الذنب من أي شيء كان. والودود - قال ابن عباس وغيره -: هو الحبيب، ﴿ذُو الْعَرْشِ ١٥﴾ أي: صاحب العرش المعظم العالي على جميع الخلائق. ﴿وَالْحَمِيدُ ١٥﴾ فيه قراءتان: الرفع على أنه صفة للرب، ﴿وَالْحَمِيدُ ١٥﴾ والجر على أنه صفة للعرش، وكلاهما معنى صحيح. ﴿فَقَالَ لِمَا يَرِيدُ ١٧﴾ أي: مهما أراد فعله، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل، لعظمته وقهره وحكمته وعدله، كما روينا عن أبي بكر الصديق أنه قيل له - وهو في مرض الموت -: هل نظر إليك الطبيب؟ قال: نعم. قالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي: إني فعال لما أريد. وقوله: ﴿يَعْلَمُ

أَنَّكَ حَدِيثُ الْجُبُودِ ﴿١٧﴾ رِغَوْنَ وَشَوْدَ ﴿١٨﴾ أَي: هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس، وأنزل عليهم من النعمة التي لم يردھا عنهم أحد؟ وهذا تقرير لقوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ ﴿١٩﴾ أي: إذا أخذ الظالم أخذه أليماً شديداً، أخذ عزيز مقتدر. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون قال: مر النبي ﷺ على امرأة تقرأ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُبُودِ﴾ ﴿١٧﴾، فقام يسمع، فقال: «نعم، قد جاءني». وقوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ ﴿٢٠﴾ أي: هم في شك وريب وكفر وعناد، «وَاللَّهُ يَنْزِلُ فِي آيَاتِهِمْ خِطًى» ﴿٢١﴾ أي: هو قادر عليهم، قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه، ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ ﴿٢٢﴾ أي: عظيم كريم، ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ ﴿٢٣﴾ أي: هو في الملا الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل.

قال ابن جرير: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا قُورَةُ بن سليمان، حدثنا حرب بن سُريج، حدثنا عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك في قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ ﴿٢٢﴾ في لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٣﴾ قال: إن اللوح المحفوظ الذي ذكر الله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ ﴿٢٢﴾ في لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٣﴾، في جبهة إسرافيل. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثنا معاوية بن صالح: أن أبا الأغيس - هو عبد الرحمن بن سلمان - قال: ما من شيء قضى الله - القرآن فما قبله وما بعده - إلا وهو في اللوح المحفوظ. واللوح المحفوظ بين عيني إسرافيل، لا يؤذن له بالنظر فيه. وقال الحسن البصري: إن هذا القرآن المجيد عند الله في لوح محفوظ، ينزل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه. وقد روى البغوي من طريق إسحاق بن بشر: أخبرني مقاتل وابن جريج، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: إنه في صدر اللوح لا إله إلا الله وحده، دينه الإسلام، ومحمد عبده ورسوله، فمن آمن بالله وصدق بوعده واتبع رسله، أدخله الجنة. قال: واللوح لوح من درة بيضاء، طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب، وحافته الدر والياقوت، ودفته ياقوتة حمراء، وقلمه نور، وكلامه معقود بالعرش، وأصله في حجر ملك. قال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا منجاب بن الحارث، حدثنا إبراهيم بن يوسف، حدثنا زياد بن عبد الله، عن ليث، عن عبد الملك بن سعيد بن جبير، عن أبيه، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء، صفحتها من ياقوتة حمراء، قلمه نور وكتابه نور، لله فيه كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة، يخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويُعزِّز ويُذلُّ، ويفعل ما يشاء».

آخر تفسير سورة «البروج» والله الحمد



تفسير سورة الطارق

وهي مكية. قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن محمد - قال عبد الله: وسمعتة أنا منه - حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، عن عبد الله بن عبد الرحمن الطائفي، عن عبد الرحمن ابن خالد بن أبي جبل العُدْوانِي، عن أبيه: أنه أبصر رسول الله ﷺ في مُشْرِقٍ ثَقِيفٍ وهو قائم على قوس - أو: عصا - حين أتاهم يتغي عندهم النصر، فسمعتة يقول: ﴿وَالسَّامِرُ وَالطَّارِقُ﴾ ﴿١﴾، حتى ختمها - قال: فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك، ثم قرأتها في الإسلام - قال: فدعنتي ثقيف فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل؟ فقرأتها عليهم، فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا، لو كنا نعلم ما يقول حقاً لاتبعناه. وقال النسائي: حدثنا عمرو بن منصور، حدثنا أبو نعيم، عن مسعر، عن محارب بن دثار، عن جابر قال: صلى معاذ المغرب، فقرأ البقرة والنساء، فقال النبي ﷺ: «أفتأن يا معاذ؟ ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق، والشمس وضحاها، ونحو هذا؟».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّامِرُ وَالطَّارِقُ﴾ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَتِهَا حَاسِدٌ ﴿٣﴾ لَيَطَّيَّرُ الْإِنْسَانُ مِمَّ خَلَقَ ﴿٤﴾ خَلَقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٥﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٦﴾ إِنَّهُ عَلَى نَجْوَى قَائِدٍ ﴿٧﴾ يَوْمَ تَبْلَى التَّرَائِبُ ﴿٨﴾ قَالُوا مِنْ قَوْمٍ وَلَا تَأْمُرُ ﴿٩﴾. ثم قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ ﴿١﴾،

ثم فسر بقوله: ﴿الَّتِي تَأْتِيهِمُ الْبُحْبُوحُ﴾ (٢). قال قتادة وغيره: إنما سمي النجم طارقاً؛ لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار. ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح: نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً، أي: يأتيهم فجأة بالليل. وفي الحديث الآخر المشتمل على الدعاء: «إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن». وقوله: ﴿الَّتِي تَأْتِيهِمُ الْبُحْبُوحُ﴾: قال ابن عباس: المضيء. وقال السدي: يثقب الشياطين إذا أرسل عليها. وقال عكرمة: هو مضيء ومحرق للشيطان. وقوله: ﴿إِنْ كُنْ تَرَىٰ ظِلًّا عَالِيًا حَاطِّقًا﴾ (٣): أي: كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات، كما قال تعالى: ﴿لَمْ مُمْقِنَتِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ الآية [الرعد: ١١]. وقوله: ﴿يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ مِنْ حَوْقٍ﴾ (٤): تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد؛ لأن من قدر على البداة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. وقوله: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ (٥): يعني: المني، يخرج دفقاً من الرجل ومن المرأة، فيتولد منهما الولد بإذن الله، ﷻ؛ ولهذا قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (٦). يعني: صلب الرجل وترائب المرأة، وهو صدرها. قال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (٧): صلب الرجل وترائب المرأة، أصفر رقيق، لا يكون الولد إلا منهما. وكذا قال سعيد بن جبيرة، وعكرمة، وقاتدة والسُّدِّي، وغيرهم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن يسَعر: سمعت الحكم ذكر عن ابن عباس: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (٨). قال: هذه الترائب. ووضع يده على صدره. وقال الضحاك وعطية، عن ابن عباس: تربية المرأة موضع القلادة. وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبيرة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الترائب: بين ثدييها. وعن مجاهد: الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر. وعنه أيضاً: الترائب أسفل من التراقي. وقال سفيان الثوري: فوق الثديين. وعن سعيد بن جبيرة: الترائب أربعة أضلاع من هذا الجانب الأسفل. وعن الضحاك: الترائب بين الثديين والرجلين والعينين. وقال الليث بن سعد عن مَعْمَر بن أَبِي حَبِيبَةَ المدني: أنه بلغه في قول الله ﷻ: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (٩). قال: هو عصاراة القلب، من هناك يكون الولد. وعن قتادة: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (١٠): من بين صلبه ونحره. وقوله: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ عَنَبٍ نَضِيدٍ فَنَأِيْبُ﴾ (١١)، فيه قولان:

أحدهما: على رجع هذا الماء الدافق إلى مقره الذي خرج منه لقادر على ذلك. قاله مجاهد، وعكرمة، وغيرهما. والقول الثاني: إنه على رجع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق، أي: إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر؛ لأن من قدر على البدء قدر على الإعادة. وقد ذكر الله، ﷻ، هذا الدليل في القرآن في غير ما موضع، وهذا القول قال به الضحاك، واختاره ابن جرير، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تَكُنُ السَّاعَةُ﴾ (١٢). أي: يوم القيامة تبلى فيه السرائر، أي: تظهر وتبدو، ويبقى السر علانية والمكنون مشهوراً. وقد ثبت في الصحيحين، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «يرفع لكل غادر لواء عند استه، يقال: هذه غدره فلان بن فلان». وقوله: ﴿قَالَ لَهُ﴾ (١٣): أي: الإنسان يوم القيامة ﴿مِنْ نُّفُوسٍ﴾ (١٤): أي: في نفسه ﴿وَلَا نَاصِرَ﴾ (١٥): أي: من خارج منه، أي: لا يقدر على أن ينجذ نفسه من عذاب الله، ولا يستطيع له أحد ذلك.

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْآرْسِيِّ﴾ (١٦) وَالْأَرْضَ ذَاتَ الصَّفْعِ (١٧) إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ (١٨) وَمَا هُوَ إِلَّا مَزَلْ (١٩) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (٢٠) وَأَكِيدُ كَيْدًا (٢١) فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَنَّهُمْ رَوْبًا (٢٢)﴾ (٢٣).

قال ابن عباس: الرجع: المطر. وعنه: هو السحاب فيه المطر. وعنه: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْآرْسِيِّ﴾ (٢٤): تمطر ثم تمطر. وقال قتادة: ترجع رزق العباد كل عام، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم. وقال ابن زيد: ترجع نجومها وشمسها وقمرها، يأتين من ها هنا. ﴿وَالْأَرْضَ ذَاتَ الصَّفْعِ﴾ (٢٥): قال ابن عباس: هو انصداعها عن النبات. وكذا قال سعيد بن جبيرة، وعكرمة، وأبو مالك، والضحاك، والحسن، وقاتدة، والسدي، وغير واحد. وقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ (٢٦): قال ابن عباس: حق. وكذا قال قتادة. وقال آخر: حكم عدل. ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا مَزَلْ﴾ (٢٧): أي: بل هو حق جد. ثم أخبر عن الكافرين بأنهم يكذبون به ويصدون عن سبيله، فقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (٢٨): أي: يمحرون بالناس في دعوتهم إلى خلاف القرآن. ثم قال: ﴿فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٩): أي: أنظرهم ولا تستعجل لهم، ﴿أَنَّهُمْ رَوْبًا﴾ (٣٠): أي: قليلاً. أي: وترى ماذا أحل بهم من العذاب والنعكس والعقوبة والهلاك، كما قال: ﴿نُتِمُّهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٣١) [لقمان: ٢٤].

آخر تفسير سورة «الطارق»

وبه الحمد



تفسير سورة سَبَّح

وهي مكية. والدليل على ذلك ما رواه البخاري: حدثنا عبدان: أخبرني أبي، عن شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلنا يُقرئنا القرآن. ثم جاء عمار وبلال وسعد. ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين. ثم جاء النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله قد جاء، فما جاء حتى قرأت: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) في سور مثلها. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا إسرائيل، عن ثوير بن أبي فاختة، عن أبيه، عن علي قال: كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١). تفرد به أحمد. وثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى». وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر، عن أبيه، عن حبيب بن سالم، عن أبيه، عن النعمان بن بشير: أن رسول الله ﷺ قرأ في العيدين بـ ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١)، و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْقُنُوتِ﴾ (١)، وإن وافق يوم الجمعة قراهما جميعاً. هكذا وقع في مسند الإمام أحمد إسناد هذا الحديث. وقد رواه مسلم - في صحيحه - وأبو داود والترمذي والنسائي، من حديث أبي عوانة وجريز وشعبة، ثلاثتهم عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر، عن أبيه، عن حبيب بن سالم، عن النعمان بن بشير، به. قال الترمذي: «وكذا رواه الثوري ومسعر، عن إبراهيم - قال: ورواه سفيان بن عيينة عن إبراهيم - عن أبيه، عن حبيب بن سالم، عن أبيه، عن النعمان. ولا يعرف لحبيب رواية عن أبيه». وقد رواه ابن ماجه عن محمد بن الصباح، عن سفيان بن عيينة، عن إبراهيم بن المنتشر، عن أبيه عن حبيب بن سالم، عن النعمان به. كما رواه الجماعة، والله أعلم. ولفظ مسلم وأهل السنن: كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بـ ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١)، و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْقُنُوتِ﴾ (١)، وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما. وقد روى الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي بن كعب، وعبد الله بن عباس، وعبد الرحمن بن أبيزى، وعائشة أم المؤمنين: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الوتر بـ ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١)، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (١)، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١). زادت عائشة -: والمعوذتين. وهكذا زوي هذا الحديث - من طريق - جابر وأبي أمامة صُدي بن عجلان، وعبد الله بن مسعود، وعمران بن حصين، وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنهم. ولولا خشية الإطالة لأوردنا ما تبسر من أسانيد ذلك ومتونه ولكن في الإرشاد بهذا الاختصار كفاية، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَرْخَى أَلْسِنَ (٤) تَجَمَّلَ غَنَاءَ أَمْوَالِ (٥) سَتَرْتُكَ فَلَا تَكْشَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّكُمْ بِعَلَمِ الْغَهْرِ وَمَا يَخْفَى (٧) وَيُخَيِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكِّرْ إِنَّ نَعْمَتَ الذِّكْرِ (٩) سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْتَارُ (١٠) وَتَنَجِّتُ الْأَنْفُسَ (١١) الَّتِي يَصِلُ الْآثَرُ الْكَرْبَى (١٢) ثُمَّ لَا يَبُوءُ بِهَا وَلَا يَحْنُ (١٣).

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا موسى - يعني ابن أيوب الغافقي - حدثنا عمي إياس بن عامر، سمعت عقبه بن عامر الجهني لما نزلت: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١)، قال لنا رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم». فلما نزلت: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١)، قال: «اجعلوها في سجودكم». ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث ابن المبارك، عن موسى بن أيوب، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن مسلم النبطي، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١)، قال: «سبحان ربي الأعلى». وهكذا رواه أبو داود عن زهير بن حرب، عن وكيع، به. وقال: «خولف فيه وكيع، رواه أبو وكيع وشعبة، عن أبي إسحاق، عن سعيد، عن ابن عباس، موقوفاً. وقال الثوري، عن السدي، عن عبد خير قال: سمعت علياً قرأ: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١)، فقال: سبحان ربي الأعلى. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُميد، حدثنا حُكَّام بن عَنَسَةَ، عن أبي إسحاق الهمداني: أن ابن عباس كان إذا قرأ: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١)، يقول: سبحان ربي الأعلى، وإذا قرأ: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (١) [القيامة: ١] فأتى على آخرها: ﴿إِنَّ ذَلِكَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُخَيِّرَ لَكَ الْوَكْلَ﴾ (١) [القيامة: ٤٠] يقول: سبحانك وبلى.

وقال قتادة: ﴿سَجَّ اسْمُ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١): ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان إذا قرأها، قال: «سبحان ربي الأعلى». وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَوْى﴾ (٢): أي: خلق الخليقة وسوى كل مخلوق في أحسن الهيئات. وقوله: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (٣): قال مجاهد: هدى الإنسان للشقاوة والسعادة، وهدى الأنعام لمراتها. وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه: ٥٠) أي: قدر قدراً، وهدى الخلائق إليه، كما ثبت في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء». وقوله: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ (٤): أي: من جميع صنوف النباتات والزرع، ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاً أَحْوَى﴾ (٥): قال ابن عباس: هشيماً متغيراً. وعن مجاهد، وقادة، وابن زيد، نحوه. قال ابن جرير: وكان بعض أهل العلم بكلام العرب يرى أن ذلك من المؤخر الذي معناه التقديم، وأن معنى الكلام: والذي أخرج المرعى أحوى، أي: أخضر إلى السواد، فجعله غشاً بعد ذلك. ثم قال ابن جرير: وهذا وإن كان محتتملاً إلا أنه غير صواب؛ لمخالفته أقوال أهل التأويل. وقوله: ﴿سَتَقَرُّكَ﴾ (٦): أي: يا محمد ﴿فَلَا تَتَّقِ﴾. وهذا إخبار من الله، ﷻ، ووعد منه له، بأنه سيقربه قراءة لا ينساها، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾. وهذا اختيار ابن جرير. وقال قتادة: كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئاً إلا ما شاء الله. وقيل: المراد بقوله: ﴿فَلَا تَتَّقِ﴾: طلب، وجعلوا معنى الاستثناء على هذا ما يقع من النسخ، أي: لا تنسى ما تقرنك إلا ما شاء الله رفعه؛ فلا عليك أن تتركه. وقوله: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ (٧): أي: يعلم ما يجره به العباد وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء. وقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُكَ الْغَاسِقَ﴾ (٨): أي: نسهل عليك أفعال الخير وأقواله، ونشر لك شرعاً سهلاً سمحاً مستقيماً عدلاً، لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر. وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّبَعْتُ الْأَرْثَى﴾ (٩): أي: ذكر حيث تنفع التذكرة. ومن ها هنا يؤخذ الأدب في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله، كما قال أمير المؤمنين علي، رضي الله عنه: ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم. وقال: حدث الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟! وقوله: ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْفَى﴾ (١٠): أي: سيتعظ بما تبغى - يا محمد - من قلبه يخشى الله ويعلم أنه ملاقيه، ﴿وَيَنْجِيهِ الْآثَقَى﴾ (١١) الَّذِي بَصُلَ النَّارَ الْكَثْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَبُوءُ فِيهَا وَلَا يَخْفَى (١٣): أي: لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه، بل هي مضرة عليه؛ لأن بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب، وأنواع النكال.

قال الإمام أحمد: حدثنا ابن أبي عدي، عن سليمان - يعني التيمي - عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذي هم أهلها لا يموتون ولا يحيون، وأما أناس يريد الله بهم الرحمة فيميتهم في النار فيدخل عليهم الشفعاء، فيأخذ الرجل أنصاره فينبتهم - أو قال: ينبتون - في نهر الحياة - أو قال: الحياة - أو قال: الحيوان - أو قال: نهر الجنة فينبتون - نبات الحبة في حميل السيل». قال: وقال النبي ﷺ: «أما ترون الشجرة تكون خضراء، ثم تكون صفراء أو قال: تكون صفراء ثم تكون خضراء؟» قال: فقال بعضهم: كان النبي ﷺ كان بالبادية. وقال أحمد أيضاً: حدثنا إسماعيل، حدثنا سعيد بن يزيد، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أناس - أو كما قال - تصيبهم النار بذنوبهم - أو قال: بخطاياهم - فيميتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحماً أذن في الشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر، فنبتوا على أنهار الجنة، فقال: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم. فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل». قال: فقال رجل من القوم حينئذ: كان رسول الله ﷺ كان بالبادية. ورواه مسلم في حديث بشر بن المفضل وشعبة، كلاهما عن أبي مسلمة سعيد بن زيد، به مثله. ورواه أحمد أيضاً عن يزيد، عن سعيد بن إياس الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «إن أهل النار الذين لا يريد الله إخراجهم لا يموتون فيها ولا يحيون، وإن أهل النار الذين يريد الله إخراجهم يميتهم فيها إماتة، حتى يصيروا فحماً، ثم يخرجون ضبائر فيلقون على أنهار الجنة، أو: يرش عليهم من أنهار الجنة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل». وقد قال الله إخباراً عن أهل النار: ﴿وَنَادَوْا يَمْكُنُكَ يُقِيضُ عَلَيْكَ رَبُّكَ قَالِ إِنَّكُمْ مَرْكُومُونَ﴾ (الزخرف: ٧٧)، وقال تعالى: ﴿لَا يُقِيضُ عَلَيْكُمْ فَمُوتُوا وَلَا يُخَفِّفْ عَنْهُمْ رَبُّ عَذَابِيهَا﴾ (فاطر: ٣٦). إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤْوِيُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَثَرٌ (١٧) إِنَّ هَذَا لَكِ السَّحَابُ الْأَوَّلُ (١٨) صَوِّبُوا لِيَرْبِعَهُمْ وَشَوْحَى (١٩)

يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ (١٤): أي: طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة، وتابع ما أنزل الله على رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (١٥): أي: أقام الصلاة في أوقاتها، ابتغاء رضوان الله وطاعة لأمر الله وامتنالاً لشرع الله. وقد قال

الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن أحمد العزمي، حدثنا عمي محمد بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عطاء بن السائب، عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ: ﴿قَدْ أَلْحَقَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤)، قال: «من شهد أن لا إله إلا الله، وخلع الأنداد، وشهد أنني رسول الله»، وذكر أسد زريقه فصل (١٥) قال: «هي الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بها». ثم قال: لا يروى عن جابر إلا من هذا الوجه. وكذا قال ابن عباس: إن المراد بذلك الصلوات الخمس. واختاره ابن جرير. وقال ابن جرير: حدثني عمرو بن عبد الحميد الأملي، حدثنا مروان بن معاوية، عن أبي خلدة قال: دخلت على أبي العالية فقال لي: إذا غدوت غداً إلى العيد فمزيبي. قال: فمررت به فقال: هل طعمت شيئاً؟ قلت: نعم. قال: أفضت على نفسك من الماء؟ قلت: نعم. قال: فأخبرني ما فعلت بزكاتك؟ قلت: وكأنك قلت: قد وجهتها؟ قال: إنما أردت لك لهذا. ثم قرأ: ﴿قَدْ أَلْحَقَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) وذكر أسد زريقه فصل (١٥). وقال: إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها ومن سقاية الماء. قلت: وكذلك رويها عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كان يأمر الناس بإخراج صدقة الفطر، ويتلو هذه الآية ﴿قَدْ أَلْحَقَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) وذكر أسد زريقه فصل (١٥). وقال أبو الأحوص: إذا أتني أحدكم سائل وهو يريد الصلاة، فليقدم بين يدي صلاته زكاته، فإن الله يقول: ﴿قَدْ أَلْحَقَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) وذكر أسد زريقه فصل (١٥). وقال قتادة في هذه الآية ﴿قَدْ أَلْحَقَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) وذكر أسد زريقه فصل (١٥): زكى ماله وأرضى خالقه. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (١٦) أي: تقدمونها على أمر الآخرة، وتبدونها على ما فيه نفعهم وصلاتهم في معاشهم ومعادهم، ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (١٧) أي: ثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى، فإن الدنيا دنية فانية، والآخرة شريفة باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى، ويهتم بما يزول عنه قريباً، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد؟! قال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا ذؤيد، عن أبي إسحاق، عن عروة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دارٌ من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له».

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا أبو حمزة، عن عطاء، عن عرقبة الثقفي قال: استقرأت ابن مسعود **«سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَكْبَرُ﴾** (١) فلما بلغ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (١٦) ترك القراءة، وأقبل على أصحابه وقال: آثرنا الدنيا على الآخرة. فسكت القوم، فقال: آثرنا الدنيا لأننا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها، ورؤيت عنا الآخرة فآخثرنا هذا العاجل وتركتنا الآجل. وهذا منه على وجه التواضع والهضم، أو هو إخبار عن الجنس من حيث هو، والله أعلم. وقد قال الإمام أحمد: حديث سليمان بن داود الهاشمي، حدثنا إسماعيل بن جعفر، أخبرني عمرو بن أبي عمرو، عن المطلب بن عبد الله، عن أبي موسى الأشعري: أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنيته، فأثروا ما يبقى على ما يفنى». تفرد به أحمد. وقد رواه أيضاً عن أبي سلمة الخزاعي، عن الدراوردي، عن عمرو بن أبي عمرو، به مثله سواء. وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَنِيَ الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٨) **صُحُفٌ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾** (١٩) قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا نصر بن علي، حدثنا معتمر بن سليمان، عن أبيه عن عطاء بن السائب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّ هَذَا لَنِيَ الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٨) **صُحُفٌ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾** (١٩) قال النبي ﷺ: «كان كل هذا - أو: كان هذا - في صحف إبراهيم وموسى». ثم قال: لا نعلم أسند الثقات عن عطاء بن السائب، عن عكرمة، عن ابن عباس غير هذا، وحديثاً آخر أورده قبل هذا.

وقال النسائي: أخبرنا زكريا بن يحيى، أخبرنا نصر بن علي، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن عطاء بن السائب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَكْبَرُ﴾ (١) قال: كلها في صحف إبراهيم وموسى، فلما نزلت: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (٢٧) [النجم: ٣٧] قال: وفى ﴿أَلَّا تَزِرُ وَزِرَّتُهُ وَنُزِرْتُ لُنُورًا﴾ (٢٨) [النجم: ٣٨]. يعني أن هذه الآية كقوله في سورة «النجم»: ﴿أَمْ لَمْ يَلِدْ يَمَّا فِي مِحْفٍ مُّوَسًى﴾ (٢٩) **وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾** (٢٧) **أَلَّا تَزِرُ وَزِرَّتُهُ وَنُزِرْتُ لُنُورًا﴾** (٢٨) **وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾** (٣٠) **وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يَرَى﴾** (٣١) **ثُمَّ يُعْزِزُهُ الْجَنَّةَ وَالْأُولَى﴾** (٣٢) **وَأَنَّ لَكَ رَبُّكَ الْمُتَبَيَّنُّ﴾** (٣٣) [النجم: ٣٦: ٤٢]... الآيات إلى آخرهن. وهكذا قال عكرمة - فيما رواه ابن جرير، عن ابن حميد، عن مهران، عن سفيان الثوري، عن أبيه، عن عكرمة - في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَنِيَ الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٨) **صُحُفٌ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾** (١٩)، يقول: الآيات التي في سبوح اسم ربك الأعلى. وقال أبو العالية: قصة هذه السورة في الصحف الأولى. واختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ إشارة إلى قوله: ﴿قَدْ أَلْحَقَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) وذكر أسد زريقه فصل (١٥) **بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾** (١٦) **وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾** (١٧)، ثم قال: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي: مضمون هذا الكلام «لَنِيَ الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ **صُحُفٌ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾** (١٩). وهذا اختيار حسن قوي. وقد روي عن قتادة وابن زيد، نحوه. والله أعلم.

تفسير سورة الغاشية

وهي مكية. قد تقدم عن النعمان بن بشير: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بـ ﴿سَجَّ اسْدَ رَبِّكَ الْكَافِي﴾، والغاشية في صلاة العبد ويوم الجمعة. وقال الإمام مالك، عن ضمرة بن سعيد، عن عبيد الله بن عبد الله: أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير: بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة؟ قال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾. رواه أبو داود عن القشيري، والنسائي عن قتبية، كلاهما عن مالك، به. ورواه مسلم وابن ماجه، من حديث سفيان بن عيينة، عن ضمرة بن سعيد، به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ ① وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ② عَالِيَةٌ نَّاصِيَةٌ ③ تَصَلَّى نَارًا حَايَةً ④ تَشَقَّى مِنْ عَيْنٍ مَّايَةٍ ⑤ لَيْسَ لَمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ ⑥ لَا يَسِينُ وَلَا يَتْنِي مِنْ جُوعٍ ⑦.

الغاشية: من أسماء يوم القيامة. قاله ابن عباس، وقتادة، وابن زيد؛ لأنها تغشى الناس وتغتهم. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون قال: مر النبي ﷺ على امرأة تقرأ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ ① فقام يستمع ويقول: "نعم، قد جاءني". وقوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾ ② أي: ذليلة. قاله قتادة. وقال ابن عباس: تخشع ولا ينفعها عملها. وقوله: ﴿عَالِيَةٌ نَّاصِيَةٌ﴾ ③ أي: قد عملت عملاً كثيراً، ونصبت فيه، وصليت يوم القيامة ناراً حامية. وقال الحافظ أبو بكر البرقاني: حدثنا إبراهيم بن محمد المزني، حدثنا محمد بن إسحاق السراج، حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا سيار، حدثنا جعفر قال: سمعت أبا عمران الجوني يقول: مر عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بدير راهب، قال: فناداه: يا راهب يا راهب. فأشرف. قال: فجعل عمر ينظر إليه ويكي. فقيل له: يا أمير المؤمنين، ما يبكيك من هذا؟ قال: ذكرت قول الله ﷻ، في كتابه ﴿عَالِيَةٌ نَّاصِيَةٌ﴾ ③ تَصَلَّى نَارًا حَايَةً ④، فذاك الذي أبكاني. وقال البخاري: قال ابن عباس: ﴿عَالِيَةٌ نَّاصِيَةٌ﴾ ③: النصارى. وعن عكرمة، والسدي: ﴿عَالِيَةٌ﴾ في الدنيا بالمعاصي ﴿نَّاصِيَةٌ﴾ في النار بالعذاب والأغلال. قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: ﴿تَصَلَّى نَارًا حَايَةً﴾ ④ أي: حارة شديدة الحر. ﴿تَشَقَّى مِنْ عَيْنٍ مَّايَةٍ﴾ ⑤ أي: قد انتهت حرها وغليناها. قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن، والسدي. وقوله: ﴿لَيْسَ لَمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ﴾ ⑥ أي: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: شجر من نار. وقال سعيد بن جبير: هو الزقوم. وعنه: أنها الحجارة. وقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو الجوزاء، وقتادة: هو الشبرق. قال قتادة: قرش تسميه في الربيع: الشبرق، وفي الصيف: الضريع. قال عكرمة: وهو شجرة ذات شوك لاطنة بالأرض. وقال البخاري: قال مجاهد: الضريع نبت يقال له: الشبرق، يسميه أهل الحجاز: الضريع إذا يس، وهو سم. وقال معمر، عن قتادة: ﴿إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ﴾: هو الشبرق، إذا يس سمي الضريع. وقال سعيد، عن قتادة: ﴿لَيْسَ لَمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ﴾ ⑥: من شر الطعام وأبشعه وأخبثه. وقوله: ﴿لَا يَسِينُ وَلَا يَتْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ ⑦ يعني: لا يحصل به مقصود، ولا يتدفع به محذور.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِيَةٌ﴾ ⑧ لَسِيَهَا رَاصِيَةٌ ⑨ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ⑩ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَيْعَةً ⑪ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ⑫ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ⑬ وَأَكْوَابٌ مَوْسُوعَةٌ ⑭ وَنَارٌ مَقْشُوعَةٌ ⑮ وَزَكَاتٌ مَبْنُوعَةٌ ⑯.

لما ذكر حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء فقال: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِيَةٌ﴾ أي: يوم القيامة ﴿نَّاعِيَةٌ﴾ أي: يعرف النعيم فيها. وإنما حصل لها ذلك بسعيها. وقال سفيان: ﴿لَسِيَهَا رَاصِيَةٌ﴾ ⑨: قد رصيت عملها. وقوله: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ ⑩ أي: رفيعة بهية في الغرفات آمنون، ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَيْعَةً﴾ ⑪ أي: لا يسمع في الجنة التي هم فيها كلمة لغو. كما قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مریم: ٦٢]، وقال: ﴿لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْيِيثٌ﴾ [الطور: ٢٣]. وقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْيِيثًا﴾ ⑫ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ⑬ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]. ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ ⑫ أي: سارحة. وهذه نكرة في سياق الإثبات، وليس المراد بها عيناً واحدة، وإنما هذا جنس، يعني: فيها عيون جاريات. وقال ابن أبي حاتم: قرئ على الربيع بن سليمان: حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن ثوبان، عن عطاء بن قرة، عن عبد الله بن ضمرة، عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «أنهار الجنة تفجر من تحت تلال - أو:

من تحت جبال - المسك. ﴿فِيهَا سُرٌّ مَّرُوءَةٌ﴾ (١٧) أي: عالية ناعمة كثيرة الفرش، مرتفعة السُنك، عليها الحور العين. قالوا: فإذا أراد ولي الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له، ﴿وَأَكْرَبُ مَوْضُوعَةً﴾ (١٨) يعني: أواني الشرب معدة مُرصدة لمن أَرادها من أربابها، ﴿وَنَارٌ مَّصْؤُومَةٌ﴾ (١٩): قال ابن عباس: النار: النار. وكذا قال عكرمة وقتادة، والضحاك، والسدي، والثوري وغيرهم. وقوله ﴿وَرِزْقٌ مَّبْنُونٌ﴾ (٢٠)، قال ابن عباس: الزرابي: البسط. وكذا قال الضحاك، وغير واحد. ومعنى مَبْنُونٌ، أي: ها هنا وما هنا لمن أراد الجلوس عليها. ونذكر ها هنا الحديث الذي رواه أبو بكر بن أبي داود: حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا أبي، عن محمد بن مهاجر، عن الضحاك المَعافري، عن سليمان بن موسى: حدثني كَرْيَبُ أَنَّهُ سَمِعَ أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا هَلْ مِنْ مُشْمَرٍ لِلْجَنَّةِ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرُ لَهَا، هِيَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلَأَلُ، وَرِيحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَقَصْرٌ مُشِيدٌ، وَنَهْرٌ مُطَرَّدٌ، وَثَمَرَةٌ نَضِيجَةٌ، وَزَوْجَةٌ حَسَنَاءٌ جَمِيلَةٌ، وَحُلُلٌ كَثِيرَةٌ، وَمَقَامٌ فِي أَبَدٍ فِي دَارِ سَلِيمَةٍ، وَفَاكِهِةٌ خَضِرَةٌ، وَحَبِيرَةٌ وَنَعْمَةٌ، فِي مَحَلَّةٍ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ؟». قالوا: نعم يا رسول الله، نحن المشمرون لها. قال: «قولوا: إِنَّ شَاءَ اللَّهِ». قال القوم: إِنَّ شَاءَ اللَّهِ. ورواه ابن ماجه عن العباس بن عثمان الدمشقي، عن الوليد بن مسلم، عن محمد بن مهاجر، به.

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (٢١) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٢٢﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٢٣﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٤﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢٥﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٧﴾ يَمُذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٨﴾ إِذْ إِلَيْنَا يَأْتِيهِمْ ﴿٢٩﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا جِسْمَهُمْ ﴿٣٠﴾.

يقول تعالى أَمَرَ عِبَادَهُ بِالنَّظَرِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (٢١)؟ فَإِنَّهَا خُلِقَتْ عَجِيبٌ، وَتَرْكِيبُهَا غَرِيبٌ، فَإِنَّهَا فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ وَالشَّدَةِ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ تَلِينُ لِلْحَمْلِ الثَّقِيلِ، وَتَتَقَادُ لِلْقَائِدِ الضَّعِيفِ، وَتُؤَكِّلُ، وَتَنْتَفِعُ بِوَبَرِّهَا، وَيَشْرَبُ لِبَنِيهَا. وَنَبِّهُوا بِذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ غَالِبُ دَوَابِّهِمْ كَانَتِ الْإِبِلُ، وَكَانَ شَرِيعُ الْقَاضِي يَقُولُ: أَخْرَجُوا بَنِي حَتَّى نَنْظُرَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ؟ أَي: كَيْفَ رَفَعَهَا اللَّهُ ﷻ، عَنْ الْأَرْضِ هَذَا الرِّفْعَ الْعَظِيمَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (٢٢) لِق: ٢٦. ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (٢٣) أَي: جَعَلَتْ مُنْصُوبَةً قَائِمَةً ثَابِتَةً رَاسِيَةً لثَلَا تَمِيدُ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا، وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَعَادِنِ. ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (٢٤) أَي: كَيْفَ بَسَطَتْ وَمَدَّتْ وَمَهَّدَتْ، فَتَبَّهَ الْبَدْوِيُّ عَلَى الْإِسْتِدْلَالِ بِمَا يَشَاهِدُهُ مِنْ بَعِيرِهِ الَّذِي هُوَ رَاكِبٌ عَلَيْهِ، وَالسَّمَاءَ الَّتِي فَوْقَ رَأْسِهِ، وَالْجِبَالَ الَّتِي تَجَاهَهُ، وَالْأَرْضَ الَّتِي تَحْتَهُ، عَلَى قَدْرِ خَالْقِ ذَلِكَ وَصَانِعِهِ، وَأَنَّهُ الرَّبُّ الْعَظِيمُ الْخَالِقُ الْمُتَصَرِّفُ الْمَالِكُ، وَأَنَّهُ الْإِلَهَ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةُ سِوَاهُ. وَهَكَذَا أَتَسَمَّ «ضَمَامٌ» فِي سُؤَالِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ حَيْثُ قَالَ: حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ الْقَاسِمِ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُغِيرَةِ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كُنَّا نَهْنِئُ أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يَعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلِ فَيَسْأَلُهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهُ أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَكَ. قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: «اللَّهُ». قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ: «اللَّهُ». قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، اللَّهُ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا وَلَيْلَتِنَا. قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ، اللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةَ فِي أَمْوَالِنَا؟ قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ، اللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: ثُمَّ وَلِيَ فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثْتُكَ بِالْحَقِّ لَا أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُنَّ شَيْئًا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنْ صَدَقَ لِيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ».

وقد رواه مسلم، عن عمرو الناقد، عن أبي النضر هاشم بن القاسم، به. وعلقه البخاري. ورواه الترمذي والنسائي، من حديث سليمان بن المغيرة به. ورواه الإمام أحمد والبخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الليث بن سعد، عن سعيد المقبري، عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر، عن أنس، به بطوله، وقال في آخره: «وَأَنَا ضَمَامٌ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ». وقال الحافظ أبو يعلى: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ دِينَارٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَثِيرًا مَا كَانَ يَحْدِثُ عَنْ امْرَأَةٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ، مَعَهَا ابْنُ لَهَا تَرَعَى غَنَمًا، فَقَالَ لَهَا ابْنُهَا: يَا أُمِّهِ، مَنْ خَلَقَكَ؟ قَالَتْ: اللَّهُ. قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ أَبِي؟ قَالَتْ: اللَّهُ. قَالَ: فَمَنْ خَلَقَنِي؟ قَالَتْ: اللَّهُ. قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَتْ: اللَّهُ. قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ قَالَتْ: اللَّهُ. قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الْجِبَلَ؟ قَالَتْ: اللَّهُ. قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ هَذِهِ الْغَنَمَ؟ قَالَتْ: اللَّهُ. قَالَ: إِنِّي لَأَسْمَعُ لَكَ شَأْنًا. وَأَلْقَى نَفْسَهُ مِنَ الْجَبَلِ فَتَقَطَعَ. قَالَ ابْنُ عُمَرَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَثِيرًا مَا يَحْدِثُنَا هَذَا.

قال ابن دينار: كان ابن عمر كثيراً ما يحدثنا بهذا. في إسناده ضعف، وعبد الله بن جعفر هذا هو المدني، ضعفه ولده الإمام علي بن المدني وغيره. وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢) أي: فذكر - يا محمد - الناس بما أرسلت به إليهم، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، ولهذا قال: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (٢٣). قال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: لست عليهم بجبار. وقال ابن زيد: لست بالذي تكرهمهم على الإيمان. قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله ﷻ». ثم قرأ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢). وهكذا رواه مسلم في كتاب «الإيمان»، والترمذي والنسائي في كتابي «التفسير» من سننهما، من حديث سفيان بن سعيد الثوري، به هذه الزيادة. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من رواية أبي هريرة، بدون ذكر هذه الآية. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَتَرَ﴾ (٢٣) أي: تولى عن العمل بأركانه، وكفر بالحق بحنانه ولسانه. وهذه كقوله: ﴿لَا مَنَعَكَ لَأَمْكَانَ﴾ (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَقَتَلَ (٣٢) [القيامة: ٣١، ٣٢]. ولهذا قال: ﴿يَمُذِّبُهُ اللَّهُ الْقَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ (٢٤). قال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ليث، عن سعيد بن أبي هلال، عن علي بن خالد: أن أبا أمامة الباهلي مر على خالد بن يزيد بن معاوية، فسأله عن ألين كلمة سمعها من رسول الله ﷺ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا كلكم يدخل الجنة، إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله». تفرد بإخراجه الإمام أحمد، وعلي بن خالد هذا ذكره ابن أبي حاتم عن أبيه، ولم يزد على ما هنا: «روى عن أبي أمامة، وعنه سعيد بن أبي هلال». وقوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ (٢٥) أي: مرجعهم ومقلبهم ﴿ثُمَّ لَنَا عَلَيْهِمْ حِسَابُ﴾ (٢٦) أي: نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

آخر تفسير سورة «الغاشية» وشه الحمد والمنة



تفسير سورة الفجر

وهي مكية. قال النسائي: أخبرنا عبد الوهاب بن الحكم، أخبرني يحيى بن سعيد، عن سليمان، عن محارب بن دثار وأبي صالح، عن جابر قال: صلى معاذ صلاة، فجاء رجل فصلى معه فطول، فصلى في ناحية المسجد ثم انصرف، فبلغ ذلك معاذاً فقال: مناق. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل الفتى، فقال: يا رسول الله، جئت أصلي معه فطول علي، فانصرفت وصليت في ناحية المسجد، فعلقت ناضحي. فقال رسول الله ﷺ: «أفتان يا معاذ؟ أين أنت من ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) و﴿وَاللَّيْلِ﴾ (٢) و﴿وَالْفَجْرِ﴾ (٣) و﴿وَأَتْلَى إِذَا يَتَتَّى﴾ (٤)».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ﴾ (١) دَلِيلُ عَشْرِ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَأَتْلَى إِذَا يَتَرَى (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَاءِ (٦) إِذْ دَارَتْ أَمْوَاجٌ (٧) أَلَيْسَ لَمْ يَخْلُقْ يَتْلُهَا فِي الْبَلَدِ (٨) وَتُؤَدُّ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ (٩) وَتَرَوْنَ ذِي الْأَوْدَاكِ (١٠) الَّذِينَ مَلَعُوا فِي الْبَلَدِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِذْ رَأَوْا كَلِيلَ الرِّمَادِ (١٤).

أما الفجر فمعروف، وهو: الصبح. قاله علي، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والسدي. وعن مسروق، ومجاهد، ومحمد بن كعب: المراد به فجر يوم النحر خاصة، وهو خاتمة الليالي العشر. وقيل: المراد بذلك الصلاة التي تفعل عنده، كما قاله عكرمة. وقيل: المراد به جميع النهار. وهو رواية عن ابن عباس. والليالي العشر: المراد بها عشر ذي الحجة. كما قاله ابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد، وغير واحد من السلف والخلف. وقد ثبت في صحيح البخاري، عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام» - يعني عشر ذي الحجة - قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلاً خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء». وقيل: المراد بذلك العشر الأول من المحرم، حكاه أبو جعفر بن جرير ولم يعزه إلى أحد. وقد روى أبو كذينة، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿دَلِيلُ عَشْرِ﴾ (٢) قال: هو العشر الأول من رمضان. والصحيح القول الأول. قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا عياض بن عتبة، حدثني خير بن نعيم، عن أبي الزبير، عن جابر، عن النبي ﷺ قال: «إن العشر عشر الأضحى، والوتر يوم

عرفة، والشفع يوم النحر». ورواه النسائي عن محمد بن رافع وعبد بن عبد الله، كل منهما عن زيد بن الحباب، به. ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث زيد بن الحباب، به. وهذا إسناد رجاله لا بأس بهم، وعندني أن المتن في رفعه نكارة، والله أعلم. وقوله: ﴿وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ﴾: قد تقدم في هذا الحديث أن الوتر يوم عرفة، لكونه التاسع، وأن الشفع يوم النحر لكونه العاشر. وقاله ابن عباس، وعكرمة، والضحاك أيضاً.

قول ثان: وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثني عقبة بن خالد، عن واصل بن السائب قال: سألت عطاء عن قوله: ﴿وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ﴾: قلْتُ: صلاتنا وترنا هذا؟ قال: لا، ولكن الشفع يوم عرفة، والوتر ليلة الأضحى. قول ثالث: قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عامر بن إبراهيم الأصباهاني، حدثني أبي، عن النعمان - يعني ابن عبد السلام - عن أبي سعيد بن عوف، حدثني بمكة قال: سمعتُ عبد الله بن الزبير يخطبُ الناس، فقام إليه رجلٌ فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن الشفع والوتر. فقال: الشفع قول الله، ﷻ: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، والوتر قوله: ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٣]. وقال ابن جرير: أخبرني محمد بن المرفع أنه سمع ابن الزبير يقول: الشفع أوسط أيام التشريق، والوتر آخر أيام التشريق. وفي الصحيحين من رواية أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر». قول رابع: قال الحسن البصري، وزيد بن أسلم: الخلق كلهم شفع، ووتر، أقسم تعالى بخلقه. وهو رواية عن مجاهد، والمشهور عنه الأول. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ﴾: قال: الله وتر واحد، وأنتم شفع. ويقال: الشفع صلاة الغداة، والوتر: صلاة المغرب. قول خامس: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبيد بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي يحيى، عن مجاهد: ﴿وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ﴾: قال: الشفع الزوج، والوتر: الله ﷻ. وقال أبو عبد الله، عن مجاهد: الله الوتر، وخلقه الشفع، الذكر والأنثى. وقال ابن أبي نجيع، عن مجاهد قوله: ﴿وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ﴾: كل شيء خلقه شفع، السماء والأرض، والبر والبحر، والجن والإنس، والشمس والقمر، ونحو هذا. ونحا مجاهد في هذا ما ذكره في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لِمَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩] أي: لتعلموا أن خالق الأزواج واحد.

قول سادس: قال قتادة، عن الحسن: ﴿وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ﴾: هو العدد، منه شفع ومنه وتر. قول سابع: في الآية الكريمة رواه ابن أبي حاتم وابن جرير من طريق ابن جرير، ثم قال ابن جرير: وروى عن النبي ﷺ خبر يؤيد القول الذي ذكرنا عن أبي الزبير: حدثني عبد الله بن أبي زياد القطواني، حدثنا زيد بن الحباب، أخبرني عياش بن عقبة، حدثني خير بن نعيم، عن أبي الزبير، عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: «الشفع اليومان، والوتر اليوم الثالث». وهكذا ورد هذا الخبر بهذا اللفظ، وهو مخالف لما تقدم من اللفظ في رواية أحمد والنسائي وابن أبي حاتم، وما رواه هو أيضاً، والله أعلم. قال أبو العالية، والربيع بن أنس، وغيرهما: هي الصلاة، منها شفع كالرباعية والثنائية، ومنها وتر كالمغرب، فإنها ثلاث، وهي وتر النهار. وكذلك صلاة الوتر في آخر التهجد من الليل. وقد قال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة، عن عمران بن حصين: ﴿وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ﴾: قال: هي الصلاة المكتوبة، منها شفع ومنها وتر. وهذا منقطع وموقوف، ولفظه خاص بالمكتوبة. وقد روي متصلاً مرفوعاً إلى النبي ﷺ ولفظه عام، قال الإمام أحمد: حدثنا أبو داود - هو الطيالسي - حدثنا همام، عن قتادة، عن عمران بن عصام: أن شيخاً حدثه من أهل البصرة، عن عمران بن حصين: أن رسول الله ﷺ سئل عن الشفع والوتر، فقال: «هي الصلاة، بعضها شفع، وبعضها وتر». هكذا وقع في المسند، وكذا رواه ابن أبي جرير عن بُثَّارٍ، عن عفان وعن أبي كُرَيْبٍ، عن عبيد الله بن موسى، كلاهما عن همام - وهو ابن يحيى - عن قتادة، عن عمران بن عصام، عن شيخ، عن عمران بن حصين. وكذا رواه أبو عيسى الترمذي، عن عمرو بن علي، عن ابن مهدي وأبي داود، كلاهما عن همام، عن قتادة، عن عمران بن عصام، عن رجل من أهل البصرة، عن عمران بن حصين، به. ثم قال: غريب، لا نعرفه إلا من حديث قتادة، وقد رواه خالد بن قيس أيضاً عن قتادة. وقد روي عن عمران بن عصام، عن عمران نفسه، والله أعلم. قلت: ورواه ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا همام، عن قتادة، عن عمران بن عصام الضبعي - شيخ من أهل البصرة - عن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ فذكره، هكذا رأيته في تفسيره، فجعل الشيخ البصري هو عمران بن عصام الضبعي.

وهكذا رواه ابن جرير: حدثنا نصر بن علي، حدثني أبي، حدثني خالد بن قيس، عن قتادة، عن عمران بن عصام، عن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ في الشفع والوتر قال: «هي الصلاة منها شفع، ومنها وتر». فأسقط ذكر الشيخ المبهم، وتفرد به عمران بن عصام الضبعي أبو عماره البصري، إمام مسجد بني ضبيعة وهو والد أبي حمزة نصر بن عمران الضبعي. روى عنه

قتادة، وابنه أبو جمرة، والمثنى بن سعيد، وأبو التياح يزيد بن حميد. وذكره ابن حبان في كتاب الثقات، وذكره خليفة بن خياط في التابعين من أهل البصرة، وكان شريفاً نبيلاً خطيباً عند الحجاج بن يوسف، ثم قتله يوم الزاوية سنة ثلاث وثمانين لخروجه مع ابن الأشعث، وليس له عند الترمذي سوى هذا الحديث الواحد. وعندي أن وقفه على عمران بن حصين أشبه، والله أعلم. ولم يجزم ابن جرير بشيء من هذه الأقوال في الشفع والوتر. وقوله: ﴿وَأَيُّلَ إِذَا يَبَسَّ﴾: قال العوفي، عن ابن عباس: أي إذا ذهب. وقال عبد الله بن الزبير: ﴿وَأَيُّلَ إِذَا يَبَسَّ﴾: حتى يذهب بعضه بعضاً. وقال مجاهد، وأبو العالية، وقتادة، ومالك، عن زيد بن أسلم وابن زيد: ﴿وَأَيُّلَ إِذَا يَبَسَّ﴾: إذا سار. وهذا يمكن حمله على ما قاله ابن عباس، أي: ذهب. ويحتمل أن يكون المراد إذا سار، أي: أقبل. وقد يقال: إن هذا أنسب؛ لأنه في مقابلة قوله: ﴿وَالْقَمَرِ﴾، فإن الفجر هو إقبال النهار وإدبار الليل، فإذا حمل قوله: ﴿وَأَيُّلَ إِذَا يَبَسَّ﴾، على إقباله كان قسماً بإقبال الليل وإدبار النهار، وبالعكس، كقوله: ﴿وَأَيُّلَ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٧، ١٨]. وكذا قال الضحاك: ﴿وَأَيُّلَ إِذَا يَبَسَّ﴾: أي: يجري. وقال عكرمة: ﴿وَأَيُّلَ إِذَا يَبَسَّ﴾: يعني: ليلة جمع. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عصام، حدثنا أبو عامر، حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو قال: سمعت محمد بن كعب القرظي، يقول في قوله: ﴿وَأَيُّلَ إِذَا يَبَسَّ﴾: قال: اسر يا سار ولا تبين إلا بجمع. وقوله: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ مَسَمٌ لِّذِي حِمْرٍ﴾: أي: لذي عقل ولب وحجاً ودين، وإنما سمي العقل حجراً لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال، ومنه حجر البيت لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجداره الشامي. ومنه حجر اليمامة، وحجر الحاكم على فلان: إذا منعه التصرف، ﴿وَيَقُولُونَ حَبَّراً﴾ [الفرقان: ٢٢]، كل هذا من قبيل واحد، ومعنى متقارب، وهذا القسم هو بأوقات العبادة، وبفلس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التي يتقرب بها إليه عباده المتقنون المطيعون له، الخائفون منه، المتواضعون لديه، الخاشعون لوجهه الكريم. ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم قال بعده: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَادٍ﴾، وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين، خارجين عن طاعته مكذبين لرسله، جاحدين لكتبه. فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم، وجعلهم أحاديث وعبراً، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَادٍ﴾ [ذات أَلَمَادٍ: ٧]، وهؤلاء عاد الأولى، وهم أولاد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، قاله ابن إسحاق وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هوداً، عليه السلام، فكذبوه وخالفوه، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم، وأهلكهم بريح صرصر عاتية، ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَنَينَ أَثَابَهَا حُسُودًا فَنَزَلَ الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَشْجَارٌ تُحَلَّى خَاوِيًا﴾ [الاحقاف: ٧]، ﴿فَعَلَّ لَهُمْ يَوْمَ تَأْتِي سَأَلَكَ رَبُّكَ عَنْهُمْ﴾ [الحاقة: ٧، ٨]. وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير ما موضع، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون. فقوله تعالى: ﴿إِذْ ذَاتَ أَلَمَادٍ﴾ [ذات أَلَمَادٍ: ٧]، عطف بيان؛ زيادة تعريف بهم. وقوله: ﴿ذَاتَ أَلَمَادٍ﴾: لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد، وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقوامهم بطشاً، ولهذا ذكرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم، فقال: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسَلَةً فَاذْكُرُوا أَلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وقال هاهنا: ﴿أَلَيْسَ لَمْ يَخْلُقْ يَنْهَاهَا فِي الْإِنْدِ﴾ [أي: القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم، لقوتهم وشدهم وعظم تركيهم].

قال مجاهد: إرم: أمة قديمة. يعني: عاداً الأولى، كما قال قتادة بن دعامة، والسُدِّي: إن إرم بيت مملكة عاد. وهذا قول حسن جيد قوي. وقال مجاهد، وقتادة، والكلبي في قوله: ﴿ذَاتَ أَلَمَادٍ﴾: كانوا أهل عمود لا يقيمون. وقال العوفي، عن ابن عباس: إنما قيل لهم: ﴿ذَاتَ أَلَمَادٍ﴾ لطولهم. واختار الأول ابن جرير، ورد الثاني فأصاب. وقوله: ﴿أَلَيْسَ لَمْ يَخْلُقْ يَنْهَاهَا فِي الْإِنْدِ﴾: أعاد ابن زيد الضمير على العماد؛ لارتفاعها، وقال: بنوا عمداً بالأحقاف لم يخلق مثلها في البلاد. وأما قتادة وابن جرير فأعاد الضمير على القبيلة، أي: لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد، يعني في زمانهم. وهذا القول هو الصواب، وقول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف؛ لأنه لو كان أراد ذلك لقال: التي لم يعمل مثلها في البلاد، وإنما قال: ﴿لَمْ يَخْلُقْ يَنْهَاهَا فِي الْإِنْدِ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، حدثني معاوية بن صالح، عن حدثه، عن المقدم، عن النبي ﷺ أنه ذكر إرم ذات العماد فقال: «كان الرجل منهم يأتي على صخرة فيحملها على الحي فيهلكهم». ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو الطاهر، حدثنا أنس بن عياش، عن ثور بن زيد الديلي. قال: قرأت كتاباً - قد سمي حيث قرأه -: أنا شداد بن عاد، وأنا الذي رفعت العماد، وأنا الذي شددت بذراعي نظر واحد، وأنا الذي كنزت كنزاً على سبعة أذرع، لا يخرجها إلا أمة محمد ﷺ. قلت: فعلى كل قول سواء كانت العماد أبنية بنوها، أو أعمدة بيوتهم للبدو، أو سلاًحاً

يقاتلون به، أو طول الواحد منهم، فهم قبيلة وأمة من الأمم، وهم المذكورون في القرآن في غير ما وضع، المقرونون بشود كما ها هنا، والله أعلم. ومن زعم أن المراد بقوله: ﴿إِذْ ذَاتَ الْوَعْدِ﴾ مدينة: إما دمشق، كما روي عن سعيد بن المسيب وعكرمة، أو إسكندرية كما روي عن القرظي، أو غيرهما، ففيه نظر، فإنه كيف يلتزم الكلام على هذا: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَاذِ الْقَبِيلَةِ الْمَسْمُومَةِ﴾، إن جعل ذلك بدلاً أو عطف بيان، فإنه لا يتسق الكلام حينئذ. ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد، وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يرد، لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم.

وإنما نهت على ذلك لثلاث يُغْتَرُّ بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية، من ذكر مدينة يقال لها: ﴿إِذْ ذَاتَ الْوَعْدِ﴾، مبنية بلبن الذهب والفضة، قصورها ودورها وبساتينها، وأن حصنها لآلئ وجواهر، وترباها بتنادق المسك، وأنهارها سارحة، وثمارها ساقطة، ودورها لا أنيس بها، وسورها وأبوابها تصفر، ليس بها داع ولا محجيب. وأنها تنتقل فتارة تكون بأرض الشام، وتارة باليمن، وتارة بالعراق، وتارة بغير ذلك من البلاد، فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين، من وضع بعض زنادقتهم، ليختبروا بذلك عقول الجبهة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك. وذكر الثعلبي وغيره أن رجلاً من الأعراب - وهو عبد الله بن قلابة - في زمان معاوية ذهب في طلب أبا عر له شردت، فبينما هو يتيه في ابتغائها، إذ طلع على مدينة عظيمة لها سور وأبواب، فدخلها فوجد فيها قريباً مما ذكرناه من صفات المدينة الذهبية التي تقدم ذكرها، وأنه رجع فأخبر الناس، فذهبوا معه إلى المكان الذي قال فلم يروا شيئاً. وقد ذكر ابن أبي حاتم قصة ﴿إِذْ ذَاتَ الْوَعْدِ﴾ ها هنا مطولة جداً، فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها، ولو صح إلى ذلك الأعرابي فقد يكون اختلق ذلك، أو أنه أصابه نوع من الهوس والخيال، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج، وليس كذلك. وهذا مما يقطع بعدم صحته. وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجبهة والطامعين والمتحيلين، من وجود مطالب تحت الأرض، فيها قناطير الذهب والفضة، واللوان الجواهر والياقوت، واللاكيء والإكسير الكبير، لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها، فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء، فيأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاقير، ونحو ذلك من الهذيان، ويفتنون بهم. والذي يجزم به أن في الأرض دفائن جاهلية وإسلامية وكنوزاً كثيرة، من ظفر بشيء منها أمكنه تحويله، فأما على الصفة التي زعموها فكذب وافتراء وبهت، ولم يصح في ذلك شيء مما يقولونه إلا عن نقلهم أو نقل من أخذ عنهم، والله سبحانه وتعالى الهادي للصواب.

وقول ابن جرير: يحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿إِذْ ذَاتَ الْوَعْدِ﴾ قبيلة أو بلدة كانت عاد تسكنها فلذلك لم تُصرف فيه نظر؛ لأن المراد من السياق إنما هو الإخبار عن القبيلة، ولهذا قال بعده: ﴿وَتَوَدَّ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ يعني: يقطعون الصخر بالوادي. قال ابن عباس: ينحتونها ويخرقونها. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد. ومنه يقال: «مُجتَابِي التَّمار». إذا خرقوها، واجتأب الثوب: إذا فتحه. ومنه الجيب أيضاً. وقال الله تعالى: ﴿وَتَجِدُونَهُمْ أَيْدِيًا يُرِيضُونَ قُلُوبَهُمْ﴾ [الشعراء: ١٤٩]. وأنشد ابن جرير وابن أبي حاتم ها هنا قول الشاعر:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ - مَا خَلَا اللَّهَ - بِأَيْدٍ
فَمُضِرُّنَا فِي كُلِّ صَمَاءٍ صَعْدَةٍ
وقال ابن إسحاق: كانوا عرباً، وكان منزلهم بوادي القرى. وقد ذكرنا قصة «عاد» مستقصاة في سورة «الأعراف» بما أغنى عن إعادته. وقوله: ﴿وَتَوَدَّ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾: قال العوفي، عن ابن عباس: الأوتاد: الجنود الذين يشدون له أمره. ويقال: كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلقهم بها. وكذا قال مجاهد: كان يوتد الناس بالأوتاد. وهكذا قال سعيد بن جبير، والحسن، والسدي. قال السدي: كان يربط الرجل، كل قائمة من قوائمه في وتد ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فتشده. وقال قتادة: بلغنا أنه كانت له مطال وملاعب، يلعب له تحتها، من أوتاد وحبال. وقال ثابت البناني، عن أبي رافع: قيل لفرعون ﴿وَيَذُرْكَ فِي الْوَادِ﴾؛ لأنه ضرب لامرأته أربعة أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحي عظيمة حتى ماتت. وقوله: ﴿الَّذِينَ طَفَعُوا فِي الْأُيُودِ فَأَكْرَمُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ أي: تمردوا وعتوا وعاثوا في الأرض بالفساد والأذية للناس، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي: أنزل عليهم رجزاً من السماء، وأحل بهم عقوبة لا يردّها عن القوم المجرمين. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلٌ مِّنَ السَّمَاءِ﴾: قال ابن عباس: يسمع ويرى. يعني: يرصد خلقه فيما يعملون، ويجازي كلّا بسعيه في الدنيا والأخرى، وسيعرض الخلاق كلهم عليه، فيحكم فيهم بعدله، ويقابل كلّا بما يستحقه. وهو المنزه عن الظلم والجور. وقد ذكر ابن أبي حاتم ها هنا حديثاً غريباً جداً - وفي إسناده نظر وفي صحته - فقال: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا يونس الحذاء، عن أبي حمزة

البيسانى، عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معاذ، إن المؤمن لدى الحق أسير. يا معاذ، إن المؤمن لا يسكن روعه ولا يأمن اضطرابه حتى يخلف جسر جهنم خلف ظهره. يا معاذ، إن المؤمن قيده القرآن عن كثير من شهواته، وعن أن يهلك فيها هو بإذن الله، ﷻ، فالقرآن دليله، والخوف محجته، والشوق مطيته، والصلاة كهفه، والصوم جنته، والصدقة فكاكه، والصدق أميره، والحياء وزيره، وربّه، ﷻ، من وراء ذلك كله بالمرصاد». قال ابن أبي حاتم: يونس الحذاء وأبو حمزة مجهولان، وأبو حمزة عن معاذ مرسل. ولو كان عن أبي حمزة لكان حسناً. أي: لو كان من كلامه لكان حسناً. ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا صفوان بن صالح، حدثنا الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو، عن أبيغ بن عبد الكلاعي: أنه سمعه وهو يعظ الناس يقول: إن لجهنم سبع قناطر، قال: والصراط عليهن، قال: فيحبس الخلائق عند القنطرة الأولى، فيقول: ﴿وَقَوْمٌ يَنْتَهُنَّ عَنْ طَعَامِ الْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٢٤]، قال: فيحاسبون على الصلاة ويسألون عنها، قال: فيهلك فيها من هلك، وينجو من نجا، فإذا بلغوا القنطرة الثانية حوسبوا على الأمانة كيف أدوها، وكيف خانوها؟ قال: فيهلك من هلك وينجو من نجا. فإذا بلغوا القنطرة الثالثة سُئلوا عن الرحم كيف وصلوها وكيف قطعوها؟ قال: فيهلك من هلك وينجو من نجا. قال: والرحم يومئذ متدلية إلى الهوي في جهنم تقول: اللهم من وصلني فصله، ومن قطعني فاقطعه. قال: وهي التي يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ رِجْءَ لَيْلٍ مُرْصَادٍ﴾. هكذا أورد هذا الإثر ولم يذكر تمامه.

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ (١٥) ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ (١٦) ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْفُرُونَ الْيَتِيمَ﴾ (١٧) ﴿وَلَا تَحْشُرُونَ عَلَى طَعَامِ الْيَمِينِ﴾ (١٨) ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاتِ أَكْلاً لَمًّا﴾ (١٩) ﴿وَتَحْبِرُونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (٢٠).

يقول تعالى منكرأ على الإنسان إذا وسع الله عليه في الرزق ليختبره في ذلك، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له وليس كذلك، بل هو ابتلاء وامتحان. كما قال تعالى: ﴿يَحْسِبُونَ أَنَّهَا تُؤْتِيهِمْ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ٥٥﴾ ﴿شَارِعٌ لَّهُمْ فِي الْفَرِيقَيْنِ بَلْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥٦) ﴿الْمُؤْمِنُونَ: ٥٥، ٥٦﴾. وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له.

قال الله: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما زعم، لا في هذا ولا في هذا، فإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين، إذا كان غنياً بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيراً بأن يصبر. وقوله: ﴿بَلْ لَا تَكْفُرُونَ الْيَتِيمَ﴾ فيه أمر بالإكرام له، كما جاء في الحديث الذي رواه عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن أبي أيوب، عن يحيى بن سليمان، عن زيد بن أبي عتاب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه» ثم قال بأصبعه: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا». وقال أبو داود: حدثنا محمد بن الصباح بن سفيان، أخبرنا عبد العزيز - يعني ابن أبي حازم - حدثني أبي، عن سهل - يعني ابن سعد - أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة». وقرن بين إصبعيه: الوسطى والتي تلي الإبهام. ﴿وَلَا تَحْشُرُونَ عَلَى طَعَامِ الْيَمِينِ﴾ (١٨) يعني: لا يأمرؤن بالإحسان إلى الفقراء والمساكين، ويحث بعضهم على بعض في ذلك، ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاتِ﴾ يعني: الميراث ﴿أَكْلاً لَمًّا﴾ أي: من أي جهة حصل لهم، من حلال أو حرام ﴿وَتَحْبِرُونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (٢٠) أي: كثيراً - زاد بعضهم - فاحشاً.

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ (٢١) ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (٢٢) ﴿وَجِئَ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَدْعُرُ الْإِنْسَانَ فَأَنَّ لَهُ الْكَرُورَ﴾ (٢٣) ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ يَلَقِي﴾ (٢٤) ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يَدْعُ عَنَّا أَحَدٌ﴾ (٢٥) ﴿وَلَا يُؤْتِي وَكَافَّةً أَحَدٌ﴾ (٢٦) ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) ﴿أَرْجَى إِلَ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُطِئَةً﴾ (٢٨) ﴿فَأَدْخِلْ فِي عَذَابِي﴾ (٢٩) ﴿وَأَدْخِلْ جَنَّتِي﴾ (٣٠).

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأحوال العظيمة، فقال: ﴿كَلَّا﴾ أي: حقاً ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أي: وطئت ومهدت وسويت الأرض والجيال، وقام الخلائق من قبورهم لربهم، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ يعني: لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعد ما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد ﷺ، بعدما يسألون أولي العزم من الرسل واحداً بعد واحد، فكلهم يقول: لست بصاحب ذاكم، حتى تنتهي التوبة إلى محمد ﷺ فيقول: «أنا لها، أنا لها». فيذهب فيشفع عند الله في أن يأتي لفصل القضاء فيشفعه الله في ذلك، وهي أول الشفاعات، وهي المقام المحمود كما تقدم بيانه في سورة «سبحان»، فيجيء الرب تعالى لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً. وقوله: ﴿وَجِئَ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَدْعُرُ الْإِنْسَانَ﴾ قال الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه: حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، عن العلاء بن خالد الكاهلي، عن شقيق، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها». وهكذا رواه الترمذي عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن عمر بن حفص، به. ورواه أيضاً عن عبد الله بن حميد، عن

أبي عامر، عن سفیان الثوري، عن العلاء بن خالد، عن شقيق بن سلمة - وهو أبو وائل - عن عبد الله بن مسعود، قوله ولم يرفعه. وكذا رواه ابن جرير، عن الحسن بن عرفة، عن مروان بن معاوية الفزاري، عن العلاء بن خالد، عن شقيق، عن عبد الله، قوله. وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَذَّكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ أي: عمله وما كان أسلفه في قديم الدهر وحديثه، ﴿وَأَنَّ لَهُ الذِّكْرَى﴾ أي: وكيف تنفعه الذكرى؟ ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ يعني: يندم على ما كان سلف منه من المعاصي - إن كان عاصياً - ويود لو كان ازداد من الطاعات - إن كان طائعاً - كما قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا عبد الله - يعني ابن المبارك - حدثنا ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن جبير بن نفير، عن محمد بن أبي عميرة - وكان من أصحاب رسول الله ﷺ - قال: لو أن عبداً خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت هروماً في طاعة الله، لحقره يوم القيامة، ولو أنه يُرد إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب. ورواه بحير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن عتبة بن عبد، عن رسول الله ﷺ. قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمْ﴾ أي: ليس أحد أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه، ﴿وَلَا يُؤْنِقُ كَافَّةً أَمَدٌ﴾ أي: وليس أحد أشد قبضاً ووثقاً من الزبانية لمن كفر بربهم، ﴿هَذَا فِي حَقِّ الْمَجْرِمِينَ مِنَ الْخَلَائِقِ وَالظَّالِمِينَ﴾ فأما النفس الزكية المطمئنة وهي الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق فيقال لها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي: إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده في جنته، ﴿رَاضِيَةً﴾ أي: في نفسها ﴿مَرْضِيَةً﴾ أي: قد رضيت عن الله ورضي عنها وأرضاهها، ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ أي: في جملتهم، ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾. وهذا يقال لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضاً، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره، وكذلك ها هنا. ثم اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية، فروى الضحاك، عن ابن عباس: نزلت في عثمان بن عفان. وعن بُريدة بن الحُصيص: نزلت في حمزة بن عبد المطلب، رضي الله عنه. وقال العوفي، عن ابن عباس: يقال للأرواح المطمئنة يوم القيامة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾، يعني: صاحبك، وهو بدن الذي كانت تعمرة في الدنيا، ﴿رَاضِيَةً مَرْضِيَةً﴾. وروى عنه أنه كان يقرؤها: «فادخلي في عبادي وادخلي جنتي». وكذا قال عكرمة والكلبي، واختاره ابن جرير، وهو غريب، والظاهر الأول؛ لقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٢]، ﴿وَأَن مَّوَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ [غافر: ٤٣] أي: إلى حكمه والوقوف بين يديه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الدُشْتُكي، حدثنا أبي، عن أبيه، عن أشعث، عن جعفر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً﴾، قال: نزلت وأبو بكر جالس، فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذا. فقال: «أما إنه سيقال لك هذا».

ثم قال: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن يمان، عن أشعث، عن سعيد بن جبير قال: قرأت عند النبي ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً﴾، فقال أبو بكر، رضي الله عنه: إن هذا حسن. فقال له النبي ﷺ: «أما إن الملك سيقول لك هذا عند الموت». وكذا رواه ابن جرير، عن أبي كُرَيْب، عن ابن يمان، به. وهذا مرسل حسن. ثم قال ابن أبي حاتم: وحدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا مروان بن شجاع الجزري، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير قال: مات ابن عباس بالطائف، فجاء طير لم ير على خلقه، فدخل نعشه، ثم لم ير خارجاً منه فلما دفن ثلثت هذه الآية على شفير القبر، ما يدرى من تلاها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً﴾ ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾. رواه الطبراني عن عبد الله بن أحمد عن أبيه، عن مروان بن شجاع، عن سالم بن عجlan الأفطس، به فذكره. وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر الهروي - المعروف بشُكْر - في كتاب «العجائب» بسنده عن قُثَاب بن رزِين أبي هاشم قال: أسرت في بلاد الروم، فجمعنا الملك وعرض علينا دينه، على أن من امتنع ضربت عنقه. فارتد ثلاثة، وجاء الرابع فامتنع، فضربت عنقه، وألقي رأسه في نهر هناك، فرسب في الماء ثم طفا على وجه الماء، ونظر إلى أولئك الثلاثة فقال: يا فلان، ويا فلان، ويا فلان - يناديهم بأسمائهم - قال الله تعالى في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً﴾ ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾. ثم غاص في الماء، قال: فكادت النصارى أن يسلموا، ووقع سرير الملك، ورجع أولئك الثلاثة إلى الإسلام. قال: وجاء الغداء من عند الخليفة أبي جعفر المنصور فخلصنا. وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة ربيعة بنت أبي عمرو الأوزاعي، عن أبيها: حدثني سليمان بن حبيب المحاربي، حدثني أبو أمامة: أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «قل: اللهم، إني أسألك نفساً بك مطمئنة، تؤمن بلفاتك، وترضى بقضائك، وتقعن بعبائك». ثم روى عن سليمان بن وبرة أنه قال: حديث ربيعة هذا واحد أمته.

تفسير سورة البلد

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقِيمُ هَذَا الْبَلَدَ ① وَأَنْتَ جَلُّ هَذَا الْبَلَدِ ② وَاللَّيْلُ وَمَا وَلَدَ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ④﴾ ⑤ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ⑥ يَقُولُ أَهْلَكْتُكَ مَا لَا كِبَارًا ⑦ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ⑧ أَلَمْ نَجْعَلْ لَمْ عَيْنَيْنِ ⑨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ⑩ وَتَدْنِيَهُ السَّجْدَتَيْنِ ⑪﴾.

هذا قسم من الله ﷻ بمكة أم القرى في حال كون الساكن فيها حالاً، لينبه على عظمة قدرها في حال إحرام أهلها. قال خفيف، عن مجاهد: ﴿لَا أُقِيمُ هَذَا الْبَلَدَ ①﴾: لا رد عليهم؛ أقسم بهذا البلد. وقال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿لَا أُقِيمُ هَذَا الْبَلَدَ ①﴾، يعني: مكة، ﴿وَأَنْتَ جَلُّ هَذَا الْبَلَدِ ②﴾، قال: أنت - يا محمد - يحل لك أن تقابل به. وكذا روي عن سعيد بن جبير وأبي صالح، وعطية، والضحاك، وقتادة، والسدي، وابن زيد. وقال مجاهد: ما أصبت فيه فهو حلال لك. وقال قتادة: ﴿وَأَنْتَ جَلُّ هَذَا الْبَلَدِ ②﴾، قال: أنت به من غير حرج ولا إثم. وقال الحسن البصري: أحلها الله له ساعة من نهار. وهذا المعنى الذي قالوه قد ورد به الحديث المتفق على صحته: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعْصَدُ شجره ولا يَخْتَلَى خلاه. وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب». وفي لفظ آخر: «فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لکم». وقوله: ﴿وَاللَّيْلُ وَمَا وَلَدَ ③﴾: قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن عطية، عن شريك، عن خفيف، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَاللَّيْلُ وَمَا وَلَدَ ③﴾: الوالد: الذي يلد، وما ولد: العاقر الذي لا يولد له. ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث شريك - وهو ابن عبد الله القاضي - به. وقال عكرمة: الوالد: العاقر، وما ولد: الذي يلد. رواه ابن أبي حاتم. وقال مجاهد، وأبو صالح، وقتادة، والضحاك، وسفيان الثوري، وسعيد بن جبير، والسدي، والحسن البصري، وخفيف، وشرحبيل بن سعد وغيرهم: يعني بالوالد آدم، وما ولد ولده. وهذا الذي ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسنٌ قوي؛ لأنه تعالى لما أقسم بأم القرى وهي المساكن أقسم بعده بالساكين، وهو آدم أبو البشر وولده. وقال أبو عمران الجوني: هو إبراهيم وذريته. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. واختار ابن جرير أنه عام في كل والد ولده. وهو محتمل أيضاً. وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ④﴾: روي عن ابن مسعود، وابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وإبراهيم النخعي، وخثيمة، والضحاك، وغيرهم: يعني منتصباً - زاد ابن عباس في رواية عنه - في بطن أمه. والكبد: الاستواء والاستقامة. ومعنى هذا القول: لقد خلقنا الإنسان سوياً مستقيماً كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ①﴾ أَلَيْسَ خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ⑦﴾، [الانفطار: ٦، ٧] وكقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ①﴾ [التين: ٤]. وقال ابن أبي نجيع جريج وعطاء، عن ابن عباس: في كبد، قال: في شدة خلق، ألم تر إليه... وذكر مولده ونبات أستانه. قال مجاهد: ﴿فِي كَبَدٍ ④﴾: نطفة، ثم علقه، ثم مضغه يتكبد في الخلق - قال مجاهد: وهو كقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْماً وَوَضَعَتْهُ كُرْماً ①﴾ [الأحاف: ١٥]، وأرضعته كرهاً، ومعيشته كره، فهو يكابد ذلك. وقال سعيد بن جبير: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ④﴾: في شدة وطلب معيشة. وقال عكرمة: في شدة وطول. وقال قتادة: في مشقة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عاصم، حدثنا أبو عاصم، أخبرنا عبد الحميد بن جعفر، سمعت محمد بن علي أبا جعفر الباقر سأل رجلاً من الأنصار عن قول الله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ④﴾، قال: في قيامه واعتداله. فلم ينكر عليه أبو جعفر. وروي من طريق أبي مودود: سمعت الحسن قرأ هذه الآية: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ④﴾، قال: يكابد أمراً من أمر الدنيا، وأمراً من أمر الآخرة - وفي رواية: يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة. وقال ابن زيد: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ④﴾، قال: آدم خلق في السماء، فسمي ذلك الكبد. واختار ابن جرير أن المراد بذلك مكابدة الأمور ومشاقها. وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ⑥﴾: قال الحسن البصري: يعني أيحسب أن لن يقدر عليه أحد يأخذ ماله. وقال قتادة: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ⑥﴾، قال: ابن آدم يظن أن لن يسأل عن هذا المال: من أين اكتسبه؟ وأين أنفق؟ وقال السدي: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ⑥﴾.

قال ابن جرير: حدثني عمر بن إسماعيل بن مجالد، حدثنا عبد الله بن إدريس، عن أبيه، عن عطية، عن ابن عمر في قوله: ﴿فَلَا أَقْنَمُ الْقَبْةَ﴾ (١١) قال: جبل في جهنم. وقال كعب الأحبار: ﴿فَلَا أَقْنَمُ الْقَبْةَ﴾ (١٢) : هو سبعون درجة في جهنم. وقال الحسن البصري: ﴿فَلَا أَقْنَمُ الْقَبْةَ﴾ (١٣)، قال: عقبة في جهنم. وقال قتادة: إنها قحمة شديدة فاقتحموها بطاعة الله ﷻ. وقال قتادة: ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَبْةُ﴾ (١٤). ثم أخبر عن اقتحامها فقال: ﴿فَكَ رَقِيْهُ﴾ (١٥) أو لَطَمْتُهُ. وقال ابن زيد: ﴿فَلَا أَقْنَمُ الْقَبْةَ﴾ (١٦) أي: أفلا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير. ثم بينها فقال: ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَبْةُ﴾ (١٧) ﴿فَكَ رَقِيْهُ﴾ (١٨) أو لَطَمْتُهُ. قرئ: ﴿فَكَ رَقِيْهُ﴾ (١٩) بالإضافة، وقرئ على أنه فعل، وفيه ضمير الفاعل والرقبة مفعول وكلتا القراءتين معناهما متقارب.

قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إبراهيم، حدثنا عبد الله -يعني ابن سعيد بن أبي هند- عن إسماعيل بن أبي حكيم -مولى آل الزبير- عن سعيد بن مرجانة: أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرب منها إرباً منه من النار، حتى إنه ليعتق باليد اليد، وبالرجل الرجل، وبالفرج الفرج». فقال علي بن الحسين: أنت سمعت هذا من أبي هريرة؟ فقال سعيد: نعم. فقال علي بن الحسين لغلام له -أقره غلامانه-: ادع مطرفاً. فلما قام بين يديه قال: اذهب فأنت خُر لوجه الله. وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي، من طرق، عن سعيد بن مرجانة، به. وعند مسلم أن هذا الغلام الذي أعتقه علي بن الحسين زين العابدين كان قد أعطي فيه عشرة آلاف درهم. وقال قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن معدان بن أبي طلحة، عن أبي نجيح قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أيما مسلم أعتق رجلاً مسلماً، فإن الله جاعلٌ وفاء كل عظم من عظامه عظماً من عظام محرره من النار، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة، فإن الله جاعل وفاء كل عظم من

عظامها عظماً من عظامها من النار». رواه ابن جرير هكذا. وأبو نجیح هذا هو عمرو بن عبسة السلمي، رضي الله عنه. قال الإمام أحمد: حدثنا حيوة بن شريح، حدثنا بقیة، حدثني بحیر بن سعد، عن خالد بن معدان، عن كثير بن مرة، عن عمرو بن عبسة أنه حدثهم: أن النبي ﷺ قال: «من بنى مسجداً ليذكر الله فيه، بنى الله له بيتاً في الجنة. ومن أعتق نفساً مسلمة، كانت فديته من جهنم. ومن شاب شيبه في الإسلام، كانت له نوراً يوم القيامة».

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا حريز؛ عن سليم بن عامر: أن شرحبيل بن السمط قال لعمرو بن عبسة: حدثنا حديثاً ليس فيه تزديد ولا نسيان. قال عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أعتق رقبة مسلمة كانت فكاكه من النار، غُضوا بعضو. ومن شاب شيبه في سبيل الله، كانت له نوراً يوم القيامة، ومن رمى بسهم فإصاب أو أخطأ، كان كمتعق رقبة من بني إسماعيل». وروى أبو داود، والنسائي بعضه. طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا هشام بن القاسم، حدثنا الفرج، حدثنا لقمان، عن أبي أمامة، عن عمرو بن عبسة: قال السلمي: قلت له: حدثنا حديثاً سمعته عن رسول الله ﷺ ليس فيه انتقاص ولا وهم. قال: سمعته يقول: «من وُلد له ثلاثة أولاد في الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الجُث، أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم، ومن شاب شيبه في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة، ومن رمى بسهم في سبيل الله، بلغ به العدو، أصاب أو أخطأ، كان له عتق رقبة. ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار، ومن أنفق زوجين في سبيل الله، فإن للجنة ثمانية أبواب، يدخله الله من أي باب شاء منها». وهذه أسانيد جيدة قوية، والله الحمد والمنة.

حديث آخر: قال أبو داود: حدثنا عيسى بن محمد الرملي، حدثنا ضمرة، عن ابن أبي عبلة، عن الغريف بن عياش الديلمي قال: أتينا وائلة بن الأسقع فقلنا له: حدثنا حديثاً ليس فيه زيادة ولا نقصان. فغضب وقال: إن أحذكم ليقرأ ومصحفه معلق في بيته، فيزيد وينقص. قلنا: إنما أردنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ. قال: أتينا رسول الله ﷺ في صاحب لنا قد أوجب - يعني النار - بالقتل، فقال: «أعتقوا عنه يُعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار». وكذا رواه النسائي من حديث إبراهيم بن أبي عبلة، عن الغريف بن عياش الديلمي، عن وائلة، به. حديث آخر: قال أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا هشام، عن قتادة، عن قيس الجذامي، عن عقبة بن عامر الجهني: أن رسول الله ﷺ قال: «من أعتق رقبة مسلمة فهو فداؤه من النار». وحدثنا عبد الوهاب الخفاف، عن سعيد، عن قتادة قال: ذكر أن قيساً الجذامي حدث عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «من أعتق رقبة مؤمنة فهي فكاكه من النار». تفرد به أحمد من هذا الوجه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم وأبو أحمد قالا: حدثنا عيسى بن عبد الرحمن البجلي - من بني بجيلة - من بني سليم - عن طلحة - قال أبو أحمد: حدثنا طلحة بن مصرف، عن عبد الرحمن بن عوسجة، عن البراء بن عازب قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، علمني عملاً يدخلني الجنة. فقال: «لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة. أعتق النسمة، وفك الرقبة». فقال: يا رسول الله، أو ليستا بواحدة؟ قال: «لا، إن عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في عتقها. والمنحة الكوف، والفيء على ذي الرحم الظالم، فإن لم تطلق ذلك فاطعم الجائع، واسق الظمآن، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر، فإن لم تطلق ذلك فكف لسانك إلا من الخير». وقوله: «أَوْ يُطْعَمُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ» (١١): قال ابن عباس: ذي مجاعة. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقاتدة، وغير واحد. والشَّغْب: هو الجوع. وقال إبراهيم النَّخَعِي: في يوم الطعام فيه عزيز. وقال قتادة: في يوم يُشْتَهَى فيه الطعام. وقوله: «يَتِمَّا» أي: أطعم في مثل هذا اليوم يتيمًا، «ذَا مَرِيئٍ» أي: ذا قرابة منه. قاله ابن عباس، وعكرمة، والحسن، والضحاك، والسدي. كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا هشام، عن حفصة بنت سيرين، عن سليمان بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان، صدقة وصلة». وقد رواه الترمذي والنسائي، وهذا إسناد صحيح. وقوله: «أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَرِيئٍ» (١٢): أي: فقيراً مُدَقِّعاً لاصقاً بالتراب، وهو الدقعاء أيضاً. قال ابن عباس: «ذَا مَرِيئٍ» هو المطروح في الطريق، الذي لا بيت له، ولا شيء يقيه من التراب - وفي رواية: هو الذي لصق بالدقعاء من الفقر والحاجة، ليس له شيء - وفي رواية عنه: هو البعيد التربة. قال ابن أبي حاتم: يعني الغريب عن وطنه. وقال عكرمة: هو الفقير المديون المحتاج. وقال سعيد بن جبیر: هو الذي لا أحد له. وقال ابن عباس، وسعيد، وقاتدة، ومقاتل بن حيان: هو ذو العيال. وكل هذه قريبة المعنى. وقوله: «ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا» (١٣): أي: ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة، مؤمنٌ بقلبه، محتسب ثواب ذلك عند الله ﷻ. كما قال تعالى: «وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا» (١٩) [الإسراء] وقال: «وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنفَقَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ» الآية [النحل: ٩٧]. وقوله: «وَتَوَّاصَوْا

يَا صَبْرٍ وَتَوَاصُوا بِالرَّحْمَةِ ﴿١﴾ أي: كان من المؤمنين العاملين صالحاً، المتواصين بالصبر على أذى الناس، وعلى الرحمة بهم. كما جاء في الحديث: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء». وفي الحديث الآخر: «لا يَرْحَمُ الله من لا يَرْحَمُ الناس». وقال أبو داود: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا سفیان، عن ابن أبي نجیح، عن ابن عامر، عن عبد الله بن عمرو - يرويه - قال: «من لم يَرْحَمْ صغيرنا ويعرف حق كبيرنا، فليس منا». وقوله: ﴿أُولَئِكَ أَحَبُّ إِلَهِكُمْ﴾ أي: المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصَحَبُ الْكُفْرِ﴾ أي: أصحاب الشمال، ﴿عَلَيْهِمْ نَارُ مُؤَصَّدَةٍ﴾ أي: مطبقة عليهم، فلا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها. قال أبو هريرة، وابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، ومجاهد، ومحمد بن كعب القرظي، وعطية العوفي، والحسن، وقتادة، والسدي: ﴿مُؤَصَّدَةٍ﴾ أي: مطبقة. قال ابن عباس: مغلفة الأبواب. وقال مجاهد: أصد الباب بلغة قريش: أي أغلقه. وسيأتي في ذلك حديث في سورة: ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ هَمَزٍ لَمَزًا﴾. وقال الضحاك: ﴿مُؤَصَّدَةٍ﴾: حيط لا باب له. وقال قتادة: ﴿مُؤَصَّدَةٍ﴾: مطبقة فلا ضوء فيها ولا فُرج، ولا خروج منها آخر الأبد.

وقال أبو عمران الجوني: إذا كان يوم القيامة أمر الله بكل جبار وكل شيطان وكل من كان يخاف الناس في الدنيا شره، فأوثقوا في الحديد، ثم أمر بهم إلى جهنم، ثم أوصدوها عليهم، أي: أطبقوها. قال: فلا والله لا تستقر أقدامهم على قرار أبدأ، ولا والله لا ينظرون فيها إلى أديم سماء أبدأ، ولا والله لا تلتقي جفون أعينهم على غمض نوم أبدأ، ولا والله لا يدقون فيها بارد شراب أبدأ. رواه ابن أبي حاتم.

آخر تفسير سورة «البلد» وشه الحمد والمنة



تفسير سورة الشمس وضحاها

وهي مكية. تقدم حديث جابر الذي في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال للمعاذ: «هلا صليت بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَكْبَرُ﴾ ﴿١﴾»، و﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ ﴿٢﴾ و﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَنسَجُ﴾ ﴿٣﴾؟».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ ﴿١﴾ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا يَنسَجُهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضُ وَمَا طَعْنَاهَا ﴿٦﴾ وَتَنبِيءُهَا سَوْنَهَا ﴿٧﴾ فَالْمَنَامُ حُورُهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَّبَهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَافَ مَنْ دَسَّنَهَا ﴿١٠﴾.

قال مجاهد: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ ﴿١﴾ أي: وضوئها. وقال قتادة: ﴿وَضُحَاهَا﴾: النهار كله. قال ابن جرير: والصواب أن يقال: أقسم الله بالشمس ونهارها؛ لأن ضوء الشمس الظاهر هو النهار. ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾ ﴿٢﴾: قال مجاهد: تبعها. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾ ﴿٢﴾ قال: يتلو النهار. وقال قتادة: ﴿إِذَا تَلَّهَا﴾: ليلة الهلال، إذا سقطت الشمس رؤي الهلال. وقال ابن زيد: هو يتلوها في النصف الأول من الشهر، ثم هي تتلوه. وهو يتقدمها في النصف الأخير من الشهر. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: إذا تلاها ليلة القدر. وقوله: ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾ ﴿٣﴾: قال مجاهد: أضاء. وقال قتادة: ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾ ﴿٣﴾: إذا غشيها النهار. قال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية يتأول ذلك بمعنى: والنهار إذا جلا الظلمة، لدلالة الكلام عليها. قلت: ولو أن هذا القائل تأول ذلك بمعنى ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾ ﴿٣﴾ أي: البسيطة، لكان أولى، ولصح تأويله في قول الله: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَنسَجُهَا﴾ ﴿٤﴾، فكان أجود وأقوى، والله أعلم. ولهذا قال مجاهد: ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾ ﴿٣﴾ إنه كقوله: ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾ ﴿٣﴾. [الليل: ٢]. وأما ابن جرير فاختر عود الضمير في ذلك كله على الشمس، لجريان ذكرها. وقالوا في قوله: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَنسَجُهَا﴾ ﴿٤﴾ يعني: إذا يغشى الشمس حين تغيب، فتظلم الآفاق. وقال بَقِيَّةُ بن الوليد، عن صفوان، حدثني يزيد بن ذي حمامة قال: إذا جاء الليل قال الرب جل جلاله: غشي عبادي خلقي العظيم، فالليل يهابه، والذي خلقه أحق أن يهاب. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا﴾ ﴿٥﴾: يحتمل أن يكون «ما» هنا مصدرية، بمعنى: والسماء وبناها. وهو قول قتادة، ويحتمل أن تكون بمعنى «من» يعني: والسماء وبانيها. وهو قول مجاهد، وكلاهما متلازم، والبناء هو الرفع، كقوله: ﴿وَالسَّمَاءُ بَنَيْنَاهَا بِأَيْمُونٍ﴾ أي: بقوة ﴿وَبَنَّا كَوُيُوتُونَ﴾ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضُ فَرَّسَتْهَا فِيمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٧﴾ [الناريت: ٤٧، ٤٨]. وهكذا قوله: ﴿وَالْأَرْضُ وَمَا

عَنْهَا ۖ ﴿١﴾ : قال مجاهد: ﴿عَنْهَا﴾: دحاها. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَمَا سَوَّيْنَاهَا﴾: أي: خلق فيها. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿عَنْهَا﴾: قسمها. وقال مجاهد، وقتادة والضحاك، والسُّدِّي، والثوري، وأبو صالح، وابن زيد: ﴿عَنْهَا﴾: بسطها. وهذا أشهر الأقوال، وعليه الأكثر من المفسرين، وهو المعروف عند أهل اللغة، قال الجوهري: طحوته مثل دحوته، أي: بسطته. وقوله: ﴿وَنَقَّسْنَاهَا سَوَّيْنَاهَا﴾ ۖ ﴿٢﴾ : أي: خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة، كما قال تعالى: ﴿فَأَوَفَّقْنَا وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]. وقال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟». أخرجاه من رواية أبي هريرة. وفي صحيح مسلم من رواية عياض بن حمار المجاشعي، عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله ﷻ: إني خلقت عبادي خنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم». وقوله: ﴿فَأَلَمْنَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ۖ ﴿٣﴾ : أي: فأرشدنا إلى فجورها وتقواها، أي: بين لها ذلك، وهداها إلى ما قدر لها. قال ابن عباس: ﴿فَأَلَمْنَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ۖ ﴿٣﴾ : بين لها الخير والشر. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، والثوري.

وقال سعيد بن جبيرة: ألهمها الخير والشر. وقال ابن زيد: جعل فيها فجورها وتقواها. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا صفوان بن عيسى وأبو عاصم النبيل قالا: حدثنا عذرة بن ثابت، حدثني يحيى بن عقيل، عن يحيى بن يعمر، عن أبي الأسود الدبلي قال: قال لي عمران بن حصين: أ رأيت ما يعمل فيه الناس ويتكادحون فيه، شيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون مما آتاهم به نبهم ﷺ، وأكدت عليهم الحجة؟ قلت: بل شيء قضى عليهم. قال: فهل يكون ذلك ظلماً؟ قال: ففزعته منه فزعاً شديداً، قال: قلت له: ليس شيء إلا وهو خلقه وملك يده، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. قال: سددك الله، إنما سألت لأخبر عقلك، إن رجلاً من مؤمنة - أو جهنمة - أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أ رأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون، شيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أم شيء مما يستقبلون مما آتاهم به نبهم، وأكدت به عليهم الحجة؟ قال: «بل شيء قد قضى عليهم». قال: فقيم نعمل؟ قال: «من كان الله خلقه لإحدى المنزلتين يهينه لها، وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿وَنَقَّسْنَاهَا سَوَّيْنَاهَا﴾ ۖ ﴿٢﴾ فَأَلَمْنَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ۖ ﴿٣﴾». رواه أحمد ومسلم، من حديث عذرة بن ثابت به. وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ۖ ﴿٤﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ ۖ ﴿٥﴾ : يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكى نفسه، أي: بطاعة الله - كما قال قتادة - وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل. ويروى نحوه عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة. وكقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ۖ ﴿٤﴾ وَكَذَّابٌ أَشَدُّ رِيحَهُ نَقَمٌ ۖ ﴿٥﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]. «وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ ۖ ﴿٥﴾ : أي: دسها، أي: أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى، حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله ﷻ. وقد يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكى الله نفسه، وقد خاب من دسّى الله نفسه، كما قال العوفي وعلي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي وأبو رزعة قالا: حدثنا سهل بن عثمان، حدثنا أبو مالك - يعني عمرو بن هشام - عن جوبير، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في قول الله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ۖ ﴿٤﴾ قال النبي ﷺ: «أفلحت نفس زكاه الله». ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي مالك، به. وجوبير هذا: هو ابن سعيد، متروك الحديث، والضحاك لم يلق ابن عباس.

وقال الطبراني: حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح، حدثنا أبي، حدثنا ابن لهيعة، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية: ﴿وَنَقَّسْنَاهَا سَوَّيْنَاهَا﴾ ۖ ﴿٢﴾ فَأَلَمْنَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ۖ ﴿٣﴾ : وقف، ثم قال: «اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وخير من زكاه». حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة، حدثنا يعقوب بن حميد المدني، حدثنا عبد الله بن عبد الله الأموي، حدثنا معن بن محمد الغفاري، عن حنظلة بن علي الأسلمي، عن أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ: ﴿فَأَلَمْنَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ۖ ﴿٣﴾ : قال: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاه، أنت وليها ومولاها». لم يخرجوه من هذا الوجه. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن نافع - يعني ابن عمر - عن صالح بن سعيد، عن عائشة: أنها فقدت النبي ﷺ من مضجعه، فلمسته بيده، فوقمت عليه وهو ساجد، وهو يقول: «رب، أعط نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاه، أنت وليها ومولاها» تفرد به. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا عاصم الأحول، عن عبد الله بن الحارث، عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم، إني أعوذ بك من العجز والكسل والهزم، والجبن والبخل وعذاب القبر. اللهم، آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاه، أنت وليها ومولاها. اللهم، إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشيع، وعلم لا ينفع، ودعوة لا يستجاب لها». قال زيد: كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكوهن. رواه مسلم من حديث أبي معاوية، عن عاصم

الأحول، عن عبد الله بن الحارث - وأبي عثمان النهدي، عن زيد بن أرقم، به.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا﴾ (١١) إِذْ أُنْبِئَتْ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَفَوَّسَهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَفُ عَقْبَهَا ﴿١٥﴾.

يخبر تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي. وقال محمد بن كعب: ﴿بَطَغْوَيْهَا﴾ أي: بأجمعها. والأول أولى، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما. فأعقبهم ذلك تكذيباً في قلوبهم بما جاءهم به رسولهم من الهدى واليقين. ﴿إِذْ أُنْبِئَتْ أَشْقَاهَا﴾ (١٢) أي: أشقى القبيلة، هو قُدار بن سالف عاقر الناقة، وهو أحيمر ثمود، وهو الذي قال تعالى: ﴿فَادْرَأَا سَاجِمَ فَتَاكُنْ مَقَرًّا﴾ (القدر: ٢٩). وكان هذا الرجل عزيزاً فيهم، شريفاً في قومه، نسيباً رئيساً مطاعاً، كما قال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا هشام، عن أبيه، عن عبد الله بن زُمنة قال: خطب رسول الله ﷺ، فذكر الناقة، وذكر الذي عقرها، فقال: ﴿إِذْ أُنْبِئَتْ أَشْقَاهَا﴾ (١٢): أنبئت لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه، مثل زمعة. ورواه البخاري في التفسير، ومسلم في صفة النار، والترمذي والنسائي في التفسير من سننهما، وكذا ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عن هشام بن عروة، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا عيسى بن يونس، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني يزيد بن محمد بن حُثيم، عن محمد بن محمد بن حُثيم أبي يزيد عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «ألا أحدثك بأشقى الناس؟». قال: بلى. قال: «رجلان؛ أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذا - يعني قرنه - حتى تبطل منه هذه» يعني: لحيته. وقوله: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ يعني: صالحاً، عليه السلام: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ أي: احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء، ﴿وَسُقْيَاهَا﴾ أي: لا تعتدوا عليها في سقياها، فإن لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم. قال الله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ أي: كذبوه فيما جاءهم به فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التي أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم، ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: غضب عليهم، فدمر عليهم، ﴿فَسَوَّيْنَاهَا﴾ أي: فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء. قال قتادة: بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنشاهم، فلما اشترك القوم في عقرها دمدم الله عليهم بذنوبهم فسواها. وقوله: ﴿وَلَا يَخَفُ عَقْبَهَا﴾ (١٥): «فلا يخاف عقباها». قال ابن عباس: لا يخاف الله من أحد تبعة. وكذا قال مجاهد، والحسن، وبكر بن عبد الله المزني، وغيرهم. وقال الضحاك والسدي: ﴿وَلَا يَخَفُ عَقْبَهَا﴾ (١٥) أي: لم يخف الذي عقرها عاقبة ما صنع. والقول الأول أولى؛ لدلالة السياق عليه، والله أعلم.

آخر تفسير «والشمس وضحاها»

تفسير سورة الليل

وهي مكية. تقدم قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ: «فهلأ صليت بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَكْبَرُ﴾ (١)، و﴿وَاللَّيْلِ وَنُجْمَهَا﴾ (٢)، و﴿وَالْكَوْثَرِ إِذَا بُعْثَ﴾ (٣)؟».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَنسَى﴾ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَنَا عَلَى الْأَكْثَرِ الْأَلْسِنَ (٣) إِذْ سَبَّحْتَ لِلَّهِ (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَتَقَى (٥) وَصَدَقَ الْيَمِينُ (٦) فَسَيَرْجُو (٧) لِيَسْرَى (٨) وَأَمَّا مَنْ جَحَلَ وَاسْتَفْتَى (٩) وَكَذَّبَ الْيَمِينُ (١٠) فَسَيَرْجُو لِيَسْرَى (١١) وَنَا يَمْنَى سَهْ مَالَهُ إِذَا تَرَدَّى (١٢).

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا شعبة، عن مغيرة، عن إبراهيم، عن علقمة: أنه قدم الشام فدخل مسجد دمشق، فصلى فيه ركعتين وقال: اللهم، ارزقني جليساً صالحاً. قال: فجلس إلى أبي الدرداء، فقال له أبو الدرداء: ممن أنت؟ قال: من أهل الكوفة. قال: كيف سمعت ابن أم عبد يقرأ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَنسَى﴾ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢)؟ قال علقمة: «والذكر والأشئ». فقال أبو الدرداء: لقد سمعتها من رسول الله ﷺ، فما زال هؤلاء حتى شككوني. ثم قال: ثم ألم يكن فيكم صاحب الورداء وصاحب السر الذي لا يعلمه أحد غيره، والذي أجبر من الشيطان على لسان النبي ﷺ؟. وقد رواه البخاري ها هنا ومسلم، من طريق الأعمش، عن إبراهيم قال: قدم أصحاب عبد الله على أبي الدرداء، فطلبهم فوجدتهم، فقال: أيكم يقرأ

علي قراءة عبد الله؟ قالوا: كلنا، قال: أيكم أحفظ؟ فأشاروا إلى علقمة، فقال: كيف سمعته يقرأ؟ ﴿وَأَنزَلَ إِذَا بَقِيَ﴾ ؟ قال: «والذكر والأنثى». قال: أشهد أنني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ هكذا، وهؤلاء يريدوني أن أقرأ: ﴿وَمَا عَلَّمَ الذِّكْرَ وَالْأُنْثَى﴾ ، والله لا أتابعهم. هذا لفظ البخاري: هكذا قرأ ذلك ابن مسعود، وأبو الدرداء - ورفع أبو الدرداء. وأما الجمهور فقرأوا ذلك كما هو مثبت في المصحف الإمام العثماني في سائر الآفاق: ﴿وَمَا عَلَّمَ الذِّكْرَ وَالْأُنْثَى﴾ ، فأقسم تعالى بـ ﴿وَأَنزَلَ إِذَا بَقِيَ﴾ أي: إذا غشي الخليفة بظلامه، ﴿وَالنَّارُ إِذَا جَلَّتْ﴾ أي: بضياؤه وإشراقه، ﴿وَمَا عَلَّمَ الذِّكْرَ وَالْأُنْثَى﴾ ، كقوله: ﴿وَعَلَّقْنَاكَ أَزْوَاجًا﴾ [النبا: ٨]، وكقوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]. ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان القسم عليه أيضاً متضاداً، ولهذا قال: ﴿إِنَّ سَيِّئَ لَفْتٍ﴾ أي: أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة أيضاً ومتخالفة، فمن فاعل خيراً ومن فاعل شراً، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ أي: أعطى ما أمر بإخراجه، واتقى الله في أموره، ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أي: بالمجازاة على ذلك - قاله قتادة -، وقال خصيف: بالشواب. وقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو صالح، وزيد بن أسلم: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أي: بالخلف. وقال أبو عبد الرحمن السلمي، والضحاك: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أي: بلا إله إلا الله. وفي رواية عن عكرمة: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أي: بما أنعم الله عليه. وفي رواية عن زيد بن أسلم: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ قال: الصلاة والزكاة والصوم. وقال مرة: وصدقة الفطر. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا صفوان بن صالح الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا زهير بن محمد، حدثني من سمع أبا العالية الرياحي يحدث عن أبي بن كعب قال: سألت رسول الله ﷺ عن الحسنى قال: «الحسنى: الجنة». وقوله: ﴿فَسَيِّئُ لَفْتٍ﴾ : قال ابن عباس: يعني للخير. وقال زيد بن أسلم: يعني للجنة. وقال بعض السلف: من ثواب الحسنة الحسنه بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ يَكْفُرْ﴾ أي: بما عنده، ﴿وَأَسْتَفْتِ﴾ : قال عكرمة، عن ابن عباس: أي بخل بماله، واستغنى عن ربه، ﷺ. رواه ابن أبي حاتم. ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ أي: بالجزاء في الدار الآخرة، ﴿فَسَيِّئُ لَفْتٍ﴾ أي: لطريق الشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلِبْ أَقْلَهُمْ وَبَصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله ﷻ، يجازي من قصد الخير بالتوفيق له، ومن قصد الشر بالخذلان. وكل ذلك بقدر مُقدَّر، والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة:

رواية أبي بكر الصديق، رضي الله عنه: قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عيَّاش، حدثني العطف بن خالد، حدثني رجل من أهل البصرة، عن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، عن أبيه قال: سمعت أبي يذكر أن أباه سمع أبا بكر وهو يقول: قلت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، أنعمل على ما فرغ منه أو على أمر مؤتلف؟ قال: «بل على أمر قد فرغ منه». قال: ففيم العمل يا رسول الله؟ قال: «كل ميسر لما خلق له». رواية علي، رضي الله عنه: قال البخاري: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن علي بن أبي طالب قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار». فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل؟ فقال: «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له». قال: ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ ﴿٥﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ ﴿٦﴾ ﴿فَسَيِّئُ لَفْتٍ﴾ ﴿٧﴾ ، إلى قوله: ﴿لِئْسَ شِيبَةٌ﴾. وكذا رواه من طريق شعبة ووكيع، عن الأعمش، بنحوه. ثم رواه عن عثمان بن أبي شيبة، عن جرير، عن منصور، عن سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتى رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخضرة فنكس فجعل ينكت بمخضرته، ثم قال: «ما منكم من أحد: أو: ما من نفس منفوسة - إلا كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة». فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نتكل ونذبح العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى أهل الشقاء؟ فقال: «أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاء فييسرون إلى عمل أهل الشقاء». ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ ﴿٥﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ ﴿٦﴾ ﴿فَسَيِّئُ لَفْتٍ﴾ ﴿٧﴾ الآية. وقد أخرجه بقية الجماعة، من طرق، عن سعد بن عبيدة، به.

رواية عبد الله بن عمر: وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا شعبة عن عاصم بن عبيد الله قال: سمعت سالم بن عبد الله يحدث عن ابن عمر: قال: قال عمر: يا رسول الله، أرأيت ما نعمل فيه؟ أفي أمر قد فرغ أو مبتدأ أو متدع؟ قال: «فيما قد فرغ منه، فاعمل يا ابن الخطاب، فإن كلاً ميسر، أما من كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء». ورواه الترمذي في القدر، عن بُندار، عن ابن مهدي، به وقال: حسن صحيح. حديث آخر من رواية جابر:

قال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله أنه قال: يا رسول الله، أنعمل لأمر قد فرغ منه، أو لأمر نستأنفه؟ فقال: «لأمر قد فرغ منه». فقال سراقه: فقيم العمل إذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «كل عامل مُيسر لعمله». ورواه مسلم عن أبي الطاهر، عن ابن وهب، به. حديث آخر: قال ابن جرير: حدثني يونس، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن طلق بن حبيب، عن بشير بن كعب العدوي قال: سأل غلامان شابان النبي ﷺ فقالا: يا رسول الله، أنعمل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، أو في شيء يستأنف؟ فقال: «بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير». قالوا: فقيم العمل إذا؟ قال: «اعملوا فكل عامل ميسر لعمله الذي خلق له». قالوا: فالآن نجد ونعمل. رواية أبي الدرداء: قال الإمام أحمد: حدثنا قُتَيْبُ بْنُ خَارِجَةَ، حدثنا أبو الربيع سليمان بن عتبة السلمي، عن يونس بن ميسرة بن حُلَيْس، عن أبي إدريس، عن أبي الدرداء قال: قالوا: يا رسول الله، أرأيت ما نعمل، أمر قد فرغ منه أم شيء نستأنفه؟ قال: «بل أمر قد فرغ منه». قالوا: فكيف بالعمل يا رسول الله؟ قال: «كل امرئ مهياً لما خلق له». تفرد به أحمد من هذا الوجه. حديث آخر: قال ابن جرير: حدثني الحسن بن سلمة بن أبي كبشة، حدثنا عبد الملك بن عمرو، حدثنا عباد بن راشد، عن قتادة، حدثني خُلَيْدُ الْعَصْرِي، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم غربت فيه شمسهُ إلا وَجَّعَتْهُمَا مَلَكَانِ يَنَادِيَانِ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ خَلْقُ اللَّهِ كُلُّهُمْ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ: اللَّهُمَّ اعْطِ مَنْفَقاً خَلْفاً، وَاعْطِ مَسْكاً تَلْفَافاً». وأنزل الله في ذلك القرآن: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحَقِّ ۖ فَسَنِيَعُ لِفَتْرَى ۖ ﴿٦﴾ وَأَمَّا مَنْ بَدَّلَ وَأَسْتَفَى ۖ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ ۖ فَنُفِيَعُ لِفَتْرَى ۖ ﴿٧﴾﴾. ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن ابن أبي كبشة، بإسناده مثله.

حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثني أبو عبد الله الطهراني، حدثنا حفص بن عمر العدني، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن رجلاً كان له نخل، ومنها نخلة فرعها إلى دار رجل صالح فقير ذي عيال، فإذا جاء الرجل فدخل داره وأخذ الثمر من نخلته، فتسقط الثمرة فيأخذها صبيان الفقير فتزول من نخلته فتزق الثمرة من أيديهم، وإن أدخل أحدهم الثمرة في فمه أدخل أصبعه في حلق الغلام ونزع الثمرة من حلقه. فشكا ذلك الرجل إلى النبي ﷺ، وأخبره بما هو فيه من صاحب النخلة، فقال له النبي ﷺ: «أذهب». ولقي النبي ﷺ صاحب النخلة، فقال له النبي ﷺ: «أعطني نخلتك التي فرعها في دار فلان ولك بها نخلة في الجنة» فقال له: لقد أعطيت، ولكن يعجبني ثمرها، وإن لي لنخلاً كثيراً ما فيها نخلة أعجب إلي ثمره من ثمرها. فذهب النبي ﷺ فتبعه رجل كان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ ومن صاحب النخلة. فقال الرجل: يا رسول الله، إن أنا أخذت النخلة فصارت لي النخلة فأعطيتهما أنعطيني بها ما أعطيت بها نخلة في الجنة؟ قال: «نعم». ثم إن الرجل لقي صاحب النخلة، ولكلاهما نخل، فقال له: أخبرك أن محمداً، قد أعطاني بنخلتي المائلة في دار فلان نخلة في الجنة، فقلت له: قد أعطيت ولكن يعجبني ثمرها. فسكت عنه الرجل، فقال له: أترك إذا بعثها؟ قال: لا، إلا أن أعطى بها شيئاً، ولا أظنتني أعطاه. قال: وما منك بها؟ قال: أربعون نخلة. فقال الرجل: لقد جئت بأمر عظيم، نخلتك تطلب بها أربعين نخلة؟! ثم سكتا وأنشأ في كلام آخر، ثم قال: أنا أعطيتك أربعين نخلة، فقال: أشهد لي إن كنت صادقاً. فأمر بأناس فدعاهم فقال: أشهدوا أنني قد أعطيت من نخلي أربعين نخلة بنخلته التي فرعها في دار فلان ابن فلان. ثم قال: ما تقول؟ فقال صاحب النخلة: قد رضيت. ثم قال بعد: ليس بيني وبينك بيع لم نفتق، قال له: قد أقالك الله، ولست بأحمق حين أعطيتك أربعين نخلة بنخلتك المائلة. فقال صاحب النخلة: قد رضيت على أن تعطيني الأربعين على ما أريد. قال: تعطينيها على ساق. ثم مكث ساعة، ثم قال: هي لك على ساق وأوقف له شهوداً وعد له أربعين نخلة على ساق، ففترقا، فذهب الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن النخلة المائلة في دار فلان قد صارت لي، فهي لك. فذهب رسول الله ﷺ إلى الرجل صاحب الدار فقال له: «النخلة لك ولعمالك». قال عكرمة: قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَأَكْبَلُ إِذَا بَنَى ۖ ﴿١﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحَقِّ ۖ فَسَنِيَعُ لِفَتْرَى ۖ ﴿٦﴾ وَأَمَّا مَنْ بَدَّلَ وَأَسْتَفَى ۖ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ ۖ فَنُفِيَعُ لِفَتْرَى ۖ ﴿٧﴾﴾ إلى آخر السورة. هكذا رواه ابن أبي حاتم، وهو حديث غريب جداً.

قال ابن جرير: وذكر أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق، رضي الله عنه: حدثني هارون ابن إدريس الأصم، حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي، حدثنا محمد بن إسحاق، عن محمد ابن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: كان أبو بكر يعتق على الإسلام بمكة، فكان يعتق عجايز ونساء إذا أسلمن، فقال له أبوه: أي بني، أراك تعتق أناساً ضعفاء، فلو أنك تعتق رجالاً جُلْداء يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك؟! فقال: أي أبت، إنما أريد - أظنه قال: - ما عند الله: قال: فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية أنزلت فيه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ

إِلْحَاقُ ١٦ مَنِيْرُهُ لِلْمَرْي ١٧ . وقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ١٨﴾ : قال مجاهد: أي إذا مات . وقال أبو صالح، ومالك
عن زيد بن أسلم: إذا تردى في النار .

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ١٩﴾ : ﴿وَلَا لَنَا لَلْآخِرَةِ وَالْأُولَى ٢٠﴾ فَأَنْذَرَكُمْ نَارًا تَلْفَنُ ٢١ لَا يَصْلَهَا إِلَّا الْآثِقُ ٢٢ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ٢٣ وَسَجَّجْنَا السَّمَوَاتِ ٢٤
الَّذِي يُؤَقِّ مَالَهُ يَتَزَكَّى ٢٥ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نَعْمَةٍ تُجْزَى ٢٦ إِلَّا أَيُّهَا وَبَرُّ رَبِّهِ الْأَعْلَى ٢٧ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ٢٨﴾ .

قال قتادة: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ١٩﴾ : أي: نبين الحلال والحرام . وقال غيره: من سلك طريق الهدى وصل إلى الله . وجعله
كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَسْدُ السَّبِيلِ ١﴾ [النحل: ٩] . حكاه ابن جرير . وقوله: ﴿وَلَا لَنَا لَلْآخِرَةِ وَالْأُولَى ٢٠﴾ : أي: الجميع ملكنا
وأنا المتصرف فيهما . وقوله: ﴿فَأَنْذَرَكُمْ نَارًا تَلْفَنُ ٢١﴾ : قال مجاهد: أي توهج . قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر،
حدثنا شعبة، عن سماك بن حرب، سمعت النعمان بن بشير يخطب يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يخطب يقول: «أنذركم
النار أنذرتكم النار، أنذرتكم النار» حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعته من مقامي هذا . قال: حتى وقعت خميسة كانت
على عاتقه عند رجله . وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، حدثنا أبو إسحاق: سمعت النعمان بن
بشير يخطب ويقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجلٌ توضع في أخمص قدميه
جمرتان يغلي منهما دماغه» . رواه البخاري . وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو أسامة، عن الأعمش، عن
أبي إسحاق، عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشركان من نار يغلي
منهما دماغه كما يغلي المزجل، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً، وإنه لأهونهم عذاباً» . وقوله: ﴿لَا يَصْلَهَا إِلَّا الْآثِقُ ٢٢﴾ :
أي: لا يدخلها دخلاً يحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى . ثم فسره فقال: ﴿الَّذِي كَذَّبَ ٢٣﴾ : أي: بقلبه، ﴿وَتَوَلَّى ٢٤﴾ : أي: عن
العمل بجوارحه وأركانه . قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا عبد ربه بن سعيد، عن
المقبيري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار إلا شقي» . قيل: ومن الشقي؟ قال: «الذي لا يعمل
بطاعة، ولا يترك لله معصية» .

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس وشريح قالوا: حدثنا فليح، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة قال: قال
رسول الله ﷺ: «كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى» . قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة،
ومن عصاني فقد أبى» . ورواه البخاري عن محمد بن سنان، عن فليح، به وقوله: ﴿وَسَجَّجْنَا السَّمَوَاتِ ٢٤﴾ : أي: وسيزجج عن
النار التقى النقي الأتقى . ثم فسره بقوله: ﴿الَّذِي يُؤَقِّ مَالَهُ يَتَزَكَّى ٢٥﴾ : أي: يصرف ماله في طاعة ربه؛ ليزكي نفسه وماله وما
وهبه الله من دين ودنيا، ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نَعْمَةٍ تُجْزَى ٢٦﴾ : أي: ليس بذله ماله في مكافأة من أسدى إليه معروفًا، فهو يعطي في
مقابلة ذلك، وإنما دفعه ذلك ﴿أَيُّهَا وَبَرُّ رَبِّهِ الْأَعْلَى ٢٧﴾ : أي: طمعاً في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات،
قال الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى ٢٨﴾ : أي: ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات . وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه
الآيات نزلت في أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك . ولا شك أنه دخل
فيها، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، وهو قوله تعالى: ﴿وَسَجَّجْنَا السَّمَوَاتِ ٢٤﴾ : ﴿الَّذِي يُؤَقِّ مَالَهُ يَتَزَكَّى ٢٥﴾ وَمَا لِأَحَدٍ
عِنْدَهُ مِنْ نَعْمَةٍ تُجْزَى ٢٦﴾ ، ولكنه مقدم الأمة وسابقتها في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة؛ فإنه كان صديقاً تقياً
كريمًا جواداً بذلاً لأمواله في طاعة مولا، ونصرة رسول الله، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن
لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل؛ ولهذا
قال له عروة بن مسعود - وهو سيد ثقيف، يوم صلح الحديبية -: أما والله لولا يدك كانت عندي لم أجرك بها لأجبتك . وكان
الصديق قد أغلظ له في المقالة، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل، فكيف بمن عداهم؟ ولهذا قال: ﴿وَمَا
لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نَعْمَةٍ تُجْزَى ٢٦﴾ : ﴿إِلَّا أَيُّهَا وَبَرُّ رَبِّهِ الْأَعْلَى ٢٧﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ٢٨﴾ . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «من أنفق
زوجين في سبيل الله دعت خزنة الجنة: يا عبد الله، هذا خير» ، فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما على من يدعى منها ضرورة فهل
يدعى منها كلها أحد؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم» .

آخر تفسير سورة «الليل»

ولله الحمد والمنة



تفسير سورة الضحى

وهي مكية. رويها من طريق أبي الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقرئ قال: قرأت على عكرمة بن سليمان، وأخبرني أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عباد، فلما بلغت ﴿وَالضُّحَى﴾ قال لي: كبر حتى تختم مع خاتمة كل سورة، فإننا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك. وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك. وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك، وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أبي بن كعب فأمره بذلك، وأخبره أبي أنه قرأ على رسول الله ﷺ فأمره بذلك. فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي، من ولد القاسم بن أبي بزة، وكان إماماً في القراءات، فأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي وقال: لا أحدث عنه، وكذلك أبو جعفر العجلي قال: هو منكر الحديث. لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في شرح الشاطبية عن الشافعي أنه سمع رجلاً يكبر هذا التكبير في الصلاة، فقال له: أحسنت وأصبت السنة. وهذا يقتضي صحة هذا الحديث. ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير وكيفيته، فقال بعضهم: يكبر من آخر ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَنفَى﴾. وقال آخرون: من آخر ﴿وَالضُّحَى﴾. وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول: الله أكبر، ويقتصر، ومنهم من يقول الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر. وذكر الفراء في مناسبة التكبير من أول سورة «الضحى»: أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ وفتر تلك المدة ثم جاءه الملك فأوحى إليه: ﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ ﴿وَالسُّورَةِ﴾. وتمامها، كبر فرحاً وسروراً. ولم يرو ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف، فالله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَى﴾ ﴿أَنَّمْ حِذِّكَ نَيْسًا فَتَأْوَى﴾ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ﴿وَوَجَدَكَ عَالِمًا غَافِقًا﴾ ﴿فَأَمَّا الْيَمِينُ فَلَا تَنْهَى﴾ ﴿وَأَمَّا الشَّامِلُ فَلَا تَنْهَى﴾ ﴿وَأَمَّا يَمِيزُكَ رَبُّكَ فَحَدِّثْ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن الأسود بن قيس قال: سمعت جُنْدَباً يقول: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتت امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك. فأنزل الله ﷻ: ﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾. رواه البخاري، ومسلم، والترمذي والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن جرير، من طرق، عن الأسود بن قيس، عن جُنْدَب - هو ابن عبد الله البجلي ثم العلقمي به، وفي رواية سفيان بن عيينة عن الأسود بن قيس: سمع جندباً - قال: أبطاً جبريل على رسول الله ﷺ، فقال المشركون: ودَّع محمد. فأنزل الله ﷻ: ﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج وعمر بن عبد الله الأودي قالوا: حدثنا أبو أسامة، حدثني سفيان، حدثني الأسود بن قيس، أنه سمع جندباً يقول: رمي رسول الله ﷺ بحجر في أصبعه فقال:

هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت؟ قال: فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم، فقالت له امرأة: ما أرى شيطانك إلا قد تركك. فنزلت: ﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾. والسياق لأبي سعيد. قيل: إن هذه المرأة هي: أم جميل امرأة أبي لهب، وذكر أن أصبعه، عليه السلام، دميت. وقوله - هذا الكلام الذي اتفق أنه موزون - ثابت في الصحيحين، ولكن الغريب ما هنا جعله سبباً لتركه القيام، ونزول هذه السورة. فأما ما رواه ابن جرير: حدثنا ابن أبي الشوارب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا سليمان الشيباني، عن عبد الله بن شداد: أن خديجة قالت للنبي: ما أرى ربك إلا قد فلاك. فأنزل الله ﷻ: ﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾. وقال أيضاً: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وكيع، عن هشام بن غزوة، عن أبيه قال: أبطاً جبريل على النبي ﷺ، فجزع جزعاً شديداً، فقالت خديجة: إني أرى ربك قد فلاك مما نرى من جزعك. قال: فنزلت: ﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ إلى آخرها. فإنه حديث مرسل من هذين الوجهين ولعل ذكر خديجة ليس محفوظاً، أو قالته على وجه التأسف والتحزن، والله أعلم. وقد ذكر بعض السلف - منهم ابن إسحاق - أن هذه السورة هي التي أوحاها جبريل إلى رسول الله ﷺ، حين تبدى له في صورته التي خلقه الله عليها، ودنا إليه وتدلّى منهبطاً عليه وهو بالأبطح، ﴿فَأَوْحَىٰ لَكَ عَبْدُكَ مَا

وتلطف به. قال قتادة: كن لليتيم كالأب الرحيم. ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ١٤ أي: وكما كنت ضالاً فهداك الله، فلا تنهر السائل في العلم المسترشد. قال ابن إسحاق: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ١٥ أي: فلا تكن جباراً، ولا متكبراً، ولا فحاشاً، ولا فظاً على الضعفاء من عباد الله. وقال قتادة: يعني رد المسكين برحمة ولين. ﴿وَأَمَّا يَنْفَعِيكَ رَبُّكَ فَحَدِّثْ﴾ ١٦ أي: وكما كنت عائلاً فقيراً فأغناك الله، فحدث بنعمة الله عليك، كما جاء في الدعاء المأثور النبوي: «واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها، قابليها، وأنتمها علينا». وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن علية، حدثنا سعيد بن إياس الجريري، عن أبي نضرة قال: كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدث بها. وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا منصور بن أبي مزاحم، حدثنا الجراح بن مليح، عن أبي عبد الرحمن، عن الشعبي، عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ على المنبر: «من لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله». والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر. والجماعة رحمة، والفرقة عذاب. إسناده ضعيف. وفي الصحيحين، عن أنس، أن المهاجرين قالوا: يا رسول الله، ذهب الأنصار بالأجر كله. قال: «لا، ما دعوتكم الله لهم، وأثنيتم عليهم». وقال أبو داود: حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الربيع بن مسلم، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس». ورواه الترمذي عن أحمد بن محمد، عن ابن المبارك، عن الربيع بن مسلم، وقال: صحيح. وقال أبو داود: حدثنا عبد الله بن الجراح، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي ﷺ قال: «من أبلى بلاء فذكره فقد شكره، وإن كتبه فقد كفره». تفرد به أبو داود. وقال أبو داود: حدثنا مسدد، حدثنا بشر، حدثنا عمارة بن غزوة، حدثني رجل من قومي، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعطي عطاء فوجد فليجز به، فإن لم يجد فليثن به، فمن أثنى به فقد شكره، ومن كتبه فقد كفره». قال أبو داود: ورواه يحيى بن أيوب، عن عمارة بن غزوة، عن شرحبيل عن جابر - كرهوه فلم يسموه - تفرد به أبو داود. وقال مجاهد: يعني النبوة التي أعطاك ربك. وفي رواية عنه: القرآن. وقال ليث، عن رجل، عن الحسن بن علي: ﴿وَأَمَّا يَنْفَعِيكَ رَبُّكَ فَحَدِّثْ﴾ ١٦ قال: ما عملت من خير فحدث إخوانك. وقال محمد بن إسحاق: ما جاءك الله من نعمة وكرامة من النبوة فحدث بها واذكرها، وادع إليها. وقال: فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه من النبوة سرّاً إلى من يطمئن إليه من أهله، وافترضت عليه الصلاة، فصلّى.

آخر تفسير سورة «الضحى» والله الحمد



تفسير سورة ألم تشرح

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۚ﴾ ١ ﴿أَلَيْسَ أَفْضَلُ ظَهْرَكَ ۚ وَفَقَّصْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۚ﴾ ٢ ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۚ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَانْصَبْ ۚ﴾ ٣

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۚ﴾ ١ يعني: أما شرحنا لك صدرك، أي: نورناه وجعلناه فسيحاً رحباً واسعاً كقوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ فَمَفُتْحٌ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحاً واسعاً سمحاً سهلاً لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق. وقيل: المراد بقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۚ﴾ ١: شرح صدره ليلة الإسراء، كما تقدم من رواية مالك بن صعصعة، وقد أورده الترمذي ها هنا. وهذا وإن كان واقعاً ولكن لا منافاة، فإن من جملة شرح صدره الذي فعل بصدرة ليلة الإسراء، وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضاً، والله أعلم. قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثني محمد بن عبد الرحيم أبو يحيى البزار، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا معاذ بن محمد بن معاذ بن محمد بن أبي بن كعب، حدثني أبي محمد بن معاذ، عن معاذ، عن محمد، عن أبي بن كعب: أن أبا هريرة كان جرباً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره، فقال: يا رسول الله، ما أول ما رأيت من أمر النبوة؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً وقال: «لقد سألت يا أبا هريرة، إنني لفي الصحراء ابن عشر سنين وأشهر، وإذا بكلام فوق رأسي، وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو؟ قال: نعم فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط، وأرواح لم أجدها من خلق قط، وثياب لم أرها على أحد قط. فأقبل إلي يمشيان، حتى

أخذ كل واحد منهما بعضدي، لا أجد لأحدهما مساً، فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه. فأضجعاني بلا قَصْر ولا هَضْر. فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره. فهوى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغلّ والحسد. فأخرج شيئاً كهية العلقة ثم نبذها فطرحها، فقال له: أدخل الرافة والرحمة، فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة، ثم هز إبهام رجلي اليمنى فقال: اغدّ واسلم. فرجعت بها أعدو، رقة على الصغير، ورحمة للكبير». وقوله: ﴿وَوَسَّعْنَا عَنْكَ وَرْكَ﴾ (٢) بمعنى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] ﴿اللَّهُ أَنْفَضَ ظَهْرَكَ﴾ (٣) : الإنقاض: الصوت. وقال غير واحد من السلف في قوله: ﴿اللَّهُ أَنْفَضَ ظَهْرَكَ﴾ (٢) أي: أثقلت حمله. وقوله: ﴿وَوَسَّعْنَا لَكَ ذَرْكَ﴾ (٤) : قال مجاهد: لا أذكر إلا ذكرت معي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا مُتَشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي بها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

قال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أتاني جبريل فقال: إن ربي وربك يقول: كيف رفعت ذكرك؟ قال: الله أعلم. قال: إذا ذكرت ذكرت معي». وكذا رواه ابن أبي حاتم عن يونس بن عبد الأعلى، به، ورواه أبو يعلى من طريق ابن لهيعة، عن دراج. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة، حدثنا أبو عمر الحوضي، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي مسألة وَدَّتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ سَأَلْتُهُ، قلت: قد كان قبلي أنبياء، منهم من سخرت له الريح، ومنهم من يحيي الموتى. قال: يا محمد، ألم أجدك يتيماً فأوتيتك؟ قلت: بلى يا رب. قال: ألم أجدك ضالاً فهديتك؟ قلت: بلى يا رب. قال: ألم أجدك عائلاً فأغنيتك؟ قال: قلت: بلى يا رب. قال ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أرفع لك ذكرك؟ قلت: بلى يا رب». وقال أبو نعيم في «دلائل النبوة»: حدثنا أبو أحمد الغطريفي، حدثنا موسى بن سهل الجوني، حدثنا أحمد بن القاسم بن بهرام الهيتي، حدثنا نصر بن حماد، عن عثمان بن عطاء، عن الزهري، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما فرغت مما أمرني الله به من أمر السموات والأرض قلت: يا رب، إنه لم يكن نبي قبلي إلا وقد كرمته، جعلت إبراهيم خليلاً، وموسى كليماً، وسخرت لداود الجبال، ولسليمان الريح والشياطين، وأحييت لعيسى الموتى، فما جعل لي؟ قال: أوليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله، أني لا أذكر إلا ذكرت معي، وجعلت صدور أمتك أناجيل يقرؤون القرآن ظاهراً، ولم أعطها أمة، وأعطيتك كنزاً من كنوز عرشي: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». وحكى البغوي، عن ابن عباس ومجاهد: أن المراد بذلك: الأذان. يعني: ذكره فيه، وأورد من شعر حسان بن ثابت:

أغز، عليه للنبوة خاتم	من الله من نور يلوخ ويشهد
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه	إذا قال في الخمس المؤذن: أشهد
وشئ لهُ من اسمه ليُجله	فلو العرش محمود وهذا مُحمَّد

وقال آخرون: رفع الله ذكره في الأولين والآخرين، ونوه به، حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به، وأن يأمرُوا أممهم بالإيمان به، ثم شهر ذكره في أمته فلا يذكر الله إلا ذكر معه. وما أحسن ما قال الصرصري، رحمه الله:

لا يصحُّ الأذانُ في الفَرَضِ إلا باسمه العَذْبُ في الفم المرضي
وقال أيضاً:

الم تر أننا لا يصحُّ أذاننا
ولا فَرَضُنَا إِنْ لَمْ نُكْرِزْهُ فِيهِمَا
وقوله: ﴿إِنَّ مَعَ الْعِزِّ إِعْزَازًا﴾ (٥) ﴿إِنَّ مَعَ الْعِزِّ إِعْزَازًا﴾ (٦) أخبر تعالى أن مع العسر يوجد اليسر، ثم أكد هذا الخبر. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة، حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا حميد بن حماد بن خوار أبو الجهم، حدثنا عائذ بن شريح قال: سمعت أنس بن مالك يقول: كان النبي ﷺ جالساً وحياه حجر، فقال: «لو جاء العسر فدخل هذا الحجر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه»، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ مَعَ الْعِزِّ إِعْزَازًا﴾ (٥) ﴿إِنَّ مَعَ الْعِزِّ إِعْزَازًا﴾ (٦). ورواه أبو بكر البزار في مسنده عن محمد بن مَعْمَر، عن حميد بن حماد، به، ولفظه: «لو جاء العسر حتى يدخل هذا الحجر لجاء اليسر حتى يخرجه» ثم قال: ﴿إِنَّ مَعَ الْعِزِّ إِعْزَازًا﴾ (٦) ﴿إِنَّ مَعَ الْعِزِّ إِعْزَازًا﴾ (٦)، ثم قال البزار: لا نعلم رواه عن أنس إلا عائذ بن شريح. قلت: وقد قال فيه أبو حاتم الرازي: في حديثه ضعف، ولكن رواه شعبة عن معاوية بن قرّة، عن رجل، عن عبد الله بن مسعود موقوفاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا أبو قطن، حدثنا المبارك بن فضالة، عن الحسن قال: كانوا يقولون: لا

يغلب عسر واحد يسرين اثنين. وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن مَعْمَرٍ، عن الحسن قال: خرج النبي ﷺ يوماً مسروراً فرحاً وهو يضحك، وهو يقول: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يَسْرِينِ، لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يَسْرِينِ، فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا». وكذا رواه من حديث عوف الأعرابي ويونس بن عبيد، عن الحسن مرسلاً. وقال سعيد، عن قتادة: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ بشر أصحابه بهذه الآية فقال: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يَسْرِينِ». ومعنى هذا: أن العسر معرف في الحالين، فهو مفرد، واليسر منكر فتعده؛ ولهذا قال: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يَسْرِينِ»، يعني قوله: «إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ»، فالعسر الأول عين الثاني، واليسر تعدد. وقال الحسن بن سفيان: حدثنا يزيد بن صالح، حدثنا خارجة، عن عباد بن كثير، عن أبي الزناد، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «نزلت المعونة من السماء على قدر المؤونة، ونزل الصبر على قدر المصيبة». ومما يروى عن الشافعي، رضي الله عنه، أنه قال:

صَبْرًا جَمِيلًا مَا أَقْرَبَ الْفَرْجَا
مَنْ صَدَّقَ اللَّهُ لَمْ يَنْتَلِهِ أَذَى
وقال ابن دُرَيْد: أنشدني أبو حاتم السجستاني:

إِذَا اشْتَمَلْتَ عَلَى الْيَأْسِ الْقُلُوبُ
وَأَوْطَأَتِ الْمَكَارِهِ وَاطْمَأْنَنْتِ
وَلَمْ تَرَ لَانْكَشَافِ الضَّرِّ وَجْهًا
أَتَاكَ عَلَى قُنُوطٍ مِنْكَ غَوْثُ
وَكُلِّ الْحَادِثَاتِ إِذَا تَنَاهَتْ
وقال آخر:

وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يَضِيقُ بِهَا الْفَتَى
كَمَلَتْ، فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتِهَا

مَنْ رَاقَبَ اللَّهَ فِي الْأُمُورِ نَجَا
وَمَنْ رَجَاهُ يَكُونُ حَيْثُ رَجَا

وضاق لما به الصدر الرحيب
وأرست في أماكنها الخطوب
ولا أغنى بحيلته الأريب
يمن به اللطيف المستجيب
فموصول بها الفرج القريب

ذرعاً، وعند الله منها المخرج
فرجت، وكان يظننها لا تفرج

وقوله: ﴿إِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۚ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (٨) أي: إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها، فانصب في العبادة، وقم إليها نشيطاً فارغ البال، وأخلص لربك النية والرغبة. ومن هذا القليل قوله ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «لا صلاة بحضرة طعام، ولا وهو يدافع الأخبثان». وقوله ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء، فابدؤوا بالعشاء». قال مجاهد في هذه الآية: إذا فرغت من أمر الدنيا فقممت إلى الصلاة، فانصب لربك، وفي رواية عنه: إذا قمت إلى الصلاة فانصب في حاجتك، وعن ابن مسعود: إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل. وعن ابن عباس نحوه. وفي رواية عن ابن مسعود: ﴿فَإِنْ فَرَغْتَ فَانصَبْ ۚ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (٨) بعد فراغك من الصلاة وأنت جالس. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ يعني: في الدعاء. وقال زيد بن أسلم، والضحاك: ﴿إِذَا فَرَغْتَ﴾ أي: من الجهاد ﴿فَإِنْ فَرَغْتَ﴾ أي: في العبادة. ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (٨): قال الثوري: اجعل نيتك ورغبتك إلى الله، ﷻ.

آخر تفسير سورة «الم نشرح» وشه الحمد

تفسير سورة التين والزيتون

وهي مكية. قال مالك وشعبة، عن عدي بن ثابت، عن البراء بن عازب: كان النبي ﷺ يقرأ في سفره في إحدى الركعتين بالتين والزيتون، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه. أخرجه الجماعة في كتبهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْزَيْتُونِ ۚ وَالْأَنْثَرُونَ ۚ وَطُورِ سِينِينَ ۚ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۚ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۚ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۖ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۚ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ الْبَٰلِغِينَ ۚ أَتَسْتَأْذِنُ الْفَٰكِهِينَ ۚ﴾ (٨).
اختلف المفسرون ها هنا على أقوال كثيرة فقيل: المراد بالتين مسجد دمشق. وقيل: هي نفسها. وقيل: الجبل الذي عندها.

وقال القرطبي: هو مسجد أصحاب الكهف. وروى العوفي، عن ابن عباس: أنه مسجد نوح الذي على الجودي. وقال مجاهد: هو تينكم هذا. ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾: قال كعب الأحبار، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم: هو مسجد بيت المقدس. وقال مجاهد، وعكرمة: هو هذا الزيتون الذي تعصرون. ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾: قال كعب الأحبار وغير واحد: هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى. ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾: يعني: مكة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وإبراهيم التخعي، وابن زيد، وكعب الأحبار. ولا خلاف في ذلك. وقال بعض الأئمة: هذه محال ثلاثة، بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلًا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار، فالأولى: محلة التين والزيتون، وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم. والثاني: طور سين، وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران. والثالث: مكة، وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ. قالوا: وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله من طور سيناء - يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران - وأشرق من ساعير - يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى - واستعلن من جبال فاران - يعني: جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً - فذكرهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان، ولهذا أقسم بالأسرف، ثم الأسرف منه، ثم بالأسرف منهما. وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾: هذا هو المقسم عليه، وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة، وشكل منتصب القامة، سوى الأعضاء حسنها. ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾: أي: إلى النار. قاله مجاهد، وأبو العالية، والحسن، وابن زيد، وغيرهم. ثم بعد هذا الحسن والنضارة مصيره إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. وقال بعضهم: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾: أي: إلى أرذل العمر. روي هذا عن ابن عباس، وعكرمة - حتى قال عكرمة: من جمع القرآن لم يرد إلى أرذل العمر - واختار ذلك ابن جرير. ولو كان هذا هو المراد لما حُسن استثناء المؤمنين من ذلك؛ لأن الهرم قد يصيب بعضهم، وإنما المراد ما ذكرناه، كقوله: ﴿وَالصَّافِرِ﴾: إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ ﴿١﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ [العصر: ١-٣]. وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: أي: غير مقطوع، كما تقدم. ثم قال: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ﴾ يعني: يا ابن آدم ﴿بَعْدَ الْبَإْتِنِ﴾؟ أي: بالجزء في المعاد وقد علمت البداية، وعرفت أن من قدر على البداية، فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى، فأي شيء يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا؟ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن منصور قال: قلت لمجاهد: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ الْبَإْتِنِ﴾؟ عني به النبي ﷺ قال: معاذ الله! عني به الإنسان. وهكذا قال عكرمة وغيره. وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْبَرَ الْحَكِيمِينَ﴾: أي: أما هو أحكم الحاكمين، الذي لا يجور ولا يظلم أحداً، ومن عدله أن يقيم القيامة فينصف المظلوم في الدنيا ممن ظلمه. وقد قدمنا في حديث أبي هريرة مرفوعاً: «فإذا قرأ أحدكم ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ فأتى على آخرها: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْبَرَ الْحَكِيمِينَ﴾ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين».

آخر تفسير سورة «التين والزيتون»، والله الحمد



تفسير سورة اقرأ

وهي أول شيء نزل من القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ١ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ٢ ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ ٣ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ٤ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ٥.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه - وهو: التعبد - الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فتزود لمثلها حتى فجاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ. قال رسول الله ﷺ: «فقلت: ما أنا بقارئ». قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ١ حتى بلغ: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ٥ قال:

فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: «زملوني زملوني». فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال: «يا خديجة، ما لي» وأخبرها الخبر وقال: «قد خشيت على نفسي». فقالت له: كلا، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي - وهو ابن عم خديجة، أخي أبيها، وكان امرأة تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي - فقالت خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال ورقة: ابن أخي، ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جذعاً أكون حياً حين يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أو مخرجي هم؟». فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا. ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله ﷺ - فيما بلغنا - حزناً غداً منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواق الجبال، فكلمنا أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه، تبدى له جبريل فقال: يا محمد، إنك رسول الله حقاً. فيسكن بذلك جاشه، وتقر نفسه فيرجع. فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل، فقال له مثل ذلك. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهري، وقد تكلمنا على هذا الحديث من جهة سنده ومعانيه في أول شرحنا للبخاري مستقصى، فمن أراداه فهو هناك محرر، والله الحمد والمنة. فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمت المباركات، وهُنَّ أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم. وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقه، وأن من كرمه تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم، فشرقة وكرمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة، والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبيان، ذهني ولفظي ورسمي، والرسمي يستلزمهما من غير عكس، فلهذا قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ الْأَكْرَمَ﴾ (١) ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (٢) ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٣). وفي الأثر: قيدا العلم بالكتابة. وفيه أيضاً: «من عمل بما علم رزقه الله علم ما لم يكن يعلم».

﴿كَلَّمَ الْإِنْسَانَ لِقَوْلٍ﴾ (٤) ﴿أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى﴾ (٥) ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ الْوَاحِدُ﴾ (٦) ﴿أَوَّيْتُ لَآلِي يَتِيمٍ﴾ (٧) ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ (٨) ﴿أَوَّيْتُ إِنْ كَانَ عَلَى الْمَذْهَبِ﴾ (٩) ﴿أَوْ أَمَرَ بِالْقَوْلِ﴾ (١٠) ﴿أَوَّيْتُ إِنْ كَذَّبَ ثَوَّتٌ﴾ (١١) ﴿أَوْ يَمُزَّ بِأَنَّهُ إِلَهٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢) ﴿لَّا يَنْزِلُ إِلَهُكُم مِّنْ سَمَاءٍ أَلَّا يَكُونَ لَكُمْ آيَةً﴾ (١٣) ﴿وَأَسْمَدُ وَاقْدَرٌ﴾ (١٤).

يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر ويطر وطمعان، إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله. ثم تهدده وتوعده ووعظه فقال: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ الْوَاحِدُ﴾ (٨) أي: إلى الله المصير والمرجع، وسيحاسبك على مالك: من أين جمعته؟ وفيه صرفته؟ قال ابن أبي حاتم: حدثنا زيد بن إسماعيل الصائغ، حدثنا جعفر بن عون، حدثنا أبو عُميس، عن عون قال: قال عبد الله: منهومان لا يشبعان، صاحب العلم وصاحب الدنيا، ولا يستويان، فأما صاحب العلم فيزداد رضا الرحمن، وأما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان. قال: ثم قرأ عبد الله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾ (١) ﴿أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى﴾ (٢). وقال للآخر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (٣) [فاطر: ٢٨]. وقد روي هذا مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ: «منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا». ثم قال تعالى: ﴿أَوَّيْتُ لَآلِي يَتِيمٍ﴾ (٧) ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ (٨) نزلت في أبي جهل، لعنه الله، توعده النبي ﷺ على الصلاة عند البيت، فوعظه الله تعالى بالتي هي أحسن أولاً، فقال: ﴿أَوَّيْتُ إِنْ كَانَ عَلَى الْمَذْهَبِ﴾ (٩) أي: فما ظنك إن كان هذا الذي تنهاه على الطريق المستقيمة في فعله، أو ﴿أَمَرَ بِالْقَوْلِ﴾ (١٠) بقوله، وأنت تزجره وتتوعده على صلاته؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ يَمُزَّ بِأَنَّهُ إِلَهٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢) أي: أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه، وسيجازه به على فعله أتم الجزاء. ثم قال تعالى متوعداً ومتهدداً: ﴿لَّا يَنْزِلُ إِلَهُكُم مِّنْ سَمَاءٍ أَلَّا يَكُونَ لَكُمْ آيَةً﴾ (١٣) أي: لنسئتها سواداً يوم القيامة. ثم قال: ﴿نَاصِيَةٌ كَذِبَتْ فِي عِصْيَانِهِ﴾ (١٤) يعني: ناصية أبي جهل كاذبة في مقالها خاطئة في فعالها. ﴿فَلْيَعْنِ نَادِيَهُ﴾ (١٥) أي: قومه وعشيرته، أي: ليدعهم يستنصر بهم، ﴿سَنَعُ الرِّيَابِ﴾ (١٦) وهم ملائكة العذاب، حتى يعلم من يغلب: أحزبنا أم حزبه. قال البخاري: حدثني يحيى، حدثنا عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن عبد الكريم الجزري، عن عكرمة، عن ابن عباس: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه. فبلغ النبي ﷺ، فقال: «لئن فعله لأخذته الملائكة». ثم قال: تابعه عمرو بن خالد، عن عبيد الله - يعني ابن عمرو - عن عبد الكريم. وكذا رواه الترمذي والنسائي في تفسيرهما من طريق عبد الرزاق، به. وهكذا رواه ابن جرير، عن أبي كُرَيْبٍ، عن زكريا بن عدي، عن عبيد الله بن عمرو، به.

وروي أحمد، والترمذي، وابن جرير - وهذا لفظه - من طريق داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان

رسول الله ﷺ يصلي عند المقام فمر به أبو جهل بن هاشم فقال: يا محمد، ألم أنهك عن هذا؟ - وتوعدّه - فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد، بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً! فأنزل الله: ﴿قَلِيلٌ نَّادِيَهُمْ سَبْعَ آيَاتٍ﴾ قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن زيد أبو يزيد، حدثنا قُرات، عن عبد الكريم، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت رسول الله يصلي عند الكعبة لأتيه حتى أطأ على عنقه. قال: فقال: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمثوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يُباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً». وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، أخبرنا يونس بن أبي إسحاق، عن الوليد بن العيزار، عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن عاد محمد يصلي عند المقام لأقتله. فأنزل الله، ﷻ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّيْلَ الَّتِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، حتى بلغ هذه الآية: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَائِفَةٍ﴾ ﴿قَلِيلٌ نَّادِيَهُمْ سَبْعَ آيَاتٍ﴾ ﴿فَجَاءَ النَّبِيَّ فَصَلَّى فَقِيلَ: مَا يَمْنَعُكَ؟﴾ قال: قد اسود ما بيني وبينه من الكنايب. قال ابن عباس: والله لو تحرك لأخذته الملائكة والناس ينظرون إليه. وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر، عن أبيه، حدثنا نعيم بن أبي هند، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم. قال: فقال: واللوات والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه في التراب، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليظاً على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقاً من نار وهو لا وأجنحة. قال: فقال رسول الله: «لو دنا مني لاخطفت الملائكة عضواً عضواً». قال: وأنزل الله - لا أدري في حديث أبي هريرة أم لا -: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا﴾ آخر السورة. وقد رواه أحمد بن حنبل، ومسلم، والنسائي، وابن أبي حاتم، من حديث معتمر بن سليمان، به. وقوله: ﴿كَلَّا لَا تُلْمُهُ﴾ يعني: يا محمد، لا تطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها، وصل حيث شئت ولا تباله؛ فإن الله حافظك وناصرك، وهو يعصمك من الناس، ﴿وَأَشْجُدْ وَقَتِّبْ﴾، كما ثبت في الصحيح - عند مسلم - من طريق عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن عمارة بن غزية، عن سمي، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء». وتقدم أيضاً: أن رسول الله ﷺ كان يسجد في: ﴿إِذَا أَلْمَأَمَةُ انشَقَّتْ﴾ و﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّيْلَ الَّتِي خَلَقَ﴾.

آخر تفسير سورة «اقرأ»



تفسير سورة القدر

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ﴿وَمَا أَزِدُّكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمٍّ﴾ ﴿سَلَّمَ مِنْ حَتَّى مَلَاحَ الْفَجْرِ﴾.

يخبر الله تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر، وهي الليلة المباركة التي قال الله، ﷻ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [الدخان: ٣] وهي ليلة القدر، وهي من شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. قال ابن عباس وغيره: أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ. ثم قال تعالى مُعْظِماً ل شأن ليلة القدر، التي اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها، فقال: ﴿وَمَا أَزِدُّكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾. قال أبو عيسى الترمذي عند تفسير هذه الآية: حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا القاسم بن الفضل الحُداني، عن يوسف بن سعد قال: قام رجل إلى الحسن بن علي بعد ما بايع معاوية فقال: سؤدت وجوه المؤمنين - أو: يا مسود وجوه المؤمنين - فقال: لا تؤنبنني، رحمك الله؛ فإن النبي ﷺ أري بني أمية على منبره، فسأه ذلك، فنزلت: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ الْكِتَابَ﴾ يا محمد، يعني نهراً في الجنة، ونزلت: ﴿إِنَّا

أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾، يملكها بعدك بنو أمية يا محمد. قال القاسم: فعدنا فإذا هي ألف شهر، لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً. ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث القاسم بن الفضل، وهو ثقة وثقة يحيى القطان وابن مهدي. قال: وشيخه يوسف بن سعد - ويقال: يوسف بن مازن - رجل مجهول، ولا نعرف هذا الحديث، على هذا اللفظ إلا من هذا الوجه. وقد روى هذا الحديث الحاكم في مستدركه، من طريق القاسم بن الفضل، عن يوسف بن مازن، به. وقول الترمذي: إن يوسف هذا مجهول - فيه نظر، فإنه قد روى عنه جماعة، منهم: حماد بن سلمة، وخالد الحذاء، ويونس بن عبيد. وقال فيه يحيى بن معين: هو مشهور، وفي رواية عن ابن معين قال: هو ثقة. ورواه ابن جرير من طريق القاسم بن الفضل، عن عيسى بن مازن، كذا قال، وهذا يقتضي اضطراباً في هذا الحديث، والله أعلم. ثم هذا الحديث على كل تقدير منكر جداً، قال شيخنا الإمام الحافظ الحجة أبو الحجاج المزي: هو حديث منكر.

قلت: وقول القاسم بن الفضل الحُدَاني: إنه حسب مدة بني أمية فوجدها ألف شهر لا تزيد يوماً ولا تنقص، ليس بصحيح؛ فإن معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه، استقل بالملك حين سلم إليه الحسن بن علي الإمرة سنة أربعين، واجتمعت البيعة لمعاوية، وسمي ذلك عام الجماعة، ثم استمروا فيها متتابعين بالشام وغيرها، لم تخرج عنهم إلا مدة دولة عبد الله بن الزبير في الحرمين والأهواز وبعض البلاد قريباً من تسع سنين، لكن لم تزل يدهم عن الإمرة بالكلية، بل عن بعض البلاد، إلى أن استلبهم بنو العباس الخلافة في سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فيكون مجموع مدتهم اثنتين وتسعين سنة، وذلك أزيد من ألف شهر، فإن الألف شهر عبارة عن ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر، وكان القاسم بن الفضل أسقط من مدتهم أيام ابن الزبير، وعلى هذا فتقارب ما قاله للصحة في الحساب، والله أعلم. ومما يدل على ضعف هذا الحديث أنه سيق لزم دولة بني أمية، ولو أريد ذلك لم يكن بهذا السياق؛ فإن تفضيل ليلة القدر على أيامهم لا يدل على ذم أيامهم، فإن ليلة القدر شريفة جداً، والسورة الكريمة إنما جاءت لمدح ليلة القدر، فكيف تُمدح بتفضيلها على أيام بني أمية التي هي مذمومة، بمقتضى هذا الحديث، وهل هذا إلا كما قال القائل:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قُدْرَهُ إِذَا قِيلَ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ الْعَصَا
وقال آخر:

إِذَا أَنْتَ فَضَّلْتَ امِراً ذَا بَرَاءَةٍ عَلَى نَاقِصٍ كَانَ الْمَدِيحُ مِنَ النُّقْصِ
ثم الذي يفهم من الآية أن الألف شهر المذكورة في الآية هي أيام بني أمية، والسورة مكية، فكيف يحال على ألف شهر هي دولة بني أمية، ولا يدل عليها لفظ الآية ولا معناها؟! والمنبر إنما صنع بالمدينة بعد مدة من الهجرة، فهذا كله مما يدل على ضعف هذا الحديث ونكارتة، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا مسلم - يعني ابن خالد - عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: أن النبي ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل ليس السلاح في سبيل الله ألف شهر، قال: فعجب المسلمون من ذلك، قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ التي لبس ذلك الرجل السلاح في سبيل الله ألف شهر. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا حكام بن سلم، عن المثني بن الصباح، عن مجاهد قال: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح، ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسي، ففعل ذلك ألف شهر، فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٢﴾﴾ قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرجل.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا يونس، أخبرنا ابن وهب، حدثني مسلمة بن علفي، عن علي بن عروة قال: ذكر رسول الله ﷺ يوماً أربعة من بني إسرائيل، عبدوا الله ثمانين عاماً، لم يغصوه طرفة عين: فذكر أيوب، وزكريا، وحزقيل بن العجوز، ويوشع بن نون - قال: فعجب أصحاب رسول الله ﷺ من ذلك، فأتاه جبريل فقال: يا محمد، عَجِبْتَ أَمَتَكَ مِنْ عِبَادَةِ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ ثَمَانِينَ سَنَةً، لَمْ يَغْصُوهُ طَرْفَةُ عَيْنٍ؛ فَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ. فَقَرَأَ عَلَيْهِ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾. هذا أفضل مما عجبك أنت وأمتك. قال: فسُرَّ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالنَّاسُ مَعَهُ. وقال سفيان الثوري: بلغني عن مجاهد: ليلة القدر خير من ألف شهر. قال: عَمَلُهَا، صِيَامُهَا وَقِيَامُهَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ. رواه ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا ابن أبي زائدة، عن ابن جريج، عن

مجاهد: ليلة القدر خير من ألف شهر، ليس في تلك الشهور ليلة القدر. وهكذا قال قتادة بن دعامة، والشافعي، وغير واحد. وقال عمرو بن قيس الملائي: عمل فيها خير من عمل ألف شهر. وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر - وليس فيها ليلة القدر - هو اختيار ابن جرير. وهو الصواب لا ما عده، وهو كقوله ﷺ: «رباط ليلة في سبيل الله خير من ألف ليلة فيما سواه من المنازل». رواه أحمد. وكما جاء في قاصد الجمعة بهيئة حسنة، ونية صالحة: «أنه يكتب له عمل سنة، أجر صيامها وقيامها» إلى غير ذلك من المعاني المشابهة لذلك. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي هريرة قال: لما حضر رمضان قال رسول الله ﷺ: «قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم». ورواه النسائي، من حديث أيوب، به.

ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر، ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه». وقوله: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركاتها، والملائكة ينزلون مع تنزل البركة والرحمة، كما ينزلون عند تلاوة القرآن ويحيطون بحلق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيماً له. وأما الروح فقيل: المراد به ها هنا جبريل، عليه السلام، فيكون من باب عطف الخاص على العام. وقيل: هم ضرب من الملائكة. كما تقدم في سورة «النبا». والله أعلم. وقوله: ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ قال مجاهد: سلام هي من كل أمر. وقال سعيد بن منصور: حدثنا عيسى بن يونس، حدثنا الأعمش، عن مجاهد في قوله: ﴿سَلَّمَ مِنْ﴾ قال: هي سالمة، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً أو يعمل فيها أذى. وقال قتادة وغيره: تقضى فيها الأمور، وتقدر الآجال والأرزاق، كما قال تعالى: ﴿وَيَا بَقَرُ كُلِّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]. وقوله: ﴿سَلَّمَ مِنْ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ قال سعيد بن منصور: حدثنا هشيم، عن أبي إسحاق، عن الشعبي في قوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ سَلَّمَ مِنْ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ قال: تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد، حتى يطلع الفجر. وروى ابن جرير عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «من كل امرئ». سلام هي حتى مطلع الفجر». وروى البيهقي في كتابه «فضائل الأوقات» عن عليٍّ أثراً غريباً في نزول الملائكة، ومرورهم على المصلين ليلة القدر، وحصول البركة للمصلين. وروى ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار أثراً غريباً عجيباً مطولاً جداً، في تنزل الملائكة من سدرة المنتهى صحبة جبريل، عليه السلام، إلى الأرض، ودعائهم للمؤمنين والمؤمنات. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا عمران - يعني القطان - عن قتادة، عن أبي ميمونة، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «إنها ليلة سابعة - أو: تاسعة - وعشرين، وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى». وقال الأعمش، عن المنهال، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى في قوله: ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ سَلَّمَ قال: لا يحدث فيها أمر. وقال قتادة وابن زيد في قوله: ﴿سَلَّمَ مِنْ﴾ يعني: هي خير كلها، ليس فيها شر إلى مطلع الفجر. ويؤيد هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد. حدثنا حيوة بن شريح، حدثنا بَقِيَّةُ، حدثني بحير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن عبادة بن الصامت: أن رسول الله ﷺ قال: «ليلة القدر في العشر البواقي، من قامهن ابتغاء حسبتهن، فإن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهي ليلة وتر: تسع أو سبع، أو خامسة، أو ثالثة، أو آخر ليلة». وقال رسول الله ﷺ: «إن أماره ليلة القدر أنها صافية بلجة، كأن فيها قمراً ساطعاً، ساكنة سجية، لا برد فيها ولا حر، ولا يحل لكوكب يُرمى به فيها حتى تصبح. وأن أمارتها أن الشمس صبيحتها تخرج مستوية، ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر، ولا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ». وهذا إسناد حسن، وفي المتن غرابة، وفي بعض ألفاظه نكارة. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا زَمْعَةُ، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «ليلة سمحة طلقة، لا حارة ولا باردة، وتصبح شمس صبيحتها ضعيفة حمراء». وروى ابن أبي عاصم النبيل بإسناده عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال: «إني رأيت ليلة القدر فأنسيتها، وهي في العشر الأواخر، من لياليها ليلة طلقة بلجة، لا حارة ولا باردة، كأن فيها قمراً، لا يخرج شيطانها حتى يضيء فجرها».



فصل

اختلف العلماء: هل كانت ليلة القدر في الأمم السالفة، أو هي من خصائص هذه الأمة؟ على قولين: قال أبو مَضْعَبٍ أحمد بن أبي بكر الزهري: حدثنا مالك: أنه بلغه: أن رسول الله ﷺ أرى أعمار الناس قبله - أو: ما شاء الله من ذلك - فكانه تقاصر

أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل الذي بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر خيراً من ألف شهر. وقد أسند من وجه آخر. وهذا الذي قاله مالك يقتضي تخصيص هذه الأمة بليلة القدر، وقد نقله صاحب «الغدة» أحد أئمة الشافعية من جمهور العلماء، فالله أعلم. وحكى الخطابي عليه الإجماع ونقله الرافعي جازماً به عن المذهب، والذي دل عليه الحديث أنها كانت في الأمم الماضية كما هي في أمتنا. قال أحمد بن حنبل: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عكرمة بن عمار: حدثني أبو زُمَيْل سِمَاك الحنفي، حدثني مالك بن مَرْثَد بن عبد الله، حدثني مَرْثَد قال: سألت أبا ذر قلت: كيف سألت رسول الله ﷺ عن ليلة القدر؟ قال: أنا كنت أسأل الناس عنها، قلت: يا رسول الله، أخبرني عن ليلة القدر، أفي رمضان هي أو في غيره؟ قال: «بل هي في رمضان». قلت: تكون مع الأنبياء ما كانوا، فإذا قبضوا رفعت؟ أم هي إلى يوم القيامة؟ قال: «بل هي إلى يوم القيامة». قلت: في أي رمضان هي؟ قال: «التمسوها في العشر الأول، والعشر الأوسط». ثم حدث رسول الله ﷺ وحدث، ثم اهتبلت غفلته قلت: في أي العشرين هي؟ قال: «ابتغوها في العشر الأوسط»، لا تسألني عن شيء بعدها. ثم حدث رسول الله ﷺ، ثم اهتبلت غفلته فقلت: يا رسول الله، أفسمت عليك بحقي عليك لما أخبرني في أي العشر هي؟ فغضب علي غضباً لم يغضب مثله منذ صحبتته، وقال: «التمسوها في السبع الأوسط»، لا تسألني عن شيء بعدها. ورواه النسائي عن الفلاس، عن يحيى بن سعيد القطان، به.

ففيه دلالة على ما ذكرناه، وفيه أنها تكون باقية إلى يوم القيامة في كل سنة بعد النبي ﷺ، لا كما زعمه بعض طوائف الشيعة من رفعها بالكلية، على ما فهموه من الحديث الذي سنورده بعد من قوله، عليه السلام: «فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم»، لأن المراد رفع علم وقتها عيناً. وفيه دلالة على أن ليلة القدر يختص وقوعها بشهر رمضان من بين سائر الشهور، لا كما زُوي عن ابن مسعود ومن تابعه من علماء أهل الكوفة، من أنها توجد في جميع السنة، وترجى في جميع الشهور على السواء. وقد ترجم أبو داود في سننه على هذا فقال: «باب بيان أن ليلة القدر في كل رمضان»: حدثنا حُمَيْد بن زُجْجِيه النسائي، أخبرنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا محمد بن جعفر بن أبي كثير، حدثني موسى بن عقبة، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن عبد الله بن عمر قال: سئل رسول الله ﷺ وأنا أسمع عن ليلة القدر، فقال: «هي في كل رمضان». وهذا إسناد رجاله ثقات إلا أن أبا داود قال: رواه شعبة وسفيان عن أبي إسحاق فأوقفاه. وقد حكى عن أبي حنيفة، رحمه الله، رواية أنها ترجى في جميع شهر رمضان. وهو وجه حكاه الغزالي، واستغربه الرافعي جداً.



فصل

ثم قد قيل: إنها في أول ليلة من شهر رمضان، يحكى هذا عن أبي رزين. وقيل: إنها تقع ليلة سبع عشرة. وروى فيه أبو داود حديثاً مرفوعاً عن ابن مسعود. وروى موقوفاً عليه، وعلى زيد بن أرقم، وعثمان بن أبي العاص. وهو قول عن محمد بن إدريس الشافعي، ويحكى عن الحسن البصري. ووجهه بأنها ليلة بدر، وكانت ليلة جمعة هي السابعة عشرة من شهر رمضان، وفي صبيحتها كانت وقعة بدر، وهو اليوم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]. وقيل: ليلة تسع عشرة، يحكى عن علي وابن مسعود أيضاً، رضي الله عنهما. وقيل: ليلة إحدى وعشرين؛ لحديث أبي سعيد الخدري قال: اعتكف رسول الله ﷺ في العشر الأول من رمضان واعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك. فاعتكف العشر الأوسط واعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك. ثم قام النبي ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان، فقال: «من كان اعتكف معي فليرجع، فإني رأيت ليلة القدر، وإني أنسيتها، وإنها في العشر الأوسط في وثر، وإني رأيت كأنني أسجد في طين وماء». وكان سقف المسجد جريداً من النخل، وما نرى في السماء شيئاً، فجاءت قرعة فمطرنا، فصلى بنا النبي ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ تصديق رؤياه. وفي لفظ: «في صبح إحدى وعشرين» أخرجاه في الصحيحين. قال الشافعي: وهذا الحديث أصح الروايات. وقيل: ليلة ثلاث وعشرين، لحديث عبد الله بن أنيس في «صحيح مسلم» وهو قريب السياق من رواية أبي سعيد، فالله أعلم. وقيل: ليلة أربع وعشرين، قال أبو داود الطيالسي: حدثنا حماد بن سلمة، عن الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، أن رسول الله ﷺ قال: «ليلة القدر ليلة أربع وعشرين». إسناده رجاله ثقات.

وقال أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن الصنابحي، عن بلال قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلة القدر ليلة أربع وعشرين». ابن لهيعة ضعيف. وقد خالفه ما رواه البخاري عن أصبغ، عن ابن وهب،

عن عمرو بن الحارث، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن أبي عبد الله الصنابحي قال: أخبرني بلال - مؤذن رسول الله ﷺ - أنها أول السبع من العشر الأواخر، فهذا الموقوف أصح، والله أعلم. وهكذا روي عن ابن مسعود، وابن عباس، وجابر، والحسن، وقتادة، وعبد الله بن وهب: أنها ليلة أربع وعشرين. وقد تقدم في سورة «البقرة» حديث واثلة بن الأسقع مرفوعاً: «إن القرآن أنزل ليلة أربع وعشرين». وقيل: تكون ليلة خمس وعشرين؛ لما رواه البخاري، عن عبد الله بن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى». فسره كثيرون بليالي الأوتار، وهو أظهر وأشهر. وحمله آخرون على الإشفاع كما رواه مسلم عن أبي سعيد، أنه حمله على ذلك. والله أعلم. وقيل: إنها تكون ليلة سبع وعشرين؛ لما رواه مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب، عن رسول الله ﷺ: «إنها ليلة سبع وعشرين». قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان: سمعت عبدة وعاصماً، عن زُرٍّ: سألت أبي بن كعب قلت: أبا المنذر، إن أخاك ابن مسعود يقول: من يُقيم الحول يُصب ليلة القدر. قال: يرحمه الله، لقد علم أنها في شهر رمضان، وأنها ليلة سبع وعشرين. ثم حلف. قلت: وكيف تعلمون ذلك؟ قال: بالعلامة - أو: بالآية - التي أخبرنا بها، تطلع ذلك اليوم لا شعاع لها، أعني الشمس. وقد رواه مسلم من طريق سفيان بن عيينة وشعبة والأوزاعي، عن عبدة، عن زُرٍّ، عن أبي، فذكره، وفيه: فقال: والله الذي لا إله إلا هو، إنها لفي رمضان - يحلف ما يستثني - والله إنني لأعلم أي ليلة القدر هي التي أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها، هي ليلة سبع وعشرين، وأما رثها أن تطلع الشمس في صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها. وفي الباب عن معاوية، وابن عمر، وابن عباس، وغيرهم، عن رسول الله ﷺ: أنها ليلة سبع وعشرين. وهو قول طائفة من السلف، وهو الجادة من مذهب أحمد بن حنبل، رحمه الله، وهو رواية عن أبي حنيفة أيضاً. وقد حُكي عن بعض السلف أنه حاول استخراج كونها ليلة سبع وعشرين من القرآن، من قوله: ﴿هِيَ﴾ لأنها الكلمة السابعة والعشرون من السورة، والله أعلم. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الذبيري، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَرٌ، عن قتادة وعاصم: أنهما سمعا عكرمة يقول: قال ابن عباس: دعا عمر بن الخطاب أصحاب محمد ﷺ، فسألهم عن ليلة القدر، فأجمعوا على أنها في العشر الأواخر. قال ابن عباس: فقلت لعمر: إنني لأعلم - أو: إنني لأظن - أي ليلة القدر هي؟ فقال عمر: أي ليلة هي؟ فقلت: سابعة تمضي - أو سابعة تبقى - من العشر الأواخر. فقال عمر: ومن أين علمت ذلك؟ قال ابن عباس: فقلت: خلق الله سبع سموات، وسبع أرضين، وسبعة أيام، وإن الشهر يدور على سبع، وخلق الإنسان من سبع، ويأكل من سبع، ويسجد من سبع، والطواف بالبيت سبع، ورمي الجمار سبع. . . . لأشياء ذكرها. فقال عمر: لقد فطنت لأمر ما فطنا له. وكان قتادة يزيد عن ابن عباس في قوله: ويأكل من سبع، قال: هو قول الله تعالى: ﴿فَلْيَبْتَغُوا فِيهَا حَبًّا ۖ وَنَبَاتًا وَقَضًى ۖ﴾ الآية [عبس: ٢٧، ٢٨]. وهذا إسناد جيد قوي، ونص غريب جداً، والله أعلم.

وقيل: إنها تكون في ليلة تسع وعشرين. قال أحمد بن حنبل: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا سعيد بن سلمة، حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل، عن عمر بن عبد الرحمن، عن عبادة بن الصامت: أنه سأل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر، فقال رسول الله ﷺ: «في رمضان، فالتمسوها في العشر الأواخر، فإنها في وتر إحدى وعشرين، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين، أو سبع وعشرين، أو تسع وعشرين، أو في آخر ليلة». وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود - وهو: أبو داود الطيالسي - حدثنا عمران القطان، عن قتادة، عن أبي ميمونة، عن أبي هريرة. أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «إنها ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين، وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى». تفرد به أحمد، وإسناده لا بأس به. وقيل: إنها تكون في آخر ليلة، لما تقدم من هذا الحديث آنفاً، ولما رواه الترمذي والنسائي، من حديث عُبَيْدَةَ بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي بكر، أن رسول الله ﷺ قال: «في تسع يمين، أو سبع يمين، أو خمس يمين، أو ثلاث، أو آخر ليلة». يعني التمسوا ليلة القدر. وقال الترمذي: حسن صحيح. وفي المسند من طريق أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في ليلة القدر: «إنها آخر ليلة».



فصل

قال الإمام الشافعي في هذه الروايات: صدرت من النبي ﷺ جواباً للسائل إذا قيل له: ألتمس ليلة القدر في الليلة الفلانية؟ يقول: «نعم». وإنما ليلة القدر ليلة مُعَيَّنَةٌ لا تنتقل. نقله الترمذي عنه بمعناه. وروي عن أبي قلابة أنه قال: ليلة القدر تنتقل في

العشر الأواخر. وهذا الذي حكاه عن أبي قلابة نص عليه مالك، والثوري، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو ثور، والمزني، وأبو بكر بن خزيمة، وغيرهم. وهو محكي عن الشافعي - نقله القاضي عنه، وهو الأشبه - والله أعلم. وقد يستأنس لهذا القول بما ثبت في الصحيحين، عن عبد الله بن عمر: أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان، فقال رسول الله ﷺ: «أرى رؤياكم قد توأطأت في السبع الأواخر، فمن كان متحريها فليتحريها في السبع الأواخر». وفيها أيضاً عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «تحرّوا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان». ولفظه للبخاري. ويحتج للشافعي أنها لا تنتقل، وأنها معينة من الشهر، بما رواه البخاري في صحيحه، عن عبادة بن الصامت قال: خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: «خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان، فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة». وجه الدلالة منه: أنها لو لم تكن معينة مستمرة التعيين، لما حصل لهم العلم بعينها في كل سنة، إذ لو كانت تنتقل لما علموا تعيينها إلا ذلك العام فقط، اللهم إلا أن يقال: إنه إنما خرج ليعلمهم بها تلك السنة فقط. وقوله: «فتلاحى فلان وفلان فرفعت»: فيه استئناس لما يقال: إن المماراة تقطع الفائدة والعلم النافع، وكما جاء في الحديث: «إن العبد ليُحرم الرزق بالذنب يُصيبه». وقوله: «فرفعت» أي: رفع علم تعيينها لكم، لا أنها رفعت بالكلية من الوجود، كما يقوله جهلة الشيعة؛ لأنه قد قال بعد هذا: «فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة». وقوله: «وعسى أن يكون خيراً لكم» يعني: عدم تعيينها لكم، فإنها إذا كانت مبهمة اجتهد طلابها في ابتغائها في جميع محال رجائها، فكان أكثر للعبادة، بخلاف ما إذا علموا عينا فإنها كانت الهمم تنقاصر على قيامها فقط. وإنما اقتضت الحكمة إيهامها لتعم العبادة جميع الشهر في ابتغائها، ويكون الاجتهاد في العشر الأواخر أكثر. ولهذا كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان، حتى توفاه الله، ﷺ. ثم اعتكف أزواجه من بعده. أخرجه من حديث عائشة. ولهما عن ابن عمر: كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان. وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر، أحيا الليل، وأيقظ أهله، وشد المئزر. أخرجه. ولمسلم عنها: كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره.

وهذا معنى قولها: «وشد المئزر». وقيل: المراد بذلك: اعتزال النساء. ويحتمل أن يكون كناية عن الأمرين، لما رواه الإمام أحمد: حدثنا سريج، حدثنا أبو مغشّر، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا بقي عشر من رمضان شدّ مئزره، واعتزل نساءه. انفرد به أحمد. وقد حكى عن مالك، رحمه الله، أن في جميع ليالي العشر تطلب ليلة القدر على السواء، لا يترجح منها ليلة على أخرى: رأيت في شرح الرافعي، رحمه الله. والمستحب الإكثار من الدعاء في جميع الأوقات، وفي شهر رمضان أكثر، وفي العشر الأخير منه، ثم في أوتاره أكثر. والمستحب أن يكثر من هذا الدعاء: «اللهم، إنك عفوٌ تحب العفو، فاعف عني»؛ لما رواه الإمام أحمد: حدثنا يزيد - هو ابن هارون - حدثنا الجريدي - وهو سعيد بن إياس - عن عبد الله بن بريدة، أن عائشة قالت: يا رسول الله، إن وافقت ليلة القدر فما أدعو؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو، فاعف عني». وقد رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، من طريق كهَمَس بن الحسين، عن عبد الله بن بريدة، عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، أرايت إن علمتُ أي ليلة القدر، ما أقول فيها؟ قال: «قولي: اللهم، إنك عفو تحب العفو، فاعف عني». وهذا لفظ الترمذي، ثم قال: «هذا حديث حسن صحيح». وأخرجه الحاكم في مستدركه، وقال: «هذا صحيح على شرط الشيخين». ورواه النسائي أيضاً من طريق سفيان الثوري، عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة عن عائشة قالت: يا رسول الله، أرايت إن وافقت ليلة القدر، ما أقول لها؟ قال: «قولي: اللهم، إنك عفو تحب العفو، فاعف عني». ذكر أثر غريب ونباً عجيب، يتعلق بليلة القدر، رواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم، عند تفسير هذه السورة الكريمة فقال: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي زياد القطواني، حدثنا سيار بن حاتم، حدثنا موسى بن سعيد - يعني الراسي - عن هلال أبي جبلة، عن أبي عبد السلام، عن أبيه، عن كعب أنه قال: إن سدرة المنتهى على حد السماء السابعة، مما يلي الجنة، فهي على حدّ هواء الدنيا وهواء الآخرة، علوها في الجنة، وعروقها وأغصانها من تحت الكرسي، فيها ملائكة لا يعلم عدّتهم إلا الله، ﷻ، يعبدون الله، ﷻ، على أغصانها في كل موضع شجرة منها ملك. ومقام جبريل، عليه السلام، في وسطها، فينادي الله جبريل أن ينزل في كل ليلة قدر مع الملائكة الذين يسكنون سدرة المنتهى، وليس فيهم ملك إلا قد أعطي الرأفة والرحمة للمؤمنين، فينزلون مع جبريل في ليلة القدر، حين تغرب الشمس، فلا تبقى بقعة في ليلة القدر إلا وعليها ملك، إما ساجد وإما قائم، يدعو للمؤمنين والمؤمنات، إلا أن تكون كنيسة أو بيعة، أو بيت نار أو وثن، أو بعض أماكنكم التي تطرحون فيها الخبث، أو بيت فيه

سكران، أو بيت فيه مُسكر، أو بيت فيه وثن منصوب، أو بيت فيه جرس مُعلق، أو مبولة، أو مكان فيه كساحة البيت، فلا يزالون ليلتهم تلك يدعون للمؤمنين والمؤمنات، وجبريل لا يدع أحداً من المؤمنين إلا صافحه، وعلامة ذلك من اقشعر جلده ورق قلبه ودمعت عيناه، فإن ذلك من مصافحة جبريل.

وذكر كعب أنه من قال في ليلة القدر: «لا إله إلا الله»، ثلاث مرات، غفر الله له بواحدة، ونجاه من النار بواحدة، وأدخله الجنة بواحدة. فقلنا لكعب الأحبار: يا أبا إسحاق، صادقاً؟ فقال كعب: وهل يقول: «لا إله إلا الله» في ليلة القدر إلا كل صادق؟ والذي نفسي بيده، إن ليلة القدر لتثقل على الكافر والمنافق، حتى كأنها على ظهره جبل، فلا تزال الملائكة هكذا حتى يطلع الفجر. فأول من يصعد جبريل حتى يكون في وجه الأنف الأعلى من الشمس، فيسقط جناحيه - وله جناحان أخضران، لا ينشرهما إلا في تلك الساعة - فتصير الشمس لا شعاع لها، ثم يدعو ملكاً فيصعد، فيجتمع نور الملائكة ونور جناحي جبريل، فلا تزال الشمس يومها ذلك متحيرة، فيقيم جبريل ومن معه بين الأرض وبين السماء الدنيا يومهم ذلك، في دعاء ورحمة واستغفار للمؤمنين والمؤمنات، ولمن صام رمضان احتساباً، ودعا لمن حدث نفسه إن عاش إلى قابل صام رمضان لله. فإذا أمسوا دخلوا السماء الدنيا، فيجلسون حلقاً حلقاً، فتجتمع إليهم ملائكة سماء الدنيا، فيسألونهم عن رجل رجل، وعن امرأة امرأة، فيحدثونهم حتى يقولوا: ماذا فعل فلان؟ وكيف وجدتموه العام؟ فيقولون: وجدنا فلاناً عام أول في هذه الليلة متعبداً ووجدناه العام مبتدعاً، ووجدناه العام عابداً قال: فيكفون عن الاستغفار لذلك، ويقبلون على الاستغفار لهذا، ويقولون: وجدنا فلاناً وفلاناً يذكران الله، ووجدنا فلاناً راکعاً، وفلاناً ساجداً، ووجدناه تالياً لكتاب الله. قال: فهم كذلك يومهم وليتهم، حتى يصعدون إلى السماء الثانية، ففي كل سماء يوم وليلة، حتى ينتهوا مكانهم من سدرة المنتهى، فتقول لهم سدرة المنتهى، يا سكاني، حدثوني عن الناس وسموهم لي. فإن لي عليكم حقاً، وإنني أحب من أحب الله. فذكر كعب أنهم يعدون لها، ويحكون لها الرجل والمرأة بأسمائهم وأسماء آبائهم. ثم تقبل الجنة على السدرة فتقول: أخبرني بما أخبرك سكانك من الملائكة. فتخبرها، قال: فتقول الجنة: رحمة الله على فلان، ورحمة الله على فلان، اللهم عجلهم إليّ، فيبلغ جبريل مكانه قبلهم، فيلهمه الله فيقول: وجدت فلاناً ساجداً فاغفر له. فيغفر له، فيسمع جبريل جميع حملة العرش فيقولون: رحمة الله على فلان، ورحمة الله على فلانة، ومغفرته لفلان، ويقول: يا رب، وجدت عبدك فلاناً الذي وجدته عام أول على السنة والعبادة، ووجدته العام قد أحدث حدثاً وتولى عما أمر به. فيقول الله: يا جبريل، إن تاب فأعطني قبل أن يموت بثلاث ساعات غفرت له. فيقول جبريل: لك الحمد إلهي، أنت أرحم من جميع خلقك، وأنت أرحم بعبادك من عبادك بأنفسهم، قال: فيرتج العرش وما حوله، والحجب والسموات ومن فيهن، تقول: الحمد لله الرحيم، الحمد لله الرحيم. قال: وذكر كعب أن من صام رمضان وهو يحدث نفسه إذا أفطر بعد رمضان ألا يعصي الله، دخل الجنة بغير مسألة ولا حساب.

آخر تفسير سورة «ليلة القدر» والله الحمد والمنة



تفسير سورة لم يكن

وهي مدنية. قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد - وهو ابن سلمة - أخبرنا علي - هو ابن زيد - عن عمار بن أبي عمار قال: سمعت أبا حية البدرى - وهو: مالك بن عمرو بن ثابت الأنصاري - قال: لما نزلت: ﴿لَمْ يَكُنِ الْأَدْنَىٰ كَقَرُّوْا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ إلى آخرها، قال جبريل: يا رسول الله، إن ربك يأمرك أن تقرئها أياً. فقال النبي ﷺ لأبي: «إن جبريل أمرني أن أقرئك هذه السورة». قال أبي: وقد ذكرت ثم يا رسول الله؟ قال: «نعم». قال: فبكى أبي. حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت قتادة يحدث عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ الْأَدْنَىٰ كَقَرُّوْا﴾». قال: وسماني لك؟ قال: «نعم». فبكى. ورواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، من حديث شعبة، به. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا مؤمل، حدثنا سفيان، حدثنا أسلم المتقري، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبزي، عن أبيه، عن أبي بن كعب قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إني أمرت أن أقرأ عليك سورة كذا وكذا». قلت: يا رسول الله، وقد ذكرت هناك؟ قال: «نعم». فقلت له: يا أبا المنذر، ففرحت بذلك. قال: وما يمنعني والله يقول: ﴿قُلْ يُضِلُّهُ اللَّهُ وَيَهْتِكُهُ فَيَذَلُّكَ فَيَقْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]. وقال مؤمل: قلت

لسفيان: القراءة في الحديث؟ قال: نعم. تفرد به من هذا الوجه.

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا: حدثنا شعبة، عن عاصم بن بهدلة، عن زر بن حبیش، عن أبي بن كعب قال: إن رسول الله ﷺ قال لي: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن». قال: فقرا: «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»، قال: فقرا فيها: ولو أن ابن آدم سأل وادياً من مال، فأعطيه، لسأل ثانياً، ولو سأل ثانياً فأعطيه، لسأل ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب. وإن ذلك الدين عند الله الحنيفية، غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية، ومن يفعل خيراً فلن يكفره. ورواه الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي، عن شعبة، به. وقال: حسن صحيح. طريق أخرى: قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن خلد الحلي، حدثنا محمد بن عيسى الطباع، حدثنا معاذ بن محمد بن معاذ بن أبي بن كعب، عن أبيه، عن جده، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر، إني أمرت أن أعرض عليك القرآن». قال: بالله أمنت، وعلى يدك أسلمت، ومنك تعلمت. قال: فرد النبي ﷺ القول. قال: فقال: يا رسول الله، أذكرت هناك؟ قال: «نعم، باسمك ونسبك في الملأ الأعلى». قال: فاقرا إذا يا رسول الله. هذا غريب من هذا الوجه، والثابت ما تقدم. وإنما قرأ عليه النبي ﷺ هذه السورة تثنياً له، وزيادة لإيمانه، فإنه كما رواه أحمد والنسائي، من طريق أنس، عنه، ورواه أحمد وأبو داود، من حديث سليمان بن صرد عنه، ورواه أحمد عن عفان، عن حماد، عن حميد، عن أنس، عن عبادة بن الصامت، عنه، ورواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي، من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الله بن عيسى، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عنه، كان قد أنكر على إنسان، وهو: عبد الله بن مسعود، قراءة شيء من القرآن على خلاف ما قرأه رسول الله ﷺ فرفعه إلى النبي ﷺ فاستقرأهما، وقال، لكل منهما: «أصبت». قال أبي: فأخذني من الشك ولا إذ كنت في الجاهلية. فضرب رسول الله ﷺ في صدره، قال أبي: ففُضْتُ عرقاً، وكأنما أنظر إلى الله فرقاً. وأخبره رسول الله ﷺ أن جبريل أتاه فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمك القرآن على حرف. فقلت: «أسأل الله معافاته ومغفرته». فقال: على حرفين. فلم يزل حتى قال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمك القرآن على سبعة أحرف. كما قدمنا هذا الحديث بطرقه والأفاظه في أول التفسير. فلما نزلت هذه السورة الكريمة وفيها: «رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾»، قرأها عليه رسول الله ﷺ قراءة إبلاغ وتثبيت وإنذار، لا قراءة تعلم واستذكار، والله أعلم.

وهذا كما أن عمر بن الخطاب لما سأل رسول الله ﷺ يوم الحديبية عن تلك الأسئلة، وكان فيما قال: أو لم تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرت أنك تأتيه عامك هذا؟». قال: لا، قال: «فلنك أتيه، ومطوف به». فلما رجعوا من الحديبية، وأنزل الله على النبي ﷺ سورة «الفتح»، دعا عمر بن الخطاب وقرأها عليه، وفيها قوله: «لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْزُّبْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْفَسْجَدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مُمِيتٌ ﴿٢٧﴾» الآية [الفتح: ٢٧]، كما تقدم. وروى الحافظ أبو نعيم في كتابه «أسماء الصحابة» من طريق محمد بن إسماعيل الجعفري المدني: حدثنا عبد الله بن سلمة بن أسلم، عن ابن شهاب، عن إسماعيل بن أبي حكيم المدني، حدثني فضيل، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ليسمع قراءة ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾»، فيقول: أبشر عبدي، فوعزتي لأمكنه لك في الجنة حتى ترضى». حديث غريب جداً. وقد رواه الحافظ أبو موسى المديني وابن الأثير، من طريق الزهري، عن إسماعيل بن أبي حكيم، عن نظير المزني - أو: المدني - عن النبي ﷺ: «إن الله ليسمع قراءة ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾» ويقول: أبشر عبدي، فوعزتي لا أنساك على حال من أحوال الدنيا والآخرة، ولأمكنن لك في الجنة حتى ترضى».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْمُشْرِكِينَ مُنْكَبٍ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْآيَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَيْنِ مَا جَاءَهُمْ الْآيَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ عَالِمِينَ لَهُ الَّذِينَ خُفَّتْ رُءُوسُهُمْ وَالْأَلْوَانُ وَالنِّيرانُ، مِنَ الْعَرَبِ وَمِنَ الْعَجَمِ. وقال مجاهد: لم يكونوا «مُنْكَبٍ» يعني: منتهين حتى يتبين لهم الحق. وكذا قال قتادة: «حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْآيَةُ» أي: هذا القرآن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْمُشْرِكِينَ مُنْكَبٍ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْآيَةُ ﴿١﴾﴾. ثم فسر البيضاوي بقوله: «رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾» يعني: محمداً ﷺ، وما يتلوه من القرآن العظيم، الذي هو مكتتب في الملأ الأعلى، في صحف مطهرة كقوله:

أما أهل الكتاب فهم: اليهود والنصارى، والمشركون: عبدة الأوثان والنيران، من العرب ومن العجم. وقال مجاهد: لم يكونوا «مُنْكَبٍ» يعني: منتهين حتى يتبين لهم الحق. وكذا قال قتادة: «حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْآيَةُ» أي: هذا القرآن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْمُشْرِكِينَ مُنْكَبٍ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْآيَةُ ﴿١﴾﴾. ثم فسر البيضاوي بقوله: «رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾» يعني: محمداً ﷺ، وما يتلوه من القرآن العظيم، الذي هو مكتتب في الملأ الأعلى، في صحف مطهرة كقوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْفَرِيقَةِ﴾ ﴿١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْفَرِيقَةِ ﴿٢﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٣﴾

يخبر تعالى عن مآل الفجار، من كفر أهل الكتاب، والمشركون المخالفين لكتب الله المنزل وأنبياء الله المرسل: أنهم يوم القيامة: ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين، لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْفَرِيقَةِ﴾ أي: شر الخليقة التي برأها الله وذراها. ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار - الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بأبدانهم - بأنهم خير البرية. وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء، على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة؛ لقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْفَرِيقَةِ﴾. ثم قال: ﴿جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي: بلا انقضاء ولا فراغ. ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾: ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فيما منحهم من الفضل العقيم. وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي: هذا الجزاء حاصل لمن خشي الله واتقاه حق تقواه، وعبده كأنه يراه، قد علم أنه إن لم يره فإنه يراه. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا أبو معشر، عن أبي وهب - مولى أبي هريرة - عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير البرية؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، كلما كانت هَيْفَةً استوى عليه. ألا أخبركم بخير البرية؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «رجل في ثُلَّة من غنمه، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة. ألا أخبركم بشر البرية؟». قالوا: بلى. قال: «الذي يسأل بالله، ولا يُعطي به».

آخر تفسير سورة «لم يكن»



وهي مكية. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا سعيد، حدثنا عياش بن عباس، عن عيسى بن هلال الصّدفي، عن عبد الله بن عمرو قال: أتى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أقرئني يا رسول الله. قال له: «اقرأ ثلاثاً من ذات الر». فقال له الرجل: كبر سنني واستد قلبي، وغلظ لساني. قال: «فاقرأ من ذات حم»، فقال مثل مقالته الأولى. فقال: «اقرأ ثلاثاً من المسبحات»، فقال مثل مقالته. فقال الرجل: ولكن أقرئني -يا رسول الله- سورة جامعة. فأقرأه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ حتى إذا فرغ منها قال الرجل: والذي بعثك بالحق، لا أزيد عليها أبداً. ثم أدبر الرجل، فقال رسول الله ﷺ: «أفلح الرويجل! أفلح الرويجل!» ثم قال: «علي به». فجاءه فقال له: «أمرت بيوم الأضحى جعله الله عيداً لهذه الأمة». فقال له الرجل: رأيت إن لم أجد إلا منيحة أنشئ فأضحى بها؟ قال: «لا، ولكنك تأخذ من شعرك، وتقليم أظفارك، وتقص شاربك، وتحلق عانتك،

فذلك تمام أضحيتك عند الله، ﷻ. وأخرجه أبو داود والنسائي، من حديث أبي عبد الرحمن المقرئ، به. وقال الترمذي: حدثنا محمد بن موسى الحرشي البصري: حدثنا الحسن بن سلم بن صالح العجلي، حدثنا ثابت البناني، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾، عدلت له بنصف القرآن». ثم قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسن بن سلم. وقد رواه البزار عن محمد بن موسى الحرشي، عن الحسن بن سلم، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾» تعدل ثلث القرآن، و﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ تعدل ربع القرآن. هذا لفظه. وقال الترمذي أيضاً: حدثنا علي بن حنجر، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا يمان بن المغيرة العنزي، حدثنا عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ تعدل نصف القرآن، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ تعدل ثلث القرآن، و﴿قُلْ يَأْتِيهَا الْكُتُوبُ ﴿٢﴾﴾ تعدل ربع القرآن». ثم قال: غريب، لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة. وقال أيضاً: حدثنا عقبة بن مكرم العتي البصري، حدثني ابن أبي فديك، أخبرني سلمة بن وردان، عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: «هل تزوجت يا فلان؟» قال: لا، والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج؟! قال: «أليس معك ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾؟» قال: بلى. قال: «ثلث القرآن». قال: «أليس معك ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿٢﴾﴾؟» قال: بلى. قال: «ربع القرآن». قال: «أليس معك ﴿قُلْ يَأْتِيهَا الْكُتُوبُ ﴿١﴾﴾؟» قال: بلى. قال: «ربع القرآن». قال: «أليس معك ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ ﴿٢﴾﴾؟» قال: بلى. قال: «ربع القرآن تزوج، تزوج». ثم قال: هذا حديث حسن. تفرد بهن ثلاثهين الترمذي، لم يروه من غيره أصحاب الكتب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُخْبِثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُسْرَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾.

قال ابن عباس: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ أي: تحركت من أسفلها. ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ يعني: ألقت ما فيها من الموتى. قاله غير واحد من السلف. وهذه كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَثْقَالًا رُبُّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحج: ١]، وكقوله: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿١﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٢﴾﴾ [الانشقاق: ٣، ٤]. وقال مسلم في صحيحه: حدثنا واصل بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن فضيل، عن أبيه، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلتي، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً». وقوله: ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾ أي: استنكر أمرها بعد ما كانت قارة ساكنة ثابتة، وهو مستقر على ظهرها، أي: تقلبت الحال، فصارت متحركة مضطربة، قد جاءها من أمر الله ما قد أعد لها من الزلزال الذي لا محيد لها عنه، ثم ألقت ما في بطنها من الأموات من الأولين والآخرين، وحينئذ استنكر الناس أمرها وتبدلت الأرض غير الأرض والسموات، وبرزوا الله الواحد القهار. وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُخْبِثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ أي: تحدث بما عمل العاملون على ظهرها. قال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم، حدثنا ابن المبارك. وقال الترمذي وأبو عبد الرحمن النسائي، واللفظ له: حدثنا سويد بن نصر، أخبرنا عبد الله، هو ابن المبارك. عن سعيد بن أبي أيوب، عن يحيى بن أبي سليمان، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُخْبِثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ قال: «أتدرون ما أخبرها؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن أخبرها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا، يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب. وفي معجم الطبراني من حديث ابن لهيعة: حدثني الحارث بن يزيد - سمع ربيعة الجرشي - أن رسول الله ﷺ قال: «تحفظوا من الأرض، فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً، إلا وهي مخبرة». وقوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾﴾ قال البخاري: أوحى لها وأوحى إليها، ووحى لها ووحى إليها: واحد. وكذا قال ابن عباس: ﴿أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾﴾ أي: أوحى إليها. والظاهر أن هذا مضمَّن بمعنى أذن لها. وقال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَئِذٍ تُخْبِثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ قال: قال لها ربها: قولني، فقالت. وقال مجاهد: ﴿أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾﴾ أي: أمرها. وقال القرظي: أمرها أن تنشق عنهم. وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا ﴿٦﴾﴾ أي: يرجعون عن مواقف الحساب، ﴿أَشْتَاتًا﴾ أي: أنوعاً وأصنافاً، ما بين شقي وسعيد، مأمور به إلى الجنة، ومأمور به إلى النار. قال ابن جريج: يتصدعون أشتاتاً فلا يجتمعون آخر ما عليهم. وقال السدي: ﴿أَشْتَاتًا﴾: فرقاً.

وقوله تعالى: ﴿يَسْرُوا أَعْمَلَهُمْ﴾ أي: ليعملوا ويجازوا بما عملوه في الدنيا، من خير وشر. ولهذا قال: ﴿فَمَنْ يَسْمَلْ يَشْفَكَلْ دَرُّوْ حَيْرًا يَسْرُ﴾ (٧) وَمَنْ يَسْمَلْ يَشْفَكَلْ دَرُّوْ شَرًّا يَسْرُ﴾ (٨). قال البخاري: حدثنا إسماعيل بن عبد الله، حدثني مالك، عن يزيد بن أسلم، عن أبي صالح السمان، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «الخيال للثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر؛ فأما الذي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله فاطال طيلها في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك في المرج والروضة كان له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستتت شرفاً أو شرفين، كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقي به كان ذلك حسنات له، وهي لذلك الرجل أجر. ورجل ربطها تغنياً وتعففاً، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له ستر. ورجل ربطها فخراً وثناء ونواء، فهي على ذلك وزر». فمثل رسول الله ﷺ عن الحُمُر، فقال: «ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿فَمَنْ يَسْمَلْ يَشْفَكَلْ دَرُّوْ حَيْرًا يَسْرُ﴾ (٧) وَمَنْ يَسْمَلْ يَشْفَكَلْ دَرُّوْ شَرًّا يَسْرُ﴾ (٨)». ورواه مسلم، من حديث زيد بن أسلم، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا جرير بن حازم، حدثنا الحسن، عن صعصة - عم الفرزدق - أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه: ﴿فَمَنْ يَسْمَلْ يَشْفَكَلْ دَرُّوْ حَيْرًا يَسْرُ﴾ (٧) وَمَنْ يَسْمَلْ يَشْفَكَلْ دَرُّوْ شَرًّا يَسْرُ﴾ (٨)، قال: حسبي! لا أبالي ألا أسمع غيرها. وهكذا رواه النسائي في التفسير، عن إبراهيم بن يونس بن محمد المؤدب، عن أبيه، عن جرير بن حازم، عن الحسن البصري قال: حدثنا صعصة عم الفرزدق، فذكره. وفي صحيح البخاري، عن عدي مرفوعاً: «اتقوا النار ولو بشق ثمرة، ولو بكلمة طيبة». وفي الصحيح: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تغرق من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط». وفي الصحيح أيضاً: «يا نساء المؤمنات، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة» يعني: ظلفها. وفي الحديث الآخر: «ردوا السائل ولو بظلف مخرق». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثنا كثير بن زيد، عن المطلب بن عبد الله، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة، استري من النار ولو بشق ثمرة، فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان». تفرد به أحمد. وزوي عن عائشة أنها تصدقت بعنبة، وقالت: كم فيها من مثقال ذرة. وقال أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا سعيد بن مسلم، سمعت عامر بن عبد الله بن الزبير: حدثني عوف بن الحارث بن الطفيل: أن عائشة أخبرته: أن النبي ﷺ كان يقول: «يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالباً». ورواه النسائي وابن ماجه، من حديث سعيد بن مسلم بن بآلك، به. وقال ابن جرير: حدثني أبو الخطاب الحساني، حدثنا الهيثم بن الربيع، حدثنا سماك بن عطية، عن أيوب، عن أبي قلابه، عن أنس قال: كان أبو بكر يأكُل مع النبي ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿فَمَنْ يَسْمَلْ يَشْفَكَلْ دَرُّوْ حَيْرًا يَسْرُ﴾ (٧) وَمَنْ يَسْمَلْ يَشْفَكَلْ دَرُّوْ شَرًّا يَسْرُ﴾ (٨)، فرغ أبو بكر يده وقال: يا رسول الله، إني أجزى بما علمت من مثقال ذرة من شر؟ فقال: «يا أبا بكر، ما رأيت في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر ويدخر الله لك مثاقيل ذر الخير حتى تُوفاه يوم القيامة».

ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه عن أبي الخطاب، به. ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا أيوب قال: في كتاب أبي قلابه، عن أبي إدريس، أن أبا بكر كان يأكُل مع النبي ﷺ، فذكره. ورواه أيضاً عن يعقوب، عن ابن عُلَيَّة، عن أيوب، عن أبي قلابه: أن أبا بكر، وذكره. طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني حُجَي بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: لما نزلت: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالًا﴾ (١) وأبو بكر الصديق، رضي الله عنه، قاعد، فبكى حين أنزلت، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر؟» قال: يبكيني هذه السورة. فقال له رسول الله ﷺ: «لولا أنكم تخطئون وتذنبون، فيغفر الله لكم، لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون فيغفر لهم». حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة وعلي بن عبد الرحمن بن محمد بن المغيرة - المعروف بعلان المصري - قال: حدثنا عمرو بن خالد الحراني، حدثنا ابن لهيعة، أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت: ﴿فَمَنْ يَسْمَلْ يَشْفَكَلْ دَرُّوْ حَيْرًا يَسْرُ﴾ (٧) وَمَنْ يَسْمَلْ يَشْفَكَلْ دَرُّوْ شَرًّا يَسْرُ﴾ (٨) قلت: يا رسول الله، إني لراء عملي؟ قال: «نعم». قلت: تلك الكبار الكبار؟ قال: «نعم». قلت: الصغار الصغار؟ قال: «نعم». قلت: وأشكل أُمي. قال: «أبشر يا أبا سعيد، فإن الحسنات بعشر أمثالها - يعني إلى سبعمائة ضعف - ويضاعف الله لمن يشاء، والسينة بمثلها أو يغفر الله، ولن ينجو أحد منكم بعمله». قلت: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة». قال أبو زرعة: لم يرو هذا غير ابن لهيعة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني ابن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَسْمَلْ يَشْفَكَلْ دَرُّوْ حَيْرًا يَسْرُ﴾ (٧) وَمَنْ يَسْمَلْ يَشْفَكَلْ دَرُّوْ شَرًّا يَسْرُ﴾ (٨)، وذلك لما نزلت هذه الآية: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَىٰ مُوْجِهِ

وَمَشِيكًا وَفَيْكًا وَأَيُّكًا ﴿٨﴾ [الإنسان: ٨]، كان المسلمون يرون أنهم لا يُؤجرون على الشيء القليل الذي أعطوه، فيجيء المسكين إلى أبوابهم فيستقلون أن يعطوه التمرة والكسرة والجوزة ونحو ذلك، فيردونه ويقولون: ما هذا بشيء. إنما نُؤجر على ما نعطي ونحن نحبه. وكان آخرون يزعمون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير: الكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك، يقولون: إنما وعد الله النار على الكبائر. فرغهم في القليل من الخير أن يعملوه، فإنه يوشك أن يكثر، وحذرهم اليسير من الشر، فإنه يوشك أن يكثر، فنزلت: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ يعني: وزن أصغر النمل ﴿حَسْبُكَ يَوْمَ يَسَّرُهُ﴾ يعني: في كتابه، ويسرّه ذلك. قال: يكتب لكل بر وفاجر بكل سيئة سيئة واحدة. وبكل حسنة عشرة حسنات، فإذا كان يوم القيامة ضاعف الله حسنات المؤمنين أيضاً، بكل واحدة عشر، ويمحو عنه بكل حسنة عشر سيئات، فمن زادت حسناته على سيئاته مثقال ذرة، دخل الجنة. وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عمران، عن قتادة، عن عبد ربه، عن ابن عباس، عن عبد الله بن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه». وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً، كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً، وأججوا ناراً، وأنضجوا ما قذفوا فيها.

آخر تفسير سورة «إذا زلزلت» وشه الحمد والمنة



تفسير سورة العاديات

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ وَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ وَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَنْزَلْنَاهُ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمًّا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

يقسم تعالى بالخيول إذا أجريت في سبيله فقدت وضبحت، وهو: الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو. ﴿وَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ يعني: اصطكاك نعالها للصحفر فتقدح منه النار. ﴿وَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ يعني: الإغارة وقت الصباح، كما كان رسول الله ﷺ يغير صباحاً ويستمتع أذاناً، فإن سمع وإلا أغار. وقوله: ﴿فَأَنْزَلْنَاهُ نَقْعًا﴾ يعني: غباراً في مكان معترك الخيول. ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمًّا﴾ أي: توسطن ذلك المكان كلهن جمع. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبدة، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عبد الله: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ قال: الإبل. وقال علي: هي الإبل. وقال ابن عباس: هي الخيل. فبلغ علياً قول ابن عباس، فقال: ما كانت لنا خيل يوم بدر. قال ابن عباس: إنما كان ذلك في سرية بعثت. قال ابن أبي حاتم وابن جرير: حدثنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني أبو صخر، عن أبي معاوية البجلي، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس حده، قال: بينا أنا في الجحر جالساً، جاءني رجل فسألني عن: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾، فقلت له: الخيل حين تغير في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل، فيصنعون طعامهم، ويورون نارهم. فأنفقت عني فذهب إلى علي، رضي الله عنه، وهو عند سقاية زمزم فسأله عن: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾، فقال: سألت عنها أحداً قبلي؟ قال: نعم، سألت ابن عباس فقال: الخيل حين تغير في سبيل الله. قال: اذهب فادعه لي. فلما وقف على رأسه قال: تغني الناس بما لا علم لك، والله لئن كان أول غزوة في الإسلام بدر، وما كان معنا إلا فرسان: فرس للزبير وفرس للمقداد، فكيف تكون العاديات ضبحاً؟ إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى المزدلفة، ومن المزدلفة إلى منى. قال ابن عباس: فتزعت عن قولتي ورجعت إلى الذي قال علي، رضي الله عنه. وبهذا الإسناد عن ابن عباس قال: قال علي: إنما ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ من عرفة إلى المزدلفة، فإذا أروا إلى المزدلفة أروا النيران. وقال العوفي عن ابن عباس: هي الخيل. وقد قال بقول علي: إنها الإبل جماعة. منهم: إبراهيم، وعبيد بن عمير. ويقول ابن عباس آخرون، منهم: مجاهد وعكرمة، وعطاء وقتادة، والضحاك. واختاره ابن جرير. قال ابن عباس، وعطاء: ما ضبحت دابة قط إلا فرس أو كلب. وقال ابن جُرَيج، عن عطاء: سمعت ابن عباس يصف الضبيح: أح. ح. وقال أكثر هؤلاء في

قوله: ﴿فَالْمُورِيَّتِ قَدَمًا﴾ (١) يعني: بحوافرها. وقيل: أسمرن الحرب بين رُكبانهم. قاله قتادة: وعن ابن عباس ومجاهد: ﴿فَالْمُورِيَّتِ قَدَمًا﴾ (٢) يعني: مكر الرجال. وقيل: هو إيقاد النار إذا رجعوا إلى منازلهم من الليل. وقيل: المراد بذلك: نيران القبائل. وقال من فسرهما بالخيول: هو إيقاد النار بالمزدلفة. وقال ابن جرير: والصواب الأول؛ أنها الخيل حين تقدم بحوافرها. وقوله: ﴿فَالْمُورِيَّتِ شِبَعًا﴾ (٣) قال ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة: يعني إغارة الخيل صباحاً في سبيل الله. وقال من فسرهما بالإبل: هو الدلفع صباحاً من المزدلفة إلى منى. وقالوا كلهم في قوله: ﴿فَأَنْزَلَ بِهِ نَقْمًا﴾ (٤) هو: المكان الذي إذا حلت فيه أثارت به الغبار، إما في حج أو غزو. وقوله: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمًّا﴾ (٥) قال العوفي، عن ابن عباس، وعطاء، وعكرمة، وقاتدة، والضحاك: يعني جمع الكفار من العدو. ويحتمل أن يكون: فوسطن بذلك المكان جميعهم، ويكون ﴿جَمًّا﴾ منصوباً على الحال المؤكدة.

وقد روى أبو بكر البزار ما هنا حديثاً غريباً جداً فقال: حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا حفص بن جُميع، حدثنا سَمَك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ خيلاً فاشهرت شهراً لا يأتيه منها خير، فنزلت: ﴿وَالْمُورِيَّتِ صَبَاً﴾ (١)، صبحت بأرجلها، ﴿فَالْمُورِيَّتِ قَدَمًا﴾ (٢) قدحت بحوافرها الحجارة فأورت ناراً، ﴿فَالْمُورِيَّتِ شِبَعًا﴾ (٣) صبحت القوم بغارة، ﴿فَأَنْزَلَ بِهِ نَقْمًا﴾ (٤) أثارت بحوافرها التراب، ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمًّا﴾ (٥) قال: صبحت القوم جميعاً. وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (٦) هذا هو المقسم عليه، بمعنى: أنه لنعم ربه لجحود كفور. قال ابن عباس، ومجاهد وإبراهيم التيمي، وأبو الجوزاء، وأبو العالية، وأبو الضحى، وسعيد بن جبير، ومحمد بن قيس، والضحاك، والحسن، وقاتدة، والربيع بن أنس، وابن زيد: الكنود: الكفور. قال الحسن: هو الذي يعد المصائب، وينسى نعم ربه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو كريب، حدثنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (٦)، قال: «الكفور الذي يأكل وحده، ويضرب عبده، ويمنع رفته». ورواه ابن أبي حاتم، من طريق جعفر بن الزبير - وهو متروك - فهذا إسناد ضعيف. وقد رواه ابن جرير أيضاً من حديث حريز بن عثمان، عن حمزة بن هانئ، عن أبي أمامة موقوفاً. وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ لَشَهِيدٌ﴾ (٧) قال قتادة وسفيان الثوري: وإن الله على ذلك لشهيد. ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان، قاله محمد بن كعب القرظي، فيكون تقديره: وإن الإنسان على كونه كنوداً لشهيد، أي: بلسان حاله، أي: ظاهر ذلك عليه في أقواله وأفعاله، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَمْلِكُوا شَيْئاً مَّا يَشَاءُ اللَّهُ شَهِيدِينَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ بِالْكَفَرِ﴾ [التوبة: ١٧]. وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ لِحِبِّ الْآخِرَةِ لَشَهِيدٌ﴾ (٨) أي: وإنه لحب الخير - وهو: المال - لشديد. وفيه مذهبان: أحدهما: أن المعنى: وإنه لشديد المحبة للمال. والثاني: وإنه لحريص بخيل؛ من محبة المال. وكلاهما صحيح. ثم قال تعالى مُزْهِدًا في الدنيا، ومُرْغَبًا في الآخرة، ومنهياً على ما هو كائن بعد هذه الحال، وما يستقبله الإنسان من الأهوال: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ (٩) أي: أخرج ما فيها من الأموات، ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ (١٠) قال ابن عباس وغيره: يعني أبرز وأظهر ما كانوا يسرون في نفوسهم، ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ (١١) أي: لعالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون، مجازيهم عليه أوفر الجزاء، ولا يظلم مثقال ذرة.

آخر تفسير سورة «العاديات» وش الحمد والمنة، وحسبنا الله



تفسير سورة القارعة

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْقَارِعَةُ﴾ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَلَمَّا مَن ثَلُثُ مَوَازِيئُهُ (٦) هُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَن حَقَّتْ مَوَازِيئُهُ (٨) فَأَمَّهُمْ كَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١).

﴿الْقَارِعَةُ﴾ (١) : من أسماء يوم القيامة، كالحاقة، والطامة، والصاخة، والغاشية، وغير ذلك. ثم قال معظماً أمرها ومهولاً

لشأنها: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾؟ ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ (١) أي: في انتشارهم وتفرقهم، وذهابهم ومجيئهم، من حيرتهم مما هم فيه، كأنهم فراش مبثوث، كما قال في الآية الأخرى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَفِرٌ﴾ (القم: ١٧). وقوله: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ (٢) يعني: قد صارت كأنها الصوف المنفوش، الذي قد شرع في الذهاب والتمزق. قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني، والضحاك، والسدي: ﴿كَالْعِهْنِ﴾: الصوف. ثم أخبر تعالى عما يؤول إليه عمل العاملين، وما يصيرون إليه من الكرامة أو الإهانة، بحسب أعمالهم، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٣) أي: رجحت حسناته على سيئاته، ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (٤) يعني: في الجنة. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٥) أي: رجحت سيئاته على حسناته. وقوله: ﴿فَأَثَرُهُ كَاوِيَةٌ﴾ (٦) قيل: معناه: فهو ساقط هاو بأم رأسه في نار جهنم. وعبر عنه بأمة - يعني دماغه - روي نحو هذا عن ابن عباس، وعكرمة، وأبي صالح، وقتادة. قال قتادة: يهوي في النار على رأسه. وكذا قال أبو صالح: يهون في النار على رؤوسهم. وقيل: معناه: ﴿فَأَثَرُهُ﴾ - التي يرجع إليها، ويصير في المعاد إليها ﴿كَاوِيَةٌ﴾، وهي اسم من أسماء النار. قال ابن جرير: وإنما قيل: للهاوية أمة؛ لأنه لا ماوى له غيرها. وقال ابن زيد: الهاوية: النار، هي أمه وماواه التي يرجع إليها ويأوي إليها، وقرأ: ﴿وَمَا أَوْثَقُكَ النَّارُ﴾ (٧) عمران: ١٥١. قال ابن أبي حاتم: وروي عن قتادة أنه قال: هي النار، وهي ماواهم. ولهذا قال تعالى مفسراً للهاوية: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾ (٨) نَارٌ حَامِيَةٌ (٩). قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن مَعْمَرٍ، عن الأشعث بن عبد الله الأعمى قال: إذا مات المؤمن ذهب بروحه إلى أرواح المؤمنين، فيقولون: رَوْحُوا أَحَاكُم، فإنه كان في غم الدنيا. قال: ويسألونه: ما فعل فلان؟ فيقول: مات، أو ما جاءكم؟ فيقولون: ذهب به إلى أمه الهاوية. وقد رواه ابن مَرْزُوقٍ عن طريق أنس بن مالك مرفوعاً، بأبسط من هذا. وقد أوردناه في كتاب صفة النار، أجارنا الله منها بمنه وكرمه. وقوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ (٩) أي: حارة شديدة الحر، قوية اللهب والسعير. قال أبو مصعب، عن مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزء من نار جهنم». قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية. فقال: «إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً». ورواه البخاري، عن إسماعيل بن أبي أويس، عن مالك. ورواه مسلم عن قُتَيْبَةَ، عن المغيرة بن عبد الرحمن، عن أبي الزناد، به. وفي بعض ألفاظه: «إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً، كلهن مثل حرها». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا حماد - وهو ابن سلمة - عن محمد بن زياد - سمع أبا هريرة يقول: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «نار بني آدم التي توقدون، جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم». فقال رجل: إن كانت لكافية. فقال: «لقد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً حراً فحراً». تفرد به أحمد من هذا الوجه، وهو على شرط مسلم.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ - وعمره، عن يحيى بن جَعْدَةَ -: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد». وهذا على شرط الصحيحين، ولم يخرجه من هذا الوجه، وقد رواه مسلم في صحيحه من طريق ابن أبي الزناد. ورواه البزار من حديث عبد الله بن مسعود، وأبي سعيد الخدري: «ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً». وقد قال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا عبد العزيز - هو ابن محمد الدراوردي - عن سهيل عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «هذه النار جزء من مائة جزء من جهنم». تفرد به أيضاً من هذا الوجه، وهو على شرط مسلم أيضاً. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن عمرو الخلال، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي، حدثنا مَعْنُ بن عيسى القزاز، عن مالك، عن عَمَّةِ أَبِي سَهْلٍ، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم؟ لهما أشد سواداً من دخان ناركم هذه بسبعين ضعفاً». وقد رواه أبو مصعب، عن مالك، ولم يرفعه. وروى الترمذي وابن ماجه، عن عباس الدوري، عن يحيى بن أبي بكير: حدثنا شريك، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة». وقد روي هذا من حديث أنس وعمر بن الخطاب. وجاء في الحديث - عند الإمام أحمد - من طريق أبي عثمان التهدي، عن أنس - وأبي نضرة العبدي، عن أبي سعيد وعجلان مولى المشمقل، عن أبي هريرة - عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان يغلي منهما دماغه». وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بتقسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف. فأشد ما تجدون في الشتاء من بردها، وأشد ما تجدون في الصيف من حرها». وفي الصحيحين: «إذا اشتد

الحر فأبردوا عن الصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم.

آخر تفسير سورة «القارعة»



تفسير سورة التكاثر

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْهَنَكُمُ الْكَاثِرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتَسْتَلْزَمُنَّ فِيهَا النَّارَ ۝﴾.

يقول تعالى: شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر، وصرتم من أهلها؟! قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا زكريا بن يحيى الوقار المصري، حدثني خالد بن عبد الدايم، عن ابن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿الْهَنَكُمُ الْكَاثِرُ﴾ ① عن الطاعة، ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ②: «حتى يأتاكم الموت». وقال الحسن البصري: ﴿الْهَنَكُمُ الْكَاثِرُ﴾ ③ في الأموال والأولاد. وفي صحيح البخاري، في «الرقاق» منه: وقال: أخبرنا أبو الوليد، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك، عن أبي بن كعب قال: كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت: ﴿الْهَنَكُمُ الْكَاثِرُ﴾ ④ يعني: «لو كان لابن آدم واد من ذهب». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة: سمعت قتادة يحدث عن مُطَرَف - يعني ابن عبد الله بن الشخير - عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: ﴿الْهَنَكُمُ الْكَاثِرُ﴾ ⑤، يقول ابن آدم: مالي مالي. وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟. ورواه مسلم والترمذي والنسائي، من طريق شعبة، به. وقال مسلم في صحيحه: حدثنا سُويد بن سعيد، حدثنا حفص بن ميسرة، عن العلاء، عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول العبد: مالي مالي؟ وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فاقتنى، وما سوى ذلك فذهاب وتاركة للناس». تفرد به مسلم. وقال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، سمع أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: «يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد: يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله». وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي، من حديث سفيان بن عيينة، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن شعبة، حدثنا قتادة، عن أنس: أن النبي ﷺ قال: «يهرم ابن آدم وتبقى منه اثنتان: الحرص والأمل». أخرجاه في الصحيحين. وذكر الحافظ ابن عساكر، في ترجمة الأحنف بن قيس - واسمه الضحاك - أنه رأى في يد رجل درهما فقال: لمن هذا الدرهم؟ فقال الرجل: لي. فقال: إنما هو لك إذا أنفقت في أجر أو ابتغاء شكر. ثم أنشد الأحنف متمثلاً قول الشاعر:

أَنْتَ لِلْمَالِ إِذَا أَمْسَكَتَهُ فإِذَا أَنْفَقْتَهُ فَالْمَالُ لَكَ

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة قال: صالح بن حيان حدثني عن ابن بريدة في قوله: ﴿الْهَنَكُمُ الْكَاثِرُ﴾ ⑥. قال: نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار، في بني حارثة وبني الحارث، تفاخروا وتكاثروا، فقالت إحدهما: فيكم مثل فلان بن فلان، وفلان؟ وقال الآخرون مثل ذلك، تفاخروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور. فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان؟ - يشيرون إلى القبر - ومثل فلان؟ وفعل الآخرون مثل ذلك، فأنزل الله: ﴿الْهَنَكُمُ الْكَاثِرُ﴾ ⑦ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ⑧، لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل. وقال قتادة: ﴿الْهَنَكُمُ الْكَاثِرُ﴾ ⑨ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ⑩: كانوا يقولون نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعد من بني فلان، وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم. والصحيح أن المراد بقوله: ﴿زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ⑪ أي: صرتم إليها ودفنتم فيها، كما جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعود، فقال: «لا بأس، طهور إن شاء الله». فقال: قلت: طهور؟! بل هي حمى تغور، على شيخ كبير، تُزيره القبور! قال: «فَتَعَمَّ إِذَا». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو رزعة، حدثنا محمد بن سعيد الأصبهاني، أخبرنا حكام بن سلم الرازي، عن عمرو بن أبي قيس، عن الحجاج، عن المنهال، عن زر بن حبيش، عن علي

قال: ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت: ﴿الْهَنَكَمُ التَّكَاثُرُ﴾ ① حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ②. ورواه الترمذي عن أبي كريب، عن حكام بن سلم، به، وقال: غريب.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سلمة بن داود العُرضي، حدثنا أبو المليح الرقي، عن ميمون بن مهران قال: كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز، فقرا: ﴿الْهَنَكَمُ التَّكَاثُرُ﴾ ① حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ②. فلبث هنيهة فقال: يا ميمون، ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر يد من أن يرجع إلى منزله. قال أبو محمد: يعني أن يرجع إلى منزله - إلى جنة أو نار.. وهكذا ذكر أن بعض الأعراب سمع رجلاً يتلو هذه الآية: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ② فقال: بُعث اليوم ورب الكعبة. أي: إن الزائر سيرحل من مقامه ذلك إلى غيره. وقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④. قال الحسن البصري: هذا وعيد بعد وعيد. وقال الضحاك: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ⑤ يعني: الكفار، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ⑥ يعني: أيها المؤمنون. وقوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ ⑦ أي: لو علمتم حق العلم، لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة، حتى صرتم إلى المقابر. ثم قال: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ ⑧ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑨. هذا تفسير الوعيد المتقدم، وهو قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④. توعدهم بهذا الحال، وهي رؤية النار، التي إذا زفرت زفرة خر كل ملك مقرب، ونبي مرسل على ركبتيه، من المهابة والعظمة ومعاناة الأحوال، على ما جاء به الأثر المروي في ذلك. وقوله: ﴿ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ⑩ أي: ثم لتستلن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا زكريا بن يحيى الخزاز المقرئ، حدثنا عبد الله بن عيسى أبو خالد الخزاز، حدثنا يونس بن عبيد، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه سمع عمر بن الخطاب يقول: خرج رسول الله ﷺ عند الظهيرة، فوجد أبا بكر في المسجد فقال: «ما أخرجك هذه الساعة؟» قال: أخرجني الذي أخرجك يا رسول الله. قال: وجاء عمر بن الخطاب فقال: «ما أخرجك يا ابن الخطاب؟» قال أخرجني الذي أخرجكما. قال: فبعد عمر، وأقبل رسول الله ﷺ يحدثهما، ثم قال: «هل بكما من قوة، تنطلقان إلى هذا النخل فتصبيان طعاماً وشراباً وظلاً؟» قلنا: نعم. قال: «مروا بنا إلى منزل ابن النّهان أبي الهيثم الأنصاري». قال: فتقدم رسول الله ﷺ بين أيدينا، فسلم واستأذن - ثلاث مرات - وأم الهيثم من وراء الباب تسمع الكلام، تريد أن يزيد بها رسول الله ﷺ من السلام، فلما أراد أن ينصرف خرجت أم الهيثم تسعى خلفهم، فقالت: يا رسول الله، قد والله - سمعت تسليمك، ولكن أردت أن تزيدنا من سلامك. فقال لها رسول الله ﷺ: «خيراً». ثم قال: «أين أبو الهيثم؟ لا أراه». قالت: يا رسول الله، هو قريب ذهب يستعذب الماء، ادخلوا فإنه يأتي الساعة إن شاء الله، فبسطت بساطاً تحت شجرة، فجاء أبو الهيثم ففرح بهم وقرت عيناه بهم، فصعد على نخلة فصرم لهم أعذاقاً، فقال له رسول الله ﷺ: «حَسْبُكَ يَا أَبَا الْهَيْثَمِ». قال: يا رسول الله، تأكلون من بسرّه، ومن رطبه، ومن تَذُنُوبِهِ، ثم أتاهم بماء فشربو عليه، فقال رسول الله ﷺ: «هذا من النعيم الذي تسألون عنه». هذا غريب من هذا الوجه.

وقال ابن جرير: حدثني الحسين بن علي الصدائني، حدثنا الوليد بن القاسم، عن يزيد بن كيسان، عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: بينما أبو بكر وعمر جالسان، إذ جاءهما النبي ﷺ فقال: «ما أجلسكما ها هنا؟» قالا: والذي بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع. قال: «والذي بعثني بالحق ما أخرجني غيره». فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار، فاستقبلتهم المرأة، فقال لها النبي ﷺ: «أين فلان؟» فقالت: ذهب يستعذب لنا ماء. فجاء صاحبهم يحمل قربته فقال: مرحباً، ما زار العباد شيء أفضل من شيء زارني اليوم. فعلق قَرْبَتَهُ بكرب نخلة، وانطلق فجاءهم بعذق، فقال النبي ﷺ: «ألا كنت اجتنت؟» فقال: أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم. ثم أخذ الشفرة، فقال النبي ﷺ: «إياك والحلوب؟» فذبح لهم يومئذ، فأكلوا. فقال النبي ﷺ: «لستلن عن هذا يوم القيامة. أخرجكم من بيوتكم الجوع، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا، فهذا من النعيم». ورواه مسلم من حديث يزيد بن كيسان، به. ورواه أبو يعلى وابن ماجه، من حديث المحاربي، عن يحيى بن عبيد الله، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن أبي بكر الصديق، به. وقد رواه أهل السنن الأربعة، من حديث عبد الملك بن عمير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، بنحو من هذا السياق وهذه القصة. وقال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيْج، حدثنا حشرج، عن أبي نصره، عن أبي عسيب - يعني مولى رسول الله - قال: خرج رسول الله ﷺ ليلاً فمر بي، فدعاني فخرجت إليه، ثم مر بأبي بكر فدعاه فخرج إليه، ثم مر بعمر فدعاه فخرج إليه، فانطلق حتى أتى حائطاً لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط: «أطعمنا». فجاء بعذق فوضعه، فأكل رسول الله ﷺ وأصحابه، ثم دعا بماء بارد فشرب، وقال: «لستلن عن هذا يوم القيامة». قال: فأخذ عَمَرُ العَذَقُ ففصر به الأرض حتى تناثر البُسْرُ قبل رسول الله ﷺ، ثم قال: يا رسول الله إنا لمسؤولون عن هذا يوم القيامة؟ قال:

«نعم، إلا من ثلاثة: خرقة لف بها الرجل عورته، أو كسرة سدّ بها جوعته، أو حجر تدخّل فيه من الحر والقر». تفرد به أحمد. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد، حدثنا جابر بن عبد الله يقول: أكل رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رطباً، وشربوا ماء، فقال رسول الله ﷺ: «هذا من النعيم الذي تسألون عنه». ورواه النسائي، من حديث حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار عن جابر، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا محمد بن عمرو، عن صفوان بن سليم، عن محمود بن الربيع قال: لما نزلت ﴿الْهَيْكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿لَتَشْتَكَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾، قالوا: يا رسول الله، عن أي نعيم تُسأل؟ وإنما هما الأسودان الماء والتمر، وسيوفنا على رقابنا، والعدو حاضر، فعن أي نعيم نسأل؟ قال: «أما إن ذلك سيكون». وقال أحمد: حدثنا أبو عامر، عبد الملك بن عمرو، حدثنا عبد الله بن سليمان، حدثنا معاذ بن عبد الله بن حبيب، عن أبيه، عن عمه قال: كنا في مجلس فطلع علينا النبي ﷺ وعلى رأسه أثر ماء، فقلنا: يا رسول الله، نراك طيب النفس. قال: «أجل». قال: ثم خاض الناس في ذكر الغنى، فقال رسول الله ﷺ: «لا بأس بالغنى لمن اتقى الله، والصحة لمن اتقى الله خير من الغنى، وطيب النفس من النعيم». ورواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن خالد بن مخلد، عن عبد الله بن سليمان، به. وقال الترمذي: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا شبابة، عن عبد الله بن العلاء، عن الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزم الأشعري قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال النبي ﷺ: «إن أول ما يسأل عنه - يعني يوم القيامة - العبد من النعيم أن يقال له: ألم تُصِبْ لك جسمك، وتزوّك من الماء البارد؟». تفرد به الترمذي. ورواه ابن حبان في صحيحه، من طريق الوليد بن مسلم، عن عبد الله بن العلاء بن زبير، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا سُفْدُ، حدثنا سفيان، عن محمد بن عمرو، عن يحيى بن حاطب، عن عبد الله بن الزبير قال: قال الزبير: لما نزلت ﴿ثُمَّ لَتَشْتَكَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾، قالوا: يا رسول الله، لأي نعيم نسأل عنه، وإنما هما الأسودان التمر والماء؟ قال: «إن ذلك سيكون». وكذا رواه الترمذي وابن ماجه، من حديث سفيان - هو ابن عيينة - به. ورواه أحمد عنه، وقال الترمذي: حسن. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهري، حدثنا حفص بن عمر العدني، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ثُمَّ لَتَشْتَكَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾، قال الصحابة: يا رسول الله، وأي نعيم نحن فيه، وإنما نأكل في أنصاف بطوننا خبز الشعير؟ فأوحى الله إلى نبيه ﷺ: قل لهم: أليس تحتذون النعال، وتشربون الماء البارد؟ فهذا من النعيم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا محمد بن سليمان بن الأصبهاني، عن ابن أبي ليلى - أظنه عن عامر - عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ثُمَّ لَتَشْتَكَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾، قال: «الأمن والصحة». وقال زيد بن أسلم، عن رسول الله ﷺ: «﴿ثُمَّ لَتَشْتَكَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ يعني: شبع البطون، وبارد الشراب، وظلال المساكين، واعتدال الخلق، ولذة النوم». ورواه ابن أبي حاتم بإسناده المتقدم، عنه في أول السورة. وقال سعيد بن جبير: حتى عن شربة عسل. وقال مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا. وقال الحسن البصري: نعيم الغذاء والعشاء، وقال أبو قلابة: من النعيم أكل العسل والسمن بالخبز النقي. وقول مجاهد هذا أشمل هذه الأقوال. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لَتَشْتَكَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾، قال: التعميم: صحة الأبدان والاسماع والأبصار، يسأل الله العباد فيما استعملوها، وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْفُوحًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. وثبت في صحيح البخاري، وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه، من حديث عبد الله بن سعيد بن أبي هند، عن أبيه، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ». ومعنى هذا: أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه، فهو مغبون. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا القاسم بن محمد بن يحيى المروزي، حدثنا علي بن الحسن بن شقيق، حدثنا أبو حمزة، عن ليث، عن أبي فزارة، عن يزيد بن الأصم، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فوق الإزار، وظل الحائط، وخُبْر، يحاسب به العبد يوم القيامة، أو يسأل عنه»، ثم قال: لا نعرفه إلا بهذا الإسناد. وقال الإمام أحمد: حدثنا بَهْرُ وعفان قالا: حدثنا حماد - قال عفان في حديثه - قال إسحاق بن عبد الله، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يقول الله ﷻ - قال عفان - يوم القيامة - يا ابن آدم، حملتك على الخيل والإبل، وزوجتك النساء، وجعلتك تَرْبَع وترأس، فأين شكر ذلك؟». تفرد به من هذا الوجه.

تفسير سورة العصر

وهي مكية. ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب لعنه الله، وذلك بعد ما بعث رسول الله ﷺ وقبل أن يسلم عمرو، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة؟ قال: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة. فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَيْرٌ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾. ففكر مسيلمة هنيهة ثم قال: وقد أنزل علي مثلها. فقال له عمرو: وما هو؟ فقال: يا وئبر يا وئبر، إنما أنت أذنان وصدر، وسائرَكَ حفر تُقر. ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أنني أعلم أنك تكذب. وقد رأيت أبا بكر الخراطي أسند في كتابه المعروف بـ«مساويء الأخلاق»، في الجزء الثاني منه، شيئاً من هذا أو قريباً منه. والوئبر: دويبة تشبه الهر، أعظم شيء فيه أذناه، وصدره وبياقيه دميم. فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن، فلم يرج ذلك على عابد الأوثان في ذلك الزمان. وذكر الطبراني من طريق حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبد الله بن حصن أبي مدينة، قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا، لم يتفرقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر «سورة العصر» إلى آخرها، ثم يسلم أحدهما على الآخر. وقال الشافعي، رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة، لو سعتهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَيْرٌ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾
العصر: الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم، من خير وشر. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: هو العشي، والمشهور الأول. فأقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفي خسر، أي: في خسارة وهلاك، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، ﴿وَتَوَّاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ وهو أداء الطاعات، وترك المحرمات، ﴿وَتَوَّاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ على المصائب والأقدار، وأدى من يؤذي ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر.

آخر تفسير سورة «العصر» وشه الحمد والمنة



تفسير سورة ويل لكل همزة لمزة

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّتِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدُوا ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلَّا لَيَكُونَنَّ فِي الْخُسْفَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُسْفَةُ ۝٥ تَارَ اللَّهُ الْمُؤَقَّدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْقِدَةِ ۝٧ إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُُّؤَصَّدَةٌ ۝٨ فِي غِيَرٍ مُُّتْدَدَةٍ ۝٩﴾
الهماز: بالقول، واللماز: بالفعل. يعني: يزدري بالناس ويتقص بهم. وقد تقدم بيان ذلك في قوله: ﴿هَٰذَا مَثَلٌ ذَمِّمُوا ۝١١﴾ [القلم: ١١]. قال ابن عباس: ﴿هُمَزَةٌ لُّمَزَةٌ﴾: طعان معياب. وقال الربيع بن أنس: الهمزة، يهمزه في وجهه، واللمزة من خلفه. وقال قتادة: يهمزه ويلمزه بلسانه وعينه، ويأكل لحوم الناس، ويطنن عليهم. وقال مجاهد: الهمزة: باليد والعين، واللمزة: باللسان. وهكذا قال ابن زيد: وقال مالك، عن زيد بن أسلم: هُمَزَةٌ لحوم الناس. ثم قال بعضهم: المراد بذلك الأخنس بن شريق. وقيل غيره: وقال مجاهد: هي عامة. وقوله: ﴿الَّتِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدُوا ۝٢﴾ أي: جمعه بعضه على بعض، وأحصى عدده كقوله: ﴿وَجَمْعَ قَارُونَ ۝٨﴾ [المعارج: ١٨]. قاله السدي، وابن جرير. وقال محمد بن كعب في قوله: ﴿جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدُوا ۝٢﴾ ألهاه ماله بالنهار، هذا إلى هذا، فإذا كان الليل، نام كأنه جيفة. وقوله: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣﴾ أي: يظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار؟ ﴿كَلَّا ۝٣﴾ أي: ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب. ثم قال تعالى: ﴿لَيَكُونَنَّ فِي الْخُسْفَةِ ۝٤﴾ أي: ليلقين هذا الذي جمع مالا فعدده في الحطمة وهي اسم من أسماء النار صفة؛ لأنها تحطم من فيها. ولهذا قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُسْفَةُ ۝٥﴾

نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَلْجُ عَلَى الْأَقْيَدِ ﴿٧﴾ قَالَ ثَابِتُ الْبَنَانِيِّ: تحرقهم إلى الأبدنة وهم أحياء، ثم يقول: لقد بلغ منهم العذاب، ثم يبكي. وقال محمد بن كعب: تأكل كل شيء من جسده، حتى إذا بلغت فؤاده حَذَوُ حلقه ترجع على جسده. وقوله: ﴿إِنَّا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ ﴿٨﴾ أي: مطبقة كما تقدم تفسيره في سورة البلد. وقال ابن مَرْزُويه: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا علي بن سراج، حدثنا عثمان بن خَرْزَاذ، حدثنا شجاع بن أَشْرَس، حدثنا شريك، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: ﴿إِنَّا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ ﴿٨﴾ قال: «مطبقة». وقد رواه أبو بكر بن أبي شيبة، عن عبد الله بن أسيد، عن إسماعيل بن خالد، عن أبي صالح، قوله، ولم يرفعه. ﴿فِي عَمْرِئٍ مُّذَذِّمٍ﴾ ﴿٩﴾ قال عطية العوفي: عمد من حديد. وقال السُّدِّي: من نار. وقال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿فِي عَمْرِئٍ مُّذَذِّمٍ﴾ ﴿٩﴾ يعني: الأبواب هي الممدودة. وقال قتادة في قراءة عبد الله بن مسعود: إنها عليهم مؤصدة بعمد ممددة. وقال العوفي، عن ابن عباس: أدخلهم في عَمَد فعدت عليهم بعماد، وفي أعناقهم السلاسل فسدت بها الأبواب. وقال قتادة: كنا نحدث أنهم يعذبون بعمد في النار. واختاره ابن جرير. وقال أبو صالح: ﴿فِي عَمْرِئٍ مُّذَذِّمٍ﴾ ﴿٩﴾، يعني القيود الطوال.

آخر تفسير سورة «ويل لكل همزة لمزة»



تفسير سورة الفيل

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَحْمَقِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدُهُمْ فِي تَقْوِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ كَصَفِ نَأْكُولِ ﴿٥﴾﴾.

هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله، وأرغم أنوفهم، وخيب سعيهم، وأضل عملهم، وردهم بشر خيبة. وكانوا قوماً نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالا مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان. ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدر يقول: لم تنصركم - يا معشر قريش - على الحبشة لخيرتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشره ونعظمه ونقره بيعة النبي الأمي محمد، صلوات الله وسلامه عليه، خاتم الأنبياء. وهذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار والتقريب، قد تقدم في قصة أصحاب الأخدود: أن ذا نُوَاس - وكان آخر ملوك حمير، وكان مشركاً - هو الذي قتل أصحاب الأخدود، وكانوا نصارى، وكانوا قريباً من عشرين ألفاً، فلم يفلت منهم إلا دُوس ذو ثعلبان، فذهب فاستغاث بقيصر ملك الشام - وكان نصرانياً - فكتب له إلى النجاشي ملك الحبشة؛ لكونه أقرب إليهم، فبعث معه أميرين: أرياط وأبرهة - بن الصباح أبا يكسوم، في جيش كثيف، فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار، واستلبوا الملك من حمير، وهلك ذو نواس غريقاً في البحر. واستقل الحبشة بملك اليمن وعليهم هذان الأميران: أرياط وأبرهة، فاختلفا في أمرهما وتصالوا وتقاتلا وتصافا، فقال أحدهما للآخر: إنه لا حاجة بنا إلى اصطدام الجيشين بيننا، ولكن أبرز إلي وأبرز إليك، فأبنا قتل الآخر، استقل بعده بالملك. فأجابه إلى ذلك فتبارزا، وخَلَفَ كل واحد منهما قتاة، فحمل أرياط على أبرهة فضربه بالسيف، فشرم أنفه وفمه وشق وجهه، وحمل عَوْدَةُ مولى أبرهة على أرياط فقتله، ورجع أبرهة جريحاً، فداوى جرحه قَبْرًا، واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن. فكتب إليه النجاشي يلومه على ما كان منه، ويتوعده ويحلف ليطأن بلاده ويجزن ناصيته. فأرسل إليه أبرهة يترق له ويصانعه، وبعث مع رسوله بهدايا وتحف، ويجراب فيها من تراب اليمن، وجز ناصيته فأرسلها معه، ويقول في كتابه: ليطأ الملك على هذا الجراب فيبر قسمه، وهذه ناصيتي قد بعثت بها إليك. فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه، ورضي عنه، وأقره على عمله. وأرسل أبرهة يقول للنجاشي: إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يَبْنِ قبلها مثلها. فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء، رفيعة البناء، عالية الفناء، مزخرفة الأرجاء. سمها العرب القُلَيْس؛ لارتفاعها؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها. وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف حج العرب إليها

كما يُخَيِّج إلى الكعبة بمكة، ونادى بذلك في مملكته، فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك، وغضبت قريش لذلك غضباً شديداً، حتى قصدوا بعضهم، وتوصل إلى أن دخلها ليلاً. فأحرق فيها وكراً راجعاً. فلما رأى السدنة ذلك الحدث، رفعوا أمرهم إلى ملكهم أبرهة، وقالوا له: إنما صنع هذا بعض قريش غضباً لبيتهم الذي ضاهيت هذا به، فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة، وليخرينه حجراً حجراً. وذكر مقاتل بن سليمان أن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها ناراً، وكان يوماً فيه هواء شديد فأحرقت، وسقطت إلى الأرض.

فتأهب أبرهة لذلك، وسار في جيش كثيف عزمهم؛ لئلا يصدّه أحد عنه، واستصحب معه فيلاً عظيماً كبير الجثة لم ير مثله، يقال له: محمود، وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك. ويقال: كان معه أيضاً ثمانية أفيال. وقيل: اثنا عشر فيلاً. وقيل غيره، والله أعلم. يعني ليهدم به الكعبة، بأن يجعل السلاسل في الأركان، وتوضع في عُتْق الفيل، ثم يجر ليلقي الحائط جملة واحدة. فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا ذلك جداً، ورأوا أن حقاً عليهم المحاجة دون البيت. ورزّ من أمراده بكيد. فخرج إليه رجل كان من أشرف أهل اليمن وملوكهم، يقال له «ذو نُفَر» فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة، وجهاده عن بيت الله، وما يريد من هدمه وخرابه. فأجابوه وقاتلوا أبرهة، فهزمهم لما يريد الله، ﷻ، من كرامة البيت وتعظيمه، وأسر «ذو نُفَر» فاستصحبه معه. ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم، عَرَضَ له نُفَيْل بن حبيب الخثعمي في قومه: شهران وناهس، فقاتلوه، فهزمهم أبرهة، وأسر نُفَيْل بن حبيب، فأراد قتله ثم عفا عنه، واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز. فلما اقترب من أرض الطائف، خرج إليه أهلها ثقيف وصانعو خيفة على بيتهم، الذي عندهم، الذي يسمونه اللات. فأكرمهم وبعثوا معه «أبا رَعَال» دليلاً. فلما انتهى أبرهة إلى الْمُغَمَّس - وهو قريب من مكة - نزل به وأغار جيشه على سَرْح أهل مكة من الإبل وغيرها، فأخذوه. وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب. وكان الذي أغار على السرح بأمر أبرهة أمير المقدمة، وكان يقال له: «الأسود بن مَفْصُود» فهجاه بعض العرب - فيما ذكره ابن إسحاق - وبعث أبرهة حنطة الحميري إلى مكة، وأمر أن يأتيه بأشرف قريش، وأن يخبره أن الملك لم يجرى لقتالكم إلا أن تُصدوه عن البيت. فجاء حنطة قُدْل على عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال، فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعته منه فهو بيته وحرمة، وإن يخلي بينه وبينه، فوالله ما عندنا دُفْع عنه. فقال له حنطة: فاذهب معي إليه. فذهب معه، فلما رآه أبرهة أجله، وكان عبد المطلب رجلاً جميلاً حسن المنظر، ونزل أبرهة عن سريره، وجلس معه على البساط، وقال لترجمانه: قل له: حاجتك؟ فقال لترجمانه: إن حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي. فقال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبتني حين رأيك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتي، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه، لا تكلمني فيه؟! فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه. قال: ما كان ليمنع مني! قال: أنت وذاك. ويقال: إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشرف العرب ففرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت، فأبى عليهم، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله، ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة، والتحصن في رؤوس الجبال، تخوفاً عليهم من معرة الجيش. ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، وقال عبد المطلب وهو أخذ بحلقة باب الكعبة:

لَا تُقِمُّ إِنْ الْمَمْرُ يَمُومُ مَعُ زَخْلِهِ فَاثْنَعِ جَلَالَكَ
لَا يَغْلِبُنَّ صَالِيَهُمْ وَمَحَالُهُمْ غَدُوا وَمَحَالَكَ

قال ابن إسحاق: ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب، ثم خرجوا إلى رؤوس الجبال. وذكر مقاتل بن سليمان أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مقلدة، لعل بعض الجيش ينال منهم شيئاً بغير حق، فيتقم الله منه. فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهياً فيله - وكان اسمه محموداً - وعباً جيشه، فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال: «أبرك محمود، أو ارجع راشداً من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام». ثم أرسل أذنه، فبرك الفيل. وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل. وضربوا الفيل ليقوم فأبى. فضربوا في رأسه بالطيرزين وأدخلوا محاجن لهم في مَرَأَةِ فزغوه بها ليقوم، فأبى، فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول. ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك. ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك. ووجهوه إلى مكة فبرك. وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجله، أمثال الحمص والقدس، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك، وليس كلهم أصابت. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق، ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق هذا. ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز،

ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النعمة، وجعل نفيل يقول:

أَيُّنَ الْمَفْرُ؟ وَالْإِلَهَ الطَّالِبَ وَالْأَشْرَمَ الْمَغْلُوبَ غَيْرَ الْغَالِبِ
قال ابن إسحاق: وقال نُفَيْلُ فِي ذَلِكَ أَيْضاً:

أَلَا حُمِيَّتْ عَنَّا يَا زُؤَيْنَا زُؤَيْنَا، لَوْ رَأَيْتَ - وَلَا تُرْزِيهِ إِذَا لَعَنَ زُرْتَنِي وَخَمَدَتْ أُنْزَرِي خَمَدَتْ اللَّهُ إِذْ أَبْصَرْتُ طَيْسِرًا فَكُلَّ الْقَوْمَ يَسْأَلُ عَنْ نُفَيْلٍ نَعْمَنَّاكُمْ مَعَ الْإِصْبَاحِ عَيْنًا لَدَيْ جَنْبِ الْمَحْضَبِ - مَا رَأَيْنَا وَلَمْ نَأْسِ عَلَى مَا فَاتَ بَيْنَنَا وَخَفَّتْ حَجَارَةُ ثُلُقَى عَلَيْنَا كَأَنَّ عَلَيَّ لِلْحُبُشَانِ دَيْنًا!

وذكر الواقدي بأسانيده أنهم لما تعبوا لدخول الحرم وهيموا الفيل، جعلوا لا يصرفونه إلى جهة من سائر الجهات إلا ذهب فيها، فإذا وجهوه إلى الحرم رُبِضَ وصاح. وجعل أبرهة يحمل على سائس الفيل وينهره ويضربه، ليقهر الفيل على دخول الحرم. وطال الفصل في ذلك. هذا وعبد المطلب وجماعة من أشرف مكة، منهم المطعم بن عدي، وعمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، ومسعود بن عمرو الثقفي، على حراء ينظرون إلى ما الحيشة يصنعون، وماذا يلقون من أمر الفيل، وهو العجب العجائب. فبينما هم كذلك، إذ بعث الله عليهم طيراً أبابيل، أي قطعاً قطعاً صفراً دون الحمام، وأرجلها حمر، ومع كل طائر ثلاث أحجار، وجاءت فحلقت عليهم، وأرسلت تلك الأحجار عليهم فهلكوا. وقال محمد بن كعب: جاؤوا بفيلين فأما محمود فربِضَ، وأما الآخر فشَجَّعَ فحُصِبَ. وقال وهب بن مُثَنَّب: كان معهم فيلة، فأما محمود - وهو فيل الملك - فربِضَ، ليقنّدي به بقية الفيلة، وكان فيها فيل تشجّع فحُصِبَ، فهرت بقية الفيلة. وقال عطاء بن يسار، وغيره: ليس كلهم أصابه العذاب في الساعة الراهنة، بل منهم من هلك سريعاً، ومنهم من جعل يتساقط عضواً عضواً وهم هاربون، وكان أبرهة ممن يتساقط عضواً عضواً، حتى مات ببلاد خثعم. قال ابن إسحاق: فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون على كل منهل، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أثملة أثملة، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون. وذكر مقاتل بن سليمان: أن قريشاً أصابوا مالا جزئياً من أسلابهم، وما كان معهم، وأن عبد المطلب أصاب يومئذ من الذهب ما ملا حفرة. وقال ابن إسحاق: وحدثني يعقوب بن عُتْبَةَ: أنه حدث أن أول ما رويت الحصبة والجُدري بأرض العرب ذلك العام، وأنه أول ما رؤي به مرائر الشجر الحزمل، والحنظل والعُشْر، ذلك العام. وهكذا روي عن عكرمة، من طريق جيد.

قال ابن إسحاق: فلما بعث الله محمداً كان فيما يُعَدُّ به على قريش من نعمة عليهم وفضله، ما رَدَّ عنهم من أمر الحيشة، لبقاء أمرهم ومدتهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ ① ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ ② ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ ③ ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ ④ ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ أَلْعُكِلِ﴾ ⑤ ﴿لَا يَلْفُتْ فَرَيْشٌ﴾ ⑥ ﴿لَا لِيَهُنَّمْ رَحَلَةُ الْيَسْتَلِ وَالْأَصْفِ﴾ ⑦ ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ⑧ ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ ⑨ [سورة فريش: أي: لتلا يغير شيئاً من حالهم التي كانوا عليها، لما أراد الله بهم من الخير لو قبلوه. قال ابن هشام: الأبابيل الجماعات، ولم تتكلم العرب بواحدة. قال: وأما السجيل، فأخبرني يونس النحوي وأبو عبيدة أنه عند العرب: الشديد الصلب. قال: وذكر بعض المفسرين أنهمأ كلمتان بالفارسية، جعلتهما العرب كلمة واحدة، وإنما هو سَنَجٌ وجل يعني بالسنج: الحجر، والجل: الطين. يقول: الحجارة من هذين الجنسين: الحجر والطين. قال: والعصف: ورق الزرع الذي لم يُقَصَّب، واحدته عصفه. انتهى ما ذكره. وقد قال حماد بن سلمة: عن عاصم، عن زر، عن عبد الله - وأبو سلمة بن عبد الرحمن -: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ ⑩ قال: الفرق. وقال ابن عباس، والضحاك: أبابيل يتبع بعضها بعضاً. وقال الحسن البصري، وقتادة: الأبابيل: الكثيرة. وقال مجاهد: أبابيل: شتى متتابعة مجتمعة. وقال ابن زيد: الأبابيل: المختلفة، تأتي من ها هنا، ومن ها هنا، أتتهم من كل مكان. وقال الكسائي: سمعت النحويين يقولون: أبول مثل العجول. قال: وقد سمعت بعض النحويين يقول: واحد الأبابيل: إبييل. وقال ابن جرير: حدثنا ابن المشي، حدثني عبد الأعلى، حدثني داود، عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل، أنه قال في قوله: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ ⑪ هي: الأقاطيع، كالإبل المؤيلة. وحدثنا أبو كُرَيْب، وحدثنا وكيع، عن ابن عون، عن ابن سيرين، عن ابن عباس: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ ⑫ قال: لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب. وحدثنا يعقوب، حدثنا

هَشِيم، أخبرنا حصين عن عكرمة في قوله: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قال: كانت طيراً خضراً خرجت من البحر، لها رؤوس كرووس السباع. وحدثنا ابن بشار، حدثنا ابن مهدي، عن سفيان، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن عبيد بن عمير: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قال: هي طير سود بحرية، في منقارها وأظفارها الحجارة. وهذه أسانيد صحيحة. وقال سعيد بن جبير: كانت طيراً خضراً لها مناقير صفر، تختلف عليهم. وعن ابن عباس، ومجاهد، وعطاء: كانت الطير الأبابيل مثل التي يقال لها عنقاء مغرب. رواه عنهم ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا عبد الله بن محمد بن أبي شيبه، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن عبيد بن عمير، قال: لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل، بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر، أمثال الخطاطيف. كل طير منها تحمل ثلاثة أحجار مُجَزَّعة: حجرين في رجليه وحجراً في منقاره. قال: فجاءت حتى صفت على رؤوسهم، ثم صاحت وألقت ما في أرجلها ومناقيرها، فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره، ولا يقع على شيء من جسده إلا وخرج من الجانب الآخر. وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً. وقال السُّدِّي، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿يَبْعَثُ رَبِّي الطَّيْرَ﴾ قال: طين في حجارة: «سُنْك - وكل» وقد قدمنا بيان ذلك بما أغنى عن إعادته ها هنا. وقوله: ﴿يَهْلِكُ كَمَعْنَى تَأْكُلُ﴾ قال سعيد بن جبير: يعني التين الذي تسميه العامة: هبور. وفي رواية عن سعيد: ورق الحنطة. وعنه أيضاً: العصف: التبن. والمأكول: القصيل يجز للدواب. وكذلك قال الحسن البصري. وعن ابن عباس: العصف: القشرة التي على الحبة، كالغلاف على الحنطة. وقال ابن زيد: العصف: ورق الزرع، وورق البقل، إذا أكلته البهائم فرائته، فصار دريناً. والمعنى: أن الله، سبحانه وتعالى، أهلكهم ودمرهم، وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيراً، وأهلك عامتهم، ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح، كما جرى لملكهم أبرهة، فإنه انصدع صدوره عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء، وأخبرهم بما جرى لهم، ثم مات. فملك بعده ابنه يكسوم، ثم من بعده أخوه مسروق بن أبرهة. ثم خرج سيف بن ذي يزن الحميري إلى كسرى فاستغاثه على الحبشة، فأنفذ معه من جيوشه فقاتلوا معه، فرد الله إليهم ملكهم، وما كان في آبائهم من الملك، وجاءته وفود العرب للتهنئة. وقد قال محمد بن إسحاق: حدثنا عبد الله بن أبي بكر، عن عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرار، عن عائشة قالت: لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مُقْعَدَيْن، يستطعمان. ورواه الواقدي، عن عائشة مثله. ورواه أيضاً عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: كانا مقعدين يستطعمان الناس، عند إساف ونائلة، حيث يذبح المشركون ذبائحهم. قلت: كان اسم قائد الفيل: أنيساً. وقد ذكر الحافظ أبو نعيم في كتاب «دلائل النبوة» من طريق ابن وهب، عن ابن لهيعة عن عقيل بن خالد، عن عثمان بن المغيرة قصة أصحاب الفيل، ولم يذكر أن أبرهة قدم من اليمن، وإنما بعث على الجيش رجلاً يقال له: شمر بن مفصود، وكان الجيش عشرين ألفاً، وذكر أن الطير طرقتهم ليلاً، فأصبحوا صرعى. وهذا السياق غريب جداً، وإن كان أبو نعيم قد قواه ورجحه على غيره. والصحيح أن أبرهة الأشرم الحبشي قدم مكة كما دل على ذلك السياقات والأشعار. وهكذا روى ابن لهيعة، عن الأسود، عن عُرْوَة: أن أبرهة بعث الأسود بن مفصود على كتيبة معهم الفيل، ولم يذكر قدوم أبرهة نفسه، والصحيح قدومه، ولعل ابن مفصود كان على مقدمة الجيش، والله أعلم. ثم ذكر ابن إسحاق شيئاً من أشعار العرب، فيما كان من قصة أصحاب الفيل، فمن ذلك شعر عبد الله بن الزبيري:

تَلَكَّلُوا عَنْ بَطْنِ مَكَّةَ إِنَّهَا
لَمْ تُخْلَقِ الشُّعْرَى لِيَالِي حُزْمَتِ
سَائِلِ أَمِيرِ الْجَيْشِ عَنْهَا مَا رَأَى؟
سَتُونَ أَلْفاً يَوْؤِيُوا أَرْضَهُمْ
كَانَتْ بِهَا عَادٌ وَجُرْهُمْ قَبْلَهُمْ
وقال أبو قيس بن الأسلت الأنصاري المري:

وَمِنْ ضُنْعِهِ يَوْمَ فِيلِ الْخُبُو
مَحَاجِنُهُمْ تَحْتَ أَقْرَابِهِ
وَقَدْ جَعَلُوا سَوْطَهُ مَغُولاً
فَوَلَّسَى وَأَدْبَسَ أَدْرَاجَهُ

كَانَتْ قَدِيمًا لَا يُزَامُ حَرِيمُهَا
إِذَا لَا عَزِيزَ مِنَ الْأَنْبَامِ يَزُومُهَا
فَلَسَوْفَ يُنْبِي الْجَاهِلِينَ عَلِيمُهَا
بَلْ لَمْ يَعِشْ بَعْدَ الْإِيَابِ سَقِيمُهَا
وَاللهُ مِنْ فَوْقِ الْعِبَادِ يُقِيمُهَا

ش، إِذْ كُلُّ مَا بَقِثُوهُ زَزَمَ
وَقَدْ شَرَمُوا أَنْفَهُ فَنَخَرَمَ
إِذَا يَمُتُّوهُ قَلَقًا كُلِّمَ
وَقَدْ بَاءَ بِالظَّلَمِ مَنْ كَانَ ثَمَّ

فَأَرْسَلَ مِنْ فَوْقِهِمْ حَاصِبًا
تَحْتَ عَلَى الصَّبْرِ أَحْبَابَهُمْ
وقال أبو الصلت بن أبي ربيعة الثقفي، ويروى لأمية بن أبي الصلت بن أبي ربيعة:
إِنَّ آيَاتِ رَبِّنَا بِأَقْيَاسَاتٍ
خُلِقَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ فَكُلٌّ
ثُمَّ يَجْلُو النَّهَارُ رَبِّ رَحِيمٌ
خَبَسَ الْفِيلُ بِالْمَفْنَسِ حَتَّى
لَازِمًا خَلَقَهُ الْجِرَانُ كَمَا قَطَرَ
حَوْلَهُ مِنْ مُلُوكٍ كِنْدَةَ أَبْطَالٍ
خَلَفُوهُ ثُمَّ ابْدَعُوا جَمِيعًا،
كُلَّ دِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ الْ

يُلْفُهُمْ مَثَلُ لَفِ الْقَزَمِ
وَقَدْ تَأَجَّرُوا كَثُوجَ الْقَنَمِ
مَا يُمَارَى فِيهِمْ إِلَّا الْكَفُورُ
مُسْتَبِينَ حَسَابُهُ مَقْدُورُ
بِمَهَاةٍ شُعَاعِهَا مَنْشُورُ
صَارَ يَخْبُو، كَأَنَّهُ مَعْقُورُ
مَنْ ظَنَّهُ كَبْكَبٌ مَحْدُورُ
مَلَاوِيكَ فِي الْخُرُوبِ صُقُورُ
كُلُّهُمْ عَظْمٌ سَاقَهُ مَخْشُورُ
لَهُ إِلَّا دِينَ الْحَنِيْفَةِ بَورُ

وقد قدمنا في تفسير «سورة الفتح» أن رسول الله ﷺ لما أطل يوم الحديبية على الثنية التي تهبط به على قريش، بركت ناقته، فزجروها فألححت، فقالوا، خلأت القصواء، أي: خزنت. فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل» ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم خطة يعظمون فيها حُرُمَاتِ الله، إلا أجبتهن إليها». ثم زجرها فقامت. والحديث من أفراد البخاري. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه قد عادت حُرُمَتُها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

آخر تفسير سورة «الفيل»



تفسير سورة لإيلاف قريش

وهي مكية. ذكر حديث غريب في فضلها: قال البيهقي في كتاب «الخلافيات»: حدثنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا بكر بن محمد بن حمدان الصيرفي بمرور، حدثنا أحمد بن عبيد الله النرسي، حدثنا يعقوب بن محمد الزهري، حدثنا إبراهيم بن محمد بن ثابت بن شريحيل، حدثني عثمان بن عبد الله بن أبي عتيق، عن سعيد بن عمرو بن جعدة بن هبيرة، عن أبيه، عن جدته أم هانئ بنت أبي طالب: أن رسول الله ﷺ قال: «فضل الله قريشاً بسبع خلال: أني منهم، وأن النبوة فيهم، والحجاجة، والسقاية فيهم، وأن الله نصرهم على الفيل، وأنهم عبدوا الله، ﷻ، عشر سنين لا يعبد غيره، وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن» ثم تلاها رسول الله: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ لِمَلَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ يَوْمَ هَوَجٍ وَآمَنَهُمْ يَوْمَ هَوْجٍ ۝٤﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ لِمَلَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ يَوْمَ هَوَجٍ وَآمَنَهُمْ يَوْمَ هَوْجٍ ۝٤﴾.

هذه السورة مفصلة عن التي قبلها في المصحف الإمام، كتبوا بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وإن كانت متعلقة بما قبلها. كما صرح بذلك محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ لأن المعنى عندهما: حبسنا عن مكة الفيل وأهلكنا أهله ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ أي: لانتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمين. وقيل: المراد بذلك ما كانوا يلقونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك، ثم يرجعون إلى بلدهم آمين في أسفارهم؛ لعظمتهم عند الناس، لكونهم سكان حرم الله، فمن عرفهم احترامهم، بل من صوفي إليهم وسار معهم آمن بهم. هذا حالهم في أسفارهم ورحلتهم في شتاتهم وصيفهم. وأما في حال إقامتهم في البلد، فكما قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّا وَنَحْنُ عَلَى النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [المنكوت: ٦٧]. ولهذا قال: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ بدل من الأول ومفسر له. ولهذا قال:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَحْمَةُ الرَّحْمَنِ وَالْغَافِرِ﴾. وقال ابن جرير: الصواب أن «اللام» لام التعجب، كأنه يقول: اعجبوا لإيلاف قريش ونعمتي عليهم في ذلك. قال: وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان. ثم أرشدناهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ أي: فليوحده بالعبادة، كما جعل لهم محرماً آمناً وبيتاً محرماً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَن تَعْبُدُوا مَذْهَبَ الْبَلَدِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ شَيْءٌ وَأَمْرُهُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٢٥]. وقوله: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ أي: هو رب البيت، وهو الذي أطعمهم من جوع، ﴿وَأَسْلَمَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ أي: تفضل عليهم بالأمن والرخص، فليفرده بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا ندأ ولا وثناً. ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبها منه، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٥]. ولقد جاءهم رسولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَاتَّخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النمل: ١١٢، ١١٣]. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الله بن عمرو العَدَنِي، حدثنا قَبِيصَةُ، حدثنا سفيان، عن ليث، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويل أمكم، قريش، لإيلاف قريش». ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا المؤمل بن الفضل الحراني، حدثنا عيسى - يعني ابن يونس - عن عُبَيْدِ اللَّهِ بن أبي زياد، عن شهر بن حوشب، عن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لإيلاف قريش» ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَحْمَةُ الرَّحْمَنِ وَالْغَافِرِ﴾. ويحكم يا معشر قريش، عبدوا رب هذا البيت الذي أطعمكم من جوع وأمنكم من خوف». هكذا رأته عن أسامة بن زيد، وصوابه عن أسماء بنت يزيد بن السكن، أم سلمة الأنصارية، رضي الله عنها. فلعله وقع غلط في النسخة أو في أصل الرواية، والله أعلم.

آخر تفسير سورة «إيلاف قريش»



تفسير السورة التي يذكر فيها الماعون

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالْإِيمَانِ﴾ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَمِينَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُرُ عَلَى مَلَأِ الْيَسَارِ ﴿٣﴾ قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاكِبُونَ ﴿٦﴾ وَيَسْتَمْتُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾.

يقول تعالى: أرأيت - يا محمد - الذي يكذب بالدين؟ وهو: المعاد والجزاء والثواب، ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَمِينَ﴾ أي: هو الذي يقره اليمين ويظلمه حق، ولا يطعمه ولا يحسن إليه، ﴿وَلَا يَحْضُرُ عَلَى مَلَأِ الْيَسَارِ﴾ [الفجر: ١٧، ١٨] يعني: الفقير الذي لا شيء له يقوم بأوده وكفايته. ثم قال: ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴿٥﴾، قال ابن عباس، وغيره: يعني المنافقين، الذين يصلون في العلانية ولا يصلون في السر. ولهذا قال: ﴿لِلْمُصَلِّينَ﴾ أي: الذين هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها، ثم هم عنها ساهون، إما عن فعلها بالكلية، كما قاله ابن عباس، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعاً، فيخرجها عن وقتها بالكلية، كما قاله مسروق، وأبو الضحى. وقال عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ولم يقل: في صلاتهم ساهون. وإما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائماً أو غالباً. وإما عن أداؤها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به. وإما عن الخشوع فيها والتدبير لمعانيتها، فاللفظ يشمل هذا كله، ولكل من اتصف بشيء من ذلك قسط من هذه الآية. ومن اتصف بجميع ذلك، فقد تم نصيبه منها، وكمل له النفاق العملي. كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً». فهذا آخر صلاة العصر التي هي الوسطى، كما ثبت به النص إلى آخر وقتها، وهو وقت كراهة، ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب، لم يطمئن ولا خضع فيها أيضاً، ولهذا قال: «لا يذكر الله فيها إلا قليلاً». ولعله إنما حملة على القيام إليها مراعاة الناس، لا ابتغاء وجه الله، فهو إذا لم يصل بالكلية. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ يَخْدَعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى

الصَّلَاةَ قَامُوا كُنَّا بِرُكُودِ النَّاسِ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١﴾ [النساء: ١٤٢]. وقال ما هنا: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرْكَوْنَ﴾ ①. وقال الطبراني: حدثنا يحيى بن عبد الله بن عبدويه البغدادي، حدثني أبي، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، عن يونس، عن الحسن، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «إن في جهنم لودياً، تستعبد جهنم من ذلك الوداي في كل يوم أربعين مرة، أعد ذلك الوداي للمرائين من أمة محمد: لحامل كتاب الله، وللمصدق في غير ذات الله، وللحاج إلى بيت الله، وللخارج في سبيل الله».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مرة قال: كنا جلوساً عند أبي عبيدة فذكروا الرياء، فقال رجل يكنى بأبي يزيد: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ: «من سَمِعَ الناسَ يعملهُ، سَمِعَ اللهَ بهِ سامعَ خلقه، وحَقَّره وصَغَّرَه». ورواه أيضاً عن غُنْدَرٍ ويحيى القطان، عن شعبة، عن عمرو بن مرة، عن رجل، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ، فذكره. ومما يتعلق بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرْكَوْنَ﴾ ②: أن من عمل عملاً لله فاطلع عليه الناس، فأعجبه ذلك، أن هذا لا يعد رياء، والدليل على ذلك ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا مخلد بن يزيد، حدثنا سعيد بن بشير، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: كنت أصلي، فدخل علي رجل، فأعجبني ذلك، فذكرته لرسول الله ﷺ، فقال: «كتب لك أجران: أجر السر، وأجر العلانية». قال أبو علي هارون بن معروف: بلغني أن ابن المبارك قال: نعم الحديث للمرائين. وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وسعيد بن بشير متوسط، وروايته عن الأعمش عزيزة. وقد رواه غيره عنه. قال أبو يعلى: حدثنا محمد بن المثنى بن موسى، حدثنا أبو داود، حدثنا أبو سنان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رجل: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل يسره، فإذا اطلع عليه أعجبه. قال: قال رسول الله ﷺ: «له أجران: أجر السر وأجر العلانية». وقد رواه الترمذي عن محمد بن المثنى، وابن ماجه عن بُثْنَارٍ، كلاهما عن أبي داود الطيالسي، عن أبي سنان الشيباني - واسمه: ضرار بن مرة - ثم قال الترمذي: غريب، وقد رواه الأعمش وغيره. عن حبيب، عن النبي، مرسلًا. وقد قال أبو جعفر بن جرير: حدثني أبو كُرَيْبٍ، حدثنا معاوية بن هشام، عن شيبان النحوي، عن جابر الجعفي، حدثني رجل، عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ③ قال: «الله أكبر، هذا خير لكم من أن لو أعطي كل رجل منكم مثل جميع الدنيا، هو الذي إن صلى لم يَزُجْ خير صلاته، وإن تركها لم يخف ربه». فيه جابر الجعفي، وهو ضعيف، وشيخه مُبهم لم يُسم، والله أعلم. وقال ابن جرير أيضاً: حدثني زكريا بن أبان المصري، حدثنا عمرو بن طارق، حدثنا عكرمة بن إبراهيم، حدثني عبد الملك بن عمير، عن مصعب بن سعد، عن سعد بن أبي وقاص قال: سألت رسول الله ﷺ عن: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ④ قال: «هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها». وتأخير الصلاة عن وقتها يحتمل تركها بالكلية، أو صلاتها بعد وقتها شرعاً، أو تأخيرها عن أول الوقت سهواً حتى ضاع الوقت. وكذا رواه الحافظ أبو يعلى عن شيبان بن فروخ، عن عكرمة بن إبراهيم، به. ثم رواه عن أبي الربيع، عن جابر، عن عاصم، عن مصعب، عن أبيه موقوفاً. وهذا أصح إسناداً، وقد ضعف البيهقي رفعه، وصحح وقفه، وكذلك الحاكم. وقوله: ﴿وَيَسْتَعِينُونَ الْمَاعُونَ﴾ ⑤ أي: لا أحسنوا عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به، مع بقاء عينه ورجوعه إليهم. فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القُرْبَاتِ أولى وأولى. وقد قال ابن أبي نجيع، عن مجاهد: قال علي: الماعون: الزكاة. وكذا رواه السدي، عن أبي صالح، عن علي. وكذا روي من غير وجه عن ابن عمر. وبه يقول محمد بن الحنفية، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، ومجاهد، وعطاء، وعطية الموفري، والزهرري، والحسن، وقتادة، والضحاك، وابن زيد.

وقال الحسن البصري: إن صلى راءى، وإن فاتته لم يأس عليها، ويمنع زكاة ماله. وفي لفظ: صدقة ماله. وقال زيد بن أسلم: هم المنافقون، ظهرت الصلاة فصلوها، وضُمت الزكاة فمنعوها. وقال الأعمش وشعبة، عن الحكم، عن يحيى بن الجزار: أن أبا العبيدين سأل عبد الله بن مسعود عن الماعون، فقال: هو ما يتعارفه الناس بينهم من الفأس، والقدر، والدلو. وقال المسعودي، عن سلمة بن كهَّيل، عن أبي العبيدين: أنه سُئل ابن مسعود عن الماعون، فقال: هو ما يتعاطاه الناس بينهم، من الفأس والقدر، والدلو، وأشباه ذلك. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عبيد المحاربي، حدثنا أبو الأحوص، عن أبي إسحاق، عن أبي العبيدين وسعد بن عياض، عن عبد الله قال: كنا أصحاب رسول الله ﷺ نتحدث أن الماعون الدلو، والفأس، والقدر، لا يستغنى عنهن. وحدثنا خلاد بن أسلم، أخبرنا النضر بن شَمِيل، أخبرنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت سعد بن عياض يحدث عن أصحاب النبي ﷺ مثله. وقال الأعمش، عن إبراهيم، عن الحارث بن سُوَيْد، عن

عبد الله: أنه سئل عن الماعون، فقال: ما يتعارفه الناس بينهم: الفأس والدلو، وشبهه. وقال ابن جرير: حدثنا عمرو بن علي الفلاس، حدثنا أبو داود - هو الطيالسي - حدثنا أبو عوانة، عن عاصم بن بهذلة، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: كنا مع نبينا ﷺ ونحن نقول: الماعون: منع الدلو وأشباه ذلك. وقد رواه أبو داود والنسائي، عن قتيبة، عن أبي عوانة بإسناده، نحوه. ولفظ النسائي عن عبد الله قال: كل معروف صدقة، كنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدلو والقدر. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله قال: الماعون: العواري: القدر، والميزان، والدلو. وقال ابن أبي نجيع، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ يعني: متاع البيت. وكذا قال مجاهد وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، وأبو مالك، وغير واحد: إنها العارية للأمتعة. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ قال: لم يجرى أهلها بعد.

وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ قال: اختلف الناس في ذلك، فمنهم من قال: يمنعون الزكاة. ومنهم من قال: يمنعون الطاعة. ومنهم من قال: يمنعون العارية. رواه ابن جرير. ثم روي عن يعقوب بن إبراهيم، عن ابن عُلَيَّة، عن ليث بن أبي سليم، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي: الماعون: منع الناس الفأس، والقدر، والدلو. وقال عكرمة: رأس الماعون زكاة المال، وأذناه المنخل، والدلو، والإبرة. رواه ابن أبي حاتم. وهذا الذي قاله عكرمة حسن؛ فإنه يشمل الأقوال كلها، وترجع كلها إلى شيء واحد. وهو ترك المعاونة بمال أو منفعة. ولهذا قال محمد بن كعب: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ قال: المعروف. ولهذا جاء في الحديث: «كل معروف صدقة». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، عن ابن أبي ذئب، عن الزهري: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ قال: بلسان قريش: المال. ورَوَى ها هنا حديثاً غريباً عجيباً في إسناده ومثته، فقال: حدثنا أبي، وأبو زُرْعَةَ قال: حدثنا قيس بن حفص الدارمي، حدثنا دلهم بن دهمم العجلي، حدثنا عائذ بن ربيعة النميري، حدثني قرة بن دعموص النميري: أنهم وفدوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، ما تعهد إلينا؟ قال: «لا تمنعوا الماعون». قالوا: يا رسول الله، وما الماعون؟ قال: «في الحجر، وفي الحديدية، وفي الماء». قالوا: فأَي حديدية؟ قال: «قدوركم النحاس، وحديد الفأس الذي تمتنون به». قالوا: وما الحجر؟ قال: «قدوركم الحجارة». غريب جداً، ورفع منكر، وفي إسناده من لا يعرف، والله أعلم. وقد ذكر ابن الأثير في الصحابة ترجمة «علي النميري»، فقال: روى ابن قانع بسنده إلى عائذ بن ربيعة بن قيس النميري، عن علي بن فلان النميري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المسلم أخو المسلم. إذا لقيه حيَّاهُ بالسلام، ويرد عليه ما هو خير منه، لا يمنع الماعون». قلت: يا رسول الله، ما الماعون؟ قال: «الحجر، والحديد، وأشباه ذلك».

آخر تفسير سورة «الماعون»



تفسير سورة الكوثر

وهي مدنية، وقيل: مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْطَقْنَاكَ الْكُوثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ ۝ إِنَّكَ شَاقِيكَ هُوَ الْأَكْبَرُ ۝﴾

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن فضيل، عن المختار بن قُلْفُل، عن أنس بن مالك قال: أغفى رسول الله ﷺ إغفاءً، فرفع رأسه مبتسماً، إما قال لهم وإما قالوا له: لم ضحكك؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه أنزلت عليّ آتفاً سورة». فقرأ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّا أَنْطَقْنَاكَ الْكُوثَرَ﴾، حتى ختمها، قال: «هل تدرون ما الكوثر؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هو نهر أعطانيه ربي، ﷺ، في الجنة، عليه خير كثير، تردُّ عليه أمتي يوم القيامة، آتيته عدد الكواكب، يُخْتَلَجُ العبد منهم فأقول: يا رب، إنه من أمتي. فيقال: إنك لا تدري ما أحداثوا بعدك». هكذا رواه الإمام أحمد بهذا الإسناد الثلاثي، وهذا السياق. وقد ورد في صفة الحوض يوم القيامة أنه يَشْخَبُ فيه ميزابان من السماء من نهر الكوثر، وأن عليه آتية عدد نجوم السماء. وقد روى هذا الحديث مسلم وأبو داود والنسائي، من طريق محمد بن فضيل، وعلي بن مُسْهِر، كلاهما عن المختار بن قُلْفُل، عن

أنس. ولفظ مسلم قال: «بيننا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد، إذ أغفى إغفاءً ثم رفع رأسه متمسماً، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «أنزلت علي أنفاً سورة»، فقرأ: **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿٢﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٣﴾ إِنَّكَ شَانِئُهُ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٤﴾**». ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه نهر وعنديه ربي، ﷺ، عليه خير كثير، هو حوض تردُّ عليه أمتي يوم القيامة، آتيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتي. فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك». وقد استدل به كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية، وكثير من الفقهاء على أن البسمة من السورة، وأنها منزلة معها. فأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، فقد تقدم في هذا الحديث أنه نهر في الجنة. وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى، عن أنس فقال: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أخبرنا ثابت، عن أنس أنه قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾. قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت الكوثر، فإذا هو نهر يجري، ولم يشق شقاً، وإذا حافته قباب اللؤلؤ، فضربت بيدي في تربته، فإذا مسكه ذفرة، وإذا حصاه اللؤلؤ». وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن حميد، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة فإذا أنا بنهر، حافته خيام اللؤلؤ، فضربت بيدي إلى ما يجري فيه الماء، فإذا مسك أدفر. قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك الله، ﷺ». ورواه البخاري في صحيحه، ومسلم، من حديث شيبان بن عبد الرحمن، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: لما عُرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «أتيت على نهر حافته قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر». وهذا لفظ البخاري، رحمه الله.

وقال ابن جرير: حدثنا الربيع، أخبرنا ابن وهب، عن سليمان بن هلال، عن شريك بن أبي نمر، قال: سمعت أنس بن مالك يحدثنا قال: لما أسري برسول الله ﷺ، مضى به جبريل في السماء الدنيا، فإذا هو بنهر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فذهب يشم ثرابه، فإذا هو مسك. قال: «يا جبريل، ما هذا النهر؟ قال: هو الكوثر الذي خبا لك ربك». وقد تقدم في حديث الإسراء في سورة «سبحان»، من طريق شريك عن أنس عن النبي ﷺ. وهو مخرج في الصحيحين. وقال سعيد، عن قتادة، عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «بيننا أنا أسير في الجنة إذ عَرَّضَ لي نهر، حافته قباب اللؤلؤ مجوف، فقال الملك الذي معه: أتدري ما هذا؟ هذا الكوثر الذي أعطاك الله. وضرب بيده إلى أرضه، فأخرج من طينه المسك». وكذا رواه سليمان بن طرخان، ومعمّر وهمام وغيرهم، عن قتادة، به. وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن أبي شريح، حدثنا أبو أيوب العباسي، حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثني محمد بن عبد الله، ابن أخي ابن شهاب، عن أبيه، عن أنس قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ عن الكوثر، فقال: «هو نهر أعطانيه الله في الجنة، ترابه مسك، ماؤه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، ترده طير أعناقها مثل أعناق الجُرْز». فقال أبو بكر: يا رسول الله، إنها لناعمة؟ قال: «أكلها أنعم منها». وقال أحمد: حدثنا أبو سلمة الخزاعي، حدثنا الليث، عن يزيد بن الهاد، عن عبد الوهاب، عن عبد الله بن مسلم بن شهاب، عن أنس، أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما الكوثر؟ قال: «نهر في الجنة أعطانيه ربي، لهو أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طيور أعناقها كأعناق الجزر». قال عمر: يا رسول الله، إنها لناعمة؟ قال: «أكلها أنعم منها يا عمر». رواه ابن جرير، من حديث الزهري، عن أخيه عبد الله، عن أنس: أنه سأل رسول الله ﷺ عن الكوثر، فذكر مثله سواء. وقال البخاري: حدثنا خالد بن يزيد الكاهلي، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عائشة قال: سألتها عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، قالت: نهر عظيم أعطيه نبيكم ﷺ، شاطئاه عليه دُرٌّ مجوف، آتيته كعدد النجوم. ثم قال البخاري: رواه زكريا وأبو الأحوص ومطرف، عن أبي إسحاق. ورواه أحمد والنسائي، من طريق مطرف، به. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وكيع، عن سفيان، وإسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عائشة قالت: الكوثر نهر في الجنة، شاطئاه درُّ مجوف. وقال إسرائيل: نهر في الجنة عليه من الآنية عدد نجوم السماء. وحدثنا ابن حُمَيد، حدثنا يعقوب القمي، عن حفص بن حميد، عن شمر بن عطية، عن شقيق أو مسروق قال: قلت لعائشة: يا أم المؤمنين، حدثيني عن الكوثر. قالت: نهر في بطنان الجنة. قلت: وما بطنان الجنة؟ قالت: وسطها، حافته قصور اللؤلؤ والياقوت، ترابه المسك، وحصاؤه اللؤلؤ والياقوت. وحدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع، عن أبي جعفر الرازي، عن ابن أبي نجیح، عن عائشة قالت: من أحب أن يسمع خير الكوثر، فلْيَجْعَلْ أصبعيه في أذنيه. وهذا منقطع بين ابن أبي نجیح وعائشة، وفي بعض الروايات: «عن رجل، عنها». ومعنى هذا أنه يسمع نظير ذلك، لا أنه يسمعه نفسه، والله أعلم. قال السهيلي: ورواه الدارقطني مرفوعاً، من طريق مالك بن مغول، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة، عن النبي ﷺ. ثم قال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبیر: فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة؟ فقال

سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه. ورواه أيضاً من حديث هُشَيْم، عن أبي بشر وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: الكوثر: الخير الكثير. وقال الثوري، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: الكوثر: الخير الكثير. وهذا التفسير يعم النهر وغيره؛ لأن الكوثر من الكثرة، وهو الخير الكثير، ومن ذلك النهر كما قال ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، ومحارب بن دثار، والحسن بن أبي الحسن البصري. حتى قال مجاهد: هو الخير الكثير في الدنيا والآخرة. وقال عكرمة: هو النبوة والقرآن، وثواب الآخرة. وقد صح عن ابن عباس أنه فسره بالنهر أيضاً، فقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عمر بن عبيد، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: الكوثر: نهر في الجنة، حافته ذهب وفضة، يجري على الياقوت والدر، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل. وروى العوفي، عن ابن عباس، نحو ذلك.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا عطاء بن السائب، عن محارب بن دثار، عن ابن عمر أنه قال: الكوثر نهر في الجنة، حافته ذهب وفضة، يجري على الدر والياقوت، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل. وكذا رواه الترمذي عن ابن حميد، عن جرير، عن عطاء بن السائب، به مثله، موقوفاً. وقد روي مرفوعاً فقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن حفص، حدثنا ورقاء قال... وقال عطاء بن السائب عن محارب بن دثار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة حافته من ذهب، والماء يجري على اللؤلؤ، وماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل». وهكذا رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، وابن جرير، من طريق محمد بن فضيل، عن عطاء بن السائب، به مرفوعاً. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُثَيْم، أخبرنا عطاء بن السائب قال: قال لي محارب بن دثار: ما قال سعيد بن جبير في الكوثر؟ قلت: حدثنا عن ابن عباس أنه قال: هو الخير الكثير. فقال: صدق، والله إنه للخير الكثير. ولكن حدثنا ابن عمر قال: لما نزلت: ﴿إِنَّا أَطْعَمْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة، حافته من ذهب، يجري على الدر والياقوت». وقال ابن جرير: حدثني ابن البرقي، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا محمد بن جعفر بن أبي كثير، أخبرني حرام بن عثمان، عن عبد الرحمن الأعرج، عن أسامة بن زيد: أن رسول الله ﷺ أتى حمزة بن عبد المطلب يوماً فلم يجده، فسأل امرأته عنه - وكانت من بني النجار - فقالت: خرج يا نبي الله أنفاً عامداً نحوك، فأظنه أخطأك في بعض أزقة بني النجار، أو لا تدخل يا رسول الله؟ فدخل، فقدمت إليه خبساً، فأكل منه، فقالت: يا رسول الله، هنيئاً لك ومريئاً، لقد جئت وأنا أريد أن أتيتك فأهنيك وأمريك؛ أخبرني أبو عمار أنك أعطيت نهرأ في الجنة يدعى الكوثر. فقال: «أجل، وعرضه - يعني أرضه - ياقوت ومرجان، وزبرجد ولؤلؤ». حرام بن عثمان ضعيف. ولكن هذا سياق حسن، وقد صح أصل هذا، بل قد تواتر من طريق تفيد القطع عند كثير من أئمة الحديث، وكذلك أحاديث الحوض ولذكريها هنا. وهكذا روي عن أنس، وأبي العالية، ومجاهد، وغير واحد من السلف: أن الكوثر: نهر في الجنة. وقال عطاء: هو حوض في الجنة. وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾، أي: كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك النهر الذي تقدم صفته - فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ونَحَرَكَ، فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له. كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شريك له. ﴿وَبِذَلِكَ بُرِّئْتُ مِنْ أَهْلِ الْإِنْسَانِ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، قال ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وعكرمة، والحسن: يعني بذلك نحر البُذْن ونحوها. وكذا قال قتادة، ومحمد بن كعب القرظي، والضحاك، والربيع، وعطاء الخراساني، والحكم، وإسماعيل بن أبي خالد، وغير واحد من السلف. وهذا بخلاف ما كان المشركون عليه من السجود لغير الله، والذبح على غير اسمه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بَاطِلًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، وقال ابن عباس: «وَأَنْحَرْ» والمراد بقوله: «وَأَنْحَرْ»: وضع اليد اليمنى على اليسرى تحت النحر. يُروى هذا عن علي، ولا يصح. وعن الشعبي مثله. وعن أبي جعفر الباقر: «وَأَنْحَرْ» يعني: ارفع اليدين عند افتتاح الصلاة. وقيل: «وَأَنْحَرْ» أي: استقبال بنحر القبله. ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير. وقد روى ابن أبي حاتم ما هنا حديثاً منكراً جداً فقال: حدثنا وهب بن إبراهيم الفامي - سنة خمس وخمسين ومائتين - حدثنا إسرائيل بن حاتم المروزي، حدثنا مقاتل بن حيان، عن الأصم بن نباتة، عن علي بن أبي طالب قال: لما نزلت هذه السورة على النبي ﷺ: ﴿إِنَّا أَطْعَمْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾، قال رسول الله: «يا جبريل، ما هذه الثَّخيرة التي أمرنا بها ربي؟» فقال: ليست بنحيرة، ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة، ارفع يديك إذا كبرت وإذا ركعت، وإذا رفعت رأسك من الركوع، وإذا سجدت، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين في السموات السبع، وإن لكل شيء زينة، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة. وهكذا رواه الحاكم في المستدرک، من

سورة قل يا أيها الكافرون

حديث إسرائيل بن حاتم، به. وعن عطاء الخراساني: ﴿وَأَعْرَضَ﴾ أي: أرفع صلبك بعد الركوع واعتدل، وأبرز نحرك، يعني به الاعتدال. رواه ابن أبي حاتم. كل هذه الأقوال غريبة جداً. والصحيح القول الأول، أن المراد بالنحر ذبح المناسك؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلي العيد، ثم ينحر نسكه ويقول: «من صلى صلاتنا، ونسك نسكنا، فقد أصاب النسك». ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له. فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله، إني نسكتُ شاتي قبل الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم يشتهد فيه اللحم. قال: «شأتك شاة لحم». قال: فإن عندي عناقاً هي أحب إلي من شاتين، أفتجزئ عني؟ قال: «تجزئك، ولا تجزئ أحداً بعدك». قال أبو جعفر بن جرير: والصواب قول من قال: معنى ذلك: فاجعل صلاتك كلها لربك خالصاً دون ما سواه من الأنداد والآلهة، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان؛ شكرًا له على ما أعطاك من الكرامة والخير، الذي لا كفاء له، وخصك به. وهذا الذي قاله في غاية الحسن، وقد سبقه إلى هذا المعنى: محمد بن كعب القرظي، وعطاء. وقوله: ﴿إِنَّكَ شَانِئَتَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي: إن مبغضك - يا محمد - ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين، هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع ذكره. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وقتادة: نزلت في العاص بن وائل. وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان قال: كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول: دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره. فأنزل الله هذه السورة. وقال شمر بن عطية: نزلت في عقبة بن أبي معيط. وقال ابن عباس أيضاً، وعكرمة: نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش. وقال البزار: حدثنا زياد بن يحيى الحسائي، حدثنا ابن أبي عدي، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش: أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا المُصْثَبِرِ المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة وأهل السقاية؟ فقال: أنتم خير منه. قال: فنزلت: ﴿إِنَّكَ شَانِئَتَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾. هكذا رواه البزار، وهو إسناد صحيح. وعن عطاء: نزلت في أبي لهب، وذلك حين مات ابن رسول الله ﷺ فذهب أبو لهب إلى المشركين وقال: بُيِّرَ محمد الليلة. فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّكَ شَانِئَتَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾. وعن ابن عباس: نزلت في أبي جهل. وعنه: ﴿إِنَّكَ شَانِئَتَكَ﴾ يعني: عدوك. وهذا يعُمُّ جميع من اتصف بذلك ممن ذكر، وغيرهم. وقال عكرمة: الأبتر: الفرد. وقال السدي: كانوا إذا مات ذكور الرجل قالوا: بُتر. فلما مات أبناء رسول الله ﷺ قالوا: بتر محمد. فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ شَانِئَتَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾. وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبتر الذي إذا مات انقطع ذكره، فتوهموا الجهلهم أنه إذا مات بنوه ينقطع ذكره، وحاشا وكلا، بل قد أبقي الله ذكره على رؤوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمراً على دوام الآباد، إلى يوم الحشر والمعاد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم التناد.

آخر تفسير سورة «الكوثر»، وشه الحمد والمنة



تفسير سورة قل يا أيها الكافرون

وهي مكية. ثبت في صحيح مسلم، عن جابر: أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعتي الطواف. وفي صحيح مسلم، من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن مجاهد، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب، بضعاً وعشرين مرة - أو: بضع عشرة مرة - ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. وقال أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: رمت النبي ﷺ أربعاً وعشرين - أو: خمساً وعشرين - مرة، يقرأ في الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب ب﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. وقال أحمد: حدثنا أبو أحمد - هو محمد بن عبد الله بن الزبير الزبيري - حدثنا سفيان - هو الثوري - عن أبي إسحاق، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: رمت النبي ﷺ شهراً، وكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر ب﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. وكذا رواه الترمذي وابن ماجه، من حديث أبي أحمد الزبيري. وأخرجه النسائي من وجه آخر، عن أبي إسحاق، به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وقد تقدم في الحديث أنها تعدل ربع القرآن، و﴿إِذَا تُرْلِيتَ﴾ تعدل ربع القرآن. وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا زهير، حدثنا أبو إسحاق، عن فروة بن

نوفل - هو ابن معاوية - عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال له: «هل لك في ربيبة لنا تكفلها؟» قال: أراها زينب. قال: ثم جاء فسأله النبي ﷺ عنها، قال: «ما فعلت الجارية؟» قال: تركتها عند أمها. قال: «فمجيء ما جاء بك؟» قال: جئت لتعلمني شيئاً أقوله عند منامي. قال: «اقرأ: ﴿قُلْ يَٰ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾»، ثم نم على خاتمتها، فإنها براءة من الشرك». تفرد به أحمد. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن عمرو القطراني، حدثنا محمد بن الطفيل، حدثنا شريك، عن أبي إسحاق، عن جبلة بن حارثة - وهو أخو زيد بن حارثة - أن النبي ﷺ قال: «إذا أويت إلى فراشك فاقرا: ﴿قُلْ يَٰ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾» حتى تمر بأخرها، فإنها براءة من الشرك». والله أعلم وهو حسبي ونعم الوكيل. وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شريك، عن أبي إسحاق، عن فروة بن نوفل، عن الحارث بن جبلة قال: قلت: يا رسول الله، علمني شيئاً أقوله عند منامي. قال: «إذا أخذت مضجعتك من الليل فاقرا: ﴿قُلْ يَٰ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾»، فإنها براءة من الشرك». وروى الطبراني من طريق شريك، عن جابر، عن معقل الزبيدي، عن عباد أبي الأخضر عن خباب، أن رسول الله ﷺ كان إذا أخذ مضجعه قرأ: ﴿قُلْ يَٰ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾» حتى يخلطها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ① لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَا أَنْتَ عِبْدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ④ وَلَا أَنْتَ عِبْدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ⑥﴾.

هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه، فقوله: ﴿قُلْ يَٰ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، شمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهين بهذا الخطاب هم كفار قريش. وقيل: إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة، وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكليّة، فقال: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ②، يعني: من الأصنام والأنداد، ﴿وَلَا أَنْتَ عِبْدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ③، وهو الله وحده لا شريك له. «فما» ما هنا بمعنى «من». ثم قال: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ ④ و﴿وَلَا أَنْتَ عِبْدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ⑤ أي: لا أسلكها ولا أقتدي بها، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا أَنْتَ عِبْدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ⑤ أي: لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم، كما قال: ﴿لَنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَفْسَاسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣]، فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه، فإن العابد لا بد له من معبود يعبد، وعبادة يسلكها إليه، فالرسول وأتباعه يعبدون الله بما شرعه؛ ولهذا كان كلمة الإسلام «لا إله إلا الله محمد رسول الله» أي: لا معبود إلا الله ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسول ﷺ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم ياذن بها الله؛ ولهذا قال لهم الرسول ﷺ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ⑥، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِيَ عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتَ بَرٌّ وَمَا كُنْتُ ظَالِمًا وَلَا نَجَسًا﴾ [الأنعام: ١٠٤]، وقال: ﴿لَا أَعْبُدُكُمْ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ [القصص: ٥٥]. وقال البخاري: يقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾: الكفر، ﴿وَلِيَ دِينِ﴾: الإسلام. ولم يقل: «ديني» لأن الآيات بالنون، فحذف الياء، كما قال: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] وقال غيره: لا أعبد ما تعبدون الآن، ولا أجيئكم فيما بقي من عمري، ولا أنتم عابدون ما أعبد، وهم الذين قال: ﴿وَلْيَزِدْكُمْ كَيْدًا ثُبُوتًا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ مَقْلَقًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤]. انتهى ما ذكره.

ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية أن ذلك من باب التأكيد، كقوله: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ① [الشرح: ٥]، وكقوله: ﴿لَتَرْوُنَّ الْجَنَّةَ﴾ ② ثُمَّ لَتَرْوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ③ [التكاثر: ٦، ٧]. وحكاه بعضهم - كابن الجوزي، وغيره - عن ابن قتيبة، قاله أعلم. فهذه ثلاثة أقوال: أولها ما ذكرناه أولاً. الثاني: ما حكاه البخاري وغيره من المفسرين أن المراد: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ② و﴿وَلَا أَنْتَ عِبْدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ③: في الماضي، ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ ④ و﴿وَلَا أَنْتَ عِبْدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ⑤: في المستقبل. الثالث: أن ذلك تأكيد محض. وثم قول رابع، نصره أبو العباس بن تيمية في بعض كتبه، وهو أن المراد بقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ②: نفي الفعل لأنها جملة فعلية، ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ ④: نفي قبوله لذلك بالكليّة؛ لأن النفي بالجملة الاسمية أكد فكانه نفي الفعل، وكونه قابلاً لذلك ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضاً. وهو قول حسن أيضاً، والله أعلم. وقد استدلل الإمام أبو عبد الله الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ⑥ على أن الكفر كله ملة واحدة ثورته اليهود من النصارى، وبالعكس؛ وإذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به؛ لأن الأديان - ما عدا الإسلام - كلها كالشيء الواحد في البطلان. وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود وبالعكس؛ لحديث

عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتى».

آخر تفسير سورة «قل يا أيها الكافرون» والله الحمد والمنة



تفسير سورة إذا جاء نصر الله والفتح

وهي مدنية. قد تقدم أنها تعدل ربع القرآن، و﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ تعدل ربع القرآن. وقال النسائي: أخبرنا محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، أخبرنا جعفر، عن أبي العُميس (ح) وأخبرنا أحمد بن سليمان، حدثنا جعفر بن عون، حدثنا أبو العُميس، عن عبد المجيد بن سهيل، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بن عبد الله بن عتبة قال: قال لي ابن عباس: يا ابن عتبة، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت؟ قلت: نعم، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾. قال: صدقت. وروى الحافظ أبو بكر البزار والبيهقي، من حديث موسى بن عبيدة الزبدي، عن صدقة بن يسار، عن ابن عمر قال: أنزلت هذه السورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾. على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع، فأمر بإحلاته القصواء فرحلت، ثم قام فخطب الناس، فذكر خطبته المشهورة. وقال الحافظ البيهقي: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا الأسفاطي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد بن العوام، عن هلال بن خباب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، دعا رسول الله ﷺ فاطمة وقال: «إنه قد نُعِيْتُ إِلَيَّ نفسي»، فبكيت ثم ضحكت، وقالت: أخبرني أنه نُعِيْتُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ فبكيت، ثم قال: «اصبري فإنك أول أهلي لحاقاً بي» فضحكت. وقد رواه النسائي - كما سيأتي - بدون ذكر فاطمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾.

قال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم. فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رؤيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليربهم فقال: ما تقولون في قول الله ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكن ذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷻ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾. فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول. تفرد به البخاري. وروى ابن جرير، عن محمد بن حميد، عن مهران، عن الثوري، عن عاصم، عن أبي رزين، عن ابن عباس، فذكر مثل هذه القصة، أو نحوها. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، قال رسول الله ﷻ: «نُعِيْتُ إِلَيَّ نفسي». بأنه مقبوض في تلك السنة. تفرد به أحمد. وروى العوفي، عن ابن عباس، مثله. وهكذا قال مجاهد، وأبو العالية، والضحاك، وغير واحد: إنها أجل رسول الله ﷻ نُعِيَّ إِلَيْهِ. وقال ابن جرير: حدثني إسماعيل بن موسى، حدثنا الحسين بن عيسى الحنفي، عن مَعْمَرٍ، عن الزهري، عن أبي حازم، عن ابن عباس قال: بينما رسول الله ﷻ في المدينة إذ قال: «الله أكبر الله أكبر! جاء نصر الله والفتح، جاء أهل اليمن». قيل: يا رسول الله، وما أهل اليمن؟ قال: «قوم رقيقة قلوبهم، لينة طباعهم، الإيمان يمان، والفرقة يمان، والحكمة يمانية». ثم رواه عن ابن عبد الأعلى، عن ابن ثور، عن معمر، عن عكرمة، مرسلًا.

وقال الطبراني: حدثنا زكريا بن يحيى، حدثنا أبو كامل الجَحْدَرِي، حدثنا أبو عوانة، عن هلال بن خباب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، حتى ختم السورة، قال: نُعِيْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷻ نفسه حين نزلت، قال: فأخذ بأشد ما كان قط اجتهداً في أمر الآخرة. وقال رسول الله ﷻ بعد ذلك: «جاء الفتح ونصر الله، وجاء أهل اليمن». فقال رجل: يا رسول الله، وما أهل اليمن؟ قال: «قوم رقيقة قلوبهم، لينة قلوبهم، الإيمان يمان، والفرقة يمان». وقال

الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن عاصم، عن أبي رزين، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ علم النبي ﷺ أنه قد نُصِّيت إليه نفسه، فقيل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، السورة كلها. حدثنا وكيع، عن سفيان، عن عاصم، عن أبي رزين: أن عمر سأل ابن عباس عن هذه الآية: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال: لما نزلت نُصِّيت إلى رسول الله ﷺ نفسه. وقال الطبراني: حدثنا إبراهيم بن أحمد بن غمر الوكيعي، حدثنا أبي، حدثنا جعفر بن عون، عن أبي العُميس، عن أبي بكر بن أبي الجهم، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس قال: آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي البخري الطائي، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: لما نزلت هذه السورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها، فقال: «الناس حيز، وأنا وأصحابي حيز». وقال: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية». فقال له مروان: كذبت. وعنده رافع بن خديج، وزيد بن ثابت، قاعدان معه على السرير. فقال أبو سعيد: لو شاء هذان لحدثاك، ولكن هذا يخاف أن تنزعه عن عرافة قومه، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة. فرفع مروان عليه الدرة ليضربه، فلما رآيا ذلك قالوا: صدق. تفرد به أحمد، وهذا الذي أنكره مروان على أبي سعيد ليس بمنكر، فقد ثبت من رواية ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح: «لا هجرة، ولكن جهاد ونية، ولكن إذا استنفرتم فانفروا». أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما.

فالذي فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر، رضي الله عنهم أجمعين، من أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون أن نحمد الله ونشكره ونسبحه، يعني نصلي ونستغفره - معنى مليح صحيح، وقد ثبت له شاهد من صلاة النبي ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى ثماني ركعات، فقال قائلون: هي صلاة الضحى. وأجيبوا بأنه لم يكن يواظب عليها، فكيف صلاها ذلك اليوم وقد كان مسافراً لم يثو الإقامة بمكة؟ ولهذا أقام فيها إلى آخر شهر رمضان قريباً من تسعة عشر يوماً يقصر الصلاة ويُفطر هو وجميع الجيش، وكانوا نحواً من عشرة آلاف. قال هؤلاء: وإنما كانت صلاة الفتح، قالوا: فيستحب لأمير الجيش إذا فتح بلداً أن يصلي فيه أول ما يدخله ثماني ركعات. وهكذا فعل سعد بن أبي وقاص يوم فتح المدائن، ثم قال بعضهم: يصليها كلها بتسليمة واحدة. والصحيح أنه يسلم من كل ركعتين، كما ورد في سنن أبي داود: أن رسول الله ﷺ كان يسلم يوم الفتح من كل ركعتين. وأما ما فسر به ابن عباس وعمر، رضي الله عنهما، من أن هذه السورة نُصِّيت فيها إلى رسول الله ﷺ نفسه الكريمة، واعلم أنك إذا فتحت مكة - وهي قريتك التي أخرجتك - ودخل الناس في دين الله أفواجا، فقد فرغ شغلنا بك في الدنيا، فتهباً للقدوم علينا والوفود إلينا، فالأخرة خير لك من الدنيا، وسوف يعطيك ربك فترضى، ولهذا قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّكَ كَانَ تَوَّاباً﴾. قال النسائي: أخبرنا عمرو بن منصور، حدثنا محمد بن محبوب، حدثنا أبو عوانة، عن هلال بن خباب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، إلى آخر السورة، قال: نُصِّيت لرسول الله ﷺ نفسه حين أنزلت، فأخذ في أشد ما كان اجتهداً في أمر الآخرة، وقال رسول الله ﷺ بعد ذلك: «جاء الفتح، وجاء نصر الله، وجاء أهل اليمن». فقال رجل: يا رسول الله، وما أهل اليمن؟ قال: «قوم رقيقة قلوبهم، ليثة قلوبهم، الإيمان يمان، والحكمة يمانية، والفقه يمان». وقال البخاري: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن منصور، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأول القرآن. وأخرجه بقية الجماعة إلا الترمذي، من حديث منصور، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن داود، عن الشعبي، عن مسروق قال: قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قول: «سبحان الله وبحمده، استغفر الله وأتوب إليه». وقال: «إن ربي كان أخبرني أنني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره، إنه كان تواباً، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾. ورواه مسلم من طريق داود - وهو ابن أبي هند - به. وقال ابن جرير: حدثنا أبو السائب، حدثنا حفص، حدثنا عاصم، عن الشعبي، عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد، ولا يذهب ولا يجيء، إلا قال: «سبحان الله وبحمده». فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر من سبحان الله وبحمده، لا تذهب ولا تجيء، ولا تقوم ولا تقعد إلا قلت: سبحان الله وبحمده؟ قال: «إني أمرت بها»، فقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، إلى آخر السورة. غريب، وقد كتبنا حديث كفارة المجلس من جميع طرقه والألفاظ في جزء مفرد، فيكتبها هنا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي عُبَيْدة، عن عبد الله قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، كان يكثر إذا قرأها - وَرَكَعَ - أن يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم» ثلاثاً. تفرد به أحمد. ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن عمرو بن مُرَّة، عن شعبة، عن أبي إسحاق، به. والمراد بالفتح ما هنا فتح مكة قولاً واحداً، فإن أحياء العرب كانت تتلَوُّم بإسلامها فتح مكة، يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبي. فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجاً، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام، والله الحمد والمنة. وقد روى البخاري في صحيحه عن عمرو بن سلمة قال: لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ، وكانت الأحياء تتلَوُّم بإسلامها فتح مكة، يقولون: دعوه وقومه، فإن ظهر عليهم فهو نبي. الحديث. وقد حررنا غزوة الفتح في كتابنا: السيرة، فمن أراد فليراجع هناك، والله الحمد والمنة. وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا أبو إسحاق، عن الأوزاعي، حدثني أبو عمار، حدثني جابر لجابر بن عبد الله قال: قدمت من سفر فجاءني جابر بن عبد الله، فسلم علي، فجعلت أحدثه عن افتراق الناس وما أحدثوا، فجعل جابر يبكي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً، وسيخرجون منه أفواجاً».

آخر تفسير سورة «إذا جاء نصر الله والفتح» والله الحمد والمنة



تفسير سورة تبت

وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝﴾.

قال البخاري: حدثنا محمد بن سلام، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء، فصعد الجبل فنادى: «يا صباحاه». فاجتمعت إليه قریش، فقال: «أرايتم إن حدثكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم، أكنتم تصدقوني؟». قالوا: نعم. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تباً لهذا جمعنا؟ تباً لك. فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝﴾، إلى آخرها. وفي رواية: فقام ينفض يديه، وهو يقول: تباً لك سائر اليوم. ألهذا جمعنا؟ فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝﴾. الأول دعاء عليه، والثاني خبر عنه. فأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول الله ﷺ واسمه: عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته أبر غتبة. وإنما سمي «أبا لهب» لإشراق وجهه، وكان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغضة له، والازدراء به، والتنقص له ولدينه. قال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن أبي العباس، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه قال: أخبرني رجل - يقال له: ربيعة بن عباد، من بني الدليل، وكان جاهلياً فأسلم - قال: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: «يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله فتلحقوا». والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه أحمر ذو غدирتين، يقول: إنه صابئ كاذب. يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب. ثم رواه عن سريج، عن ابن أبي الزناد، عن أبيه، فذكره قال أبو الزناد: قلت لربيعة: كنت يومئذ صغيراً؟ قال: لا، والله إني يومئذ لأعقل أني أفر القربة. تفرد به أحمد. وقال محمد بن إسحاق: حدثني حسين بن عبد الله بن عُبَيْد الله بن عباس قال: سمعت ربيعة بن عباد الديلي يقول: إني لمع أبي رجل شاب، أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل - ووراءه رجل أحول وضيء، ذو جُمَّة - يَقِفُ رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول: «يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، أمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به». وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بني فلان، هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له ولا تنبعوه. فقلت لأبي: من هذا؟ قال: عمه أبو لهب. رواه أحمد أيضاً، والطبراني بهذا اللفظ. ف قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝﴾ أي: خسرت وخابت، وضل عمله وسعيه، ﴿وَتَبَّ ۝﴾ أي:

وقد تبّ تحقق خسارته وهلاكه. وقوله: ﴿يَا أَفَنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ (١)، قال ابن عباس وغيره: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ يعني: ولده. وزُوري عن عائشة، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وابن سيرين، مثله. وذكر عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان، قال أبو لهب: إذا كان ما يقول ابن أخي حقاً، فإني أفندي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي. فأنزل الله: ﴿يَا أَفَنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ (٢). وقوله: ﴿سَيَصِلُنَّ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (٣) أي: ذات شرر ولهيب وإحراق شديد، ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ (٤). وكانت زوجته من سادات نساء قريش، وهي: أم جميل، واسمها أروى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان. وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده؛ فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم. ولهذا قال: ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ (٥) في جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٦) يعني: تحمل الحطب فتلقي على زوجها، ليزداد على ما هو فيه، وهي مُهيأة لذلك مستعدة له. ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ (٦) قال مجاهد، وعروة: من مسد النار. وعن مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقناة، والثوري، والسدي: ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾: كانت تمشي بالنخلة، واختاره ابن جرير. وقال العوفي عن ابن عباس، وعطية الجذلي، والضحاك، وابن زيد: كانت تضع الشوك في طريق رسول الله ﷺ، واختاره ابن جرير. قال ابن جرير: قيل: كانت تعير النبي ﷺ بالفقر، وكانت تحتطب، فغيرت بذلك. كذا حكاه، ولم يعزه إلى أحد. والصحيح الأول، والله أعلم.

قال سعيد بن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة، فقالت: لأنفقنها في عداوة محمد، يعني: فأعقبها الله بها حبلاً في جيدها من مسد النار. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وكيع، عن سليم مولى الشعبي، عن الشعبي قال: المسد: الليف. وقال عروة بن الزبير: المسد: سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً. وعن الثوري: هي قلادة من نار، طولها سبعون ذراعاً. وقال الجوهري: المسد: الليف. والمسد أيضاً: حبل من ليف أو خوص، وقد يكون جلود الإبل أو أوبارها، ومسدت الحبل أمسده مسداً؛ إذا أجدث فتله. وقال مجاهد: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ (٦) أي: طوق من حديد، ألا ترى أن العرب يسمون البكرة مسداً؟ وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي وأبو زُرْعَةَ قالا: حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا الوليد بن كثير، عن ابن تدرس، عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يُدَىٰ أَبِي لَهَبٍ﴾، أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب، ولها ولولة، وفي يدها فهر، وهي تقول:

مُذَمَّمًا أَبِينَا وَدِينَهُ قَلِينَا وَأَمْرَهُ غَصِينَا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر، فلما رآه أبو بكر قال: يا رسول الله، قد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك. فقال رسول الله ﷺ: «إنها لن تراني». وقرأ قرآنًا اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وَلِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّشُورًا﴾ (الإسراء: ٤٥). فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله ﷺ فقالت: يا أبا بكر، إني أخبرك أن صاحبك هجاني؟ قال: لا، ورب هذا البيت ما هجأك. فقلت وهي تقول: قد علمت قريش أنني ابنة سيدها. قال: وقال الوليد في حديثه أو غيره: فقُفِرَت أم جميل في مزطها وهي تطوف بالبيت، فقالت: تُعَسُّ مُذَمَّم. فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب: إني لحصانٌ فما أكلم، وثقافٌ فما أعلم، وكلنا من بني العم، وقريش بعد أعلم. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد وأحمد بن إسحاق قالا: حدثنا أبو أحمد، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يُدَىٰ أَبِي لَهَبٍ﴾، جاءت امرأة أبي لهب ورسول الله ﷺ جالس، ومعه أبو بكر. فقال له أبو بكر: لو تخَّيْتُ لا تؤذيك بشيء. فقال رسول الله ﷺ: «إنه سيحال بيني وبينها». فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر فقالت: يا أبا بكر، هجانا صاحبك. فقال أبو بكر: لا، ورب هذه البنية ما نطق بالشعر ولا يتفوه به. فقالت: إنك لمصدق، فلما ولت قال أبو بكر، رضي الله عنه: ما رأتك؟ قال: «لا، ما زال ملك يسترنني حتى ولت». ثم قال البزار: لا نعلمه يروي بأحسن من هذا الإسناد، عن أبي بكر، رضي الله عنه. وقد قال بعض أهل العلم في قوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ (٦) أي: في عنقها حبل من نار جهنم تُرْفَعُ به إلى شفيرها، ثم يرمى بها إلى أسفلها، ثم كذلك دائماً. قال أبو الخطاب بن دحية في كتابه التنوير - وقد رَوَى ذلك -: وغبر بالمسد عن حبل الدلو، كما قال أبو حنيفة الدينوري في كتاب «النبات»: كل مسد: رشاء، وأنشد في ذلك:

وَبِخُحْرَةٍ وَبِخُحْرَةٍ صَرَارًا وَمَسَدًا وَمِنْ أَبَقٍ مُفَارًا
قال: والابق: القُتُب. وقال الآخر:

يَا مُسَدِّ الْخُوصِ تَعَزَّؤَ مِنِّي إِنَّ تَكْ لَذَنَّا لِيْنَا فَنِي
مَا شِئْتُ مِن أَشْمَطُ مُفْسِدِينَ

قال العلماء: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿سَيَصِلُنَّ نَارًا ذَاتَ لَهْمٍ﴾ (٢) وَأَمْرَاتُهُمْ كَحَالَةِ الْخَطْبِ (١) فِي جِدِّهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ (٣)، فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان، لم يقيض لهما أن يؤمنا، ولا واحد منهما لا ظاهراً ولا باطناً، لا مسراً ولا معلنأ، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة.

آخر تفسير «تبت» وشه الحمد والمنة



تفسير سورة الإخلاص

وهي مكية.

ذكر سبب نزولها وفضيلتها

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد محمد بن ميسر الصاغانى، حدثنا أبو جعفر الرازى، حدثنا الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب: أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد، انسب لنا ربك، فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٣). وكذا رواه الترمذى وابن جرير، عن أحمد بن منيع - زاد ابن جرير: ومحمود بن خذاش - عن أبي سعد محمد بن ميسر به - زاد ابن جرير - الترمذى - قال: ﴿الصَّمَدُ﴾: الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله جل جلاله لا يموت ولا يورث، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (٣): ولم يكن له شبه ولا عدل، وليس كمثل شيء. ورواه ابن أبي حاتم، من حديث أبي سعد، محمد بن ميسر، به. ثم رواه الترمذى عن عبد بن حميد، عن عبيد الله بن موسى، عن أبي جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية، فذكره مرسلأ ولم يذكر «أخبرنا». ثم قال الترمذى: هذا أصح من حديث أبي سعد.

حديث آخر في معناه: قال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا سريج بن يونس، حدثنا إسماعيل بن مجالد، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر: أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ، فقال: انسب لنا ربك. فأنزل الله، ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١)، إلى آخرها. إسناده مقارب. وقد رواه ابن جرير عن محمد بن عوف، عن سريج فذكره. وقد أرسله غير واحد من السلف. وروى عبيد بن إسحاق العطار، عن قيس بن الربيع، عن عاصم، عن أبي وائل، عن ابن مسعود قال: قالت قریش لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك، فنزلت هذه السورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١). قال الطبراني: رواه الفريابي وغيره، عن قيس، عن أبي عاصم، عن أبي وائل، مرسلأ. ثم روى الطبراني من حديث عبد الرحمن بن عثمان الطائفي، عن الوازع بن نافع، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء نسبه، ونسبه الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)»، والصمد ليس بأجوف.

حديث آخر في فضلها: قال البخاري: حدثنا محمد - هو الذهلي - حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرنا عمرو، عن ابن أبي هلال: أن أبا الرجال محمد بن عبد الرحمن حدثه، عن أمه غفرة بنت عبد الرحمن - وكانت في جبر عائشة زوج النبي ﷺ - عن عائشة: أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١)، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «سلوه: لأي شيء يصنع ذلك؟». فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبي ﷺ: «أخبروه أن الله تعالى يحبه». هكذا رواه في كتاب «التوحيد». ومنهم من يسقط ذكر «محمد الذهلي». ويجعله من روايته عن أحمد بن صالح. وقد رواه مسلم والنسائي أيضاً من حديث عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، به. حديث آخر: قال البخاري في كتاب الصلاة: «وقال عبيد الله، عن ثابت، عن أنس، قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١)، حتى يفرغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة. فكلّمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى، فلما أن تقرأ بها، ولما أن تدعها وتقرأ بأخرى. فقال: ما أنا بباركها، إن أحببت أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم. وكانوا يزوّون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره.

فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر، فقال: «يا فلان، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك، وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟». قال: «إني أحبها». قال: «حبك إياها أدخلك الجنة». هكذا رواه البخاري تعليقاً مجزوماً به. وقد رواه أبو عيسى الترمذي في جامعه، عن البخاري، عن إسماعيل بن أبي أويس، عن عبد العزيز بن محمد الدراوردي، عن عبيد الله بن عمر، فذكر بإسناده مثله سواء، ثم قال الترمذي: غريب من حديث عبيد الله، عن ثابت. قال: وروى مبارك بن فضالة، عن ثابت، عن أنس، أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني أحب هذه السورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. قال: «إِنْ حُبَّكَ إِيَّاهَا أدخلك الجنة». وهذا الذي علقه الترمذي قد رواه الإمام أحمد في مسنده متصلاً، فقال: حدثنا أبو النضر، حدثنا مبارك بن فضالة، عن ثابت، عن أنس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أحب هذه السورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. فقال رسول الله ﷺ: «حبك إياها أدخلك الجنة».

حديث في كونها تعدل ثلث القرآن: قال البخاري: حدثنا إسماعيل، حدثني مالك، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صغصعة، عن أبيه، عن أبي سعيد. أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقأها، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن». زاد إسماعيل بن جعفر، عن مالك، عن عبد الرحمن بن عبد الله، عن أبيه، عن أبي سعيد قال: أخبرني أخي قتادة بن النعمان، عن النبي ﷺ. وقد رواه البخاري أيضاً عن عبد الله بن يوسف، والقُتَيْبِيِّ. ورواه أبو داود عن القُتَيْبِيِّ، والنسائي عن قتيبة، كلهم عن مالك، به. وحديث قتادة بن النعمان أسنده النسائي من طريقين، عن إسماعيل بن جعفر، عن مالك، به. حديث آخر: قال البخاري: حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثنا إبراهيم والضحاك المَشْرِقِيُّ. عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟». فشق ذلك عليهم وقالوا: أبنا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «الله الواحد الصمد ثلث القرآن». تفرد بإخراجه البخاري من حديث إبراهيم بن يزيد النخعي والضحاك بن شُرَيْبِيل الهمداني المَشْرِقِيُّ، كلاهما عن أبي سعيد، قال القُتَيْبِيُّ: سمعت أبا جعفر محمد بن أبي حاتم وراق أبي عبد الله قال: قال أبو عبد الله البخاري: عن إبراهيم مرسل، وعن الضحاك مسند. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري قال: بات قتادة بن النعمان يقرأ الليل كله بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «والذي نفسي بيده، لتعدل نصف القرآن، أو ثلثه».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا يحيى بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبَلِيِّ، عن عبد الله بن عمرو: أن أبا أيوب الأنصاري كان في مجلس وهو يقول: ألا يستطيع أحدكم أن يقوم بثلث القرآن كل ليلة؟ فقالوا: وهل يستطيع ذلك أحد؟ قال: فإن: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. ثلث القرآن. قال: فجاء النبي ﷺ وهو يسمع أبا أيوب، فقال: «صدق أبو أيوب». حديث آخر: قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا يزيد بن كيسان، أخبرني أبو حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احشدوا، فإنني سأقرأ عليكم ثلث القرآن». فحشد من حشد، ثم خرج نبي الله ﷺ فقرا: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. ثم دخل فقال بعضنا لبعض: قال رسول الله ﷺ: «فإنني سأقرأ عليكم ثلث القرآن». إني لأرى هذا خبراً جاء من السماء، ثم خرج نبي الله ﷺ فقال: «إني قلت: سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا وإنها تعدل ثلث القرآن». وهكذا رواه مسلم في صحيحه، عن محمد بن بشار، به. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، واسم أبي حازم سلمان. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن زائدة بن قدامة، عن منصور، عن هلال بن يساف، عن الربيع بن خثيم، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن امرأة من الأنصار، عن أبي أيوب، عن النبي ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فإنه من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الله أَفْضَلُكُمْ» في ليلة، فقد قرأ ليلته ثلث القرآن». هذا حديث تُسَاعِي الإسناد للإمام أحمد. ورواه الترمذي والنسائي، كلاهما عن محمد بن بشار بندار - زاد الترمذي وقتيبة - كلاهما عن عبد الرحمن بن مهدي، به. فصار لهما عُشْرًا. وفي رواية الترمذي: «عن امرأة أبي أيوب، عن أبي أيوب»، به وحسنه. ثم قال: وفي الباب عن أبي الدرداء، وأبي سعيد، وقاتدة بن النعمان، وأبي هريرة، وأنس، وابن عمر، وأبي مسعود. وهذا حديث حسن، ولا نعلم أحداً روى هذا الحديث أحسن من رواية «زائدة». وتابعه على روايته إسرائيل، والفضيل بن عياض. وقد رَوَى شُعْبَةُ وغير واحد من الثقات هذا الحديث عن منصور واضطربوا فيه.

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا هُثَيْم، عن حُصَيْن، عن هلال بن يساف، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي بن كعب -

أو: رجل من الأنصار - قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنما قرأ بثلاث القرآن». ورواه النسائي في «اليوم والليلة»، من حديث هُشَيْم، عن حُصَيْن، عن ابن أبي ليلى، به. ولم يقع في روايته: هلال بن يساف. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن أبي قيس، عن عمرو بن ميمون، عن أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن». وهكذا رواه ابن ماجه، عن علي بن محمد الطَّنَافِسي، عن وكيع، به. ورواه النسائي في «اليوم والليلة» من طرق آخر، عن عمرو بن ميمون، مرفوعاً وموقوفاً. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا بَهْز، حدثنا بُكَيْر بن أبي السميط، حدثنا قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن مَعْدَان بن أبي طلحة، عن أبي الذرداء، أن رسول الله ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ كل يوم ثلث القرآن؟». قالوا: نعم يا رسول الله، نحن أضعف من ذلك وأعجز. قال: «فإن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلث القرآن». ورواه مسلم والنسائي، من حديث قتادة، به. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أمية بن خالد، حدثنا محمد بن عبد الله بن مسلم - ابن أخي ابن شهاب - عن عمه الزهري، عن حُمَيْد بن عبد الرحمن - هو ابن عوف - عن أمه - وهي: أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيْط - قالت: قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن». وكذا رواه النسائي في «اليوم والليلة»، عن عمرو بن علي، عن أمية بن خالد، به. ثم رواه من طريق مالك، عن الزهري، عن حُمَيْد بن عبد الرحمن، قوله. ورواه النسائي أيضاً في «اليوم والليلة» من حديث محمد بن إسحاق، عن الحارث بن الفضيل الأنصاري، عن الزهري، عن حُمَيْد بن عبد الرحمن: أن نَفَرًا من أصحاب محمد ﷺ حدثوه عن النبي ﷺ أنه قال: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن لمن صلى بها».

حديث آخر في كون قراءتها توجب الجنة: قال الإمام مالك بن أنس، عن عبيد الله بن عبد الرحمن، عن عُبيد بن حُنين قال: سمعت أبا هريرة يقول: أقبلت مع النبي ﷺ، فسمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «وَجِبَتْ». قلت: وما وجبت؟ قال: «الجنة». ورواه الترمذي والنسائي، من حديث مالك. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث مالك. وتقدم حديث: «حُبَّك إياها أدخلك الجنة». حديث في تكرار قراءتها: قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا قطن بن نسير، حدثنا عيسى بن ميمون القرشي، حدثنا يزيد الرقاشي، عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أما يستطيع أحدكم أن يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلاث مرات في ليلة، فإنها تعدل ثلث القرآن؟». هذا إسناد ضعيف، وأجود منه حديث آخر، قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي بكر المَقْدَمي، حدثنا الضحاك بن مخلد، حدثنا ابن أبي ذئب، عن أسيد بن أبي أسيد، عن معاذ بن عبد الله بن حبيب، عن أبيه قال: أصابنا طَشْ وظلمة، فانتظرنا رسول الله ﷺ يصلي لنا، فخرج فأخذ بيدي، فقال: «قل». فسكت. قال: «قل». قلت: ما أقول؟ قال: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾»، والمعوذتين حين تسمي وحين تصبح ثلاثاً، تكفك كل يوم مرتين». ورواه أبو داود والترمذي والنسائي، من حديث ابن أبي ذئب، به. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب من هذا الوجه. وقد رواه النسائي من طريق أخرى، عن معاذ بن عبد الله بن حبيب، عن أبيه، عن عقبة بن عامر، فذكره ولفظه: «يكفك كل شيء». حديث آخر في ذلك: قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا ليث بن سعد، حدثني الخليل بن مرة، عن الأزهر بن عبد الله، عن تميم الداري قال: قال رسول الله ﷺ «من قال: لا إله إلا الله واحداً صمداً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحدًا، عشر مرات، كُتِبَ له أربعون ألف حسنة». تفرد به أحمد، والخليل بن مرة: ضعفه البخاري وغيره بمرة. حديث آخر: قال أحمد أيضاً: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا زِيَان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يخطمها، عشر مرات، بنى الله له قصرًا في الجنة». فقال عمر: إذن نستكثر يا رسول الله. فقال ﷺ: «الله أكثر وأطيب». تفرد به أحمد. ورواه أبو محمد الدارمي في مسنده فقال: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا حيوة، حدثنا أبو عقيل زهرة بن معبد - قال الدارمي: وكان من الأبدال - أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشر مرات، بنى الله له قصرًا في الجنة، ومن قرأها عشرين مرة بنى الله له قصرين في الجنة، ومن قرأها ثلاثين مرة بنى الله له ثلاثة قصور في الجنة». فقال عمر بن الخطاب: إذن لتكثر قصورنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله أوسع من ذلك». وهذا مرسل جيد.

حديث آخر: قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا نصر بن علي، حدثني نوح بن قيس، أخبرني محمد العطار، أخبرني أم كثير الأنصارية، عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ خمسين مرة غُفِرَ له ذنوب خمسين سنة». إسناده ضعيف. حديث آخر: قال أبو يعلى: حدثنا أبو الربيع، حدثنا حاتم بن ميمون، حدثنا ثابت، عن أنس

حديث آخر في قراءتها عشر مرات بعد المكتوبة: قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عبد الأعلى، حدثنا بشر بن منصور، عن عمر بن نيهان، عن أبي شداد، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من جاء بهنَّ مع الإيمان دَخَلَ من أي أبواب الجنة شاء، وُزَّجَ من الحور العين حيث شاء: من عفا عن قاتله، وأدى ديناً خفياً، وقرأ في دبر كل صلاة مكتوبة عشر مرات: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾». قال: فقال أبو بكر: أو إحداهن يا رسول الله؟ قال: «أو إحداهن». حديث في قراءتها عند دخول المنزل: قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله بن بكر السراج العسكري، حدثنا محمد بن الفرج، حدثنا محمد بن الزبيرقان، عن مروان بن سالم، عن أبي رُزعة بن عمرو بن جرير، عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حين يدخل منزله، نفت الفقر عن أهل ذلك المنزل والجيران». إسناده ضعيف. حديث في الإكثار من قراءتها في سائر الأحوال: قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمد بن إسحاق المسيبي، حدثنا يزيد بن هارون، عن العلاء بن محمد الثقفي قال: سمعت أنس بن مالك يقول: كنا مع رسول الله ﷺ بتبوك، فطلعت الشمس بضياء وشعاع ونور لم نرها طلعت فيما مضى بمثله، فأتى جبريل النبي ﷺ فقال: «يا جبريل، ما لي أرى الشمس طلعت اليوم بضياء ونور وشعاع لم أرها طلعت بمثله فيما مضى؟». قال: إن ذلك معاوية بن معاوية اللبني، مات بالمدينة اليوم، فبعث الله إليه سبعين ألف ملك يصلون عليه. قال: «وفيم ذلك؟» قال: كان يكثر قراءة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في الليل وفي النهار، وفي مشاهه وقيامه وقعوده، فهل لك يا رسول الله أن أقبض لك الأرض فتصلي عليه؟ قال: «نعم». فصلى عليه. وكذا رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب «دلائل النبوة» من طريق يزيد بن هارون، عن العلاء أبي محمد - وهو متهم بالوضع - قاله أعلم. طريق أخرى: قال أبو يعلى: حدثنا محمد بن إبراهيم الشامي أبو عبد الله، حدثنا عثمان بن الهيثم - مؤذن مسجد الجامع بالبصرة عندي - عن محمود أبي عبد الله، عن عطاء بن أبي ميمونة، عن أنس قال: نزل جبريل على النبي ﷺ فقال: مات معاوية بن معاوية اللبني، فتحب أن تصلي عليه؟ قال: «نعم». ففُضِرَ بجناحه الأرض، فلم تبق شجرة ولا أكمة إلا تضعضعت، فرفع سريره فنظر إليه، فكبر عليه وخلفه صفان من الملائكة، في كل صف سبعون ألف ملك، فقال النبي ﷺ: «يا جبريل، بم نال هذه المنزلة من الله تعالى؟». قال بحبه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وقراءته إياها ذاهباً وجائئاً قائماً وقاعداً، وعلى كل حال. ورواه البيهقي، من رواية عثمان بن الهيثم المؤذن، عن محبوب بن هلال، عن عطاء بن أبي ميمونة، عن أنس، فذكره. وهذا هو الصواب، ومحبوب بن هلال قال أبو حاتم الرازي: «ليس بالمشهور». وقد روي هذا من طرق أخرى، تركناها اختصاراً، وكلها ضعيفة. حديث آخر في فضلها مع المعوذتين: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا معاذ بن رفاع، حدثني علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن عقبة بن عامر قال: لقيت رسول الله ﷺ، فابتدأته فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله، بم نجاه المؤمن؟ قال: «يا عقبة، اخُزْ من لسانك وليسَعْك بيتك، وإبكِ على خطيئتك». قال: ثم لقيني رسول الله ﷺ، فابتدأني فأخذ بيدي، فقال: «يا عقبة بن عامر، ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت في التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن العظيم؟». قال: قلت: بلى، جعلني الله فداك. قال: فأقراني: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ

أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿٢﴾. ثم قال: «يا عقبة، لا تَنسَهُنَّ ولا تُبَيِّنَنَّ ليلة حتى تقرأهن». قال: فما نسيتهن منذ قال: «لا تنسهن»، وما بت ليلة قط حتى أقرأهن. قال عقبة، ثم لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بفواضل الأعمال. فقال: «يا عقبة، صِلْ من قطعك وأغِط من حَرَمَك، وأعرض عمن ظلمك». روى الترمذي بعضه في «الزهد»، من حديث عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد وقال: هذا حديث حسن. وقد رواه أحمد من طريق آخر: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا ابن عياش، عن أسيد بن عبد الرحمن الخثعمي، عن قُرْوة بن مجاهد اللخمي، عن عقبة بن عامر، عن النبي ﷺ، فذكر مثله سواء. تفرد به أحمد. حديث آخر في الاستشفاء بهن: قال البخاري: حدثنا قتيبة، حدثنا المفضل، عن عُقيل، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿٢﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ﴿٣﴾. ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات. وهكذا رواه أهل السنن، من حديث عُقيل، به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾.

قد تقدم ذكر سبب نزولها. وقال عكرمة: لما قالت اليهود: نحن نعبد عُزَيْرَ ابنِ الله. وقالت النصارى: نحن نعبد المسيح ابن الله. وقالت المجوس: نحن نعبد الشمس والقمر. وقالت المشركون: نحن نعبد الأوثان- أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿١﴾. يعني هو الواحد الأحد، الذي لا نظير له ولا وزير، ولا نديد ولا شبيه ولا عدل، ولا يُطْلَقُ هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله ﷻ؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله. وقوله: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ﴿٢﴾، قال عكرمة، عن ابن عباس: يعني الذي يصمد الخلاق إليه في حوائجهم ومسائلهم. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو السيد الذي قد كمل في سؤده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته. وهو الذي كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفء، وليس كمثل شيء، سبحانه الله الواحد القهار. وقال الأعمش، عن شقيق، عن أبي وائل: ﴿الصَّمَدُ﴾: السيد الذي قد انتهى سؤده، ورواه عاصم، عن أبي وائل، عن ابن مسعود، مثله. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿الصَّمَدُ﴾: السيد. وقال الحسن، وقتادة: هو الباقي بعد خلقه. وقال الحسن أيضاً: ﴿الصَّمَدُ﴾: الحي القيوم الذي لا زوال له. وقال عكرمة: ﴿الصَّمَدُ﴾: الذي لم يخرج منه شيء ولا يطعم. وقال الربيع بن أنس: هو الذي لم يلد ولم يولد. كأنه جعل ما بعده تفسيراً له، وهو قوله: ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ﴾، وهو تفسير جيد. وقد تقدم الحديث من رواية ابن جرير، عن أبي بن كعب في ذلك، وهو صريح فيه. وقال ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، وعبد الله بن بريدة، وعكرمة أيضاً، وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وعطية العوفي، والضحاك، والسدي: ﴿الصَّمَدُ﴾: الذي لا جوف له. قال سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿الصَّمَدُ﴾: المصمت الذي لا جوف له. وقال الشعبي: هو الذي لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب. وقال عبد الله بن بريدة أيضاً: ﴿الصَّمَدُ﴾: نور يتلألأ. روى ذلك كله وحكاة: ابن أبي حاتم، والبيهقي والطبراني، وكذا أبو جعفر بن جرير ساق أكثر ذلك بأسانيده، وقال: حدثني العباس بن أبي طالب، حدثنا محمد بن عمرو بن رومي، عن عبيد الله بن سعيد قائد الأعمش، حدثني صالح بن حيّان، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: لا أعلم إلا قد رفعه - قال: ﴿الصَّمَدُ﴾: الذي لا جوف له. وهذا غريب جداً، والصحيح أنه موقوف على عبد الله بن بريدة.

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في كتاب السنة له، بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال في تفسير «الصمد»: وكل هذه صحيحة، وهي صفات ربنا، وهو الذي يصمد إليه في الحوائج، وهو الذي انتهى سؤده، وهو الصمد الذي لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه. وقال البيهقي نحو ذلك أيضاً. وقوله: ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ﴾ و﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ﴿١﴾ أي: ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة. قال مجاهد: ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ يعني: لا صاحبة له. وهذا كما قال تعالى: ﴿يَدْعُ الْمَشْرِكِينَ وَالْأَرْضَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ وَلَدٌ وَلَوْ كُنْ لَهُمْ صَدَاقَةٌ وَمَلَائِكَةُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠١] أي: هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه من نظير يساميه، أو قريب يدانيه، تعالى وتقدس وتنزه. قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝٨٨﴾ نَكَادُ السَّكَوْثُ يَنْفَقِرُونَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۝٨٩﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٩٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩١﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَتَى الرَّحْمَنُ عِندَآ ۝٩٢﴾ لَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بَعَثًا ۝٩٣﴾ وَلَهُمْ مَائِيَّةُ يَوْمٍ الْقِيَمَةِ قَرْدًا ۝٩٤﴾ [سرم: ٨٨-٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ۝٩٥﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَسْمُكُونَ ۝٩٦﴾ [الانبيا: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَبًّا ۝٩٧﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الْمَلَائِكَةَ إِتَنَّهُمْ لَمُحَضَّرُونَ ۝٩٨﴾ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٩٩﴾ [الصافات: ١٥٨، ١٥٩]. وفي الصحيح - صحيح البخاري -: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيههم». وقال البخاري: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قال الله، ﷻ: كذبي ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقلوه: لن يعيدني كما بداني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته. وأما شتمه إياي فقلوه: اتخذ الله ولداً. وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد». ورواه أيضاً من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة، مرفوعاً بمثله. تفرد بهما من هذين الوجهين.

آخر تفسير سورة «الإخلاص»



تفسير سورتي المعوذتين

وهما مدنيتان. قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا عاصم بن بهدلة، عن زر بن حبيش قال: قلت لأبي بن كعب: إن ابن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه؟ فقال: أشهد أن رسول الله ﷺ أخبرني أن جبريل، عليه السلام، قال له: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَاقِ ۝١﴾ فقلتها، قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝٢﴾ فقلتها. فنحن نقول ما قال النبي ﷺ. ورواه أبو بكر الحميدي في مسنده، عن سفيان بن عيينة، حدثنا عبدة بن أبي لبابة وعاصم بن بهدلة، أنهما سمعا زر بن حبيش قال: سألت أبي بن كعب عن المعوذتين، فقلت: يا أبا المنذر، إن أخاك ابن مسعود يحكمهما من المصحف. فقال: إني سألت رسول الله ﷺ، فقال: «قيل لي: قل، فقلت». فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ. وقال أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن عاصم، عن زر قال: سألت ابن مسعود عن المعوذتين فقال: سألت النبي ﷺ عنهما فقال: «قيل لي، فقلت لكم، فقولوا». قال أبي: فقال لنا النبي ﷺ فنحن نقول. وقال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، حدثنا عبدة بن أبي لبابة، عن زر بن حبيش - وحدثنا عاصم عن زر - قال: سألت أبي بن كعب فقلت: أبا المنذر، إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا. فقال: إني سألت النبي ﷺ فقال: «قيل لي، فقلت». فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ. ورواه البخاري أيضاً والنسائي، عن قتبية، عن سفيان بن عيينة، عن عبدة وعاصم بن أبي النجود، عن زر بن حبيش، عن أبي بن كعب، به. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا الأزرق بن علي، حدثنا حسان بن إبراهيم، حدثنا الضُّلْتُ بن بهزَام، عن إبراهيم، عن علقمة قال: كان عبد الله يحك المعوذتين من المصحف، ويقول: إنما أمر رسول الله ﷺ أن يتعوذ بهما، ولم يكن عبد الله يقرأ بهما. ورواه عبد الله بن أحمد من حديث الأعمش، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد قال: كان عبد الله يحك المعوذتين من مصاحفه، ويقول: إنهما ليستا من كتاب الله - قال الأعمش: وحدثنا عاصم، عن زر بن حبيش، عن أبي بن كعب قال: سألتنا رسول الله ﷺ، قال: «قيل لي، فقلت». وهذا مشهور عند كثير من القراء والفقهاء: أن ابن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه، فلعله لم يسمعهما من النبي ﷺ، ولم يتواتر عنده، ثم لعله قد رجع عن قوله ذلك إلى قول الجماعة، فإن الصحابة، رضي الله عنهم، كتبوهما في المصاحف الأئمة، ونفذوها إلى سائر الآفاق كذلك، والله الحمد والمنة. وقد قال مسلم في صحيحه: حدثنا قتبية، حدثنا جابر، عن بيان، عن قيس بن أبي حازم، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَاقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝٢﴾». ورواه أحمد، ومسلم أيضاً، والترمذي، والنسائي، من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن عقبة، به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا ابن جابر، عن القاسم أبي عبد الرحمن، عن عقبة بن عامر قال: بينا أنا أقود برسول الله ﷺ في نَقَب من تلك النقاب، إذ قال لي: «يا عقبة، ألا تتركب؟». قال: فأجَلْتُ رسول الله ﷺ أن أركب مركبه. ثم قال: «يا عُقَيْب، ألا تتركب؟». قال فأشفت أن تكون معصية، قال: فنزل رسول الله ﷺ وركبت هنيهة،

سورتي المعوذتين

ثم ركب، ثم قال: «يا غفيب، ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟». قلت: بلى يا رسول الله. فأقرأني: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾. ثم أقيمت الصلاة، فتقدم رسول الله ﷺ فقرأ بهما، ثم مر بي فقال: «كيف رأيت يا غفيب، أقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت». ورواه النسائي من حديث الوليد بن مسلم وعبد الله بن المبارك كلاهما عن ابن جبار، به. ورواه أبو داود والنسائي أيضاً، من حديث ابن وهب، عن معاوية بن صالح، عن العلاء بن الحارث، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن عقبة، به. طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني يزيد بن عبد العزيز الرعيني وأبو مرحوم، عن يزيد بن محمد القرشي، عن علي بن رباح، عن عقبة بن عامر قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذات في دبر كل صلاة. ورواه أبو داود والترمذي والنسائي، من طرق، عن علي بن رباح. وقال الترمذي: غريب. طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن مشرق بن هاعان، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ بالمعوذتين، فإنك لن تقرأ بمثلهما». تفرد به أحمد. طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا حيوة بن شريح، حدثنا بَقِيَّة، حدثنا بحير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن جُبَيْر بن نَفِير، عن عقبة بن عامر أنه قال: إن رسول الله ﷺ أهديت له بغلة شهباء، فركبها فأخذ عقبة يقودها له، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾». فأعادها له حتى قرأها، فعرف أنني لم أفرح بها جداً، فقال: «لعلك تعاونت بها؟ فما قمت تصلي بشيء مثلها». ورواه النسائي عن عمرو بن عثمان، عن بَقِيَّة، به. ورواه النسائي أيضاً من حديث الثوري، عن معاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه، عن عقبة بن عامر: أنه سأل رسول الله ﷺ عن المعوذتين، فذكر نحوه.

طريق أخرى: قال النسائي: أخبرنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر، سمعت النعمان، عن زياد أبي الأسد، عن عقبة بن عامر: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الناس لم يتعوذوا بمثل هذين: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾». طريق أخرى: قال النسائي: أخبرنا قتيبة، حدثنا الليث، عن ابن عجلان، عن سعيد المقبري، عن عقبة بن عامر قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ فقال: «يا عقبة، قل». فقلت: ماذا أقول؟ فسكت عني، ثم قال: «قل». قلت: ماذا أقول يا رسول الله؟ فسكت عني، فقلت: اللهم، أردد علي. فقال: «يا عقبة، قل». قلت: ماذا أقول يا رسول الله؟ فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، فقرأتها حتى أتيت على آخرها، ثم قال: «قل». قلت: ماذا أقول يا رسول الله؟ قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، فقرأتها حتى أتيت على آخرها، ثم قال رسول الله ﷺ: عند ذلك: «ما سأل سائل بمثلهما، ولا استعاذ مستعيز بمثلهما». طريق أخرى: قال النسائي: أخبرنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا معاوية، عن العلاء بن الحارث، عن مكحول، عن عقبة بن عامر: أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في صلاة الصبح. طريق أخرى: قال النسائي: أخبرنا قتيبة، حدثنا الليث، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي عمران أسلم، عن عقبة بن عامر قال: اتبعت رسول الله ﷺ وهو راكب، فوضعت يدي على قدمه فقلت: أقرئني سورة هود أو سورة يوسف. فقال: «لن تقرأ شيئاً أنفع عند الله من ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾». حديث آخر: قال النسائي: أخبرنا محمود بن خالد، حدثنا الوليد، حدثنا أبو عمرو الأزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن أبي عبد الله، عن ابن عائش الجهني: أن النبي ﷺ قال له: «يا ابن عائش، ألا أدلك - أو: ألا أخبرك - بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون؟». قال: بلى، يا رسول الله. قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، هاتان السورتان. فهذه طرق عن عقبة كالمتواترة عنه، تفيد القطع عند كثير من المحققين في الحديث. وقد تقدم في رواية صُدِّي بن عجلان، وفَرْوَةَ بن مُجاهد، عنه: «ألا أعلمك ثلاث سور لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلهن؟ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾». و

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا الجريري، عن أبي العلاء قال: قال رجل: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، والناس يعتقدون، وفي الظهر قلة، فحانت نَزْلَةُ رسول الله ﷺ ونزلتي، فلحقني فضرب من بعدي منكبي، فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، فقرأها رسول الله ﷺ وقرأتها معه، ثم قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، فقرأها رسول الله ﷺ وقرأتها معه، فقال: «إذا صليت فاقرا بهما». الظاهر أن هذا الرجل هو عقبة بن عامر، والله أعلم. ورواه النسائي عن يعقوب بن إبراهيم، عن ابن عليه، به. حديث آخر: قال النسائي: أخبرنا محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، عن عبد الله بن سعيد، حدثني يزيد بن رومان، عن عقبة بن عامر، عن عبد الله الأسلمي - هو ابن أنيس - أن رسول الله ﷺ وضع يده على صدره ثم قال: «قل». فلم أدر ما أقول، ثم قال لي: «قل». قلت: ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. ثم قال لي: «قل». قلت:

﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿١﴾، حتى فرغت منها، ثم قال لي: قل: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، حتى فرغت منها. فقال رسول الله ﷺ: «هكذا فتعوذ، ما تعوذ المتعوذون بمثلهن قط». حديث آخر: قال النسائي: أخبرنا عمرو بن علي أبو حفص، حدثنا بَذَل، حدثنا شداد بن سعيد أبو طلحة، عن سعيد الجريري، حدثنا أبو نَضْرَةَ، عن جابر بن عبد الله قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ يا جابر». قلت: وما اقرأ بأبي أنت وأمي؟ قال: «اقرأ ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾﴾ و﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾﴾. فقرأتها، فقال: «اقرأ بهما، ولن تقرأ بمثلهما». وتقدم حديث عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهن، وينفث في كفيه، ويمسح بهما رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده. وقال الإمام مالك: عن ابن شهاب، عن عُرْوَةَ، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح بيده عليه، رجاء بركتها. ورواه البخاري عن عبد الله بن يوسف، ومسلم عن يحيى بن يحيى، وأبو داود عن القعني، والنسائي عن قتيبة - ومن حديث ابن القاسم، وعيسى بن يونس - وابن ماجه من حديث معن وبشر بن عُمر، ثمانية منهم عن مالك، به. وتقدم في آخر سورة: ﴿ت﴾، من حديث أبي نضرة، عن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من أعين الجان وعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما، وترك ما سواهما. رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حديث حسن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ١ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ٢ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ٣ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ٤ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٥.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عصام، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا حسن بن صالح، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر قال: الفلق: الصبح. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿الْفَلَقُ﴾: الصبح. ورؤي عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وعبد الله بن محمد بن عقيل، والحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب القرظي، وابن زيد، ومالك عن زيد بن أسلم، مثل هذا. قال القرظي، وابن زيد، وابن جرير: وهي كقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَلَيْسَ بِالْحَسْبِ﴾ [الأنعام: ٩٦]. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿الْفَلَقُ﴾: الخلق. وكذا قال الضحاك: أمر الله نبيه أن يتعوذ من الخلق كله. وقال كعب الأحبار: ﴿الْفَلَقُ﴾: بيت في جهنم، إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره، ورواه ابن أبي حاتم، ثم قال: حدثني أبي، حدثنا سهيل بن عثمان، عن رجل سماه، عن السدي، عن زيد بن علي، عن آبائه أنهم قالوا: ﴿الْفَلَقُ﴾: جب في قعر جهنم، عليه غطاء، فإذا كشف عنه خرجت منه نار تصيح منه جهنم، من شدة حر ما يخرج منه. وكذا روي عن عمرو بن عُثْبَةَ، والسدي، وغيرهم. وقد ورد في ذلك حديث مرفوع منكر، فقال ابن جرير: حدثني إسحاق بن وهب الواسطي، حدثنا مسعود بن موسى بن مشكان الواسطي، حدثنا نصر بن خزيمة الخراساني، عن شعيب بن صفوان، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: ﴿الْفَلَقُ﴾: جب في جهنم مغطى، إسناده غريب ولا يصح رفعه. وقال أبو عبد الرحمن الحبلي: ﴿الْفَلَقُ﴾: من أسماء جهنم. قال ابن جرير: والصواب القول الأول، أنه فلق الصبح. وهذا هو الصحيح، وهو اختيار البخاري، رحمه الله، في صحيحه. وقوله: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ٢ أي: من شر جميع المخلوقات. وقال ثابت البناني، والحسن البصري: جهنم وإبليس وذريته مما خلق. ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ٣، قال مجاهد: غاسق الليل إذا وقب غروب الشمس. حكاه البخاري عنه. ورواه ابن أبي نجيح، عنه. وكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي، والضحاك، وخُصَيْف، والحسن، وقتادة: إنه الليل إذا أقبل بظلامه.

وقال الزهري: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ٣: الشمس إذا غربت. وعن عطية وقتادة: إذا وقب الليل: إذا ذهب. وقال أبو المهزم، عن أبي هريرة: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ٣: كوكب. وقال ابن زيد: كانت العرب تقول: الغاسق سقوط الثريا، وكان الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها، وترتفع عند طلوعها. قال ابن جرير: ولهؤلاء من الأثر ما حدثني: نصر بن علي، حدثني بكار بن عبد الله - ابن أخي همام - حدثنا محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف، عن أبيه، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ٣. قال: النجم الغاسق. قلت: وهذا الحديث لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ. قال ابن جرير: وقال آخرون: هو القمر. قلت: وعمدة أصحاب هذا القول ما رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو داود الحفري، عن ابن أبي ذئب، عن الحارث، عن أبي سلمة قال: قالت عائشة، رضي الله عنها: أخذت رسول الله ﷺ بيدي، فأراني القمر حين يطلع، وقال: «تعوذي بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب». ورواه الترمذي والنسائي، في كتاب التفسير

من سنيهما، من حديث محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب، عن خاله الحارث بن عبد الرحمن، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. ولفظه: «تعوذني بالله من شر هذا، فإن هذا الغاسق إذا وقب». ولفظ النسائي: «تعوذني بالله من شر هذا، هذا الغاسق إذا وقب». قال أصحاب القول الأول وهو أنه الليل إذا ولج -: هذا لا ينافي قولنا؛ لأن القمر آية الليل، ولا يوجد له سلطان إلا فيه، وكذلك النجوم لا تضيء، إلا في الليل، فهو يرجع إلى ما قلناه، والله أعلم. وقوله: «وَمِنْ شَرِّ الْفَقْدَانِ فِي الْعَقْدِ» (١)، قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة والضحاك: يعني: السواحر. قال مجاهد: إذا رقيت ونفثت في العقد. وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن مَعْمَرٍ، عن ابن طاوس، عن أبيه قال: ما من شيء أقرب من الشرك من رقية الحية والمجانين. وفي الحديث الآخر: أن جبريل جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: اشتكت يا محمد؟ فقال: «نعم». فقال: باسم الله أزيك، من كل داء يؤذيك، ومن شر كل حاسد وعين، الله يشفيك. ولعل هذا كان من شكواه، عليه السلام، حين سحر، ثم عافاه الله تعالى وشفاه، ورد كيد السحرة الحساد من اليهود في رؤوسهم، وجعل تدميرهم في تدبيرهم، وفضحهم، ولكن مع هذا لم يعاتبه رسول الله ﷺ يوماً من الدهر، بل كفى الله وشفى وعافى.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن يزيد بن حيان، عن زيد بن أرقم قال: سحر النبي ﷺ رجل من اليهود، فاشتكى لذلك أياماً، قال: فجاه فقال: إن رجلاً من اليهود سحر، عقد لك عقداً في بئر كذا وكذا، فأرسل إليها من يجيء بها. فبعث رسول الله ﷺ علياً، رضي الله تعالى عنه فاستخرجها، فجاه بها فحلها، قال: فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط من عقال، فما ذكر ذلك لليهودي ولا رآه في وجهه قط حتى مات. ورواه النسائي عن هناد، عن أبي معاوية محمد بن حازم الضرير. وقال البخاري في «كتاب الطب» من صحيحه: حدثنا عبد الله بن محمد قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول: أول من حدثنا به ابن جُرَيْج، يقول: حدثني آل عَزْوَة، عن عروة، فسألت هشاماً عنه، فحدثنا عن أبيه، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ سُحْر، حتى كان يُرَى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن. قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر، إذا كان كذا. فقال: «يا عائشة، أعلمت أن الله قد أفانني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان فقعدا أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومن طُبه؟ قال: لبيد بن أعصم - رجل من بني زُرَيْق حليف لليهود، كان منافقاً - قال: وفيهم؟ قال: في مُشْط ومُشاقَّة. قال: وأين؟ قال: في جُفٍ طُلْعَةٍ ذكر تحت راعوفة في بئر دُرَّوَان». قالت: فأتى النبي ﷺ البئر حتى استخرجه فقال: «هذه البئر التي أريتها، وكان ماءها نُقَاعَة الحنَّاء، وكان نخلها رؤوس الشياطين». قال: فاستخرج. قالت: فقلت: أفلا؟ أي: تَنَشَّرَتْ؟ فقال: «أما الله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً». وأسنده من حديث عيسى بن يونس، وأبي صَمْرَةَ أنس بن عياض، وأبي أسامة، ويحيى القطان وفيه: «قالت: حتى كان يخیل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعل». وعنده: «فامر بالبئر فدفنت». وذكر أنه رواه عن هشام أيضاً ابن أبي الزناد والليث بن سعد. وقد رواه مسلم، من حديث أبي أسامة حماد بن أسامة وعبد الله بن نعيم. ورواه أحمد، عن عفان، عن وهيب، عن هشام، به. ورواه الإمام أيضاً عن إبراهيم بن خالد، عن رباح، عن مَعْمَرٍ، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: لبث رسول الله ﷺ ستة أشهر يُرَى أنه يأتي ولا يأتي، فأتاه ملكان، فجلس أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، فقال أحدهما للآخر: ما باله؟ قال: مطبوب. قال: ومن طُبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، وذكر تمام الحديث.

وقال الأستاذ المفسر الثعلبي في تفسيره: قال ابن عباس وعائشة، رضي الله عنهما: كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ فدبت إليه اليهود، فلم يزالوا به حتى أخذ مشاطة رأس النبي ﷺ وعدة أسنان من مشطه، فأعطاهم اليهود، فسحروه فيها. وكان الذي تولى ذلك رجل منهم - يقال له: لبيد بن أعصم - ثم دسها في بئر لبني زُرَيْق، يقال لها: دُرَّوَان، فمرض رسول الله ﷺ وانتشر شعر رأسه، ولبت ستة أشهر يُرَى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، وجعل يُدَّوَّب ولا يدري ما عراه. فبينما هو نائم إذ أتاه ملكان فقعدا أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: ما بال الرجل؟ قال: طُوب. قال: وما طُوب؟ قال: سحر. قال: ومن سحره؟ قال: لبيد بن أعصم اليهودي. قال: وبم طُبه؟ قال: بمشط ومشاطة. قال: وأين هو؟ قال: في جُفٍ طُلْعَةٍ تحت راعوفة في بئر دُرَّوَان - والجف: قشر الطلع، والراعوفة: حجر في أسفل البئر نائم يقوم عليه الماتح - فأنبته رسول الله ﷺ مذعوراً، وقال: «يا عائشة، أما شعرت أن الله أخبرني بدائي؟». ثم بعث رسول الله ﷺ علياً والزبير وعمار بن ياسر، فنزحوا ماء البئر كأنه نُقَاعَة الحنَّاء، ثم رفعوا الصخرة، وأخرجوا الجف، فإذا فيه مشاطة رأسه وأسنان من مشطه، وإذا فيه وتر معقود، فيه اثنتا عشرة عقدة مغروزة بالإبر. فأنزل الله تعالى السورتين، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد رسول الله ﷺ خفة حين انحلت العقدة الأخيرة، فقام كأنما نشط من عقال، وجعل جبريل، عليه السلام، يقول: باسم الله

أزقيك، من كل شريوذك، من حاسد وعين الله يشفيك. فقالوا: يا رسول الله، أفلا نأخذ الخبيث نقتله؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما أنا فقد شفاني الله، وأكره أن يثير على الناس شراً». هكذا أورده بلا إسناد، وفيه غرابة، وفي بعضه نكارة شديدة، ولبعضه شواهد مما تقدم، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْاَلَكَاِسِ ﴿١﴾ مَلِكِ الْاَلَكَاِسِ ﴿٢﴾ اِلٰهِ الْاَلَكَاِسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُوْرِ الْاَلَكَاِسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾.

هذه ثلاث صفات من صفات الرب، ﷻ؛ الربوبية، والملك، والإلهية: فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له، مملوكة عبيده له، فأمر المستعيز أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات، من شر الوسواس الخناس، وهو الشيطان الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يُزَيِّن له الفواحش، ولا يألوه جهداً في الخيال. والمعصوم من عصمه الله، وقد ثبت في الصحيح أنه: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه». قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم، إلا أن الله أعانني عليه، فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»، وثبت في الصحيح، عن أنس في قصة زيارة صفة النبي ﷺ وهو معتكف، وخروجه معها ليلاً ليردها إلى منزلها، فلقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا رسول الله ﷺ أسرعَا، فقال رسول الله: «على رسلكما، إنها صفة بنت حُيَيٍّ». فقالا: سبحان الله، يا رسول الله. فقال: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإنني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا، أو قال: شراً». وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا محمد بن بحر، حدثنا عدي بن أبي عمارة، حدثنا زياد التميمي، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر خنس، وإن نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس». غريب. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عاصم، سمعت أبا نيمية يحدث عن رديف رسول الله ﷺ قال: عثر بالنبي ﷺ حماره، فقلت: تعس الشيطان. فقال النبي ﷺ: «لا تقل: تعس الشيطان، فإنك إذا قلت: تعس الشيطان، تعاظم، وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: باسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب». تفرد به أحمد، إسناده جيد قوي، وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغلب، وإن لم يذكر الله تعاظم وغلب. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا الضحاك بن عثمان، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا كان في المسجد، جاءه الشيطان فأبس به كما يابس الرجل بذيابه، فإذا سكن له زنقه - أو: أجمه». قال أبو هريرة: وأنتم ترون ذلك، أما المزنوق فتراه مائلاً - كذا - لا يذكر الله، وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله، ﷻ. تفرد به أحمد. وقال سعيد بن جبیر، عن ابن عباس في قوله: ﴿الْوَسْوَاسِ﴾، قال: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس. وكذا قال مجاهد، وقتادة. وقال المعتمر بن سليمان، عن أبيه: ذكر لي أن الشيطان، أو: الوسواس ينفث في قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح، فإذا ذكر الله خنس. وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْاَلَكَاِسِ ﴿١﴾ مَلِكِ الْاَلَكَاِسِ ﴿٢﴾ اِلٰهِ الْاَلَكَاِسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُوْرِ الْاَلَكَاِسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾، قال: هو الشيطان يأمر، فإذا أطع خنس. وقوله: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُوْرِ الْاَلَكَاِسِ ﴿٥﴾﴾، هل يختص هذا ببني آدم - كما هو الظاهر - أو يعم بني آدم والجن؟ فيه قولان، ويكونون قد دخلوا في لفظ الناس تغليباً.

وقال ابن جرير: وقد استعمل فيهم (رجال من الجن) فلا بدع في إطلاق الناس عليهم. وقوله: ﴿مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾، هل هو تفصيل لقوله: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُوْرِ الْاَلَكَاِسِ ﴿٥﴾﴾، ثم بينهم فقال: ﴿مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾. وهذا يقوي القول الثاني. وقيل: قوله: ﴿مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾، تفسير للذي يوسوس في صدور الناس، من شياطين الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِیْنَ الْاِیْنِ وَالْجِنِّ يُوحِیْ بَعْضُهُمْ اِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوْرًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وكما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا المسعودي، حدثنا أبو عمر الدمشقي، حدثنا عبيد بن الخشاش، عن أبي ذر قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد، فجلست، فقال: «يا أبا ذر، هل صليت؟». قلت: لا. قال: «قم فصل». قال: فقممت فصليت، ثم جلست فقال: «يا أبا ذر، تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن». قال: قلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: «نعم». قال: قلت: يا رسول الله، الصلاة؟ قال: «خير موضوع، من شاء أقل، ومن شاء أكثر». قلت: يا رسول الله فما الصوم؟ قال: «فرض يجزىء، وعند الله مزيد». قلت: يا رسول الله، فالصدقة؟ قال: «أضعاف مضاعفة». قلت: يا

رسول الله، أيها أفضل؟ قال: «جُهد من مُقل، أو سر إلى فقير». قلت: يا رسول الله، أي الأنبياء كان أول؟ قال: «آدم». قلت: يا رسول الله، ونبي كان؟ قال: «نعم، نبي مُكَلَّم». قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: «ثلاثمائة وبضعة عشر، جَمًّا غفيراً». وقال مرة: «خمسَ عشر». قلت: يا رسول الله، أيما أنزل عليك أعظم؟ قال: «آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾». ورواه النسائي، من حديث أبي عمر الدمشقي، به. وقد أخرج هذا الحديث مطولاً جداً أبو حاتم بن حبان في صحيحه، بطريق آخر، ولفظ آخر مطول جداً، فالله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن منصور، عن زر بن عبد الله الهمداني، عن عبد الله بن شداد، عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أحدث نفسي بالشيء لأن آخر من السماء أحب إلي من أن أتكلم به. قال: فقال النبي ﷺ: «الله أكبر الله أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة». ورواه أبو داود والنسائي، من حديث منصور - زاد النسائي: والأعمش - كلاهما عن زر، به. آخر التفسير، والله الحمد والمنة، والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين. ورضي الله عن الصحابة أجمعين. حسبنا الله ونعم الوكيل.



الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	ترجمة المؤلف
٩	مقدمة المؤلف
١٤	كتاب فضائل القرآن
١٧	جمع القرآن
٢٣	تنزيل القرآن على سبعة حروف
٢٩	تأليف القرآن
٣١	جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ
٣١	القراء من أصحاب النبي ﷺ
٣٢	نزول السكينة والملائكة عند القراءة
٣٤	فضل القرآن على سائر الكلام
٣٤	الوصايا بكتاب الله
٣٥	من لم يتغن بالقرآن
٣٥	فصل في ذكر أحاديث وأحكام التلاوة بالأصوات
٣٨	اغتيباط صاحب القرآن
٣٨	خيركم من تعلم القرآن وعلمه
٣٩	القراءة عن ظهر قلب
٤٠	استذكار القرآن وتعاهده
٤٢	القراءة على الدابة
٤٢	تعليم الصبيان القرآن
٤٢	نسيان القرآن وهل يقول: نسيت آية كذا
٤٣	الترتيل في القراءة
٤٤	مد القراءة
٤٤	الترجيع
٤٤	حسن الصوت بالقراءة
٤٤	من أحب أن يسمع القرآن من غيره
٤٥	قول المقرئ للمقارئ: حسبك
٤٥	في كم يقرأ القرآن
٤٦	فصل في ترخص جماعة من السلف في تلاوة القرآن
٤٧	البكاء عند القراءة
٤٧	من رأى بقرأة القرآن
٤٨	اقروا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم

٤٩	كتاب الجامع لأحاديث شتى تتعلق بتلاوة القرآن
٥٠	ذكر الدعاء المأثور لحفظ القرآن
٥٣	مقدمة مفيدة
٥٣	الاختلاف في معنى السورة
٥٤	فاتحة الكتاب
٥٥	ذكر ما ورد في فضل الفاتحة
٥٨	الكلام على تفسير الاستعاذة
٦٠	فصل في معنى الاستعاذة
٦١	سورة الفاتحة
٧٧	سورة البقرة
٣٤٩	سورة آل عمران
٤٣٨	سورة النساء
٥٦٩	سورة المائدة
٦٧٥	سورة الأنعام
٧٤٤	سورة الأعراف
٨١٦	سورة الأنفال
٨٥٩	سورة التوبة
٩٢٢	سورة يونس
٩٤٧	سورة هود
٩٧٤	سورة يوسف
١٠٠٠	سورة الرعد
١٠٢١	سورة إبراهيم
١٠٤٢	سورة الحجر
١٠٥٥	سورة النحل
١٠٨٢	سورة الإسراء
١١٤٤	سورة الكهف
١١٧٨	سورة مريم
١٢٠٥	سورة طه
١٢٣٢	سورة الأنبياء
١٢٥٩	سورة الحج
١٢٨٩	سورة المؤمنون
١٣٠٩	سورة النور
١٣٤٩	سورة الفرقان

١٣٦٩	سورة الشعراء
١٣٩٠	سورة النمل
١٤٠٩	سورة القصص
١٤٢٩	سورة العنكبوت
١٤٤٤	سورة الروم
١٤٥٩	سورة لقمان
١٤٧٢	سورة السجدة
١٤٨٠	سورة الأحزاب
١٥٣١	سورة سبأ
١٥٤٨	سورة فاطر
١٥٦٢	سورة يس
١٥٧٩	سورة الصافات
١٥٩٩	سورة ص
١٦١٤	سورة الزمر
١٦٣٣	سورة غافر
١٦٥٠	سورة فصلت
١٦٦٢	سورة الشورى
١٦٧٦	سورة الزخرف
١٦٨٨	سورة الدخان
١٦٩٧	سورة الجاثية
٨٧٠١	سورة الأحقاف
١٧١٦	سورة القتال (محمد)
١٧٢٤	سورة الفتح
١٧٤٢	سورة الحجرات
١٧٥٣	سورة ق
١٧٦٢	سورة الذاريات
١٧٦٨	سورة الطور
١٧٧٥	سورة النجم
١٧٨٧	سورة القمر
١٧٩٤	سورة الرحمن
١٨٠٤	سورة الواقعة
١٨٢٢	سورة الحديد
١٨٣٥	سورة المجادلة

١٨٤٤	سورة الحشر
١٨٥٦	سورة الممتحنة
١٨٦٦	سورة الصف
١٨٧١	سورة الجمعة
١٨٧٥	سورة المنافقون
١٨٨٠	سورة التغابن
١٨٨٣	سورة الطلاق
١٨٩٠	سورة التحريم
١٨٩٧	سورة الملك
١٩٠١	سورة ن (القلم)
١٩١١	سورة الحاقة
١٩١٦	سورة سأل سائل (المعارج)
١٩٢١	سورة نوح
١٩٢٤	سورة الجن
١٩٢٩	سورة المزمل
١٩٣٤	سورة المدثر
١٩٤٠	سورة القيامة
١٩٤٥	سورة الإنسان
١٩٤٩	سورة المرسلات
١٩٥٢	سورة النبأ
١٩٥٦	سورة النازعات
١٩٥٩	سورة عبس
١٩٦٣	سورة التكويد
١٩٦٨	سورة الانفطار
١٩٧١	سورة المطففين
١٩٧٤	سورة الانشقاق
١٩٧٨	سورة البروج
١٩٨٣	سورة الطارق
١٩٨٥	سورة سبح (الأعلى)
١٩٨٨	سورة الغاشية
١٩٩٠	سورة الفجر
١٩٩٦	سورة البلد
١٩٩٩	سورة الشمس وضحاها (الشمس)

٢٠٠١	سورة الليل
٢٠٠٥	سورة الضحى
٢٠٠٧	سورة ألم نشرح (الشرح)
٢٠٠٩	سورة والتين والزيتون (التين)
٢٠١٠	سورة اقرأ (العلق)
٢٠١٢	سورة القدر
٢٠١٨	سورة لم يكن (البينة)
٢٠٢٠	سورة إذا زلزلت (الزلزلة)
٢٠٢٣	سورة العاديات
٢٠٢٤	سورة القارعة
٢٠٢٦	سورة التكاثر
٢٠٢٩	سورة العصر
٢٠٢٩	سورة ويل لكل همزة لمزة (الهمزة)
٢٠٣٠	سورة الفيل
٢٠٣٤	سورة لإيلاف قريش (قريش)
٢٠٣٥	سورة التي يذكر فيها الماعون (الماعون)
٢٠٣٧	سورة الكوثر
٢٠٤٠	سورة قل يا أيها الكافرون (الكافرون)
٢٠٤٢	سورة إذا جاء نصر الله والفتح (النصر)
٢٠٤٤	سورة تبت (المسد)
٢٠٤٦	سورة الإخلاص
٢٠٥١	سورة المعوذتين (الفلق، الناس)

